بسم الله الرحمن الرحيم

كما فسرها الوسيط { بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ }: الاسم: اللفظ الذى يدل على ذات أو معنى. وقد اختلف النحويون فى اشتقاقه على وجهين، فقال البصريون: هو مشتق من السمو، وهو العلو والرفعة، فقيل: اسم، لأن صاحبه بمنزلة المرتفع به.وقال الكوفيون: إنه مشتق من السمة وهى العلامة، لأن الاسم علامة لمن وضع له، فأصل اسم على هذا " وسم ".ويرى المحققون أن رأى البصريين أرجح، لأنه يقال فى تصغير" اسم " سُمىّ، وفى جمعه أسماء، والتصغير - والجمع يردان الأشياء إلى أصولها. ولو كان أصله وسم - كما قال الكوفيون - لقيل فى جمعه: أوسام، وفى تصغيره وسيم.ولفظ الجلالة وهو " الله " علم على ذات الخالق - عز وجل - تفرد به - سبحانه - ولا يطلق على غيره، ولا يشاركه فيه أحد.قال القرطبى: قوله " الله " هذا الاسم أكبر أسمائه - سبحانه - وأجمعها حتى قال بعض العلماء: إنه اسم الله الأعظم ولم يتسم به غيره، ولذلك لم يثن ولم يجمع: فالله اسم للموجود الحق الجامع لصفات الإلهية، المنعوت بنعوت الربوبيه، المنفرد بالوجود الحقيقى، لا إله إلا هو - سبحانه -و { ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ } صفتان مشتقتان من الرحمة. والرحمة فى أصل اللغة: رقة فى القلب تقتضى الإحسان، وهذا المعنى لا يليق أن يكون وصفاً لله تعالى-، ولذا فسرها بعض العلماء بإرادة الإحسان. وفسرها آخرون بالإحسان نفسه.والموافق لمذهب السلف أن يقال: هى صفة قائمة بذاته - تعالى -لا نعرف حقيقتها، وإنما نعرف أثرها الذى هو الإحسان.وقد كثرت أقوال المفسرين فى العلاقة بين هاتين الصفتين، فبعضهم يرى أن { ٱلرَّحْمَٰنِ } هو المنعم على جميع الخلق. وأن { ٱلرَّحِيمِ } هو المنعم على المؤمنين خاصه. ويرى آخرون أ { ٱلرَّحْمَٰنِ } هو المنعم بجلائل النعم، وأن { ٱلرَّحِيمِ } هو المنعم بدقائقها.ويرى فريق ثالث أن الوصفين بمعنى واحد وأن الثانى منهما تأكيد للأول. والذى يراه المحققون من العلماء أن الصفتين ليستا بمعنى واحد، بل روعى فى كل منهما معنى لم يراع فى الآخر، فالرحمن بمعنى عظيم الرحمة، لأن فعلان صيغة مبالغة فى كثرة الشئ وعظمته، ويلزم منه الدوام كغضبان وسكران. والرحيم بمعنى دائم الرحمة، لأن صيغته فعيل تستعمل فى الصفات الدائمة ككريم وظريف. فكأنه قيل: العظيم الرحمة الدائمة.أو أن { ٱلرَّحْمَٰنِ } صفة ذاتية هى مبدأ الرحمة والإحسان. و { ٱلرَّحِيمِ } صفة فعل تدل على وصول الرحمة والإحسان وتعديهما إلى المنعم عليه.ولعل مما يؤيد ذلك أن لفظ الرحمن لم يذكر فى القرآن إلا مجرى عليه الصفات كما هو الشأن فى أسماء الذات. قال - تعالى-:{ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ ٱلْقُرْآنَ } و{ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ }{ قُلِ ٱدْعُوا ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا ٱلرَّحْمَٰنَ وهكذا...أما لفظ الرحيم فقد كثر فى القرآن استعماله وصفاً فعلياً، وجاء فى الغالب بأسلوب التعدية والتعلق بالمنعم عليه. قال - تعالى -{ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ }{ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً }{ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً }إلخ.قال بعض العلماء " وهذا الرأى فى نظرنا هو أقوى الآراء، فإن تخصيص أحد الوصفين بدقائق النعم أو ببعض المنعم عليهم لا دليل عليه، كما أنه ليس مستساغاً أن يقال فى القرآن: إن كلمة ذكرت بعد أخرى لمجرد تأكيد المعنى المستفاد منها ".والجار والمجرور" بسم " متعلق بمحذوف تقديره ابتدئ.والمعنى: ابتدئ قراءتى متبركاً ومتيمناً باسم الله الذى هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، والذى رحمته وسعت كل شئ، وأتبرأ مما كان يفعله المشركون والضالون، من ابتدائهم قراءتهم وأفعالهم باسم اللات أو باسم العزى أو باسم غيرهما من الآلهة الباطلة.هذا وقد أجمع العلماء على أن البسملة جزء آية من سورة النمل فى قوله - تعالى -{ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ }ثم اختلفوا بعد ذلك فى كونها آية مستقلة أنزلت للفصل بين السور مرة واحدة، أو هى آية من سورة الفاتحة ومن كل سورة ألخ.فبعضهم يرى أن البسملة آية من الفاتحة ومن كل سورة، ومن حججهم أن السلف قد أثبتوها فى المصحف مع الأمر بتجريد القرآن مما ليس منه، ولذا لم يكتبوا " آمين ". فثبت بهذا أن البسملة جزء من الفاتحة ومن كل سورة.وبهذا الرأى قال ابن عباس وابن عمر وأبو هريرة وسعيد بن جبير والشافعى، وأحمد فى أحد قوليه.ويرى آخرون أن البسملة ليست آية من الفاتحة ولا من غيرها من السور، وقالوا: إنها آية فذة. من القرآن أنزلت للفصل والتبرك للابتداء بها، ومن حججهم أنها لو كانت آية من الفاتحة ومن كل سورة، لما اختلف الناس فى ذلك، ولما اضطربت أقوالهم فى كونها آية من كل سورة أو من الفاتحة فقط.وكما وقع الخلاف بين العلماء فى كونها آية مستقلة أو آية من كل سورة، فقد وقع الخلاف بينهم - أيضاً - فى وجوب قراءتها فى الصلاة، وفى الجهر بها أو الإسرار إذا قرئت.وتحقيق القول فى ذلك مرجعه إلى كتب الفقه، وإلى كتب التفسير التى عنيت بتفسير آيات الأحكام.

الحمد لله رب العالمين

كما فسرها الوسيط { الحمد } هو الثناء باللسان على الجميل الصادر عن اختيار

" من نعمة أو غيرها.{ رب العالمين } أى: مالكهم، إذ الرب مصدر " ربه يربه
إذا تعاهده بالتربية حتى يبلغ به شيئاً فشيئا درجة الكمال. وهو اسم من
أسماء الله - تعالى - ولا يطلق على غيره إلا مقيداً فيقال: رب الدار، ورب
- الضيعة أى: صاحبها ومالكها.والعالمين: جمع عالم، وهو كل موجود سوى الله
" تعالى -قال القرطبى: " وهو مأخوذ من العلم والعلامة لأنه يدل على موجده
وقيل: المراد بالعالمين أولو العلم من الإنس والجن والملائكة.وقد افتتحت
سورة الفاتحة بهذه الجملة الكريمة { ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ
لأنه سبحانه أول كل شئ وآخر كل شئ، ولكى يعلمنا - سبحانه - أن نبدأ كتبنا { 
وخطبنا بالحمد والثناء عليه، حتى نبدأ ونحن فى صلة بالله تكشف عن النفوس
أغشيتها، وتجلو عن القلوب أصداءها.والمعنى - كما قال ابن جرير - " الشكر
خالصاً لله - جل ثناؤه - دون سائر ما يعبد من دونه، ودون كل ما برأ من خلقه
بما أنعم على عباده من النعم التى لا يحصيها العدد. ولا يحيط بعددها غيره
،أحد، فى تصحيح الآلات لطاعته، وتمكين جوارح أجسام المكلفين لأداء فرائضه
مع ما بسط لهم فى دنياهم من الرزق، وغذاهم به من نعيم العيش، عن غير
استحقاق لهم عليه، ومع ما نبههم عليه ودعاهم إليه، من الأسباب المؤدية إلى
دوام الخلود فى دار المقام فى النعيم المقيم. لربنا الحمد على ذلك كله أولا
وآخراً.فالآية الكريمة قد قررت بصراحة ووضوح ثبوت الثناء المطلق الذى لا
يحد لله - تعالى- وانه ليس لأحد أن ينازعه إياه - سبحانه - هو رب
العالمين.وجملة { ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ } مفيدة لقصر الحمد عليه - سبحانه - نحو
قولهم: " الكرم فى العرب ". كما أن أل فى" الحمد " للاستغراق. أى: أن جميع
أجناس الحمد ثابتة لله رب العالمين.وإنما كان الحمد مقصوراً فى الحقيقة على
الله، لأن كل ما يستحق أن يقابل بالثناء فهو صادر عنه ومرجعه إليه، إذ هو
الخالق لكل شئ، وما يقدم إلى بعض الناس من حمد جزاء إحسانهم، فهو فى
الحقيقة حمد لله، لأنه - سبحانه - هو الذى وفقهم لذلك وأعانهم عليه.ولم
تفتتح السورة بصيغة الأمر بأن يقال: احمدوا الله، وإنما افتتحت بصيغة الخبر
لأن الأمر يقتضى التكليف: والتكليف قد تنفر منه ، { ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ }
النفوس أحياناً، فأراد - سبحانه - وهو يبادئهم بشرعة جديدة وتكاليف لم
،يعهدوها، أن يؤنس نفوسهم، ويؤلف قلوبهم، فساق لهم الخطاب بصيغة الخبر
ترفقا بهم، حتى يديموا الإصغاء لما سيلقيه عليهم من تكاليف.وقد تكلم بعض
المفسرين عن الحكمة فى ابتداء السورة الكريمة بقوله - تعالى - { ٱلْحَمْدُ
لِلَّهِ } ، دون قوله - تعالى -: المدح لله، أو: الشكر لله. فقال:اعلم أن
المدح أعم من الحمد، والحمد أعم من الشكر. أما بيان أن المدح أعم من الحمد
فلأن المدح يحصل للعاقل وغير العاقل، ألا ترى أنه كما يحسن مدح الرجل
العاقل على أنواع فضائله، فكذلك قد يمدح اللؤلؤ لحسن شكله.أما الحمد فإنه
لا يحصل إلا للفاعل المختار على ما يصدر منه من الإنعام والإحسان، فثبت
أن المدح أعم من الحمد.وأما بيان أن الحمد أعم من الشكر، فلأن الحمد عبارة
عن تعظيم الفاعل لأجل ما صدر عنه من الإنعام. سواء أكان ذلك الإنعام
واصلا إليك أم إلى غيرك. وأما الشكر فهو عبارة عن تعظيمه لأجل إنعام وصل
إليك، فثبت بما ذكرنا أن المدح أعم من الحمد، وأن الحمد أعم من الشكر.إذا
عرفت هذا فنقول: إنما لم يقل: المدح لله، لأننا بينا أن المدح كما يحصل
للفاعل المختار فقد يحصل لغيره. وأما الحمد فإنه لا يحصل إلا للفاعل
المختار. فكان قوله " الحمد لله " تصريحاً بأن المؤثر فى وجود هذا العالم
فاعل مختار خلقه بالقدرة والمشيئة... وإنما لم يقل: الشكر لله، لأننا بينا
أن الشكر عبارة عن تعظيمه بسبب إنعام صدر منه ووصل إليك، وهذا يشعر بأن
العبد إذا ذكر تعظيمه بسبب ما وصل إليه من النعمة. فحينئذ يكون المطلوب
" الأصلى له وصول النعمة إليه. وهذه درجة حقيرة. فأما إذا قال " الحمد لله
- فهذا يدل على أن العبد حمده لأجل كونه مستحقا للحمد لا لخصوص أنه ،
سبحانه - أوصل النعمة إليه، فيكون الإخلاص أكمل، واستغراق القلب فى مشاهدة
نور الحق أتم، وانقطاعه عما سوى الحق أقوى وأثبت.وقد أجرى - سبحانه - على
- لفظ الجلالة نعت الربوبيه للعالمين، ليكون كالاستدلال على استحقاقه
تعالى - للحمد وحده، وفى ذلك إشعار لعباده بأنهم مكرمون من ربهم، إذ الأمر
بغير توجيه فيه إيماء إلى إهمال عقولهم، أما إذا كان موجهاً ومعللا فإنه
يكون فيه إشعار لهم برعاية ناحية العقل فيهم، وفى تلك الرعاية تشريف وتكريم
لهم.فكأنه - سبحانه - يقول لهم: اجعلوا حمدكم وثناءكم لى وحدى. لأنى أنا رب
العالمين. وأنا الذى تعهدتكم برعايتى وتربيتى منذ تكوينكم من الطين حتى
استويتم عقلاء مفكرين.

الرحمن الرحيم

كما فسرها الوسيط وقد أتبع - سبحانه - هذا الوصف وهو { رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ
بوصف آخر ه { ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ } لحكم سامية من أبرزها: أن ، {
وصفه - تعالى - بـ { رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ } أى: مالكهم، قد يثير فى النفوس
شيئاً من الخوف أو الرهبة، فإن المربى قد يكون خشناً جباراً متعنتاً، وذلك
مما يخدش من جميل التربية، وينقص من فضل التعهد.لذا قرن - سبحانه - كونه

مربياً، بكونه الرحمن الرحيم، لينفى بذلك هذا الاحتمال، وليفهم عباده بأن ربوبيته لهم مصدرها عموم رحمته وشمول إحسانه، فهم برحمته يوجدون، وبرحمته يتصرفون ويرزقون، وبرحمته يبعثون ويسألون.ولا شك أن فى هذا الإفهام تحريضاً لهم على حمده وعبادته بقلوب مطمئنة، ونفوس مبتهجة، ودعوة لهم إلى أن يقيموا حياتهم على الرحمة والإحسان، لا على الجبروت والطغيان، فالراحمون يرحمهم الرحمن.

مالك يوم الدين

كما فسرها الوسيط بعد أن بين - سبحانه - لعباده موجبات حمده، وأنه الجدير - وحده بالحمد، لأنه المربى الرحيم، والمنعم الكريم، أتبع ذلك ببيان أنه سبحانه - {مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ }.والمالك وصف من الملك - بكسر الميم - بمعنى حيازة الشئ مع القدرة على التصرف فيه. واليوم فى العرف: ما يكون من طلوع الشمس إلى غروبها، وليس هذا مراداً هنا، وإنما المراد مطلق الزمن وهو يوم القيامة.والدين: الجزاء والحساب، يقال: دنته بما صنع، أى جازيته على صنيعه، ومنه قولهم. كما تدين تدان. أى: كما تفعل تجازى، وفى الحديث " الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت " أى: حاسب نفسه: والمعنى أنه - تعالى - يتصرف فى أمور يوم الدين من حساب وثواب وعقاب، تصرف المالك فيما يملك، كما قال - تعالى -{ يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَٱلأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ }وهناك قراءة أخرى للآية وهى { مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ } من الملك - بضم الميم - وعليها يكون المعنى: أنه - تعالى - هو المدبر لأمور يوم الدين، وأن له على ذلك اليوم هيمنة الملوك وسيطرتهم، فكل شئ فى ذلك اليوم يجرى بأمره، وكل تصرف فيه ينفذ باسمه، كما قال - تعالى -{ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ }قال الإمام ابن كثير: " وتخصيص الملك بيوم الدين لا ينفيه عما عداه، لأنه قد تقدم الإخبار بأنه رب العالمين، وذلك عام فى الدنيا والآخرة. وإنما أضيف إلى يوم الدين، لأنه لا يدعى أحد هنالك شيئاً، ولا يتكلم أحد إلا بإذنه، كما قال -تعالى -{ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلاَئِكَةُ صَفّاً لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَاباً }والملك فى الحقيقة هو الله، قال - تعالى -{ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلاَمُ }وفى الصحيحين عن أبى هريرة، عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: " يقبض الله الأرض، ويطوى السماء بيمينه ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض؟ أين الجبارون، أين المتكبرون " ثم قال: وأما تسمية غيره فى الدنيا بملك فعلى سبيل المجاز كما قال - تعالى -{ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً }وفى هذه الأوصاف التى أجريت على الله تعالى، من كونه ربا للعالمين وملكا للأمر كله يوم الجزاء، بعد الدلالة على اختصاص الحمد به فى قوله: { ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ } فى كل ذلك دليل على أن من كانت هذه صفاته لم يكن أحد أحق منه للحمد والثناء عليه، بل لا يستحق ذلك على الحقيقة سواه، فإن ترتب الحكم على الوصف مشعر بعليته له ".والمتدبر لهذه الآية الكريمة يراها خير وسيلة لتربية الإنسان وغرس الإيمان العميق فى قلبه، لأنه إذا آمن بأن هناك يوما يظهر فيه إحسان المحسن وإساءة المسئ، وأن زمام الحكم فى ذلك اليوم لله الواحد القهار، فإنه فى هذه الحالة سيقوى عنده خلق المراقبة لخالقه، ويجتهد فى السير على الطريق المستقيم.

اياك نعبد واياك نستعين

كما فسرها الوسيط كانت الآيات الثلاث التى تقدمت هذه الآية تقريراً للحقيقة فى جانب الربوبية وعظمتها وعموم سلطانها وسعة رحمتها تقريرا جمع أمور الدنيا والآخرة ثم جاءت هذه الآية لتقرر أن الذى يجدر بنا أن نعبده وأن نستعين به إنما هو الله الذى تجلت أوصافه، ووضحت عظمته، وثبتت هيمنته على هذا الكون.ولفظ " إيا " ضمير منفصل، و " الكاف " الملحقة به للخطاب.والعبارة تفيد أن الطاعة البالغة حد النهاية فى الخضوع والخشوع والتعظيم، والعبادة الصحيحة تتأتى للمسلم بتحقق أمرين: إخلاصها لله وموافقتها لما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم.قال ابن جرير: " لأن العبودية عند جميع العرب أصلها الذلة، وأنها تسمى الطريق المذلل الذى وطئته الأقدام وذللته السابلة معبداً ".والاستعانة: طلب المعونة، من أجل الأقتدار على الشئ والتمكن من فعله.والمعنى: لك يا ربنا وحدك نخشع ونذل ونستكين، فقد توليتنا برعايتك وغمرتنا برحمتك، فنحن نخصك بطلب الإعانة على طاعتك وعلى أمورنا كلها، ولا نتوجه بهذا الطلب إلى أحد سواك، فأنت المستحق للعبادة وأنت القدير على كل شئ، والعليم ببواطن الأمور وظواهرها، لا تخفى عليك خافية، ولا تتوارى عنك نية.وقدم - سبحانه - المعبود على العبادة فقال: { إِيَّاكَ نَعْبُدُ } ، لإفادة قصر العبادة عليه، وهو ما يقتضيه التوحيد الخالص.وقال: { نعبد } بنون الجماعة ولم يقل أعبد، ليدل على أن العبادة

أحسن ما تكون فى جماعة المؤمنين، وللإشعار بأن المؤمنين المخلصين يكونون فى اتحادهم وإخائهم بحيث يقوم كل واحد منهم فى الحديث عن شئونهم الظاهرة وغير الظاهرة مقام جميعهم، فهم كما قال النبى صلى الله عليه وسلم ":المؤمنون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم ".وقدمت العبادة على الاستعانة، لكون الأولى وسيلة إلى الثانية. وتقديم الوسائل سبب فى تحصيل المطالب، وليدل على أنهم لا يستقلون بإقامة العبادات، بل إن عون الله هو الذى ييسر لهم أداءها.ولم يذكر المستعان عليه من الأعمال، ليشمل الطلب كل ما تتجه إليه نفس الإنسان من الأعمال الصالحة.وجاءت الآية الكريمة بأسلوب الخطاب على طريقة الالتفات، تلوينا لنظم الكلام من أسلوب إلى أسلوب. وقد وضح هذا المعنى صاحب الكشاف فقال:" فإن قلت: لم عدل عن لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب؟ قلت: هذا يسمى الالتفات فى علم البيان.وهو قد يكون ...من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم وذلك على عادة العرب فى افتنانهم فى الكلام وتصرفهم فيه. لأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب، كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع، وإيقاظاً للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد: وقد تختص مواضعه بفوائد. ومما اختص به هذا الموضع: أنه لما ذكر الحقيق بالحمد، وأجرى عليه تلك الصفات العظام، تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن، حقيق بالثناء وغاية للخضوع والاستعانة فى المهمات، فخوطب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات فقيل: إياك ...يا من هذه صفاته نخصك بالعبادة والاستعانة، ولا نعبد غيرك ولا نستعينه هذا، وقد جاءت فى فضل هذه الآية الكريمة آثار متعددة، ومن ذلك قول بعض." العلماء: الفاتحة سر القرآن، وسرها هذه الكلمة { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } فالأول تبرؤ من الشرك، والثانى تبرؤ من الحول والقوة والتفويض إلى الله".

اهدنا الصراط المستقيم

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن أفضل شئ يطلبه العبد من ربه، إنما - هو هدايته إلى الطريق الذى يوصل إلى أسمى الغايات، وأعظم المقاصد، فقال تعالى -:{ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ ٱلضَّآلِّينَ والهداية: هى الإرشاد والدلالة بلطف على ما يوصل إلى البغية، وتسند.{ الهداية إلى الله وإلى النبى وإلى القرآن، وقد يراد منها الإيصال إلى ما فيه خير، وهى بهذا المعنى لا تضاف إلى الله - تعالى -.قال أبو حيان فى البحر ما ملخصه: وقد تأتى بمعنى التبيين كما فى قوله - تعالى -{ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ }أى بينا لهم طريق الخير، أو بمعنى الإلهام كما فى قوله تعالى{ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ }قال المفسرون معناه }:ألهم الحيوانات كلها إلى منافعها، أو بمعنى الدعاء كما فى قوله. تعالى وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ }أى: داع. والأصل فى هدى أن يصل إلى ثانى معموليه باللام كما فى قوله. تعالى.{ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ }أو بإلى كما فى قوله تعالى:{ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ }ثم يتسع فيه فيعدى إليه بنفسه ومنه:{ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ }.والصراط: الجادة والطريق، من سَرط الشئ إذا ابتلعه، وسمى الطريق بذلك لأنه يبتلع المارين فيه، وتبدل سينه صاد على لغة قريش.والمستقيم: المعتدل الذى لا اعوجاج فيه.وأنعمت عليهم: النعمة لين العيش وخفضه، ونعم الله كثيرة لا تحصى.{ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ } الغضب هيجان النفس وثورتها، عند الميل إلى الانتقام، وهو ضد الرضا. وإذا أسند إلى الله فسر بمعنى إرادة الانتقام أو بمعنى الانتقام نفسه.والموافق لمذهب السلف أن يقال: هو صفة له - تعالى - لائقة بجلاله لا نعلم حقيقتها مجردة عن اللوازم البشرية وإنما نعرف أثرها وهو الانتقام من العصاة، وإنزال العقوبة بهم.والمعنى: اهدنا يا ربنا إلى طريقك المستقيم، الذى يوصلنا إلى سعادة الدنيا والآخرة، ويجعلنا مع الذين أنعمت عليهم من خلقك، وجنبنا يا مولانا طريق الذين غضبت عليهم من الأمم السابقة أو الأجيال اللاحقة بسبب سوء أعمالهم وطريق الذين هاموا فى الضلالات، فانحرفوا عن القصد، وحق عليهم العذاب.وفى هذا الدعاء أسمى ألوان الأدب، لأن هذا الدعاء قد تضرع به المؤمنون إلى خالقهم بعد أن اعترفوا له - سبحانه - قبل ذلك بأنه هو المستحق لجميع المحامد، وأنه هو رب العالمين، والمتصرف فى أحوالهم يوم الدين.قال الإمام ابن كثير: وهذا أكمل أحوال السائل. أن يمدح مسئوله ثم يسأل حاجته وحاجة إخوانه المؤمنين بقوله: { ٱهْدِنَا ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ } لأنه أنجح للحاجة، وأنجع للإجابة، ولهذا أرشدنا الله إليه لأنه الأكمل.وقد تكلم المفسرون كلاما كثيراً عن المراد بالصراط المستقيم الذى جعل الله طلب الهداية إليه فى هذا السورة أول دعوة علمها لعباده. والذى نراه: أن أجمع الأقوال فى ذلك أن المراد بالصراط المستقيم، هو ما جاء به الإسلام من عقائد وآداب وأحكام، توصل الناس متى اتبعوها إلى سعادة الدنيا والآخرة، فإن

طريق السلام هو الطريق الذى ختم الله به الرسالات السماوية، وجعل القرآن دستوره الشامل، ووكل إلى النبى صلى الله عليه وسلم أمر تبليغه وبيانه.وقد ورد فى الأحاديث النبوية ما يؤيد هذا القول، ومن ذلك ما أخرجه الإمام أحمد " :فى مسنده، عن النواس بن سمعان، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال ،ضرب الله مثلا صراطا مستقيما، وعلى جنبتى الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعاً ولا تعوجوا، وداع يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد الإنسان أن ،يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال له: ويحك لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تلجه فالصراط الإسلام، والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، وذلك - الداعى من فوق الصراط واعظ الله فى قلب كل مسلم ".والمراد بقوله - تعالى أى: ثبتنا عليه، واجعلنا من { ٱهْدِنَا ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ } المداومين على السير فى سبيله، فإن العبد مفتقر إلى الله فى كل وقت لكى يثبته على الهداية، ويزيده منها، ويعينه عليها. وقد أمر سبحانه المؤمنين أن يقولوا:{ رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْوَهَّابُ }وجملة { صِرَاطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ } بدل من الصراط المستقيم.ولم يقل: اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم مستغنياً عن ذكر الصراط المستقيم، ليدل أن صراط هؤلاء المنعم عليهم هو الصراط المستقيم.

صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين

كما فسرها الوسيط وجملة { صِرَاطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ } بدل من الصراط المستقيم.ولم يقل: اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم مستغنياً عن ذكر الصراط المستقيم، ليدل أن صراط هؤلاء المنعم عليهم هو الصراط المستقيم.وقال: { صِرَاطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ } ولم يقل صراط الأنبياء أو الصالحين، ليدل على أن الدين فى ذاته نعمة عظيمة، ويكفى للدلالة على عظمتها إسنادها إليه - تعالى - فى قوله: { أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ } لأن المراد بالإنعام هنا - على الراجح - الإنعام الدينى. فالمنعم عليهم هم من عرفوا الحق فتمسكوا به، وعرفوا الخير فعملوا به.قال بعض العلماء: (وإنما اختار فى البيان أن يضيف الصراط إلى المنعم عليهم لمعنيين:أولهما: هو إبراز نفسية المحب المخلص، وأنه يكون شديد الاحتياط دقيق التحرى عن الطريق الموصل إلى ساحة الرضا فى ثقة تملأ نفسه، وتفعم ،قلبه، ولا يجد فى مثل هذا المقام ما يملأ نفسه ثقة إلا أن يبين الطريق بأنه الطريق الذى وصل بالسير عليه من قبله الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون.وثانيهما: أن من خواطر المؤمل فى نعيم ربه أن يكون تمام أنسه فى رفقة من الناس صالحين، وصحب منهم محسنين).وقوله - تعالى - { غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ } بدل من { ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ } وأتى فى وصف الإنعام بالفعل المسند إلى الله - تعالى - فقال: { أنعمت عليهم } فى وصف الغضب باسم المفعول فقال: { غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ } وفى ذلك تعليم لأدب جميل، وهو أن الإنسان يجمل به أن يسند أفعال الإحسان إلى الله، ويتحامى أن يسند إليه أفعال العقاب والابتلاء، وإن كان كل من الإحسان والعقاب صادراً منه، ومن شواهد هذا قوله - تعالى - حكاية عن مؤمنى الجن{ وَأَنَّا لاَنَدْرِيۤ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً }وحرف (لا) فى قوله { وَلاَ ٱلضَّآلِّينَ } جئ به لتأكيد معنى النفى المستفاد من كلمة غير. والمراد بالمغضوب عليهم { اليهود. وبالضالين النصارى. وقد ورد هذا التفسير عن النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث رواه الإمام أحمد فى مسنده وابن حبان فى صحيحه.ومن المفسرين من قال بأن المراد بالمغضوب عليهم من فسدت إرادتهم حيث علموا الحق ولكنهم تركوه عناداً وجحودا، وأن المراد بالضالين من فقدوا العلم فهم تائهون فى الضلالات دون أن يهتدوا إلى طريق قويم.وقدم المغضوب عليهم على الضالين، لأن معنى المغضوب عليهم كالضد لمعنى المنعم عليهم، ولأن المقابلة بينهما أوضح منها بين المنعم عليهم والضالين، فكان جديراً بأن يوضع فى مقابلته قبل الضالين.قال العلماء: ويستحب لمن يقرأ الفاتحة أن يقول بعدها (آمين) ومعناه اللهم استجب وليس هذا اللفظ من القرآن بدليل أنه لم يثبت فى المصاحف والدليل على استحباب التأمين ما رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذى عن وائل بن حجر قال: سمعت النبى صلى الله عليه وسلم قرأ { غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِم وَلاَ ٱلضَّآلِّينَ } فقال: (آمين) مد بها صوته.وفى الصحيحين عن ،أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إذا أمن الإمام فأمنوا فإن من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر الله له ما تقدم من ذنبه ".هذا، وقد أفاض العلماء فى الحديث عما اشتملت عليه سورة الفاتحة من آداب وعقائد وعبادات وأحكام، ومن ذلك قول ابن كثير.(اشتملت هذه السورة الكريمة، وهى سبع آيات - على حمد الله وتمجيده والثناء عليه بذكر أسمائه الحسنى المستلزمة لصفاته العليا، وعلى ذكر المعاد وهو يوم الدين، وعلى إرشاد عبيده إلى سؤاله والتضرع إليه والتبرى من حولهم وقوتهم، إلى إخلاص العبادة له وتوحيده

بالألوهية، وتنزيهه عن أن يكون له شريك أو نظير، وإلى سؤالهم إياه الهداية إلى الصراط المستقيم، وهو الدين القويم وتثبيتهم عليه، واشتملت على الترغيب فى الأعمال الصالحة ليكونوا مع أهلها يوم القيامة، والتحذير من مسالك الباطل لئلا يحشروا مع سالكيها يوم القيامة، وهم المغضوب عليهم والضالون).وقال بعض العلماء: سورة الفاتحة مشتملة على أربعة أنواع من العلوم هى مناط الدين.أحدها: علم الأصول وإليه الإشارة بقوله { ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ } ، ومعرفة النبوات وإليه الاشارة بقوله: { أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ } ومعرفة المعاد وإليه الاشارة بقوله { مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ }.وثانيها: علم الفروع وأعظمه العبادات وإليه الإشارة بقوله { إِيَّاكَ نَعْبُدُ }.وثالثها: علم الأخلاق، وإليه الإشارة بقوله { وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ }.ورابعها: علم القصص والأخبار عن الأمم السابقة السعداء منهم والأشقياء، وهو المراد بقوله { صِرَاطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِم وَلاَ ٱلضَّآلِّينَ }.وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الم

كما فسرها الوسيط سورة البقرة من السور التي ابتدئت ببعض حروف التهجي .وقد وردت هذه الفواتح تارة مفردة بحرف واحد ، وتارة مركبة من حرفين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة .فالسور التي بدأت بحرف واحد ثلاثة وهي سورة ص ، ق ، ن والسورة التي بدأت بحرفين تسعة وهي : طه ، يس ، طس ، ( وحم ) في ست سور هي. غافر ، فصلت ، الزخرف ، الجاثية ، الأحقاف .والسورة التي بدأت بثلاثه : ، أحرف ثلاث عشرة سورة وهي : ( ألم ) في ست سور : البقرة ، وآل عمران ، العنكبوت ، الروم ، لقمان ، السجدة و ( الر ) في خمس سور هي : يونس ، هود يوسف ، الحجر ، إبراهيم ( طسم ) في سورتين هما : الشعراء ، القصص .وهناك سورتان بدئتا بأربعة أحرف وهما : الرعد ، ( المر ) ، والأعراف ، ( المص ) وسورتان - أيضاً - بدئتا بخمسة أحرف وهما : مريم ( كهيعص ) والشورى ( حم عسق ) .فيكون مجموع السور التي افتتحت بالحروف المقطعة تسعا وعشرين سورة هذا ، وقد وقع خلاف بين العلماء في المعنى المقصود بتلك الحروف المقطعة. التي افتتحت بها بعض السور القرآنية ، ويمكن إجمال خلافهم في رأيين رئيسين الرأي الأول يرى أصحابه : أن المعنى المقصود منها غير معروف ، فهي من: المتشابه الذي استأثر الله بعلمه .وإلى هذا الرأى ذهب ابن عباس - في إحدى رواياته - كما ذهب إليه الشعبي ، وسفيان الثوري ، وغيرهم من العلماء ، فقد أخرج ابن المنذر وغيره عن الشعبي أنه سئل عن فواتح السور فقال : إن لكل كتاب سراً ، وإن سر هذا القرآن في فواتح السور . ويروى عن ابن عباس أنه قال عجزت العلماء عن إدراكها . وعن علي - رضي الله عنه - أنه قال : " إن لكل : كتاب صفوة وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي؟ . وفي رواية أخرى عن الشعبي أنه ، قال : " سر الله فلا تطلبوه " .ومن الاعتراضات التي وجهت إلى هذا الرأي أنه كان الخطاب بهذه الفواتح غير مفهوم للناس ، لأنه من المتشابه ، فإنه يترتب على ذلك أنه كالخطاب بالمهمل ، أو مثله كمثل المتكلم بلغة أعجمية مع أناس عرب لا يفهمونها .وقد أجيب عن ذلك بأن هذه الألفاظ لم ينتف الإفهام ، عنها عند كل الناس ، فالرسول صلى الله عليه وسلم كان يفهم المراد منها وكذلك بعض أصحابه المقربين - ولكن الذي ننفيه أن يكون الناس جميعاً فاهمين لمعنى هذه الحروف المقطعة في أوائل بعض السور .وهناك مناقشات أخرى للعلماء حول هذا الرأي يضيق المجال عن ذكرها .أما الرأي الثاني فيرى أصحابه : أن المعنى المقصود منها معلوم ، وأنها ليست من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه .وأصحاب هذا الرأي قد اختلفوا فيما بينهم في تعيين هذا المعنى المقصود على أقوال كثيرة ، من أهمها ما يأتي :1- أن هذه الحروف أسماء للسور " بدليل قول النبي صلى الله عليه وسلم" من قرأ حم السجدة حفظ إلى أن يصبح ، ، وبدليل اشتهار بعض السور بالتسمية بها كسورة ولا يخلو هذا القول من الضعف لأن كثيراً من السور قد افتتحت بلفظ واحد من هذه الفواتح ، والغرض من التسمية رفع الاشتباه .2- وقيل إن هذه الحروف قد جاءت هكذا فاصلة للدلالة على انقضاء سورة وابتداء أخرى .3 - وقيل : إنها حروف مقطعة ، بعضها من أسماء الله - تعالى - وبعضها من صفاته ، فمثلاً ( الاما ) أصلها : أنا الله أعلم .4 - وقيل : إنها اسم الله الأعظم . إلى غير ذلك من الأقوال التي لا تخلو من مقال ، والتي أوصلها السيوطي في " الإتقان " إلى أكثر من عشرين قولا .5 - ولعل أقرب الآراء إلى الصواب أن يقال : إن هذه الحروف المقطعة قد وردت في افتتاح بعض السور للإشعار بأن هذا القرآن الذي تحدى الله به المشركين هو من جنس الكلام المركب من هذه الحروف التي يعرفونها ، ويقدرون على تأليف الكلام منها ، فإذا عجزوا عن الإتيان بسورة من مثله ، فذلك لبلوغه في الفصاحة والحكمة مرتبة يقف فصحاؤهم وبلغاؤهم دونها بمراحل شاسعة وفضلا عن ذلك فإن تصدير السور بمثل هذه الحروف المقطعة يجذب أنظار ، المعرضين عن استماع القرآن حين يتلى عليهم إلى الإنصات والتدبر ، لأنه يطرق

أسماعهم في أول التلاوة ألفاظ غير مألوفة في مجارى كلامهم ، وذلك مما يلفت أنظارهم ليتبينوا ما يراد منها ، فيستمعوا حكما وحججا قد يكون سببا في هدايتهم واستجابتهم للحق .هذه خلاصة لأراء العلماء في الحروف المقطعة التي - افتتحت بها بعض السور القرآنية ، ومن أراد مزيداً لذلك فليرجع - مثلاً إلى كتاب " الإتقان " للسيوطي ، وإلى كتاب " البرهان " للزركشي ، وإلى تفسير الألوسي .

ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين

كما فسرها الوسيط ثم قال - تعالى - : ( ذَلِكَ الكتاب لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ) .( ذَلِكَ ) اسم إشارة واللام للبعد حقيقة في الحس مجازاً في الرتبة ، والكاف للخطاب ، والمشار إليه - على الراجح - الكتاب ، الموعود به صلى الله عليه وسلم في قوله - تعالى - ( إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ) قال صاحب الكشاف : فإن قلت : أخبرني عن تأليف مع ( الاما ) قلت : إن جعلت ( الاما ) اسما للسورة ففي ( ذَلِكَ الكتاب ) التأليف وجوه . أن يكون ( الاما ) مبتدأ و ( ذَلِكَ ) مبتدأ ثانيا ، و الكتاب ) خبره . والجملة خبر المبتدأ الأول .ومعناه أن ذلك الكتاب هو الكتاب الكامل ، كأن ما عداه من الكتب في مقابلته ناقص ، وأنه الذي يستأهل أن يسمى كتابا ، كما تقول : هو الرجل ، أي : الكامل في الرجولية ، الجامع ، لما يكون في الرجال من مرضيات الخصال .وإن جعلت ( الاما ) بمنزلة الصوت كان " ذلك " مبتدأ خبره " الكتاب " ، أي : ذلك الكتاب المنزل هو الكتاب الكامل .. اه ملخصاً .وقيل : المشار إليه ( الاما ) على أنه اسم للسورة والمراد المسمى .و ( الكتاب ) مصدر كتب كالكتب ، وأصل الكتب ضم أديم إلى أديم بالخياطة ، واستعمل عرفا في ضم الحروف بعضها إلى بعض بالخط ، وأريد به هنا المنظوم عبارة قبل أن تنظم حروفه التي يتألف منها في الخط ، تسمية للشيء باسم ما يؤول إليه .و ( الريب ) في الأصل مصدر رابه الأمر إذا حصل عنده فيه ريبة ، وحقيقة الريبة ، قلق النفس واضطرابها ، ثم استعمل في معنى الشك مطلقاً . وقال ابن الأثير : الريب هو الشك مع التهمة .و ( هدى ) مصدر هداه هدى وهداية وهدية - بكسرها - فهدى ، ومعناه الدلالة الموصلة إلى البغية ، وضده الضلال .و ( المتقون ) جمع متق ، اسم فاعل من اتقى وأصله أوتقى - بوزن افتعل - من وقى الشيء وقاية ، أي : صانه وحفظه مما يضره ويؤذيه .والمعنى : ذلك الكتاب الكامل ، وهو القرآن الكريم ، ليس محلا لأن يرتاب عاقل أو منصف في أنه منزل من عند الله ، وأنه هداية وإرشاد للمتقين الذين يجتنبون كل مكروه من قول أو فعل حتى يصونوا أنفسهم عما يضرها ويؤذيها وكانت الإشارة بصيغة البعيد ، لأنه سامى المنزلة أينما توجهت إليه ، فإن. نظرت إليه ناحية تراكيبه فهو معجز للبلغاء ، وإن نظرت إليه من ناحية معانية فهو فوق مدارك الحكماء ، وإن نظرت إليه من ناحية قصصه وتاريخه فهو أصدق محدث عن الماضين ، وأدق محدد لتاريخ السابقين ، فلا جرم أن كانت الإشارة في الآية باستعمال اسم الإشارة للبعيد لإظهار رفعة شأن هذا القرآن ، وقد شاع في كلام البلغاء تمثل الأمر الشريف بالشيء المرفوع في عزة المنال ، لأن الشيء النفيس عزيز على أهله ، فمن العادة أن يجعلوه في مكان مرتفع بعيد عن الأيدي .وصحت الإشارة إلى الكتاب وهو لم ينزل كله بعد ، لأن الإشارة إلى بعضه كالإشارة إلى الكل حيث كان بصدد الإنزال ، فهو حاضر في الأذهان ، فشبه بالحاضر في العيان .ونفى عنه الريب على سبيل الاستغراق مع وقوع الريب فيه من المشركين حيث وصفوه بأنه أساطير الأولين ، لأنه لروعة حكمته ، وسطوع حجته ، لا يرتاب ذو عقل متدبر في كونه وحيا سماويا ، ومصدر هداية وإصلاح فالجملة الكريمة تنفى الريب في القرآن عمن شأنهم أن يتدبروه ، ويقبلوا على. النظر فيه بروية ، ومن ارتاب في القرآن فلأنه لم يقبل عليه بأذن واعية ، أو ) بصيرة نافذة ، أو قلب سليم .وقدم جملة ( لاَ رَيْبَ فِيهِ ) على جملة هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ) لأنه أراد أن ينفى عن ساحة كونه كتاباً هادياً غبار الريب ، وغيوم الشكوك ، حتى يستقر في النفوس وصفه ، وتطمئن القلوب لآثاره ومقاصده وهداياته .وفصل جملة ( لاَ رَيْبَ فِيهِ ) عما قبلها لكمال الاتصال ، حيث كانت جملة ( ذَلِكَ الكتاب ) مفيدة لكماله ، وجملة ( لاَ رَيْبَ فِيهِ ) مفيدة لنفي الريب عنه .والمراد بكونه (هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ) مع أنه هداية لهم ولغيرهم ، لأنهم هم المنتفعون به دون سواهم .قال تعالى : ( قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ والذين لاَ يُؤْمِنُونَ في آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أولئك يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ) ومعنى كونه هدى لهم أنه يزيدهم هدى على ما لديهم من الهدى كما قال - تعالى - :( والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ ) ويصح أن يكون المعنى : هدى للناس الذين صاروا متقين بهذه الهداية ، كما أقول : هديت مهتديا ، أو كتبت مكتوبا ، على معنى أني هديت شخصا صار مهديا بهذه الهداية ، وكتبت خطابا صار مكتوبا بهذه الكتابة ، وهو أسلوب عربي صحيح . كما ورد في حديث " من قتل قتيلا فله سلبه قال صاحب الكشاف : ومحل ( هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ) الرفع ، لأنه خبر. "

مبتدأ محذوف ، أو خبر مع ( لاَ رَيْبَ فِيهِ ) ل " ذلك " . . . والذي هو
) أرسخ عرقاً في البلاغة أن يضرب عن هذه المحال صفحاً ، وأن يقال : إن قوله
الاما ) جملة برأسها أو طائفة من حروف المعجم مستقلة برأسها .و ( ذَلِكَ
الكتاب ) جملة ثانية . و ( لاَ رَيْبَ فِيهِ ) ثالثة . ( هُدًى
لِّلْمُتَّقِينَ ) رابعة . وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة وموجب حسن النظم
حيث جيء بها متناسقة هكذا من غير نسق ، وذلك لمجيئها متآخية آخذاً بعضها ،
بعنق بعض . فالثانية متحدة بالأولى معتنقة لها ، وهلم جراً إلى الثالثة
والرابعة : بيان ذلك أنه نبه أولا على أنه الكلام المتحدى به ، ثم أشير
إليه بأنه الكتاب المنعوت بغاية الكمال . فكان تقريراً لجهة التحدى ، وشدا
من أعضاده ثم نفى عنه أن يتشبث به من طرف الريب ، فكان شهادة وتسجيلا
بكماله . لأنه لا كمال أكمل من الحق واليقين . ولا نقص أنقص ما للباطل
والشبه .وقيل لبعض العلماء : فيم لذتك؟ فقال : في حجة تتبختر اتضاحاً ، وفي
شبهة تتضاءل افتضاحاً . ثم أخبر عنه بأنه هدى للمتقين ، فقرر بذلك كونه
يقيناً لا يحوم الشك حوله ، وحقاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه
ثم لم تخل كل واحدة من الأربع - بعد أن رتبت هذا الترتيب الأنيق - من نكتة
ذات جزالة . ففي الأولى الحذف والرمز إلى الغرض بألطف وجه وأرشقه . وفي
الثانية ما في التعريف من الفخامة ، وفي الثالثة ما في تقديم الريب على
الظرف ، وفي الرابعة الحذف .

الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون

كما فسرها الوسيط ثم فصل القرآن بعد ذلك أوصاف المتقين ، ومدحهم بجملة من
المناقب الحميدة ، فقال : ( الذين يُؤْمِنُونَ بِالغيب ) أي : يصدقون بما
غاب عن حواسهم ، كالصانع وصفاته ، وكاليوم الآخر وما فيه من بعث وحساب
وثواب وعقاب .والإيمان لغة التصديق والإذعان ، وهو إفعال من الأمن . وشرعاً
التصديق بما علم بالضرورة أنه من الدين ، كالإيمان بالله وملائكته وكتبه
ورسله واليوم الآخر .. . الخ ، وعدى ( يُؤْمِنُونَ ) بالباء لتضمينه معنى
، أقر واعترف .والغيب : مصدر غاب يغيب ، وكثيراً ما يستعمل بمعنى الغائب
وهو الظاهر من هذه الآية الكريمة . ومعناه : ما لا تدركه الحواس ، ولا يعلم
ببداهة العقل .قال بعض العلماء : وخص بالذكر الإيمان بالغيب دون غيره من
متعلقات الإيمان ، لأن الإيمان بالغيب هو الأصل في اعتقاد إمكان ما لا تخبر
به الرسل عن وجود الله والعالم العلوى ، فإذا آمن به المرء وتصدى لسماع
، دعوة الرسول وللنظر فيما يبلغه عن الله - تعالى - فسهل عليه إدراك الأدلة
وأما من يعتقد أنه ليس من وراء عالم الماديات عالم آخر ، فقد راض نفسه على
الإعراض عن الدعوة ، كما هو حال الماديين الذين يقولون : " ما يهلكنا إلا
الدهر :والإيمان بالغيب : يستلزم التصديق به على وجه الجزم ، وهو لا يحصل
إلا عن دليل .ولا شك أن قيام البراهين على صدق من أخبر بالغيب يجعل المؤمن
بهذا الغيب مصدقاً عن دليل ، فنحن لا نحتاج في الإيمان بالملائكة والكتب
السماوية السابقة ، والرسل الذين أرسلوا من قبل ، والبعث وما فيه من ثواب
وعقاب ، لا نحتاج في الإيمان بكل ذلك إلى دليل زائد على الأدلة التي قامت
على صدق نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .والإيمان بالغيب دليل على اتساع
العقول ، وسلامة القلوب ، إذ أن معنى الإيمان بالغيب هو أن عقولهم قد سلم
إدراكها ، وتقشعت عنها غشاواتها ، وامتد نظرها في الكائنات فأدركت أن لها
مبدعاً حكيماً وخالقاً قديراً ، جعلها تسير بنظام محكم ، فهذه كواكب تظهر
) . . . وتغيب ، وسماء مرفوعة بغير عمد ، وأرض راسية لا تميد ولا تضطرب
صُنْعَ الله الذي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ) فكان من ذلك لتلك العقول براهين
قاطعة على وجود خالق مدبر ، وحكيم قدير ، ومبدع لا تأخذه سنة ولا نوم
والإيمان بالغيب الذي أخبر به الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم يقوى.
ويعظم كلما قوى الإيمان في القلوب ، واستولى الصفاء على النفوس ، وقد مدح
النبي صلى الله عليه وسلم المؤمنين بالغيب في أحاديث متعددة ، منها ما جاء
عن خالد بن دريك ، عن ابن محيريز قال : قلت لابن جمعة : حدثنا حديثاً سمعته
من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : نعم أحدثك حديثاً . تغدينا مع رسول
الله صلى الله عليه وسلم ومعنا أبو عبيدة بن الجراح فقال : " يا رسول الله
هل أحد خير منا؟ أسلمنا معك وجاهدنا معك .قال : نعم ، قوم من بعدكم ،
يؤمنون بي ولم يروني " .قال ابن كثير : فقد مدحهم على ذلك وذكر أنهم أعظم
أجراً من هذه الحيثية لا مطلقاً .وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني وابن منده
وأبو نعيم عن بديلة بنت أسلم قالت : صليت الظهر أو العصر في مسجد بني حارثة
واستقبلنا مسجد إيلياء فصلينا سجدتين ، ثم جاء من يخبرنا بأن رسول الله ،
صلى الله عليه وسلم قد استقبل البيت ، فتحول الرجال مكان النساء ، والنساء
، مكان الرجال ، فصلينا السجدتين الباقيتين ونحن مستقبلون البيت الحرام
فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال :" أولئك قوم آمنوا بالغيب "تلك
أول صفة نتيجة التقوى وهي الإيمان بالغيب ، أما الصفة الثانية التي مدح
الله بها المتقين فهي قوله - تعالى - :( وَيُقِيمُونَ الصلاة ) .الصلاة في
اللغة الدعاء ، من صلى يصلى إذا دعا ، واستعملها الشارع في العبادة ذات

الركوع والسجود لاشتمالها على الدعاء ، والإقامة في الأصل : الدوام والثبات
: من قولك : قام الحق أي : ظهر وثبت .ومعنى ( وَيُقِيمُونَ الصلاة ) ،
يؤدونها في أوقاتها المقدرة لها ، مع تعديل أركانها ، وإيقاعها مستوفية
لواجباتها وسننها وآدابها وخشوعها ، فإن الصلاة المقامة بحق هي تلك التي
يصحبها الإخلاص ، واستحضار جلال الله في الركوع والسجود ، وهي التي تترتب
عليها الآثار العظيمة من تزكية النفس ، وعفافها ، وتركها لكل الشرور
والآثام ، كما قال - تعالى - ( إِنَّ الصلاة تنهى عَنِ الفحشآء والمنكر )
وقدم الإيمان بالغيب على إقامة الصلاة تعظيماً لعمل القلب ، واعتداداً
، بشرطية الإيمان في صحة أعمال الجوارح .وقدم إقامة الصلاة على الإنفاق
لأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولأنها تتكرر في اليوم خمس مرات ، ولأنها
صلة بين العبد وربه ، والإنفاق صلته بالناس ، ولأن مشروعيتها كانت سابقة
على مشروعية الزكاة .أما الصفة الثالثة التي مدح الله بها المتقين فهي
قوله - تعالى - :( وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ) .أي : ومما
أعطيناهم وملكناهم يتصدقون في وجوه الخير ، ويمدون أيديهم بالإحسان إلى
الفقير والمسكين .والرزق عند جمهور العلماء ما صلح للانتفاع به حلالا كان
: أو حراماً ، خلافاً للمعتزلة الذين يرون أن الحرام ليس برزق . والإنفاق
. إخراج المال وإنفاده وصرفه ، يقال : نفق - كفرح ونصر - نفد وفني أو قلّ
وأنفق ماله أنفده ، وأصل المادة يدل على الخروج والذهاب ، ومنه : نافق فلان
والنافقاء ، والنفق . وقال" ينفقون " ولم يقل أنفقوا ، ليشعر بأن الإنفاق ،
منهم يتجدد بين وقت وآخر . ولم يحدد وجوه الإنفاق بل تركها مطلقة لتشمل
) - الفرض والواجب وغيرهما من وجوه الإحسان .وإيراد " من " في قوله تعالى
وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ) للإشارة إلى أن مواظبتهم على إنفاق أموالهم بين
الحين والحين ، كفيل بتوصيلهم إلى زمرة المهتدين المفلحين ، وللإشعار بأنهم
ينفقون بعض أموالهم مبتعدين عن الإسراف والتبذير حتى لا يتركوا ورثتهم عالة
يتكففون وجوه الناس .هذا ، وقد عنى القرآن الكريم عناية فائقة بالحض على
الإنفاق في وجوه الخير ، ومدح الذين يفعلون ذلك مدحاً عظيماً في عشرات
، الآيات ، وذلك لأن الأمة التي يكثر فيها المنفقون لأموالهم في وجوه الخير
لا بد أن تعز كلمتها ، وتسلم من كوارث شتى ، كالجهل ، والفقر ، والمرض
فببذل الماء تسد حاجات البؤساء ، وتشاد معاهد التعليم ، وتقام وسائل حفظ.
) : الصحة ، وتنمو المحبة والمودة بين الأغنياء والفقراء .قال تعالى
مَّثَلُ الذين يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ الله كَمَثَلِ
حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ
والله يُضَاعِفُ لِمَن يَشَآءُ والله وَاسِعٌ عَلِيمٌ ) ثم أضاف القرآن إلى
: صفات المتقين وصفاً رابعاً فقال

والذين يؤمنون بما انزل اليك وما انزل من قبلك وبالاخرة هم يوقنون

كما فسرها الوسيط ( والذين يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ
أُنْزِلَ مِن قَبْلِكَ )والمراد بقوله - تعالى - ( بِمَآ أُنْزِلَ إِلَيْكَ
- القرآن الكريم ، وإنما عبر عنه بلفظ الماضى - وإن كان بعضه مترقباً (
تغليباً للموجود على ما لم يوجد . والمراد - بقوله - تعالى - ( وَمَآ
أُنْزِلَ مِن قَبْلِكَ ) الكتب الإلهية السابقة التي أنزلها الله على
أنبيائه كموسى وعيسى وداود . وهذا كقوله - تعالى - :( يَا أَيُّهَا الذين
آمَنُواْ آمِنُواْ بالله وَرَسُولِهِ والكتاب الذي نَزَّلَ على رَسُولِهِ
والكتاب الذي أَنزَلَ مِن قَبْلُ ) والإيمان بما أنزل على الرسول صلى الله
عليه وسلم يستلزم الإيمان برسالته ، ويستوجب العمل بما تضمنته شريعته
وإيجاب العمل بما تضمنه القرآن الذي أنزله الله على محمد صلى الله عليه.
وسلم ياق على إطلاقه . أما الكتب السماوية السابقة فيكفى الإيمان بأنها
كانت وحياً وهداية ، وقد تضمن القرآن الكريم ما اشتملت عليه هذه الكتب من
هدايات وأصبح بنزوله مهيمناً عليها ، قال - تعالى - :( وَنَزَّلْنَا
عَلَيْكَ الكتاب تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ ) وصار من المحتم على كل عاقل
أن يعمل بما جاء به القرآن من توجيهات .وقدم الإيمان بما أنزل عليه على
الإيمان الذين من قبله - مع أن الترتيب يقتضى العكس - لأن إيمانهم بمن قبله
لا قيمة له إلا إذا آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم .ولم يقل : ويؤمنون بما
أنزل من قبلك بتكرير يؤمنون ، للإشعار بأن الإيمان به وبهم واحد ، لا تغاير
فيه وإن تعدد متعلقه .ويرى بعض العلماء أن المراد من الآية الكريمة ، أهل
الكتاب الذين آمنوا بالكتب السماوية التي نزلت قبل القرآن ، ثم لما نزل
القرآن على النبي محمد صلى الله عليه وسلم وعرفوا أنه الحق - آمنوا به
أيضاً - ، فصار لهم أجران ، كما جاء في الحديث الشريف ، الذي ثبت في
" : الصحيحين عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال
ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين يوم القيامة : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن
، بي ، ورجل مملوك أدى حق الله وحق مواليه ، ورجل أدب جاريته فأحسن تأديبها
ثم أعتقها " .ثم وصف الله المتقين بوصف خامس فقال : ( وبالآخرة هُمْ
يُوقِنُونَ ) الآخرة تأنيث الآخر .وهذا اللفظ تارة يجيء وصفاً ليوم القيامة

مع ذكر الموصوف ، كما في قوله - تعالى - ( وَلَلدّارُ الآخرة خَيْرٌ لِّلّذِينَ يَتَّقُونَ ) وتارة بهذا المعنى ولكن بدون ذكر الموصوف ، كما في الآية التي معنا ، وكما في قوله - تعالى -( وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ) وسميت آخرة لأنها تأتي بعد الدنيا التي هي الدار الأولى .و ( يُوقِنُونَ ) من الإيقان وهو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع ، بحيث لا يطرأ عليه شك ، ولا تحوم حوله شبهة . يقال يقن الماء إذا ، سكن وظهر ما تحته ، ويقال : يقنت - بالكسر - يقناً ، وأيقنت ، وتيقنت واستيقنت بمعنى واحد .والمعنى : وبالدار الآخرة وما فيها من بعث وحساب ، وثواب وعقاب هم يوقنون إيقاناً قطعياً ، لا أثر فيه للادعاءات الكاذبة ، والأوهام الباطلة .وفي إيراد " هم " قبل قوله " يوقنون " تعريض ، بغيرهم ممن كان اعتقادهم في أمر الآخرة غير مطابق للحقيقة أو غير بالغ مرتبة اليقين .ولا شك أن الإيمان باليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب ، له أثر عظيم في فعل الخيرات ، واجتناب المنكرات ، لأن من أدرك أن هناك يوماً سيحاسب فيه على عمله ، فإنه من شأنه أن يسلك الطريق القويم الذي يكسبه رضي الله يوم يلقاه .قال أبو حيان : وذكر لفظة ( هُمْ ) في قوله : ( وبالآخرة هُمْ يُوقِنُونَ ) ولم يذكرها في قوله : ( وَممّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ) لأن وصف إيقانهم بالآخرة أعلى من وصفهم بالإنفاق فاحتاج هذا إلى التوكيد ولم يحتج ذلك إلى تأكيد ولأنه لو ذكر ( هُمْ ) هناك لكان فيه - قلق لفظى ، إذ يكون التركيب " ومما رزقناهم هم ينفقون " .ثم بين - سبحانه - بعد ذلك الثمار التي ترتبت على تقواهم فقال :

اولئك على هدى من ربهم واولئك هم المفلحون

كما فسرها الوسيط ( أولئك على هُدًى مِّن رّبِّهِمْ وأولئك هُمُ المفلحون ) - المفلحون : من الفلاح وهو الظفر والفوز بدرك البغية ، وأصله من الفلح. ( بسكون اللام - وهو الشق والقطع ، ومنه فلاحة الأرض وهو شقها للحرث . وأستعمل منه الفلاح في الفوز كأن الفائز شق طريقه وفلحه للوصول إلى مبتغاه أو انفتحت له طريق الظفر وانشقت .والمعنى : أولئك المتصفون بما تقدم من ، صفات كريمة ، على نور من ربهم ، وأولئك هم الفائزون بما طلبوا ، الناجون مما منه هربوا ، بسبب إيمانهم العميق ، وأعمالهم الصالحة .والآية الكريمة كلام مستأنف لبيان أن أولئك المتقين في المنزلة العليا من الكمال الإنساني فقد وصفهم - سبحانه - بأنهم على هدى عظيم ، ويدل على عظم هذا الهدى ، إيراده بصيغة التنكير ، إن من المعلوم عند علماء البيان أن التنكير يدل بمعونة المقام على التعظيم . كما يدل - أيضاً - على عظم هذا الهدى وصفه - بأنه " من ربهم " فهو الذي وفقهم إليه ، ويسر لهم أسبابه .وفي قوله تعالى - : ( على هُدًى ) إشعار بأنهم تمكنوا منه تمكن من استعلى على الشيء وصار في قرار راسخ منه .وجملة " وأولئك هم المفلحون " بيان لما ظفر به ، المتقون الحائزون لتلك الخصال ، من سعادة في الدنيا والآخرة .وتعريف الخبر وهو ( المفلحون ) مع إيراد ضمير الفصل " هم " يفيد أن الفلاح مقصور على أولئك المتقين ، فمن لم يؤمن بالغيب ، أو أضاع الصلاة ، أو بخل بالمال الذي ، منحه الله إياه فلم يؤده في وجوهه المشروعة ، فإنه لا يكون من المهتدين ولا من المفلحين الذين سعدوا في دنياهم وآخرتهم .قال الإمام الرازي : " وفي تكرير " ( أولئك ) تنبيه على أنهم كما ثبت لهم الاختصاص بالهدى ، فقد ثبت ، لهم الاختصاص بالفلاح - أيضاً - فقد تميزوا عن غيرهم بهذين الاختصاصين فإن قيل : فلم جيء بالعاطف؟ وما الفرق بينه وبين قوله : ( أولئك كالأنعام بَلْ هُمْ أَضَلُّ أولئك هُمُ الغافلون ) قلنا : قد اختلف الخبران ههنا فلذلك دخل العاطف ، بخلاف الخبرين ثمة فإنهما متفقان ، لأن التسجيل عليهم ، بالغفلة وتشبيههم بالبهائم شيء واحد ، وكانت الثانية مقررة لما في الأولى . " فهي من العطف بمعزل " .وقال صاحب الكشاف بعد تفسيره لهذه الآية الكريمة فانظر كيف كرر الله التنبيه على اختصاص المتقين بنيل ما لا يناله أحد . . على طرق شتى ، وهي : ذكر اسم الإشارة ، وتكريره ، وتعريف المفلحين ، وتوسيط ، ضمير الفصل بينه وبين أولئك ، ليبصرك مرتباتهم ، ويرغبك في طلب ما طلبوا وينشطك لتقديم ما قدموا ، ويثبطك عن الطمع الفارغ والرجاء الكاذب والتمني على الله ما لا تقتضيه حكمته ولم تسبق به كلمته . . . " .وإلى هنا تكون الآيات الكريمة قد مدحت القرآن الكريم بما يستحقه ، وأثنت على من اهتدوا بهديه ، ووصفتهم بالصفات السامية ، وبشرتهم بالبشارات الكريمة .وبعد أن انتهى القرآن من بيان شأن الكتاب وأثره في الهداية والإرشاد ، وتصوير حال المتقين الذين اهتدوا به ، وما اكتسبوه بالهداية من أوصاف سامية ، وما كان لهم على ذلك من خير العاقبة وحسن الجزاء ، أقول بعد أن انتهى من بيان كل ذلك شرع في بيان حال الكافرين ، وما هم عليه من سوء الحال وقبيح الأوصاف فقال :( إِنَّ الذين كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ . . . )

ان الذين كفروا سواء عليهم اانذرتهم ام لم تنذرهم لا يؤمنون

كما فسرها الوسيط في هاتين الآيتين بيان لأحوال طائفة ثانية من الناس ، على الضد في طبيعتها وأوصافها ومآلها من الطائفة الأولى التي فازت برضوان الله والكفر - بالضم - ضد الإيمان . وأصله المأخوذ منه الكفر - بالفتح - وهو. ، ستر الشيء وتغطيته ، ومنه سمي الليل كافراً ، لأنه يغطي كل شيء بسواده ، وسمي السحاب كافراً لستره ضوء الشمس .ثم شاع الكفر في مجرد ستر النعمة كأن المنعم عليه قد غطى النعمة بجحوده لها ، ويستعمله الشارع في عدم الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .وسمي من لم يؤمن بما يجب الإيمان به بعد الدعوة إليه - كافراً ، لأنه صار بجحوده لذلك الحق وعدم الإذعان إليه كالمغطى له .والمراد بالذين كفروا في الآية التي معنا ، طائفة معينة صمت آذانها عن الحق ، عناداً وحسداً ، وليس عموم الكافرين ، لأن منهم من دخل في الإسلام بعد نزول هذه الآية .وسواء : اسم مصدر بمعنى الاستواء والمراد به اسم الفاعل أي : مستو ولذلك يوصف به كما يوصف بالمصدر ، كما في قوله - تعالى - :( قُلْ ياأهل الكتاب تَعَالَوْاْ إلى كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ) أي : مستوية .والإنذار : إخبار معه تخويف في مدة تتسع للتحفظ من المخوف ، فإن لم تتسع له فهو إعلام وإشعار لا إنذار ، وأكثر ما يستعمل في القرآن في التخويف من عذاب الله - تعالى - .والمعنى : إن الذين كفروا برسالتك يا محمد مستو عندهم إنذارك وعدمه ، فهم لا يؤمنون بالحق ، ولا يستجيبون لداعي الهدى ، لسوء استعدادهم ، وفساد فطرهم .وجاءت جملة " إن الذين كفروا " مستأنفة ولم تعطف على ما قبلها لاختلاف الغرض الذي سيق له الكلام ، إذ في الجمل السابقة حديث عن الكتاب وآثاره وعظمته ، وهنا حديث عن الكافرين وأحوالهم .وقد وضح هذا المعنى صاحب الكشاف فقال : " فإن قلت لم قطعت قصة الكفار عن قصة المؤمنين ولم تعطف كنحو قوله : ( إِنَّ الأبرار لَفِي نَعِيمٍ . وَإِنَّ الفجار لَفِي جَحِيمٍ ) وغيره من الآيات الكثيرة؟ قلت : ليس وزان هاتين القصتين وزان ما ذكرت . لأن الأولى فيما نحن فيه مسوقة لذكر الكتاب وأنه هدى المتقين ، وسيقت الثانية لأن الكفار من صفتهم كيت وكيت؛ فبين الجملتين تباين في الغرض والأسلوب ، وهما على حد لا مجال فيه للعاطف " .وقوله ( سَوَآءٌ ) خبر إن ( عَلَيْهِمْ ) متعلق به ، و مؤول بمصدر فاعل سواء .أي : إن الذين كفروا سواء عندهم ( أَأَنذَرْتَهُمْ ) إنذارهم وعدم إنذارهم وإنما استوى لديهم الإنذار وعدمه؛ مع أن الإنذار إنما يواجههم به نبي قوي أمين مؤيد من الله - تعالى - ، لأنهم لما جحدوا نعم الله ، وعموا عن آياته ، وحسدوا رسوله على ما آتاه الله من فضله ، صاروا بسبب ذلك في حضيض جمد معه شعورهم ، وبرد فيه إحساسهم ، فلا تؤثر فيهم موجعات القول ، ولا تنفذ إلى قلوبهم بالغات الحجج .فهم كما قال الشاعر :لقد أسمعت إذ ناديت حيا ... ولكن لا حياة لمن تناديولم يذكر - سبحانه - التبشير ، مع الإنذار ، لأنهم ليسوا أهلا للبشارة ، ولأن الإنذار أوقع في القلوب والذي لا يتأثر به يكون عدم تأثره بغيره أولى .ولم يقل - سبحانه - سواء عليك أأنذرتهم أم لم تنذرهم . . الخ ، لأنه بالنسبة له صلى الله عليه وسلم لا يستوي الأمران ، إذ هو في حالة إنذاره لهم مثاب ومأجور ، أما في حالة عدم إنذاره فهو مؤاخذ من الله - تعالى - لأنه مكلف بتبليغ ما أنزل إليه من ربه .وجملة ( لاَ يُؤْمِنُونَ ) مفسرة لمعنى الجملة التي قبلها ومؤكدة لها لأنه حيث كان الإنذار وعدمه سواء ، فلا يتوقع منهم الإيمان . ولذلك فصلت ، وفي هذه الجملة إخبار بعدم إيمانهم ألبتة ، وذلك لأن حرف "لا " إذا دخل. على الفعل المضارع - كما هنا - أفاد أن الفعل لا يقع في المستقبل حتى تقوم قرينة تقصر النفي في المستقبل على وقت محدد .والحكمة في الإخبار بعدم إيمان هذه الطائفة المعينة من الكفار ، تسلية النبي صلى الله عليه وسلم حتى لا يكون في صدره حرج من تمردهم وعدم إيمانهم بعد أن قام بواجب دعوتهم ، وفي ذلك تذكرة لكل داع مصلح بأن لا يحترق قلبه أسفاً على قوم أعرضوا عن سلوك الصراط المستقيم ، بعد أن دعاهم إليه ، وبذل قصارى جهده في تبصيرهم وإرشادهم .

ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى ابصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك الموانع التي حالت بينهم وبين الاهتداء إلى الحق في الماضي والمستقبل فقال تعالى :( خَتَمَ اللَّه على قُلُوبِهِمْ وعلى سَمْعِهِمْ وعلى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ )والختم : الوسم بطابع ونحوه ، مأخوذ من وضع الخاتم على الشيء وطبعه فيه للاستيثاق ، لكي لا يخرج منه ما هو بداخله ، ولا يدخله ما هو خارج عنه .قال القرطبي : " والختم مصدر ختمت الشيء ختماً فهو مختوم مختم ، شدد للمبالغة ، ومعناه التغطية على الشيء والاستيثاق منه ، وقد يكون محسوساً كما في ختم الكتاب والباب ، وقد يكون معنوياً كالختم على القلوب . . . "والقلوب : جمع قلب ، وهو المضغة التي توجد بالجانب الأيسر من صدر الإنسان ، ويستعمل في القوة العاقلة التي هي محل الفهم والعلم .والسمع : مصدر سمع . ويطلق على الآلة التي يقع بها السمع .ولما كان الختم يمنع من أن يدخل في المختوم عليه شيء ، استعير لإحداث هيئة في القلب والسمع تمنع من خلوص الحق إليهما .الأبصار : جمع بصر

، وهو في الأصل الإدراك بالعين ، ويطلق على القوة التي يقع بها الإبصار ، وعلى العين نفسها . وهذا المعنى أقرب ما تحمل عليه الأبصار في الآية .وهو الأنسب لأن تجعل عليه غشاوة . ومفاد الآية أن تصير أبصارهم بحيث لا تهتدي إلى النظر في حكمة المخلوقات وعجائب المصنوعات . باعتبار وتدبر وحتى لكأنما جعلت عليها غشاوة .والغشاوة : ما يغطي به الشيء ، من غشاه إذا غطاه . يقال غشية غشاوة - مثلثة - وغشاية : أي : ستره وغطاه .فهذه الآية الكريمة تفيد: عن طريق الاستعارة أو التمثيل أن هناك حواجز حصينة ، وأقفالاً متينة قد ضربت على قلوبهم وعلى أسماعهم ، وغشاوات مطبقة على أبصارهم حتى أصبحوا لا يخيفهم نذير ولا يرغبهم بشير .وعبر في جانب القلب والسمع بالختم ، وفي جانب البصر بالغشاوة ، لمعنى سام ، وحكمة رائعة ، ذلك أن آفة البصر معروفة ، إذ غشاوة العين معروفة لنا ، فالتعبير في جانب العين بالغشاوة مما يحدد لنا مدى عجزهم عن إدراك آيات الله بتلك الجارحة ، وأما القلب والسمع فإنهما لما كانا لا تدرك آفتهما إلا بصعوبة ، فقد صور لنا موانعهما عن الاستجابة للحق ، بصورة الختم .وعبر في جانب القلب والسمع بجملة فعلية تفيد التجدد والحدوث وفي جانب البصر بجملة اسمية تفيد الثبات والاستقرار ، لأنهم قبل الرسالة ما كانوا يسمعون صوت نذير ، ولا يواجهون بحجة ، وإنما كان صوت النذير وصياغة البراهين بعد ظهور النبي صلى الله عليه وسلم . وأما ما يدرك بالبصر من دلائل وجود الله وآيات قدرته ، فقد كان قائماً في السماوات وفي الأرض وفي الأنفس ، ويصح أن يدرك قبل الرسالة النبوية ، وأن يستدل به المتبصرون والمتدبرون على وجود ربهم وحكمته ، فلم يكن عماهم عن آيات الله القائمة حادثاً متجدداً ، بل هم قد صحبهم العمى من بدء وجودهم ، فلما دعوا إلى التبصر والتدبر صمموا على ما كانوا عليه من عمى .وجمع القلوب والأبصار وأفرد السمع ، لأن القلوب تختلف باختلاف مقدار ما تفهمه مما يلقى إليها من إنذار أو تبشير ، ومن حجة أو دليل ، فكان عن ذلك تعدد القلوب بتعدد الناس على حسب استعدادهم ، وكذلك شأن الناس فيما تنظره أبصارهم من آيات الله في كونه ، فإن أنظارهم تختلف في عمق تدبرها وضحولته ، فكان من ذلك تعدد المبصرين بتعدد مقادير ما يستطيعون تدبره من آيات الله في الآفاق . وأما المسموع فهو بالنسبة للناس جميعاً شيء واحد هي الحجة يناديهم بها المرسلون ، والدليل يوضحه لهم النبيون .لذلك كان الناس جميعاً كأنهم على سمع واحد ، فكان إفراد السمع إيذاناً من الله بأن حجته واحدة ، ودليله واحد لا يتعدد ونرى القرآن هنا قدم القلب في الذكر على السمع ، بينما في سورة الجاثية. قدم السمع في الذكر على القلب فقال :( أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتخذ إلهه هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ الله على عِلْمٍ وَخَتَمَ على سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ على بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ الله أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ) وذلك لأنه - سبحانه - في سورة الجاثية قد ذكر الختم معطوفا على قوله" اتخذ إله هواه ، ومن اتخذ إله هواه يكون أولما يبدو منه للناس ويعرف هو إعراضه عن النصح ، ولي رأسه عن استماع الحجة ، فكان مظهر عدم السماع منه أول ما يبدو للناظرين ، فلذلك قدم السمع على القلب .وأما آيتنا هذه وهي قوله - تعالى - ( خَتَمَ الله على قُلُوبِهِمْ وعلى سَمْعِهِمْ ) فقد جاءت إثر الآية المختومة بقوله ( لاَ يُؤْمِنُونَ ) . والإيمان تصديق يقوم على الحجة والبراهين ، وإدراك الحجة والبرهان إنما هو بالقلب فكان ، التعليل المتصل الواضح لنفي الإيمان أن قلوبهم مغلقة لا تنفذ إليها الحجة - أولا يتسرب إليها نور البرهان لذلك قدم القلب على السمع .هذا وقوله تعالى - ( خَتَمَ الله على قُلُوبِهِمْ ) . . إلخ .لا ينفى عنهم تبعة الكفر ، لأنهم هم الذين باشروا من فاسد الأعمال ، وذميم الخصال ، ومتابعة الهوى ، ما نسج على قلوبهم الأغلفة السميكة ، وأصم إلى جانب ذلك آذانهم وأعمى أبصارهم ، ( وَمَا ظَلَمَهُمُ الله ولكن أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ) - ولعلماء الكلام كلام طويل حول هذه المسألة فليرجع إليه من شاء .ثم بين سبحانه - ما يستحقونه من عذاب بسبب إغراقهم في الكفر . واستحبابهم للمعاصي فقال :( وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ ) .أي : ولهم بسبب سوء أعمالهم عذاب موجع - مؤلم لأبدانهم وأجسامهم .وأصل العذاب : المنع ، يقال : عذب الفرس - كضرب امتنع عن العلف . وعذب الرجل إذا ترك المأكل والنوم ، فهو عاذب وعذوب . ثم : أطلق على الإيجاع الشديد لما فيه من المنع عن اقتراف الذنب . والعظيم الكبير ، من عظم الشيء ، وأصله كبر عظمه ، ثم استعير لكل كبير محسوساً كان أو معقولا .ووصف العذاب بالعظيم على معنى أن سائر ما يجانسه من العذاب يكون بالنسبة إليه حقيراً هنيئاً .قال أبو حيان في البحر : وقد ذكروا في هاتين الآيتين من ضروب الفصاحة أنواعاً .الأول : الخطاب العام اللفظ ، الخاص : المعنى .الثاني : الاستفهام الذي يراد به تقرير المعنى في النفس . أي يتقرر أن الإنذار وعدمه سواء عندهم .الثالث : المجاز ويسمى الاستعارة وهو في قوله - تعالى - ( خَتَمَ الله على قُلُوبِهِمْ وعلى سَمْعِهِمْ ) وحقيقة الختم وضع محسوس يحدث بينهما رقم يكون علامة للخاتم ، والختم هنا معنوى؛ فإن القلب لما لم يقبل الحق مع ظهوره استعير اسم المختوم عليه ، فبين أنه من مجاز الاستعارة .الرابع : الحذف وهو في مواضع منها ( إِنَّ الذين كَفَرُواْ سَوَآءٌ . . ) أي : القوم الذين كفروا بالله وبك وبما جئت به ،

ومنها ( لاَ يُؤْمِنُونَ ) أي بالله وبما أخبرتهم به عنه .وإلى هنا يكون القرآن قد حدثنا عن طائفتين من الناس : طائفة المتقين وما لها من جميل الصفات ، وجزيل الثواب ، وطائفة الكافرين وما لها من ذميم النعوت ، وشديد العقاب .ثم ابتدأ القرآن بعد ذلك حديثه عن طائفة ثالثة ليس عندها إخلاص المتقين ، وليس لديها صراحة الكافرين ، وإنما هي طائفة قلقة مذبذبة لا إلى هؤلاء ولا إلى أولئك ، تلك الطائفة الثالثة هي طائفة المنافقين الذين فضحهم القرآن . وأماط اللثام عن خفاياهم وخداعهم فقال :( وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ ) . . .

ومن الناس من يقول امنا بالله وباليوم الاخر وما هم بمؤمنين

كما فسرها الوسيط قال صاحب الكشاف : " افتتح - سبحانه - كتابه بذكر الذين أخلصوا دينهم الله ، وواطأت قلوبهم ألسنتهم ، ووافق سرهم علنهم ، وفعلهم قولهم ، ثم ثنى بالذين محضوا الكفر ظاهراً وباطناً ، قلوباً وألسنة ، ثم ثلث بالذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ، وأبطنوا خلاف ما أظهروا . وهم الذين قال فيهم : ( مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذلك لاَ إلى هؤلاء وَلاَ إِلَى هؤلاء ) وسماهم المنافقين وكانوا أخبث الكفرة وأبغضهم إليه وأمقتهم عنده لأنهم خلطوا بالكفر تمويهاً وتدليساً ، وبالشرك استهزاء وخداعاً ، ولذلك أنزل فيهم : ( إِنَّ المنافقين فِي الدرك الأسفل مِنَ النار ) ووصف حال الذين كفروا في آيتين ووصف حال الذين نافقوا في ثلاث عشرة آية ، نعى عليهم فيها خبثهم ، ومكرهم وفضحهم ، وسفههم ، واستجهلهم ، واستهزأ بهم ، وتهكم بفعلهم ، وسجل طغيانهم ، ودعاهم صماً بكماً عمياً ، وضرب لهم الأمثال الشنيعة وقصة المنافقين عن آخرها معطوفة على قصة الذين كفروا ، كما تعطف الجملة على الجملة " .والناس : اسم لجماعة الإنس : قال القرطبي : " واختلف النحاة في لفظ الناس فقيل : هو من أسماء الجموع ، جمع إنسان وإنسانه على غير اللفظ : وتصغيره نويس ، فالناس من النوس وهو الحركة ، يقال : ناس ، ينوس أي ، تحرك . وقيل : أصله نسى ، فأصل ناس نسى ، قلب فصار نيس ، تحركت الياء وانفتح ما قبلها فانقلبت ألفاً ، ثم دخلت الألف واللام فقيل : الناس ، قال ابن عباس : نسى آدم عهد الله فسمى إنساناً . وقيل : سمى إنساناً لأنسه بربه قال الشاعر :وما سمى الإنسان إلا لأنسه ... ولا القلب إلا أنه ، يتقلب واليوم الآخر : هو اليوم الذي يبتدئ بالبعث ولا ينقطع أبداً ، وقد يراد منه اليوم الذي يبتدئ بالبعث وينتهي باستقرار أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار .وقال القرآن في شأن المنافقين ( وَمِنَ النَّاسِ ) مجرداً إياهم من الوصفين السابقين ، وصف الإيمان ووصف الكفر ، لأنهم لم يكونوا بحسب ظاهر الأمر مع الكافرين ، ولا بحسب باطنه مع المؤمنين ، لذا عبر عنهم بالناس لينطبق التعبير على ما حاولوه لأنفسهم من أنهم لا هم مؤمنون ولا هم كافرون وفي ذلك مبالغة في الحط من شأنهم فهم لم يخرجوا عن كونهم ناساً فقط ، دون أن يصلوا بأوصافهم إلى أهل اليمين أو إلى أهل الشمال الصرحاء في كفرهم ، بل بقوا في منحدر من الأرض ، لا يمر بهم سالك الطريق المستقيم ولا سالك المعوج من الطرق .وعبر القرآن بلفظ ( يَقُولُ آمَنَّا ) ليفيد أنه مجرد قول باللسان ، لا أثر له في القلوب ، وإنما هم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم .وحكى القرآن عن هؤلاء المنافقين أنهم اقتصروا في إظهار الإيمان على ذكر الإيمان بالله واليوم الآخر ، ليزيدوا في التمويه على المؤمنين بإدعاء أنهم أحاطوا بالإيمان من طرفيه ، لأن من يؤمن بالله واليوم الآخر ، استجابة لدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم فإن من شأنه أن يكون - أيضا - مؤمناً برسل الله وملائكته وكتبه .وقد كذبهم الله - تعالى - في دعواهم الإيمان ، فقال :( وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ) .فهذه الجملة الكريمة رد لما ادعوه من الإيمان ، ونفى له على أبلغ وجه ، إذ جاء النفي مؤكداً بالباء في قوله ( بِمُؤْمِنِينَ ) . ثم إن الجملة نفت عنهم الإيمان على سبيل الإطلاق ، فهم ليسوا بمؤمنين لا بالله ولا باليوم الآخر ، ولا بكتب الله ولا برسله ولا بملائكته .ثم بين - سبحانه - الدوافع التي دفعتهم إلى أن يقولوا ( آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ) : فقال

يخادعون الله والذين امنوا وما يخدعون الا انفسهم وما يشعرون

كما فسرها الوسيط ( يُخَادِعُونَ الله والذين آمَنُوا ) .والخدع في أصل اللغة : الإخفاء والإبهام ، يقال خدعه - كمنعه - خدعا ، ختله وأراد به مكروها من حيث لا يعلم؛ وأصله من خدع الضب حارسه إذ أظهر الإقبال عليه ثم خرج من باب آخر .وخداعهم لله - تعالى - معناه إظهارهم الإيمان وإبطانهم الكفر ليحقنوا دماءهم وأموالهم ، ويفوزوا بسهم من الغنائم ، وسمى فعلهم هذا خداعاً لله - تعالى - لأن صورته صورة الخداع ، فالجملة الكريمة مسوقة على أسلوب المشاكلة ، ولا يجوز حملها على الحقيقة ، لأنه - سبحانه - لا يخفى عليه صنع المنافقين؛ بل لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء . قال

تعالى - ( إِنَّ المنافقين يُخَادِعُونَ الله وَهُوَ خَادِعُهُمْ )أما
خداعهم للمؤمنين فمن مظاهره إظهارهم لهم أنهم إخوانهم في العقيدة وأنهم لا
يريدون لهم إلا الخير . بينما هم في الحقيقة يضمرون لهم إلا الخير . بينما
هم في الحقيقة يضمرون لهم العداوة ويتربصون بهم الدوائر .وجاءت الآية
الكريمة هكذا بدون عطف ، لأنها جواب سؤال نشأ من الآية السابقة ، إذ أن قول
المنافقين " آمنا " وما هم بمؤمنين ، يثير في نفس السامعين استفهاما عما
، يدعو هؤلاء لمثل تلك الحالة المضطربة والحياة القلقة المقامة على الكذب
فكان الجواب : إنهم يفعلون ذلك محاولين مخادعة المؤمنين ، جهلا منهم بصفات
خالقهم .وقال القرآن : ( يُخَادِعُونَ الله والذين آمَنُوا ) . ولم يذكر
مخادعتهم للرسول صلى الله عليه وسلم ، ولعل الحكمة في ذلك أن القرآن يعتبر
مخادعة لرسوله ، لأنه هو الذي بعثه إليهم ، وهو المبلغ عن الله أحكامه
وشرائعه . قال - تعالى - :( إِنَّ الذين يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا
يُبَايِعُونَ الله يَدُ الله فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ) وقال - تعالى ( مَّنْ
يُطِعِ الرسول فَقَدْ أَطَاعَ الله ) ثم بين - سبحانه - غفلتهم وغباءهم
فقال : ( وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ )
الأنفس : جمع نفس بمعنى ذات الشيء وحقيقته . وتطلق على الجوهر اللطيف الذي
- يكون به الحس والحركة والإدراك .ويشعرون : مضارع شعر بالشيء - كنصر وكرم
يقال : شعر بالشيء أي : فطن له ، ومنه الشاعر لفطنته ، لأنه يفطن لما لا
، يفطن له غيره من غريب المعاني ودقائقها .والشعور : العلم الحاصل بالحواس
ومنه مشاعر الإنسان أي : حواسه .والمعنى : أن هؤلاء المنافقين لم يخادعوا
الله لعلمه بما يسرون ، ولم يخادعوا المؤمنين لأن الله يدفع عنهم ضرر خداع
المنافقين ، وإنما يخدعون أنفسهم لأن ضرر المخادعة عائد عليهم ولكنهم لا
يشعرون بذلك . لأن ظلام الغي خالط قلوبهم ، فجعلهم عديمي الشعور ، فاقدى
الحس .وأتى بجملة " وما يخدعون إلا أنفسهم " بأسلوب القصر مع أن خداعهم
للمؤمنين قد ينالهم بسببه ضرر ، لأن أولئك المنافقين سيصيبهم عذاب شديد
بسبب ذلك ، أما المؤمنون فحتى لو نالهم ضرر فلهم عند الله ثوابه .ونفى عنهم
الشعور مع سلامة مشاعرهم ، لأنهم لم ينتفعوا من نعمتها ، ولم يستعملوها
. فيما خلقت له ، فكانوا كالفاقدين لها

في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب اليم بما كانوا يكذبون

: كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - العلة في خداعهم لله وللمؤمنين فقال
والمرض : العلة في البدن ونقيضه الصحة ، وقد. ( فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ )
يستعمل على وجه الاستعارة فيما يعرض للمرء فيخل بكمال نفسه ، كسوء العقيدة
والحسد ، والبغضاء والنفاق ، وهو المراد هنا .وسمي ما هم فيه من نفاق وكفر
مرضا ، لكونه مانعا لهم من إدراك الفضائل . كما أن مرض الأبدان يمنعها من
التصرف الكامل .وجعل القرآن قلوبهم ظرفا للمرض ، للإشعار بأنه تمكن منها
تمكناً شديداً كما يتمكن الظرف من المظروف فيه .ثم أخبر - سبحانه - بأنهم
بسبب سوء أعمالهم قد زادهم الله ضلالا وخسراً فقال : ( فَزَادَهُمُ الله
مَرَضاً ) .لأنهم استمروا في نفاقهم وشكهم ، ومن سنة الله أن المريض إذا لم
يعالج مرضه زاد لا محالة مرضه ، إذ المرض ينشئ المرض ، والانحراف يبدأ
يسيراً ثم تنفرج الزاوية في كل خطوة وتزداد .والمعنى : أن هؤلاء المنافقين
قد زادهم رجساً على رجسهم ، ومرضا على مرضهم ، وحسدا على حسدهم ، لأنهم
عموا وصموا عن الحق ، ولأنهم كانوا يحزنون لأي نعمة تنزل بالمؤمنين . كما
قال - تعالى : ( إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ
) : سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ) ثم بين - سبحانه - سوء عاقبتهم فقال
: وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ) .( أَلِيمٌ ) أي
، مؤلم وموجع وجعاً شديدا . من ألم - كفرح - فهو ألم ، وآلمه يؤلمه إيلاما
أي : أوجعه إيجاعاً شديدا .والكذب : الإخبار عن الشيء بخلاف الواقع . ولقد
كان المنافقون كاذبين في قولهم " آمنا بالله وباليوم الآخر " وهم غير
مؤمنين ، وجعلت الآية الكريمة العذاب الأليم مرتبا على كذبهم مع أنهم كفرة
والكفر أكبر معصية من الكذب ، للإشعار بقبح الكذب ، وللتنفير منه بأبلغ ،
وجه ، فهؤلاء المنافقون قد جمعوا الخستين ، الكفر الذي توعد الله مرتكبه
بالعذاب العظيم ، والكذب الذي توعد الله مقترفه بالعقاب الأليم .وعبر بقوله
: ( كَانُوا يَكْذِبُون ) ، لإفادة تجدد الكذب وحدوثه منهم حيناً بعد حين
. وأن هذه الصفة هي أخص صفاتهم ، وأبرز جرائمهم

واذا قيل لهم لا تفسدوا في الارض قالوا انما نحن مصلحون

كما فسرها الوسيط ثم وصفهم الله - تعالى - بعد ذلك بجملة من الرذائل
والقبائح مضافة إلى قبائحهم السابقة فقال :( وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ
تُفْسِدُواْ فِي الأرض قالوا . . . ) .الفساد : خروج الشيء عن حالة
الاعتدال والاستقامة ، وعن كونه منتفعاً به ، وضده الصلاح ، يقال : فسد
الشيء فساداً ، وأفسده إفساداً .والمراد به هنا كفرهم ، ومعاصيهم ، ومن كفر

بالله وانتهك محارمه فقد أفسد في الأرض ، لأن الأرض لا تصلح إلا بالتوحيد والطاعة .ومن أبرز معاصي هؤلاء المنافقين ، ما كانوا يدعون إليه في السر من تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم وإلقاء الشبه في طريق دعوته ، والتحالف مع المشركين ضد المسلمين كلما وجدوا إلى ذلك سبيلا .وسلك القرآن هذا الأسلوب فقال : ( وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ) بالبناء للمفعول دون أن يسند الفعل إلى ، فاعله ، لأن مصدر القول المعبر عن النهي عن الإفساد ليس مصدراً واحداً فقد يصل آذانهم هذا النهي مرة من صريح القول . وأخرى مما كانوا يقابلون به من ناحية الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه من تجهم وإعراض .وعلق بالفعل الذي هو الإفساد قوله : ( فِي الأرض ) إيذاناً بأن الإفساد مهما ضاقت حدوده ، فإنه لابد يوماً أن يتعدى الحدود إلى ما وراء ذلك فقد يعم ويشمل إذا لم يشتد في الاحتياط له ، لذلك جعل ظرف إفسادهم الأرض كلها مع أنهم موجودون في بقعة محصورة هي المدينة المنورة .ولقد حكى القرآن جوابهم على نصيحة الناصحين وما فيه من تبجح وادعاء فقال :( قالوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ) .فقد بالغوا في الرد فحصروا أنفسهم أولاً في الإصلاح مبالغة المفجوع الذي أذهلته المفاجأة بكشف أستار حقيقة ، فتراهم لم يقتصروا على أن يقولوا : ( إِنَّا مُصْلِحُونَ ) بل قالوا " إنما " ثم أكدوا الجملة بكونها اسمية ليدلوا بذلك على أن شأنهم في الإصلاح ثابت لازم .قال الراغب : صوروا ) : - إفسادهم بصورة الإصلاح لما في قلوبهم من المر ، كما في قوله - تعالى أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سواء عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً ) وقوله : ( وَزَيَّنَ لَهُمُ الشيطان مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ) وقوله : ( قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بالأخسرين أَعْمَالاً . الذين ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحياة الدنيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ) ولقد كذبهم الله - تعالى - تكذيباً مؤكداً في دعواهم أنهم مصلحون فقال :

الا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون

كما فسرها الوسيط ( ألا إِنَّهُمْ هُمُ المفسدون ولكن لاَّ يَشْعُرُونَ ) فأنت ترى أن القرآن الكريم قد وضع في الرد عليهم جملة صدرها بأداة الاستفتاح إيذاناً بأن ما قالوه يجب أن يهمل إهمالاً ، بل يجب أن يكون ، وصفهم بالإفساد قضية مبتدأة مقررة حتى يتلقاها السامع وهو منتبه النفس حاضر الذهن .ثم أكد الجملة بعدة تأكيدات منها : وصل " ألا " " بإن " الدالة على تأكيد الخبر وتحقيقه ، ومنها تأكيد الضمير بضمير منفصل حتى يتم التصاق الخبر بالمبتدأ ، ومنها اسمية الجملة ، ومنها إفادة قصرهم على الإفساد في مقابل تأكيدهم أنهم هم المصلحون .ولما كان هذا الرد المؤكد عليهم يستدعي عجباً ، لأنهم زعموا أنهم لا حال لهم إلا الاصلاح ، مع أنهم في الحقيقة لا حال لهم إلا الإفساد ، لما كان الأمر كذلك ، فقد أزال القرآن هذا العجب بقوله :( ولكن لاَّ يَشْعُرُونَ ) .أي : أنهم ما قالوه إلا عن غباء استولى على إحساسهم ، ونفي عنهم الشعور بما يصدر عنهم من الفساد ، فأمسوا لا يدركون من شأن أنفسهم شيئاً ، ومن أسوأ ألوان الجهل أن يكون الإنسان مفسداً ولا يشعر بذلك ، مع أن أثر فساده ظاهر في العيان ، مرئى لكل ذي حس فعدم شعورهم بالفساد الواقع منهم منبئ باختلاف آلات إدراكهم ، حتى صاروا ، يحسبون الفساد صلاحاً ، والشر خيراً .وليس عدم شعورهم رافعاً العقاب عنهم لأن الجاهل لا يعذر بجهله خصوصاً إذا كان جهله يزول بأدنى تأمل لوضوح الأدلة ، وسطوع البراهين .

واذا قيل لهم امنوا كما امن الناس قالوا انؤمن كما امن السفهاء الا انهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون

كما فسرها الوسيط ثم بين القرآن أن الناصحين قد أمروهم بالمعروف بعد أن نهوهم عن المنكر فقال :( وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ كَمَآ آمَنَ الناس ( قالوا أَنُؤْمِنُ كَمَآ آمَنَ السفهآء ألا إِنَّهُمْ هُمُ السفهآء المراد من الناس : المؤمنون بالرسول صلى الله عليه وسلم الصادقون في إيمانهم .السفهاء : جمع سفيه ، وأصل السفه : الخفة والرقة والتحرك والاضطراب يقال : ثوب سفيه ، إذا كان رديء النسج خفيفه ، أو كان بالياً رقيقاً . وتسفهت الريح الشجر . أي : مالت به . وزمام سفيه : كثير الاضطراب لمنازعة الناقة إياه ، وشاع في خفة العقل وضعف الرأي .وهو المعنى المقصود ، بالسفهاء في الآية . فقد كان المنافقون يصفون المسلمين بذلك فيما بينهم !وروى أنهم كانوا يقولون : أنؤمن كما آمن سفيه بني فلان ، وسفيه بني فلان؟ فأوحى الله للنبي صلى الله عليه وسلم بهذا الذي كانوا يقولونه .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم وصفوهم بالسفه وهم العقلاء المراجيح؟ قلت لأن المنافقين لجهلهم وإخلالهم بالنظر ، اعتقدوا أن ما هم فيه هو الحق ، وأن ما عداه باطل ، ومن ركب متن الباطل كان سفيهاً ، ولأنهم كانوا في رياسة من قومهم ويسار ، وكان أكثر المؤمنين فقراء ومنهم موال كصهيب وبلال وخباب ، فدعوهم سفهاء تحقيراً لشأنهم اه ملخصاً .وقد رد الله عليهم بما يكبتهم

ويفضحهم فقال :( ألا إِنَّهُمْ هُمُ السفهآء ولكن لاَّ يَعْلَمُونَ ) لأنهم أعرضوا عن النظر في الدليل وباعوا آخرتهم بدنياهم ، وهذا أقصى ما يبلغه الإنسان من سفه العقل .وقد تضمن هذا الرد تسفيههم وتكذيبهم في دعوى سفه الصادقين في إيمانهم ، فإن قوله - تعالى - ( ألا إِنَّهُمْ هُمُ السفهآء ) يفيد أن السفه مقصور عليهم فلا يتجاوزهم إلى المؤمنين ، وقد تضمنت هذه الجملة من المؤكدات ما تضمنته الجملة السابقة في قوله تعالى - ( ألا " إِنَّهُمْ هُمُ المفسدون ) .وإنما قال في الآية السابقة " ولكن لا يشعرون وقال في هذه الآية ( ولكن لاَّ يَعْلَمُونَ ) لأن الآية السابقة وصفتهم بالإفساد ، وهو من المحسوسات التي تدرك بأدنى نظر فيناسبه نفى الشعور الذي هو الإدراك بالمشاعر : الحواس ، أما هذه الآية فقد وصفتهم بالسفه ، وهو ضعف الرأي والجهل بالأمور ، وهذا لا يدركه الشخص في نفسه إلا بعد نظر وإمعان فكر . فيناسبه نفي العلم .ثم بين القرآن ما هم عليه من سلوك ذميم ، وأنهم يقابلون الناس بوجوه مختلفة فقال :( وَإِذَا لَقُواْ الذين آمَنُواْ قالوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ ( . . .

واذا لقوا الذين امنوا قالوا امنا واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزئون

كما فسرها الوسيط ( وَإِذَا لَقُواْ الذين آمَنُواْ ) يقال ولاقيته إذا استقبلته وصادفته وكان قريباً منك . والمصدر اللقاء واللقى واللقية . والمقصود : استقبلوهم وكانوا في مواجهتهم وقريبا منهم . ومرادهم بقولهم " آمنا " أخلصنا الإيمان بقلوبنا لأن الإقرار باللسان معلوم منهم .وإذا خلوا إلى شياطينهم ، أي : انفردوا مع رؤسائهم وقادتهم المشبهين الشياطين في تمردهم وعنوهم وصدهم عن سبيل الحق . يقال : خلابه وإليه ومعه ، خلوا وخلاء وخلوة : سأله أن يجتمع به في خلوة ففعل وأخلاه معه .أو المعنى : وإذا مضوا وذهبوا إلى شياطينهم ، يقال : خلا بمعنى مضى وذهب ، ومنه قوله تعالى ( قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ) أي مضت .وعبر عن حالهم مع المؤمنين بالملاقاة ، وعن حالهم مع الشياطين بالخلوة إيذانا بأن هؤلاء المنافقين لا أنس لهم بالمؤمنين ، ولا طمأنينة منهم إليهم فهم لا يجالسونهم ولا يسامرونهم ، وإنما كل ما هنالك أن يلقوهم في عرض طريق ، أما شأنهم مع شياطينهم فهم إليهم يركنون ، وإليهم يتسامرون ويتحادثون ، لذلك هم بهم يخلون .والمعية في قولهم ( إِنَّا مَعَكُمْ ) ليزيلوا ما قد يجري في خاطراهم من أنهم فارقوا دينهم وانقلبوا إلى دين الإسلام بقلوبهم .ولم يؤكدوا ما خاطبوا به المؤمنين ، إذ قالوا لهم ( آمَنَّا ) ولم يقولوا " إنا آمنا " ليوهموهم أنهم بمرتبة لا ينبغي أن يترددوا في إيمانهم حتى يحتاجوا إلى تأكيد .وقوله - تعالى - حكاية عنهم : ( إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ) . وارد مورد الجواب عما قد يعترض به عليهم شياطينهم إذا قالوا لهم : كيف تدعون أنكم معنا مع أنكم توافقون المؤمنين في عقيدتهم وتشاركونهم في مظاهر دينهم؟فكان جوابهم عليهم ( إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ) والاستهزاء : السخرية والاستخفاف بالغير يقال : هزأ منه وبه - كمنع وسمع - واستهزأ به ، أي : سخر .والمعنى : إننا ، نظهر للمؤمنين الموافقة على دينهم استخفافا بهم وسخرية منهم ، لا أن ذلك صادر منا عن صدق وإخلاص .

الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - موقفه منهم فقال : ( الله يَسْتَهْزِىءُ ) .حمل بعض العلماء استهزاء الله بهم على الحقيقة وإن لم يكن من أسمائه المستهزئ ، لأن معناه يحتقرهم على وجه شأنه أن يتعجب منه ، وهذا المعنى غير مستحيل على الله ، فيصح إسناده إليه - تعالى - على وجه الحقيقة ويرى جمهور العلماء أن الاستهزاء لا ينفك عن التلبيس كأن يظهر المستهزئ. استحسان الشيء وهو في الواقع غير حسن ، أو يقر المستهزأ به على أمر غير صواب ، وهذا المعنى لا يليق بجلال الله ، فيجب حمل الاستهزاء المسند إليه تعالى على معنى يليق بجلاله ، فيحمل على ما يلزم على الاستهزاء من الانتقام والعقوبة والجزاء المقابل لاستهزائهم ، وسمى ذلك استهزاء على سبيل المشاكلة كما في قوله تعالى :( وَجَزَآءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ) وهذا دليل على غيرة الله على عباده المؤمنين ، وانتقامه من كل من يستهزئ بهم أو يؤذيهم .وعبر بالمضارع في قوله ( يَسْتَهْزِىءُ ) للإيذان بأن احتقاره لهم - أو مجازاتهم على استهزائهم يتجدد ويقع المرة بعد الأخرى :ثم بين ، سبحانه - لونا آخر من ألوان غضبه عليهم فقال : ( وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ) .المد : الإمهال والمطاولة والزيادة ، من المد : بمعنى الإمهال ، يقال : مده في غيه - من باب رد - أمهله وطول له ، ويقال مد الجيش وأمده إذا ألحق به ما يقويه ويكثره ويزيده ، وقيل : أكثر ما ، يستعمل المد في المكروه ، والإمداد في المحبوب ، والطغيان : مجاوزة الحد

ومنه طغا الماء ، أي : ارتفع .ويعمهون : يعمون عن الرشد ، أو يتحيرون ويترددون بين الإظهار والإخفاء ، أو بين البقاء على الكفر وتركه إلى الإيمان . يقال : عمه - كفرح ومنع - عمها ، إذا تردد وتحير ، فهو عمه وعامه ، وهم عمهون وعمه كركع والمعنى : أن الله تعالى يجازي هؤلاء المنافقين على استهزائهم وخداعهم ، ويمكنهم من المعاصي أو يملي لهم ليزدادوا إثماً . حال كونهم يعمون عن الرشد ، فلا يبصرون الحق حقاً ولا الباطل باطلا .

اولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - لونا من ألوان غبائهم وبلادتهم فقال : الاشتراء : أخذ السلعة بالثمن. ( أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ) . والمراد : أنهم استبدلوا ما كره الله من الضلالة بما أحبه من الهدى قال ابن عباس : أخذوا الضلالة وتركوا الهدى .والمشار إليه ب " أولئك " هم المنافقون ، الموصوفون في الآيات السابقة بالكذب والمخادعة ، والإفساد في الأرض : ورمى المؤمنين بالسفاهة واستهزائهم بهم .والسر في الإشارة والتعبير عنهم بأولئك تمييزهم وتوضيحهم بأكمل صورة وأجلى بيان إذ من المعروف عند علماء البلاغة أن اسم الإشارة إذا أشير به إلى أشخاص وصفوا بصفات يلاحظ فيه تلك الصفات ، فهو بمنزلة إعادة ذكرها وإحضارها في أذهان المخاطبي . فتكون تلك الصفات ، وهي هنا الكذب والمخادعة وما عطف عليها ، كأنها ذكرت في هذه الآية مرة أخرى ليعرف بها علة الحكم الوادر بعد اسم الإشارة ، وهو هنا اشتراء الضلالة بالهدى . أي : اختيارها . واستبدالها به .وعبرت الآية بالاشتراء ، على سبيل الاستعارة ليتحدد مقدار رغبتهم في الضلالة ، وزهدهم في الهدى فإن المشتري في العادة يكون شديد الرغبة فيما يشتري ، رغبة تجعله شديد الزهد فيما يبذله من ثمن . فهم راغبون في الضلالة ، زاهدون في الهدى .وقوله تعالى : ( أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ) لا يقتضي أنهم كانوا على هدى من ربهم فتركوه ، بل يكفي فيه أن يجعل تمكنهم من الهدى لقيام أدلته بمنزلة الهدى الحاصل بالفعل .ثم بين سبحانه نتيجة أخذه الضلالة وتركهم الهدى فقال :( فَمَا رَبِحَتْ تِّجَارَتُهُمْ ) أي : أنهم لم يحصلوا من اشترائهم الضلالة بالهدى على الربح ، وإذا كانت التجارة الحقيقة قد يفوت صاحبها الربح ، ولكنه لا يقع في خسارة بأن يبقى له رأس ماله محفوظاً ، فإن التجارة المقصودة من الآية هي استبدال الضلالة بالهدى ، لا يقابل الربح فيها إلا الخسران ، فإذا نفى عنها الربح فذلك يعني أنها تجارة خاسرة .ثم قال - تعالى - : ( وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ) أي : وما كانوا مهتدين إلى سبيل الرشاد وما تتجه إليه العقول الراجحة من الدين الحق ، وما كانوا مهتدين إلى طرق التجارة الرابحة ، فهم أولا لم يربحوا في تجارتهم بل خسروها وهم ثانياً ذهب نور الهدى من حولهم فبقوا في ظلمة الضلال .وما أوجع أن ، يجتمع على التاجر خسارته وتورطه ، وما أوجع أن يجتمع عليه أن ينقطع عن غايته ، وأن يكون في ظلمة تعوقه عن التبصر .

مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما اضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون

كما فسرها الوسيط وبعد أن وصف الله تعالى حال المنافقين في الآيات السابقة ): ساق مثلين لتوضيح سوء تصرفهم ، وشدة حيرتهم واضطرابهم . فقال تعالى ، ) : مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الذي استوقد نَاراً . . . . )قوله تعالى مَثَلُهُمْ ) أي : صفتهم ، وأصل المثل بمعنى المثل - بكسر الميم وسكون الثاء - والمثل النظير والشبيه ، ثم أطلق على القول السائر المعروف لمماثلة مضربه - وهو الذي يضرب فيه - لمورده الذي ورد فيه أولا ، ولا يكون إلا فيما فيه غرابة ثم استعير للصفة أو الحال أو القصة إذا كان لها شان عجيب وفيها غرابة ، وعلى هذا المعنى يحمل المثل في هذه الآية ، وإنما تضرب الأمثال لإيضاح المعنى الخفي وتقريب المعقول من المحسوس ، وعرض الغائب في صورة الشاهد ، فيكون المعنى الذي ضرب له المثل أوقع في القلوب ، وأثبت في النفوس واستوقد النار : طلب وقودها بسطوع نارها واندلاع لهيبا ، أو أوقدها لأن. أوقد واستوقد قد يكونان بمعنى واحد كأجاب واستجاب .والنار : جوهر لطيف حار محرق من نار ينور إذا نفر لحركتها واضطرابها ، وأضاءت ما حوله ، جعلت ما حوله مضئياً ، أو أشرقت فيما حوله . وحول الشيء : ما يحيط به من جميع : نواحيه ، ولذا قيل للعام حول ، للفه ودورانه حتى يعود كما كان .والنور الضوء الذي يكون للشيء المضيء ، وهو مأخوذ من النار .ومعنى : ( ذَهَبَ الله بِنُورِهِمْ ) سلبه منهم ، وفي إسناد ذهب إلى الله تعالى - إشعار بأن النور الذي سلب عنهم لن يستطيع أحد أن يرده عليهم ، لأن الذي سلبه عنهم إنما هو الله الغالب على أمره .وقال ( بِنُورِهِمْ ) ولم يقل بنارهم ، لأن إيقاد النار يكون للإضاءة وللإحراق والمقصود من إيقاد النار الواردة في المثل إنما هو الإضاءة .وقال ( بِنُورِهِمْ ) ولم يقل بنوره ، مع أن الضمير يعود

وهو بحسب الظاهر مفرد ، لأن ( الذي ) قد يطلق أحيانا قد ( الذي استوقد ) يطلق بمعنى الذين ، كما في قوله تعالى : ( وَخُضْتُمْ كالذي خاضوا ) أو لأن أريد منه جنس المستوقد ، لا مستوقد بعينه ، فصار في معنى جماعة من ( الذي ) المستوقدين . وصح أن يعود عليه ضمير الجمع في قوله ( بِنُورِهِمْ ) لذلك وأورد الظلمات بصيغة الجمع للمبالغة في شدتها ، فكأنها لشدة كثافتها ظلمات. بعضها فوق بعض ، وأكد هذا بقوله ( لاَّ يُبْصِرُونَ ) أي : أن هذه الظلمات بالغة في الشدة حتى أولئك المحاطين بها لا يتأتى لهم أن يبصروا ، كما أن ) : الشان كذلك بالنسبة للذين طمس على أعينهم .وعبر - سبحانه - بقوله وَتَرَكَهُمْ ) ولم يقل : ذهب بنورهم وبقوا في ظلمات ، ليدل بذلك على قطع ، الصلة بينهم وبين ربهم ، وأنهم متروكون غضباً عليهم ونكاية بهم .هذا وللعلماء رأيان في تطبيق هذا المثل على المنافقين ، أما الرأي الأول فيرى أصحابه ، أن هذا المثل قد ضرب في قوم دخلوا في الإسلام عند وصول النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، ثم تحولوا بعد ذلك إلى الكفر والنفاق فيقال في تطبيق هذا المثل عليهم : إن قصة هؤلاء المنافقين الذين اكتسبوا بإيمانهم نوراً ، ثم أبطلوا ذلك بنفاقهم ، ووقعوا في حيرة عظيمة ، كقصة من استوقدوا ناراً؛ فلما أضاءت ما حولهم ، سلب الله منهم الضوء فراحوا في ظلام لا يهتدون إلى الخروج منه سبيلا .وأما الرأي الثاني فيرى أصحابه أن هذا المثل إنما ضرب في قوم لم يسبق لهم إيمان وإنما دخلوا في الإسلام من أول أمرهم نفاقاً ، فيقال في تطبيق هذا المثل عليهم : إن قصة هؤلاء الذين دخلوا في الإسلام نفاقاً ، فظفروا بحقن دمائهم وبغنائم الجهاد وسائر أحكام المسلمين وتمتعوا بذلك في الدنيا قليلا ثم صاروا إلى ظلمات العذاب الدائم في ، الآخرة - قصة هؤلاء كقصة من استوقدوا نارا لتضيء لهم وينتفعوا بها ، فأضاءت ما حولهم قليلا ، ثم طفئت وصاروا إلى ظلمة شديدة مطبقة .

صم بكم عمي فهم لا يرجعون

كما فسرها الوسيط ثم قال - تعالى - : ( صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ ) .قال القرطبي : والصمم في كلام العرب : الانسداد ، يقال : قناة صماء إذا لم تكن مجوفة ، وصممت القارورة إذا سددتها ، فالأصم من انسدت خروق مسامعه . والأبكم الذي لا ينطق ولا يفهم ، والعمى ذهاب البصر . وليس الغرض مما ذكرناه نفي الإدراكات عن حواسهم جملة ، وإنما الغرض نفيها من جهة ما .والآية الكريمة خبر لضمير مقدر يعود على المنافقين ، أي : هم صم ، بكم عمى .ووصف المنافقون بهذه الصفات لأنهم وإن كانت لهم آذان تسمع وألسنة تنطق ، وأعين تبصر ، إلا أنهم لا يسمعون خيراً . ولا يتكلمون بما ينفعهم ولا يبصرون سملكا من مسالك الهداية ، ومن كان كذلك كان هو ومن فقد حواسه سواء ، فقد صرف الله عنهم عنايته ووكلهم إلى أنفسهم .ووردت هذه الصفات مجردة من حرف العطف ، فلم يقل : صم وبكم وعمى ، لما عرف من استعمالات البلغاء . أن تجريد أمثال هذه الأوصاف من حرف العطف يفيد تأكيدها حيث إن المتكلم قد قصد إلى تقرير كل صفة منها على حدة .ومعنى ( فَهُمْ ، لاَ يَرْجِعُونَ )لا يعودون إلى الهدى بعد أن باعوه ، أو لا يرجعون عن الضلالة بعد أن اشتروها .والفاء في قوله - تعالى - ( فَهُمْ ) للتفريع أو التسبيب ، لأنها توحى بأن عدم رجوعهم عما هم فيه من النفاق متفرع على تلك الآفات ، ومسبب عن هذه العاهات .

او كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون اصابعهم في اذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - المثل الثاني فقال : ( أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السمآء فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ) ." أو " للتسوية بين الشيئين وهي مفيدة أن التمثيل بأيهما أو بمجموعهما يؤدى إلى المقصود ، فهي مانعة خلو مجوزة للجمع بينهما .و ( الصيب ) - كسيد - المطر ، من الصوب وهو النزول . يقال : صاب صوباً ، إذا نزل أو انحدر ، سمى به المطر لنزوله ، وفي الجملة الكريمة إيجاز بحذف ما دل عليه المقام دلالة واضحة .والتقدير : أو كمثل ذوي صيب . والمعنى أن قصة هؤلاء المنافقين مشبهة بقصة الذي استوقد ناراً ، أو بقصة ذوي صيب .والسماء : كل ما علاك من سقف ونحوه ، والمراد بها السحاب .والرعد : الصوت الذي يسمع بسبب اصطدام سحابتين محملتين بشحنتين كهربيتين أحداهما موجبة والأخرى سالبة .والبرق : هو الضوء الذي يحدث بسبب : الاصطدام ذاته .وإيراد هذه الألفاز بصفة التنكير للتهويل ، ويكون المعنى أو أن مثل هؤلاء المنافقين كمثل قوم نزل بهم المطر من السماء تصحبه ظلمات كأنها سواد الليل ، ورعد بصم الآذان ، وبرق يخطف الأبصار؛ وصواعق تحرق ما تصيبه .ثم قال - تعالى - : ( يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ في آذَانِهِم مِّنَ الصواعق حَذَرَ الموتِ ) .الصواعق : جمع صاعقة من الصعق وهو شدة الصوت الذي يصحبه - غالباً - قطعة من نار لا تأتي على شيء إلا أهلكته .( ومن ) في قوله - تعالى - : ( مِّنَ الصواعق ) للعليل . وإنما كانت الصواعق داعية إلى

سدهم آذانهم بأصابعهم ، من جهة أنها قد تفضى بصوتها لهائل إلى الموت ، وجاء
هذا مصرحا به في قوله - تعالى - ( حَذَرَ الموت ) يدل على أنهم لم يموتوا
من تلك المفزعات وهذه المروعات. إمدادا في عذابهم . ومطاولة في نكالهم
وقوله - تعالى - : ( والله مُحِيطٌ بالكافرين ) جملة معترضة في أثناء ضرب.
المثل بذوي الصيب .وإحاطته - سبحانه - بالكافرين على معنى أنهم لا مهرب لهم
منه ، فهو محيط بهم إحاطة تامة وهو قادر على النكال بهم متى شاء وكيف شاء
ولم يقل محيط بهم مع تقدم مرجع الضمير وهو أصحاب الصيب ، إيذاناً بأنهم.
إنما استحقوا ذلك العذاب بكفرهم .

يكاد البرق يخطف ابصارهم كلما اضاء لهم مشوا فيه واذا اظلم عليهم قاموا ولو
شاء الله لذهب بسمعهم وابصارهم ان الله على كل شيء قدير

كما فسرها الوسيط ثم قال - تعالى - : ( يَكَادُ البرق يَخْطَفُ
أَبْصَارَهُمْ ) .يكاد من الأفعال التي تدخل على اسم يسند إليه فعل بعده
نحو ( البرق يَخْطَفُ ) . فتدل على أن المسند إليه وهو البرق قد قارب أن
يقع منه الفعل وهو خطف الأبصار .والخطف : الأخذ بسرعة . والأبصار : جمع بصر
وهو قوة مودعة في العين يدرك بها الألوان والأشكال .والمعنى : أن البرق ،
، لشدة لمعانه يقرب من أن يخطف أبصارهم ، وهو تصوير بليغ الشدة ذلك البرق
وترك بيان شدة الرعد اكتفاء بما ذكره في جانب البرق ، ولم يذكر توقيهم
للأعين بوضع شيء عليها اكتفاء بما ذكره في توقي الآذان أو لأنهم شغلوا
بالآذان عن الأعين .وقوله - تعالى - : ( كُلَّمَا أَضَآءَ لَهُمْ مَّشَوْاْ
فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ ) وصف رائع لما يصنعه أهل
الصيب في حالتي ظهور البرق واختفائه .وكل ظرف ، وما مصدرية ولا تصالها بكل
) أفادت الشرط والعامل فيها هو جوابها وهو ( مَّشَوْاْ ) و ( أَضَآءَ ) و
أَظْلَمَ ) من الإظلام وهو اختفاء النور . ( قَامُواْ ) أي وقفوا وثبتوا
في مكانهم . من قام الماء إذا جمد . ويقال : قامت الدابة إذا وقفت .والمعنى
أنهم إذا صادفوا من البرق وميضاً انتهزوا ذلك الوميض فرصة ، فخطوا خطوات :
يسيرة ، وإذا خفى لمعانه وقفوا في مكانهم ، فالجملة الكريمة تدل على فرط
حرصهم على النجاة من شدة ما هم فيه من أهوال .ثم قال - تعالى - : ( وَلَوْ
شَآءَ الله لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ) .لو : أداة شرط ، وشاء
بمعنى أراد . أي : لو أراد الله أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لزاد في قصف الرعد
فأصمهم ، وفي ضوء البرق فاعماهم . أو يقال : إن قصف الرعد ولمعان البرق
المذكورين في المثل سببان كافيان لأن يذهبا بسمع ذوي الصيب وأبصارهم لو شاء
الله ذلك .فيكون قوله تعالى ( وَلَوْ شَآءَ الله لَذَهَبَ ) ، إشعاراً بأن
تأثير الأسباب في مسبباتها إنما هو بإرادته - تعالى - .وخص السمع والبصر
، بالذهاب مع أنها من جملة مشاعرهم ، لأهميتها . ولأنها هي التي سبق ذكرها
أو من باب التنبيه بالأعلى على الأدنى ، لأنه إذا كان قادراً على إذهاب ما
- حافظوا عليه ، كان قادراً على غيره من باب أولى .ثم ختم الآية بقوله
تعالى - ( إِنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ) .الشيء في أصل اللغة كل
ما يصح أن يعلم ويخبر عنه ، ويحمل في هذه الآية على الممكن خاصة موجوداً
كأن أو معدوماً ، لأن القدرة إنما تتعلق بالممكنات دون الواجب والمستحيل
والقدير : الفعال لما يريد ، يقال : قدره على الشيء أقدره قدرة وقدراً.
وهذه الجملة الكريمة بمنزلة الاستدلال على ما تضمنته الجملة السابقة من أن.
الله تعالى قادر على أن يذهب بأسماع أصحاب الصيب وأبصارهم متى شاء .وتطبيق
هذا المثل على المنافقين يقال فيه : إن أصحاب الصيب لضعفهم وخورهم لا
، يطيقون سماع الرعد الهائل ، ولا يستطيعون فتح أعينهم في البرق اللامع
فيجعلون أصابعهم في آذانهم فزعاً من قصف الرعد ، وخوفاً من صواعق تجلجل فوق
رءوسهم فتدعهم حصيداً خامدين ، وكذلك حال هؤلاء المنافقين فإنهم لضعف
بصائرهم ، وانطماس عقولهم ، تشتد عليهم زواجر القرآن ووعيده وتهديده
وأوامره ونواهيه ، فتشمئز قلوبهم ويصرفون عنه أسماعهم خشية أن تتلى عليهم
آيات تقع على أسماعهم وقع الصواعق المهلكة .قال ابن كثير : " وذهب ابن جرير
ومن تبعه من المفسرين إلى أن هذين المثلين مضروبان لصنف واحد من المنافقين
وتكون " أو " في قوله تعالى ( أَوْ كَصَيِّبٍ ) بمعنى الواو ، كقوله ،
، تعالى ( وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً ) أو تكون للتخيير
أي ، اضرب لهم مثلا بهذا وإن شئت بهذا ، أو للتساوى مثل : جالس الحسن أو
ابن سيرين . قلت : وهذا يكون باعتبار أجناس المنافقين ، فإنهم أصناف ولهم
أحوال وصفات كما ذكرها الله تعالى في سورة براءة بقوله : ( وَمِنْهُمْ مَّن
يَقُولُ ائذن لِّي ) ( وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ الله ) ( وَمِنْهُمْ مَّن
يَلْمِزُكَ فِي الصدقات ) الخ . فجعل هذين المثلين لصنفين منهم أشد مطابقة
. لأحوالهم وصفاتهم ."هذا ، ويرى فضيلة المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز
) أن المثلين لطائفتي الكافرين والمنافقين ، فالمثل الأول وهو قوله تعالى
مثلهم كمثل الذين استوقد ناراً ) ينطبق تمام الانطباق على الأوصاف التي
ذكرها الله للكافرين وأن الذي ينطبق على صفات المنافقين إنما هو المثل
الثاني وحده وهو قوله تعالى ( أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السمآء فِيهِ ظُلُمَاتٌ

وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ . . . ) فقد ضرب الله لكلتا الطائفتين مثلا يناسبها .قال
فضيلته : فضرب مثلا للمصرّين المختوم على قلوبهم بقوم كانوا يسيرون في ظلام
الليل فيهم رجل استوقد لهم ناراً يهتدون بضوئها ، فلما أضاءت ما حوله لم
، يفتح بعض القوم أعينهم لهذا الضوء الباهر ، بل لأمر ما سلبوا نور أبصارهم
وتعطلت سائر حواسهم عند هذه المفاجأة ، فذلك مثل النور الذي طلع به محمد
صلى الله عليه وسلم في تلك الأمة على فترة من الرسل ، فتفتحت له البصائر
المستنيرة هنا وهناك ، لكنه لم يوافق أهواء المستكبرين الذين ألفوا العيش
في ظلام الجاهلية ، فلم يرفعوا له رأساً بل نكسوا على رؤسهم ، ولم يفتحو له
عيناً بل خروا عليه صما وعمياناً .وضرب مثلا للمترددين المخادعين بقوم
جامتهم السماء بغيث منهمر في ليلة ذات رعد وبرق ، فأما الغيث فلم يلقوا له
. . بالا ولم ينالوا منه نيلا ، فلا شربوا منه قطرة ، ولا استنبتوا به ثمرة
وأما تلك التقلبات الجوية من الظلمات والرعد والبرق فكانت هي مثار اهتمامهم
، ومناط تفكيرهم ، ولذلك جعلوا يترصدونها ، ويدبرون أمورهم على وفقها ،
لابسين لكل حال لبوسها : سيراً تارة ، ووقوفاً تارة ، واختفاء تارة أخرى
فكانوا إذا رأوا عرضاً قريباً وسفراً قاصداً وبرقت لهم ( بروق ) الأمل في.
الغنيمة ساروا مع المؤمنين جنباً إلى جنب ، وإذا دارت رحا الحرب وانقضت
صواعقها منذرة بالموت والهزيمة أخذوا حذرهم وفروا من وجه العدو قائلين " إن
بيوتنا عورة " حتى إذا كانت الثالثة فلم يلمحوا من الآمال بارقة ولم
يتوقعوا من الآلام صاعقة ، بل اشتبهت عليهم الأمور فهناك يقفون متربصين لا
) يتقدمون ولا يتأخرون ، ولكن يلزمون شقة الحياد ريثما تنقشع سحابة الشك
فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ الله قالوا أَلَمْ نَكُنْ مَّعَكُمْ وَإِن
كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قالوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ
وَنَمْنَعْكُمْ مِّنَ المؤمنين فالله يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ القيامة
وَلَن يَجْعَلَ الله لِلْكَافِرِينَ عَلَى المؤمنين ) ذلك دأب المنافقين في
كل أمرهم ، إن توقعوا ربحاً عاجلاً التمسوه في أي صف وجدوه ، وإن توقعوا
أذى كذلك تنكروا للفئة التي ينالهم في سبيلها شيء مكروه؛ وإذا أظلم عليهم
الأمر قاموا بعيداً لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء؛ أما الذي يؤمن بالله
واليوم الآخر فإن له قبله واحدة يولي وجهه شطرها ، هي قبلة الحق لا يخشى
فيها لومة لائم :وليس يبالي حين يقتل مسلما ... على أي جنب كان في الله
مصرعهذا هو رأي فضيلة الدكتور دراز ، وهو رأي مستساغ يتمشى مع روح الآيات
وأهداف السورة ، وأياما كان فالمثلان يصوران أحوال المبطلين بصورة حسية
واضحة تتجلى فيها بلاغة القرآن الكريم في إبراز المعاني المعقولة في صورة
. محسة واضحة من شأنها أن تهدي الناس إلى طريق الحق والرشاد

يا ايها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون

، كما فسرها الوسيط وبعد أن بينت السورة الكريمة أقسام الناس الثلاثة
، وعاقبة كل قسم منهم ، ساقت لهم نداء عاماً دعتهم فيه إلى عبادة الله وحده
قال تعالى :( يَاأَيُّهَا الناس اعبدوا . . . )في هاتين الآيتين توجيه
للناس إلى الأمر الذي خلقوا من أجله وهو عبادة الله دون ما سواه ، وبيان
البراهين الساطعة التي تدل على وحدانية الله وعظيم قدرته .و " يا " حرف
نداء وهو أكثر حروف النداء استعمالا ، فهو أصل حروف النداء .و " أي " اسم
" مبهم لكن يزول إبهامه بالاسم المقصود بالنداء الذي يأتي بعده .و " ها
المتصلة به مؤكدة للتنبيه المستفاد من النداء .و " العبادة " الخضوع البالغ
الغاية .وقد كثر النداء في القرآن الكريم بهذه الطريقة لما فيها من التأكيد
الذي كثيراً ما يقتضيه المقام .وفي ذكره تعالى باسم الرب ، وإضافته إلى
المخاطبين ، تقوية لداعية إقبالهم على عبادته .فإن الإنسان إذا اتجه بفكره
إلى معنى كون الله مالكاً له ، أو مربياً له وتذكر ما يحفه به من رفق ، وما
يجود به عليه من إنعام ، لم يلبث أن يخصه بأقصى ما يستطيع من الخضوع
والخشوع والإجلال .وإفراد اسم الرب دل على أن المراد رب جميع الخلق وهو
الله تعالى ، إذ ليس ثمة رب يستحق هذا الاسم بالإفراد والإضافة إلى جميع
الناس إلا الله .ثم بين - سبحانه - الموجبات التي من شأنها أن تحملهم على
: عبادته وحده فقال ( الذي خَلَقَكُمْ والذين مِن قَبْلِكُمْ ) .والخلق
أصله الإيجاد على تقدير وتسوية ، ويطلق في القرآن وفي عرف الشريعة على
إيجاد الأشياء المعدومة ، فهو إخراجها من العدم إلى الوجود إخراجاً لا صنعة
فيه للبشر .والمعنى : اجعلوا أيها الناس عبادتكم لله تعالى وحده ، لأنه هو
الذي أوجدكم في أحسن تقويم بعد أن كنتم في عدم ، كما أوجد الذين تقدموكم
وقدم وصفه بخلق المخاطبين مع أنه متأخر بالزمان عن خلق من تقدموهم ، لأن.
) : علم الإنسان بأحوال نفسه أظهر من علمه بأحوال غيره .وقوله تعالى
والذين مِن قَبْلِكُمْ ) فيه رد على الدهريين من المخاطبين الذين يزعمون
أنهم إنما خلقهم آباؤهم فقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما
يهلكنا إلا الدهر .فكان قوله : ( والذين مِن قَبْلِكُمْ ) تذكيرا لهم بأن
" آباءهم الأولين لابد أن ينتهوا إلى أب أول قد خلقه الله تعالى .وجملة
" لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ " تعليل للأمر بالعبادة ، ولذلك فصلت .و " لعل

حرف موضوع ليدل على الترجي ، وهو توقع حصول الشيء عندما يحصل سببه وتنتفي موانعه . والشيء المتوقع حصوله في الآية هو التقوى وسببه العبادة ، إذ ، بالعبادة يستعد الإنسان لأن يبلغ درجة التقوى وهي الفوز بالهدى والفلاح والترجي قد يكون من جهة المتكلم وهو الشائع وقد تستعمل لعل في الكلام على ، أن يكون الترجي مصروفاً للمخاطب ، فيكون المترجي هو المخاطب لا المتكلم وعلى هذا الوجه يحمل الترجي في هذه الآية ، لاستحالة توقع حصول الشيء من عالم الغيب والشهادة ، لأن توقع الإنسان لحصول الشيء هو أن يكون متردداً بين الوقوع وعدمه مع رجحان الوقوع ، وعليه فيكون المعنى : اعبدوا ربكم راجين أن تكونوا من المتقين ، الذين بلغوا الغاية في الهدى والفلاح .

الذي جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء وانزل من السماء ماء فاخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله اندادا وانتم تعلمون

كما فسرها الوسيط ثم أضاف - سبحانه - أسباباً أخرى تحمل الناس على عبادته وطاعته فقال : ( الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرض فِرَاشاً ) .الفراش : ما يفترشه الإنسان ليستقر عليه بنحو الجلوس أو المنام . أي : اجعلوا عبادتكم لله الذي صير الأرض لأجلكم مهاداً كالبساط المفروش ، فذللها لكم ولم يجعلها ، صعبة غليظة ، لكي يتهيأ لكم الاستقرار عليها . والتقلب في مناكبها والانتفاع بما أودع الله في باطنها من خيرات .وتصوير الأرض بصورة الفراش لا ينافي كونها كروية ، لأن الكرة إذا عظمت جدا كانت القطعة منها كالسطح في إمكان الانتفاع بها .( والسماء بِنَآءً ) يقال لسقف البيت بناء أي : جعل - السماء كالسقف للأرض ، لأنها تظهر كالقبة المضروبة فوقها كما قال - تعالى وَجَعَلْنَا السمآء سَقْفاً مَّحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا ) مُعْرِضُونَ ) وقدم خلق الأرض على خلق السماء لأن الأرض أقرب إلى المخاطبين وانتفاعهم بها أظهر وأكثر من انتفاعهم بالسماء .قال بعض الأدباء : " إذا ، تأملت هذا العالم وجدته كالبيت المعد فيه كل ما يحتاج إليه فالسماء مرفوعة كالسقف ، والأرض ممدودة كالبساط ، والنجوم منورة كالمصابيح ، والإنسان كما لك البيت المتصرف فيه وضروب النبات مهيأة لمنافعه ، وضروب الحياة مصروفة لمصالحه " فهذه جملة واضحة داله على أن العالم مخلوق بتدبير كامل ، وتقدير شامل ، وحكمة بالغة ، وقدرة غير متناهية " .ثم قال - تعالى - ( وَأنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثمرات رِزْقاً لَّكُمْ ) :السماء . السحاب ، والثمرات : ما ينتجه الشجر . والرزق : ما يصلح لأن ينتفع به : ، والباء في . ( به ) للسببية .أي : أنه جعل الماء سبباً في خروج الثمرة ) وهو القادر على أن ينشئها بلا سبب كما أنشأ الأسباب .وأورد ( مَآءً ) و رِزْقاً ) في صيغة التنكير التي تستعمل عند إرادة بعض أفراد المعنى الذي وضع له اللفظ لغة ، وذلك لأن من الماء ما لم ينزل من السماء ، ومن الرزق ما ، لا يكون من الثمرات . فمعنى الجملة الكريمة : أنزل من السماء بعض الماء فأخرج به من الثمرات بعض ما يكون رزقاً لكم .ثم قال - تعالى - ( فَلاَ تَجْعَلُواْ للَّهِ أَندَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ) .الأنداد : جمع ند وهو مثل الشيء الذي يضاده وينافره ويتباعد عنه .وأصله من : ند البعير يند ، ندا ونداداً وندا ، إذا تفرد وذهب على وجهه شارداً .والمعنى : فلا تجعلوا ، لله أمثالاً ونظراء تعبدونها وتسمونها آلهة ، وتعتقدون فيها النفع والضر وتجعلون لها ما لله تعالى وحده ، وأنتم تعلمون أنها أشياء لا يصح جعلها أنداداً مساوية له تعالى ( وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ) أي : وأنتم من ذوي العلم والنظر ، فلو تأملتم أدنى تأمل لا نصرفتم بقوة إلى عبادة الله وحده ولتركتم الإشراك به .وصدرت الجملة الكريمة بالفاء لترتبها على الكلام. السابق ، المترتب على الأمر بعبادة الله وحده .وسمي القرآن الشركاء المزعومين أنداداً تهكماً بالعابدين لها ، ولأن المشركين لما تركوا عبادة الله إلى عبادة الأوثان ، وسموها آلهة شابهت حالهم حال من يعتقد أنها آلهة قادرة على مخالفته ومضادته ، وذلك معنى جعلها أنداداً الذي هو مصب النهي ، في الآية .وجملة ( وأنتم تعلمون ) ، حالية ، ومفعول تعلمون متروك ، لأن الفعل لم يقصد تعليقه بمفعول ، بل قصد إثباته لفاعله فقد فنزل منزلة اللازم وفي هذه الجملة مبالغة في زجرهم عن عبادة الأوثان من دون الله ، لأن ، ارتكاب الباطل من الجاهل قبيح ، وهو من العالم ببطلانه أشد قبحاً ، وأدعى إلى أن يقابل بأغلظ ألوان الإنكار . كما أن فيها إثارة لهممهم ليقلعوا عن عبادة غير الله ، فإن من كان من ذوي العلم لا يصح منه أن يفعل أفعال من لا عقل له ، وهذا لون جليل من ألوان التربية ، فإن من سمات المربى الناجح أن يجمع بين القسوة في النهي عن القبيح ، وبين إثارة همة الموعوظ حتى لا يقتل همته باليأس ، لأن الإنسان إذا ساءت ظنونه بنفسه خارت عزيمته ، وفترت همته هذا ، وقد استفاضت الأحاديث النبوية التي تدعو إلى توحيد الله ، وتنهى عن. الإشراك ، ومن ذلك ما جاء في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال : " قلت " " يا رسول الله أي الذنب أعظم عند الله؟ " قال أن تجعل لله نداً وهو خلقك قال الإمام ابن كثير : وهذه الآية دالة على توحيده - تعالى - بالعبادة. وحده لا شريك له ، فإن من تأمل هذه الموجودات السفلية والعلوية واختلاف

أشكالها وألوانتها وطباعها ومنافعها ، علم قدرة خالقها وحكمته وعلمه وإتقانه وعظيم سلطانه ، كما قال بعض الأعراب وقد سئل : ما الدليل على وجود الله - تعالى -؟ فقال : يا سبحانه الله!! إن البعير ليدل على البعير؛ وإن أثر القدم يدل على المسير ، فسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ، ألا يدل هذا على وجود اللطيف الخبير .

وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين

كما فسرها الوسيط وبعد أن ساق - سبحانه - في هاتين الآيتين البراهين الساطعة الدالة على وحدانية الله؛ ونفي عقيدة الشرك ، أورد بعد ذلك الدلائل الدالة على صدق النبي صلى الله عليه وسلم فيما يبلغه عن ربه ، وعلى أن هذا القرآن ليس من صنع بشر ، وإنما هو كلام واهب القوى والقدر فقال - تعالى - : ( وَإِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا على عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ . . . ) في هاتين الآيتين انتقال لإثبات الجزء الثاني من جزأى الإيمان ، وهو صدق النبي صلى الله عليه وسل - في رسالته ، بعد أن تم إثبات الجزء الأول من ذلك وهو وحدانية الله - تعالى - وعظيم قدرته .والمعنى : إن رتبتم أيها المشركون في شأن هذا القرآن الذي أنزلناه على عبدنا محمد على مهل وتدريج ، فأتوا أنتم بسورة من مثله في سمو الرتبة ، وعلو الطبقة واستعينوا على ذلك بآلهتكم وبكل من تتوقعون منهم العون ليساعدوكم في مهمتكم ، أو ليشهدوا لكم أنكم أتيتم بما يماثله ، إن كنتم صادقين في زعمكم أنكم تقدرون على معارضة القرآن الكريم .والمقصود بقوله ( وَإِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا على عَبْدِنَا . . . ) : نفي الريب عن المنزل عليه - وهو محمد صلى الله عليه وسلم - بنفيه عن المنزل وهو القرآن الكريم .والتعبير عن اعتقادهم في حقه بالريب للإيذان بأن أقصى ما يمكن صدوره عنهم هو الارتياب في شأنه ، أو للتنبيه على أن كلامهم في شأن القرآن هو بمنزلة الريب الضعيف لكمال وضوح الدلائل الدالة على أن القرآن من عند الله - تعالى- .وعبر بقوله : ( وَإِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ ) ولم يقل : وإن ارتبتم فيما نزلنا ، للإشارة إلى أن ذات القرآن لا يتطرق إليها ريب ، ولا يطير إلى أفقها شرارة من شك ، وأنه إن أثير حوله أي شك فمرجعه إلى انطماس بصيرتهم ، وضعف تفكيرهم ، واستيلاء الحقد والعناد على نفوسهم .وأني بإن المفيدة للشك مع أن كونهم في ريب مما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم أمر محقق ، تنزيلا للمحقق منزلة المشكوك فيه ، وتنزيها لساحة القرآن عن أن يتحقق الشك فيه من أي أحد ، وتوبيخا لهم على وضعهم الأمور في غير مواضعها ووجه الإتيان بفي الدالة على الظرفية ، للإشارة إلى أنهم قد امتلكهم الريب وأحاط بهم إحاطة الظرف بالمظروف .وقال ( نَزَّلْنَا ) دون أنزلنا ، لأن المراد النزول على سبيل التدريج ، ومن المعروف أن القرآن قد نزل منجما في مدة تزيد على عشرين سنة .قال صاحب الكشاف : ( فإن قلت : لم قيل : ( مما نزلنا ) على لفظ التنزيل دون الإنزال؟ قلت : لأن المراد النزول على سبيل التدريج والتنجيم وذلك أنهم كانوا يقولون : لو كان هذا القرآن من عند الله ، لم ينزل هكذا نجوما سورة بعد سورة ، وآيات عقب آيات ، على حسب النوازل ، وعلى سنن ما نرى عليه أهل الخطابة والشعر من جود ما يوجد منهم مفرقاً حيناً فحيناً حسب ما يعن لهم من الأحوال المتجددة . . . فقيل لهم : إن ارتبتم في هذا الذي وقع إنزاله هكذا على مهل وتدريج ، فهاتوا أنتم نوبة واحدة من نوبة وهاتوا نجماً فردا من نجومه : سورة من أصغر السور ، أو آيات شتى مفترقات ، وهذا غاية التبكيت ومنتهى إزاحة العلل ) اه ملخصاً .والمراد بالعبد في ، قوله - تعالى - : ( على عَبْدِنَا ) محمد - صلى الله عليه وسلم - وفي إضافته إلى الله - تعالى - تنبيه على شرف منزلته عنده ، واختصاصه به .وفي ذكره صلى الله عليه وسلم باسم العبودية ، تذكير لأمته بهذا المعنى ، حتى لا يغالوا في تعظيمه فيدعوا ألوهية كما غالت بعض الفرق في تعظيم أبنيائها أو زعمائهم فادعت ألوهيتهم .والسورة : الطائفة من القرآن المسماة باسم خاص ، والتي أقلها ثلاث آيات ، والضمير في قوله ( من مثله ) يعود على المنزل وهو القرآو .والمراد من مثل القرآن : ما يشابهه في حسن النظم ، وبراعة الأسلوب وحكمة المعنى . وهذا الوجه من الإعجاز يتحقق في كل سورة .وقيل : إن الضمير في قوله ( من مثله ) يعود على المنزل عليه القرآن ، وهو - النبي صلى الله عليه وسلم - ولكن الرأي الأول أرجح .قال الإمام الرازي ما ملخصه : وعود الضمير إلى القرين أرجح لوجوه :أحدها : أن ذلك مطابق لسائر الآيات الواردة في باب التحدي لا سيما ما ذكره في سورة يونس من قوله : ( فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ . . . ) .وثانيها : أن البحث إنما وقع في المنزل وهو القرآن ، لأنه قال : ( وَإِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا . . فوجب صرف الضمير إليه ، ألا ترى أن المعنى ، وإن ارتبتم في أن القرآن ( . . منزل من عند الله فهاتوا أنتم شيئاً مما يماثله ، وقضية الترتيب لو كان الضمير مردودا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقال : وإن ارتبتم في أن محمدا منزل عليه فهاتوا قرآنا مثله .وثالثها : أن الضمير للو كان عائدا

إلى القرآن لاقتضى كونهم عاجزين عن الإتيان بمثله سواء اجتمعوا أو انفردوا
وسواء كانوا أميين أو عالمين ، أما لو كان عائداً إلى محمد صلى الله عليه
وسلم فذلك لا يقتضي إلا كون آحادهم من الأميين عاجزين عنه ، لأنه لا يكون
مثل محمد إلا الشخص الأمي ، فأما لو اجتمعوا وكانوا قارئين لم يكونوا مثل
محمد ، لأن الجماعة لا تماثل الواحد . والقارئ لا يكون مثل الأمي ، ولا شك
أن الإعجاز على الوجه الأول أقوى .ورابعها : أننا لو صرفنا الضمير إلى
محمد صلى الله عليه وسلم لكان ذلك يوهم أن صدور مثل القرآن مما لم يكن مثل
محمد في كونه أميا ممكن ، ولو صرفناه إلى القرآن لدل ذلك على أن صدور مثله
من الأمي ومن غير الأمي ممتنع فكان هذا أولى .وقوله - تعالى - : ( وادعوا
شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ الله ) معطوف على قوله : ( فَأْتُواْ بِسُورَةٍ )
وادعوا : من الدعاء ، والمراد به هنا : طلب حضور المدعو أي : نادوهم.
وشهداءكم : أي : آلهتكم ، جمع شهيد وهو القائم بالشهادة ، فقد كانوا.
يزعمون أن آلهتهم تشهد لهم يوم القيامة بأنهم على حق .وقيل : الشهداء جمع
شهيد بمعنى الحاضر أو الناصر أو الإمام ، وكأنه سمى به لأنه يحضر المجالس
وتبمر بمحضره الأمور .ودون : بمعنى غير : وتطلق في أصل اللغة على أدنى مكان
: من الشيء ، ومنه تدوين الكتب لأنه إدناء البعض من البعض ، ودونك هذا أي
خذه من أدنى مكان منك ، ثم استعير للتفاوت في الرتب فقيل : زيد دون عمرو أي
في الشرف ، ومنه الشيء الدون ، ثم اتسع فيه فاستعمل في كل تجاوز حد إلى :
حد ، وتخطى أمر إلى أمر .قال الجمل : ( والمعنى ) : وادعوا إلى المعارضة من
حضركم أو رجوتم معونته من إنسكم وجنكم وآلهتكم غير الله ، فإنه لا يقدر على
أن يأتي بمثله إلا الله . . ، أو ادعوا من دون الله شهداء يشهدون لكم بأن
ما أتيتم به مثله ، ولا تستشهدوا بالله ، فإن الاستشهاد به من عادة المبهوت
العاجز عن إقامة الحجة ، أو شهداءكم الذين اتخذتموهم من دون الله آلهة
وزعمتم أنها تشهد لكم يوم القيامة . . . .وفي أمرهم بدعوة أصنامهم وهي جماد
وفي تسميتها شهداء مع إضافتها إليهم مع أنه لا تعقل ولا تنطق ، في كل ذلك ،
أقوى ألوان التهكم ، لكي يثير في نفوسهم من الألم ما قد يكون سبباً
لتنبيههم ، إلى جهلهم ، وانصرافهم عن ضلالهم .وقوله - تعالى - : ( إِنْ
كُنْتُمْ صَادِقِينَ ) جملة معترضة في آخر الكلام وجواب الشرط محذوف دل
عليه الكلام السابق دلالة واضحة حتى صار ذكره في نظم الكلام مما ينزل به عن
مرتبة البلاغة .والمعنى : إن كنتم صادقين في زعمكم أنكم تقدرون على معارضة
القرآن فأتوا بسورة من مثله . وادعوا آلهتكم وبلغاءكم وجميع البشر ليعينوكم
أو ليشهدو لكم أنكم أتيتم بما يماثله في حكمة معانيه وحسن بيانه .وفي هذه
الآية الكريمة إثارة لحماستهم ، إذ عرض بعدم صدقهم ، فتتوفر دواعيهم على
المعارضة التي زعموا أنهم أهل لها .

فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة اعدت للكافرين

كما فسرها الوسيط ثم قال - تعالى - : ( فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن
تَفْعَلُواْ فاتقوا النار التي وَقُودُهَا الناس والحجارة ) .المعنى : فإن
، لم تفعلوا أي : تعارضوا القرآن ، وتبين لكم أن أحداً لا يستطيع معارضته
فخافوا العذاب الذي أعده الله للجاحدين وهو النار التي وقودها الناس
والحجارة " .والوقود : ما يلقى في النار لإضرامها كالحطب ونحوه ، والحجارة
) : - الأصنام التي كانوا يعبدونها من دون الله كما قال - تعالى :
إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ
لَهَا وَارِدُونَ ) واقتران المشركين بما كانوا يعبدون في النار مبالغة في
إيلامهم وتحسيرهم والاقتصار على ذكر الناس والحجارة لا يؤخذ منه أن ليس في
النار غيرهما بدليل ما ذكر في مواضع أخرى من القرآن أن الجن والشياطين
يدخلونها .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : انتفاء إتيانهم بالسورة واجب فهلا
جيء ب " إذا " الذي للوجوب دون " إن " الذي للشك؟ قلت : فيه وجهان :أحدهما
أن يساق القول معهم على حسب حسبانهم وطمعهم ، وأن العجز عن المعارضة كان :
قبل التأمل كالمشكوك فيه لديهم لا تكالهم على فصاحتهم واقتدارهم على الكلام
والثاني : أن يتهكم بهم كما يقول الموصوف بالقوة الواثق من نفسه بالغلبة.
على من يعاديه : إن غلبتك لم أبق عليك وهو يعلم أنه غالبه ويتيقنه تهكماً
به .وقال : فإن لم تفعلوا ، ولم يقل فإن لم تأتوا بسورة من مثله ، لأن قوله
جار مجرى الكناية التي تعطي اختصاراً ووجازة ( فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ )
: تغني عن طول المكنى عنه ، ولأن الإتيان ما هو إلا فعل من الأفعال ، تقول
أتيت فلانا . فيقال لك : نعم ما فعلت .وجملة ( وَلَن تَفْعَلُواْ ) جملة
معترضة بين الشرط والجزاء ، جيء بها لتأكيد عجزهم عن معارضته . فإن في
) : نفيها في المستقبل بإطلاق تأكيداً لنفيها في الحال .قال الإمام الرازي
فإن قيل : فما معنى اشتراطه في اتقاء النار انتفاء إتيانهم بسورة من مثله؟
فالجواب أنه إذا ظهر عجزهم عن المعارضة صح عندهم صدق رسول الله صلى الله
عليه وسلم وإذا صح ذلك ثم لزموا العناد استوجبوا العقاب بالنار ، فاتقاء
النار يوجب ترك العناد ، فأقيم المؤثر مقام الأثر ، وجعل قوله : ( فاتقوا

النار ) قائماً مقام قوله فاتركوا العناد ، وهذا هو الإيجاز الذي هو أحد
أبواب البلاغة ، وفيه تهويل لشأن العناد ، لإنابه اتقاء النار منابه
متبعاً ذلك بتهويل صفة النار ) .ومعنى ( أُعِدّتْ لِلْكَافِرِينَ ) هيئت
لهم ، لأنهم الذين يخلدون فيها ، أو أنهم خصوا بها وإن كانت معدة
- للفاسقين - أيضاً لأنه يريد بذلك ناراً مخصوصة لا يدخلها غيرهم كما قال
تعالى - ( إِنّ المنافقين فِي الدرك الأسفل مِنَ النار ) وفي هذه الآية
الكريمة معجزة من نوع الإخبار بالغيب ، إذ لم تقع المعارضة من أحد في أيام
النبوة وفيما بعدها إلى هذا العصر .قال صاحب الكشاف : ( فإن قلت : من أين
لك أنه إخبار بالغيب على ما هو عليه حتى يكون معجزة؟ قلت : لأنهم لو عارضوه
بشيء لم يمتنع أن يتواصفه الناس ويتناقلوه ، إذ خفاء مثله فيما عليه مبنى
العادة محال ، لا سيما والطاعنون فيه أكثف عدداً من الذابين عنه ، فحين لم
ينقل علم أنه إخبار بالغيب على ما هو به ، فكان معجزة ) .وقال بعض العلماء
هذه الآية الجليلة من جملة الآيات التي صدعت بتحدى الكافرين بالتنزيل ) :
الكريم ) . وقد تحداهم الله في غير موضع منه فقال في سورة القصص :( قُلْ
فَأْتُواْ بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ الله هُوَ أهدى مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن
كُنتُمْ صَادِقِينَ ) وقال في سورة الإسراء : ( قُل لّئِنِ اجتمعت الإنس
والجن على أن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هذا القرآن لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ
وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظهيراً )وقال في سورة يونس : ( أَمْ
يَقُولُونَ افتراه قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وادعوا مَنِ استطعتم
مِّن دُونِ الله إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ) وكل هذه الآيات مكية .ثم تحداهم
. أيضا في المدينة بهذه الآية ( وَإِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ ) . . إلخ
فعجزوا عن آخرهم ، وهم فرسان الكلام ، وأرباب النظام ، وقد خصوا من البلاغة
والحكم ما لم يخص به غيرهم من الأمم ، جعل الله لهم ذلك طبعاً وخلقه وفيهم
غريزة وقوة . يأتون منه على البديهة بالعجب ويدلون به إلى كل سبب ، فيخطبون
ويمدحون ، ويقدحون ، ويتوسلون ، ويتوصلون ، ويرفعون ، ويضعون ، فيأتون ،
بالسحر الحلال . . . ومع هذا فلم يتصد لمعارضة القرآن منهم أحد ، ولم
ينهض - لمقدار سورة منه - ناهض من بلغائهم ، ولم ينبض منهم عرق العصبية مع
اشتهارهم بالإفراط في المضارة والمضادة . وقد جرد لهم النبي - صلى الله
عليه وسلم - الحجة أولا ، والسيف آخراً فلم يعارضوا إلا السيف وحده ، وما
أعرضوا عن معارضة الحجة إلا لعلمهم أنهم أعجز من المعارضة ، وبذلك يظهر أن
، في قوله - تعالى - ( وَلَن تَفْعَلُواْ ) معجزة أخرى ، فإنهم ما فعلوا
. . . وما قدروا . . .وحيث عجزت عرب ذلك العصر فما سواهم أعجز في هذا الأمر
فدل على أن القرآن ليس من كلام البشر ، بل هو كلام خالق القوى والقدر أنزله
، تصديقاً لرسوله ، وتحقيقاً لمقوله . . .وبعد أن ذكر القرآن الكفار ومآلهم
عطف على ذلك ذكر المؤمنين وما يفوزون به من نعيم في حياتهم الباقية ، كما
- هي سنة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد فقال
تعالى - :( وَبَشِّرِ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات أَنّ لَهُمْ
جَنّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار كُلّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن
( . . . ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُواْ هذا

وبشر الذين امنوا وعملوا الصالحات ان لهم جنات تجري من تحتها الانهار كلما
رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل واتوا به متشابها
ولهم فيها ازواج مطهرة وهم فيها خالدون

كما فسرها الوسيط البشارة : الخبر السار فهو أخص من الخبر ، سمى بذلك لأن
أثره يظهر على البشرة وهي ظاهر جلد الإنسان ، والمأمور بالتبشير هو النبي
صلى الله عليه وسلم أو كل من يتأتى منه تفخيماً لأمره ، وتعظيماً لشأنه
والصلاحات : جمع صالحة وهي الفعلة الحسنة ، وهي من الصفات التي جرت مجرى.
، الأسماء في إيلائها العوامل .والصالحات : جمع صالحة وهي الفعلة الحسنة
وهي من الصفات التي جرت مجرى الأسماء في إيلائها العوامل .والجنات : جمع
، جنة ، وهي كل بستان ذي شجر متكاثف ، ملتف الأغصان ، يظل ما تحته ويستره
من الجن وهو ستر الشيء عن الحاسة ، ثم صارت الجنة اسماً شرعياً لدار النعيم
في الآخرة ، وهي سبع درجات :جنة الفردوس ، وجنة عدن ، وجنة النعيم ، ودار
الخلد ، وجنة المأوى ، ودار السلام ، وعليون . . . وتتفاوت منازل المؤمنين
في كل درجة بتفاوت الأعمال الصالحة .والأنهار جمع نهر - بفتح الهاء وسكونها
والفتح أفصح - وهو الأخدود الذي يجري فيه الماء على الأرض ، وهو مشتق من
مادة نهر الدالة على الانشقاق والاتساع ، ويكون كبيراً أو صغيراً .وأسند
إليه الجرى في الآية مع أن الذي يجري في الحقيقة هو الماء ، أخذاً بفن
معروف بين البلغاء ، وهو إسناد الفعل إلى مكانه ، توسعاً في أساليب البيان
"وقوله : " من تحتها " وارد على طريقة الإيجاز بحذف كلمة " أشجار.
. اعتماداً على تبادرها إلى الذهن ، والمعنى : تجري من تحت أشجارها الأنهار
ثم بين - سبحانه - أحوال هؤلاء المؤمنين الصالحين فقال :( كُلّمَا
رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُواْ هذا الذي رُزِقْنَا مِن
قَبْلُ )أي : إن سكان الجنة كلما رزقوا في الجنة ثمرة من ثمراتها ، وجدوها

مثل الذي رزقوه فيها من قبل ، في بلوغه الغاية من حسن المنظر ولذة الطعم
وفي هذا إشارة إلى أن ثمار الجنة متماثلة في حسن منظرها ، ولذة طعمها.
بحيث لا تفضل ثمرة في ذلك على أخرى ، فجميع ثمرها يسر له القلب ، ويستحليه
الذوق ، وإن اختلفت المناظر والطعوم .ثم قال - تعالى ( وَأُتُواْ بِهِ
مُتَشَابِهاً ) أي : يشبه بعضه بعضاً في الصورة والرائحة ، ويختلف في اللذة
والطعم ، أو في المزية والحسن ، وعن ابن عباس : " ليس في الدنيا مما في
الجنة إلا الأسامي "؛ وهذه الجملة مؤكدة لما قبلها في معنى أن كل ثمر يشابه
ما قبله في حسن المنظر ولذة الطعم مشابهة لا يفضل فيها ثمر الدنيا ، فإنه
يتفاوت في مناظره حسناً ، وفي طعومه لذة .ويرى بعض العلماء حمل قوله -
تعالى - : ( قَالُواْ هذا الذي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ) على تقدير : من قبل
دخول الجنة ، أي هذا الذي رزقناه في الدنيا ، وإلى هذا الرأي مال صاحب
الكشاف فقد قال :" فإن قلت : كيف قيل ." هذا الذي رزقنا من قبل؟ وكيف تكون
ذات الحاضر عندهم في الجنة هي ذات الذي رزقوه في الدنيا؟ قلت : معناه هذا
مثل الذي رزقناه من قبل وشبهه ، بدليل قوله : ( وَأُتُواْ بِهِ
مُتَشَابِهاً ) فإن قلت : إلام يرجع الضمير في قوله : ( وَأُتُواْ بِهِ ) ؟
قلت : إلى المرزوق في الدنيا والآخرة جميعاً ، لأن قوله : ( هذا الذي
رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ) انطوى تحته ذكر ما رزقوه في الدارين . فإن قلت
: لأي غرض يتشابه ثمر الدنيا وثمر الجنة؟ قلت : لأن الإنسان بالمألوف آنس؛
وإلى المعهود أميل ، وإذا رأى ما لم يألفه نفر عن طبعه ، وعافته نفسه "ثم
قال - تعالى - : ( وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ ) .الأزواج : جمع زوج وهي المرأة يختص بها الرجل ، والضمير في
"فيها " يعود إلى الجنات .والمعنى : أن لهؤلاء المؤمنين نساء مختصات بهم
، مطهرات غاية التطهير من كل دنس وقذر ، حسى ومعنى ، لا كنساء الدنيا ، وهم
في هذه الجنات باقون على الدوام ، لأن النعيم إنما يتم باطمئنان صاحبه على
أنه دائم ، أما إذا كان محتملا للزوال فإن صاحبه يبقى منغص البال ، إذ
سيذكر أنه سيفقده في يوم من الأيام ، فجملة ( وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ )
جيء بها على سبيل الاحتراس من وهم الانقطاع .وبعد هذا البيان الجامع عن
أحوال المهتدين بهديه أو الناكبين عن صراطه ، وما تخلل ذلك من المواعظ
النافعة ، والتمثيلات الرائعة ، والبشارات الطيبة لمن آمن وعمل صالحاً ،
بعد كل ذلك بين - سبحانه - أنه لا يعبأ أن يضرب مثلا بشيء حقير أو غير حقير
فقال - تعالى - :( إِنَّ اللهَ لاَ يَسْتَحْى أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا
بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الذين آمَنُواْ . . . )

ان الله لا يستحيي ان يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها فاما الذين امنوا
فيعلمون انه الحق من ربهم واما الذين كفروا فيقولون ماذا اراد الله بهذا
مثلا يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا وما يضل به الا الفاسقين

- كما فسرها الوسيط روى الواحدى في أسباب النزول عن ابن عباس أن الله
تعالى - لما أنزل قوله - تعالى - ( إِنَّ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله
لَن يَخْلُقُواْ ذُبَاباً وَلَوِ اجتمعوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذباب
شَيْئاً لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ ) وقوله - تعالى - : ( مَثَلُ الذين اتخذوا
مِن دُونِ الله أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ العنكبوت اتخذت بَيْتاً ) لما نزل قال
المشركون : أرأيتم أي شيء يصنع بهذا؟! فأنزل الله ( إِنَّ الله لاَ
يَسْتَحْى أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا . . . )
وروى عن الحسن وقتادة أن الله لما ذكر الذباب والعنكبوت في كتابه وضرب.
بهما المثل ضحك اليهود وقالوا : ما يشبه أن يكون هذا من كلام الله! فأنزل
الله هذه الآية ( إِنَّ الله لاَ يَسْتَحْى ) . إلخ .وقال السدى : لما ضرب
الله هذين المثلين للمنافقين ، يعني قوله تعالى : ( مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ
الذي استوقد نَاراً . . . ) وقوله تعالى : ( أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السمآء )
قال المنافقون : الله أعلى وأجل من أن يضرب هذه الأمثال! فأنزل الله هذه
الآية :ويبدوا أن الآية الكريمة قد نزلت للرد على جميع تلك الفرق الضالة ،
فقد قرر العلماء أن لا مانع من تعدد أسباب النزول للآية الواحدة أو للطائفة
من الآيات .والاستحياء والحياء واحد ، فالسين والتاء فيه للمبالغة مثل
استقدم واستأجر واستجاب . وهو في أصل اللغة انقباض النفس وانكسارها من خوف
ما يعاب به ويذم . وهذا المعنى غير لائق بجلال الله ، لذا ذهب جمع من
المفسرين إلى تأويله بإرادة لازمة ، وهو ترك ضرب الأمثال بها .والمعنى : إن
الله لا يترك أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها ، وإطلاق الفعل كالاستحياء
على ما يترتب عليه كترك الفعل ، مألوف فى الكلام البليغ حيث يكون المراد
واضحاً .ومذهب السلف : إمرار هذا وأمثاله على ما ورد ، وتفويض علم كنهه
وكيفيته إلى الله - تعالى - مع وجوب تنزيهه عما لا يليق بجلاله من صفات
المحدثات .أي : ليس الحياء بمانع لله - تعالى - من ضرب الأمثال بهذه
المخلوقات الصغيرة في نظركم؛ كالبعوض والذباب والعنكبوت ، فإن فيها من
دلائل القدرة ، وبدائع الصنعة ما تحار فيه العقول ، ويشهد بحكمة الخالق
والمثل فى اللغة : الشبيه . وهو فى عرف القرآن : الكلام البليغ المشتمل.

على تشبيه بديع ، كالمثلين السابقين اللذين ضربهما الله في حال المنافقين، أو وصف غريب نحو قوله تعالى : ( ياأيها الناس ضُرِبَ مَثَلٌ فاستمعوا لَهُ إِنّ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله لَن يَخْلُقُواْ ذُبَاباً وَلَوِ اجتمعوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذباب شَيْئاً لاّ يَسْتَنقِذُوهُ ) وضرب المثل : إيراده ، وعبر عن إيرادة بالضرب ، لشدة ما يحدث عنه من التأثير في نفس السامع .و ( ما ) فى قوله ( مَثَلاً مّا ) هي ما الإبهامية ، تجيء بعد النكرة فتزيدها شيوعاً وعموماً ، كقولك : أعطني كتاباً ما ، أي كتاب كان .والبعوضة واحدة البعوض وهى حشرة صغيرة تطلق على الناموس وهى بدل أو بيان من قوله ( مَثَلاً ) .وقوله : ( فَمَا فَوْقَهَا ) عطف على بعوضة ، والمراد فما فوقها فى الحجم كالذباب والعنكبوت ، والكلب والحمار ، أو فما فوقها في المعنى الذي وقع التمثيل فيه ، وهو الصغر والحقارة كجناحها أو كالذرة .قال صاحب الكشاف : سيقت هذه الآية لبيان أن ما استنكره الجهلة والسفهاء وأهل العناد والمراء من الكفار واستغربوه من أن تكون المحقرات من الأشياء مضروباً بها المثل ، ليس بموضع للاستنكار والاستغراب ، من جهة أن التمثيل إنما يصار إليه ملا فيه من كشف المعنى ورفع الحجاب عن الغرض المطلوب ، وإدناء المتوهم من المشاهد . . وأن لله - تعالى - أن يتمثل للأنداد وحقارة شأنها بما لا شيء أصغر منه وأقل ، كما لو تمثل بالجزء الذي لا يتجزأ أو بما لا يدركه لتناهيه فى صغره إلا هو وحده . وقوله : ( فَمَا فَوْقَهَا ) فيه معنيان :أحدهما : فما تجاوزهما وزاد عليها في المعنى الذي ضربت فيه مثلا وهو القلة والحقارة نحو قولك لمن يقول فلان أسفل الناس وأنذلهم ، هو فوق ذلك ، تريد هو أعرق فيما وصف من السفالة والنذالة .والثاني : فيما زاد عليها في الحجم كأنه قصد بذلك رد ما استنكروه من ضرب المثل بالذباب والعنكبوت لأنهما أكبر من البعوضة .ثم بين - سبحانه - بعد ذلك موقف الناس أمام هذه الأمثال فقال :( فَأَمّا الذين آمَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنّهُ الحق مِن رّبِّهِمْ ) .أما حرف مفيد للشرط والتفصيل والتأكيد ، أما الشرط فلوقوع الفاء في جوابها ، وأما التفصيل فلوقوعها بعد مجمل مذكور أو مقدر ، وأما التأكيد فلأنك إذا قلت : زيد ذاهب ثم قصدت تأكيد ذلك وإفادة أن ذهابه واقع لا محالة قلت : أما زيد فذاهب ، والضمير فى قوله ( أَنّهُ ) يعود على المثل ، أو على ضربه المفهوم من. قوله : ( أن يَضْرِبَ مَثَلاً ) .والحق : خلاف الباطن ، وهو الثابت الذي لا يسوغ إنكاره .ووجه كون المثل أو ضربه حقاً ، أنه يوضح المبهم ، ويفصل المجمل ، فهو وسيلة إلى تقرير الحقائق وبيانها .ووجه تفصيل الناس في هذه الآية إلى قسمين ، أنهم بالنسبة إلى التشريع والتنزيل كذلك ، فهم مؤمن أو كافر .والمقصود من ذكر المؤمنين هنا الثناء عليهم بثبات إيمانهم ، وتيئيس الذين أرادوا تشكيكهم ببيان أن إيمانهم يحول بينهم وبين الشك .وعبر فى جانب المؤمنين بيعلمون تعريضاً بأن الكافرين إنما قالوا ما قالوا عناداً ومكابرة ، وأنهم يعلمون أن ذلك تمثيل أصاب المحز .وقال : ( أَنّهُ الحق ) معرفاً بأل ، ولم يقل : أنه حق للمبالغة في حقية المثل .ومن المعروف في علم البيان أن الخبر قد يؤتى به معرفاً بأل ، للدلالة على أن المخبر عنه بالغ في الوصف الذي أخبر به عنه مرتبة الكمال .وقوله : ( مِن رّبِّهِمْ ) حال من الحق ، ومن ابتدائية ، أي : إنه هذا الكلام وارد من الله ، لا كما زعم الذين كفروا أنه مخالف للصواب ، فهو مؤذن بأنه من كلام الخالق الذي لا يقع منه الخطأ .ثم بين - سبحانه - موقف الكافرين من هذه الأمثال عندما تتلى عليهم فقال :( وَأَمّا الذين كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ الله بهذا مَثَلاً ) .كلمة ( مَاذَا ) مركبة من ما الاستفهامية وذا اسم الإشارة ، غير أن العرب توسعوا فيها فاستعملوها اسم استفهام مركباً من كلمتين ، وذلك حيث يكون المشار إليه معبراً عنه بلفظ آخر غير الإشارة ، حتى تصير الإشارة إليه مع التعبير عنه بلفظ آخر لمجرد التأكيد نحو : ماذا التواني؟ أو حيث لا يكون للإشارة موقع كقوله تعالى : ( وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُواْ بالله واليوم الآخر ) وقد يتوسعون فيها توسعاً أوى فيجعلون ذا ، اسم موصول ، وذلك حين يكون المسئول عنه معروفاً للمخاطب بشيء من أحواله فلذلك يجرون عليه جملة أو نحوها هي صلة ويجعلون ذا موصولا نحو ( مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ ) ونحو ( مَاذَآ أَرَادَ الله بهذا مَثَلاً ) أي : ما الذي أراده الله بهذا المثل .والإرادة فى أصل اللغة : نزوع النفس إلى الفعل ، وإذا أسندت إلى الله دلت على صفة له تتعلق بالممكنات ، فيترجح بها أحد وجهي المقدور ، وقد كان جائز الوقوع وعدم الوقوع .وقوله : ( مَثَلاً ) واقع في موقع التمييز لاسم الإشارة " هذا " كقولك لمن أجاب بجواب غير مقبول . ماذا أردت بهذا جواباً؟والاستفهام الذي حكاه القرآن على ألسنة هؤلاء الكافرين ، المقصود به الإنكار والتحقير لهذه الأمثال ، ولأن يكون الله - تعالى - قد ضربها للناس .والمعنى : فأما المؤمنون الذين من عادتهم الإنصاف ، والنظر في الأمور بنظر العقل واليقين ، فإنهم إذا سمعوا بمثل هذا التمثيل علموا أنه الحق الذي لا تمر الشبهة بساحته ، وأما الكافرون فإنهم لانطماس بصيرتهم ، وتغلب الأحقاد على قلوبهم فإنهم إذا سمعوا ذلك عاندوا وكابروا وقابلوه بالإنكار .ثم ساق - سبحانه - جملتين بين فيهما

الحكمة من ضرب الأمثال فقال : ( يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً ) .فقد دلت هاتان الجملتان على أن العلم بكون المثل حقاً ، مما يزداد به المؤمنون رشداً على رشدهم ، وأن إنكاره ضلال يزداد به الكافرون تخبطاً في ظلمات جهلهم .ووصف كلا من فريقي المؤمنين والمنكرين له بالكثرة مع أن المهتدين وصفوا بالقلة كثيرا كما في قوله : ( وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشكور ) وذلك لأن أهل الهدى كثيرون في أنفسهم ، وإذا وصفوا بالقلة فبالقياس إلى أهل الضلال ، وأيضاً فإن القليل من أهل الهدى كثير في الحقيقة ، وإن قلوا في الصورة ، فوصفوا بالكثرة ذهاباً إلى هذه الحقيقة وقدم الإضلال على الهداية ، ليكون أول ما يقرع أسماع المبطلين عن الجواب. ) - أمراً فظيعاً يسوءهم ويفت في أعضادهم .ثم ختمت الآية بقوله - تعالى ، وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الفاسقين ) .الفاسقون : جمع فاسق ، من الفسق ، وهو في أصل اللغة : الخروج .يقال : فسقت الرطبة من قشرها . أي : خرجت منه وشرعاً ، الخروج عن طاعة الله ، فيشمل الخروج من حدود الإيمان ، وهو الكفر ثم ما دون الكفر من الكبائر والصغائر ، ولكنه اختص فى العرف بارتكاب ، الكبيرة ، ولم يسمع الفسق فى كلام الجاهلية ، بمعنى الخروج عن الطاعة فهو ، بهذا المعنى من الألفاظ الإسلامية .وقصر الإضلال بالمثل على الفاسقين إيذان بأن الفسق هو الذي أعدهم لأن يضلوا به ، حيث إن كفرهم قد صرف أنظارهم عن التدبر فيه حتى أنكروه وقالوا : ماذا أراد الله بهذا مثلا .

الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما امر الله به ان يوصل ويفسدون في الارض اولئك هم الخاسرون

كما فسرها الوسيط ثم وصف الله - تعالى - هؤلاء الفاسقين بثلاث خصال ذميمة فقال : في بيان الخصلة الأولى : ( الذين يَنقُضُونَ عَهْدَ الله مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ ) .والنقض : فى اللغة حقيقة في فسخ وحل ما ركب ووصل ، بفعل يعاكس الفعل الذي كان به التركيب مثل نقض الحبل المفتول وقد استعمل هنا مجازاً في إبطال العهد بقرينة إضافته إلى عهد الله .وعبر عن إبطال العهد بالنقض ، لأنه أبلغ في الدلالة على الإبطال من القطع والصرم ونحوهما ، لأن فى النقض إفساداً لهيئة الحبل .والعهد : اسم للموثق الذي يلزم مراعاته : وحفظه ، يقال : عهد إليه في كذا ، إذا أوصاه به ووثقه عليه .وعهد الله تارة يكون بما ركز في العقول من الحجة على التوحيد ، وتارة يكون بما أوجبه الله على الناس على لسان رسله - صلوات الله عليهم - وتارة بما يلتزمه المؤمن . وليس بلازم له في أصل الشرع مما ليس بمعصية كالنذور وما يجري مجراها .والميثاق : التوثقة ، وهي التقوية والتثبيت ، والمراد به : ما قوى الله به عهده .وقوله : ( مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ ) متعلق بينقضون ، ومن لابتداء الغاية ، وميثاقه الضمير فيه يجوز أن يعود على العهد ، وأن يعود على اسم الله - فهو على الأولى مصدر مضاف إلى المفعول ، وعلى الثاني مضاف للفاعل .أما الصفة الثانية التي وصفهم الله بها فهى قوله : ( وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ الله بِهِ أَن يُوصَلَ ) وهو عام في كل قطيعة لا يرضاها الله ، كقطع الرحم ، والإعراض عن موالاة المؤمنين ، وترك الجماعات المفروضة وعدم وصل الأقوال الطيبة بالأعمال الصالحة ، وسائر ما فيه رفض خير أو تعاطي شر .وأما الصفة الثانية التي وصفهم بها فهي قوله - تعالى - : ( وَيُفْسِدُونَ فِي الأرض ) .والفساد في الأرض يقع بعبادة غير الله ، وبالدعاية إلى الكفر به ، وبالاستهزاء بالحق ، وبالاعتداء على حقوق الغير وبغير ذلك من الأمور التي حرمها الله - تعالى - .وعبر بقوله ( فِي الأرض ) للإشعار بأن فسادهم لا يقتصر عليهم ، وإنما هو يتعداهم إلى غيرهم .ثم بين - سبحانه - بعد أن دمغهم بتلك الصفات المرذولة - عاقبة أمرهم فقال : ( أولئك هُمُ الخاسرون ) .الخاسرون : جمع خاسر مأخوذ من الخسر والخسران وهو النقص ، ومن نقض عهد الله ، وقطع ما أمر الله بوصله ، وأفسد في الأرض ، لا شك أنه قد نقص نفسه حظها من الفلاح والفوز ، وكانت عاقبته الخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة .قال ابن جرير : " والخاسرون جمع خاسر ، وهم الناقصون أنفسهم حظوظهم من رحمة الله بسبب معصيتهم له ، كما يخسر الرجل فى تجارته بأن يوضع من رأس ماله في بيعه ، وكذلك المنافق والكافر قد خسرا بحرمان الله لهما من رحمته التي خلقها لعباده . . . "وبعد أن عدد القرآن مساوئ أولئك الضالين ، وبين سوء مصيرهم ، ومآلهم ، وجه إليهم الإنكار والتوبيخ فخاطبهم بقوله :( كَيْفَ تَكْفُرُونَ بالله وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ . . )

كيف تكفرون بالله وكنتم امواتا فاحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم اليه ترجعون

كما فسرها الوسيط ( كَيْفَ ) اسم استفهام للسؤال عن الأحوال ، وليس المراد به هنا استعلام المخاطبين عن حال كفرهم ، وإنما المراد منه معنى تكثر تأديته في صورة الاستفهام وهو الإنكار والتوبيخ ، كما تقول لشخص : كيف تؤذى أباك وقد رباك؟ لا تقصد إلا أن تنكر عليه أذيته لأبيه وتوبيخه عليها

وفي الآية الكريمة التفات من الغيبة إلى الخطاب؛ لزيادة تقريعهم والتعجب.
من أحوالهم الغريبة ، لأنهم معهم ما يدعو إلى الإيمان ومع ذلك فهم منصرفون
إلى الكفر .وقوله : ( وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ) جار مجرى
التنبيه على أن كفرهم ناشئ عن جهل وعدم تأمل في أدلة الإيمان القائمة أمام
أعينهم .والأموات : جمع ميت بمعنى المعدوم . والإحياء : بمعنى الخلق
والمعنى : كيف تكفرون بالله وحالكم أنكم كنتم معدومين فخلقكم ، وأخرجكم.
إلى الوجود كما قال - تعالى - :( هَلْ أتى عَلَى الإنسان حِينٌ مِّنَ الدهر
لَمْ يَكُن شَيْئاً مّذْكُوراً ) ويصح أن يفسر الأموات بمعنى فاقدي الحياة
والإحياء بنفخ الروح فيهم فيكون المعنى : وكنتم أمواتاً يوم استقراركم .
نطفاً في الأرحام إلى تمام الأطوار بعدها ، فنفخ فيكم الأرواح؛ وأصبحتم في
طور إإحساس وحركة وتفكير وبيان .وبعد أن وبخهم على كفرهم بمن أخرجهم من
الموت إلى الحياة ، أورد جملا لاستيفاء الأطوار التي ينتقل فيها الإنسان
من مبدأ الحياة إلى مقره الخالد في دار نعيم أو عذاب فقال : ( ثُمّ
يُمِيتُكُمْ ) بقبض أرواحكم عند انقضاء آجالكم ( ثُمّ يُحْيِيكُمْ )
يبعثكم بعد الموت ( ثُمّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ) .أي تصيرون إليه دون سواه
فيجمعكم في المحشر؛ ويتولى حسابكم ، والحكم في أمركم بمقتضى عدله ( فَمَن ،
يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ خَيْراً يَرَهُ . وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ
ذَرّةٍ شَرّاً يَرَهُ ) أما الإماتة فهم يشاهدونها بأعينهم بين الحين
، والحين ، وأما البعث فقد أخبر الله عنه بما يدل على صحته وينفي استبعاد
بأدلة عقلية ونقلية كثيرة ، أما الأدلة العقلية ، فمنها : أن الذي قدر على
إحيائهم من العدم ، قادر على إحيائهم وإعادتهم بعد موتهم فإن الإعادة أهون
من البدء دائما ، وأما الأدلة النقلية ، فمنها قوله - تعالى - :( ثُمّ
إِنّكُمْ بَعْدَ ذلك لَمَيّتُونَ . ثُمّ إِنّكُمْ يَوْمَ القيامة
تُبْعَثُونَ ) وفي قوله - تعالى - ( ثُمّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ) ترهيب
لمن ينزع إلى الشر ، ويرتكب المعاصي من غير مبالاة ، وترغيب لمن يقبل على
) فعل الخير ، ويقدم على الطاعات .قال الجمل : " والفاء في قوله
فَأَحْيَاكُمْ ) على بابها من التعقيب ، وثم على بابها من التراخي ، لأن
المراد بالموت الأول ، العدم السابق ، وبالحياة الأولى الخلق ، وبالموت
الثاني الموت المعهود ، وبالحياة الثانية الحياة للبعث فجاءت الفاء وثم على
بابيهما من التعيب والتراخي ، على هذا التفسير وهو أحسن الأقوال ، ويعزى
" لابن عباس وابن مسعود ومجاهد ، والرجوع إلى الجزاء أيضاً متراخ عن البعث
.

هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعا ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سماوات
وهو بكل شيء عليم

كما فسرها الوسيط وبعد أن ذكر - سبحانه - ما يشهد بقدرته ووحدانيته عن طريق
الأدلة المتعلقة بذوات المكلفين ، أردف ذلك بالكلام عن الأدلة الكونية فقال
تعالى :( هُوَ الذي خَلَقَ لَكُمْ مّا فِي الأرض جَمِيعاً ) .أي : أنه خلق
جميع ما في الأرض من نحو الحيوان والنبات والمعادن والجبال من أجلكم ، فهو
المنعم عليكم لتنتفعوا بها في دنياكم ، وتستعينوا بها على طاعته .وقد أخذ
العلماء من هذه الآية شاهداً على أن الأشياء التي فيها منافع مأذون فيها
حتى يقوم دليل على حرمتها .ثم استدل - سبحانه - على مظاهر قدرته بخلق
السموات فقال :( ثُمّ استوى إِلَى السمآء فَسَوّاهُنّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ
وَهُوَ بِكُلّ شَيْءٍ عَلِيم ) .استوى إلى السماء : أقبل وعمد إليها
بإرادته . وتسويتها معناه : تعديل خلقها وتقويمه .والسماء ليس المراد منها
فردا من أفراد السموات ، وإنما المراد منها الأجرام العلوية الشاملة لجميع
السموات ، فصح أن يعود عليها ضمير جمع الإناث في قوله : ( فَسَوّاهُنّ )
وكذلك علماء البيان يزيدون أن اللفظ إذا أريد منه جنس ما وضع له صار في ،
معنى الجمع .فمعنى ( ثُمّ استوى إِلَى السمآء ) علا إليها وارتفع ، من غير
تكييف ولا تحديد ولا تشبيه ، مع كمال التنزيه عن سمات المحدثات ، وقد سئل
الإمام مالك عن الاستواء على العرش فقال : الاستواء غير مجهول ، والكيف
غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .وقدم الأرض هنا لأنها
) أدل لشدة الملابسة والمباشرة .وجملة ( ثُمّ استوى ) معطوفة على جملة
خَلَقَ لَكُمْ ) ، وكان العطف بثم لعظم خلق السماء عن خلق الأرض .وعبر
بسواهن للإشعار بأنه - سبحانه - خلقهن في استقامة ، واستقامة الخلق هي
انتظامه على وجه لا خلل فيه ولا اضطراب . قال - تعالى - :( مّا ترى فِي
خَلْقِ الرحمن مِن تَفَاوُتٍ ) وجملة ( وَهُوَ بِكُلّ شَيْءٍ عَلِيمٌ )
مقررة لما ذكر قبلها من خلق السموات والأرض وما فيهما على هذه الصورة
الحكيمة ، فقد دلت على أن ترتيب أجزاء تلك المصنوعات وموافقة جميعها
، للمنافع المقصودة منها ، إنما حدث عن عالم بحقائق تلك الأجزاء وخواصها
ولإحاطته بكل شيء علماً وضع كل جزء في موضعه اللائق به .وبعد أن بين
سبحانه للناس أنه قد من عليهم بنعمة خلقه ما في الأرض جميعاً ، بدأ بعد ذلك
، يذكرهم بنعمة أخرى هي نعمة خلقه لأبيهم آدم ، وخلق آدم مبدأ لخلق ذريته

وتكريمه موصول بتكريمهم فقال تعالى :( وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأرض خَلِيفَةً قَالُواْ . . . )

واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال اني اعلم ما لا تعلمون

كما فسرها الوسيط في هذه الآيات الكريمة عطف - سبحانه - قصة خلق آدم أبي البشر على قصة خلق الأنفس وخلق السماوات والأرض انتقالا في الاستدلال على أن الله واحد ، وجمعاً بين تعدد الأدلة وبين مختلف الحوادث وأصلها ، حتى ، يكون التدليل أجمع ، والإيمان بالله أقوى وأثبت .وإذ وإذا ظرفان للزمان الأول للماضي والثاني للمستقبل ، فإن جاء إذ مع المضارع أفاد الماضي كقوله وإن جاء إذا مع ( . . . وَإِذْ تَقُولُ للذي أنعَمَ الله عَلَيْهِ ): الماضي أفاد الاستقبال كقوله : ( إِذَا جَآءَ نَصْرُ الله والفتح ) وإذ هنا واقعة موقع المفعول به لعامل مقدر دل عليه المقام .والمعنى : واذكر يا محمد وقت أن قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة .وقد جاء هذا المقدر هنا مصرحاً به في آيات أخرى كما قال تعالى :( واذكروا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ) والملائكة جمع ملك . والتاء لتأنيث الجمع ، وأصله ملأك ، من ملك ، نحو شمال من شمل ، والهمزة زائدة وهو مقلوب مالك ، وقيل : إن ملاك من لأك إذا أرسل ، ومنه الألوكة ، أي : الرسالة والملائكة ، هم جند من خلق الله ، ركز الله فيهم العقل والفهم ، وفطرهم. على الطاعة ، وأقدرهم على التشكيل بأشكال مختلفة ، وعلى الأعمال العظيمة الشاقة ، ووصفهم في القرآن بأوصاف كثيرة منها أنهم ( يُسَبِّحُونَ الليل والنهار لاَ يَفْتُرُونَ ) وأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ( وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ) ومنها : أنهم رسل الله أرسلهم بأمره " ومنهم رسل الوحي إلى من اصطفاهم من خلقه للنبوة والرسالة . قال تعالى :( جَاعِلِ الملائكة رُسُلاً ) وقال تعالى : ( الله يَصْطَفِي مِنَ الملائكة رُسُلاً وَمِنَ الناس ) وقال - تعالى - ( يُنَزِّلُ الملائكة بالروح مِنْ أَمْرِهِ على مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ ) و ( الخليفة ) من يخلف غيره وينوب منابه ، فهو - فعيل بمعنى فاعل ، والتاء فيه للمبالغة ، والمراد به آدم - عليه السلام - لأنه كان خليفة من الله في الأرض ، وكذلك سائر الأنبياء استخلفهم الله تعالى - في عمارة الأرض ، وسياسة الناس ، وتكميل نفوسهم ، وإجراء أحكامه عليهم ، وتنفيذ أوامره فيهم . وقيل : آدم وذريته ، لأنه يخلف بعضهم بعضاً في عمارة الأرض ، واستغنى بذكره عن ذكر ذريته لكونه الأصل .وخطاب الله لملائكته بأنه سيجعل في الأرض خليفة ، ليس المقصود منه المشورة ، وإنما ، خاطبهم بذلك من أجل ما ترتب عليه من سؤالهم عن وجه الحكمة من هذه الخلافة وما أجيبوا به من بعد ، أو من أجل تعليم العباد المشاورة في أمورهم قبل أن يقدموا عليها وعرضها على ثقاتهم ونصائحهم وإن كان هو - سبحانه - بعلمه وحكمته البالغة غنياً عن المشاورة . أو الحكمة تعظيم شأن المجهول ، وإظهار فضله ، بأن بشر بوجود سكان ملكوته ، ونوه بعظيم شأن المجعول بذكره في الملأ الأعلى قبل إيجاده ، ولقبه بالخليفة .ثم حكى - سبحانه - إجابة الملائكة فقال :( قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدمآء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ) .الفساد : الخروج عن الاعتدال والاستقامة ويضاده الصلاح . يقال فسد الشيء فساداً وفسوداً وأفسده غيره .والسفك : الصب والإهراق ، يقال : سفكت الدم والدمع سفكاً - من باب ضرب - صببته . والفاعل سافك وسفاك ، والمراد به حصول التقاتل بين أفراد بني الإنسان ظلماً وعدواناً .والتسبيح : مشتق من السبح وهو المر السريع في الماء أو في الهواء ، فالمسبح مسرع في تنزيه الله وتبرئته من السوء والتقديس : التطهير والتعظيم ووصفه بما يليق به من صفات الكمال .فيكون. التسبيح نفى ما لا يليق ، والتقديس إثبات ما يليق ، وقدم التسبيح على التقديس من باب تقديم التخلية على التحلية .والمعنى : أتجعل في الأرض يا إلهنا من يفسد فيها ويريق الدماء والحال أننا نحن ننزهك عما لا يليق بعظمتك تنزيهاً متلبساً بحمدك والثناء عليك ، ونطهر ذكرك عما لا يليق بك تعظيماً ، لك وتمجيداً .وقولهم : ( أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا . . . إلخ إنما صدر منهم على وجه استطلاع الحكمة في خلق نوع من الكائنات يصدر منه ( الإفساد في الأرض وسفك الدماء . وقطعهم بحكمة الله في كل ما يفعل لا ينافي تعجبهم من بعض أفعاله ، لأن التعجب يصدر عن خفاء سبب الفعل ، فمن تعجب من فعل شيء وأحب الاطلاع على الحكمة الباعثة على فعله لا يعد منكرا .والملائكة لا يعلمون الغيب ، فلابد أن يكونوا قد علموا ماذا سيكون من الفساد في الأرض وسفك الدماء بوجه من الوجوه التي يطلع الله بها على غيبه بعض المصطفين - الأخبار من خلقه .قال الإمام ابن كثير في توضيح هذا المعنى : قوله تعالى - ( أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدمآء ) أرادوا أن من هذا الجنس من يفعل ذلك وكأنهم علموا ذلك بعلم خاص ، أو بما فهموه من الطبيعة البشرية ، فإنه أخبرهم أنه يخلق هذا الصنف من صلصال من حمأ مسنون ، أو فهموا من الخليفة أنه الذي يفصل بين الناس ما يقع بينهم من

المظالم . ويردعهم عن المحارم والمآثم . . وقول الملائكة هذا ليس على وجه
. . الاعتراض على الله ولا على وجه الحسد لبني آدم كما قد يتوهمه البعض
وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك ، يقولون يا ربنا ما
الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد في الأرض ، ويسفك الدماء فإن كان
المراد عبادتك فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، ولا يصدر منا شيء من ذلك فهلا
وقع الاقتصار علينا؟وقد رد الله - تعالى - على الملائكة بقوله : ( قَالَ
إني أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ) .أي : إني أعلم من المصلحة الراجحة في
خلق هذا الصنف على المفاسد التي ذكرتموها ما لا تعلمون أنتم ، فإني سأجعل
فيهم الأنبياء ، وأرسل فيهم الرسل ويوجد منهم الصديقون والشهداء والصالحون
والعباد والزهاد والأولياء والأبرار والمقربون والعلماء العاملون والمحبون
له - تعالى - المتعبون رسله .فالجملة الكريمة إرشاد لهم إلى الأمر الذي من
شأنه أن يقف بهم عند حدود الأدب اللائق بمقام الخالق - عز وجل - وتنبيه إلى
أنه - تعالى - عالم بما لا يحيط به علم أحد من خلقه ، فله أن يفعل ما يشاء
ويأمر بما يشاء ،وليس من أدب المؤمنين بأنه العليم الحكيم أن يسألوه حين
يأمرهم بشيء ، أو يعلمهم بأنه سيفعل شيئا ، عن حكمة ما أمر به أو ما
سيفعله ، بل شأنهم أن يتجهوا إلى استطلاع حكمة الأفعال والأوامر من أنفسهم
فإذا أدركوها فقد ظفروا بأمنيتهم ، وإن وقفت عقولهم دونها ، ففي تسليمهم ،
لقدر الله ، وامتثالهم لأوامره الكفاية في القيام بحق التكليف والفوز برضا
الله ، الذي هو الغاية من الإيمان به والإقبال على طاعته .قال بعض
العلماء : " وفي هذه الآية الكريمة تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم عن
تكذيب بعض الناس له ، لأنه إذا كان الملأ الأعلى قد مثلو على أنهم يختصمون
ويطلبون البيان والبرهان فيما لا يعلمون ، فأجدر بالناس أن يكونوا
: معذورين - وبالأنبياء أن يعاملوهم كما عامل الله الملائكة المقربين ، أي
فعليك يا محمد أن تصبر على هؤلاء المكذبين ، وترشد المسترشدين ، وتأتي أهل
. الدعوة بسلطان مبين

وعلم ادم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئوني باسماء هؤلاء ان
كنتم صادقين

كما فسرها الوسيط ثم أخذ - سبحانه - في بيان جانب من حكمة خلق آدم ، وجعله
خليفة في الأرض ، بعد أن أجاب الملائكة على سؤالهم بالجواب المناسب الحكيم
فقال - تعالى - : ( وَعَلَّمَ ءَادَمَ الأسمآء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ ،
عَلَى الملائكة فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَآءِ هؤلاء إِن كُنْتُمْ
صَادِقِينَ ) .علم : من التعليم وهو التعريف بالشيء . وآدم : اسم لأبي
، البشر ، قيل إنه عبراني مشتق من أدمه ، وهي لغة عبرانية معناها التراب
كما أن " حواء " كلمة عبرانية معناها " حي " وسميت بذلك لأنها تكون أم
الأحياء .و ( الأسمآء ) جمع اسم ، والاسم ما يكون علامة على الشيء ، وتأكيد
الأسماء بلفظ " كلها " في أنه علمه أسماء كل ما خلق من المحدثات من إنسان
وحيوان ودابة ، وطير ، وغير ذلك .ويصح حمل الأسماء على خواص الأشياء
ومنافعها ، فإن الخواص والمنافع علامات على ما تتعلق به من الحقائق .وقوله
عرض الشيء : إظهاره وإبانته والضمير ( ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الملائكة ) :
في ( عَرَضَهُمْ ) يعود على المسميات ، وهي مفهومة من قوله : ( الأسمآء
كُلَّهَا ) إذ الأسماء لابد لها من مسميات ، فإذا أجرى حديث عن الأسماء حضر
في ذهن السامع ما هو لازم لها ، أعني المسميات .ودل على المسميات بضمير جمع
الذكور العقلاء فقال : ( عَرَضَهُمْ ) ولم يقل عرضها ، لأن في جملة هذه
المسميات أنواعاً من العقلاء : كالملائكة ، والإنس ، ومن الأساليب
المعروفة بين فصحاء العرب تغليب الكامل على الناقص ، فإذا اشتركا في نحو
الجمع أو التثنية أتى بالجمع أو التثنية على ما يطلق حال الكامل منهما
والأمر في قوله : ( أَنْبِئُونِي بِأَسْمَآءِ هؤلاء ) ، ليس من قبيل.
الأوامر التي يقصد بها التكليف ، أي : طلب الإتيان بالمأمور به ، وإنما
هو وارد على جهة إفحام المخاطب بالحجة .والمعنى : أن الله - تعالى - ألهم
، آدم ومعرفة ذوات الأشياء التي خلقها في الجنة ، ومعرفة أسمائها ومنافعها
) : ثم عرض هذه المسميات على الملائكة ، فقال لهم على سبيل التعجيز
أَنْبِئُونِي بِأَسْمَآءِ هؤلاء إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ) فيما اختلج في
" : خواطركم من أنى لا أخلق خلقاً إلا وأنتم أعلم منه وأفضل .قال ابن جرير
وفي هذه الآيات العبرة لمن اعتبر والذكرى لمن ذكر ، والبيان لمن كان له قلب
أو ألقى السمع وهو شهيد ، عما أودع الله في هذا القرآن من لطائف الحكم التي
تعجز عن أوصافها الألسن ، وذلك أن الله - تعالى - احتج فيها لنبيه صلى الله
عليه وسلم على من كان بين ظهرانيه من يهود بني إسرائيل ، بإطلاعه إياه من
علوم الغيب التي لم يكن - تعالى - أطلع عليها من خلقه إلا خاصا ، ولم يكن
مدركا علمه إلا بالإنباء والإخبار ليقرر عندهم صدق نبوته ، ويعلموا أن ما
. " أتاهم به إنما هو من عند الله

قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك انت العليم الحكيم

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - ما كان من الملائكة فقال :( قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَآ إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنْتَ العليم الحكيم ) .سبحان : اسم مصدر بمعنى التسبيح؛ أي التنزيه ، وهو منصوب بفعل مضمر لا يكاد يستعمل معه .وهذه الآية الكريمة واقعة موقع الجواب عن سؤال يخطر في ذهن السامع للجملة السابقة ، إذ الشأن أن يقال عند سماعهم قوله - تعالى - : ( أَنْبِئُونِي بِأَسْمَآءِ هؤلاء ) ماذا كان من الملائكة؟ هل أنبأوا بأسماءِ المسميات المعروضة عليهم؟ فقال - تعالى - : ( قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَآ ) إلخ الآية .ولو قال الملائكة : لا علم لنا بأسماء هذه المسميات لكان جوابهم على قدر السؤال ، ولكنهم قصدوا الاعتراف بالعجز معرفة أسماء تلك المسميات المعروضة على أبلغ وجه فنفوا عن أنفسهم أن يعلموا شيئاً غير ما يعلمهم الله ، ودخل في ضمن هذا النفي العام الاعتراف بالقصور عن معرفة الأسماء المسئول عنها .ومعنى ( إِنَّكَ أَنْتَ العليم الحكيم ) أي : أنت يا ربنا العليم بكل شيء ، الحكيم في خلقك وأمرك وفي تعليمك ما تشاء ومنعك ما تشاء ، لك الحكمة في ذلك ، والعدل التام .وقدم الوصف بالعلم على الوصف بالحكمة ، ليكون وصفه بالعلم متصلا بنفيهم عن أنفسهم في قولهم : ( لاَ عِلْمَ لَنَآ إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَآ ) .

قال يا ادم انبئهم باسمائهم فلما انباهم باسمائهم قال الم اقل لكم اني اعلم غيب السماوات والارض واعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون

كما فسرها الوسيط وبعد أن بين القرآن أن الملائكة قد إعترفوا بالعجز عن معرفة ما سئلوا عنه ، وجه - سبحانه - الخطاب إلى آدم ، يأمره فيه بأن يخبر - الملائكة بالأسماء التي سئلوا عنها ، ولم يكونوا على علم بها ، فقال تعالى - :( قَالَ يَآءَادَمُ أَنبِئْهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السماوات والأرض وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ) .ففي هذه الآية الكريمة أخبرنا الله - تعالى - أنه قد أذن لآدم في أن يخبر الملائكة بالأسماء التي فاتتهم معرفتها ليظهر لهم فضل آدم ويزدادوا اطمئنانا إلى أن إسناد الخلافة إليه ، إنما هو تدبير قائم على حكمة بالغة .وعلم الغيب يختص به واجب الوجود - سبحانه لأنه هو الذي يعلم المغيبات بذاته ، وأما العلم بشيء من المغيبات الحاصل من تعليم الله فلا يقال لصاحبه إنه يعلم الغيب .وقوله - تعالى - ( أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِني أَعْلَمُ . . . ) إلخ الآية ، استحضار وتأكيد لمعنى قوله قبل ذلك ، ( إِني أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ) . وإعادة له على وجه من التفصيل أفاد أن علمه يشمل ما يظهرونه بأقوالهم أو أفعالهم ، وما يضمرونه في أنفسهم .وفي قوله : ( أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ . . . ) إلخ تعريض بمعاتبتهم على ترك الأولى ، حيث بادروا بالسؤال عن الحكمة ، وكان الأولى أن يأخذوا بالأدب المناسب لمقام الألوهية ، فيتركوا السؤال عنها إلى أن يستبين لهم أمرها - بوجه من وجوه العلم .ومن الفوائد التي تؤخذ من هذه الآيات ، أن الله تعالى - قد أظهر فيها فضل آدم - عليه السلام - من جهة أن علمه مستمد من تعليم الله له ، فإن إمداد الله له بالعلم يدل على أنه محاط منه برعاية ، ضافية ، ثم إن العلم الذي يحصل عن طريق النظر والفكر قد يعتريه الخلل ، ويحوم حوله الخطأ . فيقع صاحبه في الإفساد من حيث إنه يريد الإصلاح بخلاف العلم الذي يتلقاه الإنسان من تعليم الله ، فإنه علم مطابق للواقع قطعاً ، ولا يخشى من صاحبه أن يحيد عن سبيل الإصلاح ، وصاحب هذا العلم هو الذي يصلح للخلافة في الأرض ، ومن هنا ، كانت السياسة الشرعية أرشد من كل سياسة ، والأحكام النازلة من السماء أعدل من القوانين الناشئة في الأرض وبعد أن بين القرآن في الآيات السابقة بعض الكرامات التي خص الله بها آدم. انتقل إلى بيان كرامة أخرى أكرم الله بها آدم - عليه السلام - وهي أمره ، للملائكة بالسجود له ، ثم بيان ما حصل بينه وبين إبليس ، فقال - تعالى - :( وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسجدوا لأَدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أبى واستكبر . . . )

واذ قلنا للملائكة اسجدوا لادم فسجدوا الا ابليس ابى واستكبر وكان من الكافرين

كما فسرها الوسيط قوله - تعالى - : ( وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسجدوا لأَدَمَ . . . ) إلخ ، معطوف على قوله - تعالى قبل ذلك ( وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ . . . . ) إلخ ، من باب عطف القصة على القصة وإعادة ( إذ ) بعد حرف العطف المغني عن إعادة ظرفه ، تنبيه على أن الجملة ، مقصودة بذاتها ، لأنها متميزة بهذه القصة العجيبة فجاءت على أسلوب يؤذن بالاستقلال والاهتمام .والسجود : لغة التذلل والخضوع مع انخفاض بانحناء وغيره ، وخص في الشرع بوضع الجبهة على الأرض بقصد العبادة .وللعلماء في

كيفية السجود الذي أمر به الملائكة لآدم أقوال : أرجحها أن السجود المأمور
- به في الآية يحمل على المعنى المعروف في اللغة ، أي : أن الله - تعالى
أمرهم بفعل تجاه آدم يكون مظهراً من مظاهر التواضع والخضوع له تحية
، وتعظيماً ، وإقراراً له بالفضل دون وضع الجبهة على الأرض الذي هو عبادة
إذ عبادة غير الله شرك يتنزه الملائكة عنه .وعلى هذا الرأي سار علماء أهل
السنة . وقيل : إن السجود كان لله ، وآدم إنما كان كالقبلة يتوجه إليه
الساجدون تحية له ، وإلى هذا الرأي اتجه علماء المعتزلة ، وقد قالوا ذلك
هرباً من أن تكون الآية الكريمة حجة عليهم ، فإن أهل السنة قالوا : إبليس
من الملائكة ، والصالحون من البشر أفضل من الملائكة ، واحتجوا بسجود
الملائكة لآدم ، وخالفت المعتزلة في ذلك ، وقالت : الملائكة أفضل من البشر
وسجود الملائكة لآدم كان كالقبلة .والذي نراه أن ما سار عليه أهل السنة ،
أرجح ، لأن ما ذهب إليه المعتزلة يبعده أن المقام مقام لإظهار فضل آدم هو
لون من الابتلاء والاختبار ، ليميز الله الخبيث من الطيب ، وينفذ ما سبق به
العلم ، واقتضته المشيئة والحكمة :ثم بين - سبحانه - ما حدث من الملائكة
ومن إبليس فقال :( فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أبى واستكبر وَكَانَ مِنَ
الكافرين ) .إبليس : اسم مشتق من الإبلاس ، وهو الحزن الناشئ عن شدة اليأس
وفعله أبلس ، والراجح أنه اسم أعجمي ، ومنعه من الصرف للعلمية والعجمة ،
، وهو كائن حي ، وقد أخطأ من حمله على معنى داعي الشر الذي يخطر في النفوس
إذ ليس من المعقول أن يكون كذلك معنى داعي الشر الذي يخطر في النفوس ، إذ
ليس من المعقول أن يكون كذلك مع أن القرآن أخبرنا بأنه يرى الناس ولا يرونه
قال - تعالى - ( يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ .
تَرَوْنَهُمْ ) وقوله : ( أبى واستكبر ) الإباء : الامتناع عن الفعل أنفة
مع التمكن منه . والاستكبار : التكبر والتعاظم والغرور ، بمعنى أن يرى
الشخص في نفسه علواً على غيره ، وهو خلق مذموم .وكان في قوله : ( وَكَانَ
مِنَ الكافرين ) بمعنى صار .وجاء العطف في قوله ( فَسَجَدُواْ . . . )
بالفاء المفيدة للتعقيب ، للإشارة إلى أن الملائكة قد بادروا بالامتثال
بدون تردد ، ولم يصدهم ما كان في نفوسهم من التخوف من أن يكون هذا المخلوق
مظهر فساد وسفك دماء ، لأنهم منزهون عن المعاصي .وللعلماء في كون إبليس ،
من الملائكة أم لا قولان :أحدهما : أنه كان منهم لأنه - سبحانه - أمرهم
بالسجود لآدم ، ولولا أنه كان منهم لما توجه إليه الأمر بالسجود ، ولو لم
يتوجه إليه الأمر بالسجود لم يكن عاصياً ، ولما استحق الخزي والنكال .ولأن
الأصل في المستثنى أن يكون داخلا تحت اسم المستثنى منه حتى يقوم دليل على
أنه خارج عنه . وقد اختار هذا الرأي ابن عباس ، وابن مسعود وجمهور المفسرين
وقيل إنه ليس منهم لقوله - تعالى - ( إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجن.
، فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ) فهو أصل الجن ، كما أن آدم أصل الإنس
ولأنه خلق من نار ، والملائكة خلقوا من نور ، ولأن له ذرية ولا ذرية
للملائكة . وقد اختار هذا القول الحسن وقتادة وغيرهما .وقد حاول ابن القيم
أن يجمع بين الرأيين فقال : والصواب التفصيل في هذه المسألة ، وأن القولين
في الحقيقة قول واحد ، فإن إبليس كان من الملائكة بصورته وليس منهم بمادته
. وأصله . كان من نار وأصل الملائكة من نور ، فالنافي كونه من الملائكة
والمثبت لم يتواردا على محل واحد .ولما كان استثناء إبليس من الساجدين لا
يدل على أنه ترك السجود عصياناً ، إذ قد يكون تركه لعذر ، دل بقول : ( أبى
واستكبر ) على أنه امتنع من السجود أنفة ، وتعاظماً ، وأردف هذا التعاظم
، والغرور باعتراضه على الله - في تفصيل آدم ، فصار بذلك في فريق الكافرين
ولذا ختمت الآية بقوله - تعالى - : ( وَكَانَ مِنَ الكافرين ) أي : صار
بسبب عصيانه واستكباره من الكافرين بالله ، الجاحدين لنعمه ، البعيدين عن
. رحمته ورضوانه

وقلنا يا ادم اسكن انت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه
الشجرة فتكونا من الظالمين

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - ( وَقُلْنَا يَآءَادَمُ اسكن أَنْتَ
. . . وَزَوْجُكَ الجنة ) معطوف على قوله ( وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ
إلخ ) أي : بعد أن أمرنا الملائكة بالسجود لآدم ، قلنا يا آدم اسكن أنت
وزوجك الجنة ، فهذه تكرمه أكره الله بها بعد أن أكرمه بكرامة الإجلال من
تلقاء الملائكة .وقوله : ( اسكن ) أمر من السكنى بمعنى اتخاذ المسكن على
وجه الاستقرار .والزوج : يطلق على الرجل والمرأة والمراد به هنا حواء ، حيث
تقول العرب للمرأة زوج ، ولا تكاد تقول زوجة .والجنة : هي كل بستان ذي شجر
متكاثف ، ملتف الأغصان ، يظلل ما تحته ويستره ، من الجن ، وهو ستر الشيء عن
الحاسة .وجمهور أهل السنة على أن المراد بها هنا دار الثواب . التي أعدها
الله للمؤمنين يوم القيامة ، لأن هذا هو المتبادر إلى الذهن عند الإطلاق
ويرى جمهور علماء المعتزلة أن المراد بها هنا بستان بمكان مرتفع من الأرض.
خلقه الله لإسكان آدم وزوجه ، واختلفوا في مكانه ، فقيل بفلسطين . وقيل ،
بغيرها .وقد ساق الإمام ابن القيم في كتابه ( حادي الأرواح ) أدلة

الفريقين دون أن يرجح شيئاً منها .والأحوط والأسلم : الكف عن تعيينها وعن القطع به ، وإليه ذهب أبو حنيفة وأبو منصور الماتريدي في التأويلات ، إذ ليس لهذه المسألة تأثير في العقيدة .والمخاطب بالأمر ، بسكنى الجنة آدم وحواء ، ولكن الأسلوب جاء في صيغة الخطاب لآدم وعطفت عليه زوجه ، لأنه هو المقصود بالأمر وزوجه تبع له .ثم بين - سبحانه - أنه قد أباح لهما أن يأكلا من ثمار الجنة أكلا واسعا فقال : ( وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا ) أي كلا من مطاعم الجنة وثمارها أكلا هنيئاً أو واسعاً في أي مكان من الجنة أردتم .يقال : رغد عيش القوم أي : اتسع وطاب ، وأرغد القوم ، أي : أخصبوا وصاروا في رزق واسع .والضمير في قوله ( مِنْهَا ) يعود إلى الجنة ، والمراد بالأكل منها : الأكل من مطاعمها وثمارها ، لأن الجنة تستلزم ثماراً هي المقصودة بالأكل .ثم بين - سبحانه - أنه نهاهم عن الأكل من شجرة معينة فقال : ( وَلاَ تَقْرَبَا هذه الشجرة فَتَكُونَا مِنَ الظالمين ) .القرب : الدنو ، والمنهي عنه هو الأكل من ثمار الشجرة ، وتعليق النهي بالقرب منها إذ قال ( وَلاَ تَقْرَبَا ) القصد منه المبالغة في النهي عن الأكل ، إذ في النهي عن القرب من الشيء قطع لوسيلة التلبس سبه ، كما قال تعالى : ( وَلاَ تَقْرَبُوا الزنى ) فنهى عن القرب من الزنا ليقطع الوسيلة إلى ارتكابه وهي القرب منه . وأكد النبي بأن جعل عدم اجتناب الأكل من الشجرة ظلماً فقال : ( فَتَكُونَا مِنَ الظالمين ) وقد ظلما أنفسهما إذ أكلا منها ، فقد ترتب على أكلهما منها أن أخرجا من الجنة التي كانا يعيشان فيها عيشة راضية .وقد تكلم العلماء كثيراً عن اسم هذه الشجرة ونوعها فقيل هي التينة ، وقيل : هي السنبلة ، وقيل هي الكرم . . الخ . إلا أن القرآن لم يذكر نوعها على عادته في عدم التعرض لذكر ما لم يدع المقصود من سوق القصة " : إلى بيانه .وقد أحسن الإمام ابن جرير في التعبير عن هذا المعنى فقال والصواب في ذلك أن يقال : إن الله - تعالى - نهى آدم وزوجه عن الأكل من شجرة يعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها فأكلا منها ، ولا علم عندنا بأي شجرة كانت على التعيين ، لأن الله لم يضع لعباده دليلا على ذلك في القرآن ولا من السنة الصحيحة ، وقد قيل : كانت شجرة البر ، وقيل كانت شجرة العنب . وذلك علم إذا علم لم ينفع العالم به علمه ، وإن جهله جاهل لم يضره جهله به .

فازلهما الشيطان عنها فاخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الارض مستقر ومتاع الى حين

) : كما فسرها الوسيط ثم بين القرآن بعد ذلك ما وقع فيه آدم من خطأ فقال فَأَزَلَّهُمَا الشيطان عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ) أي اذهبهما عن الجنة عليهما ومقاسمته أنه لهما من الناصحين .وأزل من : الإزلال وهو الإزلاق : زل يزل زلا وزللا ، أي : زلق في طين أو منطق ، والاسم الزلة . وأزلة غيره واستزله : أي أزلقه . أطلق وأريد به لازمه وهو الإذهاب .وقرئ ( فَأَزَلَّهُمَا ) أي : نحاهما من الإزالة ، تقول أزلت الشيء عن مكانه إزالة : أي : نحيته وأذهبته عنه .ثم استعمل هذا اللفظ في ) : ارتكاب الخطيئة كما استعمل في خطأ الرأي مجازاً . والضمير في قوله عَنْهَا ) يعود إلى الشجرة ، ومعنى أزلهما عن الشجرة ، أوقعهما في الزلة بسببها .والتعبير بقوله : ( فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ) أبلغ في الدلالة على فخامة الخيرات التي كانا يتقلبان فيها مما لو قيل : فأخرجهما من النعيم أو من الجنة لأن من أساليب البلاغة في الدلالة على عظم الشيء أن يعبر عنه بلفظ مبهم كما هنا . لكي تذهب نفس السامع في تصور عظمته وكماله إلى أقصى ما يمكنها أن تذهب إليه .ونسبة إخراجهما من الجنة إلى الشيطان في ، قوله : ( فَأَخْرَجَهُمَا ) من قبيل نسبة الفعل إلى ما كان سبباً فيه وذلك أن أكلهما من الشجرة الذي ترتب عليه إخراجهما من الجنة إنما وقع بسبب وسوسة الشيطان لهما .وقوله - تعالى - ( وَقُلْنَا اهبطوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ) الخطاب فيه لآدم وحواء ونسلهما .والهبوط : النزول من أعلى إلى أسفل ضد الصعود . يقال : هبط يهبط ويهبُط أي : نزل من علو إلى أسفل .والعداوة معناها التناكر والتنافر بالقلوب .أي : قلنا لآدم وحواء والشيطان انزلوا إلى الأرض متنافرين متباغضين ، يبغى بعضكم على بعض .وعداوة : الشيطان لآدم نشأت عن حسد وتكبر منذ أن أمِر بالسجود فأبى وامتنع وقال أنا خير منه .وعداوة آدم وذريته للشيطان من جهة أنه يكيد لهم بالوسوسة والإغراء وفي هذه الجملة الكريمة إرشاد لآدم وذريته ، ونهى لهم عن اتباع الخطوات الشيطان ، لأنه عدو لهم ، ومن شأن العدو أنه يسعى لمضرة عدوه قال - تعالى - ( إِنَّ الشيطان لَكُمْ عَدُوٌّ فاتخذوه عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَابِ السعير ) ثم ختمت الآية بقوله - تعالى - : ( وَلَكُمْ فِي الأرض مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إلى حِينٍ ) المستقر : موضع الاستقرار والثبات ، وهو مقابل القلق والاضطراب ، والمتاع اسم لما يستمتع به من مأكل ومشرب وملبس وحياة وأنس وغير ذلك ، مأخوذ من : متع النهار متوعاً إذا ارتفع ، ويطلق على الانتفاع الممتد الوقت .والحين :

الجزء من الزمان غير محدد بحد ، والمراد به هنا وقت الموت أو يوم القيامة والمعنى : انزلوا إلى الأرض بعضكم لبعض عدو؛ ولكم فيها منزل وموضع استقرار. وتمتع بالعيش إلى أن يأتيكم الموت .ومن كان على ذكر دائم من أن استقراره . في الأرض وتمتعه بنعيمها سينتهي في وقت ، لا يدري متى يدركه ، فشأنه أن ينتفع بخيراتها ويتمتع بطيب العيش فيها ، وهو مقبل على العمل لمرضاة الله ما استطاع ، وشاكر لأنعمه بالقلب واللسان ، لا يشغله عن الشكر شاغل من ملذات هذه الحياة ومظاهر زينتها .

فتلقى ادم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم

كما فسرها الوسيط ثم حكى القرآن أن آدم قد بادر بطلب العو والمغفرة من ربه فقال : ( فتلقى ءَادَمُ مِن رّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنّهُ هُوَ التواب الرحيم ) .التلقي في الأصل : التعرض للقاء ، ثم استعمل بمعنى أخذ الشيء وقبوله ، تقول : تلقيت رسالة من فلان . أي أخذتها منه وقبلتها والكلمات : جمع كلمة ، وهي اللفظة الموضوعة لمعنى ، وأرجح ما قيل في تعيين هذه الكلمات ، ما أشار إليه القرآن في سورة الأعراف بقوله :( قَالاَ رَبّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنّ مِنَ الخاسرين ) والتوبة في أصل اللغة معناها : الرجوع ، وإذا عديت بعن كان معناها الرجوع عن المعصية إلى الطاعة ، وإذا عديت بعلى - كما في هذه الآية - كان معناها قبول التوبة ، فالعبد يتوب عن المعصية ، والله يتوب على العبد أي : يقبل توبته .وجملة ( إِنّهُ هُوَ التواب الرحيم ) - واردة مورد التعليل لقوله : ( فَتَابَ عَلَيْهِ ) .والتواب وصف له تعالى - من تاب ، أي : قبل التوبة ، وجاء التعبير بصيغة فعّال : للإشعار بأنه كثير القبول للتوبة من عباده ، وليدل على أنه يقبل توبة العبد وإن وقعت بعد ذنب يرتكبه ويتوب منه ثم يعود إليه بعد التوبة ثم يتوب بعد العودة إليه توبة صادقة نصوحاً .

قلنا اهبطوا منها جميعا فاما ياتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون

كما فسرها الوسيط ( قُلْنَا اهبطوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمّا يَأْتِيَنّكُم مّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ) .وليست هذه الإعادة من قبيل التكرار الذي يقصد منه مجرد التوكيد ، بل قص الأمر بالهبوط أولا ليعلق عليه معنى؛ هو كون بعضهم لبعض عدواً .ثم قصة ثانية ليعلق عليه معنى آخر هو ما ترتب على الهبوط من تفصيل لحال المخاطبين ، وانقسامهم إلى مهتدين وضالين .والفاء في قوله (فَإِمَّا ) لإفادة ترتيب انقسام المخاطبين إلى مهتدين وكافرين على الهبوط المفهوم من قوله : ( اهبطوا ) .و ( إمّا ) هي إن الشرطية دخلت عليها " ما " لإفادة التوكيد ، ويغلب على فعل شرطها أن يكون مؤكداً بالنون وأوجب بعضهم ذلك .والهدى من الله معناه الدلالة على ما هو حق وخير بلسان رسول ، أو بآيات كتاب .وقد صرح - سبحانه - بأن الهدى صادر منه بقوله ( مِّنِّي هُدًى ) ثم أضافه إلى نفسه بقوله : ( هُدَايَ ) للإيذان بتعظيم أمر الهدى؛ وأنه أحق بأن يتبع ، ويتخذ سبيلا لطمأنينة النفس في الدنيا ، والفوز بالسعادة في الأخرى .والخوف : الفزع وهو تألم النفس من مكروه يتوقع حصوله .والحزن : الغم الحاصل لوقوع مكروه أو فقد محبوب .ومعنى ( لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ) أن نفوسهم آمنة مطمئنة بحيث لا يعتريها فزع ، ولا ينتابها ذعر كما أن قوله : ( وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ) ينفي عنهم الاغتمام لفوات مطلوب أو فقد محبوب .ونفي الخوف والحزن ورد في الآية على وجه الإطلاق ، وظاهره أن المهتدين لا يعتريهم الخوف ولا الحزن في دنياهم ولا في آخرتهم ، ولكن قوله - تعالى - فيما يقابله من جزاء الكافرين ( أُولَئِكَ أَصْحَابُ النار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ) يرجح أن يكون المراد نفي الخوف والحزن في الدار الآخرة .

والذين كفروا وكذبوا باياتنا اولئك اصحاب النار هم فيها خالدون

كما فسرها الوسيط ونفى الخوف والحزن عن المهتدين يوم القيامة كناية عن سلامتهم من العذاب وفوزهم بالنعيم الخالد في الجنة ، فتمت المقابلة بين جزاء المهتدين وجزاء الكافرين المشار إليه بقوله - تعالى - :( والذين كَفَرواْ وَكَذّبُواْ بِآيَاتِنَآ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ) .إذ هذه الآية الكريمة معطوفة على قوله - تعالى - ( فَمَن تَبِعَ هُدَايَ ) . إلخ ، ووراده مورد المقابل له في تفصيل أحوال من يأتيهم الهدى من الله .ولم يقل : والذين لم يتبعوا هداي أولئك أصحاب النار . . وإنما قال : ( والذين كَفَرواْ وَكَذّبُواْ بِآيَاتِنَآ أُولَئِكَ . . . ) إلخ وذلك لأن من لم يتبع هدى الله يشمل من لم تبلغه الدعوة ، وغير المكلفين ،

) : مثل الصبيان وفاقدي العقل ، وهؤلاء ليسو من أصحاب النار . فظهر أن قوله
والذين كَفَروا وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَآ . . . ) جيء به على قدر من
يستحقون الحكم عليهم بأنهم من أصحاب النار والمجازاة بالعذاب الخالد الأليم
والآيات : جمع آية ، وهي في الأصل العلامة ، وتستعمل في الطائفة من الكتاب.
المنزل ، وفيما يستدل به على وجود الله وتوحيده ، من نحو بدائع مصنوعاته
) : ومظاهر عنايته بالإنسان .وأضاف - سبحانه - الآيات إلى نفسه فقال
) بِآيَاتِنَآ ) ليكون قبح التكذيب بها أظهر ، وأتى بنون العظمة فقال
بآياتنا ) دون أن يقول " بآياتي " لبعث المهابة في نفوس السامعين ، وذلك
، أدعى إلى تلقي الوعيد باهتمام وخشية .وأصحاب : جمع صاحب مأخوذ من الصحبة
وهي الاقتران والملازمة ، ودل بقوله : ( هُمْ فِيهَا خَالِدُون ) على أن
صحبتهم للنار دائمة ، وليست من الصحبة التي تستمر مدة ثم تنقطع .هذا جانب
من قصة آدم كما حكاه القرآن في هذه السورة ، ومن الحكم التي تؤخذ منها : أن
سياسة الأمم على الطريقة المثلى إنما تقوم على أساس راسخ من العلم ، وأن
فضل العلم النافع فوق فضل العبادة ، وأن روح الشر الخبيثة إذا طغت على نفس
، من النفوس ، جعلتها لا ترى البراهين الساطعة ، ولا يوجهها إلى الخير وعد
ولا يردعها عن الشر وعيد .كما يستفاد منها كيف أن الرئيس يفسح المجال
لمرؤوسيه المخلصين ، يجادلونه في أمر يريد قضاءه ، ولا يزيد عن أن يبين لهم
وجهة نظره في رفق ، وإذا تجاوزوا حدود الأدب اللائق به راعى في عتابهم ما
عرفه فيهم من سلامة القلب ، وتلقى أوامره بحسن الطاعة .كما يؤخذ منها أن
المتقلب في نعمة يجب أن يحافظ عليها بشكر الله ، ولا يعمل عملا فيه مخالفة
، لأوامر الله؛ لأن مخالفة أوامر الله ، كثيراً ما تؤدى إلى زوال النعمة
ومن أراد أن تزداد النعم بين يديه ، فعليه أن يلتزم طاعة الله وشكره .وقال
بعض العلماء : وقد يتبادر إلى الذهن أن آدم قد ارتكب ما نهى عنه ، ارتكاب
من يتعمد المخالفة ، فيكون أكله من الشجرة معصية ، مع أنه من الأنبياء
المرسلين ، والرسل معصومون من مخالفة أوامر الله .والجواب عن ذلك أن آدم
تعمد الأكل من الشجرة ، ناسياً النهي عن الأكل منها ، وفعل المنهي عنه على
وجه النسيان لا يعد من قبيل المعاصي التي يرتكبها الشخص وهو متذكر أنه
يرتكب محرماً ، إذ أن ارتكاب المحرم عن علم وتذكر هو الذي يجعل مرتكبه
مستحقاً للعقاب ، والأنبياء معصومون من ذلك .وإذا عاتب الله بعض الأخبار من
عباده عل ى ما مصدر منهم على وجه النسيان ، فلأن علمهم بالنهي يدعوهم إلى
أن يقع النهي من نفوسهم موقع الاهتمام ، بحيث يستفظعون مخالفته استفظاعاً
يملأ نفوسهم بالنفور منها ، ويجعلهم على حذر من الوقوع في بلائها .فالذي
وقع من آدم - عليه السلام - هو أنه غفل عن الأخذ بالحزم في استحضار النهي
، وجعله نصب عينيه حتى أدركه النسيان ، ففعل ما نهى عنه غير متعمد للمخالفة
قال - تعالى - :( وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إلى ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ
وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ) هذا ، وبعد أن ذكر القرآن الكريم الناس
جميعاً بنعم الله عليهم ، ليحملهم بذلك على إخلاص العبادة له ، وتصديق
رسوله صلى الله عليه وسلم فيما جاء به ، ومن بين هذه النعم خلق آدم وإظهار
فضله على الملائكة ، بعد كل ذلك اتجه إلى تذكير طائفة خاصة من الكافرين
المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم وهم بنو إسرائيل ، استمالة لقلوبهم نحو
الإيمان بالله ، وكسرا لعنادهم ولجاجتهم ، فقال - تعالى - :( يَابَنِي
إِسْرَائِيلَ اذكروا نِعْمَتِيَ التي أَنْعَمْتُ . . . ) .

يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي انعمت عليكم واوفوا بعهدي اوف بعهدكم
واياي فارهبون

- كما فسرها الوسيط إسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - عليهم السلام
وفي إضافتهم إلى أبيهم إسرائيل تشريف لهم وتكريم ، وحث لهم على الامتثال
، لأوامر الله ونواهيه ، فكأنه قيل : يا بني العبد الصالح ، والنبي الكريم
كونوا مثل أبيكم في الطاعة والعبادة .ويستعمل مثل هذا التعبير في مقام
الترغيب والترهيب ، بناء على أن الحسنة في نفسها حسنة وهي من بيت النبوة
. أحسن ، والسيئة في نفسها سيئة وهي من بيت النبوة أسوأ ، ففي هذا النداء
خير داع لذوي الفطر السليمة منهم إلى الإقبال على ما يرد بعده من التذكير
بالنعمة ، واستعمالها فيما خلقت له .ومعنى ( اذكروا نِعْمَتِيَ التي
أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ) تنبهوا بعقولكم وقلوبكم لتلك المنافع التي أتتكم
، على سبيل الإحسان منى ، وقوموا بحقوقها وأكثروا من الحديث عنها بألسنتكم
فإن التحدث بنعم الله فيه إغراء بشكرها .والمراد بنعمة : المنعم بها عليهم
وتجمع على نعم ، وقد وردت في القرآن الكريم بمعنى الجمع كما في قوله ،
تعالى : ( وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ الله لاَ تُحْصُوهَا ) فإن لفظ العدد
والإحصاء قرينة على أن المراد بالنعمة : النعم الكثيرة ، ويبدوا أن المراد
بالنعمة في الآية التي معنا كذلك النعم المتعددة حيث إنه لم يقم دليل على
أن المراد بها نعمة معهودة ، وعلماء البيان يعدون استعمال المفرد في معنى
- الجمع - اعتماداً على القرينة - من أبلغ الأساليب الكلامية .ثم أمرهم
سبحانه - بالوفاء بما عاهدهم عليه ، فقال تعالى : ( وَأَوْفُواْ بعهدي

أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ) العهد ما من شأنه أن يراعى ويحفظ ، كاليمين والوصية وغيرهما ، ويضاف إلى المعاهد والمعاهد جميعاً ، يقال : أوفيت بعهدي ، أي : بما عاهدت غيري عليه ، وأوفيت بعهدك ، أي بما عاهدتني عليه ، وعهد الله أوامره ونواهيه ، والوفاء به يتأتى باتباع ما أمر به ، واجتناب ما نهى عنه ويندرج فيه كل ما أخذ على بني إسرائيل من التوراة ، من اتباع محمد صلى الله عليه وسلم متى بعث ، والإيمان بما جاء به من عند الله وتصديقه فيما ، يخبر عن ربه .والمعنى : وأوفوا بما عاهدتموني عليه من الإيمان بي والطاعة لي ، والتصديق برسلي ، أوف بما عاهدتكم عليه من التمكين في الأرض في الدنيا والسعادة في الآخرة .ثم أمرهم - سبحانه - بأن يجعلوا خوفهم من خالقهم وحده ، فقال - تعالى - ( وَإِيَّايَ فارهبون ) أي : خافوني ولا تخافوا سواي ، ولتكم قلوبكم عامرة بخشيتي وحدي ، فإن ذلك يعينكم على طاعتي ويبعدكم عن معصيتي .وحذف متعلق الرهبة للعموم ، أي ارهبوني في جميع ما ، تأتون ، وما تذرون ، حتى لا أنزل بكم من النقم مثل ما أنزلت بمن قبلكم من المسخ وغيره ، فالآيات الكريمة قد تضمنت وعداً ووعيداً وترغيباً وترهيباً .

وامنوا بما انزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا اول كافر به ولا تشتروا باياتي ثمنا قليلا واياي فاتقون

كما فسرها الوسيط ( وَآمِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ وبعد أن أمر الله - عز وجل - بني إسرائيل ، أن يوفوا بعهده عموماً أتبع. ( ذلك بأمرهم بأن يوفوا بأمر خاص وهو القرآن الكريم ، وفي التعبير عنه بذلك تعظيم لشأنه ، وتفخيم لأمره . وأفرد - سبحانه - أمرهم بأن يؤمنوا به مع إندراجه في قوله - تعالى - ( وَأَوْفُواْ بعهدي ) للإشارة إلى أن الوفاء ، بالعهد لا يحصل منهم إلا إذا صدقوا به .والمراد بما معهم التوراة والتعبير عنها بذلك للإشعار بعلمهم بتصديقه لها . والمعنى : آمنوا يا بني إسرائيل بالكتاب المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم وهو القرآن الكريم المصدق لكتابكم التوارة ، ومن مظاهر هذا التصديق اشتمال دعوته على ما يحقق ، دعوتها ، من الأمر بتوحيد الله - تعالى - والحث على التمسك بالفضائل والبعد عن الرذائل ، وإخباره بما جاء بها من الإشارة إلى بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ومطابقة ما وصفته به مطابقة واضحة جلية وموافقته لها في " : - أصول الدين الكلية ، وهيمنته عليها ، ولذا قال - عليه الصلاة والسلام لو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي " .وفي إخبار بني إسرائيل بأن القرآن ، الكريم مصدق لما معهم ، إثارة لهممهم لو كانوا يعقلون - للإقبال عليه متدبرين آياته ، حتى تستيقن نفوسهم أنه دعوة الحق والإصلاح المؤدية إلى السعادة في الدنيا والآخرة وحتى تطمئن قلوبهم إلى أن الإيمان به معناه الإيمان بما معهم ، والكفر به ، كفر بما بين أيديهم ، حيث إن ما بين أيديهم قد بشر ببعثة محمد - صلى الله عليه وسلم - المنزل عليه القرآن - الكريم .قال الإمام الرازي : ( وهذه الجملة الكريمة تدل على صدق النبي ، صلى الله عليه وسلم - من وجهين :أولهما : أن الكتب السابقة قد بشرت به وشهاداتها لا تكون إلا حقاً .وثانيهما : أنه - عليه الصلاة والسلام - قد أخبرهم عما في كتبهم بدون معرفة سابقة لها ، وهذا لا يتأتى إلا عن طريق الوحي .وبعد أن أمرهم - سبحانه - بالإيمان الخالص ، عرض بهم لتكذيبهم وجحوهم ، فقال - تعالى - : ( وَلاَ تكونوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ) أي :لا تكونوا أول فريق من أهل الكتاب يكفر بالقرآن الكريم ، فيقتدى بكم أناس آخرون وبهذا تصيرون أئمة للكفر مع أن من الواجب عليكم أن تسارعوا إلى الإيمان به لأنكم أدرى الناس بأنهن من عند الله ، وأكثرهم علماً بأنه الرسول الذي نزل عليه هذا القرآن ، وهو الصادق الأمين فيما يبلغه عن ربه ، والمقصود من هذه الجملة الكريمة ، تبكيتهم على مسارعتهم في الكفر. واستعظام وقوع الجحود منهم ، وتوعدهم عليه بسوء المآل .قال الإمام الرازي : هذه الجملة خطاب لبني إسرائيل قبل غيرهم فكأنه - سبحانه - يقول لهم ) : لا تكفروا بمحمد ، فإنه سيكون بعدكم كفرة ، فلا تكونوا أنتم أولهم لأن هذه الأولية موجبة لمزيد الإثم ، وذلك لأنهم إذا سُبقوا إلى الكفر ، فإما أن يقتدى بهم غيرهم أولا ، فإن اقتدى بهم غيرهم كان عليهم وزره ووزر كل كافر إلى يوم القيامة ، وإن لم يقتد بهم غيرهم ، اجتمع عليهم أمران : السبق إلى الكفر؛ والتفرد به وكلاهما منقصة عظيمة ، وتؤدى إلى العاقبة الوبيلة ) .ثم نهاهم عن أن يبيعوا دينهم بدنياهم ، فقال - تعالى - : ( وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً ) .والاشتراء هنا استعارة للاستبدال ، والذي استبدل به الثمن القليل هو الإيمان بالآيات ، والمراد بالآيات : البراهين المؤيدة لصدق النبي صلى الله عليه وسلم وفي مقدمتها القرآن الكريم والتوراة والمراد بالثمن القليل : حظوظ الدنيا وشهواتها من نحو الرياسة والمال. والجاه ، وما إلى ذلك من الأمور التي خافوا ضياعها لو اتبعوا الرسول صلى الله عليه وسلم .والمعنى :لا تستبدلوا بالإيمان بما أنزلت مصدقاً لما ، معكم شيئاً من حطام الدنيا ، ولا تختاروا على ثواب الله بديلا من الأموال فإنها مما كثرت فهي قليلة مسترذلة بالنسبة لما يناله أولو الإيمان الخالص

من رعاية ضافية في الدنيا ، وخيرات حسان في الأخرى .وليس وصف الثمن بالقلة من الأوصاف المخصصة للنكرات ، بقل هو من الأوصاف اللازمة للثمن المحصل بالآيات؛ إذ لا يكون إلا قليلا وإن بلغ ما بلغ من أعراض الدنيا بجانب رضا الله - عز وجل - .ونزل تمكينهم من الإيمان بالآيات لوضوحها منزلة حصوله بالفعل ، فكأن الإيمان كان في حوزتهم ، ولكنهم خلعوه ، ونبذوه ، مستبدلين الذي هو أدنى بالذي هو خير؛ فباءوا بغضب على غضب لكفرهم بالقرآن الكريم - وبتوراتهم التي بشرت بالرسول - عليه الصلاة والسلام- .ثم حذرهم - سبحانه من التمادي في الكفر بما أنزل ، مصدقاً لما معهم ، فقال - تعالى " وإياي فاتقون " الاتقاء معناه الحذر ، يقال : فلان اتقى الله أي حذر عقابه وبطشه " والحذر من عقاب الله ، يستلزم امتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، فمعنى ، وإياي فانقون " آمنوا بي ، واتبعوا الحق وأعرضوا عن الباطل .

ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وانتم تعلمون

كما فسرها الوسيط وبعد أن نهى القرآن الكريم بني إسرائيل عن الكفر والضلال عقب ذلك بنهيهم عن أن يعملوا لإضلال غيرهم ، فقال - ( وَلاَ تَلْبِسُواْ الحق بالباطل وَتَكْتُمُواْ الحق وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ) .اللبس - بفتح اللام - الخلط ، وفعله : ليس ، من باب : ضرب تقول : لبَست عليه الأمر ألبسه إذا مزجت بينه بمشكله ، وحقه بباطله .ولدعاة الضلالة طريقتان في إغواء الناس :إحداهما : طريقة خلط الحق بالباطل حتى لا يتميز أحدهما عن الآخر وهي المشار إليها بقوله تعالى : ( وَلاَ تَلْبِسُواْ الحق بالباطل ) والثانية : طريقة جحد الحق وإخفائه حتى لا يظهر ، وهي المشار إليها بقوله. تعالى : ( وَتَكْتُمُواْ الحق ) .وقد استعمل بنو إسرائيل الطريقتين لصرف - الناس عن الإسلام ، قد كان بعضهم يؤول نصوص كتبهم الدالة على صدق النبي صلى الله عليه وسلم - تأويلا فاسداً ، يخلصون فيه الحق بالباطل ، ليوهموا العامة أنه ليس هو النبي المنتظر ، وكان بعضهم يلقى حول الحق الظاهر شبهاً لوقع ضعفاء الإيمان في حيرة وتردد ، وكان بعضهم يخفى أو يحذف النصوص ، الدالة على صدق النبي صلى الله عليه وسلم ، والتي لا توافق أهواءهم وشهواتهم ، فنهاهم الله - تعالى - عن هذه التصرفات الخبيثة .والمعنى : ولا تخلطوا الحق الواضح الذي نطقت به الكتب السماوية ، وأيدته العقول السليمة ، بالباطل الذي تخترعونه من عند أنفسكم ، إرضاء لأهوائكم ، ولا تكتموا الحق الذي تعرفونه ، كما تعرفون أبناءكم ، بغية انصراف الناس عنه " لأن من جهل شيئا عاداه ، فالنهي الأول عن التغيير والخلط ، والنهي الثاني عن الكتمان والإخفاء .وقوله تعالى ( وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ) جملة حالية ، أي وأنتم ، من ذوي العلم ، ولا يناسب من كان كذلك أن يكتم الحق ، أو يلبسه بالباطل وإذا كان هذا الفعل - وهو لبس الحق بالباطل ، أو كتمانه وإظهار الباطل وحده - يعد من كبائر الذنوب ، فإن وقعه يكون أقبح ، وفساده أكبر ، وعاقبته أشأم متى صدر من عالم فاهم ، يميز بين الحق والباطل .ففي هذه الجملة ، الكريمة بيان لحال بني إسرائيل ، المخاطبين بهذا النهي ، وتبكيت لهم لأنهم لم يفعلوا ما فعله عن جهالة ، وإنما عن علم وإصرار على سلوك هذا الطريق المعوج .قال أبو حيان في البحر : " وهذه الحال ، وإن كان ظاهرها أنها قيد في النهي عن اللبس والكتم ، فلا تدل بمفهومها على جواز اللبس ، والكتم حالة الجهل ، إذ الجاهل بحال الشيء لا يردي كونه حقاً أو باطلا وإنما فادئتها بيان أن الإقدام على الأشياء القبيحة ، مع العلم بها ، أفحش من الإقدام عليها مع الجهل .

واقيموا الصلاة واتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين

كما فسرها الوسيط وبعد أن أمرهم - سبحانه - بأصل الدين الذي هو الإيمان به وبرسوله محمد صلى الله عليه وسلم أردفه بركنين من أركانه العملية ، إذا قاموا بهما لانت قلوبهم للحق ، وانعطفت نفوسهم نحو خشية الله وحده ، فقال تعالى : ( وَأَقِيمُواْ الصلاة وَآتُواْ الزكاة واركعوا مَعَ الراكعين ) . والمراد بإقامة الصلاة ، أداؤها مستوفية لأركانها وشرائطها وآدابها والمراد بإيتاء الزكاة دفعها لمستحقيها كاملة غير منقوصة .والمعنى : عليكم يا معشر اليهود أن تحافظوا على أداء الصلاة ، التي هي أعظم العبادات البدنية ، وعلى إيتاء الزكاة التي هي أعظم العبادات المالية ، وأن تخضعوا لما يلزمكم في دين الله - تعالى - لأن في محافظتكم على هذه العبادات تطهيراً لقلوبكم ، وتأليفاً لنفوسكم ، وتزكية لمشاعركم ، ولأنكم إن لم تحافظوا عليها كما أمركم الله - تعالى - فسيلحقكم الخزي في الدنيا ، والعذاب في الأخرى .هذا ، ونرى من المناسب أن نختم تفسير هذه الآيات الكريمة ، وبيان ما اشتملت عليه من توجيه سليم ، وتركيب بليغ ، بما قاله أبو حيان في تفسيره ، فقال قال - رحمه الله - :" وفي هذه الجمل - وإن كانت معطوفات بالواو التي لا تقتضي في الوضع ترتيباً - ترتيبٌ عيجب من الفصاحة ، وبناء الكلام بعضه على بعض ، وذلك أنه تعالى أمرهم أولا بذكر النعمة التي

أنعمها عليهم ، إذ في ذلك ما يدعو إلى محبة المنعم ووجوب طاعته : ثم أمرهم بإيفاء العهد الذي التزموه للمنعم ، ثم رغبهم بترتيب إيفائه هو تعالى بعهدهم في الإيفاء بالعهد ، ثم أمرهم بالخوف من نقمة إن لم يوفوا ، فاكتنف الأمر بالإيفاء أمر بذكر النعمة والإحسان ، وأمر بالخوف من العصيان . ثم أعقب ذلك بالأمر بإيمان خاص وهو ما أنزل من القرآن ، ورغب في ذلك بأنه مصدق لما معهم ، فليس أمراً مخالفاً لما في أيديهم ، لأن الانتقال إلى الموافق أقرب من الانتقال إلى المخالف ثم نهاهم عن استبدال الخسيس بالنفيس ، ثم أمرهم - تعالى - باتقائه ثم أعقب ذلك بالنهي عن لبس الحق بالباطل ، وعن كتم الحق ، فكان الأمر بالإيمان أمراً بترك الضلال ، والنهي عن لبس الحق بالباطل ، وكتمان الحق تركاً للإضلال . ولما كان الضلال ناشئاً عن أمرين : إما تمويه الباطل حقاً ، إن كانت الدلائل قد بلغت المستمع ، وإما عن كتمان الدلائل إن كانت لم تبلغه ، أشار إلى الأمرين بلا تلبسوا وتكتموا ، ثم قبح عليهم هذين الوصفين مع وجود العلم ، ثم أمرهم بعد تحصيل الإيمان وإظهار الحق بإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، لأن الصلاة آكد العبادات البدنية ، والزكاة آكد العبادات المالية ثم ختم ذلك بالأمر بالانقياد والخضوع له - تعالى - مع جملة الخاضعين الطائعين . فكان افتتاح هذه الآيات بذكر النعم واختتامها بالانقياد للمنعم ، وما بينهما من تكاليف اعتقادية وأفعال بدنية ومالية ، وبنحو ما تضمنته هذه الآيات من الافتتاح والإرداف والاختتام يظهر فضل كلام الله - تعالى - على سائر الكلام ، وهذه الأوامر والنواهي ، وإن كانت خاصة ببنى إسرائيل في الصورة ، إلا أنها عامة في المعنى ، فيجب على كل مكلف في كل زمان ومكان أن يعمل به " . وبعد كل هذه الأوامر والنواهي ، وبخهم الله - تعالى - وقرعهم على ارتكابهم لأمور لا تصدر عن عاقل . وهي أنهم يأمرون الناس بالخير ولا يفعلونه ، فقال تعالى : ( أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ . . . )

اتامرون الناس بالبر وتنسون انفسكم وانتم تتلون الكتاب افلا تعقلون

كما فسرها الوسيط الأمر : طلب إيجاد الفعل . والبر : اسم يتناول كل عمل من أعمال الخير . والنسيان : ضد الذكر ، وهو السهو الحادث بعد حصول العلم . والعقل : يطلق على قوة في النفس ، تستعد بها لقبول العلم . وإدراك الشيء والمعنى : كيف يليق بكم يا معشر اليهود ، وأنتم تأمرون الناس بأمهات الفضائل ، وألوان الخيرات ، أن تنسوا أنفسكم ، فلا تأمروا بما تأمرون به غيركم ، وأنتم مع ذلك تقرأون توراتكم ، وتدركون أي عقوبة أليمة لمن يأمر الناس بالخير وينسى نفسه ، أفلا عقل لكم يحبسكم عن هذا السفه الذي تردتيم فيه ، ويذحركم من سوء عاقبته . قال ابن عباس - رضي الله عنهما - كان يهود المدينة يقول الرجل منهم لصهره ، ولذى قرابته ، ولمن بينه وبينه صلة من المسلمين أثبت على الذي أنت عليه ، وما يأمرك به هذا الرجل يريدون محمداً صلى الله عليه وسلم - فإن أمره حق ، فكانوا يأمرون بالناس بذلك ولا يفعلونه ، والمراد بالنسيان في الآية الكريمة ، تركهم العمل بما يأمرون به غيرهم . لأن الناسي حقيقة ليس مؤاخذا على مانسيه ، فلا يستحق هذا التوبيخ الشديد الوارد في الآية الكريمة ، وليس التوبيخ متوجها إلى كونهم كانوا يأمرون الناس بالبر ، لأنهن فعل محمود ، وإنما التوبيخ متوجه إلى كونهم تركوا العمل بما يرشدون إليه سواهم ، فهم يداوون الناس ، وقلوبهم مليئة بالأمراض والعلل . وقوله تعالى : ( أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ) أسمى أنواع الهداية وآلإرشاد السليم ، فإن من ألطف الأساليب في الخطاب والتوجيه ، أن يكون للموجه إليه النصح صفة من شأنها أن تسوقه إلى خير ، ولكنه ينساق إلى غيره من أنواع الشرور فيقع فعله من الناس موقع الدهشة والغرابة ، فيذكر له مسدى النصح تلك الصفة في معرض الاستفهام بغية تذكيره بأن ما صدر منه لا يلتقى مع ما عرف عنه . وتطبيقاً لهذا المبدأ نقول : إن المخاطبين بقوله تعالى : ( أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ) يعقلون ويدركون الأشياء ، وبهذا الإدراك توجه إليهم التكليف بالعقائد والشرائع ، ولكنهم لم يسيروا على مقتضي ما لديهم من عقول - حيث كانوا يأمرون الناس بالخير ، ويصرفون أنفسهم عنه ، فكأنه - سبحانه ، يقول لهم : إن ما أتيتم من أفعال سقيمة . يجعل الناظر إليكم يحكم عليكم بلا أدنى تردد بأنكم لا عقول لكم ، ولا فضيلة لديكم ، وفي هذا الأسلوب ما فيه من الترغيب في فعل الخير؛ والترهيب من فعل الشر . ولما كانت الأمور التي كلفهم الله بها قبل ذلك فيها مشقة لا يتحملها كل أحد بسهولة . فقد أرشدهم إلى الوسائل التي تقوى عزائمهم ، وتطهر قلوبهم ، وتعالج أمراض نفوسهم فقال تعالى : ( واستعينوا بالصبر والصلاة . . . )

واستعينوا بالصبر والصلاة وانها لكبيرة الا على الخاشعين

كما فسرها الوسيط قوله تعالى : ( واستعينوا بالصبر والصلاة ) الاستعانة : طلب المعونة ، والصبر حبس النفس على ما نكره . يقال : صبر على الطاعة . أي حبس نفسه عليها متحملا ما يلاقيه في أدائها من مشاق وصبر عن المعصية . أي

كف نفسه عما تنزع إليه من أهواء .والمعنى : واستعينوا على ترك ما تحبون من
شهوات الدنيا ، والدخول فيما تستثقله نفوسكم من قبول الإسلام ، والتقيد
بتكاليفه بفضيلة الصبر التي تحجز أنفسكم من غشيان الموبقات ، وبفريضة
الصلاة التي تنهاكم عن الفحشاء والمنكر .قوله تعالى : ( وَإِنَّهَا
لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الخاشعين ) كبيرة : أي صعبة شاقة . يقال كبر
الشيء إذا شق وثقل ، ومنه قوله تعالى : ( كَبُرَ عَلَى المشركين مَا
تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ) أي ثقل وصعب - والخاشعين : من الخشوع وهو في الأصل
، اللين والسهولة " ومعناه في الآية الكريمة . الخضوع والاستكانة لله تعالى
، والضمير في - إنها - للصلاة لعظيم شأنها واستجماعها لضربو من الصبر
والاستثناء مفرغ . أي كبيرة على كل الناس إلا على الخاشعين .والمعنى : إن
الصلاة صعبة إلا على الخاضعين المخبتين المتطامنة قلوبهم وجوارحهم لله
تعالى لأنهم موقنون أنها من أهم وسائل الفلاح في الدنيا ، والسعادة في
الآخرة ، ولأنهم يجدون عند أدائها اغتباطاً وسروراً يجعل نفوسهم تنشط إليها
كلما حل وقتها بهمة وإخلاص .قال الإمام الرازي : " فإن قيل : إن كانت
ثقيلة على هؤلاء سهلة على الخاشعين ، فيجب أن يكون ثوابهم أكثر ، وثواب
الخاشع أقل ، وذلك منكر من القول؟ قلنا : ليس المراد أن الذي يلحقهم من
التعب أكثر مما يلحق الخاشع . وكيف يكون ذلك ، والخاشع يستعمل في الصلاة
جوارحه وقلبه ، ولا يغفل فيها؛ وإذا كان هذا فعل الخاشع فالثقل عليه يفعل
الصلاة أعظم . وإنما المراد بقوله تعالى : ( وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ ) أي
ثقيلة على غير الخاشع؛ لأنه لا يعتقد في فعلها ثواباً ، ولا في تركها
عقاباً ، فيصعب عليه فعلها ، فالحاصل أن الملحد لاعتقاده عدم المنفعة في
. أدائها ثقل عليه فعلها ، لأن الاشتغال بما لا فائدة فيه يثقل على الطبع
أما الموحد فلما اعتقد في فعلها أعظم المنافع ، وفي تركها أكبر المضار ، لم
يثقل عليه أداؤها . بل أداها وهو سعيد بها ، ألا ترى إلى قول الرسول صلى
الله عليه وسلم : " جعلت قرة عيني في الصلاة " وصفها بذلك لأنها كانت لا
. تثقل عليه

الذين يظنون انهم ملاقو ربهم وانهم اليه راجعون

كما فسرها الوسيط ثم وصف - سبحانه - الخاشعين وصفاً يناسب المقام ، ويظهر
وجه الاستعانة ، فقال - تعالى : ( الذين يَظُنُّونَ أَنَّهُم ملاقوا
رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ) .الظن : يرد في أكثر الكلام
بمعنى الاعتقاد الراجح ، وهو ما يتجاوز مرتبة الشك ، وقد يقوي حتى يصل إلى
مرتبة اليقين والقطع ، وهو المراد هنا؛ ومثل ذلك قوله - تعالى -( ألا
يَظُنُّ أولئك أَنَّهُمْ مَّبْعُوثُونَ . لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ) أي ألا يعتقد
أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم . وقوله تعالى : ( إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي
مُلاَقٍ حِسَابِيَهْ ) أي علمت أني ملاق حسابيه .وملاقاة الخاشعين لربهم
: معناها الحشر إليه بعد الموت ، ومجازاتهم على ما قدموا من عمل .والمعنى
- إن الصلاة لثقيلة إلا على الخاشعين ، الذين يعتقدون لقاء الله - تعالى
يوم الحساب ، وأنهم عائدون إليه لينالوا ما يستحقونه من جزاء على حسب
" : - أعمالهم .قال ابن جرير - مرجحاً أن المراد بالظن هنا العلم واليقين
إن قال لنا قائل : وكيف أخبر الله - تعالى - عمن قد وصفه بالخشوع له
بالطاعة أنه يظن أنه ملاقيه ، والظن شك ، والشاك في لقاء الله كافر؟ قيل له
، إن العرب قد تسمى اليقين ظناً : والشك ظناً؛ نظير تسميتهم الظلمة سدفة :
والضاء سدفة ، والمغيث صارخاً ، والمستغيث صارخاً ، وما أشبه ذلك من
الأسماء التي يسمى بها الشيء وضده ، ومما يدل على أنه يسمى به اليقين ، قول
دريد بن الصمة : ( فقلت لهم ظنوا بألفى مدجج . . . ) .يعني بذلك : تيقنوا
أن ألفى مدجج تأتيكم ، ثم قال : والوشاهد من أشعار العرب وكلامها على أن
الظن في معنى اليقين أكثر من أن تحصى ، وفيما ذكرنا لمن وفق في فهمه كافية
ومنه قوله تعالى : ( وَرَأى المجرمون النار فظنوا أَنَّهُمْ ،
مُّوَاقِعُوهَا ) وعن مجاهد قال : " كل ظن في القرآن فهو علم " .والذين
" قالوا إن الظن هنا على معناه الحقيقي ، وهو الاعتقاد الراجح ، فسروا
ملاقاة الخاشعين لربهم " بمعنى قربهم من رضاه يوم القيامة " ورجوعهم إلأيه
بمعنى حلولهم بجواره الطيب ، واستقرارهم في جناته ، أي : وإن الصلاة "
لكبيرة إلا على الخاشعين الذين يتوقعون قربهم من ربهم ، ودخولهم جناته عند
: رجوعهم إليه .وإلى هذا التفسير ذهب صاحب الكشاف ، فقال قال : ( فإن قلت
ما لها لم تثقل على الخاشعين والخشوع في نفسه مما يثقل؟ قلت : لأنهم
يتوقعون ما ادخر للصابرين على متاعبها فتهون عليهم . ألا ترى إلى قوله
تعالى : ( الذين يَظُنُّونَ أَنَّهُم ملاقوا رَبِّهِمْ ) أي يتوقعون لقاء
ثوابه ، ونيل ما عنده ويطمعون فيه ) .وإنما كان شعور الخاشعين بذلك كله
، ظناً لا يقيناً ، لأن خواتيم الحياة لا يعلمها كيف تكون سوى علام الغيوب
- ففي وصفهم بأنهم ( يَظُنُّونَ ) إشارة إلى خوفهم ، وعدم أمنهم مكر الله
تعالى - وهكذا يكون المؤمن دائماً بين الخوف والرجاء .ومن هذا العرض لمعنى
الآية الكريمة يتبين لنا ، أن من فسر الظن هنا بمعنى اليقين والعلم ، يرى

أن لقاء الخاشعين لله معناه الحشر بعد الموت ، ورجوعهم إليه معناه مجازاتهم
على أعمالهم والحشر والمجازاة يعتقد صحتهما الخاشعون اعتقاداً جازماً .أما
من فسر الظن هنا بمعنى الاعتقاد الراجح ، فيرى أن لقاء الخاشعين لله معناه
توقعهم لقاء توابه ، ورجوعهم إليه معناه ظفرهم بجناته ، وتوقع الثواب
والظفر بالجنات يرجح الخاشعون حصولهما لأن مرجعهما إلى فضل الله وحده
والذي نراه أن الرأي الأول أكثر اتساقاً مع ظاهر معنى الآية الكريمة وبه.
قال قدماء المفسرين ، كمجاهد وأبي العالية وغيرهما .وقد تضمنت هذه الآيات
الكريمة توبيخ أحبار اليهود على نصحهم لغيرهم وتركهم لأنفسهم وإرشادهم إلى
العلاج الذي يشفيهم من هذا الخلق الذميم ، ومن غيره متى استعملوه بصدق
، وإخلاص ، وهذا العلاج يتمثل في تذرعهم بالصبر . ومداومتهم على الصلاة
وشكرهم لله - تعالى - على نعمه التي فصلت الآيات بعد ذلك الحديث عنها ، وها
نحن نذكرها مرتبة كما ساقها القرآن الكريم .أولاً : نعمة تفضيلهم على
العالمين : قال - تعالى - :( يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذكروا نِعْمَتِيَ التي
أَنْعَمْتُ . . . )

يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي انعمت عليكم واني فضلتكم على العالمين

كما فسرها الوسيط أعاد القرآن الكريم نداءهم ، تأكيداً لتذكيرهم بواجب
، الشكر ، واهتماماً بمضمون الخطاب وما يشتمل عليه من أوامر ومنهيات
، وتفصيلاً لما أسبغه الله عليهم من منن بعد أن أجملها في النداء الأول
ليكون التذكير أتم والتأثير أشد ، والشكر عليها أرجى .وقد جرت سنة القرآن
الكريم أن يكرر الجمل المشتملة على أمور تستوجب المزيد من العناية كما في
حال ذكر النعم ، لأن تكرارها يغري النفوس الكريمة بطاعة مرسلها ، والسير
على الطريق القويم .وقوله تعالى : ( وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى العالمين
عطف على نعمتي ، أي واذكروا تفضيلي وإياكم على العالمين ، وهذا التفضيل (
، نعم خاصة ، فعطفه على ( نِعْمَتِيَ ) من عطف الخاص على العام للعناية به
وهو - أي : التفضيل مبدأ تفصيل النعم وتعدادها ، والمقصود منه الخص على
- الاتصاف بما يناسب تلك النعم ، ويستبقى ذلك الفضل .وقد ذكر الله - تعالى
بني إسرائيل المعاصرين للعهد النبوي بهذه النعم مع أنها كانت لآبائهم . كما
، يدل عليه سياق الآيات؛ لأن النعم على الآباء نعم على الأبناء لكونهم منهم
، ولأن شرف الأصول يسرى إلى الفروع ، فكان التذكير بتلك النعم فيه شرف لهم
وحسن سمعة تعود عليهم ، وتغريهم بالإيمان والطاعة - لو كانوا يعقلون- .ومن
مظاهر ، تفضيل الله لبني إسرائيل على عالمي زمانهم ، جمعه لهم من المحامد
قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم . ما لم يجمع لغيرهم . فقد حياهم بكثير
من النعم ، وبعث فيهم عدداً كبيراً من الأنبياء ، ونجاهم من عدوهم ، ولم
يعجل العقوبة عليهم رغم عصيانهم واعتدائهم ، واقترافهم شتى ألوان المنركات
عن تعمد وإصرار ، ولم ينزل بهم قارعة تستأصلهم بذنوبهم كما استأصل غيرهم
. كقوم عاد وثمود .ولكن بني إسرائيل لم يقابلوا نعم الله بالشكر والعرفان
بل قابلوها بالجحود والطغيان فسلبها الله عنهم ، ومنحها لقوم آخرين لم
يكونوا أمثالهم .ولقد حكى القرآن ألوانا من النعم التي منحها الله لبني
إسرائيل ولكنهم قابلوها بالبطر والكفران فأزالها الله عنهم . من ذلك قوله
تعالى :( سَلْ بني إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ
وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ الله مِن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ الله
شَدِيدُ العقاب ) أي : سل - يا محمد - بني إسرائيل المعاصرين لك . سؤال
، تقريع وتوبيخ . كم آتاهم الله على أيدي أنبيائهم من النعم الجليلة
والمعجزات الباهرة ، ولكنهم بعد أن جاءتهم هذه الآيات ، وتمكنوا منها
وعقلوها قابلوها بالعناد والاستهزاء ، وجعلوها من أسباب ضلالهم مع أنها
مسوقة لهدايتهم وسعادتهم ، فكانت نتيجة ذلك أن ضرب الله عليهم الذلة
والمسكنة في الدنيا ، وتوعدهم بشديد العقاب في الآخرة .ومن الآيات التي
صرحت بأن الله - تعالى - أعطى بني إسرائيل نعماً وفيرة ، ولكنهم لم يحمدوه
عليها . قوله تعالى :( وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بني إِسْرَائِيلَ مِنَ العذاب
*\\\ المهين * وَلَقَدِ اخترناهم على عِلْمٍ عَلَى العالمين
وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الآيات مَا فِيهِ بَلاَءٌ مُّبِينٌ ) أي : ولقد نجينا
بفضلنا . وكرمنا بني إسرائيل من العذاب المعنى الذي كان ينزله بهم فرعون
وجنده ، بأن أغرقناه ومن معه أمام أعينهم؛ لأنه كان ظلوماً غشوماً ، وفضلا
عن ذلك فقد اصطفينا بني إسرائيل - على علم منا بما يكون منهم - على عالمي
زمانهم وآتيناهم من النعم والمعجزات . ما فيه اختبار لقلوبهم ، وامتحان
لنفوسهم . فكانت نتيجة هذا الاختبار والامتحان أن كفروا بنعم الله ، وكذبوا
برسله وقتلوهم . فتوعدهم الله في الدنيا بأن يسلط عليهم من يسومهم سوء
-. العذاب إلى قيوم القيامة . أما في الآخرة فمأواهم جهنم وبئس المهاد
وأيضاً - من الآيات التي ساقت أنواعاً من نعم الله على بني إسرائيل ولكنهم
لم يشكروه عليها قوله تعالى :( وَلَقَدْ آتَيْنَا بني إِسْرَائِيلَ الكتاب
والحكم والنبوة وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطيبات وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى
العالمين . وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الأمر فَمَا اختلفوا إِلاَّ مِن

بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ العلم بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنّ رَبّكَ يَقْضِي بِيْنَهُمْ يَوْمَ القيامة فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ) والمعنى ولقد آتينا بني إسرائيل التوراة لتكون هداية لهم ومنحناهم الحكمة والفقه : في الدين ، وجعلنا النبوة في عدد كبير منهم ، ورزقناهم من طيبات الأغذية والأشربة ، وفضلناهم على من عاصرهم من الأمم قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم وفضلا عن ذلك فقد سقنا لهم على أيدي أنبيائهم الكثير من المعجزات والدلائل التي تقوى إيمانهم ، وتهديهم إلى الطريق المستقيم ولكنهم لم ، ينتفعوا بهذه النعم . بل جعلوا علمهم بالدين الحق سبباً للخلاف والشقاق والسير في طريق الضلال ، وسيعاقبهم الله بما يستحقونه جزاء جحودهم وعنادهم والعبرة التي نستخلصها من هذه الآيات وأمثالها . أن الله - تعالى - فضل. بني إسرائيل على غيرهم من الأمم السابقة على الأمة الإسلامية . ومنحهم الكثير من النعم ، ولكنهم لم يقابلوا ذلك بالشكر . بل قابلوه بالتمرد والحسد والبطر . فسلب الله عنهم ما حباهم من نعم ، ووصفهم في كتابه بأقبح الصفات وأسوأ الطباع . كقسوة القلب ، ونقض العهد ، والتهالك على شهوات الدنيا ، والتعدي على الغير . والتحايل على استحلال محارم الله ، ونبذهم للحق واتباعهم الباطل . . . إلى غير ذلك من الصفات التي توارد ذكرها في القرآن الكريم .وهذا مصير كل أمة بدلت نعمة الله كفراً؛ لأن الميزان عند الله للتقوى والعمل للصالح ، وليس للجنس أو اللون أو النسب .قال الإمام الرازي ما ملخصه : فإن قيل : إن تفضيلهم على العالمين يقتضي تفضيلهم على أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا باطل . فكيف الجواب؟ قلنا : الجواب من وجوه أقربها إلى الصواب أن المراد : فضلتكم على عالمي زمانكم وذلك لأن الشخص الذي سيوجد بعد ذلك وهو الآن ليس بموجود لم يكن من جملة العالمين حال عدمه ، وأمة محمد صلى الله عليه وسلم ما كانت موجودة في ذلك الوقت ، فلا يلزم من كون بني إسرائيل أفضل العالمين في ذلك الوقت . أنهم أفضل من الأمة المحمدية . وهذا هو الجواب أيضاً عن قوله - تعالى - : ( وَلَقَدِ اخترناهم على عِلْمٍ عَلَى العالمين ) وبهذا يتعين بطلان دعوى اليهود أنهم شعب الله المختار . استناداً إلى هذه الآية الكريمة وأمثالها ، لأنها دعوى لا تؤيدها النصوص ، ولايشهد لها العقل السليم . ثم قال تعالى :( واتقوا يَوْماً لاّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ . . )

واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون

كما فسرها الوسيط بعد أن ذكرهم - سبحانه - في الآية السابعة بنعمة عظمى من نعمه حذرهم في هذه الآية الكريمة من التقصير في العمل الصالح ، وذلك لأن وصفهم بالتفضيل على عالمي زمانهم قد يحملهم على الغرور ، ويجعلهم يتوهمون أنهم مغفور لهم لو أذنبوا . فجاءت هذه الآية الكريمة لتقتلع من أذهانهم تلك ، الأوهام بأحكم عبارة وأجمع بيان .والمراد باتقاء اليوم ، وهو يوم القيامة - الحذر مما يحدث فيه من أهوال وعذاب ، والحذر منه يكون بالتزام حدود الله تعالى - وعدم تعديها ، فهو من إطلاق الزمان على ما يقع فيه كما تقول " مكان : مخيف " وتنكير النفس في الموضعين وهو في حيز النفي يفيد عموم النفس . أي لا تقضى فيه نفس كائنة من كانت عن نفس أخرى شيئاً من الحقوق .ووصف اليوم بهذا الوصف ، ولم يقل " يوم القيامة " مثلا ، للإشعار بأن التصرف في ذلك اليوم لله وحده ، فليس فيه ما اعتاد الناس في هذه الدنيا من دفاع بعضهم عن بعض .والمعنى : احذروا - يا بني إسرائيل - يوماً عظيماً أمامكم ، سيحصل فيه من الحساب والجزاء مالا منجاة من هوله إلا بتقوى الله في جميع الأحوال والإخلاص له في كل الأعمال ، فهو يوم لا تقضى فيه نفس مهما كان قدرها عظيما عن نفس شيئاً ما ، مهما يكن ذنباً صغيراً .ثم وصف القرآن الكريم ذلك اليوم بوصف آخر يناسب المقام . فقال تعالى : ( وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ) الضمير في ( منها ) يعود إلى النفس المحاسبة في ذلك اليوم . والشفاعة : من الشفع ضد الوتر ، وهي انضمام الغير إلى الشخص ليدفع عنه ، أي لا يقبل منها أن تأتي يشفيع ليحصل لها نفعاً ، أو يدفع عنها ضرراً .والآية الكريمة قد نفت قبول الشفاعة من أحد نفياً مطلقاً ، ولكن هنالك آيات كريمة تنفى قبول الشفاعة إلا ممن أذن له الرحمن في ذلك ، من هذه الآيات قوله تعالى : ( مَن ذَا الذي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ) وقوله تعالى : ( يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشفاعة إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحمن وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً ) وللجمع بين هذه الآيات ، تحمل الآيات التي تنفى الشفاعة نفياً مطلقاً على أنها واردة في شأن النفوس الكافرة ، وتحمل الآيات التي تبيح الشفاعة على أنها واردة في شأن المؤمنين إذا أذن الله فيها للشافعين ، وقد وردت أحاديث صحيحة بلغت مبلغ التواتر المعنوي في أن النبي ، صلى الله عليه وسلم ستكون له شفاعة في دفع العذاب عن أقوام المؤمنين وتخفيفه عن أهل الكبائر من المسلمين ، من ذلك ما أخرجه البخاري عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :" أعطيت

خمساً لم يعطهن نبي قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً وجعلت أمتي خير الأمم ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة " .قال الإمام ابن جرير : ( وهذه الآية وإن كان مخرجها عاماً في التلاوة فإن المراد بها خاص في التأويل ، لتظاهر الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . أنه قال : شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي وأنه قال : ليس من نبي إلا وقد أعطى دعوة ، وإني خبأت دعوتي شفاعة لأمتي ، وهي نائلة إن شاء الله منهم من لا يشرك بالله شيئاً . فقد تبين بذلك أن ، الله جل ثناؤه قد يصفح لعباده المؤمنين بشفاعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لهم عن كثير من عقوبة إجرامهم بينه وبينهم ، وأن قوله ( وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ) إنما هي لمن مات على كفره غير تائب إلى الله - عز وجل - " اه .ثم وصف اليوم بوصف ثالث فقال تعالى : ( وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ) .العدل : العوض والفداء . سمي بالمصدر لأن الفادي يعدل المفدي بمثله في القيمة أو العين .ويسويه به . يقال : عدل كذا بكذا : أي سواه به .والمعنى :لا يؤخذ منها فداء أو بدل في ذلك اليوم إن هي ) : استطاعت إحضاره على سبيل الفرض والتقدير .ثم وصفه بوصف رابع فقال تعالى ، وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ ) والنصر هو الإعانة في الحرب وغيره بقوة الناصر وقدم المسند إليه لزيادة التأكيد المفيد أن انتفاء نصرهم محقق . فضلا عما استفيد من نفي العفل وإسناده للمجهول وجاء الضمير في قوله تعالى : ( وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ ) جمعاً مع أنه عائد على النفس وهو قوله تعالى : ( لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ ) ؛ لأن النكرة إذا وقعت في سياق النفي تناولت كل فرد من ) أفرادها ، وبهذا صارت في معنى الجمع ، وصح أن يعود عليها ضمير الجمع وهو هم ) .والمعنى : أنهم لا يجدون من يعينهم ويمنعهم من عذاب الله يوم القيامة ولما كان اليهود يعتقدون أنهم شعب مميز ، وأن نسبتهم إلى الأنبياء ستجعلهم. في مأمن من العقاب رغم عصيانهم وفسوقهم ، وأن آباءهم سيشفعون لهم . . . لما ، كانوا كذلك جاءت هذه الآية الكريمة لتبطل ما اعتقدوه ، وتقطع ما أمّلوه ولتنقض كل ما يحتمل أن يكون وسيلة للنجاة يوم القيامة سوى الإيمان والعمل الصالح .فقد نفت الآية الكريمة وجود من ينوب عنهم بقولها ( لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً ) .ونفت انتفاعهم بشفاعة الشافعين يوم الحساب بقولها ( وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ) .ونفت قبول البدل أو الفداء عما ارتكبوه من خطايا بقولها ( وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ) .ونفت وجود من ينتصر لهم أو يدافع عنهم بقولها ( وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ ) .وهكذا سدت عليهم الآية الكريمة كل منفذ يتوهمون نجاتهم من عذاب الله بسببه ، ما داموا مصرين على كفرهم وجحودهم .هذا ، وقد اشتملت هاتان الآيتان على أسلوب حكيم في التوجيه ، وطريقة فريدة في الإرشاد ، جمعت بين الترغيب والترهيب ، فإن الآية الأولى ابتدأت بندائهم باسم أبيهم إسرائيل - عليه السلام - الذي هو أصل عزهم ، ومنشأ تفضيلهم لتحيي الشعور بالكرامة في نفوسهم ، ولتغرس الإحساس بالشرف في مشاعرهم ، ولتحملهم على الترفع عن الدنايا؛ لأن الذي يشعر أنه من منبت كريم تعاف نفسه الحقد والكذب والصغار ، ثم جاءت الآية الثانية فأرشدتهم إلى أن التقوى هي سبب السلامة والفوز ، وحذرتهم من أهوال يوم القيامة وأفهمتهم بأن انتسابهم إلى أولئك الآباء لن يغني من الله شيئاً ، يوم الجزاء ، وإنما الذي ينفعهم في ذلك اليوم هو اتباع تعاليم الإسلام ، التي أتى بها النبي - صلى الله عليه وسلم - وفي ذلك ما فيه من كبح غرورهم : وإبطال ظنونهم .ثانياً : نعمة إنجائهم من عدوهم

واذ نجيناكم من ال فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون ابناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم

كما فسرها الوسيط ثم ذكرهم - سبحانه - بنعمة جليله الشأن ، هي نعمة إنجائهم من عدوهم فقال تعالى :( وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سواء العذاب . . . )الآية الكريمة معطوفة على قوله تعالى : في الآية السابقة ، من باب عطف المفصل على المجمل ( اذكروا نِعْمَتِيَ ) " ، أي : اذكروا نعمتي ، واذكروا إذ نجيناكم من آل فرعون .وإذ : بمعنى وقت وهي مفعول به لفعل ملاحظ في الكلام وهو اذكروا أي : اذكروا وقت أن نجيناكم : والمراد من التذكير بالوقت تذكيرهم بما وقع فيه من أحداث .وآل الرجل ، أهله وخاصته وأتباعه ، ويطلق غالباً على أولى الخطر والشأن من الناس ، فلا يقال آل الحجام أو الإسكاف .وفرعون : اسم لملك مصر كما يقال لملك الروم قيصر ، ولملك اليمن تبع ويسومونكم : من سامه خسفا إذا أذله واحتقره وكلفه ، ما لا يطيق .والابتلاء : الامتحان والاختبار ، ويكون في الخير والشر قال - تعالى - ( وَنَبْلُوكُم بالشر والخير فِتْنَةً ) والمعنى : اذكروا يا بني إسرائيل وقت أن نجيناكم من آل فرعون الذين كانوا يعذبونكم أشق العذاب وأصعبه ، ويبغونكم ما فيه إذلال لكم واستئصال لأعقابكم ، وامتهان لكرامتكم ، حيث كانوا يزهقون أرواح ذكوركم ، ويستبقون نفوس نسائكم ، وفي ذلك العذاب وفي النجاة منه امتحان لكم بالسراء لتشكروا ، ولتقلعوا عن السيئات التي تؤدي بكم إلى الإذلال في الدنيا ، والعذاب في الأخرى .قال الإمام

الرازي - رحمه الله - ما ملخصه : واعلم أن الفائدة في ذكر هذه النعمة - أي
نعمة إنجائهم من عدوهم - يتأتى من وجوه أهمها :1- أن هذه الأشياء التي
ذكرها الله - تعالى - لما كانت من أعظم ما يمتحن به الناس من جهة الملوك
، والظلمة ، صار تخليص الله - عز وجل - لهم من هذه المحن من أعظم النعم
، وذلك لأنهم عاينوا هلاك من حاول إهلاكهم ، وشاهدوا ذل من بالغ في إذلالهم
ولا شك في أن ذلك من أعظم النعم ، وعظم النعمة يوجب المبالغة في الطاعة
، والبعد عن المعصية ، لذا ذكر الله هذه النعمة العظيمة ليلزمهم الحجة
وليقطع عذرهم .2- أنهم لما عرفوا أنهم كانوا في نهاية الذل . وكان عدوهم في
نهاية العز ، إلا أنهم كانوا محقين ، وكان خصمهم مبطلا ، لا جرم زال ذل
المحقين ، وبطل عز المبطلين ، فكأنه تعالى يقول لهم :لا تغتروا بكثرة
أموالكم ولا بقوة مركزكم ، ولا تستهينوا بالمسلمين لقلة ذات يدهم ، فإن
( الحق إلى جانبهم . ومن كان الحق إلى جانبه ، فإن العاقبة لابد أن تكون له
اه .وخوطب بهذه النعمة اليهود الذين كانوا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم
ومع أن هذا الاتجاء كان لأسلافهم ، لأن في نجاة أسلافهم نجاة لهم ، فإنه لو
استمر عذاب فرعون للآباء لأفناهم ، ولما بقي هؤلاء الأبناء ، فلذلك كانت
منه التنحية تحمل في طياتها منتين ، منه عل السلف لتخليصهم مما كانوا فيه
من عذاب ومنة على الخلف لتمتعهم بالحياة بسببها ، فكان من الواجب عليهم
جميعاً أن يقدروا هذه النعمة قدرها ، وأن يخلصوا العبادة لخالقهم الذي
أنجاهم من عدوهم .ولأن الإنعام على أمة يعتبر إنعاماً شاملاً لأفرادها
سواء منهم من أصابه ذلك الإنعام ومن لم يصبه . ولأن الآثار التي تترتب
عليه كثيرا ما يرثها الخلف عن السلف ، ولأن في إخبارهم بذلك تصديقاً
للنبي - عليه الصلاة والسلام - فيما يبلغه عن ربه ، فقد أخبرهم بتاريخ من
مضى منهم بصدق وأمانة ، وفي ذلك دليل على أنه صادق في نبوته ورسالته .وجعلت
، النجاة هنا من آل فرعون ولم تجعل منه ، مع أنه الآمر بتعذيب بني إسرائيل
، للتنبيه على أن حاشيته وبطانته كانت عوناً له في أذاقتهم سوء العذاب
وإنزال الإذلال والأعناب بهم .وجعلت الآية الكريمة استحياء النساء عقوبة
لليهود - وهو في ظاهرة خير - لأن هذا الإبقاء عليهن ، كان المقصود منه
الاعتداء على أعراضهن واستعمالهن في الخدمة بالاسترقاق . فبقاؤهن كذلك بقاء
ذليل وعذاب أليم ، تأباه النفوس الكريمة ، والطباع الطيبة .قال الإمام
الرازي ما ملخصه : ( في ذبح الذكور دون الإناث مضرة من وجوه :أحدها : أن
ذبح الأبناء يقتضي فناء الرجال ، وذلك يقتضي انقطاع النسل ، لأن النساء إذا
انفردن فلا تأثير لهن البتة في ذلك ، وهذا يقضي في نهاية الأمر إلى هلاك
الرجال والنساء جميعاً .ثانيهما : أن هلاك الرجال يقتضي فساد مصالح النساء
. في أمر المعيشة ، فإن المرأة لتتمنى الموت إذا انقطع عنها تعهد الرجال
، لما قد تقع فيه من نكد العيش بالانفراد . فصارت هذه الخطة عظيمة في المحن
والنجاة منها تكون في العظم بحسبها .ثالثها : أن قتل الولد عقب الحمل
، الطويل ، وتحمل التعب ، والرجاء القوي في الانتفاع به ، من أعظم العذاب
فنعمة الله في تخليصهم من هذه المحنة كبيرة .رابعها : أن بقاء النساء بدون
الذكران من أقاربهم ، يؤدي إلى صيرورتهن مستفرشات الأعداء وذلك نهاية الذل
) : والهوان ) .وقد رجح كثير من المفسرين أن المراد بالأبناء في قوله تعالى
يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ ) الأطفال دون البالغين ، لأن اللفظ من حيث
وضعه يفيد ذلك ، ولأن قتل جميع الرجال لا يفيدهم حيث أنهم كانوا يستعملونهم
في الأعمال الشاقة والحقيرة ، ولأنه لو كان المقصود بالذبح الرجال ، لما
قامت أم موسى بإلقائه في اليم وهو طفل صغير لتنجيه من الذبح .ويرى بعض
المفسرين أن المراد بالأبناء الرجال لا الأطفال ، لأن لفظ الأبناء هنا جعل
في مقابلة النساء ، والنساء هن البالغات .والذي نرجحه هو القول الأول لما
ذكرنا ، ولأنه أتم في إظهار نعمة الإنجاء ، حيث كان أهل فرعون يقتلون
الصغار قطعاً للنسل ، ويسترقون الامهات استعباداً لهن ، ويبقون الرجال
للخدمة حتى ينقرضوا على سبيل التدرج ، وبقاء الرجال على هذه الحالة أشد
عليهم من الموت .وقد جاءت جملة ( يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ ) في هذه
الآية الكريمة بدون عطف وجاءت في سورة إبراهيم معطوة بالواو . لأنها هنا
بيان وتفسير لجملة ( يَسُومُونَكُمْ سواء العذاب ) فيكون المراد من سوء
العذاب هنا تذبيح الأبناء واستحياء النساء .وأما في سورة إبراهيم . فقد جاء
) سياق الآيات لتعداد المحن التي حلت ببني إسرائيل ، فكان المراد بجملة
يَسُومُونَكُمْ سواء العذاب ) نوعاً منه ، والمراد بجملة ( يُذَبِّحُونَ
أَبْنَآءَكُمْ ) نوعاً آخر من العذاب ، لذا وجب العطف ، لأن الجملة الثانية
، ليست مفسرة للأولى ، وإنما هي تمثل نوعاً آخر من المحن التي حلت بهم .هذا
وقد تكرر تذكير بني إسرائيل بنعمة إنجائهم من عدوهم في مواضع متعددة من
القرآن الكريم ، وذلك لجلال شأنها ، ولحملهم على الطاعة والشكر .1- من ذلك
قوله تعالى في سورة الأعراف : ( وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِّنْ آلِ
فِرْعَونَ يَسُومُونَكُمْ سواء العذاب يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ
( وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي ذلكم بلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ
وقوله تعالى في سورة طه : ( يابني إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُمْ - 2
مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطور الأيمن وَنَزَّلْنَا

عَلَيْكُمُ المن والسلوى * كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ
وَلاَ تَطْغَوْاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ
عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هوى * وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ
وَعَمِلَ صَالِحَاً ثُمّ اهتدى ) فهذه الآيات الكريمة وغيرها مما هي في
معناها فيها تذكير لبني إسرائيل بنعمة من أجل نعم الله عليهم ، حيث
أنجاهم - سبحانه - ممن أراد لهم السوء ، وعمل على قتلهم وإبادتهم واستئصال
شأفتهم ، وفي ذلك ما يدعوهم إلى الاجتهاد في شكر الله - عز وجل - لو كانوا
ممن يحسنون شكر النعم .ثالثا : نعمة فرق البحر بهم .

واذ فرقنا بكم البحر فانجيناكم واغرقنا ال فرعون وانتم تنظرون

كما فسرها الوسيط ثم ذكرهم - سبحانه - بعد ذلك بنعمة ثالثة عظيمة حصل بها
تمام الانجاء وتجلى فيها إكرام الله لهم ، وهي نعمة فرق البحر بهم فقال
تعالى :( وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ البحر فَأَنجَيْنَاكُمْ . . . )المعنى :
، واذكروا يا بني إسرائيل من جملة نعمنا عليكم ، نعمة فرق البحر بكم
وانفصاله بعد اتصاله ، حين ضربه موسى بعصاه ، فأصبحت فيه طريق يابسة
فولجتموها ، وسرتم فيها هرباً من فرعون وجنده؟ بذلك تمت لكم النجاة ، وحصل
الغرق لأعدائكم ، وقت أن عبروا وراءكم وقد شاهدتموهم والبحر يلفهم بأمواجه
مشاهدة لا لبس فيها ولا غموض . ولقد كان فيما رأيتم ما يدعو إلى الاتعاظ ،
ويحمل على الشكر الجزيل لله العزيز الرحيم .فالآية الكريمة تشير إلى قصة ،
نجاة بني إسرائيل وغرق فرعون وقومه ، وملخصها :أن الله - عز وجل أوحي إلى
نبيه - موسى - عليه السلام - أن يرحل ببني إسرائيل ليلا من أرض مصر التي
طال عذابهم فيها إلى أرض فلسطين ، ونفذ موسى - عليه السلام - ما أمره به
الله - تعالى - ولعم فرعون أن موسى وقومه قد خرجوا إلى أرض الشام ، فتبعهم
بجيش كبير ، وأدركهم مع طلوع الشمس قرب ساحل البحر الأحمر ، وأيقن بنو
- إسرائيل عندما رأوه أنه مهلكهم لا محالة . ولجأوا إلى موسى - عليه السلام
يشكون إليه خوفهم وفزعهم ، ولكنه رد عليهم بقوله : ( إِنَّ مَعِيَ رَبِّي
) سَيَهْدِينِ ) وأوحى الله إليه ( أَنِ اضرب بِّعَصَاكَ البحر ) فضربه
- فانفلق فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كالطود العظيم ) وأمر موسى - عليه السلام
بني إسرائيل أن يعبروا فعبروا بين فرقي الماء دون أن يمسهم أذى . واقتفى
فرعون وجنوده أثرهم طمعا في إدراكهم وعندما عبر بنو إسرائيل البحر ولم يبق
منهم أحد بين المياه المنحسرة ، كان فرعون وجنده مازالوا بين فرقي البحر
فاطبق عليهم وعاد كما كان أولا ، فغرقوا جميعاً ، وبنو إسرائيل ينظرون
إليهم في دهشة وسرور .وأسند - سبحانه - فرق البحر إلى ذاته الكريمة . ليدل
على أن القوم عبروه وقطعوه وهم بعنايته ، وقوله تعالى : ( فَأنجَيْنَاكُمْ
، وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ) بيان للمنة العظمى التي امتن بها عليهم
: والتي ترتبت على فرق البحر ، لأن فرق البحر لهم ترتب عليه أمران .أولهما
نجاتهم .وثانيهما : إهلاك عدوهم وكلاهما نعمة عظيمة .والإيمان الصحيح يقضي
بأن تفهم واقعة انفصال البحر لموسى وقومه على أنها معجزة كونية له ، وقد
زعم البعض أنها كانت حادثة طبيعية منشؤها المد والجزر ، وهو زعم لا سند له
ولا دليل عليه .واقتصرت الآية هنا على ذكر إغراق آل فرعون أي جنده وأنصاره
وصرحت آيات أخرى بغرقة مع آله ، من ذلك قوله تعالى :( فَأَغْرَقْنَاهُ ،
وَمَن مَّعَهُ جَمِيعاً ) وقوله تعالى : ( فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ
- فَنَبَذْنَاهُمْ فِي اليم وَهُوَ مُلِيمٌ ) ومن تمام النعمة أن الله
تعالى - أهلك مع فرعون كل مناصر له :وقوله تعالى ( وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ )
أي : أغرقنا آل فرعون وأنتم تشاهدونهم بأعينكم ، فكان ذلك أدعى لليقين
بهلاك عدوكم ، وأبلغ في الشماتة به ، وأرجى لشكر النعمة - ولا شك أن مشاهدة
، المنعم عليه للنعمة فيها لذة كبرى ، ورؤيته لهلاك عدوه فيها عبرة عظمى
ومعاينته لا نفراق البحر فيها تقوية لإيمانه ، وتثبيت ليقينه ، إذا كانوا
ممن يحسنون الانتفاع بما يشاهدون .قال الإمام الرازي ما ملخصه : ( اعلم أن
هذه الواقعة - أي واقعة فلق البحر - تضمنت نعماً كثيرة على بني إسرائيل في
الدين والدنيا ، أما نعم الدنيا فمن وجوه :أولها : أنهم لما اقتربوا من
، البحر أصبحوا في موقف حرج ، لأن فرعون وجنوده من ورائهم والبحر من أمامهم
فإن هم توقفوا أدركهم عدوهم وأهلكهم ، وإن هم تقدموا أغرقوا .فحصل لهم خوف
- عظيم ، جاءهم بعده الفرج بانفلاق البحر وهلاك عدوهم .ثانيها : أن الله
تعالى - خصهم بهذه النعمة العظيمة والمعجزة الباهرة تكريماً ورعاية لهم
ثالثها : أنهم بإغراق فرعون وآله تخلصوا من العذاب ، وتم لهم الأمن.
والاطمئنان ، وذلك نعمة عظمى ، لأنهم لو نجوا دون هلاك فرعون لبقي خوفهم
على حاله ، فقد يعود لتعذيبهم مستقبلا ، لأنهم لا يأمنون شره ، فلما تم
: الغرق تم الأمان والاطمئنان لبني إسرائيل .أما نعم الدين فمن وجوه :أولها
أن قوم موسى لما شاهدوا تلك المعجزة الباهرة . زالت عن قلوبهم الشكوك
والشبهات ، لأن دلالة مثل هذا المعجز على وجود الصانع الحكيم وعلى صدق موسى
تقترب من العلم الضروري .ثانيها : أنهم لما شاهدوا ذلك صار داعياً لهم ،
على الثبات والانقياد لأوامر نبيهم .ثالثها : أنهم عرفوا أن الأمور كلها

بيد الله ، فإنه لا عز في الدنيا أكمل مما كان لفرعون ، ولا ذل أشد مما كان
، لبني إسرائيل ، ثم إن الله - تعالى - في لحظة واحدة جعل العزيز ذليلاً
والذليل عزيزاً ، والقوي ضعيفاً ، والضعيف قوياً ، وذلك يوجب انقطاع القلب
، عن علائق الدنيا ، والإقبال كلية على اتباع أوامر الخالق - عز وجل- .هذا
ونعمة فرق البحر لبني إسرائيل ، وإنجائهم من عدوهم قد تكرر ذكرها في القرآن
من ذلك قوله تعالى في سورة الشعراء : ( فَلَمَّا تَرَاءَى الجمعان قَالَ ،
أَصْحَابُ موسى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ . قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي
سَيَهْدِينِ . فَأَوْحَيْنَآ إلى موسى أَنِ اضرب بِّعَصَاكَ البحر فانفلق
. فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كالطود العظيم . وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخرين
وَأَنجَيْنَا موسى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ) وبذلك تكون الآيات الكريمة
قد ذكرت بني إسرائيل بنعمة من أجل النعم - وهي نعمة فرق البحر بهم - لكي
يشكروا خالقهم عليها ، ويتبعوا نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم ولكنهم ما
قاموا بواجب الشكر لخالقهم ، فحقت عليهم اللعنة في الدنيا والعقوبة في
- الآخرة ، جزاء جحودهم وطغيانهم وما ربك بظلام للعبيد .رابعاً : نعمة عفوه
: سبحانه - عنهم بعد عبادتهم للعجل

واذ واعدنا موسى اربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وانتم ظالمون

كما فسرها الوسيط ثم ذكرهم - سبحانه - بعد ذلك بنعمة رابعة وهي عفوه عنهم
رغم جحودهم وكفرهم وعبادتهم لغيره ، فقال تعالى :( وَإِذْ وَاعَدْنَا موسى
أَرْبَعِينَ لَيْلَةً . . . )المواعدة : مفاعلة من الجانبين ، وهي هنا على
غير بابها ، لأن المراد بها هنا أمر الله - تعالى - لموسى أن ينقطع
لمناجاته أربعين ليلة تمهيداً لإعطائه التوراة ، ويؤيد ذلك قراءة أبي عمرو
- وأبي جعفر ( وعدنا ) . وقيل : المفاعلة على بابها ، على معنى أن الله
تعالى - وعد نبيه موسى - عليه السلام - أن يعطيه التوراة وأمره بالحضور
للمناجاة ، فوعد موسى ربه بالطاعة والامتثال فكان الوعد حاصلا من الطرفين
وملخص هذه القصة أن قوم موسى بعد أن نجاهم الله ، وأغرق عدوهم أمام أعينهم.
، طلبوا من نبيهم موسى أن يأتيهم بكتاب من عند الله ليعملوا بأحكامه ،
، فوعده - سبحانه - أن يعطيه التوراة بعد أربعين ليلة ينقطع فيها لمناجاته
وبعد انقضاء تلك الفترة وذهاب موسى لتلقي التوراة من ربه اتخذ بنو إسرائيل
عجلا جسداً له خوار فعبدوه من دون الله ، وأعلم الله موسى بما كان من قومه
بعد فراقه ، فرجع إليهم غاضباً حزيناً ، وأعلمهم بأن توبتهم لن تكون مقبولة
إلا بقتل أنفسهم ، فلما فعلوا ذلك عفا الله عنهم لكي يشكروه ، ويلتزموا
الصراط المستقيم .ومعنى الآيتين الكريمتين : واذكروا يا بني إسرائيل وقت أن
وعدنا موسى أن نؤتيه التوراة بعد انقضاء أربعين ليلة من هذا الوعد ، فلما
حل الوعد وجاء موسى لميقاتها عبدتم العجل في غيبته ، فلم نعاجلكم بالعقوبة
بل قبلنا توبتكم ، وعفونا عنكم ، لتكونوا من الشاكرين لله تعالى .وهذا ،
التذكير يحمل في طياته التعجيب من حالهم ، لأنهم قابلوا نعم الله بأقبح
أنواع الكفر والجهالة ، حيث عبدوا في غيبة نبيهم ما هو مثال في الغباوة
والبلادة وهو العجل .وفي اختيار حرف العطف ( ثم ) المفيد للتراخي الرتبى في
جملة ( اتخذتم العجل ) إشعار بأنهم انحدروا إلى دركات سحيقة من الجحود
والجهل ، وأن ما ارتكبوه هو من عظائم الأمور في القبح والمعصية وحذف
المفعول الثاني لاتخذتم وهو " إلها أو معبوداً لشناعة ذكره ولعلهم بأنهم
اتخذوه إلها " .وقوله تعالى : ( مِن بَعْدِهِ ) معناه : من بعد مضيه
لميقات ربه إلى الطور وغيابه عنهم . وفي ذلك زيادة تشنيع عليهم ، حيث
وصفهم - سبحانه - بعدم الوفاء ، لأنهم كان من الواجب عليهم - لو كانوا
يعقلون - أن يستمروا على توحيد الله في غيبة نبيهم لا سيما وقد رأوا من
المعجزات والنعم ، ما يطمئن النفوس ، ويقوي الإيمان ويغرس في القلوب
، الطاعة لله تعالى .وجملة ( وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ) حالية مقيدة لاتخذتم
ليكون اتخاذهم العجل معبوداً ، مقروناً بالتعدي والظلم من بدئه إلى نهايته
. وللإشعار بانقطاع عذرهم فيما فعلوا ،

ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون

كما فسرها الوسيط وقوله تعالى : ( ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ
، ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ) معناه ثم تركنا معاجلتكم بالعقوبة
ومحونا ذنوبكم ، لتوبتكم من بعد أتخاذكم العجل معبوداً من دون الله ، رجاء
أن تشكروا خالقكم على عفوه عنكم وتستعملوا نعمه فيما خلقت له وتتبعوا رسوله
صلى الله عليه وسلم .وقد تضمنت هاتان الآيتان الكريمتان ، ما يدل على غباء
بني إسرائيل وقصر نظرهم . لأنهم اتخذوا العجل إلها بعد أن شاهدوا البراهين
على صدق نبيهم ، كما تضمنتا تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم عما كان
يشاهده من اليهود المعاصرين للدعوة الإسلامية ، فكأنه سبحانه يقول : إن ما
قام به بنو إسرائيل المعاصرون لك من أذى وحقد قد فعل ما يشبهه آباؤهم
الأقدمون مع نبيهم موسى - عليه السلام - فلقد اتخذوا في غيبته عجلاً جسداً

له خوار دون أن يفطنوا إلى أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا ، اتخذوه وكانوا ظالمين .خامساً - نعمة إيتاء موسى التوراة لهدايتهم .

واذ اتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون

، كما فسرها الوسيط ثم ذكرهم - سبحانه - بتعمة خامسة فيها صلاح أمورهم وانتظام شئونهم ألا وهي إعطاء نبيهم موسى - عليه السلام - التوارة ، فقال : تعالى :( وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الكتاب . . . ) .معنى الآية الكريمة ، اذكروا بابني إسرائيل نعمة إعطاء نبيكم موسى - عليه السلام - التوراة وفيها الشرائع والأحكام ، لكي تهتدوا بها إلى طريق القلاح والرشاد في الدنيا ، وإلى الفوز بالسعادة في الآخرة .فالمراد بالكتاب التوراة التي أوتيها موسى - عليه السلام - فأل للعهد .والفرقان - بضم الفاء - مأخوذ من الفرق وهو الفصل ، استعير لتمييز الحق من الباطل؛ وقد يطلق لفظ الفرقان على الكتاب السماوي المنزل من عند الله كما في قوله تعالى : ( تَبَارَكَ الذي نَزَّلَ الفرقان على عَبْدِهِ ) كما يطلق على المعجزة كما في قوله تعالى ) وَلَقَدْ آتَيْنَا موسى وَهَارُونَ الفرقان ) أي المعجزات لأن هارون لم يؤت وحياً .والمراد بالفرقان هنا التوراة نفسها ويكون المراد بالعطف التفسير قال ابن جرير ما ملخصه : ( وأولى الأقوال بتأويل الآية ما روى عن ابن عباس. وأبي العالية ومجاهد ، من أن الفرقان الذي ذكر الله تعالى أنه آتاه موسى في هذا الموضع ، هو الكتاب الذي فرق به بين الحق والباطل وهو نعت للتوراة وصفة لها ، فيكون تأويل الآية حينئذ .وإذ آتينا موسى التوراة التي كتبناها له في ، الألواح ، وفرقنا بها بين الحق والباطل . فيكون الكتاب نعتاً للتوراة أقيم مقامها استغناء به عن ذكر التوراة ثم عطف عليه بالفرقان ، إذ كان من نعتها ) .وقوله تعالى : ( لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ) بيان لثمرة المنة والنعمة بإيتاء التوراة؛ لأن إتيان موسى الكتاب والفرقان ، المقصود منه هدايتهم ، وإخراجهم من الظلمات إلى النور .ولكن ماذا كان موقف بني إسرائيل من التوراة التي أنزلها الله لهدايتهم وسعادتهم؟ كان موقفهم منها - كما هي عادتهم - موقف الجاحد لنعم الله فقد امتدت أيديهم الآثيمة إليها فحرفوها كما شاءت لهم أهواؤهم وشهواتهم ولقد وبخهم القرآن الكريم على ذلك ، وشبههم في تركهم العمل بها وعدم انتفاعهم بما فيها ، بالحمار الذي يحمل كتب العلم ولكنه لا يدري ما فيها .فقال تعالى في سورة الجمعة : ( مَثَلُ الذين حُمِّلُواْ التوراة ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحمار يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ القوم الذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِ الله والله لاَ يَهْدِي القوم الظالمين ) حملوا التوراة : أي علموها وكلفوا العمل بها ، ثم : لم يحملوها : أي : لم يعملوا بها ولم ينتفعوا بما اشتملت عليه . والأسفار جمع سفر وهو الكتاب الكبير ، لأنه يسفر عن المعنى إذا قرئ .ومعنى الآية الكريمة : مثل هؤلاء اليهود الذين علموا التوراة وكلفوا العمل بأحكامها ولكنهم لم يعملوا بها ، مثلهم كمثل الحمار يحمل الكتب ولكنه لا يدري ما فيها ، ولا يناله من حملها إلا التعب ، بئس مثلا مثل هؤلاء اليهود الذين كذبوا بآيات الله التي تشهد بصدق النبي صلى الله عليه وسلم ، وتذر صفاته التي لا تنطبق إلا عليه ، وقد جرت سنة الله - تعالى - في خلقه ألا يهدي إلى ، طريق الحق أمثال هؤلاء القوم الظالمين ، لأنهم استحبوا العمى على الهدى وباعوا دينهم بدنياهم .قال صاحب الكشاف : " شبه الله - تعالى - اليهود ي أنهم حملة التوراة وقراؤها ، وحفاظ ما فيها ثم إنهم غير عاملين بها ، ولا منتفعين بآياتها وذلك أن فيها نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم والبشارة به ، ولم يؤمنوا به - شبههم بالحمار يحمل أسفاراً ، أي : كتباً من كتب العلم ، فهو يمشي بها ولا يدري منها إلا ما يمر بجنبيه وظهره من الكد والتعب ، وكل من علم ولم يعمل ، فهذا مثله وبئس المثل " .وقال الإمام ابن القيم : " شبه الله - تعالى - من حمله كتابه ليؤمن به ويتدبره ويعمل به ويدعو إليه ، ثم خالف ذلك ، ولم يحمله إلا على ظهر قلب ، فقراءته بغير تدبر ولا تفهم ولا اتباع له ، ولا تحكيم لنصوصه ، شبهه - بحمار على ظهره زاملة أسفار لا يدري ما فيها ، وحظه منها حملها على ظهره ليس إلا ، فحظه من كتاب الله كحظ هذا الحمار من الكتب التي على ظهره ، فهذا المثل ، وإن كان قد ضرب لليهود ، فهو متناول من حيث المعنى ، لمن حمل القرآن فترك العمل به ولم يؤد حقه ، ولم يرعه حق رعايته " .ومن هذا نرى أن اليهود قد أنعم الله عليهم ، بالتوراة ، وجعلها نوراً وهدى لهم ، ولكنهم تركوها ، ولم يعملوا بما فيها واستحبوا العمى على الهدى ، ( فَبَآءُو بِغَضَبٍ على غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ) سادساً : ( نعمة إرشادهم إلى ما به يتخلصون من ذنوبهم ) :

واذ قال موسى لقومه يا قوم انكم ظلمتم انفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا الى بارئكم فاقتلوا انفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم انه هو التواب الرحيم

كما فسرها الوسيط ثم ذكرهم - سبحانه - بنعمة جليلة ، وهي إرشادهم إلى ما بهِ يتخلصون من ذنوبهم وإخبارهم بقبول توبتهم ، فقال تعالى :( وَإِذْ قَالَ موسى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ . . .
المعنى : واذكروا يا بني إسرائيل - لتنتفعوا وتعتبروا - وقت أن قال موسى( لقومه الذين عبدوا العجل حين كان يناجي ربه بعيداً عنهم : يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم وهبطتم بها إلى الحضيض بعبادتكم غير الله - تعالى - فإذا أردتم التكفير عن خطاياكم . فتوبوا إلى ربكم توبة صادقة نصوحاً ، واقتلوا أنفسكم لتنالوا عفو ربكم ، فذلكم خير لكم عند خالقكم من الإقامة على المعصية ، ففعلتم ذلك فقبل الله توبتكم؛ لأنه هو الذي يقبل التوبة عن عباده على كثرة ما يصدر عنهم من ذنوب؛ لأنه هو الواسع الرحمة لمن ينيب إليه ويستقيم على صراطه الواضح .وفي نداء موسى - عليه السلام - لهم بقوله : " يا قوم " تلطف في الخطاب ليجذب قلوبهم إلى سماعه ، وليحملهم على تلقي أوامره بحسن الطاعة ، وليشعرهم بأنهم قومه فهو منهم وهم منه ، والشأن فيمن كان كذلك ألا يكذب عليهم أو يخدعهم ، وإنما يريد لهم الخير .والبارئ هو الخالق للمخلوقات بدون تفاوت أو اضطراب ، فهو أخص من الخالق ، ولذا قال تعالى : ( هُوَ اللَّه الخالق البارىء المصور ) وفي هذا التعبير الحكيم ، تحريض لهم على التوبة والاستجابة للبارئ الذي أحسن كل شيء خلقه ، وفيه أيضاً تقريع لهم على غباوتهم ، حيث تركوا عبادة بديع السموات والأرض ، وعبدوا عجلا ضرب به المثل في الغباوة فقالوا " أيلد من ثور " فكأنه - سبحانه - يقول لهم : لقد اتخذتم هذا العجل إلهاً لتشابهكم معه في البلادة وضيق الأفق .قال صاحب الكشاف : " فإن قلت : من أين اختص هذا الموضع بذكر البارئ؟ قلت : البارئ هو الذي خلق الخلق بريئاً من التفاوت ( مَّا ترى فِي خَلْقِ الرحمن مِن تَفَاوُتٍ ) ومتميزاً بعضه عن بعض بالأشكال المختلفة والصور المتباينة ، فكان فيه تقريع بما ان منهم من ترك عبادة العالم الحكيم الذي برأهم بلطف وحكمته على الأشكال المختلفة ، أبرياء من التفاوت والتنافر إلى عبادة البقر التي هي مثل في البعاوة والبلادة ، حتى عرضوا أنفسهم لسخط الله ونزول أمره بأن يفك ما ركبه من خلقهم ، ونثر ما نظم من صورهم وأشكالهم ، حين لم يشكروا النعمة في ذلك ، وغمطوها بعبادة ما لا يقدر على شيء منها " اه .وقوله تعالى : ( فاقتلوا أَنفُسَكُمْ ) : أمر من موسى - عليه السلام - لهم بقتلهم أنفسهم حتى تكون توبتهم مقبولة ، وهذا الأمر بلغه موسى إياهم عن ربه ، إذ مثل هذا الأمر لا يصدر إلا عن وحي لأنه تشريع من الله - تعالى - .والمراد بقتلهم أنفسهم أن يقتل من لم يعبد العجل منهم عابديه ، فيكون المعنى : ليقتل بعضكم بعضاً ، كما في قوله تعالى : ( فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا على أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ الله مُبَارَكَةً طَيِّبَةً )أي فليسلم بعضكم على بعض .وقيل : المراد أن يقتل كل من عبد العجل نفسه قتلا ، حقيقياً حتى يكفر عن ردته بعبادته لغير الله ، وقد ورد أنهم فعلوا ذلك وأن الله - تعالى - رفع عنهم القتل وعفا عمن بقي منهم على قيد الحياة كرما ، منه وفضلا ، وهذا هو معنى التوبة في قوله تعالى ( فَتَابَ عَلَيْكُمْ ) ومعنى العفو في قوله تعالى : في الآية السابقة ( ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ) وقد ساق ابن كثير وغيره من المفسرين كثيراً من الآثار التي تحدثت عن كيفية حصول هذا القتل ، من ذلك ما رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس ، أنه قال : " قال تعالى لموسى : إن توبة عبدة العجل أن يقتل كل واحد منهم من لقي من والد وولد فيقتله بالسيف ولا يبالي من قتل في ذلك الموطن فتاب أولئك الذين كانوا خفى على موسى وهارون ما اطلع الله على ذنوبهم فاعترفوا بها . وفعلوا ما أمروا به ، فغفر الله للقاتل والمقتول " .وأخرج ابن جرير عن ابن شهاب الزهري أنه قال : " لما أمر بنو إسرائيل بقتل أنفسهم برزوا ومعهم موسى ، فتضاربوا بالسيوف ، وتطاعنوا بالخناجر وموسى رافع يديه ، حتى إذا فتروا أتاه بعضهم ، فقال له : يا نبي الله ادع الله لنا ، وأخذوا بعضديه يشدون يديه . فلم يزل أمرهم على ذلك حتى إذا قبل الله توبتهم قبض أيدي بعضهم عن بعض ، فألقوا السلاح ، وحزن موسى وبنو إسرائيل للذي كان من القتل فيهم ، فأوحى الله - جل ثناؤه - إلى موسى ( لاَ تَحْزَنْ ) أما من قتل فحى عندي يرزق ، وأما من بقي ، فقد قبلت توبته ، فسر بذلك موسى وبنو إسرائيل " .وجملة ( ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ ) تعليله ، جيء بها لتحريضهم على الامتثال والطاعة لما أمرهم به نبيهم - عليه السلام - واسم الإشارة ( ذَلِكُمْ ) يعود إلى التوبة والقتل المفهومين مما تقدم .وجملة ( فَتَابَ عَلَيْكُمْ ) جواب لشرط محذوف للإيجار ، أي فامتثلتم ما أمرتم به ، فقيل الباري توبتكم ، وهي خطاب من الله - تعالى - لبني إسرائيل على لسان موسى ، فيه تذكير بنعمته ، وإرشاد لهم إلى موطن المنة والفضل وهو قبول توبتهم .وعطفت هذه الجملة ( فَتَابَ عَلَيْكُمْ ) جواب لشرط محذوف للإيجار ، أي فامتثلتم ما أمرتم به ، فقيل ، الباري توبتكم ، وهي خطاب من الله - تعالى - لبني إسرائيل على لسان موسى فيه تذكير بنعمته ، وإرشاد لهم إلى موطن المنة والفضل وهو قبول توبتهم - وعطفت هذه الجملة ( فَتَابَ عَلَيْكُمْ ) بالفاء ، لإشعارهم بأنه. سبحانه - لم يتركهم ليستأصلوا أنفسهم جميعاً بالقتل ، بل تداركهم بلطفه

) : ورحمته ، فقبل توبتهم ، ورفع عقوبة القتل عمن بقي منهم .وقوله تعالى
إِنّهُ هُوَ التواب الرحيم ) إخبار وثناء على الله - تعالى - بما هو أهثله
، من عفو ورحمة .وأكدها - سبحانه - بتنزيلهم منزلة من يشك في قبول توبته
لعظم جريمتهم وضخامة خطيئتهم وسيرهم إلى أمد بعيد في طريق الشيطان .وهذه
الآية الكريمة قد تضمنت نعمة كبرى على بني إسرائيل فإن الله - تعالى - لطف
بهم ، ورحمهم ، وقبل توبتهم ، وعفا عن قتلهم أنفسهم ، بعد أن صدر منهم ما
يدل على صدقهم في توبتهم ، كما تضمنت - أيضاً - تذكير بني إسرائيل
المعاصرين للعهد النبوي بنعم الله عليهم ، لأنه لولا عفوه - سبحانه - عن
آبائهم لما وجدوا هم ، وفيها - كذلك - إشارة إلى سماحة الشريعة التي أتى
بها محمد صلى الله عليه وسلم وإغراء لليهود المعاصرين له بالدخول في
الإسلام لأنه إذا كان آباؤهم لم تقبل توبتهم إلا بقتلهم أنفسهم فإن شريعة
الإسلام تقول لهم : لقد جاءكم النبي الذي رفع عنكم إصركم والأغلال التي
كانت على أسلافكم ، فآمنوا به واتبعوه لعلكم ترحمون .سابعاً : نعمة بعثهم
من بعد موتهم :

واذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فاخذتكم الصاعقة وانتم تنظرون

كما فسرها الوسيط ثم ذكرهم - سبحانه - بعد ذلك بنعمة جليلة ، أسبغها الله
، عليهم رغم مطالبهم المتعنتة ، وهذه النعمة تتجلى في بعثهم من بعد موتهم
. . . فقال تعالى :( وَإِذْ قُلْتُمْ ياموسى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى نَرَى
جهرة : في الأصل مصدر من قولك جهرت بالقراءة والدعاء واستعيرت للمعاينة(
لما بينهما من الاتحاد في الوضوح والانكشاف ، إلا أن الأول في المسموعات
والثاني في المبصرات .والصاعقة : - كما قال ابن جرير - " كل أمر هائل رآه
الرائي أو عاينه أو أصابه ، حتى يصير من هوله وعظيم شأنه إلى هلاك وعطب
وذهاب عقل . صوتاً كان ذلك أو ناراً أو زلزلة أو رجفة ، ومما يدل على أن
الشخص قد يكون مصعوقاً وهو حي غير ميت ، قوله - تعالى - : ( وَخَرَّ موسى
صَعِقاً ) يعني مغشياً عليه ، فقد علم أن مسوى لم يكن حين غشى عليه وصعق
ميتاً ، لأن الله أخبر عنه أنه لما أفاق قال : ( سُبْحَانَكَ تُبْتُ
إِلَيْكَ . . . ) وأصل البعث في اللغة : إثارة الشيء من محله ، وتحريكه بعد
سكون ومنه : بعث فلان الناقة : إذا أثارها من مبركها للسير ، ويستعمل بمعنى
الإيقاظ ، كما ورد في قصة أهل الكهف ( فَضَرَبْنَا على آذَانِهِمْ فِي
الكهف سِنِينَ عَدَداً . ثُمّ بَعَثْنَاهُمْ . . . ) أي : أيقظناهم
، ويستعمل - أيضاً - بمعنى الإحياء . وهو المراد في الآية التي معنا.
: بدليل قوله تعالى : ( مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ ) .ومعنى الآيتين الكريمتين
واذكروا يا بني إسرائيل وقت أن تجاوزتم حدودكم ، وتعنتم في الطلب ، فقلتم
لنبيكم موسى بجفاء وغلظة : لن نؤمن لك ، ولن نقر بما جئتنا به ، حتى نرى
الله عياناً وعلانية ، فيأمرنا بالإيمان بك ، وبما جئت به ، فأخذتكم
العقوبة التي صعقتكم - بسبب جهلكم وتطاولكم - وأنتم تشاهدونها بعيونكم ، ثم
مننا عليكم بلطفنا ورحمتنا فأحييناكم من بعد أن أخذتكم الصاعقة ، لكي
تشكروا الله على نعمة التي من جملتها إعادتكم إلى الحياة من بعد موتكم .قال
الإمام ابن جرير : ذكرهم الله - تعالى - بذلك اختلاف آبائهم . وسوء
استقامة أسلافهم مع أنبيائهم ، مع كثرة معاينتهم من آيات الله وعبره ما
تثلج بأقلها الصدور ، وتطمئن بالتصديق معها النفوس ، وذلك مع تتابع الحجج
عليهم وسبوغ النعم من الله لديهم ، وهم مع ذلك مرة يسألون نبيهم أن يجعل
لهم إلهاً غير الله ، ومرة يعبدون العجل من دون الله ، ومرة يقولون : ( لَن
نُّؤْمِنَ لَكَ حتى نَرَى الله جَهْرَةً ) . وأخرى يقولون له إذا دعوا إلى
القتال : ( فاذهب أنتَ وَرَبُّكَ فقاتلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ )
ومرة يقال لهم : ( وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ )
فيقولون حنطة في شعيرة ، ويدخلون الباب من قبل أستاهم ، مع غير ذلك من
أفعالهم القبيحة التي يكثر إحصاؤها ، فأعلم الله - تعالى - الذين خاطبهم
بهذه الآيات من يهود بني إسرائيل الذين كانوا بين ظهراني مهاجر رسول الله
صلى الله عليه وسلم أنهم لن يعدوا أن يكونوا في تكذيبهم محمداً صلى الله
عليه وسلم وجحودهم نبوته كآبائهم وأسلافهم ، الذين فصل عليهم قصصهم في
- ارتدادهم عن دينهم مرة بعد أخرى ، وتمردهم على نبيه موسى - عليه السلام
- تارة بعد أخرى مع ابتلاء الله لهم ، وسبوغ آلائه عليهم .والقائلون لموسى
عليه السلام - : ( لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى نَرَى الله جَهْرَةً ) يرى جمهور
، المفسرين أنهم هم السبعون الذين اختارهم موسى للذهاب معه إلى ميقات ربه
وقد وردت آثار تؤيد هذا الرأي .من ذلك ما أخرجه ابن جرير عن الربيع بن أنس
في قوله تعالى : ( فَأَخَذَتْكُمُ الصاعقة ) أنه قال : هم السبعون الذين
: اختارهم موسى فساروا معه . وقالوا : اطلب لنا ربك لنسمع كلامه . قال
سمعوا كلاماً ، فقالوا : ( لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى نَرَى الله جَهْرَةً )
قال : فسمعوا صوتاً فصعقوا يقول : ماتوا ، فذلك قوله : ( ثُمّ
بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ ) فبعثوا من بعد موتهم ، لأن موتهم

: ذلك عقوبة لهم ، فبعثوا لبقية آجالهم .وقال ابن كثير : الذين قالوا لموسى
المراد بهم السبعون المختارون منهم ولم يحك كثير ( أَرِنَا اللّه جَهْرَةً )
من المفسرين سواه .وقيل : إن الذين طلبوا من موسى رؤية الله جهرة هم عامة
بني إسرائيل بدون تحديد لهؤلاء السبعين ، فقد روى عن عبد الرحمن بن زيد بن
أسلم أنه قال في تفسير هذه الآية . " قال لهم موسى لما رجع من عند ربه
بالألواح قد كتب فيها التوراة ، فوجدهم يعبدون العجل . فأمرهم بقتل أنفسهم
ففعلوا ، فتاب الله عليهم ، فقال لهم موسى : ( إن هذه الألواح فيها كتاب ،
الله فيه أمركم الذي أمركم به ، ونهيكم الذي نهاكم عنه ، فقالوا : ومن يأخذ
بقلوك أنت؟ لا والله حتى نرى الله جهرة ، حتى يطلع الله علينا فيقول : هذا
كتابي فخذوه ، فما له لا يكلمنا كما يكلمك أنت يا موسى؟! وقرأ قول الله
تعالى : ( لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى نَرَى الله جَهْرَةً ) ؛ قال : فجاءت
غضبة من الله - تعالى - ، فجاءتهم صاعقة بعد التوبة . فصعقتهم فماتوا
جميعاً . قال : ثم أحياهم الله من بعد موتهم ، وقرأ قوله تعالى : ( ثُمَّ
بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ) . فقال لهم
: موسى : خذوا كتاب الله ، فقالوا لا ، فقال : أي شيء أصابكم؟ فقالوا
أصابنا أننا متنا ثم أحيينا . قال : خذوا كتاب الله ، قالوا لا ، فبعث الله
ملائكة فنتفت الجبل فوقهم ) .قال الإمام ابن كثير : ( وهذا السياق يدل على
: أنهم كلفوا بعدما أحيوا ثم قال : وقد حكى الماوردي في ذلك قولين :أحدهما
أنهم سقط التكليف لمعاينتهم الأمر جهرة حتى صاروا مضطرين إلى التصديق
والثاني : أنهم مكلفون لئلا يخلو عاقل من تكليف .وهذا هو الصحيح لأن.
معاينتهم للأمور الفظيعة لا تمنع تكليفهم ، لأن بني إسرائيل قد شاهدوا
أموراً عظاماً من خوارق العادات وهم مع ذلك مكلفون؛ وهذا واضح ، والله أعلم
وقال ابن جرير : " ولا خبر عندنا بصحة شيء مما قاله من ذكرنا قوله في. (
سبب قيلهم ذلك لموسى تقوم به حجة ، فنسلم لهم ، وجائز أن يكون ذلك بعض ما
: قالوه ، فإذا كان لا خبر بذلك تقوم به حجة فالصواب من القول فيه أن يقال
إن الله - جل ثناؤه - قد أخبر عن قوم موسى أنهم قالوا له ( ياموسى لَن
. . . نُّؤْمِنَ لَكَ حتى نَرَى الله جَهْرَةً ) كما أخبر عنهم أنهم قالوه
وفي ندائهم لنبيهم باسمه" يا موسى " سوء أدب منهم معه ، لأنه كان من"
الواجب عليهم ، أن يقولوا له : يا رسول الله أو يا نبي الله ، من الصفات
التي تشعر بصفات التعظيم والتوقير ، وقد تكررت مناداتهم باسمه مجرداً في
كثير من المواطن .ومن أدب الصحابة مع الرسول صلى الله عليه وسلم أنهم كانوا
يقولون له : يا رسول الله ، استجابة لأمر الله - تعالى - في قوله : ( لاَّ
( تَجْعَلُواْ دُعَآءَ الرسول بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً
وقولهم : ( لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى نَرَى الله جَهْرَةً ) دليل على تمردهم
وعصيانهم ، وقلة اكتراثهم بما أوتوا من نعم ، وما شاهدوا من معجزات ، إذ
أنهم طلبوا منه أن يروا الله عياناً ، فإن لم يروه داخلهم الشك في صدق
نبيهم .وعبر عنهم القرآن الكريم بأنهم يريدون الرؤية ( جهرة ) لإزالة
احتمال أنهم يكتفون بالرؤية المنامية ، أو العلم القلبي ، فهم لا يعتقدون
) : إلا بالرؤية الحسية ، لغلظ قلوبهم ، وجفاء طباعهم .وقوله تعالى
فَأَخَذَتْكُمُ الصاعقة ) إشارة إلى أن العقوبة قد فاجأتهم بعد وقت قصير من
مطالبهم المتعنتة ، لأن الفاء تفيد التعقيب .وجملة ( وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ
تفيد أن العقوبة نزلت عليهم وهم يشاهدونها وفي مشاهدتها رعب وخوف أخذ (
بمجامع قلوبهم ، قبل أن يأخذ العذاب أجسادهم ، وإن أصابتهم بهذه العقوبة
كان في حالة إساءتهم وتمردهم وطمعهم في أن ينالوا ما ليس من حقهم .والآية
، الكريمة تفيد أن بني إسرائيل طلبوا من نبيهم رؤية الله جهرة في الدنيا
- وأنهم علقوا إيمانهم عليها ، ولم يأبهوا للآيات الدالة على صدق . موسى
عليه السلام - فكان ذلك محض تعنت وعناد منهم ، فأخذتهم الصاعقة عقوبة لهم
على ذلك ، وليس على مجرد سؤالهم رؤية الله - تعالى - ومن هنا يتبين أن
. الآية لا تدل على استحالة الرؤية كما يقول المعتزلة

ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون

كما فسرها الوسيط وجملة ( ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ ) هي
محل النعمة والمنة ، وهي معطوفة على قوله ( فَأَخَذَتْكُمُ الصاعقة ) ودل
العطف بثم على أن بين أخذ الصاعقة والبعث زماناً نتصور فيه المهلة والتأخير
- والمراد ببعثهم : إحياؤهم من بعد موتهم ، وهو معجزة لموسى - عليه السلام.
استجابة لدعائه .وقد اشتملت الآيتان الكريمتان على تحذير اليهود المعاصرين
للعهد النبوي ، من محاربة الدعوة الإسلامية ، حتى لا يصابوا بما أصيب به
أسلافهم من الصواعق وغيرها؛ وفيهما أيضاً تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم
عما لاقاه من اليهود ، لأن ما فعلوه معه قد فعل ما يشبهه آباؤهم مع
أنبيائهم ، وفيها كذلك لون جديد من نعم الله عليهم ما أجدرهم بشكرها لو
: كانوا يعقلون .ثامناً : نعمة تظليلهم بالغمام وإنزال المن والسلوى عليهم

وظللنا عليكم الغمام وانزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم

وما ظلمونا ولكن كانوا انفسهم يظلمون

كما فسرها الوسيط ثم عطف - سبحانه - على نعمة بعثهم من بعد موتهم نعمة أخرى
): بل نعمتين ، وهما تظليلهم بالغمام ومنحهم المن والسلوى ، فقال تعالى
وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الغمام وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ المن والسلوى
كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ . . . )الغمام : جمع غمامة ، وهي السحابة ، وخصه
- بعض علماء اللغة بالسحاب الأبيض .والمن : اسم جنس لا واحد من لفظه ، وهو
على أرجح الأقوال - مادة صمغية تسقط على الشجر تشبه حلاوته حلاوة الغسل
والسلوى : اسم جنس جمعي ، واحدته سلواة ، وهو طائر بري لذيذ اللحم ، سهل
الصيد يسمى بالسماني ، كانت تسوقه لهم ريح الجنوب كل مساء ، فيمسكونه قبضاً
بدون تعب .وتظليلهم بالغمام وإنزال المن والسلوى عليهم ، كان في مدة تيههم
بين مصر والشام المشار إليه بقوله - تعالى : ( قَالَ فَإِنَّهَا
مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأرض ) قال
السدي : " لما دخل بنو إسرائيل التيه ، قالوا لموسى - عليه السلام - كيف
لنا بما ها هنا ، أين الطعام؟ فأنزل الله عليهم المن فكان ينزل على شجرة
النجبيل ، والسلوى وهو طائر يشبه السماني أكبر منه فكان يأتي أحدهم فينظر
إلى الطير فإن كان سميناً ذبحه وإلا أرسله ، فإذا سمن أتاه فقالوا هذا
الطعام فأين الشراب؟ فأمر إله - تعالى - موسى أن يضرب بعصاه الحجر فضربه
فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً ، فشرب كل سبط من عين ، فقالوا : هذا الشراب
فأين الظل؟ فظلل الله عليهما الغمام . قالوا : هذا الظل فأين اللباس؟ فكانت
: ثيابهم تطول معهم كما تطول الصبيان ولا يتمزق لهم توب ، فذلك قوله تعالى
. وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الغمام وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ المن والسلوى )
ومعنى الآية الكريمة : واذكروا يا بني إسرائيل من بين نعمي عليكم نعمة( . .
إظلالكم بالغمام وأنتم في التيه ليقيكم حر الشمس ، وحرارة الجو ، ولولا
منحى إياكم الطعام اللذيذ المشتهي بدون تعب منكم في تحصيله لهلكتم ، وقلنا
لكم كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا الذي رزقكم هذه النعم ، ولكنكم كفرتم
بها ، فظلمتم أنفسكم دون أن ينالنا من ذلك شيء ، لأن الخلق جميعاً لن
يبلغوا ضرى فيضروني ولن يبلغوا نفعي فينفعوني .فالآية الكريمة قد أشارت إلى
جحودهم النعمة بقوله تعالى : ( وَمَا ظَلَمُونَا ولكن كانوا أَنْفُسَهُمْ
يَظْلِمُونَ ) .وقوله تعالى : ( وَمَا ظَلَمُونَا ) معطوف على محذوف ، أي
فعصوا ولم يقابلوا النعم بالشكر .ويرى البعض أنه لا حاجة إلى التقدير ، وأن
جملة ( وَمَا ظَلَمُونَا ) معطوفة على ما قبلها لأنها مثلها في أنها من
أحوال بني إسرائيل .والتعبير عن ظلمهم لأنفسهم بكلمة ( كانوا ) والفعل
المضارع ( يَظْلِمُونَ ) يدل على أن ظلمهم لأنفسهم كان يتكرر منهم ، لأنك
لا تقول في ذم إنسان كان يسيء إلى الناس إلا إذا كانت الإساءة تصدر منه
المرة تلو الأخرى .قال الإمام ابن جرير - رحمه الله - في تفسير قوله تعالى
) : ما ملخصه ( وَمَا ظَلَمُونَا ولكن كانوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ) :
: هذا من الذي استغنى بدلالة ظاهره على ما ترك منه ، وذلك أن معنى الكلام
كلوا من طيبات ما رزقناكم فخالفوا ما أمرناهم به ، وعصوا ربهم ، ثم رسولنا
إليهم ، وما ظلمونا فاكتفى بما ظهر عما ترك ، وقوله ( وَمَا ظَلَمُونَا )
أي : ما ظلمونا بفعلهم ذلك ومعصيتهم ، وما وضعوا فعلهم ذلك وعصيانهم إيانا
موضع مضرة علينا ومنقصة لنا ، ولكنهم وضعوه من أنفسهم موضع مضرة عليها
ومنقصة لها فإن الله - تعالى -لا تضره معصية عاص ، ولا يتحيف خزائنه ظلم
ظالم ، ولا تنفعه طاعة مطيع ، ولا يزيد في ملكه عدل عادل ، بل نفسَه يظلم
( الظالم وحظها يبخس العاصي ، وإياها ينفع المطيع ، وحظها يصيب العادل
وبذلك تكون الآيات الكريمة قد ذكرت بني إسرائيل بنعمة من أعظم النعم وهي.
تظليلهم بالغمام بإنزال المن والسلوى عليهم ، ولكن بني إسرائيل لم يشكروا
الله على نعمه ، ولذا أرسل الله عليهم رجزاً من السماء بسبب ظلمهم وفسقهم
. تاسعاً : نعمة تمكينهم من دخول بيت المقدس ونكولهم عن ذلك.

واذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا وادخلوا الباب سجدا
وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين

كما فسرها الوسيط ثم ذكرهم - سبحانه - بعد ذلك بمنة عظيمة مكنوا منها فما
أحسنوا قبولها وما رعوها حق رعايتها ، وهي تخليصهم من عناء التيه ، والإذن
لهم في دخول بلدة يجدون فيها الراحة والهناء ، وإرشادهم إلى القول الذي
يخلصهم مما استوجبوه من عقوبات ولكنهم خالفوه فقال تعالى :( وَإِذْ قُلْنَا
ادخلوا هذه القرية فَكُلُواْ . . . )القرية : هي البلدة المشتملة على مساكن
، والمراد بها بيت المقدس على الراجح .والرغد : الواسع من العيش الهنيء ،
الذي لا يتعب صاحبه ، يقال : أرغد فلان : أصاب واسعاً من العيش الهنيء
الحطة : من حط بمعنى وضع ، وهي مصدر مراد به طلب حط الذنوب .قال صاحب.
الكشاف : ( حطة ) فعله من الحط كالجلسة . وهي خبر مبتدأ محذوف ، أي مسألتنا
حطة ، والأصل فيها النصب بمعنى : حط عنا ذنوبنا حطة ، وإنما رفعت لتعطي
- معنى الثبات . . ) ؟والمعنى : اذكروا يا بني إسرائيل ، لتتعظوا وتعتبروا

وقت أن أمرنا أسلافكم بدخول بيت المقدس بعد خروجهم من التية ، وأبحناهم أن يأكلوا من خيراتها أكلاً هنيئاً ذا سعة وقلنا لهم : ادخلوا من بابها راكعين - شكراً لله على ما أنعم به عليكم من نعمة فتح الأرض المقدسة متوسلين إليه سبحانه - بأن يحط عنكم ذنوبكم ، فإن فعلتم ذلك العمل اليسير وقلتم هذا القول القليل غفرنا لكم ذنوبكم وكفرنا عنكم سيئاتكم ، وزدنا المحسن منهم خيراً جزاء إحسانه ، ولكنهم جحدوا نعم الله وخالفوه أوامره ، فبدلوا بالقول الذي أمرهم الله به قولا آخر أتوا به من عند أنفسهم على وجه العناد والاستهزاء ، فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - : ( وهذا كان لما خرجوا من التيه بعد أربعين سنة مع يوشع . بن نون - عليه السلام - وفتحها الله عليهم عشية جمعة وقد حبست لهم الشمس يومئذ قليلا حتى أمكن الفتح ، ولما فتحوها أمروا أن ، يدخلوا الباب ( باب البلد ) سجداً أي شكراً الله تعالى على ما أنعم به عليهم من الفتح والنصر ورد بلدهم عليهم وإنقاذهم من التيه والضلال ) .وقوله تعالى : ( فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً ) فيه إشعار بكمال النعمة عليهم واتساعها وكثرتها . حيث أذن لهم في التمتع بثمرات القرية وأطعمتها من أي مكان شاءوا .وقوله تعالى : ( وادخلوا الباب سُجَّداً وَقُولُواْ حِطَّةٌ ) إرشاد لهم إلى ما يجب عليهم نحو خالقهم من الشكر والخضوع ، وتوجيههم إلى ما يعينهم على بلوغ غاياتهم . بأيسر الطرق وأسهل السبل ، فكل ما كلفوا به أن يدخلوا من باب المدينة التي فتحها الله لهم خاضعين مخبتين وأن يضرعوا إليه بأن يحط عنهم آثامهم ، ويمحو سيئاتهم .وقوله تعالى : ( نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ) بيان للثمرة التي تترتب على طاعتهم وخضوعهم لخالقهم ، وإغراء لهم على الامتثال والشكر ، لو كانوا يعقلون - لأن غاية ما يتمناه العقلاء غفران الذنوب .قال الإمام ابن جرير : يعني بقوله تعالى : ( نّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ) نتغمد لكم بالرحمة خطاياكم ، ونسترها عليكم ، فلا نفضحكم بالعقوبة عليها . وأصل الغفر : التغطية والستر ، فكل ساتر شيئاً فهو غافر . . والخطايا : جمع خطية - بغير همز - كالمطايا جمع مطية ..وقوله تعالى : ( وَسَنَزِيدُ المحسنين ) وعد بالزيادة من خيري الدنيا والآخرة لمن أسلم لله وهو محسن ، أي : من كان منكم محسناً زيد في إحسانه ومن كان مخطئاً نغفر له خطيئاته .وقد أمرهم سبحانه - أن يدخلوا باب المدينة التي فتحوها خاضعين وأن يلتمسوا منه مغفرة خطاياهم ، لأن تغلبهم على أعدائهم ، ودخولهم الأرض المقدسة التي كتبها الله لهم ، نعمة من أجل النعم ، و هي تستدعي منهم أن يشكروا الله عليها بالقول والفعل لكي يزيدهم من فضله ، فشأن الأخيار أن يقابلوا نعم الله بالشكر ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يظهر أقصى درجات الخضوع لله تعالى عند النصر والظفر وبلوغ المطلوب ، فعندما تم له فتح مكة دخل إليها من الثنية العليا ، وإنه لخاضع لربه ، حتى إن رأسه الشريف ليكاد يمس عنق ناقته شكراً لله على نعمة الفتح ، وبعد دخوله مكة اغتسل وصلى ثماني ركعات سماها بعض الفقها صلاة الفتح .ومن هنا استحب العلماء للفاتحين من المسلمين إذا فتحوا بلدة أن يصلوا فيها ثماني ركعات عند دخولها شكراً لله - تعالى - وقد فعل ذلك سعد بن أبي وقاص عندما دخل إيوان كسرى ، فقد ثبت أنه صلى بداخله ثماني ركعات .ولكن ، ماذا كان من بني إسرائيل بعد أن أتم الله لهم نعمة الفتح؟

فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم فانزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون

كما فسرها الوسيط إنهم لم يفعلوا ما أمروا بفعله ، ولم يقولوا ما كلفوا بقوله ، بل خالفوا ما أمروا به من قول وفعل ، ولذا قال تعالى : ( فَبَدَّلَ الذين ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الذي قِيلَ لَهُمْ ) .أخرج البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " قيل لبني إسرائيل : ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة فبدلوا ودخلوا يزحفون على أستاهم وقالوا : حبة في شعيرة " .قال الإمام ابن كثير : ( وحاصل ما ذكره ، المفسرون وما دل عليه السياق ، أنهم بدلوا أمر الله لهم من الخضوع بالقول والفعل ، فأمروا أن يدخلوا الباب سجداً ، فدخلوا يزحفون على أستاهم رافعين رؤسهم ، وأمروا أن يقولوا : حطة ، أي احطط عنا ذنوبنا وخطايانا فاستهزءوا ، وقالوا : حطنة في شعيرة ، وهذا في غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة ولهذا أنزل الله بهم بأسه وعذابه بفسقهم وخروجهم عن طاعته ) .فقوله تعالى : ( فَبَدَّلَ الذين ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الذي قِيلَ لَهُمْ ) بيان للسبب الذي من أجله نزل عليهم العذاب ، وتوبيخ لهم على مخالفتهم أوامر الله - تعالى - ، لأن تبديل الشيء معناه تغييره وإزالته عما كان عليه بإعطائه صورة تخالف التي كان عليها .والفعل ( بدل ) يقتضي بدلا ومبدلا منه إلا أن مقام الإيجاز في الآية استدعى الاكتفاء بذكر البدل - وهو القول الذي لم يقل لهم - دون ذكر المبدل منه - وهو القول الذي قيل لهم - والتقدير فاختار الذين ظلموا بالقول الذي أمرهم الله به ، قولا آخر اخترعوه من عند أنفسهم على وجه المخالفة والعصيان .قال صاحب الكشاف : ( فَبَدّل الذين

ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ الذي قِيلَ لَهُمْ ) أي : وضعوا مكان ( حِطّةٌ )
قولا غيرها ، يعني أنهم أمروا بقول معناه التوبة والاستغفار فخالفوه إلى
قول ليس معناه معنى ما أمروا به ، ولم يمتثلوا أمر الله ، وليس الغرض أنهم
أمروا بلفظ بعينه . وهو لفظ الحطة فجاءوا بلفظ آخر ، لأنهم لو جاءوا بلفظ
: آخر مستقل ، بمعنى ما أمروا به لم يؤاخذوا به كما لو قالوا مكان حطة
نستغفرك ونتوب إليك . أو اللهم أعف عنا وما أشبه ذلك " .والعبرة التي تؤخذ
من هذه الجملة الكريمة ، أن من أمره الله - تعالى - بقول أو يفعل ، فتركه
وأتى بآخر لم يأذن به الله ، ودخل في زمرة الظالمين ، وعرض نفسه لسوء
المصير .وقوله تعالى : ( فَأَنزَلْنَا عَلَى الذين ظَلَمُواْ رِجْزاً مِّنَ
السمآء بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ) تصريح بأن ما أصابهم من عذاب كان
: نتيجة عصيانهم وتمردهم وجحودهم لنعم الله - تعالى - والرجز في لغة العرب
هو العذاب سواء أكان بالأمراض المختلفة أو بغيرها .وفي النص على أن الرجز
قد أناهم من جهة السماء إشعار بأنه عذاب لم يمكن دفعه وأنه لم يكن له سبب
أرضي من عدوى أو نحوها ، بل رمتهم به الملائكة من جهة السماء . فأصيب به
الذين ظلموا دون غيرهم ، ولم يقل القرآن ( فَأَنزَلْنَا عَلَى ) بالإضمار
وإنما قال ( فَأَنزَلْنَا عَلَى الذين ظَلَمُواْ ) بالإظهار ، تأكيداً ،
لوصفهم بأفبح النعوت وهو الظلم ، وإشعاراً بأن ما نزل عليهم كان سببه بغيهم
وظلمهم .وقد تضمنت الآيتان الكريمتان أن بني إسرائيل مكنوا من النعمة
فنفروا منها ، وفتحت لهم أبواب الخير فأبوا دخولها ، وأرشدوا إلى القلو
الذي يكفر سيئاتهم فخالفوا ما أرشدوا إليه مخالفة لا تقبل التأويل ، فكانت
، نتيجة جحودهم ومخالفتهم لأمر الله حرمانهم من تلك النعمة التي حين
ومعاقبتهم لظلمهم بالعذاب الأليم ، وفي هذا التذكير امتنان عليهم ببذل
النعمة ، لأن عدم قبولهم لها لا يمنع كونها نعمة ، وفيه إثارة لحسرة اليهود
المعاصرين للعهد النبوي على ما ضاع من أسلافهم بسبب مخالفتهم وتمردهم وفيه
أيضاً تحذير لهم من سلوك طريق آبائهم حتى لا يصيبهم ما أصاب أسلافهم من
. عذاب أليم .عاشراً : نعمة إغاثتهم بالماء بعد أن اشتد بهم العطش

واذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا
قد علم كل اناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الارض مفسدين

، كما فسرها الوسيط ثم ذكرهم - سبحانه - بعد ذلك بنعمة من أجل نعمه عليهم
وهي إغاثتهم في التيه بالماء بعد أن اشتد بهم العطش ، فقال تعالى :( وَإِذِ
استسقى موسى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضرب بِّعَصَاكَ . . . )الاستسقاء : طلب
السقيا عند عدم الماء أو حبس المطر ، وذلك عن طريق الدعاء لله - تعالى - في
خشوع واستكانة ، وقد سأل موسى ربه أن يسقى بني إسرائيل الماء بعد أن استبد
بهم العطش ، عندما كانوا في التيه ، فعن ابن عباس أنه قال : " كان ذلك في
التيه ، ضرب له مموسى الحجر ، فصارت منه اثنتا عشرة عيناً من ماء ، لكل سبط
منهم عين يشربون منها .وهذه النعمى كانت نافعة لهم في دنياهم؛ لأنها أزالت
عنهم الحاجة الشديدة إلى الماء ولولاه لهلكوا ، وكانت نافعة لهم في دينهم؛
لأنها من أظهر الأدلة على وجود الله . وعلى قدرته وعلمه ، ومن أقوى
: البراهين على صدق موسى - عليه السلام - في نبوته .ومعنى الآية الكريمة
واذكروا يا بني إسرائيل وقت أن أصاب آباءكم العطش الشديد وهم في صحراء
مجدبة ، فتوسل إلينا نبيهم موسى - عليه السلام - في خشوع وتضرع أن أمدهم
بالماء الذي يكفيهم ، فأجبناه إلى ما طلب ، إذ أوحينا إليه أن اضرب بعصاك
الحجر . ففعل ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً بمقدار عدد الأسباط ، وصار
لكل سبط منهم مشرب يعرفه ولا يتعداه إلى غيره ، وقلنا لهم : تمتعوا بما من
الله به عليكم من مأكول طيب ومشروب هنيء رزقكم الله إياه من غير تعب ولا
مشقة ، ( وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأرض مُفْسِدِينَ ) فتتحول النعم التي بين
أيديكم إلى نقم وتصبحوا على ما فعلتم نادمين .وقوله تعالى : ( وَإِذِ
استسقى موسى لِقَوْمِهِ ) يفيد أن الذي سأل ربه السقيا هو موسى - عليه
السلام - وحده ، لتظهر كرامته عند ربه لدى قومه ، وليشاهدوا بأعينهم إكرام
الله - تعالى - له ، حيث أجاب سؤاله ، وفجر الماء لهم ببركة دعائه .واللام
- في قوله تعالى - ( لِقَوْمِهِ ) للسببية ، أي لأجل قومه .والفاء في قوله
تعالى - ( فَقُلْنَا اضرب بِّعَصَاكَ الحجر ) عطفت الجملة بعدها على محذوف
والتقدير : فأجبناه إلى ما طلب ، وقلنا اضرب بعصاك الحجر .وآل في ( الحجر ،
لتعريف الجنس أي اضرب أي حجر شئت بدون تعيين ، وقيل للعهد ، ويكون المراد (
حجراً معيناً معروفاً لموسى - عليه السلام - بوحى من الله تعالى . وقد أورد
المفسرون في ذلك آثاراً حكم المحققون بضعفها ولذلك لم نعتد بها .والذي
نرجحه أنها لتعريف الجنس ، لأن انفجار الماء من أي حجر بعد ضربه أظهر في
إقامة البرهان على صدق موسى - عليه السلام - وأدعى لإيمان بني إسرائيل
- وانصياعهم للحق بعد وضوحه ، وأبعد عن التشكيك في إكرام الله لنبيه موسى
عليه السلام - إذ لو كان انفجار الماء من حجر معين لأمكن أن يقولوا : إن
- تفجير الماء كان لمعنى خاص بالحجر لا لكرامة موسى عند ربه - تعالى
والفاء في قوله تعالى : ( فانفجرت مِنْهُ اثنتا عَشْرَةَ ) كسابقتها للعطف.

على محذوف تقديره : فضرب فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً ، وقد حذفت هذه
الجملة المقدرة لوضوح المعنى .وكانت العيون اثنتي عشرة عيناً؛ لأن بني
إسرائيل كانوا اثني عشر سبطاً ، والاسباط في بني إسرائيل كالقبائل في العرب
وهم ذرية أبناء يعقوب - عليه السلام - الاثني عشر ، ففي انفجار الماء من .
اثنتي عشرة عيناً إكمال للنعمة عليهم ، حتى لا يقع بينهم تنازع وتشاجر
وقال - سبحانه - : ( فانفجرت ) وقال في سورة الأعراف ( فانبجست ):
والانبجاس خروج الماء بقلة . والانفجار خروجه بكثرة ، ولا تنافي بينهما في
الواقع؛ لأنه انبجس أولا . ثم انفجر ثانياً ، وكذا العيون يظهر الماء منها
قليلا ثم يكثر لدوام خروجه .وقوله تعالى : ( قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ
: مَّشْرَبَهُمْ ) إرشاد وتنبيه إلى حكمة الانقسام إلى اثنتي عشرة عيناً أي
قد عرف كل سبط من أسباط بني إسرائيل مكان شربه ، فلا يتعداه إلى غيره ، وفي
ذلك ما فيه من استقرار أمورهم ، واطمئنان نفوسهم ، وعدم تعدى بعضهم على بعض
وقوله تعالى : ( كُلُواْ واشربوا مِن رِّزْقِ الله ) مقول لقول محذوف.
تقديره : وقلنا لهم : كلوا واشربوا من رزق الله .وقد جمع - سبحانه - بين
الأكل والشرب - وإن كان الحديث عن الشراب - لأنه قد تقدمه إنزال المن
والسلوى ، وقد قيل هنالك : ( كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ )
) : فلما أتبع ذلك بنعمة تفجير الماء لهم اجتمعت المنتان .وقوله تعالى
وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأرض مُفْسِدِينَ ) تحذير لهم من البطر والغرور
، واستعمال النعمى في غير ما وضعت له ، بعد أن أذن لهم في التمتع بالطيبات
لأن النعممى عندما تكثر قد تنسى العبد حققو خالقه فيهجر الشريعة ، ويعيث في
الأرض فساداً . قال تعالى : ( كَلاَّ إِنَّ الإنسان ليطغى . أن رّآهُ
استغنى ) والمعنى : ولا تسعوا في الأرض مفسدين ، وتقابلوا النعم بالعصيان
فتسلب عنكم قال ابن جرير - رحمه الله - : ( وأصل العثا شدة الإفساد بل هو
أشد الإفساد ، يقال منه : عثى فلان في الأرض : إذا تجاوز الحد في الإفساد
إلى غايته ، يعثى ، عثاً مقصوراً ، ويقال للجماعة يعثون . . ) .وبذلك تكون
الآية الكريمة قد ذكرت بني إسرائيل بنعمة خليلة ، ونصحتهم بأن يعملوا على
شكرها : وحذرتهم عاقبة الإفساد في الأرض وجحودهم النعمى واستبدالهم الذيهو
: أدنى بالذي هو خير

واذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت
الارض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال اتستبدلون الذي هو ادنى
بالذي هو خير اهبطوا مصرا فان لكم ما سالتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة
وباءوا بغضب من الله ذلك بانهم كانوا يكفرون بايات الله ويقتلون النبيين
بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون

كما فسرها الوسيط ثم ذكرهم - سبحانه - بما كان منهم من جحود النعمة
، واستخفافهم بها وإيثارهم - بسوء اختيارهم - ما هو أدنى على ما هو خير
فقال تعالى :( وَإِذْ قُلْتُمْ ياموسى لَن نَّصْبِرَ على طَعَامٍ وَاحِدٍ
فادع لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأرض مِن بَقْلِهَا
وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ
الصبر : حبس النفس على الشيء ، بمعنى إلزامها إياه ، ومنه الصبر على( . . .
الطاعات ، أو يطلق على حبسها بمعنى كفها . ومنه الصبر عن المعاصي . والطعام
ما رزقوه في التيه من المن والسولى : والبقل : ما تنبته الأرض من الخضر :
مما يأكله الناس والأنعام من نحو النعناع والكراث وغيرهما . والقوم : قيل
) هو الثوم ، وقيل هو الحنطة . والقثاء : نوع من المأكولات أكبر حجماً من
الخيار ) .قال ابن جرير : ( وكان سبب مسألتهم موسى - عليه السلام - ذلك
، فيما بلغنا عن قتادة أنه قال : كان القوم في البرية قد ظلل عليهم الغمام
وأنزل عليهم المن والسلوى : فملوا ذلك وذكروا عيشاً كان لهم بمصر ، فسألوه
موسى ، فقال الله تعالى : ( اهبطوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ
ثم ساق ابن جرير رواية ، فيها تصريح بأن سؤالهم لم يكن في البرية بل كان. (
: في التيه فقال : حدثني يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا إبن وهب قال
أنبأنا . ابن زيد قال :" كان طعام بني إسرائيل في التيه واحداً ، وشرابهم
واحداً . كان شرابهم عسلاً ينزل لهم من السماء يقال له المن ، وطعامهم طير
يقال له السلوى ، يأكلون الطير ويشربون العسل ، لم يكونوا يعرفون خبزاً ولا
غيره ، فقالوا يا موسى : ( وَإِذْ قُلْتُمْ ياموسى لَن نَّصْبِرَ على
طَعَامٍ وَاحِدٍ ) : " لما سئموا من الإقامة في التيه . والمواظبة على
، مأكول واحد لبعدهم عن الأرض التي ألفوها ، وعن العوائد التي عهدوها
، أخبروا عما وجدوه من عدم الصبر على ذلك ، وتشوقهم إلى ما كانوا يألفون
وسألوا موسى أن يسأل الله لهم " .وقال صاحب الكشاف : " كانوا أهل فلاحة
فنزعوا إلى عكرهم - فأجموا - أي ملوا وكرهوا - ما كانوا فيه من النعمى
وطلبت أنفسهم عدم البقاء ( على طَعَامٍ وَاحِدٍ ) أرادوا ما رزقوه في التيه
من المن والسلوى " .ومعنى الآية الكريمة إجمالاً : وذاكروا يا بني إسرائيل
، بعد أن أسبغنا عليكم نعمنا ما كان من سوء اختيار أسلافكم ، وفساد أذواقكم
وإعناتكم لنبيهم موسى - عليه السلام - حيث قالوا له ببطر وسوء أدب : لن

نصبر على طعام المن والسلوى في كل وقت ، فسل ربك أن يخرج لنا مما تنبته
الأرض من خضرها وفاكهتها وحنطتها وعدسها وبصلها ، لأن نفوسنا قد عافت المن
والسلوى ، فوبخهم نبيهم موسى - عليه السلام - بقوله : أتختارون الذي هو أقل
فائدة وأدنى لذة ، وتتركون المن والسلوى وهو خير مما تطلبون لذة وفائدة؟
انزلوا إلى مصر من الأمصار فإنكم تجدون به ما طلبتموه من البقول وأشباهها
، وأحاطت ببني إسرائيل المهانة والاستكانة كما تحيط القبة بمن ضربت عليه.
وحق عليهم غضب الله .ثم بين الله - تعالى - السبب في جحودهم للنعم وفي أنه
ضرب عليهم الذلة والمسكنة وأنزل عليهم غضبه بقوله :( ذلك بِأَنَّهُمْ
كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ الله وَيَقْتُلُونَ الأنبياء بِغَيْرِ حَقٍّ
إلخ أي : إن الكفر بآيات الله قد تأصل فيهم ، وقتل أنبيائهم بغير الحق قد (
تكرر منهم حتى صار كالطبيعة الثانية والسجية الثابتة ، فليس غريباً على
هؤلاء أن يقولوا لن نصبر على المن والسلوى وأن ينزل بهم غضب الله ونقمته من
أجل جحودهم وكفرهم .وقوله تعالى : ( وَإِذْ قُلْتُمْ ياموسى لَن نَّصْبِرَ
. على طَعَامٍ وَاحِدٍ ) تذكير لهم برغبة من رغباتهم الناشئة عن ذوق سقيم
لا يقدر النعمى قدرها ، وفيه انتقال من تعداد النعم عليهم إلى بيان موفقهم
الجحودي منها ، وانسياقهم وراء شهواتهم وأهوائهم وحماقاتهم ، وفيه إشعار
بسوء أدبهم في مخاطبتهم لنبيهم موسى - عليه السلام - إذ عبروا عن عدم
) : رغبتهم في تناول المن والسلوى بحرف ( لَن ) المفيد تأكيد النفي فقالوا
لَن نَّصْبِرَ ) . . إلخ فكأنهم يقولن له مهددين ، ليلجئوه إلى دعاء ربه
سريعاً : إننا ابتداء من هذا الوقت الذي نخاطبك فيه إلى أن نموت ، لن نحبس
أنفسنا عن كراهية على تناول طعام واحد ، لأننا قد سئمناه ومللناه ، ولن
نعود إليه : فالتعبير " بلن " يشعر بشدة ضجرهم ، وبلوغ الكراهية لهذا
الطعام منهم منتهاها .قال الحسن البصري - رضي الله عنه - : " بطروا طعم
المن والسلوى فلم يصبروا عليه ، وذكروا عيشهم الذي كانوا فيه ، وكانوا
قوماً أهل أعداس وبصل وبقل وثوم " .ووصفوه بالوحدة مع أن المن والسلوى
نوعان ، لأنهم أرادوا من الوحدة أنه طعام متكرر في كل يوم لا يختلف بحسب
الأوقات ، والعرب تقول لمن يفعل على مائدته في كل يوم من الطعام أنواعاً لا
، تتغير ، إنه يأكل من طعام واحد .وسألوا موسى - عليه السلام - أن يدعو لهم
، لأن دعاء الأنبياء أقرب إلى الإجابة من دعاء غيرهم ، وكذلك دعاء الصالحين
حيث يصدر من قلوب عامرة بتقوى الله وجلاله ، فيلاقى من الإجابة ما لا
) : يلاقيه دعاء نفوس تستهويها الشهوات ، وتستولي عليها السيئات .وقولهم
، فادع لَنَا رَبَّكَ ) ولم يقولوا ربنا ، لعدم رسوخ الإيمان في قلوبهم
ولأنه سبحانه - قد اختصه بما لم يعط مثله من مناجاته وتكميله وإيتائه
التوراة .وقولهم : ( يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأرض مِن بَقْلِهَا
وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ) هو مضمون ما طلبوه من
موسى - عليه السلام - وهو في معنى مقول قول محذوف والتقدير : أي قل لربك
يخرج لنا .وجاء التعبير بالفعل ( يُخْرِجْ ) مجزوماً - مع أن مقتضى الظاهر
، أن يقال : " أن يخرج - للإيماء إلى أنهم واثقون بأنه إن دعا ربه أجابه
حتى لكأن إخراج ما تنبت الأرض متوقف على مجرد دعاء موسى ربه ، وأنه لو لم
) : يدع لهم ، لكان شحيحاً عليهم بما فيه نفعهم .والجملة الكريمة
أَتَسْتَبْدِلُونَ الذي هُوَ أدنى بالذي هُوَ خَيْرٌ ) من مقول موسى - عليه
. السلام - لهم ، وفيها توبيخ شديد لهم على سوء اختيارهم ، وضعف عقولهم
لإيثارهم الأدنى وهو البقل وما عطف عليه ، على ما هو خير منه وهو المن
: والسلوى .قال ابن جرير عند تفسيره للآية الكريمة : " أي قال لهم موسى
أتاخذون الذي هو أخس خطراً وقيمة وقدراً من العيش ، بدلا بالذي هو خير منه
خطراً وقيمة وقدراً ، وذلك كان استبدالهم ، وأصل الاستبدال : هو ترك شيء
لآخر غيره مكان المتروك ، ومعنى قوله : ( أدنى ) أخس وأضع وأصغر قدراً
وخطراً ، وأصله من قولهم : هذا رجل دنى بين الدناءة ، وإنه ليدنى في
الأمور - بغير همز - إذ كان يتتبع خسيسها . ثم قال : ولا شك أن من استبدل
بالمن والسلوى : البقول والقثاء والعدس والبصل والثوم ، فقد استبدل الوضيع
من العيش بالرفيع منه " .ثم أضاف موسى - عليه السلام - إلى توبيخهم السابق
على بطرهم وجحودهم توبيخاً آخر فقال لهم : ( اهبطوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ
، مَّا سَأَلْتُمْ ) أي إذا كان هذا هو مرغوبكم ، فاتركوا هذا المكان
وأنزلوا إلى مصر من الأمصار ، لكي تجدوا ما سألتموني إياه من البقل والثوم
وأشباههما ، لأن ما اخترتموه لا يوجد في المكان الذي حللتم به ، وإنما يوجد
في الأمصار والقرى .وقوله تعالى : ( مِصْراً ) .قال ابن كثير : " هكذا هو
منون مصروف مكتوب بالألف في المصاحف الأئمة العثمانية وهو قراءة الجمهور
بالصرف " .وقال ابن جرير : " فأما القراءة فإنها بالألف والتنوين ( اهبطوا
مِصْراً ) وهي القراءة التي لا يجوز عندي غيرها ، لاجتماع خطوط مصاحف
: المسلمين واتفاق قراءة القراء على ذلك . . " اه .وقال أبو حيان في البحر
وقرأ الحسن وطلحة والأعمش وأبان ابن تغلب ( مصر ) بغير تنوين ، وقد وردت "
كذلك في مصحف أبي بن كعب وعبد الله بن مسعود ، وبعض مصاحف عثمان - رضي الله
عنه " اه .والمعنى على القراءة الأولى : اهبطوا مصر من الأمصار لأنكم في
البدو ، والذي طلبتم لا يكون في البوادي والفيافي وإنما يكون في القرى

والأمصار ، فإن لكم إذا هبطتموه ما سألتم من العيش .والمعنى على القراءة
الثانية : اتركوا المكان الذي أنتم فيه ، واهبطوا مصر التي كنتم تسامون
فيها سوء العذاب فإنكم تجدون فيها ما تبغونه ، لأنكم قوم لا تقدرون نعمة
الحرية ، ولا ترتاحوا للفضائل النفسية ، بل شأنكم - دائماً - أن تستبدلوا
الذي هو أدنى بالذي هو خير .ومن حجة الذين قالوا إن الله أراد بالمصر في
الآية الكريمة ، مصر فرعون ، قوله تعالى في سورة الشعراء ( فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ
كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بني إِسْرَائِيلَ ) وقوله تعالى في سورة
الدخان :( كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ
كَرِيمٍ . وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَاكِهِينَ . كَذَلِكَ
وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ ) قالوا : فأخبر الله - تعالى - أنه قد
ورثهم ذلك ، وجعلها لهم ، فلم يكونوا يرثونها ، ثم لا ينتفعون بها ، ولا
يكونون منتفعين إلا بمصر بعضهم إليها .قال ابن جرير : " ومن حجة من قال إن
الله - إنما عني بقوله : ( اهبطوا مِصْراً ) أي : مصراً من الأمصار دون مصر
فرعون بعينها ، أن الله - تعالى - جعل أرض الشام لبني إسرائيل مساكن بعد أن
أخرجهم من مصر ، وإنما ابتلاهم بالتيه . فامتناعهم عن موسى في حرب الجبابرة
إذ قال لهم ( يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الّتِي كَتَبَ ،
اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا على أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا
خَاسِرِينَ ) إلى قوله تعالى : ( فاذهب أَنتَ وَرَبُّكَ فقاتلا إِنَّا
- هَاهُنَا قَاعِدُونَ ) فحرم الله - تعالى - على قائل ذلك - فيما ذكر لنا
دخولها حتى هلكوا في التيه وابتلاهم بالتيهان في الأرض أربعين سنة . ثم
أهبط ذريتهم الشام ، فأسكنهم الأرض المقدسة ، وجعل هلاك الجبابرة على
- أيديهم مع " يوشع بن نون " بعد وفاة موسى بن عمران . فرأينا أن الله
تعالى - قد اخبر عنهم أنه كتب لهم الأرض المقدسة ، ولم يخبرنا عنهم أنه
ردهم إلى مصر بعد إخراجه إياهم منها ، فيجوز لنا أن نقرأ ( اهبطوا مِصْراً
) : ونتأوله أنه ردهم إليها . قالوا : فإن احتج محتج بقوله تعالى ( فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ
- كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بني إِسْرَائِيلَ ) قيل لهم : فإن الله .
تعالى - إنما أورثهم ذلك فملكهم إياها . ولم يردهم إليها وجعل مساكنهم
الشام " اه .قال أبو حيان في البحر : ( ولم يصرح أحد من المفسرين والمؤرخين
أنهم هبطوا من التيه إلى مصر ) اه .ومع أن ابن جرير - رحمه الله - قد رد
على من قال ، إن المراد بالمصر مصر فرعون : استناداً إلى قراءة غير الجمهور
إلا أنه لم يرجح أحد الرأيين فقد قال : ( والذي نقول به في ذلك ، أنه لا ،
دلالة في كتاب الله - تعالى - على الصواب من هذين التأويلين ، ولا خبر به
عن الرسول صلى الله عليه وسلم يقطع مجيئه العذر ، وأهلا لتأويل متنازعون
تأويله ، فأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب أن يقال : إن موسى سأل ربه أن
يعطي قومه ما سألوه من نبات الأرض على ما بينه الله - تعالى - في كتابه وهم
في الأرض تائهون فاستجاب الله لموسى دعاءه وأمره أن يهبط بمن معه من قومه
قراراً من الأرض التي تنبت ما سأل لهم من ذلك ، إذا صاروا إليه ، وجائز أن
يكون ذلك القرار مصر ، وجائز أن يكون الشام . . . "ومن هذا النص الذي
نقلناه عن ابن جرير ، نرى أنه لم يقطع برأى في المكان الذي أمر بنو إسرائيل
- بالهبوط فيه وأنه يرى أن الله - تعالى - قد استجاب لموسى - عليه السلام
دعاءه ، وأن موسى وقومه قد هبطوا - فعلا - إلى قرار من الأرض التي تنبت
البقول وأشباهها .وقد عارض الإمام ابن كثير في تفسيره رأى ابن جرير فقال
وهذا الذي قاله - أي ابنُ جرير - فيه نظر ، والحق أن المراد مصر من:
الأمصار ، كما روى عن ابن عباس وغيره والمعنى على ذلك ، لأن موسى - عليه
السلام - يقول لهم : هذا الذي سألتم ليس بأمر عزيز ، بل هو كثير في أي بلد
، دخلتموها ، فليس يساوي مع دناءته وكثرته في الأمصار أن أسأل الله فيه
ولهذا قال : ( أَتَسْتَبْدِلُونَ الذي هُوَ أدنى بالذي هُوَ خَيْرٌ اهبطوا
مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ ) أي ما طلبتم ، ولما كان سؤالهم
هذا من باب البطر والأشر ولا ضرورة فيه لم يجابوا إليه والله أعلم .وبذلك
يظهر لنا أن ابن كثير - رحمه الله - يرى أن المراد بالمصر مكان غير معين
. وأن موسى - عليه السلام - لم يسأل ربه إجابة طلبهم لأنهم كانوا متعنتين
- بطرين ، والله - تعالى - يكره من كان كذلك ، وأن قول موسى - عليه السلام
لهم" اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم " من باب التوبيخ والتجهيل لهم ، إذ ليس
حينئذ بلد قريب يستطيعون الوصول إليه .هذا ، والذي نرجحه في هذا المقام هو
ما ذهب إليه الإمام ابن كثير لما يأتي :أولا : أن القراءة بالتنوين
متواترة ، وابن جرير نفسه لم يجاوز القراءة بغيرها ، وهذه القراءة
المتواترة ، نص في أن المراد من مصر ، أي بلد كان ، لا مصر فرعون ، ثم إذا
كان المراد به ذلك فليس لنا أن نقول إنه يصدق على مصر فرعون ، وذلك لأن
الأمصار التي تنبت ما طلبوا من البقول والخضر أقرب إليهم من مصر ، فليس من
المعقول أن يؤمروا بالذهاب إلى مصر فرعون وهي بعيدة عن مكانهم بعداً شاسعاً
ويتركوا الأمصار الأقرب إليهم وفيها ما يريدون .ثانياً : لم ينقل أحد من ،
المؤرخين أنهم رجعوا إلى مصر بعد خروجهم منها كما قال أبو حيان وغيره ، بل

الثابت أن بني إسرائيل خرجوا من مصر ، وأمروا بعد خروجهم بدخول الأرض
المقدسة لقتال الجبارين ، ولعصيانهم أمر نبيهم وماتوا جميعاً في التيه ،
وبقي أبناؤهم فامتثلوا أمر الله - تعالى - وهبطوا إلى الشام . وقاتلوا
الجبارين ودخلوا الأرض المقدسة بقيادة يوشع بن نون .ثالثاً : ليس في الآية
ما يشعر بأن موسى - عليه السلام - طلب من ربه أن يجيبهم إلى رغبتهم فكيف
نقول بما لم يدل عليه القرآن الكريم ولو من طريق الإشارة؟رابعاً : دخولهم
في التيه كان عقوبة لهم على نكوصهم عن قتال الجبارين ، ليدخلوا الأرض
المقدسة التي كتبها الله لهم .فالتيه والحالة هذه كان بمثابة سجن لهم
يعاقبون فيه ، كما يشعر بذلك قوله تعالى : ( قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ
عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأرض ) فكيف يخرج السجين من
سجنه تلبية لبعض رغباته المنكرة . وبناء على ذلك يكون الأمر في قول موسى
لهم : ( اهبطوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ ) للتهديد والتوبيخ
والتجهيل .ثم بين - سبحانه - العقوبات التي حلت بهم جزاء ظلمهم وفجورهم
فقال تعالى :( وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذلة والمسكنة وَبَآءُو بِغَضَبٍ
مِّنَ الله ) :ضرب الذلة والمسكنة عليهم كناية عن لزومهما لهم ، وإحاطتهما
بهم ، كما يحيط السرادق بمن بداخله .قال صاحب الكشاف : ( جعلت الذلة محيطة
بهم ، مشتملة عليهم ، فهم فيها كمن يكون في القبة من ضربت عليهم ، أو ألصقت
به حتى لزمتهم ضربة لازب كما يضرب الطين على الحائط فيلزمه ، فاليهود
صاغرون أذلاء أهل مسكنة ومدقعة ) .وأصل الضرب في كلام العرب يرجع إلى معنى
التقاء ظاهر جسم ، بظاهر جسم آخر بشدة ، يقال : ضرب بيده الأرض إذا ألصقها
بها ، وتفرعت عن هذا معان مجازية ترجع إلى شدة اللصوق .والذلة : على وزن
فعلة من قول القائل : ذل فلان يذل ذلة وذلة ، والمراد بها الصغار والهوان
والحقارة .والمسكنة ، مفعلة من السكون ، ومنها أخذ لفظ المسكين ، لأن الهم
قد أثقلة فجعله قليل الحركة والنهوض ، لما به من الفاقه والفقر ، والمراد
بها في الآية : الضعف النفسي ، والفقر القلبي الذي يستولي على الشخص ،
فيجعله يحس بالهوان ، مهما يكن لديه من أسباب القوة .والفرق بينها وبين
الذلة . أن الذلة هوان تجيء أسبابه من الخارج ، كأن يغلب المرء على أمره
نتيجة انتصار عدوه عليه فيذل لهذا العدو .أما المسكنة فهي هوان ينشأ من
داخل النفس نتيجة بعدها عن الحق واستيلاء المطامع والشهوات عليها ، وتوارث
الذلة قروناً طويلة يورث هذه المسكنة ، ويجعلها كالطبيعة الثابتة في الشخص
المستذل . ولقد عاش اليهود قروناً وأحقاباً مستعبدين لمختلف الأمم ،
فأكسبهم هذا الاستعباد ضعفاً نفسياً جعلهم لا يفرقون بين الحياة الذليلة
والكريمة ، بل إنهم ليفضلوا الأولى على الثانية ما دامت تجلب لهم غرضاً من
أغراض الدنيا ، ومهما كثر المال في أيديهم ، فإنهم لا يتحولون عن فقرهم
النفسي وظهورهم أمام الناس بمظهر البائس الفقير .وقوله تعالى : ( وَبَآءُو
بِغَضَبٍ مِّنَ الله ) بيان لسوء عاقبتهم في الآخرة ومبالغة في إهانتهم
وتحقيرهم ، فهم في الدنيا أذلاء حقراء ، وفي الآخرة سيرجعون بغضب من الله
بسبب أفعالهم القبيحة .قال ابن جرير - رحمه الله - يعني بقوله تعالى
( وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ الله ) : انصرفوا ورجعوا ، ولا يقال باءوا إلا
موصولا إما بخير وإما بشر يقال منه باء فلان بذنبه يبوء بوأ وبواء ، ومنه
قوله تعالى :( إني أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ ) يعني تنصرف
متحملهما ، وترجع بهما قد صارا عليك دوني ، فمعنى الكلام إذا . ورجعوا
منصرفين متحملين غضب الله ، قد صار عليهم من الله غضب ، ووجب عليهم منه سخط
وقال صاحب الكشاف : ( وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ الله ) من قولك باء فلان
بفلان ، إذا كان حقيقاً بأن يقتل به لمساواته له ومكافأته ، أي صاروا أحقاء
بغضبه .ثم صرح - سبحانه - بعد ذلك بسبب ما أحاط بهم من الذلة والمسكنة
واستحقاقهم غضب الله وسخطه ، فقال تعالى : ( ذلك بِأَنَّهُمْ كَانُواْ
يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ الله وَيَقْتُلُونَ الأنبياء بِغَيْرِ حَقٍّ ذلك
بِمَا عَصَوْاْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ) . والجملة الكريمة استئناف بيان
جواب عن سؤال تقديره : لم فعل بهم كل ذلك؟ فكان الجواب ، فعلنا بهم بسبب
جحودهم لآيات الله ، وبسبب قتلهم لأنبيائه ، وخروجهم عن طاعته؛ ومجاوزتهم
حدودهم والآيات تطلق ويراد بها الأدلة الشاهدة على وحدانية الله تعالى
وربوبيته ، وتطلق ويراد بها النصوص التي تشتمل عليها الكتب السماوية ،
- وتطلق ويراد بها الأدلة الشاهدة على صدق الرسل - عليهم الصلاة والسلام
فيما يبلغون عن الله - تعالى - وهي التي يسميها علماء التوحيد المعجزات ،
وقد كفر اليهود بكل هذه الضروب من الآيات ، ومردوا على ذلك كما يفيده
التعبير بالفعل المضارع ( يَكْفُرُونَ ) .وقوله تعالى : ( وَيَقْتُلُونَ
النبيين بِغَيْرِ الحق ) أي ويقتلون أنبياء الله الذين بعثهم مبشرين
- ومنذرين ، ولقد قتل اليهود - فيمن قتلوا من الأنبياء - زكريا وابنه يحيى
- عليهما السلام - لأنهما أبيا الانقياد وراء شهواتهم وأهوائهم .وقال
سبحانه - ( بِغَيْرِ الحق ) مع أن قتل الأنبياء لا يكون بحق أبداً ،
) ، لإفادة أن قتلهم لهم كان بغير وجه معتبر في شريعتهم لأنها تحرمه
أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأرض
فَكَأَنَّمَا قَتَلَ الناس جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا

أَحْيَا النّاسَ جَمِيعاً ) فهذا القيد المقصود به الاحتجاج عليهم بأصول دينهم وتخليد مذمتهم ، وتقبيح إجرامهم ، حيث إنهم قتلوا أنبياءهم بدون خطأ في الفهم ، أو تأول في الحكم ، أو شبهة في الأمر ، وإنما فعلوا ما فعلوا وهم عالمون بقبح ما ارتكبوا ، وخالفوا شرع الله عن تعمد وإصرار .قال صاحب الكشاف : " فإن قلت : قتل الأنبياء لا يكون إلا بغير الحق فما فائدة ذكره؟قلت : معناه أنهم قتلوهم بغيرا لحق عندهم ، لأنهم لم يتقلوا ولا ، أفسدوا في الأرض فيقتلوا ، وإنما نصحوهم ودعوهم إلى ما ينفعهم فقتلوهم " فلو سئلوا وأنصفوا من أنفسهم لم يذكروا وجهاً يستحقون به للقتل عندهم وقال الإمام الرازي : " فإن قيل : قال هنا ( وَيَقْتُلُونَ النبيين. بِغَيْرِ الحق ) وقال في آل عمران ( وَيَقْتُلُونَ النبيين بِغَيْرِ الحق ) فما الفرق؟ قلت . إن الحق المعلوم فيما بين المسلمين الذي يوجب القتل يتجلى في حديث : " لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث : " كفر بعد إيمان ، وزناً بعد إحصان ، وقتل نفس بغير حق " فالحق المذكور هنا بحرف التعريف إشارة إلى هذا وأما الحق المنكر فالمراد به تأكيد العموم ، أي لم يكن هناك أي حق يستندون إليه ، لا هذا الذي يعرفه المسلمون ولا غيره البتة " .ثم قال تعالى العصيان : الخروج عن. ( ذلك بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ) : طاعة الله . والاعتداء : تجاوز الحد الذي حده الله - تعالى - لعباده إلى غيره وكل متجاوز حد شيء إلى غيره فقد تعداه إلى ما جاوز إليه . وللمفسرين في مرجع الإشارة " ذلك " رأيان :أحدهما : أنه يعود إلى كفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء ، وعليه يكون المعنى :إن هؤلاء اليهود قد مروا على عصيانهم لخالقهم ، وتعديهم حدوده بجرأة وعدم مبالاة فنشأ عن هذا التمرد والطغيان أن كفروا بآيات الله - تعالى - وامتدت أيديهم الأثيمة إلى قتل الأنبياء بقلوب كالحجارة أو أشد قسوة .والجملة الكريمة على هذا الرأي تفيد أن التردي في المعاصي وارتكاب المناهي ، وتجاوز الحدود المشروعة ، يؤدي إلى الانتقال من غصير الذنوب إلى كبيرها ، ومن حقيرها إلى عظيمها ، لأن هؤلاء اليهود لما ، استمروا المعاصي وداوموا على تعدي الحدود ، هانت على نفوسهم الفضائل وانكسرت أمام شهواتهم كل المثل العليا ، فكذبوا بآيات الله تكذيباً وقتلوا من جاءهم بالهدى ودين الحق .والثاني : يرى أصحابه أن اسم الإشارة الثاني يعود إلى نفس المشار إليه باسم الإشارة الأول ، وتكون الحكمة في تكرار الإشارة هو تمييز المشار إليه حرصاً على معرفته ويكون العصيان والاعتداء - سببين آخرين لضرب الذلة والمسكنة عليهم ، واستحقاقهم لغضب الله - تعالى كما بينا ، والإشارة حينئذ من قبيل التكرير المغنى عن العطف كما في قوله تعالى : ( أولئك كالأنعام بَلْ هُمْ أَضَلُّ أولئك هُمُ الغافلون ) والمعنى أن هؤلاء اليهود قد لزمتهم الذلة والمسكنة ، وصاروا أحقاء بسخط الله بسبب كفرهم بآياتنا . وقتلهم أنبياءنا ، وخروجهم عن طاعتنا وتعديهم لحدودنا وعلى هذا الرأي يكون ذكر أسباب العقوبة التي حلت بهم في الدرجة العليا من. حسن الترتيب ، فقد بدأ - سبحانه - بما فعلوه في حقه وهو كفرهم بآياته ، ثم ثنى بما يتلوه في العظم وهو قتلهم لأنبيائهم ، ثم وصمهم بعد ذلك بالعصيان ، والخروج عن طاعته ثم ختم أسباب العقوبة بدمغهم بالاعتداء ، وتخطى الحدود وعدم المبالاة بالعهود ، وهذا الترتيب من لطائف أسلوب القرآن الكريم في سوق الأحكام ، مشفوعة بعللها وأسبابها .وبهذا تكون الآية الكريمة قد وصفت بني إسرائيل بجحود النعم ، وسوء الأدب وحمق التفكير ، وهوان النفس ، وبلادة الطبع ، وبطر الحق ، والبغي على أنفسهم وعلى غيرهم ، وما وصفتهم به أيدته الأيام وصدقته الأحداث في كل زمان ومكان .

ان الذين امنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من امن بالله واليوم الاخر وعمل صالحا فلهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون

كما فسرها الوسيط وبعد أن بين القرآن الكريم ما حل باليهود من عقوبات بسبب جحودهم لنعم الله ، وكفرهم بآياته - أردف بذلك ما وعد الله به المؤمنين من جزيل الثواب فقال - تعالى :( إِنَّ الذين آمَنُواْ والذين هَادُواْ والنصارى والصابئين . . . ) .في هذه الآية الكريمة حدثنا القرآن عن أربع فرق من الناس :أما الفرقة الأولى : فهي فرقة الذين آمنوا ، والمراد بهم الذين آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وصدقوه .وابتدأ القرآن بهم للإشعار بأن دين الإسلام دين قائم على أساس أن الفوز برضا الله لا ينال إلا بالإيمان الصادق والعمل الصالح ، ولا فضل لأمة على أمة إلا بذلك ، كما قال - تعالى - : ( إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عَندَ الله أَتْقَاكُمْ ) وأما الفرقة الثانية : فهي فرقة الذين هادوا ، أي : صاروا يهوداً ، يقال : هاد وتهود ، أي دخل في اليهودية ، وسموا يهوداً نسبة إلى يهوذا أكبر أولاد يعقوب - بقلب الذال دالا في التعريب - أو سموا يهودا حين تابوا من عبادة العجل ، من هاد يهود هودا بمعنى تاب . ومنه ( إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ) أي ، تينا .والفرقة الثالثة : هي فرقة النصارى ، جمع نصران بمعنى نصراني : - كندامي وندمان والياء في نصراني للمبالغة ، وهم قوم عيسى - عليه السلام قيل سموا بذلك لأنهم كانوا أنصاراً له ، وقيل إن هذا الاسم مأخوذ من

الناصرة وهي القرية التي كان عيسى - عليه السلام - قد نزلها .وأما الفرقة الرابعة : فهي فرقة الصابئين جمع صابئ ، وهو الخارج من دين إلى دين ، يقال صبأ الظلف والناب والنجم - كمنع وكرم - إذا طلع . والمراد بهم الخارجون : ، من الدين الحق إلى الدين الباطل ، وهم قوم يعبدون الكواكب أو الملائكة ويزعمون أنهم على دين صابئ بن شيث بن آدم .وذكر القرآن الصائبة في هذا المقام وهم من أبعد الأمم ضلالا . لينبه على أن الإيمان منهم على النحو الذي قرره الدين الحق ، فمن لم تبلغه منهم دعوة الإسلام ، وكان ينتمى إلى دين صحيح في أصله بحيث يؤمن بالله واليوم الآخر ويقدم العمل الصالح على الوجه الذي يرشده إليه دينه ، فله أجره على ذلك عند ربه .أما الذين بلغتهم الذين بلغتهم دعوة الإسلام من تلك الفرق ولكنهم لم يقبلوها؛ فإنهم لا يكونون ناجين من عذاب الله مهما ادعوا بأنهم يؤمنون بغيرها ، لأن الشريعة الإسلامية قد نسخت ما قبلها والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : " لو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي " .ويفسرونه - أي الإيمان - بالنسبة للمؤمنين المشار إليهم بقوله تعالى : ( إِنَّ الذين آمَنُواْ . . . ) على ) : - أنه بمعنى الثبات والدوام والإذعان ، وبذلك ينتظم عطف قوله - تعالى وَعَمِلَ صَالِحاً ) على قوله ( آمَنَ ) مع مشاركة هؤلاء المؤمنين لتلك الفرق الثلاث فيما يترتب على الإيمان والعمل الصالح من ثواب جزيل ، وعاقبة حميدة .وبعض العلماء يرى أن معنى ( مَنْ آمَنَ ) أي : من أحدث من هذه الفرق إيماناً بالنبي صلى الله عليه وسلم وبما جاء من عند ربه ، قالوا : لأن مقتضى المقام هو الترغيب في دين الإسلام ، وأما بيان من مضى على دين آخر قبل نسخه فلا ملابسة له بالمقام ، فضلا عن أن الصابئين ليس لهم دين تجوز رعايته في وقت من الأوقات .ثم بين - سبحانه - عاقبتهم فقال : ( فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ) .الأجر : الجزاء على العمل ، وسمى الله ما يعطيه للمؤمن العامل أجراً على سبيل التفضل منه .وقال : ( عِندَ رَبِّهِمْ ) ليدل على عظم الثواب ، لأن ما يكون عند الله من الجزاء على العمل لا يكون عظيماً ، ولأن المجازي لهم هو ربهم المنعوت بصفات الكرم والرحمة وسعة العطاء والمعنى : إن هؤلاء الذين لهم أجرهم العظيم عند ربهم ، ولا يفزعون من هول. يوم القيامة كما يفزع الكافرون ، ولا يفوتهم نعيم ، فيحزنون عليه كما يحزن المقصرون .

واذ اخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما اتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون

كما فسرها الوسيط ثم واصل القرآن حديثه مع بني إسرائيل ، فذكرهم بنعمة شمول الله إياهم برحمته وفضله رغم توليهم عن طاعته ونقضهم لميثاقه فقال تعالى ): وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ . . . )قال ابن جرير وكان سبب أخذ الميثاق عليهم فيما ذكره ابن زيد ، ما حدثني به يونس بن " : عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال ابن زيد : لما رجع موسى من عند ربه بالألواح قال لقومه بني إسرائيل : إن هذه الألواح فيها كتاب الله ، وأمره الذي أمركم به ونهيه الذي نهاكم عنه . فقالوا : وما يأخذ بقولك أنت لا والله حتى نرى الله جهرة ، حتى يطلع الله علينا فيقول : " هذا كتابي ، فخذه " فما له لا يكلمنا كما كلمك أنت يا موسى : قال فجاءت غضبة من الله فجاءتهم صاعقة فصعقتهم فماتوا جميعاً . قال : ثم أحياهم الله بعد موتهم فقال لهم موسى : خذوا كتاب الله . فقالوا :لا . قال : أي شيء أصابكم؟ قالوا : متنا جميعاً ، ثم حيينا قال : خذوا كتاب الله . قالوا :لا . فبعث الله ملائكة فتنقت الجبل فوقهم ، فقيل لهم : أتعرفون هذا؟ قالوا نعم ، هذا الطور ، قال : خذوا الكتاب وإلا طرحناه عليكم ، قال : فأخذوا بالميثاق . قال : ولو كانوا أخذوه أول مرة لأخذوه بغير ميثاق " .ومعنى الآيتين الكريمتين : واذكروا - يا بني إسرائيل - لتعتبروا وتنتفعوا وقت أن أخذنا عليكم جميعاً العهد بأن تعبدوا الله وحده ، وتتبعوا ما جاءكم به رسله ، وتعملوا بما في التوراة ، واذكروا كذلك وقت أن رفعنا فوق أسلافكم الطور تهديداً لهم بالعقوبة إذا لم يطيعوا أوامر الله ، وليشهدوا آية من آيات الله الدالة على قدرته ، وقلنا لكم جميعاً . خذوا ما آتيناكم في كتابكم من تكاليف بجد وعزم واجتهاد ، واذكروا ما فيه وتدبروه وسيروا على هدية لتتقوا الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة ، ولكن الذي حصل منكم جميعاً أنكم ، أعرضتم عن العمل بما أخذ عليكم ، فتركتم تعاليم كتابكم وآذيتم أنبياءكم ولوا أن الله - تعالى - رأف بكم ، ووفقكم للتوبة ، وعفا عن زلاتكم ، لكنتم من الهالكين في دنياكم وآخرتكم .وقوله تعالى : ( وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ ) تذكير لبني إسرائيل بنعمة من أمثال النعم الواردة في الآيات السابقة ، لأن أخذ الميثاق عليهم ليعملوا بما في التوراة من الأمور العائد عليهم نفعها .وقوله تعالى : ( وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطور ) أي : أعليناه وجعلناه فوق رءوسكم كالمظلة .والطور : اسم للجبل الذي ناجى عليه موسى ، ) : ربه - تعالى - كان بنو إسرائيل بأسفله فرفع فوق رءوسهم .وقوله تعالى

، خُذُواْ مَآ ءاتيناكم بِقُوَّةٍ ) مقول لقول محذوف ، دل عليه المعنى
والتقدير : وقلنا لهم : خذوا ما آتيناكم بقوة ، أي : تمسكوا به ، واعملوا
بما فيه يجد ونشاط ، وتقبلوه واجتنبوا نواهيه ، واعملوا ما جاء به بدون
تردد .والمراد " بما آتيناكم " التوراة التي أنزلها الله تعالى على موسى
لتكون هدى ونوراً لهم . وقوله تعالى : ( واذكروا مَا فِيهِ ) أي احفظوه
وتدبروه وتدارسوه ، وامتثلوا أوامره ، واجتنبوا نواهيه ، واعملوا بكل ما
جاء فيه بلا تعطيل لشيء منه .قال الإمام القرطبي : " وهذا هو المقصود من
الكتب ، العمل بمقتضاها لا تلاوتها باللسان - فحسب - ، فقد روى النسائي عن
أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
" إن من الشر الناس رجلا فاسقاً يقرأ القرآن ، لا يرعوى إلى شيء منه " .و
لعل " في قوله تعالى : ( لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ) إما للتعليل ، فيكون
المعنى : خذوا الكتاب بجد وعزم ، واعملوا بما فيه بصدق وطاعة ، لتتقوا
الهلاك في عاجلتكم وآجلتكم ، وإما للترجى ، وهو منصرف إلى المخاطبين ،
فيكون المعنى : خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه ولا تنسوه ، وأنتم
ترجون أن تكونوا من طائفة المتقين .

ثم توليتم من بعد ذلك فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين

كما فسرها الوسيط وقوله تعالى : ( ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِّن بَعْدِ ذلك )
بيان لنقضهم وإعراضهم عن العمل بالميثاق الذي أخذ عليهم ، ونبذوه خلف
ظهورهم .والمشار إليه بقوله تعالى : ( ذلك ) أخذ الميثاق عليهم ، وقبول ما
أوتوه من الكتاب ، والمعنى : ثم أعرضتم وانصرفتم عن طاعتي بعد أخذ الميثاق
عليكم ، ومشاهدتكم للآيات التي تستكين لها القلوب؛ لأن قلوبكم كالحجارة أو
أشد قسوة .وقوله تعالى : ( فَلَوْلاَ فَضْلُ الله عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ
، لَكُنْتُم مِّنَ الخاسرين ) تصريح بما حباهم به - سبحانه - من رأفة بهم
وقبول لتوبتهم ، وعفو عن خطيئاتهم ، فكأنه - سبحانه - يقول لهم : إنكم
بإعراضكم عن طاعتي ، ونقضكم لعهدي ، وإهمالكم العمل بكتابي ، وعدم تأثركم
بآياتي ونذري ، قد استحققتم غضبي وعذابي ، ولكن حال دون حلولهما بكم . فضلى
الذي تداركم ورحمتي التي وسعتكم ، ولطفي وإمهالي لكم ، ولولا ذلك لكنتم من
الخاسرين في دنياكم وآخرتكم ، بسبب ما أجترحتم من نقض ميثاقكم .وبذلك تكون
الآيتان قد ذكرتا بني إسرائيل المعاصرين للعهد النبوي بما كان من أسلافهم
من جحود النعمة ، ونقض للعهد ، وفي هذا التذكير تحذير لهم من السير على
طريقتهم ، ودعوة لهم إلى الدخول في الإسلام واتباع محمد صلى الله عليه
وسلم .

ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين

كما فسرها الوسيط ثم ذكرهم - سبحانهن - بسوء عاقبة الذين اعتدوا منهم في
السبت ، وحذرهم من أن ينهجوا نهجهم فقال - تعالى - :( وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ
الذين اعتدوا مِنْكُمْ فِي . . . )الاعتداء : مجاوزة الحد ، يقال : اعتدى
فلان وتعدى إذا ظلم .والسبت : المراد به اليوم المسمى بهذا الاسم ، وأصل
السبت - كما قال ابن جرير - الهدوء والسكون في راحة ودعة ، ولذلك قيل
) - للنائم : مسبوت لهدوئه وسكون جسده واستراحته كما قال - جل ثناؤه
وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً ) أي راحة لأبدانكم ، وهو مصدر ، من قول
القائل سبت فلان يَسبِت سبتاً .وملخص قصة اعتداء بني إسرائيل في يوم السبت
، أن الله - تعالى - أخذ عليهم عهداً بأن يتفرغو لعبادته في ذلك اليوم ،
وحرم عليهم الاصطياد فيه دون سائر الأيام ، وقد أراد - سبحانه - أن يختبر
استعدادهم للوفاء بعودهم ، فابتلاهم بتكاثر الحيتان في يوم السبت دون غيره
فكانت تتراءى لهم على الساحل في ذلك اليوم قريبة المأخذ سهلة الاصطياد ،
فقالوا : لو حفرنا إلى جانب ذلك البحر الذي يزخر بالأسماك يوم السبت حياضاً
تنساب إليها المياه في ذلك اليوم ثم نصطادها من تلك الحياض في يوم الأحد
وما بعده ، وبذلك نجمع بين حترام ما عهد إلينا في يوم السبت ، وبين ما
تشتهيه أنفسنا من الحصول على تلك الأسماك ، فنصحهم فريق منهم بأن عملهم هذا
إنما هو امتثال ظاهري لأمر الله ، ولكنه في حقيقته خروج عن أمره من ترك
الصيد في يوم السبت ، فلم يعبأ أكثرهم بذلك ، بل نفذ تلك الحيلة ، فغضب
الله عليهم ومسخهم قردة ، وجعلهم عبرة لمن عاصرهم ولمن أتى بعدهم .والحديث
عن أصحاب السبت قد جاء ذكره مفصلا في سورة الأعراف كما جاءت الإشارة إليه
في سورتي النحل والنساء .ثم بين - سبحانه - العقوبة التي حلت بهم بسبب
اعتدائهم في يوم السبت ، وتحايلهم على استحلال محارم الله فقال - تعالى :
أي : صاغرين مطرودين مبعدين عن الخير. ( كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ )-
أذلاء .والخسوء : الطرد والإبعاد ، يقال : خسأت الكلب خساً وخسوءاً - من
باب منع - طردته وزجرته ، وذلك إذا قلت له : اخسأ .وجمهور المفسرين على
أنهم مسخوا على الحقيقة ثم ماتوا بعد ذلك بوقت قصير .ويرى مجاهد أنهم لم
تمسخ صورهم ولكن مسخت قلوبهم ، أي : إنهم مسخوا مسخاً نفسياً فصاروا

كالقردة في شرورها وإفسادها لما تصل إليه أيديها .وتلك العقوبة كانت بسبب إمعانهم في المعاصي ، وتأبيهم عن قبول النصيحة ، وضعف إرادتهم أمام مقاومة أطماعهم ، وانتكاسهم إلى عالم الحيوان لتخليهم عن خصائص الإنسان ، فكانوا حيث أرادوا لأنفسهم من الصغار والهوان .والضمير في قوله : ( فَجَعَلْنَاهَا يعود إلى العقوبة التي هي مسخهم قردة و ( نَكَالاً ) أي عبرة تنكل ( المعتبر بها بحيث تمنعه وتردعه من ارتكاب الشر .يقال : نكل به تنكيلا إذا صنع به صنعاً يردعه ويجعل غيره يخاف ويحذر .والاسم النكال وهو ما نكلت به غيرك ، وأصله من النكل - بالكسر - وهو القيد الشديد وجمعه أنكال .

فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين

كما فسرها الوسيط وقوله " لما بين يديها وما خلفها . أي : للذين كانوا قبل هذه العقوبة وعاشوا حتى شاهدوها ، وللذين أتوا بعدها وعرفوا عن يقين خبرها والمعنى : فجعلنا هذه العقوبة عبرة زاجرة لمن كان قبلها وعاش حتى رآها. ولمن أتى بعدها وعلم يقيناً بحال العادين في السبت الذين مسخوا بسبب عصيانهم تحذيراً له من أن يعمل عملهم ، فيمسخ كما مسخوا ، ويحل به العذاب الذي حل بهم . كما جعلناها أيضاً ( وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ) الذين يسمعون قصتها فهم الذين من شأنهم أن ينتفعوا بالعظات ، ويعتبروا بالمثلات .

واذ قال موسى لقومه ان الله يامركم ان تذبحوا بقرة قالوا اتتخذنا هزوا قال اعوذ بالله ان اكون من الجاهلين

كما فسرها الوسيط ثم ساق القرآن بعد ذلك قصة من قصص بني إسرائيل تدل على تنطعهم في الدين ، ومحاولتهم تضييق ما وسعه الله عليهم ، وتهربهم من الانصياع لكلمة الحق ، وتشككهم في صدق أنبيائهم ، وتعنتهم في السؤال . وهذه القصة هي قصة أمرهم على لسان نبيهم موسى - عليه السلام - بذبح بقرة . استمع إلى القرآن الكريم ، وهو يحكي هذه القصة بأسلوبه البليغ الحكيم فيقول ): وَإِذْ قَالَ موسى لِقَوْمِهِ إِنَّ الله يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً . . . )روى المفسرون أنه كان في بني إسرائيل رجل غني ، وله ابن عم فقير لا وارث له سواه ، فلما طال عليه موته قتله ليرثه ، وحمله إلى قرية أخرى فالقاه فيها ، ثم أصبح يطلب ثأره وجاء بناس إلى نبيهم موسى - عليه السلام - يدعى عليهم القتل ، فسألهم موسى - عليه السلام - فجحدوا فسألوه أن يدعو الله ليبين لهم بدعائه القاتل الحقيقي ، فدعا موسى ربه فأوحى الله - تعالى - إليه أن يطلب منهم أن يذبحوا بقرة ، فقال لهم موسى : ( إِنَّ اللّه يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً . . ) وقد ساق القرآن الكريم هذه القصة بأسلوبه البديع الذي يأخذ بمجامع القلوب ، ويحرك النفوس إلى النظر والاعتبار ، فقال تعالى :( وَإِذْ قَالَ موسى لِقَوْمِهِ إِنَّ الله يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قالوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بالله أَنْ أَكُونَ مِنَ الجاهلين ) ومعنى الآية الكريمة : واذكروا يا بني إسرائيل - لتعتبروا وتتعظوا وقت أن حدث في أسلافكم قتيل ولم يعرف الجاني . فطلب بعض أهله وغيرهم ممن يهمه الأمر من موسى - عليه السلام - أن يدعو الله - تعالى - ليكشف لهم عن القاتل الحقيقي ، فقال لهم ( إِنَّ اللّه يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً ) فدهشوا وقالوا بسفاهة وحماقة ( أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً ) أي أتجعلنا موضع سخريتك؟ ( قَالَ أَعُوذُ بالله أَنْ أَكُونَ مِنَ الجاهلين ) الذين يخبرون عنه بما لم يأمر به .والذي عليه جمهور المفسرين أمرهم بذبح البقرة كان بعد تنازعهم في شأن القاتل من هو؟ وذلك ليعرف القاتل الحقيقي إذا ضرب القتيل ببعضها ، كما سيأتي في قوله تعالى : ( وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فادارأتم فِيهَا والله مُخْرِجٌ مّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ) .وقد أمرهم الله - تعالى - بذبح بقرة دون غيرها من الحيوانات؛ لأنها من جنس ما عبدوه وهو العجل ، وفي أمرهم بذلك تهوين لشأن هذا الحيوان الذي عظموه وعبدوه وأحبوه ، فكأنه - سبحانه - يقول لهم : إن هذا البقر الذي يضرب به المثل في البلادة لا يصلح أن يكون معبوداً من دون الله ، وإنما يصلح للحرث والسقى والعمل والذبح .وقولهم ( أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً ) يدل على سفههم وسوء ظنهم بنبيهم وعدم توقيرهم له وجهلهم بعظمة الله - تعالى - وما يجب أن يقابل به أمره من الانقياد والامتثال ، لأنهم لو كانوا عقلاء لامتثلوا أمر نبيهم ، وانتظروا النتيجة بعد ذلك . ولكنهم قوم لا يعقلون .ولما كان قولهم هذا القول يدل على اعتقادهم بأن موسى - عليه السلام - قد أخبر عن الله بما لم يؤمر به ، أجابهم موسى بقوله : ( أَعُوذُ بالله أَنْ أَكُونَ مِنَ الجاهلين ) : أي ألتجئ إلى الله وأبرأ إليه من أن أكون من السفهاء الذين يروون عنه الكذاب والباطل ، وفي هذا الجواب تبرؤ وتنزهه عن الهزء ، وهو المزاح الذي يخالطه احتقاره واستخفاف بالممازح معه - لأنه لا يليق بعقلاء الناس فضلا عن رسل الله - عليهم السلام - كما أن فيه - أيضاً - رداً لهم - عن طريق التعريض بهم - إلى جادة الأدب الواجب في جانب الخالق ، حيث بين لهم أن ما ظنوه به

لا يليق إلا بمن يجهل عظمة الله - تعالى- .قال فضيلة المرحوم الشيخ محمد الخضر حسين عند تفسيره للآية الكريمة :( وقد نبهت الآية الكريمة ، على أن الاستهزاء بأمر من أمور الدين جهل كبير ، ومن الجهل ما يلقى صاحبه في أسوأ العواقب ، ويقذف به في عذاب الحريق ، ومن هنا منع المحققون من أهل العلم استعمال الآيات كأمثال يضربونها في مقام المزح والهزل ، وقالوا : إنما أنزل القرآن الكريم ليتلى يتدبر وخشوع ، وليعمل به بتقبل وخضوع ) .هذا وما أرشدهم إليه نبيهم - عليه السلام - كان كافياً لحملهم على أن يذبحوا أي بقرة تنفيذاً لأمر ربهم ، ولكن طبيعتهم الملتوية المعقدة لم تفارقهم ، فأخذوا يسألون كما أخبر القرآن عنهم بقوله : ( ادع لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ) ؟أي : قال بنو إسرائيل لموسى اطلب لنا من ربك أن يبين لنا حالها وصفاتها . وسبب سؤالهم عن صفتها ، تعجبهم من بقرة مذبوحة بأيديهم يضرب ببعضها ميت لتعود إليه الحياة ، وكأنهم - لقلة فهمهم - قد توقعوا أن ، البقرة التي يكون لها أثر في معرفة قاتل القتيل ، لا بد أن تكون لها صفة متميزة عن سائر جنسها .

قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي قال انه يقول انها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون

- كما فسرها الوسيط وسؤالهم بهذه الطريقة يوحى بسوء أدبهم مع الله - تعالى ومع نبيهم موسى - عليه السلام - لأنهم قالوا ( ادع لَنَا رَبَّكَ ) فكأنما هو رب موسى وحده ، لا ربهم كذلك ، وكأن المسألة لا تعنيهم هم إنما تعني موسى وربه ومع هذا فقد أجابهم إجابة المربي الحكيم للأنباع السفهاء الذين ابتلى بهم فقال : ( قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذلك فافعلوا مَا تُؤْمَرونَ ) .أي : قال لهم موسى بعد أن أخبره الله بصفتها : إنه - تعالى - يقول : إن البقرة التي آمركم بذبحها لا مسنة ولا صغيرة ، بل نصف بينهما ، فاتركوا الإلحاح في الأسئلة ، وسارعوا إلى امتثال ما أمرتم به .وقد أكد - سبحانه - جملة ( قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ ) تنزيلا لهم منزلة المنكرين لتعنتهم في السؤال ومحاولتهم التنصل مما أمروا به .ولم يقل القرآن الكريم من أول الأمر : إنها بقرة عوان بل جاء بالوصفين السابقين ( لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ ) للتعريض بغباوتهم ، والتلميح بعدم فهمهم للأساليب الموجزة ، لذا لجأ في جوابهم إلى تكنير التوصيف حتى لا يعودوا إلى تكرار الأسئلة وقوله تعالى : ( فافعلوا مَا تُؤْمَرونَ ) يقصد به قطع العذر مع الحض على. الطاعة والامتثال .وما موصولة ، والعائد محذوف بعد حذف جاره ، على طريقة التوسع ، أي : إذا كان الأمر كذلك ، فبادروا إلى تنفيذ ما تؤمرون به ، لتصلوا إلى معرفة القاتل الحقيقي بأيسر طريق ، ولا تضيقوا على أنفسكم ما وسعه الله لكم ، ولا تكثروا من المراجعة ، فإنها ليست في مصلحتكم .

قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال انه يقول انها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين

، كما فسرها الوسيط ومع ذلك فقد أبوا إلا تنطعاً ، واستقصاء في السؤال ): فأخذوا يسألون عن لونها بعد أن عرفوا سنها ، فقالوا كما حكى القرآن عنهم قَالُواْ ادع لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ الناظرين والمعنى : قال بنو إسرائيل لنبيهم ، مشددين على أنفسهم بعد أن عرفوا صفة. ( البقرة من جهة سنها : سل لنا ربك يبين لنا ما لونها ، لكي يسهل علينا الحصول عليها ، فأجابهم بقوله : إنه - تعالى - يقول إن البقرة التي أمرتكم بذبحها صفراء فاقع لونها ، تعجب في هيئتها ومنظرها وحسن شكلها الناظرين إليها . .قال ابن جرير : " والفقوع في الصفرة نظير النصوع في البياض ، وهو ، شدته وصفاؤه " .وقال صاحب الكشاف : " الفقوع أشد ما يكون مع الصفرة وأنصعه يقال في التوكيد أصفر فاقع ووارس ، كما يقال : أسود حالك ، . . ثم : قال فإن قلت : فهلا قيل : صفراء فاقعة ، وأي فائدة في ذكر اللون؟ قلت الفائدة فيه التوكيد ، لأن اللون اسم للهيئة وهي الصفرة ، فكأنه قيل : شديد صفرتها فهو من قولك : جد جده " .

قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي ان البقر تشابه علينا وانا ان شاء الله لمهتدون

كما فسرها الوسيط وإلى هنا يكونون قد عرفوا وصف البقرة من حيث سنها ووصفها من حيث لونها ، فهل أغنتهم هذه الأوصاف؟ كلا! ما أغنتهم . فقد أخذوا يسألون للمرة الثالثة عما هم في غنى عنه فقالوا كما حكى القرآن عنهم : ( قَالُواْ ادع لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ البقر تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ الله لَمُهْتَدُونَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ

إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأرض وَلاَ تَسْقِي الحرث
مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا قَالُواْ الآن جِئْتَ بالحق فَذَبَحُوهَا
وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ) .ومعنى الآيتين الكريمتين : قال بنو إسرائيل
لموسى بعد أن عرفوا سن البقرة ولونها : سل من أجلنا ربك أن يزيدنا إيضاحاً
لحال البقرة التي أمرنا بذبحها . حيث إن البقر الموصوف بالوصفين السابقين
كثير ، فاشتبه علينا أيها نذبح ، وإنا إن شاء الله بعد هذا البيان منك
لمهتدون إليها ، ومنفذون لما تكلفنا به ، فأجابهم موسى بقوله : ( إِنَّهَا
بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأرض وَلاَ تَسْقِي الحرث مُسَلَّمَةٌ لاَّ
شِيَةَ فِيهَا ) أي قال إنه- سبحانه - يقول : أنها بقرة سائمة ليست مذللة
بالعمل في الحراثة ولا في السقي ، وهي بعد ذلك سليمة من كل عيب ، ليس فيها
لون يخالف لونها الذي هو الصفرة الفاقعة ، فلما وجدوا أن جميع مشخصاتها
ومميزاتها قد اكتملت ( الآن جِئْتَ بالحق فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ
يَفْعَلُونَ ) لكثرة أسئلتهم وترددهم .فقوله - تعالى - : ( قَالُواْ ادع
لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ) حكاية لسؤالهم الثالث الذي وجهوه
إلى نبيهم - عليه السلام - ليزدادوا معرفة بحال البقرة وصفتها من حيث
نفاستها ، بعد أن عرفوا سنها ولونها .فكأنهم يقولون له : إن في أجوبتك
السابقة عنها تقصيراً يشق معه تمييزها ، فسل من أجلنا ربك ليزيدنا بياناً
لحالها ، وكأنما أحسوا بأنهم قد أثقلوا عليه وتجاوزوا الحدود المعقولة في
الطلب ، فعللوا ذلك بقولهم .( إِنَّ البقر تَشَابَهَ عَلَيْنَا ) أي :لا
تتضايق من كثرة أسئلتنا ، فإن لنا عذرنا في هذا التكرار .لأن البقر الموصوف
بالعوان وبالصفرة الفاقعة كثير ، فاشتبه علينا أمر تلك البقرة التي تريدنا
أن نذبحها .قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور : " وإنما لم يعتذروا في
المرتين الأوليين واعتذروا في الثالثة ، لأن للثلاثة في التكرير وقعاً من
النفس في التأكيد والسآمة وغير ذلك ، ولذا كثر في أحوال البشر وشرائعهم
التوقيت بالثلاثة " .وقولهم : ( إِن شَآءَ الله لَمُهْتَدُونَ ) حض لنبيهم
موسى - عليه السلام - على الدعاء ، ووعد له بالطاعة والامتثال ، ودفع
للسآمة عن نفسه من كثرة أسئلتهم ، وتبرير لمسلكهم في كثرة المراجعة حتى
بتفادوا غضبه ، فكأنهم يقولون له :اجتهد في الدعاء من أجل أن يزيدنا ربك
إيضاحاً ، وكشفاً لحال تلك البقرة التي تريد منا أن نذبحها ، وإنا - إن شاء
الله - بسبب هذا الإيضاح سنهتدي إليها ، ثم إلى القاتل الحقيقي ، وبذلك
ندرك الحكمة ، التي من أجلها أمرتنا بذبحها .قال ابن جرير : وأما قوله
تعالى : ( إِن شَآءَ الله لَمُهْتَدُونَ ) فإنهم عنوا وإنا إن شاء الله
لمبين لنا ما التبس علينا وتشابه من أمر البقرة التي أمرنا بذبحها . ومعنى
اهتدائهم في هذا الموضع تبينهم ذلك الذي لزمهم ذبحه مما سواه من أجناس
البقر " .

قال انه يقول انها بقرة لا ذلول تثير الارض ولا تسقي الحرث مسلمة لا شية
فيها قالوا الان جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون

كما فسرها الوسيط وفي قوله تعالى : ( قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا
بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأرض وَلاَ تَسْقِي الحرث مُسَلَّمَةٌ لاَّ
شِيَةَ فِيهَا ) إضافة أوصاف جديدة للبقرة المطلوبة ، كانوا في غنى عنها لو
أطاعوا نبيهم من أول الأمر ، ولكنهم للجاجتهم ، وسوء اختيارهم ، وبعد
أفهامهم عن مقاصد الشريعة ، ضيقوا على أنفسهم دائرة الاختيار ، فأصبحوا
مكلفين بالبحث عن بقرة موصوفة بأنها متوسطة السن ، لونها أصفر فاقع ، تبهج
الناظرين إليها ، وهي ، بعد ذلك ، سائمة نفيسة غير مذللة ولا مدربة على حرث
الأرض أو سقيى الزرع ، سليمة من العيوب ، ليس فيها لون يخالف لونها الذي هو
في الصفرة الفاقعة .وقوله تعالى : ( لاَّ ذَلُولٌ ) صفة لبقرة ، يقال :
بقرة ذلول ، أي : ريضة زالت صعوبتها ، وإثارة الأرض : تحريكها وقلبها
بالحرث والزراعة والحرث : شقها لإلقاء البذور فيها .والمراد : نفي التذليل
ونفى إثارة الأرض وسقى الزرع عن البقرة المطلوبة .أي : هي بقرة صعبة لم
يذللها العمل في حراثة الأرض ، ولا في سقي الزرع ، فهي معفاة من العمل في
هذه الأشياء .( لاَّ ) في قوله تعالى : ( لاَّ ذَلُولٌ ) للنفي ، وفي قوله
تعالى : ( وَلاَ تَسْقِي الحرث ) مزيدة لتوكيد الأولى ، لأن المعنى :لا
ذلول تثير وتسقى ، وأعيد في قوله تعالى ( وَلاَ تَسْقِي الحرث ) مراعاة
للاستعمال الفصيح .وقوله - تعالى - : ( مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا )
صفتان للبقرة ، ومسلمة مفعلة من السلامة .والشية : اللون المخالف لبقية لون
الشيء ، وأصله من وشى الشيء ، وهو تحسين عيوبه التي تكون فيه بضروب مختلفة
، من ألوان سداه ولحمته .والمعنى : إن هذه البقرة سليمة من العيوب المختلفة
وليس فيها لون يخالف لون جلدها من بياض أو سواد أو غيرهما ، بل هي صفراء
كلها .وأرادوا بالحق في قوله تعالى : ( قَالُواْ الآن جِئْتَ بالحق ) الوصف
- الواضح الذي لا اشتباه فيه ولا احتمال ، فكأنهم يقولون له : الآن - فقط
جئتنا بحقيقة وصف البقرة ، فقد ميزتها عن جميع ما عداها ، من جهة اللون
وكونهها من السوائم لا العوامل ، وبذلك لم يبق لنا في شأنها اشتباه أصلا

والفاء في قوله تعالى : ( فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ) قد.
، عطفت ما بعدها على محذوف يدل عليه المقام ، والتقدير فظفروا بها فذبحوها
أي : فذبح قوم موسى البقرة التي وصفها الله - تعالى - لهم ، بعد ما قاربوا
أن يتركوا ذبحها ، ويدعوا ما أمروا به ، لتشككهم في صحة ما يوجه إليهم من
إرشادات ولكثرة مما طلتهم .قال صاحب الكشاف : وقوله تعالى : ( وَمَا
. كَادُوا يَفْعَلُونَ ) استثقال لاستقصائهم ، وأنهم لتطويلهم المفرط
وثكرة استكشافهم ، ما كادوا يذبحونهها وما كادت تنتهي سؤالاتهم ، وما كاد
، ينقطع خيط إسهابهم فيها وتعمقهم ، وقيل : ما كادوا يذبحونها لغلاء ثمنها
. " وقيل لخوف الفضيحة في ظهور القاتل

واذ قتلتم نفسا فاداراتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون

كما فسرها الوسيط ثم كشف الله - تعالى - بعد ذلك عن الغاية التي من أجلها
أمروا بذبح البقرة فقال تعالى : ( وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فادارأتم
فِيهَا والله مُخْرِجٌ مّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ فَقُلْنَا اضربوه
بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي الله الموتى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ
لَعَلّكُمْ تَعْقِلُونَ ) .المعنى : واذكروا يا بني إسرائيل إذ قتلتم
، نفساً ، فاختلفتم وتنازعتم في قاتلها ، ودفع كل واحد منكم التهمة عن نفسه
- والله - عز وجل - مخرج لا محالة ما كتمتم من أمر القاتل ، فقد بين
سبحانه - الحق في ذلك فقال على لسان رسوله موسى - عليه السلام - اضربوا
- القتيل بأي جزء من أجزاء البقرة ، فضربتموه ببعضها فعادت إليه الحياة
، بإذن الله - وأخبر عن قاتله ، وبمثل هذا الإحياء لذلك القتيل بعد موته
يحيى الله الموتى للحساب والجزاء يوم القيامة ، ويبين لكم الدلائل الدالة
على أنه قدير على كل شيء رجاء أن تعقلوا الأمور على وجهها السليم .وجمهور
المفسرين على أن واقعة قتل النفس وتنازعهم فيها ، حصلت قبل الأمر بذبح
البقرة ، إلا أن القرآن الكريم أخرها في الذكر ليعدد على بني إسرائيل
جناياتهم وليشوق النفوس إلى معرفة الحكمة من وراء الأمر بذبحها ، فتتقبلها
، بشغف واهتمام .قال صاحب الكشاف : فإن قلت فما للقصة لم تفص على ترتيبها
وكان حقها أن يقدم ذكر القتيل والضرب ببعض البقرة على الأمر بذبحها ، وأن
يقال : وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها فقلنا اذبحوا بقرة واضربوه ببعضها؟
قلت : كل ما قص من قصص بني إسرائيل إنما قص تعديداً لما وجد منهم من
الجنايات ، وتقريعاً لهم عليها ، ولما حدد فيهم من الآيات العظام ، وهاتان
قصتان كل واحدة منهما مستقلة بنوع من التقريع وإن كانتا متصلتين متحدتين
فالأولى : لتقريعهم على الاستهزاء وترك المسارعة وإلى الامتثال وما يتبع.
ذلك .والثانية : للتقريع على قتل النفس المحرمة وما تبعه من الآية العظيمة
وإنما قدم قصة الأمر بذبح البقرة على ذكر القتيل ، لأنه لو عمل على عكسه ،
لكانت القصة واحدة ، ولذهب الغرض من تثنية التقريع ، ولقد روعيت نكتة بعد
ما استؤنفت الثانية استئناف قصة برأسها ، أن وصلت بالأولى ، دلالة على
اتحادهما ، بضمير البقرة لا باسمها الصريح في قوله : ( اضربوه بِبَعْضِهَا
حتى تبين أنهما قصتان فيما يرجع إلى التقريع ونيته ، بإخراج الثانية مخرج (
الاستئناف مع تأخيرها ، وأنها قصة واحدة بالضمير الراجع إلى البقرة ".وقد
أسند القرآن الكريم القتل إلى جمعهم في قوله تعالى : ( وَإِذْ قَتَلْتُمْ )
مع أن القاتل بعضهم ، للإشعار بأن الأمة في مجموعها وتكافلها كالشخص
الواحد .وأسند القتل - أيضاً - إلى اليهود المعاصرين للعهد النبوي ، لأنهم
من سلالات أولئك الذين حدث فيهم القتل ، وكثيراً ما يستعمل القرآن الكريم
هذا الأسلوب للتنبيه على أن الخلف قد سار على طريقة السلف في الانحراف
والضلال .وقوله تعالى : ( فادارأتم فِيهَا ) بيان لما حصل منهم بعد قتل
النفس التي ذكرنا قصتها ومعنى ادارأتم فيها : اختلفتم وتخاصمتم في شأنها
لأن المتخاصمين يدرأ بعضهم بعضا أي يدفعه ويزحمه ، أي تدافعتم بمعنى طرح
قتلها بعضكم على بعض فدفع المطروح عليه الطارح ، ليدفع الجناية عن نفسه
ويتهم غيره .وقوله تعالى : ( والله مُخْرِجٌ مّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ )
معناه : والله - تعالى - مظهر ومعلن ما كنتم تسترونه من أمر القتيل الذي
قتلتموه ، ثم تنازعتم في شأن قاتله ، وذلك ليتبين القاتل الحقيقي بدون أن
. يظلم غيره

فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريكم اياته لعلكم تعقلون

كما فسرها الوسيط وهذه الجملة الكريمة ( والله مُخْرِجٌ مّا كُنْتُمْ
) : تَكْتُمُونَ ) معترضة بين قوله تعالى ( فادارأتم ) وبين قوله تعالى
فَقُلْنَا اضربوه بِبَعْضِهَا ) . وفائدته إشعار المخاطبين قبل أن يسمعوا
ما أمروا بفعله ، بأن القاتل الحقيقي سنكشف أمره لا محالة .قال صاحب تفسير
- التحرير والتنوير : " وإنما تعلقت إرادة الله بكشف حال من قتل هذا القتيل
مع أنه ، ليس أول قتيل طل دمه في الأمم - إكراماً لموسى - عليه السلام - أن
يضيع دم في قومه وهو بين أظهرهم ، وبمرأى ومسمع منه ، لا سيما وقد قصد

القاتلون إستغفاله ودبروا المكيدة في إظهار المطالبة بدمه ، فلو لم يظهر
- الله - تعالى - هذا الدم ويبين سافكه - لضعف يقين القوم برسولهم موسى
عليه السلام - ولكان ذلك مما يزيد شكهم في صدقة فينقلبوا كافرين ، فكان
إظهار القاتل الحقيقي إكراماً من الله تعالى - لموسى ، ورحمة بالقوم لئلا
يضلوا " .وقوله تعالى : ( فَقُلْنَا اضربوه بِبَعْضِهَا ) إرشاد لهم إلى
) الوسيلة التي عن طريقها سيهتدون إلى القاتل الحقيقي ، والضمير في قوله
اضربوه ) يعود على النفس ، وتذكيره مراعى فيه معناها هو الشخص أو القتيل
وضرب القتيل ببعضها - أيا كان ذلك البعض - دليل على كمال قدرة الله تعالى.
وفيه تيسير عليهم . واسم الإشارة في قوله تعالى : ( كَذَلِكَ يُحْيِي .
الله الموتى ) مشار به إلى محذوف دل عليه سياق الكلام .والتقدير : فقلنا
لقوم موسى الذيؤن تنازعوا في شأن القتيل اضربوه ببعض البقرة ليحيا ، فضربوه
فأحياه الله ، وأخبر القتيل عن قاتله ، وكمثل إحيائه يحيى الله الموتى في
الآخرة للثواب والعقاب .وبذلك تكون الآية ظاهرة في أن الذي ضرب ببعض البقرة
قد صار حياً بعد موته .قال الإمام ابن جرير - رحمه الله - : فإن قيل : وما
كان معنى الأمر بضرب القتيل ببعضها؟ قيل : ليحيا فينبئ نبى الله والذين
ادارءوا فيه عن قاتله .فإن قال : وأين الخبر عن أن الله - تعالى - أمرهم
بذلك؟ قيل : ترك ذلك اكتفاء بدلالة ما ذكر من الكلام الدال عليه ، والمعنى
) : فقلنا اضربوه ببعضها ليحيا فضربوه فحيى ، يدل على ذلك قوله تعالى :
كَذَلِكَ يُحْيِي الله الموتى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ
تَعْقِلُونَ ) ,والمقصود بالآيات في قوله تعالى : ( وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ
لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ) الدلائل الدالة على أن الله على كل شيء قدير
، والتي منها ما شاهدوه بأعينهم من ترتب الحياة على ضرب القتيل بعضوميت
وأخباره عن قاتله ، واهتدائهم بسبب ذلك إلى القاتل الحقيقي . وذلك لكي
تستعملوا عقولكم في الخير . وتوقنوا بأن من قدر على إحياء نفس ، واحدة فهو
قادر على إحياء الأنفس جميعاً لأنه - سبحانه -لا يصعب عليه شيء .هذا
ولصاحب المنار - رحمه الله - رأى في تفسير الآية الكريمة ، فهو يرى أن
المراد بالإحياء في قوله تعالى : ( كَذَلِكَ يُحْيِي الله الموتى ) حفظ
الدماء وأستبقاؤها وليس المراد به عنده الإحياء الحقيقي بعد الموت .فقد
قال في تفسيره : وأما قوله تعالى : ( فَقُلْنَا اضربوه بِبَعْضِهَا
كَذَلِكَ يُحْيِي الله الموتى ) فهو بيان لإخراج ما يكتمون ، ويروون في هذا
الضرب روايات كثيرة . قيل : إن المراد اضربوا المقتول بلسانها وقيل بفخذها
وقيل بذنبها ، وقالوا : أنهم ضربوه فعادت إليه الحياة ، وقال قتلني أخي أو
ابن فلان ، الخ ما قالوه ، والآية ليست أيضاً نصاً في مجملة فكيف بتفصيله؟
والظاهر مما قدمنا أن ذلك العمل كان وسيلة عندهم للفصل في الدماء عند
التنازع في القاتل إذا وجد القتيل قرب بلد ولم يعرف قاتله ليعرف الجاني من
غيره فمن غسل يده وفعل ما رسم لذلك في الشريعة برئ من الدم ومن لم يفعل
ثبتت عليه الجناية .ومعنى إحياء الموتى على هذا حفظ الدماء التي كانت عرضة
، لأن تسفك بسبب الخلاف في قتل تلك النفس ، أي يحييها بمثل هذه الأحكام
وهذا الإحياء على حد قوله تعالى ( وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا
النَّاسَ جَمِيعاً ) وقوله تعالى ( وَلَكُمْ فِي القصاص حَيَاةٌ )
فالإحياء هنا معناه الاستبقاء كما هو المعنى في الآيتين . . .والذي نراه
أن المراد بالإحياء في قوله تعالى : ( كَذَلِكَ يُحْيِي الله الموتى )
الإحياء الحقيقي للميت بعد موته ، وأن تفسيره بحفظ الدماء واستبقائها ضعيف
لما يأتي :أولا : مخالفته لما ورد عن السلف في تفسير الآية الكريمة فقد
أخرج ابن جرير عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : " لما ضرب المقتول
ببعضها - يعني ببعض البقرة - جلس حياً ، فقيل له من قتلك؟ قال : بنو أخي
قتلوني ثم قبض .ثانياً : ما ذهب إليه صاحب المنار لا يدل عليه القرآن
الكريم لا إجمالاً ولا تفصيلا ، ولا تصريحاً ولا تلميحاً ، لأن قوله تعالى
ظاهر كل الظهور ، في أن المراد بالأحياء ( كَذَلِكَ يُحْيِي الله الموتى )
، رد الحياة إليهم بعد ذهابها عنهم ، إذ الموتى هم الذين ماتوا بالفعل
وإحياؤهم رد أرواحهم بعد موتهم وليس هناك نص صحيح يعتمد عليه في مخالفة هذا
الظاهر ، ولا توجد أيضاً قرينة مانعة من إرادة هذا المعنى المتبادر من
الآية بأدنى تأمل وما دام الأمر كذلك فلا يجوز تأويله بما يخالف ما يدل
عليه اللفظ دلالة واضحة ، ومن التعسف الظاهر أن يراد من الموتى الأحياء من
الناس ، وبإحياء الموتى تشريع العقوبات صوناً لدماء الأحياء منهم والله
تعالى حينما أراد أن يدل على هذا المعنى قال ( وَلَكُمْ فِي القصاص حَيَاةٌ
ياأولي الألباب لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ) فهذه الآية الكريمة تدل على أن
القصاص من الجنة يحفظ على الناس حياتهم بدون التواء أو تعمية .ثالثاً :
تفسير الإحياء برد الحياة إلى الموتى ، كما قال المفسرون ، يودى إلى غرس
- الإيمان بصحة البعث في القلوب ، لأن المعنى عليه ، كهذا الإحياء العجيب
وهو إحياء القتيل بضربة ببعض البقرة ليخبر عن قاتله - يحيى الله الموتى بأن
يبعثهم من قبورهم يوم القيامة ، ليحاسبهم على أعمالهم ، فيكون إثباتاً
للبعث عن طريق المشاهدة حتى لا ينكره منكر .رابعاً : قوله تعالى بعد ذلك :
قرينة قوية على أن ( وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ )

) المراد بالإحياء ، رد الحياة إلى الموتى بعد موتهم لأن المراد ب
آيَاتِهِ ) في هذا الموضع ، - كما قال المفسرون - الدلائل الدالة على عظم
قدرته - تعالى - وذلك إنما يكون في خلق الأمور العجيبة الخارقة للعادة
والتي ليست في طاقة البشر ، كإحياء الموتى وبعثهم من قبورهم للحساب والجزاء
.

ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة او اشد قسوة وان من الحجارة لما
يتفجر منه الانهار وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء وان منها لما يهبط من
خشية الله وما الله بغافل عما تعملون

كما فسرها الوسيط ثم بين القرآن الكريم ، بعد ذلك أن هذه المعجزات الباهرة
التي تزلزل المشاعر ، وتهز القلوب ، وتبعث في النفوس الإيمان ، لم تؤثر في
قلوب بني إسرائيل الصلدة لأنه قد طرأ عليهم بعد رؤيتها ما أزال آثارها من
قلوبهم ، ومحا الاعتبار بها من عقولهم ، فقال تعالى : ( ثُمَّ قَسَتْ
قُلُوبُكُمْ مِّن بَعْدِ ذلك فَهِيَ كالحجارة أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً
وَإِنَّ مِنَ الحجارة لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأنهار وَإِنَّ مِنْهَا
لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ المآء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ
مِنْ خَشْيَةِ الله وَمَا الله بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ) .والمعنى :
ثم صلبت قلوبكم - يا بني إسرائيل - وغلظت من بعدً أن رأيت ما رأيتم من
، معجزات منها إحياء القتيل أمام عينكم ، فهي كالحجارة في صلابتها وبيوستها
، بل هي أشد صلابة منها ، لأن من الحجرة ما فيه ثقوب متعددة ، وخروق متسعة
فتتدفق منه مياه الأنهار التي تعود بالمنافع على المخلوقات ، ولأن من بينها
ما يتصدق تصدعاً قليلاً فيخرج منه ماء اليعون والآبار ولأن منها ما يتردى
من رأس الجبل إلى الأرض والسفح من خوف الله وخشيته ، أما أنتم - يا بني
إسرائيل - فإن قلوبكم لا تتأثر بالمواعظ ولا تنقاد للخير ، ولا تفعل ما
تؤمر به مهما تعاقبت عليكم النعم والنقم والآيات ، وما الله بغافل عما
تعملون .وقوله تعالى : ( ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِّن بَعْدِ ذلك فَهِيَ
كالحجارة أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ) بيان لما طرأ على قلوب بني إسرائيل من
بعد عن الاعتبار ، وعدم تأثر بالعظات وإعراض عن الإنابة والإذعان لآيات
الله وتحلل من المواثيق التي أقروا بها على أنفسهم وجيء ( بثم ) التي هي
للترتيب والتراخي . لاستبعاد استيلاء الغلظة والقسوة على قلوبهم بعد أن
رأوا الكثير من المعجزات ، فكأنه - سبحانه - يقول لهم - بعد أن ساق لهم قصة
البقرة وما ترتب عليها من منافع وعبر : ومع ذلك كله لم تلن قلوبكم - يا بني
إسرائيل - ولم تفدكم المعجزات : فقست قلوبكم وكان من المستبعد أن تقسوا
، وقوله تعالى : ( بَعْدِ ذلك ) فيه زيادة تعجيب من إحاطة القساوة بقلوبهم.
بعد توالى النعم ، وتكاثر المعجزات التي أشار القرآن الكريم إلى بعضها في
الآيات السابقة .واسم الإشارة ( ذلك ) مشار به إلى إحياء القتيل بعد ضربه
بجزء من البقرة أو إلى جميع النعم والمعجزات الواردة في الآيات السابقة .و
: في قوله تعالى : ( فَهِيَ كالحجارة أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ) قيل ( أو )
، للتنويع ، فإن قلوبهم متفاوتة في القسوة ، فمنها ما هو قاس كالحجارة
ومنها ما هو أشد منها قسوة ، أي : فبعض قلوبكم كالحجارة في صلابتها وبعضها
أشد من الحجارة في صلابتها .وقيل : للتشكيك بالنسبة للمخاطبين ، لا إلى
المتكلم ، كأن يقول أحد الناس لآخر ، إن هذه القلوب قسوتها تشبه الحجارة أو
تزيد عليها .والأظهر أن تكون للإضراب على طريقة المبالغة والمعنى : ثم قست
قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة بل هي أشد منها قسوة ، إذ لا شعور فيها
يأتي بخير ، والحجارة ليست كذلك .وشبه - سبحانه - قلوبهم بالحجارة في
القسوة ، لأن صلابة الحجرة أعرف للناس وأشهر ، حيث إنها محسوسة لديهم
ومتعارفة بينهم ولذا جاء التشبيه بها .قال صاحب الكشاف : فإن قلت لم قيل
: أشد قسوة ، وفعل القسوة مما يخرج منه أفعل التفضيل وفعل التعجب؟ قلت
لكونه أبين وأدل على فرط القسوة ، ووجه آخر ، وهو أن لا يقصد معنى الأقسى
ولكن قصد وصف القسوة بالشدة . كأنه قيل اشتدت قسوة الحجارة وقلوبهم أشد
قسوة " .وقوله تعالى : ( وَإِنَّ مِنَ الحجارة لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ
الأنهار وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ المآء وَإِنَّ
مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ الله ) بيان لفضل الحجارة على قلوبهم
القاسية ، قصد به إظهار زيادة قسوة قلوبهم عن الحجارة ، لأن هذا الأمر
لغرابته يحتاج إلى بيان سببه .فكأنه - سبحانه - يقول لهم . إن هذه الحجارة
على صلابتها ويبوستها منها ما تحدث فيه المياه خروقاً واسعة تتدفق منها
الأنهار الجارية النافعة ، ومنها ما تحدث فيه المياه شقوقاً مختلفة تنجم
عنها العيون النابعة ، والآبار الجوفية المفيدة . ومنهخا ما ينقاد لأوامر
الله عن طواعية وامتقال . أما قلوبكم أنتم فلا يصدر عنها نفع ، ولا تتأثر
بالعظات والعبر ، ولا تنقاد للحكم التي من شأنها هداية النفوس .وقوله تعالى
- تهديد وتخويف ، حيث إنه ( وَمَا الله بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ) :
سبحانه - سيحاسبهم على أعمالهم ، وسيذيقهم ما يستحقونه من عقاب جزاء جحودهم
لنعمه ، وعصيانهم لأمره .وبذلك تكون الآية الكريمة قد وصفت بني إسرائيل بما

هم أهله . من قساوة القلب وانطماس البصيرة ، وعدم التأثر بالعظات مهما كثرت وبالبيات مهما توالت .ما يؤخذ من هذه القصة من العظات والعبر :اشتملت هذه .
القصة على كثير من العظات والتوجيهات الإلهية من ذلك .1 - دلالتها على ما
جبل عليه بنو إسرائيل من فظاظة وغلظة ، وسوء أدب مع مرشيدهم ، وإحفاء في
الأسئلة بلا موجب ، وعدم استعداد للتسليم بما يأتيهم به الرسل ، ومما طلة
في الانصياع للتكاليف ، وانحراف عن الطريق المستقيم .2 - دلالتها على أن
، التنطع في الدين ، والإلحاف في المسألة يؤديان إلى التشديد في الأحكام
لأن بني إسرائيل لو أنهم أول الأمر عمدوا إلى ذبح أي بقرة لأجزأتهم ولكنهم
شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم .أخرد ابن جرير - رحمه الله - عن ابن
عباس - رضي الله عنهما - قال : " لو أن القوم أخذوا أدنى بقرة لأجزائهم
لكنهم شددوا فشد الله عليهم " .وقد أدى بهم هذا التنطع والتشديد إلى تضييق.
، دائرة اختيارهم ، وتكثير للشروط التي يجب توافرها في البقرة المطلوبة
وذلك لتأديبهم على مما طلتهم وبلادة عقولهم ، وسوء تلقيهم للشريعة بأنواع
من التقصير عملا وشكرا وفهما ، وبذلك يعلم أن ما كلفهم الله به أولا هو ذبح
بقرة ما ، وأن ما أمروا به بعد ذلك من كونها صفراء سالمة من آثار الخدمة
ليس من باب تأخير البيان عن وقت الخطاب ، وإنما هو تشريع طارئ قصد منه
تأديبهم على تعنتهم ولجاجهم وكثرة أسئلتهم .وقد جاءت تعاليم الإسلام
بالنهي عن كثرة السؤال قال تعالى :( يا أيها الذين آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ
عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُواْ عَنْهَا
حِينَ يُنَزَّلُ القرآن تُبْدَ لَكُمْ عَفَا الله عَنْهَا والله غَفُورٌ
حَلِيمٌ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمّ أَصْبَحُواْ بِهَا
كَافِرِينَ ) وفي الحديث الشريف : " ذروني ما تركتكم ، فإنما أهلك من كان
، قبلكم بكثرة سؤالهم ، واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بشيء فأتوه
وإذا نهيتكم عن شيء فانتهوا عنه ما استطعتم " .قال صاحب المنار : " وقد
امتثل سلفنا لأمر الله فلم يشددوا على أنفسهم ، فكان الدين عندهم فطرياً
وحنيفياً سمحاً ، ولكن من خلفهم عمد إلى ما عفا الله عنه فاستخرج له
أحكاماً استنبطها باجتهاده ، حتى صار الدين حملا ثقيلا على الأمة فسئمته
وملت وألقته وتخلت " .4 - قال الإمام ابن القيم - رحمه الله - : وفي هذه
القصة أنواع من العبر منها .أنه لا يجوز مقابلة أمر الله الذي لا يعلم
) المأمور به وجه الحكمة فيه بالإنكار ، فإن القوم لما قال لهم نبيهم
إِنّ الله يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً ) قابلوا هذا الأمر
بقولهم : ( أَتَتّخِذُنَا هُزُواً ) فلما لم يعلموا وجه الحكمة في ارتباط
هذا الأمر بما سألوا عنه قالوا ( أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً ) . وهذا من غاية
) : جهلهم بالله ورسوله ، فإنه أخبرهم عن أمر الله لهم بذلك ، فلما قال لهم
- أَعُوذُ بالله أَنْ أَكُونَ مِنَ الجاهلين ) وتيقنوا أن الله - تعالى
أمره بذلك ، أخذوا في التعنت بسؤالهم عن عينها ولنها ، فلما أخبروا عن ذلك
رجعوا إلى السؤال مرة ثالثة ، فلما تعينت لهم ولم يبق إشكال توقفوا في
) : الامتثال ، ولم يكادوا يفعلون .ثم من أقبح جهلهم وظلمهم قولهم لنبيهم
الآن جِئْتَ بالحق ) فإن أرادوا بذلك : أنك لم تأت بالحق قبل ذلك في أمر
البقرة ، فتلك ردة وكفر ظاهر ، وإن أرادوا : أنك الآن بينت لنا البيان
التام في تعيين البقرة المأمور بذبحها فذلك جهل ظاهر ، فإن البيان قد حصل
بقوله : ( إِنّ الله يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً ) فإنه لا
إجمال في الأمر ولا في الفعل ولا في المذبوح فقد جاء رسول الله بالحق من
أول مرة .قال الإمام بن جرير : " وقد كان بعض من سلف يزعم أن القوم ارتدوا
عن دينهم وكفروا بقولهم لموسى ( الآن جِئْتَ بالحق ) وزعم أن ذلك نفي منهم
أن يكون موسى - عليه السلام - أتاهم بالحق في أمر البقرة قبل ذلك ، وأن ذلك
، كفر منهم ، وليس الأمر كما قال عندنا ، لأنهم قد أذعنوا بالطاعة بذبحها
وإن كان قولهم الذي قالوه لموسى يعد من جهالاتهم وهفوة من هفواتهم " .( ب )
ومنها : الدلالة على صحة ما اتفقت عليه الرسل من أولهم إلى خاتمهم من معاد
الأبدان ، وقيام الموتى من قبورهم .( ج ) ومنها : إقامة أنواع الآيات
، والبراهين والحجج على عباده بالطرق المتوعات ، زيادة في هداية المهتدى
وأعذارا وإنذارا للضال :( د ) - ومنها : الإخبار عن قساوة هذه الأمة
وغلظها ، وعدم تمكن الإيمان فيها .قال عبد الصمد بن معقل عن وهب : كان ابن
، عباس يقول " إن القوم بعد أن أحيا الله - تعالى - الميت فأخبرهم يقاتله
أنكروا قتله ، وقالوا : والله ما قتلناه بعد أن رأوا الآيات الحق " .( ه )
ومنها : مقابلة الظالم الباغي بنقيض قصده شرعاً وقدراً ، فإن القاتل قصد
، ميراث المقتول ، ودافع القاتل عن نفسه ، ففضحة الله - تعالى - وهتكه
وحرمه ميراث المقتول .( و ) ومنها : أن بني إسرائيل فتنوا بالبقرة مرتين من
سائر الدواب ففتنوا بعبادة العجل وفتنوا بالأمر بذبح البقرة ، والبقرة من
أبلد الحيوان حتى ليضرب به المثل في البلادة .ثم قال الإمام ابن القيم في
ختام حديثه عن هذه القصة : والظاهر أن هذه كانت بعد قصة العجل؛ ففي الأمر
بذبح البقرة تنبيه على أن هذا النوع من الحيوان الذي لا يمتنع من الذبح
والحرث والسقي ، لا يصلح أن يكون إلهاً معبوداً من دون الله ، وأنه إنما
يصلح للذبح والحرث والسقي والعمل " .5 - دلالتها على قدرة الله - تعالى -

فإن إحياء الميت عن طريق الضرب بقطعة من جسم بقرة مذبوحة - دليل على قدرة الله - تعالى - على الإحياء والإماتة وما هذا الضرب إلا وسيلة كشفت للناس عن طريق المشاهدة عن آثار قدرته - تعالى - التي لا يدرون كيف تعمل ، فهم ) : يرون آثارها الخارقة ولكنهم لا يعرفون كنهها ، وصدق الله حيث يقول فَقُلْنَا اضربوه بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي الله الموتى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ) .وإلى هنا تكون هذه القصة قد دمغت بني إسرائيل برذيلة التنطع في الدين ، والتعنت في الأسئلة ، والإساءة إلى ، نبيهم - عليه السلام - وعدم اعتبارهم بالعظات والمثلات . لقساوة قلوبهم وسوء طباعهم ، وانطماس بصيرتهم ( يُضْلِلِ الله فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ )

افتطمعون ان يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون

. كما فسرها الوسيط ثم ساق القرآن بعد ذلك لوناً آخر من ألوان رذائلهم ويتمثل هذا اللون في تحريفهم للكلم عن مواضعه ، واشترائهم بآيات الله ثمناً قليلاً ، وذلك لقسوة قلوبهم ، وانطماس بصيرتهم ، وبيعهم الدين بالقليل من حطام الدنيا ، قال - تعالى - .( أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ . . . )الآيات الكريمة التي معنا قد افتتحت بتيئيس المؤمنين من دخول اليهود في الإسلام ولكن هذا التيئيس قد سبق بما يدعمه ويؤيده ، فقد بينت الآيات السابقة عليها " موقف اليهود الجحودي من نعم الله - عز وجل - كما بينت تنطعهم في الدين ، وسوءه إدراكهم لمقاصد الشريعة ، وقساوة قلوبهم من بعد أن رأوا من الآيات البينات ما رأوا ، وبعد هذا البيان الموحى بالقنوط من استجابتهم للحق ، خاطب الله المؤمنين بقوله ):أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ الله ثُمّ يُحَرّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ - وَهُمْ يَعْلَمُونَ ) .ومعنى الآية الكريمة : أفتطمعون - أيها المؤمنون بعد أن وصفت لكم من حال اليهود ما وصفت من جحود ونكران ، أن يدخلوا في الإسلام . والحال أنه كان فريق من علمائهم وأحبارهم يسمعون كلام الله ثم يميلونه عن وجهه الصحيح من بعد ما فهموه ، وهم يلعمون أنهم كاذبون بهاذا التحريف على الله تعالى ، أو يعلمون ما يستحقه مرفه من الخزي والعذاب الأليم .فالخطاب في الآية الكريمة للمؤمنين ، والاستفهام يقصد به الإنكار عليهم ، إذ طمعوا في استجابة اليهود لدعوة الحق ، بعد أن علموا سوء أحوالهم وفساد نفوسهم . والنهي عن الطمع في إيمانهم لا يقتضي عدم دعوتهم إلى ، الإيمان ، فالمؤمنون مأمورون بدعوتهم إليه ، لإقامة الحجة عليهم في الدنيا عند إجراء أحكام الكفر عليهم ، ولقطع عذرهم في الآخرة وقد تصادف الدعوة إلى الإسلام نفوساً منصفة تستجيب لدعوة الحق ، وتهتدي إلى الطريق المستقيم ، وهذا ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم هو وأصحابه من بعده . ولكن اليهود صموا آذانهم عن الحق بعد ما عرفوه فأصبحت دعوتهم إلى الإسلام غير مجدية ، وهنا يأتي النهي عن الطمع في إيمانهم بهذه الآية وأمثالها .وجملة ( وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ الله ) حالية ، مشتملة على بيان أحد الأسباب الداعية إلى القنوط من إيمانهم وبذلك يكون التقنيط من إيمانهم قد علل بعلتين :إحداهما : ما سبق هذه ، الآية من تصوير لأحوالهم السيئة .والثانية : ما تضمنته هذه الجملة الكريمة ) : من تحريفهم لكلام الله عن علم وتعمد .والمراد بالفريق في قوله تعالى وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ ) أحبارهم وعلماؤهم الذين عاصروا الرسل الكرام ، فسمعوا منهم ، أو الذين أتوا بعدهم فنقلوا عنهم .والتحريف أصله انحراف الشيء عن جهته وميله عنها إلى غيرها . والمراد به هنا : إخراج الوحي والشريعة عما جاءت به ، بالتغيير والتبديل في الألفاظ ، أو بالكتمان والتأويل الفاسد ، والتفسير الباطل .وقوله تعالى : ( ثُمّ يُحَرّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ) زيادة تشنيع عليهم ، حيث إنهم حرفوا كلام الله بعد فهمهم له عن تعمد وسوء نية ، وارتكبوا هذا الفعل الشنيع ، رغم علمهم بما يستحقه مرتكبه من عقوبة دنيوية وأخروية .ففي هذين القيدين من النعي عليهم مالا مزيد عليه ، حيث أبطل بهما عذر الجهل والنسيان وسجل عليهم تعمد الفسوق والعصيان .وإنما كان قيام الفريق من أحبار اليهود ، بتحريف الكتاب سبباً في اليأس من إيمان عامتهم ، لأن هؤلاء العامة المقلدون قد تلقوا دينهم عن قوم فاسقين ، دون أن يلتفتوا إلى الحق ، أو يتجهوا إلى ، النظر في الأدلة الموصلة إليه ، وأمثال هؤلاء الذين شبوا على عماية التقليد وغواية الشيطان ، لا يرجى منهم الوصول إلى نور الحق ، وجلال الصدق ، ولأن ، أمة بلغ الحال بعلمائها - وهم مظهر محامدهم - أن يجرؤوا على كلام الله فيحرفوه لا تنتظر من دهمائها أن يكونوا خيراً منهم حالا أو أسعد مآلا .

واذا لقوا الذين امنوا قالوا امنا واذا خلا بعضهم الى بعض قالوا اتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم افلا تعقلون

كما فسرها الوسيط ثم أخبر القرآن الكريم عن بعضهم ، بأنهم قد ضموا إلى رذيلة التحريف رذيلة النفاق والتدليس فقال تعالى : ( وَإِذَا لَقُوا الذين آمَنُواْ قالوا آمَنَّا وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ قالوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ الله عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ . أَوَلاَ يَعْلَمُونَ أَنَّ الله يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ) .والمعنى : وإذا ما تلاقى المنافقون من اليهود مع المؤمنين ، قالوا لهم نفاقاً وخداعاً . صدقنا أن ما أنتم عليه هو الحق . وأن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول من عند الله ، وإذا ما انفرد بعض اليهود ببعض قال الذين لم ينافقوا لإخرانهم الذين نافقوا معاتبين : أتخبرون المؤمنين بما بينه الله لكم في كتابكم مما يشهد بحقية ما هم عليه ، لتكون لهم الحجة عليهكم يوم القيامة ، أفلا تعقلون أن هذا التحديث يقيم الحجة لهم عليكم؟فالآية الكريمة فيها بيان لنوع آخر من مساوئ اليهود ومخازيهم التي تدعو إلى اليأس من إيمانهم وتكشف النقاب عما كانوا يضمرونه من تدليس .قال الإمام الرازي : " وإنما عذلوهم على ذلك لأن اليهودي إذا اعترف بصحة التوراة ، واعترف بشهادتها على صدق النبي صلى الله عليه وسلم كانت الحجة قوية عليه ، فلا جرم كان بعضهم يمنع بعضاً من الاعتراف بذلك أمام المؤمنين " .والاستفهام في قوله تعالى : ( وَإِذَا لَقُواْ الذين آمَنُواْ قالوا آمَنَّا وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ قالوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ الله عَلَيْكُمْ ) للإنكار والتوبيخ والفتح يطلق على القضاء ومنه قوله تعالى : ( رَبَّنَا افتح بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بالحق ) أي : افصل بيننا وبين قومنا بالحق .قال ابن جرير أصل الفتح في كلام العرب القضاء والحكم والمعنى أتحدثونهم بما حكم الله " : به عليكم وقضاه فيكم؟ ومن حكمه - تعالى - وقضائه فيهم أخذه ميثاقهم بأن ) : يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم فقد بشرت به التوراة " .وقوله تعالى لِيُحَآجُّوكُم بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ ) متعلق بالحديث ومرادهم تأكيد : النكير على إخوانهم الذين أظهروا إيمانهم نفاقاً ، فكأنهم يقولون لهم أتحدثون المؤمنين بما يفضحكم يوم القيامة أمام الخالق - عز وجل - وفي حكمه وقضائه ، لأنهم سيقولون لكم .ألم تحدثونا في الدنيا بما في كتابكم من حقيقة ديننا وصدق نبينا؟ فيكون ذلك زائداً في ظهور فضيحتكم وتوبيخكم على رءوس الخلائق يوم الموقف العظيم ، لأنه ليس من اعترف بالحق ثم كتم كمن ثبت على الإنكار .وجملة ( أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ) من بقية مقولهم لمن نافق منهم ، وقد أتوا بها لزيادة توبيخهم لهم حتى لا يعودوا إلى التحدث مع المؤمنين والمعنى : أليست لكم عقول تحجزكم عن أن تحدثوا المؤمنين بما يقيم لهم الحجة عليكم يوم القيامة؟

اولا يعلمون ان الله يعلم ما يسرون وما يعلنون

) : كما فسرها الوسيط ثم وبخهم الله على جهلهم بحقيقة علمه فقال تعالى أَوَلاَ يَعْلَمُونَ أَنَّ الله يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ أي : أيقول الذين لم ينافقوا من اليهود لإخوانهم الذين نافقوا ما قالوا ( ويكتمون من صفات النبي صلى الله عليه وسلم ما كتموا ، ويحرفون من كتاب ، الله ما حرفوا ، ولا يعلمون أن الله يعلم . ما يخفون من كفر وحقد ، وما يظهرون من إيمان وود؟فالآية الكريمة فيها توبيخ وتجهيل لليهود الذين عاتبوا المنافقين منهم على تحديث المؤمنين بما في توراتهم مما يؤيد صدق النبي صلى الله عليه وسلم لأنهم لو كانوا مؤمنين إيماناً صادقاً بإحاطة علمه بسرهم وعلانيتهم ، لما نهوا إخوانهم عن تحديث المؤمنين بما فيها فإن ما فيها من صفات للنبي صلى الله عليه وسلم من الحقائق التي أمرهم الله ببيانها ونهاهم عن كتمانها .

ومنهم اميون لا يعلمون الكتاب الا اماني وان هم الا يظنون

، كما فسرها الوسيط ثم بين القرآن الكريم بعد ذلك حال عوام اليهود ومقلديهم بعد أن بين حال علمائهم ومنافقيهم فقال تعالى : ( وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الكتاب إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ) أي : ومن اليهود قوم أميون لا يحسنون الكتابة ، ولا يعلمون من كتابهم التوراة سوى أكاذيب اختلقها لهم علماؤهم أو أمنيات باطلة يقدرونها في أنفسهم بدون حق ، أو قراءات عارية عن التدبر والفهم ، وقصارى أمرهم الظن من غير أن يصلوا إلى مرتبة اليقين المبني على البرهان القاطع والدليل الساطع فالآية الكريمة فيها زيادة تيئيس للمؤمنين من إيمان كافة اليهود بفرقهم المختلفة . فإنهم قد وصلوا إلى حال من الشناعة لا مطمع معها في هداية ، فعلماؤهم محرفون لكتاب الله على حسب أهوائهم وشهواتهم ، وعوامهم لا يعرفون من كتابهم إلا الأكاذيب والأوهام التي وضعها لهم أحبارهم ، وأمة هذا شأن علمائها وعوامها لا ينتظر منها أن تستجيب للحق أو أن تقبل على الصراط المستقيم .و ( الأماني ) - بالتشديد - جمع أمنية ، مأخوذة من تمني الشيء أي

أحب أن يحصل عليه ، أو من تمنى إذا كذب ، أو من تمني الكتاب أي قرأه .فإن : فسرنا الأماني بالأول كان قوله تعالى ( إِلاَّ أَمَانِيَّ ) معناه : إلا ما هم عليه من أمانيهم في أن الله لا يؤاخذهم بخطاياهم ، وأن آباءهم الأنبياء ، يشفعون لهم ، وأن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودات .وإن فسرناها بالكذب كان قوله تعالى : ( إِلاَّ أَمَانِيَّ ) معناه : إلا ما يقرءونه من قراءات . . خالية من التدبر ، وعارية عن الفهم . من قوله تمنى كتاب الله أول ليله أي قرأ .هذا ، وقد رجح ابن جرير تفسير ( الأماني ) بالأكاذيب فقال : ما . ملخصه " وأولى ما روينا في تأويل قوله تعالى : ( إِلاَّ أَمَانِيَّ ) بالصواب ، أن هؤلاء الأميين لا يفقهون من الكتاب الذي أنزله الله على موسى شيئاً ، ولكنهم يتخرصون الكذب ، ويتقولون الأباطيل كذباً وزوراً ، والتمني ) في هذا الموضع هو تخلق الكذب وتخرصه وافتعاله بدليل قوله تعالى بعد وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ) فأخبر عنهم أنهم يتمنون ما يتمنون من الأكاذيب ظناً منهم لا يقيناً " .والذي نراه أن المعاني الثلاثة للأماني تنطبق على اليهود ، وكلها حصلت منهم؛ وما دام يصدق عليهم المعاني الثلاثة لغة فجميعها مرادة من الآية ، ولا معنى لأن نشتغل بترجيح بعضها على بعض كما فعل ابن جرير وغيره .وعلى أي تفسير من هذه التفاسير للأماني ، فالاستثناء منقطع ، لأن أي واحد من هذه المعاني ليس من علم الكتاب الحقيقي في شيء .وفي قوله تعالى : ( وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ) زيادة تجهيل لهم ، لأن أمنياتهم هذه من باب الأوهام التي لا تستند إلى دليل أو شبه دليل ، أو من باب الظن الذي هو ركون النفس إلى وجه من وجهين يحتملهما الأمر دون أن تبلغ في ذلك مرتبة القطع واليقين . وهذا النوع من العلم لا يكفي في معرفة أصول الدين التي يقوم عليها الإيمان العميق ، فهم ليسوا على علم يقيني من أمور دينهم ، وإنما هم يظنونها ظناً بدون استيقان ، والظن لا يغني من الحق شيئاً .

فويل للذين يكتبون الكتاب بايديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت ايديهم وويل لهم مما يكسبون

كما فسرها الوسيط وبعد أن بين القرآن الكريم فرق اليهود ، توعد الذين يحرفون الكلم عن مواضعه بسوء المصير فقال تعالى : ( فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكتاب بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هذا مِنْ عِنْدِ الله لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ ) :والمعنى : فهلاك وفضيحة وخزى لأولئك الأحبار من اليهود الذين يكتبون الكتابات المحرفة والتأويلات الفاسدة بأيديهم ، بدلا مما اشتملت عليه الكتب من حقائق ، ثم يقولون لجهالهم ومقلديهم كذباً وبهتاناً هذا من عند الله ، ومن نصوص التوراة التي أنزلها الله على موسى ، ليأخذوا في نظير ذلك عرضاً يسيراً من حطام الدنيا ، فعقوبة عظيمة لهم بسبب ما قاموا به من تحريف وتبديل لكلام الله ، وخزى كبير لهم من أجل ما اكتسبوه من أموال بغير حق .فالآية الكريمة فيها تهديد شديد لأحبار اليهود الذين تجرءوا على كتاب الله بالتحريف والتبديل ، وباعوا دينهم بدنياهم ، وزعموا أن ما كتبوه هو من عند الله وصرح - سبحانه - بأن الكتابة ب ( أَيْدِيهِمْ ) ليؤكد أنهم قد باشروها عن. تعمد وقصد ، وليدفع توهم أنهم أمروا غيرهم بكتابتها ، ولتصور حالتهم في النفوس كما وقعت ، حتى ليكاد السامع لذلك أن يكون مشاهداً لهيئتهم .وقوله ، تعالى : ( ثُمَّ يَقُولُونَ هذا مِنْ عِنْدِ الله ) كشف عن كذبهم وفجورهم فهم يحرفون الكلم عن مواضعه ، ثم يزعمون أنه من عند الله ليتقبله أتباعهم بقوة واطمئنان .ثم بين - سبحانه - العلة التي حملتهم على التحريف والكذب فقال تعالى : ( لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً ) أي كتبوا الكتابة بأيديهم ، ونسبوها إلى الله زوراً وبهتاناً؛ ليحصلوا على عرض قليل من أعراض الدنيا ، كاجتلاب الأموال الحرام ، وانتحال العلم لأنفسهم والطمع في الرئاسة والجاه ، وإرضاء العامة بما يوافق أهواءهم .وعبر - سبحانه - عن الثمن بأنه قليل ، لأنه مهما كثر فهو قليل بالنسبة إلى ما استوجبوه من العذاب ، وحرموه من الثواب المقيم .وقوله تعالى : ( فَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ ) تهديد لهم مرتب على كتابة الكتاب المحرف ، وعلى أكلهم أموال الناس بالباطل فهو وعيد لهم على الوسيلة - وهي الكتابة - وعلى الغاية - وهي أخذ المال ، ) بغير حق - .قال الشيخ القاسمي : قال الراغب : فإن قيل : لم ذكر يَكْسِبُونَ ) بلفظ المستقبل ، و ( كَتَبَتْ ) بلفظ الماضي؟ قيل : تنبيهاً على ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم ، " من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة " فنبه بالآية إلى أن ما أثبتوه من التأويلات الفاسدة التي يعتمدها الجهلة هو اكتساب وزر يكتسبونه حالا فحالا ، وعبر . بالكتابة دون القول لأنها متضمنة له وزيادة ، فهي كذب باللسان واليد وكلام اليد يبقى رسمه ، أما القول فقد يضمحل أثره " .وبهذا تكون الآيات الكريمة قد دمغت اليهود برذيلة التحريف لكلام الله عن تعمد وإصرار ووصفتهم

- بالنفاق والخداع ، ووبختهم على بلادة أذهانهم وسوء تصورهم لعلم الله
. تعالى - وتوعدتهم بسوء المصير جزاء كذبهم على الله

وقالوا لن تمسنا النار الا اياما معدودة قل اتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف
الله عهده ام تقولون على الله ما لا تعلمون

، كما فسرها الوسيط ثم حكى القرآن بعد ذلك لوناً من ألوان دعاواهم الباطلة
وأقاويلهم الفاسدة ، ورد عليهم بما يخرس ألسنتهم ويقطع حجتهم ، فقال تعالى
وَقَالُواْ لَن تَمَسّنَا النار إِلاّ أَيّاماً مّعْدُودَةً قُلْ ):
أَتّخَذْتُمْ . . . )روى المفسرون في سبب نزول هذه الآيات آثاراً ، منها
ما روى عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : " إن اليهود كانا يقولون إن
هذه الدنيا سبعة آلاف سنة ، وإنما نعذب بكل ألف سنة يوماً في النار ، وإنما
هي سبعة أيام معدودة " فأنزل الله تعالى : ( وَقَالُواْ لَن تَمَسّنَا
النار . . . ) الآيات .وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال : " حدثني أبي أن
الرسول صلى الله عليه وسلم قال لليهود أنشدكم بالله وبالتوراة التي أنزلها
الله على موسى يوم طور سيناء ، من أهل النار الذين أنزلهم الله في التوراة؟
قالوا : إن ربنا غضب علينا غضبة ، فنمكث في النار أربعين ليلة ، ثم نخرج
فتخلفوننا فيها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كذبتم والله لا نخلفكم
فيها أبداً ، فنزل القرآن تصديقاً لقول النبي صلى الله عليه وسلم وتكذيباً
لهم - نزل قوله تعالى : ( وَقَالُواْ لَن تَمَسّنَا النار إِلاّ
أَيّاماً مّعْدُودَةً . . . ) إلى قوله تعالى : ( هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ
) : وأخرج ابن جرير - أيضاً - عن ابن عباس أنه قال في قوله تعالى. (
وَقَالُواْ لَن تَمَسّنَا النار إِلاّ أَيّاماً مّعْدُودَةً ) ذلك
أعداء الله اليهود ، قالوا : لن يدخلنا الله النار إلا تحلة القسم . الأيام
التي أصبنا فيها العجل أربعين يوماً ، فإذا انقضت عنا تلك الأيام انطفع عنا
، العذاب والقسم .هذه بعض الآثار التي وردت في سبب نزول الآيات الكريمة
، والمعنى :وقالت اليهود - يا محمد - إن النار لن تصيبنا ، ولن نذوق حرها
إلا أياناً قلائل - قل لهم - يا محمد - رداً على دعواهم الكاذبة هل اتخذتم
من الله عهداً بذلك حتى يكون الوفاء به متحققاً؟ أم تقولون على الله الباطل
جهلا وجراءة عليه؟ثم أبطل القرآن الكريم دعواهم بأصل عام يشملهم ويشمل
غيرهم فقال . ليس الأمر كما تدعون ، بل الحق أنه من كسب سيئة وأحاطت به
خطيئته ومات علهيا دون أن يتوب إلى الله - تعالى - منها ( فأولئك أَصْحَابُ
النار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ والذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات أولئك
أَصْحَابُ الجنة هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ) .وقوله تعالى : ( وَقَالُواْ لَن
تَمَسّنَا النار إِلاّ أَيّاماً مّعْدُودَةً ) بيان لضرب من ضروب
غرورهم وكذبهم ، معطوف على رذائلهم السابقة التي حكاها القرآن الكريم ، إذ
الضمير في قوله تعالى ( وقالوا ) يعود على اليهود الذين مر الحديث عنهم
ولما ينته بعد .والمس : اتصال أحد الشيئين بآخر على وجه الإحساس والإصابة
والمراد من النار : نار الآخرة . والمراد من المعدودة : المحصورة القليلة.
يقال : شيء معدود أي قليل . وشيء غير معدود أي كثير فهم يدعون أن النار ،
، لن تمسهم إلا مدة يسيرة قد يتكون سبعة أيام ، وقد تكون أربعين يوماً
وبعدها يخرجون إلى الجنة لأن كل معدود منقض .ثم أمر الله - تعالى - رسوله
صلى الله عليه وسلم أن يرد عليهم فيما زعموه فقال تعالى : ( قُلْ
أَتّخَذْتُمْ عِندَ الله عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ الله عَهْدَهُ أَمْ
تَقُولُونَ عَلَى الله مَا لاَ تَعْلَمُونَ ) أي : قيل لهم - يا محمد - إن
مثل هذا الإخبار الجازم بأن النار لن تسمكم إلا أياماً معدودة ، لا يكون
إلا ممن اتخذ عهداً من الله بذلك ، فهل تقدم لكم من الله عهد بأن النار لن
تمسكم إلا أياماً معدودة ، فكان الوفاء متحققا ، لأن الله - تعالى -لا
يخلف وعده ، أم تقولون على الله شيئاً لا علم لكم به .فالاستفهام للإنكار
- وهو متوجه إلى زعمهم أن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة ، فكأنه ،
سبحانه - يقول لهم . إن قولكم هذا يحتمل أمرين لا ثالث لهما : إما اتخاذ
عهد عند الله به ، وإما القول عليه - سبحانه - بدون علم ، وما دام قد ثبت
أن اتخاذ العهد لم يحصل ، إذا أنتم - يا معشر اليهود - كاذبون فيما تدعون
من أن النار لن تمسكم إلا أياماً معدودة .قال الامام الرازي :قوله تعالى
ليس باستفهام بل هو إنكار؛ لأنه لا يجوز أن يجعل ( أَتّخَذْتُمْ ) :
الله - تعالى - حجة رسوله في إبطال قولهم أن يستفهمهم بل المراد التنبيه
، على طريقة الاستدلال ، وهي أنه لا سبيل إلى معرفة هذا التقدير إلا بالسمع
فلما لم يوجد الدليل السمعي وجب ألا يجوز الجزم بهذا التقدير .وإنما ساق
القرآن الكريم الرد عليهم في صورة الاستفهام ، لما فيه من ظهور القصد إلى
تقريرهم بأنهم قالوا على الله ما لا يعلمون ، إذ هم لا يستطيعون أن يثبتوا
أن الله وعدهم بما ادعوه من أن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة ، ولا
يوجد عندهم نص صحيح من كتابهم يؤيد مدعاهم .وبذلك تكون الآية الكريمة قد
. أبطلت مدعاهم إبطالا يحمل طابع الإنكار والتوبيخ

بلى من كسب سيئة واحاطت به خطيئته فاولئك اصحاب النار هم فيها خالدون

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - آية أبطلت مدعاهم عن طريق إثبات ما نفوه فقال تعالى : ( بلى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خطيائته فأولئك أَصْحَابُ النار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ) .بلى حرف جواب يجيء لإثبات فعل ورد قبلها منفياً ، والفعل المنفى هنا هو قول اليهود ( لَن تَمَسَّنَا النار إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً ) فجاءت ( بلى ) لإثبات أن النار تمسهم أكثر مما زعموا فهم فيها خالدون جزاء كفرهم وكذبهم .ومعنى الآية الكريمة : ليس الأمر كما تدعون أيها اليهود ، من أن النار لن تمسكم ، إلا أياماً معدودة ، بل الحق أنكم ستخلدون فيها . فكل من كسب شركاً مثلكم واستولت عليه خطاياه ، وأحاطت به كما يحيط السرادق بمن في داخله ، ومات على ذلك دون أن يدخل الإيمان قلبه ويتوب إلى ربه فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون .فالآية الكريمة فيها إبطال لمدعاهم ، وإثبات لما نفوه ، على وجه يشملهم ويشمل جميع من يقول قولهم ، ويكفر كفرهم .هذا والمراد بالسيئة هنا الشرك بالله كما قال جمهور المفسرين لورود الآثار عن السلف بذلك ، وفائدة الإتيان بقوله تعالى ( وَأَحَاطَتْ بِهِ خطيائته ) بعد ذلك ، الإشعار بأن الخطيئة إذا أحاطت بصاحبها أخذت بمجامع قلبه فحرمته الإيمان ، وأخذت بلسانه فمنعته عن أن ينطق به .وقوله تعالى ( فأولئك أَصْحَابُ النار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ) بيان لما أعد لهم من عقوبات جزاء كفرهم وكذبهم على الله ، فهم يوم القيامة سيكونون أصحاباً للنار ملازمين لها على التأييد لإيثارهم في الحياة الدنيا ما يوردهم سعيرها ، وهو الكفر وسوء الأفعال على ما يدخلهم الجنة وهو الإيمان وصالح الأعمال .

والذين امنوا وعملوا الصالحات اولئك اصحاب الجنة هم فيها خالدون

كما فسرها الوسيط وبعد أن ذكر - سبحانه - ما أعد لهؤلاء اليهود وأمثالهم من الكافرين الذين يفترون على الله الكذب ، عقب ذلك ببيان ما أعده - سبحانه - لأهل الإيمان والتقوى فقال تعالى : ( والذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات أولئك أَصْحَابُ الجنة هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ) أي : والذين آمنوا بالله ورسوله ، وأطاعوا الله فأقاموا حدوده ، وأدوا فرائضه ، واجتنبوا محارمه ، فأولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون خلوداً أبدياً ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .وبذلك تكون الآيات الكريمة قد ردت على اليهود أبلغ رد . حيث كذبتهم في دعواهم أن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة ، وأنهم صائرون بعد ذلك إلى الجنة ، وأخبرتهم بخلودهم وخلود كل كافر في النار ، وأما الجنة فهي لمن آمن وعمل صالحاً واتبع سبيل المرسلين فهؤلاء أصحابها وهم فيها خالدون .

واذ اخذنا ميثاق بني اسرائيل لا تعبدون الا الله وبالوالدين احسانا وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنا واقيموا الصلاة واتوا الزكاة ثم توليتم الا قليلا منكم وانتم معرضون

كما فسرها الوسيط ثم تحدث القرآن بعد ذلك عن رذيلة من أبرز الرذائل التي طبع عليها بنو إسرائيل ، وهي رذيلة نقضهم للعهود والمواثيق فقال تعالى ): وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بني إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ الله وبالوالدين . . . )معنى الآية إجمالا : واذكروا يا بني إسرائيل لتعتبروا وتستجيبوا للحق - وليذكر معكم كل من ينتفع بالذكرى - وقت أن أخذنا عليكم العهد ، وأمرناكك بالعمل به على لسان رسلنا - عليهم السلام - وأمرناكم فيه بألا تعبدوا سوى الله ، وأمرناكم فيه كذلك ، بأن تحسنوا إلى آبائكم وتقوموا بأداء ما أوجبه الله لهما من حقوق ، وأن تصلوا أقرباءكم وتعطفوا على اليتامى الذين فقدوا آباءهم ، وعلى المساكين الذين لا يملكون ما يكفيهم في حياتهم ، وأمرناكم فيه - أيضاً - بأن تقولوا للناس قولا حسنا فيه صلاحهم ونفعهم ، وأن تحافظوا على فريضة الصلاة ، وتؤدوا بإخلاص ما أوجبه الله عليكم من زكاة ، ولكنكم نقضتم أنتم وأسلافكم الميثاق ، وأعرضتم عنه ، إلا قليلا منكم واستمروا على رعايته والعمل بموجبه .والمراد ببني إسرائيل في الآية الكريمة ، سلفهم وخلفهم ، لأن هذه الأوامر والنواهي التي تناولتها الآية الكريمة ، والتي هي مضمون العهد المأخوذ عليهم ، قد أخذت عليهم جميعاً على لسان أنبيائهم ورسلهم .والدليل على أن المقصود ببني إسرائيل ما يتناول الخلف المعاصرين منهم للعهد النبوي ، قوله تعالى في ختام هذه الآية ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ ) فإنه قد أسند إليهم فيه أنهم تولوا عن الميثاق معرضين ، والاعراض عنه لا يكون إلا بعد أخذه عليهم كما سيأتي .وقوله تعالى ( لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ الله وبالوالدين إِحْسَاناً . . . ) إلى قوله تعالى ( ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ بيان للميثاق وتفصيل له . وجاء التعبير بقوله تعالى ( لاَ ( . . . تَعْبُدُونَ إِلاَّ الله ) في صورة الخبر المنفي والمراد منه النهي عن

عبادة غير الله ، لإفادة المبالغة والتأكيد ، فكأن الأمر والنهي قد امتثلا فيخبر بوقوعهما ، أو أنهما لأهميتهما يخبر عنهما بأنهما سيتلقيان بحسن الطاعة حتما ، فينزل ما يجب وقوعه منزلة الواقع ، ويخبر عن المأمور بأنه فاعل لما أمر به ومجتنب لما نهى عنه في الحال ، وفي ذلك ما فيه من إفادة المبالغة في وجوب امتثال الأمر والنهي .وقد تضمنت الآية الكريمة لوناً فريداً من التوجيه المحكم الذي لو اتبعوه لحسنت صلتهم مع الخالق والمخلوق ، لأنها ابتدأت بأمرهم بأعلى الحقوق وأعظمها وهو حق الله - تعالى - عليهم بأن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، ثم ثنت ببيان حقوق الناس فبدأت بأحقهم بالإحسان وهما الوالدان لما لهما من فضل الولادة والعطف والتربية ، ثم الأقارب الذين تجمع الناس بهم صلة قرابة من جهة الأب والأم ، ورعايتهم تكون بالقيام بما يحتاجون إليه على قدر الاستطاعة ، ثم باليتامى لأنهم في حاجة إلى العون بعد أن فقدوا الأب الحاني ، ثم بالمساكين لعجزهم عن كسب ما يكفيهم ، ثم بالإحسان إلى سائر الناس عن طريق الكلمة الطيبة ، والمعاملة الحسنة ، لأن الناس إن لم يكونوا في حاجة إلى المال ، فهم في حاجة إلى حسن المقال ، ثم أرشدتهم إلى العبادات التي تعينهم على إحسان صلتهم بالخالق والمخلوق فأمرتهم بالمداومة على الصلاة بخشوع وإخلاص ، وبالمحافظة على أداء الزكاة بسخاء وطيب خاطر ، ولعظم شأن هاتين العبادتين البدنية والمالية ذكرتا على وجه خاص بعد الأمر بعبادة الله ، تفخيماً لشأنهما وتوكيداً لأمرهما ، وكان من الواجب على بني إسرائيل أن ينتفعوا بهذه الأوامر الحكيمة لكنهم عموا وصموا عنها فوبخهم القرآن الكريم بقوله : ( ثُمَّ ، تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ ) .أي : ثم توليتم - أيها اليهود - عن جميع ما أخذ عليكم من مواثيق فأشركتم بالله وعققتم الوالدين ، وأسأتم إلى الأقارب واليتامى والمساكين وقلتم للناس أفحش الأقوال ، وتركتم الصلاة ، ومنعتم الزكاة ، وقطعتم ما أمر الله به أن يوصل وقوله تعالى : ( إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْكُمْ ) إنصاف لمن حافظ على العهد. منهم ، حيث إنه لا تخلو أمة من المخلصين الذين يرعون العهود ، ويتبعون الحق وإرشاد للناس إلى أن وجود عدد قليل من المخلصين في الأمة ، لا يمنع نزول ، العقاب بها متى فشا المنكر في الأكثرين منها .وقوله تعالى : ( وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ ) جملة حالية تفيد أن الأعراض عن الطاعة ، وعدم التقيد بالمواثيق التي أقروا بها ، عادة متأصلة فيهم ووصف ثابت لهم ، وسجية معروفة منهم .قال صاحب المنار : " قد يتولى الإنسان منصرفاً عن شيء وهو عازم على أن يعود إليه ويوفيه حقه ، فليس كل متول عن شي معرضا عنه ومهملا له طول الدوام ، لذلك كان ذكر هذا القيد " وأنتم معرضون لازما لابد منه ، وليس تكراراً كما يتوهم ، ثم قال : وقد كان سبب ذلك التولي مع الإعراض أن الله أمرهم ألا يأخذوا سالدين إلا من كتابه فاتخذوا أحبارهم أرباباً من دون الله يحلون برأيهم ويحرمون ، ويبيحون باجتهادهم ويحظرون ويزيدون في الشرائع ، والأحكام ويضعون ما شاءوا من الشعائر فصدق عليهم أنهم اتخذوا من دونه شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ، فإن الله هو الذي يضع الدين وحده . وإنما العلماء أدلاء يستعان بهم على فهم كتابه ، وما شرع على ألسنة رسله ، وخلاصة الفرق بين التفسير الذي بدأنا به وبين تفسير صاحب المنار. " . . لقوله تعالى : ( وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ ) أن هذه الجملة على التفسير الأول تبين عادة في القوم تأصلت فيهم حتى كأنها سجية ، والمعنى : " ثم توليتم ، أي أعرضتم ، وأنتم قوم عادتكم الإعراض ، وعلى تفسير صاحب المنار - تكون هذه الجملة مبينة . لنوع التولي ومتممة لمعناه : والتفسير الأول الذي سقناه أدخل في باب الذم ، وأوفى ببيان ما عليه حال اليهود . ثم قال . . . تعالى :( وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ )

واذ اخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون انفسكم من دياركم ثم اقررتم وانتم تشهدون

- كما فسرها الوسيط بعد أن بين - سبحانه - في الآية السابقة أن الله تعالى - قد أخذ على بني إسرائيل عهداً بأن يعبدوه ويؤدوا فرائض الله ، إلا أنهم نقضوا هذا العهد وتولوا عنه سوى قليل منهم بعد ذلك بين في هذه الآية الكريمة أنه - سبحنه - أخذ علهيم عهداً آخر ولكنهم نقضوه كما هو دأبهم وملخص هذا العهد الذي ذكرته الآيات الكريمة ، أن الله تعالى أخذ عليهم. الميثاق ألا يقتل بعضهم بعضاً ، وألا يخرج بعضهم بعضاً من داره ، وأنهم إذا وجدوا أسيراً منهم في يد غيرهم فإن عليهم أن يبذلوا أموالهم لفدائه من الأسر ، وتخليصه من أيدي أعدائهم ، ثم لما نشبت الحرب بين قبيلتي الأوس والخزرج ، الأوس والخزرج ، وصارت كل طائفة من طوائف اليهود تقاتل بجانب أبناء ملتهم المنضمين إلى حلفئهم الآخرين فإذا وضعت الحرب أوزارها ، بذل جميع اليهود أموالهم لتخليص الأسرى من أعدائهم كما أمرهم - تعالى - وبهذا يكونون قد آمنوا ببعض الكتاب وهو بذل الفداء لتخليص الأسرى ، وكفروا ببعضه وهو تحريم سفك دماء إخوانهم وإخراجهم من ديارهم ، ويحيكى التاريخ أن العرب

كانوا يعيرونهم فيقولون لهم : كيف تقاتلونهم ثم تفدونهم بأموالكم؟ فكان
اليهود يقولون : قد حرم علينا قتالهم ولكنا نستحي أن نخذل حلفاءنا وقد
، أمرنا أن نفتدي أسرانا .وقد توعدهم - سبحانه - بالخزي في الدنيا والآخرة
جزاء نقضهم لعهوده ، وتفريقهم بين أحكامه .والمعنى الإجمالي للآيات
، الكريمة : واذكروا - أيضاً - يا بني إسرائيل وقت أن أخذنا عليكم العهد
وأوصيناكم فيه بألا يتعرض بعضكم لبعض بالقتل ، وبألا يخرج بعضكم بعضاً من
مساكنهم ، ثم أقررتم وأنتم تشهدون على الوفاء بهذا العهد ، والالتزام بما
جاء فيه ، ثم أنتم هؤلاء - يا معشر اليهود - بعد إقراركم بالميثاق ، وبعد
، شهادتكم المؤكدة على أنفسكم بأنكم قد قبلتموه ، خرجتم على تعاليم التوراة
فنقضتم عهودكم ، وأراق بعضكم دماء بعض ، وأخرجتم إخوانكم في الملة والدم من
ديارهم ظلماً وعدواناً ، وتعاونتم على قتلهم وإخراجهم مع من ليسوا من ملتكم
أو قرابتكم ، ومع ذلك فإذا وقع إخوانكم الذين قاتلتموهم وأخرجتموهم من
ديارهم في الأسر فاديتموهم ، فلم لم تتبعوا حكم التوراة في النهي عن قتالهم
وإخراجهم كما اتبعتم حكمها في مفاداتهم؟ وكيف تستبيحون القتل والإخراج من
الديار ، ولا تستبيحون ترك الأسرى في أيدي عدوهم؟ إن هذا التفريق بين أحكام
الله جزاء فاعله الهوان في الدنيا . والعذاب الدائم في الأخرى ، وما الله
بغافل عما تعملون . ولا شك أن أولئك اليهود الذين نقضوا عهودهم ، وقطعوا ما
أمر الله به أن يوصل ، قد باعوا دينهم بدنياهم ، فلا يخفف عنهم العذاب ولا
هم ينصرون .وقوله تعالى : ( وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ
دِمَآءَكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ ) معناه :
، اذكروا حين أخذنا العهد عليكم يا بني إسرائيل ألا يسفك أحد منكم دم غيره
وألا يخرجه من داره .على حد قوله : ( فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً
فَسَلِّمُواْ على أنفُسِكُمْ ) أي فليسلم بعضكم على بعض .وفائدة هذا
التعبير ، التنبيه إلى أن الأمة المتواصلة بالدين ، يجب أن يكون شعورها
بالوحدة قوياً وعميقاً ، بحيث يكون قتل الرجل لغيره قتلا لنفسه ، وإخراجه
له من داره إخراجاً لها .قال صاحب المنار : ( وقد أورد - سبحانه - النهي عن
سفك بعضهم دم بعض ، وإخراج بعضهم بعضاً من ديارهم وأوطانهم ، بعبارة تؤكد
وحدة الأمة ، وتحدث في النفس أثراً شريفاً ، يبعثها على الامتثال إن كان
هناك قلب يشعر ، ووجدان يتأثر فقال تعالى :( لاَ تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ )
فجعل دم كل فرد من أفراد الأمة كأنه دم الآخر عينه حتى إذا سفكه كان كأنه
بخع نفسه وانتحر بيده . وقال تعالى : ( وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ
مِّن دِيَارِكُمْ ) على هذا النسق ، وهذا التعبير المعجز ببلاغته خاص
بالقرآن الكريم .وقوله تعالى : ( ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ
تَشْهَدُونَ ) تسجيل عليهم بأنهم قد قبلوا العمل بالميثاق والتزموا به ، إذ
المعنى . ثم اعترفتم بهذا الميثاق - أيها اليهود - ولم تنكروه ، فكان من
الواجب عليكم أن تفوا به ، فماذا كان موقفهم بعد هذا الإقرار والإشهاد؟

ثم انتم هؤلاء تقتلون انفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهرون عليهم
بالاثم والعدوان وان ياتوكم اسارى تفادوهم وهو محرم عليكم اخراجهم افتؤمنون
ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم الا خزي في الحياة
الدنيا ويوم القيامة يردون الى اشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون

، كما فسرها الوسيط لقد بين القرآن الكريم بعد ذلك بأنهم نقضوا عهودهم
وارتكبوا ما نهوا عن ارتكابه ، فقال تعالى : ( ثُمَّ أَنْتُمْ هؤلاء
تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنْكُمْ مِّن
دِيَارِهِمْ . . . ) أي : ثم أنتم - يا معشر اليهود - بعد اعترافكم
بالميثاق ، والتزامكم به ، نقضتم عهودكم ، وارتكبتم في حق إخوانكم ما نهيتم
عنه ، من القتل والإخراج ، وفعلتم ما لا يليق بالعقلاء ، ومن يحترم
المواثيق .ولما كان قتل بعضهم لبعض ، وإخراجهم من أماكنهم يحتاج إلى قوة
وغلبة ، بين - سبحانه - أنهم يرتكبون ذلك وهم متعاونون عليه بالشرور
ومجاوزة الحدود ، فقال تعالى : ( تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بالإثم
وَالْعُدْوَانِ ) تظاهرون : من التظاهر وهو التعاون ، وأصله من الظهر ، كأن
المتعاونين يسند كل واحد منهم ظهره إلى الآخر . والمعنى : تتعاونون على قتل
، إخوانكم وإخراجهم من ديارهم مع من ليسوا من أقاربكم وليسوا من دينكم
وأنتم مرتكبون ذلك الإثم والعدوان .وقوله تعالى : ( وَإِن يَأْتُوكُمْ
أسارى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ) بيان
، لتناقضهم وتفريقهم لأحكام الله تعالى .وأسارى - جمع أسير بمعنى مأسور
وهو من يؤخذ على سبيل القهر فيشد بالإسار وهو القد - بكسر القاف - ، والقد
سير يقلد من جلد غير مدبوغ . وتفادوهم : تنقذوهم من الأسر بالفداء ، يقال :
فاداه وفداه : أعطى فداءه فأنقذه .أي : أنتم - يا معشر اليهود - إن وجدتم :
الذين قاتلتموهم وأخرجتموهم من ديارهم أسرى تسعون في فكاكهم ، وتبذلون
عرضاً لإطلاقهم ، والشأن أن قتلهم وإخراجهم محرم عليكم كتركهم أسرى في
أيدي أعدائكم ، فلماذا لم تتبعوا حكم التوراة في النهي عن قتالهم وإخراجهم
كما اتبعتم حكمها في مفاداتهم؟وصدرت الجملة الكريمة " وهو محرم عليكم

إخراجهم " بضمير الشأن للاهتمام بها .والعناية بشأنها ، وإظهاهر أن هذا
) : التحريم أمر مقرر مشهور لديهم ، وليس خافياً عليهم .وقوله تعالى
أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكتاب وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ) توبيخ وتقريع
لهم على تفريقهم بين أحكام الله .والمعنى : أفتتبعون أحكام كتابكم في فداء
الأسرى ، ولا تتبعونها في نهيكم عن قتال إخوانكم وإخراجهم من ديارهم؟
فالاستفهام للإنكار والتوبيخ على التفريق بين أحكامه - تعالى - بالإيمان
ببعضها والكفر بالبعض الآخر .وبعض الكتاب الذي آمنوا به هو ما حرم عليهم من
ترك الأسرى في الأيدي عدوهم ، وبعضه الذي كفروا به ما حرم عليهم من القتل
والإخراج من الديار ، فالإنكار منصب على جمعهم بين الكفر والإيمان .قال
فضيلة المرحوم للشيخ محمد الخضر حسين : " وإنما سمى - سبحانه - عصيانهم
بالقتل والإخراج من الديار كفراً؛ لأن من عصى أمر الله - تعالى - بحكم
عملي معتقداً أن الحكمة والصلاح فيما فعله ، بحيث يتعاطاه دون أن يكون في
قلبه أثر من التحرج ، ودون أن يأخذه ندم وحزن من أجل ما ارتكب . فقد خرج
بهذه الحالة النفسية عن سبيل المؤمنين ، وفي الآية الكريمة دليل واضح على
أن الذي يؤمن ببعض ما تقرر في الدين بالدليل القاطع ويكفر ببعضه ، يدخل في
زمرة الكافرين لأن الإيمان كل لا يتجزأ " .ثم بين - سبحانه - العقاب
الدنيوي والأخرى الذي استحقه أولئك المفرقون لأحكمه فقال تعالى : ( فَمَا
جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذلك مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الحياة الدنيا
وَيَوْمَ القيامة يُرَدُّونَ إِلى أَشَدِّ العذاب وَمَا الله بِغَافِلٍ
عَمَّا تَعْمَلُونَ ) .اسم الإشارة ( ذلك ) مشار به إلى القتل والإخراج
من الديار ، اللذين نقضوا بهما عهد الله بغياً وكفراً والخزي في الدنيا هو
الهوان والمقت والعقوبة ومن مظاهره : ما لحق اليهود بعد تلك الحروب من
، المذلة بإجلاء بني فينقاع والنضير عن ديارهم ، وقتل بني قريظة وفتح خيبر
وما لحقهم بعد ذلك من هوان وصغار ، وتلك سنة الله في كل أمة لا تتمسك
بدينها ولا تربط شئونها بأحكام شريعتها وآدابها .ولما كان البعض قد يتوهم
- أن خزيهم في الدنيا قد يكون سبباً في تخفيف العذاب عنهم في الأخرى ، نفى
سبحانه - هذا التوهم ، وبين أنهم يوم القيامة سيصيرون إلى ما هو أشد منه
لأن الله - تعالى - ليس ساهياً عن أعمالهم حتى يترك مجازاتهم عليها .
فالمراد من نفي الغفلة نفي ما يتسبب عنها من ترك المجازاة لهم على شرورهم.
، وفي ذلك دليل على أن الله - تعالى - يعاقب الحائدين عن طريقه المستقيم.
. بعقوبات في الدنيا ، وفي الآخرة ، جزاء طغيانهم ، وإصرارهم على السيئات

اولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالاخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون

كما فسرها الوسيط ثم أكد - سبحانه - هذا الوعيد الشديد وبين علته فقال
تعالى : ( أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فَلاَ يُخَفَّفُ
عَنْهُمُ العذاب وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ) .والمعنى : أولئك اليهود الذين
فرقوا أحكام الله ، وباعوا دينهم بدنياهم ، وآثروا متاع الدنيا على نعيم
الآخرة قد استحقوا غضب الله فلا يخفف عنهم العذاب يوم القيامة ، ولا يجدون
من دون الله وليا ولا نصيرا .وبذلك تكون الآيات الكريمة قد دمغت اليهود
بنقضهم للعهد ، وإيمانهم ببعض الكتاب وكفرهم ببعض ، فباءوا بغضب على غضب
. وللكافرين عذاب مهين

ولقد اتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل واتينا عيسى ابن مريم البينات وايدناه بروح القدس افكلما جاءكم رسول بما لا تهوى انفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون

كما فسرها الوسيط ثم ذكرهم - سبحانه - بعد ذلك بلون آخر من ألوان جناياتهم
فقال تعالى :( وَلَقَدْ آتَيْنَا موسى الكتاب وَقَفَّيْنَا . . . )في ،
هاتين الآيتين تذكير لبني إسرائيل بضرب من النعم التي أمدهم الله بها ثم
قابلوها بالكفر والإجرام .والمراد بالكتاب الذي أعطاه الله لموسى التوراة
فقد أنزلها عليه لهدايتهم ولكنهم حرفوها وبدلوها وخالفوا أوامره وأولوها ،
تأويلا سقيما .ومعنى ( وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بالرسل ) أردفنا وأرسلنا
من عبد موسى رسلا كثيرين متتابعين ، لإرشاد بني إسرائيل ، وإخراجهم من
الظلمات إلى النور .يقال : قفا أثره يقفوه قفواً وقفواً ، إذا تبعه . وقفى
على أثره بفلان إذا أتبعه إياه . وقفيته زيداً به : أتبعته إياه . واشتقاقه
من : قفوته إذا أتبعت قفاه ، والقفا مؤخر العنق ، ثم أطلق على كل تابع ولو
بعد الزمن بينه وبين متبوعه .والرسل : جمع رسول بمعنى مرسل ، وقد أرسل
، الله - تعالى - رسلا بعد موسى - عليه السلام - : منهم : داود ، وسليمان
وإلياس ، واليسع ، ويونس ، وزكريا ، ويحيى - عليهم الصلاة والسلام - .فمن
، مظاهر نعم الله على بني إسرائيل ، أنه لم يكتف بإنزال الكتب لهدايتهم
وإنما أرسل فيهم بجانب ذلك رسلا متعددين ، لكي يبشروهم وينذروهم ، ولكن بني
إسرائيل قابلوا نعم الله بالجحود والكفران ، فقد حرفوا كتب الله ، وقتلوا

بعض أنبيائه .والمراد بالبينات في قوله : ( وَآتَيْنَا عِيسَى ابن مَرْيَمَ البينات ) الحجج والبراهين والآيات الدالة على صدقه وصحة نبوته ، فتشمل كل معجزة أعطاها الله لعيسى كإبراء الأكمة والأبرص ، وإحاء الموتى ، والإخبار ببعض المغيبات ، وغير ذلك من المعجزات التي أيد الله بها عيسى - عليه السلام - .وخص القرآن عيسى بالذكر لكونه صاحب كتاب هو الإنجيل ، ولأن شرعه نسخ أحكاما من شريعة موسى - عليه السلام - ,وفي إضافة عيسى إلى أمه إبطال لما يزعمه اليهود من أن له أباً من البشر .وقوله : ( وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ القدس ) أي : قويناه مأخوذ من الأَيْدِ وهو القوة .وروح القدس هو جبريل - عليه السلام - ، قال - تعالى - :( قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القدس من رَّبِّكَ بالحق . . . ) والإضافة فيه من إضافة الموصوف إلى الصفة ، أي : الروح المقدس . ووصف بالقدس لطهارته وبركته . وسمى روحاً لمشابهته الروح الحقيقي في أن كلا منهما مادة لحياة البشر . فجبريل من حيث ما يحمل من الرسالة الإلهية تحيا به القلوب . والروح تحيا به الأجسام .أي : أننا أعطينا عيسى بن مريم الحجج الدالة على صدقه في نبوته وقويناه على ذلك كله بوحينا الذي أوحيناه إليه عن طريق جبريل - عليه السلام - .ثم وبخ الله اليهود على أفعالهم القبيحة فقال : ( أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تهوى أَنْفُسُكُمْ استكبرتم فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ ) .أي : أفكلما جاءكم يا بني إسرائيل رسول بما لا تحبه أنفسكم الشريرة استكبرتم عن اتباعه والإيمان به وأقبلتم على هؤلاء الرسل ففريقاً منهم كذبتم ، وفريقاً آخر منهم تقتلونه غير مكتفين بالتكذيب :وتهوى : من هوى إذا أحب " والهوى يكون في الحق ويكون في الباطل كما في هذه الآية واستكبرتم : تكبرتم ، والتكبر ينشأ عن الأعجاب بالنفس الذي هو أثر الجهل. بها . وهو من الصفات التي متى تمكنت في النفس أوردتها المهالك ، وساقتها إلى سوء المصير .وقدم تكذيبهم للرسل على قتلهم إياهم ، لأن التكذيب أول ما يصدر عنهم من الشر .وعبر في جانب القتل بالفعل المضارع فقال : ( تَقْتُلُونَ ) ولم يقل قتلتم كما قال كذبتم ، لأن الفعل المضارع كما هو المألوف في أساليب البلاغة . يستعمل في الأفعال الماضية التي بلغت من الفظاعة مبلغاً عظيماً . ووجهه أن المتكلم يعمد بذلك الفعل القبيح كقتل الأنبياء ، ويعبر عنه بالفعل المضارع الذي يدل بحسب وضه على الفعل الواقع في الحال . فكأنه أحضر صورة قتل الأنبياء أمام السامع ، وجعله ينظر إليها بعينه ، فيكون إنكاره لها أبلغ ، واستفظاعه لها أعظم .

وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون

كما فسرها الوسيط ثم حكى القرآن بعض الدعاوى الباطلة التي كان يدعيها اليهود في العصر النبوي ورد عليها بما يدحضها فقال :( وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ) أي : قال اليهود الذين كانوا في العهد النبوي : قلوبنا يا محمد مغطاة بأغطية حسية مانعة من نفوذ ما جئت به فيها . ومقصدهم من ذلك إقناطه صلى الله عليه وسلم من إجابتهم لدعوته حتى لا يعيد عليهم الدعوة ، من بعد .والغلف : جمع أغلف ، وهو الذي جعل له غلاف ، ومنه قيل للقلب الذي : لا يعى ولا يفهم ، قلب أغلف ، كأنه حجب عن الفهم بالغلاف .قال ابن كثير وقرأ ابن عباس - بضم اللام - وهو جمع غلاف . أي : قلوبنا أوعية لكل علم فلا نحتاج إلى علمك .وقد رد الله - تعالى - على كذبهم هذا بما يدحضه ويفضحه فقال :( بَل لَّعَنَهُمُ الله بِكُفْرِهِمْ ) أي : أن قلوبهم ليست غلفاً بحيث لا تصل إليها دعوة الحق بل هي متمكنة بأصل فطرتها من قبول الحق ، ولكن الله أبعدهم من رحمته بسبب كفرهم بالأنبياء واستحبابهم العمى على الهدى والفاء في قوله : ( فَقَلِيلاً مّا يُؤْمِنُونَ ) للدلالة على أن ما. بعدها متسبب عما قبلها و ( مَّا ) في قوله ( فَقَلِيلاً مَّا ) لتأكيد معنى القلة .والمعنى أن الله لعنهم وكان هذا اللعن سبباً لقلة إيمانهم فلا يؤمنون إلا إيماناً قليلا ، وقلة الإيمان ترجع إلى معنى أنهم لا يؤمنون إلا بقليل مما يجب عليهم الإيمان به . وقد وصفهم الله - تعالى - فيما سبق بأنهم كانوا يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض .ثم نبه القرآن المؤمنين إلى نوع آخر من رذائل اليهود ، ويتجلى هذا النوع في جحودهم الحق عن معرفة وعناد وكراهتهم الخير لغيرهم يدافع الأنانية والحسد ، وتحولهم إلى أناس يتميزون ، من الغيظ إذا ما رأوا نعمة تساق لغير أبناء ملتهم .

ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين

كما فسرها الوسيط استمع إلى القرآن وهو يصور كل ذلك بأسلوبه البليغ الحكيم فيقول :( وَلَمّا جَآءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ الله مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ . . . )روى المفسرين في سبب نزول الآية الأولى من هاتين الآيتين آثارا متعددة ، من ذلك ما جاء عن عاصم بن عمرو بن قتادة الأنصاري عن رجال من قومه قالوا : مما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله

، وهداه ، أنا كنا نسمع من رجال يهود حين كنا أهل شرك وكانوا أهل كتاب
عندهم علم ليس عندنا ، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور ، فكنا إذا نلنا
منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا : قد تقارب زمان نبي يبعث الآن ، نتبعه
فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم رسولا
من عند الله أجبنا حين دعانا إلى الله وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به
) - فبادرناهم إليه ، فآمنا به وكفروا به ، ففينا وفيهم نزل قوله - تعالى
وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللّه ) . . . . إلخ الآية " .ومعنى
الآيتين الكريمتين : ولما جاء إلى اليهود محمد صلى الله عليه وسلم ومعه
القرآن الكريم وهو الكتاب الذي أوحاه الله إليه ، مصدقاً لما معهم من
التوراة فيما يختص ببعثة النبي صلى الله عليه وسلم ونعته ، وكانوا قبل ذلك
يستنصرون به على أعدائهم ، لما جاءهم النبي المرتقب ومعه القرآن الكريم
جحدوا نبوته ، وكذبوا كتابه ( فَلَعْنَةُ الله عَلَى الكافرين ) . بئس
الشيء الذي باعوا به أنفسهم . والحسد الذي خالط قلوبهم ، وكراهية لأن ينزل
الله وحيه على محمد العربي صلى الله عليه وسلم فباءوا بسبب هذا الخلق
الذميم ، بغضب مترادف متكاثر من الله - تعالى - ( وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ
مُّهِينٌ ) جزاء كفرهم وحسدهم .والمراد بالكتاب في قوله تعالى ( وَلَمَّا
جَآءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ الله مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ) القرآن
الكريم ، وفي تنكيره زيادة تعظيم وتشريف له ، وفي الأخبار عنه بأنه من عند
الله ، إشارة إلى أن ما يوحى به - سبحانه - جدير بأن يتلقى بالقبول وحسن
الطاعة لأنه صادر من الحكيم الخبير ، والذي مع اليهود هو التوراة ، ومعنى
كون القرآن مصدقاً لها ، أنه يؤيدها ويوافقها في أصول الدين ، وفيما يختص
ببعثة النبي صلى الله عليه وسلم وصفته .وفي وصف القرآن الكريم بأنه مصدق
لما معهم ، زيادة تسجيل عليهم بالمذمة لأنهم لم يكفروا بشيء يخالف أصول
كتابهم وإنما كفروا بالكتاب الذي يصدق كتابهم .وقوله تعالى : ( وَكَانُواْ
مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الذين كَفَرُواْ ) .بيان لحالتهم قبل
البعثة المحمدية ، فإن اليهود كانوا عندما يحصل بينهم وبين أعدائهم نزاع
، يستنصرون عليهم بالنبي صلى الله عليه وسلم قبل بعثته فيقولون اللهم انصرنا
عليهم بالنبي الذي نجد نعته في التوراة .والاستفتاح معناه : طلب الفتح وهو
الفصل في الشيء والحكم فيه ، كما في قوله تعالى : ( رَبَّنَا افتح
بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بالحق )ويستعمل بمعنى النصر لأن فيه فصلا بين
الناس قال تعالى : ( إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ الفتح ) أي : إن
- تستنصروا فقد جاءكم النصر ، فالمراد به الآية الاستنصار .ثم بين - سبحانه
حقيقة حالهم بعد أن جاءهم الكتاب والرسول فقال تعالى : ( فَلَمَّا
جَآءَهُمْ مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ ) أي : فلما جاءهم ما كانوا يستفتحون
به على أعدائهم ويرتقبونه جحدوه وكفروا به .وقال - سبحانه ( فَلَمَّا
جَآءَهُمْ مَّا عَرَفُواْ ) ولم يقل فلما جاءهم الكتاب أو الرسول ، ليكون
اللفظ أشمل ، فيتناول الكتاب والرسول الذي جاء به لأنه لا يجيء الكتاب إلا
عن طريق رسول .ومعرفتهم بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم وما أنزل عليه
حاصلة بانطباق العلامات والصفات الواردة في التوراة عن النبي صلى الله عليه
وسلم فكان من الواجب عليهم أن يؤيدوا هذه المعرفة بالإيمان به ، ولكن
خوفهم على زوال رياستهم وأموالهم ، وفوات ما كانوا يحرصون عليه من أن يكون
النبي المبعوث منهم لا من العرب ، ملأ قلوبهم غيظاً وحسداً ، وأخذ هذا
الغيظ والحسد يغالب تلك المعرفة حتى غلبها ، وحال بينها وبين أن يكون لها
أثر نافع لهم لعدم اقترانها بالقبول والتصديق .ولقد حاول رئيسهم ( عبد الله
بن سلام ) - رضي الله عنه - أن يصرفهم عن العناد وأقسم لهم بأن ما جاء به
النبي صلى الله عليه وسلم هو الحق المصدق لما معهم أن يتبعوه ولكنهم عموا
) : وصموا وتنقصوه ولذا لعنهم الله تعالى ، وأبعدهم عن رحمته كما قال تعالى
فَلَعْنَةُ الله عَلَى الكافرين ) .وقال - سبحانه - ( عَلَى الكافرين ) ولم
. يقل عليهم ، للإشعار بأن حلول اللعنة عليهم كان بسبب كفرهم

بئسما اشتروا به انفسهم ان يكفروا بما انزل الله بغيا ان ينزل الله من فضله
على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين

كما فسرها الوسيط ثم ذكر - سبحانه - أنهم بكفرهم قد باعوا أنفسهم بثمن بخس
: فقال تعالى : " بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله " أي .
بئس الشيء الذي باع به اليهود أنفسهم كفرهم بما أنزل الله بغياً وحسداً أن
ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده .وجمهور المفسرين على أن ( اشتروا
هنا بمعنى باعوا ، لأن أولئك اليهود ، لما كانوا متمكنين من الإيمان (
، الذي يفضي بهم إلى السعادة الأبدية بعد أن جاءهم ما عرفوا من الحق فتركوه
واستمروا على كفرهم بغياً وحسداً وحباً في الرياسة وتعصباً لجنسيتهم لما
كانوا كذلك ، صار اختيارهم للكفر على الإيمان ، بمنزلة اختيار صاحب السلعة
ثمنها على سلعته ، فكأنهم بذلوا أنفسهم التي كان باستطاعتهم الانتفاع
بإيمانها ، وقبضوا الكفر عوضاً عنها فأنفسهم بمنزلة السلعة المبيعة وكفرهم
- بمنزلة ثمنها المقبوض ، فبئس هذا الثمن الذي أوردهم العذاب الأليم .وعبر

سبحانه - عن كفرهم بصيغة المضارع ( أَن يَكْفُرُواْ ) وعن بيعهم لأنفسهم بالماضي ( اشتروا ) للدلالة على أنهم صرحوا بكفرهم بالقرآن الكريم من قبل ، نزول الآية ، وإن بيعهم أنفسهم بالكفر طبيعة فيهم مستقرة منذ وقت بعيد وأنهم مازالوا مستمرين على تلك الطبيعة المنحرفة .وقوله تعالى : ( بَغْياً أَن يُنَزِّلَ الله مِن فَضْلِهِ على مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ ) تعليل لكفرهم وبيان للباعث عليه ، أي كفروا بما أنزل الله على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم بدافع من البغي والحقد ، وكراهة أن ينزل الله الوحي من فضله على من يشاء من عباده ، فالبغي هنا مصدر بغي يبغى إذا ظلم . والمراد به ظلم خاص هو الحسد ، وإنما عد الحسد ظلما ، لأن الظلم معناه المعاملة التي تبعد عن الحق وتجافيه ، والحسد معناه تمنى زوال النعمة عن الغير والظالم والحاسد قد جانب كل منهما الحق فيما صنع ، والحاسد لن يناله نفع من زوال نعمة المحسود ، كما أنه لن يناله ضر من بقائها ، وما دام كذلك فالحاسد ظالم للمحسود بتمنى زوال النعمة وصدق الشاعر في قوله .وأظلم خلق الله من ، بات حاسداً - لمن بات في نعمائه يتقلب - .فاليهود قد كفروا بما أنزل الله من أجل حسدهم للنبي صلى الله عليه وسلم على النبوة ولأنه لم يكن منهم وكان ، من العرب ، وكراهية لأن ينزل الله الوحي على من يصطفيه للرسالة من غيرهم فعدم إيمانهم بما عرفوه وارتقبوه سببه أنانيتهم البغيضة ، وأثرتهم الذميمة التي حملتهم على أن يحسدوا الناس على ما آتاهم الله من فضله ، وأن يتوهموا أن النبوة مقصورة عليهم ، فليس لله - تعالى - في زعمهم ، - أن ينزعها من - ذرية إسحاق ليجعلها في ذرية إسماعيل عليهما السلام - .ولم يصرح - سبحانه بأن المحسود هو النبي صلى الله عليه وسلم لعلم ذلك من سياق الآيات الكريمة - وللتنبيه على أن الحسد في ذاته مذموم كيفما كان حال المحسود .ثم بين سبحانه - بعد ذلك ما آل إليه أمرهم من خسران مبين فقال تعالى :( فَبَآءُو بِغَضَبٍ على غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ) : باء بإثمه يبوء أي : رجع أي : فرجعوا من أجل كفرهم وحسدهم للنبي صلى الله عليه وسلم بغضب - مضموم إلى غضب آخر كانوا قد استحقوه بسبب كفرهم بعيسى - عليه السلام وبسبب تحريفهم للكلم عن مواضعه ، وتضييعهم لأحكام التوراة . فهم بسبب كفرهم - المستمر الذي تعددت أسبابه ، يصيبهم غضب كثير متعاقب من الله - تعالى ويصح أن يكون معنى قوله : ( فَبَآءُو بِغَضَبٍ على غَضَبٍ ) أنهم رجعوا. بغضب شديد مؤكد ، لصدوره من الله - تعالى - .والمراد بالكافرين ، اليهود الذين تحدث عنهم فيما سبق ، فهم الذين عرفوا صدق محمد صلى الله عليه وسلم في نبوته بما نطقت به التوراة ، ومع ذلك كفروا به فاستحبوا العمى على الهدى وعبر عنهم بهذا العنوان للتنبيه على أن ما أصابهم من عذاب مذل لهم كان. بسبب كفرهم ، ويصح أن يراد بالكافرين : كل كافروهم يدخلون فيه دخولا أوليا؛ وإنما كان لهم العذاب المهين لأن كفرهم لما كان سببه البغي والحسد والتكبر والأنانية ، قوبلوا بالإهانة والصغار .وبذلك تكون الآيتان الكريمتان قد كشفتا عن لون من صفات اليهود الذميمة وهو إعراضهم عن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم الذي كانوا يستنصرون به على أعدائهم قبل بعثته ، وبيعهم ، الإيمان الذي كان في مكنتهم الظفر به بالكفر بما أنزل الله من دين قويم وكتاب كريم إرضاء لغريزة الحقد الذي استحوذ على قلوبهم ، وتمشياً مع أثرتهم التي أبت عليهم أن يؤمنوا بنبي ليس من نسل إسرائيل ولو جاءهم بالحق المبين فحق عليهم قول الله - تعالى - : ( فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ ولكن ، الظالمين بِآيَاتِ الله يَجْحَدُونَ ) ثم حكى القرآن بعد ذلك بعض المعاذير ، الكاذبة التي كان اليهود يعتذرون بها عندما يدعون إلى الدخول في الإسلام فقد كانوا يقولون إننا مكلفون ألا نؤمن إلا بكتابنا التوراة ، فنحن نكتفي بالإيمان به دون غيره ، استمع إلى القرآن - وهو يعرض دعاواهم الكاذبة ثم يقذفها بالحق فيدمغها - حيث يقول :( وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُواْ . . . )

واذا قيل لهم امنوا بما انزل الله قالوا نؤمن بما انزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم قل فلم تقتلون انبياء الله من قبل ان كنتم مؤمنين

كما فسرها الوسيط معنى الآيات الكريمة . أن اليهود المعاصرين للعهد النبوي كانوا إذا عرض عليهم الإيمان بما أنزل الله من القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم أجابوا بقولهم : نؤمن بما أنزل علينا وهو التوراة التي أنزلها الله - تعالى - على موسى ، ويجحدون غيرها وهو القرآن الكريم المصدق لها في الأمر باتباع محمد صلى الله عليه وسلم ثم أمر الله - تعالى - رسوله صلى الله عليه وسلم أن يكذبهم في دعواهم الإيمان بما أنزل عليهم فقال : ( قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَآءَ الله مِن قَبْلُ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ) : بالتوراة فإنها تنهاكم عن قتلهم ثم كذبهم القرآن الكريم مرة أخرى فقال ( أي : بالآيات الواضحات الدالة على ( وَلَقَدْ جَآءَكُمْ موسى بالبينات ) صدقه ، ولكنكم ( اتخذتم العجل مِن بَعْدِهِ ) أي : من بعد ذهابه لميقات ربه لعبادتكم غير الله تعالى .ثم كذبهم القرآن ( وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ )

الكريم - في دعواهم الإيمان بما أنزل عليهم - بصورة أخرى سوى ما سبقها
فقال تعالى : ( وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ
الطور ) وقلنا لكم : ( خُذُواْ مَآ ءاتيناكم - من التوراة - بِقُوَّةٍ ) أي
بجد حزم ( واسمعوا ) ما أمرتم به فيها سماع تدبر وطاعة . ولكن أسلافكم
الذين أنتم على شاكلتهم قالوا لنبيهم : ( سَمِعْنَا ) قولك ( وَعَصَيْنَا )
أمرك . وخالط حب العجل قلوبهم كما يخالط الماء أعماق البدن ، وكل هذه
الأفاعيل منكم لا تناسب دعواكم الإيمان بما أنزل إليكم ، وإذا فبئسما
يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين بالتوراة كما تزعمون ، فالواقع أن
التوراة بريئة من أعمالكم ، وأنتم بعيدون عن الإيمان بها .وقوله تعالى : (
وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ
بِمَآ أُنْزِلَ عَلَيْنَا ) تصوير لنوع آخر من قبائح اليهود ، وإخبار عن
إعراضهم عن الحق بدعوى أنهم مكلفون بعدم الإيمان إلا بما أنزل الله على
موسى وهو التوراة .والمقصود ( بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ) القرآن الكريم .
ولم يذكر المنزل عليه وهو محمد صلى الله عليه وسلم للعلم به أو للتنبيه على
أن وجوب الإيمان بالكتاب ، يكفي فيه العلم بأنه منزل من عند الله -
تعالى - ومتى استقر في النفس أن القرآن الكريم من عند الله ، استتبع ذلك
استحضاراً أنه أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم .وقولهم : ( بِمَآ
أُنْزِلَ عَلَيْنَا ) معناه : نؤمن بالتوراة التي أنزلها الله على نبينا
موسى دون غيرها مما أنزله الله عليك - يا محمد- ، وجوابهم هذا يدل على
غبائهم وعنادهم . لأن الداعي لهم إلى الإيمان ، يطلب منهم أن يؤمنوا بكل
ما أنزل الله من الكتب السماوية ، ولكنهم قيدوا أنفسهم بالإيمان ببعض ما
أنزل الله وهو ما أنزل عليهم ، فلم يكن إيمانهم مطابقاً لما أمر الله به
وهو التصديق بجميع الكتب السماوية ، ولا شك أن من آمن ببعض الكتب السماوية
وكفر ببعضها يكون كافراً بجميعها .وقوله تعالى : ( وَيَكْفُرونَ بِمَا
وَرَآءَهُ ) قصد به بيان التصريح بكفرهم بالقرآن الكريم بعد أن لمحوا بذلك
في قولهم : ( نُؤْمِنُ بِمَآ أُنْزِلَ عَلَيْنَا ) والضمير في ( وَرَآءَهُ
) يعود على ( بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا ) المكنى به عن التوراة ، أي :
قالوا نؤمن بما أنزل علينا والحال أنهم يكفرون بما سوى التوراة أو بما
بعدها وهو القرآن الكريم .قال ابن جرير - رحمه الله - : " وتأويل وراء في
هذا الموضع : سوى ، كما يقال للرجل المتلكم باحسن ما وراء هذا الكلام الحسن
شيء . يراد به : ليس من عند المتكلم به شيء سوى ذلك الكلام ، فكذلك معنى
قوله تعالى : ( وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَآءَهُ ) أي بما سوى التوراة ، وبما
بعده من كتب الله التي أنزلها على رسله " .والضمير " هو " في قوله تعالى :
( وَهُوَ الحق مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ ) يعود إلى القرآن الكريم المكني
عنه بقوله " بما وراءه " والحق : الحكم المطابق للواقع . ووصف به القرآن
الكريم لاشتماله على الأحكام المطابقة للواقع .ومعنى كون القرآن مصدقاً لما
مع اليهود وهو التوراة ، أنه يدل على نبوة النبي صلى الله عليه وسلم .
وبهذا كان مؤيداً للتوراة التي بشرت بالنبي صلى الله عليه وسلم وذكرت له
نعوتاً لا تنطبق إلا عليه ، وبذلك يكون اليهود الذين يدعون الإيمان بما
أنزل عليهم كاذبين في دعواهم ، لأنهم لم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم
الذي بِشرت به توراتهم وأمرتهم بالإيمان به وأيدها القرآن الكريم في ذلك .
قال صاحب الكشاف : وفي قوله تعالى : ( وَهُوَ الحق مُصَدِّقاً لِّمَا
مَعَهُمْ ) رد لمقالتهم ( نُؤْمِنُ بِمَآ أُنْزِلَ عَلَيْنَا ) لأنهم إذ
كفروا بما يوافق التوراة فقد كفروا بها " .ثم أمر الله - تعالى - رسوله صلى
الله عليه وسلم أن يوبخهم ويبطل دعواهم الإيمان بما أنزل عليهم بدليل
إلزامي فقال تعالى : ( فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَآءَ الله مِن قَبْلُ إِن
كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ) .والمعنى : قل يا محمد لهؤلاء اليهود الذين إذا
دعوتهم إلى الإيمان بك قالوا . ( نُؤْمِنُ بِمَآ أُنْزِلَ عَلَيْنَا ) قل
لهم : إن كنتم حقاً مؤمنين بما أنزل عليكم وهو التوراة ، فلأي شيء تقتلون
أنبياء الله مع أن التوراة تحرم عليكم قتلهم ، بل هي تأمركم باتباعهم
وتصديقهم وطاعتهم لأنه أرسلهم لهدايتكم وسعادتكم .إن قتلكم لهم أكبر دليل
على أنكم لم تؤمنوا لا بما أنزل عليكم ، ولا بغيره وأنكم كاذبون في مدعاكم
لأن جميع ما أنزل الله من وحي يحرم قتل الأنبياء ، ويأمر الناس باتباعهم
وطاعتهم .ويرجع معنى الآية إلى نفي فعل الشرط وهو كونهم مؤمنين ، إذ لا وجه
لقتلهم الأنبياء إلا عدم إيمانهم بالتوراة ، وهذا كما تريد أن تنفي عن جرل
العقل لفعله ما ليس من شأنه أن يصدر من عاقل ، فتقول له : إن كنت عاقلا فلم
فعلت كذا؟ أي أنت لست بعاقل .والفاء في قوله تعالى : ( فَلِمَ تَقْتُلُونَ
واقعة في جواب محذوف دل عليه ما بعده ، والتقديرر إن كنتم مؤمنين بما (
أنزل عليكم فلم تقتلون أنبياء الله - تعالى - .والإتيان بالمضارع في
قوله - تعالى - : ( تَقْتُلُونَ ) مع أن القتل للأنبياء وعق من أسلافهم
، بقرينة قوله تعالى : ( مِن قَبْلُ ) لقصد استحضار تلك الجناية الشنيعة
وللتنبيه على أن ارتكابهم لتلك الجريمة البشعة يتجدد ويقع منهم المرة تلو
الأخرى ، وللإشعار بأن الخلف يمشون على عماية السلف ، في التعدي والعصيان
فلقد حاول اليهود المعاصرون للعهد النبوي قتل الرسول صلى الله عليه وسلم ،

ولكن الله - تعالى - عصمه منهم ، ونجاه من مكرهم .وأضاف سبحانه - الأنبياء إليه فقال : ( أَنْبِيَآءَ اللَّهِ ) للتنبيه على شرفهم العظيم ، وللدلالة على فظاعة عصيان اليهود واجتراحهم المنكر ، إذ قابلوا بالقتل من يجب عليهم أن يقابلوهم بالتصديق والتوقير والطاعة .

ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وانتم ظالمون

كما فسرها الوسيط ثم ذكر القرآن الكريم لهم جنايات أخرى تدل على أنهم لم يؤمنوا بما أنزل عليهم كما يدعون . ومن تلك الجنايات عبادتهم العجل ، فقال تعالى : ( وَلَقَدْ جَآءَكُمْ موسى بالبينات ثُمَّ اتخذتم العجل مِن بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ) .البينات : جمع بينة وهي الآيات والمعجزات الدالة على صدقة وحقية نبوته ، كانقلاب العصا ثعباناً ، وفلق البحر ، وانفجار العيون من الحجر . . . إلخ .وإنما سماها الله بينات ، لأنها لما كانت لا يقدر على أن يأتي بها بشر إلا بتسخير الله ذلك له دلت على صدق موسى - عليه السلام - في نبوته ورسالته .والمعنى : ولقد جاءكم - يا بني إسرائيل - نبينا موسى بالآيات الواضحات الدالة على صدقة ، وحقيقة نبوته وكان من الواجب عليكم أن تتبعوه وتطيعوهولكنكم لم تفعلوا فقد اتخذتم ، العجل إلها من بعد مفارقة نبيكم موسى لكم لمناجاة ربه ، ومن بعد مشاهدتكم لتلك المعجزات ، التي استبان بها صدقة فيما يبلغكم عن ربه فأنتم ظالمون بذلك ، لأنكم تركتم عبادة من يستحق العبادة وهو الله - تعالى - وعبدتم العجل الذي لا يملك ضراً ولا نفعاً .فالآية الكريمة فيها أبطال لدعواهم الإيمان بما أنزل عليهم ، لأنهم لو كانوا مؤمنين حقاص بنبيهم الذي جاءهم بالبينات ، لما تركوا ما أمرهم به وهو عبادة الله ، وفعلوا ما نهاهم عنه وهو عبادة العجل .

واذ اخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما اتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا واشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم قل بئسما يامركم به ايمانكم ان كنتم مؤمنين

كما فسرها الوسيط ثم ذكر القرآن الكريم جناية أخرى تكذبهم في دعواهم : أنهم يؤمنون بما أنزل عليهم - وهي إباؤهم التوراة عناداً واستكباراً فقال تعالى ): وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطور خُذُواْ مَآ ءاتيناكم بِقُوَّةٍ واسمعوا قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ العجل بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ) .ومعنى الآية الكريمة : واذكروا - يا بني إسرائيل - وقت أن أخذنا الميثاق عليكم بأن تعملوا بما في التوراة ، وتتلقوا أحكامها بالتقبل والطاعة ورفعنا فوقكم الطور لنريكم آية من آياتنا العظمى التي تقوى قلوبكم ، وتجعلكم تقبلون على ، تعاليم التوراة برغبة واستجابة ، وقلنا لكم خذوا ما آتيناكم بجد وحزم واسمعوا ما أمرناكم به سماع تدبر وطاعة ، ولكنكم - يا بني إسرائيل - يا من تدعون الإيمان بما أنزل عليكم - أعرضتم عما أمرتم به من قبول التوراة وقلتم لنبيكم سمعنا قولك وعصينا أمرك ، وخالط حب عبادة العجل قلوبكم كما يخالط الماء أعماق البدن ولم تأبهوا بما جاءكم في التوراة من الهدى والنور وبما صحب عرضها عليكم من الآية البينة وهي رفع الجبل فوقكم حتى ظننتم أنه وافع بكم فكفرتم بذلك كله ولازالت نفوسكم تحن إلى عبادة العجل ولقد سرتم ، على منهج أسلافكم في العناد والجحود والإعراض عما ينزله الله من الحق وإذا كان هذا شأنكم فكيف تدعون الإيمان بما أنزل عليكم؟ثم أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يوبخهم على تخرصاتهم فقال تعالى : ( قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ) .وقوله تعالى : ( وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطور ) معناه : أننا حركناه ونقلناه معلقاً فوقكم في الهواء ، لتروا بأعينكم آية كونية من شأنها أنها تحملكم على الإيمان والطاعة إن كانت لكم عقول تعقل .ومعنى قوله تعالى : ( خُذُواْ مَا ءاتيناكم بِقُوَّةٍ واسمعوا ) : قلنا لكم خذوا ما أمرناكم به في التوراة بجد واجتهاد في تأديته ، واسمعوا ما تؤمرون به سماع طاعة وتفهم . فقوله تعالى ( واسمعوا ) ليس المراد به مجرد السماع للقول فقط ، بل المقصود منه : السماع الذي يصحبه التدبر والاستجابة للأمر : فهو مؤكد ومقرر لقوله تعالى : ( خُذُواْ مَآ ءاتيناكم بِقُوَّةٍ ) ثم حكى - سبحانه - جوابهم الذي يدل على عنادهم فقال : ( قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ) .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف طابق قوله جوابهم؟ قلت طابقه من حيث إنه قال لهم اسمعوا وليكن سماعكم تقبل وطاعة ، فقالوا سمعنا ولكن لا سماع طاعة .وقد اختلف المفسرون هل صدر متهم هذا اللفظ حقيقة باللسان نطقاص أو أنهم فعلوا فعلا مقام القول فيكون مجازاً؟قال الفخر الرازي : الأكثرون من المفسرين على أنهم قالوا هذا القول حقيقة . وقال أبو مسلم : وجائز أن يكون المعنى سمعوه فتلقوه بالعصيان فعبر عن ذلك بالقول ولم يقولوه ، كقوله تعالى ( فَقَالَ

لَهَا وَلِلأَرْضِ ائتيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَآ أَتَيْنَا
طَآئِعِينَ ) قال : والأول أولى لأن صرف الكلام عن ظاهره بغير دليل لا يجوز
وقوله تعالى : ( وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ العجل بِكُفْرِهِمْ ) عطف.
على قولهم سمعنا وعصينا والإشراب؛ السقي وجعل الشيء شارباً ، واستعمل على
وجه التجوز في خلط لون بآخر كأن أحد اللونين سقى الآخر ، يقال : بياض مشرب
بحمرة أي مختلط ، وفلان أشرب قلبه حب كذا بمعنى خالط حبه قلبهقال الإمام
الرازي : قوله تعالى : ( وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ العجل ) في وجه هذه
الاستعارة وجهان : الأول : معناه تداخلهم حبه والحرص على عبادته كما يتداخل
الصبغ الثوب ، وقوله في قلوبهم بيان لمكان الإشراب كقوله :( إِنَّمَا
يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً ) الثاني : كما أن الشرب مادة لحياة ما
تخرجه الأرض ، فكذا تلك المحبة كانت مادة لجميع ما صدر عنهم من الأفعال
وفي الجملة الكريمة ( وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ العجل ) مضاف محذوف.
وهو لفظ ( حب ) لدلالة المعنى عليه .والمعنى : إن هؤلاء اليهود الذين مردوا
على العصيان قد خالط حب العجل نفوسهم حتى استقر في قلوبهم كما يخالط الماء
أعماق الجسد . وحذف لفظ الحب من الجملة الكريمة ، يشعر بشدة تعلق قلوبهم
بالعجل حتى لكأنهم أشربوا ذاته .والتعبير بقوله : ( وَأُشْرِبُواْ ) يشير
إلى أنه بلغ حبهم العجل مبلغ الأمر الذي ال اختيار لهم فيه كأن غيرهم
أشربهم إياه .وقوله تعالى : ( بِكُفْرِهِمْ ) دليل على أن محبتهم للعجل
ناشئة عن كفر سابق ، وجحود متأصل فكفرهم الذي ترتب على عبادتهم للعجل ، قد
سبقه كفر آخر ، فهو كفر على كفر .ثم أمر الله - تعالى - نبيه في ختام الآية
الكريمة بتوبيخهم فقال تعالى :( قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ
إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ) أي : قل - يا محمد - لهؤلاء
اليهود الذين يدعون الإيمان بما أنزل عليهم - قل لهم - بئس الشيء الذي
- يأمركم به إيمانكم قتل الأنبياء وعبادة العجل والعصيان إن كنتم مصدقين
كما زعمتم - بالتوراة ، والحق أن التوراة ما أمرتكم بشيء من ذلك فلما أنتم
مؤمنين بها ولا بغيرها من كتب الله ، لأنها لا تأمر بالفحشاء .فالجملة
الكريمة خلاصة لإبطال قولهم ( نُؤْمِنُ بِمَآ أُنْزِلَ عَلَيْنَا ) بعد أن
، أبطله الله - تعالى - فيما سبق بشواهد متعددة ، لأنهم لما زعموا ذلك
وكانوا مع هذا يفعلون أفعالا قبيحة تناقض الإيمان بأي كتاب سماوي ، أمر
الله - تعالى - رسوله صلى الله عليه وسلم أن يذمهم على هذه الأفعال التي
تناقض الإيمان بما أنزل عليهم لكي يعلم الناس جميعاً أن دعواهم لا أساس
لها من الصحة .وأضاف - سبحانه - الإيمان إليهم فقال ( إِيمَانُكُمْ ) ولم
يقل الإيمان ، لأنه ليس إيماناً صحيحاً وإنما هو إيمان مزعوم ، فإضافة
) : الإيمان إليهم من باب التهكم بهم والاستهزاء بعقولهم .وقوله تعالى
إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ) أي إن كنتم مصدقين بما أنزل الله
عليكم . وإنما كذبهم الله بذلك لأن التوراة تنهى عن ذلك كله ، وتأمر بخلافه
. فأخبرهم أن تصديقهم بالتوراة إن كان يأمرهم بذلك ، فبئس الأمر تأمر به ،
وإنما ذلك نفي من الله - تعالى - عن التوراة أن تكون تأمر بشيء مما يكرهه
، الله من أفعالهم وأن يكون التصديق بها يدل على شيء من مخالفة أمر الله
وإعلام منه - جل ثناؤه - أن الذي يأمرهم بذلك أهواؤهم ، والذي يحملهم عليه
، البغي والعدوان " .وبذلك تكون الآيات الكريمة قد أقامت الأدلة المتعددة
، والبراهين القاطعة على كذب اليهود في دعواهم الإيمان بما أنزل عليهم
ووبختهم على مزاعمهم الباطلة ، وأقوالهم الفاسدة .هذا ، ولفضيلة أستاذنا
- الدكتور محمد عبد الله دراز كلام رصين عند حديثه عن هذه الآيات ، فقد قال
رحمه الله - :يقول الله تعالى في ذكر حجاج اليهود :( وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ
آمِنُواْ بِمَا أَنْزَلَ اللّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنْزِلَ
عَلَيْنَا وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَآءَهُ وَهُوَ الحق مُصَدِّقاً لِّمَا
مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَآءَ الله مِن قَبْلُ إِن
كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ . . . ) .هذا قطعة من فصل من قصة بني إسرائيل ،
والعناصر الأصلية التي تبرزها لنا هذه الكلمات القليلة نلخص فيما يلي :1 -
مقالة ينصح بها الناصح لليهود : إذ يدعوهم إلى الإيمان بالقرآن .2 -
إجابتهم لهذا الناصح بمقالة تنطوي على مقصدين .3 - الرد على هذا الجواب
يركنيه من عدة وجوه .وأسم لو أن محامياً بليغاً وكلت إليه الخصومة بلسان
القرآن في هذه القضية ، ثم هدى إلى استنباط هذه المعاني التي تحتاج في نفس
الداعي لما وسعه في أدائها أضعاف أضعاف هذه الكلمات ، ولعله بعد ذلك لا يفي
بما حولها من إشارات واحتراسات وآداب وأخلاق .قال الناصح لليهود : آمنوا
بالقرآن كما آمنتم بالتوراة ، ألستم قد أمنتم بالتوراة التي جاء بها موسى
لأنها أنزلها الله؟ فالقرآن الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم أنزله
الله ، فآمنوا به كما آمنتم بها .فانظر كيف جمع القرآن هذا المعنى الكثير
في هذه اللفظ الوجيز ( آمِنُواْ بِمَا أَنْزَلَ ) . وسر ذلك أنه عدل
بالكلام عن صريح اسم القرآن إلى كنايته . فجعل دعاءهم إلى الإيمان به دعاء
إلى الشيء بحجته ، وبذلك أخرج الدليل والدعوى في لفظ واحد .ثم انظر كيف طوى
ذكر المنزل عليه فلم يقل : آمنوا بما أنزل الله ( على محمد ) ، مع أن هذا
جزء متمم لوصف القرآن المقصود بالدعوة .أتدري لم ذلك؟ لأنه لو ذكر لكان في

نظر الحكمة البيانية زائداً ، وفي نظر الحكمة الإرشادية مفسداً .أما الأول فلأن هذه الخصوصية لا مدخل لها في الإلزام ، فأدير الأمر على القدر المشترك وعلى الحد الأوسط الذي هو عمود الدليل .وأما الثاني فلأن إلقاء هذا الاسم على مسامع الأعداء من شأنه أن يخرج أضغانهم ويثير أحقادهم فيؤدي إلى عكس ما قصده الداعي من التأليف والإصلاح .كان جواب اليهود أن قالوا : إن الذي دعانا للإيمان بالتوراة ليس هو كونها أنزلها الله فحسب ، بل إننا آمنا بها لأن الله أنزلها علينا . والقرآن لم ينزله علينا ، فلكم قرآنكم ولنا توراتنا ، ولكل أمة شرعة ومنهاج .هذا هو المعنى الذي أوجزه القرآن في قوله : ( نُؤْمِنُ بِمَآ أُنْزِلَ عَلَيْنَا ) وهذا هو المقصد الأول ، وقد زاد إيجاز هذه العبارة أن حذف منها فاعل الإنزال وهو لفظ الجلالة ، لأنه تقدم ذكره في نظيرتها .ومن البين أن اقتصارهم على الإيمان بما أنزل عليهم يومئ إلى كفرانهم بما أنزل على غيرهم ، وهذا هو المقصد الثاني ، ولكنهم تحاشوا التصريح به لما فيه من شناعة التسجيل على أنفسهم بالكفر ، فأراد القرآن أن يبرزه ، أنظر كيف أبرزه؟ إنه لم يجعل لازم مذهبهم مذهباً له ، ولم يدخل مضمون قولهم في جملة ما نقله من كلامهم ، بل أخرجه في معرض الشرح والتعليق على مقالتهم فقال :( وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُ ) أليس ذلك هو غاية الأمانة في النقل؟ . . ثم جاء دور الرد والمناقشة فيما أعلنوه وما أسروه .فتراه لا يبدأ بمحاورتهم في دعوى إيمانهم بكتابهم ، بل يتركها مؤقتاً كأنها مسلمة ليس عليهم وجوب الإيمان بغيره من الكتب فيقول : كيف يكون الإيمان بكتابهم باعثاً على الكفر بما هو حق مثله؟ لا بل هو الحق كله وهل يعارض الحق الحق حتى يكون الإيمان بأحدهما موجباً للكفر بالآخر؟ثم ، يترقى فيقول : وليس الأمر بين هذا الكتاب الجديد وبين الكتب السالفة عليه ، كالأمر بين كل حق وحق ، فقد يكون الشيء حقاص وغيره حقاً فلا يتكاذبان ولكنهما في شأنهما مختلفين ، فلا يشهد بعضها لبعض ، أما هذا الكتاب فإنه جاء شاهداً ومصدقاً لما بين يديه من الكتب ، فكيف يكذب به من يؤمن بها فانظر إلى الإحكام في صنعه البيان : إنما هي كلمة رفعت وأخرى وضعت في. مكانها عند الحاجة إليها ، فكانت هذه الكلمة حسما لكل عذر ، وسداً لكل باب من أبواب الهرب ، بل كانت هذه الكلمة وحدها بمثابة حركة تطويق للخصم تمت خطوة واحدة ، وفي غير ما جلبه ولا طنطنة .ولما قضى وطر النفس من هذا الجانب المطوي الذي ساقه مساق الاعتراض والاستطراد ، استوى إلى الرد على المقصد الأصلي الذي تبجحوا بإعالنه والافتخار به ، وهو دعواهم الإيمان بما أنزل عليهم ، فأوسعهم إكذاباً وتفنيداً . وبين أن داء الجحود فيهم داء قديم ، قد أشربوهن في قلوبهم ومضت عليه القرون حتى أصبح مرضاً مزمناً وأن الذي أتوه اليوم من الكفر بما أنزل على محمد ما هو إلا حلقه متصلة بسلسلة كفرهم بما أنزل عيلهم ، وساق على ذلك الشواهد التاريخية المفظة التي لا سبيل لإنكارها في جهلهم بالله ، وانتهاكهم لحرمة أنبيائه ، وتمردهم على أوامره .( قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَآءَ الله مِن قَبْلُ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ) تأمل كيف أن هذا الانتقال كانت النفس قد استعدت له في أخر المرحلة. ( السابقة ، إذ يفهم السامع من تكذيبهم لما يصدق كتابهم أنهم صاروا مكذبين لكتابهم نفسه ، وهو الذي يكذب من يصدقك يبقى مصدقاً لك؟؟ ..ثم انظر بعد أن سجل القرآن على بني إسرائيل أفحش الفحش وهو وضعهم البقر الذي هو مثل في البلادة موضع المعبود الأقدس ، وبعد أن وصف قسوة قلوبهم في تأبيهم على أوامر الله مع حملهم عليها بالآيات الرهيبة . بعد كل ذلك تراه لا يزيد على أن يقول في أول الأمر : إن هذا " ظلم " وفي الثانية ( بئسما ) صنعتم ، أذلك كل ما تقابل به هذه الشناعات؟ نعم إنهما كلمتان وافيتان بمقدار الجريمة لو فهمتا على وجههما ، ولكن أين حدة الألم وحرارة الاندفاع في الانتقام؟ بل ، أين الإقذاع والتشنيع؟ وأين الإسراف والفجور الذي تراه في كلام الناس إذا أحفظوا بالنيل من مقامهم .تالله ما أعف هذه الخصومة وما أعز هذا الجانب وأغناه عن شكر الشاكرين وكفر الكافرين ، وتالله إن هذا الكلام لا يصدر عن نفس بشر . "

قل ان كانت لكم الدار الاخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين

كما فسرها الوسيط ثم أمر الله - تعالى - نبيه " صلى الله عليه وسلم " أن - يرد على اليهود في دعواهم أن الجنة لن يدخلها إلا من كان على ملتهم فقال تعالى - :( قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدار الآخرة . . . )معنى الآيات الكريمة إجمالا :قل - يا محمد - لأولئك اليهود الين ادعوا أن الجنة لن يدخلها إلاّ من كان هودا : إن انت الجنة مختصة بكم ، وسالمة لكم دون غيركم وليس لأحد سواكم فيها حق . فتمنوا الموت إن كنتم صادقين في دعواكم ، لأن ، من أيقن أنه من أهل الجنة اشتاق إليها وأحب الوصول إليها .ثم أخبر الله أن هذا التمني لن يحصل منهم فقال : ( وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً ) أي الموت أي بسبب ما ارتكبوه من كفر ومعصية ( والله ( بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ) عَلِيمٌ بالظالمين ) الذين وضعوا الأمور في غير موضعها ، فادعوا ما ليس لهم

ونفوه عمن هو لهم .ثم أخبر القرآن بأن حرصهم على الحيباة لا نظير له ولا ، مثيل فقال : ( وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَاسِ على حَيَاةٍ ) متطاولة وَمِنَ الذين أَشْرَكُواْ ) أي : وأحرص عليها - أيضاً - من الذين أشركوا الذين لا يعرفون إلا الحياة الدنيا ( يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ) أي يتمنى الوحد من هؤلاء اليهود أن يعيش السنين الكثيرة ولو تجاوزت الحدود المعقولة لعمر الإنسان والحال أنه ما أحد منهم بمزحزحه ومنجيه تعميره من العذاب ( واللَّه بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُون ) أي : لا يخفى عليه أعمالهم ، فهو محاسبهم عليها ، ومجازيهم بما يستحقونه من عقاب .وقوله تعالى : ( قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدار الآخرة عِندَ الله خَالِصَةً مِّن دُونِ الناس فَتَمَنَّوُاْ الموت إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ) رد على زعمهم الباطل أن الجنة لا يدخلها إلا من كان هوداً ، والمراد بالدار الآخرة : الجنة ونعيمها ، ومعنى ( خَالِصَةً ) سالمة لكم مختصة بكم ، لا يشارككم فيها أحد من الناس .قال الإمام ابن جرير : " يقال : خلص لي فلان بمعنى صار لي وحدي وصفا لي ، ويقال منه خلص هذا الشيء ، فهو يخلص خلوصاً وخالصة ، والخالصة مصدر مثل العافية . . "وقوله تعالى : ( فَتَمَنَّوُاْ الموت ) التمنى هو ارتياح النفس ورغبتها القوية في الشيء . بحيث توده وتحب المصير إليه ، وهو يستعمل في المعنى القائم بالقلب كما بينا ، ويستعمل في اللفظ الدال على هذا المعنى ، كأن يقول الإنسان بلسانه ، ليتني أحصل على كذا والاستعمال الثاني هو المراد بقول تعالى : ( فَتَمَنَّوُاْ الموت ) أي. اذكروا بألسنتكم لفظاً يدل على أنكم تحبون الموت وترغبون فيه . وإنما قلنا إن ذلك هو المراد من الآية لأن المعنى الكائن بالقلب لا يعرفه أحد سوى الله - تعالى - والتحدي لا يقع بتحصيل المعاني القائمة بالضمائر والقلوب ومعنى الآية الكريمة . قل يا محمد لليهود : إن كانت الجنة خاصة بكم ، ولا. منازع لكم فيها ولا مزاحم كما تزعمون ، فتمنوا الموت بألسنتكم لكي تظفروا بنعيمها الدائم ، إن كنتم صادقين في دعواكم أنها خالصة لكم ، وإلا فإنكم لا تكونون صادقين في دعواكم ، إذ لا يقعل أن يرغب الإنسان عن السعادة المحضة الدائمة المضمونة له في الآخرة ، إلى سعادة ممزجة بالشقاء في الدنيا .قال الإمام الرازي : ( وبيان هذه الملازمة أن نعم الدنيا قليلة حقيرة بالقياس إلى نعم الآخرة . ثم إن نعم الدنيا على قلتها كانت منغصة عليهم بسبب ظهور محمد صلى الله عليه وسلم ومنازعته معهم ، بالجدال والقتال ، ومن كان في النعم القليلة المنغصة . ثم تيقن أنه بعد الموت لابد أن ينتقل إلى تلك النعم العظيمة مطلوبة ولا سبيل إليها إلا الموت وحيث كان الموت يتوقف عليه المطلوب وجب أن يكون هذا الإنسان راضياً بالموت متمنياً له ، فثبت أن - الدار الآخرة لو كانت خالصة لهم ، لوجب أن يتمنوا الموت . ثم إن الله تعالى - أخبر أنهم ما تمنوا الموت ، بل لن يتمنوه أبداً ، وحينئذ يلزم " قطعاً بطلان ادعائها في قولهم :" إن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس وتحديهم بتمنى الموت يكون بأن يقولوا بألسنتهم ليتنا نموت ، أو يقولوا ما. في معنى هذه الكلمة كما أشرنا إلى ذلك سابقاً ، وهذا رأي جمهور المفسرين وروى عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن ذلك يكون عن طريق المباهلة ، بأن. يحضروا مع المؤمنين في صعيد واحد ، ثم يدعو الفريقان بالموت على الكاذب منهما .ويبدو لنا أن الرأى الأول أرجح لأنه أقرب إلى موافقة اللفظ الذي نطقت به الآية وأقرب أيضاً إلى معناها . إذ ليس في الآية إشارة ما إلى طلب المباهلة ، والقرآن حينما دعا إليها نصارى نجران ، جاء اللفظ بها صريحاً في قوله تعالى : ( فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ العلم فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وأَنْفُسَكُمْ ثُمّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ الله عَلَى الكاذبين )

ولن يتمنوه ابدا بما قدمت ايديهم والله عليم بالظالمين

كما فسرها الوسيط ثم أخبر - سبحانه - بأن هؤلاء اليهود لن يتمنوا الموت أبداً بسبب ما فعلوا من شرور فقال تعالى : ( وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ واللَّه عَلِيمٌ بالظالمين ) .أي : لا يتمنى اليهود الموت أبداً بسبب ما قدمت أيديهم من آثام ، والله - عز وجل -لا تخفى عليه خافية من سيئاتهم واعتداءاتهم بل هو سيسجلها عليهم ، ويجازيهم عليها الجزاء الذي يستحقونه ، والآية الكريمة خبر من الله - تعالى - عن اليهود بأنهم يكرهون الموت ، ويمتنعون عن الإجابة إلى ما دعوا إليه من تمنيه ، لعلمهم بأنهم إن فعلوا فالموت نازل بهم ، وذلك لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يخبرهم خبراً إلاأ كان حقاً كما أخبر فهم يحذرون أن يتمنوا الموت ، خوفاً من أن يحل بهم عقاب الله بما كسبت أيديهم من الذنوب وقد صح من عدة طرق عن ابن عباس أنه قال : " لو تمنوا الموت لشرق أحدهم. بريقه " .وقال ابن جرير في تفسيره : " وبلغنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا؛ ولرأوا مقاعدهم من النار ، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجعوا لا يجدون أهلا ولا

مالا " قال حدثنا بذلك أبو كريب ، حدثنا زكريا بن عيد ، حدثنا عبيد الله بن عمرو ، عن عبد الكريم عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .وقال الإمام ابن كثير : ورواه الإمام أحمد عن اسماعيل بن يزيد الرقي نحدثنا فرات عن عبد الكريم به " .وقال صاحب الكشاف : قوله : ( وَلَنْ يَتَمَنّوْهُ أَبَداً ) من المعجزات لأنه إخبار بالغيب وكان كما أخبر به ، كقوله تعالى : ( وَلَن تَفْعَلُواْ ) فإن قلت : ما أدراك أنهم لم يتمنوا الموت : قلت لو تمنوا لنقل ذلك عنهم كما نقلت سائر الحوادث ، ولكان ناقلوه من أهل الكتاب وغيرهم من أولى المطاعن في الإسلام أكثر من الذر وليس أحد منهم نقل عنه ذلك " .ويكفى في تحقيق هذه المعجزة ، ألا يصدر تمنى الموت عن اليهود الذين تحداهم النبي صلى الله عليه وسلم بذلك ، وهم الذين كانوا يضعون العراقيل في طريق دعوته ، ويصرون على جحود نبوته؛ فلا يقدح في هذه المعجزة أن ينطق يهودي بعد العهد النبوي بتمنى الموت وهو حريص على الحياة ، لأن المعنيين بالتحدي هم اليهود المعاصرون للعهد النبوي .وقوله تعالى : ( والله عَلِيمٌ بالظالمين ) وارد مورد التهديد والوعيد لهم وكان اليهود ظالمين بسبب ما قدمت أيديهم وبسبب كونهم قد كذبوا على الله في دعواهم أن الجنة لا يدخلها إلا من كان منهم .

ولتجدنهم احرص الناس على حياة ومن الذين اشركوا يود احدهم لو يعمر الف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب ان يعمر والله بصير بما يعملون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك بأن هؤلاء اليهود الذين يزعمون أن الجنة خالصة لهم من غاية الحرص على الحياة فقال تعالى : ( وَلَتَجِدَنّهُمْ أَحْرَصَ الناس على حَيَاةٍ وَمِنَ الذين أَشْرَكُواْ يَوَدٌّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ العذاب أَن يُعَمّرَ والله بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ) ومعنى الآية الكريمة : ولتجدن - يا محمد - أولئك اليهود - الذين يزعمون. ( أن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس - لتجدنهم أحب الناس للحياة وأحرصهم عليها ، وأشدهم كراهية للموت " وليس ذلك عندما يكونون متمتعين بالطمأنينة والعافية فقط بل هم كذلك حتى ولو زالت عنها كل معاني الراحة والطمأنينة ، فهم أحرص عليها حتى من المشركين الذين لا يؤمنون بالبعث ، والذين يعتبرون نعيمهم الأكبر هو ما يتمتعون به من اللذائذ في هذه الدنيا ، وهم في حرصهم على الحياة يتمنون أن تطول أعمارهم دهوراً طويلة ، لا يصلل إليها خيال أحد ممن يحرصون عليها كما قال تعالى : ( يَوَدٌّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ) . وبذلك تكون الآية الكريمة قد كذبتهم في دعواهم أن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس لأن الأمر لو كان كما يزعمون لرحبوا بالانتقال إليها ، ولكنهم لا يحبون الموت ولا يكاد يخطر ببالهم ، ويحرصون كل الحرص على البقاء حتى مع سوء الحالة ورذالة العيش ، كما يشعر بذلك التنكير في قوله تعالى ( على حَيَاةٍ ) .والمراد بالناس جميعهم ، وأفعل التفضيل في ( أَحْرَصَ ) على بابه ، لأن الحرص على الحياة غريزة في البشر إلا أنهم متفاوتون فيه قوة وكيفية وأسباباً ، كما قال الشاعر :أرى كلنا يهوى الحياة بسعيه ... حريصاً عليها مستهاماً بها صبافحب الجبان النفس أورده التقى ... وحب الشجاع النفس أورده الحربافالناس جميعاً وإن كانوا يشتركون مع اليهود في الحرص على الحياة ، إلا أن اليهود يزيدون على سائر الناس أنهم أحرصهم ، وأنهم من أجل حرصهم عليها يضحون بدينهنم وبكرامتهم وبكل شيء .ونكر - سبحانه - الحياة التي يحرصون عليها ، زيادة في تحقيرهم ، فكأنه - سبحانه - يقول : إنهم شديدوا الحرص على الحياة ، ولو كانت حياة بؤس وشقاء ، وللإشعار بأ نما يهمهم هو ملطق الحياة كفيما كانت ، بصرف النظر عن العزة والكرامة ، فمن أمثال اليهود المشهورة " الحياة وكفى " ولا شك أن شدة التهالك على الحياة ، تؤدى إلى الجبن ، واحتمال الضيم. وتجعل الأمة التي تنتشر فيها هذه الرذيلة لا تفرق بين الحياة الكريمة والحياة الرذيلة .وقوله تعالى : ( وَمِنَ الذين أَشْرَكُواْ ) عطف على الناس ، لأنه لما كان قوله تعالى : ( أَحْرَصَ الناس ) في معنى : أحرص من جميع الناس صح أن يراعى المعنى ، فيكون قوله : ( وَمِنَ الذين أَشْرَكُواْ ) معطوف عليه ، فيكون المعنى : أحرص من جميع الناس ، وأحرص من الذين أشركوا ( على الحياة .والذين أشركون ، هم الذين جعلوا لله شركاء وإنما أقردوا بالذكر مع أنهم من الناس ، مبالغة في توبيخ اليهود وذمهم ، لأنهم إذا زاد حرصهم على الحياة - وهم أهل كتاب - على المشركين الذين لا كتاب لهم ولا يدينون ببعث أو نشور كان ذلك دليلا على هوان نفوسهم ، وابتذال كرامتهم وعدم اعتدادهم بوصايا كتبهم التي تناهم عن الحرص على الحياة الرذيلة .قال صاحب الكشاف : " وفيه توبيخ عظيم ، لأن الذين أشركوا لا يؤمنون بعاقبة ولا يعرفون إلا الحياة الدنيا ، فحرصهم عليها لا يستبعد لأنها جنتهم ، فإذا زاد ، عليها في الحرص من له كتاب وهو مقر بالجزاء ، كان حقيقياً بأعظم التوبيخ فإن قلت : لم زاد حرصهم على حرص المشركين؟ قلت : لأنهم علموا أنهم صائرون إلى النار لا محالة والمشركون لا يعلمون ذلك " .ثم بين - سبحانه - مظهرا من

مظاهر حرصهم على الحياة فقال تعالى : ( يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ) أي يتمنى الواحد منهم أن يعيش دهوراً كثيرة ، ليس من عادة الناس أن يحبوا بلوغها ، لأنهنا تؤدي بهم إلى أرذل العمر ، وعدم طيب العيش فالجملة الكريمة مستأنفة لإظهار مغالاتهم في التهالك على الدنيا ولتحقيق. عموم النوعية في الحياة المنكرة ، ولدفع ما يظنه بعض الناس من أن حرصهم على الحياة مهما اشتد فلن يصل بهم إلى تمنى أن يعيش الواحد منهم ألف عام ، أو أكثر ، فجيء بهذه الجملة الكريمة . لتحقيق أن تعلقهم بالدنيا يشمل حتى هذه السن المتطاولة ، التي لا هناء فيها ولا راحة ، والتي استعاذ من بلوغها المؤمنون .ثم بين - سبحانه - أن تعميرهم الطويل لن ينجيهم من العقوبة ، لأن الموت لا يتركهم مهما طال عمرهم ، فقال تعالى : ( وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ العذاب أَن يُعَمَّرَ ) أي : وما أحد منهم بمبعده تعميره عن العذاب المعد له ، ولا بمنجيه منه .والجملة الكريمة فيها بيان ، مصيرهم المحتوم ، وقطع لحبال مطامعهم ، لأن الموت سيلحقهم مهما بلغ عمرهم وسيلقون جزاءهم على سوء صنيعهم .وفي التعبير ( بِمُزَحْزِحِهِ ) أشارة إلى أن طول عمرهم ، ليس له أي أثر في تخفيف العذاب عنهم ، وقوله : ( والله بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ) تهديد ووعيد لهم لأنه - سبحانه - عليم بأعمالهم ، محيط بما يخفون وما يعلنون ، وسيجازيهم على كل ذلك بما يستحقون ومن هذا العرض للآيات الكريمة نرى أنها قد ردت على اليهود في دعواهم أن الجنة خالصة لهم ، رداً يبطل حجتهم ، ويفضح مزاعمهم ، ويكبت نفوسهم ، ويخرس ألسنتهم ، ويعلن أن الجنة إنما هي لمن أسلم وجهه لله وهو محسن ، وهم ليسوا من هذا النوع من الناس ولذا حرصوا على الحياة وفزعوا من الموت ، لأنهم ، يعلمون أن من ورائهم النار وبئس القرار بسبب ما ارتكبوا من سيئات واقترفوا من أكاذيب .

قل من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين

كما فسرها الوسيط ثم ساق القرآن بعد ذلك لوناً عجيباً من ألوان اليهود وهو مجاهرتهم بالعداوة لأمين الوحي جبريل - عليه السلام - فقال - تعالى - : ( قُلْ مَن كَانَ عَدُوّاً لِّجِبْرِيلَ فَإِنّهُ نَزّلَهُ . . . ) هاتان الآيتان تكشفان عن رذيلة غريبة حقاً من رذائل اليهود وهي عداوتهم لملك من ملائكة الله ، لا يأكل مما يأكلون ، ولا يشرب مما يشربون وإنما هو من ، الملائكة المقربين ، الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون وإذا فليس هناك مقتض لعداوته ، فلماذا هذا التصريح منهم ببغضه وكراهيته؟لقد سمعوا أن جبريل - عليه السلام - ينزل بالوحي من عند الله على محمد صلى الله عليه وسلم وهم يحسدونه على النبوة ، فلج بهم الحقد والغيظ إلى أن أعلنوا عن عدائهم لجبريل - أيضاً - وهذه حماقة وجهالة منهم ، لأن جبريل - عليه السلام - نزل بالخير لهم في دينهم وفي دنياهم . ولكن الحقد والحسد إذا استوليا على النفوس جعلالها لا تفرق بين الخير والشر .ومعنى الآيتين الكريمتين ، قل - يا محمد - لهؤلاء اليهود الذين أعلنوا عداءهم لجبريل أنه لا وجه لعداوته لأنه لم ينزل بالقرآن من تلقاء نفسه وإنما نزل على قلبك بأمر الله ليكون مؤيداً لما نزل قبله من الكتب السماوية وليكون هداية إلى طريق السعادة وبشارة للمؤمنين بالجنة ، وقل لهم كذلك من كان معادياً لله أو لملك من ملائكته أو لرسول من رسله ، فقد كفر وباء بغضب من الله ، ومن غضب الله عليه ، فجزاؤه الخزي وسوء المصير .قال الإمام ابن جرير : ( أجمع أهل العلم بالتأويل جميعاً ، على أن هذه نزلت جواباً ليهود من بني إسرائيل ، إذ زعموا أن جبريل عدو لهم ، وميكائيل ولي لهم ) .وروى البخاري في صحيحه - عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : " سمع عبد الله بن سلام بقدوم النبي صلى الله عليه وسلم وهو في أرض يخترف - أي يجني ثمارها - فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي ، فيم أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام أهل الجنة ، وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال : أخبرني بهن جبريل آنفاً . قال : جبريل؟ قال : نعم قال ذكل عدو اليهود من الملائكة - فقرأ النبي صلى الله عليه وسلم هذه الآية : ( قُلْ مَن كَانَ عَدُوّاً لِّجِبْرِيلَ فَإِنّهُ نَزّلَهُ على قَلْبِكَ . . . ) الآية ثم قال : أما أول أشراط الساعة ، فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب! وأما أول طعام أهل الجنة فزيادة كبد الحوت ، وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد ، وإذا سبق ماء المرأة نزعت فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله . يا رسول الله : إن اليهود قوم بهت ، وإنهم إن يعلموا بإسلامي قبل أن تسألهم يبهتوني ، فجاءت اليهود فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أي رجل فيكم عبد الله؟ قالوا : خيرنا وابن خيرنا ، وسيدنا وابن سيدنا : قال " أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام؟ فقالوا : أعاذه الله من ذلك؟ فخرج عبد الله فقال : " أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فقالوا : شرنا وابن شرنا ، وانتقصوه ، قال : فهذا الذي كنت أخاف يا رسول الله " .وأخرج الإمام أحمد عن ابن عباس : " أن اليهود بعد أن سألوا

النبي صلى الله عليه وسلم أسئلة أجابهم عنها ، قالوا صدقت فحدثنا من وليك من الملائكة فعندها نجامعك أو نفارقك . قال : وليى جبريل ، لم يبعث الله نبياً قط إلا وهو وليه ، قالوا : فعندما نفارقك ، ولو كان وليك سواه من الملائكة لتابعناك وصدقناك ، قال : فما يمنعكم أن تصدقوه؟ قالوا : إنه عدونا ، فأنزل الله - تعالى - قوله : ( قُلْ مَن كَانَ عَدُوّاً لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ على قَلْبِكَ بِإِذْنِ الله مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ . . . ) الآيات .وفي حديث للإمام أحمد والترمذي والنسائي " قال اليهود للنبي صلى الله عليه وسلم بعد أن سألوه عن أشياء أجابهم عنها إنما بقيت واحدة وهي التي نتابعك إن أخبرتنا بها ، إنه ليس من نبي إلا وله ملك يأتيه بالخير ، فأخبرنا من صاحبك؟ قال جبريل - عليه السلام - قالوا : جبريل ذلك الذي ينزل بالحرب والقتال والعذاب عدونا ، لو - قلت ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والقطر والنبات لكان . فأنزل الله - تعالى الآية .فيؤخذ من هذه الأحاديث ( قُلْ مَن كَانَ عَدُوّاً لِّجِبْرِيلَ ) : وما في معناها أن اليهود في عهد النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يجاهرون بعداوتهم لجبريل - عليه السلام - وأن هذه المجاهرة بالعداوة ، قد تكررت منهم في مواقف متعددة بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم وأن الذي حملهم على ذلك هو حسدهم له ، وغيظهم من جبريل ، لأنه ينزل بالوحي عليه .قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور : " ومن عجيب تهافت اعتقادهم أنهم يثبتون أنه ملك مرسل من عند الله ، ومع ذلك يبغضونه ، وهذا أحط درجات الانحطاط في العقل والعقيدة ، ولا شك أن الاضطراب العقيدة من أكبر مظاهر انحطاط الأمة لأنه ينبئ عن تضافر آرائهم على الخطأ والأوهام " .وفي أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بلفظ ( قُلْ ) كي يرد على اليهود ، تثبيت له ، وتطمين لنفسه وتوبيخ لهم على معاداتهم لأمين الوحي ، وهو جبريل - عليه السلام - .وقوله تعالى : شرط عام قصد الإتيان به ليعلموا أن ( مَن كَانَ عَدُوّاً لِّجِبْرِيلَ ) الله - تعالى -لا يعبأ بهم ولا بغيرهم ممن يعادي جبريل ، إن وجد معاد آخر له سواهم .وقوله تعالى : ( على قَلْبِكَ ) زيادة تقرير للتنزيل ، ببيان محل الوحي ، وإشارة إلى أن السبب في تمكنه صلى الله عليه وسلم من تلاوة القرآن الكريم ، وإبلاغه للناس ، ثباته في قلبه .وقوله تعالى : ( فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ على قَلْبِكَ بِإِذْنِ الله ) معناه : فلا موجب لعداوته . لأنه نزل القرآن على قلبك يا محمد بإذن الله وأمره . وإذاً فعداوته عداوة لله في الحقيقة والواقع ، ومن هنا يتبين أن هذه الجملة تعليل لجواب الشرط وقائمة مقامه .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف استقام قوله تعالى : ( فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ على قَلْبِكَ ) جزاء للشرط؟ قلت : فيه وجهان :أحدهما : إن عادي جبريل أحد من أهل الكتاب فلا وجه لمعاداته ، حيث نزل كتاباً مصدقاً للكتب التي بين يديه ، فلو أنصفوا لأحبوه وشكروا له صنيعه في إنزاله ما ينفعهم ويصحح المنزل عليهم .والثاني : إن عاداه أحد فالسبب في عداواته أنه نزل عليك القرآن مصدقاً لكتابهم ، وموافقاً له ، وهم كارهون للقرآن ولموافقته لكتابهم ، ولذلك يحرفونه ويجحدون موافقته له . كقولك : " إن عاداك فلان فقد أذيته وأسأت إليه " .وقوله - تعالى - : ( بِإِذْنِ الله ) أي بأمره ، وهو توبيخ لهم على عداوتهم لجبريل ، الذي أنزل بالقرآن بإذن الله ، لا من تلقاء نفسه ، وهذه حجة أولى عليهم .وقوله تعالى : ( مُصَدِّقاً ) حال من الضمير العائد على القرآن الكريم ، ف قوله ( نَزَّلَهُ ) أي أنزله حالة كونه مؤيداً للكتب السماوية التي قبله ومن بينها التوراة ، وهذه حجة ثانية عليهم ثم عززهما بثالثة ورابعة - فقال تعالى : ( وَهُدًى وبشرى لِلْمُؤْمِنِينَ. أي هذا القرآن الذي نزل مصدقاً لكتبكم ، هو هاد إلى طريق الفلاح والنجاح ( والعقال لا يرفض الهداية التي تأتيه وتنقذه مما هو فيه من ضلالات ولو كان ، الواسطة في مجيئها عدواً له ، وهو - أيضاً - مبشر للمؤمنين برضا الله تعالى - عنهم في الدنيا والآخرة ، أما الضالون فقد أنذرهم بسوء العقبى فعليكم أن تتبعوا طريق الإيمان لتكونوا من المفلحين وبذلك يكون القرآن قد أقام حججاً متعددة على حماقتهم وعنادهم وجحودهم للحق بعد ما تبين . وتكون الآية الكريمة قد مدحت القرآن بخمس صفات .أولها : أنه منزل من عند الله وبإذنه .وثانيها : أنه منزل على قلب النبي صلى الله عليه وسلم .وثالثها : أنهن مصدق لما نزل قبله من الكتب السماوية .ورابعها : أنه هاد إلى الخير أبلغ هدى وأقواه .وخامسها : أنه بشارة سارة للمؤمنين .

من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فان الله عدو للكافرين

كما فسرها الوسيط ثم بين - تعالى - حقيقة الأمر فيمن يعادي جبريل وأن عداواته عداوة الله - تعالى - فإنه أمين وجيه إلى رسله ليس له في ذلك شيء إلا أن يبلغ ما أمر به فقال تعالى : ( مَن كَانَ عَدُوّاً لِّلَّهِ وملائكته وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنّ الله عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ) والمعنى : أن عداوة جبريل عداوة لله ، وأن عداوة محمد صلى الله عليه وسلم. عداوة لله - أيضاً - فالإيمان بالله وملائكته ورسله وحدة لا تتجزأ فمن كفر بواحد منهم فهو كافر بالجميع .ومعنى عداوة العبد لله : كفره به ومخالفته

لأوامره ونواهيه ومعنى عداوته لملائكته : إنكار فضلهم ووصفهم بما ينافي عصمتهم ورفعة منزلتهم . ومعنى عداوته لرسله : تكذيبه لهم وتعمده إلحاق الأذى بهم ومعنى عداوة الله لعبده : غضبه سبحانه - عليه ، ومجازاته له على كفره . وصدر - سبحانه - الكلام باسمه الجليل تفخيماً لشأن ملائكته ورسله وإشعاراً بأن عداوتهم إنما هي عداوة له - تعالى- .وأفرد - سبحانه - جبريل وميكال بالذكر ، مع اندراجهما تحت عموم ملائكته ، لتصريح اليهود بعداوة جبريل وتعظيم ميكائيل ، فأفردهما بالذكر للتنبيه على أن المعاداة لأحدهما معاداة للجميع ، وأن الكفر بأحدهما كفر بالآخر .قال ابن جرير : " فإن قال قائل : أو ليس جبريل وميكائيل من الملائكة؟ قيل بلى ، فإن قال : فما معنى تكرير ذكرهما بأسمائهما في الآية في جملة أسماء الملائكة؟ قيل : معنى إفراد ذكرهما بأسمائهما أن اليهود لما قالت جبريل عدونا وميكائيل ولينا ، وزعمت - أنها كفرت بمحمد صلى الله عليه وسلم من أجل أن جبريل صاحبه ، أعلمهم الله تعالى - أن من كان لجبريل عدواً فإن الله عدو له وأنه من الكافرين ، فنص عليه باسمه وعلى ميكائيل باسمه ، لئلا يقول منهم قائل : إنما قال الله : من كان عدواً لله وملائكته ورسله ، ولسنا لله ولا لملائكته ، ولا لرسله أعداء ، لأن الملائكة اسم عام محتمل خاصاً ، وجبريل وميكائيل غير داخلين فيه ، وكذلك قوله ورسله فلست يا محمد داخلا فيهم ، فنص الله - تعالى - على أسماء ، من زعموا أنهم أعداؤه بأعيانهم ليقلع بذلك تلبيسهم على أهل الضعف منهم ويحسم تمويهم أمورهم على ضعاف الإيمان " .وقال - سبحانه - في ختام الآية الكريمة ( فَإِنَّ الله عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ) ولم يقل فإن الله عدو له أو لهم ، ليدل على أن عداوة كل واحد ممن اشتملت الآية الكريمة على ذكرهم كفر وجحود ، وليكون اندراجهم تحت هذا الحكم العام من باب إثبات الحكم بالدليل ، وللإشعار بأن عداوة الله - تعالى - لهم سببها كفرهم فإن الله لن يعادي قوماً لذواتهم ولا لأنسابهم ، وإنما يكره لهم الكفر ويعاقبهم عليه معاقبة العدو للعدو .قال صاحب المنار : " فهذه الآية الكريمة وعيد لهم بعد بيان فساد العلة التي جاءوا بها ، فهم لم يدعوا عداوة لهؤلاء كلهم ، لكنهم كذلك في نفس الأمر ، فأراد أن يبين حقيقة حالهم في الواقع ، وهي أنهم أعداء كل من يمثله ويدعو إليه ، فالتصريح بعداوة جبريل كالتصريح بعداوة ميكائيل الذي يزعمون أنهم يحبونه . وأنهم كانوا يؤمنون بالنبي صلى الله عليه وسلم لو كان هو الذي ينزل بالوحي عليه ، ومعاداة القرآن الكريم كمعاداة سائر الكتب الإلهية لأن المقصود من الجميع واحد فقولهم السابق وحالهم يدلان على معاداة كل من ذكر ، وهذا من ضروب إيجاز القرآن الكريم التي انفرد بها " .وبهذا تكون الآيتان الكريمتان قد دمغتا اليهود بالكفر والجهالة ، لمعاداتهم لجبريل وتكذيبهم لمحمد صلى الله عليه وسلم وبينتا ما عليه أمرهم من خزي وهوان بسبب هذه العداوة التي لا باعث عليها إلا الحسد ، وكراهية أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده .

ولقد انزلنا اليك ايات بينات وما يكفر بها الا الفاسقون

كما فسرها الوسيط ثم أخذ القرآن في تثبيت فؤاد النبي صلى الله عليه وسلم وتسليته عما يفعله معه اليهود فقال تعالى :( وَلَقَدْ أَنْزَلْنَآ إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ . . . )أي : لقد أنزلنا إليك يا محمد علامات واضحات دالة على معانيها وعلى كونها من عند الله ، وبينا لك فيها علوم اليهود ، ومكنونات سرائرهم وأخبارهم ، وما حرفه أوائلهم وأواخرهم من كتبهم ، وما بدلوه من أحكامهم قال تعالى :( إِنَّ هذا القرآن يَقُصُّ على بني إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الذي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ) وإن هذه الآيات التي أنزلها الله إليك يا محمد ، ما يكفر بها ، ويجحد صدقها إلا المتمردون من الكفرة ، الخارجون على حدود الله المنتهكون لحرماته .

اوكلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم بل اكثرهم لا يؤمنون

كما فسرها الوسيط والهمزة في قوله ( أَوَكُلَّمَا ) للإنكار ، والواو للعطف على محذوف يقتضيه المقام : أي أكفروا بالآيات البينات ، وكلما عاهدوا عهداً نبذه فرق منهم ، أي : طرحوه وانقضوه من النبذ وهو إلقاء الشئ وطرحه لقلة الاعتداد به ومنه سمي النبيذ وهو التمر والزبيب إذا طرحا في الماء وهو حقيقة في الأجرام وإسناده إلى العهد مجاز .والضمير في قوله : ( مِّنْهُم ) يعود لليهود الذين اشتهروا بنقض العهود وقوله : ( بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ) يفيد الترقي إلى الأغلظ فالأغلظ ، أي أن فريقاً منهم عرف بنقضه للعهد ، وأكثرهم عرف بكفره وجحده للحق .قال صاحب الكشاف ، واليهود موسومون بالغدر ونقض العهود ، وكم أخذ الله الميثاق منهم ومن آبائهم فنقضوا وكم عاهدوا رسول الله فلم يفوا ( الذين عَاهَدْتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ ، يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ ) وقال الرازي : " والمقصود من هذا الاستفهام الإنكار وإعظام ما يقدمون عليه لأن ) : مثل ذلك إذا قيل بهذا اللفظ كان أبلغ في التوبيخ والتبكيت . ودل بقوله

أَوَكُلَّمَا عَاهَدُواْ ) على عهد بعد عهد نبذوه ونقضوه ، بل يد على أن
ذلك كالعادة منهم ، فكأنه - تعالى - أراد تسلية النبي صلى الله عليه وسلم
عند كفرم بما أنزل عليه من الآيات ، بأن بين له أن ذلك ليس ببدع منهم ، بل
هو سجيتهم وعادتهم وعادة سلفهم . . . "

ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين اوتوا الكتاب
كتاب الله وراء ظهورهم كانهم لا يعلمون

، كما فسرها الوسيط ثم تحدث القرآن بعد ذلك عن نبذ اليهود لكتاب الله
واتباعهم للسحر والأوهام ، فقال - تعالى - :( وَلَمَّآ جَآءَهُمْ رَسُولٌ
مِّنْ عِندِ الله مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ . . . )المعنى : وحين
جاء اليهود وأحبارهم رسول من عند الله ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم الذي
يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة ، طرح فريق كبير منهم تعاليم التوراة التي
تشهد بصدقه ، وراء ظهورهم ، حتى لكأنهم يجهلون أنها من عند الله ، واتعبوا
- ما قصته واختلقته الشياطين من السحر والأوهام والمفتريات على عهد سليمان
عليه السلام - ومن هذه المفتريات والأكاذيب زعمهم أن سليمان - عليه
السلام - كان ساحراً ، وما تم له ملكه العريض ، ولا ظهرت على يديه المعجزات
الباهرة من تسخير الجن والريح إلا بهذا .وقد أكذبهم الله - تعالى - في هذه
، الزعم بقوله : ( وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ) أي : بتعلم السحر والعمل به
كما يزعم هؤلاء ( ولكن الشياطين ) هم الذين ( كَفَرُواْ ) بتعلم السحر
وتعليمه للناس ، وتعليمهم - أيضاً - ضرباً آخر منه وهو ( وَمَآ أُنْزِلَ
عَلَى الملكين بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ) من وصف السحر وما هيته
وكيفية الاحتيال به ، ولقد كان المكان لا يعلمان أحدا من الناس السحر حتى
ينصحاه بقولهما : إن السحر الذي نعلمك إياه القصد منه التمييز بين المطيع
والعاصي ، وبين السحر والمعجزة ، فحذار أن تستعلمه فيما نهيت عنه فتكون من
الكافرين ، بخلاف الشياطين فإنهم تعلموه وعلموه لغيرهم لاستعماله في الشرور
والآثام ، ولإحداث التفرقة بين الزوجين ، ولكن هذا السحر الذي يتعاطاه
الشياطين وأتباعهم لن يضر أحداً بذاته ، وإنما ضرره يتأتى إذا أراد الله
تعالى - ذلك وشاءه ، ولقد علم أولئك النابذون لكتاب الله المؤثرون عليه
اتباع السحر ، أن من استبدل السحر بكتاب الله ، فليس له نصيب من نعيم الجنة
وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ) ،
علماً نافعاً . (وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُواْ ) بالله ورسوله محمد صلى (
الله عليه وسلم كما أرشدتهم إليه التوراة ، ( واتقوا ) المعاصي والآثام
) لأثيبوا مثوبة من عند الله هي خير لهم مما آثروه واختاروه على كتاب الله
لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ) .وقوله تعالى : ( وَلَمَّآ جَآءَهُمْ رَسُولٌ
مِّنْ عِندِ الله مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الذين
أُوتُواْ الكتاب كِتَابَ الله وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ ) . . إلخ الآية .بيان
لما صدر عن اليهود من تكذيب للرسول صلى الله عليه وسلم وطرح لتعاليم كتابهم
) : التي أمرتهم باتباعه .أخرج ابن جرير عن السدى قال في قوله تعالى
وَلَمَّآ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ الله مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ
نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الذين أُوتُواْ الكتاب كِتَابَ الله وَرَآءَ
ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ واتبعوا مَا تَتْلُواْ الشياطين
على مُلْكِ سُلَيْمَانَ ) أي لما جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم عارضوه
بالتوراة فخاصموه بها .فاتفقت التوراة والقرآن ، فنبذوا التوراة والقرآن
وأخذوا بكتاب آصف وسحر هاروت ، فذلك قول الله ( كَأَنَّهُمْ لاَ
، يَعْلَمُونَ ) أي كأن هؤلاء الذين نبذوا كتاب الله من علماء اليهود
فنقضوا عهد الله ، لا يعلمون ما في التوراة من الأمر باتباع محمد صلى الله
عليه وسلم وتصديقه .وفي وصف الرسول بأنه آت من عند الله تعظيم له ، ومبالغة
في انكار عدم إيمانهم به ، وإغراء للناس جميعاً بالدخول في دعوته ، لأنه
) ليس رسولا من تلقاء نفسه ، وإنما هو رسول من عند الله - تعالى - :والمراد
لِّمَا مَعَهُمْ ) التوراة . وتصديق الرسول صلى الله عليه وسلم لها ، معناه
أن ما جاء به من تعاليم موافق لها في أصول الدين ، وأن ما جاءت به من صفات
للرسول المنتظر بعد عيسى - عليه السلام -لا تنطبق إلا عليه صلى الله عليه
، وسلم .وعبر - سبحانه - عن تركهم العمل بالكتاب الذي نزل لهدايتهم بالنبذ
مبالغة في عدم اعتدادهم ، وتناسبهم إياه ، لأن أصل النبذ طرح وإلقاء ما لا
، يعتد به .وفي إسناد النبذ إلى فريق من الذين أوتوا الكتاب ، سخرية بهم
واستجهال لهم ، لأن الذين أوتوه هم الذين نبذوه ، ولو كان النابذون من
المشركين لكان لهم بعض العذر لجهلهم ، ولكن أن يكون التاركون للنور هم
الذين أوتوه وأكرموا به ، فذلك هو الضلال المبين .والمراد من ( كِتَابَ
، الله ) الذي نبذوه لما جاءهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - التوراة
لأنهم لو كانوا مؤمنين بها حقاً ، لاتبعوا الرسول صلى الله عليه وسلم الذي
ذكرت صفاته فيها ، والذي وجب عليهم بقتضى كتابهم التوراة الإيمان به ، فهم
بجحودهم لنبوته ، يكونون جاحدين لتوراتهم التي شهدت له بالصدق .وقيل المراد
، بكتاب الله الذي نبذوه القرآن ، لأنهم لم يؤمنوا به ، بل تركوه بعد سماعه

وتناسوا ما اشتمل عليه من هداية وإرشاد ، مع أنه كان من المتحتم عليهم أن يتلقوه بالقبول .والذي نراه أن الرأي الأول أرجح ، لأن النبذ يقتضي سابقة الأخذ ، في الجملة . وهو متحقق بالنسبة للتوراة ، بخلاف القرآن الكريم فإنهم لم يسبق لهم أن تمسكوا به ، ولأن مذمتهم تكون أشد وجحودهم أكثر ، إذا كان المراد بالكتاب الذي نبذوه ، هو عين الكتاب الذي نزل لهدايتهم وآمنوا به وهو التوراة .وقوله تعالى : ( وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ ) كناية عن إعراضهم ، الشديد عنه ، وتوليهم عن تعاليمه .تقول العرب : جعل هذا الأمر وراء ظهره أي تولي عنه معرضاً ، لأن ما يجعل وراء الظهر لا ينظر إلأيه ، ففي هذه - الجملة الكريمة تصوير صادق لإعراضهم عن كتاب الله - تعالى - حيث شبه سبحانه - تركهم لكتابه ، بحالة شيء يرمى به وراء الظهر استهانة به . وفي إضافة الوراء إلى الظهر ، تأكيد لنبذ ما ترك بحيث لا يؤخذ بعد ذلك .قال ، الأستاذ الإمام : ليس المراد بنبذ الكتاب وراء ظهورهم أنهم طرحوه برمته وتركوا التصديق به في جملته وتفصيله .وإنما المراد أنهم طرحوا أجزاء منه وهو ما يبشر بالنبي صلى الله عليه وسلم ويبين صفاته ويأمرهم بالإيمان به واتباعه . فهو تشبيه لتركهم إياه وإنكاره ، بمن يلقى الشيء وراء ظهره حتى لا يراه فيتذكره ، وترك الجزء منه كتركه كله ، لأن ترك البعض يذهب بحرمة الوحي من النفس ، ويجرئ على ترك الباقي . . .وقوله تعالى : ( كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ) جملة حالية ، أي طرحوه ، وراء ظهورهم مشبهين بحال من لا يعلم منه شيئاً ، ومن لا يعرف أنه كتاب الله .وشبههم بمن لا يعلمون مع أنهم في الواقع يعلمون أنه من عند الله - حق العلم - لأنهم نبذوه مكابرة وعناداً ولأنهم لم يعملوا بمقتضى علمهم ومن كان هذا شأنه فهو والجاهل سواء ، في جحود الحق والانغماس في الآثام .وقال - سبحانه - : ( كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ) بنفي الحال والاستقبال للإشعار بأنهم قوم لا أمل فيء توبتهم وإنابتهم ، بل هم تمر بهم الأيام ، وتتوالى عليهم العظات ، ومع ذلك لا يتوبون ولا يرجعون إلى الحق ، فهم مستمرون على طرح كتاب الله في كل وقت وآن ومصممون على ذلك ، .

واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما انزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من احد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من احد الا باذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الاخرة من خلاق ولبئس ما شروا به انفسهم لو كانوا يعلمون

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - لوناً آخر من زيغهم وضلالهم واتباعهم للأباطيل بعد أن وبخهم على نبذهم لكتابه فقال تعالى : ( واتبعوا مَا تَتْلُواْ الشياطين على مُلْكِ سُلَيْمَانَ ) .اتبعوا : من الاتباع وهو الاقتداء ، والضمير فيه يعود على اليهود المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم .وتتلو : من التلاوة بمعنى الاتباع أو القراءة ، وقال الراغب : تلا عليه كذب عليه .والشياطين : جمع شيطان ، وهو كائن حي خلق من النار ، ويطلق ، على الممتلئ شراً من الأنس .والمعنى : إن هؤلاء اليهود نبذوا كتاب الله ، واتبعوا الذي كانت تتلوه وتقصه الشياطين على عهد ملك سليمان ، وفي زمانه من الأكاذيب والكفر ومن ذلك زعمهم أن ملكه قام على أساس السحر ، وأنه ارتد في أواخر حياته ، وعبد الأصنام إرضاء لنسائه والوثنيات إلى غير ذلك من : الأكاذيب التي ألصقوها به - عليه السلام - وهو برئ منها .قال صاحب الكشاف ، وقوله تعالى : ( على مُلْكِ سُلَيْمَانَ ) أي على عهد ملكه وفي زمانه وذلك أن الشياطين كانوا يسترقون السمع ثم يضمون إلى ما سمعوا أكاذيب يلفقونها ويلقونها إلى الكهنة ، وقد دونوها في كتب يقرءونها ويعلمونها للناس ، وفشا ذلك في زمان سليمان - عليه السلام - حتى قالوا : إن الجن تعلم الغيب ، وكانوا يقولون : ما تم لسليمان ملكه إلا بهذا العلم وبه يسخر الإنس والجن والريح التي تجري بأمره .وقوله تعالى : ( وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ولكن الشياطين كَفَرُواْ ) معناه : وما كفر سليمان ولكن ، الشياطين هم الذين كفروا إذ تعلموا السحر وعلموه لغيرهم بقصد إضلالهم وصرفهم عن عبادة - الله - تعالى - إلى عبادة غيره من المخلوقات .ففي الجملة الكريمة تنزيه لسليمان - عليه السلام - عن الردة والشرك وتبرئه له من عمل ، السحر الذي كان يتعاطاه أولئك الشياطين وينسبونه إليه زوراً وبهتاناً ودلالة على أن ذلك السحر الذي نسبوه إليه وباشرته الشياطين نوع من الكفر وقد كان اليهود يعتقدون كفر سليمان ، وأنه ارتد في آخر عمره ، وعبد. الأصنام وبني لها المعابد ، وكانوا عندما يذكر النبي صلى الله عليه وسلم سليمان بين الأنبياء يقولون : انظروا إلى محمد يخلط الحق بالباطل ، يذكر سليمان مع الأنبياء ، وإنما كان ساحراً يركب الريح .فإن قال قائل : ما الحكمة في نفي الكفر عن سليمان مع أن صدر الآية لا يفيد أن أحداً نسب إليه ذلك .فالجواب : أن اليهود الذين نبذوا كتاب الله ، واتبعوا ما تلته الشياطين من السحر أضافوا هذا السحر إلى سليمان ، وقالوا إنه كان يسخر به

الجن والإنس والريح ، فأكذبهم الله - تعالى - بقوله : ( وَمَا كَفَرَ
: سُلَيْمَانُ ولكن الشياطين كَفَرُواْ ) كما بينا .والضمير في قوله تعالى
) : وجهان :أحدهما : أنه متصل بقوله تعالى : ( يُعَلِّمُونَ الناس السحر )
ولكن الشياطين كَفَرُواْ ) أي : أن الشياطين هم الذين يعلمون الناس السحر
والثاني : وهو الأظهر أنه متصل بالكلام عن اليهود وأن الكلام في الشياطين.
قد انتهى عند قوله تعالى ( كَفَرُواْ ) وانتحال اليهود لتعليم السحر أمر
كان مشهوراً في زمن التنزيل ولا يزالون ينتحلون ذلك إلى اليوم ، أي أن
فريقاً من اليهود نبذوا كتاب الله اتبعوا أولئك الشياطين الذين كذبوا على
سليمان في رميه بالكر وزعمهم أن السحر استخرج من كتبه التي كانت تحت كرسيه؟
فأجاب على طريق الاستئناف البياني ( يُعَلِّمُونَ الناس السحر ) .ونفي
الكفر عن سليمان والصاقه بالشياطين الكاذبين ذكر بطريق الاعتراض ، فعلم
أيضاً - أنهم اتبعوا الشياطين بهذه القرية ، وإنما كان القصد إلى صوف
اليهود بتعلم السحر ، لأنه من السيئات التي كانوا متلبسين بها ، ويضرون بها
الناس خداعاً وتمويهاً وتلبساً .وإنما أضاف الله - تعالى - إلى اليهود أنهم
اتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان خاصة مع أنه كان معروفاً قبل
سليمان - عليه السلام - كما أخبر به القرآن عن سحرة فرعون ، وإنما أضاف ذلك
إليهم ، لأن هذا كان هو الواقع منهم ، ولأن سحر هؤلاء الشياطين الذين كانوا
على عهد سليمان ، كان مدوناً في صحف اليهود من قديم ، وتوارثه خلفهم عن
- سلفهم إلى أن صول إلى من عاصر النبي صلى الله عليه وسلم منهم ولأن سليمان
عليه السلام - أعطاه الله تعالى ملكاً واسعاً وسخر له الإنس والجن والريح
) : فعزت الشياطين ذلك كله إلى تعلمه السحر .و ( مَآ ) في قوله تعالى ،
، وَمَآ أُنْزِلَ عَلَى الملكين بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ) موصولة
وهي معطوفة على السحر في قوله تعالى : ( يُعَلِّمُونَ الناس السحر ) أي
يعلمون الناس السحر ، ويعلمونهم الذي أنزل على الملكين .والذي أنزل عليهما
هو وصف السحر وما هيته وكيفية الاحتيال به . ليعرفاه الناس فيجتنبوه على حد
قول الشاعر :عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه ... ومن لا يعرف الشر من الناس
يقع فيهفالشياطين عرفوه فعملوا به ، وعلموه للناس ليستعملوه في الشرر
، والمآثم بينما المؤمنون عرفوه واستفادوا من الاطلاع عليه فتجنبوه .هذا
واختصت بابل بالإنزال ، لأنها كانت أكثر البلاد عملا بالسحر ، وكان سحرتها
قد اتخذوا السحر وسيلة لتسخير العامة لهم في أبدانهم وعقولهم وأموالهم ، ثم
جروهم إلى عبادة الأصنام والكواكب فحدث فساد عظيم ، وعمت الأباطيل فألهم
الله - تعالى - هاروت وماروت أن يكشفا للناس حقيقة السحر ودقائقه ، حتى
يعلموا أن السحرة الذين صرفوهم عن عبادة الله إلى عبادة الكواكب وغيرها قد
خدعوهم وأضلوهم ، وبذلك يعودون إلى الصراط المستقيم .واللام في ( الملكين )
مفتوحة في القراءات العشر المتواترة ، وقرئ شاذاً ( الملكين ) بكسر اللام
قال بعض المفسرين : المراد بالملكين - بفتح اللام - رجلان صالحان اطلعا.
على أسرار السحر التي كانت تفعلها السحرة ، فعلماها للناس ليحذراهم من
الانقياد لتلبيسات الشياطين ، وسميا ملكين مع أنهما من البشر لصلاحهما
وتقواهما ، ويؤيد هذا الرأي قراءة الملكين - بكسر اللام - وإن كانت شاذة
- وقال جمهور المفسرين : إنما ملكان على الحقيقة أنزلهما الله - تعالى:
ليعلما الناس السحر ابتلاء لهم ، ليفضحا مزاعم السحرة الذين كانوا يدعون
) ، النبوة كذبا ، ويسخرون العامة لهم ويخرجونهم إلى عبادة غير الله
هَارُوتَ وَمَارُوتَ ) اسمان للملكين الذين أنزل عليهما السحر ، وهما بدل
أو عطف بيان للملكين .وقوله تعالى : ( وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حتى
يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ ) بيان لما كان ينصح به
الملكان من يريد تعلم السحر منهما . والجملة حالية من هاروت وماروت
، والفتنة ، المراد هنا الابتلاء والاختبار ، تقول : فتنت الذهب في النار.
أي : اختبرته لتعرف جودته ورداءته .والمعنى : أن الملكين لا يعلمان أحداً
من الناس السحر إلا وينصحانه بقولهما إن ما نعلمك إياه من فنون السحر الغرض
، منه الابتلاء والاختبار لتمييز المطيع من العاصي . فمن عمل به ضل وقوي
. ومن تركه فهو على هدى ونور من الله ، ولإظهار الفرق بين المعجزة والسحر
فحذار أن تستعمل ما تعلمته فيما نهيت عنه فتكون من الكافرين : كما كفر
السحرة بنسبتهم التأثيرات إلى الكواكب وغيرها من المخلوقات .فالمقصود من
، تعليم الملكين للناس السحر ، فضح أمر السحرة الذين كثروا في تلك الأيام
وادعو ما لم يأذن به الله ، وإظهار الفرق بين المعجزة والسحر حتى يعلم
الناس أن هؤلاء السحرة الذين قد يزعمون بمرور الأيام أنهم أنبياء ليسوا
كذلك ، وإنما هم أفاكون ، وأخبروا على أنفسهم بطريق القصر بأنهم فتنة
للمبالغة في الإقرار بأنهما لا يملكان نفعاً ولا ضراً لأحد ، وإنما هما
- فتنة محضة ، وابتلاء من الله لعباده لتمييز المطيع من العاصي .ثم بين
سبحانه - لوناً من السحر البغيض الذي إستعمله أولئك السحرة في الأذى فقال
تعالى : ( فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ المرء
وَزَوْجِهِ ) أي فيتعلم بعض الناس من الملكين ما يحصل به الفراق بين المرء
وزوجه .فالجملة الكريمة تفريع عما دل عليه قوله تعالى قبل ذلك : ( وَمَا
يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حتى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ ) لأنه

يقتضي أن التعليم حاصل ، وأن بعض المتعلمين قد استعملوه في التفريق بين الزوجين .وخصص سبحانه ها اللون من السحر بالنص عليه للتنبيه على شدة فساده وعلى شناعة ذنب من يقوم به . لأنه تسبب عنه التفريق بين الزوجين اللذين . ) : جمعت بينهما أواصر المودة والرحمة .والضمير في قوله تعالى ، فَيَتَعَلّمُونَ ) راجع لأحد ، وصح عود ضمير الجمع عليه مع أنه مفرد لوقوعه في سياق النفي ، والنكرة إذا وردت بعد نفي كانت في معنى أفراد كثيرة فصح أن يعود ضمير الجمع إليه كذلك .ثم نفى - سبحانه - أن يكون السحر ، مؤثراً بذاته فقال تعالى : ( وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ الله ) أي : أن أولئك السحرة لن يضروا أو ينفعوا أحداً بسحرهم إلا بإذن الله وقدرته ، فالسحر سبب عادي لما ينشأ عنه من الأضرار ويجوز أن يتخلف عنه مسببه إذا أذن الله بذلك .والجملة الكريمة معترضة لدفع توهم أن يكون السحر مضراً بذاته ، بحيث لا يتخلف عنه الضرر متى تعاطاه الساحر .والمراد ( بِإِذْنِ الله ) هنا . تخليته - سبحانه - بين السحور وضرر السحر ، أي : إن شاء حصل الضرر بسبب السحر ، وإن شاء منعه فلا يصيب ، المسحور منه شيء من الأذى .وعبر - سبحانه - عن هذا المعنى بطريق القصر مبالغة في نفي أي تأثير للسحر بذاته ، وإغراء للناس بتكذيب ما يزعمه السحرة من أن لهم قوي غيبية سوى الأسباب التي ربط الله بها المسببات ، وإرشاداً لهم إلى حسن الاعتقاد ، وسلامة اليقين .ثم بين - سبحانه - أن أولئك المتعليمن السحر للأذى وللتفرقة بين المتحابين يتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم فقال تعالى : ( وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ ) أي ، أن أولئك الذين تعلموا السحر ليضروا به غيرهم ، ولم يتعلموه ليفرقوا به : بين الحق والباطل ، أو ليدفعوا به الشر عن أنفسهم ، قد سلكوا بهذا التعليم الطريق الذي يضرهم ولا ينفعهم ، وأصبحوا بذلك عاصين لما نصحهم به الملكان عند تعليم السحر .وفي هذه الجملة الكريمة زيادة تنبيه على تفاهة عقول المشتغلين بالسحر للأذى ومبالغة في تجهيل المصدقين لهم ، لأن الساحر - مهما بلغت براعته - فلن يستطيع أن يمنع شيئاً أراده الله ، ولا أن يأتي بشيء منعه الله ما دام الأمر كذلك فالمشتغل به ، والمصدق له كلاهما وقع في ضلال مبين .وقد أفادت الجملة الكريمة بجمعها بين إثبات الضر ونفي النفع مفاد - الحصر فكأنه - سبحانه - يقول : ويتعلمون ما ليس إلا ضرراً بحتاً .ثم بين : سبحانه - مآل أولئك اليهود التاركين للحق ، والمتبعين للباطل فقال تعالى أي ( وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشتراه مَا لَهُ فِي الآخرة مِنْ خَلاَقٍ ) ولقد علم أولئك اليهود الذين بنذوا تعاليم كتابهم واتبعوا السحر ، أن من : استبدل السحر بكتاب الله بكتاب الله ليس له من حظ في الجنة ، لأنه قد اختار الضلال وترك الهدى ، وعلمهم مرجعه إلى أن التوراة قد حرمت عليهم تعلم السحر أو تعليمه للأذى والضرر ، وشددت العقوبة على مرتكبه ، وعلى متبع الجن والشياطين والكهان .فالضمير في ( عَلِمُواْ ) يعود إلى أولئك اليهود الذي ، تركوا كتاب الله واستبدلوا به السحر .والاشتراء هو اكتساب شيء ببذل غيره والمراد أنهم اكتسبوا السحر الذي تتلوه الشياطين بعد أن بذلوا في سبيل ذلك إيمانهم ونصيبهم من الجنة ، وغدوا مفلسين من حظوظ الآخرة ، لإقبالهم على - التمويه والكذب ، واستبدالهم الذي هو أدنى بالذي هو خير .وأكد - سبحانه علمهم بضرر السحر بقوله ( وَلَقَدْ عَلِمُواْ ) للإشارة إلى أن اختيارهم للسحر لم ينشأ عن جهلهم بضرره ، وإنما هم الذين اختاروه ومالوا إليه متعمدين وعالمين بعاقبته السيئة .ثم قال تعالى : ( وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ) .شروا : بمعنى باعوا ، وبيع الأنفس هنا معناه بيع نصيبها من الجنة . ونعيمها .والمعنى : ولبئس شيئا باع به أولئك السحرة حظوظ أنفسهم تعلم ما يضر من السحر والعمل به ، ولو كانوا ) : ممن ينتفعون بعلمهم لما فعلوا ذلك .وأثبت لهم العلم في قوله تعالى : ( لَوْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ إشتراه ) ثم نفاه عنه في قوله تعالى : ( لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ) جرياً على الأسلوب المعروف في فنون البلاغة من أن العالم بالشيء إذا لم يعمل بموجب علمه نزل منزلة الجاهل ونفي عنه العلم كما ينفي عن الجاهلين .وإلأى هذا المعنى الذي قررناه أشار صاحب الكشاف بقوله فإن قلت كيف أثبت لهم العلم أولا في قوله : ( وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ. إشتراه ) على سبيل التوكيد القسمي ، ثم نفاه عنهم في قوله : ( لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ) .قلت : معناه لو كانوا يعملون بعلمهم . جعلهم حين . لم يعملوا به كأنهم منسخلون عنه

ولو انهم امنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - المنافع التي تعود عليهم لو اتبعوا ) : الحق ، بعد أن بين الأضرار التي ترتبت على اتباعهم للباطل فقال تعالى وَلَوْ أَنّهُمْ آمَنُواْ واتقوا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ الله خَيْرٌ لّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ) أي : لو أن أولئك اليهود النابذين لكتاب الله المتبعين للأوهام والأباطيل ، آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم أو بالتوارة ، إيماناً حقاً ، واتقوا الله ، فاجتنبوا ما يؤثمهم ومنه السحر والتمويه

لكانت لهم مثوبة من عند الله ، هي خير لهم من السحر وغيره ، ولو كانوا من
أولى العلم النافع لفهموا ذلك ، واستبدلوا بالسحر الإيمان والتقوى ، ولكنهم
قوم لا يعقلون .فقوله تعالى : ( لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ الله خَيْرٌ )
جواب للو الشرطية ، وأصل التركيب ، لأثيبوا مثوبة من عند الله خيراً مما
، شروا به أنفسهم ، فحذف الفعل ، وغير السبك إلى ما عليه النظم الكريم
للدلالة على ثبوت المثوبة لهم والجزم بخيريتها .وإلى هذا المعنى أشار صاحب
الكشاف بقوله : ( فإن قلت : كيف أو ثرت الجملة الاسمية على الفعلية في جواب
لو؟ قلت : لما في ذلك من الدلالة على ثبات المثوبة واستقرارها ، كما عدل عن
: النصب إلى الرفع في سلام عليكم لذلك .وقال الإمام الآلوسي : ( المثوبة
اسم مصدر أثاب إذا أعطى الثواب ، والثواب الجزاء الذي يعطي للغير . ولم
يقل - سبحانه - لمثوبة الله مع أنه أخصر ، ليشعر التنكير بالتقليل فيفيد أن
شيئاً قليلاً من ثواب الله - تعالى - في الآخرة الدائمة ، خير من متاع كثير
في الدنيا الفانية ، فكيف ثواب اله - تعالى - كثير دائم ، وفيه من الترغيب
والترهيب المناسبين للمقام ما لا يخفى .وقوله تعالى : ( لَّوْ كَانُواْ
يَعْلَمُونَ ) شرط آخر محذوف الجواب لدلالة ما تقدم عليه ، وحذف مفعول
: يَعْلَمُونَ ) لدلالة ( لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ الله خَيْرٌ ) عليه . أي
لو كانوا يعلمون مثوبة الله لما اشتروا السحر بالإيمان .وبذلك تكون الآيات
الكريمة التي سقناها في هذا البحث قد دمغت بني إسرائيل بجحود الحق ، ونبذهم
لتعاليم كتابهم وإيثارهم عليها الأكاذيب والأباطيل ، وسيرهم في طريق الشر
عن تعمد وإصرار ، وعدم عملهم بما يعلمون لانحراف طباعهم ، وحماقة تفكيرهم
وسوء تدبيرهم . واستحواذ الشيطان عليهم . . ( فَبَآءُو بِغَضَبٍ على غَضَبٍ
وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِين ) هذا ، ويحسن بنا قبل أن نختم هذا البحث
أن نذكر كلمة موجزة عن السحر فنقول :السحر : في أصل اللغة معناه : الصرف ،
ومنه قوله تعالى ( فأنى تُسْحَرُونَ ) أي : فكيف تصرفون عن الحق إلى ،
الباطل ،وقد ذكر السحر في القرآن والسنة ، واتفق علماء المسلمين على أن
هناك شيئاً يسمى سحراً ، إلا أنهم اختلفوا في تصويره .فجمهور أهل السنة ذهب
إلى أن للسحر آثاراً حقيقية ، وأن الساحر قد يأتي بأشياء غير عادية ، إلا
أن الفاعل الحقيقي في كل ذلك هو الله - تعالى - واستدلوا على ذلك بأدلة
منها .أولا : أن الله - تعالى - قد أمر نبيه صلى الله عليه وسلم ، أن
يستعيذ به ( وَمِن شَرِّ النفاثات فِي العقد ) وهم السحرة - على أرجح
الأقوال .قال الإمام ابن كثير : قوله تعالى ( وَمِن شَرِّ النفاثات فِي
" العقد ) قال مجاهد وعكرة والحسن وقتادة والضحاك ، يعني السواحر قال مجاهد
إذا رقين ونفثن في العقد " .فالآية الكريمة تدل على أن للسحر آثاراً حقيقية
وإلا لما أمر الله - تعالى - نبيه صلى الله عليه وسلم أن يستعيذ من شرور ،
: - السحرة .ثانياً : قال الإمام البخاري : - في باب هل يستخرج السحر
حدثني عبد الله بن محمد ، قال : سمعت سفيان بن عيينة يقول : أول من حدثنا
به ابن جريج يقول : حدثني آل عروة عن عروة ، فسألت هشاماً عنه فحدثنا عن
أبيه عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم سحر حتى كان يرى
أنه يأتي النساء ولا يأتيهن ، قال سفيان : وهذا أشد ما يكون من السحر إذا
كان كذلك . فقال : " " يا عائشة أعلمت أن الله قد أفتاني فيما استفتيته
فيه؟ أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي ، فقال الذي عند
- رأسي للآخر ، ما بال الرجل : مطبوب ، قال ومن طبه؟ قال : لبيد بن الأعصم
رجل من بني زريق حليف اليهود كان منافقاً - قال . وفيم : قال : في مشط
: ومشاطه ، قال : وأين؟ قال في جف طلعة ذكر تحت راعوفة في بئر ذروان . قالت
فأتى البئر حتى استخرجه ، فقال : " هذه البئر التي أريتها وكأن نخلها رءوس
الشياطين " قال فاستخرج - أي السحر - قالت : فقلت أفلا - أي- تنشرت؟ فقالت
إن الله قد شفاني وأكره أن أثير على أحد من الناس شراً " " .فهذا " :
الحديث الصحيح يفيد أن السحر قد أثر في جسم الرسول صلى الله عليه وسلم بنوع
من المرض أو الثقل ، دون أن يكون لذلك أدنى تأثير في عقله .قال الإمام ابن
القيم : هذا هو الحديث الذي رواه البخاري ، وهو ثابت عند أهل العلم بالحديث
لا يختلفون في صحته ، وقد اتفق أصحاب الصحيحين على تصحيحه ، ولم يتكلم فيه
أهل الحديث بكلمة واحدة ، والقصة مشهورة عند أهل التفسير والسنن والحديث
والتاريخ والفقه ، وهؤلاء أعلم بأحوال الرسول صلى الله عليه وسلم وأيامه
وقال الإمام القرطبي " الأدلة متوفرة على أن للسحر حقيقة ، فهو مقطوع به.
بإخبار الله - تعالى - ورسوله على وجوده ووقوعه ، وعلى هذا أهل الحل والعقد
الذين ينعقد بهم الإجماع ولا عبرة مع اتفاقهم بحثالة المعتزلة ومخالفتهم
أهل الحق ، ولقد شاع السحر وذاع في ساق الزمان ، وتكلم الناس فيه ، ولم يبد
من الصحابة ولا من التابعين إنكار لأصله .وقال الأستاذ محمد فؤاد عبد
الباقي . قال المازري : " مذهب أهل السنة وجمهور علماء الأمة على إثبات
السحر وأن له حقيقة كحقيقة غيره من الأشياء الثابتة . خلافا لمن أنكر ذلك
وني حقيقته وأضاف ما يقع منه إلى خيالات باطلة لا حقائق لها . وقد ذكره
الله - تعالى - في كتابه وذكر أنه مما يتعلم . وذكر فيه إشارة إلى أنه مما
يكفر به . وأنه يفرق بين المرء وزوجه . وهذا كله لا يمكن فيما لا حقيقة له
وهذا الحديث أيضاً مصرح بإثباته .وأنه أشياء دفنت وأخرجت ولا يستنكر في ،

العقل أن الله - سبحانه - يخرق العادة عند النطق بكلام ملفق أو تركيب أجسام
أو المزج بين قوى على ترتيب لا يعرفه إلا الساحر . قال : وقد أنكر بعض ،
، المتبدعة هذا الحدجيث لسبب آخر . فزعم أنه يحط من منصب النبوة ويشكك فيها
وأن تجويزه يمنع الثقة بالشرع وهذا الذي ادعاه بعض المبتدعة باطل لأن
الدلائل القطعية قد قامت على صدقه وصحته وعصمته فيما يتعلق بالتبليغ
والمعجزة شاهدة بذلك . قال القاضي عياض : وقد جاءت روايات مبينة أن السحر
إنما تسلط على جسده وظواهر جوارحه ، لا على قوله وقلبه واعقتاده ، ويكون
معنى قوله في الحديث : " حتى يظن أنه يأتي أهله ولا يأنيهن " أن يظهر من
نشاطه ومتقدم عادته القدرة عليهن ، فإذا دنا منهن أخذته أخذه السحر فلم
يأتهن ولم يتمكن من ذلك كما يعتري المسحور .أما المعتزلة فقد ذهبوا إلى أن
) السحر لا حقيقة له ، وإنما هو تخييل وتمويه كما قال تعالى في سحرة فرعون
فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ
أَنَّهَا تسعى ) فأخبر - سبحانه - أن ما ظنوه سعياً منها لم يكن سعياً عَلَى
) الحقيقة إنما كان تخييلا وتمويهاً . وقال تعالى في سحرة فرعون أيضاً
فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سحروا أَعْيُنَ الناس واسترهبوهم وَجَآءُوا بِسِحْرٍ
عَظِيمٍ ) أي فلما ألقوا عصيهم موهوا على الناس حتى ظنوا أن حبالهم وعصيهم
تسعى ، وأرهبوهم بما فعلوه ، وجاءوا بسحر عظيم في فنه .والذي نراه أن السحر
على أضرب منها :أولا : ضرب يترتب على مزاولته قلب الحقائق كقلب الإنسان
حيواناً وعكسه ، وهذا قد منعه المعتزلة بحجة أن الساحر لو أمكمنه ذلك لا
لتلبس فعله هذا بمعجزات الأنبياء . وأهل السنة أجازوا وقوعه وإن كان لم يقع
فعلا . ويفرقون بينه وبين المعجزة إن وقع ، بأن المعجزة خارق يظهر على يد
من يدعى النبوة على سبيل التحدي والمعارضة ، والسحر ليس فيه دعوة نبوة ولا
معارضة .هذا ، مع ملاحظة أن السحر يمكن تعلمه وتعليمه ، ولا يظهر إلا على
يد شرير بخلاف المعجزة .قال فضيلة المرحوم الشيخ محمد الخضر حسين : وهذا
النوع لم يقع لنا دليل في الشريعة على وقوعه ، وربما كانت الحاجة إلى الفرق
بين المعجزة والسحر فرقاً واضحاً تقتضي عدم وقوعه ، فالساحر لا يبلغ أن
يقلب العصا ثعباناً ، ولا أن يفلق البحر فتمر بين فرقيه الجيوش ولا أن يجعل
الماء ينبع بين الأصابع فتروى منه العطاش ، أعني أنه لا يجزي على يده من
خوارق العادات ، مثل ما يجري على أيدي الأنبياء للإعجاز .ثانياً : أن
يزاول بعض أرباب النفوس الخبيثة أفعالا يترتب عيلها الضرر بدون مماسة ولا
ملابسة لمن وقع عليه الضرر ، وهذا الضرب قد جوز وقوعه أهل السنة ومنعه
المعتزلة ، ومن أمثلته ما يفعله السحرة للتفريق بين المرء وزوجه والظاهر في
هذا الضرب قول أهل السنة لأن القرآن الكريم قد حكى عن السحرة أنهم يتعلمون
من السحر ما يفرقون به بين المرء وزوجه ، وقد حص الحديث أن لبيد بن الأعصم
اليهودي سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه حينما استخرج السحر خف جسمه
صلى الله عليه وسلم كأنما نشط من عقال .ثالثاً : مزاولة أسباب يترتب عليها
، آثار ظاهريه لا حقيقية وهذا الضرب واقع باتفاق بين أهل السنة والمعتزلة
وقد حكاه القرآن الكريم عن سحرة فرعون في قوله تعالى : ( فَلَمَّآ
أَلْقَوْاْ سحروا أَعْيُنَ الناس واسترهبوهم ) وفي قوله تعالى : ( فَإِذَا
حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا
تسعى ) هذا ، وقد حذر الإسلام من تعاطى السحر للأذى ، وجاءت تعاليمه بذمة
وتحريمه ، وتوعدت مرتكبه بالعقوبات الأليمة ، ففي الحديث الشريف " حد
، الساحر ضربه بالسيف " .وقد أفتى بعض الفقهاء بقتل الساحر لأنه زنديق
وبعضهم أفتى بأن الساحر إذا كان قد أحدث في المسحور جناية توجب القصاص اقنص
: منه ، وإن كان قد أحدث به ما لا قصاص فيه ، حكم عليه بدية مناسبة .وبعد
فهذه كلمة ذكرناها عن السحر ، لم نقصد بها الخوض في تفصيلاته . وإنما قصدنا
بها إعطاء القارئ فكرة مختصرة عنه بمناسبة حديثنا عن رذائل اليهود التي
. منها نبذهم لكتاب الله واتباعهم للأوهام والأباطيل والأكاديب

يا ايها الذين امنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب
اليم

كما فسرها الوسيط ثم وجه القرآن نداء إلى المؤمنين نهاهم فيه عن مخاطبة
النبي صلى الله عليه وسلم بألفاظ معينة حتى لا يتخذها اليهود ذريعة
للإساءة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال تعالى :( يَاأَيُّهَا الذين
آمَنُواْ لاَ تَقُولُواْ . . . )( رَاعِنَا ) من المراعاة ، وهي المبالغة
في الرعي بمعنى حفظ الغير ، وإمهاله ، وتدبير أموره ، وتدارك مصالحه ، وكان
المؤمنون يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حدثهم بحديث راعنا يا
رسول الله ، أي : راقبنا وانظرنا حتى نفهم كلامك ونحفظه ، فتلقف اليهود هذه
) الكلمة لموافقتها كلمة سيئة عندهم ، وأخذوا يلوون بها ألسنتهم ، ويقولن
، رَاعِنَا ) يا أبا القاسم ، يظهرون أنهم يريدون طلب المراعاة والإنتظار
وهم يريدون في الحقيقة الإساءة إليه - صلى الله عليه وسلم إذ أن هذه
الكلمة عبرية كانوا يتسابون بها يقصدون جعله راعيا من رعاة الغنم أو من
الرعونة التي هي الحمق والخفة ، فنهى الله - تعالى - المسلمين عن استعمال

هذه الكلمة حتى لا يتخذها اليهود وسيلة إلى إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم
والتنقيص من شأنه .قال قتادة : " كانت اليهود تقول للنبي صلى الله عليه
" وسلم راعنا سمعك ، يستهزئون بذلك وكانت - هذه الكلمة - في اليهود قبيحة
وقال الإمام ابن كثير : " نهى الله - تعالى - عباده المؤمنين أن يتشبهوا.
بالكافرين في مقالهم وفعالهم ، وذلك أن اليهود كانوا يعلنون من الكلام ما
، فيثه تورية لما يقصدونه من التنقيص فإذا أرادوا أن يقولوا : اسمع لنا
يقولوا راعنا يورون بالرعونة كما قال تعالى :( مِّنَ الذين هَادُواْ
يُحَرِّفُونَ الكلم عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا
واسمع غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي
الدين وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا واسمع وانظرنا
لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ الله بِكُفْرِهِمْ
فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ) وكذلك جاءت الأحاديث بالإخبار عنهم
بأنهم كانوا إذا سلموا ، إنما يقولون السام عليكم والسام هو الموت ولهذا
أمرنا أن نرد عليهم بقولنا وعليكم ، وأنما يستجاب لنا فيهم ولا يستجاب لهم
" فينا ، والغرض أن الله تعالى نهى المؤمنين عن مشابهة الكافرين قولا وفعلا
وقال الإمام ابن تيمية : " كان المسلمون يقولن راعنا يا رسول الله وأرعنا.
سمعك ، يعنون المراعاة ، وكانت هذه اللفظة سباً قبيحاً بلغة اليهود فلما
سمعتها اليهود اغتنموها وقالوا فيما بينهم : كنا نسب محمداً سراً فأعلنوا
له الآن بالشتم ، وكانوا يأتونه ويقولون : راعنا يا محمد ويضحكون فيما
بينهم ، فسمعها " سعد بن معاذ " ففطن لهم ، - وكان يعرف لغتهم - فقال
لليهود : عليكم لعنة الله ، والذي والذي نفسي بيده يا معشر اليهود لئن
، سمعتها من رجل منكم يقولها لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأضر بن عنقه
فقالوا : أولستم تقولونها ، فأنزل الله - تعالى - ( يَاأَيُّهَا الذين
آمَنُواْ لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا ) لكي لا يتخذ اليهود ذلك سبيلا إلى شتم
الرسول صلى الله عليه وسلم .ثم أرشد الله - تعالى - المؤمنين إلى ما
يقولونه بدل هذه الكلمة فقال تعالى : ( وَقُولُواْ انظرنا ) أي :لا تقولوا
تلك الكلمة - وهي ( رَاعِنَا ) أيها المؤمنون لئلا يتخذها اليهود ذريعة لسب
نبيكم صلى الله عليه وسلم وقولوا مكانها ( انظرنا ) أي : انتظرنا وتأن معنا
حتى نفهم عنك ، من نظر بمعنى انتظر تقول نظرت الرجل انظره إذا إنتظرته
وارتقبته ، وبهذا المعنى ورد قوله تعالى ( انظرونا نَقْتَبِسْ مِن
نُّورِكُمْ ) أي : انتظرونا نقتبس من نوركم .فالآية الكريمة تنبيه وإرشاد
إلى الأدب الجميل ، وهو أن يتجنوب الإنسان في مخاطباته الألفاظ التي توهم
- جفاء أو تنقيصاً في مقام يقتضي إظهار مودة أو تعظيم تم بين - سبحانه
: مصير اليهود المؤمل جزاء تعديهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم سفقال
أي : لهؤلاء اليهود الذين اتخذوا كلمة ( وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ )
وسيلة إلى سب الرسول صلى الله عليه وسلم عذاب أليم جزاء كفرهم ( رَاعِنَا )
وتطاولم وسفاهتهم .هذا ، وقد وردت أحاديث صحيحة صرحت بأن اليهود كانوا
يحييون رسول الله صلى الله عليه وسلم بكلام محرف لا يفطن له أكثر الناس
يقصدون به الدعاء عليه بالموت ، فكان الرسول صلى الله عليه وسلم يرد عليهم
بما يكبتهم ويخزيهم ومن هذه الأحاديث ما أخرجه البخاري عن أنس بن مالك قال
مر يهودي برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال السام عليك ، فقال - 1 ":
رسول الله صلى الله عليه وسلم " وعليك " ثم قال رسول الله صلى الله عليه
" وسلم لأصحابه - أتدرون ما يقول؟ قالوا :لا ، قال يقول " السام عليك
قالوا يا رسول الله ألا نقتله . قال : "لا ، إذا سلم عليكم أهل الكتاب
": فقولوا وعليكم " " .2 - وأخرج الشيخان عن عائشة - رضي الله عنها - قالت
دخل رهط من اليهود على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا :السام عليك
قالت عائشة : ففهمتها ، فقلت : عليكم السام واللعنة ، قالت : فقال رسول
" الله صلى الله عليه وسلم " مهلا يا عائشة إن الله يحب الرفق في الأمر كله
فقلت يا رسول الله ألم تسمع ما قالوا؟قال " لقد قلت وعليكم " " .3 - وروى
مسلم عن جابر بن عبد الله قال : " سلم ناس من اليهود على رسول الله صلى
الله عليه وسلم فقالوا السام عليك يا أبا القاسم فقال : " وعليكم " فقالت
عائشة وغضبت : ألم تسمع ما قالوا : قال بلى قد سمعت فرددت عليهم ، وإنما
) : نجاب ولا يجابون علينا " .وإذن فالآية الكريمة وهي قوله تعالى
يَاأَيُّهَا الذين آمَنُواْ لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا ) إلخ ، وهذه الأحاديث
الشريفة تثبت أن اليهود كانوا يستعملون من بين مسالكهم الخبيثة لكيد الدعوة
- الإسلامية القول الملتوي القبيح ، والخطاب المحرف السيء ، ولكن الله
تعالى - أحبط خطتهم ، ونهى المؤمنين عن استعمال الألفاظ التي كان يتخذها
اليهود ذريعة لبلوغ مأربهم ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يرد عليهم بما
- يغيظهم ويخزيهم ، وبذلك ذهبت مكايد اليهود أدراج الرياح وأيد الله
. تعالى - رسوله والمؤمنين بقوته ونصره

ما يود الذين كفروا من اهل الكتاب ولا المشركين ان ينزل عليكم من خير من
ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم

كما فسرها الوسيط ثم نبه القرآن المؤمنين إلى ما يضمره لهم المشركون وأهل الكتاب وعلى رأسهم اليهود - من شرور وأحقاد فقال - تعالى :( مَّا يَوَدُّ الذين كَفَرُواْ مِنْ . . . )( مَّا يَوَدُّ ) أي : ما يحب ، إذ الود محبة الشيء مع تمنيه ، يقال : ود فلان كذا يوده وداً ومودة بمعنى أحبه وتمناه قال صاحب الكشاف : " ومن الأولى في الآية للبيان ، لأن الذين كفروا جنس تحته نوعان ، أهل الكتاب والمشركون ، والثانية مزيدة لاستغراق الخير والثالثة لابتداء الغاية " .وقوله - تعالى - : ( مَّا يَوَدُّ ) . . إلخ الآية بيان لما يبيته الكافرون - خصوصاً اليهود - للمسلمين من حقد وكراهية وتحذير لهم من الاطمئنان إليهم ، والثقة بهم .وفي التعبير بقوله تعالى ( مَّا يَوَدُّ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب ) دون ما يود أهل الكتاب تنبيه إلى أنهم قد كفروا بكتبهم ، لأنهم لو كانوا مؤمنين بها لصدقوا محمداً صلى الله عليه وسلم الذي أمرتهم كتبهم بتصديقه واتباعه .وعطف عليهم المشركين ليدل على أن عبدة الأصنام - أيضاً - يضاهون كفرة أهل الكتاب ، في كراهة نزول أي خير على المؤمنين ، وأن الجميع يحسدونهم على ما آتاهم الله من فضله ، عن طريق نبيه صلى الله عليه وسلم من دون قويم ، وقرآن كريم ، وهداية عظمى ، وأخوة شاملة ، وأمن بعد خوف ، وقوة بعد ضعف .والخير : النعمة والفضل والمراد به في الآية الكريمة النبوة وما تبعها من الوحي الصادق ، والقرآن العظيم المشتمل على الحكمة الرائعة والحجة البالغة والبلاغة الباهرة ، والتوجيه النافع .وأهل الكتاب قد كرهوا ذلك للمؤمنين لعنادهم وحسدهم - وكراهتهم أن تكون النبوة في رجل عربي ليس منهم .والمشركون كرهوا ذلك أيضاً - لأن في انتشار الإسلام ، وفي تنزيل الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم ما يخيب آمالهم في إبطال الدعوة الإسلامية ، وإضعاف شوكتها والنصر على أتباعها .وقوله تعالى : ( والله يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَآءُ والله ذُو الفضل العظيم ) .رد عليهم بما يكشف عن جهلهم وجهل جميع الحاسدين - لأن الحاسد لغباوته يسخط على قدر الله ، ويعترض عليه لإنعامه - سبحانه ، على المحسود والله - تعالى - هو صاحب التصرف المطلق في الإعطاء والمنع فكان من الواجب على هؤلاء الذين لا يودون أن ينزل أي خير على المؤمنين أن - يريحوا أنفسهم من هذا العناء ، وأن يتحولوا عن ذلك الغباء ، لأن الله تعالى - يهب خيره لمن يشاء .والاختصاص بالشيء : الانفراد به ، تقول : اختص فلان بكذا أي انفرد به ، ويستعمل متعدياً إلى المفعول به ، فتقول : اخصصت فلانا بكذا أي أفردته به وجعلته مقصوراً عليه .وعلى هذا الوجه ورد الاختصاص في الآية الكريمة .وقدي - سبحانه - اختصاص رحمته بمن يشاء ليعلم الناس جميعاً ، أن إفراد بعض عباده بالرحمة منوط بمشيئته وحدها ، وليس لأحد كائناً من كان أي تأثير في ذلك .ومفعول المشيئة محذوف كما هو الشأن فيه إذا تقدم عليه كلام أو تأخر عنه . أي : يختص برحمته من يشاء اختصاصه بها ، وهي تتناول النبوة . والقرآن ، والنصر ، وكل ذلك مما لا يود الكافرون إنزاله على المؤمنين .وقوله تعالى : ( والله ذُو الفضل العظيم ) تذييل لما سبق أي كل خير يناله العباد في دينهم أو دنياهم إنما هو من عنده - تعالى - يتفضل به عليهم ، وفي ذلك إشعار للحاسدين بأن يقلعوا عن حسدهم ، وتعريض باليهود ، وغيرهم ممن حسدوا محمداً صلى الله عليه وسلم على أن آتاه الله النبوة فكأنه - سبحانه - يقول لهم : إني أصطفى للنبوة من أشاء من عبادي وهي لا تدرك بالأماني ، ولكني أهبها لمن هو أهل لها .وبذلك تكون الآية الكريمة قد حذرت المؤمنين مما يبيته لهم الكافرون من حقد وبغضاء وبشرتهم بأن ما يبيتونه لن يضرهم ما داموا معتصمين بكتاب ربهم ، وسنة نبيهم .ثم انتقل القرآن إلى الحديث عن موضوع النسخ الذي أثار اليهود حوله الشبهات ، وجادلوا فيه النبي صلى الله عليه وسلم .لقد استنكر اليهود أن يبدل الله آية بآية ، أو حكماً بحكم ، وقالوا : ألا ترون إلى محمد صلى الله عليه وسلم يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمر بخلافه ، ويقول اليوم قولا ويرجع عنه غداً ما هذا من شأن الأنبياء وما هذا القرآن إلا من كلام محمد ، يقوله من تلقاء نفسه ، وهو كلام يناقض بعضه بعضاً .

ما ننسخ من اية او ننسها نات بخير منها او مثلها الم تعلم ان الله على كل شيء قدير

كما فسرها الوسيط ولم يترك القرآن الكريم تلك الشبهات التي أثارها اليهود حول شريعة الإسلام بدون جواب ، بل أنزل الله - تعالى - آيات كريمة لدحضها وإزالتها من الصدور ، ليزداد المؤمنون إيماناً ، وهذه الآيات هي قوله تعالى :( مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ ) . . . النسخ في اللغة الإبطال والإزالة ، يقال . نسخت الشمس الظل تنسخه ، إذا أذهبته وأبطلته .وفي عرف الشرع : بيان انتهاء مدة الحكم بخطاب لولا هذا الخطاب لاستمر الحكم على مشروعيته ، بمقتضى النص الذي تقرر به أولا .وننسها من أنسى الشيء جعله منسياً .فمعنى نسخ الآية في قوله تعالى : ( مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ ) : - تعالى - رفع حكمها مع بقائها .ومعنى إنسائها في قوله - تعالى نُنسِهَا ) رفع الآية من نظم القرآن جملة .وسمي رفع الآية من نظم القرآن

جملة إنساء ، لأن من شأن ما لا يبقى في النظم أن ينساه الناس لقلة جريانه على الألسنة بالتلاوة والاحتجاج به .ويصح إبقاء الإنساء على حقيقته ، وهو إذهاب الآية من القلوب وإزالتها من الحافظة ، بعد أن يقضي الله بنسخها وإنما قلنا بعد أن يقضي الله بنسخها ، لأن إنساء الناس آية لم تنسخ إضاعة. لشيء من القرآن ، والله يقول ( إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ) ومما يدل على نسخ الآية المنساة ، أي : انتهاء مدة التكليف بها قوله تعالى : ( نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ) أي نأت بخير من المنسية المنسوخة أو مثلها ، فيكون قوله تعالى : ( أَوْ نُنسِهَا ) معبرا عن حالة تعرض في بعض ما سيرفع من القرآن وهي أن ينساه الناس لذهابه من قلوبهم ، بعد أن يقضي الله بنسخه - كما ذكرنا- .ووجه ذكر هذه الحال بوجه خاص ، أن ما ينسى لعدم حضوره في الذهن لا تعرف الآيات التي تقوم مقامه ، فربما يقع في الوهم أنه ذهب من غير أن ينزل من الآيات ما يغني غناءه .وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ( نُنسِهَا ) بالهمزة ، من النساء وهو التأخير وعلى هذه القراءة يحمل النسخ في قوله تعالى : ( مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ ) على النوعين السابقين وهما : نسخ الآية حكما فقط ، ونسخها حكماً وتلاوة .ومعنى ( نُنسِهَا ) تؤخر إنزالها إلى وقت ثان فلا ننزلها ، وننزل ) : ما يقوم مقامها في القيام بالمصلحة .والخيرية والمماثلة في قوله تعالى نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ) ترجع إلى ثواب العمل بها . فقد يكون ثواب العمل بالناسخة أوفر من ثواب العمل بالمنسوخة قبل نسخها ، وقد يكون مماثلا له ، وإن كانت كل واحدة من الآيتين الناسخة والمنسوخة بالنظر - إلى الوقت المقدر للعمل بها ، أقوم على المصلحة من الأخرى .وبعد أن أثبت سبحانه - أن النسخ جائز وواقع بقوله : ( مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ) ساق جملة كريمة في صورة الاستفهام التقريري ، مخاطباً بها الأمة الإسلامية في شخص نبيها صلى الله عليه وسلم لتكون دليلا على هذا الثبوت ، وهذه الجملة هي قوله تعالى : والمعنى أن ( أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ) الله - تعالى - متمكن من أن يفعل ما يشاء على الوجه الذي تقتضيه حكمته وإرادته ، ومن كان هذا شأنه فله أن يأمر في وقت بأمر ، ثم ينسخه أو يستبدل به آخر لمقتضيات الظروف والأحوال .

الم تعلم ان الله له ملك السماوات والارض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير

كما فسرها الوسيط ثم أقام - سبحانه - الدليل على كمال قدرته وشمولها لكل شيء فقال :( أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ الله لَهُ مُلْكُ السماوات والأرض وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ الله مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ) .والمعنى : أنه - سبحانه - مالك لجميع الكائنات العلوية والسفلية ، وأنه هو المتصرف كما يشاء في ذواتها وأحوالها ، وأنه يتصرف في أمورهم ويجريها على حسب ما يصلحهم ، وهو أعلم بما يتعبدهم به من ناسخ ومنسوخ وليس للناس من أحد يتولى أمورهم ويعينهم على أعدائهم سواه ، ومن كان الله وليه ونصيره علم يقينا أنه لا يفعل به إلا ما هو خير له في دنياه وأخراه .وإذن فأنتم - أيها اليهود - ما قدرتم الله حق قدره ، لزعمكم أن النسخ محال على الله لأن المالك لكل شيء ، من حقه أن يمحو ما يشاء ويثبت ما يريد على حسب ما تقتضيه حكمته ومشيئته - فالآية واقعة موقع الدليل على ما تضمنته الجملة السابقة من إحاطة قدرته. سبحانه - بكل شيء .

ام تريدون ان تسالوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ومن يتبدل الكفر بالايمان فقد ضل سواء السبيل

كما فسرها الوسيط ثم حذر القرآن الكريم المؤمنين من الاستماع إلى وساوس اليهود ، تثبيتاً لقلوبهم ، وتقوية لإيمانهم ، فقال تعالى : ( أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ موسى مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الكفر بالإيمان فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ السبيل ) .والمعنى لا يصح لكم أيها المؤمنون أن تقترحوا على رسولكم محمد صلى الله عليه وسلم : مقترحات تتنافى مع الإيمان الحق كأن تسألوه أسئلة لا خير من ورائها لأنكم لو فعلتم ذلك لصرتم كبني إسرائيل الذين طلبوا من نبيهم موسى - عليه ) : السلام - بعد أن جاءهم بالبينات - مطالب تدل على تعنتهم وجهلهم فقال له أَرِنَا الله جَهْرَةً ) وقالوا له : ( اجعل لَّنَآ إلها كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ) ولو صرتم مثلهم لكنتم ممن يختار الكفر على الإيمان ، ولخرجتم عن الصراط المستقيم الذي يدعوكم إليه نبيكم صلى الله عليه وسلم .والاستفهام في الآية الكريمة للإنكار ، وفي أسلوبها مبالغة في التحذير من الوقوع فيما ، وقع فيه اليهود من تعنت مع رسولهم ، إذ جعل محط الإنكار إرادتهم للسؤال . وفي النهي عن إرادة الشيء ، نهى عن فعله بأبلغ عبارة

ود كثير من اهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفارا حسدا من عند انفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى ياتي الله بامره ان الله على كل شيء قدير

كما فسرها الوسيط ( وَدّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الكتاب لَوْ يَرُدُّونَكُم
معنى الآية الكريمة : أحب وتمنى عدد كثير من اليهود الذين هم أهل( . . .
كتاب ، أن ينقلوكم أيها المؤمنون من الإيمان إلى الكفر ، حسداً لكم وبغضاً
لدينكم ، من بعد ما ظهر لهم أنكم على الحق باتباعكم محمدا صلى الله عليه
وسلم فلا تهتموا بهم ، بل قابلوا أحقادهم وضرورهم بترك عقابهم ، والإعراض
- عن أذاهم ، حتى يأذن لاله لكم فيهم بما فيه خيركم ونصركم ، فإنه - سبحانه
على كل شيء قدير " .وقوله تعالى : ( وَدّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الكتاب
لَوْ يَرُدُّونَكُم مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفّاراً ) بيان للون من
ألوان الشرور التي يضمرها أهل الكتاب وعلى رأسهم اليهود ، وهو تمنيهم
ارتداد المسلمين عن دينهم الحق ، إلى الكفر الذي أنقذهم الله - تعالى - منه
وإنما أسند - سبحانه - هذا التمني الذميم إلى الكثرة منهم ، انصافاً للقلة.
المؤمنة التي لم ترتض أن ينتقل المسلمون إلى الكفر بعد أن هداهم الله إلى
الإسلام .وقوله تعالى : ( بَعْدِ إِيمَانِكُمْ ) مبالغة في ذمهم بسبب ما
تمنوه وأحبوه إذ ودوا - وهم أهل كتاب - أن يحل الكفر محل الإيمان ، وفيه
، إشعار بأن ما تمنوه بعيد الحصول؛ لأن الإيمان متى خالطت بشاشته القلوب
منع صاحبه من الانتقال إلى الكفر .ثم بين - سبحانه - أن الذي حملهم على هذا
التمني الذميم هو الحقد والحسد ، فقال تعالى : ( حَسَداً مِّنْ عِنْدِ
أَنْفُسِهِمْ مِّن بَعْدِ مَا تَبَيّنَ لَهُمُ الحق ) أي : أن هذا التمني
لم يكن له من سبب أو علة سوى الحسد الذي استولى على نفوسهم ، واستحوذ على
قلوبهم فجعلهم يحسدون المؤمنين على نعمة الإيمان ويتمنون التحول عنه إلى
الكفر ، فالجملة الكريمة علة لما تضمنته الجملة السابقة ، من محبتهم نقل
: المؤمنين إلى الكفر .قال فضيلة المرحوم الشيخ محمد الخضر حسين : " والحسد
قلق النفس من رؤية نعمة يصيبها إنسان ، وينشأ عن هذا القلق تمنى زوال تلك
النعمة عن الغير وتمني زوال النعم مذموم بكل لسان ، إلا نعمة أصابها فاجر
أو جائر يستعين بها على الشر والفساد ، فإن تمنى زوالها كراهية للجور
والفساد لا يدخل في قبيل الحسد المذموم فإن لم تتمن زوال النعمة عن شخص
وإنما تمنيت لنفسك مثلها فهي الغبطة والمنافسة ، وهي محمودة لأنها قد تنتهي
بالشخص إلى اكتساب محامد لولا المنافسة لظل في غفلة عنها ، والحسد قد يهجم
على الإنسان ولا يكون في وسعه دفعه لشدة النفرة بينه وبين المحسود ، وإنما
، يؤاخذ الإنسان على رضاه به ، وإظهار ما يستدعيه من القدح في المحسود
والقصد إلى إزالة النعمة عنه " .وقوله تعالى : ( مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ
إعلام للمؤمنين ، بأن هؤلاء اليهود لم يؤمروا بذلك في كتابهم ، بل إن (
كتابهم لينهاهم عن هذا الخلق الذميم ولكنهم لخبث نفوسهم وسوء طباعهم رسخ
الحسد في قلوبهم لدرجة يعسر معها صرفه عنهم ، أو صرفهم عنه .والجملة
الكريمة ( حَسَداً مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ ) تدل على أن أولئك اليهود
يعتقدون صحة دين الإسلام ، إذ الإنسان لا يحسد غيره على دين إلا إذا عرف
في نفسه صحته ، وأنه طريق الفوز والفلاح .وقوله تعالى : ( مِّن بَعْدِ مَا
تَبَيّنَ لَهُمُ الحق ) يدل على أن محبة اليهود لتحويل المؤمنين من الكفر
إلى الإيمان وقعت ، بعد أن ظهر لهم صدق النبي صلى الله عليه وسلم بوعد أن
تبين لهم أن الصفات التي وردت في التوراة بشأن المبشر به ، لا تنطبق إلا
، عليه ، وإذا فكفرهم به لم يكن عن جهل وإنما كان عن عناد وجمود على الباطل
وذلك هو شأن أحبارهم الذين كانوا على علم بالتوراة ، وبتبشيرها بالنبي صلى
الله عليه وسلم .ثم أمر الله تعالى المؤمنين في ختام الآية أن يقابلوا شرور
اليهود بالعفو والصفح ، وأن يوادعوهم إلى حين فقال تعالى : ( فاعفوا
واصفحوا حتى يَأْتِيَ الله بِأَمْرِهِ إِنّ الله على كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ
والعفو : ترك العقاب على الذنب . والصفح : ترك المؤاخذة عليه ، فكل صفح. (
عفو ولا عكس .والمعنى : عليكم أيها المؤمنون أن تتركو معاقبة أولئك اليهود
الحاسدين وأن تعرضوا عن رفع السيف في وجوههم حتى يأذن الله لكم في أن تشفو
صدوركم منهم ، ويبيح قتالهم الذي يترتب عليه نصركم ، إذ أن كل شيء داخل تحت
سلطان قدرته - تعالى - .فالمراد بالأمر في قوله تعالى : ( حتى يَأْتِيَ
- الله بِأَمْرِهِ ) الإذن للمسلمين بقتالهم في الوقت الذي يختاره الله
تعالى - لهم ، عندما تكون لهم القوة التي يتمكنون بها من جهاد أعدائهم
قال صاحب المنار : قال الأستاذ الإمام : " وفي أمره تعالى لهم بالعفو.
والصفح إشارة إلى أن المؤمنين على قلتهم هم أصحاب القدرة والشوكة لأن الصفح
إنما يطلب من القادر على خلافه كأنه يقول :لا يغرنكم أيها المؤمنون كثرة
، أهل الكتاب مع باطلهم ، فإنكم على قلتكم أقوى منهم بما أنتم عليه من الحق
فعاملوهم معاملة القوي العادل ، للضعيف الجاهل وفي إنزال المؤمنين على
قلتهم منزلة الأقوياء ، ووضع أهل الكتاب على كثرتهم موضع الضعفاء ، إيذان
بأن أهل الحق هم المؤيدون بالعناية الإلهية ، وأن العزة لهم ما ثبتوا على
حقهم ، ومهما يتصارع الحق والباطل فإن الحق هو الذي يصرع الباطل كما قلنا

- غيره مرة ، وإنما بقاء البالط في غفلة الحق عنه " .وقد أكد الله - تعالى
وعده بقوله : ( إِنّ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ) أي أن كل شيء داخل
، تحت قدرته النافذة التي لا يعجزها شيء .وقد أنجز الله - تعالى - وعده
فأذن للمؤمنين في الوقت المناس بقتال اليهود وتأديبهم ، وقد ترتب على ذلك
النصر للمؤمنين ، والطرد والقتل لليهود الحاقدين .وبعد أن أمر القرآن
المؤمنين في الآية السابقة بالعفو والصفح عن أعدائهم لأن الحكمة تجعل العفو
والصفح خيراً من العقوبة والتأنيب ، انتقل بعد ذلك إلى أمرهم بالمحافظة على
الشعائر التي تطهر قلوبهم ، وتزكي نفوسهم فقال - تعالى - :( وَأَقِيمُواْ
الصلاة وَآتُواْ الزكاة . . . )

واقيموا الصلاة واتوا الزكاة وما تقدموا لانفسكم من خير تجدوه عند الله ان
الله بما تعملون بصير

كما فسرها الوسيط قد أمرهم - سبحانه - في هذه الآية بالمواظبة على عمودي
الإسلام وهما العبادة البدنية التي تؤكد حسن صلة العبد بخالقه وهي الصلاة
والعبادة المالية التي تؤلف بين قلوب الموسرين والمعسرين وهي الزكاة .وجاءت
جملة ( وَمَا تُقَدِّمُواْ لأَنْفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ الله
بعد ذلك ، لترغبهم في فعل الخير على وجه عام ، ولتحثهم على التزود من (
الأعمال الصالحة سواء أكانت فرضاً أم نفلا .وقال ( لأَنْفُسِكُم ) للإشعار
بأن ما يقدمه المؤمن من خير إنما يعود نفعه إليه ، وأنه سيجد عند الله نظير
ذلك الثواب الجزيل ، والأجر العظيم ، وفي قوله ، عند الله ، إشارة إلى
ضخامة الثواب ، لأنه صادر من الغني الحميد .وجاءت جملة ( إِنّ الله بِمَا
- تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ) لتأكيد ذلك الوعد ، فقد دلت على أن الله - تعالى
لا يخفى عليه عمل عامل قليلا كان أو كثيرا . وإذا كان عالماً محيطاً بكل
عمل يصدر من الإنسان ، كانت الأعمال محفوظة عنده - تعالى - ، فلا يضيع
منها عمل دون أن يلقى العامل جزاءه يوم الدين .وفي إعادة ذكر اسم الجلالة
في هذه الجملة مع تقدم ذكره في قوله : ( تَجِدُوهُ عِندَ الله ) إشعار
باستقلال هذه الجملة ، وبشدة الاهتمام بالمعنى الذي تضمنته .كذلك من فوائد
إظهار اسم الجلالة في مقام يجوز فيه الإضمار ، أن تكون الجملة كحكمة تقال
عند كل مناسبة ، بخلاف ما لو أتى بدل الأسم الظاهر بالضمير فإن إلقاءه عند
المناسبة يستدعي أن تذكر الجملة السابقة معها حتى يعرف المراد من الضمير
ثم حكى القرآن لوناً من ألوان المزاعم الباطلة التي درج عليها أهل الكتاب.
ورد عليها بما يبطلها فقال :( وَأَقِيمُواْ الصلاة . . . ) ،

وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا او نصارى تلك امانيهم قل هاتوا
برهانكم ان كنتم صادقين

كما فسرها الوسيط الضمير في ( قَالُواْ ) يعود على أهل الكتاب من الفريقين
والهود : جمع هائد أي متبع اليهودية وقدمهم القرآن الكريم على النصارى ،
لتقدمهم في الزمان .والمعنى : وقالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً
وقالت النصارى لن يدخلها إلا من كان نصرانياً ، إلا أن الآية الكريمة ،
سلكت في طريق الإخبار عما زعموه مسلك الإيجاز ، فحكت القولين في جملة
واحدة ، وعطفت أحد الفريقين على الآخر بحرف " أو " ثقة بفهم السامع ، وأمنا
من اللبس ، لما عرف من التعادي بين الفريقين ، وتضليل كل واحد منهما لصاحبه
ونظير هذه الآية قوله تعالى حكاية عنهم (وَقَالُواْ كُونُواْ هُوداً ،
أَوْ نصارى تَهْتَدُواْ ) أي : قالت اليهود : كونوا هودا تهتدوا ، وقالت
النصارى : كونوا نصارى تهتدوا .ولذا قال الإمام ابن جرير : " فإن قال قائل
، وكيف جمع اليهود والنصارى في هذا الخبر مع اختلاف مقالة الفريقين :
واليهود تدفع النصارى عن أن يكون لها في ثواب الله نصيب ، والنصارى تدفع
اليهود عن مثل ذلك؟قيل : إن معنى ذلك بخلاف الذي ذهبت إليه ، وإنما عني به
وقالت اليهود : لن يدخل الجنة إلا من كان هودا ، وقالت النصارى : لن يدخل
الجنة إلا النصارى ، ولكن معنى الكلام لما كان مفهوماً عند المخاطبين به
جمع الفريقان في الخبر عنهما فقيل : ( وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الجنة
إِلاّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نصارى ) .وقوله تعالى : ( تِلْكَ
أَمَانِيُّهُمْ ) جملة معترضة قصد بها بيان أن ما يدعونه من أن الجنة خاصة
بهم ، ما هو إلا أماني منهم يتمنونها على الله بغير حق ولا برهان . سولتها
لهم أنفسهم التي استحوذ عليها الشيطان فخدعها بالأباطيل والأكاذيب .واسم
الإشارة ( تِلْكَ ) مشار به إلى ما تضمنه قوله تعالى : ( وَقَالُواْ لَن
يَدْخُلَ الجنة إِلاّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نصارى ) وهو يتضمن أماني
كثيرة : منها ، أن اليهود أمنيتهم أنه لن يدخل الجنة غيرهم ، والنصارى كذلك
أمنيتهم أنهم هم وحدهم أصحاب الجنة ، وكلا الفريقين يعتقد أن المسلمين
ليسوا أهلاً لها ، ولهذا جاء خبر اسم الإشارة جمعاً فقال تعالى ( تِلْكَ
أَمَانِيُّهُمْ ) .ويرى صاحب الكشاف أنه المشار إليه أمور قد تعددت لفظاً
وحكاها القرآن عنهم في قوله ( مّا يَوَدُّ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ

الكتاب وَلاَ المشركين أَن يُنَزّلَ عَلَيْكُمْ مّنْ خَيْرٍ مّن
رّبّكُمْ ) وفي قوله : ( وَدّ كَثِيرٌ مّنْ أَهْلِ الكتاب لَوْ
يَرُدّونَكُم مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مّنْ عِنْدِ
أَنْفُسِهِمْ ) وفي قوله : ( وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الجنة إِلاّ مَن
كَانَ هُوداً أَوْ نصارى ) ، وعبارته :فإن قلت : لم قيل ( تِلْكَ
أَمَانِيُّهُمْ ) وقولهم لن يدخل الجنة أمنية واحدة؟ قلت : أشير بها إلى
، الأماني المذكورة وهو إمنيتهم أن لا ينزل على المؤمنين خير من ربهم
وأمنيتهم أن يردوهم كفاراً ، وأمنيتهم ألا يدخل الجنة غيرهم .أي تلك
الأماني الباطلة أمانيهم .ويرى صاحب الانتصاف : أن المشار إليه واحد وهو
قولهم (وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الجنة إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نصارى
وجمع لإفادة أن تلك الأمنية قد تمكنت من نفوسهم وأشربتها قلوبهم . فقال (
والجواب القريب أنهم لشدة تمنيهم لهذه الأمنية ، ومعاودتهم لها ، وتأكدها :
، في نفوسهم جمعت ليفيد جمعها أنها متأكدة في قلوبهم بالغة منهم كل مبلغ
والجمع يفيد ذلك ، وإن كان مؤداه واحداً ونظيره قولهم : معي جياع ، فجمعوا
الصفة ومؤداها واحد ، لأن موصوفها واحد ، تأكيداً لثبوتها وتمكنها ، وهذا
المعنى أحد ما روي في قوله تعالى : ( إِنّ هؤلاء لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ
فإنه جمع " قليلا " وقد كان الأصل إفراده فيقال " لشرذمة قليلة " كقوله (
تعالى ( كَم مّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ ) لولا ما قصد إليه من تأكيد القلة
بجمعها ، ووجه إفادة الجمع في مثل هذا التأكيد ، أن الجمع يفيد بوضعه
، الزيادة في الآحاد فنقل إلى تأكيد الواحد ، وإبانته زيادة على نظرائه
نقلا مجازياً بديعاً فتدبر هذا الفصل فإنه من نفائس صناعة البيان والله
المرفق " .ثم أمر الله - تعالى - رسوله صلى الله عليه وسلم أن يطالبهم
بالدليل على صحة ما يدعون ، فقال تعالى ( قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن
كُنْتُمْ صَادِقِينَ ) .أي قل - يا محمد - لهؤلاء الزاعمين أن الجنة لهم
خاصة من دون الناس ، هاتوا حجتكم على خلوص الجنة لكم ، إن كنتم صادقين في
دعواكم ، لأنه لما كانت دعواهم الاختصاص بدخول الجنة لا تثبت إلا بوحي من
الله وليس المجرد المني ، أمر الله - تعالى - نبيه صلى الله عليه وسلم أن
يطالبهم بالدليل من كتبهم على صحة دعواهم ، وهذه المطالبة من قبيل التعجيز
لأن كتبهم خالية مما يدل على صحتها .قال الإمام ابن جرير : " وهذا الكلام
وإن كان ظاهره دعاء القائلين ( لَن يَدْخُلَ الجنة إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً
أَوْ نصارى ) إلى إحضار حجة على دعواهم ، فإنه بمعنى التكذيب من الله لهم
في دعواهم وقيلهم ، لأنهم ليسوا بقادرين على إحضار برهان على دعواهم تلك
أبداً " .هذا ، ويؤخذ من الآية الكريمة بطلان التقليد في أمور الدين ، وهو
قبول قول الغير مجرداً من الدليل ، فلا ينبغي للإنسان أن يقرر رأياً في
الدين إلا أن يسنده إلى دليل ، كما أنه لا يقبل من غيره قولا إلا أن يكون
مؤيداً بدليل .أما عدم صحة التقليد في أصول الدين : أي فيما يرجع إلى حقيقة
الإيمان فالأمر فيه جلى ، لأنه يكتفي في إيمان الشخص بأي دليل ينشرح به
صدره للإسلام ، وتحصل له به الطمأنينة ، كأن يستمد إيمانه بالله من
التنبيه لحكة الله في إتقان المخلوقات ، أو في رعاية اللطف والرفق
بالإنسان ، ويستمد إيمانه بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم من الاستماع إلى
القرآن الكريم ، أو من سيرته التي لم يظهر بمثلها أو بما يقرب منها بشر غير
رسول ، والقصد أن لا يكون إسلامه لمجرد أنه في بيئة إسلامية أو ولد من أب
وأم مسلمين .وأما التقليد في الفروع أي في الأحكام العملية ، فالناس بالنظر
إلى القدرة على تمييز الخطأ من الصواب درجات ، فمن له قدرة على فهم الأدلة
ومعرفة الراجح من الأحكام ، لا يجوز أن يتلقى الحكم من غيره إلا مقروناً
بدليل ، وإن كان قاصراً عن هذه الدرجة أخذ بما يفتيه به العالم المشهود له
" بالرسوخ في علم الشريعة ، والمعروف بالمحافظة على لباس التقوى ما استطاع
ثم أبطل القرآن الكريم مدعاهم بطريق آخر وهو إيراد قاعدة كلية رتبت دخول.
الجنة على الإيمان والعمل الصالح بلا محاباة لأمة أو لجنس أو لطائفة فقال
: تعالى

بلى من اسلم وجهه لله وهو محسن فله اجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم
يحزنون

كما فسرها الوسيط ( بلى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ
فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ
، يَحْزَنُونَ ) .( بلى ) حرف يذكر في الجواب لإثبات المنفي في كلام سابق
وقد صدرت الآية التي معنا بحرف ( بلى ) لإثبات ما نفوه وهو دخول غيرهم
الجنة ممن لم يكن لا من اليهود ولا من النصارى ، ما دام قد أسلم وجهه لله
وهو محسن .وقوله تعالى : ( مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ ) المراد به اتجه
إليه ، وأذعن لأمره ، وأخلص له العبادة ، وأصل معناه الاستسلام والخضوع
وخص الله - تعالى - الوجه دون سائر الجوارح بذلك ، لأنه أكرم الأعضاء.
وأعظمها حرمة ، فإذا خضع الوجه الذي هو أكرم أعضاء الجسد فغيره من أجزاء
الجسد أكثر خضوعاً .وقوله تعالى : ( وَهُوَ مُحْسِنٌ ) من الإحسان ، وهو

أداء العمل على وجه حسن أي : مطابق للصواب وهو ما جاء به الشرع الشريف والمعنى : ليس الحق فيما زعمه كل فريق منكم يا معشر اليهود والنصارى من أن الجنة لكم دون غيركم ، وإنما الحق أن كل من أخلص نفسه لله ، وأتى بالعمل الصالح على وجه حسن ، فإنه يدخل الجنة ، كما قال تعالى : ( فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ) .وقد أفادت الآية الكريمة ما يأتي :( أ ) إثبات ما نفوه من دخول غيرهم الجنة ). ب ) بيان أنهم ليسوا من أهل الجنة ، إلا إذا أسلموا وجوههم لله ، وأحسنوا له العمل فيكون ذلك ترغيباً لهم في الإسلام ، وبياناً لمفارقة حالهم لحال من يدخل الجنة ، لكي يقلعوا عما هم عليه ، ويعدلوا عن طريقتهم المعوجة .( ج بيان أن العمل المقبول عند الله - تعالى - يجب أن يتوفر فيه أمران ( أولهما : أن يكون خالصاً لله وحده .ثانيهما : أن يكون مطابقاً للشريعة: " : التي ارتضاها الله تعالى وهي شريعة الإسلام .قال الإمام ابن كثير فتمنى كان العمل خالصاً ولم يكن صواباً لم يتقبل ، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم" من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد " فعمل الرهبان ومن شابههم وإن فرض أنهم مخلصون فيه لله فإنه لا يتقبل منهم حتى يكون ذلك متابعاً للرسول صلى الله عليه وسلم المبعوث فيهم وإلى الناس كافة ، وفي أمثالهم قال الله - تعالى - : ( فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مّنثُوراً ) وأما إن كان العمل موافقاً للشريعة في الصورة الظاهرة ، ولكن لم يخلص عاملة القصد لله ، فهو أيضاً مردود على فاعله ، وهذا حال المرائين والمنافقين ولهذا قال تعالى : ( فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَاً ) وبذلك ، تكون الآيتان الكريمتان قد أبلطتا دعوى اليهود أن الجنة لهم دون غيرهم وأثبتتا أن مزاعمهم هذه ما هي إلا من قبيل الأماني والأوهام وكذبتهم في أن يكون عندهم أي برهان أو دليل على ما يدعون ثم أدرتا حكما عاما وهو أن الجنة ليست خاصة لطائفة دون أخرى ، وإنما هي لكل من أسلم وجهه لله وهو محسن .

وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون

كما فسرها الوسيط ثم بين القرآن بعد ذلك أن أهل الكتاب قد دأبوا على تضليل ): بعضهم البعض ، وأن الخلاف بينهم قد أدى إلى التنازع والتخاصم فقال - وَقَالَتِ اليهود لَيْسَتِ النصارى . . . )الآية الكريمة معطوفة على قوله تعالى - قبل ذلك : ( وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الجنة إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نصارى ) إلخ ، لزيادة بيان طبيعة أهل الكتاب ، المعوجة ، وأن رمي المخالف لهم بأنه ضال شنشنة فيهم .والشيء : يطلق على الموجود ، أو ما يصح أن يعلم ويخبر عنه ، وقد ينفى مبالغة في عدم الاعتداد به واليهود كفرت عيسى - عليه السلام - ومازالوا يزعمون أن المسيح المبشر به في التوارة لم يأت ، وسيأتي بعد ، فهم يعتقدون أن النصارى باتباعهم له ليسوا على أمر حقيقي من التدين ، والنصارى تكفر اليهود لعدم إيمانهم بالمسيح الذي جاء لإتمام شريعتهم ، ونشأ عن هذه النزاع عداوة اشتدت بها الأهواء والتعتصب حتى صار كل فريق منهم يطعن في دين الآخر ، وينفى عنه أن يكون له أصل من الحق وجملة ( وَهُمْ يَتْلُونَ الكتاب ) حالية ، والكتاب للجنس . أي : قالوا. ذلك وحالهم أنهم من أهل العلم والتلاوة للكتب ، إذ اليهود يقرءون والنصارى يقرءون الإنجيل ، وحق من حمل التوارة والإنجيل وغيرهما من كتب الله وآمن به ألا يكفر بالباقي ، لأن كل واحد من الكتابين مصدق للثاني ، شاهد بصحته وكذلك كتب الله جميعاً متواردة على تصديق بعضها البعض .وقوله : ( كَذَلِكَ قَالَ الذين لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ) معناه : كما أن أهل . الكتاب قد قال كل فريق منهم فيمن خالفه إنه ليس على شيء من الدين الحق فكذلك قال الذين لا يعلمون ، وهم مشركوا العرب ، في شأن المسلمين . إنهم ليسوا على شيء من الدين الحق ، فتشابهت قلوب هؤلاء وقلوب أولئك في الزيغ والضلال .والهدف الذي ترمى إليه هذه الجملة ، هو أن إنكار اليهود والنصارى ، لرسالة محمد صلى الله عليه وسلم لا ينبغي أن يثيير شبهة على عدم صحتها حيث يسبق إلى أذهان الضعفاء من الناس أن تلاوتهم للكتاب تجعهلم أعرف بالنبوة الصادقة من غيرها . فكأن القرآن يقول : إن تلاوتهم للكتاب وحدها لا ينبغي أن تكون شبهه .ألا ترون اليهود والنصارى وهم يتلون الكتاب كيف أنكر كل فريق منهما أن يكون الآخر على شيء حقيقي من التدين ، فسبيلهم في إنكار دين الإسلام كسبيل المشركين الذين أنكروه عن جهالة به .وفي هذه الجملة توبيخ شديد لأهل الكتاب ، حيث نظموا أنفسهم - مع علمهم - في سلك من لا يعلم وقوله : ( فالله يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القيامة فِيمَا كَانُواْ. فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ) . صدر بالفاء ، لأن التوعد بالحكم بينهم يوم القيامة وإظهار ما أكنته ضمائرهم من الهوى والضلال ، متفرع عن هذه المقالات ومسبب ، عنها ، وهو خبر المقصود منه التوبيخ والوعيد .والضمير المجرور بإضافة بين

إليه راجع إلى الفرق الثلاث ، وما كانوا فيه يختلفون يعم ما ذكر وغيره وقيل الضمير يعود على اليهود والنصارى .والاختلاف : تقابل رأيين فيما ينبغي انفراد الرأي فيه .ولم تصرح الآية الكريمة بماذا يحكم الله بينهم ، لأنهن من المعلوم أن من مظاهر حكم الله يوم القيامة إثابة من كان على حق ، وعقاب من كان على باطل .وبذلك تكون الآية الكريمة قد فضحت أهل الكتاب ، حيث بينت كيف أن كل فريق منهم قد رمى صاحبه بالضلال ، وفي هذا تثبيت للمؤمنين ونهى لهم عن أن ينهجوا نهجهم .

ومن اظلم ممن منع مساجد الله ان يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها اولئك ما كان لهم ان يدخلوها الا خائفين لهم في الدنيا خزي ولهم في الاخرة عذاب عظيم

، كما فسرها الوسيط ثم تحدث القرآن عن سوء عاقبة من يسعى في خراب بيوت الله فقال :( وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَّنَعَ مَسَاجِدَ الله أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسمه . . . )يرى بعض المفسرين أن هذه الآية نزلت في شأن الرومانيين الذين غزوا بيت المقدس وخربوه . ويري آخرون أنها نزلت في كفار قريش حين منعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدخل المسجد الحرام عام الحديبية وكيفما كان سبب النزول ، فالآية تشمل بذمها ووعيدها ، كل من منع مساجد. ، الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها .ومن اسم استفهام يراد منه النفي أي :لا أظلم . والمساجد : جمع مسجد ، وهو المكان الخاص للعبادة ، مأخوذ من السجود ، وهو وضع الجبهة على الأرض خضوعاً لله وتعظيما .والظلم : الاعتداء على حق الغير ، بالتصرف فيه بما لا يرضى به ، ويطلق على وضع الشيء في غير ما يستحق أن يوضع فيه ، والمعنيان واضحان هنا .وذكر اسم الله كناية عما - يؤدي فيها من العبادات ، إذ لا تكاد عبادة تخلو من ذكر اسمه - تعالى والسعي في الأصل : المشي بسرعة في معنى الطلب والعمل .والخراب : ضد: " : التعمير ، ويستعمل لمعننى تعطيل المكان وخلوه مما وضع له .قال القرطبي وخراب المساجد قد يكون حقيقياً ، كتخريب بختنصر والرومان لبيت المقدس حيث قذفوا فيه القاذورات وهدموه . ويكون مجازاً كمنع المشركين حين صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المسجد الحرام ، وعلى الجملة فتعطيل المساجد عن الصلاة وإظهار شعائر الإسلام فيها خراب لها " .والمعنى :لا أحد أظلم ممن حال بين المساجد وبين أن يعبد فيها الله ، وعمل في خرابها بالهدم كما فعل ، الرومان وغيرهم ببيت المقدس . أو بتعطيلها عن العبادة كما فعل كفار قريش فهو مفرط في الظلم بالغ فيه أقصى غاية .قال صاحب الكشاف : " فإن قلت : فكيف قيل مساجد الله ، وإنما وقع المنع والتخريب على مسجد واحد هو بيت المقدس أو ، المسجد الحرام؟ قلت لا بأس أن يجيء الحكم عاماً ، وإن كان السبب خاصاً - كما تقول لمن آذى صالحاً واحداً : ومن أظلم ممن آذى الصالحين ، كما قال " عز وجل - ( وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ ) والمنزول فيه هو الأخنس بن شريق وقوله - تعالى - : ( أولئك مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلاَّ خَآئِفِينَ ) معناه : ما ينبغي لأولئك الذين يحولون بين المساجد وذكر الله ويسعون في خرابها أن يدخلوها إلا خائفين من الله - تعالى - لمكانها من الشرف والكرامة بإضافتها إليه - تعالى - أو إلا خائفين من المؤمنين أن يبطشوا بهم ، فضلا عن أن يستولوا عليها ويمنعوا المؤمنين منها .قال ابن ، كثير : " وفي هذا بشارة من الله للمسلمين بأنه سيظهرهم على المسجد الحرام ويذل لهم المشركين حتى لا يدخل المسجد الحرام واحد منهم إلا خائفاً يخاف أن يؤخذ فيعاقب ، أو يقتل إن لم يسلم ، وقد أنجز الله هذا الوعد فمنع المشركني من دخول المسجد الحرام ، وذلك أنه بعد أن تم فتح مكة للمسلمين أمر النبي صلى الله عليه وسلم من العام القابل منادياً ينادي برحاب منى " ألا يحجن بعد العام مشرك ، ولا يطوفن بالبيت عريان ، ومن كان له أجل فأجله إلى مدته وعندما حج النبي صلى الله عليه وسلم عام حجة الوداع لم يجترئ . أحد من. " ، المشركين أن يحج أو أن يدخل المسجد الحرام . وهذا هو الخزي في الدنيا لهم المشار إليه بقوله - تعالى - : ( لَّهُمْ فِي الدنيا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخرة عَذَابٌ عَظِيمٌ ) أي : لهم في الدنيا هوان وذلة بسبب ظلمهم وبغيهم ولهم في الآخرة عذاب عظيم يخلدون معه في النار ، وليس هناك أشقى ممن يعيش ، دنياه في هوان وذلة ، ثم ينتقل إلى أخراه فيجد مصيره العذاب الأليم الذي لا يموت فيه ولا يحيا .

ولله المشرق والمغرب فاينما تولوا فثم وجه الله ان الله واسع عليم

كما فسرها الوسيط ثم أخذ القرآن في تسلية المسلمين الذين أخرجوا من مكة ): وفارقوا المسجد الحرام ، مبيناً لهم أن الجهات كلها لله - تعالى - فقال وَلِلَّهِ المشرق والمغرب . . . )المشرق والمغرب : مكان شروق الشمس وغروبها والمراد بهما هنا جمع جهات الأرض .واللام في قوله : ( وَلِلَّهِ ) تفيد ، معنى الملك .والتولية : التوجه من جهة إلى أخرى . و( ثم ) اسم إشارة للمكان .والوجه : الجهة ، فوجه الله الجهة التي ارتضاها وأمر بالتوجه إليها وهي القبلة .والمعنى : أن جميع الأرض ملك لله وحده ، ففي أي مكان من المشرق

- والمغرب توليتم شطر القبلة التي أمركم الله بها ورضيها لكم ، فهناك جهته سبحانه - التي أمرتم بها ، والتي تبرأ ذممكم باستقبالها .ومعنى هذا : الإذن بإقامة الصلاة في أي مكان من الأرض دون أن تختص بها المساجد ، ففي الحديث الشريف : " جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً " .وكأن الآية تومئ ، إلى أن سعى أولئك الظالمين في منع المساجد من ذكره - تعالى - وتخريبها ، لا يمنع من أداء العبادة لله - تعالى - : لأن له المشرق والمغرب وما بينهما ، فأينما حل الإنسان وتحرى القبلة المأمور بالتوجه إليها فهناك جهة الله المطلوب منه استقبالها .وذيلت الآية بقوله ( إِنَّ الله وَاسِعٌ عَلِيمٌ ) لإفادة سعة ملكه أو سعة تيسيره على عباده في أمر الدين : أي : إن الله يسع خلقه جميعاً برحمته وتيسيره وجوده وهو عليم بأعمالهم لا يخفى عليه عمل عامل أنيما كان وكيفما كان .ثم حكى القرآن بعض الأوقايل الباطلة التي افتراها أصحاب القلوب المريضة فقال - تعالى - :(وَقَالُواْ اتخذ الله وَلَداً سُبْحَانَهُ . . . )

وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه بل له ما في السماوات والارض كل له قانتون

كما فسرها الوسيط قوله - تعالى - : ( وَقَالُواْ اتخذ الله وَلَداً ) معطوف " على قوله - تعالى - قبل ذلك وقالت اليهود ليست النصارى على شيء إلخ واتخذ : من الاتخاذ وهو الصنع والجعل والعمل . والولد : يطلق على الذكر. والأنثى ، والواحد والجمع .والذين قالوا اتخذ الله ولدا هم اليهود والنصارى والمشركون ، فقد حكى الله عن اليهود أنه قالوا : ( عُزَيْرٌ ابن الله ) وحكى عن النصارى أنهم قالوا : ( المسيح ابن الله ) وحكى عن المشركين أنهم قالوا " الملائكة بنات الله " فيصح أن يكون الضمير في قالوا عائداً على الفرق الثلاث أو على بعضهم . فمن المعروف أن القرآن يجري على الأسلوب المعروف في المخاطبات حيث يسند إلى القوم ما صدر من بعضهم فحين قال ( وَقَالَتِ اليهود عُزَيْرٌ ابن الله ) أصبح من السائغ في صحة المعنى أن يكون هذا القول قد صدر من طائفة منهم :وقوله : ( سُبْحَانَهُ ) تنزيه له عما هو نقص في حقه ومحال عليه من اتخاذ الولد ، لاقتضاء الوالدية : النوعية والجنسية والتناسل والافتقار ، والتشبيه والحدوث وفي الصحيحن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :"لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله ، إنهم يجعلون له ولداً ، وهو يرزقهم ويعافيهم " .وسبحانه : مصدر لسبح بمعنى نزه ، وهو منصوب بفعل لم يسمع من العرب التصريح به معه ، والأصل : أسبحه سبحانه فحذف الفعل وأقيم المصدر مقامه ، وأضيف إلى ضمير المنزه .وقوله : ( بَل لَّهُ مَا فِي السماوات والأرض ) إضراب عن مقالاتهم التي نسبوا بها إلى الله اتخاذ الولد ، وشروع في الاستدلال على بطلانها .واللام في قوله ( لّهُ ) للاختصاص الكامل وهو الملك الحقيقي ، و ( ما ) اسم موصول يراد منه الكائنات : ما يعقل وما لا يعقل ومن جملة هذه الكائنات من ادعوا أنه ولد لله .والمقصود إثبات أن قولهم ( اتخذ الله وَلَداً ) زعم باطل ، فإن جميع ما احتوت عليه السموات والأرض مملوك لله يتصرف فيه كيف يشاء ، فلا حاجة إلى اتخاذ الولد ، إذ الولد إنما يسعى إليه الوالد ، أو يرغب فيه ليعتزبه أو ليحيى ذكره ، أوليستعين به على القيام بأعباء الحياة .والله - تعالى - منزه عن أمثال هذه الأغراض التي لا تليق إلا بمن خلق ضعيفاً كالإنسان ثم إن الحكمة من التوالد بقاء النوع محفوظاً بتوارد أمثال الوالد حيث لا سبيل ، إلى بقائه بعينه ، أما الخالق - تعالى - فهو الواحد في ذاته وصفاته الباقي على الدوام ، كما قال تعالى : ( كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . ويبقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجلال والإكرام ) وقوله - تعالى - : ( كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ) .معناه : كل له مطيعون طاعة تسخير وانقياد ، خاضعون لا يستعصي منهم شيء على مشيئته وإرادته : شاهدون بلسان الحال والمقال على وحدانيته من القنوت وهو لزوم الطاعة مع الخضوع ، وإنما جاء ( قَانِتُونَ ) بجمع المذكر المختص بالعقلاء ، مع أن الخضوع لله يكون من العقلاء وغيرهم تغليباً للعقلاء على غيرهم ، لأنهم أهل القنوت عن إرادة وبصيرة ، ولأن ظهوره فيهم أكمل من ظهوره في غيرهم .وفصلت جملة ( كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ) عن سابقتها لقصد استقلالها بالاستدلال على نفي أن يكون لله ولد ، حتى لا يظن السامع ، أنها مكملة للدليل المسوق له قوله - تعالى - : ( لَّهُ مَا فِي السماوات والأرض ) .

بديع السماوات والارض واذا قضى امرا فانما يقول له كن فيكون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر قدرته فقال : ( بَدِيعُ السماوات والأرض ) أي : مبدعهما ومنشئهما بلا احتذاء ولا اقتداء . وبلا آلة ولا مادة ، وبديع صفة مشبهة من أبدع ، والذي ابتدعهما من غير أصل ولا مثال هو الله - تعالى - . وخص السموات والأرض بالإبداع ، لأنهما أعظم ما يشاهد من المخلوقات .قال القرطبي : " قوله - تعالى - : ( بَدِيعُ السماوات والأرض ) فعيل للمبالغة . وارتفع على أنه خبر ابتداء محذوف ، واسم الفاعل مبدع (

كبصير من مبصر . أبدعت الشيء لا عن مثال ، فالله - تعالى - بديع السموات والأرض ، أي منشئهما وموجدهما ، ومخترعهما ، على غير حد ولا مثال ، وكل من أنشأ ما لم يسبق إليه قيل له مبدع ، ومنه أصحاب البدع؛ وسميت البدعة بدعة لأن قائلها ابتدعها من غير فعل أو مقال إمام . . . "وقوله : ( وَإِذَا قضى - أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ) معناه : وإذا أراد سبحانه - إحداث أمر من الأمور حدث فوراً ." وكن فيكون فعلان من الكون بمعنى الحدوث . ويرى كثير من أهل السنة أن الجملة واردة على وجه التمثيل ، لحدوث ما تتعلق به إرادته - سبحانه - بلا مهلة وبلا توقف . وليس المراد أنه إذا أراد إحداث أمر أتى بالكاف والنون ، ففي الكلام استعارة تمثيلية .ويرى آخرون أن الأمر يكن محمول على حقيقته ، وأنه - تعالى - أجرى سنته في تكوين الأشياء أن يكونها بكلمة كن أزلا .وبذلك نرى أن الآيتين الكريمتين قد حكتا بعض الشبهات الباطلة التي أوردها الضالون حول وحدانية الله وردت عليها بما يدحضها ويثبت كذبها .

وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله او تاتينا اية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بينا الايات لقوم يوقنون

كما فسرها الوسيط ثم أورد القرآن بعد ذلك الشبهات التي أثارها حول نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وأجاب عنها بما يبطلها فقال تعالى :(وَقَالَ الذين لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا الله أَوْ تَأْتِينَآ . . . عن ابن عباس قال : قال رافع بن حريملة اليهودي لرسول الله صلى الله عليه( وسلم يا محمد ، إن كنت رسولا من الله كما تقول فقل لله يكلمنا حتى نسمع كلامه فأنزل الله هذه الآية .فالآية الكريمة معطوفة على قوله ( وَقَالُواْ اتخذ الله وَلَداً . . . ) ومعنى الآية الكريمة . ( وَقَالَ الذين لاَ يَعْلَمُونَ ) علماً نافعاً أمثال هؤلاء اليهود الذين طالبوك ، بالمطالب المتعنتة - يا محمد - ( لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا الله ) إما مشافهة أو بواسطة الوحي إلينا لا إليك ، أو يرينا حجة تقوم على صدق رسالتك ، قالوا هذا على وجه العناد والجحود أن تكون الآيات التي أقامها الله على صدق رسالته آيات حقاً .وقد رد الله عليهم بقوله : ( كَذَلِكَ قَالَ الذين مِن قَبْلِهِمْ مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ) أي : مثل هذا القول المتعنت ، قال الجاحدون من أسلافهم الذين أرسل الله إليهم الرسل ليخرجوهم من الظلمات إلى النور وفي هذه الجملة تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم بأن ما لاقاه من قومه مثل ما لقيه الرسل من قبله .( تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ) أي تشابهت قلوب هؤلاء وأولئك في العناد والضلال .( قَدْ بَيَّنَّا الآيات لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ) أي : جعلناها بينة واضحة في ذاتها لمن شأنهم الإخلاص في طلب الحق أينما كان ، فيتجهون إليه عن طريق الأدلة الصحيحة بقلوب نقية من الأهواء موقنة بجلال الحق ووجوب الطاعة .قال الإمام الرازي : وتقرير شبهتهم أن الحكيم إذا أراد تحصيل شيء ، اختار أقرب الطرق إليه ، وبما أن الله قد كلم موسى وكلمك يا محمد فلم لا يكلمنا مشافهة ، أو يخصك بمعجزة يتجلى من ورائها صدق نبوتك ، وهذا منهم طعن في أن القرآن معجزة ، لأنهم لو أقروا بذلك لاستحال أن يقولوا ما قالوه .فأجابهم الله عن هذه الشبهة بقوله ( كَذَلِكَ قَالَ الذين مِن قَبْلِهِمْ مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ) وحاصل هذا الجواب : أنا قد أيدنا قول محمود بالمعجزات ، وبينا صحة قوله بالقرآن وسائر الحجج ، فكان طلب هذه الزوائد من باب العنت . وعليه فلن تجاب مطالبكم لوجوه منها :1 - لو كان في معلوم الله أنهم يؤمنون عند إنزال هذه الآيات لفعلها ولكنه علم أنه لو أعطاهم ما سألوه لازدادوا لجاجاً .2 - أن حصول الدلالة الواحدة تمكن المكلف من الوصول إلى المطلوب ، فإذا لم يكتف بها ، كان طلبه من باب المعاندة .3 - ربما كانت كثرة المعجزات وتعاقبها تقدح في كونها معجزة لأن الخوارق متى توالت كان انخراق العادة عادة . فثبت أن عدم إسعافهم بهذه الآيات لا يقدح في النبوة .هذا ، وبعض المفسرين يرى أن المراد ب ( الذين لاَ يَعْلَمُونَ ) اليهود ، وبعضهم يرى أن المراد يهم مشركو العرب وبعضهم يرى أن المراد يهم النصارى ، ونحن نرى أن اللفظ صالح لأن يندرج تحته جميع هذه الطوائف قضاء لحق الموصول المفيد للتعميم ، ولكنا نختار أن اليهود هم المقصودون قدصاً أولياً من هذه الآية للأسباب الآتية :1 - الآية ضمن سلسلة طويلة من الآيات السابقة عليها واللاحقة لها ، وكلها تتحدث عن بني إسرائيل وأحوالهم وأخلاقهم .2 - جملة ( كَذَلِكَ قَالَ الذين مِن قَبْلِهِمْ مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ) قرينة على أن المقصود بالذين لا يعلمون هم اليهود المعاصرون للعهد النبوي ، حيث كان أجدادهم يطلبون من موسى مثل هذه المطالب ، لقد قالوا له : ( لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى نَرَى الله جَهْرَةً ) وقالوا : ( أَرِنَا الله جَهْرَةً ) وطلبوا منه كثيرا من المطالب المتعنتة .3 - الآية مدنية ومن سورة البقرة التي هي من أوائل ما نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، ومن المعروف أن حديث القرآن المدني عن أهل الكتاب بصفة عامة ، وعن اليهود بصفة خاصة ، أكثر من حديثه عن مشركي العرب ، لأن البيئة المدنية صلتها بأهل الكتاب أشد وألصق .4 - سبب نزول الآية الذي

ذكرناه يؤيد أن اليهود مقصودون قصداً أولياً في هذه الآية .5 - القائلون بأن المراد بالذين لا يعلمون مشركوا العرب ، دعموا قولهم بأن آيات القرآن التي تحكى عنهم أمثال هذه المقترحات مستفيضة . وكأنهم يستبعدون أن تصدر مثل هذه الأسئلة عن اليهود .وردنا عليهم القرآن الكريم قد حكى عن اليهود أمثال هذه الأسئلة بدليل قوله تعالى : ( يَسْأَلُكَ أَهْلُ الكتاب أن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِّنَ السمآء فَقَدْ سَأَلُوا موسى أَكْبَرَ مِن ذلك فقالوا أَرِنَا الله جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصاعقة بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتخذوا العجل مِن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ البينات فَعَفَوْنَا عَن ذلك وَآتَيْنَا موسى سُلْطَاناً مُّبِيناً ) 6 - الإمام ابن جرير رجح أن المراد ب ( الذين لاَ يَعْلَمُونَ ) النصارى ، مستدلا بأن ذلك في سياق خبر الله عنهم ، فالآية السابقة على هذه الآية تقول .( وَقَالُواْ اتخذ الله وَلَداً سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السماوات والأرض كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ) والنصارى هم الذين قالوا ذلك .وهذا الاستدلال لا نوافقه عليه لما يأتي :( أ ) لأن الآية ليست في سياق خبر الله عن النصارى ، وإنما هي في سياق خبر الله عن اليهود ، الذين زخرت سورة البقرة ببيان مواقفهم وحجاجهم وأخلاقهم في أكثر من مائة آية سابقة ولاحقة من هذه السورة .( ب ) ليس النصارى وحدهم هم الذين قالوا اتخذ الله ولداً وإنما اليهود أيضاً قالوا ذلك ، قال تعالى : (وَقَالَتِ اليهود عُزَيْرٌ ابن الله وَقَالَتْ النصارى المسيح ابن الله ) ( ج ) لم يأت الإمام ابن جرير بدليل واحد ينقض به رأى القائلين بأن المراد بالذين لا يعلمون اليهود ، ولم يتعرض للنص الذي أورده ابن عباس في سبب نزول الآية بالتضعيف أو الإعلال ، مع أنه انتقد رأى القائلين بأن المراد بهم مشركو العرب ( بأنه قول لا برهان على حقيقته في ظاهر الكتاب ) .هذا وبعد ذلك الأدلة على ما ذهبنا إليه نعود فنقول مرة أخرى إننا لا نمانع في أن يكون المراد بالذين لا يعلمون جميع الطوائف المشركة : ولكنا نرجح أن اليهود هم المقصودون قصداً أولياً مهما دخل غيرهم معهم في السياق ، وإن الآية قد نزلت للرد على مطالبهم المتعنتة واقتراحاتهم التي لا خير من ورائها ، ومحاولاتهم الطعن في نبوة النبي صلى الله عليه وسلم .

انا ارسلناك بالحق بشيرا ونذيرا ولا تسال عن اصحاب الجحيم

كما فسرها الوسيط ثم ساق القرآن للنبي صلى الله عليه وسلم ما يسلبه ويثبته فقال :( إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بالحق بَشِيراً . . . )قوله : ( إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بالحق بَشِيراً وَنَذِيراً ) معناه : إنا أرسلناك يا محمد بالدين الصحيح المشتمل على الأحكام الصادقة ، لتبشر بالثواب من آمن وعمل صالحاً ، وتنذر بالعقاب من كفر وعصى .وصدرت الآية الكريمة بحرف التأكيد لمزيد الاهتمام بهذا الخبر ، وللتنويه بشأن الرسول صلى الله عليه وسلم وجيء بالمسند إليه ضمير الجلالة ، تشريفاً للنبي صلى الله عليه وسلم فكأن الله - تعالى - يشافهه بهذا الكلام بدون واسطة ، ولذا لم يقل له إن الله أرسلك .وقوله : ( بالحق ) متعلق بأرسلناك . والحق : مأخوذ من حق الشيء ، أي واجب وثبت ، ويطلق الحق على الحكم الصادق المطابق للواقع ، ويسمى الدين الصحيح حقاً لاشتماله على الأحكام الصادقة .وقوله : ( بَشِيراً وَنَذِيراً حالان ، والبشير : المبشر ، وهو المخبر بالأمر السار للمخبر به الذي لم يسبق له علم به . والنذير : المنذر ، وهو المخبر بالأمر المخوف ليحذر منه وجملة ( وَلاَ تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الجحيم ) معطوف على جملة ( إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ ) .والجحيم : المتأجج من النار . وأصحابها : الملازمون لها والسؤال : كناية عن المؤاخذة واللوم .والمعنى :لا تذهب نفسك عليهم حسرات يا محمد ، فإن وظيفتك أن تبشر وتنذر ولست بعد ذلك مؤاخذاً ببقاء الكافرين على كفرهم ، ولست مسؤولا عن عدم اهتدائهم ( فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البلاغ وَعَلَيْنَا الحساب ) وفي وصفهم بأنهم أصحاب الجحيم ، إشعار بأنهم قد طبع على قلوبهم ، فصاروا لا يرجى منها الرجوع عن الكفر .وفي هذه الجملة مع قوله ( بَشِيراً وَنَذِيراً ) : تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم حيث لم يؤمن به أولئك الجاحدون المتعنتون .

ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل ان هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت اهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير

كما فسرها الوسيط ثم بين القرآن موقف أهل الكتاب من الدعوة الإسلامية فقال : ( وَلَنْ ترضى عَنكَ اليهود وَلاَ النصارى حتى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ) : الملة : الطريقة المسلوكة ، ثم جعلت اسما لما شرعه الله لعباده على لسان نبيه ليتوصلوا إلى السعادة الدائمة ، وقد تطلق على ما ليس حقاً من الأديان المنحرفة أو الباطلة ، كما حكى القرآن عن يوسف عليه السلام - أنه قال ): إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بالله وَهُمْ بالآخرة هُمْ كَافِرُونَ ) وأفرد القرآن الملة فقال - تعالى - ملتهم - " مع أن لكل من اليهود والنصارى ملة خاصة ، لأن الملتين بالنظر لأى مخالفتهما لدين

الإسلام وما طرأ عليهما من التحريف بمنزلة واحدة ، فاتباع إحداهما كاتباع الأخرى في قلة الانتفاع به .ومعنى الغاية في قوله : " حتى تتبع ملتهم الكناية عن اليأس من اتباع أهل الكتاب لشريعة الإسلام ، لأنهم لما كانوا لا يرضون إلا باتباعه صلى الله عليه وسلم ملتهم وكان اتباع النبي صلى الله عليه وسلم لملتهم مستحيلا ، فقد صار رضاهم عنه كذلك مستحيلا ، فالجملة الكريمة مبالغة في الإقناط من إسلامهم ، وتنبيه على أنه لا يرضيهم إلا ما لا يجوز وقوعه منه .ثم لقن الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم الجواب فقال : ( قُلْ إِنَّ هُدَى الله هُوَ الهدى ) .وهدى الله : دينه والهدى ، بمعنى الهادي إلى طريق الفلاح في الدنيا والآخرة . أي : ما أنت عليه يا محمد من هدى الله الحق الذي يضعه في قلب من يشاء هو الهدى الحقيقي لا ما يدعيه هؤلاء من الأهواء .وإيراد الهدى معرفاً بأل مع اقترانه بضمير الفصل " هو " يفيد قصر الهداية على دين الله ، وينفي أن يكون في دين غير دين الله هدى . وإذا كانت الهداية مقصورة على الدين الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فكيف يطمع أهل الكتاب في أن يتبع ملتهم؟

الذين اتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته اولئك يؤمنون به ومن يكفر به فاولئك هم الخاسرون

كما فسرها الوسيط ثم حذر القرآن من اتباع أهل الكتاب فقال . ( وَلَئِنِ اتبعت أَهْوَآءَهُمْ بَعْدَ الذي جَآءَكَ مِنَ العلم مَا لَكَ مِنَ الله مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ) .اللام في قوله : ( وَلَئِنِ ) تشعر بأن في الجملة قسماً مقدراً روعى في صدرها ليفيد تأكيد ما تضمنته من أن متبع أهواء أهل الكتاب لا يجد من الله ولياً ولا نصيراً .والأهواء : جمع هوى ، والمراد بها آراؤهم المنحرفة عن الحق الصادرة من شهوات في أنفسهم . والعلم : الدين . وسمى علماً لأنه يعلم بالأدلة القاطعة .والولي : القريب والحليف : والنضير : كل من يعين غيره على من يناوئه ويبسط إليه يده بسوء .والمعنى : ولئن اتبعت - يا محمد - آراءهم الزائفة ، بعد الذي جاءك من العلم بأن دين الله هو الإسلام ، أو من الدين المعلوم صحته بالبراهين الواضحة ، مالك من الله من ولى يلي أمرك ولا نصير يدفع عنك عقابه .وإنما أوثر خطابه صلى الله عليه وسلم بذلك ليدخل دخولاً أولياً من اتبع أهواءهم بعد الإسلام من المنافقين تمسكاً بولايتهم ، وطمعاً في نصرتهم .

يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي انعمت عليكم واني فضلتكم على العالمين

كما فسرها الوسيط وبعد أن ذكر القرآن في الآيات السابقة أحوال الكافرين من أهل الكتاب أخذ في بيان حال المؤمنين ، فقال :( الذين آتَيْنَاهُمُ الكتاب يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ ) .أي : يقرءونه قراءة حقه ، مصحوبة بضبط لفظه ، وتدبر معانيه ، ولا شك أن ضبط لفظه يقتضي عدم تحريف ما لا يوافق أهواء أهل الكتاب ، كالجمل الواردة في نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن تدبره يستدعي اتباعه والعمل به .وجملة ( يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ ) حال من الضمير ( هم ) أو من الكتاب وهذه احلال من قبيل الأحول التي تلابس ( صاحبها بعد وقوع عاملها ، فإنهم إنما يتلون الكتاب بعد أن يؤتوه . وهي التي تسمى بالحال المقدرة أي : مقدراً وقوعها بعد وقوع عاملها .والمراد بالذين أوتوا الكتاب ، مؤمنوا أهل الكتاب . والمراد بالكتاب التوارة والإنجيل . أو هم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم والكتاب : القرآن .وأجاز بعضهم أن تكون الآية سيقت مدحاً لمن آمن من أهل الكتاب بالقرآن ، فيكون الضمير في يتلونه القرآن .وقوله : ( أولئك يُؤْمِنُونَ بِهِ ) خبر عن قوله : ( الذين آتَيْنَاهُمُ الكتاب ) .وفي ذكر الإشارة ووضعه في صدر الجملة المخبر بها ، زيادة تأكيد لإثبات إيمانهم .وفي هذه الجملة تعريض بأولئك المعاندين الذين كانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونهن من بعد ما عقلوه ، فكأن الآية التي معنا تقول : ( الذين آتَيْنَاهُمُ الكتاب ) وكان من حالهم أن قرءوه حق قراءته ، يؤمنون به إيماناً لا ريبه فيه ، بخلاف المعاندين المحرفين للكلم عن مواضعه .ثم بين - سبحانه - عاقبة الكافرين يكتبه فقال : ( وَمن يَكْفُرْ بِهِ فأولئك هُمُ الخاسرون ) .والكفر بالكتاب يتحقق بتحريفه وإنكار بع ما جاء فيه ، أي ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون في الدنيا حيث لا يعيشون فيها عيش المؤمنين وهم الخاسرون في الآخرة ، إذ سيفونهم ما أعده الله لعباده من نعيم دائم ، ومقام كريم .

واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون

كما فسرها الوسيط وكما بدأ القرآن حديثه مع اليهود بندائهم بأحب أسمائهم إليهم ، فقد اختتمه - أيضاً - بهذا النداء فقال :( يَابَنِي إِسْرَائِيل اذكروا نِعْمَتِيَ التي أَنْعَمْتُ . . . )في هاتين الآيتين تكرير لتذكير

بني إسرائيل بما سبق أن ذكروا به في صدر الحديث معهم في هذه السورة ، وذلك لأهمية ما ناداهم من أجله وأهمية الشيء تقتضي تكرار الأمر به إبلاغاً في الحجة وتأكيداً للتذكرة .قال القاضي : ولما صدر القرآن قصة بني إسرائيل بذكر النعم والقيام بحقوقها والحذر من إضاعتها ، والخوف من الساعة وأهوالها كرر ذلك وختم به الكلام معهم ، مبالغاً في النصح وإيذاناً بأنه فذلكه ، القضية ، والمقصود من القصة .هذا وبعد أن ذكر الله - تعالى - في الآيات ، السابقة نعمه على بني إسرائيل ، وبين كيف كانوا يقابلون النعم بكفر وعناد ، ويأتون منكرات في الأقوال والأعمال ، وختم الحديث معهم بإنذار بالغ وتذكير بيوم لا يغني فيه أحد عن أحد شيئاً ، بعد كل ذلك واصل القرآن حديث عن قصة إبراهيم - عليه السلام - لأنهم هم والمشركون ينتمون إليه ويقرون بفضله ، فقال - تعالى - :( وَإِذِ ابتلى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ . . . )

واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فاتمهن قال اني جاعلك للناس اماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين

كما فسرها الوسيط الابتلاء : الاختبار . أي . اختبره ربه - تعالى - بما كلفه به من الأوامر والنواهي ، ومعنى اختبار الله - تعالى - لعبده ، أن - يعامله معاملة المختبر مجازاً ، إذ حقيقة الاختيار محالة عليه - تعالى . لعلمه المحيط بالأشياء والله - تعالى - تارة يختبر عباده بالضراء ليصبروا وتارة بالسراء ليشكروا وفي كلتا الحالتين تبدو النفس البشرية على حقيقتها وفي إسناد الابتلاء إلى الرب إشعار للتالي أو للسامع بأنه ابتلاه بما ابتلاه به تربية له ، وتقوية لعزمه ، حتى يستطيع النهوض بعظائم الأمور .وقد اختلف المفسرون في تعيين المراد بالكلمات التي اختبر الله بها نبيه إبراهيم - عليه السلام - على أقوال كثيرة .قال ابن جرير : " ولا يجوز الجزم بشيء مما ذكروه منها أنه المراد على التعيين إلا بحديث أو إجماع . قال : ولم يصح في ذلك خبر بنقل الواحد ولا نبقل الجماعة الذي يجب التسليم له ، ولعل أرجح الآراء في المراد بهذه الكلمات ، أنها الأوامر التي كلفه الله بها ، فأتى بها على أتم وجه " .وقوله : (فَأَتَمَّهُنَّ ) أي أتى بهن على الوجه الأكمل ، وأداهن أداء تاماً يليق به - عليه السلام - ولذا مدحه الله بقوله : ( وَإِبْرَاهِيمَ الذي وفى ) وجيء بالفاء في ( فَأَتَمَّهُنَّ ) للدلالة على الفور والامتثال . وذلك من شدة العزم ، وقوة اليقين .وفي إجمال القرآن لتلك الكلمات التي امتحن الله بها إبراهيم ، وفي وصفه له بأنه أتمهن إشعار بأنها من الأعمال التي لا ينهض بها إلا ذو عزم قوي يتلقى أوامر ربه ، بحسن الطاعة وسرعة الامتثال .وقدم المفعول وهو لفظ إبراهيم ، لأن المقصود تشريف إبراهيم بإضافة اسم الرب إلى اسمه مع مراعاة الإيجاز ، فلذلك لم يقل وإذ ابتلى الله إبراهيم .وجملة ( قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً ) مستأنفة لبيان ما من الله به على إبراهيم من الكرامة ورفعة المقام ، بعد أن ذكر - سبحانه - أنه عامله معاملة المختبر له ، إذ كلفه بأمور شاقه فأحسن القيام بها .جاعلك : من جعل يعني صير . والإمام : القدوة الذي يؤتم به في أقواله وأفعاله . والمراد بالإمامة هنا : الرسالة والنبوة فإنهما أكمل أنواع الإمامة ، والرسول أكمل أفراد هذا النوع ، وقد كان ، إبراهيم - عليه السلام - رسولا يقتدي به الناس في أصول الدين ومكارم الأخلاق .وقال : ( قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً ) ولم يقل : إني جاعلك للناس رسولا ، ليكون ذلك دالا على أن رسالته تنفع الأمة المرسل " إليها بطريق التبليغ ، وتنفع غيرهم من الأمم بطريق الاقتداء ، فإن إبراهيم - عليه السلام - قد رحل إلى آفاق كثيرة ، فانتقل من بلاد الكلدان إلى العراق ، وإلى الشام ، وإلى الحجاز ، وإلى مصر وكان في جميع منازلة أسوة حسنة لغيره .وقد مدح القرآن إبراهيم في كثير من آياته ، ومن ذلك قوله تعالى : ( ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ اتبع مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ) وجملة ( قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ) واقعة موقع الجواب عما من شأنه أن يخطر في نفس السامع ، فكأنه قال : وماذا كان من إبراهيم عندما تلقى من ربه تلك البشارة العظمى؟ فكان الجواب أن إبراهيم قد التمس الإمامة لبعض ذريته أيضاً .أي : قال إبراهيم : واجعل يا رب من ذريتي أئمة يقتدي بهم .وقد رد الله - تعالى - على قول إبراهيم بقولك ( قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظالمين ) .وإنما قال إبراهيم ومن ذريتي ولم يقل وذريتي ، لأنه يعلم أن حكمة الله من هذا العالم لم تجر بأن يكون جميع نسل أحد ممن يصلحون لأن يقتدى بهم فلم يسأل ما هو غير مألوف عادة ، لأن سؤال ذلك ليس من آداب الدعاء .أي : قال الله لإبراهيم : قد أجبتك وعاهدتك بأن أحسن إلى ذريتك لكن لا يصيب عهدي الذي عهدته إليك بالإمامة الذين ظلموا منهم ، فالعهد هنا بمعنى الإمامة المشار إليها في قوله : ( جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً ) وفي هذه الجملة الكريمة إيجاز بديع ، إذ المراد منها إجابة طلب إبراهيم من الإنعام على بعض ذريته بالإمامة كما قال - تعالى - :( وَجَعَلنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النبوة والكتاب ) ولكنها تدل صراحة على أن الظالمين من ذريته

ليسوا أهلا لأن يكونوا أئمة يقتدي بهم ، وتشير إلى أن غير الظالمين منه قد تنالهم النبوة ، وقد نالت من ذريته إسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وغيرهم من الأنبياء .قال - تعالى - : ( وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وعلى إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ) ثم تحدث القرآن بعد ذلك عن مكانة البيت الحرام ، وعن قصة بنائه ، وعن الدعوات الخاشعات التي كان إبراهيم يتضرع بها إلى الله عند رفعه البيت فقال :( وَإِذْ جَعَلْنَا البيت مَثَابَةً لِّلنَّاسِ . . . )

واذ جعلنا البيت مثابة للناس وامنا واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل ان طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود

كما فسرها الوسيط قوله - تعالى - : ( وَإِذْ جَعَلْنَا البيت مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً ) معطوف على قوله - تعالى - ( وَإِذِ ابتلى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ ) وجعلنا : بمعنى صرنا . والبيت : المقصود به الكعبة إذ غلب استعمال البيت فيها حتى صار اسما لها .ومثابة للناس : مرجعاً ، للناس يرجعون إليه من كل جانب ، وهو مصدر ميمي من ثاب القوم إلى المكان رجعوا إليه . فهم يثوبون إليه ثواباً وثوبانا . أو معاذا لهم يلجأون إليه أو موضع ثواب يثابون بحجة واعتماره .والأمن : السلامة من الخوف ، وأمن المكان : اطئمنان أهله به ، وعدم خوفهم من أن ينالهم فيه مكروه فالبيت مأمن أي موضع أمن . وأخبر - سبحانه - بأنه جعله أمنا ليدل على كثرة ما يقع به ، من الأمن حتى صار كأنه نفس الأمن .وكذلك صار البيت الحرام محفوظاً بالأمن من كل ناحية ، فقد كان الناس في الجاهلية يقتتلون ويعتدي بعضهم على بعض من حوله ، أما أهله فكانوا في أمان واطمئنان ، قال تعالى ( أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ الناس مِنْ حَوْلِهِمْ ) وقال - تعالى - : ( فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً ) وقد أقرت تعاليم الإسلام هذه لحرمة للبيت الحرام على وجه لا يضيع حقاً ولا يعطل حداً ، وزادت في تكريمه وتشريفه بأن جعلت الحج إليه فريضة على كل قادر عليها .قال الإمام ابن كثير : " ومضمون ما فسر به العلماء هذه الآية أن الله تعالى يذكر شرف البيت وما جعله موصوفاً به شرعاً وقدراً من كونه مثابة للناس . أي : جعهل محلا تشتاق إليه الأرواح - وتحن إليه ولا تقضي منه وطراً ولو ترددت إليه في كل عام استجابة من الله تعالى - لدعاء خليله إبراهيم في قوله تعالى : ( فاجعل أَفْئِدَةً مِّنَ الناس تهوي إِلَيْهِمْ ) ويصفه - تعالى - بأنه جعله أمنا من دخله أمن ولو كان قد فعل ما فعل ثم دخله كان آمنا ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : كان الرجل يلقى قاتل أبيه أو أخيه فيه فلا يعرض له :( واتخذوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ) الاتخاذ : الجعل ، تقوم اتخذت فلاناً صديقاً أي : جعلته صديقاً . والمقام في اللغة : موضع القدمين من قام يقوم ، ومقام إبراهيم : هو الحجر الذي كان إبراهيم يقوم عليه عند بناء الكعبة لما ارتفع الجدار ، وهو - على المشهور - تحت المصلى المعروف الآن بهذا الاسم .ومعنى اتخاذ مصلى منه : القصد إلى الصلاة عنده . فقد ورد في الحديث الصحيح الذي رواه الإمام مسلم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طاف بالبيت سبعاً وصلى خلف المقام ركعتين " .ومن العلماء من فسر مقام إبراهيم بالمسجد الحرام ، ومنهم من أطلقه على الكعبة لأن إبراهيم كان يقوم - عندها لعبادة الله تعالى .قال الإمام ابن كثير : " وقد كان هذا المقام أي الحجر الذي يسمى مقام إبراهيم - ملصقاً بجدار الكعبة قديماً ، ومكانه معروف اليوم إلى جانب الباب مما يلي الحجر على يمين الداخل من الباب في البقة المستقلة هناك ، وكان الخليل - عليه السلام - لما فرغ من بناء البيت وضعه إلى جدار الكعبة . . ثم قال : وإنما أخره عن جدار الكعبة إلى موضعه - الآن عمر - رضي الله عنه - ولم ينكر ذلك عليه أحد من الصحابة :ثم قال تعالى - : ( وَعَهِدْنَآ إلى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ والعاكفين والركع السجود ) .عهدنا : أمرنا وأوحينا ) : و ( أن ) مفسرة المأمور به أو الموصى به المشار إليه بقوله ، - عَهِدْنَآ ) أي : أوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي .وأضاف سبحانه - البيت إليه والتكريم ومعنى تطهيره : صيانته من كل ما لا يليق ببيوت الله من الأقذار والأرجاس والأوثان وكل ما كان مظنة للشرك ، فالمقصود تطهيره من كل رجس حسى ومعنوى .والطائفين : جمع طائف من طاف يطوف طوفاً وطوافاً إذا دار حول الشيء والمراد بهم : المتقربون إلى الله بالطواف حول الكعبة .والعاكفين : جمع عاكف ، من عكف على الشيء عكوفاً إذا أقام عليه ملازماً له ، والمراد بهم : المقيمون في الحرم بقصد العبادة ، ويدخل في العبادة ، ويدخل في العبادة مدارسة العلوم الدينية وما يساعد على فهمها والركع السجود : الركع جمع راكع ، والسجود : جمع ساجد .والركوع والسجود من هيئات الصلاة وأركانها ، فمعنى " والركع السجود " الصملون .فالآية الكريمة جمعت أصناف العابدين في البيت الحرام : وهم الطائفون وإن لم يكونوا مقيمين كمنن يأتون لحج أو عمرة ثم ينصرفون .والعاكفون الذين يقيمون في الحرم ،

بقصد الإكثار من العبادة في المسجد الحرام . والمصلون يتقربون إلى الله بالصلوات سواء أكانت فرائض أم نوافل .ولم يعطف السجود على الركع ، لأن الوصفين متلازمان ولو عطف لتوهم أنهما وصفان مفترقان .

واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا بلدا امنا وارزق اهله من الثمرات من امن منهم بالله واليوم الاخر قال ومن كفر فامتعه قليلا ثم اضطره الى عذاب النار وبئس المصير

كما فسرها الوسيط ثم ساق القرآن بعد ذلك نماذج من الدعوات التي تضرع بها إبراهيم إلى ربه فقال : ( وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجعل هذا بَلَداً آمِناً ) أي : أضرع إليك يا إلهي أن تجعل الموضع الذي فيه بيتك مكانا يأنس إليه الناس ، ويأمنون فيه من الخوف ، ويجدون فيه كل ما يرجون من أمان واطمئنان .والمشار إليه بقوله : ( هذا ) مكة المكرمة . والبلد كل قطعة من الأرض عامرة أو غامرة .والمقصود بالدعاء إنما هو أمن أهله لأن الأمن والخوف لا يلحقان البلد ، وإنما يلحقان أهل البلد .قال الإمام الرازي : ) وإنما قال هنا ( بَلَداً آمِناً ) على التنكير ، وقال في سورة إبراهيم رَبِّ اجعل هذا بَلَداً آمِناً ) على التعريف لوجهين :الأول : أن الدعوة الأولى وقعت ولم يكن المكان قد جعل بلداً ، كأنه قال : اجعل هذا الوادي بلداً آمناً .والدعوة الثانية وقعت وقد جعل بلداً ، فكأنه قال : اجعل هذا المكان الذي صيرته بلداً ذا أمن وسلامة .والثاني : أن تكون الدعوتان وقعتا بعد ما صار المكان بلداً ، فقوله : ( اجعل هذا بَلَداً آمِناً ) تقديره : أجعل هذا البلد بلداً آمنا كقولك : كان اليوم يوماً حاراً ، وهذا إنما تذكره للمبالغة في وصفه بالحرارة ، لأن التنكير يدل على المبالغة فقوله : رب اجعل هذا البلد بلداً آمنا معناه : اجعله من البلدان الكاملة في الأمن . وأما قوله : ( رَبِّ اجعل هذا بَلَداً آمِناً ) فليس فيه إلا طلب الامن لا طلب المبالغة .أما الدعوة الثانية التي توجه بها إبراهيم إلى ربه من أجل أهل مكة فقد حكاها القرآن في قوله :( وارزق أَهْلَهُ مِنَ الثمرات مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بالله واليوم الآخر ) .أي : كما أسألك يا إلهي أن تجعل هذا لبلد بلداً آمنا . أسألك كذلك أن ترزق المؤمنين من أهله من الثمرات ما يسد حاجاتهم ، ويغنيهم من الاحتياج إلى غيرك .وقوله : " ارزق " مأخوذ من رزقه يرزقه إذا أعطاه ما ينتفع به من مأكول وغيره .والثمرات : جمع ثمرة ، وهي ما يحمله شجر أو زرع أو غيره من النبات . وإنما طلب إبراهيم - عليه السلام - من الله أن يجعل مكة بلدا آمناً ، وأن يرزق أهلها من الثمرات بما يغنيهم ، لأن البلد إذا امتدت إليه ظلال الأمن ، وكانت مطالب الحياة فيه ميسرة أقبل أهله على طاعة الله بقلوب مطمئنة وتفرغوا لذلك بنفوس مستقرة .وقال في دعائه : ( مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بالله واليوم الآخر ) لأن أهل مكة قد يكون من بينهم كافرون ، فأراد تخصيص المؤمنين منهم بدعائه ، لذا أتبع قوله ) : وارزق أَهْلَهُ ) بقوله : ( مِنَ الثمرات مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ ) على وجه البدل فصار المعنى وارزق المؤمنين من أهله على ما تقتضيه القاعدة العربية من أن البدل وهو هنا ( مَنْ آمَنَ ) هو المقصود بطلب الرزق .وخص إبراهيم المؤمنين بطلب الرزق لهم حرصاً على شيوع الإيمان بين سكان مكة ، لأنهم إذا علموا أن دعوة إبراهيم إنما هي خاصة بالمؤمنين تجنبوا ما يبعدهم عن الإيمان ، أو أنه خص المؤمنين بذلك تأدباً مع الله - تعالى - إذ سأله سؤالا أقرب إلى الإجابة ، ولعله استشعر من رد الله عليه عموم دعائه السابق إذ قال : ( وَمِن ذُرِّيَّتِي ) فقال : ( لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظالمين ) أن غير المؤمنين ليسوا أهلاً لإجراء رزق الله عليهم .واقتصر على ذكر الإيمان بالله واليوم الآخر في التعبير عن المؤمنين لأن الإيمان بالله واليوم الآخر لا يقع على الوجه الحق إلا إذا صاحبه الإيمان بكتب الله ورسله وملائكته .ثم بين - سبحانه - مصير الكافرين فقال : ( فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إلى عَذَابِ النار وَبِئْسَ المصير ) .الضمير في ( قال ) يعود إلى الله - تعالى - ومن في قوله ( من كفر ) منصوب بفعل مقدر دلي عليه " فأمتعه " والمعنى : قال الله وأرزق من كفر وايراد المتكلم قولا من عنده معطوفاً على قول متكلم آخر مألوف في اللغة العربية ، ويحسن موقعه عندما يقتضي المقام إيجازاً في القول ، ولولا هذا العطف لكان المعنى متطلباً لأن يقال : قال الله أرزق من آمن ومن كفر .( فَأُمَتِّعُهُ ) : من التمتع وهو إعطاء ما ينتفع به . و ( قَلِيلاً ) : وصف لمصدر محذوف في النظم والمعنى : أمتعه تمتيعاً قليلا . ووصف التمتع في الدنيا بالقلة ، لأنه ، صائر إلى نفاد وانقطاع .و ( أَضْطَرُّهُ ) أي الجئة وأسوقه بعد متاعه في " الدنيا إلى عذاب لا يمكنه الإنفكاك عنه وجملة " ثم اضطره إلى عذاب النار احتراس من أن يغتر الكافر بأن تخويله النعم في الدنيا يؤذن برضا الله فلذلك ذكر العذاب هنا .( وَبِئْسَ ) فعل يستعمل لذم المرفوع بعده ، وهو ما يسميه النحاة بالمخصوص بالذم ، ووردت هنا لذم النار المقدرة في الجملة ، والمعنى ). بئس المصير النار . أي أنها مصير سيء كما قال تعالى في آية أخرى : إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً ) وقد أفادت الآية الكريمة أن

الله يرزق الكافر في الدنيا كما يرزق المؤمن وإذا كان إمتاع المؤمن بالرزق لأنه أهل لأن ينعم عليه بكل خير ، فإمتاع الكافر بالرزق له حكم منها استدراجه المشار إليه بقوله تعالى :( سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ ) ولو خص الله المؤمنين بالتوسعة في الرزق وحرم منها الكافرين لكان هذا التخصيص سائقا للكافرين إلى الإيمان على وجه يشبه الإلجاء . وقد قضت حكمته - تعالى - أن يكون الإيمان اختيارياً حتى ينساق الإنسان من طريق النظر في أدلة عقلية يبصر بها أقوام ولا يبصر بها آخرون .

واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم

كما فسرها الوسيط ثم حكى القرآن دعوة ثالثة تضرع بها إبراهيم إلى ربه فقال : وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ القواعد مِنَ البيت وَإِسْمَاعِيلُ ) رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ السميع العليم ) .القواعد : جمع : قاعدة ، وهي أساس البناء الموالي للأرض ، وبها يكون ثبات البناء . ورفعها إبرازها عن الأرض بالبناء عليها . والمراد بالبيت الكعبة .والتقبل : القبول وقبول الله للعمل أن يرضاه أو يثيب عليه .والمعنى : واذكر يا محمد ما صدر ، من الرسولين الكريمين إبراهيم وإسماعيل فقد كانا وهما يقومان برفع قواعد الكعبة إلى ويقولان : يا ربنا تقبل منا أقوالنا وأعمالنا ، إنك أنت السميع العليم .وتصدير الدعاء بندائه - سبحانه - باسم الرب المضاف إلى ضميها مظهر من مظاهر خضوعهما ، وإجلالهما لمقامه ، والخضوع له - سبحانه - وإجلال مقامه من أسنى الآداب التي تجعل الدعاء بمقربة من الاستجابة .وعبر بالمضارع فقال مع أن رفع القواعد كان قبل نزول الآية ، وذلك ليخرجه ( وَإِذْ يَرْفَعُ ) : في صورة الحاضر في الواقع لأهميته .وختما دعاءهما بذكر اسمين من أسمائه الحسنى ، ليؤكدا أن رجاءهما في استجابة دعائهما وثيق ، وأن ما عملاه ابتغاء مرضاته جدير بالقبول . لأن من كان سميعاً عليماً بنيات الداعين وصدق ضمائرهم ، كان تفضله باستجابة دعاء المخلصين في طاعته غير بعيد .

ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا امة مسلمة لك وارنا مناسكنا وتب علينا انك انت التواب الرحيم

كما فسرها الوسيط ثم حكى القرآن جملة من الدعوات الخاشعات ، التي توجه بها إبراهيم وإسماعيل إلى الله - تعالى - فقال : ( رَبَّنَا واجعلنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ) :مسلمين من الإسلام ، وهو الخضوع والإذعان ، وقد كانا خاضعين لله مذعنين في كل حال ، وإنما طلبا الثبات والدوام على ذلك ، والإسلام الذي هو الخضوع لله بحق إنما يتحقق بعقيدة التوحيد ، وتحرى ما رسمه الشارع في العبادات والمعاملات ، والإخلاص في أداء ما أمر به ، واجتناب ما نهى عنه .وقوله : ( وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ) معناه : واجعل يا ربنا من ذريتنا أمة مخلصة وجهها إليك ، مذعنة لأوامرك ونواهيك .ومن ( من ) للتبعيض ، أو للتعيين كقوله : ( وَعَدَ الله الذين آمَنُواْ مِنْكُمْ ) وإنما خص الذرية بالدعاء لأنهم أحق بالشفقة ، ولأنهم إذا صلحوا صلح بهم الأتباع؛ ولأن صلاح الذرية مرغوب فيه طبعاً ، والدعاء لهم بالصلاح مرغب فيه شرعاً ، وقد حكى القرآن من دعاء الصالحين قوله - تعالى - :( رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ واجعلنا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً ) ( وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا ) أي : علمنا شرائع ديننا وأعمال حجنا ، كالطواف والسعي والوقوف . أو متعبداتنا التي تقام فيها شرائعنا ، كمنى ، وعرفات ، وتحوهما والمناسك : جمع منسك - بفتح السين وكسرها - بمعنى الفعل وبمعنى الموضع من. النسك - مثلثة النون وبضمها وضم السين - وهو غاية العبادة والطاعة ، وشاعت تسمية أعمال الحج بالمناسك كالطواف والسعي وغيرهما .( وَتُبْ عَلَيْنَآ ) تسند التوبة إلى العبد فيقال : تاب فلان إلى الله ومعناها الندم على ما لابس من الذنب ، والإقلاع عنه ، والعزم على عدم العود إليه ، ورد المظالم إن استطاع ، أو نية ردها إن لم يستطع وتسند إلى الله فيقال : تاب الله على فلان ، ومعناها حينئذ توفيقه إلى التوبة ، أو قبولها منه . فمعنى ( وَتُبْ عَلَيْنَآ ) وفقنا للتوبة أو تقبلها منا .والتوبة تكون من الكبائر والصغائر وتكون من ترك ما هو أولى أو من تقصير يؤدي إلى خطأ في الاجتهاد ، وعلى ، أحد هذين الوجهين ، تحمل التوبة التي يسأل الأنبياء والمرسلون ربهم قبولها أو التوفيق لها .( إِنَّكَ أَنتَ التواب الرحيم ) التواب : كثير القبول لتوبة المنيبين إليه ، وقبول توبتهم يقتضي عدم مؤاخذتهم بما يأتونه من سيئات ، ثم بعد تخلصهم من عقوبة الخطيئة أو المعاتبة عليها ينتظرون من رحمة الله أن تحفهم بإحسان .وإبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - قد طلبا قبول توبتهما صراحة في قولهما ( وَتُبْ عَلَيْنَآ ) ولوحا إلى طلب الرحمة بذكر اسمه الرحيم ، إذ الرحمة صفة من أثرها الإحسان ، فكأنهما قالا : تب علينا وارحمنا ، وهذا من أكمل آداب الدعاء وأرجاها للقبول عند الله تعالى .

ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم اياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك انت العزيز الحكيم

كما فسرها الوسيط ثم ختم إبراهيم وإسماعيل دعواتهما بتلك الدعوة التي فيها خيرهم في الدنيا والآخرة ، فقالا - كما حكي القرآن عنهما :( رَبَّنَا وابعث فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الكتاب والحكمة وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الحكيم ) .الضمير في قوله : ( مِّنْهُمْ ) يعود إلى الذرية أو الأمة المسلمة في قوله : ( وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ) .والرسول : من أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه : وتلاوة الشيء : قراءته والمراد بقوله تعالى : ( يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ ) يقرؤها عليهم قراءة تذكير وفي هذا إيماء إلى أنه يأتيهم بكتاب فيه شرع .والآيات : جمع آية ، والمراد بها ما يشهد بوحدانية الله ، وبصدق رسوله صلى الله عليه وسلم فيما يبلغه عنه ، أو المراد بها ، آيات القرآن الكريم فهو يتلوها عليهم ليحفظوها بألفاظها كما نزلت ويتعبدوا بتلاوتها ، وليعرفوا من فضل بلاغتها وروعة أساليبها وجهاً مشرقاً ، من وجوه إعجازها .والكتاب : القرآن ، وتعلمه يكون ببيان معانيه وحقائقه ليعرفوا ما أقامه لهم من دلائل التوحيد وما اشتمل عليه من أحكام وحكم ومواعظ وآداب .والحكمة : العلم النافع المصحوب بالعمل الواقع موقعه اللائق به . ووضعها بجانب الكتاب يرجح أن المراد بها السنة النبيوة المطهرة التي تنتظم أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأفعاله ، إذ بالكتاب وبالسنة يعرف الناس أصلح الأعمال ، وأعدل الأحكام وأسنى الآداب ، وتنفتح لهم طرق التفقه في أسرار الدين ومقاصده .ويزكيهم : أي يطهرهم من أرجاس الشرك ومن كل ما لا ، يليق التلبس به ظاهراً أو باطناً .يقال : زكاة الله ، أي طهره وأصلحه ، ومنه زكاة المال لتطهره بها ، وأصل الزكاة - بالمد - النماء والزيادة يقال . زكا الزرع زكاء وزكوا ، أي نما .والمعنى : ونسألك يا ربنا أن تبعث فثي الأمة المسلمة ، أو في ذريتنا رسولا منهم يقرأ عليهم آياتك الدالة على وحدانيتك ، ويعلمهم كتابك بأن يبين لهم معانيه ، ويرشدهم إلى ما فيه من حكم - ومواعظ وآداب ، كما يهديهم إلى الحكمة التي تتمثل في اتباع سنة نبيك والتي بها يتم التفقه في الدين ومعرفة أسراره وحكمه ومقاصده ، والتي يكمل بها العلم بالكتاب إنك يا مولانا أنت العزيز الحكيم .أي القادر الذي لا يغلب على أمره ، العالم الذي يدبر الأمور على وفق المصلحة ، ومن كان قادراً على كل ما يريد ، عليما بوجوه المصالح ، كانت استجابته قريبة من دعاء الخير الصادر عن إخلاص وابتهال .وقد جاءت ترتيب هذه الجمل في أسمى درجات البلاغة والحكمة؛ لأن أول تبليغ الرسالة يكون بتلاوة القرآن ثم بتعليم معانيه ، ثم بتعليم العلم النافع الذي تحصل به التزكية والتطهير من كل ما لا يليق التلبس به في الظاهر ، أو الباطن .وقد سأل إبراهيم وإسماعيل ربهما أن تكون بعثة ، الرسول في ذريتهما فيكون أمر الإيمان قريبا منهم ، فإن نشأته بينهم ومعرفة سيرته قبل الرسالة وشهادتهم له بالصدق والأمانة ، وكل ذلك يحمل العقلاء على المبادرة إلى تصديقه فيما يبلغه عن ربه .ولقد حقق الله تعالى دعوة هذين النبيين الكريمين ، فأرسل في ذريتهما رسولا منهم ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم أرسله إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً .وقد أخبر صلى الله عليه وسلم أنه دعوة إبراهيم ، فقال : " أنا دعوة أبي إبراهيم ، وبشارة عيسى بي ، ورؤيا أمي التي رأت ، وكذلك أمهات المؤمنين يرين "ثم عرض القرآن بعد ذلك بالجاحدين والمعاندين الذين تركوا الحق الواضح الذي هو ملة إبراهيم فقال :( وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصطفيناه . . . )

ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وانه في الاخرة لمن الصالحين

كما فسرها الوسيط قوله تعالى : ( وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ) معناه :لا أحد من الناس يكره ملة إبراهيم وينصرف عنها إلى الشرك بالله ، إلا من امتهن نفسه ، واستخف بها وظلمها بسوء ، رأيه حيث ترك طريق الحق إلى طريق الضلالة .يقال رغب في كذا إذا أراده ورغب عن كذا إذا كرهه وانصرفت عنه نفسه والملة في الأصل الطريقة ، وغلب إطلاقها على أصول الدين من حيث إن صاحبها يصل عن طريقها إلى دار السلام - وسفه نفسه امتهنا واستخف بها .ثم بين الله - تعالى - منزلة نبيه إبراهيم عليه السلام - وخطأ من يرغب عن طريقته المثلى فقال تعالى : ( وَلَقَدِ اصطفيناه فِي الدنيا وَإِنَّهُ فِي الآخرة لَمِنَ الصالحين ) أي : ولقد اخترناه للرسالة وهداية الناس وإرشادهم في الدنيا ، وإنه في الآخرة لمن الصالحين المستقيمين على الطريقة المثلى . فمن يرغب عن ملة من هذا شأنه إلى غيرها من طرق الضلال لا يماثله أحد في سفهه وسوء رأيه .

اذ قال له ربه اسلم قال اسلمت لرب العالمين

كما فسرها الوسيط ثم بين الله تعالى كمال استقامة إبراهيم التي رفعته إلى المنازل العليا فقال تعالى ( إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العالمين ) أي : أخلصت ديني لله الذي فطر الخلق جميعاً كما حكى عنه القرآن الكريم نحو هذا القول في قوله تعالى : ( إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السماوات والأرض حَنِيفاً وَمَآ أَنَا مِنَ المشركين ) وبعد أن بين الله - تعالى - إن إبراهيم - عليه السلام - كان كاملا في نفسه ، أتبع ذلك ببيان أنه كان - أيضاً - يعمل على تكميل غيره ودعوته إلى توحيد الله تعالى ، .

ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يا بني ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وانتم مسلمون

كما فسرها الوسيط فقال - سبحانه - : ( ووصى بِهَآ إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَابَنِيّ إِنّ الله اصطفى لَكُمُ الدين فَلاَ تَمُوتُنّ إِلاّ وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ ) .الضمير في " بها " يعود إلى الملة ذكرت قبل ذلك في قوله تعالى : ( وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلّةِ إِبْرَاهِيمَ ) ، والمعنى : ووصى إبراهيم بنيه باتباع ملته ويعقوب كذلك أوصى بنيه باتباعها فقال كل منهما لأبنائه : يا بني إن الله اصطفى لكم دين الإسلام ، الذي لا يقبل الله دينا سواه ( فَلاَ تَمُوتُنّ إِلاّ وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ ) أي : فاثبتوا على الإِسلام . واستقيموا على أمره حتى يدرككم الموت وأنتم مقيمون على هذا الدين الحنيف .

ام كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت اذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد الهك واله ابائك ابراهيم واسماعيل واسحاق الها واحدا ونحن له مسلمون

كما فسرها الوسيط ثم أنكر القرآن الكريم على اليهود افتراءهم على يعقوب وزعمهم أنه كان على اليهودية التي أقاموا عليها تاركين دين الإسلام فقال تعالى : ( أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الموت إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي ) .روى أن اليهود قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم ألست تعلم أن يعقوب أوصى بنيه باليهودية ، فنزلت هذه الآية الكريمة .والمعنى - ما كنتم - يا معشر اليهود - حاضرين وقت أن أشرف يعقوب على الموت ، ووقت أن قال لبنيه حينئذ ( مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي ) فكيف تدعون أنه كان على اليهودية التي أنتم عليها وأنه أوصى بها بنيه؟ ومراد يعقوب - عليه السلام - من هذا السؤال أخذ الميثاق عليهم بالثبات على ملة أبيهم إبراهيم من بعده ، لكي يسعدوا في دنياهم وأخراهم ، وقد أجابوه بما يدل على رسوخ إيمانهم إذ قالوا : ( نَعْبُدُ إلهك وإله آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إلها وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ) .وهذا الجواب يتضمن أنهم متمسكون بملة إبراهيم - عليه السلام - وهي ملة لا تثليث فيها ولا تشبيه بمخلوق ، وإنما هي إفراد الله - تعالى - بالعبودية والاستسلام له بالخضوع والانقياد .

تلك امة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسالون عما كانوا يعملون

كما فسرها الوسيط ثم حذر الله - تعالى - أهل الكتاب من ترك طاعته إتكالا على انتسابهم لآباء كانوا أنبياء أو صالحين فقال تعالى : ( تِلْكَ أُمّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ) .الإشارة ب ( تِلْكَ ) إلى إبراهيم وبنيه ، أي أن إبراهيم وذريته ، أمة قد مضت وانقرضت ، لها جزاء ما كسبت من خير أو شر ، ولا تسألون يوم القيامة عن أعمالهم في الدنيا فلا يقال لكم على وجه المحاسبة لم عملوا كذا وإنما ستسألون عن أعمالكم وحدها فأصلحوها وحسنوها ، وآمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم الذي هو دعوة إبراهيم - عليه السلام - وعلى دينه وملته .فالآية الكريمة واردة لتقرير سنة من سنن الله العامة في خلقه وهي أن لكل نفس وحدها ثواب ما كسبت من خير وعليها وحدها يقع عقاب ما اكتسبت من شر . وبذلك تكون الآيات الكريمة قد بينت بوضوح لبني إسرائيل وغيرهم أن ملة إبراهيم الإسلام وأنه هو ويعقوب - عليهما السلام - قد أوصيا أبناءهما بأن يثبتوا على هذه الملة حتى الموت ، وأن أبناء يعقوب قد عاهدوه عند موته أن يستمروا على ملته وملة إبراهيم عليهما السلام .وهذا الذي بينته الآيات الكريمة يطابق ما دعاهم إليه محمد صلى الله عليه وسلم وهو الإيمان بالله - تعالى - وتصديق رسوله واتباع تعاليم الإسلام .وفي القرآن الكريم آيات أخرى صرحت بأن الإسلام اسم للدين الذي دعا إليه كل الأنبياء ، وانتسب إليه أتباعهم فنوح قال لقومه : ( وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ المسلمين ) وموسى قال لقومه : ( ياقوم إِن

( كُنتُمْ آمَنتُمْ بالله فَعَلَيْهِ توكلوا إن كُنتُم مُّسْلِمِينَ
والحواريون قالوا لعيسى - عليه السلام - ( آمَنّا بالله واشهد بِأَنّا
مُسْلِمُونَ ) بل إن فريقا من أهل الكتاب حين سمعوا القرآن أشرقت قلوبهم
لدعوته وقالوا : ( آمَنّا بِهِ إِنّهُ الحق مِن رّبِّنَآ إِنّا كُنّا
مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ) وإلى هنا تكون قد ذكرنا بعض الآيات الكريمة
التي أرشدت إلى أن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم يطابق ما جاء به
الأنبياء السابقون ، فعليهم أن يؤمنوا به ويصدقوا ، لأن كفرهم به كفر بجميع
الرسل السابقين .وقبل أن نختم هذا الموضوع ننبه إلى مسألة مهمة . وهي أن ما
جاء به النبي صلى الله عليه وسلم يطابق - كما قلنا - ما جاء به الأنبياء
، قبله في أصول الدين وكلياته كتوحيد الله - تعالى - واختصاصه بالعبادة
وتصديق الأنبياء السابقين فيما أتوا به عن الله - تعالى - والإيمان بالبعث
وما يكون فيه من نعيم وعذاب والحض على مكارم الأخلاق ، أما ما عدا ذلك مما
يتعلق بتفاصيل العبادات وأحكام المعاملات فإن الشرائع تختلف فيه بوجه عام
) حسب ما يتناسب وحالة الأمة التي بعث الله لها رسولا من كما قال تعالى
لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ) ومن هنا جاءت الشريعة
الإسلامية بما لم يكن موجوداً في الشرائع السابقة ، ومن مظاهر ذلك أن
القرآن الكريم أعلن للناس ، أن محمداً صلى الله عليه وسلم من مميزات شريعته
أنها أحلت للناس كل الطيبات وحرمت عليهم كل الخبائث ووضعت عنهم إصرهم
والأغلال التي كانت عليهم وشرعت لهم أموراً تتعلق بعباداتهم ومعاملاتهم
امتازت باليسر والتخفيف .ويعجبني في هذا المقام قول فضيلة أستاذنا المرحوم
الشيخ محمد عبد الله دراز : ( يجب أن يفهم - أن تعديل الشريعة المتأخرة
للمتقدمة - ليس نقضاً لها ، وإنما وقوفاً بها عند وقتها المناسب وأجلها
المقدر .مثل ذلك كمثل ثلاثة من الأطباء جاء أحدهم إلى الطفل في الطور الأول
من حياته ، فقصر غذاءه على اللبن ، وجاء الثاني من مرحلته التالية فقرر له
طعاماً ليناً ، وطعاما نشوياً خفيفاً ، وجاء الثالث في المرحلة التي بعدها
فأمر له بغذاء قوي كامل لا ريب أن ها هنا اعترافاً ضمنياً من كل واحد منهم
بأن صاحبه كان موفقاً كل التوفيق في علاج الحالة التي عرضت عليه ، نعم إن
هناك قواعد صحية عامة في النظافة والتهوية والتدفئة ونحوها ، لا تختلف
باختلاف الأسنان فهذه لا تعديل فيها ولا تبديل ، ولا يختلف فيها طب الأطفال
والناشئين عن طب الكهول الناضجين .هكذا الشرائع السماوية ، كلها صدق وعدل
في جملتها وتفصيلها ، وكلها يصدق بعضها بعضاً من ألفها إلى يائها ، ولكن
هذا التصديق على ضربين .تصديق للقديم مع الإذن ببقائه واستمراره ، وتصديق
له مع إبقائه في حدود ظروفه الماضية ، ذلك أن التشريعات السماوية تحتوي على
) نوعين من التشريعات .( تشريعات خالدة )لا تتبدل بتبديل الأصقاع والأوضاع
، كالوصايا التسع ونحوها ) .و ( تشريعات موقوتة ) بآجال طويلة أو قصيرة
فهذه تنتهي بانتهاء وقتها . وتجيء الشريعة التالية بما هو أوفق بالأوضاع
الناشئة الطارئة .فشريعة التوراة - مثلا - عنيت بوضع المبادئ الأولية
لقانون السلوك (لا تقبل ) . (لا تسرق ) فطابعها البارزتحديد الحقوق وطلب
العدل والمساواة .وشريعة الإنجيل تجيء بعدها فتقرر هذه الأمور ، ثم تترقى
فتزيد آداباً مكملة ( أحسن إلى من أساء إليك ) .وأخيراً تجئ شريعة القرآن
فتراها تقرر كلا المبدأين في نسق واحد ( إِنّ الله يَأْمُرُ بالعدل
والإحسان ) هكذا كانت الشرائع السماوية خطوات متصاعدة ، ولبنات متراكمة في
بنيان الدين والأخلاق وسياسة المجتمع . وكانت مهمة اللبنة الأخيرة منها أن
أكملت البنيان وملأت ما بقي فيه من فراغ وأنها في الوقت نفسه كانت بمثابة
حجر الزاوية الذي يمسك أركان البناء .وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم
حين صور الرسالات السماوية في جملتها أحسن تصوير فقال : " مثلى ومثل
الأنبياء من قبلي كمثل رجل بني بيتاً فأحسن وجمله إلا موضع لبنة فجعل الناس
يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة . فأنا اللبنة وأنا
خاتم النبيين " .وبذلك يتبين لنا أن مطابقة الشريعة الإسلامية لغيرها من
. الشرائع السابقة إنما هي في الأصول والكليات ، لا في الفروع والجزئيات

وقالوا كونوا هودا او نصارى تهتدوا قل بل ملة ابراهيم حنيفا وما كان من
المشركين

كما فسرها الوسيط ثم حكى القرآن بعد ذلك لوناً من ألوان مزاعم أهل الكتاب
ورد عليها بما يبطلها فقال :( وَقَالُواْ كُونُواْ هُوداً أَوْ نصارى
تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلّةَ إِبْرَاهِيمَ . . . )عن ابن عباس - رضي الله
عنهما - قال : " قال عبد الله بن صوريا الأعور لرسول الله صلى الله عليه
وسلم ما الهدى إلا ما نحن عليه فاتبعنا - يا محمد - تهتد ، وقالت النصارى
مثل ذلك ، فأنزل الله - عز وجل - (وَقَالُواْ كُونُواْ هُوداً أَوْ نصارى
تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ
المشركين ) .ومعنى الآية الكريمة : وقالت اليهود للنبي صلى الله عليه وسلم
وللمسلمين اتركوا دينكم واتبعوا ديننا تهتدوا وتصيبوا طريق الحق . وقالت
النصارى مثل ذلك قل لهم - يا محمد - ليس الهدى في اتباع ملتكم ، بل الحق في

أن نتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ، فانبعوا أنتم - يا معشر أهل الكتاب - ما اتبعناه لتكونوا حقاً سالكين ملة إبراهيم الذي لا تنازعون في هداه .وقوله تعالى : (وَقَالُواْ كُونُواْ هُوداً أَوْ نصارى تَهْتَدُواْ ) حكاية لما زعمه كل من فريقي اليهود والنصارى من أن الهدى في اتباع ملتهم .و ( أو ) للتنويع ، أي قال اليهود لغيرهم لا دين إلا اليهودية ولا يتقبل الله سواها ، فاتبعوها تهتدوا . وقال النصارى لغيرهم كونوا نصارى تهتدوا ، إلا أن القرآن الكريم ساق هذا المعنى بقوله : ( وَقَالُواْ كُونُواْ هُوداً أَوْ نصارى تَهْتَدُواْ ) لمعرفة السامع أن كل فريق منهم يكفر الآخر ، ويعد ديانته باطلة ، كما حكى القرآن عنهم ذلك في قوله تعالى : وَقَالَتِ اليهود لَيْسَتِ النصارى على شَيْءٍ وَقَالَتِ النصارى ) لَيْسَتِ اليهود ) ثم لقن الله - تعالى - نبيه صلى الله عليه وسلم الرد الملزم لهم ، فقال تعالى : ( قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ المشركين ) .الملة : الدين ، والحنيف في الأصل المائل عن كل دين باطل إلى الدين الحق ووصف به إبراهيم - عليه السلام - لميله عن الأديان الباطلة التي كانت موجودة في عهده إلى الدين الحق الذي أوحى الله به إليه .وذهب بعض المفسرين إلى أن حنيفاً من الحنف وهو الاستقامة .قال الإمام الرازي : " لأهل اللغة في الحنيف قولان :الأول : أن الحنيف هو المستقيم ، ومنه قيل للأعرج أحنف تفاؤلا بالسلامة ، كما قالوا للديغ سليم ، وللمهلكة مفازة ، قالوا فكل من أسلم لله ولم ينحرف عنه في شيء فهو حنيف وهو مروى عن محمد بن كعب القرظي .الثاني : أن الحنيف المائل ، لأن الأحنف ، هو الذي يميل كل واحد من قدميه إلى الأخرى بأصابعها . وتحنف إذا مال ، فالمعنى : إن إبراهيم - عليه السلام - حنف إلى دين الله ، أي مال إليه فقوله : ( بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ) أي : مخالفاً لليهود والنصارى .والمعنى : قل يا محمد لليهود ليس الهدى في أن نتبع ملتكم ، بل الهدى في أن نتبع ملة إبراهيم المائل عن كل دين باطل إلى الدين الحق ، والذي ما كان من المشركين بأي صورة من صور الشرك " .وقوله تعالى : ( بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ المشركين ) أي : بل نتبع ملة إبراهيم حنيفاً . وقد تضمن هذا القول إبطال ما ادعاه كل من اليهود والنصارى ، لأن حرف ( بل ) يؤتي به في صدر الكلام لينفى ما تضمنته الجملة السابقة ، والجملة السابقة هنا هي قول أهل الكتاب ( وَقَالُواْ كُونُواْ هُوداً أَوْ نصارى تَهْتَدُواْ ) فجاءت بل بعد ذلك لتنفي هذا القول ، ولتثبت أن الهداية إنما هي في اتباع ما كان عليه إبراهيم - عليه السلام - وفي اتباع من سار على نهجه وهو محمد صلى الله عليه وسلم .وفي هاتين الجملتين وهما قوله تعالى : ( بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ) . وَمَا كَانَ مِنَ المشركين ) دعوة لليهود إلى اتباع ملة إبراهيم لاستقامتها ولبعدها عن الشرك ، وفي ذلك تعريض بأن ملتهم ليست مستقيمة ، بل هي معوجة ، وبأن دعواهم اتباع إبراهيم لا أساس لها من الصحة؛ لأنهم أشركوا مع الله ، آلهة أخرى ، ونسبوا إلى الله تعالى ما لا يليق به .قال الإمام الرازي - ما ملخصه : في الآية الكريمة جواب إلزامي لهم وهو قوله تعالى : ( بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ) وتقرير هذا الجواب : أنه إن كان طريق الدين التقليد ، فالأولى في ذلك اتباع ملة إبراهيم لأن هؤلاء المختلفين قد انفقوا على صحة دين إبراهيم ، والأخذ بالمتفق عليه ، أولى من الأخذ بالمختلف فيه وإن كان طريقه الاستدلال والنظر . فقد سقنا الكثير من الدلائل على أن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم هوالموافق لما جاء به إبراهيم - عليه السلام - في أصول الدين .

قولوا امنا بالله وما انزل الينا وما انزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وما اوتي موسى وعيسى وما اوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون

كما فسرها الوسيط ثم أرشد الله - تعالى - المؤمنين إلى جواب جامع وكلمة سواء تفيد نبذ التعصب جانباً وتدعو إلى اتباع الوحي الإلهي الذي أرسل الله به الرسل مبشرين ومنذرين بدون تفرقة بين أحد منهم ، وهو يتضمن دعوة أهل الكتاب إلى الطريق الحق فقال تعالى : ( قولوا آمَنَّا بالله وَمَآ أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أنزِلَ إلى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ والأسباط وَمَآ أُوتِيَ موسى وعيسى وَمَا أُوتِيَ النبيون مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ) .أي : قولوا أيها المؤمنون لأولئك اليهود الذين يزعمون أن الهداية في اتباع ملتهم ، قولوا لهم : ليست الهداية في اتباع ملتكم فقد دخلها الشرك والتحريف ، وإنما الهداية في أن نصدق بالله ، وبالقرآن الكريم الذي أنزله الله على موسى وبالإنجيل الذي أنزله الله على عيسى ، ونحن في تصديقنا بالأنبياء لا نفرق بين أحد منهم فنؤمن ببعضهم ونكفر بالبعض الآخر ، كما فعلتم أنتم يا معشر اليهود وإنما نؤمن بهم جميعاً بدون تفرقة بينهم ونحن لربنا مسلمون خاضعون بالطاعة .مذعنون له بالعبودية .قال الإمام

الرازي : " فإن قيل : كيف يجوز الإيمان بإبراهيم وموسى وعيسى مع القول بأن شرائعهم منسوخة؟ قلنا : نحن نؤمن بأن كل واحد من تلك الشرائع كان حقاً في زمانه ، فلا يلزم منا المناقضة ، أما اليهود فإنهم لما اعترفوا بنبوة بعض من ظهر المعجز على يديه ، وأنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم مع قيام المعجز على يديه ، فحينئذ يلزمهم المناقضة فظهر الفرق .وقوله تعالى : ( قولوا آمَنَّا ) خطاب للمؤمنين .والأسباط : جمع سبط ، وهو الحفيد ، وهم أبناء يعقوب - عليه السلام - سموا بذلك لكونهم حفدة إبراهيم وإسحاق - عليه السلام - وكانوا إثني عشر سبطاً كما قال تعالى : ( وَقَطَّعْنَاهُمُ اثنتي عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً ) والمراد : الإيمان بما أنزل الله من الوحي على الأنبياء منهم .قال الإمام القرطبي : والأسباط : ولقد يعقوب ، وهم اثنا عشر ولداً ، ولكل واحد من هم أمة من الناس ، واحدهم سبط ، والسبط في بني إسرائيل بمنزلة القبيلة في ولد إسماعيل ، وسموا الأسباط من السبط وهو التتابع ، فهم جماعة متتابعون ، وقيل أصله من السبط " بالتحريك " وهو الشجر أي هم في الكثرة بمنزلة الشجرة : الواحد سبطه ، وبين لك هذا ما روى عن ، ابن عباس ، قال : كل الأنبياء من إسرائيل إلا عشرة : نوحا وشعيبا ، وهودا وصالحا ولوطا وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل ومحمداً - صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً " .وقوله تعالى : ( وَمَآ أُوتِيَ موسى وعيسى وَمَا أُوتِيَ النبيون مِن رَّبِّهِمْ ) معناه : وآمنا - أيضاً - بالتوراة التي أعطاها الله - تعالى - لموسى ، وبالإنجيل الذي أعطاه لعيسى ، وبكل ما آتاه الله لأنبيائه تصديقاً لهم في نبوتهم .وعطف - سبحانه - عيسى على موسى بدون إعادة الفعل لأن عيسى جاء مصدقاً للتوراة ، وما نسخ منها إلا أحكاماً يسيرة ، كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم في قوله حكاية عنه ( وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التوراة وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الذي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ) وقدم - سبحانه - الإيمان بالله على غيره لأن الإيمان بالأنبياء . وما أنزل إليهم متوقف على الإيمان بالله .وقدم الإيمان بما أنزل إلينا - نحن معشر المسلمين - وهو القرآن الكريم لأن الإيمان به يجب أن يكون على وجهي الإجمال والتفصيل ، أما ما أنزل على الأنبياء من قبل : كالتوراة والإنجيل ، فيكفي الإيمان به على وجه الإجمال .وقوله تعالى : ( لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ) معناه :لا نفرق بين جماهعة النبيين ، فنؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعلتم يا معشر اليهود ، إذ كفرتم بعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم وفعلكم هذا في حقيقته كفر بالأنبياء جميعا لأن من كفر بواحد منهم فقد كفر بالكل ، ولذلك فنحن معشر المسلمين نؤمن بجميع الأنبياء بدون تفرقة أو استثناء .ثم بين - سبحانه - أن أهل الكتاب إن آمنوا بما دعوتموهم إليه معشر المسلمين ، فقد أصابوا الهدى ، وإن نأوا وأعرضوا فهم معاندون مستكبرون فقال تعالى :

فان امنوا بمثل ما امنتم به فقد اهتدوا وان تولوا فانما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم

كما فسرها الوسيط ( فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَآ آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهتدوا وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ الله وَهُوَ السميع العليم ) .والفاء التي صدرت بها الآية الكريمة لتوتيب ما بعدها على ما قبلها . لأن قول المؤمنين ( آمَنَّا بِالله وَمَآ أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ ) إلخ .من شأنه أن يرقق القلوب الجاحدة ، ويستميل النفوس الشاردة ، لبعده عن التعصب والعناد ، لأنه الحق الذي تؤيده العقول السليمة ، وإذا لم يؤمنوا به فمرد ذلك إلى شدة عنادهم والتواء أفكارهم .وقوله تعالى : ( فَقَدِ اهتدوا ) ترغيب لهم في اتباع الحق الذي اتبعه المؤمنون ، أي : فإن آمنوا مثل إيمانكم فقد اهتدوا ورشدوا وكلمة : ( مثل ) في الآية الكريمة معناها ، نفس الشيء وحقيقته . المراد. فإن آمنوا بنفس ما آمنتم به فقد اهتدوا ، ومنه قول العرب : " مثلك لا يبخل والمراد أنت لا تبخل . ويرى بعض المفسرين أن كلمة " مثل " هنا على " حقيقتها وهي الشبية والنظير ، وأن المماثلة وقعت بين الإيمانيين ، وأنها المعنى : لا تقتضي تعدد ما أمرنا الله أن نؤمن به .قال الإمام القرطبي : " فإن آمنوا مثل إيمانكم ، وصدقوا مثل تصديقكم فقد اهتدوا " .وقال ابن جرير : فإن صدقوا مثل تصديقكم بجميع ما أنزل عليكم من كتب الله وأنبيائه ، فقد اهتدوا فالتشبيه إنما وقع بين التصديقين والاقرارين اللذين هما إيمان هؤلاء وإيمان هؤلاء ، كقول القائل : ( مر عمرو بأخيك مثل ما مررت به ) يعني ذلك ) مر عمرو بأخيك مثل مروري به ) والتمثيل إنما دخل تمثيلا بين المرورين لا بين عمرو وبين المتكلم ، فكذلك قوله : ( فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَآ آمَنْتُمْ بِهِ ) إنما وقع التمثيل بين الإيمانين لا بين المؤمن به " وقوله تعالى : ( وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ. ، فَسَيَكْفِيكَهُمُ الله وَهُوَ السميع العليم ) بيان لحالهم عند إعراضهم عن دعوة الحق ، ووعد من الله - تعالى - للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بالنصر عليهم ، والعصمة من شرورهم .والشقاق : المنازعة والمخالفة وأصله من

الشق سوهو الجانب فكأن كل واحد من الفريقين في شق غير شق صاحبه .وقيل : إن الشقاق مأخوذ من فعل ما يشق ويصعب فكأن كل واحد من الفريقين يحرص على ما يشق على صاحبه .والمعنى : وإن أعرض هؤلاء الذين زعموا أن الهداية ميلهم عن الإيمان الذي تدعوهم إليه - يا محمد - فاعلم أن إعراضهم سببه المخالفة والمعاندة والمعاداة إذ لا حجة أوضح من حجتك ، وما داموا هم كذلك فسيقيك الله شرهم ، وينصرك عليهم ، فهو سميع لما يقولونه فيك ، عليه بما يبيتونه - لك ولأتباعك من مكر وكيد ، وهو الكفيل بكف بأسهم ، وقطع دابرهم .وعبر سبحانه - عن شدة مخالفتهم بقوله : " فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ " مبالغة في وصفهم بالشقاق حيث جعله مستولياً عليهم استيلاء الظرف على ما يوضع فيه ورتب قوله : ( فَسَيَكْفِيكَهُمُ الله ) على قوله ( فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ) تثبيتاً للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين لأن إعلامهم أن أهل الكتاب في مخالفة ومعاداة لهم قد يحملهم على الخوف منهم بسبب كثرتهم وقوتهم فبشر الله - تعالى - نبيه صلى الله عليه وسلم بأنهم مهما بلغت قوتهم فلن ، يستطيعوا أن يصلوا إليك بأذى . وأنه - سبحانه - سيكفيك شرهم .وقد أوفى الله - تعالى - بوعده ، فنصر نبيه صلى الله عليه وسلم وعصمه من كيدهم بإلقاء العداوة بينهم وطرد من يستحق الطرد منهم ، وقتل من لا بد من قتله ، بسبب خيانته وغيدره . فالآية الكريمة قد تضمنت وعداً للمؤمنين بالنصر ، ووعيداً لليهود ومن على شاكلتهم بالهزيمة والخيبة .

صبغة الله ومن احسن من الله صبغة ونحن له عابدون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك - أن دين الله وهو الإسلام أولى بالاتباع فقال تعالى :( صِبْغَةَ الله وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ الله صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ ) .الصبغة فعلة من صبغ كالجلسة من جلس - وهي في أصل اللغة . الحالة التي يقع عليها الصبغ وهو تلوين الأشياء كالثيبا وغيرها - بألوان معينة واستعملت الصيغة في الآية بمعنى الإيمان بما فصلته الآية الكريمة وهي قوله تعالى قبل ذلك ( قولوا آمَنَّا بِالله وَمَآ أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إلى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ والأسباط وَمَآ أُوتِيَ موسى وعيسى ) الخ الآية . وإنما أطلقت الصبغة على الإيمان بما ذكرته الآية مفصلا ، لأن الإيمان يمتزج بالقلوب امتزاج الصبغ بالمصبوغ ، وتبدو آثاره على المؤمنين كما تبدو آثار الصبغ على المصبوغ . ويقال : تصبغ فلان في الدين إذا أحسن دينه وتقيد بتعاليمه تقيداً تاماً .وقوله : ( صِبْغَةَ الله ) هكذا بالنصب على أنهن وارد مورد المصدر المؤكد لقولهم ( آمنا ) فإنه في معنى صبغنا الله بالإيمان ، وكأنهم قالوا صبغنا الله بالإيمان صبغته . وإيراد المصدر تأكيدا لفعل يوافقه في المعنى ويخالفه في اللفظ معهود في الكلام البليغ قال القاضي : قوله تعالى ( صِبْغَةَ الله ) متعلق بقوله : ( قولوا آمَنَّا بالله ) إلى قوله : ( وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ) فوصف هذا الإيمان منهم بأنه صيغة الله ، ليبين أن المباينة بين هذا الدين الذي اختاره الله وبين الدين الذي اختاره المبطلون ظاهرة جلية ، كما تظهر المباينة بين الألوان والأصباغ لذي الحس السليم " .والاستفهام في قوله تعالى : ( وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ الله صِبْغَةً ) للإنكار والنفي والمعنى :لا أحد أحسن من الله صبغة لأنه هو الذي يصبغ عباده بالإيمان ويطهرهم من أدران الكفر والضلال ، فهي صبغة ثابتة لا تزول لأن الإيمان متى خالطت بشاشته القلوب لا يرتد عنه أحد سخطه له .بخلاف ما يتلقنه أهل الكتاب عن أحبارهم ورهبانهم من الأديان الباطلة فهو من الصيغة البشرية ، التي تجعل من الدين الواحد أديانا مختلفة ومذاهب متنافرة .وهذا التركيب ( وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ الله صِبْغَةً ) يدل بحسب أصل الوضع اللغوي على نفي أن يكون دينا أفضل من دين الله ، ويبقى احتمال أن يوجد دين يساويه في الحسن ، وهذا الاحتمال لم ينفه التريكب بحسب أصل الوضع ولكن مثل هذا التركيب صار أسلوباً يفهم منه يمعونة مقام المدح نفي مساواة دين لدين الله في الحسن ، كما يفهم منه نفي أن يكون هناك دين أحسن منه .وأفضلية دين الله من جهة هدايته إلى الاعتقاد الحق ، والأخلاق الكريمة ، والآداب السمحة والعادات الصحيحة ، والسياسة الرشيدة والمعاملات القائمة على رعاية المصالح .وقوله تعالى : ( وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ ) عطف على آمنا بالله في قوله تعالى : ( قولوا آمَنَّا بالله ) والمعنى : قل لهم يا محمد إننا نحن معاشر المسلمين نعبد الله وحده وصبغته هي صبغتنا ولا نعبد غيره فلا نتخذ الأحبار والرهبان أرباباً يزيدون في ديننا وينقصون ويحلون ويحرمون ويمحون من النفوس صبغة التوحيد ، ليحلوا محلها بأهوائهم صبغة الشرك والكفر .

قل اتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ولنا اعمالنا ولكم اعمالكم ونحن له مخلصون

كما فسرها الوسيط ثم أمر الله - تعالى - نبيه صلى الله عليه وسلم أن يزيد

في تذكيرهم ودحض حجتهم فقال تعالى : ( قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي اللّهِ
وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ
وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ . أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ
وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُواْ هُوداً
أَوْ نصارى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ الله وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ
كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ الله وَمَا الله بِغَافِلٍ عَمَّا
تَعْمَلُونَ . تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ
مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ )ومعنى
) الآية الكريمة : قل يا محمد لأهل الكتاب الذين قالوا لك ولأصحابك
كُونُواْ هُوداً أَوْ نصارى تَهْتَدُواْ ) وزعموا أن دينهم هو المعتبر عند
الله دون دينك ، قل لهم : أتجادلوننا في دين الله وهو ملة الإسلام التي
بعثني به للعالمين هدى ورحمة ، وتزعمون أن الهداية فيما أنتم عليه من
اليهودية والنصرانية ، وتستبعدون عليه - تعالى - أن ينزل وحيه على من ليس
منكم ، بدعوى أنكم أقرب إلى الله منا ، وأنكم أبناء الله وأحباؤه ، والحال
أنه - سبحانه - هو ( رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ) أي خالقنا وخالقكم ورازقنا
ورازقكم ومحاسبنا ومحاسبكم على ما يصدر منا ومنكم من أعمال .وقوله تعالى :
معناه : لكل منا ومنكم ( وَلَنَآ أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ )
أعمال يترتب عليها الثواب والعقاب ، فكما أننا نتساوى معكم في أن الله ربنا
، وربكم فكذلك نتساوى معكم في استحقاق الجزاء على الأعمال التي نعملها ه
فانظروا إلى أعمالنا وأعمالكم تجدوا أعمالنا خيراً من أعمالكم ، لأننا نزيد
عليكم الإخلاص لله فثي تلك الأعمال فلا تستبعدوا أن يؤهل أهل إخلاصه
بإكرامهم بالنبوة ,فقوله تعالى : ( وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ
أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ) حجتان مبطلتان لدعوى أهل الكتاب
أنهم أحق لأن تكون النبوة فيهم لأن نسبة العباد إلى الله - تعالى - واحدة
هو ربهم وهم عباده ، والتفاضل في المنازل لديه إنما يكون بالأعمال الصالحة
والإخلاص لله فيها ، وهو أعلم حيث يجعل رسالته ، ويختص بوحيه من يراه أهلا
لذلك ، وقد شاء - سبحانه - أن ينزل وحيه على محمد صلى الله عليه وسلم النبي
الأمي العربي ، بدين عام خالد فيه الهداية والنور والفلاح في الدنيا
والآخرة .وقوله تعالى : ( وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ) بيان لسبب أحقية
المسلمين بالهداية والكرامة ، والمعنى ، ونحن - يا معشر المسلمين - لربنا
موحدون ، مخلص لله العبادة والعمل ، ولا نشرك معه آلهة أخرى ، أما أنتم فقد
أشركتم وضللتم فقال بعضكم : " عزير ابن الله " وقال بعضكم ( المسيح ابن
الله ) فنحن أهدى منكم سبيلا ، وأقوم قيلا ,ولم يصف المسلمون أعمالهم
بالحسن ، ولا أعمال المخاطبين بالسوء تجنباً لنفور المخاطبين من سماع
خطابهم ، بل أوردوا كلامهم مورد قوله تعالى ( لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ
دِينِ ) كما أنهم لم يقولوا : ونحن مخلصون وأنتم مخطئون ، بل اقتصروا على
نسبة الإخلاص لأنفسهم ، وفي ذلك تعريض لطيف بأن المخاطبين غير مخلصين لله
فإن إخبار الإنسان باشتراكه مع جماعة في أمر أو أمور ، وإفراد نفسه بعد ،
ذلك بأمر ، يومئ إلى أن هذا الأمر الذي أثبته لنفسه خاصة معدوم في أولئك
الجماعة .فمعنى الجملة : ونحن مخلصون في أعمالنا لله وحده ، ولم نخلطها
بشيء من الشرك كما فعل غيرنا .

ام تقولون ان ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط كانوا هودا او نصارى
قل اانتم اعلم ام الله ومن اظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل
عما تعملون

كما فسرها الوسيط وبعد أن أبطل القرآن الكريم محاجة أهل الكتاب في دين الله
بغير حق وأنكر عليهم ذلك ، عقبه بإبطال دعواهم أن أسلافهم من الأنبياء
كانوا هوداً أو نصارى فقال تعالى : ( أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ
وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُواْ هُوداً
أَوْ نصارى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ الله وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ
كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ الله وَمَا الله بِغَافِلٍ عَمَّا
تَعْمَلُونَ ) .وقوله تعالى : ( أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ
وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ ) حرف " أم " فيه
معادل للهمزة في قوله تعالى في الآية السابقة ( أَتُحَآجُّونَنَا فِي
اللّهِ ) على أحد الوجوه بمعنى أي الأمرين تأتون؟ المحاجة في حكمة الله أم
ادعاء اليهودية والنصرانية على الأنبياء المذكورين في هذه الآية والمراد من
الاستفهام عنهما إنكارهما معاً ، إنكار حجاجهم في دين الله ، وإنكار قولهم
- إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى .فكأنه
سبحانه - يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم قل لهم :لا تجادلوننا في دين الله
بغير حق ، ولا تقولوا إن الأنبياء كانوا على دينكم ، فإن مجادلتكم وأقوالكم
من قبيل المزاعم الباطلة التي لا سند لها من عقل أو نقل .وقوله تعالى :
) قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ الله ) معناه قل لهم يا محمد إن زعموا أن
الأنبياء المذكورين في الآية كانوا هودا أو نصارى : إن ما زعمتوه من أن

إبراهيم واسماعيل وإسحاق ويعقوب كانوا هودا أو نصارى هو على خلاف ما يعلمه الله ، لأنه - سبحانه - قد أخبرنا بأنهم كانوا مسلمين مبرئين عن اليهودية والنصرانية ، وأن يعقوب - عليه السلام - عندما حضرته الوفاة أوصى بنيه بأن يموتوا على الإسلام ، وأن التوراة والانجيل ما أنزلا إلا من بعد أولئك الأنبياء جميعا ، هكذا أخبرنا الله فهل أنتم أعلم بديانتهم أم الله ولا شك أنهم لن يستطيعوا أن يقولوا نحن أعلم ، وإنما سيقولون الله أعلم ، فإذا لزمهم هذا القول : قلنا لهم إذا فدعواكم لا أساس لها من الصحة وبذلك تكون الجملة الكريمة قد قطعت حجتهم بأجمع بيان وأحكمه .وقوله تعالى : ( وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ الله ) معناه لا أحد أشد ظلماً ممن يكتم شهادة ثبتت عنده عن الله ، تخبر بأن هؤلاء الأنبياء كانوا على الإسلام ولم يكونوا هوداً أو نصارى .قال فضيلة أستاذنا السيد محمد الخضر حسين - رحمه الله - ما ملخصه : ولما أنزل قوله تعالى : ( الذين يَتَّبِعُونَ الرسول النبي الأمي الذي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التوراة والإنجيل يَأْمُرُهُم بالمعروف وَيَنْهَاهُمْ عَنِ المنكر وَيُحِلُّ لَهُمُ الطيبات وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخبآئث . . . ) إلى آخر الآية الكريمة ، كان من أهل الكتاب من آمن به وأخبر بما في كتبهم من ذكره بصفته وعلاماته ، وكان منهم من لا ينكر أن يكون قد ذكر في الكتابين . ولكنه يكابر ويقول : المقصود نبي لم يأت بعد وقد تصدى لجمع هذه البشائر من كتابي التوراة والإنجيل طائفة من أهل البحث والعلم في القديم والحديث ، وبينوا وجه انطباقها على حال النبي صلى الله عليه وسلم بحيث لا تأخذ الناظر الطالب للحق ريبة في أنه الرسول الذي بشرت الأنبياء بمبعثه وعموم رسالته ، ومن هذه البشائر ما جاء في سفر التثنية من التوراة ( أقيم لهم من وسط إخواتهم مثلك - وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به ) .والنبي المماثل لموسى ، عليه السلام - في الرسالة والشريعة المستأنفة هو النبي محمد صلى الله عليه وسلم وإخوة بني إسرائيل هم العرب ، لأنهما يجتمعان في إبراهيم - عليه السلام - وقوله : " وأجعل كلامي في فمه ، يوافق حال النبي صلى الله عليه وسلم من الأمية وعدم تعاطي الكتابة " .ثم ختمت الآية بالوعيد الشديد لهم على مزاعمهم الباطلة ، فقال تعالى : ( وَمَا الله بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ) .الغفلة : السهو والنسيان ، والمراد أنه - سبحانه - محيط بأعمال هؤلاء الذين كتموا الحق ، لا تخفى عليه منها خافية وسيحاسبهم عليها حسابا عسيراً ، ويعاقبهم على مزاعمهم الباطلة عقاباً أليماً ، فالجملة الكريمة تهديد ووعيد لأهل الكتاب .

تلك امة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسالون عما كانوا يعملون

كما فسرها الوسيط ثم حذر الله - تعالى - أهل الكتاب - في ختام الآيات - من التمادي في الكفر والمعصية ، انكالا على انتسابهم لآباء كانوا من الأنبياء أو من الصالحين ، فقال تعالى : ( تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ) .( تِلْكَ ) إشارة إلى أمة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط و ( الأمة ) المراد بها هنا الجماعة من الناس الذين يجمعهم أمر واحد وهو هنا الدين ( قد خلت ) أي مضت وانقرضت .ومعنى الآية الكريمة : قل يا محمد لأهل الكتاب الذين زعموا أن الهداية في ملتهم وأن إبراهيم وآله كانوا هوداً أو نصارى ، قل لهم : إن إبراهيم وآله يمثلون أمة مضت لسبيلها لها عند الله ما كسبت من خير وعليها ما اكتسبت من شر ولا ينفعها غير صالح أعمالها ، ولا يضرها الأمر كذلك بالنسبة لكم فعليكم أن تسلكوا طريق الإيمان والعمل الصالح وأن تتركوا الاتكال على فضائل الآباء والأجداد فإن كل نفس يوم القيامة ستسأل عن أعمالها دون أعمال غيرها ، كما بين ذلك قوله تعالى : فالمقصد الأول الذي ترمى إليه الآية ( كُلُّ امرىء بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ) الكريمة ، هو تحذير المخاطبين من تركهم الإيمان والطاعة اعتماداً منهم على انتسابهم لآباء كانوا أنبياء أو صالحين ، فإن هذا الاعتماد إنما هو نوع من الأماني الكاذبة والأفكار الفاسدة وقد جاء في الحديث الشريف " من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه "وكأن الآية تقول لأهل الكتاب في تأكيد : إن أمامكم ، ديناً دعيتم إلى اتباعه ، واقترنت دعوته بالحجة فانظرو في دلائل صحته ، وسمو حكمته ، ولا تردوه بمجرد أن الأنبياء كانوا على ما أنتم عليه الآن فإن دعواكم هذه لا تنفعكم ولو في حال تسليمها لكن ، إذ لا يمنع اختلاف الشرائع باختلاف المصالح ، وعلى سحب ما تقتضيه حكمة عالم الغيب والشهادة وإلى هنا تكون الآيات الكريمة قد دحضت ما ادعاه اليهود من أن الهدى في. اتباع ملتهم ، وأقامت الحجج والشواهد على كذبهم وافترائهم وأرشدتهم إلى الدين الحق ، ودعتهم إلى الدخول فيه ، ووبختهم على المحاجة في دين الله بغير علم ، وحذرتهم من الانحراف عن الصراط المستقيم اعتماداً منهم على آباء لهم كانوا أنبياء أو صالحين ، فإنه لن تجزي نفس عن نفس شيئاً يوم الدين ثم تحدث القرآن الكريم بعد ذلك عن قصة تحويل القبلة من المسجد الأقصى إلى. المسجد الحرام ، وأورد الشبهات التي أثارها المشركون وأهل الكتاب - وعلى

رأسهم اليهود - حول هذه المسألة ، ورد عليها بما يدحضها ويبطلها .ونظراً
لأهمية هذا الموضوع فسيكون كلامنا عنه على النحو التالي :أولاً : كيف كان
المسلمون يتجهون في صلاتهم قبل تحويل القبلة إلى المسجد الحرام؟ثانياً : ما
: الشبهات التي أثارها اليهود بعد تحويل القبلة إلى المسجد الحرام؟ثالثاً
كيف مهد القرآن الكريم لهذا التحويل؟رابعاً : تفسير الآيات الكريمة التي
نزلت بشأن القبلة؟خامساً : لماذا أطال القرآن الكريم حديثه عن تحويل القبلة
مع أنها من الأمور الفرعية .وإليك الإجابة عن كل سؤال من هذه الأسئلة
أولاً : فرضت الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في مكة ليلة الإسراء.
والمعراج . ويرى بعض العلماء أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يستقبل في
صلاته - وهو بمكة - بيت المقدس إلا أنه لم يكن يستدير الكعبة ، بل كان
يجعلها بينه وبين ببيت المقدس ، وذلك بأن يقف بين الركنين الأسود واليماني
ويرى بعضهم أنه كان يستقبل في صلاته وهو بمكة المسجد الحرام . وهذا الرأي.
هو الذي نرجحه ، لأن المسجد الحرام هو قبلة أبيه إبراهيم ، ولأنه صلى الله
عليه وسلم عربي ، وظهر بين قومه العرب ، ولا شك أن اعتزازهم بالمسجد الحرام
أشد من اعتزازهم بأي مسجد آخر ، إذن فالمصلحة والحكمة تقضيان بأن يستقبل ،
المسلمون في صلاتهم بمكة الكعبة المشرفة .ومهما يكن من خلاف بين العلماء في
الجهة التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يستقبلها في صلاته وهو بمكة ، فإن
الأمر الذي لا خلاف فيه ، أنه بعد الهجرة إلى المدينة لم يستقبل في صلاته
سوى بيت المقدس بأمر من الله تعالى - وقد وردت أحاديث صحيحة في ذلك ، منها
ما أخرجه البخاري في صحيحه عن البراء بن عازب - رضي الله عنه - أن رسول
الله صلى الله عليه وسلم صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر
شهراً ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم تعجبه أن تكون قبلته قبل البيت
وأنه صلى أول صلاة صلاها العصر وصلى معه قوم فخرج رجل ممن كان معه فمر ،
على أهل مسجد وهم راكعون فقال : أشهد بالله لقد صليت مع النبي صلى الله
عليه وسلم جهة مكة فداروا كماهم قبل البيت وكانت اليهود قد أعجبهم إذ كان
يصلي قبل بيت المقدس فلما ولى وجهه قبل البيت أنكروا ذلك .ومنها ما أخرجه
، عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال : ( بينما الناس بقباء في صلاة الصبح
إذ جاءهم آت فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنزل عليه الليلة
قرآن ، وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها ، وكانت وجوههم إلى الشام
فاستداروا إلى الكعبة ) .وبذلك نرى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتوجه
- في صلاته وهو بالمدينة إلى بيت المقدس ، قبل أن يأمره الله - تعالى
بالتحول إلى المسجد الحرام .ثانياً : الشبهات التي أثارها اليهود بعد تحول
المسلمين في صلاتهم إلى المسجد الحرام .قلنا إن رسول الله صلى الله عليه
- وسلم بعد هجرته إلى المدينة استقبل في صلاته بيت المقدس بأمر من الله
تعالى - تأليفاً لقلوب اليهود لأن بيت المقدس قبلتهم ، ورمز وحدتهم ، وقد
فرحوا لصلاة الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين إليه ، وكان أمل النبي أن
، يلبوا دعوته وأن يسارعوا إلى الدخول في الإسلام ، ولكنهم عموا وصموا
وأخذوا يشيعون بين الناس أن النبي صلى الله عليه وسلم قد اتبع قبلتهم وعما
قريب سيتبع ملتهم ، واعتبروا اتجاه المسلمين في صلاتهم إلى بيت المقدس
نوعاً من اقتباس الهدى منهم ، فتأثر الرسول صلى الله عليه وسلم من موقفهم
الجحودي ، وانبثقت في نفسه أمنية التحول إلى الكعبة ، وأكثر من التضرع
والابتهال إلى الله كي يوجهه إلى قبلة أبيه إبراهيم .وقد أجاب الله تعالى
رجاء نبيه صلى الله عليه وسلم فولاه القبلة التي يرضاها ، ففرح المؤمنون
لذلك لأن في توجههم إلى البيت الحرام ، تأليفاً لقلوبهم ، فهو مثابتهم
ومركز تجمعهم ، وموطن أمنهم ومهوى أفئدتهم ، وجامع وحدتهم وقد استقبلوا هذا
التحويل بالسمع والطاعة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم .أما اليهود ومن
على شاكلتهم ممن في قلوبهم مرض فقد استقبلوه بالاستهزاء والجحود ، وإثارة
الشبهات ، لبلبلة الأفكار ، وتشكيك المسلمين في عقيدتهم .ومما قاله
المشركون في ذلك : إن محمداً صلى الله عليه وسلم قد تحير في دينه ، وبوشك
أن يرجع إلى ديننا كما رجع إلى قبلتنا .ومما قاله المنافقون : ما بال
المسلمين كانوا على قبلة ثم تركوها؟ومما قاله اليهود - الذين تولوا كبر
التشكيك في صحة التوجه إلى البيت الحرام - إن القبلة الأولى - وهي بيت
المقدس - إن كانت على حق فقد تركتم أيها المسلمون الحق وإن كانت على باطل
فعبادتكم السابقة باطلة ، ولو كان محمد صلى الله عليه وسلم نبياً حقاً ما
ترك قبلة الأنبياء قبله وتحول إلى غيرها وما فعل اليوم شيئاً وخالفه غداً
، ومقصدهم الأول من وراء هذه المقالات المرذلة ، الطعن في شريعة الإسلام.
وفي نوبة النبي ( عليه الصلاة والسلام ) .ثالثاً : ولكن القرآن الكريم
عليهم خطتهم ، وأحبط مكرهم ، فأخبر الله - تعالى - نبيه صلى الله عليه وسلم
بما سيقوله هؤلاء السفهاء جميعاً قبل أن يصدر عنهم ، ومهد لتحويل القبلة
بما يطمئن النفوس ويثبت الإيمان في القلوب ويهيئ الأفئدة لتقبل هذا الأمر
العظيم ، فذكر الله في الآيات السابقة على التحويل أنه إذا نسخ آية أتى بما
هو خير منها أو مثلها ، لأنه القادر على كل شيء ، المالك للسموات والأرض
تصرفاً وتدبيراً ، وهو أعلم بما يتعبد به عباده وما فيه الخير لهم .ثم
ذكر - سبحانه - بعد ذلك أن له المشرق والمغرب . ففي أي مكان توجه المصلي

فثم وجه الله ، ثم نبه - رسوله صلى الله عليه وسلم بأنه لن يرضى عنه اليهود ولا النصارى حتى يتبع ملتهم .إشارة إلى أن المصلحة في التوجه إلى بيت المقدس قد انتهت وان الاستمرار على ذلك لن يكبح جماح نفوس لم تصبغ بهداية الله وتوفيقه .ثم فصل القرآن بعد ذلك الحديث عن البيت الحرام وتعظيمه وشرفه فذكر أن الله - تعالى - قد جعله مثابة ومرجعاً للحجاج والعمار . يتفرقون عنه ثم يثوبون إليه على تعاقب الأعوام من جميع الأقطار وكلما ازدادوا له زيارة زاد شوقهم إليه . وجعله - أيضاً - حرماً آمناً لهم . بينما يتخطف الناس من حولهم .وأخبر - سبحانه - أنه قد عهد في بنائه إلى نبيين كريمين هما سيدنا إبراهيم وانبه إسماعيل - عليهما السلام - وأمرهما بتطهيره من كل رجس للطائفين والعاكفين والركع السجود .وقد كانت الآيات الواردة في شأن المسجد الحرام قبيل الأمر بتحويل القبلة كفيلة بإعطاء صورة وافية لكل عاقل بأن بيتاً له هذه القداسة جدير بأن يكون قبله للناس في صلاتهم ، ولكن ، اليهود ومن في قلوبهم مرض ، لم يكن إعراضهم عن الحق لشبهة في نفوسهم ينقصها ، الدليل ، وإنما كان إعراضهم مرجعه العناد والمكابرة ، وكلاهما يعمى ويصم فلا غرابة أن نطقوا كفراً ، ولاكت ألسنتهم قبحاً وسفهاً .إلا أن ما قالوه - من شبهات حول تحويل القبلة ، لم يجد آذاناً صاغية من المؤمنين ، لأن الله تعالى - قد مهد للتحويل - كما قلنا بما يطمئن النفوس ولقن نبيه صلى الله ، عليه وسلم الجواب على شبهاتهم قبل أن ينطقوا بها ليكون ذلك أقطع لحجتهم كما قالوا في الأمثال : ( قبل الرمي يراش السهم ) .رابعاً : تفسير الآيات الكريمة التي نزلت في شأن تحويل القبلة إلى البيت الحرام ، لقن فيها المؤمنين الإجابة على معارضات اليهود وغيرهم ، ونوه فيها بشأن الأمة الإسلامية ، وبشرها بإجابة رجاء نبيها صلى الله عليه وسلم إذ ولاه القبلة التي يرضاها ، وأراحه من التطلع إلى اهتداء اليهود وغيرهم من الجاحدين . ، ولو جاءهم بكل آية ، لأن إعراضهم عن دعوته ليس عن شبهة يزيلها الدليل ولكنه إعراض سببه الجحود والحقد ، والجاحد والحاقد لا ينفع معهما دليل أو برهان .وقد كرر القرآن الكريم الأمر بالتوجه إلى الكعبة ثلاث مرات في ثلاث آيات ، وعلق بكل أمر فائدة جديدة تناسبه ، لأن أهمية هذا الحادث تستلزم تكراراً في الخطاب ليرسخ في النفوس ، ويستقر في المشاعر والقلوب .

سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء الى صراط مستقيم

كما فسرها الوسيط هذا ، وبعد تلك المقدمة الموجزة لما اشتملت عليه آيات تحويل القبلة من مقاصد ، نحب أن نتعرض لتفسيرها بالتفصيل ، فنقول قال الله تعالى :( سَيَقُولُ السفهاء مِنَ الناس مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ . تضمنت هذه الآيات الكريمة إعلام النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين( . . أن فريقاً من الناس الذين خفت أحلامهم وضعفت عقولهم وعدولا عما ينفعهم إلى ما يضرهم ، سيقولون على سبيل الإنكار عند تحويل القبلة إلى المسجد الحرام ما صرفهم عن القبلة التي كانوا عليها ، وهي بيت المقدس .قال صاحب الكشاف ، فإن قلت ، أي فائدة في الإخبار بقولهم قبل وقوعه؟ قلت : فائدته أن " : مفاجأت المكروه أشد ، والعلم به قبل وقوعه أبعد من الاضطراب إذا وقع ، لما يتقدمه من توطين النفس ، وأن الجواب العتيد قبل الحاجة إليه أقطع للخصم وأرد لشغبه " .والمراد بالسفهاء اليهود الذين استنكروا تحويل القبلة ، ومن لف لفهم من المنافقين ومشركي العرب .وإنما سماهم الله - تعالى - سفهاء لأنهم سفهوا الحق ، وجحدوه ، وأنكروا نبوة النبي صلى الله عليه وسلم مع علمهم بصدقه في رسالته .وقد صرح البخاري - رحمه الله - بأن المراد بالسفهاء اليهود ، فقد روى عن البراء بن عازب قال :كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب أن يتوجه إلى الكعبة ، فأنزل الله - تعالى - ( قَدْ نرى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السمآء ) فتوجه نحو الكعبة ، وقال السفهاء من الناس - وهم اليهود - ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها .ثم لقن الله - تعالى - نبيه صلى الله عليه وسلم الجواب الذي يخرس به ألسنة المعترضين من اليهود وغيرهم فقال تعالى : ( قُل للَّهِ المشرق والمغرب يَهْدِي مَن يَشَآءُ إلى ، : صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ) أي قل لهم - يا محمد - إذا اعترضوا على التحويل إن الأمكنة كلها لله ملكاً وتصرفاً وهي بالنسبة إليه متساوية ، وله أن يخص بعضها بحكم دون بعض ، فإذا أمرنا باستقبال جهة في الصلاة فلحكمة اقتضت الأمر وما على الناس إلا أن يمتثلوا أمره ، والمؤمنون ما اتخذوا الكعبة قبلة لهم إلا امتثالا لأمر ربهم ، لا ترجيحاً لبعض الجهات من تلقاء أنفسهم فالله هو الذي يهدي من يشاء هدايته ، إلى السبيل الحق ، فيوجه إلى بيت المقدس مدة حيث اقتضت حكمته ذلك ، ثم إلى الكعبة ، حيث يعلم المصلحة فيما أمر به .

وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا وما جعلنا القبلة التي كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وان كانت لكبيرة الا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع ايمانكم

ان الله بالناس لرءوف رحيم

كما فسرها الوسيط ثم وصف الله - تعالى - الأمة الإسلامية ، بأنها أمة خيرة عادلة مزكاة بالعلم والعمل فقال تعالى : ( وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى الناس وَيَكُونَ الرسول عَلَيْكُمْ شَهِيداً ) .والمعنى : ومثل ما جعلنا قبلتكم - أيها المسلمون - وسطاً لأنها البيت الحرام الذي هو المثابة للناس ، والأمن لهم ، جعلناكم أيضا - ( أُمَّةً وَسَطاً ) أي : خياراً عدولا بين الأمم ليتحقق التناسب بينكم وبين القبلة التي تتوجهون إليها في صلواتكم ، تشهدون على الأمم السابقة بأن أنبياءهم قد بلغوهم الرسالة ، ونصحوهم بما ينفعهم ، ولكي يشهد الرسول صلى الله عليه وسلم عليكم بأنكم صدقتموه وآمنتم به .أخرج البخاري عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعى نوح يوم القيامة فيقول : لبيك وسعديك يا رب ، فيقال له : هل بلغت ما أرسلت به؟ فيقول نعم ، فيقال لأمته هل بلغكم . فيقولون : ما أتانا من نذير فيقال له : من يشهد لك . فيقول : محمد وأمته . فيشهدون أنه قد بلغ ، فذلك ، قوله - جل ذكره - ( وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى الناس وَيَكُونَ الرسول عَلَيْكُمْ شَهِيداً ): ثم بين الله - تعالى - الحكمة في تحويل القبلة إلى الكعبة فقال تعالى. ( وَمَا جَعَلْنَا القبلة التي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرسول مِمَّن يَنقَلِبُ على عَقِبَيْهِ ) .أي وما شرعنا التوجه إلى القبلة التي كنت عليها قبل وقتك هذا وهي بيت المقدس ، إلا لنعامل الناس معاملة الممتحن المختبر ، فنعلم من يتبع الرسول ويأتمر بأوامره في كل حال ممن لم يدخل الدين في قرارة نفسه ، وإنما دخل فيه على حرف ، بحيث يترد عنه لأقل شبهة ، وأدنى ملابسة كما حصل ذلك من ضعاف الإيمان عند تحويل القبلة إلى الكعبة والله - تعالى - عالم بكل شيء ، ولكنه شاء أن يكون معلومه الغيبي مشاهداً في العيان ، إذ تعلق الشيء واقعاً في العيان ، هو الذي تقوم عليه الحجة ، ويترتب عليه الثواب والعقاب .ولذا قال صاحب الكشاف : فإن قلت كيف قال لنعلم ولم يزل عالماً بذلك؟ قلت؛ معناه لنعلمه علماً يتعلق به : الجزاء ، وهو أن يعلمه موجوداً حاصلا ، ونحوه ( وَلَمَّا يَعْلَمِ الله الذين جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصابرين ) وقيل ليعلم رسول الله ، والمؤمنون ، وإنما أسند علمهم إلى ذاته ، لأنهنم خواصه وأهل الزلفى عنده وقيل معناه . ليميز التابع من الناكص كما قال - تعالى - : ( لِيَمِيزَ الله " الخبيث مِنَ الطيب ) فوضع العلم موضع التمييز؛ لأن العلم يقع التميز به ثم بين الله - تعالى - آثار تحويل القبلة في نفوس المؤمنين وغيرهم فقال. تعالى : ( وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الذين هَدَى الله ) .أي إنما شرعنا لك - يا محمد - القبلة أولا إلى بيت المقدس ، ثم صرفناك عنها : إلى الكمية ليظهر حال من يتبعك ويطيعك في كل حالة ممن لا يطيعك ، وإن كانت ، هذه الفعلة - وهي تحويلنا لك من بيت المقدس إلى الكعبة - لكبيرة وشاقة إلا على الذين خلق الله الهداية في قلوبهم فتلقوا أوامرنا بالخضوع والإذعان ، وقالوا سمعنا وأطعنا كل من عند ربنا .وقوله - تعالى - : ( وَمَا كَانَ الله لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ . . . ) .بشارة عظيمة للمؤمنين ، وجواب لما جاشت به الصدور ، وتكذيب لما ادعاه اليهود من أن عبادة المؤمنين في الفترة التي سبقت تحويل القبلة إلى الكعبة ضائعة وباطلة .فقد أخرج البخاري من حديث البراء بن عازب - رضي الله عنه - أنه مات على القبلة قبل أن تحول رجال وقتلوا ، فلم ندر ما تقول فيهم ، فأنزل الله - تعالى - ( وَمَا كَانَ الله لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ) .وقال ابن عباس : كان رجال من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ماتوا على القبلة الأولى ، منهم : أسعد بن زرارة ، وأبو أمامة . . . وأناس آخرون فجاءت عشائرهم فقالوا : يا رسول الله : مات إخواننا وهم يصلون إلى القبلة الأولى وقد صرفك الله إلى قبلة إبراهيم ، فكيف بإخواننا ، فأنزل الله - تعالى - ( وَمَا كَانَ الله لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ) .وروى أن حيي بن أخطب وجماعة من اليهود قالوا للمسلمين : أخبرونا عن صلاتكم إلى بيت المقدس إن كانت على هدى لقد تحولتم عنه ، وإن كانت على ضلالة فقد عبدتم الله بهامدة ، ومن مات عليها فقد مات على ضلالة فقال المسلمون إنما الهدى فيما أمر الله - تعالى - والضلالة فيما نهى الله عنه فقالوا : فما شهادتكم على من مات منكم على قبلتنا؟ - وكان قد مات من المسلمين جماعة قبل تحويل القبلة - فانطلق عشائرهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله : كيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس؟ فأنزل الله تعالى : ( وَمَا كَانَ الله لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ الله بالناس لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ) .والمعنى - وما كان الله - تعالى - ليذهب صلاتكم وأعمالكم الصالحة التي قمتم بها خلال توجهكم إلى بيت المقدس ، لأنه - سبحانه - بعباده رءوف رحيم ولا يضيع أجر من أحسن عملا .ثم خاطب الله - تعالى - نبيه صلى الله عليه وسلم ووعده بأن القبلة التي سيؤمر بالتوجه إليها هي التي يحرص عليها ويرغب فيها .قال الإمام ابن كثير : قال علي بن أبي طلحة قال ابن عباس : كان أول ما نسخ في القرآن

القبلة ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هاجر إلى المدينة وكان أكثر أهلها اليهود فأمره الله تعالى أن يستقبل بيت المقدس ففرحت اليهود فاستقبله رسول الله صلى الله عليه وسلم بضعة عشر شهراً ، وكان يحب قبلة - أبيه إبراهيم ، فكان يدعو الله ، وينظر إلى السماء ، فأنزل الله - تعالى

قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وان الذين اوتوا الكتاب ليعلمون انه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون

كما فسرها الوسيط ( قَدْ نرى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ في السمآء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجد الحرام وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ) والمعنى - قد شاهدنا - يا محمد - وعلمنا تردد وجهك ، وتسريح نظرك إلى السماء تطلعا إلى نزول الوحي عليك ، وتوقعاً لما ألقى في روعك من تحويل القبلة إلى الكعبة سعياً منك وراء استمالة العرب إلى الدخول في أحضان الإسلام ، ومخالفة اليهود الذين كانوا يقولون : إنه يخالفنا في ديننا ويتبع قبلتنا ، وها نحن قد أجبناك إلى ما طلبت وأعطيناك ما سألت ، ووجهناك إلى قبلة تحبها وتميل إليها ( فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجد الحرام ) .أي فاصرف وجهك وحوله نحو المسجد الحرام وجهته .ثم عمم القرآن الكريم هذا : التشريع على الأمة الإسلامية جميعها . فقال تعالى :( وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ) .أي : وحيثما كنتم وأينما وجدتم في بر أو بحر فولوا وجوهكم تلقاء المسجد الحرام ونحوه .وقد جاءت هذه الجملة موجهة إلى الأمة قاطبة لدفع توهم أن يكون الخطاب في الأول خاصاً بالنبي صلى الله عليه وسلم ولأنه لما كان تحويل القبلة أمرا له خطره ، خصهم بخطاب مفرد ليكون ذلك أكد وأبلغ .فالآية الكريمة فيها أمر لكل مسلم أن يجعل الكعبة قبلة له ، فيتوجه بصدره إلى ناحيتها وجهتها حال تأديته الصلاة لربه سواء أكان المصلي بالمدينة أم بمكة أو بغيرهما .وفي ذكر المسجد الحرام ، دون الكعبة ، ما يؤذن بكفالة مراعاة جهتها ولذلك لم يقع خلاف بين العلماء في أن الكعبة قبلة كل أفق . وأن من عاينها فرض عليه استقبالها ومن غاب عنها فعليه أن يستقبل جهتها . فإن خفيت عليه تحرى جهتها ما استطاع .وقد سقنا في مطلع هذا البحث بعض الأحاديث الصحيحة التي صرحت بأن الصحابة عندما بلغهم أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أمر بالتحويل إلى الكعبة استداروا إليها وهم في صلاتهم فجعلوها قبلتهم .ومما يشهد بقوة إيمانهم وعظيم امتثالهم لشرع الله ما جاء عن نويلة بنت مسلم أنها قالت ." وصلينا الظهر - أو العصر ط في ، مسجد بني حارثة ، فاستقبلنا مسجد إيلياء - أي بيت المقدس - فصلينا ركعتين ثم جاء من يحدثنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استقبل البيت الحرام فتحول النساء مكان الرجال . والرجال مكان النساء . فصلينا السجدتين الباقيتين ونحن مستقبلون البيت الحرام . فحدثني رجل من بني حارثة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أولئك رجال يؤمنون بالغيب " .ثم بينت الآية الكريمة أن أهل الكتاب يعلمون أن التحويل إلى الكعبة هو الحق الذي لا ريب فيه فقال تعالى : ( وَإِنَّ الذين أُوتُواْ الكتاب لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحق مِن رَّبِّهِمْ وَمَا الله بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ) .أي : وإن اليهود الذين أنكروا استقبالكم الكعبة ، وانصرافكم عن بيت المقدس ، ليعلمون أن استقبالكم الكعبة حق؛ لأن الذي أخبر به قد قامت الآيات البينات عندهم على أنه رسول من عند الله ، أو أنه يصلي إلى القبلتين ، وما وقفوا من تحويل القبلة هذا الموقف إلا لعنادهم ، وما الله بغافل عن أعمالهم بل هو محيط بها وسيحاسبهم عليها يوم القيامة حساباً عسرياً " .

ولئن اتيت الذين اوتوا الكتاب بكل اية ما تبعوا قبلتك وما انت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ولئن اتبعت اهواءهم من بعد ما جاءك من العلم انك اذا لمن الظالمين

كما فسرها الوسيط ثم أخبر الله - تعالى - عن كفر اليهود وعنادهم ، وأنهم لن يتبعوا الحق ولو جاءهم الرسول صلى الله عليه وسلم بكل آية . فقال تعالى ): وَلَئِنْ أَتَيْتَ الذين أُوتُواْ الكتاب . . . )المعنى : ولئن جئت - يا محمد - اليهود ومن على طريقتهم في الكفر بكل برهان وحجة ، بأن الحق هو ما جئتهم به ، من فرض التحول من قبلة بيت المقدس في الصلاة إلأى قبلة المسجد الحرام ، ما صدقوا به ، لأن تركهم اتباعك ليس عن شبهة يزيلها الدليل وإنما هو عن مكابرة وعناد مع علمهم بما في كتبهم من أنك على الحق المبين وما أنت - يا محمد - بتابع قبلتهم ، لأنك على الهدى وهم على الضلال وفي. هذه الجملة الكريمة حسم لأطماعهم ، وتقرير لحقية القبلة إلى الكعبة ، بعد أن أشاعوا بأن النبي صلى الله عليه وسلم لو ثبت على قبلتهم لكانوا يرجون أنهن النبي المنتظر ، فقطع القرآن الكريم أمالهم في رجوع النبي صلى الله عليه وسلم إلى قبلتهم ، وأخبر بأنه ليس يتابع لها .ثم ذكر القرآن الكريم

اختلاف أهل الكتاب في القبلة ، وأن كل طائفة منهم لا تتبع قبلة الطائفة الأخرى فقال تعالى : ( وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ) أي : ما اليهود بمتبعين لقبلة النصارى ولا النصارى بمتبعين لقبلة اليهود ، فهم مع اتفاقهم على مخالفتك ، مختلفون في باطلهم وذلك لأن اليهود تستقبل بيت المقدس ، والنصارى تستقبل مطلع الشمس .ثم ساق القرآن الكريم بعد ذلك تحذيراً للأمة كلها من اتباع أهل الكتاب ، وجاء هذا التحذير في شخص النبي صلى الله عليه وسلم فقال تعالى : ( وَلَئِنِ اتبعت أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ العلم إِنَّكَ إِذاً لَّمِنَ الظالمين ) .أي : لئن اتبعت - يا محمد - قبلتهم - على سبيل الفرض ، والتقدير من بعد وضوح البرهان وإعلامي إياك بإقامتهم على الباطل ، إنك إذاً لمن الظالمين لأنفسهم المخالفين لأمري .فالآية الكريمة : وعيد وتحذير للأمة الإسلامية من ، اتباع آراء اليهود المنبعثة عن الهوى والشهوة ، وسيق الوعيد والتحذير في صورة الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم الذي لا يتوقع منه أن يتبع أهواء أهل الكتاب ، تأكيداً للوعيد والتحذير ، فكأنه يقول :لو اتبع أهواءهم أفضل لخليقة ، وأعلاهم منزلة عندي ، لجازيته مجازاة الظالمين ، وأحق بهذه المجازاة وأولى من كانوا دونه في الفضل وعلو المنزلة إن اتبعوا أهواء المبطلين وهم اليهود ومن كان على شاكلتهم من المشركين .قال صاحب الكشاف " : فإن قلت : كيف قال وما أنت بتابع قبلتهم ولهم قبلتان ، لليهود قبلة وللنصارى قبلة؟قلت : كلتا القبلتين باطلة ، مخالفة لقبلة الحق ، فكانت بحكم الاتحاد في البطلان قبلة واحدة " .

الذين اتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون ابناءهم وان فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون

كما فسرها الوسيط ثم بين القرآن الكريم أن أهل الكتاب يعرفون صدق الرسول صلى الله عليه وسلم معرفة لا يخالطها شك فقال تعالى : ( الذين آتَيْنَاهُمُ الكتاب يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ) .أي : أن أحبار اليهود وعلماء النصارى يعرفون صدق رسالة النبي صلى الله عليه وسلم ويعرفون أن توجهه إلى البيت الحرام حق ، كما يعرفون أبناءهم فهو تشبيه للمعرفة العقلية الحاصلة من مطالعة الكتب السماوية ، بالمعرفة الحسية في أن كلا منهما يقين لا اشتباه فيه .قال الإمام ابن كثير : " يخبر الله أن علماء أهل الكتاب يعرفون صحة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم كما يعرف أحدهم ولده ، والعرب كانت تضرب المثل في صحة الشيء بهذا كما جاء في الحديث " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل معه صبي صغير " إبنك هذا "؟ قال نعم يا رسول الله أشهد به ، قال :" أما إنه لا يخفي عليك ولا تخفى عليه " ويروى عن عمر أنه قال " لعبد الله بن سلام " أتعرف محمد صلى الله عليه وسلم كما تعرف ولدك . قال نعم وأكثر ، نزل الأمين من السماء على الأمين في الأرض بنعته ، وإني لا أدري ما كان من أم ولدي ، فقبل عمر - رضي الله عنه - رأسه أي : وإن طائفة من أهل الكتاب مع ذلك التحقيق والإيقان العلمي من أنك. " على حق في كل شئونك ليتمادون في إخفائه وجحوده ، وهم يعلمون ما يترتب على ذلك الكتمان من سوء المصير لهم في الدنيا والآخرة - ثم ثبت الله تعالى نبيه صلى الله عليه ولم والمؤمنين ، فأخبرهم بأن ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم هو الحق الذي لا شك فيه .أي : اعلم - يا محمد - أن ما أوحي إليك وأمرت به من التوجه إلى المسجد الحرام . هو الحق الذي جاءك من ربك ، وأن ما يقوله اليهود وغيرهم من المشركين هو الباطل الذي لا شك فيه ، فلا تكونن من الشاكين في كتمانهم الحق مع علمهم به ، أو في الحق الذي جاءك من ربك وهو ما أنت عليه في جميع أحوالك ومن بينها التوجه إلى المسجد الحرام .والشك غير متوقع من الرسول صلى الله عليه وسلم ولذلك قال المفسرون إن النهي موجه إلى الأمة في شخص نبيها صلى الله عليه وسلم إذ كان فيها حديثو عهد بكفر يخشى عليهم أن يفتنوا بزخرف من القول يروج به أهل الكتاب شبهاً تعلق بأذهان من لم يرسخ الإيمان في قلوبهم .وقد وضح ابن جرير - رحمه الله - هذا المعنى بقوله :

الحق من ربك فلا تكونن من الممترين

كما فسرها الوسيط فإن قال لنا قائل : " أو كان النبي صلى الله عليه وسلم شاكاً في أن الحق من ربه أو في أن القبلة التي وجهه الله إليها حق من الله - تعالى - حتى نهى عن شك في ذلك فقيل له : ( فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الممترين ) .قيل : ذلك من الكلام الذي تخرجه العرب مخرج الأمر أو النهي للمخاطب به ، والمراد به غيره كما قال جل ثناؤه :( ياأيها النبي اتق الله وَلاَ تُطِعِ الكافرين والمنافقين ) ثم قال ( واتبع مَا يوحى إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ إِنَّ الله كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ) فخرج الكلام مخرج الأمر للنبي صلى الله عليه وسلم والنهي له . والمراد به أصحابه المؤمنون به .

ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات اين ما تكونوا يات بكم الله جميعا ان الله على كل شيء قدير

كما فسرها الوسيط ثم قال تعالى : ( وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فاستبقوا الخيرات ) .أي : ولكل أهل ملة قبله يتجهون إليها في عباداتهم ، فسارعوا أنتم جهدكم إلى ما اختاره الله لكم من الأعمال التي تكسبكم سعادة الدارين ، والتي من جملتها التوجه إلى البيت الحرام .ثم ساق الله - تعالى - وعداً لمن يطيع أمره ، ووعيداً لمن ينصر عن الخير . فقال - تعالى - : ( أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ الله جَمِيعاً ) .أي : في أي بقعة يدرككم الأجل ، وتموتون فيها ، يجمعكم الله - تعالى - يوم القيامة .لتقفوا بين يديه للحساب ، لأنه - سبحانه - قادر على جمعكم بعد مماتكم من قبوركم حيث كنتم ، وإن تفرقت أجسادكم وأبدانكم ، كما أنه - سبحانه - قدير على كل شيء ، وما دام الأمر كذلك ، فبادروا بالأعمال الصالحة شكراً لربكم وحافظوا على قبلتكم ، حتى لا تضلوا كما ضل اليهود ومن على طريقتهم في الكفر والعناد .

ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وانه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون

كما فسرها الوسيط ثم أكد - سبحانه - حكم التحويل ، وبين عدم تفاوت الأمر باستقبال المسجد الحرام في حالتي السفر أو الحضر . فقال - تعالى - : ( وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجد الحرام ) . . .أي : ومن أي موضع خرجت وإلى أم مكان آخر سرت ، فول - يا محمد - وجهك عند صلاتك إلى المسجد الحرام ، وإن هذا التوجه شطره لهو الحق الذي لا شك فيه عند ربك فحافظوا على ذلك أيها المؤمنون وأطيعوا الله - تعالى - في كل ما يأمركم ، به ، ويتهاكم عنه ، لأنه - سبحانه - ليس بساه عن أعمالكم ، ولا بغافل عنها ولكنه محصيها عليكم ، وسيجازيكم الجزاء الذي تستحقونه عليها يوم القيامة ، .

ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة الا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشوني ولاتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون

كما فسرها الوسيط ثم كرر - سبحانه - الأمر للمؤمنين بأن يتجهوا في صلاتهم إلى المسجد الحرام فقال : ( وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجد الحرام ) .أي : ومن أي مكان خرجت - يا محمد - فول وجهك تلقاء المسجد الحرام ، وأينما كنتم أيها المؤمنون من أرض الله ، فولوا وجوهكم في صلاتكم تجاهه ونحوه .وتلك هي المرة الثالثة التي تكرر فيها الأمر للمؤمنين بالتوجه إلى المسجد الحرام في صلاتهم ، وهذا التكرير لتأكيد أمر القبلة وتشديده لأن تحول القبلة كان أول نسخ في الإسلام - كما قال كثير من العلماء - فاقتضى الأمر تأكيده في نفوس المؤمنين حتى يستقر في مشاعرهم ويذهب ما يثار حولها من شبهات أدراجح الرياح ، ولأن الله - تعالى - أنط بكل واحد من هذه الأوامر الثلاثة بالتحول ما لم ينط بالآخر من أحكام فاختلفت فوائدها ، فكأنه - سبحانه - يقول لنبيه - صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين الزموا هذه القبلة لأنهاه هي القبلة التي ترضونها وترغبون فيها وطالما. تمنيتموها ، والزموها - أيضاً - لأنها هي القبلة التي لن تنسخ بعد ذلك والزموها - كذلك - لأن لزومكم إياها يقطع حجة اليهود الجاحدين ، وغيرهم من. المعاندين والخاسرين .وقد اقترن هذا الأمر الثالث بالتوجه إلى المسجد الحرام في هذا الآية الكريمة بحكم ثلاث .أولها : قوله تعالى : ( لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الذين ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ واخشوني ) والمراد من الناس اليهود ومن لف لفهم من المناوئين للدعوة الإسلامية .والمعنى عليك - أيها النبي - ومن معك من المؤمنين أن تتجهوا في صلاتكم إلى الكعبة المشرفة ، لكي تقطعوا دابر فتنة اليهود وحجتهم فقد قالوا لكم وقت اتجاهكم إلى بيت المقدس .إذا كان لكم أيها المسلمون دين يخالف ديننا فلماذا تتجهون إلى قبلتنا ، إلى غير ذلك من أقوالهم الفاسدة فاتجاهكم إلى المسجد الحرام من شأنه أن يزيل هذه الحجة التي قد تبدو مقبولة في نظر ضعاف العقول .وقوله تعالى : ( إِلاَّ الذين ظَلَمُواْ ) استثناء من الناس ، والمعنى :لئلا يكون لأحد من اليهود حجة عليكم ، إلا المعاندين منهم القائلين : ما ترك قبلتنا إلى الكعبة إلا حباً لدين قومه ، واشتياقاً لمكة ، وهؤلاء لا تخافون مطاعنهم بل اجعلوا خوفكم منى وحدي ولا تقيموا لما يشاغبون به في أمر القبلة وغيره وزنا ، فإني كفيل أن أرد عنكم كيدكم وأحبط سعيهم ، فأنتم ، أيها المؤمنون - ما توجهتهم إلى بيت المقدس ثم إلى المسجد الحرام إلا بإذن ربكم وأمره ، ففي الحالتين أنتم

، مطيعون لخالقكم - عز وجل - .وقد أحسن صاحب الكشاف في شرحه للجملة الكريمة
وصرح بأنه يجوز أن يراد بالناس وبالذين ظلموا مشركوا العرب فقال :( إِلاَّ
الذين ظَلَمُواْ ) استثناء من الناس ، ومعناه : لئلا يكون حجة لأحد من
اليهود إلا المعاندين منهم ، القائلين ما ترك قبلتنا إلى الكعبة إلا ميلا
، إلى دين قومه وحباً لبلده ، ولو كان على الحق للزم قبلة الأنبياء قبله
فإن قلت : أي حجة كانت تكون للمنصفين منهم لو لم يحول حتى احترز من تلك
الحجة ، ولم يبال بحجة المعاندين؟قلت : كانوا يقولون ما له لا يحول إلى
قبلة أبيه إبراهيم كما هو مذكور في نعته في التوراة؟ فإن قلت : كيف أطلق
اسم الحجة على قول المعاندين؟قلت : لأنهم يسوقونه سياق الحجة ، ويجوز أن
يكون المعنى : لئلا يكون للعرب عليكم حجة واعتراض في تركك التوجه إلى
الكعبة التي هي قبلة إبراهيم وإسماعيل أبي العرب إلا الذين ظلموا منهم وهم
أهل مكة ، حين يقولون بداله فرجع إلى قبله آبائه ، ويوشك أن يرجع إلى دينهم
وثانيها : قوله تعالى : ( وَلأُتِمّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ ) أي : ولو."
وجوهكم شطر المسجد الحرام ( لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ
ولتكون قبلتكم مستقلة عن قبلة اليهود وغيرهم ، فالجملة الكريمة معطوفة (
على قوله - تعالى - : ( لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ )
وثالثها : قوله - تعالى - ( وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُون ) أي : ولكي ترشدوا.
للصواب في كل أموركم فما ضلت عنه الأمم من الحق هديناكم إليه ، وخصصناكم به
ولهذا كانت أمتكم خير أمة أخرجت للناس .والجملة الكريمة معطوفة على الجملة
السابقة وهي قوله تعالى : ( وَلأُتِمّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ ) أي : ولوا
وجوهكم شطر المسجد الحرام ( لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ
ولتكون قبلتكم مستقلة عن قبلة اليهود وغيرهم ، فالجملة الكريمة معطوفة (
على قوله - تعالى - : ( لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ )
وثالثها : قوله - تعالى - : ( وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ) أي : ولي.
، ترشدوا للصواب في كل أموركم فما ضلت عنه الأمم من الحق هديناكم إليه
وخصصناكم به ولهذا كانت أمتكم خير أمة أخرجت للناس .والجملة الكريمة معطوفة
على الجملة السابقة وهي قوله تعالى : ( وَلأُتِمّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ )
وبذلك تكون الآيات الكريمة التي نزلت في شأن تحويل القبلة إلى المسجد.
الحرام قد ثبتت المؤمنين ، ودحضت كل شبهة أوردها اليهود وغيرهم في هذه
المسألة .خامساً : هذا ، وفي ختام هذا المبحث نحب أن نجيب على السؤال
الخامس ، وهو : لماذا فصل القرآن الكريم الحديث عن تحويل القبلة فنقول :لقد
شرع الله - تعالى - تحويل القبلة إلى الكعبة بعد أن صلى المسلمون إلى بيت
المقدس فترة من الزمان ، وكرر الأمر بتولية الوجوه إلى المسجد الحرام عند
الصلاة ، وأقام الأدلة الساطعة على أن ذلك التحويل هو الحق ، وأتى بألوان
من الوعيد لمن لم يتبع أوامره ، وساق وجوهاً من التأكيدات تدل على عناية
بالغة بشأنها .والمقتضى لهذه العناية وذلك التفصيل - مع أن التوجه إليها
فرع من فروع الدين - هو أن التحويل من بيت المقدس إلى المسجد الحرام . كان
أول نسخ في الإسلام - كما قال بذلك كثير من العلماء - والنسخ من مظان
الفتنة والشبهة وتسويل الشيطان ، فاقتضى الأمر بسط الحديث في مسألة القبلة
ليزدادوا إيماناً على إيمانهم .ولأن هذا التحويل - أيضاً - جاء على خلاف
رغبة اليهود ، فإنهم كانوا يحرصون على استمرار المسلمين في التوجه إلى بيت
المقدس ، لأنه قبلتهم ، فلما حصل التحويل إلى المسجد الحرام ، اتخذوا منه
مادة للطعن في صحة النبوة ليفتنوا ضعفاء العقيدة ، وسلكوا لبلبلة أفكار
المسلمين كل وسيلة .فزعموا أن نسخ الحكم بعد شرعه مناف للحكمة ، ومباين
للعقول ، فلا يقع في الشرائع الإلهية ، وساقوا من الشبهات والمفتريات ما
بينا بعضه عند تفسيرنا للآيات الكريمة .ويبدو أن شغبهم هذا ، كان له آثاره
عند ذوي النفوس المريضة وضعاف الإيمان فلهذا كله أخذت مسألة القبلة شأناً
غير شأن بقية الأحكام الفرعية ، فكان مقتضى الحال أن يكون الحديث عنها
مستفيضاً ، ومدعماً بالأدلة والبراهين ، وهذا ما راعاه القرآن الكريم عند
حديثه عن مسألة القبلة ، فلقد قرر وكرر ، ووعد وتوعد ، ووضح وبين ، ليدفع
كل شبهة ، وليجتث كل حجة ، ويزيد المؤمنين إيماناً على إيمانهم ، وينهض
بضعفاء الإيمان إلى منزلة الراسخين في العلم ، ويهوى باليهود ومن حذا
حذوهم في مكان سحيق ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .وبعد
أن أنهى القرآن حديثه عن نعمة تحويل القبلة أتبعه بالحديث عن نعمة جليلة
أخرى وهي نعمة ارسال الرسول فيهم لهدايتهم فقال - تعالى -( كَمَآ
أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنْكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا .
. . )

كما ارسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم اياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب
والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون

كما فسرها الوسيط قوله - تعالي - : (كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً
مِّنْكُمْ ) . . إلخ متصل بما قبله ، والكاف للتشبيه وهي في موضع نصب على
أنها نعت لمصدر محذوف وما مصدرية ، والتقدير : لقد حولت القبلة إلى شطر

المسجد الحرام لأتم نعمتي عليكم إتماماً مثل إتمام نعمتي عليكم بإرسال
) الرسول صلى الله عليه وسلم فيكم ، إجابة لدعوة إبراهيم وإسماعيل إذ قالا
- رَبَّنَا وابعث فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ . . . ) وقيل إن قوله - تعالى
، إلخ متصل بما بعده ، فتكون الكاف للمقابلة . . ( كَمَآ أَرْسَلْنَا ) :
أي : كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يعلمكم الدين القويم ، والخلق المستقيم
ومنحتكم هذه النعمة فلا مني وكرماً ، فاذكروني بالشكر عليها أذكركم برحمتي
وثوابي . وقوله : ( فِيكُمْ ) متعلق " بأرسلنا " وقدم على المفعول تعجيلا
) : بإدخال السرور : وقوله : ( مِّنْكُمْ ) في موضع نصب ، لأنه صفة لقوله
رَسُولاً ) والمخاطبون بهذه الآية الكريمة هم العرب .وفي إرساله الرسول صلى
الله عليه وسلم فيهم وهو منهم نعمة تستوجب المزيد من الشكر ، لأن إرساله
منهم يسبقه معرفتهم لنشأته الطيبة وسيرته العطرة ، ومن شأن هذه المعرفة أن
تحملهم على المسارعة إلى تصديقه والإيمان به ، ولأن في إرساله فيهم وهو
منهم شرف عظيم لهم ، ومجد لا يعد له مجد ، حيث جعل - سبحانه - خاتم رسله من
هذه الأمة ، ولأن المشهور من حالهم الأنفة الشديدة من الانقياط ، فكون
الرسول منهم ادعى إلى إيمانهم به وقبولهم لدعوته . وقوله : ( يَتْلُواْ
: عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا ) صفة ثانية للرسول صلى الله عليه وسلم .والتلاوة
: ذكرالكلمة بعد الكلمة على نظام متسق ، وأصله من الإتباع ومنه تلاه ، أي
تبعه . والمراد من الآيات : آيات القرآن الكريم ، وتلاوتها قراءتها ، فإن
البصير بأسليب البيان العربي يدرك من مجرد تلاوة آيات القرآن كيف ارتفع إلى
" - الذروة التي كان بها معجزة ساطعة .وفي هذه الجملة - كما قال الآلوسي
إشارة إلى طريق إثبات نبوته - عليه الصلاة والسلام - لأن تلاوة الأمي
للآيات الخارجة عن طوق البشر باعتبار بلاغتها واشتمالها على الإخبار
بالمغيبات والمصالح التي ينتظم بها أمر المعاد والمعاش أقوى دليل على نبوته
وعبر بقوله : ( يَتْلُواْ ) لأن نزول القرآن مستمر ، وقراءة النبي صلى"
الله عليه وسلم له متوالية ، وفي كل قراءة يحصل علم المعجزات للسامعين
ويجوز أن يراد بالآيات : دلائل التوحيد والنبوة والبعث ، وبتلاوتها.
التذكير بها حتى يزداد المؤمنون إيماناً بصدقها .وقوله : ( وَيُزَكِّيكُمْ
صفة ثالثة للرسول صلى الله عليه وسلم ، أي : ويطهركم من الشرك ، ومن (
، الأخلاق الذميمة . وإذا أشرقت النفوس بنور الحق ، وتحلت بالأخلاق الحميدة
قوبت على تلقى ما يرد عليها من الحقائق السامية .وقوله : ( وَيُعَلِّمُكُم
مّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ) صفة رابعة للرسول صلى الله عليه وسلم
والمراد بالكتاب : القرآن ، وتعليمه بيان ما يخفى من معانيه ، فهو غير.
التلاوة ، فلا تكرار بين قوله ( يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا ) وبين
قوله ( وَيُعَلِّمُكُمُ الكتاب ) .والحكمة : ما يصدر عنه صلى الله عليه
: وسلم من الأقوال والأفعال التي جعل الله للناس فيها أسوة حسنة .قال بعضهم
وقدمت جملة ( وَيُزَكِّيكُمْ ) هنا على جملة ( وَيُعَلِّمُكُمُ الكتاب
والحكمة ) عكس ما جاء في الآية السابقة في حكاية قول إبراهيم ( رَبّنَا
وابعث فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ
وَيُعَلِّمُهُمُ الكتاب والحكمة وَيُزَكِّيهِمْ ) لأن المقام هنا للامتنان
على المسلمين ، فقدم ما يفيد معنى المنفعة الحاصلة من تلاوة الآيات عليهم
وهي منفعة تزكية نفوسهم اهتماماً بها ، وبعثاً لها بالحرص على تحصيل
وسائلها وتعجيلا للبشارة بها . أما في دعوة إبراهيم فقد رتبت الجمل على حسب
"ترتيب حصول ما تضمنته في الخارج ، مع ما في ذلك التخالف من التفنن
وقوله - تعالى - : ( وَيُعَلِّمُكُم مّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ).
صفة خامسة له صلى الله عليه وسلم .أي : " ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمونه مما
لا طريق إلى معرفته سوى الوحي . ومما لم يكونوا يعملونه وعلمهم إياه صلى
، الله عليه وسلم وجوه واستنباط الأحكام من النصوص أو الأصول المستمدة منها
وأخبار الأمم الماضية ، وقصص الأنبياء ، وغير ذلك مما لم تستقل بعلمه
عقولهم . وبهذا النوع من التعليم صار الدين كاملا قبل انتهاء عهد النبوة
ولقد كان العرب قبل الإسلام في حالة شديدة من ظلام العقول وفساد العقائد.
فلما أكرمهم الله - تعالى - برسالة رسوله صلى الله عليه وسلم وتلا . . .
عليهم الآيات ، وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون ، خرج منهم رجال صاروا أمثالا
عالية في العقيدة السليمة ، والأخلاق القويمة والأحكام العادلة ، والسياسة
" : الرشيدة لمختلف البيئات والنزعات .قال الآلوسي : وكان الظاهر أن يقول
ويعلمكم الكتاب والحكمة وما لم تكونوا تعلمون " بحذف الفعل " يعلمكم " من
- الجملة الأخيرة ، ليكون الكلام من عطف المفرد على المفرد ، إلا أنه
تعالى - كرر الفعل للدلالة على أنه جنس آخر غير مشارك لما قبله أصلا ، فهو
، تخصيص بعد التعميم مبين لكون إرساله صلى الله عليه وسلم نعمة عظيمة
. " ولولاه لكان الخلق متحيرين في أمر دينهم لا يدرون ماذا يصنعون

فاذكروني اذكركم واشكروا لي ولا تكفرون

كما فسرها الوسيط ثم أمر الله عباده بأن يكثروا من ذكره وشكره على ما أسبغ
عليهم من نعم فقال : ( فاذكروني أَذْكُرْكُمْ . . . ) .ذكر الشيء : التلفظ

باسمه ، ويطلق بمعنى استحضاره في الذهن ، وهو ضد النسيان وذكر العباد لخالقهم قد يكون باللسان وقد يكون بالقلب وقد يكون بالجوارح . فذكرهم إياه بألسنتهم معناه : أن يحمدوه ويسبحوه ويمجدوه ، ويقرءوا كتابه ، مع استحضارهم لعظمته وجلاله .وذكرهم إياه بقلوبهم معناه أن يتفكروا في الدلائل الدالة على ذاته وصفاته وفي تكاليفه وأحكامه ، وأوامره ونواهيه ، وأسرار مخلوقاته ، لأن هذا التفكر يقوى إيمانهم ، ويصفى نفوسهم .وذكرهم إياه بجوارحهم معناه : أن تكون جوارحهم وحواسهم مستغرقة في الأعمال اتي أمروا بها ، منصرفة عن الأفعال التي نهوا عنها ، ولكون الصلاة مشتملة على هذه الثلاثة سماها الله - تعالى - ذكراً في قوله : ( ياأيها الذين آمنوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الجمعة فاسعوا إلى ذِكْرِ الله وَذَرُواْ البيع . . . ) وقوله : ( فاذكروني أَذْكُرْكُمْ ) أمر وجوابه ، وفيه معنى المجازاة فلذلك جزم .والمعنى : اذكروني بالطاعة والاستجابة لما أمرتكم به والبعد عما نهيتكم عنه أذكركم بالرعاية والنصرة ، وصلاح الأحوال في الدنيا وبالرحمة وجزيل الثواب في الآخرة . فالذكر في قوله ( أَذْكُرْكُمْ ) ، مستعمل فيما يترتب على الذكر من المجازاة بما هو أوفى وأبقى ، كما أن قوله فاذكروني " المراد به : اذكروا عظمتي وجلالي ونعمي عليكم ، لأن هذا " التذكر هو الذي يبعث على استفراغ الوسع في الأقوال والأعمال التي ترضى الله قال صاحب المنار : وقال الأستاذ الإمام : هذه الكلمة - وهي قوله - تعالى. : من الله - تعالى كبيرة جداً ، كأنه يقول - ( فاذكروني أَذْكُرْكُمْ ) إنني أعاملكم بما تعاملونني به وهو الرب ونحن العبيد ، وهو الغني عنا ونحن الفقراء إليه . وهذه أفضل تربية من الله لعباده : إذا ذكروه ذكرهم بإدامه النعمة والفضل ، وإذا نسوه نسيهم وعاقبهم بمقتضى العدل " .هذا ، وقد وردت أحاديث متعددة في فضل الذكر والذاكرين ، ومن ذلك ما رواه الشيخان وغيرهما - عن أبي هريرة قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى - : أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم . وإن تقرب إلى شبراً تقربت إليه ذراعاً . وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعا . وإن أتاني يمشي أتيته هرولة " .وروى مسلم عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة : أنهما شهدا على النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لا يقعد قوم يذكرون الله - تعالى - إلا حفتهم الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده " .قال الإمام النووي : واعلم أن فضيلة الذكر غير - منحصرة في التسبيح والتهليل والتحميد والتكبير ونحو ذلك ، بل كل عامل لله تعالى - بطاعة فهو ذاكر لله - تعالى - .وقوله - تعالى - ( واشكروا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ ) معطوف على ما قبله .والشكر في اللغة - كما يقول القرطبي - الظهور ، ومنه قولهم : دابة شكور إذا ظهر عليها من السمن فوق ما ، تعطى من العلف .وحقيقته : عرفان الإحسان وإظهاره بالثناء على المحسن يقال شكره وشكر له كما يقال نصحه ونصح له .وأصل الكفر في كلام العرب الستر والتغطية والجحود ، ويستعمل بمعنى عدم الإيمان فيتعدى بالباء فيقال : كفر بالله ، ويستعمل بمعنى عدم الشكر - وهو المراد هنا - فيتعدى بنفسه ، فيقال كفر النعمة أي جحدها وكفر المنعم أي جحد نعمته ولم يقابلها بالشكر : والمعنى : اشكروا لي ما أنعمت به عليكم من ضروب النعم ، بأن تستعملوا. النعم فيما خلقت له ، وبأن تطيعوني في السر والعلن ، وحذار من أن تجحدوا إحساني إليكم ، ونعمي عليكم فاسلبكم إياها .قال - تعالى - : ( لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ) وقدم - سبحانه - الأمر بالذكر على الأمر بالشكر ، لأن في الذكر اشتغالا بذاته - تعالى - ، وفي الشكر اشتغالا بنعمته ، والاشتغال بذاته أولى بالتقديم من الاشتغال بنعمته . وقوله ( وَلاَ تَكْفُرُونِ ) تأكيد لقوله ) واشكروا لِي ) .وهذا تحذير لهذه الأمة حتى لا تقع فيما وقع فيه بعض الأمم السابقة التي ( فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ الله فَأَذَاقَهَا الله لِبَاسَ الجوع والخوف بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ) وبعد أن أمر - سبحانه - عباده بذكره وشكره ، وجه نداء إليهم بين لهم فيه ما يعينهم على ذلك ، كما بين لهم منزلة الشهداء ، وعاقبة الصابرين على البلاء فقال - تعالى -:( يَاأَيُّهَا الذين آمَنُواْ استعينوا . . . )

يا ايها الذين امنوا استعينوا بالصبر والصلاة ان الله مع الصابرين

كما فسرها الوسيط المعنى : يا من آمنتم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، استعينوا على إقامة دينكم والدفاع عنه ، وعلى فعل الطاعات وترك المعاصي ، وعلى احتمال المكاره التي تجري بها الأقدار ، استعينوا على كل - ذلك بالصبر الجميل وبالصلاة المصحوبة بالخشوع والإخلاص والتذلل للخالق ، عز وجل - فإن الإيمان الذي خالط قلوبكم يستدعى منكم القيام بالمصاعب واحتمال المكاره ، ولقاء الأذى من عدو أو سفيه ، ولن تستطيعوا أن تتغلبوا على كل ذلك إلا بالصبر والصلاة .ولقد استجاب النبي صلى الله عليه وسلم لهذا - التوجيه الرباني ، وتأسى به أصحابه في ذلك ، فقد أخرج الإمام أحمد

بسنده - عن حذيفة بن اليمان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم " كان إذا حزبه أمر صلى " .أي : إذا شق عليه أمر لجأ إلى الصلاة لله رب العالمين
وافتتحت الآية الكريمة بالنداء ، لأن فيه إشعاراً بخبر مهم عظيم ، فإن من شأن الأخبار العظيمة التي تهول المخاطب أن يقدم قبلها ما يهئ النفس لقبولها لتستأنس بها قبل أن تفجأها ولعل مما يشهد بأفضلية هذه الأمة على غيرها من الأمم ، أن الله - تعالى - قد أمر بني إسرائيل في السورة نفسها بالاستعانة بالصبر والصلاة فقال : ( استعينوا بالصبر والصلاة ) إلا أنه - سبحانه - قال لهم : ( وَإِنّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاّ عَلَى الخاشعين ) ليشعرهم بضعف عزائمهم عن عظائم الأعمال ، ولم يقل - سبحانه - للمؤمنين ذلك في الآية التي معنا ، للإيماء إلى أنهم قد يسر لهم ما يصعب على غيرهم ، وأنهم هم الخاشعون الذين استثناهم الله هنالك .وقوله - تعالى - : ( إِنّ الله مَعَ الصابرين ) .ولم يقل " معكم " ليفيد أن معونته إنما تمدهم إذا صار الصبر وصفا لازما لهم .قال الأستاذ الإمام : إن من سنة الله : - تعالى - أن الأعمال العظيمة لا تتم ولا ينجح صاحبها إلا بالثبات والاستمرار ، وهذا - إنما يكون بالصبر ، فمن صبر فهو على سنة الله والله معه ، لأنه - سبحانه جعل هذا الصبر سبباً للظفر ، إذ هو يولد الثبات والاستمرار الذي هو شرط النجاح ، ومن لم يصبر فليس الله معه ، لأنه تنكب سنته ، ولن يثبت فيبلغ غايته .

ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله اموات بل احياء ولكن لا تشعرون

كما فسرها الوسيط ثم نهى - سبحانه - المؤمنين عن أن يقولوا للشهداء أمواتاً فقال : ( وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ الله أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لاّ تَشْعُرُونَ ) . قال ابن عباس - رضي الله عنهما - : نزلت هذه الآية في قتلى غزوة بدر ، قتل من المسلمين فيها أربعة عشر رجلا ست من المهاجرين وثمانية من الأنصار وكان الناس يقولون . مات فلان ومات فلان . فنهى الله - تعالى - أن يقال فيهم : إنهم ماتوا . وقيل إن الكفار والمنافقين قالوا : إن الناس يقتلون أنفسهم طلباً لمرضاة محمد من غير فائدة فنزلت هذه الآية . والسبيل : الطريق وسبيل الله : طريق مرضاته ، وإنما ، قيل للجهاد سبيل الله ، لأنه طريق إلى ثواب الله وإعلاء كلمته . و ) أَمْوَاتٌ ) مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أي :لا تقربوا هم أموات وكذلك " : قوله ( أَحْيَاءٌ ) خبر لمبتدأ محذوف أي : هم أحياء . قال الآلوسي والجملة معطوفة على ( وَلاَ تَقُولُواْ ) اضراب عنه ، وليس من عطف المفرد على المفرد ليكون في حيز القول ويصير المعنى بل قولوا أحياء ، لأن المقصود إثبات الحياة لهم لا أمرهم بأن يقولوا في شأنهم إنهم أحياء وإن كان ذلك أيضاً صحيحاً " . أي :لا تقربوا أيها المؤمنون لمن يقتل من أجل إعلاء كلمة الله ونصرة دينه إنهم أموات ، بمعنى أنهم تلفت نفوسهم وعدموا الحياة ، وتصرمت عنهم اللذات ، وأضحوا كالجمادات كما يتبادر من معنى الميت ، بل هم أحياء - في عالم غير عالمكم كما قال - تعالى - ( وَلاَ تَحْسَبَنّ الذين قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ الله أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبّهِمْ يُرْزَقُونَ . فَرِحِينَ بِمَآ آتَاهُمُ الله من فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بالذين لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مّنْ خَلْفِهِمْ أَلاّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ . يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مّنَ الله وَفَضْلٍ وَأَنّ الله لاَ يُضِيعُ أَجْرَ المؤمنين ) وقوله ) : وَلَكِن لاّ تَشْعُرُونَ ) أي :لا تحسون ولا تدركون حالهم بالمشاعر ، لأنها من شئون الغيب التي لا طريق للعلم بها إلا الوحي . قال الآلوسي ما ملخصه : ثم إن نهى المؤمنين عن أن يقولوا في شأن الشهداء أموات ، إما أن يكون دفعاً لإيهام مساواتهم لغيرهم في ذلك البرزخ . . . وإما أن يكون صيانة لهم عن النطق بكلمة قالها أعداء الدين والمنافقون في شأن أولئك الكرام قاصدين بها أنهم حرموا من النعيم ولن يروه أبداً . . . ثم قال : وقد اختلف في هذه الحياة التي يحياها أولئك الشهداء عند ربهم : فذهب كثير من السلف إلى أنها حقيقة بالروح والجسد ولكنها لا ندركها في هذه النشأة واستدلوا بسياق قوله - تعالى - : ( عِندَ رَبّهِمْ يُرْزَقُون ) وبأن الحياة الروحانية التي ليست بالجسد ليست من خواصهم فلا يكون لهم امتياز بذلك على من عداهم . وذهب البعض إلى أنها روحانية وكونهم يرزقون ولا ينافي ذلك . . وذهب البلخي إلى نفي الحياة عنهم وقال؛ معنى ( بَلْ أَحْيَاءٌ ) - إنهم يحبون يوم القيامة فيجزون أحسن الجزاء . فالآية على حد قوله - تعالى وذهب ( إِنّ الأبرار لَفِي نَعِيمٍ . وَإِنّ الفجار لَفِي جَحِيمٍ ) بعضهم إلى إثبات الحياة الحكمية لهم بسبب ما نالوا من الذكر الجميل والثناء الجليل ، كما روى عن علي أنه قال : " هلك خزان الأموال والعلماء باقون ما بقي الدهر ، أعيانهم مفقودة وآثارهم في القلوب موجودة " . ثم قال : " ولا يخفى أن هذه الأقوال - ما عدا الأولين - في غاية الضعف ، بل نهاية البطلان والمشهور ترجيح القول الأول " . والذي نراه أن الآية الكريمة قد نبهتنا ، إلى أن للشهداء مزية تجعلهم مفضلين عمن سواهم من كثير من الناس ، وهي أنهم

في حياة سارة ، ونعيم مقيم عند ربهم ، وهه الحياة الممتازة تسمو بهم عن أن يقال فيهم كما يقال في غيرهم إنهم أموات وإن كان المعنى اللغوي للموت حاصلا لهم ، ونحن نؤمن بهذه الحياة السارة لهم عند ربهم ونعتقد صحتها كما ذكرها الله - تعالى - إلا أننا نفوض كيفيتها وكنهها إليه - سبحانه - إذ لا يمكن إدراكها إلا من طريق الوحي ، كما قال - تعالى - : ( وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ ) أي :لا تشعرون بحياتهم بعد مفارقتهم لهذه الدنيا ، لأنها حياة من نوع معين لا يعلمها إلا علام الغيوب .

ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس والثمرات وبشر الصابرين

كما فسرها الوسيط وبعد أن طلب - سبحانه - من عباده أن يستعينوا بالصبر والصلاة على احتمال المكاره ، أردف ذلك بذكر بعض المواطن التي لا يمر فيها الإنسان بسلامة إلا إذا اعتصم بعرى الصبر فقال - تعالى - : ( وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الخوف والجوع وَنَقْصٍ مِّنَ الأموال والأنفس والثمرات ) .وقوله : ( وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ ) من البلو والبلاء وهو الامتحان والاختبار ، وهو جواب لقسم محذوف والتقدير : والله لنبلونكم وقوله : ( وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ ) عطف على قوله : ( استعينوا ) الخ ، عطف المضمون على المضمون ، والجامع أن مضمون الأول طلب الصبر ، ومضمون الثانية بيان مواطنه ، والمراد : ولنعاملنكم معاملة المختبر والمبتلي لأحوالكم والتنوين في قوله : ( بِشَيْءٍ ) للتقليل . أي بقليل من كل واحد من هذه: - البلايا والمحن وهي الخوف وما عطف عليه .وإنما قلل - كما قال الزمخشري ليؤذن أن كل بلاء وإن جل ففوقه ما يقل إليه وليخفف عليهم ويريهم أن رحمته معهم في كل حال لا تزايلهم ، وأنه - سبحانه - يبتليهم من هذه المصائب بقدر ما يمتاز به الصابرون من غير الصابرين .و ( الخوف ) غم يلحق النفس لتوقع مكروه ، ومن أشد ما تضطرب له النفوس من الخوف ، خشيتها أن تقع تحت يد عدو لا هم له إلا إيذاؤها بما تكره .و ( والجوع ) ضد الشبع ، والمراد منه القحط ، وتعذر تحصيل القوت ، والحاجة الملحة إلى طعام .و ( الأموال ) جمع مال ، وهو ما يملك مما له قيمة ، وجرى للعرب عرف باستعماله في النعم خاصة - وهي الإبل والبقر والغنم - .و ( والثمرات ) : جمع ثمرة وهي حمل الشجر ، وقد تطلق على الشجر سوالنبات نفسه .والمعنى : ولنصيبنكم بشيء من الخوف وبشيء من الجوع ، وبشيء من النقص في الأنفس والأموال والثمرات ، ليظهر هل تصبرون أو لا تصبرون ، فنرتب الثواب على الصبر والثبات على الطاعة ، ونرتب العقاب على الجزع وعدم التسليم لأمر الله - تعالى - .ولقد حدث للمسلمين الأولين خوف شديد بسبب تألب أعدائهم عليهم كما حصل في غزوة الأحزاب . وحدث لهم جوع أليم بسبب هجرتهم من أوطانهم ، وقلة ذات يدهم حتى لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يشد الحجر على بطنه . وحدث لهم نقص في أموالهم بسبب اشتغالهم بإعلاء كلمة الله . وحدث لهم نقص في أنفسهم بسبب قتالهم لأعدائهم . ولكن كل هذه الآلام لم تزدهم إلا إيماناً وتسليماً لقضاء الله وقدره ، واستمساكاً بتعاليم دينهم .وهذا البلاء وتلك الآلام لا بد منها ليؤدي المؤمنون تكاليف العقيدة ، كي تعز على نفوسهم بمقدار ما أدوا في سبيلها من تكاليف ، إذ العقائد الرخيصة التي لا يؤد أصحابها تكاليفها لا يعز عليهم تركها عند الصدمة الأولى ، وليعلم من جاء بعدهم من المؤمنين إذا ما أصابهم مثل هذه الأمور أن ما أصابهم ليس لنقصان من درجاتهم ، وحط من مراتبهم ، فقد أصيب بمثل ذلك أو أكثر من هم أفضل منهم وهم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم .قال الإمام الرازي : وأما الحكمة في تقديم تعريف هذا الابتلاء . أي الإخبار به قبل وقوعه : ففيها وجوه .أحدها : ليوطنوا أنفسهم على الصبر عليها إذا وردت فيكون ذلك أبعد لهم عن الجزع وأسهل عليهم بعد الورود .وثانيها : أنهم إذا علموا أنه ستصل إليهم تلك المحن اشتد خوفهم ، فيصير ذلك الخوف تعجيلا للابتلاء ، فيستحقون به مزيد الثواب .وثالثها : أن الكفار إذا شاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه مقيمين على دينهم مستقرين عليه ، مع ما كانوا عليه من نهاية الضر والمحنة والجوع - يعلمون أن القوم إنما اختاروا هذا الدين لقطعهم بصحته فيدعوهم ذلك إلى مزيد التأمل في دلائله . ومن الملعوم الظاهر أن التبع إذا عرفوا أن المتبوع في أعظم المحن بسبب المذهب الذي ينصره ، ثم رأوه مع ذلك مصراً على ذلك المذهب : كان ذلك أدعى لهم إلى اتباعه مما إذا رأوه مرفه الحال لا كلفة عليه في ذلك المذهب .ورابعها : أنه - تعالى - أخبر بوقوع ذلك الابتلاء قبل وقوعه فوجد مخبر ذلك الخبر على ما أخبر عنه . فكان إخباراً عن الغيب فكان معجزاً .وخامسها : أن من المنافقين من أظهر متابعة الرسول طمعاً في المال وسعة الرزق ، فإذا اختبره - سبحانه - بنزول هذه المحن ، فعند ذلك يتميز المنافق عن الموافق - وسادسها : أن إخلاص الإنسان حالة البلاء ورجوعه إلى باب الله - تعالى. أكثر من إخلاصه حال إقبال الدنيا عليه . فكانت الحكمة في هذا الابتلاء ذلك .

الذين اذا اصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون

كما فسرها الوسيط ثم بعد أن بين - سبحانه - مواطن تضطرب فيها النفوس أردف
. ذلك يذكر عاقبة الصبر ، وجزائه الأسنى ، فقال : ( وَبَشِّرِ الصابرين
الذين إِذَآ أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ
إِلَيْهِ رَاجِعونَ ) .الخطاب في قوله : ( وَبَشِّرِ ) للنبي صلى الله عليه
وسلم أو لكل من تتأتى منه البشارة .والجملة عطف على ( وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ
عطف المضمون على المضمون أي : الابتلاء حاصللكم وكذا البشارة لكن لمن صبر (
و ( مُّصِيبَةٌ ) اسم فاعل من الإصابة ، والمرأ بها الآلأام الداخلة على.
النفس بسبب ما ينالها من الشدائد والمحن .و ( رَاجعونَ ) من الرجوع بمعنى
مصير الشيء إلى ما كان عليه ، يقال : رجعت الدار إلى فلان إذا كلها مرة
ثانية ، وهو نظير العود والمصير .والمعنى : وبشر يا محمد بالرحمة العظيمة
والإحسان الجزيل ، أولئك الصابرين الذين من صفاتهم أنهم إذا نزلت بهم
مصيبة ، في أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم ، أو غير ذلك ، قالوا : بألسنتهم
وقلوبهم على سبيل التسليم المطلق لقضاء الله والرضا بقدره ( إِنَّا لِلَّهِ
أي : إنا لله ملكا وعبودية ، والمالك يتصرف في ملكه ويقلبه من حال إلى (
حال كيف يشاء ، ( وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعونَ ) أي : وإنا إليه صائرون يوم
القيامة فيجازينا على ما أمرنا به من الصبر والتسليم لقضائه عند نزول
الشدائد التي ليس في استطاعتنا دفعها .فقولهم : ( إِنَّا لِلَّهِ ) إقرار
بالعبودية والملكية لله رب العالمين . وقولهم ( وَإِنَّآ إِلَيْهِ
رَاجِعونَ ) أي : وإنا إليه صائرون يوم القيامة فيجازينا على ما أمرنا به
من الصبر والتسليم لقضائه عند نزول الشدائد التي ليس في استطاعتنا دفعها
. فقولهم : ( إِنَّا لِلَّهِ ) إقرار بالعبودية والملكية لله رب العالمين.
وقولهم : ( وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعونَ ) إقرار بصحة البعث والحساب
والثواب والعقاب يوم القيامة .وليست هذه البشارة موجهة إلى الذين يقولون
بألسنتهم هذا القول مع الجزع وعدم الرضا بالقضاء والقدر ، وإنما هذه
البشارة موجهة إلى الذين يتلقون المصائب بالسكينة والتسليم لقضاء الله لأول
حلولها ، يشير إلى هذا قوله - تعالى - : ( الذين إِذَآ أَصَابَتْهُم
مُّصِيبَةٌ قَالُواْ ) فإنه يدل على أنهم يقولون ذلك وقت الإصابة " ويصرح
بهذا قوله صلى الله عليه وسلم " الصبر عند الصدمة الأولى " .وهذه الجملة
الكريمة وهي قوله - تعالى - : ( الذين إِذَآ أَصَابَتْهُم ) . . إلخ وصف
كريم لأولئك الصابرين ، لأنها أفادت أن صبرهم أكمل الصبر ، إذ هو صبر مقترن
ببصيرة مستنيرة جعلتهم يقرون عن عقيدة صاقدة أنهم ملك لله يتصسرف فيهم كيف
يشاء ، ومن ربط نفسه بعقيدة أنه ملك لله وأن المرجع إليه ، يكون بذلك قد
هيأها للصبر الجميل عند كل مصيبة تفاجئه .قال القرطبي : جعل الله هذه
الكلمات وهي قوله - تعالى - ( إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعونَ )
ملجأ لذوي المصائب ، وعصمة للممتحنين ، لما جمعت من المعاني المباركة ، فإن
قوله ( إِنَّا لِلَّهِ ) توحيد وإقرار بالعبودية والملك وقوله ( وَإِنَّآ
إِلَيْهِ رَاجِعونَ ) إقرار بالهلك على أنفسنا والبعث من قبورنا ، واليقين
أن رجعوا الأمر كله إلريه كما هو له . قال سعيد بن جبير : لم تعط هذه
" الكلمات نبياً قبل نبينا ، ولو عرفها يعقوب لما قال : يا أسفي على يوسف
هذا ، ولا يتنافى مع الصبر ما يكون من الحزن عند الحصول المصيبة ، فقد ورد.
في الصحيحين " أن النبي صلى الله عليه وسلم بكى عند موت ابنه إبراهيم وقال
العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا وإنا بفراقك يا :
إبراهيم لمحزونون " .وإنما الذي ينافيه ويؤاخذ الإنسان عليه ، الجزع
المفضي إلى إنكار حكمة الله فيما نزل به من بأساء أو ضراء ، أو إلى فعل ما
. حرمه الإسلام من نحو النياحة وشق الجيوب ، ولطم الخدود

اولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة واولئك هم المهتدون

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما أعده للصابرين من أجر جزيل فقال
أولئك عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وأولئك هُمُ
المهتدون ) .( أولئك ) اسم إشارة أتى به - سبحانه - للتنبيه على أن المشار
إليه هم الموصوفون بجميع الصفات السابقة على اسم الإشارة ، وأن الحكم الذي
ورد بعد مترتب على هذه الأوصاف .و ( صَلَوَاتٌ ) جمع صلاة . وصلاة الله على
عباده إقباله عليهم . بالثناء والعطف والمغفرة . وجمعت مراعاة لكثرة ما
يترتب عليها من أنواع الخيرات في الدنيا والآخرة .( وَرَحْمَةٌ ) - كما هو
مذهب السلف - صفة قائمة بذانه - تعالى -لا نعرف حقيقتها وإنما نعرف أثرها
الذي هو الإحسان .وعطف - سبحانه - الرحمة على الصلوات ليدل على أن بعد ذلك
الإقبال منه على عباده إنعاماً واسعاً ، وعطاء جزيلاً في الدنيا والآخرة
وجاءت الرحمة مفردة على أصل المصادر وهو الإفراد ، والمقام في الآية يذهب.
بذهن السامع إلى كثرة الإنعام المترتب على الصبر الجميل .والجملة ( أولئك
عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ) استئنافية جواب عن سؤال
. . . تقديره : بماذا بشر الله الصابرين؟ فكان الجواب : أولئك عليهم صلوات

، إلخ .والمعنى : أولئك الصابرون المحتسبون الموصوفون بتلك الصفات الكريمة
عليهم مغفرة عظيمة من خالقهم ، وإحسان منه - سبحانه - يشملهم في دنياهم
وآخرتهم ( وأولئك هُمُ المهتدون ) لطريق الصواب بالتسليم وقت صدمة المصيبة
، دون غيرهم ممن جزعوا عند صدمتها ، حتى صدر عنهم ما لم يأذن به الله .هذا
وفي فضل الصبر والصابرين وردت آيات كثيرة ، وأحاديث متعددة أما الآيات
فيزيد عددها في القرآن على سبعين آية منها قوله - تعالى -( وَجَعَلْنَا
مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ ) وقوله
وَلَنَجْزِيَنَّ الذين صبروا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ
يَعْمَلُونَ ) وقوله : ( أولئك يُؤْتُونَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا
صَبَرُواْ ) وقوله : ( إِنَّمَا يُوَفَّى الصابرون أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ
حِسَابٍ ) إلى غير ذلك من الآيات .وأما الأحاديث فمنها ما جاء في صحيح مسلم
عن أم سلمة قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ما من عبد
تصيبه مصيبة فيقول : إنا لله وإنا إليه راجعون . اللهم أجرني في مصيبتي
: واخلف لي خيراً منها إلا أجره الله في مصيبته وأخلف له خيراً منها "قالت
فلما توفي أبو سلمة قلت : من خير من أبي سلمة : صاحب رسول الله؟ ثم عزم
الله لي فقلتها : قالت : فتزوجني رسول الله صلى الله عليه وسلم .ومنها ما
رواه الإمام أحمد بسنده عن أبي سنان قال : دفنت ابنا لي . وإني لفي القبر
: أخذ بيدي أبو طلحة" يعني الخولاني " فأخرجني وقال : ألا أبشرك؟ قال قلت
: بلى . قال : حدثني الضحاك بن عبد الرحمن بن عوزب عن أبي موسى الأشعري قال
، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله - تعالى - : يا ملك الموت "
قبضت ولد عبدي ، قبضت قرة عينه وثمرة فؤاده؟ قال : نعم ، قال فماذا قال؟
قال حمدك واسترجع . قال الله - تعالى - : ابنوا لي بيتاً في الجنة وسموه
بيت الحمد " .ومنها ما رواه الشيخان عن أبي سعيد وأبي هريرة " عن النبي صلى
الله عليه وسلم قال : ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا
أذى ولا غم ، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه " .إلى غير ذلك
من الأحاديث الكثيرة التي وردت في ثواب الاسترجاع وفي أجر الصابرين وفضلهم
.

ان الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت او اعتمر فلا جناح عليه ان
يطوف بهما ومن تطوع خيرا فان الله شاكر عليم

كما فسرها الوسيط ثم تحدث - سبحانه - عن شعيرة من شعائر الحج فقال :( إِنَّ
- الصفا والمروة مِن شَعَآئِرِ . . . )قال الآلوسي : بعد أن أشار - سبحانه
فيما تقدم إلى الجهاد عقب ذلك ببيان معالج الحج ، فكأنه جمع بين الحج
والغزو ، وفيهما شق الأنفس وتلف الأموال ، وقيل لما ذكر الصبر عقبة ببحث
، الحج لما فثيه من الأمور إليه .و ( الصفا ) في اللغة : الحجر الأملس
) مأخوذ من صفا يصفو إذا خلص ، واحده صفاة فهو مثل حصى وحصاة ونوى ونواة .و
. المروة ) في أصل اللغة : الحجر الأبيض اللين ، وقيل : الحصاة الصغيرة
وهما - أي الصفا والمروة - قد جعلا علمين لجبلين معروفين بمكة كانا على بعد
ما يقرب من ألف ذراع من المسجد الحرام . والألف واللام فيهما للتعريف لا
للجنس . ومع توسعة المسجد الحرام صارا متصلين به .و ( شَعَآئِرِ ) جمع
شعيرة ، من الإشعار بمعنى الإعلام ، ومنه قولك شعرت بكذا ، أي : علمت به
وكون الصفا والمروة من شعائر الله ، ي : أعلام دينه ومتعبداته . تعبدنا
الله بالسعي بينهما في الحج والعمرة .وشعائر الحج : معالمه الظاهرة للحواس
التي جعلها الله أعلاما لطاعته ، ومواضع نسكه وعباداته ، كالمطاف والمسعى ،
والموقف والمرمى والمنحر .وتطلق الشعائر على العبادات التي تعبدنا الله بها
- في هذه المواضع ، لكونها علامات على الخضوع والطاعة والتسليم لله - تعالى
وأكدت الجملة الكريمة بأن لأن بعض المسلمين كانوا مترددين في كون السعي
بين الصفا والمروة من شعائر الله ، وكانوا يظنون أن السعي بينهما من أحوال
الجاهلية ، كما سنبين بعد قليل .وقوله : ( فَمَنْ حَجَّ البيت أَوِ اعتمر
فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ) تفريع على كونهما من
: شعائر الله وأن السعي بينهما في الحج والعمرة من المناسك . والحج لغة
القصد مطلقاً أو إلى معظم . وشرعا : القصد إلى البيت الحرام في زمان معين
بأعمال مخصوصة .و ( اعتمر ) أي : زار . والعمرة الزيارة مأخوذة من العمارة
كأن الزائر يعمر البيت الحرام بزيارته . وشرعا الزيارة لبيت الله المعظم
) بأعمال مخصوصة وهي : الإحرام والطواف والسعي بين الصفا والمروة .و
، جُنَاحَ ) - بضم الجيم - الإثم والحرج مشتق من جنح إذا مال عن القصد
وسمى الإثم به للميل فيه من الحق إلى الباطل .و ( يَطَّوَّفَ ) أصلها
يتطوف ، فأبدلت التاء طاء ، وأدغمت في الطاء فصارت " يطوف والتطوف بالشيء
كالطواف به ، ومعناه : الإلمام بالشيء والمشي حوله .وقد فسر النبي - صلى
الله عليه وسلم - الطواف بالنسبة للكعبة بالدوران حولها سبعة أشواط . وفسره
: بالنسبة للصفا والمروة بالسعي بينهما سبعة أشواط كذلك .و " من " في قوله
شرطية ، " وحج " في محل جزم بالشرط ، و ( البيت ) منصوب ( فَمَنْ حَجَّ )
على المفعولية ، وجملة " فلا جناح عليه أن يطوف بهما " جواب الشرط .والمعنى

إن الصفا والمروة من شعائر الله ، أي : من المواضع التي يقام فيهما أمر :
من أمور دينه وهو السعي بينهما ( فَمَنْ حَجَّ البيت ) أي : قصده بالأفعال
المعينة التي شرعها الله ( أَوِ اعتمر ) أي : أتى بالعمرة كما بينتها
تعاليم الإسلام " فلا جناح عليه أن يطوف بهما " أي : فلا إثم ولا حرج ولا
مؤاخذة عليه في الطواف بهما ، لأنهما مطلوبان للشارع ، ومعدودان من الطاعات
وهنا قد يقول قائل : إن بعض الذين يقرءون هذه الآية قد يشكل عليهم فهمها.
وذلك لأن قوله - تعالى - : ( إِنَّ الصفا والمروة مِن شَعَآئِرِ الله ) يدل
) - على أن الطواف بهما مطلوب شرعاً طلبا أقل درجاته الندب ، وقوله - تعالى
فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ) يقتضي رفع الأثم عن
المتطوف بهما ، والتعبير برفع الإثم عن الشيء يأتي في مقام الدالة على
إباحته ، وإذن فما الأمر الداعي إلى أن يقال في هذه الشعيرة : لا إثم على
من يفعلها بعد التصريح بأنها من شعائر الله؟ وللإجابة على هذا القول نقول
إن الوقوف على سبب نزول الآية الكريمة يرفع هذا الاستشكال . وقد روى .
العلماء في سبب نزولها عدة روايات منها : ما رواه البخاري عن عروة بن
- الزبير قال : سألت عائشة - رضي الله عنها - قلت لها : أرأيت قوله - تعالى
إِنَّ الصفا والمروة مِن شَعَآئِرِ الله فَمَنْ حَجَّ البيت أَوِ اعتمر ) :
فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا . . . ) فوالله ، ما على
أحد جناح أن لا يطوف بالصفا والمروة؟ قالت بئس ما قلت يا ابن أختي!! إن هذه
الآية لو كانت كما أولتها لكانت :لا جناح عليه أن لا يطوف بهما ، ولكن
الآية أنزلت في الأنصار . كانوا قبل أن يسلموا يهلون لمناة الطاغية ، التي
. كانوا يعبدونها عند المشلل . فكان من أهل يتحرج أن يتطوف بالصفا والمروة
فلما أسلموا سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك؟ فقالوا : يا رسول
- الله : إنا كنا نتحرج أن نطوف بين الصفا والمروة ، فأنزل الله - تعالى
هذه الآية .قالت عائشة : وقد سن رسول الله صلى الله عليه وسلم الطواف
بينهما ، فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما .وهناك رواية لمسلم عن عروة عن
عائشة تشبه ما جاء في رواية البخاري ، وهناك رواية للنسائي عن زيد بن حارثة
قال : كان على الصفا والمروة صنمان من نحاس يقال لهما " إساف ونائلة " كان
المشركون إذا طافوا تمسحوا بهما .وهناك رواية للطبراني وابن أبي حاتم
بإسناد حسن من حديث ابن عباس قال : قالت الأنصار : إن السعي بين الصفا
والمروة من أمر الجاهلية فأنزل الله هذه الآية .فيؤخذ من هذه الروايات أن
بعض المسلمين كانوا يتحرجون من السعي بين الصفا والمروة لأسباب من أهمها أن
هذا السعي كان من شعائرهم في الجاهلية فقد كانوا يهلون - أي يحرمون - لمناة
ثم يسعون بينهما ليتمسحوا بصنمين عليهما ، وهم لا يريدون أن يعملوا في ،
الإسلام شيئا مما كان من أمر الجاهلية لأن دين الإسلام الذي خالط أعماق
قلوبهم هز أرواحهم هزاً قوياً وجعلهم ينظرون بجفوة وازدراء واحتراس إلى كل
ما كانوا عليه في الجاهلية من أعمال تتنافى مع تعاليم دينهم الجديد ، فنزلة
هذه الآية الكريمة لتزيل التحرج الذي كان يتردد في صدورهم من السعي بين
الصفا والمروة .وهذا يدل على قوة إيمانهم ، وصفاء يقينهم ، وتحرزهم من كل
قول أو عمل يشم منه رائحة التعارض مع العقيدة التي جعلتهم يخلصون عبادتهم
لله الواحد القهار .وقوله ( وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ الله شَاكِرٌ
عَلِيمٌ ) تذييل قصد منه الإتيان بحكم كلي في أفعال الخيرات كلها ، وقيل
) إنه تذييل لما أفادته الآية من الحث على السعي بين الصفا والمروة .و
تَطَوَّعَ ) من التطوع وهو فعل الطاعة فريضة كانت أو نافلة ، وقيل هو
التطوع بالنفل خاصة .( شَاكِرٌ ) من الشكر ، والشاكر في اللغة هو المظهر
، للإنعام عليه ، وذلك محال في حق الله - تعالى - ، إذ هو المنعم على خلقه
، فوجب حمل شكر الله لعباده على معنى مجازاتهم على ما يعملون من خيرات
- وإثابتهم على ذلك بالثواب الجزيل .قال الإمام الرازي : وإنما سمي
سبحانه - المجازاة على الطاعة شكراً لوجوه :الأول : أن اللفظ خرج مخرج
) : - التلطف مع العباد مبالغة في الإحسان إليهم ، كما في قوله - تعالى
مَّن ذَا الذي يُقْرِضُ الله قَرْضاً حَسَناً ) وهو - سبحانه -لا يستقرض
. من عوز ، ولكنه تلطف في الاستدعاء كأنه قيل : من ذا الذي يعمل عمل المقرض
بأن يقدم فياخذ أضعاف ما قدم .الثاني : أن الشكر لما كان مقابلا للإنعام
: أو الجزاء عليه ، سمي كل ما كان جزاء شكراً على سبيل التشبيه .الثالث
كأنه يقول : أنا وإن كنت غنياً عن طاعتك ، إلا أني أجعل لها من الموقع بحيث
لو صح على أن أنتفع بها لما ازداد وقعه على ما حصل .وبالجملة فالمقصود أن
) طاعة العبد مقبولة عند الله ، وواقعة موقع القبول في أقصى الدرجات .و
وَمَن ) شرطية .و ( تَطَوَّعَ ) فعل الشرط ، و ( خَيْراً ) منصوب على نزل
الخافض ، وأصله بخير؛ لأن تطوع يتعدى بالباء ولا يتعدى بنفسه ثم حذفت الباء
في نظم الكلام نحو : تمرون الديار فلم تعوجوا . أو هو منصوب على أنه نعت
لمصدر محذوف أي : تطوعاً خيراً ، وجملة ( فَإِنَّ الله شَاكِرٌ عَلِيمٌ )
دليل على جواب الشرط ، إذ التقدير ، ومن تطوع خيراً جوزي فإن الله شاكر
عليم .والمعنى : ومن تطوع بالخيرات وأنواع الطاعات ، أو من أتى بالحج أو
العمرة طاعة لله ، أو من أتى بهما مرة بعد مرة زيادة على المفروض أو الواجب
- عليه ، فاز بالثواب الجزيل ، والنعيم المقيم؛ لأن من صفاته - سبحانه

مجازاة من يحسنون العمل ، وهو عليم بكل ما يصدر عن عباده ، ولن يضيع أجر من أحسن عملا .هذا ، وقد اختلفت أقوال الفقهاء في حكم السعي بين الصفا والمروة فمنهم من يرى أنه من أركان الحج كالإحرام والطواف والوقوف بعرفة . وإلى. هذا الرأي ذهب الشافعي وأحمد بن حنبل ومالك في أشهر الروايتين عنه ومن حججهم أنه من أفعال الحج ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قد اهتم به وبادر إليه ، فقد روى الشيخان عن عمرو بن دينار قال : سألنا ابن عمر عن رجل طاف بالبيت العمرة ، ولم يطف بين الصفا والمروة أيأتي امرأته؟ فقال : قدم النبي صلى الله عليه وسلم فطاف بالبيت سبعاً وصلى خلف المقام ركعتين ، وطاف بين الصفا والمروة . وقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة .ومنهم من يرى أنه واجب يجبر بالدم ، وإلى هذا الرأي ذهب الحنفية ومن حججهم أنه لم يثبت بدليل قطعى فلا يكون ركنا .ومنهم من يرى غير ذلك كما هو موضح في كتب الفقه .

ان الذين يكتمون ما انزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب اولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون

كما فسرها الوسيط ثم حض - سبحانه - على إظهار الحق وبيانه ، وتوعد بالعقاب الشديد من يعمل على إخفائه وكتمانه .فقال - تعالى :( إِنَّ الذين يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ البينات . . . )قال الآلوسي : أخرج جماعة عن ابن عباس قال : سأل معاذ بن جبل ، وسعد بن معاذ ، وخارجه بن زيد نفراً من أحبار يهود عما في التوراة من صفات النبي صلى الله عليه وسلم ومن بعض الأحكام فكتموا ، فأنزل الله - تعالى - فيهم هذه الآية ( إِنَّ الذين يَكْتُمُونَ ) . . . إلخ .والكتم والكتمان : إخفاء الشيء قصداً مع مسيس الحاجة إليه وتحقق الداعي إلى إظهاره . وكتم ما أنزل الله يتناول إخفاء ما أنزله ، وعدم ذكره للناس وإزالته عن موضعه ووضع شيء آخر موضعه ، كما يتناول تحريفه بالتأويل الفاسد عن معناه الصحيح جرياً مع الأهواء ، وقد فعل أهل الكتاب ولا سيما اليهود - كل ذلك . فقد كانوا يعرفون مما بين أيديهم من آيات أن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم حق ، ولكنهم كتموا هذه المعرفة حسداً له على ما آتاه الله من فضله ، كما أنهم حرفوا كلام الله وأولوه تأويلا فاسداً تبعاً لأهوائهم .والمراد " بما أنزلنا " ما اشتملت عليه الكتب السماوية السابقة على القرآن من صفات النبي صلى الله عليه وسلم ومن هداية وأحكام .والمراد بالكتاب جنس الكتب ، فيصح حمله على جميع الكتب التي أنزلت على الرسل - عليهم السلام - وقيل : المراد به التوراة .و ( البينات ) جمع بينه ، والمراد بها الآيات الدالة على المقاصد الصحيحة بوضوح ، وهي ما نزل على الأنبياء من طريق الوحي .والمراد ب ( والهدى ) ما يهدي إلى الرشد مطلقاً فهو أعم من البينات ، إذ يشمل المعاني المستمدة من الآيات البينات عن طريق الاستنباط ، والاجتهاد القائم على الأصول المحكمة .و " اللعن " الطرد والإبعاد من الرحمة . يقال : لعنه ، أي " طرده وأبعده ساخطاً عليه فهو لعين وملعون .والمعنى : إن الذين يخفون عن قصد وتعمد وسوء نية ما أنزل الله على رسله من آيات واضحة دالة على الحق ، ومن علم نافع يهدي إلى الرشد من بعد ما شرحناه وأظهرناه للناس في كتاب يتلى ، أولئك الذين فعلوا ذلك ، ( يَلعَنُهُمُ الله ) بأن يبعدهم عن رحمته ( وَيَلْعَنُهُمُ اللاعنون ) أي ويلعنهم كل من تتأتى منه اللعنة - كالملائكة والمؤمنين - بالدعاء عليهم بالطرد من رحمة الله لكتمانهم لما أمر الله بإظهاره .وجملة ( إِنَّ الذين يَكْتُمُونَ . . . ) إلخ ، مستأنفة لبيان سوء عاقبة الكاتمين لما أمر الله بإظهاره ، وأكدت " بإن " للاهتمام بهذا الخبر الذي ألقى على مسامع الناس وعبر في ( يَكْتُمُونَ ) بالفعل المضارع ، للدلالة على أنهم في الحال. كاتمون للبينات والهدى ، ولو وقع بلفظ الماضي لتوهم السامع أن المقصود به قوم مضوا ، مع أن المقصود إقامة الحجة على الحاضرين .وقوله : ( مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الكتاب ) متعلق بيكتمون ، وقد دلت هذه الجملة الكريمة على أن معصيتهم بالكتمان في أحط الدركات وأقبحها ، لأنهم عمدوا إلى ما أنزل الله من هدى ، وجعله بينا للناس في كتاب يقرأ ، فكتموه قصداً مع تحقق المقتضي لإظهاره ، وإنما يفعل ذلك من بلغ الغاية في سفاهة الرأي ، وخبث الطوية .واللام في قوله : ( لِلنَّاسِ ) للتعليل ، أي : بيناه في الكتاب لأجل أن ينتفع به الناس ، وفي هذا زيادة تشنيع عليهم فيما أتوه من كتمان ، لأن فعلهم هذا مع أنه كتمان للحق ، فهو في الوقت نفسه اعتداء على مستحقه الذي هو في أشد الحاجة إليه .وقوله : ( أولئك يَلعَنُهُمُ الله وَيَلْعَنُهُمُ اللاعنون ) يفيد نهاية الغضب عليهم ، حتى لكأنهم تحولوا إلى ملعنة ينصب عليها اللعن من كل مصدر ، ويتوجه إليها من كل من يستطيع اللعن ، ويؤديه .والآية الكريمة وإن كانت نزلت في أهل الكتاب بسبب كتمانهم للحق إلا أن وعيدها يتناول كل من كتم علماً نافعاً ، أو غير ذلك من الأمور التي يقضي الدين بإظهارها ، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ومن شواهد هذا العموم ما جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة قال : إن الناس يقولون أكثر ) : - أبو هريرة ولولا آيتان في كتاب ما حدثت حديثاً ثم تلا قوله - تعالى ) : إِنَّ الذين يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ البينات ) إلى قوله

الرّحِيمُ ) .قال ابن كثير : وقد ورد في الحديث المسند من طرائق يشد بعضها بعضاً عن أبي هريرة وغيره ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار " .هذا ، وينبغي أن يعلم أن الإسلام وإن كان ينهى نهياً قاطعاً عن كتم العلم الذي فيه منفعة للناس إلا أنه يوجب على أتباعه - وخصوصاً العلماء - أن يحسنوا ما ينشرونه على ، الناس من علم ، ففي الحديث الشريف : " حدثوا الناس بما يفهمون أتحبون أن يكذب الله ورسوله " .كما أنه يوجب عليهم أن يضعوا العلم في موضعه المناسب لمقتضى حال المخاطبين ، فليس كل ما يعلم يقال ، بل أحياناً يكون إخفاء بعض ، الأحكام مناسباً لأن إظهاره قد يستعمله الطغاة والسفهاء فيما يؤذي الناس وفي صحيح البخاري أن الحجاج قال لأنس بن مالك حدثني بأشد عقوبة عاقبها النبي صلى الله عليه وسلم فذكر له أنس حديث العرنيين الذين قتلوا الرعاة واستاقوا الإبل ، حيث قطع النبي صلى الله عليه وسلم أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم وتركهم في الحرة حتى ماتوا . فلما بلغ الحسن البصري ذلك قال : وددت أنه لم يحدثه؟؟ أنهم يتلقفون من ظاهره ما يوافق هواهم فيجعلونه ذريعة لهم فيما يعاملون به الناس من الظلم .ومما يشهد بفقه بعض العلماء وحسن إدراكهم ووضعهم العلم في موضعه المناسب : ما جاء في بعض الكتب أن سلطان قرطبة سأل ، يحيى بن يحيى الليثي عن حكم يوم أفطره في رمضان عامداً لأن شهوته غلبته على وطء بعض جواريه ، فأفتاه بأن من الواجب عليه أن يصوم ستين يوماً ، وكان بعض الفقهاء جالساً فلم يجترئ على مخالفة يحيى .فلما انفض المجلس قيل له : لم خصصت الحكم بأحد المخيرات وكتمت العتق والإطعام؟ فقال - رحمه الله - لو فتحنا هذا الباب لو طئ كل يوم وأعتق أو أطعم ، فحملته على الأصعب لئلا يعود فالإمام يحيى عند ما كتم عن السلطان الكفارتين الأخريين - وهما الأعتاق. والإطعام -لا يعتبر مسيئاً؛ لأنه قد أعمل دليل دفع مفسدة الجرأة على حرمة فريضة الصوم .وهكذا نرى أن إظهار العلم عند تحقق المقتضى لإظهاره ، ووضعه في موضعه اللائق به بدون خشية أو تحريف يدل على قوة الإيمان ، وحسن الصلة بالله - تعالى - : ( ذلك فَضْلُ الله يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ) وبعد هذا الوعيد الشديد لأولئك الكاتمين لما أمر الله بإظهاره ، أورد القرآن في أعقاب ذلك آية تفتح لهم نافذة الأمل ، وتبين لهم أنهم إذا تابوا وأنابوا ، قبل الله توبتهم ورحمهم

الا الذين تابوا واصلحوا وبينوا فاولئك اتوب عليهم وانا التواب الرحيم

كما فسرها الوسيط فقال - تعالى - : ( إِلاَّ الذين تَابُواْ ) أي : رجعوا عن الكتمان وعن سائر ما يجب أن يتاب عنه ، وندموا على ما صدر عنهم ) وَأَصْلَحُواْ ) ما أفسده بالكتمان بكل وسيلة ممكنة ( وَبَيَّنُواْ ) للناس ، حقيقة ما كتموه ( فَأُوْلَـئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ) أي : أقبل توبتهم : وأفيض عليهم من رحمتي ومغفرتي ، ( وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ) أي المبالغ في قبول التوبة ونشر الرحمة .

ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار اولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس اجمعين

كما فسرها الوسيط فالآية الكريمة قد فتحت للكاتمين لما يجب إظهاره باب التوبة وأمرتهم بولوجه ، وأفهمتهم أنهم إذا فعلوا ما ينبغي وتركوا ما لا ، ينبغي وأخلصوا لله نياتهم ، فإنه - سبحانه - يقبل توبتهم ، ويغسل حويتهم أما إذا استمروا في ضلالهم وكفرهم ، ومضوا في هذا الطريق المظلم حتى النهاية بدون أن يحدثوا توبة ، فقد بين القرآن مصيرهم بعد ذلك فقال : ( إن الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ ) أي : إن الذين كفروا وكتموا ما من شأنه أن يظهر ، كإخفائهم النصوص المشتملة على البشارة بالنبي ). صلى الله عليه وسلم واستمروا على هذا الكفر والإخفاء حتى ماتوا : أُولَـئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ الله والملائكة والناس أَجْمَعِينَ ) أي أولئك الذين وصفوا بما ذكر عليهم اللعنة المستمرة من الله والطرد من رحمته وعليهم كذلك اللعنة الدائمة من الملائكة والناس أجمعين عن طريق الدعاء ، ، عليهم بالإبعاد من رحمة الله .وعبر عن أصحاب ذلك الكتمان بالذين كفروا ليحضرهم في الأذهان بأشنع وصف وهو الكفر ، وليتناول الوعيد الذي اشتملت عليه الآية الكريمة كل كافر ولو بغير معصية الكتمان .وجملة ( وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ ) حالية ، ( أَجْمَعِينَ ) تأكيد بالنسبة إلى الكل لا للناس فقط .والمراد بالناس جميعهم مؤمنهم وكافرهم ، إذ الكفار يلعن بعضهم بعضاً يوم القيامة كما جاء في قوله - تعالى - :( يَوْمَ القيامة يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ) وقيل المراد بهم المؤمنون خاصة لأنهم هم الذين يعتد بلعنهم .

خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون

كما فسرها الوسيط وقوله : ( خَالِدِينَ فِيهَا ) الخلود البقاء إلى غير
نهاية ، ويستعمل بمعنى البقاء مدة طويلة . وإذا وصف به عذاب الكافر أريد به
) المعنى الأول ، أي : البقاء إلى غير نهاية والظاهر أن الضمير في قوله
فِيهَا ) يعود إلى اللعنة لأنها هي المذكورة في الجملة . وقيل إنه يعود إلى
. النار لأن اللعن إبعاد من الرحمة وإيجاب للعقاب والعقاب يكون في النار
وقوله ( لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العذاب ) أي : أن المقدار الذي استحقوه من
، العذاب لا يتفاوت بحسب الأوقات شدة وضعفاً ، وإنما هم في عذاب سرمدي أليم
. كما قال - تعالى - ( إِنَّ المجرمين فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ
- لاَ يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ) والزيادة في قوله
تعالى - : ( فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَاباً ) حملها بعض
العلماء على معنى استمرار العذاب ، فهي إشارة إلى الخلود فيه لا إلى
الزيادة في شدته . وقوله : ( خَالِدِينَ فِيهَا ) إشارة إلى دوام العذاب
وعدم انقطاعه . وقوله : ( لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ) إشارة إلى كيفية وشدته
وقوله : ( وَلاَ هُمْ يُنْظَرُونَ ) أي :لا يمهلون ولا يؤخرون من العذاب.
كما كانوا يمهلون في الدنيا . من الإنظار بمعنى التأخير والإمهال . أو من
النظر بمعنى الانتظار يقال : نظرته وانتظرته ، أي : أخرته وأمهلته ومنه
قوله - تعالى - : ( وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إلى مَيْسَرَةٍ )
أو من النظر بمعنى الرؤية ، أي :لا ينظر الله إليهم نظر رحمة ورضا ولطف
، كما ينظر إلى عباده الصالحين ، لأنهم بكتمانهم للحق ، وكفرهم بالله
استحقوا ما استحقوا من العذاب المهين . ( وَمَا ظَلَمَهُمُ الله ولكن
أَنْفُسَهُمْ يَظلِمُونَ ) وبذلك تكون الآيات الكريمة قد حذرت الناس
بأسلوب تأديبي حكيم من كتمان الحق ، ومن الكفر بالله ، وفتحت أمامهم باب
التوبة ليدخلوه بصادق النية ، وصالح العمل ، وتوعدت من يستمر في ضلاله
وطغيانه بأقسى أنواع العذاب ، وأغلظ ألوانه .وبعد أن حذر - سبحانه - من
كتمان الحق ، عقب ذلك ببيان ما يدل على وحدانيته ، وعلى أنه هو المستحق
للعبادة والخضوع فقال - تعالى - :( وإلهكم إله وَاحِدٌ لاَّ إله إِلاَّ
( . . . هُوَ الرحمن

والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم

كما فسرها الوسيط قوله : ( وإلهكم إله وَاحِدٌ ) معطوف على قوله : ( إِنَّ
الذين يَكْتُمُونَ مَآ أنزَلْنَا ) عطف القصة على القصة ، والجامع - كما
قال الآلوسي - أن الأولى - وهي قوله : ( إِنَّ الذين يَكْتُمُونَ ) مسوقة
لإثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم وجملة ( وإلهكم إله وَاحِدٌ )
لإثبات وحدانية الله - تعالى - .والإله في كلام العرب هو المعبود مطلقاً
ولذلك تعددت الآله عندهم . والمراد به في الآية الكريمة المعبود بحق بدليل
الإخبار عنه بأنه واحد .والمعنى: وإلهكم الذي يستحق العبادة والخضوع إله
واحد فرد صمد ، فمن عبد شيئاً دونه ، أو عبد شيئاً معه ، فعبادته باطلة
فاسدة ، لأن العبادة الصحيحة هي ما يتجه بها العابد إلى المعبود بحق الذي
" : قامت البراهين الساطعة على وحدانيته وهو الله رب العالمين .قال بعضهم
والإخبار عن إلهكم بإله تكرير ليجري عليه الوصف بواحد ، والمقصود وإلهكم
واحد لكنه وسط إله بين المبتدأ والخبر لتقرير معنى الألوهية في المخبر عنه
كما تقول : عالم المدينة عالم فائق ، وليجيئ ما كان أصله خبراً مجيئ ،
النعت فيفيد أنه وصف ثابت للموصوف لأنه صار نعتاً ، إذ أصل النعت أن يكون
وصفاً ثابتاً ، وأصل الخبر أن يكون وصفاً حادثاً ، وهذا استعمال متبع في
فصيح الكلام أن يعاد الاسم أو الفعل بعد ذكره ليبني عليه وصف أو متعلق
كقوله : ( وَإِذَا مَرُّواْ بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً ) وجملة ( إله
وَاحِدٌ لاَّ إله إِلاَّ هُوَ ) مقررة لما تضمنته الجملة السابقة من أن
الله واحد لا شريك له ، ونافية عن الله - تعالى - الشريك صراحه ، ومثبته له
مع ذلك الإلهية الحقة ، ومزيحة لما عسى أن يتوهم من أن في الوجود إلهاً
سوى الله - تعالى - لكنه لا يستحق العبادة .ومعناها : إن الله إله ، وليس
شيء مما سواه بإله .وهذه الجملة الكريمة خبر ثاني للمبتدأ وهو ( إلهكم ) أو
، صفة أخرى للخبر وه ( إله ) وخبر (لا ) محذوف أي لا إله موجود إلا هو
والضمير ( هو ) في موضع رفع بدل من موضع لامع اسمها .وقوله : ( الرحمن
: الرحيم ) خبر متبدأ محذوف ، وقيل غير ذلك من وجوه الإعراب .والمعنى
وإلهكم الذي يستحق العبادة إله واحد ، لا إله مستحق لها إلا هو ، هو الرحمن
الرحيم .أي : المنعم بجلائل النعم ودقائقها ، وهو مصدر الرحمة ، ودائم
الإحسان .وأتى - سبحانه - بهذين اللفظين في ختام الآية ، لأن ذكر الإلهية
والوحدانية يحضر في ذهن السامع معنى القهر والغلبة وسعة المقدرة وعزة
السلطان ، وذلك مما يجعل القلب في هيبة وخشية ، فناسب أن يورد عقب ذلك ما
: يدل على أنه مع هذه العظمة والسلطان ، مصدر الإحسان ومولى النعم ، فقال
وهذه طريقة القرآن في الترويح على القلوب بالتبشير بعد ( الرحمن الرحيم )
- ما يثير الخشية ، حتى لا يعتريها اليأس أو القنوط .وبعد أن أخبر - سبحانه
بأنه هو الإله الذي لا يستحق العبادة أحد سواه ، عقب ذلك بإيراد ثمانية

، أدلة تشهد بوحدانيته وقدته ، وتشتمل على آيات ساطعات ، وبينات واضحات تهدي أصحاب العقول السليمة إلى عبادة الله وحده ، وإلى بطلان ما يفعله كثير من الناس من عبادة مخلوقاته .

ان في خلق السماوات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما انزل الله من السماء من ماء فاحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لايات لقوم يعقلون

كما فسرها الوسيط ويشتمل الدليل الأول والثاني على أنه - سبحانه - هو المستحق للعبادة في قوله - تعالى - : ( إِنَّ فِي خَلْقِ السماوات والأرض ) . الخلق : هو الإحداث للشيء على غير مثال سابق . وهو هنا بمعنى المخلوق. إذ الآيات التي تشاهد إنما هي في المخلوق الذي هو السموات والأرض .والسموات جمع سماء ، وهي كل ما علا كالسقف وغيره ، إلا أنها إذا أطلقت لم يفهم : منها سوى الأجرام المقابلة للأرض ، وهي سبع كما ورد ذلك صريحاً في بعض الآيات التي منها قوله - تعالى - : ( الله الذي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ) وجمعت السموات لأنها طبقات ممتازة كل واحدة من الأخرى بذاتها الشخصية ، كما يدل عليه قوله - تعالى - ( فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ) ولأن إفرادها قد يوهم بأنها واحدة مع أن القرآن صريح في كونها سبعاً .وجاءت الأرض مفردة - وهي لم تجئ في القرآن إلا كذلك - لأن المشاهدة لا تقع إلى على أرض - واحدة ، ومن هنا حمل بعض أهل العلم تعددها الذي يتبادر من ظاهر قوله تعالى - : ( الله الذي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأرض مِثْلَهُنَّ ) على معنى أنها طبقات لا ينفصل بعضها عن بعض .ومن الآيات الدالة على وحدانية الله وقدرته في خلق السموات وارتفاعها بغير عمد كما يرى ذلك بالمشاهدة ، وتزيينها بالمصابيح التي جعلها الله زينة للسماء ورجوماً للشياطين ، ووجودها بتلك الصورة العجيبة الباهرة التي لا ترى فيها أي تفاوت أو اضطراب ومن الآيات الدالة على وجود الله ووحدانيته وقدرته في خلق الأرض فرشها بتلك الطريقة الرائعة التي يتيسر معها للإنسان أن يتقلب في ، أرجائها ، ويمشي في مناكبها ، وينتفع بما يحتاج إليه منها أينما كان وتفجيرها بالأنهار ، وعمارتها بحدائق ذات ثمار تختلف ألوانها ويتفاضل أكلها وفي القرآن الكريم عشرات الآيات التي تتحدث عن نعم الله على عبادة في خلق. السموات والأرض ، وعن مظاهر قدرته ووحدانيته في إيجادهما على تلك الصورة ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ( يَاأَيُّهَا الناس اعبدوا رَبَّكُمُ الذي خَلَقَكُمْ والذين مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرض فِرَاشاً والسماء بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثمرات رِزْقاً لَّكُمْ ) وقوله - تعالى - : ( الله الذي رَفَعَ السماوات بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ استوى عَلَى العرش وَسَخَّرَ الشمس والقمر كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأمر يُفَصِّلُ الآيات لَعَلَّكُمْ بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ )وقوله - تعالى - ( أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ الله سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً وَجَعَلَ القمر فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشمس سِرَاجاً . والله أَنبَتَكُمْ مِّنَ الأرض نَبَاتاً . ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً . والله جَعَلَ لَكُمُ الأرض بِسَاطاً لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً ) إلى غير ذلك من الآيات الكريمة - الدالة على وجود الله وقدرته ووحدانيته .ويتمثل الدليل الثالث على قدرته : سبحانه - ووحدانيته في قوله تعالى : ( واختلاف الليل والنهار ) والاختلاف افتعال من الخلف ، وهو أن يجئ شيء عوضاً عن شيء آخر يخلفه على وجه التعاقب والمراد أن كلا من الليل والنهار يأتي خلفا من الآخر وفي أعقابه ، ويجوز . أن يكون المراد باختلافهما ، في أنفسهما بالطول والقصر ، واختلافهما في جنسيهما بالسواد والبياض .و ( الليل ) : هو الظلام المعاقب للنهار ، واحدته ليلة كتمر وتمرة .و ( والنهار ) : هو الضياء المتسع ، وأصله الاتساع ، ومنه قول الشاعر :ملكت بها كفى فأنهرت فتقها ... يرى قائم من دونها ما وراءها أي أوسعت فتقها .وقد جعل الله الليل للسكون والراحة والعبادة لمن وفقه الله : لقضاء جانب منه في مناجاته - سبحانه -.وجعل النهار للعمل وابتغاء الرزق قال - تعالى - : ( وَجَعَلْنَا الليل لِبَاساً . وَجَعَلْنَا النهار مَعَاشاً ) وقد أضيف الاختلاف لكل من الليل والنهار ، لأن كل واحد منهما يخلف الآخر فتحصل منه فوائد سوى فوائد الآخر ، بحيث لو دام أحدهما لانقلب النفع ضراً .قال - تعالى - : ( قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ الله عَلَيْكُمُ الليل سَرْمَداً إلى يَوْمِ القيامة مَنْ إِلَه غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِضِيَآءٍ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ . قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ الله عَلَيْكُمُ النهار سَرْمَداً إلى يَوْمِ القيامة مَنْ إِلَه غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ، وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الليل والنهار لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ) ومن العظات التي

تؤخذ من هذا الاختلاف أن مدد الليل والنهار تختلف فلكل منهما مدة يستوفيها من السنة بمقتضى نظام دقيق مطرد .قال - تعالى - : ( لاَ الشمس يَنبَغِي لَهَآ أَن تدْرِكَ القمر وَلاَ الليل سَابِقُ النهار وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ) وكون الليل والنهار يسيران على هذا النظام الدقيق المطرد الذي لا ينخرم دليل على أن الاختلاف تدبير من إله قادر حكيم لا يدخل أفعاله تفاوت ولا اختلال .وإذا اكن لهذا الاطراد أسباب تحدث عنها العلماء ، فإن الذي خلق الأسباب وجعل بينها وبين هذا الاختلاف تلازماً إنما هو الإله الواحد القهار .أما المظهر الرابع من المظاهر الدالة في هذا الكون على - قدرته - سبحانه - ووحدانيته وألوهيته ، فقد تحدثت عنه الآية في قوله تعالى - : ( والفلك التي تَجْرِي فِي البحر بِمَا يَنفَعُ الناس ) .( الفلك ما عظم من السفن ، ويستعمل لفظ الفلك للواحد والجمع . والظاهر أن : ( المراد به هنا الجمع بدليل قوله - تعالى - : ( التي تَجْرِي فِي البحر ) ): - ولو كان هذا اللفظ للمفرد لقال : الذي يجري ، كما جاء في قوله - تعالى ( وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الفلك المشحون والجملة الكريمة معطوفة على خلق السموات والأرض .قال صاحب المنار : وكان الظاهر أن تأتي هذه الجملة في آخر الآية ليكون ما للإنسان فيه صنع على حدة ، وما ليس له فيه صنع على حدة . والنكتة في ذكرها عقيب آية الليل والنهار هي أن المسافرين في البر والبحر هم أشد الناس حاجة إلى تحديد اختلاف الليل والنهار ومراقبته على الوجه الذي ينتفع به ، والمسافرون في البحر أحوج إلى معرفة الأوقات وتحديد الجهات ، لأن خطر الجهل عليهم أشد ، وفائدة المعرفة لهم أعظم ، ولذلك كان من ضروريات رباني السفن معرفة علم النجوم ، وعلم الليل والنهار من فروع هذا العلم . قال - تعالى - : ( وَهُوَ الذي جَعَلَ لَكُمُ النجوم لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ البر والبحر ) فهذا وجه العلاقة بين ذكر الفلك وما قبله .و " ما " في قوله : ( بِمَا يَنفَعُ الناس مصدرية ، والباء للسببية أي : تجري بسبب نفع الناس ولأجله في التجارة ( وغيرها . أو موصولة والباء للحال ، أي تجري مصحوبة بالأعيان التي تنفع الناس . وخص - سبحانه - النفع بالذكر وإن كانت السفن تحمل ما ينفعت وما يضر؛ لأن المراد هنا عد النعم ، ولأن الذي يحمل فيها ما يضر غيره هو في الوقت نفسه يقصد منفعة نفسه .ومن وجوه الاستدلال بالفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس على وجود الله وقدرته ، أن هذه الفلك وإن كانت من صنع الناس ، إلا أن الله - تعالى - هو الذي خلق الآلات والأجزاء التي صارت بها سفناً وهو الذي سخر لبحر لتجري فيه منقلبة ومدبرة مع شدة أهواله إذا هاج ، وهو الذي جعلها تشق أمواجه شقاً حتى تصل إلى بر الأمان ، وهو الذي رعاها برعايته وهي كنقطة صغيرة في ذلك الماء الواسع ، ووسط تلك الأمواج المتلاطمة حتى وصلت إلى ساحل السلامة وهي حاملة الكثير مما ينفع الناس من الأطعمة والأشربة والأمتعة المختلفة ، فسبحانه من إله قادر حكيم .الدليل الخامس والسادس على أنه - سبحانه - هو المستحق للعبادة يتمثل في قوله - تعالى - في هذه الآية : ( وَمَآ أَنزَلَ الله مِنَ السمآء مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ) .والمراد بالسماء : جهة العلو ، أي : وما أنزل من جهة السماء من ماء ، و " من " في ، قوله : ( مِنَ السمآء ) ابتدائية ، وفي قوله : ( مِن مَّآءٍ ) بيانية وهما ومجرورهما متعلقان بأنزل .والمراد بإحياء الأرض : تحرك القوى النامية فيها ، وإظهار ما أودع الله فيها من نبات وزهور وثمار وغير ذلك .والمراد ) : - بموتها : خلوها من ذلك باستيلاء اليبوسة والقحط عليها .قال - تعالى وَتَرَى الأرض هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الماء اهتزت وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ) ( والبث ) : التفريق والنشر لما كان خافيا ، ومنه بث الشكوى أي : نشرها وإظهارها ، وكل شيء ).بثثته فقد فرقته ونشرته ، والضمير في قوله : " فيها " يعود إلى الأرض والدابة ) : اسم من الدبيب والمشي ببطء ، كل ما يمشي فوق الأرض فهو بحسب الوضع اللغوي يطلق عليه دابة . والظاهر أن المراد بالدابة هنا هذا المعنى العام ، لا ما جيري به العرف الخاص باستعماله في نوع خاص من الحيوان كذوات الأربع .وجملة ( وَمَآ أَنزَلَ الله مِنَ السمآء مِن مَّآءٍ . . . ) معطوفة على ما قبلها ، وجملة ( وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ) معطوفة على قوله : ( فَأَحْيَا بِهِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا ) .والمعنى : وإن فيما ، أنزله الله من جهة السماء من ماء مبارك ، عمرت به الأرض بعد خرابها وانتشرت فيها أنواع الدواب كلها ، لدليل ساطع على قدرة الله ووحدانيتهذلك لأنه هو وحده الذي أنزل المطر من السماء ولو شاء لأمسكه مع أن لماء من طبعه الانحدار ، وهو وحده الذي جعل الأرض التي نعيش عليها تنبت من كل زوج بهيج بسبب طبيعتها وأحجامها ، وأشكالها وألوانها ، وأصواتها ، ومآكلها ، وحملها ، وتناسلها ، ووجوه الانتفاع بها ، وغير ذلك من وجوه الاختلاف الكثيرة ، مما يشاهد بأن خالق هذه الكائنات إله واحد قادر حكيم .أما الدليل السابع والثامن في هذه الآية على قدرته - سبحانه - ووحدانيته واستحقاقه للعبادة فهما قوله - تعالى - : ( وَتَصْرِيفِ الرياح والسحاب المسخر بَيْنَ السمآء والأرض ) .الرياح جمع ريح وهي نسيم الهواء .وتصريفها : تقليبها في الجهت

- المختلفة ، ونقلها من حال إلى حال ، وتوجيهها على حسب إرادته - سبحانه
ووفق حكمته . فتهب تارة صباً ، أي من مطلع الشمس ، وتارة دبوراً ، أي : من
جهة الغرب ، وأحياناً من جهة الشمال أو الجنوب وقد يرسلها - سبحانه - عاصفة
ولينة ، حارة أو باردة ، لواقح بالرحمة حيناً وبالعذاب آخر ( وَتَصْرِيفِ )
مصدر صرف مضاف للمفعول والفاعل هو الله ، أي : وتصريف الله الرياح . أو
مضاف للفاعل هو الله ، أي : وتصريف الله الرياح . أو مضاف للفاعل والمفعول
الحساب ، أي : وتصريف الرايح السحاب .وجاءت هذه الجملة الكريمة بعد إحياء
الأرض بالمطر وبث الدواب فيها للتناسب بينهما ، وتذكيراً بالسبب إذ بالرياح
- تكون حياة النبات والحيوان وكل دابة على الأرض ، ولو أمسك - سبحانه
الرياح عن التصريف لما عشا كائن على ظهر الأرض .( والسحاب ) : عطف على ما
قبله ، وهو اسم جنس واحد سحابة ، سمي بذلك لانسحابه في الجو أو لجر الرياح
له .و ( المسخر ) : من التسخير وهو التذليل والتيسير ، ومعنى تسخيره - كما
قال الآلوسي - أنه لا ينزل ولا يزول مع أن الطبع يقتضي صعوده إن كان لطيفاً
وهبوطه إن كان كثيفا - و ( المسخر ) صفة للسحاب باعتبار لفظه ، وقد يعتبر
" معناه فيوصف بالجمع كما في قوله :( سَحَاباً ثِقَالاً ) والظرف " بين
يجوز أن يكون منصوباً بقوله المسخر فيكون ظرفاً للتسخير ، ويجوز أن يكون
حالا من الضمير المستتر في اسم المفعول فيتعلق بمحذوف أي : كائناً بين
السماء والأرض .وجاء ذكر السحاب بعد تصريف الرياح لأنها هي التي تثيره
وتجمعه ، وهي التي تسوقه إلى حيث ينزل مطراً في الأماكن التي تريد الله
إحياءها .قال - تعالى - : الله الذي يُرْسِلُ الرياح فَتُثِيرُ سَحَاباً
فَيَبْسُطُهُ فِي السمآء كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى
الودق يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ ) ولا شك أن هذا التصريف للرياح مع أنها جسم
لطيف لا يمسك ولا يرى ، وهي مع ذلك في غاية القوة بحيث تقلع الأشجار وتخرب
الديار ، وهذا التسخير للحساب بحيث يبقى معلقاً بين السماء والأرض مع حملة
للمياه العظيمة التي تسيل بها الأودية المتسعة . . .لا شك أن كل ذلك من
أعظم الأدلة على أن لهذا الكون مدبراً قادراً حكيماً هو الله رب العالمين
- وقوله : ( لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ) اسم ( إِنَّ ) لقوله - تعالى.
في أول الآية : ( إِنَّ فِي خَلْقِ السماوات والأرض ) ودخلت اللام على
الاسم وهو ( لآيَاتٍ ) لتأخره عن الخبر والتنكير للتعظيم والتفخيم كما
، وكيفاً .أي : إن فيما ذكره الله من مخلوقاته العجيبة ، وكائناته الباهرة
لدلائل ساطعة ، وآيات واضحة ترشد من يعقلون ويتدبرون فيها ، إلى أن لهذا
الكون إلهاً واحداً قادراً حكيماً مستحقاً للعبادة والخضوع والطاعة .وموقع
- هذه الآية الكريمة من سابقتها كموقع الحجة من الدعوى ، ذلك أن الله
تعالى - أخبر في الآية السابقة أن الإلهه واحد لا إله غيره ، وهي قضية قد
تلقاها كثير من الناس بالإنكار ، فناسب أن يأتي في هذه الآية الكريمة
بالحجج والبراهين التي لا يسع الناظر فيها بتدبر وتفكير إلا التسليم عن
اقتناع بوحدانية الله - تعالى - قدرته .قال الإمام الرازي : واعلم أن
النعم على قسمين : نعم دنيوية ونعم دينية وهذه الأمور الثمانية ، اليت عدها
الله - تعالى - نعم دنيوية في الظاهر ، فإذا تفكر العقال فيها ، واستدل بها
على معرفة الصانع ، صارت نعما دينية ، لكن الانتفاع بها من حيث إنها نعم
) : دنيوية لا يكمل إلا عند سلامة العقول وانفتاح بصر الباطن ، فلذلك قال
لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ) .وقال الآلوسي : أخرج ابن أبي الدنيا وابن
مردوية عن عائشة - رضي الله عنها - أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قرأ
هذه الآية قال : " ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها " .ثم قال الآلوسي : ومن
تأمل في تلك المخلوقات التي وردت في هذه الآية وجد كلا منها مشتملا على
وجوه كثيرة من الدلالة على وجوده - تعالى - ووحدانيته وسائر صفاته الموجبة
لتخصيص العبادة له ، ومجمل القول فيث ذلك أن كل واحد من هذه الأمور
المعدودة قد وجد على وجه خاص من الوجوه الممكنة دون ما عداه ، مستنبعا
لآثار معينة ، وأحكام مخصوصة .. . وفي الآية إثبات الاستدلال بالحجج
العقلية ، وتنبيه على شرف علم الكلام وفضل أهله ، وربما أشارت إلى شرف علم
الهيئة .والحق أن هذه الآية الكريمة قد اتجهت في تثبيت عقيدة وحدانية الله
وقدرته وألوهيته إلى تنبيه الحواس والمدارك والمشاعر إلى ما في هذا الكون
المشاهد المنظور من آيات ودلائل على حقية الخالق - عز وجل - بالعبادة .وهذه
الطريقة من تنبيه الحواس والمدارك جديرة بأن تفتح الأبصار والبصائر على
عجائب هذا الكون ، تلك العجائب التي أصبحت عند كثير من الناس شيئاً مألوفاً
بسبب عدم تدبرهم لما فيها من عظات وعبر وصدق الله إذ يقول ( وَكَأَيِّن
مِّن آيَةٍ فِي السماوات والأرض يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا
مُعْرِضُونَ ) ورحم الله القائل : ألا إن لله كتابا : كتاباً مخلوقاً وهو
الكون ، وكتاباً منزلا وهو القرآن .وإنما يرشدنا هذا إلى طريق بذاك بما
أوتينا من العقل . فمن أطاع فهو من الفائزين ، ومن أعرض فأولئك هم الخاسرون
.

ومن الناس من يتخذ من دون الله اندادا يحبونهم كحب الله والذين امنوا اشد
حبا لله ولو يرى الذين ظلموا اذ يرون العذاب ان القوة لله جميعا وان الله

شديد العذاب

كما فسرها الوسيط وبعد أن ذكر - سبحانه - جانباً من الآيات الدالة على ألوهيته ووحدانيته أردف ذلك ببيان حال المشركين ، وما يكون منهم يوم القيامة من تدابر وتقاطع وتحسر على ما فرط منهم فقال - تعالى - :( وَمِنَ الناس مَن يَتّخِذُ مِن دُونِ الله أندَاداً . . . )( أندَاداً ) : جمع ند ، وهو مثل الشيء الذي يضاده ويناوره ويتباعد عنه . وأصله من ند البعير يند نداً ونداداً وندوداً ، أي : نفر وذهب على وجهه شارداً . ويرى بعض العلماء أن المراد بالأنداد هنا الأصنام التي اتخذها المشركون آلهة للتقرب بها إلى الله ، وقيل : المراد بها الرؤساء الذين كانوا يطيعونهم فيما يحلونه لهم ويحرمونه عليهم . والأولى أن يكون المراد بهذه الأنداد كل مخلوق أسند إليه أمر اختص به الله - تعالى - من نحو التحليل ، والتحريم وإيصال النفع وغير ذلك من الأمور التي انفرد بها الخالق - عز وجل - .والمعنى : أن من الناس من لا يعقل تلك الآيات التي دلت على وحدانية الله وقدرته ، وبلغفت بهم الجهالة أنهم يخضعون لبع المخلوقات خضوعهم لله بزعم أنها مشابهة ومماثلة ومناظرة له - سبحانه - في النفع والضر ، ويحبون تعظيم تلك المخلوقات وطاعتها والتقرب إليها والانقياد لها حبا يشابه الحب اللازم عليهم نحو الله - تعالى - أو يشابه حب المؤمنين لله ، و ( مِنَ ) في قوله : للتبعيض ، والجار والمجرور خبر مقدم و ( مِنَ ) في قوله ( وَمِنَ الناس ) في محل رفع مبتدأ مؤخر ، و " من دون الله ، حال من ضمير ( مَن يَتّخِذُ ) يتخذ و ( أندَاداً ) مفعول به ليتخذ .قال الجمل : وجملة ( يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ الله ) فيها ثلاثة أوجه :أحدها : أن تكون في محل رفع صفة لمن في أحد وجهيها ، والضمير المرفوع يعود عليها باعتبار المعنى بعد اعتبار اللفظ في يتخذ .والثاني : أن تكون في محل نصب صفة لأنداداً والضمير المنصوب يعود عليهم والمراد بهم الأصنام ، وإنما جمعوا جمع العقلاء لمعاملتهم معالمة العقلاء . أو أن يكون المراد بهم من عبد من دون الله عقلاء وغيرهم ثم غلب العقلاء على غيرهم .الثالث : أن تكون في محل نصب على الحال من الضمير في يتخذ ، والضمير المرفوع عائد على ما عاد عليه الضمير في يتخذ وجمع حملا على المعنى .ثم مدح - سبحانه - عبادة المؤمنين فقالك ( والذين آمَنُواْ أَشَدُّ - حُبّاً للّهِ ) .أي : والذين آمنوا وأخلصوا لله العبادة أشد حباً له سبحانه - من كل ما سواه ، ومن حب المشركين للأنداد ، ذلك لأن حب المؤمنين لله متولد عن أدلة يقينية ، وعن علم تام ، ببديع حكمته - سبحانه - وبالغ حجته ، وسعة رحمته ، وعدالة أحكامه ، وعزة سلطانه ، وتفرده بالكمال المطلق والحب المتولد عن هذا الطريق يكون أشد من حب المشركين لمعبوداتهم لأن حب المشركين لمعبوداتهم متولد عن طريق الظنون والأوهام والتقاليد الباطلة والتصريح بالأشدية في قوله : ( أَشَدُّ حُبّاً للّهِ ) أبلغ من أن يقال. أحب لله؟ إذ ليس المراد الزيادة في أصل الفعل - كما يقول الآلوسي - بل المراد الرسوخ والثبات .وقيل : عدل عن أحب إلى أشد حباً ، لأن " حب " شاع في الأشد محبوبية فعدل عنه احترازاً عن اللبس .ولقد ضرب المؤمنون الصادقون أروع الأمثال في حبهم لله - تعالى - لأنهم ضحوا في سبيله بأرواحهم وأموالهم وأبنائهم وأغلى شيء لديهم ، ولأنهنم لم يعرفوا عملا يرضيه إلا فعلوه ، ولم يعرفوا عملا يغضبه إلا اجتبوه .ثم أخبر - سبحانه - عما ينتظر الظالمين من سوء المصير فقال : ( وَلَوْ يَرَى الذين ظلموا إِذْ يَرَوْنَ العذاب أَنَّ القوة للّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ الله شَدِيدُ العذاب ) ( لَوْ ) شرطية ، وجوابها محذول لقصد التهويل ولتذهب النفس في تصويرها كل مذهب و ( القوة ) القدرة والسلطان .والمعنى : ولو يرى أولئك المشركون حين يشاهدون العذاب المعدلهم يوم القيامة أن القدرة كلها لله وحده ، وأن عذابه الذي يصيب به المتخطبين في ظلمات الشرك شديد ، لو يعلمون ذلك ، لرأوا ما لا يوصف من الهول والفظاعة ، ولوقعوا فيما لا يكاد يوصف من الحسرة والندامة .وكان الظاهر بمقتضى تقدم ذكرهم أن يقال : ولو يرون إذ يرون . ولكن وضع الموصول وصلته موضع الضمير ، ليحضر في ذهن السامع أنهم صاروا باتخاذهم الأنداد من الظالمين ، وليشعر بأن سبب رؤيتهم العذاب الشديد هو ذلك الظلم العظيم .وعبر بالماضي في قوله : ( إِذْ يَرَوْنَ العذاب ) لتحقق الوقوع ، ولك ما كان كذلك فإنه يجري مجري ما وقع وحصل .وجملة ( أَنَّ القوة للّهِ جَمِيعاً ) . سدت مسد مفعولي يرى ، وانتصب لفظ ( جَمِيعاً ) على التوكيد للقوة . أي جميع جنس القوة ثابت لله ، وهو مبالغة في عدم الاعتداد بقوة غيره ، فمفاد جميع هنا مفاد لام الاستغراق في قوله : ( الحمد للّهِ ) وجملة ( وَأَنّ الله شَدِيدُ العذاب ) معطوفة على ما قبلها ، وفائدتها المبالغة في تفظيع الخطب ، وتهويل الأمر ، فإن اختصاص القوة به - تعالى -لا يوجب شدة العذاب لجواز تركه عفواً مع القدرة عليه .هذا ، وقد قرأ نافع وابن عمر " ولو ترى " بالتاء على الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أو لكل من يتأتى له الخطاب .أي لو ترى ذلك أيها الرسول الكريم أو أيها المخاطب لرأيت أمراً عظمياً في : الفظاعة والهول .

اذ تبرا الذين اتبعوا من الذين اتبعوا وراوا العذاب وتقطعت بهم الاسباب

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( إِذْ تَبَرَّأَ الذين اتبعوا . . . ) بدل من قوله : ( إِذْ يَرَوْنَ العذاب ) . أو مفعولا به بتقدير اذكر .و ( تَبَرَّأَ ) من التبرؤ وهو التخلص والتنصل والتباعد ، ومنه برئت من الدين أي : تخلصت منه ، وبرأ المريض من مرضه ، أي : تخلص من مرضه .والمراد بالذين اتبعوا : أئمة الكفر الذين يحلون ويحرمون ما لم يأذن به الله .والمراد بالذين اتبعوا : أتباعهم وأشياعهم الذين يتلقون جميع أقوالهم بالطاعة والخوضع بدون تدبر أو تعقل .وجملة ( وَرَأَوُا العذاب ) حال من الأتباع والمتبوعين ، والضمير يعود على الفريقين ، أي : تبرؤا جميعاً من بعض في حال رؤيتهم للعذاب .وجملة ( وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأسباب ) معطوفة على تبرأ ، أورأوا .والباء في ( بِهِمُ ) للسببية أي : وتقطعت بسبب كفرهم الأسباب التي كانوا يرجون من ورائها النجاة ، وقيل للملابسة أي : تقطعت الأسباب ملتبسة بهم فخابت آمالهم وسقطوا صرعى .و ( الأسباب ) جمع سبب ، وهو في الأصل الحبل الذي يرتقى به الشجر ونحوه ، ثم سمى به كل ما يتوصل به إلى غيره ، عيناً كان أو معنى . فيقال للطريق سبب ، لأنك بسلوكه تصل إلى الموضع الذي تريده ، ويقال للمودة سبب لأنك تتواصل بها إلى غيرك ، والمراد بالأسباب هنا : الوشائج والصلات التي كانت بين الأتباع والمتبوعين في الدنيا ، من القرابات والمودات والأحلاف والاتفاق في الدين . . . إلخ .والمعنى : واذكر أيها العاقل لتعتبر وتتعظ يوم القيامة ، ذلك اليوم الهائل الشديد الذي يتنصل فيه الرؤساء من مرءوسيهم ، والاتباع من متبوعيهم حال رؤيتهم جميعاً للعذاب وأسبابه ومقدماته وما أعدلهم من شقاء وآلام ، وقد ترتب على كل ذلك أن تقطع ما بين الرؤساء والأذناب من روابط كانوا يتواصلون بها في الدنيا ، وصار كل فريق منهم يلعن الآخر ويتبرؤ منه .قال بعض العلماء : وفي قوله : ( وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأسباب ) استعارة تمثيلية إذ شبهت هيئتهم عند خيبة أملهم حين لم يجدوا النعيم الذي تعبوا لأجله مدة حياتهم وقد جاء إبانه في ظنهم فوجدوا عوضه العذاب ، بحال المرتقي إلى النخلة ليجتني الثمر الذي كد ، لأجله طول السنة فتقطع به السبب - أي الحبل - عند ارتقائه فسقط هالكا فكذلك هؤلاء قد علموا جميعاً حينئذ أن لانجاة لهم ، فحالهم كحال الساقط من علو لا ترجى له سلامة . وهي تمثيلية بديعة تشتمل على سبعة أشياء كل واحد منهما يصلح لأن يكون مشبها بواحد من الأشياء التي تشتمل عليها الهيئة المشبهة بها وهي :تشبيه المشرك في عبادته الأصنام بالمرتقى بجامع السعي ، وتشبيه العبادة وقبول الآلهة منه بالحبل الموصل ، وتشبيه النعيم والثواب بالثمرة في أعلى النخلة لأنها لا يصل إليها المرء إلا بعد طول وهو مدة العمر ، وتشبيه العمر بالنخلة في الطول ، وتشبيه الحرمان من الوصول للنعيم بتقطع الحبل ، وتشبيه الخيبة بالبعد عن الثمرة ، وتشبيه الوقوع في العذاب بالسقوط المهلك . . . "

وقال الذين اتبعوا لو ان لنا كرة فنتبرا منهم كما تبرءوا منا كذلك يريهم الله اعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما قاله الأتباع على سبيل الحسرة والندم فقال : ( وَقَالَ الذين اتبعوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ) .الكرة : الرجعة والعودة . يقال : كر يكر كراً : أي : رجع . و ( لو ) للتمني . وقوله : ( فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ ) منصوب بعد الفاء بأن مضمرة في جواب التمني الذي أشربته لو ، والكاف في قوله ( كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ) في محل نصب نعت لمصدر محذوف أي تبرأ مثل تبرئهم .والمعنى : وقال الذين كانوا تابعين لغيرهم في الباطل بدون تعقل أو تدبر ليت لنا رجعة إلى الحياة الدنيا فنتبرأ من هؤلاء الذين اتبعناهم وأضلونا السبيل كما تبرءوا منا في هذا اليوم العصيب ، ولنشفي غيظنا منهم لأنهم خذلونا وأوردونا موارد التهلكة والعذاب الأليم وقوله - تعالى - : ( كَذَلِكَ يُرِيهِمُ الله أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ) تذييل لتأكيد الوعيد ، وبيان لحال المشركين في الآخرة .قال الآلوسي : وقوله : ( كَذَلِكَ ) في موضع المفعول المطلق لما بعده ، والمشار إليه الإراء المفهوم من قوله : ( إِذْ يَرَوْنَ ) أي : كإراء العذاب المتلبس بظهور أن القوة لله والتبري وتقطع الأسباب وتمنى الرجعة ، يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم . وجوز أن يكون المشار إليه المصدر المفهوم مما بعد والكاف مقحمة لتأكيد ما أفاده اسم الإشارة من الضخامة . أي : مثل ذلك الإراء الفظيع يريهم على حد ما قيل في قوله - تعالى - : ( وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً ) والمراد بأعمالهم : المعاصي التي ارتكبوها وفي مقدمتها اتباعهم لمن أضلوهم .و ( حَسَرَاتٍ ) جمع حسرة ، وهي أشد درجات الندم والغم على ما فات . يقال : حسر يحسر حسراً فهو حسير ، إذا اشتدت ندامته على أمر فاته .قال الرازي : وأصل الحسر الكشف . يقال حسر ذراعيه أي كشف والحسرة انكشاف عن حال الندامة . والحسور الإعياء لأنه انكشاف الحال :

عما أوجبه طول السفر . قال - تعالى - :( وَمَنْ عِنْدَهُ لاَ
- يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ ) بينهم ، يريهم
سبحانه - أعمالهم السيئة يوم القيامة فتكون حسرات تتردد في صدورهم كأنها
شرر الجحيم .ثم ختم - سبحانه - الآية ببيان عاقبة أمرهم فقال : ( وَمَا هُم
بِخَارِجِينَ مِنَ النار ) .أي : وما هم بخارجين من تلك النار التي عوقبوا
بها بسبب شركهم ، بل هم مستقرون فيها استقرارا أبديا ، وقد جاءت الجملة
- اسمية لتأكيد نفي خروجهم من النار ، وبيان أنهم مخلدون فيها كما قال
تعالى - في آية أخرى : ( كُلَّمَآ أرادوا أن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ
أُعِيدُواْ فِيهَا ) وهكذا يسوق لنا القرآن ما يدور بين التابعين
والمتبوعين يوم القيامة من تنصل وتحسر وتخاصم بتلك الطريقة المؤثرة ، حتى
لكأنك أمام مشهد مجسم ، ترى فيه الصور الشاخصة حاضرة . وذلك لون من ألوان
، بلاغه القرآن في عرضه للحقائق ، حتى تأخذ سبيلها إلى النفوس الكريمة
. وتؤتى ثمارها الطيبة في القلوب السليمة

يا ايها الناس كلوا مما في الارض حلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه
لكم عدو مبين

كما فسرها الوسيط ثم وجه القرآن نداء عاما إلى البشر أمرهم فيه بأن يتمتعوا
): - بما أحله لهم من طيبات ، ونهاهم عن اتباع وساوس الشيطان فقال - تعالى
ياأيها الناس كُلُواْ مِمَّا فِي الأرض حَلاَلاً طَيِّباً . . . )( كُلُواْ
صيغة أمر واردة في معنى الإباحة .و ( حَلاَلاً ) ما أذن الله في تناوله (
من مطعومات أو مشروبات .قال الرازي : وأصله الذي هو نقيض العقد ، ومنه حل
بالمكان إذا نزل ، لأنه حل شد الارتحال للنزول ، وحل الدين إذا وجب لانحلال
العقدة بانقضاء المدة ، وحل من إحرامه ، لأنه حل عقدة الإحرام . . ثم قال
واعلم أن الحرام قد يكون حراما لخبثه - في ذاته - كالميتة والدم ولحم :
- الخنزير ، وقد يكون حراما لوصف عارض كملك الغير إذل لم يأذن في أكله
فحرمته لتعلق حق الغير به - فالحلال هو الخالي عن هذين القيدين .( طَيِّباً
، هو المستلذ المستطاب الذي تقبل عليه النفوس الطاهرة وتنبسط لتناوله : (
وإنما تنبسط النفوس الطاهرة لتناول طعام غير قذر ولا موقع في تهلكة ، إذ
القذر ينفر منه الطبع السليم ، والموقع في تهلكة يمجه العقل القويم .و ( من
في قوله : ( مِمَّا فِي الأرض ) للتبعيض ، لأن بعض ما في الأرض (
) : كالحجارة - مثلا -لا يؤكل ، ولأنه ليس كل ما يؤكل يجوز أكله فلذلك قال
" حَلاَلاً طَيِّباً . . ) .وقوله : ( حَلاَلاً ) مفعول به لقوله : " كلوا
أو حال مما في الأرض ، أي : كلوه حال كونه حلالا . أو صفة لمصدر محذوف ، أي
كلوه أكلا حلالا .وقوله : ( طَيِّباً ) صفة مقررة ومؤكدا لمعنى يستفاد :
من قوله : ( حَلاَلاً ) وهو طهارة المأكول وخلوه من القذارة ، وعدم إيقاعه
في ضرر .قال الآلوسي : " وفائدة وصف الحلال بالطيب تعميم الحكم كما في
قوله - تعالى - : ( وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأرض ) ليحصل الرد على من حرم
" بعض الحلالاةت فإن النكرة الموصوفة بصفة عامة تعم ، بخلاف غير الموصوفة
والمعنى : يأيها الناس لقد أباح الله لكم أن تأكلوا من كل ما تحويه الأرض.
من المطعومات التي أحلت لكم ، والتي تستلذها النفوس الكريمة ، والقلوب
- الطاهرة ، فتمتعوا بهذه الطيبات في غير سرف أو غرور ، واشكروا الله
تعالى - على ما رزقكمو من نعم .ولقد أمر الله عباده في كثير من الآيات أن
يتمتعوا بما أحله لهم من طيبات ومن ذلك قوله - تعالى - : ( قُلْ مَنْ
حَرَّمَ زِينَةَ الله التي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ
الرزق قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الحياة الدنيا خَالِصَةً يَوْمَ
القيامة كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيات لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ) وفي صحيح مسلم
: عن عياض المجاشعي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم في خطبته
- ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني ، يومي هذا . يقول الله "
تعالى - : كل ما نحلته - أي منحته - عبادي فهو لهم حلال ، وإني خلقت عبادي
حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما
أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا . . "وعن ابن عباس
قال :" تليت هذه الآية عند النبي صلى الله عليه وسلم ( ياأيها الناس
: كُلُواْ مِمَّا فِي الأرض حَلاَلاً طَيِّباً ) فقام سعد بن أبي وقاص فقال
يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة ، فقال : يا سعد! أطب
مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، والذي نفس محمد بيده ، إن الرجل ليقذف اللقمة
الحرام في جوفه ما يتقبل منه أربعين يوما ، وأيما عبد نبت لحمه من السحت
والربا فالنار أولى به " .وليس من الورع ولا الزهد المرضي عنه شرعا ترك بعض
المباحات ، فإن الله سوى في المباح بين الفعل والترك ، ومن يجعل ترك المباح
من الورع ، والورع مندوب ، فكأنه يقول : إن الترك راجح على الفعل ، وهو غير
ما حكم الله به .وكان الحسن البصري - وهو من أجل التابعين - يقوم عوج من
يعدون من الزهد المحمود الامتناع عن تناول بعض المباحات كالأطعمة اللذيذة
يحكى عنه أنه شهد يوما وليمة ، فرأى رجلا يرفع يده عندما قدمت الحلوى فقال.
له الحسن : كل يا لكع فلنعمة الله عليك في الماء البارد أعظم من نعمته في

هذه الحلوى .ودخل عيه مرة أحد الزهاد فقال له الحسن : أتحب الخبيص - وهو طعام لذيذ - فقال الزاهد : لا أحبه ولا أحب من يحبه!! فأقبل الحبسن على جلسائه وقال لهم : أترونه مجنونا .والخلاصة : أنه لا ورع في ترك المباح الذي أحله الله من حيث فيه متعة للنفس ، فذلك هو التنطع في الدين ، وإنما الورع في ترك الإكثار من تناول تلك المباحات ، لأن الإكثار منها قد يؤدي إلى الوقوع فيما نهى الله عنه .هذا ، وقد أورد بعض المفسرين آثاراً تدل على أن هذه الآية نزلت في قوم معينين .قال الآلوسي : نزلت في المشركين الذين حرموا على أنفسهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، وقيل نزلت في قوم من ثقيف وبني عامر ابن صعصعة وخزاعة وبين مدلج حيث حرموا التمر واللاقط على أنفسهم .والذي نراه أن الخطاب في الآية لجميع المكلفين من البشر ، وأنها واردة لتفنيد آراء الذين يحرمون على أنفسهم مطعومات لم يقم دليل من الشارع ) - على تحريمها ، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .ثم قال - تعالى وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشيطان ) .الخطوات : جمع خطوة كغرفة وقيل جمع خطوة كقبضة ، وهي في الأصل سما بين القدمين عند المشي ، وتستعمل على وجه المجاز في الآثار .أي : كلوا أيها الناس من الطيبات التي أحلها الله لكم . ولا تتبعوا آثار الشيطان وزلاته ووساوسه وطرقه التي يحرم بها الحلال ويحلل الحرام والتي يقذفها في صدور بعض الناس فتجعلهم يتنقلون من الطاعات إلى المعاصي .وفي الجملة الكريمة استعارة تمثيلية ، إذ أن السائر في طريق إذا رأى آثار خطوات السائرين تتبع ذلك المسلك ظناً منه بأن ما سار فيه السائر قبله إلا لأنه موصل للمطلوب ، فشبه المقتدي الذي لا دليل معه سوى المقتدي به وهو يظن مسلكه موصلا ، بالذي يتبع خطوات السائرين ، وشاعت هذه ) : الاستعارة حتى صاروا يقولون هو يتبع خطا فلان بمعنى يقتدي به .وقوله إِنّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ) تعليل للنهي عن اتباع الشيطان و " مبين من أبان بمعنى بان وظهر ، وقيل : من أبان بمعنى أظهر ، أي : مظهر للعداوة " والمعنى : " ولا تتبعوا خطواته لأن عداوته ظاهرة لكم بحيث لا تخفى على أي. عاقل .

انما يامركم بالسوء والفحشاء وان تقولوا على الله ما لا تعلمون

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - ( إِنّمَا يَأْمُرُكُمْ بالسواء والفحشآء ) استئناف لبيان كيفية عداوته ، وتفصيل لأنواع شروره ومفاسده والسوء في الأصل : مصدر ساء يسوءه سوءاً ومساءة إذا أحزنه ، والمراد به. هنا ، كل ما يغضب الله - تعالى - من المعاصي ، لأنها تسوء صاحبها وتحزنه في الحال أو المآل .والفحشاء والفاحشة والفحش : ما عظم قبحه مر الأقوال والأفعال .وروى عن ابن عباس أنه فسر السوء بما لا حد فيه ، والفحشاء بما فيه حد .والأمر في الأصل : الطلب بالقول ، واستعمل في تزيين الشيطان : المعصية ، لأن تزيينها في معنى الدعوة إليها .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف كان الشيطان آمرا مع قوله ( لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ) قلت ، شبه تزيينه وبعثه على الشر بأمر الآمر ، كما تقول : أمرتني نفسي بكذا ، وتحته رمز إلى أنكم منه بمنزلة المأمورين لطاعتكم له وقبولكم وساوسه ولذلك قال : ( وَلأَمُرَنّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنّ آذَانَ الأنعام وَلأَمُرَنّهُمْ فَلَيُغَيّرُنّ خَلْقَ الله ) وقال - تعالى - : ( إِنّ النفس لأَمّارَةٌ بالسواء ) لما كان الإنسان يطيعها فيعطيها ما اشتهت وقوله : ( وَأَن تَقُولُواْ عَلَى الله مَا لاَ تَعْلَمُونَ ) معطوف على. ما قبله .أي : يأمركم الشيطان بالسوء والفحشاء ، ويأمركم أن تقولوا على الله ما لا تعلمون .والقول على الله بغير علم من مظاهره أن يقول قائل : لقد أحل الله كذا وحرم كذا بدون دليل شرعي يعتمد عليه .قال الإمام ابن القيم : والقول على الله بغير علم يعم القول عليه - سبحانه - في أسمائه وصفاته " وأفعاله ، وفي دينه وشرعه ، وقد جعله - سبحانه - من أعظم المحرمات ، بل جعله في المرتبة العليا منها ، فقال - تعالى - : ( قُلْ إِنّمَا حَرّمَ رَبِّيَ الفواحش مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ والإثم والبغي بِغَيْرِ الحق وَأَن تُشْرِكُواْ بالله مَا لَمْ يُنَزّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى الله مَا لاَ تَعْلَمُونَ ) وقال - تعالى - : ( وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الكذب هذا حَلاَلٌ وهذا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ على الله الكذب إِنّ الذين يَفْتَرُونَ على الله الكذب لاَ يُفْلِحُونَ . مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ )فتقدم إليهم - سبحانه - بالوعيد على الكذب عليه في أحكامه ، وقولهم لما لم يحرمه : هذا حرام ، ولما لم يحله : هذا حلال . وهذا بيان منه - سبحانه - أنه لا يجوز للعبد أن يقول : هذا حلال وهذا حرام إلا بما علم أنه - سبحانه - أحله وحرمه وقال بعض العلماء : وقد يخطر على بالك أن تقرير الأئمة المجتهدين لبعض. " الوقائع أحكاماً من طريق الاستنباط ، قد يستندون في ذلك إلى دليل يفيد الظن بالحكم ، ولا يصل إلى أن يفيد العلم به ، فيكون إفتاؤه من قبيل القول على الله بيغر علم ، ويزاح هذا الخاطر بأنه قد انضم إلى ذلك الدليل الظني أصل انعقد عليه الإجماع وأصبح مقطوعاً به ، وهو أن كل مجتهد بحق يكون حكم

الشرع في حقه أو حق من يتابعه هو الحكم الذي أداه إليه اجتهاده ، وبمراعاة
هذا الأصل المقطوع به لم يكن المجتهد المشهود له بالرسوخ في العلم قائلا
على الله ما لا يعلم " .هذا ، ومن الآيات الكثيرة التي وردت في القرآن
الكريم في التحذير من الشيطان ووساوسه قوله - تعالى -:( إِنَّ الشيطان
لَكُمْ عَدُوٌّ فاتخذوه عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُ لِيَكُونُواْ
مِنْ أَصْحَابِ السعير ) وقوله - تعالى - : ( الشيطان يَعِدُكُمُ الفقر
وَيَأْمُرُكُم بالفحشآء والله يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً
والله وَاسِعٌ عَلِيمٌ ) وقوله - تعالى - : ( يا بني ءَادَمَ لاَ
يَفْتِنَنَّكُمُ الشيطان كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِّنَ الجنة ) وقد
أرشدنا النبي صلى الله عليه وسلم إلى أن الإكثار من ذكر الله خير معين
للإنسان للتغلب على وساوس الشيطان فقال في حديثه الطويل الذي رواه الترمذي
والنسائي وابن حبان عن الحارث الأشعري : " وآمركم بذكر الله كثيراً ، فإن
، مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعاً في أثره ، فأتى حصناً فأحرز نفسه فيه
. وكذلك العبد لا ينجو من الشيطان إلا بذكر الله

واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله قالوا بل نتبع ما الفينا عليه اباءنا
اولو كان اباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون

، كما فسرها الوسيط وبعد أن نهى - سبحانه - الناس عن اتباع خطوات الشيطان
وبين لهم مظاهر عداوته لهم ، أردف ذلك ببيان حال طائفة من الناس لم يستمعوا
لها النصح ، بل اتبعوا خطوات الشيطان فقلدوا آباءهم في الشرك والجهالة
فقال - تعالى - :( وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتبعوا مَآ أَنزَلَ الله قَالُواْ
بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا . . . )أي : وإذا قيل لأولئك الذين افتقوا
: خطوات الشيطان ، وقالوا على الله بدون علم ولا برهان ، إذا قيل لهم
اتبعوا ما أنزل الله من قرآن ، أعرضوا عن ذلك وقالوا بل نتبع ما وجدنا عليه
) : - آباءنا من عبادة الأصنام والخضوع للرؤساء .فالضمير في قوله - تعالى
لَهُمُ ) يعود على طائفة ممن شملهم الخطاب بقوله - تعالى - في الآية
السابقة : ( ياأيها الناس كُلُواْ مِمَّا فِي الأرض حَلاَلاً طَيِّباً
وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشيطان ) وهم الذين لم يستجيبوا لنداء الله
بل ساروا في ركب الشيطان ، واقتفوا آثاره ، ( وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتبعوا
مَآ أَنزَلَ الله ) . القائل لهم ذلك هو النبي صلى الله عليه وسلم
والمسلمون .والمراد به أنزل الله : القرآن الكريم ، وما أوحاه الله إلى
نبيه صلى الله عليه وسلم من هدايات . وعدل - سبحانه - من خطابهم إلى الغيبة
للتنبيه على أنهم لرفرط جهلهم وحمقهم صاروا ليسوا أهلا للخطاب ، بل ينبغي
أن يصرف عنهم إلى من يعقله .و ( بَلْ ) في قوله - تعالى : ( بَلْ نَتَّبِعُ
للإضراب الإبطالي ، أي : أضربوا عن قول الرسول لهم ( اتبعوا مَآ أَنزَلَ (
إضراب إعراض بدون حجة ، إلا بأنه مخالف لما ألفوا عليه آباءهم من أمور (
الشرك والضلال .وقوله - تعالى - : ( أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ
يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ ) رد عليهم ، وبيان لبطلان الاعتماد
في الدين على مجرد تقليد الآباء .والهمزة للاستفهام الإنكاري ، والواو
للحال ، والمعنى : أيتبعون ما وجدوا عليه آباءهم والحال أن آباءهم لا
يعقلون شيئاً من أمور الدين الصحيح ، ولا يهتدون إلى طريق الصواب .قال
الآلوسي : وفي الآية دليل على المنع من التقليد لمن قدر على النظر ، وأما
اتباع الغير في الدين بعد العلم - بدليل ما - أنه محق فاتباع في الحقيقة
- لما أنزل الله - تعالى - وليس من التقليد المذموم في شيء وقد قال
سبحانه - ( فاسألوا أَهْلَ الذكر إِن كُنْتُم لاَ تَعْلَمُونَ ) وبعد أن
بين - سبحانه - فساد ما عليه أولئك المشركون المقلدون من غير نظر ولا
استدلال ، أردف ذلك بضرب مثل لهم زيادة في قبيح شأنهم والزراية عليهم
فقال - تعالى - :( وَمَثَلُ الذين كَفَرُواْ كَمَثَلِ الذي يَنْعِقُ بِمَا
( . . . لاَ يَسْمَعُ

ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء صم بكم عمي
فهم لا يعقلون

: كما فسرها الوسيط ( وَمَثَلُ ) الصفة والشأن ، وأصل المثل بمعنى المثل
النظير والشبيه ، ثم أطلق على القول السائر المعروف ، لمماثلة مضربه - وهو
- الذي يضرب مضربه - وهو الذي يضرب فيه - - لمورده - وهو الذي ورد فيه أولا
ولا يكون إلا فيما فيه غرابه . ثم استعير للصفة أو الحال أو القصة ، إذا
كان لها شأن عجيب وفيها غرابة .و ( يَنْعِقُ ) من النعيق وهو الصياح . يقال
نعق الراعي بالغنم ينعق نعقاً ونعاقاً ونعقاناً ، صاح بها وزجرها :
: والدعاء والنداء قيل بمعنى واحد أي أن ثانيهما تأكيد للأول ، وقيل.
الدعاء للقريب والنداء للبعيد .والظاهر أن المراد بهما نوعان من الأصوات
وأولهما : وهو الدعاء معناه : الصياح بالبهائم لتأتي .وثانيهما : وهو.
النداء معناه : الصياح بها لتذهب .قال الإمام الرازي ما ملخصه : وللعلماء

من أهل التأويل في هذه طريقان :أحدهما : تصحيح المعنى بالإضمار في الآية والثاني : إجراء الآية على ظاهرها من غير إضمار .أما الذين أضمروا فذكروا. وجوها :الأول : كأنه قال : ومثل من يدعو الذين كفروا إلى الحق كمثل الذي ينعق ، فصار الناعق الذي هو الراعي بمنزلة الداعي إلى الحق . وهو الرسول صلى الله عليه وسلم وسائر الدعاة إلى الحق ، وصار الكفار بمنزلة الغنم المنعوق بها ، ووجه الشبه أن البهيمة تسمع الصوت ولا تفهم المراد ، وهؤلاء الكفار كانوا يسمعون صوت الرسول صلى الله عليه وسلم وألفاظه ، وما كانوا ينتفعون بها وبمعانيها .الثاني : ومثل الذين كفروا في دعائهم آلهتهم من الأوثان كمثل الناقع في دعائه ما لا يسمع كالغنم وما يجري مجراها من البهائم . فشبه الأصنام - في أنها لا تفهم - بهذه البهائم ، فإذا كان ولا شك أن من دعا بهيمة عد جاهلا ، فمن دعا حجراً أولى بالذم .والفرق بين هذا القول والذي قبله أن هاهنا المحذوف هو المدعو ، وفي القول الذي قبله ، المحذوف هو الداعي .أما إجراء الآية على ظاهرها من غير إضمار فتقديره ومثل الذين كفروا في قلة عقولهم في عباداتهم لهذه الأوثان كمثل الراعي إذا تكلم مع البهائم ، فكما أنه يقضي على ذلك الراعي بقلة العقل فكذا ههنا .ثم قال - رحمه الله - ومثل هذا المثل يزيد السامع معرفة بأحوال الكفار ، ويحقر إلى الكافر نفسه إذا سمع ذلك ، فيكون كسراً لقلبه ، وتضييقاً لصدره ، حيث صيره كالبهيمة فيكون في ذلك نهاية الزجر والردع لمن يسمعه عن أن يسلك مثل طريقة في التقليد " .وقوله - تعالى - ( صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ ) زيادة في تبكيتهم وتقريعهم ، أي : صم عن استماع دعوة الحق . بكم عن إجابة الداعي إليها ، عمى عن آيات صدقها وصحتها . فهم لإعراضهم عن الهادي لهم إلى ما ينفعهم وينجيهم من العذاب صاروا بمنزلة من فقد حواسه ، فأصبح لا يسمع ولا ينطق ولا يبصر .وقوله : ( فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ) وارد مورد النتيجة بعد البرهان ، بجانب كونه توبيخاً لهم ، لأنهم بفقدهم أهم طرق الإدراك وهما السمع والبصر ، وأهم وسيلة للثقافة وهي استطلاع الحقائق من طريق المحاورة والتكلم ، صاروا بعد كل ذلك بمنزلة من فقد عله الاكتسابي ، فأصبح لا يفقه شيئاً؛ لأن العقل الذي يكتسب به الإنسان المعارف والحقائق يستعين استعانة كبرى بهذه الحواس الثلاث .وبعد هذا البيان البليغ لحال الذين يتخذون من دون الله أنداداً ، ولحال الكافرين المقلدين لآبائهم في الضلال بدون تدبر أو - تعقل ، بعد كل ذلك وجهت السورة الكريمة نداء إلى المؤمنين بينت لهم فيه وفيما سيأتي بعده من آيات - كثيراً من التشريعات والآداب والأحكام التي هم في حاجة إليها فقال - تعالى - :( يا أيها الذين آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ . . . )

يا ايها الذين امنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله ان كنتم اياه تعبدون

كما فسرها الوسيط الطيبات من الأطعمة : المستلذات ، ويجوز حملها على ما طاب من الرزق بتحليل الله له .وما رزقناكم : ما أوصلناه إليكم من الرزق - وهو ما ينتفع به .أي : يا من آمنتم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر كلوا من ألوان الطيبات التي أحللناها لكم ، ولا تتعرضوا لما حرمناه عليكم وكان الخطاب هنا للمؤمنين خاصة ، لأنهم أحق بالفهم ، وأجدر بالعلم وأحرى. : بالاهتداء ، وأولى بالتكريم والتشريف .ومفعول ( كُلُواْ ) محذوف ، أي كلوا رزقكم حال كونه بعض طيبات ما رزقناكم .ثم أمرهم - سبحانه - بشكره على هذه الطيبات التي أباحها لهم فقال : ( واشكروا للّهِ إِن كُنْتُمْ إِيّاهُ تَعْبُدُونَ )وهذه الجملة الكريمة معطوفة على جملة ( كُلُواْ ) والشكر : هو الاعتراف بالنعمة مع ضرب من التعظيم لموجدها ، ووضعها في. الموضع الذي أمر به .أي : تمتعوا بنعم الله ، واعترفوا له بها على وجه التعظيم ، بأن تمتثلوا ما أمر به ، وتجتنبوا ما نهى عنه ، إن كنتم تخصونه بالعبادة حقاً ، وتفردونه بالطاعة صدقاً .قال الآلوسي : وجملة ( إِن كُنْتُمْ إِيّاهُ تَعْبُدُونَ ) بمنزلة التعليل لطلب الشكر ، كأنه قيل : " واشكروا له لأنكم تخصونه بالعبادة ، وتخصيصكم إياه بالعبادة ، يدل على أنكم تريدون عبادة كاملة تليق بكبريائه ، وهي لا تتم إلا بالشكر ، لأنه من أجل العبادات " .وجواب الشرط محذوف دل عليه المذكور والتقدير : إن كنتم إياه تعبدون فكلوا واشكروا لله .وقال - تعالى - ( وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنّ الله غَنِيٌّ حَمِيدٌ ) وفي الحديث الصحيح الذي رواه البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر " وروى الإمام مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها ، أو يشرب الشربة فيحمده عليها " .قال صاحب المنار : قال الأستاذ الإمام :لا يفهم هذه الآية حق فهمهما إلا من كان عارفاً بتاريخ الملل عند ظهور الإسلام وقبله ، فإن المشركين وأهل الكتاب كانوا فرقاً وأصنافاً ، منهم من حرم على نفسه أشياء معينة بأجناسها أو أصنافهم كالبحيرة والسائبة عند العرب ، وكبعض الحيوانا عند غيرهم وكان

المذهب الشائع في النصارى أن أقرب ما يتقرب به إلى الله - تعالى - تعذيب النفس ، وحرمانها من الطيبات المستلذة ، واحتقار الجسد ولوازمه ، واعتقاد أنه لا حياة للروح إلا بذلك . . . ثم قال : وقد تفضل الله على هذه الأمة بأن جعلها أمة وسطا تعطى الجسد حقه والروح حقها ، فأحل لنا الطيبات لتتسع دائرة نعمه الجسدية علينا ، وأمرنا بالشكر عليها ليكون لنا منها فوائد روحانية عقلية ، فلم نكن جسمانيين محضاً كالأنعام ، ولا روحانيين خلصاً كالملائكة ، وإنما جعلنا أناسي كملة بهذه الشريعة المعتدلة ، فله الحمد والشكر والثناء الحسن .

انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما اهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه ان الله غفور رحيم

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - ( إِنّمَا حَرّمَ عَلَيْكُمُ الميتة والدم وَلَحْمَ الخنزير وَمَآ أُهِلّ بِهِ لِغَيْرِ الله ) بيان لما حرمه الله - تعالى - علينا من المطاعم رعاية لمنفعتنا .و ( الميتة ) في عرف الشرع : ما مات حتف أنفه ، أو قتل على هيئة غير مشروعة ، فيدخل فيها : المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما عدا عليها السبع ، ويدخل في حكم الميتة ما قطع من جسم الحيوان الحي للحديث الذي أخرجه أبو داود والترمذي عن أبي واقد الليثي ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما قطع من البهيمة وهي حية فهو ميتة " .وكان الأكل من الميتة محرماً ، لفساد جسمها بذبول أجزائه وتعفنها ، ولأنها أصبحت بحالة تعافها الطباع السليمة لقذارتها وضررها .قال الآلوسي : وأضاف - سبحانه - الحرمة إلى العين - مع أن الحرمة - من الأحكام الشرعية التي هي صفات فعل المكلف وليست مما تتعلق بالأعيان إشارة إلى حرمة التصرف في الميتة من جميع الوجوه بأخصر طريق وأوكده ، حيث جعل العين غير قابلة لتعلق فعل المكلف بها إلا ما خصه الدليل كالتصرف بالمدبوغ ، وخرج عن حكم الميتة السمك والجراد ، للحديث الذي أخرجه ابن ماجه والحاكم من حديث ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أحلت لنا ميتتان ودمان : السمك والجراد والكبد والطحال " وللعرف أيضاً ، فإنه إذا ما قال القائل : أكل فلان الميتة لم يسبق الوهم إليهما نعم حرم بعضهم ميتة السمك الطافي وما مات من الجراد بغير سبب ، واستدل بعموم الآية على تحريم الأجنة وتحريم ما لا نفس له سائلة خلافاً لمن أباحه " .والدم المحرم : ما يسيل من الحيوان الحي كثيراً كان أم قليلا وكذلك يحرم من دم الحيوان ما جرى منه بعد تذكيته ، وهو الذي عبر عنه القرآن بالمسفوح في قوله - تعالى - : ( قُل لاّ أَجِدُ فِي مَآ أُوْحِيَ إِلَيّ مُحَرّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مّسْفُوحاً . . . ) والدم المسفوح : هو الدم الجاري المهراق من البهيمة بعد ذبحها .أما الدم المتبقي في أجزاء لحم البهيمة بعد تذكيتها فلا شيء فيه .قال القرطبي : وأما الدم فمحرم ما لم تعم به البلوي ، ومعفو عما تعم به البلوي . والذي تعم به البلوي هو الدم في اللحم وعروقه . . . وقد روت عائشة - رضي الله عنها - قالت : كنا نطبخ البرمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم تعلوها الصفرة من الدم فنأكل ولا ننكره لأن التحفظ من هذا إصر وفيه مشقة ، والإصر والمشقة في الدين موضوع ، وهذا أصل في الشرع .وقد عرف عن بعض العرب في الجاهلية أنهم كانوا يأخذون الدم من البهائم عند ذبحها ، فيضعونه في أمعائها ثم يشوونها بالنار ويأكلونها ويسمون ذلك بالفصد .قال بعضهم : والحكمة في تحريم الدم أنه تستقذره النفوس الكريمة ، ويفضي شربه أو أكله إلى الإضرار بالنفس ، وفضلا عن ذلك فإن تعاطيه يورث ضراوة في الإنسان ، وغلظة في الطباع فيصير كالحيوان المفترس ، وهذا مناف لمقصد الشريعة التي جاءت لإتمام مكارم الأخلاق .وحرمة الخنزير شاملة للحمة وشحمه وجلده . وإنما خص لحمه بالذكر ، لأنه الذي يقصد بالأكل ، ولأن سائر أجزاء الخنزير كالتابعة للحمه . وبعض الفقهاء يرى أنه لا بأس من الانتفاع بشعر الخنزير في الخرازة - أي : خياطة الجلود وغيرها - ، وبعضهم كره ذلك .ومن الحكم في تحريم لحم الخنزير قذاراته ، واشتماله على دودة تضر ببدن آكله وقد أثبت ذلك العلم الحديث .وما يقوله قوم من أن وسائل العلم الحديث قد تقدمت ، وصار في الإمكان التغلب على ما في لحم الخنزير من أضرار هذا القول مردود بأن العلم الحديث قد احتاج إلى ثلاثة عشر قرناً ليكتشف آفة واحدة في لحم الخنزير ، فمن ذا الذي يجزم بأنه ليس هناك آفات أخرى في هذا اللحم لم يعرفها العلم حتى الآن؟إن الشريعة التي سبقت العلم الحديث بأكثر من ثلاثة عشر قرناً أولى بالاتباع ، وأجدر بالطاعة فيما أحلته وحرمته مما يقوله الناس ، لأنها من عند الله العليم بشئون عباده ، الخبير بما ينفعهم وبما يضرهم .وقوله : ( وَمَآ أُهِلّ بِهِ لِغَيْرِ الله ) معطوف على ما قبله من المحرمات . و ( أُهِلّ ) من الإهلال ، وهو رفع الصوت عند رؤية الهلال ، ثم استعمل لرفع الصوت مطلقا ، ومنه إهلال الصبي ، والإهلال بالحج . وكانوا في الجاهلية - إذا أرادوا ذبح ما قربوه إلى آلهتهم سموا عليها أسماءها - كاللات والعزى ورفعوا بها أصواتهم ، وسمى ذلك إهلالا .فالمراد بما أهل به لغير الله : ما

ذبح للأصنام وغيرها ، ومنه ما يذبحه المجوسي للنار . ومنه عند جمهور
العلماء : ذبائح أهل الكتاب إذا ذكر عليها اسم عزير أو عيسى ، لأنها مما
أهل به لغير الله .وذهب جماعة من التابعين إلى تخصيص الغير بالأصنام ، وإلى
حل ذبائح أهل الكتاب مطلقاً ، لعموم قوله - تعالى - في سورة المائدة سوهي
من آخر سورة نزولا : ( وَطَعَامُ الذين أُوتُواْ الكتاب حِلٌّ لَّكُمْ ) أي
ذبائحهم ، وهو - سبحانه - يعلم ما يقولون .وروى الحسن عن علي - رضي الله
عنه - أنه قال : إذا ذكر الكتابي اسم غير الله على ذبيحته وأنت تسمع فلا
تأكل ، فإن غاب عنك فكل ، فإن الله قد أحل ذبائحهم وهو يعلم ما يقولون .وقد
روى البخاري عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : " إن قوماً قالوا للنبي صلى
الله عليه وسلم : إن قوماً يأتوننا باللحم لا ندري أذكر اسم الله عليه أم
لا؟ فقال : سموا عليه أنتم وكلوه . قالت : وكانوا حديثي عهد بكفر " .فكأن
المحرم ليس ما لم يعلم أن اسم الله ذكر عليه ، بل المحرم ما علم أن غير اسم
الله من الأوثان والأنداد ونحو ذلك قد ذكر عليه .فأنت ترى أن تحريم الميتة
والدم ولحم الخنزير كان لاستقذار الأكل من هذه الثلاثة ، أي : لعله ذاتية
فيها ، أما تحريم ما أهل به لغير الله فليس لعلة فيه ، ولكن للتوجه به إلى
غير الله .وهي علة روحية تنافي سلامة القلب ، وطهارة الروح ، ووحدة المتجه
فما ذكر عليه سوى اسم الله من الذبائح ملقح بالنجاسة المادية والقذارة
الحقيقية ، وفي ذلك حض للناس على إخلاص العبادة لله - تعالى - ، وزجدر لهم
عن التقرب إلى أحد سواه .وقوله - تعالى : ( فَمَنِ اضطر غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ
عَادٍ فلا إِثْمَ عَلَيْهِ ) بيان لحالات الضرورة التي يباح للإنسان فيها
. أن يأكل من تلك المحرمات .و ( اضطر ) من الاضطرار وهو الاحتياج إلى الشيء
، يقال : اضطره إلى هذا الشيء . أي : أحوجه وألجأه إليه مأخوذ من الإضرار
وهو حمل الإنسان على أمر يكرهه ، وقهره عليه بقوة يناله بدفعها الهلاك .و
من البغاء وهو الطلب . تقول : بغيته بغاء وبغيا وبغية أي : طلبته ( بَاغٍ )
و ( عَادٍ ) اسم فاعل بمعنى متعد ، تقول . عدا طوره إذا تجاوز حده وتعداه.
إلى غير فهو عاد ، ومنه قوله - تعالى - في شأن قوم لوط ( بَلْ أَنتُمْ
قَوْمٌ عَادُونَ ) و ( غَيْرَ ) منصوب على الحال من الضمير المستتر في
اضطر ) وهي هنا بمعنى النفي ولذا عطف عليها لا .والمعنى : فمن ألجأته ضرورة
إلى أكل شيء من هذه المحرمات : حالة كونه غير باغ : أي غير طالب للمحرم وهو
يجد غيره ، أو غير طالب له لإشباع لذته ، أو غير طالب له على جهة
الاستئثار به على مضطر آخر ، أو غير ساع في فساد ( وَلاَ عَادٍ ) أي : وغير
متجاوز ما يسد الجوع ، ويحفظ الحياة ( فلا إِثْمَ عَلَيْهِ ) أي : فلا إثم
عليه في أكله من هذه المحرمات .وبهذا نرى لونا من ألوان سماحة الإسلام
ويسره في تشريعاته ، التي أقامها الله - تعالى - على رفع الحرج ، ودفع
الضرر ، قال - تعالى - ( وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدين مِنْ حَرَجٍ )
وقال - تعالى - : ( يُرِيدُ الله بِكُمُ اليسر وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ العسر
: وقوله : ( إِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ) تذييل قصد به الامتنان . أي (
إن الله - تعالى - موصوف بهذين الوصفين الجليلين ، ومن كان كذلك كان من
شأنه أن يعفو عن الخطايا ، ويغفر الذنوب ، ويشرع لعباده ما فيه يسر لا ما
فيه عسر .هذا ، وظاهر هذه الآية الكريمة يقتضي أنه ليس هناك محرم من
المطعومات سوى هذه الأربعة ، لكنا نعلم في الشرع أن هناك مطعومات أخرى قد
" حرم على المسلم تناولها كلحوم الحمر الأهلية ، فعلى هذا تكون لفظة " إنما
متروكة الظاهر في العمل - كما قال الإمام الرازي - أي : أن الحصر فيها غير
مقصود وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - في سورة الأنعام :( قُل لاَّ أَجِدُ
فِي مَآ أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً على طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن
يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ
رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ الله بِهِ فَمَنِ اضطر غَيْرَ بَاغٍ
( وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ

ان الذين يكتمون ما انزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا اولئك ما
ياكلون في بطونهم الا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم
عذاب اليم

كما فسرها الوسيط ثم تحدث القرآن عن سوء عاقبة الذين يكتمون ما أمر الله
بإظهاره وتوعدهم بأقسى ألوان العذاب فقال - تعالى - :( إِنَّ الذين
يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ . . . )الكتم والكتمان : إخفاء الشيء قصداً مع
تحقق الداعي إلى إظهاره .وقد تحدث القرآن - قبل هذه الآيات بقليل - في قوله
تعالى - ( إِنَّ الذين يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ البينات والهدى )
عن المصيرر الأليم الذي توعد الله به أولئك الكاتمين لما أمر الله بإظهاره
وأعاد الحديث عن سوء عاقبتهم هنا؛ لكي ينذرهم مرة بعد أخرى حتى يقلعوا عن ،
- هذه الرذيلة التي هي من أبشع الرذائل وأقبحها ، ولكي يغرس في قلوب الناس
وخصوصا العلماء - الشجاعة التي تجعلهم يجهرون بكملة الحق في وجوه الطغاة لا
يخافون لومة لائم ، ويبلغون رسالات الله دون أن يخشوا أحداً سواه ، ويبينون
، للناس ما أمرهم الله ببيانه بطريقة سليمة أمينة خالية من التحريف الكاذب

والتأويل الباطل .قال الإمام الرازي : قال ابن عباس : نزلت هذه الآية في
رؤساء اليهود وأحبارهم . كانوا يأخذون من أتباعهم الهدايا ، فلما بعث الله
- نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم خافوا انطفاع تلك المنافع فكتموا أمره
: عليه السلام - وأمر شرائعه فنزلت هذه الآية .ثم قال الإمام الرازي
والآية وإن نزلت في أهل الكتاب لكنها عامة في حق كل من كتم شيئاً من باب
الدين يجب إظهاره ، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب " .والمراد
بالكتاب ، التوراة ، أو جنس الكتب السماوية التي بشرت النبي صلى الله عليه
وسلم .و ( مِنَ ) في قوله : ( مِنَ الكتاب ) بمعنى في أي : يكتمون ما أنزل
الله في كتابه من صفة النبي صلى الله عليه وسلم ونعته ووقت بعثته .وقيل
للبيان ، وهي حال من العائد على الموصول والتقدير : أنزل الله حال كونه من
الكتاب والعامل فيه أنزل .وقوله : ( وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً )
معطوف على يكتمون .أي : يكتمون ما أنزل الله من الكتاب مما يشهد بصدق النبي
صلى الله عليه وسلم ويأخذون من سفلتهم في مقابل ذلك عرضاً قليلا من أعراض
الدنيا .والضمير في قوله : ( بِهِ ) يعود إلى ما أنزل الله ، أو إلى
الكتمان الذي يدل عليه الفعل ( يَكْتُمُونَ ) أو إلى الكتاب .ووصف هذا
الثمن الذي يأخذونه في مقابل كتمانهم بالقلة ، لأن كل ما يؤخذ في مقابلة
- إخفاء شيء مما أنزله الله فهو قليل حتى ولو كان ملء الأرض ذهباً .وقوله
تعالى - : ( أولئك مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النار ) وما عطف
عليه ، بيان للعذاب المهين الذي أعدلهم بسبب كتمانهم لما أمر الله بإظهاره
وبيعهم دينهم بدنياهم .أي : أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا ما يؤدي بهم إلى
النار وبئس القرار كما قال - تعالى - في حق آكله مال اليتامى : ( إِنَّمَا
يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً )وفي هذه
الجملة الكريمة تمثيل لحالة أولئك الكفار الحاصلة من أكلهم ذلك الثمن
القليل .المفضي بهم إلى النار ، بحالة من يأكل النار نفسها . ووجه الشبه
بين الحالتين : أنه يترتب على أكل ذلك المال الحرام من تقطيع الأمعاء وشدة
الألم ، ما يترب على أكل النار ذاتها ، إلا أن العذاب الحاصل من أكل النار
يقع عندما تمتلئ منها بطونهم ، والعذاب الحاصل من أكل المال الحرام يقع عند
لقاء جزائه وهو الإحراق بالنار .وجيء باسم الإشارة في أول هذه الجملة
لتمييز أولئك الكاتمين أكمل تمييز حتى لا يخفى أمرهم على أحد ، وللتنبيه
على أن ما ذكر بعد اسم الإشارة من عقوبات سببه ما فعلوه قبل ذلك من سيئات
وخص - سبحانه - بالذكر الأكل في بطونهم من بين وجوه انتفاعهم بما يأخذونه.
من مال حرام ، للإشعار بسقوط همتهم ودناءة نفوسهم حتى إنهم ليخفون ما أمر
الله بإظهاره من حقائق وهدايات ، نظير ملء بطونهم .وقوله : ( وَلاَ
يُكَلِّمُهُمُ الله يَوْمَ القيامة ) أي :لا يكلمهم كلاما تطمئن به نفوسهم
وتنشرح له صدورهم وإنما يكلمهم بما يخزيهم ويفجعهم بسبب سوء أعمالهم ،
كقوله - لهم : ( اخسئوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ ) أو أن نفي تكليمة لهم
كتابه عن غضبه عليهم ، لأن من عادة الملوك أنهم عند الغضب يعرضون عن
المضغوب عليه ولا يكلمونه ، كما أنهم عند الرضا يقبلون عليه بالوجه والحديث
وقوله : ( وَلاَ يُزَكِّيهِمْ ) أي : ولا يطهرهم من دنس الكفر والذنوب.
بالمغفرة ، من التزكية بمعنى التطهي . يقال : زكاة الله ، أي : طهره وأصلحه
وتستعمل التزكية بمعنى الثناء ، ومنه زكى الرجل صاحبه إذا وصفه بالأوصاف.
- المحمودة وأثنى عليه . فيكون معنى ( وَلاَ يُزَكِّيهِمْ )لا يثني عليهم
سبحانه - ومن لا يثني عليه الله فهو معذب .فهؤلاء الذين كتموا الحق نظير
شيء قليل من حطام الدنيا ، فقدوا رضا الله عنهم وثناءه عليهم وتطهيره لهم
ثم ختم - سبحانه - الآية ببيان سوء منقلبهم ، وشدة ألم العذاب الذي ينالهم.
فقال - تعالى - ( وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ) أي . موجع مؤلم .قال الآلوسي
- وقد جاءت هذه الأخبار مرتبة بحسب المعنى ، لأنه لما ذكر - سبحانه :
، استراءهم بذلك - الثمن القليل - وكان كناية عن مطاعمهم الخبيثة الفانية
بدأ أولا في الخبر بقوله : ( مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النار
وايتني على كتمانهم واشترائهم بما أنزل الله ثمناً قليلاً ، أنهم شهود . (
زور وأحبار سوء ، آذوا بهذه الشهادة الباطلة رسول الله صلى الله عليه وسلم
وألموه فقوبلوا بقوله - سبحانه - : ( وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ) .

اولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما اصبرهم على النار

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما هم عليه من جهل وغباء وسوء عاقبة
فقال : ( أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة ) .الاشتراء
استبدال السلعة بالثمن . والمعنى : أولئك الذين تقدم الحديث عنهم وهم :
الكاتمون لما أنزل الله قد بلغ بهم الغباء وانطماس البصيرة أنهم باعوا
الهدى والإيمان ليأخذوا في مقابلهما الكفر والضلال ، وباعوا ما يوصلهم إلى
مغفرة الله ورحمته ليأخذوا في مقابل ذلك عذابه ونقمته ، فما أخسرها من صفقة
وما أغبى هؤلاء الكاتمين الذين فعلوا ذلك نظير عرض من أعراض الدنيا ،
الفانية ، فخسروا بما فعلوه دنياهم وآخرتهم .وقوله - تعالى - : ( فَمَآ

أَصْبَرَهُمْ عَلَى النار ) معناه : فما أدومهم على عمل المعاصي التي تؤدي بهم إلى النار حتى لكأنهم بإصرارم على عملهم يجلبون النار إليهم جلباً . ويقصدون إليها قصداص بدون مبالاة أو تفكر .والمراد من التعجب في هذه الآية وأشباهها ، الإعلام بحالهم وأنهن ينبغي أن يتعجب منها كل أحد ، وذلك لأن المعنى الظاهر من الجملةالتعجب من صبر أولئك الكفارعلى النار ، والتعجب - انفعال - يحدث في النفس عند الشعور بأمر يجهل سببه وهو غير جائز في حقه تعالى - لأنه لا يخفى عليه شيء ، ومن هنا قال العلماء : إن فعل التعجب في كلام الله المراد منه التعجب ، أي : جعل الغير يتعجب من ذلك الفعل ، وهو هنا صبرهم على النار ، فيكون المقصود تعجيب المؤمنين من جراءة أولئك الكاتمين لما أنزل الله على اقترافهم ما يلقى بهم في النار ، شأن الواثق من صبره على عذابها المقيم .وشبيه بهذا الأسلوب في التعجب - كما أشار صاحب الكشاف - أن تقول لمن يتعرض لما يوجب غضب السلطان : ما أصبرك على القيد والسجن فأنت لا تريد التعجب من صبره ، وإنما تريد إفهامه أن التعرض لما يغضبه لا يقع إلا ممن شأنه الصبر على القيد والسجن ، والمقصود بذلك تحذيره من التمادي فيما يوجب غضب ذلك السلطان .قال الجمل ما ملخصه وما في قوله ( فَمَآ أَصْبَرَهُمْ ) - وفي مثل هذا التركيب - فيها أوجه : .أحدها : وهو قول سيبويه والجمهور أنها نكرة تامة غير موصولة ولا موصوفة وأن معناها : التعجب فإذا قلت . ما أحسن زيداً ، فمعناه : شيء صير زيداً حسنا .والثاني وإليه ذهب الفراء : أنها استفهامية صحبها معنى التعجب ، نحو : " كيف تكفرون بالله " .والثالث : ويعزى للأخفش : أنها موصولة .والرابع ويعزى له أيضاً : أنها نكرة موصوفة وهي على هذه الأقوال الأربعة في محل رفع بالابتداء وخبرها على القولين الأولين الجملة الفعلية بعدها ، وعلى قولى الأخفش يكون الخبر محذوفاً .

ذلك بان الله نزل الكتاب بالحق وان الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن سبب استحقاقهم للعذاب الأليم ، هو ارتكابهم لما نهى الله عنه عن قصد وسوء نية فقال : ( ذَلِكَ بِأَنَّ الله نَزَّلَ الكتاب بالحق ) .أي : ذلك العذاب الأليم حل بهم بسبب أن الله أنزل التوارة مصحوبة ببيان الحق الذي من جملته التبشير ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم فكتموا هم هذا الحق وامتدت إليه أيديهم الأثيمة بالتحريف والتأويل إيثاراً لمطامع دنيوية على هدى الله الذي هو أساس كل سعادة .فاسم الإشارة ( ذَلِكَ ) يعود على مجموع ما سبق بيانه من أكل النار ، وعدم تكليم الله إياهم ، وعدم تزكيتهم . . إلخ .والباء في قوله : ( بِأَنَّ ) للسببية ، والمراد بالكتاب : التوراة .ثم ختم - سبحانه - الحديث عن هؤلاء الكاتمين للحق بقوله : ( وَإِنَّ الذين اختلفوا فِي الكتاب لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ) .اختلفوا : خلف بعضهم بعضا ، وأصله من أختلاف الطريق ، تقول اختلفوا في الطريق .أي : جاء بعضهم من جهة والبعض الآخر من جهة أو جهات ، أخرى ، ثم استعمل في الاختلاف في المذاهب والاعتقاد .والكتاب : التوارة أو التوراة والإنجيل ، إذ يصح أن يراد جنس الكتاب والمقام يقتضي صرفه إلى هذين الكتابين ، وقد أبعد في التأويل من قال بأن المراد به القرآن لأن الحديث عن أهل الكتاب الذين كتموا ما في كتبهم من بشارات بالرسول صلى الله عليه وسلم واختلافهم في الكتاب من مظاهره : إيمانهم ببعضه وكفرهم بالبعض الآخر ، وتحريفه عن مواضعه وتأويله على غير ما يراد منه .والشقاق : الخلاف كأن كل واحد من المختلفين في شق غير الشق الذي يكون فيه الآخر ، وإذا وصف ، الخلاف بالبعد فهم منه أنه بعيد عن الحق ، يقال : قال فلان قولا بعيداً أي بعيداً من الصواب .والمعنى : ذلك العذاب الأليم حل بأولئك الأشقياء بسبب كتمانهم لما أنزله الله في كتبه فأظهروا منها ما يناسب أهواءهم وأخفوا ما لا يناسبها - لفي بعد شديد عن الحق والصواب :وبذلك تكون الآيات الكريمة قد ذكرت ألوانا من العقوبات الأليمة التي توعد الله بها كل من يكتم أمراً نهى الله عن كتمانه ، لكي يقلع كل من يتأنى له الخطاب عن هذه الرذيلة وفاء للعهد الذي أخذه الله على الناس بصفة عامة ، وعلى أولى العلم بصفة خاصة .

ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من امن بالله واليوم الاخر والملائكة والكتاب والنبيين واتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب واقام الصلاة واتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين في الباساء والضراء وحين الباس اولئك الذين صدقوا واولئك هم المتقون

كما فسرها الوسيط ثم ساق القرآن الكريم آية جامعة لأنواع البر ، ووجوه الخير ، تهدي المتمسك بها إلى السعادة الدنيوية والأخروية فقال - تعالى - لَّيْسَ البر أن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ المشرق والمغرب ولكن ): البر . . . )( البر ) : اسم جامع لكل خير ، ولكل طاعة وقربة يتقرب بها العبد إلى خالقه - عز وجل- .قال الراغب : " البر - بفتح الباء - خلاف البحر

وتصور منه التوسع فاشتق منه البر - بكسر الباء - بمعنى التوسع في فعل ، الخير ، وينسب ذلك إلى الله - تعالى - تارة نحو : ( إِنَّهُ هُوَ البر الرحيم ) وإلى البعد تارة فيقال : بر العبد ربه ، أي توسع في طاعته فالبر : من الله الثواب ، ومن العبد الطاعة " .وتولية الوجوه قبل الشيء معناه التوجه إليه بجعل الوجه متجها إلى جهته فلفظ " قيل " بمعنى جهة وهو منصوب على الظرفية المكانية .( المشرق ) : الجهة التي تشرق منها الشمس ، والمغرب الجهة التي تغرب فيها .قال الإمام الرازي : اختلف العلماء في أن هذا : الخطاب عام أو خاص . فقال بعضهم : أراد بقوله : ( لَّيْسَ البر ) أهل الكتاب لما شددوا في الثبات على التوجه بنحو بيت المقدس فقال - تعالى - ليس البر هذه الطريقة ولكن البر من آمن بالله . وقال بعضهم : بل المراد مخاطبته المؤمنين لما ظنوا أنهم قد نالوا البغية بالتوجه إلى الكعبة من حيث كانوا يحبون ذلك فخوطبوا بهذا الكلام وقال بعضهم : بل هو خطاب للكل ، لأن عند نسخ القبلة وتحويلها حصل من المؤمنين الاغتباط بهذه القبلة ، وحصل منهم التشدد - في تلك القبلة حتى ظنوا أنه الفرض الأكبر في الدين ، فبعثهم الله - تعالى بهذا الخطاب على استيفاء جميع العبادات والطاعات ، وبين أن البر ليس بأن تولوا وجوهكم شرقاً وغرباً ، وإنما البر . كيت وكيت . وهذا أشبه بالظاهر إذ ، لا تخيصيص فيه ، فكأنه - تعالى - قال : ليس البر المطلوب هو أمر القبلة بل البر المطلوب هو هذه الخصال التي عدها " .وهذا القول الثالث - الذي يرى أصحابه أن الخطاب للكل ، والذي قال عنه الإمام الرازي : هذا أشبه بالظاهر - هذا القول ، هو الذي تسكن إليه النفس ، لأنه لا يوجد نص صحيح يخصص الخطاب لطائفة معينة من الناس ولأن المقصود من الآية الكريمة إنما هو إفهام الناس في كل زمان ومكان أن مجرد تولية الوجه إلى قبلة مخصوصة ليس هو البر الكامل الذي يعنيه الإسلام ، وإنما البر الكامل يتأتى في استجابة الإنسان لتلك الخصال الشريفة التي اشتملت عليها الآية ، تلك الخصال التي تجعل المسمسكين بها على صلة طيبة بخالقهم وعلى صلة طيبة بغيرهم ، - كما سنبين ذلك عند تعليقنا على هذه الآية الكريمة- .والمعنى : ليس البر - الذي هو كل طاعة يتقرب بها الإنسان إلى خالقه - في تولية الوجه عند الصلاة إلى جهة المشرق والمغرب ، وإنما البر الذي يجب الاهتمام به لأنه يؤدي إلى السعادة والفلاح - يكون في الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وفي انفاق المال في وجوه الخير ، وفي اتباع ما ذكرته الآية الكريمة من خصال جليلة .هذا وقد قرأ حمزة وحفص عن عاصم ( لَّيْسَ البر ) بنصب البر على أنه خبر ليس ، واسمها قوله - تعالى - : ( أَن تُوَلُّواْ ) أي : ليس توليتكم وجهوهكم قبل المشرق والمغرب البر كله .وقرأ الباقون ( لَّيْسَ البر ) برفع البر على أنه اسم ليس ، وخبرها قوله - تعالى - : ( أَن تُوَلُّواْ ) ( أي ليس البر كله توليتكم وجوهكم قبل المشرق والمغرب .قال الطبرسي : وكلا المذهبين حسن ، لأن كل واحد من اسم لس وخبرها معرفة ، فإذا اجتمعا في التعريف تكافآ في كون أحدهما اسما والآخر خبراً كما تتكافأ النكرتان وقوله - تعالى - ( ولكن البر مَنْ آمَنَ بالله واليوم الآخر والملائكة. ، والكتاب والنبيين ) إلخ بيان لما هو البر الذي يجب أن تتجه إليه الأفكار وتستجيب له النفوس .و ( ولكن ) حرف استدراك ، البر : اسمها . وقوله ( مَنْ آمَنَ ) وقع في اللفظ موقع الخبر عن قوله ( البر ) والخبر في المعنى لفظ : مقدر مضاف إلى من آمن ، يفهم من سياق الجملة ، والمعنى مع ملاحظة المقدر ولكن البر بر من آمن بالله .وهذا اللون من الإيجاز الذي حذف فيه المضاف : معهود في كلام البلغاء إذ تجدهم يقولون السخاء حاتم ، والشعر زهير .وقيل إن البر هنا بمعنى البار فجعل المصدر في موضع اسم الفاعل ، كما يقال : ماء غور أي : غائر ، ورجل صوم أي : صائم .وقيل : إن المحذوف هو لفظ مضاف إلى البر : أي : ولكن ذا البر من آمن بالله .وقد إبتدأت الآية حديثها عن خصال : البر بالإيمان بالله ، لأنه أساس كل بر . وأصل كل خير ، والإيمان بالله هو التصديق بأنه هو الواحد الفرد الصمد ، الذي لا تعنو الوجوه إلا له ، ولا تتجه القلوب بالعبادة إلا إليه ، ومتى رسخ هذا الإيمان في النفوس ارتفع بها إلى مكانة التكريم التي أرادها الله - تعالى - لبني آدم وصانها عن الذلة والاستكانة وأعطاها بنراس الهداية والسداد في كل نواحي الحياة .ثم ذكرت الإيمان باليوم الآخر ، وهو التصديق بالبعث وما يقع بعده من حساب وثواب وعقاب على الوجه الذي وصفته نصوص الشريعة بأجلى بيان .والإيمان باليوم الآخر من ثماره أنه يغرس في النفوس محبة الخير ، والحرص على إسداء المعروف وينفرها من اقتراف الشرور وارتكاب الآثام .ولقد تحدث القرآن عن ، الإيمان بالله واليوم الآخر في عشرات الآيات ، وأقام الأدلة الساطعة والبراهين القاطعة على وحدانية الله وعلى أنه هو صاحب الكمال المطلق ، كما أقام الحجج والبراهين على أن البعث حق وضرب الأمثال لذلك ، وسفه عقول المنكرين له .ثم ذكرت الإيمان بالملائكة والملائكة : أجسام لطيفة نورانية قادرون على التشكل في صورة حسنة مختلفة ، وصفهم القرآن بأنهم( لاَّ ، يَعْصُونَ الله مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ) ووجه دخول ، التصديق بهم في حقيقة الإيمان ، أن الله وسطهم في إبلاغ وحيه لأنبيائه وبين ذلك في كتابه ، وتحدث الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم عنهم في كثير

من أحاديثه ، فمن لم يؤمن بالملائكة على هذا الوجه الذي جاءت به الشريعة
فقد أنكر الوحي ، إذ الإيمان بهم أصل للإيمان بالوحي ، فيلزم من إنكارهم
إنكار الوحي ، وهو يستلزم إنكار النبوة وإنكار الدار الآخرة .ثم ذكرت الآية
الإيمان بالكتاب . والمراد به القرآن لأنه المقصود بالدعوة ، ولأنه هو
الأمين على الكتب قبله ، فما وافقه منها كان حقاً وما خالفه كان باطلا
والإيمان به يستلزم الإيمان بجميع الكتب المنزلة من عند الله على.
أنبيائه ، لأنه هو الذي أخبرنا بذلك وأمرنا بأن نؤمن بالله
وملائكته وكتبه ورسله .ثم ذكرت الإيمان بالنبيين ، أي : التصديق بأنهم
رجال اصطفاهم الله - تعالى - لتلقي هدايته وكتبه وتبليغها للناس بصدق
وأمانة وسلامة بصيرة .والنبيون الذين يجب الإيمان بهم : كل من ثبتت نبوته
عن طريق القرآن الكريم أو الحديث الصحيح ، وكل من أنكر نبوة نبي قد ثبت
نبوته فقد خرج عن طريق الإيمان .ولقد قام الدليل القاطع على أن محمداً صلى
الله عليه وسلم هو خاتم النبيين والمرسلين ، وكل من ادعى غير ذلك فهو من
الضالين المضلين .وقد جمعت هذه الأمور الخمسة التي ذكرتها الآية كل ما يلزم
أن يصدق به الإنسان ، ليك يكون ذا عقيدة سليمة ، تصل به إلى الفلاح
) . والسعادة .ثم ذكرت الآية بعد بيان أصول الإيمان الأعمال الصالحة فقالت
وَآتَى المال على حُبِّهِ ذَوِي القربى واليتَامى والمساكين وابن السبيل
والسآئلين وَفِي الرقاب ) .وهذه الجملة معطوفة على قوله - تعالى - : ( مَنْ
: آمَنَ بالله ) .والضمير في قوله ( على حُبِّهِ ) يعود إلى المال ، أي
أعطى المال وبذله عن طيب خاطره حالة كونه محباً له راغباً فيه . لأن
، الإعطاء والبذل في هذه الحالة يدل على قوة الإيمان ، وصفاء الوجدان
ويسمو بصاحبه إلى أعلا الدرجات . قال - تعالى - : ( لَن تَنَالُواْ البر
حتى تُنْفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ) وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم أن
أفضل الصدقة ما كان في حال الصحة ، لأن الإنسان في هذه الحالة يكون مظنة
- الحاجة إلى المال فقد أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة - رضي الله عنه
قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يا رسول الله ، أي
الصدقة أعظم أجراً؟ قال : " أن تصدق وأنت صحيح شحيح ، تخشى الفقر وتأمل
الغنى ، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت : لفلان كذا وكذا وقد كان لفلان
وقيل الضمير يعود إلى الله - عز وجل - أي : يعطون المال على حب الله. " "
) - وطلباً لمرضاته .وقيل يعود إلى الإيتاء الذي دل عليه قوله - تعالى
وَآتَى المال ) فكأنه قال : يعطيى ويحب الإعطاء رغبة في ثواب الله .والمراد
بذوي القربى : أقرباء المعطى للمال ، والمعنى : وأعطاي المال مع محبته لهذا
المال لأقاربه المحتاجين لأنهم أولى بالمعروف ، ولأن إعطاءهم إحسان وصلة
رحم ، ولذلك جاء ذكرهم في الآية مقدماً على بقية الأصناف التي تستحق العطف
والإحسان .روى الإمام أحمد والترمذي والنسائي وغيرهم عن سليمان بن عامر
. قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الصدقة على المسكين صدقة
وعلى ذي الرحم اثنتان : صدقة وصلة " .( واليتامى ) : جمع يتيم ، وهو من فقد
أباه بالموت ولم يبلغ الحلم . وهؤلاء اليتامى في حاجة إلى الإحسان إليهم
). بعد ذوي القربى متى كانوا محتاجين ، لشدة عجزهم عن كسب ما يسد حاجتهم
والمساكين ) جمع مسكين ، وهو من لا يملك شيئاً من المال ، أو يملك ما لا
يكفي حاجاته وهذا النوع من الناس في حاجة إلى العناية والرعاية؛ لأنهم في
الغالب يفضلون الاكتفاء بالقليل على إراقة وجوههم بالسؤال . وفي الصحيحين
عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ليس المسكين الذي
يطوف على الناس فترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان . قالوا : فما
المسكين يا رسول الله؟ قال الذي لا يجد غني يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه
. ولا يسأل الناس شيئاً " .( وابن السبيل ) : هو المسافر المنقطع عن ماله ،
، وسمى بذلك - كما قال الآلوسي - لملازمته السبيل - أي الطريق - في السفر
أو لأن الطريق تبرزة فكأنها ولدته وكأن إفراده لانفراده عن أحبابه ووطنه
فهو أبدا يتوق إلى الجمع ، ويشتاق إلى الربع ، والكريم يحن إلى وطنه حنين
الشارف إلى عطنه .وهذا النوع من الناس في حاجة إلى المساعدة والمعاونة حتى
يستطيع الوصول إلى بلده ، وفي هذا تنبيه إلى المسلمين وإن اختلفت أوطانهم
). ينبغي أن يكونوا في التعاطف والتعاون على متاعب الحياة كالأسرة الواحدة
والسآئلين ) : جمع سائل ، وهو الطالب للإحسان والمعروف . ويحمل حاله على
أنه في حاجة إلى المعاونة ، لأن السؤال علامةَ الحاجة غالباً .والرقاب : جمع
ربغة وهي في الأصل العنق ، وتطلق على البدن كله كما تطلق العين على الجاسوس
فصح حمل الرقاب على الأسارى والأرقاء .وقوله : ( وَفِي الرقاب ) متعلق .
، بآتي ، أي : آتى المال على حبه في تخليص الأسرى من أيدي العدو بفدائهم
وتخليص الأرقاء بشرائهم وإعتاقهم ، وهذه الأوصناف الستة التي ذكرت في تلك
الآية الكريمة ( وَآتَى المال على حُبِّهِ . . ) إلخ .ليس المقصود من ذكرها
الاستيعاب والحصر ، ولكنها ذكرت كأمثلة وخصت بالذكر لأنها أحوج من غيرها
إلى العون والمساعدة .والذي يراجع القرآن الكريم يجده قد عني عناية كبرى
بالفقراء والمساكين وجميع أصناف المحتاجين حتى لا تكاد سورة من سوررة تخلو
من الحث على الإنفاق عليهم ، وبذل العون في مساعدتهم - وأيضاً - هناك
عشرات الأحاديث في الحض على مد يد العون إلى ذوي القرابة والمعسرين ، وذلك

لأن المجتمعات تحيا وتنهض بالتراحم ، وتذل وتشقى بالتقاطع والتدابر بين أبنائها .ثم ذكرت الآية ألواناً أخرى من البر تدل على قوة الإيمان وحسن الخلق فقالت : ( وَأَقَامَ الصلاة وَآتَى الزكاة ) وإقامة الصلاة أداؤها في مواقيتها مستوفية لأركانها وسننها وخشوعها على الوجه الشرعي الذي أمر الله به ، والمراد بالزكاة هنا ، الزكاة المفروضة على الوجه الذي فصلته السنة المطهرة . وإيتاؤها : يكون بإعطائها لمستحقيها من الفقراء والمساكين وغيرهم ممن ذكرهم الله في قوله - تعالى - : ( إِنَّمَا الصدقات لِلْفُقَرَآءِ والمساكين والعاملين عَلَيْهَا والمؤلفة قُلُوبُهُمْ وَفِي الرقاب والغارمين وَفِي سَبِيلِ الله وابن السبيل فَرِيضَةً مِّنَ الله والله عَلِيمٌ حَكِيمٌ ) وفي ذكر الزكاة المفروضة بعد ذكر إيتاء المال على حبه لذوي القربى واليتامى . . إلخ دليل على أن في الأموال حقوقاً لذوي الحاجات سوى الزكاة ، وذلك لأنه من المعروف بين أهل العلم أن الحاجة إذا بلغت بطائفة من أبناء الأمة حد الضرورة ، يجب على الأغنياء منها أن يسعو في سدها ولو مما زاد على قدر الزكاة .والأغنياء الذين يكتفون بدفع الزكاة ، ولا يمدون يد المساعدة لسد حاجة المحتاجين ، وتفريج كرب المكروبين ، ودفع ضرورة البائسين ، ليسوا على البر الذي يريده الله من عباده المتقين .ومسألة " هل في المال حق سوى الزكاة " من المسائل التي تناولها بعض العلماء بالشرح والتفصيل .وقوله : ( والموفون بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ ) معطوف على قوله ( مَنْ آمَنَ ) فإنه في قوة قولك ، ومن أوفوا بعهدهم ، وأوثرت صيغة اسم الفاعل للدلالة على وجوب استمرار الوفاء .الوفاء بالعهد يشمل ما عاهد المؤمنمون عليه الله من الإعان لكل ما جاء به الدين ، ويشمل ما يعاهد به الناس بعضهم بعضاً مما لا يحل حراماً ولا يحرم حلالاً .والموفون بعهدهم هم الذين إذا وعدوا أنجزوا ، وإذا حلفوا بروا في أيمانهم ، وإذا قالوا صدقوا في قولهم ، وإذا ائتمنوا أدوا الأمانة ، وقد وعدهم الله على ذلك بأجزل الثواب ، وأعلى الدرجات .وفي قوله - تعالى - : ( إِذَا عَاهَدُواْ ) إشارة إلى أن إيفاءهم بالعهد لا يتأخر عن وقت حصول العهد .ثم ختم - سبحانه - خصال البر بقوله : ( والصابرين فِي البأسآء والضراء وَحِينَ البأس ) .البأساء من البؤس ، وهي ما يصيب الناس في الأموال كالفقر والاحتياج . يقال : بئس يبأس بؤساً وبأساً أي اشتدت حاجته .والضراء من الضر ، وهي ما يصيبهم في أنفسهم كالأمراض والأسقام يقال : ضره وأضره وضاره وضراً ، ضد نفع : والألف في البأساء والضراء للتأنيث .وحين البأس ، أي : ووقت القتال في سبيل الله ) : لإعلاء كلمته ، يقال : بؤس ببؤس بأسا فهو بئيس ، أي : شجاع شديد .وقوله والصابرين ) معطوف في المعنى على ( مَنْ آمَنَ ) كقوله ( والموفون ) إلا ، أنه جاء منصوبا على المدح بتقدير - أخص أو أمدح - وغير سبكه عما قبله تنبيها على فضيلة الصبر ومزيته على غيره من الفضائل حتى لكأنه ليس من جنس ، ما سبقه من فضائل ، وهذا الأسلوب يسمى عند علماء اللغة العربية بالقطع وهو أبلغ من الإتباع . ولا ريب في أن صفة الصبر على الشدائد والآلام وحين القتال في سبيل الله ، جديرة بأنه ينبه لمزيد فضلها ، إذ هي أصل لكثير من ، المكارم كالعفاف عما في أيدي الناس ، والتسليم للقضاء الذي لا مرد له والإقدام الذي يحمي به الدين وتسلم به النفوس والأموال والأعراض :وليس الصبر هو الخضوع والاستكانة والاستسلام من غير مقاومة ولا عمل وإنما الصبر جهاد ومحاولة للتغلب على المصاعب ، ومع الاحتفاظ برباطة الجأش والثقة بحسن العاقبة .وقد خصت الآية ثلاثة حالات بالصبر؛ لأن هذه الحالات هي أبرز الأشياء التي يظهر فيها هلع الهالعين وجزع الجازعين ، كما يتميز فيها أصحاب النفوس القوية المطمئنة من غيرهم .وجاءت كلمة " حين " في قوله : ( وَحِينَ البأس ) مشيرة إلى أن مزية الصبر في القتال إنما تظهر حين يلتقى الجمعان وتدور رحى الحرب ، لأن بعض الناس قد يكون قوياً في بدنه ، وقد يحشر نفسه في زمرة الأبطال المقاتلين ، ولكنه عندما يرى الأعناق تتساقط من حوله تخور قواه ، ويلوذ بالفرار ، أو يستسلم للعدو . وفي هذه الحالة تسلب عنه صفة الصابرين حين البأس . وتحق عليه صفة الضعفاء الجبناء .وقد جاءت أنواع الصبر في الآية على وجه الترقي من الشديد إلى الأشد ، وذلك لأن الصبر على المرض أصعب من الصبر على الفقر ، والصبر حين البأس أصعب من الصبر على المرض . ثم ختمت الآية حديثها عن هؤلاء الجامعين لهذه الخصال بقوله تعالى : ( أولئك الذين صَدَقُواْ وأولئك هُمُ المتقون ) .أولئك اسم إشارة للجمع ، وقد أشير به إلى من تقدم ذكرهم من الجامعين لخصال البر . والصدق توصف به الأقوال - المطابقة للواقع ، وتوصف به الأعمال الواقعة على الوجه الذي يرضى الله تعالى- .والمتقون من الاتقاء وهو الحذر ، ويطلق المتقى في كلام الشارع على : الإنسان الذي صان نفسه عن كل ما يغضب الله ، وامتثل لأوامره ونواهيه .أي أولئك الذين تقدم ذكرهم من المحرزين لخصال البر هم الصادقون في إيمانهم وفي كل أحوالهم ، وأولئك هم المتقون لعذاب الله - تعالى - بسبب امتثالهم لأوامره ، واجتنابهم لما نهى عنه .واسم الإشارة ( أولئك ) جيء به لإحضارهم في أذهان المخاطبين وهم متصفون بتلك المناقب الجليلة .وفي تكرير الإشارة ، زيادة تنويه بشأنهم وفضلهم . وجاء الإخبار عنهنم بأنهم الصادقون المتقون لتشيرهم بأنهم قد بلغوا بإحرازهم لتلك الخصال السابقة الغاية التي يطمح

إليها أرباب البصائر المتنيرة ، والنفوس المتقيمة ، والقلوب السليمة ، وهي مقام الصدق والتقوى الذي يرتفع بصاحبه إلى السعادة في الدنيا ، والنعيم الدائم في الآخرة .هذا وقد اشتملت هذه الآية الكريمة على خمسة عشر نوعاً من - أنواع البر الذي يهدي إلى الحياة السعيدة في الدنيا ، وإلى رضا الله تعالى - في الآخرة ، وذلك لأنها قد أرشدت إلى أن البر أنواع ثلاثة جامعة لكل خير : بر في العقيدة ، وبر في العمل ، وبر في الخلق .أما بر العقيدة فقد بينته أكمل بيان في قوله - تعالى - : ( وَآتَى المال على حُبِّهِ ذَوِي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسآئلين وَفِي الرقاب ) .ولا شك ، أن إنفاق المال في تلك الوجوه من شأنه أن يسعد الأفراد والجماعات والأمم ويكون مظهراً من أفضل مظاهر العمل الصالح الذي يرضي الله - تعالى - .وأما بر الخلق فقد ذكرته بأحكم عبارة في قوله - تعالى - : ( وَأَقَامَ الصلاة وَآتَى الزكاة والموفون بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ والصابرين فِي البأسآء والضراء وَحِينَ البأس ) .وذلك لأن التمسك بهذه الفضائل . أداء الصلاة وإيتاء الزكاة . والوفاء بالعهود ، والتذرع بالصبر - يدل على صفاء الإيمان وطهارة الوجدان وحسن الخلق وكمال الاستقامة .وهكذا تجمع آية واحدة من كتاب الله بين بر العقيدة وبر العمل وبر الخلق ، وتربط بين الجميع برباط واحد لا ينفصم ، ونضع على هذا كله عنواناً واحداً " البر " وتمدح من استجمع ، أنواعه بالصدق والتقوى .فلله هذا الاستقراء البديع ، وذلك التوجيه السديد الذي يشهد أن هذا القرآن من عند الله ( وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ الله لَوَجَدُواْ فِيهِ اختلافا كَثِيراً ) وبعد أن بين - سبحانه - أن البر الجامع لألوان الخير يتجلى في الإيمان بالله واليوم الآخر . . وفي بذل المال في وجوه الخير ، وفي المحافظة على فرائضة - سبحانه - وفي غير ذلك من أنواع الطاعات التي ذكرتها الآية السابقة بعد كل

يا ايها الذين امنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والانثى بالانثى فمن عفي له من اخيه شيء فاتباع بالمعروف واداء اليه باحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب اليم

كما فسرها الوسيط ذلك شرع - سبحانه - في بيان بعض الأحكام العملية الجليلة التي لا يستغني عنها الناس في حياتهم ، وبدأ هذه الأحكام بالحديث عن حفظ الدماء لماله من منزلة ذات شأن في إصلاح العالم - فقال - تعالى - :( ياأيها الذين آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ القصاص . . . )( كُتِبَ ) من الكتب ، وهو في الأصل ضم أديم إلى أديم بالخياطة . وتعورف في ضم الحروف بعضها إلى بعض ، بالخط ، وأطلق على المضموم في اللفظ وإن لم يكتب بالخط ، ومنه الكتابة ، على الإيجاب والفرض؛ لأن الشأن يما وجب ويفرض أن يراد ثم يقال ثم يكتب ومنه ( كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصيام ) أي : فرض عليكم .( القصاص ) : العقوبة بالمثل من قتل أو جرح . وهو - كما قال القرطبي - مأخوذ من قص الأثر وهو اتباعه ومنه القاص لأنه يتبع الآثار والأخبار وقص الشعر اتباع أثره ، فكأن ) القاتل سلك طريقاً من القتل فقص أثره فيها ومشى على سبيله في ذلك ، ومنه فارتدا على آثَارِهِمَا قَصَصاً ) وقيل : القص القطع . يقال : قصصت ما بينهما . ومنه أخذ القصاص؛ لأنه يجرحه مثل جرحه أو يقتله به . يقال أقص الحاكم فلاناً من فلان به فأمثله فامتثل منه ، أي : اقتص منه " .فمادة القصاص تدل على التساوي والتماثل والتتبع .والقتلى جمع قتيل ، والقتيل من يقتله غيره من الناس .والمعنى : يأيها الذين آمنوا فرض عليكم وأوجب القصاص بسبب القتلى . بأن تقتلوا القاتل عقوبة له على جريمته مع مراعاة المساواة التي قررها الشارع الحكيم ، فلا يجوز لكم أن تقتلوا غير القاتل ، كما لا يجوز لكم أن تسرفوا في القتل بأن تقتلوا القاتل وغيره من أقاربه .فمعنى . القصاص هنا أن يقتل القاتل لأنه في نظر الشريعة مساو للمقتول فيقتل به . وقد بين العلماء أن القصاص يفرض عند القتل الواقع على وجه التعمد والتعدي وعند مطالبة أولياء القتيل بالقود - أي القصاص - من القاتل .ولفظ " في " في قوله - تعالى - ( فِي القتلى ) للسببية ، أي : فرض عليكم القصاص بسبب القتلى . كما في قوله صلى الله عليه وسلم " دخلت امرأة النار في هرة " أي بسببها .وصدرت الآية بخطاب ( الذين آمَنُواْ ) تقوية لداعية إنفاذ حكم القصاص الذي شرعه الخبير بنفوس خلقه ، لأن من شأن الإيمان الصادق أن يحمل صاحبه على تنفيذ شريعة الله التي شرعها لإقامة الأمان والاطمئنان بين الناس - ولسد أبواب الفتن التي تحل عرا الألفة والمودة بينهم .وقد وجه - سبحانه ، الخطاب إلى المؤمنين كافة مع أن تنفيذ الحدود من حق الحاكم لإشعارهم بأن عليهم جانباً من التبعة إذا أهمل الحكام تنفيذ هذه العقوبات التي شرعها الله .وإذا لم يقيموها بالطريقة التي بينتها شريعته ، ولإشعارهم كذلك بأنهم مطالبون بعمل ما يساعد الحكام على تنفيذ الحدود بالعدل . وذلك بتسليم الجاني إلى المكلفين بحفظ الأمن ، وأداء الشهادة عليه بالحق والعدل ، وغير ذلك من وجوه المساعدة .وقوله - تعالى - ( الحر بِالْحُرِّ والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى ) بيان لمعنى المساواة في القتل المشار إليها بلفظ القصاص فالجملة تتمة لمعنى الجملة السابقة ، ومفادها أنه لا يقتل في مقابل المقتول

سوى قاتله ، لأن قتل غير الجاني ليس بقصاص بل هو اعتداء يؤدى إلى فتنة في
الأرض وفساد كبير .وقد يفهم من مقابلة ( الحر بِالْحُرِّ والعبد بالعبد
والأنثى بالأنثى ) أنه لا يقتل صنف بصنف آخر ، وهذا الفهم غير مراد على
إطلاقه ، فقد جرى العمل منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على قتل
، الرجل بالمرأة .قال القرطبي : " أجمع العلماء على قتل الرجل بالمرأة
والمرأة بالرجل " .والخلاف فيث قتل الحر بالعبد . فبعض العلماء يرى قتل
الحر بالعبد ، وبعضهم لا يرى ذلك ، ولكل فريق أدلته التي يمكن الرجوع إليها
في كتب الفقه .والغرض الذي سيقت من أجله الآية الكريمة ، إنما هو وجوب
تنفيذ القصاص بالعدل . والمساواة وإبطال ما كان شائعاً في الجاهلية من أن
القبيلة القوية كانت إذا قتلت منها القبيلة الضعيفة شخصاً لا ترضى حتى تقتل
في مقابلة من الضعيفة أشخاصاً . وإذا قتلت منها عبداً تقتل في مقابله حراً
أو أحراراً ، وإذا قتلت منها أنثى قتلت في نظيرها رجلا أو أكثر . فيترتب
على ذلك أن ينتشر القتل ، ويشيع الفساد ، وقد حكى لنا التاريخ كثيراً مما
فعله الجاهليون في هذا الشأن .قال الإمام البيضاوي عند تفسيره لهذه الآية
كان في الجاهلية بين حيين من أحياء العرب دماء وكان لأحدهما طول على :
الآخر فأقسموا لنقتلن الحر منكم بالعبد ، والذكر بالأنثى ، فلما جاء
. الإسلام تحاكموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم - فنزلت هذه الآية
وهي لا تدل على أنه لا يقتل الحر بالعبد والذكر بالأنثى ، كما لا تدل على
عكسه ، فإن المفهوم يعتبر حيث لم يظهر للتخيصي غرض سوى اختصاص الحكم .ثم
أورد - سبحانه - بعد إيجابه للقصاص العادل - حكماً يفتح باب التراضي ، بين
القاتل وأولياء المقتول ، بأن أباح لهم أن يسقطوا عنه القصاص إذا شاؤوا
ويأخذوا في مقابل ذلك الدية ، فقال - تعالى - : ( فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ
أَخِيهِ شَيْءٌ فاتباع بالمعروف وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ) .عُفِي
من العفو وهو الإسقاط . والعفو عن المعصية ، ترك العقاب عليها . والذي عفى
) له هو القاتل ، و ( أَخِيهِ ) الذي عفا هو ولي المقتول . والمراد بلفظ
شَيْء ) القصاص ، وهو نائب فاعل ( عُفِيَ ) .والمعنى : أن القاتل عمداً إذا
سقط عنه أخوه ولي دم القتيل القصاص ، راضاً أن يأخذ منه الدية بدل القصاص
فمن الواجب على ولي الدم أن يتبع طريق العدل في أخذ الدية من القاتل بحيث ،
لا يطالبه بأكير من حقه ، ومن الواجب كذلك على القاتل أن يدفع له الدية
) : - بالطريق الحسني ، بحيث لا يماطله ولا يبخسه حقه .فقوله - تعالى
فاتباع بالمعروف ) وصية منه - سبحانه - لولي الدم أن يكون رفيقاً في
مطالبته القاتل بدفع الدية .وقوله : ( وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ )
وصية منه - سبحانه - للقاتل بأن يدفع الدية لولي الدم بدون تسويف أو مماطلة
، وفي هذه الوصايا تحقيق لصفاء القلوب ، وشفاء لما في الصدور من آلام.
وتقوية لروابط الأخوة الإنسانية بين البشر .وبعضهم فسر العفو بالعطاء
فيكون المعنى : فمن أعطى له وهو ولي المقتول من أخيه وهو القاتل شيئاً وهو
الدية ، فعلى ولي المقتول اتباعه بالمعروف ، وعلى القاتل أداء إليه بإحسان
وسمى القرآن الكريم القاتل أخا لولي المقتول ، تذكيراً بالأخوة الإنسانية.
، والدينية ، حتى يهز عطف كل واحد منهما إلى الآخر ، فيقع بينهم العفو
والاتباع بالمعروف ، والأداء بإحسان .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : عفى
بتعدى بعن لا باللام فما وجه قوله (فَمَنْ عُفِيَ لَهُ ) ؟ قلت : يتعدى
- بعن إلى الجاني وإلى الذنب فيقال : عفوت عن فلان وعن ذنبه . قال - تعالى
وقال : ( عَفَا الله عَنْهَا ) فإذا تعدى إلى الذنب ( عَفَا الله عَنكَ ) :
والجاني معاً قيل : عفوت لفلان عما جنى ، كما تقول : غفرت له ذنبه وتجاوزت
له عنه . وعلى هذا ما في الآية ، كأنه قيل : فمن عفى عن جنايته فاستغنى عن
ذكر الجناية .وجاء التعبير بلفظ شيء منكراً لإفادة التقليل . أي : فمن عفى
له من أخيه ما يسمى شيئاً من العفو والتجاوز ولو أقل قليل ، تم العفو وسقط
القصاص ، ولم تجب إلا الدية ، وذلك بأن يعفو بعض أولياء الدم ، لأن القصاص
لا يتجزأ .وفي ذلك تحبيب من الشارع الحكيم لولي الدم ، في العفو وفي قبول
الدية ، إذا العفو أقرب إلى صفاء القلوب ، وتجميع النفوس على الإخاء
والتعاطف والتسامح . وفيه - أيضاً - إبطال لما كان عليه أهل الجاهلية من
التعبير من قبول أخذ الصلح في قتل العمد ، وعدهم ذلك لوناً من بيع دم
المقتول بثمن بخس . قال بعضهم يحرض قومه على الثأر .فلا تأخذوا عَقْلاً من
القوم إنني ... أرى العار يبقى والمعاقل تذهبوقال شاعر آخر يَذْكُر قوماً
لم يقبلوا الصلح عن قتيل لهم :فلو أن حيا يقبل المال فدية ... لسقنا لهم
سيباً من المال مفعماًولكن أبي قوم أصيب أخوهم ... رضا العار فاختاروا على
اللبن الدماثم بين - سبحانه - أنه يريد بعباده اليسر ولا يريد بهم العسر
فقال : ( ذلك تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ) .أي : ذلك الذي
شرعناه لكم من تيسير أمر القصاص بأداء الدية إلى ولي القتيل إذا رضى طائعاً
مختاراً ، أردنا منه التخفيف عليكم إذ في الدية تخفيف على القاتل بإبقاء
حياته وإنقاذها من القتل قصاصاً ، وفيها كذلك نفع لولي القتيل ، إذ هذا
المال الذي أخذه نظير عفوه يستطيع أن ينتفع به في كثير من مطالب حياته
وبهذا نرى أن الإسلام قد جمع في تشريعه الحكيم لعقوبة القتل بين العدل.
والرحمة .إذ جعل القصاص حقاً لأولياء المقتول إذا طالبوا به لا ينازعهم في

ذلك منازع وهذا عين الإنصاف والعدل .وجعل الدية عوضاً عن القصاص إذا رضوا بها باختيارهم ، وهذا عين الحرمة واليسر .وبالعدالة والرحمة تسعد الأمم ، وتطمئن في حياتها؛ إذ العدالة هي التي تكسر شره النفوس ، وتغسل غل الصدور وتردع الجاني عن التمادي في الاعتداء ، لأنه يعلم علم اليقين أن من وراء الاعتداء قصاصا عاداً .والرحمة هي التي تفتح الطريق أمام القلوب لكي تلتئم بعد التصدع وتتلاقى بعد التفرق ، وتتوادد بعد التعادي ، وتتسامى عن الانتقام إلى ما هو أعلى منه وهو العفو . فلله هذا التشريع الحيكم الذي ما أحوج العالم إلى الأخذ به . والتمسك بتوجيهاته .ثم ختم - سبحانه - الآية بالوعيد الشديد لمن يتعدى حدوده ، ويتجاوز تشريعه الحيكم فقال : ( فَمَنِ اعتدى بَعْدَ ذلك فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ) .أي : فمن تجاوز حدوده بعد هذا التشريع الحكيم الذي شرعناه بأن قتل القاتل بعد قبول الدية منه ، أو بأن قتل غير من يستحق القتل فله عذاب شديد الألم؛ من الله - تعالى - لأن الاعتداء بعد التراضي والقبول يدل على نكث العهد ، ورقه الدين ، وانحطاط الخلق .ثم بين - سبحانه - الحكمة في مشروعية القصاص توطيناً للنفوس على الانقياد له ، وتقوية لعزم الحكام على إقامته فقال - تعالى - : ( وَلَكُمْ فِي القصاص حَيَاةٌ ) أي : ولكم في مشروعية القصاص حياة عظيمة ، فالتنوين للتعظيم .قال صاحب الكشاف ، وذلك أنهم كانوا يقتلون الجماعة بالواحد ، وكم قتل مهلهل بأخيه كليب حتى كاد يفني قبيلة بكر بن وائل . وكان يقتل بالمقتول غير قاتله فتثور الفتنة ويقع بينهم التناحر فلما جاء الإسلام بشرع القصاص كانت فيه حياة أي حياة ، أو نوع من الحياة وهي الحياة الحاصلة بالارتداع عن القتل لوقوع العلم بالاقتصاص من القاتل ، لأنه إذا هم بالقتل فعلم أنه يقتص منه ارتدع فسلم صاحبه من القتل وسلم هو من القود فكان القصاص سبب حياة نفسين .

ولكم في القصاص حياة يا اولي الالباب لعلكم تتقون

كما فسرها الوسيط هذا وقد نقل عن العرب ما يدل على أنهم تحدثوا عن حكمة القصاص ومن أقوالهم في هذا الشأن : " قتل البعض إحياء للجميع ، وأكثروا القتل ليقل القتل " وأجمعوا على أن أبلغ الأقوال التي عبروا بها عن هذا المعنى قولهم " القتل أنفى للقتل " وقد أجمع أولو العلم على أن قوله - تعالى - ( وَلَكُمْ فِي القصاص حَيَاةٌ ) أبلغ من هذه العبارة التي نطق بها حكماء العرب ، بمقدار ما بين كلام الخالق وكلام المخلوق ، وذكروا أن الآية تفوق ما نطق به حكماء العرب من وجوه كثيرة من أهمها :1 - أن الآية جعلت سبب الحياة القصاص وهو القتل على وجه التساوي ، أما العبارة العربية فقد جعلت سبب الحياة القتل ، ومن القتل ما يكون ظلماً ، فيكون سببا للفناء لا للحياة وتصحيح هذه العبارة أن يقال : القتل قصاصا أنفى للقتل ظلما .2 - أن الآية ، جاءت خالية من التكرار اللفظي ، فعبرت عن القتل الذي هو سبب الحياة بالقصاص والعبارة كرر فيها لفظ القتل فمسها بهذا التكرار من القتل ما سلمت منه . الآية .3 - أن الآية جعلت القصاص سبباً للحياة التي تتوجه إليها الرغبة مباشرة ، والعبارة العربية جعلت القتل سبباً لنفي القتل الذي تترتب عليه الحياة .4 - الآية مبنية على الإثبات والمثل على النفي ، والإثبات أشرف لأنه أول والنفي ثان له .5 - أن تنكير حياة في الآية يفيد تعظيماً ، فيدل على أن القصاص حياة متطاولة كما في قوله - تعالى - ( وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ الناس على حَيَاةٍ ) ولا كذلك المثل . فإن اللام فيه للجنس ، ولذا فسروا الحياة فيها بالبقاء .6 - تعريف ( القصاص ) بلام الجنس الدالة على حقيقة هذا الحكم المشتملة على الضرب والجرح والقتل - وغير ذلك ، والمثل لا يشمل ذلك .7 - أن الآية مع أفضليتها عن المثل من حيث البلاغة والشمول واللفظ والمعنى أقل حروفاً من المثل .هذه بعض وجوه أفضلية الآية على المثل وهناك وجوه أخرى ذكرها العلماء في كتبهم .وفي قوله : ( ياأولي الألباب ) ، تنبيه بحرف النداء على التأمل في حكمة القصاص .و ( الألباب ) : جمع لب وهو العقل الخالص من شوائب الأوهام ، أو العقل الذيك الذي يستبين الحقائق بسرعة وفطنة ، ويستخرج لطائف المعاني من مكانها ببراعة وحسن تصرف .وفي هذا النداء ، تنبيه على أن من ينكرون مصلحة القصاص وأثره النافع في تثبيت دعائم الأمن يعيشون بين الناس بعقول غير سليمة ، ولا يزال الناس يشاهدون في كل عصر ما يثيره القتل في صدور أولياء القتلى من أحقاد طاغية ، لولا أن القصاص يخفف من سطوتها لتمادت بهم في تقاطع وسفك دماء دون الوقوف عند حد .وختمت الآية بهذه الجملة التعليلية ( لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون ) زيادة في إقناع نفوسهم بأمر القصاص ، أي : شرعنا لكم هذه الأحكام الحكيمة لتتقوا القتل حذراً من القصاص ، ولتعيشوا آمنين مطمئنين ، ومتوادين متحابين .وبهذا البيان الحكيم ، تكون الآيتان الكريمتان قد أرشدنا إلى ما يحمى النفوس ، ويحقن الدماء ، ويردع المعتدين عن الاعتداء ، ويغرس بين الناس معاني التسامح والإخاء ، ويقيم حايتهم على أساس من الرحمة والعدالة وحسن القضاء .وبعد أن بين - سبحانه - ما يتعلق بالقصاص أتبعه بالحديث عن الوصية ، ليرشد الناس إلى ما ينبغي أن تكون عليه ، وليبطل ما كان من عوائد الجاهلية من وصايا جائرة

. . . فقال - تعالى - :( كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الموت )

كتب عليكم اذا حضر احدكم الموت ان ترك خيرا الوصية للوالدين والاقربين بالمعروف حقا على المتقين

كما فسرها الوسيط قوله - تعالى - : ( كُتِبَ عَلَيْكُمْ ) قد استفاض في عرض الشرع بمعنى وجب عليكم .و " حضور الموت " يقع عند معاينة الإنسان للموت ولعجزه في هذا الوقت عن الإيصاء فسر بحضور أسبابه ، وظهور أماراته ، من نحو العلل المخوفة والهرم البالغ . وقد شاع عند العرب استعمال السبب كناية عن المسبب ، ومن ذلك قول شاعرهم :يأيها الراكب المزجي مطيته ... سائل بني أسد ما هذه الصوتوقل لهم ادروا بالعذر والتمسوا ... قولا يبرئكم إني أنا الموتوالخير : المال ، وقالوا إنه هنا مختص بالمال الكثير ، لأن مقام الوصية يشعر بذلك ، ولم يرد نص من الشارع في تقدير ما يسمى مالا كثيراً ، وإنما وردت آثار من بعض الصحابة والتابعين في تقديره بحسب اجتهادهم وبالنظر إلى ما يسمى بحسب العرف مالا كثيراً فقال بعضهم : من ألف درهم إلى خمسمائة درهم ، وقال بعضهم : من ألف درهم إلى ثمانمائة درهم . والحق أن هذا التقدير يختلف باختلاف الأشخاص والأزمان والعرف .ويرى بعض العلماء أن الوصية مشروعة في المال قليلة وكثيرة .قال القرطبي : والوصية عبارة عن كل شيء يؤمر بفعله ويعهد به في الحياة بعد الموت ، وخصها العرف بما يعهد بفعله وتنفيذه بعد الموت والجمع وصايا كالقضايا جمع قضية . والوصي يكون الموصى والموصى إليه . وأصله من وصى مخففاً . وتواصى النبت تواصياً إذا اتصل وأرض واصية : متصلة النبات . وأوصيت له بشيء . وأوصيت إليه إذا جعلته وصيك . والاسم الوصاية والوصاية - بالفتح وبالكسر - وتواصي القوم : أوصى بعضهم بعضاً .والمعنى : كتب عليكم أيها المؤمنون أنه إذا ظهرت على أحدكم أمارات الموت : من مرض ثقيل ، أو شيخوخة مضعفة ، وكان عنده مال كثير قد جمعه عن طريق حلال ، أن يوصي بجانب منه لوالديه وأقاربه رعاية لحقهم وحاجتهم ، وأن تكون وصيته لهم بالعدل الذي لا مضارة فيه بين الأقارب ، والوصية على هذا الوجه تعتبر حقاً واجباً على المتقين الذين اتخذوا التقوى والخشية من الله طريقاً لهم .فالآية الكريمة استئناف لبيان الوصية بعد الحديث عن القصاص ، وفصل القرآن الحديث عن الوصية عن سابقه للإشعار بأنه حكم مستقل جدير بالأهمية .وقد جاء الحديث عن الوصية بتلك الطريقة الحكيمة ، لتغيير ما كان من عادات بعض أهل الجاهلية . فإنهم كانوا كثيراً مانعون القريب من الإرث توهما منهم أنه يتمنى موت قريبة ليرثه ، وربما فضلوا بعض الأقارب على بعض فيؤدي ذلك إلى التباغض والتحاسد ، وربما فضلوا - أيضاً - الوصية لغير الأقارب للفخر والتباهي . فشرع الإسلام لأتباعه ما يقوى الروابط ويمنع التحاسد والتعادي .قال الجمل : وكتب فعل ماض مبني للمجهول ، وحذف الفاعل للعلم به وهو الله - تعالى - وفي القائم مقام الفاعل ثلاثة أوجه :أحدها : أن يكون الوصية ، أي : كتب عليكم الوصية ، وجاز تذكير الفعل لكون القائم مقام الفاعل مؤنثاً مجازياً ولوجود الفصل بينه وبين مرفوعه .والثاني : أنه الإيصاء المدلول عليه بقوله : " الوصية " للوالدين ، أي : كتب هو ، أي الإيصاء .والثالث : أنه الجار والمجرور ، وهذا يتجه على رأي الأخفش والكوفيين وعليه فيكون قوله : ( عَلَيْكُمْ ) في محل رفع ، ويكون في محل النصب على القولين الأولين وجواب كل من ( إِذَا ) و ( إِن ) محذوف . أي : كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً فليوص .والباء في قوله ) بالمعروف ) للملابسة ، والجار والمجرور في موضع الحال من الوصية .والمراد بالمعروف هنا العدل الذي جاءت به الشريعة ، بأن لا يتجاوز بالوصية الثلث ، وأن لا يوصى للأغنياء ويترك الفقراء أو يوصي للقريب ويترك الأقرب مع أنه أشد فقراً ومسكنة .وقوله : ( حَقّاً ) مصدر مؤكد للحدث الذي دل عليه ) كُتِبَ ) وعامله إما ( كُتِبَ ) أو فعل محذوف تقديره حق أي : حق ذلك حقاً وقوله : ( عَلَى المتقين ) صفة له . أي حقاً كائناً على المتقين .وخص هذا الحق بالمتقين ترغيباً في الرضا به ، لأن ما كان من شأن المتقي فهو أمر نفيس جدير أن يتأسى به الناس ، ومن أهمله فقد حرم من الدخول في زمرتهم ، وخسر بذلك خسارة عظيمة .قال بعض العلماء : وقد وردت هذه الآية في الوصية للوالدين والأقربين ، والمعروف عند الأمة منذ عهد السلف أن الوصية لا تصح لوارث ، والوالدان لهما نصيب مفروض في المواريث ومقتضاه عدم صحة الوصية لهما؟ويريزح هذا الإشكال من طريق التفسير أن فريقاً من أهل العلم وهم جمهور المفسرين ذهبوا إلى أن الآية قد نسخ منها حكم الوصية للوارث . وإيضاح وجه النسخ أن آية المواريث نزلت بعد آية الوصية فقامت مقامها في الوصية للوارث " : ودل على هذا المعنى صراحة الحديث الشريف وهو قوله صلى الله عليه وسلم إن الله أعطى كل ذي حق حقه ، ألا لا وصية لوارث " .وهذا الحديث وإن لم يبلغ مبلغ الحديث المتواتر الذي يصح نسخه للقرآن بنفسه ، فقد امتاز عن بقية أخبار الآحاد بأن الأمة تلقته بالقبول ، وأخذوا في العمل به من غير مخالف ، فأخذ بهذا قوة الحديث المتوار في الرواية واعتمدوا عليه في بيان أن آية

المواريث قامت بتقدير الأنصباء في الميراث مقام آية ( إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الموت ) في الوصية للوارث . وروى البخاري في صحيحه عن ابن عباس - رضي الله عنه - قال : كان المال للولد وكانت الوصية للوالدين ، فنسخ الله من ذلك ما أحب ، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين ، وجعل للأبوين لكل واحد منهما السدس ، وجعل للمرأة الثمن والربع ، وللزوج الشطر الربع .ومن أهل العلم من لم يستطيعوا أن يهملوا حديث "لا وصية لوارث " لاستفاضيته بين الأمة وتلقيهم له بالقبول ، فقرروا العمل به وأبطلوا الوصية لوارث ولكنهم ذهبوا مع هذا إلى أن آية الوصية للوالدين محكمة غير منسوخة وتأولوها على وجوه منها أن المراد من قوله : ( لِلْوَالِدَيْنِ ) الوالدان اللذان لا يرثان لمانع من الإرث كالكفر والاسترقاق ، وقد كانوا حيثي عهد الإسلام يسلم الرجل ولا يسلم أبواه وقد أوصى الله بالإحسان إليهما .

فمن بدله بعدما سمعه فانما اثمه على الذين يبدلونه ان الله سميع عليم

كما فسرها الوسيط ثم توعد - سبحانه - من يبدل الوصية بطريقة لم يأذن بها الله فقال - تعالى - : ( فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الذين يُبَدِّلُونَهُ ) .بدله : غير . وتغيير الوصية يتأتى بالزيادة في الموصى به أو النقص منه أو كتمانه ، أو غير ذلك من وجوه التغيير للموصى به بعد وفاة الموصى .سمعه : أي علمه وتحققه ، وكنى بالسماع عن العلم لأنه طريق حصوله . والضمائر البارزة في " بدله وسمعه وإثمه ويبدلونه " عائدة على القول أو على الكلام الذي يقوله الموصى والذي دل عليه لفظ الوصية أو على الإيصاء المفهوم من الوصية ، وهو الإيصاء أو القول الواقع على الوجه الذي شرعه الله .والمعنى : فمن غير الإيصاء الذي أوصى به المتوفي عن وجهه ، بعدما علمه وتحققه منه ، فإنما إثم ذلك التغيير في الإيصاء يقع على عاتق هذا المبدل ، لأنه بهذا التبديل قد خان الأمانة وخالف شريعة الله ، ولن يلحق الموصى شيئاً من الإثم لأنه قد أدى ما عليه بفعله للوصية كما يريدها الله - تعالى .وقد ختمت الآية بقوله - تعالى - : ( إِنَّ الله سَمِيعٌ عَلِيمٌ ) للإشعار بالوعيد الشديد الذي توعد الله به كل من غير وبدل هذا الحق عن وجهه ، لأن الله - تعالى -لا يخفى عليه شيء من حيل الناس الباطلة ، فهو - سبحانه سميع لوصية الموصى ، عليه بما يقع فيها من تبديل وتحريف .

فمن خاف من موص جنفا او اثما فاصلح بينهم فلا اثم عليه ان الله غفور رحيم

كما فسرها الوسيط ثم استثنى - سبحانه - حالة يجوز فيها التغيير فقال ، ( فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ ) .خاف : من الخوف ، وهو في الأصل حالة تعتري النفس عند الانقباض من شر يتوقع حصوله على سبيل الظن أو على سبيل العلم .والجنف : الميل والجور . يقال : جنف في وصيته وأجنف ، مال وجار ، فهو جنف وأجنف . وقيل : أجنف مختص بالوصية وجنف في مطلق الميل عن الحق . ويقال : جنف وجنف عن طريقة جنفاً وجنوفاً .والإثم : العمل الذي يبغضه الله . يقال : أثم فهو آثم وأثيم .قال بعضهم : والمراد بالجنف هنا : الميل عن الحق في الوصية خطأ بقرينة مقابلته بالإثم وهو الميل عن الحق فيها عمداً .هذا ، ويرى جمهور العلماء أن هذه الآية الكريمة واردة في الوصي يرى أن الموصي قد حاد في وصيته عن حدود العدل ، فللوصي حينئذ أن يصلح فيها بحيث يجعلها متفقة مع ما شرعه الله ، وهو في هذه الحالة لا إثم عليه لأنه قد غير الباطل بالحق وعلى هذا الرأي يكون المعنى : أن الوصي إذا رأى في الوصية ميلا عن الحق خطأ أو عمداً وأصلح بين الموصي لهم يردهم إلى الوجه المشروع فلا إثم عليه في التغيير في الوصية .والضمير في قوله : ( بَيْنَهُمْ ) عائد على الموصي لهم ويرى آخرون أن هذه الآية واردة في شأن كل من يبغي الإصلاح من الناس ، بأن. يرى الموصِي يوصِي ، فظهر له - أي هذا المصلح - أن الموصِي قد جانب العدل والصواب في وصيته ، فيأخذ في الإصلاح ، بأن يرشده بأن فعله هذا لا يتفق مع شريعة العدل التي أمر بها الله ، ويحاول قدر استطاعته أن يزيل ما حدث من خلاف بين الموصِي والموصَى لهم .وعلى هذا الرأي يكون المعنى : إن خرج الموصِي في وصيته عن حدود العدالة ، ورأى أمارات ذلك منه من يريد الإصلاح من الناس ، وتوقع أن شراً سيترتب على هذه الوصية التي فيها جور ، أو شاهد نزاعاً بين الموصى لهم بسبب ذلك ، فلا إثم على هذا المصلح في أن يصلح بين الموصِى والموصَى لهم ، وأن يرشد الموصى إلى سلوك طريق العدل والحق . وعليه فيكون الضمير في قوله : ( بَيْنَهُمْ ) يعود على الموصى والموصى لهم .ويبدو لنا أن الرأي الأول أقرب إلى الصواب ، لأن سياق الآية يؤيده ، إذ هي بمنزلة الاستثناء من قوله - تعالى - : ( فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ ) . وهذا إنما يكون بعد موت الموصِى لا في حياته .وقوله : ( إِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ) تذييل أتى به - سبحانه - للوعد بالثواب للمصلح على إصلاحه ، فإن من يغفر الذنوب ويرحم المذنبين تكون مغفرته ورحمته أقرب إلى

من يقصد بعمله الإصلاح ولو اعتمد عغلى ظن غالب أو أخطأ وجه الصواب فيما أتى من أعمال .وبهذا تكون الآيات الكريمة قد بينت للناس حكما آخر من أحكامها السامية ، يتعلق بالوصية في الأموال ، وفي هذا الحكم دجعوة إلى التراحم والتكافل ، وغرس لأواصر المودة والمحبة بين الأبناء والآباء وبين الأقارب بعضهم مع بعض .

يا ايها الذين امنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون

كما فسرها الوسيط وبعد أن تحدثت السورة الكريمة عن القصاص وعن الوصية - أتبعتها بالحديث عن عبادة عظيمة من العبادات التي جعلها الله - تعالى ركناً من أركان الإسلام وهي صوم رمضان ، فقال - سبحانه - :( ياأيها الذين آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصيام . . . )الصيام مصدر صام كالقيام مصدر قام ، وهو في اللغة : الإمساك وترك التنقل من حال إلى حال ، فيقال للصمت صوم لأنه إمساك عن الكلام ومنه قوله - تعالى - مخبراً عن مريم : ( إِنِّي نَذَرْتُ للرحمن صَوْماً ) أي : سكوتاً عن الكلام . وصوم الريح ركودها وإمساكها عن الهبوب وتقول العرب : صام النهار وصامت الشمس عند قيام الظهيرة لأنها كالممسكة عن الحركة .أما الصيام في عرف الشرع فهو - كما يقول الآلوسي - إمساك عن أشياء مخصوصة على وجه مخصوص في زمان مخصوص ممن هو على صفات مخصوصة .وقد فرض الله - تعالى - على المسلمين صيام شهر رمضان في شهر شعبان من السنة الثانية للهجرة وعده النبي صلى الله عليه وسلم أحد أركان الإسلام الخمسة ، فقد روى البخاري - بسنده - عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان " .وأل في الصيام للعهد الذهني فقد كان العرب يعرفون الصوم ، فقد جاء في الصحيحين عن عائشة قالت : " كان يوم عاشوراء يوماً تصومه قريش والجاهلية " .والتشبيه في قوله - تعالى - : ( كَمَا كُتِبَ عَلَى الذين مِن قَبْلِكُمْ ) راجع إلى أصل إيجاب الصوم ، وفريضته . أي : أن عبادة الصوم كانت مكتوبة ومفروضة على الأمم السابقة ولكن بكيفية لا يعلمها إلا الله ، إذ لم يرد نص صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يبين لنا فيه كيف كان صيام الأمم السابقة على الأمة الإسلامية : وقيل إن التشبيه راجع إلى وقت الصوم وقدره ، فقد روى عن مجاهد أنه قال. - كتب الله - عز وجل - صوم شهر رمضان على كل أمة .ولفظ " كما " في قوله تعالى - : (كَمَا كُتِبَ عَلَى الذين مِن قَبْلِكُمْ ) في موضع نصب على المصدر ، أي : فرض عليكم الصيام فرضاً كالذي فرض على الذين من قبلكم .ومن - فوائد هذا التشبيه ، الاهتمام بهذه العبادة والتنويه بشأنها إذ شرعها سبحانه - لأتباع النبي صلى الله عليه وسلم ولأتباع الرسل الذين سبقوه في الدعوة إلى توحيد الله ، وهذا مما يقتضي وفرة ثوابها ، وداوم صلاحها .كذلك من فوائد تسهيل هذه العبادة على المسلمين؛ لأن الشيء الشاق تخف مشقته على الإنسان عند ما يعلم أن غيره قد أداه من قبله .والفائدة الثالثة من هذا التشبيه إثارة العزائم والهمم للنهوض بهذه العبادة ، حتى لا يكونوا مقصرين في أدائها ، بل يجب عليهم أن يؤدوها بقوة تفوق من سبقهم لأن الأمة الإسلامية قد وصفها سبحانه بأنها خير أمة أخرجت للناس وهذه الخيرية تقتضي منهم النشاط فيما كلفهم الله بأدائه من عبادات .وقوله : ( لَعَلَّكُمْ - تَتَّقُونَ ) جملة تعليلة جيء بها لبيان حكمة مشروعية الصيام فكأنه سبحانه - يقول لعباده المؤمنين : فرضنا عليكم الصيام كما فرضناه على الذين من قبلكم ، لعلكم بأدائكم لهذه الفريضة تنالون درجة التقوى والخشية من الله وبذلك تكونون ممن رضى الله عنهم ورضوا عنه . ولا شك أن هذه الفريضة ترتفع ، بصاحبها إلى أعلى عليين متى أداها بآدابها وشروطها ، ويكفى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد قال في شأن الصوم : " الصوم جنة " أي : وقاية . إذ في الصوم وقاية من الوقوع في المعاصي ، ووقاية من عذاب الآخرة ، ووقاية من العلل والأمراض الناشئة عن الإفراط في تناول بعض الأطعمة والأشربة .وقوله أي : معينات بالعد أو قليلات ، لأن القليل ( أيّاماً مّعْدُودَاتٍ ) : يسهل عده فيعد والكثير يؤخذ جزافاً .والمراد بهذه الأيام المعدودات شهر ) رمضان عند جمهور العلماء .قالوا : وتقريره أنه - سبحانه - قال أولا ) : كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصيام ) وهذا محتمل ليوم ويومين ثم بينه بقوله أيّاماً مّعْدُودَاتٍ ) فزال بعض الاحتمال ثم بينه بقوله : ( شَهْرُ رَمَضَانَ الذي أُنْزِلَ فِيهِ القرآن ) فعلى هذا الترتيب يمكن جعل الأيام المعدودات بعينها شهر رمضان ، وإذا أمكن ذلك فلا وجه لحمله على غيره .وإنما - عبر عن رمضان بأيام وهي جمع قلة ووصف بمعدودات وهي جمع قلة - أيضاً تهوينا لأمره على المكلفين ، وإشعاراً لهم بأن الله - تعالى - ما فرض عليهم إلا ما هو في وسعهم وقدرتهم .وقيل : إن المراد بالأيام المعدودات غير رمضان وذكروا أن المراد بها ثلاثة أيام من كل شهر وهي الأيام البيض الثالث عشر ، والرابع عشر والخامس عشر مضافاً إليها يوم عاشوراء . ثم نسخ ذلك بوجوب صوم

شهر رمضان .والمعتمد بين المحققين من العلماء هو القول الأول ، لأنه - كما قال الإمام الرازي -لا وجه لحمله على غيره ، والقول بالنسخ زيادة لا دليل عليها .

اياما معدودات فمن كان منكم مريضا او على سفر فعدة من ايام اخر وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيرا فهو خير له وان تصوموا خير لكم ان كنتم تعلمون

كما فسرها الوسيط وقوله : ( أَيّاماً ) منصوب على الظرفية ، أو بفعل مضمر مقدر أي : صوموا أياماً . وقوله : (فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ على سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيّامٍ أُخَرَ ) زيادة بيان ليسر شريعة الإسلام ، بعد أن أخبرهم - سبحانه - بأن الصوم المفروض عليهم إنما هو أيام معدودات وتعجيل بتطمين نفوس السامعين لئلا يظنوا وجوب الصوم عليهم في كل حال والمرض : الخروج عن الاعتدال الخاص بالإنسان ، بأن يصاب بانحراف في جسده. يجعله في حالة وجع أو اضطراب بدني .قال القرطبي : وللمريض حالتان :إحداهما ألا يطيق الصوم بحال فعليه الفطر واجبا .الثانية : أن يقدر على الصوم : بضرر ومشقة فهذا يستحب له الفطر . . فالفطر مباح في كل مرض إلا المرض اليسير الذي لا كلفة معه في الصيام .وقوله : ( أَوْ على سَفَرٍ ) قال الآلوسي معناه : أو راكب سفر مستعل عليه متمكن منه ، بأن استغشل به قبل الفجر ، ففيه إيماء إلى أن من سافر في أثناء اليوم لم يفطر . واستدل بإطلاق السفر على أن السفر القصير وسفر المعصية مرخص للإفطار . وأكثر العلماء على تقييده بالمباح وبما يلزمه العسر غالباً وهو السفر إلى المسافة المقدرة في الشرع " .والعدة فعله من العد ، وهي بمعنى المعدود ، كالطحن بمعنى المطحون ومنه عدة المرأة .والمعنى : لقد فرضنا عليكم الصوم أيها المؤمنون ، وجعلناه كما هو الشأن من كل ما شرعناه متسماً باليسر لا بالعسر ، ومن مظاهر ذلك أننا فرضنا عليكم صوم أيام معدودات وهي أيام شهر رمضان ، ولم نفرض عليكم صوم الدهر . وأننا شرعنا لمن كان مريضا مرضا يضره الصوم أو يعسر معه ، أو كان على سفر يشق عليه معه الصوم ، شرعنا له أن يفطر وأن يصوم بدل الأيام التي أفطرها أياما آخر مساوية لها في العدد .قال الإمام الرازي : قال القفال : أنظروا إلى عجب ما نبه الله عليه من سعة فضله ورحمته في هذا التكليف ، إذ أنه بين في أول الآية أن لهذه الأمة في هذا التكليف أسوة بالأمم المتقدمة ، والغرض منه ما ذكرناه من أن الأمور الشاقة إذا عمت خفت . ثم ثانيا بين وجه الحكمة في إيجاب الصوم وهو أنه سبب الحصول التقوى فلو لم يفرض الصوم لفات هذا المقصود الشريف ، ثم بين ثالثاً أنه مختص بأيام معدودة فإنه لو جعله أبداً أو أكثر الأوقات لحصلت المشقة العظيمة . ثم بين .رابعاً أنه خصه من الأوقات بالشهر الذي أنزل فيه القرآن لكونه أشرف الشهور بسبب هذه الفضيلة . ثم بين خامسا : إزالة المشقة في إلزامه أباح تأخيره لمن شق - عليه من المسافرين والمرضى إلى أن يصيروا إلى الرفاهية والسكون . فهو سبحانه- راعي في إيجاب الصوم هذه الوجوه من الرحمة فله الحمد على نعمة كثيراً " .هذا ، وقد نص الفقهاء على أن الأفطار مشروع على سبيل الرخصة للمريض والمسافر ، وهما بالخيار في ذلك إن شاءا أفطر وإن شاءا صاما ، إلا - أن أكثر الفقهاء قالوا : الصوم أفضل لمن قوى عليه .والذي نراه الله تعالى - قد أباح الفطر في رمضان بسبب المرض أو السفر ، لأن كلا منهما مظنة المشقة والحرج . والحكم الشرعي يوجد حيث توجد مظنته وينتفى حيث تنتفي . وعلى المسلم أن يقدر حال نفسه ، فإذا أيقن أو غلب على ظنه أن مرضه أو سفره ليس في الصوم معه مشقة أو عسر صام عملا يقول - تعالى - ( وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ) . وإذا أيقن أو غلب على ظنه أن مرضه أو سفره يجعل الصوم شاقاً عليه أفطر عملا بقوله - تعالى - : ( يُرِيدُ الله بِكُمُ اليسر وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ العسر ) فالمسألة ترجع إلى ضمير الفرد ودينه واستفتاء قلبه والثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه صام في السفر وأفطر ، وخير. بعض أصحابه بين الصوم والفطر . فقد روى البخاري ومسلم عن أبي الدرداء - رضي الله عنه - قال : خرجنا مع النبي صلى الله عليه وسلم " وفي إحدى روايتي مسلم - في شهر رمضان - ، في يوم حار ، حتى ليضع الرجل يده على رأسه من شدة " الحر وما فينا صائم إلا ما كان من النبي صلى الله عليه وسلم وابن رواحه وروى الإمام مسلم في صحيحه عن قزعة قال : " أتيت أبا سعيد الخدري فسألته. عن الصوم في السفر فقال : سافرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة ونحن صيام ، قال : فنزلنا منزلا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنكم قد . دنوتم من عدوكم والفطر أقوى لكم ، فكانت رخصة . فمنا من صام ومنا من أفطر . ثم نزلنا منزلا آخر فقال : إنكم مصبحو عدوكم والفطر أقوى لكم فأفطروا وكانت عزمة فأفطرنا . ثم قال : ولقد رأيتنا نصوم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك من السفر " .وروى الشيخان عن أنس بن مالك قال : كنا نسافر مع النبي صلى الله عليه وسلم فلم يعب الصائم على المفطر ولا المفطر على الصائم .والأحاديث في هذا المعنى كثيرة .وهناك مسألة أخرى تعرض لها الفقهاء بالحديث وهي مسألة قضاء الأيام التي أفطرها المريض أو المسافر هل

يقضيها متتابعة أو متفرقة وهل يقضيها على الفور أو على التراخي؟وجمهور
الفقهاء على أن للمفطر في رمضان بسبب المرض أو السفر أن يقضي ما أفطره
متتابعاً أو متفرقاً؛ لأن قوله - تعالى - : ( فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ
أُخَرَ ) . دل على وجوب القضاء من غير تعيين لزمان ، لأن اللفظ - كما قال
القرطبي - مسترسل على الأزمان لا يختص ببعضها دون بعض .وله كذلك أن يقضي ما
عليه على الفور أو على التراخي على حسب ما يتيسر له . ففي الصحيحين عن
عائشة - رضي الله عنها - قالت : يكون عليّ الصوم من رمضان فما أستطيع أن
أقضيه إلا في شعبان ، وذلك لمكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا نص
وزيادة بيان للآية " .ويرى داود الظاهري أن على المفطر في رمضان بسبب المرض
، أو السفر أن يشرع في قضاء ما أفطره في اليوم الثاني من شوال المعاقب له
وأن يتابع أيام القضاء .والمعتمد بين العلماء هو قول الجمهور لقوة أدلته
التي سبق بيانها .وقوله - تعالى - : ( وَعَلَى الذين يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ
طَعَامُ مِسْكِينٍ ) بيان لحكم آخر من أحكام الشريعة فيما يتعلق بصوم رمضان
) يتجلى فيه تيسير الله على عبادة فيما شرع لهم من عبادات .ومعنى
يُطِيقُونَهُ ) يقدرون عليه ويتحملونه بمشقة وتعب ، لأن الطاقة اسم للقدرة
على الشيء مع الشدة والمشقة ، والوسع اسم للقدرة على الشيء على جهة السهولة
قال الراغب : والطاقة اسم لمقدار ما يمكن للإنسان أن يفعله بمشقة ، وذلك.
تشبيه بالطوق المحيط بالشيء ، ومنه ( رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ
طَاقَةَ لَنَا بِهِ ) أي ما يصعب علينا مزاولته ، وليس معناه : "لا تحملنا
ما لا قدرة لنا به " .والعرب لا تقول فلان أطاق الشيء إلا إذا كانت قدرته
عليه في نهاية الضعف بحيث يتحمله بمشقة وعسر . فلا يقال - مثلا - فلان يطيق
حمل نواة أو ريشة أو عشرة دراهم من حديد ، وإنما يقال : هو يطيق حمل
قنطارين أو حمل الأمتعة الثقيلة .وللعلماء أقوال في المراد بقوله - تعالى -
أشهرها :1 - إن ( وَعَلَى الذين يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ )
، هذا راجع إلى المقيم الصحيح خيره الله - تعالى - بين الصوم وبين الفداء
وكان ذلك في بدء الإسلام فرض عليهم الصوم ولم يتعودوه فاشتد عليهم ، فرخص
لهم في الإفطار والفدية ، ثم نسخ ذلك وأوجب الله عليهم الصوم .ويشهد لهذا
) القول ما جاء في الصحيحين عن سلمة بن الأكوع قال : لما نزلت هذه الآية
وَعَلَى الذين يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ) كان من أراد أن
يفطر ويفتدي ، حتى نزلت الآية بعدها فنسختها .وفي رواية للإمام مسلم من
طريق آخر عن سلمة - أيضاً - قال : كنا في رمضان على عهد رسول الله صلى الله
عليه وسلم من شاء أفطر فافتدى بطعام مسكين حتى أنزلت هذه الآية ( فَمَن
شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ) .2 - ويرى بعض العلماء أن قوله
- تعالى - : ( وَعَلَى الذين يُطِيقُونَهُ ) إلخ ، ليس بمنسوخ بل هو محكم
، وأنه نزل في شأن الشيخ الكبير الهرم ، والمرأة العجوز ، إذا كانا لا
يستطيعان الصيام فعليهما أن يفطرا وأن يطعما عن كل يوم مسكينا .وأصحاب هذا
الرأي يستدلون بما رواه البخاري عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية : ليست
بمنسوخة هو الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما فعليها أن
يطعما مكان كل يوم مسكيناً " .3 - وهناك رأى ثالث لبعض العلماء يرى أصحابه
أن قوله - تعالى - ( وَعَلَى الذين يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ
مِسْكِينٍ ) ليس بمنسوخ - أيضاً - بل هو محكم ، وأن معنى الآية عندهم
: وعلى الذين يطيقونه ، أي : يقدرون على الصيام بمشقة شديدة إذا أرادوا أن
يفطروا أن يطعموا عن كل يوم يفطرونه مسكيناً . ( بأن يقدموا له نصف صاع من
بر أو صاعا من تمر أو شعير ، أو قيمة ذلك ) .ولم يقصروا ذلك على الرجل
الكبير والمرأة العجوز - كما فعل أصحاب الرأي الثاني - وإنما أدخلوا في حكم
الذين يقدرون على الصوم بمشقة وتعب المرضع والحامل إذا خافتا على أنفسهما
أو ولديهما ومن في حكمها ممن يشق عليهم الصوم مشقة كبيرة .وأصحاب هذا الرأي
يستدلون على ما ذهبوا إليه بمنطوق الآية ، إذا أن الوسع اسم للقدرة على
الشيء على جهة السهولة ، والطاقة اسم للقدرة عليه مع الشدة والمشقة - كما
) سبق أن بينا - ، كما يستدلون - أيضاً - على ما ذهبوا إليه بقراءة
، يُطِيقُونَهُ ) - بضم الياء الأولى وتشديد الياء الثانية - أي يتجشمونه
ويتكلفونه بمشقة وتعب ، وقد انتصر بعض العلماء لهذا الرأي بناء على أن
منطوق الآية يؤيده .كما انتصر بعضهم للرأي الأول بناء على أن الأحاديث
الصحيحة تسانده وعلى أنه هو الأقرب إلى روح الشريعة الإسلامية في التدرج
في تشريع التكاليف التي فيها مشقة على الناس ، كما انتصر بعضهم للرأي
الثاني الذي روى عن ابن عباس .وهناك أقوال أخرى في الآية رأينا أن نضرب
عنها صفحاً لضعفها .وقوله : ( فَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ
حض من الله - تعالى - لعباده على الإكثار من عمل الخير .والتطوع : السعي (
في أن يكون الإنسان فاعلا للطاعة باختياره بدون إكراه والخير : مصدر خار
إذا حسن وشرف ، وهو منصوب لتضمين تطوع معنى أتى ، أو على أنه صفة لمصدر
محذوف أي تطوعاً خيراً .والمعنى : فمن تطوع خيراً بأن زاد على القدر
، المفروض في الفدية ، أو أطعم أكثر من مسكين ، أو جمع بين الإطعام والصوم
: فتطوعه سيكون خيراً عند الله - سبحانه -لا يضيع أجر من أحسن عملا .وقوله
ترغيب في ( وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ )

الصوم وتحبيب فيه . أي : وأن تصوموا أيها المطيقون للصوم ، أو أيها المكلفون جميعاً خير لكم من كل شيء سواه ، إن كنتم تعلمون فوائد الصوم في حياتكم ، وحسن جزائه في آخرتكم .روى النسائي وابن خزيمة عن أبي أمامه رضي الله عنه قال : " قلت يا رسول الله مرني بعمل قال : عليك بالصوم فإنه لا عدل له - أي لا يعادل ثوابه بشيء - فقلت يا رسول الله مرني بعمل ، فقال : عليك بالصوم فإنه لا عدل له . فقلت : يا رسول الله مرني بعمل أدخل به الجنة فقالت : عليك بالصوم فإنه لا مثل له . " .

شهر رمضان الذي انزل فيه القران هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضا او على سفر فعدة من ايام اخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون

كما فسرها الوسيط وقوله : ( شَهْرُ رَمَضَانَ الذي أُنْزِلَ فِيهِ القرآن هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الهدى والفرقان ) كلام مستأنف لبيان تلك الأيام المعدودات التي كتب علينا الصوم فيها وأنها أيام شهر رمضان الذي يستحق كل مدح وثناء لتشرفه بنزول الكتب السماوية فيه .قال الإمام ابن كثير - تعالى - شهر الصيام من بين سائر الشهور بأن اختاره من بينهن : يمدح لإنزال القرآن العظيم ، فقد ورد في الحديث بأنه الشهر الذي كانت الكتب الإلهية تنزل فيه على الأنبياء فعن وائلة بن الأسقع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :" أنزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان ، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان ، والإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان ، وأنزل القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان " .و ( الشَّهْرَ ) مأخوذ من الشهرة ، يقال : شهر الشيء يشهر شهرة وشهراً إذا ظهر بحيث لا يتعذر علمه على أحد ، ومنه يقال : شهرت السيف إذا سللته قال بعضهم : وسمى الهلال شهراً لشهرته وبيانه وبه سمى الشهر شهراً .و ( رَمَضَانَ ) اسم لهذا الشهر الذي فرض علينا ، صيامه ، وهو مأخوذ - كما قال القرطبي - من رمض الصائم يرمض إذا حر جوفه من شدة العطش والرمضاء : شدة الحر ، ومنه الحديث : " صلاة الأوابين إذا رمضت الفصال " - أي صلاة الضحى - قيل : إن العرب لما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة سموها بالأزمنة التي وقعت فيها ، فوافق هذا الشهر أيام رمض الحر فسمى بذلك . وقيل إنما سمى رمضان لأنه يرمض الذنوب ، أي : يحرقها بالأعمال الصالحة " .وقوله : ( شَهْرُ رَمَضَانَ ) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هي شهر رمضان أي : الأيام المعدودات ، وقوله : ( الذي أُنْزِلَ فِيهِ القرآن ) صفة للشهر .ويجوز أن يكون قوله ( شَهْرُ ) مبتدأ وخبره الموصول بعده ، أو خبره قوله ( فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ) وصح وجود الفاء في الخبر لكون المبتدأ موصوفا بالموصول الذي هو شبه بالشرط . وقرئ بالنصب على أنه مفعول لفعل محذوف . أي : صوموا شهر رمضان .و " القرآن هو كلام الله المعجز المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم المكتوب في المصاحف المنقول بالتواتر المتعبد بتلاوته .والمراد بإنزال القرآن في شهر رمضان ابتداء إنزاله فيه ، وكان ذلك في ليلة القدر . بدليل قوله - تعالى - أي بدأنا إنزال القرآن في هذه ( إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ القدر ) الليلة المباركة ، إذ من المعروف أن القرآن استمر نزوله على النبي صلى الله عليه وسلم ما يقرب من ثلاثة وعشرين سنة .وقيل المراد بذلك ، أنزل في فضله ، القرآن ، قالوا : ومثله أن يقال : أنزل الله في أبي بكر الصديق كذا آية ، يريدون أنزل في فضله .وقيل المراد أنزل في إيجاب صومه على الخلق القرآن كما يقال : أنزل الله في الزكاة كذا وكذا ، يريد في إيجابها وأنزل في الخمر كذا يريد في تحريمها .قال الآلوسي : وقوله - تعالى - : ( هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الهدى والفرقان ) حالان لازمان من القرآن والعامل فيهما أنزل . أي : أنزل وهو هداية للناس بإعجازه المختص به كما يشعر بذلك التنكير وآيات واضحات من جملة الكتب الإلهية الهادية إلى الحق والفارقة بين الحق ، والباطل باشتماله على المعارف الإلهية والأحكام العملية ، كما يشعر بذلك جعله بينات منها ، فهو هاد بواسطة أمرين ، مختص وغير مختص ، فالهدى ليس مكرراً ، وقيل : مكرر تنويهاً وتعظيماً لأمره وتأكيداً لمعنى الهداية كما تقول : علام نحرير " .وقوله : ( فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ ، فَلْيَصُمْهُ ) يصح أن يكون شهد بمعنى حضر . كما يقال : فلان شهد بدراً وشهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أي : حضرها ، فيكون المعنى : فمن حضر منكم دخول الشهر أو حلوله بأن كان مقيما وليس عنده ما يمنعه من الصو كمرض ونحوه ، فليصمه؛ لأن صيامه ركن من أركان الدين ، وعليه - يكون لفظ " الشهر " مصنوب على الظرفية .ويصح أن يكون شهد بمعنى علم كقوله تعالى - ( شَهِدَ الله أَنَّهُ لاَ إِلَه إِلاَّ هُوَ ) فيكون المعنى : فمن " علم منكم هلال الشهر وتيقن من ظهوره فليصمه .وعليه يكون لفظ " الشهر منصوب على أنه مفعول به بتقدير المضاف المحذوف و ( مَن ) موصولة أو شرطية وهو الأظهر و ( مِنكُمُ ) في محل نصب على الحال من الضمير في شهد فيتعلق بمحذوف أي : كائنا منكم . والضمير في " منكم " يعود على الذين آمنوا ، أي

كل من حضر منكم الشهر فليصمه و ( أل ) في الشهر للعهد .وأعيد ذكر الرخصة في
قوله - تعالى - ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر ، لئلا يتوهم
من تعظيم أمر الصوم في نفسه وأنه خير ، أنه قد صار متحتماً بحيث لا تتناوله
الرخصة بوجه من الوجوه أو تتناوله ولكنها مفضولة ، وفي ذلك عناية بأمر
الرخصة وأنها محبوبة له - تعالى - .وقوله - تعالى - : ( يُرِيدُ الله
بِكُمُ اليسر وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ العسر ) بيان الحكمة الرخصة .أي : شرع
لكم - سبحانه - الفطر في حالتي المرض والسفر ، لأنه يريد بكم اليسر
والسهولة . ولا يريد بكم العسر والمشقة . قال - تعالى - : ( يُرِيدُ الله
) : - أَن يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإنسان ضَعِيفاً ) وقال - تعالى
وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدين ) وفي الصحيحين أن رسول الله صلى الله
" : عليه وسلم قال لمعاذ بن جبل وأبي موسى الأشعري حين بعثهما إلى اليمن
: - يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا ، وتطاوعا ولا تختلفا " .وقوله - تعالى
وَلِتُكْمِلُواْ العدة وَلِتُكَبِّرُواْ الله على مَا هَدَاكُمْ )
وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ) معطوف على قوله : ( يُرِيدُ الله بِكُمُ اليسر
وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ العسر ) إذ هذه الجمل الأربع تعليل لما قبلها من قوله
إلى قوله : ( فَعِدَّةٌ ( فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ) :
مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ) .والمعنى : شرع لكم - سبحانه - ما شرع من أحكام
الصيام ، ورخص لكم الفطر في حالتي المرض والسفر ، لأنه يريد بكم اليسر ولا
يريد بكم العسر ، ولأنه يريد منكم أن تكملوا عدة الشهر بأن تصوموا أيامة
كاملة فتحصلوا خيراته ولا يفوتكم شيء من بركاته ، ومن لم يستطع منكم أداء
الصوم في هذا الشهر لعذر فعليه قضاء ما فاته منه في أيام أخر ويريد منكم أن
تكبروه - سبحانه - أي تحدوه وتعظموه ، فهو وحده الذي هداكم إلى تلك الأحكام
النافعة التي في صلاحكم وسعادتكم ويريد منكم أن تشكروه بأن تواظبوا على
الثناء عليه ، وعلى استعمال نعمه فما خلقت له فهو - سبحانه - الرءوف الرحيم
بعباده ، إذ شرع لهم فيه اليسر لا ما فيه العسر .وقد دلت الآية الكريمة على
الأمر بالتكبير إذ جعلته مما يريده الله - تعالى - ولهذا جاءت السنة
باستحباب التحميد والتسبيح والتكبير بعد الصلوات المكتوبات ، وفي عيدى
الفطر والأضحى يكون تكبير الله - تعالى - هو مظهرهما الأعظم .وبذلك تكون
الآيات الكريمة قد بينت أكمل بيان وأحكمه فضل الصوم ، وحمة مشروعيته ومظاهر
رحمة الله بعباده في هذه الفريضة ، وقد ذكرت أن المسلم له بشأن هذه الفريضة
حلاة من حالات ثلاث :الحالة الأولى : إذا كان المسلم في شهر رمضان كله أو
بعضه مريضاً بمرض عارض غير مزمن يرجى الشفاء منه ، أو مسافراً تتوفر فيه
شروط الفطر ، فله أن يفطر وأن يقضي بعد رمضان الأيام التي أفطرها بدليل
قوله - تعالى - : ( فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ على سَفَرٍ
فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ) .الحالة الثانية : إذا كان المسلم في
شهر رمضان مريضاً بمرض مزمن لا يرجى شفاءه والصوم فيه مشقة عليه ، أو كان
شيخاً كبيراً أو امرأة عجوزاً ولا يستطيعان الصوم ، فقد أباح الشارع لهؤلاء
أن يفطروا وأن يطعموا عن كل يوم مسكيناً ، لأن هذه الأعذار لا يرجى زوالها
ولا ينتظر أن يكون المبتلي بعذر منها بعد رمضان خيراً منه في رمضان ، لذا ،
أوجب الشارع على هؤلاء الفدية دون القضاء ، بدليل قوله - تعالى - ( فَمَن
شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ) ويحرم عليه أن يفطر ، وإن أفطر
لغير عذر شرعي كان من الخاسرين في الدنيا والآخرة ، ففي الحديث الشريف الذي
رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول
الله صلى الله عليه وسلم قال : " من أفطر يوماً من رمضان من غير رخصة ولا
مرض لم يقضه - أي لم يجزه - صوم الدهر كله وإن صامه " .أي : لو حصل منه صوم
طول حياته فلن يدرك ثواب ما ضيع بسبب فطره بغير عذر شرعي .والأحاديث في
الترغيب في صوم شهر رمضان ، وفي الترهيب من الفطر فيه كثيرة متنوعة .

واذا سالك عبادي عني فاني قريب اجيب دعوة الداع اذا دعان فليستجيبوا لي
وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون

، كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن العباد إذا حافظوا على فرائضه
واستجابوا لأوامره ، وابتعدوا عن نواهيه ، فإنه - عز وجل -لا يرد لهم
طلباً ولا يخيب لهم رجاء فقال :( وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي
فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ . . . )قال الإمام البيضاوي في وجه اتصال هذه
الآية بما قبلها من آيات الصيام : واعلم أنه - تعالى - لما أمرهم بصوم
الشهر ومراعاة العدة وحثهم على القيام بوظائف التكبير والشكر عقبة بهذه
الآية الدالة على أنه خبير بأحوالهم سميع لأقوالهم ، مجيب لدعائهم ، مجاز
على أعماله تأكيداً له وحثاً عليه " .وروى المفسرون في سبب نزول هذه الآية
روايات منها ما أخرجه بن جرير وابن أبي حاتم أن أعرابياً جاء إلى النبي صلى
الله عليه وسلم فقال : أقريب ربنا فنناجيه - أي : ندعوه سرا - أم بعيد
فنناديه؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله هذه الآية .ومنها
ما رواه ابن مردويه - بسنده - عن الحسن قال : سأل بعض الصحابة رسول الله
: صلى الله عليه وسلم أين ربنا؟ فأنزل الله - تعالى - هذه الآية .والمعنى

وإذا سألك عبادي يا محمد عن قربي وبعدي فقل لهم : إني قريب منهم بعلمي
ورحمتي وقدرتي وإجابتي لسؤالهم . قال - تعالى - : ( وَلَقَدْ خَلَقْنَا
الإنسان وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ
إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوريد ) وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري أنه قال
: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر فجعل الناس يجهرون بالتكبير . فقال
النبي صلى الله عليه وسلم : أيها الناس اربعوا على أنفسكم - أي أرفقوا
بها - فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً ، إنكم تدعون سميعاً بصيراً وهو معكم
) : - والذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته " .فقوله - تعالى ،
، فَإِنِّي قَرِيبٌ ) تمثيل لكمال علمه - تعالى - بأفعال عباده وأقوالهم
واطلاعه على سائر أحوالهم بحال من قرب مكانه منهم إذ القرب المكاني محال
على الله - تعالى - .وفي الآية الكريمة التفات عن خطاب المؤمنين كافة
بأحكام الصيام ، إلى خطاب النبي صلى الله عليه وسلم بأن يذكرهم ويعلمهم ما
يجب عليهم مراعاته في سائر عبادتهم من الإخلاص والأدب والتوجه إلى الله
وحده بالسؤال .ولم يصدر الجواب بقل أو فقل كما وقع في أجوبة مسائلهم
الواردة في آيات أخرى ، نحو ( وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الجبال فَقُلْ
يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً ) بل تولى - سبحانه - جوابهم بنفسه إشعاراً بفرط
قربه منهم ، وحضوره مع كل سائل بحيث لا تتوقف إجابته على وجود واسطة بينه
وبين السائلين من ذوي الحاجات .والمراد بالعباد الذين أضيفوا إلى ضمير
الجلالة هم المؤمنون لأن الحديث عنهم ، ولأن سياق الآيات بيان أحكام الصوم
وفضائله وهو خاص بالمؤمنين ، وقد أضيفوا إلى ضمير الجلالة لتشريفهم
وتكريمهم .وقوله - تعالى - : ( أُجِيبُ دَعْوَةَ الداع إِذَا دَعَانِ )
تقرير للقرب وتحقيق له ، ووعد للداعي بالإجابة متى صدر الدعاء من قلب سليم
ونفس صافية ، وجوارح خاشعة ، ولقد ساق لنا القرآن في آيات كثيرة أمثلة ،
لعباد الله الذين توجهوا إليه بالسؤال ، فأجاب الله سؤالهم ، ومن ذلك
- قوله - تعالى - :( وَنُوحاً إِذْ نادى مِن قَبْلُ فاستجبنا لَهُ ) وقوله
تعالى - ( وَزَكَرِيَّآ إِذْ نادى رَبَّهُ رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْداً
وَأَنتَ خَيْرُ الوارثين . فاستجبنا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يحيى
وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ) وقوله - تعالى - : ( وَأَيُّوبَ إِذْ نادى
رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضر وَأَنتَ أَرْحَمُ الراحمين فاستجبنا لَهُ
فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ ) وورد في الحديث ما يدل على أن العبد إذا
دعا الله - تعالى - بما فيه خير ، لم يخب عند الله دعاؤه ، ولكن لا يلزم أن
يعطيه - سبحانه - نفس ما طلبه ، لأنه هو الأعلم بما يصلح عباده . روى
الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ما
من مسلم يدعو الله - عز وجل - بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه
الله بها إحدى ثلاث خصال : إما أن يعجل إليه دعوته ، وإما أن يدخرها له في
) - الأخرى ، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها " .وقوله - تعالى
( فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ
توجيه منه - سبحانه - إلى ما يجعل الدعاء مرجو القبول والإجابة
والاستجابة : هي الإجابة بعناية واستعداد ، والسين والتاء للمبالغة.
: والرشد : الاهتداء إلى الخير وحسن التصرف في الأمر من دين أو دنيا يقال.
رشد ورشد يرشد ويرشد رشداً ، أي اهتدي .والمعنى : لقد وعدتكم يا عبادي بأن
أجيب دعاءكم إذا دعوتموني ، وعليكم أنتم أن تستجيبوا لأمري ، وأن تقفوا عند
حدودي ، وأن تثبتوا على إيمانكم بي ، لعلكم بذلك تصلون إلى ما فيه رشدكم
وسعادتكم في الحياتين العاجلة والآجلة . وأمرهم - سبحانه - بالإيمان بعد
الأمر بالاستجابة ، لأنه أول مراتب الدعوة ، وأولى الطاعات بالاستجابة .قال
الحافظ ابن كثير : وفي ذكره - تعالى - هذه الآية الباعثة على الدعاء متخللة
بين أحكام الصيام إرشاد إلى الاجتهاد في الدعاء عند إكمال العدة بل وعند كل
فطر ، كما روى أبو داود الطيالسي في مسنده عن عبد الله بن عمرو قال : سمعت
رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : للصائم عند إفطاره دعوة مستجابة فكان
عبد الله بن عمرو إذا أفطر جمع أهله وولده ودعا . وروى ابن ماجة عن بعد
الله بن عمرو قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن للصائم عند فطره
دعوة ما ترد " وكان عبد الله يقول إذا أفطر : اللهم إني أسألك برحمتك التي
وسعت كل شيء أن تغفر لي " وروي الإمام أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه
عن أبي هريرة قال :" قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة لا ترد دعوتهم
الإمام العادل ، والصائم حتى يفطر ، ودعوة المظلوم ، يرفعها الله دون :
الغمام يوم القيامة وتفتح لها أبواب السماء ويقول : بعزتي لأنصرنك ولو بعد
حين " .هذا والحديث عن الدعاء وعن فضله وعن آدابه وشروطه وفوائده وجوامعه
. . وغير ذلك مما يتعلق به قد بسطناه في غير هذا المكان فليرجع إليه من شاء

احل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم هن لباس لكم وانتم لباس لهن علم الله
انكم كنتم تختانون انفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالان باشروهن وابتغوا ما
كتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود من
الفجر ثم اتموا الصيام الى الليل ولا تباشروهن وانتم عاكفون في المساجد تلك
حدود الله فلا تقربوها كذلك يبين الله اياته للناس لعلهم يتقون

كما فسرها الوسيط وبعد هذا الحديث المؤثر عن الدعاء ، عاد القرآن إلى
- الحديث عن أحكام الصيام ، وعن مظاهر رحمة الله بعباده فيما شرع لهم فقال
. . . تعالى - :( أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصيام الرفث إلى نِسَآئِكُمْ
روى بعض المفسرين في سبب نزول هذه الآية الكريمة أحاديث تفيد أن المسلمين(
كانوا عند ما فرض صيام شهر رمضان . إذا أفطروا يأكلون ويشربون ويقربون
النساء ما لم يناموا ، فإذا ناموا حرم عليهم بعد ذلك الطعام والشراب وقربان
النساء حتى يفطروا من الغد .ومن الأحاديث التي وردت في هذا المعنى ما أخرجه
. الإمام أحمد وابن جرير وابن حاتم عن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه
قال : كان الناس في رمضان إذا صام الرجل فنام حمر عليه الطعام والشراب
والنساء حتى يفطر من الغد فرجع عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - من عند
النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة وقد سمر عنده ، فأراد امرأته فقالت إني
قد نمت ، فقال ما نمت ثم واقعها ، وصنع كعب مثل ذلك . فغدا عمر بن الخطاب
إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبهر فنزلت .ومنها ما رواه البخاري عن
البراء قال : كان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم إذا كان الرجل صائما فحضر
الإفطار فنام قبل أن يفطر لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يمس . وإن قيس بن
صرمة الأنصاري كان صائما وفي رواية : كان يعمل في النخيل بالنهار وكان
، صائما . فلما حضر الإفطار أتى امرأته فقال لها : أعندك طعام؟ قالت :لا
ولكن أنطلق فأطلب لك وكان يومه يعمل ، فغلبته عيناه فجاءته امرأته فما رأته
قالت : خيبة لك . فلما انتصف النهار غشى عليه ، فذكر ذلك للنبي صلى الله
عليه وسلم فنزلت هذه الآية ( أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصيام الرفث إلى
نِسَآئِكُمْ ) ففرحوا فرحاً شديداً ، ونزلت (وَكُلُواْ واشربوا حتى
يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الخيط الأبيض مِنَ الخيط الأسود مِنَ الفجر ) .وجمهور
، المفسرين - كما يقول الإمام الرازي - على أن هذه الآية من قبيل النسخ
لأنها قد نسخت ما كان حاصلا في أول فرضية من أن الصائم إذا نام بعد فطره لا
يحل له الأكل أو الشرب أو الجماع إلى أن يفطر من الغد .ويرى بعض العلماء أن
- الآية ليست من قبيل النسخ وإنما هي إرشاد إلى ما شرعه الله - تعالى
لعباده خلال شهر الصوم من إباحة غشيان أزواجهن ليلا . ومن جواز الأكل
والشرب ، حتى يتبين لهم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، وكأن
الصحابة كانوا يتحرجون عن ذلك ظناً منهم أنه من تتمة الصوم ، ورأوا أن لا
صبر لأنفسهم عن الأكل والشرب والجماع ليلا ، فبين الله لهم أن ذلك حلال لا
: حرج فيه .وأصحاب هذا الرأي يستشهدون لذلك بما رواه البخاري عن البراء قال
لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله ، وكان رجال يخونون
أنفسهم فأنزل الله - تعالى - ( عَلِمَ الله أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ
أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ ) فالمقصود من الآية
الكريمة عند هؤلاء رفع ما توهمه بعض الصحابة من أن الأكل أو الشرب أو
الجماع لا يجوز ما داموا قد ناموا بعد فطرهم؛ لأن الله - تعالى - رءوف رحيم
بهم ، ولم يشرع لهم ما فيه حرج أو مشقة عليهم .وعلى كلا القولين فالآية
الكريمة تسوق لنا لونا من ألوان رحمة الله - تعالى - بعباده فيما شرع لهم
من فرائض وأحكام .والمراد بليلة الصيام : الليلة التي يصبح فيها الإنسان
صائما دون تحديد ليلة معينة من شهر رمضان ، فالإضافة لأدنى ملابسة .قال
الجمل وقوله : ( لَيْلَةَ الصيام ) منصوب على الظرف ، وفي الناصب له ثلاثة
أقوال :أحدها : وهو المشهور عند المعربين أنه أحل ، وليس بشئ ، لأن
الإحلال ثابت قبل ذلك الوقت .الثاني : أنه مقدر مدلول عليه بلفظ الرفث
تقديره : أحل لكم أن ترفثوا ليلة الصيام .الثالث : أنه متعلق بالرفث وذلك
على رأى من يرى الاتساع في الظرف والمجرورات " .والرفث في الأصل : الفحش من
. القول ، وكلام النساء حين الجماع ، كنى به عن المباشرة للزومه لها غالباً
يقال رفث في لكامه - كنصر وفرح وكرم - وأرفث ، إذا أفحش فيه . والمراد به
: في الآية الجماع والمباشرة .وعدي بإلى - مع أن المستعمل الشائع أن يقال
رفث بالمرأة - لتضمنه معنى الإفضاء كما في قوله - تعالى - : ( وَقَدْ أفضى
بَعْضُكُمْ إلى بَعْضٍ ) والمعنى : أحل الله لكم في ليالي صومكم الإفضاء
إلى نسائكم ومباشرتهن وقوله - تعالى - ( هُنّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ
لِبَاسٌ لَّهُنّ ) وارد مورد المقتضى لإباحة مباشرة النساء في ليالي
الصيام ، ذلك أن كلا مع الزوجين يسكن إلى صاحبه ، ويكون من شدة القرب منه
كالثوب الملابس له وكانت العرب تسمى المرأة لباساً ، وهذه حال تقوى معها
الدواعي إلى المباشرة ، فمن رفقه - تعالى - بعباده أن أحلها لهم ليلة
الصيام .قال الراغب : جعل اللباس كناية عن الزوج لكونه ستراً لنفسه ولزوجه
أن يظهر منهما سوء ، كما أن اللباس ستر عنه أن يبدو منه السوء .وقال صاحب
الكشاف : فإن قلت : ما موقع قوله : ( هُنّ لِبَاسٌ لَّكُمْ ) قلت : هو
استئناف كالبيان لسبب الإحلال ، وهو أنه إذا كانت بينكم وبينهن مثل هذه
المخالطة والملابسة قل صبركم عنهن وصعب عليكم اجتنابهن ، فلذلك رخص لكم في
مباشرتهن " .وفي هذا التعبير القرآني ما فيه من اللطافة والأدب وسمو
التصوير لما بين الرجل وزوجه من شدة الاتصال والمودة واستتار كل واحد منهما
بصاحبه .وقوله - تعالى - : ( عَلِمَ الله أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ

أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ ) جملة معترضة بين قوله
وبين قوله : ( فالآن بَاشِرُوهُنّ ) ( أُحِلّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصيام ) :
إلخ .وقد جيء بها لبيان حالهم بالنسبة إلى ما فرط منهم ، ولبيان مظهر من
: مظاهر لطف الله بهم ، ورحمته إياهم .وقوله : ( تَخْتانُونَ ) قال الراغب
الاختيان مراودة الخيانة ، ولم يقل تخونون أنفسكم لأنه لم تكن منهم الخيانة
بل كان منهم الاختيان ، فإن الاختيان تحرك شهوة الإنسان لتحري الخيانة
وذلك هو المشار إليه بقوله - تعالى - : ( إِنّ النفس لأَمّارَةٌ بالسواء
والمعنى : علم الله - تعالى - أنكم كنتم تراودون أنفسكم على مباشرة (
نسائكم ليلا ، وعلى الأكل بعد النوم ، قبل أن يظهر الفجر الصادق ، بل إن
بعضكم قد فعل ذلك ، فكان من رحمة الله بكم أن أباح الأكل والشرب والجماع في
ليالي الصوم ، وأن قبل توبتكم وعفا عنكم ، أي : محا أثر ما فعلتموه من
الأكل والجماع قبل أن يأذن لكم بذلك .وجملة ( فَتَابَ عَلَيْكُمْ ) معطوفة
على محذوف ، والتقدير : قتبتم فتاب عليكم .والذين لا يرون أن الآية ناسخة
) : - لحكم سابق عبر عن وجهة نظرهم صاحب المنار فقال : وقوله - تعالى
عَلِمَ الله أَنّكُمْ كُنتُمْ تَخْتانُونَ أَنْفُسَكُمْ ) أي : تتنقصونها
بعض ما أحل الله لها من اللذات توهما أن من قبلكم كان كذلك فيكون بمعنى
التخون أي : النقص من الشيء أو معناه : تخونون أنفسكم إذ تعتقدون شيئاً ثم
لا تلتزمون العمل به فهو مبالغة من الخيانة التي هي مخالفة مقتضي الأدلة
ولم يقل تختانون الله كما قال في آية أخرى :لا تخونوا الله والرسول
وتخونوا أماناتكم " للإشعار بأن الله - تعالى - لم يحرم عليهم بعد النوم
في الليل ما حرمه على الصائم في النهار ، وإنما ذهب بهم اجتهادهم إلى ذلك
فهم قد خانوا أنفسهم في اعتقادها ، فكانوا كمن يتغشى امرأته ظاناً أنها
أجنبية ، فعصيانه بحسب اجتهاده لا بحسب الواقع ، فهم على أية حال كانوا
عاصين بما فعلوا محتاجين إلى التوبة والعفو ولذلك قال ( فَتَابَ عَلَيْكُمْ
وَعَفَا عَنْكُمْ ) .وقوله - تعالى - : ( فالآن بَاشِرُوهُنّ ) الأمر فيه
للإباحة وهو مرتب على قوله : ( أُحِلّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصيام الرفث إلى
نِسَآئِكُمْ ) .ولفظ ( فالآن ) يطلق حقيقة على الوقت أنت فيه ، وقد يقع على
الماضي القريب منك وعلى المستقبل القريب الوقوع تنزيلا له منزلة الحاضر وهو
، المراد هنا .( بَاشِرُوهُنّ ) من المباشرة وأصلها اتصال البشرة بالبشرة
وكنى بها القرآن عن الجماع الذي يستلزمها .وقوله - تعالى - ( وابتغوا مَا
كَتَبَ الله لَكُمْ ) تأكيد لما قبله . والابتغاء الطلب والمعنى : لقد
أبحنا لكم الإفضاء إلى نسائكم في ليالي رمضان بعد أن كان محرماً عليكم
فضلا منا ورحمة بكم فالآن باشروهن واطلبوا من وراء هذه المباشرة ما كتبه
لكم الله من الذرية الصالحة ومن التعفف عن إتيان الحرام .وفي هذا إشعار بأن
النكاح شرع ليبتغي به النسل حتى يتحقق ما يريده الله - تعالى - من بقاء
- النوع الإنساني ، ومن صيانة المرء نفسه عن الوقوع في فاحشة الزنا .وقوله
تعالى - ( وَكُلُواْ واشربوا حتى يَتَبَيّنَ لَكُمُ الخيط الأبيض مِنَ
: الخيط الأسود مِنَ الفجر ) معطوف على باشروهن .والمقصود من الخيط الأبيض
أول ما يبدو من الفجر الصادق المعترض في الأفق قبل انتشاره .والمقصود من
الخيط الأسود : ما يمتد مع بياض الفجر من ظلمة الليل .والمعنى : لقد أبحنا
لكم مباشرة النساء في ليالي الصوم ، وأبحنا لكم كذلك أن تأكلوا وأن تشربوا
في هذه الليالي حتى يتبين لكم بياض الفجر من سواد الليل .قال الإمام
الرازي : ( الفجر ) مصدر قولك : فجرت الماء أفجره فجراً ، وفجرته تفجيراً
قال الأزهري : الفجر أصله الشق ، فعلى هذا الفجر في آخر الليل هو انشقاق
ظلمة الليل بنور الصبح .وقد وردت روايات صحيحة تفيد أن قوله : ( مِنَ الفجر
قد تأخر نزوله عن الجمل السابقة له . ففي الصحيحين عن سهل به سعد قال (
أنزلت ( وَكُلُواْ واشربوا حتى يَتَبَيّنَ لَكُمُ الخيط الأبيض مِنَ الخيط
الأسود مِنَ الفجر ) فكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجليه الخيط
) الأبيض والخيط الأسود ، ويأكل حتى يتبين له رؤيتها ، فأنزل الله بعده
مِنَ الفجر ) فعلموا أنه يعني الليل والنهار .ورويا أيضاً عن عدي بن حاتم
قال : لما نزلت هذه الآية ( وَكُلُواْ واشربوا حتى يَتَبَيّنَ لَكُمُ
الخيط الأبيض مِنَ الخيط الأسود مِنَ الفجر ) عمدت إلى عقالين لي أسود
، وأبيض فجعلتهما تحت وسادتي وجعلت أنظر في الليل إليهما فلا يتبين لي
فعمدت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك فقال : " إنما ذلك سواد
الليل وبياض النهار " ونزل قوله - تعالى - : ( مِنَ الفجر ) .وشبه بياض
النهار وسواد الليل بالخيطين : الأبيض والأسود لأن أول ما يبدوا من الفجر
المعترض في الأفق وما يمتد معه من غبش الليل يكون كالخيط الممدود .وفي
الإتيان بلفظ التفعل في قوله : ( حتى يَتَبَيّنَ . . . ) إشعار بأنه لا
يكفي إلا التبين الوضاح لا مجرد التوهم ، فقد روى الإمام مسلم في صحيحه عن
سمرة بن جندب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا يغرنكم نداء
: بلال ولا هذا البياض حتى يبدو الفجر - أو قال - حتى ينفجر الفجر " .وقوله
بيان للخيط الأبيض . واكتفى به عن بيان الخيط الأسود ، لأن ( مِنَ الفجر )
بيان أحدهما بيان للثاني ، ويجوز أن تكون " من " للتبعيض ، أي : من بعض
الفجر .وقوله - تعالى - : ( ثُمّ أَتِمّواْ الصيام إِلَى الليل ) بيان

لإنتهاء وقت الصيام بعد أن بينت الجملة السابقة بدايته . أي : ابدءوا صومكم من طلوع الفجر وانتهوا منه بدخول الليل عند غروب الشمس ، إذ الليل ليس بوقت الصيام .قال الإمام الرازي : كلمة ( إِلَى ) لإنتهاء الغاية ، فظاهر الآية أن الصوم ينتهي عند دخول الليل ، وذلك لأن غاية الشيء مقطعه ومنتهاه : وإنما يكون مقطعاً ومنتهى إذا لم يبق بعد ذلك وقد تجيء هذه الكلة لا للإنتهاء كما في قوله - تعالى - : ( إلى المرافق ) إلا أن ذلك على خلاف الدليل ، والفرقب بين الصورتين أن الليل من جنس النهار فيكون الليل خارجاً عن حكم النهار ، والمرافق من جنس اليد فيكون داخلا فيه " .وفي الصحيحين عن " عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إذا أقبل الليل من هنا وأدبر النهار من هنا وغربت الشمس فقد أفطر الصائم وكان من عادته صلى الله عليه وسلم تعجيل الفطر ، فقد روى الشيخان عن سهل. بن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر " .وقد أخذ العلماء من هذه الآية ومن عمل الرسول صلى الله عليه وسلم وقوله ، أن من واصل الإمساك عن المفطرات في الليل فلا ثواب له على هذا الإمساك ، لأنه لم يقع في الوقت لالذي رسمه الشارع لعبادة الصوم ، بل يعد هذا المواصل فاعلا لمحظور ، فلا بد للصائم من تناول شي من المفطرات بعد غروب الشمس ولو قليلا من الماء . فقد روى الترمذي عن أنس بن مالك قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفطر قبل أن يصلي على رطبات فإن لم تكن رطبات فتميرات ، فإن لم تكن تميزات حسا حسوات من ماء ، والوصال - بمعى أن يصوم - الشخص اليوم وما بعده من غير أن يتناول مفطراً في الليل الفاصل بينهما وردت في النهي عنه أحاديث كثيرة ، ومن ذلك ما جاء في الصحيحين عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "لا تواصلوا ، قالوا : إنك تواصل يا رسول الله . قال : لست كأحد منكم إني أطعم وأسقى . أو قال : إني أظل يطعمني ربي ويسقيني " .وروى الإمام أحمد عن ليلى امرأة بشير بن الخصاصية قالت : أردت أن أصوم يومين مواصلة فمنعنى بشير وقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عنه وقال : " يفعل ذلك النصارى ولكن صوموا كما أمركم الله ثم أتموا الصيام إلى الليل ، فإذا كان الليل فأفطروا " .وقوله ( وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ ) كان هذا الإطلاق مظنة لأن يؤخذ منه أن المعتكف - كالصائم في أنه يجوز له أن يباشر زوجته ليلا لا نهاراً ، فبين - سبحانه بهذه الجملة أن المعتكف يحرم عليه أن يباشر النساء فيي الليل والنهار .قال القرطبي : والاعتكاف في اللغة : الملازمة ، يقال عكف على الشيء إذا لازمه مقبلا عليه .قال الشاعر :وظل بنات الليل حولي عكفا ... عكوف البواكي بينهن صريعولما كان المعتكف ملازماً للعمل بطاعة الله مدة اعتكافه لزمه هذا الاسم وهو في عرف الشرع : ملازمة طاعة مخصوصة في وقت مخصوص على شرط مخصوص في موضع مخصوص .وأجمع العلماء على أنه ليس بواجب وهو قربة من القرب ونافلة من النوافل عمل بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وأزواجه ، ويلزمه إن ألزمه نفسه ، ويكره الدخول فيه لمن يخاف عليه العجز عن الوفاء بحقوقه وأجمع العلماء على أنه لا يكون إلا في المسجد واختلفوا في المراد بالمساجد. في قوله - تعالى - ( فِي المساجد ) فذهب قوم إلى أن الآية خرجت على نوع من المساجد وهو ما بناه نبي كالمسجد الحرام والمسجد النبوي وبيت المقدس ، وقال آخرون لا اعتكاف إلا في مسجد تجمع فيه الجمعة ، وقال آخرون الاعتكاف في كل مسجد جائز .والمشار إليه في قوله - تعالى - : ( تِلْكَ حُدُودُ الله فَلاَ تَقْرَبُوهَا ) الأحكام التي سبق تقريرها من إيجاب وتحريم وإباحة .والحدود جمع حد ، وهو في اللغة الحاجز بين الشيئين المتقابلين ليمنع من دخول أحدهما في الآخر . ومنه سمي الحديد حديداً لأنه يمنع وصول السلاح إلى البدن .و : سميت الأحكام التي شرعها الله حدوداً لأنها تحجز بين الحق والباطل .أي تلك الأحكام التي شرعناها لكم من إيجاب الصوم ، وتحريم الأكل والشرب والجماع في نهاره ، وإباحة ذلك في ليله ، هي حدود الله التي لا يحل لكم مخالفتها أو مجازتها .وعبر - سبحانه - عن النهي عن مخالفة تلك الأحكام بقوله : ( فَلاَ تَقْرَبُوهَا ) مبالغة في التحذير من مخالفتها ، لأن النهي عن القرب من الشيء نهى عن إتيانه بالأولى والآية ترشد بقولها ( فَلاَ تَقْرَبُوهَا ) إلى اجتناب ما فيه شبهة كما ترشد إلى ترك الأشياء التي تقضى ) في غالب أمرها إلى الوقوع في حرام .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف قيل فَلاَ تَقْرَبُوهَا ) مع قوله : ( فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ الله ) قلت : من كان في طاعة الله والعمل بشرائعه فهو متصرف في حيز الحق فنهى أن يتعداه . لأن من تعداه وقع في حيز الباطل ، ثم بولغ في ذلك فنهى أن يقرب الحد الذي هو الحاجز بين حييز الحق والباطل لئلا يداني الباطل وأن يكون في الواسطة متباعداً عن الطرف فضلا عن أن يتخطاه كما قال رسول ، الله صلى الله عليه وسلم : " إن لكل ملك حمى ، وحمى الله محارمه ، فمن رتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه " فالرتع حول الحمى وقربان حيزه واحد . ويجوز أن يريد بحدود الله محارزه ومناهيه خصوصاً لقوله - تعالى - : ( وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ ) وهي حدود لا تقرب " .ثم ختم - سبحانه - هذه الآية الكريمة بقوله : ( كذلك يُبَيِّنُ الله آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ) .أي : مثل ذلك البيان الجامع الذي بين الله به حدوده التي

أمركم بالتزامها ونهاكم عن مخالفتها ، يبين لكم آياته ، أي : أدلته وحججه لكي تصونوا أنفسكم عما يؤدي بكم إلى العقوبة ، وتكونوا ممن رضى الله عنهم ورضوا عنه .وبذلك تكون الآية الكريمة قد ختمت الحديث عن الصوم ، ببيان مظاهر رفق الله بعباده ، ورعايته لمصالحهم ومنافعهم بأسلوب بليغ جمع بين الترغيب والترهيب ، والإباحة والتحريم ، وغير ذلك من أنواع الهداية والإرشاد إلى ما يسعد الناس في دينهم ودنياهم .وبعد أن أنهى القرآن حديثه عن الصيام ، وما يتعلق به من أحكام ، أردف ذلك بالنهي عن أكل الحرام ، لأنه يؤدي إلى عدم قبول العبادات من صيام واعتكاف ودعاء وغير ذلك فقال - تعالى - :
( وَلاَ تأكلوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بالباطل وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الحكام ) . . .

ولا تاكلوا اموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتاكلوا فريقا من اموال الناس بالاثم وانتم تعلمون

كما فسرها الوسيط الخطاب في الآية الكريمة موجه إلى المؤمنين كافة في كل زمان ومكان .والمراد بالأكل مطلق الأخذ بغير وجه حق ، وعبر عنه بالأكل ، لأن الأكل أهم وسائل الحياة ، وفيه تصرف الأموال غالباً .والباطل في اللغة الزائل الذاهب ، يقال : بطل يبطل بطولا وبطلانا . أي ذهب ضياً وخسراً . وجمع الباطل أباطيل . ويقال : بطل الأجير يبطل بطالة إذا تعطل واتبع اللهو ، والمراد هنا : كل ما لم يبح الشرع فأخذه من المال وإن طابت به النفس. ، كالربا والميسر وثمن الخمر ، والرشوة ، وشهاد الزور ، والسرقة ، والغصب ونحو ذلك مما حرمه الله - تعالى - .والباء للسببية ، والجار والمجرور متعلق بالفعل قبله ، وكذلك قوله : ( بَيْنَكُمْ ) .والمعنى :لا يأخذ بعضكم مال بعض ، ويستولي عليه بغير حق ، متذراعاً بالأسباب الباطلة ، والحيل الزائفة وما إلى ذلك م وجوه التعدي والظلم .وفي قوله - تعالى - : ( أَمْوَالَكُمْ ، مع أن أكل المال يتناول مال الإنسان ومال غيره - في هذا القول إشعار - ( بوحدة الأمة وتكافلها ، وتنبيه إلى أن احترام مال غيرك وحفظه هو عين ، الاحترام والحفظ لما لك أنت ، ففيه هذه الإضافة البليغة تعليل للنهي وبيان لحكمة الحكم ، إذا استحلال الإنسان لمال غيره يجرئ هذا الغير على استحلال مال ذلك الإنسان المتعدي ، وإذا فشا هذا السلوك في أمة من الأمم أدى بها إلى الضعف والتعادي والتباغض .فيما أحكم هذا التعبير ، وما أجمل هذا التصوير .وقوله : ( وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الحكام ) معطوف على ) وَلاَ تأكلوا ) .والإدلاء في الأصل : إرسال الدول في البئر للاستقاء . ثم جعل كل إلقاء قول أو فعل إدلاء؛ ومنه أدلى فلان بحجته ، أي : أرسلها ليصل إلى مراده .والمراد بالإدلاء هنا : الدفع والإلقاء بالأموال إلى الغير من أجل الصولو إلى أمر معين .والحكام : جمع حاكم ، وهو الذي يتصدى للفصل بين ، الناس في خصوماتهم وقضاياهم .والفرق : الطقعة المعزولة من جملة الشيء ومنه قيل للقطعة من الغنم تشذ عن معظمها فريق .والإثم : الفعل الذي يستحق - صاحبه الذم والعقاب . وجمعه آثام .والمعنى :لا يأخذ بعضكم أموال بعض أيها المسلمون - ولا يستولي عليها بغير حق ، ولا تدلوا بها الحكام ، أي ولا تلقوا أمرها والتحاكم فيها إلى القضاة ، لا من أجل الوصول إلى الحق ، وإنما من أجل أن تأخذوا عن طريق التحاكم قطعة من أموال غيركم متلبسين بالإثم الذي يؤدي إلى عقابكم ، حال كونكم تعلمون أنكم على باطل ، ولا شك أن إتيان الباطل مع العلم بأنه باطل أدعى إلى التوبيخ من إتيانه على جهالة به .فعل هذا الوجه يكون المراد بالإدلاء بالأموال إلى الحكام طرحها أمامهم ليقضوا فيها ، وليتوسل بعض الخصوم عن طريق هذا القضاء إلى أكل الأموال بالباطل حين ، عجزوا عن أكلها بالمغالبة .وهناك وجه آخر تحتمله الآية احتمالا قريباً ، وبه قال كثير من العلماء وهو أن المراد بالإدلاء بالأموال إلى الحكام إلقاءؤها إليهم على سبيسل الرشوة ليصلوا من وراء ذلك إلى أن يحكموا لصالحهم بالباطل ، وعليه يكون المعنى لا يأخذ بضعكم أموال بعض أيها المسلمون ، ولا تلقوا ببعضها إلى حكام السوء على سبيل الرشوة ، لتتوصلوا بأحكامهم الجائرة إلى أكل فريق من أموال الناس بغير حق . ولا غربة في أن يعني القرآن في سياسته الرشيدة بالتحذير من جريمة الرشوة ، فإنها المعول الذي يهدم صرح العدل من أساسه وبها تفقد مجالس القضاء حرمتها وكرامتها ، وتصير تلك المجالس موطنا للظلم لا للعدل .وخص القرآن الكريم هذه الصورة بالنهي - وهي ) : صورة الإدلاء بالأموال إلى الحكام - مع أنه قد ذكر ما يشملها بقوله وَلاَ تأكلوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بالباطل ) لأنها على وجهي تفسيرها ، شيديدة الشناعة ، جامعة لمنكرات كثيرة ، كالظلم ، والتباغض والرشوة والغصب وغير ذلك . والحق ، أن هذه الآية الكريمة أصل من الأصول التي يقوم عليها إصلاح المعاملات ، وقد أخذ العلماء منها حرمة أكل أموال الناس بالباطل ، وحرمة إرشاء الحكام ليقوضا لراشي بمال غيره وقد لعن النبي صلى الله عليه وسلم الجميع في الحديث الذي أخرجه الترمذي عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لعن الله الراشي والمرتشي والراءش " وهو الواسطة الذي يمشي بينهما .كما أخذوا منها أن حكم الحاكم على ما يقتضيه

الظاهر من أمر القضية لا يحل في الواقع حراماً ، ولا يحرم حلالاً ، والدليل على ذلك ما أخرجه الشيخان عن أم سلمة - رضي الله عنها - عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سمع خصومه بباب حجرته ، فخرج إليهم فقال : " إنما أنا بشر وإنه ليأتيني الخصم . فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض ، فأحسب أنه قد صدق ، فأقضى له بذلك . فمن قضيت له بحق بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليأخذها أو ليتركها " .قال الإمام ابن كثير : فدلت هذه الآية الكريمة هذا الحديث على أن حكم الحاكم لا يغير الشيء في نفس الأمر ، فلا يحل في نفس الأمر حراماً ولا يحرم حلالا ، وإنم اهو ملزم في الظاهرة فإن طبق في نفس الأمر فذاك وإلا فللحاكم أجره وعلى المحتال وزره . ولهذا قال - تعالى - في آخر الآية ( وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ) . أي تعلمون بطلان ما تدعونه وترجونه في كلامكم .وبذلك تكون الآية الكريمة قد رسمت طريق الحق لمن يريد أن يسير فيه ( لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ ويحيى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ الله لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ) ثم انتقل القرآن إلى الحديث عن الأهلة لما لها من صلة بالصيام وبالقتال في الأشهر الحرام وبمواقيت الحج فقال - تعالى - :( يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهلة قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ والحج وَلَيْسَ البر ( . . .

يسالونك عن الاهلة قل هي مواقيت للناس والحج وليس البر بان تاتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى واتوا البيوت من ابوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون

كما فسرها الوسيط ورد في سبب نزول هذه الآية روايات منها ما أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي العالية قال : " بلغنا أن بعض الناس قالوا : يا رسول الله ، لم خلقت الأهلة فنزلت " .والأهلة : جمع الهلال ، وهو الكوكب الذي يبزغ في أول كل شهر ، ويسمى هلالا لثلثا ليال أو لسبع ليلا من ظهوره ، ثم يسمى بعد ذلك قمرا إلى أن يعود من الشهر الثاني .قال بعضهم : وهو مشتق من استهل الصبي إذا بكى وصاح حين يولد ، ومنه أهل القوم بالحج إذا رفعوا أصواتهم بالتلبية وسمى بذلك لأنه حين يرى يهل الناس بذكره أو بالتكبير ، ولهذا يقال أهل ، الهلال واستهل .والمواقيت : جمع ميقات بمعنى الوقت ، وهو ما يقدر لعمل من الأعمال وقيل : الميقات منتهى الوقت .والمعنى : يسألك بعض الناس عن الحكمة من خلق الأهلة ، قل لهم - يا محمد 0 إن الله - تعالى - قد خلقها لتكون معالم يوقت ويحدد بها الناس صومهم ، وزكاتهم ، وحجهم ، وعدة نسائهم ، ومدد ) : - حملهن ، ومدة الرضاع ، وغير ذلك مما يتعلق بأمور معاشهم .قال - تعالى - : هُوَ الذي جَعَلَ الشمس ضِيَآءً والقمر نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السنين والحساب مَا خَلَقَ الله ذلك إلاَّ بالحق يُفَصِّلُ الآيات لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ) وخص الحج بالكر مع أن الأهلة مواقيت لعبادات أخرى كالصوم والزكاة للتبيه على أن الحج مقصور وقد أدائه على الزمن الذي عينه الله - تعالى - وأنه لا يجوز نقله إلى وقت آخر كما كانت العرب تفعل ، إذ كانوا ينقلون ما شاؤوا من الأشهر الحرام الأربعة التي من جملتها ذو الحجدة إلى شهر آخر غير حرام ، وهو النسيء المشار إليه بقوله - تعالى - : ( إِنَّمَا النسياء زِيَادَةٌ في الكفر ) وخص الشارع المواقيت بالأهلة وأشهرها دون الشمس وأشهرها ، لأن الأشهر الهلالية تعرف برؤية الهلال ومحاقه ، وذلك ما لا يخفى على أحد من الخاصة أو العامة أينما كانوا بخلاف الأشهر الشمسية ، فإن معرفتها تنبني على النظر في حركات الفلك وهي لا تتيسر ألا للعارفين بدقائق علم الفلك .هذا ، وم الروايات التي وردت في سبب نزول هذه الآية ما رواه أبو نعيم وابن عساكر عن ابن عباس قال : نزلت - في معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم قالا : يا رسول الله . ما بال الهلال يبدو أو يطلع - دقيقاً مثل الخيط ثم يزيد حتى يعظم ويستدير ، ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يعود كما كان ، لا يكون على حال واحد؟ فنزلت .وعلى هذه الرواية يكون الجواب بقوله - تعالى - : ( قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ والحج ) من قبيل أسلوب الحكيم ، وهو إجابة السائل بغير ما يتطلبه سؤاله ، بتنزيل سؤاله منزلة غيره ، تنبيها له على أن ذلك الغير هو الأولى بالسؤال لأنه هو المهم بالنسبة له .فأنت ترى هنا أن السائلين قد سألوا عن سبب اختلاف - الأهلة بالزيادة والنقصان ، فأجيبوا ببيان الحكمة من خلقها ، فكأنه سبحانه - يقول لهم : عليكم أن تسألوا عن الحكمة والفائدة من خلق الأهلة لأن هذا هو الأليق بحالكم وهو ما أجبتكم عليه ، لا أن تسألوا عن سبب تزايدها في أول الشهر وتناقصها في آخره ، لأن هذا من اختصاص علماء الهيئة ، وأنتم لستم في حاجة إلى معرفة ذلك في هذا الوقت .ولعلماء البلاغة كلام جيد في مزايا ما يسمونه بأسلوب الحكيم ، فقد قال السكاكي ما ملخصه : " ولهذا النوع - أعني إخراج الكلام لا على مقتضى الظاهر - أساليب متفننة ، ولكل من تلك الأساليب عرق في البلاغة يتشرب من أفانين سحرها ، ولا كأسلوب الحكيم فيها . وهو تلقى ) - المخاطب بغير ما يترقب ، أو السائل بغير ما يتطلب ، كما قال - تعالى يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهلة ) الآية . قالوا في السؤال ما بال الهلال يبدوا دقيقاً . . ألخ فأجيبوا بما ترى . وإن هذا الأسلوب الحكيم لربما صادف

، المقام فحرك من نشاط السامع ما سلبه حكم الوقور ، وأبرزه في معرض المسحور
وهل ألان شكيمة " الحجاج الثقفي " لذلك الرجل الخارجي ، وسل سخيمته ، حتى
آثر أن يحسن على أن يسيء غير أن سحره بهذا الأسلوب؟ إذ توعده الحجاج بالقيد
في قوله " لأحملنك على الأدهم " فقال الخارجي متغابيا : مثل الأمير يحمل
على الأدهم الأشهب . مبرزا وعيده في معرض الوعد ، متوصلا أن يريه بألطف
) : - وجه : أن رجلا مثله جدير بأن يعد لا أن يوعد " .وقوله - تعالى
وَلَيْسَ البر بِأَن تَأْتُواْ البيوت مِن ظُهُورِهَا ولكن البر مَنِ اتقى
وَأْتُواْ البيوت مِنْ أَبْوَابِهَا ) هذا القول الكريم نهى لجماعة
المسلمين عن عادة كونا يفعلونها في الجاهلية ، وهي أنهم كانوا إذا عادوا من
حجهم أو أحرموا لا يدخلون من أبواب بيوتهم ، بل كانوا يدخلون من نقب
- ينقبونه في ظهور بيوتهم .أخرج البخاري عن أبي إسحاق قال : سمعت البراء
رضي الله عنه - يقول : نزلت هذه الآية فينا . كانت الأنصار إذا حجوا فجاءوا
لم يدخلوا من أبواب بيوتهم ولكن من ظهورها فجاء رجل من الأنصار فدخل من قبل
بابه فكأنه عير بذلك فنزلت : ( وَلَيْسَ البر ) إلخ .والمعنى : وليس من
البر ما كنتم تفعلونهن في الجاهلية من دخولكم البيوت من ظهورها عند إحرامكم
أو عودتكم من حجكم ، وكلن البر الحق الجامع لخصال الخير يكون في تقوى الله
بأن تمتثلوا أوامرره وتجتنبوا نواهيه ، وإذا ثبت ذلك فعليكم أن تأتوا
البيوت من أبوابها عند إحرامكم أو رجوعكم من حجكم .وفي الأمر بأتيان البيوت
من أبوابها إشعار بأن إيتانها من ظهورا ابسم الدين غير مأذون فيه ، وكل ما
يفعل باسم الدين وليس له في الدين من شاهد فهو بدعة ، وكل بدعة ضلالة .وفي
الآية الكريمة تعريض بمن يسأل النبي صلى الله عليه وسلم عما هو ليس من
العلم المختص بالنبوة ، ولا تتوقف معرفته على الوحي ، فهذا السائل في سؤاله
مثله كمثل من يدخل البيت من ظهره لا من بابه .قال بعضهم : وذلك لأن العلم
على ضربين : علم دنيوي يتعلق بأمر المعاش - كمعرفة الصنائع ومعرفة حركات
ومعرفة المعادن والنبات ، وقد جعل الله لنا سبيلا إلى معرفة ذلك غير لسان
بينه صلى الله عليه وسلم .وعلم شرعي يتعلق بالعبادات والمعاملات والعقيدة
ولا سبيل إلى أخذه إلا من الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم .فلما جاءوا
. يسألون النبي صلى الله عليه وسلم عما أمكنهم معرفته من غير جهته أجابهم
ثم بين لهم أن البر في التقوى وذلك يكون بالعلم والعمل المختص بالدين " .قا
صاحب الكشاف : فإن قلت . ما وجه اتصال قوله - تعالى - ( وَلَيْسَ البر )
إلخ بما قبله؟ قلت : كأنه قيل لهم عند سؤالهم عن الأهلة وعن الحكمة في
نقصانها وتمامها : إن كل ما يفعله الله - تعالى -لا يكون إلا عن حكمة
ومصلحة لعباده فدعوا السؤال عنه وانظروا في واحدة تعفلونهها أنتم مما ليس
من البر في شيء وأنتم تحسبونها برا . ويجوز أن يكون ذلك على طريق الاستطراد
لما ذكر أنها مواقيت للحج ، لأنه كان من أفعالهم في الحج . ويحتمل أن يكون
. هذا لتعكيسهم في سؤالهم وأن مثلهم كمثل من يترك باب البيت ويدخله من ظهره
والمعنى : ليس البر وما ينبغي أن تكونوا عليه بأن تعكسوا في مسائلكم ، ولكن
البر بر من اتقى ذلبك وتجنبه ولم يجسر على مثله ثم قال : ( وَأْتُواْ
البيوت مِنْ أَبْوَابِهَا ) أي : باشروا الأمور من وجوهها التي يجب أن
تباشر عليها ولا تعكسوا ، والمراد وجوب توطين النفوس وربط القلوب على أن
جميع أفعال الله حكمة وصواب .وقوله - تعالى - ( واتقوا الله لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ ) أمر بالتقوى التي تتضمن القيام بجميع الواجبات واجتناب البدع
، والمنكرات . أي : افعلوا ما أمركم الله به ، واجتنبوا ما نهاكم عنه
لتكونوا من المفلحين ، وهم الفائزون بالحياة المطمئنة في الدنيا والنعيم
الخالد في الآخرة . وبذلك تكون الآية الكريمة قد رددت عقول الناس إلى النظر
، والتأمل في سنن الله وفي خلفه على النحو الذي ينشئ التقوى في النفوس
- ويوجه إلأى العمل الصالح الذي يرضى الله - تعالى - .وبعد أن أمر - سبحانه
المؤمنين بطاعته وتقواه ، وحضهم على الجهاد في سبيله إذ هو من أجل مظاهرها
وبصرهم بحكمته وآدابه فقال - تعالى - :( وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ الله ،
( . . . الذين يُقَاتِلُونَكُمْ

وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين

كما فسرها الوسيط قال ابن كثير : قال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أسن عن
أبي العالية في قوله - تعالى - ( وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ الله الذين
يُقَاتِلُونَكُمْ ) قال : هذا أول آية نزلت في القتال بالمدينة فلما نزلت
كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقاتل من قالته وكيف عمن كف عنه حتى نزلت
سورة براءة .ويرى بعض العلماء أن هذه الآيات قد وردت في الأذن بالقتال
للمحرمين في الأشهر الحرام إذا فوجئوا بالقتال بغياً وعدواناً . فهي متصلة
بما قبلها أتم الاتصال ، لأن الآية السابقة بينت أن الأهلة مواقيت للناس في
عباداتهم ومعاملاتهم عامة وفي الحج خاصة وهو في أشهر هلالية مخصوصة كان
القتال فيها محرماً في الجاهلية . فقد أخرج الواحدي عن ابن عباس أن هذه
الآيات نزلة في صلح الحديبية ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صده
المشركون عن البيت الحرام - ثم صالحوه فرضى على أن يرجع عامه القابل ويخلوا

له مكة ثلاثة أيام يطوف ويفعل ما يشاء فلما كان العام القابل تجهز هو وأصحابه لعمرة القضاء وخافوا ألا تفى لهم قريش ، وأن يصدوهم عن المسجد الحرام بالقوة ويقاتلوهم وكره أصحابه قتالهم في الحرم والشهر الحرام فأنزل الله - تعالى الآيات .والقتال والمقاتلة : محاولة الرجل قتل من يحاول قتله والتقاتل محاولة كل واحد من المتعاديين قتل الآخر .قال أبو حيان : وقوله ، السبيل هو الطريق . واستعير لدين الله وشرائعه لأن ( فِي سَبِيلِ الله ) : المتبع لذلك يصل به إلى بغيته الدينية والدنيوية ، فشبه بالطريق الموصل الإنسان إلى ما يقصده ، وهذا من استعارة الأجرام للمعاني ويتعلق ( فِي سَبِيلِ الله ) بقوله : ( وَقَاتِلُوا ) وهو ظرف مجازي ، لأنه لما وقع القتال بسبب نصرة الدين صار كأنه وقع فيه ، وو على حذف مضاف والتقدير في نصرة دين الله .والمراد بالقتال في سبيل الله : الجهاد من أجل إعلاء كلمته حتى يكون أهل دينه الحق أعزاء لا يسومهم أعداؤه ضيماً ، وأحراراً في الدعوة إليه وإقامة شرائعه العادلة في ظل سلطان مهيب .أي : قاتلوا أيها المؤمنون لإعلاء كلمة الله وإعزاز دينه أعداءكم الذين أعدوا أنفسهم لقتالكم ومناجزتكم وتحققتم منهم سوء النية ، وفساد الطوية .فالآية الكريمة تهييج للمؤمنين وإغراء لهم على قتال أعدائهم بدون تردد أو تهيب ، وإرشاد لهم إلى أن يجعلوا جهادهم من أجل نصرة الحق ، لا من أجل المطامع أو الشهوات .فقد روى الشيخان أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي موسى - رضي الله عنه - " أن أعرابياً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله : الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل ليذكر ، والرجل يقاتل ليرى مكانه - أي ليتحدث الناس بشجاعته وليظهر بينهم - أي ذلك في سبيل الله؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله " .والأحاديث في الدعوة إلى أن يكون الجهاد في سبيل الله من أجل إعلاء كلمته كثيرة متعددة . وقوله (وَلاَ تعتدوا ) نهى عن الاعتداء بشتى صورة ويدخل فيه دخولا أولياء الاعتداء في القتال .والاعتداء : مجازة الحد فيما أمر الله به أو نهى عنه .أي : قاتلوا في سبيل الله من يناصبكم القتال من المخالفين ، ولا تتجاوزوا في قتالهم إلى من ليس شأنهم قتالكم ، كنسائهم وصبيانهم ورهبانهم ، وشيوخهم الطاعنين في السن إلى حد الهرم ، ويلحق ، بهؤلاء المريض والمقعد والأعمى والمجنون . وقد وردت في النهي عن قتل هؤلاء الأحاديث النبوية ووصايا الخلفاء الراشدين لقواد جيوشهم ، فهؤلاء يتجنب ، قتالهم إلا من قامت الشواهد على أن له أثراً من رأى أو عمل في الحرب يؤازر به المحاربين لينتصروا على المجاهدين .قال ابن كثير : ولهذا جاء في صحيح مسلم عن بريدة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : " أغزوا في سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، أغزوا ولا تغلو ولا تغدروا ولا تمثلوا : ولا تقتلوا الوليد ولا أصحاب الصوامع " وفي الصحيحين عن ابن عمر قال وُجِدَتْ امرأة في بعض المغازي مقتولة فأنكر رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل النساء والصبيان .وقوله : ( إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ المعتدين ) كالتعليل لما قبله في النهي عن مجاوزة ما حده الله - تعالى - في قتال المخالفين .ومحبة الله لعباده : صفة من صفاته - تعالى - من أثرها الرعاية والإنعام . وإذا نفى الله - تعالى - محبته لطائفة من الناس فهو كناية عن بغضه لهم ، واستحقاقهم لعقوبته .

واقتلوهم حيث ثقفتموهم واخرجوهم من حيث اخرجوكم والفتنة اشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فان قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين

كما فسرها الوسيط وقوله : ( واقتلوهم حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُم ) الضمير المنصوب فيه يعود على قوله : ( الذين يُقَاتِلُونَكُمْ ) في الآية السابقة و ( ثَقِفْتُمُوهُم ) : أدركتموهم وظفرتم بهم . يقال : ثقف الشيء إذا ظفر. به ووجده على جهة الأخذ والغلبة ومنه جرل ثقف إذا كان سريع الأخذ لأقرانه . قال الشاعر :فإما تثقفوني فاقتلوني ... فمن أثقف فليس إلى خلودويقال - أيضاً - رجل ثقف : إذا كان محكماً لما يتناوله من الأمور .والمعنى : عليكم أيها المسلمون أن تقتلوا هؤلاء الذين إذنا لكم بقتالهم حيث وجدتموهم وظفرتم بهم ، فأنهم قد بادءوكم بالعدوان ، وتمنوا لكم كل شر وسوء .وقوله ( وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ) معطوف على ما قبله .وحيث ظرف مكان . والمكان الذي أخرجوهم منه هو مكة ، فإن المشركين من قريش قد أنزلوا بالمسلمين الأولين من صنوف الأذى ما جعلهم يتركون مكة ويهاجرون إلى بلاد الحبشة .أولا : ثم إلى المدينة المنورة ثانياً .أي : اقتلوا هؤلاء الذين قاتلوكم في أي مكان لقيتموهم فيه ، وأخرجوهم من المكان الذي أخرجوكم منه وهو مكة .وفي هذا تهديد للمشركين ، وإغراء للمسلمين بهم ، ووعد بفتح مكة وقد أنجز الله - تعالى - وعده ففتح المسلمون مكة في السنة الثامنة من الهجرة .وقولع - تعالى - : ( والفتنة أَشَدُّ مِنَ القتل ) . دفع لما قد يقع من بعض المسلمين من استعظام قتل المشركين في مكة .والفتنة في الأصل : مصدر فتن الصائغ الذهب والفضة إذا أذابهما بالنار ليستخرج الزائف منهم ثم

استعملت في الابتلاء والامتحان والصرف عن الشيء ، وأكثر استعمالها في التضليل والصد عن الدين ، ثم على الكفر .ويبدو أن المراد منها هنا ما كان يفعله المشركون مع المسلمين من التعذيب والصد عن الدين ، والإخراج من الوطن ، وغير ذلك من صنوف الأذى .والمعنى :لا تقصروا في قتل المشركين الذين يقاتلونكم ، والذين أخرجوكم من دياركم ، فإن فتنتهم لكم بالإيذاء والتعذيب والصد عن الدين ، أشد ضررا من قتلكم لهم في أي مكان وجدوا به ، وبعضهم فسر الفتنة هنا بالشرك ، أو بالرجوع إلى الكفر ، أو بعذاب الآخرة.

وقد بين ذلك صاحب الكشاف بقوله . وقوله : ( والفتنة أَشَدُّ مِنَ القتل ) أي : المحنة والبلاء الذي ينزل بالإنسان يتعذب به أشد عليه من القتل وقيل لبعض الحكماء : ما أشد من الموت : قال : الذي يتمنى فيه الموت ، جعل الإخراج من الوطن من الفتن والمحن التي يتمنى عندها الموت ، ومنه قول ) : القاتَل :القتل بحد السيف أهون موقعا ... على النفس من قتل بحد فراقوقيل : والفتنة ) عذاب الآخرة قال - تعالى - ( ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ ) وقيل الشرك أعظم من القتل في الحرم ، وذلك لأنهم كانوا يستعظمون القتل في الحرم ويعيبون به المسلمين . فقيل : والشرك الذي هم عليه أشد وأعظم مما يستعظمونه ويجوز أن يراد : وفتنتهم إياكم بصدكم عن المسجد الحرام أشد من قتلكم إياهم في الحرم ، أو من قتلهم إياكم إن قتلوكم فلا تبالوا بقتالهم " .وإلى هنا تكون الآية الكريمة قد أذنت للمؤمنين في قتل الذين يناجزونهم القتال دفعاً لشرهم أينما وجدوا .ثم ساقت الآية جملة أخرى نهت فيها المؤمنين عن قتال المشركين عند المسجد الحرام مراعاة لحرمته . ما دام المشركون لم يفاتحوهم بالقتال عنده ، أما إذا فاتحوهم بالقتال فيه ، فقد أصبح من حق المؤمنين أن يدافعوا عن أنفسهم ، وأن يقاتلوا أعداءهم . وهذه الجملة هي قوله - تعالى - : وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ المسجد الحرام حتى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ) فَإِن قَاتَلُوكُمْ فاقتلوهم ) .أي :لا تقاتلوا أيها المؤمنون أعداءكم عند المسجد الحرام احتراماً له حتى يبدأ المشركون قتالكم عنده فإن بدءوكم بالقتال فيه فلا حرج عليكم في قتلهم عنده ، لأن المنتهك لحرمة المسجد الحرام إنما هو البادئ بالقتال فيه وهم المشركون ، وليستم أنتم أيها المؤمنون لأن موقفكم إنما هو موقف المدافع عن نفسه .فأنت ترى أن الآية الكريمة قد حفظت للمسجد الحرام حرمخته وهيبته ومكانته السامية لأن حرمته لذاته ، وحرمة سائر الحرم من أجله ، إلا أنها أذنت للمسلمين أن يدافعوا عن أنفسهم إذا ما هاجمهم المشركون عنده أو فيه .قال ابن كثير ما ملخصه : وقد دلت الآية على الأمر بقتال المشركين في الحرم إذا بدأوا بالقتال فيه دفعا لصولتهم ، كما بايع النبي صلى الله عليه وسلم سأحابه يوم الحديبية تحت الشجرة على القتال ، لما تألبت عليه بطون قريش ومن والاهم من أحياء ثقيف والأحابيش عامئذ ، ثم كف الله القتال بينهم فقال : ( وَهُوَ الذي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ) وقال صلى الله عليه وسلم لخالد بن الوليد ومن معه يوم الفتح : " إن عرض لكم أحد من قريش فاحصدوهم حصداً حتى توافوني على الصفا " . فما عرض لهم أحد إلا أناموه وأصيب من المشركين نحو اثني عشر رجلاً " .وقمل يقل - سبحانه - فإن قاتلوكم فقاتلوهم ، وإنما قال ( فَإِن قَاتَلُوكُمْ فاقتلوهم ) تبشيراً للمؤمنين بالغلبة عليهم ، وإشعاراً بأن هؤلاء المشركين من الخذلان والضعف بحالة أمر الله المؤمنين معها بقتلهم لا بقتالهم فهم لضعفهم لا يحتاجون من المؤمنين إلا إلى القتل .وقوله ) : كَذَلِكَ جَزَآءُ الكافرين ) تذييل لما قبله . واسم الإشارة ذلك يعود إلى قتل المقاتلين أينما وجدوا .والجزاء : ما يقع في مقابلة الإحسان أو الإساءة ، فيطلق على ما يثاب به المحسن ، وعلى ما يعاقب به المسيء . والمراد به في الآية العقاب .أي : مثل هذا الجزاء العادل من القتل والردع يجازي الله الكافرين الذين قاتلوا المؤمنين وأخرجوهم من ديارهم .

فان انتهوا فان الله غفور رحيم

كما فسرها الوسيط ثم فتح القرآن للكافرين الذين قاتلوا المسلمين التوبة فقال : ( فَإِنِ انتهوا فَإِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ) .الانتهاء : أصله مطاوع نهى . يقال : نهاه فأنتهى ثم توسع فيه فأطلق على الكف عن الشيء ، لأن النهي هو طلب ترك الشيء .أي : فإن انتهوا عن الكفر وعن مقاتلتكم فكفوا عنهم ولا تتعرضوا لهم فإن الله غفور رحيم . وكل من تاب من كفر أو معصية فشأن الله معه أن يغفر له ويرحمه .ونظير هذه الآية قوله - تعالى - : ( قُل لِلَّذِينَ كفروا إِن يَنتَهُواْ يُغَفَرْ لَهُمْ مَّا قَدْ سَلَفَ ) وإنما قلنا فإن انتهوا عن الكفر وعن القتال لأن سياق الحديث عن الكافرين المقاتلين للمؤمنين ، فيكون حمل الانتهاء على الأمرين معا أولى من حمله على القتال فحسب .

وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( وَقَاتِلُوهُمْ حتى لاَ تَكُونَ
فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدين لِلَّهِ ) معطوف على جملة ( وَقَاتِلُواْ فِي
سَبِيلِ الله الذين يُقَاتِلُونَكُمْ ) والضمير " هم " يعود على الذين
يقاتلون المسلمين وهم من سبق الحديث عنهم .والمراد من ( والفتنة ) الشرك
: وما يتبعه من أذى المشركين للمسلمين واضطهادهم وتعذيبهم .قال الآلوسي
- ويؤيده أن مشركي العرب ليس في حقهم إلا الإسلام أو السيف .لقوله
سبحانه - : ( تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ) وفي الصحيحين عن ابن عمر
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا :
، أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة
فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على
- الله " .والدين في اللغة : العادة والطاعة ثم استعمل فيما يتعبد به الله
: تعالى - سواء أكان ما تعبد الصلاح في الحال والفلاح في المآل .والمعنى
قالتوا أولئك المشركين حتى تزيلوا الشرك ، وحتى تكسروا شوكتهم ولا يستطيعوا
أن يفتنوا طائفة من أهل الدين الحق ، وحتى يكون الدين الظاهر في الأرض هو
الدين الذي شرعه الله - تعالى - على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم
وقد تحقق ذلك بالقتال الذي دار المسلمين والمشركين في أكثر من عشرين غزوة.
، قادها النبي صلى الله عليه وسلم وفي أكثر من أربعين سرية بعث فيها أصحابه
وكانت ثمار هذه المعارك أن انتصر الحق وزهق الباطل ، وقبل أن يلتحق النبي
صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى كان الدين الظاهر في جزية العرب هو
- الدين الإسلام الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم .ثم ختم - سبحانه
الآية بقوله : ( فَإِنِ انتهوا فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظالمين )
والعدوان في أصل اللغة : الاعتداء والظلم الذي هو من الأفعال المحرمة
) : والمراد به في الآية القتل حيث يرتكب جزاء للظالمين .والفاء في قوله
فَإِنِ انتهوا ) للتعقيب . وقوله : ( فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى
الظالمين ) قائم مقام جواب الشرط ، لأنه علة الجواب المحذوف .والمعنى : فإن
امتنعوا عن قتالكم ولم يقدموا عليه ، وأذعنوا لتعاليم الإسلام ، فكفوا عن
قتالهم ، لأنهم قد انتفى عنهم وصف الظلم ، وما دام قد انتفى عنهم هذا الوصف
فلا يصح أن تقاتلوهم ، إذ القتال إنما يكون للظالمين تأديباً لهم ليرجعوا
عن ظلمهم .ففي الجملة الكريمة إيجاز بالحذف ، واستغناء عن المحذوف بالتعليل
الدال عليه .قال الإمام الرازي : أما قوله - تعالى - : ( فَلاَ عُدْوَانَ
: إِلاَّ عَلَى الظالمين ) ففيه وجهان :الأول : فإن انتهوا فلا عدوان أي
فلا قتل إلا على الذين لا ينتهون عن الكفر ، فإنهم بإصرارهم على كفرهم
: ظالمون لأنفسهم قال - تعالى - ( إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ) فإن قيل
لم يسمى ذلك القتل عدوانا مع أنه في نفسه صواب؟ قلنا : لأن ذلك القتل جزاء
العدوان فصح إطلاق إسم العدوان عليه ، كقوله - تعالى - : ( وَجَزَآءُ
سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ) الثاني : إن تعرضتم لهم بعد انتهائهم عن
. الشرك والقتال كنتم أنتم ظالمين ، فتسلط عليكم من يعتدى عليكم

الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه
بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا ان الله مع المتقين

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( الشهر الحرام بالشهر الحرام ) بيان
للحكمة في إباحة القتال في الأشهر الحرم ، وإيذان بأن مراعاة حرمة الشهر
الحرام إنما هي واجبة في حق من يصون حرمته ، أمن من هتكها فقد صار بسبب
انتهاكه لحرمة الشهر الحرام محلا للقصاص والمعاقبة في الشهر وفي غيره .وسمي
الشهر الحرام لأنه يحرم فيه ما يحل في غيره من القتال ونحوه ، والتعريف
فيه - على الراجح - للجنس فهو يشمل الأشهر الحرم جميعها وهي أربعة : ذو
القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب .قال - تعالى - : ( إِنَّ عِدَّةَ
الشهور عِندَ الله اثنا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ الله يَوْمَ خَلَقَ
السماوات والأرض مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذلك الدين القيم فَلاَ
تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُواْ المشركين كَآفَّةً كَمَا
يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً واعلموا أَنَّ الله مَعَ المتقين ) قال القرطبي
نزلت في عمرة القضاء ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج معتمراً :
حتى بلغ الحديبية في ذي القعدة سنة ست ، فصده المشركون كفار قريش عن البيت
فانصرف ووعده - سبحانه - أنه سيدخله فدخله في ذي القعدة سنة سبع وقضى نسكه
، ونزلت هذه الآية .والمعنى : هذا الشهر الحرام الذي تؤدون فيه عمرة القضاء
بذلك الشهر الحرام الذي صدكم المشركون فيه عن دخول المسجد الحرام ، فإذا
بدءوا بانتهاك حرمته بقتالكم فيه ، فلا تبالوا أن تقاتلوهم فيه دفاعاً عن
أنفسكم ، إذ هم البادئون بهتك حرمته .وقوله : ( والحرمات قِصَاصٌ ) متضمن
لإقامة الحجة على الحكم السابق والحرمات : جمع حرمة ، وهي ما يحفظ ويرعى
ولا ينتهك .والقصاص : المساواة . أي ، وكل حرمة يجري فيها القصاص . فمن هتك
أية حرمة اقتص منه بأن تهتك له حرمة .والمراد : أن المشركين إذا أقدموا على
مقاتلتكم - أيها المؤمنون - في الحرم أو في الشهر الحرام ، فقاتلوهم أنتم

أيضاً على سبيل القصاص والمجازاة بالمثل ، حتى لا يتخذوا الأشهرا لحرام ذريعة للغدر والإضرار بكم .ثم أكد - سبحانه - هذا المعنى بقوله : ( فَمَنِ اعتدى عَلَيْكُمْ فاعتدوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعتدى عَلَيْكُمْ ) .أي : فمن اعتدى عليكم وظلمكم فجاوزوه باعتدائه وقابلوه بمثل ما اعتدى عليكم بدون حيف أو تجاوز للحد الذي أباحه الله لكم .وسمى جزاء الاعتداء اعتداء على سبيل المشاكلة .قال الآلوسي : واستدل الشافعي بالآية على أن القاتل يقتل بمثل ما قتل به من محدد أو خنق أو حرق أو تجويع أو تغريق . حتى لو ألقاه في ماء عذب لم يلق في ماء ملح . واستدل بها أيضا على أن من غصب شيئا وأتلفه لزمه رد مثله ، ثم إن المثل قد يكون من طريق الصورة - كما في ذوات - الأمثال - وقد يكون من طريق المعنى كالقيم فيما لا مثل له .ثم ختم سبحانه - الآية الكريمة بالتقوى والخشية منه فقال : ( واتقوا الله واعلموا ، أَنَّ الله مَعَ المتقين ) .أي : اتقوا الله وراقبوه في الانتصار لأنفسكم وترك الاعتداء فيما لا يرخص لكم فيه ، واعلموا أن الله مع الذين يمتثلون أمره ويجتنبون نهيه بالنصر والرعاية والتأييد .

وانفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بايديكم الى التهلكة واحسنوا ان الله يحب المحسنين

كما فسرها الوسيط ثم أمر الله - تعالى - المؤمنين ببذل المال من أجل إعلاء كلمته ، ونصرة دينه ، فقال : ( وَأَنْفِقُواْ فِي سَبِيلِ الله وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التهلكة ) .قال الإمام الرازي : الإنفاق هو صرف المال إلى وجوه المصالح فلذلك لا يقال في المضيع : إنه منفق . فإذا قيد الإنفاق بذكر سبيل الله ، فالمراد به طريق الدين ، لأن السبيل هو الطريق ، وسبيل الله هو دينه ، فكل ما أمر الله به في دينه من الإنفاق فهو داخل في الآية سواء أكان إنفاقاً في حج أو في صلة رحم أو غير ذلك ، إلا أن الأقرب في هذه الآية - وقد تقدم ذكر الجهاد - أنه يراد به الإنفاق في الجهاد ، وقوله ( فِي سَبِيلِ الله ) كالتنبيه على العلة في وجوب هذا الإنفاق ، وذلك لأن المال مال الله فيجب انفاقه في سبيله ، ولأن المؤمن إذا سمع ذكر الله اهتز ونشط فيسهل عليه إنفاق المال .و ( تُلْقُواْ ) من الإلقاء وهو طرح الشيء من اليد .قال الجمل : والباء في قوله ( بِأَيْدِيكُمْ ) تحتمل وجهين :أحدهما : أنها زائدة في المفعول به لأن ألقى يتعدى بنفسه ، قال - تعالى - ( فألقى عَصَاهُ ) والثاني : أن يضمن ألقى معنى فعل يتعدى بالباء فيتعدى تعديته فيكون المفعول به في الحقيقة هو المجرور بالباء تقديره ، ولا تفضوا بأيديكم إلى التهلكة كقوله : أفضيت بجنبي إلى الأرض أي : طرحته على الأرض " .والمراد بالأيد : الأنفس ، من باب ذكر الجزء وإرادة الكل ، لأن أكثر ظهور أفعال النفس تكون عن طريق اليد والتهلكة : الهلاك والموت . أو كل شيء تصير عاقبته إليه . مصدر هلك يهلك. هكلاً وهلاكاً وتهلكه .والجملة الكريمة معطوفة على جملة ( وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ الله الذين يُقَاتِلُونَكُمْ . . . ) ألخ ، لأنهم لما أمروا بقتال عدوهم ، وكان أوفر منهم عدة وعدداً ، كلفهم بالاستعداد له عن طريق إنفاق الكثير من أموالهم في سبيل إعلاء كلمة الله لأن هذا الإنفاق من أقوى الوسائل التي توصل إلى النصر .والمعنى : عليكم ، أيها المؤمنون - أن تقاتلوا في سبيل الله من قاتلكم ، وأن تنفقوا من أجل إعلاء كلمة الله أموالكم ، ولا تقلوا أنفسكم فيما فيه هلاككم في دين أو دنيا ، بسبب ترككم الجهاد وبخلكم عن الإنفاق فيه مق القدرة على ذلك .ويشهد لهذا المعنى ما - أخرجه الترمذي وغيره عن أبي عمران قال : كنا بمدينة الروم القسطنطينية فأخرجوا إلينا صفا عظيما من الروم . فخرج إليهم من المسلمين مثلهم فحمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل فيهم ، فصاح الناس وقالوا : سبحان الله يلقى بيديه إلى التهلكة!! فقام أبو أيوب الأنصاري فقال : يا أيها الناس إنكم لتؤولون هذه الآية هذا التأويل ، وإنما نزلت هذه الآية فينا - معشر الأنصار .لما أعز الله الإسلام وكثر ناصروه ، فقال بعضنا لبعض سراً دون رسول الله صلى الله عليه وسلم إن أموالنا قد ضاعت ، وإن الله قد أعز ، الإسلام ، وكثر ناصروه ، فلو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها فأنزل الله - تعالى - على نبيه يرد علينا ما قلناه ( وَأَنْفِقُواْ فِي سَبِيلِ الله وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التهلكة ) . فكانت : التهلكة الإقامة على الأموال ، وإصلاحها ، وتركنا الغزو .قال الراوي فمازال أبو أيوب شاخصاً في سبيل الله حتى دفن بأرض الروم .فالآية الكريمة تأمر المؤمنين بأن يبذلوا أموالهم في الجهاد في سبيل الله بصفة خاصة ، وفي كل موطن من مواطن الخير بصفة عامة ، لأن عدم البذل في سبيل الخير يؤدي إلى ضعف الأمة واضملالها .ثم ختم - سبحانه - الآية بالترغيب في الإحسان فقال : أي : أحسنوا كل أعمالكم وأتقنوها ( وأحسنوا إِنَّ الله يُحِبُّ المحسنين ) لأنه - سبحانه - يحب المحسنين في كل شئونهم ، ويثيبهم على ذلك بما يسعدهم ، في دينهم ودنياهم .هذا ، وتأمل معي - أيها القارئ الكريم - في هذه الآيات تراها قد رسمت أحكم منهاج وأعدله في شأن الحرب والسلم .إنها تأمر المؤمنين

، أن يجاهدوا أعداءهم الذين بدأوهم بالقتال ، وأن يقتلوهم حيث وجدوهم ويخرجوهم من حيث أخرجوهم ، كما تأمرهم أن يبذلوا أموالهم في سبيل الله بدون إمساك أو بخل ، وهذا من أقوى أنواع الحض على الجهاد من أجل إعلاء كلمة الله ولكنها في الوقت نفسه تنهاهم عن الاعتداء ، وتنهاهم عن القتال في الأشهر. الحرام وفي الأماكن المقدسة إلا إذا قاتلهم المشركون فيها ، كما تنهاهم عن قتالهم إذا ما انتهوا عن عدوانهم وكفرهم ، لأن شريعة القرآن تستجيب لداعي السلم متى كف المعتدون عن العدوان ، واحترموا كلمة الإسلام .وبذلك نرى أن القتال في الإسلام ليس من أجل الغنائم ، أو الاستغلال أو الاستعباد ، أو التباهي . . كلاَّ ليس لأجل شيء من هذا ، وإنما هو من أجل الدفاع عن الحق وأهله ، حتى تكون كلمته هي العليا وكلمة الباطل هي السفلى ، وبهذا تسعد الإنسانية ، وتنال ما تصبوا إليه من عزة وفلاح .وبعد هذا الحديث المحكم عن ، القتال في سبيل الله ، وبيان أحكامه بالنسبة للأشهر الحرام وللبيت الحرام ، ساق القرآن في بضع آيات جملة من الأحكام والآداب التي تتعلق بفريضة الحج إذ القتال جهاد لحماية الأمة الإسلامية من الخارج ، والحج جهاد لتذهيب النفس وحماية الأمة من الداخل عن طريق تجميع أبنائها على اختلاف ديارهم في مكان واحد ليشهدوا منافع لهم ، وليتعاونوا على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان . استمع إلى سورة البقرة وهي تحدثك عن بعض أحكام الحج وآدابه فتقول :( وَأَتِمُّواْ الحج والعمرة للَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ . . . )

واتموا الحج والعمرة لله فان احصرتم فما استيسر من الهدي ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدي محله فمن كان منكم مريضا او به اذى من راسه ففدية من صيام او صدقة او نسك فاذا امنتم فمن تمتع بالعمرة الى الحج فما استيسر من الهدي فمن لم يجد فصيام ثلاثة ايام في الحج وسبعة اذا رجعتم تلك عشرة كاملة ذلك لمن لم يكن اهله حاضري المسجد الحرام واتقوا الله واعلموا ان الله شديد العقاب

كما فسرها الوسيط تعتبر هذه الآية الكريمة من أجمع الآيات التي وردت في - القرآن الكريم مبينة ما يتعلق بأحكام الحج وآدابه ، وسنحاول - بعون الله أن نبين ما اشتملت عليه من آداب سامية ، وتوجيهات حكيمة ، بأسلوب هو إلى الإيجاز أقرب منه إلى الإسهاب والإطناب ، قاصدين عدم التعرض لتفريعات : الفقهاء واختلافاتهم إلا بالقدر الذي يقتضيه المقام .والحج في اللغة القصد يقال حج فلان الشيء : إذا قصده مرة بعد أخرى .وفي الشرع : القصد ، لزيارة بيت الله الحرام في وقت مخصوص بأفعال مخصوصة ، وبكيفية مخصوصة بينتها الشريعة الإسلامية .والعمرة في اللغة : الزيارة ، مأخوذة من العمارة التي هي ضد الخراب ثم أطلقت على الزيارة التي يقصد بها عمارة المكان .وفي الشرع : زيارة بيت الحرام للتقرب إليه ، وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم أركانها وشروطها وكيفيتها .وقد كانت شعيرة الحج والعمرة معروفتين عند العرب قبل الإسلام ، ولكن بأفعال وبكيفية فيها الكثير من الأباطيل والأوهام ، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين أن يسيروا في أدائها على الطريقة التي سار عليها فقال : " خذوا عني مناسككم " .قال ابن كثير : " وقد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اعتمر أربع عمر كلها في ذي القعدة عمرة الحديبية في ذي القعدة سنة ست ، وعمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع ، وعمرة الجعرانة في ذي القعدة سنة ثمان ، وعمرته التي مع حجته " أحرم بهما معاً في ذي القعدة سنة عشر . وما اعتمر في غير ذلك بعد هجرته ) -.وقد اختلف العلماء في المقصود من الإتمام في قوله - تعالى. : وَأَتِمُّواْ الحج والعمرة للَّهِ ) فبعضهم يرى أن المراد بإتمامهما إقامتهما وإيجادهما وإنشاؤهما فيكون المعنى : أقيموا الحج والعمرة لله : أي أدوهما وائتوا بهما . فالأمر في " أتموا " منصب على الإنشاء والأداء . فهو كقوله - تعالى - : ( ثُمّ أَتِمُّواْ الصيام إِلَى الليل ) وأصحاب هذا ، الرأي يرون أن العمرة واجبة كالحج ، لأن الله - تعالى - أمر بهما معاً " . . ولأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : " تابعوا بين الحج والعمرة وإلى هذا الرأي أتجه سعيد بن جبير ، وعطاء ، وسفيان الثوري ، والشافعية. ويرى كثير من الصحابة والتابعين والفقهاء كالأحناف والمالكية - أن المراد. - بإتمامهما : الإتيان بهما تامين بمناسكهما المشروعة لوجه الله - تعالى وأن على المسلم إذا شرع فيهما أو في أحدهما أن يتمه ويأتي به كاملا ، كما : فعل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في عمرة القضاء .فيكون المعنى - ائتوا بالحج والعمرة كاملي الأركان والشروط والآداب خالصين لوجه الله تعالى - .فالأمر على هذا الرأي منصب على الإتمام لا على أصل الأداء ، وأصحابه يرون أن العمرة ليست واجبة كالحج لعدم قيام الدليل على وجوبها. وليس في الآية ما يفيد الوجوب ، بل فيها ما يفيد وجوب الإتمام إن شرع فيهما أو في أحدهما . وفرضية الحج إنما ثبتت بقوله - تعالى - :( وَللَّهِ عَلَى الناس حِجُّ البيت مَنِ استطاع إِلَيْهِ سَبِيلاً ) وأيضاً ، فإن أركان العمرة وأفعالها تدخل في ثنايا أفعال الحج وأركانه ، ولذلك ورد في الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " دخلت العمرة في

الحج إلى يوم القيامة " إلى غير ذلك من الأدلة التي ساقها كل فريق لتدعيم
رأيه .ومجمل القول أن فرضية الحج مجمع عليها بين العلماء ، وأما فرضية
العمرة ففيها خلاف ، انتصر كثير من العلماء فيه للرأي القائل بأنها ليست
فرضاً للحج ، بل هي سنة .وقد كانت فرضية الحج في السنة التاسعة من الهجرة
على أرجح الروايات . ويرى بعض العلماء أن الحج قد فرض قبل ذلك ، إلا أن
تنفيذه لم يتم إلا في السنة التاسعة عندما أرسل النبي صلى الله عليه وسلم
أبا بكر أميراً على الحج ، وكان ذلك تمهيداً لحجه صلى الله عليه وسلم سنة
عشر .وقد أمر - سبحانه - بإتمام الحج والعمرة لله دون غيره لأن العرب كانت
، تقصد الحج للاجتماع والتظاهر ، والتفاخر ، وقضاء الحوائج ، وحضور الأسواق
- دون أن يكون لله - تعالى - فيه حظ يقصد ، ولا قربة تعتقد ، فأمر - سبحانه
، المسلمين أن ينزهوا عباداتهم - وخصوصاً الحج - عن الأوال السيئة
والأفعال القبيحة ، وأن يقصدوا بأداء ما كلفهم الله به الإخلاص والطاعة
له - سبحانه - .وبعد أن أمر الله - تعالى - عباده بأن يتموا الحج والعمرة
له ، أردف ذلك ببيان ما يجب عليهم عمله فيما لو حال حائل بينهم وبين
إتمامهما فقال : ( فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا استيسر مِنَ الهدي )
والإحصار والحصر في اللغة : بمعنى الحبس والمنع والتضييق سواء أكان بسبب
عدو أو مرض أو جور سلطان أو ما يشبه ذلك . قال - تعالى - في شأن قتال
المشركين : ( فَإِذَا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حَيْثُ
وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وأحصروهم ) أي : ضيقوا عليهم المنافذ . ويقال
للذي لا يبوح بسره : حصر؛ لأنه حبس نفسه عن البوح بسره .ويرى بعض علماء
اللغة أن الإحصار يكون الحبس والمنع فيه من ذات الشخص كالمرض وذهاب النفقة
وأما الحصر فيكون الحبس والمنع فيه لا من ذات الشخص ، بل بسبب أمر خارجي ،
، كالعدو ونحوه .( الهدي ) : - بتخفيف الياء وتشديدها - مصدر بمعنى المفعول
أي : المهدي والمراد به ما يهدي إلى بيت الله الحرام من الإبل والبقرة
والشاة ليذبح تقرباً إلى الله - تعالى - .و ( استيسر ) هنا بمعنى يسر وتيسر
أي : ما أمكن تحصيله من الهدى بدون مشقة أو تعب .والمعنى : أتموا - أيها
المؤمنون - الحج والعمرة لله متى قدرتم على ذلك ، فإن ( أُحْصِرْتُمْ ) أي
منعتم بعد الإحرام من الوصول إلى البيت الحرام بسبب عدو أز مرض أو نحوهما
فعليكم إذا أردتم التحلل من الإحرام أن تذبحوا ما تيسر لكم من الهدى ،
وبعض العلماء - كالشافعية والمالكية - يرون أن المراد بالإحصار في الآية.
ما كان بسبب عدو ، كما حدث للمسلمين في صلح الحديبية ، أما إذا كان
الإحصار بسبب مرض ، فإن الحاج أو المعتمر يبقى على إحرامه حتى يبرأ من
مرضه ثم يذهب إلى البيت فيطوف به سبعاً ، ويسعى بين الصفا والمروة ، وبهذا
يتحلل من عمرته أو حجه ، ولا يتحلل بالذبح ، إذ التحلل بالذبح عندهم لا
يكون إلا في حالة الإحصار بسبب العدو . أما الأحناف فيرون أن الإحصار
سواء أكان بسبب عدو أو مرض أو ما يشبههما فإنه يسيغ التحلل بالذبح ، إذ
الآية عندهم تعم كل منع ، وعلى من أحصر أن يقضي الحج أو العمرة فيما بعد
وفي هذه الجملة الكريمة تقرير للمبادئ التي جاءت بها شريعة الإسلام تلك.
المبادئ التي تتوخى في كل شئونها التيسير لا التعسسير ، والرفق لا التشديد
قال - تعالى - : ( يُرِيدُ الله بِكُمُ اليسر وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ العسر )
وقال - تعالى - : ( وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدين مِنْ حَرَجٍ ) ثم
قال - تعالى - : ( وَلاَ تَحْلِقُواْ رُؤُوسَكُمْ حتى يَبْلُغَ الهدي
مَحِلَّهُ ) .حلق الرأس أو تقصيرها علامة على الانتهاء من الإحرام ، كما
أن التسليم علامة الانتهاء من الصلاة ، أو علامة قطعهما عند الاضطرار إلى
ذلك . والحلق بالنسبة للرجال أفضل من التقصير ، فقد أخرج الشيخان عن أبي
. هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " اللهم أغفر للمحلقين
قالوا : يا رسول الله وللمقصرين . قال : اللهم اغفر للمحلقين . قالوا : يا
رسول الله وللمقصرين : قال : وللمقصرين " أما بالنسبة للنساء فيكفي التقصير
والمحل : اسم لزمان الحلول أو مكانه . يقال : بلغ الدين محله إذا حل وقت.
أدائه ، كما يقال : بلغ الشخص محله إذا وصل إلى المكان الذي ينزل به .قال
: الآلوسي : وكون المراد بالمحل هنا المكان هو الظاهر في الآية .والمعنى
أتموا الحج والعمرة لله ، فإن منعتم من إتمامهما وأنتم محرمون فعليكم إذا
أردتم التحلل أن تذبحوا ما تيسر لكم من الهدى ، ولا تتحللوا من إحرامكم
بالحلق حتى تعلموا أن الهدى المبعوث قد بلغ مكانه الذي يجب أن يراق فيه دمه
وهو الحرم .وهذا رأي الأحناف ، فقد قرروا أن المراد بالمحل البيت الحرام ،
فهو اسم مكان ، لأن الله - تعالى - قد قال في آية أخرى : ( ثُمَّ ،
مَحِلُّهَآ إلى البيت العتيق ) وعليه فلا يجوز للمحصر أن يحلق ويتحلل إلا
بعد أن يصل الهدى الذي يرسله إلى البيت الحرام ويذبح .أما جمهور الفقهاء
فيرون أن محل الهدى للمحصر هو المكان الذي حدث فيه الإحصار ، ودليلهم أن
الرسول صلى الله عليه وسلم قد نحر هو وأصحابه هديهم بالحديبية وهي ليست من
الحرم ، وذلك عندما منعه المشركون من دخول مكة .وقد أجاب الأحناف على ذلك
بأن محصر رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يقول الآلوسي - كان في طريق
الحديبية بأسفل مكة ، والحديبية متصلة بالحرم .وعلى رأي جمهور الفقهاء يكون
المعنى : ولا تتحللوا من إحرامكم بالحق حتى تذبحوا الهدى في الموضع الذي

أحصرتم فيه ، فإذا تم الذبح فأحلقوا وتحللوا . والخطاب على كلا المعنيين
يكون للمحصرين ، لأنه أقرب مذكور .ويرى المحققون من العلماء أن رأى جمهور
، الفقهاء أكثر اتفاقاً مع السنة النبوية ، وفيه تسهيل على المحصرين
والمناسب لهم هو التيسير لا التعسير ، ولا شك أن ذبحهم لهديهم في مكان
إحصارهم أيسر لهم ، وحمولا قوله - تعالى - : ( وَلاَ تَحْلِقُواْ
رُؤُوسَكُمْ حتى يَبْلُغَ الهدي مَحِلَّهُ ) على أنه خطاب عام لجميع
المكلفين لا فرق بين محصر وغير محصر ، وأن المقصود من الجملة الكريمة هو
البيان العام لمكان التحلل وزمانه ، أما مكان الذبح عند الإحصار فقد بينه
النبي صلى الله عليه وسلم بذبحه لهديه في الحديبية وهي ليست من الحرم عند
، المحققين .قال الإمام الرازي : ومنشأ الخلاف البحث في تفسير هذه الآية
فقال قال الشافعي وغيره : المحل في هذه الآية اسم للزمان الذي يحصل فيه
التحلل وقال أبو حنيفة : إنه اسم للمكان .وبعد أن بين - سبحانه - أن الحلق
لا يجوز للمحرم ما دام مستمراً على إحرامه ، أردف ذلك ببيان بعض الحالات
- التي يجوز فيها للمحرم أن يحلق رأسه مع استمراره على إحرامه فقال - تعالى
فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ ) :
- فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ) .أي : فمن كان منكم
أيها المحرمون - مريضاً بمرض يضطر معه إلى الحلق ، أو كان به أذى من رأسه
: كجراحة وحشرات مؤذية ، فعليه إن حلق فدية من صيام أو صدقة أو نسك .وقوله
مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف . أي : فعليه فدية ، وأيضا ( فَفِدْيَةٌ )
ففيه إضمار آخر والتقدير : فحلق فعليه فدية .والفدية : هي العوض عن الشيء
الجليل النفيس . ولا ريب أن محرمات الحج والعمرة أمور لها جلالها وعظمها
وعبر - سبحانه - هنا بالفدية دون الكفارة ، لأن الذي به مرض و أذى من رأسه.
، لم يرتكب ذنباً أو إثماً حتى يكفر عنه .قال القرطبي : والنسك : جمع نسيكة
- وهي الذبيحة ينسكها العبد لله - تعالى - وتكون من الإبل والبقر والغنم
- ويجمع - أيضاً - على نسائك . والنسك : العبادة في الأصل ، ومنه قوله
تعالى - :( وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا ) أي : متعبداتنا . وقيل : أصل النسك في
اللغة الغسل؛ ومنه نسك ثوبه إذا غسله ، فكأن العابد غسل نفسه من أدران
الذنوب بالعبادة . وقيل : النسك سبائك الفضة التي خلصت من الخبث ، كل سبيكة
) : - منها نسيكة ، فكأن العابد خلص نفسه من دنس الآثام " .وقوله - تعالى
مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ) بيان لجنس الفدية .وقد بين النبي
صلى الله عليه وسلم مقدار هذه الفدية ، فقد روى الشيخان عن كعب بن عجرة
الأنصاري قال : " حملت أن النبي صلى الله عليه وسلم والقمل يتناثر على وجهي
!!فقال : ما كنت أرى أن الجهد قد بلغ بك هذا . . . أما تجد شاة؟ قلت :لا
قال : صم ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع من طعام واحلق
رأسك " فنزلت في خاصة وهي لكم عامة .فقد بين النبي صلى الله عليه وسلم
مقدار الفدية في هذا الحديث ، وعامة العلماء يرون أن المحرم لعذر كهذا يخير
في هذا المقام ، إن شاء صام وإن شاء تصدق وإن شاء ذبح شاة وتصدق بها على
المساكين .قال ابن كثير : ولما كان لفظ القرآن في بيان الرخصة جاء بالأسهل
فالأسهل ، ولما أمر النبي صلى الله عليه وسلم كعب بن عجرة بذلك أرشده أولا
إلى الأفضل فقال : أما تجد شاه؟ فكل حسن في مقامه " .وبعد أن بين - سبحانه
كيفية التحلل عند الإحصار ، وكيفية التحلل الجزئي من بعض المحرمات عند
المرض ، عقب ذلك للبيان كيفية التحلل في حالة الأمن فقال : ( فَإِذَآ
أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بالعمرة إِلَى الحج فَمَا استيسر مِنَ الهدي
فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ فِي الحج وَسَبْعَةٍ إِذَا
رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ) .وقوله : ( فَإِذَآ أَمِنتُم )
الأمن ضد الخوف . أي : فإذا زال خوفكم وثبت أمنكم والجملة معطوفة على قوله
وجيء بإذا لأن فعل الشرط وهو ( أَمِنتُمْ ) مرغوب فيه ( أُحْصِرْتُمْ )
وقوله : ( فَمَن تَمَتَّعَ ) جواب إذا . والتمتع في اللغة - كما قال.
الإمام الرازي - التلذذ . يقال : تمتع بالشيء إذا تلذذ به . والمتاع كل
شيء يتمتع به ، وأصله من قولهم : حبل ماتع ، أي : طويل وكل من طالت صحبته
مع الشيء فهو متمتع به .والمراد بالتمتع في الآية المعنى الشرعي بأن يجمع
المسلم بين العمرة والحج في عام واحد في أشهر الحج ، بأن يحرم بالعمرة أولا
ثم بالحج .وسمي هذا النوع من الإحرام تمتعاً ، لأن المحرم به يجمع بين
متعة الروح ومتعة الجسد . لأنه يحرم بالعمرة أولا ويقوم بمناسكها وتلك متعة
روحية وبعد الانتهاء من أدائها يتحلل فيجوز له أن يقرب النساء ويمس الطيب
: حتى يحرم بالحج وتلك متعة بدنية .وهناك نوعان آخران من الإحرام .أحدهما
الإفراد ومعناه : أن يحرم بالحج فقط ولا يجمع معه العمرة ، وإنما يأتي بها
في وقت آخر .وثانيهما : القرآن ومعناه : أن يجمع بين العمرة والحج في إحرام
واحد ، بأن يبقى على إحرامه ويأتي بمناسك الحج والعمرة بالإحرام نفسه
، والمعنى : فإذا ثبت أمنكم - أيها المسلمون - عند أدائكم للحج والعمرة.
فمن تمتع منكم بالعمرة إلى الحج ، بأن أحرم بها في أشهر الحج ، ثم بعد
الانتهاء من أعمالها تحلل بأن حلق رأسه ، وباشر أهله إن كانوا معه ، وانتظر
متحللا وصار من حقه أن يفعل كل ما يفعله من ليس محرماً إلى وقت الإحرام
بالحج ، فعليه في هذه الحالة أن يذبح ما تيسر له من الهدى من غنم أو بقر أو

إبل ليكون هذا الذبح شكراً لله حيث وفقه - سبحانه - للجمع بين النسكين مع التمتع بينهما بأفعال المتحلل ، فمن لم يجد ما يذبحه فعليه أن يصوم ثلاثة أيام في وقت الحج وأن يصوم سبعة أيام بعد فراغه منه .وقوله : ( فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ . . . ) معطوف على ( فَمَن تَمَتَّعَ . . بالعمرة . . . ) لأن ( فَمَن تَمَتَّعَ ) مع جوابه وهو ( فَمَا استيسر مقدر فيه معنى تمتع واجداً الهدى ، فعطف عليه فمن لم يجد أي الهدى .وقد ( . جعل - سبحانه - الصيام بدلا عن الهدى زيادة الرخصة والرحمة وزيادة في الرفق والتيسير فقد جعله على مرحلتين :إحداهما : - وهي الأقل - تكون في وقت الحج ويفضل كثير من الفقهاء أن يصوم سادس ذي الحجة وسابعه وثامنه .وثانيتهما ، وهي الأكثر - تكون بعد الرجوع إلى أهله حيث يطمئن ويستقر وتذهب مشقة - : السفر فيصوم سبعة أيام .وبعض الفقهاء يرى جواز الصيام عند الأخذ في الرجوع بعد الفراغ من أعمال الحج ، ويرجح الوجه الأول ما رواه الشيخان من حديث ابن عمر وفيه : " فمن لم يجد هديا فليصم ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله " .والإشارة في قوله - تعالى - ( تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ) إلى الثلاثة والسبعة . ومميز العدد محذوف أي : أيام . والجملة مؤكدة لما أفاد قوله : ( فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الحج وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ) وفائدة هذا التأكيد دفع توهم أن الواو بمعنى أو ، أو أن السبعة كناية عن مطلق كثرة العدد ، وبذلك يتقرر الحكم نصاً ، ويتبين أن الذي يحل محل النسك إنما هو العشرة الكاملة وليس بعضها .ووصف العشرة بأنها كاملة ، للتنويه بأن هذا الصوم طريق الكمال لأعمال الحج ، وأن الحاج إذا نسي بعضها لا يكون حجه تاما حتى يصوم ما أمره الله - تعالى - به .وقوله : ( ذلك لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي المسجد الحرام ) الإشارة فيه تعود إلى التمتع المفهوم من قوله - تعالى - : ( فَمَن تَمَتَّعَ بالعمرة إِلَى الحج . . . ) إلخ .أي : ذلك التمتع الذي يتمتع فيه المحرم بين النسكين ، إنما هو للشخص الذي ليس أهله من المقيمين في مكة وما حولها ، لأن المقيمين في مكة وما حولها يفردون ولا يجمعون ، إذ العمرة في إمكانهم أن يؤدوها طول أيام السنة .وقد شرع - سبحانه - التمتع ليكون تيسيراً ورفقاً للمقيمين بعيداً عن مكة هذا رأي الأحناف .ويرى الشافعية : أن أهل مكة وما حولها يقرنون ويتمتعون كغيرهم من أهل الآفاق ، وأن اسم الإشارة في الجملة الكريمة يعود إلى النسك وما يقوم مقامه من الصوم لأنه أقرب مذكور .وعلى رأيهم يكون المعنى : ذلك الذبح لما تيسر من الهدى والصيام لمن لم يتيسر له الهدى إنما هو على سكان الآفاق ، لا على سكان مكة وما حولها ، لأن سكان مكة وما حولها قد أحرموا لتمتعهم من الميقات فلا يجب عليهم شيء .والمراد بحاضري المسجد الحرام : أهل مكة وأهل الحل الذين منازلهم داخل الموقيت عند الحنفية وقال المالكية : هم أهل مكة خاصة . وقال الشافعية : هم أهل مكة ومن كان . بينه وبين مكة مسافة لا تقثصر فيها الصلاة . ولكل أدلته المفصلة في كتب ) : الفقه .ثم ختم - سبحانه - الآية بالأمر بتقواه وبالتحذير من عقابه فقال واتقوا الله واعلموا أنّ الله شَدِيدُ العقاب ) .أي : واتقوا الله في كل ما يأمركم به وينهاكم عنه ، واعلموا أن الله شديد العقاب مع الترغيب بالثواب ، فقد جرت عادة الناس أنهم يصلحون بالثواب والعقاب .هذا ، وقد ، اشتملت هذه الآية الكريمة على بعض الأحكام التي تتعلق بالحج والعمرة والمتدبر في هذه الأحكام يراها قد امتازت بأحكم ضروب التوجيه ، وأيسر أنواع التكليف .ثم بين - سبحانه - وقت الحج وما يجب على الملم عند أدائه لهذه الفريضة من آداب فقال - تعالى - :( الحج أَشْهُرٌ مّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ . . . )

الحج اشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فان خير الزاد التقوى واتقون يا اولي الالباب

كما فسرها الوسيط قوله : ( الحج أَشْهُرٌ مّعْلُومَاتٌ ) .أي : وقت الحج أشهر معلومات أو أشهر الحج أشهر معلومات فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه .وجعلت النسبة إلى الحج نفسه لا إلى وقته ، للإشعار بأن هذه الأشهر لكونها تؤدي فيها هذه الفريضة قد اكتسبت تقديساً وبركة منها ، حتى لكأن هذه الأشهر هي الفريضة نفسها قال القرطبي ما ملخصه : وأشهر الحج هي شوال وذي القعدة والشعرة الأولى من ذي الحجة . وقيل هي شوال وذي القعدة وذو الحجو كله وفائدة الفرق تعلق الدم؛ فمن قال : إن ذا الحجة كله من أشهر الحج لم يوجب دماً على من أخر طواف الإفاضة إلى آخر ذي الحجة لأنه وقع في أشهر الحج ، ومن قال بأن وقت الحج ينقضي بالعشرة الأولى من ذي الحجة يوجب الدم عليه لتأخيره عن وقته . ولفظ الأشهر قد يقع على شهرين وبعض الثالث ، لأن بعض الشهر ينزل منزلة كله ، كما يقال : رأيتك سنة كذا ولعله إنما رآه في ساعة منها " .وعبر - سبحانه - عن هذه الأشهر بأنها معلومات ، لأن العرب كانوا يعرفون أشهر الحج من كل عام منذ عهد إبراهيم - عليه السلام - وقد جاء الإسلام مقرراً لما عرفوه . أو المراد بكونها معلومات أنها مؤقتة بأوقات

معينة لا يجوز تقديمها ولا تأخيرها عنها ، وهو يتضمن بطلان النسئ الذي كان
يفعله الجاهلون تبعاً لأهوائهم .وقوله : ( فَمَن فَرَضَ فِيهِنّ الحج
فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الحج ) بيان لما يجب أن
: يتحلى به المسلم من فضائل عند أدائه لهذه الفريضة .قال الإمام الرازي
ومعنى ( فَرَضَ ) في اللغة ألزم وأوجب . يقال : فرضت عليك كذا ، أي أوجبته
وأصل معنى الفرض في اللغة الحز الذي يقع فيه الوتر ، ومنه فرض الصلاة .
. . وغيرها لأنها لازمة للعبد كلزوزم الحز للقدح ففرض هنا بمعنى أوجب وألزم
والرفث في الأصل : الفحش من القول . والمراد به هنا الجماع . أو. " .
الكلام المتضمن لما يستقبح ذكره من الجماع ودواعيه .قال القرطبي : وأجمع
العلماء على أن الجماع قبل الوقوف بعرفة مفسد للحج وعليه حج قابل والهدى
والفسوق : الخروج عن طاعة الله بارتكاب المعاصي ، ومن ذلك السباب وفعل.
محظورات الإحرام ، وغير ذلك مما نهى الله عنه ،والجدال على وزن فعال من
المجادلة وهي مشقة من الجدلوهو الفتل ومنه : زمام مجدول .وقيل : هي مشقة من
، الجدالة التي هي الأرض . فكأن كل واحد من الخصمين يقاوم صاحبه حتى يغلبه
فيكون كمن ضرب به الجدالة .والمراد النهي عن الممارة والمنازعة التي تؤدي
إلى البغضاء وتغير القلوب .والمعنى : أوقات الحج أشهر معلومات فمن نوى
وأوجب على نفسه فيهن الحج وأحرم به فعليه أن يجتنب الجماع للنساء ودواعيه،
وأن يبتعد عن كل قول أو فعل يكون خارجاً عن آداب الإسلام ، ومؤدياً إلى
التنازع بين الرفقاء والإخوان ، فإن الجميع قد اجتمعوا على مائدة الرحمن
فعليهم أن يجتمعوا على طاعته ، وأن يتعاونوا على البر والتقوى لا على ،
الإثم والعدوان .روى الشيخان عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه
" وسلم قال : " من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه
قال الآلوسي : وقال - سبحانه - ( فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ .
، جِدَالَ فِي الحج ) بالإظهار ولم يقل فيه مع أن المقام يقتضي الإضمار
لإظهار كمال الاعتناء بشأنه ، وللإشعار بعلة الحكم ، فإن زيارة البيت
المعظم والتقرب بها إلى الله - تعالى - من موجبات ترك الأمور المذكورة
المدنسة لمن قصد السير والسلوك إلى ملك الملوك . وإيثار النفي للمبالغة في
النهي ، والدلالة على أنها حقيقة بأن لا تكون فإن ما كان منكراً مستقبحاً
في نفسه منهياً عنه مطلقاص فهو للمحرم بأشرف العبادات وأشقها أنكر وأقبح
والضمير في قوله : ( فِيهِنَّ ) للأشهر ، لأنه جمع لغير العاقل فيجرى على.
التأنيث .وجملة ( فَلاَ رَفَثَ . . ) إلخ في محل جزم جواب من الشرطية
والرابط بين جملة الشرط والجواب ما في معنى ( فَلاَ رَفَثَ ) من ضمير يعود
. . على " من " ، لأن التقدير فلا يرفث ويجوز أن تكون جملة ( فَلاَ رَفَثَ
وما عطف عليها في محل رفع خبر لمن على أنها موصولة .وقد أخذ الشافعية من (
هذه الآية أنه لا يجوز الإحرام بالحج في غير أشهر الحج لأن الإحرام به في
غير أشهره يكون شروعاً في العبادة في غير وقتها فلا تصح .ويرى الأحناف
والحنابلة ، أنه يجوز الإحرام قبل أشهره ولكنه مع الكراهة : والإمام مالك
- لا يرى كراهة في ذلك .ويبدو أن رأي الشافعية هنا أرجح ، لأن قوله - تعالى
يشهد لهم ، فقد جعل - سبحانه - هذه ( . . . فَمَن فَرَضَ فِيهِنّ الحج ) :
الأشهر وعاء لهذه الفريضة وظرفاً لها .أي : اتركوا الأقوال والأفعال
القبيحة ، وسارعوا إلى الأعمال الصالحة خصوصاً في تلك الأزمنة والأمكنة
- المفضلة ، والله - تعالى -لا يخفى عليه شيء من أعمالكم ، وهو - سبحانه
) : سيجازيكم على فعل الخير بما تستقحون من جزاء .ثم قال - تعالى
وَتَزَوّدُوا فَإِنّ خَيْرَ الزاد التقوى ) .قال الإمام الرازي : في
هذه الجملة الكريمة قولان :أحدهما : أن المراد وتزودوا من التقوى - أي
الأعمال الصالحة - والدليل عليه قوله بعد ذلك ( فَإِنّ خَيْرَ الزاد
التقوى ) وتحقيق الكلام فيه أن الإنسان له سفران : سفر في الدنيا وسفر من
، الدنيا لا بد له أيضاً من زاد وهو معرفة الله ومحبته والإعراض عما سواه
وهذا الزاد خير من الزاد الأول لأن زاد الدنيا يخلصك من عذاب منقطع وزاد
الآخرة يخلصك من عذاب دائم .. قال الأعشى مقرراً هذا المعنى :إذا أنت لم
ترحل بزاد من التقى ... ولاقيت بعد الموت من قد تزودا ندمت على أن لا تكون
كمثله ... وأنك لم ترصد بما كان أرصدا والقول الثاني : أن هذه الآية نزلت في
أناس من أهل اليمن كانوا يحجون بغير زاد ويقولون إنا متوكلون ، ثم كانوا
يسألون الناس ، وربما ظلموا الناس وغصبوهم فأمرهم الله - تعالى - أن
يتزودوا بالمال والطعام الذي يغنيهم عن سؤال الناس .والذي نراه أن الجملة
الكريمة تسع القولين . فهي تدعو الناس إلى أن يتزودوا بالزاد المعنوي
النفسي الذي يسعدهم ألا وهو تقوى الله وامتثال أوامره واجتناب نواهيه
والاكثار من العمل الصالح وفي الوقت نفسه هي تأمرهم - أيضاً - بأن يتزودوا
بالزاد المادي الحقيقي الذي يغنيهم عن سؤال الناس ، ويصون لهم ماء وجوههم
وبذلك نكون قد استعملنا اللفظ في حقيقته ومجازه ، وهو استعمال شائع مستساغ.
عند كثير من العلماء .ثم ختم - سبحانه - الآية بتأكيد أمر التقوى ووجوب
الإخلاص فقال : ( واتقون ياأولي الألباب ) والألباب : جمع لب وهو العقل
واللب من كل شيء : هو الخالص منه . وسمى به العقل ، لأنه أشرف ما في
، الإنسان .أي : أخلصوا لي يا أصحاب العقول السليمة ، والمدارك الواعية

لأنكم لما كنتم كذلك كان وجوبها عليكم أثبت ، وأعراضكم عنها أقبح . ورحم الله القائل :ولم أر في عيوب الناس عيباً ... كنقص القادرين على التماموالجملة الكريمة ليست تكرارا لسابقتها ، لأن الأولى حث على التقوى وهذه حث على الإخلاص فيها .

ليس عليكم جناح ان تبتغوا فضلا من ربكم فاذا افضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وان كنتم من قبله لمن الضالين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن التزود بالزاد الروحي لا يتنافى مع التزود يا لزاد المادي متى توافرت التقوى ، فقال - تعالى - : ( لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ ) .الجناح : أصله من جنح الشيء إذا مال : يقال جنحت السفينة إذا مالت إلى أحد جانبيها والمراد بالجناح هنا الإثم والذنب ، لأنه لما كان الإثم يميل بالإنسان عن الحق إلى الباطل سمى جناحاً .والابتغاء : الطلب بشدة ، وجملة ( أَن تَبْتَغُواْ ) في موضع جر بتقدير في .والفضل : الزيادة وتكون في الخير والشر إلاأ أنه جرى العرف أن يعبر عن الزيادة الحسنة بالفضل وعن الزيادة القبيحة بالفضول .والمراد به هنا : المال الحلال المكتسب عن طريق التجارة المشروعة أو غيرها من وجوه الرزق الحلال .أي :لا إثم ولا حرج عليهكم في أن تطلبوا رزقا حلالا ومالا طيباً عن طريق التجارة أو غيرها من وسائل الكسب المشروعة في موسم الحج .وقد ذكر المفسرون أن الناس كانوا يتحاشون من التجارة في الحج ، حتى إنهم كانوا يتجنبون البيع والشراء في العشر الأوائل من ذي الحجة ، فنزلت هذه الآية لتخبرهم أنه لا حرج عليهم في ذلك .روى البخاري عن ابن عباس قال : كان ذو المجاز وعظام متجر الناس في الجاهلية فلما جاء الإسلام كأنهم كرهوا ذلك حتى نزلت ( لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ ) .وقال ابن كثير : وروى الإمام أحمد عن أبي أمامة التيمي قال : قلت لابن عمر : إنا نُكْرَى فهل لنا من حج؟ قال : أليس تطوفون بالبيت وترمون الجمخار وتحلقون رءوسكم وتقضون المناسك قال : قلت بلى . فقال ابن عمر : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن الذي سألتني فلم يجبه حتى نزل عليه جبريل بهذه الآية ( لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ ) فدعاه النبي صلى الله عليه وسلم فقال له " أنتم حجج " .فالآية الكريمة صريحة في إباحة طلب الرزق لمن هو في حاجة إلأى ذلك في موسم الحج ، بشرط ألا يشغله عن أداء فرائض الله .ثم قال - تعالى - : ( فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فاذكروا الله عِندَ المشعر الحرام ) .الفاء في قوله : فإذا لتفصيل بعض ما أجمل من قبل في قوله : ( فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الحج . . ) وأفضتم . اندفعتم بكثرة متزاحمين . وذلك تشبيه لهم بالماء إذا كثر ودفع بعضه بعضاً فانتشر وسال من حافتي الوادي والإناء والإفاضة في الحديث الاندافع فيه بإكثار وتصرف في وجوهه ومنه قوله - تعالى - : ( إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ) فأصل هذه الكلمة الدفع للشيء بكثرة حتى يتفرق .والتقدير : أفضتم أنفسكم فحذف المفعول للعلم به .والمراد : خروجهم من عرفات بشيء ، من السرعة في تكاثر وازدحام متجهين إلى المزدلفة .وعرفات : اسم للجبل المعروف ، قيل سمي بذل كلأن الناس يتعارفون به فهم يجتمعون عليه في وقت واحد فيجري التعارف بينهم وقد اتفق العلماء على أن الوقوف بعرفات هو ركن الحج الأكبر ففي الحديث. الشريف " الحج عرفة " ويكون ذلك في اليوم التاسع من ذي الحجة .قال القرطبي أجمع أهل العلم على أن من وقف بعرفة يوم عرفة قبل الزوال ثم أفاض منها : قبل الزوال أنه لا يعتد ذلك قبل الزوال . وأجمعوا على تمام الحج من وقف بعرفة بعد الزوال وأفاض نهاراً قبل الليل إلا مالك بن أنس فإنه قال : لابد أن يأخذ من الليل شيئاً ، وأما من وقف بعرفة بالليل فإنه لا خلاف بين الأمة في تمام حجه . والحجة للجمهور مطلق قوله : ( فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ ) : فإنه لم يختص ليلا من نهار . وحديث عروة بن مضرس قال " أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو في الموقف من جَمْع - أي من المزدلفة - قلت : يا رسول الله ، جئتك من جبل طيء أكللت مطيتي وأتعبت نفسي . . فهل لي من حج يا رسول الله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من صلى معنا صلاة الغداة بجمع وقد أتى عرفات قبل ذلك ليلا أو نهاراً فقد تم "ومن في قوله : ( مِّنْ عَرَفَاتٍ ) ابتدائية . أي ، فإذا أفضتم خارجين من عرافت إلى المشعر الحرام .والمشعر الحرام : هو المزدلفة وقيل هو موضع بها . والمشعر : اسم مشتق من الشعور أي : العلم ، أو من الشعار أي : العلامة ووصف المشعر بوصف الحرام لأنه من أرض الحرم ، وهو منسك له حرمة وتقديس. والمزدلفة من الازدلاف وهو القرب وسميت بذلك لأن الحجاج يزدلفون إليها من عرفات ليبيتوا بها قاصدين الاقتراب من منى .وتسمى المزدلفة - أيضاً -" جَمْع " لاجتماع الناس في هذا المكان أو جمعهم فيه بين صلاتي المغرب والعشاء جمع تأخير . وتسمى كذلك " قزح " .ويرى الحنفية والشافعية أن الوقوف بالمزدلفة واجب وليس بركن ، ومن فاته لا يبطل حجه ويجب عليه دم .ويرى أكثر المالكية أن الوقوف بها سنة مؤكدة .ويرى بعض التابعين وبعض الشافعية أن

الوقوف بها ركن كالوقوف بعرفات .والمعنى : فإذا سرتم - يا معشر الحجاج - من
- عرفات متدافعين متزاحمين متجهين إلى المزدلفة فأكثروا من ذكر الله
تعالى - بالتلبية والتهليل والدعاء بقلوب مخبتة ، ونفوس صافية ، لأن ذكر
الله - تعالى - في تلك المواطن المقدسة والأوقات الفاضلة من شأنه أن يرفع
الدرجات ، ويوصل إلى أعلا المقامات .ثم قال - تعالى - : ( واذكروه كَمَا
هَدَاكُمْ ) الكاف للتشبيه : ومعنى التشبيه في مثل هذا التركيب المشابهة في
التساوي في الحسن والكمال . كما تقول : اخدمه كما أكرمك تعني :لا تتقاصر
خدمتك عن إكرامه .والمعنى : اذكروا الله - تعالى - ذكراً حسناً مماثلا
لهدايته لكم ، وأنتم تعلمون أن هذه الهداية شأنها عظيم فبسببها خرجتم من
الظلمات إلى النور ، فيجب عليهكم أن تكثروا من ذكر الله ومن الثناء عليه
قال الآلوسي : و " ما " تحتمل أن تكون مصدرية فمحل ( كَمَا هَدَاكُمْ ).
. . . النصب على المصدرية ، بحذف الموصوف . أي : ذكراً مماثلا لهداكم
وتحتمل أن تكون كافلة فلا محل لها من الإعراب . والمقصود من الكاف مجرد
. تشبيه مضمون الجملة بالجملة ، لذا لا تطلب عاملا تفضي بمعناه إلى مدخولها
وقيل : إن الكاف للتعليل ، وما مصدرية . أي ، اكذروه وعظموه لأجل هدايته
السابقة منه - تعالى - لكم .و ( وَإِن ) في قوله : ( وَإِن كُنْتُمْ مِّن
قَبْلِهِ لَمِنَ الضآلين ) هي المخففة من الثقيلة والضمير في ( مِّن
قَبْلِهِ ) يعود إلى الهدى المأخوذ من ما المصدرية وما دخلت عليه .والمراد
: بالضلال هنا : الجهل بالإيمان وبالتكاليف التي كلف الله بها عباده .أي
اذكروا الله - تعالى - ذكراً مشابهاً لهدايته لكم ، وإنكم لولا هذه الهداية
. فأكثروا من ذكره وشكره عليها

ثم افيضوا من حيث افاض الناس واستغفروا الله ان الله غفور رحيم

كما فسرها الوسيط وبعد أن تحدث - سبحانه - عن الإفاضة من عرفة إلى
المزدلفة وأمر بالإكثار من ذكره ، عقب ذلك ببيان الطريقة المثلى للإفاضة
فقال : ( ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ الناس واستغفروا الله إِنَّ
الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ) :أي : أفيضوا من عرفة لا من المزدلفة .وهناك قولان
في المخاطب بهذه الآية .أحدهما : أن الخطاب فيها لقريش وحلفائها ، وذلك
لأنهم كانوا يترفعون على الناس ، فلا يقفون معهم على عرفات ، وإنما يقفون
وحدهم بالمزدلفة ، وكانوا يقولون : نحن قطين الله - أي سكان حرمه فينبغي
- لنا أن نعظم الحرم - وهو المزدلفة - ولا نعظم شيئاً من الحل - وهو عرفات
أحدهما : أن الخطاب فيها لقريش وحلفائها ، وذلك لأنهم كانوا يترفعون على.
الناس ، فلا يقفون معهم على عرفات ، وإنما يقفون وحدهم بالمزدلفة ، وكانوا
يقولون : نحن قطين الله - أي سكان حرمه فينبغي لنا أن نعظم الحرم - وهو
- المزدلفة - ولا نعظم شيئاً من الحل - وهو عرفات - .روى البخاري عن عائشة
رضي الله عنها - قالت ، كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة ، وكانوا
يسمون الحمس ، وكان سائر العرب يقفون بعرفات ، فلما جاء الإسلام أمر
الله - نبيه صلى الله عليه وسلم أن يأتي عرفات ثم يقف بها ثم يفيض منها
: فذلك قوله : ( ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ الناس ) .والمعنى
أفيضوا يا معشر قريش من المكان الذي يفيض منه الناس وهو عرفة ، واتركوا ما
تفعلونه من الإفاضة من المزدلفة ، فالمقصود إبطال ما كانت تفعله قريش
والثاني : أن الخطاب في الآية لجميع الناس ، أمرهم الله - تعالى - فيه أن.
- يفيضوا من حيث أفاض الناس .والمراد بالناس في الآية إبراهيم وإسماعيل
عليهما السلام -فإن سنتهما كانت الإفاضة من عرفة لا من المزدلفة .قال
بعضهم : وإيقاع اسم الجمع على الواحد جائز إذا كان رئيساً يقتدى به كما في
" قوله - تعالى - : ( الذين قَالَ لَهُمُ الناس ) يعني " نعيم بن مسعود
والذي نراه أن القول الثاني أولى بالقبول ، لأن المغزى الذي تهدف إليه.
الآية في معناها الخاص والعام هو دعوة الناس جميعاً إلى التجمع في مكان
واحد ليشعروا بالإخاء والمساواة عند أدائهم لفريضة الحج بدون تفرقة بين
كبير وصغير ، وغني وفقير ، وقرشي وغير قرشي ، ويدخل في النهي دخولا أولياً
تلبك الحالة التي كانت عليها قريش . وقد قال العلماء : العبرة بعموم اللفظ
لا بخصوص السبب .و " ثم " للتفاوت المعنوي بين الإفاضتين - إي الإفاضة من
عرفات والإفاضة من مزدلفة - لبيان البعد بينهما ، إذ أن إحداهما صواب
والأخرى خطأ .أي :لا تفيضوا من المزدلفة لأنه خطأ جسيم ، واجعلوا أفاضتكم
) : من عرفات لأن هذا العمل هو الصواب الذي يحبه الله ويرضاه .وقوله
واستغفروا الله إِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ) معطوف على ( أَفِيضُواْ مِنْ
حَيْثُ أَفَاضَ الناس ) أي : استغفروا الله من ذنوبكم ومما سلف منكم من
أخطاء فإن المؤمن كلما قويت روحه ، وصفت نفسه أحس بأنه مقصر أمام نعم خالقه
، التي لا تحصى ، ومن أكثر من التوبة والاستغفار غفر الله له ما فرط منه
. لأنه - سبحانه - كثير الغفران ، واسع الرحمة

فاذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم اباءكم او اشد ذكرا فمن الناس من
يقول ربنا اتنا في الدنيا وما له في الاخرة من خلاق

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما يجب عليهم عمله بعد فراغهم من أعمال الحج فقال - تعالى - : ( فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَّنَاسِكَكُمْ فَاذكروا الله كَذِكْرِكُمْ آبَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً ) .المناسك : جمع منسك مشتق من نسك نسكاً من باب نصر إذا تعبد ، والمراد هنا العبادات التي تتعلق بالحج
قال ابن كثير : عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : كان أهل الجاهلية. يقفون الموسم - بين مسجد منى وبين الجبل بعد فراغهم من الحج يذكرون فضائل آبائهم - فيقول الرجل منهم . كان أبي يطعم الطعام ويحمل الديات . . . ليس لهم ذكر غير فعال آبائهم فأنزل الله - تعالى - على نبيه صلى الله عليه وسلم ، هذه الآية " .والمعنى : فإذا فرغتم من عباداتكم ، وأديتم أعمال حجكم فتوفروا على ذكر الله وطاعته كما كنتم تتوفرون على ذكر مفاخر آبائكم ، بل ، عليكم أن تجعلوا ذكركم لله - تعالى - أشد وأكثر من ذكركم لمآثر آبائكم لأن ذكر مفاخر الآباء إن كان كذبا أدى إلى الخزي في الدنيا والعقوبة في الآخرة . وإن كان صدقاً فإنه في الغالب يؤدي إلى العجب وكثرة الغرور ، أما ذكر الله بإخلاص وخشوع فثوابه عظيم ، وأجيره كبير . وفضلا عن ذلك فإن المرء إذا كان لا ينسى أباه وهو الله رب العالمين .فالمقصود من الآية الكريمة الحث على ذكر الله - تعالى - والنهي عن التفاخر بالأحساب والأنساب و " أو " هنا في معنى الإضراب والترقي إلى أعلى ، لأنه . . . سبحانه. أمرهم أولا بأن يذكروه ذكراً يماثل ذكرهم لآبائهم ثم ترقى بهم إلى ما هو أعلى من ذلك وأسمى فطالبهم بأن يكون ذكرهم له - سبحانه - أكثر وأعظم من ذكرهم لآبائهم .قال صاحب الكشاف : وقوله : ( أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً ) في موضع جر عطف على ما أضيف إليه الذكر في قوله : " كذكركم " كما تقول كذكر قريش آباءهم أو قوم أشد منهم ذكراً . أو في موضع نصب عطف على ( آبَآءَكُمْ ، بمعنى ، أو أشد ذكراً من آبائكم .وبعد أن أمر - سبحانه - الناس بذكره ( بين أنهم بالنسبة لدعائه وسؤاله فريقان ، أما الفريق الأول فقد عبر عنه بقوله : ( فَمِنَ الناس مَن يَقُولُ رَبّنَآ آتِنَا فِي الدنيا وَمَا لَهُ فِي الآخرة مِنْ خَلاَقٍ ) .أي : من الناس نوع يقول في دعائه يا ربنا آتنا ) ما نرغبه في الدنيا فنحن لا نطلب غيرها ، وهذا النوع ليس له في الآخرة من خَلاَقٍ ) أي : نصيب وحظ من الخير .أي : من الناس نوع يقول في دعائه يا ربنا آتنا ما نرغبه في الدنيا فنحن لا نطلب غيرها ، وهذا النوع ليس له في الآخرة من ( خَلاَقٍ ) أي : نصيب وحظ من الخير .وهذا النوع من الناس هو الذي استولى عليه حب الدنيا وشهواتها ومتعها فأصبح لا يفكر إلا فيها ، ولا يهتم إلا بها ، صارفا نظره عن الآخرة وما فهيا من ثواب وعقاب .والفاء في قوله : ( فَمِنَ الناس ) للتفصيل ، لأن ما بعدها تقسيم للناس إلى فريقين .

ومنهم من يقول ربنا اتنا في الدنيا حسنة وفي الاخرة حسنة وقنا عذاب النار

كما فسرها الوسيط وحذف مفعول ( آتِنَا ) للدلالة على تعميم المطلوب فهم يطلبون كل ما يمكن أن تصل إليه أيديهم من متاع الدنيا بدون تمييز بين حلال أو حرام ، وأما الفريق الثاني فقد عبر - سبحانه - عنه بقوله : ( وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ آتِنَا فِي الدنيا حَسَنَةً وَفِي الآخرة حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النار ) .أي : يقولون يا ربنا أعطنا حسنة في الدنيا أي : حالا حسنة في الدنيا تكون معها أبداننا سليمة ، ونفوسنا آمنة ، ومعيشتنا ميسرة بحيث لا نحتاج إلى أحد سواك ، ولا نذل إلا لك ، وامنحنا حالا حسنة في الآخرة بأن تجعلنا يوم لقائك ممن رضيت عنهم ، ورضوا عنك ، وأبعدنا يوم القيامة من عذاب النار . ولم يذكر - سبحانه - قسما ثالثاً من الناس وهو الذي يطلب الآخرة .فقد ، ولا يطلب الدنيا ، لأن الإسلام دين لا يرضى لأتباعه أن ينسوا حظوظهم من الدنيا ، ولا يقر الانقطاع عن زينتها التي أخرجها الله لهم ، وإنما يريد لهم أن يكونوا من العاملين بقوله - تعالى - : ( وابتغ فِيمَآ آتَاكَ الله الدار الآخرة وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدنيا ) وبين - سبحانه - أن هذا النوع الثاني من الناس قد التمس من خالقه أن يقيه عذاب النار مع أن هذا الدعاء مندرج تحت حسنة الآخرة ، وذلك لأن هذا النوع من الناس لقوة إيمانه ، وصفاء وجدانه ، وشدة خشيته من ربه يغلب الخوف على الرجاء ، فهو يستصغر حسناته مهما كثرت بجانب نعم الله وفضله ، ويلح في الدعاء وفي الطلب أملا في الاستجابة .وقد أجمع العلماء على أن هذه الآية الكريمة من جوامع الدعاء ، وورد في فضل الدعاء بها أحاديث كثيرة منها ما رواه البخاري عن أنس بن مالك قال كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار " .وروى ابن أبي حاتم عن عبد السلام بن شداد قال : كنت عند أنس بن مالك فقال له ثابت : إن إخوانك يحبون أن تدعو لهم . فقال : " اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار " وتحدثوت حتى إذا أرادوا القيام قام : يا أبا حمزة إن إخوانك يريدون القيام فادع الله لهم فقال : أتريدون أن أشقق لكم الأمور!! إذا آتاكم الله في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ووقاكم عذاب النار فقد آتاكم الخير كله .قال الإمام الرازي : اعلم أن الله - تعالى -

بين أولا تفصيل مناسك الحج ، ثم أمر بعدها بالذكر فقال : ( فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فاذكروا الله عِندَ المشعر الحرام ) ثم بين أن الأولى أن يترك ذكر غيره وأن يقتصر على ذكره - سبحانه - ثم بين بعد ذلك كيفية الدعاء فقال : ( فَمِنَ الناس مَن يَقُولُ . . . ) وما أحسن هذا الترتيب فإنه لا بد من تقديم العبادة لكسر النفس وإزالة ظلماتها ثم بعد العبادة لابد من الاشتغال بذكر الله - تعالى - لتنوير القلب وتجلي نور جلاله . ثم بعد ذلك الذكر يشتغل الرجل بالدعاء ، فإن الدعاء إنما يكمل إذا كان مسبوقاً بالذكر كما حكى عن إبراهيم - عليه السلام - أنه قدم الذكر فقال ثم قال : ( رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً ( الذي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ) : وَأَلْحِقْنِي بالصالحين ) فقدم الذكر على الدعاء . "

اولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - جزاء هذا الفريق الثاني فقال : ( أولئك لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ والله سَرِيعُ الحساب ) .فاسم الإشارة يعود إلى الفريق الثاني باعتبار اتصافهم بما ذكر من النعوت الجميلة وكانت الإشارة للبعيد لبيان علو منزلتهم ، وسمو درجاتهم ولم بعطف على ما قبله لأنه كالنتيجة له .وقيل : إن الإشارة تعود إلى الفريقين . أي : لكل من الفريقين نصيب من عمله على قدر ما نواه . ويضعفه أن الله - تعالى - قد ذكر قبل ذلك عاقبة الفريق الأول بقوله : ( وَمَا لَهُ فِي الآخرة مِنْ خَلاَقٍ ) والمعنى : أولئك الذين جمعوا في دعائهم بين طلب حسنتي الدنيا والآخرة . لهم نصيب جزيل ، وحظ عظيم من جنس ما كسبوا من الأعمال الصالحة ، أو من أجل ما كسبوا من الفعال الطيبة .فحرف الجر " من " يصح أن يكون للابتداء أو للتبعيض .وفي هذه الجملة الكريمة وعد من الله لعباده أنهم متى تضرعوا إليه بقلب سليم ، أجاب لهم دعاءهم ، وأعطاهم سؤالهم .قال القرطبي : وقوله ( والله سَرِيعُ الحساب ) من سرع يسرع - مثل عظم يعظم - فهو سريع . و الحساب ) مصدر كالمحاسبة ، وقد يسمى المحسوب حساباً . والحساب : العد ويقال : حسب يحسب حساباً وحسابة وحسباناً أي : عد .والمعنى في الآية : أن الله - تعالى - سريع الحساب لا يحتاج إلى عد ولا إلى عقد ولا إلى إعمال فكر . كما يفعله الحساب ، ولهذا قال وقوله الحق ( وكفى بِنَا حَاسِبِينَ ) فالله - تعالى - عالم بما للعباد وما عليهم فلا يحتاج إلى تذكر وتأمل .وقيل سريع المجازاة للعباد بأعمالهم ، وقيل لعلي بن أبي طالب : كيف يحاسب الله العباد في يوم؟ قال : كما يرزقهم في يوم . ومعنى الحساب : تعريف الله عبادة مقادير الجزاء على أعمالهم وتذكيره إياهم بما قد نسوه .وقيل : معنى الآية سريع بمجئ يوم الحساب ، فالمقصود بالآية الإنذار ليوم : القيامة .

واذكروا الله في ايام معدودات فمن تعجل في يومين فلا اثم عليه ومن تاخر فلا اثم عليه لمن اتقى واتقوا الله واعلموا انكم اليه تحشرون

كما فسرها الوسيط وقوله : ( واذكروا الله في أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ ) معطوف على قوله - تعالى - ( فاذكروا الله كَذِكْرِكُمْ آبَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً ) وما بينهما اعتراض .والمراد بالأيام المعدودات أيام التشريق الثلاثة التي بعد يوم النحر . والتشريق : تقديد اللحم .قال القرطبي ، ولا خلاف بين العلماء أن الأيام المعدودات في هذه الآية هي أيام منى : وهي أيام التشريق ، وأن هذه الثلاثة الأسماء واقعة عليها ، وهي أيام رمى الجمار " .فالآية الكريمة تأمر الحجاج وغيرهم من المسلمين أن يكثروا من ذكر الله في هذه الأيام المباركة ، لأن أهل الجاهلية كانوا يشغلونها بالتفاخر ومغازلة النساء " ويزعمون أن الحج قد انتهى يوم النحر وهو اليوم العاشر من ذي الحجة .ولقد بين لنا النبي صلى الله عليه وسلم أن هذه الأيام ينبغي أن : تعمر بذكر الله وبشكره على نعمه .روى الإمام مسلم عن نبيشه الهذلي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر لله وروى البخاري عن ابن عمر : أنه كان يكبر بمنى تلك الأيام ، وخلف الصلوات " وعلى فراشه وفي فسطاطه . وفي مجلسه ، وفي ممشاه ، في تلك الأيام جميعاً ، ومن الذكر في تلك الأيام التبكير مع كل حصاة م نحصى الجمار كل يوم من أيام. التشريق .فقد أخرج البخاري عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم كبر مع كل حصاة .ويرى جمهور الفقهاء أن هذه الأيام يحرم فيها الصيام ، لأنها أيام كل وشرب وذكر لله .والمعنى : اذكروا الله ، أي : كبروه في أدبار الصلوات وعند ذبح القرابين ، وعند رمي الجمار وغيرها في تلك الأيام المعدودات التي هي موسم من مواسم العبادة والطاعات ، فإن الإكثار من ذكر الله يرفع الدرجات ، ويمسح السيئات .ثم قال - تعالى - : ( فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتقى ) . تعجل واستعجل يجيئان مطاوعين بمعنى عجل ، يقال : تعجل الأمر واستعجل . ويأتيان متعديين فيقال : تعجل الذهاب واستعجله ويرى الزمخشري أن المطاوعة أوفق لقوله - تعالى - : ( وَمَن تَأَخَّر ) .وإيضاح

ذلك : أنه يجب على الحاج المبيت بمنى الليلة الأولى والثانية من ليالي أيام التشريق ، ليرمي كل يوم بعد الزوال إحدى وعشرين حصاة يرمى عند كل جمرة سبع حصيات ، ثم من رمى في اليوم الثاني وأراد أن ينفر ويترك المبيت بمنى في الليلة الثالثة ورمى يومها بعد الزوال - كما يرى الشافعية - وبعده أو قبله - كما يرى الحنفية - فلا إثم عليه في عدم مبيته بمنى في الليلة الثالثة .أي : فمن تعجل فسافر في اليومين الأولين فلا إثم عليه في التعجيل ومن بقي إلى تمام اليوم الثالث فلا إثم عليه كذلك إذا اتقى كل منهما الله ، ووقف عند حدوده .فالتقييد بالتقوى للتنبيه إلى أن العبرة في الأفعال إنما هي بتقوى القلوب وطهارتها وسلامتها .قال الآلوسي : وقوله ( لِمَنِ اتقى ) خبر لمبتدأ محذوف ، واللام إما للتعليل أو للاختصاص .أي : ذلك التخيير المذكور لأجل المتقي لئلا يتضرر بترك ما يقصده من التعجيل والتأخر أو ذلك المذكور من أحكام مطلقاً مختصة بالمتقى لأنه هو الحاج على الحقيقة . والمراد من التقوى على التقديرين تجنب ما يؤثم من فعل أو ترك .ثم ختمت الآية بقوله - تعالى - : ( واتقوا الله واعلموا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ) اتقوا الله في كل ما تأتون وما تذرون ، واعلموا أنكم ستجمعون بعد تفرقكم وتساقون إلى خالقكم يوم القيامة ليجازيكم على أعمالكم .وقد ختمت الآيات التي تحدثت عن فريضة الحج بهذا الختام المكون من عنصرين ، أحدهما : تقوى الله .والثاني : العلم اليقيني بالحشر ، للإشعار بأنهما خلاصة التدين وثمرة العبادات بكل أنواعها وكل طرقها ، وإذا خلت أية عبادة من هذين ، العنصرين كانت صورة لا روح فيها .وإلى هنا تكون الآيات الكريمة قد ساقت لنا بعض أحكام الحج وآدابه ومناسكه بأسلوب يهدي القلوب ، ويسعد النفوس ، ومن شأن من يعمل بهذه الآيات أن يكون ممن رضى الله عنهم ورضوا عنه .

ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو الد الخصام

كما فسرها الوسيط وبعد أن بين - سبحانه - فريضة الحج وما اشتملت عليه من أحكم وآداب ، وبين أصناف الناس في أدعيتهم التي تكشف عن خبايا قلوبهم ، ومعادن نفوسهم ، بعد أن بين ذلك أعقبه بالحديث عن صنفين من الناس فقال ): وَمِنَ الناس مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي . . . )فأنت ترى أن هذه الآيات الكريمة قد بينت صنفين من الناس .أولهما : يمثل الأشرار .والثاني : يمثل الأخيار .أما الصنف الأول فقد وصفه الله - تعالى - بخمس صفات ، الصفة الأولى حكاها في قوله : ( وَمِنَ الناس مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الحياة الدنيا ) .يعجبك : من الإعجاب بمعنى الاستحسان ، تقول . أعجبني هذا الشيء أي : استحسنته وعظم في نفسي . و " من " للتبعيض .والمعنى : ومن الناس ، فريق يروقك منطقهم ، ويعجبك بيانهم ، ويحسن عندك مقالهم . فأنت معجب بكلامهم الحلو الظاهر ، المر الباطن ، وأنت في هذه الدنيا لأنك تأخذ الناس بظواهرهم ، أما في الآخرة فلن يعجبك أمرهم لأنهم ستنكشف حقائقهم أمام الله الذي لا تخفى عليه خافية ، وسيعاقبهم عقاباً أليماً لإظهارهم القول الجميل وإخفائهم الفعل القبيح .وعلى هذا التفسير يكون قوله : ( فِي الحياة الدنيا ) متعلقاً بالقول ( متعلقاً بيعجبك .وبعضهم يجعل قوله ( فِي الحياة الدنيا ) متعلقاً بيعجبك ) فيكون المعنى عليه ومن الناس فريق يعجبك قولهم إذا ما تكلموا في شئون الدنيا ومتعها لأنها منتهى آمالهم ، ومبلغ علمهم ، وأصل حبهم ، ومن أحب شيئاً أجاد التعبير عنه ، أما الآخرة فهم لا يحسنون القول فيها ، لأنهم لا يهتمون بها ، بل هم غافلون عنها ، ومن شأن الغافل عن شيء ألا يحسن القول فيه .ويبدو لنا أن تعلق الجار والمجرور بيعجبك أرجح ، لأنه يتفق مع السياق إذ سياق الحديث في شأن الذين يقولون بأفواههم لما ليس في قلوبهم ، ويخدعون الناس بمعسول بيانهم ع أن نفوسهم مريضة ، وليس في شأن الذين يحسنون الحديث عن شئونها المختلفة ، بل إن بعض الذين يحسنون الحديث في شئون الدنيا لم يضيعوا أخراهم وإنما عمروها بالعمل الصالح ، فهم جامعون بين حسنتي الدنيا والآخرة .والصفة الثانية من صفات هذا النوع المنافق من الناس بينه القرآن ، بقوله : ( وَيُشْهِدُ الله على مَا فِي قَلبِهِ ) أي : يقرن معسول قوله وظاهر توده ، بإشهاد الله على أن ما في قلبه مطابق لما يجري على لسانه وكأن هذا النوع المنافق قد رأى من الناس تشككاً في قوله ، لأن من عادة. المنافقين أن يبدوا من فلتات لسانهم ما يدل على ما هو مخبوء في نفوسهم فأخذ يوثق قوله بالإيمان الباطلة بأن يقول لمن ارتاب فيه : الله يشهد أني صاطق فيما أقول . . إلى غير ذلك من الأوال التي يقصد بها تأكيد قوله وصدقه فيما يدعيه ، فالمراد بإشهاد الله : الحلف به أن ما في قلبه موافق لقوله .وجملة حالية أو مستأنفة أو معطوفة على قوله ( يُعْجِبُكَ ) ( وَيُشْهِدُ الله ) وقوله - تعالى - ( وَهُوَ أَلَدُّ الخصام ) صفة ثالثة من صفات هذا النوع. - من الناس .قال القرطبي : الألد : الشديد الخصومة والعداوة . . ولددته بفتح الدال - الده - بضمها - إذا جادلته فغلبته .والألد مشتق من اللديدين وهما صفحتا العنق ، أي : في أي جانب أخذ من الخصومة غلب . والخصام في الآية ، مصدر خاصم . وقيل جمع خصم كصعب وصعاب . والمعنى ، أشد المخاصمين خصومة

وفي صحيح مسلم عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم " .أي : إن هذا النوع من الناس يثير الإعجاب بحسن بيانه ، ويضللهم بحلاوة لسانه ، ويحلف بالأيمان المغلظة أنه لا يقول إلا الصدق ، ويجادل عما يقوله بالباطل بقوة وعنف ومغالبة ، فهو بعيد عن طباع المؤمنين الذين إذا قالوا صدقوا ، وإذا جادلوا اتبعوا أحسن الطرق وأهداها .

واذا تولى سعى في الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد

كما فسرها الوسيط ثم وصفه الله - تعالى - بصفة رابعة فقال : ( وَإِذَا تولى سعى فِي الأرض لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الحرث والنسل والله لاَ يُحِبُّ الفساد ) .تولى : من التولية بمعنى الإدبار والانصراف ، ومتعلق تولى محذوف تقديره : تولى عنك .وسعى : من السعي وهو المشي السريع وهو مستعار هنا لإيقاع الفتنة والتخريب . والفساد كما قال الراغب - خروج الشيء عن الاعتدال قليلا كان الخروج عنه أو كثيراً ، ويضاده الصلاح يقال فسد فساداً وفسوداً إذا خرج عن الاستقامة .والحرث : مصدر يحرث ، أي : أثار الأرض لإعدادها للزراعة ، ثم أطلق وأريد به المحروث وهو الأرض ، ثم أطلق وأريد به ما يترتب على ذلك من الزروع والثمار وهو المراد هنا .والنسل : كما يقول القرطبي - ما خرج من كل أنثى من ولد . وأصله الخروج والسقوط ، ومنه نسل الشعر ينسل إذا سقط . ومنه ( حتى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ) أي : يخرجون مسرعين .والمعنى : وإذا أعرض هذا النوع من الناس وولاك دبره أسرع في الإفساد بينهم ، وتفريق كلمتهم ، وإتلاف كل ما يقع تحت يده من الزروع والثمار والحيوان وما به قوام الحياة والأحياء .فإهلاك الحرث والنسل كناية عن إتلافه لما به قوام أحوال الناس ومعيشتهم ، وعن إيذائه الشديد لهم .وبعض العلماء يرى أن " تولى " مشتق من الولاية : يقال : ولي البلد وتولاه ، أي صار والياً له ، أميراً عليه . والمعنى على هذا الرأي .وإذا صار - هذا النوع من الناس - والياً على قوم اجتذبهم إليه ببريق قوله ، وبمعسول لفظه ، وبأيمانه الفاجرة ، ومجادلته الباطلة ، حتى إذا ما التف الناس حوله سعى بينهم بالفساد ، وعمل على تقاطعهم وتباغضهم ، وحكم فيهم بالباطل ، ظناً منه أن هذا الخلق وذلك السلوك سيجعلهم دائماً طوع إرادته .قال الإمام الرازي : والقول الأول أقرب إلى نظم الآية ، لأن المقصود بيان نفاق هذا النوع من الناس ، وهو أنه عند الحضور يقول الكلام الحسن ويظهر المحبة ، وعند الغيبة يسعى في إيقاع الفتنة والفساد .وقوله ( والله لاَ يُحِبُّ الفساد ) أي لا يرضى عن الذي منه الإفساد في الأرض ، ويظهر للناس الكلام الحسن وهو يبطن لهم الفعل السيء ، لأنه - سبحانه - أوجد الناس ليصلحوا في الأرض لا ليفسدوا فيها .فالجملة الكريمة تحذير منه - سبحانه - للمفسدين ، ووعيد لهم على خروجهم عن طاعته .

واذا قيل له اتق الله اخذته العزة بالاثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد

- كما فسرها الوسيط أما الصفة الخامسة لهذا النوع من الناس فهي قوله - تعالى - : ( وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتق الله أَخَذَتْهُ العزة بالإثم ) أي : وإذا قيل لهذا المنافق على سبيل النصح والإرشاد اتق الله واترك ما أنت فيه من نفاق وخداع وخروج عن طاعة الله ، استولت عليه العزة - أي حمية الجاهلية - مقترنة بالإثم ومصاحبة له ، فهي ليست العزة المحمودة ولكنها الكبرياء المبغوضة . والباء على هذا المعنى للمصاحبة والاقتران .قال الجمل : والباء على هذا تكون في محل نصب على الحال وفيها حينئذ وجهان :أحدهما . أن تكون حالا من العزة أي ملتبسة بالإثم .والثاني : أن تكون حالا من المفعول . أي : أخذته كال كونه ملتبسا بالإثم ، وفي قوله العزة بالإثم التتميم وهو نوع من علم البديع ، وهو عبارة عن إرداف الكلمة بأخرى ترفع عنها اللبس وتقربها من الفهم ، وذلك أن العزة تكون محمودة ومذمومة فمن مجيئها محمودة قوله - تعالى ( وَلِلَّهِ العزة وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ) فلو أطلقت لتوهم فيها بضع من لا دراية له أنها محمودة فقثيل بالإثم توضيحاً للمراد فرفع اللبس ، ويجوز أن تكون الباء ، للتعدية - وهو قول الزمخشري - فإنه قال : أخذته بكذا إذا حملته عليه وألزمته إياه . أي : حملته العزة التي فيه وحمية الجاهلية على الإثم الذي ينهى عنه وألزمته ارتكابه ، ويجوز أن تكون للسببية بمعنى أن إثمه كان سبباً لأخذ العزة له " .أي : استولت عليه حمية الجاهلية بسبب الإثم الذي استحوذ على قلبه فأنساه كل ما يوصل إلى الصلاح والاستقامة .و " ال " في العزة للعهد . أي : العزة المعهودة المعروفة عند أهل الجاهلية التي تمنع صاحبها من قبول النصيحة .قال الأستاذ الإمام محمد عبده مرجحاً ما ذهب إليه من أن " تولى " بمعنى الولاية والإمارة : " وهذا الوصف ظاهر جداً في تفسير التولى بالولاية والسلطة ، فإن الحاكم الظالم المستبد يكبر عليه أن يرشد إلى مصلحة ، أو يحذر من مفسدة ، لأنه يرى أن هذا المقام الذي ركبه وعلاه

يجلعه أعلى الناس رأيا وأرجحهم عقلا ، بل الحاكم المستبد الذي لا يخاف
الله - تعالى - يرى نفسه فوق الحق كما أنه فوق أهله في السلطة ، فيجب أن
، يكون أفن رأيه خيراً من جودة آرائهم ، وإفسادهم نافذاً مقبولا دون إصلاحهم
- فكيف يجوز لأحد منهم أن يقول له : اتق الله في كذا . . . " .ثم بين
سبحانه - سوء عاقبة من هذه صفاته فقال : ( فَحَسْبُهُ جَهَنّمُ وَلَبِئْسَ
المهاد ) .الفاء هنا للإفصاح ، لأنها تفصح عن شرط محذوف تقديره : إذا كانت
: هذه حالة المعرض عن النصح أنفة وتكبراً ( فَحَسْبُهُ جَهَنّمُ ) أي
) كافية جهنم جزاء له ( وَلَبِئْسَ المهاد ) أي : كافية جهنم جزاء له
وَلَبِئْسَ المهاد ) أي : ولبئس الفراش الذي يستقر عليه بسبب غروره وفجوره
) وقوله : ( فَحَسْبُهُ جَهَنّمُ ) جملة من مبتدأ وخبر ، وقوله.
وَلَبِئْسَ المهاد ) جواب قسم مقدر .أي : والله والمخصوص بالذم محذوف
، لظهوره وتعينه وهو جهنم . والمهاد جمع مهد وهو المكان المهيأ للنوم
والتعبير عن جهنم بالهاد من باب التهم والاستهزاء بهذا النوع المغرور
المفسد من الناس .هذا وقد أورد بعض المفسرين في سبب نزول هذه الآيات منها
أنها نزلت في الأخنس ابن شريق الثقفي أقبل على النبي صلى الله عليه وسلم
فأظهر الإسلام وزعم أنه يحبه وأقسم بالله على ذلك ، غير أنه كان منافقاً
خبيث الباطن ، فخرج من عند النبي صلى الله عليه وسلم فمر بزرع لقوم من
المسلمين فأحرق الزرع وقتل بعض الماشية فنزلت .قال الإمام الرازي ما ملخصه
بعد أن ساق هذه الرواية وغيرها : واختيار أكثر المحققين من المفسرين أن هذه
الآيات عامة في حق كل من كان موصوفاً بهذه الصفات المذكورة . . . ولا يمتنع
، أن تنزل الآية في الرجل ثم تكون عامة في كل من كان موصوفاً بتلك الصفات
: ونزولها على السبب الذي حكيناه لا يمنع من العموم ، وهو من وجوه .أحدها
- أن ترتب الحكم على الوصف المناسب مشعر بالعلية ، فلما ذم الله - تعالى
قوماً وصفهم بصفات توجب استحقاق الذم ، علمنا أن الموجب لتلك المذمة هو تلك
الصفات ، فيلزم أن كل من كان موصوفاً بتلك الصفات أن يكون مستوجباً للذم
وثانيها : أن الحمل على العموم أكثر فائدة ، وذلك لأنه يكون زجراً لكل.
، المكلفين عن تلك الطريقة المذمومة .وثالثها : أن هذا أقرب إلى الاحتياط
لأنا إذا حملنا الآية على العموم دخل فيه ذلك الشخص ، وإما إذا خصصناه
بذلك الشخص لم يثبت الحكم في غيره ، فثبت بما ذكرنا أن حمل الآية على
العموم أولى " .هذا ، وفي هذه الآيات الكريمة زجر شديد ووعيد أليم
للمنافقين الذين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ويفسدون في الأرض ولا
يصلحون ، ويكادون يسطون بالذين ينصحونهم ويتلون عليهم آيات الله لأن
المنافقين ما كثروا في أمة إلا وجعلوا بأسها بينها شديدا ، روى ابن جرير عن
: نوف البكالي قال : إني لأجد صفة ناس من هذه الأمة في كتاب الله المنزل
قوم يحتالون على الدنيا بالدين ، ألسنتهم أحلى من العسل ، وقلوبهم أمر من
- الصبر ، يلبسون للناس مسوك - أي جلود - الضأن وقلوبهم الذئاب يقول الله
تعالى - فعلى يجترئون وبي يغترون ، حلفت بنفسي لأبعثن عليهم فتنة تترك
: الحليم حيران " .قال ابن كثير : قال القرطبي الذي روى هذا القول عن نوف
تدبرت هذه الصفات في القرآن فإذا هي في المنافقين ووجدتها في قوله - تعالى
والحق أنه ما. ( وَمِنَ الناس مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الحياة الدنيا )
ابتليت أمة بتفشي هذا النوع من الناس فيها إلا فسد حالها وهان شأنها وكانت
. عاقبة أمرها خسرا

ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله والله رءوف بالعباد

كما فسرها الوسيط أما النوع الثاني من الناس وهم الأخيار الصادقون فقد عبر
عنهم القرآن بقوله - تعالى - : ( وَمِنَ الناس مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابتغآء
مَرْضَاتِ الله والله رَؤُوفٌ بالعباد ) .( مَن يَشْرِي ) أي : يبيعها
ببذلها في طاعة الله وإعلاء كلمته ، وتحقيقه أن المكلف قد بذل نفسه بمعنى
أنه أطاع الله - تعالى - وحافظ على فرائضه ، وجاهد في سبيله ، من أجل أن
ينال ثواب الله ومرضاته ، فكان ما بذله من طاعات بمثابة السلعة ، وكان هو
بمنزلة البائع ، وكان قبول الله - تعالى - منه ذلك وإثابتهخ عليه في معنى
، الشراء .وقوله : ( ابتغآء مَرْضَاتِ الله ) الابتغاء الطلب الشديد للشيء
والرغبة القوية في الحصول عليه ، وهو في الآية مفعول لأجله .أي : ومن الناس
نوع آخر قد باع نفسه وبذلها في طاعة الله طلباً لرضوانه ، وأملا في مثوبته
وغفرانه .فهذالنوع التقي المخلص من الناس ، يقابل النوع المنافق المفسد
الذي سبق الحديث عنه .قال بعضهم : وكان مقتضى هذه المقابلة أن يوصف هذا
الفريق الثاني بالعمل الصالح مع عدم التعويض والتبجح بالقول ، أو مع مطابقة
قوله لعمله وموافقة لسانه لما في قلبه . والآية قد تضمنت هذا الوصف وإن لم
تنطق به ، فإن من يبيع نفسه لله لا يبغى ثمناً لها سوى مرضاته لا يتحرى إلا
العمل الصالح وقول الحق مع الإخلاص في القلب فلا يتكلم بلسانين ولا يقابل
الناس بوجهين . ويكون هو المؤمن الذي يعتد القرآن بإيمانه " .وقال أحد
العلماء : ومرضاة مصدر ميمي بمعنى الرضا . ولا شك أن التعبير بالمصدر
الميمي دون المصدر الأصلي له معنى يدركه السامع بذوقه ، ولم نجد النحويين

ولا البلاغيين تعرضوا لبيان التفرقة بين المصدر الميمي وغيره والذي يتبدى لنا ونظنه تفرقة بينهما ، أن المصدر الميمي يصور المعنى المصدري واقعاً قائماً متحققاً في الوجود ، أما المصدر غير الميمي فيصور المعنى مجرداً فإذا كانت كلمة مقال بمعنى القول ، فإن التعبير بالقول يصور معنى مجرداً من ، غير نظر إلى كونه تحقق وجوده أولا . أما كلمة مقال فتصور معنى وجد وتحقق أو في صورة الموجود المتحقق ، وعلى ذلك ( ابتغآء مَرْضَاتِ الله والله ) أنهم يبيعون أنفسهم طالبين طلباً موثقاً رضا الله - سبحانه - حقيقة واقعة مؤكدة ، ويتصورون رضاه - سبحانه - حقيقة قائمة قد حلت بهم ، فيشتد طلبهم ) : - وافتداؤهم للحق بأموالهم وأنفسهم " .ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله والله رَؤُوفٌ بالعباد ) أي ، رفيق رحيم بهم ، ومن مظاهر ذلك أنه لم يكلفهم بما هو فوق طاقتهم ، وإنما كلفهم بما تطيقه نفوسهم ، وأنه أسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة في الدنيا مع تقصيرهم فيما أمرهم به أو نهاهم عنه وأنه كافأهم بالنعيم المقيم على العمل القليل ، وأنه جعل العاقبة للمتقين ، لا للمفسدين ، إلى غير ذلك من مظاهر رأفته التي لا تحصى .هذا ، وقد أورد المفسرون روايات متعددة في سبب نزول هذه الآية منها أنها نزلت في صهيب بن سنان الرومي ، وذلك لأنه لما أسلم بمكة وأراد الهجرة منعه المشركون أن يهاجر بماله ، وإن أحب أن يتجرد منه ويهاجر آذنوا له ، فنخلص منهم وأعطاهم ماله فأنزل الله فيه هذه الآية . فتلقاه عمر بن الخطاب وجماعة إلى طرف الحرة فقالوا له : ربح البيع يا صهيب ، فقال لهم وأنتم فلا أخسر الله تجارتكم وما ذاك؟ فأخبروه أن الله أنزل فيه هذه الآية . ويروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال له عندما رآه : " ربح البيع ، ربح البيع " مرتين وهناك روايات أنها نزلت في وفي عمار بن ياسر وفي خباب بن الأرت وفي غيرهم. من المؤمنين المجاهدين .والذي نراه - كما سبق أن بينا - أن الآية الكريمة تتناول كل من أطاع الله - تعالى - وبذل نفسه في سبيل إعلاء كلمته ، ويدخل في ذلك دخولا أولياً من نزلت فيهم الآية ، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما يرى جمهور العلماء .وبذلك نرى أن الآيات قد بينت لنا نوعين من الناس : أحدهما خاسر ، والآخر رابح ، لكي نتبع طريق الرابحين ، ونهجر طريق الخاسرين ( وَمَن تزكى فَإِنَّمَا يتزكى لِنَفْسِهِ وَإِلَى الله المصير ) وبعد أن عرض القرآن هذين النوعين اللذين نجدهما في كل زمان ومكان ، وجه. - نداء إلى المؤمنين دعاهم فيه إلى الاستجابة التامة لخالقهم فقال - تعالى ( . . . ياأيها الذين آمَنُواْ ادخلوا ):

يا ايها الذين امنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين

كما فسرها الوسيط ( السلم ) - بكسر السين وفتحها مع إسكان اللام - بمعنى واحد ، ويطلقان على الإسلام وعلى المسالمة - وبعضهم فرق بين اللفظين فجعل ، بكسر السين - للإسلام ، و ( السلم ) - بفتحها - للمسالمة ( السلم ) وأنكر المبرد هذه التفرقة .قال الفخر الرازي : وأصل هذه الكلمة من الانقياد قال - تعالى - : ( إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ . لِرَبِّ العالمين ) والإسلام إنما سمي إسلامها لهذا المعنى . وغلب اسم السلم على الصلح وترك الحرب ، وهذا أيضاً راجع إلى هذا المعنى . لأن عند الصلح ينقاد كل واحد إلى صاحبه " .و ( كَآفَّةً ) أي جميعاً ، وهي في الأصل صفة من كف بمعنى منع ، واستعملت بمعنى الجملة والجميع بعلاقة أنها مانعة من التفرق وهي حال من قوله : ( السلم ) أي : يأيها المؤمنون ادخلوا في الإسلام والتزاموا بكل تعاليمه ، ونفذوا جميع أحكامه وآدابه ، واعملوا بكل . أوامره ونواهيه ، ولا تكونوا ممن يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض : فالمقصود التزام جميع شرائع الإسلام وأحكامه وآدابه .وبعضهم يرى أن قوله حال من فاعل ادخلوا وهو ضمير الجماعة والمعنى عليه : ادخلوا ( كَآفَّةً ) في الإسلام جميعاً ، وانقادوا لأحكامه مجتمعين غير متفرقين ، لأنه الدين ) الذي ألف الله به بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً .وسواء أكان لفظ كَآفَّةً ) حالا من ( السلم ) أو من فاعل ( ادخلوا ) فالمقصود من الآية دعوة المؤمنون إلى التمسك بجميع شعب الإسلام وشرائعه مع التزامهم برباط الإخاء الذي ربط الله به بين قلوبهم بسبب اتباعهم لهذا الدين الحنيف .وإذا كان المراد بكلمة ( السلم ) المسالمة والمصالحة كان المعنى : يأيها الذين ، آمنوا إن إيمانكم يوجب عليكم فيما بينكم أن تكونوا متصالحين غير متعادين متحابين غير متباغضين ، متجمعين غير متفرقين ، كما أنه يوجب عليكم بالنسبة لغيركم ممن هو ليس على دينكم أن تسالموه متى سالمكم ، وأن تحابوه متى اعتدى عليكم ، فإن دينكم ما جاء للحرب والخصام وإنما جاء للهداية وللسلام العزيز ، القوي الذي يرد الاعتداء بمثله .هذا هو المعنى الذي نراه ظاهراً في الآية وهو ما سار عليه المحققون من المفسرين .وبعضهم ذكر أن الخطاب في الآية لمؤمني أهل الكتاب ، لما روى عن ابن عباس أنه قال : نزلت في عبد الله بن سلام وأصحابه ، وذلك أنهم حين آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم وآمنوا بشرائعه وشرائع موسى عليه السلام - فعظموا السبت وكرهوا لحم الإبل

وألبانها بعد أن أسلموا ، فأنكر عليهم المسلمون فقالوا ، إنا نقوى على هذا وهذا؛ وقالوا النبي صلى الله عليه وسلم إن التوراة كتاب الله فدعنا فلنعمل بها فأنزل الله هذه الآية . فالخطاب لمؤمني أهل الكتاب .وبعضهم ذكر أن المراد بالآية المنافقون والتقدير : يأيها الذين آمنوا بألسنتهم ادخلوا بكليتكم في الإسلام ولا تتبعوا خطوات الشيطان .وهذان القولان ضعفهما ظاهر إذ لا سند لهما يعتمد عليه ، ولا يؤيدها سياق الآية الكريمة ، لأن الآية ، الكريمة صريحة في دعوة المؤمنين إلى التمسك بجميع تعاليم الإسلام ، وإلى الإخاء الجامع ونبذ التفرق والاختلاف والاعتداء .وقوله : ( وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشيطان إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ) تحذير لهم مما يصدهم عن الدخول في السلم .أي : ادخلوا في السلم واحذوراً أن تتبعوا مدارج الشيطان وطرقه إنه لكم عدو ظاهر العداوة بحيث لا تخفى عداوته على عاقل .والخطوات . جمع خطوة - بفت الخاء وضمها - وهي ما بين قدمي من يخطو وفي قوله : ( وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشيطان ) إشعار بأن الشيطان. كثيراً ما يجر الإنسان إلى الشر خطوة فخطوة ودرجة فدرجة حتى يجعله يألفه ويقتحمه بدون تردد ، وبذلك يكون ممن استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله ، والعاقل من الناس هو الذي يبتعد عن كل ما هو من نزغات الشيطان ووساوسه . فإن صغير الذنوب قد يوصل إلى كبيرها ، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه وقوله : ( إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ) جملة تعليلية ، مؤكدة للنهي. ومبينة لحكمته .

فان زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا ان الله عزيز حكيم

كما فسرها الوسيط وقوله : ( فَإِن زَلَلْتُمْ مِّن بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ البينات فاعلموا أَنَّ الله عَزِيزٌ حَكِيمٌ ) تفريع على النهي ، وترهيب من العقاب الذي سيصيب المتبعين للشيطان .قال القرطبي : وأصل الزلل في القدم ، ثم استعمل في الاعتقادات والآراء وغير ذلك .يقال : زل يزل زلا وزللا وزلولا : أي : دحضت قدمه .والبينات : جمع بينة ، وهي الأدلة والمعجزات ، ومجيئها ، ظهورها .والمعنى : فإن تنحيتم عن طريق الحق ، وعدلتم عنه إلى الباطل ، من بعد أن ظهرت لكم الأدلة المفرقة بين الصواب والخطأ ، والتي تدعوكم إلى اتباع طريق الحق ، فاعلموا أن الله ( عَزِيزٌ )لا يقهر ولا يعجزه الانتقام ممن زل ( حَكِيمٌ )لا يترك ما تقتضيه الحكمة وإنما يضع الأمور في مواضعها وجيء في الشرط بإن ، لندرة حصول الزلل من المؤمنين ، إذ الشأن فيهم ذلك. ) : وقوله : ( فاعلموا أَنَّ الله عَزِيزٌ حَكِيمٌ ) جواب الشرط .وقوله. مِّن بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ البينات ) قطع لعذرهم حتى لا يقولوا يوم الحساب إننا زللنا لأننا لا نعرف الحق من الباطل . وفي الآية دليل على أن عقوبة العالم بالذنب أعظم من عقوبة الجاهل به - كما قال القرطبي - .وقال الفخر الرازي ما ملخصه : " وقوله : ( فاعلموا أَنَّ الله عَزِيزٌ حَكِيمٌ ) نهاية في الوعيد ، لأنه يجمع من ضروب الخوف مالا يجمعه الوعيد بذكر العقاب وربما قال الوالد لولده : إن عصيتني فأنت عارف بي وأنت تعلم قدرتي عليك . وشدة سطوتي . فيكون هذا الكلام في الزجر أبلغ من ذكر الضرب وغيره . فإن قيل أفهذه الآية مشتملة على الوعد كما أنها مشتملة على الوعيد؟ قلنا : نعم من : حيث أتبعه بقوله : ( حَكِيمٌ ) فإن اللائق بالحكمة أن يميز بين المحسن والمسيء ، فكما يحسن من الحكيم إيصال العذاب إلى المسيء فكذلك يحسن منه إيصال الثواب إلى المحسن ، بل هذا أليق بالحكمة وأقرب للرحمة " .وبعد أن أمر الله المؤمنين بالدخول في السلم كافة ، ونهاهم عن الزلل عن طريقة المستقيم ، عقب ذلك بتهديد الذين امتنعوا عن الدخول في السلم فقال : ( هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أن يَأْتِيَهُمُ الله فِي ظُلَلٍ . . . ) .ينظرون : أي ينتظرون . يقال : نظرته وانتظرته بمعنى واحد .وظلل : جمع ظلة . كظلم جمع ظلمة - وهي ما أظلك من شعاع الشمس وغيره .والغمام : اسم جنس جمعي لغمامة ، وهي السحاب الرقيق الأبيض ، سمي بذلك لأنه يغم ، أي يستر . ولا يكون الغمام ظلة إلا حيث يكون متراكباً والاستفهام للإنكار والتوبيخ .والمعنى : ما ينتظر أولئك الذين أبوا الدخول في الإسلم من بعد ما جاءتهم البينات ، إلا أن يأتيهم الله يوم القيامة في ظل كائنة من الغمام الكثيف العظيم ليحاسبهم - على أعمالهم ، وتأتيهم ملائكته الذين لا يعلم كثرتهم إلا هو - سبحانه وإتيان الله - تعالى - إنما هو بالمعنى اللائق به - سبحانه - مع تنزيه عن. مشابهة الحوادث ، وتفويض علم كيفية إليه - تعالى - . وهذا هو رأي علماء السلف .

هل ينظرون الا ان ياتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضي الامر والى الله ترجع الامور

- كما فسرها الوسيط وقوله : ( وَقُضِيَ الأمر ) معناه على هذا الرأي : أتم سبحانه - أمر العباد وحسابهم فأثيب الطائع وعوقب العاصي ، ولم تعد لدى العصاة فرصة للتوبة أو تدارك ما فاتهم ، وقد ارتضى هذا الرأي عدد من

- المفسرين منهم ابن كثير فقد قال في معنى الآية : يقول الله - تعالى
مهدداً للكافرين بمحمد صلى الله عليه وسلم ( هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أن
يَأْتِيَهُمُ الله فِي ظُلَلٍ مِّنَ الغمام والملائكة ) يعني : يوم القيامة
نفصل القضاء بين الأولين والآخرين ، فيجزي كل عامل بعمله : إن خيراً فخير
وإن شراً فشر!! ولهذا قال - تعالى - ( وَقُضِيَ الأمر وَإِلَى الله
تُرْجَعُ الأمور ) .أما علماء الخلف فيؤولون إتيان الله بما يتناسب مع
ذاته - سبحانه - ، ولذا فسروا إتيانه بأمره أو بأسه في الدنيا .وقد عبر
صاحب الكشاف عن وجهة نظر هؤلاء بقوله : " إتيان الله : إتيان أمره وبأسه
كقوله ( أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ) ( جَآءَهُمْ بَأْسُنَا ) ويجوز أن
يكون المأتى به محذوفاً ، بمعنى أن يأتيهم الله ببأسه أو بنقمته للدلالة
عليه بقوله - قبل ذلك - " فإن الله عزيز حكيم " فإن قلت : لم يأتيهم العذاب
في الغمام؟ قلت : لأن الغمام مظنته الرحمة ، فإذا نزل منه العذاب كان الأمر
أفظع وأهول؛ لأن الشر إذا جاء من حيث لا يحتسب كان أغم كما أن الخير إذا
جاء في الحديث لا يحتسب كان أسر ، فكيف إذا جاء الشر من حيث يحتسب الخير؛
) : ولذلك كانت الصاعقة من العذاب المستفظع لمجيئها من حيث يتوقع الغيث
وَقُضِيَ الأمر ) أي : تم أمر إهلاكهم وتدميرهم وفرغ منه .وقال الجمل ما
، ملخصه : وقوله : ( إِلاَّ أن يَأْتِيَهُمُ الله ) استئناف مفرغ من مقدر
: أي ليس لهم شيء ينتظرونه إلا إتيان العذاب وهذا مبالغة في توبيخهم وقوله
بالرفع عطفاً على اسم الجلالة أي ، وتأتيهم الملائكة فإنهم ( والملائكة )
وسائط في إتيان أمره - تعالى - ، بل هم الآتون ببأسه على الحقيقة . وقرأ
الحسن وأبو جعفر : والملائكة بالجر عطفاً على ظلل ، أي إلا أن يأتيهم فئي
ظلل وفي الملائكة . وقوله ( وَقُضِيَ الأمر ) فيه وجهان :أحدهما : أن يكون
معطوفاً على يأتيهم داخلا في حيز الانتظار ويكون ذلك من وضع الماضي موضع
المستقبل والأصل ويقضي الأمر؛ وإنما جيء به كذلك لأنه محقق كقوله : ( أتى
- أَمْرُ الله ) والثاني : أن يكون جملة مستأنفة برأسها أخبر الله - تعالى
بأنه قد فرغ من أمرهم فهو من عطف الجمل وليس داخلا في حزي الانتظار .ثم
ختم - سبحانه - هذه الآية بقوله : ( وَإِلَى الله تُرْجَعُ الأمور ) أي
إليه وحده - سبحانه -لا إلى غيره ولا إلى أحد معه تصير الأمور خيرها وشرها
وسيجازي الذين أساءوا بما عملوا وسيجازي الذين أحسنوا بالحسنى .فالجملة
الكريمة تذييل قصد به تأكيد قضاء أمره ، ونفذا حكمه ، وتمام قدرته .

سل بني اسرائيل كم اتيناهم من اية بينة ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته
فان الله شديد العقاب

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن كفر الكافرين ليس سببه نقصان الدليل
على صحة إيمان المؤمنين ، وإنما سببهخ الجحود والحسد وإيثار الهوى على
الهدى ، بدليل أن بني إسرائيل قد آتاهم الله آيات ببينات تهدي إلى الإيمان
ومع ذلك كفروا بها . استمع إلى القرآن وهو يصور موقفهم بعد تهديده للكافرين
في الآية السابقة فيقولك ( سَلْ بني إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ
آيَةٍ بَيِّنَةٍ . . . ) .قال الفخر الرازي : اعلم أنه ليس المقصود : سل
بني إسرائيل ليخبروك عن تلك الآيات فتعلمها؛ وذلك أن الرسول صلى الله عليه
وسلم كان عالماً بتلك الأحوال بإعلام الله - تعالى - إياه ، بل المقصود منه
المبالغة في الزجر عن الإعراض عن دلائل الله - تعالى - .أي : سل هؤلاء
الحاضرين أنا لما آتينا أسلافهم آيات بينات فأنكروها ، لا جرم استوجبوا
العقاب من الله - تعالى - ، وذلك تنبيه لهؤلاء الحاضرين على أنهم لو زلوا
عن آيات الله لوقعوا في العذاب كما وقع أولئك المتقدمون فيه . والمقصود من
ذكر هذه الحكاية أن يعتبروا بغيرهم . . . " .و ( سَلْ ) فعل أمر من سأل
وأصله اسأل فنقلت فتحة الهمزة إلى السين قبلها وصارت ساكنة فحذفت . ولما
فتحت السين لم يكن هناك حاجة إلى همزة الوصل فحذفت أيضاً .و ( كَمْ ) إما
خبرية والمسئول عنه محذوف ، والجملة ابتدائية لا محل لها من الإعراب مبينة
لاستحقاقهم التقريع والتوبيخ . كأنه قيل ( سَلْ بني إِسْرَائِيلَ ) عن
طغيانهم وجحودهم للحق بعد وضوحه فقد آتيناهم آيات كثيرة بينة ومع ذلك أعرض
) كثير منهم عنها .وإما استفهامية والجملة في موضع المفعول الثاني لقوله
سَلْ ) وقيل : في موضع المصدر ، أي : سلهم هذا السؤال . وقيل : في موضع
الحال . أي : سلهم قائلا : كم آتيناهم .والاستفهام للتقرير بمعنى حمل
- المخاطب على الإقرار - بأنه قد خالف ما تقتضيه الآيات من الإيمان بالله
تعالى - .فالمراد بهذا السؤال تقريعهم على جحودهم الحق بعد وضوح الآيات لا
معرفة إجابتهم كما إذا أراد واحد منا توبيخ أحد فيقول لمن حضره : سله كم
- أنعمت عليه؟ومن الآيات البينات والمعجزات الواضحات التي أظهرها الله
تعالى - لبني إسرائيل على أيدي أنبيائهم ليؤمنوا بهم : عصا موسى التي
، ألقاها فإذا هي حية تسعى؛ والتي ألقاها فإذا هي تلقف ما صنعه السحرة
والتي ضرب بها البحر ( فانفلق فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كالطود العظيم ) إلى
غير ذلك من الآيات الدالة على وحدانية الله وصدق من جرت على يديه سهذه
الخوارق ، ومع ذلك فمنهم من قال لموسى ( أَرِنَا الله جَهْرَةً ) ومنهم من

) : كفر وعبد العجل . .ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة الجاحدين لآياته فقال
وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ
شَدِيدُ العقاب ) .التبديل : جعل شيء بدلا عن الآخر ، ونعمة الله هنا
تتناول آياته الدالة على صدق رسله ، كما يتناول ما أسبغه الله على عباده من
صحة ومال وعقل وغير ذلك من نعمه الظاهرة والباطنة .أي : ومن يبدل نعم الله
، بعد ما وصلت إليه واتضحت له ، بأن كفر بها مع أنها تدعو إلى الإيمان
وجحد فضلها مع أنها تستلزم منه الشكر لمسديها من يبدل ذلك التبديل فإن الله
سيعاقبه عقاباً شديداً .وقوله : ( مِن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ ) زيادة توبيخ
لهم ، وأنهم مستحقون لأشد ألوان العذاب ، لأنهم قد كفروا بآيات الله وجحدوا
نعمه بعد معرفتها والوقوف على تفاصيلها . فهو كقوله - تعالى - : ( وَقَدْ
كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ
مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ) فهو تبديل عن معرفة لا عن
جهل أو خطأ .وقوله : ( فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ العقاب ) تعليل للجواب أقيم
مقامه .أي : ومن يبدل نعمة الله عاقبه أشد عقوبة لأنه شديد العقاب فلا يفلت
منه أحد . ويحتمل أن يكون هذه الجملة هي الجواب بتقدير الضمير أي شديد
العقاب له .والعقاب هو الجزاء عن جناية وجرم ، وهو مأخوذ - كما يقول
، القرطبي - من العقب ، كأن المعاقب يمشي بالمحازاة للجاني في آثار عقبه
ومنه عقبة الراكب - أي الموضع الذي يركب منه - ، فالعقاب والعقوبة يكونان
بعقب الذنب وقد عاقبه بذنبه .فالآية الكريمة وعيد شديد لكل من يبدل نعم
الله ، ويترك شكرها .وبعد أن ذكر القرآن حال من يبدل نعمة الله من بعد ما
جاءته ، أتبعه بذكر الأسباب التي حملت

زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين امنوا والذين اتقوا فوقهم
يوم القيامة والله يرزق من يشاء بغير حساب

- كما فسرها الوسيط أولئك الأشقياء على البقاء في كفرهم وجحودهم فقال
تعالى - : ( زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ الحياة الدنيا ) .. . الآية
، التزيين : جعل الشيء زينا أي ، شديد الحسن . والحياة نائب فاعل ، زين.
ولم تلحق تاء التأنيث بالفعل لأن نائب الفاعل مجازي التأنيث ولوجود الفاصل
بين الفعل ونائب الفاعل .والمعنى ، أن الحياة الدنيا قد زينت للكافرين
فأحبوها وتهافتوا عليها تهافت الفراش على النار ، وصارت متعها وشهواتها كل
تفكيرهم ، أما الآخرة فلم يفكروا فيها ، ولم يهيئوا أنفسهم للقائها .قال
القرطبي : والمزين هو خالقها ومخترعها وخالق الكفر ، ويزينها أيضاً للشيطان
بوسوسته وإغوائه وخص الين كفروا بالذكر لقبولهم التزيين جملة وإقبالهم على
الدنيا وإعراضهم عن الآخرة بسببها . وقد جعل الله ما على الأرض زينة
لها ليبلو الخلق أيهم أحسن عملا ، فالمؤمنون الذين هم على سنن الشرع لم
) : تفتنهم الزينة ، والكفار تملكتهم لأنهم لا يعتقدون غيرها " .وقوله
وَيَسْخَرُونَ مِنَ الذين ) معطوف على جملة ( زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ
: أو خبر لمبتدأ محذوف أي وهم يسخرون وتكون الواو للحال .ويسخرون. ( . . .
يضحكون ويهزأون . يقال . سخرت منه وسخرت به وضحكت منه وضحكت به .أي أن
الذين كفروا لا يكتفون بحبهم الشديد لزينة الدنيا وشهواتها وإنما هم بجانب
ذلك يسخرون من المؤمنين لزهد هم في متع الحياة ، لأن الكفار يعتقدون أن ما
يمضى من حياتهم في غير متعة فهو ضياع منها ، وأنهم لن يبعثوا ولن يحاسبوا
على ما فعلوه في دنياهم ، أما المؤمنون فهم يتطلعون إلى نعيم الآخرة الذي
هو أسمى وأبقى من نعيم الدنيا .وجيء بقوله : ( زُيِّنَ ) ماضياً للدالة على
أنه قد وقع وفرغ منه . وجيء بقوله ( وَيَسْخَرُونَ ) مضارعاً للدالة على
تجدد سخريتهم من المؤمنين وحدوثها بين وقت آخر . قال - تعالى - : ( إِنَّ
الذين أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ الذين آمَنُواْ يَضْحَكُونَ . وَإِذَا
مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ . . . ) وقد ذكر بعض المفسرين في سبب نزول
، هذه الآية روايات منها : أنها نزلت في المنافقين عبد الله بن أبي وحزبه
، كانوا يتنعمون في الدنيا أو يسخرون من ضعفاء المؤمنين وفقراء المهاجرين
ويقولون : أنظروا إلى هؤلاء الذين يزعم محمد صلى الله عليه وسلم أنه يغلب
بهم . ومنها . أنها نزلت في أبي جهل ورؤساء قريش كانوا يسخرون من فقراء
المسلمين كعمار وخبابا وابن مسعود وغيرهم بسبب ما كانوا فيه من الفقر
والصبر على البلاء . والحق أنه لا مانع من نزولها في شأن كل الكافرين الذين
يسخرون من المؤمنين .وقوله : ( والذين اتقوا فَوْقَهُمْ يَوْمَ القيامة )
رد منه - سبحانه - على هؤلاء الكفار الذين يسخرون من المؤمنين ، والذين
يرون أنفسهم أنهم في زينتهم ولذاتهم أفضل من المؤمنين في نزاهتهم وصبرهم
على بأساء الحياة وضرائها .أي ، والذين اتقوا الله - تعالى - وصانوا أنفسهم
عن كل سوء فوق أولئك الكافرين مكانة ومكانا يوم القيامة ، لأن تقواهم قد
رفعتهم إلى أعلى عليين ، أما الذين كفروا فإن كفرهم قد هبط بهم إلأى النار
وبئس القرار .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم قال ( مِنَ الذين آمَنُواْ )
ثم قال : ( والذين اتقوا ) ؟ قلت : ليريك أنه لا يسعد عنده إلا المؤمن
التقى ، وليكون بعثاً للمؤمنين على التقوى إذا سمعوا ذلك .وقيدت الفوقية

، بيوم القيامة للننصيص على دوامها ، لأن ذلك اليوم هو مبدأ الحياة الأبدية ولإدخال السرور والتسلية على قلوب المؤمنين حتى لا يتسرب اليأس إلى قلوبهم بسبب إيذاء الكافرين لهم في الدنيا .وقوله : ( والله يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ : بِغَيْرِ حِسَابٍ ) تذييل قصد به تشريف المؤمنين ، وبيان عظم ثوابهم .أي والله يرزق من يشاء بغير حساب من المرزوق . أو بلا حصر وعد لما يعطيه . أو - أنه لا يخاف نفاد ما في خزائنه حتى يحتاج إلى حساب لما يخرج منها . فهو سبحانه - الذي يعطي ويمنع ، وليس عطاؤه في الدنيا دليل رضاه عن المعطي فقد يعطي الكافر وهو غير راض عنه ، أما عطاؤه في الآخرة فهو دليل رضاه عمن أعطاه .قال الأستاذ الإمام : إن الرزق بلا حساب ولا سعي في الدنيا إنما يصح بالنسبة إلى الأفراد ، فإنك ترى كثيراً من الأبرار وكثيراً من الفجار ، أغنياء موسرين متمتعين بسعة الرزق ، وكثيراً من الفريقين فقراء معسرين والمتقى يكون دائماً أسعد حالاً وأكثر احتمالا ، ومحلا لعناية الله به فلا . . . يؤلمه الفقر كما يؤلمه الفاجر لأنه يجد في التقوى مخرجاً من كل ضيق وأما الأمم فأمرها على غير هذا ، فإن الأمة التي ترونها فقيرة ذليلة لا يمكن أن تكون متقية لأسباب نقم الله وسخطه . . وليس من سنة الله أن يرزق . . الأمة العزة والثروة وهي لا تعمل ، وإنما يعطيها بعملها ويسلبها بزللها " .

كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وانزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه الا الذين اوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين امنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أحوال الناس ، وأنهم في حاجة إلى الرسل ): - ليبشروهم وينذروهم ويحكموا بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه فقال - تعالى كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ . . . )قال الفخر الرازي : اعلم أنه - تعالى - لما بين في الآية المقتدمة أن سبب إصرار هؤلاء الكفار على كفرهم هو حب الدنيا ، بين هذه الآية أن هذا المعنى غير مختص بهذا الزمان ، بل كان حاصلا في الأزمنة المتقادمة ، لأن الناس كانوا أمة واحدة قائمة على الحق ثم اختلفوا ، وما كان اختلافهم إلا بسبب البغي والتحاسد والتنازع في طلب الدنيا " .و ( أُمَّةً ) القوم المجتمعون على الشيء الواحد يقتدي بعضهم ببعض مأخوذ من أم بمعنى قصد لأن كل واحد من أفراد القوم يؤم المجموع ويقصده في مختلف شؤونه .وللعلماء أقوال في معنى قوله - تعالى - ( كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ) .القول الأول الذي عليه جمهور المفسرين أن المعنى : كان الناس أمة واحدة متفقين على توحيد الله - تعالى - مقرين له بالعبودية مجتمعين على شريعة الحق ثم اختلفوا ما بين ضال ومهتد ، فبعث الله إليهم النبيين ليبشروا من اهتدى منهم بجزيل الثواب ، ولينذروا من ضل بسوء العذاب ، وليحكموا بينهم فيما اختلفوا فيه بالحكم العادل ، والقول الفاصل قال القفال : ويشهد لصحة هذا الرأي قوله - تعالى - ( فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ . . . ) فهذا يدل على أن الأنبياء - عليهم السلام - إنما بعثوا حين " الاختلاف ، ويتأكد هذا بقوله :وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ويتأكد أيضاً بما نقل عن ابن مسعود أنه قرأ ( كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ . . ) .و " كان " على هذا الرأي على بابها من المضي ، وعدم استمرار الحكم ، وعدم امتداده إلى المستقبل ، لأن الناس كانوا مهتدين ثم زالت الهداية عنهم أو عن كثير منهم بسبب اختلافهم فأرسل الله - تعالى - رسله لهدايتهم .القول الثاني يرى أصحابه أن المعنى : كان الناس أمة واحدة مجتمعين على الضلال والكفر فبعث الله النبيين لهدايتهم .و كان " على هذا الرأي - أيضاً - على بابها من المضي والانقضاء ، ولا تحتاج " على هذا الرأي إلى تقدير كلام محذوف ، وهو ثم اختلفوا فبعث . . إلخ .ومن العلماء الذين رجحوا القول الأول الإمام ابن كثير فقد قال : عن قتادة عن عكرمة عن ابن عباس قال : كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين . .وهكذا قال قتادة ومجاهد . وقال العوفي عن ابن عباس ( كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ) يقول كانوا كفاراً ( فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ ) والقول الأول عن ابن عباس وهو أصح سنداً ومعنى؛ لأن الناس كانوا على ملة آدم حتى عبدوا الأصنام فبعث الله إليهم نوحاً - عليه السلام - فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض .أما " الرأي الثالث فقد قرره الإمام القرطبي بقوله : ويحتمل أن تكون " كان للثبوت ، والمراد الإخبار عن الناس الذين هم الجنس كله أنهم أمة واحدة في خلوهم عن الشرائع ، وجهلهم بالحقائق ، لولا مَنُّ الله عليهم وتفضله بالرسل إليهم . فلا يختص " كان " على هذا التأويل بالمضي فقط ، بيل معناه معنى قوله : ( وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ) وهذا الرأي قد اختاروه الأستاذ الإمام محمد عبده تفسيره للآية الكريمة ووافقه عليه بعض العلماء الذين كتبوا في تفسير هذه الآية . قال الأستاذ الإمام ما ملخصه ." خلق الله

الإنسان أمة واحدة أي مرتبطاً بعضه ببعض في المعاش لا يسهل على أفراده أن يعيشوا في هذه الحياة الدنيا إلا مجتمعين يعاون بعضهم بعضاً ، فكل واحد منهم يعيش ويحيا بشيء من عمله لكن قواه النفسية والبدنية قاصرة في توفير جميع ما يحتاج إليه ، فلا بد من انضمام قوى الآخرين إلى قوته . . . وهذا معنى قولهم : " الإنسان مدني بطبعه " يريدن بذلك أنه لم يوهب من القوى ما يكفي للوصول إلى جميع حاجاته إلا بالاستعانة بغيره . . . ولما كان الناس كذلك كان لا بد لهم من الاختلاف بمقتضى فطرهم ، وكان من رحمة الله أن يرسل إليهم مبشرين ومنذرين .وترتيب بعثة الرسل على وحدة الأمة في الآية التي تفسرها يكون على هذا المعنى :أن الله قضى أن يكون الناس أمة واحدة يرتبط بعضهم ببعض ولا سبيل لعقولهم وحدها إلى الوصول إلى ما يلزم لهم في توفير مصالحهم ودفع المضار عنهم ، لتفاوت عقولهم ، واختلاف فطرهم ، وحرمانهم من الإلهام الهادي لكل منهم إلى ما يجب عليه نحو صاحبه ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأيدهم بالدلائل القاطعة على صدقهم ، وعلى أن ما يأتون به إنما هو من عند الله - تعالى - القادر على إثابتهم وعقوبتهم . . . " .وقال فضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة ما ملخصه : وإن هذا الرأي الذي اختاره الأستاذ الإمام هو الذي نختاره ، وعلى هذا التأويل لا يكون ثمة حاجة إلى تقدير محذوف ، لأن ذات حالهم من كونهم لا علم لهم بالشرائع ولا تهتدي عقولهم إلى الحقائق بنفسها توجب البعث ، ولأن تلك الحال التي تكون على الفطرة وحدها توجب الاختلاف فتوجب بعث النبيين . . ثم إن نفس كل إنسان فيها نزوع إلى الاجتماع ، وحيث كان الاجتماع فلا بد من نظام يربط ، وشرع يحكم وعلى هذا التأويل أيضا تكون الفاء في قوله : ( فَبَعَثَ . . . ) - وهي. التي يقول عنها النحويون إنها للترتيب والتعقيب - في موضعها من غير حاجة " إلى تقدير ، لأن كون الناس أمة واحدة اقتضت الرسالة واقتضت الاختلاف .و كان " على هذا التأويل تدل على الاستمرار والثبوت ، لأن الناس بمقتضى فطرهم دائما في حاجة إلى شرع السماء لا يهتدون إلا به .ثم قال فضيلته : وقد يقول قائل : إن جعل " كان " للاستمرار يفيد أن وحدة الناس في الفطرة وتأديتها إلى التناحر يقتضي بعث النبيين إلى يوم القيامة ، وأنه لا بد من نبي لعصرنا ونحن نسلم بالاعتراض ولا ندفع إيراده ونقول : نعم إنه لا بد من قيام ، رسالة إلى يوم القيامة وهي رسالة محمد صلى الله عليه وسلم التي جاءت بكتاب تتجدد به الرسالة والبعث إلى أن تفني الأرض ومن عليها وهذا الكتاب هو القرآن الكريم الذي لا تبلى جدته ، والذي تكفل الله بحفظه ، وبإعجازه إلى يوم القيامة ، والذي من يقرؤه فكأنهما يتلقاه عن النبي صلى الله عليه وسلم هذه هي أشهر الأقوال في معنى قوله - تعالى - ( كَانَ الناس أُمَّةً. " وَاحِدَةً فَبَعَثَ الله النبيين مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ) وهناك أقوال أخرى لم نذكرها لضعفها .وقوله - تعالى - : ( وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الكتاب ) بالحق لِيَحْكُمَ بَيْنَ الناس فِيمَا اختلفوا فِيهِ ) معطوف على فَبَعَثَ ) ، والمراد بالكتاب الجنس .والمعنى : وأنزل - سبحانه - مع هؤلاء النبيين الذين بعثهم مبشرين ومنذرين كلامه الملتبس بالحق والجامع لما يحتاجون إليه من أمور الدين والدنيا ، لكي يفصلوا بواسطته بين الناس فيما اختلفوا من شئون دينيه ودنيويه .وذكر - سبحانه - الكتاب بصيغة المفرد للإشارة إلى أن كتب النبيين وإن تعددت إلا أنها في جوهرها كتاب واحد لاشتمالها على شرع واحد في أصله ، وإذا كان هناك خلاف بينها ففي تفاصيل ، الأحكام وفروعها لا في جوهرها وأصولها ، وقوله : ( بالحق ) متعلق بأنزل . أو حال من الكتاب أي ملتبسا شاهدا به .والضمير في قوله : ( لِيَحْكُمَ يجوز أن يعود إلى الله - تعالى - أو إلى النبيين ، أو إلى الكتاب . ورجح ( بعضهم عودته إلى الكتاب لأنه أقرب مذكور . والجملة تعليلية للإنزال المذكور .وفي إسناد الحكم إلى الكتاب تنبيه للناس إلى أن من الواجب عليهم أن يرجعوا إليه عند كل اختلاف . لأن هذا هو المقصد الأساسي من إنزال الكتب - السماوية .وللأستاذ الإمام محمد عبده كلام نفيس في هذا المعنى فقد قال رحمه الله - ما ملخصه : " الحكم مسند إلى الكتاب نفسه ، فالكتاب ذاته هو الذي يفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وفيه نداء للحاكمين بالكتاب أن يلزموا حكمه ، وألا يعدلوا عنه إلى ما تسوله الأنفس وتزينه الأهواء . . ولو ساغ للناس أن يؤولوا نصا من نصوص الكتب على حسب ما تنزع إليه عقولهم بدون رجوع إلى بقية النصوص ، لما كان لإنزال الكتب فائدة ، ولما كانت الكتب في ، الحقيقة حاكمة ، بل كانت متحكَمة فيها الأهواء ، فننعود المصلحة مفسدة وينقلب الدواء علة ، ولهذا رد الله الحكم إلى الكتاب نفسه لا إلى هوى الحاكم به .. ونسبة الحكم إلى الكتاب هي كنسبة النطق والهدى والتبشير إليه - في قوله - تعالى - : ( هذا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بالحق ) وقوله تعالى - : ( إِنَّ هذا القرآن يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ المؤمنين . . ) ثم يقول - رحمه الله - " يتخذ الواحد منهم كلمة من الكتاب أو أثراً مما جاء به وسيلة إلى تسخير غيره لما يريد ، وذلك قطع الكلمة أو الأثر عن بقية ما جاء في الكتاب والآثار الأخر ولي اللسان أو تأويله بيغر ما قصد منه؛ وما هم المؤول أن يعمل بالكتاب وإنما كل ما يقصد هو أن يصل إلى مطلب لشهوته ، أو عضد لسطوته ، سواء أهدمت أحكام الله أم قامت ، واعوجت

، السبيل أم استقامت ، ثم يأتي ضال آخر يريد أن ينال من هذا ما نال غيره
، فيحرف ويؤول حتى يجد المخدوعين بقوله ، ويتخذهم عونا على الخادع الأول
- فيقع الاختلاف والاضطراب ، وآلة المختلفين في ذلك هو الكتاب .ثم بين
سبحانه الأسباب التي أدت إلى اختلاف الناس في الكتاب الذي أنزله لهدايتهم
فقال ( وَمَا اختلف فِيهِ إِلاَّ الذين أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا
جَآءَتْهُمُ البينات بَغْياً بَيْنَهُمْ ) .والضمير في قوله : ( فِيهِ )
وفي قوله : ( أُوتُوهُ ) يعود إلى الكتاب ، والمعنى عليه : وما اختلف في
شأن الكتاب الهادي الذي لا لبس فيه ، المنزل لإزالة الاختلاف ، إلا الذين
أوتوه ، أي علموه ووقفوا على تفاصيله ، ولم يكن اختلافهم لا لتباس عليهم من
جهته وإنما كان خلافهم من بعد ما ظهرت لهم الدلائل الواضحة الدالة على صدقه
وما حملهم على هذا الاختلاف إلا البغي والظلم والحسد الذي وقع بينهم ،
والمراد بالذين اختلفوا فيه أهل الكتاب اليهود والنصارى ، واختلافهم في.
الكتاب يشمل تصديقهم ببعضه وتكذيبهم بالبعض الآخر ، كما يشمل اختلافهم في
تفسيره وتأويله وتنفيذ أحكامه وعدم تنفيذها ، وذهاب كل فريق منهم مذهباً
- يخالف مذهب الآخر في أصول الشرع لا في فروعه .وعبر عن الإنزال بالإيتاء
كما يقول الآلوسي - للتنبيه من أول الأمر على كمال تمكنهم من الوقوف على ما
فيه من الحق ، فإن الإنزال لا يفيد ذلك ، وقيل : عبر به ليختص الموصول
بأرباب العلم والدراسة من أولئك المختلفين ، وخصهم بالذكر لمزيد شناعة
فعلهم ولأن غيرهم تبع لهم " .وقوله : ( مِن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ البينات
متعلق باختلف ، وفيه زيادة تشنيع عليهم لأنهم قد اختلفوا فيه بعد أن قامت (
أمامهم الحجج الناصعة الدالة على الحق .وقوله : ( بَغْياً ) مفعول لأجله
لاختلفوا ( بَيْنَهُم ) متعلق بمحذوف صفة لقوله ( بَغْياً ) .أي لا داعي
، الاختلاف هو البغي والحسد الذي وقع بينهم ، فجعل كل فريق منهم يخطئ الآخر
ويجرح رأيه .وفي هذا التعبير إشارة إلى أن البغي قد باض وفرخ عندهم ، فهو
، يحرم عليهم ، ويدور بينهم ، ولا طمع له في غيرهم ، ولا ملجأ له سواهم
لأنهم أربابه الذين تمكنوا منه ، وتمكن منهم بقوة ورسوخ .وبعضهم جعل الضمير
في قوله : ( فِيهِ ) يعود إلى الحق ، والضمير في قوله : ( أُوتُوهُ ) يعود
إلى الكتاب . أي : وما اختلف في الحق إلا الذين أوتوا الكتاب .ويرى بعض
العلماء أن عودة الضمير في كليهما إلى الحق أو إلى الكتاب جائز ، وأن
، المعنى على التقدير واحد ، لأن الكتاب أنزل ملابساً للحق ومصاحباً له
فإذا اختلف في الكتاب اختلف في الحق الذي فيه وبالعكس على طريقة قياس
المساواة في المنطق والجملة الكريمة تحذير شديد من الوقوع فيما وقع فيه
- غيرهم من اختلاف يؤدي إلى البغي والتنازع والإعراض عن الحق .ثم بين
سبحانه - حال المؤمنين بعد بيانه لحال الغاوين فقال - تعالى - ( فَهَدَى
الله الذين آمَنُواْ لِمَا اختلفوا فِيهِ مِنَ الحق بِإِذْنِهِ ) .أي :
، فهدى الله الذين آمنوا وصدقوا رسله إلى الحق الذي اختلف فيه أهل الضلالة
وذلك الهدى بفضل توفيقه لهم وتيسيره لأمرهم .والفاء في قوله : ( فَهَدَى )
فصيحة لأنها أفصحت عن كلام مقدر وهو المعطوف عليه المحذوف .والتقدير : إذا
كان هذا شأن الضالين المختلفين في الحق ، فقد هدى الله بفضله الذين آمنوا
، إلى الصواب .وبين - سبحانه - أن الذين رزقهم الهداية هم الذين آمنوا
للإشعار بأن سبب هدايتهم للحق هو إيمانهم وتقواهم ، واستجابتهم للداعي
الذي دعاهم إلى الطريق المستقيم .وأسند الهداية إليه - سبحانه - لأنه هو
خالقها ، ولأن قلوب العباد بيديه فهو يقلبها كيف يشاء ، وهذا لا ينافي أن
للعبد اختياراً وكسباً فهو إذا سار في طريق الحق رزقه الله النور المشرق
الذي يهديه ، وإن سار في طريق الضلالة واستحب العمى على الهدى سلب الله عنه
توفيقه بسبب إيثاره الضلالة على الهداية .وقوله - تعالى - في ختام هذه
الآية : ( والله يَهْدِي مَن يَشَآءُ إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ) تذييل قصد
به بيان كمال سلطانه ، وتمام قدرته .أي : والله هو الهادي من يشاء من عباده
إلى طريق الحق الذي لا يضل سالكه ، فليس لأحد سلطان بجوار سلطانه ، ولو
أراد أن يكون الناس جميعاً مهديين لكانوا ، ولكن حكمته اقتضت أن يختبرهم
ليتميز الخبيث من الطيب ، فيجازي كل فريق بما يستحقه .قال ابن كثير : وفي
صحيح البخاري ومسلم عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قام
من الليل يصلي يقول : " اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات
، والأرض علام الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون
" اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم
وفي الدعاء المأثور : اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل.
باطلا وارزقنا اجتنابه ولا تجعله ملتبسا علينا فنضل واجعلنا للمتقين إماما
وبذلك نرى أن الآية قد بينت أن الناس لا يستغنون عن الدين الذي شرعه الله.
لهم على لسان رسله - عليهم الصلاة والسلام - ، وأن الأشرار من الناس هم
الذين يحملهم البغي على الاختلاف في الحق بعدج ظهوره لهم ، أما الأخيار
منهم فهم الذين اهتدوا بتوفيق الله وتيسيره إلى طريق الخير والصواب ( والله
يَهْدِي مَن يَشَآءُ إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ) .

ام حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما ياتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم

الباساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين امنوا معه متى نصر الله
الا ان نصر الله قريب

كما فسرها الوسيط وبعد أن ذكر - سبحانه - حال الناس ، واختلاف سفهائهم على
أنبيائهم ، واهتداء عقلائهم إلى الحق ، عقب ذلك بدعوة المؤمنين إلى
الاقتداء بمن سبقهم في الصبر والثبات . فقال - تعالى - :( أَمْ حَسِبْتُمْ
أن تَدْخُلُواْ الجنة . . . )قال القرطبي : قال قتادة والسدي وأكثر
المفسرين : نزلت هذه الآية في غزوة الخندق حين أصاب المسلمين ما أصابهم من
- الجهد والشدة والحر والبرد وسوء العيش وأنواع الشدائد ، وكانوا كما قال
تعالى - : ( إِذْ جَآءُوكُمْ مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ
وَإِذْ زَاغَتِ الأبصار وَبَلَغَتِ القلوب الحناجر ) وقيل نزلت في حرب أحد
ونظيرها - في آل عمران ( أَمْ حَسِبْتُمْ أن تَدْخُلُواْ الجنة وَلَمَّا ،
يَعْلَمِ الله الذين جَاهَدُواْ مِنكُمْ . . ) وقالت فرقة : نزلت الآية
تسلية للمهاجرين حين تركوا ديارهم وأموالهم بأيدي المشركين ، وآثروا رضا
الله ورسوله ، وأظهرت اليهود العداوة لرسول الله ، وأسر قوم من الأغنياء
النفاق فأنزل اله ذلك تطيبا لقلوبهم .وما ذكره المفسرون في سبب نزول هذه
الآية الكريمة لا يمنع عمومها ، وأنها تدعو المؤمنين في كل زمان ومكان إلى
التذرع بالصبر والثبات تأسيا بمن سبقهم من المتقين حتى يفوزوا برضوان
الله - تعالى - ونصره .و ( أَمْ ) هنا يرى بعضهم أنها للاستفهام الإنكاري
ويرى بعض آخر أنها أم المتصلة ، ويرى فريق ثالث أنها أم المنقطعة .قال ،
الجمل : وحسب هنا من أخوات ظن تنصب مفعولين أصلهما المبتدأ والخبر ، وأن
وما بعدها سادة مسد المفعولين عند سيبويه ، ومسد الأول عند الأخفش والثاني
محذوف ، ومضارعها فيه وجهان : الفتح وهو القياس والكسر .و ( وَلَمَّا ) تدل
على النفي مع توقع حصول المنفي بها ، كما في قول النابغة :أزف الترحل غير
أن ركابنا ... لما تزل برحالنا وكن قدفنفى بلما ثم قال : وكأن قد ، أي
: وكأنه قد زالت .و ( البأسآء ) ما يصيب الناس في الأموال كالفقر .والضراء
ما يصيبهم في الأنفس كالمرض مشتقان من البؤس والضر .و ( وَزُلْزِلُواْ ) من
الزلزلة وهي شدة التحريك وتكون في الأشخاص وفي الأحوال . فيقال :زلزلت
الأرض ، أي تحركت واضطربت ، ومعنى زلزلوا : خوفوا وأزعجوا واضطربوا
والمعنى على أن ( أَمْ ) للاستفهام الإنكاري : أظننتم أيها المؤمنون أنكم.
تدخلون الجنة بمجرد الإيمان دون أن يصيبكم ما أصاب الذين سبقوكم من شداد
في الأنفس والأموال ، ومن مخاوف أزعجتهم وأفزعتهم حتى بلغ الأمر برسولهم
: وبالمؤمنين معه أن يقولوا وهم في أقصى ما تحتمله النفوس البشرية من آلام
، متى نصر الله؟ ألا - أيها المؤمنون - إني أنهاكم أن تظنوا هذا الظن
وآمركم أن تتيقنوا من أن الظفر بدخول الجنة يستلزم منكم التأسي بمن سبقكم
من المتقين في الصبر والثبات .والمعنى على أن ( أَمْ ) هنا هي المتصلة - أي
المشعرة بمحذوف دل عليه الكلام - : قد خلت من قبلكم أمم أوتوا الكتاب
واهتدوا إلى الحق فآذاهم الناس أذى شديدا فصبروا على ذلك أفتصبرون مثلهم
على المكاره وتثبتون ثباتهم على الشدائد؟ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة دون أن
يصيبكم ما أصابهم؟والمعنى على أن ( أَمْ ) هنا منقطعة - أي تدل على
الإضراب والاستفهام معا - : لقد أوذيتم أيها المؤمنون في سبيل دينكم أذى
عظيماً ، فعليكم أن تصبروا وأن تثبتوا كما فعل الذين من قبلكم ، أم حسبتم
أن تدخلوا الجنة دون ابتلاء وصبر .. أي : بل أحسبتم . . إن كان هذا هو
حسبانكم فهو حسبان باطل لا ينبغي لكم .وقوله - تعالى - ( مَّسَّتْهُمُ
البأسآء . . ) استئناف وقع جواباً عما ينساق إليه الذهن ، كأنه قيل : كيف
مثل أولئك الذين خلوا ومضوا؟ فكان الجواب مستهم البأساء . . . الخ .ومستهم
أي : حلت بهم . وعبر بمستهم للإشعار بأن تلك الشدائد قد أصابتهم بالآلام
التي اتصلت بحواسهم وأجسادهم ولكنها لم تضعف إيمانهم إذ حقيقة المس اتصال
الجسم بجسم آخر .قال صاحب الكشاف : وقوله : ( وَزُلْزِلُواْ ) أي : أزعجوا
إزعاجاً شديداً شبيها بالزلزلة بما أصابهم من الأهوال والأفزاع " حتى يقول
الرسول " أي : إلى الغاية اليت قال الرسول ومن معه فيها ( متى نَصْرُ الله
أي بلغ بهم الضجر ولم يبق لهم صبر حتى قالوا ذلك . ومعناه طلب النصر (
وتمنيه ، واستطالة زمان الشدة . وفي هذه الغاية دليل على تناهي الأمر في
الشدة وتماديه في العظم؛ لأن الرسل لا يقادر قدر ثباتهم واصطبارهم وضبطهم
لأنفسهم ، فإذا لم يبق لهم صبر حتى ضجوا كان ذلك الغاية في الشدة التي لا
مطمع وراءها " .والمراد بالرسول - كما يقول الآلوسي - الجنس لا واحد بعينه
وقيل : شعياء ، وقيل : أشعياء ، وقيل اليسع . وعلى التعيين يكون المراد .
: - من الذين خلوا قوماً بأعيانهم وهم أتباع هؤلاء الرسل " .وقوله - تعالى
استئناف على تقدير القول . أي فقيل لهم ( ألا إِنَّ نَصْرَ الله قَرِيبٌ )
حينما التمسوا من الله النصر بعد تلك الشدائد والأهوال التي نزلت بهم : ألا
إن نصر الله قريب تطيباً لأنفسهم ، وبعثا للآمال في قلوبهم .وفي هذه الجملة
الكريمة ألوان من المؤكدات والمبشرات بالنصر القريب ، ويشهد لذلك التعبير
بالجملة الاسمية بدل الفعلية فلم يقل - مثلا - ستنصرون والتعبير بالجملة
الاسمية يدل على التوكيد . ويشهد لذلك أيضا تصدير الجملة بأداة الاستفتاح

، الدالة على تحقيق مضمونها وتقريره ، ووقوع إن المؤكدة بعد أداة الاستفتاح
وإضافة النصر إلأى الله القادر على كل شيء والذي وعد عباده المؤمنين بالنصر
" فقال ، إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الإشهاد
هذا ، والمتأمل في الآية الكريمة يراها قد بينت للمؤمنين أن طريق الجنة.
محفوف بالمكاره ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : " حفت الجنة
بالمكاره وحفت النار بالشهوات " وأنهم لكي يصلوا إلى الجنة عليهم أن يتأسوا
بالسابقين في جهادهم وصبرهم على الأذى ، فقد اقتضت سنة الله أن يجعل هذه
الحياة نزالا موصولا بين الأخيار والأشرار ، ونزاعا مستمرا بين الأطهار
والفجار ، وكثيرا ما يضيق البغاة على المؤمنين ، وينزلون بهم ما ينزلون من
صفوف الاضطهاد إلا أن الله - تعالى - قد تكفل بأن يجعل العاقبة للمتقين
ولقد حكى لنا التاريخ أن المؤمنين السابقين قد صبروا أجمل الصبر وأسماه في.
سبيل إعلاء كلمة الله .روى البخاري عن خباب بن الأرت - رضي الله عنه - قال
شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة له في ظل " :
الكعبة فقلنا : ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال : قد كان من قبلكم يؤخذ
الرجل فيحفر له الأرض فيجعل فيها ، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل
. نصفين ، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ، فما يصده ذلك عن دينه
والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لا يخاف
إلى الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون " .وبذلك نرى أن السورة الكريمة
من قوله - تعالى - ( وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الحياة
الدنيا ) إلى هنا ، قد بينت لنا أقسام الناس في هذه الحياة ، ودعت المؤمنين
إلى أن يتمسكوا بجميع تعاليم الإسلام ، وأن يزهدوا في زينة الحياة التي
شغلت المشركين عن كل شيء سواها ، وأن يشكروا الله على هدايته إياهم إلى
الحق الذي اختلف غيرهم فيه ، وأن يوطنوا أنفسهم على تحمل الآلام لكي يحقق
. الله لهم الآمال

يسالونك ماذا ينفقون قل ما انفقتم من خير فللوالدين والاقربين واليتامى
والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فان الله به عليم

كما فسرها الوسيط ثم أرشد الله - تعالى - المؤمنين بعد ذلك لى أن مما
، يعينهم على دفع الأذى وعلى دحر أعدائهم أن يبذلوا أموالهم في طاعة الله
وأن يعدوا أنفسهم للقتال في سبيله فقال - تعالى - :( يَسْأَلُونَكَ مَاذَا
يُنْفِقُونَ قُلْ مَآ . . . )قال الآلوسي : عن ابن جريج قال : سأل
- المؤمنون رسول الله صلى الله عليه وسلم أين يضعون أموالهم فأنزل الله
تعالى - قوله : ( يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ ) الآية . وعن ابن عباس
: قال : كان عمرو بن الجموع شيخاً كبيراً وعنده مال كثير فقال يا رسول الله
بماذا نتصدق ، وعلى من ننفق؟ فنزلت الآية .والمعنى : يسألك أصحابك يا
محمدأي شيء ينفقونه من أصناف الأموال؟ قل لهم : ما أنفقتم من أموالكم
، فاجعلوه للوالدين قبل غيرهما ليكون أداء لحق تربيتهما ووفاء لبعض حقوقهما
وللأقربين وفاء لحق القرابة والرحم ولليتامى لأنهم فقدوا الأب الحاني الذي
يسد عوزهم ، المساكين لفقرهم واحتياجهم ، وابن السبيل لأنه كالفقير لغيبة
ماله وانقطاعه عن بلده .قال الإمام الرازي : فهذا هو الترتيب الصحيح الذي
رتبه الله - تعالى - في كيفية الإنفاق ثم لما فصل هذا التفصيل الحسن
الكامل أردفه بعد ذلك بالإجمال فقال : ( وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ
فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ ) أي : وكل ما فعلمتوه من خير إما مع هؤلاء
المذكورين وإما مع غيرهم حسبة لله وطلبا لجزيل ثوابه وهربا من أليم عقابه
فإن الله به عليم فيجازيكم أحسن الجزاء عليه . . . " .وظاهر الآية - كما
يقول الآلوسي - أن السؤال عن المنفق فأجاب بيان المصرف صريحاً ، لأنه أهم
لأن اعتداد النفقة باعتباره . وأشار - سبحانه - إجمالا إلى بيان المنفق فإن
قوله ( مِنْ خَيْرٍ ) يتضمن كونه حلالا إذ لا يسمى ما عداه خيرا ، وإنما
تعرض لذلك - أي لبيان المنفق عليه - وليس في السؤال ما يقتضيه ، لأن السؤال
، للتعلم لا للجدل ، وحق المعلم فيه أن يكون كطيب رفيق يتحرى ما فيه الشفاء
طلبه المريض أم لم يطلبه . ولما كانت حاجتهم إلى من ينفق عليه كحاجتهم إلى
ما ينفق بين الأمرين ، ( وهذا كمن به صفراء فاستأذن طبيباً ، في أكل العسل
فقال له : كله مع الخل ) . فالكلام إذا من أسلوب الحكيم . ويحتمل أن يكون
في الكلام - أي في كلام السائلين - ذكر المصرف - أيضاً - كما في سؤال عمرو
بن الجموع إلا أنه لم يذكره في الآية للإيجاز في النظم تعويلا على الجواب
فتكون الآية جوابا لأمرين مسئول عنهما . والاقتصار في بيان المنفق على ،
الإجمال من غير تعرض للتفصيل كما في بيان المصرف للإشارة إلى كون الثاني
أهم . وهل تخرج الآية بذلك عن كونها من أسلوب الحكيم أولا؟ قولان أشهرهما
الثاني " .ولم يتعرض - سبحانه - هنا لبقية المحتاجين كالسائلين والغارمين
- إما اكتفاء بذكرهم في مواضع أخرى ، وإما بناء على دخولهم تحت عموم قوله
قوله - تعالى - : في آخر الآية ( وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ
" اللهَ بِهِ عَلِيمٌ ) فإنه شامل ككل خير واقع في أي مصرف كان .قال الجمل و
ذا " اسم موصول بمعنى الذي والعائد محذوف ، و " ما " على أصلها من

الاستفهام ولذلك لم يعمل فيها يسألونك ، وهي مبتدأ وذا خبره ، والجملة
) : محلها النصب بيسألون . والمعنى يسألونك أي الشيء الذي ينفقونه .وقوله
وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ ) تذييل قصد به
الحض على فعل الخير ، لأن المؤمن عندما يشعر بأن الله يرى عمله ويجازيه
عليه بما يستحقه ، يشجعه ذلك على الاستمرار في عمل الخير . وإذا كان بعضنا
يكثر من عمل الخير عندما يعلم أن شخصا ذا جاه يسره هذا العمل ، فكيف يكون
الحال عندما يعلم المؤمن التقي أن الذي يرى عمله ويكافئه عليه هو الله الذي
لا يخفى عليه خافية ، والذي يعطي من يشاء بغير حساب .قال بعض العلماء : وقد
) : - اختلف في هذه الآية . فقيل إنها منسوخة بآية الزكاة وهي قوله - تعالى
إِنّمَا الصدقات لِلْفُقَرَآءِ . . ) وقيل - وهو الأولى - إنها غير منسوخة
. وهي لبيان صدقة التطوع فإنه متى أمكن الجمع فلا نسخ ،

كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى ان
تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وانتم لا تعلمون

كما فسرها الوسيط وقوله : ( كُتِبَ عَلَيْكُمُ القتال وَهُوَ كُرْهٌ
لّكُمْ ) حض لهم على بذل النفس في سبيل إعلاء كلمة الله ، بعد أن حضهم في
الآية السابقة على بذل المال .والكره - بضم الكاف - بمعنى الكراهية بدليل
قوله - تعالى - : ( وعسى أن تَكْرَهُواْ شَيْئاً . . . ) أي أن القتال
لشدة ويلاته ، وما فيه من إزهاق الأرواح كأنه الكراهة نفسها فهو من وضع
المصدر موضع اسم المفعول مبالغة ، وقرئ وهو كره لكم - بفتح الكاف - فيكون
فيه معنى الإكراه ، لأن الكره بالفتح ما أكرهت عليه . وقيل هما لغتان
بمعنى واحد وهو الكراهية .ويرى كثير من المفسرين أن القتال إنما كان مكروها
للنفوس لما فيه من التعرض للجراح وقطع الأطراف ، وإزهاق الأرواح والإنسان
ميال بطبعه إلى الحياة ، وأيضا لما فيه من إخراج المال ومفارقة الوطن
والأهل ، والحيلولة بين المقاتل وبين طمأنينته ونومه وطعامه ، فهو مهما يكن
أمره فيه ويلات وشدائد ، ومشقات تتلوها مشقات ، ولكن كون القتال مكروها
للنفوس لا ينافي الإيمان ولا يعني أن المسلمين كرهوا فرضيته ، لأن امتثال
الأمر قد يتضمن مشقة ، ولكن إذا عرف الثواب في جنبه اقتحام المشقات . ولا
شك أن القتال في سبيل الله - مع ما فيه من صعاب وشدائد - ستكون عاقبته
العزة في الدنيا ، والسعادة في الأخرى .ويرى بعضهم أن كره المسلمين للقتال
ليس سببه ما فيه من شدائد ومخاطر وتضحيات بدليل أنهم كانوا يتنافسون خوض
غمراته ، وإنما السبب في كراهيتهم له هو أن الإسلام قد غرس في نفوسهم رقة
ورحمة وسلاما وحبا ، وهذه المعاني جعلتهم يحبون مصابرة المشركين ويكرهون
قتالهم أملا في هدايتهم ، ورجاء في إيمانهم ، ولكن الله - تعالى - كتب على
المسلمين قتال أعدائهم لأنه يعلم أن المصلحة في ذلك ، فاستجاب المؤمنون
بصدق وإخلاص لما فرضه عليهم ربهم .ويبدو لنا أن الرأي الأول أقرب إلى ظاهر
الآية ، لأن القتال فريضة شاقة على النفس البشرية ، بحسب الطبع والقرآن لا
يريد أن ينكر مشقتها ، ولا أن يهون من أمرها ، ولا أن ينكر على النفس
البشرية إحساسها الفطري بكراهيتها ، ولكنه يعالج الأمر من جانب آخر ، بأن
يقرر أن من الفرائض ما هو شاق ولكن وراءه حكمة تهون مشقته ، وتسهل صعوبته
وتحقق به خيراً مخبوءاً قد لا يراه النظر الإنساني القصير ، وقد بين
القرآن هذه الحكمة في قوله ( وعسى أن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ
لّكُمْ وعسى أن تُحِبّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لّكُمْ ) .أي : وعسى أن
تكرهوا شيئاً كالقتال في سبيل الله - تعالى - وهو خير لكم إذ فيه إحدى
الحسنيين : إما الظفر والغنيمة - في الدنيا مع ادخار الجزاء الأخروى وإما
الشهادة والجنة ، وعسى أن تحبوا شيئاً كالقعود عن الجهاد وهو شر لكم في
: الواقع لما فيه من الذل ووقوعكم تحت طائلة الأعداء .قال الفخر الرازي
معنى الآية أنه ربما كان الشيء شاقا عليكم في الحال ، وهو سبب للمنافع
الجليلة في المستقبل ، ولأجله حسن شرب الدواء في المر في الحال لتوقع حصول
الصحة في المستقبل ، وترك الجهاد ، وإن كان يفيد - أي بحسب ظنكم - في الحال
صون النفس عن خطر القتل وصون المال عن الإنفاق ولكن فيه أنوع من المضار
. منها : أن العدو إذا علم ميلكم إلى الدعة والسكون قصد بلادكم وحاول قتلكم
والحاصل أن القتال في سبيل الله سبب لحصول الأمن من الأعداء في الدنيا . .
: وسبب لحصول الثواب العظيم للمجاهد في الآخرة . . "وقال القرطبي : والمعنى
عسى أن تكرهوا ما في الجهاد من المشقة وهو خير لكم في أنكم تغلبون وتظفرون
وتغنمون وتؤجرون ومن مات منكم مات شهيدا ، وعسى أن تحبوا الدعة وترك القتال
وهو شر لكم في أنكم تغلبون ويذهب أمركم .وهذا صحيح لا غبار عليه ، كما اتفق
، في بلاد الأندلس ، تركوا الجهاد وجبنوا عن القتال وأكثروا من الفرار
فاستولى العدو على البلاد ، وأي بلاد؟!! وأسر وقتل وسبى واسترق ، فإنا لله
وإنا إليه راجعون!! ذلك بما قدمت أيدينا وكسبته!! وقال الحسن في معنى الآية
لا تكرهوا الملمات الواقعة؛ فلرب أمر تكرهه فيه نجاتك ، ولرب أمر تحبه :
فيه عطبك ، وأنشد أبو سعيد الضرير :رب أمر تتقيه ... جر أمراً ترتضيهخفى
المحبوب منه ... وبدا المكروه فيهوهذا الكلام الذي كتبه الإمام القرطبي من

مئات السنين يثير في النفس شجوناً وآلاماً ، فإن المسلمين ما هانوا وضعفوا
إلا عند ما تركوا الجهاد في سبيل الله ، وتثاقلوا إلى الأرض ، ورضوا
بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، وآثروا متع الدنيا وشهواتها على الحياة
العزيزة الكريمة .وقال الإمام ابن كثير عند تفسيره للآية : هذا إيجاب من
الله - تعالى - للجهاد على المسلمين وأن يكفوا شر الأعداء من حوزة الإسلام
قال الزهري : الجهاد واجب على كل أحد غزا أو قعد . فالقاعد عليه إذا .
استعين به أن يعين ، وإذا استغيث به أن يغيث ، وإذا استنفرأن ينفر ، ولهذا
، " ثبت في الصحيح" من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات ميتة جاهلية
وقال : صلى الله عليه وسلم يوم الفتح : "لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية
وإذا استنفرتم فانفروا " .وقد أجمع العلماء على أنه إذا نزل العدو بساحة
- البلاد وجب القتال على كل المسملين ، كل على حسب قدرته .وقد ختم - سبحانه
هذه الآية الكريمة بقوله : ( والله يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ )
أي : والله يعلم ما هو خير لكم وما هو شر لكم في الواقع وأنتم لا تعلمون
ذلك ، فبادروا إلى ما يأمركم به لأنه لا يأمركم إلا بما علم فيه خيراً لكم
وانتهوا عما نهاكم عنه لأنه لا ينهاكم إلا عما هو شر لكم ، ومفعولا يعلم ،
وتعلمون محذوفان دل عليهما ما قبلهما . أي : يعلم الخير والشر وأنتم لا
تعلمونها . والمقصود من هذه الجملة الكريمة الترغيب في الجهاد ، والامتثال
لما شرعه الله - تعالى - سواء أعرفت حكمته أم لم تعرف ، لأن العليم بالحكم
والمصالح هو الله رب العالمين .وبذل كنرى أن القرآن الكريم لا ينكر على
الناس مشاعرهم الطبيعية ، وأحاسيسهم الفطرية من كراهية للقتال ، ولكنه يرى
، نفوسهم على الاستجابة لأوامر الله العليم بالغايات المطلع على العواقب
الخبير بما فيه خيرهم ومصلحتهم ، وبهذه التربية الحكيمة بذل المؤمنون
نفوسهم وأموالهم في سبيل رضا خالقهم عن طواعية واختيار ، لا عن قسر وإجبار
.

يسالونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر
به والمسجد الحرام واخراج اهله منه اكبر عند الله والفتنة اكبر من القتل
ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا ومن يرتدد منكم عن
دينه فيمت وهو كافر فاولئك حبطت اعمالهم في الدنيا والاخرة واولئك اصحاب
النار هم فيها خالدون

كما فسرها الوسيط وبعد أن حرض الله - تعالى - المؤمنين على بذل أموالهم
- وأنفسهم في سبيله عقب ذلك ببيان حكم القتال في الأشهر الحرم فقال - تعالى
يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشهر الحرام قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ ) :
كَبِيرٌ ) . . . إلخ .وقد ذكر كثير من المفسرين ومن أصحاب السير في سبب
نزول هذه الآية قصة ملخصها : أن النبي صلى الله عليه وسلم بعد عبد الله بن
جحش ومعه اثنا عشر رجلا كلهم من المهاجرين ، وأعطاء كتابا مختوما وأمره ألا
يفتحه إلا بعد أن يسير يومين ، ثم ينظر فيه فيمضي لما أمره به ولا يستكره
أحداً من أصحابه . فسار عبد الله يومين ثم فتح الكتاب فإذا فيه " إذا نظرت
في كتابي هذا فامض حتى تنزل بنخلة - مكان بين مكة والطائف - فترصد بها
عيراً لقريش وتعلم لنا من أخبارهم " .فقال عبد الله : سمعا وطاعة!! وأخبر
أصحابه بذلك وأنه لا يستكرههم فمن أحب الشهادة فلينهض ومن كره الموت فليرجع
فأما أنا فناهض! فنهضوا جميعاً ، فلما كانوا في أثناء الطريق أضل سعد بن
أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيراً لهما يعتقبانه . فتخلفا في طلبه ، ومضى عبد
الله ببقية أصحابه حتى وصلوا نخلة فمرت عير لقريش في طريقها لمكة وكانت في
. حراسة عمرو بن الخصومي وعثمان بن المغيرة ، وأخويه نوفل والحكم به كيسان
فتشاور المسلمون وقالوا : نحن في آخر يوم من رجب . لئن تركتم القوم هذه
الليلة ليدخلن في الحرم فليمتنعن منكم به ، ولئن قتلتموهم لتقتلنهم في
، الشهر الحرام!! فترددوا وهابوا الإقدام عليهم ، ثم شجعوا أنفسهم عليهم
وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم ، فرمى " واقد بن عبد الله " عمرو بن
الحضرمي يسهم فقتله ، وأسروا عثمان والحكم ، وأفلت منهم نوفل فأعجزهم .وقيل
كان ذلك في أول ليلة من رجب وقد ظنوها آخر ليلة من جمادي . فإقدامهم على :
ما أقدموا عليه كان على سبيل الخطأ .ثم أقبل عبد الله ومن معه بالعير
والأسيرين حتى قدموا على رسول الله وقد عزلوا من ذلك الخمس فأنكر رسول الله
صلى الله عليه وسلم ما فعلوه وقال لهم : " ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام
وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا . وقالت قريش قد استحل محمد "
وأصحابه القتال في الشهر الحرام ، واشتد ذلك على المسلمين ، حتى أنزل الله
تعالى قوله : ( يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشهر الحرام قِتَالٍ فِيهِ قُلْ
قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ . . . )والمعنى : يسألونك يا محمد عن حكم القتال في
، الشهر الحرام ، قل لهم . القتال فيه أمر كبير مستنكر ، وذنب عظيم مستقبح
- لأن فثيه اعتداء على الشهر الحرام المقدس ، وانتهاك لمحارم الله - تعالى
والسائلون قيل هم المؤمنون، وقد سألوا عن حكم ذلك على سبيل التعليم.
والتماس المخرج لما حصل منهم . وقيل هم المشركون وسؤالهم على سبيل التعبير
للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، حيث أقدم بعضهم وهو عبد الله ومن معه

على القتال فيه فرد الله عليهم بأن القتال فيه كبير ولكن ما فعله هؤلاء المشركون من صد عن سبيل الله وكفر به . . . الخ أكبر من ذلك بكثير .فالجواب ، تشريع إن كان السؤال من المسلمين . وتبكيت وتوبيخ إن كان من المشركين لأنهم توقعوا أن يجيبهم بإباحة القتال فيه فيثيروا الشبهات حول الإسلام والمسلمين ، فلما أجابهم بأن القتال فيه كبير وأن ما فعلوه من جرائم في حق المسلمين أكبر وأعظم كبتوا وألقموا حجراً .والمراد بالشهر الحرم جميعها وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب .وسميت بذلك لحرمة القتال فيها ، فأل في الشهر للجنس . وقيل للعهد والمراد بالشهر الحرام شهر رجب الذي حدثت فيه قصة ، عبد الله بن جحش وأصحابه .وقوله " قتال فيه " بدل اشتمال من الشهر الحرام و ( قِتَالٌ ) مبتدأ و ( كَبِيرٌ ) خبر و ( فِيهِ ) ظرف صفة لقتال مخصصة له ) : - قال الإمام الرازي : فإن قيل : لم نكر القتال في قوله - تعالى. قِتَالٌ فِيهِ ) ومن حق النكرة إذا تكررت أن تجئ باللام حتى يكون المذكور الثاني هو الأول ، لأنه لو لم يكن كذلك كان المذكور غير الأول كما في قوله - تعالى - : ( فَإِنَّ مَعَ العسر يُسْراً . إِنَّ مَعَ العسر يُسْراً ) قلنا : نعم ما ذكرتم من أن اللفظ إذا تكرر وكانا نكرتين كان المراد ( بالثاني غير الأول . والقوم أرادوا بقولهم : ( يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشهر الحرام قِتَالٍ فِيهِ ) ذلك القتال المعين الذي أقدم عليه عبد الله وأصحابه فقال - تعالى - ( قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ) . وفيه تنبيه على أن القتال الذي يكون كبيراً ليس هو القتال الذي سألتم عنه؛ بل هو قتال آخر؛ لأن هذا القتال كان الغرض به نصرة الإسلام وإذلال الكفر فكيف يكون هذا من الكبائر؟ إنما القتال الكبير هو الذي يكون الغرض فيه هدم الإسلام وتقوية الكفر؛ فكان اختيار التنكير في اللفظين لأجل هذه الدقيقة ، ولو أنه وقع التعبير عنهما أو عن أحدهما بلفظ التعريف لبطلت هذه الفائدة . فسبحان من له تحت كل كلمة من كلمات هذا الكتاب - بل تحت كل حرف منه - سر لطيف لا يهتدي إليه إلا أولو الألباب " .ثم أخذ القرآن يعدد على المشركين جرائمهم التي كل جريمة منها أكبر من القتال في الشهر الحرام الذي فعله المؤمنون لدفع الضرر عن أنفسهم أو لجلهلهم بالميقات فقال - تعالى - : ( وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ الله وَكُفْرٌ بِهِ والمسجد الحرام وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ الله ) .أي : قل يا محمد لهؤلاء المشركين نحن نوافقكم على أن القتال في الشهر الحرام كبير ، ثم قل لهم أيضاً على سبيل التوبيخ إن ما فعلتموه أنتم من صرفكم المسلمين عن طاعة الله وعن الوصول إلى حرمه ، ومن شرككم بالله في بيته ، ومن إخراجكم لأهله منه أعظم وزراً عند الله من القتال في الشهر الحرام .فالمقصود من هذه الجملة الكريمة إدخال الطمأنينة على قلوب المؤمنين بسبب ما وقع من عبد الله بن جحش ومن معه ، وتبكيت المشركين على إجرائمهم التي أولها يتمثل في قوله تعالى - : ( وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ الله ) أي : منع من يريد الإسلام من دخوله ، وابتدأ - سبحانه - ببيان صدهم عن سبيله للإشارة إلى أنهم يعاندون الحق في ذاته .وثانيها قوله : ( وَكُفْرٌ بِهِ ) أي : كفر بالله - تعالى - وهو معطوف على ما قبله .وثالثها قوله : ( والمسجد الحرام ) وهو معطوف على سبيل الله أي : وصد عن سبيل الله وعن المسجد الحرام بمنعهم المؤمنين من الحج والاعتمار .ورابعها قوله : ( وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ ) أي : وإخراج النبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه من مستقرهم حول المسجد الحرام بمكة وهم القائمون بحقوقه ، كل ذلك " أكبر " جرما ، وأعظم إثما ( عِندَ الله ) من القتال في الشهر الحرام .قال الجمل : فقوله " أكبر خبر عن الثلاثة أعنى : صد وكفر وإخراج وفيه حينئذ احتمالان :أحدهما : أن " يكون خبراً عن المجموع .وثانيهما : أن يكون خبرا عنهما باعتبار كل واحد كما تقول : زيد وبكر وعمرو أفضل من خالد أي : كل واحد منهم على انفراده أفضل من " خالد ، وهذا هو الظاهر . والمفضل عليه محذوف أي : أكبر مما فعلته السرية ثم أضاف - سبحانه - إلى جرائهم السابقة جريمة خامسة فقال : ( والفتنة. أَكْبَرُ مِنَ القتل ) أي : ما فعله المشركون من إنزال الشدائد بالمؤمنين تارة بإلقاء الشبهات وتارة بالتعذيب ليحملوهم على ترك عقيدتهم أكبر إثما من القتال في الشهر الحرام ، لأن الفتنة عن الدين تفضي إلى القتل الكثير في الدنيا وإلى استحقاق العذاب الدائم في الآخرة .وقيل المراد بالفتنة هنا : الكفر . أي : كفركم بالله أكبر من القتل في الشهر الحرام .وأصيل الفتنة عرض الذهب على النار ، لاستخلاصه من الغش ، ثم استعملت في الشرك وفي الامتحان بأنواع الأذى والاضطهاد .ويعزى إلى عبد الله بن جحش أنه قال ردا على المشركين عندما قالوا : استحل محمد وأصحابه القتال في الشهر الحرام تعدون قتلا في الحرام عظيمة ... وأعظم منه لو يرى الرشد راشدصدودكم عما. ... يقول محمد ... وكفر به ، والله راء وشاهدوإخراجكم من مسجد الله أهله لئلا يرى لله في البيت ساجدفإنا وإن عيّر تُمونا بقتله ... وأرجف بالإسلام باغ وحاسدسقينا من ابن الحضرمي رماحنا ... بنخلة لما أوقد الحرب واقددما ، وابن عبد الله عثمان بيننا ... ينازعه غل من القد عاندوقوله - تعالى - : ( وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حتى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ ) بيان لشدة عداوة الكفار للمؤمنين ودوامها أي : ولا يزال المشركون يقاتلونكم أيها المؤمنون ويضمرون لكم السوء.

ويداومون على إيذائكم لكي يرجعوكم عن دين الإسلام إلي الكفر إن استطاعوا
ذلك وقدروا عليه . والتعبي بقوله ( وَلاَ يَزَالُونَ ) المفيد للدوام
والاستمرار للإشعار بأن عداوة المشركين للمسلمين لا تنقطع وأنهم لن يكفوا
عن الإعداد لقتالهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، فعلى المؤمنين ألا يغفلوا
عن الدفاع عن أنفسهم .و ( حتى ) للتعليل أي : ( وَلاَ يَزَالُونَ
يُقَاتِلُونَكُمْ ) لكي ( يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ )
أو بمعنى إلى ، أي : إلى أن يردوكم عن دينكم . والرد : الصرف عن الشيء
والإرجاع إلى ما كان عليه قبل ذلك : فغاية المشركين أن يردوا المسلمين بعد
- إيمانهم كافرين .وقوله : ( إِنِ اسْتَطَاعُواْ ) يدل - كما يقول الزمخشري
على استبعاد استطاعتهم رد المسلمين عن دينهم ، وذلك كقول الرجل لعدوه : إن
ظفرت بي فلا تبق على .وهو واثق من أنه لن يظفر به . ويشهد لذلك التعبير بإن
المفيدة للشك .وفائدة التقييد بالشرط " إن " التنبيه على سخافة عقول
المشركين ، وكون دوام عداوتهم للمؤمنين لن تؤدي إلى النتيجة التي يتمنونها
وهي رد السملمين عن دينهم ، لأن لهذا الدين ربا يحميه ، وأتباعه يفضلون
الموت على الرجوع عنه .ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة من يرتد عن الإسلام
فقال : ( وَمَن يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ
فأولائك حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدنيا والآخرة وأولائك أَصْحَابُ
النار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ) .ويرتدد يفتعل من الرد وهو الرجوع عن دينه
، إلى الكفر .و ( حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ) أي : بطلت وفسدت وأصله من الحبط
بفتح الباء - وهو أن تأكل الدابة أكلا كثيراً تنتفخ معه بطونها فلا تنتفع
بما أكلت ويفسد حالها وربما تموت من ذلك . شبه - سبحانه - حال من يعمل
الأعمال الصالحة ثم يفسدها بارتداده فتكون وبالا عليه ، بحال الدابة التي
أكلت حتى أصابها الحبط ففسد حالها .والمعنى : ومن يرتدد منكم عن دين
الإسلام ، فيمت وهو كافر دون أن يعود إلى الإيمان فأولئك الذين ارتدوا
وماتوا على الكفر بطلبت جميع أعمالهم الصالحة ، وصارت غير نافعة لهم لا في
الدنيا بسبب انسلاخهم عن جماعة المسلمين ، ولا في الآخرة بسبب ردتهم وموتهم
على الكفر ، وأولئك الذين هذا شأنهم أصحاب النار هم فيها خالدون خلوداً
أبدياً كسائر الكفرة ، ولا يغني عنهم إيمانهم السابق على الردة شيئاً .وجيء
بصيغة الافتعال من الردة وهي مؤذنة بالتكلف ، للإشارة إلى أن من باشر
الدين الحق وخالطت بشاشته قلبه كان من المستبعد عليه أن يرجع عنه ، فهذا
المرتد لم يكن مستقراً على هذا الدين الحق وإنما قلقاً مضطرباً غير مستقر
حتى انتهى به الأمر بموته على الكفر لتكلفه الدخول في الدين الحق دون
الثبات عليه .وفي قوله : ( مِنْكُمْ ) إشعار بأنه لا يتصور أن تتحقق بغية
المشركين وهي أن يردوا المسلمين جميعاً عن دينهم . بل أقصى ما يتصوره
- العقلاء أن ينالوا ضعيف الإيمان فيردوه إلى دينهم ، فيكون الله - تعالى
قد نفى خبثه عن هذا الدين ، إذ لا خير في هؤلاء المشركين ولا فيمن عاد
إليهم بعد إيمانه ، والكل مأواهم النار وبئس القرار .قال الجمل : ومن شرطية
في محل رفع بالابتداء ، يرتدد فعل الشرط ، ومنكم متعلق بمحذوف لأنه حال من
الضمير المستكن في يرتدد؛ ومن للتبعيض . والتقدير : ومن يرتدد في حال كونه
كائناً منكم أي بعضكم ، وعن دينه متعلق بيرتدد ، وقوله فيمت وهو كافر عطف
على الشرط والفاء مؤذنة بالتعقيب ، وقوله : ( وَهُوَ كَافِرٌ ) جملة حالية
من ضمير يمت . وقوله : فأولئك جواب اشرط .وقوله : وأولئك أصحاب النار
" . . مستأنف لمجرد الإخبار بأنهم أصحاب النار أو معطوف على جواب الشرط
وفي الإتيان باسم الإشارة " أولئك " في الموضعين تنبيه إلى أنهم أحرياء.
بتلك العقوبات الأليمة بسبب ردتهم وموتهم على الكفر .وفي التنصيص على حبوط
- أعمالهم في الدنيا والآخرة زيادة مذمة لهم ، فهم في الدنيا - بسبب ردتهم
تسلب عنهم آثار كلمة الشهادتين من حرمة الأنفس والأموال والأعراض والصلاة
عليهم بعد الموت ، والدفن في مقابر المسلمين ، ومن طلاق زوجته المسلمة منه
ومن عدم التوارث إلى غير ذلك من حقوق المسلمين ، أما في الآخرة فشأنهم شأن
الكافرين في ملازمتهم للنار . هذا ، ومن الأحكام التي أخذها العلماء من من
هذه الآية الكريمة .1 - حرمة القتال في الشهر الحرام ، والجمهور على أن هذا
- الحكم منسوخ ، وأنه لا حرج في قتال المشركين في الأشهر الحرم لقوله
تعالى - : ( فَإِذَا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حَيْثُ
وَجَدتُّمُوهُمْ ) فإن المراد بالأشهر الحرم هنا : هي أشهر العهد الأربعة
التي أبيح للمشركين السياحة فيها في الأرض ، لا الأشهر الحرم الأربعة
المعروفة ، فالتقييد بها يفيد أن قتلهم بعد انسلاخها مأمور به في جميع
الأزمنة والأمكنة . وأيضاً لأن الرسول صلى الله عليه وسلم غزا هوازن وثقيف
وأرسل بعض أصحابه إلى أوطاس ليحارب من فيها من المشركين ، وكان ذلك في بعض
الأشهر الحرم ، ولو كان القتال فيهن حراما لما فعله النبي صلى الله عليه
وسلم .قال الآلوسي : وخالف عطاء في ذلك ، فقد روى عنه أنه سئل عن القتال في
الشهر الحرام فحلف بالله - تعالى -ما يحل للناس أن يغزوا في الحرم ولا في
الشهر الحرام إلا أن يقاتلوا فيه وجعل ذلك حكما مستمراً إلى يوم القيامة
، والآمة اليوم على خلافه في سائر الأمصار " .وقد رجح بعض العلماء ما ذهب
إليه عطاء فقال : ومهما يكن فإن القتال في الأشهر الحرم حرام في حال

الاختيار والابتداء فلا يصح البدء بالغزو فيه . ولقد قال جابر : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقاتل في الشهر الحرام إلا أن يُغزَى أو يغزو حتى إذا حضر ذلك أقام حتى ينسلخ .ولقد قال بعض العلماء : إن تحريم القتال في الشهر الحرام منسوخ بقوله - تعالى - : ( وَقَاتِلُواْ المشركين كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ) وبقتال النبي صلى الله عليه وسلم أهل الطائف فيه . والحقيقة أنه لم يثبت ناسخ صريح في النسخ فإن قوله - تعالى - : ( وَقَاتِلُواْ المشركين كَآفَّةً ) العموم فيه بالنسبة للمقاتلين لا بالنسبة لزمان القتال ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يبتدئ قتالا في الشهر الحرام مختاراً قط ، والتحريم في الاختيار والابتداء كما بينا لا في البقاء والاضطرار ، لذا قال - سبحانه - :( فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ) ولأن الأشهر الحرم نص عليها في خطبة الوداع وكل ما جاء فيها غير منسوخ " .2 - كذلك من الأحكام التي أخذها العلماء من الآية أن الردة تحبط العمل في الدنيا سواء أمات المرتد على كفره أم عاد إلى الإسلام قبل موته بدليل قوله - تعالى - في آية أخرى ( لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ) فقد علق الحبوط بمجرد الشرك ، والخطاب وإن كان النبي صلى الله عليه وسلم فالمراد أمته لاستحالة الشرك عليه . وعلى هذا الرأي سار المالكية والأحناف .ويرى الشافعية أن الردة تحبط العمل في الدنيا متى مات المرتد كافراً ، لأن الآية تقول : ( وَمَن يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فأولائك حَبِطتْ أَعْمَالُهُمْ ) ويظهر أثر الخلاف فيمن حج مسلما ، ثم أرتد ثم أسلم ، فالأحناف والمالكية يوجبون عليه إعادة الحج لأن الردة أحبطت حجه . والشافعية يقولون :لا حج عليه لأن حجه قد سبق والردة لا تحبط العمل إلا إذا مات الشخص كافراً .ولكل فريق أدلته المبسوطة في كتب الفقه .

ان الذين امنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله اولئك يرجون رحمت الله والله غفور رحيم

كما فسرها الوسيط وبعد أن بين - سبحانه - عاقبة من يرتد عن دينه أتبع ذلك ببيان عاقبة المؤمنين الصادقين فقال - تعالى - : ( إِنَّ الذين آمَنُواْ والذين هَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ الله أولائك يَرْجُونَ رَحْمَتَ الله والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ) .قال الإمام الرازي : في تعلق هذه الآية بما قبلها وجهان :الأول : أن عبد الله بن جحش قال : يا رسول الله هب أنه لا عقاب علينا فيما فعلنا ، فهل نطمع منه أجراً وثواباً؟ فنزلت الآية ، لأن عبد الله كان مؤمناً وكان مهاجراً ، وكان مجاهداً بسبب هذه المقاتلة .وفي الثاني : أنه تعالى لما أوجب الجهاد قبل بقوله : ( كُتِبَ عَلَيْكُمُ القتال وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ) وبين أن تركه سبب للوعيد أتبع ذلك بذكر من يقوم به وجزاؤه فقال : ( إِنَّ الذين آمَنُواْ والذين هَاجَرُواْ ) ولا يكاد يوجد وعيد إلا ويعقبه وعد " .والمعنى : إن الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، واستقاموا على طريق الحق وأذعنوا لحكمه ، واستجابوا لأوامر الله ونواهيه : ( والذين هَاجَرُواْ ) ، أي : تركوا أموالهم وأوطانهم من أجل نصرة دينهم : ( وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ الله ) لإعلاء كلمته ( أولائك ) الموصوفون بتلك الصفات الثلاثة ( يَرْجُونَ رَحْمَتَ الله ) أي : يؤملون تعلق رحمته - تعالى - بهم ، أو ثوابه على أعمالهم ( والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ) أي : واسع المغفرة للتائبين المستغفرين ، عظيم الرحمة بالمؤمنين المحسنين .قال القرطبي : " والهجرة معناها الانتقال من موضع إلى موضع ، والقصد ترك الأول إيثارا للثاني . والهجرة ضد الوصل ، والاسم الهجرة . وجاهد مفاعله من جهد إذا استخرج الجهد والاجتهاد والتجاهد : بذل الوسع والمجهود ، والجهاد - بالفتح - الأرض . الصلبة .وإنما قال ( يَرْجُونَ ) وقد مدحهم ، لأنه لا يعلم أحد في هذه الدنيا أنه صائر إلى الجنة ولو بلغ في طاعة الله كل مبلغ لأمرين :أحدهما : أنه لا يدري بماذا ختم له .والثاني : لئلا يتكل على عمله ، والرجاء أبداً معه خوف كما أن الخوف معه رجاء " .وجيء بهذه الأوصاف الثلاثة مترتبة على حسب الواقع إذا الإيمان يكون أولا ثم المهاجرة من أرض الظالمين إذا لم يستطع دفع ظلمهم ، ثم الجهاد من أجل إعلاء كلمة الحق .وأفرد الإيمان بموصول وحده لأنه أصل الهجرة والجهاد ، وجمع الهجرة والجهاد في موصول واحد لأنهما فرعان عنه .وبذلك نرى أن هذه الآية الكريمة قد دعت المؤمنين إلى بذل أموالهم وأنفسهم في سبيل نصرة الحق بأحكم أسلوب ، وبرأتهم مما أثاره المشركون حولهم من شبهات ، وحذرتهم من السير في طريقهم ، وبشرتهم بحسن العاقبة متى استجابوا لتعاليم دينهم ، واعتصموا بحبله .وبعد هذا الحديث الجامع عن البذل والتضحية ، ساق القرآن في آيتين ثلاثة أسئلة وأجاب عنها بما يشفي الصدور ، ويصلح النفوس .فقال تعالى :( يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخمر والميسر . . . )

يسالونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس واثمهما اكبر من

نفعهما ويسالونك ماذا ينفقون قل العفو كذلك يبين الله لكم الايات لعلكم تتفكرون

. . كما فسرها الوسيط قوله : ( يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخمر والميسر )
السائلون هم المؤمنون وسؤالهم إنما هو عن الحكم الشرعي من حيث الحل والتحريم .لا عن الحقيقة والذات فإنهم يعرفون حقيقة الخمر والميسر وذاتهما
قال القرطبي : والخمر مأخوذة من خمر إذا ستر ، ومنه خمار المرأة لأنه يستر. وجهها - وكل شيء غطى شيئاً فقد خمره . ومنه ( خمروا آنيتكم ، فالخمر تخمر
العقل ، أي : تغطيه وتستره . . فلما كانت الخمر تستر العقل وتغطيه سميت بذلك ، وقيل إنما سميت الخمر خمرا؛ لأنها تركت حتى أدركت كما يقال : قد
اختمر خمراً لأنها تخالط العقل من المخامرة وهي المخالطة ومنه قولهم : دخلت في خمار الناس - بفتح الخاء وضمها - أي : اختلطت بهم . فالمعاني الثلاثة
، متقاربة . فالخمر تركت وخمرت حتى أدركت ، ثم خالطت العقل . ثم خمرته والأصل الستر .ويرى كثير من العلماء أن هذه الآية هي أول آية نزلت في الخمر
ثم نزلت الآية التي في سورة النساء ( يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ لاَ . تَقْرَبُواْ الصلاة وَأَنْتُمْ سكارى حتى تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ) ثم
نزلت الآية التي في سورة المائدة ( ياأيها الذين آمَنُواْ إِنَّمَا الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشيطان فاجتنبوه
لَعَلّكُمْ تُفْلِحُونَ ) والدليل على ذلك ما رواه أبو داود وغيره عن عمر بن الخطاب أنه قال " اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا " فنزلت هذه الآية
فدعى عمر فقرئت عليه فقال : اللهم بين لنا في ( يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخمر ) الخمر بيانا شافيا " فنزلت الآية التي في النساء ( يَا أَيُّهَا الذين
آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصلاة وَأَنْتُمْ سكارى ) فكان منادي رسول الله . صلى الله عليه وسلم إذا أقام الصلاة - نادى أن :لا يقربن الصلاة سكران
" فدعى عمر فقرئت عليه ، فقال : " اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا فنزلت الآية التي في المائدة ، فدعى عمر فقرئت عليه ، فلما بلغ ( فَهَلْ
أَنْتُمْ مُّنتَهُونَ ) قال عمر : " انتهينا " .وبهذا الرأي قال ابن عمر والشعبي ومجاهد وقتادة والربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم .ويرى
) : بعض العلماء أن أول آية نزلت في الخمر هي قوله - تعالى - في سورة النحل وَمِن ثَمَرَاتِ النخيل والأعناب تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً
: حَسَناً ) وعلى هذا الرأي سار صاحب الكشاف وتبعه بعض العلماء فقد قال نزلت في الخمر أربع آيات ، نزل بمكة قوله - تعالى - ( وَمِن ثَمَرَاتِ
النخيل والأعناب تَتّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً ) فكان المسلمون يشربونها وهي حلال لهم . ثم إن عمر ومعاذا ونفرا من الصحابة قالوا
: يا رسول الله ، أفتنا في الخمر فإنها مذهبة للعقل مسلبة للمال ، فنزلت : فشربها قوم وتركها ( فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ )
آخرون .ثم دعا عبد الرحمن بن عوف ناسا منهم فشربوا وسكروا فقام بعضهم يصلي فقرأ : قل يأيها الكافرون أعبدما تعبدون فنزلت : ( لاَ تَقْرَبُوا الصلاة
وَأَنْتُمْ سكارى ) فقل من يشربها ثم دعا عتبان بن مالك قوماً فيهم سعد بن أبي وقاص فلما سكروا افتخروا وتناشدوا شعر فيه هجاء للأنصار فضرب أحد
الأنصار سعداً بلحى بعير فشجه ، فشكا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك فقال عمر : اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا فنزلت " إنما الخمر .
والميسر . . . إلخ الآية " . . فقال عمر : انتهينا يا رب " .وأصحاب الرأي الأول يقولون : إن آية سروة النحل وهي قوله - تعالى - : ( وَمِن ثَمَرَاتِ
النخيل والأعناب تَتّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً ) ليس لها علاقة بموضوع الخمر ، ويفسرون السكر بأنه ما أحله الله مما لا يسكر وأنه هو
الرزق الحسن وأن العطف بينهما من باب عطف التفسير .ولقد كان موقف الصحابة من هذا التحريم لما يشتهونه ويحبونه من الخمر والميسر ، يمثل أسمى ألوان
الطاعة والاستجابة لأوامر الله ونواهيه ، فعندما بلغهم تحريم الخمر أراقوا ما عندهم منها في الطرقات . بل وحطموا الأواني التي كانت توضع فيها الخمر
امتثالا وطاعة لله - تعالى - .وهكذا نرى قوة الإيمان التي غرسها الإسلام في نفوس أتباعه عن طريق تعاليمه السامية ، وتربيته الحكيمة . . تغلبت على
ما أحبته النفوس وأزالت من القلوب ما ألفته الطبائع .هذا وجمهور العلماء على أن كلمة " خمر " تشمل كل شراب مسكر سواء أكان من عصير العنب أم من
الشعير أم من التمر أم من غير ذلك ، ولكها سواء في التحريم قل المشروب منها أو كثر سكر شاربه أو لم يسكر .ومن أدلتهم ما وراه الإمام مسلم عن ابن
عمر - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " كل مسكر خمر ، وكل مسكر حرام ، ومن شرب الخمر في الدنيا ومات وهو يدمنها لم يتب منها لم يشربها في
الآخرة " .ومن أدلتهم أيضاً أصل الاشتقاق اللغوي لكلمة خمر ، فقد عرفنا أنها سميت بهذا الاسم لمخامرتها العقل وستره ، فكل ما خامر العقل من
الأشربة وجب أن يطلق عليه لفظ خمر سواء أكان من العنب أم من غيره .وقال الأحناف ووافقهم بعض العلماء كإبراهيم النخعي وسفيان الثوري وابن أبي ليلى
إن كلمة خمر لا تطلق إلا على الشراب المسكر من عصير العنب فقط ، أما : المسكر من غيره كالشراب من التمر أو السعير فلا يسمى خمرا بل يسمى نبيذاً .

وقد بنوا على هذا أن المحرم قليله وكثيره إنما هو الخمر من العنب . أما الأنبذة فكثيرها حرام وقليلها حرام .وقد رجح العلماء رأى الجمهور وضعفوا ما ذهب إليه الأحناف ومن وافقهم .قال ابن العربي : وتعلق أبو حنيفة بأحاديث : ليس لها خطم ولا أزمة فلا يلتفت إليها والصحيح ما روى الأئمة أن أنسا قال حرمت الخمر يوم حرمت وما بالمدينة خمر الأعناب إلا قليل ، وعامة خمرها " البسر والتمر " . أخرجه البخاري ، واتفق الأئمة على رواية أن الصحابة إذ حرمت الخمر لم يكن عندهم يومئذ خمر عنب ، وإنما كانوا يشربون خمر النبيذ فكسروا دنانهم - أي أواني الخمر - وبادروا إلى الامتثال لا عتقادهم أن ذلك : كله خمر " أي وأقرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك .وقال الآلوسي وعندي أن الحق الذي لا ينبغي العدول عنه أن الشراب المتخذ مما عدا العنب كيف كان وبأي اسم سمى متى كان بحيث يسكر من لم يتعوده حرام ، وقليله ككثيره ويحد شاربه ويقع طلاقه ونجاسته غليظة . وفي الصحيحين أنه صلى الله عليه ، " وسلم سئل عن النقيع - وهو نبيذ العسل - فقال : " كل شراب أسكر فهو حرام وروى أبو داود " نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كل مسكر ومفتر " وصح ما أسكر كثيرة فقليله حرام " والأحاديث متضافرة على ذلك . ولعمري إن " اجتماع الفساق في زماننا على شرب المسكرات مما عدا " الخمر " ورغبتهم فيها فوق اجتماعهم على شرب " الخمر " ورغبتهم فيه بكثير ، وقد وضعوا لها ، أسماء - كالعنبرية والإكسير - ونحوهما ظنا منهم أن هذه الأسماء تخرجها من الحرمة وتبيح شربها للأمة - وهيهات هيهات - فالأمر وراء ما يظنون وإنا لله وإنا إليه راجعون .بعد هذه الكلمة التمهيدية عن الآية ، وعن مدلول كلمة خمر - ننتقل إلى معنى كلمة " الميسر " فنقول : الميسر : القمار - بكسر القاف وهو في الأصل مصدر ميمي من يسر ، كالموعد من وعد . وهو مشتق من اليسر بمعنى السهولة ، لأن المال يجئ للكاسب من غير جهد ، أو هو مشتق من يسر بمعنى جزر ثم أصبح علما على ما يتقامر عليه كالجزور ونحوه .قال القرطبي نقلا عن . الأزهري : الميسر : الجزور الذي كانوا يتقامرون عليه ، سمي ميسراً ، لأنه أجزاء ، فكأنه موضع التجزئة ، وكل شيء جزأته فقد يسرته . والياسر : الجازر : لأنه يجزئ لحم الجزور . . ويقال للضاربين بالقداح والمتقامرين على الجزور ياسرون ، لأنهم جازرون إذ كانوا سببا لذلك .وصفة الميسر الذي كانت تستعمله العرب أنهم كانت لهم عشرة أقداح يقال لها الأزلام أو الأقلام ، فكانوا إذا أرادوا أن يقامروا أحضروا بعيرا وقسموه ثمانية وعشرين قسما وتترك ثلاثة من . تلك الأقداح غفلا لا علامة عليها وكانت تسمى : السفيح ، والمنيح ، والوغد ومن طلع له واحد منها لا يأخذ شيئاً من الجزور . أما السبعة الأخرى فهي ، الرابحة وهي الفذو له سهم واحد ، والتوأم وله سهمان ، والرقيب وله ثلاثة والحلس وله أربعة ، والنافس وله خمس والمسبل وله ستة ، والمعلي وله سبعة فيكون المجموع ثمانية وعشرين سهما .تلك صورة تقريبية لقمار العرب كما أوردها بعض المفسرين ولا شك أنه يدخل في حكمها من حيث الحرمة ما كان مشابها لها في المخاطرة والرهان وأخذ الأموال بدون مقابل مشروع ، أو ضياعها فيما حرمه الله .ومعنى الآية الكريمة : يسألك أصحابك يا محمد عن حكم شرب الخمر ولعب الميسر ، قل لهم على سبيل الإرشاد والإعلام : في تعاطيهما ( إِثْمٌ كَبِيرٌ ) أي : ذنب عظيم ، وضرر شديد وذلك لما فيهما من القبائح المنافية ، لمحاسن الشرع من الكذب ، والأذى ، وشيوع العداوة والبغضاء بين الناس واستلاب أموالهم بغير حق .وقوله : ( وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ) أي وفيهما ، منافع دنيوية للناس إذ الخمر تعدر على المتاجرين فيها أرباحا مالية والميسر يؤدي إلى إصابة بعض الناس للمال بدون تعب .وأطلق - سبحانه - الإثم ، وقيد المنافع بأنها للناس ، للتبيه على أن الإثم في الخمر والميسر ذاتي فهما في ذاتهما رجس كبير ، وخطر وبيل ، وأن ما فيهما من منافع ضئيل ولا - يتجاوز بعض الناس ، فهي منافع خاصة وليست عامة ، ويشهد لهذا قوله - تعالى بعد ذلك .( وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ) أي أن المفاسد والأضرار التي تترتب على تعاطيهما ، أعظم من المنافع التي تنشأ عن تعاطيهما إذ تعاطيهما يؤدي إلى منفعة بعض الناس ، أما مضارهما فكثيرة ، من ذلك أن ، تعاطي الخمر يضعف الضمير ، ويفسد الأخلاق ، ويميت الحياء ، ويفقد الرشد ويتلف المال ، ويغري بالتنازع بين الناس ، ويتسبب - كما قال الأطباء الثقاة - في كثير من الأمراض كأمراض الكبد والرئتين والقلب . . إلخ .وإن شئت المزيد من معرفة مضار الخمر فراجع ما كتبه العلماء والمتخصصون في ذلك أما تعاطي الميسر فمن مضاره - كما يقول الأستاذ الإمام محمد عبده - إفساد. التربية بتعويد النفس الكسل ، وانتظار الرزق من الأسباب الوهمية ، وإضعفا القوة العقلية ، بترك الأعمال المفيدة في طرق الكسب الطبيعية ، وإهمال المقامرين للزراعة والتجارة والصناعة التي هي أركان العمران ، وتخريب البيوت فجأة بالانتقال من الغني إلى الفقر في ساعة واحدة ، فكم من عشيرة كبيرة نشأت في العز والغني وانحصرت ثروتها في جرل أضاعها عليها في ليلة واحدة؛ فأصبحت عنية وأمست فقيرة " .إنّ فالمنافع الدنيوية التي تعود إلى بعض الناس من تعاطي الخمر والميسر لا تساو شيئا بجانب تلك المضار الجسمية ، التي تعود على أفراد الأمة في دينهم وعقولهم وأجسامهم وأموالهم وترابطهم وصدق الله إذ يقول : ( إِنَّمَا يُرِيدُ الشيطان أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ

العداوة والبغضآء فِي الخمر والميسر وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ الله وَعَنِ الصلاة فَهَلْ أَنْتُمْ مُّنتَهُونَ ) ثم يأتي بعد ذلك السؤال الثاني الذي ورد في هاتين الآيتين وهو قوله - تعالى - : ( وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ العفو ) .ومناسبة هذا السؤال لما قبله أنهم بعد أن نهوا عن إنفاق أموالهم في الوجوه المحرمة كتعاطي الخمر والميسر ، سألوا عن وجوه الإنفاق الحلال ، وعن مقدار ما ينفقون فأجيبوا بهذا الجواب الحكيم .قال الآلوسي : أخرج ابن إسحاق عن ابن عباس أن نفراً من الصحابة حين أمرو بالنفقة في سبيل الله أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : إنا لا ندري - ما هذه النفقة التي أمرنا بها في أموالنا وما الذي ننفقه منها فأنزل الله تعالى - ( وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ العفو ) وكان الرجل قبل ذلك ينفق ماله حتى لا يجد ما يتصدق ولا ما يأكل" .وأصل العفو في اللغة الزيادة . قال - تعالى - : ( ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السيئة الحسنة حتى عَفَوْاْ ) أي زادوا على ما كانوا عليه من العدد . ويطلق على ما سهل وتيسر مما يكون فاضلا عن الكفاية . يقال : خذ ما عفا لك . أي ما تيسر . كما يطلق على الترك قال - تعالى - ( عَفَا الله عَمَّا سَلَف ) أي تركه وتجاوز عنه والمراد هنا : ما يفضل عن الأهل ويزيد عن الحاجة ، إذ هذا القدر الذي يتيسر إخراجه ويسهل بذله ، ولا يتضرر صاحبه بتركه .والمعنى : ويسألونك ما الذي يتصدقون به من أموالهم في وجوه البر ، فقل لهم تصدقوا بما زاد عن حاجتكم ، وسهل عليكم إخراجه ، ولا يشق عليكم بذله .وفي هذه الجملة الكريمة إرشاد حكيم إلى التعاون والتراحم بين أفراد المجتمع ، وتوجيه إلى المنهاج الوسط الذي يأبى التبذير وينفر من التقتير ، وفي أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ما يؤيد هذا الإرشاد والتوجيه ، ومن ذلك ما أخرجه البخاري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " خير الصدقة ما كان عن ظهر غني وابدأ بمن تعول " .وأخرج مسلم عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إبدأ بنفسك فتصدق عليها ، فإن فضل شيء فلأهلك ، فإن فضل عن أهلك شيء فلذى قرابتك ، فإن فضل عن ذي قرابتك شيء فهكذا وهكذا " .إلى غير ذلك من الأحاديث التي وردت في هذا المعنى .وللأستاذ الإمام كلام جيد في هذا المقام ، فقد قال - رحمه الله - ما ملخصه : إن الأمة المؤلفة من مليون فرد إذا كانت تبذل من فضل مالها في مصالحها العامة كإعداد القوة وتربية الناشئة تكون أعز وأقوى من أمة مؤلفة من مائة مليون فرد لا يبذلون شيئا في مثل . . ذلك؛ لأن الواحد من الأمة الأولى يعد بأمة ، إذ هو يعتبر نفسه جزءاً منها وهي كل له ، بينما الأمة الثانية لا تعد بواحد لأن كل فرد من أفرادها يخذل الآخر . . وفي الحقيقة أن مثل هذا الجمع لا يسمى أمة ، لأن كل واحد من أفراده يعيش وحده وإن كان في جانبه أهل الأرض ، فهو لا يتصل بمن معه ليمدهم ويستمد منهم " .ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ( كذلك يُبيِّنُ الله لَكُمُ الآيات لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ . فِي الدنيا والآخرة ) .أي : مثل هذا البيان الحكيم الذي بينه الله لكم فيما سألتم عنه يبين لكم في سائر كتابه آياته وأحكامه وحججه لكي تتفكروا وتتدبروا فيما ينفعكم في دنياكم وآخرتكم ، بأن تعملوا في الدنيا العمل الصالح الذي يجعلكم تظفرون برضا الله في أخراكم .قال صاحب الكشاف : " وقوله : ( فِي الدنيا والآخرة ) إما أن يتعلق بتتفكرون . فيكون المعنى : لعلكم تتفكرون فيما يتعلق بالدارين فتأخذون سبما هو أصلح لكم كما بينت لكم أن العفو أصلح من الجهد في النفقة وتتفكرون في الدارين فنؤثرون أبقاهما وأكثرهما منافع . ويجوز أن يكون إشارة إلى قوله ( وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ) فيكون المعنى : لتفكروا في عقاب الإثم في الآخرة والنفع في الدنيا حتى لا تختاروا النفع العاجل على النجاة من العقاب الأليم . وإما أن يتعلق ببين على معنى : يبين لكم الآيات في أمر الدارين وفيما يتعلق بهما لعلكم تتفكرون " .

في الدنيا والاخرة ويسالونك عن اليتامى قل اصلاح لهم خير وان تخالطوهم فاخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ولو شاء الله لاعنتكم ان الله عزيز حكيم

كما فسرها الوسيط أما السؤال الثالث والأخير الذي ورد في هاتين الآيتين فهو قوله تعالى : ( وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ اليتامى قُلْ إِصْلاَحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ) .أخرج أبو داود والحاكم والنسائي وغيرهم عن ابن عباس قال : لما نزل قوله - تعالى - ( وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ اليتيم إِلاَّ بالتي هِيَ أَحْسَنُ ) وقوله - تعالى - : ( إِنّ الذين يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ اليتامى ظُلْماً إِنّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً ) انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه . وشرابه من شرابه ، فجعل يفضل له الشيء من طعامه وشرابه ، فيحبس له حتى يأكله أو يفسد ، فاشتد ذلك عليهم فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه سولم فأنزل الله - تعالى - ( وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ اليتامى قُلْ إِصْلاَحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ) فخلطوا طعامهم وشرابهم بشرابهم .والمعنى : ويسألونك يا

محمد عن القيام بأمر اليتامى أو التصرف في أموالهم أو عن أموالهم وكيف يكونوا معهم فقل لهم : إن المطلوب هو إصلاحهم بالتهذيب والتربية الرشيدة والمعاملة الحسنة ، وإصلاح أموالهم بالمحافظة عليها وعدم إنفاقها إلا في ، الوجوه المشروعة فهذا الإصلاح المفيد لهم ولأموالهم خير من مجانبتهم وتركهم ، ولذا قال - تعالى - بعد ذلك : ( وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ) أي : وإن تعاشروهم وتضموهم إليكم فاعتبروهم إخوانكم في العقيدة الإنسانية ، وعاملوهم بمقتضى ما تفرضه الأخوة من تراحم وتعاطف ومساواة .والجملة الكريمة معطوفة على ما قبلها . و " إصلاح " مبتدأ وسوغ ، الابتداء به مع أنه نركة وصفة بالجار والمجرور " لهم " و " خير " خبره وقوله : ( فَإِخْوَانُكُمْ ) الفاء واقعة في جواب الشرط ، وإخوانكم خبر لمبتدأ محذوف والتقدير فهم إخوانكم ، والجملة في محل جزم على أنها جواب الشرط .وقوله : ( والله يَعْلَمُ المفسد مِنَ المصلح ) وعد ووعيد ، وترغيب في الإصلاح وترهيب من الإفساد ، أي : والله يعلم المفسد لشئون هؤلاء اليتامى من المصلح لها ، كما أنه - سبحانه -لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء وسيجازي كل إنسان على حسب عمله ، فاحذروا الإفساد ولا تتحروا غير الإصلاح .ثم قال - تعالى - ( وَلَوْ شَآءَ الله لأَعْنَتَكُمْ ) العنت الشدة والمشقة والتضييق . يقال : أعنته في كذا يعنته إعناتا ، إّا أجهده : وألزمنه ما يشقع عليه .أي : ولو شاء الله لضيق عليكم وأحرجكم بتحريم مخالطة هؤلاء اليتامى ، وبغير ذلك ما يشرع لكم ، ولكنه - سبحانه - وسع عليكم وخفف - فأباح لكم مخالطتهم بالتي هي أحسن ، فاشكروه على ذلك .ثم ختم - سبحانه الآية بقوله : ( إِنَّ الله عَزِيزٌ حَكِيمٌ ) أي : إن الله - تعالى - غالب على أمره لا يعجزه أمر من الأمور التي من جملتها إعناتكم قادر على أن يعز من أعز اليتامى ويذل من سذلهم ، حكيم في كل تصرفاته وأفعاله ، فلا يضع الأشياء إلا في مواضعها .وقدق استدل العلماء بهذه الآية على جواز التصرف في أموال اليتامى على وجه الإصلاح ، وعلى أن للوالي أن يخالط اليتيم بنفيسه في المصاهرة والمشاركة وغير ذلك مما تقتضيه المصلحة .وقد وردت أحاديث متعددة في رعاية اليتيم وإصلاح أحواله ومن ذلك ما رواه البخاري عن سهل بن سعد قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا : وأشار بالسبابة والوسطى وفرق بينهما " .وروى الطبراني عن أبي الدرداء . قال أتى النبي صلى الله عليه وسلم رجل يشكو قسوة قلبه ، فقال له النبي صلى " : ، الله عليه وسلم أتحب أن يلين وتدرك حاجتك؟ ارحم اليتيم ، وامسح رأسه وأطعمه من طعامك يلن قلبك وتدرك حاجتك " .وبذلك نرى أن هاتين الآيتين الكريمتين قد اشتملتا على أفضل ألوان الإصلاح للأفراد والجماعات في مطاعمهم ومشاربهم ونفقتهم وعلاقتهم بغيرهم ولا سيما اليتامى الذين فقدوا الأب الحاني ، والقلب الرحيم ، ومن شأن الأمة التي تعمل بهذا التوجيه السامي الحكيم أن تنال السعادة في دنياها . ورضاه الله - في أخراها .ثم تحدثت السورة بعد ذلك في اثنتين وعشرين آية عن بعض أحكام وآداب الزواج ، والمعاشرة ، والإيلاء والطلاق ، والعدة ، والنفقة ، والرضاعة ، والخطبة والمتعة ، وغير ذلك مما يتعلق بصيانة الأسرة وتقويتها ، وبنائها على أفضل ، الدعائم ، وأحكم الروابط ، إذ الأسرة هي اللبنة الأساسية في بناء المجتمع ومن مجموعها يتكون ، فإذا صلحت الوحدات والمكونات صلح البنيان ، وإذا تصدعت تصدع .ولقد بدأت الآيات التي معنا حديثها عن الأسرة بالحديث عن الزواج لأنه أعمق الروابط وأقواها ومنه تتأتى الذرية ، لذا جعل أساس الاختيار فيه هو ، التدين السليم ، والخلق القويم ، الذي يسعد ولا يشقى ، ويبني ولا يهدم ويحفظ ولا يضيع . . ولا يتأتى ذلك إلا باختيار المسلمة الصالحة والإعراض عن المشركة الكافرة .استمع إلى القرآن الكريم وهو يبين ذلك فيقول :( وَلاَ تَنْكِحُواْ المشركات . . . ) .

ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولامة مؤمنة خير من مشركة ولو اعجبتكم ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو اعجبكم اولئك يدعون الى النار والله يدعو الى الجنة والمغفرة باذنه ويبين اياته للناس لعلهم يتذكرون

كما فسرها الوسيط قوله - تعالى : ( وَلاَ تَنْكِحُواْ المشركات حتى يُؤْمِنّ ) النكاح في اللغة الضم وتداخل أجزاء الشيء بعضها في بعض . ثم أطلق على العقد الذي به تكون العلاقة بين الرجل والمرأة علاقة مشروعة والمشرك في لسان الشرع : من يدين بتعدد الآلهة مع الله - تعالى - وأصله من. - الإشراك بمعنى أن تجعل الشيء بينك وبين غيرك شركة ، فمن يعبد مع الله تعالى - إلها آخر يعد مشركاً ، وهو في الآخرة من الخاسرين .ويرى كثير من العلماء أن إطلاق كلمة : مشرك ، ومشركين ، ومشركات في القرآن الكريم تعني عبدة الأوثان ، وأنها صارت في استعمال القرآن حقيقة عرفية فيهم ، ولم يطلقها القرآن على اليهود والنصارى وإنما عبر عنهم بهذا الاسم أو بأهل الكتاب ، أو بوصف الفكر دون الشرك كما في قوله - تعالى - : ( لُعِنَ الذين كَفَرُواْ مِن بني إِسْرَائِيلَ ) وعليه فالمراد بالمشركات والمشركين في

الآية عبدة الأوثان .وذهب بعضهم إلى أن لفظ المشركات يشمل بمقتضى عمومه المرأة الوثنية ، واليهودية ، والنصرانية .وقد ترتب على هذا الخلاف في إطلاق كلمة " مشرك " أن أصحاب الرأي الأول قالوا : إن النهي في الآية إنما هو عن زواج المشركات اللائي يعبدون الأوثان ولا كتاب لهن ، وأنه يجوز - مع الكراهية - أن يتزوج المسلم الكتابية ، لأن القرآن يقول : ( اليوم أُحِلَّ لَكُمُ الطيبات وَطَعَامُ الذين أُوتُواْ الكتاب حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ والمحصنات مِنَ المؤمنات والمحصنات مِنَ الذين أُوتُواْ الكتاب مِن قَبْلِكُمْ ) الآية . ولأنه قد جاءت الروايات بأن بعض الصحابة قد تزوج بكتابيات . فعثمان بن عفان تزوج نصرانية ثم أسلمت ، وطلحة بن عبيد الله وحذيفة بن اليمان تزوجا يهوديتين .أمامن قال بالرأي الثاني فيرى حرمة الزواج بالوثنية واليهودية والنصرانية لأن لفظ المشركات يشملهن جميعا . وأصحاب هذا الرأي - كما يقول الآلوسي - يجعلون آية المائدة وهي قوله - تعالى - ( والمحصنات مِنَ المؤمنات ) منسوخة بالآية التي معنا نسخ الخاص بالعام . . وإلى هذا الرأي ذهب الإمامية وبعض الزيدية .وروى عن عمر وعبد الله ابنه - رضي الله عنهما - أنهما حرما ذلك وفي رواية أنها كرهاه وهي الأصح .قال القرطبي : وروى عن عمر أنه فرق بين طلحة بن عبيد الله . وحذيفة بن اليمان وبين كتابيتين وقالا : نطلق يا أمير المؤمنين ولا تغضب فقال : لو جاز طلاقكما لجاز نكاحكما ولكن أفرق بينكما صغرة قمأة . قال ابن عطية وهذا لا يستند جيداً ، وأسند منه أن عمر أراد التفريق بينهما فقال له حذيفة : أتزعم أنها حرام فأخلى سبيلها يا أمير المؤمنين؟ فقال :لا أزعم أنها حرام ولكن أخاف أن تعاطوا المومسات منهن .ثم قال القرطبي : وكان ابن عمر إذا سئل عن نكاح الرجل النصرانية أو اليهودية .قال حرم الله المشركات على المؤمنين ولا أعرف شيئاً من الإشراك أعظم من أن تقول المرأة ربها عيسى أو عبد من عباد الله . قال النحاس : وهذا قول خارج عن قول الجماعة الذين تقوم بهم الحجة ، لأنه قال بتحليل نكاح نساء أهل الكتاب من الصحابة والتابعين جماعة منهخم عثمان وطلحة وابن عباس . . ومن التباعين سعيد بن المسيب وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد . . وفقهاء الأمصار عليه ، وأيضاً فيمتنع أن تكون هذه الآية من سورة البقرة ناسخة للآية التي في سورة المائدة لأن البقرة من أول ما نزل بالمدينة والمائدة من آخر ما نزل ، وإنما الآخر ، ينسخ الأول - أو يخصصه - وأما قول ابن عمر فلا حجة فيه ، لأن ابن عمر - رضي الله عنه - كان متوقفا ، فلما سمع الآيتين في واحدة التحليل وفي أخرى ، التحريم ولم يبلغه النسخ توقف ، ولم يؤخذ عنه ذكر النسخ وإنما تؤول عليه وليس يؤخذ الناسخ والمنسوخ بالتأويل .والذي نراه أن زواج المسلم بالكتابية جائز لأن القرآن صريح في ذلك ، ولأن عمر - رضي الله عنه - أقر بأنه ليس بحرام ، فتكون آية المائدة مخصصة لآية البقرة على فرض عمومها ، ومبينة لحكم جديد خاص بالكتابيات ، وهو الجواز ولكن هذا الجواز لا ينمع كراهته ، لأن ، الزواج بالكتابية كثيراً ما يؤثر في إضعاف العاطفة الدينية عند المسلم وعد الأطفال الذين يكونون ثمرة لهذا الزواج ، لأنهم يخرجون إلى الحياة وقد رضعوا الميل إلى دين أمهم ، ولأن المرأة الكتابية التي تقبيل الزواج بالمسلم كثيراً ما تكون منحرفة في سلوكها وأن الدافع لها إلى هذا الزواج إنما هو المال أو الجمال أو الجاه وليس الدين أو الخلق ، لأنه لو كان الدافع ذلك لرضيت بالإسلام دينا ، وبآدابه خلقاً لها ، وما أحكم قول عمر لحذيفة : "لا أعزم أنها حرام ولكن أخاف أن تعاطوا المومسات منهن " .هذه خلاصة لاراء العلماء في هذه المسألة ومن أراد المزيد فليرجع إلى أقوالهم في مظانها .والمعنى : أنها كم أيها المؤمنون أن تتزوجوا بالنساء المشركات حتي يؤمن بالله - تعالى - ويذعن لتعاليم الإسلام وآدابه .وقوله : ( وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ) تعليل للنهى ، وبيان لفضل المؤمنات على المشركات ، ولفضل طهارة النفس على جمال الجسم ، والمراد بالامة هنا الأنثى المملوكة من الرقيق ، وبالمشركة الحرة الجميلة بقرينة المقابلة .أي : ولأنثى رقيقة مؤمنة مع ما بها من الرق وقلة الجاه والجمال خير في التزوج بها من ارمأة حرة مشركة ولو أعجبتكم بجمالها ونسبها وغير ذلك من منافع دنيوية ، لأن ما يتعلق بالمنافع الدينية يجب أن يقدم على المنافع الدينوية ، ولأن الزواج ارتباط روحي بين قلبين ، ومن العسير أن يتم هذا الترابط بين قلب يخلص لله في عبادته ، وقلب لا يدين بذلك .وصدرت الجملة بلام الابتداء الشبيهة بلام القسم في إفادة التأكيد مبالغة في الحمل على الانزجار ، وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم أتباعه أن يجعلوا الدين أساس رغبتهم في الزواج ، فقد أخرج الشيخان عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " تنكح المرأة لأربع : لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها - فاظفر بذات الدين ترتب يداك " .وعن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا تتزوجوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن أن يرديهن ، ولا تتزوجوهن لأموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن ، ولكن تزوجوهن على الدين ، ولأمة سوداء ذات دين أفضل " .والأحاديث النبوية في هذا المعنى كثيرة .ثم قال - تعالى - : (وَلاَ تُنْكِحُواْ المشركات حتى يُؤْمِنّ ) أي :لا تزوجوا أيها المؤمنون النساء المؤمنات للرجال المشركين

حتى يتركوا عليه من شرك ويدخلوا في دين الإسلام ، فإذا فعلوا ذلك حل لكم
أن تزوجوهم النساء المسلمات ، لأنهم بدخولهم في الإسلام قد أصبحوا إخوانا
لكم .والنهي هنا يتناول المشرك الذي يعبد الأوثان ويتناول غيره ممن لا يدين
بالإسلام كأهل الكتاب ، لأن القرآن قد جعل الإيمن غاية للنهي ، فإذا لم
يكن هناك إيمان من الرجل لم يكن له أن يتزوج من المرأة المؤمنة ، لأن
الله - تعالى - يقول في آية أخرى : ( ياأيها الذين آمَنُواْ إِذَا
جَآءَكُمُ المؤمنات مُهَاجِرَاتٍ فامتحنوهن الله أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنّ
فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلاَ تَرْجِعُوهُنّ إِلَى الكفار
لاَ هُنّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنّ وَآتُوهُم مّآ
أَنفَقُواْ وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنّ إِذَآ
آتَيْتُمُوهُنّ أُجُورَهُنّ وَلاَ تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ الكوافر ) فهذه
الآية صريحة في أن زواج المسلمة بالكافر لا يجوز ، وكلمة كافر تشمل أهل
الكتاب بدليل قوله - تعالى - : ( لُعِنَ الذين كَفَرُواْ مِن بني
إِسْرَائِيلَ على لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابن مَرْيَمَ ) وقوله تعالى
) مّآ يَوَدُّ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب وَلاَ المشركين أَن
يُنَزّلَ عَلَيْكُمْ مّنْ خَيْرٍ مّن رَّبّكُمْ ) قال الفخر الرازي
: لا خلاف ها هنا في أن المراد به - أي بلفظ المشركين - الكل ، وأن المؤمنة
) : لا يحل تزوجيها من الكافر ألبته على اختلاف أنواع الكفرة .وقوله
وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ) بيان
لفضل الإيمان على الشرك ، كما في قوله - تعالى - ( وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ
خَيْرٌ مّن مُّشْرِكَةٍ ) إذ نسبة المؤمن أو المؤمنة إلى هذا الدين الذي
- ارتضاه الله لعباده أفضل وأجل من الانتساب إلى أي شيء آخر .ثم بين
) : - سبحانه - علة النهي عن الزواج بالمشركين والمشركات فقال - تعالى
أولئك يَدْعُونَ إِلَى النار والله يدعوا إِلَى الجنة والمغفرة بِإِذْنِهِ
أي : أولئك المذكورون من المشركين والمشركات يدعون من يقارنهم ويعاشرهم. (
إلى الأقوال والأفعال والعقائد التي تفضي بصاحبها إلى دخول النار في الآخرة
والله - تعالى - يدعو عباده على ألسنة رسهل إلى الأقوال والأعمال والعقائد
التي توصل إلى جنته ومغفرته .فالمراد بالدعاء إلى النار الدعاء إلى أسبابها
وإلى ما يوصل إليها ، وكان الاقتران بهؤلاء المشركين والمشركات سببا في
، الوصول إليها ، لأن الزواج من شأنه الألفة والمودة والمحبة وشدة الاتصال
وكل ذلك يجعل المسلم أو المسلمة يتقبلان ما عليه المشرك والمشركة من فسوق
وعصيان لله - تعالى - بل ربما بمرور الأيام لا يكتفيان بالتقبل بل يستحسنان
فعلهما ، وبذلك تنحل عرا الإسلام من نفس المسلم والمسلمة عروة فعروة ، حتى
لا يبقى منه سوى الاسم ، كما نشاهد ذكل في كثير من المسلمين الذين تزوجوا
بغير مسلمات .والمقصود من قوله - تعالى - : ( والله يدعوا إِلَى الجنة )
إغراء المؤمنين بالتمسك بتعاليم دينهم ، وتنفيرهم من الاقتران بغير من يكون
، على شاكلتهم في الدين ، لأن من يخالفهم في عقيدتهم طريقة يغاير طريقهم
وهدفه يخالف هدفهم ، وعاقبته تباين عاقبتهم .والدعاء إلى الجنة والمغفرة
- المراد به الدعاء إلى أسبابهما كما في الجملة السابقة المقابلة وقيد
سبحانه - الدعاء إلى الجنة والمغفرة بقوله ( بِإِذْنِهِ ) أي بأمره وإرادته
وعلمه ، لأنه - سبحانه - هو المالك لكل شيء ، ولا يقع في ملكه إلا ما يريده
ويقدره .قال بعض العلماء ما ملخصه : وقد يقول قائل : هذه الدعوة إلى النار
، قد تكون أيضاً في زواج المسلم بالكتابية ، كما هي زواج المسلم بالمشركة
وكان مقتضى هذا أن يحرم زواج المسلم بغير المسلمة مطلقاً ، كما حرم زواج
المسلمة بغير المسلم مطلقاً ، وإن لذلك الكلام موضعه ، ولذلك أجمع الفقهاء
على كراهة زواج المسلم بالكتابية ، بل زعم بعض العلماء أن زواج المسلم من
الكتابية محرم كزواجه من المشركة .ولكن الجمهور لا يقطعون بالتحريم أمام
النص القاطع بالحل ، ولا يعملون العلة ليهمل النص ، بل يرون علة التحريم لا
تتوافر في الكتابية توافرها في المشركة ، فإن المشركة لا ترتبط بأي قانون
. . خلقي يعصمها من الزلل . . أما الكتابية فإن مجموع الفضائل الإنسانية
لا تزال باقية في تعاليم دينها فيمكن الاحتكام إليها .والقرآن في جدله مع
أهل الكتاب كان يلاحظ إمكان التفاهم معهم على قواعد يمكن حملهم على
الإقرار بها كما في قوله - تعالى - : ( قُلْ ياأهل الكتاب تَعَالَوْاْ إلى
كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاّ نَعْبُدَ إِلاّ الله
وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً ) الآية .وأمرنا أن نجادلهم بالتي هي أحسن
فقال : ( وَلاَ تجادلوا أَهْلَ الكتاب إِلاَّ بالتي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ
الذين ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ) الآية .فكان من اطراد تلك المعاملة الحسنة
المقربة غير المبعدة ، أن أباح الإسلام الزواج من الكتابيات .بيد أنه
يلاحظ في إباحة الزواج من الكتابيات أمران :أولهما : أن النص القرآني
المبيح خاص بالمحصنات منهن ، إذ قال - سبحانه ( الذين أُوتُواْ الكتاب مِن
قَبْلِكُمْ ) والمحصنات - في أظهر التفسير - هن العفيفات ، فأولئك الذين
يعمدون إلى المنحرفات منهم في أخلاقهن وعقولهن ولا يتخيرون ، خارجون عن
موضع الإباحة فيما أحسب ، لأن الله أحل المحصنات وهم استحلوا المنحرفات
ثانيهما : أن ولي الأمر إذا رأى خطرا على الدولة الإسلامية أو على.

المجتمع الإسلامي له ن يمنع الناس من ذلك الزواج بوضع عقوبات لمن يقدم
عليه سدا للذريعة ومنعا للشر ، وذلك من باب السياسة الشرعية ، لا من باب
تحريم ما أحل الله ، لأن الحل قائم على أصله ، والمنع وارد على الضرر الذي
يحلق المسلمين ، إذ في ذلك من الاعتداء على جماعتهم ما فيه ، كما أن أصل
الأكل حلال ، ولكن اغتصاب أموال الناس لنأكلها حرام ، ولذلك سارت الدولة
على منع بعض رجالها من الزواج بالأجنبيات .وقوله - تعالى - في ختام الآية :
( وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ) معطوف على
يدعو إلى الجنة . أي أنه - سبحانه - يدعو الناس إلى ما يوصلهم إلى جنته
ومغفرته ويبين لهم آياته وأوامره ونواهيه في شئون الزواج وفي غير ذلك من
الأحكام لكي يتعظوا ويعتبروا ويتذكروا ما أمرهم الله به فيعملوه ، وما
نهاهم عنه فيتركوه .وبذلك نرى أن الآية الكريمة قد رسمت الناس أقوم السبل ،
لكي يعيشوا في ظل أسرة فاضلة ، تظلها السعادة ، ويسودها الأمان والاطمئنان
. ويتعاون أفرادها على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان

ويسالونك عن المحيض قل هو اذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى
يطهرن فاذا تطهرن فاتوهن من حيث امركم الله ان الله يحب التوابين ويحب
المتطهرين

كما فسرها الوسيط وبعد أن أمر الله - المسلم بأن يجعل التدين وحسن الخلق
محط اختياره في الزواج ، اتبع ذلك بإرشاده إلى بعض الآداب التي يجب عليه أن
يسلكها مع زوجه حتى تكون علاقتهما قائمة على ما يقتضيه الطبع السليم والخلق
القويم وحتى تكون في أعلى درجات التطهر والتنزه والعفاف فقال - تعالى - :
( وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ المحيض قُلْ هُوَ أَذًى فاعتزلوا . . . )روى الإمام
مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - أن اليهود كانوا إذا حاضت
المرأة فيهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوها في البيوت أي لا يسكنون معهن - فسأل
الصحابة النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله - تعالى - : ( وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ المحيض قُلْ هُوَ أَذًى ) . الآية فقال رسول الله
- صلى الله عليه وسلم - : أصنعوا كل شيء إلا النكاح . فبلغ ذلك اليهود فقالوا
ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه . فجاء أسيد بن
حضير وعباد بن بشر فقالا : يارسول الله ، إن اليهود تقول كذا وكذا ، أفلا
نجامعهن؟ فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ظنا أن قد وجد
عليهما - أي غضب - فاستقبلتهما هدية من لبن إلى النبي صلى الله عليه وسلم
فأرسل في آثارهما فسقاهما ، فعرفا أن لم يجد عليهما .والمحيض : الحيض مصدر
حاضت المرأة تحيض حيضاً ومحاضاً ومحيضا فهي حائض ، وأصله السيلان . يقال
حاض الوادي إذا سال ، ومنه الحوض لسيلان الماء إليه .ثم أطلق الحيض على ما
يقذفه رحم المرأة من دم في أوقات مخصوصة على وجه مخصوص .والأذى : الشيء
الذي يتأذى منه الإنسان ويصيبه الضرر بسببه .والسؤال كان من بعض الصحابة ،
لأنه لقوة إيمانهم كانوا يحبون أن يعرفوا حكم الإسلام في شئونهم الخاصة
والعامة ، ولأنهم وجدوا أن اليهود وغيرهم يعاملون المرأة في حال حيضها
معاملة غير كريمة فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا الأمر الذي
يتصل بأدق العلاقات بين الرجل والمرأة وهو حكم مباشرة النساء في حال الحيض
فأجابهم الله - تعالى - جواباً شافياً .والمعنى : ويسألك أصحابك يا محمد ،
عن حكم مباشرة النساء في حال الحيض فقل لهم معلماً وموجهاً : إن الحيض أي
الدم الذي يلفظه رحم المرأة في وقت معين أذى يتأذى به الإنسان تأذياً
حسيماً جسيماً ، فرائحته يتأذى منها من يشمها ، وهو في ذاته شيء متقذر
تعافه النفوس ، وتنفر منه الطباع .وقوله : ( فاعتزلوا النسآء فِي المحيض
وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حتى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ ) بيان للحكم
المتفرع على تلك الحالة التي يتأذى منها وهي حالة الحيض .والاعتزال :
التباعد ، وهو هنا كناية عن ترك الجماع والمباشرة ، كما أن النهي عن قربهن
كناية عن النهي عن جماعهن ، يقال : قرب الرجل امرأته إذا جامعها .و
( تَطَهَّرْنَ ) من الطهر - بضم الطاء - بمعنى النقاء من الوسخ والقذر -
والمعنى : عليكم أيها المؤمنون أن تمتنعوا عن مباشرة النساء في زمن حيضهن.
ولا تجامعوهن حتى يطهرن من ذلك ، لأن غشيانهن في هذه الحالة يؤذيكم بسبب ،
عدم نقاء المحل الذي يكون فيه الغشيان للمرأة ، والمرأة أيضاً تتأذى من
مباشرتها في زمن الحيض لأنها لا تكون في حالة تستسيغ معها المباشرة ، فجهازها التناسلي في حالة اضطراب ، وهيئتها العامة في حالة تجعلها من شأنها
أن تنفر من الجماع ، والولد الذي يأتي عن طريق الجماع في حالة الحيض - على
فرض إتيانه في هذه الحالة - كثيراً ما يأتي مشوها ضعيفا ، لأن النطفة إذا
اختلطت بدم الحيض ، أخذت البويضات في التخلق قبل وقت صلاحيتها للتخلق
النافع الذي يكون وقته بعد انتهاء فترة الحيض وقد قال بذلك الأطباء الثقاة
وعرفه العرب القدامى بالتجربة ، قال أبو كبير الهزلي .ومبرأ من كل عُبّر.
حَيْضةٍ ... وفساد مرضعة وداءٍ معضِلِوقد أجمع العلماء - كما بينا - على أن
المراد بالاعتزال هو اجتناب المباشرة ، إلا أنهم اختلفوا فيما يجب اعتزاله
من المرأة بعد ذلك .فبعضهم يرى اعتزال جميع بدن المرأة ، وحجتهم أن الله

أمر باعتزال النساء ولم يخصص من ذلك شيئا دون شيء .وبعضهم يرى اعتزال موضع الأذى - أي مكان خروج الدم - لقول النبي صلى الله عليه وسلم " اصنعوا كل شيء إلا النكاح " .وبعضهم يرى اعتزال ما بين السرة إلى الركبة من المرأة وله ما سوى ذلك ، لقول عائشة : كانت إحدانا إذا كانت حائضة أمرها النبي صلى الله عليه وسلم أن تأتزر ثم يباشرها . وقوله : ( وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حتى يَطْهُرْنَ ) تأكيد لحكم الاعتزال وتقرير له ، وتنبيه على أن المراد به عدم جماعهن لا عدم القرب منهن أو مخالطتهن أو الأكل معهن كما كان يفعل اليهود وبعض العرب .والدليل على ذلك ما جاء في الصحيحين عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : " كنت أرجل رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا حائض وروى البخاري عن عائشة - أيضاً - قالت : " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتكئ في حجري وأنا حائض ثم يقرأ القرآن " .وروى مسلم عنها أيضاً قالت كنت أشرب وأنا حائض ، ثم أناوله النبي صلى الله عليه وسلم فيضع فاه على " : موضع فيّ فيشرب " .وقوله : ( حتى يَطهُرْنَ ) بيان لغاية الاعتزال . وقرأ حمزة الكسائي ( حتى يَطْهُرْنَ ) بفتح الطاء والهاء مع التشديد .ومعناه عند ، جمهور الفقهاء ولا تجامعوهن حتى يغتسلن ، لأن القراءتين معناهما واحد ولأن الله - تعالى - قد علق الإتيان على التطهر فقال : ( فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنّ ) والتطهر هو الاغتسال . فالمرأة إذا انقطع حيضها لا يحل للزوج مجامعتها إلا بعد الاغتسال .ويرى الأحناف أن معنى ( حتى يَطْهُرْنَ ) أي حتى ينقطع الدم ، لأنه إذا كان سبب الأذى هو الدم فانقطاعه طهور منه ، وبناء على ذلك فيجوز للرجل أن يباشر زوجته قبل أن تغتسل متى ) انقطع دمها لأقصى مدة الحيض ، وهو عشرة أيام .أخذاً بالقراءة المشهورة يَطْهُرْنَ ) بالتخفيف . أما إذا انقطع الدم قبل ذلك فلا تحل مباشرتها إلا ) بالتأكد من زوال الدم بعمل من جانبها وهو الاغتسال الفعلي ، لأن قراءة يَطْهُرْنَ ) بالتشديد عندهم معناها يغتسلن .وقال بعض الفقهاء يكفى في حلها أن تتوضأ عند انقطاع الدم .ولكل فريق أدلته المبسوطة في كتب الفقه .وفي هاتين الجملتين الكريمتين ( فاعتزلوا النسآء فِي المحيض وَلاَ تَقْرَبُوهُنّ حتى يَطْهُرْنَ ) من سمو التعبير ، وبديع الكناية ما يغرس في نس السامع حسن الأدب ، ويصون سمعه عن الألفاظ التي يجافي سماعها الأذواق السليمة ، وما أحود المسلمين إلى التأسي بهذا الأدب الذي يحفظ عليهم مرءوتهم وكرامتهم .ثم قال - تعالى - : ( فَإِذَا تَطَهّرْنَ فَأْتُوهُنّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ الله ) أي : فإذا تطهرن من المحيض فجامعوهن في المكان الذي أمركم الله بتجنبه في الحيض وهو القبل ولا تتعدوه إلى غيره ، والأمر في قوله - تعالى - : ( فَأْتُوهُنّ ) المراد به إباحة المباشرة. لأن من المقرر عند العلماء أن الأمر بعد النهي يكون للإباحة ، خصوصاً إذا كان الموضع موضع حل وإباحة لا موضع تكليف وإلزام ، وليس المراد به الحتم - واللزوم ، لأن الإتيان مبني على الرغبة والطاقة وشبه بهذا التعبير قوله - تعالى - ( فَإِذَا قُضِيَتِ الصلاة فانتشروا فِي الأرض ) وقوله : ( وَإِذَا حَلَلْتُمْ فاصطادوا ) قال الجمل : ومن في قوله : " من حيث " فيها قولان أحدهما : أنها لابتداء الغاية ، أي من الجهة التي تنتهي إلى موضع الحيض: والثاني : أن تكون بمعنى في أي المكان الذي نهيتم عنه في الحيض . ورجح. بعهضم هذا بأنه ملائم لقوله ( فاعتزلوا النسآء فِي المحيض ) .وعلى كلا القولين فالمقصود أن يأتي الرجل وزوجته في المكان الفطري الطبيعي لتلك العلاقة الجنسية ، وهو القبل إذ هو مكان البذر والإنسال ، ولا يخرج عن ذلك إلا الذينأصيبوا بشذوذ في عقولهم ، وضعف في دينهم .ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ( إِنّ الله يُحِبُّ التوابين وَيُحِبُّ المتطهرين ) .والتواب صيغة مبالغة من تائب بمعنى راجع إلى ربه إذا زل وهفا .والمتطهر : هو الإنسان المتنزه عن الفواحش والأقذار .أي : إن الله - تعالى - يحب عباده الذين يكثرون الرجوع إليه إذا ما ظلموا أنفسهم بسيئة من السيئات ، والذين يصونون أنفسهم وينزهونها عن المعاصي والآثام ، ويربئ عنهم في الدنيا والآخرة .قال الآلوسي : ( إِنّ الله يُحِبُّ التوابين ) مما عسى يبدر منهم من ارتكاب بعض الذنوب كالإتيان في الحيض المستدى لعقاب الله - تعالى - فقد أخرج الإمام أحمد والترمذي والنسائي عن أبي هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم قال : " من أتى حائضاً فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم " وهو جار مجرى الترهيب فلا يعارض ما أخرجه الطبراني عن ابن عباس قال جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، أصبت ": " امرأتي وهي حائض فأمره رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يعتق نسمة وهذا إذا كان الإتيان في أول الحيض والدم أحمر ، أما إذا كان في آخره والدم أصفر فينبغي أن يتصدق بنصف دينار كما دلت عليه الآثار .

نساؤكم حرث لكم فاتوا حرثكم انى شئتم وقدموا لانفسكم واتقوا الله واعلموا انكم ملاقوه وبشر المؤمنين

كما فسرها الوسيط ثم قال - تعالى - : ( نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أنى شِئْتُمْ ) .روى الشيخان عن جابر قال : كانت

اليهود تقول : إذا أتى الرجل امرأته من دبرها في قبلها ثم حملت كان ولدها أحول . فأنزل الله - تعالى - قوله : ( نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لّكُمْ ) الآية والحرث في الأصل : تهيئة الأرض بالحراثة لإلقاء البذر فيها . وقد تطلق. كلمة الحرث على الأرض المزروعة كما في قوله - تعالى - ( أَنِ اغدوا على حَرْثِكُمْ ) أي على حديقتكم لجمع ما فيها من ثمار .وشبهت المرأة بالأرض ، لأن كليهما يمد الوجود الإنساني بقائه ، فالزوجة تمده بعناصر تكوينه والأرض تمده بأسباب حياته .و ( أنى شِئْتُمْ ) بمعنى كيف شئتم ، أو متى شئتم في غير وقت الحيض .والمعنى : نساؤكم هن مزرع لكم ومنبت للولد ، أعدهن الله لذلك كما أعد الأرض للزراعة والإنبات ، فأتوهن إذا تطهرن من الحيض في موضع الحرث كيف شئتم مستلقيات على ظهورهن أو غير ذلك ما دمتم تؤدون شهوتكم في صمام واحد وهو الفرج .وفي هذه الجملة الكريمة إشعار بأن المقصد الأول من الزواج إنما هو النسل ، ويشير إلى ذلك قوله ( نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لّكُمْ ) إذ من شأن الحرث الصالح الانتاج وإشعار كذلك بما شرعه الله للزوجين من مؤانسة ومباسطة ويشير إلى ذلك قوله - تعالى - ( فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أنى شِئْتُمْ ) .ويرى صاحب الكشاف ن التشبيه بين ما يلقى في الأرحام من النطفة وبين البذر الذي يلقى في الأرض من حيث إن كلا منهما ينمو في مستودعه ويكون به البقاء والتوالد ، فقد قال - رحمه الله - :( نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لّكُمْ ) مواضع الحرث لكم . وهذا مجاز شبهن بالمحارث تشبيها لما يلقى في أرحامهن ( من النطف التي منها النسل بالبذور ، وقوله : ( فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أنى شِئْتُمْ ) تمثيل ، أي فأتوهن كما تأتون أراضيكم التي تحرثونها من أي جهة شئتم ، لا تحظر عليكم جهة دون جهة . والمعنى : جامعوهن من أي شق أردتم بعد أن يكون المأتي واحدا وهو موضع الحرث .ثم قال : وقوله - تعالى - : ( هُوَ أَذًى فاعتزلوا النسآء ) وقوله ( مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ الله ) وقوله ( فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أنى شِئْتُمْ ) من الكنايات اللطيفة والتعريضات الحسنة . وهذه وأشباهها في كلام الله آداب حسنة على المؤمنين أن يتعلموها ويتأدبوا بها ويتكلفوا مثلها في محاوراتهم ومكاتباتهم .فإن قلت : ما موقع قوله ( نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لّكُمْ ) مما قبله؟ قلت : موقعه موقع البيان والتوضيح لقوله : ( فَأْتُوهُنّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ الله ) يعني أن المأتي الذي أمركم الله به هو مكان الحرث ترجمة له وتفسيرا ، أو إزالة للشبهة ودلالة على أن الغرض الأصيل في الإتيان هو طلب النسل لا قضاء الشهوة فلا تأتوهن إلا من المأتى الذي يتعلق به هذا الغرض " .ثم ختم الله - تعالى - الآية بقوله : ( وَقَدّمُواْ لأَنْفُسِكُمْ واتقوا الله واعلموا أنّكُمْ مّلاَقُوهُ وَبَشّرِ المؤمنين ) .أي : عليكم أيها المؤمنون أن تقدموا في حاضركم لمستقبلكم من الأعمال الصالحة ما ينفعكم في دنياكم وآخرتكم ، بأن تختاروا في زواجكم ذات الدين ، وأن تسيروا في حياتكم الزوجية على الطريقة التي رسمها لكم خالقكم وعليكم كذلك أن تتقوه بأن تصونوا أنفسكم عن كل ما نهاكم عنه ، وأن تعلموا علم اليقين أنكم ستلقونه فيحاسبكم على أعمالكم ويجازيكهم عليها بما تستحقون .وقوله : ( وَبَشّرِ المؤمنين ) بشارة طيبة لمن آمن وعمل صالحا ، وتلقى ما كلفه الله - تعالى - بالطاعة والامتثال .وبذلك نرى أن هاتين الآيتين قد أرشدتا المسلم إلى أفضل الوسائل وأقوى الدعائم التي يقوم عليها صرح الحياة الزوجية والسعيدة ، والتي عن ، طريقها تأتي الذرية الصالحة الرشيدة ، وأن الإسلام في تعاليمه لا يحاول أن ينكر أو يحطم غرائز الإنسان وضرورياته ، وإنما الإسلام يعترف بغرائز الإنسان وضرورياته ثم يعمل على تهذيبها وتقويمها بالطرق التي من شأنه إذا ما اتبعها أن يظفر بالسعادة والطمأنينة في دنياه وأخراه .

ولا تجعلوا الله عرضة لايمانكم ان تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس والله سميع عليم

كما فسرها الوسيط وبعد أن بينت لنا السورة الكريمة حكم المباشرة في فترة الحيض تابعت حديثها عن شئون الأسرة فذكرت حكم الإيلاء أي الحلف بالامتناع عن المباشرة بعد أن قدمت له بالحديث عن الحلف في ذاته . استمع إلى سورة الكريمة وهي تحكي ذلك فتقول :( وَلاَ تَجْعَلُواْ الله عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ . . . )العرضة : فعله - بضم الفاء - بمعنى مفعول كالقبضة والغرقة ، وهي اسم لكل ما يعترض الشيء فيمنع من الوصول إليه ، واشتقاقها من الشيء الذي يوضع في عرض الطريق فيصير مانعاً للناس من السلوك والمرور يقال فلان عرضة دون الخير أي حاجز عنه .وتطلق كذلك على النصبة التي تتعرض للسهام وتكون هدفاً لها ، ومنه قولهم : فلان عرضة للناس إذا كانوا يقعون فيه ويعرضون له بالمكروه . قال الشاعر :دعوني أنح وجداً كنوح الحمائم .. ولا تجعلوني عرضة للوائميريد اتركوني أنح من الشوق ولا تجعلوني معرضاً للوم الوائم .والأيمان : جمع يمين وتطلق بمعنى الحلف والقسم ، واصل ذلك أن العرب كانوا إذا أرادوا توثيق عهودهم بالقسم يقسمونه وضع كل واحد من المتعاهدين يمينه في يمين صاحبه ، و " تبروا " من البر وهو الأمر المستحسن شرعا - والمعنى على الوجه الأول :لا تجعلوا الحلف بالله - أيها المؤمنون.

حاجزاً ومانعاً عن البر والتقوى والإصلاح بين الناس ، وذلك أن بعض الناس كان إذا دعى إلى فعل الخير وهو لا يريد أن يفعله يقول : حلفت بالله ألا أفعله فنهاهم الله - تعالى - عن سلوك هذا الطريق .وهذا المعنى هو الذي رجحه كثير من المفسرين لأنه هو المناسب لما يجئ بعد ذلك من قوله - تعالى - : ( لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ) ووجه المناسبة أن الله - تعالى - يكره للمؤمن أن يجعل الحلف به مانعاً من رجوعه إلى أهله؛ ولأن هناك أحاديث كثيرة تحض من حلف على ترك أمر من أمور الخير أن يكفر عن يمينه وأن يأتي الأمر الذي فيه خير ، ومن هذه الأحاديث ما جاء في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إني والله إن شاء الله ، لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير وتحللتها " .وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى عليه وسلم : " من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليكفر عن يمينه وليفعل الذي هو خير " .وشبيه بهذه الآية في النهي عن الحلف على ترك فعل الخير قوله - تعالى - في شأن سيدنا أبي بكر عندما أقسم ألا ينفق على قريبه الذي خاض في شأن ابنته عائشة ( وَلاَ يَأْتَلِ أُوْلُواْ الفضل مِنكُمْ والسعة أَن يؤتوا أُوْلِي القربى والمساكين والمهاجرين فِي سَبِيلِ الله وَلْيَعْفُواْ وليصفحوا ألاَ تُحِبُّونَ أن يَغْفِرَ الله لَكُمْ ) فالآية على هذا الوجه تنهى المؤمن عن المحافظة على اليمين إذا كانت هذه اليمين ما نعة من فعل الخير .واللام في قوله : ( لأَيْمَانِكُمْ ) متعلق بعرضة ، وقوله ( أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ ) مفعول لأجله أي : لا تجعلوا الحلف بالله سبباً في الامتناع عن عمل البر والتقوى والإصلاح بين الناس .والمعنى على أن عرضة بمعنى النصبة التي تتعرض للسهام لا تجعلوا - أيها المؤمنون - اسم الله - تعالى - هدفاً لأيمانكم فتبتذلوه : بكثرة الحلف به في كل حق وباطل ، وذلك لأجل البر والتقوى والإصلاح بين الناس ، فإن من شأن الذي يكثر الحلف أن تقل ثقة الناس به وبأيمانه ، وقد ذم الله - تعالى - من يكثر الحلف بقوله ( وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ ) وأمر بحفظ الأيمان فقال : ( واحفظوا أَيْمَانَكُمْ ) قال الإمام الرازي : والحكمة في الأمر بتقليل الأيمان ، أن من حلف في كل قليل وكثير بالله انطلق لسانه بذلك ، ولا يبقى لليمين في قلبه وقع ، فلا يؤمن إقدامه على اليمين الكاذبة ، فيختل ما هو الغرض الأصلي في اليمين ، وأيضاً كلما كان الإنسان أكثر تعظيما لله . كان أكمل في العبودية ، ومن كمال التعظيم أن يكون ذكر الله - تعالى - أجل وأعلاه عنده من أن يستشهد به في غرض دنيوي ، وأما قوله بعد ذلك ( أَن تَبَرُّواْ ) فهو علة لهذا النهي . أي - إرادة أن تبروا والمعنى إنما نهيتم عن هذا - أي عن الإكثار من الحلف : لما أن توقى ذلك من البر والتقوى والإصلاح ، فتكونون يا معشر المؤمنين بسبب عدم إكثاركم من الأيمان - بررة أتقياء مصلحين " .وهذا الوجه أيضاً استحسنه كثير من العلماء ، ولا تنافى بينهما؛ لأن الله - تعالى - ينهانا عن أن نجعل القسم به مانعاً من فعل الخير ، كما ينهانا في الوقت نفسه عن أن نكثر من الحلف به في عظيم الأمور وحقيرها .ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ( والله سَمِيعٌ عَلِيمٌ ) أي : سميع لأقوالكم وأيمانكم عند النطق بها عليم بأحوالكم ونياتكم فحافظوا على أمركم به ، وانتهوا عما نهاكم لتنالوا رضاه ومثوبته .

لا يؤاخذكم الله باللغو في ايمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حليم

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( لاَّ يُؤَاخِذُكُمُ الله باللغو في أَيْمَانِكُمْ ) استئناف بياني ، لأن الآية السابقة لما أفادت النهي عن التسرع في الحلف ، أو عن اتخاذ الأيمان حاجزاً عن عمل الخير ، كانت نفوس السامعين مشوقة إلى حكم اليمين التي تجري على الألسنة بدون قصد .والمؤاخذة مفاعلة من الأخذ بمعنى المحاسبة أو المعاقبة أو الإلزام بالوفاء بها : واللغو من الكلام : الساقط الذي لا يعتد به ولا يصدر عن فكر وروية مصدر. لغا يلغو ويلغى .والمعنى :لا يعاقبكم الله - تعالى - ولا يلزمكم بكفارة ما صدر عنكم من الإيمان اللاغية فضلا منه - سبحانه - كرما .واليمين اللغو هو التي لا يقصدها الحالف ، بل تجري على لسانه عادة من غير قصد ، وقد ذكر العلماء صوراً لها منها - كما يقول ابن كثير :ما رواه عطاء عن عائشة أنها قالت : " اللغو في اليمين هو كلام الرجل في بيته كلا والله بلى والله " وفي رواية عن الزهري عن عروة عنها أنها قالت : " اللغو في اليمين هو ما يكون بين القوم يتدارءون في الأمر - أي يتناقشون ويتذاكرون فيه - فيقول هذا لا والله وبلى والله وكلا والله لا تعقد عليه قلوبهم " أي تجري على ألسنتهم ألفاظ اليمين ولكن بدون قصد يمين : -ومنها ما جاء عن عروة عنها أنها كانت تتأول هذه الآية يعني قوله - تعالى - : ( لاَّ يُؤَاخِذُكُمُ الله باللغو في أَيْمَانِكُمْ ) وتقول : هو الشيء يحلف عليه أحدكم لا يريد منه إلا الصدق فيكون على غير ما حلف عليه " .ثم بين - سبحانه - اليمين التي هي موضع

المحاسبة والمعاقبة فقال : ( ولكن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ
أي :لا يؤاخذكم الله في اليمين التي لم تصدر عن روية ولكن يؤاخذكم أي. (
يعاقبكم في الآخرة بما قصدته قلوبكم وتعمدتم فيه الكذب في اليمين ، بأن
يحلف أحدكم على شيء كذب ليعتقد السامع صدقه ، وتلك هي اليمين الغموس - أي
التي تغمس صاحبها في النار - ويدخل فيها الإيمان التي يحلفها شهود الزور
والكاذبون عند التقاضي ومن يشابههم في تعمد الكذب .ويرى جمهور العلماء أن
هذه اليمين لا كفارة فيها وإنما كفارتها التوبة الصادقة ورد الحقوق إلى
أصحابها إن ترتب على اليمين الكاذبة ضياع حق أو حكم بباطل .ويرى الإمام
الشافعي أنه يجب فيها فوق ذلك الكفارة .والباء في قوله : ( بِمَا ) للسببية
وما مصدرية أي ، لا يؤاخذكم باللغو ولكن يؤاخذكم بالكسب ، أو موصولة ،
والعائد محذوف أي ولكن يؤاخذكم بالذي كسبته قلوبكم .وقوله : ( والله
غَفُورٌ حَلِيمٌ ) تذييل لتأكيد معنى عدم المؤاخذة في اللغو . أي والله
. غفور حيث لم يؤاخذكم باللغو حليم حيث لم يعاجل المخطئين بالعقوبة

للذين يؤلون من نسائهم تربص اربعة اشهر فان فاءوا فان الله غفور رحيم

- كما فسرها الوسيط وبعد بيان هذه الأحكام في الأيمان العامة ، عقب
سبحانه - ذلك ببيان حكم اليمين الخاصة فقال : ( لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن
نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَآءُو فَإِنَّ اللَّه
غَفُورٌ رَّحِيمٌ . وَإِنْ عَزَمُوا الطلاق فَإِنَّ الله سَمِيعٌ عَلِيمٌ
. و ( يُؤْلُونَ ) : من الإيلاء مصدر آلى يؤالي ويؤلى إيلاء بمعنى حلف . (
قال الشاعر :قليل الألايا حافظ ليمينه ... وإن سبقت منه الألية برتوقد خص
الإيلاء في الشرع بالحلف على ترك مباشرة الزوجة . وكانوا في الجاهلية
يحلفون ألايقربوا نساءهم السنة والأكثر إضراراً بهن .و ( التربص ) التلبث
والانتظار والترقب . قال الشاعر :تربص بها ريب المنون لعلها ... تطلق يوما
أو يموت حليلهاو ( فَآءُو ) معناه رجعوا . والفيء في اللغة هو رجوع الشيء
. إلى ما كان عليه من قبل ، ولذها قيل لما تزيله الشمس من الظل ثم يعود فيء
وقيل لما رده الله على المسلمين من مال المشركين فيء كأنه لهم فرجع إليهم
)ففاءت ولم تقض الذي أقبلت له ... ومن حاجة الإنسان ما ليس قاضياو.
عَزَمُواْ ) من العزم وهو عقد القلب على الشيء ، والتصميم عليه . يقال عزم
على الشيء يعزم عزما وعزيمة . . إذا عقد نيته عليه .و ( الطلاق ) هو حل عقد
: النكاح الذي بين الرجل والمرأة ، وأصله من الانطلاق ، وهو الذهاب . يقال
طلقت المرأة تطلق - من باب نصر - طلاقا ، إذا أصبحت مخلاة بدون رجل بعد أن
كانت في عصمة رجل معين .قال الفخر الرازي : كان الرجل في الجاهلية لا يريد
المرأة ولا يحب أن يتزوجها غيره ، فيحلف أن لا يقربها ، فكان يتركها بذلك
لا أيما ولا ذات يعل والغرض منه مضارة المرأة . ثم إن أهل الإسلام كانوا
يفعلون ذلك - أيضاً - فأزال الله ، تعالى - ذلك ، وأمهل الزوج مدة حتى
يتروى ويتأمل فإن رأى المصلحة في ترك هذه المضارة فعلها ، وإن رأى المصلحة
- في المفارقة عن المرأة فارقها " .ومعنى الآيتين الكريمتين : أن الله
تعالى - جعل للذين يحلفون على ترك مباشرة أزواجهم مدة يرادجعون فيها أنفسهم
وينتظرون فيها ما يستقر عليه أمرهم ، وهذه المدة هي أربعة أشهر ، فإن ،
رجعوا عما حلفوا عليه من ترك مباشرة الزوجة ، ورأوا أن المصلحة في الرجوع
فإن الله - تعالى - يغفر لهم ما فرط منهم . وإن استمروا على ترك مباشرة
نسائهم ، وأصروا على ذلك بعد انقضائها فإن شرع الله - تعالى يحكم بالتفريق
بينهما ، لأن الحياة الزوجية لا تقوم على البغض والكراهية والهجران ، وإنما
تقوم على المحبة والمودة والرحمة وقوله : ( لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ ) متعلق
بمحذوف خبر مقدم . وتربص مبتدأ مؤخر ، وقدم الخبر على المبتدأ للاهتمام
بهذه التوسعة التي وسع الله بها عليهم ، فهي مدة كافية لأن يراجع المرء
فيها نفسه ، ويعود إلى معاشرة زوجه خلالها .وعدي فعل الإيلاء بمن مع أن
حقه أن يتعدى بعلى ، لأنه تضمن هنا معنى البعد كأنه قال : للذين يؤلون
متباعدين من نسائهم .وأضيف التربص إلى الظرف ( أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ) على
الاتساع إذ الأصل تربصهن في أربعة أشهر . وقوله : ( فَإِنَّ اللَّه غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ) دليل الجواب . أي فإن فاؤا إلى زوجاتهم وحنثوا في أيمانهم التي
حلفوها بالابتعاد عنهن ، بأن كفروا عنها وتابوا إلى ربهم فحنثهم مغفور لهم
لأنه - سبحانه - غفور لمن تاب من بعد ظلمه وأصلح ، رحيم بعباده في كل
. أوامره وتكاليفه

وان عزموا الطلاق فان الله سميع عليم

كما فسرها الوسيط وجواب الشرط في قوله ( وَإِنْ عَزَمُواْ الطلاق ) محذوف
والتقدير وإن عزموا الطلاق فقد وجب عليهم ما اعتزموه ، والطلاق منصوب على
نوع الخافض لأن عزم يتعدى بعلى .وفي قوله : ( فَإِنَّ الله سَمِيعٌ عَلِيمٌ
وعيد شديد لمن يحلف على ترك مباشرة امرأته أو يمسكها بقصد إيذائها (
ومضارتها .أي فإن الله - تعالى - سميع لكل ما كان من الزوج الحالف ، عليم

بما يقع منه من مضار أو غيرها ، وسيجزيه يوم القيامة بما يستحقه .قال القرطبي ما ملخصه : وقد جعل الله للزوج مدة أربعة أشهر في تأديب المرأة - بالهجر ، وقد آلى النبي صلى الله عليه وسلم من أزواجه شهر تأديبا لهن عندما طالبنه بزيادة النفقة - وقد قيل : الأربعة الأشهر هي التي لا تستطيع أن تصبر عنه أكثر منها ، وقد روى أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - سأل بعض النساء عن مقدار صبر المرأة عن زوجها فقلن أربعة أشهر ، فجعل عمر مدة الرجل في الغزو أربعة أشهر ، فإذا مضت أر بعة أشهر استرد الغازين ووجه بقوم آخرين ، وهذا - والله أعلم - يقوى اختصاص مدة الإيلاء بأربعة أشهر " .وعلى أية حال فإن الطبائع تختلف في مثل هذه الأمور ، والأربعة الأشهر مدة كافية ليختبر الرجل نفسه وميوله ، فإما أن يعود إلى معاشرة زوجه بالطريقة التي شرعها الله ، وإما أن تعاد إلى الزوجة حريتها بالطلاق ، ليبدأ كلاهما حياة زوجية جديدة مع شخص آخر . فذلك أكرم للزوجة وأعف وأصون ، وأنفع للرجل كذلك وأشرف . وقد اختار الله هذه المدة وهو الأعلم بحكمة اختياره فعلينا أن نتقبل ما شرعه لنا طائعين خاشعين .هذا وجمهور - العلماء على أن الطلاق لا يقع بانتهاء هذه المدة ، وإنما بانتهائها يأمره الحاكم بالفيئة ، فإن تقبل أمر الحاكم بالرضا أمهله مدة يمكنه الفيئة فيها ، وإن لم يتقبله بالرضا أمره بالطلاق ، فإن طلق فيها وإلا طلقها الحاكم منه .وعليه فإن الفاء في قوله تعالى : ( فَإِنْ فَآءُو ) لترتيب الحكم الذي يحصل بعد مدة التربص ، وقال الأحناف إن الطلاق يقع بمجرد انتهاء هذه المدة وهي الأربعة الأشهر. والرجوع إنما يكون خلالها فلا زيادة فوقها ، ويكفى في مراجعته لنفسه تلك المدة ، وما دام لم يرجع إلى معاشرة امرأته خلالها فقد آثر فراقها ، ولا يصح أن نعطيه أية مهلة من الوقت بعدها . وعليه تكون الفاء عندهم للتفصيل ، أي تفصيل ما يحصل من الزوج في هذه المدة .وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد نهت المسلم عن اتخاذ الحلف بالله حاجزاً بينه وبين فعل الخير ، وأمرته ، بأن يحفظ لسانه عن الإكثار من الحلف بالله في الأمور الصغيرة والكبيرة وحذرته من تعمد الأيمان الكاذبة التي تؤدي إلى غضب الله - تعالى - لأن اليمين الكاذبة الفاجرة من كبائر الذنوب ، وحذرته كذلك من أن يهجر زوجته بقصد إيذائها والإضرار بها ، لأن الحياة الزوجية يجب أن تقوم على المودة والرحمة ، وأرشدته إلى أن أقصى مدة لهجر الزوجة بقصد تأديبها وعلاج أعوجاجها هي أربعة أشهر يراجع فيها نفسه ، فإما أن يعود إليها ويكفر عن يمينه ، وإما أن يقع بينهما الفراق ( وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ الله كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ ) وبهذه الأحكام السامية يكون الإسلام قد شرع للرجل والمرأة ما ينفعهما ويصون كرامتهما ، ويحفظ لهما حريتهما وحسن استمتاعهما بالحياة .ثم ساقت السورة في خمس آيات أحكام الطلاق ، وفصلت أحواله ، وبينت مراته ، وذكرت ما ينبغي أن يكون عليه من عدل وتسامح حتى لا يقع ظلم أو جور على أحد الزوجين . استمع إلى القرآن الكريم وهو يبين ذلك بأسلوبه الحكيم المؤثر فيقول :( والمطلقات يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قروء ( . . . وَلاَ يَحِلُّ

والمطلقات يتربصن بانفسهن ثلاثة قروء ولا يحل لهن ان يكتمن ما خلق الله في ارحامهن ان كن يؤمن بالله واليوم الاخر وبعولتهن احق بردهن في ذلك ان ارادوا اصلاحا ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم

كما فسرها الوسيط قوله - تعالى - : ( والمطلقات يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قروء ) معطوف على ما قبله لشدة المناسبة ، وللاتحاد في الحكم وهو التربص الذي سبقت الإشارة إليه في قوله : ( لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ) والتربص : التأني والتريث والانتظار .والقروء : جمع قرء - بضم القاف وفتحها - .قال الطبرسي : وأصله في اللغة يحتمل وجهين :أحدهما : الاجتماع ومنه القرآن لاجتماع حروفه . . فعلى هذا يقال أقرأت المرأة فهي مقرئ إذا حاضت ، وذلك لاجتماع الدم في الرحم .والوجه الثاني : أن أصل القرء الوقت " الجارى في الفعل على عادة ، يقال : هذا قارئ الرياح أي وقت هبوبها والمعنى : أن على المطلقات أن تمكث إحداهن بعد طلاق زوجها لها ثلاثة قروء. بدو نكاح ثم لها أن تتزوج بعد ذلك إن شاءت .والمراد بالمطلقات أن تمكث إحداهن بعد طلاق زوجها لها ثلاثة قروء بدون نكاح ثم لها أن تتزوج بعد ذلك ، إن شاءت .والمراد بالمطلقات هنا المدخول بهن من ذوات الحيض غير الحوامل لأن غيرهن قد بين الله - تعالى - عدتهن في مواضع أخرى .والمتوفي عنها زوجها بين الله عدتها بقوله : ( والذين يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً ) - ومن لا يحضن ليأس من الحيض ، أو لأنهن لم يرين الحيض فقد بين الله تعالى - عدتهن بقوله : ( واللائي يَئِسْنَ مِنَ المحيض مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ارتبتم فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاَثَةُ أَشْهُرٍ واللائي لَمْ يَحِضْنَ ) أي - واللائي لم يحضن فعدتهن كذلك ثلاثة أشهر .وذوات الحمل بين الله - تعالى :

عدتهن بقوله : ( وَأُوْلاَتُ الأحمال أَجَلُهُنّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنّ
وغير المدخول بها لا عدة عليها لقوله - تعالى - : ( يا أَيها الذين آمنوا (
إِذَا نَكَحْتُمُ المؤمنات ثُمّ طَلّقْتُمُوهُنّ مِن قَبْلِ أَن
( تَمَسّوهُنّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنّ مِنْ عِدّةٍ تَعْتَدّونَهَا
وقوله : ( يَتَرَبّصْنَ بِأَنْفُسِهِنّ ) جملة خبرية اللفظ إنشائية
" - المعنى أي " ليتربصن " وإخراج الأمر في صورة الخبر - كما يقول الزمخشري
، تأكيد للأمر ، وإشعار بأنه مما يجب أن يتلقى بالمسارعة إلى امتثاله
فكأنهن امتثلن الأمر بالتربص . فهو يخبر عنه موجوداً . ونحوه قولهم في
الدعاء : " رحمك الله " أخرج في صورة الخبر ثقة بالاستجابة . كأنما وجدت
الرحمة فهو يخبر عنها وبناؤه على المبتدأ مما زاده أيضاً فضل توكيد . ولو
) - قيل : " ويتربص المطلقات " لم يكن بتلك الوكادة " .وفي قوله - تعالى
والمطلقات يَتَرَبّصْنَ بِأَنْفُسِهِنّ ) ما فيه من الإبداع في الإشارة
والنزاهة في العبادة والسمو في المعنى ، وذلك لأن المرأة المطلقة كثيراً ما
تشعر بعد طلاقها بأنها في حاجة إلى أن تثبت أن إخفاقها في حياتها الزوجية
السابقة ليس لنقص فيها ، أو لعجز عن إنشاء حياة زوجية أخرى ، وهذا الشعور
قد يدفعها إلى التسرع والاندفاع من أجل إنشاء هذه الحياة وهنا تبرز طريقة
القرآن الحكيمة في معالجة النفوس ، إنه يقول للملطقة : إن التطلع إلى إنشاء
، حياة زوجية أخرى ليس عيباً ، ولكن الكرامة توجب عليها الانتظار والتريث
إذ لا يليق بالحرة الكريمة أن تنتقل بين الأزواج تنقلا سريعاً .. وأيضاً
، فإن نداء الفطرة ، وتعاليم الشريعة توجبان عليها الانتظار مدة ثلاثة قروء
لكي تستبرئ رحمها ، حتى إذا كان هناك حمل نسب إلى الأب الشرعي له .وفي
قوله - تعالى - : ( يَتَرَبّصْنَ بِأَنْفُسِهِنّ ) إشعار بأن هذا التربص
يجب أن يكون من ذات أنفسهن وليس من عامل خارجي ، فشأن الحرة الكريمة
المؤمنة أن تحجز نفسها بنفسها عن كل ما يتنافى مع الكرامة والشرف ، فقد
تجوع الحرة ولكنها لا تأكل بثديها - كما يقولون - .وقد أشار صاحب الكشاف
إلى المعنى بقوله : فإن قلت وما معنى ذكر الأنفس - هنا -؟قلت : في ذكر
الأنفس تهييج لهن على التربص وزيادة بعث ، لأن فيه ما يستنكفن منه فيحملهن
على أن يتربصن . وذلك أن أنفس النساء طوامح إلى الرجال . فأمرن أن يقمعن
: - أنفسهن ، ويغلبنها على الطموح ، ويجبرنها على التربص " .وقوله - تعالى
نصب ثلاثة على النيابة عن المفعول فيه ، لأن الكلام ( ثَلاَثَةَ قرواء )
على تقدير مضاف ، أي مدة ثلاثة قروء ، فلما حذف المضاف خلفه المضاف إليه في
) : - الإعراب .هذا وللعلماء رأيان شهيران في المراد بقوله - تعالى
ثَلاَثَةَ قرواء )فالأحناف والحنابلة ومن قبلهم عمر وعلي وابن مسعود وغيرهم
يرون أن المراد بالقروء هنا الحيضات والمعنى عندهم : أن المطلقات عليهن أن
يمكثن بعد طلاقهن من أزواجهن مدة ثلاث حيضات بدون زواج بعد ذلك لهن أن
يتزوجن إن شئن .ومن أدلتهم : أن النبي صلى الله عليه وسلم قد فسر القرء
بمعنى الحيض فقد جاء في الحديث الذي رواه أبو داود والنسائي عن فاطمة بنت
أبي حبيش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لها : " دعي الصلاة أيام
أقرائك " .ولا شك أن المراد بالقرء في هذا الحديث الحيض ، لأنه هو الذي لا
تصح معه الصلاة .أما المالكية والشافعية ومن قبلهم عائشة وعبد الله بن عمر
وزيد بن ثابت والزهري وغيرهم فيرون أن المراد بالقروء هنا الأطهار ، أي
الأوقات التي تكون بين الحيضتين للنساء .ومعنى الآية عندهم : أن على
الملطقات أن يمكثن بعد طلاقهن من أزواجهن ثلاثة أطهار بدون زواج ثم بعد ذلك
يتزوجن إذا شئن .ومن أدلتهم : أن الله - تعالى - يقول : ( فَطَلِّقُوهُنّ
لِعِدّتِهِنّ ) وقد بينت السنة النبوية أن الطلاق لا يكون في الحيض ، فلا
يتصور أن يكون الطلاق في العدة إلا إذا فسرنا القرء بالطهر لا بالحيض .وروى
عن عائشة أنها قالت : هل تدرون الأقراء؟ الأقراء الأطهار .قال صاحب المنار
قال الأستاذ الإمام : والخطب في الخلاف سهل ، لأن المقصود من هذا التربص
العلم ببراءة الرحم من الزوج السابق ، وهو يحصل بثلاث حيض كما يحصل بثلاث
أطهار . . ومن النادر أن يستمر الحيض إلى آخر الحمل فكل من القولين موافق
لحكمة الشرع في المسألة .ثم قال - تعالى - : ( وَلاَ يَحِلّ لَهُنّ أَن
يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ الله في أَرْحَامِهِنّ ) . أي : ولا يحل للنساء
المطلقات أن يكتمن أمانة الله التي خلقها في أرحامهن من ولد لكي ينسبنه إلى
غير أبيه ، أو من حيض أو طهر لكي تطول العدة ، ويمتد الإنفاق من الأزواج
عليهن . فإن هذا الكتمان كذب على الله ، وخيانة للأمانة التي أودعها الله
في أحشائهن وأمرهن بالوفاء بها ، سيحاسب الله من يفعل ذلك منهن حساباً
شديداً ، ويعاقبه عقاباً أليماً .وقوله : ( إِن كُنّ يُؤْمِنّ بالله
واليوم الآخر ) تحريض لهن على عدم الكتمان وعلى الأخبار الصادق حتى تستقيم
الأحكام ، وتتقرر الحقوق ، وتحذير لهن من الكتمان ومن اتباع الهوى والشيطان
أي : أن على المطلقات ألا يكتمن ما خلق الله في أرحامهن إن جرين على ما
يقتضيه الإيمان ، إذ الإيمان يبعث على الصدق ويدعو إلى المحافظة على
الأمانة ، فإن لم يفعلن ذلك وكتمن ما خلق الله في أرحامهن ، كن ممن لا يؤمن
بالله ولا باليوم الآخر إيمانا حقيقيا ، لأن من شأن المؤمنات الكاملات في
إيمانهن ألا يفعلن ذلك .قال الإمام الرازي : أما قوله ( إِن كُنّ

- يُؤْمِنّ بالله واليوم الآخر ) فليس المراد أن ذلك النهى - عن الكتمان
مشروط بكونها مؤمنة ، بل هذا كما تقول للرجل الذي يظلم : إن كنت مؤمنا فلا
تظلم . تريد إن كنت مؤمناً فينبغي أن يمنعكم إيمانك عن ظلمي ، ولا شك أن
هذا تهديد شديد للنساء . . والآية الدالة على أن كل من جعل أميناً في شيء
فخان فيه فأمره عند الله شديد " .هذا ، وقد قرر الفقهاء أن القول فيما
يتعلق بعدة المرأة ابتداء وانتهاء مرجعه إليها ، لأنه أمر يتعلق بها ولا
يعلم إلا من جهتها ، إلا أنهم مع ذلك قرروا مدة ينتهي قولها عنده ، ولا
يعمل بقولها إن نقصت عن تلك المدة . فلو ادعت - أنها قد انقضت عدتها بعد
شهر من طلاقها لا يقبل قولها .وللفقهاء كلام طويل في هذه المسألة مبسوط في
كتب الفقه فليرجع إليه من شاء ذلك .ثم قال - تعالى - : ( وَبُعُولَتُهُنَّ
أَحَقُّ بِرَدِّهِنّ فِي ذَلِكَ إِنْ أرادوا إِصْلاَحاً ) .قال القرطبي :
البعولة جمع البعل وهو الزوج ، سمى بعلا لعلوه على الزوجة بما قد ملكه من
زوجيتها ، ومنه قوله - تعالى - : ( أَتَدْعُونَ بَعْلاً ) أي رباً ، لعلوه
- في الربوبية .. والبعولة أيضاً مصدر البعل . وبعل الرجل يبعل - كمنع يمنع
أي صار بعلا . والمباعلة والبعال : الجماع ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم
لأيام التشريق : " إنها أيام أكل وشرب وبعال " .والمعنى : وأزواج المطلقات
طلاقاً رجعياً أحق بردهن ومراجعتهن في ( ذَلِكَ ) أي في وقت التربص قبل
انقضاء العدة ( إِنْ أرادوا إِصْلاَحاً ) أي إن أرادوا بهذه المراجعة
الإصلاح لا الإضرار ، كما سيأتي في قوله - تعالى - : ( وَإِذَا
طَلّقْتُمُ النسآء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنّ فَأَمْسِكُوهُنّ بِمَعْرُوفٍ
أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً
لِّتَعْتَدُواْ ) .قال القرطبي : وأجمع العلماء على أن الحر إذا طلق زوجته
الحرة وكانت مدخولا بها تطليقه أو تطليقتين ، أنه أحق برجعتها ما لم تنقض
عدتها وإن كرهت المرأة ، فإن لم يراجعها الملطق حتى انقضت عدتها فهي أحق
بنفسها وتصير أجنبية منه ، ولا تحل له إلا بخطبة ونكاح مستأنف بولى وإشهاد
ليس على صفة المراجعة ، وهذا إجماع من العلماء " .وفي هذه الجملة الكريمة
بيان لبعض الحكم السامية التي أرادها الله - تعالى - من وراء مشروعية العدة
، فالله - تعالى - جعل للمطلق فرصة - هي مدة ثلاثة قروء - لكي يراجع نفسه .
ويتدبر أمره ، لعله خلال هذه المراجعة وذلك التبدر يرى أن الخير في بقاء
- زوجته معه فيراجعها ، رعاية لرابطة المودة والرحمة التي جعلها الله
تعالى - بين الزوجين .وقوله - تعالى - : ( إِنْ أرادوا إِصْلاَحاً ) شرط
، المقصود منه حض المطلق على أن ينوي بإرجاعه لمطلقته إصلاح أحوالهما
بإرشادها إلى ما من شأنه أن يجعل حياتهما الزوجية مستمرة لا منقطعة ، أما
إذا راجعها على نية الكيد والأذى والمضارة ففي هذه الحالة يكون آثماً
وسيعاقبه الله على ذلك بما يستحقه .قال الآلوسي : وليس المراد من التعليق
، اشتراط جواز الرجعة بإرادة الإصلاح حتى لو لم يكن قصده لا تجوز
للإجتماع على جوازها مطلقاً ، بل المراد تحريضهم على قصد الإصلاح حيث جعل
) : كأنه منوط به ينتفى بانتفائه " .ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله
وَلَهُنّ مِثْلُ الذي عَلَيْهِنّ بالمعروف وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنّ
دَرَجَةٌ والله عَزِيزٌ حَكِيمٌ ) .أي : وللنساء على الرجال مثل ما للرجال
على النساء . فليؤد كل واحد منهما إلى الآخر ما يجب عليه نحوه بالمعروف
والمراد بالمماثلة - كما يقول الآلوسي - المماثلة في الوجوب لا في جنس.
، الفعل ، فلا يجب عليه إذا غسلت ثيابه أو خبزت له أن يفعل لها مثل ذلك
، ولكن يقابله بما يليق بالرجال " .أي أن الحقوق والواجبات بينهما متبادلة
وأنهما متماثلات في أن كل واحد منهما عليه أن يؤدي نحو صاحبه ما يجب عليه
بالمعروف أي بما عرفته الطباع السليمة ولم تنكره ، ووافق ما أوجبه الله على
كل منهما في شريعته .فالباء في قوله ( بالمعروف ) للملابسة .وقد بين النبي
صلى الله عليه وسلم في أحاديث متعددة حقوق الرجال على النساء ، وحقوق
النساء على الرجال ، ومن ذلك ما أخرجه مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في خطبته في حجة الوداع : " اتقوا
الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله . واستحللتم فروجهن بكلمة الله
ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه . فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً
غير مبرح ، ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف " .وروى الشيخان عن أبي هريرة أن
رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا يحل مرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلا
بإذنه ، ولا تأذن في بيته إلا بإذنه " .وأخرج أبو داود عن معاوية بن حيدة
قال : " قلت يا رسول الله ، ما حق زوجة أحدنا عليه؟ قال : أن تطعمها إذا
طعمت ، وتكسوها إذا اكتسيت ، ولا تضرب الوجه ، ولا تقبح ، ولا تهجر إلا في
البيت " .ولقد قام السلف الصالح بأداء هذه الحقوق على أحسن وجه فقد روى عن
. ابن عباس أنه قال : إني لأحب أن أتزين لا مرأتي كما تتزي لي لأن الله
تعالى - يقول : ( وَلَهُنّ مِثْلُ الذي عَلَيْهِنّ بالمعروف ) .أي : أن
يحب أن يؤنسها وأن يدخل السرور على قلبها كما أنها هي تحب أن تفعل له ذلك
- ولكن لا يفهم أحد أن المراد بهذا المثلية المساواة من كل الوجوه قال.
. تعالى - : ( وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنّ دَرَجَةٌ ) والرجال : جمع رجل
يقال : رجل بين الرجلة أي القوة . وهو أرجل الرجلين أي أقواهما . وفرس رجيل

أي قوى على المشي . وارتجل الكلام أي قوى عليه من غير حاجة فيه إلى فكرة وروية ، وترجل النهار أي قوي ضياؤه . فأصل كلمة الرجل مأخوذة من الرجولية بمعنى القوة .والدرجة في الأصل : ما يرتقى عليه من سلم ونحوه ، والمراد بها هنا المزية والزيادة أي : لهن عليهم مثل الذي لهم عليهن ، وللرجال على النساء مزية وزيادة في الحق ، بسبب حمايتهم لهن ، وقيامهم بشئونهن ونفقتهن وغير ذلك من واجبات .قال بعض العلماء : وإذا كانت الأسرة لا تتكون إلا من ازدواج هذين العنصرين - الرجل والمرأة - فلابد أن يشرف على تهذيب الأسرة ويقوم على ترتيبة ناشئتها وتوزيع الحقوق والواجبات فيها أحد العنصرين . وقد ، نظر الإسلام إلى هذا الأمر نظرة عادلة ، فوجد أن الرجل أملك لزمام نفسه وأقدر على ضبط حسه ، ووجده الذي أقام البيت بماله وأن انهياره خراب عليه فجعل له الرياسة ، ولذا قال - سبحانه - : ( الرجال قَوَّامُونَ عَلَى النسآء بِمَا فَضَّلَ الله بَعْضَهُمْ على بَعْضٍ وَبِمَآ أَنْفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ . . . ) هذه هي الدرجة التي جعلها الإسلام للرجل ، وهي درجة تجعل له حقوقاً وتجعل عليه واجبات أكثر ، فهي موائمة كل المواءمة لصدر الآية ، فإذا كان للرجل فضل درجة فعلية فضل واجب " .وقوله : ( والله عَزِيزٌ حَكِيمٌ ) أي غالب في انتقامه ممن عصاه ، حكيم في أمره وشرعه وسائر ما يكلف به عباده . فعلى الرجل والمرأة أن يطلبا عزهما فيما شرعه الله فهو ، الملجأ والمعاذ لكل ذي حق مهضوم ، وعليهما كذلك أن يتمسكا بما كلفهما به . لأنه ما كلفهما إلا بما تقتضيه الحكمة ، ويؤيده العقل السليم

الطلاق مرتان فامساك بمعروف او تسريح باحسان ولا يحل لكم ان تاخذوا مما اتيتموهن شيئا الا ان يخافا الا يقيما حدود الله فان خفتم الا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فاولئك هم الظالمون

كما فسرها الوسيط وبعد أن بين - سبحانه - في هذه الآية شرعية الطلاق ومداه إذا طلق الرجل امرأته المدخول بها طلقة رجعية ، ووضع المهاج العادل الذي يجب أن يتبعه الرجال والنساء . . بعد أن بين ذلك أتبعه ببيان الحد الذي ينتهي عنده ما للرجل من حق المراجعة فقال - تعالى : ( الطلاق مَرّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ) .قال الإمام ابن كثير : هذه الآية رافعة لما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام : من أن الرجل كان أحق برجعة امرأته وإن طلقها مائة مرة ما دامت في العدة ، فلما ، كان هذا فيه ضرر على الزوجات ، قصرهم الله - تعالى - على ثلاث طلقات : وأباح الرجعة في المرة والثنتين ، وأبانها بالكلية في الثالثة فقال الطلاق مرتان . . . الآية .وروى ابن أبي حاتم عن هشام بن عروة عن أبيه أن رجلا قال لامرأته :لا أطلقك أبداً ولا آويك أبداً . قالت : وكيف ذلك؟ قال أطلق حتى إذا دنا أجلك - أي قاربت عدتك أن تنتهي - راجعتك - فأتت المرأة : ) : - إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت له ذلك فأنزل الله - تعالى الطلاق مَرّتَانِ ) - الآية .والطلاق - كما يقول القرطبي - هو حل العصمة المنعقدة بين الأزواج بألفاظ مخصوصة .وآل في قوله : ( الطلاق مَرّتَانِ ) : - للعهد الذكري .أي : الطلاق الرجعي المشار إليه في قوله - تعالى والمطلقات يَتَرَبّصْنَ ) مرتان ، وأمر الملطق بعد إحدى هاتين الطلقتين يدور بين حالتين إما إمساك بمعروف بمعنى أن يراجعها على نية الإبقاء على العلاقة الزوجية ، والمعاملة الحسنة وإما تسريح بإحسان بمعنى أن يتركها حتى : - تنتهي عدتها ، ويطلق سراحها بدون ظلم أو إساءة إليها ، كما قال - تعالى قال القرطبي : والتسريح : إرسال ( وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً ) . . الشيء ، ومنه تسريح الشعر ليخلص البعض من البعض ، وسرح الماشية أرسلها وعلى هذا التفسير يكون المراد بالطلاق في الآية الطلاق الرجعي وبالمرتين" حقيقة التثنية ، ويكون وقت الإمساك أو التسريح هو ما بعد الطلقة الأولى أو الثانية بصفة خاصة ، وفي كل الأوقات بصفة عامة . وعلى هذا التفسير سار كثير من العلماء .ويرى بعضهم أن المراد بالطلاق في الطلاق الشرعي ، وبالمرتين ، التكرار لا العدد ، وأن المراد من التسريح بالإحسان هو الطلقة الثالثة أي بعد الطلقتين الأوليين يتروى في الأمر فيمسك بالمعروف أو يطلق الطلقة الثالثة .وقد ذكر هذا الرأي صاحب الكشاف فقال :( الطلاق ) بمعنى التطليق كالسلام بمعنى التسليم ، أي التطليق الشرعي تطليقه بعد تطليقه على التفريق ، دون الجمع والإرسال دفعة واحدة ، ولم يرد بالمرتين التثنية ولكن التكرير كقوله" ثم ارجع البصر كرتين " أي كرة بعد كرة لا كرتين اثنتين ، ونحو ذلك ) : من التثاني التي يراد بها التكرير كقولهم : لبيك وسعديك . . وقوله فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ) تخيير لهم بعد أن علمهم كيف يطلقون بين أن يمسكوا النساء بحسن العشرة وبين أن يسرحوهن السراح الجميل الذي علمهم إياه . . وروى أن سائلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم أرأيت قول الله - تعالى - : ( الطلاق مَرَّتَانِ ) فأين الثالثة ، فقال صلى ) : - الله عليه وسلم " التسريح بإحسان " .والفاء في قوله - تعالى فَإِمْسَاكٌ . . . ) للتفريع ، وإمساك خبر لمبتدأ محذوف والتقدير : فالشأن

أو فالأمر إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان .قال الفخر الرازي : والحكمة في
إثبات حق الرجعة : أن الإنسان ما دام يكون مع صاحبه لا يدري أنه هل تشق
عليه مفارقته أولا؟ فإذا فارقه فعتد ذلك يظهر ، فلو جعل الله - تعالى -
الطلقة الواحدة مانعة من الرجوع لعظمت المشقة على الإنسان بتقدير أن يظهر
المحبة بعد المفارقة ، ثم لما كان كمال التجربة لا يحصل بالمرة الواحدة ،
فلا جرم أثبت - سبحانه - حق المراجعة بعد المفارقة مرتين ، وعند ذلك يكون
قد جرب الإنسان نفسه في تلك المفارقة مرتين وعرف حال قلبه في ذلك الباب .
فإن كان الأصلح إمساكها راجعها وأمسكها بالمعروف ، وإن كان الأصلح له
تسريحها سرحها على أحسن الوجوه ، وهذا التدريج والترتيب يدل على كمال رحمته
ورأفته بعباده " .هذا ، ويرى بعض العلماء كابن تيمية وابن القيم أن الرجل
إذا أوقع الطلاق دفعة واحدة بأن قال لزوجته أنت طالق ثلاث مرات ، فطلاقه لا
يكون إلا طلقة واحدة ، لأن اقتران الطلاق بكلمة ثلاثا لا يجعله ثلاث مرات
بل هو مرة واحدة كمن يقول : أحلف بالله ثلاثاً فهو يمين واحدة .ويرى الأئمة
الأربعة أن طلاق هذا الرجل في مثل هذه الصورة يقع ثلاثاً ، لأنهم يرون أن
الطلاق المقترن بالعدد لفظاً أو إشارة يكون ثلاثا أو اثنين على حسب ما
اقترن به . ولأن عمر - رضي الله عنه - أفتى بذلك . فقد أخرج مسلم وأبو داود
والنسائي والحاكم عن ابن عباس قال : " كان الطلاق الثلاث على عهد رسول الله
صلى الله عليه وسلم وعلى عهد أبي بكر ، وسنتين من خلافة عمر واحدة ، فقال
عمر : إن الناس قد استعجلوا في أمر لهم فيه أناة فلو أمضيناه عليهم " .
فأمضاه .وهذه المسألة مبسوطة بأدلتها في كتب الفقه وبعض كتب التفسير.ثم
قال - تعالى - : ( وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ
آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلاَّ أَن يَخَافَآ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ الله
فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ الله فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا
فِيمَا افتدت ) .قال الراغب : الخوف : توقع مكروه عن إمارة مظنونة أو
معلومة ، كما أن الرجاء والطمع توقع محبوب عن أمارة مظنونة أو معلومة .
ويضاد الخوف الأمن . . "والجناح : الإثم من جنح بمعنى مال عن القصد - وسمى
الآثم به للميل فيه من الحق إلى الباطل - . يقال جنحت السفينة أي مالت إلى
أحد جانبيها . والافتداء : تخليص النفس بمال يبذل لتخليصها ودفع الأذى عنها
وأصله من الفدى والفداء بمعنى حفظ الإنسان نفسه عن الشدة بما يبذله من .
أجل ذلك .والمعنى : ولا يجوز لكم أيها المطلقون أن تأخذوا من زوجاتكم في
مقابلة الطلاق شيئاً مما أعطيتموهن من صدق أو من غيره من أموال ، لأن هذا
الأخذ يكون من باب الظلم الذي نهى الله عنه ، وليس من باب العدل الذي أمر
الله به .ثم استثنى - سبحانه - صورة يجوز فيها الأخذ فقال : ( إِلاَّ أَن
يَخَافَآ ) إلخ أي :لا يجوز لكم أن تأخذوا في حالة من الأحوال إلا في حالة
أن يخاف الزوجان كلاهما أو أحدهما ألا يقيما حدود الله ففي هذه الحالة يجوز
الأخذ وحدود الله هي ما أوجبه - سبحانه للرجل على زوجته ولها عليه .ثم
خاطب - سبحانه - الحكام وجماعة المؤمنين المتوسطين للإصلاح بين الزوجين
فقال : ( فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا ) أي الزوجان ( حُدُودَ الله )
التي حدها لهم وأمرهم باتباعها في حياتهم الزوجية" فلا جناح عليهما فيما
افتدت به " أي : فلا إثم على الزوج في أخذ ما أعطته له الزوجة من مال مقابل
انفصالها عنه ، ولا إثم عليها كذلك في هذا الإعطاء ، لأنهما ما داما قد
وصلا إلى هذه الحالة من التنافر ، وما دامت الزوجة قد أصبحت تفضل أن تعطيه
من المال ما تفدى به نفسها من البقاء في عصمته ، ما داما قد أصبحا كذلك .
فوقوع الفراق بينهما أولى وأجدى ( وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ الله كُلاًّ
مِّن سَعَتِهِ ) قال صاحب الكشاف: فإن قلت : لمن الخطاب في قوله : ( وَلاَ
يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ ) إن قلت : إنه للأزواج لم يطابقه قوله ) :
فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ الله ) وإن قلت إنه للأئمة
والحكام فهؤلاء ليسوا بآخذين منهم ولا بمؤتيهن؟ قلت : يجوز الأمران جميعاً
أن يكون أول الخطاب للأزواج وآخره للأئمة والحكام ، ونحو ذلك غير عزيز في :
القرآن وغيره . ويجوز الخطاب كله للائمة والحكام ، لأنهم الذين يأمرون
بالأخذ والإيتاء عند الترافع إليهم فكنهم الآخذون والمؤتون " .والمراد
بقوله : ( مِمَّآ آتَيْتُمُوهُنَّ ) أي من المهور وتخصيصها بالذكر وإن
شاركها في الحكم سائر أموالهن إما لرعاية العادة وإما للتنبيه على أنه إذا
لم يحل لهم أن يأخذوا مما أعطوهن في مقابلة البضع عند خروجه عن ملكهم فلأن
لا يحل لهم أن يأخذوا مما لا تعلق له بالبضع أولى وأحرى .وقوله : ( شَيْئاً
مفعول به لتأخذوا . التنوين للتقليل أي :لا يحل لكم أن تأخذوا مما ( )
آتيتموهن شيئاً ولو كان المأخوذ شيئاً غاية في القلة ، لأن هذا الأخذ يجا
في الإحسان الذي أمرتم به . وقريب من هذه الآية في النهي عن الأخذ قوله -
تعالى - :( وَإِنْ أَرَدْتُّمُ استبدال زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ
إِحْدَاهُنَّ قِنْطَاراً فَلاَ تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ
بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً ) وأن والفعل في قوله : ( إِلاَّ أَن
يَخَافَآ ) في موضع نصب على الحال أي إلأا خائفين .وقوله : ( أَلاَّ
يُقِيمَا ) في موضع نصب على المفعول به ليخافا والتقدير إلا أن يخافا ترك
حدود الله .وهذه الآية قد اعتبرها العلماء أصلا في جواز الخلع .قال ابن

كثير : وقد ذكر ابن جرير : أن هذه الآية نزلت في شأن ثابت بن قيس ، ففي
صحيح البخاري عن ابن عباس : " أن امرأة ثابت بن قيس أتت النبي صلى الله
عليه وسلم فقالت : يا رسول الله إن زوجي ثابت بن قيس - ما أعيب عليه في خلق
ولا دين ، ولكن أكره الكفر في الإسلام - أي أكره عدم الوفاء بحقه لبغضي
له- . فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم أتردين عليه حديقته؟ - وهي
المهر الذي أمهرها - قالت : نعم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لثابت
اقبل الحديقة وطلقها تطليقه " .قالوا : ففرق رسول الله صلى الله عليه :
- وسلم بينهما بطريق الخلع فكان أول خلع في الإسلام .ثم ختم - سبحانه
الآية بقوله : ( تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ
حُدُودَ الله فأولئك هُمُ الظالمون ) .أي : تلك الأحكام العظيمة الحكيمة
المتقدمة التي بينتها لكم في شأن الطلاق والرجعة والخلع وغير ذلك حدود الله
التي حدها ، فلا يجز لكم أن تخالفوها ، ومن يتعد هذه الحدود فأولئك هم
الظالمون لأنفسهم بتعريضها لسخط الله وعقابه .وكنت الإشارة للبعيد ( )
تِلْكَ ) لبيان سمو قدر هذه الأحكام ، وعظم منزلتها ، وجلال ما فيها من
مصالح واضحة لأصحاب العقول السليمة .وسميت هذه الأحكام حدوداً للإشارة إلى
أنها فواصل بين الحق والباطل ، والظلم والعدل والمنفعة والمضرة . إذ الحد
هو الحاجز بين الشيئين الذي يمنع اختلاط أحدهما بالآخر . يقال : حددت كذا
أي جعلت حداً يميزه . وحد الدار ما تتميز به عن غيرها .وفي إضافة هذه
- الحدود إليه - سبحانه - إشعار بأن مخالفتها إنما هي مخالفة له - سبحانه
وأن هذه الحدود لا يتطرق إليها الريب لأنها صادرة من العليم الخبير الذي
أحسن كل شيء خلقه .والفاء في قوله : ( فَلاَ تَعْتَدُوهَا ) للتفريع أي :
إذا كانت هذه الأحكام حدود الله فلا يصح لكم أن تتجاوزوها لأن تجاوزها يؤدي
إلى سوء العقبى .وعبر في قوله : ( فأولئك هُمُ الظالمون ) بفاء السببية
وباسم الإشارة وبضمير الفصل وبالجملة الاسمية لتأكيد معنى السببية
وللإشارة إلى أن الظلم شأن من شئونهم وصفة يتميزون بها عن غيرهم .وقد
جاء - سبحانه - بكل هذه المؤكدات في تلك الجملة الكريمة لكبح جماح غرور
الإنسان ، وتحذيره من الانقياد لهواه وأوهامه ، فكثيراً ما يتوهم بعض
الناس أن أحكام الله ليست ملائمة لمتقضى الزمان الذي يعيشون فيه ، ويحاولون
إخضاع شرع الله - تعالى - لمصالحهم وشهواتهم ، أو يتركون ما شرعه الله بتلك
الحجة الواهية الساقطة . وأنت ترى هنا أن القرآن قال : ( تِلْكَ حُدُودُ
الله فَلاَ تَعْتَدُوهَا . . . ) بينما قال هناك في ختام آية الصوم
تِلْكَ حُدُودُ الله فَلاَ تَقْرَبُوهَا ) وذلك لأن الكلام هنا في شأن
الأسرة وما يسودها أحياناً من خلافات ، واصطدامات ، واضطرابات . . والخشية
هنا إنما هي من تعدى هذه الحدود التي حدها الله في أي مرة من مرات هذا
الخلاف . . فجاء التحذير من التعدي لا من المقاربة ، بينما هناك كان الحديث
عن محظورات مشتهاة مستلذة تريدها النفس لترضى شهوتي البطن والفرج ، فجاء
التحذير من مجرد الاقتراب من هذه الحدود التي حدها الله إتقاء لضعف الإرادة
أمام جاذبيتها .فسبحان من هذا كلامه ( وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ الله
( لَوَجَدُواْ فِيهِ اختلافًا كَثِيراً

فان طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره فان طلقها فلا جناح عليهما
ان يتراجعا ان ظنا ان يقيما حدود الله وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أحكام الطلاق المكمل للثلاث ، بعد
بيانه لأحكام الطلاق الرجعي وأحكام الخلع فقال - تعالى - : ( فَإِنْ
( طَلَّقَهَا فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حتى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ
أي : فإن طلق الرجل زوجته طلقة ثالثة بعد الطلقتين اللتين أباح الله له.
مراجعتها بعد كل منهما في أثناء العدة ، فإنه في هذه الحالة تكون زوجته
محرمة عليه ، ولا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره نكاحاً شرعياً صحيحاً ، بأن
يدخل بها ، ويباشرها مباشرة شرعية كما يباشر الأزواج زوجاتهم .فالمراد
بالنكاح في قوله تعالى : ( حتى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ ) الزواج بشخص
آخر يدخل بها . دخولا صحيحاً . ويويد هذا المعنى ويؤكده ما جاء في الحديث
" : المشهور الذي أخرجه البخاري وغيره عن عائشة - رضي الله عنها - قالت
جاءت امرأة رفاعة القرظي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول
الله إن رفاعة طلقني فبت طلاقي . وإني نكحت بعده عبد الرحمن بن الزبير
القرظي ، وإن ما معه مثل الهدبة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : )
" لعلك تريدين أن ترجعي إلى رفاعة؟ لا حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك
وواضح من ذوق العسيلة أن يدخل بها ويجامعها ، وعلى هذا انعقد إجماع.
الفقهاء .ولم يلتفتوا إلى ما نسبه بعضهم إلى سعيد بن المسيب من أنه أجاز
للمرأة أن تعود إلى زوجها الأول بعد عقد زواجها على الثاني دون أن يدخل بها
وحملوا هذا المنسوب إلى سعيد بن المسيب على أنه من شواذ الفتيا التي لا .
وزن لها لمخالفتها لنص حديث صحيح لعله لم يبلغه .ثم قال - تعالى - : )
فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ
أَن يُقِيمَا حُدُودَ الله ) أي : فإن طلق الزوج الثاني تلك المرأة التيسبق

طلاقها من الزوج الأول ، فلا إثم عليها وعلى زوجها الأول في أن يرجع كل منهما إلى صاحبه بعقد جديد بعد انقضاء العدة ما داما يغلب على ظنهما أنهما سيقيمان حدود الله ، ويؤدي كل واحد منهما ما يجب عليه نحو صاحبه بأمانة وإخلاص .وقوله : ( أَن يَتَرَاجَعَآ ) في موضع جر بإضمار حرف الجر أي في أن يتراجعا وقوله ( أَن يُقِيمَا ) في موضع نصب على أنه سد مسد مفعولي ظن .قال صاحب الكشاف : ولم يقل : إن علما أنهما يقيمان حدود الله لأن اليقين مغيب عنهما لا يعلمه إلا الله . ومن فسر الظن ها هنا بالعلم فقدوهم ولأن الإتسان لم يعلم ما في الغد وإنما يظن ظنا " .ثم ختم - سبحانه - هذه الآية بقوله : ( وَتِلْكَ حُدُودُ الله يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ أي : وتلك الأحكام المذكورة عن الطلاق وعن غيره مما كلف الله به عباده. ( بينها ويوضحها بتلك الطرق الحكيمة لقوم يعلمون الحق ، ويعملون بمقتضى علمهم وبهذا نرى أن الآية الكريمة قد بينت أنه لا يحل للمرأة التي طلقت من زوجها. أن تعود إليه بعد الطلقة الثالثة إلا بعد أن تتزوج آخر زواجاً صحيحاً يدلخ بها فيه ويجامعها ثم يطلقها وتنقضي عدتها منه .ومن حكم هذا التشريع الحكيم ردع الأزواج عن الاستخفاف بحقوق زوجاتهم ، وزجرهم عن التساهل في إيقاع الطلاق ، فإن الرجل الشريف الطبع ، العزيز النفس إذا علم أن زوجته لن تحل ، له بعد الطلقة الثالثة إلا إذا افترشها شخص أخر توقف عن إيقاع الطلاق وتباعد عن التسرع والاندفاع وحاول أن يصلح ما بينه وبين أهله بالمعالجة الحكيمة التي تتميز بسعة الصدر وضبط النفس .هذا ، وقد ساق الإمام ابن كثير سبعة أحاديث في النهي عن نكاح المحلل - وهو أن يعقد رجل على أمرأة قد طلقت ثلاثاً من زوجها بقصد إحلالها لهذا الزوج لا بقصد الزواج الدائم ثم يدخل بها دخولا صورياً وليس شرعياً - ومن هذه الأحاديث ما رواه الإمام أحمد والترمذي والنسائي عن عبد الله بن مسعود قال : " لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المحلل والمحلل له ، وآكل الربا وموكله " .وعن عقبة بن عامر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ألا أخبركم بالتيس المستعار "؟ " : "قالوا : بلى يا رسول الله . قال : هو المحلل لعن الله المحلل والمحلل له : وعن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن نكاح المحلل فقال. لا ، إلا نكاح رغبة -لا نكاح دلسة أي لا نكاح غش وتدليس - ولا استهزاء " بكتاب الله - ثم يذوق عسيلتها . . " .وجاء رجل إلى ابن عمر فسأله عن رجل طلق امرأته ثلاثاً فتزوجها أخ له من غير مؤامرة منه - أي من غير مشورة ورغبة منه - ليحلها لأخيه فهل تحل للأول؟ فقال :لا إلا نكاح رغبة كنا نعد : هذا سفاحاً على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .ثم قال ابن كثير والمقصود أن الزوج الثاني يكون راغباً في المرأة قاصداً لدوام عشرتها كما هو المشروع من التزويج . واشترط الإمام ملاك مع ذلك أن يطأها الثاني وطأ مباحاً فلو وطئها وهي محرمة أو صائمة أو معتكفة أو حائض . . لم تحل للأول بهذا الوطء والمراد بالعسيلة الجامع لما رواه الإمام أحمد والنسائي عن عائشة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : " ألا إن العسيلة الجماع وبعد أن بين - سبحانه - في الآية السابقة أن الزوج مخير بين الإمساك. " والتسريح في مدة العدة ، عقب ذلك ببيان أن هذا التخيير من حقه حتى آخروقت في العدة ، وذلك لتذكيره بأن الإمساك أفضل من التسريح ، وأن عليه ألا يلجأ إلى الطلاق إلا إذا سدجت طرق الإصلاح والمعالجة ، وأنه إذا اختار الطلاق فعليه أن يسلك فيه طريق الحق والعدل لا طريق الباطل والجور .

واذا طلقتم النساء فبلغن اجلهن فامسكوهن بمعروف او سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ولا تتخذوا ايات الله هزوا واذكروا نعمت الله عليكم وما انزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به واتقوا الله واعلموا ان الله بكل شيء عليم

كما فسرها الوسيط قال - تعالى : ( وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النسآء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنّ فَأَمْسِكُوهُنّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنّ بِمَعْرُوفٍ وَلاَ تُمْسِكُوهُنّ ضِرَاراً لِّتَعْتَدُواْ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ) .قال الراغب : الأجل : المدة المضروبة للشيء . - قال - تعالى - ( ولتبلغوا أَجَلاً مُّسَمًّى . . ) - أي مدة معينة والبلوغ والبلاغ الانتهاء إلى أقصى المقصد والمنتهى مكاناً كان أو زماناً أو أمراً من الأمور المقدرة ، وربما يعبر به عن المشارفة عليه وإن لم ينته فمن الانتهاء قوله - تعالى - : ( وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ) وأما . قوله : ( فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنّ فَأَمْسِكُوهُنّ بِمَعْرُوفٍ ) فللمشارفة فإنها إذا انتهت إلى أقصى الأجل لا يصح للزوج مراجعتها وإمساكها " .والمراد بالأجل هنا عدة المرأة . وببلوغها قرب انتهائها .والضرار - كما يقول الرازي - هو المضارة . قال - تعالى - : ( والذين اتخذوا مَسْجِداً ضِرَاراً أي اتخذوا المسجد ضرراً ليضاروا المؤمنين ، ومعناه يرجع إلى إثارة ( العداوة ، وإزالة الألفة ، وإيقاع الوحشة ، وموجبات النفرة " .والمعنى : وإذا طلقتم - أيها المؤمنون - نساءكم طلاقاً رجعياً ، ( فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنّ ) أي فشارفت عدتهن على الانتهاء ، وقاربت الانقضاء ، فعليكم أن

تتدبروا مليا في أمركم ، فإن رأيتم الأصلح في بقائهن معكم فنفذوا ذلك وأمسكوهن بمعروف .أي بما هو المعروف من شرع الله الحكيم ، وبما تقره الأخلاق الحسنة والعقول السليمة . وإن رأيتم أنه لا رغبة لكم في البقاء معهن فسرحوهن بمعروف أي فأمضوا الطلاق وتفارقوا بالطريقة التي يرضاها الحق - سبحانه - بأن تؤدوا لهن حقوقهن . ولا تذكروهن بسوء بعد انفصالكم عنهن ، فهذا شأن الأتقياء الصالحين فقد سئل بعضهم ، لم طلقت امرأتك؟ فقال : إن العاقل لا يذكر ما بينه وبين أهله .قال القرطبي : معنى ( بلغن ) قاربن بإجماع من العلماء ، ولأن المعنى يضطر إلى ذلك ، لأنه بعد بلوغ الأجل لا خيار له في الإمساك ، وهو في الآية التي بعدها بمعنى الانتهاء ، لأن المعنى يقتضي ذلك ، فهو حقيقة في الثانية ، مجاز في الأولى - أي التي معنا - " .ثم نهى - سبحانه - عن الإمساك الذي يكون معه الضرر فقال ) . وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِّتَعْتَدُواْ ) أي لا تراجعوهن إرادة الضرر بهن والإيذاء لهن لتعتدوا عليهن ، والجملة الكريمة تأكيد للأمر بالإمساك بمعروف ، وتوضيح لمعناه ، وزجر صريح عما كان يفعله بعضهم من مراجعته لامرأته قبل انتهاء عدتها لا لقصد الإبقاء على الزوجية وإنما القصد إطاعة عدة الزوجة ، أو لقصد أن تفتدي نفسها منه بالمال : ( ضِرَاراً ) : منصوب على الحال في تمسكوهن أو على أنه مفعول لأجله . واللام في قوله ( لِّتَعْتَدُواْ ) هي لام العاقبة أي لتكون عاقبة أمركم الاعتداء وحذف متعلق ) : لتعتدوا " ليتناول الاعتداء عليهن وعلى أحكام الله - تعالى - .وقوله " وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ) وعيد شديد لمن يقدم على ما نهى الله عنه . أي : ومن يراجع مطلقته بقصد الإضرار بها والاعتداء عليها فقد ظلم نفسه ظلماً مؤكداً ، لأنه سيعرضها لعقاب الله وسخط الناس .وجعل ظلمهم لنسائهم ظلماً لأنفسهم ، لأن عملهم هذا سيؤدي إلى اختلال المعاشرة الزوجية واضطرابها ، وشيوع العداوة والبغضاء بين الزوجين وبين أهلهما . ثم كرر - سبحانه - تحذير المخالفين لشريعته ، وذكرهم بألوان نعمه عليهم ليستجيبوا لأمره فقال : ( وَلاَ تتخذوا آيَاتِ الله هُزُواً واذكروا نِعْمَتَ الله عَلَيْكُمْ وَمَآ أنزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الكتاب والحكمة يَعِظُكُمْ بِهِ ) .أيات الله : أحكامه التي شرعها في شأن الطلاق وغيره والهزء - بضمتين - مصدر هزأ به إذا سخر ولعب وهو هنا مصدر بمعنى اسم. المفعول أي : مهزوءاً بها . وقوله ( هُزُواً ) مفعول ثان لتتخذوا .والمراد بالحكمة هنا . السنة النبوية المطهرة .والموعظة والعظة : النصح والتذكير بالخير . بما يرقق القلوب ، ويحذر النفوس مما نهى الله عنه .أي : ولا تتخذوا - أيها الناس - آيات الله التي شرعها لكم في شأن الطلاق وغيره مهزوءاً بها بأن تعرضوا عنها ، وتتهاونوا في المحافظة عليها ، والتمسك بتعاليمها ، ومن مظاهر ذلك أن بعض الناس كان يكثر من التلفظ بالطلاق متوهما أن ذلك لا يضر ، أو كان يتخذ المراجعة وسيلة لإيذاء المرأة .قال القرطبي : وفي موطأ مالك أنه بلغه أن رجلا قال ابن عباس : " إني طلقت امرأتي مائة مرة فماذا ترى على؟ فقال ابن عباس : طلقت منك بثلاث ، وسبع وتسعون اتخذت بها آيات الله هزوا " .والجملة الكريمة نهى أريد به الأمر بضده ، أي جدوا في العمل بأوامر الله وآياته ، وارعوها حق رعايتها .وقوله : ( واذكروا نِعْمَتَ الله عَلَيْكُمْ ) إلخ أي تذكروها في هدايتكم إلى الإسلام ، وفي مشروعية الزوجية وفي غير ذلك مما لا يحصى من النعم وتدبروا نعم الله عليكم فقابلوها بالشكر ، واستعملوها فيما خلقت له ، وتذكروا كذلك ما أنزل الله عليكم بواسطة رسولكم محمد صلى الله عليه وسلم من الكتاب وهو القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم ، ومن الحكمة وهي السنة النبوية المطهرة ، بما جاء فيهما من توجيهات سامية ، وآداب عالية .و " ما " في قوله : ( وَمَآ أنزَلَ عَلَيْكُمْ ) موصولة والعائد محذوف أي ما أنزله و " من " في قوله : ( مِّنَ الكتاب ) بيانية ، وجملة ( يَعِظُكُمْ بِهِ ) حال من فاعل أنزل أو من مفعوله ، والضمير في ( به ) يعود على الكتاب والحكمة بعد تأويلهما بالمذكور وجعل ضميرها واحداً لأنهما في مؤداهما وغايتهما شيء واحد ، فالسنة ليست . تابعة إلا من الكتاب ومنه أخذت قوتها وسلطانها .وقوله - سبحانه - : في ختام الآية ( واتقوا الله واعلموا أَنَّ الله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ) تذكير لهم بتقوى الله وخشيته ومراقبته ، وتحذير لهم من مخالفة أمره .أي : صونوا أنفسكم عن كل ما يغضب الله - تعالى - فيما يتعلق بأمور الزوجية وفي غيرها مما شرعه لكم ، واعلموا أنه - سبحانه - عليم بكل شيء ، عليم بما تسرونه وما تعلنونه ، وسيحاسب كل إنسان بما قدمت يداه ( يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً والأمر يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ )

واذا طلقتم النساء فبلغن اجلهن فلا تعضلوهن ان ينكحن ازواجهن اذا تراضوا بينهم بالمعروف ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الاخر ذلكم ازكى لكم واطهر والله يعلم وانتم لا تعلمون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما ينبغي اتباعه عند حصول الطلاق وإمضائه حتى لا يقع ظلم أو جور فقال - تعالى - : ( وَإِذَا طَلَّقْتُمُ

النسآء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنّ فَلاَ تَعْضُلُوهُنّ أَن يَنكِحْنَ
أَزْوَاجَهُنّ إِذَا تَرَاضَوْاْ بَيْنَهُمْ بالمعروف ) .قال القرطبي :
تعضلوهن معناه تحبسوهن ، ودجاجة معضل أي : قد احتبس بيضها ، وقيل : العضل
التضييق والمنع وهو راجع إلى معنى الحبس . يقال : أعضل الأمر : إذا ضاقت
عليك فيه الحيل . قال الأزهري : وأصل العضل من قولهم : عضلت الناقة إذا نشب
ولدها فلم يسهل خروجه ويقال أعضل الأمر إذا اشتد ، وداء عضال أي شديد عسر
البرء أعيا الأطباء . . . " .والمعنى : وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن أي :
انقضت عدتهن وخلت الموانع من زواجهن ، فلا تمنعوهن من الزواج بمن يردن
الزواج به ، متى حصل التراضي بين الأزواج والزوجات على ما يحسن في الدين ،
وتقره العقول السليمة ، ويجري به العرف الحسن .والمراد ببلوغ الأجل هنا
بلوغ أقصى العدة ، بخلاف البلوغ في الآية التي قبل هذه ، فإن المراد به
المشارفة والمقاربة كما أشرنا من قبل لأن المعنى يحتم ذلك ، والخطاب هنا
للأزواج وللأولياء ولكل من له تأثير على المرأة المطلقة ، وذلك لأن منع
الزوجة من الزواج بعد انقضاء عدتها قد يكون من جانب الزوج السابق ، لا سيما
إذا كان صاحب جاه وسلطان وسطوة ، فإنه يعز عليه أن يتزوج مطلقته أحد بعده
فيمنعها من الزواج .وقد يكون المنع من جانب الأولياء ، وقد أورد المفسرين
آثاراً تشهد لذلك منها - كما يقول الآلوسي - ما أخرجه البخاري والترمذي
والنسائي وابن ماجه وأبو داود من طرق شتى عن معقل بن يسار قال : كان لي أخت
، فأتاني ابن عم لي فأنكحتها إياه ، فكانت عنده ما كانت ثم طلقها تطليقه
ولم يراجعها حتى انقضت العدة ، فهويها وهوته ثم خطبها مع الخطاب . فقلت له
، أكرمتك بها وزوجتكما فطلقتها ثم جئت تخطبها ، والله لا ترجع إليك أبداً :
- وكان رجلا لا بأس به ، وكانت المرأة تريد أن ترجع إليه ، فعلم الله
تعالى - حاجته إليها وحاجتها إلى بعلها فأنزل هذه الآية . ففي نزلت فكفرت
عن يميني وأنكحتها إياه . . " .وعبر - سبحانه - عن الرجال الذين هم محل
الرضا من النساء بالأزواج فقال ( فَلاَ تَعْضُلُوهُنّ أَن يَنكِحْنَ
أَزْوَاجَهُنّ ) مع أن الزواج لم يتحقق بعد ، للإشارة إلى الحقيقة
المقررة الثابتة ، وهي أن من يقع اختيارها عليه ، ولم يكن اقترانها به فيه
ما يشينها أو يشين أسرتها ، فمن الواجب ألا يمانع أحد في إتمام هذا الزواج
بل على الجميع أن يقروه وينفذوه ، لأن شريعة الله والفطرة الإنسانية ،
يقضيان بذلك .وقوله : ( أَن يَنكِحْنَ ) تقديره : من أن ينكحن فهو في محل
جر عند الخليل والكسائي وفي محل نصب عند غيرهما ، وقوله : ( إِذَا
تَرَاضَوْاْ ) ظرف لأن ينكحن أو لقوله : ( فَلاَ تَعْضُلُوهُنّ ) وقوله :
متعلق بمحذوف وقع حالاً من فاعل تراضوا ، أو هو نعت لمصدر ( بالمعروف )
محذوف أي تراضياً كائناً بالمعروف أو هو متعلق بتراضوا . أي تراضوا بما
يحسن في الدين والمروءة ، وفيه إشعار بأن المنع من التزوج بغير كفء أو بما
دون مهر المثل ليس من العضل المنهي عنه .ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله
ذلك يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بالله واليوم الآخر ذلكم أزكى
لَكُمْ وَأَطْهَرُ والله يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ) .أي : ذلك
القول الحكين ، والتوجيه الكريم المشتمل على أفضل الأحكام وأسماها يوعظ به
ويستجيب له من كان منكم عميق الإيمان بالله - تعالى - وبثوابه وبعقابه ،
يوم القيامة . لذكلم الذي شرعه الله لكم - أيها المؤمنون - من ترك عضل
النساء والإضرار بهن وغير ذلك من الأحكام ( أزكى لَكُمْ وَأَطْهَرُ ) أي
أعظم بركة ونفعاً ، وأكثر تطهيراً من دنس الآثام ، فإن المرأة إذا عوملت
معاملة كريمة ، ولم تظلم في رغباتها المشروعة ، التمزمت في سلوكها العفاف
والخلق الشريف ، أما إذا شعرت بالظلم والامتهان فإن هذا الشعور قد يدفعها
، إلى ارتكاب ما نهى الله عنه .والله تعالى يعلم ما فيه مصلحتكم ومنفعتكم
وأنتم لا تعلمون ذلك ، فامتثلوا ما أمركم به واجتنبوا ما نهاكم عنه تفوزوا
وتسعدوا .والإشارة بقوله : ( ذلك ) إلى ما فصل من أحكام وما أمر به من
أفعال والخطاب لكل من يصلح للخطاب من المكلفين .وخصص الوعظ بالمؤمنين لأنهم
- هم الذين ينتفعون به ، وترق معه قلوبهم وتخشع له نفوسهم .وأتى - سبحانه
بضمير الجمع ( ذلكم ) بعد أن قال في صدر الجملة ( ذلك ) للإشارة إلى أن
حماية المرأة من الهوان ومنع التضييق عليها في اختيار زوجها واجب على جميع
المؤمنين ، وأن فائدة ذلك ستعود عليهم جميعاً ما دام هذا الاختيار في حدود
الآداب التي جاء بها الإسلام .وقوله : ( والله يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ
تَعْلَمُونَ ) رد على كل معترض على تطبيق شريعة الله ، أو متهاون في ذلك
بدعوى أنها ليست صالحة للظروف التي يعيش ذلك المعترض أو هذا المتهاون فيها
، لأن شرع الله فيه النفع الدائم والمصلحة الحقيقية ، والنتائج المرضية ،
لأنه شرع من يعلم كل شيء ولا يجهل شيئاً ، ويعلم ما هو الأنفع والأصلح
للناس في كل زمان ومكان ، ولم يشرع لهم - سبحانه - إلا ما فيه مصلحتهم
ومنفعتهم ، وما دام علم الله - تعالى - هو الكامل ، وعلم الإنسان علم قاصر
فعلينا أن نتبع شرع الله في كل شئوننا ، ولنقل لأولئك المعترضين أو ،
المتهاونين : سيروا معنا في طريق الحق فذلكم ( أزكى لَكُمْ وَأَطْهَرُ
والله يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ) .وبعد : فهذه خمس آيات قد
تحدثت عن جملة من الأحكام التي تتعلق بالطلاق ، وإذا كان الإسلام قد شرع

الطلاق عند الضرورة التي تحتمها مصلحة الزوجين ، فإنه في الوقت نفسه قد وضع ، كثيراً من التعاليم التي يؤدي اتباعها إلا الإبقاء على الحياة الزوجية وعلى قيامها على المودة والرحمة ، ومن ذلك :1 - أنه أرشد أتباعه إلى أفضل السبل لاختيار الزوج ، بأن جعل أساس الاختيار الدين والتقوى والخلق القويم لأنه متى كان كل من الزوجين متحلياً بالإيمان والتقوى ، استقرت الحياة ، الزوجية بينهما ، وقامت على المودة والرحمة وحسن المعاشرة .2 - أنه أمر كلا الزوجين بأن يبذل كل واحد منهما قصارى جهده في أداء حق صاحبه ، وإدخال السرور على نفسه ، فإذا ما نجم خلاف بينهما فعليهما أن يعالجاه بالحكمة والعدل ، وأن يجعلا الأناة والصبر رائدهما ، فإن الحياة الزوجية بحكم استمرارها وتشابك مطالبها لا تخلو من اختلاف بين الزوجين .3 - دعا الإسلام ، إلى الإصلاح ما بين الزوجين إن ابتدأت العلاقة تسير في غير طريق المودة فقال - تعالى - ( وَإِنِ امرأة خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً والصلح خَيْرٌ . . . ) كما دعا أولى الأمر أن يتدخلوا للإصلاح بين الزوجين عند نشوب الشقاق بينهما أو عند خوفه فقال - تعالى - ( وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فابعثوا حَكَماً مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلاَحاً يُوَفِّقِ الله بَيْنَهُمَآ إِنَّ الله كَانَ عَلِيماً خَبِيراً ) 4 - نهى الإسلام عن إيقاع الطلاق على الزوجة في حال حيضها ، أو في حال طهر باشرها فيه ، لأن المرأة في هاتين الحالتين قد تكون على هيئة لا تجعل الرجل مشوقاً إليها . . .وأباح له أن يوقع الطلاق في طهر لم يجامعها فيه ، لأن إيقاعه في هذه الحالة يكون دليلا على استحكم النفرة بينهما .5 - نهى الإسلام عن الطلاق البات بالنسبة للمرأة المدخول بها ، وأمر الزوج بأن يجعل طلاقه رجعياً ، وأعطاه فرصة طويلة تقرب من ثلاثة أشهر ليراجع خلالها نفسه ، فإن وجد الخير في مراجعة زوجته راجعها بقصد الإصلاح واستمرار الحياة الزوجية ، وإن وجد الخير في غير ذلك تركها حتى تنقضي عدتها وفارقها بالمعروف عملا بقوله - تعالى - : ( فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ) .6 - جعل الإسلام الطلاق بيد الرجل ، لأنه هو الذي وقعت عليه معظم أعباء الزواج ، وهو الذي سيتحمل ما سيترتب على الطلاق من تكاليف ، ولا شك أنه بمقتضى هذه التكاليف وبمقتضى حرصه على استقرار حياته ، سيتأنّى ويتروى فلا يوقع الطلاق إلا إذا كان مضطراً إلى ذلك .كما أن الإسلام أباح للمرأة أن تفتدي نفسها من زوجها ، أو ترفع أمرها للقاضي ليفرق بينها وبينه إذا تيقنت من استحالة استمرار الحالة الزوجية بينهما لأي سبب من الأسباب . وفي هذه الحالة فللقاضي أن يفرق بينهما إذا رأى أن المصلحة تقتضي ذلك .7 - أباح الإسلام للرجل الذي طلق امرأته ثلاثاً أن يعود إليها من جديد ، وذلك بعد طلاقها من رجل آخر يكون قد تزوجها زواجاً شرعياً وانقضت عدتها منه ، وفي ذلك ما فيه من التأديب لهما ، والتهذيب لسلوكهما .8 - وردت أحاديث متعددة تنهى عن إيقاع الطلاق إلا عند الضرورة وتتوعد المرأة التي تطلب من زوجها أن يطلقها بدون سبب معقول بالعذاب الشديد ، ومن ذلك ما رواه أبو داود والترمذي عن ثوبان أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم قال : " أيما امرأة سألت زوجها طلاقها من غير ما بأس أي من غير عذر شرعي أو سبب قوي - فحرام عليها رائحة الجنة " وروى أبو داود وغيره عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أبغض الحلال إلى الله الطلاق " .هذه بعض التشريعات التي وضعها الإسلام لصيانة الحياة الزوجية من التصدع والانهيار ، ومنها نرى أن الإسلام وإن كان قد شرع الطلاق ، إلا أنه لا يدعو إليه إلا إذا كانت مصلحة الزوجين أو أحدهما تقتضيه وتستلزمه .

والوالدات يرضعن اولادهن حولين كاملين لمن اراد ان يتم الرضاعة وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لا تكلف نفس الا وسعها لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده وعلى الوارث مثل ذلك فان ارادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما وان اردتم ان تسترضعوا اولادكم فلا جناح عليكم اذا سلمتم ما اتيتم بالمعروف واتقوا الله واعلموا ان الله بما تعملون بصير

كما فسرها الوسيط وبعد أن بين - سبحانه - حقوق الزوجيين في حالتي اجتماعهما واقترافهما ، أردف ذلك ببيان حقوق الأطفال الذين يكونون ثمرة لهذا الزواج . فقال تعالى :( والوالدات يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ المراد بالوالدات الأمهات سواء أكن في عصمة أزواجهن أم مطلقات لأن( . . . اللفظ عام في الكل ولا يوجد ما يقتضي تخصيصه بنوع من الأمهات . ويرى بعض المفسرين أن المراد بالوالدات هنا خصوص المطلقات لأن سياق الآيات قبل ذلك في أحكام الطلاق ، ولأن المطلقة عرضة لإهمال العناية بالولد وترك إرضاعه وحولين أي عامين . وأصل الحول - كما يقول الرغاب - تغير الشيء وانفصاله عن. غيره .والحول : السنة اعتباراً بانقلابها ودروان الشمس في مطالعها ومغاربها . قال - تعالى - : ( والوالدات يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ

حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ) ومنه حالت السنة تحول وحالت الدار تغيرت ، وأحال
فلان بمكان كذا أي أقام به حولا " .وعبر عن الأمهات بالوالدات ، للإشارة
، إلى أنهن اللائي ولدن أولادهن ، وأنهن الوعاء الذي خرجوا منه إلى الحياة
ومنهن يكون الغذاء الطبيعي المناسب لهذا المولود الذي جاء عن طريقهن .وقوله
جملة خبرية اللفظ إنشائية المعنى ، إذ ( يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ ) :
، التقدير ليرضعن . أي : عليهن إرضاع أولادهن .وعبر عن الطلب بصيغة الخبر
للإشعار بأن إرضاع الأم لطفلها عمل توجبه الفطرة ، وتنادي به طبيعة
الأمومة .قال الجمل : وهذا الأمر للندب وللوجوب ، فهو يكون للندب عند
استجماع شروط ثلاثة ، قدرة الأب على استئجار المرضع ، ووجود من يرضعه غير
الأم ، وقبول الولد للبن الغير . ويكون للوجوب عند فقد أحد هذه الشروط
: وليس التحديد بالحولين للوجوب ، لأنه يجوز الفطام قبل ذلك ، بدليل قوله.
وإنما المقصود بهذا التحديث قطع ( لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرضاعة )
التنازع بين الزوجين إذا تنازعا في مدة الرضاع ، فإذا اتفق الأب والأم على
أن يفطما ولدهما قبل تمام الحولين كان لهما ذلك إذا لم يتضرر الولد بهذا
الفطام ، وإن أراد الأب أن يفطمه قبل الحولين ولم ترض الأم أو العكس لم يكن
لأحدهما ذلك .قال القرطبي ما ملخصه : وقد انتزع مالك - رحمه الله - ومن
تابه وجماعة من العلماء من هذه الآية أن الرضاعة المحرمة الجارية مجرى
النسب إنما هي ما كان في الحولين ، لأنه بانقضاء الحولين تمت الرضاعة ، ولا
رضاعة بعد الحولين معتبرة . . لقوله - تعالى - : ( والوالدات يُرْضِعْنَ
أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ) فهذا يدل على ألا حكم لما ارتضع
المولود بعد الحولين . وروى سفيان عن عمرو بن دينار عن ابن عباس قال : قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم "لا رضاع إلا ما كان في الحولين " وهذا
الخبر مع الآية ينفي رضاعة الكبير وأنه لا حرمة له . وقد روى عن عائشة
القول به ، وروى عن ابن أبي موسى الأشعري أنه كان يرى رضاع كبير . وروى عنه
الرجوع عنه . وسيأتي تحقيق هذه المسألة في سورة النساء .وفي وصف الحولين
بكاملين : تأكيد لرفع توهم أن يكون المراد حولا وبعض الثاني ، لأن إطلاق
التثنية والجمع في الأزمان والأسنان على بعض المدلول إطلاق شائع عند العرب
فيقولون : هو ابن سنتين ، ويريدون سنة وبعض الثانية .وفي هذه الجملة.
الكريمة ( والوالدات يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ )
بيان لمظهر من مظاهر رعاية الله - تعالى - للإنسان منذ ولادته ، بل منذ
تكوينه في بطن أمه جنيناً ، فقد أمر لطفلها في هذه الفترة ، وأسلم وسيلة
لضمان صحته ونموه ، ولصيانته من الأمراض النفسية والعقلية ، فقد أثبت
الأطباء الثقاة أن الطفل كثيراً ما يصاب بأمراض جسمية ونفسية وعقلية نتيجة
رضاعته من غير أمه ، كما أثبتوا أن عناية الأم بطفلها في هذه الفترة عن
طريق إرضاعه ورعايته ، تؤدي إلى تحسن أحواله . . .وقوله : ( لِمَنْ أَرَادَ
أَن يُتِمَّ الرضاعة ) بيان لمن توجه إليه الحكم . أي هذا الحكم لمن أراد
إتمام الرضاع ، فإذا أراد الأبوان أن ينقصا مدة الرضاع عن الحولين كان لهما
ذلك . فالجملة الكريمة خبر لمبتدأ محذوف أي هذا الحكم لمن أراد أن يتم مدة
الرضاعة .وقوله : ( وَعلَى المولود لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ
بالمعروف ) بيان لما يجب على الآباء .أي : وعلى الآباء أن يقدموا إلى
الوالدات ما يلزمهنم من نفقة وكسوة بالمعروف أي بالطريقة التي تعارف عليها
العقلاء بدون إسراف أو تقتير .قال صاحب الكشاف : فإن قلت لم قيل ( المولود
لَهُ ) دون الوالد؟ قلت : ليلعم أن الوالدات إنما ولدن لهم ، لأن الأولاد
للآباء ، ولذلك ينسبون إليهم لا إلى الأمهات ، كما قال المأمون بن الرشيد
فإنما أمهات الناس أوعية ... مستودعات وللآباء أبناءفكان عليهم أن يرزقوهن:
ويكسوهن إذا أرضعن ولدهم كالأظار ألا ترى أنه ذكره باسم الوالد حيث لم يكن
هذا المعنى وهو قوله - تعالى - : ( ياأيها الناس اتقوا رَبّكُمْ واخشوا
يَوْماً لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن
وَالِدِهِ شَيْئاً . . . ) وقوله : ( لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ
وُسْعَهَا ) تعليل لإيجاب المؤن بالمعروف . أو تفسير للمعروف ولهذا فصلت
هذه الجملة عن سابقتها ، وقوله ( وُسْعَهَا ) منصوب على أنه مفعول ثان
لتكلف ، والاستثناء قبله مفرغ أي أن الولد لا يكلف في الإنفاق عليه وعلى
أمه إلا بالقدر الذي تتسع له مقدرته بدون إرهاق أو مشقة .وتلك هي سنة
الإسلام في جميع تكاليفه ، فالله - تعالى - ما كلف عباده إلا بما
يستطيعونه ويطيقونه بدون عسر أو عنت قال - تعالى - : ( لاَ تُكَلَّفُ
نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا ) وقال - تعالى - : ( يُرِيدُ الله بِكُمُ اليسر
وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ العسر ) وقوله : ( لاَ تُضَآرَّ وَالِدَةٌ
بِوَلَدِهَا وَلاَ مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ ) تعليل للأحكام السابقة
الموزعة بين الأب والأم ، والتي أساسها رعاية حق هذا الوليد الذي أتى عن
طريقهما .والمضارة مفاعلة من الضرر ، والمعنى : لا ينبغي أن يقع ضرر على
الأم بسبب ولدها ، بأن يستغل الأب حنوها على ولدها فيمنعها شيئاً من
نفقتها ، أو يأخذ منها طفلها وهي تريد إرضاعه ، أو يكلفها بما ليس في
مقدروها أو ما يخالف وظيفتها ، ولا ينبغي كذلك أن يقع ضرر على الأب بسبب
ولده ، بأن تكلفه الأم بما لا تتسع له قدرته مستغلة محبته لولده وعنايته

بتنشئته تنشئة حسنة .قال الجمل : ( لاَ ) في قوله : ( لاَ تُضَآرّ ) يحتمل أن تكون نافية فيكون الفعل مرفوعاً ، ويحتمل أن تكون ناهية فيكون الفعل مجزوماً ، وقد قرئبهما في السبع ، وعلى كل يحتمل أن يكون الفعل مبنياً للفاعل وللمفعول " .والمعنى على الاحتمالين واحد وهو أنه لا يجوز أن يضر كل واحد منهما صاحبه أو يُضر من صاحبه بسبب حنوه على ولده واهتمامه بشأنه وأضاف الولد إلى كل منهما في الموضعين للاستعطاف ، وللتنبيه على أن هذا الولد الذي رزقهما الله إياه جدير بأن يتفقا على رعايته وحمايته من كل ما يؤذيه ، ولا يجوز مطلقاً أن يكون مصدر قلق لأي واحد منهما .وقدمت الأم في الجملة الكريمة ، لأن الشأن فيها أن يكون حنوها أشد ، وعاطفتها أرق ، ولأن مظنة إنزال العنف والأذى بها أقرب لضعفها عن الأب .فالجملة الكريمة توجبه سديد ، وإرشاد حكيم ، للآباء والأمهات إلى أن يقوم كل فريق منهم بواجبه نحو صاحبه ونحو الأولاد الذين هم ثمار لهم .وقوله : ( وَعَلَى الوارث مِثْلُ ذلك ) معطوف على قوله ( وَعلى المولود لَهُ رِزْقُهُنّ ) الخ .وما بينهما تعليل أو تفسير معترض .أي : وعلى وارث الأب أو وارث الصبي - أي من سيرثه بعد موته - عليه مثل ما على الأب من النفقة وترك الإضرار . فهذه الجملة الكريمة سيقت لبيان من تجب عليه نفقة الصبي إذا فقد أباه ، أو كان أبوه موجوداً ولكنه عاجز عن الإنفاق عليه .قال الآلوسي ما ملخصه : والمراد بالوارث وارث الولد فإنه يجب عليه مثل ما وجب على الأب من الرزق والكسوة بالمعروف إن لم يكن للولد مال . وهو التفسير المأثور عن عمر وابن عباس وقتادة . . وخلق كثير . وخص الإمام أبو حنيفة هذا الوارث بمن كان ذا رحم محرم من الصبي . . . وقال الشافعي وقال الشافعي المراد وارث الأب - يجب عليه عند موت الأب كل ما كان واجباً على الأب - وقيل المراد بالوارث الباقي من الأبوين ، وقد جاء الوارث بمعنى الباقي كما في قوله صلى الله عليه وسلم اللهم متعني بسمعي وبصري واجعلهما الوارث مني " وعلى أية حال فالجملة " ، الكريمة تغرس معاني الإخاء والتراحم والتكافل بين أبناء الأسرة الواحدة ، فالقادر ينفق على العاجز ، والغنى يمد الفقير بحاجته ، وبذلك تسعد الأسرة وتسودها روح المحبة والمودة .وقوله : ( فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ) معطوف على قوله ( يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ) لأنه متفرع عنه : والضمير في قوله ( فَإِنْ أَرَادَا ) يعود على الوالدين .قال القرطبي. والفصال والفصل . الفطام وأصله التفريق ، فهو تفريق بين الصبي والثدي .ومنه - سمي الفصيل - لولد الضأن - لأنه مفصول عن أمه . والتشاور : استخراج الرأي بما فيه المصلحة - وكذلك المشاورة . من الشور وهو اجتناء العسل . يقال شرت . العسل - إذا استخرجته من مواضعه - والشوار : متاع البيت لأنه يظهر للناظر والشارة هيئة الرجل . والإشارة : إخراج ما في نفسك وإظهاره .والمعنى : فإن أراد الأبوان فطاماً لولدهما قبل الحولين ، وكان هذه الإرادة عن تراض منهما وتشاور في شأن الصبي وتفحص لأحواله ، ورأيا أن هذا الفطام قبل بلوغه الحولين لن يضره فلا إثم عليهما في ذلك .وقال بعضهم : وأيضاً لا إثم عليهما إذا فطماه بعد الحولين متى رأيا المصلحة في ذلك ، وقد قيد - سبحانه - هذا الفطام للصبي بكونه عن تراض من الأبوين وتشاور منهما ، رعاية لمصلحة هذا الصبي ، لأن رضا أحدهما فقد قد يضره ، بأن تمل الأم الإرضاع أو يبخل الأب بالإنفاق . ولأن إقدام أحدهما على الفطام بدون التشاور مع صاحبه قد يؤثر في صحة الصبي تأثيرا سيئاً .لذا أوجب - سبحانه - التراضي والتشاور فيما بينهما من أجل مصلحة صبيهما .ثم قال - تعالى - : ( وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تسترضعوا أَوْلاَدَكُمْ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ آتَيْتُم بالمعروف ) .أي : وإن أردتم - أيها الآباء - أن تسترضعوا مراضع لأولادكم ، ورضى الأمهات بذلك ، فلا إثم عليكم فيما تفعلون ما دمتم تقصدون مصلحة أولادكم ، وعليكم أن تسلموا هؤلاء المراضع أجرهن بالطريقة التي يقرها الشرع ، وتستحسنها العقول السليمة ، والأخلاق القويمة .واسترضع - كما يقول الزمخشري - منقول من أرضع . يقال : أرضعت المرأة الصبي ، واسترضعتها الصبي فهي متعدية إلى معفولين ، والمعنى : أن تسترضعوا المراضع أولادكم . فحذف أحد المفعولين للاستغناء عنه .وقوله ( مَّآ آتَيْتُم ) حذف مفعولاه أي آتيتموهن إياه . ( بالمعروف ) متعلق بسلمتم أي بالقول الجميل ، وبالوجه المتعارف المستحسن شرعاً . ويجوز أن يتعلق بآتيتم . وأن يكون حالا من فاعل - سلمتم أو آتيتم والعامل فيه محذوف أي متلبسين بالمعروف .ثم ختم - سبحانه الآية بقوله : ( واتقوا الله واعلموا أَنّ الله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ أي : اتقوا الله في كل شئونكم والتزموا ما بينه لكم من أحكام ، واعلموا. ( أن الله - تعالى -لا تخفى عليه أعمالكم ، فهو محصيها عليكم ، وسيجزي المسحن إحساناً والمسيء سوءاً .

والذين يتوفون منكم ويذرون ازواجا يتربصن بانفسهن اربعة اشهر وعشرا فاذا بلغن اجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن في انفسهن بالمعروف والله بما تعملون خبير

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - عدة المرأة إذا توفي عنها زوجها ، وما
يجب عليها من آداب فقال - تعالى - :( والذين يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ
وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً . . . )قوله : ( يُتَوَفَّوْنَ ) - بالبناء
للمجهول - أي تقبض أرواحهم فإن التوفي هو القبض . يقال : توفيت مالي من
فلان واستوفيته منه أي قبضته وأخذته . قال - تعالى - : اللَّهُ يَتَوَفَّى
الأنفس حِينَ مِوْتِهَا ) أي يقبض الأنفس ويأخذها إليه بالموت حين انتهاء
آجالها .والمعنى : والذين يتوفاهم الله - تعالى - منكم - أيها المسلمون -
ويتركون من خلفهم أزواجاً . فعلى هؤلاء الأزواج اللائي ارتبطن برجالهم
ارتباطاً قوياً متيناً ثم فرق الموت بينهم وبينهن ، عليهن أن ) يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً ) أي : عليهن
أن ينتظرن انقضاء عدتهن فيحبسن أنفسهن عن الزواج وعن التزين وعن التعرض
للخطاب مدة أربعة أشهر وعشر ليلا ، وفاء لحق الزوج المتوفي ، واستبراء
للرحم .قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : هذا أمر من الله - تعالى - للنساء
اللاتي يتوفى عنهن أزواجهن أن يعتددن أربعة أشهر وعشر ليال . وهذا الحكم
يشمل الزوجات المدخول بهن وغير المدخول بالإجماع ، ومستند هذا الإجماع في
غير المدخول بها عموم الآية الكريمة ، وهذا الحديث الذي رواه الإمام أحمد
وأهل السنن وصححه الترمذي أن ابن مسعود سئل عن رجل تزوج امرأة فمات عنها
ولم يدخل بها ولم يفرض لها فقال : أقول فيها برأيي فإن يك صواباً فمن الله
وإن يك خطأ فمني ومن الشيطان . والله - تعالى - ورسوله بريئان منه : لها ،
الصداق كاملا .وفي لفظ : لها صداق مثلها لا وكس ولا شطط وعليها العدة ولها
الميراث . فقام معقل بن يسار فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى
به في بَرَوعَ بنت واشق . ففرح عبد الله بذلك فرحاً شديداً .لا ويخرج من
ذلك إلا المتوفي عنها زوجها وهي حامل فإن عدتها بوضع الحمل لعموم قوله -
تعالى - : ( وَأُوْلاَتُ الأحمال أَجَلُهُنَّ أن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ )
وكان ابن عباس يرى أن عليها أن تتربص بأبعد الأجلين من الوضع أو أربعة أشهر
) . وعشرة أيام للجمع بين الآيتين .وقوله : ( والذين ) اسم موصول مبتدأ
يُتَوَفَّوْنَ ) صلته ، و ( مِنكُمْ ) في موضع النصب على الحال من الواو في
و ( يَتَرَبَّصْنَ ) وما بعده خبر عن الذين والرابط ( يُتَوَفَّوْنَ )
) : محذوف والتقدير : يتربص بعدهم أربعة أشهر وعشرا .والتعبير بقوله
يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ) تعبير دقيق حكيم أي : عليهن أن يمنعن
أنفسهن عن النكاح وعن التزين وعن الخروج من منزل الزوجية - إلا إذا كانت
هناك ضرورة لهذا الخروج - مدة أربعة أشهر وعشرة أيام ، وذلك لأن المرأة
المؤمنة الوفية يأبى عليها دينها ووفاؤها لزوجها المتوفي عنها ، أن تعرض
نفسها على غيره بعد فترة قصيرة من وفاته ، فإن هذا أمر مستهجن في شرع الله
وفي عرف العقلاء من الناس . إذ هذه المدة التي جاءت في الآية التي حددها
الله - تعالى - لمعرفة براءة الرحم من الحمل ، وهي التي تخف فيها مرارة
الفراق بين زوجين ربط الله بينهما برابطة المودة والرحمة .ولقد ألغي
الإسلام بهذا التشريع عادات جاهلية ظالمة للمرأة فقد كانت المرأة في
الجاهلية إذا توفي عنها زوجها تغلق على نفسها مكاناً ضيقاً في بيتها وتقضى
فيه عاماً كاملاً على زوجها فأبطل الإسلام ذلك ، ومن الأحاديث التي وردت
في هذا المعنى ما ثبت في الصحيحين عن أم حبيبة وزينب بنت جحش - رضي الله
عنهما - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا يحل لامرأة تؤمن بالله
واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً "
والإحداد هو ترك الزينة ، وعدم التعرض للخطاب ، وعدم الخروج من منزل.
الزوجية إلا لضرورة . وفي الصحيحين أيضاً عن أم سلمة " أن امرأة قالت يا
رسول الله إن إبنتي توفي عنها زوجها وقد اشتكت عينها أفتكتحل؟ فقال :لا -
مرتين أو ثلاثاً - ثم قال : إنما هي أربعة أشهر وعشر وقد كانت أحداكن في
الجاهلية تمكث سنة " .قال ابن كثير بعد أن ساق هذين الحديثين: قالت زينب
بنت أم سلمة : كانت المرأة إذا توفي عنها زوجها دخلت حفشاً - أي مكانا
ضيقاً من البيت ولبست شر ثيابها ولم تمس طيباً ولا شيئاً حتى تمر سنة "
وقال بعض العلماء : وقد حد الشارع للمتوفي عنها زوجها عدة هي في جملتها.
أكثر من عدة المطلقات ، لأن تلك ثلاثة قروء تجئ عادة في نحو ثلاثة أشهر .
وهنا يرد سؤالان :أولهما : لماذا كانت العدة في المتوفي عنها زوجها بالأشهر
دون الحيض فلم تجعل أربع حيضات بدل ثلاث؟ ولماذا كانت الزيادة؟ ولم نجد
أحداً تصدى لبيان الحكمة في جعلها بالأشهر ، ويبدو لنا أن الحكمة التي
تدركها عقولنا - وإن كانت الحكمة السامية قد تعلو على مداركنا - : هي أن
عدة الوفاة تكون للمدخول بها وغير المدخول بها وللصغيرة والكبيرة ، والأساس
فيها هو الحداد على الزواج السابق الذي انتهى بوفاة أحد ركنيه ، فلزم أن
يكون بأمر يشترك فيه الجميع ما دام السبب واحداً في الجميع . وفوق ذلك أن
العدة في الوفاة لو قدرت بالحيض وهو أمر لا يعلم إلا من جهة المرأة ، فربما
تدفعها الرغبة في الزواج إلى الكذب فتدعيه وهو لم يقع ، وفي المطلقات العدة
حق للمطلق فيستطيع أن ينكر عليها أما في حال الوفاة فصاحب الحق الأول قد
مات وصار الحق لله خالصاً . فحد ذلك الحق بالأشهر والأيام حتى لا يكون
مساغا للكذب وإدعاء ما لم يحصل ، لأن الأيام والأشهر تعرف بالكتاب والحساب

وليست أمراً يعرف من جهتها فقط .أما الجواب عن الأمر الثاني وهو لماذا كانت
العدة بالوفاة أكثر في الجملة من العدة الناشئة عن الطلاق؟ فيبدو بادي
الرأي من الفرق بين حال الطلاق وحال الوفاة أن الطلاق نتيجة شقاق . فالحداد
على الزوج الذي ينشئه ليس قوياً ، ومعنى براءة الرحم وإعطاء الزوج فرصة
للرجعة يكون أوضح في معنى العدة ، ويكفى لذلك نحو ثلاثة أشهر . أما حال
الموت فمرارة الفراق وغير المدخول بها ، وإن الشارع قد جعلها لذلك أطول من
عدة الطلاق .وقد يرد سؤال ثالث وهو : لماذا حددت العدة بأربعة أشهر وعشر؟
وإن تقدير سؤال ثالث وهو : لماذا حددت العدة بأربعةأشهر وعشر؟ وإن تقدير
الأعداد كما يقرر الفقهاء أمر توقيفي خالص لا يجري فيه القياس ولكن ليس
: معنى ذلك أنه لا حكمة فيه ، وأن الحكمة يقررها العلماء في أمرين :أولهما
أن ألأشهر الأربعة هي التي يظهر فيها الحمل ويستبين ، وقد جعلت العشر بعدها
للاحتياط .وثانيهما : أن مدة أربعة الأشهر هي المدة التي قررها الشارع أقصى
مدة للحرمان من الرجال . ولذلك جعل الإيلاء مجته أربعة أشهر . فكان من
التنسيق بين الأحكام الشرعية أن تجعل مدة الإحداد على الزواج في حدود هذه
المدة ومقاربة لها في الجملة " .وقوله : ( فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ
( فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ في أَنْفُسِهِنَّ بالمعروف
بيان لما يترتب على انتهاء المدة التي حددها الشرع للمرأة التي مات عنها
زوجها . أي : فإذا انتهت المدة التي حددها الشرع للمرأة التي مات عنها
زوجها لتتجنب فيها التزين والتعرض للنكاح . فلا حرج عليكم بعد ذلك أيها
المسلمون أو أيها الأولياء - في ترك هؤلاء الزوجات الأرامل يفعلن في أنفسهن
ما تفعله المرأة الراغبة في الزواج من التزين والتجمل ولكن بالطريقة التي
) : يقرها الشرع ، وترضاها العقول السليمة ، والأخلاق المستقيمة .وقوله
بالمعروف ) متعلق بفعلن ، أو حال من النون أي حالة كونهن متلبسات بالمعروف
ومفهومه أنهن لو خرجن عن المعروف شرعاً بأن تبرجن وأظهرن ما أمر الله.
- بستره فإنه في هذه الحالة يجب على أوليائهن أن يمنعوهن من ذلك .ثم ختم
سبحانه - الآية بقوله : ( والله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ) أي أنه محيط
بدقائق أعمالكم لا يخفى عليه منها شيء فإذا وقفتم أنتم ونساؤكم عند حدوده
أسعدكم في الدنيا وأجزل مثوبتكم في الآخرة . وإن تجاورتم حدوده عاقبكم بما
تستحقون ( يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ . إِلاَّ مَنْ أَتَى
الله بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ) وبذلك نرى الآية الكريمة قد رسمت للناس أفضل وسائل
الحياة الشريفة ، فأرشدت المرأة التي مات عنها زوجها إلى ما يحفظ لها
كرامتها ، ويدفع عنها ما يتنافى مع العفة والشرف والوفاء .

ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء او اكننتم في انفسكم علم الله
انكم ستذكرونهن ولكن لا تواعدوهن سرا الا ان تقولوا قولا معروفا ولا تعزموا
عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب اجله واعلموا ان الله يعلم ما في انفسكم
فاحذروه واعلموا ان الله غفور حليم

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - حكم الخطبة للنساء المعتدات بياناً
يقوم على أدب النفس ، وأدب الاجتماع ، ورعاية المشاعر والعواطف مع رعاية
المصالح والضرورات فقال - تعالى - :( وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا
عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ . . . )قوله - تعالى - : ( فِيمَا
عَرَّضْتُمْ بِهِ ) أي : لو حتم وأشرتم به . من التعريض الذي هو ضد التصريح
ومعناه أن يضمن كلامه ما يصلح للدلالة على مقصوده ، ويصلح لدلالة على غير
مقصوده ، إلا أن إشعاره بجانب المقصود أتم وأرجح وأصله من عرض الشيء - بضم
العين - أي جانبه ومن أمثلته أن يقول الفقير المحتاج للمحتاج إليه : جئتك
لأسلم عليك . . وهو يقصد عطاءه .و ( خِطْبَةِ النسآء ) مخاطبة المرأة أو
أوليائها في أمر زواجها . والخطبة - بكسر الخاء كالجلسة - مأخوذة من الخطب
أي الشأن لأنها شأن من الشئون وقيل من الخطاب لأنها نوع - مخاطبة تجري بين
جانب الرجل وجانب المرأة . والمراد خطبة النساء اللائي فارقهن أزواجهن . و
أخفيتم وأسررتم من الإكنان وهوالإضمار ( أَكْنَنتُمْ في أَنْفُسِكُمْ )
من غير إعلان .والمعنى : ولا حرج ولا إثم عليكم أيها الرجال المبتغون
للزواج في التعريض بخطبة المرأة أثناء عداتها لتتزوجوهن بعد انقضائها ، كما
أنه لا إثم عليكم كذلك في الرغبة في الزواج بهن ، مع إخفاء ذلك وستره من
غير كشف وإعلان لأن التصريح بالخطبة أثناء العدة عمل يتنافى مع آداب
، الإسلام ، ومع تعاليم شريعته ، ومع الأخلاق الكريمة ، والعقول السليمة
والنفوس الشريفة .قال القرطبي : قال ابن عطية : أجمعت الأمة على أن الكلام
مع المعتدة بما هو نص في تزوجها وتنبيه عليه لا يجوز ، وكذلك أجمعت على أن
الكلام معه بما هو رفث وذكر جماع أو تحريض عليه لا يجوز وكذلك ما أشبهه
وجوز ما عدا ذلك . ولا يجوز التعريض لخطبة المطلقة طلاقاً رجعياً إجماعاً
لأنها كالزوجة . وأما من كانت في عدة البينونة فالصحيح جواز التعريض
لخطبتها " .والتعريض في خطبة النساء أساليبه مختلفة ، ومما ذكره العلماء في
: هذا الشأن أن يقول الرجل للمرأة : أني أرغب في الزواج أو أن يقول لوليها
لا تسبقني بها إلى غيري .ومن أساليب التعريض ما فعله النبي - صلى الله عليه

وسلم - مع السيدة أم سلمة ، فقد جخل عليها وهي متأيمة من زوجها أبي سلمة
فقال لها : " لقد علمت أني رسول الله وخيرته وموضعي في قومي " فكان كلامه
خطبة لها بأسلوب التعريض .ومنها ما ذكره صاحب الكشاف عن عبد الله بن سليمان
عن خالته - سكينة بنت حنظلة - قالت : " دخل على أبو جعفر محمد بن علي وأنا
- في عدتي فقال : قد علمت قرابتي من رسول الله - صلى الله عليه وسلم
. وقرابتي من جدي علي بن أبي طالب ، وموضعي في العرب ، وقدمي في الإسلام
قالت : فقلت : غفر الله لك يا أبا جعفر! أتخطبني في عدتي وأنت يؤخذ عنك؟
فقال : أو قد فعلت إنما أخبرتك بقرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم
وموضعي .وقوله - تعالى - : ( وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ
إلخ معطوف على ما قبله في الآية السابقة لأن الكلام في الآيتين في (
الأحكام المتعلقة بعدة النساء .و ( ما ) في قوله : ( فِيمَا عَرَّضْتُمْ )
موصولة . و ( مِنْ خِطْبَةِ النسآء ) بيان لما ، و ( آل ) في النساء للعهد
والمعهودات هن الزوجات اللائي سبق الحديث عنهن في الآيات التي قبل هذه . و
في قوله : ( أَوْ أَكْنَنتُمْ ) للإباحة أو التخيير ، ومفعول أكن ( أَوْ )
: محذوف يعود إلى ما الموصولة في قوله : ( فِيمَا عَرَّضْتُمْ ) والتقدير
) : - أو أكننتموه . ( في أَنْفُسِكُمْ ) متعلق بأكننتم .وقوله - تعالى
عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ ولكن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ
سِرّاً إِلاَّ أَن تَقُولُواْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً ) كالتعليل لما قبله وهو
قوله : ( وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ ) إلخ . ونهى عما
يردى ويفسد ، وإباحة لما لا ضرر فيه .أي : علم الله أنكم يا معشر الرجال
ستذكرون هؤلاء النسوة المعتدات بمالهن من جمال ومن حسن عشرة ومن غير ذلك من
شئونهن وأن تفكروا فيهن وتهفوا إليهن نفوسكم ، والله - تعالى - فضلا منه
وكرماً قد أباح لكم أن تذكروهن ولكنه ينهاكم عن أن تواعدوهن وعداً سرياً
بأن تقولوا لهم في السر ما تستحيون من قوله في العلن لقبحه ومنافاته للشرع
وقوله : ( إِلاَّ أَن تَقُولُواْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً ) استثناء مما يدل.
عليه النهي لا تواعدوهن مواعدة ما إلا مواعدة معروفة غير منكرة شرعاً ، وهي
ما تكون بطريق التلويح والتعريض .وفي قوله سبحانه : ( عَلِمَ اللهُ
أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ ) بيان لما جبلت عليه النفس البشرية من ميل
فطري بين الرجال والنساء ، والإسلام لا ينكر هذا الميل وإنما يهذبه ويقومه
ويصقله بآدابه الحميدة ، وتعاليمه السامية .وقوله : ( ولكن لاَّ
تُوَاعِدُوهُنَّ سِرّاً ) استدراك على محذوف دل عليه ( سَتَذْكُرُونَهُنَّ
أي : فاذكروهن ( ولكن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرّاً ) .قال القرطبي ما (
ملخصه : واختلف العلماء في المراد بالسر في قوله - تعالى - : ( ولكن لاَّ
تُوَاعِدُوهُنَّ سِرّاً ) فقيل معناه نكاحاً ، أي لا يقل الرجل لهذه
المعتدة تزوجيني بل يعرض إن أراد ، ولا يأخذ ميثاقها وعهدها ألا تنكح غيره
في استسرار وخفية . هذا قول جمهور أهل العلم ، و " سراً " على هذا التأويل
نصب على الحال أي مسرين - وسمي النكاح سراً لأن مسببه الذي هو الوطء ما
يسر - وقيل السر الزنا ، أي لا يكونن من كم مواعدة على الزنا في العدة ثم
التزوج بعدها . أي لا تواعدوهن زنا . واختاره الطبري . ومنه قول الأعشى
فلا تقربن جارة إن سرها ... عليك حرام فانكحن أو تأبدا أي : " فتزوجها أو:
ابتعد عنها . وقيل السر الجماع "والذي تطمئن إليه النفس أن كلمة ( سرا )
صفة لموصوف محذوف أي لا تواعدهن وعدا سرية ، يقال فيها كل ما ينهى عنه أو
يستحيا منه في العلن ، لقبه أو لأن أوانه لم يحن بعد ، إذ السرية ، أو
الخلوة بين الرجل والمرأة لا تؤمن مزالقها .وفي الحديث الشريف أن رسول الله
" صلى الله عليه وسلم قال :"لا يخلون رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما
وأن المراد بقوله : ( إِلاَّ أَن تَقُولُواْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً ) هو
التعريض بالخطبة ، وإظهار المودة بطريقة لا تفضى إلى محرم .قال صاحب الكشاف
في قوله : ( إِلاَّ أَن تَقُولُواْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً ) وهو أن تعرّضوا
ولا تصرحوا .فإن قلت بم يتعلق حرف الاستثناء؟ قلت : بلا تواعدوهن . أي لا
تواعدوهن مواعدة قط إلا مواعدة معروفة غير منكرة : أي لا تواعدوهن إلا
بالتعريض .ثم قال - تعالى - : ( وَلاَ تعزموا عُقْدَةَ النكاح حتى يَبْلُغَ
الكتاب أَجَلَهُ ) .العزم : القطع والتصميم ، يقال عزم على الشيء إذا صمم
وعقد القلب على فعله ، وهو يتعدى بعلى وبنفسه فيقال : عزم اليء وعزم عليه
وعقدة النكاح : الارتباط الموثق به . وأصل العقد الشد ، والعهود والأنكحة.
تسمى عقودا لأنها تقعد وتوثق كما يوثق بالحبل .والمراد بالكتاب هنا الأمر
المكتوب المفروض وهو العدة التي حدد الله لها وقتاً معيناً .والأجل : هو
نهاية المدة التي قررها الشرع للعدة .والمعنى :لا يسوغ لكم يا معشر الرجال
الراغبين في الزواج من النساء اللائي فارقهن أزواجهن أن تعقدوا العزم
نهائياً في أثناء العدة على أن تتموا الزواج بعدها ، بأن تحول الخطبة من
التعريض إلى التصريح ، أو تبتوا في أمر الزواج بتاً قاطعاً بمواعدة أو
نحوها ، إذ العاقل لا يستعجل أمرا قبل حلول وقته ، وإنما الذي يسوغ لكلم أن
تتموا عقد الزواج بعد انتهاء العدة وبعد أن يكون جو الأحزان قد فتر وجفت
حدته .والنهي عن العزم على عقد النكاح نهي بالأولى عن إبرامه وتنفيذه ، لأن
العزم على الفعل يتقدمه ، فإذا نهى عنه كان الفعل أنهى ، فهو كالنهي عن

الاقتراب من حدود الله في قوله : ( حُدُودُ الله فَلاَ تَقْرَبُوهَا )
وبذلك نرى أن الآية الكريمة قد أباحت شيئين ، ونهت عن شيئين : أباحت
التعريض بالخطبة للمرأة أثناء عدتها ، كما أباحت إخفاء هذه الرغبة في
الأنفس وحديثها بها . ويشهد لذلك قوله - تعالى - : ( وَلاَ جُنَاحَ
عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النسآء أَوْ أَكْنَنتُمْ
في أَنْفُسِكُمْ ) ونهت عن المواعدة سراً إلا أن يقولوا قولا معروفاً عن
طريق التعريض ، أو أن يسار الرجل المرأة بالقول المعروف الذي أباحه الشرع
وارتضته العقول السليمة ، والأخلاق الفاضلة ، بأن يعدها في السر بالإحسان
إليها والاهتمام بشأنها والتكفل بمصالحها حتى يصير ذكر هذه الأشياء الجميلة
مؤكداً لذلك التعريض . أما الشيء الثاني الذي نهت عنه فهو العزم على عقدة
النكاح قبل انقضاء العدة . ويشهد لهذا قوله - تعالى - : ( عَلِمَ الله
أَنّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنّ ولكن لاّ تُوَاعِدُوهُنّ سِرّاً إِلاّ أَن
تَقُولُواْ قَوْلاً مّعْرُوفاً وَلاَ تعزموا عُقْدَةَ النكاح حتى يَبْلُغَ
الكتاب أَجَلَهُ ) .وبعد هذه الأوامر والنواهي ختم الله - تعالى - الآية
بقوله : ( واعلموا أَنّ الله يَعْلَمُ مَا في أَنْفُسِكُمْ فاحذروه
- واعلموا أَنّ الله غَفُورٌ حَلِيمٌ ) .أي : اعلموا أيها الناس أن الله
تعالى - يعلم ما يجول في نفوسكم من خير أو شر ، وما تهجس به خطرات قلوبكم
، من مقاصد واتجاهات ، فاحذروا أن تقصدوا ما هو شر ، أو تفعلوا ما هو منكر
واعلموا أنه - تعالى - غفور لمن تاب وعمل صالحاً ، حليم لا يعاجل الناس
، بالعقوبة ، ولا يؤاخذهم إلا بما كسبوا .فالجملة الكريمة تحذير وتبشير
وترغيب وترهيب ، لكي لا يتجاسر الناس على ارتكاب ما نهي الله عنه ، ولا
ييأسوا من رحمته متى تابوا وأنابوا .هذا ، وقد أجمع العلماء أنها تصير
محرمة عليه تحريماً مؤبداً ، ولا يحل له نكاحها ركلك لأنه استحل ما لا يحل
فعوقب بحرمانه ، كالقاتل يعاقب بحرمانه من ميراث المقتول . وقيل : يفسخ
النكاح ويفرق بينهما فإذا انتهت العدة حلت له ولم يتأبد التحريم . ولكل
فريق أدلته المبسوطة في كتب الفقه .وبذلك تكون الآية الكريمة قد أرشدت
الناس إلى ما يقره الشرع ، ويرتضيه الخلق الكريم ، ونهتهم عما يتنافى مع
تعاليم الإسلام بأسلوب حكيم جمع بين الشدة واللين ، والخوف والرجاء ، حتى
يثوب المخطئون إلى رشدهم ويقلعوا عن خطئهم .

لا جناح عليكم ان طلقتم النساء ما لم تمسوهن او تفرضوا لهن فريضة ومتعوهن
على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - في آيتين كريمتين بعض الأحكام التي
- تتعلق بالمطلقة قبل الدخول بها ، سواء أذكر لها المهر أم لم يذكر ، فقال
- تعالى - :( لاّ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلّقْتُمُ النسآء . . . )قوله
تعالى - : ( مَا لَمْ تَمَسّوهُنّ ) أي ما لم تجامعوهن ولم تدخلوا بهن
والمس في أصل معناه : اللمس ، ويقال فيما معه إدراك بحاسة اللمس ، ثم أطلق
على سبيل الكناية على ما يكون بين المرء وزوجه من جماع ومباشرة وعلى غير
ذلك مما يكون فيه إصابة حسية أو معنوية . وهذه الكناية من ألطف التي تربى
في الإنسان حسن الأدب ، وسلامة التعبير ، وتجنبه بالنطق بالألفاظ الفاحشة
- وقد تكرر هذا التعبير المهذب في القرآن الكريم ومن ذلك قوله - تعالى .
حكاية عن مريم : ( قَالَتْ رَبّ أنى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ
يَمْسَسْنِي بَشَرٌ . . . ) والمراد بالفريضة هنا المهر الذي يفرضه الرجل
على نفسه للمرأة قبل الدخول بها .والمعنى :لا إثم عليكم أيها الرجال إذا
طلقتم النساء لأسباب مشروعة ، وبطريقة مرضية ، قبل الدخول بهن ، وقبل أن
تقدروا لهن مهراص معينا .ثم بين - سبحانه - ما للمرأة على الرجل في هذه
الحالة فقال : ( وَمَتّعُوهُنّ عَلَى الموسع قَدَرُهُ وَعَلَى المقتر
) : - قَدَرُهُ مَتَاعاً بالمعروف حَقّاً عَلَى المحسنين ) . .قوله - تعالى
وَمَتّعُوهُنَّ ) أي ملكوهن ما ينتفعن به ، ويدخل التسلية والسرور على
نفوسهن . وأصل المتعة والمتاع ما ينتفع به الإنسان من مال أو كسوة أو غير
ذلك ، ثم أطلقت المتعة على ما يعطيه الرجل للمرأة من مال أو غيره عند
طلاقها منه لتنتفع به ، جبراً لخاطرها ، وتعويضاً لما نالها بسبب هذا
الفراق .و ( الموسع ) هو الغني الذي يكون في سعة من غناه . يقال : أوسع
الرجل إذ كثر ماله ، واتسعت حاله . و ( المقتر ) هو الفقير الذي يكون في
ضيق من فقره . أقتر الرجل أي افتقر وقل ما في يده .والمعنى :لا حرج عليهكم
، في طلاقكم للنساء قبل أن تدخلوا بهن وقبل أن تقدروا لهن مهراً معيناً
وليس من حقهن عليكم في هذه الحالة أن يطالبنكم بالصداق ، وإهنما من حقهن
، عليكم أن تمتعوهن بأن تدفعوا لهن ما ينتفعن به كل على حسب حاله وطاقته
فالأغنياء يدفعون ما يناسب غناهم وسعتهم ، والفقراء يدفعون ما يناسب حالهم
وقوله : ( مَتَاعاً بالمعروف ) أي أعطوهن ما يتمتعن وينتفعن به بالقدر.
المتعارقف عليه بين العقلاء ، فلا يعطي الغني ما لا يتناسب مع غناه ولا مع
حال المرأة التي طلقها ، ولا يعطي الفقير شيئاً تافهاً لا يسمى في عرف
العقلاء متاعاً كما أنه لا يكلف فوق استطاعته ، لأن المتاع ما سمي بهذا

الاسم إلا لأنه يتمتع به وينتفع به لفترة من الزمان .وقوله : ( حَقّاً
عَلَى المحسنين ) تأكيد لهذا التمتيع الذي هو من حق المرأة على الرجل الذي
طلقها قبل أن يدخل بها وقيل أن يسمى لها مهراً .أي : هذا التمتيع حق ثابت
على المسحنين الذين يحسنون إلى أنفسهم بامتثالهم لأوامر الله ، وبترضيتهم
لنفوس هؤلاء المطلقات اللاتي تأثرن بسبب هذا الفراق .فالآية الكريمة ترفع
الإثم عن الرجال الذين يطلقون النساء قبل الدخول بهن وقبل تسمية المهر لهن
متى كانت المصلحة تستدعي ذلك ، وتبين الحقوق التي للمرأة على الرجل في ،
هذه الحالة .قال القرطبي : قوله - تعالى - : ( لاّ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن
طَلَّقْتُمُ النسآء ) . إلخ هذا أيضاً من أحكام المطلقات ، وهو ابتداء
إخبار برفع الحرجعن المطلق قبل البناء والجماع ، فرض مهراً أو لم يفرض . أو
لما نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التزوج لمعنى الذوق وقضاء "
الشهوة ، وأمر بالتزوج لطلب العصمة والتماس ثواب الله وقصد دوام الصحبة وقع
، في نفوس المؤمنين أن من طلق قبل البناء قد واقع جزءاً من هذا المكروه
" فنزلت الآية رافعة للجناح في ذلك إذا كان أصل النكاح على المقصد الحسن
) وقوله : ( أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً ) معطوف على.
تَمَسُّوهُنّ ) المنفي ، أي لا حرج عليكم في تطليقكم النساء في حالة عدم
الدخول بهن وعدم تقدير مهر معين لهن .وقوله : ( وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى
الموسع قَدَرُهُ ) إلخ تشريع حكيم وتوجيه سديد ، لأن فراق المرأة قبل
، الدخول بها وقبل تقدير مهر لها ينشئ جفوة ممضة بين المرأة وبين مطلقها
وقد يسيء هذا الفراق إليها وإلى أسرتها ، فكان هذا الحق الذي جعله الله
للمرأة على الرجل هو التمتيع ، تسرية لنفسها ، واستبقاء للمودة الإنسانية
بين الطرفين ، وإزالة لما عسى أن يقوله البعض من أنه ما طلقها من طلقها إلا
لشيء .ولا شك أن إنهاء الحياة الزوجية قبل الدخول فيها ، لضرورات اقتضاها
هذا الإنهاء ، أخف وأيسر من إنهائها بعد الدخول فيها .قال الجمل ما ملخصه
وقوله : ( عَلَى الموسع قَدَرُهُ ) جملة من مبتدأ وخبر وفيها قولان :
أحدهما : أنها لا محل لها من الإعراب بل هي استئنافية بينت حال المطلق:
بالنسبة إلى يساره وإقتاره .والثاني : في محل نصب على الحال وصاحب الحال
فاعل متعوهن . والرابط بين جملة الحال وصاحبها محذوف والتقدير : على الموسع
منكم . و ( مَتَاعاً ) منصوب على المصدر و ( بالمعروف ) جار ومجرور صفة له
و ( حَقّاً ) صفة ثانية لقوله : ( مَتَاعاً ) أو مصدر مؤكد لمضمون الجملة .
قبله . وعامله محذوف وجوباً والتقدير : حق ذلك حقاً " .هذا ، ويرى بعض
العلماء أن المتعة واجبة للمرأة على الرجل في حال مفارقتها قبل الدخول بها
وقبل تسمية المهر ، لأن الآية الكريمة قد أكدت ذلك وجعلته حقاً ثابتاً لا
يجوز التحلل منه قال - تعالى - : ( مَتَاعاً بالمعروف حَقّاً عَلَى
المحسنين ) .ويرى بعضهم أنها مستحبة ، لأن التعبير بالمحسنين يدل على أن
المتعة غير واجبة وقد رجح المحققون من العلماء الرأي الأول وقالوا : إن
الإحسان لا ينافي الوجوب الذي دل عليه الأمر يؤيد هذا قوله : ( عَلَى
الموسع قَدَرُهُ وَعَلَى المقتر قَدَرُهُ ) فقد جعل الله المتعة على
الفريقين كل فريق على حسب طاقته وقدرته .والمتعة تختلف باختلاف الأحوال من
يسار وإعسار ، يقدرها القاضي على الرجل على حسب حالته كما يقدر النفقة
والصالحون من الناس هم الذين يبذلون المتعة للمطلقة بسخاء ومودة ، ولقد.
أثر عن الحسن بن علي - رضي الله عنهما - أنه متع امرأة طلقها بعشرة آلاف
. " درهم ، فلما تسلمت هذا المال الوفير قالت : " متاع قليل من حبيب مفارق

وان طلقتموهن من قبل ان تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم الا ان
يعفون او يعفو الذي بيده عقدة النكاح وان تعفوا اقرب للتقوى ولا تنسوا
الفضل بينكم ان الله بما تعملون بصير

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - حق المرأة فيما لو طلقت قبل الدخول بها
وبعد تسمية مهر لها فقال - تعالى - : ( وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنّ مِن قَبْلِ
أَن تَمَسُّوهُنّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا
فَرَضْتُمْ إِلاّ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا الذي بِيَدِهِ عُقْدَةُ
النكاح ) .أي : وإن طلقتم يا معشر الرجال والنساء من قبل أن تدخلوا بهن
وتباشروهن ، ومن بعد أن قدرتم لهن صداقاً معلوماً ، فالواجب عليكم في هذه
الحالة أن تدفعوا لهن نصف ما قدرتم لهن من صداق ، إلا أن تتنازل المرأة عن
حقها فتتركه لمطلقها بسماحة نفس ، بأن تكون هي الراغبة في الطلاق ، أو
يتناول الذي بيده عقدة النكاح وهو الزوج عن حقه بأن يدفع لها المهر كاملا
أو ما هو أكثر من النصف لأنه هو الراغب في الطلاق . وجملة ( وَقَدْ
) فَرَضْتُمْ لَهُنّ فَرِيضَةً ) في موضع نصب على الحال من فاعل
طَلَّقْتُمُوهُنّ ) أو من مفعوله ، أي وإن طلقتموهن حالة كونكم فارضين لهن
المهر أو حالة كونهن مفروضاً لهن المهر .والفاء في قوله : ( فَنِصْفُ مَا
" فَرَضْتُمْ ) واقعة في جواب الشرط ، والجملة في مجل جزم جواب الشرط ، و
نصف " مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أي فالواجب نصف ، أو هو مبتدأ محذوف
الخبر أي فلهن نصف ، وقد صحرت الآية الكريمة بوجوب النصف ، ولم تصرح بوجوب

دفعة ، لأنه قد يكون قدم لها المهر كله أو بعضه ، فكان التعبير بالوجوب
بياناً للحكم حتى يسترد المطلق ما دفعه زيادة عن النصف إن أراد ذلك ، أو
يكمل لها النصف إن كان قد دفع أقل منه .وقوله : ( إِلاَّ أَن يَعْفُونَ
أَوْ يَعْفُوَاْ الذي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النكاح ) استثناء مفرغ من عموم
الأحوال . و ( يَعْفُونَ ) فعل مضارع الواو فيه لام الفعل ، ونونه ضمير
: جماعة الإناث فهو هنا مبني على السكون في محل نصب بأن . ووزنه يفعلن أي
فلهن نصف المهر الذي فرضتموه لهن في كل حال إلا في حال عفو المطلقات أي
، إبرائهن لكم وتنازلهن عن هذا الحق ، أو في حال عفو الذي بيده عقدة النكاح
وهو الزوج المطلق - عند الأحناف والشافعية - لأنه هو المالك لعقد النكاح
وحله ، والمراد بعفوه أن يزيد على نصف المهر المقرر .ويرى المالكية أن الذي
، بيده عقدة النكاح هو ولي المرأة ، لأنه هو الذي بيده عقدة النكاح ثابتة
: وأما الزوج فله ذلك حالة العقد المتقدم فقط .ويكون المعنى على هذا الرأي
عليكم يا معشر الرجال أن تدفعوا للنساء نصف المهر إذا طلقتموهن بعد أن
قدرتم لهن مهراً وقبل أن تمسوهن إلا أن يتنازل النساء عن هذا الحق ، إذا كن
يملكن ذلك ، أو يتنازل أولياؤهن إن كن لا يملكن حق التنازل ، كأن تكون
البنت صغيرة ، أو غير جائزة التصرف .وقد دل كل فريق على مذهبه بما هو مبسوط
) : في كتب الفقه .ثم حبب - سبحانه - إلى الناس التسامح والتعاطف فقال
وَأَن تعفوا أَقْرَبُ للتقوى وَلاَ تَنسَوُاْ الفضل بَيْنَكُمْ إِنّ الله
بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ) .أي : من حق المرأة المطلقة على مطلقها أن
يدفع لها نصف المهر إذا كان الطلاق قبل المباشرة وبعد تحديد المهر ، وإذا
تنازل أحد الطرفين عن جزء من حقه لصاحبه كان هذا التنازل حسناً . لأن هذا
التنازل والتسامح يضفي على جو الطلاق لوناً من المودة والتقارب بين النفوس
التي آلمها الفراق بتلك الصورة ، فاحرصوا - أيها الناس - على هذا الفعو بأن
يتنازل كل فريق منكم لصاحبه عن شيء من حقه ، ويتسامح معه ، فإن ذلك أقرب
إلى تقوى القلوب ، وصفاء النفوس ، ولا تتركوا أن يتفضل بعضكم على بعض
بالإحسان ، وحب الخير ، وجميل الذكر ، فالله - تعالى - بصير بأعمالكم
وسيحاسبكم عليها ، وسيجازي كل نفس بما عملت .فالجملة الكريمة توجيه حكيم
للناس إلى ما يدفع عنهم التشاحن والتباغض والتخاصم خصوصاً في حالات الطلاق
التي هي من أشد الأحوال دفعاً إلى هذه الرذائل .ولقد حفظ لنا التاريخ
الإسلامي صوراً مشرقة لهذا العفو والفضل من ذلك ما ذكره الإمام الزمخشري
. من أن جبير بن مطعم دخل على سعد بن أبي وقاص فعرض عليه بنتاً له فتزوجها
ثم طلقها قبل أن يدخل بها وبعث لها المهر كاملاً . فقال له : لم تزوجتها؟
: فقال : عرضها على فكرهت رده . فقيل له : فلم بعثت بالصداق كاملاً؟ قال
فأين الفضل .وروى أن أحد الصحابة تزوج امرأة وطلقها قبل الدخول بها فأعطاها
الصداق كاملاً ، فقيل له في ذلك فقال : أنا أحق بالعفو منها .وهكذا نرى
مبلغ استحبابة السلف الصالح لتوجيهات القرآن ووصاياه ، فأين المسلمون اليوم
من هذه الوصايا والأحكام؟وبعد هذا الحديث المستفيض الذي لم ينته بعد عن
الطلاق وأحكامه وآدابه ، أورد القرآن آيتيني كريمتين تأمران بالمحافظة على
- الصلاة وبالمداومة على طاعة الله ، وبالملازمة لذكره - عز وجل - فقال
تعالى :( حَافِظُواْ عَلَى الصلوات . . . )

حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين

كما فسرها الوسيط لعل السر في توسط هاتين الآيتين بين أيات الأحكام التي
تحدثت عن الطلاق ، والعدة والرضاع والخطبة . . . إلخ ، لعل السر في ذلك أن
هذه الأمور كثيرة ما تكون مثار تنازع وتخاصم وتقاطع بين الناس ، فأراد
القرآن بطريقته الحكيمة ، وبأسلوبه المؤثر أن يقول للناس : إن محافظتكم على
الصلاة ، ومداومتكم على طاعة الله وذكره كل ذلك سيعرض في نفوسكم المراقبة
له - سبحانه - ، والخشية من عقابه ، وسيعينكم على أن تحلوا قضاياكم التي
تتعلق بالطلاق وغيره بالعدل والإحسان والتسامح والتعاطف ، لأن من حافظ على
فرائض الله وأومره ، انصرفت نفسه عن ظلم الناس ، وعاملهم معاملة كريمة حسنة
وقد بين القبرآن في كثير من آياته أن المحافظة على الصلاة بخشوع وخضوع .
لله - تعالى - وأن المداومة على ذكره ، والملازمة لطاعته كل ذلك من شأنه أن
يمنع الإنسان من الوقوع فيما نهى الله عنه ، قال - تعالى - : ( اتل مَا
أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الكتاب وَأَقِمِ الصلاة إِنّ الصلاة تنهى عَنِ
الفحشآء والمنكر وَلَذِكْرُ الله أَكْبَرُ ) وقال - تعالى - : ( واستعينوا
- بالصبر والصلاة وَإِنّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاّ عَلَى الخاشعين ) وقال
تعالى - : ( وَأَقِمِ الصلاة طَرَفَيِ النهار وَزُلَفاً مِّنَ الليل إِنّ
- الحسنات يُذْهِبْنَ السيئات ذلك ذكرى لِلذَّاكِرِينَ ) فكأن الله - تعالى
يقول للناس : لقد أمرتكم بالمحافظة على الصلاة ، وبالمداومة على طاعتي
، وذكري خلال حديثي عن أحكام كثيرة ما تكون هذه الأحكام مثار تنازع بينكم
، وذلك لكي تحلوا التسامح والتوال والتقارب محل التشاحن والتدابر والتجافي
لأن من شأن المحافظة على هذه العبادات ، أن تهدي الناس إلى أكمل الأخلاق
والصفات .فسبحان من هذا كلامه ، ومن تلك إرشاداته وتوجيهاته ، ووصاياه

وقوله - تعالى - : ( حَافِظُوا ) من الحفظ بمعنى ضبط الشيء ، وصيانته عن كل تضييع ، وهو خلاف النسيان . والخطاب لجميع المكلفين من أفراد الأمة والمعنى : حافظوا على معشر المسلمين والمسلمات على أداء الصلوات في أوقاتها بخشوع وخضوع وإخلاص لله رب العالمين ، وحافظوا بصفة خاصة على - الصلاة الوسطى ، لما هلا من منزلة سامية ، ومكانة عالية .فقد أمر الله تعالى عباده بالمحافظة على الصلوات بصفة عامة ، وأفراد الصلاة الوسطى بالذكر تفخيماً لشأنها ، وإعلاء لقدرها من بين أفراد جنسها ، والمسلم يكون محافظاً على الصلاة إذا أداها في وقتها مستوفية لآدابها وسننها وشرائعها وخشوعها وكل ما يتعلق بها ، أما إذا قصر في شيء من ذلك فإنه لا يكون - محافظاً عليها تلك المحافظة التامة التي أمر الله بها .وفي قوله - تعالى تنبيه إلى أن الصلاة في ذاتها شيء نفيس ثمين تجب المحافظة ( حَافِظُوا ) : عليه ، لأن هذه الكلمية تدل على الصيانة والضبط بجانب دلالتها على الأداء والإقامة والمداومة .قال الإمام الرازي : وقوله : ( حَافِظُوا ) بصيغة المفاعلة التي تكون بين اثنين . للدلالة على أن هذه المحافظة تكون بين العبد والرب . فكأنه قيل : إحفظ الصلاة ليحفظك الإله الذي أمرك بها . وهذا كقوله : ( فاذكروني أَذْكُرْكُمْ ) وفي الحديث " احفظ الله يحفظك " أو أن تكون المحافظة بين المصلى والصلاة . فكأنه قيل : " احفظ الصلاة حتى تحفظك الصلاة بمعنى أنها تحفظك من ارتكابا المعاصي ، وتشفع لمصليها يوم القيامة وللعلماء أقوال في المراد بالصلاة الوسطى التي أفردها الله - تعالى - من" بين الصلوات .فجمهور العلماء يرون أنها واحدة من بين الصلوات الخمس المفروضة ، وأن الوسطى مؤنث الأوسط أي الشيء المتوسط بين شيئين ، فالصلاة الوسطى هي الصلاة المتوسطة بين صلاتين ، إلا أنهم اختلفوا في تعيينها فأكثر العلماء على أن الصلاة الوسطى هي صلاة العصر ، لأنها تقع في وسط الصلوات الخمس ، إذ قبلها اثنتان وبعدها اثنتان ، ولأنها وسط بين صلاتي النهار ، وصلاتي الليل ، فمعنى التوسط فيها واضح ، ولأنها مظنة التقصير لمجيئها بعد وقت الظهيرة الذي يكون في الغالب وقت كسل .وفضلا عن ذلك فقد صرحت بعض الأحاديث بأنها صلاة العصر ، وقد ساق الإمام ابن كثير عدداً من هذه الأحاديث ومنها ما جاء في صحيح مسلم ومسند الإمام أحمد عن علي بن أبي طالب قال :" قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب : شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملأ الله قلوبهم وبيوتهم ناراً ، ثم صلاها بين العشاءين المغرب والعشاء " ، وفي مسند الإمام أحمد عن سمرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الصلاة الوسطى صلاة العصر " .وقد خصت صلاة العصر بمزيد من التأكيد ، وبالأمر بالمحافظة عليها ، وبالتحذير من التقصير فيها ، مما يشهد بأنها هي الصلاة الوسطى ، فقد روى البخاري ومسلم عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الذي تفوته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله " أي : سلب من أهله وماله فبقي وحيداً بدونهما .وقال بعضهم ، المراد بالصلاة الوسطى صلاة الصبح ، وقيل صلاة الظهر ، وقيل صلاة المغرب وقيل العشاء ، وقيل الجمعة ، وقيل غير ذلك من الأقوال التي لا تبلغ في قوتها مبلغ قول القائلين بأنها صلاة العصر ، ولذا قال ابن كثير وكل هذه الأقوال فيها ضعف بالنسبة إلى التي قبلها ، ومعترك النزاع في الصبح والعصر وقد أثبتت السنة أنها العصر فتعين المصير إليها - أي إلى أن المراد ، بالصلاة الوسطى صلاة العصر .ومن العلماء من اتجه في بيان المراد من الصلاة الوسطى اتجاهاً آخر فهو يرى أن المراد بالصلاة الوسطى الصلوات كلها ، وأن الوسطى ليست بمعنى المتوسطة بين صلاتين ، وإنما هي بمعنى الفضل لأن وسط الشيء خياره وأعدله وأفضله فالمقصود بها فعلها أو أداؤها بطريقة سليمة كاملة .والمعنى على هذا الرأي : حافظوا يا معشر المسلمين على الصلوات كلها وحافظوا على أن يكون أداؤكم لها بطريقة وسطى أي فاضلة بأن تأدوها في ، أوقاتها كاملة الأركان والسنن والآداب والخشوع .قال ابن كثير : " وقيل بل الصلاة الوسطى مجموع الصلوات الخمس رواه ابن أبي حاتم عن ابن عمر وفي صحته نظر . والعجب أن هذا القول قد اختاره الشيخ أبو عمر بن عبد البر إمام ما وراء البحر ، وإنها لإحدى الكبر ، إذ اختار مع إطلاعه وحفظه ما لم يقم عليه دليل من الكتاب ولا سنة ولا أثر " .ومن العلماء المحدثين الذين استحسنوا هذا الرأي الشيخ محمد عبده - رحمه الله - فقد قال : " ولولا أنهم اتفقوا على أنها - أي الصلاة الوسطى - إحدى الخمس لكان يتبادر إلى فهمي من قوله : " الصلاة الوسطى " أن المراد بالصلاة الفعل وبالوسطى الفضلى أي : حافظوا على أنواع الصلاة وهي الصلاة التي يحضر فيها القلب وتتوجه بها النفس إلى الله - تعالى - وتخشع لذكره ، وتدبر كلامه لا صلاة المرائين ولا الغافلين " .والذي نراه أن ما عليه الجمهور من أن الصلاة الوسطى هي واحدة - من بين الصلوات الخمس ، وأنها صلاة العصر هو أقوى الآراء ، لأنه - أولا يتفق مع أصحاب الاتجاه الثاني الذين يقولون بأن أداء الصلاة يجب أن يكون بطريقة تامة الأركان والسنن والخشوع وما قال أحد منهم بأن تحديدها بصلاة العصر ينفي أداء بقية الفرائض بكمال واطمئنان . ولأنه - ثانياً - قد امتاز عن رأي أصحاب الاتجاه الثاني بأنه أعمل النص الصحيح الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن الصلاة الوسطى هي صلاة العصر ، ولا شك أن إعمال

النص أولى من إهماله أو من تأويله تأويلا ضعيفا .وقوله : ( وَقُومُواْ لِلّهِ قَانِتِينَ ) مؤكدا لما قبله من المحافظة والمداومة على أداء الصلاة والقنوت : لزوم الطاعة مع الخضوع والخشوع . أي قوموا في الصلاة مطيعين. لله - تعالى - مؤيدين لها على وجهها الكامل في خشوع وخضوع واطمئنان .

فان خفتم فرجالا او ركبانا فاذا امنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون

كما فسرها الوسيط والفاء في قوله : ( فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً ) للتفريع أي : حافظوا على الصلاة في كل وقت ، وأدوها بخشوع واطمئنان ، فإن كان بكم خوف من عدو في حال المقاتلة في الحرب أو من غيره لسبب من الأسباب ، فصلوا رجلين أي ماشين على الأقدام ، أو راكبين على ركائبكم بإيماء ، سواء وليتم وجوهكم شطر القبلة أولا .و ( رجالا ) جمع راجل وهو القوى على المشي برجليه . يقال : رَجل الإنسان يرجل رجلا إذا لم يحد . ما يركبه ومشى على قدميه ، والركابن جمع راكب للجمل أو الفرس أو غيرهما وجواب الشرط محذوف والتقدير : فإن خفتم فصلوا رجلين أو راكبين ، وهذان. اللفظان أي - رجالا أو ركباناً - حالان من الضمير في " فصلوا " المحذوف - والآية الكريمة تدل على شدة عناية الإسلام بشأن الصلاة ، فقد أمر الله. ، تعالى - عباده بأن يحافظوا عليها في حالتي الأمن والخوف ، والصحة والمرض والسفر والإقامة .وقد بسط هذا المعنى الأستاذ الإمام محمد عبده فقال ما ملخصه : وقوله - تعالى - : ( فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً ) هذا تأكيد للمحافظة على الصلاة ، وبيان أنها لا تسقط بحال ، لأن حال الخوف على النفس أو العرض أو المال هو مظنة العذر في الترك كما يكون السفر عذراً في ترك الصيام . . والسبب في عدم سقوط الصلاة عن المكلف بحال أنها عمل قلبي وإنما فرضت تلك الأعمال الظاهرة لأنها مساعدة على العمل القلبي المقصود ، ، بالذات ، وهو تذكر سلطان الله - تعالى - المستولي علينا وعلى العالم كله ومن شأن الإنسان إذا أراد عملا قلبياً يجتمع فيه الذكر أن يستعين على ذلك - ببعض ما ينسابه من قول وعمل .ولا ريب أن هذه الهيأة التي اختارها الله تعالى - للصلاة هي أفضل معين على استحضار سلطانه فإن قولك " الله أكبر " في فاتحة الصلاة وعند الانتقال فبها من عمل إلى عمل يعطيك من الشعور يكون الله أكبر وأعظم من كل شيء ما يغمر روحك ، ويستولي على إرادتك . . وكذلك الشأن في سائر أعمال الصلاة .فإذا تعذر عليك الإتيان ببعض تلك الأعمال البدنية؛ فإن ذلك لا يسقط عنك هذه العبادة القلبية التي هي روح الصلاة وغيرها ، وهي الإقبال على الله - تعالى - واستحضار سلطانه ، مع الإشارة إلى تلك ، الأعمال بقدر الإمكان الذي لا يمنع من مدافعه الخوف الطارئ من سبع مفترس أو عدو مغتال ، أو لص محتال . . فالآية تعلمنا أنه يجب أن لا يذهلنا عن - الله شيء في حال من الأحوال . . "وقال الإمام ابن العربي : قوله - تعالى - أمر الله - تعالى ( فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً ) ، بالمحافظة على الصلاة في كل حال من صحة ومرض ، وحضر وسفر ، وقدرة وعجز وخوف وأمن ، لا تسقط عن المكلف بحال ، ولا يتطرق إلى فرضيتها اختلال . وقد قال صلى الله عليه وسلم :" صل قائماً ، فإن لم تستطع فقاعداً ، فإن لم تستطع فعلى جنب " .والمقصود من ذلك أن تفعل الصلاة كيفما أمكن ، لا تسقط بحال حتى لو لم يتفق فعلها إلا بالإشارة بالعين للزم فعليها كذلك إذا لم يقدر على حركة سائر الجوارح ، وبهذا المعنى تميزت عن سائر العبادات ، فإن العبادات كلها تسقط بالأعذار ، ولذلك قال علماؤنا : " إن تارك الصلاة يقتل لأنها أشبهت الإيمان الذي لا يسقط بحال ، ولا تجوز النيابة فيها ببدل ولا ، مال ".ثم قال - تعالى - : ( فَإِذَآ أَمِنتُمْ فاذكروا الله كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ) أي فإذا زال خوفكم وصرتم آمنين مطمئنين ، ( فاذكروا الله ) أي فأدوا الصلاة تامة كاملة مثل ما علمكم إياها ربكم على لسان نبيكم صلى الله عليه وسلم وقدم من الله - تعالى - عليكم " بهذا التعليم الذي كنتم تجهلونه فضلا منه وكرماً .وعبر - سبحانه - " بإن ، المفيدة للشك في حالة الخوف ، وبإذا المفيدة للتحقيق في حالة الأمن للإشعار بأن حالة الأمن هي الحالة الكثيرة الثابتة ، وأن حالة الخوف هي الحالة القليلة الطارئة ، وفي ذلك فضل جزيل من الله - تعالى - على عباده يحملهم على شكره وطاعته ، حيث وهبهم الأمان والاطمئنان في أغلب أوقات حياتهم .وبذلك نرى أن هاتين الآيتين الكريمتين قد أمرتا المسلم بأن يحافظ على الصلاة محافظة تامة ، إذ في هذه المحافظة سعادة للإنسان ، ودافع له على أداء الحقوق لأربابها ، وزاجر له عن اقتراف ما نهاه الله عنه .

والذين يتوفون منكم ويذرون ازواجا وصية لازواجهم متاعا الى الحول غير اخراج فان خرجن فلا جناح عليكم في ما فعلن في انفسهن من معروف والله عزيز حكيم

كما فسرها الوسيط ثم ختم السورة الكريمة حديثها عن أحكام الزواج وما يتعلق به من طلاق ووصية وعدة وغير ذلك من أحكام بقوله - تعالى - :( والذين

يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً . . . )الآية
الكريمة من هذه الآيات تبين بعض الحقوق التي شرعها الله - تعالى - للمرأة التي توفي عنها زوجها .والمعنى : لقد شرع الله لكم فيما شرع من أحكام ، أن على المسلم قبل أن يحضره الموت أن يوصى لزوجته التي على قيد الحياة بما تنتفع به انتفاعاً مستمراً لمدة حول من وفاته ، ولا يصح أن يخرجها أحد من مسكن الزوجية .وقوله : ( وَصِيَّةً ) فيه قراءتان مشهورتان .القراءة الأولى بالنصب ، والتقدير : والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً فليوصوا وصية ، أو كتب الله عليهم وصية لأزواجهم .والقراءة الثانية بالرفع والتقدير : فعليهم وصية لأزواجهم .وعلى قراءة النصب تكون كلمة ( وَصِيَّةً ) مفعولا مطلقاً أو ) : مفعولا به ، وعلى قراء الرفع تكون مبتدأ محذوف الخبر . وقوله لأَزْوَاجِهِمْ ) جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة لكلمة ( وَصِيَّةً ) على القراءتين . أي : وصية كائنة لأزواجهم .والمراد بقوله : ( مّتَاعاً ) ما تتمتع به الزوجة من السكن والنفقة بعد وفاة زوجها بوصية منه . وهو منصوب على المصدر أي متعوهن متاعاً أوم على المفعولية . أي جعل الله لهن ذلك متاعاً .وقال - سبحانه - : ( مّتَاعاً إِلَى الحول ) للتنصيص على أن هذه المدة تمتد حولا كاملا منذ وفاة زوجها ، إذ كلمة حول تدل على التحول أي حتى تعود الأيام التي حدثت فيها الوفاة . وقوله : " غير إخراج " حال من أزواجهم أي غير مخرجات من مسكن الزوجية ، فلا يصح لورثة الميت أن يخرجوهن من مسكن الزوجية بغير رضاهن ، لأن بقاءهن في مسكن الزوجية حق شرعه الله لهن ، فلا يجوز لأحد أن يسلبه منهن بغير رضاهن .ثم قال - تعالى - : ( فَإِنْ خَرَجْنَ من منزل الزوجية برضاهن ورغبتهن ( فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ) أي فلا إثم ( عليكم أيها المسلمون ( فِي مَا فَعَلْنَ في أَنْفُسِهِنّ مِن مّعْرُوفٍ ) أي فيما فعلن في أنفسهن من أمور لا ينكرها الشرع كالتزين والتطيب والتزوج بعد انتهاء عدتها وهي أربعة أشهر وعشرة أيام .هذا ، وللعلماء في تفسير هذه الآية اتجاهان مشهوران :أما الاتجاه الأول : فيرى أصحابه أن هذه الآية منسوخة لأنها توجب على الزوج حين مشارفة الموت أن يوصي لزوجته بالنفقة والسكني حولا ، ويجب عليها الاعتداد حولان ، وهي مخيرة بين السكنى في بيته حولا ولها النفقة ، وبين أن تخجر منه ولا نفقة لها ، ولم يكن لها ميراث من زوجها قالوا : وكان هذا الحكم في ابتداء الإسلام . وقد نسخ وجوب الوصية بالنفقة والسكنى بآية المواريث وبحديث " ألا لا وصية لوارث " حيث جعل لها - الربع أو الثمن عوضاً عن النفقة والسكنى ونسخ وجوب العدة حولا بقوله تعالى - قبل ذلك : ( والذين يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبّصْنَ بِأَنْفُسِهِنّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً ) الآية قالوا : ومما يشهد لذلك ما أخرجه أبو داود والنسائي عن ابن عباس أنه قال. في هذه الآية : نسخت بآية الميراث بما فرض الله لن من الربع والثمن " ونسخ أجل الحول بأن جعل أجلها أربعة أشهر وعشراً " .وقد حكى هذا الرأي صاحب الكشاف فقال : والمعنى : أن حق الذين يتوفون عن أزواجهم أن يوصلوا قبل أن يحتضروا بأن تمتع أزواجهم بعدهم حولا كاملا ، أي : ينفق عليهن من تركته ولا ) : يخرجهن من مساكنهن . وكان ذلك في أول الإسلام ثم نسخت المدة بقوله . أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً ) وقيل نسخ ما زاد منه على هذا المقدار ونسخت النفقة بالإرث الذي هو الربع والثمن .واختلف في السكني فعند أبي حنيفة لا سكنى . ثم قال : فإن قلت كيف نسخت الآية المتقدمة والمتأخرة؟ قلت - قد تكون الآية متقدمة في التلاوة وهي متأخرة في التنزيل . كقوله : تعالى - : ( سَيَقُولُ السفهآء ) مع قوله : ( قَدْ نرى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ : فِي السمآء ) وعلى هذا الاتجاه سار جمهور المفسرين .أما الاتجاه الثاني فيرى أصحابه أن هذه الآية محكمة وليست منسوخة وممن ذهب إلى هذا الاتجاه مجاهد ، فقد قال ما ملخصه : دلت الآية الأولى وهي ( يَتَرَبّصْنَ بِأَنْفُسِهِنّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً ) على أن هذه عدتها المفروضة تعتدها عند أهل زوجها . ودلت هذه الآية بزيادة سبعة أشهر وعشرين ليلة على العدة السابقة تمام الحول ، وأن ذلك من باب الوصية للزوجات أن يمكن من السكني في بيوت أزواجهن بعد وفاتهم حولا كاملا ولا يمنعن من ذلك لقوله : ( غَيْرَ إِخْرَاجٍ ) فإذا انقضت عدتهن بالأربعة أشهر والعشر - أو بوضع الحمل - واخترن الخروج والانتقال من ذلك المنزل فإنهن لا يمنعن من ذلك لقوله : ( فَإِنْ خَرَجْنَ ) .ومن المفسرين الذين أيدوا هذا الاتجاه الإمام ابن كثير فقد قال - بعد أن ساق قول مجاهد - وهذا القول له اتجاه وفي اللفظ مساعدة له وقد اختاره جماعة منهم الإمام أبو العباس بن تيمية كما أيده أيضاً الإمام الفخر في تفسيره ، فقد قال بعد أن ساق بعض الأدلة. التي تثبت ضعف قول من قال بالنسخ : " فكان المصير إلى قول مجاهد ألوى من التزام النسخ من غير دليل " .والخلاصة أن أصحاب هذا الاتجاه الثاني لا يرون معارضة بين هذه الآية وبين آية ( والذين يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً )
لأن الآية التي معنا لا تتحدث عن عدة المتوفي عنها زوجها وإنما تتحدث عن حقها في البقاء في منزل الزوجية بعد وفاة زوجها ، وأن هذا الحق ثابت لها فإن شاءت بقيت فيه ، وإن شاءت خرجت منه على حسب ما نراه مصلحة لها ، ولأنها

لا يوجد من ألفاظها أو معانيها ما يلزم المرأة بالتربص والامتناع عن الأزواج مدة معينة .أما الآية الثانية فنراها واضحة في الأمر بالتربص أربعة أشهر وعشراً ، وهي العدة التي يجب أن تمتنع فيها المرأة التي مات عنها زوجها عن التزين والتعرض للزواج . إذن فلا تعارض بين الآيتين ومتى انتفى التعارض انتفى النسخ .ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ( والله عَزِيزٌ حَكِيمٌ ) أي : عزيز في انتقامه ممن تعدى حدوده ، إذ هو القاهر فوق عباده ، حكيم فيما شرع لهم من آداب وأحكام فينبغي أن يمتثل الناس أوامره ويجتنبوا ما نهاهم عنه .

وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - حق المطلقات فقال : ( وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بالمعروف حَقّاً عَلَى المتقين ) أي وللمطلقات على أزواجهن الذين طلقوهن متاع بالمعروف أي شيء ينتفع به انتفاعاً ممتدا لمدة من الوقت مما تعارف العقلاء عليه وعلى فائدته للمرأة ، وهذا المتاع - جعله الله حقا على المتقين الذين يصونون أنفسهم عن كل ما يبغضه الله تعالى - .وقد جعل الله هذا الحق للمطلقة على مطلقها جبراً لوحشة الفراق وإزالة لما قد يكون بين الزوجين من شقاق ، وتخفيفاً لما قد يحيط بجو الطلاق من تنافر وتخاصم وعدم وفاق .وقال ابن كثير : وقد استدل بهذه الآية من ذهب ، من العلماء إلى وجوب المتعة لكل مطلقة سواء أكانت مفوضة ، أو مفروضا لها أو مطلقة قبل المسيس ، أو مدخولا بها . وإليه ذهب سعيد بن جبير وغيره من السلف واختاره ابن جرير ، وهو قول عن الشافعي .وعلى هذا التفسير يكون المراد بالمتاع ما يعطيه الرجل لامرأته التي طلقها زيادة عن الحقوق المقررة لها شرعا ليكون التسريح بإحسان .ومن العلماء من يرى أن المراد بالمتاع هنا النفقة التي تكون للمطلقة في العدة قال الفخر الرازي : واعلم أن المراد بالمتاع ههنا فيه قولان :أنه هو المتعة فظاهر هذه الآية يقتضي وجوب هذه المتعة لكل المطلقات .والقول الثاني " أن المراد بهذه المتعة النفقة ، والنفقة قد تسمى متاعا ، وإذا حملنا هذا المتاع على النفقة اندفع التكرار فكان ذلك أولى " .ويظهر أن مراد الفخر الرازي بقوله : " اندفع التكرار " أي ما بين هذه الآية التي سبقة وهي قوله - تعالى - : ( وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الموسع قَدَرُهُ وَعَلَى المقتر قَدَرُهُ مَتَاعاً بالمعروف حَقّاً عَلَى المحسنين ) ولك أن تقول : إنه لا تكرار مع إرادة المتعة التي ليست هي النفقة لأنه في السابقة بين أنها حق للمرأة حين تلطق ولم يكن قد قدر لها حق في المتعة إذا لم يوص لها زوجها بالنفقة .

كذلك يبين الله لكم اياته لعلكم تعقلون

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات المتعلقة بأحكام الأسرة بقوله : ( كَذَلِكَ يُبَيِّنُ الله لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُون ) أي : مثل هذا البيان الحكيم الواضح الذي بين الله لكم به الأحكام السابقة ، يبين لكم جميع آياته وأحكامه التي أنتم في حاجة إليها كلي تفهموا ما فيها وتعقلوه وتعملوا به فتنالوا السعادة في الدنيا والآخرة .وإلى هنا تكون السورة قد بينت لنا في أكثر من عشرين آية بعض الأحكام التي تتعلق بالأسرة وصيانتها وسعادتها بأسلوب مؤثر حكيم وبطريقة تهدى إلى أفضل الأخلاق وأقوم العلاقات بين الأفراد والجماعات ، وإن المتأمل في هذه الآيات وما ، اشتملت عليه من توجيهات سامية ليوقن بأن هذا القرآن إنما هو من عند الله الذي شرع لعباده ما فيه صلاحهم وسعادتهم .وبعد هذا البيان الحيكم عن الأسرة وما يتعلق بها من زواج وطلاق وغير ذلك ، ساق القرآن من القصص ما من شأنه أن يدعو إلى التذكر والاعتبار ويحرض على الجهاد في سبيل الله ، ويحمل المتأملين في توجيهاته على إقامة الأسرة على أقوى الدعائم ، وأفضل المبادئ التي بها تنال الأمم عزتها وكرامتها وسعادتها . فقال - تعالى - :( أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين خَرَجُوا . . . )

الم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وهم الوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم احياهم ان الله لذو فضل على الناس ولكن اكثر الناس لا يشكرون

كما فسرها الوسيط قال الآلوسي : قوله - تعالى - : ( أَلَمْ تَر ) هذه الكلمة قد تذكر لمن تقدم علمه فتكون للتعجب والتقرير والتذكير لمن علم بما يأتي - كالأخبار وأهل التواريخ - وقد تذكر لمن لا يكون كذلك فتكون لتعريفه وتعجيبه ، وقد اشتهرت في ذلك حتى أجريت مجرى المثل في هذا الباب ، بأن شبه من " لم ير " الشيء بحال من رآه في أنه لا ينبغي أن يخفى عليه وأنه ينبغي أن يتعجب منه ، ثم أجرى الكلام معه كما يجرى مع من رأى ، قصداً إلى المبالغة في شهرته وعراقته في التعجب . ثم قال : والرؤية إما بمعنى الإبصار مجازاً عن النظر ، وفائدة التجوز الحث على الاعتبار ، لأن النظر

اختياري دون الإدراك الذي بعده ، وإما بمعنى الإدراك القلبي متضمناً معنى
الوصول والانتهاء ولهذا تعدت - أي الرؤية - بإلى في قوله : ( أَلَمْ تَرَ
إِلَى الذين خَرَجُواْ . . ) .والمعنى : قد علمت أيها الرسول الكريم أو
أيها الإنسان العاقل - حال أولئك القوم الذين خرجوا من ديارهم التي ألفوها
واستوطنوها ، وهم ألوف مؤلفة ، وكثرة كاثرة ، وما كان خروجهم إلا فراراً
وخوفاً من الموت الذي سيلاقيهم - إن عاجلا أو آجلا - .ومن لم يعلم حالهم
فها نحن أولاء نعلمه بها ونحيطه بما جرى لهم عن طريق هذا الكتاب الذي لا
يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .والمقصود من هذه الآية الكريمة حض
الناس جميعاً على الاعتبار والاتعاظ وزجرهم عن الفرار من الموت هلعاً
) : وجبناً ، وتحريضهم على القتال في سبيل الله فقد قال - تعالى - بعد ذلك
وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ . . . ) وإفهامهم أن الفرار من الموت لن
يؤدي إلا إلى الوقوع فيه .وقوله : ( وَهُمْ أُلُوفٌ ) جملة حالية من الضمير
في ( خَرَجُواْ ) و ( أُلُوفٌ ) جمع ألف . والتعبير بألوف يفيد أنهم كانوا
كثيرى العدد ، ومن شأن الكثرة أنها تدعو إلى الشجاعة ولكنهم مع هذه الكثرة
) قد استولى عليهم الجبن فخرجوا من ديارهم هرباً من الموت .وقيل إن معنى
وَهُمْ أُلُوفٌ ) أنهم خرجوا مؤتلفي القلوب ، ولم يخرجوا عن افتراق كان
منهم ، ولا عن تباغض حدث بينهم . وألوف على هذا القول جمع آلف مثل قاعد
وقعود وشهود . قالوا : والوجه الأول أجدر بالاتباع لأن ورود الموت عليهم
وهم كثرة عظيمة يفيد مزيد اعتبار بحالهم ، ولأنه هو الظاهر من معنى الآية
) : الكريمة .وقوله : ( حَذَرَ الموت ) أي خرجوا لحذر الموت وخشيته ، فقوله
حَذَرَ ) منصوب على أنه مفعول لأجله . الجملة الكريمة تشير إلى أن خروجهم
كان الباعث عليه الحرص على مطلق حياة ولو كانت حياة ذل ومهانة ، وأنه لم
يكن هناك سبب معقول يحملهم على هذا الخروج ، ولذا كانت نتيجة ذلك أن عاقبهم
الله - تعالى - بالموت الذي هوبوا منه فقال :( فَقَالَ لَهُمُ الله
مُوتُواْ ثُمّ أَحْيَاهُمْ ) أي : فقال لهم الله موتوا فماتوا ثم أحياهم
، بعد ذلك .فجملة ( ثُمّ أَحْيَاهُمْ ) معطوفة على مقدر يستدعيه المقام أي
فماتوا ثم أحياهم . وإنما حذف للدلالة على الاستغناء عن ذكره لاستحالة تخلف
) : مراده - تعالى - عن إرادته .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما معنى قوله
فَقَالَ لَهُمُ الله مُوتُواْ ) قلت : معناه فأماتهم وإنما جيء به على هذه
الصورة للدلالة على أنهم ماتوا ميتة رجل واحد بأمر الله ومشيئته ، وتلك
ميتة خارجة عن العادة ، كأنهم أمروا بشيء فامتثلوا إمتثالا من غير إباء ولا
توقف كقوله - تعالى - ( إِنّمَآ أَمْرُهُ إِذَآ أَرَادَ شَيْئاً أَن
يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ) وهذا تشجيع للمسلمين على الجهاد والتعرض
للشهادة ، وأن الموت إذا لم يكن منه بد ، ولم ينفع منه مفر ، فأولى أن يكون
في سبيل الله .وقال الجمل : " فإن قلت هذا يقتضي أن هؤلاء ماتوا مرتين وهو
مناف للمعروف من أن موت الخلق مرة واحدة؟ قلنا في الجواب : لا منافاة إذ
الموت هنا عقوبة مع بقاء الأجل كما في قوله في قصة موسى : ( ثُمّ
بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ ) وثم موت بانتهاء الأجل ، وتلخيصه
: أنه - سبحانه - أماتهم قبل آجالهم عقوبة لهم ثم بعثهم إلى بقية آجالهم
، وميتة العقوبة بعدها حياة - أي في الدنيا - بخلاف ميتة الأجل - فلا حياة
بعدها في الدنيا - . . "وبعد هذا البيان لمعنى الآية قد يقال : من هم أولئك
القوم الذين خرجوا من ديارهم فراراً من الموت؟ وهل الإماتة والإحياء
بالنسبة لهم كانا على سبيل الحقيقة؟للإجابة على السؤال الأول نقول : لم
يرد حديث صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يبين لنا فيه من هؤلاء
القوم وفي أي زمن كانوا ، وإنما أورد بعض المفسرين عن بعض الصحابة
والتابعين روايات فيها مقال ، وفيها تفصيلات نرى من الخير عدم ذكرها لضعفها
ومن هذه الروايات ما جاء عن ابن عباس أنه قال : كانوا أربعة آلاف خرجوا .
فراراً من الطاعون ، حتى إذا كانوا بموضع كذا أو كذا ماتوا . . ثم أحياهم
الله بدعوة دعاها نبيهم .ومنها أنهم - قوم من بني إسرائيل - فروا من الجهاد
حين أمرهم الله به على لسان نبيهم" حزقيل " وخافوا من الموت في الجهاد
فخرجوا من ديارهم فأماتهم الله ليعرفهم أنه لا ينجيهم من الموت شيء ، ثم
أحياهم وأمرهم بالجهاد . . " .قال القرطبي بعد أن ساق هذه الرواية : وقال
- ابن عطية : وهذا القصص كله لين الأسانيد ، وإنما اللازم من الآية أن الله
تعالى - أخبر نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم إخباراً في عبارة التنبيه
والتوقيف عن قوم من البشر خرجوا من ديارهم فراراً من الموت فأماتهم الله ثم
أحياهم ليروا هم وكل من جاء من بعدهم أن الإماتة إنما هي بيد الله لا بيد
غيره ، فلا معنى لخوف خائف ولا لاغترار مغتر .وجعل الله هذه الآية مقدمة
بين يدي أمر المؤمنين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم بالجهاد . وهذا قول
الطبري وهو ظاهر وصف الآية والذي نراه أن الرواية الثانية التي تقول : إنهم
، قوم من بني إسرائيل فروا من الجهاد حين أمرهم الله به . . معقولة المعنى
، ويؤيدها سياق الآيات ، لأن الآيات تحض الناس على القتال في سبيل الله
وتسوق لهم قصة هؤلاء القوم لكي يعتبروا ويتعظوا ولا يتخلفوا عن الجهاد الذي
- هو باب من أبواب الجنة - كما قال الإمام على بن أبي طالب - ولأن قوله
تعالى : ( وَهُمْ أُلُوفٌ ) يشعر بأنهم مع كثرة عددهم قد نكصوا على أعقابهم

وفروا من وجوه أعدائهم وهذا شأن بني إسرائيل في كثير من أدوار تاريخهم ، وما قاله ابن عطية يشير إليها فهو يقول : وجعل الله هذه الآية مقدمة بين يدي أمر المؤمنين . . . بالجهاد . إلا أنه أثر وصفهم بأنهم قوم من البشر وللإجابة على السؤال الثاني وهو - هل الإماتة والإحياء بالنسبة لهم. كانا على سبيل الحقيقة - نقول : مبلغ علمنا أن المفسرين مجمعون على أن الموت كان موتاً حقيقياً حسياً لهم ، وأن إعادتهم إلى الحياة بعد ذلك كانت إعادة حقيقية حسية .وقد خالف الأستاذ الإمام محمد عبده إجماع المفسرين هذا فرأى أن المراد بالموت في الآية الموت المعنوي بمعنى أن موت الأمم إنما هو في جبنها وذلتها وأن حياتها إنما تكون في عزتها وحريتها ، فقد قال - رحمه الله - ما ملخصه ." . . والمتبادر من السياق أن أولئك القوم خرجوا من ديارهم بسائق الخوف من عدو مهاجم لا من قلتهم ، فقد كانوا ألوفاً أي كثيرين وإنما هو الحذر من الموت الذي يولده الجبن في أنفس الجبناء ، فيريهم أن ، الفرار من القتال هو الواقي من الموت وما هو إلا سبب الموت بما يمكن الأعداء من رقاب أهله ، قال أبو الطيب :يرى الجبناء أن الجبن حزم ... وتلك خديعة الطبع اللئيمثم قال : لقد خرجوا فارين ( فَقَالَ لَهُمُ الله مُوتُواْ ) أي أماتهم بإمكان العدو منهم . . . فمعنى أولئك القوم هو أن العدو نكل بهم فأفنى قوتهم وأزال استقلال أمتهم حتى صارت لا تعد أمة ، بأن تفرق شملها ، وذهبت جامعتها ، فكل من بقي من أفرادها بقي خاضعاً للغالبين ضائعاً فيهم ، لا وجود له في نفسه ، وإنما وجوده تابع لوجود غيره .ومعنى حياتهم هو عود الاستقلال إليهم ، ذلك أن من رحمة الله في البلاء يصيب الناس أنه يكون تأديباً لهم ، ومطهراً لنفوسهم مما عرض لها من دنس الأخلاق الذميمة .أشعر الله أولئك القوم بسوء عاقبة الخوف والجبن والفشل والتخاذل بما أذاقهم من مرارتها ، فجمعوا كلمتهم ، ووثقوا رابطتهم ، حتى عادت لهم وحدتهم ، فاعتزوا وكثروا حتى خرجوا من ذل العبودية التي كانوا فيها إلى عز الاستقلال فهذا معنى حياة الأمم وموتها " .فأنت ترى أن الأستاذ الإمام يرى ، أن الموت والحياة في الآية معنويان ، بمعنى أن موت الأم في جبنها وذلتها وحياتها في استقلالها وحريتها .ولعله - رحمه الله - قد اتجه هذا الاتجاه لأن الحض على القتال في سبيل الله واضح في هذه الآيات ، ولأنه يرى أن واقع العالم الإسلامي يومئذ وما أصابه من ظلم واستبداد واستلاب للحرية يدعوه إلى أن يحرض المسلمين على القتال في سبيل حقهم المسلوب ، وأن يحذرهم من سوء عاقبة الجبن والخنوع .ومع أننا لا نشك في الدوافع الطيبة والبواعث الكريمة التي جعلت الأستاذ الإمام يتجه هذا الاتجاه ، إلا أننا لا نتردد في اختيار ما ذهب إليه المفسرون من أن الموت والحياة في الآية حسيان حقيقيان ، لأنه هو الظهر من معنى الآية الكريمة ، ولأنه يتجه اتجاهاً أعم من اتجاه الإمام محمد عبده ، لأن المفسرين يرون أن الآية واضحة في إثبات قدرة الله وفي صحة - البعث ، وفي الحض على القتال في سبيل الله .قال بعض العلماء : قوله تعالى - : ( أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين خَرَجُواْ ) الآية . " كان المشركون يستفتون اليهود في كثير من الأمور وكانت هذه القصة معلومة لليهود في أسفارهم وتواريخهم ، فنزل القرآن بالإشارة إليها ليرتدع المشركون عما هم فيه من الضلال وإنكار البعث ، ويعلموا أن دلائل القدرة على البعث مشهورة ، وأن عند اليهود منها ما لو رجعوا إليهم فيه لعلموا أنه حق لا ريب فيه . وفي ذكر هذه القصة مع ذلك تشجيع للمؤمنين على الجهاد والتعرض للشهادة ، وتمهيد لما بعد هذه الآية " .ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ( إِنَّ الله لَذُو - فَضْلٍ عَلَى الناس ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَشْكُرُونَ ) أي : إن الله تعالى - لصاحب تفضل دائم على الناس حيث أوجدهم بهذه الصورة الحسنة ، وخلق لهم عقولا ليهتدوا بها إلى طريق الخير ، وسخر لهم الكثير مما في هذا الكون فمن الواجب عليهم أن يشكروه وأن يطيعوه ، ولكن الذي حدث منهم أن أكثرهم . لا يشكرون الله - تعالى - على ما منحهم من نعم .وفي قوله : ( ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَشْكُرُونَ ) إنصاف للقلة الشاكرة منهم ، ومديح لهم على استقامتهم وقوة إيمانهم .

وقاتلوا في سبيل الله واعلموا ان الله سميع عليم

) : كما فسرها الوسيط ثم أمر الله - تعالى - عباده بالجهاد في سبيله فقال ( وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ واعلموا أَنّ الله سَمِيعٌ عَلِيمٌ والسبيل : الطريق . وسميت المجاهدة سبيلا إلى الله لأن الإنسان يسلكها. فيصل إلى ما يرضى الله ، ويعلى كلمته .ويعز دينه .أي ، قالتوا أيها - المسلمون في سبيل إعلاء كلمة الله ، والدفاع عن دينه ، واعلمو أنه سبحانه - عليم بكل أقوالكم صالحها وطالحها ، عليم بكل ما يدور في نفوسكم وخواطركم ، وسيجازي المحسن بإحسانه ، والمسئ بإساءته .فالآية الكريمة تحريض للمؤمنين على القتال من أجل إظهار الدين الحق ، وتحذير لهم من القعود عنه ، وحث لهم على صدق النية وإخلاص العمل لله ، " فقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ، ويقاتل رياء ، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله " .

من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له اضعافا كثيرة والله يقبض ويبسط واليه ترجعون

كما فسرها الوسيط ثم أمر الله - تعالى - عباده بأن ينفقوا أموالهم في الأعمال الصالحة التي من أعظمها الجهاد في سبيله فقال - تعالى - : ( مَّن ذَا الذي يُقْرِضُ اللَّه قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً ) .قال القرطبي : " القرض : اسم لكل ما يلتمس عليه الجزاء وأقرض فلان فلانا أي أعطاه ما يتجازاه . واستقرضت من فلان أي طلبت منه القرض فأقرضني . واقترضت منه أي أخذت القرض . وأصل الكلمة القطع ومنه المقراض . وأقرضته أي قطعت له من مالي قطعة يجازي عليها . . . ثم قال : والتعبير بالقرض في هذه الآية إنما هو تأنيس وتقريب للناس بما يفهمونه ، والله هو الغني الحميد ، لكنه - تعالى - شبه عطاء المؤمن في الدنيا بما يرجو به ثوابه في الآخرة بالقرض كما شبه إعطاء النفوس والأموال في أخذ الجنة بالبيع والشراء . . "والمعنى : من هذا المؤمن القوي الإيمان الذي يقدم ماله في الجهاد من أجل إعلاء كلمة الله ، وفي غير ذلك من وجوه الخير كمعاونة المحتاجين ، وسد حاجة البائسين ، ومساعدة الأمة الإسلامية بما يفيدها ويعليى من شأنها ، ( فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً ) أي فيرد الله - تعالى - إلى هذا الباذل المعطي المقرض بدل ما أعطى وبذل : وأقرض أمثالاً كثيرة لا يعلم مقدارها إلا الله أكرم الأكرمين . إذ المضاعفة ) : معناها إعطاء الشخص أضعاف أي أمثال ما أعطى وبذل .والاستفهام في قوله مَّن ذَا الذي يُقْرِضُ اللَّه . . . ) للحض على البذل والعطاء ، وللتهييج على الاتصاف بالصفات الكريمة ، حتى لكأن المستفهم لا يردي من هو الأهل لهذه الصفات ويريد أن يعرف من هو أهل لها .و ( مّن ) اسم استفهام مبتدأ ، و ) ذَا ) اسم إشارة خبره ، والذي وصلته صفة لاسم الإشارة أو بدل منه .وقوله : حث للناس على إخلاص النية ، وتحرى الحلال فيما ينفقون ( قَرْضاً حَسَناً ) لأن الإنسان إذا تصدق بمال حرام ، أو قصد بنفقته الرياء أو المباهاة لا ، يكون عمله متقبلا عند الله ، وإنما يتقبل الله العمل ويضاعفه لمن قصد به وجهه ، وكن المتصدق به مالا حالا خالصا من الشبهات .فالله - تعالى - طيب لا يقبل إلا ما كان طيبا .ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ( والله يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ) .القبض : ضد البسط . يقال : قبضه بيده يقبضه أي تناوله . وقبض عليه بيده أي أمسكه . ويقال لإمساك اليد عن البذل قبض ومن ذلك قوله - تعالى - : ( وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ) أي يمتنعون عن الإنفاق .والبسط معنه المد والتوسعة . يقال بسط يده أي : مدها . وبسط المكان القوم . وسعهم .والمعنى : والله - تعالى - بيده الإعطاء والنمع فهو يسلب تارة ويعطي أخرى ، أو يسلب قوما ويعطي آخرين ، أو يضيق على بعض ويوسع على بعض حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكمة والمصلحة ، وما دام الأمر كذلك فلا تبخلوا بما وسع عليكم كيلا تتبدل أحوالكم من الغنى إلى الفقر ، ومن السعة إلى الضيق . وأنتم جميعا سترجعون إليه وحده ، وسيجازي - سبحانه - الأسخياء بما يستحقون من كريم الثواب والبخلاء بما هم أهله من شديد العقاب فأنت ترى أن في هذه الآية الكريمة ألوان من الحض على الإنفاق في وجوه الخير ومن ذلك التعبير بالاستفهام ، لأنه للتنبيه وبعث النفوس إلى التدبر والاستجابة .ومن ذلك - أيضا - التعبير بقوله : ( مّن ذَا الذي . . ) فقد جمع هذا التعبير بين اسم الإشارة والاسم الموصول في الاستفهام ، ولا يستفهم بتلك الطريقة إلا إذا كان المقام ذا شأن وخطر ، وكان المخاطب لعظم قدره من شأنه أن يشار إليه وأن يتحدث عنه ومن ذلك تسميته ما يبذل الباذل قرضا ، ولمن هذا القرض إنه لله الذي بيده خزائن السموات والأرض والذي سيرد للباذل أضعاف ما بذل ، فكأنه - سبحانه - يقول لنا : إن ما تدفعونه لن يضيع عليكم بل هو قرض منكم لي ، وسأرده لكم بأضعاف ما دفعتم وأعطيتم . ومن ذلك إخفاء مرات المضاعفة ووصفها بالكثرة في قوله : ( فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً ) أي لا يعلم مقدارها إلا الله .ومن ذلك التعبير بقوله ( والله يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ ) لأنه ما دام العطاء والمنع من الله فلماذا يبخل البخلاء ويقتر المقترون؟ إن على الغني أن يستشعر نعمة الله عليه وأن يتحدث بها بدون رياء وأن ينفق منها في وجوه الخير حتى يزيده الله من فضله ، وإلا ففي قدرة الله أن يسليها منه ، ويحاسبه على بخله حسابا عسيراً .هذه بعض وجوه المبالغة التي اشتملت عليها الآية لحض الناس على الإنفاق في الجهاد وفي وجوه الخير ، ولقد استجاب السف الصالح لهذه التوجيهات ، وحكى لنا التاريخ أمثلة كريمة من سخائهم وبذلهم .ومن خير الأمثلة على ذلك ما جاء عن عبد الله بن مسعود قال :" لما نزلت : ( مّن ذَا الذي يُقْرِضُ الله قَرْضاً حَسَناً ) " قال أبو الدحداح : يا رسول الله أو إن الله - تعالى - يريد منا القرض؟ " قال نعم يا أبا الدحداح " قال أرني يدك . فناوله النبي صلى الله عليه وسلم يده . فقال أبو الدحداح : فإني أقرضت الله - تعالى - حائطا فيه ستمائة نخلة . ثم جاء يمشي حتى أتى الحائط وأم الدحداح فيه وعياله ، فناداها : يا أم الدحداح ، قالت : لبيك قال :

أخرجي قد أقرضت ربي حائطاً فيه ستمائة نخلة " .وفي رواية لزيد بن اسلم " أن أبا الدحداح قال للنبي صلى الله عليه وسلم إن لي حديقتين إحداهما بالسافلة والأخرى بالعالية والله لا أملك غيرهما قد جعلتهما قرضا لله - تعالى - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " اجعل إحداهما والأخرى دعها معيشة لك ولعيالك " قال : فأشهدك يا رسول أني قد جعلت خيرهما لله وهو حائط فيه ستمائة نخلة . قال : " إذا يجزيك الله به الجنة ، ثم انطلق أبو الدحداح إلى زوجته وهي مع صبيانها في الحديثة تدور تحت النخل فأخبرها بما فعل . فأقبلت على صبيانها تخرج ما في أفواههم وتنفض ما في أكمامهم حتى أفضت إلى الحائط الآخر " .وبهذا نرى السلف الصالح قد امتثل ما أمره الله به من إنفاق في سبيله ومن جهاد لإعلاء كلمته فهل آن الأوان للمسلمين أن ينهجوا نهجهم لكي يسعدوا كما سعدوا ، وينالوا أشرف حياة وأعزها؟ اللهم خذ بيدنا إلى ما يرضيك ، ثم ساق القرآن قصة من قصص بني إسرائيل مع أنبيائهم ، فيها العظات والعبر. وملخص هذه القصة : أن قوما من بني إسرائيل كانوا قد انهزموا أمام أعدائهم هزيمة منكرة جعلتهم يولون الأدبار تاركين ديارهم وأبناءهم ، فقالوا لنبي لهم بعد أن ذاوا مرارة الهزيمة : أبعث لنا مالكا يقودنا للقتال في سبيل الله ، ففال لهم نبيهم بعد أن حذرهم من عاقبة الجبن والكذب : اختاره الله قائدا لهم ، ولكن نبيهم ساق لهم من الحجج التي تدل على صلاحية طالوت لهذا المنصب ما أخرس ألسنتهم . . ثم سار طالوت بجنوده لقتال أعدائه ، وفي الطريق قال لمن معه ( إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنيٌ إِلاَّ مَنِ اغترف غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ ) ثم بعد هذه المخالفة جبن أكثرهم عن قتال أعدائهم وقالوا ( لاَ طَاقَةَ لَنَا اليوم بِجَالُوتَ وَجُنودِهِ ) ولكن الفئة القليلة المؤمنة منهم استطاعت أن تنتصر على كل عقبة في طريقها ، وأن تقاتل أعداءها بشجاعة وصبر واعتماد على الله ، فكانت النتيجة أن انتصرت الفئة القليلة المؤمنة بقيادة طالتوت على الفئة الكثيرة الكافرة بقيادة جالوت . هذا تلخيص لتلك القصة العامرة بالعظات ، ولعل من الخير قبل أن نبدأ في تفسير آياتها أن نقرأها بتدبر وتأمل كما صورها القرآن بأسلوبه البليغ المؤثر .قال - تعالى - :( أَلَمْ تَرَ إِلَى الملإ مِن بني إِسْرَائِيلَ ) . . .

الم تر الى الملا من بني اسرائيل من بعد موسى اذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله قال هل عسيتم ان كتب عليكم القتال الا تقاتلوا قالوا وما لنا الا نقاتل في سبيل الله وقد اخرجنا من ديارنا وابنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا الا قليلا منهم والله عليم بالظالمين

كما فسرها الوسيط قوله - تعالى - : ( أَلَمْ تَرَ إِلَى الملإ مِن بني إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ موسى ) إلخ استئناف ثان بعد قول قبل ذلك : ( أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ ) وقد سيق هذا الاستئناف مساق الاستدلال لقوله - تعالى - : ( وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ الله ) حتى تتشجع النفوس على الجهاد ، وتهون عليها المصاعب في سبيل حياة العزة والكرامة .و ( الملإ ) الأشراف من الناس . وهو اسم للجماعة لا واحد له من لفظه . وإنما سمى الأشراف بذلك لأن هيبتهم تملأ الصدور ، أو لأنهم يتمالؤون أي يتعاونون في شئونهم ، وأصل الباب الاجتماع بما لا يحتمل المزيد والمعنى : كما سبق أن بينا في قوله : ( أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين خَرَجُواْ . قد علمت أيها العاقل حال أولئك القوم من بني إسرائيل الذين كانوا بعد ( وفاة موسى - عليه السلام - إذ قالوا لنبي لهم أقم لنا أميراً لكي نقاتل معه في سبيل الله . ومن لم يعلم فها فنحن أولاء نعلمه بحالهم فعليه أن يعتبر ويتعظ .فقوله : ( مِن بَعْدِ موسى ) بيان للزمن الذي كان يعيش فيه أولئك الملأ من بني إسرائيل والمراد بالنبي الذي قالوا له ( ابعث لَنَا مَلِكاً نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ الله ) على الراجح - " شمويل بن حنة " وكان السبب في طلبهم هذا من نبيهم أن العمالقة أتباع جالوت كانوا قد أخرجوهم من ديارهم ، وأنزلوا بهم هزائم شديدة ، فطلبوا من ذلك لكي يستردوا مجدهم الضائع ، وعزهم المسلوب ، على يد هذا القائد المختار من جهة نبيهم .وفي الإتيان بلفظ هذا النبي بصيغة التنكير إشارة إلى أن محل العبرة ليس هو شخص النبي وإنما المقصود معرفة حال أولئك القوم ، وما جرى لهم مع نبيهم من أحداث من شأنها أن تدعو إلى الاعتبار والاتعاظ . وهذه طريقة القرآن في سرد القصص لا يهتم بالأشخاص والأزمان إلا بالقدر الذي يستدعيه المقام . أما الاهتمام الأكبر فيجعله لما اشتملت عليه القصة من وجوه العظات والعبر .ويبدوا أنه كان يتوجس منهم خيفة لأنه أعرف بطبيعتهم ، فنراه يقول لهم كما حكى القرآن عنه : ( قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ القتال أَلاَّ تُقَاتِلُواْ ) .فالاستفهام للتقرير والتحذير . أي إني أتوقع عدم قتالكم ، إذا فرض عليكم القتال ، فراجعوا أنفسكم وقوتكم قبل أن تطلبوا هذا الطلب لأنه إذا فرض عليكم ثم نكصتم على أعقابكم فإن عاقبتكم ستكون شراً لا شك في ذلك .وعسى هنا بمعنى التوقع والمقاربة . والجملة استئناف بياني .قال صاحب

الكشاف؛ والمعنى : هل قاربتم ألا تقاتلوا؟ يعني هل الأمر كما أتوقعه أنكم
لا تقاتلون؟ أراد أن يقول : عسيتم ألا تقاتلوا بمعنى أتوقع جبنكم عن القتال
فأدخل ( هَلْ ) مستفهماً عما هو متوقع عنده ومظنون وأراد بالاستفهام
: التقرير وتثبيت أن المتوقع كائن وأنه صائب في توقعه .وخبر ( عَسَيْتُمْ )
: ألا تقاتلوا " والشرط فاصل بينهما .ثم حكى القرآن ردهم على نبيهم فقال "
قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ الله وَقَدْ )
أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا ) .أي قال الملإ من بني
إسرائيل على سبيل الإنكار والتعجب مما قاله نبيهم : وأي صارف يصرفنا عن
القتال وحالنا كما نرى؟ إننا قد أخرجنا من ديارنا وحيل بيننا وبين أبنائنا
، وفلذات قلوبنا فكيف لا نقاتل مع أن الدواعي موجودة ، والبواعث متوفرة
، والأسباب مهيئة؟ فأنت تراهم في إجابتهم هذه يستنكرون ما توقعه نبيهم منهم
ويجزمون بأن الطريق الوحيد لعزتهم إنما هو القتال وأن هذا الأمر لا مراجعة
فيه ولا جدال . وهكذا شأن الجبناء والمغرورين في كل زمان ومكان يرحبون
بالمعارك قبل قدومها فإذا ما جد الجد كذبت أعمالهم أقوالهم ، وأعطوا
أدبارهم لأعدائهم!ثم حكى القرآن أن نبيهم كان صادقاً فيما توقعه منهم من
: - جبن وكذب ، وأنهم قو م يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم فقال - تعالى
فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ القتال تَوَلَّوْاْ إِلاَّ قَلِيلاً )
مِّنْهُمْ ) .أي : فحين فرض عليهم القتال بعد أن الحوا في طلبه ، أعرضوا
عنه ، ونفروا منه إلا عدداً قليلا منهم فإنه ثبت على الحق ، ووفى بعهده
قال الآلوسي : وقوله ( إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ ) وهم الذين جاوزوا.
النهر وكانوا ثلثمائة وثلاثة عشر عدة أهل بدر على ما أخرجه البخاري عن
البراء - رضي الله عنه - والقلة إضافية فلا يرد وصف هذا العدد أحيانا بأنه
جم غفير .ثم ختم الله - تعالى - عليم بالظالمين الذين يظلمون أنفسهم وأمتهم
. بترك الجهاد ، وبترك ما أمرهم الله به بعد أن عاهدوه على عدم الترك

وقال لهم نبيهم ان الله قد بعث لكم طالوت ملكا قالوا انى يكون له الملك
علينا ونحن احق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال ان الله اصطفاه عليكم
وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم

كما فسرها الوسيط ثم بين القرآن ما أخبرهم به نبيهم ليحملهم على الطاعة
والامتثال فقال - تعالى - : ( وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ الله قَدْ
بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً ) .أي وقال لهم بعد أو أوحى إليه بما يوحى
إن الله - تعالى - وهو العليم الخبير بأحوال عباده قد بعث لكم ومن أجل :
، مصلحتكم طالوت ليكون ملكاً عليكم ، وقائدا لكم في قتالكم لأعدائكم
فأطيعوه واتبعوا ما يأمركم به .و ( طَالُوتَ ) اسم أعجمي قيل هو المسمى في
التوراة باسم " شاول " وقيل إن هذا الاسم لقب له من الطول كملكوت من الملك
لأن طالوت كان طويلا جسيما .ولقد كان الذي يقتضيه العقل أن يطيعوا أمر ،
نبيهم ، ولكنهم لجوا في جدالهم وطغيانهم وقالوا لنبيهم معترضين على من
اختاره الله قائدا لهم . ( أَنى يَكُونُ لَهُ الملك عَلَيْنَا وَنَحْنُ
أَحَقُّ بالملك مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ المال ) .( أنى ) أداة
استفهام بمعنى كيف ، والاستفهام هنا للتعجب من جعل طالوت ملكاً عليهم . أي
قالوا لنبيهم منكرين ومتعجبين من اختيار طالوت ملكاً عليهم : كيف يكون له
الملك علينا والحال أننا أحق بالملك منه لأننا أشرف منه نسباً ، إذ منا من
هو نسل الملوك أما طالوت فليس من نسلهم ، وفضلا عن ذلك فهو لا يملك من
المال ما يملكه بعضنا فكيف يكون هذا الشخص ملكاً علينا؟فأنت تراهم لانعدام
المقاييس الصحيحة عندهم ظنوا أن المؤهلات الحقيقية لاستحقاق الملك والقيادة
، إنما تكون بالنسب وكثرة المال أما الكفاءة العقلية ، والقوة البدنية
والقدرة الشخصية فلا قيمة لها عندهم لانطماس بصيرتهم ، وسوء تفكيرهم .قال
بعضهم : " وسبب هذا الاستبعاد أن النبوة كانت مخصوصة بسبط معين من أسباط
بني إسرائيل وهو سبط لاوى بن يعقوب . وسبط المملكة . بسبط يهوذا ، ولم يكن
) : طالوت من أحد هذين السبطين بل من ولد بنيامين . والواو في قوله
وَنَحْنُ أَحَقُّ ) للحال ، والواو الثانية في قوله : ( وَلَمْ يُؤْتَ )
: عاطفة جامعة للجملتين في الحكم .ثم حكى القرآن ما رد به نبيهم عليهم فقال
قَالَ إِنَّ الله اصطفاه عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي العلم والجسم )
والله يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَآءُ والله وَاسِعٌ عَلِيمٌ ) .أي قال لهم
نبيهم مدللا على أحقية طالوت بالقيادة : إن الله - تعالى - ( اصطفاه
عَلَيْكُمْ ) أي اختاره وفضله عليكم واختياره يجب أن يقابل بالإذعان
- والتسليم . وثانيا : ( وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي العلم ) أي أن الله
تعالى - منحه سعة في العلم والمعرفة والعقل والإحكام في التفكير المستقيم
لم يمنحها لكم ، وثالثاً : في ( والجسم ) بأن أعطاه جسماً قوياً ضخماً
مهيباً . وهذه الصفات ما وجدت في شخص إلا وكان أهلا للقيادة والريادة وفضلا
عن كل ذلك فمالك الملك هو الذي اختاره فكيف تعترضون يا من تدعون أنكم
تريدون القتال في سبيل الله؟ لذا نراه - سبحانه - يضيف الملك الحقيقي إليه
فيقول : ( والله يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَآءُ ) أي : يعطي ملكه لمن يشاء

من عباده لحكمة يعلمها . فلا يجوز لأحد أن يعترض على اختياره ، والله واسع الفضل والعطاء " عليم . "

وقال لهم نبيهم ان اية ملكه ان ياتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك ال موسى وال هارون تحمله الملائكة ان في ذلك لاية لكم ان كنتم مؤمنين

كما فسرها الوسيط ثم حكى القرآن أن نبيهم لم يكتف بهذه الدلائل الدالة على صلاحية طالوت للقيادة ، وإنما ساق لهم بعد ذلك من العلامات التي تشهد بحقيته بهذا المنصب ما يثبت قلوبهم ، ويزيل شكهم ويشرح نفوسهم فقال - تعالى - :( وَقَالَ لَهُمْ نِبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أن يَأْتِيَكُمُ التابوت ) أي أن يرد عليكم التابوت الذي سلب منكم ( فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ) أي في إتيانه سكون لنفوسكم وطمأنينة لها أو مودع فيه ما تسكنون إليه وهو التوراة ( وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آل موسى وَآلُ هَارُونَ ) من آثار تعتزون بها ، وترون فيها صلة بين ماضيكم وحاضركم وقوله ( تَحْمِلُهُ الملائكة ) حال من التابوت .قال صاحب الكشاف : قوله : ( وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آل موسى وَآلُ هَارُونَ ) هي رضاض الأولواح وعصا موسى وثيابه وشيء من التوراة . وكان رفعه الله - تعالى - بعد موسى - عليه السلام - فنزلت به الملائكة تحمله وهم ينظرون إليه ، فكان ذلك آية لاصطفائه لطالوت . فإن قلت : من هم ( آل موسى وآل هارون ) . قلت : الأنبياء من بني يعقوب بعدهما ، ويجوز أن يراد مما تركه موسى وهارون والآل مقحم لتفخيم شأنهما .وقال ابن كثير : قال ابن عباس : جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض حتى وضعته بين يدي طالوت والناس ينظرون .ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ( إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ ) أي : إن في ذلك الذي أتاكم به طالوت الآية عظيمة وعلامة ظاهرة لكم تدل على أحقية طالوت بالملك والقيادة إن كنتم مؤمنين بآيات الله وبالحق الذي جاء به أنبياؤه .وبذلك نرى أن القرآن الكريم قد حكى لنا أن هؤلاء القوم من بني إسرائيل قد جاءهم نبيهم بأنصع الحجج ، وأوضح الأدلة ، وأثبت البراهين التي تؤيده فيما يدعوهم إليه .

فلما فصل طالوت بالجنود قال ان الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فانه مني الا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه الا قليلا منهم فلما جاوزه هو والذين امنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده قال الذين يظنون انهم ملاقو الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما دار بين طالوت وجنوده فقال فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بالجنود قَالَ إِنَّ الله مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ ( فَصَلَ ). ( بمعنى الفصل . قال الزمخشري : " فصل عن موضع كذا : إذا انفصل عنه وجاوزه . وأصله فصل نفسه . ثم كثر : حذف المفعول حتى صار في حكم غير المتعدي كانفصل . وقيل : فصل عن البلد فصولا . ويجوز أن يكون فصله فصلا ، وفصل فصولا كوقف وصد ونحوهما والمعنى انفصل عن بلده . "و ( النهر ) بالفتح والسكون - : المجرى الواسع الذي يجري فيه الماء مأخوذ من نهر الأرض بمعنى شقها .أي : فلما انفصل بهم عن المكان الذي كانوا يقيمون فيه ، وتوجهوا معه لقتال جالوت وجنوده ، قال لهم ( إِنَّ الله مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ ) أي مختبركم وممتحنكم بنهر ، وكان طالوت قد سار بهم في أرض قفرة فأصابهم عطش شديد . وفي هذا الابتلاء اختبار لعزيمتهم ، وامتحان لصبرهم على المتاعب حتى يتميز من يصير على الحرب ممن لا يصبر ، ومن شأن القواد الأقوياء العقلاء أنهم يختبرون جنودهم قبل اقتحام المعارك حتى يكونوا على بينة من أمرهم . ثم بين لهم موضع الاختبار فقال . ( فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مني إِلاَّ مَنِ اغترف غُرْفَةً بِيَدِهِ ) .( يَطْعَمْهُ ) أي يذقه من طعم الشيء يطعمه إذا ذاقه مأكولا أو مشروبا .( الغرفة ) - بالضم - اسم للشيء المغترف وجمعه غراف . وأما الغرفة - بالفتح - فهي اسم للمرأة الواحدة من الغرف وقيل : هما لغتان بمعنى واحد .أي قال لهم طالوت : من شرب من هذا النهر فليس من شيعتي ، فعليه أن يتركني ولا يصاحبني في خوض هذه المعركة لأنه ثبت ضعفه وخوره ، ومن لم يذقه أصلا فإنه من شيعتي وحزبي الذي سكيون معي في هذه المعركة الخطيرة . ثم أباح لهم أن يغترفوا من النهر غرفة يخففون بها من عطشهم فقال : ( إِلاَّ مَنِ

اغترف غُرْفَةً بِيَدِهِ ) فإنه لا يخرج بذل عن كونه منى .وفي هذه الجملة
الكريمة قدم - سبحانه - جواب الشرط على الاستثناء من الشرط فقد قال ( وَمَن
( لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مني إِلاَّ مَنِ اغترف غُرْفَةً بِيَدِهِ
والتأليف المعهود للناس أن يقال : ( ومن لم يطعمه إلا من اغترف بيده فإنه
، منى ) ولكن الآية الكريمة جاءت بتقديم الجواب على الاستثناء لحكمه بليغه
وهي المسارعة إلى بيان الحكم ، وإثبات أن أساس الصلة التي تربطهم بنبيهم أن
يمتثلوا أمره وألا يشربوا من النهر ، ثم رخص لهم بعد ذلك في الاغتراف باليد
غرفة واحدة .وقد أشار صاحب الكشاف إلى هذا المعنى فقال : فإن قلت : مم
استثنى قوله ( إِلاَّ مَنِ اغترف ) قلت : من قوله : ( فَمَن شَرِبَ مِنْهُ
فَلَيْسَ مِنِّي ) والجملة الثانية في حكم المتأخرة إلا أنها قدمت للعناية
- ومعناه :" الرخصة في اغتراف الغرفة باليد دون الكروع " .ثم ختم . ،
سبحانه - ما كان من بني إسرائيل نتيجة لهذا الامتحان فقال : ( فَشَرِبُواْ
مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ ) .أي : فشربوا من النهر حتى امتلأت
بطونهم مخالفين بذلك أمر قائدهم في وقت تعظم فيه المخالفة لأنه وقت إقدام
على الحرب ، إلا عدداً قليلا منهم فإنهم لم يشربوا إلا كما رخص لهم قائدهم
وعلى هذا التفسير - الذي قال به جمهور المفسرين - يكون جميع الذين مع .
طالوت قد شربوا من النهر إلا أن كثيراً منهم قد شربوا حتى امتلأت بطونهم
مخالفين أمر قائدهم ، وقلة منهم شربت غرفة واحدة وهي التي رخص لهم قائدهم
في شربها .وبعض المفسرين يقسم اتباع طالوت ثلاثة أقسام :قسم شرب كثيراً
مخالفاً أمر طالوت .وقسم شرب غرفة واحدة بيده كما رخص له قائده .وقسم لم
يشرب أصلا لا قليلاً ولا كثيراً مؤثراً العزيمة على الرخصة وهذا القسم هو
الذي اعتمد عليه طالوت اعتماداً كبيراً في تناوله لأعدائه .وممن ذكر هذا
التقسيم من المفسرين الإمام القرطبي فقد قال : " قال ابن عباس : شربوا على
، قدر يقينهم ، فشرب الكفار شرب الهيم ، وبقي بعض المؤمنين لم يشرب شيئاً
وأخذ بعضهم الغرفة ، فأما من شرب فلم يرو بل برح به العطش ، وأما من ترك
الماء فحسنت حاله وكان أجلد ممن أخذ الغرفة " .ثم بين - سبحانه - ما كان من
أتباع طالوت بعد اجتيازهم للنهر معه فقال : ( فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ
والذين آمَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ لاَ طَاقَةَ لَنَا اليوم بِجَالُوتَ
وَجُنودِهِ ) .أي : فلما جاوز طالوت ومن معه النهر وتخطوه ، وشاهدوا كثرة
جند جالوت ، قال بعض الذين مع طالوت لبعض بقلق ووجل :لا قدرة لنا اليوم
على محاربة أعدائنا ومقاومتهم فهم أكثر منا عَدداً ، وأوفر عُددا .والضمير
في قوله : ( هُوَ والذين آمَنُواْ مَعَهُ ) مؤكد للضمير المستكن في ( هو )
جاوز . والقائلون ، هذا القول هم بعض المؤمنين الذين عبروا معه النهر ، ولم
يقولوا ذلك هروباً أو نكوصاً عن القتال ، وإنما قالوه كمظهر من مظاهر الوجل
الذي يعتري بعض النفوس عند الاستعداد للقتال ، لأن الذين عصوا الله وخالفوا
طالوت بشربهم من النهر جبنوا عن لقاء العدو ولم يسيروا معه لقتالهم . أما
المؤمنون الصادقون الذين اتصلت قلوبهم بالله ، والذين أذعنوا أنه لا نصر
) : إلأا منه ولا اعتماد إلا عليه ، فقد حكى القرآن موقفهم المشرف فقال
قَالَ الذين يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُواْ الله كَم مِّن فِئَةٍ
( قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ الله والله مَعَ الصابرين
أي : قال الذين يتيقنون أنهم ملاقوا الله يوم القيامة فيحاسبهم على.
أعمالهم . قالوا مشجعين لإخوانهم الذين تهيبوا قتال أعدائهم : كم من جماعة
قليلة بإيمانها وصبرها تغلبت بإذن الله وتيسيره على جماعة كثيرة بسبب كفرها
وجبنها وتفككها ، والله - تعالى - بعونه وتأييده مع الصابرين .وعلى هذا
التفسير يكون المراد بلقاء الله الحشر إليه بعد الموت ، ومجازاة الناس على
ما قدموا من عمل ، ويكون المراد بالظن اليقين لأن كل مؤمن متيقن بأن البعث
حق .ويجوز أن يكون المراد بلقاء الله قربهم من رضاه يوم القيامة ، وإثابتهم
على جهادهم بالجنة ، وعليه يكون الظن على معناه الحقيقي وهو الاعتقاد
الراجح ، لأن خواتيم الحياة لا يعلمها كيف تكون سوى علام الغيوب .و ( كم )
في قولهم ( كَم مِّن فِئَةٍ ) خبرية للتكثير ، وفي هذا التعبير الذي حكاه
القرآن عنهم دليل على قواه إيمانهم وصفاء نفوسهم وثقتهم في نصر الله ثقة لا
تحد ، لأنهم أتوا بصيغة التكثير حتى لكأنما أن القاعدة العامة هي انتصار
الفئة القليلة على الفئة الكثيرة الكافرة .وفي تعليقهم النصر على إذن الله
للإشعار بأنهم لم يعتمدوا على قوتهم وثباتهم وشجاعتهم فحسب وإنما جعلوا
اعتمادهم الأكبر على تأييد الله لهم . وهذا شأن العقلاء يبذلون أقصى جهدهم
في بلوغ غايتهم مستعينين على ذلك بتأييد الله وتوفيقه .ورحم الله الإمام
القرطبي الذي عاصر دول الإسلام في الأندلس وهي تسير في طريق الضعف
والتدهور فقد قال في ختام تفسيره لهذه الآية : قلت : هكذا يجب علينا أن
نفعل؟ لكن الأعمال القبيحة والنيات الفاسدة ، منعت من ذلك حتى انكسر العدد
الكبير منا أمام اليسير من العدو وكما شاهدناه غير مرة ، وذلك بما كسبت
أيدينا! وفي البخاري : وقال أبو الدرداء : إنما تقاتلون بأعمالكم . وفي
البخاري - أيضاً - أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " هل تنصرون وترزقون
إلا بضعفائكم " فالأعمال فاسدة والضعفاء مهملون والصبر قليل ، والاعتماد
ضعيف ، والتقوى زائلة!! قال - تعالى - : ( اصبروا وَصَابِرُواْ

) : وَرَابِطُواْ واتقوا الله ) وقال : ( وَعَلَى الله فتوكلوا ) وقال
) : إِنّ الله مَعَ الذين اتقوا والذين هُم مُّحْسِنُونَ ) وقال
وَلَيَنصُرَنَّ اللّهُ مَن يَنْصُرُهُ ) وقال : ( إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً
فاثبتوا واذكروا الله كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ ) فهذه أسباب
النصر وشروطه وهي معدومة عندنا غير موجودة فينا ، فإنا لله وإنا إليه
راجعون على ما أصابنا وحل بنا " .

ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا افرغ علينا صبرا وثبت اقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين

كما فسرها الوسيط ثم حكى القرآن بعد ذلك ما قاله المؤمنون الصادقون عندما
برزوا للقاء أعدائهم فقال :( وَلَمّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ
قوله : ( بَرَزُواْ ) أي صاروا إلى إبراز الأرض وهو ما انكشف منها( . .
بحيث يصير كل فريق من المتقاتلين يرى صاحبه ، ومنه سميت المبارزة في الحرب
، لظهور كل قرن إلى قرنه . أي : وحين برز طالوت ومن معه لقتال جالوت وجنوده
وأصبح الفريقان في مكان متسع من الأرض بحيث يرى كل فريق خصمه اتجه المؤمنون
إلى الله - تعالى - بالدعاء قائلين بإخلاص وخشوع :( رَبّنَآ أَفْرِغْ
، عَلَيْنَا صَبْراً ) أي : أفض علينا صبرا يعمنا ، ويملأ قلوبنا ثقة بنصرك
ويحبس نفوسنا على طاعتك .قال الإمام الرازي ما ملخصه ، الإفراغ : الصب .
يقال أفرغت الإناء إذا صببت ما فيه .وقولهم هذا يدل على المبالغة في طلب
الصبر من وجهين :أحدهما : أنه إذا صب الشيء في الشيء فقد أثبت فيه بحيث لا
يزول عنه وهذا يدل على التأكيد .والثاني : " أن افراغ الإناء هو إخلاؤه
وذلك يكون بصب كل ما فيه ، فمعنى أفرغ علينا صبرا ، أي أصبب علينا أتم صب
وأبلغه - حتى تتحقق فينا صفة الصبر كأحسن ما يكون التحقق " .أما الدعوة
الثانية فقد قالوا فيها - كما حكى القرآن عنها - ( وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا
أي هب لنا من كمال القوة والرسوخ عند القتال ما يجعلنا نثبت أمام أعدائنا (
- ونتمكن من رقابهم دون أن يتمكنوا منا . فهذا الدعاء كناية عن أن يمنحهم ،
) : سبحانه - الثبات عند الزحف ، وعدم الفرار عند القتال .وفي قوله
وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ) تعبير بالجزء عن الكل ، لأن الأقدام هي التي يكون
بها الفرار ، فتثبيتها إبعاد عن الفرار ، ومتى حصل الثبات كان النصر
متوقعاً ، والصبر متحققاً .ثم ختموا دعاءهم بأن قالوا : ( وانصرنا عَلَى
القوم الكافرين ) أي اجعل الغلبة لنا عليهم ، لأننا مؤمنون بأنك المعبود
المستحق للعبادة وهم يكفرون بذلك .والمتأمل في هذه الدعوات الثلاث يراها قد
جمعت أسمى ألوان الأدب وحسن الترتيب ، فهم قد صدروا دعاءهم بالتوسل بوصف
الربوبية فقالوا ( رَبّنَآ ) أي يا خالقنا ويا منشئنا ويا مربينا ويا
مميتنا ، وفي ذلك إشعار أنهم يلجأون إلى من بيده وحده النفع والضر ، والنصر
والهزيمة . ثم افتتحوا دعاءهم بطلب الصبر عند المخاوف لأنه هو عدة القتال
الأولى ، وركنه الأعلى ، إذ به يكون ضبط النفس فلا تفزع ، وبه يسكن القلب
فلا يجزع . ثم التمسوا منه - سبحانه - أن يثبت أقدامهم عند اللقاء لأن هذا
الثبات هو مظهر الصبر ، ووسيلة النصر ، وعنوان القوة . ثم ختموا دعاءهم بما
هو ثمرة ونتيجة للصبر والثبات وهو النصر على الأعداء .

فهزموهم باذن الله وقتل داوود جالوت واتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ولكن الله ذو فضل على العالمين

كما فسرها الوسيط فماذا كانت نتيجة هذا الدعاء الخاشع الخالص؟ كانت نتيجته
النصر المؤزر الذي حكاه القرآن في قوله : ( فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ الله )
وأصل الهزم في اللغة الكسر .ومنه سقاء منهزم أي انثنى بعضه على بعض مع
الجفاف . ويقال للسحاب هزيم ، لأنه يتشقق بالمطر . والفاء هنا فصيحة أو
سببه أي أنهم بسبب دعائهم المخلص ، وإيمانهم القوى ، واستجابتهم لما أمرهم
الله به ، استطاعوا أن يكسروا أعداءهم ويهزموهم ، وقوله ، ( بِإِذْنِ الله
أي بتوفيقه وتيسيره وتأييده . والباء إما للاستعانة والسببية وإما (
للمصاحبة . ثم قال - تعالى - : ( وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ ) أي : وقتل
، داود بن إيشا - وكان في جيش طالوت - جالوت الذي كان يقود جيش الكفر
وبقتله مزق أتباعه شر ممزق ، ورزق الله طالوت ومن معه النصر والغلبة .ثم
بين - سبحانه - ما منحه لداود من نعم فقال : ( وَآتَاهُ الله الملك والحكمة
وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَآءُ ) والحكمة المراد بها هنا النبوة ، ولم يجتمع
الملك والنبوة لأحد قبله في بني إسرائيل ، وورثه فيهما ابنه سليمان - عليه
السلام - .أي : وأعطى الله - تعالى - عبده داود ملك بني إسرائيل وأعطاه
النبوة التي هي أشرف من الملك زيادة في ترقيته في درجات الشرف والكمال
، وعلمه - سبحانه - مما يشاء من فنون العلم ، ومن أمور الدين والدنيا كمعرفته
لغة الطيور ، وكلام الدواب ، وصناعة آلات الحرب وغير ذلك من ألوان العلوم
المختلفة التي لا تحدها إلا مشيئة الله وإرادته .وفي قوله - تعالى - : (

وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَآءُ ) بعد الإخبار بأنه - سبحانه - آتى داود
الحكمة ، إشعار بأن الإنسان لا يستغني عن التعلم سواء أكان نبيا أم لم يكن
لأن داود - عليه السلام - مع حصولة على النبوة لم يستغن عن تعليم الله ،
إياه ، وقد أمر الله - تعالى - نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم أن يلتمس
- المزيد من العلم فقال : ( وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً ) ثم بين
سبحانه - بعض مظاهر فضله على عباده فقال : ( وَلَوْلاَ دَفْعُ الله الناس
- بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأرض ) .أي : ولولا أن الله - تعالى
يدفع أهل الباطل بأهل الحق ، لفسدت الأرض ، وعمها الخراب لأن أهل الفساد
إذا تركوا من غير أن يقاوموا استطارت شرورهم ، وتغلبوا على أهل الصلاح
والاستقامة ، وتعطلت مصالح الناس ، وانتشر الفساد في الأرض .فلولا في
الجملة الكريمة حرف امتناع لوجود . أي : امتنع فساد الأرض لأجل وجود دفع
الناس بعضهم ببعض .فالجملة الكريمة تأمر في كل زمان ومكان أن يقفوا في وجوه
الأشرار ، وأن يقاوموهم بكل وسيلة من شأنها أن تحول بينهم وبين الفساد
والطغيان .ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ( ولكن الله ذُو فَضْلٍ عَلَى
العالمين ) .أي : ولكن الله - تعالى - صاحب فضل عظيم ، وإنعام كبير على
الناس أجمعين ، لأنه وضع لهم هذا التنظيم الحكيم الذي أوجب فيه على
المصلحين أن يدافعوا المفسدين ، وأن يقاوموهم بالطريقة التي تمنع فسادهم
حتى ولو أدى ذلك إلى رفع السلاح في وجوههم ، لأن السكوت عن فساد المفسدين
سيؤدي إلى العقاب الذي يعمهم ويصيب معهم المصلحين .

تلك ايات الله نتلوها عليك بالحق وانك لمن المرسلين

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - قصة هؤلاء القوم من بني إسرائيل بقوله
تِلْكَ آيَاتُ الله نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بالحق وَإِنَّكَ لَمِنَ ) :
المرسلين ) .أي : تلك الآيات التي حدثناك فيها عن قصة أولئك القوم وما جرى
لهم هي آيات الله التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها
، ونتلوها عليك يا محمد عن طريق جبريل الأمين تلاوة ملتبسة بالحق الثابت الذي
لا يحوم حوله الباطل ، وإنك يا محمد ( لَمِنَ المرسلين ) الذين أرسلهم
الله - تعالى - ( بالهدى وَدِينِ الحق لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدين كُلِّهِ
وَلَوْ كَرِهَ المشركون ) فالإشارة في قوله : ( تِلْكَ آيَاتُ الله ) إلى
الآيات المتلوة من قوله - تعالى - : ( أَلَمْ تَرَ إِلَى الملإ مِن بني
إِسْرَائِيلَ ) إلى آخر القصة . وقيل إليها وإلى القصة التي قبلها وهي قصة
القوم ( الذين خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الموت )
وكانت الإشارة للبعيد ، لما في ذلك من معنى الاستقصاء للآيات ، ولعلو
شأنها ، وكمال معانيها ، والوفاء في مقاصدها .وأضيفت الآيات إلى الله لأنها
جزء من هذا القرآن الذي أنزله - سبحانه - على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم
ليكون هداية للناس ، وليحملهم على تدبرها والاعتبار بها لأنها من عند الله
الذي شرع لهم ما يسعدهم .وجعل - سبحانه - تلاوة جبريل للقرآن تلاوة له فقال
للإشعار بشرف جبريل ، وأنه ما خرج في ( نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بالحق ) :
) تلاوته عما أمره الله به ، فهو رسوله الأمين إلى رساله المكرمين .وجملة
نَتْلُوهَا عَلَيْكَ ) في محل نصب حال من الآيات والعامل فيها معنى
الإشارة .وقوله : ( بالحق ) في موضع نصب حال من مفعول نتلوها أي ملتبسة
باليقين الذي لا يرتاب فيه عاقل . أو من فاعله أي : نتلوها عليك ملتبسين
" بالحق والصواب .وأكد - سبحانه - قوله ( لَمِنَ المرسلين ) بحرف " إن
وباللام في " لمن " وبالجملة الأسمية ، للرد على من شكك في صدق رسالته صلى
الله عليه وسلم ولتسليته عما يقوله الجاحدون في شأنه .وبعد : فهذه قصة
الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى ، وإن فيها لعبرا متعددة ، وعظات متنوعة
، لقوم يعقلون . من العبر التي تؤخذ منها :1 - أن الشعور بالظلم والهوان
والابتلاء بالمحن والهزائم ، والوقوع تحت أيدي المعتدي ، كل ذلك من شأنه أن
يصهر النفوس الحرة الكريمة ، وأن يدفعها بقوة إلى الذود عن كرامتها
، المسلوبة ، وعزتها المغصوبة ، حتى تنال حقها ممن سلبه منها أو تموت دونه
لأن النفوس الأبية تشعر دائماً بأن الموت مع العزة خير من الحياة مع الذلة
يدل على ذلك قوله - تعالى - : ( قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلاَّ نُقَاتِلَ
- فِي سَبِيلِ الله وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا )2
أن الناس في كل زمان ومكان ، يلجأون - خصوصاً عندما تنزل بهم الشدائد إلى
من يتوسمون فيهم الخير والصلاح ، لكي يرشدوهم إلى ما يأخذ بيدهم إلى طريق
، السعادة ، ولكي يهدوهم إلى أفضل السبل التي تنقذهم مما هم فيه من بلاء
ولكي يختاروا لهم من يقودهم إلى النصر والفلاح . ألا ترى إلى الملأ من بني
إسرائيل كيف لجأوا إلى نبي لهم ليقولوا له بعد أن أصابهم من الذل ما أصابهم
إنهم لم يلجأوا إلى ( ابعث لَنَا مَلِكاً نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ الله ) :
زعيم من زعمائهم ، أو إلى أمير من أمرائهم ، وإنما لجأوا إلى نبيهم يبثون
، إليه شكواهم ، ويطلبون منه أن يختار لهم من يقودهم للقتال في سبيل الله
لأنهم يرون فيه الأمل المرتجى ، والعقل السليم ، والخلق القويم ، والأسوة
الحسنة .3 - أن القائد يجب ن تتوفر فيه صفتان : قوة العقل ، وقوة الجسم

لأنه متى توفرت فيه هاتان الصفتان استطاع أن يقود أتباعه بنجاح ، وأنه قبل أن يلتقى بأعدائه يجب عليه أن يختبر جنده ليعرف مبلغ إيمانهم وقوتهم وطاعتهم وثباتهم وألا يلكفهم بما لا يستطيعونه حتى يحارب أعداءه وهو على بينة من أمره . انظر إلى طالوت كيف اختبر جنده قبل أن يخوض المعركة بأن قال لهم : ( إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغترف غُرْفَةً بِيَدِهِ ) وهكذا القود العقلاء يقدمون على حرب أعدائهم وهم على بصيرة من أمرهم .4 - إن الفئة القليلة المؤمنة كثيراً ما تنتصر على الفئة الكثيرة ، الكافرة؛ لأن المؤمنين الصادقين يحملهم إيمانهم على اليقين بلقاء الله ، وعلى التضحية من أجل إعلاء كلمته ، وعلى الإقدام الذي يرعب الكافرين ويخيف الفاسقين ، وصدق الله إذ يقول ( كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ واللهُ مَعَ الصابرين ) 5 - أن هزائم الأمم يمكن إزالتها متى توفر لتلك الأمم القادة العقلاء والأقوياء ، والجند الأشداء على أعدائهم ، الرحماء فيما بينهم ، وأن من شأن المؤمنين حقاً أنهم مع مباشرتهم للأسباب ، وإحكامهم لكل ما يحتاج إليه القتال ، وإحسانهم لكل وسيلة تعينهم على النصر ، مع كل ذلك لا يغترون ولا يتطاولون بل يعتمدون على - تعالى - اعتماداً تاماً ، ويتجهون إليه بالضراعة والدعاء ويلتمسون منه النصر على أعدائه وأعدائهم انظر إلى الصفوة المؤمنة من جند طالوت ماذا ) : قالت عندما برزت لجالوت وجنوده ، لقد قالت كما حكى القرآن عنها قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصرنا عَلَى القوم الكافرين فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ الله ) 6 - أن من سنن الله في خلقه أنه - سبحانه - جعل الحياة صراعاً دائماً بين الحق والباطل ، ونزاعاً موصولا بين الأخيار والأشرار ، ولولا أن الله - تعالى - يدفع بعض الناس الفاسقين ببعض الناس الصالحين لفسدت الأرض ، لأن الفاسقين لو تركوا من غير أن يدافعوا ويقاوموا لنشروا فسوقهم وفجورهم وطغيانهم في الأرض ، ولكنه - سبحانه - أعطى لعباده الصالحين من القوة والثبات ما جعلهم يقاومون الظالمين ويعملون على نشر الخير والصلاح بين الناس .7 - أن القصة ) الكريمة تصور لنا ما جبل عليه بنو إسرائيل من نقض للعهد وكذب في القول فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ القتال تَوَلَّوْاْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ ، ومن تطاول على أنبيائهم ، وعصيان لأوامرهم ، واعتراض على توجيهاتهم ( وتفضيل للجاه والمال على العقل والعلم ( قالوا أنى يَكُونُ لَهُ الملك عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بالملك مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ المال ) ومن خور عند الابتلاء والاختبار ، وحماس في ساعة السلم ونكوص في ساعة الجد ، تأمل قوله - تعالى - ( فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ والذين آمَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ لاَ طَاقَةَ لَنَا اليوم بِجَالُوتَ وَجُنودِهِ ) وبعد هذا الحديث الحكيم عن الملإ من بني إسرائيل من بعد موسى . وبعد أن شهد الله - تعالى - لنبيه ، محمد صلى الله عليه وسلم بأنه من المرسلين الذين أرسلوا لينصروا الحق وليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور ، بعد كل ذلك بين الله - تعالى أن الرسل وإن كانوا قد بعثوا جميعاً لهداية البشر إلا أنهم يتفاضلون فيما بينهم فقال - تعالى - :( تِلْكَ الرسل فَضَّلْنَا . . . . )

تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات واتينا عيسى ابن مريم البينات وايدناه بروح القدس ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من امن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد

كما فسرها الوسيط الإشارة بتلك في قوله : ( تِلْكَ الرسل ) إلى جماعة الرسل ، الذين تقدم ذكرهم في السورة والذين أرسلهم الله - تعالى - لهداية البشر وأمرنا - سبحانه - بالإيمان بهم .أي أولئك الرسل الذين أرسلناهم لهداية الناس ( فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ على بَعْضٍ ) أي جعلنا لبعضهم مناقب وخصائص ومزايا لم تتوافر للبعض الآخر .و ( تِلْكَ ) مبتدأ و ( الرسل ) عطف بيان لتلك . وجملة ( فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ على بَعْضٍ ) هي الخبر . وكانت الإشارة باللفظ الدال على البعيد ، لبيان سمو مكانة الرسل - عليهم الصلاة والسلام - وأنهم هم المصطفون الأخيار .ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر التفضيل فقال : ( مِّنْهُمْ مَّن كَلَّمَ الله ) أي منهم من فضله الله بتكليمه إياه : - كموسى - عليه السلام - فقد وردت آيات صريحة في ذلك ، منها قوله - تعالى وقوله - تعالى - : ( قَالَ ياموسى ( وَكَلَّمَ الله موسى تَكْلِيماً ) - إِنِّي اصطفيتك عَلَى الناس بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي ) وقوله - تعالى - ثم قال ( وَلَمَّا جَآءَ موسى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ) سبحانه - : (وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ) أي : ومنهم من رفعه الله على غيره من الرسل مراتب سامية ومنازل عالية .قيل كإبراهيم الذي اتخذه الله خليلا ، وإدريس الذي رفعه الله مكاناً علياً ، وداود الذي آتاه الله النبوة والملك .والذي عليه المحققون من العلماء والمفسرين أن المقصود بقوله -

تعالى - ( وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ) هو سيدنا محمد صلى الله عليه
وسلم لأنه هو صاحب الدرجات الرفيعة والمعجزة الخالدة الباقية إلى يوم
القيامة والرسالة العامة الناسخة لكل الرسالات قبلها .وقد صرح صاحب الكشاف
بذلك فقال : قوله ( وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ) أي ومنهم من رفعه الله
. على سائر الأنبياء ، فكان بعد تفاوتهم في الفضل أفضل منهم درجات كثيرة
الظاهر أنه أراد محمداً صلى الله عليه وسلم لأنه هو المفضل عليهم ، حيث
. أوتي ما لم يؤته أحد من الآيات المتكاثرة المرتقبة إلى ألف آية أو أكثر
لو لم يؤت إلا القرآن وحده لكفى به فضلا منيفاً على سائر ما أوتي الأنبياء
لأنه المعجزة الباقية على وجه الدهر دون سائر المعجزات . وفي هذا الإبهام ،
من تفخيم فضله وإعلاء قدره ما لا يخفى ، لما فيه من الشهادة على أنه العلم
الذي لا يشتبه ، والمتميز الذي لا يلتبس . ويقال للرجل : من فعل هذا؟ فيقول
أحدكم أو بعضكم ، يريد به الذي تعورف واشتهر بنحوه من الأفعلا فيكون أفخم :
: من التصريح ، وسئل الخطيئة عن أشعر الناس ، فذكر زهيراً والنابغة ثم قال
ولو شئت لذكرت الثالث ، أراد نفسه ، ولو قال : ولو شئت لذكرت نفسي أو يفخم
أمره .ثم قال - تعالى - : ( وَآتَيْنَا عِيسَى ابن مَرْيَمَ البينات
وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ القدس ) .( وَآتَيْنَا ) : هي المعجزات الظاهرة
البينة ، وروح القدس : هو جبريل - عليه السلام - والروح هنا بمعنى الملك
الخاص . القدس أصل معناه الطهارة ، وهو يطلق على الطهارة المعنوية وعلى
الخلوص والنزاهة . فإضافة روح إلى القدس من إضافة الموصوف إلى الصفة . قيل
القدس اسم الله كالقدوس فإضافة روح إضافة للتشريف أي روح من ملائكة الله
والمعنى : وأعطينا عيسى بن مريم الآيات الباهرات ، والمعجزات الواضحات.
كإبراء الأكمه والأبرص ، وإخبار قومه بما يأكلونه ويدخرونه
- في بيتهم ، وفضلا عن هذا فقد قويناه بجبريل - عليه السلام - لأن عيسى
عليه السلام - قد عاش حياته محاربا من أعدائه الرومان ومن قومه الذين أرسل
- إليهم وهم بنو إسرائيل ولم يؤذن له بالقتال ليدافع عن نفسه بل تولى الله
تعالى - الدفاع عنه بجنده الذين من بينهم جبريل - عليه السلام - .قال
الزمخشري : " فإن قلت لم خص موسى وعيسى من بين الأنبياء بالذكر؟ قلت : لما
أوتيا من الآيات العظيمة والمعجزات الباهرة ولقد بين الله وجه التفضيل حيث
جعل التكليم من الفضل وهو آية من الآيات . لما كان هذان النبيان قد أوتيا
ما أوتيا من عظام الآيات خصا بالذكر في باب التفضيل . هذا دليل بين على أن
من زيد تفضيلا بالآيات منها فقد فضل على غيره . ولما كا نبينا محمد صلى
الله عليه وسلم هو الذي أوتي منها ما لم يؤت أحد في كثرتها وعظمها كان هو
المشهود له إحراز قصبات الفضل غير مدافع " .وقال الإمام القرطبي ما ملخصه
هذه الآية تثبت التفاضل بين الأنبياء وهناك أحاديث تقول : "لا تخيروني :
على موسى " و "لا تخيروا بين الأنبياء " و "لا تفضلوا بين الأنبياء " أي
لا تقولوا فلان خير من فلان ، ولا فلان أفضل من فلان فكيف الجمع؟ فالجواب
أن هذا كان قبل أن يوحى إليه بالتفضيل وقبل أن يعلم أنه سيد ولم آدم ، وأن
القرآن ناسخ للمنع من التفضيل أو أن قوله هذا من باب الهضم والتواضع . أو
المراد النهي عن الخوض في ذلك لأن الخوض في ذلك ذريعة إلى الجدال والجدال
قد يؤدي إلى أن يذكر بضعهم بما لا ينبغي أن يذكر به ، وقد يؤدي إلى قلة
احترامهم . ثم قال . وأحسن من هذا القول من قال : إن المنع من التفضيل إنما
هو من جهة النبوة التي هي خصلة واحدة لا تفاضل واحدة لا تفاضل فيها ، وإنما
التفضيل في زيادة الأحوال والخصوص والكرامات والألطاف والمعجزات ، وأما
النبوة في نفسها فلا تتفاضل ، وإنما تتفاضل بأمور أخرى زائدة عليها ، ولذلك
فهم رسل ، وأولو عزم ، ومنهم من كلمة الله . . فالقول بتفضيل بعضهم على بعض
إنما هو بما منح من الفضائل ، وأعطى من الوسائل .وبذلك نكون قد جمعنا بين
الآية والأحاديث من غير النسخ .ثم قال - تعالى - : ( وَلَوْ شَآءَ الله مَا
اقتتل الذين مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ البينات ولكن
اختلفوا فَمِنْهُمْ مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَّن كَفَرَ ) .أي : ولو شاء
الله - تعالى - ألا يقتتل الذين جاؤا بعد كل رسول من الرسول وبعد أن جاءهم
- الرسل بالبينات الدالة على الحق ، لو شاء الله ذلك لفعل ، ولكن الله
تعالى - لم يشأ ذلك ، لأنه خلق الناس مختلفين في تقبلهم للحق ، فترتب على
هذا الاختلاف أن آمن بالحق الذي جاءت به الرسل من فتح له قلبه ، واته إليه
، اختياره ، وأن كفر به من آثر الضلالة على الهداية واستحب العمى على الهدى
وترتب عليه - أيضاً أن تقاتل الناس وتحاربوا .ومفعول المشيئة محذوف دل عليه
جواب الشرط أي لو شاء الله ألا يقتتل الذين جاءوا من بعد الرسل ما اقتتلوا
وقدم - سبحانه - المسبب وهو الاقتتال على السبب وهو الاختلاف كما يشهد له.
قوله : ( ولكن اختلفوا . . . ) للتنبيه على سوء مغبة الاختلاف ، وللتحذير
من الوقوع فيه ، لأن وقوعهم فيه سيؤدي إلى أن يقتل بعضهم بعضاً ، وللإشارة
، إلى أنه - سبحانه - قادر على إزالة الاقتتال في ذاته حتى مع وجود أسبابه
لأنه - تعالى - هو الخالق للأسباب والمسببات .وفي قوله : ( مِّن بَعْدِ مَا
جَآءَتْهُمُ البينات ) إشارة إلأى ما جبلت عليه بعض النفوس من العناد الذي
يؤدي إلى التنازع والاختلاف والتقاتل حتى بعد ظهور الحق ، وانكشاف وجه
الصواب ، لأن هذه النفوس قد آثرت الهوى على الرشاد ، واتخذت طريق الغي

- طريقا لها . وفي قوله : ( ولكن اختلفوا . . . ) إشارة إلى أنه - سبحانه
لم يشأ أن يزيل القتال الذي حدث بين المقاتلين ، لأن هذا القتال قد نشأ
بينهم بسبب اختلافهم ، وسوء اختيارهم ، وعدم استجابتهم للهدايات والتوجيهات
والبينات التي جاءتهم بها الرسل - عليهم السلام - .ثم ختم - سبحانه - الآية
بقوله : ( وَلَوْ شَآءَ الله مَا اقتتلوا ولكن الله يَفْعَلُ مَا يُرِيد )
- أي : لو شاء الله عدم اقتتالهم لأي سبب من الأسباب لما اقتتلوا ، ولكنه
سبحانه - يفعل ما يريد حسب ما تقتضيه حكمته ، وترتضيه مشيئته ، فهو الكبير
المتعال الذي كل شيء عنده بمقدار فالآية الكريمة تبين أن الرسل - عليهم
السلام - يتفاضلون فيما بينهم ، وتنهى الناس في كل زمان ومكان عن الاختلاف
والتنازع لأنهما يؤديان إلى أوخم العواقب ، وأسوأ النتائج .

يا ايها الذين امنوا انفقوا مما رزقناكم من قبل ان ياتي يوم لا بيع فيه ولا
خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون

كما فسرها الوسيط ثم وجه القرآن نداء إلى المؤمنين أمرهم فيه ببذل أموالهم
في سبيل الدفاع عن الحق ، حتى يكونوا أهلا لرضا الله ومثوبته .( ياأيها
الذين . . . )الخلة : الصداقة والمودة مأخوذة من تخلل الأسرار بين الصديقين
وسميت بذلك لأنها تتخلل النفس أي تتوسطها ، أو لشدة الحاجة إليها . ومنه ،
سمي الخليل خليلا لاحتياج الإنسان إليه .والشفاعة مأخوذة من الشفع بمعنى
الضم ، وتطلق على انضمام شخص إلى آخر لنفعه أو نصرته ، وأكثر ما تستعمل في
انضمام من هو أعلى حرمة ومرتبة إلى ما هو دونه .والمعنى : عليكم أيها
المؤمنون أن تنفقوا في وجوه الخير كإعانة المجاهدين ومساعدة الفقراء
والبائسين من أموالكم التي رزقكم الله إياها بفضله وكرمه ، ومن قبل أن يأتي
يوم القيامة الذي لا يكون فيه تجارة ولا مبايعة حتى تقدموا عن طريقها ما
تفتدون به أنفسكم ، ولا يكون فيه صديق يدفع عنكم ، ولا شفيع يشفع لكم فيحط
من سيئاتكم إلا أن يأذن رب العالمين بالشفاعة تفضلا منه وكرما .فالآية
الكريمة تحض المؤمنين على الإنفاق في سبيل الله ، لأنه هو أهم عناصر القوة
في الأمة ، وأفضل وسيلة لإقامة المجتمع الصالح المتكافل . والمراد
بالإنفاق هنا ما يشمل الفرض والنفل ، والأمر المطلق الطلب ، إلا أن هذا
الطلب قد يصل إلى درجة الوجوب إذا نزلت بالأمة شدة لم تكف الزكاة عن دفعها
وقوله : ( مِمَّا رَزَقْنَاكُم ) إشعار بأن هذا المال الذي بين أيدي
الأغنياء ما هو إلا رزق رزقهم الله إياه ، ونعمة أنعم بها عليهم ، فمن
الواجب عليهم شكرها بألا يبخلوا بجزء منه على الإنفاق في وجوه الخير ،لأن
هذا البخل سيعود عليهم بما يضرهم .وفي قوله : ( مِّن قَبْلِ أن يَأْتِيَ
يَوْمٌ ) . . إلخ حث آخر على التعجيل بالإنفاق ، لأنه تذكير للناس بهذا
الوقت الذي تنتهي فيه الأعمال ، ولا يمكن فيه استدراك ما فاتهم ، ولا تعويض
ما فقدوه من طاعات . فكأنه - سبحانه - يقول لهم : نجوا أنفسكم بالمسارعة
إلى الإنفاق من قبل أن يأتي يوم لا منجاة فيه إلا بالعمل الصالح الذي
قدمتموه .و ( من ) في قوله ( مِمَّا رَزَقْنَاكُم ) للتبعيض . وفي قوله
( مِّن قَبْلِ ) لابتداء الغاية : ومفعول أنفقوا محذوف والتقدير أنفقوا شيئاً
مما رزقناكم .والشفاعة المنفية هنا هي التي لا يقبلها الله - تعالى - وهي
التي لا يأذن بها ، أما شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم فقد أذن الله له
بها وقبلها منه ، وقد وردت أحاديث صحيحة بلغت مبلغ التواتر المعنوي في أن
النبي صلى الله عليه وسلم ستكون له شفاعة في دفع العذاب عن أقوام من
المؤمنين وتخفيفه عن أهل الكبائر من المسلمين ، ومن ذلك ما أخرجه البخاري
عن جابر بن عبد الله . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أعطيت
خمساً لم يعطهن نبي قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر . وجعلت لي الأرض مسجداً
وطهوراً فأيما رجل أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد
قبلي وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة
ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ( والكافرون هُمُ الظالمون ) أي. "
والكافرون الجاحدون لنعمه هم الظالمون لأنفسهم ، لأنهم حالوا بينها وبين
الهداية بإيثارهم العاجلة على الآجلة ، والغي على الرشد ، والشر على الخير
والبخل على السخاء .أما المؤمنون فليسوا كذلك لأنهم سلكوا الطريق ،
المستقيم ، وبذلوا الكثير من أموالهم في سبيل إعلاء كلمة الله ، وفي إعانة
المحتاجين .وبذلك نرى أن الآية الكريمة قد حضت المؤمنين على المسارعة في
إنفاق أموالهم في وجوه الخير من قبل أن يأتي يوم لا ينفع فيه ما كان نافعاً
في الدنيا من أقوال وأعمال وأنها قد توعدت من يبخل عن الإنفاق في سبيل
الله بسوء العاقبة ، لأنه تشبه بالكافرين في بخلهم وإمساكهم عن بذل أموالهم
في وجوه الخير .

الله لا اله الا هو الحي القيوم لا تاخذه سنة ولا نوم له ما في السماوات
وما في الارض من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم
ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء وسع كرسيه السماوات والارض ولا يئوده
حفظهما وهو العلي العظيم

، كما فسرها الوسيط وبعد أن أمر الله المؤمنين بالإنفاق في وجوه الخير
- وذكرهم بأهوال يوم القيامة ، أتبع ذلك بآية كريمة اشتملت على تمجيده
سبحانه - فبينت كمال سلطانه ، وشمول علمه . وسابغ نعمه على خلقه . استمع
): إلى القرآن وهو يصف لك الخالق - عز وجل - بأكمل الصفات وأعظمها فيقول
الله لاَ إله إِلاَّ هُوَ الحي القيوم . . . )قال بعضهم : هذه آية الكرسي
أفضل آية من القرآن . ومعنى الفضل أن الثواب على قراءتها أكثر من على غيرها
من الآيات . هذا هو التحقيق في تفضيل بعض آيات القرآن على بعض . وإنما كانت
أفضل لأنها جمعت من أحكام الألوهية وصفات الإله الثبوتية والسلبية ما لم
تجمعه آية أخرى . جاء في الحديث الشريف عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال : " لكل شيء سنام وإن سنام القرآن البقرة ، وفيها آية هي
سيدة القرآن - أي أفضله - وهي آية الكرسي " .وقد اشتملت هذه الآية الكريمة
على عشر جمل فيها ما فيها من صفات الله الجليلة - ونعوته السامية . أما
الجملة الأولى والثانية فتتمثل في قوله - تعالى - : ( الله لاَ إله إِلاَّ
هُوَ الحي القيوم ) .ولفظ الجلالة ( الله ) يقول العلماء : إن أصله إله
دخلت عليه أداة التعريف " أل " وحذفت الهمزة فصارت الكلمة الله . قال
القرطبي : قوله الله ) هذا الاسم أكبر أسمائه - تعالى - وأجمعها ، حتى
، قال بعضهم إنه اسم الله الأعظم ولم يتسم به غيره ، ولذلك لم يثن ولم يجمع
فالله اسم الموجود الحق الجامع لصفات الألوهية ، المنعوت بنعوت الربوبية
المنفرد بالوجود الحقيقي ، لا إله إلا هو - سبحانه - " .ولفظ ( إله ) قالوا
إنه من إله فلان يأله أي عبد . فالإله على هذا المعنى هو المعبود ، وقيل
هو من أله أي تحير . . وذلك أن العبد إذا تفكر في صفاته - سبحانه - تحير
فيها؛ ولذا قيل : " تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله " .و ( الحي )
أي الباقي الذي له الحياة الدائمة التي لا فناء لها . لم تحدث له الحياة
بعد الموت ، ولا يعتريه الموت بعد الحياة ، وسائر الأحياء سواه يعتريهم
، الموت والفناء .و ( القيوم ) أي : الدائم القيام بتدبير أمر الخلق وحفظهم
والمعطى لهم ما به قوامهم . وهو مبالغة في القيام . وأصله قيووم - بوزن
فيعول - من قام بالأمر إذا حفظه ودبره .والمعنى : الله - عز وجل - هو
الإله الحق المتفرد بالألوهية التي لا يشاركه فيها سواه ، وهو المعبود بحق
وكل معبود سواه فهو باطل ، وهو ذو الحياة الكاملة ، وهو الدائم القيام
بتدبير شئون الخلق وحياطتهم ورعايتهم وإحيائهم وإماتتهم .والجملة الثالثة
قوله - تعالى - : ( لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ ) وهي جملة سلبية
مؤكدة للوصف الإيجابي السابق ، فإن قيامه على كل نفس ما كسبت ، وعلى تدبير
شئون خلقه يقتضي ألا تعرض له غفلة ، ولأن السنة والنوم من صفات الحوادث
وهو - سبحانه - مخالف لها .والسنة : الفتور الذي يكون في أول النوم مع بقاء
الشعور والإدراك .ويقال له غفورة . يقال : وسن الرجل يوسن وسناً وسنة فهو
وسن ووسنان إذا نعس والمراد أنه - سبحانه -لا يغفل عن تدبير أمر خلقه
أبداً ، ولا يحجب علمه شيء حجباً قصيراً أو طويلاً ، ولا يدركه ما يدرك
الأجسام من الفتور أو النعاس ، أو النوم .وتقديم السنة على النوم يفيد
المبالغة من حيث إن نفي السنة يدل على نفي النوم بالأولى ، فنفيه ثانياً
صريحاً يفيد المبالغة لأن عطف الخاص على العام يفيد المبالغة ولأن عطف
الخاص على العام يفيد التوكيد أي لا تأخذه سنة فضلا عن أن يأخذه نوم . وفي
قوله : ( لاَ تَأْخُذُهُ ) دلالة على أن للنوم قوة قاهرة تأخذ الحيوان
أخذاً وتقهر الكثير من أجناس المخلوقات قهراً ، ولكنه - سبحانه - وهو
القاهر فوق عباده - منزه عن ذلك ، ومبرأ من أن يعتريه ما يعتري الحوادث
وقوله - سبحانه - في الجملة الرابعة : ( لَّهُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي
الأرض ) تقرير لانفراده بالأولوهية إذ جميع الموجودات مخلوقاته ، وتعليل لا
تصافه بالقيومية ، لأن من كانت جميع الموجودات لمكا له فهو حقيق بأن يكون
قائما بتدبير أمرها .والمراد بما فيهما ما هو أعم من أجزائهما الداخلة
. فيهما ومن الأمور الخارجة عنهما المتمكنة فيهما من العقلاء وغيرهم
فالجملة الكريمة تفيد الملكية المطلقة لرب العالمين لكل ما في هذا الوجود
من شمس وقمر وحيوان ونبات وجماد وغير ذلك من المخلوقات . وصدرت الجملة
بالجار والمجرور " له " لإفادة القصر أي ملك السموات والأرض له وحده ليس
لأحد سواه شيء معه .والاستفهام في قوله في الجملة الخامسة ( مَن ذَا الذي
يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ) للنفي والإنكار أي :لا أحد يستطيع
أن يشفع عنده - سبحانه - إلا بإذنه ورضاه قال - تعالى - ( وَكَمْ مِّن
مَّلَكٍ فِي السماوات لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلاَّ مِن بَعْدِ
أَن يَأْذَنَ الله لِمَن يَشَآءُ ويرضى ) والمقصود من هذه الجملة - كما
يقول الآلوسي - بيان كبرياء شأنه - تعالى - وأنه لا أحد يساويه أو يدانيه
بحيث يستقل أن يدفع ما يريده دفعا على وجه الشفاعة والاستكانة والخضوع فضلا
عن أن يستقل بدفعه عناداً أو مناصبة وعداوة . وفي ذلك تيئيس للكفار حيث
زعموا أن آلهتهم شفعاء لهم عند الله " . وقوله - سبحانه في الجملة السادسة
تأكيد لكمال ( يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ) :
سلطانه في هذا الوجود ، وبيان لشمول علمه على كل شيء .والضمير في ( أيديهم

و ( خلفهم ) يعود إلى ( ما ) في قوله قبل ذلك ( لِّلَّهِ مَا فِي السماوات ( وَمَا فِي الأرض ) وعبر بضمير الذكور والعقلاء ، تغليباً لجانبهم على جانب - غير العقلاء .والعلم بما بين أيديهم وما خلفهم كناية عن إحاطة علمه سبحانه بماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم ، وما يعرفونه من شئونهم الدنيوية وما لا يعرفونه .وقوله - تعالى - في الجملة السابعة : ( وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَآءَ ) معطوف على قوله ( يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ) لأنه مكمل لمعناه . والمراد بالعلم المعلوم والإحاطة بالشيء معناها العلم الكامل به .أي :لا يعلمون شيئاً من . معلوماته - سبحانه - إلا بالقدر الذي أراد أن يعلمهم إياه على ألسنة رسله . فهو كقوله - تعالى - : ( عَالِمُ الغيب فَلاَ يُظْهِرُ على غَيْبِهِ أَحَداً . إِلاَّ مَنِ ارتضى مِن رَّسُولٍ ) فالجملة الكريمة بيان لكمال علم الله - تعالى - ولنقصان علم سواه ، إذ أن البشر لم يعظوا من العلم إلا القليل ، وهذا القليل ناقص لأنه ليس على إحاطة واستغراق لكل ما تشتمل عليه جزئيات الشيء ووجوده وجنسه وكيفية وغرضه المقصود به وبإيجاده ، إذ العلم الكامل بالشيء لا يكون إلا الله رب العالمين .ثم قال - تعالى - في الجملة الثامنة : ( وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السماوات والأرض ) .قال الراغب : الكرسي في تعارف العامة : اسم للشيء الذي يقعد عليه ، وهو في الأصل منسوب إلى الكرسي أي الشيء المجتمع ، ومنه الكراسة لأنها تجمع العلم . . وكل مجتمع من الشيء . كرس .وللعلماء اتجاهان مشهوران في تفسير معنى الكري في الجملة الكريمة فالسلف يقولون : إن لله - تعالى - كرسيا علينا أن نؤمن بوجوده وإن كنا لا نعرف حقيقته ، لأن ذلك ليس في مقدور البشر .والخلف يقولون : الكرسي في الآية كناية عن عظم السلطان ، ونفوذ القدرة ، وسعة العلم ، وكمال الإحاطة - ولصاحب الكشاف تلخيص حسن لأقوال العلماء في ذلك ، فقد قال - رحمه الله. وفي قوله : ( وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ) أربعة أوجه :أحدها : أن كرسيه لم يضق عن السماوات والأرض لبسطته وسعته وما هو إلا تصوير لعظمته ولا كسري ثمة ولا قعود ولا قاعد .والثاني : وسع علمه ، وسمي العلم كرسيا تسمية بمكانه الذي هو كرسي الملك .والثالث : وسع ملكه تسمية بمكانه الذي هو كرسي العالم والرابع : ما روى أنه خلق كرسيا هو بين يدي العرش دونه السموات والأرض وهو. إلى العرش كأصغر شيء . وعن الحسن الكلرسي هو العرش .هذا وقد روى المفسرون عن ابن عباس أنه قال : " كرسيه علمه " ولعل تفسير الكرسي بالعلم كما قال حبر الأمة هو أقرب الأقوال إلى الصواب ، لأنه هو المناسب لسياق الآية الكريمة .ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بالصفتين التاسعة والعاشرة ). فقال - تعالى - : ( وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ العلي العظيم ) يَؤُودُهُ ) معناه يثقله ويشق عليه . يقال أدني الأمر بمعني أثقلني وتحملت ، منه المشقة .و ( العلي ) هو المتعالي عن الأشياء ، والأنداد ، والأمثال والأضداد وعن إمارات النقص ودلالات الحدوث . وقيل هو من العلو الذي هو بمعنى القدرة وعلو الشأن .والمعنى : ولا يثقله ولا يتعبه حفظ السموات والأرض ورعايتهما ، وهو المتعالي عن الأشباه والنظائر ، والمسيطر على خلقه العظيم في ذاته وصفاته ، ففي هاتين الجملتين بيان لعظيم قدرته ، وعظيم ، رعايته لخلقه ، وتنزيهه - سبحانه - عن مشابهة الحوادث .وبعد ، فهذه آية الكرسي التي اشتملت على عشر جمل ، كل جملة منها تشتمل على وصف أو أكثر من ، صفات الله الجليلة ، ونعوته المجيدة ، وألوهيته الحقه ، وقدرته النافذة - وعلمه المحيط بكل شيء ، قد أقامت الأدلة الساطعة على وحدانية الله ، تعالى - وجوب إفراده بالعبادة .وقد تكلم العلماء طويلا عن تناسق جملها وبلاغه تراكيبها ووجوه فضلها ومن ذلك قول صاحب الكشاف : " فإن قلت : لم فضلت هذه الآية على غيرها حتى ورد في فضلها ما ورد؟ قلت : لما فضلت له سورة الإخلاص من اشتمالها على توحيد الله وتعظيمه وتمجيده وصفاته العظمى ولا " مذكور أعظم من رب العزة . فما كان ذكراً له كان أفضل من سائر الأذكار ومن الأحاديث التي ساقها الإمام ابن كثير في فضلها ما جاء عن أبي بن كعب. أن النبي صلى الله عليه وسلم سأله : " أي آية في كتاب الله أعظم؟ قال الله ورسوله أعلم . فرددها مرارا ثم قال : آية الكرسي . فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم ليهنك العلم أبا المنذر " .وأخرج الإمام مسلم في صحيحه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن أعظم آية في القرآن هي آية الكرسي : وروى أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - خرج ذات يوم على الناس فقال. " أيكم يخبرني بأعظم آية؟ فقال ابن مسعود على الخبير سقطت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " أعظم آية في القرآن ( الله لاَ إله إِلاَّ هُوَ الحي القيوم ) " . الآية .

لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم

كما فسرها الوسيط وبعد أن ساق - سبحانه - في آية الكرسي الأدلة الواضحة على وحدانيته وعظمته وتنزيهه عن صفات الحوادث ، عقب ذلك ببيان أن الدين الحق قد - ظهر وتجلى لكل ذي عقل سليم ، وأنه لا يقسر أحد على الدخول فيه فقال

تعالى - :( لاَ إِكْرَاهَ فِي الدين . . . )الإكراه معناه : حمل الغيرعلى
قول أو فعل لا يريده عن طريق التخويف أو التعذيب أو ما يشبه ذلك . والمراد
بالدين دين الإسلام والألف واللام فيه للعهد .والرشد : الاستقامة على طريق
الحق مع تصلبه فيه ، مصدر رشيد يرشد ويرشد أي اهتدى . والمراد هنا : الحق
والهدى .والغي ضد الرشد . مصدر من غوى يغوي إذا ضل في معتقد أو رأى ، ويرى
بعض العلماء أن نفي الإكراه هنا خبر في معنى النهي ، أي : لا تكرهوا أحداً
على الدخول في دين الإسلام فإنه بين واضح في دلائله وبراهينه ، فمن هداه
الله له ونور بصيرته دخل فيه على بصيرة ، ومن أضله وأعمى قلبه لا يفيده
الإكراه على الدخول فيه .وقال بعض العلماء إن الجملة هنا على حالها من
الخبرية والمعنى : ليس في الدين - الذي هو تصديق بالقلب ، وإذعان في
النفس - إكراه وإجبار من الله - تعالى - لأحد ، لأن مبني هذا الدين على
التمكين والاختيار ، وهو مناط الثواب والعقاب ، لولا ذلك لما حصل الابتلاء
والاختبار ، ولبطل الامتحان .أو المعنى : كما يرى بعضهم - إن من الواجب على
العاقل بعد ظهور الآيات البينات على أن الإيمان بدين الإسلام حق ورشد .
وعلى أن الكفر به غي وضلال ، أن يدخل عن طواعية واختيار في دين الإسلام
الذي ارتضاه الله وألا يكره على ذلك بل يختاره بدون قسر أو تردد .فالجملة
الأولى وهي قوله - تعالى - : ( لاَ إِكْرَاهَ فِي الدين ) : تنفى الإجبار
على الدخول في الدين ، لأن هذا الإجبار لا فائدة من ورائه ، إذ التدين
إذعان قلبي ، واتجاه بالنفس والجوارح إلى إله رب العالمين بإرادة حرة
مختارة فإذا أكره عليه الإنسان ازداد كرهاً له ونفوراً منه . فالإكراه
والتدين نقيضان لا يجتمعان ، ولا يمكن أن يكون أحدهما ثمرة للآخرة .والجملة
الثانية وهي قوله - تعالى - : ( قَد تَّبَيَّنَ الرشد مِنَ الغي ) بمثابة
، العلة لنفي هذا الإكراه على الدخول في الدين ، أي قد ظهر الصبح لذي عينين
وانكشف الحق من الباطل ، والهدى من الضلال وقامت الأدلة الساطعة على دين
الإسلام هو الدين الحق وغيره من الأديان ضلال وكفران وما دام الأمر كذلك
فقد توافرت الأسباب التي تدعو إلى الدخول في دين الإسلام ، ومن كفر به بعد
ذلك فليحتمل نتيجة كفره ، وسوء عاقبة أمره .ثم قال - تعالى - : ( فَمَنْ
يَكْفُرْ بالطاغوت وَيُؤْمِن بالله فَقَدِ استمسك بالعروة الوثقى لاَ
انفصام لَهَا ) .الطاغوت : اسم لكل ما يطغى الإنسان ، كالأصنام والأوثان
والشيطان وكل رأس في الضلال وكل ما عبد من دون الله . وهو مأخوذ من طغا
يطغى - كسعى يسعى - طغياً وطغياناً ، أو من يطغو طغوا طغواناً ، إذا جاوز
الحد وغلا في الكفر وأسرف في المعاصي والفجور .والعروة : في أصل معناها
تطلق على ما يتعلق بالشيء من عراه أي من الجهة التي يجب تعليهقمنها ، وتجمع
: على غرى . والعروة من الدلو والكوز مقبضه . ومن الثوب مدخل زره .والوثقى
: مؤنث الأوثق ، وهو الشيء المحكم الموثق . يقال وثق - بالضم - وثاقه أي
قوى وثبت فهو وثيق أي ثابت محكم .والانفصام : الانكسار ، والقصم كسر الشيء
وقطعة .والمعنى : فمن خلع الأنداد والأوثان وما يدعو إليه الشيطان من عبادة
غير الله ، وآمن بالله - تعالى - إيماناً خالصاً صادقاً فقد ثبت أمره
واستقام على الطريقة المثلى التي لا انقطاع لها وأمسك من الدين بأقوى سبب
وأحكم رباط .والفاء في قوله : ( فَمَنْ يَكْفُر ) للتفريع . والسين والتاء
في استمسك للتأكيد والطلب ، وقوله : ( فَقَدِ استمسك بالعروة الوثقى )
فيه - كما يقول الزمخشري - تمثيل للمعلوم بالمنظور والاستدلال بالمشاهد
المحسوس حتى بتصوره السامع كأنما ينظر إلأيه بعينه فيحكم اعتقاده والتيقن
به ، وجملة ( لاَ انفصام لَهَا ) استئناف مقرر لما قبله أو حال من " العروة
والعامل " استمسك " .ثم ختم - سبحانه الآية بقوله : ( والله سَمِيعٌ "
عَلِيمٌ ) أي سميع الأقوال ، وهمسات القلوب ، وخلجات النفوس ، عليم بما
يسره الناس وما يعلنونه ، وسيجازيهم بما يستحقون من ثواب أو عقاب .قال
القرطبي ما ملخصه : قيل إن هذه الآية منسوخة بقوله - تعالى - : ( ياأيها
النبي جَاهِدِ الكفار والمنافقين ) لأن النبي صلى الله عليه وسلم قد أكره
العرب على دين الإسلام وقاتلهم ولم يرض منهم إلا الإسلام . وقيل إنهاه
ليست بمنسوخة وإنما نزلت في أهل الكتاب خاصة ، وأنهم لا يكرهون على
الإسلام إذا أدوا الجزية . . والحجة لهذا القول ما رواه زيد بن أسلم عن
أبيه قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول لعجوز نصرانية : أسلمي أيتها العجوز
. تسلمي ، إن الله بعث محمداً بالحق .قالت أنا عجوز كبيرة والموت إلى قريب
فقال عمر : اللهم اشهد وتلا : ( لاَ إِكْرَاهَ فِي الدين ) .والذي تسكن
إليه النفس أن هذه الآية محكمة غير منسوخة ، لأن التدين لا يكون مع
الإكراه - كما أشرنا من قبل - ولأن الجهاد ما شرع في الإسلام لإجبار
الناس على الدخول في الإسلام إذ لا إسلام مع إجبار ، وإنما شرع الجهاد
لدفع الظلم ورد العدوان وإعلاء كلمة الله ، والرسول صلى الله عليه وسلم ما
قاتل العرب ليكرههم على الدخول في الإسلام وإنما قاتلهم لأنهم بدأوه
بالعدواة .ولأن الروايات في سبب نزول هذه الآية تؤيد أنه لا إكراه في الدين
ومن هذه الروايات ما جاء عن ابن عباس أنه قال : نزلت في رجل من الأنجز من ،
، بني سالم بن عوف يققال له الحصين كان له ابنان نصرانيان وكان هو مسلما
فقال للنبي صلى الله عليه وسلم ألا استكرههما فإنهما قد أبيا إلا النصرانية

فأنزل الله هذه الآية وفي رواية أخرى أنه حاول إكراههما على الدخول في الإسلام فاختصموا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال الأنصاري : يا رسول الله أيدخل بعض النار وأنا أنظر إليه فنزلة هذه الآية .ولأن النسخ لا يصار إليه إلا إذا لم يمكن التوفيق بين الآيتين وهنا يمكن التوفيق بأن نقول : إن الآية التي معنا تنفى إكراه الناس على اعتقاد ما لا يريدون وآية ( ياأيها النبي جَاهِدِ الكفار والمنافقين ) جاءت لحض النبي صلى الله عليه وسلم وحض أصحابه على قتال الكفار الذين وقفوا في طريق دعوته ، حتى يكفوا عن عدوانهم وتكون كلمة الله هي العليا .

الله ولي الذين امنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا اولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات اولئك اصحاب النار هم فيها خالدون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة المؤمنين ، وسوء عاقبة الكافرين فقال - تعالى - :( الله وَلِيُّ الذين . . . )( وَلِيُّ ) الناصر والمعين الحليف . مأخوذ من الولاية بمعنى النصرة .والمعنى : الله الذي بيده ملكوت كل شيء ( وَلِيُّ الذين آمَنُوا ) أي معينهم وناصرهم ومتولي أمورهم ، فهو - سبحانه - الذي يخرجهم من ظلمات الكفر ، ومن ضلالات الشرك والفسوق والعصيان إلى نور الحق والهداية والتحرر من الأوهام . أما الذين كفروا فأولياؤهم ونصراؤهم الطاغوت الذي يتمثل في الشيطاطين والأصنام والأوهام الموروثة والكبرياء والمضلين ، وهؤلاء يخرجونهم بسبب انطماس بصيرتهم وانتكاسهم في المعاصي من نور الإيمان والهداية إلى ظلمات الكفر والضلالة . أولئك الموصوفون بتلك الصفات القبيحة أصحاب النار هم فيها خالدون خلودا مؤبداً .وأفرد - سبحانه - النور وجمع الظلمات ، لأن الحق واحد أما الظلمات فقد تعددت فنونها وألوانها وأسبابها . وفي تقديم ( والذين كفروا ) في قوله :( والذين كفروا أَوْلِيَآؤُهُمُ الطاغوت ) إشارة إلى أنهم - هم الذين ارتضوا سأن يكون الطغيان مسيطراً على قلوبهم لأن كفرهم بالله ) : تعالى - هو الذي جعل الشيطان ينفذ إلى أقطار نفوسهم بسهولة ويسر .وقوله والذين كفروا ) مبتدأ ( أَوْلِيَآؤُهُمُ ) مبتدأ ثان ، و ( الطاغوت ) خبره والجملة خبر المبتدأ الأول .ولم يقل - سبحانه - والطاغوت ولي الذين كفروا للاحتراز عن وضع اسم الطاغوت في مقابل لفظ الجلالة .فإن قيل : وهل كان الكافرون في نور ثم أخرجوا منه؟ فالجواب أن المراد يخرجونهم من النور الفطري الذي جعل عليه الناس كافة أو من نور الحجج الواضحات التي من شأنها أن تحمل كل عاقل على الدخول في الإسلام . وقيل المراد بهؤلاء المخرجين من النور إلى الظلمات أولئك الذين آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم قبل بعثته . ثم كفروا به بعدها والإشارة في قوله : ( أولئك ) تعود إلى الذين كفروا وفي التعبير " بأصحاب النار " إشعار بأنهم ملازمون لها كما يلازم المالك ما يملكه والرفيق رفيقه . وقوله ( هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ) تأكيد لبقائهم فيها واختصاصهم بها .وبذلك تكون الآية الكريمة قد ساقت أحسن البشارات للمؤمنين ، وأشد العقوبات للكافرين الذين استحبوا العمى على الهدى .

الم تر الى الذي حاج ابراهيم في ربه ان اتاه الله الملك اذ قال ابراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال انا احيي واميت قال ابراهيم فان الله ياتي بالشمس من المشرق فات بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين

كما فسرها الوسيط ثم ساق القرآن بعد ذلك بعض الأمثلة للمؤمنين المهتدين وللضالين المغرورين فقال - تعالى - :( أَلَمْ تَرَ إِلَى الذي حَآجَّ . . . )( حَآجَّ ) أي جادل وخاصم والمحاجة : المخاصمة والمغالبة بالقول يقال ( حَآجَّ ) حاججته فحججته أي خاصمته بالقول فتغلبت عليه وتستعمل المحاجة كثيراً في المخاصمة بالباطل ومن ذلك قوله - تعالى - : ( فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ للَّهِ وَمَنِ اتبعن ) وقوله - تعالى - : ( وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أتحاجواني فِي الله وَقَدْ هَدَانِ ) والمعنى : لقد علمت أيها العاقل صفة ذلك الكافر المغرور الذي جادل إبراهيم - عليه السلام - في شأن خالقه عز وجل - ومن لم يعلم قصته فها نحن أولاء نخبره عن طريق هذا الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .والاستفهام للتعجب من شأن هذا الكافر وما صار إليه أمر غروره وبطره والمراد به - كما قال ابن كثير - نمرود بن كنعان بن كوس بن سام ابن نوح ملك بابل ، وكان معاصراً لسيدنا إبراهيم - عليه السلام - .وأطلق القرآن على ما دار بين هذا الملك المغرور بين سيدنا إبراهيم أنها حاجة مع أنها مجادلة بالباطل من هذا الملك ، أطلق ذلك من باب المماثلة اللفظية أو هي محاجة في نظره السقيم ورأيه الباطل .والضمير في قوله : ( فِي رَبِّهِ ) يعود إلى إبراهيم - عليه السلام - وقيل يعود إلى نمرود لأنه هو المتحدث عنه فالضمير يعود إليه والإضافة - على الرأي الأول - للتشريف ، وللإيذان من أول الأمر بأن الله - تعالى - مؤيد وناصر لعبده إبراهيم . وقوله : ( أَنْ آتَاهُ الله الملك ) بيان لسبب إقدام هذا الملك على ما أقدم عليه من ضلال وطغيان . أي

- سبب هذه المحاجة لأنه أعطاه الله - تعالى - الملك فبطر وتكبر ولم يشكره
سبحانه - على هذه النعمة ، بل استعملها في غير ما خلقت له فقوله : ( أَنْ
آتَاهُ ) مفعول لأجله ، والكلام على تقدير حذف لام الجر ، وهو مطرد الحذف
مع أن وأن .وقوله : ( إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الذي يُحْيِي
وَيُمِيتُ ) حكاية لما قاله إبراهيم عليه السلام لذل كالملك في مقام
: التدليل على وحدانية الله وأنه - سبحانه - هو المستحق للعبادة أي قال له
، ربي وحده هو الذي ينشئ الحياة ويوجدها ، ويميت الأرواح ويفقدها حياتها
: - ولا يوجد أحد سواه يستطيع أن يفعل ذلك .وقول إبراهيم - كما حكاه القرآن
مفيد للقصر عن طريق تعريف المبتدأ وهو ( رَبِّيَ الذي يُحْيِي وَيُمِيتُ )
والخبر هو الموصول وصلته .وعبر بالمضارع في قوله : ( الذي ( رَبِّيَ )
يُحْيِي وَيُمِيتُ ) لإفادة معنى التجدد والحدوث الذي يرى ويحس بين وقت
وآخر .أي ربي هو الذي يحيي الناس ويميتهم كما ترى ذلك مشاهداً في كثير من
الأوقات ، فمن الواجب عليك أن تخصه بالعبادة والخضوع وأن تقلع عما أنت فيه
) : من كفر وطغيان وضلال .وقوله : ( إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ ) ظرف لقوله
حَآجَّ ) أو بدل اشتمال منه ، و في هذا القول الذي حكاه القرآن عن
إبراهيم - عليه السلام - أوضح حجة وأقواها على وحدانية الله واستحقاقه
للعبادة ، لأن كل عاقل يدرك أن الحق هو الذي يملك الإحياء والإماتة ويملك
بعث الناس يوم القيامة ليحاسبهم على أعمالهم وهو أمر ينكره ذلك الملك
الكافر .قال الإمام الرازي ما ملخصه : والظاهر أن قول إبراهيم ( رَبِّيَ
الذي يُحْيِي وَيُمِيتُ ) جواب لسؤال سابق غير مذكور . وذلك أنه من المعلوم
أن الأنبياء بعثوا للدعوة إلأي الله ، ومتى ادعى الرسول الرسالة فإن المنكر
يطالبه بإثبات أن للعالم إلها . فالظاهر هنا أن إبراهيم ادعى الرسالة فقال
له نمرود : من ربك؟ فقال إبراهيم : ربي الذي يحيى ويميت ، إلا أن تلك
المقدمة حذفت لأن الواقعة تدل عليها ، ودليل إبراهيم في غاية الصحة لأن
الخلق عاجزون عن الإحياء والإماتة وقدم ذكر الحياة على الموت هنا . لأن
من شأن الدليل أن يكون في غاية الوضوح والقوة ، ولا شك أن عجائب الخلقة حال
الحياة أكثر ، واطلاع الإنسان عليها أتم فلا جرم وجب تقديم الحياة ها هنا
في الذكر .م حكى القرآن جواب نمرود على إبراهيم فقال : ( قَالَ أَنَا
أُحْيِي وَأُمِيتُ ) أي قال ذلك الطاغية : إذا كنت يا إبراهيم تدعي أن ربك
وحده الذي يحيي ويميت فأنا أعرضك في ذلك لأنى أنا - أيضا أحيي وأميت وما
دام الأمر كذلك فأنا مستحق للربوبية . قالوا : ويقصد بقوله هذا أنه يستطيع
أن يعفو عمن حكم بقتله ، ويقتل من شاء أن يقتله .ولقد كان في استطاعة
إبراهيم - عليه السلام - أن يبطل قوله ، بأن يبين له بأن ما يدعيه ليس من
الأحياء والإماتة المقصودين بالاحتجاج ، لأن ما قصده إبراهيم هو إنشاء
الحياة وإنشاء الموت ، كان في استطاعة الخليل - عليه السلام - أن يفعل ذلك
ولكنه آثر ترك فتح باب الجدال والمحاورة ، وأتاه بحجة هي غاية في ،
الإفحام فقال له - كما حكى القرآن : ( فَإِنَّ الله يَأْتِي بالشمس مِنَ
المشرق فَأْتِ بِهَا مِنَ المغرب ) .أي قال إبراهيم لخمه المغرور : لقد
زعمت أنك تملك الإحياء والإماتة كما يملك الله - تعالى - ذلك ، ومن شأن
هذا الزعم أن يجعلك مشاركاً لله - تعالي - في قدرته فإن كان ذلك صحيحاً
فأنت ترى وغيرك يرى أن الله - تعالى - يأتي بالشمس من جهة المشرق عند
شروقها فأت بها أنت من جهة المغرب في هذا الوقت فماذا كانت نتيجة هذه الحجة
- الدامغة التي قذفها إبراهيم - عليه السلام - في وجه خصمه؟ كانت نتيجتها
كما حكى القرآن - ( فَبُهِتَ الذي كَفَرَ ) أي : غلبت وقهر ، وتحير وانقطع
) عن حجاجه ، واضطرب ولم يستطع أن يتكلم ، لأنه فوجئ بما لا يملك دفعه .و
بهت ) فعل ماض جاء على صورة الفعل المبني للمجهول - كزهي وزكم - والمعنى
: فيه على البناء للفاعل . وقوله : ( الذي كَفَرَ ) هو فاعله . والبهت
الانقطاع والحيرة ، وقرئ بوزن - علم ونصر وكرم .والفاء في قوله : ( فَإِنَّ
الله يَأْتِي بالشمس ) . . إلخ فصيحة لأنها أفصحت عن جواب لشرط مقدر أي إن
كنت كما تزعم أنك تحيي وتميت وأن قدرتك كقدرة الله فإن الله - تعالى - يأتي
بالشمس من المشرق فأت بها من الغرب .وعبر عن هذا البهوت بقوله : ( فَإِنَّ
الله يَأْتِي بالشمس ) للإشعار بأن سبب حيرته واضطرابه هو كفره وعناده .ثم
ختم - سبحانه - الآية بقوله : ( والله لاَ يَهْدِي القوم الظالمين ) أي لا
يهديهم إلى طريق الحق . ولا يلهمهم حجة ولا برهاناً . بسبب ظلمهم وطغيانهم
وإيثارهم طريق الشيطان على طريق الرحمن .وبذلك نرى أن الآية الكريمة قد حكت
للناس لوناً من ألوان رعاية الله لأوليائه وخذلانه لأعدائه لكي يكون في ذلك
. عبرة وعظة لقوم يعقلون

او كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال انى يحيي هذه الله بعد
موتها فاماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما او بعض يوم
قال بل لبثت مائة عام فانظر الى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر الى حمارك
ولنجعلك اية للناس وانظر الى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما فلما تبين
له قال اعلم ان الله على كل شيء قدير

كما فسرها الوسيط ثم ساتق السورة الكريمة قصتين تدلان أبلغ دلالة على قدرة الله - تعالى - وعلى صحة البعث والنشور استمع إلى القرآن استمع إلى القرآن وهو يحكي هاتين القصتين بأسلوبه البليغ فيقول :( أَوْ كَالذِي مَرَّ على قَرْيَةٍ . . . )قال الآلوسي ما ملخصه : قوله : ( أَوْ كَالذِي مَرَّ على قَرْيَةٍ ) معطوف على سابقه - وهو قوله : ( أَلَمْ تَرَ إِلَى الذِي حَآجَّ والكاف اسمية بمعنى مثل معمولة لا رأيت محذوفاً . أي أو أرأيت مثل الذي ( مر على قرية . . وحذف لدلالة ( أَلَمْ تَرَ ) عليه . وقيل : إن الكاف زائدة : والتقدير : ألأم تر إلى الذي حاج إبراهيم أو الذي مر على قرية . . وقيل إن العطف هنا محمول على المعنى كأنه قيل : أرأيت شيئاً عجيباً - كالذي حاج إبراهيم في ربه ، أو كالذي مر على قرية " .والذي ( مَرّ على قَرْيَةٍ ) قيل هو عزير بن شرخيا ، وقيل حزقيال بن بوزي وقيل غير ذلك ، والقرية قيل المراد بها بيت المقدس وكان قد خربها " بختنصر " البابلي . . والقرآن الكريم لم يهتم بتحديد الأشخاص والأماكن لأنه يقصد العبرة وبيان الحال والشأن . وجملة ( وَهِيَ خَاوِيَةٌ على عُرُوشِهَا ) في موضع الحال من الضمير المستتر في ( مَرّ ) والواو رابطة بين الجملة الحالية وبين صاحبها والإتيان بها واجب لخلو الجملة من ضمير يعود على صاحبها وقيل هي حال من قرية ، وسوغ إتيان الحال منها مع كونها نكرة وقوعها بعد الاستفهام المقدر وهو أرأيت ومعنى ( وَهِيَ خَاوِيَةٌ على عُرُوشِهَا ) أن جدرانها ساطقة على سقوفها ، أي أن الخراب قد عمها والدمار قد نزل بها ، فأصبحت خالية من أهلها وفارغة ممن كان يعمرها وأصل الخواء الخلو . يقال خوت الدار وخربت تخوى خواء إذا سقطت وخلت .والعروش جمع عرش وهو سقف البيت ويسمى العريش ، وكل شيء يهيأ ليظل أو يكنّ فهو عريش وعرش .وقوله - تعالى - : ( قَالَ أنى يُحْيِي هذه الله بَعْدَ مَوْتِهَا ) حكاية لما قاله ذلك الذي مر على تلك القرية ورأى فيها ما رأى من مظاهر الخراب والدمار والمعنى : أو أرأيت مثل الذي مر على قرية وهي ساقطة حيطانها على سقوفها ، وفارغة ممن كان يسكنها ، فهاله أمرها وراعه شأنها ، وقال على سبيل التعجب كيف يحيى الله هذه القرية بعد موتها ، بأن يعيد إليها العمران بعد الخراب ، ويجعلها عامرة بسكانها الذي خلت ، منهم . فقوله : (قَالَ أنى يُحْيِي هذه ) بمعنى كيف فتكون منصوبة على الحالية من اسم الإشارة ويجوز أن تكون ( أنى ) هنا بمعنى متى أي : متى يحيى الله هذه القرية بعد موتها فتكون منصوبة على الظرفية .وقال القرطبي : قوله ( قَالَ أنى يُحْيِي هذه الله بَعْدَ مَوْتِهَا ) معناه من أي طريق وبأي سبب ، وظاهر اللفظ السؤال عن إحياء القرية بعمارة وسكان ، كما يقال الآن في المدن الخربة يبعد أن تعمر وتسكن أي : أنى تعمر هذه بعد خرابها . " فكأن هذا تلهف من الواقف المعتبر على مدينته التي عهد فيها أهله وأحبته وقوله هذا إنما هو تساؤل عن كيفية الإعادة لا عن أصل الإعادة لأنه كان. مؤمنا بالبعث والنشور ، إلا أنه لما رأى حال القرية على تلك الصورة من الخراب تعجب من قدرة الله على إحيائها ، وتشوق إلى عمارتها واعترف بالعجو عن معرفة طريق الإحياء . فماذا كانت نتيجة هذا التساؤل؟ كانت نتيجته كما حكاها القرآن : ( فَأَمَاتَهُ الله مِئَةَ عَامٍ ثُمّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ) .أي : بعد أن قال - هذا الذي مر على تلك القرية الخاوية على عروشها ما قال ، ألبثه الله تعالى - في الموت مائة عام ( ثُمّ بَعَثَهُ ) أي أحياه ببعث روحه إلى بدنه ) أي كم مدة من الزمان لبثتها على هذه الحال؟ ( قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ) ) : - قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ) .وقال - سبحانه ، فَأَمَاتَهُ الله مِئَةَ عَامٍ ثُمّ بَعَثَهُ ) ولم يقل ثم أحياه للدلالة على أنه عاد كهيئته يوم مات عاقلا فاهما مستعداً للنظر والاستدلال - وكان ذلك بعد عمارة القرية وللإشهار بسرعته وسهولة تأتيه على الباري سبحانه - .قال ابن كثير : كان أول شيء أحيا الله فيه عينيه لينظر بهما إلى ) صنع الله فيه كيف يحيى بدنه فلما استقل سوياً قال الله له بواسطة الملك كَمْ لَبِثْتَ ) ؟ ( قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ) وذلك أنه مات أول النهار ثم بعثه الله في آخر النهار فلما رأى الشمس باقية ظن أنها شمس ذلك اليوم فقال : ( أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ) .وقوله : ( قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ) استئناف مبنى على سؤال كأنه قيل : فماذا قال له بعد بعثه؟فقيل : قال كم لبثت ليظهر له العجز عن الإحاطة بشئون الله - تعالى - على أتم وجه وتنحسم مادة استبعاده بالمرة .وكم منصوبة على الظرفية ومميزها محذوف والتقدير كم يوما أو وقتا والناصب لها قوله : ( لَبِثْتُ ) .وفي هذه الجملة الكريمة بيان للناس بأن الموت يشبه النوم ، وأن البعث يشبه اليقظة بعده وأنه لا شيء محال على الله - تعالى - فهو القائل : ( مّا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ) وفي الحديث الشريف : " والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحسانا وبالسوء سوءا ، وإنها لجنة أبدا ، أو لنار أبدا " ، وقوله - تعالى - : ( قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ ) معطوف على مقدر. أي : ليس الأمر كما قلت إنك لبثت يوما أو بعض يوم بل إنك لبثت مائة عام ثم أرشده - سبحانه - إلى التأمل في أمور فبها أبلغ دلالة على قدرة الله تعالى

وعلى صحة البعث فقال - سبحانه - : ( فانظر إلى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وانظر إلى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وانظر إِلَى العظام كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً ) .قوله : ( لَمْ يَتَسَنَّهْ ) أي لم يتغير بمرور السنين الطويلة ولم تذهب طراوته فكأنه لم تمر عليه السنون ولفظ يتسنه : مشتق من السنة ، والهاء فيه أصلية إذا قدر لام سنة هام ، وأصلها سنهة لتصغيرها على سنيهة وجمعها على سنهات كسجدة وسجدات ، ولقولهم : سانهته إذا عاملته سنة فسنة ، وتسنه عند القوم إذا أقام فيهم سنة . أو الهاء للوقف نحو كتابيه وجزمه بحذف حرف العلة إذا قدر لام سنة واوا ، وأصلها سنوه لتصغيرها على سنية وجمعها على سنوات .وقوله : ( نُنْشِزُهَا ) أي نرفعها . يقال : أنشز الشيء إذا رفعه من مكانه ( نُنْشِزُهَا ) وأصله من النشز - بفتحتين وبالسكون - وهو الكان المرتفع . وقرئ ( نُنْشِرُهَا ) - بضم النون والراء - أي نحييها من أنشر الله الموتى أي أحياهم . والمعنى : قال الله - تعالى - لهذا الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها إنك لم تلبث يوما أو بعض يوم في الموت كما تظن بل لبثت مائة عام فإن كنت في شك من ذلك فانظر إلى طعامك وشرابك لتشاهد أمرا آخر من دلائل قدرتنا فإن هذا الطعام والشراب كما ترى لم يتغير بمرور السنين وكر الأعوام بل بقي على حالته . وانظر إلى حمارك كيف نخرت عظامه ، وتفرقت أوصاله مما يشهد بأنه قد مرت عليه السنوات الطويلة .وقوله : (وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ ) معطوف على محذوف متعلق بفعل مقدر قبله بطريق الاستئناف مقرر لمضمون ما سبق ، والتقدير : فعلنا ما فعلنا لترى وتشاهد بنفسك مظاهر قدرة الله ، ولنجعلك آية معجزة ودليلا على صحة البعث وقوله : ( وانظر إِلَى العظام كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً ) أي انظر وتأمل في هذا العظام كيف نركب بعضها في بعض بعد أن نوجدها .وقيل المعنى : وانظر إلى العظام أي عظام حمارك التي تفرقت وتناثرت لتشاهد كيف نرفعها من الأرض فنردها إلى أماكنها في جسده .قال ابن كثير : قال السدي وغيره : " تفرقت عظام حماره يمينا وشمالا حوله فنظر إليها وهي تلوح من بياضها ، فبعث الله ريحا فجمعتها من كل موضع ، ثم ربك كل عظم في موضعه ، وذلك كله بمرأى من العزير " .وجاء الضمير في قوله : ( لَمْ يَتَسَنَّهْ ) بالإفراد مع أن المتقدم طعام وشراب ، لأنهما متلازمان بمعنى أن أحدهما لا يكتفى به عن الآخر فصارا بمنزلة شيء واحد ، فكأنه قال : انظر إلى غذائك ، ثم ختم سبحانه - الآية بقوله : ( فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ) أي فلما تبين له بالأدلة الناصعة ، وبالمشاهدة الحسية قدرة الله - تعالى - على الإحياء والإماتة ، وعلى البعث والنشور قال أعلم أي أستيقن وأومن وأعتقد أن الله - تعالى - على كل شيء قدير ، وأنه - سبحانه -لا يعجزه شيء .والفاء في قوله : ( فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ . . . ) عاطفة على مقدر يستدعيه المقام فكأنه قيل : رفع الله العظام من أماكنها وأكساها لحما فلما تبين له ذلك ، وتيقنه قال أعلم أن الله على كل شيء قدير . وفاعل ( تَبَيَّنَ ) مضمر يفسره سياق الكلام والتقدير : فلما تبين له كيفية الإحياء أو فلما تبين له ما أشكل عليه من أمر إحياء الموتى قال أعلم أن الله على كل شيء قدير .

واذ قال ابراهيم رب ارني كيف تحيي الموتى قال اولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ اربعة من الطير فصرهن اليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن ياتينك سعيا واعلم ان الله عزيز حكيم

كما فسرها الوسيط تلك هي القصة الأولى التي ساقها الله - تعالى كدليل على قدرته وعلى صلحة البعث والنشور . أما القصة الثانية التي تؤكد هذا المعنى فقد حكاها القرآن في قوله : ( وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الموتى ) أي : واذكر أيها العاقل لتعتبر وتتعظ وقت أن قال إبراهيم - عليه السلام - مخاطبا خالقه - سبحانه - : رب أرني بعيني كيف تعيد الحياة إلى الموتى .وفي قوله : ( رب ) تصريح بكمال أدبه مع خالقه - عز وجل - فهو قبل أن يدعوه يستعطفه ويعترف له بالربوبية الحقة ، والألوهية التامة ، ويلتمس منه معرفة كيفية إحياء الموتى ، فهو لا يشك في قدرة الله ولا في صحة البعث - وحاشاه أن يفعل ذلك - فهو رسلو من أولى العزم من الرسل وإنما هو يريد أن ينتقل من مرتبة علم اليقين إلى عين اليقين ، ومن مرتبة البرهان إلى مرتبة العيان ، فإن العيان يغرس في القلب أسمى وأقوى ألوان المعرفة والاطمئنان .وقد ذكر المفسرون لسؤال إبراهيم - عليه السلام - أسبابا منها : أنه لما قال للنمرود ( رَبِّيَ الذي يُحْيِي وَيُمِيتُ ) أحب أن يترقى بأن يرى ذلك مشاهدة . وقد أجاب الخالق - عز وجل - على طلب إبراهيم بقوله : ( أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ) أي : أتقول ذلك وتطلبه ولم تؤمن بأنقادر على الإحياء وعلى كل شيء؟فالجملة الكريمة استئناف مبنى على السؤال ، وهي معطوفة على مقدر ، والاستفهام للتقرير .وهنا يحكى القرآن جواب إبراهيم على خالقه - عز وجل - فيقول : ( قَالَ بلى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ) أي قال إبراهيم في الرد على سؤال ربه له ( أَوَلَمْ تُؤْمِن ) بلى يا رب آمنت

بك وبقدرتك وبوحدانيتك إيمانا صادقا كاملا ، ولكني سألت هذا السؤال ليزداد
قلبي سكونا واطئمان وإيمانا لأن من شأن المشاهدة أن تغرس في القلب سكونا
واطمئنان أشد ، وإيمانا أقوى ، وأنا في جميع أحوالي مؤمن كل الإيمان
بقدرتك ووحدانيتك يا رب العالمين .قال القرطبي ما ملخصه : لم يكن إبراهيم
شاكا في إحياء الله الموتى قط وإنما طلب المعاينة ، وذلك أن النفوس مستشرفة
إلى رؤية ما أخبرت به ، ولهذا جاء في الحديث " ليس الخبر كالمعاينة " قال
: الأخفش : لم يرد إبراهيم رؤية القلب وإنما أراد رؤية العين . وقال الحسين
سأل ليزداد يقينا إلى يقينه .وأما قول الرسول صلى الله عليه وسلم :" نحن
، أحق بالشك من إبراهيم " فمعناه أنه لو كان شاكا لكنا نحن أحق بالشك منه
، ونحن لا نشك فإبراهيم - عليه السلام - وسائر ألفاظه الآتية لم تعط شكا
وذلك أن الاستفهام بكيف إنما هو سؤال عن حالة شيء موجود متقرر الوجود عند
السائل والمسئول ، وكيف هنا إنما هي استفهام عن هيئة الإحياء والإحياء
متقرر ، - فسؤال إبراهيم إنما هو عن كيفية لا عن أصل القضية . . .وقال صاحب
الكشاف : فإن قلت : كيف قال له ( أَوَلَمْ تُؤْمِن ) وقد علم أنه أثبت
الناس إيمانا؟ قلت : ليجيب بما أجاب به لما فيه من الفائدة الجليلة
) : للسامعين . و ( بلى ) إيجاب لما بعد النفي معناه : بلى آمنت . وقوله
وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ) أي ليزداد سكوننا وطمأنينة بمضامة علم
الضرورة - أي علم المشاهدة - إلى علم الاستدلال الذي يجوز معه التشكيك
بخلاف العلم الضروري ، فأراد بطمانينة القلب العلم الذي لا مجال فيه
للتشكيك . فإن قلت : بم تعلقت اللام في قوله : ( لِّيَطْمَئِنَّ ) قلت
بمحذوف تقديره : ولكن سألت ذلك إرادة طمأنينة القلب .ثم حكى القرآن بعد ذلك
ما كان من جواب الخالق - عز وجل - على نبيه إبراهيم فقال : ( قَالَ فَخُذْ
أَرْبَعَةً مِّنَ الطير فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجعل على كُلِّ جَبَلٍ
) : مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادعهن يَأْتِينَكَ سَعْياً ) .قوله
فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ) أي فاضممهن إليك - قرئ بضم الصاد وكسرها وتخفيف
الراء - يقال : صاره يصوره ويصيره ، أي أماله وضمه إليه . ويقال - أيضا
صار الشيء بمعنى قطعه وفصله والمعنى : قال الله - تعالى - لإبراهيم : إذا
أردت معرفة ما سألت عنه فخذ أربعة من الطير فاضممهن إليك لتتأملهن وتعرف
) أشكالهن وهيئاتهن كيلا تلتبس عليك بعد الإحياء ، ثم اذبحهن وجزئهن أجزاء
ثُمَّ اجعل على كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ) أي ثم اجعل على كل مكان
مرتفع من الأرض جزاء من كل طائر من تلك الطيور ثم نادهن يأتينك مسرعات إليك
والفاء في قوله ( فَخُذْ ) هي التي تسمى بالفاء الفصيحة لأنها تفصح عن .
شرط مقدر أي : إذا أردت ذفك فخذ .وقوله : ( مِّنَ الطير ) متعلق بمحذوف صفة
لأربعة أي فخذ أربعة كائنة من الطير ، أو متعلق بقوله ( خذ ) أي خذ من
. الطير . والطير اسم جمع - كرَكْب وسفر - وقل هو جمع طائر مثل تاجر وتجر
قالوا : وهذه الطيور الأربعة هي الطاووس والنسر والغراب والديك .ومما قالوه
في اختيار الطير لهذه الحالة : أن الطير من صفاته الطيران ، وأنه لا يستأنس
بالإنسان بل يطير بمرد رؤيته ، ولسهولة تأتي ما يفعل به من التجزئة
والتفرقة .وقوله : ( ثُمَّ اجعل على كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا )
معطوف على محذوف دل عليه قوله : ( جُزْءًا ) لأن تجزئتهن إنما تقع بعد
الذبح والتقدير : فاذبحهن ثم اجعل . . إلخ . وقوله : ( ثُمَّ ادعهن ) أي قل
، لهن تعالين بإذن الله .وقوله ( يَأْتِينَكَ ) جواب الأمر فهو في محل جزم
منصوب على المصدر النوعي ، لأن السعي نوع من الإتيان فكأنه ( سَعْياً )
قيل : يأتينك إتياناً سريعاً :قال الفخر الرازي : أجمع أهل التفسير على أن
المراد بالآية : قطعهن ، وأن إبراهيم قطع أعضاءهاه ولحومها وريشها ودماءها
وخلط بعضها ببعض - وفعل كما أمره الله ، ثم قال لهن تعالين بإذن الله
فأقبلن مسرعات إليه بعد أن انضم كل جزء إلى أصله - ثم قال : ولكن أبا مسلم
أنكر ذلك وقال : " إن إبراهيم لما طلب إحياء الميت من الله - تعالى - أراه
الله مثالا قرب به الأمر عليه ، والمراد بصرهن إليك : الإمالة والتمرين
على الإجابة . أي : فعود الطوير الأربعة أن تصير بحيث إذا دعوتها أجابتك
وأتتك ، فإذا صارت كذلك فاجعل على كل جبل واحدا حال حياته ، ثم ادعهن
يأتينك سعياً ، والغرض منه ذكر مثال محسوس في عود الأرواح إلى الأجساد على
سبيل السهولة . . "والذي يطمئن إليه القلب هو رأي الجمهور لأن الآية مسوقة
لتحقيق معجزة تجري على يد إبراهيم وهي إحياء الموتى بالمشاهدة كما جرى
، إحياء الرجل الذي أماته الله مائة عام والذي جاء ذكره في الآية السابقة
ولأن ظاهر الآية صريح في أنه حصل تقطيع لأجزاء الطير ثم وضع كل جزء منها
على مرتفع من الأرض ، وما دام الأمر كذلك فلا يجوز حمل المعنى على غير هذا
الظاهر ، كما لا يجوز تحميل الألفاظ ما لا تحتمله . وما ذهب إليه أبو مسلم
- هو قول بلا دليل فضلا عن مخالفته لما عليه إجماع المفسرين .ثم ختم
سبحانه - الآية بقوله : ( واعلم أَنَّ الله عَزِيزٌ حَكِيمٌ ) أي واعلم أن
الله - تعالى - غالب على أمره ، قاهر فوق عباده ، حكيم في كل شئونه وأفعاله
وبذلك نرى أن الآيتين الكريمتين قد ساقتا أبلغ الأدلة والشواهد على قدرة
الله - تعالى - وعلى أنه هو المستحق للعبادة والخضوع ، وعلى أن ما أخبر به
. من صحة البعث والنشور حق لا ريب فيه

مثل الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله كمثل حبة انبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم

، كما فسرها الوسيط ثم حض الله - تعالى - عباده على الإنفاق في سبيله ووعدهم على ذلك بجزيل الثواب ، فقال - تعالى - :( مَّثَلُ الذين يُنْفِقُونَ . . . )ذكر بعض المفسرين أن هاتين الآيتين نزلتا في صدقة عبد الرحمن عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان ، وذلك " أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما حث الناس حين أراد الخروج إلى غزوة تبوك ، جاء عبد الرحمن بأربعة آلاف درهم فقال : يا رسول الله كانت لي ثمانية آلاف فأمسكت لنفسي ولعيالي أربعة آلاف ، وأربعة آلاف أقرضتها لربي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت " وجاء عثمان بألف دينار في جيش العسرة فصبها في حجر الرسول صلى الله عليه وسلم قال عبد الرحمن بن سمرة - راوى الحديث - فرأيته صلى الله عليه وسلم يدخل يده فيها ويقبلها ويقول : " ماضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم اللهم لا تنس هذا اليوم لثعمان " ويقول : " يا رب عثمان إني رضيت عن عثمان فارض عنه " .ونزول هاتين الآيتين في شأن صدقة هذين الصحابين الجليلين لا يمنع من شمولهما لكل من نهج نهجهما وبذل من ماله في سبيل الله .و " المثل " ، الشبه والنظير . ثم أطلق على ، القول السائر المعروف لمماثة مضربة لمورده الذي ورد فيه أولا . ثم استعير للصفة أو الحال أو القصة إذا كان لها شأن وفيها غرابة ، وعلى هذا المعنى يحمل المثل في هذه الآية .و " المحبة " كما يقول القرطبي - اسم جنس لكل ما يزدرعه ابن آدم ويقتاته ، وأشهر ذلك البر فكثيرا ما يراد بالحب .وسنبلة - بوزن فنعلة - من أسبل الزرع إذا صار فيه السنبل ، أي استرسل بالسنبل كما يسترسل الستر بالاسبال . وقيل : معنه صار فيه حب مستور كما يستر الشيء بإسبال الستر عليه . والجمع سنابل .والمعنى : مثل صدقة الذين ينفقون ، أموالهم في سبيل الله ، أي : في طاعته ، كمثل حبة ألقيت في أرض طيبة أصابها الغيث ، فخرجت الحبة على هيئة زرع قوى جميل فأنبتت في الوقت المناسب - لإنباتها سبع سنابل في كل سنبة مائة حبة .فأنت ترى أن الخالق - عز وجل - قد شبه حال الصدقة التي يبذلها المؤمن في سبيل الله فيكافئة الله - تعالى عليها بالثواب العظيم ، بحال الحبة التي تلقى في الأرض النقية فتخرج عودا مستويا قائما قد تشعب إلى سبع شعب ، في كل سنبة ، وفي كل سنبة مائة حبة . وفي هذا التشبيه ما فيه من الحض على الإنفاق في وجه الخير ، ومن الترغيب في فعل البر ولا سيما النفقة في الجهاد في سبيل الله .قال ابن كثير " : وهذا المثل أبلغ في النفوس من ذكر عدد السبعمائة . فإن هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينميها الله - تعالى - لأصحابها كما ينمى الزرع لمن بذره في الأرض الطيبة " .وقال - سبحانه - : ( كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ ) فأسند الإنبات إلى الحبة ، مع أن المنبت في الحقيقة هو الله ، وذلك لأنها سبب لوجود تلك السنابل المليئة بالحبات ، ولأنها هي الأصل لما تولد عنها - ثم قال - تعالى - : ( والله يُضَاعِفُ لِمَن يَشَآءُ ) أي والله - تعالى. يضاعف الثواب والجزاء أضعافاً كثيرة لمن يشاء من عباده ، فيعطي بعضهم سبعمائة ضعف ، ويعطي بعضهم أكثر من ذلك ، لأن الصدقة يختلف ثوابها باختلاف حال المتصدق ، فمتى خرجت منه بنية خالصة ، وقلب سليم ، ونفس صافية ، ومن مال حلال ، ووضعت في موضعها المناسب ، متى كانت كذلك كان الجزاء عليها أوفر والمضاعفة لها تزيد على سبعمائة ضعف . إذ عطاء الله لمن يشاء من عباده ، ليس له حدود ، وثوابه ليس له حساب معدود .ولذا ختم - سبحانه - الآية بقوله ، أي والله - تعالى - عطاؤه واسع ، وجوده عميم ( والله وَاسِعٌ عَلِيمٌ ) : وفضله كبير ، وهو - تعالى - عليم بنيات عباده وبأقوالهم وبأفعالهم وبسائر شئونهم ، فيجازي كل إنسان على حسب نيته وعمله .

الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما انفقوا منا ولا اذى لهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( الذين يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ ) استئناف جيء به لبيان كيفية الإنفاق الذي يحبه الله ، ويجازي عليه المنفقين بالجزاء العظيم .وقوله : ( ثُمّ لاَ يُتْبِعُونَ مَآ أَنْفَقُواْ مَنّاً وَلاَ أَذًى ) تحذير للمتصدق من هاتين الصفتين الذميمتين لأنهما مبطلتان لثواب الصدقة .والمن معناه : أن يتطاول المحسن بإحسانه على من أحسن إليه ، ويتفاخر عليه بسبب ما أعطاه من عطايا . كأن يقول على سبيل التفاخر والتعبير : لقد أحسنت إليك وأنقذتك من الفقر وما يشبه ذلك .قال الإمام الرازي ما ملخصه : والمن في اللغة على وجوه : فقد يأتي بمعنى الإنعام . يقال : قد من الله على فلان . إذا أنعم عليه بنعمه . وقد يأتي بمعنى النقص من الحق والبخس له . قال - تعالى - : ( وَإِنّ لَكَ لأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ ) أي غير مقطوع وغير ممنوع ومنه سمى الموت منونا لأنه يقطع الأعمار ، ومن هذا الباب المنة والمذمة لأنها تنقص النعمة

وتكدرها ، والعرب يمتدحون بترك المن بالنعمة .والمراد بالمن في الآية المذموم الذي هو بمعنى " إظهار الاصطناع إليهم " .وقال صاحب الكشاف : المن ، أن يعتد على من أحسن إليه بإحسانه ، ويريد أنه اصطنعه وأوجب عليه حقاله : وكانوا يقولون : إذا صنعتم صنيعة فانسوها . ولبعضهم .وإن أمروا أسدى إلى صينعة ... وذكرينها إنه للئيموفي نوابغ الكلم : صنوان : من منح سائله ومنّ ومن منع نائله وضن " والمراد بالأذى في الآية : أن يقول المعطى لمن أعطاه ، قولا يؤذيه ، أو يفعل مه فعلا يسئ به إليه ، وهو أعم من المن ، إذ المن نوع ، من الأذى لكنه نص عليه لكثرة وقوعه .وجاء العطف بثم في الجملة الكريمة لإظهار التفاوت الشديد في ارتبة بين الإنفاق الذي يحبه الله ، وبين الإنفاق الذي يصاحبه المن والأذى ، وللإشعار بأن المن والأذى بغيضان عند الإنفاق وبعده ، فعلى المنفق أن يستمر في أدبه وإخلاصه وقت الإنفاق وبعده حتى لا يذهب ثوابه ، إذ المنّ والأذي مبطلان للثواب في أي وقت يحصلان فيه قال الشيخ ابن المنير مبيناً أن ( ثُمّ ) هنا تفيد استمرار الفعل بجانب. إفادتها للتفاوت في الرتبة : وعندي فيها - أي في ثم - وجه آخر محتمل في هذه الآية ونحوها . وهو الدلالة على دوام الفعل المعطوف بها وإرخاء الطول في استصحابه . فهي على هذا لم تخجر عن الإشعار ببعد الزمن ، ولكن معناها الاصلي تراخي زمن وقوع الفعل وحدوثه ، ومعناها المستعار إليه دوام وجود الفعل وتراخي زمن بقائه . وعليه حمل قوله - : ( إِنّ الذين قَالُواْ رَبُّنَا الله ثُمّ استقاموا ) أي : داوموا على هذه الاستقامة دواما متراخيا ممتد الامد . وكذلك قوله هنا ( ثُمّ لاَ يُتْبِعُونَ مَآ أَنْفَقُواْ مَنّاً وَلاَ أَذًى ) أي يدومون على تناسي الإحسان وعلى ترك الاعتداد به والامتنان والأذى . .وكرر - سبحانه - النفي في قوله : ( ثُمّ لاَ يُتْبِعُونَ مَآ أَنْفَقُواْ مَنّاً وَلاَ أَذًى ) لتأكيده وشموله لأفراد كل واحد منهما ، أي يجب ألا يقع منهم أي من نوع من أنواع المن ولا أي نوع من أنواع الأذى . حتى لقد قال بعض الصالحين : " لئن ظننت أن سلامك يثقل على من أنفقت عليه بنفقة تبتغي بها وجه الله ، فلا تسلم عليه " .ثم ) : ختم - سبحانه - الآية ببيان عاقبة المنفقين بلا من ولا أذى فقال لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ) أي : لهم جزاؤهم العظيم مكافأة لهم على أدبهم وإخلاصهم ، عند مربيهم ومالك أمرهم ، ولا خوف عليهم مما سيجدونه في مستقبلهم ، ولا هم يحزنون على ماضيهم ، وذلك لأن الله - تعالى - قد أحاطهم برعايته في دنياهم وأخراهم وعوضهم عما فارقوه خير عوض وأكرمه .

قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها اذى والله غني حليم

كما فسرها الوسيط ثم كرر - سبحانه - التحذير من المن والأذى ، مناديا المؤمنين بأن يجتنبوا في صدقاتهم هاتين الرذيلتين ، مبينا أن الكلمة الطيبة للفقير خير من إعطائه مع إيذائه ، استمع إلى القرآن وهو يسوق هذه المعاني وغيرها بأسلوبه البليغ المؤثر فيقول :( قَوْلٌ مّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن . . . )المعنى : ( قَوْلٌ مّعْرُوفٌ ) بأن تقول للسائل كلاما جميلا طيبا تجبر به خاطره ، ويحفظ له كرامته " ومغفرة " لما وقع منه من إلحاف في السؤال ، وستر لحاله وصفح عنه ، ( خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ) أي خير من صدقة يتبعها المتصدق أذى للمتصدق عليه .لأن الكلمة الطيبة للسائل ، والعفو عنه فيما صدر منه ، كل ذلك يؤدي إلى رفع الدرجات عند الله ، وإلى تهذيب النفوس ، وتأليف القلوب وحفظ كرامة أولئك الذين مدوا أيديهم بالسؤال . أما الصدقة التي يتبعها الأذى فإن إيتاءها بتلك الطريقة يؤدي إلى ذهاب ثوابها ، وإلى زيادة الآلام عند السائلين ولا سيما الذين يحرصون على حفظ كرامتهم ، وعلى صيانة ماء وجوههم ، فإن ألم الحرمان عند بعض الناس أقل أثرا في نفوسهم من آلام الصدقة المصحوبة بالأذى لأن ألم الحرمان يخففه الصبر الذي وراءه الفرج ، أما آلام الصدقة ، المصحوبة بالأذى لهم فإنها تصيب النفوس الكريمة بالجراح التي من العسير التئامها وشفاؤها .قال القرطبي : روى مسلم في صحيحه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الكلمة الطيبة صدقة ، وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق " فعلى المسئول أن يتلقى السائل بالبشر والترحيب ، ويقابله بالطلاقة والتقريب ليكون مشكوراً إن أعطى ومعذوراً إن منع . وقد قال بعض الحكماء : القى صاحب الحاجة بالبشر فإن عدمت شكره لم تعدم عذره .وقوله : ( قَوْلٌ ) : مّعْرُوفٌ ) مبتدأ وساغ الابتداء بالنكرة لوصفها وللعطف عليها . وقوله وَمَغْفِرَةٌ ) عطف عليه وسوغ الابتداء بها العطف أو الصفة المقدرة إذ التقدير ومغفرة للسائل أو من الله وقوله : ( خَيْرٌ ) خبر عنهما وقوله ) يَتْبَعُهَآ أَذًى ) في محل جر صفة لصدقة .ثم ختم الله - تعالى - الآية بقوله : ( والله غَنِيٌّ حَلِيم ) أي والله - تعالى - غني عن إنفاق المنفقين وصدقات المتصدقين . وإنما أمرهم بهما لمصلحة تعود عليهم . أو غنى عن الصدقة المصحوبة بالأذى فلا يقبلها . ( حَلِيم ) فلا يعجل بالعقوبة على مستحقها ، فهو - سبحانه - يمهل ولا يهمل .والجملة الكريمة تذييل لما قبله

. مشتملة على الوعد والوعيد ، والترغيب والترهيب

يا ايها الذين امنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الاخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فاصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( ياأيها الذين آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بالمن والأذى ) نداء منه - سبحانه - للمؤمنين - يكرر فيه نهيهم عن المن والأذى ، لأنهما يؤديان إلى ذهاب الأجر من الله تعالى - وإلى عدم الشكر من الناس ولذا جاء في الحديث الشريف : " إياكم والامتنان بالمعروف فإنه يبطل الشكر ويحق الأجر " .والمعنى : يا من آمنتم بالله - تعالى -لا تبطلوا صدقاتكم بأن تحبطوا أجرها ، وتمحقوا ثمارها ، بسبب المن والأذى ، فيكون مثلكم في هذا الإبطال لصدقاتكم بسبب ما ارتكبتم من آثام ، كمثل المنافق الذي ينفق ماله من أجل أن يرى الناس منه ذلك ولا يبغي به رضاء الله ولا ثواب الآخرة ، لأنه كفر بالله ، وكفر بحساب الآخرة وفي هذا التشبيه تنفير شديد من المن والأذى لأنه - سبحانه - شبه حال المتصدق المتصف بهما في إبطال علمه بسببها بحال هذا المنافق المرائي الذي لا يؤمن بالله واليوم الآخر .وقوله : ( كالذي ) الكاف في محل نصب على أنها نعت لمصدر محذوف أي :لا تبطلوها إبطالا كابطال الذي ينفق ماله رئاء الناس أو في محل نصب على الحال من فاعل ( تُبْطِلُواْ ) أي لا تبطلوا . . . مشابهين الذي ينفق ماله رئاء الناس .وقوله : ( رِئَآءَ ) منصوب على أنه مفعول لأجله أي : كالذي ينفق ماله من أجل رئاء الناس .وأما المثال الثاني فقال - سبحانه - : ( فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لاَّ يَقْدِرُونَ على شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ) .( صَفْوَانٍ ) اسم جنس جمعي واحد صفوانه كشجر وشجرة وهو الحجر الكبير الأملس ، مأخوذ من الصفاء وهو خلوص الشئ مما يشوبه . يقال يوم صفوان أي صافي الشمس . وقيل هو مفرد كحجر . و ( الوابل ) المطر : الشديد . يقال : وبلت السماء تبل وبلا ووبولا . اشتد مطرها ( الصلد ) هو الشيء الأجرد النقي من التراب الذي كان عليه . ومنه رأس أصلد إذا كان لا ينبت شعراً ، والأصلد الأجرد الذي لا ينبت شيئاً مأخوذ من صلد يصلد صلدا فهو صلد .والمعنى : يأيها المؤمنون لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى فيكون مثلكم كمثل المنافق الذي ينفق ماله من أجل الرياء لا من أجل رضا الله ، وإن مثل هذا المنافق في انكشاف أمره وعدم انتفاعه بما ينفقه رياء وحباً للهور مثل حجر أملس لا ينبت شيئاً ولكن عليه قليل من التراب الموهم للناظر إليه أنه منتج فنزل المطر الشديد فأزال ما عليه من تراب ، فانكشف حقيقته وتبين للناظر إليه أنه حجر أملس صلد لا يصلح لإنبات أي شيء عليه .فالتشبيه في الجملة الكريمة بين الذي ينفق ماله رياء وبين الحجر الكبير الأملس الذي عليه قد رقيقه من التراب ستر حاله ، ثم ينزل المطر فيزيل التراب وتنكشف حقيقته ويراه الرائي عارياً من أي شيء يستره . وكذلك المنافق المرائي في إنفاقه يتظاهر بمظهر السخاء أمام الناس ثم لا يلبث أن ينكشف أمره لأن ثوب الرياء يشف دائماً عما تحته ، وإن لم يكشفه فإن الله كاشفه .ومن المفسرين من يرى أن التشبيه في الجملة الكريمة بين المنفق الذي يبطل صدقته بالمن والأذى وبين الحجر الأملس ، وأن الضمير في قوله : ( فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ ) يعود إلى هذا المبطل لصدقته بالمن والأذى . فيكون المعنى :لاَ تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى فيكون مثلكم كمثل الحجر الأملس الذي عليه تراب ، كان يرجى أن يكون منبتاً للزرع فنزل المطر فأزال التراب فبطل إنتاجه فالمن والأذى يبطلان الصدقات ويزيلان أثرها النافع ، كما يزيل المطر التراب الذي يؤمل منه الإنبات من فوق الحجر الأملس .والذي نراه أن عودة الضمير في قوله : ( فَمَثَلُهُ ) على الذي ينفق ماله رئاء الناس أظهر لأنه أقرب مذكور ولأن التشبيه في قوله : ( فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ ) قد جاء بلفظ ، المفرد وهو المناسب للذي ينفق ماله رئاء الناس لأنه مفرد مثله ، بخلاف قوله فإن الضمير فيه بلفظ ( لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بالمن والأذى ) : الجمع ، فمن الأولى أن يعود الضمير في قوله : ( فَمَثَلُهُ ) إلى المرائي لتوافقهما في الأفراد .ثم قال - تعالى - : ( لاَّ يَقْدِرُونَ على شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ) أي أن الذين يبطلون صدقاتهم بالمن والأذى ، والذين يتصدقون رياء ومفاخرة لا يقدرون على تحصيل شيء من ثواب ما عملوا لأن ما صاحب أعمالهم من رياء ومن أذى محق بركتها ، وأذهب ثمرتها ، وأزال ثوابها أو المعنى : أو أولئك المنانين والمرائين ليس عندهم قدرة على شيء من المال. الذي أنعم به عليهم ، فعليهم أن يشكروه على هذه النعمة ، وأن ينفقوه بدون - من أو أذى أو مراءاة ، حتى يظفروا بحسن المثوبة منه - سبحانه - .ثم ختم سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ( والله لاَ يَهْدِي القوم الكافرين ) أي لا يهديهم إلى ما ينفعهم لأنهم آثروا الكفر على الإيمان .والجملة الكريمة تذييل مقرر لمضمون ما قبله ، وفيها إشارة إلى أن الإنفاق المصحوب بالمن والأذى والرياء ليس من صفات المؤمنين وإنما هو من صفات الكافرين ، فعلى

المؤمنين أن يجتنبوا هذه الصفات التي لا يليق بهم .والذي ينظر في هذه الآيات الكريمة يرى أن الله - تعالى - قد حذر المنفقين من المن والأذى في ثلاث آيات متواليات ، كما حذرهم من الرياء ، وساق أكثر من تشبيه لتقبيح الصدقات التي لا تكون خالصة لوجه الله فلماذا كل هذا التشديد في النهي؟والجواب عن ذلك : أن المن والأذى في الإنفاق كثيراً ما يحصلان بسبب استعلاء كاذب ، أو رغبة في إذلال المحتاج وإظهاره بمظهر الضعيف : وكلا الأمرين لا يليق بالنفس المؤمنة المخلصة ، ولا يتلاقى مطلقاً مع الحكم التي من أجلها شرعت الصدقات بل إنه ليتنافر معها تنافراً تاماً لأن الصدقات شرعها الله لتهذيب النفوس وتطهير القلوب ولتربط بين الأغنياء والفقراء برباط المحبة والمودة والإخاء ، فإذا ما صاحبها المن والأذى أثمرت نقيض ما شرعت له ، لأنها تثير في نفس المعطى بسبب ذلك الكبر والخيلاء وغير ذلك من الصفات الذميمة ، وتثير في نفس الآخذ شعوراً بالحقد والانتقام ممن أعطاه ثم آذاه وبذلك تنقطع الروابط ، ويتمزق المجتمع ، ويتحول المحبة إلى عداوة ولقد تحدث الإمام الرازي عن الآثار السيئة للمن والأذى فقال ما ملخصه. وإنما كان المن مذموماً لوجوه :الأول : أن الفقير الآخذ للصدقة منكسر: القلب لأجل حاجته إلى صدقة ، فإذا أضاف المعطي إلى ذلك إظهار الإنعام زاد ذلك في انكسار قلبه فيكون في حكم المضرة بعد المنفعة ، وفي حكم المسيء إليه بعد أن أحسن إليه .والثاني : أن إظهار المن يبعد أهل الحاجة عن الرغبة في صدقته إذا اشتهر من طريق ذلك .الثالث : أن المعطي يجب أن يعتقد أن هذه النعمة من الله - تعالى - عليه - وأن يعتقد أن لله عليه نعما عظيمة حيث وفقه لهذا العمل ومتى كان الأمر كذلك امتنع عن أن يجعل ما ينفقه منه على الغير .الرابع : أن المعطي في الحقيقة هو الله ، ومتى اعتقد العبد ذلك استنار قلبه ، أما إذا اعتقد غير ذلك فإنه يكون في درجة البهائم الذين لا يترقى نظرهم عن المحسوس إلى المعقول ، وعن الآثار إلى المؤثر . . . وأما الأذى فيتناول كل ذلك وغيره مما يسيئ إلى الفقير بأن يقول له : فرج الله عني منك ، وأنت أبدا تأتي بما يؤلم . إلخ .هذا ، وقد ساق الإمام ابن كثير عدداً من الأحاديث الشريفة التي نهت عن المن والأذى ومن ذلك ما جاء في صحيح مسلم عن أبي ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : المنان بما أعطى ، والمسبل إزاره ، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب " وروى النسائي عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لا يدخل الجنة مدمن خمر ، ولا عاق لوالديه ، ولا منّان " .

ومثل الذين ينفقون اموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتا من انفسهم كمثل جنة بربوة اصابها وابل فاتت اكلها ضعفين فان لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير

، كما فسرها الوسيط وبعد أن بين القرآن سوء عاقبة الذين يراءون في صدقتهم ويفسدون ثمارها بالمن والأذى ، أتبع ذلك ببيان حسن عاقبة الذين ينفقون . . أموالهم ابتغاء رضا الله ، فقال - تعالى :( وَمَثَلُ الذين يُنْفِقُونَ التثبيت : تحقيق الشيء وترسيخه ،والجنة - كما يقول الراغب - كل بستان ذي( . شجر يستر بأشجاره الأرض . وأصل الجن ستر الشيء على الحاسة ، يقال : جنة ) . الليل وأجنه أي ستره . وسميت الجنة بذلك لأنها تظلل ما تحتها وتستره الربوة ) - بضم الراء - وفتحها - المكان المرتفع من الأرض . وأصلها من قولهم : ربا الشيء يربو إذا ازداد وارتفع ومنه الربا للزيادة المأخوذة على - أصل الشيء .والمعنى : ومثل الذين ينفقون أموالهم طلبا لرضي الله - تعالى أي : وتوطينا لأنفسهم أي : وتوطينا ( وَتَثْبِيتاً مِّنْ أَنْفُسِهِمْ ) لأنفسهم على حفظ هذه الطاعة وعلى ترك ما يفسدها كمثل جنة بموضع مرتفع من الأرض نزل بها مطر كثير فأخرجت ثمرها ( ضعفين ) أي ضعفا بعد ضعف فتكون التثنية للتكثير ، أو فأعطت صابحها أو الناس مثلى ما كانت تثمر في سائر الأوقات بسبب ما أصابها من المطر الغزير . أو فأخرجت ثمرها ضعفين بالنسبة إلى غيرها من الجنان .والمقصود تشبيه نفقة هؤلاء المؤمنين المخلصين في زكائها ونمائها عند الله بتلك الحديقة اليانعة المرتفعة التي تنزل عليها ) : المطر الغزير فأتت أكلها مضاعفاً وأخرجت للناس من كل زوج بهيج .وقوله ابتغآء ) مفعول لأجله أي يبذلون نفقتهم من أجل رضا الله - عز وجل - أو حال ) : من فاعل ينفقون . أي ينفقون أموالهم طالبين رضا الله .وقوله وَتَثْبِيتاً مِّنْ أَنْفُسِهِمْ ) معطوف على سابقه ، وقد ذكر صاحب الكشاف أوجها في معنى هذه الجملة الكريمة فقال : قوله : ( وَتَثْبِيتاً مِّنْ أَنْفُسِهِمْ ) أي وليثبتوا منها ببذل المال الذي هو شقيق الروح على سائر العبادات الشاقة وعلى الإيمان ، لأن النفس إذا رضيت بالتحامل عليها وتكليفها ، ما يصعب عليها ذلت خاضعة لصاحبها وقل طمعها في اتباعه لشهواتها وبالعكس ، فكان إنفاق المال تثبيتا لها على الإيمان واليقين . و ( مِّنْ ) . على هذا الوجه للتبعيض ، مثلها في قولهم : هز من عطفه وحرك من نشاطه ويجوز أن يراد من قوله - تعالى - : ( وَتَثْبِيتاً مِّنْ أَنْفُسِهِمْ ) أي

وتصديقا للإسلام وتحقيقا للجزاء من أصل أنفسهم لأنه إذا أنفق المسلم : ماله في سبيل الله ، علم أن تصديقه وإيمانه بالثواب من أصل نفسه ومن إخلاص ) - قلبه . و ( مِّنْ ) على هذا الوجه للابتداء الغاية ، كقوله - تعالى حَسَداً مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ ) ويحتمل أن يكون المعنى : وتثبيتا من أنفسهم عند المؤمنين أنها صادقة الإيمان مخلصة فيه ، وتعضد هذا المعنى : قراءة مجاهد : وتثبيتا من أنفسهم : فإن قلت : فما معنى التبعيض؟ قلت معناه أن من يذل ماله لوجه الله فقد ثبت بعض نفسه ، ومن بذل ماله وروحه معا فهو الذي ثبتها كله كما في قوله - تعالى - : ( وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ الله بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ )وخص الجنة بأنها بربوة لأن ، الأشجار في المكان المرتفع من الأرض تكون عادة أحسن منظرا ، وأزكى ثمرا للطاقة هوائها ، فكان من فوائده هذا القيد إعطاء وجه الشبه - وهو تضعيف المنفعة وجمالها قوة ووضوحا ، كما أن من فوائده تحسين المشبه به تحسينا يعود أثره إلي المشبه عند السامع .ثم قال - تعالى - : ( فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ) .والطل : هو المطر القليل وجمعه طلال ، وهو مبتدأ محذوف الخبر أي فطل قليل يصبها يكفيها .والمراد أن هذه الجنة لطيبها وكرم منبتها تزكو وتثرم كثر المطر النازل عليها أو قل فكذلك نفقة المؤمنين المخلصين تزكو عند الله وتطيب كثرة أو قلت ، لأن إخلاصهم فيها جعلها عند الله - تعالى - مضاعفة نامية .ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ( والله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِير ) .أي أنه - سبحانه - عليم بأحوال عباده لا تخفى عليه خافية ، وسيجازي المخلصين بما يرضيهم كما سيجازي المنانين والمرائين بما يستحقون . ففي الجملة الكريمة ترغيب وترهيب ووعيد .وبذلك نرى القرآن الكريم قد ساق في هذه الآية وسابقتها حالتين متقابلتين : حالة الذي يبطل صدقته بالمن والأذى والرياء ، وكيف تكون عاقبته ونهايته . وحالة الذي ينفق ماله طلبا لرضا الله وتعويدا لنفسه على فعل الطيبات وكيف يكون جزاؤه عند العليم الخبير ولقد صور القرآن هاتين الحالتين تصويراً مؤثراً بديعاً ، من شأنه أن يهدي العقلاء إلى فعل الخيرات ، وإخلاص النيات ، واجتناب السيئات .

ايود احدكم ان تكون له جنة من نخيل واعناب تجري من تحتها الانهار له فيها من كل الثمرات واصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فاصابها اعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الايات لعلكم تتفكرون

كما فسرها الوسيط ثم ساق القرآن آية كريمة حذر فيها الناس من ارتكاب ما نهى الله عنه وبين فيها كيف أن المن والأذى والرياء وما يشبه ذلك من رذائل يؤدي إلى ذهاب الشيء النافع من بين يدي صاحبه وهو أحوج ما يكون إليه . استمع إلى القرآن وهو يصور نهاية هذا الإنسان البائس .( أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ . . . )قوله : ( أَيَوَدُّ ) هو من الود بمعنى المحبة الكاملة للشيء وتمنى حصوله ، والاستفهام فيه للإنكار و ريح عاصفة تنعكس من الأرض إلى السماء مستديرة كالعمود ، وهي ( الإعصار ) التي يسميها بعض الناس زوبعة . وسميت إعصاراً لأنها تعصر ما تمر به من الأجسام ، أو تلتف كما يلتف الثوب المعصور . والريح مؤنثة وكذا سائر أسمائها إلا الإعصار فإنه مذكر ولذا قيل ( فِيهِ نَارٌ ) أي سموم وصواعق والمعنى : أيحب أحدكم - أيها المنانون المراءون - أن تكون له جنة معظم شجرها ( مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ) تجري من تحت أشجارها ( الأنهار لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثمرات ) النافعة ، والحال أنه قد أصابه الكبر الذي أقعده عن الكسب من غير تلك الحديقة اليانعة ، وله فضلا عن شيخوخته وعجزه ذرية ضعفاء لا يقدرون على العمل ، وبينما هو على هذه الحالة إذا بالجنة ينزل عليها إعصار فيه نار فيحرقها ويدمرها ففقدها صاحبها وهو أحوج ما يكون إليها وبقى هو وأولاده في حالة شديدة من البؤس والحيرة والغم والحسرة لحرمانه من تلك الحديقة التي كانت محط آماله .فالآية الكريمة قد اشتملت على مثل آخر لحالة الذين يبطلون أعمالهم وصدقاتهم بالمن والأذى والرياء ، وغير ذلك من الأفعال القبيحة والصفات السيئة فقد شبه - سبحانه - حال من يعمل الأعمال الحسنة ثم يضم إليها ما يفسدها فإذا كان يوم القيامة واشتدت حاجته إليها وجدها محبطة ذاهبة ، شبه هذ الإنسان في حسرته وألمه وحزنه بحال ذلك الشيخ الكبير العاجز الذي له ذرية ضعفاء لا يملك سوى حديقة يانعة يعتمد عليها في معاشه هو وأولاده فنزل عليها إعصار فيه نار فأحرقها ودمرها تدميراً .وحذف - سبحانه - حالة المشبه وهو الذي يبطل صدقته بالمن والأذى والرياء وما يشبه ذلك ، لظهورها من المقام .وقد وصف - سبحانه - تلك الجنة بثلاث صفات :وصفها أولا : بأنها من نخيل وأعناب أي معظمها من هذين الجنسين النفيسين اللذين هما أنفع الفواكه وأجملها منظراً .ووصفها ثانيا : بأنها . تجري من تحتها الأنهار ، أي تجري من تحت أشجارها الأنهار التي تسر النفس - وتبهج القلب ، وتزيد في حسن الجنة وبهائها .أما صاحبها فقد وصفه - سبحانه بأنه قد أصابه الكبر وله ذريه ضعفاء أي أنه في منتهى الاحتياج إليها لكبر سنه وعجزه عن الاكتساب من غيرها ولمسئوليته عن الإنفاق على أولاد صغار لا ، يعولهم أحد سواه .تلك هي حالة الجنة وحالة صاحبها في احتياجه إليها

فماذا حدث بعد ذلك؟ لقد أصابها ( إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فاحترقت ) فماذا يكون حال هذا الإنسان الذي أصابه الكبر وله ذرية ضعفاء وهو يرى جنته ومحط أمله قد احترقت وهو في أشد الحاجة إلى ظلها وثمارها ومنافعها؟إن الكلمات لتعجز عن تصوير ما يصيب هذا البائس من غم وهم وحزن وحسرة ، وهو يرى جنته قد احترقت وهو في أشد أوقاته حاجة إلى ظلها وثمارها ومنافعها!؟ولكأن الله - تعالى - يقول للناس بعد هذا التصوير البديع المؤثر : احذروا أن تبطلوا أعمالكم الصالحة بإرتكابكم لما نهى الله عنه ، فلا تجدون لها نفعاً يوم القيامة وأنتم في أشد الحاجة إليها في هذا اليوم العصيب ، لأنكم إذا فعلتم ذلك كان مثلكم في التحسر والحزن كمثل هذا الشيخ الكبير الذي احترقت جنته وهو في أشد الحاجة إليها .وإنه لتصوير قرآني في أسمى درجات البلاغة والتأثير ، وفي أعلى ألوان التأديب والتهذيب .قال القرطبي : روى البخاري عن عبيد بن عمير قال : " قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يوما لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فيم ترون هذه الآية نزلت وهي قوله - تعالى - : ( أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ ) الآية . قالوا الله أعلم فغضب عمر فقال : قولوا نعمل أو لا نعلم فقال ابن عباس : في نفسي منها شيء . يا أمير المؤمنين ، قال عمر : يا ابن أخي قل ولا تحقر نفسك . قال ابن عباس ضربت مثلا لرجل غني عمل بطاعة الله . ثم بعث الله له الشيطان فعمل : بالمعاصي حتى أحرق عمله . وروى ابن أبي مليكه أن عمر تلا هذه الآية وقال هذا مثل ضربه الله للإنسان يعمل عملا صالحا حتى إذا كان عند آخر عمره أحوج ما يكون إليه عمل العمل السيء " .ثم ختم - سبحانه - هذه الآية بقوله : ( كَذَلِكَ يُبَيِّنُ الله لَكُمُ الآيات لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ) أي. كما يبين الله في هذه الآية ما يهديكم وينفعكم يبين لكم آياته وهداياته : في سائر أمور دينكم لكي تتفكروا فيما يصلحكم ، وتعملوا ما يرضى خالقكم .

يا ايها الذين امنوا انفقوا من طيبات ما كسبتم ومما اخرجنا لكم من الارض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم باخذيه الا ان تغمضوا فيه واعلموا ان الله غني حميد

كما فسرها الوسيط ثم وجه القرآن بعد ذلك نداء إلى المؤمنين أمرهم فيه بأن يتحروا في نفقتهم الحلال الطيب ، بعد أن حضهم على الإنفاق بسخاء وإخلاص : فقال - تعالى - :( ياأيها الذين آمنوا أَنْفِقُواْ . . . )قال ابن كثير. عن البراء بن عازب - رضي الله عنه - في قول الله تعالى : ( ياأيها الذين آمنوا أَنْفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ ) . . الآية قال : نزلت في الأنصار كانت الأنصار إذا كانت أيام جذاذ النخل أخرجت من نخيلها البسر فعلقوه على حبل بين الاسطوانتين في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأكل فقراء المهاجرين منه ، فيعمد الرجل منهم إلى الحشف - أي التمر الردئ - فيدخله مع أفناء البسر يظن أن ذلك جائز فأنزل الله فيمن فعل ذلك الآية .والمعنى : يأيها الذين آمنوا اجعلوا نفقتكم التي تنفقونها في سبيل الله من أطيب أموالكم التي اكتسبتموها عن طريق التجارة وغيرها .قال ابن عباس : أمرهم الله - تعالى - بالإنفاق من أطيب المال وأجوده وأنفسه ، ونهاهم عن التصدق برذالة المال ودنيئة وخبيثه ، فإن الله طيب لا يقبل إلا طيباً " قال - تعالى - : ( لَن تَنَالُواْ البر حتى تُنْفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ) وقوله : ( وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأرض ) معطوف على ما قبله أي أنفقوا من طيبات أموالكم التي اكتسبتموها ومن طيبات ما أخرجنا لكم من الأرض من الحبوب والثمار والزروع وغيرها . وترك - سبحانه - ذكر كلمة الطيبات في هذه الجملة لسبق ذكرها في الجملة التي قبلها .فالآية الكريمة تأمر المؤمنين بأن يلتزموا في نفقتهم المال الطيب في كل وجه من وجوهه ، بأن يكون جيداً نفيساً في صنفه ، وحلالا مشروعاً في أصله .وقد أكد الله - تعالى - هذا الأمر بجملتين كريمتين فقال : ( وَلاَ تَيَمَّمُواْ الخبيث مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ) .قوله - تعالى - : ( وَلاَ تَيَمَّمُواْ ) أي ولا تقصدوا وتتعمدوا . يقال : تيممت الشيء ويممته إذا قصدته . ويقال : يممت جهة كذا إذا قصدته . ومنه الإمام لأنه المقصود المعتمد وأصل تيمموا فحذفت إحداهما تخفيفا والخبيث هو الردئ من كل شيء وخبث الفضة والحديد ما نفاه الكير لأنه ينفى. الردئ .ويطلق الخبيث على الشيء الحرام والمستقذر .والإغماض في اللغة - كما يقول الرازي - غض النظر وإطباق جفن على جفن ، وأصله من الغموض وهو الخفاء ، والمراد بالإغماض ها هنا المساهلة وذلك لأن الإنسان إذا رأى ما يكره أغمض عنه لئلا يرى ذلك . ثم كثر ذلك حتى جعل كل تجاوز ومساهلة في البيع وغيره إغماضاً .والمعنى : أنفقوا أيها المؤمنون من أطيب أموالكم وأنفسها وأجودها ولا تتحروا وتقصدوا أن يكون أنفاقكم من الخبيث الرديء ، والحال أنكم لا ، تأخذونه إن أعطى لكم هبة أو شراء أو غير ذلك إلا أن تتساهلوا في قبوله وتغضوا الطرف عن رداءته ، إذا كان هذا شأنكم في قبول ما هو رديء فكيف تقدمونها لغيركم؟ إن الله - ينهاكم عن ذلك لأن من شأن المؤمن الصادق في إيمانه ألا يفعل لغيره إلا ما يجب أن يفعله لنفسه ، ولا يعطي من شيء إلا ما

بجب أن يعطي إليه ، ففي الحديث الشريف :" عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به
قال الآلوسي : وقوله : ( مِنْهُ تُنْفِقُونَ ) الضمير المجرور يعود. "
للخبيث ، وهو متعلق بتنفقون ، والتقديم للتخصيص ، والجملة حال مقدرة من
فاعل ( تَيَمَّمُواْ ) أي لا تقصدوا الخبيث قاصرين الإنفاق عليه ، أو من
الخبيث أي مختصاً به الإنفاق ، وأيا ما كان لا يرد أنه يقتضي أن يكون
النهي عن الخبيث الصرف فقط مع أن المخلوط أيضاً كذلك لأن التخصيص لتوبيخهم
بما كانوا يتعاطون من إنفاق الخبيث خاصة .وقوله : ( وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ
حال في ضمير ( تُنْفِقُونَ ) أي : والحال أنكم لستم بآخذيه في وقت من (
الأوقات أو بوجه من الوجوه إلا وقت إغماضكم فيه .ثم ختم - سبحانه - الآية
- بقوله : ( واعلموا أَنَّ الله غَنِيٌّ حَمِيدٌ ) أي واعلموا أن الله
تعالى - غني عن صدقاتكم وإنما أمركم بها لمنفعتكم ، ( حَمِيدٌ ) يجازي
المحسن أفضل الجزاء ، وهو - سبحانه - المستحق للحمد الحقيقي دون سواه ، فمن
الواجب عليكم أن تبذلوا في سبيله الجيد من أموالكم شكراص له على نعمه حتى
. يزيدكم من عطائه وآلائه

الشيطان يعدكم الفقر ويامركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم

كما فسرها الوسيط ثم حذر الله - تعالى - المؤمنين من وساوس الشيطان وخطواته
) : فقال : ( الشيطان يَعِدُكُمُ الفقر وَيَأْمُرُكُم بالفحشآء ) .قوله
يَعِدُكُمُ ) من الوعد ، وهو في أصل وضعه لغة شائع في الخير والشر ، وأما
في الاستعمال الشائع فالوعد في الخير والإيعاد في الشر . وقد استعمل هنا
في الشر نظراً إلى أصل الوضع ، لأن الفقر مما يراه الإنسان شراً ولذلك
يخوف الشيطان به المنفقين فيقول لهم :لا تنفقوا الجيد من أموالكم لأن
إنفاقكم هذا يؤدي إلى فقركم ونضوب ما بين أيديكم من أموال .والفقر هو ما
يصيب الإنسان من سوء في الحال ومن ضعف بسبب قلة المال ، وأصل الفقر في
اللغة كسر فقار الظهر ، ثم وصف الإنسان المحتاج الضعيف بأنه فقير تشبيها
، له بمن كسر فقار ظهره فأصبح عاجزاً عن الحركة لأن الظهر هو مجمع الحركات
ومنه تسميتهم المصيبة فاقرة ، وقاصمة الظهر .والفحشاء والفحش والفاحشة ما
عظم قبه من الأفعال والأقوال ، ويرى كشير من العلماء أن المراد بالفحشاء في
الآية البخل الشديد فإن كلمة الفاحش تطلق في لغة العرب على البخيل الشديد
... البخل ، ومن ذلك قول طرفة بن العبد .أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى
عقيلة مال الفاحش المتشددوالمعنى : الشيطان يوعدكم أذا أنفقتم بالفقر وضياع
الأموال ويحذركم من الصدقة بما يوسوس في نفوسكم من شرور وآثام ، ويغريكم
بارتكاب المعاصي التي من أقبحها البخل الشديد ، والشح المهلك ، فعليكم أن
تحذروه وأن تنفقوا من أموالكم في سبيل الله ما يوصلكم إلى رضوانه ورحمته
قال الجمل : وفي هذه الآية لطيفة وهي أن الشيطان يخوف الرجل أولا بالفقر.
ثم يتوصل بهذا التجويف إلى أن يأمره بالفحشاء وهو البخل ، وذلك لأن البخل
صفة مذمومة عند كل أحد فلا يستطيع الشيطان أن يحسن له البخل إلا بتلك
المقدمة وهي التخويف من الفقر فلهذا قال .( الشيطان يَعِدُكُمُ الفقر
وَيَأْمُرُكُم بالفحشآء ) .وروى الترمذي عن عبد الله بن مسعود قال : قال
- رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن للشيطان لمة بابن آدم ، وللملك لمة
، أي همة وخطرة تقع في القلب - فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق
وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من
الله ، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان ثم قرأ ( الشيطان
يَعِدُكُمُ الفقر وَيَأْمُرُكُم بالفحشآء ) " .هذا ما يعده الشيطان
للإنسان ، فما الذي يعده الله - تعالى - لعباده؟ لقد بين - سبحانه - ذلك
فقال : ( والله يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً والله وَاسِعٌ
- عَلِيمٌ ) .أي : إذا كان الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، فالله
تعالى - يعدكم مغفرة منه لذنوبكم على ما تنفقونه من أموالكم في سبيله ففي
الحديث الشريف " الصدقة تطفئ الخطيئة " ويعدكم - أيضاً - ( وَفَضْلاً ) أي
نماء وزيادة في أموالكم ، فإن الصدقات تزيد البركة في البرزق فيصير القليل
منه في يد السخي كثيراً بتوفيق الله وتأييده .وصدر له سبحانه - الجملة بلفظ
الجلالة ، للإشارة إلى أن الوعد الذي وعد به المنفقين وعد حق لا يمكن أن
يخالطه شك أو ريب ، لأنه وعد من الله الذي لا يخلف وعده ، وإذا كان الشيطان
يهدد الناس بالفقر عند العطاء ، ويأمرهم بالفحشاء ، فالله - تعالى - يبشر
عباده بمغفرته ورضوانه ، بسبب إتفاقهم في السراء والضراء ويعدهم على ذلك
- بالرزق الوفير ، والفضل الكبير في الدنيا والآخرة .وقد ختم - سبحانه
الآية بقوله : ( والله وَاسِعٌ عَلِيمٌ ) تأكيداً لوعده الذي وعد به عباده
المتقين المتصدقين بأن يزيدهم من فضله ، أي والله - تعالى - واسع الجود
، والعطاء والرحمة ، وسيحقق لكم ما وعدكم به من المغفرة وتضعيف ما تنفقونه
وهو مع ذلك عليم بأحوال عباده صغيرها وكبيرها ، وسيجازي الذين اتبعوا
أوامره بجزيل الثواب ، كما سيجازي الذين اتبعوا وسوسة الشيطان بسوء العذاب
.

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد اوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا اولو الالباب

كما فسرها الوسيط ثم قال - تعالى - : ( يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً ) .قال الإمام الرازي : " اعلم أنه - تعالى - لما ذكر في الآية المتقدمة أن الشيطان يعد بالفقر ويأمر بالفحشاء ، وأن الرحمن يعد بالمغفرة والفضل نبه على أن الأمر الذي أوجب لأجله تريجح وعد الرحمن على وعد الشيطان هو أن وعد الرحمن ترجحه الحكمة والعقل ووعد الشيطان ترجحه الشهوة والنفس من حيث إنهما يأمران بتحصيل اللذة الحاضرة واتباع أحكام الخايل والوهم .ولا شك أن حكم الحكمة والعقل هو الحكم الصادق المبرأ عن الزيغ والخلل ، وحكم الشهوة والنفس يوقع الإنسان في البلاء ، فكان حكم الحكمة والعقل أولى بالقبول ، فهذا هو وجه النظم " .و ( الْحِكْمَةَ ) مشتقة من حكم بمعنى منع ، لأنها تمنع صاحبها من الوقوع في الخطأ والضلال ومنه سميت الحديدة التي في اللجام وتجعل في فم الفرس وحكمة لأنها تمنعه من الجموح . أو هي في الأصل مصدر من الإحكام وهو الإتقان في علم أو عمل أو قول أو فيها كلها .والحكمة بالنسبة للإنسان صفة نفسية هي أساس المعرفة السليمة التي توافق الحق ، وتوجه الإنسان نحو عمل الخير ، وتمنعه من عمل الشر ، فهي فيه مانعة ضابطة تسير به نحو الكمال والاستقامة .وللعلماء في المراد بها في الآية الكريمة أقوال كثيرة أرجحها أن المراد بها إصابة الحق في القول والعمل ، أو هي العلم النافع الذي يكون معه العمل به .والمعنى : أن الله - تعالى - الفاعل لكل شيء يؤت الحكمة لمن يشاء من عباده ( يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً ) لأن الإنسان إذا أوتي الحكمة يكون قد اهتدى إلى العلم النافع ، وإلى العمل الصالح الموافق لما علمه ، وإلى الإيمان بالحق وإلى الاستجابة لكل خير والابتعاد عن كل شر ، وبذل كيكون سعيداً في دنياه وأخراه .وفي الصحيحين عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا حسد - أي لا غبطة - إلا في اثنتين : رجل أتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق ، ورجل آتاه الله - تعالى - الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها " .ثم قال - تعالى - : ( وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألباب ) .والألباب جمع لب وهو في الأصل خلاصة الشيء وقلبه ، وأطلق هنا على عقل الإنسان لأنه أنفع شيء فيه .والمراد بأولى الألباب هنا أصحاب العقول السليمة التي تخلصت من شوائب الهوى ، ودوافع الشر ، فقد جرت عادة القرآن ألا يستعمل هذا التعبير إلا مع أصحاب العقول المستقيمة .أي : وما يتعظ بهذه التوجيهات القرآنية ، وينتفع بثمارها إلا أصحاب العقول الراجحة والنفوس الصافية التي اهتدت إلى الحق وعملت به ، والتي أنفقت في سبيل الله أجود الأموال وأطيبها لا أصحاب العقول الفاسدة التي استحوذ عليها الشيطان فأنساها ذكر الله ، والتي ترى أن البخل بالمال هو الحكمة ، وأن الإنفاق في سبيل الله هو نوع من الإسراف والتبذير .فالجملة الكريمة تذييل قصد به مدح أولئك المؤمنين الصادقين ، الذين استجابوا لتوجيهات دينهم ، فأصابوا الحق في أقوالهم وأعمالهم .

وما انفقتم من نفقة او نذرتم من نذر فان الله يعلمه وما للظالمين من انصار

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أنه عليم بما ينفقه المنفقون من صدقات - سواء أكانت سراً أو جهراً وسيجازيهم عليها بما يستحقون من ثواب فقال - تعالى - :( وَمَآ أَنفَقْتُمْ مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ . . . النفقة : هي العطاء العاجل في باب من أبواب الخير . أما النذر : فهو( التزام قربة من القربات أو صدقة من الصدقات بأن يقول : لله على نذر أن أفعل كذا من أنواع البر . أو أن شفى الله مريضي فسأفعل كذا .والمعنى : وما أنفقتم - أيها المؤمنون - من نفقة عاجلة قليلة أو كثيرة ، أو التزمتم بنفقة مستقبلة وعاهدتم الله - تعالى - على القيام بها ، فإنه - سبحانه - يعلم كل شيء ، ويعلم ما صاحب نياتكم من إخلاص أو رياء ، ويعلم ما أنفقتموه أهو من جيد أموالكم أم من رديئها ، وسيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته . فالآية الكريمة بيان لحكم كلي شامل لجميع أفراد النفقات إثر بيان حكم ما كان منها في سبيل الله - تعالى - .و ( ما ) في قوله : ( وَمَآ أَنفَقْتُمْ ) رابطة ( شرطية أو موصولة والفاء في قوله : ( فَإِنَّ اللَّه يَعْلَمُهُ ) الجواب الشرط إذا اعتبرنا ما شرطية ، ومزيدة في الخبر إذا اعتبرناها موصولة ) : و ( من ) في قوله : ( مِّن نَّفَقَةٍ ) بيانية أو زائدة .وقوله - فَإِنَّ اللَّه يَعْلَمُهُ ) كناية عن الجزاء عليه ، لأن علم الله - تعالى بالكائنات لا يشك فيه السامعون ، فأريد لازم معناه وهو الجزاء . وإنما كان لازما له لأن القادر لا يصده عن الجزاء إلا عدم العلم بما يفعله المحسن أو المسئ .وهذه الجملة الكريمة مع إيجازها قد أفادت الوعد العظيم للمطيعين والوعيد الشديد للمتمردين ، لأن الإنسان إذا أيقن أن الله تعالى لا تخفى

، عليه خافية من شئون خلقه ، فإن هذا اليقين سيحمله على الطاعة والإخلاص
، وسيحضه على المسارعة في الخيرات ، خصوصاً وإن الجملة قد صدرت بإن المؤكدة
: وتليت بلفظ الجلالة الدالة على الاستحقاق الكامل للألوهية .قال بعضهم
وإنما قال - سبحانه - : ( فَإِنَّ الله يَعْلَمُهُ ) ولم يقل يعلمها لوجهين
- الأول : أن الضمير عائد إلى الأخير - وهو النذر - ، كما في قوله - تعالى:
( وَمَن يَكْسِبْ خطيائة أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً ) :
والثاني : أن الكناية عادت إلى ما في قوله : ( وَمَآ أَنفَقْتُمْ مِّن
نَّفَقَةٍ ) لأنها اسم كقوله : ( وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الكتاب
والحكمة يَعِظُكُمْ بِهِ ) وقوله : ( وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ
وعيد شديد للخارجين على طاعة الله أي : ليس للظالمين أي نصير أو مغيث (
يمنع عقوبة الله عنهم .والمراد بالظالمين : الواضعون للأشياء في غير موضعها
التي يجب أن توضع فيها ، والتاركون لما أمرهم الله به ، فيندرج فيهم الذين
، يبطلون صدقاتهم بالمن والأذى والرياء والذين يتصدقون بالرديء من أموالهم
والذين ينفقون أموالهم في الوجوه التي نهى الله عنها ، والذين لم يوفوا
بنذورهم التي عاهدوا الله على الوفاء بها كما يندرج فيهم كل من راتكب ما
نهى الله عنه أو أهمل فيما كلفه الله به .

ان تبدوا الصدقات فنعما هي وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر
عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن الصدقة متى صدرت عن المسلم بالطريقة
- التي دعت إليها تعاليم الإسلام فإنها تكون مرجوة القبول عند الله
تعالى - سواء أفعلها المسلم أم في العلن ، فقال - تعالى - : ( إِن
تُبْدُوا الصدقات فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الفقراء
فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ والله بِمَا
تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ) .الصدقات : جمع صدقة وهي ما يخرجه المسلم من ماله
على جهة القربة ، وتشمل الفرض والتطوع ، وهي مأخوذة من الصدق بمعنى صدق
النية وتخليصها من كل ما نهى الله عنه ، وسمى - سبحانه - ما يخرجه المسلم
) : من ماله صدقة لأن المال بها يزكو وينمو ويطهر.والفاء في قوله
، فَنِعِمَّا هِيَ ) واقعة في جواب الشرط ، و ( نعما ) أصلها نعم ما
، فأدغمت إحدى الميمين في الأخرى ، ونعم فعل ماض ، وما نكرة تامة بمعنى شيء
وهي منصوبة على أنها تمييز ، والفاعل ضمير مستتر في نعم .والمعنى : إن
، تبدوا صدقاتكم - أيها المؤمنون - وتظهروها فنعم شيئاً إبداؤها وإعلانها
لأنه يرفع التهمة ويدعو أهل الخير إلى الاقتداء بهذا الفعل الحسن .وجاء
التعبير بمدح المعلنين صدقتهم بقوله " فنعما هي " للإشارة إلى أن المسلم
- متى دفع صدقته لمستحقيها بنية خالصة ، فإنه يكون ممدوحاً من الله - تعالى
وممدوحاً من الناس الذين شاهدوا عمله الصالح .هذه صدقة الجهر إذا خلصت من
الرياء أما صدقة السر فقد أثنى الله على فاعلها بقوله : ( وَإِن تُخْفُوهَا
وَتُؤْتُوهَا الفقرآء فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ) أي : وإن تخفوا الصدقات
وتعطوها للفقراء سراً ، دون أن يراكم أحد من الناس ، فعملكم هذا خير لكم
عند الله لأنكم بإخفائكم للصدقة ودفعها للفقير سراً تكونون قد ابتعدتم عن
الرياء ، وسترتم حال هذا الفقير المحتاج .وقوله : ( وَيُكَفِّرُ عَنكُم
مِّن سَيِّئَاتِكُمْ ) أي أنه - سبحانه - يستر السيئات التي يرتكبها الشخص
ويخفيها ولا يظهرها عند إثابته إياه على فعله الحسن لأن ما عفهل من حسنات ،
مسح ما فعله من سيئات فهو كقوله - تعالى - : ( وَأَقِمِ الصلاة طَرَفَيِ
النهار وَزُلَفاً مِّنَ الليل إِنَّ الحسنات يُذْهِبْنَ السيئات ذلك ذكرى
لِلذَّاكِرِينَ ) و ( مِّن ) في قوله : ( مِّن سَيِّئَاتِكُمْ ) بيانية
بمعنى أن الصدقات تكفر السيئات لأن المسلم إذا بذل ماله في سبيل الله بصدق
وإخلاص ، كان أهلا لمثوبة الله ومغفرته ، ويجوز أن تكون للتبغيض أي يكفر
عنكم بعض سيئاتكم بمقدار ما قدمتم من صدقات لأن الصدقات لا تكفر جميع
السيئات .ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ( والله بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرٌ ) أي أن الله - تعالى - عليم علماً دقيقاً بكل ما تعملونه أيها
، المؤمنون ، فعليكم أن تخلصوا له أعمالكم ، وأن تراقبوه في سركم وجهركم
وأن تسارعوا في عمل الخيرات التي ترفع درجاتكم عند خالقكم .وبذل كثرى أن
الآية الكريمة قد مدحت صدقتي الجهر والسر متى كان المتصدق متبعاً آداب
. الإسلام وتوجيهاته ، ومبتعداً عن كل ما يبطل الصدقات ، ويحبط الأعمال

ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء وما تنفقوا من خير فلانفسكم وما
تنفقون الا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف اليكم وانتم لا تظلمون

كما فسرها الوسيط ثم ختم السورة حديثها عن النفقة والمنفقين ببيان حسن
، عاقبة من يبذل ماله في سبيل الله ، وبيان صفات بعض المستحقين للصدقة
- وببيان أن هداية البشر إنما هي بيد الله - تعالى - وحده ، فقال - تعالى
- قال القرطبي ما ملخصه : قوله( . . . لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ولكن ):

، تعالى - : ( لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ) هذا الكلام متصل بذكر الصدقات
فكأنه بين فيه جواز الصدقة على المشركين . روى سعيد بن جبير مرسلا عن النبي
صلى الله عليه وسلم في سبب نزول هذه الآية أن المسلمين كانوا يتصدقون على
. فقراء أهل الذمة ، فلما أكثر فقراء المسلمين على من ليس من دين الإسلام
وروى عن ابن عباس أنه قال : كان ناس من الأنصار لهم قرابات من بني قريظة
والنضير كانوا لا يتصدقون عليهم رغبة منهم في أن يسلموا إذا احتاجوا فنزلت
الآية بسبب أولئك . ثم قال : قال علماؤنا : هذه الصدقة التي أبيحت لهم حسب
ما تضمنته هذه الآثار هي صدقة التطوع ، وأما المفروضة فلا يجزئ دفعها لكافر
لقوله صلى الله عليه وسلم ، " أمرت أن آخذ الصدقة من أغنيائكم وأردها في ،
فقرائكم " .والمعنى : ليس عليك يا محمد هداية من خالفك في دينك . ولكن
الله - تعالى - يهدي من يشاء هدايته إلى نور الإيمان ، وطريق الحق . وما
دام الأمر كذلك فعليك وعلى أتباعك أن تعاملوا غيركم بما يوجبه عليكم
إيمانكم من سماحة في الخلق ، وعطف على المحتاجين حتى ولو كانوا من
المخالفين لكم في الدين .وعلى هذا المعنى الذي يؤيده سبب النزول يكون
الضمير في قوله : ( هُدَاهُمْ ) يعود على غير المسلمين .ومن المفسرين من
يرى أن الضمير في قوله : ( هُدَاهُمْ ) يعود إلى المسلمين المخاطبين في
الآيات السابقة ، فيكون المعنى :لا يجب عليك أيها الرسول الكريم أن تجعل
المسلمين جميعاً مهديين إلى الإتيان بما أمروا به ومنتهين عما نهوا عنه من
ترك المن والأذى والرياء في صدقتهم ، ولكن الله وحده هو الذي يهدي من يشاء
هدايته إلى الاستجابة لتوجيهات هذا الدين الحنيف .قال الآلوسي : وعلى هذا
الرأي تكون الجملة معترضة جيء بها على طريق تلوين الخطاب وتوجيهه إلى سيد
المخاطبين صلى الله عليه وسلم مع الالتفات إلى الغيبة فيما بين الخطابات
" : المتعلقة بأولئك المكلفين مبالغة في حملهم على الامتثال . . ثم قال
والذي يستدعيه سبب النزول رجوع ضمير ( هُدَاهُمْ ) إلى الكفار ، وحينئذ لا
التفات ، وإنما هناك تلوين الخطاب فقط . . . "ثم حض - سبحانه - المؤمنين
على الإنفاق في وجوه الخير فقال : ( وَمَا تُنْفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ
- فَلأَنْفُسِكُمْ ) أي : ما تقدمونه من مال في وجوه البر - أيها المؤمنون
، فإن نفعه سيعود عليكم بالسعادة في الدنيا ، وبالثواب الجزيل في الآخرة
) فكونوا أسخياء في الإحسان إلى الفقراء ، وابتعدوا عن وسوسة الشيطان الذي
، يَعِدُكُمُ الفقر وَيَأْمُرُكُم بالفحشآء ) و" ما " شرطية جازمة لتنفقوا
وهي منتصبة به على المفعولية ، و " من " للتبعيض وهي متعلقة بمحذوف وقع صفة
لفعل الشرط والتقدير : أي شيء تنفقوا كائنا من المال فهو لأنفسكم لا ينتفع
) : - به في الآخرة غيرها .قال الفخر الرازي ما ملخصه : وقوله - تعالى
وَمَا تُنْفِقُونَ إِلاَّ ابتغآء وَجْهِ الله ) يحتمل وجوها .الأول : أن
يكون المعنى : ولستم في صدقتكم على أقاربكم من المشركين تقصدون إلا وجه
الله ، فقد علم الله هذا من قلوبكم ، فأنفقوا عليهم إذا كنتم إنما تبغون
بذلك وجه الله في صلة رحم وسد خلة مضطر ، وليس عليكم اهتداؤهم حتى يمنعكم
ذلك من الإنفاق عليهم .الثاني : أن هذا وإن كان ظاهره خبراً إلا أن معناه
نهى أي : ولا تنفقوا إلا ابتغاء وجه الله .الثالث : أن قوله : ( وَمَا
تُنْفِقُونَ ) أي ولا تكونوا منفقين مستحقين الاسم الذي يفيد المدح حتى
تبتغوا بذلك وجه الله . وفي ذكر الوجه تشريف عظيم لأنك إذا قلت : فعلت هذا
الشيء لوجه زيد فهو أشرف في الذكر من قولك : فعلته له لأن وجه الشيء أشرف
: ما فيه ، ثم كثر حتى صار يعبر عن الشرف بهذا اللفظ ، وأيضاً فإن قولك
فعلت هذا الفعل لوجهه يدل على أنك فعلت الفعل له فقط وليس لغيره فيه شركة
ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ( وَمَا تُنْفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ.
إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ ) أي : أن ما تنفقونه من خير - أيها
المؤمنون ستعود عليكم ثماره ومنافعه في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا
فإنكم بسبب هذا الانفاق تزكو أموالكم ، وتحسن سيرتكم بين الناس ، وأما في
الآخرة فإنكم تنالون من خالقكم ورازقكم أجزل الثواب ، وأفضل الدرجات .وقوله
أي لا تنقصون شيئاً مما وعدكم الله به ( وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ ) :
) - على نفقتكم في سبيله .قال الجمل : وهاتان الجملتان أي قوله - تعالى
وَمَا تُنْفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ ) وقوله : ( وَأَنْتُمْ
لاَ تُظْلَمُونَ ) تأكيد للجملة الشرطية الأولى وهي قوله :( وَمَا
تُنْفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلأَنْفُسِكُمْ ) وقوله : ( وَأَنْتُمْ لاَ
) تُظْلَمُونَ ) جملة من مبتدأ وخبر في محل نصب على الحال من الضمير في
إِلَيْكُمْ ) فالعامل فيها ( يُوَفَّ ) وهي تشبه الحال المؤكدة لأن معناها
مفهوم من قوله : ( يُوَفَّ إِلَيْكُمْ ) لأنهم إذا وفقوا حقوقهم لم يظلموا
ويجوز أن تكون مستأنفة لا محل لها من الإعراب أخبرهم فيها أنه لا يقع لهم .
ظلم فيندرج فيه توفية أجورهم بسبب إنفاقهم في طاعة الله - تعالى - اندراجاً
أولياً .هذا ، والذي يتدبر هذه الآية الكريمة يراها من أجمع الآيات التي
) وردت في الحض على بذل المال في وجوه الخير ، فقدر كرر فيها فعل
تُنْفِقُواْ ) ثلاث مرات لمزيد الاهتمام بمدلوله ، وجيء به مرتين بصيغة
الشرط عند قصد بيان الملازمة بين الإنفاق والثواب ، وجاءت كل جملة منها
مستقلة ببعض الأحكام لكي يسهل حفظها وتأملها فتجري على الألسنة مجرى

الأمثال وتتناقلها الأمم والأجيال .ثم بعد هذا التحريض الحكيم على بذل الأموال في وجوه الخير ، خص - سبحانه - بالذكر طائفة من المؤمنين هي أولى الناس بالعون والمساعدة ، ووصف هذه الطائفة بست صفات من شأنها أن تحمل العقلاء على المسارعة في إكرام أفرادها وسد حاجتهم .

للفقراء الذين احصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الارض يحسبهم الجاهل اغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسالون الناس الحافا وما تنفقوا من خير فان الله به عليم

كما فسرها الوسيط استمع إلى القرآن الكريم وهو يصور حالة هذه الطائفة من المؤمنين تصويرا كريما نبيلا يستجيش المشاعر ، ويحرك القلوب لمساعدة هذه الطائفة المتعففة فيقول : ( لِلْفُقَرَآءِ الذين أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ الله لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الأرض يَحْسَبُهُمُ الجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ التعفف تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ الناس إِلْحَافاً ) .لقد وصفهم الله - تعالى - أولا بالفقراء ، أي الذين هم في حاجة إلى العون والمساعدة لفقرهم واحتياجهم إلى ضرورات الحياة .وقوله ( : لِلْفُقَرَآء ) متعلق بمحذوف يفهم من الكلام السابق والتقدير : اجعلوا نفقتكم وصدقتكم للفقراء لأن الكلام السابق موضوعه للإنفاق في سبيل الله ، وما يتعلق بذلك من آداب وفوائد .والجملة استئناف بياني ، فكأنهم لما أمروا بالصدقات سألوا لمن هي؟ فأجيبوا بأنها لهؤلاء الذين ذكرت الآية صفاتهم .ومن فوائد الحذف هنا للمتعلق : تعليم المؤمنين الأدب في عطائهم للفقراء بأن لا يصرحوا لهم بأن ما يعطونه إياهم هو صدقة حتى لا يشعروهم بالمذلة والضعف ، وأيضاً ففي هذا الحذف لون من الإيجاز البليغ الذي قل فيه اللفظ مع الوفاء بحق المعنى .قال القرطبي : " والمراد بهؤلاء الفقراء ، فقراء المهاجرين من قريش وغيرهم ثم تتناول الآية كل من دخل تحت صفتهم غابر الدهر . وإنما خص فقراء المهاجرين بالذكر ، لأنه لم يكن هناك سواهم ، وهم أهل الصفة " وكانوا نحو من أربعمائة رجل ، وذلك أنهم كانوا يأتون فقراء وما لهم أهل ولأمال فبنيت لهم صفة في المسجد النبوي بالمدينة فقيل لهم : " أهل الصفة " .أما الصفة الثانية من صفات هؤلاء الذين هم أولى الناس بالعون والمساعدة فهي قوله - تعالى - : ( الذين أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ الله ) .والإحصار في اللغة هو أن يعرض للرجل ما يحول بينه وبين ما يريده بسبب مرض أو شيخوخة أو عدو أو ذهاب نفقة أو ما يجري مجرى هذه الأشياء .والمعنى : اجعلو الكثير مما تنفقونه - أيها المؤمنون - لهؤلاء الفقراء الذين حصروا أنفسهم ووقفوها على الطاعات المتنوعة التي من أعظمها الجهاد في سبيل الله ، أو الذين منعوا من الكسب بسبب مرضهم أو شيخوختهم ، أو غير ذلك من الأسباب التي جعلتهم في حالة شديدة من الفاقة والاحتياج .وعبر في الجملة الكريمة " بأحصروا " بالبناء للمجهول ، للإشعار بأن فقرهم لم يكن بسبب تكاسلهم وإهمالهم في مباشرة الأسباب ، وإنما كان لأسباب خارجة عن إرادتهم .وقوله : ( فِي سَبِيلِ الله ) تكريم وتشريف لهم ، أي أن ما نزل بهم من فقر واحتياج كان بسبب إيثارهم إعلاء كلمة الله على أي شيء آخر ، ففي سبيل الله هاجروا ، وفي سبيل الله تركوا أموالهم فصاروا فقراء ، وفي سبيل الله وقفوا أنفسهم على الجهاد ، وفي سبيل الله أصابهم ما أصابهم وهم يطلبون أداء ما كلفهم - سبحانه - بأدائه أما الصفة الثالثة من صفاتهم فقال فيها ( لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الأرض ) والضرب في الأرض هو السير فيها للتكسب والتجارة وغيرهما .أي أنهم عاجزون عن السير في الأرض لتحصيل رزقهم بسبب اشتغالهم بالجهاد ، أو بسبب ضعفهم وقلة ذات يدهم .والصفة الرابعة من صفاتهم هي قوله - تعالى - : ( يَحْسَبُهُمُ الجاهل أَغْنِيَآءَ مِنَ التعفف ) .والتعفف : ترك الشيء والتنزه عن طلبه ، بقهر النفس والتغلب عليها . يقال عف عن الشيء يعف إذا كف عنه . والحسبان بمعنى الظن .أي : يظنهم الجاهل بحالهم ، أو الذي لا فراسة عنده ، يظنهم أغنياء من أجل تجملهم وتعففهم عن السؤال ، أما صاحب الفراسة الصادقة ، والبصيرة النافذة ، فإنه يرحمهم ويعطف عيلهم لأنه يعرف ما لا يعرفه غيره .و ( من ) في قوله : ( مِنَ التعفف ) للتعليل ، أو لابتداء الغاية لأن التعفف مبدأ هذا الحسبان .أما الصفة الخامسة من صفاتهم فهي قوله - تعالى - : ( تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ ) والسيما والسماء : العلامة التي يعرف بها الشيء ، وأصلها من الوسم بمعنى العلامة .والمعنى : تعرف فقرهم وحاجتهم - أيها الرسول الكريم أو أيها المؤمن العاقل - بما ترى في هيئتهم من آثار تشهد بقلة ذات يدهم .قال الإمام الرازي ما ملخصه : قال مجاهد : " سيماهم " التخشع والتواضع . أي - تعرفهم بتخشعهم وتواضعهم - وقال السدي : - تعرفهم بسيماهم - أي بأثر الجهد من الفقر والحاجة . وقال الضحاك أي بصفرة ألوانهم ورثاثة ثيابهم . . ثم قال - رحمه الله - : وعندي أن كل : ذلك فيه نظر والمراد شيء آخر هو أن لعباد الله المخلصين هيبة ووقعاً في قلوب الخلق ، وكل من رآهم تأثر منهم وتواضع لهم ، وذلك له إدراكات روحانية لا علامات جسمانية . ألا ترى أن الأسد إذا مر هابته سائر السباع بطباعها ، لا بالتجربة ، لأن الظاهر أن تلك التجربة ما وقعت ، والبازي إذا طار تهرب

. . به منه الطيور الضعيفة وكل ذلك إدراكات روحانية لا جسمانية فكذا هنا
وقد ذكر - سبحانه - في الجملة السابقة أن الجاهل بحالهم يظنهم أغنياء من.
أجل تعففهم عن السؤال ، وذكر هنا أنهم يعرفون بسيماهم ، وذلك للإشعار بأن
أنظار الناس تختلف باختلاف فراستهم ونفاذ بصيرتهم . فأصحاب الأنظار التي
تأخذ الأمور بمظاهر يظنونهم أغنياء ، أما أصحاب البصيرة المستنيرة ، والحس
والمرهف ، والفراسة الصائبة ، فإنهم يدركون ما عليه أولئك القوم من احتياج
بسبب ما منحهم الله من فكر صائب ونظر نافذ ، وفي الحديث الشريف : " اتقوا ،
فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله " وأما الصفة السادسة من صفاتهم فهي
قوله - تعالى - : ( لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً ) والإلحاف - كما
يقول صاحب الكشاف : هو الإلحاح بأن لا يفارق - السائل المسئول - إلا بشيء
يعطاه . من قولهم : لحفني من فضل لحافه أي أعطاني من فضل ما عنده . ومعناه
أنهم إن سألوا سألوا بتلطف ولم يحلفوا . وقيل هو نفي للسؤال والإلحاف :
والذي عليه المحققون من العلماء أن النفي منصب على السؤال وعلى الألحاف أي.
أنهم لا يسألون أصلا تعففاً منهم ، لأنهم لو كانوا يسألون ما ظنهم الجاهل
أغنياء من التعفف ، ولو كانوا يسألون ما كانوا متعففين ، ولو كانوا يسألون
ما احتاج صاحب البصيرة النافذة إلى معرفة حالهم عن طريق التفرس في سماتهم
لأن سؤالهم كان يغنيه عن ذلك .وإنما جاء النفي بهذه الطريقة التي يوهم
ظاهرها أن النفي متجه إلى الإلحاف وحده ، للموازنة بينهم وبين غيرهم ، فإن
غيرهم إذا كان يسأل الناس إلحافاً فهم لا يسألون مطلقا لا بإلحاف ولا
. بدونه ، والنفي بهذه الطريقة فيه تعريض للمحلفين وثناء على المتعففين
ولذا قال بعضهم : وإذا علم أنهم لا يسألون البتة فقد علم أنهم لا يسألون
، الناس إلحافاً والمراد النبيه على سوء طريقة من يسأل الناس إلحافاً
ومثاله إذا حضر عندك رجلان أحدهما عقال وقور قليل الكلام ، والآخر طياش
مهذار سفيه ، فإذا أردت أن تمدح أحدهما وتعرض بذم الآخر قلت : فلان رجل
عاقل وقور لا يخوض في الترهات ولا يشرع في السفاهات ، ولم يكن غرضك من قولك
لا يخوض في الترهات وصفه بذلك لأن ما تقدم من الأوصاف الحسنة يغني عن ذلك
بل غرضك التنبيه على مذمة الثاني ، فالأمر هنا كذلك لأن قوله : ( لاَ
يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً ) بعد قوله : ( يَحْسَبُهُمُ الجاهل
أَغْنِيَآءَ مِنَ التعفف ) الغرض منه بيان مباينة أحد الجنسين عن الآخر في
استيجاب المدح والتعظيم .هذا وقد وردت أحاديث متعددة تمدح المتعففين عن
: السؤال ، وتذم الملحفين فيه ومن ذلك ما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة قال
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ليس المسكين الذي ترده اللقمة
واللقمتان ولا التمرة والتمرتان إنما المسكين الذي يتعفف . اقرؤوا إن شئتم
وروى مسلم في صحيحه عن ابن. " ( لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً ) :
عمر - رضي الله عنهما - أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "لا تزال
- المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وليس في وجهه مزعة لحم " .وروى مسلم
أيضاً - في صحيحه عن عوف بن مالك قال : كنا تسعة أو ثمانية أو سبعة عند
رسول الله فقال : " ألا تبايعون رسول الله؟ فقلنا علام نبايعك؟ قال : أن
تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً . والصلوات الخمس ، وتطيعوا ولا تسألوا
الناس . فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فلا يسأل أحداً يناوله
إياه " .والخلاصة أن السؤال إنما يجوز عند الضرورة ، وأنه لا يصح لمؤمن أن
يسأل الناس عنده ما يكفيه ، لأن السؤال ذل يربأ بنفسه عنه كل من يحافظ على
مروءته وكرامته وشرفه .وقوله : ( وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ
الله بِهِ عَلِيمٌ ) تحريض للمؤمن على البذل والسخاء ، وترقية لنفسه على
الشعور بمراقبة الله - تعالى - وعلى محبة فعل الخير .أي : وما تنفقوا من
خير سواء أكان المنفق قليلا أم كثيراً سراً أم علناً فإن الله يعلمه
. وسيجازيكم عليه بأجزل الثواب ، وأعظم العطاء

الذين ينفقون اموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم اجرهم عند ربهم ولا
خوف عليهم ولا هم يحزنون

) : كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - الحديث عن النفقة والمنفقين بقوله
الذين يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بالليل والنهار سِرّاً وَعَلاَنِيَةً
فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ
يَحْزَنُونَ ) .وقوله : ( الذين يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بالليل والنهار
سِرّاً وَعَلاَنِيَةً ) استئناف المقصود منه مدح أولئك الذين يعممون
صدقاتهم في كل الأزمان وفي كل الأحوال فهم يتصدقون على المحتاجين في الليل
وفي النهار ، في الغدو وفي الآصال ، في السر وفي العلن ، في كل وقت وفي كل
حال ، لأنهم لقوة إيمانهم ، وصفاء نفوسهم يحرصون كل الحرص على كل ما يرضى
الله تعالى .وقال بين الله - تعالى - في ثلاث جمل حسن عاقبتهم ، وعظيم
ثوابهم فقال في الجملة الأولى ( فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ) أي
فلهم أجرهم الجزيل عند خالقهم ومربيهم ورازقهم .والجملة الكريمة خبر لقوله
ودخلت الفاء في الخبر لأن الموصول في معنى ( . . . الذين يُنْفِقُونَ ) :
الشرط فتدخل الفاء في خبره جوازاً ، وللدلالة على سببية ما قبلها لما بعدها

أي أن استحقاق الأجر متسبب عن الإنفاق في سبيل الله .وقال في الجملة
الثانية : ( وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ) أي :لا خوف عليهم من أي عذاب لأنهم
: في مأمن من عذاب الله بسبب ما قدموا من عمل صالح .وقال في الجملة الثالثة
أي لا يصيبهم ما يؤدي بهم إلى الحزن والهم ( وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ )
والغم ، لأنهم دائماً في اطمئنان يدفع عنهم الهموم والأحزان وقد روى
المفسرون في سبب نزول هذه الآية روايات منها " إن علي بن أبي طالب كان يملك
أربعة دراهم فتصدق بدرهم ليلا ، وبدرهم نهاراً وبدرهم سراً ، وبدرهم علانية
فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : " ما حملك على ذلك؟ فقال أريد أن أكون
أهلا لما وعدني ربي . فقال صلى الله عليه وسلم : لك ذلك " " فأنزل الله هذه
الآية .والحق أن هذه الرواية وغيرها لا تمنع عمومها ، فهي تنطبق على كل من
بذل ماله في سبيل الله في عموم الأوقات والأحوال .أما بعد : فهذه أربع عشرة
آية بدأت من قوله - تعالى - ( مَّثَلُ الذين يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي
سَبِيلِ الله كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ . . . )وانتهت
بقوله - تعالى - : ( الذين يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بالليل والنهار
سِرّاً وَعَلاَنِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ . . . ) .والذي
يقرأ هذه الآيات الكريمة بتدبر وتعقل يراها قد حضت الناس على الإنفاق في
سبيل الله بأبلغ الأساليب ، وأحكم التوجيهات ، وأفضل الوسائل ، كما يراها
بينت أحكام الصدقة وآدابها ، والآفات التي تذهب بخيرها وضربت الأمثال لذلك
كما يراها قد بينت أنواعها ، وطريقة أدائها ، وأولى الناس بها ورسمت صورة ،
كريمة للفقراء المتعففين ، وكما بدأت الآيات حديثها بالثناء الجميل على
المنفقين فقد ختمته أيضاً بالثناء عليهم وبالعاقبة الحسنى التي أعدها الله
لهم .ولو أن المسلمين أخذوا بتوجيهات هذه الآيات لعمتهم السعادة في دنياهم
ولنالوا رضا الله ومثوبته في أخراهم .وبعد هذه الصورة المشرقة التي ساقها ،
القرآن عن النفقة والمنفقين أتبعها بصورة مضادة لها وهي صورة الربا
والمرابين . ومن مظاهر التضاد والتباين بين الصورتين أن الصدقة بذل للمال
في وجوه الخير بدون عوض ينتظره المتصدق ، أما الربا فهو إخراج المال في
وجوه الاستغلال لحاجة المتحاج مع ضمان استرداده ومعه زيادة محرمة . وأن
الصدقة نتيجتها ارخاء والنماء والطهارة للمال ، وشيوع روحة المحبة والتعامل
والتكامل والاطمئنان بين أفراد المجتمع ، أما الربا فنتيجته محق البركة من
المال ، وشيوع روح التقاطع والتحاسد والتباغض والخوف بين الناس . ولقد نفر
القرآن الناس من تعاطي الربا تنفيراً شديداً وحذرهم من سوء عاقبته تحذيراً
مؤكداً فقال - تعالى - :( الذين يَأْكُلُونَ الربا لاَ يَقُومُونَ . . . )

الذين ياكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس
ذلك بانهم قالوا انما البيع مثل الربا واحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه
موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وامره الى الله ومن عاد فاولئك اصحاب النار
هم فيها خالدون

كما فسرها الوسيط قوله - تعالى - : ( الذين يَأْكُلُونَ الربا لاَ
. . يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الذي يَتَخَبَّطُهُ الشيطان مِنَ المس
استئناف قصد به الترهيب من تعاطي الربا ، بعد الترغيب في بذل الصدقة ( .
لمستحقيها .ولم يعطف على ما قبله لما بينهما من تضاد ، لأن الصدقة - كما
يقول الفخر الرازي - عبارة عن تنقيص المال - في الظاهر - بسبب أمرالله بذلك
والربا عبارة عن طلب الزيادة على المال مع نهى الله عنه فكانا متضادين ،
والأكل في الحقيقة : ابتلاع الطعام ، ثم أطلق على الانتفاع بالشيء وأخذه.
بحرص وهو المراد هنا . وعبر عن التعامل بالربا بالأكل ، لأن معظم مكاسب
الناس تنفق في الأكل .والربا في اللغة : الزيادة مطلقاً ، يقال : ربا الشيء
يربو إذا زاد ونما ، ومنه قوله - تعالى - : ( وَتَرَى الأرض هَامِدَةً
فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المآء اهتزت وَرَبَتْ . . . ) أي : زادت .وهو
في الشرع : - كما قال الآلوسي - عبارة عن فضل مال لا يقابله عوض في معاوضة
مال بمال .وقوله : ( يَتَخَبَّطُهُ ) : من التخبط بمعنى الخبط وهو الضرب
على غير استواء واتساق . يقال : خبطته أخبطه أي ضربته ضرباً متوالياً على
أنحاء مختلفة . ويقال : تخبط البعير الأرض إذا ضربها بقوائمه ويقال للذي
يتصرف في أمر ولا يهتدي فيه يخبط خبط عشواء . قال زهير بن أبي سلمى في
: معلقته :رأيت المناي خبط عشواء من تصب ... تمته ومن تخطى يعمر فيهرموالمس
الخبل والجنون يقال : مس الرجل فهو ممسوس إذا أصابه الجنون . وأصل المس
اللمس باليد ، ثم استعير للجنون ، لأن الشيطان يمس الإنسان فيجنه ،والمعنى
أي يتعاملون به أخذاً وإعطاء ( لاَ يَقُومُونَ ) ( الذين يَأْكُلُونَ ) :
يوم القيامة للقاء الله إلا قياماً كقيام المتخبط المصروع المجنون حال صرعه
وجنونه ، وتخبط الشيطان له ، وذلك لأنه قياماً منكراً مفزعاً بسبب أخذه
الربا الذي حرم الله أخذه .فالآية الكريمة تصور المرابي بتلك الصورة
المرعبة المفزعة ، التي تحمل كل عاقل على الابتعاد عن كل معاملة يشم منها
رائحة الربا .وهنا نحب أن نوضح أمرين :أما الأمر الأول : فهو أن جمهو
المفسرين يرون أن هذا القيام المفزع للمرابين يكون يوم القيامة حين يبعثون

من قبورهم كما أشرنا إلى ذلك .قال الآلوسي : وقيام المرابي يوم القيامة
كذلك مما نطقت به الآثار ، فقد أخرج الطبراني عن عوف بن مالك قال : قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إياك والذنوب التي لا تغفر . الغلول فمن
غل شيئا أتى به يوم القيامة ، وأكل الربا فمن أكل الربا فبعثيوم القيامة
مجنونا يتخبط " ثم قرأ الآية ، وهو مما لا يحيله العقل ولا يمنعه ، ولعل
. .. الله - تعالى - جعل ذلك علامة له يعرف بها يوم الجمع الأعظم عقوبة له
ثم قال . وقال ابن عطية : المراد تشبيه المرابي في حرصه وتحركه في اكتسابه
في الدنيا بالمتخبط المصروع كما يقال لمن يسرع بحركات مختلفة : قد جن ، ولا
يخفى أنه مصادمة لما عليه سلف الأمة ولما روى عن رسول الله صلى الله عليه
وسلم من غير داع سوى الاستبعاد الذي لا يعتبر في مثل هذه المقامات " .والذي
، نراه أنه لا مانع من أن تكون الآية تصور حال المرابين في الدنيا والآخرة
فهم في الدنيا في قلق مستمر ، وانزعاج دائم ، واضطراب ظاهر بسبب جشعهم
وشرهم في جمع المال ، ووساوسهم التي لا تكاد تفارقهم وهم يفكرون في مصير
أموالهم . . . ومن يتتبع أحوال بعض المتعاملين بالربا يراهم أشبه بالمجانين
في أقوالهم وحركاتهم . أما في الآخرة فقد توعدهم الله - تعالى - بالعقاب
الشديد ، والعذاب الأليم .وقد رجح الإمام الرازي أن الآية الكريمة تصور
حال المرابي في الدنيا والآخرة فقال ما ملخصه : " إن الشيطان يدعو إلى طلب
اللذات والشهوات والاشتغال بغير الله ، ومن كان كذلك كان في أمر الدنيا
متخبطا . . . وآكل الربا بلا شك أنه يكون مفرطا في حب الدنيا متهالكا
، - فيها ، فإذا مات على ذلك الحب صار ذلك حجابا بينه وبين الله - تعالى
فالخبط الذي كان حاصلا له في الدينا بسبب حب المال أورثه الخبط في الآخرة
وأوقعه في ذل الحجاب ، وهذا التأويل أقرب عندي من غيره " .وأما الأمر
الثاني : فهو أن جمهور المفسرين يرون أيضا أن التشبيه في الآية الكريمة
، على الحقيقة ، بمعنى أن الآية تشبه حال بحال المجنون الذي مسه الشيطان
لأن الشسيطان قد يمس الإنسان فيصيبه بالصرع والجنون .ولكن الزمخشري ومن
تابعه ينكرون ذلك ، ويرون أن كون الصرع أو الجنون من الشيطان باطل لأنه لا
يقدر على ذلك ، فقد قال الزمخشري في تفسيره : " وتخبط الشيطان من زعمات
العرب ، يزعمون أن الشيطان يخبط الإنسان فيصرع . المس والجنون ، ورجل
، ممسوس - أي مجنون - وهذا أيضا من زعماتهم ، وأن الجني يممسه فيختلط عقله
وكذلك جن الرجل معناه ضربته الجن ، ورأيتهم لهم في الجن قصص وأخبار وعجائب
وإنكار ذلك عندهم كإنكار المشاهدات " .ومن العلماء الذين تصدون للرد على ،
الزمخشري ومن تابعه الإمام القرطبي فقد قال : " وفي هذه الآية دليل على
فساد إنكار من إنكر الصرع من جهة الجن وزعم أنه من فعل الطبائع ، وأن
الشيطان لا يسلك في الإنسان ولا يكون منه مس . وقد روى النسائي عن أبي
اليسر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو فيقول : " اللهم إني
أعوذ بك من التردي والغرق والهدم والحريق ، وأعوذ بك من أن يتخبطني الشيطان
عند الموت ، وأعوذ بك من أن أموت في سبيلك مدبرا وأعوذ بك أن أموت لديغا
وقال الشيخ أحمد بن المنير : ومعنى قول الزمخشري أن تخبط الشيطان من. "
زعمات العرب ، أي من كذباتهم وزخارفهم التي لا حقيقة لها ، كما يقال في
الغول والعنقاء ونحو ذلك . وهذا القول من تخبط - الشيسطان بالقدرية - أي
المعتزلة - في زعماتهم المردودة بقواطع الشرع ، ثم قال : واعتقاد السلف
وأهل السنة أن هذه أمور على حقائقها واقعة كما أخبر الشارع عنها ، والقدرية
ينكرون كثيرا مما يزعمونه مخالفا لقواعدهم . . من ذلك السحر ، وخبطة
الشيطان ، وينبئ عنه ظاهر الشرع في خيط طويل لهم ، والذي نراه أن ما عليه
جمهور العلماء من أن التشبيه على الحقيقة هو الحق ، لأن الشيطان قد يمس
الإنسان فيصيبه بالجنون ، ولأنه لا يسوغ لنا أن نؤول القرآن بغير ظاهره
بسبب اتجاه دليل عليه .وقوله : ( مِنَ المس ) متعلق بيقومون أي لا يقومون
- من المس الذي حل بهم بسبب أكلهم الربا إلا كما المصروع من جنونه .وقوله
تعالى - : ( ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قالوا إِنَّمَا البيع مِثْلُ الربا
وَأَحَلَّ الله البيع وَحَرَّمَ الربا ) بيان لزعمهم الباطل الذي سوغ لهم
التعامل بالربا ، ورد عليه بما يهدمه .واسم الإشارة " ذلك " سيعود إلى
الأكل أو إلى العقاب الذي نزل بهم . والمعنى : ذلك الأكل الذي استحلوه عن
، طريق الربا ، أو ذلك العذاب الذي حل بهم والذي من مظاهره قيامهم المتخبط
سببه قولهم إن البيع الذي أحله الله يشابه الربا الذي نتعامل به في أن كلا
منهما معاوضة .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : " هلا قيل إنما الربا لا في
البيع ، فوجب أن يقال إنهم شبهوا الربا بالبيع فاستحلوه وكانت شبهتهم أنهم
قالوا : لو اشتري الرجل الشيء الذي لا يساوي إلا درهما بدرهمين جاز ، فكذلك
إذا باع درهما بدرهمين؟ قلت : جيء به على طريق المبالغة . وهو أنه قد بلغ
من اعتقادهم في حل الربا أنهم جعلوه أصلا وقانونا في الحل حتى شهبوا به
، البيع " .وقوله : ( وَأَحَلَّ الله البيع وَحَرَّمَ الربا ) جملة مستأنفة
وهي رد من الله - تعالى - عليهم ، وإنكار لتسويتهم الربا بالبيع .قال
الآلوسي : وحاصل هذا الرد من الله - تعالى - عليهم : أن ما ذكرتم - " من أن
، الربا مثل البيع - قياس فاسد الوضع لأنه معارض للنص فهو من عمل الشيطان
على أن بين البابين فرقا ، وهو أن من باع ثوبا يساوي درهما بدرهمين فقد

. جعل الثوب مقابلا لدرهمين فلا شيء منهما إلا وهو في مقابلة شيء من الثوب
وأما إذا باع درهما بدرهمين فقد أخذ الدرهم الزائد بدون عوض ، ولا يمكن جعل
الإمهال عوضا إذا الإمهال ليس بمال في مقابلة المال " .وقوله : ( فَمَن
جَآءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّنْ رَّبِّهِ فانتهى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ
إِلَى الله ) .تفريع على الوعيد السابق في قوله : ( الذين يَأْكُلُونَ
الربا . . . ) إلخ .والمجيء بمعنى العلم والبلاغ ، والموعظة : ما يعظ
الله - تعالى - به عباده عن طريق زجرهم وتخويفهم وتذكيرهم بسوء عاقبة
المخالفين لأوامره .أي : فمن بلغه نهي الله - تعالى - عن الربا ، فامتثل
وأطاع وابتعد عما نهاه الله عنه ، ( فَلَهُ مَا سَلَفَ ) أي فله ما تقدم
. . قبضه من مال الربا قبل التحريم وليس له ما تقدم الاتفاق عليه ولم يقبضه
لأن الله - تعالى - يقول بعد ذلك ( وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ
أَمْوَالِكُمْ . . ) .وقوله : ( وَأَمْرُهُ إِلَى الله ) أي أمر هذا
المرابي الذي تعامل بالربا قبل التحريم واجتنبه بعده ، أمره مفوض إلى
الله - تعالى - فهو الذي يعامله بما يقتضيه فضله وعفوه وكرمه .قال ابن كثير
إلخ أي ما بلغه نهى . . ( فَمَن جَآءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّنْ رَّبِّهِ ) :
: الله عن الربا فانتهى حال وصول الشرع إليه فله ما سلف من المعاملة لقوله
وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم يوم فتح ( عَفَا الله عَمَّا سَلَفَ )
مكة : " وكل ربا في الجاهلية موضوع تحت قدمي خاتين وأول ربا أضع ربا عمي
العباس " ، ولم يأمرهم برد الزيادات المأخوذة في حال الجاهلية بل عفا عما
سلف كما قال - تعالى - : ( فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى الله ) أي
ففله ما كان قد أكل من الربا قبل التحريم .و " من " في قوله : ( فَمَن
جَآءَهُ مَوْعِظَةٌ ) شرطية وهو الظاهر ، ويحتمل أن تكون موصولة وعلى
التقديريرن فهي في محل رفع بالابتداء ، وقوله : ( فَلَهُ مَا سَلَفَ ) هو
الجزاء أو الخبر ، و ( موعظة ) فاعل جاء ، وسقطت التاء من الفعل للفصل بينه
: وبين الفاعل أو تكون الموعظة هنا بمعنى الوعظ فهي في معنى المذكر .وقوله
جار ومجرور متعلق بجاءه ، أو بمحذوف وقع صفة لموعظة ( مِّنْ رَّبِّهِ )
وفي قوله : ( مِّنْ رَّبِّهِ ) تفخيم لشأن الموعظة ، وإغراء بالامتثال.
والطاعة لأنها صادرة من الله - تعالى - المربى لعباده .وفي هذه الجملة
- الكريمة بيان لمظهر من مظاهر السماحة فيما شرعه الله لعباده ، لأنه
، سبحانه - لم يعاقب المرابين على ما مضى من أمرهم قبل وجود الأمر والنهي
. ولم يجعل تشريعه بأثر رجعي بل جعله للمستقبل ، إذ الإسلام يجب ما قبله
فما أكله المرابي قبل تحريم الربا فلا عقاب عليه فيه وهو ملك له ، إلا أنه
ليس له أن يتعامل به بعد التحريم ، وإذا تعامل به فلن تقبل توبته حتى يتخلص
من هذا المال الناتج عنه الربا .ولقد توعد الله - تعالى - من يعود إلى
التعامل بالربا بعد أن حرمه الله - تعالى - فقال ( وَمَنْ عَادَ فأولئك
أَصْحَابُ النار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ) .أي ومن عاد إلى التعامل بالربا
، بعد أن هى الله عنه فأولئك العائدون هم أصحاب النار الملازمون لها
والماكثون فيها بسبب تعديهم لما نهى الله عنه .وفي هذه الجملة الكريمة
تأكيد للعقاب النازل بأولئك العائدين بوجوه من المؤكدات منها : التعبير
فيها بأولئك التي تدل على البعيد فهم بعيدون عن رحمة الله ، والتعبير
بالجملة الاسمية التي تفيد الدوام والاستمرار والتعبير ، بكلمة أصحاب
الدالة على الملازمة والمصاحبة ، وبكلمة ( خَالِدُونَ ) التي تدل على طول
المكث .ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة المرابين ، وحسن عاقبة المتصدقين فقال
والمحق : النقصان والإزالة. ( يَمْحَقُ الله الربا وَيُرْبِي الصدقات ) :
للشيء حالا بعد حال ، ومنه محاق القمر ، أي انتقاصه في الرؤية شيئاً فشيئاً
حتى لا يرى ، فكأنه زال وذهب ولم يبق منه شيء .أي : أن المال الذي يدخله
الربا يمحقه الله ، ويذهب بركته ، أما المال الذي يبذل منه صاحبه في سبيل
الله فإنه - سبحانه - يباركه وينميه ويزيده لصاحبه .قال الإمام الرازي عند
تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : اعلم أنه لما كان الداعي إلى التعامل بالربا
، تحصيل المزيد من الخيرات ، والصارف عن الصدقات الاحتراز عن نقصان المال
لما كان الأمر كذلك بين - سبحانه - أن الربا ، وإن كان زيادة في الحال إلا
أنه نقصان في الحقيقة ، وأن الصدقة وإن كانت نقصانا في الصورة إلا أنها
زيادة في المعنى ، واللائق بالعقال أن لا يلتفت إلى ما يقضي به الطبع والحس
والدواعي والصوارف ، بل يعول على ما أمر به الشرع .ثم قال : واعلم أن محق
الربا وإرباء الصدقات يحتمل أن يكون في الدنيا وأن يكون في الآخرة . أما
محق الربا في الدنيا فمن وجوه :أحدها : أن الغالب في المرابي وإن كثر ماله
أن تؤول عاقبته إلى الفقر ، وتزول البركة عنه ، ففي الحديث : الربا وإن كثر
فإلى قل .وثانيها : إن لم ينقص ماله فإن عاقبته الذم والنقص وسقوط العدالة
وزوال الأمانة .وثالثها : إن الفقراء يلعنونه ويبغضونه بسبب أخذه لأموالهم
ورابعها : أن الأطماع تتوجه إليه من كل ظالم وطماع بسبب اشتهاره أنه. . .
قد جمع ماله من الربا ويقولون : إن ذلك المال ليس له في الحقيقة فلا يترك
- في يده .وأما أن الربا مسبب للمحق في الآخرة فلوجوه منها أن الله - تعالى
لا يقبل منه صدقة ولا جهاداً ولا صلة رحم - كما قال ابن عباس - ، ومنها أن
مال الدنيا لا يبقى عند الموت بل الباقي هو العقاب وذلك هو الخسران الأكبر

وأما إرباء الصدقات في الدنيا فمن وجوه : منها : أن من كان لله كان الله له ، ومن أحسن إلى عباد الله أحسن الله إليه وزاده من فضله ، ومنها أن يزداد كل يوم في ذكره الجميل وميل القلوب إليه ، ومنها أن الفقراء يدعون له بالدعوات الصالحة وتنقطع عنه الأطماع .وأما إرباؤها في الآخرة فقد روى مسلم - عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الله - تعالى يقبل الصدقات ويأخذها بيمينه فيربيها كما يربي أحدكم مهره ، أو فلوه حتى إن اللقمة لتصير مثل أحد " .

يمحق الله الربا ويربي الصدقات والله لا يحب كل كفار اثيم

كما فسرها الوسيط ففي هذه الجملة الكريمة بشارة عظيمة للمتصدقين ، وتهديد شديد للمرابين ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ( والله لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ) .و ( كَفَّارٍ ) فعيل بمعنى فاعل فهي صيغة مبالغة من آثم ، والأثيم هو المكثر من ارتكاب الآثام المبطئ عن فعل الخيرات .أي : أن الله - تعالى -لا يرضى عن كل من كأن شأنه الستر لنعمه والجحود لها ، والتمادي في ارتكاب المنكرات ، والابتعاد عن فعل الخيرات .وقد جمع - سبحانه - بين الوصفين للإشارة إلى أن الإيمان المرابين ناقص إن لم يستحلوه وهم كفار إن استحلوه ، وهم في الحالتين آثمون معاقبون ، يعيدون عن محبة الله ورضاه . وسيعاقب - سبحانه - الناقصين في إيمانهم ، والكافرين به بما يستحقون من عقوبات .فالجملة الكريمة لمن استحلوا الربا ، أو فعلوه مع عدم استحلالهم له .

ان الذين امنوا وعملوا الصالحات واقاموا الصلاة واتوا الزكاة لهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون

- كما فسرها الوسيط وبعد هذا التهديد الشديد للمتعاملين بالربا ، ساق - سبحانه - آية فيها أحسن البشارات للمؤمنين الصادقين فقال - تعالى ): إِنَّ الذين آمَنُواْ ) أي إيماناً كاملا بكل ما أمر الله به ( وَعَمِلُواْ الصالحات ) أي الأعمال الصالحة التي تصلح بها نفوسهم والتي من جملتها الإحسان إلى المحتاجين ، والابتعاد عن الربا والمرابين ( وَأَقَامُواْ الصلاة ) بالطريقة التي أمر الله بها ، بأن يؤدوها في أوقاتها بخشوع واطمئنان ( وَآتَوُاْ الزكاة ) أي أعطوها لمستحقيها بإخلاص وطيب نفس .هؤلاء الذين اتصفوا بكل هذه الصفات الفاضلة ( لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ) أي لهم ثوابهم والكامل عند خالقهم ورازقهم ومربيهم .( وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ) يوم الفزع الاكبر ( وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ) لأي سبب من الأسباب ، لأن ما هم فيه من أمان واطمئنان ورضوان من الله - تعالى - يجعلهم في فرح دائم ، وفي سرور مقيم .

يا ايها الذين امنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا ان كنتم مؤمنين

كما فسرها الوسيط ثم ينتقل القرآن إلى أسلوب الخطاب المباشر للمؤمنين فيأمرهم بتقوى الله ، وينهاهم عن التعامل بالربا فيقول : ( ياأيها الذين آمَنُواْ اتقوا الله ) أي اخشوه وصونوا أنفسكم عن الأعمال والأقوال التي تفضي بكم إلى عقابه .وقوله : ( وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الربا ) أي : اتركوا ما بقي في ذمم الذين عاملتموهم بالربا ولا تأخذوا منهم إلا رءوس أموالكم فحسب ، فهذا مقابل لقوله - تعالى - قبل ذلك : ( فَلَهُ مَا سَلَفَ ) أي ما سلف قبضه من الربا قبل نزول الآية فهو لكم ، وما لم تقبضوه فأنتم مأمورن بتركه .وقوله : ( مِنَ الربا ) متعلق بمحذوف على أنه حال من فاعل ( بَقِيَ ) أي اتركوا الذي بقي حال كونه بعض الربا ، ومن للتعيض .أو متعلق ببقى .و ( وَذَرُواْ ) فعل أمر - بوزن علوا - مبني على حذف النون والواو فاعل ، وأصله " وذروا " فحذفت فاؤه ، والماضي منه " وذر " .وقوله : ( إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ) حض لهم على ترك الربا أي إن كنتم مؤمنين حق الإيمان فامتثلوا أمر الله وذروا ما بقي من الربا مما زاد على رءوس أموالكم .قال ابن كثير : " نزل هذا السياق في بني عمرو بن عمير بن ثقيف ، وبني المغيرة من بني مخزوم كان بينهم ربا في الجاهلية فلما جاء الإسلام ودخلوا فيه ، طلبت ثقيف أن تأخهذه منهم فتشاوروا . وقالت بنو المغيرة :لا نؤدي في الإسلام ، فكتب في ذلك عتاب بن أسيد نائب مكة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم - فنزلت هذه الآية ، فكتب بها رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه . فقالوا نتوب إلى الله ونذر ما بقى من الربا فتركوه كلهم . وهذا " تهديد شديد ووعيد أكيد لكل ما استمر على تعاطي الربا بعد الإنذار

فان لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله وان تبتم فلكم رءوس اموالكم لا تظلمون ولا تظلمون

كما فسرها الوسيط ثم هدد الله - تعالى كل من يتعامل بالربا تهديداً عنيفاً فقال : ( فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ ) .أي : فإن لم تتركوا الربا وأخذتم منه شيئاً بعد نهيكم عن ذلك ، فكونوا على علم ويقين بحرب كائنة من الله - تعالى - ورسوله ، ومن حاربه الله ورسوله لا يفلح أبدا .وقوله : ( فأذنوا ) من أذن بالشيء يأذن إذا علمه . وقرئ ( فآذنوا ) من آذنهن الأمر وآذنه به : أعلمه إياه : أي اعلموا من لم ينته عن الربا بحرب من الله ورسوله .وتنكير " حرب " للتهويل والتعظيم أي فكونوا على علم ويقين من أن حربا عظيمة ستنزل عليكم من الله وروسله .قال بعضهم : والمراد المبالغة في التهديد دون نفس الحرب . وقال آخرون : المراد نفس الحرب بمعننى أن الإصرار على عمل الربا إن كان من شخص وقدر عليه الإمام قبض عليه وأجرى فيه حكم الله من الحبس والتعزير إلى أن تظهر منه التوبة . وإن وقع ممن يكون له عسر وشوكة ، حاربه الإمام كما يحارب الفئة الباغية ، وكما حارب أبو بكر الصديق ما نعى الزكاة وقال ابن - عباس : من تعامل بالربا يستتاب فإن تاب فبها وإلا ضرب عنقه .ثم بين سبحانه - ما يجب عليهم عند توبتهم عن التعامل بالربا فقال: ( وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ ) .أي : وإن تبتم عن التعامل بالربا الذي يوجب الحرب عليكم من الله ورسوله ، فلكم رءوس أموالكم أي أصولها بأن تأخوذها ولا تأخذوا سواها ، وبذل كلا تكونون ظالمين لغرمائكم ولا يكونون ظالمين لكم ، لأن من أخذ رأس ماله بدون كان مقسطاً ومتفضلا ، ومن دفع ما عليه بدون إنقاص منه كان صادقا في معاملته .

وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة وان تصدقوا خير لكم ان كنتم تعلمون

كما فسرها الوسيط ثم أمر الله - تعالى - الدائنين أن يصبروا على المدينين الذين لا يجدون ما يؤدون منه ديونهم فقال - تعالى - : ( وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ ) .والعسرة : اسم من الإعسار وهو تعذر الموجود من المال يقال : أعسر الرجل إذا صار إلى حالة العسرة وهي الحالة التي يتعسر فيها وجود المال .والنظرة : اسم من الإنظار بمعنى الإمهال . يقال : نظرة وانتظره وتنظره ، تأنى عليه وأمهله في الطلب .والميسرة : مفعلة من اليسر الذي هو ضد الإعسار . يقال : أيسر الرجل فهو موسر إذا اغتنى وكثر ماله وحسنت حاله .والمعنى : وإن وجد مدين معسر فأمهلوه في أداء دينه إلى الوقت سالذي يتمكن فيه من سداد ما عليه من ديون ، ولا تكونوا كأهل الجاهلية الذين كان الواحد منهم إذا كان له دين على شخص وحل موعد الدين طالبه بشدة وقال له : إما أن تقضي وإما أن تربي أي تدفع زيادة على أصل الدين .و ( كان ) هنا الظاهر أنها تامة بمعنى وجد أو حدث ، فتكتفى بفاعلها كسائر الأفعال . وقيل يجوز أن تكون ناقصة واسمها ضمير مستكن فيها يعود إلى المدين وإن لم يذكر وذلك على قراءة ( ذا عسرة ) بالنصب وقوله : ( فنظرة ) الفاء جواب الشرط . ونظرة خبر لمبتدأ محذوف أي فالأمر أو فالواجب أو مبتدأ محذوف الخبر أي فعليكم نظرة .ثم حبب - سبحانه - إلى عباده التصدق بكل أو ببعض ما لهم من ديون على المدينين المعسرين فقال - تعالى - : ( وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ) .أي : وأن تتركوا للمعسر كل أو بعض ما لكم عليه من ديون وتتصدقوا بها عليه ، فإن فعلكم هذا يكون أكثر ثوابا لكم من الأنظار .وجواب الشرط في قوله : ( إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ) محذوف . أي إن كنتم تعلمون أن هذا التصدق خير لكم فلا تتباطؤا في فعله ، بل سارعوا - إلى تنفيذه فإن التصدق بالدين على المعسر ثوابه جزيل عند الله - تعالى وقد أورد بعض المفسرين جملة من الأحاديث النبوية التي تحض على إمهال. المعسر ، والتجاوز عما عليه من ديون .ومن ذلك ما أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي قتادة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من نفس عن غريمه أو محا عنه كان في ظل العرش يوم القيامة " .وروى الطبراني عن أسعد بن زرارة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من سره أن يظله الله يوم لا ظل إلا ظله فليسير مع معسر أو ليضع عنه " .وروى الإمام أحمد عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من أراد أن تستجاب دعوته وأن تكشف كربته فليفرج عن معسر " .

واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - في ختام حديثه على الربا آية كريمة ذكر الناس فيها بزوال الدنيا وفناء ما فيها من أموال ، وبالاستعداد للآخرة وما فيها من حساب فقال - تعالى - : ( واتقوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمّ توفى كُلُّ نَفْسٍ مّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُون ) .أي : واحذروا أيها المؤمنون يوما عظيما في أهواله وشدائده ، وهو يوم القيامة الذي تعودون فيه إلى خالقكم فيحاسبكم على أعمالكم ، ثم يجازي - سبحانه كل نفس بما كسبت من خير أو شر بمقتضى عدله وفضله ، ولا يظلم ربك أحدا .فالآية

، الكريمة تعقيب حكيم يتناسب كل التناسب مع جو المعاملات والأخذ والعطاء
: حتى يبتعد الناس عن كل معاملة لم يأذن بها الله - تعالى - .قال الآلوسي
أخرج غير واحد عن ابن عباس أن هذه الآية هي آخر ما " نزل على رسول صلى الله
عليه وسلم من القرآن : واختلف في مدة بقائه بعدها . فقيل : تسع ليال . وقيل
سبعة أيام . وقيل : واحد وعشرين يوماً . وروى أنه قال : اجعلوها بين آيات :
الربا وآية الدين " .هذا ، والمتدبر في هذه الآيات التي وردت في موضع الربا
، يراها قد نفرت منه تنفيراً شديداً ، وتوعدت متعاطية بأشد العقوبات ،
وشبهت الذين يأكلونه بتشبيهت تفزع منها النفوس ، وتشمئز منها القلوب ، وحضت
المؤمنين على أن يلتزموا في معاملاتهم ما شرعه الله لهم ، وأن يتسامحوا مع
المعسرين ويتصدقوا عليهم بما يستطيعون التصدق به .وقد تكلم الفقهاء وبعض
المفسرين عن الربا وأقسامه وحكمه تحريمه كلاما مستفيضا ، قال بعضهم : الربا
قسمان : ربا النسيئة ، وربا الفضل .فربا النسيئة : هو الذي كان معروفا بين
العرب في الجاهلية ، وهو أنهم كانوا يدفعون المال على أن يأخذوه في موعد
معين ، فإذا حل الأجل طولب المدين برأس المال كاملا ، فإن تعذر الأداء
زادوا في الحق وفي الأجل .وكان ابن عباس في أول الأمر لا يحرم إلا ربا
النسيئة وكان يجوز ربا الفضل اعتماداً على ما روى من أن النبي صلى الله
عليه وسلم قال : " إنما الربا في النسيئة " ولكن لما تواتر عنده الخبر بأن
النبي صلى الله عليه وسلم قال : " الحنطة بالحنطة مثلا بمثل يدا بيد " رجع
عن قوله . لأن قوله صلى الله عليه وسلم : " إنما الربا في النسيئة " محمول
على اختلاف الجنس فإن النسيئة حينئذ تحرم ويباح التفاضل كبيع الحنطة
بالشعير . تحرم فيه النسيئة ويباح التفاضل .ولذلك وقع الاتفاق على تحريم
- الربا في القسمين : أما ربا النسيئة فقد ثبت تحريمه بالقرآن كما في قوله
تعالى - : ( وَأَحَلَّ الله البيع وَحَرَّمَ الربا ) .وأما ربا الفضل فقد
ثبت تحريمه بالحديث الصحيح الذي رواه عبادة ابن الصامت أن النبي صلى الله
عليه وسلم قال :" الذهب بالذهب ، والفضة بالفضة ، والبر بالبر ، والشعير
بالشعير والتمر بالتمر . والملح بالملح . مثلا بمثل ، سواء بسواء ، يداً
بيد ، فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كانت يداً بيد " .وقد
" اشتهرت رواية هذا الحديث حتى صارت مسلمة عند الجميع . وجمهور العلماء على
أن الحرمة ليست مقصورة على هذه الأشياء الستة ، بل تتعداها إلى غيرها مما
" . . يتحد معها في العلة وقد فسر بعضهم هذه العلة باتحاد الجنس والقدر
ومن الحكم التي ذكرت في أسباب تحريم الربا : أنه يقتضي أخذ مال الغير بدون.
عوض ، ويؤدي إلى امتناع أصحاب الأموال عن تحمل المشاق في الكسب والتجارة
والصناعة ، وإلى استغلال حاجة المحتاج أسوأ استغلال وكل ذلك يفضي إلى إشاعة
- روح التباغض والتخاصم والتحاسد بين أفراد المجتمع - كما سبق أن أشرنا
ومن الأحاديث الشريفة التي وردت في التحذير من تعاطي الربا ما رواه.
الشيخان عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " اجتنبوا
السبع الموبقات - أي المهلكات - قالوا : يا رسول الله وما هن؟ قال : الشرك
بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا وأكل
" مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات
وأخرج مسلم في صحيحه عن جابر بن عبيد الله قال : " لعن رسول الله صلى الله.
- عليه وسلم آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه " .وبعد أن أمر - سبحانه
المؤمنين أن يسارعوا في التصدق على المحتاجين ، وأن يجتنبوا الربا
، والمرابين ، وبين لهم أن أموالهم تزكو وتنمو بالإنفاق في وجوه الخير
وتمحق وتذهب بتعاطي الربا ، بعد أن وضح كل ذلك ساق لهم آية جامعة ، متى
، اتبعوا توجيهاتها استطاعوا أن يحفظوا أموالهم بأفضل طريق ، وأشرف وسيلة
وأن يصونوها عن الهلاك والضياع عندما يعطي أحدهم أخاه شيئا من المال على
سبيل الدين أو القرض الحسن المنزه عن الربا . استمع إلى القرآن وهو يتكلم
عن أحكام الدين وعن أحكام بعض المعاملات التجارية الحاضرة فيقول :( ياأيها
الذين آمنوا إِذَا تَدَايَنتُم . . . )

يا ايها الذين امنوا اذا تداينتم بدين الى اجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم
كاتب بالعدل ولا ياب كاتب ان يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذي عليه
الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئا فان كان الذي عليه الحق سفيها او
ضعيفا او لا يستطيع ان يمل هو فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من
رجالكم فان لم يكونا رجلين فرجل وامراتان ممن ترضون من الشهداء ان تضل
احداهما فتذكر احداهما الاخرى ولا ياب الشهداء اذا ما دعوا ولا تساموا ان
تكتبوه صغيرا او كبيرا الى اجله ذلكم اقسط عند الله واقوم للشهادة وادنى
الا ترتابوا الا ان تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح الا
تكتبوها واشهدوا اذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد وان تفعلوا فانه فسوق
بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم

كما فسرها الوسيط قال ابن كثير : قوله - تعالى - : ( ياأيها الذين آمنوا
إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى فاكتبوه ) هذا إرشاد
منه - تعالى - لعباده المؤمنين إذا تعاملوا بمعاملات مؤجلة أن يكتبوها

ليكون ذلك أحفظ لمقدارها وميقاتها وأضبط للشاهد فيها ، وقد نبه على ذلك في
آخر الآية حيث قال : ( ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللهِ وَأَقْوَمُ
: لِلشَّهَادَةِ وأدنى ألاَّ ترتابوا ) وروى البخاري عن ابن عباس أنه قال
أشهد أن السلف المضمون إلى أجل مسمى قد أحله الله وأذن فيه ثم قرأ ( يا أيها
الذين آمنوا إِذَا تَدَايَنتُم ) . الآية . وثبت في الصحيحين عن ابن عباس
قال : قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة وهم يسلفون في الثمار السنة
والسنتين والثلاث فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من أسلف فليسلف في
كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم " .ومعنى ( تَدَايَنتُم ) : تعاملتم
بالدين وداين بعضكم بعضا . وحقيقة الدين - كما يقول القرطبي - " عبارة عن
كل معاملة كان أحد العوضين فيها نقداً والآخر في الذمة نسيئة ، فإن العين
عند العرب ما كان حاضرا ، والدين ما كان غائبا " .والأجل في اللغة هو الوقت
. المضروب لانقضاء الأمد ، وأجل الإنسان هو الوقت المحدد لانقضاء عمره
وأجل الدين هو الوقت المعين لأدائه في المستقبل . وأصله من التأخير ، يقال
أجل الشيء يأجل إذا تأخر والآجل نقيض العاجل .والمعنى : يأيها الذين :
آمنوا إذا عامل بعضكم بعضا بالدين إلى وقت معين فاكتبوا هذا الدين ، لأن في
هذه الكتابة حفظاً له ، وضبطاً لمقداره ، ومنعاً للتنازع من أن يقع بينكم
قال صاحب الكشاف : فإن قلت : هلا قيل : إذا تدانيتم إلى أجل مسمى ، وأي.
: حاجة إلى ذكر الدين؟ قلت : ذكر - لفظ الدين - ليرجع الضمير إليه في قوله
إذ لو لم يذكر لوجب أن يقال : فاكتبوا الدين ، فلم يكن النظم ( فاكتبوه )
بذلك الحسن ، ولأنه أبين لتنويع الدين إلى مؤجل وحال . فإن قلت : ما فائدة
قوله : ( مُّسَمًّى ) قلت : ليعلم أن من حق الأجل أن يكون معلوما كالتوقيت
بالسنة والأشهر والأيام . ولو قال : إلى الحصاد أو الدياس أو رجوع الحاج لم
" يجز لعدم التسمية " .وجمهور العلماء على أن الأمر في قوله " فاكتبوه
للندب ، ولأن الله - تعالى - قد قال بعد ذلك ( فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم
بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الذي اؤتمن أَمَانَتَهُ ) ولأن النبي صلى الله عليه
وسلم لم يلزم الدائنين بكتابة ديونهم ، ولا المدنيين بأن يكتبوها .وقال
الظاهرية : إن الأمر هنا للوجوب ، ومن لم يفعل ذلك كان آثماً ، لأن الأصل
في الأمر أنه للوجوب . .وقوله : ( وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بالعدل
بيان لكيفية الكتابة المأمور بها وتعيين من يتولاها عقب الأمر بها على ( )
سبيل الإجمال .أي : عليكم أيها المؤمنون إذا تعاملتم بالدين إلى أجل معين
أن تكتبوا هذا الدين ، وليتول الكتابة بينكم شخص يجيدها وعنده فقهها وعلمها
بأن يكون على معرفة بشروط العقود وتوثيقها ، وما يكون من الشروط موافقاً ،
لشريعة الإسلام وما يكون منها غير موافق ، وعلى هذا الكاتب أن يلتزم الحق
مع الدائن والمدين في كتابته ، لأن الله - تعالى - يقول : ( وَلاَ
يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ على ألاَّ تَعْدِلُواْ اعدلوا هُوَ
أَقْرَبُ لِلتقوى ) فالجملة الكريمة تحض المتعاملين بالدين أن يختاروا
، لكتابته شخصاً تتوفر فيه إجادة الكتابة ، والخبرة بشروط العقود وتوثيقها
كما تتوفر فيه الاستقامة وتحري الحق . ومفعول ( يكتب ) محذوف ثقة بانفهامه
أي وليكتب بينكم الكتابة كاتب بالعدل . والتقييد بالظرف بينكم للإيذان
بأنه ينبغي للكاتب ألا يسمح لنفسه بأن ينفرد به أحد المتعاقدين ، لأن في
هذا الانفراد تهمة يجب أن يربأ بنفسه عنها .والجار والمجرور وهو ( بالعدل )
متعلق بمحذوف صفة لكاتب أي : وليكن المتصدي للكتابة من شأنه أن يكتب
بالسوية من غير ميل إلى أحد الجانبين . أو متعلق بالفعل يكتب . أي : وليكتب
بالحق .ثم نهى الله - تعالى - من كان قادراً على الكتابة عن الامتناع متى
دعى إليها فقال :( وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ
الله فَلْيَكْتُبْ ) .أي : ولا يمتنع كاتب من أن يكتب للمتداينين ديونهما
بالطريقة التي علمه الله إياها أن يتحرى بالعدل والحق في كتابته ، وأن
يلتزم فيها ما تقتضيه أحكام الشريعة الإسلامية .فالكاف في قوله - تعالى
- نعت لمصدر محذوف والتقدير : فليكتب كتابة مثل ( كَمَا عَلَّمَهُ الله ) :
ما علمه الله - تعالى - بمعنى أن يلتزم الحق والعدل فيها .ويجوز أن تكون
الكاف للتعليل فيكون المعنى :لا يمتنع عن الكتابة لأنه كما علمه الله
- إياها ويسرها له ونفعه بها ، فعليه أن ينفع غيره بها ، فهو كقوله - تعالى
وفي الحديث الشريف " إن من ( وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ الله إِلَيْكَ ) :
الصدقة أن تعين صانعاً أو تصنع لأخرق " وفي حديث آخر : " من كتم علماً
يعلمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة " .وقوله : ( فليكتب ) تفريع
على قوله " ولا يأب كاتب " أي : فليكتب الكتابة التي علمه الله إياها فهو
توكيد للأمر المستفاد من قوله : ( وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ ) . ويجوز أن يكون
توكيداً للأمر الصريح في قوله : ( وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بالعدل
قال القرطبي : واختلف الناس في وجوب الكتابة على الكاتب والشهادة على. (
: الشاهد . فقال الطبريك : واجب على الكاتب إذا أمر أن يكتب . وقال الحسن
ذلك واجب عليه في الموضع الذي لا يقدر فيه على كاتب غيره فيضر صاحب الدين
إن امتنع ، فإن كان كذلك فهو فريضة ، وإن قدر على كاتب غيره فهو في سعة إذا
قام بها غيره " .وإلى هنا تكون الآية الكريمة قد قررت مبدأ الكتابة في
الدين ، وبينت كيفية الكتابة ، وأشارت إلى إجادة الكاتب لها ، ونهته عن

الامتناع عنها إذا دعي إليها . ثم انتقلت الآية بعد ذلك إلى بيان من يتولى
الإملاء فقال - تعالى - : ( وَلْيُمْلِلِ الذي عَلَيْهِ الحق وَلْيَتَّقِ
الله رَبَّهُ وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً ) .والإملال معناه الإملاء
) : - فهما لغتان معناهما واحد . وقد جاء القرآن باللغتين قال - تعالى .
وقالوا أَسَاطِيرُ الأولين اكتتبها فَهِيَ تملى عَلَيْهِ بُكْرَةً
وَأَصِيلاً ) أي : وعلى المدين الذي عليه الدين وقد التزم بأدائه أن يمل
على الكاتب هذا الدين ، وذلك ليكون إملاؤه إقراراً به وبالحقوق التي عليه
الوفاء بها . وعليه كذلك أن يراقب الله - تعالى - في إملائه فلا ينقص من
الدين الذي عليه شيئاً ، لأن هذا الإنقاص ظلم حرمه الله - تعالى - .وقد
أمر الله - تعالى - بأن يكون الذي يملي على الكاتب هو المدين لأنه هو
المكلف بأداء مضمون الكتابة ، ولأنه بإملائه يكون قد أقر على نفسه بما عليه
ولأنه لو أفلس الدائن فربما يزيد في الدين ، أو يملي شيئاً ليس محل اتفاق ،
- بينه وبين المدين ، ولأن المدين في الغالب في موقف ضعيف فأعطاه الله
- تعالى - حق الإملاء على الكاتب حتى لا يغبن من الدائن .فأنت ترى أن الله
تعالى - قد مكن المدين من الإملاء على الكاتب حتى تكون الكتابة تحت سمعه
وبصره وباختياره ، ولكنه في الوقت نفسه أوجب عليه أمرين : تقوى الله وعدم
الانقاص من الدين الذي عليه ، وإن ذلك لتشريع عادل حكيم لا ظلم فيه لا
للدائن ولا للمدين .ثم بين - سبحانه - الحكم فيما إذا كان الذي عليه الدين
لا يحسن الإملاء فقال - تعالى - : ( فَإِن كَانَ الذي عَلَيْهِ الحق ) وهو
المدين ( سَفِيهاً ) أي جاهلاً بالإملاء أو ناقص العقل ، أو متلافاً مبذراً
لا يحسن تدبير أمره " .( أَوْ ضَعِيفاً ) بأن يكون صبياً أو شيخاً تقدمته
الشيخوخة .( أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أن يُمِلَّ هُوَ ) بأن يكون عياياً أو
أخرس أو لا خبرة له بإملاء أمثال هذه المكاتبات .( فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ
بالعدل ) أي فعلى ولي أمره أو من يهمه شأنه ولا يرضى له أن يضيع حقه أن
يتولى الإملاء الحق والعدل فيما يكلف به .وبعد هذا البيان الحكيم عن
الكتابة وأحكامها في شأن الديون ، انتقل القرآن إلى الحديث عن الإشهاد
فقال - تعالى - : ( واستشهدوا شَهِيدَيْنِ مِّن رِّجَالِكُمْ ) أي : اطلبوا
شاهدين عدلين من الرجال ليشهدوا على ما يجري بينكم من معاملات مؤجلة ، لأن
هذا الإشهاد يعطي الديون والكتابة توثيقاً وتثبيتاً ، والسين التاء في
قوله : " واستشهدوا " للطلب .قال الآلوسي : " وفي اختيار صيغة المبالغة في
للإيماء إلى من تكررت منه الشهادة ، فهو علام بها مقتدر ( شَهِيدَيْنِ )
على أدائها وكأن فيه رمزاً إلى العدالة ، لأنه لا يتكرر ذلك من الشخص عند
الحكام إلا وهو مقبول عندهم ولعله لم يقل رجلين لذلك ، والأمر للندب أو
) : للوجوب على الخلاف على ذلك .وقوله : ( مِّن رِّجَالِكُمْ ) متعلق بقوله
واستشهدوا ) ومن لابتداء الغاية ويجوز أن يكون متعلقاً بمحذوف صفة لشهيدين
ومن للتبعيض ، أي من رجالكم المسلمين الأحرار فإن الكلام في معاملتهم .ثم
بين - سبحانه - الحكم إذا لم يتيسر شاهدان من الرجال فقال : ( فَإِن لَّمْ
( يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وامرأتان مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشهدآء
. وقوله : ( مِمَّن تَرْضَوْنَ ) متعلق بمحذوف على أنه صفة لرجل وامرأتان.
أي فإن لم يتيسر رجلان للشهادة فليشهد رجل وامرأتان كائنون مرضيون عندكم
بعدالتهم .وهذا الوصف وإن كان في جميع الشهود إلا أنه ذكر هنا للتشديد في
اعتباره ، لأن اتصاف النساء به قد لا يتوفر كثيراً .وقوله : ( مِنَ الشهدآء
متعلق بمحذوف حال من الضمير المفعول المقدر في ( تَرْضَوْنَ ) العائد إلى (
الموصول : أي فليشهد رجل وامرأتان ممن ترضونهم حال كونهم من بعض الشهداء
لعلمكم بعدالتهم ، وثقتكم بهم .وقوله - تعالى - : ( مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ
الشهدآء ) أدق في الدلالة على صدق الشهادة من العدالة ، لأن الإنسان
العدل قد يكون مرضياً في دينه وخلقه ولكنه قد يتأثر بالمشاهد المؤثرة
فتخونه ذاكرته في وقت الحاجة إليها ، أو قد يكون ممن يمنعه منصبه وجاهه
- ومقامه في الناس من الكذب إلا أنه قد يرتكب بعض المعاصي ، فجاء - سبحانه
بهذه الجملة الحكيمة لكي يقول للناس . اختاروا الشهداء من الذين يرتضي
قولهم ، ويقيمون الشهادة على وجهها الحق بدون التأثر بأي نوع من أنواع
المؤثرات .هذا ، وشهادة النساء مع الرجال تجوز عند الحنفية في الأموال
والطلاق والنكاح والرجعة وكل شيء إلا الحدود والقصاص . وعند المالكية تجوز
في الأموال وتوابعها خاصة ، ولا تقبل في أحكام الأبدان مثل الحدود والقصاص
والنكاح والطلاق والرجعة .ثم بين - سبحانه - العلة في أن المرأتين تقومان
مقام الرجل في الشهادة فقال : ( أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ
إِحْدَاهُمَا الأخرى ) .وقال القرطبي : معنى تضل تنسي ، والضلال عن الشهادة
" فإنما هو نسيان جزء منها وذكر جزء ، ويبقى المرء حيران بين ذلك ضلالا
والمعنى : جعلنا المرأتين بدل رجل واحد في الشهادة ، خشية أن تنسى إحداهما .
فتذكر كل واحدة منهما الأخرى : إذ المرأة لقوة عاطفتها ، وشدة انفعالها
بالحوادث ، قد تتوهم ما لم تر ، فكان من الحكمة أن يكون مع المرأة أخرى في
الشهادة بحيث يتذكران الحق فيما بينهما .والعلة في الحقيقة هي التذكير ،
: ولكن الضلال لما كان سبباً في التذكير ، نزل منزلة العلة .وذلك كأن تقول
، أعددت السلاح خشية أن يجيء العدو فأدفعه ، فإن العلة هي الدفاع عن النفس

- ولكن لما كان مجئ العدو سبباً فيه نزل منزلته .وكما أمر الله - سبحانه
الكتاب في أول الآية بعدم الامتناع عن الكتابة أمره الشهود أيضاً بعدم
الامتناع عن الشهادة فقال - تعالى - : ( وَلاَ يَأْبَ الشهدآء إِذَا مَا
، دُعُواْ ) أي : ولا يمتنع الشهود عن أداء الشهادة وتحملها متى دعوا إليها
- لأن الامتناع عن تحمل الشهادة وأدائها قد يؤدي إلى ضياع الحقوق . والله
تعالى - قد شرع الشهادة لإحقاق الحق ، ونشر العدل بين الناس ، فعلى من
-اشتهروا بالعدالة ووثق الناس بهم أن يؤدوا الشهادة كما أمرهم الله - تعالى
ثم أمر - سبحانه - بكتابه الدين سواء أكبر الدين أم صغر فقال : ( وَلاَ .
: تسأموا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَو كَبِيراً إِلى أَجَلِهِ ) .السأم
: الضجر والملل . يقال : سئمت الشيء أسأمه وسآمة أي مللته وضجرته .والمعنى
وعليكم أيها المؤمنون أن لا تملوا من كتابة الدين إلى الوقت المحدد له سواء
أكان هذا الدين كبيراً أم صغيراً ، لأن الكتابة في الحالتين أدعى إلى حفظ
الحقوق وصيانتها ، وإلى عدم نشوب التنازع أو التخاصم بينكم ، ولأن الدين قد
، يكون صغيراً في نظر الغني المليء ، إلا أنه كبير في نظر الفقير المعسر
ولأن التهاون في شأن الدين الصغير قد يؤدي إلى التهاون في شأن الدين الكبير
لذا وجب عليكم أن تنقادوا لشرع الله وأن تكتبوا ما بينكم من ديون ،
، والضمير في قوله :( أَن تَكْتُبُوهُ ) يعود إلى الدين أو إلى الحق.
وقولهك ( صَغِيراً أَو كَبِيراً ) حالان من الضمير . أي لا تسأموا أن
تكتبوه على كل حال قليلا أو كثيراً ، وقدم الصغير على الكبير اهتماما به
وانتقالا من الأدنى إلى الأعلى .ثم بين - سبحانه - ثلاث فوائد تعود عليهم
إذا ما امتثلوا ما أمرهم الله - تعالى - به ، فقال : ( ذَلِكُمْ أَقْسَطُ
عِندَ الله ) .واسم الإشارة ( ذَلِكُمْ ) يعود إلى كل ما سبق ذكره في
الآية من الكتابة والإشهاد ومن عدم الامتناع عنهما ، ومن تحرى الحق والعدل
و ( أَقْسَطُ ) بمعنى أعدل : يقال : أقسط فلان في الحكم يقسط إقساطاً إذا.
عدل فهو مقسط .قال - تعالى - : ( إِنَّ الله يُحِبُّ المقسطين ) ويقال : هو
قاسط إذا جار وظلم . قال - تعالى - : ( وَأَمَّا القاسطون فَكَانُواْ
لِجَهَنَّمَ حَطَباً ) أي : ذلكم الذي شرعناه لكم في أمر الديون من لكتابة
والإشهاد وغيرهما أعدل في علم الله - تعالى - ، وكل ما كان كذلك فهو
الأعدل والأفضل والأحكم في ذاته ، لأنه - سبحانه - هو الأعلم بما فيه
مصلحتكم فاستجيبوا له ، وتلك هي الفائدة الأولى .أما الفائدة الثانية فهي
قوله - سبحانه - : ( وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ ) ومعنى ( وَأَقْوَمُ ) أبلغ
في الاستقامة التي هي ضد الاعوجاج .أي : أثبت لها وأعون على إقامتها
: وأدائها .وأما الفائدة الثالثة فهي قوله : ( وأدنى ألاَّ ترتابوا ) أي
أقرب إلى زوال الشك والريبة أي أن الأوامر والنواهي السابقة إذا نفذت على
وجهها كان تنفيذها أعدل في علم الله - تعالى - وأعون على إقامة الشهادة إذ
بها يتم الاعتماد على الحفظ ، وأقرب إلى عدم الشك في جنس الدين وقدره وأجله
وإذا توفرت هذه الفوائد الثلاث في المعاملات ساد الوفاق والتعاون بين ،
الناس ، أما إذا فقدت فإن الثقة تزول من بينهم ، ويحل محلها النزاع والشقاق
ثم أباح - سبحانه - في التجارة الحاضرة عدم الكتابة فقال : ( إِلاَّ أَن.
تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ
: جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا ) .والتجارة الحاضرة التي تدور بين التجار
هي التي تجري فيها التقابض في المجلس أو التي يتأخر فيها الأداء زمنا يسيرا
- وسميت حاضرة ، لأن المبيع والثمن كلاهما حاضر .والمعنى : أن الله .
تعالى - يأمركم بكتابة الديون وبالإشهاد عليها إلا أنه - سبحانه - رحمة
بكم أباح لكم عدم الكتابة في التجارة الحاضرة التي تكثرون إدارتها والتعامل
فيها ، لأنه لو كلفكم بذلك لشق الأمر عليكم ، وهو - سبحانه - ( وَمَا
جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدين مِنْ حَرَجٍ ) ولأن أمثال هذه التجارات التي
يحصل فيها التقابض ويكثر تكرارها ، لا يتوقع فيها التنازع أن أو النسيان
والاستثناء هنا منقطع لأنه ليس هناك دين حتى يكتب ، وليست التجارة الحاضرة.
من جنس التعامل بالديون فكأنه قيل : إذا تداينتم فتكاتبوا وأشهدوا لكن
التجارة الحاضرة التي يجري فيها التقابض لا جناح عليكم في عدم كتابتها
وقيل : الاستثناء متصل والجملة المستثناة في موضع نصب لأنه استثناء من.
الجنس ، لأنه أمر بالكتابة في كل معاملة واستثنى منها التجارة الحاضرة
والتقدير : آمركم بالكتابة والإشهاد فثي كل معاملة إلا في حال حضور
التجارة فلا بأس من ترك الكتابة . ( تِجَارَةً ) قرأها الجمهور بالرفع على
أنها اسم تكون ، والخبر جملة ( تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ ) . أو على أنها
فاعل تكون إذا اعتبرناها تامة .وقرأها عاصم بالنصب على أنها خبر تكون
واسمها ضمير مستتر فيها يعود على التجارة .أي : إلا أن تكون التجارة تجارة
- حاضرة .وقوله - تعالى - : ( وأشهدوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ) أمر منه
سبحانه - بالإشهاد عند البيع ، وهذا الأمر للإرشاد والتعليم عند جمهور
العلماء . ويرى الظاهرية أنه للوجوب .قال صاحب الكشاف : هذا أمر بالإشهاد
على التتابع مطلقا ناجزاً أو كالئا - أي مؤجلا - لأنه أحوط وأبعد مما عسى
يعق من الاختلاف . ويجوز أن يراد : وأشهدوا إذا تبايعتم هذا التبايع . يعني
التجارة الحاضرة على أن الإشهاد كاف فيه دون الكتابة ، وعن الضحاك : هي

) : عزيمة من الله ولو على باقة بقل .ثم نهى - سبحانه - عن المضارة فقال
وَلاَ يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ ) .والمضارة : إدخال الضرر . والفعل
- يحتمل أن يكون مبنيا للفاعل ، وأن أصله "لا يضارر - بكسر الراء ( يضار )
ويحتمل أن يكون مبنيا للمفعول . وأن أصله لا يضارر بفتح الراء الأولى
والمعنى على الأولى : نهى الكاتب والشاهد عن أن ينزلا ضرراص بأحد.
المتعاقدين ، بأن يبخس الكاتب أحدهما ، أو يشهد بغير الحق .والمعنى على
الثاني : وهو الظاهر - نهى الدائن والمدين عن أن ينزل أحدهما ضرراً بالكاتب
، أو الشاهد لحملهما على كتابة غير الحق أو قول غير الحق ، فإنهما أمينان
. والإضرار بهما قد يحملهما على الخيانة وفي ذلك ضياع للأمانة وذهاب للثقة
ولذا قال - تعالى - بعد ذلك ( وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ
أي : وإن تفعلوا ما نهيتم عنه أو تخالفوا ما أمرتم به ، فإنكم بذلك. (
، تكونون قد خرجتم عن طاعة الله ، وتلبستم بمعصيته ، وصرت مأهلا لعقوبته
فعليكم أن تقفوا عند حدود الله حتى تتحقق لكم السعادة في دينكم ودنياكم .ثم
) : ختم - سبحانه - الآية الكريمة بالأمر بخشيته . وبتذكيرهم بنعمه فقال
: واتقوا الله وَيُعَلِّمُكُمُ الله والله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ) .أي
واتقوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه ، فهو - سبحانه - الذي يعلمكم ما
، يصلح لكم أمر دنياكم وما يصلح لكم أمر دينكم متى اتقيتموه واستجبتم له
وهو - سبحانه - بكل شيء عليم لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء
وبعد : فهذه هي آية الدين التي هي أطول آية في القرآن ، تقرؤها فتراها قد.
اشتملت على أدق التشريعات ، وأحكم التوجيهات ، وأنجع الإرشادات التي تهدي
إلى حفظ الحقوق وضبطها وتوثيقها بمختلف الوسائل .تقرؤها فترى الدقة العجيبة
، في الصياغة بأن وضع كل لفظ في مكانه المناسب ، وترى الطلاوة في التعبير
والعذوبة في الألفاظ بحيث لا تطغى دقة الصياغة على جمال العرض .وترى الوفاء
الكامل ، لكل الجوانب التشريعية والاحتراس التام من كل المؤثرات التي قد
تؤثر على سلامة التعاقد ، والإرشاد الجامع إلى كل ما يضمن وصول الحق
والعدل إلى جميع الأطراف بدون محاباة أو غبن .وترى قبل ذلك وبعد ذلك كيف
- يسوق القرآن تشريعاته بطريقة تغرس في النفوس الخوف من الله - تعالى
والمراقبة له ، والاستجابة لأوامره ، لا كطريقة البشر في قوانينهم التي
صاغوها في قوالب صماء من الألفاظ لا تشعر معها بتأثير في النفس ، ولا
باهتزاز في القلب .ولو لم يكن في شريعة الله سوى هذا التأثير الذي تشعر به
النفوس النقية الصافية عند تدبرها لكفاها ذلك دليلا على سموها وفضلها وعلى
أنها من صنع الله - تعالى - ولو أن المسلمين أخذوا بها وبتوجيهاتها في سائر
. شئونهم لظفروا بالسعادتين : الدينية والدنيوية

وان كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبا فرهان مقبوضة فان امن بعضكم بعضا فليؤد
الذي اؤتمن امانته وليتق الله ربه ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فانه اثم
قلبه والله بما تعملون عليم

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما يجب على المسلمين فعله إذا لم
- يتمكنوا من كتابة ديونهم بأن كانوا مسافرين وليس معهم كاتب فقال - تعالى
الرهان : جمع رهن( . . . وَإِن كُنتُمْ على سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ ):
) بمعنى مرهون من باب إطلاق المصدر على اسم المفعول وقرأ ابن كثير وأبو عمر
- فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ) وأصل الرهن في كلام العرب يدل على الحبس قال
تعالى - : ( كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ) ومعنى الرهن : أن
، يوضع شيء يناسب قيمةالدين من متاع المدين بيد الدائن توثقه له في دينه
ليستطيع أن يستوفي حقه من هذا الشيء المرهون عند تعذر الدفع .والمعنى : وإن
كنتم . أيها المؤمنون - مسافرين وتداينتم بدين إلى أجل مسمى ، ولم تجدوا
كاتباً يكتب لكم ديونكم ، أو لم تتيسر لكم أسباب الكتابة لأي سبب من
الأسباب ، فإنه في هذه الحالة يقوم مقام الكتابة رهان مقبوضة صاحب الدين
ضماناً لحقه عند تعذر أخذه من الغريم .وفي التعبير بقوله : ( على سَفَرٍ )
استعارة تبعية حيث شبه تمكنهم في السفر بتمكن الراكب من مركوبه . وفيه كذلك
إشارة إلى اضطراب الحال ، لأن حال المسافر يغلب عليها التنقل وعدم
الاستقرار .وجملة ( وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِباً ) معطوفة على فعل الشرط ، أي
وإن كنتم مسافرين ولم تجدوا ، كاتباً فتكون في محل جزم تقديراً . ويجوز أن :
تكون الواو للحال والجملة بعدها في محل نصب على الحال .وقوله : ( فَرِهَانٌ
مَّقْبُوضَةٌ ) خبر لمبتدأ محذوف والتقدير : فالذي يستوثق به رهان مقبوضة
أو مبتدأ محذوف الخبر والتقدير : فعليكم رهان مقبوضة .ومن الأحكام التي.
أخذها الفقهاء من هذه الآية الكريمة : أن تعليق الرهان على السفر ليس لكون
السفر شرطاً في صحة الرهان ، فإن التعامل بالرهان مشروع في حالتي السفر
والحضر ، وإنما علق هنا على السفر لأنه مظنة تعسر الكتابة لما فيه من
التنقل وعدم الاستقرار . وقد ثبت في الصحيحين عن أنس " أن رسول الله صلى
الله عليه وسلم توفي ودرعه مرهونة عند يهودي على ثلاثين وسقاً من شعير
رهنها قوتاً لأهله " .ومن الواضح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما
رهن درعه لليهودي كان مقيماً ولم يكن مسافرا .قال القرطبي : " ولم يروا عن

أحد منع الرهن في الحضر سوى مجاهد والضحاك وداود الأحوال . وليس كون الرهن
) : في الآية في السفر مما يحظر في غيره " .كذلك أخذ بعض الفقهاء من قوله
فَرِهَانٌ مّقْبُوضَةٌ ) أن الرهن لا يتم إلا بالقبض ، فإذا افترق
المتعاقدان من غير قبض كان الرهن غير صحيح بنص الآية وهذا مذهب الأحناف
والشافعية ، ويرى المالكية والحنابلة أن الرهن يتم من غير القبض ، لأن
القبض حكم من أحكامه ، فمن حق الدائن بعد تمام عقد الرهن أن يطالب بقبض
العين المرهونة ، فالقبض حكم من أحكام العقد ، وليس ركنا من أركانه ولا
شرطاً لتمامه .وقوله : ( فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الذي
اؤتمن أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ الله رَبّه ) تفريع على أحكام الديون
السابقة ، وحض على أداء الأمانة وعلى حسن المعاملة .أي : فإن أمن الدائن
، المدين واعتمد على ذمته ووفائه ولم يوثق الدين بالكتابة والشهود والرهن
فعلى المدين أن يكون عند حسن ظن الدائن به بأن يؤدي ما عليه من ديون في
الموعد المحدد بدون تسويف أو مماطلة ، وعليه كذلك أن يتقي الله ربه في
رعاية حقوق غيره فلا يجحدها ولا يتأخر في أدائها لأن الهل العليم بكل شيء
سيحاسب كل إنسان بما قدمت يداه .وعبر - سبحانه - بقوله : ( فَإِنْ أَمِن )
دون أو أودع ، للإشارة إلى الجانب الذي اعتمد عليه الدائن في المدين وهو
خلق الأمانة ، فهو لا يرى فيه إلا جانباً مأموناً لا يتوقع منه شراً أو
خيانة ، وللتنبيه إلى أن صفة الأمانة والوفاء من الصفات التي يجب أن يتحلى
) : بها المؤمنون جميعاً حتى ينالوا السعادة في دينهم ودنياهم ، عبر بقوله
فَلْيُؤَدِّ الذي اؤتمن ) ولم يقل فليؤد المدين لحضه : على الأداء بأحسن
أسلوب ، لأنه ما دام الدائن قد ائتمنه على ما أعطاه من ديون ، فعلى هذا
الذي اؤتمن وهو المدين أن يكون عند حسن الظن به وأن يرد إليه حقه في موعده
مع شكره على حسن ظنه به .وقوله : ( أَمَانَتَهُ ) أي دينه . والضمير يصح أن
يعود إلى الدائن باعتباره مالك الدين ، وإلى المدين باعتبار أن الدين عليه
وفي إضافتها - أي الأمانة - إلى المدين إشعار له بأنها عبء في ذمته يجب ،
أن يؤديه حتى يتخلص من تكاليفه ، إذ الأمانة عبء ثقيل عند العقلاء الذين
يشعرون بالمسئولية نحو أنفسهم ونحو غيرهم .وجمع - سبحانه - بين صفتي
الألوهية والربوبية في قوله : ( وَلْيَتَّقِ الله رَبّه ) للمبالغة في
التحذير من الخيانة والمماطلة فإنهما يغضبان الله - تعالى - الذي خلق
الإنسان ورباه وأسبغ عليه نعمه الظاهرة والباطنة ، ولإشعار هذا المدين
بأن التقوى هي الوثيقة الكبرى التي لا تعدها وثيقة أخرى في كتابة أو شهادة
- أو رهان .وبذلك نرى لوناً من ألوان التدرج الحكيم في شريعة الله - تعالى
فأنت ترى أن الله - تعالى - قد بين قبل ذلك أن الكتابة في الديون والإشهاد
عليها مطلوبان ، فإن تعذرت الكتابة والشهادة لسبب من الأسباب فإنه يترخص
حينئذ بالرهن المقبوض .فإن تعذر على المدين المحتاج أن يدفع للدائن رهنا
يكون الاعتماد على الأمانة التي هي صفة من صفات الصادقين .فياله من تشريع
- حكيم - بين الناس ما يصلح شأنهم في دنيهم وفي دنياهم .ثم أمر الله تعالى
عباده بأن يؤدوا الشهادة على وجهها وألا يكتموها فقال - تعالى - ( وَلاَ
: تَكْتُمُواْ الشهادة وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ) أي
وعليكم - أيها المؤمنون - ألا تمتنعوا عن أدائها إذا دعيتم إليها وألا
- تخفوها فإن الذي يخفيها ويمتنع عن أدائها يكون معاقباً من الله - تعالى
بسبب ارتكابه لما نهى عنه .وقد أسند - سبحانه - الإثم إلى القلب خاصة مع
أن الإثم يسند إلى الشخص ، لأن الإثم في كتمان الشهادة عمل القلب لا عمل
الجوارح ، ولأن القلب أساس كل خير وكل شر ، ففي الحديث الشريف : " ألا وإن
في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي
القلب " .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : هلا اقتصر على قوله ( فَإِنّهُ
آثِمٌ ) وما فائدة ذكر القلب والجملة هي الآثمة لا القلب وحده؟ قلت : كتمان
الشهادة هو أن يضمرها ولا يتكلم بها . فلما كان إثما مقترنا بالقلب أسند
إليه لأن إسناد الفعل إلى الجارحة التي يعمل بها أبلغ ، ألا تراك تقول إذا
أردت التوكيد : هذا مما أبصرته عيني ، ووعاه قلبي . ولأن القلب هو رئيس
الأعضاء فكأنه قيل : ومن يكتمها فقد تمكن الإثم من أصل نفسه ، وملك أشرف
. مكان فيه : ولئلا يظن أن كتمان الشهادة من الآثام التي تتعلق باللسان فقط
وليعلم أن القلب أصل متعلقه ومعدن اقترافه ، واللسان ترجمان عنه . ولأن
أفعال القلوب أعظم من أفعال سائر الجوارح ، وهي لها كالأصول التي تتشعب
عنها . ألا ترى أن أصل الحسنات والسيئات الإيمان والكفر . وهما من أفعال
القلوب فإذا جعل كتمان الشهادة من آثام القلبو فقد شهد له بأنه من معاظم
الذنوب .وقوله : ( آثم ) خبر إن و ( قلبه ) رفع بآثم على الفاعلية كأنه قيل
. فإنه يأثم قلبه . ويجوز أن يرتفع قلبه بالابتداء . وآثم خبر مقدم :
والجملة خبر إن والضمير للشأن .ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ( والله
بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ) أي : والله - تعالى - عليهم بكل أعمالكم
وأقوالكم وسائر شئونكم وسيجازي المسحنين إحساناً ، والمسيئين سوءاً فعليكم
أيها المؤمنون أن تستجيبوا لأوامر الله ، وأن تجتنبوا ما نهاكم عنه حتى
تكونوا من السعداء .فالجلمة الكريمة تذييل قصد به الوعد الحسن للمؤمنين
، الصادقين ، والوعيد الشديد للعصاة المسيئين ، حتى يزداد المؤمنون إيمانا

ويقع العصاة عن عصيانهم وسيئاتهم .وبعد هذا البيان الجامع الحكيم لطرق التعامل التي أباحها الله - تعالى - لعباده والتي حرمها عليهم ، بين سبحانه - أن ما في السموات والأرض ملك له ، وأنه سيحاسب عباده بما يقتضيه علمه الشامل ، وإرادته النافذة فقال - تعالى - .( للّهِ ما فِي السماوات وَمَا فِي . . . )

لله ما في السماوات وما في الارض وان تبدوا ما في انفسكم او تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير

كما فسرها الوسيط ما دام الأمر كذلك فعليكم - أيها المؤمنون - أن تبذلوا نهاية جهدكم في العمل الصالح الذي بين أيديكم إنما هو عارية مستردة ، وأن المالك الحقيقي له إنما هو الله رب العالمين ، فأنفقوا من هذا المال - الذي هو أمانة بين أديكم - في وجوه الخير واجمعوه م نطريق حلال ، وكونوا من القوم العقلاء الصالحين الذين لم تشغلهم دنياهم عن أخراهم ، بل كانوا كما قالوا : ( رَبَّنَآ آتِنَا فِي الدنيا حَسَنَةً وَفِي الآخرة حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النار ) وقوله - سبحانه - : ( وَإِن تُبْدُواْ مَا في أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ الله ) بيان لشمون علم الله - تعالى - لما أظهره الإنسان أو أخفاه من أقوال وأعمال ، وأنه سيحاسبه على ذلك بما يستحقه من خير أو شر .والجملة الكريمة صريحة في أن الله - تعالى - يحاسب العباد على نياتهم وما تكسبه قلوبهم سواء أأخفوه أم أظهروه .وقد بين المحققون من العلماء أن هذه المحاسبة إنم اتكون على ما يعزم عليه الإنسان وينويه ويصر على فعله ، سواء أنفذ ما اعتزم عليه أم حالت دونه حوائل خارجة عن إرادته : كمن عزم على السرقة واتخذ الوسائل لذلك ولكن لم يستطع التنفيذ لأسباب لم يتمكن معها من السرقة التي أصر عليها .أما الخواطر النفسية التي تجول في النفس ، وتعرض للإنسان دون أن يعزم على تنفيذها ، فإنها ليست موضع مؤاخذة ، بل إن التغلب عليها ، وكفها بعد مكافحتها يجعله أهلاً للثواب .ففي الحصحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قال الله - تعالى - : إذا هم عبدى بسيئة فلا تكتبوها عليه فإن عملها فاكتبوها سيئة ، وإذا هم بحسنة فلم يعملها فاكتبوها حسنة ، فإن عملها فاكتبوها عشر " .وروى الجماعة في كتبهم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الله تجاوزوا لي عن أمتي ما وسوست ، به صدورها ما لم تعمل أو تتكلم " .قال الفخر الرازي : الخواطر الحاصلة في القلب على قسمين : فمنها ما يوطن الإنسان نفسه عليه ويعزم على إدخاله في الوجود ، ومنها ما لا يكون كذلك ، بل تكون أموراً خاطرة بالبال مع أن الإنسان يكرهها ولكنه لا يمكنه دفعها عن النفس .فالقسم الأول يكون مؤاخذاً به .والثاني لا يكون مؤاخذاً به ، ألا ترى إلى قوله - تعالى - : ( لاَّ يُؤَاخِذُكُمُ الله باللغو في أَيْمَانِكُمْ ولكن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ) وقال الآلوسي : المؤاخذة على تصميم العزم على إيقاع المعصية في الأعيان وهو من الكيفيات النفسانية التي تلحق بالملكات ، وليس كذلك سائر ما يحدث في النفس - أي من خواطر لا تصميم ولا عزم معها - قال بعضهم :مراتب القصد خمس هاجس ذكروا ... فخاطر فحديث النفس فاستمعا يليه هم ) : - فعزم كلها رفعت ... سوى الأخير ففيه الأخذ قد وقعاوقوله - تعالى فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ) بيان لنتيجة المحابة التي تكون من الخالق - عز وجل - لعباده .أي : أنه - سبحانه - بمقتضى علمه الشامل ، وإرادته النافذة ، يحاسب عباده على ما أسروه وما أعلنوه من أقوال وأعمال ، فيغفر بفضله لمن يشاء أو يغفر له ، ويعذب بعدله من يشاء أن يعذبه لا راد لمشيئته ولا معقب لحكمه .وقوله : ( فيغفر ) ويعذب ، قرأه عاصم ، وابن عامر ويعقوب وأبو جعفر برفع الراء والباء على الاستئناف أي فهو يغفر : وقرأ الباقون بإسكانهما عطفاً على جواب الشرط وهو قوله : ( يُحَاسِبْكُمْ ) وقوله : ( والله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ) تذييل مقرر لمضمون ما قبله. فإن كمال قدرته - سبحانه - على جميع الأشياء موجب لقدرته على ما سبق ذكره من المحاسبة لعباده ، وإثابة من يشاء إثابته وتعذيب من يشاء تعذيبه ، فهو القاهر فوق عباده ، وهو الحكيم الخبير .ثم ختم - سبحانه - سورة البقرة بآيتين كريمتين في أولاهما أن رسالة النبي صلى الله عليه وسلم امتداد للرسالات السماوية السباقة وخاتمة لها ومهيمنة عليها ، وبين في الثانية أنه - سبحانه - لم يكلف الناس إلا مبا في قدرتهم ، وأنهم سيحاسبون على أعمالهم ، وأن من شأن الأخيار أن يكثروا من التضرع إليه بخلاص الدعاء . . . قال - تعالى - :( آمَنَ الرسول بِمَآ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِن رّبِّهِ )

امن الرسول بما انزل اليه من ربه والمؤمنون كل امن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين احد من رسله وقالوا سمعنا واطعنا غفرانك ربنا واليك المصير

كما فسرها الوسيط قوله : ( آمَنَ الرسول بِمَآ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ والمؤمنون ) استئناف قصد به الإخبار عن الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بما يشرفهم ويعلى من أقدارهم ومنازلهم .أي : صدق الرسول صلى الله عليه وسلم بما أنزل إليه من ربه في هذه السورة وغيرها من العقائد والأحكام والسنن والبينات والهدايات تصديق إذعان وإقرار وإطمئنان ، وكذلك المؤمنون الذين صدقوه واتبعوه آمنوا بما آمن به رسولهم وداعيهم إلى الحق صلى الله عليه وسلم .وقد قرن - سبحانه - إيمان المؤمنين بإيمان رسولهم صلى الله عليه وسلم تشريفاً لهم وللإشارة إلى أنهم متى صدقوا في إيمانهم كانت منزلتهم عند الله - تعالى - قريبة من منازل الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - .وفي تأخيرهم في الذكر إشارة إلى تأخر التابع عن المتبوع ، وإشارة إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم هو أول من آمن بما أوحى إليه من ربه ، وهو أقوى الناس إيماناً ، وأصدقهم يقينا . وأكثرهم استجابة لأوامر الله .وقوله : ( كُلٌّ آمَنَ بالله وملائكته وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ) بيان للإيمان الكامل الذي اعتقدوه وصدقوا به .أي : كل فريق من هذين الفريقين ، وهما الرسول والمؤمنون آمن إيماناً تاماً بوجود الله - تعالى - ووحدانيته وكمال صفاته ، ووجوب الخضوع والعبادة له ، وبوجود الملائكة وأنهم عباد مكرمون ( لاَّ يَعْصُونَ الله مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ) كما آمنوا بكتب الله التي أنزلها لسعادة البشر ، وبرسله الذين أرسلهم لإخراج الناس من الظلمات إلى النور .ثم بين - سبحانه - أن من صفات هؤلاء الأخيار أنهم لا يفرقون بين رسل الله - تعالى - فقال : ( لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ) أي يقولون لا نفرق في الإيمان بين رسل الله - تعالى - وإنما نؤمن بهم جميعاً ، ونصدق برسالة كل رسول أرسله الله - تعالى - ولا نقول كما قال الضالون ( نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ ) ثم حكى - سبحانه - ما قالوه مما يدل على صدق إيمانهم ونقاء نفوسهم وطهارة قلوبهم فقالوا : ( وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ، أي : وقالوا سمعنا قولك وفهمناه ، وامتثلنا أمرك - يا الهنا - واستقمنا ( عليه ، وصبرنا على تكاليفه بكل رضا واستسلام . ( غُفْرَانَكَ رَبَّنَا ) أي اغفر لنا غفرانك الذي هو من فضل رحمتك ونعمك فأنت ربنا وخالقنا والعليم بأحوالنا وبضعفنا .فقوله : ( غُفْرَانَكَ ) مصدر منصوب على المفعول المطلق : والعامل فيه مقدر أي : اغفر غفرانك . وقوله : ( وَإِلَيْكَ المصير ) أي ) ، وإليك وحدك المرجع والمآب ، ومنك وحدك يكون الحساب والثواب والعقاب يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ . إِلاَّ مَنْ أَتَى الله بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ) وبذلك نرى أن هذه الآية الكريمة قد مدحت الرسول صلى الله عليه وسلم مدحاً عظيماً ، ومدحت أتباعه المؤمنين الصادقين لاستجابتهم لأوامر الله ونواهيه ، وتضرعهم إليه بخالص الدعاء أن يغفر لهم ما فرط منهم .

لا يكلف الله نفسا الا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا او اخطانا ربنا ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا انت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر رحمته بعباده فقال : ( لاَ يُكَلِّفُ الله نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا ) والوسع - كما يقول الزمخشري : - ما يسع الإنسان ، ولا يضيق عليه ، ولا يحرج فيه ، أي لا يكلفها إلا ما يتسع فيه طوقه ، ويتيسر عليه دون مدى الطاقة والمجهود . وهذا إخبار عن عدله ورحمته كقوله - تعالى - : ( يُرِيدُ الله بِكُمُ اليسر وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ العسر ) لأنه كان في إمكان الإنسان وطاقته أن يصلي أكثر من الخمس ، ويصوم أكثر من الشهر ، ويجمع أكثر من حجة .فالجملة الكريمة تحكى لنا بعض مظاهر فضل الله علينا ورحمته بنا ، حيث كلفنا بما تسعه قدرتنا ، وتستطيعه نفوسنا ، وقد حكى القرآن هذا المعنى في آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - : - وقوله - تعالى ( وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدين مِنْ حَرَجٍ ) : - يُرِيدُ الله أن يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإنسان ضَعِيفاً ) وإذا كانت بعض التكاليف التي كلفنا الله بها في مشقة ، فإن هذه المشقة محتملة وفي وسع الإنسان وقدرته وطاقته ، وشيبنا الله - تعالى - عليها ثوابا جزيلا ، فهو القائل : ( إِنَّمَا يُوَفَّى الصابرون أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ) ثم بين - سبحانه - أن كل نفس ستجازى بما عملت فقال : ( لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكتسبت ) أي لها وحدها ثواب ما كسبت من حسنات بسبب أعمالها الصالحة ، وعليها وحدها عقاب ما اكتسبت من سيئات بسبب أعمالها القبيحة .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم خص الخير بالكسب ، والشر بالاكتساب؟ قلت . في الاكتساب اعتمال ، فلما ان الشر مما تشتهيه النفس وهي منجذبة إليه وأمارة به ، كانت في تحصيلة أعمل وأجد ، فجعلت لذلك مكتسبة فيه ولما لم تكن كذلك في باب الخير وصفت بما لا دلالة فيه على الاعتمال .وقال ، الأستاذ الإمام محمد عبده : "لا شك أن الميل إلى الخير مما أودع في نفس الإنسان والإنسان يفعل الخير بطبعه وتكون فيه لذته . ولا يحتاج إلى تكلف

في فعل الخير ، لأنه يعلم أن كل أحد يرتاح إليه ويراه بعين الرضا وأما الشر فإنه يعرض للنفس بأسباب ليست من طبيعتها ولا من مقتضى فطرتها ومهما كان الإنسان شريراً فإنه لا يخفى عليه أن الشر ممقوت عند الناس وصاحبه مهين عندهم . . وهكذا شأن الإنسان عند اقتراف كل شر يشعر في نفسه بقبحه ، ويجد من أعمال سريرته هاتفاً يقول له :لا تفعل ، ويحاسبه بعد الفعل ويوبخه إلا في النادر . . " .وبعد بيان سنة الله - تعالى - في التكليف وفي الجزاء عليه ختم - سبحانه - السورة الكريمة بتلك الدعوات الجامعات للسعادة حتى يكثر ، المؤمنون من التضرع بها فقال - تعالى - : ( رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ) أي : ربنا يا واسع العفو والمغفرة لا تؤاخذنا أي لا تعاقبنا ( نَّسِينَآ ) أمرك ونهيك ( أَوْ أَخْطَأْنَا ) ففعلنا خلاف الصواب جهلا منا بوجهه الشرعي .فأنت ترى أن هؤلاء الذين اتقوا ربهم ، فصفت نفوسهم ، وطهرت قلوبهم ، وخشعت جوارحهم ، يتضرعون إلى الله أن يغفر لهم ما فرط فمنهم نسياناً أو خطأ ، وذلك لأن المؤمن عندما يصل إلى هذه الدرجة من التقوى والصفاء يشعر بأن الله - تعالى - يحاسبه على ما لا حساب عليه ، ويشعر بأن حسناته - مهما كثرت - فهي قليلة بجانب هفواته وسيئاته ، فهو لشدة خشيته من الله يرجح جانب المؤاخذة على جانب العفو فيكثر من الضراعة والدعاء وقد أشار صاحب الكشاف إلى هذا المعنى بقوله : فإن قلت : النسيان والخطأ متجاوز عنهما فما معنى الدعاء بترك المؤاخذة بهما؟ قلت : . . . لأنهم كانوا متقين الله حق تقاته ، فما كانت تفرط منهم فرطة إلا على وجه النسيان والخطأ فكأن وصفهم بالدعاء بذلك إيذاناً ببراءة ساحتهم عما يؤاخذون به . كأنه . قيل : إن كان النسيان والخطأ مما يؤاخذ به ، فما فيهم سبب مؤاخذة إلا الخطأ والنسيان . ويجوز أن يدعو الإنسان بما علم أنه حاصل له قبل الدعاء من فضل الله لاستدامته والاعتداد بالنعمة فيه .هذا هو الدعاء الأول الذي حكاه القرآن عن المؤمنين الصادقين .أما الدعاء الثاني فهو قوله - سبحانه - : ( رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الذين مِن قَبْلِنَا ) .والإصر في اللغة : الثقل والشدة . مأخوذ من أصر بمعنى حبس ، فكأنه يحبس صاحبه في مكانه فيمنعه من الحركة .والمعنى : أن أولئك يضرعون إلى الله - تعالى - ألا يلقى تكاليف وأعباء شديدة ، يثقل عليهم حملها ويعجزون عن أدائها ، كما كان الحال بالنسبة للذين سبقوهم؛ فقد كلف الله - تعالى - بني إسرائيل بتكاليف شاقة ثقيلة بسبب تعنتهم وفسوقهم عن أمره ، ومن ذلك تكليفهم بقتل أنفسهم إذا أرادوا أن يتوبوا توبة صادقة وتحريم بعض الطيبات عليهم بسبب ظلمهم قال - تعالى - : ( فَبِظُلْمٍ مِّنَ الذين هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ) . . . قال الرازي : والمؤمنون إنما طلبوا هذا التخفيف لأن التشديد مظنة التقصير والتقصير موجب للعقوبة ، ولا طاقة لهم بعذاب الله - تعالى - فلا جرم التمسوا السهولة في التكاليف .أما الدعاء الثالث فهو قوله - تعالى - : ( وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ ) .الطاقة - كما يقول الراغب - : اسم لمقدار ما يمكن للإنسان أن يفعله بمشقة ، وذلك تشبيه بالطوق المحيط ، فقوله - تعالى - : ( وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ ) أي ما يصعب علينا مزاولته ، وليس معناه لا تحملنا ما لا قدرة لنا به .فالطاقة على هذا تكون فيما فعله بأقصى القدرة والقوة .أي : ونسألك يا ربنا ألا تحلمنا ما هو فوق طاقتنا وقدرتنا من المصائب والعقوبات وغير ذلك من الأمور التي لا نستطيعها .وهذا الدعاء هو تدرج مترتب على الدعاء السابق ، فهم هنا يلتمسون منه - سبحانه - ألا ينزل بهم ما هو فوق قدرتهم وطاقتهم من بلايا ومحن ، بعد أن التمسوا منه ألا يكلفهم بتكاليف شاقة ثقيلة كما كلف الذين من قبلهم .ثم حكى القرآن دعاءهم الرابع والخامس والسادس فقال : ( واعف عَنَّا واغفر لَنَا وارحمنآ ) أي نسألك يا ربنا أن تعفو عنا بأن تمحو عنا ما ألممنا به من ذنوب وتتجاوز عنها ، وأن تغفر لنا سيئاتنا بأن تسترها ولا تفضحنا بإظهارها فأنت وحدك الغفار الستار . وأن ترحمنا برحمتك السابغة التي شملت كل شيء ، فإننا مع تقصيرنا في طاعتك نأمل ألا تحرمنا من رحمتك فأنت تراهم قد تضرعوا إلى ربهم أن يعفو عنهم بأن يسقط عنهم العقاب وأن يغفر لهم بأن يستر عليهم ذنوبهم فلا يفضحهم بها ، وأن يشملهم بعطفه ورحمته .وهي دعوات تدل على رقة إحساسهم ، ونقاء نفوسهم ، وشدة خشيتهم من ربهم ، وشعورهم نحوه بالتقصير مهما قدموا من أعمال صالحة .ثم ختموا دعاءهم بقوله - تعالى - : ( أَنتَ مَوْلاَنَا فانصرنا عَلَى القوم الكافرين ) أي أنت مولانا وناصرنا وحافظنا ومعيننا وممدنا بالخير والهدى فانصرنا يا ربنا على القوم الكافرين لكي تكون كلمتك هي العليا ، وكلمة الذين كفروا هي السفلى .وقولهك ( أَنتَ مَوْلاَنَا ) يدل على نهاية خضوعهم وتذللهم وطاعتهم لله رب العالمين لأنهم قد اعترفوا بأنه - سبحانه - هو المتولي لكل نعمة يصلو إليها .قال ابن كثير : وقد ورد في صحيح مسلم عن النبي - صلى الله عليه وسلم - " أن الله - تعالى - قال عقب كل دعوة من هذه الدعوات : قد فعلت " .وروى البخاري والجماعة عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أعطيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يعطهن نبي قبلي وبعد فهذه هي سورة البقرة التي اشتملت على ما يشفي الصدور ، ويهدي القلوب.

، ويصلح النفوس : من توجيهات سامية ، وآداب حميدة ، وعقائد ، سليمة ، وتشريعات حكيمة ، وأمثال هادية ، وقصص من شأنه أن يغرس في النفوس الخلق القويم ، وأن يغريها بالاتعاظ والاعتبار حتى تكون ممن رضي الله عنهم ورضوا عنه .ولقد سبق لنا أن تكلمنا قبل البدء في تفسيرها عن وقت نزولها ، وعن فضلها وعن مقاصدها الإجمالية . . .والله نسأل أن ينفعنا بها وبكتابة الكريم ، وأن يجعل أقوالنا وأعمالنا خالصة لوجهه ، ونافعة لعباده .اللهم ، اجعل القرآن ربيع قلوبنا ، ونور أبصارنا وبصائرنا ، وجلاء همنا وحزنا وأعنا على إتمام ما قصدناه بفضلك ورعايتك يا أكرم الأكرمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومن سار على طريقته إلى يوم الدين .

الم

- كما فسرها الوسيط افتتحت سورة آل عمران ببعض حروف التهجى وهو قوله تعالى - : { الم } . .ويبلغ عدد السور القرآنية التى افتتحت بالحروف المقطعة تسعا عشرين سورة .وقد وقع خلاف بين العلماء فى المعنى المقصود من حروف التهجي التي افتتحت بها بعض السور القرآنية ويمكن إجمال اختلافهم فى رأيين رئيسيين :الرأى الأول يرى أصحابه : أن المعنى المقصود منها غير معروف - فهى من المتشابه الذى استأثر الله بعلمه .وإلى هذا الرأى ذهب ابن عباس ، فى إحدى الروايات عنه - كما ذهب إليه الشعبى ، وسفيان الثورى وغيرهما من العلماء ، فقد أخرج ابن المنذر وغيره عن الشعبى أنه سئل عن فواتح السور فقال : " إن لكل كتاب سرا ، وإن سر هذا القرآن فواتح السور " وروى عن ابن عباس أنه قال : " عجزت العلماء عن إدراكها " .وعن على بن أبى طالب أنه قال إن لكل كتاب صفوة وصفوة هذا الكتاب حروف التهجى " وفى رواية أخرى " : للشعبى أنه قال : " سر الله فلا تطلبوه " .ومن الاعتراضات التى وجهت إلى هذا الرأى أنه إذا كان الخطاب بهذه الفواتح غير مفهوم للناس؛ لأنه من المتشابه فإنه يترتب على ذلك أنه كالخطاب بالمهمل ، أو مثله كمثل التكلم بلغة أعجمية مع أناس عرب لا يفهمونها .وقد أجيب عن ذلك بأن هذه الألفاظ لم ينتف الإفهام عنها عند كل الناس . فالرسول صلى الله عليه وسلم كان يفهم المراد بها ، وكذلك بعض الصحابة المقربين ، ولكن الذى ننفيه أن يكون الناس جميعا فاهمين لمعنى هذه الحروف المقطعة فى أوائل بعض السور . وهناك مناقشات للعلماء حول هذا الرأى لا مجال لذكرها هنا .أما الرأى الثانى فيرى أصحابه : أن المعنى المقصود منها معلوم . وأنها ليست من المتشابه الذى استأثر الله بعلمه . وأصحاب هذا الرأى قد اختلفوا فيما بينهم فى تعيين هذا المعنى المقصود على أقوال كثيرة من أهمها :1- أن هذه الحروف أسماء للسور ، بدليل قول النبى صلى الله عليه وسلم " من قرأ حم السجدة حفظ إلى أن يصبح " وبدليل اشتهار بعض السورة بالتسمية بها ، كسورة " ص " وسورة " يس " وسورة " ق " . الخ .ولا يخلو هذا القول من ضعف لأنه لا يلزم من التسمية ببعضها أن تكون جميع الحروف المقطعة أسماء للسور التى بدئت بها ، ولأن كثيراً من السور قد افتتحت بلفظ واحد من هذه الفواتح ، فلو كانت أسماء للسور لم تتكرر لمعان مختلفة؛ لأن الغرض من التسمية رفع الاشتباه .2- وقيل : إن هذه الحروف قد جاءت هكذا فاصلة للدلالة على انقضاء سورة وابتداء أخرى .3- وقيل : إنها حروف مقطعة بعضها من أسماء الله - تعالى - وبعضها من صفاته ، فمثلا : { الم أصلها أنا الله أعلم .4- وقيل : إنها اسم الله الأعظم . إلى غير ذلك من { الأقوال التى لا تخلو من مقال ، والتى أوصلها السيوطى فى كتابه " الإتقان إلى أكثر من عشرين قولا .5- ولعل أقرب الأقوال إلى الصواب أن هذه الحروف " المقطعة ، قد وردت فى افتتاح بعض سور القرآن على سبيل الإيقاظ والتنبيه للذين تحداهم القرآن .فكأن الله - تعالى - يقول لأولئك المعارضين فى أن القرآن من عند الله : هاكم القرآن ترونه مؤلفا من كلام هو من جنس ما تؤلفون منه كلامكم ، ومنظوما من حروف هى من جنس الحروف الهجائية التى تنظمون منها حروفكم ، فإن كنتم فى شك من كونه منزلا من عند الله فهاتوا مثله ، وادعوا من شئتم من الخلق لكى يعاونكم فى ذلك .ومما يشهد لصحة هذا الرأى : أن الآيات التى تلى هذه الحروف المقطعة تتحدث عن الكتاب المنزل ، وعن كونه معجزة للرسول صلى الله عليه وسلم فى أغلب المواضع .وأنت ترى هذه الآيات - كثيرا ما تتصدر صراحة باسم الإشارة الذى يعود إلى القرآن كما فى قوله - تعالى - : (الم ذَلِكَ الْكتاب لاَ رَيْبَ فِيهِ ) أو ضمنا كما فى قوله تعالى - : (المص كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ ) وأيضا فإن هذه السور التى افتتحت بالحروف المقطعة إذا ما تأملتها من أولها إلى آخرها ترى من أهدافها الأساسية إثبات صحة الرسالة المحمدية عن طريق هذا الكتاب الذى جعله الله - تعالى - معجزة لنبيه صلى الله عليه وسلم .هذه خلاصة موجزة لآراء العلماء فى المراد بالحروف المقطعة التى افتتحت بها بعض السور القرآنية ، ومن أراد مزيدا لذلك فليرجع إلى ما كتبه العلماء فى هذا الموضوع .

الله لا اله الا هو الحي القيوم

: كما فسرها الوسيط ثم وصف - سبحانه - ذاته بما يليق به من جلال وكمال فقال
ولفظ الجلالة { الله } يقول بعض. { الله لا إله إِلاَّ هُوَ الحي القيوم }
العلماء : إن أصله إله ، دخلت عليه أداة التعريف " أل " وحذفت الهمزة فصارت
- الكلمة الله .قال القرطبي : قوله الله } هذا الاسم أكبر أسمائه - تعالى
وأجمعها حتى قال بعضهم : إنه اسم الله الأعظم ، ولم يتسم به غيره ، ولذلك
لم يثن ولم يجمع ، فالله اسم للموجود الحق الجامع لصفات الألوهية ، المنعوت
" بنعوت الربوبية المنفرد بالوجود الحقيقى ، لا إله إلا هو سبحانه - .ولفظ
إله " قالوا : إنه من أله أى عبد ، فالإله على هذا المعنى هو المعبود وقيل
هو أله أى تحير . . وذلك لأن العبد إذا تفكر فى صفاته - تعالى - تحير فيها
: ولذا قيل : تفكروا فى آلاء الله ولا تتفكروا فى الله .و { الحي } أى ،
المتصف بالحياة التى لا بدء ولا فناء لها .و { القيوم } الدائم القيام
بتدبير أمر الخلق وحفظهم ، المعطى لهم ما به قوام حياتهم ، وهو مبالغة فى
القيام وأصله قيووم - بوزن فيعول - من قام بالأمر إذا حفظه ودبره .والمعنى
الله - تعالى - هو الإله الحق المتفرد بالألوهية التى لا يشاركه فيها :
سواه . وهو المعبود الحق وكل معبود سواه فهو باطل ، وهو ذو الحياة الكاملة
وهو الدائم القيام بتدبير شئون الخلق وحياطتهم ورعايتهم وإحيائهم .
. وإماتتهم .قال الآلوسى : ولفظ الجلالة " الله " مبتدأ وما بعده خبر
والجملة مستأنفة ، أى : هو المستحق للعبودية لا غيره . و { الحي القيوم }
خبر بعد خبر ، أو خبر لمبتدأ محذوف أى : هو الحى القيوم . . وأيا ما كان
فهو كالدليل على اختصاص استحقاق العبودية به - سبحانه - وقد أخرج الطبرانى
وابن مزدويه من حديث أبى أمامة مرفوعا أن اسم الله الأعظم فى ثلاث سور ، فى
. سورة البقرة ، وآل عمران ، وطه

نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وانزل التوراة والانجيل

كما فسرها الوسيط وقال أبو أمامة : فالتمستها فوجدت فى البقرة { الله لا
إله إِلاَّ هُوَ الحي القيوم } وفى آل عمران { الله لا إله إِلاَّ هُوَ
- الحي القيوم } وفى طه { وَعَنَتِ الوجوه لِلْحَيِّ القيوم } وبعد أن بين
سبحانه - أنه هو وحده المستحق للعبودية ، أتبع ذلك ببيان بعض مظاهر فضله
ورحمته فقال : { نَزَّلَ عَلَيْكَ الكتاب بالحق مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ
يَدَيْهِ }والكتاب - كما يقول الراغب - فى الأصل مصدر ، ثم سمى المكتوب
فيه كتابا . والكتاب فى الأصل اسم للصحيفة مع المكتوب فيه . والكتب ضم
أديم إلى أديم بالخياطة ، وفى التعارف ضم الحروف بعضها إلى بعض بالخط
والمراد بالكتاب المنزل : القرآن الكريم . وفى التعبير عنه باسم الجنس
إيذان بتفوقه على بقية أفراد الكتب المنزلة ، فكأنه هو الحقيق بأن يطلق
عليه اسم الكتاب دون ما عداه كما يلوح به التصريح باسمى التوراة والإنجيل
وعبر بنزل - بصيغة التضعيف - للإشارة إلى أن نزول القرآن على النبى صلى
الله عليه وسلم كان منجما ولم يكن دفعة واحدة ومن المعروف أن القرآن قد نزل
على النبى صلى الله عليه وسلم على حسب الوقائع والحوادث وغيرها فى مدة تزيد
: على عشرين سنة .وقد ذكر العلماء حكما كثيرة لنزول القرآن منجما منها
تثبيت فؤاد النبى صلى الله عليه وسلم وتقوية قلبه ، ومنها : التدرج فى
تربية قويمة سليمة ، ومنها : مسايرة الحوادث فى تجددها وتفرقها . ومنها
تيسير حفظه وتسهيل فهمه ، ومنها : تثبيت قلوب المؤمنين وتسليحهم بعزيمة
- الصبر واليقين ومنها : الإجابة على أسئلة السائلين ، وبيان حكم الله
تعالى - فيما يحصل من قضايا ، ولفت أنظار المخطئين إلى ما وقعوا فيه من
أخطاء ، وكشف حال الكافرين والمنافقين . منها : الإرشاد إلى مصدر القرآن
وأنه من عند الله - تعالى -{ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ الله
لَوَجَدُواْ فِيهِ اختلافا كَثِيراً } فأنت تقرأ ما نزل على الرسول صلى
الله عليه وسلم من قرآن فى مكة . وما نزل عليه فى المدينة ، فترى الجميع
. محكم السرد . دقيق السبك ، رصين الأسلوب ، بليغ التراكيب ، فصيح الألفاظ
بينما ترى كلام الأدباء والبلغاء يختلف فى جودته من وقت إلى وقت " ومن .
موضوع إلى موضوع " .وقد بين - سبحانه - أن هذا القرآن قد نزل مقترنا بأمرين
} : متصلا بهما :أما أولهما فهو قوله : { بالحق } .وأما ثانيهما فهو قوله
مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ } أى : أن الله - عز وجل - الذى لا إله
إلا هو ، والذى هو الحى القيوم ، هو الذى نزل عليك يا محمد هذا القرآن
تنزيلا ملتبسا بالحق ، ومصاحبا له ، ومقترنا به ، ومشتملا عليه ، فكل ما
. فيه من أوامر ، ونواه ، وقصص ، وأحكام ، وعقائد ، وآداب ، وشرائع وأخبار
حق لا يحوم حوله باطل ، وصدق لا يتطرق إليه كذب .وهو الذى جعل هذا الكتاب .
المنزل عليك موافقا ومؤيداً لما اشتملت عليه الكتب السابقة من الدعوة إلى
وحدانية الله ، وإلى مكارم الأخلاق ، وإلى الوصايا والشرائع التى تسعد
الناس فى كل زمان ومكان . وهذا يدل على أن الشرائع الإلهية واحدة فى
جوهرها وأصولها . قال - تعالى - : { شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدين مَا وصى بِهِ
نُوحاً والذي أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ

} وموسى وعيسى أَنْ أَقِيمُواْ الدين وَلاَ تَتَفَرّقُواْ فِيهِ } وقوله
} بالحق } متعلق بمحذوف فيكون فى محل نصب على الحال من الكتاب . وقوله
مُصَدِّقاً } حال مؤكدة من الكتاب . أى نزله فى حال تصديقه الكتب .وفائدة
تقييد التنزيل بهذه الحال حث أهل الكتاب على الإيمان بالمنزل ، وتنبيههم
على وجوبه؛ فإن الإيمان بالمصدق يوجب الإيمان بما يصدقه حتما .قال الجمل
وقوله { مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ } ، فيه نوع مجاز؛ لأن ما بين :
يديه هو ما أمامه . فسمى ما مضى بين يديه لغاية ظهوره واشتهاره . واللام فى
لتقوية العامل . نحو قوله - تعالى - : { فَعَّالٌ لِّمَا { لِّمَا }
- يُرِيدُ } وهذه العبارة أحسن من تعبير بعضهم بالزائدة " .ثم أخبر
سبحانه - عن بعض الكتب الأخرى التى أنزلها فقال : { وَأَنزَلَ التوراة
والإنجيل مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الفرقان } .والتوراة : اسم
عبرانى للكتاب الذى أنزله الله - تعالى - على موسى - عليه السلام - ليكون
شريعة له ولقومه .قال القرطبى ما ملخصه : والتوراة معناها الضياء والنور
مشتقة من وَرَى الزند ووَرِى لغتان إذا خرجت نارة . . وقيل مأخوذة من
لتورية ، وهى التعريض بالشئ والكتمان لغيره ، فكان أكثر التوراة معاريض
} - وتلويحات من غير تصريح وإيضاح .والجمهور على القول الأول لقوله - تعالى
وَلَقَدْ آتَيْنَا موسى وَهَارُونَ الفرقان وَضِيَآءً وَذِكْراً
لّلْمُتّقِينَ } يعنى التوراة .والإنجيل : كلمة يونانية معناها البشارة
وهى اسم للكتاب الذى أنزله الله على عيسى .قالوا : والإنجيل إفعيل من
النجل وهو الأصل : يقال : رحم الله ناجليه أى والديه . وقال قوم : الإنجيل
مأخوذ من نجلت الشئ إذا استخرجته وأظهرته ، ويقال للماء الذى يخرج من البئر
نجل وقيل : هو من النجل الذى هو سعة فى العين . ومنه طعنة نجلاء أى واسعة :
وسمى الإنجيل بذلك لأنه سعة ونور وضياء أخرجه الله - تعالى - لبنى .
إسرائيل على يد عيسى عليه السلام .وهذا الكلام الذى نقلناه عن القرطبى
والفخر الرازى هو قول لبعض العلماء الذين يرون أن لفظى التوراة والإنجيل
يدخلهما الاشتقاق والتصريف .وهناك فريق آخر من العلماء يرى أن هذين اللفظين
لا يدخلهما الاشتقاق والتصريف لأنهم اسمان أعجميان لهذين الكتابين الشريفين
قال الفخر الرازى بعد أن أورد كلاما طويلا يدل على عدم ارتضائه للمذهب.
الذى يرى أصحابه أن هذين اللفظين يدخلهما الاشتقاق والتصريف : " فالتوراة
والإنجيل اسمان أعجميان :أحدهما بالعبرية ، والآخر بالسريانية ، فكيف يليق
بالعاقل أن يشتغل بتطبيقهما على أوزان لغة العرب ، فظهر أن الأولى بالعاقل
. " أن لا يلتفت إلى هذه المباحث

من قبل هدى للناس وانزل الفرقان ان الذين كفروا بايات الله لهم عذاب شديد
والله عزيز ذو انتقام

كما فسرها الوسيط وقوله { مِن قَبْلُ } متعلق " بأنزل " و " هدى " حال من
التوراة والإنجيل ، ولم يثن لأنه مصدر . ويجوز أن يكون مفعولا لأجله
والعامل فيه أنزل .أى : وأنزل التوراة والإنجيل من قبل تنزيل القرآن لأجل
هداية الناس الذين أنزلا عليهم إلى الحق الذى من جملته الإيمان بالنبى صلى
الله عليه وسلم واتباعه حين يبعث ، لأنهما قد اشتملتا على البشارة به والحض
على طاعته .قالوا : فالمراد بالناس من عمل بالتوراة والإنجيل وهم بنو
إسرائيل . ويحتمل أنه عام بحيث يشمل هذه الأمة وإن لم تكن متعبدين أى
مكلفين ومأمورين بشرع من قبلنا ، والآن فيهما ما يفسد التوحيد وصفات البارى
والبشارة بالنبى صلى الله عليه وسلم .قال الآلوسى : وعبر فى جانب التوراة
، والإنجيل بقوله " أنزل " للإشارة إلى أنهما لم يكن لهما سوى نزول واحد
بخلاف القرآن فإن له نزولين : نزولا من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من
سماء الدنيا جملة واحدة ، ونزولا من ذلك إليه صلى الله عليه وسلم منجما فى
، ثلاث وعشرين سنة على المشهور ، ولهذا يقال فيه نزل وأنزل . . " .هذا
وليست التوراة التى بين أيدى اليهود اليوم هى التوراة التى أنزلها الله على
موسى ، فقد بين القرآن فى أكثر من آية أن بعض أهل الكتاب قد امتدت أيديهم
الأثيمة إلى التوراة فحرفوا منها ما حرفوا ، ومن ذلك قوله - تعالى - { يَا
أَهْلَ الكتاب قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً
مِّمّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الكتاب وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ } وقوله
تعالى - { فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنّاهُمْ وَجَعَلْنَا - :
قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرّفُونَ الكلم عَن مّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ
حَظًّا مّمَّا ذُكِرُواْ بِهِ }ومن الأدلة على أن التوراة التى بين أيدى
، اليهود اليوم ليست هى التى أنزلها الله على موسى : انقطاع سندها
واشتمالها على كثير من القصص والعبارات والمتناقضات التى تتنزه الكتب
السماوية عن ذكرها .وكذلك الحال بالنسبة للإنجيل؛ إذ ليست هذه الأناجيل
التى يقرؤها المسيحيون اليوم هى الإنجيل الذى أنزله الله على عيسى؛ وإنما
هى مؤلفات ألفت بعد عيسى - عليه السلام - ونسبت إلى بعض الحواريين من
أصحابه .أما الإنجيل الذى أنزله الله على عيسى والذى وصفه الله بأنه هداية
للناس فهو غير هذه الأناجيل .و { الفرقان } كل ما فرق به بين الحق والباطل

-والحلال والحرام . وهو مصدر فرق يفرق بين الشيئين فرقا وفرقاناً .1 ، والمراد به عند أكثر المفسرين : الكتب السماوية التى سبق ذكرها وهى التوراة ، والإنجيل والقرآن . أى : أنزل بهذه الكتب ما يفرق به بين الحق والباطل والهدى والضلال . والخير والشر ، وبذلك لا يكون لأحد عذر فى جحودها والكفر بها .وأعيد ذكرها بوصف خاص لم يذكر فيما سبق على طريق العطف بتكرير لفظ الإنزال ، تنزيلا للتغاير الوصفى منزلة التغاير الذاتى .2- وقال بعضهم المراد بالفرقان هنا القرآن . وإنما أعاده بهذا العنوان بعد ذكره باسم الجنس تعظيما لشأنه ، ورفعا لمكانه ، ومدحا له بكونه فارقاً بين الحق والباطل ، للإشارة إلى الاتصال الكامل بين شرائع الله - تعالى - وأنه تتميم لما سبقه ، وأنه كمال الشرائع كلها .3- وقال بعضهم : المراد به جنس الكتب السماوية التى أنزلها الله - تعالى - على رسله لهداية الناس وسعادتهم وقد عبر عنها بالفرقان ليشمل هذا الوصف ما ذكر منها وما لم يذكر على طريق التتميم بالتعميم ، إثر تخصيص مشاهيرها بالذكر .وقد ذكر صاحب الكشاف هذه الأقوال وغيرها فقال : " فإن قلت : ما المراد بالفرقان؟ قلت : جنس الكتب السماوية لأن كلها فرقان يفرق بين الحق والباطل من كتبه ، أو من هذه الكتب أو أراد الكتاب الرابع وهو الزبور . أو كرر ذكر القرآن بما هو نعت له من كونه فارقا بين الحق والباطل " .أما الفخر الرازى فإنه لم يرتض كل هذه الأقوال ، بل أتى برأى جديد فقال - ما ملخصه :4- " والمختار عندى أن المراد ، من هذا الفرقان : المعجزات التى قرنها الله - تعالى - بإنزال هذه الكتب وذلك لأنهم لما أتوا بهذه الكتب ، وادعوا أنها كتب نازلة عليهم من عند الله افتقروا فى إثبات هذه الدعوى إلى دليل حتى يحصل الفرق بين دعواهم وبين دعوى الكذابين ، فلما أظهر الله على وفق دعواهم تلك المعجزات ، حصلت المفارقة بين دعوى الصادق وبين دعوى الكاذب . فالمعجزة هى الفرقان . فلما ذكر الله أنه أنزل الكتاب بالحق ، وأنه أنزل التوراة والإنجيل من قبل ذلك بين أنه - تعالى - أنزل معها ما هو الفرقان الحق ، وهو المعجز القاهر ، الذي يدل على صحتها ، ويفيد بينها وبين سائر الكتب المختلفة " .والذى نراه أقرب إلى القبول أن المراد بالفرقان هنا جنس الكتب السماوية لأنها جميعها فارقة بين الحق والباطل فيندرج تحتها القرآن وغيره من الكتب السماوية .ثم ، بين - سبحانه - سوء عاقبة المنحرفين عن طريق الحق ، الكافرين بآيات الله فقال : { إِنَّ الذين كَفَرُواْ بِآيَاتِ الله لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ والله عَزِيزٌ ذُو انتقام } أى : إن الذين كفروا بآيات الله الدالة على وحدانيته وقدرته ، وصدق رسله فيما يبلغون عنه ، لهم عذاب شديد منه - سبحانه - بسبب كفرهم وجحودهم { والله عَزِيزٌ } أى منيع الجانب ، غالب على أمره يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد .وفى قوله { والله عَزِيزٌ } إشارة إلى القدرة التامة على العاقب ، وفى قوله { ذُو انتقام } إشارة إلى كونه فاعلا للعقاب ، ينزله متى شاء ، وكيف شاء ، بمقتضى قدرته وحكمته وإرادته ، والوصف الأول صفة للذات . والثانى صفة للفعل .

ان الله لا يخفى عليه شيء في الارض ولا في السماء

كما فسرها الوسيط ثم أخبر - سبحانه - عن شمول علمه لكل شئ فقال : { إِنَّ الله لاَ يخفى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأرض وَلاَ فِي السمآء } .أى أنه سبحانه - هو المطلع على كل صغير وكبير . وجليل وحقير ، فى هذا الكون ، لأنه هو الخالق له ، والمهيمن على شئونه . وصدق - سبحانه - حيث يقول : { أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللطيف الخبير } وذكر - سبحانه - السماء والأرض ، للإشارة إلى أن علمه وسع كل شئ ، وسع السموات والأرض ، وليس الإنسان بالنسبة لهما إلا كائنا صغيرا فكيف لا يعلم - سبحانه - ما يسره هذا الانسان وما يخفيه؟وفى تكرير حرف النهى "لا " تأكيد لنفى خفاء أى شئ - عليه - سبحانه - والآية الكريمة وعيد شديد للكافرين بآياته ، لأنه سبحانه - وهو العليم بما يسرونه وما يعلنونه ، سيجازيهم بمقتضى علمه بما يستحقونه .

هو الذي يصوركم في الارحام كيف يشاء لا اله الا هو العزيز الحكيم

} : كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - ما يشهد بشمول قدرته وعلمه فقال هُوَ الذي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأرحام كَيْفَ يَشَآءُ لاَ إله إِلاَّ هُوَ العزيز الحكيم } .وقوله { يُصَوِّرُكُمْ } من التصوير وهو جعل الشئ على صورة لم يكن عليها . وهو مأخوذ من مادة صار إلى كذا بمعنى تحول إليه . أو من صاره إلى كذا بمعنى أماله وحوله .والله - تعالى - القادر على كل شئ قد حكى لنا أطوار خلق الإنسان فى آيات متعددة منها قوله - تعالى - { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِن سُلاَلَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مِّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النطفة عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العلقة مُضْغَةً فَخَلَقْنَا المضغة عِظَاماً فَكَسَوْنَا العظام لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الخالقين } والأرحام

جمع رحم ، وهو مستودع النطفة فى بطن المرأة ، ومكان تربية الجنين ونموه : وتكوينه بالطريقة التى يشاؤها الله ، حتى يبرزه إلى الوجود بشرا سويا والمعنى : الله الذى لا إله إلا هو والذى هو الحى القيوم ، هو الذى يصوركم. فى أرحام أمهاتكم كيف يشاء ، بأن جعل بعضكم طويلا وبعضكم قصيراً ، وهذا أبيض وذاك أسود ، وهذا ذكر وتلك أنثى ، فهو وحده القادر على تصوير خلقه بتلك الصور المختلفة المتفاوتة ، ومن كان شأنه كذلك . فهو المستحق للعبادة والخضوع ، لا إله إلا هو { العزيز } الذى يقهر كل شئ بقوته وقدرته { الحكيم ، فى كل شئونه وتصرفاته .وهذه الآية الكريمة فى مقام التعليل للتى قبلها { لأن قبلها بينت أن الله لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء ، إذ هو العليم بما يسره الإنسان من كفر أو إيمان أو غيرهما ، وهذه الآية تفيد أنه - سبحانه - يعلم أحوال الإنسان لا بعد استوائه بشراً سوياً ، بل يعلم أحواله وهو نطفة فى الأرحام ، بل إنه - سبحانه - ليعلم أحواله قبل أن يكون شيئاً مذكوراً ، فهو - كما يقول القرطبى - العالم بما كان وما يكون ومالا يكون .ومن كان ذلك شأنه فمن الواجب على الذين أوجدهم - سبحانه - فى بطون أمهاتهم ، ورباهم ورعاهم وخلقهم خلقا من بعد خلق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً .وقوله - تعالى - { كَيْفَ يَشَآءُ } إخبار منه - سبحانه - بأن هذا التكوين والتصوير فى الأرحام تبع لمشيئته وقدرته وليس خاضعا لقانون الأسباب والمسببات ، إذ هو الفعال لما يريد . فمن شاء هدايته هداه ، ومن شاء إضلاله أضله .و { كَيْفَ } فى موضع نصب على أنه حال ، وناصبه الفعل الذى بعده وهو ومفعول المشيئة محذوف والتقدير : هو الذى يصوركم فى الأرحام { يَشَآءُ } كيف يشاء تصويركم ، من ذكر وأنثى ، وجميل ودميم ، وغير ذلك من مظاهر } - التفاوت والاختلاف فى الصور والأشكال والعقول والميول .وقوله - تعالى لاَ إله إِلاَّ هُوَ العزيز الحكيم } تأكيد لما قبله ، من انفراده بالألوهية ، وحقيقة المعبودية ، بعد أن أقام الأدلة الساطعة على ذلك من كونه حيا قيوما ، منزلا للكتب الهادية للناس إلى الحق عالما بكل شئ مصوراً لخلقه وهم فى أرحام أمهاتهم كيف يشاء . وكل ذى عقل سليم يتدبر هذه الآيات الكريمة ، يقبل على الإيمان بالحق بقوة وإخلاص ، ويسارع إلى العمل الصالح بقلب منيب ونية صادقة .هذا ، وقد ذكر كثير من المفسرين أن سورة آل عمران من مطلعها إلى بضع وثمانين آية منها قد نزل فى وفد نصارى نجران الذين ، قدموا على الرسول صلى الله عليه وسلم فى السنة التاسعة من الهجرة ليناقشوه فى شأن عيسى - عليه السلام - وقد رد عليهم صلى الله عليه وسلم بما يبطل أقوالهم التى تخالف الحق ، وأرشدهم إلى الطريق المستقيم وهو طريق الإسلام الذى ارتضاه الله لعباده دينا . وسنذكر قصة هذا الوفد عند تفسيرنا لآية المباهلة وهى قوله - تعالى - فى هذه السورة { فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ العلم فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ الله عَلَى الكاذبين } .وبعد أن أقام - سبحانه - الأدلة الواضحة على أنه هو المستحق للعبادة ، عقب ذلك ببيان أن القرآن مشتمل على المحكم والمتشابه ، وبيان موقف الناس منهما . فقال - تعالى - : { هُوَ الذي أَنزَلَ . . . }

هو الذي انزل عليك الكتاب منه ايات محكمات هن ام الكتاب واخر متشابهات فاما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تاويله وما يعلم تاويله الا الله والراسخون في العلم يقولون امنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا اولو الالباب

كما فسرها الوسيط قوله - تعالى - : { مُّحْكَمَاتٌ } من الإحكام - بكسر الهمزة - وهذه المادة تستعمل فى اللغة لمعان متعددة ، ترجع إلى شئ واحد هو المنع يقال : أحكم الأمر أى أتقنه ومنعه عن الفساد ويقال : أحكمه عن الشئ أى أرجعه عنه ومنعه منه . ويقال حكم نفسه وحكم الناس ، أى منع نفسه ومنع الناس عما لا يليق . ويقال أحكم الفرس أى جعل له حكمة تمنعه من الجموح والاضطراب .وقوله : { هُنَّ أُمُّ الكتاب } أى أصله الذى فيه عماد الدين وفرائضه وحدوده وما يحتاج إليه الناس فى دنياهم وآخرتهم . وأم كل شئ : أصله . وعماده .قال ابن جرير : والعرب تسمى الأمر الجامع لمعظم الشئ أماً له فيسمون راية القوم التى تجمعهم فى العساكر أمهم . ويسمون المدبر لمعظم أمر البلدة والقرية أماً " .وقوله { مُتَشَابِهَاتٌ } من التشابه بمعنى أن يكون أحد الشيئين مشابهاً للآخر ومماثلا ومشاكلا له مشاكلة تؤدى إلى الالتباء غالباً . قال : أمور مشتبة ومشبهة - كمعظمة - : أى مشكلة . ويقال : شبه عليه الأمر تشبيها : لبس عليه .ولقد جاء فى القرآن ما يدل على أنه كله محكم كما فى قوله - تعالى - { كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ } وجاء فيه ما يدل على أنه كله متشابه كما فى قوله - تعالى - { الله نَزَّلَ أَحْسَنَ الحديث كِتَاباً مُّتَشَابِهاً } وجاء فيه ما يدل على أن بعضه متشابه كما فى الآية التى نحن بصدد تفسيرها . ولا تعارض بين هذه الإطلاقات الثلاثة ، لأن معنى إحكامه كله : أنه متقن متين لا يتطرق إليه خلل أو اضطراب . ومعنى كونه كله

متشابها أنه يشبه بعضه بعضا فى بلاغته وفصاحته وإعجازه وهدايته ، ومعنى أن
بعضه محكم وبعضه متشابه ، فسنبينه بعد سرد بعض الأقوال التى قالها العلماء
فى تحديد معنى كل منهما .فمنهم من يرى أن المحكم هو الواضح الدلالة الذى لا
يحتمل النسخ ، والمتشابه هو الخفى الذى لا يدرك معناه وهو ما استأثر الله
بعلمه كقيام الساعة والروح .ومنهم من يرى أن المحكم هو الواضح الدلالة الذى
لا يحتمل النسخ ، والمتشابه هو الخفى الذى لا يدرك معناه وهو ما استأثر
الله بعلمه كقيام الساعة والروح .ومنهم من يرى أن المحكم ما استقل بنفسه
ولم يحتج إلى بيان . والمتشابه هو الذى لا يستقل بنفسه ، بل يحتاج إلى بيان
فتارة يبين بكذا ، وتارة يبين بكذا ، لحصول الاختلاف فى تأويله .ومنهم من ،
يرى أن المحكم هو الذى لا يحتمل فى تأويله إلا وجها واحداً والمتشابه هو
الذى يحتمل أوجها . ومنهم من يرى أن المحكم ما كانت دلالته راجحة وهو النص
والظاهر . أما المتشابه فهو ما كانت دلالته غير راجحة ، وهو المجمل والمؤول
والمشكل .هذه بعض الأقوال فى تحديد معنى المحكم والمتشابه . وقد اختار كثير
من المحققين هذا القول الأخير ، ومعنى الآية الكريمة - بعد هذا التمهيد
الموجز :الله - عز وجل - الذى لا إله إلا هو الحى القيوم ، والذى أنزل
الكتب السماوية لهداية الناس ، والذى صورهم فى الأرحام كيف يشاء ، وهو الذى
أنزل عليك - يا محمد - هذا الكتاب الكريم المعجز العظيم الشأن ، لتخرج
الناس من الظلمات إلى النور ، وقد اقتضت حكمة الله - تعالى - أن يجعل هذا
الكتاب { مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ } أى واضحات الدلالة ، محكمات
التراكيب ، جليات المعانى ، متقنات النظم والتعبير حاويات لكل ما يسعد
الناس فى معاشهم ومعادهم ، بينات لا التباس فيها ولا اشتابه .وقوله { هُنَّ
أُمُّ الكتاب } أى هذه الآيات المحكمات الواضحات الدلالة المانعات من
الوقوع فى الالتباس لانكشاف معانيها لكل ذى عقل سليم ، هن أصل الكتاب الذى
، يعول عليه فى معرفة الأحكام ، ويرجع إليه فى التمييز بين الحلال والحرام
} ويرد إليه ما تشابه من آياته ، وما استشكل من معانيها .والجار والمجرور
مِنْهُ } خبر مقدم ، و { آيَاتٌ } مبتدأ مؤخر ، و { مُّحْكَمَاتٌ } صفة
لآيات . وقوله { هُنَّ أُمُّ الكتاب } صفة ثانية للآيات .قال الجمل : وأخبر
بلفظ الواحد وهو { أُمُّ } عن الجمع وهو { هُنَّ } لأن الآيات كلها فى
تكاملها واجتماعها كالآية الواحدة ، وكلام الله واحد . أو أن كل واحدة منهن
أم الكتاب كما قال - تعالى - : { وَجَعَلْنَا ابن مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً
أى كل واحد منهما . أو لأنه مفرد واقع موقع الجمع " .وقوله { وَأُخَرُ {
مُتَشَابِهَاتٌ } أى ومنه آيات أخر متشابهات وذلك كالآيات التى تتحدث عن
صفات الله - تعالى - مثل : الاستواء ، واليد والغضب ، ونحو ذلك من الآيات
التى تحدثت عن صفاته - سبحانه - وكالآيات التى تتحدث عن وقت الساعة ، وعن
الروح وعن حقيقة الجن والملائكة وكالحروف المقطعة فى أوائل السور .قال
الشيخ الزرقانى ما ملخصه : ومنشأ التشابه إجمالا هو خفاء مراد الشارع من
كلامه . أما تفصيلا فنذكر أن منه ما يرجع خفاؤه إلى اللفظ من جهة غرابته
كلفظ الأب فى قوله تعالى : { وَفَاكِهَةً وَأَبّاً } أو من جهة اشتراكه بين
معان عدة كما فى قوله - تعالى - { فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً باليمين } أى
فأقبل إبراهيم على الأصنام يضربها بيمينه ، أو بقوة ، أو بسبب اليمين التى
حلفها . ومن هذا النوع فواتح السور المبدوءة بحروف التهجى لأن التشابه
والخفاء فى المراد منها جاء من ناحية ألفاظها .ومنه ما يرجع خفاؤه إلى
المعنى ، ومثاله كل ما جاء فى القرآن وصفا لله - تعالى - أو لأهوال القيامة
أو لنعيم الجنة . . فإن العقل البشرى لا يمكن أن يحيط بحقائق صفات الخالق ،
- ولا بأهوال يوم القيامة ، ولا بنعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار .ثم قال ،
رحمه الله - ويمكننا أن ننوع المتشابهات ثلاثة أنواع :النوع الأول : مالا
يستطيع البشر جميعا أن يصلوا إليه كالعلم بذات الله وحقائق صفاته ، وكالعلم
بوقت القيامة ونحوه مما استأثر الله بعلمه .النوع الثانى : ما يستطيع كل
إنسان أن يعرفه عن طريق البحث والدرس ، كالمتشابهات التى نشأ التشابه فيها
من جهة الإجمال والبسط والترتيب . والأمثلة على ذلك كثيرة ، فمثال التشابه
بسبب الإجمال قوله - تعالى :{ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي
اليتامى فانكحوا مَا طَابَ لَكُمْ مِّنَ النسآء } فإن خفاء المراد فيه جاء
من ناحية إيجازه . والأصل : { وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي
اليتامى } لو تزوجتموهن فانكحوا من غيرهن { مَا طَابَ لَكُمْ مِّنَ النسآء
النوع الثالث : ما يعلمه خواص العلماء دون عامتهم ولذلك أمثلة كثيرة من. {
المعانى العالية التى تفيض على قلوب أهل الصفاء والاجتهاد عند تدبرهم لكتاب
الله " .ثم بين - سبحانه - موقف الذي فى قلوبهم مرض وانحراف عن الحق من
متشابه القرآن فقال : { فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ
{ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابتغاء الفتنة وابتغاء تَأْوِيلِهِ
فالجملة الكريمة تفصيل لإجمال اقتضاه الكلام السابق .والزيغ - كما يقول
القرطبى - الميل ، ومنه زاغت الشمس ، وزاغت الأبصار ، ويقال : زاغ يزيغ
زيغا إذا ترك القصد ، ومنه قوله - تعالى - : { فَلَمَّا زاغوا أَزَاغَ
الله قُلُوبَهُمْ } وهذه الآية تعم كل طائفة من كافر وزنديق وجاهل وصاحب
: بدعة ، وإن كانت الإشارة بها فى ذلك الوقت إلى نصارى نجران .والابتغاء

. الاجتهاد فى الطلب . يقال : بغيت الشئ وابتغيته ، إذا طلبته بجد ونشاط
والفتنة : من الفتن : وأصل الفتن إدخال الذهب للنار لتظهر جودته من رداءته .والتأويل : يطلق بمعنى
والمراد بها هنا الإضلال وإثارة الشكوك حول الحق
، التفسير والتوضيح والبيان . ويطلق بمعنى حقيقة الشئ وما يؤول إليه أمره
مأخوذ من الأول وهو الرجوع إلى الأصل .يقال : آل الأمر إلى كذا يؤول أولاً
أى رجع . وأولته إليه : رجعته .المعنى : لقد اقتضت حكمتنا - يا محمد - أن
ننزل عليك القرآن مشتملا على آيات محكمات هن أم الكتاب ، وعلى أخر متشابهات
فأما الفاسقون الذين فى قلوبهم انحراف عن طلب الحق ، وميل عن المنهج .
القويم ، وانصراف عن القصد السوى فيتبعون ما تشابه منه ، أى : يتعلقون بذلك
وحده . ويعكفون على الخوض فيه . ولا تتجه عقولهم إلى المحكم ليردوا
، المتشابه إليه ، وإنما يلازمون الأخذ بالمتشابه كما يلازم التابع متبوعه
- لأنه يوافق اعوجاج نفوسهم وسوء نياتهم . وتحكم أهوائهم وشهواتهم .وقد بين
سبحانه - أن اتباع هؤلاء الزائغين للمتشابه إنما يقصدون من ورائه أمرين
أولهما : { ابتغاء الفتنة } أى طلبا لفتنة المؤمنين فى دينهم . وتشكيكهم:
فى عقيدتهم ، وإثارة الريب فى قلوبهم بأوهام يلقونها حول المتشابه الذى جاء
به القرآن ، بأن يقولوا - كما حكى القرآن عنهم -{ أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً
أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ } وبأن يقولوا : كيف يكون نعيم الجنة ، وما
حقيقة الروح ولماذا يعذبنا الله على أعمالنا مع أنه هو الخالق لكل شئ ، إلى
غير ذلك من الشبهات الزائفة التى يثيرها الذين فى قلوبهم زيغ طلبا لتشكيك
المؤمنين فى دينهم .وثانيهما : { وابتغاء تَأْوِيلِهِ } أى : ويتعلقون
بالمتشابه ويتبعونه طلبا لتأويل آيات القرآن تأويلا باطلا ، وتفسيرها
تفسيرا فاسداً بعيداً عن الحق زاعمين أن تفسيرهم هذا هو الحق بعينه ، لأنه
يتفق مع أهوائهم وشهواتهم وميولهم الأثيمة .وفى جعل قلوبهم مقراً للزيغ
مبالغة فى عدولهم عن سنن الرشاد وإصرارهم على الشر والفساد .وفى تعليل
الاتباع - كما يقول الآلوسى - " بابتغاء تأويله دون نفس تأويله وتجريد
- التأويل عن الوصف بالصحة أو الحقيقة . إيذان بأنهم ليسوا من أهل التأويل
فى عير ولا نفير ولا قبيل ولا دبير - وأن ما يبتغونه ليس بتأويل أصلا لا
أنه تأويل غير صحيح قد يعذر صاحبه " .وقد ذم النبى صلى الله عليه وسلم
هؤلاء الذين يتبعون ما تشابه من القرآن طلبا للفتنة والتأويل الباطل ، وحذر
منهم فى أحاديث كثيرة . ومن ذلك ما رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى
عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه
الآية : { هُوَ الذي أَنزَلَ عَلَيْكَ الكتاب مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ }
إلخ الآيات قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " فإذا رأيت الذين . .
يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم " .وقد استجاب
الصحابة - رضى الله عنهم - لوصايا الرسول صلى الله عليه وسلم فكانوا
يتباعدون عن الذين فى قلوبهم زيغ . ويزجرونهم ويشفون عن أباطيلهم .قال
القرطبى : " حدثنا إسماعيل بن إسحاق القاضى : قال : أنبأنا سليمان بن حرب
عن حماد بن زيد عن يزيد بن حازم ، عن سليمان بن يسار أن صَبِيغ بن عِسل قدم
المدينة فجعل يسأل عن متشابه القرآن وعن أشياء : فبلغ ذلك عمر - رضى الله
عنه - فبعث إليه عمر فأحضره وقد أعد له عراجين من عراجين النخل . فلما حضر
قال له عمر : من أنت؟ قال : أنا عبد الله صبيغ . فقال عمر - وانا عبد الله
عمر : ثم قام إليه فضرب رأسه بعرجون فشجه ، ثم تابع ضربه حتى سال دمه على
وجهه فقال حسبك يا أمير المؤمنين!! فقد والله ذهب ما كنت أجد فى رأسى " .ثم
بين - سبحانه - أن تأويل المتشابه مرده إلى الله - تعالى - وأن الراسخين فى
العلم يعلمون منه ما يوفقهم الله لمعرفته فقال ،{ وَمَا يَعْلَمُ
تَأْوِيلَهُ إِلاَّ الله والراسخون فِي العلم يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ
{ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألباب
وقوله - تعالى - { والراسخون فِي العلم } من الرسوخ وهو الثبات والتمكن.
وأصله فى الأجرام ، أن يرسخ الجبل والشجر فى الأرض ، واستعمل فى المعانى
ومنه رسخ الإيمان فى القلب . أى ثبت واستقر وتمكن .والألباب ، جمع لب
وهو - كما يقول الراغب - العقل الخالص من الشوائب وسمى بذلك لكونه خالص ما
، فى الإنسان من معانيه ، كاللباب واللب من الشئ وقيل هو ما زكا من العقل
فكل لب عقل وليس كل عقل لبا ، ولهذا علق الله - تعالى - الأحكام التى لا
يدركها إلا العقول الزكية بأولى الألباب " .قال الآلوسى : " وقوله { وَمَا
يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ الله والراسخون فِي العلم } فى موضع الحال من
- ضمير يتبعون باعتبار العلة الأخيرة . أى يتبعون المتشابه لابتغاء تأويله
تأويلا فاسداً - والحال أن التأويل المطابق للواقع - كما يشعر به التعبير
بالعلم والإضافة إلى الله - تعالى - مخصوص به - سبحانه - وبمن وفقه - عز
شأنه - من عباده الراسخين فى العلم . أى الذين ثبتوا وتمكنوا فيه ولم
يتزلزلوا فى مزال الأقدام ، ومداحض الأفهام ، دونهم حيث إنهم بمعزل عن تلك
الرتبة ، هذا ما يقتضيه الظاهر فى تفسير الراسخين " .وقوله . { يَقُولُونَ
آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا } جملة موضحة لحال الراسخين فى
العلم ، ومبينة لما هم عليهم من قوة الإيمان ، وصدق اليقين .أى يقول
الراسخون فى العلم عندما يقرءون ما تشابه من آيات القرآن آمنا به وصدقنا

وأذعنا فنحن لا نشك فى أن كلا من الآيات المتشابهة والآيات المحكمة من عند
الله وحده فهو الذى أنزلها على نبيه صلى الله عليه وسلم بمقتضى حكمته
ومشيئته .وقوله { وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألباب } ، معطوف على
جملة { يَقُولُونَ } وقد ختم به - سبحانه - هذه الآية على سبيل المدح
لهؤلاء الراسخين فى العلم .أي : وما يدرك هذه الحقائق الدينية ويعتبر بها
ويتذكر ما اشتمل عليه القرآن من أحكام وآداب وهدايات وتشريعات إلا أصحاب
، العقول السليمة ، والألباب المستنيرة التى لا تتأثر بالأهواء والشهوات
- ولا تركن إلى البدع الزائفة والأفكار الفاسدة .قال ابن كثير : " وقوله
تعالى - { وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ الله } اختلف القراء فى الوقف
هنا فقيل الوقف على لفظ الجلالة ، فقد ورد عن ابن عباس أنه قال : " التفسير
على أربعة انحاء فتفسير لا يعذر أحد فى فهمه ، وتفسير تعرفه العرب من
لغاتها ، وتفسير يعلمه الراسخون فى العلم ، وتفسير لا يعلمه إلا الله " .
وعن أبى مالك الأشعرى أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "لا
أخاف على أمتى إلا ثلاث خلال : أن يكثر لهم المال فيتحاسدوا فيقتتلوا ، وأن
يفتح لهم الكتاب فيأخذه المؤمن يبتغى تأويله { وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ
إِلاَّ الله والراسخون فِي العلم يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ } الآية وأن
يزداد علمهم فيضيعوه ولا يسألون عنه " .وحكى ابن جرير أن قراءة عبد الله بن
مسعود ، إن تأويله إلا عند الله ، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به .
واختار هذا القول ابن جرير - وهو مذهب الأكثرين من الصحابة والتابعين
وأتباعهم خصوصا أهل السنة .ومنهم من يقف على قوله { والراسخون فِي العلم }
وتبعهم كثير من المفسرين وأهل الأصول ، وقالوا الخطاب بما لا يفهم بعيد .
وقد روى عن ابن عباس أنه قال . أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله ، وروى
عن مجاهد أنه قال والراسخون فى العلم يعلمون تأويله ويقولون آمنا به .وفى
الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا لابن عباس فقال : " اللهم فقهه
فى الدين وعلمه التأويل " .والذى نراه أنه إذا فسر المتشابه بما استأثر
الله - تعالى - بعلمه كقيام الساعة وحقيقة الروح ، كان الوقف على لفظ
الجلالة وكانت الواو فى قوله { والراسخون } للاستئناف ، والراسخون مبتدأ
وجملة " يقولون " خبر عنه .أى والراسخون فى العلم يقولون آمنا به ويفوضون
علمه إليه - سبحانه - ولا يقتحمون أسواره ، كأهل الزيغ والضلال الذين أولوه
تأويلا فاسدا . . وإذا فسر المتشابه بما لا يتبين معناه إلا بعد نظر دقيق
بحيث يتناول المجمل ونحوه كان الوقف على لفظ العلم ، وكانت الواو فى قوله { }
والراسخون } للعطف .أى :لا يعلم تأويل المتشابه تأويلا حقا سليما إلا الله
والراسخون فى العلم أما أولئك الذين في قلوبهم زيغ فهم أبعد ما يكونون عن
ذلك .ويجوز الوقف على هذا الرأى أيضا على لفظ الجلالة ، لأنه لا يعلم تأويل
هذا المتشابه علما كاملا إلا الله . أولا يعلم كنهه وحقيقته أحد سواه .وإذا
فسر المتشابه بما قام الدليل القاطع على أن ظاهره غير مراد . مع عدم قيام
الدليل على تعيينه ، كمتشابه الصفات أو ما يسمى بآيات الصفات مثل قوله -
تعالى - { الرحمن عَلَى العرش استوى } جاز الوقف والعطف عند من يؤولون هذه
الصفات تأويلا يليق بذاته - تعالى - وهم جمهور علماء الخلف ووجب الوقف على
لفظ الجلالة عند من يفوض معاني هذه المتشابهات إلى الله - تعالى - مع
تنزيهه عن ظواهرها المستحيلة وهم جمهور علماء السلف وهذه المسألة من
المسائل التي أفاض القول فيها الباحثون في علم الكلام .هذا وقد ذكر العلماء
حكما متعددة لاشتمال القرآن على المحكم والمتشابه ، منها : الابتلاء
، والاختبار ، لأن الراسخون في العلم سيؤمنون به وإن لم يعرفوا تأويله
ويخضعون لسلطان الربوبية ، ويقرون بالعجز والقصور ، وفي ذلك غاية التربية
ونهاية المصلحة . وأما الذين في قلوبهم زيغ فيؤولونه تأويلا باطلا لإضلال
الناس وتشكيكهم في دينهم .ومنها : رحمة الله بهذا الإنسان الضعيف الذي لا
يطيق معرفة كل شيء . فقد أخفى - سبحانه - على الناس معرفة وقت قيام الساعة
لكيلا يتكاسلوا ويقعدوا عن الاستعداد لها ، ولكيلا يفتك بهم الخوف فيما لو
أدركوا بالتحديد قرب قيامها .ومنها - كما يقول الفخر الرازي : " أنه متى
كانت المتشابهات موجودة كان الوصول إلى الحق أصعب وأشق ، وزيادة المشقة
توجب مزيد الثواب ، ومنها : أن القرآن إذا كان مشتملا على المحكم والمتشابه
افتقر الناظر فيه إلى الاستعانة بدليل العقل ، وحينئذ يتخلص من ظلمة
التقليد ، ويصل إلى ضياء الاستدلال والبينة ، أما لو كان كله محكما لم
يفتقر إلى التمسك بالدلائل العقلية ، فحينئذ يبقى في الجهل والتقليد .
ومنها أن اشتماله على المحكم والمتشابه يحمل الإنسان على تعلم علوم كثيرة
كعلم اللغة والنحو وأصول الفقه وغير ذلك من أنواع العلوم ، ومنها : أن
القرآن كتاب مشتمل على دعوة الخواص والعوام ، وطبائع العوام تنبو في أكثر
الأمر عن إدراك الحقائق ، فمن سمع من العوام في أول الأمر إثبات موجود ليس
بجسم ولا بمتحيز ولا مشار إليه ، ظن أن هذا عدم ونفى فوقع في العطيل ، فكان
الأصلح أن يخاطبوا بألفاظ دالة على بعض ما يناسب ما يتوهمونه ويتخيلونه ،
وبذلك يكون مخلوطا بما يدل على الحق الصريح . فالقسم الأول وهو الذي
يخاطبون به في أول الأمر يكون من المتشابهات ، والقسم الثاني وهو الذي يكشف
لهم في آخر الأمر هو المحكمات " .ومنها - كما يقول الجمل نقلا عن الخازن :

فإن قيل القرآن نزل لإرشاد الناس فهلا كان كله محكما؟ فالجواب أنه نزل " بألفاظ العرب وعلى أسلوبهم . وكلامهم على ضربين : الموجز الذي لا يخفى على سامع هذا هو الضرب الأول ، والثاني المجاز والكنايات والإرشادات والتلويحات : وهذا هو المستحسن عندهم ، فأنزل القرآن على ضربين ليتحقق عجزهم فكأنه قال عارضوه بأي الضربين شئتم ، ولو نزل كله محكما لقالوا : هلا نزل بالضرب المستحسن عندنا " .قال بعض العلماء : والذي يستخلص من مصادر الشريعة ومواردها ، أن الآيات المتشابهة لا يمكن أن يكون موضوعها حكما تكليفيا من الأحكام التي كلف عامة المسلمين أن يقوموا بها ، وأنه لا يمكن أن تكون آية من آيات الأحكام التكليفية قد انتقل النبي صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى دون أن يبينها ، ولا تشابه فيها بعد أن بينتها السنة النبوية ، لأن الله - تعالى - يقول : { وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذكر لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ } ولا شك من أول بيان ما نزل إليهم بيان الأحكام التكليفية .لذلك نقول جازمين : إنه ليس في آيات الأحكام آية ، متشابهة ، وإن اشتبه فهمها على بعض العقول ، لأنه لم يطلع على موضوعها فليس ذلك لأنها متشابهة في ذاتها ، بل لاشتباه عند من لا يعلم ، واشتباه من لا يعلم لا يجعل آية في القرآن متشابهة . "

ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك انت الوهاب

كما فسرها الوسيط وبعد أن بين - سبحانه - موقف الناس من محكم القرآن ومتاشبهه ، شرع في بيان ما يتضرع به المؤمنون الصادقون الذين يؤمنون بكل ما أنزله الله - تعالى - فقال : { رَبّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا . . . } اشتملت هاتان الآيتان على دعوات طيبات . ويرى بعض العلماء أن هذه الدعوات. من مقول الراسخين في العلم ، فهم يقولون : { آمَنّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا } ويقولون أيضا { رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا } ويرى بعضهم أن هذا الكلام جديد ، وهو تعليم من الله - تعالى - لعباده ليكثروا من - التضرع إليه بهذه الدعوات وأمثالها .والزيغ - كما أشرنا في الآية السابقة الميل عن الاستقامة ، والانحراف عن الحق ، يقال : زاغ يزيغ أي مال ومنه زاغت الشمس إذا مالت .والمعنى : نسألك يا ربنا ونضرع إليك ألا تميل قلوبنا عن الهدى بعد إذ ثبتنا عليه ومكنتنا منه . وأن تباعد بيننا وبين الزيغ الذي لا يرضيك . وبين الضلال الذي يفسد القلوب ، ويعمى البصائر . { وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنْكَ رَحْمَةً } أي وامنحنا من عندك ومن جهتك إنعاما وإحسانا تشرح ، بهما صدورنا . وتصلح بهما أحوالنا { إِنّكَ أَنْتَ الوهاب }لا غيرك فأنت مالك الملك وأنت القائل { مّا يَفْتَحِ الله لِلنّاسِ مِن رّحْمَةٍ { فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ فأنت ترى أن هذه الآية الكريمة قد تضمنت سؤال المؤمنين ربهم تثبيت الإيمان في قلوبهم ومنحهم المزيد من فضله وإنعامه وإحسانه .قال الفخر الرازي - ما ملخصه - : وقال - سبحانه - { رَحْمَةً } ليكون ذلك شاملا لجميع أنواعها التي تتناول حصول نور الإيمان والتوحيد والمعرفة في القلب ، وحصول الطاعة في الأعضاء والجوارح ، وحصول سهولة المعيشة والأمن والصحة والكفاية في ، الدينا وحصول سهولة سكرات الموت عند حضوره ، وحصول سهولة السؤال في القبر وغفران السيئات والفوز بالجنات في الآخرة . وقوله { لّدُنْكَ } يتناول كل هذه الأقسام . لأنه لما ثبت بالبراهين الباهرة أنه لا رحيم إلا هو أكد ذلك بقوله " من لدنك " تنبيها للعقل والقلب والروح على أن هذا المقصود لا يحصل : إلا منه - سبحانه - ثم قال : { إِنّكَ أَنْتَ الوهاب } كأن العبد يقول إليه هذا الذى طلبته منك في هذا الدعاء عظيم بالنسبة إلى ، حقير بالنسبة إلى كمال كرمك ، فأنت الوهاب الذى من هبتك حصلت حقائق الأشياء وذواتها وماهياتها ووجوداتها ، فكل ما سواك فمن جودك وإحسانك فلا تخيب رجاء هذا المسكين ، ولا ترد دعاءه واجعله أهلا لرحمتك " .هذا ، وقد ساق الإمام ابن كثير وغيره بعض الأحاديث النبوية عند تفسيرهم لهذه الآية ومن ذلك ما أخرجه أبو داود والنسائي وابن مردويه عن عائشة - رضي الله عنها - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا استيقظ من الليل قال "لا إله إلى أنت سبحانك أستغفرك لذنبي وأسألك رحمتك . اللهم زدني علما ، ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني ، وهب لى من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب " .وروى الترمذي عن شهر بن حوشب قال : " قلت لأم سلمة : يا أم المؤمنين ، ما كان أكثر دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كان عندك؟ قالت : كان أكثر دعائه " يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك " فقلت : يا رسول الله ، ما أكثر دعاءك يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك؟ قال : " يا أم سلمة إنه ليس آدمي إلا وقلبه بين إصبعين من أصابع الله فمن شاء أقام ومن شاء أزاغ " فتلا معاذ - أحد رجال سند هذا الحديث - { رَبّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا } .وعن أنس - رضي الله عنه - قال : " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرا ما يقول : " يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك ، قلنا : يا رسول الله قد آمنا بك ، وصدقنا بما جئت به ، أفيخاف علينا؟ قال : نعم ، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله يقلبها تبارك -وتعالى- " .

ربنا انك جامع الناس ليوم لا ريب فيه ان الله لا يخلف الميعاد

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - ضراعة أخرى تضرع بها المؤمنون إلى خالقهم فقال : { رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ } .أي : يا ربنا إنك جامع الناس : محسنهم ومسيئهم ، مؤمنهم وكافرهم ليوم لا شك في وقوعه وحصوله وهو يوم الحساب والجزاء ، لتجازى الذين أساءوا بما عملوا وتجازى الذين أحسنوا بالحسنى . فأنت - سبحانك - لم تخلق الخلق عبثا ، ولن تتركهم سدى ، وإنما خلقتهم لرسالة عظمى هي عبادتك وطاعتك . فمن استجاب لك تفضلت عليه بالثواب العظيم ، ومن أعرض عن طاعتك عاقبته بما يستحقه .وقوله { إِنَّ الله لاَ يُخْلِفُ الميعاد } تعليل لمضمون الجملة المؤكدة أو لانتفاء الريب في وقوع يوم القيامة وما فيه من ثواب وعقاب .أي : إنك يا مولانا لا تخلف ما أخبرت به عبادك من أن هناك يوما لا شك في وقوعه ، تجازى فيه الناس على أعمالهم بمقتضى إرادتك ومشيئتك .وفي هذه الآية الكريمة إشعار بأن نهاية أمل المؤمنين أن يظفروا بالجزاء الحسن من خالقهم يوم القيامة ، لأنهم بعد أن سألوه تثبيت الإيمان وسعة الرحمة ، توجوا إليه بالمقصود الأعظم وهو حسن الثواب يوم القيامة . فكأنهم قالوا - كما يقول الرازي - : ليس الغرض من تلك الدعوات ما يتعلق بمصالح الدنيا فإنها فانية؛ وإنما الغرض الأعظم منه ما يتعلق بالآخرة فإنا نعلم أنك يا إلهنا جامع الناس للجزاء في يوم القيامة ، ونعلم أن وعدك لا يكون خلفا ، وكلامك لا يكون كذبا فمن زاغ قلبه بقى هناك في العذاب أبد الآباد ، ومن أعطيته التوفيق والهداية والرحمة وجعلته من المؤمنين ، بقى هناك في السعادة والكرامة أبد الآبدين فالغرض الأعظم من ذلك الدعاء ما يتعلق بالآخرة " وبذلك نرى أن هاتين الآيتين الكريمتين قد اشتملتا على دعوات كريمات بليغات. من شأنها أن تسعد الناس في دينهم ودنياهم . والله نسأل أن ينفعنا بها إنه ، مجيب الدعاء ، وأرحم الراحمين .وبعد هذا الدعاء الجامع الحكيم الذي حكاه الله - تعالى - عن عباده المؤمنين عقب ذلك بالحديث عن الكافرين ، وعن أسباب كفرهم وغرورهم ، وعن سوء عاقبتهم فقال تعالى : { إِنَّ الذين كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ . . . . } .

ان الذين كفروا لن تغني عنهم اموالهم ولا اولادهم من الله شيئا واولئك هم وقود النار

كما فسرها الوسيط الوقود - بفتح الواو - هو ما توقد به النار كالحطب وغيره وأصله من وقدت النار تقد إذا اشتعلت . والوقود - بضم الواو - المصدر عند أكثر اللغوين .والمعنى : إن الذين كفروا بالحق لما جاءهم ، وعموا وصموا عن الاستجابة له ، لن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم يوم القيامة ، ولن تدفع عنهم شيئا من عذاب الله الذي استحقوه بسبب كفرهم ، واغترارهم بكثرة المال ، وعزة النفر ، وقوة العصبية وقد أكد - سبحانه - هذا الحكم ردا على مزاعمهم الباطلة من أن ذلك سينفعهم فقد حكى القرآن عنهم أنهم قالوا : { نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ } فبين - سبحانه - أنه بسبب كفرهم الذى أصروا عليه ، لن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم أي نفع من وقوع عذاب الله عليهم .ومن في قوله { مِّنَ الله } لابتداء الغاية و { شَيْئاً } منصوب على المصدرية . أي شيئا من الاغناء . أو النفع لأن الذى ينفع الناس يوم القيامة إنما هو إيمانهم وعملهم الصالح ، والإشارة في قوله { وأولئك هُمْ وَقُودُ النار } لأولئك الكافرين الذين. غرهم بالله الغرور . أي : وأولئك الكافرون الذين اغتروا بأموالهم وأولادهم ولم يعيروا أسماعهم أي التفات إلى الحق هم وقود النار أي حطبها . أي أن النار يشتد اشتعالها فيهم حتى لكأنهم هم مادتها التي بها تتقد وتشتعل .وجىء بالإشارة في قوله { وأولئك } لاستحضارهم في الأذهان حتى لكأنهم بحيث يشار إليهم ، وللتنبيه على أنهم أحرياء بما سيأتي من الخبر وهو قوله { هُمْ وَقُودُ النار } . وكانت الاشارة للبعيد ، للإشعار بغلوهم في الكفر وانغماسهم فيه إلى منتهاه ، ولذلك كانت العقوبة شديدة .وقوله { وأولئك } مبتدأ ، وهم ضمير فصل والخبر قوله : { وَقُودُ النار } والجملة مستأنفة مقررة لعدم الإغناء . وفي هذا التذييل تهديد شديد للكفار الذين اغتروا بأموالهم وأولادهم ببيان أن ما اغتروا به لن يحول بينهم وبين الخلود في النار .قال الفخر الرازي ما ملخصه : اعلم أن كمال العذاب هو أن يزول عن الإنسان كل ما كان منتفعا به . ثم يجتمع عليه جميع الأسباب المؤلمة .أما الأول فهو المراد بقوله { لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ الله شَيْئاً } وذلك لأن المرء عند الخطوب والنوائب في الدنيا يفزع إلى المال والولد . فبين الله - تعالى - أن صفة ذلك اليوم مخالفة لصفة الدنيا . ونظير هذه الآية قوله - تعالى - { يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ إِلاَّ مَنْ أَتَى الله بِقَلْبٍ سَلِيمٍ } وأما القسم الثاني من أسباب العذاب فهو أن يجتمع عليه الأسباب المؤلمة ، وإليه الإشارة

بقوله : { وأولئك هُمْ وَقُودُ النار } وهذا هو النهاية في العذاب ، فإنه لا عذاب أزيد من أن تشتعل النار فيهم كاشتعالها في الحطب اليابس .

كداب ال فرعون والذين من قبلهم كذبوا باياتنا فاخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن حال الكافرين بالحق الذي جاءهم به النبي صلى الله عليه وسلم كحال الذين سبقوهم في الجحود والعناد فقال - تعالى - : { كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ والذين مِن قَبْلِهِمْ } . الدأب : أصله الدوام والاستمرار . يقال : دأب على كذا يداب دأباً ودأباً ودءوباً ، إذا داوم عليه وجد فيه وتعب . ثم غلب استعماله في الحال والشان والعادة لأن من يستمر في عمل أمدا طويلا يصير عادة من عاداته ، وحالا من أحواله فهو من باب إطلاق الملزوم وإرادة اللازم .وآل فرعون : هم أعوانه ونصراؤه وأشياعه الذين استحبوا العمى على الهدى واستمروا على النفاق والضلال حتى صار ديدنا لهم .قال الراغب : " والآل مقلوب عن الأهل . ويصغر على أهيل إلا أنه خص بالإضافة إلى أعلام الناطقين دون النكرات ودون الأزمنة والأمكنة . يقال آل فلان ولا يقال آل رجل . . . ولا يقال آل الخياط بل يضاف إلى الأشرف والأفضل ، فيقال آل الله وآل السلطان ، والأهل يضاف إلى الكل فيقال أهل الله وأهل الخياط كما يقال أهل زمن كذا " .والمعنى : حال هؤلاء الكافرين الذين كرهوا الحق الذي جئت به - يا محمد - ولم يؤمنوا بك حالهم في استحقاق العذاب ، كحال آل فرعون والذين من قبلهم من أهل الزيغ والضلال ، كفروا بآيات الله ، وكذبوا بما جاءت به من هدايات فكانت نتيجة ذلك أن أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر حيث أهلكهم بسبب ما ارتكبوه من ذنوب ، والله - تعالى - شديد العقاب لمن كفر بآياته .والجار والمجرور بقوله { كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ } في موضع رفع خبر لمبتدأ محذوف . أى شأن هؤلاء في تكذيبك يا محمد كشأن آل فرعون والذين من قبلهم في تكذيبهم لأنبيائهم .والمقصود بآل فرعون أعوانه ، وبطانته ، لأن الآل يطلق على أشد الناس التصاقا واختصاصا بالمضاف إليه والاختصاص هنا في المتابعة ، والتواطؤ على الكفر ، لأنه إذا وجد العناد في التابع فهو في الغالب يكون في المتبوع أشد وأكبر . ولأنهم هم الذين حرضوه على الشرور والآثام والطغيان فلقد حكى القرآن عنهم ذلك في قوله - تعالى - : { وَقَالَ الملأ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ موسى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأرض وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ } وخص القرآن آل فرعون بالذكر من بين الذين سبقوهم في الكفر ، لأن فرعون كان اشد الطغاة طغيانا ، وأكبرهم غرورا وبطرا وأكثرهم استهانة بقومه ، واحتقارا لعقولهم وكيانهم ، ألم يقل لهم - كما حكى القرآن - { أَنَاْ رَبُّكُمُ الأعلى } ألم يبلغ به غروره أن يقول لهم : { أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ } : وهذه الأنهار تَجْرِي مِن تحتي أَفَلاَ تُبْصِرُونَ } ألم يقل لوزيره ياهامان ابن لِي صَرْحاً لعلي أَبْلُغُ الأسباب أَسْبَابَ السماوات فَأَطَّلِعَ إلى إله موسى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِباً . . . }ولقد وصف الله - تعالى - قوم فرعون بهوان الشخصية ، وتفاهة العقل ، والخروج عن كل مكرمة فقال : { فاستخف قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فَاسِقِينَ } لأن الأمة التي تترك الظالم وبطانته يعيثون في الأرض فسادا لا تستحق الحياة ، ولا يكون مصيرها إلا إلى التعاسة والخسران .وجملة { كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا } تفسير لصنيعهم الباطل ، ودأبهم على الفساد والضلال والمراد بالآيات ما يعم المتلوة في كتب الله - تعالى - والبراهين . والمعجزات الدالة على صدق الأنبياء فيما يبلغونه عن ربهم .وفي إضافتها إلى الله - تعالى - تعظيم لها وتنبيه على قوة دلالتها على الحق والخير وقوله { فَأَخَذَهُمُ الله بِذُنُوبِهِمْ } بيان لما أصابهم بسبب كفرهم وتكذيبهم للحق ، وفي التعبير بالأخذ إشارة إلى شدة العقوبة ، فهو - سبحانه - قد أخذهم كما يؤخذ الأسير الذى لا يستطيع فكاكا من آسره .والباء للسببية أى أخذهم بسبب ما اجترحوه من ذنوب . أو الملابسة والمصاحبة . أى أخذهم وهم متلبسون بذنوبهم دون أن يتوبوا منها أو يقعلوا عنها ، والجمل على الوجهين تدل على كمال عدل الله - تعالى - لأنه ما عاقبهم إلا لأنهم استحقوا ذلك وأصل الذنب : الأخذ بذنب الشيء ، أي بمؤخرته ثم أطلق على الجريمة لأن مرتكبها يعاقب بعدها .

قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم وبئس المهاد

كما فسرها الوسيط وفي قوله : { والله شَدِيدُ العقاب } إشارة إلى أن شدة العقاب سببها شدة الجريمة وتعليم للناس بأن كل فعل له جزاؤه ، إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، وتقرير وتأكيد لمضمون ما قبلها . ثم أنذر الله - تعالى - الكافرين بسوء المصير ، وبشر المؤمنين بحسن العاقبة فقال - تعالى - : { قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إلى جَهَنَّمَ

. وَبِئْسَ المهاد } .وقد وردت روايات في سبب نزول هذه الآية والتي بعدها
من أشهرها : ما ذكره إبن إسحاق عن عاصم بن عمرو بن قتادة " أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم لما أصاب من قريش ما أصاب في غزوة بدر ورجع إلى المدينة
جمع اليهود في سوق بني قينقاع وقال : " يا معشر اليهود احذروا من الله مثل
ما نزل بقريش يوم بدر قبل أن ينزل بكم ما نزل بهم ، فقد عرفتم أني نبي مرسل
تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم " فقالوا يا محمد ، لا يغرنك أنك قتلت
نفرا من قريش كانوا أغمارا لا علم لهم بالحرب فأصبت فيهم فرصة . إنك والله
لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس . فأنزل الله - تعالى - { قُلْ لِّلَّذِينَ
كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ } إلى قوله - تعالى - { لَعِبْرَةً لأُوْلِي
الأبصار } " والمعنى : قل يا محمد لهؤلاء اليهود وأمثالهم من المشركين
الذين يدلون بقوتهم ، ويغترون بأموالهم وأولادهم وعصبيتهم . . قل لهم
ستغلبون وتهزمون في الدنيا على أيدى المؤمنين وتحشرون يوم القيامة ثم
تساقون إلى نار جهنم لتلقوا فيها مصيركم المؤلم ، { وَبِئْسَ المهاد } أي
: بئس المكان الذى هيأوه لأنفسهم في الآخرة بسبب سوء فعلهم .والمهاد
المكانل الممهد الذى ينام عليه كالفراش .ولقد أمر الله - تعالى - نبيه صلى
الله عليه وسلم أن يتولى الرد عليهم . وأن يواجههم بهذا الخطاب المشتمل على
التهديد والوعيد ، لأنهم كانوا يتفاخرون عليه بأموالهم وبقوتهم ، فكان من
المناسب أن يتولى صلى الله عليه وسلم الرد عليهم ، وأن يخبرهم بأن النصر
سيكون له ولأصحابه ، وأن الدائرة ستدور عليهم .وقوله { سَتُغْلَبُونَ }
إخبار عن أمر يحصل في المستقبل ، وقد وقع كما أخبر به الله - تعالى - فقد
دارت الدائرة على اليهود من بني قيقناع والنضير وقريظة وغيرهم ، بعد بضع
} سنوات من الهجرة ، وتم فتح مكة في السنة الثامنة بعد الهجرة .وقوله
، وَبِئْسَ المهاد } إما من تمام ما قال لهم ، أو استئناف لتهويل شأن جهنم
. وتفظيع حال أهلها

قد كان لكم اية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله واخرى كافرة يرونهم
مثليهم راي العين والله يؤيد بنصره من يشاء ان في ذلك لعبرة لاولي الابصار

- كما فسرها الوسيط ثم ساق القرآن مثلا مشاهداً يدل على نصر الله - تعالى
لأوليائه وخذلانه لأعدائه ، فقال : { قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي
فِئَتَيْنِ التقتا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ الله وأخرى كَافِرَةٌ
يَرَوْنَهُمْ مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ العين } .والمراد بالآية هنا العلامة
- والبرهان والشاهد على صدق الشىء المخبر عنه .والفئة - كما يقول القرطبي
الجماعة من الناس ، وسميت الجماعة من الناس فئة لأنها يفاء إليها ، أي يرجع
إليها في وقت الشدة ، ولا خلاف في أن الإشارة بهاتين الفئتين هي إلى يوم
بدر . ثم قال : ويحتمل أن يكون المخاطب بهذه الآية جميع المؤمنين ، ويحتمل
أن يخاطب بها جميع الكفار ، ويحتمل أن يخاطب بها يهود المدينة ، وبكل
، احتمال منها قد قال قوم . وفائدة الخطاب للمؤمنين تثبيت النفوس وتشجيعها
حتى يقدموا على مثليهم وأمثالهم كما قد وقع .والمعنى : قد كان لكم أيها
الناس علامة عظيمة ، ودلالة واضحة على أن الكافرين سيغلبون والمؤمنين
سينصرون بما جرى في غزوة بدر ، فقد رأيتم كيف أن الله - تعالى - قد نصر
المؤمنين مع قلة عددهم ، وهزم الكافرين مع كثرة عددهم وعددعم . ولقد كان
المؤمنون يرون أعداءهم أكثر منهم عددا وعدة ومع ذلك لم يهابوهم ولم يجبنوا
عن لقائهم ، بل أقدموا على قتالهم بإيمان وشجاعة فرزقهم الله النصر على
أعدائهم .ووصف - سبحانه - الفئة المؤمنة بأنها تقاتل في سبيل الله ، على
سبيل المدح لها ، والإعلاء من شأنها ، وبيان الغاية السامية التي من أجلها
قاتلت ، ومن أجلها تم لها النصر فهي لم تقاتل لأجل عرض من أعراض الدنيا
وإنما قاتلت لإعلاء كلمة الله ونصرة الحق .ووصف الفئة الأخرى بأنها كافرة؛
لأنها لم تؤمن بالحق ، ولم تتبع الطريق المستقيم ، بل كفرت بكل ما يصلحها
في دينها ودنياها .ولم يصفها بالقتال كما وصف الفئة المؤمنة . إسقاطا لقتال
تلك الفئة الكافرة عن درجة الاعتبار ، وإيذانا بأن الرعب الذي ألقاه الله
في قلوبهم عند لقائهم للمؤمنين ، جعلهم بأنهم ليسوا أهلا لأن يوصفوا
بالقتال .هذا وللعلماء أقوال في المراد من قوله - تعالى - { يَرَوْنَهُمْ
: مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ العين } وقد أشار صاحب الكشاف إلى هذه الأقوال فقال
أي : يرى المشركون المسلمين مثلى عدد { يَرَوْنَهُمْ مِّثْلَيْهِمْ }
المشركين أي قريبا من ألفين ، أو مثلى عدد المسلمين أي ستمائة ونيفا وعشرين
أراهم الله إياهم مع قلتهم أضعافهم ليهابوهم ويجبنوا عن قتالهم . وكان .
" ذلك مددا لهم من الله كما أمدهم بالملائكة . والدليل عليه قراءة نافع
ترونهم " بالتاء ، أي ترون يا مشركي قريش المسلمين مثلى فئتكم الكافرة ، أو
مثلى أنفسهم . فإن قلت فهذا مناقض لقوله في سورة الأنفال { وَيُقَلِّلُكُمْ
في أَعْيُنِهِمْ } قلت : قللوا أولا في أعينهم حتى اجترؤا عليهم : فلما
لاقوهم كثروا في أعينهم حتى غلبوا ، فكان التقليل والتكثير في حالين
مختلفين . . . وتقليلهم تارة وتكثيرهم تارة أخرى في أعينهم أبلغ في القدرة
وإظهار الآية . وقيل : يرى المسلمون المشركين مثلى المسلمين على ما قرر

عليه أمرهم من مقاومة الواحد الاثيني في قوله { فَإِن يَكُنْ مِّنكُمْ مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ } بعدما كلفوا أن يقاوم الواحد العشرة في قوله - تعالى - { إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ } والذى نراه أن الرأى الذى عبر عنه صاحب الكشاف بقوله : وقيل : يرى المسلمون المشركين مثل المسلمين . . . إلخ هذا الرأى هو أقرب الأقوال إلى الصواب؛ لأن المسلمين في غزوة بدر كانوا أقل عددا وعدة من المشركين ، ولأن التعبير بقوله - تعالى - { رَأْيَ العين } يفيد أن رؤية هذه الكثرة من المشركين كانت رؤية بصرية بالمشاهدة ، وليست بالتقدير أو التخيل ، وهذا يتحقق في رؤية المؤمنين للمشركين :فإن قيل : إن المشركين في بدر كانوا ثلاثة أمثال المؤمنين تقريبا - كما حكى لنا التاريخ - ولم يكونوا مثليهم أي ضعفهم؟فالجواب على ذلك أن هذا التقدير للمشركين من جانب المؤمنين كان تقديراً تقريبيا وليس تقديرا عدديا ، فثلاثة الأمثال قد ترى رأى العين مثلين أو نقول : إن المراد بكلمة مثلين مجرد التكرار وليس المراد بها التثنية على الحقيقة ، كما في قوله - تعالى - { فارجع البصر هَلْ ترى مِن فُطُورٍ ثُمَّ ارجِعِ البَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ البَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ } فالمراد تكرار النظر مرة ومرات وليس المراد التحديد بكرتين .وقد رجح ابن جرير الطبرى هذا الرأى ، فقد قال بعد سرده لجملة من أقوال العلماء : وأولى هذه القراءات بالصواب : قراءة من قرأ { يَرَوْنَهُمْ } بمعنى : وأخرى كافرة يراهم المسلمون مثليهم ، يعني : مثلى عدد المسلمين ، لتقليل الله إياهم في أعينهم في حال . فكان حزرهم إياهم كذلك . . ثم قال : وأما قوله : { رَأْيَ العين } فإنه مصدر رأيته يقال رأيته رأياً ورؤية ، ويقال هو منى رأى العين ، ورأى العين - بالنصب والرفع - يراد حيث يقع عليه بصرى .. فمعنى ذلك : يرونهم حيث تلحقهم أبصارهم . . وتراهم عيونهم مثليهم " .وقوله - تعالى - { قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ } إلخ من تمام القول المأمور به جىء به لتقرير وتحقيق ما قبله . و { كَانَ } هنا ناقصة ، و { آيَةٌ } اسمها ، وترك التأنيث في - كان - لوجود الفاصل بينها وبين اسمها ، ولأن المرفوع بها وهو اسمها مجازى التأنيث أو باعتبار أن الآية برهان ودليل . وقوله { لَكُمْ } خبر كان . وقوله { فِئَةٌ } خبر لمبتدأ محذوف أى . إحداهما فئة تقاتل في سبيل الله . وقوله { وأخرى } نعت لمقدر أى وفئة أخرى كافرة . والجملة مستأنفة لتقرير " ما في الفئتين من الآية " ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله { والله يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِي ذلك لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبصار } .أى : والله - تعالى - يؤيد بنصره من يشاء نصره وفوزه ، فهو القادر على أن يجعل الفئة القليلة تغلب الفئة الكثيرة ، لاراد لمشيئته ولا معقب لحكمه وإن الذين يغترون بقوتهم وحدها ، ويغترون بما بين أيديهم من أموال وعتاد ورجال ولا يعملون حسابا للقدر ، الذي يجريه الله على حسب مشيئته وإرادته هؤلاء ، الذين غرهم بالله الغرور ، تداهمهم الهزيمة من حيث لا يحتسبون ، وقد يفجؤهم الخسران والخذلان من الطريق الذى توهموا فيه الكسب والانتصار .لذا أمر الله - تعالى - عباده بالاعتبار والاتعاظ فقال : { إِنَّ فِي ذلك لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأبصار } واسم الإشارة ذلك يعود إلى المذكور الذى رأوه وشاهدوه وهو أن الفئة القليلة المؤمنة غلبت الفئة الكثيرة الكافرة والعبرة - الاعتبار والاتعاظ وأصله من العبو وهو النفور من أحد الجانبين. إلى الآخر ، وسمى الاتعاظ عبرة ، لأن المعتبر المتعظ يعبر عن الجهل إلى العلم ، ومن الهلاك إلى النجاة .أى : إن في ذلك الذي شاهده الناس وعاينوه من انتصار الفئة القليلة التي تقاتل في سبيل الله ، على الفئة الكثيرة التي تقاتل في سبيل الطاغوت ، لعبرة عظيمة ، ودلالة واضحة ، لأصحاب المدارك السليمة والعقول الواعية التي تفهم الأمور على حقيقتها ، وتؤمن بأن الله - تعالى - قادر على كل شيء ، أما أصحاب القلوب المطموسة والنفوس المغرورة بقوتها . فهي عن الاعتبار والاتعاظ بمعزل .قال الفخر الرازي ما ملخصه : واعلم أن العلماء ذكروا في تفسير كون تلك الواقعة آية بينة وعبرة واضحة وجوها : منها أن المسلمين كان قد اجتمع فيهم من أسباب الضعف عن المقاومة أمور منها قلة العدد ، وأنهم خرجوا غير قاصدين للحرب فلم يتأهبوا ، ومنه قلة السلاح ، ومنها أنها كانت ابتداء غارة في الحرب لأنها أول غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم وكان قد حصل للمشركين أضداد هذه المعاني من الكثرة والتأهب وغير ذلك ومع هذا فقد انتصر المؤمنون ، ولما كان ذلك خارجا عن العادة كان معجزا " .وبذلك تكون الآيات الكريمة قد أنذرت الكافرين بسوء العاقبة إذا ما استمروا على كفرهم ، وساقت لهم ما يؤيد ذلك من واقع ما شاهدوه ، وبشرت المؤمنين بنصر الله لهم ، وحثتهم على الاتعاظ والاعتبار ، لأن من شأن المعتبرين أن يكونوا مراقبين لله - تعالى - ومنفذين لأوامره ومبتعدين عن نواهيه ، ومن كان كذلك كان الله معه بنصره وتأييده .

زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن الماب

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أهم الشهوات التي يؤدى الانهماك في
طلبها إلى الانحراف في التفكير ، وإلى عدم التبصر والاعتبار ، ودعا الناس
} : إلى التزود من العمل الصالح الذي يفضى بهم إلى رضاه - سبحانه - فقال
زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ . . . } .فأنت ترى في هذه الآيات الكريما بيانا
حكيما من الله - تعالى - لأهم متع الحياة الدنيا وشهواتها ، ولما هو خير من
هذه المتع والشهوات ، مما أعده الله لعباده المتقين من جنات وخيرات .وقوله
من التزيين وهو تصيير الشيء زينا أى حسنا . والزينة هى ما فى { زُيِّنَ }
الشيء من المحاسن التي ترغب الناظرين في اقتنائه .قال الراغب : " والزينة
بالقول المجمل ثلاث : زينة نفسية كالعلم والاعتقادات الحسنة ، وزينة بدنية
كالقوة وطول القامة ، وزينة خارجية كالمال والجاه . . وقد نسب الله التزيين
في مواضع إلى نفسه كما في قوله - تعالى - { ولكن الله حَبَّبَ إِلَيْكُمُ
الإيمان وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ } ونسبه في مواضع إلى الشيطان كما في
قوله { وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشيطان أَعْمَالَهُمْ } وذكره في مواضع غير
مسمى فاعله كما في قوله - تعالى - { زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشهوات }
والشهوات جمع شهوة ، وهي ثوران النفس وميلها نحو الشيء المشتهى . والمراد.
بها هنا الأشياء المشتهاة من النساء والبنين . . . إلخ . وعبر عنها
بالشهوات للإشارة - كما يقول الآلوسي - إلى ما ركز في الطباع من محبتها
: والحرص عليها حتى لكأنهم يشتهون اشتهاءها كما قيل لمريض : ما تشتهي؟ فقال
أشتهي أن أشتهى . أو تنبيها على خستها : لأن الشهوات خسيسة عند الحكماء
والعقلاء ففي ذلك تنفير عنها وترغيب فيما عند الله ، ثم قال : والتزيين
- للشهوات يطلق ويراد به خلق حبها في القلوب ، وهو بهذا المعنى مضاف إليه
تعالى - حقيقة؛ لأنه لا خالق إلا هو . ويطلق ويراد به الحض على تعاطي
الشهوات المحظورة فتزيينها بالمعنى الثاني مضاف إلى الشيطان تنزيلا لوسوسته
وتحسينه منزلة الأمر بها والحض على تعاطيها " .ثم بين - سبحانه - أهم
، المشتهيات التي يحبها الناس ، وتهفوا إليها قلوبهم ، وترغب فيها نفوسهم
فأجملها في أمور ستة .أما أولها : فقد عبر عنه القرآن بقوله : " من النساء
، ولا شك أن المحبة بين الرجال والنساء شيء فطري في الطبيعة الإنسانية
ويكفي أن الله - تعالى - قد قال في العلاقة بين الرجل والمرأة { هُنَّ
لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ } وقال تعالى - في آية ثانية
وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لتسكنوا }
إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً } وإن بعض الرجال قد
يستهين بكل شيء في سبيل الوصول إلى المرأة التي يهواها ويشتهيها والأمثال
على ذلك كثيرة ولا مجال لذكرها هنا وصدق رسول الله حيث يقول : " ما تركت
بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء " ، ولذا قدم القرآن اشتهاءهن على كل
شهوة . و { مِنَ } في قوله { مِنَ النساء والبنين } بيانية ، وهي مع
مجرورها في محل نصب على الحال من الشهوات .واكتفى القرآن بذكر محبة الرجل
للمراة مع أن المرأة كذلك تحب الرجل بفطرتها لأن ذكر محبة أحدهما للآخر
يغني عن ذكر الطرفين معاً ، وما يستفاد بالإشارة يستغنى فيه عن العبارة
خصوصاً في هذا المجال الذي يحرص فيه القرآن على تربية الحياء والأدب في
النفوس ، ولأن المرأة في هذا الباب يهمها أن تكون مطلوبة لا طالبة . وحتى
لو كانت محبتها للرجل أشد فإنها تحاول أن تثير فيه ما يجعله هو الذي يطلبها
} لا هي التي تطلبه .وأما ثاني المشتهيات : فقد عبر عنه القرآن بقوله
والبنين } جمع ابن ، وهو معطوف على ما قبله ، وقد ذكر حب البنين بعد حب
النساء لأن البنين ثمرة حب النساء ، واكتفى بذكر البنين ، لأنهم موضع الفخر
في العادة وحب الأولاد طبيعة في النفس البشرية فهم ثمرات القلوب ، وقرة
الأعين ومهوى ألفئدة ، ومطمح الآمال ، ولقد تمنى الذرية جميع الناس حتى
الأنبياء فهذا سيدنا إبراهيم يقول : { رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصالحين }
وسيدنا زكريا يقول : { رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنتَ خَيْرُ
الوارثين } والإنسان في سبيل حبه لأولاده يضحى براحته ، وقد يجمع المال من
أجلهم من حلال ومن حرام ، وقد يرتكب بعض الأعمال التي لا يريد ارتكابها
إرضاء لهم ، وقد يمتنع عن فعل أشياء هو يريد فعلها لأن مصلحتهم تقتضي ذلك
وصدق الله إذ يقول : { أَنَّمَآ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ }.
وصدق رسوله صلى الله عليه وسلم حيث يقول : " الولد ثمرة القلب ، وإنه مجبنة
مبخلة محزنة " أى أن الأبناء يجعلون آباءهم يجبنون خوفا من الموت لئلا يصيب
أبناءهم اليتم وآلامه ، ويجعلونهم يبخلون فلا ينفقون فيما ينبغي أن ينفق
فيه إيثاراً لهم بالمال ، ويجعلونهم يحزنون عليهم إن أصابهم مرض ونحوه .أما
الأمر الثالث من المشتهيات : فقد عبر عنه القرآن بقوله { والقناطير
المقنطرة مِنَ الذهب والفضة } والقناطير جمع قنطار ، وهو مأخوذ من عقد
الشيء وإحكامه ، تقول العرب : قنطرت الشيء إذا أحكمته ، ومنه سميت القنطرة
لإحكامها .قال الفخر الرازى " القنطار مال كثير يتوثق الإنسان به في دفع
. أصناف النوائب وحكى أبو عبيدة عن العرب أنهم يقولون : إنه وزن لا يحد
: واعلم أن هذا هو الصحيح ، ومن الناس من حاول تحديده . فعن ابن عباس
} القنطار ألف دينار أو اثنا عشر ألف درهم وهو مقدار الدية " .ولفظ

المقنطرة } مأخوذ من القنطار . ومن عادة العرب أن يصفوا الشيء بما يشتق منه
للمبالغة أي والقناطير المضاعفة المتكاثرة المجموعة قنطاراً قنطاراً كقولهم
، دراهم مدرهمة وإبل مؤبلة .وقوله { مِنَ الذهب والفضة } بيان للقناطير :
- وهو فى موضع الحال هنا .والمراد أن الإنسان محب للمال حباً شديداً ، قال
} - تعالى - { وَإِنَّهُ لِحُبِّ الخير لَشَدِيدٌ } وقال تعالى
وَتَأْكُلُونَ التراث أَكْلاً لَّمّاً وَتُحِبُّونَ المال حُبّاً جَمّاً
وفي الحديث الشريف الذى رواه الشيخان عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله{
عليه وسلم قال : " لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثاً . ولا يملأ
جوف ابن آدم إلا التراب . ويتوب الله على من تاب " والأحاديث في هذا المعنى
، كثيرة .وقالت السيدة - عائشة - رضي الله عنها - " رأيت ذا المال مهيبا
" ورأيت ذا الفقر مهينا " وقالت : " إن أحساب ذوى الدنيا بنيت على المال
وإنما كان الذهب والفضة محبوبين ، لأنهما - كما يقول الرازى - جعلا ثمنا .
لجميع الأشياء ، فمالكهما كالمالك لجميع الأشياء " وصفة المالكية هي القدرة
والقدرة صفة كمال ، والكمال محبوب لذاته ، فلما كان الذهب والفضة أكمل ،
الوسائل إلى تحصيل هذا الكمال الذى هو محبوب لذاته - وما لا يوجد المحبوب
إلا به فهو محبوب -لا جرم كانا محبوبين " .وأما المشتهيات الرابعة
والخامسة والسادسة فتتجلى في قوله - تعالى - { والخيل المسومة والأنعام
والحرث } .ولفظ الخيل يرى سيبويه أنه اسم جمع لا واحد له من لفظة ، بل
مفرده فرس فهو نظير قوم - ورهط ونساء . ويرى الأخفش أنه جمع تكسير وواحده
خائل ، فهو نظير راكب ، وطائر وطير . وهو مشتق من الخيلاء لأنها تختال في
مشيتها .والمسومة : أي الراعية في المروج والمسارح . يقال : سوم ماشيته إذا
أرسلها في المرعى . أو المطهمة الحسان ، من السيما بمعنى الحسن أو المعلمة
ذات الغرة والتحجيل من السمة بمعنى العلامة .والخيل كانت وما زالت زينة
محببة مرغوبة ، مهما تفنن البشر في اختراع صنوف من المراكب براً وبحراً فمع
وجود هذه المراكب المتنوعة ما زال للخيل عشاقها الذين يعجبهم ما فيها من
جمال وانطلاق وألفة . ويقتنونها للركوب والمسابقات . . . { والأنعام } جمع
نعم ، وهي الإبل والبقر والغنم . ولا يقال للجنس الواحد منها نعم إلا للإبل
خاصة فإنها غلبت عليها .والأنعام فيها زينة . والإنسان في حاجة شديدة إليها
في مركبه ومطعمه وغير ذلك . قال - تعالى -:{ والأنعام خَلَقَهَا لَكُمْ
فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ
حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ
لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأنفس إِنَّ رَبَّكُمْ
. لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ } و { والحرث } مصدر بمعنى المفعول أى المحروث
والمراد به المزروع سواء أكان حبوباً أم بقلا ، أم ثمراً إذ من هذه الأشياء
يتخذ الإنسان مطعمه وملبسه وأدوات زينته .تلك هي أهم المشتهيات في هذه
- الحياة إلى نفس الإنسان قد جمعها القرآن في آية واحدة ، وقد اختصها
سبحانه - بالذكر لأنها أوضح من غيرها في الاحتياج إليها والتلذذ بها ، ولأن
فيها إشارة إلى أنواع المتع كلها سواء أكانت متعة جسدية أم روحية ، أم
- مالية ، أم غير ذلك من ألوان المتع ، ومن مستلزمات الحياة .وقد ختم
سبحانه - الآية بقوله { ذلك مَتَاعُ الحياة الدنيا والله عِنْدَهُ حُسْنُ
المآب } . واسم الإشارة { ذلك } يعود إلى كل ما تقدم ذكره من الأمور الستة
- التي سبق الحديث عنها ، والمآب : مصدر ميمى بوزن مفعل ، من آب . كقال
إياباً وأوباً ومآباً ، إذا رجع . وأصله مأوب نقلت حركة الواو إلى الهمزة
ثم قلبت الواو ألفاً مثل مقال .أى ذلك المذكور من النساء والبنين وما عطف
عليهما هو موضع الزينة ، ومطلب الناس الذى يستمتعون به ، . . . .فأنت ترى
، أن الآية الكريمة قد ذكرت المشتهيات التي جبل الإنسان على الميل إليها
وصياغة الفعل للمجهول { زُيِّنَ لِلنَّاسِ } للإشارة إلى أن محبة هذه
الأشياء واشتهاءها مركوز في الفطرة الإنسانية منذ أوجد الله الإنسان في هذه
الحياة الدنيا .وهذه المشتهيات ليست خسيسة في ذاتها ، ولا يقصد الإسلام إلى
تخسيسها في ذاتها أو إلى التنفير منها ، وإنما الإسلام يريد من أتباعه أن
يقتصدوا في طلبها ، وأن يطلبوها من وجوهها المشروعة ، وأن يضعوها في
مواضعها المشروعة ، وأن يشكروا الله عليها ، وألا يجعلوها غاية مقصدهم في
، هذه الحياة إن الإسلام لا يحارب الفطرة الإنسانية التي تشتهي هذه الأشياء
، وإنما يهذبها ويضبطها ويرشدها إلى أن تضع هذه الأشياء في موضعها المناسب
بحيث لا تطغى على غيرها ولا تستعمل فى غير ما خلقها الله من أجله ، وبذلك
يسعد الإنسان في دينه ودنياه وآخرته .وللإمام ابن كثير كلام حسن عند تفسيره
لهذه الآية فقد قال ما ملخصه : يخبر الله - تعالى - عما زين للناس في هذه
الحياة الدنيا من أنواع الملاذ من النساء والبنين ، فبدأ بالنساء لأن
الفتنة بهن أشد . . فأما إذا كان القصد بهن الإعفاف وكثرة الأولاد فهذا
مطلوب مرغوب فيه مندوب إليه كما وردت الأحاديث بذلك . . وحب المال كذلك
تارة يكون للفخر والخيلاء والتكبر . . . فيكون مذموما ، وتارة يكون للنفقة
في وجوه البر فيكون محموداً . . وحب الخيل على ثلاثة أقسام ، تارة يكون
ربطها أصحابها معدة لسبيل الله متى احتاجوا إليها غزوا عليها فهؤلاء يثابون
وتارة تربط فخرا ومناوأة لأهل الإسلام فهذه على صاحبها وزر . وتارة تربط .

للتعفف واقتناء نسلها ولم ينس صاحبها حق الله فيها فهذه لصاحبها تر . وفى الحديث الشريف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " خير مال المرء مهرة مأمورة أو سكة مأبورة " والسكة النخل المصطف ، والمأبورة الملقحة ، . وفي الصحيحن عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما من مسلم غرس أو زرع زرعا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقه هذا ، وختام الآية الكريمة بقوله { ذلك مَتَاعُ الحياة الدنيا والله. " عِنْدَهُ حُسْنُ المآب } إشارة إلى أن متع الدنيا مهما كثرت وتنوعت وتلذذ بها الإنسان فهى زوال ، وأما اللذائذ الباقية الخالدة فهي التي أعدها الله - تعالى - لعباده المتقين في الدارة الآخرة ، ولذا قال - سبحانه - بعد ذلك { قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِّن ذلكم } .

قل اؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها وازواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد

كما فسرها الوسيط أى قل يا محمد للناس الذين مالوا إلى شهوات الدنيا من النساء والبنين وغيرهما ، قل لهم ألا تحبون أن أخبركم بما هو خير من تلك المشتهيات الدنيوية؟والاستفهام للتقرير ، والمراد به التحقيق والتثبيت في نفوس المخاطبين ، أى تحقيق وتثبيت خيرية ما عند الله وأفضليته على شهوات الدنيا ، وحضهم على الاستجابة لما سيلقى عليهم .وافتتح الكلام بكلمة { قُلْ للاهتمام بالمقول وتنبيه السامعين إلى أن ما سيلقى عليهم أمر يهمهم ومما { يقوى هذا التنبيه هنا : التعبير بقوله { أَؤُنَبِّئُكُمْ } لأن الإنباء معناه الخبر العظيم الشأن ، والتعبير بقوله { ذلكم } لاشتماله على الإشارة التى للبعيد الدالة على عظم شأن ما سيخبرهم به ، والتعبير بقوله { بِخَيْرٍ الذى يدل على الأفضلية ، لأن نعيم الآخرة خير محض ونعيم الدنيا مشوب { بالشرور والأضرار . ثم بين - سبحانه - المخبر عنه بعد أن مهد له بتلك التنبيهات التي تشوق إلى سماعه وتغرى بالاستجابة له فقال : { لِلَّذِينَ اتقوا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ الله } .هذه هى اللذائذ والمتع التى أعدها الله - تعالى - لمن اتقاه ، أى أدى ما أمره به ، وابتعد عما نهاه عنه .وأول هذه النعم : { جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ، أى بساتين تجرى من تحت أشجارها الأنهار ، وفى هذه الجنات مالا عين رأت { ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .وقوله { لِلَّذِينَ اتقوا } ، خبر مقدم ، وقوله { جَنَّاتٌ } مبتدأ مؤخر ، وقوله { عِندَ رَبِّهِمْ } في محل نصب على الحال من جنات . وقوله { تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار } صفة لجنات .وعلى هذا يكون منتهى الاستفهام عند قوله { مِّن ذلكم } وهذا هو } المشهور عند العلماء . ومنهم من يجعل الاستفهام منتهيا عند قوله لِلَّذِينَ اتقوا } ثم يبتدأ فيقال : عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومنهم من يجعل الاستفهام منتهيا عند قوله - تعالى - { عِندَ رَبِّهِمْ } . ثم يبدأ فيقال : جنات تجرى من تحتها الأنهار .قال ابن جرير : وأولى هذه } - الأقوال بالصواب قول من جعل الاستفهام منتهيا عند قوله - تعالى بِخَيْرٍ مِّن ذلكم } والخبر بعده مبتدأ عمن له الجنات بقوله : { ذِينَ اتقوا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار } فيكون مخرج ذلك مخرج الخير . وهو إبانة عن معنى الخير الذى قال : أنبئكم به ، فلا - يكون بالكلام حينئذ حاجة إلى ضمير " .وثانى هذه النعم عبر عنه - سبحانه بقوله { خَالِدِينَ فِيهَا } أى أن هؤلاء الذين اتقوا ربهم خالدين في تلك الجنات التي فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين خلوداً أبدياً ، بخلاف أولئك المنعمين بنعم الدنيا فإن نعيمهم إلى فناء وزوال .وثالث هذه النعم قوله - تعالى - { وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ } .والأزواج : جمع زوجة وهي المرأة يختص بها الرجل . أى ولهم في تلك الجنات أزواج مطهرة غاية التطهير من كل دنس وقذر حسى ومعنوى ، فقد وصف - سبحانه - هؤلاء الأزواج بصفة واحدة } - جامعة لكل ما يتمناه الرجل في المرأة .ورابع هذه النعم قوله - تعالى وَرِضْوَانٌ مِّنَ الله } وهذه النعمة هي أعظم النعم وأجلها أى لهم رضا ، عظيم من خالق الخلق ، ومبدع الكون ، ومنشىء الوجود . وهو مصدر كالرضا ولكن يزيد عليه أنه الرضا العظيم ، لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى ولأن التنكير قصد به التفخيم والتعظيم .وقوله { مِّنَ الله } صفة لرضوان ، مؤكدة لما أفاده التنكير من الفخامة .روى الشيخان عن أبي سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله - عزو وجل - يقول لأهل الجنة يوم القيامة : يا أهل الجنة فيقولون : لبيك ربنا وسعديك ، فيقول : هل رضيتم؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ولم تعط أحداً من خلقك؟ فيقول : أنا اعطيكم أفضل من ذلك؟ قالوا : يا ربنا رأى شيء أفضل من ذلك؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبداً " .هذه هى اللذائذ - والمتع والنعم التى أعدها الله - تعالى - لعباده المتقين .ثم ختم سبحانه - الآية بقوله : { والله بَصِيرٌ بالعباد } أي أنه - سبحانه - عليم بأحوال عباده ، لا تخفى عليه خافية من شئونهم . وسيجازى الذين أساءوا بما

عملوا ، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى . ففي هذا التذييل وعد للمتقين ووعيد للمسيئين .

الذين يقولون ربنا اننا امنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - أقوال هؤلاء المتقين ومدحهم على إيمانهم وصلاحهم فقال - تعالى - { الذين يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ آمَنَّا فاغفر لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النار } أى أن هذه الجنات وغيرها منأنواع النعم قد أعدها الله - تعالى - لهؤلاء المتقين الذين يضرعون إلى الله ملتمسين منه المغفرة فيقولون : يا ربنا إننا آمنا بك وصدقنا رسولك في كل ما جاء به من عندك ، فاغفر لنا ذنوبنا وتقصيرنا في أمرنا فأنت الغفار الرحيم ، { وَقِنَا عَذَابَ النار } أي جنبنا هذا العذاب الأليم يا أرحم الراحمين .وفي حكاية هذا القول عنهم بصيغة المضارعة { يَقُولُونَ } إشعار بأنهم يجددون التوبة إلى الله دائما لقوة إيمانهم ، وصفاء نفوسهم ، وإحساسهم بأنهم مهما قدموا من طاعات فهى قليلة بجانب فضل الله عليهم ، ولذلك فهم يلتمسون منه الستر والغفران ، والوقاية من النار ، وهذا شأن الأخيار من الناس .وقوله - سبحانه - { الذين يَقُولُونَ } بدل أو عطف بيان من قوله { لِلَّذِينَ اتقوا } ويجوز أن يكون في محل رفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف والجملة منهما جواب عن سؤال كأنه قيل : من أولئك المتقون؟ فقيل : هم الذين يقولون ربنا إننا آمنا .. .

الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالاسحار

- كما فسرها الوسيط ويجوز أن يكون في موضع نصب على المدح . صم وصفهم : سبحانه - بخمس صفات كريمة من شأنها أن تحمل العقلاء على التأسى بهم فقال وفي كل. { الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار } صفة من صفاتهم دليل على قوة إيمانهم ، وإذعانهم للحق حق الإذعان . فهم صابرون ، والصبر في البأساء والضراء وحين البأس من أكبر البراهين على سلامة اليقين ، وقد حث القرآن أتباعه على التحلى بهذه الصفة في أكثر من سبعين موضعا . وهم صادقون ، والصدق من أكمل الصفات الإنسانية وأشرفها ، وقد أمر الله عباده أن يتحلوا به في كثير من آيات كتابه ، ومن ذلك قوله - تعالى - { ياأيها الذين آمَنُواْ اتقوا الله وَكُونُواْ مَعَ الصادقين } وهم قانتون ، والقانت هو المداوم على طاعة الله - تعالى - غير متململ منها ولا متبرم بها ولا خارج على حدودها . فالقنوت يصور الإذعان المطلق لرب العالمين .وهم ، منفقون أموالهم في طاعة الله - تعالى - ، وبالطريقة التى شرعها وأمر بها . وهم مستغفرون بالأسحار . أى يسألون الله - تعالى - أن يغفر لهم خطاياهم فى كل وقت ، ولا سيما في الأسحار .والأسحار جمع سحر وهو الوقت الذى يكون قبل الفجر . روى مسلم في صحيحه عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ينزل ربنا - عز وجل - إلى سماء الدنيا كل ليلة حين يمضى ثلث الليل الأول فيقول : أنا الملك من ذا الذى يدعونى فأستجيب له ، من ذا الذى يسألنى فأعطيه ، من ذا الذى يستغفرني فأغفر له ، فلا يزال كذلك حتى يطلع الفجر " ، وخص وقت الأسحار بالذكر لأن النفس تكون فيه أصفى ، والقلب فيه أجمع. ولأنه وقت يستلذ فيه الكثيرون النوم فإذا أعرض المؤمن عن تلك اللذة وأقبل على ذكر الله كانت الطاعة أكمل وأقرب إلى القبول .وبهذا نرى أن الآيات الكريمة قد كشفت عن المشتهيات التي يميل إليها الناس في دنياهم بمقتضى فطرتهم ، وأرشدتهم إلى ما هو أسمى وأعلى وأبقى من ذلك وبشرتهم برضوان الله وجناته ، متى استقاموا على طريقه ، واستجابوا لتعاليمه ، { والله يَهْدِي مَن يَشَآءُ إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ } وبعد أن بين - سبحانه - ما أعده للمتقين ، وذكر صفاتهم عقب ذلك ببيان أساس التقوى وهو عقيدة التوحيد ، وببيان أن الإسلام هو الدين الذى ارتضاه الله - تعالى - للناس ، وأن من يعارض فى ذلك معارضته داحضة وسيعاقبه الله بما يستحقه . استمع إلى القرآن وهو يحكى ذلك بأسلوبه الحكيم فيقول : { شَهِدَ الله . . . } .

شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة واولو العلم قائما بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم

كما فسرها الوسيط قال القرطبي : " لما ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة قدم عليه حبران من أحبار أهل الشام فلما أبصرا المدينة قال أحدهما للآخر : ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبي الذى يخرج في آخر الزمان! فلما دخلا على النبي صلى الله عليه وسلم عرفاه بالصفة والنعت فقالا له : أنت محمد؟ قال نعم قالا : وأنت أحمد؟ قال : نعم . قالا : نسألك عن شهادة فإن أنت أخبرتنا بها آمنا بك وصدقناك . فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم : سلانى . فقالا : أخبرنا عن الأعظم شهادة في كتاب الله . فأنزل الله تعالى - على نبيه صلى الله عليه وسلم { شَهِدَ الله أَنَّهُ لاَ إله إِلاَّ

هُوَ والملائكة وَأُوْلُواْ العلم قَآئِمَاً بالقسط } فأسلم الرجلان وصدقا
برسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقوله تعالى : { شَهِدَ الله } أى بين
وأعلم كما يقول : شهد فلان عند القاضى إذا بين وأعلم لمن الحق أو على من هو
قال الزجاج : " الشاهد هو الذي يعلم الشيء ويبينه ، فقد دلنا الله على
وحدانيته بما خلق وبين " .والمعنى : أخبر الله - تعالى - عباده وأعلمهم
بالآيات القرآنية التي أنزلها على نبيه ، وبالآيات الكونية التى لا يقدر
، على خلقها أحد سواه ، وبغير ذلك من الأدلة القاطعة التي تشهد بوحدانيته
وأنه لا معبود بحق سواه ، وأنه هو المنفرد بالألوهية لجميع الخلائق . وأن
الجميع عبيده وفقراء إليه وهو الغنى عن كل ما عداه . وشهد بذلك " الملائكة
بأن اقروا بأنه هو الواحد الأحد الفرد الصمد فعبدوه حق العبادة ، وأطاعوه "
- حق الطاعة ، وشهد بذلك أيضاً " أولو العلم " بأن اعترفوا له - سبحانه
بالوحدانية ، وصدقوا بما جاهم به الرسول - صلى الله عليه وسلم - وبلغوا ذلك
لغيرهم .قال الزمخشرى : شبهت دلالته على وحدانيته بأفعاله الخاصة التي لا
يقدر عليها غيره ، وبما أوحى من آياته الناطقة بالتوحيد كسورة الإخلاص وآية
الكرسى وغيرهما ، بشهادة الشاهد فى البيان والكشف وكذلك إقرار الملائكة
وأولى العلم بذلك واحتجاجهم عليه " .وقالوا : وفى هذه الآية دليل على فضل
العلم وشرف العلماء ، فإنه لو كان أحد أشرف العلماء ، لقرنهم الله باسمه
وسام ملائكته كما قرن العلماء . وقال في شرف العلم لنبيه - صلى الله عليه
وسلم - { وَقُل رّبّ زِدْنِي عِلْماً } فلو كان شىء أشرف من العلم لأمر
الله نبيه أن يسأله المزيد منه كما أمر أن يستزيده من العلم . وقال صلى
الله عليه وسلم " إن العلماء ورثة الأنبياء " وقال : " العلماء أمناء الله
على خلقه " وهذا شرف للعلماء عظيم ومحل لهم في الدين خطير .والمراد بأولى
العلم هنا جميع العلماء الذين سخروا ما أعطاهم الله من معارف في خدمة
عقيدتهم ، وفيما ينفعهم وينفع غيرهم ، وأخلصوا لله في عبادتهم ، وصدقوا في
أقوالهم وأفعالهم . وقدم سبحانه - الملائكة على أولى العلم ، لأن فيهم من
هو واسطة لتوصيل العلم إلى ذويه ، لأن علمهم كله ضرورى بخلاف البشر فإن
علمهم منه ما ضرورى ، ومنه ما هو اكتسابى .وقوله - تعالى - {قَآئِمَاً
. بالقسط } بيان لكماله - سبحانه - في أفعاله إثر بيان كماله في ذاته
والقسط : العدل . يقال قسط ويقسط قسطاً ، وأقسط إقساطاً فهو مقسط إذا عدل
ومنه { إِنّ الله يُحِبّ المقسطين } ويطلق القسط على الجور ، والفاعل
: قاسط ، ومنه { وَأَمَّا القاسطون فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَباً } أى
مقيما للعدل في تدبير أمر خلقه ، وفى أحكامه . وفيما يقسم بينهم من الأرزاق
} والآجال ، وفيما يأمر به وينهى عنه ، وفى كل شأن من شئونه .قال الجمل و
قَآئِمَاً } منصوب على أنه حال من الضمير المنفصل الواقع بعد إلا ، فتكون
الحال أيضا فى حيز الشهادة ، فيكون المشهود به أمرين : الوحدانية والقيام
بالقسط وهذا أحسن من جعله حالا من الاسم الجليل فاعل شهد ، لأن عليه يكون
المشهود به الوحدانية فقط والحال ليست في حيز الشهادة .وقوله { لاَ إله
إِلاّ هُوَ العزيز الحكيم } تكرير للمشهود به للتأكيد والتقرير ، وفيه
إشارة إلى مزيد الاعتناء بمعرفة أدلته لأن تثبيت المدعى إنما يكون بالدليل
والاعتناء به يتقضى الاعتناء بأدلته .{ العزيز الحكيم } صفتان مقررتان ،
لما وصف به ذاته من الوحدانية والعدل . أى لا إله في هذا الوجود يستحق
العبادة بحق إلا الله { العزيز } الذى لا يمتنع عليه شىء أراده ، وينتصر من
كل أحد عاقبه أو انتقم منه { الحكيم } في تدبيره فلا يدخله خلل .قال ابن
جرير : " وإنما عنى جل ثناؤه - بهذه الآية نفى ما أضافت النصارى الذين
حاجوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في عيسى من النبوة ، وما نسب إليه سائر
أهل الشرك : من أن له شريكا ، واتخاذهم دونه أربابا ، فأخبرهم الله عن نفسه
أنه الخالق كل ما سواه ، وأنه رب كل ما اتخذه كل كافر وكل مشرك ربا دونه ،
وأن ذلك مما يشهد به هو وملائكته وأهل العلم به من خلقه . فبدأ - جل ،
ثناؤه - بنفسه تعظيما لنفسه ، وتنزيها لها عما نسب الذين ذكرنا أمرهم من
أهل الشرك به ما نسبوا إليها ، كما سن لعباده أن يبدأوا في أمورهم بذكره
قبل ذكر غيره مؤدباً خلقه بذلك " .هذا ، ومن الآثار التى وردت في فضل هذه
الآية ما رواه الإمام أحمد عن الزبير بن العوام قال : سمعت النبي صلى الله
عليه وسلم وهو بعرفة يقرأ هذه الآية { شَهِدَ الله أَنّهُ لاَ إله إِلاّ
هُوَ والملائكة وَأُوْلُواْ العلم } .. . إلى أخر الآية . فقال صلى الله
عليه وسلم : " وأنا على ذلك من الشاهدين يا رب " وقال غالب القطان : أتيت
الكوفة في تجارة لي فنزلت قريبا من الأعمش فكنت اختلف إليه ، فقام في ليلة
متهجدا فمر بهذه الآية { شَهِدَ الله أَنّهُ لاَ إله إِلاّ هُوَ } فقال :
} وأنا أشهد بما شهد الله به ، وأستودع الله هذه الشهادة وهى لى وديعة
إِنّ الدِّينَ عِندَ الله الإسلام } ، - قالها مراراً - فقلت . لقد سمع
فيها شيئا فسألته في ذلك فقال : حدثني أبو وائل بن عبد الله قال رسول الله
" - صلى الله عليه وسلم " يجاء بصاحبها يوم القيامة فيقول الله - تعالى
. " عبدى عهد إلى وأنا أحق من وفى العهد ادخلوا عبدى الجنة

ان الدين عند الله الاسلام وما اختلف الذين اوتوا الكتاب الا من بعد ما

جاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بايات الله فان الله سريع الحساب

كما فسرها الوسيط وقوله { إِنَّ الدِّينَ عِندَ الله الإسلام } جملة مستأنفة مؤكدة للجملة الأولى . وأصل الدين فى اللغة الجزاء والحساب . يقال دنته بما صنع أى جازيته على صنيعه ، ومنه قولهم : كما تدين تدان أى ، كما تفعل تجازى ، وفي الحديث " الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت " والمراد به هنا ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من عند ربه من عقائد وتكاليف وتشريعات ، فيكون بمعنى الملة والشرع .أى : إن الشريعة المرضية عند الله - تعالى - هى الإسلام ، والإسلام في اللغة هو الاستسلام والانقياد يقال : أسلم أى انقاد واستسلم . وأسلم أمره لله سلمه إليه والمراد به هنا - كما قال ابن جرير : " شهادة أن لا إله إلا الله ، والإقرار بما جاء من عند الله وهو دين الله الذى شرعه لنفسه وبعث به رسله ، ودل عليه أولياءه ، لا يقبل ، غيره ولا يجزى بالإحسان إلا به " وهو الدين الحنيف الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم .وقال ابن كثير : وقوله - تعالى - { إِنَّ الدِّينَ عِندَ الله الإسلام } إخبار منه تعالى - بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الإسلام ، وهو اتباع الرسل فيما بعثهم الله به في كل حين حتى ختموا بمحمد صلى الله عليه وسلم الذي سد جميع الطرق إليه إلا من جهة محمد صلى الله عليه وسلم ، فمن لقى الله تعالى - بعد بعثة محمد صلى الله عليه وسلم بدين على غير شريعته فليس بمتقبل كما قال - تعالى - { وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ } الآية . وقال في هذه الآية مخبراً بانحصار الدين المتقبل عنده في الإسلام { وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام } وقوله { عِندَ الله } ظرف العامل فيه لفظ الدين لما تضمنه من معنى الفعل ، أى الذى شرع عند الله الإسلام . ويصح أن يكون صفى للدين فيكون متعلقا بمحذوف أى الكائن أو الثابت عند الله الإسلام . وفى إضافة الدين إلى الله - تعالى - بقوله { عِندَ الله } وباعتبار الإسلام وحده ، هو دين الله ، كما يدل على ذلك تعريف الطرفين ، إشعار بفضل الإسلام ، لأن له ذلك الشرف الإضافى إلى خالق هذا الكون ومربيه ، فهو دين الله الذى شرعه لخلقه .ثم بين - سبحانه - أن اختلاف أهل الكتاب في شأن الدين الحق لم يكن عن جهل منهم بالحقائق وإنما كان سببه البغى والحسد وطلب الدنيا فقال - تعالى - { وَمَا اختلف الذين أُوتُواْ الكتاب إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ العلم بَغْياً بَيْنَهُمْ } أى : وما كان خلاف الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى فيما جاءهم به. { الرسول صلى الله عليه وسلم إلا من بعد أن علموا بأن ما جاءهم به هو الحق الذي لا باطل معه ، فخلافهم لم يكن عن جهل منهم بأن ما جاءهم به هو الحق } وإنما كان سببه البغى والحسد والظلم فيما بينهم .وفي التعبير عنهم بأنهم أُوتُواْ الكتاب } زيادة تقبيح لهم؛ فإن الاختلاف بعد إتيان الكتاب أقبح وأفحش ، إذ الكتاب ما نزل إلا لهدايتهم ، وسعادتهم فإذا تركوا بشاراته وتوجيهاته واتبعوا أهواءهم كان فعلهم هذا أشد قبحا وفحشا .وقوله { إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ العلم } زيادة أخرى في تقبيح أفعالهم ، فإن الاختلاف بعد مجىء العلم أزيد في القبح والعناد .والاستثناء من أعم الأحوال أو الأوقات ، أى وما اختلفوا في حال من الأحوال أو فى وقت من الأوقات إلا بعد أن علموا الحق ، والعلم بالحق وحده لا يكفي في الإيمان به ، ولكنه يحتاج إلى جانب ذلك إلى قلب مخلص متفتح لطلبه ، وكم من أناس يعرفون الحق معرفة تامة ولكنهم يحاربونه ويحاربون أهله ، لأنهم يرون أن هذا الحق يتعارض مع أهوائهم وشهواتهم وصدق الله إذ يقول . { الذين آتَيْنَاهُمُ الكتاب يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الحق وَهُمْ يَعْلَمُونَ } فهم قد اختلفوا في الحق مع علمهم بأنه حق ، لأن العلم كالمطر ، لا تستفيد منه إلا الأرض الطيبة النقية ، وكذلك لايستفيد من العلم إلا أصحاب النفوس الصافية ، والقلوب الواعية والأفئدة المستقيمة .وقوله { بَغْياً بَيْنَهُمْ } مفعول لأجله ، والعامل فيه اختلف أى وما اختلفوا إلا للبغى لا لغيره قال القرطبي : " وفي الكلام تقديم وتأخير ، والمعنى ، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب بغيا بينهم إلا من بعد ما جاءهم العلم " .ثم ختم - سبحانه - الآية بهذا التهديد الشديد فقال : أى : ومن . { وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ الله فَإِنَّ الله سَرِيعُ الحساب } يكفر بآيات الله الدالة على وحدانيته - سبحانه - فإن الله محص عليه أعماله في الدنيا وسيعاقبه بما يستحقه في الآخرة .فقوله { فَإِنَّ الله سَرِيعُ الحساب } قائم مقام جواب الشرط وعلة له ، أى : ومن يكفر بآيات الله فإنه سبحانه - محاسبه ومعاقبه والله سريع الحساب .وسرعة الحساب تدل على سرعة العقاب ، وعلى العلم الكامل والقدرة التامة فهو - سبحانه -لا يحتاج إى فحص وبحث ، لأنه لا تخفى عليه خافية .

فان حاجوك فقل اسلمت وجهي لله ومن اتبعن وقل للذين اوتوا الكتاب والاميين
ااسلمتم فان اسلموا فقد اهتدوا وان تولوا فانما عليك البلاغ والله بصير
بالعباد

كما فسرها الوسيط ثم لقن الله - تعالى - نبيه صلى الله عليه وسلم ما يرد به
على أهل الكتاب إذا ما جادلوه أو خاصموه ليحسم الأمر معهم ومع غيرهم من
المشركين وليمضى فى طريقه الواضح المستقيم فقال - تعالى - { فَإِنْ
حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتبعن } .وقوله
{ حَآجُّوكَ } من المحاجة وهى أن يتبادل المتجادلان الحجة ، بأن يقدم كل واحد
حجته ويطلب من الآخر أن يرد عليها أو يقدم الحجة على ما يدعيه ويزعم أنه
الحق الذى لا شك فيه .والمعنى : فإن جادلك - يا محمد - أهل الكتاب ومن لف
لفهم بالأقاويل المزورة والمغالطات الباطلة بعد أن قامت الحجج على صدقك .
فلا تسر معهم في لجاجتهم ، ولا تلتفت إلى أكاذيبهم ، بل قل لهم
{ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتبعن } أى أخلصت عبادتى لله وحده
، وأطعته وانقدت له ، وكذلك من اتبعنى وآمن بى قد أسلم وجهه له وأخلص له
العبادة .والمراد بالوجه هنا الذات ، وعبر بالوجه عن سائر الذات لأنه أشرف
أعضاء الشخص ، ولأنه هو الذي تكون به المواجهة ، وهو مجمع محاسن الجسم
فالتعبير به عن الجسم كله تعبير بجزء له شأن خاص وتتم به إرادة الكل .و
{ وَمَنِ اتبعن } في قوله { وَمَنِ اتبعن } في محل رفع عطفا على الضمير المتصل في
{ أَسْلَمْتُ } أى أسلمت أنا ومن اتبعنى ، وجاء العطف على الضمير المرفوع من
غير تأكيد لوجود الفاصل بينهما .وقوله { وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ
الكتاب والأميين أَأَسْلَمْتُمْ } عطف على الجملة الشرطية ، والمراد
بالأميين الذين لا كتاب لهم وهم مشركو العرب .والاستفهام فى قوله
{ أَأَسْلَمْتُمْ } للحض على أن يسلموا وجوههم لله ، ويتبعوا الرسول صلى الله
- عليه وسلم كما اتبعه المسلمون .والمعنى : فإن جادلوك في الدين - يا محمد
بعد أن تبين لكل عاقل صدقك ، فقل لهؤلاء المعاندين إني أسلمت وجهى لله
وكذلك أتباعى أسلموا وجوههم لله ، وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أسلموا
تسلموا فقد تبين لكن أني على حق ، ومن شأن العاقل أنه إذا تبين له الحق أن
يدخل فيه وأن يترك العناد والمكابرة .قال صاحب الكشاف : وقوله
{ أَأَسْلَمْتُمْ } يعني أنه قد أتاكم من البينات ما يوجب الإسلام ويقتضى
حصوله لا محالة فهل أسلمتم أم أنتم بعد على كفركم وهذا كقولك لمن لخصت له
المسألة ولم تبق من طرق البيان طريقا إلا سلكته : هل فهمتها لا أم لك .
ومنه قوله - تعالى - { فَهَلْ أَنْتُمْ مُّنتَهُونَ } بعد ما ذكر الصوارف
- عن الخمر والميسر . وفي هذا الاستفهام استقصار - أى عد المخاطب قاصرا
وتعيير بالمعاندة وقلة الإنصاف ، لأن المنصف إذا تجلت له الحجة لم يتوقف في
إذعانه للحق .ثم بين - سبحانه - ما يترتب على إسلامهم من نتائج ، وما يترتب
على إعراضهم من شرور تعود عليهم فقال : { فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهتدوا
{ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البلاغ والله بَصِيرٌ بالعباد
أى : فإن أسلموا وجوههم لله وصدقوا بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم.
فقد اهتدوا إلى طريق الحق ، لأن هذا الإسلام هو الدين الذى ارتضاه الله
للناس وإن أعرضوا عن هذا الطريق المستقيم ، فإن إعراضهم لن يضرك - أيها
الرسول الكريم - لأن الذى عليك إنما هو تبليغ الناس ما أمرك الله بتبليغه
إياهم . وهو - سبحانه - بصير بخلقه لا تخفى عليه خافية من أقوالهم أو
أفعالهم ، وسيجازى كل إنسان بما يستحقه .وعبر بالماضى فى قوله { فَقَدِ
اهتدوا } مبالغة في الإخبار بوقوع الهدى لهم وقوله { فَإِنَّمَا عَلَيْكَ
البلاغ } قائم مقام جواب الشرط أى وإن تولوا لا يضرك توليهم شيئا إذا ما
عليك إلا البلاغ وقد أديته على أكمل وجه وأبلغه .وقوله { والله بَصِيرٌ
بالعباد } تذييل فيه عزاء للنبي صلى الله عليه وسلم عن كفرهم ، وإشارة إلى
أحوالهم ، وإنذار بسوء مصيرهم ، لأنه - سبحانه - عليم بنفوس الناس جميعا
، وسيجازى كل إنسان بما يستحقه ، وفيه كذلك وعد للمؤمنين بحسن العاقبة
وجزيل الثواب .قال ابن كثير : وهذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على
عموم بعثته صلى الله عليه وسلم إلى جميع الخلق كما هو معلوم من دينه ضرورة
- وكما دل عليه الكتاب والسنة فى غير ما آية وحديث فمن ذلك قوله - تعالى ،
- وقال { قُلْ ياأيها الناس إِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ جَمِيعاً }
تعالى - { تَبَارَكَ الذي نَزَّلَ الفرقان على عَبْدِهِ لِيَكُونَ
لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً } وفي الصحيحين وغيرهما مما ثبت تواتره بالوقائع
المتعددة أنه صلى الله عليه وسلم بعث كتبه يدعو إلى الله ملوك الآفاق
وطوائف بنى آدم من عربهم وعجمهم . كتابيهم وأميهم امتثالا لأمر الله له
بذلك ، فعن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : " والذى نفسى
بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهدى ولا نصرانى ومات ولم يؤمن بالذى
أرسلت به إلا كان من أهل النار " .وقال صلى الله عليه وسلم " بعثت إلى
الأحمر والأسود " وقال : " كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس
عامة " وعن أنس - رضى الله عنه - أن غلاما يهوديا كان يضع للنبى صلى الله
عليه وسلم وضوءه ويناوله نعليه فمرض . فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم فدخل
عليه وأبوه قاعد عند رأسه ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : " يا فلان
قل لا إله إلا الله ، فنظر إلى أبيه فسكت أبوه فأعاد عليه النبي صلى الله
عليه وسلم القول . فنظر إلى أبيه ، فقال له أبوه أطع أبا القاسم . فقال
الغلام أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله . فخرج النبى صلى الله عليه

وسلم وهو يقول : الحمد لله الذى أخرجه بى من النار "رواه البخاري في الصحيح
إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث .وبهذا نرى أن الآيات الكريمة قد بينت .
للناس في كل زمان ومكان أن دين الإسلام هو الدين الحق الذى ارتضاه الله
لعباده وشهد بذلك خالق هذا الكون - عز وجل - وكفى بشهادته شهادة كما شهد
بذلك الملائكة المقربون والعلماء المخلصون . كما بينت أن كثيرا من الذين
- أوتوا الكتاب يعلمون هذه الحقيقة ولكنهم يكتمونها ظلما وبغيا ، كما بينت
أيضاً - أن الذين يدخلون فى هذا الدين يكونون بدخولهم قد اهتدوا إلى الطريق
القويم ، وأن الذين يعرضون عنه سيعاقبون بما يستحقونه بسبب هذا الإعراض عن
. الحق المبين

ان الذين يكفرون بايات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يامرون
بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب اليم

كما فسرها الوسيط ثم انتقل القرآن إلى سرد بعض الرذائل التى عرف بها اليهود
- وعرف بها أسلافهم ، وبين سوء مصيرهم ومصير كل من يفعل فعلهم فقال - تعالى
أنت ترى أن الله - تعالى - قد وصف. { . . إِنَّ الذين يَكْفُرُونَ } :
هؤلاء المارقين بصفات ينفر منها كل عاقل وصفهم أولا بأنهم : { يَكْفُرُونَ
بِآيَاتِ الله } أى لا يكتفون بالكفر بالله - تعالى - ، بل يكفرون بالآيات
المثبتة لوحدانيته ، وبالرسل الذين جاءوهم بالهدى والحق .ووصفهم ثانيا
بأنهم { يَقْتُلُونَ النبيين بِغَيْرِ حَقٍّ } وقتل النبيين بغير حق فعل
معروف عن اليهود ، فهم الذين قتلوا زكريا - عليه السلام - لأنه حاول أن
يخلص ابنه يحيى -عليه السلام - من القتل وقتلوا يحيى لأنه لم يوافقهم في
، أهوائهم وحاولوا قتل عيسى - عليه السلام - ولكن الله تعالى نجاه من مكرهم
وقتلوا غيرهم من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .فإن قيل إن اليهود ما
قتلوا كل الأنبياء فلم أخبر القرآن عنه أنهم يقتلون النبيين ولم يقل يقتلون
، بعض النبيين؟فالجواب أنهم بقتلهم لبعض النبيين فقد استهانوا بمقام النبوة
ومن استهان بمقام النبوة بقتله لبعض الأنبياء فكأنه قد قتل الأنبياء جميعا
ونظير هذا قوله - تعالى - : { مِنْ أَجْلِ ذلك كَتَبْنَا على بني ،
إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي
الأرض فَكَأَنَّمَا قَتَلَ الناس جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا
أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً } وقيد القتل بأنه { بِغَيْرِ حَقٍّ } مع أن قتل
الأنبياء لا يكون بحق أبداً ، للتصريح بموضع الاستنكار ، لأن موضع
الاستنكار هو اعتداؤهم على الحق بقتلهم الأنبياء ، وللإشارة إلى أنهم
لتوغلهم في الظلم والعدوان قد صاروا أعداء للحق لا يألفونه ولا تميل إليه
نفوسهم ، وللتسجيل عليهم أن هذا القتل للأنبياء كان مخالفاً لما في شريعتهم
فإنها قد نهتهم عن قتلهم ، بل عن مخالفتهم . فهذا القيد من باب الاحتجاج
- عليهم بما نهت عنه شريعتهم لتخليد مذمتهم في كل زمان ومكان .وقال
سبحانه - { بِغَيْرِ حَقٍّ } بصيغة التنكير ، لعموم النفى ، بحيث يتناول
الحق الثابت ، والحق المزعوم ، أى أنهم لم يكونوا معذورين بأي لون من ألوان
العذر في هذا الاعتداء فقد أقدموا على ما أقدموا عليه وهم يعلمون أنهم على
الباطل ، فكان فعلهم هذا إجراما في بواعثه وفي حقيقته ، وأفظع أنواع
الإجرام في موضوعه .وقوله { بِغَيْرِ حَقٍّ } في موضع الحال المؤكدة لمضمون
جملة { يَقْتُلُونَ النبيين } إذ لا يكون قتل النبيين إلا كذلك .ووصفهم
ثالثا بأنهم { وَيَقْتُلُونَ الذين يَأْمُرُونَ بالقسط مِنَ الناس }
والقسط : العدل . يقال : قسَط يقسِط ويقسُط قِسطا ، وأقسط إقساطاً إذا عدل.
أى :لا يكتفون بقتل النبيين الذين جاءوا لهدايتهم وسعادتهم ، وإنما.
يقتلون مع ذلك الذين يأمرونهم بالعدل من مرشديهم ونصحائهم .وفي قوله { مِنَ
الناس } إشارة غلى أنهم ليسوا بأنبياء ، بل من الناس غير المبعوثين .وفي
، قرنهم بالأنبياء ، وإثبات أن الاعتداء عليهم قرين الاعتداء على الأنبياء
إشارة إلى بيان علو منزلتهم ، وأنهم ورثتهم الذين يدعون بدعوتهم .وعبرعن
جرائمهم بصيغة الفعل المضارع - يكفرون ويقتلون لاستحضار صورة أفعالهم
الشنيعة في أذهان المخاطبين ، ولإفادة أن أفعالهم هذه متجددة كلما استطاعوا
إليها سبيلا ، وللإشعار بأن اليهود المعاصرين للنبى صلى الله عليه وسلم
كانوا راضين بفعل آبائهم وأسلافهم ، ولقد حاول اليهود في العهد النبوى أن
يقتلوا النبي صلى الله عليه وسلم ولكن الله - تعالى - نجاه من شرورهم .هذا
وقد وردت آثار متعددة تصرح بأن اليهود قد دأبوا على قتل الأنبياء ،
والمصلحين ، ومن ذلك ما جاء عن أبي عبيدة بن الجراح أنه قال : " قلت يا
رسول الله : أي الناس أشد عذابا يوم القيامة ، فقال رسول الله صلى الله
عليه وسلم : " أشد الناس عذابا يوم القيامة رجل قتل نبيا ، أو قتل من أمر
بالمعروف ونهى عن المنكر ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم { إِنَّ
الذين يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ الله } الآية . ثم قال : يا أبا عبيدة قتلت بنو
إسرائيل ثلاثة وأربعين نبيا من أول النهار في ساعة واحدة ، فقام مائة
وسبعون رجلا منهم فأمروا من قتلهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر فقتلوهم
جميعاً من آخر النهار في ذلك اليوم " " .هذه بعض جرائمهم فماذا كانت

} نتيجتها؟ كانت نتيجتها العذاب الأليم الذى أخبرهم الله به في قوله فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } .والجملة الكريمة خبر إن ، وجاز دخول الفاء على خبرها لتضمن اسمها وهو { الذين } معنى الشرط في العموم .وحقيقة ، التبشير : الإبخار بما يظهر سرور المخبر - بفتح الباء - على بشرة وجهه وهو هنا مستعمل فى ضد حقيقته على سبيل التهكم بهم ، وذلك لأن هؤلاء المعتدين مع أنهم كفروا بآيات الله وقتلوا أنبياءه وأولياءه ، وفعلوا ما فعلوا من منكرات ، مع كل ذلك زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه ، فساق لهم القرآن ما يخبرهم به على سبيل الاستهزاء بعقولهم أن بشارتهم التى يرتقبونها بسبب كفرهم ودعواهم الباطلة هي : العذاب الأليم .واستعمال اللفظ في ضده عند علماء البيان من باب الاستعارة التهكمية ، لأن تشبيه الشىء بضده لا يروج في عقل العقلاء إلى على معنى التهكم والاستهزاء .

اولئك الذين حبطت اعمالهم في الدنيا والاخرة وما لهم من ناصرين

كما فسرها الوسيط ثم أخبر - سبحانه - بفساد أعمالهم في الدنيا والآخرة فقال - والحبوط. { أولئك الذين حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدنيا والآخرة } : ، كما يقول الراغب - من الحبط ، وهو أن تكثر الدابة الأكل حتى تنتفخ بطنها وقد يؤدى إلى موتها .والمراد بحبوط أعمالهم إزالة آثارها النافعة من ثواب في الآخرة وحياة طيبة في الدنيا ، لأنهم عملوا ما عملوا وهم لا يرجون الله وقاراً .وجىء باسم الإشارة في صدر الآية ، لتمييز أصحاب تلك الأفعال القبيحة أكمل تمييز ، وللتنبيه على أنهم أحقاء بما سيخبر به عنهم بعد اسم الإشارة .وكانت الإشارة للبعيد ، للإيذان ببعدهم عن الطريق القويم ، والخلق المستقيم ، وقوله { أولئك } مبتدأ الموصول وصلته خبره .أى : أولئك المتصفون بتلك الصفات القبيحة بطلت أعمالهم في الدنيا والآخرة ، وسقطت عن حيز الاعتبار ، وخلت عن الثمرة التي كانوا يؤملونها من ورائها ، بسبب إشراكهم بالله واعتدائهم على حرماته .وقوله { وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ } نفى لكل ما كانوا يتوهمونه من أسباب النصر ، وقد أكد هذا النفى بمن الزائدة .أى ، ليس لهم من أحد ينصرهم من بأس الله وعقابه ، لا في الدنيا ولا في الآخرة لأنهم بسبب كفرهم وأفعالهم القبيحة صاروا مستحقين للعقاب ، وليس هناك من يدفعه عنهم .فأنت ترى أن الله - تعالى - قد وصفهم بصفات ثلاث : بالكفر وقتل الأنبياء وقتل الذين يأمرون بالقسط من الناس .وتوعدهم - أيضاً - بثلاثة ، أنواع من العقوبات : بالعذاب الأليم ، وحبوط أعمالهم في الدنيا والآخرة وانتفاء من ينصرهم أو يدافع عنهم .وبذلك نرى الآيتين الكريمتين تسوقان أشد ألوان التهديد والوعيد لهؤلاء المعتدين ، بسبب كفرهم وأعمالهم القبيحة .

الم تر الى الذين اوتوا نصيبا من الكتاب يدعون الى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون

كما فسرها الوسيط وبعد أن وصف القرآن هؤلاء المعاندين بالكفر وقتل الأنبياء والمصلحين وبين سوء مصيرهم ، أتبع ذلك ببيان رذيلة من أفحش رذائلهم وهى أنهم يدعون إلى التحاكم إلى الكتاب الذى يزعمون أنهم يؤمنون به ، فيمتنعون : عن ذلك غرورا وعناداً ، استمع إلى القرآن وهو يصور أحوالهم السيئة فيقول : أورد بعض المفسرين روايات في سبب نزول هذه الآيات{ . . . أَلَمْ تَرَ } منها ، ما رواه البخاري عن عبد الله بن عمر أن اليهود جاءوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم برجل منهم وامرأة قد زنيا . فقال لهم : " كيف تفعلون بمن زنى منكم؟ قولا : نحممها - أي نجعل على وجوههما الفحم تنكيلا بهما ، ونضربهما . فقال : ألا تجدون في التوراة الرجم؟ فقالوا :لا نجد فيها شيئا فقال لهم عبد الله بن سلام : كذبتم . فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين . فوضع مدراسها - الذى يدرسها منهم - كفه على آية الرجم فطفق يقرأ ما دون يده وما وراءها ، ولا يقرأ آية الرجم فنزع يده عن الرجم . فقال ما هذه؟ - أى أن عبد الله بن سلام رفع يد القارىء عن آية الرجم وقال له ما هذه - فلما رأى اليهود ذلك قالوا : هى آية الرجم ، فأمر بهما فرجما قريبا من حيث موضع الجنائز عند المسجد " .وقال ابن عباس : " دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت المدارس على جماعة من يهود - أى دخل عليهم في المكان الذى يتدارسون فيه علومهم - فدعاهم إلى الله . فقال له بعضهم : على أى دين أنت يا محمد؟ فقال : إنى على ملة إبراهيم ودينه . فقالوا : فإن إبراهيم كان يهوديا ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم فهلموا إلى التوراة هى بيننا وبينكم؛ فأبوا عليه فأنزل الله هذه الآيات " .وذكر النقاش أنها نزلت لأن جماعة من اليهود أنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فقال لهم : " هلموا إلى التوراة ففيها صفتى " فأبوا " " .قال ابن جرير ما ملخصه : وأولى الأقوال في تأويل ذلك عندى بالصواب أن يقال : إن الله - تعالى - قد أخبر عن طائفة من اليهود المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم أنهم دعوا إلى التوراة للتحاكم إليها في بعض ما تنازعوا فيه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبوا . ويجوز أن يكون هذا التنازع فى أمر نبوته ، أو فى أمر إبراهيم ودينه

أو فى حد من الحدود فإن كل ذلك مما نازعوا فيه رسول الله صلى الله عليه ، وسلم .وكأن ابن جرير - رحمه الله - يريد أن يقول : إن الآيات الكريمة تتسع لكل ما تنازعوا فيه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما دعاهم إلى أن يحكم التوراة بينه وبينهم في شأن هذا التنازع أبوا وأعرضوا وهو رأى حسن والاستفهام في قوله { أَلَمْ تَرَ } للتعجيب من شأنهم ومن سوء صنيعهم حيث. دعوا إلى كتابهم ليحكم بينهم فامتنعوا عن ذلك لأنهم كانوا - كما يقول الألوسي - " إذا عضتهم الحجة فروا إلى الضجة وأعرضوا عن المحجة " ثم قال :و ، من " إما للتبعيض وإما للبيان ، ومعنى " نصيب " هو الكتاب أو نصيبا منه " لأن الوصول إلى كنه كلامه - سبحانه - متعذر " فإن جعل بيانا كان المراد ، إنزال الكتاب عليهم .وإن جعل تبعيضاً كان المراد هدايتهم إلى فهم ما فيه : وعلى التقديرين اللام في " الكتاب " للعهد والمراد به التوارة " .والمعنى قد علمت أيها العاقل حال أولئك الأحبار من اليهود الذين اعطوا قسطا من معرفة كتابهم والذين دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلي التحاكم إلى التوراة التى هى كتابهم فيما حدث بينهم وبينه من نزاع فأبوا أن يستجيبوا لدعوته ، وأعرضوا عنها كما هو شأنهم ودأبهم في الإعراض عن الحق والصواب وعرف المتحدث عنهم - وهم أحبار اليهود - بطريق الموصولية ، لأن في الصلة. ما يزيد التعجيب من حالهم ، لأن كونهم على علم من الكتاب قليل أو كثير من شأنه أن يصدهم عما أخبر به عنهم لو كانوا يعقلون .وجملة { يُدْعَوْنَ إلى كِتَابِ الله } مستأنفة مبينة لمحل التعجب ، أو حال من الذين أوتوا نصيبا من الكتاب .والمراد بكتاب الله : التوراة ، لأن سبب النزول يؤيد ذلك ، لأن التعجيب من حالهم يكون أشد إذا كان إعراضهم إنما هو عن كتابهم . وقيل المراد به القرآن .وقوله { ثُمّ يتولى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ } معطوف على قوله { يُدْعَوْنَ } وجاء العطف بثم للإشعار بالفارق الشاسع بين ما قاموا به من إعراض عن الحق ، وبين كان يجب عليهم أن ، يفعلوه . فإن علمهم بالكتاب كان يقتضى أن يتبعوه وأن يعملوا بأحكامه ولكنهم أبوا ذلك لفساد نفوسهم .وقوله { مِّنْهُمْ } جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة لفريق .وإنما قال { فَرِيقٌ مِّنْهُمْ } ليخرج القلي التي أسلمت . من علماء اليهود كعبد الله بن سلام ، وهذا من إنصاف القرآن في أحكامه واحتراسه في سوق الحقائق ، فهو لا يلقى الأحكام على الجميع جزافا ، وإنما يحدد هذه الأحكام بحيث يدين المتهم ، ويبرىء ساحة البرىء .وقوله { وَهُمْ ، مُّعْرِضُونَ } حال من فريق ، أي ثم يتولى فريق منهم عن سماع الحق والانقياد لأحكامه ، وينفر منها نفورا شديداً ، والحال أنهم قوم ديدنهم الإعراض والانصراف عن الحق .

ذلك بانهم قالوا لن تمسنا النار الا اياما معدودات وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون

} : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - الأسباب التي صرفتهم عن الحق فقال ذلك بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النار إِلاَّ أَيَّاماً مّعْدُودَاتٍ } .واسم الإشارة { ذلك } يعود إلى المذكور من توليهم وإعراضهم عن مجلس النبي صلى الله عليه وسلم وعن سماعهم للحق الذى جاء به والمس : اتصال أحد الشيئين بالآخر على وجه الإحساس والإصابة ، والمراد من. النار : نار الآخرة .والمراد من المعدودات : المحصورات القليلات يقال شىء معدود : أى قليل وشىء غير معدود أى كثير .فهم يزعمون أن النار لن تمسهم إلا مدة يسيرة قد تكون سبعة أيام ، وقد تكون أربعين يوما ، وبعدها يخرجون إلى الجنة .عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : إن اليهود كانوا يقولون إن هذه الدنيا سبعة آلاف سنة ، وإنما نعذب بكل ألف سنة يوما في النار ، وإنما هي سبعة أيام . وفي رواية عنه أنه قال في قوله - تعالى - { وَقَالُواْ لَن تَمَسّنَا النار إِلاّ أيّاماً مّعْدُودَاتٍ } ذلك أعداء الله اليهود قالوا : لن يدخلنا الله النار إلى تحلة القسم ، الأيام التي أصبنا فيها ، العجل أربعين يوما ، فإذا انقضت عنا تلك الأيام انقطع عنا العذاب والقسم أى ذلك التولى والإعراض عن الحق الذى صدر عن كثير من أحبار اليهود وعوامهم. سببه أنهم سهلوا على أنفسهم أمر العقاب ، وتوهموا أنهم لن يعذبوا عذابا طويلا ، بل النار ستمسهم أياما قليلة ثم بعد ذلك يخرجون منها ، لأنهم أبناء } - الله واحباؤه ، ولأن آباءهم سيشفعون لهم في زعمهم .ثم قال - تعالى } وَغَرّهُمْ فِي دِينِهِمْ مّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ } .وقوله وَغَرّهُمْ } من الغرور وهو كل ما يغر الإنسان ويخدعه من مال أو جاه أو شهوة أو غير ذلك من الأشياء التي تغر الإنسان وتخدعه وتجعله غافلا عن اتباع الحق .والمعنى : أنهم سهلوا على أنفسهم الخطوب ، ولم يبالوا بالمعاصي والذنوب ، وأنهم طمعوا في غير مطمع ، وأصاب موضع المغرة والغفلة منهم في دينهم كا كانوا يفترونه من أن النار لن تمسهم إلا أياما معدودات . والغرور . أكبر شىء يبعد الإنسان عن حسن الاستعداد لما يجب عليه نحو دينه ودنياه

فكيف اذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون

كما فسرها الوسيط ثم حكى القرآن ما سيكون عليه حالهم من عذاب وحسرة بأسلوب مؤثر فقال : { فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ } وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ
فالاستفهام هنا للاستعظام والتهويل والرد على مزاعمهم الباطلة .وكيف في موضع نصب على الحال ، والعامل فيه محذوف أي فكيف تكون حالهم ، أو كيف يصنعون . ويجوز أن تكون خبراً لمبتدأ محذوف أى : فكيف حالهم .قال الفخر الرازى : أما قوله { فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ } فالمعنى أنه لما حكى عنهم اغترارهم بما هم عليه من الجهل بين أنه سيجىء يوم يزول فيه ذلك الجهل ، وينكشف فيه ذلك الغرور فقال : { فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ } وفي الكلام حذف والتقدير : فكيف صورتهم وحالهم ، ويحذف الحال كثيراً مع كيف ، لدلالتها عليه تقول كنت أكرمه وهو لم يزرنى فكيف لو زارنى ، أى كيف حاله إذا زارنى . وأعلم أن هذا الحذف يوجب مزيد البلاغة لما فيه من تحريك النفس على استحضار كل نوع من أنواع الكرامة في " قول القائل : " لو زارني ، وكل نوع من أنواع العذاب في هذه الآية والمعنى : فكيف يكون حالهم إذا جمعناهم لجزاء يوم لا ريب فى مجيئه وحصوله. واضمحلت عنهم تلك الزخارف التي أدعوها في الدنيا { وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ } من خير أو شر {وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ } شيئاً ، بل يجازى كل إنسان على حسب عمله ، لا شك أنهم فى هذا اليوم الهائل الشديد سيفاجأون بذهاب غرورهم ، وبفساد تصورهم ، وأنهم سيقعون في العذاب الأليم الذى لا حيلة لهم في دفعه ، ولا مخلص فهم من ذوقه{ يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ } قال الزمخشري : " روى أن أول راية ترفع لأهل الموقف من رايات الكفار راية اليهود ، فيفضحهم الله على رءوس الأشهاد ، ثم يأمر بهم إلى النار " . وبذلك تكون هذه الآيات الكريمة قد وبخت أحبار اليهود الذين يعرضون عن الحق توبيخاً شديداً ، وأبطلت أكاذيبهم وغرورهم ، وردت عليهم بما يفضحهم ويخزيهم وصورت حالهم يوم القيامة تصويراً مؤثراً هائلا تهتز له القلوب ، وترتجف ، منه الأفئدة ويحمل العقلاء على التزود من التقوى والعمل الصالح حتى يفوزوا برضا الله .من توجيهات القرآن الكريم : بعد أن تحدثت سورة آل عمران ، عن المعرضين عن الحق . أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم كما أمر كل مؤمن أن يتوجه إليه بالضراعة . فقال تعالى : { قُلِ اللهم . . . } .

قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء قدير

كما فسرها الوسيط قال القرطبي : قال ابن عباس وأنس بن مالك : " لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ، ووعد أمته ملك فارس والروم ، قال المنافقون واليهود : هيهات هيهات! من أين لمحمد ملك فارس والروم وهم أعز وأمنع من ذلك ، ألم يكف محمداً مكة والمدينة حتى طمع في ملك فارس والروم . فأنزل الله هذه الآية .والأمر بقوله { قُلِ } للنبى صلى الله عليه وسلم ولكل من يتأتى له الخطاب من المؤمنين .وكلمة { اللهم } يرى الخليل وسيبويه أن أصلها يا الله فلما استعملت دون حرف النداء الذى هو " يا " جعلوا هذه الميم المشددة التى فى آخرها عوضا عن حرف النداء ، وهذا التعويض من خصائص الاسم الجليل ، كما اختص بجواز الجمع فيه بين " يا " و " أل " وبقطع همزته ودخول تاء القسم عليه .والمعنى . قل أيها المخاطب على سبيل التعظيم لربك ، والشكر له ، والتوكل عليه والضراعة إليه ، قل : يا الله يا مالك الملك ، ، أنت وحدك صاحب السلطان المطلق في هذا الوجود ، بحيث تتصرف فيه كيف تشاء إيجادا وإعداما ، وإحياء وإماتة ، وتعذيبا وإثابة ، من غير أن ينازعك في ذلك أي منازع .فكأن في هذه الجملة الكريمة { قُلِ اللهم مَالِكَ الملك } } دعاءين خاشعين :أما الدعاء الأول فهو بلفظ الجلالة المعبر عنه بقوله اللهم } أى يا الله ، وفى هذا النداء كل معانى العبودية والتنزيه والتقديس والخضوع .وأما الدعاء الثاني فهو المعبر عنه بقوله { مَالِكَ الملك } أي يا مالك الملك ، وفى هذا النداء كل معانى الإحساس بالربوبية ، والضعف أمام قدرة الله وسلطانه .فقوله { مَالِكَ } منصوب بحرف النداء المحذوف . كما في قوله { قُلِ اللهم فَاطِرَ السماوات والأرض } أى يا فاطر السموات والأرض ثم فصل - سبحانه - بعض مظاهر خلقه التي تدل على أنه هو مالك الملك على الحقيقة فقال - تعالى - { تُؤْتِي الملك مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ الملك مِمَّنْ تَشَآءُ } .أى أنت وحدك الذي تعطى الملك من تشاء إعطاءه من عبادك ، وتنزعه ممن تشاء ، نزعه منهم ، فأنت المتصرف في شئون خلقك لا راد لقضائك ولا معقب لحكمك .وعبر بالإيتاء الذى هو مجرد لإعطاء دون التمليك المؤذن بثبوت المالكية ، للتنبيه على أن المالكية على الحقيقة إنما هي مختصة بالله رب العالمين ، أما ما يعطيه لغيره من ملك فهو عارية مستردة ، وهو شىء زائل لا يدوم .والتعبير عن إزالة الملك بقوله { وَتَنزِعُ الملك مِمَّنْ تَشَآءُ } يشعر بأنه - سبحانه - فى قدرته أن يسلب هذا العطاء من أى مخلوق مهما بلغت

سعة ملكه ، ومهما اشتدت ، قوته ، وذلك لأن لفظ النزع يدل على أن المنزع منه الشىء كان متمسكا به ، فسلبه الله منه بمقتضى قدرته وحكمته .والمراد بالملك
} هنا السلطان ، وقيل النبوة ، وقيل غير ذلك .قال الفخر الرازي : وقوله
تُؤْتِي الملك مَن تَشَآءُ } محمول على جميع أنواع الملك فيدخل فيه ملك
، النبوة ، وملك العقل ، والصحة ، والأخلاق الحسنة . وملك النفاذ والقدرة
وملك المحبة ، وملك الأموال ، وذلك لأن اللفظ عام فالتخصيص من غير دليل لا
يجوز " .ومفعول المشيئة في الجملتين محذوف أى : تؤتى الملك من تشاء إيتاءه
- وتنزعه ممن تشاء نزعه منه .أما الأمر الثاني الذي يدل على أنه - سبحانه
هو مالك الملك على الحقيقة فهو قوله { وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن
تَشَآءُ } .العزة - كما يقول الراغب - حالة مانعة للإنسان من أن يغلب ، من
قولهم : أرض عزاز : أى صلبة ، وتعزز اللحم : اشتد وعز ، كأنه حصل في عزاز
، يصعب الوصول إليه . . . . والعزيز الذى يقهر ولا يغلب .وتذل ، من الذل
وهو ما كان عن قهر ، يقال : ذل يذل ذلا إذا قهر وغلب والعزة صفة نفسية يحس
بها المؤمن الصادق في إيمانه ، لأنه يشعر دائما بأنه عبد الله وحده وليس
عبدا لأحد سواه ، قال - تعالى - { وَلِلَّهِ العزة وَلِرَسُولِهِ
وَلِلْمُؤْمِنِينَ } فالمؤمنون الصادقون أعزاء ولو كانوا في المال والجاه
فقراء . أما الكافرون أذلاء ، لأنهم خضعوا لغير الله الواحد القهار
والمعنى : أنت يا الله يا ملك الملك ، أنت وحدك الذى تؤتى الملك لمن تشاء.
أن تؤتيه له ، وتنزعه ممن تريد نزعه منه ، وأنت وحدك الذي تعز من تشاء
إعزازه بالنصر والتوفيق ، وتذل من تشاء إذلاله بالهزيمة والخذلان ، ثم
- ختم - سبحانه - الآية بهذا التسليم المطلق من المؤمنين لذته فقال - تعالى
أى أنت وحدك الذى. { بِيَدِكَ الخير إِنَّكَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } :
تملك الخير كله ، وتتصرف فيه حسب إرادتك ومشيئتك ، لأنك على كل شىء قدير
، وأل في الخير للاستغراق الشامل ، إذ كل خير فهو بيده - سبحانه - وقدرته.
وتقديم الجار والمجرور { بِيَدِكَ } لإفادة الاختصاص ، أى بيدك وحدك على
الحقيقة لا بيد غيرك ، وجملة " إنكَ على كل شيء قدير " تعليلية .قال صاحب
الكشاف : فإن قلت : " كيف قال { بِيَدِكَ الخير } فذكر الخير دون الشر؟ قلت
لأن الكلام إنما وقع في الخير الذى يسوقه إلى المؤمنين وهو الذى أنكرته :
الكفرة فقال بيدك الخير ، تؤتيه أولياءك على رغم من أعدائك ، ولأن أفعال
الله - تعالى - من نافع وضار صادر عن الحكمة والمصلحة فهو خير كله كإيتاء
الملك ونزعه " .

تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج
الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب

كما فسرها الوسيط ثم ذكر - سبحانه - مظهرا حسيا من مظاهر قدرته الباهرة
فقال : { تُولِجُ الليل فِي النهار وَتُولِجُ النهار فِي الليل } .الولوج
، في الأصل : الدخول ، والإيلاج الإدخال . يقال : ولج فلان منزله إذا دخله
فهو يلجه ولجا وولوجا .وأولجته أنا إذا أدخلته ، ثم استعير لزيادة زمان
النهار في الليل وعكسه بحسب المطالع والمغارب .أى أنت يا الله يا مالك
الملك . أنت الذى بقدرتك تدخل طائفة من الليل في النهار فيقصر الليل ويزيد
النهار وتدخل طائفة من النهار في الليل فيقصر النهار ويزيد الليل ، وأنت
وحدك الذى بقدرتك أن تجعلهما متعاقبين بأن تأتى بالليل رويداً رويداً في
أعقاب النهار ، وتأتي بالنهار شيئاً فشيئاً فى أعقاب الليل ، وفى كل ذلك
دليل على سعة قدرتك ، وواسع رحمتك . وتذكير واعتبار لأولى الألباب .ثم
ذكر - سبحانه - مظهرا حسيا آخر من مظاهر قدرته فقال : { وَتُخْرِجُ الحي
مِنَ الميت وَتُخْرِجُ الميت مِنَ الحي } .قال الفخر الرازي : ذكر المفسرون
فيه وجوها .أحدها : يخرج المؤمن من الكافر كإبراهيم من آزر ، والكافر من
- المؤمن مثل كنعان من نوح .والثاني : يخرج الحيوان - وهو حى - من النطفة
وهي ميتة - ، والدجاجة - وهي حية - من البيضة أو العكس .والثالث : يخرج
السنبلة من الحبة وبالعكس والنخلة من النواة وبالعكس : ثم قال : والكلمة
محتملة للكل : أما الكفر والإيمان فقال - تعالى - { أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً
فَأَحْيَيْنَاهُ } يريد كان كافرا فهديناه ، فجعل الكفر موتاً والإيمان
} : حياة ، وسمى إخراج النبات من الأرض إحياء وجعل ما قبل ذلك ميتة فقال
وَيُحْيِي الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا } وقال : { فَسُقْنَاهُ إلى بَلَدٍ
مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا } وقال : { كَيْفَ
تَكْفُرُونَ بالله وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ
ثُمَّ يُحْيِيكُمْ } وفى الحق : إن المتدبر فى هذا الكون وما يعترى سكانه
من موت وحياة ليشهد ويذعن بأن لهذا الكون خالقا قادراً هو الله الواحد
القهار .ثم ختم - سبحانه - مظاهر قدرته ورحمته بقوله { وَتَرْزُقُ مَن
تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } والرزق - كما يقول الراغب - يقال للعطاء الجارى
تارة دنيوا كان أو أخرويا . وللنصيب تارة ، ولما يصل إلى الجوف ويتغذى به
} : - تارة أخرى يقال : أعطى السلطان رزق الجند ، ورزقت علما ، قال - تعالى
وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ

، الموت } أى : من المال والجاه والعلم " .أى أنت يا الله يا مالك الملك
أنت وحدك الذى ترزق من تشاء أن ترزقه بغير حساب ، أى رزقا واسعا عظيما لأنك
أنت صاحب الجود والكرم ، ولأنك ليس معك شريك فيحاسبك ، بل أنت المعطى بدون
محاسب ، وبدون محاسبة من تعطيه ، ولأن خزائن ملكك لا ينقصها العطاء مهما
كثر .ومن كانت هذه صفاته ، وتلك بعض مظاهر قدرته : من إيتاء الملك لمن يشاء
ونزعه ممن يشاء وإيلاج الليل فى النهار والنهار فى الليل ، وإخراج الحى من
الميت والميت من الحى ، كان من حقه أن يفرد بالعبادة والخضوع { أَلاَ لَهُ
الخلق والأمر تَبَارَكَ الله رَبُّ العالمين }قال ابن كثير : روى الطبرانى
عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : " اسم الله الأعظم الذى
إذا دُعى به أجاب في هذه الآية : { قُلِ اللهم مَالِكَ الملك تُؤْتِي الملك
مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ الملك مِمَّنْ تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ
{ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ الخير إِنَّكَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ
وبذلك نرى أن هاتين الآيتين الكريمتين قد وصفتا الخالق - عز وجل - بما. "
هو أهله ، من قدرة تامة وسلطان نافذ ، ورحمة واسعة ، وهذا الوصف من شانه أن
يحمل كل عاقل على إخلاص العبادة له - سبحانه - وعلى الاستجابة لكل ما أمر
- به أو نهى عنه رغبة في ثوابه ، ورهبة من عقابه . وبعد أن بين - سبحانه
أنه هو وحده مالك الملك ، وأنه على كل شىء قدير ، عقب ذلك بنهى المؤمنين عن
موالاة أعدائه بسبب قرابة أو صداقة أو نحوهما ، فقال - تعالى- : { لاَّ
يَتَّخِذِ . . . ) .

لا يتخذ المؤمنون الكافرين اولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من
الله في شيء الا ان تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه والى الله المصير

كما فسرها الوسيط أورد المفسرون في سبب نزول هذه الآية روايات :منها أن
جماعة من اليهود كانوا يصادقون جماعة من الأنصار ليفتنوهم عن دينهم فقال
رفاعة ابن المنذر ، وعبد الله بن جبير ، وسعيد بن خيشمة لأولئك النفر من
الأنصار : اجتنبوا هؤلاء اليهود واحذروا ملازمتهم وبماطنتهم لئلا يفتنوكم
- عن دينكم ، فأبى أولئك النفر إلا مباطنتهم وملازمتهم ، فأنزل الله
- تعالى - هذه الآية " .وقوله { أَوْلِيَآءَ } جمع ولى ، والولاء والتوالى
، كما يقول الراغب : أن يحصل شيئان فصاعداً حصولا ليس بينهما ما ليس منهما
ويستعار ذلك للقرب من حيث المكان ، ومن حين النسبة ومن حين الدين ومن حيث
- الصداقة والنصرة والاعتقاد .والولاية - بكسر الواو - النصرة والولاية
" تولى الأمر ، وقيل هما بمعنى واحد " .و " لا " ناهية . والفعل " يتخذ
} : مجزوم بها ، وهو متعد لمفعولين :أولهما : { الكافرين } .وثانيهما
أَوْلِيَآءَ } .والمعنى :لا يحل للمؤمنين أن يتخذوا الكافرين أولياء
ونصراء ، بل عليهم أن يراعوا ما فيه مصلحة الإسلام والمسلمين ، وأن يقدموها
على ما بينهم وبين الكفار من قرابة أو صداقة أو غير ذلك من ألوان الصلات
لأن في تقديم مصلحة الكافرين على مصلحة المؤمنين تقديما للكفر على الإيمان
ومن شأن المؤمن الصادق في إيمانه أن لا يصدر منه ذلك .وقد ورد مثل هذا
النهى فى كثير من الآيات ومن ذلك قوله - تعالى - { ياأيها الذين آمَنُواْ
لاَ تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ
بالمودة } وقوله - تعالى - { ياأيها الذين آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ
اليهود والنصارى أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن
يَتَوَلَّهُمْ مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ } قال اللآلوسي : وقوله { مِن
دُونِ المؤمنين } حال من الفاعل ، أى متجاوزين المؤمنين إلى الكافرين
استقلالا أو اشتراكا ، ولا مفهوم لهذا الظرف إما لأنه ورد في قوم بأعيانهم
والَوْا الكفار دون المؤمنين فهو لبيان الواقع . أو لأن ذكره للإشارة إلى
" أن الحقيق بالموالاة هم المؤمنون ، وفى موالاتهم مندوحة عن موالاة الكفار
قالوا : والموالاة الممنوعة هي التي يكون فيها خذلان للدين أو إيذاء لأهله.
أو إضاعة لمصالحهم ، وأما ما عدا ذلك كالتجارة وغيرها من ضروب المعاملات
الدنيوية فلا تدخل في ذلك النهي ، لأنها ليس معاملة فيها أذى للإسلام
والمسلمين " .وكرر - سبحانه - لفظ " المؤمنين " بأداة التعريف أل للإشارة
إلى أن الثاني هو عين الأول ، وفي ذلك إشعار بأن المؤمنين الذين يتخذون
الكافرين أولياء ونصراء ، يتركون أنفسهم ويهملونها ويتخذون من عدونهم نهاية
لها .ثم قال - تعالى - { وَمَن يَفْعَلْ ذلك فَلَيْسَ مِنَ الله فِي شَيْءٍ
أى : ومن يتخذ الكافرين أولياء وأنصارا من دون المؤمنين ، فإنه في هذه { }
الحالة يكون بعيدا عن ولايته لله ، ومنسلخا منها رأسا وليس بينه وبين الله
صلة تذكر .فاسم الإشارة { ذلك } يعود على الاتخاذ المفهوم من الفعل
يتخذ؟والتنوين في { شَيْءٍ } للتحقير أى ليس في شىء يصح أن يطلق عليه اسم
الولاية ، لأن موالاة الولى وموالاة عدوه متنافيان كما قال الشاعر :تود
} عدوى ثم تزعم أنني ... صديقك ليس النوك عنك بعازبو " من " شرطية ، و
يَفْعَلْ } فعل الشرط ، وجوابه " فليس من الله في شىء " واسم ليس ضمير يعود
على " من " وقوله { فِي شَيْءٍ } خبرها . أى فليس الموالى في شىء كائن من
- الله - تعالى - والجملة معترضى بين المستثنى والمستثنى منه .وقال - سبحانه

ولم يقل " فليس من ولاية الله " للإشعار بأن من { فَلَيْسَ مِنَ الله }
اختار مناصرة المشركين وموالاتهم فقد ترك ذات الله - تعالى - وكان مؤثرا
، لقوة الكفار على قوة العزيز الجبار ، فهو في هذه الحالة يعاند الله نفسه
ثم استثنى - سبحانه - من أحوال النهى حال التقية فقال : { إِلاَّ أَن
تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً } وقوله : { تَتَّقُواْ } من الاتقاء بمعنى
- تجنب المكروه ، وعدى بمن لتضمينه معنى تخافوا { تُقَاةً } مصدر تقيته
كرميته - بمعنى اتقيته ووزنه فعلة ويجمع على تقى : كرطبة ورطب . وأصل تقاة
وقية من الوقاية . فأبدلت الواو المضمومة تاء والياء ألفا لتحركها :
وانفتاح ما قبلها .والاستثناء مفرغ من عموم الأحوال ، والتقدير :لا تتخذوا
أيها المؤمنون الكافرين أولياء في أي حال من الأحوال إلا في حال اتقائكم
منهم أى إلا أن تخافوا منهم مخافة . أو إلا أن تخافوا من جهتهم أمرا يجب
اتقاؤه من الضرر في النفس أو المال أو العرض .كأن يكون الكفار غالبين
ظاهرين . أو كنتم في قوم كفار فيرخص لكم في مداراتهم باللسان ، على ألا
تنطوى قلوبكم على شىء من مودتهم ، بل دارونهم وأنتم لهم كارهون . وألا
تعملوا ما هو محرم كشرب الخمر ، أو إطلاعهم على عورات المسلمين أو الانحياز
. إليهم في مجافاة بعض المسلمين ، وإذن فلا رخصة إلا في المداراة باللسان
} - ثم ختم - سبحانه - الآية بهذا التهديد الشديد حيث قال - تعالى
وَيُحَذِّرُكُمُ الله نَفْسَهُ وإلى الله المصير } .والتحذير : هو التخويف
: لأجل الحذر واليقظة ، من أن يقع الإنسان في قول أو عمل منهى عنه .ونفسه
- منصوب على نزع الخافض . والمصير : المرجع والمآب .أى : ويحذركم الله
تعالى - من نفسه أى من عقابه وانتقامه ، وإليه - سبحانه - مرجعكم ومصيركم
فيحاسبكم على أعمالكم .وقوله { وَيُحَذِّرُكُمُ الله نَفْسَهُ } فيه ما فيه
من التهديد والتخويف من موالاة الكافرين ، لأن التحذير من ذات الله ، يقتضى
الخوف ووقع الرهبة في النفس من الذات العلية ، وذلك كما يقال : - والله
المثل الأعلى - احذر الأسد ، فإن هذا القائل يريد أن ذات الأسد في كل
أحوالها موهوبة ، ولأن كلمة " نفس " تقال لتأكيد التعبير عن الذات .أي أن
، التحذير قد جاءكم من الله - تعالى -لا من غيره فعليكم أن تمتثلوا أمره
فإن إليه وحده المآل وانتهاء أمر العباد .وسيجازيهم على أعمالهم بما
يستحقون فاحذروا التعرض لعقابه ، وقوله { وَإِلَيّ المصير } تذييل مقرر
- لمضمون ما قبله ومحقق لوقوعه . هذا ، ولبعض العلماء كلام طويل عن التقية
وهى أن يظهر الإنسان خلاف ما يبطن مخافة الأذى الشديد - فقد قال الآلوسى ما
ملخصه :" وفي الآية دليل على مشروعية التقية ، وعرفوها بالمحافظة على النفس
أو العرض من شر الأعداء . .والعدو قسمان :الأول : من كانت عداوته مبنية على
اختلاف الدين كالكافر والمسلم .والثاني : من كانت عداوته مبنية على أغراض
دنيوية كالمال والمتاع والإمارة ، ومن هنا صارت التقية قسمين :أما القسم
الأول فالحكم الشرعي فيه أن كل مؤمن وقع في محل لا يمكن له فيه أن يظهر
دينه لتعرض المخالفين له بالعداوة فإنه يجب عليه أن يهاجر من ذلك المكان
إلى مكان يستطيع فيه أن يظهر دينه ، إلا إذا كان ممن لهم عذر شرعي كالنساء
والصبيان والعجزة فقد قال تعالى : { إِنَّ الذين تَوَفَّاهُمُ الملائكة
ظالمي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا
مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قالوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ الله وَاسِعَةً
فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فأولئك مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيراً
إِلاَّ المستضعفين مِنَ الرجال والنسآء والولدان لاَ يَسْتَطِيعُونَ
حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً فأولئك عَسَى الله أَن يَعْفُوَ
عَنْهُمْ وَكَانَ الله عَفُوّاً غَفُوراً } وإذا كان التخويف بالقتل ونحوه
جاز له المكث والموافقة لهم ظاهرا بقدر الضرورة مع السعى في حيلة للخروج
والفرار بدينه .والموافقة لهم حينئذ رخصة ، وإظهار ما في قلبه عزيمة فلو
مات مات شهيداً بدليل ما روى من أن مسيلمة الكذاب أخذ رجلين من أصحاب النبي
صلى الله عليه وسلم فقال لأحدهما : " أتشهد أن محمدا رسول الله؟ قال : نعم
نعم ، نعم فقال له : أتشهد أنى رسول الله؟ قال : نعم . ثم دعا الثاني ،
فقال له أتشهد أنى رسول الله؟ قال إني رسول الله؟ قال إنى أصم ، قالها
ثلاثا ، فضرب عنقه ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " أما
هذا المقتول فقد مضى على صدقه ويقينه فهنيئا له . وأما الآخر فقد قبل رخصة
الله فلا تبعة عليه " .وأما القسم الثانى وهو من كانت عداواته بسبب المال
والإمارة وما إلى ذلك ، فقد اختلف فى وجوي هجرة صاحبه ، فقال بعضهم تجب أن
الله قد نهى عن إضاعة المال . وقال آخرون لا تجب ، لأنها لمصلحة دنيوية ولا
يعود على من تركها نقصان في الدين .وعد قوم من باب التقية الجائزة مداراة
الكفار والفسقة والظلمة وإلانة الكلام لهم والتبسم في وجوههم لكف أذاهم
وصيانة العرض منهم - بشرط أن لا تكون هذه المدارة مخالفة لأصول الدين
" : وتعاليمه - فإن كانت مخالفة لذلك فلا تجوز .روى البخارى عن عائشة قالت
استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا عنده فقال رسول الله صلى
الله عليه وسلم بئس أخو العشيرة ، ثم أذن له فألان له القول ، فقلت يا رسول
الله قلت ما قلت ثم ألنت له القول؟ فقال : " يا عائشة إن من شر الناس من
يتركه الناس اتقاء فحشه " إلى غير ذلك من الأحاديث . لكن لا تنبغي المداراة

- إلى حيث يخدش الدين ، ويرتكب المنكر ، وتسىء الظنون " .ثم يبين - سبحانه
أنه عليم بالظواهر والبواطن ، وأمر بأن يكثروا من العمل الصالح الذى ينفعهم
، يوم القيامة ، وأن يلتزموا طاعة الله ورسوله لكى يسعدوا في دينهم ودنياهم
وأن يراقبوا الله - تعالى - في أقوالهم وأعمالهم لأنه - سبحانه - لا تخفى
. عليه خافية فقال تعالى : { قُلْ إِن تُخْفُواْ . . . }

قل ان تخفوا ما في صدوركم او تبدوه يعلمه الله ويعلم ما في السماوات وما في
الارض والله على كل شيء قدير

كما فسرها الوسيط المعنى : قل يا محمد لهؤلاء الذين يتخذون الكافرين أولياء
من دون المؤمنين ، وقل لغيرهم ممن يوجه إليهم الخطاب ، قل لهم على سبيل
الإرشاد والتحذير { إِن تُخْفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ } من
ولاية الكفار أو غيرها من الأقوال والأفعال { يَعْلَمْهُ الله } فيجازيكم
عليه بما تستحقون .وفي أمر النبي صلى الله عليه وسلم بتوجيه هذا القول إلى
المخاطبين ترهيب لهم من الآمر وهو الله - تعالى - لأن هذا التنويع في
- الخطاب من شأنه أن يربى المهابة في القلوب . وذلك - والله المثل الأعلى
كأن يقول الملك للمخالفين من رعيته : أحذركم من مخالفتى ، ثم يأمر أحد
} أصفيائه بأن يكرر هذا التحذير وأن يبين لهم سوء عاقبة المخالفين .وقوله
وَيَعْلَمُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض } جملة مستأنفة وليست معطوفة
على جواب الشرط وهو { يَعْلَمْهُ الله } ، وذلك لأن علمه - سبحانه - بما في
السموات والأرض ليس متوقفا على شرط فلذلك جيء به مستأنفا . وهذا من باب ذكر
بالعام بعد الخاص وهو علم ما فى صدوركم تأكيدا له وتقريراً .وقوله { والله
على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } تذييل قصد به الإخبار بأنه مع علمه الواسع
المحيط ، ذو قدرة نافذة على كل شىء وهذا لون من التهديد والتحذير لأن الذي
يتوعد غيره بشىء لا يحول بينه وبين تحقيق هذا الشىء إلا أحد أمرين : الجهل
بجريمة المجرم ، أو العجز عن تنفيذ وعيده ، فلما أعلمهم - سبحانه - بأن
محيط بكل شىء وقادر على كل شىء ، ثبت أنه - سبحانه - متمكن من تنفيذ وعيده
قال صاحب الكشاف : " وقوله { والله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } أى : هو.
قادر على عقوبتكم وهذا بيان لقوله { وَيُحَذِّرُكُمُ الله نَفْسَهُ } لأن
نفسه وهى ذاته المميزة من سائر الذوات ، متصفة بعلم ذاتى لا يختص بمعلوم
دون معلوم . فهى متعلقة بالمعلومات كلها وبقدرة ذاتية لا تختص بمقدور دون
مقدور ، فهى قادرة على المقدورات كلها فكان حقها أن تحذر وتتقى فلا يجسر
. أحد على قبيح ولا يقصر عن واجب فإنه مطلع عليه لا محالة فلاحق به العقاب
ولو علم بعض عبيد السلطان أنه أراد الاطلاع على أحواله ، فوكل همه بما يورد
ويصدر ، ونصب عليه عيونا ، وبث من يتجسس عن بواطن أموره : لأخذ حذره و تيقظ
في أمره ، واتقى كل ما يتوقع فيه الاسترابة به ، فما بال من علم أن العالم
بالذات - يعنى أن علمه بذاته لا بعلم زائد عن ذاته كعلم الحوادث وهذا عند
المعتزلة - الذى يعلم السر وأخفى مهيمن عليه وهو آمن . اللهم إنا نعوذ بك
. " من اغترارنا بسترك

يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو ان بينها
وبينه امدا بعيدا ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد

كما فسرها الوسيط ثم كرر - سبحانه - التحذير من الحساب يوم القيامة وما يقع
فيه من أهوال ورغب المؤمنين في العمل الصالح فقال : { يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ
نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سواء
تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً } .قال الآلوسى
الأمد : غاية الشىء ومنتهاه والفرق بينه وبين الأبد أن الأبد مدة من :
، الزمان غير محدودة والأمد مدة لها حد مجهول ، والمرادهنا الغاية الطويلة
، وذهب بعضهم إلى أن المراد بالأمد البعيد المسافة البعيدة ، ولعله الأظهر
فالتمنى هنا من قبيل التمنى فى قوله - تعالى - { ياليت بَيْنِي وَبَيْنَكَ
بُعْدَ المشرقين } والمعنى : راقبوا ربكم أيها المؤمنون . وتزودوا من العلم
} الصالح واذكروا { يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ } في الدنيا
، مِنْ خَيْرٍ } وإن كان مثقال ذرة { مُّحْضَراً } لديها مشاهدا في الصحف
حتى لكأنه قد أحضر من الدنيا إلى الآخرة فيرى رأى العين { وَمَا عَمِلَتْ
مِن سواء } تراه أيضا ظاهرا ثابتا مسجلا عليها ، وتتمنى لو أن بينها وبين
هذا العمل السىء زمنا طويلا ، ومسافة بعيدة وذلك لأن الإنسان يتمنى دائما
أن يكون بيعدا بعدا شاسعاً عن الشىء المخيف المؤلم خصوصاً فى هذا اليوم
، العصيب وهو يوم القيامة .وقوله { يَوْمَ } متعلق بمحذوف تقديره اذكروا
وهو مفعول به لهذا المحذوف . و " تجد " يجوز أن يكون متعديا لواحد فيكون
بمعنى تصيب وتصادف ، ويكون " محضراً " على هذا منصوبا على الحال . قال
} الجمل : وهذا هو الظاهر . ويجوز أن يكون بمعنى تعلم فيتعدى لاثنين أولهما
مّا عَمِلَتْ } والثاني { مُّحْضَراً } .وقوله { وَمَا عَمِلَتْ مِن سواء
معطوف على قوله { مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ } .ويرى بعضهم أن " ما " فى {

قوله { وَمَا عَمِلَتْ مِن سواء } متبدأ ، وخبرها جملة { لَوْ أَنّ
بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً } فيكون المعنى : ما عملت من سوء
} تتمنى كل نفس أن يكون بينها وبينه أمدا بعيدا .أتى - سبحانه - بقوله
مُّحْضَراً } فى جانب الخير فقط من أن عمل السوء أيضاً يكون محضراً للإشعار
يكون عمل الخير هو المراد بالذات . وهو الذى يتمناه الإنسان ويرجو حضوره فى
هذا لما يترتب عليه من ثواب وأما عمل الشر فتتمنى كل نفس اقترفته لو بعد
} - عنها ولم تره بسبب ما يترتب عليه من عقاب .وقوله - سبحانه
- وَيُحَذِّرُكُمُ الله نَفْسَهُ } تكرير للتحذير الأول الذى جاء فى قوله
تعالى - { لاَّ يَتَّخِذِ المؤمنون الكافرين أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ
، المؤمنين } والسر في هذا التكرير زيادة التحذير من عقاب الله وانتقامه
فإن تكرار التحذير من شأنه أن يغرس في القلوب التذكر والاعتبار والوجل
وقيل : إن التحذير الأول ذكر للنهى عن موالاة الكافرين . والذى هنا ذكر.
: للحث على عمل الخير والتنفير من عمل الشر .ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله
ومن مظاهر رأفته ورحمته أنه حذر عباده قبل أن { والله رَؤُوفُ بالعباد }
يعاقبهم ، وأنه يعفو عن كثير من ذنوب عباده ، وأنه فتح لهم باب التوبة حتى
. يقلعوا عن خطاياهم .إلى غير ذلك من مظاهر رأفته ورحمته

قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم

كما فسرها الوسيط ثم أمر الله - تعالى - رسول الله صلى الله عليه وسلم أن
يرشد الناس إلى الطريق الذى متى سلكوه كانوا حقا محبين لله ، وكانوا من
يحبهم - سبحانه - فقال تعالى : { قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ الله
: فاتبعوني يُحْبِبْكُمُ الله وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ } .قال بعضهم
عن الحسن البصرى قال : قال قوم علَى عهد النبى صلى الله عليه وسلم يا محمد
إنا نحب ربنا ، فأنزل الله الآية ، وروى محمد بن إسحاق عن إسحاق عن محمد بن
جعفر بن الزبير قال : " نزلت في نصارى نجران وذلك أنهم قالوا : إنما نعظم
المسيح ونعبده حبا لله وتعظيما له فأنزل الله هذه الآية ردا عليهم " .ومحبة
العباد لله - كما يقول الزمخشرى - مجاز عن إرادة نفوسهم اختصاصه بالعبادة
دون غيره ورغبتهم فيها ، ومحبة الله عباده أن يرضى عنهم ويحمد فعلهم
والمعنى : قل يا محمد للناس على سبيل الإرشاد والتبيين : إن كنتم تحبون.
، الله حقا كما تدعون ، فاتبعوني ، فإن اتباعكم لى يؤدى إلى محبة الله لكم
وإلى غفرانه لذنوبكم ، وذلك لأن محبة الله ليست دعوة باللسان ، وإنما محبة
الله تتحقق باتباع ما أمر به ، واجتناب ما نهى عنه على لسان رسوله محمد صلى
الله عليه وسلم الذى أرسله رحمة للعالمين .قال ابن كثير عند تفسيره لهذه
الآية : " هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على
، الطريقة المحمدية ، بأنه كاذب في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدى
والدين النبوى في كل أقواله وأعماله كما ثبت في الصحيح عن رسول الله صلى
} الله عليه وسلم أنه قال : " من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد " .وقوله
يُحْبِبْكُمُ } جواب الأمر ، وهو قوله { فاتبعوني } . وهذا رأى الخليل
ويرى أكثر المتأخرين من النحاة أن قوله " يحببكم الله " جواب لشرط مقدر دل.
عليه المقام والتقدير : إن كنتم تحبون الله فاتبعونى ، وإن اتبعتمونى
يحببكم الله ، أى يمنحكم الثواب الجزيل ، والأجر العظيم ، والرضا الكبير
فأنت ترى أن الآية الكريمة قد بينت أن أول علامات محبة العبد لربه ، هى.
- اتباع رسوله صلى الله عليه وسلم وأن هذا الاتباع يؤدى إلى محبة الله
، تعالى - لهذا العبد وإلى مغفرة ذنوبه .ومحبة الله لعبده هى منتهى الأمانى
وغاية الآمال ، ولذا قال بعض الحكماء : " ليس الشأن أن تحب إنما الشأن أن
تَحب " . ومحبة الله إنما تتأتى بإخلاص العبادة والوقوف عند حدوده
والاستجابة لتعاليم رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وكل من يدعى أنه محب لله
وهو معرض عن أوامره ونواهيه فهو كاذب فى دعواه كما قال الشاعر الصوفى :تعصى
الإله وأنت تظهر حبه ... هذا لعمرى في القياس بديعلو كان حبك صادقاً لأطعته
} : إن المحب لمن يحب مطيعثم ختم - سبحانه - الآية بوصفين جليلين فقال ...
والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ } أى أنه - سبحانه - كثير الغفران والرحمة لمن تقرب
. إليه بالطاعة ، واتبع رسوله فيما جاء به من عنده

قل اطيعوا الله والرسول فان تولوا فان الله لا يحب الكافرين

كما فسرها الوسيط ثم كرر - سبحانه - الأمر لرسوله صلى الله عليه وسلم بأن
يحض الناس على اتباع ما يسعدهم فقال له : { قُلْ أَطِيعُواْ الله والرسول }
، أى قل لهم يا محمد أطيعوا الله وأطيعوا رسوله في جميع الأوامر والنواهى.
، وإن من يدعى أنه مطيع لله دون أن يتبع رسوله فإنه يكون كاذبا في دعواه
ولذا لم يقل - سبحانه - أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، للإشعار بأن الطاعة
واحدة وأن طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم طاعة لله تعالى ، كما قال سبحانه
ثم ذكر - سبحانه - عاقبة { مَّنْ يُطِعِ الرسول فَقَدْ أَطَاعَ الله } :

العصاة المعاندين فقال : { فإِن تَوَلّوْاْ فَإِنّ الله لاَ يُحِبُّ
الكافرين } أى : فإن أعرضوا عما تأمرهم به يا محمد ولم يستجيبوا لك
واستمروا على كفرهم ، فإنهم لا ينالون محبة الله ، لأنهم كافرون .ففى هذه
الجملة الكريمة دلالة على أن محبة الله لا ينالها إلا من يتبع الرسول صلى
الله عليه وسلم لأنه - سبحانه - نفى حبه عن الكافرين ، ومتى نفى حبه عنهم
فقد أثبت بغضه ، و لأنه عبر عن تركهم اتباع رسوله بالتولى وهو أفحش أنواع
الإعراض ، ومن أعرض عن طاعة رسول الله كان بعيداً عن محبة الله .وبذلك نرى
أن هذه الآيات الكريمة قد ساقت للناس من التوجيهات السامية ، والآداب
العالية ما من شأنه أن يغرس في النفوس إخلاص العبادة لله ، والخشية من
عقابه ، والأمل في ثوابه ، والإكثار من العلم الصالح الذى يؤدى إلى رضا
الله ومحبته .وبعد هذا الحديث الحكيم المتنوع - من أول السورة إلى هنا - عن
وحدانية الله ، وقدرته النافذة وعلمه المحيط ، وعن أحقيته للعبادة والخضوع
وعن الكتب السماوية وما اشتملت عليه من هدايات وعن محكم القرآن ومتشابهه ،
وعن رعاية الله - تعالى - لعباده المؤمنين ، وعن تهديد الكافرين بسوء ،
العاقبة إذا ما استمروا على كفرهم ، وعن الشهوات الذى ارتضاه الله لعباده ،
وعن بعض الرذائل التى عرفت عن أكثر أهل الكتاب ، وعن حث الناس على مراقبة
الله - تعالى - وإخلاص العبادة له حتى يكونوا ممن يحبهم ويحبونه فيسعدوا في
دينهم ودنياهم وآخرتهم . . . بعد كل ذلك تحدث القرآن - في أكثر من ثلاثين
آية - عمن اصطفاهم الله من عباده ، وعن جانب من قصة مريم ، وقصة زكريا
وابنه يحيى - عليهما السلام - وعن قصة ولادة عيسى - عليه السلام - وما
صاحبها من خرق للعادات ، وما منحه - سبحانه - من معجزات وعن محاجة الكافرين
من أهل الكتاب في شأنه وكيف رد القرآن عليهم . . . استمع إلى القرآن الكريم
. وهو يحكى ذلك بأسلوبه البليغ المؤثر فيقول : { إِنّ الله . . . }

ان الله اصطفى ادم ونوحا وال ابراهيم وال عمران على العالمين

كما فسرها الوسيط قوله { اصطفى } من الاصطفاء وهو الاختيار والانتقاء وطلب
- الصفوة من كل شي . وقوله { وَآلَ إِبْرَاهِيمَ } الآل - كما يقول الراغب
مقلوب عن الأهل إلا أنه خص بالإضافة إلى أعلام الناطقين دون النكرات ودون
الأزمنة والأمكنة . يقال آل فلان ولا يقال آل رجل ولا آل زمان كذا أو موضع
كذا . . . ويضاف إلى الأشرف الأفضل فيقال آل الله وآل السلطان ولا يقال آل
الحجام . . . . ويستعمل الآل فيمن يختص بالإنسان اختصاصا ذاتيا إما بقرابة
قريبة أو بموالاة قال - تعالى - { وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ }
والمعنى : إن الله - تعالى - قد اختار واصطفى { ءَادَمَ } أبا البشر ، بأن.
} جعله خليفة في الأرض ، وعلمه الأسماء كلها ، وأسجد له ملائكته .واصطفى
، نُوحاً } لأنه - كما يقول الآلوسى - آدم الأصغر ، والأب الثاني للبشرية
وليس أحد على وجه البسيطة إلا من نسله لقوله - سبحانه - { وَجَعَلْنَا
ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الباقين } واصطفى { آلَ إِبْرَاهِيمَ } أى عشيرته وذوى
قرباه وهم إسماعيل وإسحاق والأنبياء من أولادهما .واصطفى { آلَ عِمْرَانَ }
إذ جعل فيهم عيسى - عليه السلام - الذى آتاه الله البينات ، وأيده بروح
القدس .والمراد بعمران هذا والد مريم أم عيسى - عليه سلام - فهو عمران بن
- ياشم بن ميشا بن حزقيا . . . . وينتهى نسبه إلى إبراهيم - عليه السلام
وإن في ذلك التسلسل دليل على أن الله - تعالى - قد اقتضت حكمته أن يجعل في.
الإنسانية من يهديها إلى الصراط المستقيم فقد ابتدأت الهداية بآدم أبى
البشر كما قال - تعالى - : { ثُمَّ اجتباه رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وهدى }
ثم جاء من بعده بقرون لا يعلمها إلا الله نوح - عليه السلام - فمكث يدعو
الناس إلى وحدانية الله وإلى مكارم الأخلاق " ألف سنة إلا خمسين عاماً " ثم
، جاء من بعد ذلك إبراهيم - عليه السلام - فدعا الناس إلى عبادة الله وحده
فكان هو وآله صفوة الخلق وفيهم النبوة فمن إسماعيل بن إبراهيم كان محمد صلى
الله عليه وسلم الذى ختمت به الرسالات السماوية .ومن إسحاق وبنيه كان عدد
من الأنبياء كداود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون . . . ومن فرع إسحاق
كان آل عمران وهم ذريته وأقاربه كزكريا ويحيى وعيسى الذي كان آخر نبى من
هذا الفرع .وفى التعبير بالاصطفاء تنبيه إلى أن آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل
عمران صفوة الخلق ، إذ أن الرسل والأنبياء جميعا من نسلهم .وقوله { عَلَى
. العالمين } أى على عالمى زمانهم . أى أهل زمان كل واحد منهم

ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم

كما فسرها الوسيط ثم صرح - سبحانه - بعد ذلك بتسلسل هذه الصوة الكريمة
بعضها من بعض فقال { ذُرّيّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ } وأصل الذرية - كما
يقول القرطبي - فعلية من الذر ، لأن الله - تعالى - أخرج الخلق من صلب آدم
كالذر حين أشهدهم على أنفسهم - وقيل هو مأخوذ من ذرأ الله الخلق يذرؤهم
درءًا خلقهم ، ومنه الذرية وهى نسل الثقلين " .والمعنى : أن أولئك المصطفين
الأخيار بعضهم من نسل بعض ، فهم متصلو النسب ، فنوح من ذرية آدم ، وآل

إبراهيم من ذرية نوح ، وآل عمران من ذرية آل إبراهيم ، فهم جميعا سلسلة متصلة الحلقات فى النسب ، والخصال الحميدة .وقوله {ذُرِّيَّةً } منصوب على الحال من آل إبراهيم وآل عمران . ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : { والله سَمِيعٌ عَلِيمٌ } أى هو - سبحانه - سميع لأقوال عباده فى شأن هؤلاء المصطفين الأخيار وفى شأن غيرهم عليم بأحوال خلقه علما تاما بحيث لا تخفى عليه خافية تصدر عنهم .والجملة الكريمة تذييل مقرر لمضمون ما قبلها ، ومؤكد له .

اذ قالت امرات عمران رب اني نذرت لك ما في بطني محررا فتقبل مني انك انت السميع العليم

كما فسرها الوسيط ثم حكى سبحانه ما قالته امرأة عمران عندما أحست بعلامات الحمل فقال تعالى : { إِذْ قَالَتِ امرأت عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي } والظرف " إذ " في محل النصب على المفعولية بفعل محذوف والتقدير : أذكر لهم وقت قولها رب إنى نذرت . . . ألخ . وقيل هو متعلق بقوله { والله سَمِيعٌ عَلِيمٌ } أى أنه - سبحانه - يعلم علم ما يسمع في الوقت الذي قالت فيه امرأة عمران ذلك القول وامرأة عمران هذه هى " حنة " بنت فاقوذا بن قنبل وهى أم مريم وجدة عيسى عليه السلام وعمران هذا هو زوجها ، وهو أبو مريم .وقوله { والله سَمِيعٌ عَلِيمٌ } من النذر وهو التزام التقرب إلى الله - تعالى - بأمر من جنس العبادات التي شرعها - سبحانه - لعباده ليتقربوا بها إليه .وقوله { نَذَرْتُ } أى عتيقا مخلصا للعبادة متفرغا من شواغل الدنيا لخدمة بيتك المقدس . يقال : حررت العبد إذا خلصته من الرق وحررت الكتابة إذا أصلحته ولم تبق فيه شيئاً من وجوه الخطأ ، ورجل حر إذا كان خالصا لنفسه ليس لأحد عليه سلطان .والمعنى : اذكر أيها العاقل لتعتبر وتتعظ وقت أن لجأت امرأة عمران إلى ربها تدعوه بضراعة وخشوع فتقول : يا رب إنى نذرت لخدمة بيتك هذا الجنين الذى في بطني مخلصا لعبادتك متفرغا لطاعتك فتقبل منى هذا النذر الخالص ، وتلك النية الصادقة ، { إِنَّكَ أَنتَ السميع العليم } لقولى ولأقوال خلقك { العليم } بنيتى وبنوايا سائر عبادك .فأنت ترى في هذا الدعاء الخاشع الذى حكاه القرآن عن امرأة عمران أسمى ألوان الأدب والإخلاص ، فقد توجهت إلى ربها بأعز ما تملك وهو الجنين الذى في بطنها ، ملتمسة منه - سبحانه - أن يقبل نذرها الذى وهبته لخدمة بيته ، واللام في قوله " لك " للتعليل أى نذرت لخدمة بيتك .وقوله { مُحَرَّراً } حال من " ما " والعامل فيه " نذرت " .قال بعضهم : " وكان هذا النذر يلزم في شريعتهم فكان المحرر عندهم إذا حرر جعل في الكنيسة يخدمها ولا يبرح مقيما فيها حتى يبلغ الحلم ، ثم يتخير فإن أحب ذهب حيث شاء ، وإن اختار الإقامة لا يجوز له بعد ذلك الخروج . ولم يكن أحد من أنبياء بنى إسرائيل وعلمائهم إلا ومن أولاده من حرر لخدمة بيت المقدس ولم يكن يحرر إلا العلمان ، ولا تصلح الجارية لخدمة بيت المقدس لما يصيبها من الحيض والأذى " . وجملة { إِنَّكَ أَنتَ السميع العليم } تعليلية لاستدعاء القبول ، من حيث أن علمه - سبحانه - بصحة نيتها وإخلاصها مستدع لقبول نذرها تفضلا منه وكرما .

فلما وضعتها قالت رب اني وضعتها انثى والله اعلم بما وضعت وليس الذكر كالانثى واني سميتها مريم واني اعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - ما قالته بعد أن وضعت ما في بطنها فقال - تعالى - : { فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أنثى } .قالوا : إن هذا خبر لا يقصد به الإخبار ، بل المقصود منه إظهار التحسر والتحزن والاعتذار ، فقد كانت امرأة عمران تتوقع أن يكون ما في بطنها ذكرا ، لأنه هو الذى يصلح لخدمة بيت الله والانقطاع للعبادة فيه ، لكنها حين وضعت حملها ووجدته أنثى ، قالت على سبيل الاعتذار عن الوفاء بنذرها : رب إنى وضعتها أنثى ، والأنثى لا تصلح للمهمة التى نذرت ما فى بطنى لها وهي خدمة بيتك المقدس ، وأنت يا إلهي القدير على كل شيء فبقدرتك أن تخلق الذكر وبقدرتك أن تخلق الأنثى .والضمير فى قوله { فَلَمَّا وَضَعَتْهَا } يعود لما فى بطنها . وتأنيث باعتبار حاله في الواقع ونفس الأمر وهو أنه أنثى .وقوله { أنثى } منصوب على الحال من الضمير في وضعتها ، وهى حال مؤكدة لأن كونها أنثى مفهوم من تأنيث الضمير فجاءت أنثى مؤكدة وقوله { والله أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ } جملة معترضة سيقت للايماء إلى تعظيم المولود الذى وضعته وتفخيم شأنه ، وللإشعار بأن الأنثى ستصلح لما يصلح له الذكور من خدمة بيته . أى : والله - تعالى - أعلم منها ومن غيرها بما وضعته ، لأنه هو الذى خلق هذا المولود وجعله أنثى ، وهو العليم بما سيصير إليه أمر هذه الأنثى من فضل ، إذ منها سيكون عيسى - عليه السلام - وسيجعلها - سبحانه - آية ظاهرة دالة على كمال قدرته ، ونفوذ إرادته .وقرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم ويعقوب { والله أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ } بضم

، التاء وعلى هذه القراءة لا تكون الجملة معترضة وإنما هى من تتمة ما قالته
ويكون الكلام التفات من الخطاب إلى الاسم الظاهر وهو لفظ الجلالة إذ لو جرت
على مقتضى قولها ، { رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أنثى } لقالت : وأنت أعلم
بما وضعت .ويكون قولها هذا من تتمة الاعتذار إلى الله - تعالى - حيث وضعت
مولودا لا يصلح لما نذرته - في عرف قومها وتسلية لنفسها ، أي ولعل الله سرا
وحكمة لا يعلمها أحد سواه في جعل هذا المولود أنثى . أو لعل هذه الأنثى
تكون خيراً من الذكر .وقوله - تعالى - { وَلَيْسَ الذكر كالأنثى } يحتمل
، أنه من كلامه - سبحانه - وهو الظاهر - فتكون الجملة معترضة كسابقتها
ويكون : وليس الذكر الذى طلبته كالأنثى التي ولدتها ، بل هذه الأنثى وإن
كانت أفضل منه في العبادة والمكانة إلا أنها لا تصلح عندهم لسدانة بيت الله
تعالى ، بسبب حرمة اختلاطها بالرجال وما يعتريها من حيض وغير ذلك مما يعترى
النساء .ويحتمل أنه من كلامها الذى حكاه الله تعالى عنها فلا تكون الجملة
معترضة ويكون المعنى : وليس الذكر الذى طلبته كالأنثى التي وضعتها ، بل هو
خير منها لأنه هو الذى يصلح لسدانة بيتك وخدمته ، ومع هذا فأنا في كلتا
الحالتين راضية بقضائك مستسلمة لإرادتك .ثم حكى - سبحانك - أيضاً بعض ما
قالته بعد ولادتها فقال { وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وإِنِّي
أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشيطان الرجيم } .قالوا : إن كلمة
مريم معناها في لغتهم العابدة ، فأرادت بهذه التسمية التقرب إلى الله
} والالتماس منه أن يعصمها حتى يكون فعلها مطابقا لا سمها .ومعنى
أُعِيذُهَا بِكَ } أمنعها وأجيرها بحفظك . مأخوذ من العوذ ، وهو أن تلتجىء
إلى غيرك وتتعلق به . يقال : عاذ فلان بفلان إذا استجار به ، ومنه العوذة
وهي التميمة والرقية .والشيطان في لغة العرب : كل متمرد من الجن والإنس
والدواب وكل شىء . وهو مشتق من شكن إذا بعد ، فهو بعيد بطبعه عن كل خير
والرجيم : فعيل بمعنى مفعول . أى أنه مرجوم مطرود من رحمة الله ومن كل خير.
وقيل رجيم بمعنى راجم لأنه يرجم الناس بالوساوس والشرور .والمعنى : وإنى .
يا خالقى مع حبى لأن يكون المولود ذكراً لتتهيأ له خدمة بيتك فقد رضيت بما
وهبت لي ، وإنى قد سميت هذه الأثنى التي أعطيتنى إياها مرم . أى العابدة
الخادمة لك ، وإنى أحصنها وأجيرها بكفالتك لها ولذريتها من الشيطان الرجيم
الذى يزين للناس الشرور والمساوىء . قال القرطبى : وفى صحيح مسلم عن أبى
هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما من مولود يولد إلا نخسه
الشيطان فيستهل صارخاً من نخسة الشيطان ، إلا ابن مريم وأمه " .ثم قال أبو
" هريرة : " اقرءوا إن شئتم : وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم
. قال علماؤنا : فأفاد هذا الحديث أن الله - تعالى - استجاب دعاء أم مريم.
ولا يلزم من هذا أن نخس الشيطان يلزم منه إضلال المنخوس فإن ذلك ظن . .
فاسد ، فكم تعرض الشيطان للأنبياء والأولياء بأنواع الإفساد والإغواء ، ومع
ذلك عصمهم الله مما يرومه الشيطان كما قال تعالى :{ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ
لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ } وقوله : { وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ }
معطوف على { إِنِّي وَضَعْتُهَآ أنثى } وما بينهما اعتراض . وهذا على قراءة
الجمهور التي جاءت بتسكين التاء فى { وَضَعَتْ } في قوله - تعالى - { والله
أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ } .وأما على قراءة غير الجمهور التى جاءت بضم
التاء فى قوله : { وَضَعَتْ } فيكون أيضاً معطوفاً على { إِنِّي
، وَضَعْتُهَآ أنثى } ويكون هذا القول وما عطف عليه في محل نصب بالقول
: والتقدير : قالت : إنى وضعتها أنثى ، وقالت : الله أعلم بما وضعت وقالت
ليس الذكر كالأنثى ، وقالت : إنى سميتها مريم .وأتى في قوله : { وإِنِّي
أُعِيذُهَا } بخبر إن فعلا مضارعا للدلالة على طلبها استمرار الاستعاذة دون
. انقطاعها ، بخلاف وضعتها ، وسميتها ، حيث أتى بالخبرين ماضيين لانقطاعهما
وقوله : { وَذُرِّيَّتَهَا } معطوف على الضمير المنصوب فى أعيذها .وفى
التنصيص على إعاذتها وإعاذة ذريتها من الشيطان الرجيم ، رمز إلى طلب بقائها
على قيد الحياة حتى تكبر وتكون منها الذرية الصالحة .تلك هى بعض الكلمات
الطيبات والدعوات الخاشعات ، التي توجهت بها امرأة عمران إلى ربها عندما
أحست بالحمل في بطنها وعندما وضعت حملها حكاها القرآن بأسلوبه البليغ
المؤثر ، فماذا كانت نتيجتها؟

فتقبلها ربها بقبول حسن وانبتها نباتا حسنا وكفلها زكريا كلما دخل عليها
زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم انى لك هذا قالت هو من عند الله
ان الله يرزق من يشاء بغير حساب

كما فسرها الوسيط كانت نتيجتها أن أجاب الله دعاءها وقبل تضرعها ، وقد
حكى - سبحانه - ذلك بقوله : { فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ
وَأَنبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً } .والفاء في قوله : { فَتَقَبَّلَهَا }
- تفريع على الدعاء مؤذن بسرعة الإجابة ، والضمير يعود إلى مريم . والتقبل
كما يقول الراغب - قبول الشىء على وجه يقتضى ثوابا كالهداية ونحوها . وإنما
: قال - سبحانه - { فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ } ولم يقل بتقبل
للجمع بين الأمرين : التقبل الذى هو الترقى فى القبول ، والقبول الذى يقتضى

الرضا والإثابة " .والمعنى : أن الله - تعالى - تقبل مريم قبولا مباركا
وخرق بها عادة قومها ، فرضى أن تكون محررة للعبادة وخدمة بيته كالذكور ، مع
كونها أنثى وفاء بنذر الأم التقية التى قالت { رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ
مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً } .{ وَأَنبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً } أى رباها
تربية حسنة ، وصانها من كل سوء ، فكان حالها كحال النبات الذى ينمو في
الأرض الصالحة حتى يؤتى ثماره الطيبة .وهكذا قيض الله - تعالى - لمريم كل
ألوان السعادة الحقيقية ، فقد قبلها لخدمة بيته مع أنها أنثى ، وأنشأها
حسنة بعيدة عن كل نقص خلقى أو خلقى ، وهيأ لها وسائل العيش الطيب من حيث لا
تحتسب . فقد قال - تعالى - { وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ
عَلَيْهَا زَكَرِيَّا المحراب وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يامريم أنى
لَكِ هذا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ الله إِنَّ الله يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ
بِغَيْرِ حِسَابٍ } .قوله { وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا } أى ضمها إلى زكريا ،
لأن الكفالة في أصل معناها الضم .أى ضمها الله - تعالى - إليه وجعله كافلا
لها وضامنا لمصالحها .وقرئ { وَكَفَّلَهَا } بتخفيف الفاء . وبرفع
{ زَكَرِيَّا } على أنه فاعل . وعلى هذه القراءة تنطق كلمة زكريا بالمد قبل
الهمزة فقط أى " زكرياء " .أما على القراءة الأولى فيجوز في زكريا المد
والقصر .وزكريا هو أحد أنبياء بنى إسرائيل وينتهى نسبة إلى سليمان بن
داود - عليهما السلام - وكان متزوجا بخالة مريم ، وقيل كان متزوجا بأختها
وكانت كافلته لها نتيجة اقتراع بينه وبين من رغبوا في كفالتها من سدنة بيت.
المقدس ، يدل على ذلك قوله - تعالى - { ذلك مِنْ أَنبَآءِ الغيب نُوحِيهِ
إِلَيكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُون أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ
يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ } قال صاحب
الكشاف : " روى أن " حنة " حين ولدت مريم ، لفتها في خرقة وحملتها إلى
المسجد ، ووضعتها عند الأحبار وهم في بيت المقدس ، فقال لهم : دونكم هذه
النذيرة ، فتنافسوا فيها لأنها كانت بنت إمامهم وصاحب قربانهم " .فقال لهم
زكريا : أنا أحق بها عندى خالتها فقالوا :لا ، حتى نقترع عليها ، فانطلقوا
إلى نهر وألقوا فيه أقلامهم فارتفع قلم زكريا فوق الماء ورسبت أقلامهم
فتكفلها " .وقوله : { كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا المحراب وَجَدَ
عِندَهَا رِزْقاً } بيان لكفالة الله - تعالى - لرزقها ورضاه عنها ،
ورعايته لها .والمحراب موضع العالى الشريف والمراد به الغرفة التي تتخذها
مريم مكانا لعبادتها فى المسجد . سمى بذلك لأنه مكان محاربى الشيطان والهوى
قال الألوسى ما مخلصه : " والمحراب - على ما روى عن ابن عباس - غرفة بنيت.
لها في بيت المقدس ، وكانت لا يصعد إليها إلا بسلم . وقيل المراد به المسجد
إذ قد كانت مساجدهم تسمى المحاريب . وقيل المراد به أشرف مواضع المسجد
- ومقدمها وهو مقام الإمام من المسجد أصله مفعال : صيغة مبالغة - كمطعان
" فسمى به المكان ، لأن المحاربين نفوسهم كثيرون فيه و " كلما " ظرف على أن
ما " مصدرية ، والزمان محذوف أو نكرة موصوفة معناها الوقت ، والعائد محذوف
والعامل فيها جوابها .والمعنى : كل زمان دخل عليها أو كل وقت دخل عليها فيه
وجد عندها رزقا " أى أصاب ولقى بحضرتها ذلك أو وجد ذلك كائنا بحضرتها " .
أخرجه بن جرير عن الربيع قال : " أنه كان لا يدخل أحد سوى زكريا فكان يجد
عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف " والتنوين في
{ رِزْقاً } للتعظيم . . .وهذا دليل على قدرة الله - سبحانه - على كل شىء ،
وعلى رعايته لمريم ، فقد رزقها - سبحانه - من حين لا تحتسب ، ودليل على
وقوع الكرامة أوليائه - تعالى - .ولقد كان وجود هذا الرزق عند مريم دون أن
يعرف زكريا - عليه السلام - مصدره مع أنه لا يدخل عليها أحد سواه كان ذلم
محل عجبه ، لذا حكى القرآن عنه : { قَالَ يامريم أنى لَكِ هذا } أى من أين
لك هذا الرزق العظيم الذى لا أعرف سببه ومصدره . و { أنى } هنا بمعنى من
أين .والجملة الكريمة استئناف مبنى على سؤال مقدر ، كأنه قيل : فماذا قال
زكريا عند مشاهدة هذا الرزق؟ فكان الجواب : قال يا مريم من أين لك هذا
ولقد كانت إجابة مريم على زكريا تدل على قوة إيمانها ، وصفاء نفسها . فقد.
أجابته بقولها - كما حكى القرآن عنها - { قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ الله }
أى : قالت له إن هذا الزرق من عند الله - تعالى - فهو الذى رزقني إياه
وساقه إلى بقدرته النافذة .وقوله - تعالى - { إِنَّ الله يَرْزُقُ مَن
يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } جملة تعليلية . أى : إن الله تعالى ، يرزق من
يشاء أن يرزقه رزقا وأسعا عظيما لا يحده حد ، ولا تجرى عليه الأعداد التي
تنتهى ، فهو - سبحانه -لا يحاسبه محاسب ، ولا تنقص خزائنه من أى عطاء مهما
كثر وعظم .وهذه الجملة الكريمة يحتمل أنها من كلام الله - تعالى - فتكون
مستأنفة ، ويحتمل أنها من كلامها الذى حكاه القرآن عنها ، فتكون تعليلية في
محل نصب داخلة تحت القول .هذا وفى تلك الآيات التى حكاها القرآن عن مريم
وأمها نرى كيف يعمل الإيمان عمله في القلوب فينقيها ويصفيها ويحررها من رق
العبودية لغير الله الواحد القهار وكيف أن الله تعالى ، يتقبل دعاء عباده
الصالحين ، وينبتهم نباتا حسنا ، ويرعاهم برعايته ، يزرقهم من حيث لا
يحتسبون .ولقد كان ما رآه زكريا - عليه السلام - من أحوال مريم من الأسباب
، التي جعلته - وهو الشيخ الهرم - يتضرع إلى الله أن يرزقه الذرية الصالحة

. . وقد حكى القرآن ذلك بأسلوبه البليغ فقال - تعالى - : { هُنَالِكَ دَعَا
. . }

هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة انك سميع الدعاء

كما فسرها الوسيط قوله - تعالى - { هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ }
كلام مستأنف ، وقصة مستقلة سيقت في تضاعيف قصة مريم وأمها لما بينهما من
قوة الارتباط ، وشدة الاشتباك مع ما فى إيرادها من تقرير ما سيقت له قصة
مريم و أمها من بيان اصطفاء آل عمران .و " هنا " ظرف يشار به إلى المكان
القريب كما فى قوله - تعالى - { إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ } وتدخل عليه
اللام والكاف " هنالك " أو الكاف وحدها " هناك فيكون للبعيد وقد يشار به
للزمان اتساعا .والمعنى : فى ذلك المكان الطاهر الذى كان يلتقى فيه زكريا
بمريم ويرى من شأنها ما يرى من فضائل وغرائب ، تحركت في نفس زكريا عاطفة
الأبوة ، وهو الشيخ الكبير الذى وهن عظمه واشتعل رأسه شيباً ، وبلغ من
الكبر عتياً - فدعا الله تعالى - بقلب سليم ، وبنفس صافية وبجوارح خاشعة
، أن يرزقه الذرية الصالحة . كولقد حكى القرآن دعاءه بأسلوبه المؤثر فقال
} : قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ
الدعآء } .أى ، قال زكريا مناجياً ربه : يا رب أنت الذى خلقتني ، وأنت الذى
لا يقف أمام قدرتك شىء ، وأنت الذى جعلتنى أرى من أحوال مريم ما يشهد
بقدرتك النافذة وفضلك العميم فهب لي يا خالقي من عندك ذرية صالحة تقر بها
عينى ، وتكون خلفا من بعدى { إِنَّكَ سَمِيعُ الدعآء } أى أنك عليم بدعائي
علم من يسمع ، قريب الإجابة لمن يدعوك ، فإن أجبت لى سؤالى فبفضلك وإن لم
تجبه ، فبعدلك وحكمتك . فأنتترى في هذا الدعاء الذى صدر عن زكريا - عليه
السلام - أسمى ألوان الأدب والخشوع والإنابة . فقد رفع أكف الضراعة في مكان
مقدس طاهر ، وفي التعبير بقوله { دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ } إشارة إلى
تسليمه لله وإلى شعوره بقدرة الله على كل شىء ، فهو الذى خلقه ورباه وتولاه
برعايته في كل أدوار حياته .وفى قوله { هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ } إشعار
بأنه يريد من خالقه - عز وجل - أن يعطيه هذه الذرية بلا سبب عادى ، ولكن
بإرادته وقدرته لأنه لو كان الأمر فى هذا العطاء يعود إلى الأسباب
والمسببات العادية لكان الحصول على الذرية مستبعداً إذ هو قد بلغ من الكبر
عتيا وزوجته قد تجاوزت السن التي يحصل فيها الانجاب في العادة .أى هب لى من
عندك لا من عندى ، لأن الأسباب عندى أصبحت مستبعدة . وفي تقييد الذرية
بكونها طيبة ، إشارة إلى أن زكريا لقوة إيمانه ، ونقاء سريرته ، وحسن صلته
بربه ، لا يريد ذرية فحسب وإنما يريد ذرية صالحة يرجى منها الخير في الدنيا
والآخرة .وجملة { إِنَّكَ سَمِيعُ الدعآء } تعليلية ، أى إنى ما التجأت
إليك يا إلهى إلا لأنك مجيب للدعاء غير مخيب للرجاء .قال القرطبى ما ملخصه
- دلت هذه الآية على طلب الولد وهى سنة المرسلين والصديقين . قال الله "
تعالى - { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ
" أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً } وقد ترجم البخارى على هذا " باب طلب الولد
" وقال النبي صلى الله عليه وسلم لأبى طلحة حين مات ابنه " " أعرستم الليلة
قال نعم . قال : " بارك الله لكما في غابر ليلتكما " فقال رجل من الأنصار
. فرأيت تسعة أولاد كلهم قد قرءوا القرآن " ، والأخبار في هذا المعنى كثيرة
تحث على طلب الولد لما يرجوه الإنسان من نفعه في حياته وبعد مماته . قال
صلى الله عليه وسلم إذا مات أحدكم انقطع عمله إلا من ثلاث : فذكر منها " أو
ولد صالح يدعو له " ولو لم يكن إلا هذا الحديث لكان فيه كفاية .هذا ، وقد
حكى لنا القرآن في سورة مريم دعاء زكريا بصورة أكثر تفصيلا فقال : { ذِكْرُ
رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّآ إِذْ نادى رَبَّهُ نِدَآءً خَفِيّاً
قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ العظم مِنِّي واشتعل الرأس شَيْباً وَلَمْ
أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّاً وَإِنِّي خِفْتُ الموالي مِن وَرَآئِي
وَكَانَتِ امرأتي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ وَلِيّاً يَرِثُنِي
وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ واجعله رَبِّ رَضِيّاً } هذا هو دعاء زكريا
كما حكاه الله - تعالى - في أكثر من موضع فى كتابه الكريم فماذا كانت نتيجة
- هذا الدعاء الخاشع ، والتضرع الخالص؟ لقد كانت نتيجته الإجابة من الله
، تعالى - لعبده زكريا

فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب ان الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة
من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين

كما فسرها الوسيط فقد قال - تعالى - { فَنَادَتْهُ الملائكة وَهُوَ قَائِمٌ
يُصَلِّي فِي المحراب أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بيحيى } .أى : فنادت
. الملائكة زكريا - عليه السلام - وهو قائم يصلي في المحراب ، يناجى ربه
ويسبح بحمده بأن الله قد استجاب دعاءك ويبشرك بغلام اسمه يحيى ، لكى تقر به
عينك ويسر به قلبك .والتعبير بالفاء في قوله { فَنَادَتْهُ } يشعر بأن
الله - تعالى - فضلا منه وكرما قد استجاب لزكريا دعاءه بعد فترة قليلة من

ذا الدعاء الخاشع ، إذ الفاء تفيد التعقيب .ويرى فريق من المفسرين أن الذى
ناداه هو جبريل وحده ، ومن الجائز فى العربية أن يخبر عن الواحد بلفظ الجمع
قال ابن جرير : كما يقال في الكلام : خرج فلان على بغال البريد وإنما ركب.
بغلا واحداً وركب السفن وإنما ركب سفينة واحدة وكما يقال : ممن سمعت هذا؟
- فيقال : من الناس ، وإنما سمعه من رجل واحد ، وقد قيل : إن منه قوله
تعالى - { الذين قَالَ لَهُمُ الناس إِنّ الناس قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ }
والقائل كان فيما ذكر واحد . ويرى فريق آخر منهم أن الذى نادى زكريا وبشره
بمولوده يحيى ، جمع من الملائكة لأن الآية صريحة فى أن هذا النداء قد صدر
من جمع لا من واحد ، ولأن صدوره من جمع يناسب هذه البشارة العظيمة ، فقد
جرت العادة في أمثال هذه البشارات العظيمة أن يقوم بها جمع لا واحد ، ولا
شك أن حالة زكريا وحالة زوجه تستدعيان عددا من المبشرين لإدخال السرور على
هذين الشخصين اللذين كادا يفقدان الأمل في إنجاب الذرية .وقد رجح هذا
الاتجاه ابن جرير فقال " وأما الصواب من القول في تأويله فأن يقال : إن
الله - جل ثناؤه - أخبر أن الملائكة نادته ، والظاهر من ذلك أنها جماعة من
الملائكة دون الواحد ، جبريل واحد فلا يجوز أن يحمل تأويل القرآن إلا على
الأظهر الأكثر من الكلام المستعمل في ألسن العرب دون الأقل ما وجدنا إلى
ذلك سبيلا ، ولم تضطرنا حاجة إلى صرف ذلك إلى أنه بمعنى واحد فيحتاج له إلى
طلب المخرج بالخفى من الكلام والمعاني " .وقوله { وَهُوَ قَائِمٌ } جملة
حالية من مفعول النداء ، و " يصلى " حال من الضمير المستكن فى قائم أو حال
أخرى من مفعول النداء على القول بجواز تعدد الحال ، وقوله { فِي المحراب }
متعلق بيصلى . والمراد بالمحراب هنا المسجد ، أو المكان الذى يقف فيه
الإمام في مقدمة المسجد .وقرأ جمهور القراء : { أَنّ اللّهَ يُبَشِّرُكَ
بفتح همزة أن - على أنه في محل جر بباء محذوفه . أى : نادته الملائكة بأن {
- الله يبشرك بيحيى .وقرأ ابن عامر وحمزة : { أَنّ اللّهَ يُبَشِّرُكَ }
بكسر الهمزة - على تضمين النداء معنى القول ، أى : قالت له الملائكة إن
الله يبشرك بيحيى .وقوله : { بيحيى } متعلق بيبشرك ، وفي الكلام مضاف أى
يبشرك بولادة يحيى ، لأن الذوات ليست متعلقا للبشارة .وفى اقتران التبشير
بالتسمية بيحيى ، إشعار بأن ذلك المولود سيحيا اسمه وذكره بعد موته ، وبذلك
تتحقق الإجابة لدعاء زكريا تحققا تاما ، فقد حكى القرآن عنه في سورة مريم
أنه قال : { يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ واجعله رَبِّ رَضِيّاً
قال الجمل : و " يحيى ، فيه قولان :أحدهما : وهو المشهور عند أهل التفسير {
. . أنه منقول من الفعل المضارع ، وقد سموا بالأفعال كثيراً نحو يعيش ويعمر
وعلى هذا فهو ممنوع من الصرف للعملية ووزن الفعل ، نحو يزيد ويشكر وتغلب
والثاني : أنه أعجمى لا اشتقاق له ، وهذا هو الظاهر ، فامتناعه من الصرف.
للعلمية والعجمة " .ثم وصف الله - تعالى - يحيى - عليه السلام - بأربع صفات
كريمة فقال : { مُصَدّقاً بِكَلِمَةٍ مّنَ الله وَسَيّداً وَحَصُوراً
وَنَبِيّاً مّنَ الصالحين } ,فالصفة الأولى : من صفات يحيى - عليه
السلام - أنه كان { مُصَدّقاً بِكَلِمَةٍ مّنَ الله } وللعلماء في تفسير
هذه الجملة الكريمة اتجاهان :أما الاتجاه الأول فيرى أصحابه - وهم جمهور
العلماء - أن المراد بكلمة الله هو عيسى - عليه السلام - لأنه كان يسمى
بذلك أى أن يحيى كان مصدقا بعيسى ومؤمنا بأنه رسول الله وكلمته ألقاها إلى
مريم وروح منه .وقد كان يحيى معاصرا لعيسى . وكانت بينهما قرابة قوية إذ أن
والدة يحيى كانت أختا لأم مريم وقيل إن أم يحيى كانت أختا لمريم .وأما
الاتجاه الثاني فيرى أصحابه أن المراد بكلمة الله كتابه ، أى أن يحيى من
صفاته الطيبة أنه كان مصدقا بكتاب الله وبكلامه ، وذلك لأن الكلمة قد تطلق
ويراد منها الكلام ، والعرب تقول أنشد فلان كلمة أى قصيدة ، وقال كلمة أى
خطبة .ويبدو لنا أن الاتجاه الأول أقرب إلى الصواب ، لأن القرآن قد وصف
عيسى بأنه كلمة الله في أكثر من موضع فيه ومن ذلك قوله - تعالى - { ياأهل
الكتاب لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى الله إِلاّ
الحق إِنّمَا المسيح عِيسَى ابن مَرْيَمَ رَسُولُ الله وَكَلِمَتُهُ
{ أَلْقَاهَا إلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مّنْهُ فَآمِنُواْ بالله وَرُسُلِهِ
وقوله تعالى - { يامريم إِنَّ الله يُبَشّرُكِ بِكَلِمَةٍ مّنْهُ اسمه
- المسيح عِيسَى ابن مَرْيَمَ } ولأن فى التعبير عن عيسى الذى صدقه يحيى
بأنه كلمة من الله ، إشعاراً بأن ولادتهما متقاربة من حيث الزمن ، وإيماء
إلى أن زكريا - عليه السلام - قد أوتى علماً بأن المسيح عهده قريب ، وأن
يحيى - عليه السلام - سيعيش حتى يدرك عيسى .وقوله { مُصَدّقاً } منصوب على
، الحال المقدرة من يحيى ، أى على الحال التي سيكون عليها في المستقبل
والمراد بهذا التصديق الإيمان بعيسى - كما سبق أن أشرنا - قيل : هو أول من
آمن بعيسى وصدق أنه كلمة الله وروح منه .و " من " في قوله { مّنَ الله }
للابتداء . والجار والمجرور متعلق بمحذوف صفة لكلمة ، أى مصدقاً بكلمة
كائنة من الله - تعالى - .والصفة الثانية : من صفات يحيى عبر عنها القرآن
بقوله " وسيدا " والسيد - كما يقول القرطبي - الذى يسود قومه وينتهى إلى
، قوله . وأصله سيود يقال : فلان أسود من فلان على وزن أفعل من السيادة
ففيه دلالة على تسمية الإنسان سيدا . وفي الحديث أن رسول الله صلى الله

عليه وسلم قال لبنى قريظة عندما دخل سعد بن معاذ - " قوموا إلى سيدكم " وفى الصحيحين أنه قال فى الحسن " إن ابنى هذا سيد ولعل الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين " .والمراد أن يحيى - عليه السلام - من صفاته أنه سيكون سيدا ، أى يفوق غيره في الشرف والتقوى وعفة النفس ، بأن يكون مالكا لزمامها ، ومسيطرا على أهوائها .والصفة الثالثة : من صفاته عبر عنها القرآن بقوله : { وَحَصُوراً } وأصل الحصر : المنع والحبس .يقال حصرنى الشىء وأحصرنى إذا حبسنى .والمراد أن يحيى - عليه السلام - من صفاته أنه سيكون حابسا نفسه عن الشهوات ، حتى لقد قيل عنه إنه امتنع عن الوزاج وهو قادر على ذلك - زهادة منه واستعفافا ، وليس صحيحا ما قيل من أنه كان لا يأتى النساء : لعدم قدرته على ذلك .قال ابن كثير : وقد قال القاضي عياض في كتابه الشفاء اعلم أن ثناء الله على يحيى بأنه كان { وَحَصُوراً } معناه أنه معصوم من الذنوب ، أى لا يأتيها كأنه حصور عنها . وقيل : مانعا نفسه من الهشوات ، وقيل ليست له شهوة في النساء وقد بان لك من هذا أن عدم القدرة على النكاح نقص ، وإنما الفضل في كونها موجودة ثم يمنعها إما بمجاهدة كعيسى أو بكفاية من الله - تعالى - كيحيى - عليه السلام - ثم هى في حق من قدر عليها وقام بالواجب فيها ولم تشغله عن ربه : درجة عليا وهى درجة نبينا صلى الله عليه وسلم الذى لم تشغله كثرتهن عن عبادة ربه ، بل زاده ذلك عبادة بتحصينهن وهدايته لهن . . . والمقصود أن مدح يحيى بأنه حصور ليس معناه أنه لا يأتى النساء ، بل معناه أنه معصوم من الفواحش والقاذورات ، ولا يمنع ذلك من تزويجه بالنساء الحلال وغشيانهن وإيلادهن بل قد يفهم وجود النسل له من دعاء زكريا المتقدم حيث قال : { هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً } كأنه قال ولداً له ذرية ونسل وعقب .أما الوصف الرابع : من أوصاف يحيى - عليه السلام - فهو قوله - تعالى - { وَنَبِيّاً مِّنَ الصالحين } وفى هذا الوصف بشارة ثانية لزكريا بأن ابنه سيكون من الأنبياء الذى اصطفاهم الله لتبليغ دعوته إلى الناس ، وهذه البشارة أسمى وأعلى من الأولى التى أخبره الله فيها بولادة يحيى ، لأن النبوة منزلة لا تعدلها منزلة في الشرف والفضل .

قال رب انى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامراتي عاقر قال كذلك الله يفعل ما يشاء

كما فسرها الوسيط ثم حكى القرآن بعد ذلك ما قاله زكريا بعد أن ساقت له الملائكة تلك البشارات السارة فقال - تعالى : { قَالَ رَبِّ أنى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الكبر وامرأتي عَاقِرٌ } أنى هنا بمعنى كيف . و " عاقر " أي عقيم لا تلد لكبر سنها من العقر وهو العقم . يقال عقرت المرأة تعقر عقراً وعقراً فهى عاقر إذا بلغت سن اليأس من الولادة . أى قال زكريا على سبيل التعجب بعد أن نادته الملائكة وبشرته بما بشرته به : يا رب كيف يكون لي غلام والحال أنني قد أدركني الكبر الكامل الذى أضعفنى ، وفوق ذلك فإن امرأتى عاقر أى عقيم لا تلد لشيخوختها وبلوغها العمر الذى ينقطع معه النسل؟قال بعضهم : وإنما قال ذلك إستفهاما عن كيفية حدوث الحمل ، أو استبعادا من حيث العادة ، أو استعظاما وتعجبا من قدرة الله - تعالى -لا استبعادا أو إنكارا فلا يرد : كيف قال زكريا ذلك ولم يكن شاكاً في قدرة الله - تعالى - .والجملة الكريمة استئناف مبنى على سؤال مقدر ، كأنه قيل : فماذا قال زكريا عندما بشرته الملائكة؟ فكان الجواب : قال رب أنى يكون لى غلام .وقد خاطب زكريا ربه مع أن النداء له صدر من الملائكة ، للإشعار بالمبالغة في التضرع وأنه قد طرح الوسائط واتجه إلى خالقه مباشرة يشكره ويظهر التعجب من قدرته لأنه - سبحانه - أعطاه ما لم تجر العادة به .قال الآلوسى وقوله { يَكُونُ } يجوز أن تكون من كان التامة فيكون فاعلها هو قوله { غُلاَمٌ } ويكون الظرف { أنى } والجار والمجرور { لِي } متعلقان بها ويجوز أن تكون من كان الناقصة و { لِي } متعلق بمحذوف وقع حالا لأنه لو تأخر لكان صفة . وفى الخبر حينئذ وجهان : أحدهما { أنى } لأنها بمعنى كيف " أو من أين والثانى الخبر الجار والمجرور { أنى } منصوب على الظرفية وقوله { وَقَدْ بَلَغَنِي الكبر } جملة حالية من ياء المتكلم ، أى أصابنى الكبر وأدركنى فأضعفنى وأفقدني قوتى .والكبر مصدر كبر الرجل إذا أسن . وقد قال زكريا {وَقَدْ بَلَغَنِي الكبر } ولم يقل وقد بلغت الكبر للإشارة إلى أن الكبر قد تابعه ولازمه حتى أصابه بالضعف والآلام والأسقام .وقوله { وامرأتي عَاقِرٌ } جملة حالية أيضاً إما من ياء { لِي } أو ياء { بَلَغَنِي } فأنت ترى أن زكريا - عليه السلام - قد أظهر التعجب عندما بشرته الملائكة. بغلامه يحيى لأنه كان شيخا مسنا ولأن امرأته كانت عقيما لا تلد إما لكبر سنها - أيضاً وإما لأنها من الأصل كانت على غير استعداد للحمل والإنجاب قال ابن عباس : كان زكريا يوم بشر بيحيى ابن عشرين ومائة سنة وكانت امرأته بنت ثمان وتسعين سنة " .ثم حكى القرآن أن الله تعالى قد رد على زكريا بما يزيل عجبه ويمنع حيرته فقال تعالى ، { قَالَ كَذَلِكَ الله يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ } .أى قال - سبحانه - : مثل ذلك الفعل العجيب والصنع البديع الذى رأيته من أن يكون لك غلام وأنت شيخ كبير وامرأتك عاقر مثل ذلك الفعل يفعل

الله ما يشاء أن يفعله ، لأنه - سبحانه - هو خالق الأسباب والمسببات ولا يعجزه شىء في هذا الكون ، وبقدرته أن يغير ما جرت به العادات بين الناس فالجملة الكريمة بجانب تضمنها إقناع زكريا وإزالة عجبه ، تتضمن أيضاً. تقرير قضية عامة وهى أن الله - تعالى - يفعل ما يشاء أن يفعله بدون تقيد بالأسباب والمسببات والعادات فهو الفعال لما يريد .

قال رب اجعل لي اية قال ايتك الا تكلم الناس ثلاثة ايام الا رمزا واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشي والابكار

- كما فسرها الوسيط ثم حكى القرآن أن زكريا - لشدة لهفته على تحقق البشارة - سأل ربه أن يجعل له علامة تكون دليلا على تحقيق الحمل عند زوجته فقال تعالى : { قَالَ رَبِّ اجعل لي آيَةً } .أى قال زكريا مناجيا ربه : يا رب إنى أسألك أن تجعل لي { آيَةً } أي : علامة تدلنى على حصول الحمل عند زوجتي لأبادر إلى القيام بشكر هذه النعمة شكراً جزيلا ولأقوم بحقها حق القيام : وقد أجابه - سبحانه - إلى طلبه فقال : { قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ. الناس ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزاً } . أي قال الله - تعالى - لعبده زكريا : آيتك أى علامتك ألا تقدر على كلام الناس من غير آفة في لسانك لمدة ثلاثة أيام إلا { رَمْزاً } أى إلا عن طريق الإيحاء والإشارة .وأصل الرمز الحركة . يقال ارتمز أى تحرك ، ومنه قيل للبحر الرامز وفعله من باب نصر وضرب . ثم أطلق الرمز على الإيماء بالشفتين أو بالحاجبين وعلى الإشارة باليدين وهو المراد هنا .قال صاحب الكشاف : قال الله - تعالى - لزكريا آيتك ألا تقدر على تكليم الناس ثلاثة أيام : وإنما خص تكليم الناس ليعلمه أنه يحبس لسانه عن القدرة على تكليمهم خاصة مع إبقاء قدرته على التكلم بذكر الله . ولذلك قال : { واذكر رَّبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بالعشي والإبكار } يعنى فى أيام عجزك عن تكليم الناس وهى من الآيات الباهرة ، فإن قلت : لم حبس لسانه عن كلام الناس؟ قلت : ليخلص المدة لذكر الله لا يشغل لسانه بغيره توفرا منه على قضاء حق تلك النعمة الجسيمة وشكرها الذي طلب الآية من أجله ، كأنه لما طلب الآية من أجل الشكر قيل له : آيتك أن يحبس لسانك إلا عن الشكر . وأحسن الجواب وأوقعه ما كان مشتقا من السؤال ومنتزعا منه { إِلاَّ رَمْزاً } أى : إلا إشارة بيد أو رأس أو غيرهما .وعلى رأى صاحب الكشاف يكون احتباس لسان زكريا عن كلام الناس اضطراريا وليس عن اختيار منه .ويمكن أن يقال . إن المراد بقوله - تعالى - { قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ الناس ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزاً } . . . أن زكريا - عليه السلام - عندما ، طلب آية يعرف بها أن زوجته قد حملت بهذا الغلام الذى بشره الله به أخبره - سبحانه - أن العلامة على ذلك أن يوفق إلى خلوص نفسه من شواغل الدنيا حتى أنه ليجد نفسه متجها اتجاها كليا إلى ذكر الله وتمجيده وتسبيحه ، دون أن يكون عنده أى دافع إلى كلام الناس أو مخالطتهم مع قدرته على ذلك ، وعلى هذا يكون انصراف زكريا - عليه السلام - عن كلام الناس اختيارا وليس اضطراريا كما يرى صاحب الكشاف .ثم أمره الله - تعالى - بالإكثار وتسبيحه فقال : { واذكر رَّبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بالعشي والإبكار } .و { العشي } جمع عشية وقيل : هو واحد وذلك من حين تزول الشمس إلى أن تغيب ، وأما { الإبكار } فمصدر أبكر يبكر إذا خرج للأمر في أول النهار .. . ومنه الباكورة لأول الثمرة . والمراد به هنا الوقت الذى يكون من طلوع الفجر إلى الضحى .أى عليك أن تكثر من ذكر الله - تعالى - ومن تسبيحه فىأول النهار وفى آخره وفى كل وقت لا سيما فى تلك الأيام الثلاثة شكراً لله - تعالى - على ما أعطاك من نعم جليلة لا تحصى ، فقد وهبك الذرية بعد أن بلغت من الكبر عتيا ، وجعل هذا المولود من أنبياء الله الذين اصطفاهم لتبليغ رسالته .وفي هذا الأمر الإلهي لزكريا حض لكل عاقل على الإكثار من ذكر الله من تسبيحه وتمجيده لن ذكر الله به تطمئن القلوب . وتسكن النفوس وتغسل الخطايا والذنوب ويكفى للدلالة على فضل الذكر أن الله - تعالى - أمر به حتى في حالة الحرب فقال : { ياأيها الذين آمنوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فاثبتوا واذكروا الله كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ } وبذلك تكون الآيات الكريمة قد ساقت لنا جانبا من قصد زكريا - عليه السلام - فيه الكثير من العبر والعظات لقوم يعقلون وبعد أن بين - سبحانه - ما يدل على مظاهر قدرته فى ولادة يحيى - عليه السلام - حيث وهبه لوالديه بعد أن بلغا مبلغاً كبيراً من العمر يستبعد معه في العادة الإنجاب . . . بعد أن بين كل ذلك ساق قصة أخرى أدل على قدرة الله ونفاذ إرادته من قصة ولادة يحيى ، وهذه القصة هي قصة ولادة عيسى - عليه - السلام - من غير أب . وقد مهد القرآن لولادة عيسى ببيان أن الله - تعالى قد اصطفى أمه مريم وطهرها من كل فاحشة ، وفضلها على نساء زمانها ، وصانها من كل ما يخدش المروءة والشرف . استمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى ذلك بأسلوبه البليغ الحكيم فيقول : { وَإِذْ قَالَتِ . . . . } .

واذ قالت الملائكة يا مريم ان الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين

كما فسرها الوسيط قوله - تعالى - { وَإِذْ قَالَتِ الملائكة يامريم . . } إلخ معطوف على قوله : { إِذْ قَالَتِ امرأت عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي - نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي } الخ عطف القصة على القصة ، فإن الله تعالى - بعد أن ذكر ما قالته امرأة عمران عندما أحست بالحمل . وبعد ولادتها - لمريم ، وما كان من شأنها وتربيتها وكفالتها بعد أن ذكر ذلك ، بين سبحانه - ما كان من أمر مريم بعد أن بلغت رشدها واكتمل تكوينها ، وجاء بقصة زكريا بين قصة الأم وابنتها لما بينهما من مناسبة إذ أن دعاء زكريا ربه كان سببه ما رآه من إكرام الله - سبحانه - لمريم ولأن الكل لبيان اصطفاء آل عمران .والمعنى ، واذكر يا محمد للناس وقت أن قالت الملائكة لمريم - التي تقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا - يا مريم { إِنَّ الله اصطفاك } أى اختارك واجتباك لطاعته ، وقبلك لخدمة بيته { وَطَهَّرَكِ } من الأدناس والأقذار ، ومن كل ما يتنافى مع الخلق الحميد ، والطبع السليم { واصطفاك . على نِسَآءِ العالمين } بأن وهب لك عيسى من غير أب دون أن يمسسك بشر وجعلك أنت وهو آية للعالمين .فأنت ترى أن الله - تعالى - قد مدح مريم مدحا عظيما بأن شهد لها بالاصطفاء والطهر والمحبة ، وأكد هذا الخبر للاعتناء بشأنه ، والتنويه بقدره .قال الفخر الرازي ما ملخصه :والاصطفاء الأول إشارة - إلى ما اتفق لها من الأمور الحسنة في أول عمرها بأن قبل الله - تعالى تحريرها أى خدمتها لبيته ، مع أنها أنثى ولم يحصل مثل هذا المعنى لغيرها من الإناث ، وبأن فرغها لعبادته وخصها في هذا المعنى بأنواع اللطف والهداية والعصمة ، وبأن كفاها أمر معيشتها فكان يأتيها رزقها من عند الله . .وأما الاصطفاء الثاني فالمراد به أنه - تعالى - وهب لها عيسى - عليه السلام من غير أب ، وجعلها وابنها آية للعالمين " .ولا شك أن ولادتها لعيسى من غير أب ودون أن يمسها بشر ، هو أمر اختصت به مريم ولم تشاركها فيه امرأة قط فى أى ، زمان أو مكان ، فهى أفضل النساء في هذه الحيثية .أما من حيث قوة الإيمان وصلاح الأعمال فيجوز أن يحمل اصطفاؤها على نساء العالمين على معنى تفضيلها على عالمى زمانها من النساء وبعضهم يرى أفضليتها على جميع النساء في سائر الأعصار .هذا وقد أورد ابن كثير عدداً من الأحاديث التي وردت في فضل مريم وفي فضل غيرها من النساء ، ومن ذلك ما أخرجه الشيخان عن علي بن أبي طالب أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " خير نسائها مريم بنت عمران ، وخير نسائها خديجة بنت خويلد "وروى الترمذي عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :" حسبك من نساء العالمين مريم بنت عمران ، وخديجة بن خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون " وأخرج البخارى عن أبى موسى الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " كمل من ، الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون . ومريم بنت عمران وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام " .وقول الملائكة لمريم إن الله اصطفاك وطهرك . . . إلخ الراجح أنهم قالوه لها مشافهة ، لأن هذا ما يدل عليه ظاهر الاية ، وإليه ذهب صاحب الكشاف فقد قال : روى أنهم كلموها شفاها معجزة لزكريا ، أو إرهاصا لنبوة عيسى - عليه السلام - .وقال الجمل قوله : { وَإِذْ قَالَتِ الملائكة } أى مشافهة لها بالكلام ، وهذا من باب التربية الروحية بالتكاليف الشرعية المتعلقة بحال كبرها بعد التربية الجسمانية اللائقة بحال صغرها " .وقيل كأن خطابهم لها بالإلهام أو بالرؤيا الصادقة في النوم .والأول أولى لانه هو الظاهر من الآية ، ولأنه الموافق لأقوال جمهور المفسرين ، ولأنه جاء صريحا في آيات أخرى أن الملك قد تمثل لها بشراً سويا وكلمها ، وذلك في قوله - تعالى - في سورة مريم :{ واذكر فِي الكتاب مَرْيَمَ إِذِ انتبذت مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِياً فاتخذت مِن دُونِهِم حِجَاباً فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَآ رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بالرحمن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّاً { قَالَ إِنَّمَآ أَنَاْ رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلاَماً زَكِيّاً

قال الآلوسي : " واستدل بهذه الآية من ذهب إلى نبوة مريم : لأن تكليم الملائكة يقتضيها ومنعها اللقانى وغيره من العلماء ، لأن الملائكة قد كلموا من ليس بنبى إجماعا ، فقد جاء في الحديث الشريف أنهم كلموا رجال خرج لزيارة أخ له في الله ، وأخبروه بأن الله يحبه كما أحب هو أخاه ، ولم يقل أحد بنبوته - فكلام الملائكة لمريم لا يقتضي نبوتها وهو الصحيح . "

يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين

كما فسرها الوسيط ثم حكى القرآن أن الملائكة أمرت مريم بأن تكثر من عبادة الله - تعالى - ومن المداومة على طاعته شكراً له فقال - تعالى - :{ يامريم اقنتي لِرَبِّكِ واسجدي واركعي مَعَ الراكعين } .القنوت . لزوم الطاعة والاستمرار عليها ، مع استشعار الخشوع والخضوع لله رب العالمين .أى : قالت الملائكة أيضاً لمريم : يا مريم أخلصى لله وحده وداومى عليها ، وأكثرى من السجود لله ومن الركوع مع الراكعين ، فإن ملازمة الطاعات والصلوات من شانها أن تحفظ النعم وأن تزيد الإنسان قربا وحبا من خالقه - عز وجل - .فالآية الكريمة دعوة قوية من الله - تعالى - لمريم ولعباده جميعا بالمحافظة على

العبادات ولا سيما الصلاة في جماعة .قال صاحب الكشاف : أمرت بالصلاة بذكر القنوت والسجود لكونهما من هيئة الصلاة واركانها ثم قيل لها { واركعي مَعَ الراكعين } بمعنى ولتكن صلاتك مع المصلين أى في الجماعة ، أو انظمى نفسك في جملة المصلين وكونى معهم في عدادهم ولا تكونى في عداد غيرهم .فأنت ترى فى هاتين الآيتين أسمى ألوان المدح والتكريم والتهذيب لمريم البتول ، فلقد أخبر - سبحانه - باصطفائها صغيرة وكبيرة ، وبطهرها من كل سوء ، والإشارة - إلى الطهر هنا إشارة ذات مغزى ، وذلك لما لابس مولد عيسى - عليه السلام من خوارق ، هذه الخوارق جعلت اليهود يفترون الكذب على مريم ، ويتهمونها زورا وبهتانا بما هى بريئة منه ، ثم بعد ذلك يأمرها - سبحانه - بمداومة الطاعة والعبادة والخضوع لله رب العالمين .وبذلك يتبين لكل ذى عقل سليم أن الإسلام الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم هو الدين الحق ، لأنه قد قال القول الحق في شأن مريم وابنها عيسى - عليه السلام - أما أهل الكتاب من اليهود والنصارى فقد اختلفوا في شأنهما اختلافا عظيما أدى بهم إلى الضلال والخسران .

ذلك من انباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم اذ يلقون اقلامهم ايهم يكفل مريم وما كنت لديهم اذ يختصمون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن ما جاء به القرآن في شأن مريم - بل وفي كل شأن من الشئون - هو الحق الذى لا يحوم حوله باطل ، وهو من أنباء الغيب التى لا يعلمها أحد سواه فقال - تعالى - : { ذلك مِنْ أَنَبَآءِ الغيب نُوحِيهِ إِلَيكَ } .واسم الإشارة { ذلك } يعود إلى ما تقدم الحديث عنه من قصة امرأة عمران وقصة زكريا وغير ذلك من الأخبار البديعة .والأنباء جمع نبأ ، وهو الخبر العظيم الشأن .والغيب : مصدر غاب ، وهو الأمر المغيب : المستور الذى لا يعلم إلا من قبل الله - تعالى - .ونوحيه : من الإيحاء وهو إلقاء المعنى إلى الغير على وجه خفى ، ويكون بمعنى إرسال الملك إلى الأنبياء وبمعنى الإلهام أى : ذلك القصص الحكيم الذى قصصناه عليك يا محمد ، فيما يتعلق بما قالته امرأة عمران وما قاله زكريا ، وما قالته الملائكة لمريم وفيما يتعلق بغير ذلك من شئون ذلك القصص الحكيم هو من أنباء الغيب التي لا يعلمها أحد سوى الله - عز وجل - وقد أخبرناك بها لتكون دليلا على صدقك فيما تبلغه عن ربك ولتكون عبرة وذكرى لقوم يعقلون .وقوله { ذلك } مبتدأ وخبره قوله - تعالى - { مِنْ أَنَبَآءِ الغيب } والجملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب . وقوله { نُوحِيهِ إِلَيكَ } جملة مستقلة مبينة للأولى والضمير في { نُوحِيهِ } يعود إلى الغيب أى الأمر والشأن أنا نوحى إليك . الغيب ونعلمك به ، ونظهرك على قصص من تقدمك مع عدم مدارستك لأهل العلم والأخبار .ولذ قال - تعالى - { وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ } والأقلام جمع قلم وهى التى كانوا يكتبون بها التوراة ، وقيل المراد بها السهام .أى وما كنت - يا محمد - لديهم أى عندهم معاينا لفعلهم وما جرى من أمرهم فى شأن مريم ، { إِذْ يُلْقُون أَقْلاَمَهُمْ } التى جعلوا عليها علامات يعرف بها من يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون فيما بينهم بسببها تنافسا في كفالتها .وقد سبق أن ذكرنا ما قاله صاحب الكشاف من أن مريم بعد أن ولدتها أمها خرجت بها إلى بيت المقدس فوضعتها عند الأحبار وقالت لهم : دونكم هذه النذيرة!! فقالوا : هذه ابنة إمامنا عمران - وكان في حايته يؤمهم في الصلاة ، فقال لهم زكريا : أدفعوها إلى فأنا أحق بها منكم فإن خالتها عندى - فقالوا لا حتى نقترع عليها فانطلقوا إلى نهر فألقوا فيه أقلامهم فارتفع قلم زكريا فوق الماء ورسبت أقلامهم ، فتولى كفالتها زكريا - عليه السلام - . فالضمير فى قوله { لَدَيْهِمْ } يعود على المتنازعين في كفالة مريم لأن السياق قد دل عليهم .والمقصود من هذه الجملة الكريمة { وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُون } الخ تحقيق كون الإخبار بما ذكر إنما هو عن وحى من الله - تعالى - لنبيه صلى الله عليه وسلم لأن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن معاصرا لهؤلاء الذين تحدث القرآن عنهم . ولم يقرأ أخبارهم في كتاب من الكتب ، ومع ذلك فقد أخبر النبى صلى الله عليه وسلم أهل الكتاب وغيرهم بالحق الذى لا يستطيعون تكذيبه إلى على سبيل الحسد والجحود ، فثبت أن القرآن من عند الله - تعالى -

اذ قالت الملائكة يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها في الدنيا والاخرة ومن المقربين

كما فسرها الوسيط { إِذْ قَالَتِ الملائكة يامريم إِنّ الله يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسمه المسيح عِيسَى ابن مَرْيَمَ } .وهذه الجملة الكريمة بدل اشتمال من جملة { وَإِذْ قَالَتِ الملائكة يامريم إِنّ الله اصطفاك } . . الخ قالوا : ولا يضر الفصل إذ الجملة الفاصلة بين البدل والمبدل منه اعتراض جىء به تقريراً لما سبق؛ وتنبيها على استقلاله .والظرف

معمول لمحذوف تقديره اذكر ، أى اذكر وقت أن قالت الملائكة لمريم { وَإِذْ }
يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه .وقوله يبشرك { بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ } أى ،
يبشرك بمولود يحصل بكلمة منه - سبحانه - وسمى هذا المولود كلمة لأنه وجد
بكلمة كن فهو من باب إطلاق السبب على المسبب .والمراد أنه وجد من غير واسطة
أب ، لأن غيره وإن وجد بتلك الكلمة لكنه بواسطة أب ، أى أنه - سبحانه - إذا
كان قد خلق الناس بطريق التناسل عن ذكر وأنثى وأخرج الأولاد من أصلاب
- الآباء ، فإن عيسى - عليه السلام - لم يكن كذلك ، بل خلقه الله - تعالى
خلقا آخر ، خلقه { بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ } وهى " كن " فكان كما أراده الله و
من " فى قوله " منه " لابتداء الغاية والجار والمجرور متعلق بمحذوف صفة "
لكلمة : أى بكلمة كائنة منه .فالمراد بقوله " كلمة " أى يبشر بولد حى يسرى
عليه حكم الأحياء اسمه المسيح عيسى ابن مريم وعلى هذا التأويل سار كثير من
- المفسرين .ورجح ابن جرير أن معنى { بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ } ببشرى منه
سبحانه - فقد قال : وقوله " بكلمة منه " يعنى برسالة من الله وخير من عنده
وهو من قول القائل : ألقى إلى فلان كلمة سرنى بها بمعنى أخبرنى خبرا فرحت
به . . فتأويل الكلام : وما كنت يا محمد عند القوم إذ قالت الملائكة لمريم
إن الله يبشرك ببشرى من عنده ، هى ولدك اسمه المسيح عيسى ابن مريم " .وعلى
كلا التأويلين ففى التعبير عن عيسى - عليه السلام - بأنه كلمة من الله
. تكريم له وتشريف ، وقوله { اسمه المسيح } مبتدأ وخبر ، والجملة نعت
والضمير في قوله { اسمه } يعود إلى كلمة . وجاء مذكراً رعاية للمعنى لأننا
سبق بينا أن المراد بها عند كثير من المفسرين الولد .والمسيح : لقب من
الألقاب المشرفة كالصديق والفاروق ، وأصله مشيحا بالعبرانية ومعناه
المبارك . وقد حكى الله - تعالى - أنه قال عن نفسه { قَالَ إِنِّي عَبْدُ
الله آتَانِيَ الكتاب وَجَعَلَنِي نَبِيّاً وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ
مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بالصلاة والزكاة مَا دُمْتُ حَيّاً } وقيل المسيح
فعيل بمعنى فاعل ، للمبالغة في مسحه الأرض بالسياحة للعبادة : أو مسحه ذا
العاهة ليبرأ . أو بمعنى مفعول أي ممسوح لأن الله مسحه بالطهر من الذنوب
وعيسى : اسم لهذا الاسم الكريم ، وهو اسم ينبىء عن البياض والصفاء والنقاء.
قال الراغب : عيسى اسم علم ، وإذا جعل عربياً أمكن أن يكون من قولهم.
" بعيراً عيسى وناقة عيساء وجمعها عيس وهى أبل بيض يعترى بياضها بعض الظلمة
أى فيها أغبرار قليل يعطى بياضها صفاء ونقاء وجمالا .وابن مريم : هو كنيته
- وهي للإشارة إلى أن نسبه ثابت لأمه لا لأحد سواها وليس ابنا لله ،
تعالى - كما قال الضالون .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم قيل عيسى بن مريم
، والخطاب لمريم؟ قلت : لأن الأبناء ينسبون إلى الأباء لا إلى الأمهات
فأعلمت بنسبه إليها أنه يولد من غير أب فلا ينسب إلا إلى أمه . وبذلك فضلت
واصطفيت على نساء العالمين : فإن قلت لم ذكر ضمير الكلمة . قلت لأن المسمى
: بها مذكر . فإن قلت : لم قيل اسمه المسيح عيسى بن مريم وهذه ثلاثة أشياء
الاسم منها عيسى وأما المسيح والابن فلقب وصفة؟ قلت : الاسم المسمى علامة
يعرف بها ويتميز من غيره ، فكأنه قيل : الذى يعرف به ويتميز ممن سواه مجموع
هذه الثلاثة " .والمعنى الإجمالي للجملة الكريمة : اذكر يا محمد وقت أن
قالت الملائكة لمريم : يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه أى بمولود يحصل
بكلمة منه بلا واسطة أب ، هذا المولود العجيب اسمه الذى يميزه لقبا المسيح
ويميزه علماً عيسى ويميزه كنية ابن مريم .فأنت ترى أنه - سبحانه - قد عرف
هذا المولود العظيم بتعريف واحد جمع ثلاثة أمور كل واحد منها يشيى إلى معنى
كريم قد تحقق فى هذا النبى العظيم ومجموع هذه الأمور لا يشاركه فيها أحد من
البشر ، ثم بعد ذلك وصفه - سبحانه - بأربعة أوصاف تدل على فضله وعلو منزلته
- فقال - تعالى

ويكلم الناس في المهد وكهلا ومن الصالحين

كما فسرها الوسيط { وَجِيهاً فِي الدنيا والآخرة وَمِنَ المقربين
وَيُكَلِّمُ الناس فِي المهد وَكَهْلاً وَمِنَ الصالحين } .أما الصفة
الأولى فهي قوله - تعالى - : { وَجِيهاً فِي الدنيا والآخرة } أى ذا جاه
وشرف ومنزلة عالية . يقال وجه الرجل يوجه - من باب ظرف - وجاهة فهو وجيه
إذا صارت له منزلة رفيعة عند الناس . واشتقاقه من الوجه لأنه أشرف الأعضاء
ولأنه هو الذى يواجه الإنسان به غيره .وعيسى عليه السلام ، شهد الله تعالى
له ، - وكفى بالله شهيداً - شهد له بالوجاهة وسمو المنزلة في الدنيا
والآخرة لما له من آثار عظيمة فى هداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى
النور ، ودعوتهم إلى وحدانية الله وإلى مكارم الأخلاق ، وإقامة التوراة بعد
أن اختلفوا فيها .والصفة الثانية من صفاته أنه { المقربين } أى أنه من
المقربين عند الله - تعالى - { وَيُكَلِّمُ الناس فِي المهد وَكَهْلاً }
وهذه الجملة معطوفة على قوله { وَجِيهاً } وعطف الفعل على الاسم لتأويله به
جائز والتقدير وجيها ومكلما ، والمهد اسم لمضجع الطفل أى المكان الذى يهيأ
له وهو في الرضاعة . والكهل : هو الشخص الذى اجتمعت قوته وكمل شبابه . وهو
مأخوذ من قول العرب اكتهل النبات إذا قوى وتم .والمراد أن عيسى - عليه

السلام - يكلم الناس فى حال كونه صغيراً قبل أوان الكلام ، كما يكلمهم في حال كهولته واكتمال شبابه ، فهو - عليه السلام - يكلمهم بكلام الأنبياء من - غير تفاوت بين حالتى الطفولة والكهولة ، وذلك إحدى معجزاته - عليه السلام وقد حكى القرآن في سورة مريم ما تكلم به عيسى - عليه السلام - وهو طفل صغير فقال - تعالى - : { فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي المهد صَبِيّاً قَالَ إِنِّي عَبْدُ الله آتَانِيَ الكتاب وَجَعَلَنِي نَبِيّاً وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بالصلاة والزكاة مَا دُمْتُ حَيّاً وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبّاراً شَقِيّاً والسلام عَلَيّ يَوْمَ وُلِدْتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً } أما الصفة الرابعة من صفاته - عليه السلام - فهى قوله - تعالى - { وَمِنَ الصالحين } أى عباد الله الصالحين لحمل رسالته وتبليغها للناس . أو من الذين يصلحون ولا يفسدون ويطيعون الله - تعالى - ولا يعصونه ، قالوا : ولا رتبة أعظم من كون المرء صالحاً لأنه لا يكون كذلك إلا إذا كان في جميع الأفعال والتروك مواظبا على المنهج الأصلح ، وذلك يتناول جميع المقامات فى الدين والدنيا ، فى أفعال القلوب وفى أفعال الجوارح ، ولذا قال سليمان - عليه السلام - بعد النبوة { رَبِّ أوزعني أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ التي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وعلى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصالحين } فلما عدد - سبحانه - صفات عيسى أردفها بهذا الوصف الدال على أرفع الدرجات " . تلك هي البشارات التي بشرت بها الملائكة مريم ، وتلك هي بعض صفات مولودها فماذا كان موقفها من ذلك؟

قالت رب انى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء اذا قضى امرا فانما يقول له كن فيكون

كما فسرها الوسيط لقد حكى القرآن أن موقفها كان يدل على بالغ عجبها ، وشدة تأثرها فقال - تعالى - { قَالَتْ رَبِّ أنى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ } . أى : قالت مريم على سبيل التعجب والاستغراب : يا رب كيف يكون لى ولد والحال أنى لم يمسسنى بشر ، أى لست بذات زوج ، ولم يحصل منى قط ما يكون بين الرجل والمرأة مما يسبب عنه وجود الولد . والجملة الكريمة مستأنفة استئنافا بيانيا كأنه قيل : فماذا كان منها بعد أن قالت لها الملائكة ذلك؟ فكان الجواب : { قَالَتْ رَبِّ أنى يَكُونُ لِي وَلَدٌ } الخ . وصدرت إجابتها بالنداء لله - تعالى - للإشعار بكمال تسليمها . . . للقدرة الإلهة وأن استغرابها وتعجبها إنما هو من الكيفية لا إنكارا لقدرة الله - تعالى - وجملة { وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ } حالية محققة لما مر ومقوية له . والمسيس يحتمل أن يكون كناية عن المباشرة التي تقع بين الرجل والمرأة ولاتي يترتب عليها وجود النسل غذا شاء الله ذلك ، ويحتمل أن يكون المراد به حقيقته وهو أنها لم يلمسها رجل ، لأنها كانت معتكفة في بيت الله ومنصرفة لعبادته ، ولم يلمس جسمها رجل من غير محارمها قط . وبذلك ينتفى بالأولى ما هو أبلغ من مجرد اللمس ، فموضع عجبها واستنكارها إنما هو وجود ولد منها مع أنها لم يمسسها بشر . وهنا يحكى القرين أن الله - تعالى - قد أزال عجبها واستنكارها بقوله : { قَالَ كَذَلِكَ الله يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ } أى قال الله - تعالى - لها بلا واسطة أو بواسطة ملائكته : كهذا الخلق . { الذى تجدينه ، بأن يكون لك ولد من غير أن يمسسك بشر وهو إبداع ، يخلق الله - تعالى - ويبدع ما يشاء ويريد إبداعه لا راد لمشيئته ولا معقب لحكمه - وبعضهم يجعل الوقوف على " كذلك " فتكون خبرا لمبتدأ محذوف أى قال . سبحانه - فى إجابته على مريم : الأمر كذلك أى يأتى الولد منك على الحالة التى أنت عليها لأن الله - تعالى - يخلق ما يشاء أن يخلقه بدون احتياج إلى وجود الأسباب والمسببات لنه هو خالقه وخالق كل شيء ، ولا يعجزه شيء فى الأرض ولا فى السماء " . وصرح ههنا بقوله { يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ } ولم يقل " كما في قصة زكريا ، لما أن ولادة العذراء من غير أن يمسسها بشر أبدع وأغرب من ولادة عجوز عاقر من شيخ كبير ، فكان الخلق المنبىء عن الاختراع أنسب بهذا المقام من مطلق الفعل . ثم أكد - سبحانه - عظيم قدرته ونفاذ إرادته بقوله : { إِذَا قضى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } . وقضى هنا بمعنى أراد ، أى إذا اراد - سبحانه - شيئاً ، فإنما يقول لهذا الشىء كن فيكون من غير تأخر ومن غير وجود أسباب ، فهو كقوله - تعالى - { وَمَآ أَمْرُنَآ إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بالبصر } أى إنما نأمره مرة واحدة لا تثنية فيها فيكون ذلك الشىء سريعًا كلمح البصر . قال الآلوسى : وقوله { إِذَا قضى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } هذا عند الأكثرين تمثيل لتأثير قدرته في مراده بأمر المطاع للمطيع في حصول المأمور من غير امتناع وتوقف وافتقار إلى مزاولة عمل واستعمال آلة ، فالممثل الشىء المكون بسرعة من غير عمل وآلة ، والممثل به أمر الآمر المطاع - المأمور المطيع على الفور ، وهذا اللفظ مستعار لذلك منه وأنت تعلم أنه يجوز فيه أن يكون حقيقة ، بأن يراد تعلق الكلام النفسى.

بالشىء الحادث على أن كيفية الخلق على هذا الوجه .وعلى كلا التقديرين فالمراد من هذا الجواب بيان أن الله - تعالى -لا يعجزه أن يخلق ولدا من غير أب ، لأنه أمر ممكن في نفسه فيصح أن يكون متعلق الإرادة والقدرة .وبذلك تكون الآيات الكريمة قد حكت لنا بعض البشارات التي بشرت بها الملائكة مريم وبعض الصفات التي وصف الله - تعالى - بها عيسى ، وبينت جانباً من مظاهر قدرة الله - تعالى - ونفاذ إرادته ، وفى ذلك ما فيه من العظات والعبر لأولى الألباب .

ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل

كما فسرها الوسيط ثم واصل القرآن حديثه عن صفات عيسى - عليه السلام - وعن معجزاته فقال - تعالى : { وَيُعَلِّمُهُ الكتاب . . . } .فأنت ترى فى هذه الآيات الكريمة بيانا حكيما عن طبيعة رسالة عيسى - عليه السلام - وعن معجزاته التى أكرمه الله - تعالى - بها .وقوله - تعالى - : { وَيُعَلِّمُهُ الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل } معطوف على ( يُبَشِّرُكِ ) أى : يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه . . . وإن الله يعلم ذلك المولود - المعبر عنه بالكلمة - الكتاب ، وقرأ بعضهم ونعلمه الكتاب . . وعلى هذه القراءة - تكون هذه الجملة معمولة لقوله محذوف من كلام الملائكة أى ويقول الله " تعالى - ونعلمه . . وتكون في المعنى معطوفة على الحال وهي قوله " وجيها فكأنه قال : وجيها ومعلما .وعلى كلتا القراءتين يجوز أن تكون الجملة المستأنفة سيقت تطييبا لقلب مريم ، وإراحة لما أهمها من خوف الملامة حين علمت أنها تلد من غير أن يمسها بشر .ولقد حكى القرآن عنها فى سورة مريم قولها بتحسر وألم عندما جاءها المخاض { ياليتني مِتُّ قَبْلَ هذا وَكُنتُ نَسْياً مّنسِيّاً } والمراد بالكتاب الكتابة والخط ، فإن عيسى - عليه السلام - قد بعثه الله - تعالى - فى أمة ارتقت فيها ألوان العلم والمعرفة فأكرمه الله بأن جعله يفوق غيره فى هذه النواحى . وقيل المراد بالكتاب جنس الكتب الإلهية .قال الفخر الرازى : " والأقرب عندى أن يقال : المراد من الكتاب تعليم الخط والكتابة . ثم المراد بالحكمة تعليم العلوم وتهذيب الأخلاق ، لأن كمال الإنسان فى أن يعرف الحق لذاته والخير لأجل العمل به ، ومجموعهما هو المسمى بالحكمة ، ثم بعد أن صار عالما بالخط والكتابة ومحيطاً بالعلوم العقلية والشرعية يعمله التوراة . وإنما أخر تعليم التوراة عن تعليم الخط والحكمة ، لأن التوراة كتاب إلهى فيه أسرار عظيمة والإنسان ما لم يتعلم العلوم الكثيرة لا يمكنه أن يخوض فى البحث عن أسرار الكتب الإلهية ثم قال فى المرتبة الرابعة والإنجيل . وإنما أخر ذكر الإنجيل عن التوراة . لأن من تعلم الخط ، ثم تعلم علوم الحق ، ثم أحاط بأسرار الكتاب الذى نزل على من قبله من الأنبياء فقد عظمت درجته في العلم فإذا أنزل الله عليه بعد ذلك كتابا آخر وأوقفه على أسراره فذلك هو العناية القصوى والمرتبة العليا في العلم والفهم والإحاطة بالأسرار العقلية والشرعية ، والاطلاع على الحكم العلوية والسفلية . "

ورسولا الى بني اسرائيل اني قد جئتكم باية من ربكم اني اخلق لكم من الطين كهيئة الطير فانفخ فيه فيكون طيرا باذن الله وابرئ الاكمه والابرص واحيي الموتى باذن الله وانبئكم بما تاكلون وما تدخرون في بيوتكم ان في ذلك لاية لكم ان كنتم مؤمنين

كما فسرها الوسيط وبعد أن أشار - سبحانه - إلى علم الرسالة التى هيأ لها - عيسى - عليه السلام - عقب ذلك ببيان القوم الذين أرسل إليهم فقال - تعالى - أى أن الله - تعالى - سيجعل عيسى { وَرَسُولاً إلى بني إِسْرَائِيلَ } ، عليه السلام - رسولا إلى بنى إسرائيل لكى يهديهم إلى الصراط المستقيم ولكى يبشرهم برسول يأتى من بعده هو خاتم الأنبياء والمرسلين ، ألا وهو محمد صلى الله عليه وسلم .وخص بنى إسرائيل بالذكر مع أن رسالة عيسى كانت إليهم ، وإلى من علمها من الرومان : لأن بنى إسرائيل خرج عيسى من بينهم فهو منهم ولأنهم هم الذين كانوا يدعون أنهم أولى الناس بعلم الرسائل الإلهية ، وكانت دعوته بينهم وانبعث منهم إلى غيرهم ، فكان تخصيصهم بالذكر فيه إشارة إلى حقيقة واقعة وفيه توبيخ لهم ، لأنهم أوتوا العلم برسالات الأنبياء ومع ذلك فقد كفر كثير منهم بعيسى وبغيره من رسل الله ، بل لم يكتفوا بالكفر وإنما آذوا أولئك الرسل الكرام وقتلوا فريقا منهم .وقوله { وَرَسُولاً } منصوب بمضمر يقود إليه المعنى ، معطوف على { وَيُعَلِّمُهُ } أى يعلمه ويجعله رسولا إلى بنى إسرائيل .وقوله { أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ } معمول لقوله { رَسُولاً } لما فيه من معنى النطق . كأنه قيل : ورسولا ناطقاً بأنى قد جئتكم يا بنى إسرائيل بآية من ربكم .والباء للملابسة وهيى مع مدخولها فى محل الحال وقوله { مِّن رَّبِّكُمْ } متعلق بمحذوف صفة - لآية . والمراد بالآية هنا المعجزات التى أكرمه الله بها .أى : أن الله تعالى - قد علم عيسى - عليه السلام - الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل

وجعله رسولا إلى بنى إسرائيل مخبرا إياهم بأنى رسول الله إليكم حال كونى
ملتبسا مجيئى بالمعجزات الدالة على صدقى ، وهذه المعجزات ليست من عندى
وإنما هى من عند ربكم .ثم ذكر - سبحانه - خمسة أنواع من معجزات عيسى - عليه
السلام - أما المعجزة الأولى فعبر عنها بقوله : { أني أَخْلُقُ لَكُمْ
مِّنَ الطين كَهَيْئَةِ الطير فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ
الله } .قال الآلوسى : " وقوله { أني أَخْلُقُ لَكُمْ } . . الخ . . بدل من
قوله { أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ } أو من { آيَةٍ } أو منصوب على المفعولية
لمحذوف أى أعنى أنى أخلق لكم . . . أو مرفوع على أنه خبر لمقدر أى أنى قد
جئتكم بآية من ربكم هى أنى أخلق لكم . وقرأ نافع بكسر الهمزة على الاستئناف
" والمراد بالخلق التصوير والإبراز على مقدار معين لا الايجاد من العدم ،
والمعنى أن عيسى - عليه السلام - قد حكى الله - عنه أنه قال لبنى إسرائيل.
لقد أرسلنى الله إليكم لابلغكم دعوته ، ولآمركم بإخلاص العبادة له ، وقد :
أعطانى - سبحانه - من المعجزات ما يقنعكم بصدقى فيما أبلغه عن ربى ، ومن
بين هذه المعجزات أنى أقدر على أن أصور لكم من الطين شيئاً صورته مثل صورة
الطير ، فأنفخ فى ذلك الشىء المماثل لهيئة الطير فيكون طيرا حقيقا ذا حياة
بإذن الله أى بأمره وإرادته .فأنت ترى أن الجملة الكريمة قد اشتملت على
ثلاثة أعمال : ثنتان منهما لعيسى وهما تصوير الطين كهيئة الطير ثم النفخ
فيه .أما الثالث فهو من صنع الله تعالى - وحده ألا وهو خلق الحياة فى هذه
الصورة التى صورها عيسى ونفخ فيها . وهذا يدل دلالة واضحة على أنه ليس فى
عيسى ألوهية ولا أى معنى من معانيها . ولا حكى الله - تعالى - عنه أنه قال
أي أنى ما فعلت الذى فعلته إلا بإذن الله وأمره. { بِإِذْنِ الله } :
وإرادته وتيسيره ، واللام في قوله { لَكُمْ } للتعليل أى أصور لأجل هدايتكم
وتصديقكم بى .والكاف فى قوله { كَهَيْئَةِ الطير } بمعنى مثل وهى نعت
لمفعول محذوف أى أخلق شيئاً مثل هيئة الطير ، والهيئة هى الصورة والكيفية
والضمير فى قوله { فَأَنفُخُ فِيهِ } يعود إلى هذا المفعول المحذوف .وقوله.
متعلق بيكون ، وجئ به لإظهار العبودية ، ونفى توهم أن { بِإِذْنِ الله }
يكون عيسى أو غيره شريكا لله فى خلق الكائنات .وأما النوع الثانى والثالث
والرابع من المعجزات فقد حكاه القرآن فى قوله - تعالى - { وَأُبْرِئُ } أى
أشفى ، يقال : برأ المريض يبرأ أو يبرؤ برءا وبروءا إذا شفى من مرضه
والأكمه : هو الذى يولد أعمى . يقال كمه كمها إذا ولد أعمى ، فهو أكمه.
وامرأة كمهاء .والأبرص : هو الذى يكون في جلده بياض مشوب بحمرة وهو مرض من
الأمراض المنفرة التى عجز الأطباء عن شفائها .والمعنى : أن عيسى - عليه
السلام - قال لقومه : والمعجزات التى تدل على صدقى أن أشفى وأعيد الإبصار
إلى من ولد أعمى ، وأعيد الشفاء إلى من أصيب بمرض البرص ، وأعيد الحياة إلى
من مات . ولا أفعل كل ذلك بقدرتي وعلمى وإنما أفعله بإذن الله وبإرادته
وأمره .وخص إبراء الأكمه والأبرص بالذكر لأنهما مرضان عضالان لم يصل الطب
إلى الآن إلى طريق للشفاء منهما فإذا أجرى الله - تعالى - على يد عيسى
الشفاء منهما كان ذلك دليلا على أن من وراء الأسباب والمسببات خالقا مختارا
لا يعجزه شىء وعلى أن الأسباب ليست مؤثرة بذاتها فى الإيجاد أو الإعدام
وإنما المؤثر هو الله - تعالى - .وقوله { وَأُحْيِ الموتى بِإِذْنِ الله }
فيه تدرج من الصعب إلى الأصعب ، لأن مما لا شك فيه أن إحياء الموتى خارق
عظيم ، يدل دلال قاطعة على أن الأسباب العادية ليست هى المؤثرة وإنما
الخالق المكون هو المؤثر وأن الأشياء لم تخلق بالعلية - كما يقول
الماديون - وإنما خلقت بالإرادة المختارة والقدرة المبدعة المنشئة المكونة
وهي إرادة خالق الكون وقدرته سبحانه .وقيد ما يقوم به من إبراء وإحياء ،
بأنه بإذن الله : للتنبيه على أن ما يفعله من خوراق وإنما هو بأمر الله
وتيسيره وإرادته .وقد ذكر المفسرون أن إبراء عيسى للأكمه والأبرص وإحياءه
للموتى كان عن طريق الدعاء ، وكان دعاؤه يا حى يا قيوم ، وذكروا من بين من
أحياهم سام ابن نوح .قال ابن كثير : بعث الله كل نبى بمعجزة تناسب أهل
زمانه ، فكان الغالب على زمان موسى السحر وتعظيم السحرة ، فبعثه الله
بمعجزة بهرت الأبصار وحيرت كل سحّار ، فلما استيقنوا أنها من عند العظيم
الجبار انقادوا للإسلام . وأما عيسى فعبث فى زمن الأطباء واصحاب علم
الطبيعة فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه إلا أن يكون مؤيداً من
الذى شرع الشريعة فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد ، أو على مداواة
الأكمه والأبرص؟ وكذلك محمد صلى الله عليه وسلم بعث في زمان الفصحاء
والبلغاء وتجاويد الشعراء فأتاهم بكتاب من الله لو اجتمعت الإنس والجن على
أن يأتوا بسورة من مثله ما استطاعوا أبدا ، وماذاك إلى أن كلام الرب لا
يشبه كلام الخلق " .وأما المجزة الخامسة فقد حكاها القرآن في قوله -
تعالى - { وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي
بُيُوتِكُمْ } .وقوله - تعالى - { وَأُنَبِّئُكُمْ } من الإنباء وهو
الإخبار بالخبر العظيم الشأن .وقوله { تَدَّخِرُونَ } من الإدخار وهو إعداد
الشىء لوقت الحاجة إليه . يقال : دخرته وادخرته ، إذ أعدته للعقبى . واصله
تذتخرون " بالذال المعجمة - من اذتخر الشىء - بوزن افتعل - فأبدلت التاء "
دالا ثم أبدلت الذال دالا وأدغمت .والمعنى : أن عيسى - عليه السلام - قد

قال لقومه بنى إسرائيل : وإن من معجزاتى التى تدل على صدقى فيما أبلغه عن ربى أنى أخبركم بالشىء الذى تأكلونه وبالشىء الذى تخبئونه فى بيوتكم لوقت حاجتكم إليه .قال القرطبى : وذلك أنه لما أحيا لهم الموتى طلبوا منه آية أخرى وقالوا : أخبرنا بما نأكل فى بيوتنا وما ندخر للغد ، فأخبرهم فقال : يا فلان أنت أكلت كذا وكذا ، وأنت أكلت كذا وكذا وادخرت كذا وكذا فذلك قوله { وَأُنَبِّئُكُمْ } و " ما " في الوضعين موصولة ، أو نكرة موصوفة والعائد. - محذوف أى بما تأكلونه وتدخرونه .ولا شك أن إخبار عيسى - عليه السلام - لقومه بالشىء الذى يأكلونه وبالشىء الذي يدخرونه يدل على صدقه ، لأن هذا الإخبار الغيبى بما لم يعاينه دليل على أن الله - تعالى - قد أعطاه علم ما أخبر به .ثم ختم الله - تعالى - هذه الآية بقوله : { إِنَّ فِي ذلك لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ } .أى إن فى ذلك المذكور من المعجزات التى أجراها الله - تعالى - على يد عيسى - عليه السلام - لدلالة واضحة وعلامة بينة تشهد بصدقه فيما يبلغه عن ربه ، إن كنتم يا بنى إسرائيل ممن يصدق بآيات الله ويذعن لها .فاسم الإشارة " ذلك " يعود إلى ما سبق ذكره من معجزات عيسى - عليه السلام - وجواب الشرط محذوف والتقدير : إن كنتم مؤمنين انتفعتم بهذه الآيات وأذعنتم للحق الذى جئتكم به نم عند الله .

ومصدقا لما بين يدي من التوراة ولاحل لكم بعض الذي حرم عليكم وجئتكم باية من ربكم فاتقوا الله واطيعون

كما فسرها الوسيط وبعد أن حكى القرآن المعجزات الباهرة التى أيد الله بها عيسى - عليه السلام - عقب ذلك بالإشارة إلى طبيعة رسالته فقال - تعالى - { وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التوراة وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الذي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ } .وقوله - تعالى - { وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التوراة } عطف على المضمر الذى تعلق به قوله تعالى { بِآيَةٍ } أى قد جئتكم محتجا أو ملتبسا بآية من ربكم ، ومصدقا لما بين يدى . وجوز أن يكون منصوبا بفعل دل عليه " قد جئتكم " . . أى جئتكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ، ومعنى تصديقه - عليه السلام - للتوراة والإيمان بأن جميع ما فيها حكمة وصواب ، وأن كتابه يدعو إلى الإيمان بها .والمعنى : أن عيسى - عليه السلام - قال لبنى إسرائيل : إن الله - تعالى - قد أرسلني إليكم لهدايتكم وقد جئتكم بالمعجزات التي تثبت صدقى . وجئتكم مصدقا لما بين يدى من التوراة أي مقررا لها ومؤمنا بها .ومعنى ما بين يدى ما تقدم قبلى : لأن المتقدم - السابق يمشي بين يدى الجائي فهو هنا تمثيل لحالة السبق ، وإن كان عيسى عليه السلام - وبين نزول التوراة أزمنة طويلة لأنها لما اتصل العمل بها إلى مجيئه فكأنها لم تسبقه بزمن طويل ويستعمل بين يدي كذا فى معنى الحاضر المشاهد كما فى قوله - تعالى - { يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ } وقوله { وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الذي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ } معمول لمقدر بعد الواو ، أى : وجئتكم لأحل لكم بعض الأشياء التى كانت محرمة عليكم فى شريعة موسى - عليه السلام - فهو من عطف الجملة على الجملة .أى أن - شريعة عيسى جاءت متممة لشريعة موسى وناسخة لبعض أحكامها ، فلقد حرم الله - تعالى - على بنى إسرائيل بعض الطيبات بسبب ظلمهم وبغيهم كما جاء فى قوله - تعالى - { فَبِظُلْمٍ مِّنَ الذين هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ } فجاءت شريعة عيسى - عليه السلام - لتحل لهم بعض ما حرمه الله عليهم بسبب ظلمهم وفجورهم .قال ابن كثير : فيه دلالة على أن عيسى - عليه السلام - نسخ بعض شريعة التوراة وهو الصحيح من القولين : ومن العلماء من قال : لم ينسخ منها شيئا ، وإنما أحل لهم بعض ما كانوا يتنازعون فيه فأخطأوا فكشف لهم عن خطئهم كما قال فى الآية { وَلأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الذي تَخْتَلِفُونَ } قالوا . ومن الأطعمة التي أحلها عيسى لبنى إسرائيل بعد أن كانت محرمة عليهم فى شريعة موسى : لحوم الإبل والشحوم وبعض الأسماك والطيور .وقوله { وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ } تحريض لهم على الاستجابة لما يدعوهم إليه .قال الفخر الرازى " وإنما أعاد قوله - تعالى - { وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ } لأن إخراج الإنسان عن المألوف المعتاد من قديم الزمان عسر ، فأعاد ذكر المعجزات ليكون كلامه ناجعا فى قلوبهم ومؤثرا في طباعهم . ثم خوفهم فقال : { فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ } لأن طاعة الرسول من لوازم تقوى الله فبين أنه إذا لزمكم أن تتقوا الله لزمكم أن تطيعونى فيما آمركم عن ربي " .

ان الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم

كما فسرها الوسيط ثم حكى القرآن أن عيسى - عليه السلام - قد قرر أن هذه المعجزات الباهرة لن تخرجه عن أن يكون عبداً لله مخلوقا له ، وأن من الواجب على الناس أن يعبدوا الله وحده ولا يشركوا به شيئاً فقال : { إِنَّ الله

رَبِّي وَرَبُّكُمْ فاعبدوه هذا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ } أى قال عيسى - عليه السلام - داعيا قومه إلى عبادة الله - تعالى - هو الذى خلقنى وخلقكم وهو - الذى ربانى ورباكم ، وما دام الأمر كذلك فأخلصوا له العبادة فإن عبادته سبحانه - وطاعته هي الطريق المستقيم الذى لا اعوجاج فيه ولا التباس .وبذلك - تكون الآيات الكريمة قد بينت لنا بعض المعجزات التى أكرم الله بها عيسى عليه السلام - كما حكت لنا بعض التوجيهات القويمة ، والإرشادات الحكمية التي نصح بها قومه لكى يسعدوا فى دنياهم وآخرتهم .والآن ينساق الذهن إلى سؤال هو : ماذا كان موقف بنى إسرائيل منه بعد أن جاءهم بما جاءهم به من بينات وهدايات؟

فلما احس عيسى منهم الكفر قال من انصاري الى الله قال الحواريون نحن انصار الله امنا بالله واشهد بانا مسلمون

كما فسرها الوسيط لقد حكى القرآن أن موقف أكثرهم منه كان موقف الكافر به - الجاحد لرسالته فقال تعالى : { فَلَمَّآ أَحَسَّ . . . . } .قوله - تعالى { فَلَمَّآ أَحَسَّ عيسى مِنْهُمُ الكفر قَالَ مَنْ أنصاري إِلَى الله } شروع فى بيان مآل أحواله - عليه السلام - وفى بيان موقف قومه منه بعد أن بين - قبل ذلك بعض صفاته ومعجزاته وخصائص رسالته .وأحس : بمعنى علم ووجد وعرف . والإحساس : الإدراك ببعض الحواس الخمس وهى الذوق والشم واللمس والسمع والبصر . يقال أحس الشىء ، علمه بالحس . وأحس بالشىء شعر به بحاسته والمراد أن عيسى عليه السلام ، علم من بنى إسرائيل الكفر علما لا شبهة فيه والأنصار جمع نصير مثل شريف وأشراف .والمعنى أن عيسى - عليه السلام - قد. جاء لقومه بالمعجزات الباهرات التى تشهد بصدقه فى دعوته ولكنه لم يجد منهم أذنا واعية ، فلما رأى تصميمهم على باطلهم ، وأحس منهم الكفر أى علمه يقينا وتحققه تحقق ما يدرك بالحواس ، قال على سبيل التبليغ وطلب النصرة : من أنصارى إلى الله؟ أى من أعوانى في الدعوة إلى الله والتبشير بدينه حتى أبلغ ما كلفنى بتبليغه .قال ابن كثير : وذلك كما كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول فى مواسم الحج قبل أن يهاجر " هل من رجل يؤوينى وينصرنى حتى أبلغ كلام ربى فإن قريشا قد منعوني أن أبلغ كلام ربى " فقيض الله له الأنصار فآووه ونصروه ومنعوه من الأسود والأحمر " .والفاء في { فَلَمَّآ } تؤذن بالتعقيب على الآيات الباهرة . أى أنهم بعد أن رأوا ما رأوا من معجزات عيسى لم يمتثلوا له ولم يتدبروا عاقبة أمرهم بل كذبوه على الفور ، وحاولوا قتله تخلصا منه واستمروا على كفرهم .والتعبير بأحس - كما أشرنا من قبل - يشعر بأنه علم منهم الكفر علما لا شبهة فيه كعلم ما يدرك بالحواس .والمقول لهم } مَنْ أنصاري إِلَى الله } هم الحواريون كما يشير إليه قوله - تعالى - في سورة الصف : { ياأيها الذين آمَنُواْ كونوا أنصَارَ الله كَمَا قَالَ عِيسَى ابن مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أنصاري إِلَى الله } وقيل المقول لهم جميع أفراد قومه .وقوله { مِنْهُمُ } متعلق بأحس . ومن لابتداء الغاية أى ابتداء الإحساس من جهتهم . أو متعلق بمحذوف على أنه حال من الكفر أى أحس الكفر حال كونه صادرا منهم . وقوله { إِلَى الله } متعلق بمحذوف على أنه حال من الياء في أنصارى . أى من أنصارى حال كونى ذاهبا إلى الله أى ملتجئا إليه وشارعا في نصرة دينه .وفي قوله { مَنْ أنصاري إِلَى الله } حض . لهم على المسارعة إلى نصرة الحق لأنهم لا ينصرونه من أجل متعة زائلة ، وإنما هم ينصرونه لأنه يدافع عن دين الله ويبشر به ، ومن نصر دين الله نصره الله تعالى .والآية الكريمة تشير إلى أن الكافرين كانوا هم الكثرة } الكاثرة من بنى إسرائيل ، بدليل أنه - سبحانه - نسب الكفر إليهم فى قوله فَلَمَّآ أَحَسَّ عيسى مِنْهُمُ الكفر } وذلك لا يكون إلا إذا كان الكافرون } هم الكثرة الظاهرة ، والمؤمنون هم القلى غير الظاهرة حتى لكأن عيسى بقوله مَنْ أنصاري إِلَى الله } يبحث عنهم من بين تلك الجموع الكثيرة من الكافرين وهنا يحكى القرآن أن المؤمنين الصادقين - مع قلتهم - لم يتقاعسوا عن . تلبية نداء عيسى - عليه السلام - فقال الله - تعالى - { قَالَ الحواريون { نَحْنُ أَنْصَارُ الله آمَنَّا بالله واشهد بِأَنَّا مُسْلِمُونَ والحواريون جمع حوارى وهم أنصار عيسى الذين آمنوا به وصدقوه ، وأخلصوا له ولازموه وكانوا عونا له فى الدعوة إلى الحق .يقال فلان حوارى فلان أى خاصه من أصحابه ومنه قول النبى صلى الله عليه وسلم فى الزبير بن العوام : " لكل نبى حوارى وحوارىى الزبير " .وأصل مادة " حور " هي شدة البياض . أو الخالص من البياض ، ولذلك قالوا في خالص لباب الدقيق الحوارى . وقالوا في النساء البيض الحواريات والحوريات .وقد سمى - تعالى - أصفياء عيسى وأنصاره بالحواريين لأنهم أخلصوا لله - تعالى نياتهم ، وطهرت سرائرهم من النفاق والغش فصاروا فى نقائهم وصفائهم كالشىء الأبيض الخالص البياض .والمعنى أن عيسى عليه السلام - لما أحس الكفر من بنى إسرائيل قال لهم من أنصارى إلى - الله؟ فأجابه الحواريون الذين آمنوا به وصدقوه وباعوا نفوسهم لله - تعالى نحن أنصار الله الذين تبحث عنهم ، ونحن الذين سنقف إلى جانبك لنصرة الحق : فقد آمنا بالله إيمانا عميقا ، ونريدك أن تشهد على إيماننا هذا ، وأن ،

تشهد لنا يا عيسى بأنا مسلمون حين تشهد الرسل لأقوامهم وعليهم .فأنت ترى أن الحواريين لقوة إيمانهم وصفاء نفوسهم قد لبوا دعوة عيسى - عليه السلام - فى طلب النصرة دون أن يخشوا أحدا إلا الله .وقولهم - كما حكى القرآن عنهم { نَحْنُ أَنْصَارُ الله } إشعار بأنهم ما وقفوا بجانب عيسى إلا نصرة لدين الله ودفاعا عن الحق الذى أنزله على رسوله عيسى .وقولهم { آمَنّا بالله } جملة في معنى العلة للنصرة أى نحن أنصار الله يا عيسى لأننا آمنا بأنه هو الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، وأنه هو الخالق لكل شىء والقادر على كل شىء .وقولهم { واشهد بِأَنّا مُسْلِمُونَ } معطوف على آمنا والشهادة هنا بمعنى العلم المنبعث من المعاينة والمشاهدة فهم يطلبون من عيسى - عليه السلام - أن يكون شاهدا لهم يوم القيامة بأنهم أسلموا وجوههم لله وأخلصوا له العبادة .وأقوالهم هذه التى حكاها القرآن عنهم تدل على أنهم كانوا في الدرجة العليا من قوة الإيمان وصدق اليقين ، ونقاء السريرة .

ربنا امنا بما انزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين

كما فسرها الوسيط ثم حكى القرآن عنهم أنهم قالوا - أيضاً - { رَبّنَآ آمَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ } على أنبيائك من كتب { واتبعنا الرسول } أى امتثلنا ما أتى به منك إلينا { فاكتبنا مَعَ الشاهدين } أى كتبنا بفضلك ورحمتك مع الشاهدين بوحدانيتك العاملين بشريعتك المستحقين لرضاك ورحمتك فهم قد صدوا ضراعتهم إلى الله - تعالى - بالاعتراف الكامل بربوبيته ثم. أعلنوا إيمانهم به وبما أنزل على أنبيائه ، ثم أقروا باتباعهم لرسوله والأخذ بسنته ، ثم التمسوا منه - سبحانه - بعد ذلك أن يجعلهم من عباده - الذين رضى عنهم وأرضاهم .وهذا يدل على أنهم فى نهاية الأدب مع الله تعالى - وعلى أنهم فى أسمى مراتب الإيمان قال بعض العلماء : وكان عدد هؤلاء الحواريين اثنى عشر رجلا آمنوا بعيسى وصدقوه ولازموه فى دعوته إلى الحق .

ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه ما كان من بنى إسرائيل فقال : { وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ الله والله خَيْرُ الماكرين } والمكر : التدبير المحكم . أو صرف غيرك عما يريده بحيلة . وهو مذمون إن تحرى به الفاعل الشر والقبيح كما فعل اليهود مع عيسى - عليه السلام - ومحمود أن تحرى به الفاعل الخير والجميل .وأملعنى : أن أولئك اليهود الذين أحسن عيسى منهم الكفر دبروا له القتل غيلة واتخذوا كل الوسائل لتنفيذ مآربهم الذميمة . فأحبط - الله - تعالى - مكرهم ، وأبطل تدبيرهم بأن نجى نبيه عيسى - عليه السلام ، من شرورهم { والله خَيْرُ الماكرين } أى أقواهم مكرا وأنفذهم كيدا . وأقدرهم على العقاب من حيث لا يشعر المعاقب

اذ قال الله يا عيسى اني متوفيك ورافعك الي ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة ثم الي مرجعكم فاحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - بعض مظاهر قدرته ، ورعايته لعبده عيسى - عليه السلام - وخذلانه لاعدائه فقال - تعالى . { إِذْ قَالَ الله ياعيسى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيّ } .وللعلماء فى تفسير هذه الآية الكريمة أقوال كثيرة أشهرها قولان :أما القول الأول : وهو قول جمهور العلماء - فيرى أصحابه أن معنى { إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيّ } أى قابضك من الأرض ورافعك إلى السماء بجسدك وروحك لتستوفى حظك من الحياة { هناك .وأصحاب هذا الرأىلا يفسرون التوفى بالموت وإنما يقولون : إن التوفى في اللغة معناه أخذ الشىء تاما وافيا . فمعنى { مُتَوَفِّيكَ } آخذك وافيا بروحك وجسدك ومعنى {وَرَافِعُكَ إِلَيَّ } ورافعك إلى محل كرامتى فى السماء فالعطف للتفسير . يقال : وفيت فلانا حقه أى أعطيته إياه وافيا فاستوفاه وتوفاه أى أخذه وافيا كاملا .قال القرطبي : " قال الحسن وبان جريج معنى متوفيك قابضك ورافعك إلى السماء من غير موت ، مثل توفيت مالي من : فلان أى قبضته " .أما القول الثاني : وهو قول قلة من العلماء - فيرى أصحابه أن معنى { إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيّ } أى مميتك ورافع - منزلتك وروحك إلى محل كرامتى ومقر ملائكتى كما ترفع أرواح الأنبياء إليه سبحانه - .فأنت ترى أن أصحاب هذا الرأى يفسرون التوفى بالإماتة ، ويقولون إن هذا التفسير هو الظاهر من معنى التوفى ويفسرون { وَرَافِعُكَ إِلَيّ } بمعنى رفع الروح إلى السماءأى أن الله - تعالى - قد توفى عيسى كما يتوفى الأنفس كلها ، ورفع روحه إليه كما يرفع أرواح النبيين .والذى تسكن إليه الأنفس هو القول الأول لأمور :أولها : أن قوله - تعالى - فى سورة النساء { وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً بَل رّفَعَهُ الله إِلَيْهِ } يفيد أن الرفع كان

بجسم عيسى كوروحه لأن الإضراب مقابل للقتل ولاصلب الذى أرادوه وزعموا حصوله
ولا يصح مقابلا لهما رفعه بالروح لأن الرفع بالروح يجوز أن يجتمع معهما ،
وما دام الرفع بالروح لا يصح مقابلا لهما إذن يكون المتعين أن المقابل لهما
هو الرفع بالجسد والروح .ثانيها : أن هناك أحاديث متعددة ، بلغت في قوتها
مبلغ التواتر المعنوى - كما يقول ابن كثير - قد وردت فى شأن نزول عيسى إلى
الأرض فى آخر الزمان ليملأها عدلا كما ملئت جوار ، وليكون حاكما بشريعة
محمد صلى الله عليه وسلم ومن هذه الأحاديث ما أخرجه الشيخان عن أبي هريرة
أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يوشك أن ينزل فيكم ابن مريم
، حكما عدلا ، يقتل الدجال ويقتل الخنزير ، ويكسر الصليب ، ويضع الجزية
ويفيض المال ، وتكون السجدة واحدة لله رب العالمين " .وظاهر هذا الحديث وما
يشابهه من الأحاديث الصحيحة فى شأن نزول عيسى ، يفيد أن نزوله يكون بروحه
وجسده كما رفعه الله إليه بروحه وجسده .ثالثا : أن هذا القول هو قول جمهور
العلماء ، وهو القول الذى يتناسب مع ما أكرم الله - تعالى - به عيسى - عليه
السلام - من كرامات ومعجزات .قال بعض العلماء ما ملخصه : وجمهور العلماء
. على أن عيسى رفع حيا من غير موت ولا غفوة بجسده و روحه إلى السماء
والخصوصية له - عليه السلام - هى فى رفعه بجسده ، وبقاؤه فيها إلى الأمد
المقدر له ولا يصح أن يحمل التوفى على الإماتة لأن إماتة عيسى فى وقت حصار
أعدائه ليس فيها ما يسوغ الامتنان بها ورفعه إلى السماء جثة هامدة سخف من
القول . وقد نزه الله السماء أن تكون قبورا لجثث الموتى . وإن كان الرفع
بالروح فقط فأى مزية لعيسى فى ذلك على سائر الأنبياء ، والسماء مستقر
. أرواحهم الطاهرة . فالحق أنه - عليه السلام - رفع إلى السماء حيا بجسده
وكما كان - عليه السلام - فى مبدأ خلقه آية للناس ومعجزة ظاهرة ، كان فى
نهاية أمره آية ومعجزة باهرة والمعجزات بأسرها فوق قدرة البشرة ومدارك
العقول ، وهى من متعلقات القدرة الإلهية ومن الأدلة على صدق الرسل - عليهم
الصلاة والسلام - " .هذا ، وقد ذكر بعض المفسرين أقوالا أخرى للعلماء فى
معنى هذه الآية الكريمة نرى من الخير عدم ذكرها لضعفها وخوف الإطالة .ومعنى
- الآية الكريمة : واذكر أيها المخاطب لتعتبر وتتعظ وقت أن قال الله
تعالى - لنبيه عيسى : { إِنِّي مُتَوَفِّيكَ } أى آخذك وافيا بورحك وجسدك
من الأرض { وَرَافِعُكَ إِلَيَّ } أى ورافعك إلى محل كرامتي فى السماء
}. لتستوفى حظك من الحياة هناك إلى أن آذن لك بالنزول إلى الأرض
وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الذين كَفَرُوا } بإبعادك عنهم ، وبإنجائك مما بيتوه
}. لك من مكر سىء وبتبرئتك مما أشاعوه عنك وعن أمك من أكاذيب واباطيل
وَجَاعِلُ الذين اتبعوك } وهم المسلمون الذين آمنوا بك وصدقوك ، وصدقوا بكل
نبى بعثه الله - تعالى - بدون تفرقة بين أنبيائه ورسله .{ فَوْقَ الذين
كَفَرُواْ إلى يَوْمِ القيامة } أى جاعل هؤلاء المؤمنين فوق الذين كفروا بك
، وبغيرك من الرسل إلى يوم القيامة .أى فوقهم بحجتهم ، وبسلامة اعتقادهم
وبقوتهم المادية والروحية إلى يوم القيامة .فالمراد بأتباع عيسى هم الذين
أخلصوا لله - تعالى - عبادتهم ، وأقروا بوحدانيته - سبحانه - ونزهوا عيسى
عن أن يكون ابن الله أو ثالث ثلاثة أو غير ذلك من الأقاويل الباطلة
والمراد بالفوقية ما يتناول الناحيتين الروحية والمادية ، اي هم فوقهم.
بقوة إمانهم ، وحسن إدراكهم ، وسلامة عقولهم ، وهم فوقهم كذلك بشجاعتهم
وحسن أخذهم للاسباب التي شرعها الله - تعالى - كوسائل للنصر والفوز ولذا
قال صاحب الكشاف قوله : { فَوْقَ الذين كَفَرُواْ إلى يَوْمِ القيامة } أي
يعلونهم بالحجة وفى أكثر الأحوال بها وبالسيف ومتبعوه هم المسلمون لأنهم
متبعوه في أصل الإسلام وإن اختلفت الشرائع ، دون الذين كذبوه والذين كذبوا
عليه من اليهود والنصارى " .ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : { ثُمَّ
إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ
- تَخْتَلِفُونَ } .أى . ثم إلى الله مرجعكم ومصيركم أيها الناس فيتولى
سبحانه - الحكم العادل بينكم فيما كنتم تختلفون فيه فى دنياكم من شئون
دينية أو دنيوية ، ثم فصل سبحانه - هذا الحكم الذى سيحكم به على عباده يوم
القيامة فقال :

فاما الذين كفروا فاعذبهم عذابا شديدا في الدنيا والاخرة وما لهم من ناصرين

} كما فسرها الوسيط { فَأَمَّا الذين كَفَرُواْ } بى وبما يجب الإيمان به
فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فِي الدنيا والآخرة } .أى فأعذبهم عذابا
شديداً فى الدنيا بإيقاع العداوة والبغضاء والحروب بينهم ، وبما يشبه ذلك
من هزائم وأمراض وشقاء نفس لا يعلم مقدار ألمه إلى الله - تعالى - وأما فى
الآخرة فيساقون إلى عذاب النار وبئس القرار .وقد أكد - سبحانه - شدة هذا
العذاب بعدة تاكيدات منها نسبة العذاب إليه - سبحانه - وهو القوى القهار
الغالب على كل شىء ، ومنها التأكيد بالمصدر ، ومنها الوصف بالشدة ، ومنها
} - الإخبار بأنه لا ناصر لهم ينصرهم من هذا العذاب الشديد فى قوله - تعالى
، وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ } أى ليس لهم من ناصر أيا كان هذا الناصر
وأيا كانت نصرته ولو كانت نصرة ضئيلة لا وزن لها ولا قيمة .هذا هو جزاء

: الكافرين وأما جزاء المؤمنين فقد بينه - سبحانه - بقوله

واما الذين امنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم اجورهم والله لا يحب الظالمين

كما فسرها الوسيط { وَأَمّا الذين آمَنُوا وَعَمِلُواْ الصالحات فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ } .أى فسيعطيهم - سبحانه - بفضله وإحسانه بسبب إيمانهم وعملهم الصالح ، أجورهم كاملة غير منقوصة ، من ثواب جزيل ، وجنات تجرى من تحتها الأنهار وأزواج مطهرة ، ورضوان من الله أكبر من كل ذلك .ففى هذه الجملة الكريمة بشارة عظمى للمؤمنين الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا على طريقه .ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : { والله لاَ يُحِبُّ الظالمين أي أنه - سبحانه - عادل في أحكامه ، ويكره الظلم والظالمين الذين لا. { يضعون الأمور فى مواضعها .ومن أفحش أنواع الظلم ما يقوله أهل الكتاب على عيسى - عليه السلام - فقد زعم بعضهم انه ابن الله ، وزعم فريق آخر أنه ثالث ثلاثة وافترى عليه اليهود وعلى أمه مريم البتول المفتريات التى برأهما الله - تعالى - منها .أما الذين آمنوا فقد قالوا فى عيسى وأمه قولا كريما ، ولذلك كافأهم الله - تعالى - بما يستحقون من ثواب .وبذلك تكون الآيات الكريمة قد حكت لنا جانبا من فضائل عيسى - عليه السلام - وبينت للناس جزاء المؤمنين وجزاء الكافرين حتى يثوبوا إلى رشدهم ويسلكوا الطريق القويم .وبعد أن حكى الله - تعالى - فى الآيات السابقة ولادة عيسى - عليه السلام - وما أجراه على يديه من معجزات ، وما أكرمه به من مكرمات ، وكيف كان موقف بنى إسرائيل منه ، وكيف أبطل الله مكرهم وخيب سعيهم ، إذ رفعه إليه وطهره من أقوالهم الباطلة وأفعالهم الأثيمة وتوعد أعداءه بالعذاب الشديد ووعد اتباعه بالثواب الجزيل . . . بعد أن حكى القرآن كل ذلك ختم حديثه عن عيسى - عليه السلام - ببيان حقيقة تكوينه ، وبإزالة وجه الغرابة فى ولادته ، وبتلقين النبى صلى الله عليه وسلم الرد الصحيح على كل مجادل فى شأن عيسى - عليه السلام - استمع إلى القرآن وهو يصور كل ذلك بأسلوبه المعجز فيقول : { ذلك نَتْلُوهُ عَلَيْكَ . . . } .

ذلك نتلوه عليك من الايات والذكر الحكيم

كما فسرها الوسيط قوله - تعالى - { ذلك نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ والذكر الحكيم } اسم الإشارة فيه وهو " ذلك " مشار به إلى المذكور من قصى آل عمران وقصة مريم وأمها ، وقصة زكريا وندائه لربه ، وقصة عيسى وما أجراه الله - تعالى - على يديه من معجزات وما خصه به من كرامات .أى ذلك القصص الحكيم الذى قصصناه عليك يا محمد { ذلك نَتْلُوهُ عَلَيْكَ } أى نقصه عليك متتابعا بعضه تلو بعض من غير أن يكون لك اطلاع سابق عليه . فأنت لم تكن معاصراً لهؤلاء الذين ذكرنا لك قصصهم وأحوالهم وهذا من أكبر الأدلة على صدقك فيما تبلغه عن ربك .وقوله { ذلك } مبتدأ وقوله { نَتْلُوهُ عَلَيْكَ } خبره .وقوله { مِنَ الآيَاتِ } حال من الضمير المنصوب في { نَتْلُوهُ } } والمراد بالآيات الحجج الدالة على صدق النبى صلى الله عليه وسلم وقوله. والذكر الحكيم } أى والقرآن المحكم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والمشتمل على الحكم التى من شأنها أن تهدى الناس إلى ما يسعدهم متى اتبعوها وقيل المراد بالذكر الحكيم اللوح المحفوظ الذى نقلت منه جميع الكتب المنزلة على الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام- .

ان مثل عيسى عند الله كمثل ادم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن خلق عيسى من غير أب ليس مستبعدا على الله - تعالى - فقد خلق آدم كذلك فقال : { إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ الله كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ } والمثل هنا : بمعنى الصفة والحال والعجيبة الشأن ، ومحل التمثيل كون. كليهما قد خلق بدون أب ، والشىء قد يشبه بالشىء متى اجتمعا ولو في وصف واحد } والمعنى : إن شأن عيسى وحاله الغريبة { عِندَ الله } أى فى تقديره وحكمه. - كَمَثَلِ ءَادَمَ } أى كصفته وحاله العجيبة في أن كليهما قد خلقه الله تعالى - من غير أب ، ويزيد آدم على عيسى أنه خلق بدون أم - أيضا - .فالآية الكريمة ترد رداً منطقيا حكيما يهدم زعم كل من قال بألوهية المسيح أو اعتبره ابن الله .وكأن الآية الكريمة تقول لمن ادعى ألوهية عيسى لأنه خلق من غير أب : أنه إذا كان وجود عيسى بدون أب يسوغ لكم أن تجعلوه إلها أو ابن إله فأولى بذلك ثم أولى آدم لأنه خلق من غير أب ولا أم . وما دام لم يدع أحد من الناس ألوهية آدم لهذا السبب فبطل حينئذ القول بألوهية عيسى لانهيار الأساس الذى قام عليه وهو خلقه من غير أب .ولأنه إذا كان الله - تعالى - قادرا على أن يخلق إنساناً بدون أب ولا أم . فأولى ثم أولى أن يكون قادراً على خلق إنسان من غير أب فقط .ومن أم هى مريم التى تولاها - سبحانه - برعايته وصيانته لها من كل سوء وجعلها وعاء لهذا النبى الكريم عيسى - عليه

السلام - .قال صاحب الكشاف : وقوله { خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ } جملة مفسرة لما له شبه عيسى بآدم - أى للأمر الذى لأجله كان ذلك التشبيه - أى خلق آدم من تراب ولم يكن ثمة أب ولا أم وكذلك حال عيسى . فإن قلت : كيف شبه به وقد ، وجد هو من غير أب ووجد آدم ن غير أب وأم؟ قلت : هو مثيله فى أحد الطرفين فلا يمنع اختصاصه دونه بالطرف الآخر من تشبيهه به لأن المماثلة مشاركة في بعض الأوصاف ، ولأنه شبه به لأنه وجد وجوداً خارجا عن العادة المستمرة وهما فى ذلك نظيران . ولأن الوجود من غير أب وأم أغرب وأخرق للعادة من الوجود بغير أب ، فشبه الغريب بالأغرب ، ليكون أقطع للخصم ، وأحسن لمادة شبهته إذا نظر فيم هو أغرب مما استغربه " .وقوله { ثُمّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ } تصوير لخلق الله - تعالى - آدم من تراب أى أراد - سبحانه - أن يوجد آدم فصوره من طين ثم قال له حين صوره كن بشرا فصار بشرا كاملا روحا وجسدا كما أمر - سبحانه - .فالجملة الكريمة تصور نفاذ قدرة الله ، تصويرا بديعا يدل على أنه - سبحانه -لا يعجزه شىء في هذا الكون .وعبر بصيغة المضارع المقترن بالفاء في " يكون " دون الماضى بأن يقول " فكان " لأن العبير بالمضارع فيه تصوير وإحضار للصورة الواقعة كما وقعت ، ومن وجهة أخرى فإن صيغة المضارع فى - هذا المقام تنبىء عما كان ، وتومىء إلى ما يكون بالنسبة لخلق الله - تعالى - المستمر فى المستقبل كما كان فى الماضى .

الحق من ربك فلا تكن من الممترين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن ما أخبر به عباده فى شأن عيسى وغيره هو الحق الذى لا يحوم حوله باطل فقال - تعالى - { الحق مِن رّبِّكَ فَلاَ تَكُنْ مِّن الممترين } .والامتراء هو الشك الذى يدفع الإنسان إلى المجادلة المبنية على الأوهام لا على الحقائق .وهو - كما يقول الرازى - مأخوذ من قول العرب مريت الناقة والشاة إذا أردت حلبها فكأن الشاك يجتذب بشكه مراء كاللبن الذى يجتذب عند الحلب . يقال : قد مارى فلان فلانا إذا جادله كأنه يستخرج غضبه .والمعنى : هذا الذى أخبرناك عنه يا محمد من شأن عيسى ومن شأن غيره هو الحق الثاتب اليقينى الذى لا مجال للشك فيه ، وما دام الأمر كذلك فاثبت على ما أنت عليه من حق ، ولا تكونن من الشاكين فى أى شىء مما أخبرناك به .وقد أكد - سبحانه - أن ما أوحاه إلى نبيه صلى الله عليه وسلم هو الحق بثلاثة تأكيدات :أولها : بالتعريف فى كلمة { الحق } أى ما أخبرناك به هو الحق الثابت الذى لا يخالطه باطل .ثانيها : بكونه من عنده - سبحانه - وكل شىء من عنده فهو صدق لا ريب فيه .ثالثها : بالنهى عن الامتراء والشك فى ذلك الحق ، لأن من شأن الأمور الثابتة أن يتقبلها العقلاء بإذعان وتسليم وبدون جدل أو امتراء .قال الآلوسى : وقوله { فَلاَ تَكُنْ مِّن الممترين } خطاب له صلى الله عليه وسلم ولا يضر فيه استحالة وقوع الامتراء منه صلى الله عليه وسلم بل ذكروا فى هذا الأسلوب فائدتين :إحداهما : أنه صلى الله عليه وسلم إذا سمع مثل هذا الخطاب تحكرت منه الأريحية فيزداد فى الثبات على اليقين نورا على نور .وثانيتهما : أن السامع يتنبه بهذا الخطاب على أمر عظيم فينزع وينزجر عما يورث الامتراء لأنه صلى الله عليه وسلم مع جلالته التى لا تصل إليها الأمانى - إذا خوطب بمثله فما يظن بغيره؟ ففى ذلك ثبات له صلى الله عليه وسلم ولطف بغيره " .

فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع ابناءنا وابناءكم ونساءنا ونساءكم وانفسنا وانفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنت الله على الكاذبين

كما فسرها الوسيط لقد لقن الله تعالى ، نبيه صلى الله عليه وسلم ، الجواب الذى يقطع لسان المجادلين بالباطل فى شأن عيسى عليه السلام ، فقال تعالى { فَمَنْ حَآجّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ العلم } . . . إلخ .قال الفخر الرازى : اعمل أنه " سبحانه " بين أول هذه السورة وجوها من الدلائل القاطعة على فساد قول النصارى بالزوجة والولد وأتبعهما بذكر الجواب على جميع شبههم على سبيل الاستقصاء التام وختم الكلام بهذه النكتة القاطعة لفساد كلامهم وهو أنه لما لم يلزم من عدم الأب والأم البشريين لآدم أن يكون ابنا لله فكذلك لا يلزم من عدم الأب البشرى لعيسى أن يكون ابنا لله . ولما لم يبعد خلق آدم من التراب لم يبعد أيضاً خلق عيسى من الدم الذى كان يجتمع فى رحم أم عيسى . ومن أنصف وطلب الحق علم أن البيان قد بلغ إلى الغاية القصوى - فعند ذلك - قال سبحانه - { فَمَنْ حَآجّكَ } بعد هذه الدلائل الواضحة والجوابات اللائحة فاقطع الكلام معهم وعاملهم بما يعامل به المعاند وهو أن تدعوهم إلى الملاعنة .والفاء في قوله { فَمَنْ حَآجّكَ } للتفريع ، على قوله - تعالى - { الحق مِن رّبّكَ } . . وقوله { مِن } الراجح فيها أنها شرطية . وقوله { حَآجّكَ } من المحاجة وهى تبادل الحجة والمجادلة بين شخص وآخر .والمعنى : فمن جادلك وخاصمك " يا محمد " من أهل الكتاب " فيه " أى فى شأن عيسى - عليه السلام - بأن زعموا أنه إله أو ابن إله أو ثالث ثلاثة أو غير ذلك من الأقاويل الكاذبة في شأنه .وقوله { مِن بَعْدِ مَا

جَآءَكَ مِنَ العلم } أى فمن جادلك فى شأن عيسى من بعد الذى أنزلناه إليك
وقصصناه عليك فى أمره ، فلا تبادله المجادلة ، فإنه معاند لا يقعنه الدليل
مهما كان واضحا ، ولكن قل له ولأمثاله من الضالين :{ تَعَالَوْاْ نَدْعُ
أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا
{ وأَنْفُسَكُمْ ثُمّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ الله عَلَى الكاذبين
وقوله { تَعَالَوْاْ } اسم فعل أمر لطلب القدوم . وهو في الأصل أمر من.
تعالى يتعالى " كترامى يترامى " إذا قصد العلو . فكأنهم أرادوا به فى الأصل
أمرا بالصعود إلى مكان عال تشريفا للمدعو ، ثم شاع حتى صار لمطلق الأمر
. بالقدوم أو الحضور .وقوله { ثُمّ نَبْتَهِلْ } أى نتباهل ونتلاعن
فالافتعال هنا بمعنى الفاعلة أى بأن نقول : بهلة الله على الكاذب منا ومنكم
والبهلة بفتح الباء وضمها : اللعنة . يقال بهله الله يبهله بهلا لعنه .
الله وأبعده من رحمته ثم شاعت فى كل دعاء مجتهد فيه وإن لم يكن التعانا
والمعنى : فإن جادلك أهل الكتاب في شأن عيسى من بعد أن أخبرك ربك بما هو.
الحق من أمره فقل لهم { تَعَالَوْاْ } أى أقبلوا أيها المجادلون إلى أمر
يعرف فيه الحق من الباطل ، وهو أن ندعو نحن وأنتم الأبناء والنساء ثم نجتمع
جميعا في مكان واحد ، ثم نتضرع إلى الله ونبتهل إليه بأن يجعل لعنته على
الكاذبين فى دعواهم المنحرفين عن الحق فى اعتقادهم .فأنت ترى أن الآية
الكريمة قد لقنت النبى صلى الله عليه وسلم الجواب الحاسم الذى يخرس ألسنة
المجادلين في عيسى ، ويتحداهم - إن كانوا صادقين - أن يقبلوا هذه المباهلة
ولكنهم نكصوا على أعقابهم فثبت كذبهم وضلالهم .وهذه الآية الكريمة تسمى ،
بآية المباهلة ، وقد ذكر العلماء أنها نزلت للرد على نصارى نجران الذين
جادلوا النبى صلى الله عليه وسلم فى شأن عيسى - عليه السلام - .قال ابن
كثير ما ملخصه . وكان نزول هذه المباهلة وما قبلها من أول السورة إلى هنا
فى وفد نصارى نجران حين قدموا المدينة فجعلوا يحاجون في عيسى ويزعمون فيه
ما يزعمون من النبوة والألوهية فأنزل صدر هذه السورة رداً عليهم . . وكانوا
ستين راكبا منهم ثلاثة إليهم يؤول أمرهم وهم : العاقب أميرهم واسمه عبد
المسيح ، والسيد صاحب رحلهم واسمه الأيهم ، وأبو حارث بن علقمة أسقفهم
وحبرهم . وفى القصة أن النبى صلى الله عليه وسلم لما أتاه الخبر من الله
. تعالى ، والفصل من القضاء بينه وبينهم ، وأمر بما أمر به من ملاعنتهم
دعاهم إلى المباهلة فقالوا : يا أبا القاسم دعنا ننظر فى أمرنا . . . ثم
خلوا بالعاقب فقالوا . يا عبد المسيح ماذا ترى؟ فقال : والله يا معشر
، النصارى لقد عرفتم ان محمدا لنبى مرسل ، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم
ولقد علمتم أنه ما لاعن قوم نبيا قط ، فيبقى كبيرهم ولا نبت صغيرهم ، وإنه
للاستئصال منكم إن فعلتم .. فأتوا النبى صلى الله عليه وسلم . فقالوا : يا
، أبا القاسم قد رأينا أن لا نلاعنك وأن نتركك على دينك ، ونرجع على ديننا
فلم يلاعنهم صلى الله عليه وسلم وأقرهم لعى خراج يؤدونه إليه .وروى الحافظ
ابن مردويه عن جابر قال : قدم على النبي صلى الله عليه وسلم العاقب والطيب
فدعاهما إلى الملاعنة فواعداه على أن يلاعناه الغداة ، قال : فغدا رسول
الله صلى الله عليه وسلم فأخذ بيده على وفاطمة والحسن والحسين ثم أرسل
إليهما فأبيا أن يجيبا وأقرا له بالخراج .قال : فقال رسول الله صلى الله
عليه وسلم " والذى بعثنى بالحق لو لاعنا لأمطر عليهم الوادى ناراً " .ثم
قال : وروى البخارى عن حذيفة قال : " جاء العاقب والسيد صاحب نجران إلى
رسول الله صلى الله عليه وسلم يريدان أن يلاعناه قال : فقال أحدهما لصاحبه
، لا تفعل ، فوالله لئن كان نبيا فلاعناه لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا :
ثم قالا للنبي صلى الله عليه وسلم : إنا نعطيك ما سألتنا وابعث معنا رجلا
أمينا . . فقال : " لأبعثن معكم رجلا أمينا حق أمين " . فاستشرف لها أصحاب
رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم : " قم يا أبا عبيدة
بن الجراح " . فلما قام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هذا أمين هذه
الأمة " " .وقال صاحب الكشاف : إن قلت ما كان دعاؤه إلى المباهلة إلا
ليتبين الكاذب منه ومن خصمه؛ وذلك أمر يختص به وبمن يكاذبه فما معنى ضم
الأبناء والنساء؟قلت : ذلك أكد فى الدلالة على ثقته بحاله ، واستيقانه
، بصدقه ، حيث استجرأ على تعريض أعزته وأفلاذ كبده وأحب الناس إليه لذلك
ولم يقتصر على تعريض نفسه له . وعلى ثقته بكذب خصمه حتى يهلك خصمه مع أحبته
وأعزته هلاك الاستئصال إن تمت المباهلة . وخص الأبناء والنساء لأنهم أعز
. الأهل وألصقهم بالقلوب ، وربما فداهم الرجل بنفسه وحارب دونهم حتى يقتل
. . . ومن ثمة كانوا يسوقون مع أنفسهم الظعائن فى الحروب لتمنعهم من الهرب
وفى الآية دليل واضح على صحة نبوة النبى صلى الله عليه وسلم لأنه لم يرو
. أحد من موافق ولا مخالف أنهم أجابوا إلى ذلك؟

ان هذا لهو القصص الحق وما من اله الا الله وان الله لهو العزيز الحكيم

} : كما فسرها الوسيط ثم أحد - سبحانه - صدق ما أخبر به عن عيسى وغيره فقال
إِنّ هذا لَهُوَ القصص الحق وَمَا مِنْ إله إِلاَّ الله وَإِنّ الله
لَهُوَ العزيز الحكيم } .أى إن الذى قصصناه عليك وأخبرناك به يا محمد من

شأن عيسى ومن كل شأن من الشئون لهو القصص الثابت الذى لا مجال فيه لإنكار منكر ، ولا لتشكيك متشكك .وقد أكد - سبحانه - صدق هذا القصص بحرف إن وباللام فى قوله { لَهُوَ } وبضمير الفصل " هو " وبالقصر الذى تضمنه تعريف - الطرفين وذلك ليكون الرد حاسما على كل منكر ما أخبر الله به فى شأن عيسى عليه السلام - وفى كل ما قصه على نبيه صلى الله عليه وسلم .وقوله { وَمَا - مِنْ إله إِلاَّ الله } نفى قاطع لأن يكون هناك إله سوى الله - تعالى - وإثبات بأن الألوهية الحقة إنما هي لله رب العالمين .وقد أكد - سبحانه نفى الألوهية عن غيره بكلمة { مِنْ } المفيدة لاستغراق النفى استغراقا مستمرا ثابتا مؤكدا .وقوله { وَمَا مِنْ إله إِلاَّ الله } " ما " النافية و " إله " فى قوله { مِنْ إله } مبتدأ و { مِنْ } مزيدة فيه ، و { إِلاَّ ، الله } خبره والتقدير : وما إله إلا الله ، وزيدت من للاستغراق والعموم وقوله { وَإِنَّ الله لَهُوَ العزيز الحكيم } تذييل قصد به تأكيد قصر. الألوهية على الله - تعالى - وحده ، أى وإن الله - تعالى - لهو المنفرد بالألوهية وحده؛ لأنه هو الغالب الذى يقهر ولا يقهر ، الحكيم في كل ما يخلقه ويدبره .وفى هذا التذييل أيضا رد على أولئك الضالين الذين يزعمون أن المسيح إله ويعتقدون مع ذلك أنه صلب ولم يستطع أن يدافع عن نفسه .

فان تولوا فان الله عليم بالمفسدين

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - تلك المحاجة بقوله : { فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ الله عَلِيمٌ بالمفسدين } .أى فإن أعرضوا عن اتباعك وتصديقك بعد هذه الآيات البينات والحجج الواضحات التى أخبرناك بها ققصناها عليك ، فأنذرهم بسوء العاقبة ، وأخبرهم أن الله - تعالى - عليم بهم ، وبما يقولونه ويفعلونه من فساد في الأرض . وسيعاقبهم على ذلك العقاب الأليم فقوله { فَإِنَّ الله عَلِيمٌ بالمفسدين } قائم مقام جواب الشرط ، أى فإن. تولوا فأخبرهم بأنهم مفسدون وأن لهم سوء العقبى لأن الله عليم بإفسادهم ولن يتركهم بدون عقوبة .وهذه الجملة الكريمة تتضمن فى ذاتها تهديدا شديدا لهؤلاء المجادلين بالباطل فى شأن عيسى - عليه السلام - ولكل من أعرض عن الحق الذى جاء به النبى صلى الله عليه وسلم لأن الله - تعالى - ليس غافلا عن إفساد المفسدين ، وإنما يأخذهم أخذ عيز مقتدر .وإلى هنا تكون الآيات الكريمة قد بينت بأسلوب معجز حكيم جانبا من قصة آل عمران فحدثتنا عما كان ، من امرأته أم مريم ، وما قالته عندما حملت بها ، وما قالته بعد ولادتها وما أكرم الله به مريم من رعايتها بالتربية الحسنة وبالرزق الحسن ، ثم ما كان من شأن زكريا وتضرعه إلى الله أن يهبه الذرية الصالحة واستجابة الله له وتبشيره بولادة يحيى ، ثم ما كان من شأن مريم وتبشيرها باصطفاء الله لها وأمرها بالمداومة على طاعته ، ثم تبشيرها بعيسى وتعجبها لذلك والرد عليها بما يزيل هذا العجب ، ثم ما كان من شأن عيسى - عليه السلام - وما وصفه به من صفات كريمة ، وما منحه من معجزات باهرة تشهد بصدقه فى رسالته ، مما جعل الحواريين يؤمنون به ، أما الأكثرون من بنى إسرائيل فقد كفروا به ودبروا له المكايد فأنجاه الله من مكرهم ورفعه إليه وطهره منهم .ثم بين القرآن أن عيسى عبد الله ورسوله ، وأن هذا هو الحق ، وقد تحدى الرسول صلى الله عليه ، وسلم كل من نازعه فى ذلك بالمباهلة ولكن المجادلين نكصوا على أعقابهم فثبت صدق النبى صلى الله عليه وسلم فيما يبلغه عن ربه .وبذلك يكون القرآن قد بين الحق فى شأن عيسى - عليه السلام - بيانا يهدى القلوب ويقنع العقول ويحمل النفوس على التدبر والاعتبار ، وإخلاص العبادة لله رب العالمين .ثم وجه القرآن بعد ذلك نداء عاما إلى أهل الكتاب دعاهم فيه - فى بضع آيات متوالية - إلى عبادة الله وحده ، وإلى ترك المحاجة الباطلة فى شأن الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وإلى الإقلاع عن الكفر ببيات الله وعن تلبيس الحق بالباطل ، وعن كتمان الحق مع علمهم بأنه حق . .استمع إلى القرآن وهو يسوق هذه النداءات داعيا أهل الكتاب إلى كلمة الحق فيقول : { قُلْ . . . ياأهل } .

قل يا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون

كما فسرها الوسيط أنت ترى أن القرآن الكريم قد وجه إلى أهل الكتاب أربع نداءات فى هذه الآيات الكريمة أما النداء الأول فقد طلب منهم فيه أن يثوبوا إلى رشدهم ، وأن يخلصوا لله العبادة فقال { قُلْ ياأهل الكتاب تَعَالَوْاْ ، إلى كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ } .والسواء : العدل والنصفة أى قل يا محمد لأهل الكتاب : هلموا وأقبلوا إلى كلمة ذات عدل وإنصاف بيننا وبينكم .أو السواء : مصدر مستوية أى هلموا إلى كلمة لا تختلف فيها الرسل والكتب المنزلة والعقول السليمة ، لأنها كلمة عادلة مستقيمة ليس فيها ميل عن الحق .ثم بين - سبحانه - هذه الكلمة العادلة المستقيمة التى هى محل

اتفاق بين الأنبياء فقال : { أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ الله } أى نترك نحن وأنتم عبادة غير الله ، بأن نفرده وحده بالعبادة والطاعة والإذعان .{ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً } أى ولا نشرك معه أحدا فى العبادة والخضوع ، بأن نقول : فلان إله ، أو فلان ابن إله ، أو أن الله ثالث ثلاثة .{ وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ الله } أى ولا يطيع بعضنا بعضا فى معصية الله . قال الآلوسى : ويؤيده ما أخرجه الترمذى وحسنه من حديث عدى بن حاتم أنه لما نزلت هذه الآية قال : ما كنا نعبدهم يا رسول الله . فقال صلى الله عليه وسلم : " أما كانوا يحلون منكم ويحرمون فتأخذون بقولهم؟ قال : نعم . فقال صلى الله عليه وسلم - هو ذاك " قيل إلى هذا أشار سبحانه - بقوله : { اتخذوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ الله والمسيح ابن مَرْيَمَ وَمَآ أمروا إِلاَّ ليعبدوا إلها وَاحِداً لاَّ إله إِلاَّ هُوَ } فالآية الكريمة قد نهت الناس جميعا عن عبادة غير الله ، وعن أن يشرك معه فى الألوهية أحد من بشر أو حجر أو غير ذلك ، وعن أن يتخذ أحد من البشر فى مقام الرب - عز وجل - بأن يتبع فى تحليل شىء أو تحريمه إلا فيما حلله الله أو حرمه .ولقد كانت رسالة الأنبياء جميعا متفقة فى دعوة الناس إلى عبادة الله وحده ، وقد حكى القرآن في كثير من الآيات هذا المعنى ومن ذلك قوله - تعالى - : { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت } وقوله - تعالى - : { وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نوحي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إله إِلاَّ أَنَاْ فاعبدون } ثم أرشد الله - تعالى - المؤمنين إلى ما يجب عليهم أن يقولوه إذا مالج الجاحدون فى طغيانهم فقال : { فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشهدوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ } .أى فإن أعرض هؤلاء الكفاء عن دعوة الحق ، وانصرفوا عن موافقتكم بسبب ما هم عليه من عناد وجحود فلا تجادلوهم ولا تحاجوهم ، بل قولوا لهم : اشهدوا : بأنا مسملون مذعنون لكلمة الحق ، بخلافكم أنتم فقد رضيتم بما أنتم فيه من باطل .قال صاحب الكشاف وقوله { فَقُولُواْ اشهدوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ } أى لزمتكم الحجة فوجب عليكم أن تعترفوا وتسلموا بأنا مسلمون دونكم . وذلك كما يقول الغالب للمغلوب فى جدال وصراع أو غيرهما : اعترف بأنى أنا الغالب وسلم لى بالغلبة ويجوز أن يكون من باب التعريض ومعنا : اشهدوا واعترفوا بأنكم كافرون حيث . توليتم عن الحق بعد ظهوره " .هذا وتعتبر هذه الآية الكريمة من أجمع الآيات التى تهدى الناس إلى طريق الحق بأسلوب منطقى رصين ، ولذا كان النبى صلى الله عليه وسلم يكتبها في بعض رسائله التى أرسلها إلى الملكوك والرؤساء ليدعوهم إلى الإسلام - .فقد جاء فى كتاب النبى صلى الله عليه وسلم إلى هرقل - ملك الروم - " من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى .أما بعد : فإنى أدعوك بدعاية الإسلام . أسلم تسليم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين ، { ياأهل الكتاب تَعَالَوْاْ إلى كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ الله وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً } إلخ الآية " .

يا اهل الكتاب لم تحاجون في ابراهيم وما انزلت التوراة والانجيل الا من بعده افلا تعقلون

كما فسرها الوسيط وأما النداء الثانى الذى اشتملت عليه هذه الايات فقد تضمن - نهى أهل الكتاب عن الجدال بالباطل فى شأن إبراهيم - عليه السلام - قال تعالى - { ياأهل الكتاب لِمَ تُحَآجُّونَ في إِبْرَاهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ التوراة والإنجيل إِلاَّ مِن بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ } .قال ابن جرير عن ابن عباس قال : اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله : فتنازعوا عنده ، قالت الأحبار : ما كان إبراهم إلا يهوديا وقالت النصارى : ما كان إبراهيم إلا نصرانيا ، فأنزل الله - تعالى - فيهم : { ياأهل الكتاب لِمَ تُحَآجُّونَ في إِبْرَاهِيمَ } .وقوله { تُحَآجُّونَ } من المحاجة ومعناها أن يبتادل المتخاصمان الحجة بأن يقدم كل واحد حجة ويطلب من الآخر أن يرد عليها .والمعنى :لا يسوغ لكم يا معشر اليهود والنصارى أن تجادلوا في دين إبراهيم وشريعته فيدعى بعضكم أنه كان على الديانة اليهودية ، ويدعى البعض الآخر أنه كان على الديانة النصرانية ، فإن التوارة والإنجيل ما نزلا إلا من بعده بأزمان طويلة ، فكيف يكون يهوديا يدين بالتوراة مع أنها ما نزلت إلا من بعده ، أو كيف يكون نصرانيا يدين بالإنجيل مع أنه ما نزل إلا من بعده ، بآلاف السنين؟ إن هذه المحاجة منكم في شأن إبراهيم ظاهرة البطلان واضحة الفساد .وقوله { أَفَلاَ تَعْقِلُونْ } أى أفلا تعقلون يا أهل الكتاب هذا الأمر البدهى وهو أن المتقدم على الشىء لا يمكن أن يكون تابعا - للشىء المتأخر عنه؟فالاستفهام لتوبيخهم وتجهيلهم فى دعواهم أن إبراهيم - عليه السلام - كان يهوديا أو نصرانيا .

ها انتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وانتم لا تعلمون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - مظهرا آخر من مظاهر مخالفة أهل الكتاب لمقتضيات العقول السليمة وهو أنهم يجادلون فى أمر ليس عندهم أسباب العلم به فقال - تعالى - { هاأنتم هؤلاء حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلمٌ } والمعنى : أنتم يا معشر أهل الكتاب جادلتم وبادلتم الحجة - سواء أكانت صحيحة أم فاسدة فى أمر لكم به علم فى الجملة ، كجدالكم فيما وجدتموه فى كتبكم من أمر موسى وعيسى - عليهما السلام - أو كجدالكم فيما جاء فى التوراة والإنجيل من أحكام ، ولكن كيف أبحتم لأنفسكم أن تجادلوا فى أمر ليس لكم به علم أصلا ، وهو جدالكم فى دين إبراهيم وشريعته؟ لأنه من البديهى أن إبراهيم ما كان يهوديا ولا نصرانيا إذ وجوده سابق على وجودهما بأزمان طويلة .وإذن فجدالكم فى شأن إبراهيم هو لون من ألوان جهلكم ومخالفتكم لكل ما تقتضيه العقول السليمة ، والنفوس المستقيمة .وقوله - تعالى - { هاأنتم هؤلاء حَاجَجْتُمْ } ها حرف تنبيه ، وأنتم مبتدأ ، وهؤلاء منادى بحرف نداء محذوف و { حَاجَجْتُمْ } جملة مستأنفة مبينة للجملة الأولى . والمعنى : أنتم هؤلاء الأشخاص الحمقى وبيان حماقتكم وقلة عقولكم أنكم جادلتم " فيما لكم به علم " مما نطق به التوراة والإنجيل . { فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ } ولا ذكر له . فى كتابيكم من دين إبراهيم . . . ومعنى الاستفهام التعجب من حماقتهم " .وتكرير هاء التنبيه فى قوله { هاأنتم هؤلاء : يشعر بغرابة ما هم عليه من جهل ، ومجافاته لكل منطق سليم .قال الرازي { وقوله { هاأنتم هؤلاء حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلمٌ } يحتمل أنه لم ، يصفهم بالعلم حقيقة وإنما أراد أنكم تستجيزون محاجته فيما تدعون عمله فكيف تحاجونه فيما لا علم لكم به ألبته " .وقوله - تعالى - { والله يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ } تذييل قصد به تأكيد علم الله الشامل ونفى العلم عن أهل الكتاب فى شأن إبراهيم .أى والله - تعالى - يعلم حال ، إبراهيم ودينه ، ويعمل كل شىء فى هذا الوجود ، وأنتم لا تعلمون ذلك .

ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين

كما فسرها الوسيط ثم صرح - سبحانه - ببراءة إبراهيم من كل دين يخالف دين الإسلام فقال - تعالى - : { مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ المشركين } .وقوله { حَنِيفاً } من الحنف وهو ميل عن الضلال إلى الاستقامة بعكس الجنف فهو ميل عن الاستقامة إلى الضلال ويقال : تحنف الرجل أى تحرى ، طريق الاستقامة .أى : ما كان إبراهيم - عليه السلام - فى يوم من الأيام يهوديا كما قال اليهود ، ولا نصرانيا كما قال النصارى ولكنه كان حنيفا أى مائلا عن العقائد الزائفة متحريا طريق الاستقامة وكان " مسلما " أى مستسلما لله - تعالى - منقادا له مخلصا له العبادة { وَمَا كَانَ مِنَ المشركين } الذين يشركون مع الله آلهة أخرى بأن يقولوا إن الله ثالث ثلاثة ، أو يقولوا عزير ابن الله أو المسيح ابن الله أو غير ذلك من الأقوال الباطلة والأفعال الفاسدة .ففى هذه الآية الكريمة تنويه بشأن إبراهيم ، وتعريض بأولئك الكافرين من أهل الكتاب الذين ادعوا أن إبراهيم كان يهودياً او نصرانياً بأنهم هم المشركون بخلاف إبراهيم فقد كان مبرأ من ذلك .أخرج الإمام مسلم والترمذى وأبو داود عن أنس رضى الله عنه قال : " جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا خير البرية . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ذاك إبراهيم عليه السلام " .

ان اولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين امنوا والله ولي المؤمنين

كما فسرها الوسيط ثم أصدر - سبحانه - حكمه الحاسم العادل فى هذه القضية التى كثر الجدل فيها فقال : { إِنَّ أَوْلَى الناس بِإِبْرَاهِيمَ { لَلَّذِينَ اتبعوه وهذا النبي والذين آمَنُواْ والله وَلِيُّ المؤمنين وقوله - تعالى - { أَوْلَى } أفعل تفضيل من الولى وهو القرب .والمعنى : إن. أقرب الناس من إبراهيم ، وأخصهم به ، وأحقهم بالانتساب إليه أصناف ثلاثة أولهم : بينه الله بقوله { لَلَّذِينَ اتبعوه } ليرد على أقاويل أهل: الكتاب ومفترياتهم حيث زعموا أنه كان يهوديا أو نصرانيا .وثاني هذه الأصناف بينه - سبحانه - بقوله { وهذا النبي } والمراد به محمد صلى الله عليه : وسلم الداعى إلى التوحيد الذى دعا إليه إبراهيم .والجملة الكريمة من عطف الخاص على العام للاهتمام به . وللإشعار بأنه صلى الله عليه وسلم قد تلقى : الهداية من السماء كما تلقاها إبراهيم - عليه السلام- .وثالث هذه الأصناف بينه الله - تعالى - بقوله { والذين آمَنُواْ } أى : والذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم واتبعوه .وفى هذا تنويه بشأن الأمة الإسلامية ، وتقرير بأن أتباع محمد صلى الله عليه وسلم أحق بالانتساب إلى إبراهيم من أهل

الكتاب لأن المؤمنين طلبوا الحق وآمنوا به ، أما أهل الكتاب فقد باعوا دينهم بدنياهم ، وتركوا الحق جريا وراء شهواتهم .وقوله { والله وَلِيُّ المؤمنين } تذييل مقصود به تبير المؤمنين بأن الله - تعالى - هو ناصرهم - ومتولى أمورهم .قال ابن كثر عند تفسيره لهذه الآية : يقول الله - تعالى إن أحق الناس بمتابعة إبراهيم الخليل الذين اتبعوه على دينه ، وهذا النبى يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا من أصحابه المهاجرين والأنصار ومن تبعهم بعدهم . فعن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " إن لكل نبى ولاية من النبيين ، وإن ولىى منهم أبى خليل ربى عز وجل إبراهيم عليه السلام . ثم قرأ : ( إِنَّ أَوْلَى النَاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتبعوه ) الآية " .

ودت طائفة من اهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون الا انفسهم وما يشعرون

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - أن بعض أهل الكتاب لا يكتفون بما هم فيه من ضلال ، بل يحاولون أن يضلوا غيرهم فقال - تعالى - { وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الكتاب لَوْ يُضِلُّونَكُمْ } .وقوله - تعالى - { وَدّت } من الود وهو محبة الشىء وتمنى حصوله ووقوعه .أى تمنت وأحبت جماعة من أهل الكتاب إضلالكم وإهلاككم عن الحق - أيها المؤمنون - وذلك بأن ترجعوا عن دين الإسلام الذى هداكم الله إليه ، إلى دين الكفر الذى يعتنقه أولئك الكافرون من أهل الكتاب .ولم يقف بغى بعض أهل الكتاب وحسدهم عند هذا التمنى بل تجاوزوه إلى إلقاء الشبهات حول دين الإسلام ، وإلى محاولة صرف بعض المسلمين عن دينهم .قال القرطبى : نزلت هذه الآية - فى معاذ بن جبل ، وحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر ، حين دعاهم اليهود من بنى النضير وقريظة وبنى قينقاع إلى اليهودية .والمراد بالطائفة رؤساء أهل الكتاب وأحبارهم ومن وبنى قينقاع وهى مع مجرورها فى محل رفع نعت لطائفة .و { لَوْ } فى قوله { لَوْ } للتبعيض { يُضِلُّونَكُمْ } مصدرية أى ودت طائفة من أهل الكتاب إضلالكم . وقوله { وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ } جملة حالية .أى والحال أنهم ما يضلون أى ما يهلكون إلا أنفسهم بسبب غوايتهم واستيلاء الأهواء على قلوبهم ، وإيثارهم العمى على الهدى ولكنهم لا يشعرون بذلك ولا يفطنون له ، لأنهم قد زين لهم الشيطان سوء عملهم فرأوة حسنا .

يا اهل الكتاب لم تكفرون بايات الله وانتم تشهدون

كما فسرها الوسيط وأما النداء الثالث الذى اشتملت عليه هذه الآيات فهو قوله { ياأهل الكتاب لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ الله وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ } : أى : لماذا تكفرون بآيات الله - تعالى - التى يتلوها عليكم نبيه محمد صلى الله عليه وسلم والحال أنكم تعلمون صدقها وصحتها علما يقينا كعلم المشاهدة والعيان ، وتعرفون أنه نبى حقا كما تعرفون أبناءكم .والاستفهام فى قوله { لِمَ تَكْفُرُونَ } لتوبيخهم والتعجيب من شأنهم ، وإنكار ما هم عليه من كفر بأيات الله مع علمهم بصدقها .وفى هذا النداء إشارة إلى أن ما أعطوه من علم كان يقتضى منهم أن يسارعوا إلى الإيمان لا أن يكفروا بآيات الله الدالة على صدق نبيه صلى الله عليه وسلم والتى تتناول القرآن الكريم ، والحجج والمعجزات التى جاءهم بها صلى الله عليه وسلم .

يا اهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وانتم تعلمون

كما فسرها الوسيط ثم وجه إليهم - سبحانه - نداء رابعا نهاهم فيه عن الخلط بين الحق والباطل وعن كتمان الحق بعد أن نهاهم قبل ذلك عن الكفر بالآيات فقال - تعالى - : { ياأهل الكتاب لِمَ تَلْبِسُونَ الحق بالباطل وَتَكْتُمُونَ الحق وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } .وقوله : { تَلْبِسُونَ } أى : تخلطون من اللبس - بفتح اللام - أى الخلط وفعله ليس من باب ضرب .تقول ليست عليه الأمر ألبسه إذا مزجت بينه بمشكلة وحقه بباطله فى ستر وخفاء .أى : يا أهل الكتب لماذا تخاطلون الحق الواضح الذى نطقت به الكتب السماوية ، وأيدته العقول السليمة ، بالباطل الذى تخترعونه من عند أنفسكم إرضاء لأهوائكم؟ ولماذا تكتمون الحق الذى تعرفونه كما تعرفون أبناءكم بغية انصراف الناس عنه ، لأن من جهل شيئاً عاداه .وفى تكرير النداء والاستفهام زيادة في توبيخهم وإنكار ما هم عليه ، والتعجيب من شأنهم ، ذلك لأنهم جمعوا أفحش أنواع الرذائل التى على رأسها كفرهم بآيات الله وخلطهم الحق بالباطل وكتمان الحق عمن يريده .ولدعاة الضلالة طريقتان فى إغواء الناس .إحداهما : طريقة - خلط الحق بالباطل حتى لا يتميز أحدهما عن الآخر وهى المشار إليها بقوله تعالى { لِمَ تَلْبِسُونَ الحق بالباطل } .والثانية : طريقة جحد الحق وإخفائه حتى لا يظهر ، وهى المشار إليها بقوله - تعالى - : { وَتَكْتُمُونَ الحق } .وقد استعمل أهل الكتاب الطريقتين لصرف الناس عن الإسلام فقد كان بعضهم يؤول نصوص كتبهم الدالة على صدق النبى صلى الله عليه وسلم تأويلا

، فاسداً يخلط فيه الحق بالباطل ليوهموا العامة أنه ليس هو النبى المنتظر
وكان بعضهم يلقى حول الحق شبها ليوقع ضعفاء الإيمان فى حيرة وتردد ، وكان
بعضهم يخفى أو يحذف النصوص الدالة على صدق النبى صلى الله عليه وسلم أو
. التى لا توافق أهواءهم .وقوله : { وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } جملة حالية
أى وأنتم تعلمون أن ما أخفيتموه وما لبستموه هو الحق ، أو وأنتم من ذوى
العلم ولا يناسب من كان كذلك أن يكتم الحق ويخلطه بالباطل ، وإذا كان هذا
الفعل يعد من كبائر الذنوب حتى ولو وقع من شخص عادى فإن وقعه يكون أقبح
وفساده أكبر وعاقبه أشأم متى صدر من عالم فاهم يميز بين الحق والباطل .قال
، أبو حيان : وهذه الحال وإن كان ظاهرها أنها قيد فى النهى عن اللبس والكتم
إلا أنها لا تدل بمفهومها على جواز اللبس والكتم حالة الجهل إذا الجاهل
بحال الشىء لا يدرى كونه حقا أو باطلا . وإنما فائدتها بيان أن الإقدام على
الأشياء القبيحة مع العلم بها أفحش من الإقدام عليها مع الجهل .وبعد هذه
النداءات المتكررة لأهل الكتاب ، والحجج الباهرة التى ساقها لهم على صحة
هذا الدين والتوبيخات المتعددة التى وبخهم بها لانصرافهم عن الحق ومحاولتهم
صرف غيرهم عنه بعد كل ذلك ، أخذ القرآن فى سرد بعض المسالك الخبيثة التى
سلكها اليهود لكيد الإسلام والمسلمين فبدأ ببيان مسلك لئيم من مسالكهم
الكثيرة ، وهو أن بعضهم كان يظهر الإيمان لفترة من الوقت ثم يرجع عنه إلى
الكفر ، ليوهم ضعاف العقول أنه ما رجع عن الإسلام إلا بعد أن دخله فوجده
دينا ليس بشىء - فى زعمه - .استمع إلى القرآن وهو يحكى ذلك لكى يطلع أتباعه
. . على مسالك اليهود ومكرهم حتى يحذروهم ، فيقول : { وَقَالَتْ طَّآئِفَةٌ
. } .

وقالت طائفة من اهل الكتاب امنوا بالذي انزل على الذين امنوا وجه النهار
واكفروا اخره لعلهم يرجعون

كما فسرها الوسيط أنت إذا تأملت فى هذه الآيات الكريمة تراها قد حكت عن
طائفة من أهل الكتاب طريقة ماكرة لئيمة ، هى تظاهرهم بالإسلام لفترة من
الوقت ليحسن الظن بهم من ليس خبيرا بمكرهم وخداعهم ، حتى إذا ما اطمأن
الناس إليهم جاهروا بكفرهم ورجعوا إلى ما كانوا عليه ، ليوهموا حديثى العهد
بالإسلام أو ضعاف الإيمان ، أنهم قوم يبحثون عن الحقيقة ، وأنهم ليس عندهم
أى عداء للنبى صلى الله عليه وسلم بل إن الذى حصل منهم هو أنهم بعد دخولهم
فى الإسلام وجدوه دينا باطلا وأنهم ما عادوا إلى دينهم القديم إلا بعد
الفحص والاختبار وإمعان النظر في دين الإسلام .ولا شك أن هذه الطريقة التى
سلكها بعض اليهود لصرف بعض المسلمين عن الإسلام من أقوى ما تفتق عنه
تدبيرهم الشيطانى ، لأن إعلانهم الكفر بعد الإسلام ، وبعد إظهارهم الإيمان
، به ، من شأنه أن يدخل الشك فى القلوب ويوقع ضعاف الإيمان فى حيرة واضطراب
خاصة وأن العرب - فى مجموعهم - قوم أميون ومنهم من كان يعتقد أن اليهود
أعرف منهم بمسائل العقيدة والدين . فيظن أنهم ما ارتدوا عن الإسلام إلا بعد
اطلاعهم على نقص فى تعاليمه .والمتتبع لمراحل التاريخ قديما وحديثا يرى أن
الدهاة في السياسة والحرب يتخذ هذه الخدعة ذريعة لإشاعة الخلل والاضطراب فى
صفوف أعدائه .قال الأستاذ الشيخ محمد عبده - رحمه الله : " هذا النوع الذى
، تحكيه الآيات من صد اليهود عن الإسلام مبنى على قاعدة طبيعية فى البشر
وهى أن من علامة الحق أن لا يرجع عنه من يعرفه . وقد وفقه هذا ، هرقل ، ملك
، الروم ، فكان مما سأل عنه أبا سفيان من شئون النبى صلى الله عليه وسلم أ
قال له : " هل يرتد أحد ن أتباع محمد سخطه لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فقال أبو
: سفيان :لا . وقد أرادت هذه الطائفة أن تغش الناس من هذه الناحية ليقولوا
، لولا أن ظهر لهؤلاء بطلان الإسلام لما رجعوا عنه بعد أن دخلوا فيه
واطلعوا على بواطنه وخوافيه ، إذ لا يعقل أن يترك الإنسان الحق بعد معرفته
ويرغب عنه بعد الرغبة فيه بغير سبب " .هذا ، وقد روى المفسرون فى سبب ،
نزول هذه الآيات الكريمة روايات متعددة كلها تدور حول المعنى الذى قررناه
} - ومن هذه الروايات ما أخرجه ابن جرير عن قتادة قال فى قوله - تعالى.
وَقَالَتْ طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الكتاب آمِنُوا } . . ألخ قال بعض أهل
الكتاب لبعض : " أعطوهم الرضا بدينهم أول النهار ، واكفروا آخره فغنه أجدر
أن يصدقوكم ويعلموا أنكم قد رأيتم ما تكرهونه فى دينهم ، وهو أجدر أن
يرجعوا عن دينهم " .وعن السدى : كان - هؤلاء - أحبار قرى عربية ، اثنى عشر
حبرا ، فقالوا لبعضهم : ادخلوا فى دين محمد أول النهار ، وقولوا : نشهد أن
محمدا حق صادق . فإذا كان آخر النهار فاكفروا وقولوا : إنا رجعنا إلى ديننا
فهو أعجب إلينا من دينكم ، لعلهم يشكون ، يقولون : هؤلاء كانوا معنا أول
" النهار فما بالهم؟ فأخبر الله - عز وجل - رسوله صلى الله عليه وسلم بذلك
والمعنى : { وَقَالَتْ طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الكتاب } أى: فيما بينهم.
ليلبسوا على الضعفاء أمر دينهم { آمِنُواْ بالذي أُنْزِلَ عَلَى الذين
آمَنُواْ وَجْهَ النهار } أى قال بعضهم لبعض : نافقوا وأظهروا التصديق
بالإسلام ونبيه - صلى الله عليه وسلم - وبما أنزل عليه وعلى أصحابه من قرآن
أى فى أول النهار .وسمى أول النهار وجها ، لأنه أول ما { وَجْهَ النهار }

يواجهك منه ، وأول وقت ظهوره ووضوحه . وقوله { واكفروا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } معطوف على { آمَنُوا } .أى : آمنوا فى أول النهار واكفروا فى آخره ، بأن تعودوا إلى اليهودية ، أملا فى أن ينخدع بحيلتكم هذه بعض المسلمين ، فيشكوا في دينهم ، ويعودوا إلى الكفر بعد دخولهم فى الإسلام وقوله { لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } كشف عن مقصدهم الخبيث ، وهو ابتغاؤهم. رجوع بعض المؤمنين عن دينهم الحق إلى ما كانوا عليه من باطل .قال الفخر الرازي : " والفائدة فى إخبار الله - تعالى - عن تواضعهم على هذه الحيلة من وجوه :الأول : أن هذه الحيلة كانت مخيفة فيما بينهم ، وما أطلعوا عليها أحداً من الأجانب ، فلما أخبر الرسول عنها كان ذلك إخباراً عن الغيب فيكون معجزاً .الثانى : أنه - تعالى - لما أطلع المؤمنين على تواطئهم على هذه الحيلة لم يحصل لهذه الحيلة أثر فى قلوب المؤمنين ، ولولا هذا الإعلام لكان ربما أثرت هذه الحيلة فى قلب بعض من كان في إيمانه ضعف .الثالث : أن القوم لما افتضحوا فى هذه الحيلة صار ذلك رادعا لهم عن الإقدام على أمثالها من الحيل والتلبيس . "

ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم قل ان الهدى هدى الله ان يؤتى احد مثل ما اوتيتم او يحاجوكم عند ربكم قل ان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - لونا من عصبيتهم وتعاونهم على الإثم والعدوان فقال تعالى : { وَلاَ تؤمنوا إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الهدى هُدَى الله أَن يؤتى أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ } .وقوله - سبحانه - حكاية عنهم { وَلاَ تؤمنوا } معطوف على قوله - تعالى - فى الآية السابقة { آمِنُواْ بالذي أُنْزِلَ } .وقد فسر بعضهم { وَلاَ تؤمنوا } بمعنى ولا تقروا ، أو ولا تعترفوا؛ فتكون اللام فى قوله { إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ } أصلية وعليه يكون المعنى : أن بعض اليهود قد قالوا لبعض : أظهروا إسلامكم أول. النهار واكفروا آخره ، لعل هذا العمل منكم يحمل بعض المسلمين على أن يتركوا دينهم الإسلام ، ويعودوا إلى ما كانوا عليه من الكفر ولم يكتفوا بهذا القول بل قالوا أيضا على سبيل المكر والخديعة ، ولا تقروا ولا تعترفوا بأن أحداً ، من المسلمين أو من غيرهم يؤتى مثل ما أوتيتم من الكتاب والنبوة والفضائل ، أو بأن أحدا فى قدرته أن يحاججكم أى يبادلكم الحجة عند ربكم يوم القيامة ولا تقروا ولا تعترفوا بشىء من ذلك " إلا لن تبع دينكم " أى إلا لمن كان ، على ملتكم اليهودية دون غيرها .فالمستثنى منه على هذا التفسير محذوف والتقدير : ولا تؤمنوا أى تقروا وتعترفوا لأحد من الناس بأن أحداً يؤتى مثل ما أوتيتم أو بأن أحداً يحاججكم عند ربكم إلا لمن تبع دينكم ، لأن إقراركم بذلك أمام المسلمين أو غيرهم ممن هو على غير ملتكم سيؤدى إلى ضعفكم وإلى قوة المسلمين .فهم على هذا التفسير يعلمون ويعتقدون بأن المؤمنين قد أوتوا مثلهم من الدين والفضائل عن طريق محمد صلى الله عليه وسلم الذى أرسله الله رحمة للعالمين ، ولكنهم لشدة حسدهم وبغضهم للنبى صلى الله عليه وسلم ولأتباعه ، قد تواصوا فيما بينهم بأن يكتموا هذا العلم وتلك المعرفة ، ولا يظهروا ذلك إلا فيما بينهم ، وصدق الله إذ يقول فى شأنهم { الذين آتَيْنَاهُمُ الكتاب يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الحق وَهُمْ يَعْلَمُونَ } وقد صدر صاحب الكشاف تفسيره للآية بهذا الوجه فقال : " قوله { وَلاَ تؤمنوا } بمعنى ولا تصدقوا أو ولا تعتقدوا ، فتكون اللام فى قوله { لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ } زائدة للتقوية .فيصير المعنى على هذا الوجه : أن بعض اليهود قد قالوا لبعض : أظهروا الإسلام أول النهار واكفروا آخره لعل عملكم هذا يجعل بعض المسلمين يترك دينه ويعود إلى الكفر الذى كان عليه ، ولا تصدقوا أن أحدا من البشر يؤتى مثل ما أتيتم يا بنى إسرائيل من الكتاب والنبوة ، أو أن أحدا في قدرته أن يحاججكم عند ربكم فأنتم الأعلون فى الدنيا والآخرة وأنتم الذين لا تخرج النبوة من بينكم إلى العرب ، وما دام الأمر كذلك فلا تتبعوا إلا نبياً منكم يقرر شرائع التوراة ، أما من جاء بتغيير شىء من أحكامها أو كان من غير بنى إسرائيل كمحمد صلى الله عليه وسلم فلا تصدقوه .فالمستثنى منه على هذا الوجه هو قوله " أحد " المذكور في الآية ، والمستثنى هو قوله { إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ } .والتقدير : ولا تصدقوا أن أحدا يمكن أن يؤتى مثل ما أوتيتم أو يمكنه أن يحاججكم عند ربكم { إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ } أى إلا من كان على ملتكم اليهودية ، أما أن يكون من غيركم كهذا النبى العربى فلا يمكن أن يؤتى مثل ما أوتيتم من الكتاب والنبوة ، لأنهما - فى زعمهم - حكر على بنى إسرائيل .فهم على هذا الوجه من التفسير يزعمون أنهم غير مصدقين ولا معتقدين بأن المسلمين قد أوتوا كتاباً وديناً وفضائل مثل ما أوتوا هم أى اليهود ، ويرون أنفسهم - لغرورهم وانطماس بصيرتهم - أنهم أهدى سبيلا من كل من سواهم من البشر .وعلى كل من الوجهين يكون قوله - تعالى - { أَن يؤتى أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ

رَبِّكُمْ } حكاية من الله - تعالى - لما تواصى به بعض اليهود فيما بينهم
من أقوال خبيثة ، وأفكار ماكرة .ويكون قوله - تعالى - { قُلْ إِنَّ الهدى
هُدَى الله } كلاما معترضا بين أقوالهم ساقه الله - تعالى - للمسارعة بالرد
على أقوالهم الذميمة حتى يزداد المؤمنون إيمانا على إيمانهم ، ويزدادوا هم
رجسا إلى رجسهم ، وينكشف ما أضمروه وما بيتوه للمؤمنين من سوء وحقد .أى قل
لهم يا محمد إن هداية الله - تعالى - ملك له وحده ، وهو الذى يهبها لمن
يشاء من عباده ، فهى ليست حكراً على أحد ، ولا أمرا مقصورا على قوم دون قوم
- وإذا كانت النبوة قد ظلت فترة من الزمان فى بنى إسرائيل ، فالله ،
تعالى - قادر على أن يسلبها منهم لأنهم لم يشكروه عليها وأن يجعلها فى محمد
العربى صلى الله عليه وسلم لأنه أهل لها وهو - سبحانه - أعلم حيث يجعل
رسالته .هذا ، ويرى بعض المفسرين أن أقوال اليهود التى حكاها القرآن عنهم
قد انتهت بنهاية قوله - تعالى - { وَلاَ تؤمنوا إِلاَّ لِمَن تَبِعَ
دِينَكُمْ } وأما قوله - تعالى - { قُلْ إِنَّ الهدى هُدَى الله أَن يؤتى
أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ } فهو
من كلام الله - تعالى - وقد ساقه - سبحانه - للرد عليهم .فيكون المعنى عليه
أن بعض اليهود قد قال لبعض : أظهروا إسلامكم أول النهار واكفروا آخره لعل :
بعض المسلمين يرجع عن دينه بسبب فعلكم هذا ، ولا تعترفوا بفعلكم هذا إلا
لأهل دينكم من اليهود حتى يبقى عملكم هذا سرا له أثره فى بلبلة أفكار
المسلمين ورجوع بعضهم عن الإسلام .وهنا يأمر الله - تعالى - نبيه محمداً
صلى الله عليه وسلم بالرد عليهم وبالكشف عن مكرهم فيقول : قل لهم يا محمد
إن الهدى هدى الله ، أى إن هداية الله ملك له وحده فهو الذى يهدى من يشاء
وهو الذى يضل من يشاء ، وقد هدانا - سبحانه - إلى الإسلام وارتضيناه دينا
لنا ولن نرجع عنه .وقل لهم كذلك على سبيل التوبيخ والتهكم بعقولهم : أمخافة
أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من الكتاب والنبوة : أو مخافة أن يحاججكم
المسلمون عند ربكم يوم القيامة حيث آمنوا بالحق وأنتم كفرتم به ، أمخافة
ذلك دبرتم ما دبرتم من هذه الأقوال السيئة والأفعال الخبيثة؟ لا شك أنه لم
يحملكم على ذلك المنكر السىء إلا الحسد لمحمد صلى الله عليه وسلم ولقومه
وزعمكم أنكم أفضل منهم لأنكم - كما تدعون - أبناء الله وأحباؤه فدفعكم ذلك
كله إلى كراهية دينه والكيد لأتباعه .قالوا : ويؤيد هذا الوجه من التفسير
للآية قراءة ابن كثير " أأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم . . . " بهمزتين
أولاهما للاستفهام الذى قصد به التوبيخ والإنكار ، والثانية هى همزة أن
المصدرية .وقد أشار إلى هذا الوجه الفخر الرازي فقال ما ملخصه : " واعلم أن
هذه الآية من المشكلات الصعبة . . . ويحتمل أن يكون قوله - تعالى - { أَن
{ يؤتى أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ
من كلام الله - تعالى - فقد قرا ابن كثير { أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ
إِذَا تتلى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأولين } . والمعنى أمن
أجل أن يؤتى أحد شرائع مثل ما أوتيتم من الشرائع تنكرون اتباعه ، ثم حذف
. الجواب للاختصار ، وهذا الحذف كثير .يقول الرجل بعد طول العتاب لصاحبه
وبعد كثرة إحسانه إليه : أمن قلة إحسانى إليك؟ والمعنى أمن أجل هذا فعلت ما
فعلت " .ثم أمر الله - تعالى - نبيه صلى الله عليه وسلم أن يرد عليهم مرة
ثانية حتى يبطل مزاعمهم ويفضحهم على رؤس الأشهاد فقال : { قُلْ إِنَّ الفضل
بِيَدِ الله يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ والله وَاسِعٌ عَلِيمٌ } أى قل لهم يا
محمد : إن الفضل - الذى يتناول النبوة وغيرها من نعم الله على عباده - هذا
الفضل وذلك العطاء بيد الله - تعالى- وحده ، وهو - سبحانه - المتفضل به على
من يشاء التفضل عليه من عباده ، وإذا كان - سبحانه - قد جعل النبوة فى بنى
إسرائيل لفترة من الزمان ، فذلك بفضل منه وبرحمته ، وإذا كان قد سلبها عنهم
- لأنهم لم يرعوها حق رعايتها وجعلها فى هذا النبى العربى فذلك - أيضا
بفضله ورحمته ، وهو - سبحانه - أعلم حيث يجعل رسالته ، وهو - سبحانه - صاحب
} - الاختيار المطلق في أن يؤتى فضله لمن يشاء من عباده . وهو - سبحانه
. وَاسِعٌ } الرحمة والفضل { عَلِيمٌ } بمن يستحقها وبمن لا يستحقها

يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم

كما فسرها الوسيط ثم قال - تعالى - { يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَآءُ }
أي يختص بالنبوة وما يترتب عليها من الهداية والنعم من يشاء من عباده
وقوله { وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ } أى هو - سبحانه - صاحب.
الجود العميم والفضل العظيم ، فلا عظمة تساوى عظمة فضل الله - تعالى - على
خلقه ، وإنما هو وحده صاحب النعم التى لا تحصى على عباده ، فعليهم أن
يشكروه وأن يفردوه بالعبادة والخضوع .وبذلك تكون الآيات الكريمة قد كشفت عن
مسلك من مسالك اليهود الماكرة التى أرادوا من ورائها كيد الإسلام والمسلمين
وفى هذا الكشف تنبيه للمسلمين إلى ما يبيته لهم هؤلاء الأعداء من شرور ،
وآثام حتى يحذروهم .ثم حكى القرآن لونا آخر من ألوان مزاعم اليهود الباطلة
وأقاويلهم الكاذبة ، وهو دعواهم أنهم ليس عليهم في الأميين سبيل ، أى أن ،
كل من كان على غير ملتهم فإنه مهدور الحقوق ، ثم رد عليهم بما يدحض مزاعمهم

ويثبت أنهم ليسوا أهلا لاختصاصهم بالنبوة والرحمة فقال تعالى : { وَمِنْ أَهْلِ . . . } .

ومن اهل الكتاب من ان تامنه بقنطار يؤده اليك ومنهم من ان تامنه بدينار لا يؤده اليك الا ما دمت عليه قائما ذلك بانهم قالوا ليس علينا في الاميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون

- كما فسرها الوسيط قال الإمام الرازى : اعلم أن تعلق هذه الآية - وهى قوله ومن أهل الكتاب . . . بما قبلها من وجهين :الأول : أنه - تعالى - حكى عنهم فى الآية المتقدمة أنهم أدعوا أنهم أوتوا من المناصب الدينية ما لم يؤت أحد غيرهم مثله ، ثم إنه - تعالى - بين أن الخيانة مستقبحة عند جميع أرباب الأديان وهم مصرون عليها فدل هذا على كذبهم .والثاني : أنه - تعالى - لما حكى عنهم فى الآية المتقدمة قبائح أحوالهم فيما يتعلق بالأديان وهو أنهم قالوا { لاَ تؤمنوا إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ } حكى فى هذه الآية بعض قبائح أحوالهم فيما يتعلق بمعاملة الناس ، وهو إصرارهم على الخيانة والظلم وأخذ أموال الناس فى القليل والكثير .قال ابن عباس : أودع رجل عند عبد الله بن سلام ألفا ومائتى أوقية من ذهب فأداها إليه . وأودع رجل آخر عند فنحاص بن عازوراء اليهودى دينارا فخانه فنزلت الآية .والمعنى : إن من أهل الكتاب فريقاً أن تأتمنه على الكثير والنفيس من الأموال يؤده إليك عند طلبه كاملا غير منقوص ، وإن منهم فريقاً آخر إن تأتمنه على القليل والحقير من حطام الدنيا يستحله ويجحده ولا يؤديه إليك إلا إذا داوم صاحب الحق على المطالبة بحقه واستعمل كل الوسائل فى الحصول عليه .فالآية الكريمة قد مدحت من يستحق المدح من أهل الكتاب وهو الفريق الذى استجاب للحق وآمن بالنبى صلى الله عليه وسلم كعبد الله بن سلام وأمثاله من مؤمنى أهل الكتاب . وذمت من يستحق الذم منهم وهو الفريق الذى لا يؤدى الأمانة ، ولم يستجب للحق ، بل استمر على كفره وجحوده ، وهذا القسم يمثل أكثرية أهل الكتاب .والمراد من ذكر القنطار والدينار هنا العدد الكثير والعدد القليل . أي أن منهم من هو فى غاية الأمانة حتى أنه لو اؤتمن على الأموال الكثيرة لأداها ، ومنهم من هو فى غاية الخيانة حتى أنه لو اؤتمن على الشىء القليل لجحده .وقوله { إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِماً } استثناء من أعم الأحوال أو الأوقات . أى لا يؤده إليك فى حال من الأحوال أو فى وقت من الأوقات إلا في حال أو فى وقت مداومتك على طلبه ، والإلحاح فى ذلك ، واستعمال كل الوسائل للوصول إلى حقك قال الجمل : و " دمت " هذه هى الناقصة ، ترفع وتنصب ، وشرط أعمالها أن يتقدمها ما الظرفية كهذه الآية : إذ التقدير إلا مدة دوامك . وأصل هذه المادة للدلالة على الثبوت والسكون . يقال : دام الماء ، أى سكن . وفى الحديث : "لا يبولن أحدكم فىالماء الدائم " أى الذى لا يجرى . . . ومنه } دام الشىء إذا امتد عليه زمان .ودامت الشمس إذا وقفت فى كبد السماء وقوله عَلَيْهِ } متعلق بقوله { قَآئِماً } والمراد بالقيام الملازمة ، لأن الأغلب أن المطالب يقوم على رأس المطالب ، ثم جعل عبارة عن الملازمة وإن لم يكن ثمة قيام .قال ابن جرير : فإن قال قائل : وما وجه إخبار الله بذلك نبيه صلى الله عليه وسلم وقد علمت أن الناس لم يزالوا كذلك ، منهم المؤدى أمانته ومنهم الخائن لها؟ قيل : إنما أراد - عز وجل - بإخباره المؤمنين خبرهم على ما بينه فى كتابه بهذه الآية ، تحذير المؤمنين من أن يأتمنوهم على أموالهم - وتخويفهم من الاغترار بهم ، لاستحلال كثير منهم أموال المؤمنين .ثم حكى ، سبحانه - بعض الأسباب التى جعلتهم يبررون خيانتهم وجحودهم لحقوق غيرهم فقال - تعالى - : { ذلك بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأميين سَبِيلٌ } .وقوله { ذلك } إشارة إلى ترك الأداء المدلول عليه بقوله - سبحانه - { لاَّ يُؤَدِّهِ } .والمراد بالأميين : العرب ، خصوصا من آمن منهم ، وسمى العرب بالأميين نسبة إلى الأم ، وذلك لغلبة الأمية عليهم لكأن الواحد منهم قد بقى على الحالة التى ولدتهم عليها أمهاتهم من عدم القراءة والكتابة .والسبيل : المراد به ، الحجة الملزمة والحرج . وأصله الطريق ، ثم أطلق على الحجة باعتبارها طريقا ووسيلة للإلزام وتحمل التبعات .أى : ذلك الامتناع عن الوفاء بالعهود ، وجحود الأمانات والحقوق من الفريق الخائن سببه زعمهم الباطل أنهم ليس عليهم حرج أو إثم أو تبعة فى استحلال أموال العرب الأميين واستلابها منهم بأية طريقة ، لأن الأميين ليسوا على ملتهم واليهود يزعمون أن كتابهم يحل لهم قتل من خالفهم ، كما يحل لهم أخذ ما له بأى وسيلة . وهذا الخلق الذميم معرق فى اليهود ، لأن أنانيتهم جعلتهم يحرفون كتبهم على حسب ما تهوى نفوسهم ، فقد كانت التوراة تحرم الربا تحريما مطلقا فتقول : "لا تأخذ ربا من أخيك إذا أقرضته " فحرف اليهود هذا النص إذا زادوا فيه كلمة الإسرائيلي فأصبح النص هكذا "لا تأخذ ربا من أخيك الإسرائيلي إذا أقرضته " وبذلك أصبحوا يحرمون الربا عند تعاملهم مع أنفسهم ويحلونه عند تعاملهم مع غيرهم ، لأنهم لا يشعرون بالأخوة الإنسانية العامة قال الآلوسى : أخرج ابن جرير عن ابن جريج قال : بايع اليهود رجال من المسلمين فى الجاهلية فلما أسلموا تقاضوهم عن بيوعهم فقال اليهود : ليس

، علينا أمانة ولا قضاء لكم عندنا ، لأنكم تركتم دينكم الذى كنتم عليه
وادعوا أنهم وجدوا ذلك في كتابهم .وقال الكلبى : قالت اليهود : " الأموال
كلها كانت لنا ، فما فى أيدى العرب منها فهو لنا ، وأنهم ظلمونا وغصبونا
فلا إثم علينا فى أخذ أموالنا منهم " .وقوله - تعالى - { وَيَقُولُونَ
عَلَى اللَّهِ الكذب وَهُمْ يَعْلَمُونَ } رد عليهم فيما قالوه من أنهم ليس
عليهم فى الأميين سبيل ، وتكذيب لهم فيما زعموه ، لأن قولهم هذا ما أنزل
الله به من سلطان ، ولا يؤيده عقل سليم ، إذ المبادئ الخلقية الفاضلة يجب
أن تطبق على جميع الناس بدون تفرقة بينهم .والمعنى : أن هؤلاء اليهود الذين
يجحدون الأمانات متذرعين بقولهم { لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأميين سَبِيلٌ }
يفترون على الله الكذب فى قولهم هذا ، وهم يعلمون أنه كاذبون ، لأنهم ليس ،
عندهم فى كتبهم نص يبيح لهم استحلال أموال العرب وخيانتهم ، وإنما الذى
تأمرهم به كتبهم هو أداء الأمانة لمستحقيها بالمعروف .وقوله { وَهُمْ
يَعْلَمُونَ } جملة حالية من الضمير في { وَيَقُولُونَ } ومفعول العلم
محذوف اقتصارا ، أى وهم من ذوى العلم . أو اختصارا ، أى يعلمون كذبهم
وافتراءهم .ولقد بين النبى صلى الله عليه وسلم في أحاديث متعددة أن الأمانة
يجب أن تؤدى إلى البار والفاجر ، ومن ذلك ما أخرجه ابن جرير عن سعيد بن
جبير أنه قال : لما نزلت : { وَمِنْ أَهْلِ الكتاب مَنْ إِن تَأْمَنْهُ }
الآية . قال النبى صلى الله عليه وسلم : " كذب أعداء الله!! ما من شىء كان
فى الجاهلية إلا وهو تحت قدمى ، إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البار والفاجر
ولقد سار أتباع النبى صلى الله عليه وسلم على مبدأ أداء الأمانة ، وعدم. "
: أخذ شىء من أموال الغير إلا بوجه مشروع .قال ابن كثير : " قال عبد الرازق
أنبأنا معمر عن أبى إسحاق الهمدانى عن أبي صعصعة بن يزيد . أن رجلا سأل ابن
عباس : إنا نصيب فى الغزو من أموال أهل الذمة : الدجاجة والشاة . قال ابن
عباس : فتقولون ماذا؟ قال نقول : ليس علينا بذلك بأس . قال ابن عباس : هذا
كما قال أهل الكتاب { لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأميين سَبِيلٌ } إنهم إذا
أدوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلا بطيب أنفسهم " .

بلى من اوفى بعهده واتقى فان الله يحب المتقين

} : كما فسرها الوسيط ثم أكد الله - تعالى - كذب هؤلاء اليهود الذين قالوا
لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأميين سَبِيلٌ } بجملة أخرى فيها الرد الذى يخرس
ألسنتهم ، ويدحض مزاعمهم فقال - تعالى - : { بلى مَنْ أوفى بِعَهْدِهِ
وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ } .و { بلى } حرف يذكر فى
الجواب لإثبات المنفى فى كلام سابق ، ولقد حكى القرآن قبل ذلك أن اليهود قد
نفوا أن يكون عليهم فى الأميين سبيل . فجاء - سبحانه - بهذا الرد الذى يثبت
ما نفوه . ويبطل ما زعموه .والمعنى : ليس الأمر كما زعمتم أيها اليهود من
أنه ليس عليكم فى الأميين سبيل ، بل الحق أن علكيم فيهم سبيل . وأنكم
معذبون بسبب كفركم واستحلالكم لأموالهم بدون حق ومثابون إن آمنتم بالله
ورسوله ووفيتم بعهودكم ، وصنتم أنفسكم من كل ما يغضب الله - تعالى - .وقد
علل - سبحانه - هذا الحكم العادل بجملة مستأنفة عامة فقال : { مَنْ أوفى
بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ } .أي كل من
، أوفى بعهد الله فآمن بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم واستقام على دينه
، واتقى ما نهى الله عنه من ترك الخيانة والغدر وما إلى ذلك من المحرمات
فإن الله يحبه ويرضى عنه ، ومن لم يفعل ذلك فإن الله يبغضه ولا يحبه ويعذبه
العذاب الأليم .وبذلك تكون الآية الكريمة قد بينت أن محبة الله لعبده تتوفر
بأمرين :أولهما : الوفاء بالعهد . فكل ما يلتزمه الإنسان من عهود فالوفاء
بها واجب . وفى مقدمة هذه العهود ، العهد الذى أخذه الله على عباده بتوحيده
والإيمان برسله وعلى رأسهم محمد صلى الله عليه وسلم .وثانيهما : تقوى الله
بمعنى أن يجتنب ما نهى الله عنه وحرمه عليه ، ولا يفعل إلا ما أحله الله
، وأذن له فيه .وقد خلا اليهود من هذين الأمرين ، لأنهم لم يفوا بعهودهم
ولم يتقوا نالله ، فسلبت عنهم محبته ، واستحقوا غضبه - سبحانه - ونقمته
قال صاحب الكشاف : قوله - تعالى - { بلى } إثبات لما نفوه من السبيل عليهم.
فى الأميين ، أى بلى عليهم سبيل فيهم . وقوله { مَنْ أوفى بِعَهْدِهِ
وَاتَّقَى } جملة مستأنفة مقررة للجملة التى سدّت { بلى } مسدها . والضمير
فى { بِعَهْدِهِ } راجع إلى { مَنْ أوفى } على أن كل من أوفى بما عاهد عليه
واتقى الله بأن ترك الخيانة والغدر فإن الله يحبه .فإن قلت : فهذا عام يخيل
: أنه لو وفى أهل الكتاب بعهودهم وتركوا الخيانة لكسبوا محبة الله . قلت
أجل ، لأنهم إذا وفوا بالعهود ، وفوا أول شىء بالعهد الأعظم وهو ما أخذ
عليهم في كتابهم من الإيمان برسول مصدق لما معهم .ولو اتقوا الله فى ترك
الخيانة لاتقوه في ترك الكذب على الله وتحريف كلمه ، ويجوز أن يرجع الضمير
فى " بعهده " إلى الله ، على أن كل من وفى بعهد الله واتقاه فإن الله يحبه
ويدخل فى ذلك الإيمان وغيره من الصالحات ، وما وجب اتقاؤه من الكفر وأعمال
السوء .فإن قلت : فأين الضمير الراجع من الجزاء إل من؟ قلت : عموم المتقين
، قام مقام رجوع الضمير " .وبهذا يكون القرآن قد كشف عن مكر اليهود وخداعهم

ورد عليهم فيما افتروه من أقوال باطلة ، وأثبت أنهم يكذبون فيما يدعون عن
تعمد وإصرار ، وبين أن أداء الأمانة واجب على كل إنسان ، وأن كل من وفى
بعهود الله واتقاه فهو أهل لمحبته ورضاه .

ان الذين يشترون بعهد الله وايمانهم ثمنا قليلا اولئك لا خلاق لهم في
الاخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب
اليم

كما فسرها الوسيط ثم توعد الله - تعالى - الذين يخونون العهود ، ويحلفون
كذبا بالعذاب الأليم ، ونعى على فريق من اليهود تحريفهم للكلم عن مواضعه
، وأنذرهم بسوء المصير فقال - تعالى - : { إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ
. . .
روى المفسرون فى سبب نزول قوله - تعالى - { إِنَّ الَّذِينَ. { .
يَشْتَرُونَ } الآية روايات منها : ما أخرجه الشيخان عن عبد الله بن مسعود
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من حلف على مال امرىء مسلم بغير
حقه لقى الله وهو عليه غضبان " قال عبد الله . ثم قرأ علينا رسول الله
مصداقه من كتاب الله ، { إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ } إلخ .وفى
رواية قال : " من حلف على يمين ليقتطع بها مال امرىء مسلم لقى الله وهو
عليه غضبان ، فأنزل الله - تعالى - تصديق ذلك { إِنَّ الَّذِينَ
يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ } . قال عبد الله : فدخل الأشعث بن قيس فقال : ما
يحدثكم أبو عبد الرحمن قلنا : كذا وكذا . فقال : صدق . فى نزلت ، كان بينى
وبين رجل خصومة فى بئر ، فاختصمنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم : شاهداك أو يمينه؟ قلت : إنه إذاً يحلف ولا
يبالى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من حلف على يمين ليقتطع بها
مال امرىء مسلم هو فيها فاجر لقى الله وهو عليه غضبان " ، ونزلت : { إِنَّ
الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ } .وروى البخارى عن عبد الله بن أوفى أن
رجلا أقام سلعة فى السوق فحلف بالله لقد أعطى بها ما لم يعطه ليوقع فيها
رجلا من المسلمين ، فنزلت { إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ } .وقال
الفخر الرازى : قال عكرمة إنها نزلت فى أحبار اليهود ، كتموا ما عهد الله
، إليهم فى التوراة من أمر محمد صلى الله عليه وسلم وكتبوا بأيديهم غيره
وحلفوا بأنه من عند الله لئلا يفوتهم الرشا " .هذه ثلاث روايات فى سبب نزول
تلك الآية الكريمة ، وأرجحها رواية الشيخين ، ولذا وجب الأخذ بها إلا أن
نزول الآية فى قصة معينة لا يمنع شمول حكمها لكل ما يشبه هذه القصة أو
الحادثة ، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب - كما يرى جمهور العلماء -
فكل من حلف بالله كاذبا ، واشترى بعهده - سبحانه - ثمنا قليلا حقت عليه.
العقوبة التى بينتها الآية الكريمة . ويدخل تحت هذه العقوبة دخولا أوليا
أولئك اليهود الذين خانوا عهد الله بإنكارهم لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم
مع أنهم يعرفون صدقه معرفة جليلة .والمراد بقوله { يَشْتَرُونَ } أى
يستبدلون ، وذلك لان المشترى يأخذ شيئاً ويعطى شيئاً . فكل واحد من المعطى
، والمأخوذ ثمن للآخر . والمراد { بِعَهْدِ الله } كل ما يجب الوفاء به
فيدخل فيه ما أوجبه الله - تعالى - على عباده من فرائض وتكاليف ، ومن إيمان
بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، كما يدخل فيه - أيضاً - ما أوجبه الله
على أهل الكتاب من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم الذى يجدون نعته فى
كتبهم ، ويعرفون صدقه كما يعرفون أبناءهم .والباء فى قوله - تعالى - { -
بِعَهْدِ الله } داخلة على المتروك الذى تركوه وأخذوا فى مقابله الثمن
القليل .وقوله { وَأَيْمَانِهِمْ } معطوف على عهد الله .والمراد بأيمانهم
تلك : الأيمان الكاذبة التى يحلفونها ليؤكدوا ما يريدون تأكيده من أقوال أو
أفعال .والمراد بالثمن القليل : حظوظ الدنيا وشهواتها من نحو المال
والمنافع الزائلة ، التى أخذوها نظير تركهم لعهود الله ، وحلفهم الكاذب
وليس وصف الثمن بالقلة هنا من الأوصاف المخصصة للنكرات ، بل هو من الأوصاف.
اللازمة للثمن المحصل المحصل نظير خيانة عهود الله تحقيراً له ، إذ أنه لا
يكون إلا قليلا وإن بلغ ما بلغ من أغراض الدنيا بجانب رضا الله والوفاء
بعهوده .وقوله { أُولَـئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ } أى الذين يخونون
عهد الله ويحلفون الأيمان الكاذبة في مقابل عرض من أعراض الدنيا ، لا نصيب
لهم ولاحظ من نعيم الآخرة بسبب ما ارتكبوه من غدر وافتراء .وقوله { وَلاَ
يُكَلِّمُهُمُ الله } أى لا يكلمهم بما يسرهم بل يكلمهم بما يسوؤهم ويخزيهم
: يوم القيامة بسبب أعمالهم السيئة .أو أن عدم كلام الله - تعالى -لهم
كناية عن عدم محبته لهم ، لأن من عادة المحب أن يقبل على حبيبه ويتحدث إليه
أما المبغض لشىء ، فإنه ينصرف عنه .وإلى هذا المعنى ذهب الإمام الرازى ،
فقد قال ما ملخصه : " وقوله - تعالى - { وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ الله } فيه
سؤال وهو أنه - تعالى - قال : { فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ
عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } فكيف الجمع بين الآية التى معنا وبين قوله
: لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ } والجواب : أن المقصود من كل هذه الكلمات
، بيان شدة سخط الله عليهم ، لأن من منع غيره كلامه ، فإنما ذلك بسخط عليه
وإذا سخط إنسان على آخر قال له :لا أكلمك ، وقد يأمر بحجبه عنه ويقول :لا

ارى وجه فلان ، وإذا جرى ذكره لم يذكره بالجميل ، فثبت أن الآية كناية عن شدة الغضب نعوذ بالله منه . وهذا هو الجواب الصحيح " .وقوله { وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ } أى لا يعطف عليهم ولا يرحمهم ولا يحسن إليهم ، وذلك كما يقول القائل لغيره : انظر إلى ، يريد : ارحمنى واعطف على .ويقال : فلان ، لا ينظر إلى فلان ، والمراد من ذلك نفى الإحسان إليه وترك الاعتداد به فقد جرت العادة بأن من اعتد بإنسان وعطف عليه التفت إليه .قالوا : فلهذا السبب صار المراد بعدم نظر الله - تعالى - إلى هؤلاء الخائنين عبارة عن ترك العطف عليهم والإحسان إليهم والرحمة بهم .ولا يجوز أن يكون المراد من عدم النظر إليهم ، وعدم رؤيتهم ، لأنه - سبحانه - يراهم كما يرى غيرهم من خلقه وقوله - تعالى - { وَلاَ يُزَكِّيهِمْ } أى أنه - سبحانه -لا يطهرهم من دنس ذنوبهم وأوزارهم بالمغفرة ، بل يعاقبهم عليها . أو أنه - سبحانه -لا يثنى عليهم كما يثنى على الصالحين من عباده ، بل يسخط عليهم وينتقم منهم جزاء غدرهم .ثم ختم - سبحانه - الآية ببيان النتيجة المترتبة على هذا الغضب منه عليهم ، فقال : { وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } .أى ولهم عذاب مؤلم موجع بسبب ما ارتكبوه من آثام وسيئات .فانت ترى أن الآية الكريمة قد توعدت هؤلاء الذين يشترون بعهد الله وايمانهم ثمناً قليلا بأنهم لاحظ لهم من نعيم الآخرة ، وأنهم ليسوا أهلا لرضا الله ورحمته وإحسانه ، وأنهم سينالون العذاب المؤلم الموجع بسبب ما قدمت أيديهم .

وان منهم لفريقا يلوون السنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعض الرذائل التى صدرت عن فريق من أهل الكتاب فقال - تعالى - : { وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بالكتاب لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الكتاب وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ } والضمير فى قوله - تعالى - { مِنْهُمْ } يعود إلى أهل الكتاب الذين ذكر القرآن طرفاً من رذائلهم ومسالكهم الخبيثة فيما سبق .قال الفخر الرازي : اعلم أن هذه الآية { وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً } تدل على أن الآية المتقدمة وهى قوله - تعالى - { إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ } نازلة فى اليهود بلا شك ، لأن هذه الآية نازلة فى حق اليهود وهى معطوفة على ما قبلها ، فهذا يقتضى كون تلك الآية المتقدمة نازلة فى اليهود أيضا " .وقال ابن كثير : يخبر - سبحانه - عن اليهود - عليهم لعائن الله - أن منهم فريقا يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويبدلون كلام الله ، ويزيلونه عن المراد ليوهموا الجهلة أنه فى كتاب الله كذلك وينسبونه إلى الله . وهم يعلمون من أنفسهم أنهم قد كذبوا وافتروا فى ذلك كله " .وقوله { يَلْوُونَ } مأخوذ من اللى . واصل اللى الميل يقال : لوى بيده و لوى براسه إذا أماله . والتوى الشىء إذا انحرف ومال عن الاستقامة إلى الاعوجاج والمعنى : " وإن من هؤلاء اليهود الذين كتموا الحق واشتروا بعهد الله وبأيمانهم ثمناً قليلا . إن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب " أي يعمدون إلى كتاب الله فينطقون ببعض ألفاظه نطقا مائلا محرفا يتغير به المعنى من الوجه الصحيح الذى يفيده ظاهر اللفظ إلى معنى آخر سقيم لا يدل عليه اللفظ ولكنه يوافق أهواءهم ونواياهم السيئة ، ومقاصدهم الذميمة .وذلك كأن ينطقوا بكلمة ( رَاعِنَا ) نطقا ملتويا يوافق فى لغتهم كلمة قبيحة يقصدون بها الإساءة إلى النبى صلى الله عليه وسلم . وقد نهى الله - تعالى - المؤمنين عن مخاطبة النبى صلى الله عليه وسلم بأمثال هذه الألفاظ حتى لا يتخذها اليهود ذريعة للإساءة إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال - تعالى -{ يَاأَيُّهَا الذين آمَنُواْ لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا وَقُولُواْ انظرنا } وكأن ينطقوا بكلمة " السلام عليكم " بقولهم : " السام عليكم " بحذف اللام يعنون الموت عليكم لأن السام معناه " الموت .وكأن يغيروا لفظاً من كتابهم فيه ما يشهد بصدق النبى صلى الله عليه وسلم بلفظ آخر ، أو يؤولوا المعانى تأويلا فاسدا ، وقد وبخهم الله - تعالى - على هذا التحريف فى كثير من آيات القرآن الكريم ، ومن ذلك قوله - تعالى - { أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ الله ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ } وقوله - تعالى - { مِّنَ الذين هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الكلم عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا } وقوله - تعالى - { وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً } إنصاف منه - سبحانه - للفريق الذي لم يرتكب هذا الفعل الشنيع وهو تحريف كلامه - عز وجل - وتلك عادة القرآن فى أحكامه لا يظلم أحداً ولكنه يمدح من يستحق المدح ويذم من يستحق الذم .وقوله { يَلْوُونَ } صفة لقوله { فَرِيقاً } .والباء في قوله { بالكتاب } بمعنى " فى " مع حذف المضاف . أى وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم في حال قراءتهم للكتاب ، إما بحذف حروف يتغير لامعنى بحذفها ، أو بزيادة تفسد المعنى ، أو بغير ذلك من وجوه التغيير والتبديل .وقوله - تعالى - { لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الكتاب وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ } بيان للدوافع

السيئة التى دفعتهم إلى ارتكاب هذا التحريف الذميم .والضمير المنصوب فى قوله { لِتَحْسَبُوهُ } وكذلك ضمير الغائب { هُوَ } : يعودان إلى الكلام المحرف الذى لووا به ألسنتهم والمدلول عليه بقوله { يَلْوُونَ } .أى أن من هؤلاء اليهود فريقاً يلوون ألسنتهم فى نطقهم بالكتاب ويحرفونه عن وجهه الصحيح ، لتظنوا أيها المسلمون أن هذا المحرف الذى لووا به ألسنتهم من كتاب الله الذى أنزله على أنبيائه ، والحق بأن هذا المحرف ليس من كتاب الله فى شىء ، وإنما هو من عند أنفسهم نطقوا به زورا بهتانا إرضاء لأهوائهم . وقوله { مِنَ الْكِتَابِ } هو المفعول الثانى لقوله { لِتَحْسَبُوهُ } .والمخاطب بقوله { لِتَحْسَبُوهُ } هم المسلمون وقال { وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ } بتكرار لفظ الكتاب ، ولم يقل وما هو منه للتنبيه على أن كتاب الله المنزل على موسى وعيسى - عليهما السلام - برىء كل البراءة من تحريفهم وتبديلهم ، ومما يزعمونه ويفترونه عليه . ثم بين - سبحانه - أنهم قد بلغت بهم الجرأة في الكذب والافتراء أنهم نسبوا هذا الذى حرفوه وغيره من كتبهم إلى الله - تعالى - فقال: { وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ الله وَيَقُولُونَ عَلَى الله الكذب وَهُمْ يَعْلَمُونَ } .أى أن هؤلاء الذين يلوون ألسنتهم بالكتاب ليوهموا غيرهم بأن هذا المحرف من الكتاب ، لا يكتفون بهذا التحريف ، بل يقولون { هُوَ مِنْ عِندِ الله } أى هذا المحرف هو نزل من عند الله هكذا ، لم ننقص منه حرفا ولم نزد عليه حرفا ، والحق أن هذا المحرف ليس من عند الله ولكنهم قوم ضالون يقولون على الله الكذب وهم يعلمون أنهم كاذبون .ففى هذه الجملة الكريمة بيان لإصرارهم على الباطل ، ولتعمدهم الكذب على الله ، وتوبيخ لهم على هذا الافتراء العجيب . وقد أكد الله جرأتهم فى النطق بالزور والبهتان بمؤكدات منها :أن كذبهم لم يكن تعريضا وإنما كان فى غاية الصراحة ، فهم يقولون عن المحرف { هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ الله وَيَقُولُونَ عَلَى الله } .وأن كذبهم لم يكن على البشر فحسب وإنما على الله الذى خلقهم والذى يعلم ما يسرون وما يعلنون { وَيَقُولُونَ عَلَى الله الكذب } .وأن كذبهم لم يكن عن جهل أو عن نسيان وإنما عن علم وإصرار على هذا الكذب ، وهذا ما يشهد به قوله - تعالى - { وَهُمْ يَعْلَمُونَ } .وهكذا القلوب إذا فسدت ، واستولى عليها السحد والجحود ، ارتكبت كل رذيلة ومنكر بدون تفكر في العواقب ، أو تدبر لما جاءت به الشرائع ، وأمرت به العقول السليمة .وفى هذه الآية ترى أن لفظ الجلالة { الله } قد تكرر ثلاث مرات ، كذلك لفظ { الْكِتَابِ } تكرر ثلاث مرات ، ولم يكتف بالضمير الذى يدل عليهما ، وذلك لقصد الاهتمام باسم الله - تعالى - وباسم كتابه ، والخبر المتعلق بهما ، ولأن من عادة العرب أنهم إذا عظموا شيئا أعادوا ذكره ، وقد جاء ذلك كثيرا فى أشعارهم ، ومنه قول الشاعر لا أرى الموت يسبق الموت شىء نغص الموت ذا الغنى والفقيرافقصد الشاعر من تكرار لفظ الموت تفخيم شأنه ... وتهويل أمره .وبذلك نرى أن القرآن الكريم قد توعد الذين يشترون بعهد الله وبأيمانهم ثمنا قليلا بأشد ألوان الوعيد ، وكشف عن لون آخر من ألوان مكر بعض اليهود ، وعن جرأتهم فى النطق بالكذب عن تعمد وإصرار ، حتى يحذرهم المسلمون .ثم نزه الله - تعالى - أنبياءه - عليهم الصلاة والسلام - وعلى رأسهم محمد صلى الله عليه وسلم عن أن يطلبوا من الناس أن يعبدوهم ، عقب تنزيهه - لذاته عما تقوله المفترون فقال - تعالى - : { مَا كَانَ لِبَشَرٍ . . . . } .

ما كان لبشر ان يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون

كما فسرها الوسيط قال ابن كثير : " عن ابن عباس قال : " قال أبو رافع القرظى حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاهم إلى الإسلام : أتريد منا يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى بن مريم؟ فقال رجل نصرانى من أهل نجران يقال له الرئيس : أو ذاك تريد منا يا محمد وإليه تدعونا؟ - أو كما قال - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " معاذ الله أن نعبد غير الله أو أن نأمر بعبادة غير الله ما بذلك أمرنى ولا بذلك بعثنى " - أو كما قال صلى الله عليه وسلم - فأنزل الله فى ذلك قوله - تعالى - : { مَا كَانَ لِبَشَرٍ } إلى قوله : { بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ } .فقوله - تعالى - { مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ الله الكتاب والحكم والنبوة ثُمّ يَقُولَ لِلنّاسِ كُونُواْ عِبَاداً لِّي مِن دُونِ الله } رد على أولئك الجاهلين الذين زعموا أن بعض النبيين يصح له أن يطلب من الناس أن يعبدوه من دون الله والمعنى :لا يصح ولا ينبغى ولا يستقيم عقلا لبشر آتاه الله - تعالى - وأعطاه { الكتاب } الناطق بالحق ، الآمر بالتوحيد ، الناهى عن الإشراك ، وآتاه { الحكم } أى - العلم النافع والعمل به . وآتاه { النبوة } أى الرسالة التى يبلغها عنه سبحانه - إلى الناس ، ليدعوهم إلى عبادته وحده ، وإلى مكارم الأخلاق ، لا

يصحل له ولا ينبغى بعد كل هذه النعم أن يكفرها { ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ }
بعد هذا العطاء العظيم الذى وهبه الله له { كُونُواْ عِبَاداً لِّي مِن
دُونِ الله } أى :لا ينبغى ولا يعقل من بشر آتاه الله كل هذه النعم أن
يقول للناس هذا القول الشنيع وهو { كُونُواْ عِبَاداً لِّي مِن دُونِ الله
لأن الأنبياء الذين آتاهم الله الكتاب والحكم والنبوة يحجزهم خوفهم من {
- الله ، وإخلاصهم له ، عن أن يقولوا هذا القول المنكر ، كما يحجزهم عنه
. . . أيضا - ما امتازوا به من نفوس طاهرة ، وقلوب نقية ، وعقول سليمة
- لأنهم لو فرض أنهم قالوا ذلك لأخذهم الله - تعالى - أخذ عزيز مقتدر فهو
سبحانه - القائل : { وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأقاويل
لأَخَذْنَا مِنْهُ باليمين ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوتين فَمَا مِنكُمْ
مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ } والتعبير بقوله - تعالى - : { مَا كَانَ
لِبَشَرٍ } تعبير قرآنى بليغ ، إذ يفيد نفى الشأن وعدم اتفاق هذا المعنى مع
الحقيقة المفروضة في الرسل الكرام - عليهم الصلاة والسلام - وشبيه بهذا
التعبير قوله - تعالى - : { مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ }
و{ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَئاً } وجاء
العطف بثم فى قوله { ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ } للإشعار بالتفاوت العظيم
بين ما أعطاه الله - تعالى - لأنبيائه من نعم ، وبين هذا القول المنكر الذى
نفاه - سبحانه - عنهم ، وهو أن يقولوا للناس : اجعلوا عبادتكم لنا ولا
تجعلوها لله - تعالى - .ثم بين - سبحانه - ما يصح للأنبياء أن يقولوه للناس
فقال - تعالى - { ولكن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ
الكتاب وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ } .وقوله { رَبَّانِيِّينَ } جمع
ربانى نسبة إلى الرب - عز وجل - بزيادة الألف والنون سماعا للمبالغة كما
: يقال فى غليظ الرقبة رقبانى وللعظيم اللحية : لحيانى .والمراد بالربانى
الإنسان الذى أخلص لله - تعالى - فى عبادته ، وراقبه فى كل أقواله وأفعاله
واتقاه حق التقوى ، وجمع بين العلم النافع والعمل به ، وقضى حياته فى ،
تعليم الناس وإرشادهم إلى ما ينفعهم .والمعنى :لا يصح لبشر آتاه الله ما
آتاه من النعم أن يقول للناس اعبدونى من دون الله ، ولكن الذى يعقل أن يصدر
- منه هو أن يقول لهم : كونوا { رَبَّانِيِّينَ } أى منقلبين على طاعة الله
تعالى - وعبادته وحده بجد ونشاط وإخلاص ، بسبب كونكم تعلمون غيركم الكتاب
الذى أنزله الله لهداية الناس وبسبب كونكم دارسين له ، أى قارئين له بتمهل
وتدبر .وقوله - تعالى - { ولكن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ } استدراك قصد به
إثبات ما ينبغى للرسل أن يقولوه . بعد أن نفى عنهم ما لا ينبغى لهم أن
ينطقوا به ، أى :لا ينبغى لبشر آتاه الله نعما لا تحصى أن يقول للناس
: كونوا عبادا لى من دون الله ، ولكن الذى ينبغى له أن يقوله لهم هو قوله
كونوا ربانيين أى مخلصين له - سبحانه - العبادة إخلاصا تاما .ففى الجملة
الكريمة إضمار ، والتقدير : " ولكن يقول لهم كونوا ربانيين " فأضمر القول
، على حسب مذهب العرب فى جواز الإضمار إذا كان فى الكلام ما يدل عليه
ونظيره قوله - تعالى - { فَأَمَّا الذين اسودت وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ }
أى فيقال لهم : أكفرتم ، والباء فى قوله { بِمَا كُنْتُمْ } للسببية . وما
مصدرية أى بسبب كونكم معلمين الكتاب وبسبب كونكم دارسين له .وقرأ أبو عمروا
وابن كثير ونافع " تعلمون " بإسكان العين وفتح اللام - من العلم أى بسبب
كونكم عالمين بالكتاب ودارسين له .قال الرازى : دلت الآية على أن العلم
والتعليم والدراسة توجب كون الإنسان ربانيا ، فمن اشتغل بذلك لا لهذا
المقصد ضاع سعيه وخاب عمله ، وكان مثله كمثل من غرس شجرة حسناء مونقة
بمنظرها ولا منفعة بثمرها ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : " نعوذ بالله
من علم لا ينفع وقلب لا يخشع " .

ولا يامركم ان تتخذوا الملائكة والنبيين اربابا ايامركم بالكفر بعد اذ انتم
مسلمون

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - { وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ
الملائكة والنبيين أَرْبَاباً } تأكيد لنفى أن يقول أحد من البشر الذين
آتاهم الله الكتاب والحكم والنبوة للناس اعبدونى من دون الله ، وتنزيه
لساحتهم عن أن يأمروهم بعبادة غير الله .وقوله { وَلاَ يَأْمُرَكُمْ } وردت
فيه قراءتان مشهورتان .أما القراءة الأولى فبفتح الراء عطفا على { يَقُولَ
فى قوله { ثُمَّ يَقُولَ } وتكون "لا " مزيدة لتأكيد معنى النفى فى قوله {
ويكون فى الآية التفات من الغيبة إلى الخطاب { مَا كَانَ لِبَشَرٍ }
والمعنى على هذه القراءة : ما كان لبشر أن يؤتية الله ما ذكر ثم يأمر
الناس بعبادة نفسه ، أو يأمرهم باتخاذ الملائكة والنبيين أربابا ، وذلك
كقولك ما كان لزيد أن أكره ثم يهيننى ويستخف بى . وبهذه القراءة قرأ ابن
عامر وحمزة وعاصم .وعلى هذه القراءة يكون توسيط الاستدراك بين المعطوف
والمعطوف عليه ، للمسارعة إلى تحقيق الحق ، ولبيان ما يليق بشأنه ويحق
صدوره عنه .وأما القراءة الثانية فقد قرأها الباقون برفع الراء فى { }
يَأْمُرَكُمْ } فتكون الجملة مستأنفة ، والمعنى : ولا يأمركم هذا البشر

الذى أعطاه الله ما أعطاه من نعمة أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا
، وخص الملائكة والنبيين بالذكر لأن عبادتهما قد شاعت عند كثير من الناس.
فقد وقع فى عبادة الملائكة " الصابئة " الذين كانوا يقيمون فى بلاد الكلدان
وتبعهم بعض المشركين من العرب . ووقع فى عبادة بعض النبيين كثير من ،
النصارى فقد اتخذوا المسيح إلها يعبد وزعموه ابن الله وكثير من اليهود
عبدوا عزيزاً وزعموه ابن الله .والاستفهام فى قوله { أَيَأْمُرُكُم بالكفر
بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ } للإنكار الذى بمعنى النفى .أى : أن
- الرسل الكرام لا يمكن أن يأمروا الناس بالكفر بالله بعد أن هداهم الله
تعالى - عن طريق هؤلاء الرسل إلى أن يكونوا مسلمين .فالجملة الكريمة تأكيد
بأبلغ وجه لنفى أن يأمر الرسل الناس بعبادة غير الله ، وتنزيه لساحتهم عن
أن يقولوا قولا أو يأمروا بأمر يخالف ما تلقوه عن له - تعالى - من إفراده
بالعبادة والطاعة والخضوع .قال بعضهم : وإذا كان ما ذكر في الآيتين لا يصلح
، لنبى ولا لمرسل ، فلأن لا يصلح لأحد من الناس غيرهم بطريق الأولى والأحرى
ولهذا قال الحسن البصرى :لا ينبغى هذا لمؤمن أن يأمر الناس بعبادته . ثم
- قال : وذلك أن القوم - يعنى أهل الكتاب - كان يعبد بعضهم بعضاً كما قال
تعالى - { اتخذوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ
الله } .فالجهلة من الأحبار والرهبان يدخلون فى هذا الذم ، بخلاف الرسل
، وأتباعهم من العلماء العاملين ، فإنهم إنما يأمرون بما أمر الله به
- وينهون عما نهى الله - تعالى - عنه ولذلك سعدوا وفازوا " .وبعد أن نزه
، سبحانه - الأنبياء عن أن يقولوا قولا أو يأمروا بأمر لم يأذن به الله
- أتبع ذلك ببيان الميثاق الذى أخذه الله - تعالى - عليهم ، فقال - سبحانه
: { . . . . وَإِذْ أَخَذَ } .

واذ اخذ الله ميثاق النبيين لما اتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق
لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال ااقررتم واخذتم على ذلكم اصري قالوا
اقررنا قال فاشهدوا وانا معكم من الشاهدين

كما فسرها الوسيط قوله - تعالى - { وَإِذْ أَخَذَ الله مِيثَاقَ النبيين }
الظرف " إذ " منصوب بفعل مقدر تقديره اذكر ، والخطاب فيه للنبى صلى الله
: عليه وسلم أو لكل من يصلح للخطاب .والميثاق : هو العقد المؤكد بيمين .اى
اذكر يا محمد أو أيها المخاطب وقت أن أخذ الله الميثاق من النبيين
وللمفسرين فى تفسير هذه الآية الكريمة أقوال أشهرها قولان :أولهما : وهو.
رأى جمهور العلماء - أن المراد أن الله - تعالى - أخذ الميثاق من النبيين
وثانيهما : وهو رأى بعض العلماء - أن المراد أن الأنبياء هم الذين أخذوا.
الميثاق من غيرهم .والمعنى على رأى فريق من أصحاب القول الول - منهم الحسن
والسدى وسعيد بن جبير - :أن الله - تعالى - أخذ الميثاق من النبيين أن يصدق
بعضهم بعضا ، وأخذ العهد على كل نبى ان يؤمن بمن يأتى بعده من الأنبياء
- وينصره إن أدركه؛ فغن لم يدركه يأمر قومه بنصرته إن أدركوه . فأخذ
سبحانه - الميثاق من موسى أن يؤمن بعيسى ، ومن عيسى أن يؤمن بمحمد - صلوات
الله وسلامه عليهم جميعا - وإذا كان حكم الأنبياء ، كانت الأمم بذلك أولى
وأحرى .والمعنى على رأى فريق من أصحاب هذا القول منهم على وابن عباس وقتادة
أن الله - تعالى - أخذ الميثاق من النبيين أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه :
وسلم إذا أدركوه ، وأن يأمروا أقوامهم بالإيمان به .قالوا : يؤيد هذا ما
أخرجه ابن جرير عن على بن أبى طالب قال : لم يبعث الله بنياً : آدم فمن
بعده إلا أخذ عليه العهد في محمد صلى الله عليه وسلم لئن بعث وهو حي ليؤمنن
به ولينصرنه ، ويأمره فيأخذ العهد على قومه . ثم تلا الآية " .فكأن اصحاب
هذا القول الأول متفقون فيما بينهم عن أن الميثاق إنما أخذه الله من
النبيين إلا أن بعضهم يرى أن هذا الميثاق أخذه الله منهم لكى يصدق بعضهم
بعضا والبعض الآخر يرى أن هذا الميثاق أخذه الله منهم فى شأن محمد صلى الله
عليه وسلم خاصة .قال ابن كثير ما ملخصه . وما قاله الحسن ومن معه لا يضاد
ما قاله على وابن عباس ولا ينفيه ، بل يستلزمه ويقتضيه . . . . وقد روى
الإمام أحمد عن عبد الله بن ثابت قال : " جاء عمر إلى النبى صلى الله عليه
وسلم فقال : يا رسول الله : إنى مررت بأخ لى من بنى قريظة ، فكتب لى جوامع
من التوراة ألا أعرضها عليك؟ قال : فتغير وجه النبى صلى الله عليه وسلم قال
عبد الله بن ثابت : فقلت له : ألا ترى ما بوجه رسول الله صلى الله عليه
: وسلم ؟ فقال عمر : رضيت بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد رسولا . قال
فسرى عن النبى صلى الله عليه وسلم وقال : " والذى نفسى بيده لو أصبح فيكم
موسى - عليه السلام - ثم اتبعتموه وتركتمونى لضللتم ، إنكم حظى من الأمم
وأنا حظكم من النبيين " " .وعن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم : "لا تسألوا أهل الكتاب عن شىء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا . وإنكم
إما أن تصدقوا بباطل وإما أن تكذبوا بحق ، وإنه والله لو كان موسى حيّا
بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعنى " وفى بعض الأحاديث : " لو كان موسى
وعيسى حيين لما وسعهما إلا اتباعى " .فالرسول محمد صلى الله عليه وسلم " هو
الإمام الاعظم الذى لو وجد فى أى عصر وجد - كان هو الواجب الطاعة المقدم

على الأنبياء كلهم " .هذا هو معنى الجملة الكريمة عند أصحاب الرأى الأول
الذين يرون أن الله - تعالى - أخذ الميثاق من النبيين . وأصحاب هذا الرأى
كما سبق أن بيناهم جمهور العلماء .أما أصحاب الرأى الثانى الذين يرون أن
المراد من الآية أن الأنبياء هم الذين أخذوا الميثاق من غيرهم ، فالمعنى
عليه .واذكر يا محمد أو ايها المخاطب وقت أن أخذ الأنبياء العهد على
أقوامهم بأنه إذا بعث محمد صلى الله عليه وسلم وأدركوه فعليهم أن يؤمنوا به
ويصدقوه وينصروه فكأن معنى الآية : واذكر وقت أن أخذ الله الميثاق الذى وثق
الأنبياء على أقوامهم .هذا ، وقد أشار صاحب الكشاف إلى هذين الرأيين
وغيرهما فقال :" ميثاق النبيين " فيه غير وجه :أحدهما : أن يكون على ظاهره
من أخذ الميثاق على النبيين بذلك .والثانى : أن يضيف الميثاق إلى النبيين
إلى الموثق لا إلى الموثق عليه ، كما تقول : ميثاق الله وعهد الله كأنه قيل
وإذ أخذ الله الميثاق الذى وثقه النبيون على أممهم .والثالث : أن يراد :
ميثاق أولاد النبيين وهم بنو إسرائيل على حذف المضاف .والرابع : أن يراد
أهل الكتاب وأن يرد زعمهم تهكما بهم؛ لأنهم كانوا يقولون : نحن أولى
بالنبوة من محمد لأنا أهل الكتاب ، ومنا كان النبيون " .والذى تسكن إليه
النفس فى معنى الآية . هو الرأى الأول الذى قال به جمهور العلماء ، وذلك
لأن الآيات الكريمة مسوقة - كما يقول الفخر الرازى لتعديد تقرير الأشياء
المعروفة عند أهل الكتاب ، مما يدل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم قطعاً
لعذرهم ، وإظهاراص لعنادهم ، ومن جملة هذه الأشياء ما ذكره - سبحانه - فى
هذه الآية . وهو أنه - تعالى - أخذ الميثاق من الأنبياء بأنهم كلما جاءهم
- رسول مصدق لما معهم آمنوا به ونصروه ، وأخبر أنهم قبلوا ذلك ، وحكم
- سبحانه - بأنه من رجع عن ذلك كان من الفاسقين .. فحاصل الكلام أنه
تعالى - أوجب على جميع الأنبياء الإيمان بكل رسول جاء مصدقا لما معهم ، ولا
شك أن محمداً صلى الله عليه وسلم قد جاء مصدقا لما معهم فوجب على الجميع أن
يؤمنوا به " .ولأن هذا المعنى هو الظاهر من الآية الكريمة . ولا تحتاج إلى
تقدير مضاف أو غيره ، والأخذ بالمعنى الظاهر الذى لا يحتاج إلى تقدير أولى
من الأخذ بغيره .ولأن أخذ العهد على الأنبياء بأن يؤمنوا بمحمد صلى الله
عليه وسلم أعلى وأشرف لقدره صلى الله عليه وسلم من أخذه على أممهم وأقوامهم
ولأن أخذ العهد على الأنبياء أخذ له على الأمم ، إذ كل أمة يجب أن تصدق.
بما جاءها به نبيها .واللام فى قوله - تعالى - { لَمَآ آتَيْتُكُم مِّن
كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ } قرأها الجمهور بالفتح . وقرأها حمزة بالكسر .أما
قراءة الفتح فلها وجهان :أولهما : أن تجعل " ما " اسم موصول مبتدأ ، وما
بعده صلة له ، وخبر قوله { لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ } .والتقدير : واذكر وقت أن
أخذ الله ميثاق النبيين قائلا لهم : الذى آتيتكم إياه من كتاب وحكمة ثم
جاءكم رسول مصدق لما أوتيتموه لتؤمنن بهذا الرسول ولتنصرنه . وعلى هذا
} الوجه تكون اللام فى قوله " لما " للابتداء وحسن دخولها هنا لأن قوله
لَمَآ آتَيْتُكُم } فى مقام المقسم عليه ، وقوله { وَإِذْ أَخَذَ الله
مِيثَاقَ النبيين } فى مقام القسم ، إذ هو بمنزلة الاستحلاف تقول : أخذت
ميثاقك لتفعلن كذا فكأنك قلت : استحلفتك لتفعلن كذا . .وثانيهما : أن تجعل
ما " ههنا ، اسم شرط جازم في موضع نصب بآتيتكم .والتقدير : ما آتيتكم من "
كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم ، لتؤمنن به ولتنصرنه .وعلى هذا
الوجه يكون فعل الشرط مكونا من جملتين :الأولى : { آتَيْتُكُم } .والثانية
} وهما معا فى محل جزم بما الشرطية . وقوله { ثُمَّ جَآءَكُمْ } :
لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ } جواب القسم الذى تضمنه قوله : { وَإِذْ أَخَذَ الله
مِيثَاقَ النبيين } وجواب الشرط محذوف ، لأن القاعدة النحوية أنه إذا اجتمع
شرط . وقسم فالجواب المذكور للسابق منهما وجواب اللاحق محذوف وهنا السابق
هو القسم . قال ابن مالك :واحذف لدى اجتماع شرط وقسم ... جواب ما أخرت فهو
: ملتزموأما على قراءة الكسر التى قرأها حمزة فتكون اللام للتعليل كأنه قيل
اذكر وقت أن أخذ الله ميثاق النبيين ، لأن إيتاءهم الكتاب والحكمة ، ثم
مجىء من يصدقهم يوجب عليهم الإيمان بهذا الرسول المصدق لما معهم ويوجب
عليهم نصرته .والمراد بالكتاب : ما أنزله الله - تعالى - على هؤلاء النبيين
من كتب تنطق بالحق .والمراد بالحكمة : الوحى الوارد بالتكاليف المفصلة التى
- لم يشتمل عليها الكتاب .أو المراد بها العلم النافع الذى أعطاه - سبحانه
لهم ، ووفقهم للعمل به .و { مِّن } فى قوله { مِّن كِتَابٍ } للبيان .قال
القرطبى : والمراد بالرسول هنا محمد صلى الله عليه وسلم واللفظ وإن كان
نكرة فالإشارة إلى معين ، كقوله - تعالى - { وَضَرَبَ الله مَثَلاً
قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً } إلى قوله - تعالى - { وَلَقَدْ
جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ } فأخذ الله ميثاق النبيين
أجمعين أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وينصروه إن أدركوه ، وأمرهم أن
يأخذوا بذلك الميثاق على أممهم " .ثم حكى - سبحانه - ما قاله لهم بعد أن
أمرهم بالإيمان بهذا الرسول وبنصرته فقال : { قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ
وَأَخَذْتُمْ على ذلكم إِصْرِي } ؟ .والإصر : العهد . وأصله من الإصار - أى
الحبال التى يعقد بها الشىء ويشد - وسمى العهد إصرا لأنه تقوى به الأقوال
والعقود .أى - قال الله - تعالى - لنبيين : أأقررتم بهذا الذى أمرتكم به

وقبلتم عهدى؟ والاستفهام للتقرير والتوكيد عليهم لاستحالة معناه الحقيقي فى حقه - سبحانه - .ثم حكى - سبحانه - ما أجاب به الرسل وما ورد به عليهم فقال { قالوا أَقْرَرْنَا قَالَ فاشهدوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِّنَ الشاهدين } : أى : قال الرسل مجيبين لخالقهم - عز وجل - أقررنا يا ربنا وقبلنا عهدك. وأطعناه .فرد عليهم - سبحانه - بقوله : { فاشهدوا } أى فليشهد بعضكم على بعض بهذا الإقرار ، وأنا على إقراركم وإشهاد بعضكم على بعض من الشاهدين . وهذا توكيد عليهم ، وتحذير من الرجوع.

فمن تولى بعد ذلك فاولئك هم الفاسقون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - عاقبة الناكثين لعودهم فقال : { فَمَنْ تولى بَعْدَ ذلك فأولئك هُمُ الفاسقون }أى فمن أعرض عن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وعن نصرته ، بعد أخذ الميثاق المؤكد عليه ، فأولئك المعرضون هم الفاسقون " أى الخارجون عن الإيمان إلى أفحش دركات الكفر والخيانة " والفاء فى قوله { فَمَنْ تولى } للتفريع ، و { مَنْ } يجوز أن تكون شرطية. ويكون قوله { فأولئك هُمُ الفاسقون } جوابها .ويجوز أن تكون موصولة ، ويكون قوله { فأولئك هُمُ الفاسقون } هو الخبر .والضمير في قوله { تولى } يعود " على " من " بالإفراد باعتبار لفظها ، ويعود عليها بصيغة الجمع فى قوله فأولئك " باعتبار معناها .وبعد أن بين - سبحانه - أن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم حق لا ريب فيه ، وأنه واجب على جميع من مضى من الأنبياء والأمم ، عقب ذلك ببيان أن كل من كره الإيمان بما جاء به محمد صلى الله - عليه وسلم فإنه يكون بعيدا عن الدين الحق ، مستحقا للعقاب الأليم فقال - تعالى

افغير دين الله يبغون وله اسلم من في السماوات والارض طوعا وكرها واليه يرجعون

كما فسرها الوسيط { أَفَغَيْرَ دِينِ الله يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن { فِي السماوات والأرض طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ، والاستفهام للإنكار والتوبيخ ، وهمزة الاستفهام داخلة على فعل محذوف. والفاء الداخلة على " غير " عاطفة لجملة { يَبْغُونَ } على ذلك المحذوف الذى دل عليه الاستفهام وعينه المقام .والمعنى : أيتولون عن الإيمان بعد هذا البيان فيبغون دينا غير دين الله الذى هو الإسلام .ومعنى { يَبْغُونَ } - يطلبون . يقال بغى الأمر يبغيه بغاء - بضم الباء - أى طلبه . وقوله تعالى - { وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السماوات والأرض طَوْعاً وَكَرْهاً } جملة حالية . أى أيبغون دينا غير دين الله والحال أن الله - تعالى - استسلم وانقاد وخضع له من فى السموات والأرض طوعا وكرها . أى طائعين وكارهين فهما مصدران فى موضع الحال .والمراد أن كل من فى السموات والأرض قد انقادوا وخضعوا لله - تعالى - إما عن طواعية واختيار وهم المؤمنون لأنهم راضون فى كل الأحوال بقضائه وقدره ، ومستجيبون له فى المنشط والمكره والعسر واليسر . وإما عن تسخير وقهر وهم الكافرون لأنهم واقعون تحت سلطانه العظيم وقدرته النافذة ، فهم مع كفرهم لا يستطيعون دفع قضائه - سبحانه - وإذن فهم خاضعون لسلطانه - عز وجل - لأنهم لا سبيل لهم ولا لغيرهم إلى الامتناع عن دفع ما يريده بهم .هذا ، وقد ساق الفخر الرازى جملة آراء فى معنى الآية الكريمة ثم اختار أحدها فقال ما ملخصه : فى خضوع من فى السموات والأرض لله وجوه : أصحها عندى أن كل ما سوى الله - سبحانه - ممكن لذاته ، ولك ممكن لذاته فإنه لا يوجد إلا بإيجاده ، ولا يعدم إلا بإعدامه ، فإن كل ما سوى الله فهو منقاد خاضع لجلال الله فى طرفى وجوده وعدمه . وهذا هو نهاية الخضوع والانقياد . ثم إن فى هذا الوجه لطيفة آخرى : وهى أن قوله { وَلَهُ أَسْلَمَ } يفيد الحصر ، أى وله كل ما فى السموات والأرض لا لغيره .فهذه الآية تفيد أن واجب الوجود واحد ، وأن كل ما سواه فإنه لا يوجد إلا بتكوينه ولا يفنى إلا بإفنائه والآيات فى هذا المعنى كثيرة .وقوله { وَإِلَيْهِ ، يُرْجَعُونَ } أى إليه وحده يرجع الخلق فيجازى كل مخلوق بما يستحقه من خير أو شر .ففى الجملة الكريمة تحذير من الإعراض عن دينه ، لأنه ما دام مرجع الخلق جميعا إليه - سبحانه - فعلى العاقل أن يسلم نفسه إلى خالقه اختياراً قبل أن يسلمها اضطرارا ، وأن يستجيب لأوامره ونواهيه ، حتى ينال رضاه وبذلك تكون هذه الآيات الكريمة قد أقامت للناس الأدلة على صدق النبى صلى. الله عليه وسلم وأمرتهم بالدخول فى دينه ، وحذرتهم من الإعراض عنه بأجلى بيان وأقوى برهان .وبعد هذا البيان الواضح والبرهان الساطع على صدق النبى صلى الله عليه وسلم أمر الله - تعالى - نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم أن يعلن على الدنيا كلمة الحق التى يؤمن بها ، وأن يخبر كل من يتأتى له الخطاب بأن الدين المقبول عند الله هو دين الإسلام وأن كل دين سواه فهو باطل . لأن رسالته صلى الله عليه وسلم هى خاتمة الرسالات ودين الإسلام الذى أتى به ناسخ لكل دين سواه . استمع إلى القرآن وهو يبين ذلك فيقول : ( قُلْ آمَنَّا

. . . } .

قل امنا بالله وما انزل علينا وما انزل على ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وما اوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون

كما فسرها الوسيط قوله { والأسباط } جمع سبط وهو الحفيد ، والراد بهم أولاد } : - يعقوب - عليه السلام - وكانوا اثنى عشر ولدا قال - تعالى وَقَطَّعْنَاهُمُ اثنتي عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً } وسموا بذلك لكونهم حفدة إبراهيم وإسحاق - عليهم السلام - .والمعنى : { قُلْ } يا محمد لأهل } الكتاب الذين جادلوك بالباطل كوجحدوا الحق مع علمهم به ، قل لهم ولغيرهم آمَنَّا بالله } أى آمنت أنا وأتباعى بوجود الله ووحدانيته ، واستجبنا له في كل ما أمرنا به ، أو نهانا عنه .وآمنا كذلك بما { أُنزِلَ عَلَيْنَا } من قرآن يهدى إلى الرشد ، ويخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم وآمنا أيضاً بما أنزله الله - تعالى - من وحى وصحف على { إِبْرَاهِيمَ. وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ والأسباط } .وآمنا - أيضاً - بما آتاه الله لموسى وعيسى من التوراة والإنجيل وغيرهما من المعجزات ، وبما آتاه لسائر أنبيائه من وحى وآيات تدل على صدقهم .{ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ } أى لا نفرق بين جماعة الرسل فنؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعل أهل الكتاب ، إذ فرقوا بين أنبياء الله وميزوا بينهم وقالوا - كما حكى القرآن عنهم - { نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ } وهم فى الحقيقة كافرون بهم جميعاً ، لأن الكفر بواحد من الأنبياء يؤدى إلى الكفر بهم جميعاً ، ولذا فنحن معاشر المسلمين نؤمن بجميع الأنبياء بلا تفرقة أو استثناء .{ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } أى خاضعون له وحده بالطاعة والعبودية . مستجيبون له فى كل ما أمرنا به وما نهانا عنه .فالآية الكريمة تأمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يخبر عن نفسه وعمن معه بأنهم آمنوا بالله وبكتبه وبرسله جميعا بدون تفرقة بينهم ، لأنها شرائع الله - تعالى - التى أنزلها على أنبيائه ، كلها مرتبط بعضها ببعض ، وكلها تتفق على كلمة واحدة : هى إفراد الله - تعالى - بالعبودية والطاعة .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم عدى أنزل فى هذه الآية بحرف الاستعلاء { أُنزِلَ عَلَيْنَا } ، وفيما تقدم من مثلها - فى سورة البقرة - بحرف الانتهاء { أُنْزِلَ إِلَيْنَا } ، قلت : لوجود المعنيين جميعا ، لأن الوحى ينزل من فوق وينتهى إلى الرسل فجاء تارة بأحد المعنيين وأخرى بالآخر .ومن قال إنما قيل هنا { عَلَيْنَا } لقوله ( إِلَيْنَا ) وقيل هناك ( قولوا ) تفرقة بين الرسل والمؤمنين ، لأن الرسول يأتيه الوحى على طريق الاستعلاء ، ويأتيهم على وجه الانتهاء ، من } قال ذلك تعسف . ألا ترى إلى قوله ( أُنْزِلَ إِلَيْكَ ) وإلى قوله آمِنُواْ بالذي أُنْزِلَ عَلَى الذين آمَنُواْ } وخص هؤلاء الأنبياء الذين ، ذكرتهم الآية بالذكر ، لأن أهل الكتاب يزعمون أنهم يؤمنون بهم ويتبعونهم فاراد القرآن أن يبين لهم أن زعمهم باطل ، لأنهم لن يكونوا مؤمنين بهم إلا إذا آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم .وقوله - تعالى - { لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ } بيان لثمرة الإيمان الحق الذى رسخ فى قلوب المؤمنين وعلى رأسهم هاديهم ومرشدهم محمد صلى الله عليه وسلم ، لأن هذا - الإيمان الحق جعلهم يصدقون بأن رسل الله جميعا قد أرسلهم - سبحانه بالدعوة إلى توحيده وإخلاص العبادة له ، وإذا وجد تفاضل أو اختلاف فهذا التفاضل والاختلاف يكون فى أمور أخرى سوى الإيمان بالله وإفراده بالعبودية سوى ما اتفقت عليه الشرائع جميعها من الدعوة إلى الحق وإلى مكارم الأخلاق ، وقد جاءت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم خاتمة للرسالات ، وجامعة لكل ما فيها من محاسن فوجب الإيمان بها ، وإلا كان الكفر بها كفراً بجميع الرسالات السابقة عليها .وقوله { وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } يفيد الحصر ، نحن له وحده أسلمنا وجوهنا ، وأخلصنا عبادتنا .لا لغيره كائنا من كان هذا الغير . وهذا يدل على أنهم بلغوا أعلى مراتب الإخلاص والطاعة لله رب العالمين.

ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الاخرة من الخاسرين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن كل من يطلب دينا سوى دين الإسلام فهو خاسر فقال - تعالى - : { وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ } .أى : ومن يطلب دينا سوى دين الإسلام الذى أتى به - عليه الصلاة والسلام - فلن يقبل منه هذا الدين المخالف لدين الإسلام ، لأن دين - الإسلام الذى جاء به محمد ، هو الدين الذى ارتضاه الله لعباده قال تعالى - { اليوم أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسلام دِيناً } ولأنه هو الدين الذى ختم الله به الديانات ، وجمع فيه محاسنها .أما عاقبة هذا الطالب لدين سوى دين الإسلام فقد بينها - سبحانه - بقوله : { وَهُوَ فِي الآخرة مِنَ الخاسرين } ، أى وهو فى الآخرة من الذين خسروا أنفسهم بحرمانهم من ثواب الله.

" واستحقاقهم لعقابه جزاء ما قدمت أيديهم من كفر وضلال .وفى الحديث الشريف
من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد " أى مردود عليه ، وغير مقبول منه .وفى
الإخبار بالخسران عن الذى يبتغى أى يطلب دينا سوى الإسلام ، إشعار بأن من
يتبع دينا سوى دين الإسلام يكون أشد خسرانا ، وأسوأ حالا ، لأن الطلب أقل
شرا من الاتباع الفعلى .وبعد أن عظم - سبحانه - شأن الإسلام ، وبين أنه هو
الدين المقبول عنده ، أتبع ذلك ببيان أن سنته جرت فى خلقه بأن يزيد الذين
اهتدوا هدى ، أما الجاحدون للحق عن علم ، والمتبعون لأهوائهم وشهواتهم فهم
، بعيدون عن هداية الله ، ولن يقبلهم - سبحانه - إلا إذا تابوا عن ضلالهم
وأصلحوا ما فسد منهم ، استمع إلى القرآن وهو يصور هذا المعنى بأسلوبه
البليغ المؤثر فيقول : { كَيْفَ يَهْدِي . . . } .

كيف يهدي الله قوما كفروا بعد ايمانهم وشهدوا ان الرسول حق وجاءهم البينات
والله لا يهدي القوم الظالمين

كما فسرها الوسيط روى المفسرون روايات فى سبب نزول هذه الآيات الكريمة منها
ما أخرجه النسائي عن ابن عباس قال . إن رجلا من الأنصار أسلم ثم ارتد ولحق
بالشرك ثم ندم؛ فأرسل إلى قومه : سلوا لى رسول الله صلى الله عليه وسلم هل
لى من توبة؟ فجاء قومه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا . هل له من
توبة؟ فنزلت هذه الآيات ، فأرسل إليه قومه فأسلم .وعن مجاهد قال : جاء
الحارث بن سويد فأسلم مع النبى صلى الله عليه وسلم ثم كفر الحارث فرجع إلى
قومه فأنزل الله هذه الآيات . قال : فحملها إليه رجل من قومه فقرأها عليه .
فقال الحارث : إنك والله - ما علمت - لصدوق ، وإن رسول الله صلى الله عليه
وسلم لأصدق منك ، وإن الله - عز وجل - لأصدق الثلاثة ، قال : فرجع الحارث
فأسلم فحسن إسلامه وعن الحسن البصرى أنه قال : إنهم أهل الكتاب من اليهود
، والنصارى ، رأوا نعت النبى صلى الله عليه وسلم فى كتابهم وأقروا به
وشهدوا أنه حق ، فلما بعث من غيرهم حسدوا العرب على ذلك فأنكروه وكفروا بعد
إقرارهم حسداً للعرب حين بعث من غيرهم .هذه بعض الروايات التى وردت فى سبب
نزول هذه الآيات ، ويبدو لنا أن أقربها إلى سياق الآيات هى الرواية التى
جاءت عن الحسن البصرى بأن المقصود بالآيات أهل الكتاب ، وذلك لأن الحديث
معهم من أول السورة ولأن القرآن قد ذكر فى غير موضع أن أهل الكتاب كانوا
يعرفون صدق النبى صلى الله عليه وسلم كما يعرفون أبناءهم ، وأنهم كانوا
يستفتحون به { عَلَى الذين كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُمْ مَّا عَرَفُواْ
كَفَرُواْ بِهِ } ومع هذا فليس هناك ما يمنع من أن يكون حكم هذه الآيات
شاملا لكل من ذكرتهم الروايات ولكل من يشابههم ، إن العبرة لعموم اللفظ لا
بخصوص السبب .قال ابن جرير - بعد أن ساق هذه الروايات - ما ملخصه : وأشبه
هذه الأقوال بظاهر التنزيل ما قاله الحسن : من أن هذه الآيات معنى بها أهل
الكتاب على ما قال ، وجائز أن يكون الله - تعالى - أنزل هذه الآيات بسبب
القوم الذين ذكر أنهم كانوا ارتدوا عن الإسلام ، فجمع قصتهم وقصة من كان
سبيله سبيلهم فى ارتداده عن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم فى هذه
الآيات ، ثم عرف عباده سنته فيهم فيكون داخلا فى ذلك كل من كان مؤمنا بمحمد
صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث ثم كفى به بعد أن بعث ، وكل من كان كافرا
ثم أسلم على عهده صلى الله عليه وسلم ثم ارتد وهو حى عن إسلامه ، فيكون
معينا بالآيات جميع هذين الصنفين وغيهرما ممن كان بمثل معناهما ، بل ذلك
كذلك إن شاء الله .والاستفهام فى قوله - تعالى - { كَيْفَ يَهْدِي الله
قَوْماً كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ } للنفى ولاستبعاد هدايتهم إلى
الصراط المستقيم وهم على هذا الحال من الارتكاس فى الكفر والضلال ، مع
علمهم بالحق ، وإيمانهم به لفترة من الوقت .والمعنى : أن الله - تعالى -
جرت سنته فى خلقه ألا يهدى إلى الصراط المستقيم ، قوما { كَفَرُواْ بَعْدَ
إِيمَانِهِمْ } أى ارتدوا إلى الكفر بعد أن آمنوا ، وبعد أن { شهدوا أَنَّ
الرسول } وهو محمد صلى الله عليه وسلم " حق " وأنه صادق فيما يبلغه عن ربه
وبعد أن { جَآءَهُمُ البينات } أى البراهين والحجج الناطقة بحقيقة ما ،
يدعيه ، من قرآن كريم عجز البشر عن الإتيان بسورة من مثله ، ومن معجزات
باهرة دالة على صدقه صلى الله عليه وسلم .فأنت ترى أن حالهم التى أوجبت هذا
النفى والاستبعاد تتمثل فى أنهم كانوا مؤمنين ، وكانوا يشهدون بأن الرسول
حق ، وجاءتهم البينات اليقينية الملزمة التى تؤيد إيمانهم وشهادتهم ، ومع
كل ذلك استحبوا العمى على الهدى ، واختاروا الكفر على الإيمان ، واستولى
عليهم التعصب بالباطل فأرداهم وحرمهم من هداية الله حتى يغيروا ما بأنفسهم
ويتوبوا عن غيهم ، ويصلحوا ما أفسدوه ، ويخلصوا وينيبوا إلى خالقهم وبارئهم
قال صاحب الكشاف : " قوله { كَيْفَ يَهْدِي الله قَوْماً } أى كيف يلطف
بهم وليسوا من أهل اللطف ، لما علم الله من تصميمهم على كفرهم ، ودل على
تصميمهم بأنهم كفروا بعد إيمانهم ، وبعد ما شهدوا بأن الرسول حق وبعد ما
جاءته الشواهد من القرآن وسائر المعجزات التى تثبت بمثلها النبوة - وهم
اليهود - كفروا بالنبى صلى الله عليه وسلم بعد أن كانوا مؤمنين به ، وذلك
حين عاينوا ما يوجب قوة إيمانهم من البينات .فإن قلت : علام عطف قوله

، وشهدوا } ؟ قلت : فيه وجهان : أن يعطف على ما فى إيمانهم من معنى الفعل
لأن معناه بعد أن آمنوا . ويجوز أن تكون الواو للحال بإضمار " قد " . بمعنى
كفروا وقد شهدوا أن الرسول حق " .وقوله - تعالى - { والله لاَ يَهْدِي
القوم الظالمين } جملة حالية أو معترضة .والمعنى : أنه - سبحانه - قد مضت
، سنته فى خلقه أنه لا يهدى إلى الحق أولئك الذين آثروا الكفر على الإيمان
عن تعمد وإصرار ، ووضعوا الشىء فى غير موضعه مع علمهم بسوء صنيعهم .وفى
تذييل الآية الكريمة بهذه الجملة مع إطلاق لفظ الظلم ، إشعار بأنهم قد
ظلموا أنفسهم بإيقاعها فى مهاوى الردى والعذاب وظلموا الرسول الذى شهدوا له
بأن ما جاء به هو الحق ثم كفروا به ، وظلموا الحقائق والبراهين التى نطقت
بأحقية الإيمان وببطلان الكفر ثم تركوا هذه الحقائق والبراهين وانقادوا
لأهوائهم وشهواتهم ومطامعهم .وإن الظلم متى سيطر على النفوس أفقدها رشدها
وإدراكها للأمور إدراكا سليما ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث
. " يقول : " اتقوا الظلم فإنه ظلمات يوم القيامة

اولئك جزاؤهم ان عليهم لعنة الله والملائكة والناس اجمعين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - عاقبة هؤلاء الظالمين فقال : { أُولَئِكَ
جَزَآؤُهُمْ أَنّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ الله والملائكة والناس أَجْمَعِينَ
- قال الراغب : اللعن : الطرد والإبعاد على سبيل السخط ، وذلك من الله. {
تعالى - فى الآخرة عقوبة وفى الدنيا انقطاع من قبول رحمته وتوفيقه ، ومن
} الإنسان دعاء على غيره " .والمعنى : أولئك المتصفون بتلك الصفات القبيحة
جَزَآؤُهُمْ أَنّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ الله } أى جزاؤهم أن عليهم غضب الله
وسخطه بسبب استحبابهم الكفر على الإيمان { والملائكة والناس أَجْمَعِينَ }
أى وعليهم كذلك سخط الملائكة والناس أجمعين وغضبهم ، ودعاؤهم عليهم باللعنة
والطرد من رحمة الله .وقوله { أُولَئِكَ } مبتدأ . وقوله { جَزَآؤُهُمْ } مبتدأ
ثان ، وقوله { أَنّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ الله } إلخ . . خبر المبتدأ
الثانى ، وهو وخبره خبر المبتدأ الأول .والآية الكريمة قد بينت أن اللعنة
على هؤلاء القوم ، صادرة من الله وهى أشد ألوان اللعن ، وصادرة من الملائكة
الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وصادرة من الناس أجمعين
، أى أن الفطر الإنسانية تلعنهم لنبذهم الحق بعد أن عرفوه وشهدوا به ،
وقامت بين أيديهم الأدلة على أنه حق .قال الفخر الرازى ما ملخصه : فإن قيل
: لم عم جميع الناس مع أن من وافقهم فى كفرهم لا يلعنهم؟ قلنا فيه وجوه :
منها أنهم فى الآخرة يلعن بعضهم بعضا كما قال - تعالى - { كُلَّمَا
دَخَلَتْ أُمّةٌ لّعَنَتْ أُخْتَهَا } فعلى هذا التقدير يكون اللعن قد
حصل للكفار من الكفار . ومنها كأن الناس هم المؤمنون ، والكفار ليسوا من
الناس ، ثم لما ذكر لعن الثلاث قال { أَجْمَعِينَ } . ومنها وهو الأصح عندى
أن جميع الخلق يلعنون المبطل والكافر ، ولكنه يعتقد فى نفسه أنه ليس :
بمبطل ولا كافر ، فإذا لعن الكافر وكان هو فى علم الله كافرا فقد لعن نفسه
. " وإن كان لا يعلم ذلك

خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون

كما فسرها الوسيط ثم أكد - سبحانه - تلك العقوبة بعقوبة أخرى لازمة لها ما
داموا على تلك الحالة الشنيعة فقال - تعالى - { خَالِدِينَ فِيهَا لاَ
يُخَفّفُ عَنْهُمُ العذاب } بسبب إصرارهم على الكفر فى الدنيا ، وانغماسهم
فيما يغضب الله { وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ } أى ولا هم يمهلون ولا يؤخر عنهم
العذاب بل عذابهم عاجل لا يقبل الإمهال أو التأخير بسبب ما ارتكبوه فى
. الدنيا من شرور وآثام

الا الذين تابوا من بعد ذلك واصلحوا فان الله غفور رحيم

كما فسرها الوسيط ولكن القبرآن - مع هذا - يفتح باب التوبة لمن أراد أن
يتوب ، وينهى الناس عن أن يقنطوا من رحمة الله متى تابوا وأنابوا وأصلحوا
} - : فيقول - بعد تلك الحملة المرعبة التي شنها على الكفر والكافرين
إِلاّ الذين تَابُواْ مِن بَعْدِ ذلك وَأَصْلَحُواْ فَإِنّ الله غَفُورٌ
، رّحِيمٌ } .أى : أن اللعنة مستمرة على هؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم
وهم خالدون فى العذاب يوم القيامة بدون إمهال أو تأخير ، إلا الذين تابوا
منهم عن الكفر الذى ارتكبوه ، وعن الظلم الذى اقترفوه ، وأصلحوا ما أفسدوه
بأن قالوا ربنا الله ثم استقاموا على طريق الحق ، وحافظوا على أداء الأعمال
الصالحة " فإن الله - تعالى - غفور رحيم " أى فإنه سبحانه يغفر لهم ما سلف
منهم من كفر وظلم .ففى هذه الآية الكريمة إغراء للكافرين بأن يقلعوا عن
- كفرهم وللمذنبين بأن يثوبوا إلى رشدهم وبأن يتوبوا إلى ربهم ، فإنه
سبحانه - يغفر الذنوب جميعا لمن يتوب ويحسن التوبة ، فهو القائل { قُلْ
ياعبادي الذين أَسْرَفُواْ على أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُواْ مِن رّحْمَةِ

الله إِنّ الله يَغْفِرُ الذنوب جَمِيعاً إِنّهُ هُوَ الغفور الرحيم
وأنيبوا إلى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُ } أما الذين لا يتوبون ولا
. يستغفرون ولا يثوبون إلى رشدهم . بل يصرون على الكفر فيزدادون كفراً
والذين يرتكسون فى كفرهم وضلالهم حتى تفلت منهم الفرصة ، وينتهى أمد
- الاختبار ، ويأتى دور الجزاء ، فهؤلاء لا توبة لهم ولا نجاة ، فقد قال
. تعالى - بعد هذه الآيات : { إِنّ الذين كَفَرُوا . . . }

ان الذين كفروا بعد ايمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم واولئك هم الضالون

كما فسرها الوسيط قوله - تعالى - { إِنّ الذين كَفَرُواْ بَعْدَ
إِيمَانِهِمْ ثُمّ ازدادوا كُفْراً } .قال قتادة وعطاء : نزلت فى اليهود
كفروا بعيسى والإنجيل بعد إيمانهم . بموسى والتوراة . ثم ازدادوا كفرا
بكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالقرآن .وقال أبو العالية والحسن : نزلت
فى أهل الكتاب جميعا ، آمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه ثم
كفروا به بعد مبعثه ، ثم ازدادوا كفرا بإصرارهم على ذلك ، وطعنهم فى نبوته
، فى كل وقت ، وعداوتهم له ، ونقضهم لعهودهم وصدهم الناس عن طريق الحق
وسخريتهم بآيات الله .ويمكن أن يقال : إن الآية الكريمة على عمومها فهى
تتناول كل من آمن ثم ارتد عن الإيمان إلى الكفر ، وزداد كفرا بمقاومته للحق
- وإيذائه لأتباعه ، وإصراره على كفره وعناده وجحوده . ثم بين - سبحانه ،
سوء عاقبتهم فقال : { لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وأولئك هُمُ الضآلون }
أى أن هؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا وعنادا وجحودا للحق.
أى لن تتوقع منهم توبة حتى تقبل ، لأنهم { لّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ }
بإصرارهم على كفرهم ، ورسوخهم فيه ، وتلاعبهم بالإيمان ، قد صاروا غير أهل
للتوفيق لها ، ولأنهم حتى لو تابوا فتوبتهم إنما هى بألسنتهم فحسب ، أما
قلوبهم فمليئة بالكفر والنفاق ولذا تعتبر توبتهم كلا توبة .وبعضهم حمل عدم
قبول توبتهم على أنهم تابوا عند حضور الموت ، والتوبة في هذا الوقت لا قيمة
لها .قال القرطبى : وهذا قول حسن كما قال - تعالى - : { وَلَيْسَتِ التوبة
لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السيئات حتى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الموت قَالَ
إِنِّي تُبْتُ الآن } وبعضهم حمل عدم قبول توبتهم على أنهم ماتوا على الكفر
وإلى هذا المعنى اتجه صاحب الكشاف فقد قال . فإن قلت : قد علم أن المرتد ،
كيفما ازداد كفرا فإنه مقبول التوبة إذا تاب فما معنى { لّن تُقْبَلَ
تَوْبَتُهُمْ } ؟ قلت : جعلت عبارة عن الموت على الكفر ، لأن الذى لا تقبل
توبته من الكفار هو الذى يموت على الكفر . كأنه قيل إن اليهود أو المرتدين
الذين فعلوا ما فعلوا مائتون على الكفر ، داخلون فى جملة من لا تقبل توبتهم
فإن قلت : فأى فائدة فى هذه الكناية؟ أعنى أن كنى الموت على الكفر بامتناع.
قبول التوبة؟ .قلت : الفائدة فيها جليلة وهى التغليظ فى شأن أولئك الفريق
من الكفار ، وإبراز حالهم فى صورة حالة الآيسين من الرحمى التى هى أغلظ
الأحوال وأشدها ألا ترى أن الموت على الكفر إنما يخاف من أجل اليأس من
الرحمة " .والذى يبدو لنا أن الآية الكريمة أشد ما تكون انطباقا على أولئك
الذين تتكرر منهم الردة من الإيمان إلى الكفر فهم لفساد قلوبهم ، وانطماس
بصيرتهم واستيلاء الأهواء والمطامع على نفوسهم أصبح الإيمان لا استقرار له
، في قلوبهم بل يتلاعبون به ، ويبيعونه نظير عرض قليل من أعراض الدنيا
وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - فى سورة النساء{ إِنّ الذين آمَنُواْ
ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ازدادوا كُفْراً
{ لَّمْ يَكُنِ الله لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً
وقوله { وأولئك هُمُ الضآلون } أى الكاملون في الضلال ، البعيدون عن طريق
. الحق ، المستحقون لسخط الله وعذابه

ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من احدهم ملء الارض ذهبا ولو افتدى به اولئك لهم عذاب اليم وما لهم من ناصرين

كما فسرها الوسيط ثم صرح - سبحانه - ببيان عاقبة الذين يموتون على الكفر
فقال - تعالى - : { إِنّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ
أى استمروا على كفرهم وضلالهم حتى ماتوا على هذا الكفر والضلال فكأن. {
الآيات الكريمة قد ذكرت لنا ثلاث أصناف من الكافرين : قسم كان كافرا ثم تاب
عن كفره توبة صادقة بأن آمن وعمل صالحا فقبل الله توبته . وهذا القسم هو
الذى استثناه الله بقوله { إِلاّ الذين تَابُواْ مِن بَعْدِ ذلك
وَأَصْلَحُواْ فَإِنّ الله غَفُورٌ رّحِيمٌ } وقسم كان كافراً ثم تاب عن
كفره توبة ليست صادقة ، فلم يقبلها الله - تعالى - منه .وهو الذى قال الله
فى شأنه فى الآية السابقة { إِنّ الذين كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ
{ ثُمّ ازدادوا كُفْراً لّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وأولئك هُمُ الضآلون
، وقسم كان كافراً واستمر على كفره حتى مات عليه دون أن تحدث منه أية توبة.
وهو الذى أخبر عنه - سبحانه - فى هذه الآية بقوله : { إِنّ الَّذِينَ

كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ } .أى ماتوا على كفرهم دون أن يتوبوا
منه . وقد بين الله - تعالى - سوء مصيرهم بقوله : { فَلَن يُقْبَلَ مِنْ
أَحَدِهِم مِّلْءُ الأرض ذَهَباً وَلَوِ افتدى بِهِ } .أى أن هؤلاء الذين
ماتوا على الكفر دون أن يتوبوا منه . لن يقبل الله - تعالى - من أحدهم ما
كان قد أنفقه فى الدنيا ولو كان هذا المنفق ملء الأرض ذهبا ، لأن كفره قد
أحبط أعماله وأفسدها كما قال - تعالى - { وَقَدِمْنَآ إلى مَا عَمِلُواْ
مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مّنثُوراً } وكذلك لن يقبل الله -
تعالى - عن أحدهم فدية عن عقابه الشديد له بسبب موته على الكفر . ولو كان
ما يفتدى به نفسه ملء الأرض ذهباً ، لأن الله - تعالى - غنى عنه وعن
فديته - مهما عظمت - وسيعاقبه على كفره بما يستحق من عقاب .قال ابن كثير
: قوله - تعالى - { فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأرض ذَهَباً
وَلَوِ افتدى بِهِ } .أى من مات على الكفر فلن يقبل منه خير أبدا ولو كان
قد أنفق ملء الأرض ذهبا فيما يراه قربة كما سئل النبى صلى الله عليه وسلم
عن عبد الله بن جدعان - وكان يقرى الضيف ، ويفك العانى ، ويطعم الطعام - هل
ينفعه ذلك؟ فقال : "لا ، إنه لم يقل يوما من الدهر رب اغفر لى خطيئتى يوم
الدين " وكذلك لو افتدى - نفسه فى الآخرة - بملء الأرض ايضاً ذهباً ما قبل
منه ، كما قال - تعالى -{ وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا
شَفَاعَةٌ } وقال - تعالى - { إِنَّ الذين كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُمْ
مَّا فِي الأرض جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُواْ بِهِ مِنْ
عَذَابِ يَوْمِ القيامة مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ }
ثم قال : وروى الشيخان والإمام أحمد عن أنس بن مالك أن النبى صلى الله عليه
وسلم قال : " يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة أرأيت لو كان لك ما على
الأرض من شىء أكنت مفتديا به؟ قال : فيقول نعم ، فيقول الله له ، قد أردت
منك أهون من ذلك ، قد أخذت عليك فى ظهر أبيك آدم أن لا تشرك بى شيئا فأبيت
إلا أن تشرك " .وفى رواية للإمام أحمد عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم : " يؤتى بالرجل من أهل الجنة فيقول الله له : يا ابن آدم كيف
وجدت منزلك؟ فيقول : أى رب ، خير منزل . فيقول الله - تعالى - له : سل وتمن
فيقول : ما أسأل ولا أتمنى إلا أن تردنى إلى الدنيا فأقتل فى سبيلك عشر ،
مرار - لما يرى من فضل الشهادة - ويؤتى بالرجل ن أهل النار فيقول له : كيف
وجدت منزلك؟ فيقول : أى رب! شر منزل ، فيقول له : أتفتدى منه بطلاع الأرض
ذهبا؟ فيقول أى رب! نعم فيقول : كذبت! قد سألتك أقل من ذلك وأيسر فلم تفعل
فيرد إلى النار " .وقال صاحب الكشاف : فإن قلت : فلم قيل فى الآية السابقة
بغير فاء . وقيل هنا { فَلَن يُقْبَلَ مِنْ { لّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ }
أَحَدِهِم } بوجود الفاء -؟ قلت : قد أوذن بالفاء أن الكلام بنى على الشرط
والجزاء ، وأن سبب امتناع قبول الفدية هو الموت على الكفر ، وبترك الفاء أن
الكلام متبدأ وخبر ولا دليل فيه على التسبيب ، كما تقول : الذى جاءنى له
" درهم ، لم تجعل المجىء سببا فى استحقاق الدرهم ، بخلاف قولك : فله درهم
وقوله { ذَهَباً } منصوب على أنه تمييز .وعبر بالذهب لأنه أنفس الأشياء.
وأعزها على النفس .وقوله { وَلَوِ افتدى بِهِ } جملة حالية ، والواو للحال
أى لا يقبل من الذى مات على كفره هذا الفداء ولو فى حال افتراض تحقق هذا .
الفداء فى يده وتقديمه إياه لكى يدفعه لخالقه وينجو من العقوبة الى توعده
بها .أى أن العذاب الأليم نازل قطعا على هذا الذى مات على كفره ، حتى ولو
فرضنا أنه تصدق فى الدنيا بملء الأرض ذهبا . وحتى لو فرضنا أنه ملك هذا
، المقدار النفيس الكثير من الأموال فى الآخرة وقدمه فدية لنفسه من العذاب
فإن كل ذلك غير مقبول منه ، ولا بد من نزول العذاب به .وقد أشار ابن المنير
إلى هذا المعنى بقوله : " قبول الفدية التى هى ملء الأرض ذهبا يكون على
أحوال : منها : أن يؤخذ منه على وجه القهر فدية من نفسه كما تؤخذ الدية
قهرا من مال القاتل على قول . ومنها أن يقول المفتدى فى التقدير : أفدى
نفسى بكذا وقد لا يفعل . ومنها أن يقول هذا القول وينجز المقدار الذى يفدى
. به نفسه ويجعله حاضرا عتيدا ، وقد يسلمه مثلا لمن يأمن منه قبول فديته
وإذا تعددت الأحوال فالمراد من الآية أبلغ الأحوال وأجدرها بالقبول ، وهو
أن يفتدى بملء الأرض ذهبا افتداء محققا بأن يقدر على هذا الأمر العظيم
ويسلمه وينجزه اختيارا ومع ذلك لا يقبل منه ، فمجرد قوله أبذل المال وأقدر
عليه أو ما يجرى هذا المجرى بطريق الأولى . فيكون دخول الواو والحالة
المذكورة . وهذا كله تسجيل بأنه لا محيص ولا مخلص لهم من العذاب ، وإلا فمن
المعلوم أنهم أعجز عن الفلس فى ذلك اليوم ، ونظير هذا التقدير من الأمثلة
أن يقول القائل :لا أبيعك هذا الثوب بألف دينار ولو سلمتها إلى فى يدى هذه
ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : { أولئك لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا. "
لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ } .أى أولئك الذين ماتوا على كفرهم لهم عذاب أليم
وما لهم من ناصرين ينصرونهم بدفع العذاب عنهم ، أو تخفيف وقعه عليهم .ومن ،
مزيدة لاستغراق النفى وتأكيده ، أى لا يوجد أحد كائناً من كان ينقذهم من
عذاب الله ، أو يجيرهم من أليم عقابه .وبذلك نرى أن الآيتين الكريمتين قد
توعدتا الكافرين بأشد ألوان العذاب ، وأقسى أنواع العقاب ، حتى يقلعوا عن
. كفرهم ، ويثوبوا إلى رشدهم

لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شيء فان الله به عليم

، كما فسرها الوسيط وبعد هذا الحديث المشتمل على أشد صنوف الترهيب من الكفر
وعلى بيان سوء عاقبة الكافرين ، أتبعه بالحديث عن الطريق الذي يوصل
المؤمنين إلى رضا الله وحسن مثوبته فقال - تعالى - : { لَن تَنَالُواْ البر
حتى تُنْفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ
. الله بِهِ عَلِيمٌ } .تنالوا : من النيل وهو إصابة الشىء والحصول عليه
يقال نال ينال نيلا ، إذا أصاب الشىء ووجده وحصل عليه .والبر : الإحسان
وكمال الخير . وأصله التوسع فى فعل الخير . يقال : بر العبد ربه أى توسع فى
طاعته .والإنفاق البذل ، ومنه إنفاق المار . وعن الحسن : كل شىء أنفقه
المسلم من ماله يبتغى به وجه الله ويطلب ثوابه حتى التمرة يدخل فى هذه
الآية .والمعنى : لن تنالوا حقيقة البر ، ولن تبلغوا ثوابه الجزيل الذى
يوصلكم إلى رضا الله ، وإلى جنته التى أعدها لعباده الصالحين ، إلا إذا
بذلتم مما تحبونه وتؤثرونه من الأموال وغيرها فى سبيل الله ، وما تنفقوا من
شىء - ولو قليلا - فإن الله به عليم ، وسيجازيكم عليه بأكثر مما أنفقتم
وبذلتم .ولقد حكى لنا التاريخ كثيرا من صور البذل والإنفاق التى قام بها
السلف الصالح من أجل رضا الله وإعلاء كلمته ، ومن ذلك ما رواه الشيخان عن
أنس بن مالك قال : كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالا من نخل ، وكان
أحب أمواله إليه بير حاء - موضع بالمدينة - وكانت مستقبلة المسجد ، وكان
" : رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء طيب فيها . قال أنس
فلما أنزلت هذه الآية : لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون . . . ، قام
أبو طلحة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إن
الله - تعالى - يقول في كتابه { لَن تَنَالُواْ البر حتى تُنْفِقُواْ
- مِمَّا تُحِبُّونَ } وإن أحب أموالى إلى بير حاء ، وإنها صدقة لله
تعالى - أرجو برها وذخرها عند الله ، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بخ بخ - كلمة استحسان ومدح - ذلك مال.
رابح - أى ذو ربح - ذلك مال رباح . وقد سمعت ما قلت . وإنى أرى أن تجعلها
فى الأقربين . قال أبو طلحة : أفعل يا رسول الله . فقسمها أبو طلحة فى
أقاربه وبنى عمه " .قال القرطبى : " وكذلك فعل زيد بن حارثة ، عمد مما يحب
إلى فرس له يقال له " سَبل " وقال : اللهم إنك تعلم أنه ليس لى مال أحب إلى
من فرسى هذه ، فجاء بها إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : هذا في سبيل
الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأسامة بن زيد : أقبضه ، فكأن
زيدا وجد من ذلك فى نفسه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الله قد
قبلها منك " " .وأعتق عبد الله بن عمر نافعاً مولاه ، وكان أعطاه فيه عبد
- الله بن جعفر ألف دينار ، قالت صفية بنت أبى عبيد : أظنه تأول قول الله
تعالى - { لَن تَنَالُواْ البر حتى تُنْفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ } .وقال
الحسن البصرى : إنكم لن تنالوا ما تحبون إلا بترك ما تشتهون ، ولا تدركون
ما تؤملون إلا بالصبر على ما تكرهون .وهكذا نرى أن السلف الصالح قد قدموا
ما يحبون من أموالهم وغيرها تقربا إلى الله - تعالى - وشكراً له على نعمائه
وعطائه ، فرضى الله عنهم وأرضاهم .ثم عاد القرآن الكريم إلى الرد على
اليهود الذين جادلوا النبى صلى الله عليه وسلم فى كثير من القضايا ، بعد أن
ذكر فى الآيات السابقة طرفا من مسالكهم الخبيثة التى منها تواصيهم فيما
بينهم بأن يؤمنوا أول النهار ويكفروا آخره ، وقد حكى هنا جدلهم فيما أحله
. الله وحرمه من الأطعمة فقال - تعالى - : { كُلُّ الطعام . . . }

كل الطعام كان حلا لبني اسرائيل الا ما حرم اسرائيل على نفسه من قبل ان
تنزل التوراة قل فاتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين

" كما فسرها الوسيط ذكر بعض المفسرين أن النبى صلى الله عليه وسلم قال
لليهود فى معرض مناقشته لهم : أنا على ملة إبراهيم . فقال بعض اليهود : كيف
، تدعى ذلك وأنت تأكل لحوم الإبل وألبانها؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم
كان ذلك حلالا لإبراهيم فنحن نحله . فقالوا : كل شىء أصبحنا اليوم نحرمه
فإنه كان محرما على نوح وإبراهيم حتى انتهى إلينا ، فأنزل الله هذه الآيات
تكذيبا لهم " .والطعام : مصدر بمعنى المطعوم ، والمراد به هنا كل ما يطعم
ويؤكل .وحلا : مصدر أيضاً بمعنى حلالا ، والمراد الإخبار عن أكل الطعام
بكونه حلالا ، لا نفس الطعام ، لان الحل كالحرمة مما لا يتعلق بالذوات
- وإسرائيل : هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام.
والمعنى : كل أنواع الأطعمة كانت حلالا لبنى إسرائيل قبل نزول التوراة إلا.
شيئا واحدا كان محرما عليهم قبل نزولها وهو ما حرمه أبوهم إسرائيل على نفسه
فإنهم حرموه على أنفسهم اقتداء به ، فلما أنزل الله التوراة حرم عليهم ،
فيها بعض الطيبات بسبب بغيهم وظلمهم .هذا هو الحق الذى لا شك فيه ، فإن
جادلوك يا محمد فى هذه المسألة فقل لهم على سبيل التحدى : أحضروا التوراة
فاقرءوها ليتبين الصادق منا من الكاذب ، إن كنتم صادقين فى زعمكم أن ما

حرمه الله عليكم فيها كان محرما على نوح وإبراهيم - عليهما الصلاة والسلام - .فالآية الكريمة قد تضمنت أموراً من أهمها :أولاً : إبطال حجتهم فيما يتعلق بقضية النسخ ، إذ زعموا أن النسخ محال ، واتخذوا من كون النسخ مشروعا في الإسلام ذريعة للطعن فى نبوة النبى صلى الله عليه وسلم فدحض : القرآن مدعاهم وألزمهم الحجة عن طريق كتابهم .ولذا قال الإمام ابن كثير الآية مشروع فى الرد على اليهود ، وبيان بأن النسخ الذى أنكروا وقوعه - وجوازه قد وقع ، فإن الله - تعالى - قد نص فى كتابهم التوراة أن نوحا عليه السلام - لما خرج من السفينة أباح الله له جميع دواب الأرض يأكل منها ثم بعد هذا حرم إسرائيل على نفسه لحوم الإبل وألبانها فاتبعه بنوه فيما ، - حرم على نفسه ، وجاءت التوراة بتحريم ذلك ، وبتحريم أشياء زيادة على ذلك عقوبة لهم بسبب بغيهم وظلمهم . وهذا هو النسخ بعينه " .وقد صرح ابن كثير ، وغيره من المفسرين أن ما حرمه إسرائيل على نفسه هو لحوم الإبل وألبانها وبذلك جاءت بعض الروايات عن النبى صلى الله عليه وسلم وكان تحريمه لها تعبدا وزهادة وقهرا للنفس طلبا لمرضاة الله - تعالى - .وقيل إن ما حرمه على نفسه هو العروق . روى ذلك عن ابن عباس والضحاك والسدى موقوفا عليهم .قالوا كان يعتريه عرق النسا وهو عرق يخرج من الورك فيستبطن الفخذين ويسبب آلاما : شديدة - فنذر إن عوفى منه لا يأكل عرقا ، فلما شفاه الله ترك كل العروق وفاء بنذره .ثانيا : تضمنت أيضا تكذيبهم فى دعواهم أن ما حرم عليهم لم يكن سبب تحريمه ظلمهم أو بغيهم ، وإنما كان محرما على غيرهم ممن سبقهم من الأمم - وقد وضح هذا المعنى صاحب الكشاف فقال : " وهو - أى ما اشتملت عليه الآية. رد على اليهود وتكذيب لهم ، حيث أرادوا براءة ساحتهم مما نعى عليهم فى قوله - تعالى - { فَبِظُلْمٍ مِّنَ الذين هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ } وحيث أرادوا جحود ما غاظهم بسبب ما نطق به القرآن من أن تحريم الطيبات عليهم كان لأجل بغيهم وظلمهم فقالوا : لسنا بأول من حرمت عليه هذه الأشياء ، وما هو إلا تحريم قديم ، كانت محرمة على نوح وإبراهيم ومن بعده من بنى إسرائيل وهلم جرا ، إلى أن انتهى التحريم إلينا ، فحرمت علينا كما حرمت على من قبلنا .وغرضهم تكذيب شهادة الله عليهم بالبغى والظلم والصد عن سبيل الله وأكل الربا . وما عدد من مساويهم التى " كلما ارتكبوا منها كبيرة حرم الله عليهم نوعا من الطيبات عقوبة لهم ثالثا : تضمنت الآية كذلك أمراً من الله - تعالى - لنبيه صلى الله عليه. وسلم بأن يتحداهم بالتوراة ويبكتهم بما نطقت به ، وذلك بقوله - تعالى - فى الآية الكريمة { قُلْ فَأْتُواْ بالتوراة فاتلوها إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ } فكأنه - سبحانه - يقول لهم : ما دمتم - يا معشر اليهود - قد زعمتم أن ما. حرم عليكم بسبب بغيكم وظلمكم ليس تحريما حادثا ، وإنما هو تحريم قديم على الأمم قبلكم ، فها هى ذى التوراة قريبة منكم فأحضروها واتلوها بإمعان وتدبر إن كنتم صادقين فى مدعاكم .والتعبير ب " إن " يشير إلى عدم صدقهم ، لأنها تدل على الشك فى الشرط .أى : هم ليسوا صادقين فيما يزعمون ، ولذلك لا يتلون ولا يقرؤون ، ولو جاءوا بها لكانت مؤيدة لما أخبر به القرآن الكريم ، ولذلك لم يجسروا على إخراج التوراة ، وبهتوا وانقلبوا صاغرين . وفى ذلك الحجة البينة على صدق النبى صلى الله عليه وسلم .وقوله { إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ على نَفْسِهِ } مستثنى من اسم كان ، والتقدير : كل الطعام كان حلالا لبنى إسرائيل إلا ما حرم نفسه فإنه قد حرم عليهم فى التوراة ، وليس منه ما زادوه من محرمات وادعوا صحة ذلك .

فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فاولئك هم الظالمون

} : كما فسرها الوسيط ثم توعدهم - سبحانه - على كذبهم وجحودهم فقال - تعالى { فَمَنِ افترى عَلَى الله الكذب مِن بَعْدِ ذَلِكَ فأولئك هُمُ الظالمون افترى : من الافتراء وهو اختلاق الكذب ، وأصلى من فرى الأيم إذا قطعه؛ لأن. الكاذب يقطع القول من غير حقيقة له فى الوجود .أى : فمن تعمد الكذب على الله - تعالى - بأن زعم بأن ما حرمته التوراة على بنى إسرائيل من المطاعم بسبب ظلمهم وبغيهم ، كان محرما عليهم وعلى غيرهم قبل نزولها ، فأولئك الذين قالوا هذا القول الكاذب هم المتناهون فى الظلم : المتجاوزون للحدود التى شرعها الله - تعالى - ، وسيعاقبهم - سبحانه - على هذا الظلم والافتراء عذابا أليما لا مهرب لهم منه ولا نصير .والفاء فى قوله { مَنِ } يحتمل أن تكون شرطية وأن تكون موصولة ، وقد روعى فى الآية الكريمة لفظها ومعناها وقوله { مِن بَعْدِ ذَلِكَ } متعلق بافترى ، واسم الإشارة ذلك يعود إلى. أمرهم بإحضار التوراة وما يترتب عليه من قيام الحجة وظهور البينة .واسم الإشارة " أولئك " يعود إلى " من " وهو عبارة عن هؤلاء اليهود الذين جادلوا النبى صلى الله عليه وسلم بالباطل وافتروا على الله الكذب .ويحتمل أن يكون المشار إليه وهو { مَنِ } عاما لكل كاذب ويدخل فيه اليهود دخولا أوليا .وقد ، أكد الله - تعالى - وصفهم بالظلم بضمير الفصل الدال على أنهم كاملون فيه وموغلون فى اقترافه والتمسك به .

قل صدق الله فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين

كما فسرها الوسيط ثم أمر الله - تعالى - نبيه صلى الله عليه وسلم أن يدعوهم إلى اتباع ملة إبراهيم إن كانوا حقا يريدون اتباعها فقال - تعالى - : { قُلْ صَدَقَ الله فاتبعوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً } أي : قل - يا محمد - لهؤلاء اليهود الذين جادلوك بالباطل ولكل من كان على شاكلتهم فى الكذب والظلم ، قل لهم جميعا : صدق الله فيما أخبرنا به فى قوله - تعالى - : كُلُّ الطعام كَانَ حِلاًّ لبني إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ على نَفْسِهِ } وفى كل ما أخبرنا به فى كتابه وعلى لسان رسوله وأنتم الكاذبون فى دعواكم .وإذا كنتم تريدون الوصول إلى الطريق القويم . حقا { فاتبعوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً } أى فاتبعوا ملة الإسلام التى عليها محمد صلى الله عليه وسلم وعليها من آمن به ، فهم المتبعون حقا لإبراهيم - عليه السلام - وهم أولى الناس به ، لأن إبراهيم ما كان يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما .أى كان متجها إلى الحق لا ينحرف عنه إلى غيره من الأديان أو الأقوال أو الأفعال الباطلة .وكان مسلما ، أى كان مسلما وجهه لله ، مفردا إياه بالعبادة والطاعة والخضوع ثم نفى الله - تعالى - عن إبراهيم كل لون من ألوان الشرك بأبلغ وجه فقال { وَمَا كَانَ مِنَ المشركين } أى ما كان إبراهيم فى أى أمر من أموره من الذين يشركون مع الله آلهة. أخرى ، وإنما كان مخلصا عبادته لله وحده .وفى ذلك تعريض بشرك اليهود وغيرهم من أهل الكفر والضلال ، وتنبيه إلى أن النبى صلى الله عليه وسلم وأتباعه هم المتبعون حقا لإبراهيم ، فقد أمر الله - محمداً صلى الله عليه وسلم أن يسير على طريقة أبيه إبراهيم فقال :{ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ اتبع مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ المشركين } وبذلك نرى أن الآيات الكريمة قد حكت قضية من القضايا الكثيرة التى جادل اليهود فيها النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد لقنت الآيات النبى صلى الله عليه وسلم الجواب الذى يخرس ألسنتهم ، ويكشف عن كذبهم وافترائهم وظلمهم ، ويرشدهم ويرشد كل من يتأتى له الخطاب إلى الملة القويمة إن كانوا حقاً يريدون الاهتداء إلى الصراط المستقيم .ثم أخبر القرآن عن مسألة أخرى جادل اليهود فيها النبى صلى الله عليه وسلم وهى مسألة أفضلية المسجد الحرام على غيره من المساجد ، وقد رد القرآن عليهم وعلى أمثالهم فى الكفر والعناد بما يثبت أن المسجد الحرام الذى نازعوا فى أفضليته هو أفضل المساجد على الإطلاق فقال تعالى : { إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ . . . } .

ان اول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين

كما فسرها الوسيط قال الفخر الرازى ما ملخصه : فى اتصال هاتين الآيتين بما قبلهما وجوه :الأول : أن المراد منهما الجواب عن شبهة أخرى من شبهات اليهود فى إنكار نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وذلك لأنه لما حولت القبلة إلى الكعبة طعن اليهود فى نبوته وقالوا : إن بيت المقدس أفضل من الكعبة وأحق بالاستقبال ، وذلك لأنه وضع قبل الكعبة وهو أرض الحشر ، وقبلة جملة الأنبياء ، وإذا كان كذلك كان تحويل القبلة إلى الكعبة باطلا ، فأجاب الله عنه بقوله : { إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ } فبين - سبحانه - أن الكعبة أفضل من بيت المقدس وأشرف فكان جعلها قبلة أولى والمراد بالأولية أنه أول بيت وضعه الله لعبادته في الأرض ، وقيل المراد. " بها كونه أولا فى الوضع وفى البناء ، ورووا فى ذلك آثارا ليس فيها ما يعتمد عليه .وبكة : لغة فى مكة عند الأكثرين ، والباء والميم تعقب إحداهما الأخرى كثيراً ، ومنه النميط والنبيط فهما اسم لموضع . وقيل هما متغايران : فبكة موضع المسجد ومكة اسم البلد بأسرها . وأصل كلمة بكة من البك وهو الازدحام . يقال تباك القوم إذا تزاحموا ، وكأنها سميت بذلك لازدحام الحجيج فيها . والبك أيضاً دق العنق ، وكأنها سميت بكة لأن الجبابرة تندق أعناقهم إذا أرادوها بسوء . وقيل إنها مأخوذة من بكأت الناقة أو الشاة إذا قل لبنها ، وكأنها إنما سميت بذلك لقلة مائها وخصبها .والمعنى : إن أول بيت وضعه الله - تعالى - للناس فى الأرض ليكون متعبداً لهم ، هو البيت الحرام الذى بمكة ، حيث يزدحم الناس أثناء طوافهم حوله ، وقد أتوا إليه رجالا وعلى كل ضامر من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم .روى الشيخان عن أبى ذر قال : " قلت يا رسول الله : أي مسجد وضع فى الأرض أول؟ قال : المسجد الحرام . قلت : ثم : أي؟ قال المسجد الأقصى . قلت : كم بينهما؟ قال : أربعون سنة ، ثم قال حيثما أدركتك الصلاة فصل . والأرض لك مسجد " .قالوا : وقد أشكل هذا الحديث على من لم يعرف المراد منه فقال : معلوم أن سليمان بن داود هو الذى بنى المسجد الأقصى ، والذى بنى المسجد الحرام هو إبراهيم وابنه إسماعيل وبينهما وبين سليمان أكثر من ألف سنة فيكف قال صلى الله عليه وسلم : إن بين بناء المسجدين أربعين سنة!والجواب أن الوضع غير البناء ، فالذى أسس المسجد الأقصى ووضعه فى الأرض بأمر الله سيدنا يعقوبن بن إسحاق بن إبراهيم ويعقوب هذه المدة التى جاءت في الحديث ، أما سليمان فلم يكن مؤسساً للمسجد الأقصى

أو واضعاً له وإنما كان مجددا فلا إشكال ولا منافاة .وإذن فالبيت الحرام
أسبق بناء من المسجد الأقصى ، وأجمع منه للديانات السماوية ، وهو - أى
البيت الحرام - أول بيت جعل الله الحج إليه عبادة مفروضة على كل قادر على
الحج ، وجعل الطوف حوله عبادة ، وتقبيل الحجر الأسود الذى هو ضمن بنائه
عبادة .. . ولا يوجد بيت سواه فى الأرض له من المزايا والخصائص ما لهذا
البيت الحرام .وبذلك ثبت كذب اليهود فى دعواهم أن المسجد الأقصى أفضل من
المسجد الحرام ، وأن فى تحول الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة فى
صلاته مخالفة للأنبياء قبله .ثم مدح الله - تعالى - بيته بكونه { مُبَارَكاً }
أى كثير الخير دائمه ، من البركة وهى النماء والزيادة والدوام
أى أن هذا البيت كثير الخير والنفع لمن حجه أو اعتمره أو اعتكف فيه ، أو.
طاف حوله ، بسبب مضاعفة الأجر ، وإجابة الدعاء ، وتكفير الخطايا لمن قصده
بإيمان وإخلاص وطاعة لله رب العالمين .وإن هذا البيت فى الوقت ذاته وفير
البركات المادية والمعنوية .فمن بركاته المادية : قدوم الناس إليه من مشارق
الإرض ومغاربها ومعهم خيرات الأرض ، يقدمونها على سبيل تبادل المنفعة تارة
وعلى سبيل الصدقة تارة أخرى لمن يسكنون حول هذا البيت الحرام ، إجابة لدعوة
سيدنا إبراهيم حيث قال : { رَّبَّنَآ إني أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي
بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ المحرم رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ
الصلاة فاجعل أَفْئِدَةً مِّنَ الناس تهوي إِلَيْهِمْ وارزقهم مِّنَ
الثمرات لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ } ومن بركاته المعنوية : أنه مكان لأكبر
عبادة جامعة للمسلمين وهى فريضة الحج ، وإليه يتجه المسلمون فى صلاتهم على
اختلاف أجناسهم وألوانهم وأماكنهم .وقوله { مُبَارَكاً } حال من الضمير فى
وضع " .ثم مدحه بأنه { هُدًى لِّلْعَالَمِينَ } أي بذاته مصدر هداية "
للعالمين ، لأنه قبلتهم ومتعبدهم ، وفى استقباله توجيه للقلوب والعقول إلى
الخير وإلى ما يوصلهم إلى رضا الله وجنته .ثم مدحه - ثالثا - بقوله : {
فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ } أى فيه علامات ظاهرات ، ودلائل واضحات تدل على
شرف منزلته ، وعلو مكانته .وهذه الجملة الكريمة مستأنفة لبيان وتفسير بركته
وهداه .

فيه ايات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان امنا ولله على الناس حج البيت من
استطاع اليه سبيلا ومن كفر فان الله غني عن العالمين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعض هذه الآيات البينات الدالة على
عظمه وشرفه فقال : { مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً }
فالآية الأولى الدالة على عظم وشرف البيت الحرام { مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ.
أى المقام المعروف بهذا الاسم . وهو الموضع الذى كان يقوم فيه إبراهيم {
تجاه الكعبة لعبادة الله - تعالى - ولإتمام بناء الكعبة ومعنى أن فى البيت
مقام إبراهيم أى أنه فى فنائه ومتصل به .قال ابن كثير : عن جابر - رضى الله
عنه - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رمل ثلاثة أشواط ومشى أربعا حتى إذا
فرغ عمد إلى مقام إبراهيم فصلى خلفه ركعتين ، ثم قرأ { واتخذوا مِن
مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى } فجعل المقام بينه وبين البيت فصلى ركعتين
، والمراد بالمقام إنما هو الحجر الذى كان إبراهيم يقوم عليه لبناء الكعبة.
لما ارتفع الجدار أتاه إسماعيل بهذا الحجر ليقوم فوقه ويناوله الحجارة
فيضعها بيده لرفع الجدار . . .ثم قال : وقد كان هذا المقام ملصقا بجدار
الكعبة قديما . ومكانه معروف اليوم إلى جانب الباب مما يلى الحجر يمنة
الداخل من الباب في البقعة المستقلة هناك . وإنما أخره عن جدار الكعبة أمير
المؤمنين عمر بن الخطاب إلى ناحية المشرق حيث هو الآن . ليتمكن الطائفون من
الطواف ، وليصلى المصلون عنده دون تشويش عليهم من الطائفين .وقوله : {
مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ } مبتدأ محذوف الخبر أى مقام إبراهيم منها أى من هذه
الآيات البينات . أو خبر لمبتدأ محذوف أى فيه آيات بينات أحدها مقام
إبراهيم .وقد رجح ابن جرير أن قوله - تعالى - { مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ } هو
بعض الآيات البينات التى فى البيت الحرام فقال : وأولى الأقوال فى تأويل
ذلك بالصواب قول من قال : الآيات البينات منهن مقام إبراهيم . وهو قول
قتادة ومجاهد الذى رواه معمر عنهما فيكون الكلام مرادا فيه منهن فترك ذكره
اكتفاء بدلالة الكلام عليها . فإن قال القائل : فهذا المقام من الآيات
البينات فما سائر الآيات التى من أجلها قيل { آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ } ؟ قيل :
منهن المقام ، ومنهن الحجر ، ومنهن الحطيم " .وقال ابن عطية : والراجح عندى
أن المقام وآمن الداخلين جعلا مثالا لما فى حرم الله من الآيات ، وخصا
بالذكر لعظمهما وأنهما تقوم بهما الحجة على الكفار ، إذ هم مدركون لهاتين
الآيتين بحواسهم .وأما الآية الثانية التى تدل على فضل هذا البيت وشرفه فقد
بينها القرآن بقوله : { وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً } .أى من التجأ إليه
أمن من التعرض له بالأذى أو القتل قال - تعالى - : { أَوَلَمْ يَرَوْاْ
أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ الناس مِنْ حَوْلِهِمْ }
وفي ذلك إجابة لسيدنا إبراهيم حيث قال - كما حكى القرآن عنه - : { رَبِّ
اجعل هذا البلد آمِناً واجنبني وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأصنام } ولا شك

أن فى أمن من دخل هذا البيت أكبر آية على تعظيمه وعلى علو مكانته عند الله؛ لأنه موضع أمان الناس فى بيئة تغرى بالاعتداء لخلوها من الزرع والنبات .وفى الصحيحين - واللفظ لمسلم - عن أبى شريح العدوى أنه قال لعمرو بن سعيد وهو يبعث البعوث لمكة - يعنى لقتال عبد الله بن الزبير - : ائذن لى أيها الأمير - ، أن أحدثك قولا قال به رسول الله صلى الله عليه وسلم الغد من يوم الفتح سمعته أذناى ووعاه قلبى ، وأبصرته عيناى - حين تكلم به - : إنه حمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس ، فلا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دما أو يعضد بها شجرة ، فإن أحد ترخص بقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها - أى أخذ فيه بالرخصة - فقولوا له إن الله أذن لنبيه ولم يأذن لكم ، وإنما أذن لى فيها ساعة من نهار ، وقد : عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، فليبلغ الشاهد الغائب .فقيل لأبى شريح . ما قال لك عمرو؟ فقال أبو شريح : قال لى يا أبا شريح أنا أعلم بذلك منك : إن الحرم لا يعيذ عاصيا - أى لا يجيره ولا يعصم دمه - ولا فاراً بدم - أى أن الحرم لا يجير إنساناً هارباً إليه لسبب من الأسباب الموجبة للتقل - ولا فاراً بخربة - أى بسبب سرقة أو خيانة .ولقد كان أهل الجاهلية يعظمون المسجد ، الحرام - وخصوصا أهل مكة - فلما جاء الإسلام أقر له هذه الميزة وزكاها ووضع لها الضوابط والأحكام التى تضمن استعمالها فى الوجوه التى شرعها الله فقد اتفق الفقهاء على أن من جنى فى الحرم جناية فهو مأخوذ بجنايته سواء. أكانت فى النفس أم فيما دونها .واختلفوا فيمن جنى فى غير الحرم ثم لاذ إليه فقال أبو حنيفة وابن حنبل : إذا قتل فى غير الحرم ثم دخل الحرم لا يقتص . منه ما دام فيه ، ولكن لا يجالس ولا يعامل ولا يؤاكل غلى أن يخرج منه فيقتص منه . وإن كانت جنايته فيما دون النفس فى غير الحرم ثم دخل الحرم اقتص منه . وقال مالك والشافعي يقتص منه فى الحرم لذلك كله كما يقتص منه فى الحل. ولكل فريق أدلته المبسوطة فى كتب الفقه .ثم أخبر - سبحانه - عن وجوب الحج على كل قادر عليه فقال : { وَلِلَّهِ عَلَى الناس حِجُّ البيت مَنِ استطاع إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ العالمين } .أى أن الله - تعالى - فرض على الناس أن يحجوا بيته فى أوقات معينة وبكيفية مخصوصة متى كان فى استطاعتهم أداء هذه الفريضة .{ وَمَن كَفَرَ } أى من جحد فرضية الحج وأنكرها ، ولم يؤدها مع استطاعته وقدرته على أدائها فإن الله غنى عنه وعن حجه وعن الناس جميعاً .قال صاحب الكشاف : وفى هذا الكلام أنواع من التأكيد والتشديد منها قوله : { وَلِلَّهِ عَلَى الناس حِجُّ البيت } . يعنى أنه حق واجب لله فى رقاب الناس لا ينفكون عن أدائه والخروج من عهدته ومنها أنه ذكر الناس ثم أبدل منه من استطاع إليه سبيلا وفيه ضربان من التأكيد :أحدهما : أن الإبدال تثنية للمراد وتكرير له .والثانى : إن . الإيضاح بعد الإيهام ، والتفصيل بعد الإجمال إيراد له فى صورتين مختلفتين ، ومنها قوله : { وَمَن كَفَرَ } مكان ومن لم يحج تغليظا على تارك الحج ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : " من مات ولم يحج فليمت إن شاء الله يهودياً أو نصرانياً "ومنها ذكر الاستغناء عنه ، لأن فيه الدلالة على الاستغناء عنه ببرهان ، لأنه إذا استغنى عن العالمين تناوله الاستغناء لا } : محالة ولأنه يدل على الاستغناء الكامل ، فكان أدل على عظم السخط .وقوله وَلِلَّهِ } خبر مقدم متعلق بمحذوف أى واجب . { عَلَى الناس } متعلق بهذا المحذوف . وقوله : { حِجُّ البيت } مبتدأ مؤخر .والناس عام مخصوص بالمتسطيع وقد خصص ببدل البعض فى قوله : { مَنِ استطاع إِلَيْهِ سَبِيلاً } إذ هذه ، الجملة بدل من الناس بدل البعض من الكل . والضمير فى البدل مقدر أى من استطاع منهم إليه سبيلا .و" من " فى قوله : { وَمَن كَفَرَ } يحتمل أن تكون شرطية وهو الظاهر ، وأن تكون موصولة ، وعلى الاحتمالين استغنى فيا بعد الفاء عن الرابط بإقامة الظاهر مقام المضمر إذ الأصل ومن كفر فغن الله غنى عنه فاستغنى بالظاهر عن المضمر .قال ابن كثير : والجمهور يرى أن هذه الآية هى آية وجوب الحج . وقيل بل هى آية ( وَأَتِمُّوا الحج والعمرة لِلَّهِ ) والأول أظهر . وقد وردت الأحاديث المتعددة بأنه أحد أركان الإسلام ودعائمه وقوائمه ، وأجمع المسلمون على ذلك إجماعا ضرورياً وإنما يجب على المكلف فى - العمرة مرة واحدة بالنص والإجماع فعن أبى هريرة قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم - فقال : " يا أيها الناس إن الله فرض عليكم الحج فحجوا فقال رجل : أكل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثا . فقال رسول الله . صلى الله عليه وسلم : لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم ثم قال : ذرونى ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، وإذا أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شىء فدعوه " .وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال : " قام رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما السبيل يا رسول الله ، فقال : الزاد والراحلة " .وبذلك تكون هاتان الآيتان والآيات التى قبلهما قد ردت على اليهود فى دعواهم أن ما حرمه الله عليهم من طيبات لم يكن عقوبة لهم بسبب ظلمهم وبغيهم ، وكذبتهم فى دعواهم أن بيت المقدس أفضل من المسجد الحرام .وقد اشتمل هذا الرد على ما يثبت افتراءهم من واقع التاريخ ، فقد أمر الله - تعالى - النبى صلى الله عليه وسلم أن يطالبهم بإحضار التوراة إن كانوا صادقين فى دعواهم ، فبهوتوا

وانقلبوا صاغرين ، واثبت القرآن أن البيت الحرام أول بيت وضع فى الأرض لعبادة الله ، فهو يسبق بيت المقدس فى أولوية الشرف والزمان . وإذن فجدال اليهود للنبي صلى الله عليه وسلم فى هذه الأمور ما هو إلا نوع من عنادهم وجحودهم للحق ، والمعاند والجاحد لا ينفع معهما دليل أو برهان .وبعد هذا الرد المفحم من القرآن على اليهود فى هاتين القضيتين - قضية ما حرم عليهم من الأطعمة وقضية نزاعهم فى أفضلية البيت الحرام - بعد كل ذلك ساق القرآن طرفا من مسالكهم الخبيثة لكيد الإسلام والمسلمين عن طريق محاولتهم الدس والوقيعة وإثارة الفتنة بين المؤمنين . وقد حذر الله المؤمنين من شرورهم بعد أن وبخ اليهود على مكرهم ، وتوعدهم بسوء المصير . استمع إلى القرآن وهو يسوق هذه المعانى بأسلوبه الحكيم فيقول : { قُلْ ياأهل . . . } .

قل يا اهل الكتاب لم تكفرون بايات الله والله شهيد على ما تعملون

كما فسرها الوسيط أخرج ابن جرير عن زيد بن أسلم قال : مر شاس بن قيس - وكان شيخاً قد عسا فى الجاهلية عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين ، شديد الحسد لهم - مر على نفر من الصحابة من الأوس والخزرج فى مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه ، فغاظه ما رأى من جماعتهم وألفتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام ، بعد الذى كان بينهم من العداوة فى الجاهلية . فقال : قد اجتمع ملأ بنى قيلة بهذه البلاد ، والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار . فأمر شابا ، من اليهود كان معه فقال له : أعمد إليهم فاجلس معهم ، وذكرهم يوم بعاث وما كان قبله وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار - وكان يوم بعاث يوما اقتتلت فيه الأوس والخزرج وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج - ففعل . فتكلم القوم عند ذلك فتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب : أوس بن قيظى من الأوس ، وجبار بن صخر من الخزرج . فتقاولا ثم قال أحدهما لصاحبه : إن شئتم والله ردناها الآن جذعة ، وغضب الفريقان وقالوا : قد فعلنا ، السلاح موعدكم الظاهرة - والظاهرة : الحرة - فخرجوا إليها وتحاور الناس . فانضمت الأوس بعضها إلى بعض والخزرج بعضها إلى بعض ، على دعواهم التى كانوا عليها في الجاهلية . فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه حتى جاءهم . فقال يا معشر المسلمين : الله الله أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ هداكم الله إلى الإسلام وأكرمكم به ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، وساتنقذكم به من الكفر وألف به بينكم ، فألقوا السلاح من أيديهم وبكوا ، وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضا ، ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين ، قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس بن قيس ، وما صنع فأنزل الله فى شاس بن قيس وما صنع { قُلْ ياأهل الكتاب لِمَ تَكْفُرُونَ }. الآية وأنزل فى أوس بن قيظى وجبار بن صخر ومن كان معهما من قومهما الذين صنعوا ما صنعوا { ياأيها الذين آمنوا إِن تُطِيعُواْ فَرِيقاً مِّنَ الذين أُوتُواْ الكتاب } . . . إلى قوله { وأولئك لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } - فما كان يوم أقبح أولا وأحسن آخرا من ذلك اليوم - .وقوله - تعالى - : { قُلْ - ياأهل الكتاب لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ الله } أمر من الله - تعالى - لنبيه صلى الله عليه وسلم بأن يوبخ هؤلاء اليهود ومن لف لفهم على مسالكهم الخبيثة لكيد الدعوة الإسلامية وإيذاء أتباعها ومحاولتهم صرف الناس عنها : أى : قل يا محمد لهؤلاء اليهود الذين كفروا بالحق بعد أن جاءتهم البينات. لم تعاندون الحق وتكفرون بآيات الله السمعية والعقلية الدالة على صدقى فيما أبلغه عن ربى ، والحال أن الله مطلع عليكم وعالم علم المعاين المشاهد أعمالكم الظاهرة والخفية ، وسيجازيكم عليها بما تستحقونه من عقاب أليم فالآية الكريمة قد تضمنت تأنيبهم على الكفر ، وتهديدهم بالعقاب إذا. - استمروا فى مسالكهم الأثيمة .ولكى يكون التأنيب أوجع ، أمر الله - تعالى - نبيه صلى الله عليه وسلم أن يناديهم بقوله : { ياأهل الكتاب } لأن علمهم بالكتاب يستلزم منهم الإيمان ، والإذعان للحق ، ولكنهم اتخذوا علمهم وسيلة ، للشرور والتضليل فكان مسلكهم هذا دليلاً على فساد فطرتهم ، وخبث طويتهم وسوء طباعهم .

قل يا اهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من امن تبغونها عوجا وانتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون

كما فسرها الوسيط وبعد أن أنبهم القرآن الكريم فى هذه الآيى على كفرهم وضلالهم ، أمر الله - تعالى - نبيه صلى الله عليه وسلم في آية ثانية أن يوبخهم على محاولتهم إضلال غيرهم فقال - تعالى - : { قُلْ ياأهل الكتاب لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً وَأَنْتُمْ شُهَدَآءُ } وقوله : { تَصُدُّونَ } من الصد وهو صرف الغير عن الشىء ومنعه منه . يقال : صد يصد صدودا ، وصدا .وقوله : { سَبِيلِ الله } أى طريقه الموصلة إليه وهى ملة الإسلام .وقوله : { تَبْغُونَهَا عِوَجاً } أى تطلبون العوج والميل لسبيل الله الواضحة والميل بها عن القصد والاستقامة

، وتريدون أن تكون ملتوية غير واضحة فى أعين المهتدين ، كما التوت نفوسكم ، وانحرفت عقولكم .قال صاحب الكشاف : فإن قلت كيف قال تبغونها عوجا وهو محال؟
قلت : فيه معنيان : أحدهما : أنكم تلبسون على الناس حتى توهموهم أن فيها اعوجاجا بقولكم إن شريعة موسى لا تنسخ ، وبتغييركم صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن وجهها وغير ذلك .والثانى : أنكم تتعبون أنفسكم فى إخفاء الحق ابتغاء ما لا يتأتى لكم من وجود العوج فيما هو أقوم من كل مستقيم " .وقوله { مَنْ آمَنَ } : مفعول به لتصدون . والضمير المنصوب فى قوله { تَبْغُونَهَا } يعود إلى سبيل الله أى تبغون لها فحذفت اللام كما فى قوله - تعالى - : ( وَإِذَا كَالُوهُمْ ) أى كالوا لهم . وقوله : { عِوَجاً } مفعول به لتبغون .وبعضهم جعل الضمير المنصوب فى { تَبْغُونَهَا } وهو الهاء هو المفعول . وجعل عوجا حال من سبيل الله . أى تبغونها أن تكون معوجة وتريدونها فى حال عوج واضطراب .وقوله : { وَأَنْتُمْ شُهَدَآءُ } حال من فاعل { تَصُدُّونَ } أو { تَبْغُونَ } .أى والحال أنكم تعلمون بأن سبيل الإسلام هى السبيل الحق علم من يعاين ويشاهد الشىء على حقيقته فجحودكم عن علم وكفركم ليس عن جهل ، ولقد كان المتوقع منكم يا من ترون الحق الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فى كتابكم ، أن تكونوا أول الساعين إلى الإيمان به ، ولكن الحسد والعناد حالا بينكم وبين الانتفاع بالنور الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم .وقوله : { وَمَا الله بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ } تهديد لهم ووعيد على ضلالهم ومحاولتهم إضلال غيرهم ، لأنه - سبحانه - ليس غافلا عن أعمالهم ، بل هو سيجازيهم على هذه المسالك الخبيثة بالفشل والذلة فى الدنيا ، وبالعذاب والهوان فى الآخرة ولما كان صدهم المؤمنين بطريق الخفية ختمت الآية الكريمة بما يحسم مادة حياتهم ، ببيان أن الله - تعالى - محيط بكل ما يصدر عنهم من أقوال أو أعمال وليس غافلا عنها . بخلاف الآية الأولى فقد كان كفرهم بطريق العلانية إذ ختمت ببيان أن الله مشاهد لما يعملونه ولما يجاهرون به .

يا ايها الذين امنوا ان تطيعوا فريقا من الذين اوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين

كما فسرها الوسيط وبعد أن بين - سبحانه - فى هاتين الآيتين أن اليهود قد جمعوا الخستين ضلال أنفسهم ، ثم محاولتهم تضليل غيرهم ، تركهم مؤقتا فى طغيانهم يعمهون ، ووجه نداء إلى المؤمنين يحذرهم فيه من دسائس اليهود وكيدهم ، وينهاهم عن الركون إليهم ، والاستماع إلى مكرهم فقال - تعالى - : - يأيها الذين آمنوا إِن تُطِيعُواْ فَرِيقاً مِّنَ الذين أُوتُواْ الكتاب } يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ } .والمعنى : إنكم أيها المؤمنون إن استمعتم إلى ما يلقيه بعض أهل الكتاب بينكم من دسائس ولنتم لهم لا يكتفون بإيقاع العداوة بينكم كما فى الجاهلية ، بل يتجاوزون ذلك إلى ، محاولتهم إعادتكم إلى وثنيتكم القديمة وكفركم بالله بعد إيمانكم .وقد خاطب الله المؤمنين بذاته فى هذه الآية بعد أن أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يخاطب أهل الكتاب فى الآيتين السابقتين ، إظهارا لجلالة قدرهم ، وأشعارا بأنهم الأحقاء بالمخاطبة من الله - تعالى - .وناداهم بصفة الإيمان لتحريك حرارة العقيدة فى قلوبهم وتوجيه عقولهم إلى ما يستدعيه الإيمان من فطنة ويقظة فالمؤمن ليس خبا ولكن لاخب لا يخدعه .وفى التعبير " بأن " فى قوله : إشارة إلى أن طاعتهم لليهود ليست متوقعة ، لأن { إِن تُطِيعُواْ فَرِيقاً } إيمانهم يمنعهم من ذلك .ووصف - سبحانه - الذين يحاولون الوقيعة بين المؤمنين بأنهم فريق من الذين أوتوا الكتاب ، إنصافا لمن لم يفعل ذلك منهم ونعتهم بأنهم { أُوتُواْ الكتاب } للإشعار بأن تضليلهم ، متعمد وبأن. تآمرهم على المؤمنين مقصود ، فهم أهل كتاب وعلم ، ولكنهم استعملوا عملهم فى الشرور والآثام .وقوله : { يَرُدُّوكُم } أصل الرد الصرف والإرجاع ، إلا أنه هنا مستعار لتغير الحال بعد المخالطة فيفيد معنى التصيير كقول الشاعر فرد شعورهن السود بيضا ... ورد وجوههن البيض سودا أى : يصيروكم بعد: إيمانكم كافرين : والكاف مفعوله الأول وكافرين مفعوله الثاني .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - فى آية آخرى : { وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الكتاب لَوْ يَرُدُّونَكُم مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الحق } ثم بين القرآن بعد ذلك أنه ما يسوغ للمؤمنين أن يطيعوا هذا الفريق من الذين أوتوا - الكتاب ، أو أ ، يكفروا بعد إيمانهم ، أو أن يتفرقوا بعد وحدتهم فقال - تعالى : -

وكيف تكفرون وانتم تتلى عليكم ايات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدي الى صراط مستقيم

كما فسرها الوسيط { وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تتلى عَلَيْكُمْ آيَاتُ الله وَفِيكُمْ رَسُولُهُ } ، الاستفهام فى قوله : { وَكَيْفَ

تَكْفُرُونَ } للانكار ، ولاستبعاد كفرهم فى حال اجتمع لهم فيها كل الأسباب الداعية إلى الإيمان .أى : كيف يتصور منكم الكفر ، أو يسوغ لكم أن تسيروا فى أسبابه وآيات الله تقرا على مسامعكم غضة طرية صباح مساء ، ورسول الله صلى الله عليكم وسلم بين ظهرانيكم ، يردكم إلى الصواب إن أخطأتم ، ويزيح شبهكم إن التبس عليكم أمر .وفى هذا ما يومىء إلى إلقاء اليأس فى قلوب هذا الفريق من اليهود من أن يصلوا إلى ما يبغونه بين المؤمنين فى وقت يذكر النبى صلى الله عليه وسلم المؤمنين بما ينفعهم؛ ويحذرهم مما يؤذيهم ويضرهم وفى توجيه الإنكار والاستبعاد إلى كيفية الكفر مبالغة ، لأن كل موجود لا بد أن يكون وجوده على حال من الأحوال ، فإذا أنكر ونفى فى جميع الأحوال انتفى وجوده بالكلية بالطريق البرهانى .وقوله : { وَأَنْتُمْ تتلى } عَلَيْكُمْ آيَاتُ الله وَفِيكُمْ رَسُولُهُ } جملتان حاليتان من فاعل تَكْفُرُونَ } وهو ضمير الجماعة . وهاتان الجملتان هما محط الانكار والاستبعاد .أى أن كلا تلاوة آيات الله وإقامة الرسول صلى الله عليه وسلم فيهم ، وازع لهم عن الكفر ، ودافع لهم إلى التمسك بعرى الإيمان .ففى الآية الكريمة دلالة على عظمة قدر الصحابة ، وأن لهم وازعين عن مواقعة الضلال : سماع القرآن ، ومشاهدة أنوار الرسول صلى الله عليه وسلم ، فإن وجوده عصمة من ضلالهم .قال قتادة : أما الرسول صلى الله عليه وسلم فقد مضى إلى رحمة الله ، وأما الكتاب فباق على وجه الدهر .ثم أرشد الله - تعالى - المؤمنين - إلى الوسيلة التى متى تمسكوا بها عصموا أنفسهم من مكر اليهود فقال تعالى - { وَمَن يَعْتَصِم بالله فَقَدْ هُدِيَ إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ } أى ومن يتلجىء إلى الله فى كل أحواله ويتوكل عليه حق التوكل ، ويتمسك بدينه ، فقد هدى إلى الطريق الذى لا عوج فيه ولا انحراف .وفى هذا إشارة إلى أن التمسك بدين الله وبكتابه كفيل بأن يبعد المسلمين الذين لم يشاهدوا الرسول صلى الله عليه وسلم عما يبيته لهم أعداؤهم من مكر وخداع .قال ابن جرير ما ملخصه : وأصل العصم : المنع ، فكل مانع شيئاً فهو عاصمه ، والممتنع به معتصم به ولذلك قيل للحبل : عصام ، وللسبب الذى يتسبب به الرجل إلى حاجته عصام ، وأفصح اللغتين : إدخال الباء كما قال - عز وجل - { واعتصموا بِحَبْلِ الله جَمِيعاً } وقد جاء ثم أمر الله - تعالى - المؤمنين بمجامع الطاعات ومعاقد الخيرات ، فقال - تعالى -

يا ايها الذين امنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وانتم مسلمون

كما فسرها الوسيط { ياأيها الذين آمَنُواْ اتقوا الله حَقّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنّ إلاّ وَأَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ } .وقوله { حَقَّ تُقَاتِهِ } التقاة مصدر وهو من باب إضافة الصفة غلى موصوفها إذ الأصل : اتقوا الله التقاة الحق .أى : الثابتة ، كقولك ضربت زيدا أشد الضرب تريد " الضرب الشديد وقيل التقاة اسم مصدر من اتقى كالتؤدة من اتأد .والمعنى بالغو أيها المؤمنون فى التمسك بتقوى الله ومراقبته وخشيته حتى لا تتركوا منها شيئاً ولا تكونن على ملة سوى ملة الإسلام إذا أردككم الموت ، وإنما عليكم أن تستمروا على دينكم القويم حتى يأتيكم الأجل الذى لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون .وقد ساق ابن كثير بعض الآثار الى وردت عن بعض السلف فى تفسير هذه الآية الكريمة فمن ذلك ما روى عن عبد الله بن مسعود أنه قال فى معنى الآية { اتقوا الله حَقّ تُقَاتِهِ } : أن يطاع فلا يُعصى . وأن يُذكر فلا يُنسى ، وأن يُشكر فلا يُكفر " .وروى عن أنس أنه قال : لا يتقى الله العبد حق تقاته حتى يُخزن لسانه .وقوله { وَلاَ تَمُوتُنّ إلاّ وَأَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ } هو نهى فى لصورة عن موتهم إلا على هذه الحالة والمراد دوامهم على الإسلام وذلك أن الموت لا بد منه فكأنه قيل : داوموا على الإسلام إلى أن يدرككم الموت فتموتوا على هذه الملة السمحاء وهى ملة الإسلام ، لكى تفوزوا برضا الله وحسن ثوابه .والجملة الكريمة فى محل نصب : على الحال من ضمير الجماعة فى { اتقوا } .والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال أى لا تموتن على حالة من الأحوال إلى على هذه الحالة الحسنة التى هى حالة } المداومة على التمسك بالإسلام وتعاليمه وآدابه .وقال صاحب الكشاف : قوله وَلاَ تَمُوتُنّ } معناه ولا تكونن على حال سوى حال الإسلام إذا أدرككم الموت ، وذلك كأن تقول لمن تستعين به على لقاء العدو :لا تأتنى إلا وأنت على حصان ، فأنت لا تنهاه عن الإتيان ولكنك تنهاه عن خلاف الحال التى شرطت عليه فى وقت الإتيان " .

واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمت الله عليكم اذ كنتم اعداء فالف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها كذلك يبين الله لكم اياته لعلكم تهتدون

كما فسرها الوسيط وبعد أن أمرهم - سبحانه - بمداومة خشيته ، والاستمرار على دينه أتبع ذلك بأمرهم بالاعتصام بدينه وبكتابه فقال - تعالى - { واعتصموا بِحَبْلِ الله جَمِيعاً وَلاَ تَفَرّقُواْ } .فهذه الآية الكريمة تأكيد

لما اشتملت عليه سابقتها من مداومة التقوى والطاعة لله رب العالمين
والاعتصام : افتعال من عصم وهو طلب ما يعصم أى يمنع من السقوط والوقوع.
وأصل الحبل : ما يشد به للارتقاء أو التدلى أو للنجاة من غرق أو نحوه ، أو.
، للوصول إلى شىء معين .والمراد بحبل الله هنا : دينه ، أو عهده ، أو كتابه
لأن التمسك بهذه الأشياء يوصل إلى النجاة والفلاح .والمعنى : كونوا جميعا
مستمسكين بكتاب الله وبدينه وبعهوده ، ولا تتفرقوا كما كان شأنكم فى
الجاهلية بضرب بعضكم رقاب بعض ، بل عليكم أن تجتمعوا على طاعة الله وأن
تكونوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا . وبذلك تفوزون وتسعدون وتنتصرون
- على أعدائكم .ففى الجملة الكريمة استعارة تمثيلية حيث شبه - سبحانه
، الحالة الحاصلة من تمسك المؤمنين بدينه وبكتابه وبعهوده وبوحدة كلمتهم
بالحالة الحاصلة من تمسك جماعة بحبل وثيق مأمون الانقطاع ألقى إليهم من
منقذ لهم من غرق أو سقوط أو نحوهما .وإضافة الحبل إلى الله - تعالى - قرينة
} على هذا التمثيل .وقوله { جَمِيعاً } حال من ضمير الجماعة فى قوله
واعتصموا } .فالجملة الكريمة تأمر المسلمين جميعا أن يعتصموا بعهود الله
وبدينه . وبكتابه ، وأن يكونوا كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له
سائر الجسد بالسهر والحمى ، وأن ينبذوا التفرق والاختلاف الذى يؤدى إلى
ضعفهم وفشلهم .قال الفخر الرازى عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : واعلم أن
كل من يمشى على طريق دقيق يخاف أن ينزلق رجله ، فإنه إذا تمسك بحبل مشدود
، الطرفين بجانبى ذلك الطريق أمن من الخوف . ولا شك أن طريق الحق طريق دقيق
وقد انزلقت أرجل كثيرة من الخلق عنه ، فمن اعتصم بدلائل الله وبيناته فإنه
يأمن من ذلك الخوف فكان المراد من الحبل هنا : كل شىء يمكن التوصل به إلى
. . الحق فى طريق الدين ، وهو أنواع كثيرة فمنهم من قال المراد به عهد الله
" ومنهم من قال المراد به القرآن ، فقد جاء فى الحديث " هو حبل الله المتين
ومنهم من قال المراد به طاعة الله . . . وهذه الأقوال كلها متقاربة
والتحقيق ما ذكرنا من أنه لما كان النازل فى البئر يعتصم بحبل تحرزا من
السقوط فيها وكان كتاب الله وعهده ودينه وطاعته وموافقته لجماعة المؤمنين
. حرزا لصاحبه من السقوط فى جهنم ، جعل ذلك حبلا لله وأمروا بالاعتصام به
ثم أمرهم - سبحانه - بتذكر نعم الله عليهم فقال : { واذكروا نِعْمَتَ الله
عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ
فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانا وَكُنْتُمْ على شَفَا حُفْرَةٍ
مِّنَ النار فَأَنقَذَكُمْ مِّنْهَآ } .قوله { شَفَا حُفْرَةٍ } الشفا طرف
الشىء وحرفه مثل شفا البئر ، وشفا الحفرة ومنه يقال : فلان أشفى على الشىء
إذا اشرف عليه ، كأنه بلغ شفاه أى حده وحرفه .والمعنى : واذكروا أيها
المؤمنون وتنبهوا بعقولكم وقلوبكم إلى نعمة الله عليكم بتأليف نفوسكم ورأب
صدوعكم ، فقد كنتم فى الجاهلية أعداء متقاتلين متنازعين ، فألف بين قلوبكم
بأخوة الإسلام فاصبحتم متحابين متناصحين متوادين وكنتم على وشك الوقوع فى
النار بسبب اخلافكم وضلالكم فمن الله عليكم وأنقذكم من التردى فيها
بهدايتكم إلى الحق عن طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى أرسله ربه
رحمة للعالمين . إذا فمن الواجب عليكم وفاء لهذه النعم أن تشكروا الله
عليها وأن تطيعوا رسولكم صلى الله عليه وسلم وأن تتمسكوا بعرى المحبة
والمودة والأخوة فيما بينكم .قال ابن كثير : قوله - تعالى - { واذكروا
نِعْمَتَ الله عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَآءً } .. إلخ . هذا السياق
فى شأن الأوس والخزرج ، فإنه كان بينهم حروب كثيرة فى الجاهلية وعداوة
شديدة وضغائن وإحن طال بسببها قتالهم ، والوقائع بينهم ، فلما جاء الله
، بالإسلام . فدخل فيه من دخل منهم ، صاروا إخوانا متحابين بجلال الله
متواصلين فى ذات الله ، متعاونين على البر والتقوى وكانوا على شفا حفرة من
النار بسبب كفرهم فأنقذهم الله منها إذ هداهم للإيمان وقد امتن عليهم بذلك
رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم قسم غنائم حنين ، فعتب من عتب منهم بما
فضل عليهم فى القسمة بما رآه ، فخطبهم فقال يا معشر الأنصار ، الم أجدكم
ضلالا فهداكم الله بى ، وكنتم متفرقين فالفكم الله بى ، وعالة فأغناكم الله
بى؟ فكانوا كلما قال شيئاً قالوا : الله ورسوله آمَنّ " .وفى هذه الاية
الكريمة تصوير بديع مؤثر لحالة المسلمين قبل الإسلام وحالتهم بعد الإسلام
فقد صورة - سبحانه - حالهم وترديهم فى الكفر والاختلاف والتقاتل قبل أن.
يدخلوا فى الإسلام بحال من يكون على حافة حفرة من النار يوشك أن يقع فيها
وصور هدايته لهم إلى سبيل الحق والمحبة والإخاء بدخولهم فى الإسلام عن.
طريق محمد صلى الله عليه وسلم بحالة من يبعد غيره عن التردى فى النار
} وينقذه من الوقوع فيها .قال صاحب الكشاف : " والضمير المجرور فى قوله
فَأَنقَذَكُمْ مِّنْهَا } يعود للحفرة أو للنار أو للشفا ، وإنما أنث
لإضافته إلى الحفرة - فاكتسب التأنيث من المضاف إليه - كما قال : كما شرقت
صدر القناة من الدم . . . وشفا الحفرة وشفتها : حرفها بالتذكير والتأنيث
فإن قلت : كيف جعلوا على حرف حفرة من النار؟ قلت : لو ماتوا على ما كانوا.
عليه وقعوا في النار " فمثلت حياتهم التى يتوقع بعدها الوقوع فى النار
- بالقعود على حرفها ، مشفين - أى مشرفين - على الوقوع فيها " .ثم ختم
سبحانه - الآية بقوله : { كذلك يُبَيِّنُ الله لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ

تَهْتَدُونَ } .أى كهذا البيان الواضح الذى سمعتموه فى هذه الآيات ، يبين الله لكم دائما من آياته ودلائله وحججه ما يسعدكم فى الدنيا والآخرة ، و ما يأخذ بيدكم إلى وسائل الهداية وأسبابها ، رجاء أن تكونوا ممن رضى الله عنهم وأرضاهم بسبب اهتدائهم إلى الصراط المستقيم .

ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويامرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون

كما فسرها الوسيط وبعد أن أمرهم - سبحانه - بتكميل أنفسهم عن طريق خشيته وتقواه والاعتصام بدينه وبكتابه ، عقب ذلك بأمرهم بالعمل على تكميل غيرهم وإصلاح شأنه عن طريق دعوته إلى الخير وإبعاده عن الشر فقال - تعالى -: { وَلْتَكُن مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الخير وَيَأْمُرُونَ بالمعروف وَيَنْهَوْنَ عَنِ المنكر } .الأمة : الجماعة التى تؤم وتقصد لأمر ما وتطلق - على أتباع الأنبياء كما تقول : نحن من أمة محمد - صلى الله عليه وسلم وعلى الرجل الجامع للخير الذى يقتدى به كقوله - تعالى -{ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً } وعلى الدين والملة كقوله - تعالى - { إِنَّا وَجَدْنَآ آبَآءَنَا على أُمَّةٍ } وعلى الحين والزمان كقوله - تعالى - : { وَقَالَ الذي نَجَا مِنْهُمَا وادكر بَعْدَ أُمَّةٍ } والمراد بالأمة هنا الطائفة من الناس التى تصلح لمباشرة الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .والمراد بالخير ما فيه صلاح للناس دينى أو دنيوى .والمراد بالمعروف ما حسنه الشرع وتعارف العقلاء على حسنه والمنكر ضد ذلك .والمعنى : ولتكن منكم أيها المؤمنون طائفة قوية الإيمان عظيمة الإخلاص ، تبذلى أقصى طاقتها وجهدها فى الدعوة إلى الخير الذي يصلح من شأن الناس ، وفى أمرهم بالتمسك بالتعاليم وبالأخلاق التى توافق الكتاب والسنة والعقول السليمة ، وفى نهيهم عن المنكر الذى يأباه شرع الله ، وتنفر منه الطباع الحسنة .وقوله : { وَلْتَكُن } صيغة وجوب من الله - تعالى - على كل من يصلح لمهمة الدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .وتكن إما من كان التامة أى : ولتوجد منكم أمة . فيكون { أُمَّةٌ } فاعلا لتكن وجملة { يَدْعُونَ } صفة لأمة ، و { مِّنْكُمْ } متعلق بتكن .وإما من كان الناقصة فيكون قوله : { أُمَّةٌ } اسمها ، وجملة { يَدْعُونَ } صفة لأمة ، و { مِّنْكُمْ } متعلق بكان الناقصة ، أو بمحذوف وقع حالا من أمة .و { مِّنْ } فى قوله - تعالى - { وَلْتَكُن مِّنْكُمْ أُمَّةٌ } يرى أكثر العلماء أنها للتبعيض .أى : ليكن بعض منكم أمة أى طائفة تبذل جهدها فى تبليغ رسالات الله وفى دعوة الناس إلى الخير وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر .وفى هذا التبعيض وتنكير أمة تنبيه على قلة العاملين بذلك وأنه لا يخاطب به إلا الخواص . ومن هذا الأسلوب قوله - تعالى - : { اتقوا الله وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ } فقد وجه الخطاب إلى نفس منكرة تنبيها على قلة الناظر فى معاده .وعلى هذا فكأن الآية الكريمة قد اشتملت على طلبين :أحدهما : وجه إلى الأمة كلها يطالبها بأن تعد طائفة من بينها لهذه المهمة السامية وهى دعوة الناس إلى الخير وأن تزود هذه الطائفة الصالحة لهذه المهمة بكل ما يمكنها من أداء مهمتها .وثانيهما : موجه إلى تلك الطائفة الصالحة لهذه المهمة ، بأن تخلص فيها ، وتؤديها على الوجه الأكمل الذى يرضى الله - تعالى - .ويرى بعض العلماء أن " من " فى قوله - تعالى - { وَلْتَكُن مِّنْكُمْ أُمَّةٌ } بيانية .فيكون المعنى أن الأمة كلها عليها واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا على سبيل الفرض الكفائى ، بل على سبيل الفرض العينى .أى : لتكونوا أيها المؤمنون جميعا أمة تدعون إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فمن هنا ليس المراد بها التبعيض على هذا الرأى بل المراد بها البيان وذلك كقولك : لفلان من أولاده جند ، وللأمير ن غلمانه عسكر ، تريد بذلك ، جميع أولاجه وغلمانه .ويبدو لنا أن الرأى الأول وهو أن " من " للتبعيض أقرب إلى الصواب ، لأن الأمة كلها برجالها ونسائها وشبابها وشيوخها لا تصلح لهذه المهمة السامية ، وإنما يصلح لها من يجيدها ويحسنها بأن تكون عنده القدرة العقلية ، والعلمية ، والنفسية ، والخلقية ، لأدائها .ولذا قال صاحب الكشاف مرجحا أن " من " للتبعيض : قوله : { وَلْتَكُن مِّنْكُمْ أُمَّةٌ } من للتبعيض ، لأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من فروض الكفايات ، لأنه لا يصلح له إلا من علم المعروف والمنكر ، وعلم كيف يرتب الأمر فى إقامته وكيف يباشره فإن الجاهل ربما نهى عن معروف وأمر بمنكر ، وربما عرف الحكم فى مذهبه وجهله فى مذهب صاحبه فنهاه عن غير منكر . وقد يغلظ في موضع اللين ، ويلين فى موضع الغلظة وينكر على من لا يزيده إنكاره إلا تماديا ، أو على من ، الإنكار عليه عبث .وقيل " من " للتبيين ، بمعنى : وكونوا أمة تأمرون كقوله - تعالى - { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ } - تَأْمُرُونَ بالمعروف وَتَنْهَوْنَ عَنِ المنكر } وقوله - تعالى - : { وَيَأْمُرُونَ بالمعروف وَيَنْهَوْنَ عَنِ المنكر } معطوف على قوله { يَدْعُونَ إِلَى الخير } من باب عطف الخاص على العام .وفائدة هذا التخصيص

ذكر الدعاء إلى الخير عاما ثم مفصلا على هذين الوجهين وهما الأمر بالمعروف
} : والنهى عن المنكر ، لأنهما أشرف ألوان الدعوة إلى الخير .وقوله
يَدْعُونَ إِلَى الخير } المفعول فيه محذوف وكذلك فى قوله : " يأمرون
وينهون " والتقدير يدعون الناس إلى الخير ويأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن
المنكر .وحذف المفعول للإيذان بظهوره . أو للقصد إلى إيجاد نفس الفعل . أى
يفعلون الدعاء إلى الخير ، أو لقصد التعميم أى يدعون كل من تتأتى له الدعوة
وقد ختم - سبحانه - الآية الكريمة بتبشير هؤلاء الداعين إلى الخير بالفلاح.
: فقال { وأولئك هُمُ المفلحون } والفلاح هو الظفر وإدراك البغية .أى
وأولئك القائمون بواجب الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر
هم الكاملون في الفلاح والنجاح ، ولا يمكن أن يفلح سواهم ممن لم يقم بهذا
الواجب الذى هو مناط عزة الجماعات والأفراد ، وأساس رفعتهم وقوتهم وسعادتهم
قال بعض العلماء : فى الآية دليل على وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن.
، المنكر ووجوبه ثابت بالكتاب والسنة ، وهو من أعظم واجبات الشريعة المطهرة
وأصل عظيم من أصولها ، وركن مشيد من أركانها ، وبه يرتفع سنامها ويكمل
} : نظامها .وقال الإمام الغزالى : فى هذه الآية بيان الإيجاب . فإن قوله
. وَلْتَكُن } أمر . وظاهر الأمر الإيجاب ، وفيها بيان أن الفلاح منوط به
إذ حصر وقال : { وأولئك هُمُ المفلحون } وفيها بيان أنه فرض كفاية لا فرض
عين وأنه إذا قام به البعض سقط الفرض عن الآخرين ، إذ لم يقل كونوا كلكم
آمرين بالمعروف ، بل قال : { وَلْتَكُن مِّنْكُمْ أُمَّةٌ } وإن تقاعد عنه
الخلق جميعا عم الإثم كافة القادرين عليه لا محالة .هذا وقد وردت أحاديث
متعددة فى فضل الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وفى
بيان العاقبة السيئة التى تترتب على ترك هذا الواجب ، ومن ذلك :ما رواه
مسلم والترمذى وابن ماجة النسائي عن أبى سعيد الخدرى قال : سمعت رسول الله
صلى الله عليه وسلم يقول : " من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم
يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان " .وروى الترمذى
عن جابر بن عبد الله عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : " سيد الشهداء
حمزة بن عبد المطلب ورجل قام إلى إمام جائر فامره ونهاه فقتله " .وروى
الشيخان عن جرير بن عبد الله قال : بايعت النبى صلى الله عليه وسلم على
السمع والطاعة فلقننى فيما استطعت والنصح لكل مسلم .وروى أبو داود والترمذى
وابن ماجه والنسائى عن أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - قال : يا أيها الناس
إنكم تقرءون هذه الآية : { يا أيها الذين آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ
لاَ يَضُرُّكُمْ مَّن ضَلَّ إِذَا اهتديتم } وإني سمعت رسول الله صلى الله
عليه وسلم يقول : " إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن
يعمهم الله بعقاب من عنده " .

ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات واولئك لهم
عذاب عظيم

كما فسرها الوسيط وبعد أن أمر الله - تعالى - بالمواظبة على الدعوة إلى
الخير ، عقب ذلك بنهيهم عن التفرق والاختلاف فقال : { وَلاَ تَكُونُواْ
: كالذين تَفَرَّقُواْ واختلفوا مِن بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ البينات } .أى
ولا تكونوا أيها المؤمنون كأولئك اليهود والنصارى وغيرهم من الذين تفرقوا
شيعا وأحزابا ، وصار { كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } واختلفوا
فيما بينهم اختلافا شنيعا ، وقد ترتب على ذلك أن كفر بعضهم بعضا ، وقاتل
بعضهم بعضا ، وزعم كل فريق منهم أنه على الحق وغيره على الباطل ، وأنه هو
وحده الذى يستطيع أن يدرك ما في الكتب السماوية من حقائق ، وهو وحده الذى
يستطيع تفسيرها تفسيرا سليما .ولقد كان تفرقهم هذا واختلافهم { مِن بَعْدِ
، مَا جَآءَهُمُ البينات } أى الآيات والحجج والبراهين الدالة على الحق
والداعية إلى الاتحاد والوئام لا إلى التفرق والاختلاف .وقوله : { وَلاَ
تَكُونُواْ كالذين تَفَرّقُواْ } معطوف على قوله { وَلْتَكُن مِّنْكُمْ
أُمّةٌ يَدْعُونَ } ويرجع إلى قوله من قبل واعتصموا بِحَبْلِ الله
جَمِيعاً وَلاَ تَفَرّقُواْ } لما فيه من تمثيل حال التفرق في أبشع صوره
المعروفة لديهم من مطالعة أحوال اليهود وفيه إشارة إلى أن ترك الأمر
بالمعروف والنهى عن المنكر يفضى إلى التفرق والاختلاف إذ يترتب على هذا
الترك أن تكثر المنازعات والأهواء والمظالم ، وتنشق الأمة بسبب ذلك انشقاقا
شديدا .والمقصود بهذا النهى إنما هو التفرق والاختلاف فى أصول الدين وأسسه
أما الفروع التى لا يصادم الخلاف فيها نصا صحيحا من نصوص الدين فلا تندرج ،
تحت هذا النهى ، فنحن نرى أن أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم والتابعين من
بعدهم قد اختلفوا فيما بينهم فى بعض المسائل التى لا تخالف نصا صحيحا من
نصوص الشريعة وتأولها كل واحد أو كل فريق منهم على حسب فهمه الذى أداه إليه
اجتهاده .ومن الأحاديث التى ذمت الاختلاف فى الدين ما رواه أبو داود
والإمام أحمد عن أبى عامر عبد الله بن يحيى قال : " حججنا مع معاوية بن أبى
سفيان ، فلما قدمنا مكة قام حين صلى الظهر فقال إن رسول الله صلى الله عليه
وسلم قال : إن أهل الكتابين افترقوا فى دينهم على ثنتين وسبعين ملة ، وإن

هذه المة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة - يعنى الأهواء - كلها فى النار إلا
، واحدة - وهي الجماعة - وأنه سيخرج فى أمتى أقوام تجارى بهم تلك الأهواء
كما يتجارى الكلب بصاحبه .لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله ، والله يا
- معشر العرب لئن لم تقوموا بما جاءكم به نبيكم - صلى الله عليه وسلم
لغيركم من الناس أحرى أن لا يقوم به " .ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة
ببيان سوء عاقبة المتفرقين ، والمختلفين فى الحق فقال { وأولئك لَهُمْ
عَذَابٌ عَظِيمٌ } أى وأولئك الموصوفون بتلك الصفات الذميمة لهم عذاب عظيم
بسبب تفرقهم واختلافهم الباطل .فأنت ترى أن القرآن الكريم قد نهى المؤمنين
عن التفرق والاختلاف بأبلغى تعبير وألطف إشارة ، وذلك بأن بين لهم حسن
- عاقبة المعتصمين بحبل الله دون أن يتفرقوا ، وما بشر به - سبحانه
المواظبين على الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من أنهم
هم المفلحون الفائزون .ثم بين لهم بعد ذلك سوء عاقبة التفرقة والاختلاف
الذى وقع فيه من سبقهم من اليهود والنصارى وكيف أنه ترتب على تفرقهم
واختلافهم أن كفر بعضهم بعضا . وقاتل بعضهم بعضا ، ورمى بعضهم بعضا بالزيغ
والضلال .هذا فى الدنيا ، أما في الآخرة فلهؤلاء المتفرقين والمختلفين
العذاب العظيم من الله - تعالى - فالقرين قد أتى بالأوامر ومعها الأسباب
التى تدعو إلى الاستجابة لها ، وأتى بالنواهي ومعها كذلك الأسباب التى تحمل
على البعد عنها .وبذلك تكون الآيات الكريمة قد بينت مسلكا من مسالك اليهود
الخبيثة لكيد الإسلام والمسلمين ، ووبختهم على ذلك توبيخا موجعا ، وفضحتهم
على مر العصور والدهور ، وحذرت المؤمنين من شرورهم ، وأرشدتهم إلى ما
يعصمهم من كيدهم . وذكرتهم بنعم الله الجليلة عليهم ، وأمرتهم بالمواظبة
على الدعوة إلى الخير . ونهتهم عن التفرق والاختلاف لكى يسعدوا فى دينهم
. ودنياهم

يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فاما الذين اسودت وجوههم اكفرتم بعد ايمانكم
فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون

، كما فسرها الوسيط ثم حذر الله - تعالى - الناس من أهوال يوم القيامة
} : وأمرهم بأن يتسلحوا بالإيمان وبالعمل الصالح حتى ينجوا من عذابه فقال
يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ . . . } .قوله - تعالى - { يَوْمَ تَبْيَضُّ
وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ } : بياض الوجوه وسوادها محمولان على الحقيقة
عن جمهور العلماء . وذلك لأن اللفظ حقيقة فيهما ، ولا دليل يوجب ترك هذه
الحقيقة فوجب الحمل على ذلك .قال الآلوسى : قال بعضهم يوسم أهل الحق ببياض
. الوجه وإشراق البشرة تشريفاً لهم وإظهارا لآثار أعمالهم فى ذلك الجمع
ويوسم أهل الباطل بضد ذلك .والظاهر أن الابيضاض والأسوداد يكونان لجميع
، الجسد إلا أنهما أسندا للوجوه؛ لأن الوجه أول ما يلقاك من الشخص وتراه
وهو أشرف أعضائه واختلف فى وقت ذلك فقيل : وقت البعث من القبور وقيل وقت
قراءة الصحف " .ويرى بعض العلماء أن بياض الوجوه هنا المراد منه لازمه وهو
الفرح والسرور ، كما أن سوادها المراد منه لازمه أيضاً وهو الحون والغم
وعليه يكون التعبير القرآنى محمولا على المجاز لا على الحقيقة .قال الفخر
الرازى ما ملخصه : وهذا مجاز مشهور قال - تعالى - { وَإِذَا بُشِّرَ
أَحَدُهُمْ بالأنثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ } ويقال :
لفلان عندى يد بيضاء وتقول العرب لمن نال بغيته وفاز بمطلوبه : ابيض وجهه
ومعناه الاستبشار والتهلل . . ويقال من وصل إليه مكروه : أربَدّ وجهه واغبر
لونه وتبدلت صورته . . . وعلى هذا فمعنى الآية : أن المؤمن يرد يوم القيامة
على ما قدمت يداه ، فإن رأى ما يسره ابيض وجهه بمعنى أنه استبشر بنعم الله
وفضله ، وعلى ضد ذلك إذا رأى الكافر أعماله القبيحة محصاة عليه اسود وجهه
بمعنى أنه يشتد حزنه وغمه " .والظرف " يوم " فى قوله { يَوْمَ تَبْيَضُّ }
إلخ منصوب على أنه مفعول به بفعل محذوف والتقدير : اذكر يوم تبيض وجوه
} وتسود وجوه والمراد الاعتبار والاتعاظ ويجوز أن يكون العامل فيه قوله
عَظِيمٌ } فى قوله قبل ذلك { وأولئك لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } . أى أولئك
الذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات لهم عذاب فى هذا اليوم
الهائل الشديد الذي تبيض فيه وجوه المؤمنين وتسود فيه وجوه الكافرين
والفاسقين .وفى وصف هذا اليوم بأنه تبيض فيه وجوه وتسود فيه وجوه تهويل
لأمره . وتعظيم لشأنه وتشويق لما يرد بعد ذلك من تفصيل أصحاب الوجوه
المبيضة وأصحاب الوجوه المسودة ، وترغيب للمؤمنين فى الإكثار من التزود
بالعمل الصاحل وترهيب للكافرين من التمادى فى كفرهم وضلالهم .والتنكير فى
قوله { وُجُوهٌ } للتكثير . أى تبيض وجوه عدد كثير من المؤمنين وتسود وجوه
كثيرة للكافرين .وشيبه بهذه الآية قوله - تعالى - { وَيَوْمَ القيامة تَرَى
} - الذين كَذَبُواْ عَلَى الله وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ } وقوله - تعالى
وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ وَوُجُوهٌ
يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ } قال صاحب
الكشاف : " البياض من النور والسواد من الظلمة .فمن كان من أهل نور الحق
وسم ببياض اللون وإسفاره وإشراقه وابيضت صحيفته ، واشرقت ، وسعى النور بين

، يديه وبيمينه . ومن كان من أهل ظلمة الباطل وسم بسواد اللون وكسوفه وكمده
واسودت صحيفته وأظلمت وأحاطت به الظلمة من كل جانب . نعوذ بالله وبسعة
رحمته من ظلمة الباطل وأهله " .ثم بين - سبحانه - حال الذين اسودت وجوههم
وسوء عاقبتهم فقال : { فَأَمَّا الذين اسودت وُجُوهُهُمْ } بسبب كفرهم
وأعمالهم القبيحة فيقال لهم { أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ } وحذف هذا
القول المقدر والذى هو جواب إما لدلالة الكلام عليه ، ومثله كثير فى القرآن
الكريم ، ومن ذلك قوله - تعالى - { وَلَوْ ترى إِذِ المجرمون نَاكِسُواْ
رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا } أي قائلين
ربنا أبصرنا وسمعنا وقوله تعالى - { جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ
صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالمَلاَئِكَةُ
يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِّن كُلِّ بَابٍ سَلاَمٌ عَلَيْكُم } أي قائلين
لهم : سلام عليكم .والاستفهام في قوله : { أَكْفَرْتُمْ } للتوبيخ والتعجب
من حالهم .قال الآلوسى والظاهر من السياق أن هؤلاء هم أهل الكتاب وكفرهم
بعد إيمانهم ، هو كفرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الإيمان به قبل
مبعثه . وقيل هم جميع الكفار لإعراضهم عما وجب عليهم من الإقرار بالتوحيد
حين أشهدهم على أنفسهم { أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى } ويحتمل أن
يراد بالإيمان الإيمان بالقوة والفطرة ، وكفر جميع الكفار كان بعد هذا
الإيمان؛ لتمكنهم بالنظر الصحيح والدلائل الواضحة والآيات البينة من
} الإيمان بالله - تعالى - ، وبرسوله صلى الله عليه وسلم " .وقوله
فَذُوقُواْ العذاب بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ } أى فادخلوا جهنم وذوقوا
مرارة العذاب وآلامه بسبب استمراركم على الكفر وموتكم عليه ،والأمر فى قوله
للإهانة والإذلال ، وهو من باب الاستعارة فى { فَذُوقُواْ } { فَذُوقُواْ }
استعارة تبعية تخييلية . وفى العذاب إستعارة مكنية : حيث شبه العذاب بشىء
يدرك بحاسة الأكل والذوق تصويراً له بصورة ما يذاق ، وأثبت له الذوق
تخييلا - وهو قرينة المكنية .وأل فى العذاب للعهد أى فذوقوا العذاب المعهود
الموصوف بالعظم ، والذى سبق أن حذركم الله - تعالى - منه ، ولكنكم لم
تعيروا التحذير انتباها ، بل تماديتم فى كفركم وضلالكم حتى أدرككم الموت
. وأنتم على هذه الحال الشنيعة

واما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - حال الذين ابيضت وجوههم وحسن عاقبتهم
فقال : { وَأَمَّا الذين ابيضت وُجُوهُهُمْ } ببركة إيمانهم وعملهم الصالح
أى ففى جنته . والتعبير عن الجنة بالرحمة من باب { فَفِي رَحْمَةِ الله }
التعبير بالحال عن المحل فتكون الظرفية حقيقة . وإذا أريد برحمة الله ثوابه
وجزاؤه تكون الظرفية مجازية .وفى التعبير عن الجنة بالرحمة إشعار بأن
، دخولها إنما هو بمحض فضل الله - تعالى - فهو - سبحانه - المالك لكل شىء
- والخالق لكل شىء .وقوله { هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } بيان لما خصهم الله
تعالى - من خلود فى هذا النعيم الذى لا يحد بحد ، ولا يرسم برسم ، ولا تبلغ
- العقول مداه . أى هم فى الرحمة باقون دائمون فقد أعطاهم الله - تعالى
عطاء غير مجذوذ .وقد بدأ - سبحانه - كلامه عن الفريقين بالذين ابيضت وجوههم
ثم قدم الحديث عن حال الذين اسودت وجوههم على الذين ابيضت وجوههم ، ليكون
ابتداء الكلام واختتامه عن هؤلاء السعداء بما يسر القلب ويشرح الصدر ويغرى
الناس بالتمسك بعرى الإيمان وبالإكثار من العمل الصالح الذي يوصلهم إلى
رحمة الله ورضاه .ووصف - سبحانه - الذين ابيضت وجوههم بأنهم خالدون فى
رحمته ، ولم يصف الذين اسودت وجوههم بالخلود فى العذاب للتصريح فى غير هذا
الموضع بخلودهم فى هذا العذاب كما فى قوله - تعالى - { إِنَّ الذين
كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب والمشركين فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ
فِيهَآ أولئك هُمْ شَرُّ البرية } وللإشعار بأن باب رحمته - سبحانه - مفتوح
أمام هؤلاء الضالين فعليهم أن يثوبوا إلى رشدهم ، وأن يقلعوا عن الكفر إلى
الإيمان والعمل الصالح حتى ينجوا من عذاب الله وسخطه يوم تبيض وجوه وتسود
. وجوه

تلك ايات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلما للعالمين

كما فسرها الوسيط وبعد أن أفاض - سبحانه - فى الحديث عن أحوال السعداء
وأحوال الأشقياء وعن رذائل الكافرين من أهل الكتاب وغيرهم ممن أشركوا بالله
، ما لم ينزل به سلطانا وبعد أن ساق - سبحانه - من التوجيهات الحكيمة
- والإرشادات النافعة ما يشفى الصدور ويهدى النفوس ، بعد كل ذلك ، خاطب
سبحانه - نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله :{ تِلْكَ آيَاتُ الله نَتْلُوهَا
عَلَيْكَ بالحق وَمَا الله يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعَالَمِينَ } .والمراد
بالآيات ما سبق ذكره فى هذه السورة وغيرها من آيات قرآنية تهدى إلى الرشد
وتشهد بوحدانية الله - تعالى - وبصدق رسوله صلى الله عليه وسلم فيما يبلغه
عنه .وكانت الإشارة بتلك الدالة على البعد للإشعار بعلو شأن هذه الآيات

وسمو منزلتها وعظم قدرها .ومعنى { نَتْلُوهَا } نقرؤها عليك يا محمد شيئاً
- فشيئا قراءة واضحة جلية لتبلغها للناس على مكث وتدبر وروية .وأسند
- سبحانه - التلاوة إليه مع أن التالى فى الحقيقة جبريل - عليه السلام
- للتنيه على شرف هذه الآيات المتلوة ، ولأن تلاوة جبريل إنما هي بأمر منه
سبحانه - .وقال - سبحانه - { تِلْكَ آيَاتُ الله نَتْلُوهَا } فأظهر لفظ
الجلالة ولم يقل تلك آياتنا نتلوها ، ليكون التصريح باسمه - سبحانه - مربيا
فى النفوس المهابة والإجلال له ، إذ هو المستحق وحده لوصف الألوهية فلا إله
سواه ولا معبود بحق غيره ، وهو ذو الجلال والإكرام ، وهو المنشئ الموجد
لهذا الكون وما فيه ومن فيه .فالتصريح باسمه - تعالى - يزيد البيان جلالا
ويبعث فى النفوس الخشية والمراقبة والبعد عما يوجب العقاب والإقبال على ما
يوصل إلى الثواب .وقوله { بالحق } في موضع الحال المؤكدة من الفاعل أو
المفعول .أى نتلوها عليك متلبسة بالحق أو متلبسين بالصدق أو العدل فى كل ما
، دلت عليه هذه الايات ونطقت به ، مما لا تختلف فيه العقول السليمة
والمدارك القويمةوقوله - تعالى - { وَمَا الله يُرِيدُ ظُلْماً
لِّلْعَالَمِينَ } نفى للظلم بأبلغ وجه فإنه - سبحانه - لم ينف فقط الظلم
عن ذاته بل نفى عن ذاته إرادة الظلم إذ هو أمر يليق به - سبحانه - ولا
يتصور وقوعه منه .وكيف يريد الظلم من منح هذا العالم كله الوجود ، وخلق هذا
الكون برحمته وقدرته وعدله؟ والظلم - كما يقول الراغب - وضع الشئ فى غير
موضعه المختص به إما بزيادة أو بنقصان وإما بعدول عن وقته ومكانه ، ومن هذا
يقال : ظلمت السقاء إذا تناولته فى غير وقته ، وظلمت الأرض إذا حفرتها ولم
تكن موضعاً للحفر .وقال بعض الحكماء : الظلم ثلاثة أنواع :الأول : ظلم بين
- الإنسان وبين الله - تعالى - وأعظمه الكفر والشرك والنفاق وإياه قصد
سبحانه - بقوله : { إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } والثانى : ظلم بينه
وبين الناس وإياه قصد بقوله : { إِنَّمَا السبيل عَلَى الذين يَظْلِمُونَ
الناس } والثالث : ظلم بينه وبين نفسه وإياه قصد بقوله : { فَمِنْهُمْ
ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ } والظلم الذى نفى إرادته - سبحانه - عن ذاته عام لا
يخص نوعا دون نوع ، إذ من المعروف عند علماء اللغة أن النكرة فى سياق النفى
تعم ، وهنا جاء لفظ الظلم منكراً فى سياق النفى وهو ما .قال الجمل واللام
فى قوله { لِّلْعَالَمِينَ } زائدة لا تعلق لها بشئ زيدت فى مفعول المصدر
- وهو " ظلم " والفاعل محذوف . وهو فى التقدير ضمير البارئ - سبحانه
} والمعنى ما الله يريد أن يظلم العالمين ، فزيدت اللام تقوية للعامل كقوله
{ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ

ولله ما في السماوات وما في الارض والى الله ترجع الامور

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أنهو هو المالك لكل شئ وأنه
هو وحده الذى إليه تصير الأمور فقال : { وَلِلَّهِ مَا فِي السماوات وَمَا
فِي الأرض } أى له - سبحانه - وحده ما فيهما من المخلوقات ملكا وخلقا
وتدبيرا وتصرفا وإحياء وإماتة وإثابة وتعذيبا .{ وإلى الله تُرْجَعُ
الأمور } أى إلى حكمه وقضائه تعود أمور الناس وشئونهم فيجازى الذين أساؤوا
بما عملوا ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى ، لأنه - سبحانه - منه المبدأ وإليه
المآب فيجازى كل إنسان على حسب اعتقاده وعمله بدون ظلم أو محاباة .وبذلك
نرى أن هذه الآيات الكريمة قد حذرت الناس من أهوال يوم القيامة الذى تبيض
فيه وجوه وتسود وجوه وبينت السباب التى أدت إلى فوز من فاز وإلى شقاء من
شقى ، ونوهت بشأن الآيات التى أنزلها الله - تعالى - على نبيه صلى الله
عليه وسلم لتكون هداية للناس وصرحت بأن الله - تعالى - هو الخالق لكل شئ
وإليه مرجع الأمور ومصيرها فيجازى كل إنسان بما يستحقه من ثواب أو عقاب
وبعد أن أمر الله - تعالى - المؤمنين بالدعوة إلى الخير ونهاهم عن التفرق.
والاختلاف المفضى إلى العذاب العظيم يوم القيامة ، وبين لهم أن مصير الأمور
إليه بعد كل ذلك ساق لهم ما يقوى إيمانهم ويثبت يقينهم ، بأن برهم يحسن
العقبى متى استقاموا على أمره ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، وأنذر
الكافرين من أهل الكتاب بالهزيمة فى الدنيا ، وبغضب الله - تعالى - فى
الآخرة فقال - تعالى - : { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ . . . } .

كنتم خير امة اخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله
ولو امن اهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون واكثرهم الفاسقون

كما فسرها الوسيط قوله - تعالى - { كُنْتُمْ } يصح أن تكون من كان التامة
التى بمعنى وجد وهى لا تحتاج إلى خبر فيكون المعنى وجدتم خير أمة أخرجت
للناس ، ويكون قوله { خَيْرَ أُمَّةٍ } بمعنى الحال . وبهذا الراى قال جمع
- من المفسرين .ويصح أن تكون من كان الناقصة التى هى - كما يقول الزمخشرى
عبارة عن وجود الشئ فى زمان ماض على سبيل الإبهام وليس فيه دليل على عدم
سابق ولا على انقطاع طارئ فيكون المعنى : قدرتم فى علم الله - تعالى - خير
أمة أخرجت للناس .ويجوز أن تكون بمعنى صار . أى تحولتم يا معشر المؤمنين

الذين عاصرتم النبى صلى الله عليه وسلم من جاهليتكم إلى أن صرتم خير أمة
وقيل : إن " كان " هنا زائدة ، والتقدير : أنتم خير أمة . ورد هذا القول.
} بأن كان لا تزاد فى أول الكلام .والظاهر أن الرأى الأول الذى يقول إن
كُنْتُمْ } هنا من كان التامة هو أقرب الأقوال إلى الصواب " ويليه الرأى
الثاني الذى يرى أصحابه أن " كنتم " هنا من " كان " الناقصة إلا أنها هنا
تدل على تحقق شىء بصفة فى الزمان الماضى من غير دلالة على عدم سابق أو لاحق
والخطاب فى هذه الآية الكريمة بقوله - تعالى - { كُنْتُمْ } للمؤمنين.
الذين عاصروا النبى صلى الله عليه وسلم ولمن أتى بعدهم واتبع تعاليم
الإسلام إلى يوم الدين .ولذا قال ابن كثير : والصحيح أن هذه الآية عامة فى
جميع الأمة . كل قرن بحسبه ، وخير قرونهم الذين بعث فيهم رسول الله صلى
} الله عليه وسلم ثم الذين يلونهم ، كما قال - سبحانه - فى الآية الأخرى
وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى
الناس وَيَكُونَ الرسول عَلَيْكُمْ شَهِيداً } وقد وردت أحاديث متعددة فى
فضل هذه الأمة الإسلامية ، منها : ما جاء فى مسند الإمام أحمد وفى سنن
الترمذى وابن ماجه من رواية حكيم بن معاوية بن حيدة عن أبيه قال : قال رسول
الله - صلى الله عليه وسلم - " أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها
على الله - تعالى - " .والمعنى : وجدتم يا معشر المسلمين العالمين بتعاليم
الإسلام وآدابه وسنته وشريعته خير أمة أخرجت وأظهرت للناس ، من أجل إعلاء
} كلمة الحق وإزهاق كلمة الباطل ، ونشر الإصلاح والنفع فى الأرض.وقوله
خَيْرَ أُمَّةٍ } خبر كنتم على أنها من كان الناقصة .وجملة { أُخْرِجَتْ }
} صفة لأمة ، وقوله { لِلنَّاسِ } متعلق بأخرجت ، وحذف الفاعل من
أُخْرِجَتْ } للعلم به أى : خرجها الله - تعالى - لنفع الناس وهداءتهم إلى
الصراط المستقيم .فالجملة الكريمة تنوه بشأن الأمة الإسلامية وتعلى من
قدرها ، فهل تعى الأمة الإسلامية هذا التنويه من شأنها وذلك لإعلاء من
قدرها فتقوم بدورها الذى اختاره الله لها ، وهو نشر كلمة التوحيد فى الأرض
واحقاق الحق وإبطال الباطل شكراً لله - تعالى - على جعله إياها خير أمة
أخرجت للناس؟؟إن واقع المسلمين الملىء بالضعف والهوان ، والفسوق والعصيان
يدمى قلوب المؤمنين الصادقين ، ويحملهم على أن يبلغوا رسالات الله دون أن
يخشوا أحدا سواه حتى تكون كلمته هى العليا وكلمة الذين كفروا هى السفلى .ثم
بين - سبحانه - الأسباب التى جعلت الأمة الإسلامية خير أمة أخرجت للناس
فقال : { تَأْمُرُونَ بالمعروف وَتَنْهَوْنَ عَنِ المنكر وَتُؤْمِنُونَ
بالله } .والمعروف : هو كل قول أو عمل حسنه الشرع ، وأيدته العقول السليمة
والمنكر بعكسه .والمعنى : وجدتم خير أمة أخرجت للناس ، لانكم تأمرون ،
} . بالمعروف أى بالقول أو الفعل الجميل المستحسن فى الشرائع والعقول
وَتَنْهَوْنَ عَنِ المنكر } أى كل قول أو فعل قبيح تستنكره الشرائع ويأباه
أهل الإيمان القويم ، والعقل السليم .و { وَتُؤْمِنُونَ } بالله أى تصدقون
وتذعنون بأنه لا معبود بحق سواه ، وتخلصون له العبادة والخضوع ، وتطيعونه
فى كل ما أمركم به أو نهاكم عنه على لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم
فأنت ترى أن الخيرية للأمة الإسلامية منوطة بتحقيق اصلين أساسيين :أولهما.
الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لأنهما سياج الدين ، ولا يمكن أن يتحقق :
بنيان أمة على الخير والفضيلة إلا بالقيام بهما ، فهما من الأسباب التى
استحق بنو إسرائيل اللعنة من أجل تركهما ، فقد أخرج أبو داود فى سننه عن
عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن أول ما
دخل النقص على بنى إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول له : يا هذا اتق
الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل له ، ثم يلقاه من الغد على حاله فلا يمنعه
ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم
ببعض ثم قال صلى الله عليه وسلم ( لُعِنَ الذين كَفَرُواْ مِن بني
إِسْرَائِيلَ على لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابن مَرْيَمَ ذلك بِمَا
عَصَوْا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ
فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ) ثم قال : " كلا والله
لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذون على يد الظالم ، ولتأطرنه على
الحق اطرا - ولتحملنه على اتباع الحق حملا - أو ليضربن الله بقلوب بعضكم
- على بعض ، ثم ليلعنكم كما لعنهم " .وثانيهما : الإيمان بالله - تعالى
وبجميع ما أمر الله - تعالى - بالإيمان به .هذان هما الأمران الذان يجب أن
يتحققا لتكون هذه الأمة الإسلامية خير أمة أخرجت للناس لأن الأمة التي تهمل
الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ولا تؤمن بالله لا يمكن أن تكون خير أمة
بل لا توصف بالخيرية قط ، لأنه لا خير إلا فى الفضائل والحق والعدل ، ولا
تقوم هذه الأمور إلا مع وجود الإيمان بالله وكثرة الدعاة إلى الخير
والناهين عن الشر ، ويكون لدعوتهم آثارها القوية التى تحيا معها الفائل
وتزول بها الرذائل .وكأنه - سبحانه - قد أخر " الإيمان بالله " عن " الأمر
بالمعروف والنهى عن المنكر " ليكون كالباعث عليهما لأنه لا يصبر على
تكاليفهما ومتاعبهما إلا مؤمن يبتغى وجه الله ويركن فى كفاحه إليه . فهذا
الإيمان بالله هو الباعث للآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ، على أن
يبلغوا رسالات الله ، دون أن يخشوا أحدا سواه .وقيل : إنما أخر الإيمان على

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مع تقدمه عليهما وجودا ورتبة كما هو الظاهر ، لأن الإيمان مشترك بين جميع الأمم دون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فهما أظهر فى الدلالة على الخيرية للأمة الإسلامية .وجملة { تَأْمُرُونَ بالمعروف وَتَنْهَوْنَ عَنِ المنكر } يجوز أن تكون حالية من ضمير الخطاب فى { كُنْتُمْ } ويجوز أن تكون مستأنفة للتعليل ، وهذا ما ذهب إليه الفخر الرازى ، فقد قال :" واعلم أن هذا الكلام مستأنف والمقصود منه بيان علة تلك الخيرية ، كما تقول : زيد كريم يطعم الناس ويكسوهم ويقم بما يصلحهم ، وتحقيق الكلام أنه ثبت فى أصول الفقه أن ذكر الحكم مقرونا بالوصف المناسب له يدل على كون ذلك الحكم معللا بذلك الوصف فههنا حكم الله - بثبوت وصف الخيرية لهذه الأمة . ثم ذكر عقيب هذا الحكم هذه الطاعات أعنى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والإيمان ، فوجب كون تلك الخيرية معللة بهذه العبارات .وقال الإمام ابن كثير - بعد أن ساق بضعة عشر حديثا فى فضل هذه الأمة : فهذه الأحاديث فى معنى قوله - تعالى - { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بالمعروف وَتَنْهَوْنَ عَنِ المنكر وَتُؤْمِنُونَ بالله } فمن اتصف من هذه الأمة بهذه الصفات دخل معهم فى هذا المدح ، كما قال قتادة ، بلغنا أن عمر بن الخطاب رأى من الناس دعة فى حجة ، حجها فقرأ هذه الآية : { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ } ثم قال : من سره أن يكون من هذه الأمة فليؤد شرط الله فيها " ، رواه ابن جرير ومن لم يتصف بذلك أشبه أهل الكتاب الذين ذمهم الله بقوله : { كَانُوا - لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ } الآية .وبعد أن مدح - سبحانه - هذه الأمة على هذه الصفات شرع فى ذم أهل الكتاب وتأنيبهم فقال - تعالى - { وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الكتاب } أى بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم { لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ } أى لكان إيمانهم خيرا لهم فى دنياهم وآخرتهم ولنالوا الخيرية التى ظفرت بها الأمة الإسلامية ولكنهم لم يؤمنوا فامتنع الخير فيهم لامتناع الإيمان الصحيح منهم ، ولإيثارهم الضلالة على الهداية فهذه الجملة الكريمة معطوفة على قوله - تعالى - { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ ومرتبطة بها .ولم يذكر متعلق { آمَنَ } هنا لأن المراد لو اتصفوا . . . } بالإيمان الذى هو لقب وشعار للإيمان بدين الإسلام الذى أتى به محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو الذى منه أطلقت صفة الذين آمنوا على المسلمين فصار كالعلم بالغلبة .وقال - سبحانه - { لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ } أى : لو آمنوا لكان إيمانهم خيرا لهم بدون تفصيل لهذه الخيرية لتذهب نفوسهم كل مذهب فى الرجاء والإشفاق .ثم أخبر - سبحانه - بأن قلة من أهل الكتاب اختاروا الإيمان على الكفر فقال - تعالى - { مِّنْهُمُ المؤمنون وَأَكْثَرُهُمُ الفاسقون } .أى : من أهل الكتاب أمة آمنت بالله وصدقت رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم واتبعت ما جاء به من الحق وأكثرهم معرضون عن الإيمان بالله وبرسوله صلى الله عليه وسلم وخارجون عن الطريق المستقيم الذى أمرت باتباعه الشرائع والعقول السليمة .فالجملة الكريمة إنصاف للقلة المؤمنة التى آمنت من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وغيره ممن دخل فى الإسلام . وذم لأكثر أهل الكتاب الذين جحدوا الحق . وخرجوا عن الطريق القويم .وقوله { مِّنْهُمُ المؤمنون وَأَكْثَرُهُمُ الفاسقون } جملة مستأنفة استئنافا بيانيا ، فهى جواب للجملة الشرطية التى قبلها . فكأنه قيل : هل منهم من آمن أو كلهم على الكفر؟ فكان الجواب : منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون .وعبر عن كفرهم بالفسق ، للإشعار بأنهم قد فسقوا فى دينهم أيضا فهم ليسوا عدولا فيه ، وبذلك يكونون قد خرجوا عن الإسلام وعما أوجبته عليهم كتبهم من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم .

لن يضروكم الا اذى وان يقاتلوكم يولوكم الادبار ثم لا ينصرون

كما فسرها الوسيط ثم بشر الله - تعالى - المؤمنين ، بأن هذه الكثرة الفاسقة من أهل الكتاب التى عتت عن أمر ربها وناصبت المؤمنين العداء ، ولن تضرهم ضررا بليغا له أثر ما دام أهل الإيمان مستمسكين بدينهم ومنفذين لتعاليمه وآدابه ، فقال - سبحانه - { لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى } أى " لن يضركم أهل الكتاب يا معشر المؤمنين إلا ضررا يسيرا ، كأن يؤذوكم بألسنتهم ويلقوا ، الشبه بينكم ليصدوا من ضعف إيمانه عن الحق ، وفى هذا تثبيت للمؤمنين وطمأنينة لقلوبهم ، إذ الضرر الذى يصيب الأمة الإسلامية من أعدائها على قسمين :أولهما : ضرر يؤدى إلى هدم كيان الأمة ، وإضعاف قوتها وإهدار كرامتها وجعل أمورها فى أيدى أعدائها تصرفها كيف تشاء .وثانيهما : ضرر لا يؤثر فى كيان الأمة ، ولا يؤدى إلى اضمحلال قوتها كالأذى بالقول ، أو محاولة التأثير فى ضعاف الإيمان .وقد نفى - سبحانه - أن يلحق المؤمنين ضرر يأتى على كيانهم من جهة أهل الكتاب فقال : { لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى } فأوقع الفعل المضارع فى حيز لن المفيدة للنفى - للإشارة إلى أن ذلك لا يكون فى المستقبل .ولكن هذا النفى لهذا النوع من الضرر مشروط بمحافظة الأمة الإسلامية على الأصلين السابقين وهما " الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والإيمان بالله " .فإذا أرادت أمة الإسلام ألا تصاب من جهة أهل الكتاب بما

، يأتى على كيانها ، فعليها أن تخلص العبادة لربها ، وأن تعمل بسنة نبيها
وأن تتقيد بأحكام كتابها ، وأن تباشر الأسباب التى شرعها خالقها للنصر على
أعدائها .أما إذا تركت أمة الإسلام ما أمرها الله - تعالى - به وتجاوزت ما
نهاها عنه فإنها فى هذه الحالة قد تصاب من أعدائها بما يؤثر فى كيانها
وتكون هي الجانية على نفسها بمخالفتها لأوامر الله ونواهيه .هذا ، وأكثر
العلماء على أن الاستثناء فى قوله { لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى } متصل
وأنه استثناء مفرغ من المصدر العام كأنه قيل : لن يضروكم ضررا ألبتة إلا
ضرر أذى لا يبالى به من كلمة سوء و نحوها .وقيل هو استثناء منقطع لأن الأذى
ليس من الضرر : أى لن يضروكم بقتال وغلبة لكن بكلمة أذى ونحوها .ورجح الأول
لأن الكلام إذا أمكن حمله على الاستثناء الحقيقى لم يجز صرفه عن ذلك إلى ،
الاستثناء المنقطع وهنا الأذى مهما قل هو نوع من الضرر وإن لم يترك أثراً
ثم بشر الله - تعالى - المؤمنين ببشارة أخرى فقال : { وَإِن.
يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأدبار ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ } .تولية
الأدبار : كناية عن الهزيمة لأن المنهزم يحول ظهره ودبره إلى جهة الذى هزمه
هربا إلى ملجأ يلجأ إليه ليدفع عن نفسه أو الأسر .والمعنى ، إن أهل الكتاب
لن يضروكم يا معشر المؤمنين إلا ضررا يسيراً لا يبقى أثره فيكم - ما دمتم
، مستمسكين بدينكم - ، فإن قاتلوكم وأنتم على هذه الحال ، أمدكم الله بنصره
والقى في قلوبهم الرعب فيولونكم الأدبار انهزاما منكم ، ثم لا ينصرون عليكم
بل تنصرون أنتم عليهم .والتعبير عن الهزيمة بتولية الأدبار ، فيه إشارة إلى
جبنهم وأنهم يفرون فرارا شديدا بذعر وهلع .وهكذا كان الشأن فى قتال
المسلمين الأولين لأعداء الله وأعدائهم ، فلقد قاتل المؤمنون اليهود من بنى
قيناع والنضير وقريظة وأهل خيبر فانتصر المسلمون عليهم انتصاراً باهراً
وقاتلوا جموع الروم فى بلاد الشام وفى مصر ، فكان النصر المؤزر حليفا.
. للمسلمين مع قلتهم وكثرة أعدائهم .وقوله { ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ } احتراس
أى : يولونكم الأدبار تولية المنهزم ، لا تولية المتحرف لقتال أو المتحيز
إلى فئة أو المتأمل فى الأمر .والتعبير ب { ثُمَّ } لإفادة التراخى فى
المرتبة : لأن الإخبار بتسليط الخذلان عليهم أعظم من الإخبار بتوليهم
، الأدبار .وهذه الجملة خبرية وهى معطوفة على جملتى الشرط وجزائه معا
للإشعار بأن هذا ديدنهم ، وأنهم لن ينتصروا على المسلمين لا فى قتال ولا فى
- غيره ، ما دام المسلمون مستقيمين على الطريقة التى رسمها الله - تعالى
لهم .وقد وضح هذا المعنى صاحب الكشاف فقال : فإن قلت : هلا جزم المعطوف فى
قوله { ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ } ؟ قلت : عدل به عن حكم الجزاء إلى حكم
إبتداء كأنه قيل أخبركم أنهم لا ينصرون .فإن قلت : فأى فرق بين رفعه وجزمه
فى المعنى؟ قلت لو جزم لكان النصر مقيدا بمقاتلتهم كتولية الأدبار وحين رفع
كان نفى النصر وعدا مطلقا كأنه قال . ثم شأنهم وقصتهم التى أخبركم عنها
وأبشركم بها بعد التولية أنهم مخذولون منتف عنهم النصر والقوة لا ينهضون
بعدها بجناح ولا يستقيم لهم أمر ، وكان كما أخبر من حال بنى قريظة والنضير
وبنى قينقاع ويهود خيبر فإن قلت : فما الذى عطف عليه هذا الخبر؟ قتل : جملة
الشرط والجزاء كأنه قيل : أخبركم أنهم إن يقاتلوكم ينهزموا ، ثم أخبركم
أنهم لا ينصرون . فإن قلت فما معنى التراخى فى ثم؟ قلت : التراخى فى
المرتبة ، لأن الاخبار بتلسيط الخذلان عليهم أعظم من الإخبار بتوليتهم
الأدبار فإن قلت : ما موقع الجملتين ، أعنى { مِّنْهُمُ المؤمنون } و { لَن
يَضُرُّوكُمْ } قلت هما كلامان واردان على طريق الاستطراد عند إجراء ذكر
أهل الكتاب ، كما يقول القائل : وعلى ذكر فلان فإن من شأنه كيت وكيت ولذلك
جاءا من غير عطف " .فأنت ترى الآية الكريمة قد بشرت المؤمنين الصادقين
ببشارات ثلاث :أولها : أنهم فى مأمن من الضرر البليغ الذى يؤثر فى كيانهم
، وعزتهم وكرامتهم من جهة أهل الكتاب .ثانيها : أن أهل الكتاب لو قاتلوهم
فإن المؤمنين سيكون لهم النصر عليهم .ثالثها : أنهم بعد نصرهم عليهم لن
تكون لأهل الكتاب - وعلى رأسهم اليهود - شوكة أو قوة للأخذ بثأرهم بعد ذلك
وقد تحققت هذه البشارات ، وكانت كما أخبر الله - تعالى - فإن المسلمين.
الأولين الذين كانوا متمسكين بتعاليم دنيهم نصرهم الله - تعالى - على أهل
الكتاب وعلى غيرهم من أعدائهم نصرا مؤزرا - كما سبق أن أشرنا - .فإن قال
قائل : ولكن الذى نراه الآن أن اليهود الذين لا يمارى أحد فى جبنهم وفى
حرصهم على الحياة قد انتصروا على المسلمين وأقاموا لهم دولة فى بقعة من أعز
بقاع البلاد الإسلامية وهى فلسطين فهل يخلف وعد الله؟والجواب على ذلك . أن
وعد الله - تعالى -لا يخلف ولن يتخلف وقد حققه - سبحانه - لأسلافنا
الصالحين الذى آمنوا به حق الإيمان . ولكن المسلمين فى هذا العصر هم الذين
تغيرت أحوالهم ، فقد فرطوا فى دينهم وأضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات
وتفرقوا شيعاً وأحزاباً وتنكبوا الطريق القويم ولم يباشروا الأسباب التى
شرعها الله - تعالى - لبلوغ النصر ، ولم يحسنوا الشعور بالمسئولية .فلما
فعلوا ذلك تبدل حالهم من الخير إلى الشر ، ومن القوة إلى الضعف .وسلط الله
عليهم من لا يخافهم ولا يرحمهم ، لأنه - سبحانه - { لاَ يُغَيِّرُ مَا
بِقَوْمٍ حتى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ } وإذا ما عاد المسلمون إلى
- دينهم فطبقوا أوامره ونواهيه على أنفسهم تطبيقا كاملا ، فإن الله - تعالى

سيعيدِ لهم كرامتهم وعزتهم وقوتهم { وَلَيَنصُرَنّ الله مَن يَنصُرُهُ إِنّ الله لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ } ومن هنا نعلم أ ، الشرط فى نفى الذى يؤثر فى نفى الضرر الذى يؤثر فى الأمة الإسلامية ، هو أن تكون مؤمنة بربها حق الإيمان متبعة لهدى رسولها محمد صلى الله عليه وسلم .

ضربت عليهم الذلة اين ما ثقفوا الا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بانهم كانوا يكفرون بايات الله ويقتلون الانبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك بعض العقوبات التى عاقب بها اليهود بسبب كفرهم وظلمهم فقال : { ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذلة أَيْنَ مَا ثقفوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ الله وَحَبْلٍ مِّنَ الناس } .وأصل الضرب في كلام العرب يرجع إلى معنى التقاء ظاهر جسم بظاهر جسم آخر بشدة يقال ضرب فلان بيده الأرض إذا ألصقها بها ، وتفرعت عن هذا المعنى معان مجازية أخرى ترجع إلى شدة اللصوق .والذلة على وزن فعلة من قول القائل : ذل فلان يذل ذلة وذلا . والمراج بها الصغار والهوان والحقارة .فضرب الذلة عليهم كناية عن لزومها لهؤلاء اليهود ، وإحاطتها بهم ، كما يحيط السرادق بمن يكون فى داخله قال صاحب الكشاف : جعلت الذلة محيطة بهم مشتملة عليهم ، فهم كمن يكون فى. القبة من ضربت عليهم ، أو الصقت بهم حتى لزمتهم ضربة لازب كما يضرب الطين على الحائط فيلزمه . فاليهود صاغرون أذلاء أهل مسكنة ومدقعة " .و { ثقفوا } أى وجدوا ، أو ظفر بهم . يقال : ثقفه أى صادفه أو ظفر به أو أدركه . وهذه المادة تدل على التمكن من أخذ الشىء ومن التصرف فيه بشدة ومنها سمى الأسير ثقافا . والثقاف آلة تكسر بها أغماد الرماح .والحبل : هو ما يربط بين شيئين ويطلق على العهد لأن الناس يرتبطون بالعهود : كما يقع الارتباط الحسى بالحبال ، وهذا الإطلاق هو المراد هنا .ولذا قال ابن جرير : وأما الحبل الذى ذكره الله - تعالى - فى هذا الموضوع ، فإنه السبب الذى يأمنون به على أنفسهم من المؤمنين وعلى أموالهم وذراريهم من عهد وأمان تقدم لهم عقده قبل أن يثقفوا فى بلاد الإسلام .والمعنى : أن هؤلاء اليهود أحاطت بهم الذلة فى جميع أحوالهم أينما وجدوا وحيثما حلوا إلا فى حال اعتصامهم بعهد من الله أو بعهد من الناس .وقد فسر العلماء عهد الله بعقد الجزية الذى يربط بينهم وبين المسلمين .وإنما كان عقد الجزية عهدا من الله لهم ، لأنه - سبحانه - هو ، الذى شرعه ، وما شرعه الله فالوفاء به واجب .وكان عهدا من المسلمين لهم لأنهم أحد طرفيه ، فهم الذين باشروه مع اليهود وبمقتضاه يحفظون حقوقهم ودماءهم وأموالهم؛ ويكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، ولعى المسلمين حمايتهم ، وصون أموالهم لقاء مقدار من المال يدفع لهم كل عام وهو المسمى بالجزية .وأما عهد الناس ، فهو العهود التى يعيشون بمقتضاها فى أى أمة من أمم الأرض مسلمة كانت هذه الأمة أو كافرة .فإن كانت العهود صادرة من المسلمين ، جاز أن يطلق عليها عهد الله - أيضاً - باعتبار أن الله هو الذى شرعها .وإن كانت من غير المسلمين فهى عهود من الناس سواء أوافقت شريعة الله - تعالى - أم لا .والمعنى الإجمالي للآية : أن اليهود قد ضرب الله - تعالى عليهم الذلة والمسكنة فى كل زمان ومكان بسبب كفرهم وطغيانهم ، وسلب عنهم السلطان والملك ، فهم يعيشون فى بقاع الأرض فى حماية غيرهم من الأمم الأخرى - بمقتضى عهود يعقدونها معهم وقد تكون هذه العهود موافقة لشرع الله ، ، تعالى - وقد لا تكون موافقة .فإن قال قائل : إنهم الآن أصحاب جاه وسلطان بعد أن أنشأوا دولتهم بفلسطين!!والجواب : أنهم مع قيام هذه الدولة يعيشون تحت حماية غيرهم من دول الكفر الكبرى . فهى التى تحميهم وتمدهم بأسباب الحياة والقوة ، فينطبق على هذه الحالة - أيضاً - أنها بحبل من الناس . فاليهود لا سلطان لهم ، ولا عزة تكمن فى نفوسهم ، ولكنهم مأمورون مسخرون أن يعيشوا فى تلك البقعة من الأرض لتكون مركزا لتلك الأمم التى تعهدت بحمايتهم ما استطاعوا من قوة لقتال أعداء الله وأعدائهم .لو أنهم فعلوا ذلك لما كان حالهم كما ترى الآن من ضعف وتخاذل وتفرق والأمل كبير فى أن يتنبه المسلمون إلى ما يحيط بهم من أخطار فيعملوا على دفعها ويعتصموا بحبل الله لتعود لهم قوتهم وهيبتهم .لو أنهم فعلوا ذلك لما كان حالهم كما ترى الآن من ضعف وتخاذل وتفرق والأمل كبير فى أن يتنبه المسلمون إلى ما يحيط بهم من أخطار ، فيعملوا على دفعها ويعتصموا بحبل الله لتعود لهم قوتهم وهيبتهم .هذا وقوله : { أَيْنَ مَا } اسم شرط ، وهو ظرف مكان و " ما " مزيدة فيها للتأكيد .وقوله { ثقفوا } فى محل جزم بها .وجواب الشرك محذوف يدل عليه ما } قبله أى : أينما ثقفوا غلبوا أو ذلوا .ويجوز أن يكون جواب الشرط قوله ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذلة } عند من يجوز تقديم جواب الشرط على الشرط والاستثناء فى قوله { إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ الله وَحَبْلٍ مِّنَ الناس }. مفرغ من عموم الأحوال أى ضربت عليهم الذلة فى عامة الأحوال إلا فى حال اعتصامهم بحبل من الله وحبل من الناس .ثم ذكر - سبحانه - عقوبتين أخريين أنزلهما بهم جزاء كفرهم وتعديهم لحدوده فقال تعالى : { وَبَآءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ الله وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ المسكنة } .قال ابن جرير : قوله -

تعالى - { وَبَآءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ الله } أى انصرفوا ورجعوا .ولا يقال
باؤوا ، إلا موصولا إما بخير وإما بشر . يقال منه : باء فلان بذنبه يبوء به
بوأ وبواء . ومنه قوله - تعالى - { إني أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي
وَإِثْمِكَ } يعنى تنصرف متحملهما ، وترجع بهما قد صارا عليك دونى . فمعنى
الكلام إذا : ورجعوا منصرفين متحملين غضب الله ، قد صار عليهم من الله غضب
ووجب عليهم منه سخط " .والمسكنة : مفعلة من السكون ، ومنها أخذ لفظ ،
المسكين . لأن الهم قد أثقله فجعله قليل الحركة والنهوض لما به من الفاقة
والفقر .والمراد بها فى الآية الكريمة الضعف النفسي ، والفقر القلبي الذى
يستولى على الشخص فيجعله يحس بالهوان مهما تكن لديه من أسباب القوة .والفرق
بينها وبين الذلة : أن الذلة تجيء أسبابها من الخارج . كأن يغلب المرء على
أمره نتيجةانتصار عدوه عليه فيذل لهذا العدو .أما المسكنة فهى تنشأ من داخل
النفس نتيجة بعدها عن الحق ، واستيلاء المطامع والشهوات وحب الدنيا عليها
والمعنى : أن هؤلاء اليهود يجانب ضرب الذلة عليهم حينما حلوا ، قد صاروا
فى غضب من الله ، وأصبحوا أحقاء به ، وضربت عليهم كذلك المسكنة التى تجعلهم
يحسون بالصغار مهما ملكوا من قوة ومال .ثم ذكر - سبحانه - الأسباب التى
جعلتهم أحقاء بهذه العقوبات فقال - تعالى - : { ذلك بِأَنَّهُمْ كَانُوا
يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ الله وَيَقْتُلُونَ الأنبيآء بِغَيْرِ حَقٍّ ذلك
بِمَا عَصَوْاْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ } .فاسم الإشارة ذلك يعود إلى تلك
العقوبات العادلة التى عاقبهم الله بها بسبب كفرهم وفسقهم .والآيات : تطلق
ويراد بها الأدلة الشاهدة على وحدانية الله - تعالى - وربوبيته وتطلق ويراد
بها النصوص التى تشتمل عليها الكتب السماوية ، وتطلق ويراد بها الأدلة
- الشاهدة على صدق الرسل - عليهم الصلاة والسلام - فيما يبلغون عن الله
تعالى - ، وهى التي يسميها علماء التوحيد بالمعجزات .وقد كفر اليهود بكل
} هذه الضروب من الآيات ومردوا على ذلك كما يفيده التعبير بالفعل المضارع
يَكْفُرُونَ } .أى : ذلك الذى أصابهم من عقوبات رادعة ، سببه أنهم كانوا
يكفرون بآيات الله وأدلته الدالة على وحدانيته وعلى صدق رسله - عليهم
الصلاة والسلام - وتلك هى جريمة بنى إسرائيل الأولى.أما جريمتهم الثانية
فقد عبر عنها - سبحانه - بقوله { وَيَقْتُلُونَ الأنبيآء بِغَيْرِ حَقٍّ }
أى أنهم لم يكتفوا بالكفر ، بل امتدت أيديهم الأثيمة إلى دعاة الحق وهم
أنبياء الله - تعالى - الذين أرسلهم لهدايتهم فقتلوهم بدون أدنى شبهة تحمل
على الإساءة إليهم فضلا عن قتلهم .وقال - سبحانه - { بِغَيْرِ حَقٍّ } مع
أن قتل الأنبياء لا يكون بحق أبدا . لإفادة أن قتلهم لهم كان بغير وجه
معتبر فى شريعتهم لأنها تحرمه .قال - تعالى - { مِنْ أَجْلِ ذلك كَتَبْنَا
على بني إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ
فَسَادٍ فِي الأرض فَكَأَنَّمَا قَتَلَ الناس جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا
فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً }فهذا القيد المقصود به الاحتجاج
عليهم بأصول دينهم ، وتخليد مذمتهم ، وتقبيح إجرامهم حيث إنهم قتلوا
أنبياءهم بدون خطأ فى الفهم ، أو تأول فى الحكم أو شبهة فى الأمر ، وإنما
فعلوا ما فعلوا وهم عالمون بقبح ما ارتكبوا ، ومخالفون لشرع الله عن تعمد
وإصرار .ولذا قال صاحب الكشاف : فإن قلت : قتل الأنبياء لا يكون إلا بغير
الحق ، فما فائدة ذكره؟ قلت : معناه أنهم قتلوهم بغير الحق عندهم ، لأنهم
لم يقتلوا ولا أفسدوا فى الأرض فيقتلوا ، وإنما نصحوهم ودعوهم إلى ما
ينفعهم فقتلوهم .فلو سئلوا وأنصفوا من أنفسهم لم يذكروا وجها يستحقون به
} : القتل عندهم .وقال الفخر الرازي ما ملخصه : فإن : قيل : قال هنا
} وَيَقْتُلُونَ الأنبيآء بِغَيْرِ حَقٍّ } وقال فى سورة البقرة
وَيَقْتُلُونَ النبيين بِغَيْرِ الحق } فما الفرق؟ قلت : إن الحق المعلوم
بين المسلمين الذى يوجب القتل يتجلى فى حديث : "لا تحل دم امرىء مسلم إلا
بإحدى ثلاث : كفر بعد إيمان ، وزنا بعد إحصان وقتل نفس بغير حق " فالحق
المذكور فى سورة البقرة إشارة إلى هذا . وأما الحق المنكر هنا فالمراد به
تأكيد العموم أى لم يكن هناك أى حق يستندون إليه ، لا هذا الذى يعرفه
المسلمون ولا غيره ألبتة .ونسب - سبحانه - القتل إلى أولئك اليهود
المعاصرين للعهد النبوى مع أن القتل قد صدر عن أسلافهم ، لأن أولئك
، المعاصرين كانوا راضين بفعل آبائهم وأجدادهم ، فصحت نسبة القتل إليهم
ولأن بعض أولئك المعاصرين قد هَمَّ بقتل النبى صلى الله عليه وسلم فكف
الله - تعالى - أيديهم الأثيمة عنه .ثم سجل الله - تعالى - جريمتهم الثالثة
بقوله { ذلك بِمَا عَصَوْاْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ } .العصيان : الخروج
عن طاعة الله ، والاعتداء : تجاوز الحد الذى حده الله - تعالى - لعباده إلى
غيره وكل متجاوز حد شيء إلى غيره فقد تعداه إلى ما جاوز إليه .وللمفسرين فى
: مرجع اسم الإشارة { ذلك } فى قوله { ذلك بِمَا عَصَوْاْ } رأيان :أولهما
أنه يعود إلى كفرهم بآيات الله وقتلهم لأنبيائه ، وعليه يكون المعنى :إن
، هؤلاء اليهود قد ألفوا العصيان لخالقهم والتعدى لحدوده بجرأة وعدم مبالاة
فنشأ عن هذا التمرد والطغيان أن كفروا بآيات الله وقتلوا أنبياءه ، وباشروا
تلك الكبائر بقلوب كالحجارة أو أشد قسوة .والجملة الكريمة على هذا الرأى
تفيد أن التردى فى المعاصى ، وارتكاب ما نهى الله عنه ، وتجاوز الحدود

المشروعة ، يؤدى إلى الانتقال من صغير الذنوب إلى كبيرها ومن حقيرها إلى
عظيمها لأن هؤلاء اليهود حين استمرأوا المعاصى ، هانت على نفوسهم الفضائل ، وانكسرت أمام شهواتهم كل المثل العليا فكذبوا بآيات الله تكذيبا ، وقتلوا
من جاءهم بالهدى ودين الحق .وثانيهما : أن اسم الإشارة { ذلك } فى قوله
{ ذلك بِمَا عَصَوْاْ } يعود إلى نفس المشار إليه باسم الإشارة الأول وهو
قوله { ذلك بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ } .وتكون الحكمة فى تكرار
الإشارة هو تمييز المشار إليه ، حرصاً على معرفته ، ويكون العصيان والاعتداء سببين آخرين لضرب الذلة والمسكنة عليهم واستحقاقهم لغضب الله كما أشرنا من قبل .والإشارة حينئذ من قبيل التكرير المغنى عن العطف كما فى
قوله - تعالى - { أولئك كالأنعام بَلْ هُمْ أَضَلُّ أولئك هُمُ الغافلون }
والمعنى : أن هؤلاء اليهود قد لزمتهم الذلة والمسكنة ، وصاروا أحقاء بسخط الله بسبب كفرهم بآياتنا وقتلهم أنبياءنا وخروجهم عن طاعتنا ، وتعديهم حدودنا .وعلى هذا الرأى يكون ذكر أسباب العقوبة التى حلت بهم فى الدرجة العليا من حسن الترتيب فقد بدأ - سبحانه - بما فعلوه فى حقه وهو كفرهم بآياته . ثم ثنى بما يتلوه فى العظم وهو قتلهم لأنبيائه ، ثم وصمهم بعد ذلك بالعصيان والخروج عن طاعته ، ثم ختم أسباب العقوبة بدمغهم بالاعتداء وتخطى الحدود ، وعدم المبالاة بالعهود .وهذا الترتيب من لطائف أسلوب القرآن الكريم فى سوق الأحكام مشفوعة بعللها وأسبابها .وبذلك نرى أن الآيات ، الكريمة قد بدأت حديثها بمدح الأمة الإسلامية بأنها خير أمة أخرجت للناس ثم ثنت بدعوة أهل الكتاب إلى الإسلام وبإخبار المؤمنين بأن أعداءهم لن يضروهم ضررا يؤثر فى كيانهم ما داموا معتصمين بتعاليم دينهم ، ثم ختمت حديثها ببيان العقوبات التى حلت باليهود بسبب كفرهم وبغيهم .وبعد هذا الحديث الحكم عن أهل الكتاب ، وعن العقوبات التى أنزهلا - سبحانه - باليهود بسبب فسقهم وظلمهم ، بعد كل ذلك ساق - سبحانه - آيات كريمة تمدح من يستحق المدح من أهل الكتاب إنصافا لهم وتكريما لذواتهم فقال - تعالى - : { . . . لَيْسُواْ سَوَآءً .

ليسوا سواء من اهل الكتاب امة قائمة يتلون ايات الله اناء الليل وهم يسجدون

كما فسرها الوسيط الضمير فى قوله - تعالى - { لَيْسُواْ سَوَآءً } يعود
لأهل الكتاب الذين تقدم الحديث عنهم وهو اسم ليس ، وخبرها قوله { سَوَآءً }
والجملة مستأنفه للثناء على من يستحق الثناء منهم بعد أن وبخ القرآن من يستحق التوبيخ منهم .قال ابن كثير : والمشهور عند كثير من المفسرين أن هذه الآيات نزلت فيمن آمن من أحبار أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأسد بن عبيد ، وثعلبة بن شعبة وغيرهم . أى لا يستوى من تقدم ذكرهم بالذم من أهل الكتاب
وهؤلاء الذين أسلموا ، ولهذا قال - تعالى - { لَيْسُواْ سَوَآءً } أى ليسوا
كلهم على حد سواء بل منهم المؤمن ومنهم المجرم .وقوله - تعالى - { مِّنْ
أَهْلِ الكتاب أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ } استئناف مبين لكيفية عدم التساوى ومزيل لما فيه من إيهام .أى : ليس أهل الكتاب متساوين فى الكفر وسوء الأخلاق ، بل منهم طائفة قائمة بأمر الله مطيعة لشرعه مستقيمة على طريقته ثابتة على الحق ملازمة له ، لم تتركه كما تركه الأكثرون من أهل الكتاب وضيعوه .فمعنى قائمة مستقيمة عادلة من قولك أقمت العود فقام بمعنى استقام .أو معناها : ثابتة : على التمسك بالدين الحق ، ملازمة له غير مضطربة فى التمسك به ، كما فى
قوله - تعالى - { إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِماً } أى ملازمة
لمطالبته بحقك . ومنه قوله - تعالى - { شَهِدَ الله أَنَّهُ لاَ إله إِلاَّ
هُوَ والملائكة وَأُوْلُواْ العلم قَآئِمَاً بالقسط } أى ملازما له
} والمراد بهذه الطائفة من أهل الكتاب التى وصفها الله - تعالى - بأنها .
أُمَّةٌ } قائمة أولئك الذين أسلموا منهم واستقاموا على أمر الله وأطاعوه
فى السر والعلن ، كعبد الله بن سلام ، وأصحابه ، والنجاشى ومن آمن معه من النصارى . فهؤلاء قد آمنوا بكل ما يجب الإيمان به ، ولم يفرقوا بين أنبياء الله ورسله ، فمدحهم الله على ذلك وأثنى عليهم .ثم تابع القرآن حديثه عن أوصافهم الكريمة فقال { يَتْلُونَ آيَاتِ الله آنَآءَ الليل وَهُمْ
يَسْجُدُونَ } .وقوله { يَتْلُونَ } من التلاوة وهى القراءة ، وأصل الكلمة
: من الإتباع ، فكأن التلاوة هى اتباع اللفظ اللفظ .والمراد بآيات الله هنا
ما أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم من قرآن .وقوله : { آنَآءَ
الليل } أى أوقاته وساعاته . والآناء جمع إنىَ - كمعاً وأمعاء - أو جمع
أنىَ - كعصاً - ، أو جمع أنىَ وإنى وإنو . فالهزة فى آناء منقلبة عن ياء
كرداء : أو عن واو ككساء .والمراد بالسجود فى قوله : { وَهُمْ يَسْجُدُونَ
الصلاة لأن السجود لا قراءة فيه وإنما فيه التسبيح ، فقد روى مسلم فى { صحيحه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ألا إنى
نهيت أن أقرأ القرآن راكعاً أو ساجداً فأما الركوع فعظموا فيه الرب ، وأما السجود فاجتهدوا فى الدعاء فقمن أن يستجاب لكم " .والمعنى : ليس أهل الكتاب
متساوين فى الاتصاف بما ذكر من القبائح ، بل منهم قوم سلموا منها ، وهم
الذين استقاموا على الحق ولزموه ، وأكثروا من تلاوة آيات الله فى صلاتهم

التى يتقربون بها إلى الله - تعالى - آناء الليل وأطراف النهار .قال
- الآلوسى ما ملخصه . والمراد بصلاتهم هذه التهجد - على ما ذهب إليه البعض
وعلل هذا بأنه أدخل فى المدح وفيه تتيسر لهم التلاوة ، لأنها فى المكتوبة .
وظيفة الإمام .والذى عليه بعض السلف أنها صلاة العتمة . واستدل عليه بما
أخرجه الإمام أحمد والنسائى وابن جرير والطبرانى عن ابن مسعود قال آخر رسول
الله صلى الله عليه وسلم ليلة صلاة العشاء ثم خرج إلى المسجد فإذا الناس
" ينتظرون الصلاة فقال : " أما إنه لا يصلى هذه الصلاة أحد من أهل الكتاب
وعبر عن الصلاة بالسجود ، لأنه أدل على كمال الخضوع والصلاة تسمى سجودا
. وسجدة ، وركوعا وركعة

يؤمنون بالله واليوم الاخر ويامرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات واولئك من الصالحين

} : كما فسرها الوسيط صم وصفهم - سبحانه - بصفات أخرى كريمة فقال
يُؤْمِنُونَ بالله } والمراد بهذا الإيمان بجميع ما يجب الإيمان به على
}. الوجه المقبول الذى نطق به الشرع ، وجاء به محمد صلى الله عليه وسلم
واليوم الآخر } أى ويؤمنون باليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب وجنة ونار
وقوله : { وَيَأْمُرُونَ بالمعروف وَيَنْهَوْنَ عَنِ المنكر } إشعار بأنهم
لم يكتفوا بتكميل أنفسهم بالفضائل التى من أشرفها الإيمان بالله واليوم
الآخر ، والإكثار من إقامة الصلاة ومن تلاوة القرآن ، بل أضافوا إلى ذلك
إرشاد غيرهم إلى الخير الذى أمر الله به ، ونهيه عن الباطل الذى يبغضه الله
وتستنكره العقول السليمة .وقوله - تعالى - { وَيُسَارِعُونَ فِي الخيرات ،
أى يبادرون إلى فعل الخيرات والطاعات التى ترفع درجاتهم عند الله - بدون {
تردد أو تقصير .وقال - سبحانه - : { وَيُسَارِعُونَ فِي الخيرات } ولم يقل
إلى الخيرات للإشعار بأنهم مستقرون فى كل أعمالهم فى طريق الخير ، فهم
ينتقلون من خير إلى خير فى دائرة واحدة هى دائرة الخير ، ينتقلون بين
زواياها وأقطارها ولا يخرجون منها . فهم لا ينتقلون مسارعين من شر إلى خير
وإنما ينتقلون مسارعين من خير إلى خير وهذا هو سر التعبير بفى المفيدة .
للظرفية .والمسارعة فى الخير هى فرط الرغبة فيه ، لأن من رغب في الأمر
" يسارع فى توليه وفى القيام به ، واختيار صيغة المفاعلة " يسارعون
للمبالغة فى سرعة نهوضهم لهذا العمل الجامع لفنون الخير ، وألوان البر .قال
صاحب الكشاف . وقوله : { يَتْلُونَ } و { يُؤْمِنُونَ } في محل الرفع صفتان
لأمة . أى : قائمة تالون مؤمنون . وصفهم بخصائص ما كانت فى اليهود من تلاوة
، آيات الله بالليل ساجدين ، ومن الإيمان بالله ، لأن إيمانهم به كلا إيمان
لاشراكهم به عزيرا ، وكفرهم ببعض الكتب والرسل دون بعض : ومن الإيمان
باليوم الآخر ، لأنهم يصفونه بخلاف صفته .ومن الأمر بالمعروف والنهى عن
المنكر ، لأنهم كانوا مداهنين . ومن المسارعة فى الخيرات ، لأنهم كانوا
متباطئين عنها غير راغبين فيها " .واسم الإشارة فى قوله : { وأولئك مِنَ
الصالحين } يعود إلى الموصوفين بتلك الصفات السابقة من تلاوة الكتاب ومن
إيمان بالله واليوم الآخر .أى وأولئك المصوفون بتلك الصفات الجليلة الشأن
من جملة الصالحين الذين صلحت أحوالهم عند الله ورضيهم ، واستحقوا ثناءه
عليهم .وفى التعبير بقوله : { مِنَ الصالحين } إشارة إلى أنهم بهذه المزايا
- وتلك الصفات ، قد انسلخوا من عداد أهل الكتاب الذين ذمهم الله - تعالى
ووصفهم بأن أكثرهم من الفاسقين .فهم بسبب إيمانهم وأفعالهم الحميدة قد
خرجوا من صفوف المذمومين إلى صفوف الممدوحين .قال الفخر الرازى : وأعلم أن
، وصفهم بالصلاح فى غياة المدح ، ويدل عليه القرآن والمعقول . أما القرآن
فهو أن الله - تعالى - مدح بهذا الوصف أكابر الأنبياء ، فقال بعد ذكر إدريس
وإسماعيل وذى الكفل وغيرهم { وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ
مِّنَ الصالحين } وذكر حكاية عن سليمان أنه قال : " وأدخلنى برحمتك فى
عبادك الصالحين " . وأما المعقول ، فهو أن الصلاح ضد الفساد ، وكل ما لا
ينبغى أن يكون فهو فساد ، سواء كان ذلك فى العقائد أو فى الأعمال ، فإذا
كان كل ما حصل من باب ما ينبغى أن يكون فقد حصل الصلاح ، فكان الصلاح دالا
. على أكمل الدرجات

وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أنه لن يضيع شيئا مما قدموه من أعمال
صالحة ، بل سيكافئهم على ذلك بما هو أفضل وأبقى فقال : { وَمَا يَفْعَلُواْ
مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَروهُ } أى أن هؤلاء الذين وصفهم بتلك الصفات
الطيبة لن يضيع الله شيئا مما قدموه من عمل صالح ، وإنما سيجازيهم بما هم
أهله من ثواب جزيل ، وأجر كبير بدون أي نقصان أو حرمان .و { وَمَا } فى
} : قوله : { وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ } شرطية . وفعل الشرط قوله
: يَفْعَلُواْ } وجوابه قوله : { فَلَنْ يُكْفَروهُ } .و { مِنْ } فى قوله
لتأكيد العموم أى ما يفعلوا من أى خير سواء أكان قليلا أم { مِنْ خَيْرٍ }

كثيرا فلن يحرموا ثوابه .وأصل الكفر : الستر والتغطية . وقد صح تعدية الفعل
كفر إلى مفعولين لأنه هنا بمعنى حرم .ولذا قال صاحب الكشاف : فغن قلت لم
عدى إلى مفعولين ، وشكر وكفر لا يتعديان إلا إلى واحد تقول : شكر النعمة
وكفرها؟ قلت : ضمن معنى الحرمان فكأنه قيل : فلن يحرموه بمعنى : فلن يحرموا
. جزاءه " .وقوله : { والله عَلِيمٌ بالمتقين } تذييل مقرر لمضمون ما قبله
، أى هو - سبحانه - عليم بأحوال عباده وسيجازى التمقين بما يستحقون من ثواب
وسيجازى الكافرين بما يستحقون من عقاب .فأنت ترى أن هذه الآيات الكريمة قد
أنصفت المؤمنين الصادقين من أهل الكتاب ، ووصفتهم بجملة من الصفات الطيبة
وصفتهم بأنهم طائفة ثابتة على الحق . وأنهم يتلون آيات آناء الليل وأطراف.
النهار ، وأنهم مكثرون من التضرع إلى الله فى صلواتهم وسجودهم ، وأنهم
يؤمنون بالله واليوم الآخر وأنهم يأمرون بالمعروف ، وأنهم ينهون عن المنكر
وأنهم يسارعون فى الخيرات ، وأنهم من الصالحين .ثم بشرهم - سبحانه - بعد .
- وصفهم بهذه الصفات الكريمة بأن ما يقدموه من خير فلن يحرموا ثوابه ، لأنه
سبحانه - عليم بأحوال عباده ولن يضيع أجر من أحسن عملا .الحديث المؤثر عن
أحوال المؤمنين من أهل الكتاب وبيان ما أعده الله لهم من ، أتبعه بالحديث
عن الكافرين وعن سوء عاقبتهم وعن أهم الأسباب التى أدت إلى كفرهم وفسوقهم
. فقال - تعالى - : { إِنَّ الذين كَفَرُواْ . . . }

ان الذين كفروا لن تغني عنهم اموالهم ولا اولادهم من الله شيئا واولئك
اصحاب النار هم فيها خالدون

كما فسرها الوسيط المراد بالذين كفروا فى قوله : { إِنَّ الذين كَفَرُواْ }
جميع الكفار ، لأن اللفظ عام ، ولا دليل يقتضى تخصيصه بفريق من الكافرين
دون فريق. والمراد من الإغناء فى قوله : { لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ
أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ مِّنَ الله شَيْئاً } الدفع وسد الحاجة
يقال : أغنى فلان فلانا عن هذا الأمر ، إذا كفاه مؤنته ، ورفع عنه ما أثقله
منه .أى : إن الذين كفروا بما يجب الإيمان به ، واغتروا بأموالهم وأولادهم
فى الدنيا ، لن تدفع عنهم أموالهم ولا أولادهم شيئاً - ولو يسيرا - من عذاب
- الله الذى سيحيق بهم يوم القيامة بسبب كفرهم وجحودهم .وقد أكد - سبحانه
عدم إغناء أموالهم ولا أولادهم عنهم شيئاً - فى وقت هم فى أشد الحاجة إلى
من يعينهم ويدفع عنهم - بحرف " لن " المفيد لتأكيد النفى وخص الأموال
والأولاد بالذكر ، لأن الكفار كانوا أكثر ما يكونون اغتراراً بالأموال
والأولاد ، وقد حكى القرآن غرورهم هذا بأموالهم وأولادهم فى كثير من الآيات
ومن ذلك قوله - تعالى - : {وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً ،
وَأَوْلاَداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ } ولأن من المتعارف عليه بين
الناس أن الإنسان يلجأ إلى ماله وولده عند الشدائد ، إذ المال يدفع به
الإنسان عن نفسه فى الفداء وما يشبهه من المغارم ، والأولاد يدافعون عن
أبيهم لنصرته ممن يعتدى عليه .وكرر حرف النفى مع المعطوف فى قوله : { وَلاَ
أَوْلاَدُهُمْ } ، لتأكيد عدم غناء أولادهم عنهم ، ولدفع توهم ما هو متعارف
من أن الأولاد لا يقعدون عن الذب عن آبائهم .فالمقصود من الجملة الكريمة
نفى الانتفاع بالأموال والأولاد فى حالة اجتماعهما ، وفى حالة انفراد
أحدهما عن الآخر ، لأن المال قد يكون أكثر نفعا فى مواضع خاصة ، والأولاد
قد يكونون أكثر نفعا من المال فى مواطن أخرى ، فبتكرار النفى تأكد عدم
انتفاع الكفار بهذين النوعين فى أية حال من الأحوال .فإن قيل : لقد نص
القرآن على أن الكفار لا تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم يوم القيامة ، مع
أن المؤمنين كذلك لا تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم فلماذا خص الكافرين
بالذكر؟ .فالجواب أن الكافرين هم الذين اغتروا بأموالهم وأولادهم ، وهم
الذين اعتقدوا أنهم سينجون من العقاب بسبب ذلك ، أما المؤمنون فإنهم فم
يعتقدوا هذا الاعتقاد ، ولم يغتروا بما منحهم الله من نعم ، وإنما اعتقدوا
أن الأموال والألواد فتنة ، ولم يعتمدوا فى نجاتهم من عقاب الله يوم
} القيامة إلى على فضله ورحمته ، وعلى إيمانهم الصادق ، وعملهم الصالح .و
مِّنَ } فى قوله : { مِّنَ الله } ابتدائية ، والجار والمجرور متعلق بتغنى
وقوله : { شَيْئاً } منصوب على أنه مفعلو مطلق أى : لن تغنى عنهم أموالهم.
: ولا أولادهم شيئا من الاغناء والدفع .وتنكير { شَيْئاً } للتقليل .وقوله
تذيل قصد به بيان سوء { وأولئك أَصْحَابُ النار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }
عاقبتهم ، وما أعد لهم من عذاب شديد .أى وأولئك الكافرون المغترون بأموالهم
وأولادهم ، هم أصحاب النار الذين سيلازمونها ويصلون سعيرها ، ولن يصرفهم من
عذاب الله أى ناصر من أموال أو أولاد أو غيرهما .وقد أكد - سبحانه - هذا
الحكم العادل بعدة مؤكدات منها : التعبير باسم الإشارة المتضمن السلب من كل
قوة كانوا يعتزون بها ، ومنها : ذكر مصاحبتهم للنار وخلودهم فيها أى
ملازمتهم لها ملازمة أبدية ، ومنها : ما اشتملت عليه الجملة الكريمة من
معنى القصر أى أولئك أصحاب النار الذين يلازمونها ولا يخرجون منها إلى
. غيرها بل هم خالدون فيها

مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر اصابت حرث قوم ظلموا انفسهم فاهلكته وما ظلمهم الله ولكن انفسهم يظلمون

كما فسرها الوسيط ثم ضرب - سبحانه - مثلا لبطلان ما كان ينفقه هؤلاء الكافرون من أموال في الدنيا فقال : { مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هذه الحياة الدنيا } أى من أموال فى وجوه الخير المختلفة ، كمواساة البائسين ، ودفع حاجة المحتاجين .و { مَا } موصولة ، والعائد محذوف ، والتقدير ، مثل ما ينفقونه .{ كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ } أى كمثل ريح فيها برد شديد قاتل للنبات . وقيل : الصر . الحر الشديد وقيل الصر : صوت لهيب النار التى ، تحرق الثمار .وذكر - سبحانه - الصر على أنه فى الريح ، وأنها مشتملة عليه ، وهى له ظرف وهو مظروف ، للاشعار بأنها ريح لا تحمل عوامل النماء للزرع وإنما هى تحمل معها ما يهلكه .وقوله : { أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظلموا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ } أى أصابت زرع قوم ظلموا أنفسهم بالكفر وارتكاب المعاصى فدمرته وأهلكت ما فيه من ثمار وهم أحوج ما يكونون إلى هذا الزرع وتلك الثمار .والحرث هنا مصدر بمعنى المحروث ، وأصل كلمة حرث : فلح الأرض وإلقاء البذر فيها ، ثم أطلقت على ما هو نتيجة لذلك وهو الزرع .وفى التعبير بقوله : { ظلموا أَنْفُسَهُمْ } تذكير للسامعين ، وبعث لهم على ترك الظلم ، حتى لا يصابوا بمثل ما أصيب به أولئك الذين ظلموا أنفسهم من عقوبات رادعة ، وأضرار فادحة .ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : { وَمَا ظَلَمَهُمُ الله ولكن أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } أى أن الله - تعالى - ما ظلمهم حين لم يقبل نفقاتهم ، ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم بإيثارهم الكفر على الإيمان ، ومن كان كذلك فلن يقبل الله منه شيئا ؛ لأن الله تعالى ، إنما يتقبل من المتقين .والضمائر فى هذه الجملة الكريمة تعود على أولئك الكافرين الذين ينفقون أموالهم مقرونة بالوجوه المانعة من قبولها .وفى هذه الآية - الكريمة تشبيه بليغ ، فقد شبه - سبحانه - حال ما ينفقه الكفار فى الدنيا على سبيل القربة أو المفاخرة - شبه ذلك فى ضياعه وذهابه وقت الحاجة إليه فى الآخرة من غير أن يعود عليهم بفائدة ، بحال زرع لقوم ظالمين ، أصابته ريح مهلكة فاستأصلته ، ولم ينتفع أصحابه منه بشىء ، وهم أحوج ما يكونون إليه قال صاحب الانتصاف : أصل الكلام - والله أعلم - مثل ما ينفقون فى هذه. الحياة الدنيا ، كمثل حرث قوم ظلموا أنفسهم ، فأصابته ريح فيها صر فأهلكته ولكن خولف هذا النظم فى المثل المذكور لفائدة جليلة . وهى تقديم ما هو أهم. لأن الريح التى هى مثل العذاب ، ذكرها فى سياق الوعيد والتهديد أهم من ذكر الحرث .فقدمت عناية بذكرها ، واعتمادا على أن الأفهام الصحيحة تستخرج المطابقة برد الكلام إلى أصله على أيسر وجه ومثل هذا فى تحويل النظم لمثل هذه الفائدة قوله - تعالى - : { فَرَجُلٌ وامرأتان مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشهدآء أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا } ومثله - أيضا - . اعددت هذه الخشبة أن يميل الحائط فأدعمه . والأصل أن تذكر إحداهما الأخرى وإن ضلت . وأن أدعم بها الحائط إذا مال ، وأمثال ذلك كثيرة . "

يا ايها الذين امنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يالونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من افواههم وما تخفي صدورهم اكبر قد بينا لكم الايات ان كنتم تعقلون

كما فسرها الوسيط وبعد أن بين - سبحانه - سوء عاقبة الكافرين أكمل بيان وأحكمه ، حذر المؤمنين من أهل الكتاب ومن على شاكلتهم ممن لا يريدون للإسلام إلا الشرور والمضار فقال - تعالى - : { ياأيها الذين آمَنُواْ . . قال الفخر الرازى ما ملخصه : اختلفوا فى الذين نهى الله المؤمنين عن. { . مخالطتهم من هم؟ فقيل هم اليهود ، لأن بعض المسلمين كانوا يشاورونهم فى أمورهم ويؤانسونهم لما كان فيهم من الرضاع والحلف . وقيل هم المنافقون ، وذلك لأن بعض المؤمنين كانوا يغترون بظاهر أقوالهم فيفشون إليهم الأسرار } : والصحيح أن المراد بهم جميع أصناف الكفار ، والدليل عليه قوله تعالى بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ } فمنع المؤمنين أن يتخذوا بطانة من غير المؤمنين ، فيكون ذلك نهيا عن جميع الكفار " .والبطانة فى الأصل : داخل الثوب ، وجمعها بطائن . قال - تعالى - : ( مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الجنتين دَانٍ ) . وظاهر الثوب يسمى الظهارة ، والبطانة - أيضا - الثوب الذى يجعل تحت ثوب آخر ويسمى الشعار ، وما فوقه الدثار وفى الحديث " الأنصار شعار والناس دثار " .ثم أطلقت البطانة على صديق الرجل وصفيه الذى يطلع على شئونه الخفية تشبيها ببطانة الثياب فى شدة القرب من صاحبها . قال الشاعر :أولئك خلصائي نعم وبطانتى ... وهم عيبتى من دون كل قريبوقوله : { مِّن دُونِكُمْ } أى من غير أهل ملتكم .والمعنى :لا يجوز لكم - أيها المؤمنون - أن تتخذوا من غير أهل ملتكم أصفياء وأولياء تلقون إليهم بأسراركم لاتى لا يصح لكم أن تطلعوهم عليها ، لأنكم لو فعلتم ذلك لأصابكم الضرر فى دينكم ودنياكم .قال القرطبى : " نهى الله المؤمنين ، بهذه الآية أن يتخذوا من الكفار واليهود وأهل الأهواء دخلاء وولجاء

يفاوضونهم فى الآراء ويسندون إليهم أمورهم . وفى سنن أبى داود عن أبى هريرة
عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من
يخالل " وقيل لعمر بن الخطاب - رضى الله عنه - إن ههنا رجلا من نصارى
الحيرة لا أحد أكتب منه ولا أخط بقلم ، أفلا يكتب عنك؟ فقال :لا آخذ بطانة
من دون المؤمنين " .ثم قال القرطبى - رحمه الله - : قلت وقد انقلبت الأحوال
فى هذه الأزمان باتخاذ أهل الكتاب كتبة وأمناء ، وتسودوا بذلك عند الجهلة
الأغبياء من الولاة والأمراء . روى البخارى عن أبى سعيد الخدرى عن النبى
صلى الله عليه وسلم قال : " ما بعث الله من نبى ولا استخلف من خليفة إلا
كانت له بطانتان : بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه . وبطانة تأمره بالشر
وتحثه عليه ، والمعصوم من عصمه الله " .وصدر - سبحانه - النداء بوصف
الإيمان ، للإشعار بأن مقتضى الإيمان يوجب عليهم ألا يأمنوا من يخالفهم فى
عقيدتهم على أسرارهم ، وألا يتخذوا أعداء الله وأعداءهم أولياء يلقون إليهم
بالمودة ، وألا يطلعوهم على ما يجب إخفاؤه من شئون وأمور خاصة بالمؤمنين
وقوله : { مِّن دُونِكُمْ } يجوز أن يكون صفة لبطانة فيكون متعلقاً بمحذوف
أى لا تتخذوا بطانة كائنة من غيركم .ويجوز أن يكون متعلقا بقوله : { لاَ ،
تَتَّخِذُواْ } أى لا تتخذوا من غير أهل ملتكم بطانة تصافونهم وتطلعونهم
على أسراركم .ثم ذكر - سبحانه - جملة من الأسباب التى تجعل المؤمنين
يمتنعون عن مصافاة هؤلاء الذين يخالفونهم فى عقيدتهم فقال فى بيان أول هذه
الأسباب : { لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً } وأصل " الألو " : التقصير . يقال
ألا فى الأمر - كغزا - يألو ألواً وألوا ، إذا قصر فيه ، ومنه قول امرىء :
القيس :وما المرء ما دامت حشاشة نفسه ... بمدرك أطراف الخطوب ولا آلأراد
ولا مقصر ، وهو - أى الفعل " يألو " من الأفعال اللازمة التى تتعدى إلى
المفعول بالحرف ، وقد يستعمل متعديا إلى مفعولين كما فى قولهم :لا آلوك
نصحاً ، على تضمين الفعل معنى المنع . أى لا أمنعك ذلك .والخبال : الشر
والفساد . وأصله ما يلحق الحيوان من مرض وفتور فيورثه فسادا واضطراباً .
يقال خبله وخبله فهو خابل . والجمع الخبل ورجل مخبل إذا أصيب بمرض أورثه
اضطراباً وفساداً فى قواه العقلية والفكرية .والمعنى : أنهاكم - أيها
المؤمنون - عن أن تتخذوا أولياء وأصفياء لكم من غير إخوانكم المؤمنين ، لأن
هؤلاء الأولياء من غير إخوانكم المؤمنين ، لا يقصرون فى جهد يبذلونه فى
إفساد أمركم ، وفيما يورثكم شرا وضرا . أو لا يمنعونكم خبالا ، أى أنهم
يفعلون معكم ما يقدرون عليه من الفساد ولا يبقون شيئاً منه عندهم ، بل
يبذلون قصارى جهدهم فى إلحاق الضرر بكم فى دينكم ودنياكم .وقوله : { لاَ
. يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً } جملة مستأنفة مبينة لحالهم داعية إلى اجتنابهم
أو صفة لقوله : { بِطَانَةً } .وقوله : { خَبَالاً } منصوب على أنه المفعول
الثانى ليألونكم لتضمينه معنى يمنعونكم .ويصح أن يكون منصوبا بنزع الخافض
أى لا يقصرون لكم عن جهد فيما يورثكم شرا وفسادا .أما السبب الثانى الذى
} : يحمل المؤمنين على اجتناب هؤلاء الضالين فقد بينه - سبحانه - بقوله
وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ } .وقوله : { وَدُّواْ } من الود وهو المحبة . يقال
وددت كذا أى أحببته .وقوله : { عَنِتُّمْ } من العنت وهو شدة الضرر :
والمشقة . ومنه قوله - تعالى - : { وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لأَعْنَتَكُمْ } أى
لأوقعكم فيما يشق عليكم .و { مَا } فى قوله : { مَا عَنِتُّمْ } هى ما
المصدرية . أى : أن هؤلاء الذين تصافونهم وتفشون إليهم أسراركم مع أنهم
ليسوا على ملتكم ، بجانب أنهم لا يألون جهدا فى إفساد أمركم ، فإنهم يحبون
عنتكم ومشقتكم وشدة ضرركم ، وتفريق جمعكم ، وذهاب قوتكم .فالجملة الأولى
وهى قوله : { لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً } بمنزلة المظهر والنتيجة ، وهذه
أى قوله تعالى : { وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ } بمنزلة الباعث والدافع .فهم .
لا يودون للمسلمين الخير والاطمئنان والأمان ، وأنما يودون لهم الشقاء
والشرور والخسران .وليس بعاقل ذلك الذى يطلع من يريد له الشرور على أسراره
ودخائله .وأما السبب الثالث الذى يدعو المؤمنين إلى اجتنابهم فقد بينه
الله - تعالى - بقوله : { قَدْ بَدَتِ البغضآء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا
تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ } .والبغضاء مصدر كالسراء والضراء ، وهى
البغض الشديد المتمكن فى النفوس ، والثابت فى القلوب .أى : قد ظهرت أمارات
العداوة لكم من فلتات ألسنتهم ، وطفح البغض الباطن فى قلوبهم لكم حتى خرج
من أفواههم ، ولاح على صفحات وجوههم ، وقد قيل : كوامن النفوس تظهر على
صفحات الوجوه وفلتات اللسان . ومع هذا فإن ما تخفيه نفوسهم المريضة لكم من
أحقاد وإحن ، أكبر مما نطقت به ألسنتهم من بغضاء ، إذ أن ما نطقوا به إنما
هو بمثابة الرشح الذى ظهر من مسام أجسادهم وقلوبهم ، أما ما يبيتونه لكم من
. شرور وآثام فهو أكبر من ذلك بكثير .وخص الأفواه بالذكر دون الألسنة
للإشارة إلى تشدقهم وثرثرتهم فى أقوالهم الباطلة ، فهم أشد جرما من المتستر
الذى تبدو البغضاء فى عينيه .ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة ببيان مظهر
من مظاهر فضله على المؤمنين حيث كشف لهم عن أحوال أعدائهم ، وعن سوء
نواياهم وعن الأسباب التى تدعو إلى الحذر منهم فقال - تعالى - : { قَدْ
بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ } .أى قد بينا لكم
العلامات الواضحات ، والآيات البينات التى تعرفون بها أعداءكم ، وتميزون عن

طريقها بين الصديق وبين العدو ، إن كنتم من أهل العقل والفهم .والمقصود من الجملة الكريمة حضهم على استعمال عقولهم بتأمل وتدبر فى هذه الآيات التى بينها الله لهم فضلا منه وكرما ، وحتى لا يتخذوا بطانة من غير إخوانهم فى العقيدة والدين .وجواب الشرك محذوف لدلالة الكلام عليه ، والتقدير : إن كنتم تعقلون ذلك فلا تباطنوهم ولا تفشوا لهم أسراركم .

ها انتم اولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله واذا لقوكم قالوا امنا واذا خلوا عضوا عليكم الانامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم ان الله عليم بذات الصدور

كما فسرها الوسيط ثم ذكر - سبحانه - أموراً أخرى من شأنها أن تجعل المؤمنين يقلعون عن مباطنة ومصافاة أعدائهم فى الدين فقال : { هَآ أَنْتُمْ أولاء تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ } أى ها أنتم أولاء أيها المؤمنون ، تحبون هؤلاء الذين يخالفونكم فى عقيدتكم ، وتتمنون لهم الهداية والخير بينما هم لا يحبونكم ولا يريدون لكم إلا الشرور والهزائم والضعف .وفى هذه الجملة الكريمة عتاب ولوم للمؤمنين الذين يلقون إلى أعدائهم بالمودة ، ويكشفون لهم عن أسرارهم ودخائلهم .ز { هَآ } حرف تنبيه ، وقوله : { أَنْتُمْ } مبتدأ وقوله : { أولاء } خبره ، وقوله : { تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ } كلام مستأنف لبيان خطئهم فى موالاتهم ومحبتهم لمن يبغضونهم ويخالفونهم فى الدين .وبعضهم جعل { أَنْتُمْ } مبتدأ ، وقوله : { أولاء } منادى حذف منه حرف النداء ، وقوله : { تُحِبُّونَهُمْ } هو الخبر عن المبتدأ .وبعضهم جعل جملة { تُحِبُّونَهُمْ } فى موضع نصب على الحال من اسم الإشارة الذى هو الخبر .والمراد بالكتاب فى قوله : { وَتُؤْمِنُونَ بالكتاب كُلِّهِ } جنس الكتب السماوية التى أنزلها الله على أنبيائه .أى : أنتم أيها المؤمنون تحبونهم وهم لا يحبونكم ، وأنتم تؤمنون بجميع الكتب السماوية التى أنزلها الله على أنبيائه وهم لا يؤمنون بشىء من كتابكم الذى أنزله الله على نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم وما دام الأمر كذلك فكيف تتخذونهم بطانة من دون إخوانكم المؤمنين؟ لا شك أن من يفعل ذلك يكون بعيدا عن الطريق القويم ، والعقل السليم .ثم بين - سبحانه - سبباً ثالثاً يدل على قبيح مخالطتهم ومصافاتهم فقال - تعالى - : { وَإِذَا لَقُوكُمْ قالوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأنامل مِنَ الغيظ } .والعض هو الإمساك بالأسنان أى تحامل الأسنان بعضها على بعض . يقال : عض يعض عضاً وعضيضاً إذا تحامل بأسنانه على الشىء .والأنامل جمع أنملة ، وهى أطراف الأصابع . وقيل هى الأصابع .والغيظ : أشد الغضب . وعضهم الأنامل كناية عن شدة غضبهم وتحسرهم وحنقهم على المؤمنين .أى أن هؤلاء الذين يواليهم بعضكم أيها المؤمنون بلغ من نفاقهم وسوء ضمائرهم أنهم إذا لقوكم قالوا آمنا بدينكم وبنبيكم محمد صلى الله عليه وسلم وإذا خلوا ، أى خلا بعضهم ببعض أكل الحقد قلوبهم عليكم ، وسلقوكم بألسنة حداد ، وتمنوا لكم المصائب ، وأظهروا فيما بينهم أشد ألوان الغيظ نحوكم بسبب ما يرونه من ائتلافكم ، واجتماع كلمتكم ، وعجزهم عن أن يجدوا سبيلا إلى التشفى منكم . وإلحاق الأضرار بين صفوفكم .ومن كان كذلك فى كفره ونفاقه ، كان من الواجب على كل مؤمن أن يحتقره وأن يبتعد عنه؛ لأنه لا يزيد للمؤمنين إلا شرا .ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بما يكبت هؤلاء المنافقين ويبقى حسرتهم فقال : { قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ الله عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور } .والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم : ولكل مؤمن من أتباعه لتحريضه على مقاطعة هؤلاء الذين لا يريدون إلا الشر .أى : قل لهم دوموا على غيظكم واستمروا عليه إلى أن تموتوا . فإن قوة الإسلام وعزة أهله التى جعلتكم تبغضون المؤمنين ستبقى وستستمر ، وإن أحقادكم على المسلمين لن تنقص من قوتهم وعلو كلمتهم شيئاً فالمراد الدعاء عليهم بأن يزداد غيظهم حتى يهلكوا بهن وهذا يستلزم أن يستمر ما يغيظهم ويكبتهم وهو نجاح الإسلام وقوته .والباء فى قوله : { بِغَيْظِكُمْ } للملابسة ، أى موتوا متلبسين بغيظكم وحقدكم .وقوله : { إِنّ الله عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور } أى محيط بما خفى فيها ، ومطلع على ما يبيته هؤلاء المنافقون للمسلمين ، وسيحاسبهم عليه حسابا عسيراً . ويعذبهم بسبب ذلك عذابا أليما .قال الجمل : وهذه الجملة يحتمل أن تكون مستأنفة ، أخبر الله - تعالى - بذلك . لأنهم كانوا يخفون غيظهم ما أمكنهم ، فذكر ذلك لهم على سبيل الوعيد . ويحتمل أن تكون من جملة المقول ، أى قل لهم كذا وكذا فتكون فى محل نصب بالقول ، ومعنى قوله : { بِذَاتِ الصدور } أى بالمضمرات ذوات الصدور .فذات هنا تأنيث ذى بمعنى صاحبة الصدور . وجعلت صاحبة للصدور لملازمتها لها وعدم انفكاكها عنها ، نحو أصحاب الجنة وأصحاب النار .وفى هذه الجملة الكريمة تطييب لقلب النبى صلى الله عليه وسلم ولقلوب أصحابه . حيث بين - سبحانه - لهم أنه ناصرهم ، وأنه كاشف لهم أمر أعدائهم متى أطاعوا أوامره ، واجتنبوا نواهيه ، ولم يجعلوا من أولئك الأعداء الذين يضمرون لهم كل شر وضغينة بطانة لهم .

ان تمسسكم حسنة تسؤهم وان تصبكم سيئة يفرحوا بها وان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا ان الله بما يعملون محيط

كما فسرها الوسيط ثم ذكر - سبحانه - لونا آخر من ألوان بغض هؤلاء الكافرين للمؤمنين فقال - سبحانه - : { إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا } والمس : أصله الجس باليد . أطلق على كل ما يصل إلى الشىء على سبيل التشبيه ، فيقال : فلان مسه النصب أو التعب ، أى أصابه .والمراد بالحسنة هنا منافع الدنيا على اختلاف ألوانها كصحة البدن ، وحصول النصر ، ووجود الألفة والمحبة بين المؤمنين .أى إن تمسسكم - أيها المؤمنون - حسنة كنصركم على أعدائكم . وإصلاح ذات بينكم { تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ } كنزول مصيبة بكم ، يفرحوا بها . أى يبتهجوا بها ، وتستطار ألبابهم سرورا وحبورا بسبب ما نزل بكم من مكاره .فالجملة الكريمة بيان لفرط عداوة هؤلاء المنافقين للمؤمنين ، حيث يحسدونهم على ما ينالهم من خيرن ويشمتون بهم عندما ينزل بهم شر .وعبر فى جانب الحسنة بالمس ، وفى جانب السيئة بالإصابة ، للإشارة إلى تمكن الأحقاد من قلوبهم ، بحيث إن أى حسنة حتى ولو كان مسها للمؤمنين خفيفاً وليس غامراً عاما فإن هؤلاء المنافقين يحزنون لذلك ، لأنهم يستكثرون كل خير للمؤمنين حتى ولو كان هذا الخير ضئيلا أما بالنسبة لما يصيب المؤمنين من مكاره ، فإن هؤلاء المنافقين لا يفرحون. بالمصيبة التى تمس المؤمنين مساً خفيفاً ، فإنها لا تشفى غيظهم وحقدهم ، وإنما يفرحون بالمصائب الشديدة الت تؤذى المؤمنين فى دينهم ودنياهم أذى شديدا ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بغرشاد المؤمنين إلى الدواء الذى يتقون به كيد أعدائهم وأعدائه فقال - تعالى - : { وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ الله بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ } .وقوله : { تَصْبِرُواْ } من الصبر وهو حبس النفس على ما يقتضيه الشرع والعقل .وقوله : { وَتَتَّقُواْ } من التقوى وهى صيانة الإنسان نفسه عن محارم الله .وقوله : { كَيْدُهُمْ } من الكيد وهو أن يحتال الشخص ليوقع غيره في مكروه .والمعنى : { وَإِن تَصْبِرُواْ } أيها المؤمنون على طاعة الله ، فتضبطوا أنفسكم ولا تنساقوا فى مبحة من لا يستحق المحبة ، وتتحملوا بعزيمة صادقة مشاق التكاليف التى كلفكم الله بها ، وتقاوموا العداوة بمثلها { وَتَتَّقُواْ } الله - تعالى - فى كل ما نهاكم عنه ، وتمتثلوا أمره فى كل ما أمركم به ، إن فعلتم ذلك { لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ } وتدبيرهم السىء { شَيْئاً } من الضرر ببركة هاتين الفضيلتين : الصبر والتقوى ، فإنهما جامعتان لمحاسن الطاعات ، ومكارم الأخلاق .وإن لم تفعلوا ذلك اصابكم الضرر ، واستمكنوا منكم بكيدهم ومكرهم ، قال الجمل ما ملخصه : وقوله : { لاَ يَضُرُّكُمْ } وردت فيه قراءتان سبعيتان :إحداهما : بضم الضاد وضم الراء مع التسديد - من ضر يضر .والثانية : { لاَ يَضِرْكُمْ } بكسر الضاد وسكون الراء - من ضار يضير . والفعل فى كليهما مجزوم جواباً { للشرط ، وجزمه على القراءة الثانية " يضركم " ظاهر ، وعلى القراءة الأولى " يضركم " يكون مجزوماً بسكون مقدر على آخره منع من ظهوره اشتغال المحل بحركة الإتباع للتخلص من التقاء الساكنين ، وأصل الفعل يضرركم - بوزن ينصركم - نقلت حركة الراء الأولى إلى الضاد ثم أدغمت فى الثانية ، وحركت الثانية بالضم إتباعاً لحركة الضاد " .وقوله : { شَيْئاً } نصب على المصدرية . أى لا يضركم كيدهم شيئاً من الضرر لا قليلا ولا كثيرا بسبب اعتصامكم بالصبر والتقوى .وقوله : { إِنَّ الله بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ } تذييل قصد به إدخال الطمأنينة على قلوب المؤمنين ، والرعب فى قلوب أعدائهم . . أى إنه - سبحانه - محيط بأعمالهم وبكل أحوالهم ، ولا تخفى عليه خافية منها ، وسيجازيهم عليها بما يستحقونه من عذاب أليم بسبب نياتهم الخبيثة ، وأقوالهم الذميمة . وأفعالهم القبيحة .وبهذا نرى أن الآيات الكريمة قد نهت المؤمنين بأسلوب بليغ حكيم عن مصافاة من يخالفونهم فى الدين ، وذكرت لهم من صفات وأحوال هؤلاء المخالفين ما يحملهم على منابذتهم والحذر منهم والبعد عنهم ، وأرشدتهم إلى ما يعينهم على النصر عليهم وعلى التخلص من آثار مكرهم وكيدهم وإنها لوصايا حكيمة وتوجيهات سديدة ، وإرشادات عالية ، ما أحوج المسلمين. - فى كل زمان ومكان إلى العمل بها لكى يفلحوا فى دنياهم وآخرتهم .تدبر معى أخى القارىء - هذه الآيات مرة أخرى فماذا ترى؟إنك تراها توجه إلى المؤمنين نداء محببا إلى نفوسهم ، محركا لحرارة العقيدة فى قلوبهم . . حيث نادتهم بصفة الإيمان ، ونهتهم فى هذا النداء عن اتخاذ أولياء وأصفياء لهم من غير إخوانهم المؤمنين . ولكن هل اكتفت بهذا النهى مع أنه كفيل بحجز المؤمنين علما نهتهم عنه؟كلا ، إنها لم تكتف بذلك ، بل ساقت لهم صورة كاملة السمات ، لأحوال أعدائهم ، صورة ناطقة بدخائل نفوسهم ، وبمشاعرهم الظاهرة والخفية وبانفعالاتهم القلبية والجسدية ، وبحركاتهم الذاهبة والآيبة ، صورة ناطقة ، بحالهم عندما يلتقون بالمؤمنين ، وبحالهم عندما يفارقونهم ويخلون بأنفسهم أو عندما يلتقون بأمثالهم من الضالين . صورة ناطقة بسرورهم عند ما تصيب المسلمين مصيبة ، وبحزنهم عندما يرون المؤمنين فى نعمة يسيرة .صورة ناطقة بموقف المؤمنين منهم وبموقفهم هم من المؤمنين ثم بعد رسم هذه الصورة

العجيبة المتكاملة لهم ، يسوق القرآن للمؤمنين أسمى وأحكم ألوان التوجيه والإرشاد الذى يجعلهم فى مأمن من كيدهم ومكرهم { وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً } .أرأيت - يا أخى - كيف ربى القرآن أتباعه أكمل تربية وأحكمها وأسماها؟ إنه نهاهم أولا عن مباطنة أعدائهم ، ثم ساق لهم بعد ذلك من أوصافهم وأحوالهم ما يقنعهم ويحملهم على البعد عنهم ، ثم أرشدهم إلى الدواء الذى ينجيهم من مكرهم .فما أحكمه من توجيه . وما أسماه من إرشاد ، وإن ذلك ليدل على أن هذا القرآن من عند الله وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اختلافا كَثِيراً }

وإلى هنا تكون سورة آل عمران قد حدثتنا - من بين ما حدثتنا - فى مائة { وعشرون آية منها ، عن بعض الأدلة على وحدانية الله - تعالى - ، وعن مظاهر قدرته ورحمته ، وعن كتبه التى أنزلها على أنبيائه لسعادة الناس وهدايتهم وعن حب الناس للشهوات وعما هو أسمى وأفضل من هذه الشهوات الزائلة ، وعن المجادلات التى حدثت بين النبى صلى الله عليه وسلم وبين أهل الكتاب فيما يتعلق بوحدانية الله - تعالى - وبصحة دين الإسلام ، وعن جوانب من قصة آل عمران وما اشتملت عليه من عظات وعبر ، وعن الشبهات التى أثارها اليهود حول الدعوة الإسلامية والمسالك الخبيثة التى سلكوها فى حربهم لها وكيف رد القرآن عليهم بما يفضحهم ويكشف عن كذبهم ، ويجعل المؤمنين يزدادون إيمانا على إيمانهم .والخلاصة أن السورة الكريمة من مطلعها إلى هنا قد ساقت - من بين ما ساقت - ألوانا من الحرب النفسية التى شنها أهل الكتاب على الدعوة الإسلامية ، وردت عليهم بما يخرس ألسنتهم ، ويبصرهم بالحق - إن كانوا طلاب حق - وساقت للمؤمنين من التوجيهات والعظات ، ما يهدى قلوبهم ، ويصلح بالهم ويكفل لهم النصر على أعدائهم .وبعد هذا السبح الطويل فى الحديث عما دار بين المسلمين وبين أعدائهم من حرب كلامية وفكرية ونفسية . . . انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن حروب السيف والسنان ، وما صاحبها من أفكار وأقوال وأفعال .فقد حدثتنا السورة الكريمة فى حوالي ستين آية عن جوانب متعددة من غزوة " أحد " تلك الغزوة التى كانت لها آثارها الهامة في حياة المسلمين وأحوالهم .ولعل من الخير - قبل أن نبدأ فى تفسير الآيات الكريمة التى وردت فى سورة آل عمران بشأن هذه الغزوة - أن نسوق خلاصة تاريخية لهذه الغزوة تعين على فهم الآيات المتعلقة بها ، فنقول :كانت غزوة بدر من الغزوات المشهورة فى تاريخ الدعوة الإسلامية ، فقد انتصر المسلمون فيها انتصارا ، مؤزرا على كفار قريش .وصمم المشركون على أن يأخذوا بثأرهم من المسلمين فجمعوا جموعهم ، وخرجوا فى جيش كبير ، ومعهم بعض نسائهم حت يكون ذلك أبلغ فى استماتة الرجال فى القتال .ووصل مشركو قريش ومعهم حلفاؤهم إلى أطراف المدينة فى أوائل شوال من السنة الثالثة ، وكان عددهم يربو على ثلاثة آلاف رجل .واستشار النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه فى شان هؤلاء المشركين الزاحفين إلى المدينة .فكان رأى بعضهم - ومعظمهم من الشباب - الخروج لملاقاة المشركين خارج المدينة .وكان من رأى فريق آخر من الصحابة ، استدراج المشركين إلى أزقة المدينة ومقاتلتهم بداخلها ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يميل إلى رأى هذا الفريق ، إلا أنه آثر الأخذ برأى الفريق الأول الذى يرى أصحابه الخروج لملاقاة المشركين خارج المدينة ، نظراً لكثرة عدد القائلين بذلك .ثم دخل النبى صلى الله عليه وسلم بيته ، ثم خرج منه وقد لبس آلة حربه ، وشعر بعض المسلمين أنهم قد استكرهوا النبى صلى الله عليه وسلم على القتال ، فأظهروا له الرغبة فى النزول على رأيه ، إلا أنه لم يستجب لهم وقال كلمته التى تعمل الناس الحزم وعدم التردد : " ما ينبغى لنبى لبس ، لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه ، لقد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم إلا الخروج ، فعليكم بتقوى الله والصبر عند البأس . وانظروا ما أمركم الله به فافعلوه " ،ثم خرج النبى صلى الله عليه وسلم فى ألف مقاتل من المسلمين حتى نزل قريباً من جبل " أحد " إلا أن " عبد الله بن أبى بن سلول انسحب في الطريق بثلث الناس محتجا بأن النبى صلى الله عليه وسلم لم يأخذ " برأيه ، بل أخذ برأى غيره .وعكسر المسلمون بالشعب من أحد ، جاعلين ظهرهم إلى الجبل ، ورسم النبى صلى الله عليه وسلم الخطة لكسب المعركة ، فجاءت خطة محكمة رائعة . فقد وزع الرماة على أماكنهم - وكانوا خمسين راميا- ، وقال لهم : " انضحوا الخيل عنا بالنبل ، لا يأتونا من خلفنا ، إن كانت لنا أو علينا فالزموا أماكنكم لا نؤتين من قبلكم " .وفى رواية أنه صلى الله عليه وسلم قال لهم : " أحموا ظهورنا ، وإن رأيتمونا نُقتل فلا تنصرونا . وإن رأيتمونا نغنم فلا تُشركونا " .وأخيراً التقى الجمعان ، وأذن النبى صلى الله عليه وسلم لأتباعه أن يجالدوا أعداءهم ، وأظهر المسلمون أسمى صور البطولة والإقدام ، وكان شعارهم فى هذا الالتحام " أمت أمت " .وما هى إلى جولات فى أوائل المعركة ، حتى ولى المشركون المسلمين الأدبار ، ولم يغن عن المشركين شيئاً ما كانت تقوم به نسوتهم من تحريض واستنهاض للعزائم .قال ابن إسحاق : ثم أنزل الله - تعالى - نصره ، وصدق وعده ، فحسوهم بالسيوف حتى كشفوهم عن المعكسر ، وكانت الهزيمة لا شك فيها .ورأى الرماة الهزيمة وهى تحل بقريش ، فتطلعت نفوسهم إلى الغنائم ، وحاول أميرهم ، عبد الله بن جبير أن يمنعهم من ترك أماكنهم عملا بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أن

معظمهم تركوا أماكنهم ونزلوا إلى ساحة المعركة ليشاركوا فى جمع الغنائم والأسلاب .وأدرك خالد بن الوليد - وكان ما زال مشركا - أن ظهور المسلمين قد انكشفت بترك الرماة لأماكنهم ، فاهتبل الفرصة على عجل ، واستدار بمن معه من خيل المشركين خلف المسلمين فأحدق بهم ، وأخذ فى مهاجمتهم من مكان ما كانوا ليظنوا أنهم سيهاجمون منه ، فقد كانوا يعتمدون على الرماة فى حماية ظهورهم وعاد المشركون المنهزمون إلى مقاتلة المسلمين ، بعد أن رأوا ما فعله خالد.
ومن معه . واضطربت صفوف المسلمين للتحول المفاجىء الذى حدث لهم ، إلا أن فريقا منهم أخذ يقاتل ببسالة وصبر . واستشهد عدد كبير منهم وهم يحاولون شق طريقهم .وأصيب النبى صلى الله عليه وسلم خلال ذلك بجروح بالغة ، وأشيع أنه ، قد قتل ، إلا أنه صلى الله عليه وسلم جعل يصيح بالمسلمين : إلى عباد الله
إلى عباد الله . . . فاجتمع إليه نحو ثلاثين رجلا ، ودافعوا عنه دفاع الأبطال المخلصين .ومرت على المسلمين ساعة من أحرج الساعات فى تاريخ الدعوة
الإسلامية فقد كان المشركون يهاجمون النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه بعناد وحقد ، وكان المسلمون مستميتين فى الدفاع عن رسولهم صلى الله عليه وسلم وعن أنفسهم .وكان لهذه الاستماتة آثارها فى تراجع المشركين ، وقد ظنوا
أنهم قد أخذوا بثأرهم من المسلمين . .وخشى النبى صلى الله عليه وسلم أن " : يكون تراجع المشركين من أجل مهاجمة المدينة ، فقال لعلى بن أبى طالب ، اخرج فى آثار القوم فانظر ماذا يصنعون؟ فإن هم جنبوا الخيل وامتطوا الإبل . فإنهم يريدون مكة . وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل ، فهم يريدون المدينة
فوالذى نفسى بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم ، ثم لأناجزنهم فيها " .قال على
فخرجت فى آثارهم فرأيتهم جنبوا الخيل ، وامتطوا الإبل ، واتجهوا إلى مكة : وعندما انصرف أبو سفيان نادى : إن موعدكم بدر العام المقبل ، فقال الرسول.
صلى الله عليه وسلم لرجل من أصحابه : قل لهم : نعم بيننا وبينك موعد وانتهت غزوة أحد باستشهاد حوالى سبعين صحابيا من بينهم حمزة بن عبد المطلب. ومصعب بن عمير ، وسعد بن الربيع . وغيرهم من الأبطال الذين صدقوا ما عاهدوا . الله عليه .وهذه خلاصة لأحداث غزوة أحد كما روتها كتب السيرة

واذ غدوت من اهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم

كما فسرها الوسيط والآن فلنول وجوهنا شطر القرآن الكريم ، لنتدبر حديثه الحكيم عن هذه الغزوة ، ولنستمع إليه بقلوب واعية ، وآذان متفتحة ، وهو يبدأ حديثه عنها فيقول : { وَإِذْ غَدَوْتَ . . . } .فى هذه الآيات الكريمة التى بدأت السورة بها حديثها عن غزوة أحد ، تذكير للمؤمنين بما وقع فيها } : - حتى يعتبروا ويعتصموا بحبل الله جميعاً ولا يتفرقوا .وقوله - تعالى غَدَوْتَ } من الغدو وهو الخروج فى أول النهار ، يقال : غدا يغدو من باب سما يسمو .و { مِنْ } فى قوله : { مِنْ أَهْلِكَ } للابتداء ، والمراد . بأهله ، زوجه عائشة - رضى الله عنها - فقد كان خروجه لغزوة أحد من بيتها والكلام على حذف مضاف يدل عليه فعل { غَدَوْتَ } والتقدير : من بيت أهلك ، وقوله : { تُبَوِّىءُ } أصله من التبوء وهو اتخاذ المنزل . يقال : بوأته. وبوأت له منزلا ، أى : أنزلته فيه . والمراد به هنا تنظيم المؤمنين } وتسويتهم للقتال ، حتى يكونوا صفا واحداً كأنهم بنيان مرصوص .والعامل فى وَإِذْ } فعل مضمر تقديره ، واذكر .والمعنى : واذكر لهم يا محمد ليعتبروا } : ويتعظوا وقت خروجك مبكراً من حجرة زوجتك عائشة إلى غزوة أحد .وقوله تُبَوِّىءُ المؤمنين مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ } أى تنزلهم وتسوى لهم بالتنظيم والترتيب مواطن وأماكن للقتال ، بحيث يكونون فى أحسن حال ، وأكمل استعداد لملاقاة أعدائهم .قال الجمل : " ويستعمل الفعل { غَدَوْتَ } بمعنى صار عند ، بعضهم ، فيكون ناقصاً يرفع الاسم وينصب الخبر . . . وهذا المعنى ممكن هنا فالمعنى عليه ، وإذ غدوت أى صرت تبوىء المؤمنين أى تنزلهم فى منازل للقتال وهذا أظهر من الآخر ، لأن المذكور فى القصة أنه سار من عند أهله بعد صلاة ، الجمعة وبات فى شعب أحد ، وأصبح ينزل أصحابه فى منازل القتال ويدبر لهم أمر الحرب " .فالجملة الكريمة تشير إلى ما فعله النبى صلى الله عليه وسلم مع أصحابه قبل أن تبدأ المعركة ، فقد اهتم بتنظيم صفوفهم ، وبرسم الخطة الحكيمة التى تكفل لهم النصر ، وأمر الجيش كله ألا يتحرك للقتال إلا عندما يأذن له بذلك ، ولقد حدث أن بعض المسلمين من الأنصار استشرف للقتال وتمناه عندما رأى قريشا قد سرحت خيولها وإبلها فى زروع المسلمين ، وقال للنبى صلى الله عليه وسلم " أترعى زروع بنى قيلة - يعنى الأنصار - ولما تضارب "؟؟ إلا } أن النبى صلى الله عليه وسلم نهاهم عن القتال إلا بعد إذنه .وجملة تُبَوِّىءُ } حال من فاعل" غدوت " .والفعل { تُبَوِّىءُ } يحتاج لمفعولين } : أولهما : قوله : { المؤمنين } .وثانيهما : قوله : { مَقَاعِدَ } وقوله: لِلْقِتَالِ } متعلق بقوله : { تُبَوِّىءُ } .والمراد بقوله : { مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ } أى مراكز وأماكن ومواقف للقتال بحيث يعرف كل مؤمن مكانه وموقفه فينقض منه على خصمة إلا أن القرآن الكريم عبر عن هذه الأماكن والمراكز والمواقف بالمقاعد . للإشارة إلى وجوب الثبات فيها كما يثبت القاعد فى مكانه ، وأن عليهم ألا يبرحوا أماكنهم إلا بإذن قائدهم صلى الله

عليه وسلم .وقد ختم - سبحانه - الآية بقوله : { والله سَمِيعٌ عَلِيمٌ }
لبيان أنه مطلع على كل شىء ، وعلى ما كان يجرى بين النبى صلى الله عليه
وسلم وبين أصحابه من مشاورات ومناقشات .فهو - سبحانه - { سَمِيعٌ } لما
نطقت به ألسنتهم { عَلِيمٌ } بما تخفيه صدورهم ، وسيجازى المؤمنين الصادقين
بما يستحقون من ثواب ، وسيجازى غيرهم من ضعاف الإيمان والمنافقين بما
يستحقون من عقاب .فالمقصود من هذه الجملة الكريمة غرس الرهبة فى قلوب
المؤمنين ، حتى لا يعودوا إلى مثل ما حدث من بعضهم فى غزوة أحد . حيث
خالفوا وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ذكر - سبحانه - ما راود قلوب
بعض المؤمنين من ضعف وفضل ، عندما رأوا زعيم المنافقين عبد الله بن أبى
: - ينخذل بثلث الجيش فقال - تعالى

اذ همت طائفتان منكم ان تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون

كما فسرها الوسيط { إِذْ هَمَّتْ طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ
والله وَلِيُّهُمَا وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمنون } .الهم : هو
حديث النفس واتجاهها إلى شىء معين دون أن تأخذ فى تنفيذه فإذا أخذت فى
تنفيه صار إرادة وعزماً وتصميماً .وتفشلا : من الفشل والجبن والخور والضعف
يقال : فشل يفشل فشلا فهو فشل أى جبان ضعيف القلب .أى : واذكر لهم وقت أن .
همت طائفتان منكم يا معشر المؤمنين أن تفشلا وتضعفا وتجبنا عن القتال فى
وقت الشديدة والكريهة .وقوله : { والله وَلِيُّهُمَا } أى ناصرهما ويتولى
، أمرهما .وهاتان الطائفتان هما بنو سلمة من الخزرج ، وبنو حارثة من الأوس
وكانتا جناحى الجيش فى يوم أحد .روى الشيخان عن جابر - رضى الله عنه - قال
فينا نزلت { إِذْ هَمَّتْ طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ والله :
وَلِيُّهُمَا } قال : نحن الطائفتان : بنو حارثة وبنو سلمة ، وما نحب أنها
لم تنزل لقوله - تعالى - { والله وَلِيُّهُمَا } .أى : لفوط الاستبشار بما
حصل لهم من الشرف بثناء الله - تعالى - عليهم ، وإنزاله فيهم آية ناطقة
بصحة الولاية . وأن ما حدثوا به أنفسهم لم يخرجهم عن ولايته سبحانه لأنهم
لم ينساقوا وراء هذا الهم الباطل ، بل سرعان ما عادوا إلى يقينهم وإيمانهم
: الصادق ، وطاعتهم لرسولهم صلى الله عليه وسلم .ولذا قال صاحب الكشاف
والطائفتان حيان من الأنصار : بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس هموا
باتباع عبد الله بن أبى عندما انخذل بثلث الناس وقال : يا قوم علام نقتل
أنفسنا وأولادنا! فعصمهم الله فمضوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .وعن
. ابن عباس قال : أضمروا أن يرجعوا ، فعزم الله لهم على الرشد فثبتوا
والظاهر أنها ما كانت إلا همة وحديث نفس . كما لا تخلو النفس عند الشدة من
بعض الهلع ، ثم يردها صاحبها إلى الثبات والصبر ، ويوطنها على احتمال
- المكروه . لو كانت عزيمة لما ثبتت معها الولاية " .وقد ختم - سبحانه
الآية بدعوة المؤمنين إلى التوكل عليه وحده فقال : { وَعَلَى الله
. فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمنون } .والتوكل : تفعل من وكل فلان أمره إلى فلان
إذا اعتمد فى كفايته عليه ولم يتوله بنفسه .والتوكل الحقيقى إنما يكون بعد
الأخذ بالأسباب التى شرعها الله - تعالى - ثم بعد ذلك يترك الإنسان النتائج
للخالق - عز وجل - يسيرها كيف يشاء . والجملة الكريمة أفادت قصر التوكل على
الله وحده ، كما يؤذن به تقديم الجار والمجرور .أى وعلى الله وحده لا على
- غيره فليكل المؤمنون أمورهم ، بعد اتخذا الأسباب التى أمرهم - سبحانه
. باتخاذها ، فإنهم متى فعلوا ذلك تولاهم - سبحانه - بتأييده ورعايته

ولقد نصركم الله ببدر وانتم اذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون

كما فسرها الوسيط ثم ذكرهم - سبحانه - بفضله عليهم وتأييده لهم يوم غزوة
بدر فقال - تعالى - : { وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ الله بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ
أَذِلَّةٌ } .وبدر : اسم لماء بين مكة والمدينة ، التقى عنده المسلمون
والمشركون من قريش فى السابع عشر من رمضان من السنة الثانية للهجرة ، وكان
عدد المسلمين ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا ، وكان عدد المشركين قريبا من ألف
: رجل ، ومع ذلك كان النصر حليفا للمسلمين . والأذلة - كما يقول الزمخشرى
جمع قلة ، وجاء بجمع القلة ليدل على أنهم على ذلتهم كانوا قليلين . وذلتهم
ما كان بهم من ضعف الحال ، وقلة السلاح والمال والمركوب ، وذلك أنهم :
خرجوا على النواضح يعتقب لانفر منهم على البعير الواحد ، وما كان معهم إلا
فرس واحد . وقلتهم : أنهم كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر ، وكان عدوهم فى حال
كثرة زهاء ألف مقاتل ومعهم مائة فرس ، ومعهم الشكة والشوكة - أى السلاح
والقوة - .وإذن فليس المراد بكونهم أذلة أنهم كانوا أضعاف النفوس . أو
كانوا راضين بالهوان . وإنما المراد أنهم كانوا قليلى العدد والعدد ، فقراء
، فى الأموال وفى وسائل القتال .وفى هذا التذكير لهم بما حدث فى غزوة بدر
تنبيه لهم إلى وجوب تفويض أمورهم إلى خالقهم ، وإلى أن القلة المؤمنة
التقية الصابرة كثيراً ما تنتصر على الكثرة الفاسقة الظالمة ، ولذا فقد
ختم - سبحانه - بقوله : { فاتقوا الله لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } .أى

فاتقوا الله بأن تستشعروا هيبته ، وتجتنبوا ما نهاكم عنه ، وتفعلوا ما أمركم به لعلعكم بذلك تكونون قد قمتم بواجب شكر ما أنعم به عليكم من نعم لا تحصى .

اذ تقول للمؤمنين الن يكفيكم ان يمدكم ربكم بثلاثة الاف من الملائكة منزلين

كما فسرها الوسيط ثم ذكرهم - سبحانه - بما كان يوجهه إليهم النبى صلى الله عليه وسلم من توجيهات سامية ، وإرشادات نافعة فقال - تعالى - : { إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِّنَ الملائكة مُنزَلِينَ } .قال ابن كثير : اختلف المفسرون فى هذا الوعد هل كان يوم بدر أو يوم أحد على قولين؟ أحدهما : أن قوله - تعالى - : { إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ } متعلق بقوله { وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ الله بِبَدْرٍ } ، وهذا عن الحسن والشعبى والربيع بن أنس وغيرهم فعن الحسن فى قوله : { إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ }. إلخ قال : هذا يوم بدر . وعن الشعبى : أن المسلمين بلغهم يوم بدر أن . . . كرز بن جابر يريد أن يمد المشركين - برجال وسلاح - فشق ذلك على المسلمين فأنزل الله - تعالى - : { أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِّنَ الملائكة } إلى قوله : { مُسَوِّمِينَ } قال : فبلغت كرزاً الهزيمة فلم يمد المشركين .وقال الربيع بن أنس : أمد الله المسلمين بألف ثم صاروا ثلاثة آلاف ثم صاروا بخمسة آلاف .فإن قيل فكيف الجمع بين هذه الآية على هذا القول وبين قوله فى قصة بدر { إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فاستجاب لَكُمْ . . } إلى قوله : { إِنَّ الله عَزِيزٌ حَكِيمٌ } فالجواب : أن التنصيص على الألف ههنا لا ينافى الثلاثة الآلاف فما فوقها لقوله - تعالى - : ( مُرْدِفِينَ ) بمعنى غيرهم ويتبعهم ألوف أخر مثلهم .وهذا السياق شبيه بالسياق في سورة آل عمران ، فالظاهر أن ذلك كان يوم بدر كما هو المعروف من أن قتال الملائكة إنما كان ببدر .والقول الثانى يرى أصحابه أن هذا الوعد متعلق بقوله : { وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّىءُ المؤمنين مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ } وذلك يوم أحد . وهو قول مجاهد وعكرمة والضحاك وغيرهم . لكن قالوا : لم يحصل الإمداد بالخمسة الآلاف ، لأن المسلمين يومئذ فروا . وزاد عكرمة : ولا بالثلاثة الآلاف لقوله - تعالى - :

بلى ان تصبروا وتتقوا وياتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة الاف من الملائكة مسومين

كما فسرها الوسيط { بلى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ } فلم يصبروا ، بل فروا فلم يمدوا بملك واحد . ويبدو من كلام ابن كثير أنه يميل إلى أن هذا الوعد كان يوم بدر ، فقد قال : فالظاهر أن ذلك كان يوم بدر .وهذا ما تسكن إليه النفس ، لأن الوعد بنصرة الملائكة للمؤمنين كان يوم بدر لا يوم أحد ، فقد كانوا فى بدر قليلى العدد والعدد ، وكانت غزوة بدر أول معركة حربية كبرى يلتقى فيها المؤمنون بالكافرين ، ولأن سياق الآيات يشعر بأن الله - تعالى - قد ساقها ليستحضر فى أذهان المؤمنين مشهد غزوة بدر وما تم فيها من نصر بسبب صدق إيمانهم ، وطاعتهم لنبيهم صلى الله عليه وسلم حتى لا يعودوا إلى ما حدث من بعضهم فى غزوة أحد من مخالفة للرسول صلى الله عليه وسلم وعلى هذا الرأى يكون قوله - تعالى - : { إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ }. متعلقا بقوله : { وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ } أى : اذكروا أيها المؤمنون أن الله - تعالى - قد نصركم ببدر وأنتم قلة فى العدد والعدة ، وكان رسولكم صلى الله عليه وسلم فى ذلك الوقت يقول لكم على سبيل التثبيت والتقوية } : { أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِّنَ الملائكة مُنزَلِينَ } أى منزلين من السماء لنصرتكم وتوقيتكم ودحر أعدائكم - أما على الرأى القائل بأن هذا الوعد كان غزوة احد ، فيكون قوله - تعالى. - إلخ .بدل من قوله { إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ } : تعالى - قبل ذلك : { وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّىءُ المؤمنين مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ } .قال الآلوسى : " والهمزة فى قوله : { أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ } لإنكار ألا يكفيهم ذلك . وأتى بلن لتأكيد النفى ، وفيه إشعار بأنهم كانوا حينئذ كالآيسين من النصر لقلة عددهم وعدتهم . وفى التعبير بعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين ما لا يخفى من اللطف وتوقية الإنكار . وقوله : { أَن يُمِدَّكُمْ } فى تأويل المصدر فاعل { يَكْفِيَكُمْ } و { مِّنَ الملائكة } بيان أو صفة لآلاف أو لما أضيف إليه . و { مُنَزَّلِينَ } صفة لثلاثة آلاف ، وقيل حال من الملائكة " وقوله - تعالى - : { بلى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ } إما من تتمة مقولة صلى الله عليه وسلم للمؤمنين ، وإما ابتداء خطاب من الله - تعالى - تأييداً لقول نبيه صلى الله عليه وسلم وزيادة على ما وعدهم تكرما وفضلا .وقوله : { بلى } إيجاب لما بعد لن " أى ، بل يكفيكم الإمداد بثلاثة آلاف . ولكنه - سبحانه - يعدكم بأنكم "

، على قتال أعدائكم وعلى كل ما أمركم الله بالصبر عليه { إِن تَصْبِرُواْ }
وتتقوا . أى وتتقوا الله وتخشوه وتجتنبوا معاصيه { وَيَأْتُوكُمْ مِّن
فَوْرِهِمْ هذا } أى ويأتوكم المشركون مسرعين ليحاربوكم ، وقد أعددتم
أنفسكم لقتالهم ، إذا فعلتم ذلك .{ يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلاف
مِّنَ الملائكة مُسَوِّمِينَ } ، أى يمددكم ربكم بفضله ورعايته لكم بخمسة
} آلاف من الملائكة معلمين أنفسهم أو خيلهم بعلامات مخصوصة .وقرىء
. مُسَوِّمِينَ } - بالفتح - أى معلمين من جهته - تعالى - بعلامات القتال
من التسويم وهو إظهار علامة الشىء .قال صاحب الكشاف : وقوله { مِّن
، فَوْرِهِمْ هذا } من قولك : قفل من غزوته وخرج من فوره إلى غزوة أخرى
وجاء فلان ورجع من فوره . ومنه قول أبى حنيفة - رحمه اله - : الأمر على
، الفور لا على التراخى ، وهو مصدر من فارت القدر إذا غلت ، فاستعير للسرعة
ثم سميت به الحالة التى لا ريث فيها . فقيل : خرج من فوره كما تقول : خرج
من ساعته . والمعنى : أنهم يأتونكم من ساعتهم هذه " .هذا ، وقد تكلم
العلماء هنا عن أمرين يتعلقان بهذه الآياتزأمل الأمر الأول فهو : هل أمد
الله - تعالى - المؤمنين فى غزوة بدر بهذا العدد الذى ذكر فى هذه
الآية؟والجواب على ذلك أن بعض المفسرين يرى أن الله - تعالى - قد أمد
المؤمنين فى بدر بخمسة آلاف من الملائكة ، لأنهم صبروا واتقوا وأتاهم
المشركون من مكة فوراً حين استنفرهم أبو سفيان لإنقاذ العير ، فكان المدد
خمسة آلاف على سبيل التدريج ، أى أمدوا أولا بألف ، ثم صاروا ألفين ، ثم
صاروا ثلاثة آلاف ، ثم صاروا خمسة آلاف لا غير ، وإلى هذا الرأى ذهب الحسن
وقتادة .وقال الشعبى : إن المدد لم يزد على الألف ، لأن المسلمين كان قد
بلغهم أن كرز بن جابر المحاربى يريد أن يمد المشركين بسلاح وجند ، فشق ذلك
على المسلمين فأنزل الله - تعالى - : { أَلَنْ يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ
إلى قوله { مُسَوِّمِينَ } فبلغ كرزا الهزيمة فرجع ولم يمدهم ، فلم يمد {
الله المسلمين بخمسة الآلاف أيضاً . أما ابن جرير فقد اختار أن المسلمين
وعدوا بالمدد بعد الألف ، ولا دلالة فى الآية على أنهم أمدوا بما زاد على
- ذلك ، ولا على أنهم لم يمدوا به ، ولا يثبت شىء من ذلك إلا بنص . فقد قال
رحمه الله - :" وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب أن يقال : إن الله أخبر عن
نبيه صلى الله عليه وسلم أنه قال للمؤمنين : { أَلَنْ يَكْفِيكُمْ أَن
يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِّنَ الملائكة } فوعدهم الله
، بثلاثة آلاف من الملائكة مددا لهم ثم وعدهم بعد الثلاثة الآلاف خمسة آلاف
إن صبروا لأعدائهم واتقوا الله ، ولا دلالة فى الآية على أنهم أمدوا
بالثلاثة آلاف ، ولا بالخمسة الآلاف؛ ولا على أنهم لم يمدوا بهم .وقد يجوز
، أن يكون الله - تعالى - أمدهم على نحو ما رواه الذين أثبتوا أنه أمدهم
وقد يجوز أن يكون لم يمدهم ، على نحو الذى ذكره من أنكر ذلك وغير جائز أن
يقال فى ذلك قول إلا بخبر توقم الحجة به ، ولا خبر به كذلك فنسلم لأحد
. الفريقين قوله . غير أن فى القرآن دلالة على أنهم أمدموا يوم بدر بألف
وذلك قوله - تعالى - : { إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فاستجاب لَكُمْ
أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ الملائكة مُرْدِفِينَ } أما فى أحد
فالدلالة على أنهم لم يمدوا أبين منها فى أنهم أمدوا ، ذلك لأنهم لو أمدوا
لم يهزموا ونيل منهم ما نيل منهم " .والذى نراه أن رأى ابن جرير هو أقرب
الآراء إلى الصواب .وأما الأمر الثانى فهو : إذا كان الله - تعالى - قد أمد
المؤمنين بالملائكة فى بدر ، فهل كانت وظيفتهم القتال مع المؤمنين أو كانت
وظيفتهم تثبيت المؤمنين فقط؟ والجواب على ذلك أن كثيرا من العلماء يرى أن
الملائكة قد قاتلت مع المؤمنين .قال القرطبى : تظاهرت الروايات بأن
الملائكة حضرت يوم بدر وقاتلت .ومن ذلك قول أبى أسيد مالك بن ربيعة وكان قد
شهد بدرا : لو كنت معكم الآن ببدر ومعى بصرى لأريتكم الشعب - أى الطريق فى
الجبل - الذى خرجت منه الملائكة ، لا أشك ولا أمترى " .وفى صحيح مسلم عن
ابن عباس قال : بينما رجل من المسلمين يوم بدر يشتد فى أثر رجل من المشركين
أمامه ، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول : " أقدم حيزوم " فنظر
المسلم إلى المشرك أمامه فإذا هو قد خطم أنفه وشق وجهه .فجاء المسلم إلى
رسول الله صلى الله عليه وسلم فحدثه بذلك فقال : صدقت ذلك من مدد السماء
الثالثة .ويرى فريق آخر من العلماء أن الملائكة ما قاتلت مع المسلمين يوم
، بدر ، وإنما أمد الله المؤمنين بالملائكة لتثبيت نفوسهم ، وتقوية قولبهم
ولتخذيل المشركين ، وإلقاء الرعب فى قلوبهم ، فقد قال - تعالى - { إِذْ
يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الملائكة أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الذين
آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الذين كَفَرُواْ الرعب فاضربوا فَوْقَ
الأعناق واضربوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ } ويبدو أن الإمام ابن جرير الطبرى
كان يميل إلى هذا الرأى فقد قال عند تفسيره لقوله - تعالى - { فَثَبِّتُوا
الذين آمَنُواْ } أى : قووا عزائمهم ، وصححوا نياتهم فى قتال عدوهم من
المشركين ، وقيل : كان ذلك بمعونتهم إياهم بقتال أعدائهم " .وقد حكى
الألوسى عن أبى بكر الأصم أنه أنكر قتال الملائكة مع المؤمنين فى بدر وأنه
قال : " إن الملك الواحد يكفى فى إهلاك سائر الأرض كما فعل جبريل بمدائن
قوم لوط وأيضا أى فائدة فى إرسال هذا الجمع من الملائكة معه وهو القوى

الأمين . وأيضا فإن أكابر الكفار الذين قتلوا فى بدر عرف من قتلهم من المسلمين " .ولم يرتض الآلوسى ما قاله الأصم بل قال فى الرد عليه : ولا يخفى أن هذه الشبه لا يليق إيرادها بقوانين الشريعة ، ولا بمن يعترف بأنه - سبحانه - قادر على ما يشاء فعال لما يريد ، فما كان يليق بالأصم إلا أن يكون أخرص عن ذلك .ثم قال الآلوسى فالواجب التسليم بكل ممكن جاء به النبى صلى الله عليه وسلم وتفويض ذلك وكيفيته إلى - الله - .ونرى من كلام الآلوسلاى أنه يرجح الرأى القائل بأن الملائكة قد قاتلت مع المؤمنين فى غزوة بدر .ونحن لا نرى مانعا من اشتراك الملائكة مع المؤمنين فى بدر لأن النصوص الواردة عن النبى صلى الله عليه وسلم صريحة فى ذلك ، ولسنا مع الذين يضعفون من شأن الأحاديث الصحيحة أو يؤولونها تأويلا لا يتفق مع العقل السليم .ولقد سئل الإمام السبكى : ما الحكمة فى قتال الملائكة مع أن جبريل قادر على أن يدفع الكفار بريشة من جناحه؟فأجاب : بأن ذلك لإرادة أن يكون الفضل للنبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه وتكون الملائكة مددا على عادة مدد الجيوش رعاية لصورة الأسباب التى أجراها - سبحانه - فى عباده .

وما جعله الله الا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم

كما فسرها الوسيط ثم تابع القرآن حديثه عن مظاهر فضل الله عليهم ورعايته لهم فقال - تعالى - { وَمَا جَعَلَهُ الله إِلاَّ بشرى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنّ قُلُوبُكُمْ بِهِ } .أى وما جعل الله - تعالى - الإمداد الذى أمدكم به إلا بشارة لقلوبكم ، وتطمينا لنفوسكم فالضمير فى { جَعَلَهُ يعود إلى الإمداد المفهوم وهو الفاعل المقدر المدلول عليه بقوله " أن { يمدكم " فكأنه قيل : ألن يكفيكم إمداد الله تعالى لكم بما ذكرن وما جعل الله - تعالى - ذلك الإمداد إلى بشرى لكم ، ولتسكن قلوبكم به فلا تخافوا كثرة العدو ، بل تقدمون عليه بعزائم ثابتة ، ونفوس قوية .وقوله { بشرى } مفعول لأجله . والاستثناء مفرغ من أعم العلل ، أى ما جعل الله إمدادكم بإنزال الملائكة لشىء من الأشياء إلا للبشارة لكم بأنكم ستنتصرون على أعدائكم .وقوله {وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ } معطوف على { بشرى } باعتبار موضعه أى ما جعل إمدادكم إلا للبشرى والطمأنينة .وإنما جر المصدر المؤول من قوله { وَلِتَطْمَئِنَّ } باللام لاختلال شرط من شروط نصبه على أنه مفعول لأجله ، وهذا الشرط هو عدم اتحاد الفاعل . فإن فاعل الجعل هو } الله - تعالى - ، وفاعل الاطمئنان القلوب ، فلذلك نصب المعطوف عليه وهو بشرى } لاستكمال شروطه . وجر المعطوف وهو { وَلِتَطْمَئِنّ } لاختلال شرط من شروطه .ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : { وَمَا النصر إِلاّ مِنْ عِندِ الله العزيز الحكيم } .أى ليس النصر إلا من الله وحده فهو العزيز الذى لا يغالب فى أمره . الحكيم الذى يفعل كل ما يريد فعله حسبتما تقتضيه إرادته .فالجملة الكريمة المقصود منها غرس الاعتماد على الله فى قلوب المؤمنين وتفويض أمورهم إليه ، وبيان أن النصر إنما هو من الله وحده ، وليس من الملائكة أو من غيرهم ، لأن الملائكة أو غيرهم أسباب عاديةو بمعزل عن التأثير ، إلا إذا أراد الله ذلك . فهو الخالق للأسباب والمسببات .ولقد حرص القرآن فى كثير من آياته على تثبيت هذا المعنى فى قلوب المؤمنين حتى لا يعتمدوا على الأسباب والوسائل التى بين أيديهم ، ويغتروا بها ، دون أن يلتفتوا إلى قدرة خالق الأسباب والوسائل ، فإنهم إذا اغتروا بالأسباب والوسائل ، ونسوا خالقها أتاهم الفشل من حيث لم يحتسبوا وكان أمرهم فرطاً والعاقل من الناس هو الذى يباشر الأسباب التى شرعها الله - تعالى - بتدبر. واعتبار بحيث يوقن أن من ورائها خالقا لها ، يجب أن يستجيب له فى كل ما أمر أو نهى ، وأن يعتمد عليه فى كل شئونه وأحواله .

ليقطع طرفا من الذين كفروا او يكبتهم فينقلبوا خائبين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - الحكمة من هذا النصر والثمرات التى ترتبت عليه فقال - تعالى - : { لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِّنَ الذين كفروا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأمر شَيْءٌ { أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ وقوله { لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِّنَ الذين كفروا أَوْ يَكْبِتَهُمْ } متعلق. بقوله { وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ الله بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ } وما بينهما تحقيق لحقيته ، وبيان لكيفية وقوعه .والقطع - كما يقول الراغب - فصل الشىء مدركا بالبصر كالأجسام ، أو مدركا بالبصيرة كالأشياء المعقولة والمراد به هنا الإهلاك والقتل .والطرف - بفتح الراء - جانب الشىء أو الجزء المتطرف منه كاليدين والرجلين والرأس .والمراد به هنا طائفة من المشركين والكبت فى اللغة : صرع الشىء على وجهه . يقال : كبته فانكبت ، والمراد به. هنا الإخزاء والإذلال وشدة الغيظ بسبب ما أصابهم من هزيمة .وخائبين من الخيبة وهى انقطاع الأمل فى الحصول على الشىء . يقال : خاب يخيب إذا لم ينل

ما طلب .والمعنى : ولقد نصركم الله - تعالى - ببدر وأنتم فى قلة من العدد
والعدة { لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِّنَ الذين كفروا } أى ليهلك طائفة من الذين
، كفروا ويستأصلهم بالقتل . وينقص من أرضهم بالفتح ، ومن سلطانهم بالقهر
ومن أموالهم بالغنيمة { أَوْ يَكْبِتَهُمْ } أى يذلهم ويخزيهم ويغيظهم غيظا
شديدا بسبب ما نزل بهم من هزيمة ، حتى يخبو صوت الكفر ، ويعلو صوت الإيمان
وقوله { فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ } أى فينهزموا ويرتدوا على أدبارهم:
منقطعى الآمال ، غير ظافرين بمبتغاهم .قال الآلوسى :" ولم يعبر عن تلك
الطائفة بالوسط بل بالطرف فقال { لِيَقْطَعَ طَرَفاً } لأن أطراف الشىء
يتوصل بها إلى توهينه وإزالته . وقيل : لأن الطرف أقرب إلى المؤمنين فهو
كقوله - تعالى - { ياأيها الذين آمَنُواْ قَاتِلُواْ الذين يَلُونَكُمْ
مِّنَ الكفار } وقيل للإشارة إلى أنهم كانوا أشرافا ، ومنه قولهم : هو من
أطراف العرب أى من أشرافهم ، ولعل إطلاق الأطراف على الأشراف لتقدمهم فى
السير . . فالمعنى ليهلك صناديد الذين كفروا ورؤساءهم المتقدمين فيهم
بالقتل والأسر . وقد وقع ذلك فى بدر فقد قتل المؤمنون من المشركين سبعين
وأسروا سبعين " .و { أَوْ } فى قوله { أَوْ يَكْبِتَهُمْ } للتنويع . لأن
القطع والكبت قد وقعا للمشركين ، فهى مانعة خلو ، أى لا يخلو أمر الكافرين
من الهلاك والكبت .وعبر عن عودتهم خائبين بقوله { فَيَنقَلِبُواْ
خَآئِبِينَ } للإشارة إلى أن مقاصدهم وأهدافهم قد انقلبت ، فقد كانوا
يقصدون إطفاء نور الإسلام فخاب قصدهم ، وطاش سهمهم ، وعادوا وقد فقدوا
الكثيرين من وجوههم وصناديديهم ، وتركوا خلقهم فى الأسر العشرات من رجالهم
. أما الإسلام فقد ازداد نوره تألقا ، وازداد أتباعه إيمانا على إيمانهم.
. ورزقهم الله - تعالى - نصره المبين

ليس لك من الامر شيء او يتوب عليهم او يعذبهم فانهم ظالمون

كما فسرها الوسيط وقوله { لَيْسَ لَكَ مِنَ الأمر شَيْءٌ } أى : ليس لك من
أمر الناس شىء ، وإنما أمرهم إلى الله وحده ، أما أنت فوظيفتك التبليغ
والإرشاد ثم بعد ذلك من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر .وقوله { أَوْ يَتُوبَ
عَلَيْهِمْ } . أى مما هم فيه من الكفر فيهديهم إلى الإسلام بعد كفرهم
وظلالهم .وقوله { أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ } أى أو
يعذبهم فى الدنيا والآخرة على كفرهم واجتراحهم للسيئات ، فإنهم بذلك يكونون
مستحقين للعقاب ، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ، فهم الذين
- صموا آذانهم عن الحق واستحبوا العمى على الهدى .وعلى هذا يكون قوله
تعالى - { لَيْسَ لَكَ مِنَ الأمر شَيْءٌ } جملة معترضة بين المتعاطفات
ويكون تقدير الآيتين هكذا :ولقد نصركم الله ببدر ليهلك طائفة من الذين
كفروا بالقتل والأسر ، ا يخزيهم ويغيظهم بالهزيمة ، أو يتوب عليهم إن
، أسلموا ، أو يعذبهم فى الدنيا والآخرة بسبب ظلمهم ، وليس لك من أمرهم شىء
إنما أنت رسول ن عند الله - تعالى - مأمور بإنذارهم وجهادهم .وقد رجح هذا
الوجه صاحب الكشاف فقال : وقوله : { لَيْسَ لَكَ مِنَ الأمر شَيْءٌ }
اعتراض . والمعنى أن الله مالك أمرهم ، فإما أن يهلكهم أو يهزمهم أو يتوب
عليهم إن أسلموا أو يعذبهم إن أصروا على الكفر ، وليس لك من أمرهم شىء إنما
" أنت عبد مبعوث لإنذارهم ومجاهدتهم . .وقيل إن { أَوْ } بمعنى " إلا أن
كقولك : لألزمنك أو تقضينى حقى ، على معنى ليس لك من أمرهم شىء إلا أن يتوب
عليهم فتفرح بحالهم ، أو يعذبهم فتتشفى منهم .فأنت ترى أن الآيتين
الكريمتين قد بينتا أحوال الكافرين فى غزوة بدر أكمل بيان ، لأن فريقاً
منهم قد قتلوا فقطع بهم طرف من الكافرين ، وفريقاً كبتوا وذلوا ، وفريقا من
الله عليهم بالإسلام فأسلموا ، وفريقاً عذبوا بالموت على الكفر أو عذبوا فى
، الدنيا بالذل والصغار .و " أو " التى جىء بها بين هذه الجمل للتقسيم .هذا
وقد روى المفسرون فى سبب نزول قوله - تعالى - { لَيْسَ لَكَ مِنَ الأمر
شَيْءٌ } روايات منها ما أخرجه مسلم عن أنس " أن النبى صلى الله عليه وسلم
كسرت رباعيته يوم أحد وشج فى وجهه حتى سال الدم على وجهه فقال : كيف يفلح
- قوم فعلوا هذا بنبهم وهو يدعوهم إلى ربهم - عز وجل - فأنزل الله - تعالى
لَيْسَ لَكَ مِنَ الأمر شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ }
يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ } " .ومنها ما أخرجه البخارى عن أبى
هريرة " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أرا أن يدعو على أحد أو
يدعو لأحد قنت بعد الركوع فربما قال إذا قال سمع الله لمن حمده : " اللهم
ربنا ولك الحمد . اللهم أنج الوليد بن الوليد . وسلمة بن هشام ، وعياش بن
" أبى ربيعة ، اللهم اشدد وطأتك على مضر ، واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف
يجهر بذلك . وكان يقول فى بعض صلاته فى صلاة الفجر : اللهم العن فلانا
وفلانا " لأحياء من العرب " حتى أنزل الله - تعالى - : { لَيْسَ لَكَ مِنَ
. " { الأمر شَيْءٌ

ولله ما في السماوات وما في الارض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور
رحيم

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - هذا التذكير بما جرى فى غزوة بدر ببيان قدرته الشاملة ، وإرادته النافذة فقال - سبحانه - : { وَلِلَّهِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ } .أى لله جميع ما فى السموات وما فى الأرض ملكا - وتصرفا وتدبيرا لا ينازعه فى ذلك منازع ولا يعارضه معارض ، وهو - سبحانه يغفر لمن يشاء أن يغفر له من المؤمنين فلا يعاقبه على ذنبه فضلا منه وكرما ويعذب من يشاء أن يعذبه عدلا منه { والله غَفُورٌ } أى كثير المغفرة ، يحبها ويريدها ، { رَّحِيمٌ } أى واسع الرحمة بعباده ، لا يؤاخذهم بكل ما اكتسبوه من ذنوب بل يعفو عن كثير منها .وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد افتتحت الحديث عن غزوة أحد باستحضار بعض أحداثها ، وبتذكير المؤمنين بما همّ به بعضهم قبل أن تبدأ المعركة ، ثم بتذكيرهم بمعركة بدر وما تم لهم فيها من نصر مؤزر منحه الله لهم مع قتلهم وضعفهم ، حتى يعرفوا أن النصر ليس ، بكثرة العدد والعدد وإنما النصر يأتى مع صفاء النفوس ، ونقاء القلوب ومضاء العزائم والطاعة التامة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، وحتى لا يعودوا إلى ما حدث من بعضهم فى غزوة أحد من مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن طمع فى زينة الحياة الدنيا .وبعد هذا التذكير الحكيم والتوجيه السديد ، وجه القرآن نداء إلى المؤمنين نهاهم فيه عن تعاطى الربا ، وأمرهم بتقوى الله وبطاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم وبالمسارعة إلى الأعمال الصالحة التى توصلهم إلى مغفرته ورضوانه فقال - تعالى - : { يَآ أَيُّهَا الذين آمَنُواْ . . . } .

يا ايها الذين امنوا لا تاكلوا الربا اضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون

: كما فسرها الوسيط قال الإمام الرازى ما ملخصه : اعلم أن من الناس من قال إن الله - تعالى - لما شرح عظيم نعمه على المؤمنين فيما يتعلق بإرشادهم إلى الأصلح لهم فى أمر الدين وفى أمر الجهاد ، أتبع ذلك بما يدخل فى الأمر والنهى والترغيب والترهيب فقال : { يَآ أَيُّهَا الذين آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ الربا أَضْعَافاً مُّضَاعَفَةً } .وقال القفال : يحتمل أن تكون هذه الآية متصلة بما قبلها من جهة أن المشركين فى غزوة أحد أنفقوا على عساكرهم أموالا كثيرة جمعوها من الربان ولعل ذلك يصير داعياً للمسلمين إلى الإقدام على الربا حتى يجمعوا المال وينفقوه على المعسكر ، ويتمكنوا من الانتقام منهم ، فلا جرم نهاهم الله عن ذلك .وكان الرجل فى الجاهلية إذا كان له على إنسان مائة درهم - مثلا - إلى أجل ، فإذا حل الأجل ولم يكن المدين واجدا لذلك المال قال : زدنى فى المال حتى أزيد فى الأجل ، فربما جعله مائتين ، ثم إذا حل الأجل الثاني فعل مثل ذلك ثم إلى آجال كثيرة ، فيأخذ بسبب تلك المائة أضعافها فهذا هو المراد من قوله { أَضْعَافاً مُّضَاعَفَةً } .وقد ابتدأ - سبحانه - الآية بالنداء بقوله { يَآ أَيُّهَا الذين آمَنُواْ } لبيان أن أكل الربا ليس من شأن المؤمنين ، وإنما هو من سمات الكافرين والفاسقين .وإذا كان الكافرون يستكثرون من تعاطى الربا فعلى المؤمنين أن يجتنبوا هذا الفعل القبيح ، وأن يتحروا الحلال فى كل أمورهم - وخصه بالنهى لأنه كان شائعاً فى ذلك الوقت ، ولأنه - كما يقول القرطبى هو الذي أذن فيه بالحرب فى قوله - تعالى - { فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ الله وَرَسُولِهِ } والحرب يؤذن بالقتل ، فكأنه يقول لهم : إن لم تتقوا الربا هزمتم وقتلتم .والمراد من الأكل الأخذ ، وعبر عنه بالأكل لما أنه معظم ما يقصد بهن ولشيوعه فى المأكولات مع ما فيه من زيادة التشنيع .والربا معناه الزيادة ، والمراد بها هنا تلك الزيادة التى كانت تضاف على الدين .قال الإمام ابن جرير : عن عطاء قال : كانت ثقيف تداين بنى المغيرة فى الجاهلية ، فإذا حل الأجل قالوا : نزيدكم وتؤخرون .وقال ابن زيد : كان أبى - زيد بن ثابت - يقول : إنما كان ربا الجاهلية فى التضعيف . يكون للرجل على الرجل دين فيأتيه إذا حل الأجل فيقول له : " تقضينى أو تزيدنى " .وقوله { أَضْعَافاً } حال من الربا ، وقوله { مُّضَاعَفَةً } صفة له .والأضعاف جمع ضعف . وضعف الشىء مثلاه ، وأضعافه أمثاله .وهذا القيد وهو قوله " أضعافا مضاعفة " ليس لتقييد النهى به ، أى ليس النهى عن أكل الربا فى هذه الحالة وإباحته فى غيرها ، بل هذا القيد لمراعاة الواقع ، ولبيان ما ، كانوا عليه فى الجاهلية من التعامل الفاسد المؤدى إلى استئصال المال - ولتوبيخ من كان يتعاطى الربا بتلك الصورة البشعة .وقد حرم الله - تعالى أصل الربا ومضاعفته ، ونفر منه تنفيراً شديداً ، فقال - تعالى - { الذين يَأْكُلُونَ الربا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الذي يَتَخَبَّطُهُ الشيطان مِنَ المس ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قالوا إِنَّمَا البيع مِثْلُ الربا وَأَحَلَّ الله البيع وَحَرَّمَ الربا } وهذا النوع من الربا الذي نهى الله - تعالى - عنه هنا بقوله : { يَآ أَيُّهَا الذين آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ الربا أَضْعَافاً مُّضَاعَفَةً } هو الذى يسمى عند الصحابة

. والفقهاء بربا النسيئة ، أو ربا الجاهلية وقد حرمه الإسلام تحريماً قاطعا
فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خطبة الوداع : " ألا إن الجاهلية
موضوع - أي مهدر - وأول ربا أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب " .وقال
الإمام أحمد بن حنبل : إن ربا النسيئة يكفر من يجحد تحريمه .ويقابل هذا
النوع من الربا ، ربا البيوع وهو الذى ورد فى حديث النبى صلى الله عليه
وسلم الذى يقول فيه : " البر بالبر مثلا بمثل يدا بيد ، والذهب بالذهب مثلا
بمثل يدا يد والفضة بالفضة مثلا بمثل يدا بيد والشعير بالشعير مثلا بمثل
يدا بيد ، والتمر بالتمر مثلا بمثلا يدا بيد ، والملح بالملح مثلا بمثل يدا
بيد ، فمن زاد أو استزاد فقد أربى " .وقد اتفق العلماء على أن بيع هذه
الأصناف لا بد أن يكون بغير زيادة إذا كانت بمثلها كقمح بقمح ، ولا بد من
قبضها . وإذا اختلف الجنس كقمح بشعير جازت الزيادة ، ولا بد من القبض فى
المجلس ، والتأخير يسمى ربا النساء ، والزيادة المحرمة تسمى ربا الفضل
وللفقهاء فى هذا الموضوع مباحث طويلة فليرجع إليها من شاء فى مظانها . ثم.
ختم - سبحانه - الآية الكريمة بأمر المؤمنين بخشيته وتقواه فقال : { واتقوا
الله لَعَلّكُمْ تُفْلِحُونَ } .أى : واتقوا الله بأن تجعلوا بينكم وبين
. محارمه ساترا ووقاية ، لعلكم بذلك تنالون الفلاح فى الدنيا والآخرة

واتقوا النار التي اعدت للكافرين

كما فسرها الوسيط ثم حذرهم - سبحانه - من الأعمال التى تفضى بهم إلى النار
فقال : { واتقوا النار التي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ } يقول : هى أخوف آية
فى القرآن ، حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين إن لم يتقوه فى
. " اجتناب محارمه

واطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون

كما فسرها الوسيط ثم بعد هذا التحذير الشديد للمؤمنين من ارتكاب ما نهى
الله عنه ، أمرهم - سبحانه - بطاعته وطاعة رسوله فقال : { وَأَطِيعُواْ
الله والرسول لَعَلّكُمْ تُرْحَمُونَ } .أى أطيعوا الله فى كل ما أمركم به
، ونهاكم عنه ، وأطيعوا الرسول الذى أرسله إليكم ربكم لهدايتكم وسعادتكم
لعلكم بهذه الطاعة تكونون فى رحمة من الله ، فهو القائل وقوله الحق { إِنّ
رَحْمَتَ الله قَرِيبٌ مّنَ المحسنين }وفى ذكر طاعة الرسول صلى الله عليه
وسلم مقترنة بطاعة الله - تعالى - تنبيه إلى أن طاعة الرسول طاعة لله . فقد
قال - تعالى - { مّنْ يُطِعِ الرسول فَقَدْ أَطَاعَ الله وَمَن تولى فَمَآ
{ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً

وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والارض اعدت للمتقين

كما فسرها الوسيط ثم أمرهم - سبحانه - بالمبادرة إلى الأعمال الصالحة التى
توصلهم إلى مغفرة الله ورضوانه فقال : { وسارعوا إلى مَغْفِرَةٍ مّن
رّبِّكُمْ وَجَنّةٍ عَرْضُهَا السماوات والأرض أُعِدّتْ لِلْمُتَّقِينَ
قال الآلوسى : وسبب نزول هذه الآية على ما أخرجه عبد بن حميد وغيره عن. {
عطاء بن أبى رباح : أن المسلمين قالوا : يا رسول الله . بنو إسرائيل كانوا
أكرم على الله منا ، كانوا إذا أذنب أحدهم ذنبا أصبحت كفارة ذنبه مكتوبة فى
عتبة داره أجدع أنفك ، أجدع أذنك ، افعل كذا وكذا فسكت صلى الله عليه وسلم
فنزلت هذه الآيات إلى قوله { والذين إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً } الآية
" فقال النبى صلى الله عليه وسلم ألا أخبركم بخير من ذلكم ثم تلاها عليهم
وقوله : { وسارعوا إلى مَغْفِرَةٍ مّن رَّبّكُمْ } من السرعة بمعنى.
المبادرة إلى الشىء بدون تأخير أو تردد . والكلام على حذف مضاف : أى سارعوا
وبادروا إلى ما يوصلكم إلى ما به تظفرون بمغفرة ربكم ورحمته ورضوانه وجنته
بأن تقوموا بأداء ما كلفكم به من واجبات ، وتنتهوا عما نهاكم عنه من ،
محظورات .ولقد قرأ نافع وابن عامر بغير واو ، وهى قراءة أهل المدينة والشام
والباقون بالواو ، وهى قراءة أهل مكة والعراق .فمن قرأ بالواو ، جعل .
قوله - تعالى - { وسارعوا } معطوفا على قوله { وَأَطِيعُواْ } أى : أطيعوا
" الله والرسول وسارعوا إلى مغفرة من ربكم .ومن قرأ بغير واو جعل قوله
سارعوا " مستأنفا ، إذ هو بمنزلة البيان أو بدل الاشتمال .و { مّن } فى
قوله { مّن رّبّكُمْ } ابتدائية ، والجار والمجرور متعلق بمحذوف صفة
للمغفرة أى مغفرة كائنة من ربكم . .ولقد عظم - سبحانه - بذلك شأن هذه
المغفرة التى ينبغى طلبها بإسراع ومبادرة ، بأن جاء بها منكرة ، وبأن وصفها
بأنها كائنة منه - سبحانه - هو الذى خلق الخلق بقدرته ، ورباهم برعايته
ووصف - سبحانه - الجنة بأن عرضها السموات والأرض على طريقة التشبيه البليغ.
بدليل التصريح بحرف التشبيه فى قوله - تعالى - { سابقوا إلى مَغْفِرَةٍ ،
مّن رّبّكُمْ وَجَنّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السماء والأرض } قال الفخر
الرازى ما ملخصه : وفى معنى أن عرض الجنة مثل عرض السموات والأرض وجوه منها

أن المراد لو جعلت السموات والأرضون طبقا طبقا ، بحيث تكون كل واحدة من : تلك الطبقات سطحا مؤلفا من أجزاء لا تتجزأ ، ثم وصل البعض بالبعض طبقا واحدا لكان ذلك مثل عرض الجنة ، وهذا غاية فى السعة لا يعلمها إلا الله ومنها أن المقصود المبالغة فى وصف السعة للجنة ، وذلك لأنه لا شىء عندنا. أعرض منهما ونظيره قوله{ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السماوات والأرض } فإن أطول الأشياء بقاء عندنا هو السموات والأرض ، فخوطبنا على وفق ما عرفناه ، فكذا هنا " .وخص - سبحانه - العرض بالذكر ، ليكون أبلغ فى الدلالة على عظمها واتساع طولها ، لأنه إذا كان عرضها كذا ، فإن العقل يذهب كل مذهب - فى تصور طولها " لأن العرض فى العادة أقل من الطول . وذلك كقوله - تعالى فى صفة فرش الجنة { مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ } لأنه إذا كانت بطانة الفرش من الحرير فكيف يكون ما فوق البطانة مما تراه الأعين؟ .قال القفال : ليس المراد بالعرض ها هنا ما هو خلاف الطول ، بل هو عبارة عن السعة كما تقول العرب : بلاد عريضى ، ويقال هذه دعوى عريضة أي واسعة عظيمة . والأصل فيه أن ما اتسع عرضه لم يضق ، وما ضاق عرضه دق ، فجعل العرض كناية عن السعة " .قال ابن كثير : وقد روينا فى مسند الإمام أحمد أن هرقل كتب إلى النبى صلى الله عليه وسلم يقول : " إنك دعوتنى إلى جنة عرضها السموات والأرض فأين النار؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : سبحان الله فأين الليل إذا جاء النهار " .وعن أبى هريرة أن رجلا جاء إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فقال : " أرأيت قوله - تعالى - : { جَنَّةٍ عَرْضُهَا السماوات والأرض } فأين النار قال : أرأيت الليل إذا جاء " : لبس كل شىء فأين النهار؟ قال : حيث شاء الله قال صلى الله عليه وسلم وكذلك النار تكون حيث شاء الله " " .وقوله - تعالى - { أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ } أى هيئت للمتقين الذين صانوا أنفسهم عن محارم الله ، وجعلوا بينهم وبينها وقاية وساترا ، وخافوا مقام ربهم ونهوا أنفسهم عن الهوى .

الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - صفات المتقين الذين يصلحون فى الأرض ولا يفسدون ، والذين أعد لهم - سبحانه - جنته فقال - تعالى - { الذين يُنفِقُونَ فِي السَّرَّآءِ والضرآء } أى الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله فى جميع أحوالهم ، فهم يبذلونها ابتغاء وجه ربهم فى حال يسرهم وفى حال عسرهم ، وفى حال سرورهم وفى حال حزنهم ، وفى حال صحتهم وفى حال مرضهم ، لا يصرفهم صارف عن إنفاق أموالهم فى وجوه الخير ما داموا قادرين على ذلك .وقوله { الذين يُنفِقُونَ } فى محل جر صفة للمتقين . ويجوز أن يكون فى محل نصب أو رفع على القطع المشعر بالمدح .وقال { يُنفِقُونَ } بالفعل المضارع ، للإشارة بأنهم يتجدد إنفاقهم فى سبيل الله آنا بعد آن بدون انقطاع .وقدم الإنفاق على غيره من صفاتهم لأنه وصف إيجابي يدل على صفاء نفوسهم ، وقوة إخلاصهم ، فإن المال شقيق الروح ، فإذا أنفقوه فى حالتى السراء والضراء كان ذلك دليلا على التزامهم العميق لتعاليم دينهم وطاعة ربهم .وقد مدح الله - تعالى - الذين ينفقون أموالهم فى سبيله فى عشرات الآيات من كتابه ، ومن ذلك قوله - تعالى - : { مَّثَلُ الذين يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ الله كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ والله يُضَاعِفُ لِمَن يَشَآءُ والله وَاسِعٌ عَلِيمٌ } أما الصفتان الثانية والثالثة من صفات هؤلاء المتقين فهما قوله تعالى : { والكاظمين الغيظ والعافين عَنِ الناس } .أى سارعوا أيها المؤمنون إلى العمل الصالح الذى يوصلكم إلى جنة عظيمة أعدها الله - تعالى - لمن يبذلون أموالهم فى السراء والضراء ، ولمن يمسكون غيظهم ، ويمتنعون عن إمضائه مع القدرة عليه ، ولمن يغضون عمن أساء إليهم . فالمراد بكظم الغيظ حبسه وإمساكه . يقال : كظم فلان غيظه إذا حبسه ولم يظهره مع قدرته على إيقاعه بمن أغضبه . ويقال : كظم البعير جرته ، إذا ردها وكف عن الاجترار . وكظم القربة : إذا ملأها وشد على فمها ما يمنع من خروج ما فيها .وقد ساق ابن كثير جملة من الأحاديث التى وردت فى فضل كظم الغيظ والعفو عن الناس ومن ذلك ما رواه الشيخان عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ليس الشديد بالصرعة ولكن الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب " .وروى الإمام أحمد - بسنده - عن حارثة بن قدامة السعدى أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " يا رسول الله : قل لى قولا ينفعنى وأقلل على لعلى أعقله : فقال له : "لا تغضب " فأعاد عليه حتى أعاد عليه مرارا كل ذلك يقول : "لا تغضب " " .وعن أبى بن كعب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من سره أن يشرف له البنيان وترفع له الدرجات فليعف عن من ظلمه ويعط من حرمه ، ويصل من قطعه " .وكظم الغيظ والعفو عن الناس هاتان الصفتان إنما تكونان محمودتين عندما تكون الإساءة متعلقة بذات الإنسان ، أما إذا كانت الإساءة متعلقة بالدين بأن انتهك إنسان حرمة من حرمات الله

ففى هذه الحالة يجب الغضب من أجل حرمات الله ، ولا يصح العفو عمن انتهك هذه الحرمة .فلقد وصفت السيدة عائشة النبى صلى الله عليه وسلم بأنه كان لا يغضب لنفسه فإذا انتهكت حرمات الله لم يقم لغضبه شىء .وقوله { والله يُحِبُّ المحسنين } تذييل مقرر لمضمون ما قبله .والإحسان معناه الإتقان والإجادة . وأل فى المحسنين إما للجنس أى والله - تعالى - يحب كل محسن فى قوله و عمله ويكون هؤلاء الذين ذكر الله صفاتهم داخلين دخولا أوليا .وإما أن تكون ، للعهد فيكون المعنى : والله - تعالى - يحب هؤلاء المحسنين الذين من صفاتهم أنهم ينفقون أموالهم في كل حال من أحوالهم ، ويكظمون غيظهم ، ويعفون عمن ظلمهم .

والذين اذا فعلوا فاحشة او ظلموا انفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب الا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون

- كما فسرها الوسيط أما الصفة الرابعة من صفات هؤلاء المتقين فقد ذكرها سبحانه - فى قوله : { والذين إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظلموا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ الله فاستغفروا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذنوب إِلاَّ الله وَلَمْ يُصِرُّواْ على مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ } .والفاحشة من الفحش وهو مجاوزة الحد فى السوء . والمراد بها : الفعلة البالغة فى القبح كالزنا والسرقة وما يشبههما من الكبائر .والمعنى سارعوا أيها المؤمنون إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدها خالقكم - عز وجل - للمتقين الذين من صفاتهم أنهم ينفقون أموالهم فى السراء والضراء ، ويكظمون غيظهم ، ويعفون عن الناس ، وأنهم إذا فعلوا فعلة فاحشة متناهية فى القبح ، أو ظلموا أنفسهم ، بارتكاب أى نوع من أنواع الذنوب " ذكروا الله " أى تذكروا حقه العظيم ، وعذابه الشديد ، وحسابه العسير للظالمين يوم القيامة " فاستغفروا لذنوبهم " أى طلبوا منه - سبحانه - المغفرة لذنوبهم التى ارتكبوها ، وتابوا إليه توبة صادقة نصوحا .وعلى هذا يكون قوله - تعالى - { والذين إِذَا فَعَلُواْ } معطوفا على الصفة الأولى من صفات المتقين ، ويكون قوله - تعالى - { والله يُحِبُّ المحسنين } جملة معترضة بين الصفات المتعاطفة .قال الفخر الرازى : واعلم أن وجه النظم من وجهين الأول : أنه - تعالى - لما وصف الجنة بأنها معدة للمتقين بين أن المتقين: قسمان :أحدهما : الذين أقبلوا على الطاعات والعبادات ، وهم الذين وصفهم بالانفاق في السراء والضراء ، وكظم الغيظ والعفو عن الناس .وثانيهما : الذين أذنبوا ثم تابوا وهو المراد بقوله - تعالى - { والذين إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً } وبين - سبحانه - أن هذه الفرقة كالفرقة الأولى فى كونها متقية .والوجه الثانى : أنه فى الآية الأولى ندب إلى الإحسان إلى الغير ، وندب فى هذه الآية إلى الإحسان إلى النفس ، فإن الذنب إذا تاب كانت توبته إحسانا منه إلى نفسه " .وقوله { أَوْ ظلموا أَنْفُسَهُمْ } معطوف على { فَعَلُواْ فَاحِشَةً } من باب عطف العام على الخاص ، وهذا على تفسير الفاحشة بأنها كبائر الذنوب ، أما ظلم النفس فيتناول كل ذنب سواء أكان صغيرا أم كبيراً .وبعضهم يرى أن الفاحشة وظلم النفس وجهان للمعصية لا ينفصلان عنها ، بمعنى أن كل معصية لا تخلو منهما فهى فاحشة وظلم للنفس ، وعلى هذا تكون " أو " بمعنى الواو .ويكون المعنى : ومن يرتكب فاحشة ويظلم نفسه ، ويتذكر الله عند ارتكابها فيعود إليه تائبا منيبا يكون من المتقين وفى التعبير بقوله : { إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظلموا أَنْفُسَهُمْ. ذَكَرُواْ الله } بصيغة الشرط الجواب ، إشعار بوجوب اقتران الجواب بالشرط أى أن الشخص الذى يدخل فى جملة المتقين هو الذاى يعود إلى ربه تائبا فور وقوع المعصية ، بحيث لا يسوف ولا يؤخر التوبة حتى إذا حصره الموت .قال : إنى تبت الآن .وقوله : { وَمَن يَغْفِرُ الذنوب إِلاَّ الله } جملة معترضة بين قوله { فاستغفروا } وبين قوله {وَلَمْ يُصِرُّواْ } .والاستفهام فى قوله : { وَمَن يَغْفِرُ الذنوب إِلاَّ الله } للإنكار والنفى .أى :لا أحد يقبل توبة التائبين ، ويغفر ذنوب المذنبين ، ويمسح خطايا المخطئين ، إلا الله العلى الكبير " الذي يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل ، ويتوب الله على من تاب " - كما جاء فى الحديث الشريف - ولذا قال صاحب الكشاف عند تفسيره لهذه الجملة ما ملخصه : فى هذه الجملة وصف لذاته - تعالى - بسعة الرحمة ، وقرب المغفرة ، وأن التائب من ذنبه كمن لا ذنب له ، وأنه لا مفزع للمذنبين إلا فضله وكرمه . وفيها تطييب لنفوس العباد ، وتنشيط للتوبة ، وبعث عليها ، وردع عن اليأس والقنوط ، وأن الذنوب وإن جلت فإن عفوه أجل ، وكرمه أعظم . والمعنى أنه وحده عنده مصححات المغفرة ، وهذه جملة معترضة بين المعطوف ، والمعطوف عليه " .وقوله { وَلَمْ يُصِرُّواْ على مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ } بيان لشروط الاستغفار المقبول عند الله - تعالى - .أى أن من صفات المتقين أنهم إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ، سارعوا بالتوبة إلى الله - تعالى - ، ولم يصروا على الفعل القبيح الذى فعلوه ، وهم عالمون بقبحه ، بل يندمون على ما فعلوا ، ويستغفرون الله - تعالى - مما فعلوا ، ويتوبن إليه توبة صادقة .وقوله }

} وَلَمْ يُصِرُّواْ } معطوف على قوله { فاستغفروا لِذُنُوبِهِمْ } .وقوله
وَهُمْ يَعْلَمُونَ } جملة حالية من فاعل " يصروا " أى ولم يصروا على ما
فعلوا وهم عالمون بقبحه .ومفعول يعلمون محذوف للعمل به أى يعلمون سوء فعلهم
أو يعلمون أن الله يتوب على من تاب ، أو يعلمون عظم غضب الله على ،
المذنبين الذين يداومون على فعل القبائح دون أن يتوبوا إليه .فأنت ترى أن
هذه الآية الكريمة قد فتحت باب التوبة أمام المذنبين ، وحرضتهم على ولوجه
بعزيمة صادقة ، وقلب سليم ، ولم تكتف بذلك بل بشرتهم بأنهم متى أقلعوا عن
ذنوبهم ، وندموا على ما فعلوا ، وعاهدوا الله على عدم العودة على ما
ارتكبوه من خطايا ، وردوا المظالم إلى أهلها ، فإن الله - تعالى - يغفر لهم
ما فرط منهم ، ويحشرهم فى زمرة عباده المتقين .إنه - سبحانه - لا يغلق فى
وجه عبده الضعيف المخطىء باب التوبة ، ولا يلقيه حئرا منبوذا فى ظلام
- المتاهات ، ولا يدعه مطرودا خائفا من المصير ، وإنما يطمعه فى مغفرته
سبحانه - ويرشده إلى أسبابها ، ويغريه بمباشرة هذه الأسباب حتى ينجو من
العقاب .ولقد ساق - سبحانه - فى عشرات الآيات ما يبشر التائبين الصادقين في
توبتهم بمغفرته ورحمته ورضوانه ، ومن ذلك قوله - تعالى - :{ والذين لاَ
يَدْعُونَ مَعَ الله إلها آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النفس التي حَرَّمَ الله
إِلاَّ بالحق وَلاَ يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذلك يَلْقَ أَثَاماً
يُضَاعَفْ لَهُ العذاب يَوْمَ القيامة وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً إِلاَّ
مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فأولئك يُبَدِّلُ الله
سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ الله غَفُوراً رَّحِيماً وَمَن تَابَ
وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى الله مَتاباً } وقد وردت أحاديث
كثيرة فى هذا المعنى ومن ذلك ما رواه أبو داود والترمذى عن أبى بكر
الصديق - رضى الله عنه - قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أصر من
استغفر وإن عاد فى اليوم سبعين مرة " .وقال القرطبى : وأخرج الشيخان عن
رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب
إلى الله تاب الله عليه " .وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله
، صلى الله عليه وسلم : " والذى نفسى بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم
ولجاء بقوم يذنبون ويستغفرون فيغفر لهم " .ثم قال القرطبى : " والذنوب التى
يتاب منها إما كفر أو غيره فتوبة الكافر إيمانه مع ندمه على ما سلف من كفره
- وغير الكفر إما حق الله - تعالى - وإما حق لغيره؛ فحق الله - تعالى ،
يكفى فى التوبة منه الترك ، غير أن منها ما لم يكتف الشرع فيها بمجرد الترك
بل أضاف إلى ذلك فى بعضها قضاء كالصلاة والصوم . ومنها ما أضاف إليها ،
كفارة كالحنث فى الإيمان والظهار وغير ذلك وأما حقوق الآدميين فلا بد من
إيصالها إلى مستحقيها ، فإن لم يوجدوا تصدق عنهم ، ومن لم يجد السبيل لخروج
ما عليه لإعسار فعفو الله مأمول ، وفضله مبذول ، فكم ضمن من التبعات ، وبدل
. " من السيئات بالحسنات

اولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ونعم
اجر العاملين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - عاقبة من هذه صفاتهم فقال : { أولئك
جَزَآؤُهُمْ مّغْفِرَةٌ مِّن رّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا
الأنهار خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ العاملين } .أى : أولئك
الموصوفون بتلك الصفات السابقة من الإنفاق فى السراء والضراء ، وكظم الغيظ
والعفو عن الناس . . إلخ { أولئك جَزَآؤُهُمْ مّغْفِرَةٌ مِّن ،
رّبِّهِمْ } تستر ذنوبهم ، وتمسح خطاياهم .وفى الإشارة إليهم بأولئك
- الدالة على البعد ، إشعار بعلو منزلتهم فى الفضل ، وسمو مكانتهم عند الله
} تعالى - .وقوله { وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار } معطوف على
مّغْفِرَةٌ } أى لهم بجانب هذه المغفرة جنات تجرى من تحت أشجارها وثمرها
} الأنهار .وقوله { خَالِدِينَ فِيهَا } حال مقدرة من الضمير المجرور فى
- جَزَآؤُهُمْ } لأنه مفعول به فى المعنى ، إذ هو بمعنى أولئك يجزيهم الله
- تعالى - جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها . فأنت ترى أن الله
تعالى - قد وعد أصحاب هذه الصفات بأمور ثلاثة .وعدهم بغفران ذنوبهم وهذا
منتهى الآمانى والآمال .ووعدهم بإدخالهم فى جناته التى يتوفر لهم فيها ما
تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين .ووعدهم بالخلود فى تلك الجنات حتى يتم لهم
السرور والحبور .وقوله - تعالى - { وَنِعْمَ أَجْرُ العاملين } تذييل قصد
به مدح ما أعد لهم من جزاءن حتى يرغب فى تحصيله العقلاء .والمخصوص بالمدح
محذوف أى ونعم أجر العاملين هذا الجزاء الذى وعدهم الله به مغفرة وجنات
، خالدين فيها .وبذلك نرى السورة الكريمة قبل أن تفصل الحديث عن غزوة أحد
قد ذكرت المؤمنين بطرف مما حدث من بعضهم فيها ، وبالنتائج الطيبة التى
حصلوا عليها من غزوة بدر ، ثم أمرتهم بتقوى الله ، وبالمسارعة إلى الأعمال
الصالحة التى توصلهم إلى رضاه .ثم أخذت السورة الكريمة بعد ذلك تتحدث عن
غزوة أحد وعن آثارها فى نفوس المؤمنين ، فبدأت بالإشارة إلى سنن الله فى
المكذبين بآياته؛ لتخفف عن المؤمنين مصابهم ، ثم أمرتهم بالصبر والثبات

ونهتهم عن الوهن والجزع لأنهم هم الأعلون . وإن تكن قد أصابتهم جراح فقد أصيب المشركون بأمثالها ، والله - تعالى - فيما حدث فى غزوة أحد حكم ، منها تمييز الخبيث من الطيب ، وتمحيص القلوب واتخاذ الشهداء ، ومحق الكافرين : استمع إلى القرآن الكريم وهو يوق تلك المعانى بأسلوبه الذى يبعث الأمل فى. ، قلوب المؤمنين . ويرشدهم إلى ما يقويهم ويثبتهم ، ويمسح بتوجيهاته دموعهم . ويخفف عنه آلامهم فيقول : { هذا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ . . . }

قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين

كما فسرها الوسيط قال الفخر الرازى ما ملخصه : اعلم أن الله - تعالى - لما وعد على الطاعة والتوبة من المعصية ، الغفران والجنات ، أتبعه بذكر ما يحملهم على فعل الطاعة وعلى التوبة من المعصية . وهو تأمل أحوال القرون الخالية من المطيعين والعاصين فقال : { قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ وأصل الخلو فى اللغة : الانفراد . والمكان الخالى هو المنفرد عمن يسكن. { فيه . ويستعمل أيضا فى الزمان بمعنى المضى : لأن ما مضى انفرد عن الوجود وخلا عنه ، وكذا الأمم الخالية .والسنن جمع سنة وهى الطريقة المستقيمة والمثال المتبع . وفى اشتقاق هذه اللفظة وجوه منها : أنها فعلة من سن الماء يسنه إذا والى صبه . والسن الصب للماء . والعرب شبهت الطريقة المستقيمة بالماء المصبوب ، فإنه لتوالى أجزاء الماء فيه على نهج واحد يكون كالشىء - الواحد " .والمراد بالسنن هنا : وقائع فى الأمم المكذبة ، أجراها الله تعالى - على حسب عادته ، وهى الإهلاك والدمار بسبب كفرهم وظلمهم وفسوقهم عن ، أمره .والمعنى : إنه قد مضت وتقررت من قبلكم - أيها المؤمنون - سنن ثابتة ونظم محكمة فيما قدره - سبحانه - من نصر وهزيمة ، وعزة وذلة ، وعقاب فى الدنيا وثواب فيها ، فالحق يصارع الباطل ، وينتصر أحدهما على الآخر بما سنه - سبحانه - من سنة فى النصر والهزيمة .وقد جرت سننه - سبحانه - فى خلقه أن يجعل العاقبة للمؤمنين الصادقين ، وأن يملى للكافرين ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر .فإن كنتم فى شك من ذلك - أيها المؤمنون - { فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فانظروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المكذبين } .أى : فسيروا فى الأرض متأملين متبصرين ، فسترون الحال السيئة التى انتهى إليها المكذبون من تخريب ديارهم وبقايا آثارهم .قالوا : وليس المراد بقوله { فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ ، فانظروا } الأمر بذلك لا محالة ، بل المقصود تعرف أحوالهم ، فإن حصلت هذه المعرفة بغير المسير فى الأرض كان المقصود حاصلا ، ولا يمتنع أن يقال أيضا إن لمشاهدة آثار المتقدمين أثراً أقوى من أثر السماع كما قال الشاعر :تلك آثارنا تدل علينا ... فانظروا بعدنا إلى الآثاروالتعبير بلفظ كيف الدال على ، الاستفهام ، المقصود به تصوير حالة هؤلاء المكذبين التى تدعو إلى العجب وتثير الاستغراب ، وتغرس الاعتبار والاتعاظ فى قلوب المؤمنين؛ لأن هؤلاء المكذبين . مكن الله لهم فى الأرض ، ومنحهم الكثير من نعمه . ولكنهم لم ، يشكروه عليها ، فأهلكهم بسبب طغيانهم .فهذه الآية وأشباهها من الآيات ، تدعو الناس إلى الاعتبار بأحوال من سبقوهم . وإلى الاتعاظ بأيام الله وبالتاريخ وما فيه من أحداث ، وبالآثار التى تركها السابقون ، فإنها أصدق . من رواية الرواة ومن أخبار المخبرين

هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين

كما فسرها الوسيط ثم قال - تعالى - { هذا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ } .والبيان : هو الدلالة التى تفيد إزالة الشبهة بعد أن كانت حاصلة .والهدى : هو الإرشاد إلى ما فيه خير الناس فى الحال والاستقبال .والمواعظة : هى الكلام الذى يفيد الزجر عما لا ينبغى من الأمور الدينية أو الدنيوية .قالوا : فالحاصل أن البيان جنس تحته نوعان : أحدهما : الكلام الهادى إلى ما ينبغى فى الدين وهو الهدى .والثانى: الكلام الزاجر عما لا ينبغى فى الدين وهو الموعظة . فعطفهما على البيان من عطف الخاص على العام .واسم الإشارة يعود إلى ما تقدم هذه الآية الكريمة من أوامر ونواه ، ومن وعد ووعيد ، ومن حض على السير فى الأرض للاعتبار والاتعاظ .أى هذا الذى ذكرناه لكم من وعد ووعيد ، ومن أوامر ونواه ، ومن حض على الاعتبار بأحوال المكذبين ، { بَيَانٌ لِّلنَّاسِ } يكشف لهم الحقائق } ويرفع عنهم الالتباس { وَهُدًى } يهديهم إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم وَمَوْعِظَةٌ } أى تخويف نافع { لِّلْمُتَّقِينَ } الذين يعتبرون بالمثلات وينتفعون بالعظات .وقيل : إن اسم الإشارة يعود إلى القرآن .أى هذا القرآن ، : بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين .وقد رجح ابن جرير الرأى الأول فقال وأولى القولين فى ذلك عندى بالصواب : قول من قال : قوله { هذا } إشارة إلى ، ما تقدم هذه الآية من تذكير الله - عز وجل - المؤمنين ، وتعريفهم حدوده وحضهم على لزوم طاعته ، والصبر على جهاد أعدائه ، لأن قوله { هذا } إشارة إلى حاضر إما مرئى وإما مسموع وهو فى هذا الموضع لى حاضر مسموع من الآيات " المتقدمة ، فمعنى الكلام : هذا الذى أوضحت لكم وعرفتكموه بيان للناس

والمراد بالناس جميعهم ، إذ أن ما ساقه الله - تعالى - من دلالات وهدايات.
وعظات هى للناس كافة ، إلا أن الذين ينتفعون بها هم المتقون ، لأنهم هم
الذين أخلصوا قلوبهم لله ، وهم الذين طلبوا الحق وسلكوا طريقه . . .والكلمة
الهادية لا يستفيد بها إلا القلب المؤمن المفتوح للهدى ، والعظة البالغة لا
- ينتفع بها إلا القلب الخاشع المنيب ، والناس فى كل زمان ومكان لا ينقصهم
فى الغالب - العلم بالحق وبالباطل ، وبالهدى والضلال . . . وإنما الذى
ينقصهم هو القلب السليم الذى يسارع إلى الحق فيعتنقه ويدافع عنه بإخلاص
وإصرار ، ولذا وجدنا القرآن فى هذه الآية - وفى عشرات الآيات غيرها - يصرح
بأن المنتفعين بالتذكير هم المتقون فيقول : { هذا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ
وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ } .

ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الاعلون ان كنتم مؤمنين

كما فسرها الوسيط وبعد هذا البيان الحكيم ، يتجه القرآن إلى المؤمنين
بالتثبيت والتعزية فينهاهم عن أسباب الفشل والضعف ، ويأمرهم بالصمود وقوة
اليقين . ويبشرهم بأنهم هم الأعلون فيقول : { وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ
تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ } .وقوله
تَهِنُوا } من الوهن - بسكون الهاء وفتحها - وهو الضعف . وأصله ضعف الذات
كما فى قوله - تعالى - حكاية عن زكريا : { قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ العظم
، مِنِّي }أى ضعف جسمى .وهو هنا مجاز عن خور العزيمة ، وضعف الإرادة
وانقلاب الرجاء يأسا والشجاعة جبنا ، واليقين شكا ، ولذلك نهوا عنه .وقوله
من الحزن وهو ألم نفسى يصيب الإنسان عند فقد ما يحب أو عدم { تَحْزَنُوا }
إدراكه ، أو عند نزول أمر يجعل النفس فى هم وقلق .والمقصود من النهى عن
الوهن والحزن ، النهى عن سببهما وعن الاسترسال فى الألم مما أصابهم فى غزوة
أحد .والمعنى :لا تسترسلوا - أيها المؤمنون - فى الهم والألم مما أصابكم
، فى يوم أحد ، ولا تضعفوا عن جهاد أعدائكم فإن الضعف ليس من صفات المؤمنين
ولا تحزنوا على من قتل منكم فإن هؤلاء القتلى من الشهداء الذين لهم منزلتهم
السامية عند الله .وقوله { وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ } جملة حالية من ضمير
الجماعة فى ولا تهنوا ولا تحزنوا والمقصوج بها بشارتهم وتسليتهم وإدخال
الطمأنينة على قلوبهم .أى لا تضعفوا ولا تحزنوا والحال أنكم أنتم الأعلون
الغالبون دون عدوكم فأنتم قد أصبتم منهم فى غزوة بدر أكثر مما أصابوا منكم
فى غزوة أحد . وأنتم تقاتلون من أجل إعلاء كلمة الله وهم يقاتلون فى سبيل
الطاغوت .وأنتم سيكون لكم النصر عليهم فى النهاية ، لأن الله - تعالى - قد
وعدكم بذلك فهو القائل : { إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا والذين آمَنُواْ فِي
الحياة الدنيا وَيَوْمَ يَقُومُ الأشهاد } وقوله { إِنْ كُنْتُمْ
مُّؤْمِنِينَ } جملة شرطية ، وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله .أى : إن
كنتم مؤمنين حقا فلا تهنوا ولا تحزنوا بل اعتبروا بمن سبقكم ولا تعودوا لما
وقعتم فيه من أخطاء يوجب قوة القلب ، وصدق العزيمة ، والصمود فى وجه
الأعداء ، والإصرار على قتالهم حتى تكون كلمة الله هى العليا .والتعليق
بالشرط فى قوله { إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ } المراد منه التهييج لنفوسهم
حتى يكون تمسكها بالإيمان أشد وأقوى ، إذ قد علم الله - تعالى - أنهم
مؤمنون ، ولكنهم لما لاح عليهم الوهن والحزن بسبب ما أصابهم فى أحد صاروا
بمنزلة من ضعف يقينه ، فقيل لهم : إن كنتم مؤمنين حقا فاتركوا الوهن والحزن
وجدوا فى قتال أعدائكم ، فإن سنة الله فى خلقه اقتضت أن تصيبوا من أعدائكم
وأن تصابوا منهم إلا أن العاقبة ستكون لكم .فالآية الكريمة تحريض للمؤمنين
على الجهاد والصبر ، وتشجيع على القتال وتسلية لهم عما أصابهم ، وبشارة بأن
النصر فى النهاية سيكون حليفهم .

ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الايام نداولها بين الناس وليعلم
الله الذين امنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين

كما فسرها الوسيط ثم أضاف - سبحانه - إلى ذلك تسلية جديدة لهم ، فأخبرهم
بأن ما أصابهم من جراح وآلام قد أصيب أعداؤهم بمثله فقال - تعالى - : { إِن
يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ القوم قَرْحٌ مِّثْلُهُ } .فقال الفخر
الرازى : واعلم أن هذا من تمام قوله - تعالى - { وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ
تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ } فبين - تعالى - أن الذين يصيبهم من
القرح لا يصح أن يزيل جدهم واجتهادهم فى جهاد العدو ، وذلك لأنه كما أصابهم
ذلك فقد أصاب عدوهم مثله قبل ذلك ، فإذا كانوا مع باطلهم وسوء عاقبتهم لم
يفتروا لأجل ذلك فى الحرب ، فبأن لا يلحقكم الفتور مع حسن العاقبة والتمسك
بالحق أولى .والمراد بالمس هنا : الإصابة بالجراح ونحوها .والقرح - بفتح
القاف - الجرح الذى يصيب الإنسان ، والقرح - بضم القاف - الألم الذى يترتب
- على ذلك وقيل هما لغتان بمعنى واحد وهو الجرح وأثره .والمعنى : إن تكونوا
أيها المؤمنون - قد أصابتكم الجراح من المشركين فى غزوة أحد ، فأنتم قد
أنزلتم بهم من الجراح فى غزوة بدر مثل ما أنزلوا بكم فى أحد ، ومع ذلك

فإنهم بعد بدر قد عادوا لقتالكم ، فأنتم أولى بسبب إيمانكم ويقينكم ألا
تهنوا والا تحزنوا لما أصابكم فى أحد وأن تعقدوا العزم على منازلتهم حتى
يظهر أمر الله وهم كارهون .وقيل : إن المعنى إن تصبكم الجراح فى أحد فقد
أصيب القوم بجراح مثلها فى هذه المعركة ذاتها .وقد ذكر صاحب الكشاف هذين
المعنيين فقال : والمعنى : إن نالوا منكم يوم أحد فقد نلتم منهم قبله يوم
بدر ، ثم لم يضعف ذلك قلوبهم ، ولم ثبطهم عن معاودتكم بالقتال فأنتم أولى
أن لا تضعفوا . ونحوه { وَلاَ تَهِنُواْ فِي ابتغآء القوم إِن تَكُونُواْ
تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ وَتَرْجُونَ مِنَ
الله مَا لاَ يَرْجُونَ } وقيل : كان ذلك يوم أحد ، فقد نالوا منهم قبل أن
" يخالفوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم .فإن قلت : كيف قيل " قرح مثله
وما كان قرحهم يوم أحد مثل قرح المشركين؟ قلت : بلى كان مثله . ولقد قتل
يومئذ خلق من الكفار . ألا ترى إلى قوله - تعالى - { وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ
الله وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حتى إِذَا فَشِلْتُمْ
وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأمر وَعَصَيْتُمْ مِّن بَعْدِ مَآ أَرَاكُمْ مَّا
تُحِبُّونَ } ويبدو لنا أن الظاهر هو الرأى الأول ، وهو أن الكلام عن غزوتى
بدر وأحد ، لأن الله - تعالى - قد ساق هذه الآية الكريمة لتسلية المؤمنين
بأن ما أصابهم فى أحد من المشركين قد أصيب المشركون بمثله على أيدى
المؤمنين فى غزوة بدر ، فلماذا يحزنون أو يضعفون؟ ولأن قوله - تعالى - بعد
- ذلك { وَتِلْكَ الأيام نُدَاوِلُهَا بَيْنَ الناس } ، ويؤيد هذا المعنى
. كما سنبينه لعد قليل - .وجواب الشرط فى قوله { إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ }
إلخ . والتقدير إن يمسسكم قرح فاصبروا عليه واعقدوا عزمكم على قتال . .
أعدائكم ، فقد مسهم قرح مثله قبل ذلك .وعبر عما أصاب المسلمين فى أحد بصيغة
المضارع { يَمْسَسْكُمْ } لقربه من زمن الحال ، وعما أصاب المشركين بصيغة
الماضى لبعده؛ لأن ما أصابهم كان فى غزوة بدر .وقوله { وَتِلْكَ الأيام
نُدَاوِلُهَا بَيْنَ الناس } بيان لسنة الله الجارية فى كونه ، وتسلية
للمؤمنين عما أصابهم فى أحد .وقوله { نُدَاوِلُهَا } من المداولة ، وهى نقل
الشىء من واحد إلى آخر .يقال : هذا الشىء تداولته الأيدى ، أى انتقل من
واحد إلى آخر .والمعنى : لا تجزعوا أيها المؤمنون لما أصابكم من الجراح فى
أحد على أيدى المشركين فهم قد أصيبوا منكم بمثل ذلك فى غزوة بدر ، وإن أيام
الدنيا هى دول بين الناس ، لا يدوم سرورها ولا غمها لأحد منهم ، فمن سره
زمن ساءته أزمان ، ومن أمثال العرب . الحرب سجال : والأيام دول فهى تارة
لهؤلاء وتارة لأولئك ، كما قال الشاعر :فلا وأبى الناس لا يعلمون ... فلا
الخير خير ولا الشر شرفيوم علينا ، ويوم لنا ... ويوم نساء ويوم نسرواسم
الإشارة { تِلْكَ } مشاربه إلى ما بعده ، كما فى الضمائر المبهمة التى
يفسرها ما بعدها ، ومثل هذا التركيب يفيد التفخيم والتعظيم .والمراد
بالأيام : الأوقات والأزمان المختلفة لا الأيام العرفية التى يتكون الواحد
منها من مدة معينة .وقد فسر صاحب الكشاف مداولة الأيام بتبادل النصر ، فقال
وقوله : { وَتِلْكَ الأيام } ، تلك مبتدأ ، والأيام صفته { نُدَاوِلُهَا :
خبره .ويجوز أن يكون { وَتِلْكَ الأيام } مبتدأ وخبرا ، كما تقول : هى {
: الأيام تبلى كل جديد .والمراد بالأيام : أوقات الظفر والغلبة . ونداولها
نصرفها بين الناس ، نديل تارة لهؤلاء وتارة لهؤلاء " .وقد تكلم الإمام
الرازى عن الحكمة فى مداولة الأيام بين الناس فقال ما ملخصه : واعمل أنه
ليس المراد من هذه المداولة أن الله - تعالى - ينصر المؤمنين وأخرى ينصر
، الكافرين ، وذلك لأن نصرة الله منصب شريف ، وإعزاز عظيم فلا يليق بالكافر
بل المراد من هذه المداولة أنه تارة يشدد المحنة على الكفار وأخرى على
المؤمنين والفائدة فيه من وجوه :الأول : إنه - سبحانه - لو شدد المحنة على
الكفار فى جميع الأوقات وأزالها عن المؤمنين فى جميع الأوقات . لحصل العلم
الاضطرارى بأن الإيمان حق وما سواه باطل ، ولو كان كذلك لبطل التكليف
والثواب والعقاب ، فلهذا المعنى تارة يسلط الله المحنة على أهل الإيمان
وأخرى على أهل الكفر لتكون الشبهات باقية ، والمكلف يدفعها بواسطة النظر فى
الدلائل الدالة على صحة الإسلام فيعظم ثوابه عند الله .والثانى : أن المؤمن
قد يقدم على بعض المعاصى ، فيكون تشديد المحنة عليه فى الدنيا أدبا ، وأما
تشديد المحنة على الكافر فإنه يكون غضباً من الله عليه " .ووجه آخر وهو شحذ
عزائم المؤمنين فى اتخاذ وسائل النصر فلا يركنوا إلى إيمانهم ويتركوا العمل
بالأسباب .ثم كشفت السورة الكريمة عن جوانب من حكمة الله فيما وقع من أحداث
} - فى غزوة أحد ، وفيما وراء مداولة الأيام بين الناس فقال - تعالى
وَلِيَعْلَمَ الله الذين آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ } .أى
، فعلنا ما فعلنا فى أحد ، واقتضت حكمتنا أن نداول الأيام بينكم وبين عدوكم
ليظهر أمركم - أيها المؤمنون - ، وليتميز قوى الإيمانى من ضعيفه .فمعنى علم
- الله هو تحقيق ما قدره فى الأزل فيعلمه الناس ، ويعلمه الله - تعالى
واقعا حاضرا ، وذلك لأن العلم الغيبى لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب ، وإنما
: يترتبان على المعلوم إذا صار مشاهداً واقعاً فى الحس .قال صاحب الكشاف
وقوله { وَلِيَعْلَمَ الله الذين آمَنُواْ } فيه وجهان :أحدهما : أن يكون
المعلل محذوفا والمعنى : وليتميز الثابتون على الإيمان منكم من الذين على

حرف فعلنا ذلك . وهو من باب التمثيل . بمعنى : فعلنا ذلك فعل من يريد أن يعلم من الثابت على الإيمان منكم من غير الثابت ، وإلا فالله - عز وجل - لم يزل عالما بالأشياء قبل كونها .والثاني : أنه تكون العلة محذوفة ، وهذا عطف عليه والمعنى : وفعلنا ذلك ليكون كيت وليعلم الله . وإنما حذف للإيذان بأن المصلحة فيما فعل ليست بواحدة ، ليسليهم عما جرى عليهم ، وليبصرهم بأن العبد يسوؤه ما يجرى عليه من المصائب ، ولا يشعر أن لله فى ذلك من المصالح ما هو غافل عنه " .وقوله { وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ } بيان لحكمة أخرى لما أصاب المسلمين يوم أحد .أى : وليكرم ناساً منكم بالشهادة ليكونوا مثالا لغيرهم فى التضحية بالنفس من أجل إعلاء كلمة الله ، والدفاع عن الحق وهو - سبحانه - يحب الشهداء من عباده ، ويرفعهم إلى أعلا الدرجات ، وأسمى المنازل .قال القرطبى ما ملخصه : قوله - تعالى - { وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ } أي يكرمكم بالشهادة ، أي ليقتل قوم منكم فيكونوا شهداء على الناس بأعمالهم . وقيل : لهذا قيل شهيد .وقيل : سمى شهيداً لأنه مشهود له بالجنة . وقيل : سمى شهيدا ، لأن أرواحهم احتضرت دار السلام لأنهم أحياء عند ربهم ، فالشهيد بمعنى الشاهد أى الحاضر للجنة . والشهادة فضلها عظيم ويكفيك فى فضلها قوله - تعالى - { إِنَّ الله اشترى مِنَ المؤمنين أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الجنة } الآية . وفى الحديث الشريف " أن رجلا قال : يا رسول الله ، ما بال المؤمنين يفتنون فى قبورهم " إلا الشهيد؟ فقال صلى الله عليه وسلم " كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة وقوله - تعالى - { والله لاَ يُحِبُّ الظالمين } جملة معترضة لتقدير. " مضمون ما قبلها .أى : والله - تعالى -لا يحب الذين ظلموا أنفسهم بسبب كفرهم ونفاقهم وتخاذلهم عن نصرة الحق ، وإنما يحب المؤمنين الثابتين على الحق ، المجاهدين بأنفسهم وأموالهم فى سبيل إعلاء دين الله ، ونصره شريعته .

وليمحص الله الذين امنوا ويمحق الكافرين

كما فسرها الوسيط ثم ذكر - سبحانه - حكمتين أخريين لما جرى للمؤمنين فى غزوة أحد فقال : { وَلِيُمَحِّصَ الله الذين آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الكافرين وقوله { وَلِيُمَحِّصَ } من المحص بمعنى التنقية والتخليص . يقال : محصت. { الذهب بالنار ومحصته إذا أزلت عنه ما يشوبه من خبث .أو من التمحيص بمعنى الابتلاء والاختبار .وقوله { وَيَمْحَقَ } من المحق وهو محو الشىء والذهاب به ، وأصله نقص الشىء قليلا قليلا حتى يفنى . يقال : محق فلان هذا الطعام إذا نقصه حتى أفناه ومنه المحاق ، لأخر الشهر ، لأن الهلال يبلغ أقصى مدى النقصان فيختفى .والمعنى : ولقد فعل - سبحانه - ما فعل فى غزوة أحد ، لكى يطهر المؤمنين ويصفيهم من الذنوب ، ويخلصهم من المنافقين المندسين بينهم ، ولكى يهلك الكافرين ويمحقهم بسبب بغيهم وبطرهم .فأنت ترى أن الله - تعالى - قد ذكر اربع حكم لما حدث للمؤمنين فى غزوة أحد وهيى : تحقق علم الله - تعالى - وإظهاره للمؤمنين ، وإكرام بعضهم بالشهادة التى توصل صاحبها إلى أعلى الدرجات ، وتطهير المؤمنين وتخليصهم من ذنوبهم ومن المنافقين ، ومحق الكافرين واستئصالهم رويدا رويدا .

ام حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن طريق الجنة محفوف بالمكاره ، وأن الوصول إلى رضا الله - تعالى - يحتاج إلى جهاد عظيم ، وصبر طويل فقال - تعالى - : { أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الجنة وَلَمَّا يَعْلَمِ الله الذين جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصابرين } و { أَمْ } هنا يرى كثير من العلماء أنها منقطعة ، بمعنى بل الانتقالية ، لأن الكلام انتقال من تسليتهم إلى معاتبتهم على ما حدث منهم فى غزوة أحد من مخالفة بعضهم لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وفرارهم عنه فى ساعة الشدة .والهمة المقدرة معها للإنكار والاستبعاد .وقوله { أَمْ حَسِبْتُمْ } معطوف على جملة { وَلاَ تَهِنُوا } وذلك أنهم لما مسهم القرح فحزنوا واعتراهم شىء من الضعف ، بين الله لهم أنه لا وجه لهذا الضعف أو الحزن لأنهم هم الأعلون ، والأيام دول ، وما أصابهم فقد سبق أن أصيب بمثله أعداؤهم ، ثم بين لهم هنا : أن دخول الجنة لا يحصل لهم إذا لم يبذلوا مهجهم وأرواحهم فى سبيل الله ، فإذا ظنوا غير ذلك فقد أخطأوا .والمعنى : بل أحسبتم أن تدخلوا الجنة ، وتنالوا كرامة ربكم ، وشرف المنازل عنده مع أنكم لم تجاهدوا فى سبيل الله جهاد الصابرين على شدائده ومتاعبه ومطالبه ، إن كنتم تحسبونه هذا الحسبان فهو ظن باطل يجب عليكم الإقلاع عنه .ويحتمل أن تكون { أَمْ } هنا للمعادلة بمعنى أنها متصلة لا منقطعة " ويكون المعنى عليه : أعلمتم أن الله - تعالى - سننا فى النصر والهزيمة ، وأن الأيام دول . وأن الوصول إلى السنة يحتاج إلى إيمان وجهاد وصبر ، أم حسبتم وظننتم أنكم تدخلون الجنة من غير مجاهدة واستشهاد؟وقوله { وَلَمَّا يَعْلَمِ الله الذين جَاهَدُواْ مِنكُمْ } بمعنى

ولما تجاهدوا . لأن العلم متعلق بالمعلوم ، فنزل نفى العلم منزلة نفى
، متعلقة ، لأنه منتف بانتفائه . يقول الرجل : ما علم الله من فلان خيراً
يريد ما فيه خير حتى يعمله ، و " لما " بمعنى و { لم } إلا أن فيها ضرباً
من التوقع ، فدل على نفى الجهاد فيما مضى ، وعلى توقعه فيما يستقبل .وتقول
} وعدنى أن يفعل كذا لوما يفعل ، تريد : وأنا أتوقع فعله " .وجملة :
} وَلَمّا يَعْلَمِ الله الذين جَاهَدُواْ مِنكُمْ } حالية من ضمير
تَدْخُلُواْ } مؤكدة للإنكار ، فإن رجاء الأجر من غير علم مستبعد عند ذوى
العقول السليمة ، ولذا قال بعضهم :ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ... إن
السفينة لا تجرى على اليبسوقال بعض الحكماء " طلب الجنة من غير عمل ذنب من
الذنوب ، وانتظار الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور . وارتجاء الرحمة ممن لا
يطاع حمق وجهالة " .وقوله { وَيَعْلَمَ الصابرين } أى ويتميز الصابرون فى
جهادهم عن غيرهم فالآية الكريمة تشير إلى أن الشدائد من شأنها أن تميز
، المجاهدين الصادقين فى جهادهم ، الثابتين فى البأساء والضراء من غيرهم
وأن تميز الصابرين الذين يتحملون مشاق القتال وتبعاته بقلب راسخ ، ونفس
مطمئنة من الذين يجاهدون ولكنهم تطيش أحلامهم عند الشدائد والأهوال
فالجهاد فى سبيل الله يستلزم الصبر ، لأن الصبر هو عدة المجاهد وأساس
نجاحه ، ولقد سئل بعضهم عن الشجاعة فقال : الشجاعة صبر ساعة .وقال بعض
... الشعراء يعتذر عن انتصار أعدائهم عليهم .سقيناهم كأسا سقونا بمثلها
، ولكنهم كانوا على الموت أصبراولقد كان عدم صبر الرماة فى غزوة أحد
ومسارعتهم إلى جمع الغنائم ، من أهم الأسباب التى أدت إلى هزيمة المسلمين
فى تلك المعركة .والآية الكريمة كذلك تشير إلى أن الطريق إلى الجنة ليس
سهلا يسلكه كل إنسان وإنما هو طريق محفوف بالمكاره والشدائد . ولا يصل إلى
غايته إلا الذين جاهدوا وصبروا وصابروا ، ولذا قال رسول الله صلى الله عليه
. " وسلم " حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات

ولقد كنتم تمنون الموت من قبل ان تلقوه فقد رايتموه وانتم تنظرون

كما فسرها الوسيط ثم ذكرهم - سبحانه - بما كان منهم من تمنى الشهادة فى
سبيله فقال { وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنّوْنَ الموت مِن قَبْلِ أن
تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأيْتُمُوهُ وَأنْتُمْ تَنظُرُونَ } .قال ابن جرير ما
، ملخصه : كان قوم من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ممن لم يشهدوا بدراً
، يتمنون قبل يوم أحد يوما مثل يوم بدر ، فيعطون الله من أنفسهم خيرا
وينالون من الأجر مثل ما نال أهل بدر ، فلما كان يوم أحد ، فر بعضهم وصبر
بعضهم ، حتى أوفى بما كان عاهد الله عليه قبل ذلك ، فعاتب الله من فر منهم
بقوله : {وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الموت } . . . الآية .والخطاب فى
الآية الكريمة للمؤمنين الذين لم يفوزوا بالشهادة فى غزوة أحد ، وهو خطاب
يجمع بين الموعظة والملام .والمراد بالموت هنا الشهادة فى سبيل الله ، أو
الحرب والقتال لأنهما يؤديان إلى الموت .والمعنى : ولقد كنتم - يا معشر
} المؤمنين - { تَمَنَّوْنَ الموت } ، أى الحرب أو الشهادة فى سبيل الله
مِن قَبْلِ أن تَلْقَوْهُ } أى تشاهدوه وتعرفوا أهواله { فَقَدْ
رَأَيْتُمُوهُ } أى فقد رأيتم ما تتمنونه من الموت بمشاهدة أسبابه وهى
الحرب وما يترتب عليها من جراح وآلام وقتال { وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ } أى
رأيتموه معاينين مشاهدين له حين قتل بين أيديكم من قتل من إخوانكم وأقاربكم
وشارفتم أنتم أيها الأحياء أن تقتلوا .{ مِن قَبْلِ أن تَلْقَوْهُ } متعلق
بقوله { تَمَنّوْنَ } مبين لسبب إقدامهم على التمنى . أى من قبل أن
تشاهدوه وتعرفوا مصاعبه .ففى الجملة الكريمة تعريض بأنهم تمنوا أمرا دون أن
يقدروا شدته عليهم ، ودون أن يوطنوا أنفسهم على تحمل مشقاته وتبعاته
والفاء فى قوله { فَقَدْ رَأيْتُمُوهُ } للإفصاح عن شرط مقدر دل عليه صدر
الكلام . والتقدير : إذا كنتم قد تمنيتم الموت فقد وقع ما تمنيتموه
ورأيتموه رأى العين ، فأين بلاؤكم وصبركم وثباتكم؟ .وقوله { وَأَنْتُمْ
تَنظُرُونَ } جملة حالية من ضمير المخاطبين مؤكدة لمعنى رأيتموه . أى
رأيتموه معاينين له ، وهذا على حد قولك : رأيته وليس فى عينى علة ، أى
رأيته رؤية حقيقة لا خفاء ولا التباس .والتعبير بالمضارع { تَنظُرُونَ }
، يفيد التصوير . وإحضار الصورة الواقعة فى الماضي كأنها واقعة فى الحاضر
- فيستحضرها العقل كما وقعت ، وكما ظهرت فى الوجود .والنظر الذى قرره الله
، تعالى - بقوله { وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ } يتضمن النظر إلى الموقعة كلها
وكيف كان النصر فى أول الأمر للمسلمين ، ثم كيف كانت الهزيمة بعد ذلك بسبب
تطلع بعضهم إلى أعراض الدنيا . ثم كيف تفرقت صفوفهم بعد اجتماعها وكيف
تضعضعت بعض العزائم بعد مضائها وقوتها .ولقد حكت الآية الكريمة أن المسلمين
كانوا يتمنون الموت فى معركة ، وليس فى ذلك من بأس ، بل إن هذا هو شعار
المؤمن الصادق ، لأن المؤمن الصادق هو الذى يتمنى الشهادة فى سبيل الله ومن
أجل نصرة دينه ، ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لوددت أنى اقتل
فى سبيل الله ، ثم أحيا ، ثم أقتل ، ثم أحيا ثم أقتل " .وقال عمر بن
الخطاب - رضى الله عنه - " اللهم إنى أسألك شهادة فى سبيلك " . ولكن الذى

يكرهه الإسلام هو أن يتمنى المسلم الشهادة ثم لا يفى بما تمناه ، بمعنى أن يفر من الميدان أو يفعل ما من شأنه أن يتنافى مع الجهاد الحق فى سبيل الله ولذا قال الآلوسى : " والمقصود من هذا الكلام عتاب المنهزمين على تمنيهم. الشهادة ، وهم لم يثبتوا حتى يستشهدوا ، أو على تمنيهم الحرب وتسببهم لها ثم جبنهم وانهزامهم لا على تمنى الشهادة نفسها لأن ذلك مما لا عتاب عليه كما وهم " .فالآية الكريمة تعظ المؤمنين بأن لا يتمنوا أمرا حتى يفكروا فى عواقبه ، ويعدوا أنفسهم له ، ويلتزموا الوفاء بما تمنوه عند تحققه ، ولقد رسم النبى صلى الله عليه وسلم الطريق القويم الذى يجب أن يسلكه المسلم في حياته فقال فى حديثه الصحيح :" أيها الناس ، لا تتمنوا لقاء العدو ، وسلوا الله العافية . فإذا لقيتموهم فاصبروا . واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد أمرت المؤمنين بأن يعتبروا بأحوال. " من سبقهم ، وأن يتجنبوا ما كان عليه المكذبون من ضلال وعصيان وأن يوطنوا أنفسهم على تحمل المصائب والآلام فإن العاقبة لهم ، وأن يعملوا أن الحياة لا تخلو من نصر وهزيمة ، وسراء وضراء حتى يتميز الخبيث من الطيب ، وأن يعرفوا أن الطريق إلى الجنة يحتاج إلى إيمان عميق ، وصبر طويل ، وجهاد شديد واستجابة كاملة لتعاليم الإسلام وآدابه . ثم تمضى السورة الكريمة فى ، حديثها عن غزوة أحد ، فتذكر المؤمنين بما كان منهم عندما اشيع بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قتل ، وترشدهم إلى أن الآجال بيد الله ، وأن المؤمنين الصادقين قاتلوا مع أنبيائهم فى سبيل إعلاء كلمة الله بدون ضعف أو ملل فعليهم أن يتأسوا بهم فى ذلك ، وأن الله - تعالى - قد تكفل بان يمنح المؤمنين الصادقين المجاهدين فى سبيله أجرهم الجزيل فى الدنيا والآخرة .

وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل افان مات او قتل انقلبتم على اعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين

كما فسرها الوسيط استمع إلى القرآن الكريم وهو يسوق هذه المعانى بأسلوبه البليغ الحكيم فيقول : { وَمَا مُحَمَّدٌ . . . } .قال ابن كثير : لما : انهزم من انهزم من المسلمين يوم أحد ، وقتل من قتل منهم ، نادى الشيطان ألا إن محمداً قد قتل ، ورجع ابن قميئة إلى المشركين فقال لهم : قتلت محمداً . وإنما قد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فشجه فى رأسه . فوقع ذلك فى قلوب كثير من الناس ، واعتقدوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قتل ، فحصل ضعف ووهن وتأخر - بين المسلمين - عن القتال . ففى ذلك أنزل الله تعالى - { وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرسل الآية .وقوله - تعالى - { وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ { مِن قَبْلِهِ الرسل } تقرير لحقيقة ثابتة ، ولأمر مؤكد ، وهو أن محمداً صلى الله عليه وسلم واحد من البشر ، وأنه سيموت كما يموت جميع البشر ، وأنه ليس ، له صفة تميزه عن سائر البشر سوى الرسالة التى وهبها الله - تعالى - له ومنحه إياها ، وأن هذه الرسالة لا تقتضى بقاءه أو خلوده ، إذ الرسل الذين سبقوه قد أدوا رسالتهم فى الحياة كما أمرهم خالقهم ثم ماتوا أو قتلوا .وما دام الأمر كذلك فمحمد صلى الله عليه وسلم سيموت وينتقل إلى الرفيق الأعلى كما مات الذين سبقوه من الأنبياء ، وكما سيموت جميع البشر .والقصر فى قوله - تعالى - : { وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ } من باب قصر الموصوف على الصفة ، أى قصر محمد صلى الله عليه وسلم على وصف الرسالة قصراً إضافياً وفى هذا القصر رد على ما صدر من بعض المسلمين من اضطراب وضعف حين أرجف. - المنافقون فى غزوة أحد بأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد قتل .فكأنه تعالى - يقول لهم : إن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول من الرسل الذين أرسلهم الله لإخراج الناس من الظلمات إلى النور ، وسيكون مصيره إلى الموت إن عاجلا أو آجلا كما هو شأن سائر البشر الذين اصطفى الله - تعالى - منهم رسله ، إلا أن رسالته التى جاء بها من عند الله لن تموت من بعده ، بل ستستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ولا يصح أن يضعف أتباعه فى ، عقيدتهم أو فى تبليغ رسالته من بعده ، بل عليهم أن يستمسكوا بما جاءهم به وأن يدافعوا عنه بأنفسهم وأموالهم .ولذا فقد وبخ الله - تعالى - بعض المسلمين الذين صدر منهم اضطراب أو ضعف عندما أشاع ضعاف النفوس بأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد قتل فى غزوة أحد فقال - تعالى - : { أَفإِنْ مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقلبتم على أَعْقَابِكُمْ } ؟أى : إذا مات محمد صلى الله عليه وسلم - أيها المؤمنون - وقد علمتم أن موته حق لا ريب فيه ، أو قتل وهو يدافع عن دينه وعقيدته ، { انقلبتم على أَعْقَابِكُمْ } أى : رجعتم إلى ما كنتم عليه من الكفر والضلال .والانقلاب : الرجوع إلى المكان . وهو هنا مجاز فى الرجوع إلى الحال التى كانوا عليها قبل الإسلام .يقال لكل من رجع إلى . حاله السىء الأول : نكص على عقبيه ، وارتد على عقبيه . والعقب مؤخر الرجل وجمع أعقاب .قال صاحب الكشاف : قوله { أَفإِنْ مَّاتَ } الفاء معلقة للجملة الشرطية بالجملة قبلها على معنى التسبب . والهمزة لإنكار أن يجعلوا خلو الرسل قبله سبباً لانقلابهم على أعقابهم بعد هلاكه بموت أو قتل ، مع علمهم أن خلو الرسل قبله وبقاء دينهم متمسكاً به يجب أن يجعل سبباً للتمسك بدين

محمد صلى الله عليه وسلم لا للانقلاب عنه .فإن : قلت : لم ذكر القتل وقد علم أنه لا يقتل؟ قلت : لكونه مجوزا عند المخاطبين .فإن قلت : أما علموه من ناحية قوله : { والله يَعْصِمُكَ مِنَ الناس } قلت : هذا مما يختص بالعلماء منهم وذوى البصيرة " .وفى قوله { انقلبتم على أَعْقَابِكُمْ } تنفير شديد من الرجوع إلى الضلال بعد الهدى ، وتصوير بليغ لمن ارتد عن الحق بعد أن ، هداه الله إليه .فقد صور - سبحانه - حالة من ترك الهداية إلى الضلال بحالة من رجع إلى الوراء وبصره إلى الأمام ، وأعقابه هى التى تقوده إلى الخلق ، وهو فى حالة انتكاس ، بأن جعل رأسه إلى أسفل وعقبه إلى أعلا . ولا شك أن هذا أقبح منظر يكون عليه الإنسان .وقوله { وَمَن يَنقَلِبْ على عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ الله شَيْئاً } الغرض منه تأكيد الوعيد ، لأن كل عاقل يعلم أن الله - تعالى - لا يضره كفر الكافرين .أى : ومن ينقلب على عقبيه بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم بأن يرجع إلى ما كان عليه من الكفر والضلال ، فلن يضر الله شيئاً من الضرر وإن قل ، إنما يضر نفسه - بتعريضها للسخط والعذاب ، وبحرمانها من الأجر والثواب .ثم أتبع - سبحانه هذا الوعيد بالوعد فقال : { وَسَيَجْزِي الله الشاكرين } أى : وسيثيب الله - تعالى - الثابتين على الحق والصابرين على الشدائد الشاكرين له نعمه فى السراء والضراء ، سيثيبهم على ذلك بالنصر فى الدنيا وبرضوانه فى الآخرة ، وعبر هنا بالشاكرين ولم يعبر بالصابرين مع أن الصبر فى هذا الموطن أظهر. وذلك لأن الشكر فى هذا المقام هو أسمى درجات الصبر ، لأن هؤلاء المؤمنين الصادقين الذين وقفوا إلى جانب النبى - صلى الله عليه وسلم - فى ساعة العسرة ، لم يكتفوا بتحمل البلاء معه فقط ، بل تجاوزوا حدود الصبر إلى حدود الشكر على هذه الشدائد التى ميزت الخبيث من الطيب ، فالشكر هنا صبر وزيادة }- وقليل من الناس هو الذى يكون على هذه الشاكلة ، ولذا قال - تعالى ، وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشكور } فالآية الكريمة قد تضمنت عتابا وتوبيخا لأولئك المسلمين الذين ضعف يقينهم ، وفترت همتهم ، عندما أرجف المرجفون فى غزوة أحد بأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد قتل .كما تضمنت الثناء الجزيل على أولئك الثابتين الصابرين الذين لم تؤثر فى قوة إيمانهم تلك الأراجيف الكاذبة ، بل مضوا فى جهادهم وثباتهم بدون تردد أو تزعزع ولقد كان الثابتون حول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة أحد كثيرين ومن بينهم أنس بن : النضر - رضى الله عنه - ، فقد ورى البخارى عن أنس - رضى الله عنه - قال غاب عمى أنس بن النضر عن قتال بدر ، فقال : يا رسول الله . غبت عن أول قتال قاتلت فيه المشركين ، لئن أشهدنى الله قتال المشركين ليرين الله ما أصنع فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون . قال : اللهم إنى أعتذر إليك مما صنع. هؤلاء - يعنى المسلمين - . وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء - يعنى المشركين - .ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ . فقال : يا سعد بن معاذ!! الجنة ورب النضر إنى لأجد ريحها من دون أحد .قال سعد : فما استطعت يا رسول الله ما صنع .قال أنس ، فوجدنا به بضعا وثمانين ضربة بالسيف ، أو طعنة برمح ، أو رمية بسهم : ووجدناه قد قتل ، وقد مثل به المشركون ، فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه .قال أنس كنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفى أشباهه : { مِّنَ المؤمنين رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَاهَدُواْ الله عَلَيْهِ } كما تضمنت الآية الكريمة التحذير عن الارتداد عن دين الله بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وبيان أنه بشر من البشر ، وأنه يموت كما يموت سائر البشر ، وأن رسالته هى الخالدة الباقية ، فمن تمسك بها فقد سعد وفاز . ومن أعرض عنها فلن يضر الله شيئاً .

وما كان لنفس ان تموت الا باذن الله كتابا مؤجلا ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الاخرة نؤته منها وسنجزي الشاكرين

- كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن الآجال بيد الله وحده . وأنه سبحانه - قد جعل لكل أجل وقتا محددا لا يعدوه فقال - تعالى - { وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ الله كِتَاباً مُّؤَجَّلاً } .أى : ما كان الموت حاصلا لنفس من النفوس مطلقا ، لأى سبب من الأسباب ، إلا بمشيئة الله وأمره وإذنه ، فهو - سبحانه - الذى كتب لكل نفس عمرها كتابا مؤقتا بوقت معلوم لا يتقدم ولا يتأخر .المراد بالنفس هنا . جنسها . أى كل نفس لا تموت إلا بإذن الله .والمراد بإذنه - : أمره ومشيئته ، فكل نفس لا تحيا إلا بأمره ، ولا تموت إلا بإذنه .و { كَانَ } نقاصة وقوله { أَنْ تَمُوتَ } في محل رفع اسمها وقوله { لِنَفْسٍ } متعلق بمحذوف وقع خبرا لها والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال والأسباب .أى ما كان لها أن تموت فى حالة . من الأحوال أو لسبب من الأسباب إلا مأذونا لها منه - سبحانه - .والباء فى قوله { إِلاَّ بِإِذْنِ الله } للمصاحبة .وقوله { كِتَاباً } مفعول مطلق مؤكد لمضمون الجملة التى قبله ، وعامله مضمر والتقدير : كتب الله ذلك كتابا مؤجلا . أى له أجل معلوم لا يتقدم عنه ولا يتأخر ، وهو آت لا ريب فيه وقوله { مُّؤَجَّلاً } صفة لقوله { كِتَاباً } .ثم ذم - سبحانه - الذين. يؤثرون متاع الدنيا على الآخرة ، فقال : { وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدنيا نُؤْتِهِ مِنْهَا } أى من يرد بعمله ثواب الدنيا أى جزاءها وثمارها

كالأموال والغنائم نؤته منها ما نشاء أن نؤتيه ، ولا يكون له فى الآخرة من نصيب .وهذا تعريض بمن شغلوا بجمع الغنائم عن الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أو بمن تركوا أماكنهم التى وضعهم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وسارعوا إلى جمع حطام الدنيا ، فنتج عن ذلك هزيمة المسلمين فى غزوة أحد .ثم مدح - سبحانه - الذين يبتغون بأعمالهم ثواب الآخرة فقال : { وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخرة نُؤْتِهِ مِنْهَا } .أى ومن يرد بعمله وجهاده ثواب الآخرة وما ادخره الله فيها لعباده المتقين من أجر جزيل نؤته منها ما نشاء من عطائنا الذين تشتهيه النفوس ، وتقر له العيون .وقوله { وَسَنَجْزِي الشاكرين } تذييل مقرر لمضمون ما قبله ، ووعد من عطاء الله لمن شكره على نعمه ويثبت على شرعه .أى وسنجزى الشاكرين فى دنياهم بما يسعدهم ويرضيهم . وسنجزيهم فى الآخرة بما يشرح صدورهم ، ويدخل البهجة على نفوسهم .فأنت ترى أن الآية الكريمة قد تضمنت تحريض المؤمنين على القتال . وتحذيرهم من الجبن والفرار ، لأن الجبن لا يؤخر الحياة ، كما أن الإقدام لا يؤدى إلى الموت قبل حلول وقته ، فإن أحدا لا يموت قبل أجله ، وإن خاض المهالك واقتحم المعارك .كما تضمنت دعوة المؤمنين إلى الزهد فى متع الحياة الدنيا ، وإلى أن يجعلوا مقصدهم الأكبر فى تحصيل ما ينفعهم فى آخرتهم ، فإن هذا هو المقصد الأسمى ، والمطلب الأعلى : قال - تعالى - { مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخرة نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدنيا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخرة مِن نَّصِيبٍ } وإن الذين خالفوا وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم تركوا أماكنهم التى أمرهم بالثبات فيها جريا وراء الغنائم ، لم يحصلوا منها شيئا ، بل فقدوها وفقدوا أرواحهم وعزتهم وكرامتهم ، وكان فعلهم هذا من أسباب هزمية المسلمين فى غزوة أحد ، كما تضمنت وعداً من الله - تعالى - بأن يزيد الشاكرين من فضله وإحسانه. . وأن يكافئهم على شكرهم إياه بما هم أهل له من نصر وخير وفير

وكاين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما اصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما كان عليه أتباع الأنبياء السابقين - من إيمان عميق ، وعزم وثيق ، حتى يتأسى بهم كل ذى عقل سليم ، فقال تعالى- : { وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ الله وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا استكانوا } .وكلمة { وَكَأَيِّن } مركبة من كاف التشبيه وأى الاستفهامية المنونة ، ثم هجر معنى جزأيها وصارت كلمة واحدة بمعنى كم الخبرية الدالة على الكثير .ويكنى بها عن عدد مبهم فتفتقر إلى تمييز بعدها وهى مبتدأ : وجملة { قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ } خبرها .والربيون جمع ربى ، وهو العالم بربه ، الصادق فى إيمانه به ، الملخص له فى عبادته نسبة إلى الرب كالربانى .قال القرطبى ما ملخصه : والربيون - بكسر الراء - قراءة الجمهور . وقرأها بعضهم بضم الراء وقرأها بعضهم بفتحها والربيون : الجماعة الكثيرة نسبة إلى الربة - بكسر الراء وضمها - وهى الجماعة . . ومنه يقال للخرقة التى تجمع فيها القداح : ربة . وربة والرباب : قبائل تجمعت .وقال ابن عباس ربيون - بفتح الراء - منسوب إلى الرب .وقال الخليل : الربى - بكسر : الراء - الواحد من العباد الذين صبروا مع الأنبياء ، وهم الربانيون نسبوا إلى التأله والعبادة ومعرفة الربوبية لله - تعالى - . وقوله { فَمَا وَهَنُواْ } من الوهن وهو اضطراب نفسى ، وانزعاج قلبي ، يبتدىء من داخل الإنسان ، فإذا وصل إلى الخارج كان ضعفاً وتخاذلا .والمعنى : وكثير من الأنبياء قاتل معهم مؤمنون صادقو الإيمان من أجل إعلاء كلمة الله وإعزاز دينه وأصيبوا وهم يقاتلون بما أصيبوا من جراح وآلام ، { فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ الله } أى فما عجزوا أو جبنوا بسبب ما أصابهم من جراح ، أو ما أصاب أنبياءهم وإخوانهم من قتل واستشهاد . لأن الذى أصابهم إنما هو فى سبيل الله وطاعته وإقامة دينه ، ونصرة رسله .وقوله { وَمَا ضَعُفُواْ } أى : عن قتال أعدائهم وعن الدفاع عن الذى آمنوا به وقوله { وَمَا استكانوا } - أى ما خضعوا وذلوا لأعدائهم .فأنت ترى أن الله - تعالى - قد نفى عن هؤلاء المؤمنين الصادقين ثلاثة أوصاف لا تتفق مع الإيمان نفى عنهم - أولا - الوهن وهو اضطراب نفسى ، وهلع قلبى ، يستولى على. الإنسان فيفقده ثباته وعزيمته .ونفى عنهم - ثانيا - الضعف الذى هو ضد القوة وهو ينتج عن الوهن .ونفى عنهم - ثالثا - الاستكانة وهى الرضا بالذل ، والخضوع للأعداء ليفعلوا بهم ما يريدون .وقد نفى - سبحانه - هذه الأوصاف الثلاثة عن هؤلاء المؤمنين الصادقين مع أن واحداً منها يكفى نفيه لنفيها لأنها متلازمة - وذلك لبيان قبح ما يقعون فيه من أضرار فيما لو تمكن واحد من هذه الأوصاف من نفوسهم .وجاء ترتيب هذه الأوصاف فى نهاية الدقة بحسب حصولها فى الخارج ، فإن الوهن الذى هو خور فى العزيمة إذا تمكن من النفس أنتج الضعف الذى هو لون من الاستسلام والفشل .ثم تكون بعدهما الاستكانة التى يكون معها الخضوع لكل مطالب الأعداء وإذا وصل الإنسان إلى هذه المرحلة

فى حياته كان الموت أكرم له من هذه الحياة .وقوله { والله يُحِبُّ الصابرين
تذييل قصد به حض المؤمنين على تحمل المكاره وعلى مقاساة الشدائد ومعاناة
المكاره من أجل إعلاء دينهم حتى يفوزوا برضا الله ورعايته كما فاز أولئك
الأنقياء الأوفياء .أى والله - تعالى - يحب الصابرين على آلام القتال ،
ومصاعب الجهاد ، ومشاق الطاعات ، وتبعات التكاليف التى كلف الله - تعالى -
بها عباده .

وما كان قولهم الا ان قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا في امرنا وثبت
اقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين

كما فسرها الوسيط ثم أتبع - سبحانه - محاسنهم الفعلية ، ببيان محاسنهم
القولية فقال - تعالى - { وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ
رَبَّنَا اغفر لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ
أَقْدَامَنَا وانصرنا عَلَى القوم الكافرين } .أى أن هؤلاء الأنقياء
الأوفياء الصابرين ما كان لهم من قول فى مواطن القتال وفى عموم الأحوال إلا
} : الضراعة إلى الله - بثلاث أمور :أولها : حكاه القرآن عنهم فى قوله
رَبَّنَا اغفر لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا } .أى : إنهم
يدعون الله - تعالى - بأن يغفر لهم ذنوبهم ما كان صغيراً منها وما كان كبيرا
وأن يغفر لهم ( إسرافهم فى أمرهم ) أى ما تجاوزوه من الحدود التى حدها :
لهم وأمرهم بعدم تجاوزها .وثانيها : حكاه القرآن عنهم فى قوله { وَثَبِّتْ
أَقْدَامَنَا } أى أجعلنا يا ربنا ممن يثبت لحرب أعدائك وقتالهم ولا تجعلنا
ممن يوليهم الأدبار .وثالثها : حكاه القرآن عنهم فى قوله { وانصرنا عَلَى
القوم الكافرين } أى اجعل النصر لنا يا ربنا على أعدائك وأعدائنا الذين
-جحدوا وحدانيتك ، وكذبوا نبيك وضلوا ضلالا بعيدا .وتأمل معى - أخى القارىء
هذه الدعوات الكريمة تراها قد جمعت من صدق اليقين ، وحسن الترتيب .فهم قد
التمسوا - أولا - من خالقهم مغفرة ذنوبهم والتجاوز عما وقعوا فيه من أخطاء
وهذا يدل على سلامة قلوبهم وتواضعهم واستصغار أعمالهم مهما عظمت أمام فضل
الله ونعمه .ثم التمسوا منه - ثانيا - تثبيت أقدامهم عند لقاء الأعداء حتى
لا يفروا من أمامهم .ثم التمسوا منه - ثالثا - النصر على الكافرين وهو غاية
القتال ، لأن الانتصار عليهم يؤدى إلى منع وقوع الفتنة فى الأرض ، وإلى
إعلاء كلمة الحق .قال صاحب الكشاف : قوله { وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ } الخ
هذا القول وهو إضافة الذنوب والإسراف إلى أنفسهم مع كونهم ربانيين هضما لها
واستقصارا . والدعاء بالاستغفار منها مقدما على طلب تثبيت الأقدام فى مواطن
الحرب والنصرة على العدو ، ليكون طلبهم إلى ربهم عن زكاة وطهارة وخضوع .
وهو أقرب إلى الاستجابة " .وكان هنا ناقصة ، وقوله { قَوْلَهُمْ } بالنصب
خبرها واسمها المصدر المتحصل من " أن " وما بعدها فى قوله { إِلاَّ أَن
قَالُواْ } والاستثناء مفرغ .أى : ما كان قولهم فى ذلك المقام وفى غيره من
المواطن إلا قولهم هذا الدعاء أى هو دأبهم وديدنهم .

فاتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الاخرة والله يحب المحسنين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - الثمار التى ترتبت على هذا الدعاء
} : الخاشع والإيمان الصادق والعمل الخالص لوجهه - سبحانه - فقال
فَآتَاهُمُ الله ثَوَابَ الدنيا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخرة والله يُحِبُّ
المحسنين } .والفاء فى قوله { فَآتَاهُم } لترتيب ما بعدها على ما قبلها
أى أن هؤلاء الذين آمنوا بالله حق الإيمان وجاهدوا فى سبيله حق الجهاد لم.
يخيب الله - تعالى - سعيهم ولم يقفل بابه عن إجابة دعائهم ، وإنما أعطاهم
الله - تعالى - لأنه غير زائل ، وغير مشوب بتنغيص أو قلق .وقوله { والله
- يُحِبُّ المحسنين } تذييل مقرر لمضمون ما قبله ، فإن محبة الله - تعالى
للعبد مبدأ كل خير وسعادة .وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد قررت فى
مطلعها حقيقة ثابتة . وهى أن محمدا صلى الله عليه وسلم بشر من البشر ، وأنه
يموت كما يموت سائر البشر وأن رسالته لا تموت من بعده بل على أتباعه أن
يسيروا على طريقته وأن يحملوا من بعده عبء تبليغ تعاليم الإسلام الذى جاء
به ثم قررت بعد ذلك أن الآجال بيد الله وأن الحذر لا يمنع القدر وأن أحداً
لن يموت قبل انتهاء أجله ، ما دام الأمر كذلك فعلى المؤمنين أن يجاهدوا
الكفار والمنافقين وأن يغلظوا عليهم .ثم ذكرت الناس بعد ذلك بما كان من
أتباع الرسل السابقين من إيمان عميق وجهاد صادق وثبات فى وجه الباطل ودعاء
مخلص خاشع . حتى يتأسى بهم فى أقوالهم وأعمالهم كل ذى عقل سليم .ثم ختمت
هذه الآيات ببيان النتائج الطيبة التى منحها الله - تعالى - لعباده
المؤمنين الصادقين فى دنياهم وآخرهم حتى يسارع الناس فى كل زمان ومكان إلى
الأعمال الصالحة التى تكون سببا فى سعادتهم وعزتهم ثم وجه القرآن ندء إلى
المؤمنين ، نهاهم فيه عن طاعة أعداء الله وأعدائهم ، وأمرهم بالتمسك
بتعاليم دينهم وبشرهم بسوء عاقبة أعدائهم فقال - تعالى - : { يَا أَيُّهَا
الذين آمنوا . . . } .

يا ايها الذين امنوا ان تطيعوا الذين كفروا يردوكم على اعقابكم فتنقلبوا خاسرين

كما فسرها الوسيط قال الآلوسى : ما ملخصه : قوله { يَا أَيُّهَا الذين آمنوا إِن تُطِيعُوا الذين كَفَرُواْ } شروع فى زجر المؤمنين عن متابعة الكفار ببيان مضارها ، إثر ترغيبهم فى الاقتداء بأنصار الأنبياء ببيان فضائله وتصدير الخطاب بالنداء والتنبية لإظهار الاعتناء بما فى حيزه ووصفهم بالإيمان لتذكيرهم بحال ينافى تلك الطاعة فيكون الزجر على أكمل وجه . والمراد من الذين كفروا إما المنافقون لأنهم هم الذين قالوا للمؤمنين عند هزيمتهم فى أحد : ارجعوا إلى إخوانكم وادخلوا فى دينهم . . وإما أبو سفيان وأصحابه وحينئذ فالمراد بإطاعتهم الاستكانة لهم وطلب الأمان منهم . . وإما اليهود ولاصنارى لأنهم هم الذين كانوا يلقون الشبه فى الدين ويقولون : لو كان محمد نبيا حقا لما غلبه أعداؤه . . وإما سائر الكفار " .فالآية الكريمة تنهى المؤمنين عن طاعة الكفار؛ لأن الكفر والإيمان نقيضان لا يجتمعان .وجاء التعبير : بإن " الشرطية دون " إذا "؛ لأن إذا لتحقق الشرط والجزاء أما إن فإنها لا تفيد التحقق بل تفيد الشك ، وهذا هو المناسب لحال المؤمنين لأن إيمانهم يحجزهم عن طاعة الذين كفروا ويمنعهم من الوقوع فى ذلك والنداء متوجه ابتداء للمؤمنين المجاهدين الذين حضروا غزوة أحد ، وسمعوا ما سمعوا من أراجيف أعدائهم وأكاذيبهم ، إلا أنه يندرج تحت مضمونه كل مؤمن فى كل ، زمان أو مكان لأن الكافرين في كل العصور لا يريدون بالمؤمنين إلا خبالا ولا يتمنون لهم إلا الشرور والمصائب .ثم بين - سبحانه - النتيجة - السيئة التي تترتب على طاعة المؤمنين للكافرين فقال : { يَرُدُّوكُمْ على أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَاسِرِينَ } .أى : إن تطيعوهم يرجعوكم إلى ما كنتم عليه قبل الإسلام من ضلال وكفران أو يردوكم إلى الحالة التى كنتم عليها قبل مشروعية الجهاد وهى حالة الضعف والهوان التى رفعها الله عنكم بأن } أذن لكم فى مقاتلة أعدائكم الذين أخرجوكم من دياركم بغير حق .وقوله فَتَنقَلِبُواْ خَاسِرِينَ } أى فترجعوا خاسرين لخيرى الدنيا والآخرة ، أما خسران الدنيا فبسبب انقيادكم لهم ، واستسلامكم لمطالبهم . . وأما خسران الآخرة فبسبب تركككم لوصايا دينكم ومخالفتكم لأوامر خالقكم ، وتوجيهات نبيكم صلى الله عليه وسلم وكفى بذلك خسارة شنيعة .فأنت ترى أن الآية الكريمة قد نهت المؤمنين عن طاعة الكافرين ، ثم بينت لهم نتيجتين سيئتين تترتبان على هذه الطاعة ، وهما : الرجوع إلى الضلال بعد الهدى ، والخسران فى الدنيا والآخرة .والتعبير بقوله { فَتَنقَلِبُواْ } يفيد أن إطاعة الكافرين يؤدى بالمؤمنين إلى انقلاب حالهم وانتكاس أمرهم وجعل أعلاهم أسفلهم . . . وفى ذلك ما فيه من التنفير عن إطاعة الكافرين والاستماع إلى وساوسهم .

بل الله مولاكم وهو خير الناصرين

كما فسرها الوسيط ثم أمرهم - سبحانه - بطاعته والاعتماد عليه والاستعانة به " وحده فقال { بَلِ الله مَوْلاَكُمْ وَهُوَ خَيْرُ الناصرين } .وحرف " بل هنا للإضراب الانتقالى ، لأنه - سبحانه - بعد أن حذر المؤمنين من إطاعة الكافرين وما يترتب عليها من مضار ، انتقل إلى توجيههم إلى ما فيه عزتهم وكرامتهم وسعادتهم .والمولى هنا بمعنى النصير والمعين ، وهذا اللفظ لا يدل ، على النصرة والعون فقط ، وإنما يدل على كمال المحبة والمودة والقرب - والنصرة تجىء ملازمة لهذه المعانى ، لأنه من كان الله محبا له ، كان سبحانه - ناصرا له لا محالة .والمعنى إنى أنهاكم - أيها المؤمنون - عن إطاعة الكافرين ، لأنهم ليسوا أولياء لكم فتطيعوهم ، بل الله - تعالى - هو وليكم ومعينكم وهو خير الناصرين ، لأنه هو الذى لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء فأخلصوا له العبادة والطاعة .

سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما اشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وماواهم النار وبئس مثوى الظالمين

كما فسرها الوسيط ثم بشرهم - سبحانه - بأنه سيلقى الرعب والفزع فى قلوب أعدائهم فقال - تعالى - : { سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الذين كَفَرُواْ الرعب بِمَآ أَشْرَكُواْ بالله مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً } .والرعب : الخوف والفزع ، يقال رعبه يرعبه أى خوفه أصله من الملء يقال : سيل راعب ، إذا ملأ الأودية . ورعبت الحوض : ملأته .والسلطان : الحجة والبرهان وسميت الحجة سلطانا لقوتها ونفوذها . أصل المادة يدل على الشدة والقوة ومنها السليط الشديد واللسان الطويل .والمعنى : سنملأ قلوب المشركين خوفا وفزعا بسبب إشراكهم مع الله - تعالى - آلهة لم ينزل الله بها حجة والمراد : أنه لا حجة لهم حتى ينزلها .قال الآلوسى : قوله { مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ } أى بإشراكه أو بعبادته ، و " ما " نكره موصوفة أو موصولة اسمية وليست مصدرية و

سلطانا " أى حجة والإتيان بها للإشارة بأن المتبع فى باب التوحيد هو " البرهان السماوى دون الآراء والأهواء الباطلة . . وذكر عدم إنزال الحجة مع استحالة تحققها من باب انتفاء المقيد لانتفاء قيده اللازم ، أى :لا حجة ... حتى ينزلها ، فهو على حد قوله فى وصف مفازة لا تفزع الأرنب أهوالها ولا ترى الضب بها ينجحرإذ المراد :لا ضب بها حتى ينجحر . فالمراد نفيهما جميعا .فالآية الكريمة قد بشرت المؤمنين بأن الله - تعالى - سيلقى الرعب والفزع فى قلوب أعدائهم حتى لا يتجاسروا عليهم .ومن مظاهر الرعب التى ألقاها الله - تعالى - فى قلوب المشركين أنهم بعد أن انتصروا على المسلمين فى غزوة أحد . كان فى قدرتهم أن يوغلوا فى مهاجمتهم وقتالهم إلا أن الرعب صدهم عن ذلك .ولقد حاولوا وهم فى طريقهم إلى مكة أن يعودوا للقضاء على المسلمين إلا أن الخوف داخل قلوبهم وجعل أحد زعمائهم وهو صفوان بن أمية يقول لهم : " يا أهل مكة لا ترجعوا لقتال القوم ، فإنى أرى أنه سيكون للقوم قتال غير الذى كان " .قال الفخر الرازى ما ملخصه قوله { سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الذين كَفَرُواْ الرعب } اختلفوا فى أن هذا الوعد هل هو مختص بيوم أحد ، أو هو عام فى جميع الأوقات؟قال كثير من المفسرين : إنه مختص بهذا اليوم ، وذلك لأن جميع الآيات المتقدمة إنما وردت فى هذه الواقعة .ثم القائلون بهذا القول ذكروا فى كيفية إلقاء الرعب فى قلوب المشركين فى هذا اليوم وجهين :الأول : أن الكفار لما استولوا على المسلمين وهزموهم أوقع الله الرعب فى قلوبهم ، فتركوهم وفروا منهم من غير سبب .والثانى : أن الكفار لما ذهبوا إلى مكة فلما كانوا فى بعض الطريق قالوا ما صنعنا شيئاً قتلنا الأكثرين منهم ثم تركناهم ونحن قاهرون . ارجعوا حتى نستأصلهم بالكلية فلما عزموا على ذلك ألقى الله الرعب فى قلوبهم .والقول الثانى : أن هذا ، الوعد غير مختص بيوم أحد ، بل هو عام ، كأنه قيل : إنه وإن وقعة لكم هذه الواقعة فى يوم أحد ، إلا أن الله - تعالى - سيلقى الرعب منكم بعد ذلك فى قلوب الكافرين حتى يقهر الكفار ، ويظهر دينكم على سائر الأديان .وقد فعل الله ذلك حتى صار دين الإسلام قاهرا لجميع الأديان والملل . ونظير هذه - الآية قوله صلى الله عليه وسلم " نصرت بالرعب مسيرة شهر " .ثم ختم سبحانه - الآية ببيان سوء عاقبة هؤلاء الكافرين فقال : { وَمَأْوَاهُمُ النار وَبِئْسَ مثوى الظالمين } .والمأوى : اسم مكان من أوى يأوى . وهو المكان الذى يرجع إليه الشخص ويعود إليه .والمثوى : اسم مكان - أيضا - يقال ثوى بالمكان وفيه يثوى ثواء وثويا وأثوى به ، أى أطال الإقامة والنزول : فيه .والمعنى : أن هؤلاء الكافرين سيلقى الله - تعالى - الرعب والفزع فى ، قلوبهم حتى لا يتجاسروا على المؤمنين ، هذا فى الدنيا ، أما فى الآخرة فالمكان الذى يأوون إليه ويستقرون فيه هو النار ، لا مأوى لهم غيرها ، وبئس هذه النار موضع إقامة دائمة لهم .وقد أظهر - سبحانه - الاسم فى موضع الإضمار فلم يقل : وبئس النار مثواهم ، بل قال : { وَبِئْسَ مثوى الظالمين للإشارة إلى أن هذا المآل الأليم إنما هو جزاء عادل لهم بسبب ظلمهم إذ : { هم الذين ظَلموا أنفسهم فأضلوها وصدوها عن الحق فكانت نهايتهم تلك النهاية المهينة ، " وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون " .وفى جعل هذه النار مثواهم بعد جعلها مأواهم إشارة إلى خلودهم فيها ، فإن المثوى مكان الإقامة المنبئة عن المكث ، وأما المأوى فهو المكان الذى يأوى إليه الإنسان .وقدم المأوى على المثوى لأن هذا هو الترتيب الوجودى فى الخارج ، لأن الإنسان يأوى إلى المكان ثم يثوى فيه .وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد نهت المؤمنين عن إطاعة الكافرين وبينت لهم النتائج الوخيمة التى تترتب على إطاعتهم ثم دعتهم إلى الاعتصام بدين الله وبشرتهم بسوء عاقبة أعدائهم فى ، الدنيا والآخرة .ثم ذكر الله - تعالى - المؤمنين بما حدث لهم فى غزوة أحد وكيف أنهم انتصروا على أعدائهم فى أول معركة ثم كيف أنهم أصيبوا بالهزيمة - بعد ذلك بسبب فشلهم وتنازعهم ومعصيتهم لرسولهم صلى الله عليه وسلم ثم صور سبحانه - أحوالهم فى هذه المعركة تصويرا بليغا مؤثرا وحكى أقوال ضعاف الإيمان ورد عليها بما يدحضها . استمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى كل ذلك . فيقول : { وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ الله وَعْدَهُ . . . }

ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسونهم باذنه حتى اذا فشلتم وتنازعتم في الامر وعصيتم من بعد ما اراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الاخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين

كما فسرها الوسيط قال القرطبى : قال محمد بن كعب القرظى : لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بعد أحد ، وقد أصيبوا قال بعضهم لبعض من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر؟ فنزل قوله - تعالى - { وَلَقَدْ : صَدَقَكُمُ الله وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ } الآية .وذلك أنهم قتلوا صاحب لواء المشركين وسبعة نفر منهم بعده على اللواء ، وكان الظفر ابتداء للمسلمين ، غير أنهم اشتغلوا بالغنيمة وترك بعض الرماة أيضاً مراكزهم طلبا للغنيمة فكان ذلك سبب الهزيمة .وقد روى البخارى عن البراء بن عازب قال : لما كان يوم أحد ولقينا المشركين أجلس رسول الله صلى الله عليه

وسلم أناسا من الرماة وأمر عليهم عبد الله بن جبير وقال لهم : "لا تبرحوا من مكانكم . إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا ، وإن رأيتموهم قد ظهروا علينا فلا تعينونا " .قال : فلما لقيناهم هربوا حتى رأيت النساء يشتددت الجبل - أى يسرعن الفرار - يرفعن عن سوقهن ، قد بدت خلاخلهن . فجعلوا يقولون - أى الرماة - " الغنيمة . . الغنيمة " فقال لهم أميرهم عبد الله بن جبير . أمهلوا . أما عهد إليكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا تبرحوا أماكنكم؟ فأبوا - وانطلقوا لجمع الغنائم - فلما أتوهم صرف الله وجوههم وقتل من المسلمين سبعون رجلا " .وصدق الوعد معناه : تحقيقه والوفاء به ، الصدق مطابقة الخبر للواقع . والمراد بهذا الوعد ، ما وعد الله به المؤمنين من النصر والظفر فى مثل قوله - تعالى - { ياأيها الذين آمنوا إن تَنصُرُواْ اللّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ } وفى مثل قوله - تعالى - سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الذين كَفَرُواْ الرعب بِمَآ أَشْرَكُواْ بالله مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً } وفى مثل قول الرسول صلى الله عليه وسلم للرماة قبل أن تبدأ المعركة "لا تبرحوا أماكنكم فلن نزال غالبين ما ثبتم مكانكم " .ومعنى " تحسونهم تقتلونهم قتلا شديدا يفقدون معه حسهم وحركتهم . يقال : حسه حسا إذا قتله . وحقيقته : أصاب حاسته بآفة فأبطلها ، يقال : كبده وفأده أى : أصاب كبده وفؤاده . ومنه جراد محسوس ، وهو الذى قتله البرد أو مسته النار فأهلكته .والمعنى : ولقد حقق الله - تعالى - لكم - أيها المؤمنون - ما وعدكم به من النصر على أعدائكم إذ إيدكم فى أول معركة أحد بعونه وتأييده فصرتم تقتلون المشركين قتلا ذريعا شديدا بإذنه وتيسيره ورعايته وكان حليفا لكم فى أول المعركة .و " صدق " يتعدى لاثنين أحدهما بنفسه والآخر بحرف الجر تقول : صدقت زيداً فى الحديث . وقد يتعدى بنفسه إلى مفعولين كما هنا إذ المفعول الأول ضمير المخاطبين ، والثانى قوله } وَعْدَهُ } .وقوله { إِذْ تَحُسُّونَهُمْ } معمول لصدقكم أى صدقكم فى هذا الوقت وهو وقت قتلهم وقوله " بإذنه " متعلق بمحذوف لأنه حال من فاعل " تحسونهم " أى تقتلونهم مأذونا لكم فى ذلك .فالجملة الكريمة تذكر المؤمنين بما كان من نصر الله - تعالى - لهم عندما أقبلوا على معركة أحد بقلوب مخلصة ونفوس ثابتة وعزيمة صادقة . . ثم بين - سبحانه - أن ما أصابهم من هزيمة ، بعد ذلك كان بسبب فشلهم وتنازعهم فقال - تعالى - : { حتى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأمر وَعَصَيْتُمْ مِّن بَعْدِ مَآ أَرَاكُمْ مّا تُحِبُّونَ } .والفشل : بمعنى الجبن والضعف ، يقال فشل يفشل فهو فشل وفاشل والتنازع : التخاصم والتحالف .والمعنى : ولقد صدقكم الله وعده فى النصر - أيها المؤمنون - عندما كنتم تقاتلون أعداءكم بإيمان صادق ، وإخلاص لله تعالى - حتى إذا ضعفت نفوسكم وعجزتم عن مقاومة أهوائكم وتنازعتم فيما بينكم أنتبع الغنائم نجمعها أم نبقى فى أماكننا التى حددها الرسول صلى الله عليه وسلم لنا ) ؟ ومال أكثركم إلى طلب الغنائم مخالفاً أمر الرسول صلى الله عليه وسلم من بعد ما أراكم الله فى أول المعركة من نصر مؤزر تحبونه وترجونه ، ومن مغانم تتطلعون إليها بلهفة وشوق .حتى إذا فعلتم ذلك منع الله - تعالى - عنكم نصره ، وتحول نصركم إلى هزيمة وفقدتم أنفسكم وما جمعتموه من غنائم .وهكذا نرى أن ما أصاب المسلمين فى أحد من هزيمة كان بسبب فشل بعضهم وتنازعهم وعصيانهم أمر رسولهم صلى الله عليه وسلم وصدق الله إذ يقول : { واتقوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الذين ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً } ولقد رتب الله - تعالى - ما حدث من بعض المؤمنين فى غزوة أحد ترتيباً دقيقاً ، يتفق مع ما حصل منهم وذلك لأنهم حدث منهم - أولا - الفشل بمعنى العجز النفسي عن الثبات والصبر . ثم ترتب على ذلك أن تنازعو فيما بينهم ونتج عن هذا التنازع أن ترك معظمهم مكانه ونزل إلى ميدان المعركة لجمع المغانم ، ثم ترتب على كل ذلك معصيتهم لأمر رسولهم وقائدهم صلى الله عليه وسلم .قال الجمل ما ملخصه : وقوله { حتى إِذَا فَشِلْتُمْ } فى حتى هذه قولان :أحدهما : أنها حرف جر بمعنى إلى وفى متعلقها حينئذ ثلاثة أوجه أحدها : أنها متعلقة بقوله : { تَحُسُّونَهُمْ } أى تقتلونهم إلى هذا الوقت .والثانى : أنها متعلقة " بصدقكم " أى صدقكم الله وعده إلى وقت فشلكم والثالث : أنها متعلقة بمحذوف دل عليه السياق تقديره : ودام لكم ذلك إلى . } وقت فشلكم .والقول الثانى : أنها حرف ابتداء داخلة على الجملة الشرطية إِذَا } على بابها من كونها شرطية ، والصحيح أن جوابها محذوف أى حتى إذا فَشلتم وتنازعتم منع الله عنكم نصره " .وقال الفخر الرازى : فإن قيل ما : الفائدة فى قوله { بَعْدِ مَآ أَرَاكُمْ مّا تُحِبُّونَ } ؟فالجواب عنه - أن المقصود منه التنبيه على عظم المعصية ، لأنهم لما شاهدوا أن الله تعالى - " أكرمهم بإنجاز الوعد كان من حقهم أن يمتنعوا عن المعصية ، لأنهم لما شاهدوا أن الله - تعالى - " أكرمهم بإنجاز الوعد كان من حقهم أن يمتنعوا عن المعصية ، فلما أقدموا عليها لا جرم سلبهم الله ذلك الإكرام وأذاقهم وبال أمرهم . وقوله { مِنكُم مّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مّن يُرِيدُ الآخرة } تفصيل للتنازع الذى كان بين الرماة ، أو بين بعض - أفراد المسلمين الذين اشتركوا فى هذه الغزوة .أى : منكم - أيها المسلمون من يريد الدنيا ومغانمها حتى حمله ذلك على ترك مكانه المخصص له مخالفا

، نصيحة قائده ورسوله صلى الله عليه وسلم ولو أن هذا البعض منكم خالف هواه
، وحارب مطامعه ، وأطاع أمر رسوله صلى الله عليه وسلم لتم لكم النصر
ولأتتكم الدنيا بغنائمها وهى صاغرة .ومنكم من يريد بجهاده وعمله ثواب
الآخرة وهم الذين أطاعوا أمر رسولهم صلى الله عليه وسلم وثبتوا إلى جانبه
يدافعون عنه وعن عقيدتهم وعن أنفسهم دفاع الأبطال الصامدين وهؤلاء هم الذين
رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم ما يسعدهم فى دنياهم وآخرتهم .قال ابن
: جرير : قال ابن عباس : لما هزم الله المشركين يوم أحد ، قال الرماة
أدركوا الناس لا يسبقوكم إلى الغنائم فتكون لهم دونكم ، وقال بعضهم :لا
نريم حتى يأذن لنا النبى صلى الله عليه وسلم فنزلت : { مِنكُم مَّن يُرِيدُ
الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ } .وقال ابن مسعود : ما علمنا أن
أحداً من أصحاب رسول اللَّهِ صلى اللَّه عليه وسلم كان يريد الدنيا وعرضها حتى
كان يوم أحد " .وقوله { ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ } عطف
على جواب " إذا " المقدر ، وما بينهما اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه
والتقدير : منع الله نصره عنكم بسبب فشلكم وتنازعكم ومعصيتكم لنبيكم ثم.
ردكم عنهم دون أن تنالوا ما تبتغون { لِيَبْتَلِيَكُمْ } أى ليعاملكم
الله - تعالى - معاملة من يمتحن غيره ، ليتميز قوى الإيمان من ضعيفه
وليتبين لكم الصابر المخلص من غيره .وجاء العطف بثم فى قوله { ثُمَّ
صَرَفَكُمْ } للإشعار بالتفاوت الكبير بين المقصد الأصلى الذى خرجوا من
أجله وهو النصر والحصول على الغنيمة وبين النتيجة التى انتهوا إليها وهى
العودة مقهورين .وكان التعبير بكلمة { صَرَفَكُمْ } دون كلمة " هزمتم " لأن
ما حدث فى أحد لم يكن هزيمة وإن لم يكن نصراً . لأن الهزيمة تقتضى أن يولى
، المسلمون الأدبار وأن يتحكم فيهم أعداؤهم وما حدث فى أحد لم يكن كذلك
وإنما كان زيادة فى عدد الشهداء من المسلمين عن عدد القتلى من المشركين لأن
بعض المسلمين خالفوا وصية نبيهم صلى الله عليه وسلم وتطلعوا إلى زهرة
- الدنيا وزينتها بطريقة تتعارض مع ما يقتضيه الإيمان الصادق فكان من الله
تعالى - التأديب لهم .. وفى هذا التعبير { ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ }
تسلية لهم عما أصابهم ، وتخفيف لمصابهم فكأنه - سبحانه - يقول لهم : إن ما
حدث فى أحد إنما هو نوع من الصرف عن الغاية التى من أجلها خرجتم لحكم من
، أهمها : تمييز الخبيث من الطيب ، وتربيتكم على تحمل المصائب والآلام
وتأديبكم بالأدب المناسب حتى لا تعودوا مرة أخرى إلى مخالفة رسولكم صلى
الله عليه وسلم .ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بما يمسح آلامهم ويذهب
الحسرة من قلوبهم فقال - تعالى - { وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ والله ذُو
فَضْلٍ عَلَى المؤمنين } .أى : ولقد عفا - سبحانه - عما صدر منكم تفضلا منه
- وكرما ، والله تعالى هو صاحب الفضل المطلق الدائم على المؤمنين .ولقد أكد
سبحانه - هذا العفو باللام وبقد وبالتعبير بالماضى ، ليفتح أمامهم طريق
الأمل ، وليحفزهم على التوبة الصادقة والإيمان العميق ، حتى لا ييأسوا من
رحمة الله .والتذييل بقوله { ذُو فَضْلٍ عَلَى المؤمنين } مؤكد لمضمون ما
قبله .قال الآلوسى : " إيذان بأن ذلك العفو ، ولو كان بعد التوبة ، بطريق
التفضل لا الوجوب أى : شأنه أن يتفضل عليهم بالعفو فى جميع الأحوال أديل
لهم أو أديل عليهم ، إذ الابتلاء أيضاً رحمة " .فأنت ترى أن الآية الكريمة
قد ذكرت المؤمنين بأن الله - تعالى - قد حقق وعده معهم فى أول المعركة بأن
سلطهم على المشركين يقتلونهم بتأييده ورعايته قتلا ذريعا فلما صدر من بعض
المؤمنين الفشل والتنازع والعصيان منع الله عنهم عونه وصرفهم عن الغاية
التى كانوا يتمنونها ليتميز الخبيث من الطيب ومع ذلك فقد عفا الله عما صدر
منهم من أخطاء لأنه هو صاحب الفضل الدائم على المؤمنين .

اذ تصعدون ولا تلوون على احد والرسول يدعوكم في اخراكم فاثابكم غما بغم
لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما اصابكم والله خبير بما تعملون

كما فسرها الوسيط ثم ذكرهم - سبحانه - بعد ذلك بما كان من بعضهم بعد أن
اضطربت أحوالهم وجاءهم أعداؤهم من أمامهم ومن خلفهم بسبب ترك معظم الرماة
لأماكنهم ، فقال - تعالى - { إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ على أَحَدٍ
والرسول يَدْعُوكُمْ في أُخْرَاكُمْ } .وقوله : { تُصْعِدُونَ } من الإصعاد
وهو الذهاب فى صعيد الأرض والإبعاد فيه .يقال : أصعد فى الأرض إذا أبعد فى
الذهاب وأمعن فيه ، فهو الصعد .قال القرطبى : الإصعاد : السير فى مستو من
الأرض وبطون الأودية والشعاب .والصعود : الارتفاع على الجبال والدرج .وقوله
} متعلق بقوله { صَرَفَكُمْ } أو بقوله { إِذْ تُصْعِدُونَ }
- لِيَبْتَلِيَكُمْ } أو بمحذوف تقديره اذكروا .أى اذكروا - أيها المؤمنون
- وقت أن كنتم مصعدين تهرولون بسرعة فى بطن الوادى بعد أن اختلت صفوفكم
واضطرب جمعكم . وصرتم لا يعرج بعضكم على بعض ولا يتلفت أحدكم إلى غيره من
شدة الهرب ، والحال أن رسولكم صلى الله عليه وسلم { يَدْعُوكُمْ في
أُخْرَاكُمْ } أى يناديكم فى أخراكم أو فى جماعتكم الأخرى أو من خلفكم يقال
جاء فلان فى آخر الناس وأخراهم إذا جاء خلفهم ، كما يقال : جاء فى أولهم.
وأولاهم .والمراد أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يدعو المنهزمين إلى

الثبات وإلى ترك الفرار من الأعداء وإلى معاودة الهجوم عليهم وهو ثابت لم يتزعزع ومعه نفر من أصحابه .قال ابن جرير لما اشتد المشركون على المسلمين بأحد فهزموهم ، دخل بعضهم المدينة ، وانطلق بعضهم إلى الجبل فوق الصخرة فقاموا عليها ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الناس : " إلىّ عباد الله "! فذكر الله صعودهم إلى الجبل ، ثم ذكر دعاء النبى صلى الله عليه وسلم إياهم فقال : { إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ على أَحَدٍ والرسول يَدْعُوكُمْ في أُخْرَاكُمْ } .ففى هذه الجملة الكريمة تصوير بديع معجز لحال المسلمين عندما اضطربت صفوفهم فى غزوة أحد ، فهى تصور حالهم وهم مصعدون فى الوادى بدون تمهل أو تثبت ، وتصور حالهم وقد أخذ منهم الدهش مأخذه بحيث أصبح بعضهم لا يلتفت إلى غيره أو يسمع له نداء ، أو يجيب له طلبا وتصور حال النبى صلى الله عليه وسلم وقد ثبت كالطود الأشم بدون اضطراب أو وجل ومعه صفوة من أصحابه وقد أخذ ينادى الفارين بقوله :" إلى عباد الله } - إلى عباد الله أنا رسول الله ، من يكر فله الجنة " .وقوله - تعالى ، فَأَثَابَكُمْ غَمّاً بِغَمٍّ لِّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ على مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَآ أَصَابَكُمْ } .بيان للنتيجة التى ترتبت على هذا الاضطراب وهو معطوف على قوله { صَرَفَكُمْ } أو على قوله { تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ ولا يضر كونهما مضارعين فى اللفظ لأن إذ المضافة إليهما صيرتهما ماضيين { فى المعنى .وأصل الإثابة إعطاء الثواب ، وهو شىء يكون جزاء على عطاء أو فعل ولفظ الثواب لا يستعمل فى الأعم الأغلب إلا في الخير ، والمراد به هنا العقوبة التى نزلت بهم . وسميت العقوبة التى نزلت بهم ثوابا على سبيل الاستعارة التهكمية كما فى قوله { فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } ويجوز أن يكون اللفظ مستعملا فى حقيقته ، لأن لفظ الثواب فى أصل اللغة معناه ما يعود على الفاعل من جزاء فعله ، سواء أكان خيراً أو شراً .قال القرطبى : قوله - تعالى - { فَأَثَابَكُمْ غَمّاً بِغَمٍّ } الغم فى اللغة التغطية . يقال : غممت الشىء أى غطيته . ويوم غم وليلة غمة إذا كانا مظلمين .قال مجاهد وقتادة وغيرهما ، والغم الأول القتل والجراح والغم الثانى الإرجاف بمقتل النبى صلى الله عليه وسلم وقيل الغم الأول ما فاتهم من الظفر والغنيمة والثانى : استعلاء المشركين عليهم . وعند ذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم" اللهم لا يعان علينا " .والباء فى { بِغَمٍّ } على هذا بمعنى على . وقيل هى على بابها والمعنى أنهم غموا النبى صلى الله عليه وسلم بمخالفتهم إياه فأثابهم بذلك غمهم بمن أصيب منهم " .ويجوز أن يكون الكلام لمجرد التكثير أى جازاكم بغموم وأحزان كثيرة متصل بعضها ببعض بأن منع عنكم نصره وحرمكم الغنيمة وأصابتكم الجراح الكثيرة وأشيع بينكم أن نبيكم قد قتل وكل ذلك بسبب أنكم خالفتم وصية نبيكم صلى الله عليه وسلم وتغلب حب . الدنيا وشهواتها على قلوب بعضكم فلم تخلصوا لله الجهاد فأصابكم ما أصابكم وقوله { لِّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ على مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَآ أَصَابَكُمْ. - تعليل لقوله { وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ } أى : ولقد عفا الله - تعالى { عنكم لئلا تحزنوا على ما فاتكم من غنائم ونصر ، ولا على ما أصابكم من جراح وآلام ، فإن عفو الله - تعالى - يذهب كل حزن ويمسح كل ألم .وير صاحب الكشاف أن معنى " لكى لا تحزنوا " لتتمرنوا على تجرع الغموم فلا تحزنوا فيما بعد على فائت من المنافع ، ولا على مصيب من المضار .ثم قال : ويجوز أن يكون الضمير فى { فَأَثَابَكُمْ } للرسول . أى : فآساكم فى الاغتمام - أى فصار أسوتكم - لأنه كما غمكم ما نزل به من كسر الرباعية والشجة وغيرها فقد غمه ما نزل بكم . فأثابكم غما اغتمه لأجلكم بسبب غم اغتممتموه لأجله ولم يثربكم على عصيانكم ومخالفتكم لأمره ، وإنما فعل ذلك ليسليكم وينفس عنكم لئلا تحزنوا على ما فاتكم من نصر الله ولا على ما أصابكم من غلبة العدو " .ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله { والله خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } أى : والله - تعالى - عليم بأعمالكم ونياتكم علما كاملا ، وخبير بما انطوت عليه نفوسكم فهو - سبحانه -لا تخفى عليه خافية مهما صغرت ، فاتقوه وراقبوه واتبعوا ما كلفكم به لتنالوا الفوز والسادة .

ثم انزل عليكم من بعد الغم امنة نعاسا يغشى طائفة منكم وطائفة قد اهمتهم انفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الامر من شيء قل ان الامر كله لله يخفون في انفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الامر شيء ما قتلنا هاهنا قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور

كما فسرها الوسيط ثم ذكرهم - سبحانه - ببعض مظاهر لطفه بهم ورحمته لهم حيث أنزل على طائفة منهم النعاس الذى أدخل الطمأنينة على قلوبهم وأزال الخوف والفزع من نفوسهم فقال - تعالى - { ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِّن بَعْدِ الغم أَمَنَةً نُّعَاساً يغشى طَآئِفَةً مِّنْكُمْ } والجملة الكريمة معطوفة على قوله { فَأَثَابَكُمْ } .والأمنة - بفتحتين - مصدر كالأمن : أمن أمنا وأماناً وأمنة .والنعاس : الفتور فى أوائل النوم ومن شأنه أن يزيل عن

الإنسان بعض متاعبه ولا يغيب صاحبه فلذلك كان أمنة لهم : لأنه لو كان نوما
ثقيلا لهاجمهم المشركون .أى : ثم أنزل عليكم - أيها المؤمنون - بعد أن
أصابكم من الهم والغم ما أصابكم ، أمنا كان مظهره نعاسا اطمأنت معه نفوسكم
واستراحت معه أبدانكم من غير فزع ولا قلق ، وكان هذا الأمان والاطمئنان
لطائفة معينة منكم أخلصت جهادها لله ، وخافت مقام ربها ونهت نفسها عن الهوى
قال ابن كثير : يقول - تعالى - ممتنا على المؤمنين فيما أنزل عليهم من.
السكينة والأمنة وهو النعاس الذى غشيهم وهم مشتملون السلاح فى حال همهم
وغمهم والنعاس فى مثل تلك الحال دليل على الأمان ، كما قال فى سورة الأنفال
: فعن ابن مسعود قال { إِذْ يُغَشِّيكُمُ النعاس أَمَنَةً مِّنْهُ } :
النعاس فى القتال من الله وفى الصلاة من الشيطان " .وروى البخارى عن أبى
طلحة قال : كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد حتى سقط سيفى من يدى مرارا يسقط
وآخذه ويسقط وآخذه " .وقوله ( نعاسا ) بدل من { أَمَنَةً } أو عطف بيان
قال الفخر الرازى : واعلم أن ذلك النعاس فيه فوائد :أحدها : أنه وقع على.
كافة المؤمنين لا على الحد المعتاد ، فكان ذلك معجزة للنبى صلى الله عليه
وسلم ولا شك أن المؤمنين متى شاهدوا تلك المعجزة الجديدة ازدادوا إيماناً
مع إيمانهم ، ومتى صاروا كذلك ازدادوا جدهم فى محاربة العدو . ووثوقهم بأن
الله منجز وعده .وثانيهما : أن الأرق والسهر يوجبان الضعف والكلال والنوم
يفيد عود القوة والنشاط واشتداد القوة والقدرة .وثالثها : أن الكفار لما
اشتغلوا بقتل المسلمين ألقى الله النوم على عين من بقى مهم لئلا يشاهدوا
قتل أعزتهم فيشتد خوفهم .ورابعها : أن الأعداء كانوا فى غاية الحرص على
قتلهم فبقاؤهم فى النوم مع السلامة فى مثل تلك المعركة من أول الدلائل على
أن حفظ الله وعصمته معهم وذلك مما يزيل الخوف عن قلوبهم ويورثهم مزيد
الوثوق بوعد الله " .هذا جانب مما امتن الله به على المؤمنين من فضل ورعاية
، حيث أنزل عليهم النعاس فى أعقاب ما أصابهم من هموم ليكون راحة لأبدانهم ،
وأمانا لنفوسهم .أما غير المؤمنين الصادقين فلم ينزل عليهم هذا النعاس بل
بقوا فى قلقهم وحسرتهم وقد عبر الله - تعالى - عنهم بقوله : { وَطَآئِفَةٌ
قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بالله غَيْرَ الحق ظَنّ
الجاهلية } .وقوله { أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ } حملتهم على الهم ، والهم
، ما يهتم له الإنسان أو ما يحزنه يقال : أهمنى الأمر أى أقلقنى وأزعجنى
كما يقال : أهمنى الشىء ، أى جعلنى مهتما به اهتماما شديدا .والمعنى : أن
الله - تعالى - أنزل النعاس أمانا واطمئنانا للمؤمنين الصادقين بعد أن
أصابتهم الغموم ، وهناك طائفة أخرى من الذين اشتركوا فى غزوة أحد لم تكن
صادقة فى إيمانها لأنها كانت لا يهمها شأن الإسلام انتصر أو انهزم ولا شأن
النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه . وإنما الذى كان يهمها هو شىء واحد وهو
: أمر نفسها وما يتعلق بذلك من الحصول على الغنائم ومتع الدنيا .أو المعنى
أن هذه الطائفة قد أوقعت نفسها فى الهم والحزن بسبب عدم اطمئنانها وعدم
} : صبرها ، وجزعها المستمر .وإلى هذين المعنيين أشار صاحب الكشاف بقوله
قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ } أى : ما يهم إلا هم أنفسهم ، لا هم
الدين ولا هم الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين . وقد أوقعتهم أنفسهم
وما حل بهم فى الهموم والأشجان فهم فى التشاكى والتباكى " .والجملة الكريمة
مستأنفة مسوقة لبيان حال ضعاف الإيمان بعد أن بين - سبحانه - ما امتن به
على أقوياء الإيمان .وقوله : { يَظُنُّونَ بالله غَيْرَ الحق ظَنّ
الجاهلية } وصف آخر لسوء أخلاق هذه الطائفة التى ضعف إيمانها ، وصارت لا
يهمها إلا ما يتعلق بمنافعها الخاصة .أى أن هذه الطائفة لم تكتف بما استولى
عليها من طمع وجشع وحب لنفسها بل تجاوزت ذلك إلى سوء الظن بالله بأن توهمت
بأن الله - تعالى - لن ينصر رسوله صلى الله عليه وسلم وأن الإسلام ليس
ديناً حقاً وأن المسلمين لن ينتصروا على المشركين بعد معركة أحد . . . إلى
غير ذلك من الظنون الباطلة التى تتولد عند المرء الذى ضعف إيمانه وصار لا
} يهمه إلا أمر نفسه .وقوله { يَظُنُّونَ بالله } حال من الضمير المنصوب فى
أَهَمَّتْهُمْ } أو استئناف على وجه البيان لما قبله .وقوله { غَيْرَ الحق
مفعول مطلق وصف لمصدر محذوف أى يظنون بالله ظنا غير الحق الذى يجب أن {
يتحلى به المؤمنون إذ من شأن المؤمنين الصادقين أن يستسلموا لقدر الله بعد
أن يباشروا الأسباب التى شرعها لهم : وأن يصبروا على ما أصابهم وأن يوقنوا
بأن ما أصابهم هو بتقدير الله وبحكمته وبإرادته { وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ
بِمِقْدَارٍ } وقوله { ظَنَّ الجاهلية } بدل أو عطف بيان مما قبله .أى
يظنون بالله شيئاً هو من شأن أهل الجاهلية الذين يتوهمون أن الله لا ينصر
رسله ولا يؤيد أولياءه ولا يهزم أعداءه .ثم بين - سبحانه - ما صدر عنهم من
كلام باطل بسبب ظنونهم السيئة فقال - تعالى - { يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ
الأمر مِن شَيْءٍ } . والاستفهام للإنكار بمعنى النفى ، وهم يريدون بهذا
القول تبرئة نفوسهم من أن يكونوا سببا فيما أصاب المسلمين من آلام يوم أحد
وأن الذين تسببوا فى ذلك هم غيرهم .أى : يقول بعضهم لبعض ليس لنا من ،
الأمر شىء أى شىء فلسنا مسئولين عن الهزيمة التى حدثت للمسلمين فى أحد
لأننا لم يكن لنا رأى يطاع ولأن الله - تعالى - لو أراد نصر محمد صلى الله
عليه وسلم لنصره .وهذا القول قاله عبد الله بن أبى بن سلول حين أخبروه بمن

استشهد من قبيلة الخزرج فى غزوة أحد .وذلك أن عبد الله بن أبى لما استشاره
النبى صلى الله عليه وسلم فى شأن الخروج لقتال المشركين فى أحد أشار عليه
بأن لا يخرج من المدينة ، إلا أن الرسول صلى الله عليه وسلم خرج لقتال
المشركين بناء على إلحاح بعض الصحابة .فلما أخبر ابن أبى بمن قتل من الخزرج
قال : هل لنا من الأمر شىء؟ يعنى أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يقبل قوله
حين أشار عليه بعدم الخروج من المدينة .وقد أمر الله - تعالى - نبيه صلى
الله عليه وسلم أن يرد على هؤلاء الظانين بالله ظن السوء بقوله : { قُلْ
- إِنَّ الأمر كُلَّهُ لِلَّهِ } .أى قل لهم إن تقدير الأمور كلها لله
تعالى - وحده وإن العاقبة ستكون للمتقين ، إلا أنه - سبحانه - قد جعل لكل
شىء سببا ، فمن أخلص لله فى جهاده وباشر الأسباب التى شرعها للنصر نصره
الله - تعالى - ومن تطلع إلى الدنيا وزينتها وخالف أمر نبيه صلى الله عليه
وسلم أدبه الله - تعالى - بحجب نصره عنه حتى يفىء إلى رشده ويتوب توبة
صادقة إلى ربه ، ويتخذ الوسائل التى شرعها الله - تعالى - للوصول إلى الفوز
والظفر .فالجملة الكريمة معترضة للرد عليهم فيما تقولوه من أباطيل .ثم
كشف - سبحانه - عما تخفيه نفوسهم من أمور سيئة فقال : { يُخْفُونَ فِي
أَنْفُسِهِم مَّا لاَ يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ
الأمر شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا } .أى : أن هؤلاء الذين أهمتهم
أنفسهم : والذين يظنون بالله غير الحق . يخفون فى أنفسهم من الأقوال
القبيحة والظنون السيئة أو يقولون فيما بينهم بطريق الخفية مالا يستطيعون
إظهاره أمامك .وهذه الجملة حال من الضمير فى قوله { يَقُولُونَ لَوْ كَانَ
لَنَا } السابقة .وقوله { يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأمر شَيْءٌ
مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا } بيان لبعض ما يخفون أو لما يقولونه فيما بينهم
أى يقولون لو كان لنا من الأمر المطاع أو المسموع شىء ما خرجنا من المدينة.
إلى هذا المكان الذى قتل فيه أقاربنا وعشائرنا .فأنت ترى أن القرآن يحكى
عنهم أنهم يريدون تبرئة أنفسهم مما نزل بالمسلمين بأحد ، وأنهم لو كان لهم
رأى مطاع لبقوا فى المدينة ولم يخرجوا منها لقتال المشركين ، وأن التبعة فى
كل ما جرى فى غزوة أحد يتحملها النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه الذين
ألحوا عليه فى الخروج لقتال المشركين خارج المدينة ، وأن النبى صلى الله
عليه وسلم وأصحابه لو كانوا على الحق لانتصروا .قال ابن جرير : وذكر أن ممن
قال هذا القول - { لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأمر شَيْءٌ } - معتب بن قشير من
بنى عمرو بن عوف . فعن عبد الله بن الزبير عن الزبير قال ، والله إنى لأسمع
قول معتب بن قشير والنعاس يغشانى ما أسمعه إلا كالحلم حين قال : { لَوْ
- كَانَ لَنَا مِنَ الأمر شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا } .وقد أمر الله
تعالى - رسوله صلى الله عليه وسلم أن يرد عليهم بما يدفع أقوالهم الباطلة
فقال : { قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الذين كُتِبَ
عَلَيْهِمُ القتل إلى مَضَاجِعِهِمْ } .وقوله { لَبَرَزَ } من البروز وهو
الخروج من المكان الذى يستتر فيه الإنسان و ( المضاجع ) جمع مضجع وهو مكان
النوم . والمراد به هنا المكان الذى استشهد فيه من استشهد من المسلمين
والمعنى : قل يا محمد لهؤلاء الذين يقولون : لو كان لنا من الأمر شىء ما.
قتل أقاربنا فى هذا المكان من جبل أحد . قل لهم لو كنتم فى بيوتكم ومنازلكم
بالمدينة ولم تخرجوا للقتال بجملتكم ، لخرج لسبب من الأسباب الداعية إلى
الخروج الذين كتب عليهم القتل فى اللوح المحفوظ إلى مضاجعهم أى أماكن قتلهم
التى قدر الله لهم أن يقتلوا فيها لأنه ما من نفس تموت إلا بإذن الله
، وبإرادته ، ولن يستطيع أحد أن ينجو من قدر الله المحتوم وقضائه النافذ
فإن الحذر لا يدفع القدر ، والتدبير لا يقاوم التقدير { وَمَا تَدْرِي
نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ } وفى هذا الرد مبالغة فى إبطال ما قاله
هؤلاء الذين يظنون بالله الظنون السيئة حيث لم يقتصر - سبحانه - على تحقيق
القتل نفسه متى قدره بل عين مكانه - أيضا - .ثم بين - سبحانه - بعض الحكم
من وراء ما حدث للمسلمين فى أحد فقال : { وَلِيَبْتَلِيَ الله مَا فِي
صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ والله عَلِيمٌ بِذَاتِ
الصدور } .والابتلاء : الاختبارن وهو هنا كناية عن أثره ، وهو إظهاره للناس
ليتميز قوى الإيمان من ضعيفه .والتمحيص تخليص الشىء مما يخالطه مما فيه عيب
له .والجملة معطوفة على كلام سابق يفهم من السياق . والتقدير : نزل بكم ما
- نزل من الشدائد فى أحد لتتعودوا تحمل الشدائد والمحن ، وليعاملكم
سبحانه - معاملة المختبر لنفوسكم ، فيظهر ما تنطوى عليه من خير أو شر ، حتى
يتبين الخبيث من الطيب وليخلص ما فى قلوبكم ويزيل ما عساه يعلق بها من
أدران ، ويطهرها مما يخالطها من ظنون سيئة - فإن القلوب يخالطها بحكم
العادة وتزيين الشيطان واستيلاء الغفلة وحب الشهوات . ما يضاد ما أودع الله
فيها من إيمان وإسلام وبر وتقوى .فلو تركت فى عافية دائمة مستمرة لم تتخلص
من هذه المخالطة ، ولم تتمحص من الآثام فاقتضت حكمة الله - تعالى - أن ينزل
بها من المحن والبلاء ما يكون بالنسبة لها كالدواء الكريه لمن عرض له داء
وقوله { والله عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور } أى عليم بأسرارها وضمائرها الخفية.
التى لا تفارقها فهو القائل { إِنَّ الله لاَ يخفى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي
الأرض وَلاَ فِي السمآء } وهو القائل { وَإِن تَجْهَرْ بالقول فَإِنَّهُ

يَعْلَمُ السر وَأَخْفَى } ثم أخبر - سبحانه - عن الذين لم يثبتوا مع النبى
: صلى الله عليه وسلم يوم أحد ، وبين السبب فى ذلك وفتح لهم باب عفوه فقال

ان الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان انما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا
ولقد عفا الله عنهم ان الله غفور حليم

كما فسرها الوسيط { إِنَّ الذين تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ التقى الجمعان
إِنَّمَا استزلهم الشيطان بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا الله
عَنْهُمْ إِنَّ الله غَفُورٌ حَلِيمٌ } .وقوله { تَوَلَّوْاْ } من التولى
ويستعمل هذا اللفظ بمعنى الإقبال وبمعنى الإدبار فإن كان متعديا بنفسه كان
بمعنى الإقبال كما فى قوله - تعالى - { وَمَن يَتَوَلَّ الله وَرَسُولَهُ
والذين آمَنُواْ } وإذا كان متعديا بعن أو غير متعد أصلا كان بمعنى الإعراض
كما فى الآية التى معنا .والتولى الذى وقع فيه من ذكرهم الله - تعالى - فى
الآية التى معنا يتناول الرماة الذين تركوا أماكنهم التى أمرهم الرسول صلى
الله عليه وسلم بالبقاء فيها لحماية ظهور المسلمين كما يتناول الذين لم
يثبتوا بجانب النبى صلى الله عليه وسلم بل فروا إلى الجبل أو إلى غيره
عندما اضطربت الصفوف .ولقد حكى لنا التاريخ أن هناك جماعة من المسلمين ثبتت
إلى جانب النبى صلى الله عليه وسلم بدون وهن أو ضعف وقد أصيب ممن كان حوله
أكثر من ثلاثين ، وكلهم يفتدى النبى صلى الله عليه وسلم بنفسه ويقول : وجهى
لوجهم الفداء ونفسى لنفسك الفداء . وعليك السلام غير مودع .ومعنى { استزلهم
الشيطان } طلب لهم الزلل والخطيئة ، أو حملهم عليها بوسوسته لهم : أن
يخالفوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم بالثبات فى مواقفهم التى
عينها لهم ، فكانت مخالفتهم لرسولهم وقائدهم طاعة للشيطان . فحرمهم الله
- تأييده وتقوية قلوبهم .قال الراغب : استزله إذا تحرى زلته ، وقوله
تعالى - { إِنَّمَا استزلهم الشيطان بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ } أى استجرهم
الشيطان حتى زلوا ، فإن الخطيئة الصغيرة إذا ترخص الإنسان فيها تصير مسهلة
" لسبيل الشيطان على نفسه ، والزلة فى الأصل : استرسال الرجل من غير قصد
والمراد بالزلة هنا ما حدث منهم من مخالفة الرسول صلى الله عليه وسلم وقد.
- ترتب عليها هزيمتهم .والمعنى : إن الذين تولوا منكم - يا معشر المؤمنين
عن القتال أو تركوا أماكنهم فلم يثبتوا فيها طلبا للغنيمة يوم التقيتم
بالمشركين فى معركة أحد؛ { إِنَّمَا استزلهم الشيطان } أى طلب منهم الزلل
والمعصية ، ودعاهم إليها بمكر منه وكان ذلك { بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ } أى
بسبب بعض ما اكتسبوه من ذنوب ، لأن نفوسهم لم تتجه بكليتها إلى الله فترتب
" : على ذلك أن منعوا النصر والتأييد وقوة القلب والثبات .قال ابن القيم
كانت أعمالهم جنداً عليهم ازداد بها عدوهم قوة . فإن الأعمال جند للعبد
وجند عليه ولا بد للعبد فى كل وقت من سرية ن نفسه تهزمه أو تنصره . فهو يمد
عدوه بأعماله من حيث يظن أنه يقاتل بها ، ويبعث إليه سرية تغزوه مع عدوه من
حيث يظن أنه يغزو عدوه .فأعمال العبد تسوقه قسراً إلى مقتضاها من الخير
والشر والعبد لا يشعر أو يشعر ويتعامى .ففرار الإنسان من عدوه وهو يطيقه
- إنما هو بجند من عمله بعثه له الشيطان واستزله به " .ثم أخبر - سبحانه
. أنه قد عفا عن هؤلاء الزالين ، حتى تكون أمامهم الفرصة لتطهير نفوسهم
} - وبعثها على التوبة الصادقة والإخلاص لله رب العالمين ، فقال - تعالى
وَلَقَدْ عَفَا الله عَنْهُمْ إِنَّ الله غَفُورٌ حَلِيمٌ } .أى : ولقد
عفا - سبحانه - عنهم لصدق توبتهم وندمهم على ما فرط منهم ، لأن فرارهم لم
يكن عن نفاق ، بل كان عارضا عرض لهم عندما اضطربت الصفوف واختلطت الأصوات
ثم عادوا إلى صفوف الثابتين من المؤمنين ليكونوا معهم فى قتال أعدائهم
، ولقد أكد الله - تعالى - هذا العلو بلام التأكيد وبقد المفيدة للتحقيق.
وبرصفه - سبحانه - لذته بالمغفرة فإن هذا الوصف يؤكد أن العفو شأن من شئونه
وبوصفه - سبحانه - لذاته بالحلم ، فإن هذا الوصف يفيد أنه لا يعاجل عابده ،
- بالعقاب ، بل إن ما أصابهم من مصائب فهو بسبب ما اقترفوه من ذنوب ويعفو
سبحانه - عن كثير .وصدق الله إذ يقول : { وَلَوْ يُؤَاخِذُ الله الناس
- بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ على ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ } وقد أكد
سبحانه - شان هذا العفو لتذهب عن نفوس هؤلاء الذين استزلهم الشيطان حيرتها
، ولتتخلع عن الماضى ، ولتستقبل الحاضر والمستقبل بقلوب عامرة بالإيمان
وبنفوس متغلبة على أهوائها مطيعة لتعاليم دينها .وبذلك نرى الآية الكريمة
قد بينت للمؤمنين بعض الأسباب الظاهرة والخفية لما أصابهم فى أحد ، وفتحت
لهم باب التوبة لتطهير أنفسهم ، وأخبرتهم بعفو الله عنهم ، وفى ذلك ما فيه
من عظات وعبر لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .وبعد هذا الحديث
الحكيم عن أحداث معركة أحد ، وعما تم للمسلمين فى أولها من نصر ، ثم عما
جرى لهم بعد ذلك من اضطراب وتفرق بسبب مخالفة بعضهم لوصايا نبيهم صلى الله
عليه وسلم .بعد كل ذلك وجه القرآن نداء إلى المؤمنين نهاهم عن التشبه
بالكافرين وعن الاستماع إلى أباطيلهم وحضهم فيه على مواصلة الجهاد فى سبيل
الله ، حتى تكون كلمة الله هى العليا وأخبرهم بأن الآجال بيد الله ، وأن
. موتهم من أجل الدفاع عن الحق أشرف لهم من الحياة الذليلة

يا ايها الذين امنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لاخوانهم اذا ضربوا في الارض او كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم والله يحيي ويميت والله بما تعملون بصير

كما فسرها الوسيط استمع إلى القرآن وهو يصور هذه المعانى بأسلوبه البليغ فيقول : { ياأيها الذين آمَنُواْ . . . } قوله { ياأيها الذين آمَنُواْ لاَ تَكُونُواْ كالذين كَفَرُواْ وَقَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ } الخ كلام مستأنف قصد به تحذير المؤمنين من التشبه بالكافرين ومن الاستماع إلى أقوالهم الذميمة .والمراد بالذين كفروا المنافقون كعبد الله بن أبى بن سلول وأشباهه من المنافقين الذين سبق للقرآن أن حكى عنهم أنهم قالوا : { لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأمر شَيْءٌ مّا قُتِلْنَا هَاهُنَا } وإنما ذكرهم بصفة الكفر للتصريح بمباينة حالهم لحال المؤمنين وللتنفير عن مماثلتهم ومسايرتهم وقيل المراد بهم جميع الكفار .والمراد بإخوانهم : إخوانهم فى الكفر . والنفاق والمذهب أو فى النسب وقوله { إِذَا ضَرَبُواْ فِي الأرض } أى سافروا فيها للتجارة أو غيرها فماتوا . وأصل الضرب : إيقاع شىء على شىء ثم استعمل فى السير ، لما فيه من ضرب الأرض بالأرجل ، ثم صار حقيقة فيه .وقوله { غُزًّى } : جمع غاز كراكع وركع ، وصائم وصوم ، ونائم ونوم .والمعنى : يا من آمنتم بالله واليوم الآخر لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا بفزع وجزع من أجل إخوانهم الذين فقدوهم بسبب سفرهم للتجارة أو بسبب غزوهم فى سبيل الله قالوا على سبيل التفجع : لو كان هؤلاء الذين ماتوا فى السفر أو الغزو. مقيمين معنا ، أو ملازمين بيوتهم ، ولم يضربوا فى الأرض ولم يغزوا فيها لبقوا أحياء ولما ماتوا أو قتلوا .وقولهم هذا يدل على جبنهم وعجزهم ، كما يدل على ضعف عقولهم وعدم إيمانهم بقضاء الله وقدره ، إذ لو كانوا مؤمنين بقضاء الله وقدره لعلموا أن كل شىء عنده بمقدار ، وأن العاقل هو الذى يعمل ما يجب عليه بجد وإخلاص ثم يترك بعد ذلك النتائج لله يسيرها كيف يشاء وقولهم هذا بجانب ذلك يدل على سوء نيتهم ، وخبث طويتهم ، لأنهم قصدوا به. تثبيط عزائم المجاهدين عن الجهاد ، وعن السعى فى الأرض من أجل طلب الرزق الذى أحله الله .والنهى فى قوله - تعالى { لاَ تَكُونُواْ كالذين كَفَرُواْ يشعر بالتفاوت الشديد بين المقامين : مقام الإيمان ومقام الكفران ، وأنه { لا يليق بالمؤمن أن ينحدر إلى المنحدر الدون وهو التشبه بالكافرين ، بعد أن رفعه الله بالإيمان إلى أعلى عليين ، وفى هذا تقبيح للمنهى عنه بأبلغ وجه وبأدق تصوير .واللام فى قوله { لإِخْوَانِهِمْ } يرى صاحب الكشاف أنها ، للتعليل فقد قال : قوله : { وَقَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ } أى لأجل إخوانهم كقوله - تعالى - { وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لِلّذِينَ آمَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْراً مّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ } ويجوز أن تكون اللام للدلالة على موضع الخطاب ، ويكون المعنى :لا تكونوا أيها المؤمنون كهؤلاء الذين كفروا وقالوا لإخوانهم الأحياء : لو كان أولئك الذين فقدناهم ملازمين لبيوتهم ولم يضربوا فى الأرض ولم يغزوا لما أصابهم ما أصابهم من الموت أو القتل .قال الفخر الرازى ما ملخصه : فإن قيل إن قوله { قَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ } يدل على الماضى ، وقوله { إِذَا ضَرَبُواْ فِي الأرض } يدل على المستقبل فكيف الجمع بينهما؟فالجواب من وجوه :أولها : أن قوله { قَالُواْ } تقديره : يقولون ، فكأنه قيل :لا تكونوا كالذين كفروا ويقولون لإخوانهم كذا وكذا .. وإنما عبر عن المستقبل بلفظ الماضى للتأكيد وللإشعار بأن جدهم فى تقرير الشبهة قد بلغ الغاية ، وصار بسبب ذلك الجد ينظر لى هذا المستقبل كالكائن الواقع .وثانيها : أن الكلام خرج على سبيل حكاية الحال الماضية . والمعنى أن إخوانهم إذا ضربوا فى الأرض ، فالكافرون يقولون لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ، فمن أخبر عنهم بعد ذلك فلا بد أن يقول : قالوا .وثالثها : قال قطرب " كلمة " إذ " و " وإذا يجوز إقامة كل واحدة منهما مقام الأخرى وهو " حسن لأنا إذا جوزنا إثبات اللغة بشعر مجهول ، فلأن يجوز إثباتها بالقرآن العظيم أولى " .وقوله { أَوْ كَانُواْ غُزًّى } معطوف على { ضَرَبُواْ فِي الأرض } من عطف الخاص بعد العام ، اعتناء به لأن الغزو هو المقصود فى هذا المقام وما قبله توطئة له .قالوا : على أنه قد يوجد الغزو بدون الضرب فى الأرض بناء على أن المراد بالضرب فى الأرض السفر البعيد ، فيكون على هذا : بين الضرب فى الأرض وبين الغزو خصوص وعموم من وجه .وإنما لم يقل أو غزوا للإيذان باستمرار اتصافهم بعنوان كونهم غزاة ، أو لانقضاء ذلك ، أى كانوا غزاة فيما مضى .وقوله { لَّوْ كَانُواْ عِنْدَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ } فى محل نصب مقول القول .ثم بين - سبحانه - ما ترتب على أقوالهم من عواقب سيئة فقال : { لِيَجْعَلَ الله ذلك حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ } والحسرة - كما يقول الراغب - هى غم الإنسان على ما فاته ، والندم عليه. كأنه انحسر عنه الجهل الذى حمله على ما ارتكبه ، أو انحسرت قواه - أى انسلخت - من فرط الغم ، وأدركه إعياء عن تدارك ما فرط " .فالحسرة هى الهم المضنى الذى يلقى على النفس الحزن المستمر والألم الشديد ، واللام فى قوله هى التى تسمى بلام العاقبة ، وهى متعلقة بقالوا أى قالوا ما { لِيَجْعَلَ }

قالوا لغرض من أغراضهم التى يتوهمون من ورائها منفعتهم ومضرة المؤمنين فكان عاقبة قولهم ومصيره إلى الحسرة والندامة لأن المؤمنين الصادقين لن يلتفتوا إلى هذا القول . بل سيمضون فى طريق الجهاد الذى كتبه الله عليهم وسيكون النصر الذى وعدهم الله إياه حليفهم وبذلك يزداد الكافرون المنافقون حسرة - على حسرتهم .ويجوز أن تكون اللام للتعليل ويكون المعنى : أن الله - تعالى طبع الكفار على هذه الأخلاق السيئة بسبب كفرهم وضلالهم لأجل أن يجعل الحسرة فى قلوبهم والغم فى نفوسهم والضلال بهذه الأقوال والأفعال فى عقولهم .قال صاحب الكشاف : فإن قتل ما متعلق ليجعل؟ قلت : قالوا . أى قالوا ذلك واعتقدوه ليكون حسرة فى قلوبهم على أن اللام مثلها فى { لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً } أو لا تكونوا بمعنى :لا تكونوا مثلهم فى النطق بذلك القول واعتقاده ليجعله الله حسرة فى قلوبهم خاصة ويصون منها قلوبكم . فإن قلت : ما معنى إسناد الفعلى إلى الله؟ قلت : معناه أن الله - تعالى - عند اعتقادهم ذلك المعتقد الفاسد يضع الغم والحسرة فى قلوبهم ويضيق صدورهم عقوبة لهم . كما قال - تعالى - { وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَآءِ } ويجوز أن يكون ذلك إشارة إلى ما دل عليه النهى ، أى لا تكونوا مثلهم ليجعل الله انتفاء كونكم مثلهم حسرة فى قلوبهم ، لأن مخالفتهم فيما يقولون ويعتقدون ومضادتهم مما يغمهم ويغيظهم " .والجعل هنا بمعنى التصيير ، وقوله { حَسْرَةً } مفعول ثان له ، وقوله ، { فِي قُلُوبِهِمْ } متعلق بيجعل .وذكر القلوب مع أن الحسرة لا تكون إلا فيها ، لإرادة التمكن ، والإيذان بعدم الزوال .وقوله { والله يُحْيِي وَيُمِيتُ والله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } رد على قولهم الباطل أثر بيان سوء عاقبته وحض للمؤمنين على الجهاد فى سبيل الله وترغيب لهم فى العمل الصالح ، أى أن الأرواح كلها بيد الله يقبضها متى شاء ، ويرسلها متى شاء فالقعود فى البيوت لا يطيل الآجال كما أن الخروج للجهاد فى سبيل الله أو للسعى فى طلب الرزق لا ينقصها وما دام الأمر كذلك فعلى العاقل أن يسارع إلى الجهاد من أجل إعلاء كلمة الله ، وأن يسعى فى الأرض ذات الطول والعرض ليأكل من رزق الله وأن يباشر الأسباب التى شرعها الله بدون عجز أو كسل وليعلم أن الله مطلع على أعمال الناس وأقوالهم وسيجازيهم عليها يوم القيامة بما يستحقون من خير أو شر .

ولئن قتلتم في سبيل الله او متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون

كما فسرها الوسيط ثم رد الله - تعالى - على أولئك الكافرين برد آخر ، فيه تثبيت للمؤمنين ، وترغيب لهم فى الجهاد فقال : { وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ } أيها المؤمنون وأنتم تجاهدون { فِي سَبِيلِ الله أَوْ مُتُّمْ } على فراشكم بدون قتل بعد أن أديتم رسالتكم فى الحياة على أكمل وجه ، وأطعتم ربكم فيما أمركم به أو نهاكم عنه لنلتم مغفرة من الله - تعالى - لذنوبكم ولظفرتم برحمته الواسعة التى تسعدكم .وقوله { خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ } أى خير مما يجمعه الكفرة من متع الدنيا وشهواتها الزائلة بخلاف مغفرة الله ورحمته فإنهما باقيتان ولا كدر معهما ولا تعب ولا قلق . واللام فى قوله { وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ } موطئة للقسم ، أى : والله لئن قتلتم فى سبيل الله أو متم وقوله { لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ الله وَرَحْمَةٌ } جواب القسم وجواب الشرط. محذوف لدلالة جواب القسم عليه ووفائه بمعناه .

ولئن متم او قتلتم لالى الله تحشرون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن مصير العباد جميعا إليه وحده فقال أى ولئن. { وَلَئِنْ مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى الله تُحْشَرُونَ }. متم - أيها المؤمنون - وأنتم فى بيوتكم أو فى أى مكان ، أو قتلتم بأيدى أعدائكم وأنتم تجاهدون فى سبيل الله ، فعلى أى وجه من الوجوه كان انقضاء حياتكم فإنكم إلى الله وحده جميعا تعودون وتحشرون فيجازيكم على أعمالكم فأنت ترى أن هذه الآيات الكريمة قد اشتملت على أبلغ ألوان الترغيب فى. الجهاد من أجل إعلاء كلمة الله ، لأنها قد بينت أن الحياة والموت بيد الله وحده وأنه سبحانه قد يكتب الحياة للمسافر والغازى مع اقتحامها لموارد الحتوف ، وقد يميت المقيم والقاعد فى بيته مع حيازته لأسباب السلامة .وأن الذين يموتون على الإيمان الحق ، أو يقتلون وهم يجاهدون فى سبيل الله فإن لهم من مغفرة الله ورحمته ما هو خير مما يجمعه الكافرون من حطام الدنيا وأن جميع الخلق مؤمنمهم وكافرهم سيعودون إلى الله ليجازيهم على أعمالهم. يوم الدين .قال الفخر الرازى : واعلم أن فى قوله : { لإِلَى الله تُحْشَرُونَ } دقائق :أحداها : أنه لم يقل : تحشرون إلى الله ، بل قال : لإلى الله تحشرون ، وهذا يفيد الحصر ، وهذا يدل على أنه لا حاكم فى ذلك اليوم ولا نافع ولا ضار إلا هو .وثانيهما : أنه ذكر من أسمائه هذا الاسم ، وهذا الاسم أعظم الأسماء وهو دال على كمال الرحمة . وكمال القهر ، فهو لدلالته على كمال الرحمة أعظم أنواع الوعد ، ولدلالته على كمال القهر أشد

أنواع الوعيد .وثالثها : أن قوله { تُحْشَرُونَ } فعل لم يسم فاعله ، مع أن فاعل ذلك الحشر هو الله وإنما ما يقع التصريح به لأنه - تعالى - هو العظيم الكبير الذى شهدت العقول بأنه هو الذى يبدىء ويعيد ، ومنه الإنشاء والإعادة } فترك التصريح فى مثل هذا الموضع أدل على العظمة .ورابعها : أن قوله تُحْشَرُونَ } خطاب مع الكل فهو يدل على أن جميع العاملين ، يحشرون إلى الله فيجتمع المظلوم مع الظالم والمقتول مع القاتل ، والله - تعالى - هو الذى يتولى الحكم بينهم .وقبل أن تتم السورة حديثها مع الذين آمنوا عن أحداث غزوة أحد وما دار فيها من نصر وهزيمة ، وعن السباب الظاهرة والخفية لذلك . أخذت فى بيان حال النبى صلى الله عليه وسلم وما كان عليه من قيادة حكيمة وأخلاق كريمة ، وأنه - صلى لله عليه وسلم - لم يقابل مخالفة المخالفين له والفارين عنه بالانتقام منهم وإنزال العقوبات بهم وإنما قابل ذلك بالحلم واللين والسياسة الرشيدة . فقال - تعالى - : { فَبِمَا رَحْمَةٍ . . . } .

فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الامر فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين

كما فسرها الوسيط الخطاب فى قوله - تعالى - { فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ الله لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ القلب لاَنْفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ } . . . الخ للنبى صلى الله عليه وسلم .والفاء لترتيب الكلام على . ما ينبىء عنه السياق من استحقاق الفارين والمخالفين للملامة والتعنيف منه " صلى الله عليه وسلم بمقتضى الجبلة البشرية .والباء هنا للسببية ، و " ما مزيدة للتأكيد ولتقوية معنى الرحمة " لنت " من لان يلين لينا وليانا بمعنى الرفق وسعة الخلق و " الفظ " الغليظ الجافى فى المعاشرة قولا وفعلا .وأصل الفظ - كما يقول الراغب - ماء الكرش وهو مكروه شربه بمقتضى الطبع ولا يشرب إلى فى أشد حالات الضرورة .وغلظ القلب عبارة عن قسوته وقلة تأثره من الغلظة ضد الرقة ، وتنشا عن هذه الغلظة الفظاظة والجفاء .والمعنى : فبسبب رحمة ، عظيمة فياضة منحك الله إياها يا محمد كنت لينا مع أتباعك فى كل أحوالك ولكن بدون إفراط أو تفريط ، فقد وقفت من أخطائهم التى وقعوا فيها فى غزوة أحد موقف القائد الحكيم الملهم فلم تعنفهم على ما وقع منهم وأنت تراهم قد استغرقهم الحزن والهم . . بل كنت لينا رفيقا معهم .وهكذا القائد الحكيم لا يكثر من لوم جنده على أخطائهم الماضية ، لأن كثرة اللوم والتعنيف قد تولد اليأس ، وإنما يتلفت إلى الماضى ليأخذ منه العبرة والعظة لحاضره ومستقبله ويغرس فى نفوس الذين معه ما يحفز همتهم ويشحذ عزيمتهم ويجعلهم ينظرون إلى حاضرهم ومستقبلهم بثقة واطمئنان وبصيرة مستنيرة .وإن الشدة فى غير موضعها تفرق ولا تجمع وتضعف ولا تقوي ، وذا قال - تعالى - { وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ القلب لاَنْفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ } .أى ولو كنت - يا محمد - كريه الخلق ، حشن الجانب ، جافيا فى أقوالك وأفعالك ، قاسى القلب لا تتأثر لما يصيب أصحابك . . . ولو كنت كذلك { لاَنْفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ } أى لتفرقوا عنك ونفروا منك ولم يسكنوا إليك .فالجملة الكريمة تنفى عن الرسول صلى الله عليه وسلم أن يكون فظا أو غليظا ، لأن " لو " تدل على نفى الجواب لنفى الشرط . أى أنك لست - يا محمد - فظا ولا غليظ القلب ولذلك التف أصحابك من حولك يفتدونك بأرواحهم وبكل مرتخص وغال ، ويحبونك حبا يفوق حبهم لأنفسهم ولأولادهم ولآبائهم ولأحب الأشياء إليهم .وقال - سبحانه - { وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ القلب } لينفى عنه صلى الله عليه وسلم القسوة والغلظة فى الظاهر والباطن : إذ القسوة الظاهرية تبدو أكثر ما تبدو فى الفظاظة التى هى ، خشونة الجانب ، وجفاء الطبع ، والقسوة الباطنية تكون بسبب يبوسة القلب وغلظ النفس وعدم تأثرها بما يصيب غيرها .والرسول صلى الله عليه وسلم كان مبرأ من كل ذلك ، ويكفى أن الله - تعالى - قد قال في وصفه : { لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بالمؤمنين رَءُوفٌ رّحِيمٌ } وقال عبد الله بن عمرو بن . العاص : إنى أرى صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الكتب المتقدمكة إنه ليس بفظ ، ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق ، ولا يجزى بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح .ولقد كان من أخلاقه صلى الله عليه وسلم مداراة الناس إلا أن يكون فى المداراة حق مضيع فعن عائشة رضى الله عنها ، قالت : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله أمرنى بمداراة الناس كما أمرنى بإقامة الفرائض " .ثم أمر الله تعالى ، بما يترتب على الرفق والبشاشة فقال : { فاعف عَنْهُمْ واستغفر لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأمر } .فالفاء هنا تفيد ، ترتيب ما بعدها على ما قبلها ، أى أنه يترتب على لين جانبك مع أصحابك ورحمتك بهم ، أن تعفو عنهم فيما وقعوا فيه من أخطاء تتعلق بشخصك أو ما وقعوا فيه من مخالفات أدت إلى هزيمتهم فى أحد ، فقد كانت زلة منهم وقد أدبهم الله عليها .وأن تلتمس من الله تعالى ، أن يغفر لهم ما فرط منهم ، إذ فى إظهارك ذلك لهم تأكيد لعفوك عنهم ، وتشجيع لهم على الطاعة والاستجابة

لأمرك . وأن تشاورهم فى الأمر أى فى أمر الحرب ونحوه مما تجرى فيه المشاورة
فى العادة من الأمور التى تهم الأمة .وقد جاءت هذه الأوامر للنبى صلى الله
عليه وسلم ، على أحسن نسق ، وأحكم ترتيب ، لأن الله تعالى أمره أولاً
بالعفو عنهم فيما يتعلق بخاصة نفسه ، فإذا ما انتهوا إلى هذا المقام ، أمره
بأن يستغفر لهم ما بينهم وبين الله تعالى ، لتنزاح عنهم التبعات ، فإذا
صاروا إلى هذه الدرجة ، أمره بأ يشاورهم فى الأمر لأنهم قد أصبحوا أهلا
، لهذه المشاورة .ولقد تكلم العلماء كلاما طويلا عن حكم المشورة وعن معناها
وعن فوائدها ، فقد قال القرطبى ما ملخصه : والاستشارة مأخوذة من قول العرب
شُرْتُ الدابة وشَوّرتها ، إذا عملت خبرها وحالها يجرى أو غيره . . وقد :
: يكون من قولهم : شُرْتُ العسل واشْتَرتُه ، إذا أخذته من موضعه .ثم قال
واختلف أهل التأويل فى المعنى الذى أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن
، يشاور فيه أصحابه فقالت طائفة : ذلك فى مكائد الحروب ، وعند لقاء العدو
تطييبا لنفوسهم ورفعاً لأقدارهم وإن كان الله - تعالى - قد أغناه عن رأيهم
بوحيه .وقال آخرون : ذلك فيما لم يأته فيه وحى . فقد قال الحسن : ما أمر
الله - تعالى - نبيه بالمشاورة لحاجة منه إلى رأيهم ، وإنما أراد أن يعلمهم
ما فى المشاورة من الفضل وليقتدى به أمته من بعده .ثم قال : والشورى من
- قواعد الشريعة ، وعزائم الأحكام ، والذى لا يستشير أهل العلم والدين
والخبرة - فعزله واجب وهذا لا خلاف فيه .وقد استشار النبى صلى الله عليه
وسلم أصحابه فى كثير من الأمور ، وقال " المستشار مؤتمن " وقال " ما ندم من
استشار ولا خاب من استخار " وقال : " ما شقى قط عبد بمشورة وما سعد
باستغناء رأى " .وقال البخارى : " وكانت الأمة بعد النبى صلى الله عليه
" وسلم يستشيرون الأمناء من أهل العلم فى الأمور المباحة ليأخذوا بأسهلها
وقال الفخر الرازى ما ملخصه : " اتفقوا على أن كل ما نزل فيه وحى من عند.
الله لم يجز للرسول صلى الله عليه وسلم أن يشاور فيه الأمة ، لأنه إذا جاء
النص بطل الرأى والقياس ، فأما مالا نص فيه فهل تجوز المشاورة فيه فى جميع
الأشياء أولا؟قال بعضهم : هذا الأمر مخصوص بالمشاورة فى الحروب ، لأن الألف
- واللام فى لفظ " الأمر " تعود على المعهود السابق وهو ما يتعلق بالحروب
إذ الكلام فى غزوة أحد - .وقال آخرون : اللفظ عام خص منه ما نزل فيه وحى
فتبقى حجته فى الباقى وظاهر الأمر فى قوله { وَشَاوِرْهُمْ } للوجوب وحمله
الشافعى على الندب . .والحق أن الشورى أصل من أصول الحكم فى الإسلام ، وقد
استشار النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه فى غزوات بدر وأحد والأحزاب وفى
غير ذلك من الأمور التى تتعلق بمصالح المسلمين ، وسار على هذا المنهج السلف
الصالح من هذه الأمة .ولقد كان عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يكتب لعماله
يأمرهم بالتشاور وبتمثل لهم فى كتبه بقول الشاعر :خليلى ليس الرأى فى صدر
واحد ... أشيرا على بالذى تريانوقد تمدح الحكماء والشعراء بفضيلة الشورى
وما يترتب عليها من خير ومنفعة ومن ذلك قول بشار بن برد :إذا بلغ الرأى
... المشورة فاستعن ... برأى نصيح أو نصيحة حازمولا تحسب الشورى عليك غضاضه
فإن الخوافى قوة للقوادموالحكام العقلاء المنصفون المتحرون للحق والعدل هم
الذين يقيمون حكمهم على مبدأ الشورى ولا يعادى الشورى من الحكام إلا أحد
اثنين :إما رجل قد أصيب بداء الغرور والتعالى ، فهو يتوهم أن قوله هو الحق
الذى لا يخالطه باطل ، وأنه ليس محتاجا إلى مشورة غيره وإما رجل ظالم مستبد
مجانب للحق ، فهو ينفذ ما يريده بدون مشورة أحد لأنه يخشى إذا استشار غيره
أن يطلع الناس على ظلمه وجوره وفجوره .هذا ومتى تمت المشورة على أحسن
الوجوه وأصلحها واستقرت الأمور على وجه معين ، فعلى العاقل أن يمضى على ما
استقر عليه الرأى بدون تردد أو تخاذل ، ولذا قال - سبحانه - { فَإِذَا
عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى الله إِنَّ الله يُحِبُّ المتوكلين } .أى فإذا
عقدت نيتك على إتمام الأمر وإمضائه بعد المشاورة السليمة وبعد أن تبين لك
} وجه السداد فيما يجب أن تسلكه فبادر بتنفيذ ما عقدت العزم على تنفيذه ، و
- تَوَكَّلْ عَلَى الله } أى اعتمد عليه فى الوصول إلى غايتك ، فإن الله
تعالى - يحب المعتمدين عليه ، المفوضين أمورهم إليه مع مباشرة الأسباب التى
شرعها لهم لكى يصلوا إلى مطلوبهم .فالجملة الكريمة تأمر النبى صلى الله
عليه وسلم وتأمر كل من يتأتى له الخطاب بأن يبذل أقصى جهده لمعرفة ما هو
صواب بأن يستشير أهل الخبرة كل فى مجال تخصصه فإذا ما استقر رأيه على وجهة
- نظر معينة - بعد أن درسها دراسة فاحصة واستشار العقلاء الأمناء فيها
فعليه أن يبادر إلى تنفيذها بدون تردد فإن التردد يضيع الأوقات والتأخر
كثيرا ما يحول الحسنات إلى سيئات وعليه مع حسن الاستعداد أن يكون معتمدا
على الله ، مظهرا العجز أمام قدرته - سبحانه - لأنه هو الخالق للأسباب
، والمسببات وهو القادر على تغييرها .وكم من أناس اعتمدوا على قوتهم وحدها
أو على مباشرتهم للأسباب وحدها دون أن يجعلوا للاعتماد على الله مكانا فى
نفوسهم ، فكانت نتيجتهم الفشل والخذلان وكانت الهزيمة المنكرة المرة التى
اكتسبوها بسبب غرورهم وفجورهم وفسوقهم عن أمر الله . ورحم الله القائل :إذا
لم يكن عون من الله للفتى ... فأول ما يجنى عليه اجتهاده

ان ينصركم الله فلا غالب لكم وان يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى

الله فليتوكل المؤمنون

كما فسرها الوسيط ولقد أكد الله - تعالى - وجوب التوكل عليه بعد ذلك فى قوله : { إِن يَنصُرْكُمُ الله فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الذي يَنصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ } ؟والمراد بالنصر هنا العون الذى يسوقه لعباده حتى ينتصروا على أعدائهم . والمراد بالخذلان ترك العون والمخذول ، هو المتروك الذى لا يعبأ به .يقال : خذلت الوحشية إذا أقامت على ولدها فى المرعى وتركت صواحباتها .والمعنى : أن يرد الله - تعالى - نصركم كما نصركم يوم بدر - { فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ } أى فإنه لا يوجد قوم يستطيعون قهركم ، لأن الله معكم ، ومن كان الله معه فلن يغلبه أحد من الخلق وأن يرد أن يخذلكم ويمنع عنكم عونه كما حدث لكم يوم أحد ، فلن يستطيع أحد. أن ينصركم من بعد خذلانه ، لأنه لا يوجد أحد عنده قدرة تقف أمام قدرة الله - تعالى - ومشيئته .والاستفهام هنا إنكارى يعنى النفى ، أى لا أحد يستطيع نصركم إذا اراد الله خذلانكم ، وهو جواب للشرط الثانى .وفيه لطف بالمؤمنين ، حيث صرح لهم بعدم الغلبة فى الأول ، ولم يصرح لهم بأنهم لا ناصر لهم فى الثانى ، بل أتى به فى صورة الاستفهام وإن كان معناه نفيا ليكون أبلغ ، إذ فى مجيئه على هذه الصورة الاستفهامية توجيه لأنظار - المخاطبين إلى البحث عن قوة تكون قدرته كافية للوقوف أمام إرادة الله تعالى - ولا شك أنهم لن يجدوه ، وعندئذ سيعتقدون عن يقين بأن الله وحده هو الكبير المتعال ، وأنه لا ناصر لهم سواه .وقوله { وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمنون } أى وعلى الله وحده لا على أحد سواه . فليجعل المؤمنون اعتمادهم واتكالهم عليه ، لأن الذين يعتمدون على أى قوة سوى الله - تعالى - لن يصلوا إلى العاقبة الطيبة التى أعدها - سبحانه - لعباده المتقين .فالآية الكريمة كلام مستأنف ، وقد سيق بطرق تلوين الخطاب ، تشريفا للمؤمنين لايجاب التوكل عليه والترغيب فى طاعته التى تؤدى إلى النصر ، وتحذيرا لهم من معصيته التى تقضى إلى الخسران والخذلان .

وما كان لنبي ان يغل ومن يغلل يات بما غل يوم القيامة ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون

كما فسرها الوسيط ثم نهى - سبحانه - عن الغلول ونزه النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال - تعالى - { وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ القيامة } وقوله { يَغُلَّ } من الغلول وهو الأخذ من الغنيمة خفية قبل قسمتها . يقال : غل فلان شيئاً من المغنم يغل غلولا إذا أخذه خفية . ويقال : أغل الجازر أو السالخ إذا أبقى فى الجلد شيئا من اللحم على طريق الخفية .وأصله من الغلل وهو دخول الماء فى خلل ، الشجر خفية . والغل : الحقد الكامن فى الصدر وسميت هذه الخيانة غلولا لأنها تجرى فى المال على خفاء من وجه لا يحل .والمعنى : ما صح ولا استقام لنبى من الأنبياء أن يخون فى المغنم ، لأن الخيانة تتنافى مع مقام النبوة ، الذى هو أشرف المقامات { وَمَن يَغْلُلْ } أى ومن يرتكب شيئاً من ذلك { يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ القيامة } أى يأت بما غله يوم القيامة حاملا إياه ليكون فضيحة له يوم الحشر ، ليؤخذ بإثم غلوله وخيانته .وقد روى المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها ما أخرجه أبو داود والترمذى عن ابن عباس قال : " نزلت هذه الآية " { وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ } فى قطيفة حمراء فقدت يوم بدر . فقال بعض الناس : لعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أخذها ، وأكثروا فى ذلك فأنزل الله الآية " .وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أيضاً أن المنافقين اتهموا رسول الله صلى الله عليه وسلم بشىء فُقِد ، فأنزل الله - تعالى - { وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ } .قال ابن كثير - بعد أن ساق هاتين الروايتين - وهذا تنزيه له صلى الله عليه وسلم من جميع وجوه الخيانة فى أداء الأمانة وقسمة الغنيمة وغير ذلك .وفى ورود هذه الآية الكريمة فى سياق الحديث عن غزوة أحد ، حكمة عظيمة ، وتأديب من الله للمؤمنين ، وتحذير لهم من الغلول ، ذلك أن الرماة الذين تركوا أماكنهم مخالفين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم قد دفعهم لذلك خشيتهم من أن ينفرد المقاتلون بالغنائم ، ففعلوا ما فعلوا ، ولقد روى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال للرماة :" أظننتم أنا نغل ولا نقسم لكم " .وقد نهى صلى الله عليه وسلم فى كثير من الأحاديث عن الغلول ومن ذلك ما أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة قال : " قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره ، ثم قال لا ألفين أحدكم يجىء يوم القيامة ، على رقبته بعير له رغاء يقول يا رسول الله أغثنى ، فأقول :لا أملك لك من الله شيئاً قد أبلغتك ، ولا ألفين أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء يقول يا رسول الله أغثنى فأقول :لا أملك من الله شيئاً قد أبلغتك لا ألفين أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته نفس لها صياح فيقول : يا رسول الله أغثنى فأقول :لا أملك من الله شيئاً قد أبلغتك ، لا ألفين أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته رقاع تخفق - أى ثياب - فيقول يا رسول الله أغثنى

فأقول :لا أملك لك من الله شيئاً قد أبلغتك ، لا ألفين أحدكم يجىء يوم
: القيام على رقبته صامت - أى ذهب وفضة - فيقول : يا رسول الله أغثنى فأقول
لا أملك لك من الله شيئاً قد أبلغتك " .هذا ، وجمهور العلماء على أن الغال
يأتى بما غله يوم القيامة بعينه على سبيل الحقيقة لأن ظواهر النصوص من
الكتاب والسنة تؤيد ذلك . ولأنه لا موجب لصرف الألفاظ عن ظواهرها .ومن
العلماء من جعل الإتيان بالغلول يوم القيامة مجاز عن الإتيان بإثمه تعبيراً
بما غل عما لزمه من الإثم مجازا .قال الفخر الرازى : " واعلم أن هذا
التأويل - المجازى - يحتمل ، إلا أن الأصل المعتبر فى علم القرآن أنه يجب
إجراء اللفظ على الحقيقة إلا إذا قام دليل يمنع منه . وهنا لا مانع من هذا
الظاهر فوجب إثباته " .ومن المفسرين الذين حمولا الإتيان على ظاهره الإمام
القرطبى فقد قال عند تفسيره لقوله - تعالى - { وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا
غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } أى يأتى به حاملا له على ظهره ورقبته معذباً بحماه
وثقله ومرعوباً بصوته ، وموبخاً بإظهار خيانته على رءوس الاشهاد .وقال بعد
إيراده للحديث السابق الذى رواه مسلم عن أبى هريرة : قيل الخبر محمول على
شهرة الأمر . أى يأتى يوم القيامة قد شهر الله أمره كما يشهر لو حمل بعيراً
له رغاء أو فرساً له حمحمة .قلت : وهذا عدول عن الحقيقة إلى المجاز
والتشبيه ، وإذا دار الكلام بين الحقيقة والمجاز فالحقيقة الأصل - كما فى
كتب الأصول - وقد أخبر النبى صلى الله عليه وسلم بالحقيقة ولا عطر بعد عروس
ثم نبه - سبحانه - على العقوبة التى ستحل بالخائن ، بعد أن بين ما . "
سيناله من فضيحة وخزى فقال : { ثُمَّ توفى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ
وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ } .أى : ثم تعطى كل نفس يوم القيامة جزاء ما كسبت
من خير أو شر وافيا تاماً ، وهم لا يظلمون شيئاً ، لأن الحاكم بينهم هو ربك
الذى لا يظلم أحداً .وهذه الجملة معطوفة على ما قبلها وقوله { وَمَن
يَغْلُلْ } وجاء العطف بثم المفيدة للتراخى ، للإشعار بالتفاوت الشديد بين
حمله ما غل وبين جزائه وسوء عاقبته يوم القيامة .وقال - سبحانه - { ثُمَّ
- توفى كُلُّ نَفْسٍ } . . . بصيغة العموم ، ولم يقل ثم يوفى الغال مثلا
لأن من فوائد ذكر هذا الجزاء بصيغة العموم ، الاعلام والإخبار للغال وغيره
. من جميع الكاسبين بأن كل إنسان سيجازى على عمله سواء أكان خيرا أو شراً
فيندرج الغال تحت هذا العموم أيضاً فكأنه قد ذكر مرتين .وإلى هذا المعنى
أشار صاحب الكشاف بقوله : فإن قلت : هلا قيل ثم يوفى ما كسب ليتصل به؟ قلت
جىء بعام دخل تحته كل كاسب من الغال وغيره فاتصل به من حيث المعنى ، وهو :
أبلغ وأثبت ، لأنه إذا علم الغال أن كل كاسب خيراً أو شراً مجزى فموفى
. جزاءه ، علم أنه غير متخلص من بينهم مع عظم ما اكتسب

افمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله وماواه جهنم وبئس المصير

كما فسرها الوسيط ثم أكد - سبحانه - نفى الظلم عن ذاته فقال : { أَفَمَنِ
اتبع رِضْوَانَ الله } بأن واظب على ما يرضيه ، والتزم طاعته ، وترك كل ما
نهى عنه من غلول وغيره { كَمَن بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ الله } أى كمن رجع
بغضب عظيم عليه من الله بسبب غلوله وخيانته وارتكابه لما نهى الله عنه من
أقوال وأفعال؟فالآية الكريمة تفريع على قوله - تعالى - قبل ذلك { ثُمَّ
توفى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ } وتأكيد لبيان
أنه لا يستوى المحسن والمسىء والأمين والخائن .والاستفهام إنكارى بمعنى
- النفى ، أى لا يستوى من اتبع رضوان الله مع من باء بسخط منه .وقد ساق
سبحانه - هذا الكلام الحكيم بصيغة الاستفهام الإنكارى ، للتنبيه على أن عدم
، المساواة بين المسحن والمسىء أمر بدهى واضح لا تختلف فيه العقول والأفهام
وأن أى إنسان عاقل لو سئل عن ذلك لأجاب بأنه لا يستوى من اتبع رضوان الله
- مع من رجع بسخط عظيم منه بسبب كفره أو فسقه وشبيه بهذه الآية قوله
تعالى - { أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً لاَّ يَسْتَوُونَ
وقوله { أَمْ نَجْعَلُ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات كالمفسدين {
، فِي الأرض } والفاء فى قوله { أَفَمَنِ اتبع } للعطف على محذوف والتقدير
أمن اتقى فاتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله؟ثم أعقب - سبحانه - ذكر
سخطه بذكر عقوبته فقال : { وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المصير } أى أن
هذا الذى رجع بغضب عظيم عليه من الله - تعالى - بسبب كفره أو فسوقه أو
خيانته ، سيكون مثواه ومصيره إلى النار وبئس ذلك المصير الذى صار إليه وكان
. له مرجعا ونهاية

هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - النتيجة التى ترتبت على عدم تساوى
المحسن والمسىء فقال { هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ الله والله بَصِيرٌ بِمَا
يَعْمَلُونَ } .والضمير { هُمْ } يعود على { مَنِ } فى قوله { أَفَمَنِ
اتبع رِضْوَانَ الله } وقوله {كَمَن بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ الله } أى على
الفريقين . وبعضهم جعل مرجعه إلى الفريق الأول فقط .والدرجات : جمع درجة

وهى الرتبة والمنزلة ، ومنه الدرج بمعنى السلم لأنه يصعد عليه درجة بعد درجة .وأكثر ما تستعمل الدرجة في القرآن فى المنزلة الرفيعة ، كما فى قوله - تعالى - { وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ } بخلاف الدركة فإنها تستعمل فى عكس ذلك ، كما فى قوله - تعالى - { إِنَّ المنافقين فِي الدرك الأسفل مِنَ النار } ولذا قال الراغب : " الدرك كالدرج لكن الدرج يقال اعتبارا بالصعود ، والدرك اعتبارا بالحدور ، ولهذا قيل : درجات الجنة ودركات النار ولتصور الحدور فى النار سميت هاوية . . . " .والمعنى : هم أى الأخيار الذين ابتعوا رضوان الله ، والأشرار الذين رجعوا بسخط منه متفاوتون فى الثواب والعقاب على حسب أعمالهم كما تتفاوت الدرجات وإطلاق الدرجات على الفريقين من باب التغليب للأخيار على الأشرار والمراد إن الذين اتبعوا رضوان الله يتفاوتون فى الثواب الذى يمنحهم الله إياه على حسب قوة إيمانهم وحسن أعمالهم .كما أن الذين باءوا بسخط منه يتفاوتون فى العقاب الذى ينزل ، بهم على حسب ما اقترفوه من شرور وآثام ، فمن أوغل فى الشرور والآثام كان عقابه أشد من عقاب من لم يفعل فعله وهكذا .والذين قالوا إن الضمير { هُمْ } يعود على الفريق الول فقط احتجوا بأن التعبير بالدرجات يستعمل في الغالب فى الثواب ، وبأن الله قد أضاف هذه الدرجات لنفسه فدل ذلك على أن المقصود بقوله : هم الذين اتبعوا رضوان الله . وبأن هؤلاء الذين اتبعوا رضوان الله قد فضل الله بعضهم على بعض كما جاء فى بعض الآيات ومنها قوله : { انظر كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ على بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً } والذى نراه أن عودة الضمير " هم " على الفريقين أقرب إلى الحق ، لأن تفاوت الدرجات موجود بين الأخيار كما أن تفاوت العقوبات موجود بين الأشرار ، فالذين أدوا جميع ما كلفهم الله به من طاعات ليسوا كالذين اكتفوا بأداء الفرائض . والذين انحدروا فى المعاصى إلى النهاية ليسوا كالذين وقعوا فى بعضها .وقوله { عِندَ الله } أى فى حكمه وعلمه وهو تشريف لهم والظرف متعلق بدرجات على المعنى ، أو متعلق بمحذوف وقع صفة لها . أى درجات كائنة عند الله .وقوله { والله بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ } أى مطلع على أعمال العباد صغيرها وكبيرها ظاهرها وخفيها ، لا يغيب عنه شىء ، وسيجازى كل إنسان بما يستحقه على حسب عمله ، بمقتضى علمه الكامل ، وعدله الذى لا ظلم معه .وبعد أن نزه الله - تعالى - نبيه صلى الله عليه وسلم عن الغلول وعن كل نقص ، وبين أن الناس متفاوتون فى الثواب والعقاب على حسب أعمالهم .

لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من انفسهم يتلو عليهم اياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين

كما فسرها الوسيط وبعد أن بين ذلك أتبعه ببيان فضله - سبحانه - على عباده فى أن بعث فيهم رسولا منهم ليخرجهم من الظلمات إلى النور فقال - تعالى - : { لَقَدْ مَنّ الله عَلَى المؤمنين إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنْفُسِهِمْ } .قال الرازى : قال الواحدى : " لمن فى كلام العرب معان أحدها : الذى يسقط من السماء ، وهو قوله : { وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ المن والسلوى } وثانيها : أن تمن بما أعطيت كما فى قوله { لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالمن والأذى } وثالثها : القطع كما فى قوله { وَإِنَّ لَكَ لأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ } ورابعها الإنعام والإحسان إلى من لا تطلب الجزاء منه - وهو المراد هنا " .والمعنى : لقد أنعم الله على المؤمنين ، وأحسن إليهم { إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنْفُسِهِمْ } أى بعث فيهم رسولا عظيم القدر ، هو من العرب أنفسهم ، وهم يعرفون حسبه ونسبه وشرفه وأمانته صلى الله عليه وسلم .وعلى هذا المعنى يكون المراد بقوله { مِّنْ أَنْفُسِهِمْ } أى من نفس العرب ، ويكون المراد بالمؤمنين مؤمنى العرب ، وقد بعثه الله عربيا مثلهم ، ليتمكنوا من مخاطبته وسؤاله ومجالسته والانتفاع بتوجيهاته .ويصح أن يكون معنى قوله { مِّنْ أَنْفُسِهِمْ } أنه بشر مثل سائر البشر إلا أن الله - تعالى - وهبه النبوة والرسالة ، ليخرج الناس - العربى منهم وغير العربى - من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان ، وجعل رسالته عامة فقال : { وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ } وخص الله - تعالى - منته وفضله بالمؤمنين ، لأنهم هم الذين انتفعوا بنعمة الإسلام ، الذى لن يقبل الله دينا سواه والذى جاء به محمد - عليه الصلاة والسلام .والجملة الكريمة جواب قسم محذوف والتقدير : والله { لَقَدْ مَنّ الله عَلَى المؤمنين } .ثم بين - سبحانه - مظاهر هذه المنة والفضل ببعثة الرسول صلى الله عليه وسلم فقال : { يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكتاب والحكمة } .والتلاوة : هى القراءة المتتابعة المرتلة التى يكون بعضها تلو بعض .والتزكية : هى التطهير والتنقية .أى لقد أعطى الله - تعالى - المؤمنين من النعم ما أعطى ، لأنه قد بعث فيهم رسلا من جنسهم يقرأ عليهم آيات الله التى أنزلها لهدايتهم وسعادتهم ، { وَيُزَكِّيهِمْ } أى يطهرهم من الكفر والذنوب . أو يدعوهم إلى ما يكونون به زاكين طاهرين مما كانوا عليه من دنس الجاهلية ، والاعتقادات

الفاسدة .{ وَيُعَلِّمُهُمُ الكتاب } بأن يبين لهم المقاصد التى من أجلها نزل القرآن الكريم ، ويشرح لهم أحكامه ، ويفسر لهم ما خفى عليهم من ألفاظه ومعانيه التى قدى تخفى على مداركهم .فتعليم الكتاب غير تلاوته : لأن تلاوته قراءته مرتلا مفهوما أما تعليمه فمعناه بيان أحكامه وما اشتمل عليه من تشريعات وآداب .ويعلمهم كذلك { الحكمة } أى الفقه فى الدين ومعرفة أسراره وحكمه ومقاصده التى يكمل بها العلم بالكتاب .وهذه الآية الكريمة قد اشتملت على عدة صفات من الصفات الجليلة التى منحها الله تعالى - لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم .ثم بين - سبحانه - حال الناس قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم فقال { وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ } .أى : إن حال الناس وخصوصا العرب أنهم كانوا قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم إليهم فى ضلال بين واضح لا يخفى أمره لعى أحد من ذوى العقول السليمة والأذواق المستقيمة .وحقا لقد كان الناس قبل أن يبزغ نور الإسلام الذى جاء به صلى الله عليه وسلم من عند ربه فى ضلال واضح ، وظلام دامس ، فهم من ناحية العبادة كانوا يشركون مع الله آلهة أخرى ، ومن ناحية الأخلاق تفشت فيهم الرذائل حتى صارت شيئا مألوفا ، ومن ناحية المعاملات كانوا لا يلتزمون الحق والعدل فى كثير من شئونهم .والخلاصة أن الضلال والجهل وغير ذلك من الرذائل ، كانت قد استشرت فى العالم بصورة لا تخفى على عاقل .فكان من رحمة الله بالناس ومنته عليهم أن أرسل فيهم نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم لكى يخرجهم من ظلمات الكفر والفسوق والعصيان إلى نور الهداية والاستقامة والإيمان .ثم واصلت السورة الكريمة حديثها عن غزوة أحد فحكت ما قاله ضعاف الإيمان فى أعقابها ، وردت عليهم بما يبطل مقالتهم ، وبما يزيد المؤمنين إيمانا على إيمانهم فقال - تعالى : { أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ . . . } .

اولما اصابتكم مصيبة قد اصبتم مثليها قلتم انى هذا قل هو من عند انفسكم ان الله على كل شيء قدير

كما فسرها الوسيط قوله تعالى : { أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أنى هذا } الخ مستأنف مسوق لإبطال بعض ما نشأ من الظنون الفاسدة ، إثر إبطال بعض آخر تقدم الحديث عنه من فوائد غزوة أحد أنها كشفت عن قوة الإيمان من ضعيفه ، ميزت الخبيث من الطيب وإذا كان انتصار المسلمين فى بدر جعل كثيراً من المنافقين يدخلون فى الإسلام طمعا فى الغنائم . . فإن عدم انتصارهم فى أحد قد أظهر المنافقين على حقيقتهم ، ويسر للمؤمنين معرفتهم والحذر منهم .والهمزة فى قوله { أَوَ " لَمَّا } للاستفهام الإنكارى التعجيبي . و " الواو " للعطف على محذوف و : لما " ظرف بمعنى حين مضافة إلى ما بعدها مستعملة فى الشرط . والمصيبة أصلها فى اللغة الرمية التى تصيب الهدف ولا تخطئه ، ثم أطلقت على ما يصيب الإنسان فى نفسه أو أهله أو ما له أو غير ذلك من مضار . وقوله { مِّثْلَيْهَا } أى ضعفها ، فإن مثل الشىء ما يساويه . ومثليه ضعفه .والمعنى : أفعلتم ما فعلتم من أخطاء ، وحين أصابكم من المشركين يوم أحد نصف ما أصابهم منكم قبل ذلك فى بدر تعجبتم وقلتم { أنى هذا } أى من أين لنا هذا القتل والخذلان ونحن مسلمون نقاتل فى سبيل الله ، وفينا رسوله صلى الله عليه وسلم وأعداؤنا الذين قتلوا منا من قتلوا مشركون يقاتلون فى سبيل الطاغوت .فالجملة الكريمة توبيخ لهم على ما قالوه لأنه ما كان ينبغى أن يصدر عنهم . إذ هم قد قتلوا من المشركين فى بدر سبعين من صناديدهم واسروا منهم قريبا من هذا العدد وفى أحد كذلك كان لهم النصر فى أول المعركة على المشركين ، وقتلوا منهم قريبا من عشرين إلا أنهم حين خالفوا وصية رسولهم صلى الله عليه وسلم وتطلعوا إلى الغنائم منع الله عنهم نصره ، فقتل المشركون منهم قريبا من سبعين .وقوله { قَدْ أَصَبْتُمْ مِّثْلَيْهَا } فى محل رفع صفة " لمصيبة " . وفائدة هذا القول التنبيه على أن أمور الدنيا لا تبقى على حال واحدة ، وإن من شأن الحرب أن تكون سجالا ، إلا أن العاقبة جعلها الله للمتقين .وقوله { قُلْتُمْ أنى هذا } هو موضع التوبيخ والتعجيب من شأنهم ، لأن قولهم هذا يدل على أنهم لم يحسنوا وضع الأمور فى نصابها حيث ظنوا أن النصر لا بد أن يكون حليفهم حتى ولو خالفوا أمر قائدهم ورسولهم - صلى الله عليه وسلم - ولذا فقد رد الله - تعالى - عليهم بما من شأنه أن يعيد إليهم صوابهم وبما يعرفهم السبب الحقيقى فى هزيمتهم فقال : { قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ } .أى قل يا محمد لهؤلاء الذين قالوا ما قالوا : إن ما أصابكم فى أحد سببه أنتم لا غيركم .فأنتم الذين أبيتم إلا الخروج من المدينة مع أن النبى صلى الله عليه وسلم أشار عليكم بالبقاء فيها وأنتم الذين خالفتم وصيته بترككم أماكنكم التى حددها لكم وأمركم بالثبات فيها . وأنتم الذين تطلعت أنفسكم إلى الغنائم فاشتغلتم بها وتركتم النصيحة وأنتم الذين تفرقتم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ساعة الشدة ، والعسرة لهذه المخالفات التى نبعت من أنفسكم أصابكم ما أصابكم فى أحد ، وكان الأولى بكم أن تعرفوا ذلك وأن تعتبروا وأن تقلعوا عن هذا القول التى

لا يليق بالعقلاء ، إذ العاقل هو الذى يحاسب نفسه عندما يفاجئه المكروه ويعمل على تدارك أخطائه ويقبل على حاضره ومستقبله بثبات وصبر مستفيدا بماضيه ومتعظا بما حدث له فيه .وما أحوج الناس فى كل زمان ومكان إلى الأخذ ، بهذا الدرس فإن كثيرا منهم يقصرون فى حق الله وفى حق أنفسهم وفى حق غيرهم ولا يباشرون الأسباب التى شرعها الله للوصول إلى النصر . . بل يبنون حياتهم على الغرور والإهمال ، فإذا ما أصابتهم الهزيمة مسحوا عيوبهم فى القضاء - والقدر ، أو فى غيرهم من الناس ، أو شدهوا لهول ما أصابهم - بسبب تقصيرهم ثم قالوا : أنى هذا؟ وما دروا لجهلهم وغرورهم - أن الله - تعالى - قد جعل لكل شىء سببا . فمن باشر أسباب النجاح وصل إليها بإذن الله ومن أعرض عنها حرمه الله - تعالى - من عونه ورعايته .ولقد أكد - سبحانه قدرته على كل شىء فقال : { إِنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِير } أى إن الله تعالى - قدرته فوق كل شىء فهو القدير على نصركم وعلى خذلانكم وبما أنكم قد خالفتم نبيكم صلى الله عليه وسلم فقد حرمكم الله نصره ، وقرر لكم الخذلان ، حتى تعتبروا - ولا تعودوا إلى ما حدث من بعضكم فى غزوة أحد ، ولتذكروا دائما قوله تعالى - { وَمَآ أَصَابَكُمْ مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ } ثم أكد - سبحانه - عموم قدرته وإرادته فقال :

وما اصابكم يوم التقى الجمعان فباذن الله وليعلم المؤمنين

كما فسرها الوسيط { وَمَآ أَصَابَكُمْ يَوْمَ التقى الجمعان فَبِإِذْنِ الله وَلِيَعْلَمَ المؤمنين } .أى : وما أصابكم - أيها المؤمنون - من قتل وجراح وآلام يوم التقى جمعكم وجمع أعدائكم فى أحد ، { فَبِإِذْنِ الله } أى ، فبإرادته وعلمه ، إذ ما من شىء يقع فى هذا الكون إلا بتقدير الله وعلمه فعليكم أن تستسلموا لإرادة الله ، وأن تعودوا إلى أنفسكم فتهذبوها وتروضوها على تقوى الله وطاعته ، حتى تكونوا أهلا لنصرته وعونه .و " ما " موصولة ، بمعنى الذى فى محل رفع بالابتداء ، وجملة { أَصَابَكُمْ } صلة الموصولة وقوله { فَبِإِذْنِ الله } هو الخبر . ودخلت الفاء فى الخبر لشبه المبتدأ بالشرط . وقوله { وَلِيَعْلَمَ المؤمنين } بيان لبعض الحكم التى من أجلها حدث ما حدث فى غزوة أحد .والعلم هنا كناية عن الظهور والتقرر فى الخارج لما قدره - سبحانه - فى الأزل أى أراد الله أن يحدث ما حدث فى غزوة أحد ليظهر للناس ويميز لهم المؤمنين من غيرهم .

وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله او ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ اقرب منهم للايمان يقولون بافواههم ما ليس في قلوبهم والله اعلم بما يكتمون

كما فسرها الوسيط وقوله : { وَلِيَعْلَمَ الذين نَافَقُواْ } حكمة ثانية لما حدث فى غزوة أحد ليعلم - سبحانه - المؤمنين من المنافقين علم عيان ورؤية وظهور يتميز معه عند الناس كل فريق عن الآخر تميزا ظاهرا .إذ أن نصر المسملين فى بدر فتح الطريق أمام المنافقين للتظاهر باعتناق الإسلام . وعدم انتصارهم فى أحد ، كشف عن هؤلاء المنافقين وأظهرهم على حقيقتهم ، فإن من - شأن الشدائد أنها تكشف عن معادن النفوس ، وخبايا القلوب .ثم بين - سبحانه بعض النصائح التى قيلت لهؤلاء المنافقين حتى يقلعوا عن نفاقهم ، وحكى ما رد به المنافقون على الناصحين فقال : { وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ الله أَوِ ادفعوا قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ } .أى فعل - سبحانه - ما فعل فى أحد ليميز المؤمنين من المنافقين الذين قيل لهم من النبى صلى الله عليه وسلم ومن بعض أصحابه : تعالوا معنا لتقاتلوا فى سبيل الله ، فإن لم تقاتلوا فادفعوا أى فانضموا إلى صفوف المقاتلين ، فيكثر عددهم بكم فإن كثرة العدد تزيد من خوف الأعداء أو المعنى : تعالوا معنا لتقاتلوا من أجل إعلاء كلمة الله ، فإن لم تفعلوا. ذلك لضعف إيمانكم ، واستيلاء الشهوات والأهواء على نفوسكم ، فلا أقل من أن تقاتلوا لتدفعوا عن أنفسكم وعن مدينتكم عار الهزيمة .أى إن لم تقاتلوا طلبا لمرضاة الله ، فقاتلوا دفاعا عن أوطانكم وعزتكم .قال الجمل : وهذه الجملة وعى قوله - تعالى - { وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ } تحتمل وجهين :أحدهما : أن تكون مستأنفة ، أخبر الله أنهم مأمورون إما بالقتال وإما بالدفع أى كثير سواد المسلمين - أى عددهم .والثانى : أن تكون معطوفة على { نَافَقُواْ } فتكون داخلة فى خبر الموصول . أى وليعلم الذين حصل منهم النافق والقول المذكور وإنما لم يأت بحرف العطف بين تعالوا وقاتلوا ، لأن المقصود أن تكون كل من الجملتين مقصودة بذاتها .وقوله { قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ } حكاية لردهم القبيح على من نصحهم - بالبقاء مع المجاهدين .أى قال المنافقون - وعم عبد الله بن أبى وأتباعه لو نعلم أنكم تقاتلون حقا لسرنا معكم ، ولكن الذى نعلمه هو أنكم ستذهبون إلى أحد ثم تعودون بدون قتال لأى سبب من الأسباب .أو المعنى - كما يقول الزمخشرى - " لو نعلم ما يصح أن يسمى قتالا { لاَّتَّبَعْنَاكُمْ } يعنون

أن ما أنتم فيه لخطأ رأيكم وزللكم عن الصواب ليس بشىء ، ولا يقال لمثله قتال ، إنما هو إلقاء بالنفس إلى التهلكة ، لأن رأى عبد الله بن أبى كان فى الإقامة بالمدينة وما كان يستصوب الخروج " .وقال ابن جرير : " خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أحد فى ألف رجل من أصحابه وحتى إذا كانوا بالشوط بين أحد والمدينة ، انخذل عنهم عبد الله بن أبى ابن سلول بثلث الناس وقال . أطاعهم ، أى رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج وعصانى . والله ما ندرى علام نقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس؟ فرجع بمن اتبعه من الناس من قومه - أهل النفاق والريب ، فاتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام - أخو بنى سلمة يقول لهم . يا قوم أذكركم الله أن تخذلوا نبيكم وقومكم - وقاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا - فقالوا : لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم ، ولكننا لا نرى أن يكون قتال .فلما استعصوا عليه ، وأبوا إلا الانصراف عن المؤمنين قال لهم . أبعدكم الله يا أعداء الله فسيغنى الله رسوله عنكم ، ثم مضى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .هذا هو موقف المنافقين فى غزوة أحد ، وهو موقف يدل على فساد قلوبهم ، وخبث نفوسهم ، وجبنهم عن لقاء الأعداء .ولقد كان المؤمنون الصادقون على نقيض ذلك ، فلقد خرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وثبتوا إلى جانبه فكانوا ممن قال الله فيهم : { مِّنَ المؤمنين رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَاهَدُواْ الله عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّن قضى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدّلُواْ تَبْدِيلاً } ولقد حكى لنا التاريخ أن بعض المؤمنين الذين كانت لهم أعذارهم التى تسقط عنهم الخروج للجهاد ، كانوا يخرجون مع المجاهدين لتكثير عددهم .فعن أنس بن مالك - قال : " رأيت يوم القادسية - عبد الله بن أم مكتوم - وكان رجلا أعمى وعليه درع يجر أطرافها وبيده راية سوداء ، فقيل له : أليس قد أنزل الله - عذرك؟ فقال : بلى ولكنى أحب أن أكثر المسلمين بنفسى .هذا ، وقد أصدر سبحانه - حكمه العادل على أولئك المنافقين فقال : { هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ والله أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ } .أى هم يوم أن قالوا هذا القول الباطل قد بينوا حالهم ، وهتكوا أستارهم وكشفوا عن نفاقهم لمن كان يظن أنهم مؤمنون ، لأنهم قبل أن يقولوا : " لو نعلم قتالا ، لاتبعناكم " كانوا يتظاهرون بالإيمان ، وما ظهرت منهم أمارة تؤذن بكفرهم فلما انخذلوا عن عسكر المؤمنين وقالوا ما قالوا تباعدوا بذلك عن الإيمان المظنون بهم واقتربوا من الكفر .أو المعنى : هم لأهل الكفر أقرب نصرة منهم لأهل الإيمان ، لأن تقليلهم سواد المسلمين بالانخذال فيه تقوية للمشركين } قال الجمل : " وقوله { هُمْ } مبتدأ ، وقوله { أَقْرَبُ } خبره ، وقوله. لِلْكُفْرِ } وقوله { لِلإِيمَانِ } متعلقان بأقرب ، لأن أفعل التفضيل فى قوة عاملين . فكأنه قيل : قربوا من الكفر وقربوا من الإيمان ، وقربهم الكفر } فى هذا اليوم أشد لوجود العلامة وهى خذلانهم للمؤمنين " .وقوله يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ } جملة مستأنفة مبينة لحالهم مطلقا لا فى ذلك اليوم فحسب .أى أن هؤلاء القوم من صفاتهم ، الذميمة أنهم يقولون بألسنتهم قولا يخالف ما انطوت عليه قلوبهم من كفر : وما امتلأت به نفوسهم من بغضاء لكم - أيها المؤمنون - .قال صاحب الكشاف وذكر الأفواه مع القلوب تصوير لنفاقهم وأن إيمانهم موجود فى أفواههم معدوم } فى قلوبهم ، بخلاف صفة المؤمنين فى مواطأة قلوبهم لأفواههم " .وقوله والله أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ } تذييل قصد به زجرهم وتوعدهم بسوء المصير بسبب نفاقهم وخداعهم .أى والله - تعالى - أعلم منكم - أيها - المؤمنون - بما يضمره هؤلاء المنافقون من كفر ومن كراهية لدينكم ، لأنه سبحانه - يعلم ما ظهر وما خفى من أمورهم ، وقد كشف الله لكم أحوالهم لكى تحذروهم ، وسيحاسبهم يوم القيامة على أعمالهم ، وسينزل بهم ما يستحقونه من عذاب مهين .

الذين قالوا لاخوانهم وقعدوا لو اطاعونا ما قتلوا قل فادرءوا عن انفسكم الموت ان كنتم صادقين

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - لونا آخر من أراجيفهم وأكاذيبهم التى قصدوا من ورائها الإساءة إلى المؤمنين ، والتشكيك فى صدق تعاليم الإسلام فقال - تعالى - : { الذين قَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا } .أى أن هؤلاء المنافقين لم يكتفوا بما ارتكبوه من جنايات قبيل غزوة أحد وخلالها ، بل إنهم بعد انتهاء المعركة قالوا لإخوانهم الذين هم مثلهم فى المشرب والاتجاه ، : قالوا لهم وقد وقعوا عن القتال : لو أن هؤلاء الذين استشهدوا فى أحد أطاعونا وقعدوا معنا فى المدينة لما أصابهم القتل ، ولكنهم خالفونا فكان مصيرهم إلى القتل .ويجوز أن تكون اللام فى قوله " لإخوانهم " للتعليل فيكون المعنى : أنهم قالوا من أجل إخوانهم الذين استشهدوا فى غزوة أحد ، لو أن هؤلاء الذين قتلوا أطاعونا ولم يخرجوا لبقوا معنا على قيد الحياة ، كما هو حالنا الآن ، ولكنهم لم يستمعوا إلى نصحنا وخرجوا للقتال فقتلوا .وعلى كلا التفسيرين فقولهم هذا

، يدل على خبث نفوسهم ، وانطماس بصيرتهم وجهلهم بقدرة الله ونفاذ إرادته
وشماتتهم فيما حل بالمسلمين من قتل وجراح يوم أحد .ولذا فقد رد الله عليهم
- بما يخرس ألسنتهم ، ويدحض قولهم ، ويكشف عن جهلهم وسوء تفكيرهم فقال
تعالى - { قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ
صَادِقِينَ } .أى قل لهم يا محمد على سبيل التوبيخ والتهكم بعقولهم الفارغة
، إذا كنتم تظنون أنكم دفعتم عن أنفسكم الموت بقعودكم فى بيوتكم :
وامتناعكم عن الخروج للقتال ، إذا كنتم تظنون ذلك {فَادْرَءُوا } أى
ادفعوا عن أنفسكم الموت المكتوب عليكم ، والذى سيدرككم ولو كنتم فى بروج
مشيدة .فالمقصود من هذه الجملة الكريمة الرد عليهم بما يبطل أقوالهم عن
، طريق الحس والمشاهدة ، وذلك ببيان أن القعود عن الجهاد لا يطيل الحياة
كما أن الخروج إلى ساحات القتال لا ينقص شيئا من الآجال ، فكم من مجاهد عاد
من جهاده سالما ، وكم من قاعد أتاه الموت وهو فى عقر داره .فزعم هؤلاء
المنافقين بأن أولئك الذين استشهدوا فى أحد لو أطاعوهم ولم يخرجوا للقتال
لما أصابهم القتل زعم باطل ، وإلا فإن كانوا صادقين فى هذا الزعم فليدفعوا
عن أنفسهم الموت الذى سينزل بهم حتما فى الوقت الذى يشاؤه الله ، ولا شك
أنهم لن يستطيعوا دفعه فثبت كذبهم وافتراؤهم .وقوله تعالى { الذين قَالُواْ
لإِخْوَانِهِمْ } فى محل نصب بدل من قوله { الذين نَافَقُواْ } .أو فى محل
رفع بدل من الضمير فى قوله { يَكْتُمُونَ } فكأنه قيل : والله أعلم بما
يكتم هؤلاء الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا . . .وقوله { وَقَعَدُواْ } حال من
الضمير فى { قَالُواْ } بتقدير حرف قد أى قالوا ما قالوا والحال أنهم قد
قعدوا عن القتال .وجواب الشرط فى قوله { الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ
محذوف لدلالة ما قبله عليه وهو قوله { قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ {
أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ } .والتقدير : إن كنتم صادقين فى زعمكم أن الذين
قتلوا فى أحد لو أطاعوكم وقعدوا كما قعدتم لما أصابهم القتل ، إن كنتم
: صادقين فى هذا الزعم فادرأوا عن أنفسكم الموت عند حلوله .قال الآلوسى
والمراد أن ما ادعيتموه سببا للنجاة ليس بمستقيم ، ولو فرض استقامته فليس
بمفيد ، أما الأول : فلأن أسباب النجاة كثيرة . غايته أن القعود والنجاة
وجدا معا وهو لا يدل على السببية .وأما الثانى : فلأن المهروب عنه بالذات
هو الموت الذى القتل أحد أسبابه فإن صح ما ذكرتم فادفعوا سائر أسبابه ، فإن
، أسباب الموت فى إمكان المدافعة بالحيل وامتناعها سواء وأنفسكم أعز عليكم
وأمرها أهم لديكم " .وقال ابن القيم : وكان من الحكم التى اشتملت عليها
غزوة أحد ، أن تكلم المنافقون بما فى نفوسهم ، فسمعه المؤمنون ، وسمعوا رد
الله عليهم ، وجوابه لهم ، وعرفوا مراد النفاق ، وما يؤول إليه ، كيف يحرم
صاحبه سعادة الدنيا والآخرة .فالله الله كم من حكمة فى ضمن هذه القصة بالغة
، ونعمة على المؤمنين سابغة ، وكم فيها من تحذير وتخويف وإرشاد وتنبيه ،
وتعريف بأسباب الخير والشر ومآلهما وعاقبتهما .وبعد هذا الحديث الكاشف عن
طبيعة المنافقين وعن أحوالهم ، انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن
الشهداء وفضلهم وما أعده الله لهم من نعيم مقيم فقال - تعالى - : { وَلاَ
. { . . تَحْسَبَنّ الذين قُتِلُواْ

ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتا بل احياء عند ربهم يرزقون

كما فسرها الوسيط قوله - تعالى - { وَلاَ تَحْسَبَنّ الذين قُتِلُواْ فِي
- سَبِيلِ اللّه أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ } كلام مستأنف ساقه الله - تعالى
لبيان أن القتل فى سبيل الله الذى يحذره المنافقون ويحذرون الناس منه ليس
، مما يحذر ، بل هو أجل المطالب وأسناها ، إثر بيان أن الحذر لا يدفع القدر
لأن من قدر الله له القتل لا يمكنه الاحتراز عنه . ومن لم يقدر له ذلك لا
خوف عليه منه .فهذه الآيات الكريمة رد على شماتة المنافقين إثر الردود
السابقة ، وتحريض للمؤمنين على القتال ، وتقرير لحقيقة إسلامية ثابتة هى أن
الاستشهاد فى سبيل الله ليس فناء بل هو بقاء .والخطاب فى قوله " ولا تحسبن
، للنبى صلى الله عليه وسلم أو لكل من يتأتى له الخطاب .والحسبان : الظن "
، والنهى بلا هنا منصب على هذا الظن ، أى أنهاكم عن أن تظنوا أنهم أموات
ونون التوكيد فى قوله " ولا تحسبن " لتأكيد هذا النهى .أى :لا تحسبن أيها
الرسول الكريم ، أو أيها المؤمن أن الذين قتلوا فى سبيل الله ، من أجل
، إعلان كلمته ، لا تحسبنهم أمواتا لا يحسون شيئاً ولا يتلذون ولا يتنعمون
بل هم أحياء عند ربهم ، يرزقون رز الأحياء ، ويتنعمون بألوان النعم التى
أسبغها الله عليهم ، جزاء إخلاصهم وجهادهم وبذلهم أنفسهم فى سبيل الله
وقوله { الذين } مفعول أول لقوله : { تَحْسَبَنَّ } وقوله { أَمْوَاتاً }.
مفعوله الثانى وقوله { أَحْيَاءٌ } خبر لمبتدأ محذوف أى بل هم أحياء .وقوله
يصح أن يكون خبرا ثانيا للمبتدأ المقدر أو صفة لأحياء { عِندَ رَبِّهِمْ }
أو ظرفا له لأن المعنى : يحيون عند ربهم .والمراد بالعندية هنا المجاز عن
القرب والإكرام والتشريف ، أى هم أحياء مقربون عنده ، فقد خصهم بالمنازل
الرفيعة ، والدرجات العالية ، وليس المراد بها القرب المكانى لاستحالة ذلك
فى حق الله - تعالى - .وقوله { يُرْزَقُونَ } صفة لقوله { أَحْيَاءٌ } أو

حال من الضمير فيه أى يحيون مرزوقين .هذا وقد وردت أحاديث متعددة تصرح بأن
هذه الآيات الكريمة قد نزلت فى شهداء أحد ، ويدخل فى حكمهم كل شهيد فى سبيل
الله ، ومن هذه الأحاديث ما أخرجه أبو داود وغيره عن ابن عباس قال : قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم " لما أصيب إخوانكم بأحد ، جعل الله أرواحهم
فى أجواف طير خضر تَرِد أنهار الجنة تأكل من ثمارها ، وتأوى إلى قناديل من
ذهب معلقة فى ظل العرش . فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وحسن مقيلهم قالوا
، من يبلغ إخواننا عنا أننا أحياء فى الجنة نرزق لئلا يزهدوا فى الجهاد :
: ولا ينكلوا عند الحرب . فقال الله - تعالى - : " أنا أبلغهم عنكم . قال
فأنزل الله هؤلاء الآيات { وَلاَ تَحْسَبَنَّ الذين قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ
الله أَمْوَاتاً } . . . إلخ الآيات " .وأخرج الترمذى وابن ماجه عن جابر بن
عبد الله قال : لقينى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " " يا جابر
مالى أراك منكسا مهتما "؟ قلت يا رسول الله استشهد أبى - فى أحد - وترك
عيالا وعليه دين . فقال : ألا أبشرك بما لقى الله - عز وجل - به أباك؟ قلت
بلى يا رسول الله . قال : إن الله أحيا أباك وكلمه كفاحاً - أى مواجهة :
ليس بينهما حجاب - وما كلم أحداً قط إلا من وراء حجاب ، فقال له يا عبدى
- تمن أعطك . قال يا رب فردنى إلى الدنيا فأقتل فيك ثانية . فقال الرب
تعالى - إنه قد سبق منى أنهم إليها لا يرجعون . قال : يا رب فأبلغ من ورائى
فأنزل الله - تعالى - { وَلاَ تَحْسَبَنَّ الذين قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ
الله أَمْوَاتاً } . . . الآية" .قال القرطبى - بعد أن ساق هذين الحديثين
وغيرهما - ما ملخصه : " فقد أخبر الله - تعالى - فى هذه الآيات عن الشهداء
أنهم أحياء فى الجنة يرزقون . والذى عليه الكثيرون أن حياة الشهداء محققه .
ثم منهم من يقول : ترد إليهم الأرواح فى قبورهم فينعمون ، كما يحيا الكفار
فى قبورهم فيعذبون . وصار قوم إلى أن هذا مجاز ، والمعنى أنهم فى حكم الله
مستحقون للتنعم فى الجنة . وقال آخرون أرواحهم فى أجواف طير خضر وأنهم
يزرقون فى الجنة ويأكلون ويتنعمون . وهذا هو الصحيح من الأقوال ، لأن ما صح
به النقل فهو الواقع . وحديث ابن عباس - الذى سقناه قبل قليل - نص يرفع
الخلاف " .والذى تطمئن إليه النفس : أن الآية الكريمة تنبه على أن للشهداء
مزية خاصة تجعلهم يفضلون الموتى المعروفين لدى الناس ، وهى أنهم فى حياة
سارة ، ونعيم لذيذ ، ورزق حسن عند ربهم . وهذه الحياة الممتازة ترفعهم عن
- أن يقال فيهم كما يقال فى غيرهم : أموات ، وإن كان المعنى اللغوى للموت
بمعنى مفارقة الروح للجسد فى ظاهر الأمر - حاصلا للشهداء كغيرهم من الموتى
إلا أن الحياة البرزخية التى أخبر الله بها عن الشهداء نؤمن بها كما ذكرها.
، الله - تعالى - ولا ندرك حقيقتها ، إذ لا يمكن إدراكها إلا من طريق الوحى
فقد قال - تعالى - فى آية أخرى : { وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي
سَبِيلِ الله أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ } أى ولكن
لا تحسون وال تدركون حال هؤلاء الذين قتلوا فى سبيل الله بمشاعركم وحواسكم
. لأنها من شئون الغيب التى لا طريق للعمل بها إلا بالوحى ،

فرحين بما اتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم الا
خوف عليهم ولا هم يحزنون

} : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما هم فيه من مسرة وحبور فقال
فَرِحِينَ بِمَآ آتَاهُمُ الله مِن فَضْلِهِ } أى فرحين فرحا عظيما بعد
انتقالهم من الدنيا ، بما أعطاهم الله فى حياتهم الجديدة من ضروب النعم
المتعددة التى من بينها الثواب العظيم ، والنعيم الدائم ، والسعادة التى
} ليس بعدها سعادة .وقوله { فَرِحِينَ } يصح أن يكون حالا من الضمير فى
يُرْزَقُونَ } أو من الضمير فى " أحياء " وقوله { مِن فَضْلِهِ } متعلق
بأتاهم .و { مِن } يصح أن تكون للسببية أى الذى آتاهم متسبب عن فضله . أو
لابتداء الغاية وقوله { وَيَسْتَبْشِرُونَ بالذين لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم
مِّنْ خَلْفِهِمْ } معطوف على فرحين لتأويله بيفرحون . أو هو حال من الضمير
فى { فَرِحِينَ } بتقدير وهم يستبشرون . . .وأصل الاستبشار : طلب البشارة
وهو الخبر السار الذى تظهر آثاره على البشرة إلا أن المراد هنا السرور
استعمالا للفظ فى لازم معناه .أى : أن هؤلاء الشهداء فرحين بما آتاهم الله
من فضله من شرف الشهادة ، ومن الفوز برضا الله ، ويسرون بما تبين لهم من
حسن مآل إخوانهم الذين تركوهم من خلفهم على قيد الحياة ، لأن الأحياء عندما
يموتون شهداء مثلهم سينالون رضا الله وكرامته ، وسيظفرون بتلك الحياة
: الأبدية الكريمة كما ظفروا هم بها . فالمراد لم يلحقوا بهم من خلفهم
، رفقاؤهم الذين كانوا يجاهدون معهم فى الدنيا ولم يظفروا بالشهادة بعد
لأنهم ما زالوا على قيد الحياة .وفى هذا دلالة على أن أرواح هؤلاء الشهداء
قد منحها الله - تعالى - من الكشف والصفاء ما جعلها تطلع على ما يسرها من
أحوال الذين يهمهم شأنهم فى الدنيا .وقيل : إن معنى { لَمْ يَلْحَقُواْ
بِهِم } لم يدركوا فضلهم ومنزلتهم .وقوله { مِّنْ خَلْفِهِمْ } متعلق
بمحذوف حال من فاعل { يَلْحَقُواْ } أى لم يلحقوهم متخلفين عنهم باقين بعد
فى الدنيا . أو متعلق بقوله { يَلْحَقُواْ } ذاته على معنى أنهم قد يقوا

بعدهم وهؤلاء الشهداء قد تقدموهم .وقوله { أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ
هُمْ يَحْزَنُونَ } بدل اشتمال من قوله { الذين لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم }
مبين لكون استبشارهم بحال إخوانهم لا بذواتهم .والمعنى : ويستبشرون بما
، تبين لهم من حال الذين تركوهم من خلفهم فى الدنيا من رفقائهم المجاهدين
، وهو أنهم لا خوف عليهم فى المستقبل ولا هم يحزنون على ما تركوه فى الدنيا
بل هم سيكونون آمنين مطمئنين بعد فراقهم للدنيا وعندما يبعثون يوم القيامة
ونفى عنهم الخوف والحزن ، لأن الخوف يكون بسبب توقع المكروه النازل فى.
. المستقبل .والحزن يكون بسبب فوات المنافع إلتى كانت موجودة فى الماضى
فبين - سبحانه - أنه لا خوف عليهم فيما سيأتيهم من أحوال القيامة ، ولا حزن
. لهم فيما فاتهم من متاع الدنيا

يستبشرون بنعمة من الله وفضل وان الله لا يضيع اجر المؤمنين

كما فسرها الوسيط وقوله { يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ الله وَفَضْلٍ
وَأَنَّ الله لاَ يُضِيعُ أَجْرَ المؤمنين } استئناف مبين لما هم عليه من
سرور يتعلق بذواتهم . بعد أن بين - سبحانه - سرورهم بحال الذين لم يلحقوا
بهم .والمعنى أن هؤلاء الشهداء يستبشرون بحال إخوانهم الذين لم يلحقوا بهم
من خلفهم . كما أنهم يستبشرون ايضاً لأنفسهم بسبب ما أنعم الله به عليهم من
نعم جزيلة وبسبب ما تفضل به عليهم من زيادة الكرامة ، وسمو المنزلة .وهذا
يدل على أن هؤلاء الشهداء لا يهتمون بشأن أنفسهم فقط . وإنما يهتمون أيضا
، بأحوال إخوانهم الذين تركوهم فى الدنيا ، وفى ذلك ما فيه من صفاء نفوسهم
وطهارة قلوبهم ، حيث أحبوا الخير لغيرهم كما أحبوه لأنفسهم ، بل إن تقديم
استبشارهم بحال إخوانهم على استبشارهم بما يتعلق بأنفسهم ليشعر بأن
اهتمامهم بحال إخوانهم أشد من اهتمامهم بحال أنفسهم .ويرى بعضهم أن الضمير
فى قوله { يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ } يعود على الذين لم يلحقوا بهم
فتكون جملة { يَسْتَبْشِرُونَ } حالا من الذين لم يلحقوا بهم . وعليه يكون
المعنى : أن هؤلاء الذين لم يلحقوا بهم لا خوف عليهم ولا حزن ، فهم
مستبشرون بنعمة من الله وفضل . . . " .وقوله { وَأَنَّ الله لاَ يُضِيعُ
أَجْرَ المؤمنين } معطوف { نِعْمَةٍ مِّنَ الله وَفَضْلٍ } ، وهذا على
قراءة الجمهور بفتح همزة أن على معنى وبأن .وقرأ الكسائى " وإن الله لا
يضيع أجر المؤمنين " ، بكسر همزة إن على الاستئناف والمقصود من الآية
الكريمة بيان أن كل مؤمن يخاف مقام ربه وينهى نفسه عن الهوى ، ويجاهد فى
سبيل إعلاء كلمة الله فإن الله - تعالى -لا يضيع شيئا من أجره ، بل يعطيه
. من الجزاء الحسن - بفضله وإحسانه - أكثر مما يستحق

الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما اصابهم القرح للذين احسنوا منهم
واتقوا اجر عظيم

كما فسرها الوسيط ثم مدح - سبحانه - المؤمنين الصادقين الذين لم تمنعهم
- جراحهم وآلامهم عن الاستجابة لأمر رسولهم - صلى الله عليه وسلم - فقال
تعالى - : { الذين استجابوا للَّهِ والرسول مِن بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ
القرح لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ واتقوا أَجْرٌ عَظِيمٌ } .قال الفخر
الرازى ما ملخصه : اعلم أن الله - تعالى - مدح المؤمنين على غزوتين تعرف
إحداهما : بغزوة حمراء الأسد ، والثانية : بغزوة بدر الصغرى . وكلاهما
متصلة بغزوة أحد .أما غزوة حمراء الأسد فهى المرادة من هذه الآية ، فإن
الأصح فى سبب نزولها أن أبا سفيان وأصحابه بعد أن انصرفوا من أحد وبلغوا
الروحاء ، ندموا وقالوا : إنا قتلنا أكثرهم ولم يبق منهم إلا القليل فَلِم
تركناهم؟ بل الواجب أن نرجع ونستأصلهم ، فهموا بالرجوع .فبلغ ذلك رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، فأراد أن يرهب الكفار ويريهم من نفسه ومن أصحابه قوة
فندب أصحابه إلى الخروج فى طلب أبى سفيان وقال :لا اريد أن يخرج الآن .
معى إلا من كان معى فى القتال - فى أحد - .فخرج الرسول صلى الله عليه وسلم
مع قوم من أصحابه حتى بلغوا حمراء الأسد .وهى مكان على بعد ثمانية أميال من
المدينة .فألقى الله الرعب فى قلوب المشركين فانهزموا .وروى أنه كان فيهم
. من يحمل صاحبه على عنقه ساعة ، ثم كان المحمول يحمل الحامل ساعة أخرى
وكان كل ذلك لإثخان الجراح فيهم ، وكان فيهم من يتوكأ على صاحبه ساعة
: ويتوكأ عليه صاحبه ساعة .وقوله { استجابوا } بمعنى أجابوا . وقيل
استجابوا ، أصلها طلبوا الإجابة لأن الأصل فى الاستفعال طلب الفعل . والقرح
الجراح الشديدة .والمعنى : أن الله - تعالى -لا يضيع أجر هؤلاء المؤمنين :
الصادقين ، الذين أجابوا داعى الله وأطاعوا رسوله ، بأن خرجوا للجهاد فى
سبيل عقيدتهم بدون وهن أو ضعف أو استكانة مع ما بهم من جراح شديدة ، وآلام
مبرحة .ثم بين - سبحانه - جزاءهم فقال : { لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ
، واتقوا أَجْرٌ عَظِيمٌ } أى للذين أحسنوا منهم بأن أدوا جميع المأمورات
واتقوا الله فى كل أحوالهم بأن صانوا أنفسهم عن جميع المنهيات ، لهؤلاء أجر
عظيم لا يعلم كنهه إلا الله - تعالى - .وقوله { الذين استجابوا } فى موضع

رفع على الابتداء وخبره قوله { لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ } ويجوز أن يكون فى
موضع جر على أنه صفة للمؤمنين فى قوله : { وَأَنَّ الله لاَ يُضِيعُ أَجْرَ
المؤمنين } .قال صاحب الكشاف : و " من " فى قوله { لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ
مِنْهُمْ } للتبيين مثلها فى قوله - تعالى - { وَعَدَ الله الذين آمَنُواْ
وَعَمِلُواْ الصالحات مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً } لأن الذين
استجابوا لله والرسول قد أحسنوا كلهم واتقوا لا بعضهم .

الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا
حسبنا الله ونعم الوكيل

كما فسرها الوسيط ثم مدحهم - سبحانه - على ثباتهم وشجاعتهم وحسن اعتمادهم
على خالقهم - عز وجل - ، بعد أن مدحهم قبل ذلك على حسن استجابتهم لله
ولرسوله فقال - تعالى - : { الذين قَالَ لَهُمُ الناس إِنَّ الناس قَدْ
جَمَعُواْ لَكُمْ فاخشوهم فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا الله
وَنِعْمَ الوكيل } .قال الفخر الرازى ما ملخصه : نزلت هذه الآية فى غزوة
بدر الصغرى ، وذلك أن أبا سفيان لما عزم على الانصراف إلى مكة فى أعقاب
غزوة أحد نادى : يا محمد موعدنا موسم بدر الصغرة فنقتتل بها إن شئت . فقال
النبى صلى الله عليه وسلم لعمر : قل له بيننا وبينك ذلك إن شاء الله .فلما
حضر الأجل خرج أبو سفيان مع قومه حتى نزل بمر الظهران ، فألقى الله الرعب
فى قلبه ، فبدا له أن يرجع . فلقى نعيم بن مسعود وقد قدم معتمرا فقال له
: يا نعيم : إنى وعدت محمداً أن نلتقى بموسم بدر . وإن هذا عام جدب ولا
يصلحنا إلا عام نرعى فيه الشجر ، ونشرب فيه اللبن . وقد بدا لى أن أرجع .
ولكن إن خرج محمد ولم أخرج زاد بذلك جراءة علينا ، فاذهب إلى المدينة
فثبطهم ولك عندى عشرة من الإبل .فخرج نعيم إلى المدينة فوجد المسلمين
يتجهزون فقال لهم : ما هذا بالرأى .أتوكم فى دياركم وقتلوا أكثركم فإن
ذهبتم إليهم لم يرجع منكم أحد .فوقع هذا الكلام فى قلوب قوم منهم . فلما
رأى النبى صلى الله عليه وسلم ذلك قال " والذى نفسى بيده لأخرجن إليهم ولو
وحدى " .ثم خرج صلى الله عليه وسلم فى جمع من أصحابه ، وذهبوا إلى أن وصلوا
إلى بدر الصغرى - وهى ماء لبنى كنانة وكانت موضع سوق لهم يجتمعون فيها كل
عام ثمانية أيام - ولم يلق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه أحدا من
المشركين .ووافقوا السوق وكانت معهم نفقات وتجارات فباعوا واشتروا أدما
وزبيباً . وربحوا وأصابوا بالدرهم درهمين ، وانصرفوا إلى المدينة سالمين
. . أما أبو سفيان ومن معه فقد عادوا إلى مكة بعد أن وصلوا إلى مر الظهران.
وقيل إن الذين قابلهم أبو سفيان عند خروجه من مكة جماعة من بنى عبد القيس.
وقد قال لهم ما قاله لنعيم بن مسعود عندما أزمع العودة إلى مكة بعد أن ،
قذف الله الرعب فى قلبه من لقاء المسلمين .وعلى أية حال ففى سبب نزول هذه
الآية والتى قبلها أقوال أخرى للمفسرين اكتفينا بما ذكرناه خشية الإطالة
وقوله { الذين قَالَ لَهُمُ الناس } بدل من قوله { الذين استجابوا للَّهِ.
والرسول } أو صفة له . أو فى محل نصب على المدح أى مدح الذين قال لهم الناس
الخ .والمراد فى الموصول فى الآيتين طائفة واحدة من المؤمنين وهم . . .
الذين لم تمنعهم الجراح عن الخروج للقتال ، ولم يرهبهم قول من قال لهم بعد
ذلك إن الناس قد جمعوا لكم .والمراد من الناس الأول وهو قوله { الذين قَالَ
: لَهُمُ الناس } جماعة بنى عبد القيس أو نعيم بن مسعود .قال صاحب الكشاف
فإن قلت كيف قيل " الناس " إن كان نعيم هو المثبتط وحده؟ قلت : قيل ذلك؛
لأنه من جنس الناس كما يقال : فلان يركب الخيل ، ويلبس البرد وماله إلا فرس
واحد وبرد فرد . أو لأنه حين قال ذلك لم يخل من ناس من أهل المدينة يضامونه
ويصلون جناح كلامه ، ويثبطون مثل تثبيطه .والمراد من الناس الثانى وهو ،
. قوله : { إِنَّ الناس قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فاخشوهم } أبو سفيان ومن معه
فأل فيهما للعهد ، والناس الثانى غير الأول .وقوله - تعالى - حكاية عن
هؤلاء المثبطين : { إِنَّ الناس قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فاخشوهم } أى إن
أعداءكم المشركين قد جمعوا لكم جموعا كثيرة ليستأصلوكم ، فاخشوهم ولا
تخرجوا لقتالهم .وحذف مفعول { جَمَعُواْ } فلم يقل : جمعوا جيشا كبيرا أو
جمعوا أنفسهم وعددهم وأحلافهم وذلك ليذهب الخيال كل مذهب فى مقدار ما جمعوا
من رجال وسلاح وأموال ، ولمن هذا القول الذى صدر من هؤلاء المثبطين ، لم
يلتفت إليه المؤمنون الصادقون المخلصون فى جهادهم وفى اعتمادهم على خالقهم
بل كانوا كما أخبر الله تعالى - عنهم { فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ ،
، حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الوكيل } .أى أن هذا القول الذى قاله المثبطون
زاد المؤمنين إيمانا على إيمانهم ، ويقينا على يقينهم ، وثباتا على ثباتهم
وجعلهم يقولون للمرجفين بثقة واطمئنان : { حَسْبُنَا الله } أى كافينا ،
الله أمر أعدائنا { وَنِعْمَ الوكيل } أى نعم النصير خالقنا - عز وجل - فهو
، الموكول إليه أمرنا ومصيرنا .وقولهم هذا يدل دلالة واحضة على قوة إيمانهم
وشدة ثقتهم فى نصر الله - تعالى - لهم ، مهما كثر عدد أعدائهم ، ومهما
تعددت مظاهر قوتهم .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف زادهم نعيم أو مقوله
، إيماناً؟ قلت : لما لم يسمعوا قوله وأخلصوا عنده النية والعزم على الجهاد

وأظهروا حمية الإسلام ، كان ذلك أثبت ليقينهم ، وأقوى لاعتقادهم ، كما يزداد الإيقان بتناصر الحجج . ولأن خروجهم على أثر تثبيطه إلى جهة العدو طاعة عظيمة ، والطاعات من جملة الإيمان ، لأن الإيمان اعتقاد وإقرار وعمل . وعن ابن عمر : قلنا يا رسول الله : إن الإيمان يزيد وينقص؟ قال : " نعم يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة وينقص حتى يدخل صاحبه النار " . وعن عمر - رضى الله عنه - أنه كان يأخذ بيد الرجل فيقول : قم بنا نزداد إيمانا . وعنه : " لو وزن إيمان أبى بكر بإيمان هذه الأمة لرجح به " .وقال ابن كثير : روى البخارى عن ابن عباس : قال : { حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الوكيل } قالها إبراهيم - عليه السلام - حين ألقى به فى النار . وقالها محمد - صلى الله عليه وسلم - حين قال لهم الناس : إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم " .وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا وقعتم فى الأمر العظيم فقولوا : " حسبنا الله ونعم الوكيل " .

فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - ما تم لهؤلاء المجاهدين الذين خرجوا للقاء أعدائهم من عاقبة حسنة وعود حميد فقال - تعالى - : { فانقلبوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ الله وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سواء واتبعوا رِضْوَانَ الله والله ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ } .فالفاء فى قوله { فانقلبوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ الله وَفَضْلٍ } للتعقيب ، وهى معطوفة على مقدر دل عليه السياق . ومعنى { انقلبوا } عادوا ورجعوا .والنعمة : هى العطاء الذى ينفع صاحبه. والفضل : الزيادة فى العطاء والنعمة .والمعنى : أن هؤلاء المجاهدين ، الصادقين خرجوا للقاء أعدائهم بدون وهن أو ضعف أو استكانة فلم يجدوهم - فرجعوا إلى ديارهم مصحوبين { بِنِعْمَةٍ } عظيمة { مِّنَ الله } - تعالى - إذ خذل أعداءهم ، وسلمهم من شرورهم ، ومصحوبين بفضل جليل منه - سبحانه ، ، حيث أغدق عليهم ربحا وفيرا فى تجارتهم ، وأجراً جزيلا بسبب قوة إيمانهم وإخلاصهم فى دينهم .قال الآلوسى : " روى البيهقى عن ابن عباس أن عيراً مرت فى أيام الموسم - أى موسم بدر - فاشتراها رسول الله صلى الله عليه وسلم : فربح مالا فقسمه بين أصحابه فذلك الفضل " .وأخرج ابن جرير عن السدى قال أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرج فى غزوة بدر الصغرى أصحابه } دراهم ابتاعوا بها فى الموسم ، فأصابوا تجارة - فربحوا بها " .وقوله { بِنِعْمَةٍ } فى موضع الحال من الضمير { فانقلبوا } فتكون الباء للملابسة } أو للمصاحبة فكأنه قيل : فانقلبوا متلبسين بنعمة أو مصاحبين لها .وقوله { مِّنَ الله } متعلق بمحذوف صفة لنعمة ، وهو مؤكد لفخامتها وأنها نعمة جزيلة لا يقدر قدرها .وقوله { لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سواء } أى لم يصبهم أى أذى أو مكروه عند خروجهم وعودتهم .والجملة فى موضع الحال من فاعل { انقلبوا } أى رجعوا منعمين مبرئين من السوء والأذى .وقوله { واتبعوا رِضْوَانَ الله } معطوف على قوله { فانقلبوا } .أى اتبعوا ما يرضى الله ويوصلهم إلى مثوبته ورحمته ، باستجابتهم لرسولهم صلى الله عليه وسلم وخروجهم للقاء أعدائهم بإيمان عميق ، وعزم وثيق .فأنت ترى أن الله - تعالى - قد أخبر عن هؤلاء المجاهدين المخلصين أنهم قد صحبهم فى عودتهم أمور أربعة :أولها : النعمة : العظيمة .وثانيهما : الفضل الجزيل .وثالثها : السلامة من السوء .ورابعها اتباع رضوان الله .وهذا كله قد منحه الله لهم جزاء إخلاصهم وثباتهم على الحق الذى آمنوا به .ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : { والله ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ } .أى والله - تعالى - صاحب الفضل العظيم الذى لا يحده حصر ولا يحصيه عد ، هو الذى تفضل على هؤلاء المؤمنين الصادقين بما تفضل به نم ، عطاء كريم ، وثواب جزيل .وفى هذا التذيل زيادة تبشير للمؤمنين برعاية الله لهم ، وزيادة تحسير للمتخلفين عن الجهاد فى سبيله - عز وجل - ، حيث حرموا أنفسهم مما فاز به المؤمنون الصادقون .

انما ذلكم الشيطان يخوف اولياءه فلا تخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين

كما فسرها الوسيط ثم أمر الله - تعالى - عباده المؤمنين أن يجعلوا خشيتهم وخوفهم منه وحده ، فقال - تعالى - : { إِنَّمَا ذلكم الشيطان يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ } فالخطاب فى الآية الكريمة للمؤمنين ، والإشارة بذلك إلى المثبط بالذات أو بالواسطة .وقوله { إِنَّمَا } أداة حصر ، و { ذلكم } مبتدأ و { الشيطان } خبره ، وقوله : { يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ } جملة مستأنفة مبينة لشيطنته } : وقيل إن { ذلكم } مبتدأ أول ، و { الشيطان } مبتدأ ثان . وقوله { يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ } خبر للمبتدأ الثانى . وهو وخبره خبر للمبتدأ الأول .والمراد بالشيطان إبليس لأنه علم بالغلبة عليه ولأنه هو الذى يخوف بالوسوسة . وقيل المراد به أتباعه الذين دسهم لكى يرهبوا المؤمنين من الكافرين وهم جماعة بنى عبد القيس أو نعيم بن مسعود المجاشعى .إنما ذلكم

المثبط لكم عن لقاء أعدائكم هو الشيطان ، الذى يوسوس فى قلوبكم بالشر بذاته
أو بواسطة أتباعه الضالين ، ومن شأن المؤمنين الصادقين أنهم لا يتأثرون ،
} بهذه الوساوس الكاذبة ، وإنما الذين يتأثرون بها هم ضعاف الإيمان .وقوله
يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ } أى يخوف أولياءه المنافقين وضعفاء الإيمان
ليقعدوا عن مقاتلة المشركين . أما أنتم أيها المؤمنون الصادقون فإنكم لن
يقعدكم تخويفه ، لأن هذا التخويف لا أثر له فى قلب من آمن بالله حق الإيمان
واتقاه حق تقاته .وقيل إن معنى { يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ } يخوفكم ،
بأوليائه فحذف المفعول وحذف الجار . كما فى قوله : { فَإِذَا خِفْتِ
. عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي اليم } أى فإذا خفت عليه فرعون . فحذف المفعول
وكما فى قوله : { لِيُنذِرَ يَوْمَ التلاق } أى لينذركم يوم التلاقى .وقيل
، إن المعنى : يخوفكم أولياءه فحذف المفعول الأول كما تقول : أعطيت الأموال
أى أعطيت القوم الأموال .وقوله { فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن
كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ } أى فلا تخافوا أولياء الشيطان ، بل اجعلوا خوفكم
، منى وحدى ، إن كنتم مؤمنين حقا .فالمقصود بهذه الجملة الكريمة تشجيعهم
وتقويتهم ، وإلهاب شعورهمن إذ الإيمان الحق يستلزم الخوف من الله دون سواه
والمراد بالنهى عن الخوف وهو أمر نفسى : النهى عن أسبابه التى من أهمها حب.
الدنيا وكراهية الموت أى خذوا بأسباب القوة التى من أهمها التمسك بتقوى
الله فإن ذلك يزيل الخوف من قلوبكم .وفى المقابلة بين النهى عن الخوف من
أولياء الشيطان ، وبين الأمر بأن يكون خوفهم من الله وحده ، فى هذه
المقابلة إرشاد إلى العلاج الذى يزيل الخوف والفزع من نفوسهم . لأن الذى
يجعل خشيته وخوفه من الله وحده لن يستطيع الشيطان أو أولياؤه أن يبعدوه عن
الطريق القويم وصدق الله إذ يقول : { إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ
عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ } وبذلك ترى أن الآيات الكريمة قد رفعت منازل الشهداء
إلى أعلى الدرجات ، وصرحت بأنهم أحياء عند ربهم يرزقون . كما أثنت ثناء
مستطابا على الذين لبوا دعوة رسولهم صلى الله عليه وسلم حين دعاهم إلى
الجهاد فى سبيل الله ، ولم يمنعهم عن إجابة دعوته ما بهم من جراح ، أو ما
قاله لهم المرجفون من أقوال باطلة ، فرضى الله عنهم وأرضاهم .ثم أخذ القرآن
فى تسلية النبى صلى الله عليه وسلم عما يراه من كفر الكفارين . وعناد
، المعاندين ، وفى بيان أن كفر الكافر إنما يعود عليه ضرره لا على غيره
- وأنه - سبحانه - يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، وأن حكمته - سبحانه
. تقتضى تمييز الخبيث من الطيب . فقال - تعالى - : { وَلاَ يَحْزُنكَ الذين
. . } .

ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر انهم لن يضروا الله شيئا يريد الله الا
يجعل لهم حظا في الاخرة ولهم عذاب عظيم

كما فسرها الوسيط الخطاب فى قوله - تعالى - { وَلاَ يَحْزُنكَ الذين
يُسَارِعُونَ فِي الكفر } للنبى صلى الله عليه وسلم والمقصود منه تسليته
وإدخال الطمأنينة على قلبهن حتى لا يتأثر بما يراه من كفر الكافرين ، ونفاق
المنافقين ، وفسق الفاسقين .أى :لا يحزنك ولا يُثِر فى نفسك الحسرات يا
، محمد ، حال أولئك القوم الذين { يُسَارِعُونَ فِي الكفر } أى يتوغلون فيه
ويتعجلون فى إظهاره وتأييده والعمل به عند سنوح الفرص ، ويقعون فيه سريعا
من تريث أو تدبر أو تفكير والمقصود بالنهى عن الحزن ، النهى عن الاسترسلا
فيه وفى الأسباب التى تؤدى إليه ، كأن يظن صلى الله عليه وسلم أن كثرة
الضالين ستؤدى إلى انتصارهم على المؤمنين .وقد أشار إلى ذلك صاحب الكشاف
فقال : { يُسَارِعُونَ فِي الكفر } يقعون فيه سريعا ، ويرغبون فيه أشد رغبة
وهم الذين نافقوا من المتخلفين . وقيل : هم قوم ارتدوا عن الإسلام . فإن .
قلت : فما معنى قوله { وَلاَ يَحْزُنكَ } ومن حق الرسول أن يحزن لنفاق من
نافق وارتداد من ارتد؟ قلت : معناه :لا يحزنوك لخوف أن يضروك ويعينوا عليك
ولتضمن المسارعة معنى الوقوع تعدت بحرف " فى " دون حرف " إلى " الشائع. "
تعديتها بها كما فى قوله - تعالى - { وسارعوا إلى مَغْفِرَةٍ مِّن
رَّبِّكُمْ } وقوله { إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ الله شَيْئاً } تعليل للنهى
عن أن يحزنه تسارعهم فى الكفر أى :لا يحزنك يا محمد حال هؤلاء المارقين
، الذين يسارعون فى الكفر وينتقلون فيه من دركة إلى دركة أقبح من سابقتها
فإنهم مهما تمادوا فى كفرهم وضلالهم ومحاولتهم إضلال غيرهم ، فإنهم لن
يضروا دين الله أو أولياءه بشىء من الضرر حتى ولو كان ضرراً يسيراً .ففى
الكلام حذف مضاف والتقدير إنهم لن يضروا أولياء الله شيئا .وفى هذا الحذف
- تشريف للمؤمنين الصادقين ، وإشعار بأن مضارتهم بمنزلة مضارته - سبحانه
وفى الحديث القدسى : " من عادى لى وليا فقد آذنته بحرب " .ولقد كان النبى
- صلى الله عليه وسلم بمقتضى طبيعته البشرية ، وغيرته على دين الله - تعالى
يحزن لإعراض المعرضين عن الحق الذى جاء به ، ولقد حكى القرآن ذلك فى كثير
من آياته ، ومنه قوله - تعالى - { فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ
} - حَسَرَاتٍ إِنَّ الله عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ } وقوله - تعالى
فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ على آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بهذا

الحديث أَسَفاً } فأراد - سبحانه - فى هذه الآية الكريمة وأمثالها أن يزيل من نفس رسوله صلى الله عليه وسلم هذا الحزن الذى نتج عن كفر الكافرين ، وأن يطمئنه إلى أن العاقبة ستكون له ولأتباعه المؤمنين الصادقين .وقوله { يُرِيدُ الله أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظّاً فِي الآخرة } استئناف لبيان جزائهم على كفرهم فى الآخرة ، بعد أن بين - سبحانه - عدم إضرارهم لأوليائه فى الدنيا .أى : لا ينبغى لك يا محمد أن تحزن لمسارعة هؤلاء الضالين فى الكفر ، فإنهم لن يضروا أوليائى بشىء من الضرر ، ولأن كفرهم ليس مراغمة لله حتى تحزن ، وإنما هو بإرادته ، لأنه أراد ألا يكون لهم حظ أو نصيب من الخير فى الآخرة بسبب استحبابهم العمى على الهدى ، ولهم مع هذا الحرمان من الخير فى الآخرة { عَذَابٌ عَظِيمٌ } لا يعلم مقدار آلامه وشدته إلا الله تعالى .

قال صاحب الكشاف : " فإن قلت : هلا قيل :لا يجعل الله لهم حظا فى الآخرة. وأى فائدة فى ذكر الإرادة؟ قلت : فائدته الإشعار بأن الداعى إلى حرمانهم ، وتعذيبهم قد خلص خلوصا لم يبق معه صارف قط حين سارعوا فى الكفر ، تنبيها على تماديهم فى الطغيان وبلوغهم الغاية فيه ، حتى إن أرحم الراحمين يريد أن لا يرحمهم " .

ان الذين اشتروا الكفر بالايمان لن يضروا الله شيئا ولهم عذاب اليم

كما فسرها الوسيط ثم أكد - سبحانه - هذا الحكم وقرره فقال :{ إِنَّ الذين اشتروا الكفر بالإيمان لَن يَضُرُّواْ الله شَيْئاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } .والاشتراء فى الآية الكريمة بمعنى الاستبدال على سبيل الاستعارة التمثيلية فقد شبه - سبحانه - الكافر الذى يترك الحق الواضح الذى قامت الأدلة على صحته ويختار بدله الضلال الذى قامت الأدلة على بطلانه ، بمن يكون فى يده سلعة ثمينة جيدة فيتركها ويأخذ فى مقابلها سلعة رديئة فاسدة والمعنى أن الذين استبدلوا الكفر بالإيمان ، لن يضروا دين الله ولا رسوله. ولا أولياءه بشىء من الضرر ، وإنما يضرون بفعلهم هذا أنفسهم ضررا بليغا ، ولهم فى الآخرة عذاب مؤلم شديد الإيلام ، بسبب إيثارهم الغى على الرشد والكفر على الإيمان ، والشر على الخير .

ولا يحسبن الذين كفروا انما نملي لهم خير لانفسهم انما نملي لهم ليزدادوا اثما ولهم عذاب مهين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن ما يتمتع به الأشرار فى الدنيا من متع إنما هو استدراج لهم ، فقال - تعالى - : { وَلاَ يَحْسَبَنَّ الذين كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنْفُسِهِمْ } .وقوله { نُمْلِي لَهُمْ } من الإملاء وهو الإمهال والتخلية بين العامل والعمل ليبلغ مداه .يقال : أملى فلان لفرسه إذا أرخى له الطول ليرعى كيف شاء .ويطلق الإملاء على طول المدة ورغد العيش .والمعنى : { وَلاَ يَحْسَبَنَّ الذين كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ } ، بتطويل أعمارهم ، وبإعطائهم الكثير من وسائل العيش الرغيد هو ، { خَيْرٌ لأَنْفُسِهِمْ } كلا . بل هو سبب للمزيد من عذابهم ، لأننا { إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ ليزدادوا إِثْمَاً } بكثرة ارتكابهم للمعاصى { وَلَهُمْ } فى الآخرة { عَذَابٌ مُّهِينٌ } أى عذاب ينالهم بسببه الذل الذى ليس بعده ذل والهوان الذى يتصاغر معه كل هوان .وقوله { وَلاَ يَحْسَبَنَّ } إلخ . . عطف على قوله - تعالى - { وَلاَ يَحْزُنكَ } ويكون للنهى عن الظن متجها للذين كفروا ليعلموا سوء عاقبتهم ويكون مفعولا يحسب قد سد مسدهما أن المصدرية وما بعدها و " ما " فى قوله. " أنما نملى لهم " يجوز أن تكون مصدرية ، وأن تكون موصولة حذف عائدها .وقد كتبت متصلة بأن مع أن من حقها أن تكتب منفصلة عنها اتباعا للمصحف الإمام أى لا يحسبن الكافرين أن إملاءنا لهم أو أن الذى نمليه لهم من تأخير حياتهم وانتصارهم فى الحروب فى بعض الأحيان ، هو خير لهم .وقرأ حمزة " ولا تحسبن الذين كفروا " . فيكون الخطاب بالنهى متجها إلى النبى صلى الله عليه وسلم ويكون المفعول الأول لحسب هو { الذين كَفَرُواْ } وقوله : { أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنْفُسِهِمْ } بدل من الذين كفروا سادا مسد المفعول الثانى ، أو يكون هو المفعول الثانى .والمعنى :لا تحسبن يا محمد ولا يحسبن أحد من أمتك أن إملاءنا للذين كفروا هو خير لأنفسهم ، بل هو شر لهم ، لأننا ما أعطيناهم الكثير من وسائل العيش الرغيد إلا على سبيل الاستدراج ، وسنعاقبهم على ما ارتكبوه من آثام عقابا عسيرا .وقوله { إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ ليزدادوا إِثْمَاً } استئناف واقع موقع التعليل للنهى عن حسبان الإملاء خيراً للكافرين .أى إنما نزيدهم من وسائل العيش الرغيد ليزدادوا آثاما بكثرة ارتكابهم للسيئات . فتكون نتيجة ذلك أن نزيدهم من العذاب المهين الذى لا يستطيعون دفعه أو التهرب منه .و " إنما " فى قوله { أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ } أداة حصر مركبة من " إن " التى هى حرف توكيد ومن " ما " الزائدة الكافة .واللام فى قوله { ليزدادوا إِثْمَاً } هى التى تسمى بلام العاقبة كما فى قوله - تعالى - { فالتقطه آل فِرْعَوْنَ

، لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً } أى : إنما نملى لهم فيزدادون إثما
فلما كان ازدياد الإثم ناشئا عن الإملاء كان كالعلة له ، وكانت نتيجة هذا
} - الإملاء أن وقعوا فى العذاب المهين .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى
وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ الله أن
يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدنيا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ
وقوله - تعالى - { فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بهذا الحديث {
سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ
كَيْدِي مَتِينٌ } ثم بين - سبحانه - بعض الحكم التى اشتملت عليها غزوة أحد
- فقال - تعالى

ما كان الله ليذر المؤمنين على ما انتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما
كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء فامنوا بالله
ورسله وان تؤمنوا وتتقوا فلكم اجر عظيم

كما فسرها الوسيط { مَّا كَانَ الله لِيَذَرَ المؤمنين على مَآ أَنْتُمْ
. عَلَيْهِ حتى يَمِيزَ الخبيث مِنَ الطيب } .وقوله { لِيَذَرَ } أى ليترك
والمراد بالمؤمنين : المخلصون الذين صدقوا فى إيمانهم والمراد بقوله { على
مَآ أَنْتُمْ عَلَيْهِ } أى اختلاط المؤمنين بالمنافقين واستواؤهم فى إجراء
: الأحكام .ومعنى يميز يفصل . وقرىء يميز أن يحدد ويبين .والمراد بالخبيث
المنافق ومن على شاكلته من ضعاف الإيمان .والمراد بالطيب : الصادق فى
إيمانه .والمعنى : ليس من شأن الله - تعالى - ولا من حكمته وسنته فى خلقه
أن يترككم أيها المؤمنون على ما أنتم عليه من الالتباس واختلاط المنافقين
بكم ، بل الذى من شأنه وسنته أن يبتليكم ويمتحنكم بألوان من المصائب
والشدائد حتى يتميز المؤمنون من المنافقين ، وينفصل الأخيار عن الأشرار
قال ابن كثير : أى لا بد أن يعقد سببا من المحنة ، يظهر فيه وليه ويفضح.
به عدوه ، يعرف به المؤمن الصابر والمنافق الفاجر ، يعنى بذلك يوم أحد الذى
امتحن الله به المؤمنين فظهر به إيمانهم وصبرهم وجلدهم وثباتهم وطاعتهم لله
، لرسوله وهتك به ستار المنافقين ، فظهرت مخالفتهم ، ونكولهم عن الجهاد
- وخيانتهم لله ولرسوله . قال مجاهد : ميز بينهم يوم أحد " .وعبر - سبحانه
عن المؤمن بالطيب ، وعن المنافق بالخبيث ، ليسجل على كل منهما ما يليق به
من الأوصاف ، وللإشعار بعلة الحكم .وقوله { وَمَا كَانَ الله
لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الغيب وَلَكِنَّ الله يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن
يَشَآءُ } معطوف على قوله { مَّا كَانَ الله لِيَذَرَ } .والغيب : ضد
المشاهد . وهو كل ما غاب عن الحواس ولا تمطن معرفته إلا عن طريق الوحى من
الله - تعالى - على رسوله صلى الله عليه وسلم .واجتبى : من الاجتباء بمعنى
الاختيار والاصطفاء .أى : وما كان الله - تعالى - ليعطى أحدا منكم - معشر
المؤمنين - علم الغيوب الذى به تعرفون المؤمن من المنافق ، إذ علم ذلك له
وحده ، ولكنه - سبحانه - يصطفى من رسله من يريد اصطفاءه فيطلعه على بعض
الغيوب ، وأطلعه على حال تلك المرأة التى أرسلها حاطب بن أبى بلتعة برسالة
إلى قريش لتخبرهم باستعداد الرسول صلى الله عليه وسلم لحربهم . وأطلعه على
بعض أحوال المنافقين ،قال - تعالى - {عَالِمُ الغيب فَلاَ يُظْهِرُ على
} - غَيْبِهِ أَحَداً إِلاَّ مَنِ ارتضى مِن رَّسُولٍ } وفى قوله - تعالى
وَلَكِنَّ الله يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَآءُ } إيذان بأن الوقوف
- على أمثال تلك الأسرار الغيبية ، لا يتأتى إلا ممن رشحه الله - تعالى
لمنصب جليل ، تقاصرت عنه همم الأمم ، واصطفاه على الناس لإرشادهم .ثم أمر
الله - تعالى - عباده أن يثبتوا على الإيمان ، ويشرهم بالأجر العظيم إذ هم
استمروا على ذلك فقال : { فَآمِنُواْ بالله وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُواْ
وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ } .أى : إذا علمتم أيها المؤمنون أن
الله لا يطلع على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول ، فإنه يجب عليكم أن
تؤمنوا بالله وبرسله حق الإيمان ، وأن تؤمنوا بالله - تعالى - وبرسله حق
- الإيمان ، وتتقوا المخالفة فى الأمر والنهى ، فلكم فى مقابلة ذلك من الله
. تعالى - مالا يقادر قدره من الثواب العظيم ، والأجر الجزيل

ولا يحسبن الذين يبخلون بما اتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم
سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ولله ميراث السماوات والارض والله بما
تعملون خبير

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك سوء مصير الذين يبخلون بنعم
الله ، فلا يؤدون حقها . ولا يقومون بشكرها فقال - تعالى - : { وَلاَ
يَحْسَبَنَّ الذين يَبْخَلُونَ بِمَآ آتَاهُمُ الله مِن فَضْلِهِ هُوَ
خَيْراً لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ } .وقوله { يَبْخَلُونَ } من
البخل وهو ضد الجود والسخاء ، ومعناه : أن يقبض الإنسان يده عن إعطاء الشىء
لغيره ، وأن يحرص حرصاً شديداً على ما يملكه من مال أو علم أو غير ذلك
ويرى جمهور المفسرين أن المراد بالبخل هنا البخل بالمال ، لأنه هو الذى.

، يتفق مع السياق .ويرى بعضهم أن المراد بالبخل هنا البخل بالعلم وكتمانه
وذلك لأن اليهود كتموا صفات النبى صلى الله عليه وسلم التى جاءت بها
التوراة .والذى تراه أن ما عليه الجمهور هو الأرجح ، لأنه هو المتبادر من
- معنى الآية ، وهو المتفق من سياق الكلام .ولذا قال الآلوسى : قوله
تعالى - { وَلاَ يَحْسَبَنّ الذين يَبْخَلُونَ } بيان لحال البخل وسوء
: عاقبته ، وتخطئة لأهله فى دعواهم خيريته عقب بيان حال الإملاء . . .وقيل
وجه الارتباط أنه - تعالى - لما بالغ فى التحريض على بذل الأرواح فى الجهاد
وغيره ، شرع هنا فى التحريض على بذل المال ، وبين الوعيد الشديد لمن يبخل
به " .والمعنى : ولا يظنن أولئك الذين يبخلون بما أعطاهم الله من نعم
وأموال أن بخلهم فيه خير لهم ، كلا ، بل إن بخلهم هذا فيه شر عظيم لهم
والنهى عن الحسبان بأن البخل فيه خير فى قوله { وَلاَ يَحْسَبَنّ الذين.
يَبْخَلُونَ } يدل على النفى المؤكد .اى لا يصح لهم أن يظنوا بأية حال من
الأحوال أن ذلك البخل فيه خير لهم . بل الحقيقة أن فيه شراً كبيراً لهم
وفى قوله { بِمَآ آتَاهُمُ الله } إشعار بسوء صنيعهم ، وخبث نفوسهم ، حيث.
- بخلوا بشىء ليس وليد عملهم واجتهادهم ، وإنما هذا الشىء منحه الله
تعالى - لهم بفضله وجوده ، فكان الأولى لهم أن يشكروه على ما أعطى ، وأن
يبذلوا مما أعطاهم فى سبيله .والضمير " هو " يعود على البخل المستفاد من
قوله { يَبْخَلُونَ } .ويرى الزمخشرى أنه ضمير فصل لتأكيد نفى الظن فى
الخبرية .وفى إعادة الضمير ، وذكر الجملة الإسمية فى قوله { بَلْ هُوَ
، شَرٌّ لَّهُمْ } تأكيد لمعنى الشر فى البخل ، وأنه لا خير من ورائه قط
ففى الحديث الشريف الذى رواه الإمام مسلم فى صحيحه عن جابر بن عبد الله أن
رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم
القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا
دماءهم ، واستحلوا محارمهم " .ثم بين - سبحانه - المصير المؤلم لأولئك
البخلاء فقلا - تعالى - { سَيُطَوّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ
القيامة } .وقوله { سَيُطَوّقُونَ } مشتق من الطوق ، وهو ما يلبس من أسفل
، الرقبة . أى تجعل أموالهم أطواقا حول رقابهم ، وأغلالا حول أجسادهم
، فيعذبون عذابا أليما بحملها .وجمهور المفسرين على أن الكلام على ظاهره
وأن عذاب هؤلاء البخلاء بنعم الله ، سيكون نوعا من العذاب الأخروى المحسوس
وقد أيد القرطبى هذا الاتجاه فقال :" وهذه الآية نزلت فى البخل بالمال .
والإنفاق فى سبيل الله وأداء الزكاة المفروضة ، ذهب إلى هذا جماعة من
} المتأولين ، منهم : ابن مسعود وابن عباس وأبو وائل .قالوا : ومعنى
سَيُطَوّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ القيامة } هو الذى ورد لى الحديث
عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " من أتاه الله مالا فلم
يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم
يأخذ بلهزمتيه - أى شدقيه - ثم يقول له . أنا مالك أنا كنزك . ثم تلا هذه
الآية : { وَلاَ يَحْسَبَنّ الذين يَبْخَلُونَ بِمَآ آتَاهُمُ الله مِن
فَضْلِهِ } .ويرى بعض العلماء أن هذا الوعيد على سبيل التمثيل ، وأن الظاهر
غير مراد ومعنى قوله { سَيُطَوّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ } عند هذا البعض
، سيكلفون أن يأتوا بمثل ما بخلوا به من أموالهم يوم القيامة عقوبة لهم :
فلا يأتون لأنهم ليس فى قدرتهم ذلك .و المعنى : سيلزمون وبال ما بخلوا به
لزوم الطوق ، ويتحملون وزر ذلك يوم القيامة .فالآية الكريمة تدعو المؤمنين
إلى الجود والسخاء من أجل إعلاء كلمة الله ، وتتوعد البخلاء باقسى ألوان
- الوعيد وأفظعها . وتبين أن كل ما فى هذا الكون إنما هو ملك لله - تعالى
وحده ، فهو المعطى وهو المانع ، ولذا قال - تعالى - : { وَلِلَّهِ مِيرَاثُ
السماوات والأرض والله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } .والميراث : مصدر
كالميعاد . وأصله موارث فقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها . والمراد به ما
يتوارث .والمعنى : أن لله - تعالى - وحده لا لأحد غيره ما فى السموات
والأرض مما يتوارثه أهلهما من مال وغيره ، فما بال هؤلاء القوم يبخلون عليه
بما يملكه ، ولا ينفقونه فى سبيله . وعلى هذا يكون الكلام جار على حقيقته
ولا مجاز فيه .ويصح أن يكون المعنى : أن الله - تعالى - يرث من هؤلاء ما فى
، أيديهم مما بخلوا به من مال وغيره وينتقل منهم إليه حين يميتهم ويفنيهم
وتبقى الحسرة والندامة عليهم . وعلى هذا يكون الكلام على سبيل المجاز .قال
الزجاج : أى أن الله - تعالى - يفنى أهلهما . فيفنيان بما فيهما ، فليس
لأحد فيهما ملك . فخوطبوا بما يعلمون ، لأنهم يجعلون ما يرجع إلى الإنسان
ميراثا ، ملكا له " .وقوله { والله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ } تذييل قصد
به حضهم على الإنفاق ، ونهيهم عن البخل ، أى أن الله - تعالى - خبير ومطلع
على ما يصدر عنكم من سخاء أو بخل أو غيرهما ، وسيجازى الذين أساءوا بما
عملوا ، ويجازى الذين أحسنوا الحسنى .وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد
ساقت ألوانا من التسلية للنبى صلى الله عليه وسلم ولأتباعه ، وبشرتهم بأن
، العاقبة ستكون لهم ، وفضحت المنافقين وهتكت ما تستروا به من ريا وخداع
وبينت أن من سنن الله فى خلقه أن يبتلى عباده بشتى ألوان البلاء ليتميز
الخبيث من الطيب ، وأنه - سبحانه - يلمى للكافرين ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر
وأن البخلاء بما آتاهم الله من فضله ستكون عاقبتهم شرا ، ومصيرهم إلى ،

. العذاب الأليم

لقد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير ونحن اغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الانبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق

كما فسرها الوسيط ثم أخذت السورة الكريمة - بعد أن فضحت المنافقين - فى الحديث عن بعض رذائل أهل الكتاب ، وفى التحذير من شرورهم ، وفى بيان طبيعة هذه الحياة وما تحمله من بلاء واختبار فقال - تعالى - : { لَّقَدْ سَمِعَ . . . } قال ابن كثير : عن ابن عباس قال : لما نزل قوله - تعالى - ( مَّن ذَا الذي يُقْرِضُ الله قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً ) قالت اليهود : يا محمد!! افتقر ربك فسأل عباده القرض ، فأنزل الله هذه الآية .وروى محمد بن إسحاق عن عكرمة عن ابن عباس قال : " دخل أبو بكر الصديق بيت المدراس . فوجد من يهود ناسا كثيرة قد اجتمعوا على رجل منهم يقال له " فحناص " وكان من علمائهم وأحبارهم ، ومعه حبر يقال له " اشيع . فقال له أبو بكر : ويحك يا فنحاص اتق الله وأسلم فوالله إنك لتعلم أن محمدا رسول من عند الله ، قد جاءكم بالحق من عنده ، تجدونه مكتوبا عندكم في التوراة والإنجيل . فقال فنحاص : والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من حاجة من فقر ، وإنه إلينا لفقير ، ما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا ، وإنا عنه لأغنياء . ولو كان عنا غنيا ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم . ينهاكم عن الربا ويعطينا ، ولو كان غنيا ما أعطانا الربا .فغضب أبو بكر وضرب وجه فنحاص ضربا شديدا ، وقال : والذي نفسي بيده لولا الذى بيننا وبينك من العهد لضربت عنقك يا عدو الله . . .فذهب فنحاص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقال يا محمد : أبصر ما صنع بي صاحبك .فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما حملك على ما صنعت يا أبا بكر؟ فقال أبو بكر : يا رسول الله . إن عدو الله قال قولا عظيما . يزعم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء . فلما قال ذلك غضبت لله مما قال فضربت وجهه .فجحد فنحاص ذلك وقال : ما قلت ذلك . فأنزل الله فيما قال فنحاص : { لَّقَدْ سَمِعَ الله قَوْلَ الذين قالوا . . . } " والمعنى : لقد سمع الله - تعالى - قول أولئك اليهود الذين نطقوا بالزور. والفحش فزعموا أن الله - تعالى - فقير وهم أغنياء .والمقصود من هذا السمع لازمه وهو العلم والإحاطة بما يقولون من قبائح ، ثم محاسبتهم على ما تفوهوا به من أقوال ، وما ارتكبوه من أعمال ، ومعاقبتهم على جرائمهم بالعقاب المهين الذين يستحقونه .وقوله { سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ الأنبياء بِغَيْرِ حَقٍّ } أى سنسجل عليهم فى صحائف أعمالهم قولهم هذا ، كما سنسجل عليهم قتلهم أنبياء الله بغير حق ، فالاسناد مجازى والكتابة حقيقية .أو المعنى : سنحفظه فى علمنا ولا نهمله ، وسنعاقبهم بما يستحقونه من عقوبات ، فيكون الإسناد حقيقة والكتابة مجازا .والسين للتأكيد ، أى لن يفوتنا أبدا تدوينه وإثباته ، بل سنسجله عليهم ونعاقبهم عليه عقابا اليما بسبب أقوالهم القبيحة ، وأعمالهم المنكرة .وقد قرن - سبحانه - قولهم المنكر هذا ، بفعل شنيع من أفعال أسلافهم ، وهو قتلهم الأنبياء بغير حق؛ وذلك لإثبات أصالتهم فى الشر ، وإستهانتهم بالحقوق الدينية ، وللتنبيه على أن قولهم هذا ليس أول جريمة ارتكبوها ، ومعصية استباحوها ، فقد سبق لأسلافهم ، أن قتلوا الأنبياء بغير حق ، وللإشعار بأن هاتين الجريمتين من نوع واحد وهو التجرؤ على الله - تعالى - ، فقتل الأنبياء هو تعد على أمناء الله فى الأرض الذين اختارهم لتبليغ رسالاته ، وقولهم { إِنَّ الله فَقِيرٌ } وهو تطاول على ذات الله ، وكذب عليه ، ووصف له بما لا يليق به - سبحانه - وبهذا - كله يكونون قد عتوا عتواً كبيراً ، وضلوا ضلالا بعيدا .وأضاف - سبحانه القتل إلى المعاصرين للعهد النبوى من اليهود ، مع أنه حدث من اسلافهم؛ لأن هؤلاء المعاصرين كانوا راضين بفعل أسلافهم ولم ينكروه وإن لم يكونوا قد باشروه ، ومن رضى بجريمة قد فعلها غيره فكأنما قد فعلها هو .وفى الحديث الشريف : إذا عملت الخطيئة فى الرض كان من شهدها فأنكرها كمن غاب عنها . ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها .ووصف - سبحانه - قتلهم الأنبياء بأنه { بِغَيْرِ حَقٍّ } مع أن هذا الإجرام لا يكون بحق أبدا ، للإشارة إلى شناعة أفعالهم ، وضخامة شرورهم ، وأنهم لخبث نفوسهم ، وقسوة قلوبهم لا يبالون أكان فعلهم فى موضعه أم فى غير موضعه .ثم - صرح سبحانه - بالعقوبة بعد أن كنى عنها فقال : { وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ الحريق } أى : سنجازيهم بما فعلوا ، ونلقى بهم فى جهنم ، مخاطبين إياهم بقولنا : ذوقوا عذاب تلك النار المحرقة التى كنتم بها تكذبون .ففى الاية الكريمة إيجاز بالحذف دل عليه سياق الكلام .والذوق حقيقته إدراك المطعومات ، والأصل فيه أن يكون فى أمر مرغوب فى ذوقه وطلبه ، والتعبير به هنا عن ذوق العذاب هو لون من التهكم عليهم ، والاستهزاء بهم كما فى قوله - تعالى - { فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } ثم صرح - سبحانه - بأنهم هم الذين جنوا على أنفسهم بوقوعهم فى العذاب المحرق فقال :

ذلك بما قدمت ايديكم وان الله ليس بظلام للعبيد

كما فسرها الوسيط { ذلك بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ الله لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ } .أى : ذلك العذاب الشديد الذى حاق بكم - أيها اليهو- بسبب ما قدمته أيديكم من عمل سىء ، وما نطقت به أفواهكم من قول منكر - فقد اقتضت حكمته وعدالته ألا يعذب إلا من يستحق العذاب ، وأنه - سبحانه ، لا يظلم عباده مثقال ذرة . واسم الإشارة { ذلك } يعود إلى العذاب المحقق المنزل منزلة المحسوس المشاهد . والمراد بالأيدى الأنفس ، والتعبير بالأيدى عن الأنفس من قبيل التعبير بالجزء عن الكل .وخصت الأيدى بالذكر ، للدلالة على التمكن من الفعل وإراته ، ولأن أكثر الأفعال يكون عن طريق البطش بالأيدى ، ولأن نسبة الفعل إلى اليد تفيد الالتصاق به والاتصال بذاته .قال الآلوسى ما ملخصه :وقوله { وَأَنَّ الله لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ } عطف على قوله { ذلك بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ } فهو داخل تحت حكم باء السببية ، وسببيته للعذاب من حيث إن نفى الظلم يستلزم العدل المقتضى إثابة المحسن ومعاقبة المسىء .. .وصيغة المبالغة لتأكيد هذا المعنى بإبراز ما ذكر من التعذيب بغير ذنب فى صورة المبالغة فى الظلم . . . وقيل إن صيغة " ظلام " للنسب كعطار أى :لا ينسب غليه الظلم أصلا " .

الذين قالوا ان الله عهد الينا الا نؤمن لرسول حتى ياتينا بقربان تاكله النار قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم فلم قتلتموهم ان كنتم صادقين

} : كما فسرها الوسيط ثم ذكر - سبحانه - رذيلة أخرى من رذائل اليهود فقال الذين قالوا إِنَّ الله عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حتى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النار } .وقوله { الذين قالوا إنّ } إلخ . فى محل نصب بتقدير : أعنى . أو فى محل رفع بتقدير : هم الذين قالوا . ويجوز أن يكون فى محل جر على البدلية من قوله { الذين قالوا إِنَّ الله فَقِيرٌ } .والمراد بالموصول جماعة من اليهود منهم كعب بن الأشرف ، وفنحاص بن عازوراء ، وحيى بن أخطب . . وغيرهم ، فقد ذكر جماعة من المفسرين أنهم أتوا النبى صلى الله عليه وسلم وقالوا له هذا القول وهو : { إِنَّ الله عَهِدَ إِلَيْنَا } . . . إلخ .و ( القربان ) هو ما يتقرب به إلى الله من نعم أو غير ذلك من القربات .والمعنى : أن عذابنا الأليم سيصيب أولئك اليهود الذين قالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء ، والذين قالوا إن الله امرنا فى التوراة وأوصانا بأن لا نصدق ونعترف لرسول يدعى الرسالة غلينا من قبل الله - تعالى - حتى ياتينا بقربان يتقرب به إلى الله ، فتنزل نار من السماء فتأكل هذا القربان ، فإذا فعل ذلك كان صادقا فى رسالته .ومقصدهم من وراء هذا القول الذى حكاه القرآن عنهم ، أن يظهروا أمام الناس بمظهر المحافظين على عهود الله . وأنهم ما تركوا الإيمان بالنبى صلى الله عليه وسلم حسدا له وإنما تركوا الإيمان به ، لأنه لم يأتب بالمعجزات التى أتى بها الأنبياء ، - السابقون ، فهم معذورون إذا لم يؤمنوا به لأنه ليس نبيا صادقا - فى زعمهم ولا شك أن قولهم هذا ظاهر البطلان ، لأن الإتيان بالقربان إذا كان معجزة. لرسول لا يستلزم أن يكون معجزة لكل رسول ، إذ أن آيات الله فى إثبات رسالات رسله متعددة النواحى ، مختلفة المناهج ، وكون هذا الإتيان بالقربان الذى تأكله النار معجزة لبعض الرسل لا يستدعى أن يكون معجزة لجميعهم ولذا فقد أمر الله - تعالى - رسوله محمداً صلي الله عليه وسلم أن يرد عليهم بما يبطل قولهم فقال : { قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بالبينات وبالذي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ } .أى : قل لهم يا " محمد { قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي } كثير عددهم " بالبينات أى بالحجج الواضحة ، وبالمعجزات الساطعة الدالة على صدقهم { وبالذي قُلْتُمْ } أى وجاءكم هؤلاء الرسل بالقربان الذى تأكله النار { فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ } بعد أن جاءوكم بتلك المعجزات الباهرة { إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ } فى دعواكم أنكم تتبعون الحق ، وتطيعون الرسل متى أتوكم بما يهد بصدقهم؟فالجملة الكريمة ترد على هؤلاء اليهود بأبلغ الوجوه التى تثبت كذبهم فيما يدعون ، لأن قتلهم للأنبياء بعد أن جاءوهم بالمعجزات الواضحة الدالة على صدقهم ، دليل على أن هؤلاء اليهود قد بلغوا منتهى الجحود والظلم والعدوان ، وأن دعواهم أن إيمانهم بمحمد صلى الله عليه وسلم متوقف على مجيئه بالقربان الذى تأكله النار دعوة كاذبة ، لأن من جاءهم بالقربان كان جزاؤه القتل منهم .. .قال الفخر الرازى : وقد بني الله بهذه الدلائل أنهم يطلبون هذه المعجزة لا على سبيل الاسترشاد وإنما على سبيل التعنت . وذلك لأن أسلافهم طلبوا هذه المعجزة من الأنبياء المتقدمين مثل : زكريا ويحيى وعيسى ، فلما أظهروا لهم هذا المعجزة سعوا فى قتلهم بعد أن قابلوهم بالتكذيب والمخالفة والمعاندة . وذلك يدل على أن مطالبهم كانت على سبيل التعنت؛ إذ لو لم يكن الأمر كذلك لما سعوا فى قتلهم ، ومتأخرول اليهود راضون بفعل متقدميهم . وهذا يقتضى كونهم متعنتين - أيضا - فى مطالبهم . " ولهذا لم يجبهم الله فيها .

فان كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير

كما فسرها الوسيط { فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُوا بالبينات والزبر والكتاب المنير } .والبينات : جمع بينه وهى الآيات المبينة للحق ، والأدلة التى يستشهد بها الرسول على أنه صادق فيما يبلغه عن ربه .والزبر جمع زبور - كالرسول والرسل - وهو الكتاب المقصور على الحكم من زبرته بمعنى حسنته .وخص الزبور بالكتاب الذى أنزله الله على داود - عليه السلام - : قال - تعالى - { وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً } وقيل : الزبر اسم للمواعظ و الزواجر من زبرته إذا زجرته .والمعنى فإن كذبوك هؤلاء اليهود يا محمد بعد أن قام الدليل على صدقك وعلى كذبهم وتعنتهم وجحودهم ، فلا تبتئس ولا تحزن ، فإن الأنبياء من قبلك قد قوبلوا بالتكذيب من أقوامهم بعد أن جاءوهم بالدلائل الواضحة الدالة على صدقهم وبعد أن جاءوهم ( بالزبر ) أى بالكتب الموحى بها من الله - تعالى - لوعظ الناس وزجرهم ، وبعد أن جاءوهم بالكتاب المنير أى بالكتاب الواضح المستنير المشتمل على سعادة الناس فى دنياهم وآخرتهم .فالآية الكريمة مسوقة على سبيل التسلية للرسول صلى الله عليه وسلم والتخفيف عنه مما يلقاه من الجاحدين والمكذبين .

كل نفس ذائقة الموت وانما توفون اجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وادخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن مرد الخلق جميعا إلى الله ، وأن كل نفس مهما طال عمرها لا بد أن يصيبها الموت ، وأن الدار الباقية إنما هى الدار الآخرة التى سيحاسب الناس فيها على أعمالهم فقال - تعالى - : { كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الموت وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ القيامة } قال ابن كثير : " يخبر - تعالى - إخبارا عاما يعم جميع الخليقة بأن كل نفس ذائقة الموت ، كقوله - تعالى - :{ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ويبقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجلال والإكرام } فهو - تعالى - وحده الحى الذى لا يموت والجن والإنس يموتون ، وكذلك الملائكة وحملة العرش ، وينفرد الواحد الأحد القهار بالديمومة والبقاء فيكون آخرا كما كان أولا ، وهذه الآية فيها تعزية لجميع الناس ، فإنه لا يبقى أحد على وجه الأرض حتى يموت . . " .وقوله { ذَآئِقَةُ الموت } من الذوق وحقيقته إدراك الطعوم ، والمراد به هنا حدوث الموت لكل نفس بذوقه ، للإشارة إلى أنه عند الموت لكل نفس .وعبر عن حدوث الموت لكل نفس بذوقه ، للإشارة إلى أنه عند ذوق المذاق إما مرا لما يستتبعه من عذاب ، وإما حلوا هنيئا بسبب ما يكون بعده من أجر وثواب .وأسند ذوق الموت إلى النفس ولم يسنده إلى الشخص : لأن النفس روح ، والشخص جزءان : جسم ونفس ، والنفس هى التى تبقى بعد مفارقتها للجسد ، فهى التى تذوق الموت كما ذاقت الحياة الدنيا .وقوله { وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ القيامة } أى : وإنما تعطون جزاء أعمالكم وافيا تاما يوم القيامة . يوم يقوم الناس لرب العالمين ليحاسبهم على أعمالهم ، فيجازى الذين أساءوا بما عملوا . ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى قال صاحب الكشاف : فإن قلت كيف اتصل قوله - تعالى - : { وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ القيامة } بما قبله؟ قلتك اتصاله به على معنى أن كلكم تموتون ، ولا بد لكم من الموت ولا توفون أجوركم على طاعتكم ومعصيتكم عقيب موتكم ، وإنما توفونها يوم قيامكم من القبور .فإن قلت : فهذا يوهم نفى ما يروى من أن القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة نم حفر النار؟ قلت : كلمة التوفية تزيل هذا الوهم ، لأن المعنى أن توفية الأجور وتكميلها يكون فى ذلك اليوم ، وما يكون قبل ذلك فهو بعض الأجور " .وقال الفخر الرازى : " بين - سبحانه - أن تمام الأجر والثواب لا يصل إلى المكلف إلا يوم القيامة ، لأن كل منفعة تصل إلى المكلف فى الدنيا فهى مكدرة بالغموم والهموم وبخوف الانقطاع والزوال ، والأجر التام والثواب الكامل إنما يصل إلى المكلف يوم القيامة ، لأن هناك يحصل السرور بلا غم ، والأمن بلا خوف واللذة بلا ألم ، والسعادة بلا خوف الانقطاع .وكذا القول فى العقاب ، فإنه لا يحصل فى الدنيا ألم خالص عن شوائب اللذة ، بل يمتزج به راحات وتخفيفات ، وإنما الألم التام الخالص الباقى هو الذى يكون يوم القيامة " .ثم قال - تعالى - { فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النار وَأُدْخِلَ الجنة فَقَدْ فَازَ } الزحزحة عن النار : هى التنحية عنها ، وعدم الاقتراب منها والفعل زحزح. مضاعف الفعل زحه عن المكان إذا جذبه وأبعده عنه بعجلة وسرعة .والمعنى أن كل نفس سيدركها الموت لا محالة . وأن الناس سيحاسبون على أعمالهم يوم القيامة فمن كانت نتيجة حسابه الإبعاد عن النار ، والنجاةن من سعيرها ، فقد فاز ، فوزاً عظيما ، وأدرك البغية التى ليس بعدها بغية .والفاء فو قوله { فَمَن زُحْزِحَ } للتفريع على قوله { تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ } .وجمع - سبحانه - بين { زُحْزِحَ عَنِ النار وَأُدْخِلَ الجنة } مع أن فى الثانى غنية عن الأول ، للإشعار بأن دخول الجنة يشتمل على نعمتين عظيمتين وهما : النجاة من النار ، والتلذذ بنعيم الجنة .وفى الحديث الشريف عن أبى هريرة قال : قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم : " موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها ، اقرءوا إن شئتم { فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النار وَأُدْخِلَ الجنة فَقَدْ فَازَ } " .وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة ، فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ، وليأت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه " .ثم ختم - الآية بقوله : { وَما الحياة الدنيا إِلاَّ مَتَاعُ الغرور } - والمتاع : هو ما يتمتع به الإنسان وينتفع به مما يباع ويشترى .والغرور. بضم الغين - مصدر غره أى خدعه وأطعمه بالباطل .أى : ليست هذه الحياة الدنيا التى نعيش فيها . ونستمتع بلذاتها ومنافعها ، إلا متاعا يستمتع به المغتر بها ، الذى لا يفكر فى أى شىء سواها ، ثم يحاسب على ذلك حسابا عسيراً يوم القيامة ، أما الذى يأخذ من متاعها بالطريقة التى أمر الله - تعالى - بها ، فإنه يكون من السعداء فى دنياهم وآخرتهم .قال صاحب الكشاف : شبه - سبحانه - الدنيا بالمتاع الذى يدلس به على المستام ويغر حتى يشتريه ، ثم يتبين له فساده ورداءته والشيطان هو المدلس الغرور . وعن سعيد بن جبير : إنما هذا لمن آثرها على الآخرة ، فاما من طلب الآخرة بها فإنها متاع بلاغ " .فالآية الكريمة ترغيب للمؤمنين فى الطاعة ، وتحذير للعصاة من المعصية ، وتذكير للجميع بأن مرجعهم إلى الله إن عاجلا أو آجلا ، وسيلقى كل إنسان جزاءه على عمله ، وأن السعادة الحقة لمن نال رضا الله يوم يلقاه .

لتبلون في اموالكم وانفسكم ولتسمعن من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين اشركوا اذى كثيرا وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الامور

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - للمؤمنين أنهم سيتعرضون فى المستقبل للمحن والآلام كما تعرضوا لذلك فى أيامهم الماضية ، وأن من الواجب عليهم أن يتقبلوا ذلك بعزيمة صادقة ، وصبر جميل فقال - تعالى - :{ لَتُبْلَوُنَّ في أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الذين أُوتُوا الكتاب مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الذين أشركوا أَذًى كَثِيراً } .وقوله لَتُبْلَوُنَّ } جواب قسم محذوف أى : والله لتبلون أى لتختبرن . والمراد لتعاملن معاملة المختبر والممتحن ليظهر ما عندكم من الثبات على الحق ، ومن التمسك بمكارم الأخلاق ، فإن المصائب محك الرجال .وإنما أخبرهم - سبحانه - بما سيقع لهم من بلاء ، ليوطنوا أنفسهم على احتماله عند وقوعه ، وليستعدوا لتلقيه من غير فزع أو جزع ، فإن الشدة المتوقعة يسهل احتمالها ، أما الشدة التى تقع من غير توقع فإنها يصعب احتمالها .والمعنى : لتبلون - أيها المؤمنون - ولتختبرن { في أَمْوَالِكُمْ } بما يصيبها من الآفات ، وبما تطالبون به من إنفاق فى سبيل إعلاء كلمة الله ، ولتختبرن أيضاً فى { أَنْفُسِكُمْ } بسبب ما يصيبكم من جراح وآلام من قبل أعدائكم ، وبسبب ما تتعرضون له من حروب ومتاعب وشدائد ، وفضلا عن ذلك فإنكم { وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الذين أُوتُوا الكتاب مِن قَبْلِكُمْ } وهم اليهود والنصارى { وَمِنَ الذين أشركوا } وهم كفار العرب ، لتسمعن من هؤلاء جميعا { أَذًى كَثِيراً } كالطعن فى دينكم ، والاستهزاء بعقيدتكم ، والسخرية من شريعتكم والاستخفاف بالتعاليم التى أتاكم بها نبيكم ، والتفنن فيما يضركم .وقد رتب - سبحانه - ما يصيب المؤمنين ترتيبا تدريجيا ، فابتدأ بأدنى ألوان البلاء وهو الإصابة فى المال ، فإنها مع شدتها وقسوتها على الإنسان إلا أنها أهون من الإصابة فى النفس لأنها أغلى من المال ، ثم ختم ألوان الابتلاء ببيان الدرجة العليا منه وهى التى تختص بالإصابة فى الدين ، وقد عبر عنها بقوله { وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الذين أُوتُواْ الكتاب مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الذين أشركوا أَذًى كَثِيراً } .وإنما كانت الإصابة فى الدين أعلى أنواع البلاء ، لأن المؤمن الصادق يهون عليه ماله ، وتهون عليه نفسه ، ولكنه لا يهون عليه دينه ، ويسهل عليه أن يتحمل الأذى فى ماله ونفسه ولكن ليس من السهل عليه أن يؤذى فى دينه . . .ولقد كان أبو بكر الصديق مشهورا بلينه ورفقه . ولكنه مع ذلك - لقوة إيمانه - لم يحتمل من " فنحاص " اليهودى أن يصف الخالق - عز وجل - بأنه فقير ، فما كان من الصديق إلا أن شجّ وجه فنحاص عندما قال ذلك القول الباطل .وقد جمع - سبحانه - بين أهل الكتاب وبين المشركين فى عداوتهم وإيذائهم للمؤمنين ، للإشعار بأن الكفر ملة واحدة ، وأن العالم بالكتاب والجاهل به يستويان فى معاداتهم للحق ، لأن العناد إذا استولى على القلوب زاد الجاهلين جهلا وحمقا ، وزاد العالمين حقداً وحسداً .ثم أرشد - سبحانه - المؤمنين إلى العلاج الذى يعين على التغلب على هذا البلاء فقال : { وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذلك مِنْ عَزْمِ الأمور } .أى : وإن تصبروا على تلك الشدائد ، وتقابلوها بضبط النفس ، وقوة الاحتمال { وَتَتَّقُواْ } الله فى كل ما أمركم به ونهاكم عنه ، تنالوا رضاه - سبحانه - وتنجوا من كيد أعدائكم .والإشارة فى قوله { فَإِنَّ ذلك مِنْ عَزْمِ الأمور } تعود إلى المذكور ضمنا من الصبر والتقوى ، أى فإن صبركم وتقواكم من الأمور التى يجب أن يسير عليها كل عاقل . لأنها تؤدى إلى النجاح والظفر .وقوله { فَإِنَّ ذلك مِنْ عَزْمِ الأمور } دليل على جواب الشرط

والتقدير : وإن تصبروا وتتقوا تنالوا ثواب أهل العزم فإن ذلك من عزم الأمور .فالآية الكريمة استئناف مسوق لإيقاظ المؤمنين ، وتنبيههم إلى سنة من سنن الحياة ، وهى أن أهل الحق لا بد من أن يتعرضوا للابتلاء والامتحان ، فعليهم أن يوطنوا أنفسهم على تحمل كل ذلك ، لأن ضعفاء العزيمة ليسوا أهلا لبلوغ النصر .ولقد بين النبى صلى الله عليه وسلم أن قوة الإيمان وشدة البلاء متلازمان ، فقد روى الترمذى عن مصعب بن سعد عن أبيه قال : قلت يا رسول الله ، أى الناس أشد بلاء؟ قال : الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل . فيبتلى الرجل على حسب دينه . فإن كان دينه صلبا اشتد بلاؤه ، وإن كان فى دينه رقة ابتلى على حسب دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض ما عليه خطيئة " .

واذ اخذ الله ميثاق الذين اوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون

: كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - رذيلة أخرى من رذائل أهل الكتاب فقال { وَإِذْ أَخَذَ الله مِيثَاقَ الذين أُوتُواْ الكتاب لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ } .الميثاق : هو العهد الموثق المؤكد . وقد أخذ - سبحانه - العهد على الذين أوتوا الكتاب بأمرين :أولهما : بيان ما فى الكتاب من أحكام وأخبار .وثانيهما : عدم كتمان كل شىء مما فى هذا الكتاب والمعنى : واذكر أيها المخاطب وقت أن أخذ الله العهد المؤكد على أهل الكتاب من اليهود والنصارى بأن يبينوا جميع ما فى الكتاب من أحكام وأخبار وبشارات بالنبى صلى الله عليه وسلم وألا يكتموا شيئا من ذلك ، لأن كتمانهم للحق سيؤدى إلى سوء عاقبتهم فى الدنيا والآخرة .والضمير فى قوله " لتبيننه " يعود إلى الكتاب المشتمل على الأخبار والشرائع والأحكام والبشارات الخاصة بمبعث النبى صلى الله عليه وسلم .أى لتبينن ما فى هذا الكتاب الذى بين أيديكم من أحكام وشرائع وأخبار وبشارات . وقيل الضمير يعود إلى الميثاق ويكون المراد من العهد الذى وثقه الله عليهم هخو تعاليمه وشرعه ونوره وقوله { وَلاَ تَكْتُمُونَهُ } عطف على " لتبيننه " وإنما لم يؤكد بالنون لكونه منفيا . وجمع - سبحانه - بين أمرهم المؤكد بالبيان وبين نهيهم عن الكتمان مبالغة فى إيجاب ما أمروا به حتى لا يقصروا فى إظهار ما فى الكتاب من حقائق وحتى لا يلجأوا إلى كتمان هذه الحقائق أو تحريفها .ولكن أهل الكتاب - ولا سيما العلماء منهم - نقضوا عهودهم مع الله - تعالى - ، وقد حكى - سبحانه - ذلك فى قوله { فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ واشتروا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ } .النبذ : الطرح والترك والإهمال .أى أن أهل الكتاب الذين أخذ الله عليهم العهود الموثقة بأن يبينوا ما فى الكتاب ولا يكتموا شيئا منه ، لم يكونوا أوفياء بعهودهم ، بل إنهم نبذوا ما عاهدهم الله عليه ، وطرحوه وراء ظهورهم باستهانة وعدم اعتداد وأخذوا فى مقابل هذا النبذ والطرح والإهمال شيئا حقيرا من متاع الدنيا وحطامها ، فبئس الفعل فعلهم .والتعبير عنهم بقوله { فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ } كناية عن استهانتهم بالمنبوذ ، وإعراضهم عنه بالكلية وإهمالهم له إهمالا تامت ، لأن من شأن الشىء المنبوذ أن يهمل ويترك ، كما أن من شأن الشىء الذى هو محل اهتمام أن يحرس ويجعل نصب العين .والضميى فى قوله { فَنَبَذُوهُ } يعود على الميثاق باعتبار أنه موضع الحديث ابتداء ويصح أن يعود إلى الكتاب ، لأن الميثاق هو الشرائع والأحكام ، والكتاب وعاؤها ، فنبذ الكتاب نبذ للعهد .والمراد " بالثمن القليل " ما أخذوه من أموال ومتاع دنيوى من غيرهم فى مقابل عدم بيانهم لما فى الكتاب من حقائق وكتمانهم لذلك إرضاء للشهوات وللأهواء الباطلة .وليس وصف الثمن بالقلة من الأوصاف المخصصة للنكرات ، بل هو من الأوصاف اللازمة للثمن المحصل فى مقابل نبذهم لكتاب الله وعهوده ، إذ لا يكون هذا الثمن المحصل إلا قليلا وإن بلغ ما بلغ من أعراض الدنيا بجانب رضا الله - تعالى - .قوله { فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ } أى بئس شيئا يشترونه ذلك الثمن .فما نكرة منصوبة مفسرة لفاعل بئس ، وجملة يشترونه صفته ، والمخصوص بالذم محذوف .وقيل " ما مصدرية فاعل بئس ، والمخصوص بالذم محذوف ، أى بئس شراؤهم هذا الشراء لاستحقاقهم به العذاب الأليم .وقد أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة ، وجوب إظهار الحق وتحريم كتمانه .ورحم الله صاحب الكشاب فقد قال عند تفسيره لهذه الآية : وكفى به دليلا على أنه مأخوذ على العلماء أن يبينوا الحق للناس ، وألا يكتموا منه شيئا لغرض فاسد من تسهيل على الظلمة ، وتطييب لنفوسهم واستجلاب لمسارهم ، أو لجر منفعة وحطام دنيا ، أو لتقية ، أو لبخل بالعلم وغيرة من أن ينسب إلى غيرهم ، وعن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال : " من كتم علما عن أهله ألجم بلجام من نار " وعن على رضي الله عنه ، قال : " ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا " وقال ابن كثير عند تفسيره للآية الكريمة : هذا توبيخ من الله وتهديد لأهل الكتاب الذين أخذ الله عليهم العهد على ألسنة الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وأن ينوهوا بذكره فى الناس فيكونوا على أهبة من أمره ،

فإذا أرسله الله تابعوه ، فكتموا ذلك وتعوضوا عما وعدوا عليه من الخير فى الدنيا والآخرة بالدون الطفيف ، والحظ الدنيوى السخيف ، فبئس الصفقة صفقتهم وبئست البيعة بيعتهم ، وفى هذا تحذير للعلماء من أن يسلكوا مسلكه فيصيبهم ما أصابهم ويسلك بهم مسلكهم ، فعلى العلماء أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع ، ولا يكتموا منه شيئا " .

لا تحسبن الذين يفرحون بما اتوا ويحبون ان يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب اليم

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - رذيلة أخرى من رذائل أهل الكتاب ، المتعددة ، وهى أنهم يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، ويفرحون بما أتوا وبين سوء عاقبتهم بسبب تلك الأخلاق القبيحة فقال : { لاَ تَحْسَبَنّ الذين يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوْاْ وّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلاَ تَحْسَبَنّهُمْ بِمَفَازَةٍ مّنَ العذاب وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } .والخطاب فى قوله { لاَ تَحْسَبَنَّ } موجه إلى النبى صلى الله عليه وسلم أو لكل من يصلح له الخطاب .والنهى موجه إلى حسبان أن يكون فى هؤلاء الأشرار خير .أى أن الله تعالى ، ينهى نبيه صلى الله عليه وسلم ، نهيا مؤكدا عن أن يظن خيرا فى هؤلاء الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا .و " المفازة " مصدر ميمى بمعنى الفوز . وقيل هى } اسم مكان أى محل فوز ونجاة .والمعنى :لا تظن يا محمد أن هؤلاء الأشرار الذين يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوْاْ } أى يفرحون بما فعلوا من بيعهم الدين بالدنيا واستبدالهم الذى هو أدنى بالذى هو خير ، والذين { يُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ } أي يحبون أن يمدحهم الناس على ما لم يفعلوه من الوفاء بالعهود ، ومن إظهار الحق وعدم كتمانه ، فإنهم فعلوا الشرور والآثام . ثم لم يحاولوا أن يستروا ما اقترفوه من آثام ، بل يطلبون } من الناس أن يمدحوهم على ما ارتكبوه من منكرات ، فهم ممن قال الله فيهم أَفَمَن زُيّنَ لَهُ سواء عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً }لا تحسبن هؤلاء الأشرار { بِمَفَازَةٍ مّنَ العذاب } أى بمنجاة منه ، بل لهم عذاب مؤلم أشد الإيلام بسبب ما اجترحوه من سيئات .وقوله { الذين يَفْرَحُونَ } هو المفعول الأول لتحسب ، والمفعول الثانى محذوف والتقدير :لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا موفقين . أو مهتدين ، أو صالحين .وحذف هذا المفعول الثانى لدلالة ما بعده عليه وهو قوله { فَلاَ تَحْسَبَنّهُمْ بِمَفَازَةٍ } ولتذهب النفس كل مذهب فيما يتناسب مع الوصف الذى وصفهم به - سبحانه - ، وهو أنهم يفعلون القبيح ويحبون أن يحمدهم الناس عليه .وقوله { فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ العذاب } بيان لسوء عاقبتهم بسبب أفعالهم السيئة وهو تأكيد لقوله { لاَ تَحْسَبَنّ } .قال الزجاج : جرت عادة العرب أنهم إذا طالت القصة أو الكلام أعادوا لفظ حسب وما أشبهه ، للإعلام بأن الذى جرى متصل بالكلام الأول والأول متصل به . فتقول " لا تظن زيدا إذا جاءك وكلمك بكذا وكذا فلا تظنه صادقا . فيفيد "لا تظنن توكيدا وتوضيحا .والتعبير عن النجاة من العذاب الأليم ، ولكنهم لن ينجوا منه أبدا ، ولذا أكد - سبحانه - عدم نجاتهم بقوله { وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } .فذكر - سبحانه - عذابهم الأليم بالسلب والإيجاب ، فنفى أولا أنهم بمنجاة منه ، وأخبر ثانيا أنهم واقعون فيه .هذا ، وقد ذكر كثير من العلماء أن هذه الآية الكريمة نزلت فى شان أحبار اليهود فقد روى الشيخان والترمذى والنسائي ، وغيرهم عن حميد بن عبد الرحمن ابن عوف أن مروان قال لبوابه رافع : اذهب يا رافع إلى ابن عباس فقل له لئن كان كل امرىء منا فرح بما أوتى وأحب أن يحمد بما لم يفعل لنعذ بن جميعا .فقال ابن عباس : مالكم وهذه ، وإنما نزلت هذه فى أهل الكتاب ثم تلا ابن عباس : { وَإِذْ أَخَذَ الله مِيثَاقَ الذين أُوتُواْ الكتاب } إلى قوله { وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } وقال ابن عباس : " سألهم النبى صلى الله عليه وسلم عن شىء فكتموه إياه وأخبروه بغيره ، ثم خرجوا وقد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه ، واستحمدوا بذلك إليه ، وفرحوا بما أتوا من كتمانهم إياه ما سألهم عنه " وذكر بعض العلماء أن هذه الآية نزلت فى شأن المنافقين ، فقد روى البخارى. عن أبى سعيد الخدرى أن رجالا من المنافقين كانوا إذا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الغزو وتخلفوا عنه ، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم . فإذا قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغزو ، اعتذروا إليه وحلفوا وأحبو أن يحمدوا بما لم يفعلوا فنزت ، { لاَ تَحْسَبَنّ الذين يَفْرَحُونَ } .قال العلماء : ولا منافاة بين الروايتين لأن الآية عامة فى جميع ما ذكر . وبذلك نرى أن الآيات الكريمة قد حدثتنا ، عن جملة من رذائل أهل الكتاب ، فقد حكت قولهم { إِنّ الله فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ } وحكت قولهم { أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حتى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النار } ووصفتهم بكتمان الحق ونبذه وراء ظهورهم ، كما وصفتهم بأنهم يفرحون بما أتوا وييحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، وردت على أكاذيبهم بما يدحضها وأنذرتهم بسوء مصيرهم ، وساقت

للمؤمنين من ألوان التسلية ما يخفف عنهم مصابهم ، ويجعلهم يسيرون فى هذه الحياة بعزم ثابت ، وهمة عالية ، ونفس مطمئنة .ثم ختم - سبحانه - سورة آل عمران بالحديث عن مظاهر قدرته ، وأدلة وحدانيته ، وبشر أصحاب العقول السليمة - الذين يعتبرون ويتعظون ويتفكرون ويكثرون من ذكره - برضوانه وجنته - وأمر عباده بألا يغتروا بما عليه الكافرون من سلطان وجاه فإنه - سبحانه ، قد جعل العاقبة للمتقين ، كما أمرهم بالصبر والمصابرة والمرابطة ومداومة خشيته فقال - تعالى - : { وَلِلَّهِ مُلْكُ السماوات . . . } .

ولله ملك السماوات والارض والله على كل شيء قدير

كما فسرها الوسيط قوله - تعالى - { وَلِلَّهِ مُلْكُ السماوات والأرض والله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } أى له وحده - سبحانه - ملك السموات والأرض بما فيهما ، فهو وحده صاحب السلطان القاهر فى هذا العالم يتصرف فيه كيفما يشاء - ويختار : إيجادا وإعداما ، وإحياء وإماتة ، وتعذيبا وإثابة ، وهو سبحانه - على كل شى قدير ، لا يعجزه أمر ، ولا يدفع عقابه دافع ، ولا يمنع عقابه مانع ، فعليكم أيها الناس أن تطيعوه وأن تحذروا غضبه ونقمته .

ان في خلق السماوات والارض واختلاف الليل والنهار لايات لاولي الالباب

، كما فسرها الوسيط وبعد أن بين - سبحانه - أن ملك السموات والأرض بقبضته أشار - سبحانه - إلى ما فيهما من عبر وعظات فقال : { إِنَّ فِي خَلْقِ السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيَاتٍ لأُوْلِي الألباب } .أى : إن فى إيجاد السموات والأرض على هذا النحو البديع ، وما فيهما من الآيات المشاهدة العظيمة من كواكب وبحار وزروع وأشجار . . . وفى إيجاد الليل والنهار على تلك الحالة المتعاقبة ، وفى اختلافهما طولا وقصرا . . فى كل ذلك لأمارات واضحة ، وأدلة ساطعة ، لأصحاب العقول السليمة على وحدانية الله - تعالى - وعظيم قدرته ، وباهر حكمته .وصدرت الجملة الكريمة بحرف " إن " للاهتمام بالخبر ، وللاعتناء بتحقيق مضمون الجملة .أى إن فى إيجاد السموات والأرض وإنشائهما على ما هما عليه من العجائب ، وما اشتملتا عليه من البدائع ، وفى اختلاف الليل والنهار . . . إن فى كل ذلك من العبر والعظات ما يحمل كل عاقل على الاعتراف بوحدانية الله ، وكمال قدرته وحكمته والمراد بأولى الألباب : أصحاب العقول السليمة ، والأفكار المستقيمة ، لأن. لب الشىء هو خلاصته وصفوته .ولقد قال الزمخشرى فى صفة أولى الألباب : " هم الذين يفتحون بصائرهم للنظر والاستدلال والاعتبار ، ولا ينظرون إليها نظر البهائم غافلين عما فيها من عجائب الفطرة . وفى الحكم : املأ عينيك من زينة هذه الكواكب ، وأجلهما فى جملة هذه العجائب متفكرا فى قدرة مقدرها ، متدبرا ، فى حكمة مدبرها قبل أن يسافر بك القدر ، ويحال بينك وبين النظر " .هذا وقد أورد المفسرون كثيرا من الآثار فى فضل هذه الآيات العشر التى اختتمت بها سورة آل عمران ، ومن ذلك قول ابن كثير - رحمه الله - :وقد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ هذه الآيات العشر من آخر آل عمران إذا قام من الليل لتهجده فقد روى البخارى - رحمه الله - عنابن عباس - رضى الله عنهما - قال : بت عند خالتى ميمونة ، فتحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أهله ساعة ثم رقد : فلما كان ثلث الليل الآخر قعد فنظر إلى السماء فقال الآيات .ثم قام فتوضأ واستن . . . { إِنَّ فِي خَلْقِ السماوات والأرض } : ثم صلى إحدى عشرة ركعة ، ثم أذن بلال فصلى ركعتين ثم خرج فصلى بالناس ، الصبح .وروى مسلم وأبو داود والنسائى عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج ذات ليلة بعد ما مضى شطر من الليل فنظر إلى السماء وتلا هذه " : الآية { إِنَّ فِي خَلْقِ السماوات والأرض } إلى آخر السورة .ثم قال اللهم اجعل في قلبى نوراً ، وفى سمعى نوراً ، وفى بصرى نوراً ، وعن يمينى نوراً ، وعن شمالى نوراً ، ومن بين يدى نوراً ، ومن خلفى نوراً ، ومن فوقى نوراً ، ومن تحتى نوراً . وأعظم لى نوراً يوم القيامة " .وروى ابن مردويه عن عطاء قال : " انطلقت أنا وابن عمر وعبيد بن عمير إلى عائشة - رضى الله عنها - فدخلنا عليها وبيننا وبينها حجاب فقال لها ابن عمر : أخبرينا بأعجب ما رأيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فبكت وقالت : كل أمره كان عجبا!! أتانى فى ليلتى حتى مسّ جلده جلدي ثم قال : يا عائشة : ذرينى أتعبد لربى - عز وجل - قالت : فقلت والله أنى لأحب قربك وإنى أحب أن تعبد ربك فقام إلى القربة فتوضأ ولم يكثر صب الماء ، ثم قام يصلى فبكى حتى بل لحيته. ثم سجد فبكى حتى بل الأرض ، ثم اضطجع على جنبه فبكى . ثم إذا أتى بلال ، يؤذنه بصلاة الصبح قالت : فقال : يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال : ويحك يا بلال!! وما يمنعنى أن أبكى وقد أنزل الله على هذه الليلة : { إِنَّ فِي خَلْقِ السماوات والأرض } إلخ الآيات . " ثم قال : ويل لمن يقرأها ولم يتفكر فيها.

الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات

والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار

} : كما فسرها الوسيط ثم وصف - سبحانه - أولى الألباب بصفات كريمة فقال
} الذين يَذْكُرُونَ الله قِيَاماً وَقُعُوداً وعلى جُنُوبِهِمْ } .فقوله
الذين يَذْكُرُونَ } إلخ . فى موضع جر على أنه نعت لأولى الألباب . ويجوز
أن يكون فى موضع رفع أو نصب على المدح .أى : { إِنَّ فِي خَلْقِ السماوات
، والأرض واختلاف الليل والنهار } لآيات واضحات على وحدانية الله وقدرته
لأصحاب العقول السليمة ، الذين من صفاتهم أنهم { يَذْكُرُونَ الله } أى
يستحضرون عظمته فى قلوبهم ، ويكثرون من تسبيحه وتمجيده بألسنتهم ، ويداومون
. على ذلك فى جميع أحوالهم . فهم يذكرونه قائمين ، ويذكرونه قاعدين
ويذكرونه وهم على جنوبهم فالمراد بقوله { قِيَاماً وَقُعُوداً وعلى
جُنُوبِهِمْ } أن ذكرهم الله - تعالى - بقلوبهم وألسنتهم يستغرق عامة
أحوالهم " .وقوله { قِيَاماً وَقُعُوداً } منصوبان على الحالية من ضمير
الفاعل فى قوله : { يَذْكُرُونَ } .وقوله { وعلى جُنُوبِهِمْ } متعلق
بمحذوف معطوف على الحال أى : وكائنين على جنوبهم أى مضطجعين .ثم وصفهم
سبحانه وتعالى بوصف آخر فقال : { وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السماوات
والأرض } أى أن من صفات هؤلاء العباد أصحاب العقول السليمة أنهم يكثرون من
ذكر الله - تعالى - ، ولا يكتفون بذلك ، بل يضيفون إلى هذا الذكر والتدبر
والتفكر فى هذا الكون وما فيه من جمال الصنعة ، وبديع المخلوقات ، ليصلوا
من رواء ذلك إلى الإيمان العميق ، والإذعان التام ، والاعتراف الكامل
بواحدانية الله .وعظيم قدرته . . .فإن من شأن الأخيار من الناس أنهم
، يتفكرون فى مخلوقات الله وما فيها من عجائب المصنوعات ، وغرائب المبتدعات
ليدلهم ذلك على كمال قدرة الصانع - سبحانه - ، فيعلموا أن لهذا الكون
قادراً مدبراً حكيما ، لأن عظم آثاره وأفعاله ، تدل على عظم خالقها .ولقد
ذكر العلماء كثيرا من الأقوال التى تحض على التفكير السليم ، وعلى التدبر
فى عجائب صنع الله ، ومن ذلك قول سليمان الدارانى : " إنى أخرج من بيتى فما
يقع بصرى على شىء إلا رأيت لله على فيه نعمة ، ولى فيه عبرة " ، وقال الحسن
البصرى : " تفكر ساعة خير من قيام ليلة " .وقال الفخر الرازى : دلائل
التوحيد محصورة فى قسمين : دلائل الآفاق ، ودلائل الأنفس . ولا شك أن دلائل
الآفاق أجل وأعظم ، كما قال - تعالى : { لَخَلْقُ السماوات والأرض أَكْبَرُ
مِنْ خَلْقِ الناس } ولما كان الأمر كذلك لا جرم أنه فى هذه الآية بالفكر
- فى خلق السموات والأرض ، لأن دلالتها أعجب . وشواهدها أعظم " .وقد وبخ
سبحانه - الذين يرون العبر فلا يعتبرون ، وتمر أمامهم العظات فلا يتعظون
ولا يتفكرون فقال - تعالى - : { وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السماوات والأرض
يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ وَمَا يُؤْمِنُ
أَكْثَرُهُمْ بالله إِلاَّ وَهُمْ مُّشْرِكُونَ } ثم حكى - سبحانه - ثمرات
ذكرهم لله وتفكرهم فى خلقه فقال : { رَبَّنَآ مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً
سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ } .أى أنهم بعد أن أذعنت قلوبهم للحق
ونطقت ألسنتهم بالقول الحسن ، وتفكرت عقولهم فى بدائع صنع الله تفكيرا ،
سليما ، استشعروا عظمة الله استشعاراً ملك عليهم جوارحهم ، فرفعوا أكف
الضراعة إلى الله بقولهم :يا ربنا إنك ما خلقت هذا الخلق البديع العظيم
الشأن عبثاً ، أو عاريا من الحكمة . أو خالياً من المصلحة ، { سُبْحَانَكَ
أى ننزهك تنزيها تاما عن كل ما لا يليق بك { فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ } {
أى فوفقنا للعمل بما يرضيك ، وأبعدنا عن عذاب النار .وقوله { رَبَّنَآ مَا
خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً } إلخ جملة واقعة موقع الحال على تقدير قوله أى
يتفكرون قائلين ربنا . لأن هذا الكلام اريد به حكاية قولهم بدليل ما بعده
من الدعاء .وقوله : باطلا صفة لمصدر محذوف أى خلقاً باطلاً ، أو حال من
المفعول والمعنى يا ربنا ما خلقت هذا المخلوق العظيم الشأن عاريا عن الحكمة
خالياً من المصلحة ، بل خلقته مشتملا على حكم جليلة ، منتظما لمصالح ،
عظيمة .وكان نداؤهم لخالقهم - عز وجل - بلفظ { رَبَّنَآ } اعترافا منهم
بأنه هو مربيهم وخالقهم فمن حقه عليهم أن يفردوه بالعبادة والخضوع .وسبحان
اسم مصدر بمعنى التسبيح أى التنزيه ، وهو مفعول بفعل مضمر لا يكاد يستعمل
معه أى ، تنزهت ذاتك وتقدست عن كل ما لا يليق ، وجىء بفاء التعقيب فى حكاية
- قولهم { فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ } لأنه ترتب على اعتقادهم بأنه سبحانه
لم يخلق هذا عبثاً - أن هناك ثواباً وعقاباً ، فسألوا الله - تعالى - أن
. يجعلهم من أهل الجنة لا من أهل النار

ربنا انك من تدخل النار فقد اخزيته وما للظالمين من انصار

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - حكاية عنهم { رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن
تُدْخِلِ النار فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ } فى مقام التعليل لضراعتهم بأن يبعدهم
عن النار .أى : أبعدنا يا ربنا عن عذاب النار ، فإن من تدخله النار تكون قد
أخزيته أى أهنته وفضحته على رءوس الأشهاد .والخزى : مصدر خزى يخزى بمعنى ذل
وهان بمرأى من الناس . وفى هذا التعليل مبالغة فى تعظيم أمر العقاب بالنار

وإلحاح فى طلب النجاة منها ، لأن من سأل ربه حاجة ، إذا شرح عظمها وقوتها ، كان رجاؤه فى القبول أشد ، وإخلاصه أتم ، وعوده بالعطاء أقوى .وقوله ، { وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ } أى ليس لهم ناصر ينصرهم من عقاب الله - تعالى - أو يخلصهم مما وقعوا فيه من بلاء .و " من " للدلالة على استغراق النفى ، أى لا ناصر لهم ايا كان هذا الناصر ، وفى ذلك إشارة إلى انفراد الله - تعالى - بالسلطان ونفاذ الإرادة .

ربنا اننا سمعنا مناديا ينادي للايمان ان امنوا بربكم فامنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الابرار

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - لوناً آخر من ألوان ضراعتهم يدل على قوة إيمانهم فقال - تعالى - { رَّبَّنَآ إِنَّنَآ سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا } .أى أنهم يقولون على سبيل الضراعة والخضوع لله رب العالمين : يا ربنا إننا سمعنا ، مناديا ينادى أى داعياً يدعو إلى الإيمان وهو محمد صلى الله عليه وسلم فاستجبنا لدعوته ، وآمنا بما دعانا إليه بدون تردد أو تسويف .وفى وصفه صلى الله عليه وسلم بالمنادى ، دلالة على كمال اعتنائه بشأن دعوته التى يدعو إليها ، وأنه حريص على تبليغها للناس تبليغا تاما .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : فأى فائدة فى الجمع بين " المنادى " و { يُنَادِي } ؟ قلت : ذكر النداء مطلقا ، ثم مقيداً بالإيمان ، تفخيما لشأن المنادى؛ لأنه لا منادى أعظم من مناد ينادى للإيمان . ونحوه قولك : مررت بهاد يهدى للإسلام . وذلك أن النمادى إذا أطلق ذهب الوهم إلى مناد للحر ، أو لإغاثة المكروب ، أو لكفاية بعض النوازل ، أو لبعض المنافع . وكذلك الهادى قد يطلق على من يهدى للطريق ويهدى لسداد الرأى وغير ذلك .فإذا قلت : ينادى للإيمان . ويهدى للإسلام ، فقد رفعت من شأن المنادى والهادى وفخمته .و " أن " فى قوله { أَنْ آمِنُواْ } تفسيرية لما فى فعل { يُنَادِي } من معنى القول دون حروفه وجىء بفاء التعقيب فى قوله - تعالى - حكاية عنهم { فَآمَنَّا } ؛ للدلالة ، على المبادرة والسبق ، إلى الإيمان ، وأنهم قد أقبلوا على الداعى لى الله بسرعة وامتثال ، وفى ذلك دلالة على سلامة فطرتهم ، وبعدهم عن المكابرة والعناد .ثم حكى - سبحانه - مطلبهم فقال : { رَبَّنَا فاغفر لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأبرار } أى نسألك يا ربنا بعد أن آمنا بنبيك ، واستجبنا للحق الذى جاء به ، أن. تغفر لنا ذنوبنا بأن تسترها وتعفو عنها ، وأن تكفر عنا سيئاتنا بأن تزيلها وتمحوها وتحولها إلى حسنات أو بأن تحشرنا مع الأبرار أى مع عبادك الصالحين - المستقيمين الأخيار . إذ الأبرار جمع بار وهو الشخص الكثير الطاعة لخالقه ، تعالى - .فأنت تراهم قد طلبوا من خالقهم ثلاثة أمور ، غفران الذنوب وتكفير السيئات ، والوفاة مع الأبرار الأخيار ، وهى مطالب تدل على قوة إيمانهم ، وصفاى نفوسهم ، وزهدهم فى متع الحياة الدنيا .وقد جمعوا فى طلبهم بين غفران الذنوب وتكفير السيئات ، لأن السيئة عصيان فيه إساءة ، والذنب عصيان فيه تقصير وتباطؤ عن فعل الخير ، والغفران والتكفير كلاهما فيه معنى التسر والتغطية ، إلا أن الغفران يضتمن معنى عدم العقاب ، والتكفير يتضمن ذهاب أثر السيئة .ومعنى وفاتهم مع الأبرار : أن يموتوا على حالة البر والطاعة وأن تلازمهم تلك الحالة إلى الممات ، وألا يحصل منهم ارتداد على أدبارهم ، بل يستمروا على الطاعة استمرارا تاما .وبذلك يكونو في صحبة الأبرار وفى جملتهم .

ربنا واتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة انك لا تخلف الميعاد

كما فسرها الوسيط ثم حكى القرآن أنهم ترقوا فانتقلوا من طلب الغفران إلى طلب الثواب الجزيل ، والعطاء الحسن فقال - تعالى - حكاية عنهم { رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا على رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ القيامة إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الميعاد } .أي نسألك يا ربنا أن تعطينا وتمنحنا بعد وفاتنا ، وحين قيامنا من قبورنا يوم القيامة ، ما وعدتنا به من ثواب في مقابل تصديقنا لرسلك ، وطاعتنا لهم ، واستجابتنا لأوامرهم ونواهيهم { وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ القيامة } أى ولا تذلنا ولا تفضحنا يوم المحشر على رءوس الأشهاد { إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الميعاد } . أى أنك - سبحانك -لا تخلف وعدك الذى وعدته لعبادك الصالحين .فهم قد جعلوا هذا الدعاء وهو طلب الثواب الجزيل يوم القيامة ، ختاما لدعواتهم ، لشعورهم بهفواتهم وبتقصيرهم أمام فضل الله ونعمه .والمراد بقولهم { مَا وَعَدتَّنَا } الثواب والعطاء الكائن منه - سبحانه - و " ما " موصولة أى آتنا الذى وعدتنا به أو وعدتنا إياه وقوله { على رُسُلِكَ } فيه مضاف محذوف أى آتنا ما وعدتنا على ألسنة رسلك. من ثواب . أو آتنا ما وعدتنا على تصديق رسلك والإيمان بهم من جزاء حسن .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف دعوا الله بإنجاز ما وعد والله لا يخلف ، الميعاد؟ .قلت : معناه طلب التوفيق فيما يحفظ عليهم أسباب إنجاز الميعاد

أو هو من باب الملجأ إلى الله والخضوع له ، كما كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، " يستغفرون مع علمهم بأنهم مغفور لهم ، يقصدون بذلك التذلل لربهم والتضرع إليه ، والملجأ الذي هو سيما العبودية " .تلك هى الدعوات ، الخاشعات التى حكاها - سبحانه - عن أصحاب العقول السليمة ، وهم يتضرعون بها إلى خالقهم - عز وجل - فماذا كانت نتيجتها؟

فاستجاب لهم ربهم اني لا اضيع عمل عامل منكم من ذكر او انثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا واخرجوا من ديارهم واوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لاكفرن عنهم سيئاتهم ولادخلنهم جنات تجري من تحتها الانهار ثوابا من عند الله والله عنده حسن الثواب

كما فسرها الوسيط لقد كانت نتيجة دعواتهم ، أن أجاب الله لهم سؤالهم وحقق لهم مطالبهم فقال - تعالى - { فاستجاب لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ } .وقال. !أ قال الحسن البصرى : " ما زالوا يقولون ربنا حتى استجاب لهم " .وقال جعفر الصادق : " من حزبه أمر فقال خمس مرات { رَبَّنَآ } أنجاه الله مما يخالف ، وأعطاه ما أراد ، قيل : وكيف ذلك؟ قال : اقرءوا أن شئتم قوله - تعالى - { الذين يَذْكُرُونَ الله قِيَاماً } . . . إلخ فإن هؤلاء الأخيار قد نادوا ربهم خمس مرات فأجاب الله لهم دعاءهم .ودلت الفاء فى قوله { فاستجاب } على سرعة الإجابة ، لأن الفاء للتعقيب ، فهم لأنهم دعوا الله بقلب سليم ، أجاب الله لهم دعاءهم بدون إبطاء .واستجاب هنا بمعنى أجاب عند جمهور العلماء ، إن السين والتاء للتأكيد ، مثل استوقد واستخلص .وقال بعضه إن استجاب أخص من أجاب ، لأن استجاب يقال لمن قبل ما دعى إليه ، وأجاب : أعم فيقال لمن أجاب بالقبول وبالرد .والمعنى : أن الله - تعالى - قد بشر - هؤلاء الأخيار برضاه عنهم ، بأن أخبرهم بأنه قد أجاب لهم دعاءهم ، وأنه سبحانه -لا يضيع عمل عامل منهم ، بل سيجازيهم بالجزاء الأوفى ، وسيمنحهم من الثواب . فوق ما عملوا لأنه هو الكريم الوهاب ، ولن يفرق فى عطائه بين ذكر وأنثى ، لأن الذكر من الأثنى والأنثى من الذكر وقد خلقهم جميعا من نفس واحدة .وفى التعبير باللفظ السامى { رَبُّهُمْ } إشارة إلى أن الذى سيجزيهم هو خالقهم ومربيهم والمنعم عليهم ، والرحيم بهم .ومعنى { أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ }لا أزيل ثواب عمل أى عامل منكم ، بل أكافئه عليه بما يستحقه ، وأعطيه من ثوابى ورحمتى ما يشرح صدره ، ويدخل البهجة والسرور على نفسه .وقوله { مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى } بيان لعامل ، وتأكيد عمومه ، أى لا اضيع عمل أي شخص عامل سواء أكان هذا العامل ذكراً أم أنثى .ومعنى { بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ } أن الذكر من الأنثى والأنثى من الذكر ، كلكم بنو آدم وهذه جملة معترضة مبينة لسبب شركة النساء مع الرجال فيما وعد الله به عباده من أجر جزاء أعمالهم الصالحة .روى الترمذى عن أم سلمة قالت : يا رسول الله ، لا أسمع الله - تعالى - ذكر النساء فى الهجرة ، فأنزل الله - تعالى - { فاستجاب لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ } .ثم بين - سبحانه - الأعمال الصالحة التى استحق بها هؤلاء الأبرار حسن الثواب منه - سبحانه - فقال : { فالذين هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ } .أى فالذين هاجروا بأن تركوا أوطانهم التى أحبوها إلى أماكن أخرى من أجل إعلاء كلمة الله ، وأخرجوا من ديارهم ، فرارا بدينهم من ظلم ظالمين ، واعتداء المعتدين ، { وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي } أى تحملوا الأذى والاضطهاد فى سبيل الحق الذى آمنوا به { وَقَاتَلُواْ } أعداء الله { وَقُتِلُواْ } وهم يجاهدون من أجل إحقاق الحق وإبطال الباطل .هؤلاء الذين فعلوا كل ذلك ، وعدهم الله - تعالى - بالأجر العظيم فقال : { لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ } أى لأمحون عنهم ما ارتكبوه من سيئات ، ولأسترنها عليهم حتى تعتبر نسيا منسيا { وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار } أى تجرى من تحت قصورها الأنهار التى فيها العسل المصفى وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين .وقوله { ثَوَاباً مِّن عِندِ الله ، والله عِندَهُ حُسْنُ الثواب } أى لأثيبنهم ثوابا عظيما من عندى ، والله - تعالى - عنده حسن الجزاء لمن آمن وعمل صالحا .فأنت ترى أن الله - تعالى - قد منح هؤلاء الأخيرا ذلك الأجر الجزيل لأنهم قد هاجروا من الأرض التى أحبوها إلى غيرها من أجل إعلاء كلمة الله ، وأخرجوا منها مضطرين لا مختارين فرارا بدينهم ، ولقد ذكر المؤرخون أن الرسول صلى الله عليه وسلم عندما خرج من مكة مهاجرا التفت إليها وقال : " يا مكة والله لأنت أحب بلاد الله إلى ولولا أن قومك أخرجونى ما خرجت " .ولأنهم قد تحملوا ما تحملوا من الأذى فى سبيل الله ، ولأنهم قد جاهدوا أعداء الله وأعداءهم حتى استشهدوا وهم يقاتلون من أجل إعلاء كلمة الله .وقوله { الذين هَاجَرُواْ } مبتدأ ، وهو تفصيل لعمل العامل منهم على سبيل التعظيم له ، والتفخيم لشأنه . وخبره قوله { لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ }. وقوله { وَأُخْرِجُواْ مِن

دِيَارِهِمْ } معطوف على { هَاجَرُواْ } . وجمع بينهما للإشعار بأنهم قد تركوا أوطانهم تارة باختيارهم ليبحثوا عن مكان أصلح لنماء دعوتهم ، وانتشار الحق الذى اعتنقوه ، وتارة بغير اختيارهم بل تركوها مجبرين ومضطرين بعد أن ألجأهم أعداؤهم إلى الخروج منها بسبب ما نالهم منهم من ظلم واعتداء .وقوله { وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي } معطوف على ما قبله . والمراد من الإيذاء ما هو أعم من أن يكون بالإخراج من الديار ، أو غير ذلك مما كان يصيب المؤمنين من جهة المشركين .وجمع - سبحانه - بين قوله { وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ } للإشارة إلى أن للقسمين ثوابا وأنهم لن يصيبهم إلا أحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة ، وقوله : { لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ } جواب قسم محذوف ، أى والله لأكفرن عنهم سيئاتهم .وقدّم - سبحانه - تكفير سيئاتهم على إدخالهم الجنة ، لأن التخلية - كما يقولون - مقدمة على التحلية ، فهو أولا طهرهم من الذنوب والآثام ونقاهم منها ، ثم أدخلهم بعد ذلك جنته وأعطاهم فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .وقوله { ثَوَاباً } مصدر مؤكد لما قبله ، لأن المعنى لأثيبنهم على ما عملوه ثوابا عظيما { وقوله { مِّن عِندِ الله } صفة لقوله { ثَوَاباً } وهو وصف مؤكد؛ لأن. الثواب لا يكون إلا من عنده - تعالى - ، لكنه صرح به - سبحانه - تعظيما للثواب وتفخيما لشأنه .وقوله { والله عِندَهُ حُسْنُ الثواب } تذييل مقرر لمضمون ما قبله .وقد ختم - سبحانه - الآية بهذه الجملة الكريمة لبيان اختصاصه بالثواب الحسن كأن كل جزاء للأعمال فى الدنيا لا يعد حسنا بجوار ما أعده - سبحانه - فى الآخرة لعباده المتقين .وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد دعت المؤمنين إلى الإكثار من ذكر الله وإلى التفكر السليم فى عجائب صنعه ، وساقت لنا ألوانا من الدعوات الطيبات الخاشعات التى تضرع بها الأخيار إلى خالقهم ، وبينت لنا الثواب الجزيل والعطاء العظيم الذى منحه - الله لهم فى مقابل إيمانهم الصادق ، وعملهم الصالح ، فقد جرت سنته سبحانه - أنه لا يضيع أجر من أحسن عملا ، وأنه لا يرد دعاء الأبرار من عباده .

لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد

كما فسرها الوسيط وبعد أن بشر - سبحانه - عباده المؤمنين الصادقين بهذا الثواب الحسن ، نهاهم عن الاغترار بما عليه الكافرون من قوة وسطوة ومتاع دنيوى فقال - تعالى - { لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الذين كَفَرُواْ فِي { البلاد مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المهاد يغرنك : من الغرور وهو الاطماع فى أمر محبوب على نية عدم وقوعه ، أو إظهار. الأمر المضر فى صورة الأمر النافع ، وهو مشتق من الغرة بكسر الغين - وهى : الغفلة - ويقال : رجل غر إذا كان ينخدع لمن خادعه .والتقلب فى البلاد التصرف فيها على جهة السيطرة والغلبة ونفوذ الإرادة .والمتاع : الشىء الذى يتمتع الإنسان به لمدة معينة ، والمعنى :لا يصح أن يخدع أحد بما عليه ، الكافرون من تقلب فى البلاد ومن تصرفهم فيها تصرف الحاكم المسيطر عليها المستغل لثرواتها وخيراتها ، فإن تصرفهم هذا لن يستمر طويلا ، بل سيبقى مدة قليلة يتمتعون فيها بما بين أيديهم ثم يزول عنهم كل شىء وسوف يعودون إلى } خالقهم فيعذبهم العذاب الأكبر على ظلمهم وبغيهم وكفرهم .والخطاب فى قوله ، لاَ يَغُرَّنَّكَ } للرسول صلى الله عليه وسلم أو لكل من يتأتى له الخطاب وهو نهى للمؤمنين عن أن يغتروا بما عليه الكافرون من جاه ونفوذ وسلطان وغنى وليس من مقتضى النهى أن يكون قد وقع النهى عنه فإن الإنسان قد ينهى عن شىء. لم يقع منه لتحذيره من الوقوع فيه فى الحال أو المآل .ولذا روى عن قتادة أنه قال : " والله ما غروا نبى الله حتى قبضه الله إليه " .ولقد قال صاحب الكشاف في الجواب على أن النهى موجه إلى النبى صلى الله عليه وسلم فإن قلت كيف جاز أن يغتر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك حتى ينهى عن الاغترار : به؟ قلت : فيه وجهان :أحدهما : أن عظيم القوم ومتقدمهم يخاطب بشىء فيقوم خطابه مقام خطابهم جميعا فكأنه قيل :لا يغرنكم .والثانى : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان غير مغرور بحالهم فأكد ما كان عليه وثبت ما كان على التزامه كقوله { وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ المشركين }

متاع قليل ثم ماواهم جهنم وبئس المهاد

} كما فسرها الوسيط وقوله { مَتَاعٌ } خبر لمبتدأ محذوف أى هو متاع وقوله قَلِيلٌ } صفة لمتاع . ووصف بأنه قليل لقصر مدته ، ولكونه متعة فانية زائلة بخلاف ما أعده الله للمتقين من نعيم فى الآخرة فإنه دائم لا يزول .وجاء العطف { بئْسَ } فى قوله { ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المهاد } للإشعار بالتفاوت الكبير بين حالهم فى الدنيا وما هم فيه من متاع زائل وبين ما سينالهم فى الآخرة من عذاب دائم لا منقطع .أى أنهم يتمتعون بهذه المتع العاجلة لفترة قليلة { ثُمَّ مَأْوَاهُمْ } أى مكانهم الذى يأوون إليه ويستقرون فيه { جَهَنَّمُ } التى لا يحيط الوصف بشدة عذابها { وَبِئْسَ

المهاد } أى بئس ما مهدوا لأنفسهم وفرشوا جهنم .وفيه إشارة إلى أن مصيرهم إلى جهنم هم الذين كانوا سببا فيه بكفرهم واستحبابهم العمى على الهدى .وفى هذا تعزية للمؤمنين وتسلية لهم عما يرونه من غنى وجاه وسلطان للمشركين وتحريض للأخيار على أن يجعلوا همهم الأكبر فى العمل الصالح الذى يوصلهم إلى رضوان الله الباقى ، ففى الحديث الشريف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " والله ما الدنيا فى الآخرة إلا مثل ما يجعل احدكم إصبعه فى اليم . فلينظر بم يرجع " .

لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها نزلا من عند الله وما عند الله خير للابرار

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة المؤمنين إثر بيانه لسوء عاقبة الكافرين فقال : { لَكِنِ الذين اتقوا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار خَالِدِينَ فِيهَا } .وافتتحت الآية الكريمة بحرف " لكن " الذى معناه الاستدراك ، لأن مضمونها ضد الكلام الذى قبلها . ولكى تكون هناك مقابلة بين عاقبة المشركين الفجار وبين عاقبة المؤمنين الأخيار .والمعنى : هذا هو شأن الكافرين يتقلبون فى البلاد لفترة قصيرة من الزمان هيى مدة حياتهم فى هذه الدنيا الفانية ثم يتركون كل شىء عند موتهم ليلاقوا مصيرهم المحتوم وهو عذاب جهنم الذى لا ينقطع . . . لكن الذين اتقوا ربهم وخافوا مقامه ونهوا أنفسهم عن الهوى ليسوا كذلك فقد أعد الله لهم جنات تجرى من تحت قصورها وأشجارها الأنهار المليئة بأنواع المشارب الطيبة اللذيذة ، وهم خالدون فى تلك الجنات خلودا أبديا لا انقطاع له ولا زوال .. فأين مصير أولئك ، الأشرار من مصير هؤلاء الأخيار؟فالآية الكريمة بيان لكمال حسن حال المؤمنين ، إثر بيان سوء عاقبة الكافرين .ثم قال - تعالى - { نُزُلاً مِّنْ عِندِ الله وَمَا عِندَ الله خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ } .والنزل ما يعد للنزيل والضيف لإكرامه والحفاوة به من طعام وشراب وغيرهما . وهو : منصوب على أنه حال من " جنات " لتخصيصها بالوصف ، والعامل فيه ما فى الضرف من معنى الاستقرار .أى لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها حالة كون هذه الجنات منزلا مهيئا لهم من عند الله - تعالى - على سبيل الإكرام لهم ، والتشريف لمنزلتهم .وقوله { وَمَا عِندَ الله خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ } أى ما عند الله من نعيم مقيم لعباده المتقين خير مما يتقلب فيه الكافرون من المتاع القليل الزائل .

وان من اهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما انزل اليكم وما انزل اليهم خاشعين لله لا يشترون بايات الله ثمنا قليلا اولئك لهم اجرهم عند ربهم ان الله سريع الحساب

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن أهل الكتاب ليسوا سواء . بل منهم الأشرار ومنهم الأخيار ، وقد بين - سبحانه - هنا صفات الأخيرا منهم فقال : { وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الكتاب لَمَن يُؤْمِنُ بالله وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ الله ثَمَناً قَلِيلاً } .أى : { وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الكتاب } وهم اليهود والنصارى لفريقا { يُؤْمِنُ بالله } إيمانا حقا منزها عن الإشراك بكل مظاهره ويؤمن بما { أُنزِلَ إِلَيْكُمْ } من القرآن الكريم على لسان نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم ويؤمن بحقيقة " ما أنزل إليهم " من التوراة والإنجيل ولا يزالون مع هذا الإيمان العميق { خَاشِعِينَ لِلَّهِ } أى خاضعين له - سبحانه - خائفين من عقابه ، طالبين لرضاه { لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ الله ثَمَناً قَلِيلاً } أى لا يبيعون آيات الله أو حقيقة من حقائق دينهم فى نظير ثمن هو عرض من أعراض الدنيا الفانية ، لأن هذا الثمن المأخوذ قليل حتى ولو بلغ القناطير المقنطرة من الذهب والفضة .فأنت ترى أنه - سبحانه - قد وصفهم بخمس صفات كريمة تدل على صفاء نفوسهم وطهارة قلوبهم ، وفى هذا إنصاف من القرآن الكريم للمهتدين من أهل الكتاب .وقد ذكر القرآن ما يشبه هذه الآية فى كثير من سوره ومن ذلك قوله - تعالى - { لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ الكتاب أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ الله آنَآءَ الليل وَهُمْ يَسْجُدُونَ } وقوله - تعالى - { مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ } وقدم سبحانه - إيمانهم بالقرآن على إيمانهم بما أنزل عليهم لأن القرآن هو المهيمن على الكتب السماوية والأمين عليها ، فما وافقه منها فهو حق وما خالفه فهو باطل وقوله { خَاشِعِينَ لِلَّهِ } حال من فاعل { يُؤْمِنُ } وجمع حملا على المعنى :ثم بين - سبحانه - جزاءهم الطيب بعد بيان صفاتهم الكريمة فقال : { أولائك لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ الله سَرِيعُ الحساب } .أى أولئك الموصفون بتلك الصفات الكريمة لهم أجرهم الجزيل فى مقابل أعمالهم الصالحة وأفعالهم الحميدة .وقوله { إِنَّ الله سَرِيعُ الحساب } كناية عن كمال علمه بمقادير الأجور ومراتب الاستحقاق وأنه يوفيها

لكل عامل على ما ينبغى وقدر ما ينبغى .ويجوز أن يكون كناية عن قرب إنجاز ما وعد من الأجر؛ فإن سرعة الحساب تستدعى سرعة الجزاء فكأنه قيل : لهم أجرهم عند ربهم عن قريب ، لأن الله - تعالى - سريع الحساب والجزاء .

يا ايها الذين امنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون

، كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الاكريمة بنداء جامع للمؤمنين دعاهم فيه إلى الصبر والمصابرة والمرابطة والتقوى فقال : { يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ اصبروا وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ واتقوا الله لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } .والصبر معناه : حبس النفس عن أهوائها وشهواتها وترويضها على : تحمل المكره وتعويدها على أداء الطاعات .والمصابرة : هى المغالبة بالصبر بأن يكون المؤمن أشد صبراً من عدوه .ورابطوا : من المرابطة وهى القيام على الثغور الإسلامية لحمياتها من الأعداء ، فهى استعداد ودفاع وحماية لديار الإسلام من مهاجمة الأعداء .والمعنى : { يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ اصبروا } على طاعة الله وعلى تحمل المكاره والآلام برضا لا سخط معه؛ فإن الصبر جماع الفضائل وأساس النجاح والظفر .و { وَصَابِرُواْ } أى قابلوا صبر أعدائكم بصبر أشد منه وأقوى في كل موطن من المواطن التى تستلزم الصبر وتقتضيه .قال صاحب الكشاف : { وَصَابِرُواْ } أعداء الله فى الجهاد ، أى غالبوهم في الصبر على شدائد الحرب ، ولا تكونوا أقل منهم صبراً وثباتاً فالمصابرة باب من الصبر ذكر بعد الصبر على ما يجب الصبر عليه تخصيصاً لشدته وصعبوته " .و { وَرَابِطُواْ } أى أقيموا على مرابطة الغزو فى نحر العدو بالترصد له ، والاستعداد لمحاربته وكونوا دائما على حذر منه حتى لا يفاجئكم بما تكرهون .ولقد كان كثير من السلف الصالح يرابطون فى سبيل الله نصف العام ويطلبون قوتهم بالعمل فى النصف الآخر .ولقد ساق الإمام ابن كثير جملة من ، الأحاديث التى وردت فى فضل المرابطة من أجل حماية ديار الإسلام ، ومن ذلك ما رواه البخاري فى صحيحه عن سهل ابن سعد الساعدى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها " .وروى : مسلم فى صحيحه عن سلمان الفارسى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال " رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه ، وإن مات جرى عليه عمله الذى كان يعمله ، وأجرى عليه رزقه ، وأمن الفتان " .وبعضهم جعل المراد بالمرابطة انتظار الصلاة بعد الصلاة مستدلا بالحديث الذى رواه مسلم والنسائي عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال :" ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات : إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة . فذلكم الرباط " .قال القرطبى : بعد أن ساق هذا الحديث - : " والقول الصحيح هو أن الرباط هو الملازمة فى سبيل الله - وأصلها من ربط الخيل ، ثم سمى كل ملازم لثغر من ثغور المسلمين مرابطا فارسا كان أو راجلا . واللفظ مأخوذ من الرب . وقول النبى صلى الله عليه وسلم " فذلكم الرباط " إنما هو تشبيه بالرباط فى سبيل الله " .ومما يدل على أن المرابطة فى سبيل الله م أجل الديار الإسلامية من أفضل الأعمال وأن الصالحين الأخيار من المسلمين كانوا لا ينقطعون عنها ، مما يدل على ذلك ما كتبه عبد الله بن المبارك - وهو يرابط بطرسوس - إلى صديقه الفضيل بن عياض - وكان الفضيل معتكفا بالمسجد الحرام - كتب إليه عبد الله يقول :يا عابد الحرمين لو أبصرتنا ... لعلمت أنك فى العبادة تلعبمن كان يخضب خده بدموعه فنحورنا بدمائنا تتخضبأو كان يتعب خيله فى باطل ... فخيولنا يوم ... الصبيحة تتعبريح العبير لكم ونحن عبيرنا ... رهج السنابك والغبار الأطيببولقد أتانا من مقال نبينا ... قول صحيح صادق لا يكذبلا يستوى غبار خيل الله فى ... أنف امرىء ودخان نار تلهبهذا كتاب الله ينطق بيننا ... ليس الشهيد بميت لا يكذبفلما قرأ الفضيل هذه الأبيات بكى وقال : صدق عبد الله وقوله { واتقوا الله لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } أى اتقوا الله بأن تصونوا. أنفسكم عن محارمه وعن مخالفة أمره ، ورجاء أن يكتب لكم الفوز بالنصر فى الدنيا ، والثواب الحسن فى الآخرة .وبعد : فهذه سورة آل عمران ، وهذا تفسير مفصل لما اشتملت عليه من توجيهات نافعة وعظات بليغة ، وآداب عالية وتشريعات سامية و تربية رشيدة وعبادات قويمة وحجج تثبت الحق وتدحض الباطل .والله نسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه ونافعا لعباده .والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

يا ايها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والارحام ان الله كان عليكم رقيبا

كما فسرها الوسيط افتتحت السورة الكريمة بهذا النداء الشامل لجميع المكلفين من وقت نزولها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وذلك لأن لفظ الناس لا يختص بقبيل دون قبيل ، ولا بقوم دون قوم ، وقد دخلته الألف واللام المفيدة للاستغراق؛ ولأن ما في مضمون هذا النداء من إنذار وتبشير وأمر بمراقبة الله

وخشيته ، يتناول جميع المكلفين لا أهل مكة وحدهم كما ذكره بعضهم؛ لأن تخصيص
قوله - تعالى - ( ياأيها الناس ) بأهل مكة تخصيص بغير مخصص .والمراد بالنفس
الواحدة هنا : آدم - عليه السلام - . وقد جاء الوصف وهو واحدة بالتأنيث
باعتبار لفظ النفس فإنها مؤنثة .ومن فى قوله ( مِنْهَا ) للتبعيض . والضمير
) : - المؤنث " ها " يعود إلى النفس الواحدة .والمراد بقوله - تعالى
) - زَوْجَهَا ) حواء؛ فإنها أخرجت من آدم كما يقتضيه ظاهر قوله - تعالى
. مِنْهَا ) .قال الفخر الرازى ما ملخصه : " المراد من هذا الزوج هو حواء
وفى كون حواء مخلوقة من آدم قولان :الأول : وهو الذي عليه الأكثرون : أنه
لما خلق الله - تعالى - آدم ألقى عليه النوم ، ثم خلق حواء من ضلع من
أضلاعه ، فلما استيقظ رآها ومال إليها وألفها ، لأنها كانت مخلوقة من جزء
من أجزائه . واحتجوا عليه بقول النبى صلى الله عليه وسلم : " إن المرأة
خلقت من ضلع أعوج فإن ذهبت تقيمها كسرتها وإن تركتها وفيها عوج استمتعت بها
) والقول الثانى : وهو اختيار أبى مسلم الأصفهانى : أن المراد من قوله"
وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ) أي من جنسها . وهو كقوله - تعالى - ( والله
جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً ) وكقوله ( إِذْ بَعَثَ
فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنْفُسِهِمْ ) وقوله ( لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ
) : مِّنْ أَنفُسِكُمْ ) قال القاضى : والقول الأول أقوى ، لكى يصح قوله
خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ) ، إذ لو كانت حواء مخلوقة إبتداء لكان
الناس مخلوقين من نفسين لا من نفس واحدة .وقد تضمن هذا النداء لجميع
المكلفين تنبيهم إلى أمرين :أولهما : وحدة الاعتقاد بأن ربهم جميعا واحد لا
شريك له . فهو الذى خلقهم وهو الذى رزقهم ، وهو الذى يميتهم وهو الذى
: يحييهم ، وهو الذى أوجد أبيضهم وأسودهم ، وعربيهم وأعجميهم .وثانيهما
وحدة النوع والتكوين ، إذ الناس جميعاً على اختلاف ألسنتهم وألوانهم
وأجناسهم قد انحدروا عن أصل واحد وهو آدم - عليه السلام - .فيجب أن يشعر
الجميع بفضل الله عليهم . وأن يخلصوا له العبادة والطاعة ، وأن يتعاونوا
على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان ، وأن يوقنوا بأنه لا فضل لجنس
على جنس ، ولا للون على لون إلا بمقدار حسن صلتهم بربهم وما لكهم ومدبر
أمورهم .والمعنى : يا أيها الناس اتقوا ربكم بأن تطيعوه فلا تعصوه ، وبأن
، تشكروه فلا تكفروه ، فهو وحده الذى أوجدكم من نفس واحدة هى نفس أبيكم آدم
وذلك من أظهر الأدلة على كمال قدرته - سبحانه ، ومن أقوى الدواعى إلى اتقاء
موجبات نقمته ، ومن أشد المقتضيات التى تحملكم على التاطف والتراحم
والتعاون فيما بينكم ، إذ أنتم جميعا قد أوجدكم - سبحانه - من نفس واحدة
وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله :" فإن قلت : الذى يقتضيه سداد.
نظم الكلام وجزالته ، أن يجاء عقيب الأمر بالتقوى بما يوجبها أو يدعو إليها
ويحث عليها فكيف كان خلقه إياهم من نفس واحدة على التفصيل الذى ذكره موجبا
للتقوى وداعيا إليها؟قلت : لأن ذلك مما يدل على القدرة العظيمة . ومن قدر
، على نحوه كان قادرا على كل شىء ، ولأنه يدل على النعمة السابغة عليهم
فحقهم أن يتقوه فى كفرانها والتفريط فيما يلزمهم من القيام بشكرها . أو
أراد بالتقوى تقوى خاصة ، وهى أن يتقوه فيما يتصل بحفظ الحقوق بينهم ، فلا
يقطعوا ما يجب عليهم وصله فقيل : اتقوا ربكم الذى وصل بينكم؛ حيث جعلكم
صنوانا مفرعة من أرومة واحدة فيما يجب على بعضكم لبعض ، فحافظوا عليه ولا
تغفلوا عنه وهذا المعنى مطابق لمعانى السورة " .وقوله : ( وَخَلَقَ مِنْهَا
زَوْجَهَا ) معطوف على قوله ( خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ) . أو
معطوفة على محذوف والتقدير : خلقكم من نفس واحدة ابتدأها وخلق منها زوجها
ثم بين - سبحانه - ما ترتب على هذا الازدواج من تناسل فقال : ( وَبَثَّ.
. مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَآءً ) .والبث معناه : النشر والتفريق
يقال : بث الخيل فى الغارة ، أى فرقها ونشرها . ويقال : يثثت البسط إذا
: نشرتها . قال - تعالى - (وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ) أى منشورة .والمعنى
ونشر وفرق من تلك النفس الواحدة وزوجها على وجه التوالد والتناسل ، رجالا
كثيرا ونساء كثيرة .والتعبير بالبث يفيد أن هؤلاء الذين توالدوا وتناسلوا
عن تلك النفس وزوجها ، قد تكاثروا وانتشروا فى أقطار الأرض على اختلاف
ألوانهم ولغاتهم ، وأن من الواجب عليهم مهما تباعدت ديارهم ، واختلفت
ألسنتهم وأشكالهم أن يدركوا أنهم جميعا ينتمون إلي أصل واحد ، وهذا يقتضى
تراحمهم وتعاطفهم فيما بينهم . وقوله ( كَثِيراً ) صفة لقوله ( رِجَالاً )
وهو صفة مؤكدة لما إفاده التنكير من معنى الكثرة . وجاء الوصف بصيغة
الإفراد ، لأن ( كَثِيراً ) وإن كان مفردا لفظا إلا أنه دال على معنى
الجمع . واستغنى عن وصف النساء بالكثرة ، اكتفاء بوصف الرجال بذلك ، ولأن
الفعل ( وَبَثَّ ) يقضى الكثرة والانتشار .وقال الفخر الرازى : خصص وصف
، الكثرة بالرجال دون النساء ، لأن شهرة الرجال أتم ، فكانت كثرتهم أظهر
فلا جرم خصوا بوصف الكثرة . وهذا كالتنبيه على أن اللائق بحال الرجال
الاشتهار والخروج البروز . واللائق بحال النساء الاختفاء والخمول " .وقوله
تكرير للأمر بالتقوى ( واتقوا الله الذي تَسَآءَلُونَ بِهِ والأرحام ) :
لتربية المهابة فى النفس وتذكير ببعض آخر من الأمور الموجبة لخشية الله
وامتثال أوامره .وقوله ( تَسَآءَلُونَ ) أصلها تتساءلون فطرحت إحدى التاءين

تخفيفا . وهى قراءة عصام وحمزة الكسائى .وقرأ الباقون " تساءلون " بالتشديد بإدغام تاء التفاعل فى السينه لتقاربهما فى الهمس . والأرحام : جمع رحم وهى القرابة . مشتقة من الرحمة ، لأن ذوى القرابة من شأنهم أن يتراحموا ويعطف بعضهم على بعض .وكلمة ( والأرحام ) قرأها الجمهور بالنصب عطفا على اسم الله تعالى .والمعنى؛ واتقوا الله الذى يسأل بعضكم بعضا به ، بأن يقول له على سبيل الاستعطاف : أسألك بالله أن تفعل كذا ، أو أن تترك كذا . واتقوا الأرحام أن تقطعوها فلا تصلوها بالبر والإحسان ، فإن قطيعتها وعدم صلتها مما يجب أن يتقى ويبعد عنه ، وإنما الذى يجب أن يفعل هو صلتها وبرها وقرأها حمزة بالجر عطفا على الضمير المجرور فى ( به ) . أى : اتقوا الله. الذى تساءلون به وبالأرحام بأن يقول بعضكم لبعض مستعطفا أسألك بالله وبالرحم أن تفعل كذا .وقد كان من عادة العرب أن يقرنوا الأرحام بالله تعالى - فى المناشدة والسؤال فيقولون : اسألك بالله وبالرحم .ولم يرتض كثير من النحويين هذه القراءة من حمزة ، وقالوا : إنها تخالف القواعد النحوية التى تقول : إن عطف الاسم الظاهر على الضمير المجرور المتصل بدون إعادة الجار لا يصح ، لأن الضمير المجرور المتصل بمنزلة الحرف ، والحرف لا يصح عطف الاسم الظاهر عليه ، ولأن الضمير المجرور كبعض الكلمة لشدة اتصاله بها . وكما أنه لا يجوز أن يعطف على بعض الكلمة فكذلك لا يجوز أن يعطف عليه ، إلى غير ذلك مما قالوه فى تضعيف هذه القراءة . وقد دافع كثير من المفسرين عن هذه القراءة التى قرأها حمزة . وأنكروا على النحويين تشنيعهم عليه .ومما قاله القرطبى فى دفاعه عن صحة هذه القراءة : ومثل هذا الكلام - أى من النحويين - مردود عند أئمة الدين ، لأن القراءات التى قرأ بها أئمة القراء ثبتت عن النبى صلى الله عليه وسلم تواترا يعرفه أهل الصنعة ، وإذا ثبت شىء عن النبى صلى الله عليه وسلم فمن رد ذلك فقد رد على النبى صلى الله عليه وسلم واسقبح ما قرأ به .وهذا مقام محذور ، ولا يقلد فيه أئمة اللغة والنحو فإن العربية تتلقى من النبى صلى الله عليه وسلم ولا يشك أحد فى فصاحته ، ثم قال : والكوفى يجيز عطف الظاهر على الضمير المجرور ولا يمنع منه ، ومنه. قولهم :فاذهب فما بك والأيام من عجبومما قاله الفخر الرازى فى ذلك : واعلم أن هذه الوجوه - أى التى احتج بها النحويون في تضعيف قراءة حمزة - ليست وجوها قوية فى رفع الروايات الواردة فى اللغات؛ وذلك لأن حمزة أحد القراء السبعة ، ولم يأت بهذه القراءة من عند نفسه ، بل رواها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك يوجب القطع بصحة هذه اللغة ، والقياس يتضاءل عند سماع لا سيما بمثل هذه الأقيسة التى هى أوهن من بيت العنكبوت .وأيضا فلهذه القراءة وجهان :أحدهما : أنها على تقدير تكرير الجار . كأنه قيل : تساءلون به وبالأرحام .وثانيهما : أنه ورد ذلك فى الشعر ومنه :نعلق فى مثل السوارى سيوفنا ... وما بينها والكعب غوط نفائفثم قال : والعجب من هؤلاء النحاة أنهم يستحسنون إثبات هذه اللغة بمثل هذه الأبيات المجهولة ، ولا يستحسنوا إثباتها بقراءة حمزة ومجاهد ، مع أنهما كانا من أكابر علماء السلف فى علم القرآن " .هذا ، وهناك قراءة بالرفع . قال الآلوسى : وقرأ ابن زيد ( والأرحام ) بالرفع على أنه مبتدأ محذوف الخبر . أى والأرحام كذلك أى مما يتقى لقرينه ( واتقوا ) . أو مما يتساءل به لقرينة ( تَسَآءَلُونَ ) .ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بما يحمل العقلاء على المبالغة فى تقوى الله وفى صلة الرحم فقال - تعالى : ( إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ) ، أى حافظا يحصى عليكم كل شىء . من رقبه إذا حفظه .أو مطلعا على جميع أحوالكم وأعمالكم ، ومنه المرقب للمكان العالى الذى يشرف منه الرقيب ليطلع على ما دونه .وقد أكد - سبحانه - رقابته على خلقه ، واطلاعه على جميع أحوالهم بأوثق المؤكدات . فقد أكد - سبحانه - الجملة الكريمة بإن ، وبتكرار لفظ الجلالة التى يبعث فى النفوس كل معانى الخشية والعبودية له ، وبالتعبير بكان الدالة على الدوام والاستمرار ، وبذكر الفوقية التى يدل عليها لفظ ( عَلَيْكُمْ ) إذ هو يفيد معنى الاطلاع الدائم مع السيطرة والقهر ، وبالإتيان بصيغة المبالغة وهى قوله : ( رَقِيباً ) أى شديد المراقبة لجميع أقوالكم وأعمالكم فهو يراها ويعلمها وسيحاسبكم عليها يوم القيامةوقد أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة : وجوب مراقبته - سبحانه - وخشيته وإخلاص العبادة له ، لأنه هو الذى أوجدهم من نفس واحدة ، وهو الذى أوجد من هذه النفس الموحدة زوجها ، وهو الذى أوجد منها عن طريق التناسل الذكور والإناث الذين يملؤون أقطار الأرض على اختلاف صفاتهم وألوانهم ولغاتهم ، وهو الذى لا تخفى عليه خافية من أحوالهم ، بل هو مطلع عليهم وسيحاسبهم على أعمالهم يوم الدين ، ومن كان كذلك فمن حقه أن يتقى ويخشى ويطاع ولا يعصى .كما أخذوا منها جواز المسألة بالله - تعالى - لأنه - سبحانه - قد أقرهم على هذا التساؤل؛ لكونهم يعتقدون عظمته وقدرته .وقد ورد فى هذا الباب أحاديث متعددة : منها ما أخرجه الإمام أحمد وأبو داود والنسائى وابن حبان عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من استعاذ بالله فأعيذه ، ومن سألكم بالله فأعطوه ، ومن دعاكم فأجيبوه . ومن أسدى إليكم معروفا فكافئوه ، فإن لم تجدوا ما تكافئون به فادعوا له حتى تعلموا أن قد كافأتموه " .نعم من أداه التساؤل باسمه - تعالى - إلى التساهل فى شأنه ، وجعله عرضة لعدم

إجلاله ، فإنه يكون محظورا قطعا . وعليه يحمل ما ورد من أحاديث تصرح بلعن
: من سأل بوجه الله . ومنها ما رواه الطبرانى عن أبى موسى الأشعرى مرفوعا
ملعون من سأل بوجه الله . وملعون من سئل بوجه الله ثم منع سائله ما لم يسأل
هجراً . أى ما لم يسأل أمرا قبيحا لا يليق .كما أخذوا منها أيضا وجوب صلة
الرحم ، فقد جعل - سبحانه - الإحسان إلى الآباء وإلى الأقارب فى المنزلتين
الثانية والثالثة بعد الأمر بعبادته فقال : ( واعبدوا الله وَلاَ
تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وبالوالدين إِحْسَاناً وَبِذِي القربى واليتامى
والمساكين ) ومن الأحاديث التى وردت فى وجوب صلة الرحم ما رواه البخارى عن
أبى هريرة قال : " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من سره أن
يبسط له فى رزقه ، وأن ينسأ له فى أجله ، فليصل رحمه "وأخرج الإمام مسلم
": فى صحيحه عن عائشة - رضى الله عنها - عن النبى صلى الله عليه وسلم قال
الرحم مغلفة بالعرش . تقول : من وصلنى وصله الله ، ومن قطعنى قطعه الله
وأخرج البخارى عن عبد الله بن عمرو عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال"
ليس الواصل بالمكافىء "ولكن الواصل من إذا قطعت رحمه وصلها .إلى غير ذلك ":
. من الأحاديث التى وردت فى الترغيب فى صلة الرحم والترهيب من قطيعتها

واتوا اليتامى اموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تاكلوا اموالهم الى
اموالكم انه كان حوبا كبيرا

، كما فسرها الوسيط ثم شرع - سبحانه - فى تفصيل موارد الاتقاء ومظانه
) : - فابتدأ بأحق الناس بالرحمة والمودة ، وهم اليتامى فقال - تعالى
وَآتُواْ . . . أَلاَّ تَعُولُواْ )والأمر فى قوله ( وَآتُواْ ) يتناول كل
من له ولاية أو وصاية أو صله باليتيم ، كما يتناول الجماعة الإسلامية بصفة
عامة ، لكى تتكاتف وتتعاون على تمكين اليتيم من وصول حقه إليه بدون بخس أو
مماطلة .و ( اليتامى ) جمع يتيم وهو الصغير الذى مات أبوه ، مأخوذ من اليتم
بمعنى الانفراد . ومنه الدرة اليتيمية .قال صاحب الكشاف وحق هذا الاسم أن
يقع على الصغار والكبار لبقاء معنى الانفراد عن الآباء ، إلا أنه قد غلب ان
يسموا به قبل أن يبلغوا مبلغ الرجال ، فإذا استغنوا بأنفسهم عن كافل وقائم
. عليهم ، وانتصبوا كفاة يكفلون غيرهم ويقومون عليهم ، زال عنهم هذا الاسم
وكانت قريش تقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يتيم أبى طالب؛ إما على
القياس ، وإما حكاية للحال التى كان عليها صغيرا في حجر عمه . وأما قوله
صلى الله عليه وسلم "لا يتم بعد الحلم " فهو تعليم شريعة لا لغة . أى أنه
، إذا احتلم لم تجر عليه أحكام الصغار " .والمراد باليتامى هنا الصغار
والمراد بإيتائهم أموالهم حفظها لهم وعدم الطمع فى شىء منها لا من قبل
الورثة ولا من قبل الأوصياء ولا من قبل غيرهم وعلى هذا المعنى يكون لفظ
الإيتاء قد أول بلازم معناه وهو الحفظ والرعاية لمال اليتامى ، لا تسليم
، المال إليهم لأنه من المعروف شرعا ألا يسلم المال إليهم إلا بعد البلوغ
إذ هم فى حال الصغر لا يصلحون للتصرف .ويكون هذا التعبير من باب الكناية
بإطلاق اللازم - وهو الإيتاء ، وإرادة الملزوم وهو الحفظ ، أو من باب
المجاز بالمآل إذ الحفظ يؤول إلى الإيتاء .ويرى بعضهم أن المراد باليتامى
هنا الكبار الذين أونس منهم الرشد وأن المراد بالإيتاء دفع أموالهم إليهم
على سبيل الحقيقة .ويكون التعبير عنهم باليتامى - مع أنهم كبار - باعتبار
، ان اسم اليتيم يتناول لغة كل من فقد أباه ، أو باعتبار قرب عهدهم بالصغر
أو باعتبار ما كان أى الذين كانوا يتامى . قالوا : وفى التعبير عنهم
باليتامى مع أنهم كبار ، إشارة إلى وجوب المسارعة فى تسليم أموالهم إليهم
متى أونس منهم الرشد ، حتى لكأن اسم اليتيم ما زال باقيا عليهم ، غير منفصل
عنهم :ويبدو لنا أن الرأى الأول أولى ، لأن الأمر بدفع أموال اليتامى إليهم
بعد بلوغهم قد جاء صريحا فى قوله - تعالى - بعد ذلك : ( وابتلوا اليتامى ،
حتى إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِّنْهُمْ رُشْداً
فادفعوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ) فكان حمل الآية التى معنا على أن
المراد باليتامى : الصغار ، وبإيتاء أموالهم حفظها لهم ، أولى وأقرب إلى
، المنطق ، لأنه على الرأى الأول يكون الأمر وما يذكر به تأسيسات أحكام
وعلى الرأى الثانى يكون ما فى الآية الثانية مؤكدا لما فى الآية التى معنا
والتأسيس أولى من التأكيد .ولأن قوله - تعالى - بعد ذلك فى الآية التى.
معنا ( وَلاَ تَتَبَدَّلُواْ الخبيث بالطيب وَلاَ تأكلوا أَمْوَالَهُمْ إلى
أَمْوَالِكُمْ ) - إنما هو تحذير للأوصياء والأولياء من الطمع فى مال
اليتيم أو إضاعته ما دام المال فى أيديهم واليتيم فى حجرهم ، وهذا يؤيد هذا
الرأى الأول القائل بن المراد باليتامى : الصغار ، وبإيتاء أموالهم : حفظها
ورعايتها حتى تسلم إليهم عند بلوغهم كاملة غير منقوصة .وقوله ( وَلاَ
تَتَبَدَّلُواْ الخبيث بالطيب ) معناه :لا تجعلوا ردىء المال لهم بدل
الجيد ، بأن تأخذوا لأنفسكم كرائم الأموال ونفائسها ، وتتركوا لهم الخسيس
منها .قال القرطبى : وكانوا فى الجاهلية لعدم الدين لا يتحرجون عن أموال
اليتامى فكانوا يأخذون الطيب من أموال اليتامى ويبدلونه بالردىء من أموالهم
ويقولون اسم باسم ، ورأس برأس ، فنهاهم الله عن ذلك . وهذا قول سعيد بن

المسيب والزهرى والسدى والضحاك وهو ظاهر الآية ، إذ التبديل جعل شىء بدل شىء " .ويرى صاحب الكشاف أن المراد بالخبث : الحرام ، وبالطيب : الحلال فقد قالوا : ( وَلاَ تَتَبَدّلُواْ الخبيث بالطيب ) أى : ولا تستبدلوا الحرام وهو مال اليتامى بالحلال وهو مالكم وما ابيح لكم من المكاسب ورزق الله المبثوث فى الأرض فتأكلوه مكانه ، أو لا تستبدلوا الأمر الخبث وهو اختزال ) - أموال اليتامى بالأمر الطيب وهو حفظها والتورع عنها " .وقوله - تعالى وَلاَ تأكلوا أَمْوَالَهُمْ إلى أَمْوَالِكُمْ ) نهى آخر عن الاعتداء على أموال اليتامى عن طريق خلط أموال اليتامى بأموال الأوصياء ، و المراد من الأكل : مطلق الانتفاع والتصرف وخص الأكل بالذكر ، لأنه معظم ما يقع لأجله التصرف .والمعنى : ولا تضموا أيها الأوصياء أموال اليتامى إلى أموالكم في الإنفاق فتأكلوها مع أموالكم ، وتسووا بينهما فى الانتفاع ، لأن أموالكم احل الله لكم أكلها ، أما أموال اليامى فقد جرم الله عليكم أكلها .فالآية الكريمة صريحة فى النهى عن خلط مال اليتيم القاصر بمال الوصى عليه بقصد أكله ، لأن هذا لون من ألوان الاستيلاء المحرم على أموال اليتامى ، كما ، أنها تتضمن النهى عن خلط مال اليتيم بمال الوصى عليه ولو لم يقصد أكله لأن هذا الخلط قد يؤدى إلى ضياعه وعدم تميزه فقد يموت الوصى فلا يعرف مال اليتيم من ماله ، فيؤدى الأمر إلى أكله وإن لم يكن مقصودا ، ولذا قال الفقهاء : إذا مات الوصى على اليتيم مجهلاً مال اليتيم اعتبر مستهلكا له والخلاصة أن الآية الكريمة تحرم على الأولياء والأوصياء وغيرهم أن تصرفوا. في أموال اليتامى أى تصرف يؤدى إلى الإضرار بها ، بل عليهم أن يحفظوها لهم حتى يدفعوها إليهم سالمة عند البلوغ .هذا ، وليس قيد " إلى أموالكم " محط النهى ، بل النهى واقع على أكل أموال اليتامى مطلقا ، سواء أكان للأكل مال ، يضم إليه مال اليتيم أم لم يكن .ولكن لما كان الغالب وجود أموال للأوصياء وأنهم يريدون من أكل أموال اليتامى التكثير أو توفير أموالهم ، جىء بهذا القيد رعاية لهذا الغالب ، وليكون ذمهم على جشعهم وضعف دينهم أشد وأشنع حيث أكلوا حقوق اليتامى مع أنهم فى غنى عنها بما رزهم الله من أموال .وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : فإن قلت : قد حرم عليهم أكل مال اليتامى وحده ومع أموالهم فلم ورد النهى عن أكله معها؟ قلت : لأنهم إذا كانوا مستغنين عن أموال اليتامى بما رزقهم الله من مال حلال - وهم مع ذلك يطمعون فيها - كان القبح أبلغ والذم أحق ، ولأنهم كانوا يفعلون ذلك فنعى عليهم ) : فعلهم وسمع بهم ليكون أزجر لهم " .ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً ) .والحوب : اسم مصدر من حاب يحوب حوبا إذا اكتسب إثما . يقال : فلان يتحوب أى يتأثم . والحوباء : النفس المرتكبة للإثم . ويقال فى الدعاء : اللهم اغفر حوبتى ، أى إثمى ، وأصله الزجر للإبل ، فسمى الإثم حوبا لأنه يزجر عنه وبه .والضمير فى قوله ( إِنَّهُ ) يعود إلى أكل مال اليتيم بأى طريق محرم .والمعنى : إن أكل مال اليتيم بأى طريقة من الطرق المحرمة كان إثما كبيراً ، وذنبا عظيما ، لأن هذا الأكل اعتداء على نفس ضعيفة فقدت من يعولها ومن يدافع عنها ، ومن اعتدى على نفس ضعيفة ، وضيع حقها ، وخان الأمانة كان مرتكبا لذنب عظيم يؤدى به إلى ، العقوبة والعذاب الأليم .والجملة بمنزلة التعليل للنهى عن أكل مال اليتيم . وعن الطمع بدون وجه حق فيها

وان خفتم الا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم الا تعدلوا فواحدة او ما ملكت ايمانكم ذلك ادنى الا تعولوا

كما فسرها الوسيط ثم شرع - سبحانه - فى نهيهم عن منكر آخر كانوا يباشرونه فقال - تعالى .( وَإِنْ خِفْتُمْ ألاّ تُقْسِطُواْ فِي اليتامى فانكحوا مَا طَابَ لَكُمْ مِّنَ النسآء مثنى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ ) .وقوله ( وَإِنْ ، خِفْتُمْ ) شرط ، وجوابه قوله ( فانكحوا ) .والمراد من الخوف : العلم وعبر عنه بذلك للأشعار بكون المعلوم مخوفا محذورا . ويقوم الظن الغالب مقام العلم .وقوله ( تُقْسِطُواْ ) من الإقساط وهو العدل . يقال : أقسط الرجل إذا عدل . قال - تعالى - : ( وأقسطوا إِنَّ الله يُحِبُّ المقسطين ) ويقال قسط الرجل إذا جار وظلم صاحبه . قال - تعالى - ( وَأمّا القاسطون : فَكَانُواْ لِجَهَنّمَ حَطَباً ) والمراد " باليتامى : يتامى النساء . قال ) الزمخشرى : ويقال للاناث اليتامى كما يقال للذكور وهو جمع يتيمة .ومعنى مَا طَابَ لَكُمْ ) ما مالت إليه نفوسكم واستطابته من النساء اللائى أحل : الله لكم نكاحهن .هذا ، وللعلماء أقوال فى تفسير هذه الآية الكريمة منها ما رواه البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى وغيرهم عن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة - رضى الله عنها - عن هذه الآية فقال : يا ابن أختى هى اليتيمة تكون فى حجر وليها تشركه فى ماله ويعجبه مالها وجمالها .فيريد وليها أن يتزوجها من غير أن يقسط فى صداقها ، فيعطيها مثل ما يعطيها غيره .قال عروة قالت عائشة : وإن الناس استفتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه : الآية ، فأنزل الله - تعالى - ( وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النسآء قُلِ الله يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يتلى عَلَيْكُمْ فِي الكتاب فِي يَتَامَى

النسآء اللاتي لاَ تُؤْتُونَهُنّ مَا كُتِبَ لَهُنّ وَتَرْغَبُونَ أَن
تَنكِحُوهُنّ ) قالت عائشة : وقوله الله - تعالى - ( وَتَرْغَبُونَ أن
تَنكِحُوهُنّ ) رغبة أحدكم عن يتيمته حين تكون قليلة المال والجمال . قالت
فنهوا عن أن ينكحوا من رغبوا فى مالها وجمالها من يتامى النساء إلا :
بالقسط ، من أجل رغبتهم عنهن إذا كن قليلات المال والجمال " .وعلى هذه
الرواية التى ساقها أئمة المحدثين عن عائشة فى المراد من الآية الكريمة
يكون المعنى : وإن علمتم أيها الأولياء على النساء اليتامى أنكم لن تعدلوا
فيهن إذا تزوجتم بهن - بأن تسيئوا إليهن فى العشرة ، أو بأن تمتنعوا عن
إعطائهن الصداق المناسب لهن - إذا علمتم ذلك فانكحوا غيرهن من النساء
الحلائل اللائى تميل إليهن نفوسكم ولا تظلموا هؤلاء اليامى بنكاحهن دون أن
تعطوهون حقوقهن؛ فإن الله - تعالى - قد وسع عليكم فى نكاح غيرهن .فالمقصود
من الآية الكريمة على هذا المعنى : نهى الأولياء عن نكاح النساء اليتامى
اللائى يلونهن عند خوف عدم العدل فيهن ، إلا أنه أوثر التعبير عن ذلك
، بالأمر بنكاح النساء الأجنبيات ، كراهة للنهى الصريح عن نكاح اليتيمات
وتلطفا فى صرف المخاطبين عن نكاح التيامى حال العلم بعدم العدل فيهن
فكأنه - سبحانه - يقول : إن علمتم أيها الأولياء الجور والظلم فى نكاح.
اليتامى اللائى فى ولايتكم فلا تنكحوهن ، وانكحوا غيرهن مما طالب لكم من
- النساء .وعلى هذا القول الذى أورده المحدثون عن عائشة - رضى الله عنهما
سار كثير من المفسرين في الآية الكريمة . وبعضهم اقتصر عليه ولم يذكر سواه
قال بعض العلماء : وكلامها هذا أحسن تفسير لهذه الآية . وهى وإن لم تسند.
ما قالته إلى رسول الله ، إلا أن سياق كلامها يؤذن بأنه عن توقيف؛ ولذلك
أخرجه البخارى فى باب تفسير سورة النساء بسياق الأحاديث المرفوعة ، اعتدادا
بأنها ما قالت ذلك إلا عن معاينة حال النزول لا سيما وقد قالت : ثم إن
الناس استفتوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم -؛ وعليه يكون إيجاز لفظ
الآية اعتدادا بما فهمه الناس مما يعلمون من أحوالهم ، وتكون قد جمعت إلى
جانب حفظ حقوق اليتامى فى أموالهم الموروثة ، حفظ حقوقهم فى الأموال التى
يستحقها النساء اليتامى كمهور لهن عند الزوج بهن . . " .أما الرأى الثانى
فيرى أصحابه أن الآية مسوقة للنهى عن نكاح ما فوق الأربع خوفا على أموال
: اليتامى أن يتلفها أولياؤهم .وقد حكى هذا القول الإمام ابن جرير فقال
وقال آخرون بل معنى ذلك : النهى عن نكاح ما فوق الأربع ، حذرا على أموال
اليتامى أن يتلفها أولياؤهم وذلك أن قريشا كان الرجل منهم يتزوج العشر من
النساء والأكثر والأقل ، فإذا صار معدما مال على مال اليتيمة التى فى حجره
فأنفقه ، أو تزوج به ، فنهوا عن ذلك . وقيل لهم : إن أنتم خفتم على أموال
أيتاكم أن تنفقوها فلا تعدلوا فيها من أجل حاجتكم إليها لما يلزمكم من مؤن
نسائكم ، - إن خفتم ذلك . فلا تجاوزوا فيما تنكحون من عدد النساء على أربع
، - وإن خفتم أيضاً من الأربع ألا تعدلوا فى أموالهم - أى أموال اليتامى .
فاقتصروا على الواحدة أو على ما ملكت أيمانكم - أى إن كان زواجكم بالأربع
" - يؤدى إلى الجور فى أموال اليتامى فاقتصروا على الزواج بامرأة واحدة
وقد انتصر ابن جرير لهذا القول وعده أرجح الأقوال ، فقال ما ملخصه وإنما.
قلنا : إن ذلك أولى بتأويل الآية؛ لأن الله - تعالى - افتتح الآية التى
قبلها بالنهى عن أكل أموال اليتامى بغير حقها . ثم أعلمهم - هنا - المخلص
من الجور فى أموال اليتامى فقال : انكحوا إن أمنتم الجور فى النساء على
أنفسكم ما أبحت لكم منهن وحللته : مثنى وثلاث ورباع . فإن خفتم أيضا الجور
على أنفسكم فى أمر الواحدة فلا تنكحوها ، ولكن تسروا من المماليك ، فإنكم
أحرى ألا تجوروا عليهن ، لأنهن أملاككم وأموال ، ولا يلزمكم لهن من الحقوق
" كالذى يلزمكم للحرائر ، فيكون ذلك اقرب لكم إلى السلام من الإثم والجور
وينسب هذا الرأى إلى ابن عباس وسعيد بن جبير ، والسدى ، وقتادة ، وعكرمة.
وقال مجاهد : إن الآية الكريمة مسوقة للنهى عن الزنا . وقد حكى هذا الرأى.
صاحب الكشاف فقال : كانوا لا يتحرجون من الزنا . ويتحرجون من ولاية اليامى
فقيل لهم : إن خفتم الجور في حق اليتامى ، فخافوا الزنا ، فانكحوا ما حل .
من النساء ، ولا تحوموا حول المحرمات " .هذه أشهر الأقوال فى معنى الآية
، الكريمة ، ويبدو لنا أن أرجحها أولها ، لأنه هو الظاهر من معنى الآية
ولأن الغالب أن السيدة عائشة - رضى الله عنها - ما فسرت الآية بهذا التفسير
الذى قالته لابن أختلها إلا عن توقيف ومعاينة لحال النزول ، ولأن الملازمة
بين الشرط والجزاء فى الآية على هذا الوجه تكون ظاهرة . إذ التقدير وإن
خفتم أيها الأولياء الجور والظلم فى نكاح اليتامى اللاتى فى ولايتكم
فانكحوا من غيرهن ما طاب لكم من النساء .أما على القول الثانى فمحل
الملازمة بين الشرط والجزاء إنما هو فيما تفرع عن الجزاء وهو قوله ( فَإِنْ
خِفْتُمْ أَلاّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ
وعلى قول مجاهد تضعف الملازمة بين الشرط والجزاء .هذا ، والأمر فى قوله. (
) - على التفسير الأول - للإباحة كما فى قوله - تعالى - ( فانكحوا )
وكُلُواْ واشربوا . . . ) خلافا لِلظَّاهِرية الذين يرون أنه للوجوب . و ( مَا
فى قوله - تعالى - ( مَا طَابَ لَكُمْ ) موصولة أو موصوفة . وما بعدها (
صلتها أو صفتها . وأوثرت على ( مِّنَ ) لأنها أريد بها الصفة وهو الطيب من

النساء بدون تحديد لذات معينة ، ولو قال ( فانكحوا مَا طَابَ لَكُمْ )
) - لتبادر إلى الذهن أن المراد نسوة طيبات معروفات بينهم .وقوله - تعالى
- مثنى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ) حال من فاعل ( طَابَ ) المستتر أو من مرجعه
وهو ( مَا ) - ، أو بدل منه .وهذه الكلمات الثلاث من ألفاظ العدد . وتدل كل
واحدة منها على المكرر من نوعها . فمثنى تدل على اثنين اثنين . وثلاث تدل
على ثلاثة ثلاثة . ورباع تدل على أربعة أربعة .والمراد منها هنا : الإذن
لكل من يريد الجمع أن ينكح ما شاء من العدد المذكور متفقين فيه ومختلفين
والمعنى : فانكحوا ما طالب لكم من النساء معدودات هذا العدد : ثنتين ثنتين.
وثلاثا ثلاثا . وأربعا أربعا . حسبما تريدون وتستطيعون .قال صاحب الكشاف .
فإن قلت : الذى أطلق للنكاح فى الجمع أن يجمع بين ثنتين أو ثلاث أو أربع :
فما معنى التكرير فى مثنى وثلاث ورباع .قلت : الخطاب للجميع . فوجب .
التكرير ليصيب كل ناكح يريد الجمع ما أراد من العدد الذى أطلق له . كما
، تقول للجماعة : اقتسموا هذا المال - وهو ألف درهم - : درهمين درهمين
وثلاثة ثلاثة . وأربعة أربعة . ولو أفردت لم يكن له معنى .فإن قلت : فلم
. جاء العطف بالواو دون أو؟قلت : كما جاء بالواو فى المثال الذى حذوته لك
ولو ذهبت تقول : اقتسموا هذا المال درهمين درهمين أو ثلاثة ثلاثة أو أربعة
. أربعة؛ علمت أنه لا يسوغ لهم أن يقتسموه إلا على أحد أنواع هذه القسمة
وليس لهم أن يجمعوا بينها . فيجعوا بعض القسم على تثنية ، وبعضا على تثليث
وبعضا على تربيع ، وذهب معنى تجويز الجمع بين أنواع القسمة الذى دلت عليه ،
الواو .وتحريره : أن الواو دلت على إطلاق أن يأخذ الناكحون من أرادوا
نكاحهن من النساء على طريق الجمع : إن شاؤوا مختلفين فى تلك الأعداد ، وإن
- شاؤوا متفقين فيها ، محظوراً عليهم ما وراء ذلك " .ثم بين - سبحاه
- لعباده ما ينبغى عليهم فعله فى حال توقعهم عدم العدل بين الزوجات فقال
تعالى ( فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ
: أَيْمَانُكُمْ ) .فالمراد بالعدل عنا : العدل بين الزوجات المتعددات .أى
فإن علمتم أنكم لا تعدلون بين الأكثر من الزوجة الواحدة فى القسم والنفقة
وحقوق الزوجية بحسب طاقتكم ، كما علمتم فى حق اليتامى أنكم لا تعدلون - إذا
علمتم ذلك فالزموا زوجة واحدة ، أو أى عدد شئتم من السرارى بالغة ما بلغت
فكأنه - سبحانه - لما وسع عليهم بأن أباح لهم الزواج بالمثنى والثلاث.
والرباع من النساء ، أتبأهم بأنه قد يلزم من هذه التوسعة خوف الميل وعدم
العدل . فمن الواجب عليهم حينئذ أن يحترزوا بالتقليل من عدد النساء
فيقتصروا على الزوجة الواحدة .ومفهومه : إباحة الزيادة على الواحدة إذا أمن
الجور بين الزوجات المتعدات .وقوله ( فَوَاحِدَةً ) منصوب بفعل مضمر
، والتقدير : فالزموا واحدة أو فاختاروا واحدة فإن الأمر كله يدور مع العدل
فأينما وجدتم العدل فعليكم به .وقرىء بالرفع أى فحسبكم واحدة . ( أَوْ )
للتسوية أى سوى - سبحانه - فى السهولة واليسر بين نكاح الحرة الواحدة وبين
السرارى من غير تقييد بعدد ، لقلة تبعتهن ،ولخفة مؤنتهن ، وعدم وجوب القسم
فيهن .وقوله ( ذلك أدنى أَلاَّ تَعُولُواْ ) جملة مستأنفة بمنزلة التعليل
مما قبلها .واسم الإشارة " ذلك " يعود إلى اختيار الواحدة أو التسرى
وقوله ( أدنى ) هنا بمعنى أقرب . وهو قرب مجازى . أى أحق وأعون أن لا.
تعولوا .وقوله ( تَعُولُواْ ) مأخوذ من العول وهو فى الأصل الميل المحسوس
يقال . عال الميزان عولا إذا مال . ثم نقل إلى الميل المعنوى وهو الجور.
والظلم؛ ومنه عال الحاكم إذا جار ، والمراد هنا الميل المحظور المقابل
للعدل .والمعنى : أن ما ذكر من اختيار الزوجة الواحدة والتسرى ، أقرب
بالنسبة إلى ما عداهما إلى العدل وإلى عدم الميل المحظور ، لأن من اختار
زوجة واحدة فقد انتفى عنه الميل والجور رأسا لانتفاء محله ومن تسرى فقد
انتفى عنه خطر الجور والميل . أما من اخترا عددا من الحرائر فالميل المحظور
متوقع منه لتحقق المحل والخطر .ولأن التعدد فى الزوجات يعرض المكلف غالبا
للجور وإن بذل جهده فى العدل .وهذا المعنى على تفسير ( تعولوا ) بمعنى
) تجوروا وتميلوا عن الحق . وهو اختيار أكثر المفسرين .وقيل : إن معنى
. أَلاَّ تَعُولُواْ ) ألا تكثر عيالكم . يقال : عال يعول ، إذا كثرت عياله
وقد حكى صاحب الكشاف هذا المعنى عن الإمام الشافعى فقال :" والذي يحكى عن
الشافعى - رحمه الله - أن فسر ( أن لا تعولوا ) بأن لا تكثر عيالكم . فوجهه
أن يجعل من قولك : عال الرجل عياله يعولهم كقولهم : ما نهم يمونهم إذا أنفق
عليهم . لأن من كثر عياله لزمه أن يعولهم ، وفى ذلك ما يصعب عليه المحافظة
على حدود الكسب وحدود الورع وكسب الحلال والرزق الطيب .ثم قال : وكلام مثله
من أعلام العلم ، وأئمة الشرع ، ورءوس المجتهدين ، حقيق بالحمل على الصحة
والسداد .وقرأ طاووس : أن لا تعيلوا من أعال الرجل إذا كثر عياله .وهذه
القراءة تعضد تفسير الشافعي من حيث المعنى الذى قصده " .هذا ، وقد أخذ
العلماء من هذه الآية أحكاما منها : جواز تعدد الزوجات إلى أربع بحيث لا
يجوز الزيادة عليهم مجتمعات ، لأن هذا العدد قد ذكر فى مقام التوسعة على
- المخاطبين ، ولو كانت تجوز الزيادة على هذا العدد لذكرها الله - تعالى
وقد أجمع الفقهاء على أنه لا تجوز الزيادة على الأربع ، ولا يقدح فى هذا.
الإجماع ما ذهب إليه بعض المبتدعة من جواز الجمع بين ما هو أكثر من الأربع

الحرائر ، لأن ما ذهب إليه هؤلاء ، المقتبدعة لا يعتد به . إذ الإجماع قد
وقع وانقضى عصر المجمعين قبل ظهور هؤلاء المبتدعين المخالين .وقد رد
العلماء على هؤلاء المخالفين بما يهدم أقوالهم ، ومن العلماء الذين تولوا
الرد عليهم الإمام القرطبي فقد قال - ما ملخصه - :" أعلم أن هذا العدد
مثنى وثلاث ورباعَ لا يدل على إباحة تسع . كما قاله من بعُد فهمه عن الكتاب
والسنة ، وأعرض عما كان عليه سلف هذه الأمة ، وزعم أن الواو جامعة ، وعضد
ذلك بأن النبى صلى الله عليه وسلم نكح تسعا ، وجمع بينهن فى عصمته . والذى
صار إلى هذه الجهالة وقال هذه المقالة الراقضة وبعض أهل الظاهر ، جعلوا
مثنى مثل اثنين ، وكذلك ثلاث ورباع .وهذا كله جهل باللسان والسنة ومخالفة
لإجماع الأمة ، إذ لا يسمع عن أحد من الصحابة ولا التابعين أنه جمع فى
" عصمته أكثر من أربع .وأخرج مالك فى الموطأ والنسائى والدارقطنى فى سننهما
أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لغيلان بن أمية الثقفى وقد أسلم وتحته عشر
نسوة " اختر منهن أربعا وفارق سائرهن "وأما ما أبيح من ذلك للنبى صلى الله
، عليه وسلم فذلك من خصوصياته .وأما قولهم إن الواو جامعة . فقد قيل ذلك
ولكن الله - تعالى - خاطب العرب بأفصح اللغات . والعرب لا تدع أن تقول تسعة
، وتقول اثنين وثلاثة وأربعة . وكذلك تستقبح ممن يقول ، أعط فلانا أربعة
ستة ، ثمانية ، ولا يقول : ثمانية عشر .وإنما الواو فى هذه الموضع بدل ، أى
أنكحوا ثلاث بدلا من مثنى ، ورباع بدلا من ثلاث ، ولذلك عطف بالواو ولم
يعطف بأو . ولو جاء بأو لجاز ألا يكون لصاحب المثنى ثلاث ، ولا لصاحب
الثلاث رباع .وقد قال مالك والشافعى فى الذي يتزوج خامسة وعنده أربع : عليه
الحد إن كان عالما . وقال الزهرى : يرجم إن كان عالما ، وإن كان جاهلا
فعليه أدنى الحدين الذى هو الجلد ، ولها مهرها ، ويفرق بينهما ولا يجتمعان
أبداً" .كذلك من الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآية الكريمة أن الله
تعالى وإن كان قد أباح التعدد وحدد غايته بأربع بحيث لا يجوز الزيادة عليهن
إلا أنه - سبحانه - قد قيد هذه الإباحة بالعدل بينهم فيما يستطيع ،
الإنسان العدل فيه بحسب طاقته البشرية ، بأن يعدل بينهن فى النفقة والكسوة
والمعاشرة الزوجية .فإن عجز عن ذلك لم يبح له التعدد .وللإمام الشيخ محمد
عبده كلام حسن فى المعنى ، فقد قال - رحمه الله - " قد أباحت الشريعة
الإسلامية للرجل الاقتران بأربع من النسوة إن علم من نفسه القدرة على
العدل بينهن ، وإلا فلا يجوز الاقتران بغير واحدة . قال - تعالى : ( فَإِنْ
خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً ) فإن الرجل إذا لم يستطع إعطاء
كل منهن حقبها اختل نظام المنزل ، وساءت معيشة العائلة إذا العماد القويم
لتدبير المنزل هو بقاء الاتحاد والتآلف بين أفراد العائلة .وقد كان النبى
صلى الله عليه وسلم ، والخلفاء الراشدون ، والعلماء الصالحون من كل قرن إلى
. هذا العهد يجمعون بين النسوة مع المحافظة على حدود الله فى العدل بينهن
فكان صلى الله عليه وسلم وأصحابه والصالحون من أمته لا يأتون حجرة إحدى
الزوجات فى نوبة الأخرى إلا بإذنها .وقد قال صلى الله عليه وسلم : " من كان
له امرأتان فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل "وكان صلى الله
عليه وسلم يعتذر عن ميله القلبى بقوله :" اللهم هذا - أي العدل فى البيات
والعطاء - جهدى فيما أملك ، ولا طاقة لى فيما تملك ولا أملك - يعنى الميل
القلبى " وكان يقرع بينهم إذا أراد سفرا .ثم قال فى نهاية حديثه : فعلى
العقلاء أن يتبصروا قبل طلب التعدد فى الزوجات فيما يجب عليهم شرعا من
العدل وحفظ الألفظ بين الأولاد ، وحفظ النساء من الغوائل التى تؤدى بهن إلى
الأعمال التى لا تليق بمسلمة .هذا ، وقد ذكر العلماء حكما كثيرة لمشروعية
تعدد الزوجات ، ومن هذه الحكم أن فى هذا التعدد وسيلة إلى تكثير عدد الأمة
بازدياد عدد المواليد فيها . ولا شك أن كثيرا من الأمم الإسلامية التى
اتسعت أرضها ، وتعددت موارد الثروة فيها ، فى حاجة إلى تكثير عدد أفرادها
حتى تنتفع بما حباها الله من خيرات ، وتستيطع الدفاع عن نفسها إذا ما طمع
فيها الطامعون ، واعتدى عليها المعتدون .ومنها أن التعدد يعين على كفالة
النساء وحفظهن وصيانتهن من الوقوع فى الفاحشة ، لا سيما فى أعقاب الحروب
التى - تقضى على الكثيرين من الرجال ، ويصبح عدد النساء أكبر بكثير من عدد
الرجال .ومنها أن الشريعة الإسلامية قد حرمت الزنا تحريما قاطعا ، وعاقبت
مرتكبه بأقسى أنواع العقوبات وأزجرها ، بسبب ما يجر إليه من فساد فى
الأخلاق والأنساب ونظام الأسر ، فناسب أن توسع على الناس فى تعدد النساء
لمن كان من الرجال ميالا للتعدد ، مستطيعا لتكاليفه ومطالبه .ومنها قصد
الابتعاد عن الطلاق ، فإن المرأة قد لا تكون قادرة على القيام بالمطالب
الزوجية التى تحتمها حياتها مع زوجها بسبب مرضها أو عجزها أو عقمها أو غير
ذلك من الأسباب ، فيلجأ زوجها إلى الزواج بأخرى غيرها مع بقاء الزوجة
الأولى فى عصمته بدل أن يطلقها فتفقد حياتها الزوجية ، وقد تكون هى فى حاجة
إلى هذا الزوج الذى يقوم برعايتها وحمايتها والقيام بشأنها .والخلاصة أن
- ، الله - تعالى - قد علم أن مصلحة الرجال والنساء قد تستدعى تعدد الزوجات
بل قد توجبه فى بعض الحالات - فأباح لهم هذا التعدد ، وحدد غايته بأربع
بحيث لا يجوز الزيادة عليهن ، وقيد - سبحانه - هذه الإباحة بالعدل بينهن
فيما يستطيع الإنسان العدل فيه بحسب طاقته البشرية ، فإن علم الإنسان من

نفسه عدم القدرة على العدل بينهن لم يبح له التعدد .ولو أن المسلمين ساروا
- على حسب ما شرع الله لهم لسعدوا فى دنياهم وفى آخرتهم؛ فأن الله - تعالى
. ما شرع لهم إلا ما فيه منفعتهم وسعادتهم

واتوا النساء صدقاتهن نحلة فان طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا

كما فسرها الوسيط ثم أمر الله تعالى الرجال أن يعطوا النساء مهورهن كاملة
- عن رضا وسماحة نفس ، وألا يطمعوا فى شيء مما أعطاه الله لهن فقال - تعالى
وقوله ( صَدُقَاتِهِنَّ ) جمع صدقة - بضم. ( . . . وَآتُواْ النسآء ) :
الدال - وهى ما يعطى للزوجة من المهر . وقوله ( نِحْلَةً ) أى عطية واجبة
وفريضة لازمة . إذ النحلة فى الأصل : العطية على سبيل التبرع . يقال : نحله
: كذا نحلة ونحلا ، إذا أعطاه إياه عن طيب نفس بلا مقابلة عوض .والمعنى
وأعطوا النساء مهورهن عطية عن طيب نفس منكم ، لأن هذه المهور قد فرضها الله
. لهن ، فلا يجوز أن يطمع فيها طامع ، أويغتالها مغتال ، والخطاب للأزواج
قالوا : لأن الرجل كان يتزوج المرأة بلا مهر ويقول لها : أرثك وترثيننى؟
فتقول : نعم . فأمروا أن يسرعوا إلى إعطاء المهور .وقيل : الخطاب لأولياء
، النساء ، وذلك لأن العرب فى الجاهلية كانت لا عطى النساء من مهورهن شيئا
ولذلك كانوا يقولون لمن ولدت له بنت : هنيئا لك النافجة . أى هنيئا لك هذه
البنت التى تأخذ مهرها إبلا فتضمها إلى إبلك فتنفج مالك أى تزيده وتكثره
- وقد رجح ابن جرير كون الخطاب للأزواج فقال : " وذلك لأن الله - تعالى.
ابتدأ ذكر هذه الآية بخطاب الناكحين للنساء ، ونهاهم عن ظلمهن . ولا دلالة
فى الآية على أن الخطاب قد صرف عنهم إلى غيرهم . فإذا كان ذلك كذلك؛ فمعلوم
أن الذين قيل لهم : ( فانكحوا مَا طَابَ لَكُمْ مِّنَ النسآء مثنى
وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ ) هم الذين قيل لهم : ( وَآتُواْ النسآء
، صَدُقَاتِهِنَّ ) وأن معناه : وآتوا من نكحتم من النساء صدقاتهم نحلة
" لأنه قال فى الأول : ( فانكحوا مَا طَابَ لَكُمْ مِّنَ النسآء ) ولم يقل
فأنحكوا " حتى يكون قوله : ( وَآتُواْ النسآء صَدُقَاتِهِنَّ ) مصروفا إلى
أنه معنى به أولياء النساء دون أزواجهن . وهذا أمر من الله لأزواج النساء
المسمى لهن الصداق أن يؤتوهن صدقاتهن والذي نراه أن الخطاب فى الآية
الكريمة يتناول كل من له علاقة بالنساء من الأزواج أو الأولياء وغيرهم من
الاحكام الذين اليهم المرجع في رد الحقوق إلى ذويها ، والضرب على أيدى
المعتدين والطامعين فى حقوق النساء ، وذلك لأن الخطاب من أول السورة موجبة
إلى الأولياء والأزواج فناسب أن يكون الخطاب هنا شاملا لكليهما فإن أعطوهن
عن رضا كان حسنا وإلا أجبرهم الحكام على ذلك .وقوله : ( نِحْلَةً ) منصوب
على الحالية من قوله ( صَدُقَاتِهِنَّ ) أي : منحولة معطاة عن طيب نفس . أو
منصوب على الحالية من المخاطبين . أي آتوهن صدقاتهن ناحلين طيبى النفوس
. بالإعطاء .وفي التعبير عن إيتاء المهور بالنحلة مع كونها واجبة الأداء
لإفادة معنى الإيتاء عن كمال الرضا وطيب الخاطر دون أن يكون لهذه النحلة
مقابل .وقوله - تعالى - ( فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْساً
فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَّرِيئاً ) بيان للحكم فيما إذا تنازل النساء عن شيء
مما أعطوا عن طيب خاطر منهن أى عليكم أيها الرجال أن تدفعوا للنساء مهورهن
مناولة أو التزاما .فإن حدث وتنازل لكم النساء عن شئ من هذه المهور بسماحة
ورضا نفس ، فكلوه أكلا سائغا ، حميد المغبة ، حلال الطعمة ، خاليا من شائبة
الحرام والشبهات :والضمير المجرور في قوله ( مِّنْهُ ) يعود إلى الصدقات أي
المهور .وجئ به مفرداً مذكرا ، لجريانه مجرى اسم الاشارة كأنه قيل : فإن
طابت أنفسهن لكم عن شئ من ذلك المذكور وهو الصدقات فكلوه .قال صاحب الكشاف
وفي الآية دليل على ضيق المسلك في ذلك ووجوب الاحتياط حيث بنى الشطر على :
طيب النفس فقيل : فإن طبن ولم يقل فإن وهبن أو سمحن ، إعلاما بأن المراعى
هو تجافى نفسها عن الموهوب عن طيب خاطر .والمعنى : فإن وهبن لكم شيئا من
الصداق ، وتجافت عنه نفوسهن طيبات لا لحياء عرض لهن منكم أو من غيركم ، ولا
لاضطرارهن إلى الذل من شكاسة أخلاقكم ، وسوء معاشرتكم فكلوه هنيئا مريئا
) وقوله ( نَفْساً ) منصوب على التمييز من الضمير وهو نون النسوة في قوله.
طِبْنَ ) . وهو محول عن الفاعل والأصل فان طابت أنفسهن عن شئ منه فكلوه
وجئ به مفرداً لأن الغرض بيان الجنس والواحد يدل عليه كقولك : عندى عشرون.
درهما . والمراد بالأكل في قوله ( فَكُلُوهُ ) مطلق التصرف والانتفاع
) وإنما خص الأكل بالذكر ، لأنه معظم وجوده التصرفات المالية .وقوله.
هَنِيئاً مَّرِيئاً ) حالان من الضمير المنصوب في قوله ( فَكُلُوهُ ) أو
منصوبان على أنهما نعت لمصدر محذوف . أي فكلوه أكلا هنيئا مريئا . وهما
صفتان من هنؤ الطعام ومرؤ . يقال : هنؤ الطعام وهنئ هناءة . إذا كان سائغا
- لاتنغيص فيه . وقيل الهنئ ما أناك بلا مشقة ولا تبعة .ويقال مرأ الطعام
بتثليث الراء - مراءة فهو مرئ ، إذا كان حميد المغبة والمراد المبالغة في
تحليل ما يأتيهم من نسائهم عن طيب خاطر منهن ، فقد كانوا يتأثمون من أخذ شئ
من مهور نسائهم ، فقال الله - تعالى - لهم : إن طابت نفوسهن بالتنازل عن شئ
من مهورهن لكم فكلوه هنيئا مريئا ، لأنه حلال خالص من الشوائب .هذا ، ومن

الأحكام التي أخذها العلماء من هذه الآية الكريمة : أنه لا بد في النكاح من صداق يعطى للمرأة سواء أسمى ذلك في العقد أم لم يسم . قال القرطبي : وهو مجمع عليه ولا خلاف عليه .ومنها : أن هذا الصداق ملك لها ، ومن حقها أن تتصرف فيه بما شاءت . ولم تفصل الآية بين أن تقبضه أولا . ولذا قال بعض : الفقهاء . لها أن تبيع مهرها قبل أن تقبضه لأنه ملك بلا عوض وقال آخرون ليس لها أن تبيعه حتى تقبضه لنهيه صلى الله عليه وسلم عن بيع ما لم يقبض ومنها أنه يجوز للمرأة أن تعطى زوجها - برضها واختيارها - مهرها أو جزاءاً. . منه سواء أكان مقبوضا معينا أم كان في الذمة .فشمل ذلك الهبة والإبراء وأنه ليس من حقها الرجوع فيما أعطت لأنها قد طابت نفسها بذلك . وهذا رأى جمهور العلماء . ويرى بعض العلماء أن من حقها الرجوع فيما أعطت .قال الفخر الرازى : قال بعض العلماء : إن وهبت ثم طلبت بعد الهبة علم أنها لم تطب عنه نفسا . وعن الشعبى : أن أمرأة جاءت مع زوجها الى شريح القاضى فى عطية أعطتها إياه . وهي تطلب الرجوع . فقال شريحك رد عليها عطيتها . فقال الرجل أليس قد قال الله - تعالى - : ( فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ : نَفْساً فَكُلُوهُ ) ؟ فقال شريح : لو طابت نفسها لما رجعت فيه .وعن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أنه كتب إلى قضائه . أن النساء يعطين رغبة ورهبة . فأيما امرأة اعطت ثم ارادت أن ترجع فذلك لها .

ولا تؤتوا السفهاء اموالكم التي جعل الله لكم قياما وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا

كما فسرها الوسيط ثم نهى - سبحانه - عن إيتاء الأموال للسفهاء ، لدفع توهم إيجاب أن يؤتى كل مال لمالكه ولو كان سفيها فقال تعالى : ( وَلاَ تُؤْتُواْ السفهآء . . . ) .والسفهاء جمع سفيه . والسفه - كما يقول الراغب - : خفة في ، البدن ، ومنه قيل : زمام سفيه أى كثير الأضطراب ، وثوب سفيه ردئ النسج ، واستعمل في خفة النفس لنقصان العقل ، ويكون في الأمور الدنيوية والأخروية قال - تعالى - في السفه الدنيوي : ( وَلاَ تُؤْتُواْ السفهآء أَمْوَالَكُمُ وقال في السفه الأخروي ( وَأَنّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى الله ( شَطَطاً ) والمراد من السفهاء هنا : ضعفاء العقول والأفكار الذين لا يحسنون التصرف .والمراد من قوله ( قِيَاماً ) ما به القيام والتعيش . يقال فلان قيام أهله : أي يقيم شأنهم ويصلهم . وهو المفعول الثاني لجعل . أما المفعول الأول لجعل فمحذوف ويرجع إلى ضمير الأموال .وقرأ نافع وابن عامر ( التي ) جَعَلَ الله لَكُمْ قيماً ) على أنه مصدر مثل الحول والعوض .وقرأ ابن عمر قواما ) - بكسر القاف وبواو وألف -قال الآلوسي : وفيه وجهان :الأول : أنه مصدر قاومت قواما مثل لاوذت لواذا فصحت الواو في المصدر كما صحت في الفعل والثاني : أنه اسم لما يقوم به الأمر وليس بمصدر .هذا ، وقد اختلف. المفسرون في تعيين المخاطبين بقوله - تعالى - ( وَلاَ تُؤْتُواْ السفهآء أَمْوَالَكُمُ ) كما اختلفوا في المراد من السفهاء على أقوال أشهرها :أن المخاطبين بهذه الآية هم أولياء اليتامى ، وأن المراد من السفهاء هم ، اليتامى الذين لم يحسنوا التصرف في أموالهم لصغرهم أو لضعف عقولهم واضطراب أفكارهم . وأن المراد بالأموال فى قوله ( أَمْوَالَكُمُ ) هي أموال هؤلاء اليتامى لا أموال الأولياء .فيكون المقصود من الاية الكريمة نهى الأولياء عن إيتاء السفهاء من اليتامى أموالهم التي جعلها الله مناط تعيشهم خشية إساءة التصرف فيها لخفة أحلامهم .وإنما أضيفت الأموال في الآية ، الكريمة إلى ضمير المخاطبين وهم الأولياء ، مع أن هذه الأموال في الحقيقة لليتامى :للتنبيه إلى أن أموال اليتامى كأنها عين أموالهم ، مبالغة في حملهم على وجوب حفظها وصيانتها من أى إتلاف أو إضرار بها .قال الفخر الرازى - ما ملخصه : والدليل على أن الخطاب في الآية الكريمة للأولياء قوله تعالى - بعد ذلك ( وارزقوهم فِيهَا واكسوهم ) وأيضا فعلى هذا القول يحسن تعليق هذه الآية بما قبلها فكأنه - تعالى - يقول إنى وإن كنت أمرتكم بإيتاء اليتامى أموالهم . فإنما قلت ذلك إذا كانوا عاقلين بالغين متمكنين من حفظ أموالهم ، فأما إذا كانوا غير بالغين أو غير عقلاء ، أو إن كانوا بالغين عقلاء إلا أنهم كانوا سفهاء مسرفين ، فلا تدفعوا إليهم أموالهم وأمسكوها لأجلهم إلى أن يزول عنهم السفه . والمقصود من كل ذلك الاحتياط في حفظ أموال الضعفاء والعاجزين .وقيل : إن الخطاب في الآية الكريمة للأباء ، والمراد من السفهاء الأولاد الذين لا يستقلون بحفظ المال وإصلاحه ، بل إذا أعطى لهم أفسدوه وأتلفوه .وعلى هذا الرأى تكون إضافة الأموال الى المخاطبين على سبيل الحقيقة .ويكون المعنى :لا تؤتوا أيها الأباء أموالكم لأولادكم السفهاء؛ لأن فى إعطائكم إياهم لهم إفسادا لهم مع أن فيها قوام حياتكم وصلاح أحوالكم والذى نراه أن الخطاب في الآية الكريمة لجميع المكلفين حاكمين ومحكومين. ليأخذ كل من يصلح لهذا الحكم حظه من الامتثال . وأن المراد بالسفهاء كل من لا يحسن المحافظة على ماله لصغره ، أو لضعف عقله ، أو لسوء تصرفاته سواءً أكان من اليتامى أم من غيرهم؛ لأن التعميم في الخطاب وفي الألفاظ - عند عدم وجود المخصص - أولى ، لأنه أوفر معنى ، وأوسع تشريعا .وفي إضافة الأموال

إلى جميع المخاطبين المكلفين من المسلمين إشارة بديعة إلى أن المال المتداول بينهم هو حق لمالكية المختصين به في ظاهر الأمر ، ولكنه عند التأمل تلوح فيه حقوق الأمة جمعاء؛ لأن وضعه في المواضع التي أمر الله بها منفعة للأمة كلها ، وفي وضعه في المواضع التي نهى الله عنها مضمرة بالأمة كلها ، وتعاليم الإسلام التي تجعل المسلمين جميعا أمة واحدة متكافلة - متراحمة تعتبر مصلحة كل فرد من أفرادها عين مصلحة الآخرين .وبعد أن نهى سبحانه - عن إيتاء المال للسفهاء ، أمر بثلاثة أشياء ، أولها وثانيها قوله - تعالى - ( وارزقوهم فِيهَا واكسوهم ) .أي اجعلوا هذه الأموال مكانا لرزقهم وكسوتهم ، بأن تتجروا فيها حتى تكون نفقاتهم من الأرباح لا من أصل لئلا يفنيه الإنفاق منه .وإنما قال : ( وارزقوهم فِيهَا ) ولم يقل " منها ؛ لئلا يكون ذلك أمراً بأن يجعلوا بعض أموالهم رزقا لهم ، بل أمرهم أن" يجعلوا أموالهم مكانا لرزقهم بأن يتجروا فيها ويستثمروها فيجعلوا أرزاقهم ) : - من الأرباح لا من أصول الأموال .أما الأمر الثالث فهو قوله - تعالى وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً ) .والقول المعروف هو كل ما تسكن إليه النفس لموافقته للشرع والعقول السليمة ، كأن يكلموهم كلاما لينا تطيب به نفوسهم ، وكأن يعدوهم عدة حسنة بأن يقولوا لهم : إذا صلحتم ورشدتم سلمنا أموالكم . وكأن ينصحوهم بما يصلحهم ويبعدهم عن السفه وسوء التصرف .وفى أمره - سبحانه - للمخاطبين بأن يقولوا لهؤلاء السفهاء قولا معروفا ، بعد أمره لهم برزقهم وكسوتهم ، إشعار بأن من الواجب عليهم أن يقدموا إليهم الرزق والكسوة مصحوبين بوجه طلق ، وبقول جميل بعيد عن المن والأذى ، فقد جرت عادة من تحت يده المال أن يستثقل إخراجه لمن سأله إياه .هذا ، ومن الأحكام التي أخذها العلماء من هذه الآية الكريمة : وجوب المحافظة على الأموال وعدمت تضييعها .قال صاحب الكشاف : وكان السلف يقولون : المال سلاح المؤمن . ولأن أترك مالا يحاسبنى الله عليه ، خير من أن أحتاج إلى الناس . وعن سفيان - وكانت له بضاعة يقبلها - : لولاها لتمندل بى بنو العباس - أي لولاها لأتخذوني كالمنديل يسخروننى لمصالحهم - وقيل لأبى الزناد : لم تحب الدراهم وهى تدنيك من الدنيا؟ فقال : لئن أدنتنى من الدنيا فقد صانتنى عنها وكانوا يقولون : اتجروا واكتسبوا فإنكم في زمان إذا احتاج أحدكم كان أول ما يأكل دينه . وربما رأوا رجلا في جنازة ، فقالوا له : اذهب إلى دكانك وقال بعض العلماء : ولنقف عند قوله - تعالى - ( وَلاَ تُؤْتُواْ السفهآء أَمْوَالَكُمُ التي جَعَلَ الله لَكُمْ قِيَاماً ) لنعلم ما يوحى به من "تكافل الأمة ومسئولية بعضها عن بعض . ومن أن المال الذى في يد بعض الأفراد قوام للجميع " ينتفعون به في المشروعات العامة ، ويفرجون به أزماتهم وضائقاتهم الخاصة عن طريق الزكاة ، وعن طريق التعاون وتبادل المنافع . وهذا هو الوضع المال في نظر الشريعة الإسلامية ، فليس لأحد أن يقول : مالى مالى هو مالى وحدى لا ينتفع به سواى ، ليس أحد أن يقول هذا أو ذاك . فالمال . مال الجميع ، والمال مال الله ، ينتفع به الجميع عن الطريق الذى شعره الله في سد الحاجات ودفع الملمات . وهو ملك لصاحبه يتصرف فيه لا كما يشاء ويهوى بل كما رسم الله وبين في كتابه ، حتى إذا ما أخل بذلك فأسرف وبذر أو ضن : وقتر حجر عليه .كذلك من الأحكام التي أخذها العلماء من هذه الآية الكريمة وجوب الحجر على السفهاء ، لأن الله - تعالى - قد أمر بذلك . ووجوب إقامة الوصى والولى والكفيل على الأيتام الصغار ومن فى حكمهم ممن لا يحسنون التصرف .

وابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح فان انستم منهم رشدا فادفعوا اليهم اموالهم ولا تاكلوها اسرافا وبدارا ان يكبروا ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فلياكل بالمعروف فاذا دفعتم اليهم اموالهم فاشهدوا عليهم وكفى بالله حسيبا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - الوقت الذى يتم فيه تسليم أموال اليتامى إليهم ، وكيف تجب حياطتهم والعناية بهم وبأموالهم فقال - تعالى - : وقوله - تعالى - ( وابتلوا ) من الابتلاء بمعنى. ( . . . وابتلوا اليتامى ) الاختبار والامتحان .والخطاب للأولياء والأوصياء وكل من له صلة باليتامى ) : - والمراد ببلوغ النكاح هنا : بلوغ الحكم المذكور في قوله - تعالى. ) وَإِذَا بَلَغَ الأطفال مِنكُمُ الحلم فَلْيَسْتَأْذِنُواْ ) وقوله آنَسْتُمْ ) أى تبينتم وشاهدتم وأحسستم .قال القرطبي : ( آنَسْتُمْ ) أى أبصرتم ورأيتم ومنه قوله - تعالى - : ( فَلَمَّا قضى مُوسَى الأجل وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطور نَاراً ) أى أبصر ورأى . وتقول العرب : اذهب فاستأنس هل ترى أحدا . معناه : تبصر . وقيل : آنست وأحسست ووجدت بمعنى واحد .والمعنى : عليكم أيها الأولياء والأوصياء أن تختبروا اليتامى ، وذلك بتتبع أحوالهم في الاهتداء إلى ضبط الأمور ، وحسن التصرف في الأموال وبتمرينهم على ما يليق بأحوالهم حتى لا يجيء وقت بلوغهم إلا وقد صاروا فى ) قدرتهم أن يصرفوا أموالهم تصريفاً حسناً . فإن شاهدتم وأحسستم منهم رُشْداً ) أى صلاحا في عقولهم ، وحفظا لأموالهم ، فادفعوها إليهم من غير

تأخير أو مماطلة .و ( حتى ) هنا لغاية ، وهى داخلة على الجملة ، فهى تبين
نهاية الصغر ، والجملة التي دخلت عليها ظرفية فى معنى الشرط .قال صاحب
) : الكشاف : فإن قلت : كيف نظم الكلام؟ قلت : ما بعد ( حتى ) إلى قوله
فادفعوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ) جعل غاية للابتلاء ، وهى ( حتى ) التى
تقع بعدها الجمل . والجملة الواقعة بعدها جملة شرطية ، لأن إذا متضمنة معنى
الشرط . وفعل الشرط ( بَلَغُواْ النِّكَاحَ ) وقوله ( فَإِنْ آنَسْتُمْ
مِّنْهُمْ رُشْداً فادفعوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ) جملة من شرط وجزاء
واقعة جواباً للشرط الأول الذى هو إذا بلغوا النكاح . فكأنه قيل : وابتلوا
اليتامى إلى وقت بلوغهم ، فاستحقاقهم دفع أموالهم إليهم بشرط إيناس الرشد
منهم .فإن قلت : فما معنى تنكير الرشد؟ قلت : معناه نوعا من الرشد وهو
الرشد في التصرف والتجارة . أو طرفا من الرشد ومخيلة من مخايلة حتى لا
ينتظر به تمام الرشد .ثم نهى - سبحانه - والأوصياء وغيرهم من الطمع فى شئ
من مال اليتامى فقال - تعالى - :( وَلاَ تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافاً
وَبِدَاراً أَن يَكْبَرُواْ ) .أى : ادفعوا أيها الأولياء والأوصياء إلى
اليتامى أموالهم من غير تأخير عن حد البلوغ ، ولا تأكلوها مسرفين فى الأكل
ومبادرين بالأخذ خشية أن يكبروا ، بأن تفرطوا فى إنفاقها وتقولوا : ننفقها
- كما تريد قبل أن يكبر اليتامى فينتزعوها من أيدينا .والإسراف فى الأصل
كما يقول الآلوسى - تجاوز الحد المباح إلى ما لم يبح . وربما كان ذلك في
: الإفراط وربما كان في التقصير . غير أنه إذا كان فى الإفراط منه يقال
) أسرف يسرف إسرافا . وإذا كان في التقصير يقال : سرف يسرف سرفا .وقوله
- وَبِدَاراً ) مفاعلة من البدر وهو العجلة الى الشئ والمسارعة إليه . وهما
) أى قوله ( إِسْرَافاً وَبِدَاراً ) منصوبان على الحال من الفاعل فى قوله
تَأْكُلُوهَآ ) أى : ولا تأكلوها مسرفين ومبادرين كبرهم .أو منصوبان على
أنهما مفعول لأجله ، أى ولا تأكلوها لإسرافكم ومبادرتكم كبرهم .والمراد من
هذه الجملة الكريمة بيان أشنع الأحوال التى تقع من الأوصياء أو الأولياء
، وهى أن يأكلوا أموال اليتامى بإسراف وتعجل مخافة أن يبلغ الأيتام رشدهم
فتؤخذ من أولئك الأوصياء تلك الأموال لترد : إلى أصحابها وهم اليتامى بعد
أن يبلغوا سن الرشد .ثم بين - سبحانه - ما ينبغى على الوصي إن كان غنيا وما
ينبغي له إن كان فقيراً فقال :( وَمَن كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ
. وَمَن كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ) .والاستعفاف عن الشئ تركه
يقال : عف الرجل عن الشئ واستعف إذا أمسك عنه . والعفة : الامتناع عما لا
يحل .أى : ومن كان من الأولياء أو الأوصياء على أموال اليتامى غنيا
فليستعفف أي فليتنزه عن أكل مال اليتيم ، وليقنع بما أعطاه الله من رزق
وفير إشفاقا على مال اليتيم . ومن كان فقيراً من هؤلاء الأوصياء فليأكل
بالمعروف . بأن يأخذ من مال اليتيم على قدر حاجته الضرورية وأجر سعيه
وخدمته له . فقد روى أبو داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده " أن رجلاً
أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إنى فقير ليس لى شئ ولى يتيم . قال
فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : كل من مال يتيمك غير مسرف ولا مبادر
ولا متأثل . أي غير مسرف في الأخذ ، ولا مبادر أى متعجل ، ولا جامع منه ما
يتجاوز حاجتك . "ثم بين - سبحانه - ما ينبغى على الأوصياء عند انتهاء
وصايتهم على اليتامى وعند دفع أموالهم إليهم فقال : ( فَإِذَا دَفَعْتُمْ
إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ وكفى بالله حَسِيباً )
أى : فإذا أردتم أيها الأولياء أن تدفعوا إلى اليتامى أموالهم التى تحت .
أيديكم بعد البلوغ والرشد ، فاشهدوا عليهم عند الدفع بأنهم قبضوها وبرئت
عنها ذممكم ، لأن هذا الإشهاد أبعد عن التهمة ، وأنفى للخصومة ، وأدخل في
الأمانة وبراءة الساحة .وقوله - تعالى - ( وكفى بالله حَسِيباً ) أى كفى
بالله محاسبا لكم على أعمالكم وشاهدا عليكم فى أقوالكم وأفعالكم ، ومجازيا
إياكم بما تستحقون من خير أو شر ، لأنه - سبحانه -لا تخفى عليه خافية في
الأرض ولا في السماء . وإنكم إن أفلتم من حساب الناس في الدنيا فلن تفلتوا
من حساب الله الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، فعليكم أن تتحروا
، الحلال في كل تصرفاتكم . ففى هذا التذييل وعيد شديد لكل جاحد لحق غيره
ولكل معتد على اموال الناس وحقوقهم ، ولا سيما اليتامى الذين فقدوا الناصر
والمعين .هذا ، وقد أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة جملة من الأحكام منها
أن على الأوصياء أن يختبروا اليتامى بتتبع أحوالهم فى الاهتداء إلى ضبط -1:
الأموال وحسن التصرف فيها ، وأن يمرنوهم على ذلك بحسب ما يليق بأحوالهم
ويرى جمهور العلماء أن هذا الاختبار يكون قبل البلوغ . ويرى بعضهم أن هذا.
الاختبار يكون بعد البلوغ .وقد قال القرطبى فى بيان كيفية هذا الاختبار ما
ملخصه :لا بأس فى أن يدفع الولى إلى اليتيم شيئا من ماله يبيح له التصرف
فيه ، فإن نماه وحسن النظر فيه فقد وقع الاختبار ، ووجب على الوصى تسليم
جميع ماله إليه - أى بعد بلوغه - وإن أساء النظر وجب عليه إمساك المال عنه
، وقال جماعة من الفقهاء : الصغير لا يخلو من أن يكون غلاما او جارية. .
فإن كان غلاما رد النظر إليه في نفقة الدار شهرا ، وأعطاه شيئا نزرا ليتصرف
فيه؛ ليعرف كيف تدبيره وتصرفه ، وهو مع ذلك يراعيه لئلا يتلفه ، فإذا رآه
متوخيا الإصلاح سلم إليه مال عند البلوغ وأشد عليه .وإن كان جارية رد إليها

ما يرد إلى ربة البيت من تدبير بيتها والنظر فيه فإن رآها رشيدة سلم إليها مالها وأشد عليها وإلا بقيا تحت الحجر .وقد بنى الإمام أو بحنيفة على هذا الاخبار أن تصرفات الصبى العاقل المميز بإذن المولى صحيحة ، لأن ذلك الاختبار إنما يحصل إذا أذن له الولى في البيع والشراء - مثلا - وهذا يقتضى صحة تصرفاته .ويرى الإمام الشافعى أن الاختبار لا يقتضى الإذن فى التصرف ولا يتوقف عليه ، بل يكون الاختبار بدون التصرف على حسب ما يليق بحال الصبى فابن التاجر - مثلا - يختبر فى البيع والشراء إلى حيث يتوقف الأمر على العقد وحينئذ يعقد الولى إن أراد .2- كذلك أخذ العلماء من هذه الآية أن الأوصياء لا يدفعون أموال اليتامى إليهم إلا بتحقيق أمرين :أحدهما : بلوغ النكاح .والثانى : إيناس الرشد .والمراد ببلوغ النكاح بلوغ وقته وهو التزوج وهو كناية عن الخروج من حالة الصبا للذكر والأنثى ، بأن توجد المظاهر ، التى تدل على الرجولة في الغلام ، والتى تدل على مبلغ بلوغ النساء فى الفتاة ، وذلك يكون بالاحتلام أو بالحيض بالنسبة للفتاة أو بلوغ سن معينة قدرها بعضهم بخمس عشرة سنة بالنسبة للذكر والأنثى على السواء .وقدرها أبو حنيفة بسبع عشرة سنة بالنسبة للفتاة ، وبثمانى عشرة سنة بالنسبة للفتى . ومن بلاغة القرآن الكريم أنه عبر عن حالة البلوغ بقوله : ( حتى إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ ) لأن هذا الوقت يختلف باختلاف البلاد في الحرارة والبرودة ، وباختلاف أمزجة أهل البلد الواحد فى القوة والضعف ، والصحة والمرض .والمراد بإيناس الرشد : أن يتبين الأولياء من اليتامى الصلاح في العقل والخلق والتصرف فى الأموال .ويرى جمهور العلماء أن اليتيم لا يدفع إليه ماله مهما بلغت سنة ما لم يؤنس منهم الرشد لأن الله - تعالى - يقول ): ( وَلاَ تُؤْتُواْ السفهآء أَمْوَالَكُمُ التي جَعَلَ الله لَكُمْ قِيَاماً ويقول : ( فَإِنْ آنَسْتُمْ مِّنْهُمْ رُشْداً فادفعوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ) ومعنى ذلك أنه إذا لم يؤنس منهم الرشد لا تدفع إليهم أموالهم ، بل يستمرون تحت ولاية الأولياء عليهم لأنهم ما زالوا سفهاء لم يتبين رشدهم .وقد خالف الإمام أبو حنيفة جمهور الفقهاء فقال . لا يدفع إلى اليتيم ماله إذا بلغ ولم يؤنس منه الرشد حتى يبلغ خمسا وعشرين سنة ، فإذا بلغها عاقلا ولو غير رشيد فليس لأحد عليه سبيل ، ويجب أن يدفع الوصى إليه ماله ولو كان فاسقا أو مبذرا .قالوا : وإنما اختبار أبو حنيفة هذه السن لأن مدة بلوغ الذكر عنده ثمانى عشر سنة ، فإذا زيد عليها سبع سنين - وهى مدة معتبرة في تغير أحوال الإنسان - فعند ذلك يدفع إليه ماله أونس منه الرشد - أو لم يؤنس ، لأن اسم الرشد واقع على العقل في الجملة ، والله - تعالى شرط رشدا منكرا ولم يشترط سائر ضروب الرشد ، فاقتضى ظاهر الآية أنه لما حصل العقل فقد حصل ما هو الشرط المذكور في هذه الآية .3- كذلك أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة الوصى على اليتيم إذا كان غنيا فعليه أن يتحرى العفاف . وألا يأخذ شيئا من مال اليتيم ، لأن أخذه مع غناه يتنافى مع العفاف الذى يجب أن يتحلى به الأوصياء ، ويعتبر من باب الطمع في مال اليتيم .أما إذا كان الوصى فقيراً فقد أذن الله له أن يأكل من مال اليتيم بالمعروف أي بالقدر الذى تقتضيه حاجته الضرورية ، ولا يستنكره الشرع ولا العقل .وقد بسط الإمام الرازى القول فى هذه المسألة فقال ما ملخصه : العلماء فى أن الوصى هل له أن ينتفع بمال اليتيم أولا؟فمنهم من يرى أن للوصى أن يأخذ من مال اليتيم بقدر أجر عمله؛ لأن قوله - تعالى - (وَلاَ تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافاً مشعر بأن له أن يأكل بقدر الحاجة ، ولأن قوله - تعالى - ( إِنَّ الذين ( يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ اليتامى ظُلْماً ) يدل على أن مال اليتيم قد يؤكل ظلما وغير ظلم ،ولو لم يكن ذلك لم يكن لقوله ( إِنَّ الذين يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ اليتامى ظُلْماً ) فائدة . فهذا يدل على أن للوصى المحتاج أن ياكل من ماله بالمعروف . ولن الوصى لما تكفل بإصلاح مهمات الصبى وجب أن يتمكن من أن يأكل من ماله بقدر عمله قياسا على الساعى فى أخذ الصدقات وجمعها؛ فإن يضرب له فى تلك الصدقات بسهم فكذا ههنا .ومنهم من يرى أن له يأخذ بقدر ما يحتاج إليه من مال اليتيم قرضا ، ثم إذا أيسر قضاه ، وإن مات ولم يقدر على القضاء بأن كان معسرا فلا شئ عليه .ويشهد لهذا الرأى قول عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - : إنى أنزلت نفسى من هذا المال منزلة والى اليتيم .إن استغنيت استعففت . وإن احتجبت استقرضت . فإذا ايسرت قضيت .4- كذلك من الأحكام التي أخذها العلماء من هذه الآية أن على الأوصياء عندما يدفعون أموال اليتامى إليهم أن يشهدوا على دفعها ، منعا للخصومات والمنازعات ، وإبراء لذمة الأوصياء ولكى يكون اليتامى على بينة من أمرهم وقد اختلف العلماء في أن الوصى إذا ادعى بعد بلوغ اليتيم أنه قد دفع إليه. ماله هل يصدق؟ وكذلك إذا قال : أنفقت عليه فى صغره هل يصدق؟أما الشافعية والمالكية والحنابلة فيرون أنه لا يصدق؛ لأن الآية الكريمة تقول ) : ( فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ وقوله ( فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ ) أمر . وظاهر الأمر أنه للوجوب . وليس معنى الوجوب هنا أنه يأثم إذا لم يشهد . بل معناه أن الاشهاد لا بد منه فى براءة ذمته بأن يدفع له ماله أمام رجلين أو رجل وامرأتين حتى إذا دفع المال ولم يشهد ثم طالبه اليتيم فحينئذ يكون القول ما قاله اليتيم بعد أن يقسم

على أن الوصى لم يدفع إليه ماله .ويرى الإمام أبو حنيفة أن الأمر فى
قوله - قوله - ( فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ ) للندب . وأن الوصى إذا ادعى
ذلك يصدق ويكتفى فى تصديقه بيمينه؛ لأنه أمين لم تعرف خيانته ، إذ لو عرفت
خيانته لعزل . والأمين يصدق باليمين إذا كان هناك خلاف بينه وبين من ائتمنه
ولأن قوله - تعالى - بعد ذلك ( وكفى بالله حَسِيباً ) يؤيد أن البينة .
ليست لازمة؛ إذ معناه أنه لا شاهد أفضل من الله - تعالى - فيما بينكم
وبينهم .ثم شرع - سبحانه - فى بيان أحكام المواريث بعد أن بين الأحكام التى
تتعلق بأموال اليتامى فساق - قاعدة عامة لأصل التوريث فى الإسلام هى أن
الرجال لا يختصون بالميراث ، بل للنساء معهم حظ مقسوم ، ونصيب مفروض ، سواء
. . أكان الشئ الموروث قليلا أم كثيرا فقال تعالى : ( لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ
. ) .

للرجال نصيب مما ترك الوالدان والاقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان
والاقربون مما قل منه او كثر نصيبا مفروضا

كما فسرها الوسيط قال القرطبى ما ملخصه : نزلت هذه الآية فى أوس بن ثابت
الأنصارى . توفى وترك امرأة يقال لها : أم كُجّة وثلاث بنات له منها؛ فقام
رجلان هما أبنا عم الميت ووصياه يقال لهما : سويد وعرفجة؛ فأخذا ماله ولم
يعطيا أمرأته وبناته شيئا . وكانوا فى الجاهلية لا يورثون النساء ولا
الصغير وإن كان ذكرا ويقولون :لا يعطى إلا من قاتل على ظهور الخيل ، وطاعن
بالرمح ، وضارب بالسيف ، وحاز الغنيمة . فذكرت أم كجة ذلك لرسول الله صلى
الله عليه وسلم . فدعاهما فقالا : يا رسول الله ، ولدها لا يركب فرسا ، ولا
يحمل كلا ، ولا ينكأ عدوا . فقال صلى الله عليه وسلم : " انصرفا حتى أنظر
ما يحدث الله لى فيهن ، فأنزل الله هذه الآية .ثم قال : قال علماؤنا : فى
: هذه الآية فوائد ثلاث :إحداها : بيان علة الميراث وهى القرابة .الثانية
عموم القرابة كيفما تصرفت من قريب أو بعيد .الثالثة : إجمال النصيب المفروض
وذلك مبين فى آية المواريث؛ فكأن هذه الآية توطئة للحكم ، وإبطال لذلك .
الرأى الفاسد حتى وقع البيان الشافى " .هذا ، ومن العلماء من أبقى هذه
. الآية الكريمة على ظاهرها ، فجعل المراد من الرجال : الذكور البالغين
والمراد من الوالدين : الأب والأم بلا واسطة المراد من الأقربين : الأقارب
الأموات الذين يرثهم أقاربهم المستحقون لذلك والمراد من النساء الإناث
البالغات .والمعنى على هذا الرأى : للذكور البالغين نصيب أى حظ مما ترك
آباؤهم وأمهاتهم وأقاربهم كإخوتهم وأخواتهم وأعمالهم وعماتهم وللاناث
البالغات كذلك نصيب مما ترك آباؤهن وأمهاتهن وأقاربهن . . . ألخ .وبهذا
تكون الآية الكريمة قد اقتصرت على بيان أن الإرث غير مختص بالرجال كما كان
الجاهليون يفعلون ، بل هو أمر مشترك بين الرجال والنساء ، ثم جاءت آيات
- المواريث بعد ذلك فبينت نصيب كل وارث .قال الإمام الرازى : ذكر الله
تعالى - فى هذه الآية هذا القدر ، وهو أن الإرث مشترك بين الرجال
- والنساء - ثم ذكر التفصيل بعد ذلك - فى آيات المواريث - ، لأنه - سبحانه
أراد أن ينقلهم عن العادة شاق ثقيل على الطبع . فإذا كان فجعلة عظم وقعه
- على القلب ، وإذا كان على التدريج سهل . فهلذا المعنى ذكر الله - تعالى
هذا المجمل أولا ثم أردفه بالتفصيل ومن العلماء من يرى أن المراد بالرجال
الصغار من الذكور ومن النساء الصغار من الإناث ، وعلل مراده هذا بأن فيه
عناية بشأن اليتامى ، وفيه رد صريح على ما تعوده أهل الجاهلية من توريث
الكبار من الرجال دون الصغار سواء أكانوا ذكورا أم إناثا . ومنهم من عمهم
فى الرجال والنساء فجعل المراد من الرجال الذكور مطلقا سواء أكانوا كبارا
أم صغارا .وجعل المراد من النساء الإناث مطلقا سواء كان كباراً أم صغاراً
، ويكون المعنى : للذكور نصيب مما تركه الوالدان والأقربون من متاع.
وللإناث كذلك نصيب مما تركه الوالدان والأقربون .وعليه يكون المقصود من
الآية الكريمة التسوية بين الذكور والإناث فى أن لكل منهما حقا فيما ترك
الوالدان والأقربون .ويبدو لنا أن هذا الرأى الثالث أولى ، لأنه أعم من
غيره ، وأشمل فى الرد على ما كان يفعله أهل الجاهلية من عدم توريثهم للنساء
مطلقا ولا للصغار وإن كانوا ذكوراً ، ولأنه يشمل سبب نزول الآية نصا ، فقد
- ذكرنا فى سبب النزول أنها نزلت فى شأن بنات أوس بن ثابت وزوجته .وقد أكد
) : سبحانه - حق النساء فى الميراث بأن اختار هذا الأسلوب التفصيلى فقال
لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الوالدان والأقربون وَلِلنِّسَآءِ
نَصِيبٌ ) مع أنه كان يكفى أن يقول : للرجال والنساء نصيب ، مما ترك
الوالدان والأقربون ، وذلك للإيذان بأصالتهن فى استحقاق الارث ، وللإشعار
بأنه حق مستقل عن حق الرجال ، وأن هذا الحق قد ثبت لهن استقلالا بالقرابة
كما ثبت للرجال ، حتى لا يتوهم أحد أن حقهن تابع لحقهم بأى نوع من أنواع
التبعية .ثم أكد - سبحانه هذا الحق مرة أخرى بقوله ( مِمَّا قَلَّ مِنْهُ
أَوْ كَثُرَ ) أى أن حق النساء ثبات فيما تكره المتوفى من مال لسواء أكان
هذا المتروك قليلاً أم كثيراً ، لأن الذكور والإناث يتساويان فى أن لكل
منهما حقا فيما ترك الوالدان والأقربون حتى ولو كان هذا المتروك شيئاً

) قليلا .فقوله ( مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ) عطف بيان من قوله
مِّمَّا تَرَكَ الوالدان ) لقصد التعميم والتنصيص على أن حق النساء متعلق
بكل جزء من المال الذى تركه الوالدان والأقربون ثم أكد - سبحانه - حق
) النساء فى الميراث مرة ثالثة بقوله ( نَصِيباً مَّفْرُوضاً ) لأن قوله
نَصِيباً ) منصوب على الاختصاص والاختصاص يفيد العناية .أى أن لكل من
الرجال والنساء نصيبا فيما تركه الوالدان والأقربون ، وهذا النصيب قد فرضه
الله - تعالى - فلا سبيل إلى التهاون فيه ، بل لا بد من إعطائه لمن يستحقه
كاملا غير منقوص؛ لأن الله هو الذى شرعه ، ومن خالف شرع الله كان أهلا
للعقوبة منه - سبحانه - .قال صاحب الكشاف : وقوله : ( نَصِيباً مَّفْرُوضاً
نصب على الاختصاص بمعنى : أعنى نصيبا مفروضا مقطوعا واجبا لا بد لهم من (
أن يجوزوه ولا يستأثر به بعضهم دون بعض ، ويجوز أن ينتصب انتصاب المصدر
، المؤكد كقوله : ( فَرِيضَةً مِّنَ الله ) كأنه قيل : قسمة مفروضة .هذا
وقد استدل الأحناف بهذه الآية على توريث ذوى الأرحام؛ لأن العمات والخالات
) : وأولاد البنات ونحوهن من الأقربين ، فوجب دخولهم تحت قوله تعالى
لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الوالدان والأقربون وَلِلنِّسَآءِ
نَصِيبٌ ) الآية . وثبت كونهم مستحقين لأصل النصيب بهذه الآية ، وأما
المقدار فمستفاد من آيات أخرى كما هو الشأن فى غيرهم .أما المخالفون
للأحناف فيما ذهبوا إليه فيرون أن المراد من الأقربين الوالدان والأولاد
ونحوهم وحينئذ لا يدخل فيهم ذوو الأرحام . وعلى رأى هؤلاء المخالفين يكون
عطف الأقربين على الوالدين من باب عطف العام على الخاص .كذلك استدل الأحناف
. بهذه الآية على أن الوارث لو أعرض عن نصيبه - قبل استحقاقه - لم يسقط حقه

واذا حضر القسمة اولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم
قولا معروفا

كما فسرها الوسيط ثم أمر الله تعالى عباده بالتعاطف والتراحم ، ولا سيما
عند تقسيم الميراث ، وإعطاء كل ذى حق حقه فقال تعالى : ( وَإِذَا حَضَرَ
القسمة . . . ) .والمراد بالقسمة : التركة التى تقسم بين الورثة .والمراد
بذوى القربى هنا - عند جمهور المفسرين - : الأقارب الذين لا ميراث لهم فى
التركة .والمراد باليتامى والمساكين ، الأجنب الذين لا قرابة بينهم وبين
الورثة .والمعنى : وإذا حضر قسمة التركة ذوو القربى ممن لا نصيب لهم فى
الميراث ، واليتامى الذين فقدوا العائل والنصير ، والمساكين الذين أسكنتهم
الحاجة وأذلتهم وصاروا فى حاجة إلى العون والمساعدة ( فارزقوهم مِّنْهُ )
أى فأعطوهم من الميراث الذى تقتسمونه شيئا يعينهم على سد حاجتهم ، وتفريج
ضائقتهم ( وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً ) أى قولوا لهم قولا
جميلا يرضاه الشرع ، ويستحسنه العقل ، بأن تقولوا لهم - مثلا - : خذوا هذا
الشئ بارك الله لكم فيه ، أو بأن تعتذروا لمن لم تعطوه شيئا .والآية
الكريمة معطوفة على الآية السابقة عليها وهى قوله - تعالى - ( لِّلرِّجَالِ
نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الوالدان والأقربون ) الخ .وليس المراد من حضور ذوى
، القربى واليتامى والمساكين أن يكونوا مشاهدين للقسمة ، جالسين مع الورثة
لأن قسمة الأموال لا تكون عادة فى حضرة هؤلاء الضعفاء ، وإنما المراد من
، حضورهم العلم بهم من جانب الذين يقتسمون التركة ، والدراية بأحوالهم
وأنهم فى حاجة إلى العون والمساعدة .وقدم ذوى القربى على اليتامى والمساكين
لأنهم أولى بالصدقة لقرابتهم ، ولأن إعطاءهم بجانب أنه صدقة ، فهو صلة ،
للرحم التى أمر الله تعالى بصلتها . وقدم اليتامى على المساكين؛ لأن ضعف
اليتامى أكثر ، وحاجتهم أشد .والضمير المجرور فى قوله ( فارزقوهم مِّنْهُ )
يعود إلى ما ترك الوالدان والأقربون . أو إلى القسمة بمعنى المقسوم باعتبار
معناها لا باعتبار لفظها . أى ارزقوهم من هذا الميراث أو المال المقسوم
والأمر فى قوله : ( فارزقوهم ) يرى بعض العلماء أنه للوجوب ، لأنه هو.
المستفاد من ظاهر الأمر ، وعليه فمن الواجب على الوارث الكبير وعلى ولى
الصغير أن يعطيا لذوى القربى واليتامى والمساكين شيئا من المال تطيب به
نفوسهم .ومن أصحاب هذا الرأى من قال : إن من الواجب على الوارث الكبير أن
يعطى هؤلاء المحتاجين شيئا من المال المقسوم . أما إذا كان الورثة صغارا
فعلى الولى أن يعتذر لهؤلاء المحتاجين ، بأن يقول لهم : إنى لا أملك هذا
المال المقسوم ، لأنه لهؤلاء الصغار وعندما يكبرون فسيعرفون لكم حقكم وهذا
هو القول المعروف .ويرى كثير من العلماء أن هذا الأمر بالإعطاء للندب لا
للوجوب ، وأن هذا الندب إنما يحصل إذا كان الورثة كبارا ، أما إذا كانوا
صغارا فليس على أوليائهم إلا القول المعروف .ومن حجج هؤلاء القائلين بأن
هذا الأمر للندب والاستحباب : أنه لو كان لأولئك المحتاجين من ذوى القربى
، واليتامى والمساكين حق معين لبينه الله - تعالى - كما بين سائر الحقوق
وحيث لم يبين علمنا أنه غير واجب .وأيضا لو كان واجبا لتوفرت الدواعى على
نقله؛ لشدة حرص الفقراء والمساكين على تقديره ، ولو كان الأمر كذلك لثبت
نقله إلينا ، ولما لم يكن الأمر كذلك علمنا أنه غير واجب .وقد رجح القرطبى
كون الأمر للندب لا للوجوب فقال : والصحيح أن هذا على الندب؛ لأنه لو كان

، فرضا لكان استحقاقاً فى التركة ومشاركة فى الميراث ، لأحد الجهتين معلوم وللآخر مجهول . وذلك مناقض للحكمة ، وسبب للتنازع والتقاطع .ثم قال : وذهبت فرقة إلى أن المخاطب والمراد فى الآية المحتضرون الذين يقسمون أموالهم بالوصية لا الورثة . فإذا أراد المريض أن يفرض ماله بالوصايا وحضره من لا يرث ينبغى له ألا يحرمه ، وهذا - والله أعلم - يتنزل حيث كانت الوصية واجبة ولم تنزل آية الميراث . والصحيح الأول - وهو أن الآية فى قسمة التركة وأن ، المخاطبين بها هم المقتسمون للتركة - وعليه المعول .هذا ، ومن العلماء من ) : قال : إن هذه الآية قد نسخت بآية المواريث التى بعدها وهى قوله تعالى يُوصِيكُمُ الله في أَوْلاَدِكُمْ ) الخ .وقد حكى هذا القول - أيضا - ورد عليه الإمام القرطبى فقال ما ملخصه : بين الله - تعالى - فى هذه الآية أن من لم يستحق شيئا وحضر القسمة وكان من الأقارب أو اليتامى والفقراء الذين لا يرثون أن يكرموا ولا يحرموا إن كان المال كثيراً؛ والاعتذار إليهم إن كان عقارا أو قليلا لا يقبل الرضخ - أى العطاء القليل - فالآية على هذا القول محكمة . قاله ابن عباس . وامتثل ذلك جماعة من التابعين : عروة بن الزبير وغيره . وأمر به أبو موسى الأشعرى .وروي عن ابن عباس انها منسوخة : قوله تعالى : ( يُوصِيكُمُ الله في أَوْلاَدِكُمْ ) وممن قال إنها منسوخة أبو مالك وعكرمة والضحاك .والأول أصح؛ فإنها مبينة استحقاق الورثة لنصيبهم واستحباب المشاركة لمن لا نصيب له ممن حضرهم .وفى البخارى عن ابن عباس ، أنه قال فى هذه الآية : هى محكمة وليست بمنسوخة .وفى رواية قال : إن ناسا يزعمون أن هذه الآية نسخت ، لا والله ما نسخت ، ولكنها مما تهاون به الناس وقال عبد الرزاق أخبرنا بان جريج أن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر. الصديق قسم ميراث أبيه عبد الرحمن ، وعائشة حية . فلم يدع فى الدار مسكينا ولا ذا قرابة إلا أعطاه من ميراث أبيه وتلا هذه الآية : ( وَإِذَا حَضَرَ القسمة أُوْلُواْ القربى ) . . الخ .والخلاصة ، أن الذي تطمئن إليه النفس هو قول من قال : إن الآية محكمة وليست بمنسوخة ، لأنه أثر عن بعض الصحابة والتابعين أنهم كانوا يفعلون ذلك ويأمرون به . ولأن الروايات القائلة بأنها منسوخة روايات مضطربة ، بخلاف الروايات القائلة بأنها محكمة فهي ثابتة فى صحيح البخارى، ولأن الآية الكريمة لا تتعارض مع آية المواريث لأنها إنما تأمر بما يؤدى إلى التعاطف والتراحم بين الناس ، وهذا أمر لا ينسخ ، بل هو ثابت فى كل زمان ومكان .ونرى كذلك أن الأمر فى قوله ( فارزقوهم مِّنْهُ ) على سبيل الندب والاستحباب ، لا على سبيل الفرض والإيجاب - كما سبق أن بينا - .

وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا

كما فسرها الوسيط ثم أمر الله - تعالى - عباده بتقواه ، وبالتمسك بالأقوال السديدة فقال تعالى : ( وَلْيَخْشَ الذين . . . ) .وللمفسرين فى تفسير هذه الآية الكريمة أقوال :أولها : أن الآية الكريمة أمر للأوصياء بأن يخشوا الله تعالى ويتقوه فى أمر اليتامى ، فيفعلوا بهم مثل ما يحبون أن يفعل بذريتهم الضعاف بعد وفاتهم .فقد أخرج بان جرير عن ابن عباس أنه قال فى قوله تعالى : ( وَلْيَخْشَ الذين لَوْ تَرَكُواْ ) . . . الخ .يعنى بذلك الرجال يموت وله أولاد صغار ضعاف يخاف عليهم العيلة والضيعة ، ويخاف بعده ألا يحسن إليهم من يليهم يقول : فإن ولى مثل ذريته ضعافا يتامى ، فليحسن إليهم ولا يأكل أموالهم إسرافا وبدارا خشية أن يكبروا . .قال الآلوسي : والآية ) : الكريمة على هذا الوجه تكون مرتبطة بما قبلها ، لأن قوله تعالى لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الوالدان والأقربون ) الخ . فى معنى الأمر للورثة . أى أعطوهم حقهم دفعا لأمر الجاهلية ، وليحفظ الأوصياء ما أعطوه ويخافوا عليهم كما يخافون على أولادهم .وعلى هذا الوجه يكون المقصود من الآية الكريمة حض الأوصياء على المحافظة على أموال اليتامى بأبلغ تعبير لأنه سبحانه قد نبههم بحال أنفسهم وذرياتهم من بعدهم ليتصوروها ويعرفوا ، مكان العبرة فيها ، ولا شك أن ذلك من أقوى الدواعى والبواعث فى هذا المقصود؛ لأنه سبحانه كأنه يقول لهم : افعلوا باليتامى الفعل الذى تحبون أن يفعل مع ذرياتكم الضعاف من بعدكم ، فجعل - سبحانه - من شعورهم بالحنان على ذرياتهم باعثا لهم على الحنان على أيتامهم .هذا ، ومن المفسرين الذين استحسنوا هذا القول الإمام ابن كثير ، فقد قال بعد أن حكى هذا القول : وهو قول حسن يتأيد بما بعده من التهديد فى أكل أموال اليتامى ظلما .أما القول الثاني : فيرى أصحابه أن الآية الكريمة أمر لمن حضر المريض من العواد عند الإيصاء بأن يخشوا ربهم؛ فيوصوا المريض فى أولاده خيراً ويشفقوا عليهم كما يشفقون على أولادهم .وقد وضح هذا القول الإمام الرازي فقال : إن هذا خطاب مع الذين يجلسون عند المريض فيقولون له : إن ذريتك لا يغنون عنك من الله شيئا ، فأوص بمالك لفلان وفلان . ولا يزالون يأمرونه بالوصية إلى الأجانب إلى أن لا يبقى من ماله للورثة شئ أصلا . فقيل لهم : كما أنكم تكرهون بقاء أولادكم فى الضعف والجوع من غير مال ، فاخشوا الله ولا تحملا المريض على أن

يحرم أولاده الضعفاء من ماله .وحاصل الكلام أنك لا ترضى مثل هذا الفعل لنفسك ، فلا ترضه لأخيك المسلم . فعن أنس قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : "لا يؤمن العبد حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه " .وقد رجح هذا الوجه : الإمام ابن جرير فقال : وأولى التأويلات بالآية قول من قال : تأويل ذلك وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم العيلة لو كانوا فرقوا أموالهم فى حياتهم ، أوقسموها وصية منهم لأولى قرابتهم ، وأهل اليتيم والمسكنة؛ فأبقوا أموالهم لولدهم خشية العيلة عليهم من بعدهم ، فليأمروا من حضروه - وهو يوصى لذوى قرابته وفى اليتامى والمساكين وفى غير ذلك - بما له بالعدل ، وليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا ، وهو ان يعرفوه ما أباحه الله له من الوصية ، وما اختاره المؤمنون من أهل الإيمان بالله وبكتابه وسنته والقول الثالث : يرى أصحابه أن الخطاب فى الآية للموصين ، وأن الآية. تأمرهم بأن يشفقوا على ورثتهم ، فلا يسرفوا فى الوصية لغيرهم؛ لأن الإسراف فى ذلك يؤدى إلى ترك الورثة فقراء . ولقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبى وقاص : " إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس " .والذى نراه أن الأمر بالخشية من الله يتناول تجميع الأصناف المتقدمة : من الأوصياء ، وعواد المريض ، والموصين وغيرهم من هو - أهل لهذا الخطاب؛ لأن هؤلاء جميعا داخلون تحت الأمر بالخشية من الله ) تعالى - ، وبالقول السديد الذى يحبه سبحانه ويرضاه .وقوله تعالى وَلْيَخْشَ ) فعل مضارع مجزوم بلام الأمر . ومفعوله محذوف لتذهب نفس السامع فى تقديره كل مذهب ، فينظر كل سامع بحسب الاهم عنده مما يخشى أن يصيب ذريته والجملة الشرطية وهى قوله تعالى ( لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ. ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُواْ عَلَيْهِمْ ) صلة للموصول وهو قوله ( الذين ) : وجملة ( خَافُواْ عَلَيْهِمْ ) جواب ( لَوْ ) .قال صاحب الكشاف : فإن قلت ما معنى وقوع ( لَوْ تَرَكُواْ ) وجوابه صلة للذين؟ .قلت : معناه : وليخش الذين صفتهم وحالهم أنهم لو شارفوا أن يتركوا من خلفهم ذرية ضعافا - وذلك عند احتضارهم - خافوا عليهم الضياع بعدهم لذهاب كافلهم وكاسبهم .قال صاحب الانتصاف : وإنما لجأ الزمخشري إلى تقدير ( تَرَكُواْ ) بقوله شارفوا أن يتركوا؛ لأن جوابه قوله ( خَافُواْ عَلَيْهِمْ ) والخوف عليهم إنما يكون قبل تركهم إياهم . وذلك فى دار الدنيا . فقد دل على أن المراد بالترك ) الإشراف عليه ضرورة ، وإلا لزم وقوع الجواب قبل الشرط وهو باطل . ونظيره فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنّ فَأَمْسِكُوهُنّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنّ بِمَعْرُوفٍ ) أى . شارفن بلوغ الأجل .ثم قال : ولهذا المجاز فى التعبير عن المشارفة على الترك بالترك سر بديع . وهو التخويف بالحالة التي لا يبقى معها مطمع فى الحياة ، ولا فى الذنب عن الذرية الضعاف . وهى الحالة التى وإن كانت من الدنيا ، إلا أنها لقربها من الآخرة ، ولصوقها بالمفارقة ، صارت من حيزها ، ومعبرا عنها بما يعبر به عن الحالة الكائنة بعد المفارقة من الترك .وقوله ( ضِعَافاً ) صفة لذرة . وفى وصف الذرية بذلك ) بعث على الترحم وحض على امتثال ما أمر الله به .والفاء فى قوله فَلْيَتّقُواْ الله وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً ) لترتيب ما بعدها على ما قبلها .فقد رتب الأمر بالتقوى على الأمر بالخشية وإن كانا أمرين متقاربين لأن الأمر الأول لما عضد بالحجة - وهى الخوف على ذريتهم - اعتبر كالحاصل فصح التفريع عليه .والمعنى : فليتقوا الله فى كل شأن من شئونهم وفى أموال اليتامى فلا يعتدوا عليها . وليقولا لغيرهم قولا عادلا قويما مصيبا للحق وبعيدا عن الباطل .قال الآلوسى وقوله (وَلْيَقُولُواْ ) أى لليتامى أو للمريض أو لحاضرى القسمة ، أو ليقولوا فى الوصية ( قَوْلاً سَدِيداً ) فيقول الوصى لليتيم ما يقول لولده من القول الجميل الهادى له إلى حسن الآداب ومحاسن الأفعال . ويقول عائد المريض للمريض : ما يذكره بالتوبة وحسن الظن بالله ، وما يصده عن الإسراف فى الوصية وتضييع الورثة . ويقول الوارث : لحاضر القسمة : ما يزيل وحشته أو يزيد مسرته . ويقول الموصى فى إيصائه مالا يؤدى إلى تجاوز الثلث .ثم قال ، والسديد : المصيب العدل الموافق للشرع - يقال : سد قوله يسد - بالكسر - إذا صار سديدا والسداد - بالفتح . الاستقامة والصواب . وأما السداد - بالكسر - فهو ما يسد به الشئ .قال بعض العلماء : وفى الآية الكريمة ما يبعث الناس كلهم على أن يغضبوا للحق من ، الظلم ، وأن يأخذوا على أيدى أولياء السوء ، وأن يحرسوا أموال اليتامى ويبلغوا حقوق الضعفاء إليه ، لأنهم إن أضاعوا ذلك يوشك أن يلحق أبناءهم وأموالهم مثل ذلك . وأن يأكل قويهم ضعيفهم؛ فإن اعتياد السوء ينسى الناس شناعته ، ويكسب النفوس ضراوة على عمله .

ان الذين ياكلون اموال اليتامى ظلما انما ياكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا

كما فسرها الوسيط ثم توعد سبحانه الذين يعتدون على حقوق اليتامى بأشد أنواع الوعيد فقال تعالى : ( إِنّ الذين يَأْكُلُونَ . . . ) .قوله : ( إِنّ الذين يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ اليتامى ظُلْماً ) استئناف مسوق لتقرير ما فصل

: من الأوامر والنواهى السابقة التى تتعلق بحقوق اليتامى .قال الفخر الرازى
أعلم أنه - تعالى - أكد الوعد فى أكل مال اليتيم ظلما ، وقد كثر الوعيد فى
هذه الآيات مرة بعد أخرى على من يفعل ذلك كقوله ( وَآتُواْ اليتامى
أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَتَبَدَّلُواْ الخبيث بالطيب ) وكقوله : ( وَلْيَخْشَ
الذين لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً ) ثم ذكر بعدها
هذه الآية مفردة فى وعيد من يأكل أموالهم ، وذلك كله رحمة من الله تعالى
باليتامى؛ لأنهم لكمال ضعفهم وعجزهم استحقوا من الله مزيد العناية والكرامة
وما أشد دلالة هذا الوعيد على سعة رحمته وكثرة عفوه وفضله؛ لأن اليتامى .
لما بلغوا فى الضعف إلى الغاية القصوى ، بلغت عناية الله بهم إلى الغاية
القصوى .وقوله ( ظُلْماً ) أى يأكلونها على وجه الظلم سواء أكان الآكل من
الورثة أو من أولياء السوء من غيرهم .وقال سبحانه ( ظُلْماً ) لكمال
التشنيع على الآكلين؛ لأنهم يظلمون اليتامى الضعفاء الذين ليس فى قدرتهم
الدفاع عن أنفسهم .أو أنه سبحانه قيد الأكل بحالة الظلم ، للدلالة على أن
مال اليتيم قد يؤكل ولكن لا على وجه الظلم بل على وجه الاستحقاق كما فى
حالة أخذ الولى الفقير أجرته من مال اليتيم أو الاستقراض منه فإن ذلك لا
يكن ظلما ولا يسمى الآكل ظالما ، قال تعالى : ( وَمَن كَانَ غَنِيّاً
فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بالمعروف ) وقوله
ظُلْماً ) حال من الضمير فى ( يَأْكُلُونَ ) أى يأكلونها ظالمين . أو مفعول
لأجله . أى يأكلونها لأجل الظلم .قال القرطبى : روى أن هذه الآية نزلت فى
رجل من غطفان يقال له : مرثد بن زيد ، ولى مال ابن أخيه وهو يتيم صغير
فأكله؛ فأنزل الله تعالى فيه هذه الآية . ولهذا قال الجمهور : إن المراد
الأوصياء الذين يأكلون ما لم يبح لهم من مال اليتيم .وقوله : ( إِنَّمَا
يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً ) بيان لسوء
) - مصيرهم ، وتصوير لأضرار الآكل عليهم .وللمفسرين فى تفسير قوله - تعالى
إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً ) اتجاهان .أولهما : أن الآية
على ظاهرها ، وأن الآكلين للمال اليتامى ظلما سيأكلون النار يوم القيامة
حقيقة .وقد استدل أصحاب هذا الاتجاه على صحة ما ذهبوا إليه بآثار منها ما
رواه ابن حبان فى صحيحه وابن مردويه وابن أبى حاتم " عن أبى برزة أن رسول
الله صلى الله عليه وسلم قال : يبعث يوم القيامة قوم من قبورهم تأجج
أفواههم نارا . قيل يا رسول الله من هم؟ قال صلى الله عليه وسلم : ألم تر
" أن الله قال : ( إِنَّ الذين يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ اليتامى ظُلْماً )
الآية .وروى ابن أبى حاتم عن أبى سعيد الخدرى قال :" قلنا يا رسول الله ما
رأيت ليلة أسرى بك؟ قال : انطلق بى إلى خلق من خلق الله كثير . رجال كل رجل
منهم له مشفر كمشفر البعير ، وهم موكل بهم رجال يفكون لحاء أحدهم ، ثم يجاء
: بصخرة من نار فتقذف فى أفواههم حتى تخرج من أسفلهم ولهم جؤار وصراخ . قلت
يا جبريل من هؤلاء؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما
يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا " .ثانيهما : يرى أصحابه أن الكلام
على المجاز لا على الحقيقة وأن المراد إنما يأكلون فى بطونهم المال الحرام
الذى يفضى بهم إلى النار .وعليه فكلمة ( نَاراً ) مجاز مرسل من باب ذكر
المسبب وإرادة السبب .والمراد بالأكل فى قوله ( إِنَّ الذين يَأْكُلُونَ )
مطلق الأخذ على سبيل الظلم والتعدى .وإنما ذكر الأكل وأراد به مطلق
، الإتلاف على سبيل الظلم؛ لأن الأكل عن طريقه تكون معظم تصرفات الإنسان
ولأن عامة مال اليتامى فى ذلك الوقت هو الأنعام التى تؤكل لحومها وتشرب
ألبانها فخرج الكمال على عادتهم ، ولأن فى ذكر الأكل تشنيعا على الآكل لمال
اليتيم ظلما ، إذ هو أبشع الأحوال التى يتناول مال اليتيم فيها؛ ولأن فى
ذكر الأكل مناسبة للجزاء المذكور فى قوله ( إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي
بُطُونِهِمْ نَاراً ) حيث يكون الجزاء من جنس العمل .قال ( فِي بُطُونِهِمْ
مع أن الأكل لا يكون إلا فى البطن ، إما لأنه قد شاع فى استعمالهم أن (
يقولوا : أكل فلان فى بطنه يريدون ملء بطنه فكأنه قيل : إنما يأكلون ملء
بطونهم نارا حتى يبشموا بها . ومثله ( قَدْ بَدَتِ البغضاء مِنْ
أَفْوَاهِهِمْ ) أى شرقوا بها وقالوها بملء أفواههم ، ويكون المراد بذكر
البطون تصوير الأكل للسامع حتى تتأكد عنده بشاعة هذا الجرم بمزيد تصوير
) وإما أن يكون المراد بذكر البطون التأكيد والمبالغة كما فى قوله تعالى.
. وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ) والطيران لا يكون إلا بالجناح
والغرض من كل ذلك التأكيد والمبالغة .وقوله تعالى ( وَسَيَصْلَوْنَ
سَعِيراً ) تأكيد لسوء عاقبتهم يوم القيامة .و ( يصلون ) مضارع صلى كرضى
إذا قاسى حر النار بشدة .وقرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم ( وَسَيَصْلَوْنَ
: بضم ياء المضارعة والباقون بفتحها .والسعير : هو النار المستعرة . يقال (
) سعرت النار أسرعها سعرا فهى مسعورة إذا أوقدتها وألهبتها .وإنما قال
سَعِيراً ) بالتنكير لأن المراد نار من النيران مبهمة لا يعرف غاية شدتها
إلا الله تعالى : أى؛ وسيدخلون نارا هائلة لا يعلم مقدار شدتها إلا الله عز
وجل .أخرج أبو داود والنسائى والحاكم وغيرهم أنه لما نزلت هذه الآية انطلق
من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه . فجعل يفضل له الشئ
من طعامه ، فيحبس له حتى يأكله أو يفسد فاشتد عليهم ذلك . فذكروا ذلك لرسول

الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله تعالى( وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ اليتامى
( قُلْ إِصْلاَحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ
الآية . فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم .قال الفخر الرازى : ومن
الجهال من قال : صارت هذه الآية منسوخة بتلك . وهو بعيد ، لأن هذه الآية فى
المنع من الظلم . وهذا لا يصير منسوخا . بل المقصود أن مخالطة أموال
اليتامى إن كانت على سبيل الظلم فهى من أعظم أبواب الإثم كما فى هذه الآية
وإن كانت على سبيل التربية والإحسان فهى من أعظم أبواب البر كما فى قوله .
تعالى - ( وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ) وبعد : فهذه عشر . .
آيات من سورة النساء ، تقرؤها فتراها تكرر الأمر صراحة برعاية اليتيم
وبالمحافظة على ماله فى خمس آيات منها .فأنت تراها فى الآية الثانية تأمر
الأولياء والأوصياء وغيرهم بالمحافظة على أموال اليتامى ، وأن يسلموها
إليهم عند بلوغهم كاملة غير منقوصة ، وتحذرهم من الاحتيال على أكل هذه
الأموال عن طريق الخلط فتقول :( وَآتُواْ اليتامى أَمْوَالَهُمْ وَلاَ
تَتَبَدَّلُواْ الخبيث بالطيب وَلاَ تأكلوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى
أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً ) وتراها فى الآية الثالثة
تبيح لأولياء النساء اليتامى أن يتزوجوا بغيرهن إذا لم يأمنوا على أنفسهم
العدل فى أموال اليتيمات ، وحسن معاشرتهن ، وتسليمهن حقوقهن كاملة إذا
تزوجوهن فتقول :( وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي اليتامى فانكحوا
مَا طَابَ لَكُمْ مِّنَ النسآء مثنى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ ) الآية . وتراها
فى الآية السادسة تأمر الأولياء بأن يختبروا تصرفات اليتامى وأن يسلموا
إليهم أموالهم عند بلوغهم وإيناس الرشد منهم فتقول :( وابتلوا اليتامى حتى
إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِّنْهُمْ رُشْداً فادفعوا
إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَن
يَكْبَرُواْ ) الآية .وتراها فى الآية الثامنة تأمر المتقاسمين للتركة أن
): يجعلوا شيئا منها للمحتاجين من الأقارب واليتامى والمساكين فتقول
وَإِذَا حَضَرَ القسمة أُوْلُواْ القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم
مِّنْهُ ) الآية .ثم تراها فى الآية العاشرة تتوعد الذين يأكلون أموال
اليتامى ظلما بأشد ألوان الوعيد فتقول :( إِنَّ الذين يَأْكُلُونَ
أَمْوَالَ اليتامى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً
وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً ) .وقد أمر القرآن أتباعه فى كثير من آياته بالعطف
- على اليتيم ، وبحسن معاملته ، وبالمحافظة على حقوقه ، ومن ذلك قوله
تعالى - : ( وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ اليتيم إِلاَّ بالتي هِيَ أَحْسَنُ
حتى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ العهد كَانَ
) مَسْؤُولاً ) وقوله - تعالى - ممتنا على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم
أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فآوى وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فهدى وَوَجَدَكَ
) - عَآئِلاً فأغنى فَأَمَّا اليتيم فَلاَ تَقْهَرْ ) وقوله - تعالى
وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ اليتامى قُلْ إِصْلاَحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ
تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ) وعندما نقرأ أحاديث النبي صلى الله عليه
وسلم نراه فى كثير منها يأمرنا برعاية اليتيم ، وبالعطف عليه ، وبإكرامه
وعدم قهره وإذلاله ، ويبشر الذين يكرمون اليتيم بأفضل البشارات ، فقد روى
البخارى وغيرهم عن سهل بن سعد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :" أنا
وكافل اليتيم فى الجنة هكذا . وقال باصبعيه السبابة والوسطى " - أى : وأشار
وفرج بين إصبعيه السبابة والوسطى - .وإنما اعتنى الإسلام برعاية اليتيم
لصغره وعجزه عن القيام بمصالحه ، ولأن عدم رعايته سيؤدى إلى شيوع الفاحشة
فى الأمة؛ ذلك لأن اليتيم إنسان فقد العائل والنصير منذ صغره ، فإذا نشأ فى
بيئة ترعاه وتكرمه وتعوضه عما فقده من عطف أبيه ، شب محبا لمن حوله
وللمجتمع الذى يعيش فيه . وإذا نشأ فى بيئته تقهره وتذله وتظلمه نظر إلى من
حوله وإلى المجتمع كله نظرة العدو إلى عدوه ، وصار من الذين يفسدون فى
الأرض ولا يصلحون؛ لأنه سيقول لنفسه : إذا كان الناس لم يحسنوا إلى فلماذا
أحسن إليهم؟ وإذا كانوا قد حرمونى حقى الذى منحه الله لى ، فلماذا أعطيهم
شيئا من خيرى وبرى؟لهذه الأسباب وغيرها أمر الإسلام أتباعه برعاية اليتيم
وإكرامه وصيانة حقوقه من أى اعتداء أو ظلم .وبعد أن يبين - ما يجب على
الرجال نحو النساء من إعطائهن حقوقهن ، وما يجب على الجميع نحو اليتامى من
إكرامهم والمحافظة على أموالهم . . . . بعد أن بين - سبحانه - ذلك ، شرع فى
بيان حقوق أكثر الوارثين ، بعد أن أجملها فى قوله - تعالى - ( لِّلرِّجَالِ
نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الوالدان والأقربون ) فقال - تعالى : ( يُوصِيكُمُ
. ( الله . . . . عَذَابٌ مُّهِينٌ

يوصيكم الله في اولادكم للذكر مثل حظ الانثيين فان كن نساء فوق اثنتين فلهن
ثلثا ما ترك وان كانت واحدة فلها النصف ولابويه لكل واحد منهما السدس مما
ترك ان كان له ولد فان لم يكن له ولد وورثه ابواه فلامه الثلث فان كان له
اخوة فلامه السدس من بعد وصية يوصي بها او دين اباؤكم وابناؤكم لا تدرون
ايهم اقرب لكم نفعا فريضة من الله ان الله كان عليما حكيما

) - كما فسرها الوسيط قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لقوله - تعالى
يُوصِيكُمُ اللَّه في أَوْلاَدِكُمْ ) الآية :" هذه الآية الكريمة والتي
بعدها والآية التى هى خاتمة هذه السورة هن آيات علم الفرائض . وهو مستنبط
من هذه الآيات الثلاث ، ومن الأحاديث الواردة فى ذلك مما هو كالتفسير لذلك
وقد ورد الترغيب فى تعلم الفرائض فقد روى أبو داود عن عبد الله بن عمرو .
: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " العلم ثلاث وما سوى ذلك فهو فضل
- آية محكمة - أى غير منسوخة - أو سنة قائمة - أى ثابتة - أو فريضه عادلة
أى عادلة فى قسمتها بين أصحابها - " .وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : " تعلموا الفرائض وعلموه الناس؛ فإنه نصف العلم . وهو
أول شئ ينسى . . وهو أول شئ ينزع من أمتى " .ثم قال ابن كثير : وقال
- البخارى عن تفسير هذه الآية : عن جابر بن عبد الله قال : عادنى رسول الله
صلى الله عليه وسلم - وأبو بكر فى بنى سلمة ماشيين فوجدنى النبى صلى الله
عليه وسلم لا أعقل شيئا . فدعا بماء فتوضأ منه ثم رش على فأفقت . فقلت : يا
رسول الله ما تأمرنى أن أصنع فى مالى؟ فنزلت ( يُوصِيكُمُ اللَّه في
أَوْلاَدِكُمْ ) الآية .وفى حديث آخر رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه عن
جابر قال : " جاءت امرأة سعد بن الربيع بابنتيها من سعد إلى رسول الله صلى
الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله!! هاتان ابنتا سعد بن الربيع . قتل
أبوهما معك يوم احد شهيدا . وان عمها أخذ مالها فلم يدع لهما مالا . ولا
" تنكحان إلا ولهما مقال . فقال صلى الله عليه وسلم : " يقضى الله فى ذلك
فنزلت آية الميراث . فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عمها فقال صلى
الله عليه وسلم : أعط ابنتى سعد الثلثين ، وأمهما الثمني ، وما بقى فهو لك
ثم قال ابن كثير : والظاهر أن حديث جابر الأول إنما نزل بسببه الآية. "
الأخيرة من هذه السورة كما سيأتى ، فإنه إنما كان له إذ ذاك أخوات ولم يكن
له بنات ، وإنما كان يورث كلالة . والحديث الثانى عن جبار أشبه بنزول هذه
الآية . هذا ، وقوله - تعالى - ( يُوصِيكُمُ اللَّه في أَوْلاَدِكُمْ
لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأنثيين ) بيان لما إذا مات الميت وترك أولادا من
الذكور والإناث .وقوله ( يُوصِيكُمُ ) من الوصية ، وهى - كما يقول
الراغب - : التقدم إلى الغير بما يعمل به مقترنا بوعظ من قولهم : أرض واصية
أى متصلة البنات ويقال : أوصاه ووصاه .. . ويقال : تواصى القوم إذا أوصى
بعضهم بعضا . . . والمراد بقوله ( يُوصِيكُمُ ) : أى يأمركم أمرا مؤكدا
والأولاد : جمع ولد - بوزن فعل مثل أسد - والولد : اسم للمولود ذكرا كان.
أو أنثى والحظ : النصيب المقدر .والمعنى : يعهد الله إليكم ويأمركم أمرا
مؤكدا فى شأن ميراث أولادكم من بعد موتتكم أن يكون نصيب الذكر منهم فى
الميراث نصيب الأنثيين .وصدر - سبحانه - هذه الأحكام بقوله ( يُوصِيكُمُ )
اهتماما بشأنها ، وإيذانا بوجوب سرعة الامتثال لمضمونها ، إذ الوصية من
الله - تعالى - إيجاب مؤكد ، بدليل قوله - تعالى - ( وَلاَ تَقْتُلُواْ
النفس التي حَرَّمَ اللَّه إِلاَّ بالحق ذلكم وَصَّاكُمْ بِهِ ) أى أوجب
عليكم الانقياد لهذا الحكم إيجاباً مؤكداً .وحرف ( في ) هنا للظرفية
المجازية ، ومجروها محذوف قام المضاف إليه مقامه ، لأن ذوات الأولاد لا
تصلح ظرفا للوصية ، والتقدير : يوصيكم الله فى توريث أولادكم أو فى شأنهم
، وبدأ - سبحانه - ببيان ميراث الأولاد ، لأنهم أقرب الناس إلى الإنسان.
) ولأن تعلق الإنسان بأولاده أشد من تعلقه بأى إنسان آخر .وقوله
لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأنثيين ) جملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب
لأنها فى موضع التفصيل والبيان لجملة ( يُوصِيكُمُ اللَّه في أَوْلاَدِكُمْ )
وقد جعل - سبحانه - نصيب الذكر ضعف نصيب الأنثى ، لأن التكليفات المالية.
على الأنثى تقل كثيراً عن التكليفات المالية على الذكر ، إذ الرجل مكلف
بالنفقة على نفسه وعلى أولاده وعلى زوجته وعلى كل من يعولهم بينما المرأة
نصيبها من الميراث لها خاصة لا يشاركها فيه مشارك .وبهذا يتبين أن الإسلام
قد أكرم المرأة غاية الإكرام حيث أعطاها هذا النصيب الخاص بها من الميراث
بعد أن كانت فى الجاهلية لا ترث شيئاً .ولم يقل - سبحانه - للذكر ضعف نصيب
الأنثى ، لأن الضعف قد يصدق على المثلين فصاعدا ، فلا يكون نصا .ولم يقل
للأنثيين مثل حظ الذكر ولا للأنثى نصف حظ الذكر ، لأن المقصود تقديم الذكر
، لبيان فضله ومزيته على الأنثى .وعبر بالذكر والأنثى دون الرجال والنساء
للتنصيص على استواء الكبار والصغار من الفريقين فى الاستحقاق من غير دخل
للبلوغ والكبر فى ذلك أصلا ، كما هو زعم أهل الجاهلية حيث كانوا لا يورثون
الأطفال ولا النساء .وبعد أن بين - سبحانه - كيفية قسمة التركة إذا كان
الورثة أولادا ذكورا وإناثا ، عقب ذلك ببيان كيفية تقسيم التركبة إذا كان
الورثة من الأولاد الإناث فقط فقال - تعالى - : فإن كن نساء فوق اثنتين
فلهن ثلثا ما تركَ .قال الآلوسى : الضمير للأولاد مطلقا ، ولزوم تغليب
الإناث على الذكور لا يضر ، لأن ذلك مما صرحوا بجوازه مراعاة للخبر
ومشاكلة له . ويجوز أن يعود إلى المولودات أو البنات اللاتى فى ضمن مطلق
الأولاد . . والمراد من الفوقية زيادة العدد لا الفوقية الحقيقية .والمعنى
فإن كانت المولودات أو البنات نساء خلصا زائدات على اثنتين بالغات ما :
بلغن فلهن ثلثا ما ترك المتوفى .وهذه الجملة الكريمة قد بينت بالقول الصريح

نصيب الأكثر من البنتين وهو الثلثان إلا أنها لم تبين نصيب البنتين بالقول الصريح .وقد روى عن ابن عباس أنه قال : الثلثان فرض الثلاث من البنات فصاعدا وأما فرض البنتين فهو النصف . ودليله صريح منطوق الآية ، فقد اشترطت أن أخذ ثلثى التركة للنساء يكون إذا كن فوق اثنتين أى ثلاثا فصاعدا ، وذلك ينفى حصول الثلثين للبنتين .وقال جمهور العلماء : البنتان لاحقتان بالبنات فلهما الثلثان إذا انفردتا عن البنين كما أن البنات لهن الثلثان كذلك ، وقد بسط الفخر الرازى أدلة الجمهور على أن للبنتين الثلثين كالبنات فقال. ما ملخصه :وأما سائر الأمة فقد أجمعوا على أن فرض البنتين الثلثان . قالوا وإنما عرفنا ذلك بوجوه :أولها : من قوله - تعالى - ( لِلذَّكَرِ مِثْلُ : حَظِّ الأنثيين ) وذلك لأن من مات وترك غبنا وبنتا فههنا يجب أن يكون نصيب ، الابن الثلثين لقوله - تعالى - ( لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأنثيين ) ، فإذا كان نصيب الذكر مثل نصيب الأنثيين . ونصيب الذكر ههنا هو الثلثان وجب لا محالة أن يكون نصيب الابنتين الثلثين .الثانى : إذا مات وترك إبنا وبنتا فههنا يكون نصيب البنت الثلث بدليل ( لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأنثيين ) فإذا كان نصيب البنت مع الولد الذكر هو الثلث فبأن يكون نصيبها مع ولد آخر أنثى هو الثلث أولى ، لأن الذكر أقوى من الأنثى وإذا كان للبنت - الثلث مع أختها وللأخرى كذلك فقد صار لهما الثلثان .الثالث : أن قوله تعالى - ( لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأنثيين ) يفيد أن حظ الأنثيين أزيد من حظ الأنثى الواحدة ، وإلا لزم أن يكون حظ الذكر مثل حظ الأنثى الواحدة وذلك خلاف النص . وإذا ثبت أن حظ الأنثيين أزيد من حظ الواحدة فتقول : وجب أن يكون ذلك هو الثلثان ، لأنه لا قائل بالفرق .والرابع : أنا ذكرنا فى سبب نزول الآية أنه صلى الله عليه وسلم أعطى بنتى سعد بن الربيع الثلثين ، وذلك يدل على ما قلناه .الخامس : أنه - سبحانه - ذكر فى هذه الآية حكم الواحدة من البنات وحكم الثلاث فما فوقهن ولم يذكر حكم الثنتين وذكر فى شرح ميراث الأخوات فى آخر السورة ( إن امرؤ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ . . . . أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ . . . . فَإِن كَانَتَا اثنتين ، مِمَّا تَرَكَ ) فهنا ذكر ميراث الأخت الواحدة والأختين دون الأخوات فصارت كل واحدة من هاتين الآيتين مجملة من وجه ومبينة من وجه فنقول : لما كان نصيب الأختين الثلثين كانت البنتان أولى بذلك ، لأنهما أقرب إلى الميت من الأختين .والوجوه الثلاثة الأول مستنبطة من الآية . والرابع مأخوذ من السنة .والخامس من القياس الجلى .هذا وقد صح عن ابن عباس أنه رجع إلى قول الجمهور فانعقد الإجماع على أن للبنتين الثلثين .ثم بين - سبحانه - الحكم فيما إذا ترك الشخص بنتا واحدة فقال : ( وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النصف ) .أى وإن كانت المولودة أنثى واحدة ليس معها أخ ولا أخت فلها النصف أى نصف ما تركه المتوفى .وإلى هنا تكرن الآية قد ذكرت ثلاث حالات للأولاد فى الميراث :الأولى : أن يترك الميت ذكوراً وإناثاً . وفى هذه الحالة يكون الميراث بينهم للذكر مثل حظ الأنثيين .الثانية : أن يترك الميت بنتين فأكثر وليس معهما أخ ذكر : وفى هذه الحالة يكون لهما أولهن الثلثان خلافا لابن عباس فى البنتين - كما سبق أن بينا .الثالثة : أن يترك الميت بنتا واحدة وليس معها أخر ذكر . وفى هذه الحالة يكون لها النصف .قال بعض العلماء : هذا توريث الأولاد . ويلاحظ ما يأتى :أولا : أن نصيب الأولاد إذا كانوا ذكوروا وإناثا إنما يكون بعد أن يأخذ الأبوان والأجداد والجدات وأحد الزوجين أنصبتهم . فإذا كان لمتوفى أب وزوجة وأبناء وبنات ، فان القسمة للذكر مثل حظ الأنثيين تكون بعد أخذ الأب والزوجة نصيبيهما .ثانيا : أن الأولاد يطلقون على كل فروع الشخص من صلبه : أى أبناؤه وأبناء أبنائه وبناته وبنات أبنائه . أما أولاد بناته فليسوا من أولاده . وقد خالف فى ذلك الشيعة فلم يفرقوا فى نسبة الأولاد بين من يكون من أولاد الظهور ومن يكون من أولاد البطون . أى :لا يفرقون بين من تتوسط بينه وبين المتوفى أنثى ومن لا تتوسط ثالثا : أن أبناء المتوفى وبناته يقدمن على أبناء أبنائه وبنات أبنه . أى. أن الطبقة الأولى تمنع من يليها :رابعا : أن بنات الابن يأخذن البنات . - تماما إذا لم يكن لشخص أولاد قط لا ذكور ولا إناث .وبعد أن بين - سبحانه ميراث الأولاد أعقبه ببيان ميراث الأبوين فقال : ( وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السدس مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُنْ لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثلث فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السدس ) .وقد ذكر - سبحانه - هنا ثلاث حالات للأبوين .أما الحالة الأولى : فيشترك فيها الأب والأم بأن يأخذ كل واحد منهما السدس إذا كان للميت ولد . وقد عبر - سبحانه - عن هذه الحالة بقوله : أى لأبوى الميت ذكرا كان أو أنثى . والضمير فى ( أبويه ) ( وَلأَبَوَيْهِ ) : كناية عن غير مذكور . وجاز ذلك لدلالة الكلام عليه .والمراد بالأبوين الأب والأم . والتثنية على لفظ الأب للتغليب .وقوله ( لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا ) بدل من قوله (وَلأَبَوَيْهِ ) بتكرير العامل وهو اللام فى قوله ( لِكُلِّ ) . وفائدة هذا البدل أنه لو قيل : ولأبويه السدس لكان ظاهره اشتراكهما فيه .وقوله ( السدس ) بيان للنصيب الذى يستحقه كل واحد من الأبوين .أى : أن لكل واحد من أبوى الميت السدس مما ترك من المال ( إن

كَانَ لَهُ وَلَدٌ ) أى : إن كان لهذا الميت ولد ذكرا كان أو أنثى واحدا
كان أو أكثر .قال القرطبى : فرض الله - تعالى - لكل واحد من الأبوين مع
الولد السدس ، وأبهم الولد فكان الذكر والأنثى فيه سواء . فان مات رجل وترك
أبناء وابوين فلابويه لكل واحد منهم السدس وما بقى فللابن . فان ترك ابنة
وأبوين فللابنة النصف وللأبوين السدسان وما بقى فلأقرب عصبة وهو الأب لقول
رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أبقت الفرائض فلأولى رجل ذكر ، فاجتمع
للأب الاستحقاق بجهتين التعصيب والفرض " .والحالة الثانية : وهى ما إذا مات
وورثه أبواه ، وقد بين - سبحانه - حكمها بقوله : ( إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ
( فَإِن لَّمْ يَكُنْ لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثلث
أى فإن لم يكن للميت ولد ولا ولد ابن وورثه أبواه فقط ، ففى هذه الحالة.
يكون لأم الميت ثلث التركة ، ولأبيه الباقى من التركة وهو الثلثان ، إذ لا
وارث له سواهما . فاذا كان معهما أحد الزوجين كان للأم ثلث الباقى بعد نصيب
الزوج أو الزوجة وثلثاه للأب وهذا رأى جمهور الصحابة وهو الذى اختاره
الأئمة الأربعة وأكثر فقهاء الامصار .أما الحالة الثالثة : وهى ما إذا مات
: الميت وترك الأبوين ومعهما إخوة أو أخوات فقد بين - سبحانه - حكمها بقوله
فان كان له إخوة فلأمه السدس أى : فان كان للميت إخوة من الأب والأم . أو
من الأب فقط ، أو من الأم فقط ذكورا كانوا أو أناثا أو مختلطين ففى هذه
الحالة يكون لأم الميت سدس التركة والباقى . للأب ولا ميراث للإخوة لحجبهم
بالأب وبهذا نرى أن إخوة الميت ينقصون الأم من الثلث إلى السدس وإن كانوا
محجوبين بالأب .وإذا شرط الله فى انقاص نصيبها من الثلث إلى السدس الجماعة
من الإخوة علم أن الأخ الواحد لا يحجبها عن الثلث بل يبقى لها الثلث .أما
الأخوان فيرى جمهور الصحابة والعلماء المجتهدين أنهما ينقصانها من الثلث
- إلى السدس . لأنه قد ورد فى اللغة اطلاق الجمع على الأثنين كما فى قوله
تعالى - ( إِن تَتُوبَآ إِلَى الله فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ) ولأن
. الشارع قد جعل الأختين كالثلاث فى الميراث . وكذلك جعل البنتين كالثلاث
ولا فرق بين الذكور والاناث .ويروى عن ابن عباس أن الاخوين لا ينقصان الأم
) من الثلث إلى السدس فشأنهما شأن الأخ الواحد لأن الله - تعالى - قال
فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ ) بصيغة الجمع ، والجمع أقله ثلاث بخلاف التثنية
والعمل على ما ذهب إليه الجمهور .وإلى هنا تكون الآية الكريمة بد بينت .
ميراث الأولاد والأبوين . ثم عقبت ذلك ببيان الوقت الذى تدفع فيه هذه
الأموال إلى مستحقيها من الورثة فقالت : ( مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي
بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ) .أى هذه الفروض المذكورة إنما تقسم للورثة من بعد
إنفاذ وصية يوصى بها الميت إلى الثلث . ومن بعد قضاء دين على الميت
: فالجملة الكريمة متعلقة بما تقدم قبلها من قسمة المواريث، فكأنه قال.
قسمة هذه الأنصبة من بعد وصية يوصى بها الميت ومن بعد قضاء دين عليه .ثم
بين - سبحانه - حكمة هذا التقسيم وأكد وجوب تنفيذه فقال : ( آبَآؤُكُمْ
وَأَبناؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً
مِّنَ الله إِنَّ الله كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ) .قال الآلوسى : الخطاب
للورثة . وقوله ( آبَآؤُكُمْ ) معطوف عليه . وقوله ( وَأَبناؤُكُمْ ) مع ما
فى حيزه خبر له . وأىّ ما استفهامية مبتدأ . وقوله ( أَقْرَبُ ) خبره
والفعل معلق عنها فهى سادة مسد المفعولين . واما موصولة ، قوله ( أَقْرَبُ
خبر مبتدأ محذوف والجملة صلة الموصول . وأيهم مفعول أول مبنى على الضم (
لإضافته وحذف صدر صلته . والمفعول الثاني محذوف . وقوله ( نَفْعاً ) نصب
على التميز وهو منقول من الفاعلية . وجملة ( آبَآؤُكُمْ وَأَبناؤُكُمْ لاَ
تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً ) أعتراضية مؤكدة لوجوب تنفيذ
الوصية .والمعنى أن الله - تعالى - قد فرض لكم هذه الفرائض؛ وقسم بينكم
الميراث هذا التقسيم العادل فعليكم أن تلتزموا بتنفيذ قسمة الله التى قسمها
لكم ، ولا يصح لكم أن تحكموا أهواءكم فى أموالكم ، فإنكم لا تعلمون من أنفع
لكم من أصولكم وفروعكم فى دنياكم وآخرتكم .وقد صدر - سبحانه الجملة الكريمة
بذكر الآباء والأبناء لقوة قرابتهم واتحاد اتصالهم ، ومع ذلك لا يدرون
النافع مهم ، لأن الله - تعالى - وحده هو العليم بأحوال عباده ، وبما تسره
وتعلنه نفوسهم .ثم أكد الله - تعالى - وجوب الانقياد لما شرعه لهم فى شأن
المواريث بتأكيدين :أولهما : قوله - تعالى - ( فَرِيضَةً مِّنَ الله ) .أى
فرض الله ذلك التقسيم لميراث فريضة ، وقدره تقديرا فلا يجوز لكم أن :
تخالفوه ، لأنه تقدير الله وقسمته ، وليس لأحد أن يخالف قسمة الله وشرعه
وقوله ( فَرِيضَةً ) منصوب على أنه مصدر مؤكد لنفسه ، على حد قولهم؛ هذا.
ابنى حقا ، لأنه واقع بعد جملة لا محتمل لها غيره ، فيكون فعله الناصب له
محذوفا وجوبا . أى فرض ذلك فريضة من الله .وأما التأكيد الثاني : فهو
- قوله - تعالى - : ( إِنَّ الله كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ) أى إن الله
تعالى - كان عليما بما يصلح أمر العباد فى دنياهم وآخرتهم ، حكيما فيما قضى
وقدر من شئون وتشريعات ، فعليكم أن تقفوا عندما قضى وشرع لتفوزوا بمثوبته
- ورعايته ورضاه .قال الفخر الرازى ما ملخصه : ومناسبة هذا الكلام هنا أنه
.. تعالى - لما ذكر أنصباء الأولاد والأبوين ، وكانت تلك الأنصباء مختلفة
والإنسان ربما خطر بباله أن القسمة لو وقعت على غير هذا الوجه لكانت أنفع

له وأصلح ، لا سيما وقد كانت قسمة العرب للمواريث مخالفة لما جاءت به الإسلام . لما كان الأمر كذلك أزال الله هذه الشبهة بأن قال : إنكم تعلمون أن عقولكم لا تحيط بمصالحكم ، فربما اعتقدتم فى شئ أنه صالح لكم وهو عين المضرة ، وربما اعتقدتم فيه أنه عين المضرة وهو عين المصلحة ، وأما الإله الحكيم الرحيم فهو عالم بمغيبات الأمور وعواقبها ، فاتركوا تقدير المواريث بالمقادير التى تستحسنها عقولكم ، وكونوا مطيعين لأمر الله فى هذه التقديرات التى قدرها لكم ، فقوله ( آبَآؤُكُمْ وَأبناؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً ) إشارة إلى ترك ما يميل إليه الطبع من قسمة المواريث على الورثة . وقوله : ( فَرِيضَةً مِّنَ الله ) إشارة الى وجوب الانقياد لهذه القسمة التى قدرها الشرع وقضى بها .

ولكم نصف ما ترك ازواجكم ان لم يكن لهن ولد فان كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها او دين ولهن الربع مما تركتم ان لم يكن لكم ولد فان كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها او دين وان كان رجل يورث كلالة او امراة وله اخ او اخت فلكل واحد منهما السدس فان كانوا اكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث من بعد وصية يوصى بها او دين غير مضار وصية من الله والله عليم حليم

كما فسرها الوسيط وبعد أن بين - سبحانه - ميراث الأولاد والأبوين شرع في بيان ميراث الأزواج فقال - تعالى - ( وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَّمْ يَكُنْ لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الربع مِمَّا تَرَكْنَ ) .أى : ولكم أيها الرجال نصف ما ترك أزواجكم من المال إن لم يكن لهؤلاء الزوجات الموروثات ولد ذكرا كان أو أنثى ، واحدا كان أو متعددا ، منكم كان أو من غيركم فإن كان لهن ولد فلكم أيها الازواج الربع مما تركن من المال .وبهذا نرى أن للزوج فى الميراث حالتين : حالة يأخذ فيها نصف ما تركته زوجته المتوفاة من مال إن لم تترك خلفها ولدا من بطنها أو من صلب نبيها أو بنيها . . . إلخ ، فإن تركت ولدا على التفصيل السابق كان لزوجها ربع ما تركت من مال وتلك هى الحالة الثانية للزوج ، ويكون الباقى فى الصورتين لبقية الورثة .وقوله ( مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ) متعلق بكلتا الصورتين .أى لكم ذلك - أيها الرجال من بعد استخراج وصيتهن وقضاء ما عليهن من ديون .ثم بين سبحانه - نصيب الزوجة فقال ( وَلَهُنَّ الربع مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُنْ لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثمن مِمَّا تَرَكْتُم ) .أى أن للزوجات ربع المال الذى تركه أزواجهن إذا لم يكن لهؤلاء الأزواج الأموال ولد من ظهورهم أو من ظهور بنيهم أو بنى بنيهم . . إلخ فإن ترك الأزواج من خلقهم ولدا فللزوجات ثمن المال الذى تركه أزواجهن ويكون المال الباقى فى الصورتين لبقية الورثة .ونرى من هذا أن الزوجة على النصف فى التقدير من الزوج ، وهو قاعدة عامة فى قسمة الميراث بالنسبة للذكر والأنثى ، ولم يستثن إلا الإخوة لأم ، والأبوين فى بعض الأحوال .وقوله ( مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ) متعلق بما قبله .أى لكن ذلك أيتها الزوجات من بعد استخراج وصيتهم وقضاء ما عليهم من ديون .ثم بين - سبحانه ، ميراث الإخوة والأخوات لأم فقال - تعالى - : (وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلاَلَةً أَو امرأة وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السدس فَإِن كانوا أَكْثَرَ مِن ذلك فَهُمْ شُرَكَآءُ فِي الثلث ) .والكلالة؛ هم القرابة من غير الأصول والفروع .قال صاحب الكشاف : فإن قلت ما الكلالة؟ قلت : ينطلق على واحد من ثلاثة : على من لم يخلف ولدا ولا والدا وعلى من ليس بولد ولا والد من المخلفين وعلى القرابة من غير جهة الولد والوالد ، ومنه قولهم ما ورث المجد عن كلالة . كما تقول : ما صمت عن عى ، وما كف عن جبن .والكلالة فى الأصل مصدر بمعنى الكلال وهو ذهاب القوة من الإعياء ، قال الأعشى :فآليت لا أرثى لها من كلالة ... فاستعيرت للقرابة من غير جهة الولد والوالد لأنها بالإضافة إلى قرابتها كالّة ضعيفة . عن أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - أنه سئل عن الكلالة فقال : الكلالة : من لا ولد له ولا والد .والظاهر أن كلمة " كلالة هنا وصف للميت الموروث ، لأنها حال من نائب فاعل قوله : ( يُورَثُ ) وهو ضمير الميت الموروث والتقدير . وإن كان رجل موروثا حال كونه كلالة . أى؛ لم يترك ولدا ولا والدا . ويرى بعضهم أن كلمة هنا : وصف للوارث الذى ليس بولد ولا والد للميت ، لأن هؤلاء الوارثين يتكللون الميت من جوانبه ، وليسوا فى عمود نسبه . كالإكليل يحيط بالرأس ، ووسط الرأس منه خال . من تكلله الشئ إذا أحاط به . فسمى هؤلاء الأقارب الذين ليسوا من أصول الميت أو من فروعه كلالة ، لأنهم أطافوا به من جوانبه لا من عمود نسبه . وعلى هذا الرأى يكون المعنى وإن كان رجل يورث حال كونه ذا وارث هو كلالة . أى أن وارثه ليس بولد ولا والد له والمراد بالإخوة والأخوات هنا : الإخوة والاخوات لأم ، بدليل قراءة سعد - بن أبى وقاص : " وله أخ أو أخت من أم " . ويدل عليه - أيضا - أن الله تعالى - ذكر ميراث الإخوة مرتين : هنا مرة ، ومرة أخرى فى آخر آية من هذه

السورة وهى قوله : ( يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ الله يُفْتِيكُمْ فِي الكلالة )
، وقد جعل - سبحانه - في الآية التى معنا للواحد السدس وللأكثر الثلث شركة
وجعل فى الآية التى فى آخر السورة للأخت الواحد النصف . وللأثنتين الثلثين
فوجب أن يكون الإخوة هنا وهناك مختلفين دفعا للتعارض . ولأنه لما كان ،
- الإخوة لأب وأم أو لأب فحسب أقرب من الإخوة لأم ، وقد أعطى - سبحانه
الأخت والأختين والإخوة فى آخر السورة نصيبا أوفر ، فقد وجب حمل الإخوة
فى آخر السورة على الأشقاء أو الإخوة لأب . كما وجب حمل الإخوة والأخوات
هنا على الإخوة لأم .والمعنى : ( وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلاَلَةً )
أى : يورث من غير أصوله أو فروعه ( أو امرأة ) أى : تورث كذلك من غير
أصولها أو فروعها .والضمير فى قوله ( وَلَهُ ) يعود لذلك الشخص الميت
المفهوم من المقام . أو لواحد منهما - أى الرجل والمرأة - والتذكير للتغليب
أو يعود للرجل واكتفى بحكمه عن حكم المرأة لدلالة العطف على تشاركهما فى
هذا الحكم .وقوله : ( أَخٌ أَوْ أُخْتٌ ) أى : من الأم فقط ( فَلِكُلِّ
وَاحِدٍ مِّنْهُمَا ) أى : الأخ والأخت ( السدس ) مما ترك ذلك المتوفى من
غير تفصيل للذكر على الأنثى . لأنهما يتساويان فى الإدلاء إلى الميت بمحض
الانوثة . ( فَإِن كانوا ) أى : الإخوة والأخوات لأم ، أكثر من واحد فهم
، شركاء فى الثلث ، يقتسمونه فيما بينهم بالسوية بين ذكورهم وإناثهم
والباقى من المال الموروث يقسم بين أصحاب الفروض والعصبات من الورثة .وبذلك
نرى أن الإخوة والأخوات من الأم لهم حالتان :إحداهما : أن يأخذ الواحد أو
الواحدة السدس إذا انفردا .والثانية : أن يتعدد الأخ لأم وفى هذه الحالة
يكون نصيبهم الثلث يشتركون فيه بالسوية فلا فرق بين الذكر والأنثى .ثم
ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ( مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يوصى بِهَآ
أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ الله والله عَلِيمٌ حَلِيمٌ )
أى : هذه القسمة التى قسمها الله - تعالى - لكم بالنسبة للإخوة للأم إنما
تتم بعد تنفيذ وصية الميت وقضاء ما عليه من ديون ، من غير ضرار الورثة
بوصيته أو دينه . وفى قوله ( يوصى ) قراءتان سبعيتان :إحداهما بالبناء
للمفعول أى ( يوصى ) - بفتح الصاد - فيكون قوله ( غَيْرَ مُضَآرٍّ ) حال من
فاعل فعل مضمر يدل عليه المذكور . أى من بعد وصية يوصى بها أو دين حالة كون
الموصى به أو الدين غير مضار ، أى غير متسبب فى ضرر الورثة .والقراءة
الثانية بالبناء للفاعل أى ( يوصى ) - بكسر الصاد - فيكون قوله ( غَيْرَ
مُضَآرٍّ ) حال من فاعل الفعل المذكور وهو ضمير ( يوصى ) .أى : يوصى بما
ذكر من الوصية والدين حال كونه " غير مضار " أى غير مدخل الضرر على الورثة
وبهذا نرى أن مرتبة الورثة فى التقسيم تأتى بعد سداد الديون وبعد تنفيذ
الوصايا ولذا ذكر سبحانه هذين الأمرين أربع مرات فى هاتين الآيتين تأكيدا
لحق الدائنين والموصى لهم وتبرئة لذمة المتوفى فقد قال بعد بيان ميراث
الأولاد والأبوين ( مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يوصى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ) وقال
بعد بيان ميراث الزوج ( مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ )
وقال بعد ميراث الزوجة : ( مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ
دَيْنٍ ) وقال بعد بيان ميراث الإخوة والأخوات لأم : ( مِن بَعْدِ
وَصِيَّةٍ يوصى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ ) .وقد قدم - سبحانه -
الوصية على الدين فى اللفظ مع أنها مؤخرة عن الدين فى السداد ، وذلك
للتشديد فى تنفيذها ، إذ هى مظنه الإهمال ، أو مظنة الإخفاء ، ولأنها مال
يعطى بغير عوض فكان إخراجها شاقا على النفس .فكان من الاسلوب البليغ الحكيم
العناية بتنفيذها ، وكان من مظاهر هذه العناية تقديمها فى الذكر .وقد وضح
هذا المعنى صاحب الكشاف فقال : فإن قلت : لم قدمت الوصية على الدين والدين
مقدم عليها فى الشريعة؟ قالت : لما كانت الوصية مشبهة للميراث فى كونها
مأخوذة من غير عوض ، كان إخراجها مما يشق على الورثة ويتعاظمهم ولا تطيب
أنفسهم بها ، فكان أداؤها مظنة للتفريط ، بخلاف الدين فإن نفوسهم مطمئنة
إلى أدائه ، فلذلك قدمت على الدين بعثا على وجوبها والمسارعة إلى إخراجها
مع الدين .فإن قلت : ما معنى ( أَوْ ) ؟ قلت معناها الإباحة ، وأنه إذا
كان أحدهما أو كلاهما ، قدم على قسمة الميراث كقولك : جالس الحسن أو ابن
) - سيرين . فأو هنا جئ بها للتسوية بينهما فى الوجوب .وقوله - تعالى
غَيْرَ مُضَآرٍّ ) يفيد النهى للموروث عن إلحاق الضرر بورثته عن طريق
الوصية أو بسب الديون .والضرر بالورثة عن طريق الوصية يتأتى بأن يوصى
الموروث بأكثر من الثلث ، أو به فأقل مع قصده الإضرار بالورثة فقد روى
النسائى فى سننه عن ابن عباس أنه قال : الضرار فى الوصية من الكبائر . وقال
قتادة : كره الله الضرار فى الحياة وعند الممات ونهى عنه .والضرر بالورثة
بسبب الدين يتأتى بأن يقر بدين لشخص ليس له عليه دين دفعا للميراث عن
الورثة ، أو يقر بأن الدين الذى كان له على غيره قد استوفاه ووصل إليه ، مع
أنه لم يحصل شئ من ذلك .وقد ذكر - سبحانه - هذه الجملة وهى قوله ( غَيْرَ
مُضَآرٍّ ) بعد حديثه عن ميراث الإخوة والأخوات من الأم ، تأكيدا لحقوقهم
وتحريضا على أدائها ، لأن حقوقهم مظنة الضياع والإهمال . ولا يزال الناس ،
إلى الآن يكادون يهملون نصيب الإخوة لأم .وقوله ( وَصِيَّةً مِّنَ الله )
نصبت كلمة ( وَصِيَّةً ) فيه على أنها مصدر مؤكد أى : يوصيكم الله بذلك

وصية . والتنوين فيها للتفخيم والتعظيم . والجار والمجرور وهو ( مِّنَ الله
متعلق بمحذوف وقع صفة لوصية : أى وصية كائنة من الله فمن خالفها كان (
مستحقا لعقابه .وقوله ( والله عَلِيمٌ حَلِيمٌ ) تذييل قصد به تربية
المهابة فى القلوب من خالقها العليم بأحوالها . أى والله عليم بما تسرون
وما تعلنون ، وبما يصلح أحوالكم وبمن يستحق الميراث ومن لا يستحقه وبمن
- يطيع أوامره ومن يخالفها حليم لا يعجل بالعقوبة على من عصاه ، فهو
سبحانه - يمهل ولا يهمل . فعليكم أن تستجيبوا لأحكامه ، حتى كونوا أهلا
. لمثوبته ورضاه

تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الانهار
خالدين فيها وذلك الفوز العظيم

كما فسرها الوسيط ثم أكد - سبحانه - وجوب الانقياد لأحكامه ، وبشر المطيعين
بحسن الثواب . وأنذر العصاة بسوء العقاب فقال : ( تِلْكَ حُدُودُ الله
وَمَن يُطِعِ الله وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا
الأنهار خَالِدِينَ فِيهَا وذلك الفوز العظيم ) .واسم الإشارة ( تِلْكَ )
يعود إلى الأحكام المذكورة فى شأن المواريث وغيرها . والمعنى : تلك الأحكام
التى ذكرها - سبحانه - عن المواريث وغيرها ( حُدُودُ الله ) أى شرائعه
وتكاليفه التى شرعها لعباده .والحدود جمع حد . وحد الشئ طرفه الذى يمتاز به
عن غيره . ومنه حدود البيت أى أطرافه التى تميزه عن بقية البيوت .والمراد
بحدود الله هنا الشرائع التى شرعها - سبحانه - لعباده بحيث لا يجوز لهم
تجاوزها ومخالفتها .وقد أطلق - سبحانه - على هذه الشرائع كلمة الحدود على
سبيل المجاز لشبهها بها من حيث إن المكلف لا يجوز له أن يتجاوزها إلى غيرها
ثم قال - تعالى - ( وَمَن يُطِعِ الله وَرَسُولَهُ ) أى فيما أمر به من.
الأحكام ، وفيما شرعه من شرائع تتعلق بالمواريث وغيرها .( يُدْخِلْهُ
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ) أى تجرى من تحت أشجارها ومساكنها
الأنهار ( خَالِدِينَ فِيهَا ) أى باقين فيها لا يموتون ولا يفنون ولا
يخرجون منها وقوله ( وذلك الفوز العظيم ) أى وذلك المذكور من دخول الجنة
. الخالدة الباقية بمن فيها هو الفوز العظيم ، والفلاح الذى ليس بعده فلاح

ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين

كما فسرها الوسيط ثم قال - تعالى - ( وَمَن يَعْصِ الله وَرَسُولَهُ ) أى
فيما أمر به من أوامر وفيما نهى عنه من منهيات ( وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ )
). التى تتعلق بالمواريث وغيرها بأن يتجاوزها ويخالف حكم الله فيها
يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا ) أى . يدخله نارا هائلة عظيمة خالدا
فيها خلودا أبديا إن كان من أهلا لكفر والضلال . وخالدا فيها لمدة لا
يعلمها إلا الله إن كان من عصاة المؤمنين .وقال هنا ( خَالِداً فِيهَا )
بالإفراد ، وقال فى شأن المؤمنين ( خَالِدِينَ فِيهَا ) بالجمع ، للإيذان
. بأن أهل الطاعة جديرون بالشفاعة . فإذا شفع أحدهم لغيره وقبل الله شفاعته
دخل ذلك الغير معه فى رضوان الله .أما أهل الكفر والمعاصى فليسوا أهلا
للشفاعة ، بل يبقون فرادى ، تحيط بهم الذلة والمهانة من كل جانب .أو
للاشعار بأن الخلود فى دار الثواب يكون على هيئة الاجتماع الذى هو أجلب
للأنس والبهجة .وبأن الخلود فى دار العقاب يكون على هيئة الانفراد الذى هو
أشد فى استجلاب الوحشة والهم .وقوله ( وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ) أى لهذا
العاصى لله ولرسوله ، والمتعدى للحدود التى رسمها الله ، عذاب عظيم من شأنه
أن يخزى من ينزل به ويذله ( وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ) وإلى
هنا تكون الآيات الكريمة قد وضحت أحكام المواريث بأبلغ بيان ، وأحكم تشريع
وبشرت المستحببين لشرع الله يجزيل الثواب ، وأنذرت المعرضين عن ذلك بسوء ،
المصير . هذا ، ومن الأحكام والفوائد التى يمكن أن نستخلصها من هذه الآيات
ما يأتى :أولا : أن ترتيب الورثة قد جاء فى الآيتين الكريمتين على أحسن وجه
- وأتم بيان ، وأبلغ أسلوب وذلك لأن الوارث - كما يقول الإمام الرازى ،
إما أن يكون متصلا بالميت بغير واسطة أو بواسطة .فإن اتصل به بغير واسطة
فسبب الاتصال إما أن يكون هو النسب أو الزوجية ، فحصل هنا أقسام ثلاثة
أولها : أشرفها وأعلاها الاتصال الحاصل ابتداء من جهة النسب ، وذلك هو:
قرابة الولاد ويدخل فيها الأولاد والوالدان ، فالله - تعالى - قدم حكم هذا
القسم .وثانيها : الاتصال الحاصل ابتداء من جهة الزوجية . وهذا القسم متأخر
فى الشرف عن القسم الأول! لأن الأول ذاتى وهذا الثاني عرض ، والذاتى أشرف
. من العرض .وثالثها : الاتصال الحاصل بواسطة الغير وهو المسمى بالكلالة
وهو متأخر فى الشرف عن القسمين الأولين ، لأنهما لا يعرض لهم السقوط
بالكلية وأما الكلالة فقد يعرض لهم السقوط بالكلية ، ولأنهم يتصلان بالميت
بغير واسطة بخلاف الكلالة .فما أحسن هذا الترتيب ، وما أشد انطباقه على
قوانين المعقولات .ثانيا : أن الآيتين الكريمتين قد بينتا الوارثين
والوارثات ونصيب كل وارث بالأوصاف التى جعلها الله - تعالى - سببا فى

استحقاق الإرث كالبنوة والأبوة والزوجية والأخوة . وقد ألغتا بالنسبة إلى
اصل الاستحقاق الذكورة والأنوثة والصغر والكبر وجعلنا للكل حقا معينا فى
الميراث . وبهذا أبطلتا ما كان عليه الجاهليون من جعل الإرث بالنسب مقصورا
على الرجال دون النساء والأطفال ، وكانوا يقولون : "لا يرث إلا من طاعن
) : - بالرماح ، وذاد عن الحوزة ، وحاز الغنيمة " .ثالثا : أن قوله - تعالى
يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ ) إلخ يعم أولاد المسلمين والكافرين
والأحرار والأرقاء والقاتلين عمدا وغير القاتلين إلا أن السنة النبوية
": الشريفة قد خصصت بعض هذا العموم ، حيث أخرجت الكافر من هذا العموم لحديث
لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم " وعلى هذا سار جمهور العلماء فلم
يورثوا مسلما من كافر ولا كافرا من مسلم .وذهب بعضهم إلى أن الكفار لا يرث
المسلم ولكن المسلم يرث الكافر .كذلك نصف العلماء على أن الحر والعبد لا
يتوارثان؛ لأن العبد لا يملك ، وعلى أن القاتل عمدا لا يرث من قتله معاملة
بنقيض مقصوده .رابعا : أن نصيب الأولاد إذا كافوا ذكورا وإناثا يكون بعد أن
يأخذ الأبوان والأجداد والجدات وأحد الزوجين أنصبتهم .وأن الأولاد يطلقون
على فروع الشخص من صلبه . أى أبنائه وأبناء أبنائه ، وبنات أبنائه .وأن
أبناء الشخص وبناته يقدمن على أبناء أبنائه وبنات أبنائه . أى أن الطبقة
الأولى تستوفى حقها فى الميراث قبل من يليها .وأن الأبناء والأبوين
والزوجين لا يسقطون من أصل الاستحقاق للميراث بحال ، إلا أنهم قد يؤثر
عليهم وجود غيرهم فى المقدار المستحق .وأنه متى أجتمع فى المستحقين للميراث
ذكور وإناث من درجة واحدة ، أخذ الذكر مثل حظ الأنثيين إلا ما سبق لنا
استثناؤه .خامسا :لا يجوز للمورث أن يسئ إلى ورثته لا عن طريق الوصية ولا
عن طريق الدين ولا عن أى طريق آخر . لأن الله - تعالى - قد نهى عن المضارة
فقال : ( مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يوصى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ
وَصِيَّةً مِّنَ اللهِ ) .وإن بدء الآيتين الكريمتين بقوله : ( يُوصِيكُمُ
اللهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ ) .وختم أولاهما : بقوله : ( فَرِيضَةً مِّنَ اللهِ )
وختم ثانيتهما بقوله ( وَصِيَّةً مِّنَ اللهِ ) هذا البدء والختام لجديران
، بأن يغرسا الخشية من الله فى قلوب المؤمنين الذين يخافون مقام ربهم
وينهون أنفسهم عن السير فى طريق الهوى والشيطان .سادساً : أنه يجب تقديم
حقوق الميت على تقسيم التركة ، فقد كرر الله - تعالى - قوله : ( مِن بَعْدِ
وَصِيَّةٍ يوصى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ) كما سبق أن بينا .قال القرطبى : ولا
ميراث إلا بعد أداء الدين والوصية؛ فإذا مات المتوفى أخرج من تركته الحقوق
المعينات ، ثم ما يلزم من تكفينه وتقبيره ، ثم الديون على مراتبها ، ثم
يخرج من الثلث الوصايا ، وما كان فى معناها على مراتبها أيضا . ويكون
الباقى ميراثا بين الورثة .وجملتهم سبعة عشر . عشرة من الرجال وهم : الابن
. وابن الابن وإن سفل والاب وأب الأب وهو الجد وإن علا . والأخ وابن الأخ
والعم وأبن العم . والزوج ومولى النعمة . ويرث من النساء سبع وهن : البنت
وبنت الابن وإن سفلت ، والأم والجدة وإن علت . والأخت والزوجة . ومولاة
. النعمة وهى المعتقة

واللاتي ياتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن اربعة منكم فان شهدوا
فامسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت او يجعل الله لهن سبيلا

كما فسرها الوسيط وبعد أن أمر - سبحانه - بالإحسان إلى النساء . وبمعاشرتهن
- معاشرة كريمة ، وبين حقوقهن فى الميراث ، أتبع ذلك ببيان حكمه - سبحانه
فى الرجال والنساء إذا ما ارتكبوا فاحشة الزنا فقال - تعالى - : ( واللاتي
يَأْتِينَ . . . . . تَوَّاباً رَّحِيماً ) .وقوله : ( واللاتي ) جمع التى
وهى تستعمل فى جمع من يعقل . أما إذا أريد جمع ما لا يعقل من المؤنث فإنه .
يقال : التى تقول : أكرمت النسوة اللاتى حضرن . وتقول : نزعت الأثواب التى
كنت ألبسها . وهذا هو الرأى المختار .وبعضهم يسوى بينهم فيقول فى الجمع
المؤنث لغير العاقل : اللاتى .وقوله ( يَأْتِينَ ) من الإتيان ويطلق فى
) الأصل على المجئ إلى شئ . والمراد به هنا الفعل . أى واللاتى يفعلن
الفاحشة مِن نِّسَآئِكُمْ ) .والفاحشة : هي الفعلة القبيحة . وهى مصدر
كالعافية . يقال فحش الرجل يفحش فحشا .وأفحش : إذا جاء بالقبيح من القول أو
الفعل .والمراد بها هنا : الزنا .وقوله : ( مِن نِّسَآئِكُمْ ) متعلق
بمحذوف وقع حالا من فاعل ( يَأْتِينَ ) أى : يأتين الفاحشة حال كونهن من
نسائكم .والمراد بالنساء فى قوله ( مِن نِّسَآئِكُمْ ) : النساء اللاتى قد
أحصن بالزواج سواء أكن مازلن فى عصمة أزواجهن أم لا . وهذا رأى جمهور
الفقهاء .وبعضهم يرى أن المراد بالنساء هنا مطلق النساء سواء أكن متزوجات
أم أبكاراً .والمعنى : أن الله - تعالى - يبين لعباده بعض الأحكام المتعلقة
بالنساء فيقول :أخبركم - أيها المؤمنون - بأن اللاتى يأتين فاحشة الزنا من
). نسائكم ، بأن فعلن هذه الفاحشة المنكرة وهن متزوجات أو سبق لهن الزواج
فاستشهدوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ ) أى : فاطلبوا أن يشهد عليهن
بأنهن أتين هذه الفاحشة المنكرة أربعة منكم أى من الرجال المسلمين الأحرار
وقوله : (فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي البيوت حتى.

يَتَوَفَّاهُنَّ الموت ) أى فإن شهد هؤلاء الأربعة بأن هؤلاء النسوة قد أتين هذه الفاحشة ، فعليكم فى هذه الحالة أن تحبسوا هؤلاء النسوة فى البيوت ولا تمكنوهن من الخروج عقوبة لهن ، وصيانة لهن عن تكرار الوقوع فى هذه الفاحشة المنكرة ، وليستمر الأمر على ذلك ( حتى يَتَوَفَّاهُنَّ الموت ) أى حتى يقبض أرواحهن الموت . أو حتى يتوفاهن ملك الموت .وقوله : ( أَوْ يَجْعَلَ الله لَهُنَّ سَبِيلاً ) أى : أو يجعل الله لهن مخرجا من هذا الإمساك فى البيوت ، بأن يشرع لهن حكما آخر .وقوله : ( واللاتي ) فى محل رفع مبتدأ . وجملة ( فاستشهدوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعةً مِّنْكُمْ ) خبره وجاز دخول الفاء الزائدة فى الخبر . لأن المبتدأ أشبه الشرط فى كونه موصولا عاما صلته فعل مستقبل .وعبر - سبحانه - عن ارتكاب فاحشة الزنا بقوله : ( يَأْتِينَ ) لمزيد التقبيح والتشنيع على فاعلها ؛ لأن مرتكبها كأنه ذهب إليها عن قصد حتى وصل إليها وباشرها .واشترط - سبحانه - شهادة أربعة من الرجال المسلمين الأحرار؛ لأن الرمى بالزنا من أفحش ما ترمى به المرأة والرجل ، فكان من رحمة الله وعدله أن شدد فى إثبات هذه الفاحشة أبلغ ما يكون التشديد ، فقرر عدم ثبوت هذه الجريمة إلا بشهادة أربعة من الرجال بحيث لا تقبل فى ذلك شهادة النساء .قال الزهرى : مضت السنة من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم والخليفتين من بعده أن لا تقبل شهادة النساء فى الحدود وقرر أن تكون الشهادة بالمعاينة لا بالسماع ، ولذا قال ( فَإِن شَهِدُواْ . أى إن ذكروا أنهم عاينوا ارتكاب هذه الجريمة من مرتكبيها . وشهدوا على ما ( عاينوه وأبصروه ( فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي البيوت ) .وحتى فى قوله . ( حتى يَتَوَفَّاهُنَّ الموت ) بمعنى إلى . والفعل بعدها منصوب بإضمار أن وهى متعلقة بقوله ( فَأَمْسِكُوهُنَّ ) غاية له .والمراد بالتوفى أصل معناه أى الاستيفاء وهو القبض تقول : توفيت مالى الذى على فلان واستوفيته إذا قبضته وإسناده إلى الموت باعتبار تشبيهه بشخص يفعل ذلك . والكلام على حذف مضاف . أى : حتى يقبض أرواحهن الموت . أو حتى يتوفاهن ملائكة الموت .و " أو " فى قوله ( أَوْ يَجْعَلَ الله لَهُنَّ سَبِيلاً ) ، للعطف ، فقد عطفت قوله ( يَجْعَلَ ) على قوله : ( يَتَوَفَّاهُنَّ ) فيكون الجعل غاية لإمساكهن أيضا فيكون المعنى . أمسكوهن فى البيوت إلى أن يتوفاهن الموت ، أو إلى أن يجعل . الله لهن سبيلا أى مخرجا من هذه العقوبة .وقد جعل الله - تعالى - هذا . المخرج بما شرعه بعد ذلك من حدود بأن جعل عقوبة الزانى البكر : الجلد - وجعل عقوبة الزانى الثيب : الرجم وقد رجم النبى - صلى الله عليه وسلم ماعز بن مالك الأسلمى ، ورجم الغامدية ، وكانا محصنين .قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : كان الحكم فى ابتداء الإسلام أن المرأة إذا ثبت زناها بالبينة العادلة حبست فى بيت فلا تمكن من الخروج منه إلى أن تموت ، ولهذا . قال - تعالى - : ( واللاتي يَأْتِينَ الفاحشة مِن نِّسَآئِكُمْ ) الآية فالسبيل الذى جعله الله هو الناسخ لذلك - أى لإمساكهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت - .قال ابن عباس : كان الحكم كذلك حتى أنزل الله سروة النور فنسخه بالجلد أو الرجم .وكذلك روى عن عكرمة وسعيد بن جبير والحسن وعطاء وقتادة وزيد بن أسلم والضحاك أنها منسوخة . وهو أمر متفق عليه .روى الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت قال : " كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه الوحى أثر عليه وكرب لذلك وتغير وجهه فأنزل الله عليه ذات يوم فلما . سرى عنه قال : خذوا عنى خذوا عنى قد جعل الله لهن سبيلا ، الثيب بالثيب والبكر بالبكر . الثيب جلد مائة ورجم بالحجارة . والبكر جلد مائة ونفى سنة وقد رواه مسلم وأصحاب السنن من طرق عبادة بن الصامت .هذا وما ذكره ابن. " كثير من أن هذا الحكم كان فى ابتداء الإسلام ، ثم نسخ بما جاء فى سورة النور وبما جاء فى حديث عبادة بن الصامت ، هو مذهب جمهور العلماء .وقال صاحب الكشاف : ويجوز أن تكون غير منسوخة بأن يترك ذكر الحد لكونه معلوما بالكتاب والسنة ، ويوصى بإمساكهن فى البيوت بعد أن يحددن صيانة لهن عن مثل ما جرى عليهن بسبب الخروج من البيوت والتعرض للرجال .( أَوْ يَجْعَلَ الله : لَهُنَّ سَبِيلاً ) هو النكاح الذى يستغنين به عن السفاح وقيل السبيل الحد ، لأنه لم يكن مشروعا فى ذلك الوقت .وقال أبو سليمان الخطابى : هذه الآية ليست منسوخة ، لأن قوله ( فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي البيوت ) ألخ ، يدل على أن إمساكهن فى البيوت ممتد إلى غاية أن يجعل الله لهن سبيلا ، وذلك ، السبيل كان مجملا ، فلما قال النبي صلى الله عليه وسلم خذوا عنى . ألخ . صار هذا الحديث بيانا لتلك الآية لا ناسخا لها

واللذان ياتيانها منكم فاذوهما فان تابا واصلحا فاعرضوا عنهما ان الله كان توابا رحيما

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - حكما آخر فقال : ( واللذان يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا ) .أى واللذان يأتيان فاحشة الزنا من رجالكم ونسائكم فآذوهما بالشتم والتوبيخ والزجر الشديد ليندما على ما فعلا وليرتدع سواهما بهما .وقد اختلف العلماء فى المراد بقوله ( واللذان ) فمنهم من قال المراد بهما الرجل والمرأة البكران اللذان لم يحصنا .ومنهم.

من قال المراد بهما الرجلان يفعلان اللواط .ومنهم من قال المراد بهما الرجل والمرأة لا فرق بين بكر وثيب .والمختار عند كثير من العلماء هو الرأى الأول قالوا : لأن الله - تعالى - ذكر فى هاتين الآيتين حكمين :أحدهما : الحبس ، في البيوت .والثاني : الإيذاء ، ولا شك أن من حكم عليه بالأول خلاف من حكم عليه بالثاني ، والشرع يخفف فى البكر ويشدد على الثيب ، ولذلك لما نسخ هذا الحكم جعل للثيب الرجم وللبكر الجلد ، فجعلنا الحكم الشديد وهو الحبس على الثيب ، والحكم الأخف وهو الإيذاء على البكر .قالوا : وقد نسخ حكم هذه الآية بآية النور ، حيث جعل حكم الزانيين اللذين لم يحصنا جلد مائة .فقد أخرجه ابن جرير عن الحسن البصرى وعكرمة قالا فى قوله - تعالى - ( واللذان يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا ) الآية ، نسخ ذلك بآية الجلد وهى قوله - تعالى - فى سورة النور : ( الزانية والزاني فاجلدوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ ) الآية .ومن العلماء من قال بأن هذه الآية غير منسوخة بآية النور ، فإن العقوبة ذكرت هنا مجملة غير واضحة المقدار لأنا مجرد الإيذاء ، وذكرت بعد ذلك مفصلة بينة المقدار فى سورة النور . أى أن ما ذكر هنا من قبيل المجمل ، وما ذكر فى سورة النور من قبيل المفصل ، وأنه لا نسخ بين الآيتين .هذا ، ولأبى مسلم الأصفهاني رأى آخر فى تفسير هاتين الآيتين ، فهو يرى أن المراد باللاتى فى قوله ( واللاتي يَأْتِينَ الفاحشة مِن نِّسَآئِكُمْ ) النساء السحاقات اللاتى يستمتع بعضهن ببعض وحدهن الحبس والمراد بقوله ( واللذان يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ ) اللائطون من الرجال ، وحدهم الإيذاء وأما حكم الزناة فسيأتى فى سورة النور .قال الآلوسى : وقد زيف هذا القول بأنه لم يقل به أحد ، وبأن الصحابة قد اختلفوا فى حكم اللوطى ولم يتمسك أحد منهم بهذه الآية ، وعدم تمسكهم بها مع شدة احتياجهم إلى نص يدل على الحكم دليل على أن الآية ليست فى ذلك .وأيضا جعل الحبس فى البيت عقوبة السحاق لا معنى له . لأنه مما لا يتوقف على الخروج كالزنا . فلو كان المراد السحاقات لكانت العقوبة لهن عدم اختلاط بعضهن ببعض لا الحبس والمنع من الخروج . وحيث جعل هو عقوبة دل ذلك على أن المراد باللاتى يأتين الفاحشة الزانيات . . .والذى نراه أن هذا الحكم المذكور فى الآيتين منسوخ ، بعضه ) بالكتاب وبعضه بالسنة .أما الكتاب فهو قوله - تعالى - فى سورة النور الزانية والزاني فاجلدوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ ) الآية وأما السنة فحديث عباده بن الصامت الذى سبق ذكره .وإنما قلنا ذلك لأن ظاهر. الآيتين يدل على أن ما ذكر فيهما من الحبس والإيذاء بعد نزول آية سورة النور . بل الثابت عنه أنه كان يجلد البكر من الرجال والنساء ، ويرجم المحصن منهما ، ولم يضم إلى إحدى هاتين العقوبتين حبسا أو إيذاء ، فثبت أن هذا الحكم المذكور فى الآيتين قد نسخ .ثم بين - سبحانه - الحكم فيما إذا أقلع الزانى والزانية عن جريمتهما فقال : ( فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَآ إِنَّ الله كَانَ تَوَّاباً رَّحِيماً ) .أى فإن تابا فعلا من الفاحشة ، وأصلحا أعمالهما ( فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَآ ) أى فاصفحوا عنهما وكفوا عن أذاهما ( إِنَّ الله كَانَ تَوَّاباً ) أى مبالغا فى قبول التوبة ممن تاب توبة صادقة نصوحا ( رَّحِيماً ) أى واسع الرحمة بعباده الذين لا يصرون على معصية بل يتوبون إليه منها توبة صادقة .

انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فاولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما

كما فسرها الوسيط وبعد أن وصف - سبحانه - ذاته بأنه هو التواب الرحيم عقب ذلك ببيان من تقبل منهم التوب ، ومن لا تقبل منهم فقال : ( إِنَّمَا التوبة عَذَاباً أَلِيماً ) .والتوبة : هى الرجوع إلى الله - تعالى . . . . . - وإلى تعاليم دينه بعد التقصير فيه مع الندم على هذا التقصير والعزم على عدم العودة إليه .والمراد بها قبولها من العبد . فهى مصدر تاب عليه إذا قبل توبته .والمراد من الجهالة فى قوله ( يَعْمَلُونَ السواء بِجَهَالَةٍ ) : الجهل والسفه بارتكاب مالا يليق بالعاقل ، لا عدم العلم ، لأن من لا يعلم لا يحتاج إلى التوبة .قال مجاهد : كل من عصى الله عمداً أو خطأ فهو جاهل حتى ينزع عن معصيته .وقال قتادة : اجتمع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فرأوا أن كل شئ عصى الله به فهو جهالة عما كان أو غيره .قال - تعالى - حكاية عن يوسف - عليه السلام - : ( رَبِّ السجن أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يدعونني إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الجاهلين ) وقال حكاية عن موسى - عليه السلام - ( أَعُوذُ بالله أَنْ أَكُونَ مِنَ الجاهلين ) وقال - سبحانه - مخاطبا نوحا - عليه السلام - ( فَلاَ تَسْئَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إني أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الجاهلين ) ووجه تسمية العاصى جاهلا - وإن عصى عن علم - أنه لو استعمل ما معه من العلم بالثواب والعقاب لما عصى ربه ، فلما لم يستعمل هذا العلم صار كأنه لا علم له ، فسمى العاصى جاهلا لذلك ، سواء ارتكب المعصية مع العلم بكونها معصية أم لا .والمعنى : إنما قبول التوبة كائن أو مستقر على الله - تعالى - لعباده الذين يعملون السوء ، ويقعون فى المعاصى

بجهالة أى يعملون السوء جاهلين سفهاء ، لأن ارتكاب القبيح مما يدعو إليه السفه والشهوة ، لا مما تدعو إليه الحكمة والعقل .وصدر - سبحانه - الآية الكريمة بإنما الدالة على الحصر ، للإشعار بأن هؤلاء الذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ، هم الذين يقبل الله توبتهم ، ويقبل عثرتهم وعبر - سبحانه - بلفظ على فقال : ( إِنَّمَا التوبة عَلَى الله ) للدلالة. على تحقق الثبوت ، حتى لكأن قبول التوبة من هؤلاء الذين ( يَعْمَلُونَ السواء بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ) من الواجبات عليه ، لأنه - سبحانه - قد وعد بقبول التوبة؛ وإذا وعد بشئ أنجزه ، إذ الخلف ليس من صفاته - تعالى - بل هو محال فى حقه - عز وجل - .ولفظ ( التوبة ) مبتدأ . وقوله ( لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السواء بِجَهَالَةٍ ) متعلق بمحذوف خبر وقوله ( عَلَى الله ) متعلق بمحذوف صفة للتوبة .أى : إنما التوبة الكائنة على الله للذين يعملون السوء بجهالة . . .وقوله ( بِجَهَالَةٍ ) متعلق بمحذوف وقع حالا من فاعل ( يَعْمَلُونَ ) أى : يعملون السوء جاهلين سفهاء . أو متعلق بقوله ( يَعْمَلُونَ ) فتكون الباء للسببية أى : يعملون السوء بسبب الجهالة .وقوله ( ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ) أى ثم يتوبون فى زمن قريب من وقت عمل السوء ، ولا يسترسلون فى الشر استرسالا ويستمرئونه ويتعودون عليه بدون مبالاة بارتكابه .ولا شك أنه متى جدد الإنسان توبته الصادقة فى أعقاب ارتكاب للمعصية كان ذلك أرجى لقبولها عند الله - تعالى - وهذا ما يفيده ظاهر الآية . ومنهم من فسر قوله ( مِن قَرِيبٍ ) بما قبل حضور الموت . وإلى هذا المعنى ذهب صاحب الكشاف فقال : قوله : ( مِن قَرِيبٍ أى : من زمان قريب . والزمان القريب : ما قبل حضرة الموت ألا ترى إلى ( قوله ( حتى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الموت قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآن ) . فبين أن وقت الاحتضار هو الوقت الذى لا تقبل فيه التوبة ، فبقى ما وراء ذلك فى حكم القريب . وعن ابن عباس : قبل أن ينزل به سلطان الموت . وعن الضحاك : كل توبة قبل الموت فهى قريب . وفى الحديث الشريف : " إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر " - أى ما لم تتردد الروح فى الحلق .والذى نراه أن ما ذكره صاحب الكشاف وغيره من أن قوله ( مِن قَرِيبٍ ) معناه : من قبل حضور الموت ، لا يتعارض مع الرأى القائل بأن قوله ( مِن قَرِيبٍ ) معناه : تم يتوبون فى وقت قريب من وقت عمل السوء ، لأن ما ذكره صاحب الكشاف وغيره بيان للوقت الذى تجوز التوبة فيه ولا تنفع بعده ، أما الرأى الثانى فهو بيان للزمن الذى يكون أرجى قبولا لها عند الله .والعاقل من الناس هو الذى يبادر ، بالتوبة الصادقة عقب المعصية بلا تراخ ، لأنه لا يدرى متى يفاجئه الموت ولأن تأخيرها يؤدى إلى قسوة القلب ، وضعف النفس ، واستسلامها للأهواء والشهوات .وقوله : ( فأولئك يَتُوبُ الله عَلَيْهِمْ وَكَانَ الله عَلِيماً حَكِيماً ) بيان للوعد الحسن الذى وعد الله به عبادة الذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من قريب .أى : فأولئك المتصفون بما ذكر ، يقبل الله توبتهم ويأخذ بيدهم إلى الهداية والتوفيق ، ويطهر نفوسهم من أرجاس الذنوب ، وكان ، الله عليما بأحوال عباده وبما هم عليه من ضعف ، حكيما يضع الأمور فى ) مواضعها حسبما تقتضيه مشيئته ورحمته بهم .وقوله ( فأولئك ) مبتدأ . وقوله يَتُوبُ الله عَلَيْهِمْ ) خبره .وأشار إليهم بلفظ ( أولئك ) للإيذان بسمو مرتبتهم ، وعلو مكانتهم ، وللتنبيه على استحضارهم باعتبار أوصافهم المتقدمة الدالة على خوفه من من خالقهم عز وجل - وقوله (وَكَانَ الله عَلِيماً حَكِيماً ) جملة معترضة مقررة لمضمون ما قبلها .

وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر احدهم الموت قال اني تبت الان ولا الذين يموتون وهم كفار اولئك اعتدنا لهم عذابا اليما

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - من لا تقبل توبتهم بعد بيانه لمن تقبل توبتهم فقال : ( وَلَيْسَتِ التوبة لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السيئات حتى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الموت قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآن وَلاَ الذين يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ) .أى : وليست التوبة مقبولة عند الله بالنسبة للذين يعملون السيئات ، ويقترفون المعاصى ، ويستمرون على ذلك ( حتى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الموت ) .بأن شاهد الأحوال التى لا يمكن معها الرجوع إلى الدنيا ، وانقطع منه حبل الرجاء فى الحياة (قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآن ) أى ) : قال فى هذا الوقت الذى الفائدة من التوبة فيه : إنى تبت الآن .وقوله وَلاَ الذين يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ) أى وليست التوبة مقبولة أيضا من الذين يموتون وهم على غير دين الإسلام .فالآية الكريمة قد نفت قبول التوبة ، من فريقين من الناس .أولهما : الذين يرتكبون السيئات صغيرها وكبيرها ، ويستمرون على ذلك بدون توبة أو ندم حتى إذا حضرهم الموت ، ورأوا أهواله ، قال قائلهم : إنى تبت الآن وقد كرر القرآن هذا المعنى فى كثير من آياته ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ( فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ) وقوله - تعالى - حكاية عن فرعون ( حتى إِذَآ أَدْرَكَهُ الغرق قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إله إلاَّ الذي آمَنَتْ بِهِ بنوا إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ المسلمين آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ

وَكُنتَ مِنَ المفسدين فاليوم نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ
خَلْفَكَ آيَةً ) وعدم قبول توبة هؤلاء فى هذا الوقت سببه أنهم نطقوا بها
فى حالة الاضطرار لا فى حالة الاختيار ، ولأنهم نطقوا بها فى غير وقت
التكليف .وثانيهما : الذين يموتون وهم على غير دين الإسلام ، فقد أخرج
الامام أحمد عن أبى ذر الغفارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن
يقبل توبة عبده ما لم يقع الحجاب . قيل : وما الحجاب؟ قال أن تموت النفس
، وهى مشركة " .وكثير من العلماء يرى أن المراد بالفريق الثانى : الكفار
لأن العطف يقتضى المغيرة .ومنهم من يرى أن الفريق الأول شامل للكفار ولعصاة
المؤمنين فيكون عطف قوله ( وَلاَ الذين يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ) من
باب عطف الخاص على العام لإفادة التأكيد .و ( حتى ) فى قوله ( حتى إِذَا
حَضَرَ ) حرف ابتداء . . والجملة الشرطية بعدها غاية لما قبلها . أي ليست
التوبة لقوم يعملون السيئات ويستمرون على ذلك فإذا حضر أحدهم الموت قال كيت
وكيت .وقوله ( وَلاَ الذين يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ) معطوف على الموصول
قبله . أى ليس قبول التوبة هؤلاء الذين يعملون السيئات . . . ولا لهؤلاء
) : - الذين يموتون وهم كفار .ثم بين - سبحانه - سوء عاقبتهم فقال - تعالى
أولئك أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ) أى أولئك الذين تابوا فى غير
وقت قبول التوبة هيأنا لهم عذابا مؤلما موجعا بسبب ارتكاسهم فى المعاصى؛
وابتعادهم عن الصراط المستقيم الذى يرضاه - سبحانه - لعباده .

يا ايها الذين امنوا لا يحل لكم ان ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا
ببعض ما اتيتموهن الا ان ياتين بفاحشة مبينة وعاشروهن بالمعروف فان
كرهتموهن فعسى ان تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا

كما فسرها الوسيط ثم وجه القرآن نداء عاما إلى المؤمنين نهاهم فيه عما كان
شائعا فى الجاهلية من ظلم للنساء؛ وإهدار لكرامتهن ، وأمرهم بحسن معاشرتهن
. . . . . وبعدم أخذ شئ من حقوقهن فقال - تعالى - : ( يَا أَيُّهَا الذين ،
مِّيثَاقاً غَلِيظاً ) .قال القرطبى عند تفسيره للآية الأولى : اختلفت
: الروايات وأقوال المفسرين فى سبب نزولها؛ فروى البخارى عن ابن عباس قال
كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته ، إن شاء بعضهم تزوجها ، وإن
شاءوا زوجوها ، وإن شاءوا لم يزوجوها ، فهم أحق بها من أهلها فنزلت هذه
الآية : ( يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ
النسآء كَرْهاً ) .وقال الزهرى وأبو مجلز : كان من دعاتهم إذا مات الرجل
يلقى ابنه من غيرها أو أقرب عصبة ثوبه على المرأة فيصير أحق بها من نفسها
. ومن أوليائها ، فإن شاء تزوجها بغير صداق إلا الصداق الذى أصدقها الميت
وإن شاء زوجها من غيره وأخذ صداقها ولم يعطها شيئا ، وإن شاء عضلها لتفتدى
منه بما ورثته من الميت أو تموت فيرثها . فأنزل الله هذه الآية : ( يَا
أَيُّهَا الذين آمَنُواْ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ النسآء كَرْهاً
الآية .وقيل : كان يكون عند الرجل عجوز ونفسه تتوق إلى الشابة فيكره . (
فراق العجوز لمالها فيمسكها ولا يقربها حتى تفتدى منه بمالها أو تموت فيرث
مالها فنزلت هذه الآية .ثم قال القرطبى : والمقصود من الآية إذهاب ما كانوا
عليه فى جاهليتهم ، وألا تجعل النساء كالمال يورثن عن الرجال كما يورث
المال . .وهناك روايات أخرى فى سبب نزول هذه الآية هذه الآية ساقها ابن
جرير وابن كثير وغيرهما ، وهى قريبة فى معناها ، مما أورده القرطبى ، لذا
اكتفينا بما ساقه القرطبى .وكلمة ( كَرْهاً ) قرأها حمزة والكسائى بضم
الكاف . وقرأها الباقون بفتحها قال الكسائى : وهما لغتان بمعنى واحد . وقال
الفراء : الكره - بفتح الكاف - بمعنى الإكراه . وبالضم بمعنى المشقة . فما
- أكره عليه الإنسان فهو كره - بالفتح - وما كان من جهة نفسه فهو كره
بالضم - .والمعنى : يأيها الذين آمنوا وصدقوا بالحق الذى جاءهم من عند الله
لا يحل لكم أن تأخذوا نساء موتاكم بطريق الإرث وهو كارهات لذلك أو ،
مكرهات عليه ، لأن هذا الفعل من أفعال الجاهلية التي حرمها الإسلام لما
فيها من ظلم للمرأة وإهانة لكرامتا .وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف
بقوله : " كانوا يبلون النساء بضروب من البلايا ، ويظلمونهن بأنواع من الظلم
فزجروا عن ذلك . فقيل : ( لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ النسآء ،
كَرْهاً ) أى : أن تأخذوهن على سبيل الإرث كما تحاز المواريث وهن كارهات
) : لذلك أو مكروهات .وقد وجه - سبحانه - النداء إلى المؤمنين فقال
أَيُّهَا الذين آمَنُواْ ) ليعم الخطاب جميع الأمة ، فيأخذ لك مكلف فيها
بحظه منه سواء أكان هذا المكلف من أولياء المرأة أم من الأزواج أم من
الحكام من غيرهم . وفى مخاطبتهم بصفة الإيمان تحريك لحرارة العقيدة فى
قلوبهم ، وتحريض لهم على الاستجابة إلى ما يقتضيه الإيمان من طاعة لشريعة
الله - تعالى - .وصيغة ( لاَ يَحِلُّ لَكُمْ ) صيغة تحريم صريح؛ لأن الحل
هو الإباحة فى لسان العرب ولسان الشريعة . فنفيه يراجف معنى التحريم .وليس
النهى فى قوله : ( لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ النسآء كَرْهاً )
منصبا على إرث أموالهن كما هو المعتاد ، وإنما النهى منصب على إرث المراة
ذاتها كما كانوا يفعلون فى الجاهلية؛ إذ كانوا يجعلون ذات المرأة كالمال

فيرثونها من قريبهم كما يرثون ماله .وقوله ( كَرْهاً ) مصدر منصوب على أنه
حال من النساء . أى حال كونهن كارهات لذلك أو مكروهات عليه .والتقييد
بالكره لا يدل على الجواز عند عدمه ، لأن تخصيص الشئ بالذكر لا يدل على نفى
ما عداه ، كما فى قوله - تعالى - : ( وَلاَ تقتلوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ
إِمْلاقٍ ) وقوله : (وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ
آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ) نهى آخر
عن بعض الأعمال السيئة التى كان أهل الجاهلية يعاملون بها المرأة . وهو
معطوف على قوله : ( أَن تَرِثُواْ . . . ) . وأعيد حرف " لا " للتوكيد .أى
: لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ، ولا يحل لكم أن تعضلوهن .وأصل العضل :
التضييق والحبس والمنع . يقال : عضلت الناقة بولدها ، إذا نشب فى بطنها
وتعسر عليه الخروج . وهو : أعضل به الأمر ، إذا اشتد وتعسر .والمراد به هنا
منع المرأة من الزواج والتضييق عليها فى ذلك ، سواء أكان هذا المنع :
- والتضييق من الزوج أم من غيره .أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : قوله
تعالى - : ( وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ ) .يقول : ولا تقهروهن لتذهبوا ببعض ما
آيتموهن ، يعنى الرجل تكون له المرأة وهو كاره لصحبتها ولها عليه مهر
فيؤذيها لتفتدى - أى : لتفتدى نفسها منه بأن تترك له مالها عليه من مهر أو
، مال - .وقيل : كان أولياء الميت يمنعون زوجته من التزوج بمن شاءت
ويتركونها على ذلك حتى تدفع لهم ما أخذت من ميراث الميت ، أو حتى تموت
، فيرثوها .والمعنى :لا يحل لكم - أيها المؤمنون - أن ترثوا النساء كرها
ولا أن تمنعوهن من الزواج ( لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ آتَيْتُمُوهُنَّ )
من الصداق أو غيره ، بأن يدفعن إليكم بعضه اضطراراً فتأخذوه منهن ، فإن هذا
الفعل يبغضه الله - تعالى - .ويبدو لنا من سياق الآية أن النهى عن عضل
المرأة هنا - وإن كان يتناول جميع المكلفين - ، إلا أن المعنى به الأزواج
ابتداء ، لأنهم - فى الغالب - هم الذين كانوا يفعلون ذلك .ولذا قال ابن
جرير - بعد أن ذكر الأقوال فى المعنى بالخطاب فى قوله : ( وَلاَ
) : تَعْضُلُوهُنَّ ) .وأولى الأقوال التى ذكرناها بالصحة فى تأويل قوله
وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ ) قول من قال : " نهى الله زوج المرأة عن التضييق
عليها ، والإضرار بها ، وهو لصحبتها كاره ولفراقها محب ، لتفتدى منه ببعض
ما آتاها من الصداق " .وإنما قلنا ذلك أولى بالصحة ، لأنه لا سبيل لأحد إلى
عضل المرأة إلا لأحد رجلين : إما لزوجها بالتضييق عليها . . ليأخذ منها ما
آتاها . . . أو لوليها الذى إليه إنكاحها . ولما كان الولى معلوما أنه ليس
ممن آتاها شيئا . كان معلوما أن الذى عنى الله - تعالى - بنهييه عن عضلها
) هو زوجها الذى له السبيل إلى عضلها ضرارا لتفتدى منه .والاستثناء فى قوله
إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ) متصل من أعم العلل
والأسباب ، أى لا تعضلوهن لعلة من العلل أو لسبب من الأسباب إلا أن يأتين
بفاحشة مبينة . لسوء أخلاقهن ، وكاشفة عن أحوالهن . كالزنا والنشوز ، وسوء
الخلق ، وإيذاء الزوج وأهله بالبذاء وفحش القول ونحوه ، فلكم العذر فى هذه
الأحوال فى طلب الخلع منهن ، وأخذ ما أتيتموهن من المهر لوجود السبب من
جهتهن لا من جهتكم .والأصل فى هذا الحكم قوله - تعالى - ( وَلاَ يَحِلُّ
لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلاَّ أَن
يَخَافَآ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ الله فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا
حُدُودَ الله فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افتدت بِهِ تِلْكَ حُدُودُ
الله فَلاَ تَعْتَدُوهَا ) ويرى بعضهم أن الاستثناء هنا منقطع فيكون المعنى
ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن لكن إن يأتين بفاحشة مبينة يحل لكم :
- أخذ المهر الذى آتيتموهن إياه أو أخذ بعضه .ثم أمر الله - تعالى - الرجال
وخصوصا الأزواج - بحسن معاشرة النساء فقال : ( وَعَاشِرُوهُنَّ بالمعروف )
والمعاشرة : مفاعلة من العشرة وهى المخالطة والمصاحبة .أى : وصاحبوهن.
وعاملوهن بالمعروف ، أى بما حض عليه الشرع وارتضاه العقل من الأفعال
) - الحميدة ، والأقوال الحسنة .قال ابن كثير : قوله - تعالى
وَعَاشِرُوهُنَّ بالمعروف ) أى : طيبوا أقوالكم لهن ، وحسنوا أفعالكم
- وهيئاتكم بحسب قدرتكم . كما تحب ذلك منها ، فافعل أنت مثله . كما قال
تعالى - ( وَلَهُنَّ مِثْلُ الذي عَلَيْهِنَّ بالمعروف ) وقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : " خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى " وكان من
، أخلاقه صلى الله عليه وسلم أنه جميل العشرة ، دائم البشر ، يداعب أهله
ويتلطف بهم ، ويضاحك نساءه . حتى أنه كان يسابق عائشة أم المؤمنين - رضى
الله عنها - يتودد إليها بذلك . قالت : سابقنى رسول الله صلى الله عليه
وسلم فسبقته . وذلك قبل أن أحمل اللحم . ثم سابقته بعد ما حملت اللحم
فسبقنى . فقال : هذه بتلك . وكان صلى الله عليه وسلم يجمع نساءه كل ليلة فى
بيت التي يبيت عندها فيأكل معهن العشاء فى بعض الأحيان ، ثم تنصرف كل واحدة
إلى منزلها . وكان ينام مع المرأة من نسائه فى شعار واحد . يضع عن كتفيه
الرداء وينام بالإزار .وكان إذا صلى العشاء يدخل منزله يسمر مع أهله قليلا
قبل أن ينام .يؤانس بذلك صلى الله عليه وسلم . وقد قال - تعالى - ( لَّقَدْ
كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ) هذا ، وللإمام الغزالى
كلام حسن فى كتابه الإحياء عند حديثه عن آداب معاشرة النساء ، فقد قال ما

ملخصه : ومن آداب المعاشرة حسن الخلق معهن ، واحتمال الأذى منهن ، ترحما عليهن ، لقصور عقلهن . قال - تعالى - : ( وَعَاشِرُوهُنَّ بِالمعروف ) وقال : فى تعظيم حقهن : ( وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً ) .ثم قال واعلم أنه حسن الخلق معها كف الأذى عنها ، بل احتمال الأذى منها ، والحلم عن طيشها وغضبها ، اقتداء برسولا لله صلى الله عليه وسلم . فقد كانت أزواجه تراجعنه الكلام . ومن آداب المعاشرة - أيضا - أن يزيد على احتمال الأذى منها بالمداعبة والمزح والملاعبة ، فهى التى تطيب قلوب النساء . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح معهن وينزل إلى درجات عقولهن فى الأعمال وقال عمر - رضى الله عنه - ينبغى للرجل أن يكون فى أهله مثل الصبى . فإذا. " : التمسوا ما معنده وجدوه رجلا .وكان ابن عباس - رضى الله عنه - يقول إنى - لأتزين لامرأتى كما تتزين لى " .ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة ببيان أنه لا يصح للرجال أن يسترسلوا فى كراهية النساء إن عرضت لهم أسباب الكراهية ، بل عليهم أن يغلبوا النظر إلى المحاسن ، ويتغاضوا عن المكاره فقال : - تعالى - : (فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فعسى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَيَجْعَلَ الله فِيهِ خَيْراً كَثِيراً ) .أى : فإن كرهتم صحبتهن وإمساكهن فلا تتعجلوا فى مفارقتهن ، فإنه عسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله لكم فى الصبر عليه وعدم إنفاذه خيراً كثيراً فى الدنيا والآخرة .فالآية الكريمة ترشد إلى حكم عظيمة منها أن على العاقل أن ينظر إلى الحياة الزوجية من جميع نواحيها ، لا من ناحية واحدة منها وهى ناحية البغض والحب . . وأن ينظر فى العلاقة التى بينه وبين زوجه بعين العقل والمصلحة المشتركة ، لا بعين الهوى وأن يحكم دينه وضميره قبل أن يحكم عاطفته ووجدانه . فربما كرهت النفس . . ما هو أصلح فى الدين وأحمد وأدنى إلى الخير ، وأحبت ما هو بضد ذلك ، وربما يكون الشئ الذى كرهته اليوم ولكنها لم تسترسل فى كراهيته سيجعل الله فيه خيراً كثيراً فى المستقبل . قال - تعالى - ( وعسى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وعسى أن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ والله يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ) قال القرطبى : روى الإمام مسلم فى صحيح عن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا يفرك مؤمن مؤمنة ، إن كره منها خلقاً رضى منها آخر " أى :لا يبغضها بغضا كليا يحمله على فراقها .أى لا ينبغى له ذلك ، بل يغفر سيئتها لحسنتها ، ويتغاضى عما يكره لما يجب - والفرك البغض الكلى الذى تنسى مع كل المحاسن - .وقال - مكحول : سمعت ابن عمر رضى الله عنهما - يقول : إن الرجل ليستخير الله تعالى - فيخار له ، فيسخط على ربه - عز وجل - فلا يلبث أن ينظر فى العاقبة . فإذا هو قد خير له

وان اردتم استبدال زوج مكان زوج واتيتم احداهن قنطارا فلا تاخذوا منه شيئا اتاخذونه بهتانا واثما مبينا

كما فسرها الوسيط وبعد أن بين - سبحانه - أنه يجوز لرجل أن يأخذ من المرأة بعض ما أعطاها من صداق إذا أتت بفاحشة مبينة . . عقب ذلك ببيان الحكم فيما إذا كان الفراق من جانب الزوج دون أن تكون المرأة قد أتت بفاحشة فقال - تعالى - ( وَإِنْ أَرَدْتُّمُ استبدال زَوْجٍ مّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَاراً فَلاَ تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئاً ) والاستبدال : طلب البدل ، بأن يطلق الرجل امرأة ويتزوج بأخرى .والقنطار : أصله من قنطرت الشئ إذا رفعته . ومنه القنطرة ، لأنها بناء مرتفع مشيد . والمراد به هنا المال الكثيرة الذى هو أقصى ما يتصور من مهر يدفعه الرجل للمرأة .والمعنى : وإن أردتم أيها الأزواج ( استبدال زَوْجٍ ) أى تزوج امرأة ترغبون فيها " مكان زوج " أى مكان امرأة لا ترغبون فيها ، بل ترغبون فى طلاقها ( وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَاراً ) أى أعطى أحدكم إحدى الزوجات التى تريدون طلاقها مالا كثيراً على سبيل الصداق لها ( فَلاَ تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئاً ) أى فلا تأخذوا من المال الكثير الذى أعطيتموه لهن شيئا أياً كان هذا الشئ ، لأن فراقهن كان بسبب من جانبكم لا من جانبهن وعبر - سبحانه - ب ( إِنْ ) التى تفيد الشك فى وقوع الفعل؛ للتنبيه على ان. الإرادة قد تكون غير سليمة ، وغير مبنية قوية ، فعلى الزوج أن يتريث ويتثبت ويحسن التدبر فى عواقب الأمور .والمراد بالزوج فى قوله ( استبدال زَوْجٍ مّكَانَ زَوْجٍ ) الجنس الذى يصدق على جميع الأزواج .والمراد من الإيتاء فى قوله ( وَآتَيْتُمْ ) الالتزام والضمان . أى : التزمتم وضمنتم أن تؤتوا إحداهن هذا المال الكثير .والجملة حالية بتقدير قد . أي : وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وحال أنكم قد آتيتم التى تريدون أن تطلقوها قنطاراً فلا تأخذونها منه شيئا .والاستفهام فى قوله ( أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً ) للإنكار والتوبيخ ، والبهتان : هو الكذب الذى يدهش ويحير لفظاعته . ويطلق على كل أمر كاذب يتحير العقل فى إدراك سببه أو لا يعرف مبررا لوقوعه ، كمن يعتدى على الناس ويتقول عليهم الأقاويل مع أنه ليست هناك عداوة سابقة بينه وبينهم .قال صاحب الكشاف : والبهتان : أن تستقبل الرجل بأمر قبيح تقذفه به وهو برئ منه ولأنه يبهت عند ذلك . أى

) - يتحير .والإثم : هو الذنب العظيم الذى يبعد صاحبه عن رضا الله - تعالى
. والمبين ) هو الشئ الواضح الذى يعلن عن نفسه بدون لبس أو خفاء

وكيف تاخذونه وقد افضى بعضكم الى بعض واخذن منكم ميثاقا غليظا

كما فسرها الوسيط ثم كرر - سبحانه - توبيخه لمن يحاول أخذ شئ من صداق زوجته
التى خاطلته فى حياته مدة طويلة فقال : ( وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ
أفضى بَعْضُكُمْ إلى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً ) .وأصل
أفضى - كما يقول الفخر الرازى - من الفضاء الذى هو السعة يقال : فضا يفضو
فضوا وفضاء إذا اتسع . ويقال : افضى فلان إلى فلان أى : وصل إليه وأصله أنه
صار فى فرجته وفضائه .المراد بالإفضاء هنا : الوصول والمخالطة : لأن
) الوصول إلى الشئ قطع للفضاء الذى يبين المتواصلين .والاستفهام فى قوله
وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ ) للتعجب من حال من يأخذ شيئا مما أعطاه لزوجته بعد
إنكار ذات الأخذ .والمراد بالميثاق الغليظ فى قوله ( وَأَخَذْنَ مِنكُم
مِّيثَاقاً غَلِيظاً ) هو ما أخذه الله للنساء على الرجال من حسن المعاشرة
أو المفارقة بإحسان كما فى قوله - تعالى - : ( فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ
أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ) وليس أخذ شئ مما أعطاه الرجال للنساء من
التسريح بإحسان ، بل يكون من التسريح الذى صاحبه الظلم والإساءة .والمراد
بالميثاق الغليظ الذى أخذ : كلمة النكاح المعقود على الصداق ، والتى بها
تستحل فروج النساء ، ففى صحيح مسلم عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه
وسلم - قال فى خطبة حجة الوداع : " استوصوا بالنساء خيراً فإنكم أخذتموهن
بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله " .والمعنى : بأى وجه من الوجوه
تستحلون يا معشر الرجال ان تأخذوا شيئا من الصداق الذى أعطيتموه لنسائكم
عند مفارقتهن؟ والحال أنكم قد اختلط بعضكم ببعض ، وصار كل واحد منكم لباسا
لصاحبه ، وأخذن منكم عهدا وثيقا مؤكدا تأكيد؛ لا يحل لكم أن تنقضوه أو
تخالفوه!!؟فأنت ترى أن الله - تعالى - قد منع الرجال من أخذ شئ من الصداق
الذى أعطوه لنسائهم لسببين :أحدهما : الإفضاء وخلوص كل زوج لنفس صاحبه حتى
صارا كأنهما نفس واحدة .وثانيهما : الميثاق الغليظ الذى أخذ على الرجال بأن
يعاملوا النساء معاملة كريمة .والضمير فى قوله ( وَأَخَذْنَ ) للنساء
والآخذ فى الحقيقة إنما هو الله - تعالى - إلا أنه سبحانه - نسبه إليهن.
: للمبالغة فى المحافظة على حقوقهن ، حتى جعلن كأنهن الآخذات له .قال بعضهم
وهذا الإسناد مجاز عقلى ، لأن الآخذ للعهد هو الله . أى : وقد أخذ الله
- عليكم العهد لأجلهن وبسببهن . فهو مجاز عقلى من الإسناد إلى السبب .ووصف
سبحانه - الميثاق بالغلظة لقوته وشدته . فقد قالوا : صحبة عشرين يوما قرابة
فكيف بما جرى بين الزوجين من الاتحاد والامتزاج؟!هذا ، ومن الأحكام التى .
، أخذها العلماء من هذه الآيات الكريمة ما يأتى :1- تكريم الإسلام للمرأة
، فقد كانت فى الجاهلية مهضومة الحق ، يعتدى عليها بأنواع من الاعتداء
فرفعها الله - تعالى - بما شرعه من تعاليم إسلامية من تلك الهوة التى كانت
فيها ، وقرر لها حقوقها ، ونهى عن الاعتداء عليها .ومن مظاهر ذلك أنه حرم
أن تكون موروثة كما يورث المال . وكذلك حرم عضلها وأخذ شئ من صداقها إلا
إذا أتت بفاحشة مبينة . وأمر الرجال بأن يعاشروا النساء بالمعروف ، وأن
- يصبروا على أخطائهن رحمة بهن .2- جواز الإصداق بالمال الكثير : لأن الله
تعالى - قال : ( وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَاراً ) . والقنطار : المال
- الكثير الذى هو أقصى ما يتصور من مهور .قال القرطبى ما ملخصه : قوله
تعالى - ( وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنّ قِنْطَاراً ) دليل على جواز المغالاة
فى المهور ، لأن الله - تعالى - لا يمثل إلا بمباح .وخطب عمر - رضى الله
عنه - فقال : ألا لا تغالوا فى صدقات النساء ، فإنها لو كانت مكرمة فى
الدنيا أو تقوى عند الله ، لكان أولاكم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم
ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أصدق قط امرأة من نسائه ولا من بناته
فوق اثنتى عشرة أوقية . فقامت إليه امرأة فقال : يا عمر . يعطينا الله
وتحرمنا!! أليس الله تعالى - يقول : ( وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَاراً
. فَلاَ تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً ) ؟ فقال عمر : أصابت امرأة وأخطأ عمر
وفى رواية أنه أطرق ثم قال : امرأة أصابت ورجل أخطأ وترك الإنكار .ثم قال.
القرطبى : وقال قوم :لا تعطى الآية جواز المغالاة فى المهور ، لأن التمثيل
بالقنطار إنما هو على جهة المبالغة : كأنه قال : وآتيتم هذا القدر العظيم
الذى لا يؤتيه أحد . .ولقد " قال النبى صلى الله عليه وسلم لإبن أبى
حدرد - وقد جاءه يستعين فى مهره فسأله عنه فقال : مائتين ، فغضب صلى الله
عليه وسلم : وقال : " كأنكم تقطعون الذهب والفضة من عرض الحرة " " أى من
ذلك المكان الذى به حجارة نخرة سود - فاستقرأ بعض الناس من هذا منع
المغالاة فى المهور .والذى نراه أن الآية الكريمة وإن كانت تفيد جواز
الإصداق بالمال الجزيل ، إلا ان الأفضل عدم المغالاة فى ذلك ، مع مراعاة
أحوال الناس من حيث الغنى والفقر وغيرهما .ولقد ورد ما يفيد الندب إلى
: التيسير فى المهور . فقد أخرج أبو داود والحاكم من حديث عقبة بن عامر قال
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " خير الصداق أيسره " .3- أن الرجل إذا

أراد فراق امرأته . فلا يحل له أن يأخذ منها شيئا ما دام الفراق بسببه ومن جانبه : كما أنه لا ينبغى له أن يأخذ منها أكثر مما أعطاه إياها إذا كان الفراق بسببها ومن جانبها .4- اتفق العلماء على أن المهر يستقر بالوطء . واختلفوا فى استقراره بالخلوة المجردة . قال القرطبى والصحيح استقراره بالخلوة مطلقا . وبه قال أبو حنيفة وأصحابه . قالوا : إذا خلا بها خلوة صحيحة يجب كمال المهر والعدة . دخل بها أو يدخل بها . لما رواه الدارقطنى عن ثوبان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من كشف خمار امرأة ونظر إليها وجب الصداق " وقال مالك : إذا طال مكثه معها السنة ونحوها . واتفقا على ألا مسيس . وطلبت المهر كله كان لها .وبعد أن نهى - سبحانه - عن ظلم المرأة فى حال الزوجية . وعن ظلمها بعد وفاة زوجها . وعن ظلمها فى حالة فراقها . وأمر بمعاشرتها بالمعروف بعد كل ذلك بين - سبحانه - من لا يحل الزواج بهن من النساء ومن يحل الزواج بهن حتى تبقى للأسرة قوتها ومودتها . فقال - تعالى- ( وَلاَ تَنكِحُواْ . . . . عَلِيماً حَكِيماً )

ولا تنكحوا ما نكح اباؤكم من النساء الا ما قد سلف انه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا

كما فسرها الوسيط أورد المفسرون روايات فى سبب نزول قوله - تعالى - ( وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِّنَ النسآء ) الآية .ومن هذه الروايات ما رواه ابن أبى حاتم - بسنده - " عن رجل من الأنصار قال : لما توفى أبو قيس - يعنى ابن الأسلت - وكان من صالحى الأنصار ، فخطب ابنه قيس امرأته فقال : إنما أعدك ولدا لى وأنت من صالحى قومك ، ولكنى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم واستأمره .فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله إن أبا قيس توفى . فقال : " خيرا " . ثم قالت إن ابنه قيسا خطبنى وهو من صالحى قومه ، وإنما كنت أعده ولدا لى فماذا ترى؟ فقال لها : " ارجعي إلى بيتك " فنزلت : ( وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِّنَ النسآء إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ ) .وقال القرطبى : قوله - تعالى - : ( وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِّنَ النسآء ) يقال : كان الناس يتزوجون امرأة الأب برضاها بعد نزول قوله - تعالى - : ( يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ النسآء كَرْهاً ) حتى نزلت هذه الآية ( وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ ) فصار حراما فى الأحوال كلها ، لأن النكاح يقع على الجماع والتزوج ، فإن كان الأب تزوج امرأة وطئها يغير نكاح حرمت على ابنه .ثم قال : وقد كان فى العرب قبائل قد اعتادت أن ، يخلف ابن الرجل على امرأة أبيه . وكانت هذه السيرة فى الأنصار لازمة وكانت فى قريش مباحة على التراضى ، فنهى الله المؤمنين عما كان عليه آباؤهم . من هذه السيرة .وقوله ( وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ ) الخ ) معطوف على قوله : ( لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ النسآء كَرْهاً ) و مَا ) فى قوله ( مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ ) موصول اسمى مراد به الجنس . أى لا تنكحوا التى نكح آباؤكم . وقوله ( مِّنَ النسآء ) بيان ل ( مَا ) الموصولة ويرى بعضهم أن " ما " هنا مصدرية فيكون المعنى . ولا تنحوا نكاحا مثل نكاح. آبائكم الفاسد الذى كانوا يفعلونه فى الجاهلية .قال الآلوسى . وإنما خص هذا النكاح بالنهى ، ولم ينظم فى سلك نكاح المحرمات الآتية " ومبالغة فى الزجر عنه . حيث كان ذلك ديدنا لهم فى الجاهلية " .فالآية الكريمة تحرم على ) الأبناء أن يتزوجوا من النساء اللائى كن أزواجا لآبائهم . وكلمة آبَاؤُكُمْ ) فى قوله ( وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ ) تشمل كل الأصول من الرجال . أي : تشمل الأجداد جميعا سواء أكانوا من جهة الأب أو من جهة الأم والاستثناء فى قوله ( إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ ) استثناء منقطع والمعنى :لا تنكحوا أيها المؤمنون ما نكح آباؤكم من النساء . لأنه من. أفعال الجاهلية القبيحة ، لكن ما قد سلف ومضى منه قبل نزول هذه الآية فلا تؤاخذون عليه ، فمن كان متزوجا من امرأة كانت زوجة لأبيه من النسب أو من الرضاع ، فإنها تصير حراما عليه من وقت نزول هذه الآية الكريمة ، ويجب عليه أن يفارقها أما ما مضى من هذا النكاح القبيح فلا تثريب عليكم فيه ، وتثبت به أحكام النكاح من النسب وغيره من الأحكام .ويرى بعضهم أن الاستثناء هنا متصل مما يستلزمه النهى ، ويستوجبه مباشرة المنهى عنه من العقاب . فكأنه - قيل : ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء فإنه قبيح ومعاقب عليه من الله تعالى - ، إلا ما قد سلف ومضى ، فإنه معفو عنه .وقد وجه صاحب الكشاف الاستثناء بوجه آخر فقال : فإن قلت : كيف استثنى ما قد سلف مما نكح آباؤهم؟ قلت : كما استثنى " غير أن سيوفهم " من قول الشاعر :" ولا عيب فيهم " غير أن سيوفهم ... بهن قلول من قراع الكتائبيعنى : إن أمكنكم أن تنكحوا ما قد سلف فانكحوه ، فإنه لا يحل لكم غيره ، وذلك غير ممكن والغرض المبالغة فى : تحريمه ، وسد الطريق إلى إباحته كما يعلق بالمحال فى التأييد نحو قولهم حتى يبيض الفأر . وحتى يلج الجمل فى سم الخياط .ثم ختم - سبحانه - الآية ) : الكريمة ببيان أن هذا النوع من النكاح فى نهاية السوء والقبح فقال إِنّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلاً ) .أى : إن هذا النوع

من النكاح كان أمراً زائدا فى القبح شرعا وخلقاً ، لأنه يشبه نكاح الأمهات
" ويتنافى مع ما للآباء من وقار واحترام ، وما يجب من حسن الصحبة وكان ،
مقتا " والمقت مصدر بمعنى البغض والكراهية .أى : إن هذا النوع من النكاح
كان خصلة بالغة الحد فى القبح والفحش ، وكان ممقوتا مبغوضا عند الله ، وعند
ذوى المروءات والعقول السليمة من الناس .قال صاحب الكشاف : كانوا ينكحون
روابهم - أى زوجات آبائهم جمع رابة وهى امرأة الأب - وكان ناس منهم من ذوى
مروءاتهم يمقتونه - لفظاعته وبشاعته - ويسمونه نكاح المقت . وكان المولود
: عليه يقال له المقتى - أى المبغوض - ومن ثم قيل ( وَمَقْتاً ) كأنه قيل
هو فاحشة فى دين الله بالغة فى القبح . قبيح ممقوت فى المروءة . ولا مزيد
على ما يجمع القبحين .وقوله : ( وَسَآءَ سَبِيلاً ) أى بئس طريقا طريق ذلك
النكاح ، إذ فيه هتك حرمة الأب . وتقطيع للرحم التى أمر الله بوصلها .وقوله
وساء " هنا بمعنى بئس ، وفيه ضمير يفسره ما بعده . والمخصوص بالذم محذوف "
- تقديره ذلك؛ أى ساء سبيلا سبيل ذلك النكاح .قال الفخر الرازى : أعلم أنه
سبحانه - قد وصف هذا النكاح بأمور ثلاثة :أولها : أنه فاحشة لأن زوجة الأب
تشبه الأم فمباشرتها من افحش الفواحش .وثانيها : المقت : وهو عبارة عن بغض
مقرون باستحقار .وثالثها : قوله ( وَسَآءَ سَبِيلاً ) .واعلم أن مراتب
) - القبح ثلاثة : القبح فى العقول وفى الشرائع وفى العادات .فقوله - تعالى
إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً ) إشارة الى القبح العقلى . وقوله ( وَمَقْتاً )
إشارة إلى القبح الشرعى . وقوله ( وَسَآءَ سَبِيلاً ) إشارة إلى القبح فى
العرف والعادة . ومتى اجتمعت فيه هذه الوجوه فقد بلغ الغاية فى القبح .وقال
الإمام ابن كثير ، فمن تعاطى هذا النكاح بعد ذلك - أى استباح تعاطيه - فقد
ارتد عن دينه فيقتل ويصير ماله فيئا لبيت المال . لما رواه الإمام أحمد
وأهل السنن من طرق عن البراء بن عازب أنه بعثه رسول الله صلى الله صلى الله
عليه وسلم - إلى رجل تزوج امرأة أبيه من بعده ، فأمره أن يقتله ويأخذ ماله
وفى رواية عن البراء قال ، مرّ بى عمى الحارث بن عمير ومعه لواء قد عقده.
له النبى صلى الله عليه وسلم فقلت له ، أى عم ، أين بعثك النبى صلى الله
. عليه وسلم فقال ، بعثنى إلى رجل تزوج امرأة أبيه فأمرنى أن أضرب عنقه

حرمت عليكم امهاتكم وبناتكم واخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الاخ وبنات
الاخت وامهاتكم اللاتي ارضعنكم واخواتكم من الرضاعة وامهات نسائكم وربائبكم
اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فان لم تكونوا دخلتم بهن فلا
جناح عليكم وحلائل ابنائكم الذين من اصلابكم وان تجمعوا بين الاختين الا ما
قد سلف ان الله كان غفورا رحيما

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد من يحرم نكاحن من الأقارب فقال
تعالى : ( حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ
وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاَتُكُمْ وَبَنَاتُ الأخ وَبَنَاتُ
الأخت ) وليس المراد بقوله ( حُرِّمَتْ ) تحريم ذاتهن ، لأن الحرمة لا
تتعلق بالذوات وإنما تتعلق بأفعال المكلفين . فالكلام على حذف مضاف أى حرم
عليكم نكاح أمهاتكم وبناتكم . . الخ وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف
. بقوله ، معنى ( حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ ) تحريم نكاحن لقوله
ولأن تحريم نكاحن ( وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِّنَ النسآء )
هو الذى يفهم من تحريمهن ، كما يفهم من تحريم الخمر تحريم شربها . ومن
تحريم لحم الخنزير تحريم أكله .وقد ذكر - سبحانه - فى هذه الحملة الكريمة
أربع طوائف من الأقارب يحرم نكاحهن .أما الطائفة الأولى : طائفة الأمهات من
النسب . أى حرم الله عليكم نكاح أمهاتكم من النسب ، ويعم هذا التحريم أيضا
الجدات سواء أكن من جهة الأب أم من جهة الأم ، لأنه إذا كان يحرم نكاح
العمة أو الخالة فمن الأولى أن يكون نكاح الجدة محرما ، إذ الأم هى طريق
الوصول فى القرابة إلى هؤلاء . وقد أجمع المسلمون على تحريم نكاح الجدات
والطائفة الثانية : هى طائفة الفروع من النساء ، وقد عبر القرآن عن ذلك.
بقوله ( وَبَنَاتُكُمْ ) بالعطف على أمهاتكم .أى حرم الله عليكم نكاح
أمهاتكم ونكاح بناتكم .والبنت هى كل امرأة لك عليها ولادة سواء أكانت بنتا
مباشرة أم بواسطة فتشمل حرمة النكاح البنات وبنات الأبناء وبنات البنات وإن
نزلن .وقد انعقد الإجمال على تحريم الفروع من النساء مهما تكن طبقتهن
والطائفة الثالثة : هى طائفة فروع الأبوين . وقد عبر القرآن عن ذلك بقوله.
ثم بقوله ، ( وَبَنَاتُ الأخ وَبَنَاتُ الأخت ) بالعطف ( وَأَخَوَاتُكُمْ )
على ( وَأُمَّهَاتُكُمُ ) .أى وحرم الله عليكم نكاح أخواتكم سواء أكن
شقيقات أم غير شقيقات وحرم عليكم أيضا نكاح بنات إخوانكم وبنات أخواتكم من
أى وجه يكن .والطائفة الرابعة : هى طائفة العمات والخالات . وقد ثبت تحريم
) نكاحهن بقوله - تعالى - ( وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاَتُكُمْ ) بالعطف على
أُمَّهَاتُكُمْ ) .أى حرم الله عليكم نكاح عماتكم وخالاتكم كما حرم عليكم
نكاح أمهاتكم وبناتكم .والعمة : هى كل امرأة شاركت أباك مهما علا فى أصليه
أو فى أحدهما .والخالة : هى كل امرأة شاركت أمك مهما علت فى أصليها أو فى
أحدهما .وإذن فالعمات والخالات يشملن عمات الأب والأم ، وخالات الأب والأم

وعمات الجد والجدة ، وخالات الجد والجدة ، لأن هؤلاء يطلق عليهن عرفا اسم ، العمة والخالة .تلك هى الطوائف الأربع اللاتى يحرم نكاحهن من الأقارب ، وإن هذا التحريم يتناسب مع الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، ويتفق مع العقول السليمة التى تحب مكارم الأخلاق ، وذلك لأن شريعة الإسلام قد نوهت بمنزلة القرابة القريبة للإنسان ، وأضفت عليها الكثيرة من ألوان الوقار والاحترام؛ والزواج وما يصاحبه من شهوات ومداعبات ورضا واختلاف يتنافى مع ما أسبغه الله - تعالى - على هذه القوابة القريبة من وقار ومن عواطف شريفه ولأن التجارب العلمية قد أثبتت أن التلاقح بين سلائل متباعدة الأصول غالبا. ما ينتج نسلا قويا ، أما التلاقح بين السلائل المتحدة فى أصولها القريبة فإنه غالبا ما ينتج نسلا ضعيفا .ثم بين - سبحانه - النساء اللائي يحرم الزواج بهن لأسباب أخرى سوى القرابة فقال - تعالى - ( وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرضاعة ) .أى : وحرم الله - عليكم نكاح أمهاتكم اللاتى أرضعنكم ، وحرم عليكم - أيضا نكاح أخواتكم من الرضاعة .والأم من الرضاع : هى كل امرأة أرضعتك؛ وكذلك كل امرأة انتسبت إلى تلك المرضعة بالأمومة من جهة النسب أو من جهة الرضاع .والأخت من الرضاع : هى التى التقيت انت وهى على ثدى واحد .قال القرطبى : وهى الأخت لأب وأم . وهى التى أرضعتها أمك بلبان أبيك ، سواء أرضعتها معك أو رضعت . قبلك أو بعدك والأخت من الأب دون الأم ، وهى التى أرضعتها زوجة أبيك والأخت من الأم دون الأب وهى التى أرضعتها أمك بلبان رجل آخر .هذا ، وظاهر قوله - تعالى - ( وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرضاعة ) يقتضى أن مطلق الرضاع محرم للنكاح . وبذلك قال المالكية والأحناف :ويرى الشافعية والحنابلة أن الرضاع المحرم هو الذى يبلغ خمس رضعات . واستدلوا بما رواه مسلم وغيره عن عائشة - رضى الله عنها - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا تحرم المصة ولا المصتان " وفى رواية عنها انه قال :"لا تحرم الرضعة والرضعتان ، والمصة والمصتان " .كذلك ، ظاهر هذه الجملة الكريمة يقتضى أن الرضاع يحرم النكاح ولو فى سن الكبر إلا أن جمهور العلماء يرون أن الرضاع المحرم هو ما كان قبل بلوغ الحولين أما ما كان بعد بلوغ الحولين فلا يحرم ولا يكون الرضيع ابنا من الرضاعة وذلك لقوله - تعالى - ( والوالدات يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرضاعة ) وأخرج الترمذى عن أم سلمة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لا يحرم من الرضاع إلا ما فتق الأمعاء ، وكان قبل الفطام " .قال ابن كثير عند تفسيره لقوله - تعالى - ( وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرضاعة ) أى : كما يحرم عليك نكاح أمك التى ولدتك كذلك يحرم عليك نكاح أمك التى ( أرضعتك .ولهذا ثبت فى الصحيحين عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الرضاعة تحرم ما تحرم الولادة " وفى لفظ المسلم : " يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب " .ومن الحكم التى ذكرها العلماء من وراء تحريم النكاح بسبب الرضاعة : أن المولود يتكون جسمه من جسم المرأة التى أرضعته فيكون جزءاً منها ، كما أنه جزء من أمه التى حملته . وإذا كانت هذه قد غذته بدمها وهو فى بطنها فإن تلك قد غذته بلبانها وهو فى حجرها ، فكان من التكريم لهذه الأم من الرضاع أن تعامل معاملة الحقيقة ، وأن يعامل كل من التقيا على ثدى امرأة واحدة معاملة الإخوة من حيث التكريم وحرمة النكاح بينهم .هذا ، ومن أراد المزيد من المعرفة لأحكام الرضاع فليرجع الى كتب الفقه .ثم ذكر - سبحانه - نوعا ثالثا من المحرمات لغير سبب القرابة فقال : أى : وكذلك حرم الله عليكم نكاح أمهات. ( وَأُمَّهَاتُ نِسَآئِكُمْ ) ، زوجاتكم سواء أكن أمهات مباشرات أم جدات ، لأن كلمة الأم تشمل الجدات ولإجماع الفقهاء على ذلك .قال الآلوسى : والمراد بالنساء المعقود عليهن وعلى الإطلاق ، سواء أكن مدخولا بهن أم لا . وهو مجمع عليه عند الأئمة الأربعة ، لكن يشترط أن يكون النكاح صحيحا . أما إذا كان فاسدا فلا تحرم الأم إلا إذا وطئ ابنتها . فقد أخرج البيهقى فى سننه وغيره من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : " إذا نكح الرجل المرأة فلا يحل له أن يتزوج أمها دخل بالابنة أو لم يدخل . وإذا تزوج الأم ولم يدخل بها ثم طلقها فإن شاء تزوج الإبنة " .ثم بين - سبحانه - نوعا رابعا من المحرمات لغير سبب القرابة فقال تعالى - ( وَرَبَائِبُكُمُ اللاتي فِي حُجُورِكُمْ مِّن نِّسَآئِكُمُ اللاتي دَخَلْتُمْ بِهِنّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُمْ بِهِنّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ) .وقوله ( وَرَبَائِبُكُمُ ) جمع ربيبة . وهى بنت أمرأة الرجل من غيره . وسميت بذلك لأن الزوج فى أغلب الأحوال يربها أى يربيها فى حجره ويعطف عليها .والحجور : جمع حجر - بالفتح والكسر مع سكون الجيم - وهو ما يحويه مجتمع الرجلين للجالس المتربع . والمراد به هنا معنى مجازى وهو الحضانة والكفالة والعطف . يقال : فلان فى حجر فلان أى فى كنفه ومنعته ورعايته .ومقتضى ظاهر الجملة الكريمة أن الربيبة لا يحرم نكاحها على زوج أمها إلا بشرطين :أولهما : كونها فى حجره .وثانيهما : أن يكون الزوج قد دخل بأمها .أما عن الشرط الأول فلم يأخذ به جمهور العلماء ، وقالوا : إن هذا الشرط خرج مخرج الغالب

والعادة ، إذ الغالب كون البنت مع الأم عند الزوج ، لا أنه شرط فى التحريم
فهم يرون أن نكاح الربيبة حرام على زوج أمها سواء أكانت فى حجره أم لم تكن
قالوا : وفائدة هذا القيد تقوية علة الحرمة أو أنه ذكر للتشنيع عليهم ، إذ
أن نكاحها محرم عليهم فى جميع الصور إلا أنه يكون أشد قبحا فى حالة وجودها
فى حجره هذا رأى عامة الصحابة والفقهاء .ولكنه هناك رواية عن مالك بن أوس
عن على بن أبى طالب أنه قال : الربيبة لا يحرم نكاحها على زوج الأم إلا إذا
كانت فى حجره أخذا بظاهر الآية الكريمة . وقد أخذ بذلك داود الظاهرى
وأشياعه .وأصحاب الرأى الأول لم يعتدوا بهذه الرواية المروية عن على - رضى
- الله عنه - وأما عن الشرط الثانى - وهو أن يكون الزوج قد دخل بأم الربيبة
فقد أخذ به العلماء إلا أنهم اختلفوا فى معنى الدخول فقال بعضهم : معناه
الوطء والجماع . وقال بعضهم : معناه التمتع كاللمس والقبلة ، فلو حصل منه
: مع الأم ما يشبه ذلك حرم عليه نكاح ابنتها من غيره .قال القرطبى ما ملخصه
اتفق الفقهاء على أن الربيبة تحرم على زوج أمها إذا دخل بالأم ، وإن لم تكن
الربيبة فى حجره . وشذ بعض المتقدمين وأهل الظاهر فقالوا :لا تحرم عليه
) - الربيبة إلا أن تكون فى حجر المتزوج بأمها . ثم قال وقوله - تعالى
فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ ) يعنى الأمهات ( فَلاَ جُنَاحَ
عَلَيْكُمْ ) يعنى فى نكاح بناتهن إذا طلقتموهن أو متن عنكم .وأجمع العلماء
على أن الرجل إذا تزوج المرأة ثم طلقها أو ماتت قبل أن يدخل بها حل له نكاح
. ابنتها . وإختلفوا فى معنى الدخول بالأمهات الذى يقع به التحريم للربائب
فروى عن ابن عباس أنه قال : الدخول : الجماع . واتفق مالك والثورى وأبو
حنيفة على أنه إذا مسها بشهوة حرمت عليه أمها وابنتها وحرمت على الأب
والإبن ، وهو أحد قولى الشافعى . . .والحكمة فى تحريم الربائب على أزواج
أمهاتهن أنهن حينئذ يشبهن البنات الصلبيات بالنسبة لهؤلاء الأزواج ، بسبب
ما يجدنه منهم من رعاية وتربية فى العادة ، ولأنه لو أبيح للرجل أن يتزوج
ببنت امرأته التى دخل بها ، لأدى ذلك إلى تقطيع الأرحام بين الأمر وابنتها
ولأدى ذلك أيضا إلى الانصراف عن رعاية هؤلاء الربائب خشية الرغبة فى.
. الزواج بواحدة منهن .ثم بين - سبحانه - نوعا خامسا من المحارم فقال
تعالى - : ( وَحَلاَئِلُ أَبْنَائِكُمُ الذين مِنْ أَصْلاَبِكُمْ )
والحلائل : جمع حليلة وهى الزوجة . وسميت بذلك لحلها للزوج وحل الزوج لها.
فكلاهما حلال لصاحبه . ويقال للزوج حليل .أى : وحرم الله - تعالى - عليكم ،
- نكاح زوجات أبنائكم الذين هم من أصلابكم . أى : من ظهوركم .وقال - سبحانه
بدون تقييد بالدخول . للاشارة إلى أن حليلة ( وَحَلاَئِلُ أَبْنَائِكُمُ )
الابن تحرم على الأب بمجرد عقد الابن عليها .قال القرطبى : أجمع العلماء
على تحريم ما عقد عليه الآباء على الأبناء ، وما عقد عليه الأبناء على
الآباء سواء أكان مع العقد وطء أو لم يكن : لقوله - تعالى - : ( وَلاَ
) : - تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِّنَ النسآء ) وقوله - تعالى
وَحَلاَئِلُ أَبْنَائِكُمُ الذين مِنْ أَصْلاَبِكُمْ ) . وقيد الله الأبناء
بالذين هم من الأصلاب ، ليخرج الابن المتبنى . فهذا تحل زوجته للرجل الذى
تبناه .وقد كان العرب يعتبرون الابن بالتبنى كأولادهم من ظهورهم ، ويحرمون
زوجة الابن بالتبنى على من تبناه . وقد سمى القرآن الأبناء بالتبنى أدعياء
فقال - تعالى - :( وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ذَلِكُمْ
قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ والله يَقُولُ الحق وَهُوَ يَهْدِي السبيل
ادعوهم لآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ الله فَإِن لَّمْ تعلموا
آبَاءَهُمْ فَإِخوَانُكُمْ فِي الدين وَمَوَالِيكُمْ ) ثم أبطل القرآن ما
كان عليه أهل الجاهلية فى شأن الابن المتبنى ، فأباح للرجل أن يتزوج من
زوجة الابن الذى تبناه بعد فراقه عنها .وقد أمر الله - تعالى - نبيه - صلى
الله عليه وسلم - أن يتزوج بزينب بنت جحش بعد أن طلقها زوجها زيد بن حارثة
وكان زيد قد تبناه النبى صلى الله عليه وسلم فقال المشركون : تزوج محمد ،
امرأة ابنه فأنزل الله - تعالى - ( فَلَمَّا قضى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً
زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لاَ يَكُونَ عَلَى المؤمنين حَرَجٌ في أَزْوَاجِ
أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ الله
مَفْعُولاً ) فإن قيل : إن قيد ( مِنْ أَصْلاَبِكُمْ ) . يخرج الابن من
الرضاع كما أخرج الابن بالتبنى؟ فالجواب على ذلك : أن الابن بالرضاع حرمت
حليلته على أبيه من الرضاع بقول النبى صلى الله عليه وسلم : " يرحم من
الرضاع ما يرحم من النسب " .ثم بين - سبحانه - نوعا سادسا من المحرمات
فقال - تعالى - : ( وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأختين إِلاَّ مَا قَدْ
سَلَفَ إِنَّ الله كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ) .قال ابن كثير والمعنى
: وحرم عليكم الجمع بين الأختين معا فى التزويج إلا ما كان منكم فى جاهليتكم
فقد عفونا عنه وغفرناه .فدل على أنه لا مثنوية فيما يستقبل لأنه استثنى مما
سلف وقد أجمع العلماء من الصحابة والتابعين والأئمة قديما وحديثا على أنه
يرحم الجمع بين الأختين فى النكاح . ومن أسلم وتحت أختام خير فيمسك إحداهما
ويطل الأخرى لا محالة ، فقد روى الإمام أحمد عن الضحاك بن فيروز عن أبيه
قال : أسلمت وعندى امرأتان أختان فأمرنى النبى صلى الله عليه وسلم أن أطلق
إحداهما .وكما أنه يحرم الجمع بين الأختين فى عصمة رجل واحد ، فكذلك يحرم

الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها أو ابنة أخيها أو ابنة أختها لنهى
النبى - صلى الله عليه وسلم - عن ذلك فقد جاء فى صحيح مسلم وفى سنن أبى
داود والترمذى والنسائى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال
لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها ، ولا على ابنة أخيها ولا على " :
ابنة أختها " .وفى رواية الطبرانى أنه قال : " فإنكم إن فعلتم ذلك قطعتم
أرحامكم " .والسر فى تحريم هذا النوع من النكاح أنه يؤدى إلى تقطيع
الأرحام - كما جاء فى الحديث الشريف - إذا من شأن الضرائر أن يكون بينهن من
الكراهية وتبادل الأذى ما هو مشاهد ومعلوم . فكان من رحمة الله بعباده أن
حرم عليهم هذه الأنواع من الأنكحة السابقة صيانة للأسرة من التمزق والتشتت
وحماية لها من الضعف والوهن ، وسموا بها عن مواطن الريبة والغيرة ،
والفساد وقد عفا - سبحانه - عما حدث من هذه الأنكحة الفاسدة فى الجاهلية أو
قبل نزول هذه الآية الكريمة بتحريمها ، لأنه - سبحانه - كان وما زال غفارا
للذنوب ، ستارا للعيوب ، رحيما بعباده ، ومن رحمته بهم أنه يعذبهم من غير
. نذير ، ولا يؤاخذهم على ما اكتسبوا إلا بعد بيان واضح

والمحصنات من النساء الا ما ملكت ايمانكم كتاب الله عليكم واحل لكم ما وراء
ذلكم ان تبتغوا باموالكم محصنين غير مسافحين فما استمتعتم به منهن فاتوهن
اجورهن فريضة ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة ان الله كان
عليما حكيما

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - نوعا سابعا من المحرمات فقال
والمحصنات مِنَ النسآء إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ الله
. عَلَيْكُمْ ) .وقوله ( والمحصنات ) من الإحصان وهو فى اللغة بمعنى المنع
يقال : هذه درع حصينة ، أى مانعة صاحبها من الجراحة . ويقال : هذا موضع
حصين ، أى مانع من يريده بسوء . ويقال امرأة حصينة أى مانعة نفسها من كل
فاحشة بسبب عفتها أو حريتها أو زواجها .قال الراغب : ويقال حصان للمرأة
العفيفة ولذات الحرمة . قال - تعالى - : ( وَمَرْيَمَ ابنت عِمْرَانَ التي
. أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ) وقال - تعالى - ( فَإِذَآ أُحْصِنَّ ) أى تزوجن
وأحصن زوجن والحصان فى الجملة : المرأة المحسنة إما بعفتها أو بتزوجها أو
يمانع من شرفها وحريتها . والمراد بالمحصنات هنا : ذوات الأزواج من النساء
وقوله ( والمحصنات مِنَ النسآء ) معطوف على قوله ( وَأُمَّهَاتُكُمُ ) فى.
قوله - تعالى - : فى آية المحرمات السابقة ( حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ
أُمَّهَاتُكُمْ ) إلخ .والمعنى : وكما حرم عليكم نكاح أمهاتكم وبناتكم إلخ
فقد حرم عليكم - أيضا - نكاح ذوات الأزواج من النساء قبل مفارقة أزواجهن ،
لهن ، لكى لا تختلط المياه فتضيع الأنساب .وقوله ( إِلاَّ مَا مَلَكْتَ
أَيْمَانُكُمْ ) استثناء من تحريم نكاح ذوات الأزواج .والمراد به : النساء
المسبيات اللاتى أصابهن السبى ولهن أزواج فى دار الحرب ، فانه يحل لمالكهن
وطؤهن بعد الاستبراء ، لارتفاع النكاح بينهن وبين أزواجهن بمجرد السبى . و
بسبيهن وحدهن دون أزواجهن .أى : وحرم الله - تعالى - عليكم نكاح ذوات
الأزواج من النساء ، إلا ما ملكتموهن بسبى فسباؤكم لهن هادم لنكاحهن السابق
: فى دار الكفر ، ومبيح لكم نكاحهن بعد استبرائهن .قال القرطبى ما ملخصه
فالمراد بالمحصنات هاهنا ذوات الأزواج . أى هن محرمات إلا ما ملكت اليمين
، بالسبى من أرض الحرب ، فإن تلك حلال للذى تقع فى سهمه وإن كان لها زوج
وهو قول الشافعى فى أن السباء يقطع العصمة . وقاله ابن وهب وابن عبد الحكم
ورويا ه عن مالك ، وقال به أشهب يدل عليه ما رواه مسلم فى صحيح عن أبى سعيد
الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث جيشا يوم حنين إلى أوطاس فلقوا
العدو فقاتلوهم وظهروا عليهم وأصابوا لهم سبايا . فكان ناس من أصحاب النبى
. صلى الله عليه وسلم وقد تحرجوا من غشيانهن من أجل أزواجهن من المشركين
فأنزل الله - عز وجل - فى ذلك ( والمحصنات مِنَ النسآء إِلاَّ مَا مَلَكَتْ
أَيْمَانُكُمْ ) أى فهن لكم حلال إذا انقضت عدتهن ، وهذا نص صريح صريح فى
أن الآية نزلت بسبب تحرج أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم عن وطء المسبيات
ذوات الأزواج فأنزل الله فى جوابهم ( إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ )
وبه قال مالك وابو حنيفة وأصحابه والشافعى وأحمد وإسحاق وأبو ثور ، وهو .
الصحيح - إن شاء الله تعالى - .وقيل إن المراد بالمحصنات هنا : ذوات
الأزواج - كما تقدم - ، ولما ملكت أيمانكم : مطلق ملك اليمين . فكل من
انتقل إليه ملك أمة ببيع أو هبة أو سباء أو غير ذلك وكانت متزوجة كان ذلك
الانتقال مقتضيا لطلاقها وحلها لمن انتلقت إليه .وهذا القول ضعيف ، لأن
عائشة - رضى الله عنها - اشترت بريرة وأعتقتها وكانت ذات زوج ، ثم خيرها
النبى صلى الله عليه وسلم بين فسخ نكاحها من زوجها وبين بقائها على هذا
النكاح ، فدل ذلك على أن بيع الأمة ليس هادما للعصمة ، لأنه لو كان هادما
لها ما خير النبى صلى الله عليه وسلم بريرة .أخرج البخارى عن عائشة - " رضى
الله عنها - قالت : اشتريت بريرة . فاشترط أهلها ولاءها . فذكرت ذلك للنبى
: صلى الله عليه وسلم فقال : " أتقيها فإن الولاء لمن أعطى الورق " .قالت
، فأعتقتها . قال : فدعاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فخيرها فى زوجها

- فقالت : لو أعطانى كذا وكذا مابت عنده . فاختارت نفسها " .وقوله - تعالى
ساقه - سبحانه - لتأكيدم تحريم نكاح الأنواع ( كِتَابَ اللهِ عَلَيْكُمْ )
: التى سبق ذكرها .وقوله ( كِتَابَ ) مصدر كتب ، وهو مصدر مؤكد بعامله أى
كتب الله عليكم تحريم هذه الأنواع التى سبق ذكرها وفرضه فرضا ، فليس لكم أن
تفعلوا شيئا مما حرمه الله عليكم ، وإنما الواجب عليكم أن تقفوا عند حدوده
وشرعه .وقيل : إن قوله ( كِتَابَ ) منصوب على الإغراء . أى : الزموا كتابا
لله الذى هو حجة عليكم إلى يوم القيامة ولا تخالفوا شيئا من أوامره أو
نواهيه .وعليه فيكون المراد بالكتاب هنا القرآن الكريم الذى شرع الله فيه
ما شرع من الأحكام .وإلى هنا تكون هذه الآيات الثلاث قد بينت خمسة عشر نوعا
من الأنكحة المحرمة .أما الآية الأولى وهى قوله - تعالى : ( وَلاَ
تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ ) الخ فقد بينت نوعا واحدا .وأما الآية
الثانية وهى قوله - تعالى - : ( حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ ) الخ
) : - فقد بينت ثلاثة عشر نوعا .وأما الآية الثانية وهى قوله - تعالى
والمحصنات مِنَ النسآء ) . الخ فقد بينت نوعا واحدا .قال الفخر الرازى عند
تفسيره لقوله - تعالى ( حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ ) . . . الآية
اعلم أنه - تعالى - نص على تحريم أربعة عشر صنفا من النساء : سبعة منهن :
من جهة النسب وهن : الأمهات والبنات والأخوات والعمات والخلات وبنات الأخ
وبنات الأخت .وسبعة أخرى لا من جهة النسب وهن : الأمهات من الرضاعة
والأخوات من الرضاعة ، وأمهات النساء والربائب بنات النساء بشرط أن يكون قد
دخل بالنساء ، وأزواج الأبناء والآباء إلا أن أزواج الأبناء مذكورة ها هنا
وأزواج الآباء مذكورة فى الآية المتقدمة ، - وهى قوله ( وَلاَ تَنكِحُواْ ،
مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِّنَ النسآء ) والجمع بين الاختين .هذا ، وبعد أن
بين - سبحانه - المحرمات من النساء ، عقب ذلك بإيراد جملة كريمة بين فيها
ما يحل نكاحه من النساء فقال - تعالى - : ( وَأُحِلَّ لَكُمْ مَّا وَرَاءَ
ذَلِكُمْ ) .و ( مَّا ) هنا المراد بها عموم النساء .وكلمة ( وَرَاءَ ) هنا
بمعنى غير أو دون كما فى قول بعضهم : ( وليس وراء الله للمرء مذهب ) .واسم
الإشارة ( أُحِلَّ لَكُمْ ) يعود إلى ما تقدم من المحرمات .والجملة
الكريمة معطوفة على قوله ( حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ ) الخ .ومن
قرأ ( أُحِلَّ لَكُمْ ) ببناء الفعل للفاعل جعلها معطوفة على كتب المقدر فى
قوله ( كِتَابَ اللهِ عَلَيْكُمْ . . . ) .والمعنى : حرمت عليكم هؤلاء
المذكورات ، وأحل لكم نكاح ما سواهن من النساء .قال القرطبى : قوله - تعالى
قرأ حمزة والكسائى وعاصم فى ( وَأُحِلَّ لَكُمْ مَّا وَرَاءَ ذَلِكُمْ )
رواية حفص ( وَأُحِلَّ لَكُمْ ) ردا على ( حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ ) وقرأ
الباقون بالفتح ردا على قوله - تعالى - ( كِتَابَ اللهِ عَلَيْكُمْ ) .وهذا
يقتضى ألا يحرم من النساء إلا من ذكر ، وليس كذلك؛ فإن الله - تعالى - قدر
حرم على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم من لم يذكر فى الآية فيضم إليها .
قال - تعالى - : ( وَمَآ آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ
" : فانتهوا ) روى مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال
لا يجمع بين المرأة وعمتها ولا بين المرأة وخالتها " وقد قيل : إن تحريم
الجمع بين المرأة وعمتها - أو خالتها - فى معنى الجمع بين الأختين؛ أو لأن
الخالة فى معنى الوالدة والعمة فى معنى الوالد والصحيح الأول : لأن الكتاب
والسنة كالشئ الواحد فكأنه قال : " أحللت لكم ما وراء من ذكرنا فى الكتاب
- وما وراء ما أكملت به البيان على لسان محمد صلى الله عليه وسلم " .ثم رفع
سبحانه - من شأن المرأة وكرمها بأن جعل إيتاءها المهر شرطا لاستحلال نكاحها
إعزازا لها فقال - تعالى - ( أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَالِكُمْ مُّحْصِنِينَ
غَيْرَ مُسَافِحِينَ ) .وقوله : ( تَبْتَغُواْ ) من الابتغاء بمعنى الطلب
الشديد .وقوله : ( مُّحْصِنِينَ ) من الإحصان وهو هنا بمعنى العفة وتحصين
النفس ومنعها عن الوقوع فيما يغضب الله - تعالى - .وقوله : ( مُسَافِحِينَ
من السفاح بمعنى الزنا والمسافح : هو الزانى . ولفظ السفاح مأخوذ من (
السفح وهو صب الماء وسيلانه . به الزنا؛ لأن الزانى لا غرض له إلا صب
النطفة فقط دون نظر إلى الأهداف الشريفة التى شرعها الله وراء النكاح
وقوله ( أَن تَبْتَغُواْ ) فى محل نصب بنزع الخافض على أنه مفعول له لما.
دل عليه الكلام و ( مُّحْصِنِينَ ) و ( غَيْرَ مُسَافِحِينَ ) حالان من
فاعل ( تَبْتَغُواْ ) .والمعنى : بين لكم - سبحانه - ما حرم عليكم من
النساء ، وأحل لكم ما وراء ذلكم ، من أجل أن تطلبوا الزواج من النساء
اللائى أحلهن الله لكم أشد الطلب ، عن طريق ما تقدمونه لهن من أموالكم
كمهور ، وبذلك تكونون قد أحصنتم أنفسكم ومنعتموها عن السفاح والفجور والزنا
قال بعضهم : وكان أهل الجاهلية إذا خطب الرجل منهم قال : انكحينى . فإذا.
أراد الزنا قال : بعض الشفعية :لا حجة فى ذلك ، لأن تخصيص المال كونه
الأغلب المتعارف ، فيجوز النكاح على ما ليس بمال . ويؤيد ذلك ما رواه
الشيخان وغيرهما عن سهل بن سعد " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل رجلا
خطب الواهبة نفسها للنبى صلى الله عليه وسلم ماذا معك من القرآن؟ قال : معى
سورة كذا وكذا وعددهن . قال : تقرؤهن على ظهر قلبك؟ قال : نعم قال : اذهب
فقد ملكتكها بما معك من القرآن " .ووجه التأييد أنه لو كان فى الآية حجة

لما خالفها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأجيب بأن كون القرآن معه لا يوجب
كونه بدلا ، والتعليم ليس له ذكر فى الخبر ، فيجوز أن يكون مراده صلى الله
) : - عليه وسلم : زوجتك تعظيما للقرآن ولأجل ما معك منه .ثم قال - تعالى
( فَمَا استمتعتم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً
) والاستمتاع : طلب المتعة والتلذذ بما فيه منفعة ولذة .والمراد بقوله.
أُجُورَهُنّ ) أى مهورهن لأنها فى مقابلة الاستمتاع فسميت أجرا .و ( مَا
فى قوله ( فَمَا استمتعتم بِهِ مِنْهُنّ ) واقعة على الاستمتاع والعائد (
فى الخبر محذوف أى فآتوهن أجورهن عليه .والمعنى : فما انتفعتم وتلذذتم به
من النساء عن طريق النكاح الصحيح فآتوهن أجورهن عليه .ويصح أن يكون ( مَا )
واقعة على النساء باعتبار الجنس أو الوصف . وأعاد الضمير عليها مفرداً فى
قوله ( بِهِ ) باعتبار لفظها ، وأعاده عليها جمعا فى قوله ( مِنْهُنّ )
باعتبار معناها .ومن فى قوله ( مِنْهُنّ ) للتبعيض أو للبيان . والجار
والمجرور فى موضع النصب على الحال من ضمير ( بِهِ ) :والمعنى : فأى فرد أو
الفرد الذى تمتعتم به حال كونه من جنس النساء أو بعضهن فأعطوهن أجورهن على
ذلك . والمراد من الأجور : المهور . وسمى المهر أجراً؛ لأنه بدل عن المنفعة
لا عن العين .وقوله ( فَرِيضَةً ) مصدر مؤكد لفعل محذوف أى : فرض الله
عليكم ذلك فريضة . أو حال من الأجور بمعنى مفروضة . أى : فآتوهن أجورهن
حالة كونها مفروضة عليكم .ثم بين - سبحانه - أنه لا حرج فى أن يتنازل أحد
) : - الزوجين لصاحبه عن حقه أو عن جزء منه ما دام ذلك حاصلا بالتراضى فقال
وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِن بَعْدِ الفريضة
إِنّ الله كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ) .أى :لا إثم ولا حرج عليكم فيما
تراضيتم به أنتم وهو من إسقاط شئ من المهر أو الإبراء منه أو الزيادة عليه
ما دام ذلك بالتراضى بينكم ومن بعد اتفاقكم على مقدار المهر الذى سميتموه
وفرضتموه على أنفسكم .وقد ذيل - سبحانه - الآية الكريمة بقوله ( إِنّ الله
كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ) لبيان أن ما شرعه هو بمقتضى علمه الذى أحاط بكل
شئ ، وبمقتضى حكمته التى تضع كل شئ فى موضعه .فأنت ترى ان الآية الكريمة
مسوقة لبيان بعض الأنواع من النساء اللاتى حرم الله نكاحهن ، ولبيان ما
أحله الله منهن بعبارة جامعة ، ثم لبيان أن الله - تعالى - قد فرض على
الأزواج الذين يبتغون الزوجات عن طريق النكاح الصحيح الشريف أن يعطوهن
مهورهن عوضا عن انتفاعهم بهن ، وأنه لا حرج فى أن يتنازل أحد الزوجين
لصاحبه عن حقه أو عن شئ منه ما دام ذلك بسماحة نفس ، ومن بعد تسمية المهر
المقدر .هذا ، وقد حمل بعض الناس هذه الآية على أنها واردة فى نكاح المتعة
وهو عبارة عن أن يستأجر الرجل المرأة بمال معلوم إلى أجل معين لكى يستمتع
بها .قالوا : لأن معنى قوله - تعالى - : ( فَمَا استمتعتم بِهِ مِنْهُنّ
فَآتُوهُنّ أُجُورَهُنّ ) : فمن جامعتموهن ممن نكحتموهن نكاح المتعة
فآتوهن أجورهن .ولا شك أن هذا القول بعيد عن الصواب ، لأنه من المعلوم أن
النكاح الذى يحقق الإحصان والذى لا يكون الزوج به مسافحا . هو النكاح
الصحيح الدائم المستوفى شرائطه ، والذى وصفه الله بقوله ( وَأُحِلّ لَكُمْ
مّا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَالِكُمْ مُّحْصِنِينَ
غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا استمتعتم بِهِ مِنْهُنّ فَآتُوهُنّ
أُجُورَهُنّ فَرِيضَةً ) .وإذاً فقد بطل حمل الآية على أنها فى نكاح
المتعة؛ لأنها تتحدث عن النكاح الصحيح الذى يتحقق معه الإحصان ، وليس
النكاح الذى لا يقصد به إلا سفح الماء وقضاء الشهوة .قال ابن كثير : وقد
استدل بعموم هذه الآية على نكاح المتعة ، ولا شك أنه كان مشروعا فى ابتداء
الإسلام ثم نسخ بعد ذلك . وقد روى عن ابن عباس وطائفة من الصحابة القول
بإباحتها للضرورة . ولكن الجمهور على خلاف ذلك ، والعمدة ما ثبت فى
الصحيحين عن امير المؤمنين على بن أبى طالب قال : نهى رسول الله صلى الله
عليه وسلم عن نكاح المتعة وعن لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر ، وفى صحيح مسلم
عن الربيع بن سبرة الجهنى عن أبيه أنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم
فقال : " يا أيها الناس إنى كنت أذنت لكم فى الاستمتاع من النساء ، وإن
، الله قد حرم ذلك إلى يوم القيامة . فمن كانت عنده منهن شئ فليخل سبيله
، ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئا " .وقال الآلوسى : وقيل الآية فى المتعة
وهى النكاح إلى أجل معلوم من يوم أو أكثر .والمراد ، ( وَلاَ جُنَاحَ
عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ ) من استئناف عقد آخر بعد انقضاء
الأجل المضروب فى عقد المتعة ، بأن يزيد الرجل فى الأجر وتزيد المرأة فى
المدة ، وإلى ذلك ذهبت الإمامية - من طائفة الشيعة - .ثم قال : ولا نزاع
عندنا فى أنها أحلت ثم حرمت ، والصواب المختار أن التحريم والإباحة كانا
مرتين . فقد كانت حلالا قبل يوم خيبر ثم حرمت يوم خيبر ، ثم أبيحت يوم فتح
مكة وهو يوم أوطاس لاتصالهما ، ثم حرمت يومئذ بعد ثلاث تحريما مؤبداً إلى
) - يوم القيامة . . .وقال بعض العلماء : وهذا النصف وهو قوله - تعالى
فَمَا استمتعتم بِهِ مِنْهُنّ فَآتُوهُنّ أُجُورَهُنّ فَرِيضَةً ) قد
تعلق به بعض المفسدين الذين لم يفهموا معنى العلاقات المحرمة بين الرجل
والمرأة ، فادعوا أنه يبيح المتعة . . والنص بعيد عن هذا المعنى الفاسد بعد
من قالوه عن الهداية؛ لأن الكلام كله فى عقد الزواج فسابقه ولاحقه فى عقد

الزواج ، والمتعة حتى على كلامهم لا يسمى عقد نكاح أبدا .وقد تعلقوا مع هذا
بعبارات رووها عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه أباح المتعة فى غزوات ثم
نسخها ، وبأن ابن عباس كان يبيحها فى الغزوات وهذا الاستلال باطل ، لأن
النبى صلى الله عليه وسلم نسخها ، فكان عليهم عند تعلقهم برواية مسلم أن
يأخذوا بها جملة أو يتركوها ، وجملتها تؤدى إلى النسخ لا إلى البقاء .وإذا
قالوا إننا نتفق معكم على الإباحة ونخالفكم فى النسخ فنأخذ المجمع عليه
ونترك غيره قلنا لهم : إن النصوص التى أثبتت الإباحة هى التى أثبتت النسخ
وما اتفقنا معكم على الإباحة ، لأننا نقرر نسخ الإباحة .على أننا نقول ،
، إن ترك النبى صلى الله عليه وسلم المتعة لهم قبل الأمر الجازم بالمنع :
ليس من قبيل الإباحة ، بل هو من قبيل الترك حتى تستأنس القلوب بالإيمان
وتترك عادات الجاهلية ، وقد كان شائعا بينهم اتخاذ الأخدان وهو ما نسميه
اتخاذ الخلائل . وهذه هى متعتهم ، فنى القرآن الكريمة والنبى صلى الله عليه
وسلم عنها . وإن الترك مدة لا يسمى إباحة وإنما يسمى متعتهم ، فنهى القرآن
الكريم والنبى صلى الله عليه وسلم عنها . وإن الترك مدة لا يسمى إباحة
وإنما يسمى عفوا حتى تخرج النفوس من جاهليتها ، والذين يستبيحونها باقون
على الجاهلية الأولى .وابن عباس - رضى الله عنه - قد رجع عن فتواه بعد أن
قال له إمام الهدى على بن أبى طالب : إنك امرؤ تائه ، لقد نسخا النبى صلى
الله عليه وسلم والله لا أوتى بمستمتعين إلا رجمتهما .وبذلك نرى أن الآية
الكريمة واردة فى شأن النكاح الصحيح الذى يحقق الإحصان ولا يكون الزوج به
مسافحا . وأن القول بأنها تدل على نكاح المتعة قول بعيد عن الحق والصواب
. للأسباب التى سبق ذكرها

ومن لم يستطع منكم طولا ان ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت ايمانكم من
فتياتكم المؤمنات والله اعلم بايمانكم بعضكم من بعض فانكحوهن باذن اهلهن
واتوهن اجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات اخدان فاذا احصن فان
اتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ذلك لمن خشي العنت منكم
وان تصبروا خير لكم والله غفور رحيم

كما فسرها الوسيط وبعد أن بين - سبحانه - المحرمات من النساء ، وبين من يحل
نكاحه منهن ، عقب ذلك ببيان ما ينبغى أن يفعله من لا يستطيع نكاح المحصنات
) المؤمنات فقال - تعالى - ( وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ . . . ) .قوله
. طَوْلاً ) أى سعة وقدرة وغنى فى المال .قال صاحب الكشاف : الطول : الفضل
يقال : لفلان على فلان طول أي : زيادة وفضل . وقد طاله طولا فهو طائل . قال
الشاعر :لقد زادنى حبا لنفسى أننى ... بغيض إلى كل امرئ غير طائلومنه قولهم
ما خلا منه بطائل . أى بشئ يعتد به مما له فضل وخطر . ومنه الطول فى :
الجسم لأنه زيادة فيه .والمراد بالمحصنات هنا الحرائر بدليل مقابلتهن
بالمملوكات ، وعبر عنهن بذلك ، لأن حريتهن أحصنتهن عن النقص الذى فى
الإماء .والمراد بقوله ( مِّن فَتَيَاتِكُمُ ) أي من إمائكم وأرقائكم
والمعنى : ومن لم يستطع منكم يا معشر المؤمنين الأحرار أن يحصل زيادة فى.
المال تمكنه من أن ينكح الحرائر المؤمنات ، فله فى هذه الحالة أن ينكح بعض
الإماء المؤمنات اللائى هن مملوكات لغيركم .و ( مَن ) فى قوله ( وَمَن
لَّمْ يَسْتَطِعْ ) شرطية ، وجوابها قوله ، فمما ملكت أيمانكم ، ويصح أن
تكون موصولة ويكون قوله ( فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم ) هو الخبر
وقوله ( مِنكُمْ ) حال من الضمير فى ( يَسْتَطِعْ ) وقوله ( طَوْلاً ).
مفعول به ليستطع . هذا ، والآية تفيد بمضمونها أنه لا يحل الزواج من
الإماء إلا إذا كان المسلم الحر ليس فى قدرته أن يتزوج امرأة حرة .ولذا
قال بعضهم : إن الله - تعالى - شرط فى نكاح الإماء شرائط ثلاثة : اثنان
منها فى الناكح ، والثالث فى المنكوحة .أما اللذان فى الناكح فأحدهما أن
يكون غير واجد لما يتزوج به الحرة المؤمنة من الصداق .والثاني هو المذكور
فى آخر الآية وهو قوله : ( ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ العنت مِنْكُمْ ) .وأما
. . الشرط الثالث المعتبر فى المنكوحة فهو أن تكون الأمة مؤمنة لا كافرة
وقد خالف الإمام أبو حنيفة هذا الشرط الثالث فأباح للمسلم الزواج من الأمة
الكتابية إن لم يكن عنده زوجة حرة فإن كان متزوجا بحرة فإنه لا يجوز له أن
يتزوج أمة مطلقا لا مسلمة ولا كتابية ، وإن عقد عليها كان عقده باطلا وقد
بنى حكمه هذا على أساس تفسيره للطول بأنه الزواج بحرة .أما المالكية
والشافعية فقد قالوا : السعة والقدرة على المهر والنفقة فمن عجز عن
مهر الحرة ونفقتها وهو قادر على الزواج من أمة فإنه يجوز له الزواج بها ولو
كانت عنده زوجة حرة .وفى التعبير عن الإماء بقوله ( فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ
أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ المؤمنات ) تكريم لهؤلاء الأرقاء ، وإعزاز
لإنسانيتهن ، وتعليم للمسلمين أن يلتزموا الأدب فى مخاطبتهم لأرقائهم ولذا
ورد فى الحديث الشريف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا يقولن
أحدكم عبدى وأمتى ، ولكن ليقل فتاى وفتاتى " .وقوله - تعالى - ( والله
أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِّن بَعْضٍ ) جملة معترضة سيقت بين
، إباحة النكاح من الاماء المؤمنات وبين صورة العقد عليهن تأنيسا للقلوب

وإزالة للنفرة عن ناكح الاماء ببيان أن مناط التفاخر إنما هو الايمان لا
التباهى بالأحساب والأنساب .والمعنى : أنه - تعالى - أعلم منكم بمراتب
إيمانكم الذى هو مناط التفضيل وأنتم وفتياتكم من أصل واحد فلا ينبغى أن
يستعلى حر على عبد ، ولا حرة على أمة ، فرب إنسان غير حر أفضل عند الله
بسبب إيمانه وعمله الصالح من إنسان حر .فالمقصود من هذه الجملة الكريمة
إزالة ما كانت تستهجنه العرب من الزواج بالاماء ، ونهيهم عما كان متداولا
بينهم من احتقارهم لولد الأمة وتسميتهم إياه بالهجين - أى الذى أبوه عربى
وأمه أمة .وإلى هذا أشار صاحب الكشاف بقوله : فإن قلت : فما معنى قوله ) (
وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ ) ؟ قلت : معناه : أن الله أعلم بتفاضل ما
بينكم وبين أرقائكم فى الايمان ورجحانه ونقصانه فيهم وفيكم . وربما كان
إيمان الأمة أرجح من إيمان الحرة والمرأة أرجح فى الايمان من الرجل . وحق
المؤمنين أن لا يعيروا إلا فضل الإيمان لا فضل الأحساب والأنساب . وهذا
تأنيس بنكاح الاماء وترك الاستنكاف منه . وقوله ( بَعْضُكُمْ مِّن بَعْضٍ )
أى : أنتم وأرقاؤكم متناسبون متواصلون لاشتراككم فى الايمان لا يفضل حر
عبدا إلا برجحان فيه .ثم بين - سبحانه - كيفية الزواج بهن فقال ) : (
فانكحوهن بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بالمعروف
مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ) والمراد
بأهلهن : مواليهن الذين يملكونهن : عبر عن المالكين لهن بالأهل ، حملا
للناس على الأدب فى التعبير ، ولأنه يجب أن تكون العلاقة بين العبد ومالكه
علاقة أهل لا علاقة استعلاء .والمراد بالأجور هنا : المهور التى تدفع لهن
فى مقابل نكاحهن .والمراد بالمحصنات هنا : العفائف البيدات عن الفاحشة
والريبة . والمرأة المسافحة هى التى تؤاجر نفسها لكل رجل أرادها . والتى
تتخذ الخدن هى التى تتخذ لها صاحبا معينا . وكان أهل الجاهلية يفصلون بين
القسمين فيستقبحون الزنا العلنى ويستحلون السرى ، فجاءت شريعة الإسلام
بتحريم القسمين . قال - تعالى ( وَلاَ تَقْرَبُواْ الفواحش مَا ظَهَرَ
مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ) وقال - تعالى ( قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ
الفواحش مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ) وقوله ( فانكحوهن بِإِذْنِ
أَهْلِهِنَّ ) مترتب ومتفرع على ما قبله من أحكام .والمعنى : إذا عرفتم حكم
الله فى شأن فتياتكم المؤمنات فانكحوهن بعد أن يأذن لكم فى ذلك مواليهن
ويرضون عن هذا النكاح ، وأدوا إليهن مهورهن بالقدر المتعارف عليه شرعا
وعادة عن طيب نفس منكم ، وبدون مطل أو بخس . فإنه لا يصح أن تتخذوا من كون
المنكوحة أمة سبيلا لغمط حقها ، وتصغير شأنها .وقد اتفق العلماء على أن
نكاح الأمة بغير إذن سيدها غير جائز ، عملا بظاهر هذه الآية الكريمة ، فان
قوله - تعالى - : ( فانكحوهن بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ ) يقتضى كون الإذن شرطا
فى جواز النكاح ، ولأن منافع الأمّة لسيدها وهى ملك له فلا يجوز نكاحها
إلا بإذنه .قال القرطبى : قوله - تعالى - ( فانكحوهن ) أى بولاية أرباهن
المالكين وإذنهم . وكذلك العبد لا ينكح إلا بإذن سيده ، لأن العبد مملوك لا
أمر له ، وبدنه كله مستغرق ، لكن الفرق بينما أن العبد إذا تزوج بغير إذن
سيده فإن أجازه السيد جاز ، هذا المذهب مالك واصحاب الرأى ، والأمة إذا
تزوجت بغير إذن أهلها فسخ ولم يجز ولو بإجازة السيد .وقوله ( وَآتُوهُنَّ
أُجُورَهُنَّ ) صريح فى وجوب دفع مهر فى مقابل نكاح الأمة ولكن من الذى
يستلم هذا المهر؟يرى كثير من العلماء أن الذى يتسلم المهر هو السيد المالك
للأمة . لأن المهر قد وجب عوضا عن منافع بضع المملوكة للسيد ، وهو الذى
أباحها للزوج فوجب أن يكون هو المستحق لستلم المهر؛ ولأن العبد وما ملكت
يداه لسيده أى أتوا أهلهن أجورهن فالكلام على حذف مضاف .ويرى الإمام مالك
، أن الآية على ظاهرها ، وأن المهر إنما يدفع للأمة لأنها أحق به من سيدها
وأنه ليس للسيد أن يأخذ من أمته ويدعها بلا جهاز فالعقد يتولاه السيد أما
المهر فيعطى للأمة لتتولى إعداد نفسها للزواج منه .وقوله ( مُحْصَنَاتٍ )
حال من المفعول فى قوله ( فانكحوهن ) أى : فانحكوهن حال كونهن عفائف عن
الفاحشة .وقوله ( غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ ) تأكيد له أى غير مجاهرات بالزنا
. وقوله ( وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ) تأكيد آخر لبعدهن عن الريبة.
والأخدان جمع خدن وهو الصاحب والصديق .والمراد به هنا : من تتخذه المرأة
صاحبا لها لارتكاب الفاحشة معه سراً .وقد وصف الله - تعالى - الزوجات
الإماء بذلك ، لتحريضهن على التمسك بأهداب الفضيلة والشرف ، إذ الرق مظنة
الانزلاق والوقوع فى الفاحشة لما يصاحبه من هوان وضعف ، ولا شئ كالهوان
يفتح الباب أمام الرذيلة والفاحشة ومن هنا قالت هند بنت عتبة - باستغراب
واستنكار - لرسول الله صلى الله عليه وسلم عندما أخذ العهد عليها وعلى
المؤمنات بقوله ( وَلاَ يَزْنِينَ ) قالت يا رسول الله : أو تزنى
- الحرة؟!!ثم بين - سبحانه - عقوبة الإماء إذا ما ارتكبن الفاحشة فقال
تعالى - ( فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ
. نِصْفُ مَا عَلَى المحصنات مِنَ العذاب ) .ومعنى الإحصان هنا : الزواج
والمراد بالفاحشة : الزنا . والمراد بالعذاب : الحد الشرعى أى : فإذا أحسن
أى بالتزويج ، فإن أتين بفاحشة الزنا وثبت ذلك عليهن ، ففى هذه الحالة حدهن
نصف حد الحرائر من النساء .أى أن الأمة إذا زنت فحدها أنت تجدل خمسين جدلة

ولا رجم عليها لأنه لا يتنصف فلا يكون مرادا هنا .وظاهر الجملة الكريمة يفيد أن الأمة لا تحد إذا زنت متى كانت غير متزوجة وقد أخذ بهذا الظاهر بعض العلماء . ولكن جمهور العلماء يرون أن الأمة يقام عليها الحد إذا زنت سواء أكانت متزوجة أم غير متزوجه .فالآية الكريمة صرحت بأن الأمة إذا ارتكبت الفحشاء تكون عقوبتها نصف عقوبة الحرة ، لأن الجريمة يضعف أثرها بضعف مرتكبها ، ويقوى أثرها بقوة مرتكبها ، فكان من العدل أن يعاقب الأرقاء لضعفهم بنصف عقوبة الأحرار الأقوياء .فأين هذا السمو والرحمة والدالة فى التشريع من مظالم القوانين الوضعية ففى القانون الرومانى كان العبد إذا زنى بحرة قتل ، وإذا زنى الشريف حكم عليه بغرامة . ولقد حذر النبى صلى الله عليه وسلم من ذلك بقوله : " إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا : إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد . . . " .ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ( ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ العنت مِنْكُمْ وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ) .واسم الإشارة " ذلك " يعود إلى نكاح الإماء .والعنت : المشقة الشديدة التى يخشى معها التلف أو الوقوع فى الفاحشة التى نها الله - تعالى - عنها . ولذا قال بعضهم المراد به هنا : الزنا .أى : ذلك الذى شرعناه لكم من إباحة الزواج بالإماء عند الضرورة يكون بالنسبة لمن خشى على نفسه العزبة التى قد تفضى به إلى الوقوع فى الفاحشة والآثام . ( وَأَن تَصْبِرُواْ ) على تحمل المشقة متعففين عن نكاحهن حتى يرزقكم الله الزواج بالحرة ، فصبركم هذا خير لكم من نكاح الإسماء وإن رخص لكم فيه .وقوله ( والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ) أى واسع المغفرة كثيرها ، فيغفر لمن لم يصبر عن نكاحن - وفى ذلك تنفير عنه حتى لكأنه ذنب - وهو - سبحانه - واسع الرحمة بعباده حيث شرع لهم ما فيه تيسير عليهم ورأفة بهم .قالوا : وإنما كان الصبر عن نكاح الإماء خيراً من نكاحهن لأن الولد الذى يأتى عن طريقهن يكون معرضا للرق ، ولأن الأمة فى الغالب ، لا تستطيع أن تهيئ البيت الصالح للزوجية من كل الوجوه لانشغالها بخدمة سيدها .وقد أشار صاحب الكشاف إلى هذا المعنى بقوله : فإن قلت : لم كان نكاح الأمة منحطا عن نكاح الحرة؟ قلت : لما فيه من اتباع الولد الأم فى الرق . ولثبوت حق المولى فيها وفى استخدامها . ولأنها ولأنها ممتهنة مبتذلة خراجة ولاجة ، وذلك كله نقصان راجع إلى الناكح ومهانة .والعزة من صفات المؤمنين وبذلك نرى أن الآية الكريمة وإن كانت قد رخصت فى زواج الإماء عند الضرورة. الشديدة إلا أنها حضت المؤمنين على الصبر عن نكاحهن لما فى نكاحهن من أضرار يأباها الشخص العزيز النفس ، الكريم الخلق . والسبيل الأمثل للزواج بهن يكون بعد شرائهن وإعتاقهن ، وبذلك يقل الرقيق ويكثر الأحرار ولذا لو جامعها - مولاها كان ابنه حراً وكان طريقا لحريتها ومنع بيعها .وبعد أن بين سبحانه - فيما سبق من آيات كثيراً من الأوامر والنواهى والمحرمات والمباحات - عقب ذلك ببيان جانب من مظهر فضله على عباده ورحمته بهم فقال - تعالى . . : ( يُرِيدُ الله . . . . ضَعِيفاً ) .

يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم

كما فسرها الوسيط قوله - تعالى - : ( يُرِيدُ الله لِيُبَيِّنَ لَكُمْ ) استئناف مقرر لما سبق من الأحكام ، وقد ساقه - سبحانه - لإيناس قلوب المؤمنين حتى يمتثلوا عن اقتناع وتسليم لما شرعه الله لهم من أحكام .قال الآلوسى : ومثل هذا التركيب - قوله ( يُرِيدُ الله لِيُبَيِّنَ لَكُمْ ) . وقع فى كلام العرب قديما وخرجه النحاة على مذاهب :فقيل مفعول ( يُرِيدُ ) محذوف أى : يريد الله تحليل ما أحل وتحريم ما حرم ونحوه . واللام للتعليل ، نسب هذا إلى سيبويه وجمهور البصريين .فتعلق الإرادة غير التبيين . . وإنما فعلوه لئلا يتعدى الفعل إلى مفعوله المتأخر عنه باللام وهو ممتنع أو ضعيف .وذهب بعض البصريين إلى أن الفعل مؤول بالمصدر من غير سابك ، كما قيل به فى قولهم : " تسمع بالمعيدى خير من أن تراه " أى إرادتى كائنة للتبين . وفيه تكلف .وذهب الكوفيون إلى أن اللام هى الناصبة للفعل من غير إضمار أن ، وهى وما بعدها مفعول للفعل المقدم أى : يريد الله البيان لكم .والمعنى : يريد الله - تعالى - بما شرع لكم من أحكام ، وبما ذكر من محرمات ومباحات أن يبين لكم ما فيه خيركم وصلاحكم وسعادتكم ، وأن يميز لكم بين الحلال والحرام والحسن والقبيح .وقوله : ( وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الذين مِن قَبْلِكُمْ ) معطوف على ما قبله .والسنن : جمع سنة وهى الطريقة وفى أكثر استعمالها تكون للطريقة المثلى الهادية إلى الحق .أى : ويهديكم مناهد وطرائق من تقدمكم من الأنبياء والصالحين ، لتقتفوا آثارهم وتسلكوا سبيلهم .وليس المراد أن جميع ما شرعه من حلال أو من حرام كان مشروعا بعينه للأمم السابقة . بل المراد أن الله كما قد شرع للأمم السابقة من الأحكام ما هم فى حاجة إليه وما اقتضته مصالحهم ، فكذلك قد شرع لنا ما نحن فى حاجة إليه وما يحقق مصالحنا ، فإن الشرائع والتكاليف وإن كانت مختلفة فى ذاتها إلا أنها متفقة فى باب المصالح : وقوله : ( وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ) معطوف على ما قبله .والتوبة معناها.

- ترك الذنب مع الندم عليه والعزم على عدم العود ، وذلك مستحيل فى حقه سبحانه - لذا قالوا : المراد بها هنا المغفرة لتسببها عنها . أو المراد بها - قبول التوبة .أى : ويقبل توبتكم متى رجعتم إليه بصدق وإخلاص ، فقد تكفل سبحانه - لعباده أن يغفر لهم خطاياهم متى تابوا إليه توبة صادقة نصوحا وفى التعبير عن قبول التوبة بقوله ( وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ) إشارة إلى ما يتضمنه معنى قبول التوبة من ستر للذنوب ، ومنع لكشفها ، فهى غطاء على المعاصى يمنعها من الظهور حتى يذهب تأثيرها فى النفس :فالآية الكريمة تحريض على التوبة ، لأن الوعد بقبولها متى كانت صادقة يغرى الناس .بطرق بابها - وبالإكثار منها . .وقوله : ( والله عَلِيمٌ حَكِيمٌ ) أى والله - تعالى ذو علم شامل لجميع الأشياء ، فيعلم أن ما شرع لكم من أحكام مناسب لكم ، وما سلكه المهتدون من الأمم قبلكم ، ومتى تكون توبة أحدكم صادقة ومتى لا تكون كذلك ( حَكِيمٌ ) يضع الأمور فى مواضعها . فيبين لمن يشاء ، ويهدى من يشاء ويتوب على من يشاء .فأنت ترى أن هذه الآية قد بينت جانبا من مظاهر فضل الله ورحمته بعباده ، حيث كشفت للناس أن الله - تعالى - يريد بإنزاله لهذا القرآن أن يبين لهم التكاليف التى كلفهم بها ليعرفوا الخير من الشر ، وأن يرشدهم إلى سبل من تقدمهم من أهل الحق ، وأن يغفر لهم ذنوبهم متى أخلصوا له التوبة .

والله يريد ان يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات ان تميلوا ميلا عظيما

كما فسرها الوسيط ثم أخبر - سبحانه - عما يريده لعباده من خير وصلاح وما يريده لهم الفاسقون من شر وفساد فقال - تعالى - : ( والله يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الذين يَتَّبِعُونَ الشهوات أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيماً ) .أى : والله - تعالى - يريد منكم أن تفعلوا ما يجعلكم أهلا لمغفرته ورضوانه وما يفضى بكم إلى قبول توبتكم ، وارتفاع منزلتكم عنده بينما يريد الذين يتبعون الشهوات من أهل الكفر والفسوق والعصيان أن ، تبتعدوا عن الحق والخير ابتعادا عظيما . والميل : أصله الانحراف من الوسط إلى جانب من الجوانب : ولما كان الاعتدال عبارة عن العدل والتوسط ، أطلق الميل على الجور والابتعاد عن الحق .ووصف الميل بالعظم للإشعار بأن الذين يتبعون الشهوات لا يكتفون من غيرهم بالميل اليسير عن الحق ، وإنما يريدون منهن انحرافا مطلقا عن الطريق المستقيم الذى أمر الله بسلوكه والسير فيه وهؤلاء الذين وصفهم الله بما وصف موجودون فى كل زمان ، وتراهم دائما. - يحملون لواء الرذيلة والفجور تارة باسم المدينة . وقد حذر الله - تعالى عباده منهم حتى يتأثرون بهم ، وحتى يقاوموهم ويكشفوا عن زيفهم وضلالهم ) ( ويأبى الله إِلاّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الكافرون

يريد الله ان يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - لونا آخر من ألوان رحمته ورأفته بعباده فقال : ( يُرِيدُ الله أَن يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإنسان ضَعِيفاً ) أى : يريد الله بما شرعه لكم من أحكام ، وبما كلفكم به من تكاليف هى فى. قدرتكم واستطاعتكم أن يخفف عنكم فى شرائعه وأوامره ونواهيه ، لكى تزدادوا له فى الطاعة والاستجابة والشكر .( وَخُلِقَ الإنسان ضَعِيفاً ) أى لا يصبر على مشاق الطاعات ، فكان من رحمة الله - تعالى - به أن خفف عنه فى التكاليف وهذا السير والتخفيف فى التكاليف من أبرز مميزات الشريعة الإسلامية ، وقد. ) : - بين القرآن الكريم ذلك فى كثير من آياته ، ومن ذلك قوله - تعالى ) - يُرِيدُ الله بِكُمُ اليسر وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ العسر ) وقوله - تعالى )- وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدين مِنْ حَرَجٍ ) وقوله - تعالى وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزكاة والذين هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ الذين يَتَّبِعُونَ الرسول النبيء الأمي الذي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التوراة والإنجيل يَأْمُرُهُم بالمعروف وَيَنْهَاهُمْ عَنِ المنكر وَيُحِلُّ لَهُمُ الطيبات وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخبآئث وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ والأغلال التي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ) ولقد كان من هدى النبى صلى الله عليه وسلم التخفيف والتيسير ، ففى الحديث الشريف : " إن هذا الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه " .وكان من وصاياه لمعاذ بن جبل وأبى موسى الأشعرى عندما أرسلهما إلى اليمن " يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا " .وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد بينت لنا الوانا من مظاهر فضل الله على عباده ورحمته بهم ، لكى يزدادوا له شكرا وطاعة وخضوعا .

يا ايها الذين امنوا لا تاكلوا اموالكم بينكم بالباطل الا ان تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا انفسكم ان الله كان بكم رحيما

كما فسرها الوسيط ثم وجه القرآن نداء إلى المؤمنين بين لهم فيه بعض

المحرمات المتعلقة بالأنفس والأموال ، بعد أن بين لهم قبل ذلك المحرمات من
- النساء والمحللات منهم ومظاهر فضله - سبحانه - بعباده ورحمته بهم فقال
) تعالى - : ( يَا أَيُّهَا الذين . . . كَرِيماً ) .المراد بالأكل فى قوله
لاَ تأكلوا أَمْوَالَكُمْ ) مطلق الأخذ الذى يشمل سائر التصرفات التى نهى
الله عنها .وخص الأكل بالذكر؛ لأن المقصود الأعظم من الأموال هو التصرف
فيها بالأكل .والباطل : اسم لكل تصرف لا يبيحه الشرع كالربا والقمار
والرشوة والغصب والسرقة والخيانة والظلم إلى غير ذلك من التصرفات المحرمة
والمعنى . يأيها المؤمنون لا يحل لكم أن يأكل بعضكم مال غيره بطريقة باطلة.
لا يقرها الشرع ، ولا يرتضيها الدين ، كما أنه لا يحل لكم أن تتصرفوا فى
الأموال التى تملكونها تصرفا منهيا عنه بأن تنفقوها فى وجوه المعاصى التى
نهى الله عنها؛ فإن ذلك يتنافى مع طبيعة هذا الدين الذى آمنتم به
وناداهم - سبحانه - بصفة الإيمان ، لتحريك حرارة العقيدة فى قلوبهم.
وإغرائهم بالاستجابة لما أمروا به أو نهو عنه .وفى قوله ( أَمْوَالَكُمْ )
إشارة إلى أن هذه الأموال هى نعمة من الله لنا ، وأن على الأمة جميعها أن
تصون هذه الأموال عن التصرفات الباطة التى لا تبيحها شريعة الله .وفى قوله
إشارة إلى أن تبادل الأموال بين الأفراد والجماعات يجب أن ( بَيْنَكُمْ )
يكون على أساس من الحق والعدل ولا يكون بالباطل أو بالظلم .والاستثناء فى
قوله ( إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنْكُمْ ) استثناء
منقطع لأن التجارة ليست من جنس الأموال المأكولة بالباطل .والمعنى :لا يحل
لكم - أيها المؤمنون - أن تتصرفوا فى أموالكم بالطرق المحرمة ، لكن يباح
لكم أن تتصرفوا فيها بالتجارة الناشئة عن تراض فيما بينكم؛ لأنه لا يحل
لمسلم أن يقتطع مال أخيه المسلم إلا عن طيب نفس منه .والتجارة : اسم يقع
على عقود المعارضات التى يقصد بها طلب الربح . وخصت بالذكر من بين سائر
أسباب الملك؛ لكونها أغلب وقوعا ولأن أسباب الرزق أكثرها متعلق بها .أخرج
الأصبهانى عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أطيب
الكسب كسب التجار الذين إذا حدثوا لم يكذبوا ، وإذا وعدوا لم يخلفوا ، وإذا
ائتمنوا لم يخونوا ، وإذا اشتروا لم يذموا ، وإذا باعوا لم يمدحوا ، وإذا
كان عليهم لم يمطلوا ، وإذا كان لهم لم يعسروا " .وكلمة ( تِجَارَةً )
قرأها عاصم وحمزة والكسائى بالنصب على أنها خبر لكان الناقصة ، واسم كان
ضمير يعود عل الأموال أى إلا أن تكون الأموال المتداولة بينكم تجارة صادرة
عن تراض منكم . وقرأها الباقون بالرفع على أنها فاعل لكان التامة أى : إلا
أن تقع تجارة بينكم عن تراض منكم .وقوله ( عَن تَرَاضٍ مِّنْكُمْ ) صفة
لقوله ( تِجَارَةً ) ولفظ ( عَن ) للمجاوزة أى : إلا أن تكون تجارة صادرة
عن تراض كائن منكم .والتراضى : هو الرضا من الجانبين بما بدل عليه من لفظ
، أو عرف ، وهو أساس العقود بصفة عامة ، وأساس المبادلات المالية بصفة خاصة
فلا بيع ولا شراء ولا إجارة ولا شركة ولا غيرها من عقود التجارة ما لم
- يتحقق الرضا .قال بعضهم : وحقيقة التراضى لا يعلمها إلى الله - تعالى
والمراد هنا أمارته . كالإيجاب والقبول وكالتعاطى عند القائل به . وقد
قال - تعالى - ( إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنْكُمْ ) فدل
ذلك على أن مجرد التراضى هو المناط . ولا بد من الدلالة عليه بلفظ أو إشارة
أو كتابة ، بأى لفظ وقع وعلى أى صفة كان ، وبأى إشارة مفيدة حصل .وقال
الآلوسى : والمراد بالتراضى مراضاة المتبايعين بما تعاقدوا عليه فى حال
المبايعة وقت الإيجاب والقبول عندنا . وعند المالكية والشافعية حالة
الافتراق عن مجلس العقد وقيل التراضى : التخيير بعد البيع . . .هذا ، وظاهر
قوله - تعالى - ( إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنْكُمْ )
، يفيد إباحة جميع أنواع التجارات ما دام قد حصل التراضى بين المتعاقدين
ولكن هذا الظاهر غير مراد؛ لأن الشارع قد حرم المتاجرة فى أشياء معينة حتى
ولو تم التراضى بين المتعاقدين بين المتعاقدين فيها ، وذلك مثل المتاجرة فى
الخمر والميتة ولحم الخنزير ، ومثل بيع الغرر والعبد الآبق ونحو ذلك مما
نهى عنه الشارع من العقود والمعاملات .وقوله ( وَلاَ تقتلوا أَنْفُسَكُمْ )
: معطوف على ما قبله .وللعلماء فى تأويله اتجاهات : فمنهم من يرى أن معناه
ولا يقتل بعضكم بعضا ، فإن قتل بعضكم لبعض قتل لأنفسكم . والتعبير عن قتل
بعضهم لبعض بقتل أنفسهم للمبالغة فى الزجر عن هذا الفعل ، وبتصويره بصورة
مالا يكاد يفعله عاقل .وإلى هذا المعنى اتجه الفخر الرازى فقد قال : اتفقوا
على أن هذا نهى عن أن يقتل بعضهم بعضا . وإنما قال : ( أَنْفُسَكُمْ )
لقوله صلى الله عليه وسلم " المؤمنون كنفس واحدة " ولأن العرب يقولون
قتلنا ورب الكعبة إذا قتل بعضهم؛ لأن قتل بعضهم يجرى مجرى قتلهم .ومنهم من:
يرى أن معناه النهى عن قتل الإنسان لنفسه . ومن ذلك ما أخرجه الشيخان عن
أبى هريرة " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من تردى من جبل فقتل
نفسه فهو فى نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبداً . ومن تحسى سما فقتل نفسه
فسمه فى يده يتحساه فى نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبداً . ومن قتل نفسه
بحديدة فحديدته فى يده يجأ - أى يطعن - بها فى بطنه فى نار جهنم خالدا
مخلدا فيها أبداً " .وروى مسلم عن جابر بن سمرة قال : أتى النبى صلى الله
عليه وسلم برجل قتل نفسه بمشاقص - أى سهام عراض واحدها مشقص - فلم يصل عليه

ومنهم من يرى أن معناه :لا تقتلوا أنفسكم بأكل بعضكم أموال بعض.
، وبارتكابكم للمعاصى التى نهى الله عنها ، فإن ذلك يؤدى إلى إفساد أمركم
، وذهاب ريحكم ، وتمزق وحدتكم ، ولا قتل للأمم والجماعات أشد من فساد أمرها
) : وذهاب ريحها .وقد ذهب إلى هذا المعنى الإمام ابن كثير فقد قال : وقوله
وَلاَ تقتلوا أَنْفُسَكُمْ ) أى بارتكاب محارم الله - وتعاطى معاصيه ، وأكل
أموالكم بينكم بالباطل .والذى نراه أن الجملة الكريمة تتناول كل هذه
الاتجاهات ، فهى تنهى المسلم عن أن يقتل نفسه ، كما أنها تنهاه عن أن يقتل
- غيره ، وهى أيضا تنهاه عن ارتكاب المعاصى التى تؤدى إلى هلاكه .وقدم
سبحانه - النهى عن أكل الأموال بالباطل على النهى عن قتل الأنفس مع أن
الثانى أخطر ، للإشعار بالتدريج فى النهى من الشديد إلى الأشد ولأن وقوعهم
فى أكل الأموال بالباطل كان أكثر منهم وأسهل عليهم من وقوعهم فى القتل .وقد
ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ( إِنَّ الله كَانَ بِكُمْ رَحِيماً
لبيان أن ما نهى الله عنه من محرمات ، وما أباحه من مباحات ، إنما هو من (
باب الرحمة بالناس ، وعدم المشقة عليهم . فالله - تعالى- رءوف بعباده ومن
مظاهر ذلك أنه لم يكلفهم إلا بما هو فى قدرتهم واستطاعتهم .وهذه الآية
الكريمة أصل عظيم فى حرمة الأموال والأنفس . ولقد أكد النبى صلى الله عليه
وسلم هذا المعنى فى خطبته فى حجة الوداع حيث قال : " إن دماءكم وأموالكم
. " عليكم حرام كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا

ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما فسوف نصليه نارا وكان ذلك على الله يسيرا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة من يفعل ما نهى الله عنه
فقال : ( وَمَن يَفْعَلْ ذلك عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ
نَاراً وَكَانَ ذلك عَلَى الله يَسِيراً ) .واسم الإشارة فى قوله ( وَمَن
يَفْعَلْ ذلك ) يعود إلى المذكور من أكل الأموال بالباطل ومن القتل . وقيل
الإشارة إلى القتل لأنه أقرب مذكور .والعدوان : مجاوزة الحد المشروع عن
قصد وتعمد .والظلم : وضع الشى فى غير موضعه .والمعنى : أن من يفعل ذلك
، المحرم حال كونه ذا عدوان وظلم عاقبه الله على ذلك عقابا شديدا فى الآخرة
بإدخاله نارا هائلة محرقة ، وكان عقابه بهذا العذاب الهائل الشديد يسيرا
على الله ، لأنه - سبحانه -لا يعجزه شئ .وجمع - سبحانه - بين العدوان
والظلم ليشمل العذاب كل أحوال الارتكاب لمحارم الله ، وليخرج ما كان غير
مقصود من الجرائم ، كمن يتلف مال غيره بدون قصد ، وكمن يقتل غيره بدون تعمد
فإنه يكون ظالما وعليه دفع عوض معين للمستحق لذلك ، إلا أنه لا يكون ،
مستحقا لهذا العذاب الشديد الذى توعد الله به من يرتكب هذه الجنايات عن
. عدوان وظلم

ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما

كما فسرها الوسيط وبعد هذا الوعيد الشديد لكل معتد وظالم ، فتح القرآن
الكريم باب الرحمة للناس حتى لا يقنطوا من رحمة الله فقال - تعالى - ( إِن
تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ
سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُّدْخَلاً كَرِيماً ) .واجتناب الشئ معناه
المباعدة عنه وتركه جانبا بحيث تكون أنت فى جانب وهو فى جانب آخر ولا :
تلاقى بينكما .وكبائر الذنوب : ما عظم منها ، وعظمت العقوبة عليه . كالشرك
: وقتل النفس بغير حق ، وأكل مال اليتيم ونحو ذلك من المحرمات .والسيئات ،
جمع سيئة وهى الفعلة القبيحة ، وسميت بذلك؛ لأنها تسوء صاحبها عاجلا أو
آجلا .والمراد بالسيئات هنا : صغائر الذنوب بدليل مقابلتها بالكبائر
والمعنى : إن تتركوا - يا معشر المؤمنين - كبائر الذنوب التى نهاكم الشرع.
، عن اقترافها ، ( نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ) أى نسترها عليكم
). ونمحها عنكم حتى تصير بمنزلة ما لم يعمل فضلا من الله عليكم ، ورحمة بكم
وَنُدْخِلْكُمْ مُّدْخَلاً كَرِيماً ) أى وندخلكم فى الآخرة مدخلا حسنا وهو
الجنة التى وعد الله بها عباده الصالحين . فهى مكان طيب يجد من يحل فيه
الكثير من كرم الله ورضاه .والمدخل - بضم الميم - كما قرأه الجمهور مصدر
بمعنى الإدخال ومفعول ندخلكم محذوف أى نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم إدخالا
كريما .ويصح أن يكون اسم مكان منصوبا على الظرفية عند سيبويه ، وعلى
المفعولية عند الأخفش .وقرأ نافع ( مَّدْخَلاً ) - بفتح الميم - على أنه
اسم مكان للدخول ، ويجوز أن يكون مصدرا ميما . أى ندخلكم مكانا كريما أو
ندخلكم دخولا كريما .هذا ، وقد استدل العلماء بهذه الآية على أن صغائر
الذنوب يغفرها الله - تعالى - لعباده رحمة منه وكرما متى اجتنبوا كبائر
الذنوب ، وصدقوا فى توبتهم إليه .كما استدلوا بها على أن الذنوب منها
الكبائر ومنها الصغائر؛ لأن هذه الآية قد فصلت بين كبائر الذنوب وبين ما
يكفر باجتنابها وهو صغار الذنوب المعبر عنها بقوله - تعالى - : ( نُكَفِّرْ
عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ) . ولأن الله - تعالى - يقول فى موضع آخر
وَلِلّهِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض لِيَجْزِيَ الذين أَسَاءُواْ

بِمَا عَمِلُواْ وَيِجْزِيَ الذين أَحْسَنُواْ بالحسنى الذين يَجْتَنِبُونَ
( كَبَائِرَ الإثم والفواحش إِلاَّ اللمم إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ المغفرة
قال الآلوسى ما ملخصه : واختلفوا فى حد الكبيرة على أقوال منها : أنها كل معصية أوجبت الحد . ومنها : أنها كل جريمة تؤذن بقلة اكتراث مرتكبها بالدين وبضعف ديانته .وقال الواحدى : الصحيح أن الكبيرة ليس لها حد يعرفها العباد به ، وإلا لاقتحم الناس الصغائر واستباحوها . ولكن الله - تعالى - أخفى ذلك عن العباد ليجتهدوا فى اجتناب المنهى عنه رجاء أن تجنب الكبائر . ونظير ذلك إخفاء الصلاة الوسطى ، وليلة القدر . وساعة الإجابة .وذهب جماعة إلى ضبطها بالعد من غير ضبط بحد . فعن ابن عباس وغيره أنها ما ذكره الله - تعالى - من أول هذه السورة إلى هنا . وقيل هى سبع بدليل ما جاء فى الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :" اجتنبوا السبع الموبقات قالوا : وما هو يا رسول الله؟ قال : الشرك بالله - تعالى - والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل ما اليتيم ، وأكل الربا ، والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات " .فإن قيل : جاء فى روايات أخرى أن من الكبائر : اليمين الغموس " و " قول الزور " و " عقوق الوالدين "؟ قلنا فى الجواب " إن ذلك محمول على أنه - صلى الله عليه وسلم - ذكر ما ذكر منها قصدا لبيان المحتاج منها وقت الذكر وليس لحصره الكبائر فيه - فإن النص على هذه السبع بأنهن كبائر لا ينفى ما عداهن .والذى نراه أن الذنوب منها الكبائر ومنها الصغائر ، وأن الصغائر يغفرها الله لعباده متى اجتنبوا الكبائر وأخلصوا دينهم لله ، وأن الكبائر هى ما حذر الشرع من ارتكابها تحذيرا شديدا ، وتوعد مرتكبها بسوء المصير ، كالإشراك بالله ، وقتل النفس بغير حق وغير ذلك من الفواحش التى يؤدى ارتكابها إلى إفساد شأن الأفراد والجماعات والتى ورد النهى عنها فى كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية . وأن الصغائر ، هى الذنوب اليسيرة التى يتركبها الشخص من غير إصرار عليها ولا استهانة بها أو مداومة عليها ، بل يعقبها بالتوبة الصادقة والعمل الصالح وصدق الله إذ يقول : ( وَأَقِمِ الصلاة طَرَفَيِ النهار وَزُلَفاً مِّنَ الليل إِنَّ الحسنات يُذْهِبْنَ السيئات ذلك ذكرى لِلذَّاكِرِينَ ) ولقد فتح الله - تعالى - لعباده باب التوبة من الذنوب صغيرها وكبيرها حتى لا ييأسوا من رحمته فقال - سبحانه - : ( والذين لاَ يَدْعُونَ مَعَ الله إِلها آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النفس التي حَرَّمَ الله إِلاَّ بالحق وَلاَ يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذلك يَلْقَ أَثَاماً يُضَاعَفْ لَهُ العذاب يَوْمَ القيامة وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فأولئك يُبَدِّلُ الله سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ الله غَفُوراً رَّحِيماً ) ثم نهى - سبحانه - عن التحاسد وعن تمنى ما فضل الله - به بعض الناس على بعض من المال ونحوه مما يجرى فيه التنافس ، وبين سبحانه - أنه قد جعل لكم إنسان حقا معينا فيما تركه الوالدان والأقربون . فقال - تعالى - : ( وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ . . . شَهِيداً )

ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسالوا الله من فضله ان الله كان بكل شيء عليما

كما فسرها الوسيط روى المفسرون فى سبب نزول الآية الأولى روايات منها ما رواه الإمام أحمد والترمذى عن مجاهد قال : قالت أم سلمة : يا رسول الله يغزو الرجال ولا نغزو ، ولنا نصف الميراث فأنزل الله - تعالى - ( وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ الله بِهِ بَعْضَكُمْ على بَعْضٍ ) .وقال قتادة كان أهل الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصبيان ، فلما ورثوا وجعل للذكر : مثل حظ الأنثيين تمنى النساء أن لو جعل أنصباؤهن كأنصباء الرجال . وقال الرجال : إنا لنرجوا أن نفضل على النساء بحسناتنا فى الآخرة كما فضلنا عليهن فى الميراث فنزلت ( وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ الله بِهِ بَعْضَكُمْ على بَعْضٍ ) .والتمنى المنهى عنه هنا : هو الذى يتضمن معنى الطمع فيما فى يد الغير ، والحسد له على ما أعطاه الله من مال أو جاه أو غير ذلك مما يجرى فيه التنافس بين الناس وذلك لأن التمنى بهذه الصورة يؤدى إلى شقاء النفس ، وفساد الخلق والدين ، ولأنه أشبه ما يكون بالاعتراض على قسمة الخالق العليم الخبير بأحوال خلقه وبشئون عباده .ولا يدخل فى التمنى المنهى عنه ما يسميه العلماء بالغبطة ، وهى أن يتمنى الرجل أن يكون له مثل : ما عند غيره من خير دون أن ينقص شئ مما عند ذلك الغير .قال صاحب الكشاف قوله ( وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ ) نهوا عن التحاسد وعن تمنى ما فضل الله به بعض الناس على بعض من الجاه والمال ، لأن ذلك التفضيل قسمة من الله صادرة عن حكمة وتدبير وعلم بأحوال العباد ، وبما يصلح المقسوم له من بسط فى الرزق أو قبض (وَلَوْ بَسَطَ اللّه الرزق لِعِبَادِهِ لَبَغَوْاْ فِي الأرض ) فعلى كل أحد أن يرضى بما قسم الله به ، علما بأن ما قسم له هو مصلحته ، ولو كان خلافه لكان مفسدة له ، ولا يحسد أخاه على حظه .وقوله - تعالى - ( بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكتسبوا وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكتسبن ) تعليل للنهى السابق . أى لكل من فريقى الرجال والنساء حظ مقدر مما

اكتسبوه من أعمال ، ونصيب معين فيما ورثوه أو أصابوه من أموال ، وإذا كان الأمر كذلك فلا يليق بعاقل أن يتمنى خلاف ما قسم الله له من رزق ، بل عليه أن يرضى بما قسم الله له . فالله - تعالى - هو الذى قدر أرزاق الرجال والنساء على حسب ما تقتضيه حكمته وعلمه ، وهو الذى كلف كل فريق منهم بواجبات وأعمال تليق باستعداده وتكوينه .وقوله ( واسألوا الله مِن فَضْلِهِ عطف على النهى . فكأنه قيل :لا تتمنوا ولا تتطلعوا إلى ما فى أيدى غيركم ( ، ولا تحسدوه على ما رزقه الله ، بل اجعلوا تجاهكم إلى الله وحده ، والتمسوا منه ما تشاءوه من نعمه الجليلة ، ومن حظوظ الدنيا والآخرة ، فهو القائل( مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا ( وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعزيز الحكيم وحذف المفعول من الجملة الكريمة لإفادة العموم . أى : واسألوا الله ما شئتم من إحسانه الزائد ، وإنعامه المتكاثر حتى تطمئن نفوسكم ، ويبتعد عنها الطمع والقلق والألم .قال ابن كثير : قوله ( واسألوا الله مِن فَضْلِهِ ) أى لا تتمنوا ما فضلنا به بعضكم على بعض؛ فإن التمنى لا يجدى شيئاً ، ولكن سلونى من فضلى أعطكم فإنى كريم وهاب . روى أبو نعيم وابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسأل ، وإن أحب عباد الله إلى الله للذى يحب الفرج " .ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ( إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ) أى إن الله - تعالى - كان وما زال عليما بكل شئ من شئون هذا الكون ، وقد وزع - سبحانه - أرزاقه ومواهبه على عباده بمقتضى علمه وحكمته ، فجعل فيهم الغنى والفقير ، فيحتاج بعضهم إلى بعض ، وليتبادلوا المنافع التى ) لا غنى لهم عنها ، وكلف كل فريق منهم بما يتناسب مع تكوينه واستعداده صُنْعَ اللَّهِ الذي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ )

ولكل جعلنا موالي مما ترك الوالدان والاقربون والذين عقدت ايمانكم فاتوهم نصيبهم ان الله كان على كل شيء شهيدا

كما فسرها الوسيط ثم قال - تعالى ( وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الوالدان والأقربون ) .والمضاف إلى كل هنا محذوف عوض عنه التنوين . والتقدير ولكل إنسان أو لكل قوم أو لكل من مات ، أو لكل من الرجال والنساء والموالى : جمع مولى . لفظ مشترك بين معان ، فيقال للسيد المعتق لعبده. مولى ، لأنه ولى نعمته فى عتقه له . ويقال للعبد العتيق مولى لاتصال ولاية مولاه فى إنعامه عليه كما يقال لكل من الحليف والنصير والقريب مولى . ويقال لعصبة الشخص موالى .قال الفخر الرازى : والمراد بالموالى هنا العصبة . ويؤكد ذلك ما رواه أبو صالح عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أنا أولى بالمؤمنين . من مات وترك مالا فماله للموالى العصبة . ومن ترك كلا فأنا وليه " وقال - عليه الصلاة والسلام - " اقسموا هذا المال فما أبقت السهام فلأولى عصبة ذكر " .هذا ، وللمفسرين فى تأويل هذه الآية الكريمة أقوال متعددة منها أن المعنى :1- ولكل واحد من الرجال والنساء جعلنا ورثة عصبة ، يرثون مما تركه الوالدان والأقربون من المال .2- أو المعنى : ولكل من مات من الرجال والنساء جعلنا مالى أى ورثة يقتسمون تركته عن طريق الإرث ، ولا حق للحليف فيها لأنه ليس من عصبة هذا الميت .3- أو المعنى : ولكل مال مما تركه الوالدان والأقربون جعلنا موالى أى ورثة يلونه ويجوزونه بعد أن يأخذ أصحاب الفروض نصيبهم .وعلى هذه الوجوه يكون الوالدان والأقربون هم الذين يرثهم غيرهم من مواليهم أى عصبتهم .4- قال الفخر الرازى ويمكن أن تفسر الآية بحيث يكون الوالدان والأقربون هم الورثة ، فيكون : المعنى :ولكل واحد جعلنا ورثة فى تركته . ثم كأنه قيل : ومن هؤلاء الورثة؟ ) فقيل . هم الوالدان والأقربون . وعلى هذا الوجه لا بد من الوقف عند قوله مِمَّا تَرَكَ ) :هذا وتفسير الآية الكريمة بحيث يكون الوالدان والأقربون هم الذين يرثهم غيرهم من عصبتهم هو الأولى ، لأنه هو الظاهر فى معنى الآية : وعليه سار جمهور المفسرين ، فقد قال ابن جرير : " فالموالى ها هنا ، الورثة . ويعنى بقوله ( مِمَّا تَرَكَ الوالدان والأقربون ) مما تركه والداه وأقرباؤه من الميراث . فتأويل الكلام ، ولكل منكم أيها الناس جعلنا ) عصبة يرثون مما ترك والداه وأقرباؤه من ميراثهم .وقال صاحب الكشاف : قوله مِمَّا تَرَكَ ) تبين لكل . أى : ولكل شئ مما ترك الوالدان والأقربون من المال جعلنا موالى أى ورثة يلونه ويحرزونه ، أو ولكل قوم جعلناهم موالى نصيب مما ترك الوالدان والأقربون . على أن ( جَعَلْنَا مَوَالِيَ ) صفة لكل والضمير الراجع إلى كل محذوف ، والكلام مبتدأ أو خبر . كما تقول : لكل من ، خلقه الله إنسانا من رزق الله . أى حظ من رزق الله .وقال القرطبى : بين الله - تعالى - أن لكل إنسان ورثة وموالى ، فلينتفع كل واحد بما قسم الله له من الميراث ولا يتمن مال غيره .وقوله ( والذين عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ) جملة من مبتدأ وخبر . وجئ بالفاء فى الخبر وهو قوله ( فَآتُوهُمْ ) لتضمن المبتدأ معنى الشرط .وقوله ( عَقَدَتْ ) من

، العقد وهو الشد والربط والتوكيد والتغليظ ، ومنه قولهم : عقد العهد يعقده ، أى : شدة وأكده .والأيمان : جمع يمين والمراد به هنا أيديهم اليمنى وإسناد العقد إليها على سبيل المجاز ، لأنهم كانوا عندما يؤثقون عقدا يضع كل واحد منهم يده فى يد الآخر ، ليكون ذلك علامة على انبرام العقد وتأكيده ومن هنا قيل للعقود الصفقات لأن كل عاقد يصفق بيمنه على يميمن الآخر . ويصح أن يكون المراد بالأيمان هنا الأقسام التى كانوا يقسمونها ويحلفونها. عند التعاقد على شئ يهمهم أمره .وقد قرأ عصام وحمزة والكسائى ( عقدت أيمانكم ) وقرأ الباقون ( عاقدت أيمانكم ) وعلى كلتا القراءتين فالمفعول محذوف أى والذين عقدت حلفهم أيمانكم أو عاقدتهم أيمانكم .وللعلماء فى المرد بقوله ( والذين عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ ) أقوال منها :1- أن المراد بهم الحلفاء وهم موالي الموالاة وكان لهم نصيب من الميراث ثم نسخ ، وقد ورد فى ) : - ذلك آثار منها ما أخرجه ابن جرير وغيره من قتادة قال : قوله تعالى والذين عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ) كان الرجل يعاقد الرجل فى الجاهلية فيقول : دمى دمك ، وهدمى هدمك . . أى مهدومى مهدومك وترثنى وأرثك ، وتطلب بى وأطلب بك ، فجعل له السدس من جميع المال في الإسلام ، ثم يقسم أهل الميراث ميراثهم .فنسخ ذلك بعد فى سورة الأنفال فقال الله - تعالى - ( وَأُوْلُواْ الأرحام بَعْضُهُمْ أولى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ الله ) 2- ويرى بعضهم أن المراد بهم الأدعياء وهم الأبناء بالتَّبنى وكانوا يتوارثون بسبب ذلك ، ثم نسخه بآية سورة الأنفال السابقة .3- ويرى ، فريق ثالث أن المراد بهم إخوان المؤاخاة ، فقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يؤاخى بين الرجلين من أصحابه وكانت تلك المؤاخاة سببا فى التوارث ثم نسخ ذلك بآية الأنفال السابقة .4- وقال أبو مسلم الأصفهانى : المراد بهم الأزواج ، إذ النكاح يسمى عقدا .والذى نراه أولى هو القول الأول لكثرة الآثار التى تؤيده ، ولأنه هو الذى رجحه جمهور المفسرين ، وعليه يكون المعنى : والذين عقدت حلفهم أيمانكم وهو الذين تحالفتم معهم على التناصير وغيره ( فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ) أى فأعطوهم نصيبهم من الميراث وفاء بالعقود والعهود .قال ابن جرير عند تفسيره لهذه الآية الكريمة . وأولى الأقوال بالصواب فى تأويل قوله - تعالى - ( والذين عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ ، فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ) قول من قال : والذين عقدت أيمانكم على المحالفة : وهم الحلفاء ، وذلك أنه معلوم عند جميع أهل العلم بأيام العرب وأخبارها أن عقد الحلف بينها كان بالأيمان والعهود والمواثيق على نحو ما قد ذكرنا من الروايات فى ذلك .وقال ابن كثير : وقوله ( والذين عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ) أى والذين تحالفتم بالأيمان المؤكدة أنتم وهم فآتوهم نصيبهم من الميراث كما وعدتموهم فى الأيمان المغلظة ، إن الله شاهد بينكم فى تلك العقود والمعاهدات . وقد كان هذا فى ابتداء الإسلام ثم نسخ بعد ذلك ، وأمروا أن يوفوا من عاقدوا ولا ينشئوا بعد نزول هذه الآية معاقدة .ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله ( إِنَّ الله كَانَ على كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً ) أى إن الله - تعالى - كان وما زال عالما بجميع الأشياء ، ومطلعاً على جبلها وخفيها ، وسيجازى الذين يتمسكون بشريعته بما يستحقون من ثواب . وسيجازى الذين يتمسكون بشريعته بما يستحقون من ثواب . وسيجازى الذين ينحرفون عنها بما يستحقون من عقاب .فالجملة الكريمة تذييل قصد به الوعد لمن أطاع الله والوعيد لمن عصاه .

الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما انفقوا من اموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فان اطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ان الله كان عليا كبيرا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه حقوق الرجال وحقوق النساء ، وما يجب لكل فريق نحو الآخر ، ودعا أهل الخير إلى محاولة الإصلاح بين الزوجين إذا مادب الخلاف بينهما فقال - تعالى - : ( الرجال . . . خَبِيراً ) .روى المفسرون روايات فى سبب نزول قوله - تعالى - ( الرجال قَوَّامُونَ عَلَى النسآء ) الآية .ومن هذه الروايات ما ذكره القرطبى من أنها " نزلت فى سعد بن الربيع : نشزت عليه امرأته حبيبة بنت زيد بن خارجة بن أبى زهير فلطمها؛ فقال أبوها يا رسول الله ، أفرشته كريمتى فلطمها . فقال صلى الله عليه وسلم " لتقتص من " - زوجها " . فانصرفت مع أبيها لتقتص منه . فقال - عليه الصلاة والسلام ارجعوا هذا جبريل أتانى " فأنزل الله هذه الآية .وقوله ( قَوَّامُونَ ) جمع قوام على وزن فعال للمبالغة من القيام على الشئ وحفظه . يقال : قال فلان على الشئ وهو قائم عليه وقوام عليه ، إذا كان يرعاه ويحفظه ويتولاه . ويقال هذا قيم المرأة وقوامها للذى يقوم بأمرها ويهتم بحفظها وإصلاحها ورعاية : شئونها . أي : الرجال يقومون على شئون النساء بالحفظ والرعاية والنفقة والتأديب وغير ذلك مما تقتضيه مصلحتهن .ثم ذكر - سبحانه - سببين لهذه القوامة .أولهما : وهبى وقد بينه بقوله : ( بِمَا فَضَّلَ الله بَعْضَهُمْ على بَعْضٍ ) .أى أن حكمة الله اقتضت أن يكون الرجال قوامين على النساء

بسبب ما فضل الله به الرجال على النساء من قوة فى الجسم ، وزيادة فى العلم وقدرة على تحمل أعباء الحياة وتكاليفها وما يستتبع من دفاع عنهن إذا ما ، تعرضن لسوء .قال الفخر الرازى : واعلم أن فضل الرجال على النساء حاصل من وجوه كثيرة : بعضها صفات حقيقية وبعضها أحكام شرعية . أما الصفات الحقيقة فاعلم أن الفضائل الحقيقية يرجع حاصلها إلى أمرين . إلى العلم وإلى القدرة ولا شك أن عقول الرجال وعلومهم أكثر . ولا شك أن قدرتهم على الأعمال. الشاقة أكمل ، فلهذين السببين حصلت الفضيلة للرجال على النساء فى العقل والحزم والقوة . وإن منهم الأنبياء والعلماء ، وفيهم الإمامة الكبرى والصغرى والجهاد ، والأذان ، والخطبة ، والولاية فى النكاح . فكل ذلك يدل على فضل الرجال على النساء .والمراد بالتفضيل فى قوله ( بِمَا فَضَّلَ الله بَعْضَهُمْ على بَعْضٍ ) تفضيل الجنس على الجنس لا تفضيل الآحاد على الآحاد فقد يوجد من النساء من هى أقوى عقلا وأكثر معرفة من بعض الرجال .والباء . للسببية ، وما مصدرية ، والبعض الأول المقصود به الرجال والبعض الثانى المقصود به النساء . والضمير المضاف إليه البعض الأول يقع على مجموع الفريقين على سبيل التغليب .وقال - سبحانه - ( بِمَا فَضَّلَ الله بَعْضَهُمْ على بَعْضٍ ) ولم يقل - مثلا - : بما فضلهم الله عليهن ، للإشعار بأن الرجال من النساء والنساء من الرجال كما قال فى آية أخرى ) بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ) وللإشارة إلى أن هذا التفضيل هو لصالح الفريقين فعلى كل فريق منهم أن يتفرغ لأداء المهمة التى كلفه الله بها بإخلاص وطاعة - حتى يسعد الفريقان .وأما السبب الثانى : فهو كسبى وقد بينه - سبحانه - بقوله : ( وَبِمَآ أَنْفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ) .أى أن الله - تعالى جعل الرجال قوامين على النساء بسبب ما فضل الله به الرجال على النساء من علم وقدرة . وبسبب ما ألزم به الرجال من إنفاق على النساء ومن تقديم المهور لهن عند الزواج بهن ، ومن القيام برعايتهن وصيانتهن .قال الآلوسى : واستدل بالآية على أن للزوج تأديب زوجته ومنعها من الخروج . وأن عليها طاعته إلا فى معصية الله - تعالى - . وفى الخبر " لو أمرت أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها " واستدل بها أيضا من أجاز فسخ النكاح عند الإعسار عن النفقة والكسوة . وهو مذهب مالك والشافعى ، لأنه إذا خرج عن كونه قواما ) : عليها فقد خرج عن الغرض المقصود بالنكاح . وعندنا لا فسخ لقوله - تعالى وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إلى مَيْسَرَةٍ ) . واستدل بها أيضا ، من جعل للزوج الحجر على زوجته فى نفسها وما لها فلا تتصرف فيه إلا بإذنه لأنه - سبحانه - جعل الرجل قواما بصيغة المبالغة . وهو الناظر على الشئ الحافظ له .ثم شرع - سبحانه - فى تفصيل أحوال النساء . وفى بيان كيفية القيام عليهن بحسب اختلاف أحوالهن ، فقسمهن إلى قسمين :فقال فى شأن القسم الأول : ( فالصالحات قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ الله أى : فالصالحات من النساء من صفاتهن أنهن ( قَانِتَاتٌ ) أى مطيعات. ( ) لله - تعالى ولأزواجهن عن طيب نفس واطمئنان قلب ، ومن صفاتهن كذلك أنهن حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ الله ) .قال صاحب الكشاف : الغيب خلاف الشهادة . أى حافظات لمواجب الغيب . إذا كان الأزواج غير شاهدين لهن ، حفظن ما يجب عليهن حفظه فى حال الغيبة من الفروج والأموال والبيوت . وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال . " خير النساء أمرأة إن نظرت إليها سرتك ، وأن أمرتها أطاعتك ، وإذا غبت عنها حفظتك فى مالها ونفسها " ، ثم تلا الآية الكريمة .و " ما " فى قوله ( بِمَا حَفِظَ الله ) يحتمل أن تكون مصدرية فيكون المعنى : أن هؤلاء النساء الصالحات المطيعات من صفاتهن أنهن يحفظن فى غيبة أزواجهن ما يجب حفظه بسبب حفظ الله لهن ورعايته إياهن بالتوفيق للعلم الذى يحبه ويرضاه .ويحتمل أن تكون موصولة فيكون المعنى : أنهن حافظات لغيبة أزواجهن فى النفس والعرض والمال وكل ما يجب حفظه بسبب الأمر الذى حفظه الله لهن على أزواجهن حيث كلف الأزواج بالانفاق عليهن وبالإحسان إليهن ، فعليهن أن يحفظن حقوق أزاوجهن فى مقابلة الذى حفظه الله لهن من حقوق على أزواجهن فالجملة الكريمة تمدح النساء الصالحات المطيعات الحافظات لأسرار أزواجهن. ولكل ما يجب حفظه من عرض أو مال أو غير ذلك مما تقتضيه الحياة الزوجية .هذا : هو القسم الأول من النساء ، أما القسم الثانى فقد قال - سبحانه - فى شأنه واللاتي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنّ فَعِظُوهُنّ واهجروهن فِي المضاجع ) واضربوهن ) والمراد بقوله ( نُشُوزَهُنّ ) عصيانهن وخروجهن عما توجيه الحياة الزوجية من طاعة الزوجة لزوجها . يقال : نشزت الزوجة نشوزا أى : عصت زوجها وامتنعت عليه . وأصل النشوز مأخوذ من النشز بمعنى الارتفاع فى وسط الأرض السهلة المنبسطة ويكون شاذا فيها . فشبهت المرأة المتعالية على طاعة زوجها بالمرتفع من الأرض .والمعنى : هذا شأن النساء الصالحات القانتات ) الحافظات للغيب بسبب حفظ الله لهن ، أما النساء اللاتى تخافون ) نُشُوزَهُنّ ) أى عصيانهن لكم ، وترفعهن عن مطاوعتكم ، وسوء عشرتهن ، فَعِظُوهُنّ ) بالقول الذى يؤثر فى النفس ، ويوجههن نحو الخير والفضيلة بأن تذكروهن بحسن عاقبة الطاعة للزوج . وسوء عاقبة النشوز والمعصية ، وبأن تسوقوا لهن من تعاليم الإسلام وآدابه وتوجيهاته ما من شأنه أن يشفى الصدور ويهدى النفوس إلى الخير .قال ابن كثير : وقوله - تعالى - : ( واللاتي ،

. تَخَافُونَ نُشُوزَهُنّ ) أى النساء تخافون أن ينشزن على أزواجهن فعظوهن
، والنشوز هو الارتفاع فالمرأة الناشز هى المرتفعة على زوجها التاركة لأمره
المعرضة عنه المبغضة له ، فمتى ظهر له منها أمارات النشوز فليعظها وليخوفها
عقاب الله ، فإن الله قد أوجب حق الزوج عليها وطاعته ، وحرم عليها معصيته
لماله عليها من الفضل ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لو كنت
" آمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها
وقوله ( واهجروهن فِي المضاجع ) أى وعليكم إذا لم تنفع الموعظة والنصيحة.
معهن أن تتركوهن منفردات فى أماكن نومهن .فالمضاجع جمع مضجع - وهو مكان
النوم والاضطجاع .قال القرطبى : والهجر فى المضجع هو أن يضاجعها - أى ينام
معها فى فراش واحد - ويوليها ظهره ولا يجامعها . وقال مجاهد : ( واهجروهن
فِي المضاجع ) أى تجنبوا مضاجعهن أى - اهجروا أماكن نومهن بأن تناموا بعيدا
عنهن - .روى أبو داود بسند " عن معاوية بن حيدة القشيرى أنه قال : يا رسول
الله : ما حق زوجة أحدنا عليه؟ قال : أن تطعمها إذا طعمت ، وتكسوها إذا
) اكتسيت ولا تضرب الوجه . ولا تقبح . ولا تهجر إلا فى البيت " .وقوله
واضربوهن ) معطوف على ما قبله . أى إن لم ينفع ما فعلتم من العظة والهجران
فاضربوهن ضربا غير مبرح - أى غير شديد ولا مشين - فقد ثبت فى صحيح مسلم عن
جابر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال فى حجة الوداع : " واتقوا الله
فى النساء فانهن عوان عندكم - أى أسيرات عندكم - ولكم عليهن أن لا يوطئن
فرشكم أحدا كرهونه . فإن فعلن فاضربوهن ضربا غير مبرح " .وقد فسر العلماء
الضرب غير المبرح بأنه الذى لا يكسر عظما ، ولا يشين جارحة ، وأن يتقى
الوجه فإنه مجمع المحاسن ولا يلجأ إليه إلا عند فشل العلاجين السابقين .وقد
قال - سبحانه - ( واللاتي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ ) ولم يقل : واللائى
ينشزن ، للإشعار بأن يبدأ الزوج بعلاج عيوب زوجته عندما تظهر أمارات هذه
العيوب وعلاماتها وأن لا يتركها حتى تشترى وتشتد ، بل عليه عندما يخشى
النشوز أن يعالجة قبل أن يقع ، وأن يكون علاجه بطريقة حكيمة من شأنها أن
. تقنع وتفيد .وبعضهم فسر الخوف ، بالعلم أى واللاتى تعلمون نشوزهن فعظوهن
، إلخ .وبعضهم قدر مضافا فى الكلام أى : واللاتى تخافون دوام نشوزهن . .
فعظوهن واهجروهن فى المضاجع . . الخ .وجمهور العلماء على أن من الواجب على
الزوج أن يسلك فى معالجته لزوجته تلك الأنوار الثلاثة على الترتيب بأن يبدأ
بالوعظ ثم بالهجر ثم بالضرب ، لأن الله - تعالى - قد أمر بذلك ، ولأنه قد
رتب هذه العقوبات بتلك الطريقة الحكيمة التى تبدأ بالعقوبة الخفيفة ثم
تتدرج إلى العقوبة الشديدة ثم إلى الأكثر شدة .قال الفخر الرازى : وبالجملة
- فالتخفيف مراعى فى هذا الباب على أبلغ الوجوه . والذى يدل عليه اللفظ أنه
تعالى - ابتدأ بالوعظ . ثم ترقى منه إلى الضرب . وذلك تنبيه يجرى مجرى
التصريح فى أنه متى حصل الغرض بالطريق الأخف ، وجب الاكتفاء به ، ولم يجز
الإقدام على الطريق الأشق . وهذه طريقة من قال : حكم هذه الآية مشروع على
الترتيب .وقال بعض أصحابنا : " تحرير المذهب أن له عند خوف النشوز أن يعظها
وهل له أن يهجرها؟ فيه احتمال . وله عند إيداء النشوز من يعظها أو يهجرها ،
أو يضربها .ثم بين - سبحانه - ما يجب على الرجال نحو النساء إذا ما ،
أطعنهم وتركن النشوز والعصيان فقال - تعالى - : ( فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ
فَلاَ تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ الله كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً
أى فإن رجعن عن النشوز إلى الطاعة وانقدن لما أوجب الله عليهن نحوكم. (
أيها الرجال ، فلا تطلبوا سبيلا وطريقا إلى التعدى عليهن ، أو فلا تظلموهن
بأى طريق من طرق الظلم كأن تؤذوهن بألسنتكم أو بأيدكم أو بغير لك ، بل
اجعلوا ما كان منهن كأنه لم يكن ، وحاولوا التقرب إليهن بألوان المودة
، والرحمة .( إِنّ الله كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً ) فاحذروا مخالفة أمره
فإن قدرته - سبحانه - عليكم أعظم من قدرتكم على نسائكم .فالجملة الكريمة
تذييل قصد به حث الأزواج على قبول توبة النساء ، وتحذيرهم من ظلمهن إذا ما
تركن النشوز ، وعدن إلى طريق الطاعة والإنابة .قال بعضهم : وذكر هاتين
الصفتين فى هذا الموضع فى غاية الحسن ، وبيانه من وجوه :الأول : أن المقصود
منه تهديد الأزواج على ظلم النساء . والمعنى : أنهن إن ضعفن عن دفع ظلمكم
وعجزن عن الانتصاف منكم ، فالله - سبحانه - ينتصف لهن منكم لأنه علىّ قاهر
كبير .الثانى :لا تبغوا إذا أطعنكم لعلو أيديكم ، فإن الله أعلى منكم
وأكبر من كل شئ .الثالث : أنه - سبحانه - مع علوه وكبريائه لا يؤاخذ العاصى
إذا تاب ، بل يغفر له ، فإذا تابت المرأة عن نشوزها فأنتم أولى بأن تتركوا
عقوبتها وتقبلوا توبتها .الخامس : أنه - تعالى مع علوه وكبريائه اكتفى من
، العبد بالظواهر ولم يهتك السرائر فأنتم أولى أن تكتفوا بظاهر حال المرأة
. وأن تقعوا فى التفتيش عما فى قلبها وضميرها من الحب والبغض

وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من اهله وحكما من اهلها ان يريدا اصلاحا
يوفق الله بينهما ان الله كان عليما خبيرا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما يجب عمله إذا ما نشب خلاف بين
الزوجين فقال - تعالى - : ( وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فابعثوا

حَكَماً مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلاَحاً
يُوَفِّقِ الله بَيْنَهُمَآ إِنَّ الله كَانَ عَلِيماً خَبِيراً ) .والمراد
بالخوف هنا العلم . والخطاب لولاة الأمور وصلحاء الأمة . وقيل لأهل الزوجين
والمراد بالشقاق ما يحصل بين الزوجين من خلاف ومعاداة . وسمى الخلاف.
شقاقاً لأن المخالف يفعل ما يشق على صاحبه ، أو لأن كل واحد من الزوجين صار
فى شق وجانب غير الذى فيه صاحبه .وقوله ( شِقَاقَ بَيْنِهِمَا ) أصله شقاقا
. بينهما . فأضيف الشقاق إلى الظرف إما على إجرائه مجرى المفعول فيه إتساعا
كقوله - تعالى - ( بَلْ مَكْرُ الليل والنهار ) وأصله بل مكر فى الليل
والنهار .وإما على إجرائه مجرى الفاعل بجعل البين مشاقا والليل والنهار
ماكرين . كما فى قولك : نهارك صائم .والمعنى : وإن علمتم أيها المؤمنون أن
هناك خلافا بين الزوجين قد يتسبب عنه النفور الشديد ، وانقطاع حبال الحياة
الزوجية بينهما ، ففى هذه الحالة عليكم أن تبعثوا ( حَكَماً ) أى رجلا
صالحا عاقلا أهلا للإصلاح ومنع الظالم من الظلم ( مِّنْ أَهْلِهِ ) أى من
أهل الزوج وأقاربه ( وَحَكَماً مِّنْ أَهْلِهَآ ) أى من أقارب الزوجة بحيث
يكون على صفة الأول : لأن الأقارب فى الغالب أعرف ببواطن الأحوال ، وأطلب
للإصلاح ، وتسكن إليهم النفس أكثر من غيرهم .وعلى الحكمين فى هذه الحالة
أن يستكشفا حقيقة الخلاف ، وان يعرفا هل الإصلاح بين الزوجين ممكن أو أن
الفراق خير لهما؟ .وظاهر الأمر فى قوله ( فابعثوا ) أنه للوجوب ، لأنه من
باب رفع المظالم ورفع المظالم من الأمور الواجبة على الحكام .وظاهر وصف
الحكمين بان يكون أحدهما من أهل الزوج والثانى من أهل الزوجة . أن ذلك شرط
: على سبيل الوجوب ، إلا أن كثيرا من العلماء حمله على الاستحباب ، وقالا
إذا بعث القاضى بحكمين من الأجانب جاز ذلك ، لأن فائدة بعث الحكمين استطاع
حقيقة الحال بين الزوجين ، وهذا أمر يستطيعه الأقارب وغير الأقارب إلا أنه
، يستحب الأقارب فيه لأنهم أعرف بأحوال الزوجين ، وأشد طلباً للإصلاح
وأبعد عن الظنة والريبة ، وأقرب إلى أن تسكن إليهم النفس .والضمير فى
قوله - تعالى - ( إِن يُرِيدَآ إِصْلاَحاً ) يجوز أن يعود للحكمين ويجوز أن
يكون للزوجين . وكذلك الضمير فى قوله ( يُوَفِّقِ الله بَيْنَهُمَآ ) يحتمل
أن يكون للحكمين وأن يكون للزوجين .والأولى جعل الضمير الأول للحكمين
والثانى للزوجين فيكون المعنى : إن يريدا أى الحكمان إصلاحا بنية صحيح
، وعزيمة صادقة ، يوفق الله بين الزوجين بإلقاء الألفة والمودة فى نفسيهما
وانتزاع أسباب الخلاف من قلبيهما .هذا ، وقد اختلف العلماء فيما يتولاه
الحكمان ، أيتوليان الجمع والتفريق بين الزوجين بدون . إذنهما أم ليس لهما
تنفيذ أمر يتعلق بالزوجين إلا بعد استئذانهما؟ .يرى بعضهم أن للحكمين أن
، يلزما الزوجين بما يريانه بدون إذنهما ، لأن الله - تعالى - سماهما حكمين
والحكم هو الذى يحسم الخلاف بما تقتضيه المصلحة سواء أرضى المحكوم عليه أم
لم يرض؛ ولأن القاضى هو الذى كلفهما بهذه المهمة فلما أن يتصرفا بما يريانه
خيراً بدون إذن الزوجين؛ ولأن علياً - رضى الله عنه - عندما بعث الحكمين
لحسم الخلاف الذى نشب بين أخيه عقيل وبين زوجته قال لهما : أتدريان ما
. عليكما؟ إن عليكما إن رأيتم أن تجمعا جمعتما وإن رأيتما أن تفرقا فرقتما
وإلى هذا الرأى اتجه ابن عباس والشعبى ومالك وأحمد بن حنبل وغيرهم .ويرى. .
الحسن وأبو حنيفة وغيرهما أنه ليس للحكمين أن يفرقا بين الزوجين إلا رضاهما
لأنهما وكيلان للزوجين ، ولأن الآية الكريمة قد بينت أن عملها هو الإصلاح
فإن عجزا عنه فقد انتهت مهمتهما ، ولأن الطلاق من الزوج وحده ، ولا يتولاه
غيره إلا بالنيابة عنه .ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ( إِنَّ
الله كَانَ عَلِيماً خَبِيراً ) أى : إنه - سبحانه - عليهم بظواهر الأمور
وبواطنها . خبير بأحوال النفوس وطرق علاجها ، ولا يخفى عليه شئ من تصرفات
الناس وأعمالهم ، وسيحاسبهم عليها .فالجملة الكريمة تذييل المقصود منه
الوعيد للحكمين إذا ما سلكوا طريقا يخالف الحق والعدل .وبهذا نرى أن هاتين
الآيتين الكريمتين قد بينتا جانبا هاما مما يجب للرجال على النساء ، ومما
يجب للنساء على الرجال ، فقد مدحت أولاهما النساء الصالحات المطيعات
الحافظات لحق أزواجهن ، ورسمت العلاج الناجع الذى يجب على الرجال أن
يستعملوه إذا ما حدث نشوز من زوجاتهم ، وحذرت الرجال من البغى على النساء
إذا ما تركن النشوز وعدن إلى الطاعة والاستقامة ( فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ
فَلاَ تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ الله كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً
ثم طلبت الآية الثانية من ولاة الأمور وصلحاء الأمة أن يتدخلوا بين . (
الزوجين إذا ما نشب خلاف بينهما ، وأن يكون هذا التدخل عن طريق حكمين عدلين
عاقلين يتوليان الإصلاح بينهما ، ويقضيان بما فيه مصلحة الزوجين ، وقد
، وعد - سبحانه - بالتوفيق بين الزوجين متى صلحت النيات ، وصفت النفوس
ومالت القلوب نحو التسامح والتعاطف قال - تعالى - ( إِن يُرِيدَآ
إِصْلاَحاً يُوَفِّقِ الله بَيْنَهُمَآ إِنَّ الله كَانَ عَلِيماً خَبِيراً
وبهذا التشريع الحكيم تسعد الأمم والأسر ، وتنال ما تصبوا إليه من رقى. (
واستقرار .وبعد هذا البيان الحكيم الذى ساقته السورة الكريمة فيما يتعلق
بأحكام الأسرة ووسائل استقرارها ، وعلاج ما يكون بين الزوجين من أسباب
النزاع . . بعد هذا البيان الحكيم عن ذلك أخذت السورة الكريمة فى دعوة

الناس إلى عبادة الله وحده ، وإلى التحلى بمكارم الأخلاق ، ونهتهم عن الإشراك بالله - تعالى - ، وعن الغرور والبخل والرياء ، وغير ذلك من الأعمال التى ترضى الشيطان وتغضب الرحمن فقال - تعالى - : ( واعبدوا الله . . ( حَدِيثاً . .

واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت ايمانكم ان الله لا يحب من كان مختالا فخورا

- كما فسرها الوسيط قال القرطبى ما ملخصه : أجمع العلماء على أن هذه الآية وهى قوله - تعالى - ( واعبدوا الله وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً ) - من المحكم المتفق عليه - ليس منها شئ منسوخ . وكذلك هى فى جميع الكتب . ولو لم يكن كذلك لعرف ذلك من جهة العقل وإن لم ينزل به الكتاب . والعبودية هى التذلل والافتقار لمن له الحكم والاختيار . فالآية أصل فى خلوص الأعمال لله وتصفيتها من شوائب الرياء وغيره . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قال الله - تعالى - أنا أغنى الشركاء عن الشرك . من عمل عملا أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه " .والمعنى : عليكم أيها الناس أن تخلصوا لله - تعالى - العبادة والخضوع ، وأن تتجهوا إليه وحده فى كل شئونكم بدون أن تتخذا معه أى شريك لا فى عقيدتكم ولا فى عبادتكم ولا فى أقوالكم ولا فى أعمالكم ، كما قال - تعالى - ( وَمَآ أمروا إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين حُنَفَآءَ ) وهذه العبادة الخالصة لله - تعالى - هى حقه - سبحانه - علينا ، فهو الذى خلقنا وهو الذى رزقنا وهو المتفضل علينا فى جميع الحالات .روى البخارى " عن معاذ بن جبل قال : كنت ردف النبى - صلى الله عليه وسلم - على حمار يقال له عفيرة . فقال يا معاذ هل تدرى ما حق الله على عباده وما حق العباد على الله؟ قلت الله : ورسوله أعلم . قال : فان حق الله على العبادة ان يبعدوه ولا يشركوا به شيئا وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا . فقلت : يا رسول . - الله! أفلا أبشر به الناس؟ قال :لا تبشرهم فيتكلوا " .وقد صدر سبحانه تلك الوصايا الحكيمة التى اشتملت عليها الآية الكريمة بالأمر بعبادته والنهى عن أن نشرك به شيئا ، لأن إخلاص العبادة له أساس الدين ، ومداره الأعظم الذى بدونه لا يقبل الله من العبد عملاما ، ولأن فى ذلك إيماء إلى ارتفاع شأن تلك الوصايا التى سيقت بعد ذلك ، إذ قرنا بالعبادة والتوحيد - يكسبها عظمة وجلالا .وعطف النهى عن الشرك على الأمر بالعبادة لله - تعالى من باب عطف الخاص على العام ، لأن الإشراك ضد التوحيد فيفهم من النهى عن الإشراك الأمر بالتوحيد .ثم أوصى - سبحانه - بالإحسان إلى الوالدين فقال أى : عليكم أن تخلصوا لله العبادة ولا تشركوا. ( وبالوالدين إِحْسَاناً ) : معه شيئا ، وعليكم كذلك أن تحسنوا إلى الوالدين بأن تطيعوهما وتكرموهما وتستجيبوا لمطالبهما التى يرضاها الله ، والتى فى استطاعتكم أداؤها .وقد جاء الأمر بالإحسان إلى الوالدين عقب الأمر بتوحيد الله ، لأن أحق الناس بالاحترام والطاعة بعد الله - عز وجل - هما الوالدان؛ لأنهما هما السبب المباشر فى وجود الإنسان .ومن الآيات التى قرنت الأمر بالإحسان إلى الوالدين بالأمر بطاعة الله قوله - تعالى - : ( وقضى رَبُّكَ أَلاَّ تعبدوا إِلاَّ إِيَّاهُ وبالوالدين إِحْسَاناً ) وقوله - تعالى - : ( قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وبالوالدين إِحْسَاناً ) وقوله - تعالى - : ( وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بني إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ الله وبالوالدين إِحْسَاناً ) ومن الأحاديث التى أمرت بالإحسان إلى الوالدين ونهت عن الإساءة إليهما ما رواه الترمذى عن عبد الله بن عمرو عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : " رضا الله فى رضا الوالدين وسخط الله فى سخط الوالدين " .وروى أبو داود والبيهقى عن رجل من بنى سلمة أنه جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : " يا رسول الله هل بقى على من بر أبوى شئ أبرهما به بعد موتهما؟ قال : نعم . الصلاة عليهما . والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما من بعدهما ، وإكرام صديقهما ، وصلة الرحم التى لا توصل إلا بهما " وقد جاءت هذه الجملة وهى قوله تعالى ( وبالوالدين إِحْسَاناً ) فى صورة الخبر إلا أن المراد بها الأمر بالإحسان إليهما ، ففى الكلام محذوف والتقدير : وأحسنوا بالوالدين إحسانا . فقوله وبالوالدين متعلق بالفعل المقدر .ثم أمر - سبحانه - بالإحسان إلى الأقارب واليتامى والمساكين فقال وبذى القربى واليتامى والمساكين .أى وأحسنوا كذلك إلى أقاربكم الذين جمعت : بينكم وبينهم رابطة القرابة والنسب ، وإلى اليتامى الذين فقدوا الأب الحانى بأن تعطفوا عليهم ، وترحموا ضعفهم ، وتحسنوا تربيتهم ورعايتهم . وإلى المساكين الذين هم فى حاجة إلى العون والمساعدة لفقرهم وضعفهم وعدم وجود ما يقوم بكفايتهم .وقد وردت آيات كثيرة فى القرآن الكريم تدعو المسلمين إلى ) - الإحسان إلى الأقارب واليتامى والمساكين ، ومن ذلك قوله - تعالى وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بني إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ الله

- وبالوالدين إِحْسَاناً وَذِي القربى واليتامى والمساكين ) وقوله - تعالى
وَآتِ ذَا القربى حَقَّهُ والمسكين وابن السبيل وَلاَ تُبَذِّرْ )
تَبْذِيراً ) ومن الأحاديث التى وردت فى هذا المعنى ما رواه الشيخان عن أبى
هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من سره أن يبسط له فى رزقه
وأن ينسأ له فى أثره فليصل رحمه " ، وروى الشيخان أيضا عن سهل بن سعد عن
النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أنا وكافل اليتيم فى الجنة كهذا وقال
بإصبعيه السبابة والوسطى - أى أشار وفرج بين السبابة والوسطى " .وروى
" : البخارى غيره عن صفوان بن سليم عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال
الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله ، أو كالذى يصم النهار
ويقوم الليل " .ثم أمر - سبحانه - بالإحسان إلى طائفة أخرى من الناس
فقال - تعالى - : ( والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وَمَا
. مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ) .والجار ذو القربى : هو الجار الذى قرب جواره
أو هو الذى له مع الجوار قرب واتصال بنسب أو دين ، فإن له مع حق الجوار حق
القرابة .والجار الجنب : هو الجار الذى بعد جواره عن جوارك من الجنابة ضد
القرابة . يقال : اجتنب فلان فلانا إذا بعد عنه . وقيل هو الجار الذى لا
قرابة فى النسب بينه وبين جاره ، ويقابله الجار ذو القربى .وقد ساق ابن
كثير عند تفسيره لهذه الجملة أكثر من عشرة أحاديث تتعلق بالإحسان إلى
الجار ومنها ما رواه الشيخان عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال : " ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه " .وروى الترمذى
عن عبد الله بن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : " خير الأصحاب
عند الله خيرهم لصاحبه . وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره " .والصاحب
بالجنب : هو الرفيق فى كل أمر حسن : كتعليم أو تجارة أو سفر أو غير ذلك
قال صاحب الكشاف : " والصاحب بالجنب : هو الذى صحبك بأن حصل بجنبك إما.
رفيقا فى سفر ، وإما جارا ملاصقا ، وإما شريكا فى تعلم علم أو حرفة ، وإما
قاعدا إلى جنبك فى مجلس أو مسجد أو غير ذلك فعليك أن ترعى ذلك الحق ولا
تنساه وتجعله ذريعة إلى الإحسان . وقيل : الصاحب بالجنب المرأة .وابن
السبيل : هو المسافر الذى انقطع عن بدله ، ونفد ما فى يده من مال يوصله إلى
مبتغاه .والسبيل : الطريق فنسب المسافر إليه لمروره عليه وملابسته له .ومن
الإحسان إليه . إيواؤه وإطعامه ومساعدته بما يوصله إلى موطنه .والمراد
بقوله ( وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ) العبيد الأرقاء الذين ملكت رقابهم
فصاروا ضعاف الحيلة لامتلاك غيرهم لهم .وقد أوصى النبى صلى الله عليه ،
وسلم بالإحسان إليهم فى كثير من الأحاديث ومن ذلك ما رواه أبو داود وابن
ماجه عن على بن أبى طالب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " جعل يوصى
" أمته فى مرض موته فيقول : الصلاة الصلاة . اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم
وروى الإمام أحمد والنسائى عن المقدام بن معد يكرب قال : قال رسول الله.
صلى الله عليه وسلم : " ما أطعمت نفسك فهو لك صدقة . وما أطعمت ولدك فهو لك
صدقة . وما أطعمت زوجك فهو لك صدقة . وما أطعمت خادمك فهو لك صدقة " .وروى
. الشيخان عن أبى ذر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " هم إخوانكم خولكم
جعلكم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه
مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبكم . فإن كلفتموهم فأعينوهم " .وبذلك نرى أن
الآية الكريمة قد أمرت الناس بإخلاص العبادة لله - تعالى - ، كما أمرتهم
بالإحسان إلى آبائهم وإلى أقاربهم وإلى البائسين والمحتاجين وغيرهم ممن هم
فى حاجة إلى مدّ يد العون والمساعدة .وبتنفيذ هذه الوصايا السامية تسعد
- الإنسانية ، وتنال ما تصبوا إليه من رقى واستقرار . ثم ختم - سبحانه
الآية الكريمة بقوله : ( إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً
فَخُوراً ) .والمختال : هو المتكبر المعجب بنفسه : سمى بذلك لأنه يتخيل
لنفسه من السجايا والصفات والأفعال ما ليس فيه . فيستغلى على الناس ولا
يلتفت إليهم .والفخور : هو الشديد الفخر بما يقول أو يفعل ، المكثر من ذكر
مزاياه ومناقبه ، والمحب لأن يحمد بما لم يفعل .أى : إن الله لا يحب من كان
متكبراً معجبا بنفسه ، ومن كان كثير الفخر بما يقول أو يفعل لأن من هذه
صفاته برعاية حقوق الناس بل إن غروره ليجعله يستنكف عن الاتصال بهم وإن
فخره ليحمله على التطاول عليهم .والجملة الكريمة علة لكلام محذوف والتقدير
لا تفتخروا ولا تختالوا فإن الله لا يحب من كان متصفا بهذه الصفات :
. القبيحة

الذين يبخلون ويامرون الناس بالبخل ويكتمون ما اتاهم الله من فضله واعتدنا
للكافرين عذابا مهينا

كما فسرها الوسيط وقوله ( الذين يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ الناس بالبخل )
يدل من قوله ( مُخْتَالاً فَخُوراً ) أى : أن الله لا يحب من كان مختالا
فخورا ولا يحب الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل .ويجوز أن يكون مبتدأ
محذوف الخبر والتقدير : الذى يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم
الله من فضله مبغضون من الله أو أحقاء لكل ما ينزل بهم من عذاب . وحذف
) : لتذهب نفس السامع فيه كل مذهب . ودل على هذا الخبر المحذوف قوله

وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً ) .ويجوز أن يكون منصوبا
أو مرفوعا على الذم . إلى غير ذلك مما ذكروه فى وجوه إعراب هذه الآية
، الكريمة .والمعنى : أن الله - تعالى -لا يحب هؤلاء المختالين والفخورين
ولا يحب كذلك الذين لا يكتفون بالبخل بأموالهم عن إنفاق شئ منها فى وجوه
الخير مع أن بخلهم هذا مفسدة عظيمة . بل يأمرون غيرهم بأن يكونوا بخلاء
مثلهم ، وأن يسلكوا مسلكهم الذميم .قال صاحب الكشاف : أى يبخلوا بذات أيدهم
وبما فى أيدى غيرهم . فيأمرونهم بأن يبخلوا به مقتا للسخاء ممن وجد منه
السخاء . وفى أمثال العرب أبخل من الضنين بنائل غيره . ثم قال : ولقد
رأيناه ممن بلى بداء البخل ، من إذن طرق سمعه أن أحداً جاد على أحد ، شخص
به ، أى قلق وضجر ، وحل حيوته واضطرب ودارت عيناه فى رأسه . كأنما نهب رحله
وكسرت خزائنه ضجراً من ذلك وحسرة على وجوده .وقوله : ( وَيَكْتُمُونَ مَآ ،
: آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ) بيان لرذيلة أخرى من رذائلهم الكثيرة أى
أنهم يبخلون بما فى أيديهم ويأمرون غيرهم بذلك ، ويكتمون ويخفون نعم الله
التى أعطاها لهم فلا يظهورها سواء أكانت هذه النعم نعما مالية أم علمية أم
غير ذلك من نعم الله عليهم .وقوله - تعالى - ( وَأَعْتَدْنَا
لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً ) بيان للمصير السئ الذى سيصيرون إليه
بسبب أفعالهم القبيحة .أى : وهيأنا لهؤلاء الجاحدين لنعم الله الكافرين
بوحيه عذاباً يهينهم ويذلهم وينسيهم ما كانوا فيه من فخر وخيلاء وغرور .قال
الآلوسى ما ملخصه : ووضع - سبحانه - المظهر موضع المضمر؛ للإشعار بأن من
هذا شأنه فهو كافر لنعم الله ، ومن كان كافراً لنعمه فله عذاب يهينه كما
أهان النعم بالبخل والإخفاء .وسبب نزول هذه الآية أن جماعة من اليهود
كانوا يأتون رجالاً من الأنصار فيقولون لهم : لا تنفقوا أموالكم فإنا نخشى
. عليكم الفقر فى ذهابها ، ولا تسارعوا فى النفقة فإنكم لا تدرون ما يكون
فأنزل الله قوله - تعالى - ( الذين يَبْخَلُونَ ) إلى قوله : ( وَكَانَ
الله بِهِم عَلِيماً ) .وقيل : نزلت فى الذين كتموا صفة النبى صلى الله
. عليه وسلم وبخلوا بحق الله عليهم وهم أعداء الله - تعالى - أهل الكتاب

والذين ينفقون اموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الاخر ومن
يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى ( والذين يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ
) رِئَآءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ ) معطوف على
الذين يَبْخَلُونَ ) .وإنما شاركوهم فى الذم وسوء العاقبة لأن البخل بإظهار
نعم الله فى مواضع الخير وكتمانها ، يستوى مع الإنفاق الذى لا يقصد به وجه
الله فى القبح واستجلاب العقاب ، إذ أن الذى ينفق ماله على سبيل الرياء
والسمعة لا يتوخى به مواقع الحاجة ، فقد يعطى الغنى ويمنع الفقير ، وقد
: يبذل الكثير من المال ولكن فى المفاسد والشرور والمظاهر الكاذبة .والمعنى
والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس أى قاصدين بإنفاقهم الرياء والسمعة لا
وجه الله - تعالى - ولا يؤمنون بالله الذى له الخلق والأمر ، ولا باليوم
- الآخر وما فيه من ثواب وعقاب . . . هؤلاء الذين يفعلون ذلك ببغضهم الله
: تعالى - ، ويجازيهم بما يستحقون من عذاب أليم .روى مسلم عن أبى هريرة قال
سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : قال الله - تبارك وتعالى - : أنا "
" أغنى الشركاء عن الشرك . من عمل عملا اشرك معى فيه غيرى تركته وشركه
وقوله ( وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَآءَ قِرِيناً ) جملة.
معترضة لبيان أن صحبتهم للشيطان ومطاوعتهم له هى التى دفعتهم إلى البخل
وإلى الرياء وإلى عدم الإيمان بالحق الذى آمن به العقلاء من الناس
والمراد بالشيطان هنا : كل ما يغرى الإنسان بالشر ويدفعه إليه من الانس.
أو الجن . والقرين : هو المصاحب والملازم للإنسان . فهو فعيل بمعنى مفاعل
كخليط بمعنى المخالط . وساء هنا : بمعنى بئس . وقرينا تمييز مفسر للضمير ،
المستكين فى ساء .والمخصوص بالذم محذوف وهو الشيطان الذى يدفع الإنسان إلى
الشرور الآثام .والمعنى ومن يكن الشيطان مقارنا ومصاحبا له فبئس المصاحب
وبئس المقارن الشيطان لأنه يدعوه إلى المعاصى التى تفضى به إلى النار .وفى
الآية الكريمة إشارة إلى أن قرناء السوء يفسدون الأخلاق : لأن عدوى الأخلاق
تسرى بالمجاورة ، كما تسرى عدوى الأمراض البدنية .والمقصود من الجملة
الكريمة نهى الناس عن طاعة شياطين الإنس والجن الذين يحرضون على ارتكاب
. الفواحش والقبائح ، ويزينون لأتباعهم الشرور والآثام

وماذا عليهم لو امنوا بالله واليوم الاخر وانفقوا مما رزقهم الله وكان الله
بهم عليما

كما فسرها الوسيط ثم وبخ - سبحانه - هؤلاء الذين يؤثرون رضا الناس على رضا
الله ، والذين كفروا بالحق بعد إذ جاءهم فقال - : ( وَمَاذَا عَلَيْهِمْ
( لَوْ آمَنُواْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنْفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ
والمعنى : وأى ضرر على هؤلاء الكافرين البخلاء المرائين لو أنهم آمنا.

بالله - تعالى - حق الإيمان ، وآمنوا باليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب
وأنفقوا مما رزقهم الله من فضله ابتغاء وجهه؟ .إنه لا ضرر مطلقا من ،
، إيمانهم وإنفاقهم واستجابتهم للحق ، بل إن الخير كل الخير فى اتباع ذلك
والشر كل الشر فيما هم عليه من كفر وبخل ورياء .فالجملة الكريمة توبيخ لهم
على سلوكهم الطريق المعوج وتركهم للطريق المستقيم .وإلى هذا المعنى أشار
صاحب الكشاف بقوله : قوله ( وَمَاذَا عَلَيْهِمْ ) . وأى تبعة عليهم فى
الإيمان والإنفاق فى سبيل الله . والمراد الذم والتوبيخ . وإلا فكل منفعة
ومفلحة فى ذلك : وهذا كما يقال للمنتقم : ما ضرك لو عفوت وللعاق : ما كان
يرزؤك لو كنت بارا . وقد علم أنه لا مضرة ولا مرزأة فى العفو والبر . ولكنه
ذم وتجهيل وتوبيخ بمكان المنفعة .وقوله (وَكَانَ اللَّه بِهِم عَلِيماً )
تذييل قصد به تهديهم على إيثارهم طريق الغى على طريق الرشد .أى : وكان الله
بهم عليما علما بشمل بواطنهم وظواهرهم ، وسيجازيهم على ما أسروه وما
. أعلنوه بالعقاب الذى يستحقونه

ان الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه اجرا عظيما

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أنه منزه عن الظلم بعد أن أقام الحجة
على الظالمين ، ودعاهم إلى سلوك طريق الخير ، فقال ( إِنَّ اللَّه لاَ
يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن
لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً ) .والمثقال : مفعال من الثقل . ويطلق على الشئ
القليل الذى يحتمل الوزن .والذرة : تطلق على النملة ، وعلى الغبار الذى
يتطاير من التراب عند النفخ .وهذا أحقر ما يقدر به الشئ ، فعلم انتفاء ما
هو أكثر منه بالأولى .والمراد : أن الله - تعالى -لا ينقص أحدا من ثواب
. عمله شيئا مهما ضؤل هذا الشئ وحقر ، فخرج الكلام على أصغر شئ يعرفه الناس
كما قال - تعالى - ( فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ
- وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ) وكما فى قوله - تعالى
وَنَضَعُ الموازين القسط لِيَوْمِ القيامة فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً )
وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وكفى بِنَا
) حَاسِبِينَ )ومفعول يظلم محذوف والتقدير :لا يظلم أحدا مثقال ذرة .وقوله
. مِثْقَالَ ) منصوب على أنه نعت لمصدر محذوف أى لا يظلم أحد ظلما وزن ذرة
كما تقول : لا أظلم قليلا ولا كثيرا .وقوله ( وَإِن تَكُ حَسَنَةً
- يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً ) بيان لسعة جوده
سبحانه - وعظيم رحمته وعفوه .وقد قرأ نافع وابن كثير وأبو جعفر ( حَسَنَةً
بالضم - على أن ( تَكُ ) مضارع كان التامة أى وإن توجد أو تحصل حسنة - (
يضاعفها .وقرأ الباقون ( حَسَنَةً ) - بالنصب - على أنها خبر لقوله ( تَكُ
المشتقة من كان النقاصة . وأصل ( تَكُ ) تكن فحذفت النون من آخر الفعل من (
غير قياس تشبيها لها بحروف العلة ، وتخفيفا لكثرة الاستعمال .والضمير
المستتر فى الفعل " تلك " يعود إلى المثقال . وجئ به مؤنثا مراعاة للفظ ذرة
الذى أضيف إليه لفظ مثقال؛ لأن لفظ مثقال مبهم لا يميزه إلا لفظ ذرة فكان
: كالمستغنى عنه .وقيل : إنما جئ به مؤنثا حملا على المعنى ، لأنه بمعنى
وإن تك زنة ذرة حسنة يضاعفها .وقيل : إنما جئ به كذلك لأن المضاف قد يكتسب
التأنيث من المضاف إليه إذا كان جزأه كما فى نحو قولهم : كما شرقت صدر
القناة من الدم . .والمعنى : إن الله - تعالى - بفضله وجوده لا يظلم الناس
) شيئا ، ولا ينقصهم أى نقص من ثواب أعمالهم بل يجازيهم بها ويثيبهم عليها
وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا ) أى وإن تك الفعلة الحسنة بالغة فى
- القلة مثقال ذرة يضاعف ثوابها بكرمه وجوده أضعافا كثيرة . وفوق ذلك فإنه
سبحانه - يعطى من يشاء إعطاءه عطاء عظيما من عنده ولا يعلم مقدار هذا
- العطاء إلا هو - سبحانه .وفى إضافة هذا العطاء العظيم إلى ذاته - تعالى
فى قوله ( مِن لَّدُنْهُ ) تشريف له ، وتهويل من شأنه .وسماه أجرا لكونه
جزاء على العمل الصالح الذى عمله عباده المؤمنون الصادقون . هذا ، وقد أورد
الإمام ابن كثير جملة من الأحاديث فى معنى هذه الآية ومن ذلك ما رواه
الشيخان عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث
الشفاعة الطويل وفيه : فيقول الله - تعالى - لملائكته! ارجعوا . فمن وجدتم
. فى قلبه مثقال حبة خردل من إيمان فأخرجوه من النار ، فيخرجون خلقا كثيرا
ثم يقول أبو سعيد : اقرؤا إن شئتم قوله - تعالى - ( إِنَّ اللَّه لاَ
يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ) .وروى أبو دواد الطيالسى فى مسنده عن أنس أن
. رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : " إن الله لا يظلم المؤمن حسنة
يثاب عليها الرزق فى الدنيا . ويجزى بها فى الآخرة . وأما الكافر فيطعم بها
. " فى الدنيا ، فإذا كان يوم القيامة لم يكن له حسنة

فكيف اذا جئنا من كل امة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا

كما فسرها الوسيط ثم نبه - سبحانه - هؤلاء الكافرين إلى ما سيكونون عليه من
حال سيئة يوم القيامة إذا استمروا فى كفرهم فقال : ( فَكَيْفَ إِذَا

جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ على هؤلاء شَهِيداً
يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الذين كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ الرسول لَوْ تسوى بِهِمُ
الأرض وَلاَ يَكْتُمُونَ الله حَدِيثاً ) .قال الفخر الرازى : وجه النظم هو
- أنه - تعالى - بين أن فى الآخرة لا يجرى على أحد ظلم ، وأنه - تعالى
بجازى المحسن على إحسانه ويزيده على قدر حقه . فبين فى هذه الآية - وهو
قوله - تعالى - ( فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ) أن
ذلك يجرى بشهادة الرسل الذين جعلهم الله الحجة على الخلق لتكون الحجة على
المسئ أبلغ . والتبكيت له أعظم . وحسرته أشد . ويكون سرور من قبل من الرسول
وأظهر الطاعة أعظم . ويكون هذا وعيداً للكفار الذين قال الله فيهم ( إِنَّ
) الله لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ) ووعداً للمطيعين الذين قال فيهم
وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا ) .والفاء فى قوله " فكيف " للإفصاح عن
شرط مقدر نشأ من الكلام السابق وكيف فى محل رفع خبر لمبتدأ محذوف .والتقدير
إذا أيقنت بما أخبرناك به أيها الرسول الكريم أو أيها السامع من أن الله :
لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيما فكيف
سيكون حال هؤلاء الكفرة إذا ما جئنا من كل أمة من الأمم السابقة بشهيد يشهد
عليهم بما ارتكبوه من سوء الصنيع وقبح الأعمال ، وهذا الشهيد هو نبيهم الذى
أرسله الله لهدياتهم ، وجئنا بك يا محمد شهيداً على هؤلاء الذين بعثك الله
لإخراجهم من الظلمات إلى النور فكذبوك واستحبوا العمى على الهدى لا شك أن
حالهم سيكون أسوأ حال ، ومصيرهم سيكون أقبح مصير ، بسبب كفرهم وبخلهم
- وريائهم واتباعهم للهوى والشيطان .ومن العلماء من يرى أن المراد بقوله
تعالى - ( وَجِئْنَا بِكَ على هؤلاء شَهِيداً ) أى جئنا بك يا محمد شهيداً
على هؤلاء الأنبياء بأنهم قد بلغوا رسالة الله ولم يقصروا فى نصيحة أقوامهم
والذى نراه أولى هو أن شهادة النبى صلى الله عليه وسلم تشمل كل ذلك أى.
تشمل شهادته على قومه بأنه قد بلغهم رسالة الله ، وشهادته للأنبياء
السابقين بأنهم نصحوا لأقوامهم وبلغوا رسالة ربهم ، لأن النبى صلى الله
عليه وسلم قد أعطاه الله تعالى - من المنزلة العالية ما لم يعط أحدا سواه
روى الشيخان وغيرهما " عن عبد الله بن مسعود قال : قال لى رسول الله صلى.
الله عليه وسلم : اقرأ على شيئا من القرآن . فقلت يا رسول الله أأقرأ عليك
وعليك أنزل قال : نعم . إنى أحب أن اسمعه من غيرى . فقرأت عليه سورة النساء
حتى أتيت إلى هذه الآية : ( فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ :
. " بِشَهِيدٍ ) الآية فقال : حسبك الآن فإذا عيناه تذرفان

يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الارض ولا يكتمون الله
حديثا

كما فسرها الوسيط وقوله تعالى - ( يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الذين كَفَرُواْ
وَعَصَوُاْ الرسول ) استئناف مبين لحالهم التى أشير إلى شدتها وفظاعتها
بقوله ( فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا
بِكَ على هؤلاء شَهِيداً ) .والتنوين فى قوله ( يَوْمَئِذٍ ) عوض عن
الجملتين السابقتين أى مجئ الشهيد على كل أمة ، ومجئ الرسول شهيداً على قومه
أى : يوم أن يشهد الرسل على أقوامهم بأنهم قد بلغوهم رسالة الله ، ويوم أن.
تشهد أنت يا محمد على من كذبك من قومك بأنك قد أمرتهم بعبادة الله وحده
يومئذ وهو يوم القيامة ، يتمنى ويحب الذين كفروا وعصوا الرسول الذى جاء
لهدايتهم ( لَوْ تسوى بِهِمُ الأرض ) أى يودون لو انشقت الأرض فبلعتهم لما
يرون من هول الموقف ولما سيحل بهم من الخزى والفضيحة والعذاب . أو يودون لو
يدفنون فيها فتسوى عليهم كما تسوى على الموتى ويبقون على هذه الحال فى
باطنها بدون بعث أو نشور ، حتى ما أعد لهم من عقاب بسبب سوء أعمالهم
والمقصود أنهم لشدة خوفهم وفزعهم يتمنون أن لو أفتم الأرض فى باطنها بحيث.
لا يظهر شئ منهم عليها فى أى وقت من الأوقات .وجملة ( لَوْ تسوى بِهِمُ
الأرض ) مفعول ( يَوَدُّ ) على أن لو مصدرية . أى : يودون أن يدفنوا وتسوى
الأرض متلبسة بهم حتى لكأنهم جزء منها .وقوله ( وَلاَ يَكْتُمُونَ الله
، حَدِيثاً ) معطوف على ( يَوَدُّ ) أى أنهم يومئذ يودون لوتسوى بهم الأرض
ويعترفون لله تعالى بجميع ما فعلوه ، لأنهم لو كتموا شيئا بألسنتهم لشهدت
عليهم بقية جوارحهم .ويصح أن تكون الواو فى قوله ( وَلاَ يَكْتُمُونَ )
للحال . أى : أنهم يومئذ يودون لوتسوى بهم الأرض والحال أنهم مع ذلك لا
يكتمون عن الله - تعالى - حديثا من أحوالهم فى الدنيا لأنهم لا يستطيعون
هذا الكتمان .والمقصود أنهم مع شدة هلعهم وجزعهم لن يستطيعوا أن يفلتوا من
عقاب الله ، ولن يستطيعوا أن يكتموا شيئا مما ارتكبوه من جرائم .أخرج ابن
- جرير عن الضحاك أن نافع بن الأزرق - وكان ممن يسألون عن متشابه القرآن
أتى إلى ابن عباس فقال : يا ابن عباس : قال الله - تعالى - ( وَلاَ
يَكْتُمُونَ الله حَدِيثاً ) وقوله ( والله رَبِّنَا مَا كُنَّا
مُشْرِكِينَ ) - كيف الجمع بينهما -؟ فقال له ابن عباس . إنى أحسبك قمت من
عند أصحابك فقلت : ألقى على ابن عباس متشابه القرآن . فإذا رجعت إليهم
فأخبرهم أن الله - تعالى - يجمع الناس يوم القيامة فى بقيع واحد . فيقول

المشركون : إن الله لا يقبل من أحد شيئا إلا ممن وحده . فيقولون : تعالوا نجحد فيسألهم فيقولون : والله ربنا ما كنا مشركين .قال : فيختم على أفواههم ويستنطق جوارحهم فنشهد عليهم جوارحهم أنهم كانوا مشركين . فعند ذلك تمنوا لو أن الأرض سويت بهم ولا يكتمون الله حديثا .وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد أمرت بإخلاص العبادة لله - تعالى - وحده كما أمرت بالإحسان إلى الوالدين والأقربين ، واليتامى والمساكين، وإلى الجار القريب والبعيد ، وإلى الصاحب والمسافر والمملوك ، ونهت عن البخل والرياء وجحود الحق واتباع الشيطان . وبينت أن الله - تعالى -لا يظلم أحداً مثقال ذرة وأنه - سبحانه - يضاعف ثواب الحسنات ، ويعطى المحسن من ألوان الخير مالا يعلمه إلا هو - سبحانه - ونبهت الكافرين إلى سوء مصيرهم حتى يثوبوا إلى رشدهم ويسيروا فى الطريق القويم من قبل أن يأتى يوم تنكشف فيه الحقائق وينالون فيه ما يستحقون من عقاب دون أن ينفعهم الندم أو التمنى .

يا ايها الذين امنوا لا تقربوا الصلاة وانتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنبا الا عابري سبيل حتى تغتسلوا وان كنتم مرضى او على سفر او جاء احد منكم من الغائط او لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وايديكم ان الله كان عفوا غفورا

كما فسرها الوسيط ثم وجه - سبحانه - بعد ذلك نداء إلى المؤمنين بين لهم فيه بعض الأحكام التى تتعلق بالصلاة وأرشدهم إلى ما يجب عليهم عند أدائها من : - تطهير بدنى وروحى حتى يكونوا أهلا لرضا الله وحسن قبوله ، فقال - تعالى روى المفسرون فى سبب نزول الآية الكريمة. ( يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ ) روايات منها ما رواه أبو داود والنسائى عن على بن أبى طالب أنه كان هو وعبد الرحمن بن عوف ورجل آخر ، قد شربوا الخمر . فصلى بهم عبد الرحمن فقرأ : قل يا أيها الكافرون . فخلط فيها . فنزلت : ( يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصلاة وَأَنْتُمْ سكارى ) .وروى الترمذى وابن أبى حاتم عن على بن أبى طالب قال : صنع لنا بعد الرحمن بن عوف طعاما فدعانا وسقانا من الخمر فأخذت الخمر منا . وحضرت الصلاة . فقدموا فلانا . قال : فقرأ : " قل . يأيها الكافرون . أعبد ما تعبدون . ونحن نعبد ما تعبدون " فأنزل الله الآية قال ابن كثير : وقد كان هذا النهى قبل تحريم الخمر . كما دل عليه الحديث. الذى ذكرناه فى سورة البقرة عند قوله - تعالى - ( يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخمر والميسر ) الآية فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلاهما على عمر . فقال : اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا . فلما نزلت هذه الآية تلاها عليه فقال اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا . فكانوا لا يشربون الخمر فى أوقات : الصلاة - وفى رواية لأبى داود : فكان منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم - إذا قامت الصلاة ينادى : لا يقربن الصلاة سكران - حتى نزل قوله - تعالى فى سورة المائدة : ( إِنَّمَا الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشيطان فاجتنبوه ) إلى قوله : ( فَهَلْ أَنْتُمْ مُّنتَهُونَ ) فقال عمر : انتهينا انتهينا .والمراد بالصلاة عند كثير من العلماء : الهيئة المخصوصة من قراءة وقيام ركوع وسجود .والمراد بقربها : القيام إليها والتلبس بها ، إلا أنه - سبحانه - نهى عن القرب منها مبالغة فى النهى عن غشيانها وهم بحالة تتنافى مع جلالها والخشوع فيها .وقوله ( سكارى ) جمع سكران .وأصل السكر فى اللغة السد . ومنه قولهم سكرت الطريق أى سددته . ومنه قوله - تعالى - حكاية عن الكافرين ( وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السماء فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا ) أى : انسدت فصارت لا ينفذ إليها النور ، ولا ندرك الأشياء على حقيقتها .والمراد بالسكر هنا الحالة التى تحصل لشارب الخمر والتى يفقد معها وعيه ، ويسد ما بين المرء وعقله .والجنب : من أصابته الجناية بسبب ، جماع أو احتلام أو غيرهما . وهذا اللفظ يستوى فيه - على الصحيح - الواحد والمثنى ، والجمع ، والمذكر والمؤنث لجريانه مجرى المصدر ، واشتقاقه من المجانبة بمعنى المباعدة .وعابر السبيل : مجتاز الطريق وهو المسافر . أو من يعبر الطريق من جانب إلى جانب .يقال : عبرت هذا الطريق فأنا أعبره عبرا وعبورا . ومنه قيل : عبر فلان النهر إذا قطعه وجازه .والمعنى : يأيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن تؤدوا الصلاة وأنتم فى حالة السكر .حتى تكونوا بحيث تعلمون ما تقولونه قبل أدائها ، ولا فى حال الجنابة حتى تغتسلوا؛ إلا أن تكونوا مسافرين ولم تجدوا ماء فتيمموا لكى تؤدوها .ومن العلماء من يرى أن المراد بالصلاة هنا : مواضعها وهى المساجد . فالكلام مجاز مرسل بتقدير مضاف فهو من باب ذكر الحال وإرادة المحل .والمعنى عليه :لا تقربوا مواضع الصلاة وهى المساجد وأنتم سكارى ، ولا تقربوها وأنتم جنب حتى تغتسلوا إلا أن تكونوا تريدون اجتيازها من باب إلى آخر من غير مكث فيها إنه يجوز لكم ذلك - روى ابن جرير عن الليث قال : حدثنا يزيد بن أبى حبيب عن قول الله. تعالى - : ( وَلاَ جُنُباً إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ ) أن رجالا من الأنصار كانت أبوابهم فى المسجد تصيبهم نابة ولا ماء عندهم فيريدون الماء ، ولا يجدون ممرا إلا فى المسجد . فأنزل الله - تعالى - ( وَلاَ جُنُباً إِلاَّ

عَابِرِي سَبِيلٍ ) .وقال بعض العلماء : وبالجملة فالحال الأولى أعنى قوله
تقوى بقاء الصلاة على معناها الحقيقى ، من دون تقدير ( وَأَنْتُمْ سكارى )
مضاف : وقوله : ( إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ ) يقوى تقدير المضاف . أى :لا
) : تقربوا موضع الصلاة .ويمكن أن يقال : إن بعض قيود النهى - وهو قوله
وَأَنْتُمْ سكارى ) يدل على أن المراد بالصلاة معناها الحقيقى .وبعض قيود
النهى - وهو قوله : إلا عابرى سبيل - يدل على أن المراد مواضع الصلاة .ولا
مانع من اعتبار كل واحد منهما مع قيده الدال عليه . ويكون ذلك بمنزلة نهيين
مقيد كل واحد منهما بقيد . وهما :لا تقربوا الصلاة التى هى ذات الأذكار
والأركان وأنتم سكارى . ولا تقربوا مواضع الصلاة حال كونكم جنبا إلا حال
عبوركم المسجد من جانب إلى جانب . وغاية ما يقال فى هذا إنه من باب الجمع
بين الحقيقة والمجاز .وفى ندائهم بصفة الإيمان ، تحريك لحرارة العقيدة فى
قلوبهم ، وتوجيه لنفوسهم إلى ما يستدعيه الإيمان من طاعة واستجابة لله رب
العالمين .وقوله ( وَأَنْتُمْ سكارى ) جملة حالية . أى لا تقربوها فى حال
السكر ، لأن ذلك يتنافى مع الإيمان السليم ، ومع ما تستحقه الصلاة من خشوع
واستحضار للقلب . وإنما الذى يقتضيه إيمانكم وحياؤكم من الله أن تدخلوا فى
الصلاة وأنتم بكامل وعيكم ، واستحضاركم لما يستلزمها من خشوع وأدب .ولا شك
أن هذا كان قبل أن ينزل التحريم القطاع لشرب الخمر فى جمع الأوقات كما سبق
أن أشرنا .وقوله ( حتى تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ) غاية للنهى وإيماء إلى
علته .وحتى هنا حرف جر بمعنى إلى ، والفعل بعدها منصوب بأن مضمرة . وما فى
قوله ( مَا تَقُولُونَ ) موصولة بمعنى الذى أو نكرة موصوفة والعائد محذوف
أى تقولونه .أى : حتى تعلموا ما تقولونه علما يقينيا لا غلط معه ولا تخليط
بأن تعقلوا ما اشتملت عليه الصلاة من تكبير وقراءة وتسبيح ودعاء وغير ذلك ،
مما تقتضيه الصلاة .قال الآلوسى : وقد روى أنهم كانوا بعدما أنزلت الآية لا
يشربون الخمر فى أوقات الصلاة ، فإذا صلوا العشاء شربوها فلا يصبحون إلا
وقد ذهب عنهم السكر وعلموا ما يقولون .وقوله ( وَلاَ جُنُباً ) معطوف على
قوله ( وَأَنْتُمْ سكارى ) إذ الجملة فى موضع النصب على الحال . والاستثناء
فى قوله ( إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ ) مفرغ من أعم الأحوال .وقوله ( حتى
تَغْتَسِلُواْ ) بيان لغاية المنع بالنسبة للجنب .والاغتسال : تعميم الجسد
كله بالماء . وهو بعد الجنابة طهارة حسية وتنشيط للبدن بعد أن أصابه بعض
التعب بسبب الأفعال التى أدت إلى الجنابة . وهو كذلك طهارة نفسية ، لأنه
يبعث فى الإنسان حسن الاستعداد لذكر الله ولأداء الصلاة بعد أن استحكمت
الشهوة وسيطرت على صاحبها لفترة من الوقت . فبالاغتسال بعد قضاء الشهوة
- يتجدد للبدن نشاطه ، وللروح صفاؤها وحسن استعدادها لطاعة الله .ثم شرع
) : سبحانه - فى بيان الأعذار التى تبيح التيمم عند العجز عن الماء فقال
وَإِنْ كُنْتُمْ مرضى أَوْ على سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِّن
الغَآئِط أَوْ لاَمَسْتُمُ النسآء فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ
صَعِيداً طَيِّباً فامسحوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِنَّ الله كَانَ
عَفُوّاً غَفُوراً ) والمراد بالمرض فى قوله - تعالى - : ( وَإِنْ كُنْتُمْ
مرضى ) : المرض الذى يمنع من استعمال الماء مطلقا ، كأن يكون إستعمال الماء
يزيد المرض شدة ، أو يبطئ البرء ، فإن الله - تعالى - قد أباح للمريض فى
- هذه الأحوال وأمثالها أن يتيمم بدل الوضوء أو الغسل . كما أباح له - أيضا
أن يتيمم عند فقد الماء أو ما فى حكم ذلك .وقوله : ( أَوْ على سَفَرٍ ) فى
محل نصب عطفا على خبر كان وهو قوله : ( مرضى ) .أى : وكذلك أباح الله لكم
التيمم عند السفر إذا لم تجدوا ماء ، أو كان معكم من الماء ما أنتم فى حاجة
شديدة إليه ، أو كان هناك ما يمنع من استعمال الماء .وقوله ( أَوْ جَآءَ
أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِّن الغآئط ) معطوف على قوله : ( كُنْتُمْ ) .والغائط من
الغيط . وهو المكان المنخفض من الأرض . وهو هنا كناية عن الحدث لأن العادة
جرت على أن من يريد الحدث يذهب إلى ذلك المكان المنخفض ليتوارى عن أعين
الناس .وفى إسناد المجئ إلى واحد مبهم من المخاطبين ، سمو فى الخطاب ، حيث
تحاشى - سبحانه - التصريح بنسبتهم إلى ما يستحيا من ذكره أو ما يستهجن
التصريح به .أى وكذلك أباح الله لكم التيمم إن كنتم محدثين ولم تجدوا ماء
تتطهرون به من الحدث أو تجدونه ولكن هناك ما يمنعكم من استعماله .والمراد
بالملامسة فى قوله ( أَوْ لاَمَسْتُمُ النسآء ) الجماع عند بعض الفقهاء قال
- الآلوسى ما ملخصه : قوله - تعالى - ( أَوْ لاَمَسْتُمُ النسآء ) يريد
سبحانه - : أو جامعتم النساء .إلا أنه كنى بالملامسة عن الجماع ، لأنه ما
يستهجن التصريح به أو يستحيى منه . وإليه ذهب ابن عباس والحسن وغيرهما .وعن
ابن مسعود أن المراد بالملامسة ما دون الجماع . أى ما سستم بشرتهن ببشرتكم
وبه استدل الشافعى على أن اللمس بنقض الوضوء .وقال مالك : إن كان اللمس .
بشهوة نقض وإلا فلا . . .وذهب أبو حنيفة إلا أنه لا ينتقض الوضوء بالمس ولو
بشهوة . . . والفاء فى قوله ( فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً ) عطفت ما بعدها على
) الشرط السابق وهو قوله ( وَإِنْ كُنْتُمْ مرضى ) . والضمير فى قوله
تَجِدُواْ ) يعود لكل من تقدم من مريض ومسافر ومتغوط وملامس . وفيه تغليب
للخطاب على الغيبة . وذلك أنه تقدم ضمير الغيبة فى قوله ( أَوْ جَآءَ
) أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِّن الغآئط ) بينما تقدم ضمير المخاطب فى قوله

كُنْتُمْ ) ( لاَمَسْتُمُ ) .والمراد بعدم الوجدان هنا ما هو أعم من الوجود
الحسى . أى أن قوله ( فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً ) كناية عن عدم التمكن من
) استعماله وإن وجد حسا ، إذ أن الشئ المتعذر استعماله كالمعدوم .وقوله
فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً ) جواب الشرط وهو قوله : ( وَإِنْ
كُنْتُمْ ) .والمعنى : وإن كنتم أيها المؤمنون فى حالة مرض أو على سفر أو
كنتم محدثين أو لامستم النساء فلم تجدوا فى تلك الأحوال ما تستعملونه
لطهارتكم ، أو وجدتم ماء ولكن منعكم مانع من استعماله ، فعليكم أن تتيمموا
صعيدا طيبا ، بدلا من الماء ، فان الله - تعالى - ( وَمَا جَعَلَ
) : عَلَيْكُمْ فِي الدين مِنْ حَرَجٍ ) ومنهم من يرى أن الضمير فى قوله
فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً ) يعود إلى الجمع ما عدا المرضى ، لأن المرضى يباح
لهم التيمم مع وجود الماء إذا تضرروا من استعماله .وعلى هذا الرأى يكون
المراد بعدم الوجدان . عدم الوجدان الحسى .والتيمم لغة : القصد . يقال
تيممت الشئ أى قصدته .ويطلق فى الشرع على القصد إلى التراب لمسح الوجه
واليدين به .وأما الصعيد - بوزن فعيل - فيطلق على وجه الأرض البارز ، ترابا
كان أو غيره . وقيل طلق على التراب خاصة .والطيب : الطاهر الذى لم تلوثه
نجاسة ولا قذر .أى : إذا لم تجدوا ماء للتطهر به أو وجدتموه ولكنكم عجزتم
عن استعماله فاقصدوا ترابا طاهراً بارزاً على وجه الأرض لكى تستعملوه فى
طهارتكم عوضا عن الماء .وقوله ( فامسحوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ )
بيان لكيفية التيمم .أى : اقصدوا ترابا على ظاهر الأرض طاهراً فسحوا منه
بوجوهكم وأيديكم .وقوله ( إِنَّ الله كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً ) تذييل قصد
به بيان أنه - سبحانه - متصف بالعفو فلا يختار لعباده إلا السهل اليسير
الذى يسهل عليهم اداؤه من غير مشقة مرهقة ، وأنه هو الغفار الذى يغفر
للمقصرين والمخطئين ذنوبهم متى تابوا إليه واستغفروه مما صدر عنهم من ذنوب
هذا ومن الأحكام والآداب التى أخذها العلماء من هذه الآية ما يأتى :1- أن.
من الواجب على المسلم عندما يتهيأ للصلاة أن يتجنب كل ما يتعارض مع الخشوع
فيها ، لأن الصلاة مناجاة ووقوف بين يدي الله - تعالى ، ومن شأن المناجى
لله - تعالى - أن يتفرغ لذلك ، وأن يكون على درجة من العلم والفهم تمكنه من
الوقوف الخاشع بين يدى الله رب العالمين .2- أن الصلاة محرمة على السكران
حال سكره حتى يصحوا . فإذا أداها حال سكره تكون باطلة ، وكذلك الحكم
بالنسبة للمحدث أو الجنب حتى يتطهر .3- استدل بهذه الآية - من قال بأن
المراد بالصلاة مواضعها - على أنه يحرم على السكران دخول المسجد ، لما
يتوقع منه من التلويث وفحش القول ، ويقاس عليه كل ذى نجاسة يخشى معها
التلويث والسياب ونحوه .4- استدلوا بقوله - تعالى - : ( حتى تَعْلَمُواْ
، مَا تَقُولُونَ ) على أن المسلم منهى عن الصلاة حال النعاس أو ما يشبهه
لأنه فى هذه الحالة لا يعلم ما يقول ويؤيد ذلك ما رواه البخارى عن عائشة أن
رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا نعس أحدكم وهو يصلى فليرقد حتى
يذهب عنه النوم . فان أحدكم إذا صلى وهو ناعس لا يدرى لعله يستغفر فيسب
نفسه " .وروى البخارى عن أنس عن النبى صلى الله علي وسلم قال : " إذا نعس
: أحدكم فى الصلاة فلينم حتى يعلم ما يقرأ " .قال الفخر الرازى ما ملخصه
ويرى الضحاك أنه ليس المراد من لفظ ( سكارى ) السكر من الخمر ، وإنما
المراد منه سكر النوم . لأن لفظ السكر يستعمل فى النوم فكان هذا اللفظ
محتملا له . . .ثم قال الرازى : واعلم أن القول الصحيح هو قول الجمهور هو
من الصحابة والتابعين وهو أن المراد من لفظ ( سكارى ) السكر من الخمر ، لأن
، . . . لفظ السكر حقيقة فى السكر من شرب الخمر ، والأصل فى الكلام الحقيقة
. . ولأن جميع المفسرين قد اتفقوا على أن هذه الآية إنما نزلت فى شرب الخمر
استدلوا بقوله - تعالى (وَلاَ جُنُباً إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حتى -5.
تَغْتَسِلُواْ ) على أنه يحرم على الجنب المكث فى المسجد ، إلا أنه يجوز له
المرور فيه .قال ابن كثير ما ملخصه : قال ابن عباس فى قوله ( وَلاَ جُنُباً
إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ ) لا تدخلوا المسجد وأنتم جنب إلا عابرى سبيل . أى
- تمر به مراً ولا تجلس .وروى ابن جرير عن يزيد بن أبى حبيب فى قوله :
تعالى - ( وَلاَ جُنُباً إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ ) أن رجلا من الأنصار
كانت أبوابهم فى المسجد فكانت تصيبهم الجنابة ولا ماء عندهم فيردون الماء
ولا يجدون مروراً إلى فى المسجد . فأنزل الله - تعالى - ( وَلاَ جُنُباً
إِلاّ عَابِرِي سَبِيلٍ ) ويشهد لصحة ذلك ما ثبت فى صحيح البخارى أن رسول
. الله صلى الله عليه وسلم قال :" سدوا كل خوخة فى المسجد إلا خوخة أبى بكر
وبهذه الآية احتج كثير من الأئمة على أنه يحرم على الجنب المكث فى" .
المسجد ، ويجوز له المرور ، وكذا الحائض والنفساء أيضا متى أمنت كل واحدة
منهما التلويث فى حال المرور . . .ثم قال ابن كثير : وقوله ( حتى
تَغْتَسِلُواْ ) دليل لما ذهب إليه الأئمة الثلاثة : أبو حنيفة ومالك
والشافعى من أنه يحرم على الجنب المكث فى المسجد حتى يغتسل أو يتيمم إن عدم
الماء أو لم يقدر على استعماله . وذهب الإمام أحمد إلى أنه متى توضأ الجنب
جاز له المكث فى المسجد ، لما روي من أن صحابه كانوا يفعلون ذلك . وعن عطاء
بن يسار قال : رأيت رجالا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلسون فى
المسجد وهم مجنبون إذا توضأوا وضوء الصلاة . وهذا إسناد صحيح على شرط مسلم

ظاهر قوله - تعالى - ( فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ ) يفيد -6.
أن التيمم لا يصح مع وجود الماء ، لأن الآية الكريمة قد رتبت الأمر بالتيمم
على نفى وجود الماء .ولكن هذا الظاهر غير مراد ، لأنه يقتضى أنه حتى لو
وجدنا ماء ، وكنا فى حاجة شديدة إليه ، أو لا نقدر على استعماله فإنه لا
، يجوز لنا أن نتيمم ، وهذا يتعارض مع سماحه الشريعة الإسلامية ويسرها
قال - تعالى : ( يُرِيدُ الله بِكُمُ اليسر وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ العسر )
وقال - تعالى - : ( وَمَاَ جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدين مِنْ حَرَجٍ )
ويتعارض كذلك مع ما شرع من أجله التيمم وهو التيسير على الناس ، والتيسير
على الناس لا يتأتى بإلزامهم أن يفقدوا ما معهم من الماء فى الطهارة ليقعوا
فى العنت بسبب العطش أو الجوع . أو بإلزامهم استعمال الماء فى طهارتهم مع
أن فى استعماله مضرة بهم .لهذا قال العلماء : إن التيمم مشروع للمسلم عند
فقده للماء ، أو عند وجود الماء ولكن هناك عارض يمنعه من استعماله كمرض أو
نحوه .ولقد ورد فى السنة الشريفة ما يشهد بأنه يجوز للمسلم أن يتيمم مع
وجود الماء متى كان هناك ما يمنع من استعماله .ومن ذلك ما أخرجه أبو داود
والدارقطنى عن جابر قال :" خرجنا فى سفر . فأصاب رجلا منا حجر فشجه فى رأسه
ثم احتلم فسأل أصحابه فقال هل تجدون لى رخصة فى التيمم؟ فقالوا : ما نجد .
لك رخصة وأنت تقدر على الماء . فاغتسل فمات . فلما قدمنا على النبى صلى
الله عليه وسلم أخبر بدلك فقال : قتلوه ، قتلهم الله ، هلا سألوا إذا لم
يعلموا؟ فإنما شفاء العى السؤال . إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصب على جرحه
ثم يمسح عليه ويغسل سائر جسده " .وروى أبو داود والدارقطنى عن عمرو بن
العاص قال :" احتلمت فى ليلة باردة فى غزوة ذات السلاسل فأشفقت إن اغتسلت
أن أهلك . فتيممت . ثم صليت بأصحابى الصبح . فذركوا ذلك للنبى صلى الله
عليه وسلم فقال : " يا عمرو صليت باصحابى وأنت جنب "؟ فأخبرته بالذى منعنى
من الاغتسال وقلت : إنى سمعت الله يقول : ( وَلاَ تقتلوا أَنْفُسَكُمْ
إِنّ الله كَانَ بِكُمْ رَحِيماً ) فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم
يقل شيئًا" .قال القرطبى - بعد أن ساق هذا الحديث والذى قبله - فدل هذا
الحديث على إباحة التيمم مع الخوف من المرض - عند استعمال الماء - : وفيه
إطلاق اسم الجنب على المتيمم ، وجواز صلاة المتيمم بالمتوضئين . وهذا أحد
القولين عندنا . وهو الصحيح الذى أقره مالك مالك فى موطئه وقرئ عليه إلى أن
مات .وقال ابن كثير : وقد استنبط كثير من الفقهاء من الآية أنه لا يجوز
التيمم لعدم الماء إلا بعد طلب الماء . فمتى طلبه فلم يجده جاز له حينئذ
التيمم . وقد ذكروا كيفية الطلب فى كتب الفروع . .7- أخذ الشافعية
والحنابلة من قوله - تعالى - ( فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً ) : أن
التيمم لا يجوز إلا بالتراب الطاهر لأنه هو المقصود بالصعيد الطيب ولأنه
ثبت فى صحيح مسلم عن حذيفة بن اليمان قال : " قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم فضلنا على الناس بثلاث : جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة . وجعلت لنا
: الأرض كلها مسجدا . وجعلت تربتها لنا طهورا إذا لم نجد الماء " قالوا
فخصص الطهور بالتراب فى مقام الامتنان . فلو كان غيره يقوم مقامه لذكره معه
ويرى الإمام أبو حنيفة التيمم يجوز بالتراب وبالحجر وبما ماثله من كل ما.
كان من جنس الأرض متى كان طاهرا . قالوا : لأن الظاهر من لفظ الصعيد وجه
الأرض وهذه الصفة لا تختص بالتراب .وتوسع الإمام مالك فذهب إلى أن التيمم
يجوز بكل ما سبق وبغيره كالشجرة والحجر والنبات لأن الصعيد عنده كل ما صعد
على وجه الأرض .قال القرطبى عند حديثه عن اختلاف الفقهاء فى ذلك : وإذا
تقرر هذا فاعلم أن مكان الإجماع فيما ذكرناه أن يتيمم الرجل على تراب منبت
طاهر غير منقول ولا منصوب . ومكان الإجماع فى المنع أن يتيمم الرجل على
الذهب الصرف والفضة والياقوت والأطعمة كالخبز واللحم وغيرهما . أو على
النجاسات . واختلف فى غير هذا كالمعادن ، فأجيز وهو مذهب مالك وغيره . ومنع
وهو مذهب الشافعى وغيره . . .8- أفاد قوله - تعالى - ( فامسحوا
بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ ) أن الواجب فى التيمم هو مسح الوجه واليدين
فقط سواء أكان التيمم بدلا عن الوضوء أو عن الغسل .قال القرطبى : وروى
التيمم إلى المرفقين عن النبى صلى الله عليه وسلم جابر عن عبد الله ، وابن
: عمر وبه كان يقول : قال الدارقطنى : سئل قتادة عن التيمم فى السفر فقال
كان ابن عمر يقول : إلى المرفقين .وكان الحسن وإبراهيم النخعى يقولان : إلى
المرفقين .ثم قال : وقالت طائفة يبلغ به إلى الكوعين وهما الرسغان . روى
ذلك عن على بن أبى طالب والأوزاعى وعطاء والشعبى فى رواية . وبه قال أحمد
ابن حنبل ، والطبرى .وقال مكحول : اجتمعت أنا والزهرى فتذاكرنا التيمم فقال
الزهرى : المسح إلى الآباط .وقال ابن أبى الجهم : التيمم بضربة واحدة ، وبه
قال أحمد بن حنبل وإسحاق وداود والطبرى .9- ذكر المفسرون فى سبب مشروعية
: التيمم روايات منها ما أخرجه البخارى عن عائشة - رضى الله عنها - قالت
خرجنا ما رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض أسفاره : حتى إذا كنا
بالبيداء أو بذات الجيش انقطع عقدلى . فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم
على التماسه وأقام الناس معه . وليسوا على ماء . وليس معهم ماء . فأتى
الناس إلى أبى بكر الصديق فقالوا : ألا ترى ما صنعت عائشة؟ أقمت برسول الله
صلى الله عليه وسلم وبالناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء . فجاء أبو بكر

رسول الله صلى الله عليه وسلم واضع رأسه على فخذى قد نام . فقال : حبست
رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء . قالت
عائشة : فعاتبنى أبو بكر وقال ما شاء الله أن يقول . فجعل يطعننى بيده فى
خاصرتى فلا يمنعنى من التحرك إلا مكان رسول الله صلى الله عليه وسلم على
فخذى . فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أصبح على غير ماء . فأنزل
الله آية التيمم . فتيمموا . فقال أسيد بن الحضير : ما هى بأول بركتكم يا
آل أبى بكر .قالت : فبعثنا البعير الذى كنت عليه فوجدنا العقد تحته .قال
الحافظ ابن كثير عند ذكره هنا لسبب مشروعيته التيمم ، وإنما ذكرنا ذلك ههنا
لأن هذه الآية التى فى النساء متقدمة فى النزول على آية سورة المائدة ،
، وبيانه : أن هذه نزلت قبل تحريم الخمر . والخمر إنما حرم بعد أحد بيسير
فى محاصرة النبى صلى الله عليه وسلم لبنى النضير . وأما المائدة فإنها من
آخر ما نزل ولا سيما صدرها . فناسب أن يذكر السبب هنا .10- تكلم بعض
العلماء عن حكمة مشروعية التيمم عروضا عن الطهارة بالماء فقال : والتيمم من
" : خصائص شريعة الإسلام كما فى حديث جابر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال
" أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى - فذكر منها - وعلت لى الأرض مسجدا وطهورا
والتيمم بدل جعله الشرع عن الطهارة . ولم أر لأحد من العلماء بيانا فى.
حكمة جعل التيمم عوضا عن الطهارة بالماء ، وكان ذلك من همى زمنا طويلا وقت
الطلب .ثم انفتح لى حكمة ذلك .وأحسب أن حكمة تشريعه تقرير لزوم الطهارة فى
نفوس المؤمنين . وتقرير حرمة الصلاة وترفيع شأنها فى نفوسهم . فلم تترك لهم
- حالة يعدون فيها أنفسهم مصلين بدون طهارة تعظيما لمناجاة الله - تعالى
، فلذلك شرع لهم عملا يشبه الإيمان إلى الطهارة ليستشعروا أنفسهم متطهرين
وجعل ذلك بمباشرة اليدين صعيد الأرض التى هى منبع الماء . ولأن التراب
مستعمل فى تطهير الآنية ونحوها ، ينطقون به ما علق لهم من الأقذار فى
ثيابهم وأبدانهم وما عونهم . وما الاستجمار إلا من ضرب ذلك ، مع ما فى ذلك
من تجديد طلب الماء لفاقده وتذكيره بأنه مطالب به عند زوال مانعه . وإذ قد
كان التيمم طهارة رمزية اكتفت الشريعة فيه بالوجه والكفين فى الطهارتين
الصغرى والكبرى كما دل عليه حديث عمار بن ياسر فقد ثبت فى الصحيح " عن عمار
. بن ياسر قال : كنت فى سفر فأجنبت فتمعكت فى التراب " أى تمرغت " وصليت
فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فقال : " يكفيك الوجه والكفان
ويؤيد هذا المقصد أن المسلمين لما عدموا الماء فى غزوة المريسيع صلوا "
بدون وضوء فنزلت آية التيمم .هذا منتهى ما عرض لى من حكمة مشروعية التيمم
بعد طول البحث والتأمل فى حكمة مقنعة فى النظر .وبعد ، فهذه بعض الأحكام
والآداب التى اشتملت عليها تلك الآية ، ومنها نرى كيف وجهت المؤمنين إلى ما
يقوى إيمانهم ، ويصفى نفوسهم ، ويبعدهم عن الأسباب التى تحول بينهم وبين
إخلاص المناجاة لله رب العالمين ، وإلى ما يجعلهم يتحرزون عن كل ما يدنسهم
أو يلهيهم عن طاعة الله .كما ترى كيف استعملت فى خطابها للمؤمنين ألطف
الكنايات؛ وأسمى التعبيرات ، وأبلغ الإشارات ، وفى ذلك ما فيه من تربية
سليمة للمؤمنين تجعلهم يسعدون فى نياهم وآخرتهم .هذا ، وأنت إذا تدبرت
السورة الكريمة من مطلعها إلى هنا ، تراها قد نظمت العلاقات بين أفراد
المجتمع الإسلامى تنظيما حكيما ، وساقت لهم من التوجيات السامية ، والآداب
العالية ، والتشريعات الجليلة . . . ما يجعلهم يعيشون فى أمان واطمئنان .ثم
أخذت السورة بعد ذلك تسوق لنا فى أكثر من عشر آيات ، ألوانا من رذائل أهل
الكتاب ، ومن مسالكهم الخبيثة لكيد الدعوة الإسلامية ، ومن حسدهم للنبى
صلى الله عليه وسلم على ما آتاه الله من فضله ، وتوعدتهم بسوء المصير على
ما اقترفوه من منكرات وآثام . . .وكأن السورة الكريمة بعد أن نظمت المجتمع
الإسلامي هذا التنظيم الداخلى السليم ، أخذت فى تحذير المؤمنين من عدوهم
الخارجى ، وأطلعتهم على ما يضمره لهم أهل الكتاب من كراهية وبغضاء ، استمع
. . . . إلى السورة الكريمة وهى تحكى كى ذلك فتقول : ( أَلَمْ تَرَ
بِجَهَنَّمَ سَعِيراً ) .

الم تر الى الذين اوتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون ان تضلوا
السبيل

كما فسرها الوسيط قال الآلوسى : قوله - تعالى - ( أَلَمْ تَرَ ) هذه الكلمة
قد تذكر لمن تقدم علمه فتكون للتعجب والتقدير والتذكير لمن علم بما يأتى
كالأحبار وأهل التواريخ ، وقد تذكر لمن لا يكون كذلك فتكون لتعريفه وتعجيبه
وقد اشتهرت فى ذلك حتى أجريت مجرى المثل فى هذا الباب . بأن شبه حال من .
لم ير الشئ بحال من رآه فى أنه لا ينبغى أن يخفى عليه وأنه ينبغى أن يتعجب
منه ثم أجرى الكلام معه كما يجرى مع من رأى قصدا إلى المبالغة فى شهرته
، وعراقته فى التعجب - والرؤية إما بمعنى الإبصار - أى ألم تنظر إليهم
وإما بمعنى الإدراك القلبى متضمنا معنى الوصول والانتهاء - أى ألم ينته
علمك إليهم .والمراد ب ( الذين ) أحبار اليهود . والمراد بالذى أوتوه ما
بين لهم فى الكتاب من العلوم والأحكام التى من جملتها ما علموه من نعوت
النبى صلى الله عليه وسلم ومن حقية دين الإسلام بالاتباع .والمرد بالكتاب

التوراة التى أنزلها الله - تعالى - على موسى عليه السلام - ليكون هداية : لبنى إسرائيل ، فحرفوها تركوا العمل بها .والمراد بالسبيل : الطريق المستقيم وهو طريق الإسلام فأل فيه للعهد .والمعنى : ألم ينته علمك إلى حال هؤلاء الأحبار من اليهود الذين أعطوا حظا ومقدارا من علم التوراة؟ إن كنت لم تعلم أحوالهم أو لم تنظر إليهم فهاك خبرهم وتلك هى حقيقتهم ، إنهم يشترون الضلالة وهو البقاء على اليهودية بعد وضوح الآيات لهم الدالة على صحة دين الإسلام ، وهم لا يكتفون بتلبسهم بالضلال الذى أشربته نفوسهم ، بل ، يرديون لكم يا معشر المسلمين أن تتكروا دين الإسلام الذى هو السبيل الحق وأن تتبعوه فى ضلالهم وكفرهم .فالمقصود من الآية الكريمة تعجيب المؤمنين من سوء أحوال أولئك الأحبار ، وتحذير لهم من موالاتهم أو من الاستماع إلى أكاذيبهم وشبهاتهم .والخطاب لكل من يصلح له من المؤمنين . وتوجيهه إلى ) النبى - صلى الله عليه وسلم - هنا مع توجيهه بعد ذلك إلى الكل - فى قوله أن تَضِلُّواْ ) - للإيذان بكما لشهرة شناعة حال أولئك اليهود ، وأنها - بلغت من الظهور إلى حيث يتعجب منها كل من يراها أو يعلمها .وقد وصفهم سبحانه - بأنهم أوتوا نصيباً من الكتاب ، ولم يؤتوا الكتاب كله ، لأنهم ، نسوا حظا كبيراً مما ذكروا به ، ولم يبق عندهم من علم الكتاب إلا القليل وهذا القليل لم يعملوا به بل حرفوه وبدلوه وأخضعوا تفسيره لأهوائهم وشهواتهم .وقوله ( يَشْتَرُونَ الضلالة وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ السبيل هو موطن التعجب من شأنهم لأنهم لا يطلبون الضلالة بفتور أو تريث وإنما ( يطلبونها بشراهة ونهم ويدفعون فيها أغلى الأثمان وهو الهدى ، ولا يكتفون بذلك بل يبتغون من المؤمنين أن يكونوا مثلهم فى الضلال .وقريب من معنى هذه الآية قوله تعالى - ( وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ) وذكر سبحانه - الشئ الذى اشتروه وهو الضلالة ، وطوى ذكر المتروك وهو الهدى ، للايذان بغاية ظهوره . وللاشعار بأنهم قوم يطلبون الضلالة فى ذاتها . وأن البعد عن الحق والهدى مطلب من مطالبهم يدفعون فيه الثمن عن رغبة ، وذلك لأنهم قوم مردوا على الضلالة فغدوا لا يستمرئون سواها ، ولا يركنون إلا إليها . وإن قوما هذا شأنهم لجديرون بالابتعاد عنهم ، والتحقير من أمرهم . لأنك - كما يقول الفخر الرازى -لا ترى حالة أسوأ ولا أقبح ممن جمع بين هذهين الأمرين : أعنى الضلال والإضلال .قال الآلوسى : وقوله : ( يَشْتَرُونَ الضلالة ) . . الخ استئناف مبين لمناط التشنيع ومدار التعجب المفهومين من صدر الكلام ، مبنى على سؤال نشأ منه كأنه قيل : ماذا يصنعون حتى ينظر إليهم؟ فقيل يختارون الضلالة على الهدى أو يستبدلوها بعد تمكنهم منه . . . . وذهب أبو البقاء إلى أن جملة ( يَشْتَرُونَ ) حالة مقدرة من ضمير ( أُوتُواْ ) أو حال من ( الذين ) .

والله اعلم باعدائكم وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا

كما فسرها الوسيط وقوله ( والله أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ ) جملة معترضة للتأكيد والتحذير .أى : والله - تعالى - أعلم أعدائكم منكم - أيها المؤمنون - وقد أخبركم بأحوالهم وبما يبيتون لكم من شرور فاحذروهم ولا تلتفتوا إلى أقوالهم وأعدوا العدة لتأديبهم دفاعا عن دينكم وعقيدتكم .وقوله ( وكفى بالله وَلِيّاً وكفى بالله نَصِيراً ) تذييل قصد به غرس الطمأنينة فى نفوس المؤمنين بأن العاقبة لهم .أى : ( وكفى بالله وَلِيّاً ) يتولى أموركم ، ويصلح بالكم ، ( وكفى بالله نَصِيراً ) يدفع عنكم مكرهم وشرورهم وما دام الأمر كذلك فاكتفوا بولايته ونصرته . واعتصموا بحبله ، وأطيعوا أمره ، ولا تكونوا فى ضيق من مكر أعدائكم فإن الله ناصركم عليهم بفضله وإحسانه .وقوله ( وكفى ) فعل ماض . ولفظ الجلالة فاعل والباء مزيدة فيه لتأكيد الكافية . ووليا ونصيرا منصوبان على التمييز . وقيل على الحال وكرر - سبحانه - الفعل كفى لإلقاء الطمأنينة فى قلوب المؤمنين ، لأن. التكرار فى مثل هذا المقام يكون أكثر تأثيرا فى القلب ، وأشد مبالغة فيما سيق الكلام من أجله .فكأنه - سبحانه - يقول لهم : اكتفوا بولاية الله ونصرته ، وكفاكم الله الولاية والنصرة والمعونة . ومن كان الله كافيه نصره على عدوه فاطمئنوا ولا تخافوا .

من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليا بالسنتهم وطعنا في الدين ولو انهم قالوا سمعنا واطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرا لهم واقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلا

كما فسرها الوسيط ثم ذكر - سبحانه - ألوانا من الأقوال والأعمال القبيحة التى كان اليهود يقولونها ويفعلونها للإساءة إلى النبى صلى الله عليه وسلم وإلى المسلمين فقال : ( مِّنَ الذين هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الكلم عَن مَّوَاضِعِهِ ) . وتحريف الشئ إمالته وتغييره . ومنه قولهم : طاعون يحرف القلوب ، أى يميلها ويجعلها على حرف ، أى جانب وطرف . وأصله من الحرف يقال

- حرف الشئ عن وجهه ، صرفه عنه .والجملة الكريمة بيان للوصول وهو قوله :
) تعالى - ( الذين أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الكتاب ) .ويجوز أن يكون قوله
مِّنَ الذين هَادُواْ ) خبر لمبتدأ محذوف . وقوله ( يُحَرِّفُونَ الكلم عَن
مّوَاضِعِهِ ) صفة له .أى من الذين هادوا قوم أو فريق من صفاتهم أنهم
، يحرفون الكلم من مواضعه أى يميلونه عن مواضعه ، ويجعلون مكانه غيره
ويفسرونه تفسيرا سقيما بعيدا عن الحق والصواب .قال الفخر الرازى : فى كيفية
التحريف وجوه :أحدها : أهم كانوا يبدلون اللفظ بلفظ آخر . مثل تحريفهم اسم
ربعة " عن موضعه فى التوراة بوضعهم " آدم طويل " ، وكتحريفهم الرجم "
، بوضعهم الجلد بدله .الثانى : أن المراد بالتحريف إلقاء الشبه الباطلة
والتأويلات الفاسدة ، وصرف اللفظ من معناه الحق إلى معنى باطل بوجوه من
الحيل اللفظية ، كما يفعله أهل البدعة فى زماننا هذا بالآيات المخالفة
لمذاهبهم . وهذا هو الأصح .الثالث : أنهم كانوا يدخلون على النبى صلى الله
عليه وسلم ويسألونه عن أمر فيخبرهم ليأخذوا به فإذا خرجوا من عنده حرفوا
كلامه .والذى نراه أولى أن تحريف هؤلاء اليهود لكلم عن مواضعه يتناول كل
ذلك ، لأنهم لم يترككوا وسيلة من وسائل التحريف الباطل إلا فعلوها ، أملا
منهم فى صرف الناس عن الدعوة الإسلامية ، ولكن الله - تعالى - خيب آمالهم
قال الزمخشرى : فإن قلت : كيف قيل ههنا ( عَن مّوَاضِعِهِ ) وفى المائدة.
قلت : " أما عن مواضعه " فعلى ما فسرنا من ( مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ )
إزالته عن مواضعه التى أوجبت حكمة الله وضعه فيها ، بما اقتضت شهواتهم من
إبدال غيره مكانه .وأما ( مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ) فالمعنى أنه كان له
مواضع فمن بأن يكون فيها . فحين حرفوه تركوه كالغريب الذى لا موضع له بعد
مواضعه ومقاره . والمعنيان متقاربان .ثم حكى - سبحانه - لونا ثانياً من
ضلالتهم فقال : ( وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ) أى . ويقولون للنبى
صلى الله عليه وسلم إذا ما أمرهم بشئ : سمعنا قولك وعصينا أمرك فنحن مع
فهمنا لما تقول لا نطيعك لأننا متمسكون باليهودية .ثم حكى - سبحانه - لونا
ثالثا من مكرهم فقال : ( واسمع غَيْرَ مُسْمَعٍ ) وهذه الجملة معطوفة على
ما قبلها وداخلة تحت القول السابق .أى : ويقولون ذلك فى أثناء مخاطبتهم
للنبى صلى الله عليه وسلم وهو كلام ذو وجهين وجه محتمل للشر . بأن يحمل على
معنى " اسمع " حال كونك غير مسمع كلاما ترضاه . ووجه محتمل للخير . بأن
- يحمل على معنى اسمع منا غير مسمع كلاما تكرهه .فأنت تراهم - لعنهم الله
أنهم كانوا يخاطبون النبى صلى الله عليه وسلم بهذا الكلام المحتمل للشر
، والخير موهمين غيرهم أنهم يريدون الخير ، مع أنهم لا يريدون إلى الشر
بسبب ما طفحت به نفوسهم من حسد للنبى صلى الله عليه وسلم وللمسلمين .ثم
حكى - سبحانه - لونا رابعا من خبثهم فقال : ( وَرَاعِنَا لَيّاً
بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدين ) وهو كلام معطوف على ما قبله وداخل
تحت القول السابق .وكلمة ( وَرَاعِنَا ) كلمة ذات وجهين - أيضاً - فهى
للخير بحملها على معنى ارقبنا وأمهلنا أو انتظرنا نكلمك . ومحتملة للشر
بحملها على شبه كلمة عبرانية كانوا يتسابون بها . أو على السب بالرعونة أى
الحمق .قال الراغب : قوله : - تعالى - ( وَرَاعِنَا لَيّاً
بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدين ) كان ذلك قولا يقولونه للنبى صلى
الله عليه وسلم على سبيل التهكم يقصدون به رميه بالرعونة ، ويوهمون أنهم
يقولون : راعنا أى : أحفظنا . من قولهم : رعن الرجل يرعن رعنا فهو رعن . أى
أحمق .وأصل كلمة ( لَيّاً ) لوياً لأنه من لويت ، فأدغمت الواو فى الياء
لسبقها بالسكون . واللى : الانحراف والالتفات والانعطاف .والمراد أنهم
كانوا يلوون ألسنتهم بالكلمة أو بالكلام ليكون اللفظ فى السمع مشبها لفظا
آخر هم يردونه لأنه يدل على معنى ذميم .أى أنهم كانوا يقولون للنبى صلى
الله عليه وسلم على سبيل التهكم والاستهزاء ( وَرَاعِنَا ) ويقصدون بهذا
القول الإساءة إليه صلى الله عليه وسلم وينطقون بهذه الكلمة وما يشابهها
نطقاً ملتوياً منحرفا ليصرفوها عن جانب احتمالها للخير إلى جانب للشر . ولذا
فقد نهى الله - تعالى - المؤمنين عن مخاطبة الرسول صلى الله عليه وسلم بمثل
هذه الألفاظ .قال ابن كثير : عند تفسيره لقوله - تعالى - ( يَا أَيُّهَا
الذين آمَنُواْ لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا وَقُولُواْ انظرنا ) نهى الله
عباده المؤمنين عن أن يتشبهوا بالكافرين فى مقالهم وفعالهم . وذلك أن
- اليهود كانوا يعلنون من الكلام ما فيه تورية لما يقصدونه من التنفيص
، عليهم لعائن الله - : فإذا أرادوا أن يقولوا اسمع لنا : يقولون راعنا
ويورون بالرعونة : وكذلك جاءت الأحاديث بالإخبار عنهم بأنهم كانوا إذا
سلموا إنما يقولون . السام عليكم . والسام هو الموت . ولهذا أمرنا أن نرد
عليهم بوعليكم . وإنما يستجاب لنا فيهم ولا يستجاب لهم فينا . والغرض أن
) الله - تعالى - نهى المؤمنين عن مشابهة الكافرين قولا وفعلا .وقوله
وَطَعْناً فِي الدين ) أى يقولون ذلك من أجل القدح فى الدين؛ والاستهزاء
بتعاليمه ، وبنبيه صلى الله عليه وسلم . ثم بين - سبحانه - ما كان يجب
عليهم أن يقولوه لو كانوا يعقلون فقال : تعالى - ( وَلَوْ أَنَّهُمْ
قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا واسمع وانظرنا لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ
وَأَقْوَمَ ) .أى : ولو أنهم قالوا عند سماعهم لما يدعوهم إليه الرسول صلى

، الله عليه وسلم من حق وخير ، ( سَمِعْنَا ) قولك سماع قبول وإستجابة
وأطعنا أمرك بدل قولهم سمعنا وعصينا .ولو أنهم قالوا عند مخاطبتهم له صلى
الله عليه وسلم ( واسمع ) إجابتنا لدعوه الحق ( وانظرنا ) حتى نفهم عنك ما
تريده منا بدل قولهم ( وَعَصَيْنَا واسمع غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا
لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ ) لو أنهم فعلوا ذلك لكان قولهم هذا خيراً لهم
وأعدل من اقوالهم السابقة الباطلة التى حكاها القرآن عنهم .ولكنهم لسوء
طباعهم لم يفعلوا ذلك فحقت عليهم اللعنة فى الدنيا والآخرة وقد صرح القرآن
بذلك فقال : ( وَلَكِن لَّعَنَهُمُ الله بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ
إِلاّ قَلِيلاً ) . أى : ولكنهم لم يقولوا ما هو خير لهم وأقوم بل قالوا
ما هو شر وباطل ، فاستحقوا اللعنة من الله بسبب كفرهم وسوء أفعالهم :ولفظ
( قَلِيلاً ) فى قوله ( فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ) منصوب على
الاستثناء من قوله ( لَّعَنَهُمُ ) أى : ولكن لعنهم الله إلا فريقا منهم
آمنوا فلم يعلنوا : أو منصوب على الوصفية لمصدر محذوف أى : ولكن لعنهم الله
بكفرهم فلا يؤمنون إلا إيمانا قليلا أى ضعيفا ركيكا لا يعبأ به ، ولا يغنى
عنهم من عذاب الله شيئا؛ لأنه إيمان غير صحيح بسبب تفريقهم بين رسل الله فى
التصديق والطاعة .قال - تعالى - ( إِنَّ الذين يَكْفُرُونَ بالله
وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ الله وَرُسُلِهِ
وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن
يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذلك سَبِيلاً أولئك هُمُ الكافرون حَقّاً
وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً ) )

يا ايها الذين اوتوا الكتاب امنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل ان نطمس
وجوها فنردها على ادبارها او نلعنهم كما لعنا اصحاب السبت وكان امر الله
مفعولا

كما فسرها الوسيط ثم وجه - سبحانه - نداء إلى اليهود أمرهم فيه باتباع طريق
الحق ، وأنذرهم بسوء المصير إذا لم يستمعوا إلى هذا النداء فقال - تعالى -
: ( يَا أَيُّهَآ الذين أُوتُواْ الكتاب آمِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا
مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهاً
فَنَرُدَّهَا على أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَابَ
السبت وَكَانَ أَمْرُ الله مَفْعُولاً ) .أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال
: كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤساء من أحبار يهود : اتقوا الله "
وأسلموا . فوالله إنكم لتعلمون أن الذى جئتكم به الحق . فقالوا : ما نعرف
ذلك يا محمد ، وجحدوا ما عرفوا وأصروا على الكفر . فأنزل الله فيهم : ( يَا
أَيُّهَآ الذين أُوتُواْ الكتاب آمِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً
لِّمَا مَعَكُمْ ) " الآية .وفى ندائهم بقولهم ( يَا أَيُّهَآ الذين
أُوتُواْ الكتاب آمِنُواْ ) تحريض لهم على الإيمان ، لأن اعطاءهم علم
الكتاب من شأنه أن يحملهم على المسارعة إلى تلبية دعوة النبى صلى الله عليه
وسلم وألا تأخذهم العصبية الدينية كما أخذت أهل مكة العصبية الجاهلية
، ولأن هذا الإيمان الذى يدعون إليه هو التصديق بما أنزله الله على نبيه صلى
الله عليه وسلم من قرآن ، إذ هو يطابق - فى جوهره - ما أنزله سبحانه - على
الأنبياء السابقين الذين يزعم أهل الكتاب أنهم يؤمنون بهم . إذاً فوحدة
المنزل توجب عليهم أن يؤمنوا بجميع ما أنزله الله .ووصفهم هنا بأنهم أوتوا
الكتاب ، مع أنه وصفهم قبل ذلك بأنهم أوتوا نصيبا من الكتاب ، لأن وصفهم
هنا بذلك المقصود منه حضهم على الإيمان وترغيبهم فيه؛ واثارة هممهم
للانقياد لتعاليم كتابهم الذى بشرهم بمبعث النبى صلى الله عليه وسلم وأمرهم
بالإيمان به .أما وصفهم فيما سبق بأنهم أوتوا نصيبا من الكتاب فالمقصود
منه التعجيب من أحوالهم ، والتهوين من شأنهم .والمعنى : يا معشر اليهود
الذين آتاهم الله التوراة لتكون هداية لهم ، آمنوا ايمانا حقا ( بِمَا
نَزَّلْنَا ) من قرآن على محمد صلى الله عليه وسلم فإن هذا القرآن قد نزل
( مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ ) وموافقا للتوراة التى بين أيديكم فى الدعوة
إلى وحداتيه الله - تعالى - وإلى مكارم الأخلاق ، وفى النهى عن الفواحش
والمعاصى ، ومؤيدا لها فيما ذكرته من صفات تتعلق بمحمد صلى الله عليه وسلم
ومن آيات تدعو إلى تصديقه والإيمان به .وعبر عن القرآن بقوله : ( بِمَا
نَزَّلْنَا ) ؛ لأن فى هذا التعبير تذكير بعظم شأن القرآن وأنه منزل بأمر
الله وحفظه .وعبر عن التوراة بقوله ( لِّمَا مَعَكُمْ ) لأن فى هذا التعبير
تسجيلا عليهم بأن التوراة كتاب مستصحب عندهم وقريب من أيديهم ، وشهادته
بصدق النبى صلى الله عليه وسلم ظاهرة جلية ، فإذا ما تركوا شهادته مع
وضوحها ومع استصحابهم له كان مثلهم ( كَمَثَلِ الحمار يَحْمِلُ أَسْفَاراً
ثم أنذرهم - سبحانه - بعد ذلك بسوء العاقبة إذا ما أعرضوا عن الإيمان (
بدعوة الإسلام فقال - تعالى - : ( مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهاً
فَنَرُدَّهَا على أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَابَ
السبت وَكَانَ أَمْرُ الله مَفْعُولاً ) .والطمس إزالة الأثر بالمحو . قال
: الله - تعالى - ( فَإِذَا النجوم طُمِسَتْ ) أى : زالت ومحيت . ويقال

طمست الريح الأثر إذا محته وأزلته . وللمفسرين فى المراد من معنى الطمس هنا اتجاهان :أما الاتجاه الأول فيرى أصحابه حمل اللفظ على حقيقته بمعنى إزالة ما فى الوجه من أعضاء ومحو أثرها .فيكون المعنى : ( يَا أَيُّهَآ الذين أُوتُواْ الكتاب آمِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهاً ) أى نمحو تخطيط صورها من عين وأنف وفم وحاجب ( فَنَرُدَّهَا على أَدْبَارِهَآ ) أى فنجعلها على هيئة أدبارها وهى الأقفاء بحيث تكون الوجوه مطموسة مثل الأقفاء . وإلى هذا المعنى ذهب ابن عباس وقتادة وغيرهما .قال الإمام الرازى : وهذا المعنى إنما جعله الله عقوبة لما فيه من التشويه فى الخلقة والمثلة والفضيحة؛ لأن عند ذلك يعظ الغم والحسرة . .ومن المفسرين الذين رجحوا حمل اللفظ على حقيقته الإمام ابن جرير لقد قال : " وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب " قول من قال : معنى قوله ( مِّن قَبْلِ أن نَّطْمِسَ وُجُوهاً ) من قبل أن نطمس أبصارها ، ونمحو آثارها ، فنسويها كالأقفاء . فنردها على أدبارها ، فنجعل أبصارها فى أدبارها ، يعنى بذلك : فنجعل الوجوه فى أدبار الوجوه . فيكون معناه : فنحول الوجوه أقفاء ، والأقفاء ، وجوها ، فيمشوا القهقرى ، كما قال ابن عباس ومن قال بذلك .وأصحاب هذا الاتجاه منهم من يرى أن هذه العقوبة تكون فى آخر الزمان ومنهم من يرى هذه العقوبة تكون فى الآخرة .ومنهم من قال بأن هذه العقوبة مقيدة بعدم إيمان أحد منهم ، وقد آمن بعضهم كعبد الله بن سلام وغيره .وأما الاتجاه الثانى فيرى أصحابه حمل اللفظ على مجازه ، بمعنى أن المراد بالطمس الطمس المعنوى .فيكون المعنى : آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن تقسوا قلوبكم ، ونطبع عليها بسبب تمسكها بالضلال ، وتماديها فى العناد .قال ابن كثير مؤيدا هذا الاتجاه : هذا مثل ضربه الله لهم فى صرفهم عن الحق وردهم ، إلى الباطل ، ورجوعهم عن المحجة البيضاء إلى سبيل الضلال يهرعون ويمشون القهقرى على أدبارهم . وهذا كما قال بعضهم فى قوله - تعالى - ( وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً ) أى هذا مثل سوء ضربه الله لهم فى ضلالهم ومنعهم عن الهدى .قال مجاهد : من قبل أن نطمس وجوها أى عن صراط الحق : فنردها على أدبارها أى فى الضلال . وقال السدى : فنعميها عن الحق ونرجعها كفارا . . . .وقال الفخرى الرازى - بعد أن بين معنى الآية على القول الأول - : أما القول الثانى : فهو أن المراد من طمس الوجوه مجازه ثم ذكروا فيه وجوها .الأول : قال الحسن : نطمسها عن الهدى فنردها على أدبارها أى على ضلالتها والمقصود بيان إلقائها فى أنواع الخذلان وظلمات الضلالات .الثاني : يحتمل أن يكون المراد بالطمس القلب والتغيير . وبالوجوه : رؤساؤهم ووجهاؤهم .والمعنى : من قبل أن نغير أحوال وجهائهم : فنسلب منهم الإقبال والوجاهة ونكسوهم الصغار والإدبار والمذلة .الثالث قال عبد الرحمن بن زيد : هذا الوعيد قد لحق اليهود ومضى . وتأول ذلك فى إجلاء قريظة والنضير إلى الشام ، فرد الله وجوههم على أدبارهم حين عادوا إلى أذرعات وأريحاء من أرض الشام . فيكون المراد بطمس الوجوه على هذا الرأى إزالة آثارهم عن بلاد العرب ومحو أحوالهم عنها .وقد مال الفخرى الرازى : إلى القول الثانى ووصفه بأنه لا إشكال معه البتة . .وقال بعض العلماء : إن الذى يبدو لنا من ظاهر النص وهو قوله - تعالى - ( مِّن قَبْلِ أن نَّطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا على أَدْبَارِهَآ ) : أنه يراد به سحقهم فى القتال ، وحملهم على أن يولوا الأدبار ، فتكون وجوههم غير بادية بصورها ، بعد أن كانوا مقبلين بها ، فأزالها السيف والخوف ، وجعل صورتها مختفية ، وأقفيتهم هى البادية الواضحة ، فكأن صورة الوجوه قد زالت وحلت محلها صورة الأدبار .وعلى ذلك يكون المعنى : إنكم استرسلتم فى غيكم وضلالكم . ومع ذلك نطالبكم بالهداية والإيمان قبل أن ينزل بكم غضب الله - تعالى - فى الدنيا وذلك بتسليط المؤمنين بالحق عليكم ، فيذيقون بأس القتال فتفرون ، وتختفى وجوهكم . . .هذه بعض الوجوه التى قالها من يرى أن المراد بالطمس الطمس المعنوى وأن اللفظ محمول على المجاز ، ولعل هذا الاتجاه أقرب إلى الصواب لسلامته من الاعتراضات والإشكالات التى أوردها بعض المفسرين - كالرازى والآلوسى - عند تفسيرهما للآية الكريمة .وقوله ( أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَابَ السبت ) بيان لعقوبة أخرى سوى العقوبة السابقة . واللعن هو الطرد من رحمة الله - تعالى - .فالآية دعوة لليهود إلى الإيمان بما : جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - من قبل أن يطبع الله - تعالى - على قلوبهم ويذهب بنورها فلا تتجه إلى الحق ولا تميل إليه . أو من قبل أن يلعنهم ويطردهم من رحمته ويجعلهم عبرة للمعتبرين .وأصحاب السبت هم قوم من اليهود حرم الله عليهم الصيد فى يوم السبت ، فتحايلوا على استحلال ما حرمه الله بحيل قبيحة ، فأنزل الله عليهم عذابه ، ومسخهم قردة . .وقد ذكر الله قصتهم بشئ من التفصيل فى سورة الأعراف .وكلمة " أو " فى الآية الكريمة لمنع الخلو . فجوز أن يعاقب الله طائفة منهم بعقوبة من هاتين العقوبتين ، ويعاقب طائفة أخرى منهم بالعقوبة الثانية إن هم استمروا فى ضلالهم وطغيانهم والضمير المنصوب فى قوله " نلعنهم " يعود لأصحاب الوجوه , أو للذين أوتوا الكتاب على طريقة الالتفات .وقوله (وَكَانَ أَمْرُ الله مَفْعُولاً ) أى - كان وما زال جميع ما أمر الله به وقضاه ونافذا لا محالة؛ لأنه - سبحانه

لا يعجزه شئ فى الأرض ولا فى السماء :والجملة الكريمة تذييل قصد به تهديد هؤلاء الضالين المعاندين حتى يثوبوا إلى رشدهم ، ويدخلوا فى صفوف المؤمنين .

ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى اثما عظيما

كما فسرها الوسيط وقوله ( إِنَّ الله لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَآءُ ) . استئناف مسوق لتقرير ما قبله من الوعيد ، ولتأكيد وجوب امتثال الأمر بالإيمان ، لأنه لا مغفرة إذا انتفى الإيمان .والمراد بالشرك هنا : مطلق الكفر؛ فيدخل فيه كفر اليهود دخولا أوليا .والمعنى : إن الله لا يغفر لكم مات على كفره ، ويغفر ما دون الكفر من الذنوب والمعاصى لمن يشاء أن يغفر له إذا ما من غير توبة . فمن ، مات من المسلمين بدون توبة من الذنوب التى اقترفها فأمره مفوض إلى الله إن شاء عفا عنه وأدخله الجنة ، وإن شاء عذبه ثم أدخله الجنة .وقوله ( وَمَن يُشْرِكْ بالله فَقَدِ افترى إِثْماً عَظِيماً ) استئناف مشعر بتعليل عدم غفران الشرك ، وزيادة فى تشنيع حال المشرك .أى . ومن يشرك بالله فى عبادته غيره من خلقه ، فقد ارتكب من الآثام ما لا يتعلق به المغفرة ، لأنه بهذا الإشراك قد افترى الكذب العظيم على الله ، واقترف الإفك المبين ، فعل أعظم ذنب فى الوجود : قال القرطبى : قوله - تعالى - : ( إِنَّ الله لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ) روى " أن النبى صلى الله عليه وسلم تلا ) قُلْ ياعبادي الذين أَسْرَفُواْ على أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُواْ مِن رّحْمَةِ الله إِنَّ الله يَغْفِرُ الذنوب جَمِيعاً ) فقال له رجل : يا رسول الله والشرك!! فنزل : ( إِنَّ الله لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ) الآية . وهذا من المحكم المتفق عليه الذى لا اختلاف فيه بين الأمة .وقوله" من المتشابه الذى قد تكلم ( وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَآءُ ) العلماء فيه .فقال ابن جرير الطبرى : قد أبانت هذه الآية أن كل صاحب كبيرة فهو فى مشيئة الله إن شاء عفا عنه ذنبه ، وإن شاء عاقبه عليه ما لم تكن كبيرته شركا بالله - تعالى - .وقد أورد ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية الكريمة ثلاثة عشر حديثا تتعلق بها .ومن هذه الأحاديث ما رواه الحافظ أبو يعلى فى مسنده عن جابر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :"لا تزال المغفرة على العبد ما لم يقع فى الحجاب قيل يا نبى الله وما الحجاب؟ قال : الإشراك بالله . ثم قرأ : ( إِنَّ الله لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ) " الآية وروى ابن أبى حاتم وابن جرير عن ابن عمر قال : كنا معشر أصحاب النبى صلى. ، الله عليه وسلم لا نشك فى قاتل النفس ، وآكل مال اليتيم ، وشاهد الزور وقاطع الرحم ، حتى نزلت هذه الآية : ( إِنَّ الله لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَآءُ ) وفى رواية لابن - أبى حاتم : فلما سمعناها كففنا عن الشهادة وأرجينا الأمور إلى الله تعالى - .وقال الآلوسى : ثم إن هذه الآية كما يرد بها على المعتزلة - الذين - يسوون بين الإشراك بالله وبين ارتكاب الكبيرة بدون توبة - يرد بها أيضا على الخوارج الذين زعموا أن كل ذنب شرك وأن صاحبه مخلد فى النار . وذكر الجلال أن فيها ردا أيضا على المرجئة القائلين : إن أصحاب الكبائر من : المسلمين لا يعذبون .وأخرج ابن الضريس وابن عدى بسند صحيح عن ابن عمر قال كنا نمسك عن الاستغفار لأهل الكبائر حتى سمعنا من نبينا صلى الله عليه " : وسلم قوله - تعالى - ( إِنَّ الله لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ) وقال إنى ادخرت دعوتى وشفاعتى أهل الكبائر من أمتى فأمسكنا عن كثير مما كان فى " أنفسنا ثم نطقنا ورجونا " وقد استبشر الصحابة بهذه الآية حتى قال على بن أبى طالب : أحب آية إلى فى القرآن ( إِنَّ الله لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَآءُ ) .

الم تر الى الذين يزكون انفسهم بل الله يزكي من يشاء ولا يظلمون فتيلا

) : كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - لونا آخر من قبائح اليهود فقال أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ الله يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً انظُرْ كَيفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الكَذِبَ وكفى بِهِ إِثْماً مّبِيناً ) .روى المفسرون فى سبب نزول هاتين الآيتين " أن رجالاً من اليهود أتوا النبى صلى الله عليه وسلم بأطفالهم فقالوا : يا محمد هل على هؤلاء ذنب؟ فقال :لا . فقالوا : والله ما نحن إلا كهيئتهم . ما علمناه بالنهار كفر عنا بالليل ، وما عملنا بالليل كفر عنا بالنهار " .ولقد حكى القرآن عن اليهود أنهم قالوا ( لَن تَمَسّنَا النار إِلاّ أَيّاماً مّعْدُودَةً ) وحكى عنهم أنهم كانوا ( يَأْخُذُونَ عَرَضَ هذا الأدنى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ) وحكى عنهم وعن النصارى أنهم قالوا : ( نَحْنُ أَبْنَاءُ الله وَأَحِبَّاؤُهُ ) والاستفهام فى قوله - تعالى - ( أَلَمْ تَرَ ) للتعجب من أحوالهم ، والتهوين من شأنهم حيث

بالغوا فى مدح أنفسهم مع أنهم كاذبون فى ذلك .وقوله ( يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ ) من التزكية بمعنى التطهير والتنزيه عن القبيح . والمراد بهذا التعبير هنا : أنهم يصفون أنفسهم بالأفعال الحسنة ، ويمدحونها مدحا كثيرا ، مع أنهم لا يستحقون إلا الذم بسبب سوء أقوالهم وأفعالهم .والمعنى : ألم ينته علمك يا محمد إلى حال هؤلاء اليهود الذين يمدحون أنفسهم ويثنون عليها مختالين متفاخرين مع ما هم عليه من الكفر وسوء الأخلاق؟ إن كنت لم تعلم أحوالهم أو لم تنظر إليهم فها نحن نكشف لك عن خباياهم لتتعجب من سوء أعمالهم وليتعجب منهم كل عاقل .وقوله ( بَلِ الله يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ) إبطال لمعتقدهم بإثبات ضده ، وهو أن التزكية شهادة من الله ولا ينفع أحدا أن يزكى نفسه ، وإعلام منه - سبحانه - بأن تزكيته هى التى يعتد بها لا تزكية غيره ، فإنه هو العالم بما ينطوى عليه الإنسان من حسن وقبح ، وخير وشر .وقوله ( وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً ) بيان لكمال عدله - سبحانه - وأنه لا يظلم أحدا من خلقه لا قليلا ولا كثيرا .والفتيل : هو الخيط الذى يكون فى شق النواة . وكثيرا ما يضرب به المثل فى القلة والحقارة . أى أن هؤلاء الذين يزكون أنفسهم بغير حق يعاقبون على هذا الكذب بما يستحقون من عقاب عادل لا ظلم معه؛ لأنه - سبحانه -لا يظلم أحدا من عباده شيئا بل يجازى كل إنسان بما هو أهل له من خير أو شر .

انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به اثما مبينا

كما فسرها الوسيط ثم أكد - سبحانه - التعجب من أحوالهم فقال : ( انظُرْ كَيفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الكَذِبَ ) .أى : انظر أيها العاقل كيف يفترى هؤلاء اليهود على الله الكذب فى تزكيتهم لأنفسهم مع كفرهم وعنادهم وارتكابهم الأفعال القبيحة التى تجعلهم أهلا لكل مذمة وسوء عاقبة .وقد جعل - سبحانه - افتراءهم الكذب لشدة تحقق وقوعه ، كأنه أمر مرئى يراه الناس بأعينهم ، ويشاهدونه بأبصارهم .وقوله ( وكفى بِهِ إِثْماً مُّبِيناً ) أى : وكفى بافترائهم الكذب على الله إثما ظاهرا بينا يستحقون بسببه أشد العقوبات وأغلظ الإهانات .قال القرطبى ما ملخصه : قوله - تعالى - ( أَلَمْ تَرَ ، إِلَى الذين يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ ) يقتضى الغض من المزكى لنفسه بلسانه ، - والإعلان بأن الزاكى المزكى من حسنت أفعاله ، وزكاه الله - تعالى ، فلا عبرة بتزكية الإنسان نفسه ، وإنما العبرة بتزكية الله له .وأما تزكية الغير ومدحه له ففى البخارى من حديث أبى بكرة أن رجلا ذكر عند النبى صلى الله عليه وسلم فأثنى عليه رجل خيرا فقال النبى صلى الله عليه وسلم : " ويحك قطعت عنق صاحبك - يقوله مرارا - إن كان أحدكم مادحا لا محالة فليقل " أحسب كذا وكذا إن كان يرى أنه كذلك ، وحسبه الله ولا يزكى على الله أحداً فنهى صلى الله عليه وسلم أن يفطر فى مدح الرجل بما ليس فيه . . فيحمله ذلك على تضييع العمل وترك الازدياد من الفضل؛ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : " ويحك قطعت عنق صاحبك " .ومدح الرجل بما فيه من الفعل الحسن والأمر المحمود ليكون منه ترغيبا له فى أمثاله ، وتحريضا للناس على الاقتداء به فى أشباهه ليس مدحا مذموماً .وقد مدح النبى صلى الله عليه وسلم فى الشعر والخطب والمخاطبة . ومدح صلى الله عليه وسلم أصحابه فقال : " إنكم لتقلون عند الطمع وتكثرون عند الفزع " .

الم تر الى الذين اوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء اهدى من الذين امنوا سبيلا

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك لونا آخر من رذائلهم وقبائحهم التى تدعو إلى مزيد من التعجب من أحوالهم . والتحقير فى شأنهم فقال - تعالى - : ( أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الكتاب يُؤْمِنُونَ بالجبت والطاغوت وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاءِ أهدى مِنَ الذين آمَنُواْ سَبِيلاً ) .روى المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها : ما جاء عن ابن عباس أن حيى بن أخطب وكعب بن الأشرف خرجا إلى مكة فى جمع من اليهود ليحالفوا قريشا على حرب النبى صلى الله عليه وسلم . فنزل كعب على أبى سفيان فأحسن مثواه . ونزلت اليهود فى دور قريش . فقال أهل مكة لليهود : إنكم أهل كتاب ومحمد صلى الله عليه وسلم صاحب كتاب فلا نأمن أن يكون هذا مكرا منكم . فإن أردتم أن نخرج معكم فاسجدوا لهذين الصنمين وآمنوا بهما ففعلوا . ثم قال كعب : يا أهل مكة ليجئ منا ثلاثون ومنكم ثلاثون فنلزق أكبادنا بالكعبة فنعاهد رب البيت على قتال محمد صلى الله عليه وسلم ففعلوا ذلك . فلما فرغوا قال أبو سفيان لكعب : إنك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم ، ونحن أميون لا نعلم فأينا أهدى طريقا وأقرب إلى الحق نحن أم محمد؟ ، قال كعب : اعرضوا على دينكم .فقال أبو سفيان : نحن ننحر للحجيج الكرماء ونسقيهم اللبن ، ونقرى الضيف ، ونفك العانى ، ونصل الرحم ، ونعمر بيت ربنا ونطوف به ، ونحن أهل الحرم ، ومحمد صلى الله عليه وسلم فارق دين أبائه وقطع الرحم وفارق الحرم ، وديننا القديم ودين محمد الحديث .فقال كعب : أنتم

والله أهدى سبيلا مما عليه محمد صلى الله عليه وسلم فأنزل الله الآية
- والجنب فى الأصل : اسم صنم ثم استعمل فى كل معبود سوى الله - تعالى.
والطاغوت : يطلق على كل باطل وعلى كل ما عبد من دون الله ، أو كل من دعا.
- إلى ضلالة . أى : يصدقون بأنهما آلهة ويشركونهما فى العبادة مع الله
تعالى - . أو يطيعونهما فى الباطل .قال ابن جرير : والصواب من القول فى
تأويل ( يُؤْمِنُونَ بالجبت والطاغوت ) أن يقال : يصدقون بمعبودين من دون
الله ، ويتخذونها إلهين ، وذلك أن الجبت والطاغوت اسمان لكل معظم بعبادة من
دون الله أو طاعة أو خضوع له ، كائنا ما كان ذلك المعظم من حجر أو إنسان أو
شيطان .وقوله ( وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ) بيان لما نقطوا به من
زور وبهتان . أى : ويقولون ارضاء للذين كفروا وهم مشركو مكة . هؤلاء فى
شركهم وعبادتهم للجبت والطاغوت ، ( أهدى مِنَ الذين آمَنُواْ سَبِيلاً ) أى
أقوم طريقا ، وأحسن دينا من أتباع محمد صلى الله عليه وسلم .واللام فى قوله
. لام العلة . أى : يقولون لأجل الذين كفروا ( لِلَّذِينَ كَفَرُواْ )
والإشارة بقوله ( هَؤُلاءِ أهدى ) إلى الذين كفروا .وإيراد النبى صلى.
الله عليه وسلم وأصحابه بعنوان الإيمان ، ليس من قبل القائلين ، بل من جهة
الله تعالى ، تعريفا لهم بالوصف الجميل ، وتحقيرا لمن رجح عليهم المتصفين
. بأقبح الصفات

اولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - مصيرهم السئ بسبب انحرافهم عن الحق
فقال - تعالى - ( أولئك الذين لَعَنَهُمُ الله ) .أى : أولئك الذين استحوذ
عليهم الشيطان ، فأيدوا المشركين بالقول والعمل وسجدوا لأصنامهم ، وزكوا
أفعالهم . . . أولئك الذين هذه صفاتهم ( لَعَنَهُمُ الله ) أى : أبعدهم عن
رحمته وطردهم وأخزاهم بسبب كذبهم فى حقدهم وإيثارهم عبادة الشيطان على طاعة
الرحمن .( وَمَن يَلْعَنِ الله فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً ) أى ومن يلعنه
الله ويبعده عن رحمته فلن تجد له ناصرا ينصره ، أو شفيعا يشفع له .واسم
الإشارة ( أولئك ) مبتدأ . والموصول وصلته خبر . والجملة مستأنفة لبيان
، حالهم . وإظهار سوء مآلهم .والإتيان باسم الإشارة هنا فى نهاية البلاغة
لأن من بلغ وصف حاله هذا المبلغ صار جديرا بأن يشار إليه بكل ازدراء
واحتقار .وفى قوله ( وَمَن يَلْعَنِ الله فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً )
بيان لحرمانهم ثمرة استنصارهم بمشركى قريش ، وإيماء إلى وعد المؤمنين بأنهم
المنصورون ، لأنهم هم المقربون عند الله ، ومن يقربه الله فلن تجد له خاذلا
- هذا ، وتحالف أولئك اليهود مع المشركين ، وتفضيلهم إياهم على المؤمنين.
كما حكته الآية الكريمة - قد شهد بقبحه واحد من اليهود هو الدكتور إسرائيل
ولفنسون . فقد قال فى كتابه " تاريخ اليهود فى جزيرة العرب " معلقا على هذه
القصة :وكان من واجب هؤلاء اليهود ألا يتورطوا فى هذا الخطأ الفاحش ، وألا
يصرحوا أمام زعماء قريش بأن عبادة الأصنام أفضل من التوحيد الإسلامى ولو
أدى بهم الأمر إلى عدم إجابة مطلبهم ، لأن بنى إسرائيل الذين كانوا لمدة
قرون حاملى راية التوحيد فى العالم بين الأمم الوثنية باسم الآباء الأقدمين
والذين نكبوا بنكبات لا تحصى من تقتيل واضطهاد بسبب إيمانهم بإله واحد فى ،
عصور شتى من الأدوار التاريخية .. كان من واجبهم أن يضحوا بحياتهم وكل عزيز
عليهم فى سبيل أن يخذلوا المشركين ، هذا فضلا عن أنهم بالتجائهم إلى عبدة
الأوثان ، إنما كانوا يحاربون أنفسهم ، ويناقضون تعاليم التوراة التى
. توصيهم بالنفور من عبدة الأصنام ، والوقوف منهم موقف الخصومة

ام لهم نصيب من الملك فاذا لا يؤتون الناس نقيرا

كما فسرها الوسيط ثم انتقل - سبحانه - من توبيخهم على تزكيتهم لأنفسهم
بالباطل وعلى تفضيلهم عبادة الأوثان على عبادة الرحمن . إلى توبيخهم على
البخل والأثرة فقال - تعالى - : ( أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الملك فَإِذاً
لاَّ يُؤْتُونَ الناس نَقِيراً ) .و ( أَمْ ) هنا منقطعة بمعنى بل فهى
للاضراب والانتقال ، والهمزة للاستفهام الإنكارى أى : لإنكار أن يكون لهم
. نصيب من الملك ، وإبطال زعمهم من أن الملك يعود إليهم فى آخر الزمان
والفاء فى قوله ( فَإِذاً ) للسببية الجزائية لشرط محذوف .والنقير : النكتة
التى تكون فى ظهر النواة ويضرب به المثل فى القلة والحقارة .والمعنى : إن
هؤلاء اليهود ليس لهم نصيب من الملك ألبتة . لأنهم لا يستحقونه ، ولأنهم لو
أتوا نصيبا منه على سبيل الفرض فإنهم لشدة حرصهم وبخلهم وأثرتهم لا يعطون
أحدا غيرهم منه أقل القليل . وقد كنى عن أقل القليل هذا بالنقير .فأنت ترى
أن الآية الكريمة ترد على ما يزعمه اليهود من أن الملك لهم ، وأنهم لا يليق
بهم أن يتبعوا غيرهم ، وتصفهم بأنهم أبخل الناس وأبعدهم عن العدل والقسط
. ومن كان هذه صفاته ، فقد اقتضت حكمة الله أن يحرمه نعمة الملك والسلطان

ام يحسدون الناس على ما اتاهم الله من فضله فقد اتينا ال ابراهيم الكتاب

والحكمة واتيناهم ملكا عظيما

كما فسرها الوسيط ثم انتقل - سبحانه - من تبكيتهم على البخل وغيره مما سبق إلى تقريعهم على رذيلة الحسد التى استولت عليهم فأضلتهم وجعلتهم يتألمون لما يصيب الناس من خير ويتمنون زواله فقال - تعالى : ( أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ على مَآ آتَاهُمُ الله مِن فَضْلِهِ ) .و ( أَمْ ) هنا منقطعة أيضا كسابقتها ، والاستفهام المقدر بعدها لإنكار الواقع وهو حسدهم لغيرهم والمراد من الناس : النبى صلى الله عليه وسلم أو هو والمؤمنون معه . وقيل. المقصود من الناس : العرب عامة .قال الفخر الرازى : والمراد من الناس - عند الأكثرين - أنه محمد صلى الله عليه وسلم . وإنما جاز أن يقع عليه لفظ الجمع وهو واحد؛ لأنه اجتمع عنده من خصال الخير ما لا يحصل إلا متفرقا فى الجمع العظيم أو المراد بهم : الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين؛ لأن لفظ الناس جمع فحمله على الجمع أولى من حمله على المفرد . وحسن لفظ إطلاق الناس عليهم لأنهم القائمون بالعبودية الحق لله - تعالى - فكأنهم كل الناس .. .والمراد بالفضل فى قوله ( على مَآ آتَاهُمُ الله مِن فَضْلِهِ ) النبوة والهدى والإيمان .والمعنى : إن هؤلاء اليهود ليسوا بخلاء فقط بل إن فيهم من الصفات ما هم أقبح من البخل وهو الحسد فقد حسدوا النبى صلى الله عليه وسلم لأن الله منحه النبوة وهو رجل عرب ليس منهم ، وحدسوا أتباعه لأنهم آمنوا به وصدقوه والتفوا من حوله يؤازرونه ويفتدونه بأرواحهم وأموالهم .وقوله ( فَقَدْ آتَيْنَآ آلَ إِبْرَاهِيمَ الكتاب والحكمة وَآتَيْنَاهُمْ مُّلْكاً عَظِيماً ) توبيخ لهم على حسدهم ، وإلزام لهم بما هو مسلم عندهم .والمعنى : إنكم بحسدكم للنبى صلى الله عليه وسلم على ما آتاه الله من فضله ، تكونون قد ظللتم وسرتم فى طريق الشيطان ، لأنكم لو كنتم عقلاء لما فعلتم لك ، إذ أنتم تعلمون علم اليقين أن الله - تعالى - قد أعطى ( آلَ إِبْرَاهِيمَ ) أى : قرابته القريبة من ذريته كإسماعيل - وهو جد العرب - وإسحاق ويعقوب وغيرهم . . أعطاهم ( الكتاب ) أى : جنس الكتب السماوية فيشمل ذلك التوارة والإنجيل والزبور وغيرها . وأعطاهم ( والحكمة أى العلم النافع مع العمل به . وأعطاهم ( مُّلْكاً عَظِيماً ) أى سلطانا ( واسعا وبسطه فى الأرض .ومع ذلك فأنتم لم تحسدوا هؤلاء على ما أعطاهم الله من كتاب وحكمة وملك عظيم ، فلماذا تحسدون محمدا صلى الله عليه وسلم على ما أتاه الله من فضله مع أنه من نسل إبراهيم - عليه السلام -؟ .فالجملة الكريمة توبيخ لهم على أنانيتهم وحسدهم ، وإلزام لهم بما يعرفونه من واقع كتبهم ، وكشف للناس عن أن أحقادهم مرجعها إلى انطماس بصيرتهم ، وخبث نفوسهم .

فمنهم من امن به ومنهم من صد عنه وكفى بجهنم سعيرا

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - عاقبة كل من المحسن والمسئ فقال فَمِنْهُمْ مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّن صَدَّ عَنْهُ وكفى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً ) .أى : فمن جنس هؤلاء الحاسدين وآبائهم من آمن وصدق بما أعطاه الله لآل إبراهيم من كتاب وحكمه ، ومنهم من كفر به وأعرض عنه وسعى فى صد الناس عنه . فالضمير فى ( بِهِ ) و ( عَنْهُ ) يعود إلى ما أوتى آل إبراهيم .ويرى بعضهم أن الضمير يعود إلى إبراهيم - عليه السلام . فيكون المعنى :فمن آل إبراهيم من آمن بإبراهيم ومن أعرض عنه ولم يتبع تعاليمه وفى هذه الآية الكريمة تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم عما لقيه من اليهود. من أذى .فكأنه - سبحانه - يقول له : إن هؤلاء الحاسدين لك قد اختلفوا على من هم منهم ، وأنت يا محمد لست منهم ، فكيف تنتظر منهم أن يسالموك أو - يتبعوك؟وقوله ( وكفى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً ) بيان لما أعده - سبحانه للكافرين من عذاب .أى : وكفى بجهنم نارا مسعرة أى : موقدة إيقادا شديداً - يعذبون بها على كفرهم وعنادهم وصدودهم عن الحق . يقال : سعر النار - كمنع وسعرها وأسعرها أى : أوقدها .وكفى فعل ماض .وقوله ( بِجَهَنَّمَ ) فاعله على زيادة الباء فيه . وقوله ( سَعِيراً ) تمييز أو حال .وبهذا نرى أن هذه الآيات الكريمة من قوله - تعالى - ( أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الكتاب ) إلى قوله : ( وكفى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً ) قد وبخت اليهود على بيعهم دينهم بدنياهم ، وتحريفهم الكلم عن مواضعه واستهزائهم ، بدعوة الحق ، وتزكيتهم لأنفسهم بالباطل ، وافترائهم على الله الكذب وتفضيلهم عبادة الأوثان على عبادة الله ، وعلى بخلهم وحسدهم للنبى صلى الله ، عليه وسلم على ما آتاه الله من فضله .وقد توعدتهم على هذه الصفات الذميمة والمسالك الخبيثة بأشد أنواع العذاب ، وحذرت المؤمنين من شرورهم ومفاسدهم .

ان الذين كفروا باياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب ان الله كان عزيزا حكيما

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك سوء عاقبة كل كافر ، وحسن

عاقبة كل مؤمن ، فقال : ( إِنَّ الذين . . . . ظَلِيلاً ) .والمراد بالذين
) : كفروا هنا : كل كافر سواء أكان من بنى إسرائيل أم من غيرهم .وقوله
نُصْلِيهِمْ ) من الإصلاء وهو إيقاد النار . والمراد هنا إدخالهم فيها
وقوله : ( نَضِجَتْ ) من النضج وهو بلوغ نهاية الشئ . يقال : نضج الثمر
واللحم ينضج نضجاً إذا أدرك وبلغ نهايته . والمراد هنا : احتراق الجلود
احتراقا تاما .والمعنى : ( إِنَّ الذين كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا ) الدالة على
أن الله وحده هو المستحق للعبادة والخضوع ( سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً ) أى
سوف ندخلهم نارا هائلة عظيمة وسوف هنا - كما قال سيبويه - للتهديد وتأكيد :
، العذاب المقبل ولو مع التراخى العذاب مع تأكيده يجعل النفس فى فزع دائم
وخوف مستمر حتى يقع .وقوله ( كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ
جُلُوداً غَيْرَهَا ) بيان لشدة العذاب ودوامه أى : كلما احترقت جلودهم
وتلاشت أعطيناهم بدل الجلود المحترقة جلودا غير متحرقة مغايرة للمحترقة
فالتدبيل على هذا حقيقى مادى . بمعنى أن يخلق الله - تعالى - مكان الجلود.
المحترقة جلودا أخرى جديدة مغايرة للمحترقة .ويرى بعضهم أن الجملة الكريمة
كناية عن دوام العذاب لهم . وقد ذكر هذا الرأى الفخر الرازى فقال : ويمكن
أن يقال : هذا استعارة عن الدوام وعدم الانقطاع . كما يقال لمن يراد وصفه
. بالدوام : كلما انتهى فقد ابتدأ . وكلما وصل إلى آخره فقد أبتدأ من أوله
فكذا قوله ( كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً
، غَيْرَهَا ) .يعنى : كلما ظنوا أنهم نضجوا واحترقوا وانتهوا إلى الهلاك
أعطيناهم قوة جديدة من الحياة . فيكون المقصود ببيان دام العذاب وعدم
انقطاعه .والذى نراه أن حمل التبديل على حقيقته أولى ، لأنه ليس لنا أن
نعدل فى كلام الله عن الحقيقة إلى المجاز ، إلا عند الضرورة . وهنا لا
ضرورة لذلك ، لأن تبديل الجلود داخل تحت قدرة الله - تعالى - ولأن هذا
" المعنى الذى ذكره الإمام الرازى يتأتى مع حمل اللفظ على حقيقته إذ كلمة
لك " تدل على دوام العذاب وعدم انقطاعه ، ولأن كثيرا من السلف قد فسروا
الآية على الوجه الأول ، فقد روى عن ابن عمر أنه قال : تلا رجل عند عمر هذه
الآية قال : فقال عمر : أعدها على . فأعادها . فقال معاذ بن جبل : عندى
تفسيرها : تبدل جلودها فى كل ساعة مائة مرة . فقال عمر : هكذا سمعت من رسول
الله صلى الله عليه وسلم .وقوله ( لِيَذُوقُواْ العذاب ) جملة تعليلية
، لقوله ( بَدَّلْنَاهُمْ ) أى بدلناهم جلودا غيرها ليقاسوا شدة العذاب
وليحسوا به فى كل مرة كما يحس الذائق للشئ الذى يذوقه .وقوله ( إِنَّ الله
كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً ) تذييل قصد به تأكيد التهديد والوعيد الذى اشتملت
عليه الآية الكريمة .أى : أن الله - تعالى كان وما زال عزيزا لا يغلبه غالب
ولا يمنع عقابه مانع ( حكيما ) فى تدبيره وتقديره وتعذيب من يعذبه وإثابة ،
. من يثيبه

والذين امنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين
فيها ابدا لهم فيها ازواج مطهرة وندخلهم ظلا ظليلا

كما فسرها الوسيط وقوله ( والذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ) بيان
لحسن الثواب الذى وعد الله به عباده المؤمنين فى مقابلة بيان العقاب الذى
أعده للكافرين .وتلك عادة القرآن فى تربية النفوس . إنه يسوق عاقبة
الكافرين ثم يتبعها بحسن عاقبة المؤمنين أو العكس ، ليحمل العقلاء على
الابتعاد عن طريق الكفر والعصيان ، وليغريهم بالسير فى طريق الطاعة
والإيمان .أى : والذين آمنوا إيماناً حقاً ، وعملوا فى دنياهم الأعمال
الطيبات الصالحات ( سَنُدْخِلُهُمْ ) يوم القيامة ( جَنَّاتٍ تَجْرِي ) من
تحت شجرها وقصورها ( الأنهار خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَداً ) أى : أكرمناهم
) إكراما عظيما بأن جعلناهم مقيمين فى الجنة لا يموتون ولا يخرجون منها
لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ) أى لهم فيها نساء بريئات ومنزهات
من جميع الأدناس الحسية والمعنوية .وقوله : ( وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ
ظَلِيلاً ) أى : ظلا وارفا جميلا لا يصيب صاحبه حر ولا سموم .والظل : أثر
لما يحجب الشمس وحرارتها . والظليل : صفة مشتقة من الظل للتأكيد على حد
قولهم : ليل أليل أى ظلا بلغ الغاية فى جنسه .ورحم الله صاحب الكشاف فقد
قال : ( ظَلِيلاً ) صفة مشتقة من لفظ الظل لتأكيد معناه . كما يقال : ليل
أليل . ويوم أيوم وما أشبه ذلك . وهو ما كان فيئا - أى طويلا ممتدا -لا
حوب فيه - أى لا خرق ولا قطع فيه - ودائما لا تنسخه الشمس . وسجسجا - أى
متوسطا -لا حر فيه ولا برد . وليس ذلك إلا ظل الجنة . رزقا الله بتوفيقه
لما يزلف إليه التفيؤ تحت ذلك الظل .وبعد هذا الحيث الجامع عن أحوال أهل
. الكتاب من اليهود ، وجه القرآن جملة من الأوامر الحكيمة إلى المؤمنين
. فقال - تعالى - : ( إِنَّ الله يَأْمُرُكُمْ . . . . تَأْوِيلاً )

ان الله يامركم ان تؤدوا الامانات الى اهلها واذا حكمتم بين الناس ان
تحكموا بالعدل ان الله نعما يعظكم به ان الله كان سميعا بصيرا

كما فسرها الوسيط قال ابن كثير - عند تفسيره للآية الأولى - : ذكر كثير من المفسرين " أن هذه الآية نزلت فى شأن عثمان بن طلحة بن أبى طلحة . وهو ابن عم شيبة بن عثمان بن أبى طلحة الذى صارت الحجابة فى نسله إلى اليوم . وسبب نزولها فيه : حين أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم مفتاح الكعبة منه يوم الفتح ثم رده عليه .ثم قال : قال محمد بن إسحاق : حدثنى محمد بن جعفر عن عبيد الله بن أبى ثور عن صفية بنت شيبة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل بمكة واطمأن الناس ، خرج حتى أتى إلى البيت فطاف به سبعا على راحلته يستلم الركن بمحجن فى يده . فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة فأخذ مفتاح الكعبة منه ففتحت له فدخلها .ثم قام على باب الكعبة فقال :لا إله إلا الله وحده لا شريك له . صدق وعده . ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده . ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمى هاتين : إلا سدانة البيت وسقاية الحاج .ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أين عثمان بن طلحة؟ فدعى له . فقال : هاك متفاحك يا عثمان!! اليوم يوم بر ووفاء " .هذا ونزول الآية الكريمة فى هذا السبب الخاص لا يمنع عمومها إذا العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .والأمانات : جمع أمانة وهى مصدر سمى به المفعول . فهى بمعنى ما يؤتمن الإنسان عليه .والمعنى : إن الله تعالى - يأمركم - أيها المؤمنون - أن تؤدوا ما ائتمنتم عليه من الحقوق سواء أكانت هذه الحقوق لله - تعالى - أم للعباد . وسواء كانت فعلية أم قولية أم اعتقادية .وقد أسند - سبحانه - الأمر إليه تأكيده ، اهتماما بالمأمور به ، وحضا للناس على أداء ما يؤتمنون عليه من علم ومال ، ودائع ، وأسرار ، وغير ذلك مما يقع فى دائرة الائتمان ، وتنبغى المحافظة عليه .ومعنى أدائها إلى أهلها : توصيلها إلى أصحابها كما هى من غير بخس أو تطفيف أو تحريف أو غير ذلك مما يتنافى مع أدائها بالطريقة التى ترضى الله - تعالى .ومن الآيات القرآنية التى نوهت بشأن الأمانة وأمرت بأدائها وحفظها قوله - تعالى - : ( إِنَّا عَرَضْنَا الأمانة عَلَى السماوات والأرض والجبال فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسان ) وقوله - تعالى - ( والذين هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِم قَائِمُونَ وَالَّذِينَ هُمْ على صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ أولئك فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ) وأما الأحاديث فمنها ما رواه الترمذى والنسائى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم " .وروى الترمذى وأبو داود عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخمن من خانك " .وقوله : ( وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ الناس أَن تَحْكُمُوا بالعدل ) أمر بإيصال الحقوق المتعلقة بذمم الغير إلى أصحابها إثر الأمر بإيصال الحقوق المتعلقة بذممهم .وقوله ( حَكَمْتُمْ ) من الحكم ومعناه الفصل بين المتنازعين ، وإظهار الحق لصاحبه وقوله ( بالعدل ) أى بالحق الذى أوجبه الله عليكم . وأصل العدل : التسوية. يقال : عدل كذا بكذا أى سواه به .قال الجمل وقوله : ( وَإِذَا حَكَمْتُمْ . إذا معمول لمقدر على مذهب البصريين من أن ما بعد أن المصدرية لا يعمل ( فيما قبلها والتقدير : وأن تحكموا بالعدل إذا حكمتم بين الناس . أو معمول للمذكور على مذهب الكوفيين من إجازة عمل ما بعد أن فيما قبلها .والمعنى : كما أمركم الله - تعالى - أيها المؤمنون بأداء الأمانات إلى أهلها ، فإنه يأمركم - أيضا - إذا حكمتم بين الناس أن تجعلوا حكمكم قائما على الحق والعدل ، فإن الله - تعالى - ما أقام ملكه إلا عليهما ، ولأن الأحكام إذا صاحبها الجور والظلم أدت إلى شقاء الأفراد والجماعات .قال بعض العلماء : يرى بعضهم : أن الخطاب فى هذا النص موجه إلى الذين يحكمون ، وهم الحكام من ولاة وقضاة وغيرهم ممن يلون الحاكم . ولا مانع عندنا من أن يكون الخطاب موجها إلى الأمة كلها ، لأن الأمة العزيزة التى تتولى أمور نفسها من غير تحكم من ملك أو طاغ قاهر ، هى محكومة ومحكمة . فهى التى تختار حاكمها وهى فى هذا محكمة ، مطلوب منها العدل ، فلا تختار لهوى أو لعطاء أو لمصلحة شخصية أيا كان نوعها . وهى محكمة فى حاكمها فلا تقول فيه إلا حقا ، ولا تطالبه إلا بما هو حق لا جور فيه ، ولا تشتط فى نقده ، ولا تسكن عن نصيحته فإن النبى صلى الله عليه وسلم يقول : " الدين النصيحة : لله ولرسوله ، ولأئمة المسلمين وعامتهم " .وحديث القرآن عن وجوب إقامة العدل ودفع الظلم حديث مستفيض . قال تعالى - : ( إِنَّ الله يَأْمُرُ بالعدل والإحسان ) وقال - تعالى - ( ياداوود إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأرض فاحكم بَيْنَ الناس بالحق وَلاَ تَتَّبِعِ الهوى ) وقال - تعالى - ( وَإِذَا قُلْتُمْ فاعدلوا وَلَوْ كَانَ ذَا قربى ) وقال - تعالى - ( وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ على أَلاَّ تَعْدِلُوا اعدلوا هُوَ أَقْرَبُ للتقوى ) وأما حديث السنة النبوة عن ذلك فهو أيضا مستفيض . ومن الأحاديث التى ورت فى هذا المعنى ما رواه الإمام مسلم فى صحيح عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن المقسطين عند الله على منابر من نور من يمين الرحمن . وكلتا يديه يمين . الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا " .وقوله ( إِنَّ الله نِعِمَّا

يَعِظُكُمْ ) جملة مستأنفة مقررة لمضمون ما قبلها ، متضمنة لمزيد اللطف بالمخاطبين ، وحسن استدعائهم إلى الامتثال لما أمروا به .وقوله ( نِعِمَّا أصله ( نعم ما ) فركبت نعم ما بعد طرح حركة الميم الأولى وتنزيلها منزلة ( الكلمة الواحدة ثم أدغمت الميمان وحركت العين الساكنة بالكسر للتخلص من التقاء الساكنين .و ( ما ) إما منصوبة موصوفة بقوله ( يَعِظُكُمْ ) فكأنه قيل : نعم شيئا يعظكم به . وإما مرفوعة موصولة فكأنه قيل : نعم الشئ الذى يعظكم به .والمخصوص بالمدح محذوف وهو أجاء الأمانة إلى أهلها والحكم بين الناس بالعدل .والوعظ : التذكير بالخير ، والتحذير من الشر ، بأسلوب يرق له القلب .والمعنى : إن الله - تعالى - قد أمركم - يا معشر المؤمنين - بأداء الأمانة ، وبالحكم بالعدل ، ولنعماهما شيئا جليلا يذكركم به ، ويدعوكم إليه وقوله - تعالى - ( إِنَّ الله كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً ) وعد للطائعين. ووعيد للعاصين .أى : إن الله - تعالى - كان سميعا لأقوالكم فى الأحكام وفى غيرها . ( بَصِيراً ) بكل أحوالكم وتصرفاتك . وسيجازيكم بما تفعلونه من خير أو شر .

يا ايها الذين امنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الاخر ذلك خير واحسن تاويلا

كما فسرها الوسيط وبعد أن أمر - سبحانه بأداء الأمانة وبالحكم بالعدل عقب ذلك بأمر المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله وولاة أمورهم فقال - تعالى - : ( يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ أَطِيعُواْ الله وَأَطِيعُواْ الرسول وَأُوْلِي ) : - الأمر مِنْكُمْ ) .وطاعة الله وطاعة رسوله متلازمتان . قال - تعالى مّنْ يُطِعِ الرسول فَقَدْ أَطَاعَ الله ) ومعنى طاعتهما : التزام أوامرهما ، واجتناب نواهيهما .والمراد بأولى الأمر - على الراجح - الحكام . وطاعتهم إنما تكون فى غير معصية الله ، فإذا أمروا بما يتنافى مع تعاليم الدين فلا سمع لهم على الأمة ولا طاعة .وإنما أمرنا الله - تعالى - بطاعتهم فى غير معصية ، لأنهم هم المنفذون لتعاليم الشريعة وهم الذين بيدهم مقاليد الأمة التى يقومون على رعاية مصالحها ، ولأن عدم طاعتهم يؤدى إلى اضطراب أحواله الأمة وفسادها .قال صاحب الكشاف : والمراد ب أمراء الحق ، لأن - أمراء الجور - الله : ( وَأُوْلِي الأمر مِنْكُمْ ) ورسوله بريئان منهم ، فلا يعطفون على الله ورسوله بوجوب الطاعة لهم . وإنما يجمع بين الله ورسوله والأمراء الموافقين لهما فى إيثار العدل واختيار الحق والأمر بهما . والنهى عن أضدادهما كالخلفاء والراشدين ومن تبعهم بإحسان وكان الخلفاء يقولون : أطيعونى ما عدلت فيكم . فان خالفت فلا طاعة لى عليكم وعن أبى حازم أن مسلمة بن عبد الملك قال له : ألستم أمرتم بطاعتنا فى ، قوله ( وَأُوْلِي الأمر مِنْكُمْ ) فقال له : أليس قد نزعت عنكم إذا خالفتم الحق بقوله : ( فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى الله والرسول ) .وقيل هم العلماء الدينيون الذين يعلمون الناس ويأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر .وأعاد - سبحانه - الفعل ( أَطِيعُوا ) مع الرسول فقال : ( أَطِيعُواْ الله وَأَطِيعُواْ الرسول ) ولم يعده مع أولى الأمر ، للإشارة إلى استقلال الرسول صلى الله عليه وسلم بالطاعة حتى ولو ، كان ما يأمر به ليس منصوصا عليه فى القرآن ، لأنه لا ينطق عن الهوى وللإيذان بأن طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم أعلى من طاعة أولى الأمر وقوله ( مِنْكُمْ ) فى محل نصب على الحال من أولى الأمر أى : أطيعوا الله. وأطيعوا الرسول وأولى الأمر حالة كونهم كائنين منكم أى من دينكم وملتكم وفى ذلك إشارة إلى أنه لا طاعة لمن يتحكمون فى شئون المسلمين ممن ليسوا. على ملتهم .وقوله : ( فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى الله والرسول إِن كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بالله واليوم الآخر ) بيان لما يجب على المؤمنين أن يفعلوه إذا ما حدث بينهم اختلاف فى أمر من الأمور الدينية . والمراد بالتنازع هنا : الاختلاف والجدال مأخوذ من النزع بمعنى الجذب . فكأن كل واحد من المختلفين يجذب من غيره الحجة لدليله . . .ومنه قول النبى صلى الله عليه وسلم " ما لى أنازع القرآن " أى ينازعنى غيرى ويجاذبنى فى القراءة . وذلك أن بعض المأمومين جهر خلفه فنازعه قراءة فشغله ، فنهاه عن الجهر بالقراءة فى الصلاة خلفه .والمعنى : فان تنازعتم واختلفتم أيها المؤمنون أنتم وألوا الأمر منكم فى أمر من أمور الدين ( فَرُدُّوهُ إِلَى الله والرسول ) أى فردوا ذلك الحكم أو الأمر الذى اختلفتم فيه إلى كتاب الله وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن تسألوه عنه فى حياته ، وترجعوا إلى سنته بعد مماته .قال القرطبى : قوله ( فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ ) أى تجادلتم واختلفتم فى شئ من أمور دينكم ( فَرُدُّوهُ إِلَى الله والرسول ) أى ردوا ذلك الحكم إلى كتاب الله أو إلى رسوله بالسؤال فى حياته ، أو بالنظر فى سنته بعد وفاته . وهذا قول مجاهد والأعمش وقتادة . وهو الصحيح ومن لم ير هذا اختل إيمانه ، لقوله - تعالى ( إِن كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ.

بالله واليوم الآخر ) .وفى قوله ( فَرُدُّوهُ إِلَى الله والرسول ) دليل على أن سنته صلى الله عليه وسلم يعمل بها ويمتثل ما فيها .قال صلى الله عليه وسلم " ما نهيتكم عنه فاجتنبوه ، وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم . فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم " .وروى أبو داود عن أبى رافع عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " لا ألفين أحدكم متكئا على أريكته ، يأتيه الأمر من أمرى مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول :لا ندرى ما وجدناه فى كتاب الله اتبعناه " .وعن العرباض بن سارية أنه حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب الناس وهو يقول ": أيحسب أحدكم متكئا على أريكته قد يظن أن الله لم يحرم شيئا إلا ما فى هذا القرآن ألا وإنى والله قد أمرت ووعظت ونهيت عن اشياء إنها لمثل القرآن أو أكثر " .وقوله ( إِن كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بالله واليوم الآخر ) شرط جوابه محذوف عند جمهور البصريين اكتفاء بدلالة المذكور عليه .أى : إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر حق الإيمان فارجعوا فيما تنازعتم فيه من أمور دينية إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .والجملة الكريمة تحريض للمؤمنين على الامثال لتعاليم الإسلام وآدابه ، لأن الإيمان الحق يقتضى ذلك .واسم الاشارة فى قوله :( ذلك خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ) يعود إلى الرد إلى الكتاب والسنة وقوله ( تَأْوِيلاً ) من آل هذا الأمر إلى كذا أى رجع إليه ، فيكون المعنى : ذلك الذى أمرتكم به من رد ما اختلفتم فيه إلى الكتاب والسنة خير لكم وأحمد مغبة ، وأجمل عاقبة .ويجوز أن يكون قوله ( تَأْوِيلاً ) معنى التفسير والتوضيح فيكون المعنى :ذلك أى الرد إلى الكتاب والسنة خير لكم وأحسن تأويلا وتفسيراً من تأويلكم أنتم إياه ، من غير رد إلى اصل من الكتاب والسنة . والأول أنسب لسياق الآية الكريمة .قال ابن كثير قوله ( فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ ) . الآية هذا أمر من : الله - تعالى - بأن كل شئ تنازع فيه الناس من أصول الدين وفروعه ، أن يردوا التنازع فى ذلك إلى الكتاب والسنة كما قال - تعالى - : ( وَمَا اختلفتم فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى الله ) فما حكم به القرآن والسنة وشهد له بالصحة فهو الحق . ماذا بعد الحق إلا الضلال . ولهذا قال - تعالى - : ( إِن كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بالله واليوم الآخر ) . أى : ردوا الخصومات إلى كتاب الله وسنة رسوله فتحاكموا إليهما فيما شجر بينكم إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر . فدل على أن من لم يتحاكم فى محل النزاع إلى الكتاب والسنة ، ولا يرجع إليهما فى ذلك ، فليس مؤمنا بالله ولا باليوم الآخر .وقال بعض العلماء : قد يؤخذ من الآية التى معنا أن أدلة الأحكام الشرعية أربعة . وهى الكتاب والسنة والإجماع والقياس .. لأن الأحكام إما منصوبة فى الكتاب : أو السنة وذلك قوله : ( أَطِيعُواْ الله وَأَطِيعُواْ الرسول ) . وإما مجمع عليها من أولى الأمر بعد استنادهم إلى دليل علموه . وذلك قوله ( وَأُوْلِي الأمر مِنْكُمْ ) وإما غير منصوصة ولا مجمع عليها . وهذه سبيلها الاجتهاد والرد إلى الله والرسول وذلك هو القياس .فما اثبته الفقهاء والأصوليون غير هذه الأربعة كالاستحسان الذى يراه الأحناف دليلا .وإثبات الأحكام الشرعية تمشيا مع المصلاح المرسلة الذى يقول به المالكية ، والاستصحاب الذى يقول به الشافعية ، كل ذلك إن كان غير هذه الأربعة فمردود بظاهر هذه الآية ، وإن كان راجعا إليها فقد ثبت أن الأدلة أربعة .ثم انتقل القرآن بعد ذلك إلى الحديث عن المنافقين فكشف عن أحوالهم الذميمة ، وطابعهم القبيحة ، ونفوسهم المريضة ، وحذر المؤمنين من مكرهم وكذبهم ، بعد أن حذرهم قبل ذلك من مكر اليهود وأمرهم بالاعتصام بطاعة الله ورسوله . استمع إلى القرآن الكريم وهو . . . . يكشف النقاب عن حال هؤلاء المنافقين فيقول : ( أَلَمْ تَرَ إِلَى صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً ) .

الم تر الى الذين يزعمون انهم امنوا بما انزل اليك وما انزل من قبلك يريدون ان يتحاكموا الى الطاغوت وقد امروا ان يكفروا به ويريد الشيطان ان يضلهم ضلالا بعيدا

كما فسرها الوسيط روى المفسرون فى سبب نزول قوله - تعالى - ( أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين يَزْعُمُونَ ) . . . إلخ روايات متقاربة فى معناها ومن ذلك ما أخرجه الثعلبى وابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس أن رجلا من المنافقين يقال له بشر خاصم يهوديا ، فدعاه اليهودى إلى التحاكم إلى النبى صلى الله عليه وسلم ودعاه المنافق إلى التحاكم إلى كعب بن الأشرف : ثم إنهما احتكما إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقضى لليهودى ، فلم يرض المنافق . وقال : تعالى نتحاكم إلى عمر بن الخطاب .فقال اليهودى لعمر : قضى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يرض بقضائه . فقال عمر للمنافق : أكذلك؟ قال : نعم . قال عمر مكانكما حتى أخرج إليكما . فدخل عمر فاشتمل على سيفه ثم خرج فضرب عنق : المنافق حتى برد - أى مات - . ثم قال : هكذا أقضى لمن لم يرض بقضاء الله - تعالى - وقضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت .والاستفهام فى قوله ( أَلَمْ تَرَ ) للتعجيب من حال أولئك المنافقين ، وإنكار ما هم عليه من خلق ذميم وإعراض عن حكم الله ورسوله إلى حكم غيرهما .وقوله ( يَزْعُمُونَ ) .

- من الزعم ويستعمل غالبا فى القول الذى لا تحقق معه ، كما يستعمل - أيضا
فى الكذب ومنه قوله - تعالى - : ( وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ
الحرث والأنعام نَصِيباً فَقَالُواْ هذا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ ) أى بكذبهم
" وقد يطلق الزعم على القول الحق .قال الآلوسى : وقد أكثر سيبويه فى.
الكتاب " من قوله : زعم الخليل كذا - فى أشياء يرتضيها .والمراد بالزعم هنا
الكذب لأن الآية الكريمة فى المنافقين الذين يظهرون خلاف ما يبطنون
والمعنى : ألم ينته علمك يا محمد إلى حال هؤلاء المنافقين الذين يزعمون.
كذبا وزورا أنهم آمنوا بما أنزل إليك من ربك من قرآن كريم ، ومن شريعة
عادلة ، ويزعمون كذلك أنهم آمنوا بما أنزل على الرسل من قبلك من كتب
سماوية؟ إن كنت لم تعلم حالهم أو لم تنظر إليهم فهاك خبرهم لتحذرهم ولتحذر
، أمتك من شرورهم .فالمقصود من الاستفهام التعجيب من حال هؤلاء المنافقين
وحض النبى صلى الله عليه وسلم وأمته على معرفة مسالكهم الخبيثة ، حتى
يأخذوا حذرهم منهم .وفى وصفهم بادعاء الإيمان بما أنزل على الرسول وبما
أنزل على الرسل من قبله تأكيد للتعجيب من أحوالهم ، وتشديد للتوبيخ
والتقبيح من سلوكهم، ببيان كمال المباينة بين دعواهم المقتضية حتما للتحاكم
إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وبين ما صدر عنهم من هرولة إلى التحاكم إلى
غيره .وقوله : ( يُرِيدُونَ أَن يتحاكموا إِلَى الطاغوت ) بيان لموطن
التعجب من أحوالهم الغريبة ، وصفاتهم السيئة .والمراد بالطاغوت هنا : ما
سوى شريعة الإسلام من أحاكم باطلة بعيدة عن الحق يأخذها المنافقون عمن
يعظمونهم وقيل المراد به : كعب بن الأشرف؛ لأنه هو الذى أراد المنافقون
التحاكم إليه ، وقد سماه الله بذلك لكثرة طغيانه وعداوته للرسول صلى الله
- عليه وسلم .والمعنى : أن هؤلاء المنافقين يزعمون الإيمان بما أنزل إليك
- يا محمد - وبما أنزل من قبلك ، ومع هذا فهم يريدون - عن محبة واقتناع
التحاكم إلى الطاغوت أى إلى من يعظمونه ، ويصدرون عن قوله ، ويرضون بحكمه
من دون حكم الله .وقوله ( وَقَدْ أمروا أَن يَكْفُرُواْ بِهِ ) جملة حالية
- من ضمير يريدون .أى : يريدون التحاكم إلى الطاغوت والحال أن الله - تعالى
قد أمرهم بالكفر به ، وبالانقياد للأحكام التى يحكم بها النبى صلى الله
عليه وسلم .وقوله ( وَيُرِيدُ الشيطان أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً )
معطوف على قوله ( يُرِيدُونَ ) وداخل فى حكم التعجيب ، لأن اتباعهم لمن
يريد إضلالهم ، وإعراضهم عمن يريد هدايتهم أمر يدعو إلى العجب الشديد
والمراد بالضلال البعيد : الكفر والبعد عن الحق والهدى .ووصفه بالبعد.
للمبالغة فى شناعة ضلالهم ، بتنزيله على سبيل المجاز منزلة جنس ذى مسافة
كان هذا الفرد منه بالغا غاية المسافة .قال ابن كثير : هذه الآية إنكار من
الله - تعالى - على من يدعى الإيمان بما أنزل الله على رسوله وعلى
الأنبياء السابقين . وهو مع ذلك ، يريد أن يتحاكم فى فصل الخصومات إلى غير
كتاب الله ، وسنة رسوله .كما ذكر فى سبب نزول هذه الآية أنها فى رجل من
. الأنصار ورجل من اليهود تخاصما . فجعل اليهودى يقول : بينى وبينك محمد
وذاك يقول : بينى وبينك كعب ابن الأشرف . وقيل : فى جماعة من المنافقين ممن
. أظهروا الإسلام أرادوا أن يتحاكموا إلى حكام الجاهلية . وقيل غير ذلك
والآية أعم من ذلك كله ، فإنها ذامة لكل من عدل عن الكتاب والسنة وتحاكم
. إلى ما سواهما من الباطل . وهو المراد بالطاغوت هنا

واذا قيل لهم تعالوا الى ما انزل الله والى الرسول رايت المنافقين يصدون
عنك صدودا

كما فسرها الوسيط ثم صور - سبحانه - إعراضهم عن الحق ، ونفورهم عن شريعة
الله - تعالى - فقال : ( وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إلى مَآ أَنزَلَ
: الله وَإِلَى الرسول رَأَيْتَ المنافقين يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً ) .أى
وإذا قيل لهؤلاء المنافقين أقبلوا على حكم الله وحكم رسوله ، فإن الخير كل
الخير فيما شرعه الله وقضاه ، إذا ما قيل لهم ذلك ( رَأَيْتَ المنافقين )
الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ، رأيتم لسوء
نواياهم ، ولؤم طواياهم ( يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً ) أى يعرضون عنك - يا
محمد - إعراضا شديدا .وقوله ( تَعَالَوْاْ إلى مَآ أَنزَلَ الله وَإِلَى
الرسول ) إغراء لهم بتقبل الحق ، وحض لهم على الامتثال لشريعة الله؛ لأنها
هى الشريعة التى فيها سعادتهم ، ولكنهم لمرض قلوبهم ينفرون من الحكم المنزل
من السماء إلى حكم الطاغوت الباطل .وقال - سبحانك - ( رَأَيْتَ المنافقين )
ولم يقل رأيتهم بالإضمار؛ لتسجيل النفاق عليهم ، وذمهم به ، وللإشعار
بعلة الحكم اى : رأيتهم لنفاقهم يصدون عنك صدودا .وقوله ( صُدُوداً ) مصدر
مؤكد بفعله أى : يعرضون عنك إعراضا تاما بحيث لا يريدون أن يسمعوا منك
شيئاً ، لأن حكمك لا يناسب أهواءهم .فذكر المصدر هنا للتأكيد والمبالغة
فكأنه قيل : صدودا أى صدود .فأنت ترى أن الآية الكريمة قد ذكرت علامة جلية
من علامات المنافقين حتى يأخذ المؤمنون حذرهم منهم ، وهى أنهم إذا ما دعوا
إلى حكم الله الذى يزعمون أنهم آمنوا به ، أعرضوا عن هذا الحاكم إعراضا
. شديدا ، وظهر بذلك كذبهم ونفاقهم

فكيف اذا اصابتهم مصيبة بما قدمت ايديهم ثم جاءوك يحلفون بالله ان اردنا الا احسانا وتوفيقا

كما فسرها الوسيط ثم يعرض القرآن بعد ذلك مظهرا آخر من مظاهر نفاقهم عند الشدائد والمحن فيقول : ( فَكَيْفَ إِذَآ أَصَابَتْهُمْ مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلاَّ إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً ) .والفاء فى قوله ( فَكَيْفَ ) للتفريع . و " كيف " فى محل رفع خبر لمبتدأ محذوف .والمعنى : فكيف يكون حالهم إذا نزلت بهم النوازل ، وأصابتهم المصائب بسبب تركهم حكم الله ، واتباعهم حكم الطغيان ( ثُمَّ جَآءُوكَ ) معتذرين عما حدث منهم من قبائح ، والحال أنهم يَحْلِفُونَ بالله ) كذبا وزورا ( إِنْ أَرَدْنَآ إِلاَّ إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً ) أى ما أردنا بالتحاكم إلى غيرك - يا محمد - إلا إحسانا إلى المتخاصمين ، وتوفيقا بينهم حتى لا يتسع الخلاف بينهم ، ولم نرد بذلك عدم الرضا بحكمك ، فلا تؤاخذنا بما فعلنا .والاستفهام بكيف هنا للتهويل . أى أن حالهم عندما تصيبهم المصائب بسبب أفعالهم الخبيثة ، ويأتون للرسول صلى الله عليه وسلم معتذرين ، ستكون حالا بائسة شنيعة مخزية : لأنهم لا يجدون وجها مقبولا للدفاع عما ارتكبوه من قبائح .والباء فى ( بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ) للسببية . والمراد بما قدمت أيديهم ما اجترحوه من سيئات من أشدها تحكمهم إلى الطاغوت . وعبر عن ذلك بقوله : ( بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ) : لأن الأيدى مظهر من مظاهر الإنسان .والتعبير ب " ثم " فى هذا المقام للإشعار بالتباين الشديد بين إعراضهم وصدودهم إذا ما قال لهم قائل : تعالوا إلى حكم الله . . . وبين إقبالهم بعد ذلك معتذرين ومقسمين بالأيمان الكاذبة أنهم ما أرادوا بما فعلوا إلا الإحسان والتوفيق .وإن ما قاله هؤلاء المنافقون من أعذار بعد أن أصابتهم المصائب . وانكشف أمرهم بين المؤمنين ، وصاروا محل الازدراء والنبذ لتحاكمهم إلى الطاغوت . ما قاله هؤلاء - كما حكاه القرآن الكريم - ليشبه ما يقوله منافقو اليوم عندما يتهربون من التحاكم إلى شريعة الله إلى التحاكم إلى غيرها من شرائع الناس . فأنت تراهم إذا ما أحيط بهم ، وعجزوا عن الدفاع عن أنفسهم ، اعتذروا بأنهم ما تركوا الحاكم بشريعة الله إلى غيرها لا بقصد الإحسان إلى المتنازعين ، والتوفيق بين مختلف الطوائف فى المجتمع حتى لا يغضب من ليسوا مسلمين .ولا شك أن هذه الأعذار لن تغنى عنهم من عذاب الله شيئا ، لأنه لا عذر لمن يهجر شريعة الله ، ويهرع إلى التحاكم إلى غيرها .

اولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فاعرض عنهم وعظهم وقل لهم في انفسهم قولا بليغا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أنه ليس غافلا عن أعمال أولئك المنافقين ، وأرشد نبيه صلى الله عليه وسلم إلى وسائل معالجتهم فقال - تعالى - : ( أُولَئِكَ الذين يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً ) .أى : أولئك الذين نافقوا ، وأخفوا حقيقة نواياهم السيئة ، وتركوا حكم الله إلى حكم الطاغوت . . . ( أُولَئِكَ الذين يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ) من النفاق والميل إلى الكفر ، وإن أظهروا إسلامهم .وقوله ( فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ) . . . الخ بيان لطرق معالجتهم .أى : فلا تلتفت إليهم ، وغض الطرف عن مسالكهم الخبيثة ، ولا تقبل عليهم ، لكى يشعروا باستنكارك لأعمالهم .وقوله ( وَعِظْهُمْ ) : الوعظ هو التذكير بفعل الخير وترك الشر بأسلوب يرقق القلوب ، ويشتمل على الترغيب والترهيب .أى : ذكرهم بما فى أعمالهم القبيحة من سوء العاقبة لهم ، وبما فى تركها من خير جزيل يعود عليهم فى دنياهم وآخرتهم ، وأخبرهم بأن تحاكمهم إلى غير شريعة الله سيكون فيه هلاكهم .وقوله ( وَقُل لَّهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً ) أى قل لهم بعد ذلك قولا يبلغ أعماق نفوسهم لقوته وشدة تأثيره . بأن تورد لهم ما تريد أن تخاطبهم به بطريقة تجعلهم يقبلون على قولك .وفى هذه الجملة الكريمة ما فيها من التعبير البليغ المؤثر ، حتى لكأنما القول الذى يقوله الرسول صلى الله عليه وسلم لهم : يودع مباشرة فى الأنفس ، ويستقر رأسا فى القلوب .وقد وضح هذا المعنى صاحب الكشاف فقال : فإن قلت : بم تعلق قوله ( فِي أَنْفُسِهِمْ ) قلت : بقوله ( بَلِيغاً ) أى : قبل لهم قولا بليغا فى أنفسهم مؤثرا فى قلوبهم يغتمون به اغتماما ، ويستشعرون منه الخوف استشعارا وهو التوعد بالقتل والاستئصال إن نجم منهم النفاق ، واطلع قرنه ، وأخبرهم ، أن ما فى نفوسهم من الدغل والنفاق معلوم عند الله ، وانه لا فرق بينكم وبين المشركين . وما هذه المكانة إلا لإظهاركم الإيمان وإسراركم الكفر وإضماره . فإن فعلتم ما تكشفون به غطاءكم لم يبق إلا السيف .أو يتعلق بقوله ( وَقُل لَّهُمْ ) أى : قل لهم فى أنفسهم الخبيثة وقلوبهم المطوية على النفاق قولا بليغا . وإن الله يعلم ما فى قلوبكم . لا يخفى عليه . فلا يغنى

عنكم إبطانه .فأصلحوا أنفسكم وطهروا قلوبكم وداووها من مرض النفاق . وإلا ، أنزل الله بكم ما أنزل بالمجاهرين بالشرك من انتقامه ، وشرا من ذلك وأغلظ ، أو قل لهم فى أنفسهم خاليا بهم ، ليس معهم غيرهم . قولا بليغا يبلغ منهم ويؤثر فيهم .فأنت ترى أن الآية الكريمة قد أرشدت النبى صلى الله عليه وسلم إلى استعمال ثلاثة طرق لصرف المنافقين عن أفعالهم القبيحة .وهذه الطرق هى الإعراض عنهم ، ووعظم بما يرغبهم فى الخير ويرهبهم من الشر ، ومخاطبتهم بالقول البليغ المؤثر الذى يحرك نفوسهم تحريكا قويا ، ويجعلهم يقبلون وهذه الطرق هى أسمى ألوان الدعوة إلى الله . وأنجع الأساليب فى جلب الناس إلى ما يأخذ بيدهم إلى الخير والفلاح .

وما ارسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله ولو انهم اذ ظلموا انفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أنه ما أرسل رسله إلا ليطاعوا لا ليخالفوا ، وأرشد المخالفين إلى ما يجب عليهم فعله للتكفير عن مخالفتهم فقال تعالى :( وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ الله وَلَوْ أَنّهُمْ إِذ ظَّلموا أَنْفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَاسْتغفروا الله واستغفر لَهُمُ الرسول لَوَجَدُواْ الله تَوّاباً رّحِيماً ) .و ( مِن ) فى قوله ( مِن رّسُولٍ ) زائدة للتأكيد والتعميم ، واللام فى قوله لِيُطَاعَ ) للتعليل ، والاستثناء مفرغ من المفعول لأجله .أى : وما أرسلنا رسولا من الرسل لشئ من الأشياء إلا ليطاع فيما أمر ونهى وحكم ، لا ليطلب ذلك من غيره . فطاعته فرض على من أرسل إليهم . وإنكار فرضيتها كفر .لأن طاعة الرسول طاعة الله ، ومعصيته معصية لله . قال - تعالى - : ( مّنْ يُطِعِ الرسول فَقَدْ أَطَاعَ الله ) وقوله ( بِإِذْنِ الله ) أى : بسبب إذنه - سبحانه - فى طاعة رسوله . لأن هو الذى أمر بهذه الطاعة لرسله .ويجوز أن يراد بقوله ( بِإِذْنِ الله ) أى بتوفيقه - سبحانه - إلى هذه الطاعة من يشاء توفيقه إليها من عباده .وقوله ( وَلَوْ أَنّهُمْ إِذ ظَّلموا أَنْفُسَهُمْ جَآءُوكَ ) . . . الخ بيان لما كان يجب عليهم ان يفعلوه بعد ، وقوعهم فى الخطأ .أى ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم بسبب تحاكمهم إلى الطاغوت وبخروجهم عن تعاليم الإسلام ، لو انهم بسبب ذلك وغيره ( جَآءُوكَ ) تائبين توبة صادقة من هذا النفاق؛ ( فاستغفروا الله ) مما اجترحوه من ذنوب وسيئات ، أى . دعوا الله - تعالى - بأن يقبل توبتهم. ( واستغفر لَهُمُ الرسول ) ويغفر ذنوبهم . لو انهم فعلوا ذلك ( لَوَجَدُواْ الله تَوّاباً ) أى كثير القبول للتوبة من التائبين ( رّحِيماً ) أى كثير التفضيل على عباده بالرحمة والمغفرة .قال الفخر الرازى : لقائل ان يقول : أليس لو استغفروا الله وتابوا على وجه صحيح ، كانت توبتهم مقبولة؟ فما الفائدة فى ضم استغفار الرسول إلى استغفارهم؟قلنا : الجواب عنه من وجوه :الأول : أن ذلك التحاكم إلى الطاغوت كان مخالفة لحكم الله .وكان أيضا إساءة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ومن كان ذنبه كذلك وجب عليه الاعتذار عن ذلك الذنب لغيره . فلهذا المعنى وجب عليهم أن يطلبوا من الرسول أن يستغفر لهم .الثاني : أن القوم لما لم يرضوا بحكم الرسول ، ظهر منهم ذلك التمرد . فاذا تابوا وجب عليهم أن يفعلوا ما يزيل عنهم ذلك التمرد ، وما ذاك إلا بأن يذهبوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ويطلبوا منه الاستغفار .الثالث : لعلهم إذا أتوا بالتوبة أتوا بها على وجه الخلل ، فاذا انضم إليها استغفار الرسول صارت مستحقة للقبول .ثم قال : وإنما قال - سبحانه - ( واستغفر لَهُمُ الرسول ) . ولم يقل واستغفرت لهم : إجلالا للرسول صلى الله عليه وسلم . وأنهم إذا جاءوا من خصه الله برسالته ، وأكرمه بوحيه ، وجعله سفيرا بينه وبين خلقه ، ومن كان كذلك فإن الله لا يرد شفاعته ، فكانت الفائدة فى العدول عن لفظ الخطاب إلى ، لفظ المغايبة .فالآية الكريمة قد فتحت باب التوبة أمام العصاة والمذنبين وسمت بمكانة الرسول صلى الله عليه وسلم عند ربه سموا عظيما .ورحم الله ابن كثير فقد قال عند تفسيره لهذه الآية : وقوله : ( وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظلموا أَنْفُسَهُمْ جَآءُوكَ ) . الآية . يرشد - تعالى - العصاة والمذنبين إذا وقع منهم الخطأ والعصيان أن يأتوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فيستغفروا الله عنده ، ويسألوه أن يستغفر لهم ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تاب الله عليهم ورحمهم وغفر لهم؛ ولهذا قال : ( لَوَجَدُواْ الله تَوَّاباً رَّحِيماً ) .وقد جاء عن الإمام العتبى أنه قال : كنت جالسا عند قبر النبى صلى الله عليه وسلم فجاء أعرابى فقال : السلام عليك يا رسول الله!! سمعت الله يقول : ( وَلَوْ أَنّهُمْ إِذ ظلموا أَنْفُسَهُمْ جَآءُوكَ ) . الآية وقد جئتك مستغفرا لذنبى ، مستشفعا بك عند ربى . ثم أنشأ يقول :يا خير من دفنت بالقاع أعظمه ... فطاب من طيبهن القاع والأكمنفسى الفداء لقبر أنت ساكنه ... فيه العفاف وفيه الجود والكرمقال العتبى : ثم انصرف الأعرابى ، فرأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى النوم فقال " يا عتبى الحق الأعرابى فبشره أن الله قد غفر له " .

فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في انفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن كل من يدعى الإيمان لا يكون إيمانه صادقا إلا إذا تقبل حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن إذعان واقتناع فقال : ( فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حتى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ في أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً ) .والفاء فى قوله ( فَلاَ ) للإفصاح عن شرط مقدر .و ( لاَ ) يرى الزمخشرى أنها زائدة لتقوية الكلام وتأكيد معنى القسم فهى كقوله - تعالى - : ( فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ، عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ) ويرى ان جرير أنها ليست زائدة ، وإنما هى رد على ما تقدم ذكره من تحاكمهم إلى الطاغوت وتركهم حكم شريعة الإسلام فقد قال :" يعنى - جل ثناؤه - بقوله فلا : أى فليس الأمر كما يزعمون أنهم يؤمنون بما أنزل إليك وهم يتحاكمون إلى الطاغوت ، ويصدون عنك إذا دعوا إليك : يا محمد . ثم استأنف القسم - جل ذكره - فقال : وربك يا محمد لا يؤمنون أى لا يصدقون بى وبك حتى يحكموك فيما شجر بينهم .وقوله ( فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ) أى فيما اختلف بينهم من الأمور والتبس .يقال : شجر بينهم الأمر يشجر شجرا وشجورا إذا تنازعوا فيه .واصله التداخل والاختلاط . ومنه شجر الكلام ، إذ دخل بعضه فى بضع واختلط . ومنه الشجر : لتداخل أغصانه ، وقيل للمنازعة تشاجر ، لأن المتنازعين تختلف أقوالهم ، وتتعارض دعاويهم. ويختلط بعضهم ببعض .وقوله ( حَرَجاً ) أى ضيقا وشكا ، وأصل الحرج مجتمع الشئ ، ويقال للشجر الملتف الذى لا يكاد يوصل إليه حرج . ثم أطلق على ضيق الصدر لكراهته لشئ معين .والمعنى : إذا ثبت ما أخبرناك به يا محمد قبل ذلك - فإن هؤلاء المنافقين وحق ربك "لا يؤمنون " إيمانا حقا يقبله الله ، تعالى - ( حتى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ) أى : حتى يجعلوك حاكما بينهم ، ويلجأوا إليك فيما اختلفوا فيه من أمور ، والتبس عليهم منها بعد ذلك ( حَرَجاً مِّمَّا ( ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ في أَنْفُسِهِمْ ) . قَضَيْتَ ) أى ضيقا وشكا فى قضائك بينهم ( وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً ) أى ويخضعوا لحكمك خضوعا تام إلا إباء مع ولا ارتياب .وفى إضافة الاسم الجليل : إلى النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله - سبحانك - ( وَرَبِّكَ ) تكريم للنبى صلى الله عليه وسلم وتشريف له ، وتنويه بمكانته .وقوله ( لاَ يُؤْمِنُونَ ) هو جواب القسم .وقوله ( ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ ) معطوف على مقدر ينساق إليه الكلام . اى : حتى يحكموك فيما شجر بينهم فتحكم بينهم ثم لا يجدوا .وقوله ( تَسْلِيماً ) تأكيد للفعل . بمنزلة تكريره . أى تسليما تاما بظاهرهم وباطنهم من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة فقد روى الحافظ أبو نعيم والطبرانى عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " والذى نفسى بيده ، لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به " .هذا ، وقد روى المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها ما رواه البخارى عن الزهرى " عن عروة قال : خاصم الزبير رجلا من الأنصار فى شراج الحرة - أى فى مسيل مياه - .فقال النبى صلى الله عليه وسلم : اسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك . فقال الأنصارى : يا رسول الله!! أن كان ابن عمتك؟ فتلون وجه النبى صلى الله عليه وسلم ثم قال : اسق يا زبير . ثم أحبس - الماء حتى يرجع إلى الجدر " - والجدر هو ما يدار بالنخل من تراب كالجدار ثم أرسل الماء إلى جارك .قال الزبير : فما أحسب هذه الآية إلا نزلت في ذلك ( فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حتى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ) .وهذا السبب الخاص فى نزول الآية الكريمة لا يمنع عمومها فى وجوب التحاكم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حياته ، وإلى الشريعة التى أتى بها بعد وفاته ، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما يرى جمهور العلماء .ويبدو أن ما ذكرناه سابقا من تحاكم بعض المنافقين إلى غير رسول الله صلى الله عليه وسلم وما جاء فى البخارى من تخاصم الزبير مع الرجل الأنصارى يبدو أن هذه الحوادث قد حدثت فى زمن متقارب فنزلت الآيات لبيان وجوب التحاكم إلى شريعة الله دون سواها .والمتأمل فى الآية الكريمة يراها قد بينت أن المؤمن لا يكون إيمانه تاما إلا إذا توفرت فيه صفات ثلاث :أولها أن يتحاكم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حياته ، وإلى شريعته بعد : وفاته .وثانيها : أن يتقبل حكم الشريعة الإسلامية التى جاء بها النبى صلى الله عليه وسلم برضا وطيب خاطر ، وأن يوقن إيقانا تاما بأن ما يقضى به هو الحق والعدل . قال - تعالى - : ( ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ في أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ ) .وثالثها : أن يذعن لأحكام شريعة الله إذعانا تاما فى مظهره وحسه . قال - تعالى - ( وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً ) . أى يخضوا خضوعا تاما .فقوله - تعالى - ( ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ في أَنْفُسِهِمْ - حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ ) يمثل الانقياد الباطنى والنفسى .وقوله تعالى - ( وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً ) يمثل الانقياد الظاهرى والحسى وهكذا نرى الآية الكريمة تحذر المؤمنين من التحاكم إلى غير شريعة الله. - بأسلوب يبعث فى النفوس الوجل والخشية ، ويحملهم على الإذعان لأحكام الله

. - تعالى

ولو انا كتبنا عليهم ان اقتلوا انفسكم او اخرجوا من دياركم ما فعلوه الا
قليل منهم ولو انهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم واشد تثبيتا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر فضله على الناس ، ورحمته بهم
فقال - تعالى - : ( وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقتلوا
أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخرجوا مِن دِيَارِكُمْ مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ
مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً
لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً ) .والمراد بقوله ( كَتَبْنَا ) : فرضنا
، وأوجبنا .والمراد ( بقتل النفس ) تعريضا للهلاك من غير أمل فى النجاة
وقيل : المراد به تعريضها للقتل عن طريق الجهاد .والمراد بالخروج من الديار
الهجرة فى سبيل الله ، والخروج من الأوطان إلى أماكن فيها إستجابة لأمر :
الله .قال الفخر الرازى : الضمير فى قوله ( وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا
عَلَيْهِمْ ) فيه قولان :الأول : وهو قول ابن عباس ومجاهد - أنه عائد إلى
، المنافقين ، وذلك لأنه - تعالى - كتب على بنى إسرائيل أن يقتلوا أنفسهم
وكتب على المهاجرين أن يخرجوا من ديارهم . فقال - تعالى - : ولو أنا كتبنا
القتل والخروج عن الوطن عن هؤلاء المنافقين ما فعله إلا قليل منهم رياء
وسمعة ، وحينئذ يصعب الأمر عليهم ، وينكشف كفرهم ، فإذا مل نفعل ذلك بل
كلفناهم بالأشياء السهلة ، فليتركوا النفاق ، وليقبلوا الإيمان على سبيل
الإخلاص . وهذا القول اختيار أبى بكر الأصم والقفال .الثانى : أن المراد
- لو كتب الله على الناس ما ذكر لم يفعله إلا قليل منهم ، فلما لم يفعل
سبحانه - ذلك رحمة بعباده ، بل اكتفى بتكليفهم بالأمور السهلة ، فعليهم أن
يقبلوا عليها بإخلاص حتى ينالوا خير الدارين .وعلى هذا التقدير دخل تحت هذا
الكلام المؤمن والمنافق .وأما الضمير فى قوله ( وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ
مَا يُوعَظُونَ بِهِ ) فهو مختص بالمنافقين ، ولا يبعد أن يكون أول الآية
عاما وآخرها خاصا .وعلى هذا التقدير يجب أن يكون المراد بالقليل المؤمنين
وعلى كلا التقديرين : فإن الآية الكريمة تدل على أن الله - تعالى - لم.
يكلف هذه الأمة إلا بما تستطيعه ، لأنه - سبحانه - لو كلف الناس جميعا
بالتكاليف الشاقة ، لما استطاع أن يقوم بها إلا عدد قليل منهم ، وهذا الدين
لم يجئ لهذا العدد القليل من الناس وإنما جاء للناس جميعا .والمراد : أننا
لم نكتب على الناس قتل أنفسهم أو خروجهم من ديارهم لأننا لو فعلنا ذلك لما
استطاعه إلا عدد قليل منهم . وإنما الذى كتبناه عليهم هو طاعة الرسول صلى
الله عليه وسلم والخضوع لحكمه فى الظاهر والباطن والاستجابة لتوجيهاته فى
السر والعلن .فالمقصود من الآية الكريمة بيان لمظهر من مظاهر فضل الله على
- هذه الأمة ، ورحمته بها ، وتحريض الناس على الامتثال لشريعة الله - تعالى
والضمير فى قوله ( مَّا فَعَلُوهُ ) للمكتوب عليهم الشامل للقتل والخروج.
من الديار . لدلالة قوله ( كَتَبْنَا ) عليه .وقوله " قليل " مرفوع على أنه
بدل من الواو فى قوله ( فَعَلُوهُ ) والتقدير : ما فعله أحد إلا قليل منهم
وقرأه ابن عامر بالنصب على الاستثناء . والأول أولى ، لأنه استثناء من .
كلام تام غير موجب فيترجح الرفع .قال ابن كثير : لما نزلت ( وَلَوْ أَنَّا
، كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ ) . . . الآية . . قال رجل : لو أمرنا لفعلنا
والحمد لله الذى عافانا . فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فقال : " إن
من أمتى رجالا ، الإيمان أثبت فى قلوبهم من الرواسى " .وعن عامر بن عبد
: الله بن الزبير أن هذه الآية لما نزلت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
لو نزلت لكان ابن أم عبد منهم " - أى : لو فرض ذلك لكان عبد الله بن "
مسعود من الذين يفعلونه ." وعن شريح بن عبيد قال : لما تلا رسول الله صلى
الله عليه وسلم هذه الآية ، أشار بيده إلى عبد الله بن رواحة فقال : " لو
أن الله كتب ذلك ، لكان هذا من أولئك القليل " " .وقوله : ( وَلَوْ
أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ
وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً ) بيان للنتائج الطيبة التى تترتب على امتثالهم لأمر
الله .أى : ولو ثبت أن هؤلاء الذين أمرناهم بطاعتنا ( أَنَّهُمْ فَعَلُواْ
مَا يُوعَظُونَ بِهِ ) أى : ما أمرناهم به من اتباع لرسولنا صلى الله عليه
وسلم وانقياد لحكمه ، لأنه الصادق المصدوق الذى لا ينطق عن الهوى . .لو ثبت
. أنهم فلعوا ذلك لكان ما فعلوه ( خَيْراً لَّهُمْ ) فى دنياهم وآخرتهم
ولكان ( وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً ) لهم على الحق والصواب ، وأمنع لهم من
. الضلال

واذا لاتيناهم من لدنا اجرا عظيما

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما لهم بعد ذلك من أجر عظيم فقال
وَإِذاً لآتَيْنَاهُمْ مِّن لَّدُنَّآ أَجْراً عَظِيماً وَلَهَدَيْنَاهُمْ
صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً ) .أى : وإذا لو ثبتوا على طاعتنا لأعطيناهم من
عندنا ثوابا عظيما لا يعرف مقداره إلا الله - تعالى - ولتقلبناهم وأرشدناهم

إلى سلوك الطريق المستقيم وهو طريق الإسلام الذى باتباعه يسعدون فى دنياهم وآخرتهم .قال صاحب الكشاف : وقوله " وإذا " جواب لسؤال مقدر ، كأنه قيل : وماذا يكون لهم أيضا بعد التثبيت؟ فقيل : وإذا لو ثبتوا ( لآتَيْنَاهُمْ ) لأن إذا جواب وجزاء .وقد فخم - سبحانه - هذا العطاء بعدة أمور منها : أنه ذكر - سبحانه - نفسه بصيغة العظمة ( لآتَيْنَاهُمْ مِّن لَّدُنَّآ ) وَلَهَدَيْنَاهُمْ ) والمعطى الكريم إذا ذكر نفسه باللفظ الدال على العظمة عند الوعد بالعطية ، دل ذلك على عظمة تلك العطية .ومنها : أن قوله ( مِّن لَّدُنَّآ ) يدل على التخصيص أى : لآتيناهم من عندنا وحدنا لا من عند غيرنا وهذا التخصيص يدل على المبالغة والتشريف ، لأنه عطاء من واهب النعم ومن له الخلق والأمر كما فى قوله - تعالى - ( وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً ) ومنها : أنه - سبحانه - وصف هذا الأجر المعطى بالعظمة بعد أن جاء به منكرا ، وهذا الأسلوب يدل على أن هذا العطاء غير محدود بحدود ، وأنه قد بلغ أقصى ما يتصوره العقل من جلال فى كمه وفى كيفه . ( ذَلِكَ فَضْلُ الله يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ والله ذُو الفضل العظيم ) هذا ، وبذلك ترى أن الآيات الكريمة - من قوله - تعالى -( أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين يَزْعُمُونَ ( أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَآ أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ إلى هنا - قد بينت ما عليه المنافقون من فسوق وعصيان ، وحكت معاذيرهم الكاذبة ، وصورت نفورهم من حكم الله تصويرا بليغا ، وكشفت عن أوالهم ورذائلهم بأسلوب يدعو العقلاء إلى احتقارهم وهجرهم ، وأرشدت إلى أنجع الوسائل لعلاجهم؛ وفتحت لهم باب التوبة حتى يثوبوا إلى رشدهم ، ويطهروا نفوسهم من السوء والفحشاء ، ووضحت جانبا من مظاهر اليسر والتخفيف التى تفضل بها - سبحانه - على الأمة الإسلامية ، ووعدت الذين يستجيبون لله ولرسوله بالثواب الجزيل ، وتوعدت الذين يتركون حكم الله إلى حكم غيره بالعذاب الأليم ، ووصفتهم بعدم الإيمان .وقد أفاض بعض المفسرين عند تفسيره لهذه الآيات فى بيان سوء حال من يتحاكم إلى غير شريعة الله ، وساقوا أمثلة متعددة لشدة تمسك السلف الصلاح بهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم .ومن ذلك قول الفخر الرازى : قال القاضى : يجب أن يكون التحاكم إلى هذا الطاغوت كالكفر . وعدم الرضا بحكم محمد صلى الله عليه وسلم كفر ويدل عليه وجوه الأول : أنه - تعالى - قال ( يُرِيدُونَ أن يتحاكموا إلى الطاغوت: وَقَدْ أمروا أن يَكْفُرُواْ بِهِ ) . فجعل التحاكم إلى الطاغوت يكون إيمانا به .ولا شك أن الإيمان بالطاغوت كفر بالله . كما ان الكفر بالطاغوت إيمان بالله .الثانى : قوله تعالى - : ( فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ ) حتى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ) . . إلى قوله وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً ) . وهذا نص فى تكفير من لم يرض بحكم الرسول صلى الله عليه وسلم .الثالث : قوله - تعالى - ( فَلْيَحْذَرِ الذين يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ) وهذا يدل على أن مخالفته معصية عظيمة .وفى هذه الآيات دلائل على أن من رد شيئا من أوامر الله أو أوامر رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو خارج عن الإسلام . سواء رده من جهة الشك أو من جهة التمرد . وذلك يوجب صحة ما ذهبت الصحابة إليه من الحكم بارتداد ما نعى الزكاة وقتلهم وسبى ذراريهم .وقال الشيخ جمال الدين القاسمى : قال ولى الله التبريزى . روى الإمام مسلم - بسنده - عن بلال بن عبد الله بن عمر عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تمنعوا النساء حظوظهن من المساجد إذا استأذنكم : فقال بلال : والله لمنعنهن . فقال عبد الله : أقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . وتقول أنت : لنمنعهن "وفى رواية سالم عن أبيه قال : فأقبل عليه عبد الله فسبه سبا ما سمعته سبه مثله قط . وقال : أخبرك عن رسول الله ، وتقول : والله لمنعهن .وفى رواية للإمام أحمد أنه ما كلمه حتى مات .فأنت ترى أن ابن عمر - رضى الله عنه - لشدة تمسكه بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قد غضب لله ورسوله . وهجر فلذة كبده ، لتلك الزلة .وقال الإمام الشافعى : أخبرنا أبو حنيفة بن سماك بن الفضل الشهابى قال : حدثنى ابن أبى ذئب عن المقبرى عن أبى شريح الكعبى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال عام الفتح :" من قتل له قتيل فهو بخير النظرين . إن أحب أخذ العقل وإن أحب فله القود " قال أبو حنيفة : فقلت لابن أبى ذئب . أتأخذ بهذا يا أبا الحارث؟ فضرب صدرى وصاح على صياحا كثيرا ونال منى وقال : أحدثك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقول أتأخذ به؟ نعم . آخذ به . وذلك الفرض على وعلى من سمعه . إن الله - تعالى - قد اختار محمدا صلى الله عليه وسلم من الناس فهداهم به وعلى يديه . واختار لهم ما اختار له وعلى لسانه . فعلى الخلق أن يتبعوه لا مخرج لمسلم . وما سكت حتى تمنيت أن يسكت .وقال الإمام ابن القيم : والذى ندين الله به ، ولا يسعنا غيره أن الحديث إذا صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يصح عنه حديث آخر ينسخه ، أن الفرض علينا وعلى الأمة بحديث وترك لك ما خالفه .ولا نتركه لخلاف أحد من الناس كائنا من كان لا رواية ولا غيره . إذ من الممكن أن يسنى الراوى الحديث ولا يحضره وقت الفتيا . أولا يتفطن لدلالته على تلك المسألة . أو يتأول فيه تأويلا مرجوحا أو يقوم فى ظنه ما يعارضه ولا يكون معارضا فى نفس الأمر . أو يقلد غيره .

فى فتواه بخلافه لاعتقاده أنه أعلم منه ، وأنه إنما خالفه لما هو أقوى منه
فالله - تعالى - علق سعادة الدارين بمتابعته صلى الله عليه وسلم وجعل .
شقاوة الدارين فى مخالفته .وهكذا نرى أن السلف الصالح كانوا يتمسكون بسنة
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أشد التمسك ، ويهجرون كل من خالفها ، ولم
يقيد نفسه بها .

ولهديناهم صراطا مستقيما

`<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html} كما فسرها الوسيط

ثم بين - سبحانه - ما لهم بعد ذلك من أجر عظيم فقال : ( وَإِذاً
لآتَيْنَاهُمْ مِّن لَّدُنَّآ أَجْراً عَظِيماً وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً
مُّسْتَقِيماً ) .أى : وإذا لو ثبتوا على طاعتنا لأعطيناهم من عندنا ثوابا
عظيما لا يعرف مقداره إلا الله - تعالى - ولتقلبناهم وأرشدناهم إلى سلوك
الطريق المستقيم وهو طريق الإسلام الذى باتباعه يسعدون فى دنياهم وآخرتهم
قال صاحب الكشاف : وقوله " وإذا " جواب لسؤال مقدر ، كأنه قيل : وماذا.
يكون لهم أيضا بعد التثبيت؟ فقيل : وإذا لو ثبتوا ( لآتَيْنَاهُمْ ) لأن
- إذا جواب وجزاء .وقد فخم - سبحانه - هذا العطاء بعدة أمور منها : أنه ذكر
) سبحانه - نفسه بصيغة العظمة ( لآتَيْنَاهُمْ مِّن لَّدُنَّآ )
وَلَهَدَيْنَاهُمْ ) والمعطى الكريم إذا ذكر نفسه باللفظ الدال على العظمة
عند الوعد بالعطية ، دل ذلك على عظمة تلك العطية .ومنها : أن قوله ( مِّن
لَّدُنَّآ ) يدل على التخصيص أى : لآتيناهم من عندنا وحدنا لا من عند غيرنا
وهذا التخصيص يدل على المبالغة والتشريف ، لأنه عطاء من واهب النعم وممن .
له الخلق والأمر كما فى قوله - تعالى - ( وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا
عِلْماً ) ومنها : أنه - سبحانه - وصف هذا الأجر المعطى بالعظمة بعد أن جاء
به منكرا ، وهذا الأسلوب يدل على أن هذا العطاء غير محدود بحدود ، وأنه قد
بلغ أقصى ما يتصوره العقل من جلال فى كمه وفى كيفه . ( ذَلِكَ فَضْلُ الله
يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ والله ذُو الفضل العظيم ) هذا ، وبذلك ترى أن الآيات
الكريمة - من قوله - تعالى -( أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين يَزْعُمُونَ
( أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَآ أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ
إلى هنا - قد بينت ما عليه المنافقون من فسوق وعصيان ، وحكت معاذيرهم .
الكاذبة ، وصورت نفورهم من حكم الله تصويرا بليغا ، وكشفت عن أوالهم
ورذائلهم بأسلوب يدعو العقلاء إلى احتقارهم وهجرهم ، وأرشدت إلى أنجع
الوسائل لعلاجهم؛ وفتحت لهم باب التوبة حتى يثوبوا إلى رشدهم ، ويطهروا
نفوسهم من السوء والفحشاء ، ووضحت جانبا من مظاهر اليسر والتخفيف التى تفضل
بها - سبحانه - على الأمة الإسلامية ، ووعدت الذين يستجيبون لله ولرسوله
بالثواب الجزيل ، وتوعدت الذين يتركون حكم الله إلى حكم غيره بالعذاب
الأليم ، ووصفتهم بعدم الإيمان .وقد أفاض بعض المفسرين عند تفسيره لهذه
الآيات فى بيان سوء حال من يتحاكم إلى غير شريعة الله ، وساقوا أمثلة
متعددة لشدة تمسك السلف الصلاح بهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم .ومن ذلك
قول الفخر الرازى : قال القاضى : يجب أن يكون التحاكم إلى هذا الطاغوت
كالكفر . وعدم الرضا بحكم محمد صلى الله عليه وسلم كفر ويدل عليه وجوه
الأول : أنه - تعالى - قال ( يُرِيدُونَ أَن يتحاكموا إِلَى الطاغوت:
وَقَدْ أمروا أَن يَكْفُرُواْ بِهِ ) . فجعل التحاكم إلى الطاغوت يكون
إيمانا به .ولا شك أن الإيمان بالطاغوت كفر بالله . كما ان الكفر بالطاغوت
إيمان بالله .الثانى : قوله تعالى - : ( فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ
) حتى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ) . . إلى قوله
وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً ) . وهذا نص فى تكفير من لم يرض بحكم الرسول
صلى الله عليه وسلم .الثالث : قوله - تعالى - ( فَلْيَحْذَرِ الذين
يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ) وهذا يدل على أن مخالفته معصية عظيمة .وفى هذه الآيات
دلائل على أن من رد شيئا من أوامر الله أو أوامر رسول الله صلى الله عليه
وسلم فهو خارج عن الإسلام . سواء رده من جهة الشك أو من جهة التمرد . وذلك
يوجب صحة ما ذهبت الصحابة إليه من الحكم بارتداد ما نعى الزكاة وقتلهم وسبى
ذراريهم .وقال الشيخ جمال الدين القاسمى : قال ولى الله التبريزى . روى
الإمام مسلم - بسنده - عن بلال بن عبد الله بن عمر عن أبيه قال : قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم : "لا تمنعوا النساء حظوظهن من المساجد إذا
استأذنكم : فقال بلال : والله لمنعنهن . فقال عبد الله : أقول : قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم . وتقول أنت : لنمنعهن "وفى رواية سالم عن أبيه
قال : فأقبل عليه عبد الله فسبه سبا ما سمعته سبه مثله قط . وقال : أخبرك
عن رسول الله ، وتقول : والله لمنعهن .وفى رواية للإمام أحمد أنه ما كلمه
حتى مات .فأنت ترى أن ابن عمر - رضى الله عنه - لشدة تمسكه بسنة رسول الله
صلى الله عليه وسلم قد غضب لله ورسوله . وهجر فلذة كبده ، لتلك الزلة .وقال
الإمام الشافعى : أخبرنا أبو حنيفة بن سماك بن الفضل الشهابى قال : حدثنى

ابن أبى ذئب عن المقبرى عن أبى شريح الكعبى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال عام الفتح :" من قتل له قتيل فهو بخير النظرين . إن أحب أخذ العقل وإن أحب فله القود " قال أبو حنيفة : فقلت لابن أبى ذئب . أتأخذ بهذا يا أبا الحارث؟ فضرب صدرى وصاح على صياحا كثيرا ونال منى وقال : أحدثك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقول أتأخذ به؟ نعم . آخذ به . وذلك الفرض على وعلى من سمعه . إن الله - تعالى - قد اختار محمدا صلى الله عليه وسلم من الناس فهداهم به وعلى يديه . واختار لهم ما اختار له وعلى لسانه . فعلى الخلق أن يتبعوه لا مخرج لمسلم . وما سكت حتى تمنيت أن يسكت .وقال الإمام ابن القيم : والذى ندين الله به ، ولا يسعنا غيره أن الحديث إذا صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يصح عنه حديث آخر ينسخه ، أن الفرض علينا وعلى الأمة بحديث وترك لك ما خالفه .ولا نتركه لخلاف أحد من الناس كائنا من كان لا رواية ولا غيره . إذ من الممكن أن يسنى الراوى الحديث ولا يحضره وقت الفتيا . أولا يتفطن لدلالته على تلك المسألة . أو يتأول فيه تأويلا مرجوحا أو يقوم فى ظنه ما يعارضه ولا يكون معارضا فى نفس الأمر . أو يقلد غيره فى فتواه بخلافه لاعتقاده أنه أعلم منه ، وأنه إنما خالفه لما هو أقوى منه فالله - تعالى - علق سعادة الدارين بمتابعته صلى الله عليه وسلم وجعل . شقاوة الدارين فى مخالفته .وهكذا نرى أن السلف الصالح كانوا يتمسكون بسنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أشد التمسك ، ويهجرون كل من خالفها ، ولم يقيد نفسه بها .

ومن يطع الله والرسول فاولئك مع الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن اولئك رفيقا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه بعد ذلك الثواب العظيم الذى أعده للطائعين من عباده فقال : ( وَمَن يُطِعِ . . . عَلِيماً ) .روى المفسرون فى سبب نزول هاتين الآيتين روايات منها ما أخرجه ابن جرير عن سعيد بن جبير . قال : " جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو محزون فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : يا فلان مالى أراك محزونا؟ فقال الرجل يا نبى الله شئ فكرت فيه . فقال ما هو؟ قال : نحن نغدو عليك ونروح ننظر : إلى وجهك ونجالسك . وغدا ترفع مع النبين فلا نصل إليك . فلم يرد النبى صلى الله عليه وسلم شيئا . فأتاه جبريل بهذه الآية . ( وَمَن يُطِعِ الله والرسول ) " . الخ .قال : فبعث إليه النبى صلى الله عليه وسلم فبشره والمعنى : ( وَمَن يُطِعِ الله ) بالانقياد لأمره ونهيه ، ويطع ( والرسول. فى كل ما جاء به من ربه " فأولئك " المطيعون ( مَعَ الذين أَنْعَمَ الله ( ) : عَلَيْهِم ) بالنعم التى تقصر العبارات عن تفصيلها وبيانها .وقوله مِّنَ النبيين والصديقين والشهدآء والصالحين ) بيان للمنعم عليهم الذين - سيكون المطيع فى صحبتهم ورفقتهم .أى : فأولئك المتصفون بتمام الطاعة لله تعالى - ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، يكونون يوم القيامة فى صحبة الأنبياء الذين أرسلهم مبشرين ومنذرين؛ فبلغوا رسالته ونالوا منه - سبحانه - أشرف المنازل .وبدأ - سبحانه - بالنبيين لعلو درجاتهم ، وسمو منزلتهم على من عداهم من البشر .وقوله ( والصديقين ) جمع صديق وهم الذين صدقوا بكل ما جاء ، به الرسول صلى الله عليه وسلم تصديقا لا يخالجه شك ، ولا تحوم حوله ريبة وصدقوا فى دفاعهم عن عقيدتهم تمسكهم بها ، وسارعوا إلى ما يرضى الله بدون تردد أو تباطؤ .وقوله ( والشهدآء ) جمع شهيد . وهم الذين استشهدوا فى سبيل الله ، ومن أجل إعلاء دينه وشريعته .وقوله ( والصالحين ) جمع صالح . وهم الذين صلحت نفوسهم ، واستقامت قلوبهم وأدوا ما يجب عليهم نحو خالقهم ونحو أنفسهم ونحو غيرهم .هؤلاء هم الأخيار الأطهار الذين يكون المطيعون لله ولرسوله فى رفقتهم وصحبتهم . قال الفخر الرازى : " وليس المراد بكون من ، أطاع الله وأطاع الرسول مع النببين والصديقين . . كون الكل فى درجة واحدة لأن هذا يقتضى التسوية فى الدرجة بين الفاضل والمفضول . وأنه لا يجوز . بل المراد كونهم فى الجنة بحيث يتمكن كل واحد منهم من رؤية الآخر ، وإن بعد المكان ، لأن الحجاب إذا زال شاهد بعضهم بعضا : وإذا أرادوا الزيارة والتلاقى قدروا عليه . فهذا هو المراد من هذه المعية .ثم قال : وقد دلت الآية على أنه لا مرتبة بعد النبوة فى الفضل والعلم إلا هذا الوصف . وهو كون الإنسان صديقا ولذا أينما ذكر فى القرآن الصديق والنبى لم يجعل بينهما واسطة كما قال - تعالى - فى صفة إدريس( إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً وقوله - تعالى ( وَحَسُنَ أولئك رَفِيقاً ) تذييل مقرر لما قبله مؤكد ( ) للترغيب فى العمل الصالح الذى يوصل المسلم إلى صحبة هؤلاء الكرام .وقوله وَحَسُنَ ) فعل مراد به المدح ملحق بنعم . ومضمن معنى التعجب من حسنهم واسم الإشارة ( أولئك ) يعود إلى كل صنف من هذه الأصناف الأربعة وهم. النبيون ومن بعدهم .والرفيق : هو المصاحب الذى يلازمك فى عمل أو سفر أو غيرهما . وسمى رفيقا لأنك ترافقه ويرافقك ويستعين كل واحد منكما بصاحبه فى قضاء شئونه . وهو مشتق من الرفق بمعنى لين الجانب ، ولطف المعاشرة .ولم يجمع ، لأن صيغة فعيل يستوى فيها الواحد وغيره .والمعنى وحسن كلو احد من

أولئك الأخيار - وهم الأنبياء ومن بعدهم - رفيقا ومصاحبا فى الجنة لأن رفقة كل واحد منهم تشرح الصدور ، وتبهج النفوس .والمخصوص بالمدح محذوف أى : كل واحد من المذكورين رفيقا أو وحسن المذكورون أو الممدحون رفيقا ، لأن حسن لها حكم نعم .وقوله ( أولئك ) فاعل حسن . ورفيقا تمييز .قال صاحب الكشاف وقوله ( وَحَسُنَ أولئك رَفِيقاً ) فيه معنى التعجب كأنه قيل : وما أحسن أولئك رفيقا . ولاستقلاله بمعنى التعجب قرئ وحسن بسكون السين .

ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما

كما فسرها الوسيط واسم الإشارة ( ذلك ) فى قوله ( ذلك الفضل مِنَ الله ) يعود إلى ما ثبت للمطيعين من أجر جزيل ، ومزيد هداية ، وحسن رفقة . وهو : مبتدأ . وقوله ( الفضل ) صفته ، والجار والمجرور متعلق بمحذوف خبره . أى ذلك الفضل العظيم كائن من الله - تعالى - لامن غيره .وقوله ( وكفى بالله عَلِيماً ) تذييل قصد به الإشارة إلى أن أولئك الأخيار . الذين قدموا أحسن - الأعمال ، واستحقوا أفضل الجزاء ، وإن لم يعلمهم الناس فإن الله - تعالى يعلمهم ، وقد كافأهم بما يستحقون .أى : كفى به - سبحانه - عليما بمن يستحق فضله وعطاءه وبمن لا يستحق ، فهو - سبحانه - ما دام يعلم أحوال عباده وسيحاسبهم على أعمالهم ، فجدير بالعاقل أن يرغب فى الطاعة وأن ينفر من المعصية .هذا ، وقد وردت أحاديث كثيرة تشير إلى أن المؤمنين الصادقين سيكونون يوم القيامة مع أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .ومن هذه الأحاديث ما أخرجه الإمام مسلم فى صحيح " عن ربيعة بن كعب الأسلمى أنه قال . كنت أبيت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأتيته بوضوئه وحاجته فقال لى . ( سل ) . فقلت أسألك مرافقتك فى الجنة " فقال أو غير ذلك؟ قلت : هو ذاك . قال : فأعنى على نفسك بكثرة السجود ومنها ما رواه الإمام عن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه أن رسول الله صلى. الله عليه وسلم قال : " من قرأ ألف آية فى سبيل الله ، كتب يوم القيامة مع النبين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا " .ومنها ما رواه " الترمذى عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء " .قال ابن كثير وأعظم من هذا كله بشارة ، ما ثبت فى الصحيح والمساند وغيرهما من طرق متواترة عن جماعة من الصحابة " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم؟ فقال " المرء مع من أحب " " .قال أنس : فما فرح المسلمون فرحهم بهذا الحديث .وبذلك نرى أن هاتين الآيتين الكريمتين قد بشرتا المطيعين لله ولرسوله بأحسن البشارات ، وأرفع الدرجات .ثم وجهت السورة الكريمة نداء إلى المؤمنين أمرتهم فيه بالاستعداد للجهاد فى سبيل الله من أجل إعلاء كلمته ، بعد أن أمرتهم قبل ذلك بطاعته وبطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال - تعالى - : ( يَا أَيُّهَا الذين . . . فَوْزاً عَظِيماً ) .

يا ايها الذين امنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات او انفروا جميعا

كما فسرها الوسيط قال القرطبى : قوله - تعالى - ( يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ ) هذا خطاب للمؤمنين المخلصين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأمر لهم بجهاد الكفار والخروج فى سبيل الله ، وحماية الشرع .ووجه النظم والاتصال بما قبله أنه لما ذكر طاعة الله وطاعة رسوله أمر أهل الطاعة بالقيام بإحياء دينه وإعلاء دعوته . وأمرهم ألا يقتحموا على عدوهم حتى يتحسسوا إلى ما عندهم ، ويعلموا كيف يردون عليهم ، فذلك أثبت لهم فقال " خذوا حذركم " فعلمهم مباشرة الحروب . ولا ينافى هذا التوكل بل هو عين التوكل . .والحِذْر والحذَر واحد كالإثر والأثر . يقال : أخذ فلان حذره ، إذا تيقظ واحترز ما يخشاه ويخافه . فكأنه جعل الحذر آلته التى بقى بها نفسه ويعصم بها روحه . فالكلام على سبيل الكناية والتخيل . بتشبيه الحذر بالسلاح وآلة الوقاية .والمعنى : استعدوا - أيها المؤمنون - لأعدائكم ، وكونوا على يقظة منهم ، وكونوا متأهبين للقائهم دائماً بالإيمان القوى ، وبالسلاح الذى يفل سلاحهم .هذا ، وللأستاذ الإمام محمد عبده كلام حسن فى هذا المعنى ، فقد قال - رحمه الله - ما ملخصه : " الحذر : الاحتراس والاستعداد لاتقاء شر العدو ، وذلك بأن نعرف حال العدو ومبلغ استعداده وقوته ومعرفة أرضه وبلاده وفى أمثال العرب ( قتلت أرض جاهلها ) . ويدخل فى الحذر والاستعداد معرفة الأسلحة وكيفية استعمالها فكل ذلك وغيره يدخل تحت الأمر بأخذ الحذر .وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه عارفين بأرض عدوهم ، وكان للنبى صلى الله عليه وسلم جواسيس يأتونه بأخبار مكة ، ولما أخبروه بنقض قريش للعهد استعد لفتحها ، وقال أبو بكر لخالد يوم حرب اليمامة وهذه . ( حاربهم بمثل ما يحاربونك به : السيف بالسيف ، والرمح بالرمح ) كلمة جليلة فالقول وعمل النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، كل ذلك دال على أن الاستعداد يختلف باختلاف حال العدو وقوته .فأنت ترى أن هذه الجملة

الكريمة ( خُذُواْ حِذْرَكُمْ ) دعوة للمؤمنين فى كل زمان ومكان إلى حسن الاستعداد لمجابهة أعدائهم بشتى الأساليب وبمختلف الوسائل التى تجعل الأمة الإسلامية يرهبها أعداؤها سواء أكانوا فى داخلها أم فى خارجها .وقوله ) فانفروا ثُبَاتٍ أوِ انفروا جَمِيعاً ) تفريع على أخذ الحذر؛ لأنهم إذا أخذوا حذرهم ، عرفوا كيف يتخيرون أسلوب القتال المناسب لحال أعدائهم وقوله - من النفر وهو الخروج إلى عمل من الأعمال بسرعة . ومنه قوله ( فانفروا ) تعالى - ( وَمَا كَانَ المؤمنون لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدين وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رجعوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ والمراد بقوله ( فانفروا ) هنا : أى اخرجوا إلى قتال أعدائكم بهمة ونشاط ( ويقال : نفر القوم ينفرون نفرا ونفيرا إذا نهضوا لقتال عدوهم .واستنفر. " الإمام الناس إذا حضهم على جهاد أعدائهم ومنه قوله صلى الله عليه وسلم ) وإذا استنفرتم فانفروا " والنفير . اسم للقوم الذين ينفرون .وقوله ثُبَاتٍ ) جمع ثبة وهى الجماعة والعصبة من الفرسان . مأخوذة من ثبا يثبوا أى اجتمع .والمعنى . عليكم - أيها المؤمنون - أن تكونوا دائما على استعداد للقاء أعدائكم ، ولا تغفلوا عن كيدهم . فإذا ما حان الوقت لقتالهم فاخرجوا ، إليهم مسرعين جماعة فى إثر جماعة؛ أو فاخرجوا إليهم مجتمعين فى جيش واحد فإن قتالكم لأعداكم أحيانا يتطلب خروجكم فرقة بعد فرقة ، وأحيانا يتطلب خروجكم مجتمعين ، فاسلكوا فى قتالكم لأعدائكم الطريقة المناسبة لدحرهم ) والتغلب عليهم .وقوله ( ثُبَاتٍ ) منصوب على الحال من الضمير فى قوله انفروا ) وكذلك قوله ( جَمِيعاً ) أى انفروا متفرقين أو انفروا مجتمعين أى ) ليكن نفوركم على حسب ما تقتضيه طبيعة المعركة .قال الآلوسى : قوله ، أوِ انفروا جَمِيعاً ) أى مجتمعين جماعة واحدة . ويسمى الجيش إذا اجتمع ولم ينتشر كتيبة . وللقطعة المنتخبة المقتطعة منه سرية وهى من خمسة أنفس إلى ثلثمائة أو أربعمائة . وما زاد على السرية فمنسر - كمجلس ومنبر - إلى . الثمانمائة . فإن زاد يقال له جيش إلى أربعة آلاف .فإن زاد يسمى جحفلا فإن يسمى خميسا وهو الجيش العظيم . وما افترق من السرية يسمى بعثا . والآية وإن نزلت فى الحرب لكن فيها إشارة إلى الحق على المبادرة إلى الخيرات كلها . كيفما أمكن قبل الفوات

وان منكم لمن ليبطئن فان اصابتكم مصيبة قال قد انعم الله علي اذ لم اكن معهم شهيدا

كما فسرها الوسيط ثم كشف - سبحانه - عن فساد المنافقين وضعاف الإيمان فقال أى : ليتأخرن وليتثاقلن عن ( وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ ) : الجهاد . من " بطأ " - بالتشديد - بمعنى أبطأ فهو فعل لازم . وقد يستعمل : أبطأ وبطأ - بالتشديد - متعديين ، وعليه يكون المفعول هنا محذوف أى ليبطئن غيره ويثبطه عن الخروج للجهاد فى سبيل الله .وقد جمع المنافقون وضعاف الإيمان بين الأمرين : فقد كانوا يتخلفون عن الجهاد فى سبيل الله وينتحلون المعاذير الكاذبة لتخلفهم ، ولا يكتفون بذلك بل يحاولون منع غيرهم عن الخروج للجهاد .والتعبير بقوله ( لَّيُبَطِّئَنَّ ) تعبير فى أسمى درجات البلاغة والروعة ، لأنه يصور الحركة النفسية للمنافقين وضعاف الإيمان وهم يشدون أنفسهم شدا ، ويقدمون رجلا ويؤخرون أخرى عندما يدعوهم داعى الجهاد إلى الخروج من أجل إعلاء كلمة الله .وقد اشتملت الجملة الكريمة على جملة مؤكدات ، للاشعار بأن هؤلاء المنافقين لا يتركون فرصة تمردون أن يبثوا ، سمومهم بنشاط وإصرار ، وأنهم حريصون كل الحرص على توهين عزائم المجاهدين ) وحملهم على أن يكونوا مع القاعدين كما هو شأن المنافقين .والمراد بقوله مِنْكُمْ ) أى من جنسكم وممن يعيشون معكم ويساكنونكم ، ويرتبطون معكم برباط القرابة ، ويتظاهرون بالإسلام ، فلقد كان المنافقون فى المدينة تربطهم روابط متعددة بالمؤمنين الصادقين ، كما هو معروف فى التاريخ الإسلامى فمثلا عبد الله بن أبى بن سلول - زعيم المنافين - كان أحد أبنائه من. المؤمنين الصادقين .وقد وجه القرآن الخطاب إلى المؤمنين لكى يكشف لهم عن المنافقين المندسين فى صفوفهم لكى يحذروهم .قال صاحب الكشاف : واللام فى قوله ( لَمَن ) للابتداء بمنزلتها فى قوله ( إِنَّ الله لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ وفى ( لَّيُبَطِّئَنَّ ) جواب قسم محذوف تقديره : وإن منكم لمن أقسم ( بالله ليبطئن وجوابه صلة من والضمير الراجع منها يعود إلى ما استكن فى ) لَّيُبَطِّئَنَّ ) . والخطاب لعسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم .وقوله فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ الله عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَّعَهُمْ شَهِيداً ) بيان لما انطوت عليه نفوس المنافقين من - فساد ، وما نطقت به ألسنتهم من سوء .أى : وإن من المتظاهرين بأنهم منكم يا معشر المؤمنين - لمن يتثاقلون عن القتال ويعملون على أن يكون غيرهم مثلهم ، ( فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ ) يا معشر المؤمنين ( مُّصِيبَةٌ ) كهزيمة وقتية ، أو استشهاد جماعة منكم ( قَالَ ) هذا المنافق على سبيل الفرح ) والتشفى ( قَدْ أَنْعَمَ الله عَلَيَّ ) أى : قد أكرمنى الله بالقعود

إِذْ لَمْ أَكُنْ مَّعَهُمْ شَهِيداً ) أى حاضرا فى المعركة ، لأنى لو كنت حاضرا معهم لأصابنى ما أصابهم من القتل أو الجراح أو الآلام .فالآية الكريمة تحكى عن المنافقين أنهم يعتبرون قعودهم عن الجهاد نعمة ، وإذا ما أصاب المؤمنين مصيبة عند قتالهم لأعدائهم .

ولئن اصابكم فضل من الله ليقولن كان لم تكن بينكم وبينه مودة يا ليتني كنت معهم فافوز فوزا عظيما

كما فسرها الوسيط أما إذا كانت الدولة للمؤمنين ، وظفروا بالغنائم ، فهنا يتمنى المنافقون أن لو كانوا معم لينالوا بعض هذه الغنائم ، واستمع إلى القرآن وهو يحكى عنهم ذلك فيقول : ( وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يالَيتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً ) .أى : ( وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ ) يا معشر المؤمنين ( فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ ) كفتح وغنيمة ونصر وظفر ( لَيَقُولَنَّ ) هذا المنافق على سبيل الندامة والحسرة والتهالك على حطام الدنيا ، حالة كونه ( كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ ) ليقولن : ( يالَيتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ ) عندما خرجوا للجهاد ( فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً ) بأن أحصل كما حصلوا على الغنائم الكثيرة .وهذا - كما يقول ابن جرير - خبر من الله - تعالى - ذكره عن هؤلاء المنافقين ، أن شهودهم الحرب مع المسلمين - إن شهدوها - إنما هو لطلب الغنيمة وإن تخالفوا عنها فللشك الذى فى قلوبهم ، وأنهم لا يرجون لحضورها ثوابا ، ولا يخافون بالتخلف عنها من الله عقابا .وفى نسبة الفضل إلى الله فى قوله ( وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ ) دون إصابة المصيبة تعليم لحسن الأدب مع الله - تعالى - وإن كان سبحانه - هو الخالق لكل شئ ، فهو الذي يمنح الفضل لمن يشاء وهو الذى يمنعه عمن يشاء .وقوله ( كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ ) جملة معترضة بين فعل القول الذى هو ( لَيَقُولَنَّ ) وبين المقول الذى هو ( يالَيتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ ) .وقد جئ بها على سبيل التهكم والسخرية والتعجب من حال المنافقين ، لأنهم كان فى إمكانهم أن يخرجوا مع المؤمنين للقتال ، وأن ينالوا نصيبهم من الغنائم التى حصل عليها المؤمنون ، ولكنهم لم يخرجوا لسوء نواياهم ، فلما أظهروا التحسر لعدم الخروج بعد أن رأوا الغنائم فى أيدى المؤمنين كان تحسرهم فى غير موضعه؛ لأن الذى يتحسر على فوات شئ عادة هو من لا علم له به أو بأسبابه ، أما المنافقون فبسبب مخالطتهم وصحبتهم للمؤمنين كانوا على علم بقتال المؤمنين لأعدائهم ، وكان فى إمكانهم أن يخرجوا معهم .فكأن الله تعالى يقول للمؤمنين ، انظروا وتعجبوا من شأن هؤلاء المنافقين إنهم عندما أصابتكم مصيبة فرحوا : وعندما انتصرتم وأصبتم الغنائم تحسروا وتمنوا أن لو كانوا معكم حتى لكأنهم لا علم لهم بالقتال الذي دار بينكم وبين أعدائكم ، وحتى لكأنهم لا مخالطة ولا صحبة بينكم وبينهم مع أن علمهم بالقتال حاصل ، ومخالطتهم لكم حاصلة فلم يتحسرون؟ إن قولهم : ( ياليتني كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً ) ليدعوا إلى التعجب من أحوالهم ، والتحقير لسلوكهم ، والدعوة عليهم بأن يزدادوا حسرة على حسرتهم .وبذلك نرى أن الآيات الكريمة قد أمرت المؤمنين بحسن الاستعداد للقاء أعدائهم فى كل وقت ، وكشفت لهم عن رذائل المنافقين الذين إذا أصابت المؤمنين مصيبة فرحوا لها ، وإذا أصابهم فضل من الله تحسروا وحزنوا ، وفى هذا الكشف فضيحة للمنافقين ، وتحذير للمؤمنين من شرورهم .

فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالاخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل او يغلب فسوف نؤتيه اجرا عظيما

كما فسرها الوسيط وبعد هذا التوبيخ الشديد للمتثاقلين عن الجهاد ، أخذ القرآن الكريم فى استنهاض الهمم والعزائم للجهاد فى سبيل الله فقال - تعالى - : ( فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ . . .كَانَ ضَعِيفاً ) .والفاء فى قوله ( فَلْيُقَاتِلْ ) للإفصاح عن جواب شرط مقدر . أى إن أبطأ هؤلاء المنافقون والذين فى قلوبهم مرض وتأخروا عن الجهاد والقتال ، فليقاتل المؤمنون الصادقون الذين ( يَشْرُونَ ) أى يبيعون الحياة الدنيا بكل متعها وشهواتها من أجل الحصول على رضا الله - تعالى - فى الآخرة .وقوله ( فِي سَبِيلِ اللَّهِ ) تنبيه إلى أن هذا النوع من القتال هو المعتد به عند الله - تعالى - ، لأن المؤمن الصادق لا يقاتل من أجل فخر أو مغنم أو اغتصاب حق غيره ، وإنما يقاتل من أجل أن تكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا هى السفلى .وقوله ( وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ) بيان للثواب العظيم الذى أعده الله - تعالى - للمجاهدين .أى : ومن يقاتل فى سبيل الله ومن أجل علاء دينه ، فيستشهد ، أو يكون له النصر على عدوه ، فسوف نؤتيه أجرا عظيما لا يعلم مقداره إلا الله تعالى . . . وإنما اقتصر - سبحانه على بيان حالتين

بالنسبة للمقاتل وهى حالة الاستشهاد وحالة الغلبة على العدو ، للإشعار بأن المجاهد الصادق لا يبغى من جهاده إلا هاتين الحالتين ، فهو قد وطن نفسه حالة جهاده على الاستشهاد أو على الاتصال على أعداء الله ، ومتى وطن نفسه على ذلك فى قتاله ، وأخلص فى جهاده .وقدم - سبحانه - القتل على الغلب؛ للإيذان بأن حرص المجاهد المخلص على الاستشهاد فى سبيل الله ، أشد من حرصه على الغلب والنصر .والتعبير بسوف فى قوله ( فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ) لتأكيد الحصول على الأجر العظيم فى المستقبل .والجملة جواب الشرط وهو قوله ( وَمَن يُقَاتِلْ ) وقوله ( فَيُقْتَلْ ) تفريع على فعل الشرط .ونكر - سبحانه - الأجر ووصفه بالعظم ، للإشعار بأنه أجر لا يحده - تعالى - تعيين ، ولا يبينه تعريف ، ولا يعلم مقداره إلا الله - .

وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا اخرجنا من هذه القرية الظالم اهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا

كما فسرها الوسيط ثم حرض - سبحانه - المؤمنين على القتال بأبلغ أسلوب فقال : وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الله والمستضعفين مِنَ ) الرجال والنسآء والولدان ) .فالخطاب للمؤمنين المأمورين بالقتال على طريقة الالتفات ، مبالغة فى التحريض عليه ، وتأكيدا لوجوبه . و ( مَا ) اسم استفهام مبتدأ ، والجار والمجرور وهو ( لَكُمْ ) خبره .وجملة ( لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الله ) فى محل نصب على الحال ، والعامل فى هذه الحال الاستقرار المقدر أو الظرف لضمنه معنى الفعل .والمراد بالاستفهام : تحريضهم على الجهاد ، والإنكار عليهم فى تركه مع توفر دواعيه ، والمعنى : أى شئ جعلكم غير مقاتلين؟ إن عدم قتالكم لأعدائكم يتنافى مع إيمانكم ، أما الذى يتناسب مع إيمانكم وطاعتكم لله فهو أن تقاتلوا من أجل إعلاء كلمة الله ومن أجل المستضعفين من الرجال والنساء والولدان .فالآية الكريمة تحريض ، على الجهاد بأبلغ وجه ، ونفى للاعتذار عنه .والمراد بالمستضعفين : الضعفاء من الناس وهم المسلمون الذين بقوا فى مكة بعد هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، لعدم قدرتهم على الهجرة أو لمنع المشركين إياهم من الخروج .وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يدعو لهم فيقول : " اللهم أنج الوليد بن الوليد ، وسلمة بن هشام وعياش بن أبى ربيعة والمستضعفين من المؤمنين " .وقوله ( والمستضعفين ) معطوف على قوله ( فِي سَبِيلِ الله ) أى : قاتلوا فى سبيل الله وفى سبيل المستضعفين حتى تخلصوهم من ظلم المشركين لهم .وخصصهم بالذكر مع أن القتال فى سبيل الله يشملهم ، لمزيد العناية بشأنهم ، وللتحريض على القتال بحكم الشرف والمروءة بعد التحريض عليه بحكم الدين والتقرب إلى الله - تعالى - ، لأن مروءة الإنسان الكريم تحمله على نصرة الضعيف ، ومنع الاعتداء عليه .وقوله ( مِنَ الرجال والنسآء والولدان ) بيان لهؤلاء المستضعفين .أى : قاتلوا - أيها المؤمنين - من أجل إعلاء ، كلمة الله ونشره دينه ، ومن أجل نصرة المستضعفين من الرجال الذين صدهم المشركون عن الهجرة ، ومن النساء اللائى لا يملكن حولا ولا قوة . ومن الولدان الصغار الذين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم .وفى النص على هؤلاء المستضعفين وخصوصا النساء والولدان ، أقوى تحريض على الجهاد ، وأعظم وسيلة لإثارة الحماس والنخوة من أجل القتال ، لأنهم إذا تركوا هؤلاء المستضعفين أذلاء فى أيدى المشركين ، فانهم سيعيرون بهم ، وهذا ما يأباه كل شريف كريم ثم حكى - سبحانه - ما كان يقوله المستضعفين من الرجال والنساء والولدان. الذين يضرعون إلى الله قائلين : يا ربنا اخرجنا من هذه القرية التى ظلمنا أهلها بسبب شركهم وكفرهم ( واجعل لَّنَا مِن لَّدُنْكَ وَلِيّاً ) أى وسخر لنا من عندك حافظا يحفظ علينا ديننا ( واجعل لَّنَا مِن لَّدُنْكَ نَصِيراً ) أى : وسخر لنا من عندك كذلك ناصرا يدفع أذى أعدائنا ، فأنت الذى لا يذل . ( من استجار به ، ولا يضعف من كنت نصيره ووليه .والمراد بالقرية الظالم أهلها مكة . وقد وصف أهلها بأنهم ظالمون ، ولم توصف هى بأنها ظالمة كما وصف : غيرها من القرى كما فى قوله - تعالى - ( وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ) وذلك من باب التكريم لمكة ، إذ هى حرم الله الآمن؛ ولا يوصف حرم الله الأمن بالظلم ولو على سبيل المجاز .وقوله ( الظالم أَهْلُهَا ) صفة للقرية ، وأهلها مرفوع به على الفاعلية ، وأل فى الظالم موصولة بمعنى التى أى التى ظلم أهلها . فقوله ( الظالم ) جار على القرية لفظا ، وهو لما بعدها معنى نحو : مررت برجل حسن غلامه .وفى هذا النداء الذى تضرع به أولئك المستضعفون إلى خالقهم أسمى ألوان الأدب والإخلاص فهم يلتمسون منه - سبحانه - أن يخرجهم من بطش الظالمين وحكمهم ، وأن يجلعهم تابعين للقوم الذين يحبهم ، وهم المؤمنون ، وأن يهئ لهم النصر على أعدائهم وأعدائه .ولقد استجاب الله - تعالى - لهم دعاءهم ، حيث يسر لبعضهم الخروج إلى المدينة ، ورزق المؤمنين فتحا قريبا ، وإلى ذلك أشار صاحب الكشاف بقوله : " والمستضعفون هم الذين أسلموا بمكة وصدهم المشركون عن الهجرة فبقوا بين أظهرهم مستذلين . . . . وكانوا يعدون الله بالخلاص ويستنصرونه ، فيسر الله

لبعضهم الخروج إلى المدينة ، وبقى بعضهم إلى الفتح حتى جعل الله لهم من
، لدنه خير ولى وناصر وهو محمد صلى الله عليه وسلم فتولاهم أحسن التولى
ونصرهم أقوى النصر .فإن قلت : لم يذكر الولدان : قلت : تسجيلا بإفراط ظلمهم
حيث بلغ أذاهم الوالدان غير الكلفين ، إرغاما لآبائهم وأمهاتهم ، ومبغضة ،
لهم ، ولأن المستضعفين كانوا يشركون صبيانهم فى دعائهم استزالا لرحمة الله
. بدعاء صغارهم الذين لم يذنبوا ، كما وردت السنة بإخراجهم فى الاستسقاء

الذين امنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت
فقاتلوا اولياء الشيطان ان كيد الشيطان كان ضعيفا

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - لونا آخر من تحريضهم على الجهاد وهو
تحديد الهدف يقاتل من أجله كل فريق فقال : ( الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ
فِي سَبِيلِ اللّهِ والذين كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغوت
فَقَاتِلوا أَوْلِيَاءَ الشيطان إِنَّ كَيْدَ الشيطان كَانَ ضَعِيفاً ) اى
أنتم - أيها المؤمنون - إذا قاتلتم فإنما تقاتلون وغياتكم إعلاء كلمة الله
ونصرة الحق الذى جاء به رسولكم محمد صلى الله عليه وسلم . أما أعداؤكم ،
، الكافرون فإنهم يقاتلون من أجل طاعة الشيطان الذى يأمرهم بكل بغى وطغيان
وإذا كان هذا حالكم وحالهم فعليكم - أيها المؤمنون - أن تقاتلوا أولياء
. الشيطان بكل قوة وصدق عزيمة ( إِنَّ كَيْدَ الشيطان كَانَ ضَعِيفاً ) أى
- إن كيد الشيطان وتدبيره كان ضعيفا ، لأن الشيطان ينصر أولياءه ، والله
تعالى - ينصر أولياءه ، ولا شك أن نصرة الله - تعالى لأوليائه أقوى وأشد من
نصرة الشيطان لأوليائه .فقوله - تعالى - ( الذين آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي
سَبِيلِ الله ) كلام مستأنف سيق لتشجيع المؤمنين وترغيبهم فى الجهاد ببيان
الغاية والهدف الذى يعمل من أجله كل فريق ، وببيان أن المؤمنين ستكون
عاقبتهم النصر والفظر لأن الله وليهم وناصرهم .والفاء فى قوله ( فقاتلوا )
للتفريع ، أى إذا كانت تلك غايتكم أيها المؤمنون وتلك هى غاية أعدائكم؛
فقاتلوهم بدون خوف أو وجل منهم لأن الله معكم بنصره وتأييده أماهم فالشيطان
معهم بضعفه وفجوره .والمراد بكيد الشيطان تدبيره ووسوسته لأتباعه بالاعتداء
على المؤمنين وتأليب الناس عليهم .قال الفخر الرازى : الكيد : السعى فى
فساد الحال على جهة الاحتيال عليه ، يقال : كاده يكيده إذا سعى فى إيقاع
الضرر على جهة الحيلة عليه . وفائدة إدخال ( كَانَ ) فى قوله ( ضَعِيفاً )
للتأكيد لضعف كيده ، يعنى أنه منذ كان ، كان موصوفا بالضعف والذلة .وبذلك
نرى أن هذه الآيات الثلاث قد شجعت المؤمنين على القتال بأبلغ أسلوب ، وأشرف
دافع ، وأنبل غاية ، فقد أمرتهم بالقتال إذا كانوا حقا من المؤمنين ، الذين
يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ، وبشرتهم برضا الله وحسن ثوابه سواء أقتلوا
أم غلبوا واستنكرت عليهم أن يتثاقلوا عن القتال مع أن كل دواعى الدين
والشرف والمروءة تدعوهم إليه ، وبينت لهم أنه إذا كان الكافرون الذين
، الغاية من قتالهم نصرة الحق أن ينفروا خفافا وثقالا للجهاد فى سبيل الله
ثم بشرتهم فى النهاية بأن العاقبة لهم ، لأن الكافرين يستندون إلى كيد
الشيطان الضعيف الباطل ، أما المؤمنون فيأوون إلى جناب الله الذى لا يخذل
- من اعتصم به ، ولا يخيب من التجأ إليه .وبعد هذا التحريض الشديد من الله
تعالى - للمؤمنين على القتال فى سبيله ، حكى - سبحانه - على سبيل التعجيب
حال طائفة من ضعاف الإيمان ، كانوا قبل أن يفرض القتال عليهم يظهرون
التشوق إليه . وبعد أن فرض عليهم جبنوا عنه ، وقد وبخهم الله - تعالى -على
. . . . هذا المسلك الذميم ، فقال - سبحانه - : ( أَلَمْ تَرَ إِلَى
. ( عَلَيْهِمْ حَفِيظاً

الم تر الى الذين قيل لهم كفوا ايديكم واقيموا الصلاة واتوا الزكاة فلما
كتب عليهم القتال اذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله او اشد خشية وقالوا
ربنا لم كتبت علينا القتال لولا اخرتنا الى اجل قريب قل متاع الدنيا قليل
والاخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا

كما فسرها الوسيط والإستفهام فى قوله - تعالى - ( أَلَمْ تَرَ ) للتعجيب
من حال أولئك الذين كانوا يظهرون التشوق إلى القتال فلما فرض عليهم جبنوا
عنه .وقوله ( كفوا أَيْدِيَكُمْ ) من الكف بمعنى الامتناع أى : امتنعوا عن
مباشرة القتال إلى أن تؤمروا به .والمعنى : ألم ينته علمك يا محمد أو ألم
تنظر بعين الدهشة والغرابة إلى حال أولئك الذين كانوا يظهرون شدة الحماسة
للقتال ، فقيل لهم ( كفوا أَيْدِيَكُمْ ) أى : عن القتال لأنكم لم تؤمروا
، به بعد ( وَأَقِيمُواْ الصلاة ) فإن الصلاة تخلص النفس من أدران المآثم
وتجعلها تتجه إلى الله وحده ( وَآتُواْ الزكاة ) فإن الزكاة تطهر النفوس من
- الشح والبخل ، وتربط بين الناس برباط المحبة والتعاون .ثم بين - سبحانه
حالهم بعد أن فرض عليهم القتال فقال : ( فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ القتال
إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ الناس كَخَشْيَةِ الله أَوْ أَشَدَّ
خَشْيَةً ) .أى : فحين فرض عليهم القتال وأمروا بمباشرته بعد أن صارت

للمسلمين دولة بالمدينة ، حين حدث ذلك ، إذا فريق منهم - وهم الذين قل
إيمانهم ، وضعف يقينهم ، وارتابت قلوبهم - ( يَخْشَوْنَ الناس ) أى
: يخافونهم خوفا شديدا ( كَخَشْيَةِ الله أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ) أى
يخافون من الكفار أن يقتلوهم كما يخافون من الله أن ينزل بهم بأسه ، أو أشد
من ذلك .فالمراد بالناس فى قوله ( يَخْشَوْنَ الناس ) أولئك الأعداء الذين
كتب الله على المؤمنين قتالهم .وعبر عن هؤلاء الأعداء بقوله ( الناس )
زيادة فى توبيخ أولئك الذين خافوا منهم هذا الخوف الشديد ، لأنهم لو كانوا
مؤمنين حقا ، لاستقبلوا ما فرضه الله عليهم بالسمع والطاعة ، ولما خافوا
، هذا الخوف الشديد من أناس مثلهم .وقوله ( كَخَشْيَةِ الله ) مفعول مطلق
أي يخشونهم خشية كخشية الله .وهو بيان لشدة خورهم وهلعهم ، ولفساد تفكيرهم
- حيث جعلوا خشيتهم للناس فى مقابل خشيتهم لله ، الذى يجب أن تكون خشيته ،
سبحانه - فوق كل خشية .وقوله ( أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ) معطوف على ما قبله
وأشد حال من خشية لأن نعت النكرة إذا تقدم عليها أعرب حالا .وفى هذه .
، الجملة الكريمة زيادة فى توبيخهم وذمهم؛ وترق فى توضيح حالتهم القبيحة
لأنه إذا كان من المقرر أنه لا يجوز للعاقل ان يجعل خشيته للناس كخشيته لله
- فمن باب أولى لا يجوز له أن يجعل خشيته للناس أشد من خشيته لله - تعالى ،
قال الفخر الرازى ما ملخصه : فإن قيل : ظاهر ( أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ).
يوهم الشك . وذلك على علام الغيوب محال . أجيب بأن ( أَوْ ) بمعنى بل . أو
هى للتنويع . على معنى أن خشية بعضهم كخشية الله وخشية بعضهم أشد منها أو
هى للإبهام على السامع . على معنى أنهم على إحدى الصفتين من المساواة
والشدة .وهو قريب مما فى قوله - تعالى - : ( وَأَرْسَلْنَاهُ إلى مِئَةِ
أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ) يعنى أن من يبصرهم يقول : أنهم مائة ألف أو
يزيدون .ثم حكى - سبحانه - ما قاله أولئك الضعفاء عندما فرض عليهم القتال
فقال : ( وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا القتال لولا
أَخَّرْتَنَا إلى أَجَلٍ قَرِيبٍ ) .أى : أن هؤلاء الضعفاء لم يكتفوا بما
اعتراهم من فزع وجزع عندما كتب عليهم القتال وإنما أضافوا إلى ذلك أنهم
قالوا على سبيل الضجر والألم : يا ربنا لم كتبت علينا القتال فى هذا الوقت
أى : هلا عافيتنا وتركتنا حتى ( لولا أَخَّرْتَنَا إلى أَجَلٍ قَرِيبٍ )
نموت موتة لا قتال معها عند حضور آجالنا ، دون أن نتعرض لهذا التكليف
الثقيل المخيف .وهكذا يصور القرآن تخبط هؤلاء الضعفاء أكمل تصوير . إنهم
قبل أن يفرض القتال يظهرون التحمس له ، والتشوق لخوض معا معه ، فإذا ما فرض
عليهم القتال فزعوا وارتعدوا وقالوا ما قالوا من ضلال بضيق وهلع .ويبدو أن
هذه طبيعة أكثر المتهورين فى كل وقت ، إنهم قبل أن يجد الجد أشد الناس
، حماسة للقاء الأعداء ، فإذا ماجد الجد ووقعت الواقعة كانوا أول الفارين
وأول الناكصين على أعقابهم .وذلك لأن الشجعان العقلاء لا يتمنون لقاء
، الأعداء ، ولا ينشئون القتال إنشاء ، وإنما يقدرون الأمور حق قدرها
ويضعون الأشياء فى مواضعها ، فإذا ما اقتضت الضرورة خوض معركة من المعارك
، ثبتوا ثبات الأبطال .أما المندفعون بدون إيمان يدفعهم ، أو عقل يرشدهم
فإنهم لعدم تقديرهم للأمور يكونون فى ساعة الشدة أول الناس جزعا ونكولا
وانهيارا .ولكن من هؤلاء الذين تحدثت عنهم الآية الكريمة ووصفتهم بأنهم حين
كتب عليهم القتال ( إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ الناس كَخَشْيَةِ
الله أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا
القتال لولا أَخَّرْتَنَا إلى أَجَلٍ قَرِيبٍ ) ؟!!إن الذى يراجع أقوال
المفسرين يرى أن بعضهم يميل إلى أن الآية الكريمة فى شأن المؤمنين ، ويرى
أن بعضهم يرجع أنها فى شأن المنافقين ، وقد لخص الإمام الرازى هذه الأقوال
تلخيصا حسنا فقال :" هذه الآية صفة للمؤمنين أو المنافقين؟ فيه قولان
الأول : أن الآية نزلت فى المؤمنين . قال الكلبى : نزلت فى عبد الرحمن بن:
عوف ، والمقداد ، وقدامة بن مظعون ، وسعد بن أبى وقاص . كانوا مع النبى صلى
الله عليه وسلم قبل أن يهاجروا إلى المدينة ، ويلقون من المشركين أذى شديدا
فيشكون ذلك إلى النبى صلى الله عليه وسلم ويقولون : ائذن لنا فى قتالهم ،
، ويقول لهم الرسول صلى الله عليه وسلم كفوا أيديكم فإنى لم أومر بقتالهم
واشتغلوا بإقامة دينكم من الصلاة والزكاة ، فلما هاجر رسول الله صلى الله
عليه وسلم إلى المدينة كرهه بعضهم فأنزل الله هذه الآية .ثم قال : واحتج
الذاهبون إلى هذا القول بأن الذين يحتاج الرسول أن يقول لهم : كفوا عن
القتال هم الراغبون فى القتال؛ والراغبون فى القتال هم المؤمنون ، فدل هذا
على أن الآية فى حق المؤمنين .. وأن كراهتهم للقتال إنما هى بمقتضى الجبلة
البشرية . . . وقولهم ( لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا القتال ) محمول على التمنى
: فى التخفيف للتكليف لا على وجه الإنكار لإيجاب الله تعالى .ثم قال
والقول الثانى : أن الآية نازلة فى حق المنافقين . واحتج الذاهبون إلى هذا
القول بأن الآية مشتملة على أمور تدل على أنها مختصة بالمنافقين ، لأن الله
وصفهم بأنهم ( يَخْشَوْنَ الناس كَخَشْيَةِ الله أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً )
ومعلوم أن هذا الوصف لا يليق إلا بالمنافقين ، لأن المؤمن لا يجوز أن يكون
خوفه من الناس أزيد من خوفه من الله - تعالى - ولأنه - سبحانه - حكى عنهم
أنهم قالوا : ربنا لما كتبت علينا القتال ، والاعتراض على الله ليس إلا من

صفة الكفار أو المنافقين ، ولأن الله قال للرسول : ( قُلْ مَتَاعُ الدنيا
قَلِيلٌ والآخرة خَيْرٌ لِّمَنِ اتقى ) وهذا الكلام يذكر مع من كانت رغبته
: فى الدنيا أكثر من رغبته فى الآخرة ، وذلك من صفات المنافقين .ثم قال
: والأولى حمل الآية على المنافقين لأنه - سبحانه - ذكر بعد هذه الآية قوله
وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هذه مِنْ عِندِ الله وَإِن )
تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هذه مِنْ عِندِكَ ) ولا شك أن هذا من كلام
المنافقين ، فإذا كانت هذه الآية معطوفة على الآية التى نحن فى تفسيرها ثم
المعطوف فى المنافقين ، وجب أن يكون المعطوف عليهم فيهم أيضا .ونحن نوافق
الإمام الرازى فيما ذهب إليه من حمل الآية الكريمة على أنها فى المنافقين
هو الأولى للأسباب التى ذكرها .ونضيف إلى ما ذكره الإمام الرازى أن
، المتأمل فى سياق الآيات السابقة واللاحقة يراها واضحة فى شأن النافقين
ومن هم على شاكلتهم من ضعاف الايمان ، الذين أدى بهم ضعف نفوسهم ، وحبهم
للدنيا إلى كراهة القتال ، والخوف من تكاليفه . . . .فأنت إذا قرأت الآيات
التى قبيل هذه الآية تراها تتحدث عن إرادة تحاكمهم إلى الطاغوت مع زعمهم
الايمان بما أنزل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وبما أنزل على الرسل من
قبله . وتراها تتحدث عن تباطئهم عن القتال وفرحهم لنجاتهم من مخاطره .ثم
إذا قرأت الآيات التى ستأتى بعد هذه الآية تراها تتحدث عن نسبتهم الحسنة
إلى الله ، ونسبتهم السيئة إلى رسوله صلى الله عليه وسلم وعن إذاعتهم
لأسرار المؤمنين . . ألخ ، فثبت أن الآية الكريمة تتحدث عن صفات المنافقين
. وعمن هم قريبو الشبه بهم من ضعاف الايمان الذين أخلدوا إلى الراحة ،
وأثروا القعود فى بيوتهم على القتال من أجل إعلاء كلمة الله ، ودفع الظلم
عن المظلومين .ونضيف أيضا أن القول الأول - الذى ذكره الإمام الرازى وهو
أن الآية نزلت فى المؤمنين - غير صحيح لأسباب من أهمها :1- أن الرواية التى
ذكرها الامام الرازى نقلا عن الكلبى وهى أن الآية نزلت فى عبد الرحمن بن
عوف والمقداد وقدامة بن مظعون .. الخ الرواية يبدو عليها الضعف ، لأنها لم
ترد فى كتب الحديث الموثوق بها ، ولأن الكبلى نفسه قد عرف عنه عدم التثبت
" : فى النقل . ولقد علق الإمام الشيخ محمد عبده على هذه الرواية بقوله
إننى أجزم ببطلان هذه الرواية مهما كان سندها ، لأننى أبرئ السابقين
الأولين كسعد وعبد الرحمن مما رموا به . وهذه الآية متصلة بما قبلها ، فإن
الله - تعالى - أمر بأخذ الحذر والإستعداد للقتال ، والنفر له ، وذكر حال
المطبئين لضعف قلوبهم . وبعد هجرة النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة
أمر الإسلام أتباعه بالسلم وتهذيب النفوس بالعبادة والكف عن الاعتداء
والقتال . . إلى أن اشتدت الحاجة إليه ففرضه الله عليهم فكرهه الضعفاء منهم
أن المؤمنين لم يعهد عنهم ما ذكرت الآية من خوف من القتال ، ومن تمن -2.
لعدم حضوره ، وإنما المعهود عنهم أنهم كانوا يبادرون إليه كلما اقتضت
الضرورة ويتسابقون لخوض ساحته دفاعا عن دينهم ، وانتصارا ممن بغى عليهم
ولقد قال المقداد بن عمرو للرسول صلى الله عليه سولم . فى غزوة بدر يا.
رسول الله ، إمض لما أمرك الله فنحن معك . والله لا نقول لك كما قالت بنو
إسرائيل لموسى : إذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون . ولكن نقول لك إذهب
أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون . فو الذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك
الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه . .إلى غير ذلك من الأقوال والمواقف
التى تدل على شجاعتهم وقوة إيمانهم .ولقد رجح الإمام القرطبى عند تفسيره
للآية الكريمة أنها فى المنافقين فقال : قال مجاهد : هى فى اليهود . وقال
" الحسن : هى فى المؤمنين لقوله " يخشون الناس " أى مشركى مكة " كخشية الله
فهى على ما طبع عليه البشر من المخافة لا على المخالفة . وقال السدى : هم
. قوم أسملوا قبل فرض القتال فلما فرض كرهوه . وقيل : هو وصف للمنافقين
والمعنى : يخشون القتل من المشركين كما يشخون الموت من الله ( أَوْ أَشَدَّ
خَشْيَةً ) أى عندهم وفى اعتقادهم .ثم قال : قلت وهذا أشبه بسياق الآية
لقوله ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب ومعاذ الله أن
، يصدر هذا القول من صحابى كريم ، يعلم أن الآجال محدودة ، والأرزاق مقسومة
بل كانوا لأوامر الله ممتثلين سامعين طائعين ، يرون الوصول الى الدار
- الآجلة خيرا من المقام فى الدار العاجلة ، على ما هو المعروف من سيرتهم
، رضى الله عنهم - اللهم إلا أن يكون قائله ممن لم يرسخ فى الإيمان قدمه
ولا انشرح بالاسلام جنانه ، فإن أهل الإيمان متفاضلون فمنهم الكامل ومنهم
الناقص ، وهو الذى تنفر نفسه عما تؤمر به فيما تلحقه فيه المشقة وتدركه فيه
الشدة .والخلاصة : أن الذى تطمئن إليه نفوسنا أن الآية الكريمة تحكى ما كان
عليه المنافقون وضعاف الإيمان ، من بعد عن طاعة الله ، ومن جبن فى النفوس
ومن حب للحياة الدنيا وزينتها .وأن المؤمنين بعيدون كل البعد عما اشتملت
عليه الآية الكريمة من صفات وأحوال؛ لأن ما عرف عنهم من إيمان وإقدام ينأى
بهم عن أن يكونوا ممن قال الله فيهم ( فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ القتال
إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ الناس كَخَشْيَةِ الله أَوْ أَشَدَّ
خَشْيَةً ) وعن أن يقولوا : ( رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا القتال
لولا أَخَّرْتَنَا إلى أَجَلٍ قَرِيبٍ ) .هذا ، وقوله - تعالى - ( قُلْ
مَتَاعُ الدنيا قَلِيلٌ والآخرة خَيْرٌ لِّمَنِ اتقى وَلاَ تُظْلَمُونَ

فَتِيلاً ) رد على التصرفات الذميمة ، والأقوال الفاسدة التى صدرت عن المنافقين وضعاف الإيمان! وإرشاد من الله - تعالى - لعباده إلى أن متاع الحياة الدنيا قليل بالنسبة لما اشتملت عليه الآخرة من نعيم للمؤمنين الصادقين .والمتاع : اسم لما يتمتع به الإنسان فى هذه الحياة من مال وغيره والفتيل : هو الخيط الدقيق الذى يكون فى شق نواة التمرة . ويضرب به المثل. فى القلة والتفاهة .والمعنى : قل - يا محمد - لهؤلاء الذين يخشون لقاء الأعداء ، ويفزعون من القتال طمعا فى التمتع بزينة الحياة الدنيا ، قل لهم ، إن منافع الدنيا ولذاتها قليلة مهما كبرت فى أعينكم؛ لأنها زائلة فانية : أما الآخرة بما فيها من نعيم دائم فهى خير ثوابا ، وأعظم أجراً لمن اتقى الله ، وجاهد فى سبيله . وإذا كان الأمر كذلك فاجعلوا خشيتكم من الله وحده وبادروا إلى الجهاد فى سبيل إعلاء كلمة الله ، لكى تنالوا الثواب الجزيل ، من الله دون أن يذهب من ثوابكم شيئا مهما كان هذا الشئ ضئيلا أو قليلا ، ودون أن ينقص من أعماراكم شيئا؛ لأن الجبن لا يؤخر الحياة كما أن الإقدام لا ينقص شيئا منها .

اينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة وان تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وان تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أنه لا مفر لهم من الموت ، وأنهم مهما فروا منه فإنه سيلقاهم آجلا أو عاجلا فقال - تعالى - : ( أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الموت وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ) والبروج : مع برج وهو الحصن المنيع الذى هو نهاية ما يصل إليه البشر فى التحصن والمنعة . وأصل البروج من التبرج بمعنى الظهور . يقال : تبرجت المرأة ، إذا أظهرت محاسنها . والمراد بها الحصون والقلاع الشاهقة المنيعة ، والمشيدة : أى المحكة البناء ، والعظيمة الارتفاع من شاد القصر إذا رفعه. والمعنى : إنكم أيها الخائفون من القتال إن ظننتم أن هذا الخوف منه أو القعود عنه سينجيكم من الموت ، فأنتم بهذا الظن مخطئون ، لأن الموت حيثما سيدرككم ، ولو كنتم فى أقوى الحصون ، وأمنعها وأحكمها بناء ، وما دام الأمر كذلك فليكن موتكم وأنتم مقبلون بدل أن تموتوا وأنتم مدبرون .والجملة الكريمة لا محل لها من الإعراب ، لأنها مسوقة على سبيل الاستئناف لتبكيت هؤلاء الكارهين للقتال ، وتحريض غيرهم من المؤمنين على الإقدام عليه من أجل نصرة الحق .ويحتمل أنها فى محل نصب ، فتكون داخلة فى حيز القول المأمور به الرسول صلى الله عليه وسلم أي : قل لهم يا محمد متاع الدنيا قليل . وقل لهم ( أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الموت ) .وأين : اسم شرط جازم ظرف مكان يجزم فعلين ، و " ما " زائدة للتأكيد ، وتكونوا فعل الشرط ويدرككم جوابه .والتعبير بقوله ( يُدْرِككُّمُ ) للإشعار بأن الموت كأنه كائن حى يطلب الإنسان ويتبعه حيثما كان ، وفى أى وقت كان ، فهو طالب لابد أن يدرك ما يطلبه ولا بد أن يصل إليه هما تحصن منه ، أو هرب من لقائه .وجواب ( لو ) محذوف اعتماداً على دلالة ما قبله عليه أى : ولو كنتم فى بروج مشيدة لأدرككم الموت .وقريب فى المعنى من هذه الآية قوله - تعالى - ( قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الفرار إِن فَرَرْتُمْ مِّنَ الموت أَوِ القتل ) وقوله - تعالى - ( قُلْ إِنَّ الموت الذي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاَقِيكُمْ ) فالجملة الكريمة صريحة فى بيان أن الموت أمر لا مفر منه ، ولا مهرب عنه ( سواء أقاتل الإنسان أم لم يقاتل . وما أحسن قول زهير بن أبى سلمى :ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ... ولو رام أسباب السماء بسلمثم حكى - سبحانه - ما كان يتفوه به المنافقون وإخوانهم فى الكفر من باطل وزور فقال - تعالى - : ( وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هذه مِنْ عِندِ الله وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هذه مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ الله ) .أى : إن هؤلاء المنافقين وأشباههم ، من ضعاف الإيمان وإخوانهم فى الكفر بلغ بهم الفجور أنهم إذا أصابتهم حال حسنة من نعمة أو رخاء أو خصب أو غنيمة أو ظفر قالوا هذه الحال من عند الله ، وإذا أصابتهم حال سيئة من جدب أو مصيبة أو هزيمة قالوا هذه الحال من عندك يا محمد بسبب شؤمك وسوء قيادتك - وحاشاه من ذلك صلى الله عليه وسلم - .وهذا القول منهم قريب من قول قوم فرعون لموسى - عليه السلام - كما حكاه القرآن عنهم فى قوله : ( فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الحسنة قَالُواْ لَنَا هذه وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بموسى وَمَن مَّعَهُ ) قال القرطبى : نزلت هذه الآية فى اليهود والمنافقين ، وذلك أنهم لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة عليهم قالوا : ما زلنا نعرف النقص فى ثمارنا ومزارعنا منذ قدم علينا هذا الرجل وأصحابه . قال ابن عباس : ومعنى ( مِنْ عِندِكَ ) أى : بسوء تدبيرك . وقيل ( مِنْ عِندِكَ ) أى بشؤمك الذى لحقنا ، قالوه على جهة التطير .وقوله ( قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ الله ) أمر من الله لنبيه صلى الله عليه وسلم بأن يرد على مزاعمهم الباطلة . أى قل لهم يا محمد كل واحدة من النعمة والمصيبة هى من جهة الله - تعالى خلقا وإيجاداً من غير أن يكون لى

مدخل فى وقوع شئ منها بوجه من الوجوه كما تزعمون :وقوله ( فَمَالِ هؤلاء
القوم لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً ) جملة معترضة مسوقة لتعييرهم
بالجهل والغباوة ، والفاء فى قوله ( فَمَالِ ) لترتيب ما عدها على ما قبلها
والمعنى . وإذا كان الأمر كذلك وهو أن كل شئ من عند الله ، فمال هؤلاء
القوم من المنافقين وإخوانهم فى الكفر وضعف الإيمان لا يكادون - لانطماس
بصيرتهم - يفقهون ما يلقى عليهم من مواعظ ، ولا يفهمون معنى ما يسمعون وما
، يقولون ، إذ لو فقهوا شيئا مما يوعظون به لعلموا أن الله هو القابض الباسط
وأنه المعطى المانع .قال - تعالى - ( مّا يَفْتَحِ الله لِلنّاسِ مِن
رّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِن
بَعْدِهِ وَهُوَ العزيز الحكيم ) وقوله - تعالى - :

ما اصابك من حسنة فمن الله وما اصابك من سيئة فمن نفسك وارسلناك للناس
رسولا وكفى بالله شهيدا

كما فسرها الوسيط ( مّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ الله وَمَآ
أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نّفْسِكَ ) الخطاب فيه للنبى صلى الله عليه
وسلم والمراد كل مكلف من أمته .والمراد بالحسنة ما يسر له الإنسان ويفرح
به ، والمراد بالسيئة ما يسوءه ويحزنه .والمعنى : ( مّآ أَصَابَكَ مِنْ
حَسَنَةٍ ) أى من نعمة وأمور حسنة تفرح بها ( فَمِنَ الله ) أى فبتوفيقه لك
وتفضله عليك ، وإرشادك إلى الوسائل التى أوصلتك إلى ما يسرك . ( وَمَآ
أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ ) أى من مصيبة أو غيرها مما يحزن ( فَمِن
نّفْسِكَ ) أى : فمن نفسك بسبب وقوعها فيما نهى الله عنه ، وتركها للأسباب
الموصلة إلى النجاح ، كما قال - تعالى - : ( وَمَآ أَصَابَكُمْ مّن
مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ) وروى
الترمذى عن أبى موسى الأشعرى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "لا يصيب
عبداً نكتة فما فوقها أو دونها إلا بذنب . وما يعفو الله عنه أكثر" قال
وقرأ : ( وَمَآ أَصَابَكُمْ مّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ
وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ) .وروى ابن عساكر عن البراء - رضى الله عنه - عن
النبى صلى الله عليه وسلم قال : " ما من عثرة ولا اختلاج عرق ولا خدش عود
- إلا بما قدمت أيدكم . وما يعفو الله أكثر " .وعلى هذا يكون قوله - تعالى
إلخ من كلام الله - تعالى - والخطاب . . ( مّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ )
فيه للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد به كل مكلف - كما سبق أن أشرنا - وقد
ساقه - سبحانه - على سبيل الاستئناف ردا على مزاعم المنافقين ومن هم على
- شاكلتهم فى الكفر وضعف الإيمان .وقيل إن هذه الآية حكاية من الله
تعالى - لأقوال المنافقين السابقة ، فكأنهم لم يكتفوا بأن ينسبوا للرسول
صلى الله عليه وسلم أنه السبب فيما أصابهم من جدب وهزيمة . بل أضافوا إلى
ذلك قولهم له : إن ما أصابك من حسنة فمن الله ولا فضل لك فيما نلت من نصر
أو غنيمة ، وما أصابك من سيئة أى هزيمة أو مصيبة فمن سوء صنعك وتصرفك
ومقصدهم من ذلك - قبحهم الله - تجريد النبى صلى الله عليه وسلم من كل فضل.
وإلقاء اللوم عليه فى كل ما يصبهم من مصائب .وقد أشار القرطبى إلى هذين ،
القولين بقوله : قوله - تعالى - ( مّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ
الله وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نّفْسِكَ ) الخطاب للنبى صلى
الله عليه وسلم والمراد أمته . أى ما أصابكم يا معشر الناس من خصب واتساع
رزق فمن تفضل الله عليكم ، وما أصابكم من جدب وضيق رزق فمن أنفسكم أى من
أجل ذنوبكم وقع ذلك بكم .وقيل : فى الكلام حذف تقديره : يقولون . وعليه
يكون الكلام متصلا ، والمعنى : ( فَمَالِ هؤلاء القوم لاَ يَكَادُونَ
يَفْقَهُونَ حَدِيثاً ) حتى يقولوا ( مّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ
الله وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نّفْسِكَ ) .وقال الجمل : فإن
قلت : كيف وجه الجمع بين قوله - تعالى : ( قُلْ كُلٌّ مّنْ عِندِ الله )
وبين قوله ( مّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ الله وَمَآ أَصَابَكَ مِن
- سَيِّئَةٍ فَمِن نّفْسِكَ ) فأضاف السيئة إلى فعل العبد فى هذه الآية
بينما أضاف الكل إلى الله فى الآية السابقة -؟قلت : أما إضافة الأشياء كلها
إلى الله فى الآية السابقة فى قوله ( قُلْ كُلٌّ مّنْ عِندِ الله ) فعلى
الحقيقة ، لأن الله هو خالقها وموجدها . وأما إضافة السيئة إلى فعل العبد
فى قوله ( وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نّفْسِكَ ) فعلى سبيل
. المجاز . والتقدير : وما أصابك من سيئة فمن أجلها وبسبب اقترافها الذنوب
وهذا لا ينافى أن خلقها من الله - كما سبق .وقال بعض العلماء : والتوفيق
: بين قوله - تعالى - ( مّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ ) وبين قوله قبل ذلك
هو أن قوله ( قُلْ كُلٌّ مّنْ عِندِ الله ) ( قُلْ كُلٌّ مّنْ عِندِ الله )
كان موضوعه الكلام فى تقدير الله . فهم إن انتصر المؤمنون لا ينسبون (
للنبى صلى الله عليه وسلم أى فضل ، بل يجردونه من الفضل ويقولون هو من عند
الله . وما قصدوا التفويض والإيمان بالقدر ، بل قصدوا الغض من مقام النبوة
فإن كان هناك خير نسبوه إلى الله وإن كان ما يسوء نسبوه إلى النبى صلى .
الله عليه وسلم إيذاء وتمردا . فالله تعالى - قال لهم : ( قُلْ كُلٌّ مّنْ

عِندِ الله ) ، أى كل ذلك بتقدير الله وإرادته .أما قوله ( وَمَآ أَصَابَكَ
مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ) فموضوعه اتخاذ الأسباب . ومعناه : أن من
أخذ بالأسباب وتوكل على الله فالله - تعالى - يعطيه النتائج ومن لا يتخذ
الأسباب ، أو يخالف المنهاج السليم الموصل إلى الثمرة ، فإنه سيناله ما
، يسوؤه ، وبسبب منه .فالأول : لبيان القدر .والثانى : لبيان العمل .هذا
وقوله - تعالى - ( وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وكفى بالله شَهِيداً
بيان لجلال منصبه وعلو مكانته صلى الله عليه وسلم عند ربه - عز وجل - بعد (
بيان بطلان زعمهم الباطل فى حقه عليه الصلاة والسلام .أى : وأرسلناك - يا
محمد - بأمرنا وبشريعتنا لتبليغ الناس ما أمرناك بتبليغه ، ولتخرجهم من
ظلمات الجهالة والكفر إلى نور التوحيد والإيمان ( وكفى بالله شَهِيداً )
على صحة رسالتك ، وعلى صدقك فيما تبلغه عنه ، وإذا ثبت ذلك فالخير فى طاعتك
والشر والشؤم فى مخالفتك .والمراد بالناس جميعهم . أى : وأرسلناك لجميع
الناس كما قال - تعالى - ( وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً
لِّلْعَالَمِينَ ) وقوله ( رَسُولاً ) حال مؤكدة لعاملها وهو أرسلناك
وقوله ( وكفى بالله شَهِيداً ) تثبيت وتقوية لقلب النبى صلى الله عليه.
وسلم .أى : امض فى طريقك ولا تلتفت إلى أقوالهم ، وكفى بالله عليك وعليهم
. شهيدا ، فإنه - سبحانه -لا يخفى عليه أمرك وأمرهم

من يطع الرسول فقد اطاع الله ومن تولى فما ارسلناك عليهم حفيظا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم إنما
هى طاعة له فقال : ( مَّنْ يُطِعِ الرسول فَقَدْ أَطَاعَ الله ) .اى : من
يستجب لما يدعوه إليه محمد صلى الله عليه وسلم ويذعن لتعاليمه ، فإنه بذلك
يكون مطيعا لله ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم مبلغ لأمر الله ونهيه
وقوله ( وَمَن تولى فَمَآ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً ) بيان.
، لوظيفة الرسول صلى الله عليه وسلم .أى : من أطاعك يا محمد فقد أطاع الله
ومن أعرض عن طاعتك وعصى أمك ، فعلى نفسه يكون جانيا ، لأننا ما أرسلناك على
الناس حافظا ورقيبا لأعمالهم ، وإنما أرسلناك مبلغا ومنذرا .وجواب الشرط فى
قوله ( وَمَن تولى ) محذوف . أى ومن تولى فأعرض عنه فإنا ما أرسلناك عليهم
حفيظا .قال الآلوسى : وقوله - تعالى - ( مَّنْ يُطِعِ الرسول فَقَدْ
أَطَاعَ الله ) بيان لإحكام رسالته إثر بيان تحققها . وإنما كان الأمر
كذلك لأن الآمر والناهى فى الحقيقة هو الحق - سبحانه - والرسول إنما هو
مبلغ للأمر والنهى فليست الطاعة له بالذات إنما هى لمن بلغ عنه . وفى بعض
، الآثار أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقول : " من أحبنى فقد أحب الله
ومن أطاعنى فقد أطاع الله " فقال المنافقون : ألا تسمعون إلى ما يقول هذا
الرجل؟ لقد قارف الشرك ، وهو نهى أن يبعد غير الله . ما يريد إلا أن نتخذه
. ربا كما اتخذت النصارى عيسى - عليه السلام - فنزلت

ويقولون طاعة فاذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذي تقول والله يكتب
ما يبيتون فاعرض عنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك جانبا آخر من صفات المنافقين
- ومن على شاكلتهم من ضعاف الإيمان حتى يحذرهم المؤمنون الصادقون فقال
تعالى - : ( وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ . . . . إِلاَّ قَلِيلاً ) .والضمير فى
قوله ( وَيَقُولُونَ ) للمنافقين ومن يلفون لفهم .أى : أن هؤلاء المنافقين
إذا أمرتم يا محمد بأمروهم عندك يقولون طاعة أى أمرنا وشأننا طاعة . يقولون
ذلك بألسنتهم أما قلوبهم فهى تخالف ألسنتهم .وقوله ( طَاعَةٌ ) خبر لمبتدأ
محذوف وجوبا أى : أمرنا طاعة . ويجوز النصب على معنى : أطعناك طاعة . كما
: يقول المأمور لمن أمره : سمعاً وطاعة ، وسمع وطاعة .قال صاحب الكشاف
ونحوه قول سيبويه : سمعنا بعض العرب الموثوق بهم يقال له : كيف أصبحت؟
" فيقول : حمد الله وثناء عليه ، كأنه قال : أمرى وشأنى حمد الله . ولو نصب
حمد الله " كان على الفعل . والرفع يدل على ثبات الطاعة واستقرارها .ثم
حكى - سبحانه - ما يكون عليه أمر هؤلاء المنافقين بعد خروجهم من عند الرسول
صلى الله عليه وسلم فقال : ( فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ
طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الذي تَقُولُ ) .وقوله ( بَيَّتَ ) من التبييت
واشتقاقه - كما يقول الفخر الرازى - من البيتوتة ، لأن أصلح الأوقات للفكر
أن يجلس الإنسان فى بيته بالليل ، فهناك تكون الخواطر أخلى ، والشواغل أقل
لا جرم سمى الفكر المستقصى مبيتا . أو من بيت الشعر ، لأن العرب إذا
أرادوا قرض الشعر بالغوا فى التفكر فيه . .والمراد : زوّر وموّه ودّبر
والمعنى : أن هؤلاء المنافقين إذا كانوا عندك - يا محمد - وأمرتهم بأمر.
قالوا : طاعة ، فإذا ما خرجوا من عندك وفارقوك دبر وأضمر طائفة منهم وهم
رؤساؤهم ( غَيْرَ الذي تَقُولُ ) أى خلاف ما قلت للتلك الطائفة أو قالت لك
من ضمان الطاعة . فهم أمامك يظهرون الطاعة المطلقة ، ومن خلفك يدبرون
ويضمرون ما يناقض هذه الطاعة ويخالفها .والتعبير عن الخروج بالبروز

للإشارة إلى تفاوت ما بين أحوالهم ، وتناقض مظهرهم مع خبيئتهم .وإسناد هذا التبييت إلى طائفة منهم ، لبيان أنهم هم المتصدون له بالذات ، أما الباقون فتابعون لهم في ذلك ، لا أنهم ثابتون على الطاعة .وقوله ( والله يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ) أى يثبته فى صحائف أعمالهم . ويفضحهم بسبب سوء أعمالهم فى الدنيا ، ثم يجازيهم على هذا النفاق بما يستحقون فى الآخرة ، فالجملة الكريمة تهديد لهم على سوء صنيعهم ، لعلهم يكفون عن هذا النفاق ، وتطمين للنبى صلى الله عليه وسلم بأنه - سبحانه - سيطلعه على مكرهم السئ لكى يتقى - شرهم ، ولذا فقد أمره - سبحانه - بعدم الالتفات إليهم ، وبالتوكل عليه تعالى - وحده فقال :( فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وكفى ، بالله وَكِيلاً ) . أى : إذا كان هذا هو شأنهم يا محمد . فلا تكترث بهم ولا تلتفت إليهم ، وسر فى طريقك متوكلا على الله ، ومتعمدا على رعايته وحفظه ، وكفى بالله وكيى وكفيلا لمن توكل عليه ، واتبع أمره ونهيه .فانت ترى أن الاية الكريمة قد كشفت عن جانب من صفات المنافقين وأحوالهم ، ثم هددتهم على جرائمهم ، ورسمت للنبى صلى الله عليه وسلم الخطة الحكيمة لعلاجهم واتقاء شرهم .

افلا يتدبرون القران ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا

كما فسرها الوسيط ثم أنكر - سبحانه - على هؤلاء المنافقين وأشباههم عدم تدبرهم للقرآن وحضهم على تأمل حكمه وأحكامه وهدايته فقال : ( أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القرآن وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ الله لَوَجَدُواْ فِيهِ اختلافا كَثِيراً ) .وقوله ( يَتَدَبَّرُونَ ) من التدبير ، وتدبر الأمر - كما يقول الزمخشرى - تأمله والنظر فى أدباره وما يئول اليه فى عاقبته ومنتهاه ، ثم استعمل فى كل تأمل فمعنى تدبر القرآن : تأمل معانيه وتبصر ما فيه .والاستفهام لإنكار عدم تدبرهم ، والتعجيب من استمرارهم فى جهلهم ونفاقهم مع توفر الأسباب التى توصلهم إلى الهداية وعلى رأسها تدبر القرآن وتفهم معانيه .والفاء للعطف على مقدر . أى : أيعرضون عن القرآن فلا يتأملون فيه .والمعنى : إن هؤلاء المنافقين والذين فى قلوبهم مرض قد خيب الله سعيهم ، وكشف خباياهم ، ورأوا بأعينهم سوء عاقبة الكافرين وحسن عاقبة المؤمنين ، فهلا دفعهم ذلك إلى الإيمان وإلى تدبر القرآن وما إشتمل عليه من هدايات وإرشادات وأخبار صادقة ، وأحكام حكيمة . . تشهد بأنه من عند الله - تعالى - ، ولو كان هذا القرآن من عند غير الله أى من إنشاء البشر لوجدوا فى أخباره وفى نظمه وفى أسلوبه وفى معانيه اختلافا كثيرا فضلا عن الاختلاف القليل ، ولكن القرآن لأنه من عند الله وحده قد تنزه عن كل ذلك وخلا من كل اختلاف سواء أكان كثيراً أم قليلا .فالمراد بالاختلاف : تباين النظم ، وتناقض الحقائق ، وتعارض الأخبار وتضارب المعانى ، وغير ذلك مما خلا منه القرآن الكريم لأنه يتنافى مع بلاغته وصدقه .وفى ذلك يقول صاحب الكشاف : قوله ( لَوَجَدُواْ فِيهِ اختلافا كَثِيراً ) أى : لكان الكثير منه مختلفا متناقضا قد تفاوت نظمه وبلاغته ومعانيه فكان بعضه بالغا حد الإعجاز . وبعضه قاصرا عنه تمكن معارضته ، وبعضه إخبارا يغيب قد وافق المخبر عنه ، وبعضه إخبارا مخالفا للمخبر عنه ، وبعضه دالا على معنى صحيح عند علماء المعانى ، وبعضه دالا على معنى فاسد غير ملتئم .فلما تجاوب كله بلاغة معجزة فائقة لقوى البلغاء ، وتناصر معان ، وصدق أخبار دل على أنه ليس إلا من عند قادر على ما لم يقدر عليه غيره ، عالم بما لا يعلمه أحد سواه فالآية الكريمة تدعو الناس فى كل زمان ومكان إلى تدبر القرآن الكريم وتأمل ، أحكامه ، والانقياد لما اشتمل عليه من توجيهات وإرشادات وأوامر ونواه ليسعدوا فى دنياهم وآخرتهم .

واذا جاءهم امر من الامن او الخوف اذاعوا به ولو ردوه الى الرسول والى اولي الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان الا قليلا

كما فسرها الوسيط ثم حكى القرآن بعد ذلك مسلكا آخر من المسالك الذميمة التى عرفت عن المنافقين وضعفاء النفوس فقال - تعالى - ( وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأمن أَوِ الخوف أَذَاعُواْ بِهِ ) .والمراد بالأمر هنا : الخبر الذى يكون له أثر إذا أشيع وأذيع .وقوله ( أَذَاعُواْ بِهِ ) أى نشروه وأشاعوه . يقال : أذاع الخبر وأذاع به أفشاه وأعلنه .والمعنى : أن هؤلاء الذين فى قلوبهم مرض إذا سمعوا شيئا من الأخبار التى تتعلق بأمن المسلمين أو خوفهم أذاعوها وأظهروها قبل أن يقفوا على حقيقتها .قال الآلوسى : والكلام مسوق لبيان جناية أخرى من جنايات المنافقين ، أو لبيان جناية الضعفاء أثر بيان جناية المنافقين ، وذلك أنهم كانوا إذا غزت سرية من المسلمين قالوا عنها : أصاب المسلمون من عدوهم كذا . وأصاب العدو من المسلمين كذا وكذا من غير أن يكون النبى صلى الله عليه وسلم هو الذى يخبرهم به . وقيل : كان الضعفاء يسمعون من أفواه المنافقين شيئا من الخبر عن

السرايا مظنون غير معلوم الصحة فيذيعونه قبل أن يحققوه فيعود ذلك وبالا على المؤمنين .ثم بين - سبحانه - ما كان يجب عليهم فعله فقال - : ( وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرسول وإلى أُوْلِي الأمر مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الذين يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ) .والمراد بأولى الأمر : كبار الصحابة البصراء بالأمور . وقيل المراد بهم : الولاة وأمراء السرايا .ويستبطونه أى يستخرجونه . والاستنباط - كما يقول القرطبى - مأخوذ من استنبطت الماء إذا استخرجته . والنبط : الماء المستنبط أول ما يخرج من ماء البئر أول ما تحفر وسمى النبط نبطا لأنهم يستخرجون ما فى الأرض .والمعنى : أن هؤلاء المنافقين وضعاف الإيمان كان من شأنهم وحالهم أنهم إذا سمعوا شيئا من الأمور فيه أمن أو خوف يتعلق بالمؤمنين أشاعوه وأظهروه بدون تحقق أو تثبت ، بقصد بلبلة الأفكار ، واضطراب حال المؤمنين ، ولو أن هؤلاء المنافقين ومن يستمعون إليهم ردوا ذلك الخبر الذى جاءهم والذى أشاعوا بدون تثبت ، لو أنهم ردوه الى الرسول صلى الله عليه وسلم وإلى كبار الصحابة البصراء فى الأمور : أى لعلم حقيقة ذلك الخبر ( الذين يَسْتَنْبِطُونَهُ ) أى ( لَعَلِمَهُ ) الذين يستخرجونه ويستعملونه ويتطلبونه وهم المنافقون المذيعون للأخبار مِنْهُمْ ) أى : من الرسول وأولى الأمر .أى : لو أن أولئك المنافقين وأشباههم الذين يستخرجون الأخبار ويذيعونها بغير تثبت سكتوا عن إذاعتها وردوا الأمر فى شأنها إلى الرسول وإلى كبار أصحابه ، لو أنهم فعلوا ذلك لعلموا من جهة الرسول وجهة كبار أصحابه حقيقة تلك الأخبار ، وما يجب عليهم نحوها من كتمان أو إذاعة .وعلى هذا يكون الضمير فى قوله ( مِنْهُمْ ) فى الموضعين يعود إلى الرسول وإلى أولى الأمر .ويكون المراد بالذين يستنبطونه المنافقون وضعاف الإيمان الذين يذيعون الأخبار ويكون فى الكلام إظهار فى مقام الإضمار حيث قال : سبحانه - ( لَعَلِمَهُ الذين يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ) ولم يقل لعلموه منهم ، وذلك لزيادة تقرير الغرض المسوق له الكلام ، وللمبالغة فى ذمهم على بحثهم وراء الأخبار الخفية الهامة واستنباطها وتطلبها ثم إذاعتها بقصد الإضرار بمصلحة المسلمين .وقد ذكر الفخر الرازى فى المراد بالذين يستنطبونه وجها آخر فقال :وفى قوله ( الذين يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ) قولان :الأول : أنهم أولئك المنافقون المذيعون .والتقدير : لو أن هؤلاء المنافقين المذيعين للأخبار ردوا أمر الأمن والخوف إلى الرسول وإلى أولى الأمر ، وطلبوا معرفة الحال فيه من جهتهم ، لعلمه الذين يستنطبونه وهم هؤلاء المنافقون المذيعون ( مِنْهُمْ ) أى من جانب الرسول ومن جانب أولى الأمر .والقول الثانى : أنهم طائفة من أولى الأمر . والتقدير : ولو أن المنافقين ردوا إلى الرسول وإلى أولى الأمر لكان علمه حاصلا عند من يستنبط هذه الوقائع من أولى الأمر ، وذلك لأن أولى الأمر فريقان : بعضهم من يكون مستنبطا ، وبعضهم من لا يكون كذلك . فقوله ) مِنْهُمْ ) يعنى لعلمه الذين يستنبطون المخفيات من طوائف أولى الأمر .فإن قيل : إذا كان الذين أمرهم الله برد هذه الاخبار إلى الرسول وإلى المؤمنين هم المنافقون فكيف جعل أولى الأمر منهم فى قوله ( وإلى أُوْلِي الأمر مِنْهُمْ ) ؟ قلنا : إنما جعل أولى الأمر منهم على حسب الظاهر . لأن المنافقين يظهرون من أنفسهم أنهم يؤمنون . ونظيره قوله - تعالى - : ( وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَن لّيُبَطِّئَنّ ) ثم ختم - سبحانه - الآية ببيان فضله على عباده فقال ( وَلَوْلاَ فَضْلُ الله عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتّبَعْتُمُ الشيطان إِلاّ قَلِيلاً ) .أى : ولولا فضل الله عليكم ورحمته بكم - أيها المؤمنون - بتوفيقه إياكم إلى الخير والطاعة ، لوقعتم فى إغواء الشيطان كما وقع هؤلاء المنافقون وأشباههم ، إلا عددا قليلا منكم وهم الذين أخلصوا دينهم لله واعتصموا به فصاروا لا سبيل للشيطان عليهم كما قال - تعالى - : ( إِنّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ) هذا . ومن الأحكام والآداب التى أخذها العلماء من هذه الآية الكريمة وجوب عدم إذاعة الأخبار - خصوصا فى حالات الحرب - إلا بعد التأكد من صحتها ومن عدم إضرارها بمصلحة المسلمين .وفى ذلك يقول الإمام ابن كثير : قوله - تعالى - ( وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأمن أَوِ الخوف أَذَاعُواْ بِهِ ) إنكار على من يبادر إلى الأمور قبل تحققها فيخبر بها ويفشيها وينشرها ، وقد لا يكون لها صحة . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " كفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع " .وفى الصحيحين عن المغيرة بن شعبة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن قيل وقال . أى : الذى يكثر من الحديث عما يقول الناس من غير تثبت ولا تدبر ولا تبين .وفى الصحيح " من حدث بحديث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين " .وفى سنن أبى داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " بئس مطية الرجل زعموا " .وقد عدد الفخر الرازى المضار التى تعود على الأمة بسبب إذاعة الأخبار بدون تثبت فقال : وكان سبب الضرر من إذاعة هذه الأخبار من وجوه :الأول : أن مثل هذه الإرجافات لا تنفك عن الكذب الكثير .الثاني : أنه إذا كان ذلك الخبر فى جانب الأمن زادوا فيه زيادات كثيرة . فإذا لم توجد فيه تلك الزيادات ، أورث ذلك شبهة للضعفاء فى صدق الرسول صلى الله عليه وسلم لأن المنافقين كانوا يروون هذه الإرجافات عن الرسول صلى الله عليه وسلم .وإن كان ذلك فى جانب

الخوف تشوش الأمر بسببه على ضعفاء المسلمين ، ووقعوا عنده فى الحيرة والاضطراب ، فكانت تلك الإرجافات سببا للتفنة من هذا الوجه .الثالث : أن الإرجاف سبب لتوفير الدواعى على البحث الشديد والاستقصاء التام . وذلك سبب لظهورا لأسرار . وذلك ما لا يوافق المصحلة .الرابع : أن العداوة الشديدة كانت قائمة بين المسلمين والكفار . فكل ما كان أمنا لأحد الفريقين كان خوفا للفريق الثانى . فإن قوع خبر الأمن للمسلمين وحصول العسكر وآلات الحرب لهم أرجف المنافقون بذلك ، فوصل الخبر إلى الكفار فأخذوا فى التحصن من . المسلمين . وإن وقع خبر الخوف للمسلمين بالغوا فى ذلك وزادوا فيه . فظهر من ذلك أن ذلك الإرجاف كان منشأ للفتن والآفات من كل الوجوه . ولما كان الأمر كذلك ذم الله - تعالى - تلك الإذاعة وذلك التشهير ومنعهم منه .وقال الشيخ محمد المنير - الذى عاصر الحروب الصليبية - معلقا على هذه الآية : ( فى هذه الآية تأديب لمن يحدث بكل ما يسمع وكفى به كذبا؛ وخصوصا عن مثل السرايا والمناصبين الأعداء العداوة ، والمقيمن فى نحر العدو . وما أعظم المفسدة فى لهج العامة بكل ما يسمعون من أخبارهم خيرا أو غيره . ولقد جربنا ذلك فى زماننا هذا منذ طرق العدو المخذول البلاد - طهرها الله منه وصانها من رجسه ونجسه ، وعجل للمسلمين الفتح وأنزل عليهم السكينة والنصر ) .والخلاصة ، أن إذاعة الأخبار بدون تثبت - خصوصا فى أوقات الحروب تؤدى إلى أعظم المفاسد والشرور ، لأنها إن كانت تتعلق بالأمن فإنها قد تحدث لونا من التراخى وعدم أخذ الحذر ، وإن كانت تتعلق بالخوف فإنها قد تحدث بلبلة واضطرابا فى الصفوف والمجتمع الذى يكثر فيه العقلاء الفطناء هو الذى تقل فيه إذاعة الأخبار. إلا من مصادرها الأصلية ، وهو الذى يرجع أفراده فى معرفة الحقائق إلى العلماء المتخصصين .وهكذا نرى الآية الكريمة تغرس فى نفوس المؤمنين أسمى ألوان الإخلاص لدينهم ودولتهم وقيادتهم ، فهى فى مطلعها تنكر عليهم إذاعة الاخبار بدون تحقق من صدقها ومن فائدتها ، وفى وسطها تأمرهم بأن يرجعوا إلى حقائق دينهم وإلى الحكام العادلين ، والعلماء المخصلين الذين يعرفون الأمور على وجهها ليسألوهم عما يريدون معرفته ، وفى آخرها تذكرهم بفضل الله عليهم ورحمته بهم حتى يداوموا على طاعته ، ويشكروه على نعمه .وبعد هذا الحديث الحكيم عن أحوال المنافقين وضعفاء الإيمان ، وعن تباطئهم عن الجهاد وإشاعتهم للأخبار بدو تثبت ، بعد كل ذلك أمر الله - تعالى - نبيه محمدا صلى ، الله عليه وسلم أن يستمر فى قتاله للمشركين ، وأن يحرض أصحابه على ذلك كما أرشد - سبحانه - المؤمنين إلى طائفة من مكارم الأخلاق التى تقوى رابطتهم فقال - تعالى - : ( فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ . . . . مِنَ اللهِ حَدِيثاً ) .

فقاتل في سبيل الله لا تكلف الا نفسك وحرض المؤمنين عسى الله ان يكف باس الذين كفروا والله اشد باسا واشد تنكيلا

كما فسرها الوسيط والفاء فى قوله ( فَقَاتِلْ ) للإفصاح عن جواب شرط مقدر أى : إذا كان الأمر كما حكى - سبحانه - عن المنافقين وكيدهم . . . فقاتل . أنت يا محمد من أجل إعلاء كلمة الله ولا تلتفت إلى أفعالهم وأقوالهم .وقوله أى : قاتل - يا محمد - فى سبيل إعلاء ( لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ ) كلمة الله ، والله - تعالى -لا يكلفك إلا فعل نفسك ، فتقدم للجهاد ولا تلتفت إلى تباطؤ المتباطئين ، أو تخذيل المخذلين ، فإن الله هو ناصرك لا الجنود ، فإن شاء نصرك وحدك كما ينصرك وحولك الألوف .وجملة ( لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ ) فى محل نصب على الحال من فاعل فقاتل : أى : فقاتل حال كونك غير مكلف إلا نفسك وحدها .قال صاحب الكشاف : قيل : دعا النبى صلى الله عليه وسلم الناس فى بدر الصغرى إلى الخروج ، وكان أبو سفيان قد واعد رسول الله صلى الله عليه وسلم اللقاء فيها . فكره بعضهم أن يخرجوا فنزلت فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وما معه إلا سبعون لم يعولوا على أحد . ولو لم يتبعه أحد لخرج وحده ، وقرئ ( لاَ تُكَلُّفُ ) بالجزم على النهى . ولا نكلف : بالنون وكسر اللام .أى :لا نكلف نحن نفسك وحدها .وقوله ( وَحَرِّضِ المؤمنين ) أى : حثهم على القتال ورغبهم فيه ، حتى ينفروا معك خفافا وثقالا من أجل نصرة الحق والدفاع عن المظلومين .ولقد استجاب النبى صلى الله عليه وسلم لهذه الأوامر ، وأعد نفسه لقتال أعدائه ، ورغب أتباعه فى ذلك ، ولذا قال صلى الله عليه وسلم عندما أذن الله له فى القتال " والله لأقاتلنهم حتى تنفرد سالفتى " أى : حتى أموت .ولقد اقتدى به أبو بكر الصديق فى حروب الردة فقال : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، والله لو منعونى عناقا كانوا يؤدونها لرسول الله صلى الله علي وسلم لقاتلتهم على منعها . ولو خالفتنى يمينى لجاهدتهم بشمالى .ولقد استفاضت أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم فى ترغيب أمته فى الجهاد ، ومن ذلك قوله لأصحابه يوم بدر وهو يسوى الصفوف : قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض .قال الفخر الرازى : دلت الآية الكريمة على أنه صلى الله عليه وسلم كان أشجع الخلق وأعرفهم بكيفية القتال ، لأنه - تعالى - ما كان يأمره إلا وهو صلى الله عليه وسلم موصوف بهذه الصفات . ولقد اقتدى به أبو بكر - رضى الله عنه - حيث حاول الخروج

وجده لقتال ما نعى الزكاة ، ومن علم أن الأمر كله بيد الله ، وأنه لا يحصل
أمر من الأمور إلا بقضاء الله سهل عليه ذلك . ودلت الآية على أنه صلى الله
) : عليه وسلم لو لم يساعده على القتال لم يجز له التخلف عن الجهاد .وقوله
عَسَى اللّه أَن يَكُفَّ بَأْسَ الذين كَفَرُواْ واللّه أَشَدُّ بَأْساً
وَأَشَدُّ تَنكِيلاً ) بشارة للمؤمنين ، ووعد منه - سبحانه - بحسن عاقبتهم
وسوء عاقبة الكافرين . و ( عَسَى ) حرف ترج . وهو هنا يفيد التحقق واليقين
لأنه صادر عن الله - تعالى - ، الذى لا يخلف وعده . وفى التعبير بها ،
تعليم للمؤمنين الأدب فى القول حتى لا يجزمون بأم يتعلق بالمستقبل ، بل
- يسددون ويقاربون ويباشرون الأسباب ثم بعد ذلك يتركون النتائج لله - تعالى
- والمعنى : قاتل يا محمد فى سبيل الله وحرض المؤمنين على ذلك ، عسى الله
تعالى - ( أَن يَكُفَّ بَأْسَ الذين كَفَرُواْ ) أى يمنع قتالهم وصولتهم
وطغيانهم ( والله أَشَدُّ بَأْساً ) أى أشد صولة وأعظم سلطانا ، وأقدر بأسا
: على ما يريده ( وَأَشَدُّ تَنكِيلاً ) أى أشد عقوبة وتعذيبا .والتنكيل
، مصدر من قول القائل نكلت بفلان فأنا أنك به تنكيلا إذا أوجعته عقوبة
وجعلته عبرة لغيره . وأصله التعذيب بالنكل وهو القيد ، ثم استعمل فى كل
تعذيب بلغ الغاية فى الشدة والألم .وأفعل التفضيل ( وَأَشَدُّ ) ليس على
بابه ، لأن بأس المشركين لا قيمة له بجانب بأس الله - تعالى - وقوته ونفاذ
- أمره . وعذابهم لغيرهم من الضعفاء لا وزن له بجانب عذابه - سبحانه
للظالمين ، لأن عذابهم لغيرهم سينتهى مهما طال ، أما عذابه - سبحانه - فلا
- يمكن التخلص منه ولأن عذابهم لغيرهم سينتهى مهما طال ، أما عذابه
سبحانه - للكافرين الظالمين فهو باق دائم لا ينتهى ولا يزول .والمقصود من
، هذا التذييل تهديد الكافرين بسوء المصير وتشجيع المؤمنين على قتالهم
وبشارتهم النصر عليهم .قال القرطبى : قوله - تعالى - ( عَسَى الله أَن
- يَكُفَّ بَأْسَ الذين كَفَرُواْ ) إطماع ، والإطماع من الله - تعالى
واجب لأن إطماع الكريم إيجاب . .فإن قال قائل : نحن نرى الكفار فى بأس وشدة
وقلتم : إن عسى بمعنى اليقين فأين ذلك الوعد؟ قيل له : قد وجد على ،
الاستمرار والدوام . فمتى وجد ولو لحظة مثلا فقد صدق الوعد؛ فقد كف الله
بأس المشركين فى بدر الصغرى . وفى الحديبية وفى غزوة الأحزاب حيث ألقى
) الله - تعالى - فى قلوب الأحزاب الرعب فانصرفوا دون أن ينالوا خيرا
. وَكَفَى الله المؤمنين القتال ) فهذا كله بأس قد كفه الله عن المؤمنين

من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها
وكان الله على كل شيء مقيتا

كما فسرها الوسيط ثم رغب - سبحانه المؤمنين فى الخير ، وحذرهم من التوسط فى
الشر ، فقال : ( مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَّهُ نَصِيبٌ
مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا
والشفاعة : هى التوسط بالقول فى وصول إنسان إلى منفعة دنيوية أو أخروية. (
أو إلى إنقاذه من مضرة . وهى مأخوذة من الشفع وهو الزوج فى العدد ضد ،
الوتر . فكأن المشفوع له كان وترا فجعله الشفيع شفعا .والنصيب : الحظ من كل
شئ . والكفل : الضعف والنصيب والحظ .قال الجمل : واستعمال الكفل فى الشر
- أكثر من استعمال الصيب فيه وإن كان كل منهما قد يستعمل فى الخير كما قال
تعالى - ( يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ ) ولقلة استعمال النصيب
فى الشر وكثرة استعمال الكفيل فيه غاير بينهما فى الآية الكريمة حيث أتى
بالكفل مع السيئة وبالنصيب مع الحسنة .والمعنى : من يشفع شفاعة حسنة ، أى
يتوسط فى أمر يترتب عليه خير ( يَكُنْ لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا ) أى : يكن
له ثواب هذه الشفاعة الحسنة . ( وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً ) وهى
ما كانت فى غير طريق الخير ( يَكُنْ لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا ) أى : يكن له
نصيب من وزرها وإثمها ، لأن سعى فى الفساد ولم يسع فى الخير .وإطلاق
الشفاعة على السعى فى الشر من باب المشاكلة ، لأن الشافعة لا تطلق إلا على
الوساط فى الخير .والآية الكريمة وإن كانت واردة على سبيل التعميم فى بيان
جزاء كل شفاعة حسنة أو كل شفاعة سيئة ، إلا أن المقصود بها قصدا أوليا
ترغيب المؤمنين فى أن يعاون بعضهم بعضا على الجهاد فى سبيل الله ، وفى
انضمام بعضهم إلى بعض من أجل نصرة الحق ، وتهديد المنافقين الذين كان يشفع
. بعضهم لبعض لكى يأذن لهم النبى صلى الله عليه وسلم فى التخلف عن الجهاد
- وقد رجح هذا الاتجاه الإمام ابن جرير فقال ما ملخصه :يعنى - سبحانه
بقوله ( مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا
وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا ) من يصر
، يا محمد شفعا لوتر أصحابك ، فيشفعهم فى جهاد عدوهم وقتالهم فى سبيل الله
، وهو الشفاعة الحسنة لم يكن له نصيب منها ، أى يكن له من شفاعته تلك نصيب
وهو الحظ من ثواب الله وجزيل كرامته . ومن يشفع وتر أهل الكفر بالله على
المؤمنين به ، فيقاتلهم وذلك هو الشفاعة السيئة يكن له كفل منها . يعن
بالكفل : النصيب والحظ من الوزر والإثم ، وهو مأخوذ من كفل البعير والمركب
وهو الكساء أو الشئ يهيأ عليه شبيه بالسرج على الدابة . يقال : جاء فلان ،

مكتفلا : إذا جاء على مركب قد وطئ له . . وقد قيل : إن الآية عنى بها شفاعة
الناس بعضهم لبعض . وغير مستنكر أن تكون الآية نزلت فيما ذكر ، ثم عم بذلك
كل شافع بخير أو شر .وإنما اخترنا ما قلنا من القول فى ذلك؛ لأنه فى سياق
الآية التى أمر الله نبيه فيها بحض المؤمنين على القتال . فكان ذلك بالوعد
لمن أجاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والوعيد لمن أبى إجابته أشبه منه من
الحث على شفاعة الناس بعضهم لبعض التى لم يجر لها ذكر قبل . ولا لها ذكر
بعد .وقوله ( وَكَانَ الله على كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتاً ) تذييل قصد به
تعريف الناس أنه - سبحانه - سيجازى كل إنسان بعمله ، حتى يكثروا من فعل
الخير ويقلعوا عن فعل الشر .ومقيتا : أى مقتدرا . من أقات على الشئ اقتدر
عليه . ومنه قول الزبير ابن عبد المطلب :وذى ضغن كففت النفس عنه ... وكنت
على مساءته مقيتاً أى : وكنت على رد إساءته مقتدراً .أو مقيتا : معناها
: حفيظا من القوت وهو ما يمسك الرق من الرزق وتحفظ به الحياة : والمعنى
وكان الله تعالى - وما زال على كل شئ مقتدرا لا يعجزه شئ ، وحفيظا على
أحوال الناس لا يغيب عنه شئ من ذلك ، وسيجازيهم بما يستحقون من ثواب أو
عقاب .هذا وقد وردت أحاديث متعددة فى الحض على الشفاعة الحسنة ، ومن ذلك ما
أخرجه الشيخان عن ابى موسى الأشعرى قال : " " كان النبى صلى الله عليه وسلم
إذا أتاه طالب حاجة أقبل على جلسائه فقال : " اشفعوا تؤجروا ويقضى الله على
لسانه نبيه ما أحب " " .قال صاحب الكشاف : والشفاعة الحسنة هى التى روعى
، بها حق مسلم ، ودفع بها عنه شر أو جلب إليه خير ، وابتغى بها وجه الله
ولم تؤخذ عليها رشوة ، وكانت فى أمر جائز ، ولا فى حد من حدود الله ولا فى
حق من الحقوق - يعنى الواجبة عليه - والسيئة ما كانت بخلاف ذلك . وعن مسروق
أنه شفع شفاعته . فأهدى إليه المشفوع له جارية . فغضب وردها . وقال : لو :
. علمت ما فى قلبك ما تكلمت فى حاجتك . ولا أتكلم فيما بقى منها

واذا حييتم بتحية فحيوا باحسن منها او ردوها ان الله كان على كل شيء حسيبا

كما فسرها الوسيط وبعد أن أمر الله - تعالى - عباده بالشفاعة الحسنة ونهاهم
عن الشفاعة السيئة ، أتبع ذلك بتعليمهم ادب اللقاء والمقابلة حتى تزيد
المودة والمحبة بينهم فقال - تعالى - : ( وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ
فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ) .والتحية : تفعلة من حييت؛
والأصل تحيية مثل ترضية وتسمية فأدغموا الياء فى الياء . قال الراغب : أصل
التحية من الحياة ، بأن يقال حياك الله ، أى : جعل لك حياة ، وذلك إخبار ثم
جعل دعاء تحية . يقال : حيا فلان فلانا تحية إذا قال له ذلك .وكان من عادة
العرب إذا لقى بعضهم بعضا أن يقولوا على سبيل المودة : حياك الله فلما جاء
الإسلام أبدل ذلك بالسلام والأمان بأن يقول المسلم لأخيه المسلم : السلام
- عليكم وأضيف إليها الدعاء برحمة الله وبركاته .قال ابن كثير : قوله
تعالى - ( وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ
، أَوْ رُدُّوهَآ ) أى : إذا سلم عليكم المسلم فردوا عليه بأفضل مما سلم
أوردوا عليه بمثل ما سلم . فالزيادة مندوبة والمماثلة مفروضة . فعن سلمان
الفارسى قال : " جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : السلام عليكم
يا رسول الله . فقال " وعليك السلام ورحمة الله " ثم جاء آخر فقال : السلام
" : عليك يا رسول الله ورحمة الله ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم
وعليك السلام ورحمة الله وبركاته . ثم جاء ثالث فقال : السلام عليك يا رسول
الله ورحمة الله وبركاته فقال له : ( وعليك ) فقال له الرجل : يا رسول الله
بأبى أنت وأمى أتاك فلان وفلان فسلما عليك فرددت عليهما أكثر مما رددت ،
على . فقال ( إنك لم تترك لنا شيئا ) قال الله - تعالى - : ( وَإِذَا
( حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ
فرددناها عليك "وفى الحديث دلالة على أنه لا زيادة فى السلام على هذه الصفة
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . إذ لو شرع أكثر من ذلك لزاده رسول :
الله صلى الله عليه وسلم .فأنت ترى أن الآية الكريمة تدعو المؤمنين إلى أن
يردوا التحية على من يحيونهم وأن يفشوا هذه التحية بينهم ، لأن إفشاءها
يؤدى إلى توثيق علاقات المحبة والمودة بين المسلمين .وقد ورد فى الحض على
: إفشاء السلام أحاديث كثيرة منها ما رواه مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة قال
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :"لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا
تؤمنوا حتى تحابوا . ألا أدلكم على شئ إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام
بينكم " .وقوله ( إِنَّ الله كَانَ على كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً ) تذييل قصد
- به بعث الناس على امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه .أى : إن الله
تعالى - كان وما زال مهيمنا على عباده ، بصيراً بكل أقوالهم وأعمالهم ، لا
يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء ، وسيحاسب الناس يوم القيامة على
أفعالهم ، وسيجازيهم عليها بما يستحقون ( فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ
خَيْراً يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ) وإذا كان
الأمر كذلك فالعاقل هو الذى يفعل ما أمره الله - تعالى - بفعله ، ويجتنب ما
أمره الله - تعالى - باجتنابه .وهذا وقد تكلم العلماء هنا كلاما طويلا فى
كيفية السلام وفى فضله ، وفى بعض أحكامه المأثورة ، فارجع إلى كلامهم إن

. شئت

الله لا اله الا هو ليجمعنكم الى يوم القيامة لا ريب فيه ومن اصدق من الله حديثا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن مصير العبادة جميعاً إليه يوم القيامة فقال - تعالى - اللَّه لا إله إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إلى يَوْمِ القيامة لاَ رَيْبَ فِيهِ ) .أى : الله الواحد الأحد الفرد الصمد والذى لا معبود بحق سواه ، كتب على نفسه أنه ليبعثنكم من قبوركم وليحشرنكم إلى الحساب فى يوم القيامة الذى لا شك فى حصوله ووقوعه . فالجملة الكريمة قررت أن العبادة الحق إنما هى لله رب العالمين ، كما قررت أن يوم الحساب آت ، لا شك فيه مهما أنكره الملحدون ، ومارى فيه الممارون .ولفظ الجلالة مبتدأ وجملة (لا إله إِلاّ هُوَ ) خبر . وقوله ( لَيَجْمَعَنَّكُمْ ) جواب قسم محذوف . أى والله ليحشرنكم من قبوركم للحساب يوم القيامة .والجملة القسمية إما مستأنفة لا محل لها من الإعراب ، أو هى خبر ثان للمبتدأ أو هى الخبر وجملة لا إله إلا له معترضة .وقوله ( لاَ رَيْبَ ) فى محل نصب على الحال من يوم إذ الضمير فى قوله ( فيه ) يعود إلى اليوم . ويجوز أن يكون فى محل نصب على أنه نعت لمصدر محذوف دل عليه ليجمعنكم أى : ليجمعنكم جمعا لا ريب فيه والاستفهام فى قوله - تعالى - ( وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّه حَدِيثاً ). للإنكار والنفى أى : لا يوجد فى هذا الوجود من هو أصدق من الله - تعالى فى حديثه وخبره ووعده ووعيده ، وذلك لأن الكذب قبيح ، والله - تعالى - منزه عن كل قبيح . ولأن الكاذب إنما يكذب لجر منفعة ، أو لدفع مضرة ، أو لجهله بقبح الكذب . . والله - تعالى - غنى عن كل شئ ، وقدير على كل شئ وخالق لكل شئ ، ومن كان كذلك لا يصدر عنه كذب وإنما يصدر عنه كل حق وصدق وعدل .

فما لكم في المنافقين فئتين والله اركسهم بما كسبوا اتريدون ان تهدوا من اضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا

، كما فسرها الوسيط ثم واصلت السورة الكريمة حديثها عن أحوال المنافقين وبينت حكم الله - تعالى - فيهم ، ورسمت للمؤمنين طريق معاملتهم لغيرهم فقال تعالى : (فَمَا لَكُمْ . . . سُلْطَاناً مُّبِيناً ) .أورد المفسرون فى سبب نزول قوله - تعالى - ( فَمَا لَكُمْ فِي المنافقين فِئَتَيْنِ ) روايات أهمها روايتان :أولهما : أن هذه الآية نزلت فى شأن المنافقين الذين تخلفوا عن الاشتراك مع المؤمنين فى غزوة أحد . وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى أحد ومعه المسلمون . وفى الطريق رجع عبد الله بن إبى بن سلول بثلث الناس وقالوا ( لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ ) فاختلف : أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فى شأن هؤلاء المنافقين . فقال بعضهم . نقتلهم فقد كفروا .وقال آخرون : لم يكفروا . فأنزل الله - تعالى - الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إنها طيبة وإنها تنفى الخبث كما ينفى الكير خبث الحديد " .أما الرواية الثانية : فيؤخذ منها أنها نزلت فى قوم كانوا يظهرون الإسلام بمكة إلا أنهم كانوا يظاهرون المشركين . فقد أخرج ابن جريرعن ابن عباس أن قوما كانوا بمكة قد تكلوا بالإسلام وكانوا يظاهرون المشركين ، فخرجوا من مكة يطلبون حاجة لهم . فقالوا : إن لقينا أصحاب محمد ، فليس علينا منهم بأس . وإن المؤمنين لما اخبروا أنهم قد خرجوا من مكة قالت فئة من المؤمنين : اركبوا إلى هؤلاء الخبثاء فاقتلوهم ، فإنهم يظاهرون - عدوكم . وقالت فئة أخرى من المؤمنين : سبحان الله : - أو كما قالوا أتقتلون قوما قد تكلنوا بمثل ما تكلمت به؟ أمن أجل أنهم لم يهاجروا ولم يتركوا ديارهم تستحل دماؤهم وأموالهم؟ فكانوا كذلك فئتين والرسول صلى الله عليه وسلم عندهم لا ينهى واحداً من الفريقين عن شئ ، فنزلت : ( فَمَا لَكُمْ فِي المنافقين فِئَتَيْنِ ) .وهناك روايات أخرى قريبة من هذه الرواية فى معناها قد ذكرها المفسرون .ويبدو لنا أن الرواية الثانية هى الأقرب إلى سياق الآيات وإلى الواقع التاريخى ، لأنه من الثابت تاريخيا أن منافقى المدينة لم يرد أمر بقتالهم ، وإنما استعمل معهم الرسول صلى الله عليه وسلم وسائل أخرى أدت إلى نبذهم وهوان أمرهم ، لأن قوله - تعالى - بعد ذلك ( فَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حتى يُهَاجِرُواْ ) يؤيد أنه ليس المقصود بالمنافقين هنا منافقى المدينة ، وإنما المقصود بهم جماعة أخرى من المنافقين كانوا خارج المدينة ، إذ لا هجرة من المدينة إلى غيرها وإنما الهجرة تكون من غيرها إليها ، لأنها دار الإسلام ، ولم يكن فتح مكة قد تم عند نزول هذه الآية .وقد رجح الإمام ابن جرير سبب النزول الذى حكته الرواية الثانية فقال ما ملخصه : وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب قول من قال نزلت هذه الآية فى اختلاف أصحاب رسول الله فى قوم كانوا قد ارتدوا عن - الإسلام بعد إسلامهم من أهل مكة . وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب لأن قوله تعالى - بعد ذلك ( فَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حتى يُهَاجِرُواْ ) أوضح دليل على أنهم كانوا من غير أهل المدينة ، لأن الهجرة

كانت على عهد الله إلى داره ومدينته من سائر أرض الكفر .فأما من كان من
المدنية فى دار الهجرة مقيما من المنافقين وأهل الشرك فلم يكن عليه فرض
هجرة .والفاء في قوله ( فَمَا لَكُمْ ) للتفريع على ما تقدم من أخبار
المنافقين وأحوالهم أو هى للافصاح و " ما " مبتدأ و " لكم " خبره .قال
الجمل : وقوله ( فِي المنافقين ) فيه ثلاثة أوجه :أحدها : أنه متعلق بما
تعلق به الخبر وهو " لكم " أى : أى شئ كان لكم أو مستقر لكم فى أمر
المنافقين .والثانى : أنه متعلق بمعنى فئتين ، فإنه فى قوة : ما لكم
: تفترقون فى أمر المنافقين فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه .والثالث
: أنه متعلق بمحذوف على أنه حال من فئتين ، لأنه فى الأصل صفة لها تقديره
. فئتين مفترقين فى المنافقين وصفة النكرة إذا تقدمت عليها انتصبت حالا
وقوله " فئتين " حال من ضمير " لكم " المجرور والعامل فيه الاستقرار أو
الظرف لنيابته عنه . . .والاستفهام لإنكار خلافهم فى شأن المنافقين ولوم
المؤمنين الذين أحسنوا الظن بالمنافقين مع أن أحوال هؤلاء المنافقين تدعو
إلى سوء الظن بهم .والمعنى : لقد سقت لكم - أيها المؤمنون - من أحوال
المنافقين ما يكشف عن خبثهم ومكرهم ، وبينت لكم من صفاتهم ما يدعو إلى
الحذر منهم وسوء الظن بهم ، وإذا كان هذا هو حالهم فما الذى سوغ لكم أن
تختلفوا فى شأنهم إلى فئتين؟ فئة تحسن الظن بهم وتدافع عنهم ، وفئة أخرى
صادقة الفراسة ، سليمة الحكم لأنها عندما رأت الشر قد استحوذ على المنافقين
أعرضت عنهم ، واحتقرتهم ، وأخذت حذرها منهم ، وحكمت عليهم بالحكم الذى رضيه
الله - تعالى - .والآن - أيها المؤمنون - بعد أن ظهر الحق ، وانكشف حال
أولئك المنافقين ، عليكم أن تتركوا الخلاف فى شأنهم ، وأن تتفقوا جميعا على
) أنهم قوم بعيدون عن الحق والإيمان . ومنغمسون فى الضلال والبطلان .وقوله
والله أَرْكَسَهُمْ بِمَا كسبوا ) حال من المنافقين مفيد لتأكيد الإنكار
السابق أى : لم تختلفوا - أيها المؤمنون - فى شأن المنافقين هذا الاختلاف
والحال أن الله - تعالى - قد ردهم إلى الكفر بعد الإيمان بسبب أقوالهم
الأثيمة ، وأعمالهم القبيحة .وقوله ( أَرْكَسَهُمْ ) من الركس وهو رد أول
الشئ على آخره . يقال : ركس الشئ يركسه ركسا إذا قلبه على رأسه . والركس
والنكس بمعنى واحد .والاستفهام فى قوله ( أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ
أَضَلَّ الله ) للإنكار على من أحسن الظن بأولئك المنافقين .أى : أتريدون
أيها المؤمنون الذين أحسنتم الظن بهؤلاء المنافقين أن تعدوهم من جملة
المهتدين ، مع أن الله - تعالى - قد خلق فيهم الضلال ، لأنهم قد استحبوا
العمى على الهدى ، وآثروا الغى على الرشد .وقوله ( وَمَن يُضْلِلِ الله
فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً ) أى : ومن يكتب الله عليه الضلالة ، فلن تجد
. أحداً يهديه ويرشده ، لأن قضاء الله لا يتبدل ، وقدره لا يتخلف

ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم اولياء حتى يهاجروا
في سبيل الله فان تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم وليا
ولا نصيرا

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - ( وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا
كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ) كلام مستأنف مسوق لبيان غلوهم وتماديهم
: فى الكفر وتصديقهم لإضلال غيرهم إثر بيان كفرهم وضلالهم فى أنفسهم .أى
أن هؤلاء المنافقين الذين يحسن الظن بهم بعضكم - أيها المؤمنون -لا يكتفون
بكفرهم فى أنفسهم بل هم يتمنون ويودون كفركم مثلهم بحيث تكونون أنتم وهم
متساوين فى الكفر والنفاق ، وإذا كان هذا هو حالهم فكيف تطمعون فى إيمانهم؟
وكيف تحسنون الظن بهم؟و ( لَوْ ) فى قوله ( وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ )
مصدرية . أى تمنوا كفركم . وقوله (كَمَا كَفَرُواْ ) نعت لمصدر محذوف : أى
تمنوا أن تكفروا كفراً مثل كفرهم .وقوله ( فَتَكُونُونَ سَوَآءً ) معطوف
على قوله ( لَوْ تَكْفُرُونَ ) ومفرع عليه . أى : ودوا لو تكفرون فتكونون
مستوين معهم فى الضلال والكفر والنفاق .وما أبلغ التعبير فى جانب محاولة
المؤمنين بالإرادة فى قوله ( أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ
. الله ) وفى جانب محاولة المنافقين بالود؛ لأن الإرادة ينشأ عنها الفعل
فالمؤمنون يستقربون حصول الإيمان من المنافقين ، لأن الإيمان قريب من
، فطرة الناس وعقولهم . والمنافقون يعلمون أن المؤمنين لا يرتدون عن دينهم
ويرونهم متمسكين به غاية التمسك ، فلم يكن طلبهم تكفير المؤمنين إلا كلون
من التمنى الذى لا أمل فى تحققه ، فعبر عنه بالود المجرد ، أى ودوا ذلك
ولكنه ود بعيد التحقق .وقوله ( فَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ
حتى يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ الله ) نهى من الله - تعالى - للمؤمنين من
موالاة المنافقين حتى يصدر منهم ما يدل على إقلاعهم عن النفاق والضلال
والفاء فى قوله : ( فَلاَ تَتَّخِذُواْ ) للإفصاح عن شرط مقدر . والتقدير.
إذا كان هذا هو شأن المنافقين فلا يصح لكم - أيها المؤمنون - أن تتخذوا
منهم أولياء أو نصراء أو أصدقاء حتى تتحققوا من إسلامهم بأن يهاجروا من أجل
إعلاء كلمة الله من دار الكفر التى يقيمون فيها ويناصرون أهلها إلى دار
الإيمان التى تقيمون فيها ، وينضمون إليكم لنصرة الحق ، ودفع الظلم .قال

الفخر الرازى ما ملخصه : ( دلت الآية على أنه لا يجوز موالاة المشركين والمنافقين والمشتهرين بالزندقة لأن أعز الأشياء وأعظمها عند جميع الخلق هو . . الدين ، لأنه هو الأمر الذى به يتقرب إلى الله ، ويتوسل به إلى السعادة وإذا كان الأمر كذلك ، امتنع طلب المحبة والولاية فى الموضع الذى . . . - يكون أعظم موجبات العداوة حاصلا فيه ودلت على إيجاب الهجرة بعد الإسلام أى فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يسلموا ويهاجروا - وأنهم إن أسلموا لم يكن بيننا وبينهم موالاة إلا بعد الهجرة .ونظيره قوله - تعالى - ( مَا لَكُمْ مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حتى يُهَاجِرُواْ ) واعلم أن هذا التكليف إنما كان لازما حال ما كانت الهجرة مفروضة ففى الحديث الشريف : " أنا برئ من كل مسلم أقام بين أظهر المشركين . وأنا برئ من كل مسلم مع مشرك " فكانت الهجرة واجبة إلى أن فتحت مكة . ثم نسخ فرض الهجرة بما رواه ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال يوم فتح مكة "لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية " وروى عن الحسن أن حكم الآية ثابت فى كل من اقام فى دار الحرب فرأى فرض الهجرة إلى دار الإسلام قائما .وقوله : ( فَإِنْ تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ واقتلوهم حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً ) بيان لحكم الله - تعالى - فى هؤلاء المنافقين إذا ما استمروا فى غيهم وضلالهم .والمعنى : فإن أعرض ، هؤلاء المنافقون عن الهجرة فى سبيل الله - تعالى - فلا تعتبروا إسلامهم بل خذوهم فى الأسر ، وضيقوا عليهم ( واقتلوهم حيث وجدتموهم ) لأنهم أعداء لكم ( فَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ ) فى هذه الحالة ( وَلِيّاً ) توادونه وتصادقونه ( وَلاَ نَصِيراً ) تنتصرون به على أعدائكم ، لأن ولاية هؤلاء المنافقين محادة لله ولرسوله ، والتناصر بهم يؤدى إلى الخذلان كما قال - تعالى - ( لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ) فالجملة الكريمة تأمر المؤمنين بقتل المنافقين الذين ظهر الكفر منهم وتناههم عن اتخاذهم أولياء أو أصدقاء وعن الاستنصار بهم .

الا الذين يصلون الى قوم بينكم وبينهم ميثاق او جاءوكم حصرت صدورهم ان يقاتلوكم او يقاتلوا قومهم ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم والقوا اليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا

كما فسرها الوسيط وقوله : ( إِلاَّ الذين يَصِلُونَ إلى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ ) استثناء من الضمير المنصوب فى قوله ( فَخُذُوهُمْ واقتلوهم ) .وقوله ( يَصِلُونَ ) بمعنى يتلجئون ويتصلون . الميثاق العهد الموثق .والمعنى : أن الله - تعالى - يأمركم - أيها المؤمنون - أن تأخذوا أولئك المنافقين الذين أظهروا كفرهم وتمنوا أن تكونوا مثلهم ، وامتنعوا عن - الهجرة إلى دياركم ، وينهاكم عن موالاتهم وعن الاستعانة بهم ، لكنه سبحانه - قد استثنى من هؤلاء الذين أمركم بأخذهم وقتلهم أناسا التجأوا واستندوا إلى قوم بينكم وبينهم عهد أمان ، لأنهم بهذا الالتجاء قد صار حكمهم كحكم من لجأوا إليهم من حيث الأمان وعدم الاعتداء .وقد ذكر العلماء أقوالا فى المراد من القوم الذين كان بينهم وبين المسلمين عهد أمان ، فقيل هم الأسلميون ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقت خروجه إلى مكة قد : وادع هلال بن عويمر الأسلمى على أن لا يعينه ولا يعين عليه ، وعلى أن من وصل إلى هلال ولجأ إليه فله من الجوار مثل الذى لهلال . وقيل هم بنو بكر بن زيد .وقيل هم خزاعة .وقوله : ( أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُواْ قَوْمَهُمْ ) عطف على صلة الذين وهو قوله ( يَصِلُونَ ) ومعنى حصرت : ضاقت وانقبضت ومنه الحصر فى القول وهو ضيق. - الكلام على المتكلم . ويقال حصر صدره يحصر أى ضاق .أى : خذوا واقتلوا أيها المؤمنون - المنافقين الذين أعلنوا كفرهم ، ولا تأخذوا ولا تقتلوا الذين التجأوا إلى قوم بينكم وبينهم عهد أمان ، ولا تأخذوا ولا تقتلوا كذلك الذين جاءوا إليكم وقد ضاقت نفوسهم ، وانقبضت صدورهم عن قتالكم لأنكم مسلمون كما أنهم قد ضاقت نفوسهم عن قتال قومهم لأنهم منهم ، أو لأنهم يخشون قتالهم خوفا على أموالهم أو على ذريتهم أو ذوى أرحامهم .فأنت ترى أن الاستثناء فى قوله ( إِلاَّ الذين يَصِلُونَ إلى قَوْمٍ ) قد أخرج من الأخذ والقتل فريقين من الناس :الفريق الأول : هو الذى ترك المحاربين من الأعداء والتجأ إلى القوم الذين بينهم وبين المسلمين عهد أمان ، فإنه بهذا ، الالتجاء قد صار حكمه كحكم من التجأ إليهم فى الأمان .والفريق الثانى : هو الذى جاء إلى المؤمنين ، مسالما وترك قومه ، إلا أنه فى الوقت نفسه يكره أن يقاتل المسلمين لحبه لهم . ويكره أن يقاتل قومه لأنهم قومه وعشيرته وأهله أو لأنه لو قاتلهم للحقه الضرر فى ماله أو ذريته .وقوله : ( حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ ) فى موضع نصب على الحال بتقدير قد كما يرى بعضهم ، وبعضهم لا يرى حاجة لتقديرها ، لأنه قد جاء الفعل الماضى حالا بغيرها كثيراً .وقيل هو صفة لموصوف محذوف هو حال من فاعل ( جاءوا ) أى :جاءوكم حالة كونهم حصرت صدورهم .وقوله : ( أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُواْ قَوْمَهُمْ ) مجرور بحرف جر مقدر أى : حصرت صدورهم عن أن يقاتلولكم أو يقاتلوا قومهم .

أو هو فى محل نصب على مفعول لأجله . أى حصرت صدورهم كراهة قتالكم أو قتال قومهم .والمراد بالفريق الثانى بنو مدلج فقد أخرج ابن أبى حاتم " عن الحسن أن سراقة بن مالك المدلجى حدثهم فقال : لما ظهر النبى صلى الله عليه وسلم على أهل بدر وأسلم من حولهم ، قال : بلغنى أنه يريد أن يبعث خالد بن الوليد إلى قومى بنى مدلج . فأتيته فقلت : أنشدك النعمة . بلغنى أنك تريد أن تبعث إلى قومى . وأنا أريد أن توادعهم . فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيد خالد فقال : اذهب معه فافعل ما يريد " فصالحهم خالد على أن لا يعينوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن أسلمت قريش أسلموا معهم ، فأنزل الله الآية .وقوله ( وَلَوْ شَآءَ الله لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ ) بيان لمظهر من مظاهر فضل الله ورعايته للمؤمنين .أى : ولو شاء الله لسلط جميع المشركين عليكم بأن قوى قلوبهم ، وجرأهم عليكم ، وجعلهم يبرزون لقتالكم صفا واحدا ، ولكنه - سبحانه - لم يشأ ذلك ، بل ألقى وجعل منهم من يسالمكم ويأتى إليكم موادعا .قال الرعب فى صفوف أعدائكم ، قال صاحب الكشاف : فإن قتل : كيف يجوز أن يسلط الله الكفرة على المؤمنين؟ قلت : ما كانت مكافتهم إلا لقذف الرعب فى قلوبهم . ولو شاء لمصلحة يراها من ابتلاء ونحوه لم يقذفه . فكانوا متسلطين مقاتلين غير مكافين فذلك معنى التسليط .وقال القرطبى : قوله - تعالى - ( وَلَوْ شَآءَ الله لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ ) تسليط الله المشركين على المؤمنين هو بأن يقدرهم على ذلك ، ويقويهم إما عقوبة ونقمة عند إذاعة المنكر وظهور المعاصى . وإما ابتلاء واختبارا كما قال - تعالى - ( وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حتى نَعْلَمَ المجاهدين مِنكُمْ والصابرين وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ) وإما تمحيصا للذنوب كما قال - تعالى - ( وَلِيُمَحِّصَ الله الذين آمَنُواْ ) ولله أن يفعل ما يشاء ويسلط من يشاء على من يشاء إذا شاء .ووجه النظم والاتصال بما قبل . أى : اقتلوا المنافقين الذين اختلفتم فيهم إلا أن يهاجروا وإلا أن يتصلوا بمن بينكم وبينهم ميثاق فيدخلون فيما دخلوا فيه فلهم حكمهم ، وإلا الذين جاءكم قد حصرت صدورهم عن أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم فدخلوا فيكم فلا تقتلوهم ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله ( فَإِن اعتزلوكم فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ السلم فَمَا جَعَلَ الله لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً ) .أى : أن هؤلاء الذين استثناهم الله - تعالى - من الأخذ والقتل ، أقبلوا مسالمتهم إن اعتزلوا قتالكم فلم يتعرضوا لكم بسوء وكفوا عن قتالهم إذا ألقوا إليكم السلم ، أى : إذا انقادوا للصلح والأمان ورضوا به . وهم متى فعلوا ذلك ( فَمَا جَعَلَ الله لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً ) أى : فما اذن الله لكم فى أخذهم وقتلهم بأى طريق من الطرق التى توصل إلى العدوان عليهم .وعبر بقوله ( وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ السلم ) بدل السلام ، للاشارة إلى معنى التسليم لا مجرد الأمن والسلام ، لأن السلم يفيد معنى التسليم ، فهم ألقوا إليكم قيادهم واستسلموا لأمركم ، ودخلوا فى طاعتكم .وفى نفى أن يكون هناك سبيل عليهم ، مبالغة فى عدم التعرض لهم بسوء لأنه إذا نفى الوصول إليهم انتفى الاعتداء عليهم من باب أولى .هذا ، ويرى جمهور المفسرين أن الأحكام التى اشتملت عليها هذه الآية الكريمة منسوخة بآية سورة التوبة وهى قوله - تعالى - ( فَإِذَا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ واحصروهم واقعدوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ) قال الجمل : معاهدة المشركين وموادعتهم فى هذه الآية بآية - السيف - وهى قوله " فإذا انسلخ الأشهر الحرم . الآية " لأن الله - تعالى - لما أعز الإسلام وأهله أمر أن لا يقبل من مشركى العرب إلا الإسلام أو القتال " .

ستجدون اخرين يريدون ان يامنوكم ويامنوا قومهم كل ما ردوا الى الفتنة اركسوا فيها فان لم يعتزلوكم ويلقوا اليكم السلم ويكفوا ايديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم واولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - صنفا آخر غير هؤلاء المسالمين ، وهم قوم من المنافقين المخادعين ، الذين لا يضمرون للمؤمنين إلا شرا ، ولا يمدون أيديهم إلى أهل الحق إلا بالسوء فقال - تعالى - : ( سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الفتنة أُرْكِسُواْ فِيهَا ) .أى : ستجدون - أيها المؤمنون - قوما من المنافقين آخرين غير الذين وصفتهم لكم ، ( يُرِيدُونَ ) بإظهارهم للإسلام ( أن يَأْمَنُوكُمْ ) على أنفسهم ، ويريدون بإظهارهم للكفر ( أن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ ) من الأذى ، ومن صفات هؤلاء المخادعين أنهم ( كُلَّ مَا ردوا إِلَى الفتنة أُرْكِسُواْ فِيهَا ) أى : كلما دعوا إلى الردة وإلى العصبية البغيضة وقعوا فيها أشنع وقوع ، ورجعوا إليها منكوسين على رءوسهم .قال ابن جرير : عن مجاهد قال : هم ناس كانوا يأتون النبى صلى الله عليه وسلم فيسلمون رياء ثم يرجعون إلى قريش فيرتكسون فى الأوثان . يبتغون بذلك أن يأمنا ههنا وههنا ، فأمر بقتالهم إن لم يعتزلوا ويصلحوا .ثم بين - سبحانه - ما يجب على المؤمنين نحو هؤلاء

المنافقين المخادعين فقال : ( فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ ويلقوا
إِلَيْكُمُ السلم ويكفوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ واقتلوهم حَيْثُ
ثَقِفْتُمُوهُمْ وأولئكم جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً مُّبِيناً )
، أى : أن هؤلاء المنافقين إن لم يعتزلوا قتالكم والتعرض لكم بسوء. (
ويلقوا إليكم الأمان والانقياد ، ويمتنعوا عن العدوان عليكم ، إن لم يفعلوا
ذلك فخذوهم أسرى ، واقتلوهم حيث ( ثَقِفْتُمُوهُمْ ) أى : وجدتموهم وظفرتم
) بهم . يقال ثقفت الرجل فى الحرب إثقفه ، إذا أدركته وظفرت به وقوله
وأولئكم جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً مُّبِيناً ) أى أولئك
الذين وصفتهم لكم جعل الله لكم حجة واضحة فى أخذهم وقتلهم ، بسبب ظهور
عداوتهم ، وانكشاف غدرهم ، وتذبذبهم بين الإسلام والكفر تبعا لشهوات
نفوسهم المريضة .هذا ، والمتأمل فى هذه الآيات الأربعة الاكريمة يراها قد
رسمت للمؤمنين كيف تكون علاقتهم بغيرهم من المنافقين والمشركين .فهى
تأمرهم - أولا - بأن يقفوا من المنافقين الذين أركسهم الله بما كسبوا صفا
واحدا ورأيا واحدا ، فلا يدافعون عنهم ولا يحسنون الظن بهم ، ولا يولونهم
ولا يستعينون بهم ، حتى يهاجروا فى سبيل الله ، فإن امتنعوا عن الهجرة حل
أخذهم وقتلهم .وتأمرهم - ثانياً - بأن يسالموا - إلى حين - قوما التجأوا
إلى قوم بينهم وبين المسلمين عهد وأمان ، وأن يسالموا كذلك أولئك الذين
يأتون إليهم وهم يكرهون قتالهم أو قتال قومهم ، وأظهروا الانقياد
والاستسلام للمؤمنين .وتأمرهم - ثالثا - بأن يأخذوا ويقتلوا أولئك
المتلاعبين بالعقيدة والدين ولذين بلغ بهم الغدر والخداع أنهم إذا قدموا
المدينة أظهروا الإسلام ، فإذا ما عادوا إلى مكة أو إلى قومهم أظهروا
الكفر ، وكانوا مع قومهم ضد المسلمين .وإنها لتوجيهات حكيمة تبصر المؤمنين
بما يجب عليهم نحو غيرهم من الناس الذين يخالفونهم فى عقيدتهم .وبعد هذا
الحديث الحكيم الذى بين الله - تعالى - فيه أحوال المنافقين ، وصفاتهم
الذميمة ، وموقف المؤمنين ممن يخالفونهم فى العقيدة ، بعد كل ذلك أخذت
- السورة الكريمة فى بيان حكم القتل الخطأ ، وحكم القتل العمد فقال - تعالى
: ( وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ . . . عَذَاباً عَظِيماً ) .

وما كان لمؤمن ان يقتل مؤمنا الا خطا ومن قتل مؤمنا خطا فتحرير رقبة مؤمنة
ودية مسلمة الى اهله الا ان يصدقوا فان كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير
رقبة مؤمنة وان كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة الى اهله وتحرير
رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليما
حكيما

كما فسرها الوسيط روى المفسرون روايات فى سبب نزول قوله - تعالى - ( وَمَا
كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَئاً ) . . الآية ومن
، أشهر هذه الروايات ما جاء عن مجاهد وغيره أنها نزلت فى عياش بن أبى ربيعة
وذلك أنه قتل رجلا كان يعذبه لكى يترك الإسلام ، فأضمر عياش قتل ذلك الرجل
ثم أسلم هذا الرجل دون أن يعلم عياش بإسلامه . فلما لقيه فى يوم من .
الأيمان ظن عياش أن الرجل ما زال مشركا فقتله . فلما علم بإسلامه أتى النبى
صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، قتلته ولم أشعر بإسلامه فأنزل
الله الآية .والآية الكريمة وإن كانت قد نزلت فى حادثة معينة إلا أن حكمها
يتناول كل من قتل غيره خطأ ، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب
والنفى فى قوله - تعالى - ( وَمَا كَانَ ) ليس لنفى الوقوع ، لأنه لو كان.
كذلك ما وقع قتل على سبيل الخطأ أبداً ، وإنما النفى بمعنى النهى وعدم
الجواز .وقد أشار القرطبى إلى ذلك بقوله : قوله - تعالى - ( وَمَا كَانَ
لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَئاً ) هذه آية من أمهات
الأحكام . والمعنى ما ينبغى لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ ، فقوله : ( وَمَا
كَانَ ) ليس على النفى وإنما هو على التحريم والنهى كقوله : ( وَمَا كَانَ
لَكُمْ أَن تؤْذُواْ رَسُولَ الله ) ولو كانت على النفى لما وجد مؤمن قتل
مؤمنا قط ، لأن ما نفاه الله فلا يجوز وجوده فهو كقوله - تعالى - ( مَّا
كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُواْ شَجَرَهَا ) فلا يقدر العباد أن ينبتوا شجرها
" أبدا . ثم استثنى استثناء منقطعا ليس من الأول وهو الذى يكون فيه " إلا
لمعنى لكن . والتقدير : ما كان له أن يقتله البتة لكن إن قتله خطأ فعليه
كذا . والخطأ : اسم من أخطأ خطأ وإخطاء إذا لم يصنع عن تعمد ، فالخطأ الاسم
يقوم مقام الإخطاء . ويقال لمن أراد شيئاً ففعل غيره : أخطأ . ولمن فعل
غير الصواب : أخطأ .وقال صاحب الكشاف : فإن قلت . بم انتصب خطأ؟ قلت : بأنه
مفعول له . أى ما ينبغى له أن يقتله لعلة من العلل إلا للخطأ وحده . ويجوز
أن يكون حالا بمعنى :لا يقتله فى حال من الأحوال إلا فى حال الخطأ . وأن
يكون صفة للمصدر أى : إلا قتلا خطأ . والمعنى ، أن من شأن المؤمن أن ينتفى
عنه وجود قتل المؤمن ابتداء البته ، إلا إذا وجد منه خطأ من غير قصد ، بأن
يرمى كافرا فيصيب مسلما . أو يرمى شخصا على أنه كافر فإذا هو مسلم .ثم
بين - سبحانه - حكم القتل الخطأ فقال : ( وَمَن قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَئاً
فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ

إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُواْ ) .قوله ( فَتَحْرِيرُ ) ، التحرير : الإعتاق
: وهو تفعيل من الحرية . أى جعل الرقبة حرة . وهو مبتدأ محذوف الخبر أى
فعليه تحرير رقبة مؤمنة .وقوله : ( وَدِيَةٌ ) الدية ما يعطى عوضا من دم
القتيل إلى وليه . وهى مأخوذة من الودى كالعدة من الوعد . يقال : ودى
القاتل القتيل يديه دية إذا أعطى وليه المال الذى هو بدل النفس . وسمى
المال دية تسمية بالمصدر .والمعنى : أن المؤمن لا يسوغ له ولا يليق به أن
يقتل أخاه المؤمن ، لأن ذلك محرما تحريماً قاطعاً ، لكن إن وقع منه القتل
له فى سبيل الخطأ فإن دم القتيل لا يذهب هدرا ، بل على من قتل أخاه المؤمن
خطأ ( فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ) أى : إعتاق نفس مؤمنة : وعليه
كذلك ( وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إلى أَهْلِهِ ) أى : مؤداة إلى ورثة القتيل
عوضاً لهم عما فاتهم من قتيلهم . وقوله ( إِلَّا أَن يَصَّدَّقُواْ ) أى
إلا أن يتصدق أهل القتيل بهذه الدية على القاتل ، بأن يتنازلوا عنها له على
) سبيل العفو والصفح .وعبر - سبحانه - عن العتق بالتحرير فى قوله
فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ) للاشعار بأن الحرية للعبيد مقصد من مقاصد الإسلام
وأن شريعته قد أوجبت على أتباعها أن يعتقوا الأرقاء إذا ما وقعوا فى بعض ،
الأخطاء حتى يتحرر أكبر عدد من الرقاب .والتعبير عن النفس بالرقبة من باب
التعبير عن الكل بالجزء . وكان التعبير بذلك للاشارة إلى أن الرق غل معنوى
فى الرقاب ، وأن المؤمن الصادق فى إيمانه هو الذى يبذل قصارى جهده فى فك
الرقاب من قيدها .وقيد الرقبة المحررة بأن تكون مؤمنة لتخرج الكافرة ، إذ
: الإسلام يحرص على تحرير الأرقاء المؤمنين دون الكافرين .قال ابن كثير
وجمهور الفقهاء على أن الرقبة المؤمنة تجزئ سواء أكانت صغيرة أم كبيرة فقد
أخرج الإمام أحمد " عن رجل من الأنصار أنه جاء بأمة سوداء فقال : يا رسول
الله ، إن على عتق رقبة مؤمنة . فإن كنت ترى هذه مؤمنة أعتقها . فقال لها
رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أتشهدين أن لا إله إلا الله؟ قالت : نعم
قال : أتشهدين أنى رسول الله؟ قالت : نعم قال : أتؤمنين بالبعث بعد .
الموت؟ قالت : نعم . قال : أعقتها " .ويرى بعضهم أنه لا تجزئ إلا الرقبة
) المؤمنة التى صلت وعقلت الإيمان ، أما الصغيرة فإنها لا تجزئ .وقوله
وَدِيَةٌ ) معطوف على " فتحرير " وقوله ( مُّسَلَّمَةٌ ) صفة لدية .وقوله
متعلقة بمسلمة .قال القرطبى ما ملخصه : لوم يعين الله فى ( إلى أَهْلِهِ )
كتابه ما يعطى فى الدية ، وإنما فى الآية إيجاب الدية مطلقا ، وليس فيها
: إيجابها على العاقلة أو على القاتل ، وإنما أخذ ذلك من السنة .والعاقلة
قرابات الرجل من جهة أبيه وهم عصبته . .وقد ثبتت الأخبار عن رسول الله صلى
الله عليه وسلم بأن الدية مائة من الإبل .ووداها صلى الله عليه وسلم فى
عبد الله بن سهل المقتول بخيبر فكان ذلك بيانا على لسان النبى صلى الله
عليه وسلم لمجمل الكتاب واختلفوا فيما يجب على غير أهل الإبل ، فقالت
طائفة : على أهل الذهب ألف دينار . وعلى أهل الورق اثنا عشر ألف درهم .وقد
ثبتت الأخبار عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قضى بدية الخطأ على العاقلة
وأجمع أهل العلم على القول به .ففى الصحيحين عن أبى هريرة قال : اقتتلت .
. امرأتان من هذيل . فرمت إحداهما الأخرى بحجر فقتلتها ، وما فى بطنها
فاختصموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقضى أن دية جنينها غرة : عبد
وأمة . وقضى بدية المرأة على عاقلتها .قالوا : وإنما كانت دية القتل الخطأ
على العاقلة ، لأن القاتل لو دفعها لأوشكت أن تأتى على جميع ماله ، وليكون
ذلك دليلا على تضافر الأسرة وتعاونها . وإذا كان القاتل فقيرا وأسرته فقيرة
فإن دية المقتول تكون على بيت مال المسلمين ، حتى لا يهدر دم القتيل .قال ،
. القاسمى : تجب الدية على كل عاقلة القاتل . وهم عصبته غير الأصول والفروع
لأنه لما عفى عن القاتل فلا وجه للأخذ منه . وأصوله وفورعه أجزاؤه فالأخذ
منهم أخذ منه . ولا وجه لإهدار دم المؤمن . فيؤخذ من عاقلته الذين يرثونه
بأقوى الجهات وهى العصبية ، لأن الغرم بالغنم . فإن لم يكن له عاقلة أو
كانوا فقراء فعلى بيت المال .والتعبير عن أداء الدين بقوله ( وَدِيَةٌ
مُّسَلَّمَةٌ إلى أَهْلِهِ ) يومئ إلى وجوب حسن الأداء بأن تسلم هذه الدية
) إلى أسرة القتيل بكل سماحة ولطف جبرا لخاطرها عما أصابها .والمراد بقوله
إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُوا ) أى : إلا أن يتبرع بها أولياء المقتول على سبيل
العفو والصفح .وعبر عن ذلك بقوله ( يَصَّدَّقُواْ ) للإشارة إلى أن تبرعهم
- هذا مرغوب فيه وأنه بمنزلة الصدقة التى لهم ثوابها الجزيل عند الله
تعالى -لا سيما إذا كان أولياء القاتل وعصبته يشق عليهم أداؤها فيتركها
أولياء القتيل رأفة بأولياء القاتل وشفقة عليهم ، وفى الحديث الشريف " كل
معروف صدقة " .ثم بين - سبحانه - حكم القتل الخطأ لمؤمن ينتمى إلى الأعداء
فقال ( فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ
فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ) .أى : فإن كان المقتول خطأ ( مِن
قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ ) أى محاربين لكم ، ( وَهُوَ مُؤْمِنٌ ) أى وكان
المقتول مؤمنا ولم يعلم به القاتل ، لكونه بين أظهر قومه الكفار ولم
يفارقهم ، أو أتاهم بعد أن فارقهم لأمر من الأمور ، فعلى القاتل فى هذه
، الحالة ( فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ) كفارة عن هذا القتل الخطأ
وليس عليه دية ، لأن أولياء القتيل من الكفار ولا توارث بين المؤمن والكفار

ولأن دفع الدية إليهم يؤدى إلى تقويتهم علينا ومن غير المعقول أن ندفع ، لأعدائنا ما يتقوون به علينا .روى الحاكم وغيره عن ابن عباس قال : كان الرجل يأتى النبى صلى الله عليه وسلم ثم يرجع إلى قومه وهم مشركون . فيصيبه المسلمون فى سرية أو غزوة . فيعتق الذى يصيبه رقبة .ثم بين - سبحانه - حكم - القتل الخطأ إذا كان المقتول من قوم بينهم وبين المسلمين عهد وميثاق فقال تعالى - : ( وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ) .أى : وإن كان المقتول خطأ ( مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ ) أى : من قوم بينكم وبينهم - أيها المؤمنون - عهد من هدنة أو أمان وهم على دينهم وأنتم على دينكم ، فعلى القاتل فى هذه الحالة دية تدفعها عاقلته إلى أهل القتيل ، لأن حكمهم كحكم المسلمين ، وعليه كذلك ( تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ) لتكون كفارة له عند الله ، وقدم الدية هنا على تحرير الرقبة على العكس مما جاء فى صدر الآية ، للإشعار بوجوب المسارعة إلى تسليم الدية حتى لا يتردد القاتل فى دفعها إلى غير المسلمين الذين بينهم وبين المسلمين عهد يمنع عدم الاعتداء .فأنت ترى أن الله - تعالى - قد جعل الحكم فى قتل المعاهد كالحكم فى قتل المسلم من الدية وتحرير الرقبة ، وبعضهم يرى أن المراد بالمقتول خطأ هنا المسلم الذى هو فى قوم معاهدين وأن الدية لا تدفع لهؤلاء القوم فيكون معنى الآية : وإن كان أى المقتول المؤمن ( مِن قَوْمٍ ) كفار بينكم وبينهم ميثاق ، فعلى قاتله دية ( مُّسَلَّمَةٌ إِلى أَهْلِهِ ) من أهل الإسلام إن وجدوا ، ولا تدفع إلى ذوى قرابته من الكفار وإن كانوا معاهدين ، اذ لا يرث الكافر المؤمن .ويبدو لنا أن الرأى الأول أقرب إلى الصواب ، لأنه لو كان المراد بالمقتول خطأ هنا القتيل المسلم لكان مكررا ولما كان هناك معنى لإفراده أذ حكمه يكون داخلا فى قوله - تعالى - فى صدر الآية ( وَمَن قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَئاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلى أَهْلِهِ ) . فلما أفرده - سبحانه - بالذكر علمنا أن المقصود بالتقيل هنا من قتل خطأ من قوم كفار بيننا وبينهم ميثاق سواء أكان المقتول على ديننا أم على دينهم .وقد ذكر صاحب الكشاف هذا الوجه ولم يذكر - سواه فقال : ( وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ ) - أى : وإن كان المقتول من قوم كفره لهم ذمة كالمشركين الذين عاهدوا المسلمين وأهل الذمة من الكتابين فحكمه حكم مسلم من مسلمين . ومن العلماء أيضا من يرى أن دية المسلم والكافر سواء ومنهم من يرى غير ذلك .وقد أشار الإمام ابن كثير إلى هذين الرأيين بقوله : قوله - تعالى - ( وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ ) . الآية ، أى : فإن كان القتيل أولياؤه أهل ذمة أو هدنة فلهم دية قتيلهم .فإن كان مؤمنا دفية كامل وكذا إن كان كفارا أيضا عند طائفة من العلماء . وقيل يجب فى الكافر نصف دية المسلم وقيل ثلثها كما هو مفصل فى كتب الأحكام .ثم يبين - سبحانه - الحكم عند عدم استطاعة إعتاق الرقبة فقال فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً ) : مِّنَ الله وَكَانَ الله عَلِيماً حَكِيماً ) .أى : فمن لم يجد رقبه مؤمنة يعتقها فعليه فى هذه الحالة صيام شهرين متواصلين فى أيامهما ، لا يفرق بنيهم فطر ، بحيث لو أفطر يوما فيها استأنف من جديد ابتداء الشهرين ، إلا ) - أن يكون الفطر بسبب حيض أو نفاس أو مرض يتعذر معه الصوم .وقوله تَوْبَةً مِّنَ اللَّه ) مفعول لأجله والتقدير : أى شرع لكم ذلك توبة منه أى قبولا لها روحمة بكم . من : تاب الله على فلان إذا قبل توبته .وهذه التوبة ليست من إثم القتل الخطأ ، لأن الإثم مرفوع عن المخطئ كما فى الحديث الشريف " رفع من أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه " .وإنما التوبة هنا من التقصير وقلة التثبت والتحقق ، ولكى يكون المسلم يعد ذلك متذكراً فلا يقع منه فى المستقبل ما وقع منه فى الماضى ، ولهذا قال الإمام الزيلعى وبهذا النوع من القتل أى القتل الخطأ -لا يأثم إثم القتل ، وإنما يأثم ": إثم ترك التحرز والمبالغة فى التثبت ، لأن الأفعال المباحة لا تجوز " مباشرتها إلا بشرط ألا تؤذى أحداً . فإذا آذى أحدا فقد تحقق ترك الحرز وقوله ( وَكَانَ الله عَلِيماً حَكِيماً ) تذييل قصد به زجر الناس عن. اتباع الهوى وعن مخالفة شريعته .أى : وكان الله وما زال عليما بالنفوس . وخباياها وحركاتها وبكل شئ فى هذا الكون : حكيما فى كل ما شرع وقضى وسيحاسب الناس على أقوالهم . وأعمالهم يوم القيامة . وسيجازيهم بما يستحقون من خير أو من شر .وبهذا نرى أن الآية الكريمة قد بينت أن المؤمن إذا قتل على سبيل الخطأ أخاه المؤمن أو قتل رجلا من قوم كافرين ولكن بيننا وبينهم ميثاق أمان فعليه فى كل حالة من هاتين الحالتين عتق رقبة ودية . أما إذا قتل المؤمن رجلا مؤمنا ولكن كان من قوم كافرين محاربين لنا وليس بيننا وبينهم عهد ولا ميثاق فعلى القاتل تحرير رقبة فقط . فإن لم يستطع تحرير رقبة فعليه صيام شهرين متتابعين توبة من الله . بهذه الأحكام الحكيمة تربى النفوس على الاحتراس والاحتياط وأخذ الحذر ، وتصان الدماء عن أن تذهب هدرا وتعوض أسرة القتيل عن فقيدها بما يخفف آلامها ، ويجبر خاطرها ، وتعوض ، الجماعة الإسلامية بتحرير رقبة مؤمنة تعمل لصالح الجماعة بحرية وانطلاق . بعد أن كانت تعمل خدمة سيدها فحسب

ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه واعد له عذابا عظيما

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك سوء عاقبة من يقتل مؤمناً متعمداً فقال : ( وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ الله عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً ) .أى : ( وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً قتله ( فَجَزَآؤُهُ ) الذى يستحقه بسبب هذه الجناية الكبيرة ( جَهَنَّمُ ) خَالِداً فِيهَا ) أى باقيا فيها مدة طويلة لا يعلم مقدارها إلا الله وَغَضِبَ الله عَلَيْهِ ) بسبب ما ارتكبه من منكر ( وَلَعَنَهُ ) أى طرده من رحمته ( وَأَعَدَّ لَهُ ) من وراء ذلك كله ( عَذَاباً عَظِيماً ) يوم القيامة .هذا وقد ساق المفسرون جملة من الآيات والأحاديث التى تهدد مرتكب هذه الكبيرة بالعذاب الشديد؛ واختلفوا فى حكمها هل هى هى منسوخة أولا؟ وهل للقاتل عمداً توبة أولا؟ وقد أفاض الإمام ابن كثير فى بيان كل ذلك فقال ما ملخصه :" هذا تهديد شديد ووعيد أكيد لمن تعاطى هذا الذنب العظيم والذى هو مقرون بالشرك بالله فى غير ما آية . قال - تعالى - ( والذين لاَ يَدْعُونَ مَعَ الله إلها آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النفس التي حَرّمَ الله إِلاَّ بالحق ) والأحاديث فى تحريم القتل كثيرة جدا . فمن ذلك ما ثبت فى الصحيحين عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة فى الدماء " وروى أبو داود عن عبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا يزال المؤمن معتقا - أى خفيف الظهر ، سريع السير - ما لم يصب دما حراما . فإذا أصاب دما حراما بلح " أى أعيا وانقطع .وفى حديث آخر : " لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل : مسلم " .ثم قال : وقد كان ابن عباس يرى أنه لا توبة لقاتل المؤمن عمدا وقال البخارى : حدثنا آدم حدثنا شعبة حدثنا المغيرة بن النعمان قال :سمعت. ابن جبير قال : اختلف فيها أهل الكوفة . فرحلت فيها إلى ابن عباس فسألته عنها . فقال : نزلة هذه الآية . ( وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً ( . هى آخر ما نزل وما نسخها شئ .وروى ابن جرير أيضا عن سعيد بن جبير قال سألت ابن عباس عن قوله - تعالى - ( وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فقال : إن الرجل إذا عرف الإسلام ، وشرائع الإسلام ، ثم قتل مؤمنا . ( متعمداً فجزاؤه جهنم؛ ولا توبة له .ثم قال : والذى عليه الجمهور من سلف الأمة وخلفها . أن القتل له توبة فيما بينه وبين الله - تعالى - فإن تاب وأناب وخشع وخضع وعمل عملا صالحا بدل الله سيئاته حسنات ، وعوض المقتول من ظلامته وأرضاه عن ظلامته .قال الله - تعالى - ( إِنَّ الله لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَآءُ ) فهذه الآية عامة فى جميع الذنوب ما عدا الشرك . وهى مذكورة فى هذه السورة الكريمة بعد هذه الآية وقبلها لتقوية الرجاء .والمراد بالخلود هنا المكث الطويل . وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يخرج من النار من كان فى قلبه أدنى مثقال ذرة من إيمان .وأما ما نقل عن بعض السلف من خلاف هذه ) فمراد قائله الزجر والتوبة لا أنه لا يعتقد بطلان توبته .والآية الكريمة وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ ) . الصواب فى معناها : أن جزاءه جهنم . فقد يجازى بذلك وقد يجازى بغيره . وقد لا يجازى بل يعفى عنه . فإن قتل عمدا مستحلا بغير حق ولا تأويل فهو كافر مرتد يخلد فى جهنم بالإجماع . وإن كان غير مستحل بل معتقدا تحريمه فهو فاسق . عاص . مرتكب كبيرة جزاؤه جهنم خالدا فيها . ولكن تفضل - سبحانه - فأخبر أنه لا يخلد فيها من مات موحداً فلا يخلد هذا . وقد يعفى عنه ولا يدخل النار أصلا . وقد لا يعفى عنه بل يعذب كسائر العصاة الموحدين . ثم يخرج معهم إلى الجنة ولا يخلد فى النار . فهذا هو الصواب فى معنى الآية .وبهذا نرى أن الآية الكريمة تنهى المؤمن نهيا قاطعا عن أن يمد يده بالسوء لقتل نفس حرم الله قتلها إلا بالحقن وتتوعد لاذى يفعل ذلك بغضب الله عليه وطرده من رحمته وإلحاق العذاب العظيم به يوم القيامة ، .

يا ايها الذين امنوا اذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن القى اليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا ان الله كان بما تعملون خبيرا

كما فسرها الوسيط وبعد هذا التحذير الشديد من قتل النفس بغير حق ، وجه القرآن نداء إلى المؤمنين نهاهم فيه عن القتل بدون تبين أو تثبت من أجل التوصل إلى رعض من أعراض الدنيا الفانية ، فقال - تعالى - : ( يَا أَيُّهَا الذين . . . ) .روى المفسرون فى سبب نزول هذه الآية الكريمة روايات متعددة إلا أنها متقاربة فى المعنى . وقد حكى معظمها الإمام القرطبى فقال ما ملخصه :هذه الآية نزلت فى قوم من المسلمين مروا فى سفرهم برجل معه جمل ، وغنيمة يبيعها فسلم على القوم وقال :لا إله إلا الله محمد رسول الله

- فحمل عليه أحدهم فقتله - ظنا منه أن المقتول نطق بالشهادتين ليأمن القتل فلما ذكر ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم شق عليه ونزلت الآية فحمل رسول الله صلى الله عليه وسلم ديته إلى أهله ورد عليه غنيماته .وقد قيل : إن القاتل محلم بن جثامة والمقتول عامر بن الأضبط . وقيل : إن القاتل أسامة بن زيد والمقتول مرداس بن نهيك من بنى مرة من أهل فدك .وفى سنن ابن ماجه " عن عمران بن حصين قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم جيشا من المسلمين إلى المشركين فقاتلوهم قتالا شديدا فمنح المشركون المسلمين أكتافهم . فحمل رجل من المسلمين على رجل من المشركين بالرمح . فلما غشيه قال : أشد أن لا إله إلا الله إنى مسلم . فطعنه فقتله .فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله هلكت . قال : " وما الذى صنعت " مرة أو مرتين . فأخبره بالذى صنع . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فهلا شققت عن بطنه فعلمت ما فى قلبه "؟ فقال :" يا رسول الله لو شققت بطنه أكنت أعلم ما فى قلبه؟ قال :لا فلا أنت قبلت ما تكلم به ولا أنت تعلم ما فى قلبه " " .ثم قال القرطبى : ولعل هذه الأحوال جرت فى زمان متقارب فنزلت الآية فى الجميع والضرب فى الأرض : السير فيها . تقول العرب : ضربت فى الأرض إذا سرت. لتجارة أو غزة أو غيره . وكأن السير فى الأرض سمى بذلك؛ لأنه يضرب الأرض برجليه فى سيره . والمراد بالضرب فى الأرض هنا : السفر والسير فيها من أجل الجهاد فى سبيل الله .وقوله ( فَتَبَيَّنُواْ ) معناه : فتثبتوا وتأكدوا وتأملوا فيما تأتون وتذرون . وقرأ حمزة " فثبتوا " .قال القرطبى : والسلم والسلم والسلام بمعنى واحد . قال البخارى . وقرئ بها كلهاز واختار أبو عبيد السلام " . وخالفه أهل النظر فقالوا؛ السلم هنا أشبه؛ لأنه بمعنى " الانقياد والاستسلام . كما قال - تعالى - ( فَأَلْقَوُاْ السلم مَا كُنّا نَعْمَلُ مِن سواء ) والمعنى : يأيها الذين آمنوا وصدقوا بالحق ، إذا خرجتم ) من بيوتكم وسرتم فى الأرض من أجل الجهاد فى سبيل الله وإعلاء كلمته ، فَتَبَيَّنُواْ ) أى فاطلبوا بيان الأمر فى كل ما تأتون وما تذرون واحذروا أن تضعوا سيوفكم فى غير موضعها .فإن الأصل فى الدماء الحرمة والصيانة وعدم الاعتداء عليها ، وقد حرم الله - تعالى - قتل النفس إلا بالحق .والتبين والتثبت فى القتل واجب حضراً وسفرا . وإنما خص السفر بالذكر لأن الحادثة التى نزلت فيها الآية وقعت فى السفر .وقوله ( وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ ألقى إِلَيْكُمُ السلام لَسْتَ مُؤْمِناً ) أى : تأكدوا - أيها المؤمنون - وتثبتوا فى كل أحكامكم وأفعالكم ، ولا تقولوا لمن أظهر الانقياد لدعوتكم ودينكم فنطق بالشهادتين أو حياكم بتحية الإسلام .لا تقولوا له لست مؤمنا حقا وإنما قلت ما قلت بلسانك فقط لتأمن القتل . بل الواجب عليكم أن تقبلوا منه ما أظهره وعاملوه بموجبه؛ فإن علم السرائر والبواطن إنما هو لله - تعالى - وحده .وجملة ( لَسْتَ مُؤْمِناً ) مقول لقوله ( لاَ تَقُولُواْ ) : أى لا تنفوا عنه الإيمان وهو يظهره أمامكم وفى هذا من الفقه - كما يقول القرطبى - باب عظيم ، وهو أن الأحكام تناط بالمظان والظواهر لا على القطع واطلاع السرائر .ولقد كان عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - ينهى عن قتل من أعلن الاستسلام ويحذر من يقتله بأنه سيقتله به ، وقد أرسل بذلك إلى قواد جويشه لأن الذين يقتلون من يطلب الأمان طمعا فى ماله لا - يكون جهاده خالصا لله ، ولا تكون أعمال محل رضا الله - تعالى - ولذا قال سبحانه - :( تَبْتَغُونَ عَرَضَ الحياة الدنيا فَعِنْدَ الله مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ) . والابتغاء : الطلب الشديد والرغبة الملحة .وعرض الحياة الدنيا : جميع متاعها وأموالها . وسمى متاع الدنيا عرضا ، لأنه مهما كثر فهو زائل غير دام ، وعارض غير باق .قال الراغب : والعرض - بفتح الراء والعين - مالا يكون له ثبات . ومنه استعار المتكلمون العرض لما لا ثابت له ، إلا بالجوهر . وقيل : الدنيا عرض حاضر تنبيها على أنه لا ثابت لها والمغانم : جمع مغنم ويطلق على ما يؤخذ من مال العدو ، من باب إطلاق المصدر على اسم المفعول .والمعنى : تثبتوا - أيها - فى كل أقوالكم وأعمالكم ، ولا تتعجلوا فى أحكامكم ، ولا تقولوا لمن حياكم بتحية الإسلام أو نطق بالشهادتين لست مؤمنا ، وإنما فعلت ذلك تقية؛ ثم تقتلونه . مبتغين من وراء قتله متاع الدنيا الزائل ، وعرضها الفانى ، إن هذا المسلك يتنافى مع الإيمان الصادق والجهاد الخالص . ومن كان منكم يريد متاع الدنيا فليطلبه من الله وحده - فإن خزائنه لا تنفد ، وعطاءه لا يحد - ولا يطلبه عن طريق الاعتداء على من أظهر الإسلام أو التمس منكم الأمان .وقوله ( تَبْتَغُونَ عَرَضَ الحياة الدنيا ) حال من فاعل ( لاَ تَقُولُواْ ) لكن لا على أن يكون النهى راجعا للقيد فقط كما فى قولك :لا تطلب العلم تبتغى به الجاه والتفاخر ، بل على أنه راجع إليهما جميعا .أى :لا تقولوا له ذلك ولا تبتلغوا العرض الفانى .فالمقصود بهذه الجملة الكريمة توبيخهم على حرصهم على متاع الدنيا بطريقة لا تناسب مع الإيمان الكامل ، ومع الهدف الذى خرجوا من أجله : وهو إعلاء كلمة الله تعالى - وضم أكبر عدد من الناس إلى دعوة الحق التى جاء بها النبى صلى الله عليه وسلم .وقوله ( فَعِنْدَ الله مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ) تعليل للنهى عن ابتغاء عرض الحياة الدنيا بهذا الأسلوب فكأنه ، قال :لا تعودوا إلى ما فعلتموه من قتل من ألقى إليكم السلام طلبا لما له

فإن الله - تعالى - عنده مغانم كثيرة ، وفى مقدوره أن يغنيكم من فضله؛ فالجأوا إلى جنابه وحده ، وخصوه بالسؤال ، وأخلصوا له العمل .وقوله ( كذلك كُنْتُمْ مِّن قَبْلُ فَمَنّ الله عَلَيْكُمْ فَتَبَيّنُواْ ) تعليل للنهى عما قالوه وما فعلوه .أى : أنتم - أيها المؤمنون - كنتم من قبل مثل ذلك الذى ألقى إليكم السلام ، فقد كنتم فى أول إسلامكم ولا يظهر منكم للناس غير ما ظهر منه لكم من النطق بالشهادتين وتبادل تحية الإسلام ، فمن الله عليكم بأن قبل منكم تلك المرتبة وعصم بها دماءكم وأموالكم ولم يأمر بالتفحص عن سرائركم .وإلى هذا المعنى اتجه صاحب الكشاف فقد قال : قوله ( كذلك كُنْتُمْ مِّن قَبْلُ ) أول ما دخلتم فى الإسلام سمعت من أفواهكم كلمة الشهادة فحصنت من دماءكم وأموالكم من غير انتظار الاطلاععلى مواطأة قلوبكم لألسنتكم بالاستقامة والاشتهار بالإيمان فعليكم أن تفعلوا بالداخلين فى الإسلام كما فعل لكم ، وأن تعتبروا ظاهر الإسلام فى المكانة ، ولا تقولوا إن تهليل هذا لاتقاء القتل لا لصدق النية ، فتجعلوه سبيلا إلى استباحة دمه وماله وقد حرمها الله .فاسم الإشارة راجع إلى ( مِّن ) فى قوله : ( لِمَنْ ألقى إِلَيْكُمُ السلام ) .ويجوز أن يكون اسم الإشارة راجعا إلى الحالة التى كانوا عليها فى ابتداء إسلامهم . أى كحال هذا الذى يسر إيمانه ويخفيه ) عن قومه كنتم من قبل .وقد جرح هذا المعنى ابن جرير فقال ما ملخصه : قوله كذلك كُنْتُمْ مِّن قَبْلُ ) أى كذلك كنتم تخفون إيمانكم فى وقومكم من المشركين ، وأنتم مقيمون بين أظهرهم ، كما كان هذا الذى قتلتموه مقيما بين أظهر قومه من المشركين مستخفيا بدينه منهم ( فَمَنَّ الله عَلَيْكُمْ ) أى ، فرفع منكم ما كنتم فيه من الخوف من أعدائكم بإظهار دينه وإعزاز أهله : حتى أمكنكم إظهار ما كنتم تستخفون به من توحيده وعبادته . .والذى يبدو لنا أن الاية الكريمة تتسع لهذين التفسيرين ، إلا أن التفسير الأول الذى جرى عليه صاحب الكشاف أشمل وأنسب لسياق الآية؛ لأن المقصد الرئيس الذى تدعو إليه الآية الكريمة هو نهى المؤمنين عن سوء الظن بمن أظهر الإسلام وعن الاعتداء عليه . وأمرهم بان يعاملوا الناس بظاهرهم أما بواطنهم فأمرها إلى الله وحده .والفاء فى قوله ( فَتَبَيّنُواْ ) فصيحة . أى : إذا كان الأمر كذلك فتبينوا نعمة الله عليكم وداوموا على شكرها ، وقيسوا أحوال غيركم بما سبق من أحوالكم ، واقبلوا ظواهر الناس بدون فحص عن بواطنهم ، ولا تصدروا أحكامكم عليهم إلا بعد التثبت والتأكد من صحتها ولا تشهروا سيوفكم فى وجوههم إلا بعد التأكد من كفرهم وعدوانهم .وقوله : ( إِنّ الله كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ) تذييل قصد به تحذيرهم من مخالفة أمره .أى : ، إن الله مطلع على دقيق الأمور وجليلها ، خبير بما تسره نفوسكم وما تعلنه لا يخفى عليه شئ من ظواهركم وبواطنكم ، وسيحاسبكم على كل ذلك ، وسيجازيكم بما تستحقون من خير أو شر .هذا وقد أخذ العلماء من هذه الآية أن الكافر إذا نطق بالشهادتين حرم قتله؛ لأنه قد اعتصم بعصام الإسلام المانع من إهدار دمع وماله وأهله .كما أخذوا منها وجوب التثبت فى الأحكام وفى الأقوال . وأخذ الناس بظواهرهم حتى يثبت خلاف ذلك .قال الفخر الرازى : اعلم أن المقصود من هذه الآية المبالغة فى تحريم قتل المؤمنين . وأمر المجاهدين بالتثبت فيه ، لئلا يسفكوا دما حراما بتأويل ضعيف .وقال بعض العلماء : وقد دلت الآية على حكمة عظيمة فى حفظ الجامعة الدينية ، وهى بث الثقة والأمان بين أفراد الأمة وطرح ما من شأنه إدخال الشك لأنه إذا فتح هذا الباب عسر سده ، وكما يتهم المتهم غيره فللغير أن يتهم من اتهمه . وبذلك ترتفع الثقة ويسهل على ضعفاء الإيمان المروق ، إذ قد أصبحت التهمة تظل الصادق ، والمنافق . وانظر معاملة النبى صلى الله عليه وسلم المنافقين معاملة المسلمين .على أن هذا الدين سريع السريان فى القلوب فيكتفى أهله بدخول الداخلين فيه من غير مناقشة . إذ لا يلبثون أن يألفوه وتخالط بشاشته قلوبهم فهم يقتحمونه على شك وتردد فيصير إيمانا راسخا . ومما يعين على ذلك ثقة . ) السابقين فيه باللاحقين .ومن أجل ذلك أعاد الله الأمر فقال فَتَبَيّنُواْ ) تأكيدا لقوله ( فَتَبَيّنُواْ ) المذكور قبله . .وبعد أن أمر - سبحانه - المؤمنين بأن يعاملوا الناس على حسب ظواهرهم ونهاهم عند جهادهم عن التعجل فى القتل . أتبع ذلك ببيان فضل المجاهدين المخلصين فقال - تعالى - ( لاّ يَسْتَوِي . . . . غَفُوراً رّحِيماً ) .لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (95) دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (96)قال الآلوسى : قوله - تعالى - ( لاّ يَسْتَوِي القاعدون ) . شروع فى الحث على الجهاد ليأنفوا عن تركه ، وليرغبوا عما يوجب خللا فيه . والمراد بالقاعدين : الذين أذن لهم فى القعود عن الجهاد اكتفاء بغيرهم . وروى البخارى عن ابن عباس : هم القاعدون عن بدر وهو الظاهر الموافق للتاريخ على ما قيل . وقال أبو حمزة : إنهم المتخلفون عن تبوك . وروى أن الآية نزلت

في كعب بن مالك من بنى سلمة ومرارة بن الربيع من بنى عمرو بن عوف . وهلال
بن أمية من بنى واقف حين تخلفوا عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم فى تلك
الغزوة .وقوله ( غَيْرُ أُوْلِي الضرر ) جملة معترضة جئ بها لبيان أنهم غير
. مقصودين بعدم المساواة مع المجاهدين فى الأجر .والضرر : مصد ضرِر مثل مرض
وهذه الزنة تجئ - غالبا - فى العاهات ونحوها ، مثل عمى وحصر وعرج ورمد
والمراد بقوله ( غَيْرُ أُوْلِي الضرر ) أى : غير أصحاب العلل والأمراض.
التى تحول بينهم وبين الجهاد فى سبيل الله من عمى أو عرج أو ضعف أو غير ذلك
من الأعذار .وقد روى المفسرون فى سبب نزول قوله - تعالى - ( غَيْرُ
) أُوْلِي الضرر ) روايات منها ما أخرجه البخارى عن البراء قال : لما نزلت
لاَّ يَسْتَوِي القاعدون مِنَ المؤمنين ) . دعا رسول الله صلى الله عليه
وسلم زيدا فكتبها جاء ابن أم مكتوب فشكا ضرارته . فأنزل الله : ( غَيْرُ
أُوْلِي الضرر ) .وقال القرطبى : روى الأئمة - واللفظ لأبى داود عن زيد بن
ثابت قال : كنت إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم فغشيته السكينة فوقعت
فخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم على فخذى فما وجدت ثقل شئ أثقل من فخذ
- رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم سرى عنه فقال : " أكتب " فكتبت فى كتف
أى فى عظم عريض كانوا يكتبون فيه لقلة القراطيس عندهم - ( لاَّ يَسْتَوِي
القاعدون مِنَ المؤمنين غَيْرُ أُوْلِي الضرر والمجاهدون فِي سَبِيلِ الله
الآية .فقام ابن أم مكتوم - وكان رجلا أعمى - لما سمع فضيلة . . . . ( .
المجاهدين فقال : يا رسول الله فكيف بمن لا يستطيع الجهاد من المؤمنين؟
فلما قضى كلامه غشيت رسول الله السكينة فوقعت فخذه على خفذى . ووجدت من
ثقلها فى المرة الثانية كما وجدت فى المرة الأولى ثم سرى عن رسول الله صلى
: الله عليه وسلم فقال : اقرأ يا زيد . فقرأت

لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير اولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله
باموالهم وانفسهم فضل الله المجاهدين باموالهم وانفسهم على القاعدين درجة
وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين اجرا عظيما

كما فسرها الوسيط ( لا يستوى الأقاعدون من المؤمنين ) . فقال رسول الله صلى
الله عليه وسلم ( غَيْرُ أُوْلِي الضرر ) الاية كلها .قال زيد : فأنزلها
الله وحدها فألحقتها . والذى نفسى بيده لكأنى أنظر إلى ملحقها عند صدع فى
كتف .والمعنى :لا يستوى عند الله - تعالى - الذين قعدوا عن الجهاد لإعلاء
كلمة الحق دون أن يكون عندهم من الأعذار ما يمنعهم من ذلك ، لا يستوى هؤلاء
مع الذين جاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم . أما الين قعدوا عن الجهاد
- لأعذار تمنعهم عن مباشرته ، فإن نيتهم الصادقة سترفع منزلتهم عند الله
تعالى - ، وستجعلهم فى مصاف المجاهدين بأموالهم وأنفسهم أو قريبين منهم
ويشهد لذلك ما رواه البخارى وأبو داود عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه.
وسلم قال - وهو يسر إلى تبوك : " إن بالمدينة أقواما ما سرتم من سير ولا
قطعتم من واد إلا وهم معكم فيه . قالوا : يا رسول الله ، وهم بالمدينة قال
نعم حبسهم العذر " .قال ابن كثير : وفى هذا المعنى قال الشاعر :يا راحلين :
إلى البيت العتيق لقد ... سرتم جسوماً وسرنا نحن أوراحا إنا أقمنا على عذر
وعن قدر ... ومن أقام على عذر كمن راحاوقوله : ( لاَّ يَسْتَوِي ) نفى
لاستواء المجاهدين والقاعدين ، والمقصود بهذا النفى التعريض بالمفضول
لتفريطه وزهده فى الخير ، وحض على الاقتداء بمن هو أفضل منه ، إذ من
المعروف أن القاعد عن الجهاد لا يساوى المجاهد فى الفضل والثواب . فتعين أن
يكون المراد بهذا التعبير التعريض بالقاعدين ليتأسوا بالمجاهدين ، وإلى هذا
المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله :فإن قلت : معلوم أن القاعد بغير عذر
والمجاهد لا يستويان فما فائدة نفى الاستواء؟ قلت : معناه الإذكار بما
بينهما من التفاوت العظيم ، والبون البعيد ، ليأنف القاعد ويترفع بنفسه عن
) : انحطاط منزلته . فيهتز للجهاد ويرغب فيه ، وفى ارتفاع طبقته ، ونحوه
هَلْ يَسْتَوِي الذين يَعْلَمُونَ والذين لاَ يَعْلَمُونَ ) أريد به
التحريك من الجهل إلى التعلم . ولينهض الشخص بنفسه عن صفة الجهل إلى شرف
العلم .وقوله ( مِنَ المؤمنين ) جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من القاعدين
وفائدة قوله : ( مِنَ المؤمنين ) الإيذان من أول الأمر بأن قعودهم عن.
الجهاد لم يمنعهم عن الوصف بالإيمان ، لأن قعودهم عن الجهاد لم يكن عن
نفاق أو عن ضعف فى دينهم ، وإنما كان عن تراخ أو اشتغال ببعض الأمور
الدنيوية .قال الجمل وقوله : ( غَيْرُ أُوْلِي الضرر ) : قرأ ابن كثير وأبو
عمرو وحمزة وعاصم ( غَيْرٌ ) بالرفع : وقرأ الباقون بالنصب . وقرأ الأعمش
بالجر .فالرفع على وجهين :أظهرما أنه على البدل من ( القاعدون ) . وإنما
كان هذا أظهر لأن الكلام نفى والبدل معه أرجح .والثاني : أنه رفع على أنه
صفة لقوله ( القاعدون ) لأنهم لما لم يكونوا أناساً بأعيانهم بل أريد بهم
) الجنس أشبهوا النكرة فوصفوا بها .وأما النصب فعلى : الاستثناء من
القاعدون ) وهو الأظهر ، لأنه المحدث عنه . وأما الجر فعلى أنه صفة
للمؤمنين .وقوله : ( فَضَّلَ الله المجاهدين بِأَمْوَالِهِمْ
( وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى القاعدين دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّه الحسنى

بيان لمزية المجاهدين على غيرهم .والمراد بالقاعدين هنا - الذين قعدوا عن الجهاد لسبب مانع من مباشرته أى : فضل الله - تعالى - المجاهدين بأموالهم وأنفسهم من أجل إعزاز دينه ، فضلهم درجة على القاعدين بأعذار ، لأن المجاهدين قد عرضوا أنفسهم للمخاطر والأهوال ، وبذلوا أرواحهم وأموالهم فى سبيل إعلاء كلمة الله .والدرجة هنا مستعارة للعلو المعنوى أى أن المراد بها هو الفضل ، ووفرة الأجر وزيادة الثواب . والتنوين فيها للتعظيم .قال ابن جرير : فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين من أولى الضرر درجة واحدة ، يعنى فضيلة واحدة . وذلك بفضل جهادهم بأنفسهم فأما فيما سوى ذلك فهما مستويان .وقوله ( وَكُلاًّ وَعَدَ الله الحسنى ) جملة معترضة جئ بها تاركا لما عسى أن يوهمه تفضيل أحد الفريقين على الآخر من حرمان المفضول أى : وكل واحد من فريقى المجاهدين والقاعدين من أهل الضرر وعده الله. المثوبة الحسنى وهى الجنة لحسن عقيدتهم وخلوص نيتهم ، وإنما التفاوت فى زيادة العمل المتقضى لمزيد الثواب .وقوله ( كُلاًّ ) مفعول أول لما يعقبه ) قدم عليه لإفادة القصر تأكيدا للوعد وتنوينه عوض عن المضاف إليه . وقوله الحسنى ) مفعول ثان .ثم بين - سبحانه - أنه قد فضل المجاهدين على القاعدين بغير عذر بدرجات عظيمة فقال ( وَفَضَّلَ الله المجاهدين عَلَى القاعدين أَجْراً عَظِيماً ) .أى : وفضل الله - تعالى - المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين دون أن يكون هناك عذر يمنعهم عن الجهاد ، فضل الله المجاهدين على هؤلاء القاعدين بالأجر العظيم والثواب الجزيل ، والمنزلة الرفيعة وقوله ( أَجْراً عَظِيماً ) منصوب على النيابة عن المفعول المطلق المبين. للنوع ، لأن الأجر هو ذلك التفضيل . أو على نزع الخافض أى فضلهم بأجر عظيم . أو على أنه مفعول ثان بتضمين فضل معنى أعطى أى أعطاهم أجرا تفضلا منه .

درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفورا رحيما

كما فسرها الوسيط ثم فصل - سبحانه - هذا الأجر العظيم فقال ( دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ الله غَفُوراً رَّحِيماً ) .أى فضل الله - تعالى - المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين عن الجهاد بغير عذر بالأجر العظيم؛ الذى يرفعهم عند الله - تعالى - درجات عالية ويقربهم من مقامات قدسه ، ويغفر لهم ما فرط منهم ، ويتغمدهم بسابغ رحمته ) وكان الله كثير الغفران لأوليائه واسع الرحمة بأهل طاعته .وقوله ( دَرَجَاتٍ مِّنْهُ ) بدل أو عطف بيان من قوله ( أَجْراً عَظِيماً ) . وقوله جار ومجرور متعلق بمحذوف وقع صفة لدرجات .ونكرت الدرجات ( مِّنْهُ ) للإشعار بأنها درجات عظيمة لا يحدها الحصر ، ولا يعينها المقدار ، بل هى شرف عظيم لا يناله إلا المقربون الأبرار .هذا ، وما جرينا عليه من أن المجاهدين يمتازون عن القاعدين بعذر بدرجة ، ويمتازون عن القاعدين بغير عذر بدرجات هو رأى كثير من المفسرين ، وقد عبر عنه صاحب الكشاف بقوله : فإن قلت قد ذكر الله - تعالى - مفضلين درجة ومفضلين درجات فمن هم؟ قلت : أما : المفضلون درجة واحدة فهم الذين فضلوا على القاعدين الأضراء .وأما المفضلون ، درجات فالذين فضلوا على القاعدين الذين أذن لهم فى التخلف اكتفاء بغيرهم لأن الغزو فرض كفاية .ومن المفسرين من يرى أن الذين فضل الله عليهم المجاهدين بدرجة وبدرجات هم صنف واحد ، وهم الذين قعدوا عن الجهاد بدون عذر أما الذين قعدوا بعذر فهم متساوون فى الأجر مع المجاهدين .وعلى هذا الرأى . سار الآلوسى فى تفسيره فقد قال ما ملخصه : ( فَضَّلَ الله المجاهدين ) فى سبيله ( بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى القاعدين ) من المؤمنين غير أولى الضرر ( دَرَجَةً )لا يقادر قدرها . ( وَكُلاًّ ) أى : كل واحد من الفريقين المجاهدين والقاعدين ( وَعَدَ الله الحسنى ) . وقوله ( وَفَضَّلَ الله المجاهدين عَلَى القاعدين ) عطف على ما قبله ( أَجْراً عَظِيماً ) .ثم قال : ولعل تكرير التفضيل بطريق العطف المنبئ عن المغايرة . وتقييده تارة بدرجة وتارة بدرجات مع اتحاد المفضل والمفضل عليه . إما لتنزيل الاختلاف العنوانى بين التفضيلين وبين الدرجة والدرجات منزلة الاختلاف الذاتى تمهيداً لسلوك طريق الإبهام ثم التفسير . . . . وإما للاختلاف بالذات بين التفضيلين والدرجة والدرجات .وقد حكى الإمام القرطبى هذين الوجهين فقال : قوله - تعالى - ( فَضَّلَ الله المجاهدين بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى القاعدين دَرَجَةً ) وقد قال بعد هذا : ( دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ) فقال قوم : التفضيل بالدرجة ثم بالدرجات إنما هو مبالغى وبيان وتأكيد .وقيل : فضل الله المجاهدين على القاعدين من أولى الضرر بدرجة واجدة . وفضل الله المجاهدين على القاعدين من غير عذر درجات والذى نراه أولى من هذين القولين من قال بأن الله - تعالى - فضل المجاهدين ، على القاعدين بعذر بدرجة ، وفضل المجاهدين على القاعدين بغير عذر بدرجات وذلك لأن هذا التفسير هو المأثور عن ابن عباس وغيره من الصحابة . فقد قال ابن عباس فى قوله - تعالى - ( فَضَّلَ الله المجاهدين بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى القاعدين دَرَجَةً ) أراد بالقاعدين هنا أولى الضرر ولأن القاعدين بعذر وإن كانوا لهم من حسن النية ما يرفع منزلتهم إلا أن

المجاهدين الذين باشروا الجهاد وعرضوا أنفسهم لأخطار القتال يفوقونهم منزلة وأجراً .وهذا ما يقتضيه منطق العقول البشرية ، أما عطاء الله بعد ذلك لكل فريق فمرجعه إليه وحده على حسب ما تقتضيه حكمته وسعة رحمته .هذا ، وقد أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة أن الجهاد من أفضل الأعمال وأن المجاهدين لهم عند الله - تعالى - منازل عالية . ومن الأحاديث التى وردت فى هذا المعنى ما أخرجه الشيخان عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن فى الجنة مائة درجة أعدها للمجاهدين فى سبيله . بين كل درجتين كما بين السماء والأرض . فإذا سألتم الله فاسألوه الفردون فإنه أوسط الجنة ومنه تتفجر أنهار الجنة " .

ان الذين توفاهم الملائكة ظالمي انفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الارض قالوا الم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها فاولئك ماواهم جهنم وساءت مصيرا

كما فسرها الوسيط وبعد أن رفع - سبحانه - من شأن المجاهدين ، وبين حال القاعدين عن الجهاد يعذر أو بغير عذر ، أتبع ذلك ببيان حال القاعدين فى دار الكفر بدون هجرة إلى دار الإسلام ، ووعد المهاجرين فى سبيل الله بحسن العاقبة فقال - تعالى - : ( إِنَّ الذين تَوَفَّاهُمُ . . . غَفُوراً رَّحِيماً ) .روى المفسرون فى سبب نزول قوله - تعالى - ( إِنَّ الذين تَوَفَّاهُمُ ) روايات منها ما أخرجه البخارى عن ابن عباس أن ناسا من المسلمين كانوا مع المشركين يكثرون سواد المشركين على رسوله صلى الله عليه وسلم يأتى السهم فيرمى به فيصب أحدهم فيقتله . أو يضرب فيقتل . فأنزل الله الآية . ومنها ما أخرجه ابن جرير عن . . . ( إِنَّ الذين تَوَفَّاهُمُ ) : ابن عباس قال : كان قوم من أهل مكة أسلموا . وكانوا يخفون الإسلام فأخرجهم المشركون معهم يوم بدر . فأصيب بعضهم . فقال المسلمون : هؤلاء كانوا مسلمين فأكرهوا فاستغفروا لهم فنزلت الآية .قال ابن كثير - بعد ذكره لهذه الروايات - . هذه الآية الكريمة عامة فى كل من أقام بين ظهرانى المشركين وهو قادر على الهجرة وليس متمكنا من إقامة الدين ، فهو ظالم لنفسه مرتكب حراما بالإجماع وبنص هذه الآية .وقوله : ( تَوَفَّاهُمُ ) يحتمل أن يكون فعلا ماضيا ، وتركت علامة التأنيث للفصل ، ولأن الفاعل ليس مؤنثاً تأنيثاً حقيقياً ، ويحتمل أن يكون فعلا مضارعا وأصله " تتوفاهم " فحذفت إحدى التاءين تخفيفاً . وهو من توفى الشئ إذا أخذه وافيا تام .والمراد من التوفى : قبض أرواحهم وإماتتهم . وقيل المراد به : حشرهم إلى جهنم .والمراد من الملائكة : ملك الموت وأعوانه الذين يتلون قبض الأرواح بإذن الله وأمره وظلم النفس معناه : أن يفعل الإنسان فعلا يؤدى إلى مضرته وسوء عاقبته. سواء أكان هذا الفعل كفراً أم معصية .وإنما كان ظالما لنفسه لأنه قال قولا أو فعل فعلا ليس من شأن العقلاء أن يقولوه أو يفعلوه لو خامة عقباه والمعنى : إن الذين تقبض الملائكة أوراحهم وتميتهم حال كونهم قد ظلموا. أنفسهم بسبب رضاهم بالذل والهوان ، وإقامتهم فى أرض لم يستطيعوا أن يباشروا تعاليم دينهم فيها ، وعدم هجرتهم إلى الأرض التى يقيم فيها إخوانهم فى العقيدة مع قدرتهم على الهجرة . .إن الذين تتوفاهم الملائكة وهم بهذه الحال تسألهم الملائكة سؤال تقريع وتوبيخ عند قبض أرواحهم أو يوم القيامة فتقول ، لهم : " فيم كنتم " أى : فى أى حال كنتم؟ أكنتم فى عزة أم فى ذلة؟ وكيف رضيتم البقاء مع الكافرين الذين أذلوا وسخروا من دينكم؟ أو المعنى : فى أى : شئ كنتم من أمور دينكم؟ (قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأرض ) أى قال الذين ظلموا أنفسهم للملائكة : كنا فى الدنيا يستضعفنا أهل الشرك فى أرضنا وبلادنا ، وصيرونا أذلاء لا نملك من أمرنا شيئاً . وهو اعتذار قبيح يدل على هوان المعتذرين به وضعف نفوسهم ، ولذلك لم تقبل منهم الملائكة هذا العذر ، بل ردت عليهم بما حكاه الله - تعالى - فى قوله : ( أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ الله وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ) ؟فالاستفهام لإنكار عذرهم وعدم الاعتداد به .أى أن الملائكة تقول لهم - كما يقول الآلوسى - : إن ، عذرهم عن ذلك التقصير بحلولكم بين أهل تلك الأرض أبرد من الزمهرير ، إذ يمكنكم حل عقدة هذا الأمر الذى أخل بدينكم بالرحيل إلى قطر آخر من الأرض تقدرون فيه على إقامة أمور الدين كما فعل من هاجر إلى الحبشة وإلى المدينة أو إن تعللكم عن الخروج مع أعداء الله - تعالى - بأنكم مقهورون غير مقبول . لأنكم متمكنون من المهاجرة ومن الخروج من تحت أيديهم .وقوله ( ظالمي ، أَنْفُسِهِمْ ) جملة حالية من ضمير المفعول فى قوله : ( تَوَفَّاهُمُ ) أى تتوفاهم الملائكة فى حال ظلمهم لأنفسهم . والإضافة فيه لفظية فلا تفيده : تعريفا . والأصل ظالمين أنفسهم فحذفت النون تخفيفا .قال الجمل ما ملخصه وخبر إن فى قوله ( إِنَّ الذين تَوَفَّاهُمُ ) . محذوف تقديره : إن الذين توفاهم الملائكة هلكوا . ويكون قوله : ( قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ ) مبينا لتلك الجملة المحذوفة . أو يكون الخبر قوله ( فأولئك مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ودخلت الفاء فى الخبر تشبيها للموصول باسم الشرط . .وقوله ( قَالُواْ ( كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأرض ) جملة مستأنفة جواباً عن سؤال مقدر

: فكأنه قيل : فماذا قال أولئك الذين ظلموا أنفسهم للملائكة؟ فكان الجواب
) كنا مستضعفين فى الأرض . قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف صح وقوع قوله
كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأرض ) جواباً عن قولهم : فيهم كنتم وكان حق
الجواب : كنا فى كذا أو لم نكن فى شئ؟ قلت معنى " فيم كنتم " التوبيخ بأنهم
: لم يكونوا فى شئ من الدين حيث قدروا على المهاجرة ولم يهاجروا . فقالوا
كنا مستضعفين اعتذارا مما وبخوا به ، واعتلالا بالاستضعاف ، وأنهم لم
يتمكنوا من الهجرة حتى يكونوا فى شئ . فبكتتهم الملائكة بقولهم : ( أَلَمْ
تَكُنْ أَرْضُ الله وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ) ، أرادوا : إنكم
كنتم قادرين على الخروج من مكة إلى بعض البلاد التى تمنعون فيها من إظهار
دينكم .وهذا دليل على أن الرجل إذا كان فى بدل لا يتمكن فيه من إقامة دينه
كما يجب لبعض الأسباب - والعوائق عن إقامة الدين لا تنحصر - أو علم أنه فى
غير بلده أقوم بحق الله وأدوم للعبادة حقت عليه المهاجرة .ويبدو أن الإمام
الزمخشرى كان عند تفسيره لهذه الآية قد هاجر من موطنه للإقامة بجوار بيت
الله الحرام ، فقد قال خلاف تفسيره لها " اللهم إن كنت تعلم أن هجرتى إليك
لم تكن إلا للفرار بدينى فاجعلها سببا فى خاتمة الخير ، ودرك المرجو من
فضلك ، والمبتغى من رحمت . وصل جوارى لك بعكوفى عند بيتك بجوارك فى دار
كرامتك يا واسع المغفرة .وقال القرطبى : يفيد هذا السؤال والجواب أنهم
ماتوا مسلمين ظالمين لأنفسهم فى تركهم الهجرة ، وإلا فلو ماتوا كافرين لم
يقل لهم شئ من هذا .وإنما أضرب عن ذكرهم فى الصحابة لشدة ما واقعوه .وقوله
بيان لسوء عاقبة ( فأولئك مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيراً )
هؤلاء الذين آثروا العيش فى أرض الكفر مع الذل على الهجرة إلى أرض الإسلام
: أى : فأولئك الذين ماتوا ظالمين لأنفسهم ( مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ) أى.
) مسكنهم الذى يأوون إليه فى الآخرة جهنم ، وهى مصيرهم الذى سيصيرون إليه
وَسَآءَتْ مَصِيراً ) أى : وساءت جهنم لأهلها الذين صراوا إليها مصيرا
) ومسكنا ومأوى ، لأنهم سيذوقون فيها العذاب الأليم .وجئ باسم الإشارة
فأولئك ) للاشعار بأنهم جديرون بالحكم الوارد بعده للصفات التى وصفوا بها
قبله ، فهم كانوا قادرين على الهجرة لكنهم لم يهاجروا لضعف نفوسهم وحرصهم
على أموالهم ومصالحهم .والمخصوص بالذم فى قوله ( وَسَآءَتْ مَصِيراً )
. محذوف . أى : جهنم

الا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون
سبيلا

كما فسرها الوسيط ثم استثنى - سبحانه - من هذا المصير السئ لمن ظلموا
أنفسهم ثلاثة أصناف من الناس فقال : ( إِلاَّ المستضعفين مِنَ الرجال
والنسآء والولدان ) .أى : أن هذا المصير السئ والعذاب المهين هو للذين
ظلموا أنفسهم بترك الهجرة إلى المسلمين مع قدرتهم عليها ، لكن هناك طوائف
من الناس خارجون من هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم ومن هذا المصير الأليم ، وهم
. . . أولئك الرجال الذين عجزوا حقا عن الهجرة لضعفهم أو مرضهم أو شيخوختهم
أو النساء اللائى لا يستطعن الخروج وحدهن خشية من الاعتداء عليهن أو
الوالدان الذين لم يبلغوا الحلم بعد ، أو بلغوا بلوغا قريبا لكنهم لا
يستطيعون الهجرة بمفردهم لقلة ذات يدهم أو لغير ذلك من الأعذار الصحيحة
وقوله ( لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً ) جملة.
مستأنفة موضحة لمعنى الاستضعاف .حتى لا يتوهم متوهم أن استضعاف هؤلاء
كالاستضعاف الذى تذرع به أولئك الذين ظلموا أنفسهم عندما قالوا - كما حكى
القرآن عنهم - ( كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأرض ) . ويصح أن تكون حالا
من المستضعفين .أى : ليس مندرجا مع الذين ظلموا أنفسهم فاستحقوا المصير
السئ أولئك الضعفاء من الرجال والنساء والولدان؛ لأنهم ( لاَ
يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً ) فى الخروج؛ إذ لا قوة لهم على الخروج ولا نفقة
معهم توصلهم مبتغاهم ( وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً ) أى : ولا يعرفون
الطريق التى توصلهم إلى دار هجرتهم .قال القرطبى : والحيلة : لفظ عام
لأنواع أسباب التخلص . والسبيل : سبيل المدينة . فيما ذكر مجاهد والسدى
وغيرهما والصواب أنه عام فى جميع السبل .والاستثناء فى قوله ( إِلاَّ
المستضعفين ) منقطع - على الصحيح - لأن هؤلاء الذين قعدوا عن الجرة لعجزهم
خارجون من أولئك الذين ظلموا أنفسهم بقعودهم عن الهجرة مع قدرتهم على ذلك ،
وفى ذكر الوالدان مبالغة فى أمر الهجرة حتى لكأنها لو استطاعها غير.
المكلفين لقاموا بها ، وإشعار بأن على أوليائهم أن يهاجروا بهم معهم متى
. تمكنوا من ذلك

فاولئك عسى الله ان يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا

. كما فسرها الوسيط وقوله ( فأولئك عَسَى الله أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ )
: بيان لحكم هؤلاء المستضعفين الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا .أى
أن هؤلاء الذين قعدوا عن الهجرة لأعذار حالت بينهم وبينها ( عَسَى الله أن

يَعْفُوَ عَنْهُمْ ) أى : يتجاوز عنهم بفضله ورحمته بسبب عدم استطاعتهم للهجرة .قال الجمل : وعسى ولعل فى كلام الله واجبتان ، وإن كانتا رجاء وطمعا فى كلام المخلوقين ، لأن المخلوق هو الذى تعرض له الشكوك والظنون . والبارى منزه عن ذلك ، وإذا أطمع - سبحانه - عبده وصله .وقال الآلوسى : وفى قوله ( عَسَى الله أن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ) إيذان بأن ترك الهجرة أمر خطير حتى ان المضطر الذى تحقق عدم وجوبها عليه ينبغى له أن يعد تركها ذنبا ، ولا يأمن . ويترصد الفرصة ويعلق قلبه بها .وقوله (وَكَانَ الله عَفُوّاً غَفُوراً ) تذييل مقرر لما قبله بأتم وجه أى وكان الله - تعالى - . وما زال كثير العفو عن عباده فيما يقعون فيه من تقصير ، كثير المغفرة لمن تاب إليه وأناب .

ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الارض مراغما كثيرا وسعة ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع اجره على الله وكان الله غفورا رحيما

كما فسرها الوسيط ثم رغب - سبحانه - فى الهجرة من أجل أعلاء دينه بأسمى ألوان الترغيب فقال : ( وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأرض مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً ) .وقوله : ( مُرَاغَماً ) اسم مكان أى يجد فى الأرض متحولا ومهاجرا .قال القرطبى ما ملخصه : اختلف فى تأويل : المراغم فقال مجاهد : المراغم : المتزحزح . وقال ابن عباس : المراغم المتحول والمذهب . وقال ابن زيد : المراغم : المهاجر .وهذه الأقوال متفقة المعانى وهو اسم الموضع الذى يراغم فيه . وهو مشتق من الرغام أى التراب ورغم أنف فلان أى لصق بالتراب . وراغمت فلانا هجرته وعاديته .وهذا كله تفسير المعنى . فأما الخاص باللفظة هو أن المرغم موضع المراغمة كما ذكرناه وهو أن يرغم كل واحد من المتنازعين أنف صاحبه بأن يغلبه على مراده .فكأن كفار قريش أرغموا أنوف المحبوسين بمكة ، فلو هاجر منهم لأرغم أنوف قريش لحصوله فى منعة منهم ، فتلك المنعة هى موضع المراغمة .والمعنى : ومن يهاجر تاركا دار إقامته من أجل إعلاء كلمة الله وإعزاز دينه ، يجد فى الأرض أماكن كثيرة يأمن فيها مكر أعدائه وظلمهم ، ويجد فيها من الخير والنعمة والسعة فى الرزق ما يكون سببا لرغم أنف أعدائه الذين فارقهم كراهة لصحبتهم القبيحة ومعاملتهم السيئة .قال الفخر الرازى : وذلك لأن من فارق بلده وذهب إلى بلده أجنبية ، فإذا استقام أمره فى تلك البلدة الأجنبية ، ووصل ذلك الخبر إلى أهل بدلته خجلوا من سوء معاملتهم له ورغمت أنوفهم - أى أصابهم الذل - بسبب ذلك .فكأنه قيل . يأيها الإنسان إنك كنت تكره الهجرة عن وطنك خوفا من أن تقع فى المشقة والمحنة والسفر ، فلا تخف فإن الله - تعالى - سيعطيك من النعم الجليلة ، والمراتب العظيمة ، فى دار هجرتك ما يصير سببا لرغم أنوف أعدائك ، ويكون سببا لسعة عيشك .وإنما قدم - سبحانه - ذكر رغم الأعداء على ذكر سعة العيش؛ لأن ابتهاج الإنسان الذى يهاجر عن أهله وبلده بسبب شدة ظلمهم له بدولته من حيث إنها تصير سببا لرغم أنوف الأعداء .أشد من ابتهاجه بتلك الدولة من حيث إنها صارت سببا لسعة العيش عليه .وقوله ( وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى الله وَرَسُولِهِ ثُمّ يُدْرِكْهُ الموت فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَىَ الله ) تنويه عظيم بشأن الهجرة من أجل إعلاء كلمة الله ، حيث جعل - سبحانه - ثوابها حاصلا حتى ولو لم يصل المهاجر إلى مقصده .أى : ومن يخرج من بيته تاركا أهله ووطنه ، فارا بيدنه إلى المكان الذى تعلو فيه كلمة الله وكلمة رسوله ، قاصدا بذلك نصرة الحق وأهله من يفعل ذلك ( يُدْرِكْهُ الموت ) وهو فى طريقه قبل أن يصل إلى مكان ، هجرته ( فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَىَ الله ) أى : فقد ثبت ووجب له الأجر عند الله - تعالى - تفضلا منه - سبحانه - وكرما ( وَكَانَ الله غَفُوراً رّحِيماً ) فيغفر لهذا المهاجر ما فرط منه من تقصير ، ويرحمه برحمته الواسعة .وقوله ( ثُمّ يُدْرِكْهُ ) بالجزم عطفا على فعل الشرط وهو ( وَمَن يَخْرُجْ ) . وجوابه قوله : ( فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَىَ الله ) قال الآلوسى : وقرئ ( ثُمّ يُدْرِكْهُ ) بالرفع . خرج ابن جنى على أنه فعل مضارع مرفوع والموت فاعله . والجملة خبر لمبتدأ محذوف أى : ثم هو يدركه الموت .وفى التعبير بقوله ( فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَىَ الله ) بعث للطمأنينة فى قلوب المهاجرين ، وحفز لهم على الهجرة من أجل إعلاء كلمة الله؛ لأنهم إذاوصلوا إلى دار هجرتهم فقد راغموا أنف أعدائهم ورزقهم الله بالخير من فضله ، وإن ماتوا قبل أن يصلوا أعطاهم - سبحانه ثواب المهاجرين كاملا ببركة حسن نياتهم ، وكافأهم على ذلك أجرا جزيلا لا يعلم مقداره إلا هو .وقد وردت روايات فى سبب نزول هذه الآية الكريمة منها ما أخرجه ابن جرير - عن سعيد بن جبير أنها نزلت فى جندب بن ضمرة وكان قد بلغه وهو بمكة قوله - تعالى - : ( إِنّ الذين تَوَفّاهُمُ الملائكة ظالمي أَنْفُسِهِمْ ) . الآية فقال لبنيه : أحملونى فإنى لست من المستضعفين ، وإنى لأهتدى إلى الطريق ، وإنى لا أبيت الليلة بمكة . فحملوه على سرير متوجها إلى المدينة - وكان شيخا كبيرا ، فمات بالتنعيم - وهو موضع قرب مكة - ولما أدركه الموت

أخذ يصفق يمينه على شماله ويقول : اللهم هذه لك . وهذه لرسولك صلى الله
عليه وسلم أبايعك على ما بايع عليه رسلوك - ثم مات - ولما بلغ خبر موته
الصحابة قالوا : ليته مات بالمدينة فنزلت الآية .هذا ، ومن الأحكام والآداب
التى أخذها العلماء من هذه الآيات ما يأتى :1- وجوب الهجرة من دار لا
يستطيع المسلم فيها أن يؤدى شعائر دينه .قال القرطبى : فى هذه الآيات دليل
على هجران الأرض التى يعمل فيها بالمعاصى . وقال سعيد بن جبير : إذا عمل
بالمعاصى فى أرض فاخرج منها . وتلا ( أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً
فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ) . وقال مالك : هذه الآيات دالة على أنه ليس لأحد
المقام فى أرض يسب فيها السلف ويعمل فيها بغير الحق .وقال الشيخ القاسمى ما
ملخصه : قال الحافظ بن حجر فى " الفتح " : الهجرة الترك . والهجرة إلى الشئ
الانتقال إليه عن غيره . وفى الشرع : ترك ما نهى الله عنه .وقد وقعت فى
الإسلام على وجهين :الأول : الانتقال من دار الخوف إلى دار الأمن . كما فى
هجرتى الحبشة وابتداء الهجرة من مكة إلى المدينة .الثاني : الهجرة من دار
الكفر إلى دار الإيمان . وذلك بعد أن استقر النبى صلى الله عليه وسلم
بالمدينة وهاجر إليه من أمكنه ذلك من المسلمين . وكانت الهجرة إذ ذاك تختص
بالمدينة إلى أن فتحت مكة فانقطع الاختصاص وبقى عموم الانتقال من دار الكفر
لمن قدر عليه باقيا .ثم قال الشيخ القاسمى : وقد أفصح ابن عمر بالمراد فيما
أخرجه الإسماعيلى بلفظ : انقطعت الهجرة بعد الفتح إلى رسول الله صلى الله
عليه وسلم ولا تنقطع الهجرة ما قوتل الكفار . أى : ما دام فى الدنيا دار
كفر ، فالهجرة واجبة منها على من أسلم وخشى أن يفتن فى دينه .وروى الإمام
أحمد وأبو عن معاوية قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "لا
تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة . ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من
مغربها " .2- أن من خرج للهجرة فى سبيل الله ومات فى الطريق أعطاه الله -
تعالى - أجر المهاجرين ببركة نيته الصادقة ، ويدل على ذلك ما جاء فى
الصحيحين عن عمر بن الخطاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إنما
الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى . فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله
فهجرته إلى الله ورسوله . ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها
فهجرته إلى ما هاجر إليه " .وقال صاحب الكشاف : كل هجرة لغرض دينى - من طلب
علم أو حج أو جهاد أو فرار إلى بلد يزداد فيه طاعة أو قناعة وزهدا فى
الدنيا أو ابتغاء رزق طيب - فهى هجرة إلى الله ورسوله . وإن أدركه الموت فى
طريقه فأجره واقع على الله .وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد وبخت الذين
رضوا أن يقيموا مع الكافرين فى ذلة وهوان مع قدرتهم على الهجرة ، وتوعدتهم
على ضعف إيمانهم ، بسوء المصير ، وحرضت المؤمنين فى كل زمان ومكان على
الهجرة فى سبيل الله بأسمى ألوان التحريض وأشدها ، ووعدت المهاجر من أجل
إعلاء كلمة الحق بالخير الوفير ، والأجر الجزيل . ( ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ
يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ واللَّهُ ذُو الفضل العظيم ) وبعد أن حض - سبحانه -
عباده على الهجرة فى سبيله أتبع ذلك ببيان جانب من مظاهر رحمته فى التيسير
، عليهم فيما شرعه لهم من عبادات ، حيث أبالح لهم قصر الصلاة فى حالة السفر
، وعرفهم كيف يؤدونها فى حالة الجهاد والخوف من مباغتة العدو لهم فقال -
تعالى - : ( وَإِذَا ضَرَبْتُمْ . . . عَذَاباً مُّهِيناً ) .

واذا ضربتم في الارض فليس عليكم جناح ان تقصروا من الصلاة ان خفتم ان
يفتنكم الذين كفروا ان الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا

، كما فسرها الوسيط قوله ( وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأرض ) أى : إذا سافرتم
وأطلق الضرب فى الأرض على السفر؛ لأن المسافر يضرب برجله وبراحلته على
الأرض .والمراد من الأرض : ما يشمل البر والبحر : أى إذا سافرتم - أيها
المؤمنون - فى أى مكان يسافر فيه من بر أو بحر ( فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ
جُنَاحٌ ) أى : حرج أو إثم فى ( أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصلاة ) أى فى أن
تنقصوا منها ما خففه الله عنكم رحمة بكم .وقوله ( تَقْصُرُوا ) من القصر
وهو ضد المد . يقال قصرت الشئ أى جعلته قصيرا بحذف بعض أجزائه أو أوصافه
ومن فى قوله ( مِنَ الصلاة ) يجوز أن يكون زائدة للتأكيد فيكون لفظ الصلاة
مفعولا به لتقصروا . ويجوز أن تكون للتبعيض فيكون المفعول محذوفا . والجار
والمجرور فى مضوع الصفة . أى : فليس عليكم جناح فى أن تقصروا شيئا من
الصلاة .وقوله ( إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الذين كفروا ) جملة شرطية
وجوابها محذوف دل عليه ما قبله .والمراد بالفتنة هنا : إنزال الأذى
بالمؤمنين .أى : إن خفتم أن يتعرض لكم المشركون بما تكرهونه من القتال أو
غيره حين سفركم فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة .وقوله ( إِنَّ
الكافرين كَانُواْ لَكُمْ عَدُوّاً مُّبِيناً ) تعليل لتأكيد أخ الحذر من
الكفر دائما ، لأن عداوتهم للؤمنين ظارهة ، وكراهتهم لهم شديدة .أى : إن
الكافرين كانوا وما زالوا بالنسبة لكم - أيها المؤمنون - يظهورن العداوة
، وما تخفيه صدروهم لكم من أحقاد وكراهية أشد وأكبر .وقد أكد - سبحانه - هذه
العداوة بإن الدالة على التوكيد ، وبكان المفيدة للدوام والاستمرار ، وبوصف
هذه العداوة بالسفور والظهور ، لكى يحترس المسلمون منهم أشد الاحتراس .هذا

ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآية ما يأتى :1- أن قصر الصلاة ، فى السفر سنة . ومنهم من يرى أن المصلى مخير فيه كما يخير فى الكفارات . ومنهم من يرى أنه فرض .قال القرطبى ما ملخصه : واختلف العلماء فى حكم القصر فى السفر؛ فروى عن جماعة أنه فرض وهو قول عمر بن عبد العزيز والكوفيين . واحتجوا بحديث عائشة " فرضت الصلاة ركعتين ركعتين " ولا حجة فيه لمخالفتها له؛ فإنها كانت تتم فى السفر وذلك يوهنه . .وحكى ابن الجهم أن أشهب روى عن مالك أن القصر فرض . ومشهور مذهبه وجل أصحابه ، وأكثر العلماء من السلف والخلف أن القصر سنة . وهو الصحيح .ومذهب عامة البغداديين من المالكين أن الفرض التخيير . ثم اختلفوا فى أيهما أفضل ، فقال بعضهم : القصر أفضل . وقيل : الإتمام أفضل .أما بالنسبة لمسافة السفر التى يجوز معها قصر الصلاة للعماء فيها أقوال منها : أن السفر الذى يسوغ القصر هو ما كان مسيرة ثلاثة أيام بلياليها بالسير المعتاد .وهذا رأى الأحناف . ومن حججهم قوله صلى الله عليه وسلم : " يمسح المقيم يوما وليلة والمسافر ثلاثة أيام بلياليها " وأيضا ورد أن النبى صلى الله عليه وسلم منع المرأة من السفر فوق ثلاث إلا مع زوج أو محرم ، فدل هذا على أن ما دون الثلاث لا يعد سفرا ، بل هو فى حكم الإقامة ، حيث جعل الثلاث فاصلا بين الخروج بدون محرم وعدمه . وأيضا فقد جرى عرف العرب أن الرجل كان لا يعتبر مسافرا إلا بسير نحو ثلاثة أيام .أما المالكية والشافعية وأكثر الأئمة فيرون أن السفر الذى تقصر فيه الصلاة هو ما كان مسيرة يوم وليلة وقيل يوم فقط ، وذلك لما رواه ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " يا أهل مكة لا تقصروا فى أدنى من أربعة برد من مكة إلى عسفان " ، وقد قدرت هذه المسافة بمسيرة يوم وليلة أو يوم فقط . ويرى داود الظاهرى وأتباعه أن القصر فى كل ما يسمى سفرا ، سواء أكان قصيرا أم طويلا؛ لأن المدار عندهم فى تحقيق القصر على تحقيق شرطه وهو الضرب فى الأرض ، ولأن كلمة الضرب فى الأرض قد جاءت على إطلاقها من غير تقييد بمدة معلومة ولا مسافة محدودة .وقد رد جمهور العلماء عليهم بردود منها : أن الضرب فى الأرض حقيقته الانتقال من كان إلى مكان . وظاهر أن مجرد الانتقال من مكان إلى آخر لا يكون سببا فى الرخصة ، فلا بد أن يكون السفر المرخص فيه بالقصر سفرا مخصوصا ، وقد بينت السنة النبوية الشريعة مقداره على خلاف فى الروايات .هذا ، وقد حكى القرطبى أقوال بعض العلماء فى نقد أولئك الذين يأخذون الأمور بظاهرها بدون فهم سليم فقال :قال ابن العربى : وقد تلاعب قوم بالدين فقالوا : إن من خرج من البلد إلى ظاهره أكل وقصر وقائل هذا أعجمى لا يعرف السفر عند العرب ، أو مستخف بالدين . ولولا أن العلماء ذكروه لما رضيت أن ألمحه بمؤخر عينى ، ولا أفكر فيه بفضول قلبى . ولم يذكر حد السفر الذى يقع به القصر لا فى القرآن ولا فى السنة . وإنما كان كذلك ، لأنها كانت لفظة عربية مستقر علمها عند العرب الذين خاطبهم الله بالقرآن؛ فنحن نعلم قطعا أن من برز عن الدور لبعض الأمور أنه لا يكون مسافرا لا لغة ولا شرعا . وإن من مشى مسافرا ثلاثة أيام فإنه يكون مسافرا قطعا . كما أننا نحكم على من مشى يوما وليلة أنه كان مسافرا ، لحديث "لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر مسيرة يوم إلا مع ذى محرم منها " وهذا هو الصحيح لأنه وسط بين الحالين . وعليه عول مالك . ولكنه لم يجد هذا الحديث متفقا عليه ، فقد روى مرة " يوما وليلة " ومرة " ثلاثة أيام " .ثم قال القرطبى : واختلفوا فى نوع السفر الذى تقصر فيه الصلاة . فأجمع الناس على الجهاد والحج والعمرة وما ضارعها من صلة رحم . . واختلفوا فيما سوى ذلك . فالجمهور على جواز القصر فى السفر المباح كالتجارة وغيرها . وعلى أنه لا قصر فى سفر المصعية كالباغى وقاطع الطريق وما فى معناهما .ثم قال : واختلف العلماء فى مدة الإقامة التى إذا نواها المسافر أتم . فقال مالك والشافعى والليث بن سعد : إذا نوى الإقامة أربعة أيام أتم .وقال أبو حنيفة وأصحابه : إذا نوى الإقامة خمس عشرة ليلة أتم ، وإن كان أقل من ذلك قصر .2- ذهب جمهور العلماء إلى أن الآية الكريمة المقصود منها تشريع صلاة السفر ، وأن المراد بالقصر فى قوله ( أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصلاة ) هو القصر فى الكمية أى فى عدد الركعات ، بأن يصلى المسافر الصلاة الرباعية ركعتين ، وأن حكمها للمسافر فى حال الأمن كحكمها فى حال الخوف لتظاهر السنن على مشروعيتها مطلقا .وقد وضح هذه المسألة الإمام ابن كثير توضيحا حسنا فقال ما ملخصه : وقوله - تعالى - ( إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الذين كفروا ) الشرط فيه خرج مخرج الغالب حال نزول هذه الآية . إذ كانت أسفارهم بعد الهجرة فى مبدئها مخوفة . بل كانوا لا ينهضون إلا إلى غزو عام ، أو سرية خاصة ، وسائر الأحياء حرب للإسلام وأهله . والمنطوق إذا خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له . كقوله - تعالى - ( وَلاَ تُكْرِهُواْ فَتَيَاتِكُمْ عَلَى البغاء إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً ) وقوله - تعالى - ( وَرَبَائِبُكُمُ اللاتي فِي حُجُورِكُمْ مِّن نِّسَآئِكُمُ ) ومما يشهد بأن للمسافر أن يقصر سواء أكان آمنا أم خائفا ما رواه الترمذى والنسائى عن ابن عباس . أن النبى صلى الله عليه وسلم : خرج من المدينة إلى مكة لا يخاف إلا الهل رب العالمين فصلى ركعتين .وروى البخارى عن حارثة بن وهب الخزاعى قال : صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أمن ما كان بمنى ركعتين .وروى البخارى عن أنس قال : خرجنا

مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة . فكان يصلى ركعتين ركعتين حتى
رجعنا إلى المدينة .وروى مسلم وأحمد وأهل السنن " عن يعلى بن أمية قال :
سألت عمر بن الخطاب . قلت له : قوله - تعالى - : ( فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ
جُنَاحٌ أن تَقْصُرُواْ مِنَ الصلاة إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الذين
كفروا ) . وقد أمن الناس . فقال لى عمر : عجبت مما عجبت منه . فسألت رسول
الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال : " صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا
صدقته " " .وروى أبو بكر بن أبى شيبة عن أبى حنظلة الحذاء قال : سألت ابن
عمر عن صلاة السفر؟ فقال : ركعتان ، فقلت له : أين قوله ، ( إِنْ خِفْتُمْ
أَن يَفْتِنَكُمُ الذين كفروا ) ونحن آمنون؟ فقال : سنة رسول الله صلى الله
عليه وسلم .فأنت ترى من هذه النصوص أنها تدل على أن الآية الكريمة مسوق فى
) - تشريع صلاة السفر سواء أكان المسافر آمنا أم خائفا ، وأن قوله - تعالى
أن تَقْصُرُواْ مِنَ الصلاة ) المراد من القصر هنا قصر عدد الركعات من
أربع إلى اثنين كما كان يفعل النبى صلى الله عليه وسلم فى أسفاره ، وأن
القصر للصلاة فى السفر بالنظر لما كنت عليه فى الحضر .قالوا : ومما يدل على
أن لفظ القصر كان مخصوصا فى عرفهم بنقص عدد الركعات ، ما رواه البخارى عن
أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم " انصرف من اثنتين - أى صلى
الصلاة الربعاية ركعتين عن سهو - فقال له ذواليدين : أقصرت الصلاة أم نسيت
يا رسول الله "؟ . . . هذا؛ ويرى بعض العلماء أن هذه الآية نزلت فى صلاة
الخوف ، وأن المصود بالقصر هنا هو قصر الكيفية لا الكمية - أى تخفيف ما
اشتملت عليه من قراءة وتسبيح وغير ذلك - لأنهم يرون أن كمية صلاة المسافر
ركعتان فهى تام غير قصر .قال ابن كثير ما ملخصه : ومن العلماء من قال : إن
المراد من القصر ها هنا إنما هو قصر الكيفية لا الكمية وهو قول مجاهد
والضحاك والسدى واعتقدوا بما رواه الإمام مالك عن عائشة أنها قالت فرضت
الصلاة بكعتين فى السفر والحضر ، فأقرت صلاة السفر ، وزيد فى صلاة الحضر
قالوا : فإذا كان أصل الصلاة فى السفر حتى اثنتين فيكف يكون المراد بالقصر.
هنا قصر الكمية . لأن ما هو الأصل لا يقال فيه ( فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ
جُنَاحٌ أن تَقْصُرُواْ مِنَ الصلاة ) . وروى الإمام أحمد والنسائى وابن
ماجه عن عمر - رضى الله عنه - قال : صلاة السفر ركعتان؛ وصلاة الأضحى
ركعتان ، وصلاة الفطر ركعتان ، وصلاة الجمعة ركعتان تمام غير قصر على لسان
نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم" .وقال القرطبى : وذهب جماعة إلى أن هذه
الآية إنما هى مبيحة للقصر فى السفر للخائف من العدو فمن كان آمنا فلا قصر
له . روى عن عائشة أنها كنت تقول فى السفر : أتموا صلاتكم . فقالوا : إن
رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقصر . فقالت : إنه كان فى حرب وكان يخاف
وهل أنتم تخافون؟ . . .وذهب جماعة إلى أن الله - تعالى - لم يبح القصر فى
كتابه إلا بشرطين : السفر والخوف وفى غير الخوف بالسنة .ويبدو لنا أن
الأولى ما ذهب إليه جمهور العلماء من الآية الكريمة المقصود منها تشريع
صلاة السفر؛ وأن المراد بالقصر فيها قصر كمية الصلاة بحيث يصلى المسافر
الصلاة الرباعية ركعتين تخفيفا من الله - تعالى - عليه ، سواء أكان فى حالة
أمن أم حالة خوف ، لأن النصوص التى ساقها الجمهور لتأييد رأيهم صريحة فى
صحة ما ذهبوا إليه ، ولأن القصر فى اللغة منعناه أن تقتصر من الشئ على بعضه
وهذا أظهر ما يكون فى قصر الركعات على اثنين بدل أربع ، تقتصر من الشئ ،
على بعضه ، وهذا أظهر ما يكون فى قصر الركعات على اثنين بدل أربع ، أما
القصر فى الصفة أو الكيفية فهو تغيير فى الصلاة لا إتيان بالبعض ، إذ هو
) إحلال للإيماء محل الركوع والسجود - مثلا - .وأيضا فإن ( مِنَ ) فى قوله
أن تَقْصُرُواْ مِنَ الصلاة ) تكون أظهر من الاقتصار على بعض الركعات عند
من يجعل هذا الحرف للتبعيض .ومن أراد مزيد بيان لتلك المسائل فليرجع إلى
أمهات كتب الفقه والتفسير .

واذا كنت فيهم فاقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك ولياخذوا اسلحتهم
فاذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتات طائفة اخرى لم يصلوا فليصلوا معك
ولياخذوا حذرهم واسلحتهم ود الذين كفروا لو تغفلون عن اسلحتكم وامتعتكم
فيميلون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم ان كان بكم اذى من مطر او كنتم
مرضى ان تضعوا اسلحتكم وخذوا حذركم ان الله اعد للكافرين عذابا مهينا

كما فسرها الوسيط ثم شرع - سبحانه - فى بيان صفة صلاة الخوف فى جماعة
فقال - تعالى - ( وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصلاة
فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ مَّعَكَ وليأخذوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا
سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخرى لَمْ
يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ
وَأَسْلِحَتَهُمْ ) .والمعنى : وإذا كنت يا محمد فى أصحابك وشهدت معهم
القتال ( فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصلاة ) أى : فأردت أن تقيم لهم الصلاة فى
جماعة لتزدادوا أجراً ورعاية من الله وأنتم تقاتلون أعداءه ، فعليك فى هذه
الحالة أن تقسم أصحابك إلى قسمين ، ثم بعد ذلك ( فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ
مِّنْهُمْ مَّعَكَ ) أى فلتقم جماعة من أصحابك معك فى الصلاة ، أما الطائفة

الأخرى فلتكن بإزاء العدو ليحرسوكم منهم .والضمير فى قوله ( وليأخذوا أَسْلِحَتَهُمْ ) يعود إلى الرجال الذين معه فى الصلاة . . أى : ولتأخذ الطائفة القائمة معك فى الصلاة أسلحتها معها وهى فى الصلاة حتى تكون عليى أهبة القتال دائما .وقوله ( فَإِذَا سَجَدُواْ ) أى : الرجال القائمون معك فى الصلاة سجدوا فى الركعة الأولى وأتموا الركعة ( فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ ) أى : فلينصرفوا بعد ذلك من صلاتهم ليكونوا فى مقابلة العدو للحراسة . فالضمير فى الكل يعود إلى المصلين معه .وقيل المعنى : فإذا سجد الرجال الذين قاموا معك للصلاة ، فليكن الرجال الآخرون الذين ليسوا فى الصلاة من ورائكم لحماية ظهوركم ، ولمنع نزول الأذى بكم من أعدائكم . وعليه فيكون الضمير فى قوله ( فَلْيَكُونُواْ ) يعود إلى الطائفة الثانية التى ليست فى الصلاة .وقوله : ( وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أخرى لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ) بيان لما يجب أن تفعله الطائفة الأخرى التى لم تدخل فى الصلاة بعد . أى : فإذا ما انصرفت الطائفة الأولى للحراسة فلتأت الطائفة التى كانت قبل ذلك فى الحراسة والتى لم تصل بعد ( فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ ) الركعة الأوفى وأنت يا محمد فى الركعة الثانية . وعليهم أيضا أن يكونوا كمن سبقهم حاملين لأسلحتهم التى لا تشغلهم عن الصلاة كالسيف والحنجر وما يشبه ذلك ، حتى إذا ما باغتكم المشركون بالهجوم كنتم دائما على استعداد لمواجهتهم ، وكنتم دائما على يقظة من مكرهم .فأنت ترى أن الله - تعالى - قد أمر المؤمنين بالمحافظة على الصلاة حتى فى حالة الحرب ، وأمرهم فى الوقت ذاته بأن يكونوا يقظين آخذين حذرهم وأسلحتهم من مباغتة أعدائهم لهم حتى لا يتوهم أولئك الأعداء أن الصلاة ستشغل المؤمنين عن الدفاع عن أنفسهم .وقوله ( وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ) استعمل لفظ الأخذ فيه الحقيقة والمجاز . لأن أخذ الحذر كناية عن شدة اليقظة ودوام الترقب . وأخذ الأسلحة حقيقة فى حملها للدفاع بها عن النفس .وقدم - سبحانه - الأمر بأخذ الحذر على أخذ الأسلحة؛ لأن أخذ الأسلحة نوع من الحذر ، ولأن الحذر عند انتقال الصفوف وتحركها واجب حتى لا يباغتهم الأعداء وهم يتحولون من مكان إلى مكان ، وهذا أشبه بتغيير الخطط وقت القتال ، وهو أمر له خطورته فوجب أن تشتد يقظة المسلمين حينئذ وإلى هذا المعنى أشار بعضهم بقوله : فإن قلت لما ذكر فى أول الآية الأسلحة. فقط ، وذكر هنا الحذر والأسلحة؟ قلت : لأن العدو قلما يتنبه للمسلمين فى أول الصلاة بل يظنون كونهم قائمين فى المحاربة والمقاتلة . فإذا قاموا إلى الركعة الثانية ظهر للكفار أن المسلمين فى الصلاة ، فحينئذ ينتهزون الفرصة فى الإقدام على المسلمين فلا جرم أن الله - تعالى - أمرهم فى هذا الموضع بزيادة الحذر من الكفار مع أخذ الأسلحة .وقوله - تعالى - ( وَدَّ الذين كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَّيْلَةً وَاحِدَةً ) بيان لما من أجله أمروا بأخذ الحذر والسلام . والخطاب لجميع المؤمنين .وقوله ( وَدَّ ) من الود وهو محبة الشئ وتمنى حصوله .والأسلحة : جمع سلاح . وهو اسم جنس لآلات الحرب التى يستعملها الناس فى حروبهم وقتالهم .والأمتعة . جمع متاع . وهو كل ما ينتفع به من عروض وأثاث . والمراد به هنا : ما يكون مع المحاربين من أشياء لا غنى لهم عنها كبعض ملابسهم وأطعمتهم ومعداتهم .و ( لَوْ ) فى قوله ) لَوْ تَغْفُلُونَ ) مصدرية . وقوله ( مَّيْلَةً ) منصوب على المفعول المطلق لبيان العدد .والمعنى : كونوا دائماً - أيها المؤمنون - فى أقصى درجات التنبه والتيقظ والحذر ، فإن أعداءكم الكافرين يودون ويحبون غفلتكم وعدم انتباهكم عن أسلحتكم وأمتعتكم التى تستعملونها فى قتالكم لهم ، وفى هذه الحالة يحملون عليكم حملة واحدة قوية شديدة ليقتلوا منكم من يستطعيون قتله فعليكم - أيها المؤمنون - أن تجمعوا بين الصلاة والجهاد جمعا مناسبا . حكيما بحيث لا يشغلكم أحد الأمرين عن الآخر أو عن حسن الاستعداد لمجابهة أعدائكم الذين يتربصون بكم الدوائر .فالآية الكريمة من مطلعها إلى هنا تراها تأمر بشدة وتكرار بأخذ الحذر وحمل السلاح لمجابهة أى مباغتة من المشركين . ومع هذا فقد رخص الله - تعالى - للمؤمنين بوضع السلاح فى أحوال معينة دون أن يرخص لهم فى أخذ الحذر فقال - تعالى -؛ ( وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُمْ مرضى أَن تضعوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ ) .أى : ولا حرج ولا إثم عليكم - أيها المؤمنون - فى أن تضعوا أسلحتكم فى أغمادها فلا تحملوها ( إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ ) يثقل معه حمل السلاح ( أَوْ كُنتُمْ مرضى ) بحيث يشق عليكم حملها ، ومع كل هذا فلا بد من أخذ الحذر من أعدائكم، بأن تكونوا على يقظة تامة من مكرهم ، وعلى أحسن استعداد لدحرهم إذا ما باغتوكم بالهجوم .وقوله ( إِنَّ الله أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً ) تذييل قصد به تشجيع المؤمنين على مقاتلة أعدائهم وأخذ الحذر منهم .أى : إن الله - تعالى - أعد لأعدائكم الكافرين عذابا مذلا لهم فى الدنيا والآخرة . أما فى الدنيا فبنصركم عليهم وإذهاب صولتهم ودولتهم ، كما قال - تعالى - ( قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ الله بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ

مُّؤْمِنِينَ ) وأما فى الآخرة فالعذاب الذى يهينهم ويذلهم ولا يستطيعون
- منه نجاة أو مهربا . وإذا كان الأمر كذلك فباشروا - أيها المؤمنون
الأسباب التى توصلكم إلى النصر عليهم .هذا ، ومن الأحكام والآداب التى التى
- أخذها العلماء من هذه الآية ما يأتى :1- قال الآلوسى : تعلق بظاهر قوله
تعالى - ( وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ ) . من خص صلاة الخوف بحضرته صلى الله
عليه وسلم كالحسن بن زيد ونسب ذلك أيضا لأبى يوسف ، ونقله عنه الجصاص فى
كتاب الأحكام ، وعامة الفقهاء على خلافه فإن الأئمة بعده صلى الله عليه
وسلم نوابه ، وقوام بما كان يقوم به فيتناولهم حكم الخطاب الوارد له عليه
الصلاة والسلام كما فى قوله ( خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ) وقد
أخرجه أبو داود والنسائى وابن حبان وغيرهم عن ثعلبة بن زهدم . قال : كنا مع
سعيد بن العاص بطبرستان فقال : أيكم صلى مع رسول الله صلاة الخوف؟ فقال
حذيفة : أنا . ثم وصف له ذلك فصلوا كما وص ، وكان ذلك بمحضر من الصحابة ولم
ينكره أحد منهم . وهم الذين لا تأخذهم فى الله لومة لائم ، وهذا يحل محل
الإجماع .2- أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة مشروعية صلاة الخوف وصفتها
وأنه يطلب فيها حمل الصلاح إلا لعذر . وقد روى المفسرون فى سبب نزول هذه
الآية روايات منها ما أخرجه الإمام أحمد وأبو داود والنسائى وغيرهم عن أبى
عياش الزرقى قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعسفان فاستقبلنا
المشركون عليهم خالد بن الوليد . وهم بيننا وبين القبلة . فصلى بنا النبى
صلى الله عليه وسلم الظهر فقالوا : قد كانوا على حال لو أصابنا غرتهم ثم
قالوا : تأتى عليهم الآن صلاة هى أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم .فنزل جبريل
بهذه الآية ( وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ ) . . الخ بين الظهر والعصر .3- وردت
روايات متعددة يؤخذ منها أن النبى صلى الله عليه وسلم قد صلى صلاة الخوف
على هيئات مختلفة وفى مواضع متعددة . ويشهد لهذا قول القرطبى . وقد اختلفت
الروايات فى هيئة صلاة الخوف . واختلف العلماء لاختلافها . فذكر ابن القصار
أنه صلى الله عليه وسلم صلاها فى عشر مواضع . وقال ابن العربى : روى عن
النبى صلى الله عليه وسلم أنه صلى صلاة الخوف أربعا وعشرين مرة . وقال
الإمام أحمد بن حنبل - وهو إمام أهل الحديث والمقدم فى معرفة علل النقل
فيه -لا أعلم أنه روى فى صلاة الخوف إلا حديث ثابت . وهى كلها صحاح ثابتة
فعلى أى حديث صلى منها المصلى صلاة الخوف أجزأه إن شاء الله .وقال ابن .
كثير : صلاة الخوف أنواع كثيرة فإن العدو تارة يكون تجاه القبلة ، وتارة
يكون فى غير صوبها ، ثم تارة يصلون جماعة وتارة يلتحم الحرب فلا يقدرون على
الجماعة ، بل يصلون فرادى مستقبل القبلة وغير مستقبليها لعذر القتال كما
أخر النبى صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب صلاة الظهر والعصر فصلاهما بعد
الغروب ، ثم صلى المغرب والعشاء . وأما الجمهور فقالوا هذا منسوخ بصلاة
الخوف فإنها لم تكن نزلت بعد ، فلما نزلت نسخ تأخير الصلاة لذلك . ونظرا
لاختلاف الرواياتِ الواردة فى كيفية صلاة الخوف ، فقد اختلف الفقهاء فى
): كيفية أدائها تبعا لما فهمه كل فريق من تلك الروايات . وهاك بعض مذاهبهم
أ ) ذهب الإمام أبو حنيفة ومن تابعه إلى أن يكفية صلاة الخوف أن يقسم
. الإمام الناس طائفتين : طائفة تكون مع الإمام والأخرى بإزاء العدو
فيصلى بالذين مع ركعة ثم ينصرفون إلى مقام أصحابهم ثم تأتى الطائفة الخرى
التى كانت بإزاء العدو فيصلى بهم الإمام الركعة الثانية ويسلم هو .ثم تأتى
الطائفة الأولى فتصلى ركعة بغير قراءة ، لأنها فى رأيهم لاحقة . أى كأنها
وراء الإمام حكما طول الصلاة ، ولا قراءة عندهم وراء الإمام ثم تتشهد
وتسلم . وتذهب إلى وجه العدو فتأتى الطائفة الثاينة فتقضى ركعة بقراءة ثم
تتشهد وتسلم . وإنما صلت هذه ركعتها بقراءة لأنها عندهم مسبوقة ، فتكون كمن
أدرك آخر صلاة الإمام وفاتته ركعة . فتكون القراءة واجبة فى حقها . وهذه
الكيفية لصلاة الخوف التى أخذ بها الإمام أبو حنيفة قد وردت فى روايات عن
ابن مسعود وابن عباس وغيرهما عن النبى صلى الله عليه وسلم :( ب ) الإمام
مالك فيرى أن كيفية صلاة الخوف تكون كالآتى : أن يقسم الإمام الناس إلى
طائفتين : طائفة تكون معه وطائفة تكون بإزاء العدو . ثم يصلى بالطائفة التى
معه ركعة ولا يسلم وتتم هى الركعة الثانية وحدها ثم تتشهد وتسلم وتذهب إلى
مكان الطائفة الثاينة ، وتأتى الطائفة الثانية فتقف خلف الإمام فيصلى معها
الركعة الثانية ثم يجلسون للتشهد ويسلم الإمام وحده أماهم فيقومون فيصلون
وحدهم الكرعة التى بقيت ثم يتشهدون ويسلمون .وقريب من هذه الكيفية ماذهب
إليه الإمام الشافعى فهو يوافق المالكية فيما ذهبوا إليه إلا أنه قال :لا
يسلم الإمام حتى تتم الطائفة الثانية صلاتها ثم يسلم معهم .ويذهب الإمام
أحمد بن حنبل فى كيفية صلاة الخوف إلى ما ذهب إليه الإمام مالك .وفى رواية
عنه أنه يوافق ما ذهب إليه الشافعية .وهذا كله فيما إذا كانت الصلاة ثنائية
فى الأصل كالفجر أو رباعية فإنها تقصر إلى ثنائية .أما إذا كانت صلاة الخوف
، فى المغرب فيرى جمهور الفقهاء أن الإمام يصلى بالطائفة الأولى ركعتين
وبالطائفة الثانية ركعة ثم تتم كل طائفة ما بقى عليها بالطريقة التى سبق
ذكرها عند الأئمة ، والتى بسطها العلماء فى كتب الفقه .4- ومن الأحكام التى
أخذها العلماء من هذه الآية أهمية صلاة الجماعة ، لأن الله - تعالى - أمر
المسلمين بأن يؤدوا الصلاة فى جماعة حتى وهم فى حالة الاستعداد للقاء

أعدائهم .قال ابن كثير : ما أحسن ما استدل به من ذهب إلى وجوب الجماعة من هذه الآية الكريمة . حيث اغتفرت أفعال كثيرة لأجل الجماعة . فلولا أنها واجبة ما ساغ ذلك .5- كذلك من الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآية أن ، الإسلام دين يأمر أتباعه بأداء الصلاة حتى ولو كانوا فى ساحة المعركة وذلك لأن الصلاة صلة بين العبد وربه ، ومتى حسنت هذه الصلة بين المجاهد وخالقه ، فإنه - سبحانه - يكلؤه بعين رعايته ، ويمده بنصره وتأييده . وأن الإسلام بجانب هذا الاهتمام الشديد بشأن الصلاة فإنه يهتم أيضا بأن يأمر أتابعه بالحذر من مكر أعدائهم ومن مباغتهم لهم ، بأن يكون المؤمنون مستعدين لصدهم وردهم على أعقابهم ، وأن لا يغفلوا عن حمل أسلحتهم حتى ولو كانوا قائمين للصلاة .وبهذا نرى أن الإسلام يربى أتباعه تربية روحية وعقلية وبدينة من شأنها أن توصلهم - متى حافظوا عليها - إلى ما يعلى كلمتهم فى الدنيا ، ويرفع درجاتهم فى الآخرة .

فاذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم فاذا اطمانننتم فاقيموا الصلاة ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا

كما فسرها الوسيط ثم أمر الله - تعالى - المؤمنين بالإكثار من ذكره بعد الانتهاء من صلاتهم ، وشجعهم على مواصلة قتال أعدائهم بدون خوف أو ممل فقال - تعالى : (فَإِذَا قَضَيْتُمُ . . . عَلِيماً حَكِيماً ) .والمعنى : فإذا أديتم صلاة الخوف - أيها المؤمنون - على الوجه الذى بينته لكم وفرغتم منها ( فاذكروا الله قِيَاماً وَقُعُوداً وعلى جُنُوبِكُمْ ) أى : فداوموا على الإكثار من ذكر الله فى كل أحوالكم سواء أكنتم قائمين فى ميدان القتال - أم قاعدين مستريحين ، أم مضطجعين على جنوبكم ، فإن ذكر الله - تعالى ، الذى يتناول كل قول أو عمل يرضى الله - هو العبادة المستمرة التى بها تصفو النفوس ، وتنشرح الصدور ، وتطمئن القلوب . قال - تعالى - ( الذين آمَنُواْ وَتَطمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ الله ألاَ بِذِكْرِ الله تَطمَئِنُّ القلوب ) وإنما أمرهم - سبحانه - بالإكثار من ذكره فى هذه الأحوال بصفة خاصة ، مع أن الإكثار من ذكر الله مطلوب فى كل وقت ، لأن الإنسان فى حالة الخوف ومقابلة الأعداء أحوج ما يكون إلى عون الله وتأييده ونصره ، والتضرع - إلى الله بالدعاء فى هذه الأحوال يكون جديراً بالقبول والاستجابة .قال تعالى - ( ياأيها الذين آمنوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فاثبتوا واذكروا الله كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ) والفاء فى قوله ( فَإِذَا اطمأننتم فَأَقِيمُواْ الصلاة ) للتفريع على ما قبله .أى : فإذا ما سكنت نفوسكم من الخوف ، وأقمتم فى مساكنكم بعد أن وضعت الحرب أوزارها ، فداوموا على أداء الصلاة على وجهها الذى كانت عليه قبل حالة الحرب ، وأتموا أركانها وشروطها وآدابها وخشوعها .وقوله ( إِنَّ الصلاة كَانَتْ عَلَى المؤمنين كِتَاباً مَّوْقُوتاً ) تذييل المقصود به تأكيد ما قبله من الأمر بالمحافظة على الصلاة .أى : إن الصلاة كانت على المؤمنين فرضا محددا بأوقات لا يجوز مجاوزتها بل لا بد من أدائها فى أوقاتها سفرا وحضرا ، وأمنا وخوفا .والمراد بالكتاب هنا : المتكوب . وبالموقوت : المحدد بأوقات من وقت كمضروب من ضرب وقد رجح ابن جرير هذا المعنى بقوله : وأولى المعانى بتأويل الكملة قول من. قال : إن الصلاة كانت على المؤمنين فرضا موقوتا . أى فرضا وقت لهم وقت وجوب أدائه . لأن الموقوت إنما هو مفعول من قول القائل : وقت الله عليك فرضه فهو يقته . ففرضه عليك موقوت ، إذا أخبر أنه جعل له وقتا يجب عليك أداؤه .وقد أكد الله - تعالى - فرضية الصلاة ووجوب أدائها فى أوقاتها بإن المفيدة للتأكيد ، وبكان المفيدة للدوام والاستمرار . وبالتعبير عن الصلاة بأنها كتاب ، وهو تعبير عن الوصف بالمصدر فيفيد فضل توكيد ، وبقوله ( عَلَى المؤمنين ) فإن هذا التركيب يفيد الإلزام والحتمية . وكل ذلك لكى يحافظ المؤمنون عليها محافظة تامة دون أن يشغلهم عنها شاغل ، أو يحول بينهم وبين أدائها حائل .

ولا تهنوا في ابتغاء القوم ان تكونوا تالمون فانهم يالمون كما تالمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليما حكيما

كما فسرها الوسيط وقوله ( وَلاَ تَهِنُواْ فِي ابتغآء القوم ) تشجيع للمؤمنين على مواصلة قتال أعدائهم بصبر وعزيمة .وقوله ( تَهِنُواْ ) من الوهن وهو الضعف والتخاذل . والابتغاء مصدر ابتغى بمعنى المتعدى أى طلب .أى ولا تضعفوا - أيها المؤمنون - فى ابتغاء العدو وطلبه ، ولا تقعد بكم : - الآلام عن متابعته وملاحقته حتى يتم الله لكم النصر عليه .ثم رغبهم سبحانه - فى مواصلة طلب أعدائهم بأسلوب منطقى رصين فقال : ( إِن تَكُونُواْ تَألَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَألَمُونَ كَمَا تَألَمونَ وَتَرْجُونَ مِنَ الله مَا لاَ يَرْجُونَ ) .أى :لا تتوانوا - أيها المؤمنون - عن ملاحقة أعدائاكم ومقاتلتهم مهما تحملتم من آلام ، وما أصبتم به من جراح ، لأن ما أصابكم من آلام وجراح قد أصب أعداؤكم بمثله أو أكثر منه ، ولأن الآلام التى

تحسونها هم يحسون مثلها أو أكثر منها . وفضلا عن ذلك فأنتم رجون بقتالكم لهم رضا الله ، وإعلاء كلمته ، وحسن مثوبته ، وإظهار دينه . أما هم فإنهم ، يقاتلونكم ولا رجاء لهم فى شئ من ذلك . وإنما رجاؤهم فى تحقيق شهواتهم وإرضاء شياطينهم ، وانتصار باطلهم على حقكم .وشتان بين من يقاتل وغايته ورجاؤه نصرة الحق . ومن يقاتل وغايته ورجاؤه نصرة الباطل .وما دام الأمر كذلك فانهضوا - أيها المؤمنون - لقتال أعداءه الله وأعدائكم ، دون أن يحول بينكم وبين قتالهم ما تحسون به من آلام ، فإن الله - تعالى - قد جعل العاقبة لكم ، والنصر فى ركابكم . .وقريب من هذه الآية قوله - تعالى - فى سورة آل عمران : ( إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ القوم قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيام نُدَاوِلُهَا بَيْنَ الناس ) ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله ( وَكَانَ الله عَلِيماً حَكِيماً ) أى : وكان الله وما زال عليما بكل شى من أحوالكم وأحوالهم ، حكيما فى كل ما يقتضيه ويأمر به أو ينهى عنه ، فسيروا - أيها المؤمنون - فى الطريق التى أمركم - سبحانه - بالسير فيها لتنالوا تأييده ورضاه .هذا ، وقد روى المفسرون فى سبب نزول هذه الآية الكريمة روايات منها ما ذكره القرطبى من أنها نزلت فى أعقاب حرب أحد ، حيث أمر النبى صلى الله عليه وسلم المؤمنين بالخروج فى آثار المشركين وكان بالمسلمين جراحات . وكان قد أمر ألا يخرج معه إلا من كان قد حضر القتال فى غزوة أحد .وهذا السبب الذى ذكره القرطبى فى نزول الآية الكريمة لا يمنع عمومها إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وعليه فإن الآيتين الكريمتين تأمران المسلمين فى كل زمان ومكان بالمحافظة على فرائض الله ولا سيما الصلاة ، وبالإكثار من ذكره فى جميع أحوالهم ، وبالإقدام على قتال أعدائهم بعزيمة صادقة ، وهمة عالية ، دون أن يحول بينهم وبين هذا القتال ما يشعرون به من آلام ، فإن الله - تعالى - قد تكفل بنصر المؤمنين ، ودحر المشركين .وبعد أن أمر الله - تعالى - المؤمنين بالمحافظة على فرائضه وبأخذ حذرهم من الأعداء . وبالاستعداد لإبطال مكرهم ، وبمواصلة قتالهم حتى تعلو كلمة الحق ، بعد كل هذا أمر - سبحانه - المؤمنين فى شخص نبيهم صلى الله عليه وسلم بأن يلتزموا الحق فى كل شئونهم وأحوالهم ، لأن عدم التقيد بالحق والعدل يؤدى إلى ضعف الأمة واضمحلالها . وقد ساق - سبحانه - فى آيات كريمة ما يهدى القلوب إلى صراطه المستقيم فقال - تعالى - : ( إِنَّآ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ . . . عَلَيْكَ عَظِيماً ) .

انا انزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما اراك الله ولا تكن للخائنين خصيما

كما فسرها الوسيط ذكر المفسسرون فى سبب نزول هذه الآيات روايات مختلفة السياق إلا أنها متقاربة المعانى . ومن ذلك ما ذكره صاحب الشكاف من أن رجلا اسمه طعمة بن أبيرق - أحد بنى ظفر - سرق درعا من جار له اسمه قتادة ابن النعمان فى جراب دقيق . فجعل الدقيق ينتثر من خرق فيه . وخبأ طعمة الدرع عند رجل من اليهود اسمه زيد بن السمين .فالتمست الدرع عند طعمة فلم توجد وحلف ما أخذها ، وماله بها علم ، فتركوه واتبعوه أثر الدقيق حتى انتهى إلى منزل اليهودى فأخذوها . فقال اليهودى : دفعها إلى طعمة وشهد له ناس من اليهود . فقالت بنو ظفر - أقرب طعمة - : انطلقوا بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما وصلوا إليه سألوه أن يجادل - أى يدافع - عن صاحبهم طعمة وقالوا : إن لم تفعل هلك وافتضح وبرئ اليهودى . فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفعل وأن يعاقب اليهودى . وقيل هم أن يقطع يده فنزلت وهذه الآيات الكريمة وإن كانت قد نزلت فى حادثة معينة ، إلا أن توجيهاتها وأحكامها تتناول جميع المكلفين فى كل زمان ومكان .وقوله تعالى ( إِنَّآ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكتاب بالحق لِتَحْكُمَ بَيْنَ الناس بِمَآ أَرَاكَ ) تشريف للنبى صلى الله عليه وسلم وإرشاد إلى ما يجب أن يكون عليه الحاكم ، أو القاضى من عدالة ونزاهة .أى : إنا أنزلنا إليك يا محمد القرآن الكريم إنزالا ملتبسا بالحق وبالعدل لكى تحكم بين الناس فى قضاياهم بما أراك الله أى بما عرفك وأعلمك وأوحى به إليك وقوله ( بالحق ) فى محل نصب على الحال . المؤكدة فيتعلق بمحذوف . وصاحب الحال هو الكتاب . أى : أنزلناه ملتبسا بالحق .وقوله ( بِمَآ أَرَاكَ ) الفعل هنا متعد لاثنين أحدهما العائد المحذف والآخر كاف الخطاب أى : بما أراكه الله . أى : بما عرفك وأعلمك وسمى ذلك العلم بالرؤية ، لأن العلم اليقينى المبرأ عن جهات الريب يكون. جاريا مجرى الرؤية فى القوة والظهور .قال ابن كثير : احتج من ذهب من علماء الأصول إلى أنه كان صلى الله عليه وسلم له أن يحكم بالاجتهاد بهذه الآية . وبما ثبت فى الصحيحين " عن أم سلمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع جلبة خصوم بباب حجرته فخرج إليهم فقال : " ألا إنما أنا بشر . وإنما أقضى بنحو مما أسمع . ولعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له . فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار ، فليحملها أو ليذرها " " .وفى رواية للإمام أحمد عن السيدة أم سلمة - أيضا - قالت : " جاء رجلان من النصار يختصمان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مواريث بينهما قد درست . ليس

عندها بينه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنكم تختصمون إلى
وإنما أنا بشر . ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض . فإنى أقضى بينكم على نحو
ما أسمع . فمن قضيت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من
النار . . . فبكى الرجلان وقال كل منهما : حقى لأخى . فقال رسول الله صلى
الله عليه وسلم أما إذا قلتما ذلك فاذهبا فاقتسما ، ثم توخيا الحق بينكما
ثم استهما . ثم ليحلل كل واحد منكما صاحبه " " .وقوله ( وَلاَ تَكُنْ
لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً ) معطوف على كلام مقدر يفهم من المقام . والخصيم
هنا بمعنى المنتصر المدافع عن غيره فهو اسم فاعل بمعنى مخاصم وجمعه الخصماء
وأصله من الخصم وهو ناحية الشئ وطرفه . وقيل للخصمين خصمان ، لأن كل واحد .
منهما فى ناحية من الحجة والدعوى .والمعنى : إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق
فاحكم به ولا تكن لأجل الخائنين مخاصما للبرآء ، بأن تجعل فكرك ينحاز إلى
أولئك الخائنين - الذين يظهرون الإسلام - قبل سماع البينات الهادية
- المرشدة إلى الحق .وسماهم - سبحانه - خائنين ، لأنهم فى علمه - تعالى
كانوا كذلك وقد أخبر نبيه بخيانتهم ليحذرهم ولا يسحن الظن بهم .قال القرطبى
قال العلماء :لا ينبغى إذا ظهر للمسلمين نفاق قوم أن يجادل فريق منهم :
فريقا عنهم ليحموهم ويدفعوا عنهم . فإن هذا قد وقع على عهد النبى صلى الله
عليه وسلم وفيهم نزل قوله - تعالى - ( وَلاَ تَكُنْ لِّلْخَآئِنِينَ
خَصِيماً ) . وقوله ( وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الذين يَخْتَانُونَ
أَنْفُسَهُمْ ) .والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد منه الذين كانوا
يفعلونه من المسلمين دون لوجهين :أحدهما : أنه - تعالى - أبان ذلك بما ذكره
بعد بقوله ( هَا أَنْتُمْ هؤلاء جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الحياة الدنيا )
والآخر : أن النبى صلى الله عليه وسلم كان حكما فيما بينهم ، ولذلك كان .
. يعتذر إليه ولا يعتذر إليه ولا يعتذر هو إلى غيره فدل على أن القصد لغيره

واستغفر الله ان الله كان غفورا رحيما

كما فسرها الوسيط ثم قال - تعالى - ( واستغفر الله إِنَّ الله كَانَ
غَفُوراً رَّحِيماً ) . أى : واستغفر الله مما هممت به من تبرئة طعمة
. وإدانة اليهودى ، حيث إن ظاهر الأمر يقتضى ذلك ، وهذا وإن لم يكن ذنبا
إلا أنه - سبحانه - أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بالاستغفار من ذلك ، لعلو
: مقامه على حد قول العلماء : حسنات الأبرار سيئات المقربين .أو المعنى
واستغفر الله لهؤلاء الخائنين لكى يتوبوا إلى الله - تعالى - ببركة
استغفارك لهم ، إن الله - تعالى - كان كثير المغفرة لمن تاب إليه ، وكثير
الرحمة لمن آمن به واتقاه . وهذا الأمر بالاستغفار والإنابة إلى الله موجه
إلى كل مكلف فى شخص النبى صلى الله عليه وسلم

ولا تجادل عن الذين يختانون انفسهم ان الله لا يحب من كان خوانا اثيما

كما فسرها الوسيط ثم قال - تعالى ( وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الذين
يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّاناً
أَثِيماً ) .أى : ولا تخاصم وتدافع عن هؤلاء الذين ( يَخْتَانُونَ
أَنْفُسَهُمْ ) أى يخونونها بشدة وإصرار إن الله - تعالى - لا يحب ولا يرضى
عمن كانت الخيانة وصفا من أوصافه ، وخلقا من أخلاقه ، وكذلك لا يحب ولا
- يرضى عمن كان الانهماك فى الإثم والمعصية عادة من عاداته .وجاء - سبحانه
بلفظ ( يَخْتَانُونَ ) بمعنى يخونون ، لقصد وصفهم بالمبالغة فى الخيانة لأن
مادة الافتعال تدل على التكلف والمحاولة .وجعلت خيانة هؤلاء لغيرهم خيانة
لأنفسهم ، لأن سوء عاقبة هذه الخيانة سيعود عليهم . ولأن المسلمين جميعا
، كالجسد الواحد؛ فمن تظاهر بأنه منهم ثم خان أحدهم فكأنما خان نفسه
، وأوردها موارد البوار والتهلكة باعتدائه على حقوق الجماعة الإسلامية
وزعزعة أمنها واستقرارها .والمراد بالموصول فى قوله ( وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ
الذين يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ ) طعمة وأمثاله من الخائنين أو هو ومن
عاونه وشهد ببراءته من أبناء عشيرته ،وقال - سبحانه - ( إِنَّ الله لاَ
يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً ) بصيغة المبالغة؛ لإفادة أن
الخيانة والإثم صارا وصفا ملازما لهؤلاء الخائنين الآثمين .أى أن صيغة
المبالغة هنا ليست للتخصيص حتى لا يتوهم متوهم أن الله - تعالى - يحب من
عنده أصل الخيانة والاثم .وقد أشار صاحب الكشاف إلى هذا المعنى بقوله : فإن
قلت : لم قيل " خوانا أثيما " على المبالغة؟ قلت : كان الله عالما من طعمة
بالإفراط فى الخيانة وركوب المآثم ، ومن كانت تلك خاتمة أمره لم يشك فى
- حاله . وقيل : إذا عثرت من رجل على سيئة فاعلم أن لها أخوات . وعن عمر
رضى الله عنه - أنه أمر بقطع يد سارق ، فجاءت أمه تبكى وتقول : هذه أول
. سرقة سرقها فاعف عنه . فقال لها كذبت . إن الله لا يؤاخذ عبده فى أول مرة

يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم اذ يبيتون ما لا يرضى من
القول وكان الله بما يعملون محيطا

كما فسرها الوسيط وقوله ( يَسْتَخْفُونَ مِنَ الناس وَلاَ يَسْتَخْفُونَ
مِنَ الله ) بيان لأحوالهم القبيحة التى تجعلهم محل غضب الله وسخطه
والاستخفاء معناه الاستتار . يقال استخفيت من فلان . أى : تواريت منه.
واستنرت .أى : أن هؤلاء الذين من طبيعتهم الخيانة والوقوع فى الآثام
يستترون من الناس عندنا يقعون فى النكرات حياء منهم وخوفا من ضررهم ( وَلاَ
يَسْتَخْفُونَ مِنَ الله ) أى : ولا يشعرون برقابه الله عليهم ، واطلاعه
- على جميع أحوالهم ، بل يرتكبون ما يرتكبون من آثام بدون حياء منه مع أنه
سبحانه - هو الأحق بأن يستحى منه ، ويخشى من عقابه .وقوله ( وَهُوَ
مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يرضى مِنَ القول وَكَانَ الله بِمَا
يَعْمَلُونَ مُحِيطاً ) بيان لشمول علمه - سبحانه - بكل حركاتهم وسكناتهم
- أى : أن هؤلاء الخائنين يرتكبون السوء بدون حياء من الله ، مع أنه.
سبحانه - معهم فى كل حركاتهم وسكناتهم بعلمه واطلاعه على أقالهم وأعمالهم
ولا يخفى عليه شئ من أمرهم حين " يبيتون " أى يضمرون ويدبرون فى أذهانهم
مالا يرضاه الله - من القول كأن يرتكبوا المنكرات ثم يسمحونها فى غيرهم حتى
لا يفتضح أمرهم .قال صاحب الكشاف : وكفى بهذه الآية ناعية على الناس ما هم
فيه من قلة الحياء والخشية من ربهم ، مع علمهم - إن كانوا مؤمنين - أنهم فى
حضرته لا سترة ولا غفلة ولا غيبة ، وليس إلا الكشف الصريح والافتضاح .وقوله
أى : يدبرون ويزورون وأصله أن يكون ليلا ( مَا لاَ يرضى ( يُبَيِّتُونَ )
مِنَ القول ) وهو تدبير طعمة أن يرمى الدرع فى دار غيره .فإن قلت : كيف سمى
التدبير قولا وإنما هو معنى فى النفس؟ قلت : لما حدث بذلك نفسه سمى قولا
على المجاز . ويجوز أن يكون المراد بالقول : الحلف الكاذب الذى حلف به طعمة
بعد أن بيته وتوريكه الذنب على اليهودى .وقوله ( وَكَانَ الله بِمَا
- يَعْمَلُونَ مُحِيطاً ) تذييل قصد به التهديد والوعيد . أى وكان الله
تعالى - محيطا إحاطة تامة بما يعمله هؤلاء الخائنون وغيرهم ولا يغب عن علمه
. شئ من تصرفاتهم ، وسحاسبهم عليها يوم القيامة

ها انتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم
القيامة ام من يكون عليهم وكيلا

كما فسرها الوسيط ثم وبخ - سبحانه - أولئك الذين دافعوا عن الخائنين
وجادلوا عنهم بالباطل فقال : ( هَا أَنْتُمْ هؤلاء جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ
فِي الحياة الدنيا فَمَن يُجَادِلُ الله عَنْهُمْ يَوْمَ القيامة أَمْ مَّن
يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ) .أى : ها أنتم أيها المدافعون عن الخائنين
، كطعمة وأمثاله قد جادلتم عنهم فى الدنيا مبرئين إياهم من الخيانة بدون حق
فمن ذا الذى يستطيع منكم ان يدافع عنهم أمام الله يوم القيامة ، بل من يكون
عليهم يومئذ وكيلا . أى : قائما بتدبير أمورهم ، ومدافعا عنهم؟ لا شك أنه
لن يكون هناك أحد يدافع عنهم يوم القيامة لأن كل إنسان سيجازى بعمله ، ولن
ينفعه دفاع المدافعين ، أو جدال المجادلين .وقوله ( هَا ) حرف تنبيه . أي
. المخاطبين على خطئهم فى المجادلة عن السارق ، وقوله ( أَنْتُمْ ) مبتدأ
وقوله ( هؤلاء ) منادى بحرف نداء محذوف مبنى على الكسر فى محل نصب . وجملة
( جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ ) خبر المبتدأ . وبعضهم أعرب هؤلاء خبر أول .
. وجعل جملة جادلتهم خبرا ثانيا .وقوله ( جَادَلْتُمْ ) من الجدل بمعنى الفتل
ومنه رجل مجدول الفتل أى قوى البنية فالجدال معناه تقوية الحجة التى يدافع
بها الإنسان عن نفسه أو عن غيره . وقيل إن الجدال مأخوذ من الجدالة وهى
وجه الأرض . فكأن كل واحد من الخصمين يكون كالمضارع الذى يريد أن يلقى
صاحبه عليها . ومنه قولهم : تركته مجدلا أى مطروحا على الأرض .و ( أَمْ )
فى قوله ( أَمْ مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ) منقطعة للإضراب
الانتقالى .والاستفهام إنكارى بمعنى النفى فى الموضعين .أى لا أحد يجادل
عنهم أمام الله - تعالى - ولا أحد يستطيع أن يقوم بتدبير أمورهم يوم
. القيامة

ومن يعمل سوءا او يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما

كما فسرها الوسيط ثم فتح - سبحانه - بعد هذا التوبيخ الشديد للخائنين - باب
التوبة لعباده فقال : ( وَمَن يَعْمَلْ سواءا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ
يَسْتَغْفِرِ الله يَجِدِ الله غَفُوراً رَّحِيماً ) أى : ومن يعمل عملا
، سيئا يؤذى به غيره كما فعل طعمة باليهودى ، أو يظلم نفسه باترتكاب الفواحش
التى يعود معظم ضررها على نفسه كشرب الخمر ، وترك فرائض الله التى فرضها
على عباده؛ ثم بعد كل ذلك ( يَسْتَغْفِرِ الله ) بأن يتوب إليه توبة صادقة
نصوحا " يجد الله " بفضله وكرمه ( غَفُوراً رَّحِيماً ) أى كثير الغفران
لعباده التائبين ، واسع الرحمة إليهم .والمراد بظلم النفس : الأعمال السيئة
التى يعود ضررها ابتداء على فاعلها نفسه كشرب الخمر ، وترك الصلاة أو
الصيام وما يشبه ذلك .وإنما فسروا كل جملة بهذا التفسير للآخر لوجود

المقابلة بينهما .وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : ( وَمَن يَعْمَلْ سواءا ) أى عملا قبيحا يسوء به غيره كما فعل طعمة بقتادة واليهودى بما يختص به كالحلف الكاذب . وقيل ومن يعمل ( أَوْ يَظلِمْ نَفْسَهُ ) سوءا من ذنب دون الشرك أو يظلم نفسه بالشرك . وهذا بعث لطعمة على الاستغفار والتوبة أو لقومه لما فرط منهم من نصرته والذب عنه .والتعبير " بثم " فى قوله ( ثُمّ يَسْتَغْفِرِ الله ) للإشارة إلى ما بين المعصية والاستغفار من تفاوت معنوى شاسع . إذ المعصية تؤدى بفاعلها إلى الخسران أما الاستغفار الذى تصحبه التوبة الصادقة فيؤدى إلى الفلاح والسعادة .وقوله ( يَجِدِ الله غَفُوراً رّحِيماً ) يفيد أن الله - تعالى - يستجيب لطلب الغفران من عبده متى تاب إليه وأناب ، لأنه - سبحانه - قد وصف نفسه بأن كثير المغفرة والرحمة لعباده متى أقبلوا على طاعته بقلب سليم ، ونية صادقة .

ومن يكسب اثما فانما يكسبه على نفسه وكان الله عليما حكيما

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بأن الأفعال السيئة يعود ضررها على صاحبها وحده فقال - تعالى - ( وَمَن يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنّمَا يَكْسِبُهُ على نَفْسِهِ وَكَانَ الله عَلِيماً حَكِيماً ) .والكسب كما يقول الراغب - ما يتحراه الإنسان مما فيه اجتلاب نفع وتحصيل حظ ، ككسب المال . وقد يستعمل فيما يظن الإنسان أنه يجلب منفعة له ثم استجلب به مضرة وقد ورد فى القرآن فى فعل الصالحات والسيئات فما استعمل فى الصالحات قوله : ومما استعمل فى السيئات قوله ( أَوْ كَسَبَتْ في إِيمَانِهَا خَيْراً ) : ومنه قوله - تعالى - هنا ( وَمَن ( إِنّ الذين يَكْسِبُونَ الإثم ) يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنّمَا يَكْسِبُهُ على نَفْسِهِ ) .أى . ومن يرتكب إثما من الآثام التى نهى الله عن ارتكابها ، فإن ضرر ذلك يعود على نسه وحدها . وما دام الأمر كذلك فعلى العاقل أن يبتعد عن الذنوب والآثام حتى ينجو من العقاب .وقوله ( وَكَانَ الله عَلِيماً حَكِيماً ) تذييل قصد به التحذير من سوء عاقبة اكتاسب الآثام .أى : وكان الله عليما بما فى قلوب الناس وبما يقولون ويفعلون ، حكيما فى كل ما قدر وقضى .وسيجازى كل إنسان بما يستحقه من خير أو شر

ومن يكسب خطيئة او اثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا واثما مبينا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - المصير السئ الذى ينتظر أولئك الذين يرتكبون السوء ثم يرمون به غيرهم فقال : ( وَمَن يَكْسِبْ خطيائة أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احتمل بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً ) .وقد قيل : إن الخطئية والإثم هنا بمعنى واحد وقد جئ بها على اختلاف لفظيهما للتأكيد المعنوى . ولم يرتض كثير من العلماء هذا القيل بل قالوا هما متغايران . وأن المراد بالخطيئة : المعصية الصغيرة . والمراد بالإثم : المعصية الكبيرة . وقال آخرون : الفرق بين الخطئية والإثم أن الخطيئة تكون عن عمد وعن غير عمد . والإثم لا يكون إلا عن عمد .ويبدو لنا من تعبير القرآن عن الخطيئة أن المراد بها الذنوب التى يرتكبها صاحبها عن استهانة وعدم اكتراث ، لأنه لكثرة ولوغه فى الشرور صار يأتيها بلا مبالاة . قال - تعالى - ( بلى مَن كَسَبَ سَيّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خطيائته ) وقال - تعالى - ( مِّمَّا خطيائاتهم أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَاراً ) وأن المراد بالإثم هنا : الذنوب التى يرتكبها الإنسان عن تعمد وإصرار فتؤدى به إلى الإبطاء عن الاتجاه إلى الله بالاستغفار والتوبة ، لأن الإثم كما يقول الراغب - : اسم للأفعال المبطئة عن الثواب .والبهتان كما يقول القرطبى من البهت - بمعنى الدهش والتحير من فظاعة ما رمى به الإنسان من كذب - وهو أن تستقبل أخاك بأن تقذفه بذنب وهو منه برئ . وروى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه " أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : أتدرون ما الغيبة؟ قالوا الله ورسوله أعلم . قال : ذكرك أخاك بما يكره قال : أفرأيت أن كان فى أخى ما أقول؟ قال إن كان فيه ما تقول فقد أغتبته . وإن لم يكن فيه فقد بهته " ثم قال القرطبى وهذا نص . فرمى البرئ بهت له . يقال . بهته بهتا وبهتانا إذا قال عليه ما لم يفعله .والمعنى : ( وَمَن يَكْسِبْ خطيائة ) أى ذنبا من الذنوب التى يرتكبها صاحبها عن استهانة لكثرة تعوده على ارتكاب السيئات ، أو يرتكب ( إِثْماً ) من الآثمام التى تبطئه عن رضا الله ورحمته ( ثُمّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً ) أى : ينسبه إلى غيره من الأبرياء مع أنه هو الذى اقترفه ( فَقَدِ احتمل ) أى : فقد تحمل بسبب فعله ذلك ( بُهْتَاناً ) أى كذبا يجعل من رمى به فى حيرة ودهشة ، وتحمل أيضا ( وَإِثْماً مُّبِيناً ) أى ذنبا واضحا بينا لاخفاء فيه يؤدى به إلى غضب الله وسخطه .قال الجمل وقوله ( به ) فى هذه الهاء أقوال :أحدها : أنها تعود على ( وَإِثْماً ) والمتعاطفان بأو يجوز أن يعود الضمير على المعطوف كما فى هذه الآية وعلى المعطوف عليه كما فى قوله -( وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفضوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِماً ) الثانى :

أنها تعود على الكسب المدلول عليه بالفعل نحو ( اعدلوا هو أقرب للتقوى ) أى العدل .الثالث : أنها تعود على أحد المذكورين الدال عليه العطف بأو فإنه فى قوة ثم يرم بأحد المذكورين .وقال الفخر الرازى : واعلم أن صاحب البهتان مذموم فى الدنيا أشد الذم ومعاقب فى الآخرة أشد العقاب . فقوله : ( فَقَدِ احتمل بُهْتَاناً ) إشارة إلى ما يلحقه من الذم العظيم فى الدنيا . وقوله ( وَإِثْماً مُّبِيناً ) إشارة إلى ما يلحقه من العقاب العظيم فى الآخرة وبهذا نرى أن هذه الآيات الثلاثة قد بينت مراتب العصاة أمام الله - تعالى. وفتحت لهم باب التوبة ليثوبوا إلى رشدهم ، وتوعدت المصرين على معاصيهم بسوء المصير .

ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم ان يضلوك وما يضلون الا انفسهم وما يضرونك من شيء وانزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - مظاهر فضله على نبيه صلى الله عليه وسلم فقال : ( وَلَوْلاَ فَضْلُ الله عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ ) .أى : ولولا فضل الله عليك ورحمته بك - يا محمد - بأن وهبك النبوة ، وعصمك من كيد الناس وأذاهم ، وأحاطك علما بما يبيتونه من سوء لولا ذلك ( لَهَمَّتْ طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ ) أى : من هؤلاء الذين يختانون أنفسهم وهم طعمة وأشياعه الذين دافعوا عنه ، ومن كان على شاكلتهم فى النفاق والجدال بالباطل ( أَن يُضِلُّوكَ ) أى : لهمت طائفة من هؤلاء الذين فى قلوبهم مرض أن يضلوك عن القضاء بالحق بين الناس ، ولكن الله - تعالى - حال بينهم وبين هذا الهم بإشعارهم بأن ما يفعلونه معك من سوء سكشفه الله لك عن طريق الوحى .وقوله ( وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ ) أى : أنهم بمحاولتهم إخفاءالحق والدفاع عن الخائن ، وتعاونهم على الإثم والعدوان ، ما يضلون إلا أنفسهم ، لأن سوء عاقبة ذلك ستعود عليهم وحدهم ، أما أنت يا محمد فقد عصمك الله من شرورهم ، وحماك من كل انحراف عن الحق والعدل .وقوله ( وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ ) معطوف على ما قبله . أى هم بمحاولتهم إخفاء الحق ما يضرونك بأى قدر من الضر ، لأنك إنما قضيت بينهم بما هو الظاهر من أحوالهم ، وهو الذى تحكم بمقتضاه أما الأمور الخفية التى تخالف الحق فمرجع علمه إلى الله وحده .( مِن ) فى قوله ( مِن شَيْءٍ ) زائدة لتأكيد النفى . وشئ أصله النصب على أنه مفعول مطلق لقوله ( يَضُرُّونَكَ ) . أى : وما يضرونك شيئا من الضرر وقد جر لأجل حرف الجر الزائد .وقوله ( وَأَنزَلَ الله عَلَيْكَ الكتاب والحكمة وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ الله عَلَيْكَ عَظِيماً ) معطوف على قوله ( وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ ) لزيادة التقرير ، ولزيادة بيان ما وهبه الله- تعالى - لنبيه من خير ورعاية وعصمة أى أن الله - تعالى - قد امتن عليك يا محمد بأن أنزل عليك القرآن الذى يهدى : للتى هى أقوم ، وأنزل عليك الحكمة أي العلم النافع الذى يجعلك تصيب الحق فى قولك وعملك ( وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ) من أخبار الأولين والآخرين ، ومن خفيات الأمور ، ومن أمور الدين والشرائع .( وَكَانَ فَضْلُ الله عَلَيْكَ عَظِيماً ) أى وكان فضل الله عليك عظيما عظما لا تحده عبارة ولا تحيط به إشارة .فالآية الكريمة فهيا ما فيها من التنويه بشأن الرسول ، صلى الله عليه وسلم ومن مظاهر فضل اللهع ليه ورحمته به .وبعد فإن المتأمل فى هذه الآيات الكريمة ، ليراها تهدى الناس إلى ما يسعدهم فى كل زمان ومكان متى اتبعوا توجيهاتها وإرشاداتها .إنها تأمرهم فى شخص نبيهم صلى الله عليه وسلم أن يتلزموا الحق فى كل أقوالهم وأعمالهم ، حتى ولو كان الذى عليه الحق من أقرب الناس إليهم ، وكان الذى له الحق من أعدى أعدائهم ، وتنهاهم عن الدفاع عن الخائنين الذين يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله ، وتبين لهم أن دفاعهم عنهم لن يفيده أمام الله - تعالى - .ثم تفتح للعصاة باب التوبة لكى يفيئوا إلى رشدهم ويعودوا إلى طاعة ربهم وتخبرهم أن شؤم المعصية سيعود إليهم وحدهم . . وتنبههم إلى أن من أشد الذنوب عند الله - تعالى - أن يفعل الشخص فاحشة ثم يقذف بها غيره .ثم تسوق الآيات فى ختامها جانبا من فضل الله على نبيه ورحمته به ، لكى يزداد ثباتا واطمئنانا . ويزداد أعداؤه خوفا وضعفا واضطرابا .وهكذا نرى الآيات الكريمة تهدى الناس إلى الحق الذى لا يميل مع الهوى ، ولا مع العصبية . ولا يتأرجح مع الحب أو البغض حتى ولو كان الذى عليه الحق ممن يظهرون الإسلام ويعاملون معاملة المسلمين ، وكان الذى له الحق من اليهود الذين لم يتركوا مسلكا لمحاربة الدعوة الإسلامية إلا سلكوه والذين يعرفون الحق كما يعرفون أبناءهم ومع ذلك أنكروه وحاربوه .فهل رأيت - أخى القارئ - عدالة تقترب من هذه العدالة فى سموها ونقائها واستقامة منهجها؟إن هذه الآيات لتشهد بأن هذا القرآن من عند الله ، لأن البشر مهما استقامت طبائعهم ، فإنهم ليس فى استطاتهم أن يصلوا إلى هذا المستوى الرفيع ) الذى تشير إليه الآيات ، والذى يكشف لكل عاقل أن هذا القرآن من عند الله

( وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّه لَوَجَدُواْ فِيهِ اختلافا كَثِيراً
ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أن كثيرا من كلام الناس لا خير فيه ، وأن العاقل هو الذى يحرص على القول النافع والعمل الطيب . وأن الذين يتبعون الطريق المخالف لطريق الحق سينالهم عذاب شديد من خالقهم فقال - سبحانه - : ( لاَّ خَيْرَ فِي . . . . وَسَآءَتْ مَصِيراً ) .

لا خير في كثير من نجواهم الا من امر بصدقة او معروف او اصلاح بين الناس
ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه اجرا عظيما

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ
بَيْنَ الناس ) إشارة إلى ما جبل عليه كثير من الناس من إخفاء الأقوال أو الأعمال التى فيها شر ومضرة ، ومن إعلان الأقوال أو الأفاعل التى من ورائها خير ومنفعة . وقوله ( نَّجْوَاهُمْ ) أى : مما يتناجى به الناس ويتكلمون فيه . والنجوى : اسم مصدر بمعنى المسارة . يقال : نجوته نجوا ونجوى وناجيته مناجاة . أى : ساررته بكلام على انفراد . وأصله : أن تعلو بمن تناجيه بسر معين فى نجوة من من الأرض . أى فى مكان مرتفع منفصل بارتفاعه عما حوله . وقيل : أصله من النجاة ، لأن الإسرار بالشئ فيه معاونة على النجاة . وتطلق النجوى على القوم المتناجين كما فى قوله - تعالى - ( نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نجوى )
والضمير فى قوله ( مِّن نَّجْوَاهُمْ ) يعود إلى الناس جميعا ، ويدخل فيه أولئك الذين كانوا يختانون أنفسهم ومن على شاكلتهم دخولا أوليا . والمعروف - كما يقول الآلوسى - هو كل ما عرفه الشرع واستحسنه ، فيشمل جميع أنواع البر والإغاثة ملهوف وإرشاد ضال إلى غير ذلك . ويراد به هنا ما عدا الصدقة كقرض وما عدا ما أشير إليه بقوله - تعالى - ( أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ الناس )
والمعنى : لا خير فى كثير من الكلام الذى يناجى فيه الناس ، ويتحدثون به سرا ، إلا فى نجوى من أمر غيره سرا بصدقة يزكى بها ماله ، وينفع بها المحتاج إليها ، أو من غيره بالإكثار من أعمال البر ، أو القيام بالإصلاح بين الناس المتخاصمين لكى يعودوا إلى ما كانوا عليه من الأفة والإخاء والصفاء . قال الجمل : وقوله ( إِلاَّ مَنْ أَمَرَ ) . فى هذا الاستثناء قولان : أحدهما : متصل . والثانى : أنه منقطع . وهما مبنيان على أن النجوى يجوز أن يراد بها الصمدر كالدعوى فتكون بمعنى التناجى أى التحدث . وأن يراد بها القوم المتناجون إطلاقا للمصدر على الواقع منه مجازا . فعلى الأولى يكون منقطعا ، لأن من أمر ليس مناجاة ، فكأنه قيل : لكن من أمر بصدقة ففى نجواه الخير وإن جعلنا النجوى بمعنى المتناجين كان متصلا . وقوله ( إِلاَّ مَنْ أَمَرَ ) . إما منصوب على الاستثناء المنقطع إن جعلته منقطعا فى لغة الحجازيين . أو على أصل الاستثناء إن جعلته متصلا . وإما مجرور على البدل من كثير ، أو من نجواهم ، أو صفة لأحدهما . فأنت ترى أن الآية الكريمة قد أخرجت من التناجيى المذموم ثلاث خصال هى جماع الخير ، وذلك لأن الصدقة التى يخرجها الإنسان تكون سببا فى تزكية ماله ، وحسن ثوابه ، ونشر المحبة والمودة بين الناس . والتعبير بقوله ( إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ ) يفيد الدعوة إليها ، والحث على بذلها سرا ما دامت المصلحة تقتضى ذلك . أما المعروف وهو النوع الثانى من التناجى المحمود فهو - كما يقول القرطبى لفظ يعم كل أعمال البر . ففى الحديث الشريف " كل معروف صدقة وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق " وقال على بن أبى طالب : (لا يزهدنك فى المعروف كفر من كفره ، فقد يشكر الشاكر بأضعاف جحود الجاحد ) . وقال الماوردى : ينبغى لمن يقدر على إسداء المعروف أن يعجله حذار فواته ، ويبادر به خيفة عجزه ، وليعلم أنه من فرض زمانه ، وغنائم إمكانه ، ولا يهمله ثقة بالقدرة عليه فكم من واثق بالقدرة ففاتت فأعقبت ندما . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لكل شئ ثمرة وثمرة المعروف السراح " - أى التعجيل - ومن شرط المعروف ترك الامتنان به ، وترك الإعجاب بفعله . لما يهما من إسقاط الشكر وإحباط الأجر . قال بعض الشعراء : زاد معروفك عندى عظما ... أنه عندك ، مستور حقيرتتناساه كأن لم تأته ... وهو عند الناس مشهور خطيروالأمة التى يفشو فيها قول المعروف وفعله ، تسودها السعادة ، وتظلها المحبة والمودة والرحمة . وأما الإصلاح بين الناس فهو فريضة اجتماعية يقوم بها من صفت نفوسهم وقويت عزائمهم ، ورسخ إيمانهم . وقد حض القرآن على الإصلاح بين الناس سواء أكانوا جماعات أم أفرادا لأن التخاصم والتنازع يؤدى إى انتشار العداوات والمفاسد بين الناس . قال - تعالى - : ( إِنَّمَا المؤمنون إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ واتقوا الله لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ) وقد ساق الإمام ابن كثير جملة من الأحاديث التى تحض على الاصلاح بين الناس ومن ذلك : ما رواه ابن مردويه عن محمد بن يزيد بن حنيش قال دلنا على سفيان الثورى نعوده . فدخل علينا سعيد بن حسان فقلا له الثورى الحديث الذى كنت حدثتنيه عن أم صالح أردده على . فقال : حدثتنى أم صالح عن صفية بنت شيبة عن أم حبيبة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " :

كلام ابن آدم كله عليه لا له . إلا ذكر الله - تعالى - أو أمر بمعروف أو نهى عن منكر " فقال سفيان : أو ما سمعت الله فى كتابه يقول : ( لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَاسِ ) . فهو هذا بعينه .وروى الجماعة - سوى ابن ماجه - عن أم كلثوم بنت عقبة أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ليس الكذاب الذى يصلح بين الناس فينمى خيرا أو يقول خيرا " . وقالت : لم أسمعه يرخص فى شئ مما يقوله الناس إلا فى ثلاث : فى الحرب والإصلاح بين الناس . وحديث الرجل امرأته وحديث المراة زوجها .وروى الإمام أحمد وأبو داود والترمذى عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ قالوا بلى . يا رسول الله!! قال إصلاح ذات البين " قال " وفساد ذات البين هو : الحالقة " .ففى هذه الأحاديث الشريفة دعوة قوية إلى الاصلاح بين الناس حتى يعيشوا فى أمان واطمئنان .وبذلك نرى أن هذه الأمور الثلاثة التى أخرجها الله - تعالى - من التناجى المذموم هى جماع الخير الإنسانى والاجتماعى وقد أشار الإمام الرازى إلى ذلك بقوله : هذه الآية وإن نزلت فى مناجاة. بعض قوم ذلك السارق مع بعض إلا أنها فى المعنى عامة . والمراد :لا خير فيما يتناجى فيه الناس ويخوضون فيه من الحديث إلا ما كان من أعمال الخير ثم إنه - تعالى - ذكر من أعمال الخير ثلاثة أنواع : الأمر بالصدقة . والأمر بالمعروف . والاصلاح بين الناس .وإنما ذكر الله - تعالى - هذه الأقسام الثلاثة ، لأن عمل الخير إما أن يكون بإيصال المنفعة أو بدفع المضرة . أما إيصال الخير : فإما أن يكون من الخيرات الجسمانية وهو إعطاء المال . وإليه الإشارة بقوله : ( إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ ) . وإما أن يكون من الخيرات الروحانية وهو عبارة عن تكميل القوة النظرية بالعلوم ، أو تكميل لاقوة العملية بالأفعال الحسنة . ومجموعهما عبارة عن الأمر بالمعروف . وإليه الإشارة بقوله ( أَوْ مَعْرُوفٍ ) وأما إزالة الضرر فإليها الإشارة فثبت أن مجامع الخيرات مذكورة فى هذه ( أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَاسِ ) : الآية .ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة من يقوم بفعل هذه الفضائل فقال ) وَمَن يَفْعَلْ ذلك ابتغآء مَرْضَاتِ الله فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ) .أى : ومن يفعل ذلك المذكور من الصدقة والمعروف والإصلاح بين الناس ، قاصدا بفعله رضا الله وحسن مثوبته ، فسوف نؤتيه أجرا عظيما لا يعرف مقداره غلا الله - تعالى - وقال - سبحانه - ومن يفعل ذلك ولم يقل ومن يأمر بذلك كما جاء فى صدر الآية . لأن المقصود الترغيب فى هذا الفعل الحسن لأن الآمر بالخير إذا دخل فى زمرة الخيرين كان الفاعل أحرى بالدخول فى زمرتهم .وفى تقييد الفعل بكونه ابتغاء مرضاة الله ، تحريض على إخلاص النية لأن الأعمال بالنيات ، وإذا صاحب الرياء الأعمال أبطلها ومحق بركتها ، والتعبير بسوف هنا لتأكيد الوقوع فى المستقبل . أى . فسوف نؤتيه أجراً لا يحيط به نطاق الوصف ، ولن نبخصه شيئا من حقه حتى ولو كان هذا الشئ بالغاً النهاية فى الصغر .

ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة الذين يسيرون فى طريق الباطل ويتركون طريق الحق فقال - تعالى - : ( وَمَن يُشَاقِقِ الرسول مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الهدى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ المؤمنين نُوَلِّهِ مَا تولى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيراً ) .وقوله ( يُشَاقِقِ ) من المشاقة بمعنى المعاداة والمخالفة المقصودة . وهى من الشق لأن المخالف كأن يختار شقا يكون فيه غير شق الآخر .فقوله ( وَمَن يُشَاقِقِ الرسول ) أى من يخالفه ويعاديه .وقوله ( مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الهدى ) أى : يخالفه ويعاديه من بعد ما اتضح له الحق ، وقام لديه الدليل على صحة دين الإسلام .وقوله ( وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ المؤمنين ) معطوف على يشاقق أى : وتبع طريقا غير طريق الإسلام التى سار فيها المؤمنون ، واعتقدوا . صحتها وسلامتها من كل سوء . من يفعل ذلك . نوله ما تولى ، أن نجعله - كما يقول الآلوسى واليا لما تولاه من الضلال . أو نخل بينه وبين ما اختاره لنفسه من الضلال فى الدنيا . أو نكله فى الآخرة إلى ما اتكل عليه فى الدنيا وانتصر به من الأوثان وغيرها .قال صاحب المنار : والذى أريد توجيه الأذهان إلى فهمه هو أن هذه الجملة مبينة لسنة الله - تعالى - فى عمل الإنسان ومقدار ما أعطيه من الإرادة والاستقلال والعمل بالاختيار . فالوجهة التى يتولاها فى حياته ، والغاية التى يصدها عن عمله ، يوليه الله إياها ويوجهه إليها . أى : يكون بحسب سنته - تعالى - واليا لها وسائر على طريقها . فلا يجد من القدرة الإلهية ما يجبره على ترك ما اختار لنفسه . ولو شاء - سبحانه - لهدى الناس أجمعين بخلقهم على حالة واحدة فى الطاعة كالملائكة ، ولكنه شاء أن يخلقهم على ما نراهم عليه الآن من تفاوت فى الاستعداد والإدراك وعمل كل فرد بحسب ما يرى أنه خير له وأنفع فى عاجله أو آجله أو

فيهما وقوله ( وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيراً ) وعيد شديد لأولئك
. المخالفين لطريق الحق . وأصل الصلى : إيقاد النار ولزومها وقت الاستدفاء
: يقال صلى بالنار أى : بلى بها . وصليت الشاة : شويتها وهى مصلية .والمعنى
ومن يخالف طريق الحق نوله ما تولى وندخله فى الآخرة جهنم ليشوى فيها كما
: تشوى الشاة ، وساءت جهنم مكانا لمن صار إليها ، وحل فيها .قال ابن كثير
والذى عول عليه الشافعى يرحمه الله - فى الاحتجاج على كون الإجماع حجة
تحرم مخالفته هذه الآية الكريمة بعد التروى والفكر الطويل . وهو من أحسن
الاستنباطات وأقواها . وإن كان بعضهم قد استشكل ذلك فاستبعد الدلالة على
ذلك .وبهذا نرى أن الآيتين الكريمتين قد بشرتا من يفعل الخير ابتغاء مرضاه
) ، الله بالأجر العظيم ، وأنذرتا من يخالف طريق أهل الحق بالعذاب الأليم
لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ ويحيى مَنْ حَيّ عَن بَيِّنَةٍ
وَإِنّ الله لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ) ثم حذر - سبحانه - من الشرك وتوعد
- المشركين الذين اتخذوا الشيطان وليا من دون الله بالعذاب المهين فقال
. تعالى - : ( إِنَّ اللّه لاَ يَغْفِرُ . . . عَنْهَا مَحِيصاً )

ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد
ضل ضلالا بعيدا

- كما فسرها الوسيط ذكر بعض المفسرين عن ابن عباس فى سبب نزول قوله - تعالى
إِنّ الله لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذلك )
لِمَن يَشَآءُ ) . الآية : أن شيخا من العرب جاء إلى رسول الله صلى الله
عليه وسلم فقال : إنى شيخ منهمك فى الذنوب . إلا أنى أشرك بالله شيئا منذ
عرفته وآمنت به . ولم أتخذ من دونه وليا ، ولم أقع المعاصى جراءة . وما
توهمت طرفة عين أنى أعجز الله هربا . وإنى لنادم تائب . فما ترى حالى عند
الله - تعالى -؟ فنزلت .والمراد بالشكر هنا : مطلق الكفر سواء أكان هذا
الكفر من أهل الكتاب أم من العرب أم من غيرهم .والمعنى : إن الله لا يغفر
لكافر مات على كفره ، ويغفر ما دون الكفر من الذنوب والمعاصى لمن يشاء أن
يغفر له اقترافها إذا مات توبة . فمن مات منهم بدونها فهو تحت مشيئة الله
) إن شاء عفا عنه وأدخله الجنة ، وإن شاء عذبه ثم ادخله الجنة .وأما قوله
قُلْ ياعبادي الذين أَسْرَفُواْ على أنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُواْ مِن
رَّحْمَةِ الله إِنَّ الله يَغْفِرُ الذنوب جَمِيعاً ) . فمقيد بالمشية أى
يغفر الذنوب جميعا لمن شاء أن يغفر له . ومقيد أيضا بما عدا الشرك . أى :
- يغفر الذنوب جميعا إلا الشرك فإنه لا يغفر لمن مات عليه .ثم بين - سبحانه
سوء حال المشركين فقال : ( وَمَن يُشْرِكْ بالله فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً
بَعِيداً ) والضلال هو السير فى غير الطريق الموصول الى النجاة .أى : ومن
يشرك بالله - تعالى - بأن يعبد سواه ، أو يجعل معه شريكا فى العبادة فقد
اسر فى طريق الشرور والآثام سيرا بعيدا ينتهى به إلى الهلاك ، ويفضى به إلى
العذاب المهين .وهذه الآية قد مر الكلام مفصلا فى آية تشبهها من هذه السورة
وهى قوله - تعالى - ( إِنّ الله لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ
وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بالله فَقَدِ
افترى إِثْماً عَظِيماً ) قالوا :وقد ختمت هذه الآية بقوله : ( وَمَن
يُشْرِكْ بالله فَقَدِ افترى إِثْماً عَظِيماً ) لأنها فى شأن أهل الكتاب
من اليهود وهم عندهم علم بصحة نبوته صلى الله عليه وسلم وبأن شريعته ناسخة
لجميع الشرائع ومع ذلك فقد حملهم الحسد على إنكار الحق ، فصار فعلهم هذا
افتراء بالغ العظم فى الكذب والجرأة على الله .وختمت الآية التى معنا
بقوله - تعالى - : ( وَمَن يُشْرِكْ بالله فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً
لأنها فى قوم مشركين لم يعرفوا من قبل كتابا ولا وحيا ، فأتاهم رسول الله (
، صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق ، وميزلهم طريق الرشد من طريق الغى
ولكنهم لم يتبعوه فكان فعلهم هذا ضلالا واضحا عن طريق الحق .وابتعادا شديدا
. عن الصراط المستقيم

ان يدعون من دونه الا اناثا وان يدعون الا شيطانا مريدا

كما فسرها الوسيط ثم فصل - سبحانه - ما عليه المشركون من ضلال فقال : ( إِن
. يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاّ إِنَاثاً ) .و ( إِن ) هنا هى النافية
ويدعون من الدعاء وهو هنا بمعنى العبادة لأن من عبد شيئا فإنه يدعوه عند
احتياجه إليه .والمراد بالإناث : الأصنام التى كانوا يعبدونها من دون الله
أى : أن هؤلاء المشركين ما يعبدون من دون الله إلا أصناما ، أو ما ينادون.
من دون الله لقضاء حاوئجهم إلا أوثانا لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا .وعبر
، عن الأصنام بالإناث لأن المشركين سموا أكثر هذه الأصنام بأسماء الإناث
كاللات والعزى ومناة .قال الحسن : كان لكل حى من أحياء العرب صنم يعبدونه
ويسمونه أنثى بنى فلان وكانوا يزينونه بالحلى كالنساء .وقيل : المراد
بالإناث هنا الملائكة ، لأن بعضهم كان يعبد الملائكة ويقولون عنها : بنات
الله . قال - تعالى - ( وَجَعَلُواْ الملائكة الذين هُمْ عِبَادُ الرحمن

إِنَاثاً ) وقيل : المراد بها هنا : الجمادات التى لا حياة فيها ومع ذلك يعبدونها .قال أبو حيان : قال الراغب : أكثر ما عبدته العرب من الأصنام كانت أشياء منفعلة غير فاعلة . فبكتهم الله أنهم مع كونهم فاعلين من وجه يعبدون ما ليس هو إلا منفعلا من كل وجه . وعلى هذا نبه إبراهيم - عليه السلام - أباه بقوله : ( ياأبت لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً ) وقد رجح ابن جرير القول الأول فقال وأولى التأويلات التى ذكرت بتأويل ذلك تأويل من قال : عنى بذلك الآلهة : التى كان مشركو العرب يعبدونها من دون الله ، ويسمونها بالإناث من الأسماء كاللات والعزى ونائلة ومناة وما أشبه ذلك .وإنما قلنا ذلك أولى بتأويل الآية؛ لأن الأظهر من معانى الإناث فى كلام العرب ، ما عرف بالتأنيث دون غيره فإذا كان ذلك كذلك فالواجب توجيه تأويله إلا الأشهر من معانيه .

فكأنه - تعالى - يقول : فحسب هؤلاء الذين أشركوا بالله وعبدوا ما عبدوا من دونه حجةعليهم فى ضلالهم وكفرهم أنهم يعبدون إناثا . والإناث من كل شئ أخسه . فهم يقرون للخسيس من الأشياء بالعبودية على علم منهم بخساسته وبمتنعون من إخلاص العبودية للذى ملك كل شئ وبيده الخلق والأمر .وقوله ( وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَاناً مَّرِيداً ) بيان لما دفعهم إلى الوقوع فى ذلك الضلال الذى انغمسوا فيه .ومريداً . أى عاتيا متمردا بالغا الغاية فى الشرور والفساد .قال الراغب : والمراد والمريد من شياطين الجن والإنس المتعرى من الخيرات . من قولهم شجر أمرد إذا تعرى من الورق . ومنه قيل رملة مرداء أى : لم تنبت شيئا . ومنه الأمرد لتجرده عن الشعر .فأصل مادة مرد للملاسة والتجرد . ومنه قوله - تعالى - ( صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ ) أى أملس . ووصف الشيطان بالتمرد لتجرده للشر .وعدم علوق شئ من الخير به . أو لظهور شره ظهور عيدان الشجرة المرداء .والمعنى : إن هؤلاء المشركين ما يعبدون من دون الله إلا أصناما سموها بأسماء الإناث ، وما يطيعون فى عبادتها إلا شيطانا عاتيا متجردا من كل خير ، ومتعريا من كل فضيلة . فهذا الشيطان الشرير دعاهم لعبادة غير الله فانقادوا له انقيادا تاما . وخضعوا له خضوعا لا مكان معه لتعقل أو تدبر .وقوله ( مَّرِيداً ) صفة لشيطان .

لعنه الله وقال لاتخذن من عبادك نصيبا مفروضا

كما فسرها الوسيط وقوله ( لَّعَنَهُ الله ) صفة ثانية : أى : طرده من رحمته طردا مقترنا بسخط وغضب .ثم حكى - سبحانه - أن الشيطان قد أقسم بأنه لن يكف عن إبعاد بنى آدم عن طريق الحق فقال : ( وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَّفْرُوضاً ) .أى : أن الشيطان قال مؤكدا ومقسما لأتخذن عن عبادك الذين هم من ذرية آدم ، نصيبا مفروضا . أى : لأجعلن لى ، منهم مقدارا معينا قليلا كان أو كثيرا ، وهم الين سأصرفهم عن الطريق الحق وسأجعلهم خاضعين لوسوستى ومنقادين لأمرى . وقوله ( لأَتَّخِذَنَّ ) من الاتخاذ وهو أخذ الشئ على جهة الاختصاص . وقوله ( مَّفْرُوضاً ) من الفرض بمعنى القطع . وأطلق هنا على العدد المعين من الناس لاقتطاعه عن سواه من صالحى المؤمنين . فكل من أطاع الشيطان من بنى آدم فهو نصيبه المقطوع منهم له .وجملة ( وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَّفْرُوضاً ) معطوفة على الجملة المتقدمة عليها . أى : أن هؤلاء المشركين ما يطيعون فى ، عبادتهم لغير الله إلا شيطانا مريدا جامعا بين لعنة الله - تعالى - له . وبين هذا القول الشنيع الصادر منه عند اللعن

ولاضلنهم ولامنينهم ولامرنهم فليبتكن اذان الانعام ولامرنهم فليغيرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا

كما فسرها الوسيط أما الأمر الثانى والثالث اللذان توعد الشيطن بهما بنى آدم فقد حكاهما - سبحانه - فى قوله ( وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ ) أى : ولأضلنهم عن طريق الحق فأجعلهم يسيرون فى طريق الباطل إلى نهايته ، ولأمنينهم الأمانى الفارغة . بأن أجعلهم يجرون وراء الأحلام الكاذبة ، والأوهام الفاسدة . والأطماع التى تسيطر على نفوسهم وعقولهم ، وبذلك يكونون من جندى ، ويخضعون لأمرى .أما الأمر الرابع الذى توعد الشيطان به بنى آم فقد حكاه - سبحانه - فى قوله ( وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأنعام ) .قال الراغب : البتك يقارب البت لكن البتك يستعمل فى قطع الاعضاء والشعر . يقال بتلك شعره وأذنه - أى قطعها أو شقها - ومنه سيق باتك أى قاطع للأعضاء . وأما البت فيقال فى قطع الحبل وكانوا فى الجاهلية إذا ولدت الناقة خمسة أبطن وجاء الخامس ذكرا قطعوا أذنها أو شقوها شقا واسعا علامة على أنهم حرموا على أنفسهم الانتفاع بها وجعلوها للطواغيت وسموها بحيرة أى المشقوقة الأذن .والمراد : أنه يأمرهم بعبادة غير الله وبالأمانى الباطلة . وبتقطيع آذان الأنعام تقربا للطواغيت والأوثان فيسارعون إلى إجابته ، وينقادون لوسوسته .أما الأمر الخامس الذى توعد الشيطان به بنى آدم فقد حكاه - سبحانه - فى قوله ( وَلآمُرَنَّهُمْ

فَلَيُغَيِّرُنّ خَلْقَ الله ) .قال ابن كثير: أى دين الله . وهذا كقوله
فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ الله التي فَطَرَ الناس ) :
عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله ) على قول من جعل ذلك أمرا أى :لا
تبدلوا فطرة الله ، ودعوا الناس على فطرتهم . كما ثبت فى الصحيحين عن أبى
هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كل مولود يولد على
الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه . كما تلد البهيمة بهيمة
: جمعاء . هل تجدون بها من جدعاء؟ " .وفى صحيح مسلم عن عياض بن حماد قال
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله - تعالى - : " إنى خلقت عبادى
" حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم
، وقال بعضهم : المراد بتغيير خلق الصور التى خلق الله عليها مخلوقاته.
كمفقأ عين فحل الإبل فى بعض الأحوال ، وقطع الآذان ، والوشم ، وما يشبه
ذلك مما كانوا يفعلونه فى جاهليتهم اتباع للشيطان .وقد رجح ابن جرير أن
المراد بتغيير خلق الله : تغيير دين الله فقال ما ملخصه : " وأولى الأقوال
، بالصواب فى تأويل ذلك قول من قال : معناه : ولآمرنهم فليغيرن خلق الله
) : قال : دين الله . وذلك لدلالة الآية الأخرى على أن ذلك معناه وهى قوله
فِطْرَتَ الله التي فَطَرَ الناس عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله
ذَلِكَ الدين القيم ) وإذا كان ذلك معناه ، دخل فى ذلك فعل كل ما نهى الله
عنه من خصاء ما لا يجوز خصاؤه ، ووشم ما نهى عن وشمه ، وغير ذلك من المعاصى
فأنت ترى أن الله - تعالى - قد حكى للناس ما قاله الشيطان بلسان حاله أو.
- مقاله حتى يحذروه ويتخذوه عدوا لهم ، لينالوا رضا الله ومثوبته .وقد أكد
سبحانه - هذا المعنى بقوله : ( وَمَن يَتَّخِذِ الشيطان وَلِيّاً مِّن
دُونِ الله فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُّبِيناً ) .أى : ومن يتخذ الشيطان
وليا من دون الله ، بأن يتبع الشيطان ويواليه ويسير خلف وسوسته ، ويرتك
، طريق الحق والهدى ، من يفعل ذلك يكن بفعله هذا قد خسر خسرانا واضحا بينا
، لأن الشيطان لا يسوق الإنسان إلا إلى ما يهلكه ويخزيه فى الدنيا والآخرة
وسيقول لأتباعه يوم ينزل بهم العقاب فى الآخرة ( إِنّ الله وَعَدَكُمْ
وَعْدَ الحق وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ
مِّن سُلْطَانٍ إِلاّ أَن دَعَوْتُكُمْ فاستجبتم لِي فَلاَ تَلُومُونِي
ولوموا أَنفُسَكُمْ مّآ أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُمْ
( بِمُصْرِخِيّ

يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان الا غرورا

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - ( يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا
يَعِدُهُمُ الشيطان إِلاَّ غُرُوراً ) تأكيد للتحذير السابق من اتباع
الشيطان .أى : يعد الشيطان أولياءه بالوعود الباطلة ، ويمنيهم بالأمانى
الكاذبة ، لكى يستمروا على طاعته ، والحال أن الشيطان ما يعدهم إلا بالأمور
الخادعة التى ظاهرها يغرى وباطنها يردى .قال القرطبى : الغرور ما رأيت له
ظاهرا تحبه وفيه باطن مكروه والشيطان غرور ، لأنه يحمل على محاب النفس
. ووراء ذلك ما يسوء .وقوله ( غُرُوراً ) مفعول ثان للوعد ، أو مفعول لأجله
. أو نعت لمصدر محذوف أى وعدا ذا غرور

اولئك ماواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصا

كما فسرها الوسيط وقوله ( أولئك مَأْوَاهُمْ جَهَنّمُ وَلاَ يَجِدُونَ
عَنْهَا مَحِيصاً ) بيان لسوء مصير الذين انقادوا للشيطان واتبعوا خطواته
والمحيص : المهرب والملجأ . وهو اسم مكان أو مصدر ميمى يقال حاص عنه يحيص.
حيصا وحيوصا ومحيصا أى : عدل وحاد .أى : أولئك الذين اتبعوا خطوات الشيطن
وساروا فى ركابه ، مستقرهم جميعا جهنم ، ولا يجدون ملجأ دونها يلتجئون إليه
أو مهربا يهربون منه لينجوا من عذابها ، وإنما يبقون فيها دون أن يتمكنوا ،
من الخروج منها .وبهذا نرى أن هذه الآيات الكريمة قد حذرت أشد التحذير من
، الإشراك بالله -تعالى- ومن اتباع وساوس الشيطان وخداع ووعوده الباطلة
وأمانيه الخادعة ، وهددت كل من يهجر طريق الرشد . ويسلك طريق الغى بالعذاب
. الشديد الذى لا مفر منه ولا مهرب

والذين امنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين
فيها ابدا وعد الله حقا ومن اصدق من الله قيلا

كما فسرها الوسيط ثم عقب - سبحانه - ذلك ببيان حسن عاقبة المؤمنين ، الذين
) : - آمنوا بالله إيمانا حقا ، وابتعدوا عن كل مالا يرضيه فقال - سبحانه
) - والذين آمَنُواْ . . . بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطاً ) .وقوله - تعالى
والذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ) . معطوف على قوله - تعالى - قبل
ذلك ، ( أولئك مَأْوَاهُمْ جَهَنّمُ ) جريا على عادة القرآن فى تعقيب
، الإنذار بالبشارة ، والوعيد بالوعد .أى : والذين آمنوا بالله إيمانا حقا

وقدموا فى حياتهم الأعمال الصالحات ( سَنُدْخِلُهُمْ جَنّاتٍ تَجْرِي مِن
تَحْتِهَا الأنهار ) أى : مقيمين فيها إقامة أبدية ( وَعْدَ الله حَقّاً )
أى : واقعا لا محالة ما وعد الله به عباده الصالحين من نعم بخلاف ما وعد
الشيطان به أتباعه فإنه وعد كاذب باطل .وقوله ( وَعْدَ الله ) منصوب على
المصدر المؤكد لمضمون جملة ( سَنُدْخِلُهُمْ جَنّاتٍ تَجْرِي مِن
تَحْتِهَا الأنهار ) لأنها بمعناه فكأنه مؤكد لنفسه وقوله ( حَقّاً ) منصوب
بفعل محذوف أى : حق ذلك حقا .والاستفهام فى قوله ( وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ
الله قِيلاً ) للنفى . والقيل مصدر كالقول أى : هذا ما وعد الله به عباده
المؤمنين ، وما وعد الله به عباده فهو متحقق الوقوع لا محالة ، لأنه لا أحد
أصدق من الله قولا . فالجملة الكريمة تذييل قصد به تأكيد ما سبقه من وعد
الله لعباده المؤمنين بالجنة .وقوله ( قِيلاً ) منصوب على أنه تمييز نسبة
من قوله ( وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ الله )

ليس بامانيكم ولا اماني اهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون
الله وليا ولا نصيرا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن الوصول إلى رضوانه لا يكون بالأمانى
والأوهام وإنما يكون بالإيمان والعمل الصالح فقال : ( لَّيْسَ
بِأَمَانِيِّكُمْ ولا أَمَانِيِّ أَهْلِ الكتاب مَن يَعْمَلْ سواءا يُجْزَ
( بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ الله وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً
والأمانى : جمع أمنية . وهى ما يتمناه الإنسان ويرغب فيه ويشتهيه من.
أشياء متنوعة . كحصوله على الخير الوفير فى الدنيا ، وعلى الجنة فى الآخرة
وهى مأخوذة من التمنى .وقد روى المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات .
منها قول قتادة : ذكر لنا أن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا . فقال أهل
الكتاب . نبينا قبل نبيكم ، وكتابنا قبل كتابكم فنحن أولى منكم . وقال
المسلمون : نحن أولى بالله منكم ، ونبينا خاتم النبيين . وكتابنا يقضى على
الكتب التى كانت قبله . فأنزل الله : ( لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ ولا
أَمَانِيِّ أَهْلِ الكتاب ) . الآية .وقال مجاهد : قالت العرب لن نبعث ولن
نعذب .وقالت اليهود والنصارى ( لَن يَدْخُلَ الجنة إِلاَّ مَن كَانَ
. هُوداً أَوْ نصارى ) فأنزل الله - تعالى - ( لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ )
الآية .والضمير فى قوله ( لَّيْسَ ) يعود إلى ما تقدم ذكره من الوعد
المتقدم وهو نيل الثواب ودخول الجنة .والخطاب لجميع الفرق التى حدث بينهما
: تنازع فى شأن الدين الحق ، وفى شأن ما يترتب على ذلك من ثواب .والمعنى
ليس ما وعدا لله به من الثواب أو إدخال الجنة ، أو ليس ما تحاورتم فيه
، حاصلا بمجرد أمانكم - أيها المسلمون - أو أمانى أهل الكتاب أو غيرهم
وإنما ما تمنيتموه جميعا يحصل بالإيمان الصادق ، وبالعمل الصالح ، وبالسعى
والجد فى طاعة الله ، فقد اقتضت سنة الله - تعالى - أن من يعمل خيرا يجد
خيرا ، و ( مَن يَعْمَلْ سواءا يُجْزَ بِهِ ) أى : من يرتكب معصية مؤمنا
كان أو كافرا يجازه الله بها عاجلا أو آجلا إذا تاب ، أو تفضل الله عليه
بالمغفرة إذا كان مؤمنا .وقد سار ابن كثير فى تفسيره على أن الخطاب لجميع
، الطوائف فقال : " والمعنى فى هذه الآية أن الدين ليس بالتحلى ولا بالتمنى
ولكن ما وقر فى القلوب وصدقته الأعمال . وليس كل من ادعى شيئا حصل له بمجرد
دعواه ، ولا كل من قال إنه على الحق سمع قوله بمجرد ذلك حتى يكون له من
الله برهان؛ ولهذا قال : ( لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ ولا أَمَانِيِّ أَهْلِ
الكتاب ) .أى ليس لكم ولا لهم النجاة بمجرد التمنى . بل العبرة بطاعة
الله - سبحانه - واتباع ما شرعه على ألسنة رسله ولهذا قال بعده ( مَن
يَعْمَلْ سواءا يُجْزَ بِهِ ) . كقوله : ( فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ
( ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ
ومنهم من يرى أن الخطاب فى قوله ( لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ ) للمسلمين
: وقد أشار إلى ذلك صاحب الكشاف بقوله : فى ( لَّيْسَ ) ضمير وعد الله أى.
ليس ينال ما وعد الله من الثواب ( بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا ) بأمانى أهل
الكتاب . والخطاب للمسلمين ، لأنه لا يتمنى وعد الله إلا من آمن به . وكذلك
ذكر أهل الكتاب معهم لمشاركتهم لهم فى الإيمان بوعد الله .ومنهم من يرى أن
الخطاب للمشركين . وقد رجح ذلك ابن جرير فقال ما ملخصه : وأولى الأقوال
بالصواب فى ذلك ما قاله مجاهد من أنه عنى بقوله ( لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ
مشركى قريش . وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب . لأن المسلمين لم يجر . (
لأمانيهم ذكر فيما مضى من الآى قبل قوله ( لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ )
) . وإنما جرى ذكر أمانى نصيب الشيطان المفروض فى قوله قبل ذلك
وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ ) وقوله ( يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ
فإلحاق معنى قوله - تعالى - ( لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ ) بما ذكره قبل (
أحق وأولى من ادعاء تأويل فيه لا دالة عليه من ظاهر التنزيل ، ولا من أثر
، الرسول صلى الله عليه وسلم .ومع وجاهة هذا الرأى الذى سار عليه ابن جرير
إلا أنا نؤثر عليه ما ذهب إليه ابن كثير من أن الآية الكريمة تخاطب الناس
جميعا سواء أكانوا مؤمنين أم مشركين أم من أهل الكتاب . لأن الآية الكريمة

تضع لهم جميعا قاعدة عامة وهى أن الوصول إلى ثواب الله ورضاه لا ينال بالأمانى والأحلام وإنما ينال بالإيمان والعمل الصالح .وقوله ( مَن يَعْمَلْ سواءا يُجْزَ بِهِ ) جملة مكونة من شرط وجزاء . والمراد بالسوء ما يشمل الكفر والمعاصى . وقيل : المراد بالسوء هنا الكفر فقط .قال الآوسى قوله - تعالى - : ( مَن يَعْمَلْ سواءا يُجْزَ بِهِ ) أى : عاجلا أو آجلا فقد أخرج الترمذى وغيره " عن أبى بكر الصديق قال : كنت عند النبى صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية . فقال رسول الله : يا أبا بكر ألا أقرئك آية نزلت على؟ فقلت : بلى يا رسول الله . فأقرأنيها فلا أعلم إلا أنى وجدت انفصاما فى ظهرى . . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . مالك يا أبا بكر؟ قلت بأبى أنت وأمى يا رسول الله وأينا لم يعمل السوء . وإنما لمجزيون بكل سوء علمناه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما أنت وأصحابك يا أبا بكر المؤمنون فتجزون بذلك فى الدنيا حتى تلقوا الله - تعالى - ليس عليكم ذنوب . وأما الآخرون فيجمع لهم ذلك حتى يجزون يوم القيامة " .وأخرج مسلم وغيره عن أبى هريرة قال : " لما نزلت هذه الآية شق ذلك على المسلمين وبلغت منهم ما شاء الله - تعالى - فشكوا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : سددوا وقاربوا فإن كل ما أصاب المسلم كفارة حتى الشوكة يشاكها والنكبة ينكبها " .قال الآلوسى : والأحاديث بهذا المعنى أكثر من أن تحصى . ولهذا أجمع عامة العلماء على أن الأمراض والاسقام ومصائب الدنيا وهمومها - وإن قلت مشقتها - يكفر الله - تعالى - بها الخطيئات ، والأكثرون على أنها أيضا ترفع بها الدرجات ، وهو الصحيح المعول عليه . فقد صح فى غير ما طريق؛ ما من مسلم يشاك شكوكة فما فوقها إلا كتبت له بها درجة ومحيت عنه بها " خطيئة " .وقوله - تعالى - ( بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ الله وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً ) تذليل قصد به تأكيد ما قبله من أن ثواب الله لا ينال إلا بالإيمان والعمل الصالح ، وأن عقابه سيحل بمن يعمل السوء .أى : أن من يعمل السوء سيجازى به ، ولا يجهد هذا المرتكب للسوء أحدا سوى الله - سبحانه - يلى أمره ويحامى عنه ، ولا نصيرا ينصره ويحاول إنجاءه من عقاب الله - تعالى -

ومن يعمل من الصالحات من ذكر او انثى وهو مؤمن فاولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة المؤمنين فقال : ( وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصالحات مِن ذَكَرٍ أَوْ أنثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فأولئك يَدْخُلُونَ الجنة وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً ) .أى : ومن يعمل من الأعمال الصالحات سواء أكان العامل ذكرا أم أمنثى ما دام متحليا بصفة الإيمان ، فأولئك العاملون بالأعمال الصالحة يجخلون الجنة جزاء عملهم؛ ولا ينقصون شيئا من ثواب أعمالهم ، ولو كان هذا الشئ نقيرا وهو النقطة التى تكون فى ظهر النواة ويضرب بها المثل فى القلة الحقارة .و ( مِنَ ) فى قوله ( مِنَ الصالحات ) للتبعيض أى : بعض الأعمال الصالحات لأن الإنسان لا يستطيع أن يعمل جميع الأعمال الصالحة ، وإنما كل إنسان يعمل على قدر طاقته وقدرته ولا يكلف نفسا إلا وسعها .و ( مِن ) فى قوله ( مِن ذَكَرٍ أَوْ أنثى ) للبيان . أى بيان أن الأحكام الشرعية وما يترتب عليها من ثواب يشترك فيه الرجال والنساء إلا إذا قام دليل على أن أحد الصنفين مختص بحكم معين لا يشاركه فيه الصنف الآخر .وفى ذلك إنصاف للمرأة من الظلم الذى كان واقعا عليها قبل شريعة الإسلام العادلة .والجملة الكريمة فى موضع نصب على الحال من ضمير ( يَعْمَلْ ) .وقوله ( وَهُوَ مُؤْمِنٌ ) قيد لإخراج غير المؤمن لأن الكافر مهما قدم من أعمال صالحة فى الدنيا فإنها لن تنفعه فى الآخرة بسبب كفره بالدين الحق .واسم الإشارة وهو قوله ( فأولئك ) يعود إلى من فى قوله ( وَمَن يَعْمَلْ ) باعتبار معناها .وقوله ( وَهُوَ مُؤْمِنٌ ) بيان لفضل الله - تعالى - وعدله ، وأنه - سبحانه - ( لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً )

ومن احسن دينا ممن اسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفا واتخذ الله ابراهيم خليلا

كما فسرها الوسيط ثم أثنى - سبحانه - على من أخلص له الإيمان والعمل فقال : ( وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ ) أى :لا أحد أحسن دينا ، وأجدر بالقبول عند الله ويجزيل ثوابه ممن أخلص ( نفسه لله ، وجعلها سالمة له بحث لا تعرف لها ربا ولا معبودا سواه .وقوله ( وَهُوَ مُحْسِنٌ ) أى : وهو مؤد لما أمره الله به ومبتعد عن كل ما نهاه الله عنه ، على الوجه اللائق الحسن .فالاستفهام فى قوله ( وَمَنْ أَحْسَنُ للنفى . والمقصود منه مدح من فعل ذلك على أتم وجه .وقوله ( وَهُوَ ( مُحْسِنٌ ) جملة فى موضع الحال من فاعل ( أَسْلَمَ ) .فالآية الكريمة قد

- أشارت إلى أن الدين الحق يقتضى أمرين :أولهما : إخلاص القلب والنية لله تعالى - بحيث لا يكون عامرا إلا بذكر الله .والثانى : إتقان العمل الصالح وإجادته حتى يصل إلى مرتبة الإحسان الذى عرفه النبى صلى الله عليه وسلم " بقوله : " الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك وقوله ( واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ) بيان لما كان عليه. إبراهيم - عليه السلام - من عقيدة سليمة ، ودين قويم . وهو معطوف على قوله أى :لا أحد أحسن دينا ، وأصوب طريقا ممن أخلص نفسه. ( أَسْلَمَ وَجْهَهُ ) لله ، وأتقن أعماله الصالحة على الوجه الذى يرضاه الله - تعالى - واتبع ملة إبراهيم الذى كان مبتعداً عن كل الملل الزائفة المعوجة ومتجها إلى الدين الحق ، والمنهاج المستقيم .والمراد بملة إبراهيم : شريعته التى كان يدين الله عليها ، ومنهاجه الذى يوافق منهاج الإسلام الذى أتى به محمد - عليه الصلاة والسلام .وحنيفا من الحنف وهو الميل عن الضلال إلى الاستقامة . وضده الجنف يقال : تحنف فلان أى تحرى طريق الاستقامة .وقوله ( واتخذ الله ، إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ) تذييل جئ به للترغي فى اتباع ملة إبراهيم وللتنويه بشأنه - عليه السلام - وبشأن من اتبع طريقته .والخليل فى كلام العرب : هو الصاحب الملازم الذى لا يخفى عليه شئ من أمور صاحبه . مشتق من الخلة وهى صفاء المودة التى توجب الاختصاص بتخلل الأسرار .قال الآلوسى : - والخليل مشتق من الخلة - بضم الخاء - وهى إما من الخلال - بكسر الخاء فإنها مودة تتخلل النفس وتخالطها مخالطة معنوية . فالخليل من بلغت مودته هذه المرتبة . وإما من الخلل على معنى أن كلا من الخليلين يصلح خلل الآخر . وإما من الخل - بالفتح - وهو الطريق فى الرمل ، لأنهما يتوافقان على طريقة وإما من الخلة - بفتح الخاء - بمعنى الخصلة لأنهما يتوافقان فى الخصال . والأخلاق . وإما من الخلة - بفتح الخاء - بمعنى الخصلة لأنهما يتوافقان فى الخصال والأخلاق . وأطلق الخليل على إبراهيم ، لأن محبة الله تعالى ، قد تخللت نفسه وخالطتها مخالطة تامة ، أو لتخلقه بأخلاق الله تعالى .والمعنى : واتخذ الله إبراهيم حنيفا له من بين خلقه ، لأنه - عليه السلام - كان خالص المحبة لخالقه - عز وجل - ومبغضا لكل ما يبغضه الله من الشريك والأعمال السيئة ، وغيورا على إعلاء كلمة الله وعلى تمكين دينه فى الأرض فوصفه الله - تعالى - بهذا الوصف الجليل ، وأسبغ عليه الكثير من الوان نعمه وفضله قال الجمل : وقوله ( واتخذ الله إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ) فى ( خَلِيلاً ). وجهان ، فإن عدينا اتخذ لاثنين كان مفعولا ثانيا وإلا كان حالا . وهذه الجملة عطف على الجملة الاستفهامية التى معناها الخبر للتنبيه على شرف المتبوع وأنه جدير بأن يتبع لاصفطاء الله له بالخلة ، وفائدة هذه الجملة تأكيد وجوب اتباع ملته ، لأن من بلغ من الزلفى عند الله أن اتخذه خليلاً ، جديراً بأن تتبع ملته . وأظهر اسم إبراهيم فى مقام الاضمار لتفخيم شأنه . والتنصيص على أنه متفق على مدحه .

ولله ما في السماوات وما في الارض وكان الله بكل شيء محيطا

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات ببيان أنه هو المالك لكل شئ والمهيمن على شئون هذا الكون فقال : ( وَلِلَّهِ مَا فِي السماوات وَمَا ، فِي الأرض وَكَانَ الله بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطاً ) .أى : ولله - تعالى - وحده جميع ما فى السماوات وما فى الأرض من موجودات ، فهو خالقها ومالكها ولا يخرج عن ملكوته شئ منها . وكان الله - تعالى - بكل شئ محيطا ، بحيث لا تخفى عليه خافية من شئون خلقه ، وسيجازى الذين أساءوا بما عملوا وسيجازى الذين أحسنوا بالحسنى .وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد بشرت المؤمنين بحسن الثواب ، وبينت أن ثواب الله لا ينال بالأمانى وإنما ينال بالإيمان والعمل الصالح ، وأن الدين الحق هو الذى يدعو الإنسان إلى إخلاص نفسه لله وإلى إحسان العمل فى طاعته ، وإلى اتباع ما كان عليه إبراهيم من منهاج ، سليم ، وخلق قويم . وأنه - سبحانه هو المتصرف فى شئون هذا الكون ، وسيجازى كل إنسان بما يستحقه من خير أو شر .

ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون ان تنكحوهن والمستضعفين من الولدان وان تقوموا لليتامى بالقسط وما تفعلوا من خير فان الله كان به عليما

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك جملة من الأحكام التى يتعلق أكثرها بالنساء فقال - تعالى - : ( وَيَسْتَفْتُونَكَ . . . وَاسِعاً حَكِيماً ) .قال الإمام الرازى فى بيان صلة هذه الآيات بما قبلها : اعلم أن عادة الله - تعالى - فى ترتيب هذا الكتاب وقع على أحسن الوجوه . وهو أن يذكر شيئا من الأحكام ثم يذكر عقيبه آيات كثيرة فى الوعد والوعيد والترغيب والترهيب ، ويخلط بها آيات دالة على كبرياء الله وجلال قدرته . ثم يعود مرة أخرى إلى بيان الأحكام وهذا أحسن أنواع الترتيب وأقربها إلى التأثير فى

القلوب ، لأن التكاليف بالأعمال الشاقة لا يقع فى مقوع القبول إلا إذا كان
مقرونا التأثير فى القلوب ، لأن التكاليف بالأعمال الشاقة لا يقع فى موقع
القبول إلا إذا كان مقرونا بالوعد والوعيد . والوعد والوعيد لا يؤثر فى
القلب إلا عند القطع بغاية كمال من صدر عنه الوعد والوعيد . فظهر أن هذا
الترتيب أحسن الترتيبات اللائقة بالدعوة إلى الحق .إذا عرفت هذا فنقول
: إنه - سبحانه - ذكر فى أول هذه السورة أنواعا كثيرة من الشرائع والتكاليف
. ثم أتبعها بشرح أحوال الكافرين والمنافقين واستقصى فى ذلك . ثم ختم تلك
الآيات الدالة على عظمة جلال الله وكمال كبريائه . ثم عاد بعد ذلك إلى بيان
الأحكام فقال : ( وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النسآء ) . . إلخ الآية .وقوله
) وَيَسْتَفْتُونَكَ ) من الاستفتاء بمعنى طلب الفتيا أو الفتوى . يقال
استفيت العالم فى مسألة كذا . أى سألته أن يبين حكمها . فالإفتاء إظهار
: المشكل من الأحكام وتبيينه .فمعنى ( وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النسآء )
ويسألك أصحابك يا محمد أن تفتيهم فى أمر النساء . أى يطلبون منك تبيين
المشكل من الأحكام التى تتعلق بما يجب للنساء من حقوق ، وبما يكون عليهن من
واجبات .والذى حمل الصحابة على الطلب أنهم كانوا فى جاهليتهم يعاملون
النساء معاملة سيئة ، ويظلمونهن ظلما شديدا ، ثم وجدوا أن الإسلام الذى
يدينون به قد أكرم المرأة وأنصفها بطريقة لم يألفوها من قبل ، فتعددت
أسئلتهم عن الأحكام التى تتعلق بالنساء حتى ينفذوا نحوهن ما يطلبه الإسلام
منهم من حيث معاشرتهن وولايتهن وميراثهن وغير ذلك من الأحكام .قال القرطبى
نزلت - هذه الآية - بسبب سؤال قوم من الصحابة عن أمر النساء وأحكامهن فى :
الميراث وغير ذلك . فأمر الله - تعالى - نبيه أن يقول لهم : الله يفتيكم
فيهن أى : يبين لكم حكم ما سألتم عنه ، وهذه الآية رجوع إلى ما افتتحت به
السورة من أمر النساء . وكانت قد بقيت لهم أحكام لم يعرفوها فسألوا فقيل
لهم : إن الله يفتيكم فيهن .فسؤال الصحابة ليس عن ذوات النساء وإنما عن
أحكام تتعلق بهن .أخرج ابن جرير وغيره عن سعيد بن جبير قال : كان لا يرث
إلا الرجل الذى قد بلغ أن يقوم فى المال ويعمل فيه ، ولا يرث الصغير ولا
المرأة شيئا فلما نزلت آية المواريث فى سورة النساء شق ذلك على الناس
وقالوا : أيرث الصغير ولا المرأة شيئا فلما نزلت آية المواريث فى سوءة
، النساء شق ذلك على الناس وقالوا : أيرث الصغير الذى لا يقوم فى المال
والمرأة التى هى كذلك كما يرث الرجل الذى يعمل فى المال؟ فرجوا أن يأتى فى
ذلك حدث من السماء فانتظروا : فلما رأوا أنه لا يأتى حدث قالوا : لئن تم
هذا إنه لواجب ما عنه بد .ثم قالوا : سلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم
) فسألوه . فأنزل الله ( وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النسآء ) . . الآية .وقوله
قُلِ الله يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ ) وعد من الله - تعالى - بالإجابة عما
يسالون عنه . وهو لون من تبشير السائل المتحير بأنه قد وجد ضالته حتى يطمئن
قلبه ، ويهدأ باله . وذلك مثل قولهم - والله المثل الأعلى - لمن سأل سؤالا
لمن يحسن الإجابة عنه : على الخبير وقعت .أى : قل يا محمد لهؤلاء السائلين
عن بعض الأحكام المتعلقة بالنساء : الله - تعالى - يفتيكم فى شأنهن ، ويبين
لكم بأجلى بيان وأحكمه ما تجهلون من أحكامهن . ويقضى بينكم وبينهن بالعدل
، الذى لا يحوم حوله باطل .وفى تقديم لفظ الجلالة تنويه بشأن هذه الفتيا
وإشعار بوجوب التزام ما تتضمنه من أحكام لأنها صادرة من العليم الخبير
وقوله ( وَمَا يتلى عَلَيْكُمْ فِي الكتاب ) للنحاة فيه مذاهب شتى ، لعل.
أولاها بالقبول أن تكون ( وَمَا ) اسم موصول مبتدأ والخبر محذوف والتقدير
، يسالونك يا محمد عن بعض أحكام النساء فقل لهم : الله يفتيكم فى شأنهن
والذى يتلى عليكم فى الكتاب كذلك أى : يفتيكم فى شأنهن أيضا . وذلك المتلو
فى الكتاب الذى بين بعض الأحكام التى تتعلق بالنساء منه قوله - تعالى فيما
تقدم من هذه السورة : ( وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي اليتامى
فانكحوا مَا طَابَ لَكُمْ مِّنَ النسآء ) قال الفخر الرازى : وحاصل الكلام
أنهم كانوا قد سألوا عن أحوال كثيرة من أحوال النساء ، فما كان منها غير
مبين الحكم ذكر أن الله يفتيهم فيها . وما كان مبين الحكم فى الآيات
المتقدمة ذكر أن تلك الآيات المتلو تفتيهم فيها ، وجعل دلالة الكتاب على
هذا الحكم إفتاء من الكتاب - على سبيل المجاز - ألا ترى أنه يقال فى المجاز
المشهور : إن كتاب الله بين لنا هذا الحكم . وكما جاز أيضا أن يقال : إن
كتاب الله أفتى بكذا .وقوله ( فِي يَتَامَى النسآء ) صلة ليتلى . أى : يتلى
عليكم فى شأنهن .وإضافة اليتامى إلى النساء من إضافة الصفة إلى الموصوف أى
النساء اليتامى وجعلها بعضهم هنا على معنى من لأنها من إضافة الشئ إلى جنسه
أى : فى اليتامى من النساء .وقوله ( اللاتي لاَ تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ
لَهُنَّ ) صفة لليتامى .والمراد بما كتب لهن : ما فرض لهن من ميراث وصداق
وغير ذلك من حقوق شرعها الله - تعالى - لهن .قوله : ( وَتَرْغَبُونَ أَن
تَنكِحُوهُنَّ ) معطوف على صلة اللاتى .أى :لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون
أن تنكوحوهن .وقوله : أن تنكحوهن فى تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف وهو
إما ( فى ) وإما ( عن ) .وعلى أن حرف الجر المحذوف ( فى ) يكون المعنى :لا
تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون فى نكاحهن لأنفسكم إن كن جميلات أو غنيات أو
غير ذلك مما يرغبكم فى الزواج بهن مع عدم إعطائهن حقوقهن كاملة .وعلى أن

حرف الجر المحذوف ( عن ) يكون المعنى :لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون عن
نكاحهن . أى لا أنتم تتزوجونهن ولا تتركونهن يتزوجن بغيركم حتى تبقى
- أموالهن تحت أيديكم .قال ابن كثير : روى البخارى عن عائشة فى قوله
تعالى - ( وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النسآء قُلِ الله يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ )
إلى قوله ( وَتَرْغَبُونَ أن تَنكِحُوهُنَّ . . . ) أنها قالت : هو . . .
الرجل تكون عنده اليتيمة هو وليها ووراثها . فأشركته فى ماله حتى فى العذق
فيرغب أن ينكحها ويكره أن يزوجها رجلا فيشركه فى ماله بما شركته فيعضلها .
) - فنزلت هذه الآية .وعنها - أيضا أنها قالت : وقول الله - تعالى .
وَتَرْغَبُونَ أن تَنكِحُوهُنَّ ) رغبة أحدكم عن يتيمته التى فى حجره حين
تكون قليلة المال والجمال .ثم قال ابن كثير : والمقصود أن الرجل إذا كان فى
حجره حين تكون قليلة المال والجمال . فنهوا أن ينكحوا من رغبوا فى مالها
وجمالها من يتامى النساء إلى بالقسط من أجل رغبتهم عنهن - أى إذا كن قليلات
المال والجمال .ثم قال ابن كثير : والمقصود أن الرجل إذا كان فى حجره يتيمة
يحل هل تزوجها ، فتارة يرغب فى أن يتزوجها فأمره الله أن يمهرها أسوة
بمثالها من النساء . وتارة لا يكون له فيها رغبة فنهاه الله - تعالى - عن
أن يعضلها عن الأزواج خشية أن يشركوه فى ماله الذى بينه وبينها .وحذف حرف
الجار هنا لا يعد لبسا ، بل يعد من باب الإجمال والإيجاز البليغ ، لأن
، الجملة الكريمة صالحة لتقدير كل من الحرفين السابقين على سبيل البدل
- بالاعتبارين السابقين . أى باعتبار الرغبة فيهن أو الرغبة عنهن فكأنه
سبحانه - يقول : وترغبون فى نكاح بعضهن فى حالات معينة وترغبون عن نكاح بعض
، آخر منهن فى حالات أخرى؛ لأن فعل رغب يتعدى بحرف ( فى ) للشئ المحبوب
وبحرف ( عن ) للشئ غير المحبوب .قال الآلوسى : واستدل بعض أصحابنا - أى
الأحناف - بالآية على جواز تزويج الصغيرة ، لأنه ذكر الرغبة فى نكاحها
فاقتضى جوازه . والشافعية يقولون : إنه إنما ذكر ما كانت تفعله الجاهلية
على طريق الذم فلا دلالة فيها على ذلك ، مع أنه لا يلزم من الرغبة فى
نكاحها فعله فى حال الصغر .وهذا الخلاف فى غير الأب والجد ، وأما هما فيجوز
لهما تزويج الصغيرة بلا خلاف .وقوله : ( والمستضعفين مِنَ الولدان ) معطوف
على يتامى النساء ، وقد كانوا فى الجاهلية لا يورثونهم كما لا يورثون
) النساء ، فشرع الله لهم الميراث كما هو مبين فى آيات المواريث .وقوله
وَأن تَقُومُوا لليتامى بالقسط ) فى محل جر عطفا على ما قبله . أى : وما
يتلى عليكم فى يتامى النساء وفى المستضعفين من الوالدان وفى أن تقوموا
لليتامى بالقسط فيه الكافية لحملكم على سلوك الطريق القويم مع هؤلاء الضعاف
) : ومما ذكره الله - تعالى - فى شأن اليتامى قوله فى مطلع هذه السورة.
وَآتُوا اليتامى أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَتَبَدَّلُوا الخبيث بالطيب وَلاَ
تأكلوا أَمْوَالَهُمْ إلى أَمْوَالِكُمْ ) فيكون معنى الآية إجمالا : يسألك
بعض أصحابك يا محمد أن تفتيهم فى بعض الأحكام التى تتعلق بالنساء . قل لهم
على سبل التعليم والإرشاد : الله - تعالى - يفتيكم ويبين لكم بيانا شافيا
ما تسالون عنه بشأنهن . ويفتيكم أيضا فى شأنهن ما تلاه الله عليكم فى قرآنه
قبل نزول هذه الآية وما سيتلوه عليكم بعدها .ويفتيكم - أيضا - ما يتلى
. عليكم فى القرآن شأن اليتامى اللاتى تمنعونهن ما فرض لهن من الميراث وغيره
وترغبون فى نكاحهن لما لهن لجمالهن بأقل من صداقهن . أو ترغبون عن نكاحهن
وتعضلوهن طمعا فى أموالهن . وهذا الإفتاء الذى تلاه الله عليكم فى قرآنه
يمنعكم من أن تفعلوه شيئا من ذلك .ويفتيكم أيضا ما يتلى عليكم فى الكتاب فى
شأن اليتامى - ذكورا كانوا أو إناثا - بأن يامركم أن تلتزموا العدل معهم فى
أموالهم وفى سائر أمورهم .ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ( وَمَا
تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ الله كَانَ بِهِ عَلِيماً ) أى : وما
تفعلوه من خير يتعلق بهؤلاء المذكورين أو بغيرهم فإن الله - تعالى - كان به
عليما علما دقيقا محيطا ، وسيجازيكم عليه جزاء يشرح نفوسكم ويصلح بالكم
فالآية الكريمة قد اشتملت على الوان من الترغيب بشأن الإحسان إلى النساء.
، وإلى المستضعفين من الولدان . وإلى اليتامى حتى تعيش الأمة عيشة هانئة
. يشعر ضعيفها برعاية قويها له . ويشعر قويها برضاه ضعيفها عنه

وان امراة خافت من بعلها نشوزا او اعراضا فلا جناح عليهما ان يصلحا بينهما
صلحا والصلح خير واحضرت الانفس الشح وان تحسنوا وتتقوا فان الله كان بما
تعملون خبيرا

، كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعض الأحكام التى تتعلق بالزوجين
وعالج ما يقع بينهما من خلاف ونفرة علاجا حكيما فقال - تعالى - ( وَإِنِ
امرأة خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلاَ جُنَاحَ
عَلَيْهِمَآ أن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً والصلح خَيْرٌ ) .والخوف
معناه : توقع الانسان مكروها ينزل به . وهو هنا مستعمل فى حقيقته إلا أنه
لا يكون إلا بعد ظهور علامات تدل عليه من الرجل . كأن يقول لها : إنك قد
كبرت وأريد أن أتزوج بشابة . إلى غير ذلك من الأحوال التى تلمسها الزوجة من
زوجها بمقتضى مخالطتها له .والنشوز مأخوذ من النشز بمعنى الارتفاع ويوصف به

. الرجل والمرأة . والمراد به هنا ما يكون من الرجل من استعلاء على زوجته
ومجافة لها بترك مضاجعتها والتقصير فى نفقتها وفى حقوقها .والإعراض عنها
من مظاهره : التقليل من محادثتها ومؤانستها وإدخال السرور عليها . وهو وقد
ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها ما أخرجه الترمذى وحسنه عن
ابن عباس فقال : " خشيت سودة بنت زمعة إحدى زوجات النبى صلى الله عليه وسلم
أن يطلقها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله . لا تطلقنى
واجعل يومى لعائشة ففعل ونزلت هذه الآية " .وأخرج الشافعى عن سعيد بن
المسيب أن ابنة محمد بن مسلمة كانت عند رافع بن خديج فكره منها أمرا فأراد
طلاقها فقالت :لا تطلقنى واقسم لى ما بدالك . فاصطلحا على صلح فجرت السنة
بذلك ونزل القرآن .وروى عن عائشة أنها قالت : نزلت فى المرأة تكون عند
الرجل ويريد الرجل أن يستبدل بها غيرها فتقول له : أمسكنى وتزوج بغيرى وأنت
فى حل من النفقة والقسم .وقوله : ( وَإِنِ امرأة ) فاعل لفعل واجب الإضمار
، أى : وإن خافت امرأة خافت .وقوله : ( مِن بَعْلِهَا ) متعلق بخافت .
وقوله : ( فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ ) جواب الشرط .والمعنى : وإن خافت
امرأة من زوجها ( نشوزا ) أى تجافيا عنها ، وترفعها عن صحبتها ( أَوْ
إِعْرَاضاً ) أى : انصرافا عن محادثتها ومؤانستها على خلاف ما عهدته منه
قبل ذلك ، ففى هذه الأحوال ( فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ ) أى :لا حرج ولا
إثم على الزوجة وزوجها فى ( أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً ) يتفقان
عليه فيما بينهما رعاية لرابطة الزوجية وإبقاء على دوامها ، وذلك بأن تترك
المرأة بعض حقوقها حتى تسترضى زوجها وتعمل على إزالة ما فى نفسها من
استعلاء وانصراف عنها .وقوله ( صُلْحِا ) مفعول مطلق مؤكد لعامله . أو
) مفعول به على تأويل يصلحا بيوقعا صلحا . و ( بَيْنَهُمَا ) حال من
صُلْحِا ) لأنه كان نعتا له ونعت النكرة إذا تقدم عليها أعرب حالا ، وفيه
إشارة إلى أن الأولى لهما أن لا يطلعا الناس على ذلك . بل يكون ما يتفقان
عليه سرا بينهما .وقد عبر - سبحانه - عن طلب الصلح بقوله ( فَلاَ جُنَاحَ
عَلَيْهِمَآ ) ترفقا فى الإيجاب ، ونفيا لما يتوهم من أن تنازل أحدهما
للآخر عن بعض حقه يؤدى إلى الإثم ، لأن الصلح بينهما يقتضى أن يتسامح أحد
الزوجين فى جزء من حقه ليظفر بخير أكثر مما تسامح فيه . فإذا تركت المرأة
بعض حقها لتدوم عشرتها مع زوجها بالمعروف فذلك لا إثم فيه بل إن فيه الخير
وأكد - سبحانه - هذا الصلح بقوله ( صُلْحِا ) للإشارة إلى وجوب أن يكون.
الصلح بينهما حقيقيا لا شكليها ، وأن يكون بحيث تتلاقى فى القلوب ، وتصفوا
النفوس .وتشع بينهما المودة والرحمة ، ويرضى كل واحد منهما بما قسم الله له
وقوله : ( والصلح خَيْرٌ ) جملة معترضة من مبتدأ وخبر لتأكيد الصلح الذى.
حض الله عليه قبل ذلك .أى : والصلح بين الزوجين خيرا من الفرقة وسوء العشرة
اللهم إلا إذا استحال الصلح والوفاق بينهما فإنه فى هذه الحالة تكون ،
الفرقة بينهما خيرا . ( وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ الله كُلاًّ مِّن
سَعَتِهِ ) .قال ابن كثير ما ملخصه : وقوله ( والصلح خَيْرٌ ) . الظهر من
الآية أن صلحهما على ترك بعض حقها للزوج وقبول الزوج ذلك خير من المفارقة
بالكلية كما أمسك النبى صلى الله عليه وسلم سودة على أن تركت يومها لعائشة
ولم يفارقها بل تركها من جملة نسائه . وفعله هذا لتتأسى به أمته فى مشروعية
ذلك وجوازه فهو أفضل فى حقه صلى الله عليه وسلم ولما كان الوفاق أحب إلى
الله من الفراق قال : ( والصلح خَيْرٌ ) ، بل الطلاق بغيض إليه - سبحانه
: ولهذا جاء الحديث الذى رواه أبو داود وابن ماجة عن عبد الله بن عمر قال
" قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أبغض الحلال إلى الله الطلاق
وقوله - تعالى - ( وَأُحْضِرَتِ الأنفس الشح ) جملة أخرى معترضة جئ بها.
لبيان ما جبل عليه الإنسان من طباع ، وللحض على الصلح حتى ولو خالف ما
طبعت عليه النفس من سجايا .والفعل حضر يتعدى لواحد فدخلت عليه الهمزة فجعلت
يتعدى لاثنين كما هنا . إذ المفعول الأول نائب الفاعل وهو الأنفس والمفعول
الثانى كلمة الشح .والشح : البخل مع الحرص ، والمراد : وأحضر الله الأنفس
الشح . أى جبل الله النفوس على الشح بما تملكه ، فالمرأة لا تكاد تتسامع
، أنو تتنازل عن شئ من حقها ، والرجل كذلك لا يكاد يتنازل عن شئ من حقوقه
لأن حرص الإنسان على حقه طبيعة فيه . فعلى الزوجين أن يلاحظا ذلك وأن
يخالفا ميولهما وطبعهما من أجل الإبقاء على الحياة الزوجية بصفاء ومودة
فالجملة الكريمة ترشد الإنسان إلى داء من أدوائه وتأمره بمعالجته حتى ولو.
أدى ذلك إلى مخالفة ما جبلت عليه نفسه .ويرى ابن جرير أن المراد بالأنفس
: هنا أنفس النساء خاصة فقد قال ما ملخصه : وأولى القولين فى ذلك بالصواب
قول من قال : عنى بذلك . أحضرت أنفس النساء الشح بأنصبائهن من أزواجهن فى
الأيام والنفقة . والشح . والإفراط فى الحرص على الشئ . وهو فى هذا الموضع
إفراط حرص المرأة على نصيبها من أيامها من زوجها ونفقتها .فتأويل الكلام :
وأحضرت أنفس النساء أهواءهن من فرط الحرص على حقوقهن من أزواجهن ، والشح :
بذلك على ضرائرهن .ثم قال : ويشهد لهذا ما روى فى سبب نزول الآية من أنها
نزلت فى أمر رافع بن خديج وزوجته ، إذ تزوج عليها شابة ، فآثر الشابة عليها
فأبت الكبيرة أن تقر على الأثرة ، فطلقها تطليقة وتركها .فلما قارب ،
انقضاء عدتها ، خيرها بين الفراق والرجعة والصبر على الأثرة . فاختارت

الرجعة والصبر على الأثرة فراجعها وآثر عليها . فلم تصبر . ففى ذلك دليل
وضاح على أن قوله - تعالى - ( وَأُحْضِرَتِ الأَنفس الشح ) إنما عنى به :
- وأحضرت أنفس النساء الشح بحقوقهن من أزواجهن على ما وصفنا .ثم ختم
سبحانه - الآية الكريمة بالأمر بخشيته ومراقبته ، والسير فى طريق الصلح
والوفاق فقال : ( وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ الله كَانَ بِمَا
تَعْمَلُونَ خَبِيراً ) .أى : وإن تحسنوا - أيها الرجال - فى أقوالكم
وأفعالكم إلى نسائكم وتتقوا الله فيهن : بأن تتركوا التعالى عليهن
والإعراض عنهن وتصبروا على مالا ترضونه منهن ، من دمامة أو تقصير فى
- واجباتهن . إن تفعلوا ذلك يرفع الله درجاتكم . ويجزل ثوباكم ، لأنه
سبحانه - خبير بكل أحوالكم وأعمالكم ، ولن يضيع - سبحانه - أجر من أحسن
أعملا .فالجملة الكريمة خطاب للأزواج بطريق الالتفات . لقصد استمالتهم
وترغيبهم فى حسن معاملة نسائهم ، وسلوك طريق الصلح معهن .هذا ، ومن الأحكام
التى أخذها العلماء من هذه الآية الكريمة : أن على الزوجين أن يحسنا العشرة
الزوجية كل واحد منهما من جانبه ، وأن يصبر كل واحد منهما على ما يكون من
صاحبه من هفوات ومخالفات لا تخلو منها طبيعة الحياة الزوجية . .وأن أحد
الزوجين وإذا تنازل عن بعض حقوقه للآخر بقصد الإبقاء على الحياة الزوجية
جاز ذلك ، فإذا رغب رجل - مثلا - فى طلاق زوجته لسبب من الأسباب وكانت
الزوجة تريد البقاء معه ، وتنزلت المرأة عن بعض حقوقها فى سبيل من الأسباب
وكانت الزوجة تريد البقاء معه ، وتنازلت المرأة عن بعض حقوقها فى سبيل أن
تبقى معه وتراضيا على ذلك عن طيب خاطر ، بأن أعطته بعض المال - مثلا - فإن
ما أخذه منها لا يعد مالا حراما فى مثل هذه الحالة . أما إذا تظاهر الرجل
بالنشوز أو الإعراض لكى ينال شيئا من حقوقها أو تتنازل له عن بعضها ، فإن
، ما يأخذه الرجل منها فى مثل هذه الحالة يكون أكلا لحقوق غيره بالباطل
لأنه لم يكن راغبا حقيقة فى الطلاق وإنما تصنع النشوز أو الإعراض اجتلابا
، لمالها ، واستدراراً لخيرها . وقد نهى الله عن كل ذلك بل أمر بترك النشوز
ووعد من يحسن المعاشرة الزوجية ويتقى الله بالأجر الجزيل .قال القرطبى ما
ملخصه : يجوز أن يعطى الزوج على أن تصبر . أو تعطى هى على أن يبقيها فى
عصمته ، أو يقع الصلح بينهما على الصبر والأثرة - أى يؤثر غيرها عليها من
غير عطاء فهذا كله مباح . وقد يجوز أن تصالح إحداهن صاحبتها عن يومها بشئ
تعطيه إياها فقد غضب الرسول صلى الله عليه وسلم مرة على صفية فقالت لعائشة
أصلحى بينى وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ذهب لك يومى .قالت ،
" : عائشة : فجئت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلست إلى جانبه . فقال
إليك عنى فإنه ليس بيومك " فقلت : ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . وأخبرته
الخبر ، فرضى عنها . وفيه أن ترك التسوية بين النساء وتفضيل بعضهن على بعض
: لا يجوز إلابإذن المفضولة ورضاها .وقال بعض العلماء ما ملخصه : فإن قيل
إن الله - تعالى - قال فى نشوز المرأة : ( واللاتي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ
: فَعِظُوهُنَّ واهجروهن فِي المضاجع واضربوهن ) الآية وقال فى نشوز الرجل
وَإِنِ امرأة خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلاَ )
جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً ) . الآية فجعل
لنشوز المرأة عقوبة من زوجها يعظها ويهجرها فى المضجع ويضربها ولم يجعل
لنشوز الرجل عقوبة من زوجته ، بل جعل له ترضية وتلطفا فما معنى ذلك؟والجواب
عن ذلك : أن الله - تعالى - جعل الرجال قوامين على النساء ، فالرجل راعى
المرأة ورئيسها المهيمن عليها . ومن قضية ذلك ألا يكون للمرءوس معاقبة
رئيسه ، وإلا انقلب الأمر وضاعت هيمنة الرئيس .وأن الله فضل الرجال على
النساء فى العقل والدين . ومن قضية ذلك ألا يكون نشوز من الرجل إلا لسبب
قاهر . ولكن المرأة لنقصان عقلها ودينها يكثر منها النشوز لأقل شئ تتوهمه
سببا .وأن نشوز الرجل أمارة من أمارات الكراهة وإرادة الفرقة . وإذا كان
الله قد جعل له حق الفرقة ولم يجعل للمرأة عليه سبيلا إذا هو أراد فرقتها
. فأولى ألا يجعل لها عليه سبيلا إذا بدت منه أمارات هذه الفرقة

ولن تستطيعوا ان تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها
كالمعلقة وان تصلحوا وتتقوا فان الله كان غفورا رحيما

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن تحقيق العدالة الكاملة فى الحياة
الزوجية غير ممكن فقال - تعالى ( وَلَن تستطيعوا أن تَعْدِلُواْ بَيْنَ
النسآء وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلاَ تَمِيلُواْ كُلَّ الميل فَتَذَرُوهَا
: كالمعلقة ) . والخطاب هنا للرجال الذين يتزوجون بأكثر من زوجة . والمعنى
ولن تستطيعوا - أيها الرجال - أن تعدلوا بين زوجاتكم المتعددات عدلا كاملا
فى المحبة وفى الميل القلبى وفى غير ذلك من الأمور التى تختلف باختلاف تآلف
النفوس وتنافرها . ولو أنكم حرصتم على العدل الكامل فى مثل هذه الأمور
النفسية لما استطعتم ، لأن الميل النفسى لا يملكه الإنسان ولا يستطيع
التحكم فيه . قال ابن كثير : نزلت هذه الآية فى عائشة . وكان النبى صلى
الله عليه وسلم يحبها أكثر من غيرها . وقد روى الترمذى وأبو داود وغيرهما
عنها أنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم " يقسم بين نسائه فيعدل

" ثم يقول : " اللهم هذا قسمى فيما أملك . فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك .
يعنى القلب . وقوله ( فَلاَ تَمِيلُواْ كُلَّ الميل فَتَذَرُوهَا كالمعلقة
. إرشاد من الله - تعالى - للرجال إلى ما يجب عليهم هذا العدل أتم الحرص (
إذا ثبت ذلك فلا تميلوا كل الميل إلى إحداهن بأن تبالغوا فى إرضائها
والإقبال عليها حتى تصير الأخرى التى ملتم عنها وهجرتموها كالمعلقة أى
كالمرأة التى لا هى بذات زوج فتنال من حقوقها الزوجية ولا هى بمطلقة فترجو
من الله أن يرزقها بالزوج الذى يكرمها . وإنما الواجب عليكم - يا معشر
الرجال - أن تجاهدوا أنفسكم حتى تصلوا إلى الحق المستطاع من العدل بين
الزوجات . فقد أخرج الإمام أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى عن أبى هريرة
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من كانت له أمرأتان فمال إلى
أحداهما - أى لم يعدل بينهما فيما يمكنه العدل فيه - جاء يوم القيامة وأحد
شقيه ساقط " . وعن مجاهد قال : " كانوا يسوون بين الضرائر حتى فى الطيب
يتطيب لهذه كما يتطيب لهذه " . وقوله ( كُلَّ الميل ) نصب لفظ كل على
) المصدرية لأنها على حسب ما تضاف إليه من مصدر أو ظرف أو غيره . وقوله
فَتَذَرُوهَا ) منصوب بإضمار أن فى جواب النهى . أو مجزوم عطفا على الفعل
قبله . والجملة الكريمة توبيخ للأزواج الذين لا يعدلون بين نسائهم . قال
. القرطبى : وقوله ( فَتَذَرُوهَا كالمعلقة ) أى :لا هى مطلقة ولا ذات زوج
وهذا تشبيه بالشئ المعلق من شئ ، لأنه لا على الأرض استقر ولا على ما علق
. عليه انحمل ، وهذا مطرد فى قولهم فى المثل : ( ارض من المركب بالتعليق )
.وفى حديث أم زرع : زوجي العشنق- أى الطويل الممتد القامة- إن أنطق أطلق
- وإن أسكت أعلق- أى أهمل وأترك حتى لكأننى بدون زوج - . ثم ختم - سبحانه
الآية بقوله : ( وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ الله كَانَ
غَفُوراً رَّحِيماً ) . أى : وإن تصلحوا أعمالكم - أيها الناس - فتعدلوا فى
، قسمتكم بين أزواجكم وتعاشروهن بالمعروف ، وتتقوا الله وتراقبوه فيهن
وتتوبوا إلى الله توبة نصوحا مما حدث منكم من ظلم لهن . إن تفعلوا ذلك يغفر
الله لكم ذنوبكم ويتفضل عليكم برحمته وإحسانه . هذا وقد ادعى بعض الذين لم
- يفهموا تعاليم الإسلام فهما سليما أن هذه الآية بضمها إلى قوله - تعالى
فى مطلع هذه السورة ( فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً )
يكون منع تعدد الزوجات جائزا شرعا ، لأن الله تعالى - قد بين فى الآية الى
معنا وهى قوله ( وَلَن تستطيعوا أن تَعْدِلُواْ ) أن الجمع بين النساء غير
جائز إلا عند الوثوق من العدل بينهن ، وبما أن العدل بينهن غير مستطاع بنص
الآية التي معنا، إذا فالجمع بين النساء غير جائز، وعلى الرجل أن يكتفى
بواحدة. وللرد على هذه الدعوى نقول : إن العدل الذى أخبر الله أنه غير
، مستطاع ، هو العدل الذى يتعلق بالتسوية بين الزوجات فى الحب القلبى
والميل النفسى ، والتجاوب العاطفى ، إذ من المعلوم أن هذه الأمور النفسية
لا يستطيع الإنسان أن يتحكم فيها . فأنت - مثلا - تجلس فى مجلس فيه أشخاص
متعددون لا تعرفهم فتحس بارتياح لبعضهم وينفور من بعضهم مع أنك لم يسبق لك
أن اختلطت بواحد منهم ، وما ذلك إلا لأن الميول القلبية يعجز الإنسان عن
التحكم فيها . أما العدل الذى جعله الله شرطا فى جواز الجمع بين الزوجات
فهو العدل الذى يتعلق بالتسوية فيما يقدر عليه الإنسان ويملكه مثل التسوية
بينهن فى النفقة والكسوة والسكنى والمبيت . وغير ذلك من الأمور التى يقدر
عليها . وبهذا نرى أن موضوع الآية التى معنا يتعلق بالعدل النفسى وهو أمر
غير مستطاع كما جاء فى الحديث الشريف : " اللهم هذا قسمى فيما أملك ، فلا
تلمنى فيما تملك ولا أملك " . وأما موضوع الآية التى فى صدر السورة وهى
قوله - تعالى - ( فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً ) فيتعلق
بالعدل الظاهرى الذى يقدر عليه الإنسان مثل التسوية فى النفقة وغير ذلك
مما يقدر عليه الإنسان . ومع هذا ، فالآية التى معنا لم تطالب الرجل
بالعدالة المطلقة الكاملة بين زوجاته بأن يسوى بينهن فى كل شئ ، لأن العدل
بهذا المعنى غير مستطاع للمكلف ولو حرص على إقامته وبالغ فى ذلك . وإنما
الآية الكريمة طالبته بالممكن منه فكأنها تقول : إنكم - أيها الرجال - لن
تستطيعوا أن تعدلوا العدل المطلق الكامل بين زوجاتكم فى القسم والنفقة
والتعهد والنظر والمؤانسة والمحبة وغير ذلك مما لا يكاد يحصر ( وَلَوْ
حَرَصْتُمْ ) على هذا العدل الكامل أتم الحرص لما استطعتموه ، ولذلك لم
يكلفكم الله به ، إذ التكليف الشرعى إنما يكون بما فى الوسع والطاقة ، إذ
التكليف الشرعي إنما يكون بما في الوسع والطاقة، وإذا كان الأمر كذلك
فاجتهدوا ما استطعتم في العدل بين زوجاتكم، ولا تميلوا كل الميل إلى واحدة
.منهن وتهملوا الأخرى إهمالا يجعلها كأنها لا هي ذات زوج ولا هي مطلقة

فإن العجز عن العدل المطلق الكامل لا يمنع تكليفكم بما دون ذلك من المراتب
التى تقدرون عليها قالوا : ما لا يدرك كله لا يترك كله . وبهذا نرى أن
الآيتين الكريميتين تدعوان المسلم إلى العدل بين زوجاته بالقدر الذى
يستطيعه بدون تقصير أو جور ، وأنهما بانضمام معناهما لا تمنعان تعدد
الزوجات كما ادعى المدعون . وبعد أن رغب - سبحانه - في الصلح بين الزوجين
وحض عليه، وأمر الأزواج بالعدل بين الزوجات بالقدر الذي يستطيعونه، عقب ذلك

ببيان أن التفرقة بينهما جائزة إذا لم يكن منها بد. لأن التفرقة مع الإحسان خير من المعاشرة السيئة

وان يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسعا حكيما

كما فسرها الوسيط فقال - تعالى - ( وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ الله كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ الله وَاسِعاً حَكِيماً ) .وإن عز الصلح بين الزوجين ) واختارا الفراق تخوفا من ترك حقوق الله التى أوجبها على كل واحد منهما يُغْنِ الله كُلاًّ ) منهما ( مِّن سَعَتِهِ ) أى يجعل كل واحد منهما - مستغنيا عن الآخر ( وَكَانَ الله وَاسِعاً حَكِيماً ) أى : وكان الله تعالى - وما يزال واسعا أى واسع الغنى والرحمة والفضل ( حَكِيماً ) فى جميع أفعاله وأحكامه .وبهذا نرى أن هذه الآيات الكريمة قد وضعت أحكم الأسس للحياة الزوجية السليمة ، وعالجت أمراضها بالعلاج الشافى الحكيم ، فقد أمرت الرجال بأن يؤدوا للنساء حقوقهن ، وأن يعاشروهن بالمعروف ، وأن على الزوجين إذا ما دب بينهما خلاف أن يعالجاه فيما بينها بالتصالح والتسامح ، وإذا اقتضى الأمر أن يتنازل أحدهما للآخر عن جانب من حقوقه فليفعل من أجل الإبقاء على الحياة الزوجية . وأن الرجل لا يستطيع أن يعدل عدلا مطلقا كاملا بين زوجاته ، ولكن هذا لا يمنعه من العدل بينهن بالقدر الذى يستطيعه بدون تقصير أو ميل مع الهوى ، فإن الميسور لا يسقط بالمعسور . وأنه إذا استحال الصلح وتنافرت الطباع ، وساءت العشرة كان الفراق بينهما أجدى ، إذ الفراق مع الإحسان خير من الإمساك مع المعاشرة السيئة التى عز معها الإصلاح والوفاق والتقارب بين القلوب .وبعد أن بين - سبحانه - ما ينبغى أن - تكون عليه العلاقة بين الزوجين ووسائل علاج أدوائها . . بعد كل ذلك يبن سبحانه - أن كل شئ فى ملكه وتحت سلطانه ، فعلى الناس أن يخشوه ويراقبوه ويشتغلوا بعبادته فقال - تعالى - : ( وَللَّهِ مَا فِي . . . سَمِيعاً بَصِيراً ) .

ولله ما في السماوات وما في الارض ولقد وصينا الذين اوتوا الكتاب من قبلكم واياكم ان اتقوا الله وان تكفروا فان لله ما في السماوات وما في الارض وكان الله غنيا حميدا

كما فسرها الوسيط قال ابن جرير ، قوله ( وَللَّهِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض ) يعنى بذلك - سبحانه - ولله ملك جميع ما حوته السماوات السبع ) والأرضون السبع من الأشياء كلها . وإنما ذكر - جل ثناؤه ذلك بعقب قوله وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ الله كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ ) تنبيها منه لخلقه على موضع الرهبة عند فراق أحدهم زوجة ليفزعوا إليه عند الجزع من الحاجة . والفاقة والوحشة بفراق سكنه ، وتذكيرا منه له أنه الذى له الأشياء كلها وأن من كان له ملك جميع الأشياء فغير متعذر عليه أن يغنيه ويغنى كل ذى فاقة وحاجة ويؤنس كل ذى وحشة .فالجملة الكريمة مستأنفة لبيان مظاهر قدرته ورحمته بعباده . والخطاب فى قوله : ( وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الذين أُوتُواْ الكتاب مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتقوا الله ) والمراد بالذين ( أُوتُواْ الكتاب ) : اليهود والنصارى ومن قبلهم من الأمم . والمراد بالكتاب : جنس الكتب الإلهية .وقوله : ( وَإِيَّاكُمْ ) معطوف على الموصول . وقوله ( مِن قَبْلِكُمْ ) متعلق بأوتوا أو بوصينا وقوله : ( أَنِ اتقوا الله ) أن مصدرية فى محل جر بتقدير حرف الجر .والمعنى : ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم من الأمم السابقة ( وَإِيَّاكُمْ ) أى : وصينا كلا منهم ومنكم بتقوى الله . أى بمراقبته وخشيته وتنفيذ أوامره والبعد عن نواهيه وقوله : ( وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ للَّهِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض ) معطوف على وصينا بتقدير قلنا . أى وصيناهم ووصيناكم بتقوى الله ، وقلنا لكم ولهم : إن تكفروا فاعلموا أنه - سبحانه شكركم وتقواكم ، وإنما وصاكم وإياهم بما وصى لرحمته بكم لا لحاجته إليكم . كما قال - تعالى - فى آية أخرى : ( إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلاَ يرضى لِعِبَادِهِ الكفر وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ) ويرى صاحب الكشاف أن قوله - تعالى - ( وَإِن تَكْفُرُواْ ) عطف على اتقوا ، فقد قال : وقوله ( وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ للَّهِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض ) : : عطف على اتقوا . لأن المعنى . أمرناهم وأمرناكم بالتقوى ، وقلنا لهم ولكم إن تكفروا فإن لله ما فى السماوات وما فى الأرض . والمعنى : إن لله الخلق كله وهو خالقهم ومالكهم والمنعم عليهم بأصناف النعم كلها ، فحقه أن يكون مطاعا فى خلقه غير معصى . يتقون عقابه ويرجون ثوابه . ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من الأمم السابقة ووصيناكم أن اتقوا الله . يعنى : أنها وصية قديمة ما زال يوصى الله بها عباده ، لستم بها مخصوصين : لأنهم بالتقوى يسعدون عنده ، وبها ينالون النجاة فى العاقبة . وقلنا لهم ولكم : وإن تكفروا فإن لله فى سمواته وأرضه من الملائكة والثقلين من يوحده ويعبده ويتقيه .وجواب الشرط فى قوله وإن تكفروا محذوف ، والتقدير : إن تكفروا بما

وصاكم به فلن يضيره كفركم فإنه - سبحانه - له ما فى السماوات وما فى الأرض
: ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : (وَكَانَ اللَّه غَنِيّاً حَمِيداً ) أى
وكان الله وما زال غنيا من خلقه وعن عبادتهم ، مستحقا لأن يحمده الحامدون
. لكثرة نعمه عليهم فالجملة الكريمة تذييل مقرر لما قبله

ولله ما في السماوات وما في الارض وكفى بالله وكيلا

كما فسرها الوسيط ثم أكد - سبحانه - هيمنته على هذا الكون وملكيته له فقال
أى. ( وَلِلَّهِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض وكفى بالله وَكِيلاً ) :
ولله - تعالى - وحده ما فى السماوات وما فى الأرض ملكا وتصرفا وإيجادا :
وإعداما . وإحياء وإماتة . وكفى بالله - تعالى - وكيلا فى تدبير أمرو خلقه
وحفظه لمصالحهم .والوكيل هو القيم والكفيل بالأمر الذى يوكل إليه .وقد ،
ذكر - سبحانه - فى هاتين الآيتين ملكيته لما فى السماوات وما فى الأرض ثلاث
مرات ، تأكيد العظم سلطانه وقدرته وسعة غناه ورحمته ، حتى ترسخ فى نفوس
الناس تقواه وخشيته .قال القرطبى : فإن قال قائل : ما فائدة هذا التكرار؟
فعنه جوابان :أحدهما : أنه كرر تأكيدا ليتنبه العباد وينظروا ما فى ملكوته
وأنه غنى عن العالمين .الجواب الثانى : أنه كرر لفوائد : فأخبر فى الأول أن
الله - تعالى - يغنى كلا من سعته لأن له ما فى السماوات وما فى الأرض فلا
تنفد خزائنه . ثم قال : أوصيناكم وأهل الكتاب بالتقوى وإن تكفروا فإن غنى
عنكم لأن له ما فى السماوات والأرض. ثم أعلم فى الثالث بحفظ خلقه وتدبيره
إياهم بقوله ( وكفى بالله وَكِيلاً ) ، لأن له ما فى السماوات وما فى الأرض
. . .

ان يشا يذهبكم ايها الناس ويات باخرين وكان الله على ذلك قديرا

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - ( إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا
الناس وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ الله على ذلك قَدِيراً ) تقرير لما سبق
بيانه من عظيم سلطانه وغناه وقدرته .أى : إن يشأ الله يفنكم ويهلككم أيها
الناس - ويأت مكانكم بقوم آخرين ، وكان الله وما زال على إفنائكم وإيجاد
غيركم بليغ القدرة ، لأنه - سبحانه -لا يعجزه شئ . لكنه - سبحانه - لم يشأ
، ذلك لا لعجز منه . ولكن لأن حكمته اقتضت بقاءكم ، ليبلوكم أيكم أحسن عملا
وليجازى كل إنسان على حسب عمله .قال الجمل : ( ومفعول المشيئة محذوف يدل
عليه مضمون الجزاء . أى : إن يشأ إفناءكم وإيجاد آخرين يذهبكم - يعنى : أن
إبقاءكم على ما أنتم عليه من العصيان إنما هو لكمال غناه عن طاعتكم ، ولعدم
تعلق مشيئته المبنية على الحاكم البالغة بإفناءكم لا لعجزه - سبحانه - وقيل
هو خطاب لمن عادى رسول الله صلى الله عليه وسلم من العرب : أى : يشأ :
يمتكم ويأت بأناس آخرين يوالونه . فمعناه هو معنى قوله - تعالى - ( وَإِن
تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يكونوا
أَمْثَالَكُم ) ويروى أنها لما نزلت ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده
على ظهر سلمان الفارسى وقال : " إنهم قوم هذا " .يريد أبناء فارس .فالآية
. الكريمة تقرير لغناه وقدرته - سبحانه - وتهديد لمن كفر به وعصاه

من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والاخرة وكان الله سميعا بصيرا

، كما فسرها الوسيط ثم حرض - سبحانه - الناس على أن يقصدوا بعملهم وجه الله
وأن يجعلوا مقصدهم الأعظم الفوز بنعيم الآخرة فقال - تعالى - : ( مَّن
كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدنيا فَعِندَ الله ثَوَابُ الدنيا والآخرة وَكَانَ
الله سَمِيعاً بَصِيراً ) .والمراد بثواب الدنيا : خيراتها التى تعود على
طالبها بالنفع الدنيوى .والمراد بثواب الآخرة : الجزاء الحسن الذى أعده
الله - تعالى - لعباده الصالحين .والمعنى : من كان يريد ثواب الدنيا
كالمجاهد يريد بجهاده الغنيمة والمنافع الدنيوية ، فأخبره وأعلمه يا محمد
أن عند الله ثواب الدنيا والآخرة . فلماذا قصر الطلب على المنافع الدنيوية
) : مع أن ثواب الآخرة أجزل وأبقى؟ وهلا اقتدى بمن قالوا فى دعائهم
رَبَّنَآ آتِنَا فِي الدنيا حَسَنَةً وَفِي الآخرة حَسَنَةً ) وجزاء الشرط
محذوف بتقدير الإعلام والإخبار . أى : من كان يريد ثواب الدنيا فأعلمه
وأخبره أن عند الله ثواب الدارين فماله لا يطلب ذلك أو يطلب الأشرف وهو
، ثواب الآخرة فإن من جاهد - مثلا - جهادا خالصا لم تفته المنافع الدنيوية
وله بجانب ذلك فى الآخرة ما هو أنفع وأعظم وأبقى . فقد روى الإمام أحد عن
زيد بن ثابت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من كان همة الآخرة
جمع الله - تعالى شمله ، وجعل غناه فى قلبه ، وأتته الدنيا وهى راغمة ، ومن
كانت نيته الدنيا فرق الله عليه ضيعته ، وجعل فقره بين عينه ، ولم يأته من
الدنيا إلا ما كتب له " .ويرى صاحب البحر المحيط أن جواب الشرط محذوف
لدلالة المعنى عليه فقد قال : والذى يظهر أن جواب الشرط محذوف لدلالة

المعنى عليه . والتقدير : من كان يريد ثواب الدنيا فلا يقصر عليه وليطلب
) الثوابين فعند الله ثواب الدنيا والآخرة .ثم قال : وقال الراغب وقوله
فَعِندَ الله ثَوَابُ الدنيا والآخرة ) تبكيت للإنسان حيث اقتصر على أحد
- السؤالين مع كون المسئول مالكا للثوابين ، وحث على أن يطلب منه - تعالى
ما هو أكمل وأفضل من مطلوبه . فمن طلب خسيسا مع أنه يمكنه أن يطلب نفيسا
فهو دنئ الهمة . وقيل : الآية وعيد للمنافقين الذين لا يريدون بالجهاد غير
الغنيمة .وما عبر عنه صاحب البحر المحيط بقوله : وقيل : الآية وعيد
للمافقين ، قد رجحه ابن جرير واختاره فقد قال ما ملخصه : قوله ( مّن كَانَ
يُرِيدُ ) أى : ممن أظهر الإيمان من أهل النفاق .( ثَوَابَ الدنيا ) يعنى
عرض الدنيا ( فَعِندَ اللّهِ ثَوَابُ الدنيا والآخرة ) يعنى : أن جزاءه فى
الدنيا منها هو ما يصيب ما المغنم . وأما ثوابه فى الآخرة فنار جهنم .والذى
نراه أولى أن الآية الكريمة تخاطب الناس عامة ، فتبين لهم ا ، خير الدنيا
بيد الله وخير الآخرة أيضا بيد الله ، فإن اتقوه نالوا الخيرين ، وتبههم
إلى أن من الواجب عليهم الآ يشغلهم طلب خير الدنيا عن طلب خير الآخرة .بل
عليهم أن يقدموا ثواب الآخرة على ثواب الدنيا . عملا بقوله - تعالى - فى
آية أخرى : ( وابتغ فِيمَآ آتَاكَ الله الدار الآخرة وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ
- مِنَ الدنيا ) ولا نرى مقتضيا لتخصيص الآية بالمافقين كما - يرى ابن جرير
رحمه الله .وقوله - تعالى - ( وَكَانَ الله سَمِيعاً بَصِيراً ) تذييل قصد
- به حض الناس على الإخلاص فى أقوالهم وأعمالهم .أى : وكان الله - تعالى
، سميعا لكل ما يجهر به الناس ويسرونه ، بصيرا بأحوالهم الظاهرة والخفية
وسيجازيهم بما يستحقونه من ثواب أو عقاب ، ( يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ
- وَلاَ بَنُونَ إِلاّ مَنْ أَتَى الله بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ) ثم وجه
سبحانه - بعد ذلك ندائين متتالين إلى المؤمنين أمرهم فيهما بالمداومة على
التمسك بفضيلة العدل فى جميع الظروف والأحوال ، وبالثبات على الإيمان الحق
الذى ينالون به ثوابا لله ورضاه ، وتوعد الذين ينحرفون عن طريق الحق بسوء
العاقبة فقال - تعالى - : ( يَا أَيُّهَا الذين . . . . ضَلاَلاً بَعِيداً
) .

يا ايها الذين امنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على انفسكم او
الوالدين والاقربين ان يكن غنيا او فقيرا فالله اولى بهما فلا تتبعوا الهوى
ان تعدلوا وان تلووا او تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيرا

كما فسرها الوسيط وقوله ( قَوّامِينَ ) جمع قوام وهو صيغة مبالغة من قائم
والقوام : هو المبالغ فى القيام بالشئ وفى الإتيان به على أتم وجه .
وأحسنه .وقوله ( شُهَدَآءَ ) جمع شهيد بوزن فعيل . والأصل فى هذه الصغية
أنها تدل على الصفات الراسخة فى النفس ككريم وحكيم .والمعنى : يأيها الذين
آمنوا بالحق إيمانا صادقا . كونوا مواظبين على إقامة العدل فيما بينكم فى
جميع الظروف والأحوال دون أن يصرفكم عن ذلك صارف ، وكونوا " شهداء لله " أى
مقيمين للشهادة بالحق ابتغاء وجه الله لا لغرض من الأغراض الدنيوية . ولا :
لمطمع من المطامع الشخصية ، فإن الإيمان الحق يسلتزم منكم أن تعدلوا فى
) أحكامكم وأن تؤدوا الشهادة على وجهها .وفى ندائه - سبحانه - لهم بقوله
يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ ) تنبيه إلى الأمر الخير الذى ناداهم من أجله
ودعاهم إلى تنفيذه وهو التزام العدالة فى كل أمورهم ، وتحريك لعاطفة
- الإيمان فى قلوبهم بمقتضى وصفهم - بهذه الصفة الجليلة .وعبر - سبحانه
بقوله ( يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ ) بصيغة المبالغة الدالة على الكثرة
والمداومة على الشئ ، لتمكين صفة العدالة فى نفوسهم ، وترسيخها فى قلوبهم
فكأنه - سبحانه - يقول لهم : رضوا أنفسكم على التزام كلمة الحق ، وعودوها
على نصرة المظلوم وخذلان الظلم ، وليكن ذلك خلقا من أخلاقكم . وسجية من
سجاياكم ، فلا يكفى أن تعدلوا فى أحكامكم مرة أو مرتين ، وإنما الواجب
عليكم أن تداوموا على إقامة العدل فى كل الأحوال ، ومع كل الأشخاص .قال
صاحب المنار : وهذه العبارة - وهى قوله - تعالى - ( كُونُواْ قَوّامِينَ
بالقسط ) أبلغ ما يمكن أن يقال فى تأكيد أمر العدل والعناية به فالأمر
بالعدل والقسط مطلقا يكون بعبارات مختلفة بعضها آكد من بعض تقول : اعدلوا
أو اقسطوا . وتقول : كونوا عادلين أو مقسطين . وهذه العبارة أبلغ؛ لأنها
أمر بتحصيل الصفة لا بمجرد الإتيان بالقسط الذى يصدق بمرة .وتقول : أقيموا
القسط . وأبلغ منه : كونوا قائمين بالقسط . وأبلغ من هذا وذاك : كونوا
قوامين بالقسط . أى : لتكن المبالغة والعناية بإقامة القسط على وجهه صفة من
صفاتكم ، بأن تتحروه بالدقة التامة حتى تكون ملكة راسخة فى نفوسكم . والقسط
يكون فى العمل كالقيام بما يجب من العدل بين الزوجات والأولاد ويكون فى
الحكم بين الناس . . .وقوله ( شُهَدَآءَ ) خبر ثان لكونوا . وقوله ( للّهِ
متعلق بمحذوف حال من ضمير ( شُهَدَآءَ ) .أى : كونوا ملازمين للعدل فى كل
أمروكم وكونوا مقيمين للشهادة على وجهها حالة كونها لوجه الله ، لا لعرض من
أعراض الدنيا .قال الفخر الرازى : وإنما قدم - سبحانه - الأمر بالقيام
بالقسط على الأمر بالشهادة لوجوه :الأول : أن أكثر الناس من عادتهم أنهم

يأمرون غيرهم بالمعروف ، فإذا آل الأمر إلى أنفسهم تركوه حتى أن أقبح
القبيح إذا صدر عنهم كان فى محل المسامحة وأحسن الحسن .وإذا صدر عن غيرهم
كان محل المنازعة . فالله - تعالى - نبه فى هذه الآية على سوء هذه الطريقة
وذلك أنه - سبحانه - أمرهم بالقيام بالقسط أولا ، ثم أمرهم بالشهادة على .
الغير ثانيا ، تنبيها على أن الطريقة الحسنة أن تكون مضايقة الإنسان مع
نفسه فوق مضايقته مع الغير .الثانى : أن القيام بالشهادة عبارة عن دفع ضرر
العقاب عن الغير ، وهو الذى عليه الحق . ودفع الضرر عن النفس مقدم على دفع
الضرر عن الغير .الثالث : أن القيام بالقسط فعل ، والشهادة قول والفعل أقوى
من القول .وقوله ( وَلَوْ على أَنْفُسِكُمْ أَوِ الوالدين والأقربين )
تأكيد للأمر بالتزام الحق فى الأحكام والشهادات .أى : كونوا قوامين بالقسط
وكونوا مقيمين للشهادة بالحق خالصة لوجه الله ، ولو كانت الشهادة على ،
- أنفسكم - بأن تقروا بأن الحق عليها إذا كان واقع الأمر كذلك - ولو كانت
أيضا . على والديكم وعلى أقرب الناس إليكم .قال القرطبى : وشهادة المرء على
نفسه إقراره بالحقوق عليها ثم ذكر الوالدين لوجوب برهما وعظم قدرهما . ثم
ثنى بالأقربين إذهم مظنة المودة والتعصب فكان الأجنبى من الناس أحرى أن
يقام عليه بالقسط ويشهد عليه . . . ولا خلاف بين أهل العلم فى صحة أحكام
، هذه الآية ، وأن شهادة الولد على الوالدين ماضية ، ولا يمنع ذلك من برهما
بل أن يشهد عليهما ويخلصهما من الباطل . وكان من مضى من السلف الصالح
يجيزون شهادة الوالدين والأخ ، لأنه لم يكن أحد يتهم فى ذلك من السلف . ثم
ظهرت من الناس أمور حملت الولاة على اتهامهم ، فتركت شهادة من يتهم . وأجاز
قوم شهادة بعضهم لبعض إذا كانوا عدولا .و ( لَوْ ) فى قوله ( وَلَوْ على
. أَنْفُسِكُمْ ) شرطية . والجار والمجرور خبر لكان المحذوفة مع اسمها
وجواب لو محذوف . والتقدير : ولو كانت الشهادة على أنفسهم فاشهدوا عليها
بأن تقروا على أنفسكم بالحق ولا تكتموه .وقوله - تعالى - ( إِن يَكُنْ
غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فالله أولى بِهِمَا ) تأكيد لوجوب التزام الحق مع
الغنى والفقير والصغير والكبير .أى : إن يكن المشهود عليه غنيا يرجى فى
العادة ويخشى أو فقيراً يترحم عليه فى الغالب ولا يخشى ، فلا تمتنعوا عن
الشهادة ، لأن الله - تعالى - هو الأول والأجدر بحساب كل من الغنى والفقير
: وهو الأعلم بمصالح الناس ، والأرحم بهم منكم . وجواب الشرط محذوف ، أى ،
إن يكن المشهود عليه غنيا أو فقيرا فلا تتركوا الشهادة لأن الشهادة فى
" مصلحتهما .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم ثنى الضمير فى " أولى بهما
وكان حقه أن يوحد؛ لأن قوله : إن يكن غنيا أو فقيرا فى معنى إن يكن أحد
هذين؟قلت قد رجع الضمير إلى ما دل عليه قوله : ( إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ
فَقِيراً )لا إلى المذكور ، فلذلك ثنى ولم يفرد ، وهو جنس الغنى وجنس
الفقير .فكأنه قيل : فالله أولى بجنسى الغنى والفقير . أى : بالأغنياء
والفقراء . وفى قراءة أبى : فالله أولى بهم وهى شاهدة على ذلك .وقال ابن
جرير : نزلت فى النبى صلى الله عليه وسلم إذا اختصم إليه رجلان : غنى وفقير
. وكان ضعله - أى ميله - مع الفقير؛ لأنه يرى أن الفقير لا يظلم الغنى :
فأبى الله إلا أن يقوم بالقسط فى الغنى والفقير فقال : ( إِن يَكُنْ
غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فالله أولى بِهِمَا ) .والذى يستفاد من هذه الرواية
ومن ظاهر الآية أن الغنى أو الفقر لا يصح أن يكونا سببا فى التفاوت فى
الحكم . ويقاس عليهما غيرهما من أحوال الناس ، لأن الله - تعالى هو الذى
نظم الكون بحكمته ، وهو أعلم بمصالح الناس من أنفسهم ، وجعل فيهم الغنى
والفقير لأن الغنى والفقر أمران ثابتان فى هذا الوجود ، ولا يمكن أن تخلو
منهما الجماعة الإنسانية ، لأن ذلك تنظيم الله - تعالى ، وإرادته الخالدة
وهو الذى يتفق مع الطبيعة الإنسانية ، إذ العقول متفاوتة ، والعزائم ،
مختلفة ، والأعمال متنوعة ، ونتيجة لذلك كانت الثمار ليست متحدة .والمراد
بالهوى فى قوله : ( فَلاَ تَتَّبِعُواْ الهوى أَن تَعْدِلُواْ ) الخضوع
للشهوات والميل مع نزعات النفس الأمارة بالسوء .وقوله ( أَن تَعْدِلُواْ )
، فى موضع المفعول لأجله ويحتمل أن يكون بمعنى العدل فيكون علة للمنهى عنه
ويكون فى الجملة مضاف مقدر . والمعنى : فلا تتبعوا الهوى والميل مع الشهوات
كراهة أن تعدلوا بين الناس ويحتمل أن يكون بمعنى العدول عن الحق فيكون علة
للنهى بتقدير لا ، أى : أنهاكم عن اتباع الهوى لئلا تميلوا عن الحق وتتركوا
، العدل .قال ابن كثير : أى :لا يحملنكم الهوى والعصبية وبغض الناس إليكم
- على ترك العدل فى شئونكم . بل ألزموا العدل على أى حال كان . كما قال
تعالى - ( وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ على أَلاَّ تَعْدِلُواْ
اعدلوا هُوَ أَقْرَبُ للتقوى ) ومن هذا قول عبد الله بن رواحة لما بعثه
النبى صلى الله عليه وسلم يخرص على أهل خيبر ثمارهم وزروعهم ، فأرادوا أن
يرشوه ليرفق بهم ، فقال : والله لقد جئتكم من عند أحب الخلق إلى . ولأنتم
. أبغض الخلق إلى . وما يحملنى حبى إياه وبغضى لكم على أن لا أعدل فيكم
فقالوا : بهذا قامت السموات والأرض .وقوله - تعالى - ( وَإِن تَلْوُواْ
أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ الله كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ) تذييل
قصد به تهديدهم ووعيدهم على ترك العدل ، وعلى الامتناع عن الشهادة بالحق
) قال الفخر الرازى ما ملخصه : وفى الآية قراءتان . فقد قرأ الجمهور.

: تَلْوُواْ ) - بواوين قبلهما لام ساكنة - بمعنى الدفع والإعراض من قولهم لواه حقه إذا مطله ودفعه .أو بمعنى التحريف والتبديل من قولهم لوى الشئ إذا فتله .وقرأ ابن عامر وحمزة ( تلوا ) بلام مضمومة بعدها واو ساكنة - من الولاية بمعنى مباشرة الشئ والاشتغال به .والمعنى على قراءة الجمهور : وإن تلووا ألسنتكم عن الشهادة بالحق بأن تحرفوها وتقيموها على غير وجهتها أو تعرضوا عنها رأسا وتتركوها يعاقبكم الله عقابا شديدا فإنه - سبحانه - عليم بدقائق الأشياء ، خبير بخفايا النفوس ، وسيجازى كل إنسان بما يستحقه .والمعنى على القراءة الثانية : وإن تلوا الشهادة فتباشروها على وجهها يعطكم الله أجرا حسنا ، ون تعرضوا عنها وتتركوها بعاقبكم الله عقابا أليما فإن الله - تعالى - خبير بكل أقوالكم وأعمالكم . وقيل : إن القراءتين ، بمعنى واحد لأن أصل ( تلوا ) - وهى قراءة حمزة وابن عامر - تلْووا - وهى قراءة الجمهور - نقلت حركة الواو - فى قراءة الجمهور - إلى الساكن قبلهما فالتقى واوان ساكنان فحذفت إحداهما فصارت الكلمة ( تلوا ) .هذا ، والمتأمل ، في هذه الآية الكريمة يراها تبنى المجتمع الإسلامى على أقوى القواعد وأمتن الأسس وأشرف المبادئ . إنها تبنيه على قواعد العدل والقسط ، وتأمر المؤمنين أن يلتزموا كملة الحق مع أنفسهم ومع أقرب المقربين إليهم مهما تكلفوا فى ذلك من جهاد شاق يقتضيه التزام الحق ، فإن كلمة الحق كثيرا ما تجعل صاحبها عرضة للإيذاء والاعتداء والاتهام بالباطل من الأشرار والفجار بل إن كلمة الحق قد تفضى بصاحبها إلى الموت . ولكن لا بأس ، فإن الموت مع . التمسك بالحق ، خير من الحياة فى ظلمات الباطل .

يا ايها الذين امنوا امنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي انزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الاخر فقد ضل ضلالا بعيدا

كما فسرها الوسيط ثم أمر الله - تعالى - المؤمنين أن يثبتوا على إيمانهم فقال : ( يَا أَيُّهَا الذين آمَنُوا آمِنُواْ بالله وَرَسُولِهِ والكتاب الذي نَزَّلَ على رَسُولِهِ والكتاب الذي أَنزَلَ مِن قَبْلُ ) أى : يأيها المؤمنون اثتبوا على إيمانكم وداوما على تصديقكم بوحدانية الله - تعالى - وعلى تصديقكم برسوله محمد صلى الله عليه وسلم وبالكتاب الذى نزله الله تعالى - عليه وهو القرآن ، وبالكتاب الذى أنزله الله - تعالى - على الرسول الذين أرسلهم من قبله .والمراد بالكتاب الذى أنزله على الرسل من قبله جنس الكتب السماوية كالتوراة والإنجيل والزبور .ثم بين - سبحانه - سوء مصير من يكفر بشئ مما يجب الإيمان به فقال - تعالى - : ( وَمَن يَكْفُرْ بالله وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ واليوم الآخر فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً ) .أى : ومن يكفر بالله بأن الله بأن يجحد وحدانيته وألوهيته ، ويكفر بملائكته بأن ينكر بأنهم عباد مكرمون لا يعصون ولا يخلص له العبادة ، ويكفر بكتبه التى أنزلها - سبحانه ، على الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، ويكفر بأنبيائه ، وبرسوله الذين أرسلهم لهداية الخلق . وباليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب ، من يكفر بكل ذلك فقد خرج عن طريق الهدى وبعد عن السبيل القويم بعداً كبيراً ، لأنه بكفره بذلك يكون قد خالف الفطرة ، وانحرف عما يقتضيه العقل السليم ، وأوغل فى الشرور والآثام إيغالا شديدا ، يؤدى به إلى خزى الدنيا وعذاب الآخرة .وبعد هذا الأوامر السديدة للمؤمنين . عادت السورة ، الكريمة إلى تحذيرهم من أعدائهم ومن المنافقين ، فكشف لهم عن طبيعتهم ونهتهم عن القعود معهم ، وبينت لهم أنماطا من خداعهم ، وألوانا من أخلاقهم الذميمة ، وأخبرتهم عن سوء مصير أولئك المنافقين فى الغى والضلال .واستمع إلى السورة الكريمة وهى تحكى كل ذلك بأسلوبها الحكيم فتقول ( إِنَّ الذين آمَنُواْ . . . . شَاكِراً عَلِيماً ) .

ان الذين امنوا ثم كفروا ثم امنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( إِنَّ الذين آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ازدادوا كُفْراً لَّمْ يَكُنِ الله لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً ) للمفسرين ، فى تأويل هذه الآية وجوه :أولها : أن المراد بهم قوم تكرر منهم الارتداد وأصروا على الكفر ، وازدادوا تماديا فى البغى والضلال .وقد صدر الفخر الرازى تفسيره لهذه الآية بهذا المعنى فقال : المراد بهم الذين يتكرر منهم الكفر بعد الإيمان مرات وكرات ، فإن ذلك يدل على أنه لا وقع للإيمان فى قلوبهم ، إذ لو كان للإيمان وقع فى قلوبهم لما تركوه لأدنى سبب ومن لا يكون للإيمان وقع فى قلبه فالظاهر أنه لا يؤمن بالله إيمانا صحيحا معتبرا فهذا هو المراد بقوله : ( لَّمْ يَكُنِ الله لِيَغْفِرَ لَهُمْ ) . وليس المراد أنه أتى بالإيمان الصحيح لم يكن معتبرا ، بل المراد منه الاستبعاد والاستغراب على الوجه الذى ذكرناه .وقال الإمام ابن كثير : يخبر - تعالى -

، عمن دخل فى الإيمان ثم رجع عنه ثم عاد فيه ثم رجع واستمر على ضلاله
وازداد حتى مات ، فإنه لا توبة بعد موته ولا يغفر الله له " ولا يجعل له
مما هو فيه فرجا ولا مخرجا ولا طريقا إلى الهدى ، ولهذا قال : ( لَّمْ
يَكُنِ الله لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً ) . وقد قال
ابن عباس فى قوله : ( ثُمَّ ازدادوا كُفْراً ) : تمادوا فى كفرهم حتى ماتوا
وثانيها : أن المراد بهم أهل الكتاب . وقد رجح هذا الإتجاه ابن جرير. "
فقال : وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية قول من قال : عنى بذلك أهل الكتاب
الذين أقروا بحكم التوراة ، ثم أقر من أقر منهم بعيسى والإنجيل ، ثم كذب
به بخلافه إياه ، ثم كذب بمحمد صلى الله عليه وسلم والفرقان ، فازداد
بتكذيبه كفرا على كفره .وثالثها : أن المراد بهم طائفة من اليهود كانوا
يظهرون الإسلام تارة ثم يرجعون عنه إلى يهوديتهم لتشكيك المسلمين فى دينهم
وذلك معنى قوله : ( وَقَالَتْ طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الكتاب آمِنُواْ
بِالذي أُنْزِلَ عَلَى الذين آمَنُواْ وَجْهَ النهار واكفروا آخِرَهُ
لَعَلّهُمْ يَرْجِعُونَ ) ورابعها : أن المراد بهم المنافقون . فالإيمان
الأول وإظهارهم الإسلام . وكفرهم بعد ذلك هو نفاقهم وكون باطنهم على خلاف
ظاهرهم . والإيمان الثانى هو أنهم كلما لقوا جمعا من المسملين قالوا : إنا
مؤمنون . والكفر الثانى هو أنهم إذا خلوا إلى إخوانهم فى النفاق قالوا لهم
إنا معكم . وازديادهم فى الكفر هو جدهم واجتهادهم فى استخراج أنواع المكر
، والكيد فى حق المسلمين .والذى نراه أولى من بين هذه الأقوال القول الأول
لأن ألفاظ الآية عامة ولم تخصص قوما دون قوم ، فكل من تكرر منهم الارتداد
واستمرار فى ضلالهم حتى ماتوا ينطبق عليهم الوعيد الذى بينته الآية الكريمة
سواءً كان أولئك الذين حدث منهم هذا الارتداد المتكرر من المنافقين أم من ،
غيرهم .والمعنى : إن الذين آمنوا بدين الإسلام ثم رجعوا عنه إلى ما كانوا
عليه من ضلال ، ثم آمنوا ثم كفروا مرة أخرى ، ثم ازدادوا كفرا على كفرهم
بأن استمروا فيه حتى ماتوا . . . هؤلاء الذين فعلوا ذلك لم يكن الله ليغفر
- لهم ، لتماديهم فى الكفر وإصرارهم عليه حتى ماتوا ، ولم يكن - سبحانه
ليهديهم سبيلا مستقيما ، لأنهم هم الذين استحبوا العمى على الهدى ، وهم
الذين كانوا ( وَإِن يَرَوْاْ كُلّ آيَةٍ لاّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن
يَرَوْاْ سَبِيلَ الرشد لاَ يَتّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ
الغي يَتّخِذُوهُ سَبِيلاً ) قال الآلوسى : والقول المشهور الذى عليه
الجمهور أن المراد من نفى المغفرة والهداية ، نفى ما يقتضيهما وهو الإيمان
الخالص الثابت . ومعنى نفيه : استبعاد وقوعه ، فإن من كرر منهم الارتداد
وازدياد الكفر والإصرار عليه صاروا بحيث قد ضربت قلوبهم بالكفر ، وصار
الإيمان عندهم أدون شئ وأهونه ، فلا يكادون يقربون منه قيد شبر ليتأهلوا
للمغفرة وهداية سبيل الجنة ، لا أنهم لو أخلصوا الإيمان لم يقبل منهم ولم
يغفر لهم . ثم قالوا : وخبر فى أمثالهم هذا الموضع محذوف وبه تتعلق اللام
. أى : ما كان الله مريداً للغفران لهم . ونفى إرادة الفعل أبلغ من نفيه

بشر المنافقين بان لهم عذابا اليما

) : كما فسرها الوسيط ثم تبدأ السورة الكريمة حملتها على المنافقين فتقول
: بَشِّرِ المنافقين بِأَنّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ) والتعبير بقوله
بشر بدل أنذر أو أخبر للتهكم بهم ، لأن البشارة لا تكون غالبا إلا فى
الأخبار السارة ، لأن الإخبار السار يظهر سرورا فى البشرة . فاستعملت
البشارة فى مطلق الإخبار أو فى الإنذار على سبيل الاستعارة التصريحية
التبعية .قال الرغب : ويقال : أبشرت الرجل وبشرته أى : أخبرته بأمر سرا بسط
بشرة وجهه وذلك أن النفس إذا سرت انتشر الدم فيها انتشار الماء فى الشجر
: وقوله : ( المنافقين ) من النفاق وهو أن يظهر الشخص خلاف ما يبطن .قالوا.
وسمى المنافق منافقا أخذاً من نافقاء اليربوع - وهو حجره فإنه يجعل له
بابين يدخل من أحدهما ويخرج من الآخر؛ فكذلك المنافق يدخل مع المؤمنين
بقوله : أنا مؤمن . ويدخل مع الكفار بقوله : أنا كافر .والمعنى : أنذر يا
، محمد أولئك المنافقين الذين أظهروا الإسلام وأخفوا الكفر بالعذاب الأليم
وسق لهم هذا الإنذار بلفظ التبشير على سبيل التهكم بهم ، والاستهزاء
. بعقولهم ، فى مقابل تهكمهم بالإسلام وأهله وخداعهم للمؤمنين

الذين يتخذون الكافرين اولياء من دون المؤمنين ايبتغون عندهم العزة فان
العزة لله جميعا

) : كما فسرها الوسيط ثم كشف - سبحانه - عن جانب من طبيعتهم المنكوسة فقال
الذين يَتّخِذُونَ الكافرين أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ المؤمنين ) .أى : أنذر
هؤلاء المنافقين بالعذاب الأليم ، الذين من صفاتهم أنهم يتخذون الكافرين
أولياء ونصراء لهم تاركين ولاية المؤمنين ونصرتهم . فهم سلم على الكافرين
- وحرب على المؤمنين .والمراد بالكافرين هنا : اليهود - على أرجح الأقوال
فقد حكى عن المنافقين أنهم كانوا يقولون : إن أمر محمد صلى الله عليه وسلم

لن يتم فتولوا اليهود ، ولأن غالب سكان المدينة - من غير المسلمين - كان من
اليهود .وقوله ( مِن دُونِ المؤمنين ) حال من فاعل يتخذون . أى : يتخذون
الكفار أنصارا لهم حالة كونهم متجاوزين ولاية المؤمنين ونصرتهم .والاستفهام
، فى قوله : ( أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ العزة ) للإنكار والتعجب من شأنهم
والتهكم من سوء تصورهم .وقوله : (فَإِنَّ العزة للَّهِ جَمِيعاً ) رد على
تصوراتهم الباطلة ، ومداركهم الفاسدة ، وتثبيت للمؤمنين حتى يزدادوا قوة
على قوتهم .أى : أن هؤلاء المنافقين قد تركوا ولاية المؤمنين إلى ولاية
الكافرين فما الذى دفعهم إلى هذا الانتكاس؟ أيطلبون بلهفة ورغبة العزة
والمنعة من عند الكافرين؟ إذا كان هذا حالهم فقد خابوا وخسروا ، فإن العزة
والقوة والمنعة والنصرة له وحده . ومن اعتز بغير الله هان وذل .قال ابن
- كثير : والمقصود من هذا التهييج على طلب العزة من جانب الله - تعالى
والإقبال على عبوديته ، والانتظام في جملة عباده المؤمنين ، الذين لهم
النصرة فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد . ويناسب هنا أن نذكر الحديث
" : الذى رواه الإمام أحمد عن أبى ريحانة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال
" من انتسب إلى تسعة آباء كفار ، يريد بهم عزا وفخرا فهو عاشرهم فى النار
وقال الإمام الرازى : وأصل العزة فى اللغة الشدة . ومنه قيل للأرض الصلبة.
. الشديدة : عزاز . ويقال : قد استعز المرض على المريض إذا اشتد ظهره به
وشاة عزوز التى يشتد حبلها ويصعب . والعزة : القوة منقولة منا لشدة لتقارب
معنييهما . والعزيز القوى المنيع بخلاف الذليل .ثم قال : إذا عرفت هذا
فنقول : إن المنافقين كانوا يطلبون العزة والقوة بسبب اتصالهم باليهود . ثم
إنه - تعالى - أبطل عليهم هذا الرأى بقوله : ( فَإِنَّ العزة للَّهِ
جَمِيعاً ) .فإن قيل : هذا كالمناقض لقوله : ( وَلِلَّهِ العزة
وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ) قلنا القدرة الكاملة لله . وكل من سواه
فبالقداره صار قادرا . وبإعزازه صار عزيزا فالعزة الحاصلة للرسول عليه
الصلاة والسلام وللمؤمنين لم تحصل إلا من الله - تعالى - فكأنه الأمر عند
التحقيق أن العزة جميعا لله .قالوا : وقد دلت الآية الكريمة على وجوب
موالاة المؤمنين ، والنهى عن موالاة الكافرين . قال - تعالى - ( لاَّ
تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بالله واليوم الآخر يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ
الله وَرَسُولَهُ وَلَوْ كانوا آبَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ
إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ) .

وقد نزل عليكم في الكتاب ان اذا سمعتم ايات الله يكفر بها ويستهزا بها فلا
تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره انكم اذا مثلهم ان الله جامع
المنافقين والكافرين في جهنم جميعا

كما فسرها الوسيط ثم نهى - سبحانه - المسلمين عن مخالطة الكافرين بآيات
الله والمستهزئين بها فقال : ( وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الكتاب أَنْ
إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ الله يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ
تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حتى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ) .أى : وقد نزل
اله عليكم - أيها المؤمنون - فى كتابه المحكم أنكم إذا سمعتم آيات الله
يكفر بها الكافرون ، ويستهزئ بهم المستهزئون ، فعليكم فى هذه الأحوال أن
تتركوا مجالسهم ، وأن تعرضوا عنهم حتى يتكلموا فى حديث آخر سوى الكفر بآيات
: الله والاستهزاء بها .قال صاحب الكشاف : والمراد بالمنزل عليهم فى الكتاب
هو ما نزل عليهم في مكة من قوله - تعالى - : ( وَإِذَا رَأَيْتَ الذين
يَخُوضُونَ في آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حتى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ
غَيْرِهِ ) وذلك أن المشركين كانوا يخوضون فى ذكر القرآن فى مجالسهم
فيستهزئون به ، فنهى - سبحانه - المسلمين عن القعود معهم ما داموا خائضين
فيه .وكان أحبار اليهود بالمدينة يفعلون نحو فعل المشركين ، فنهوا أن
) يقعدوا معهم كما نهوا - قبل ذلك - عن مجالسة المشركين بمكة .وأن فى قوله
. إِذَا سَمِعْتُمْ ) تفسيرية ، لأن ( نَزَّلَ ) تضمن معنى القول دون حروفه
. وجعلها بعضهم مخففة من الثقيلة واسمها ضمير شأن مقدر أى أنه إذا سمعتم
وقدره بعضهم ضمير المخاطبين أى أنكم إذا سمعتم ، وخبرها جملة الشرط والجزاء
وقوله ( يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا ) جملتان فى موضع الحال من.
الآيات .وأضاف - سبحانه - الآيات إليه ، لتهويل أمرها ، والتشنيع على من
كفر أو استهزأ بها . والضمير فى قوله ( مَعَهُمْ ) يعود إلى الكافرين
والمستهزئين المدلول عليهم بقوله : ( يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ )
فكأنه قيل :لا تقعدوا - أيها المؤمنون - مع الكافرين بآيات الله
والمستهزئين بها .والضمير فى قوله ( غَيْرِهِ ) يعود إلى تحدثهم بالكفر
والاستهزاء أى : حتى يخوضوا فى حديث سوى حديثهم المتعلق بالكفر بآيات الله
والاستهزاء بها .وقوله ( إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ ) تعليل للنهى عن
القعود معهم .أى : أيها المؤمنون - إن استمعتم إلى الكفار والمنافقين وهم
يعلنون الكفر بآيات الله - تالى - والاستهزاء بها ، كنتم معهم فى الاستهانة
بآيات الله وشركاء لهم فى آثامهم ، لأن الراضى بالكفر بآيات الله
وبالاستهزاء بها . يكون بعيدا عن حقيقة الإيمان ، ومستحقا للعقوبة من

الله - تعالى - .قال صاحب الكشاف ، فإن قلت : لهم يكونوا مثلهم بالمجالسة
فى وقت الخوض؟ قلت : لأنهم إذا لم ينكروا عليهم كانوا راضين . والراضى
بالكفر كافر فإن قلت : فهلا كان المسلمون بمكة - حين كانوا يجالسون
. الخائضين من المشركين - منافقين؟ قلت : لأنهم كانوا لا ينكرون لعجزهم
وهؤلاء لم ينكروا مع قدرتهم فكان ترك الإنكار لرضاهم .وقال القرطبى : فدل
بهذا على وجوب اجتناب أصحاب المعاصى إذا ظهر منهم منكر ، لأن من لم يتجنبهم
فقد رضى فعلهم ، والرضا بالكفر كفر . قال الله - تعالى - ( إِنَّكُمْ إِذاً
مِّثْلُهُمْ ) . فكل من جلس فى مجلس معصية ولم ينكر عليهم يكون معهم فى
الوزر سواء . وينبغى أن ينكر عليهم إذا تكلموا بالمعصية وعملوا بها ، فإن
لم يقدر على النكير عليهم فينبغى أن يقوم عنهم حتى لا يكون من أهل هذه
الآية .وقد روى عن عمر بن عبد العزيز أنه أخذ قوما يشربون الخمر ، فقيل له
) عن أحد الحاضرين : إنه صائم . فحمل عليه الأدب وقرأ عليه هذه الآية
إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ ) أى أن الرضا بالمعصية معصية . ولهذا يؤاخذ
الفاعل والراضى بعقوبة العاصى حتى يهلكوا جميعا . وهذه المماثلة ليست فى
- جميع الصفات ولكنه إلزام شبه بحكم الظاهر من المقارنة .ثم ختم - سبحانه
الآية الكريمة بالوعيد الشديد للكافرين والمنافقين فقال : ( إِنَّ الله
جَامِعُ المنافقين والكافرين فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً ) لأن هذين الفريقين
كما اجتمعوا فى الدنيا على الكفر بآيات الله والاستهزاء بها والتواصى
بالشرور والآثام ، فسيجمعهم الله جميعا فى جهنم يوم القيامة ، بسبب ما
قدمت أيدهم من جرائم ومنكرات .فأنت ترى أن الآية الكريمة تنهى المؤمنين عن
، مجالسة الكافرين بآيات الله والمستهزئين بها ، لأن أول الشر سماع الشر
ولأن أول مراتب ضعف الإيمان أن تفتر حماسة المؤمن فى الدفاع عن الحق الذى
آمن به .ومن علامات المؤمن الصادق أنه متى سمع استهزاء بتعاليم دينه فعليه
إما أن ينبرى للدفاع عن هذه التعاليم بشجاعة وحماسة وقوله تدمع الباطل
وأهله وتفضح كل معتمد أثيم . . وإما أن يقاطع المجالس التى لا يحترم فيها
دين الله . أما السكوت عن ذلك باسم التغاضى أو التسامح أو المرونة . أو
بغير ذلك من الأسماء ، فهذا أو مراتب النفاق الذى يؤدى إلى خزى الدنيا
وعذاب الآخرة .ثم ذكر - سبحانه - بعد ذلك سمة أخرى من أبرز سمات المنافقين
وهى أنهم كانوا يلقون المسلمين بوجه ويلقون الكفر بوجه آخر . أى أنهم .
يحاولون أن يمسكوا العصا من وسطها حتى يأكلوا من كل مائدة . استمع إلى
: القرآن وهو يصور ذلك بأسلوبه البليغ المؤثر فيقول

الذين يتربصون بكم فان كان لكم فتح من الله قالوا الم نكن معكم وان كان
للكافرين نصيب قالوا الم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم
بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا

كما فسرها الوسيط ( الذين يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ
مِّنَ الله قالوا أَلَمْ نَكُنْ مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ
نَصِيبٌ قالوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِّنَ
المؤمنين ) .وقوله : ( يَتَرَبَّصُونَ ) من التربص بمعنى الانتظار وترقب
) : الحوادث . يقال : تربص به إذا انتظره مع ترقب وملاحظة .وقوله
: نَسْتَحْوِذْ ) من الاستحواذ بمعنى الغلبة والتمكن والاستيلاء ، يقال
) - استحوذ فلان على فلان أى : غلب عليه وتمكن منه . ومنه قوله - تعالى
استحوذ عَلَيْهِمُ الشيطان فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ الله ) والمعنى : إن من
صفات هؤلاء المنافقين - أيها المؤمنون - أنهم يتربصون بكم . أى : ينتظرون
بترقب وملاحظة ما يحث لكم من خير أو شر ، أو من نصر أو هزيمة ( فَإِن كَانَ
لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ الله ) أى : من نصر وظفر على أعدائكم ( قالوا ) على
سبيل التقرب إليكم ( أَلَمْ نَكُنْ مَّعَكُمْ ) فى الجهاد وغيره فاعطونا
نصيبا من الخير الذى أصبتموه . ( وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ ) أى
حظ من النصر عليكم - لأن الحرب سجال - ( قالوا ) لهم - أيضا - على سبيل
التقرب إليهم ( أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِّنَ
المؤمنين ) أى : ألم نتمكن من قتلكم وأسركم ولكنا لم نفعل ذلك ، بل أحطناكم
، بحمايتنا ورعايتنا ومنعنا المؤمنين من النصر عليكم بسبب تخذيلنا لهم
وجسسنا على أحوالهم .وإخباركم بما يهمكم من شئونهم . وما دام الأمر كذلك
فاجعلوا لنا قسما من نصيبكم .فالآية الكريمة تصور تصويرا بليغا ما كان عليه
المنافقون من تلون وتقلب وهرولة وراء شهوات الدنيا فى أى مكان كانت .وعبر
، عن النصر فى جانب المؤمنين بأنه فتح ، وعن انتصار الكافرين بأنه نصيب
لتعظيم شأن المسلمين وللتهوين من شأن الكافرين . ولأن انتصار المسلمين
يترتب عليه فتح الطريق أمام الحق وحسن العاقبة بخلاف انتصار الكافرين فهو
أمر طارئ وليس بدائم .قال صاحب الانتصاف : وهذا من محاسن نكت أسرار القرآن
فإن الذى يتفق للمسلمين فيه : استئصال لشأفة الكفار واستيلاء على أرضهم ،
وديارهم وأموالهم وأرض لم يطؤوها . وأما ما كان يتفق للكفار فمثل الغلبة
والقدرة التى لا يبلغ شأنها أن تسمى فتحا . فالتفريق بينهما أيضا مطابق
) للواقع والاستفهام فى قوله ( أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ ) وفى قوله

أَلَمْ نَكُنْ مَّعَكُمْ ) للتقرير أى : لقد كنا معكم واستحوذنا عليكم ومنعناكم من المؤمنين .ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بتبشير المؤمنين وإنذار الكافرين فقال : ( فالله يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ القيامة وَلَن يَجْعَلَ الله لِلْكَافِرِينَ عَلَى المؤمنين سَبِيلاً ) .والفاء هنا للإفصاح عن كلام مقدر . أى : إذا كان هذا هو حال المنافقين والكافرين فى الدنيا ، فأبشركم - أيها المؤمنون - بأن الله سيحكم بينكم وبينهم يوم القيامة بحكمه العادل ، فيثيبكم بالثواب الجزيل لأنكم أولياؤه ، ويعاقبهم بالعقاب الأليم لأنهم أعداؤه ، وأبشركم - أيضا - بأنه - سبحانه - لن يجعل الله جميعا بدون فرقة أو تنازع أو فشل ، وآخذين بالأسباب وبسنن الله الكونية التى تعينكم على الوصول إلى غايتكم الشريفة ، ومقاصدكم السليمة فالآية الكريمة تنفى أن يكون هناك سبيل للكافرين على المؤمنين فى الدنيا. والآخرة .ومنهم من يرى أن المراد بنفى السبيل هنا فى الآخرة .وقد أشار الإمام ابن كثير إلى هذين الاتجاهين بقوله - تعالى - ( وَلَن يَجْعَلَ الله لِلْكَافِرِينَ عَلَى المؤمنين سَبِيلاً ) . أى : يوم القيامة كما روى عن على بن أبى طالب وغيره .ويحتمل أن يكون المعنى : ( وَلَن يَجْعَلَ الله لِلْكَافِرِينَ عَلَى المؤمنين سَبِيلاً ) أى : فى الدنيا ، بأن سلطوا عليهم تسليط استيلاء واستئصال بالكلية ، وإن حصل لهم ظفر فى بعض الأحيان - على بعض الناس فإن العاقبة للمتقين فى الدنيا والآخرة ، كما قال - تعالى - إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا والذين آمَنُواْ فِي الحياة الدنيا وَيَوْمَ ) يَقُومُ الأشهاد ) والذى نراه أولى أن تكون الجملة الكريمة عامة فى نفى أن يكون هناك سلطان للكافرين على المؤمنين ما دام المؤمنون متبعين اتباعا تاما تعاليم دينهم وآخذين فى الأسباب التى تجعل النصر حليفا لهم .وإذا كان الكافرون فى بعض الازمان والأحوال قد صارت لهم الغلبة على المسلمين ، فذلك قد يكون نوعا من الابتلاء أو التأديب أو التمحيص . حتى يعود المسلمون إلى دينهم عودة كاملة تجعلهم يستجيبون توجيهاته . ويذعنون لأحكامه ، ويطبقون أوامره ونواهيه .وهنا يحالفهم نصر الله الذى لا يقهر ووعد الذى لا يتخلف .

ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله الا قليلا

كما فسرها الوسيط ثم تمضى السورة الكريمة بعد هذا الوعد المطمئن لقلوب المؤمنين ، فى رسم صورة أخرى للمنافقين مبالغة فى الكشف عن قبائحهم وفى التحذير من شرورهم فتقول : ( إِنَّ المنافقين يُخَادِعُونَ الله وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قاموا إِلَى الصلاة قَامُواْ كسالى يُرَآءُونَ الناس وَلاَ يَذْكُرُونَ الله إِلاَّ قَلِيلاً مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذلك لاَ إِلى هؤلاء وَلاَ إِلَى هؤلاء وَمَن يُضْلِلِ الله فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً ) وقوله : ( يُخَادِعُونَ ) من الخداع وهو أن يظهر الشخص من الأفعال ما يخفى أمره ، ويستر حقيقته .قال الراغب : الخداع : إنزال الغير عما هو بصدده بأمر يبديه على خلاف ما يخفيه . . . . .ويقال : طريق خادع ويخدع . أى : مضل كأنه يخدع سالكه . وفى الحديث : " بين يدى الساعة سنون خداعة " أى : محتالة لتلونها بالجدب مرة وبالخصب مرة .وقوله : ( خَادِعُهُمْ ) اسم فاعل من خادعته فخدعته إذا غلبته وكنت أخدع منه .والمعنى : إن المنافقين لسوء طواياهم ، وخبث نواياهم ( يُخَادِعُونَ الله ) أى : يفعلون ما يفعل المخادع بأن يظهروا الإيمان ويبطنوا الكفر ( وَهُوَ خَادِعُهُمْ ) أى : وهو فاعل بهم ما يفعله الذى يغلب غيره فى الخداع ، حيث تركهم فى الدنيا معصومى الدماء والأموال . وأعد لهم فى الآخرة الدرك الأسفل من النار .ومنهم من جعل المراد بمخادعتهم لله مخادعتهم لرسوله وللمؤمنين فيكون الكلام على حذف مضاف أى : إن المنافقين يخادعون رسول الله والمؤمنين وهو - سبحانه - خادعهم . فهو كقوله - تعالى - ( إِنَّ الذين يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ الله ) وعبر - سبحانه - عن خداعهم بصيغة تدل على المشاركة والمغالبة وهى قوله ( يُخَادِعُونَ ) ، للإشعار بأنهم قد ينجحون فى خداعهم وقد لا ينجحون وعبر - سبحانه - عن خداعه لهم بصيغة اسم الفاعل ، للدلالة على الغلب. والقهر . لأن الله - تعالى - كاشف أمرهم ، ومزيل مغبة خداعهم ، ومحاسبهم حسابا عسيرا على ما ارتكبوه من جنايات وسيئات .وقوله : ( وَإِذَا قاموا إِلَى الصلاة قَامُواْ كسالى ) بيان للون آخر من قبائحهم . و ( كسالى ) جمع كسلان وهو الذى يعتريه الفتور فى أفعاله لكراهيته لها أو عدم اكتراثه بها . وهى حال لازمة من ضمير قاموا أي : إن هؤلاء المنافقين إذا قاوموا إلى الصلاة ، قاموا متثاقلين متباطئين لا نشاط عندهم لأدائها ، ولا رغبة لهم فى القيام بها ، لأنهم لا يعتقدون ثوابا فى فعلها ، ولا عقابا على تركها وقوله ( يُرَآءُونَ الناس ) حال من الضمير المستكن فى كسالى . أو جملة مستأنفة جوابا لمن يسأل : وما قصدهم من القيام للصلاة مع هذا التثاقل والتكاسل عنها؟ فكان الجواب : يراءون الناس .أى : يقصدون بصلاتهم الرياء والسمعة والخداع .قال ابن كثير : وقوله : ( وَإِذَا قاموا إِلَى الصلاة قَامُواْ كسالى ) هذه صفة المنافقين فى أشرف الأعمال وأفضلها وخيرها . وهى

، الصلاة . إذا قاموا إليها قاموا وهم كسالى عنها ، لأنهم لا نية لهم فيها
ولا إيمان لهم بها ، ولا خشية ، ولا يعقلون معناها . وهذه صفة ظواهرهم .ثم
: ذكر - سبحانه - صفة بواطنهم الفاسدة فقال : ( يُرَآءُونَ الناس ) أى
إخلاص لهم ولا معاملة مع الله ، بل إنما يشهدون الناس تقية لهم ومصانعة
ولهذا يتخلفون كثيرا من الصلاة التى لا يرون فيها غالبا كصلاة العشاء فى
وقت العتمة وصلاة الصبح فى وقت الغلس كما ثبت فى الصحيحين أن رسول الله صلى
الله عليه وسلم قال : " أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر
ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوا " وروى الحافظ ألو ليلى عن عبد الله
. قال : من أحسن الصلاة حيث يراه الناس ، وأساءها حيث يخلو ، فتلك استهانة
استهان بها ربه - عز وجل - .وقوله : ( وَلاَ يَذْكُرُونَ الله إِلاَّ
قَلِيلاً ) معطوف على ( يُرَآءُونَ ) أى : أن من صفات المنافقين أنهم إذا
، قاموا إلى الصلاة قاموا متباطئين متقاعسين يقصدون الرياء والسمعة بصلاتهم
ولا يذكرون الله فى صلاتهم إلا ذكرا قليلا أو وقتا قليلا؛ لأنهم لا يخشعون
ولا يدرون ما يقولون ، بل هم فى صلاتهم ساهمون لاهون .روى الإمام مالك عن
العلاء بن عبد الرحمن عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم " تلك صلاة المنافق - تلك صلاة المنافق . يجلس يرقب الشمس حتى إذا
" كانت بين قرنى الشيطان ، قام فنقر أربعا ، لا يذكر الله فيها إلا قليلا
قال ابن كثير : وكذا رواه مسلم والترمذى والنسائى من حديث إسماعيل بن جعفر.
المدنى عن العلاء بن عبد الرحمن . وقال الترمذى : حسن صحيح .ومنهم من فسر
قوله ( وَلاَ يَذْكُرُونَ الله إِلاَّ قَلِيلاً ) أى : ولا يصلون إلا قليلا
لأنهم إنما يصلون رياء فإذا خلوا بأنفسهم لم يصلوا . والأول أولى لأنه .
أعم وأشمل .قال صاحب الكشاف : قوله ( وَلاَ يَذْكُرُونَ الله إِلاَّ
قَلِيلاً ) أى : ولا يصلون إلا قليلا ، لأنهم لا يصلون قط غائبين عن عيون
الناس إلا ما يجاهرون به . وما يجاهرون به قليل أيضا ، لأنهم ما وجدوا
مندوحة من تكلف ما ليس فى قلوبهم لم تكلفوه . أو لا يذكرون الله بالتسبيح
والتهليل إلا ذكرا قليلا فى الندرة ، وهكذا ترى كثيرا من المتظاهرين
بالإسلام لو صحبته الأيام والليالى لم تسمع منه تهليلة ولا تسبيحة ولا
تحميدة ، ولكن حيث الدنيا يستغرق به أوقاته لا يفتر عنه . . .فإن قلت ما
معنى المراءاة وهى مفالعة من الرؤية؟ قلت : فيها وجهان :أحدهما : أن
المرائى يريهم عمله وهم يرونه استحسانه .والثانى : أن يكون من المفاعلة
. . . بمعنى التفعيل . فيقال : راءى الناس . يعنى رآهم كقولك نعمه وناعمه
. . . روى أبو زيد : رأت المرأة المرآة الرجل : إذا أمسكها لترى وجهه

مذبذبين بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له
سبيلا

كما فسرها الوسيط وقوله : ( مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذلك ) حال من فاعل
يراءون واسم الإشارة " ذلك " مشار به إلى الإيمان والكفر المدلول عليه
. بذكر المؤمنين والكافرين .قال القرطبى : المذبذب : المتردد بين أمرين
والذبذبة : الاضطراب . يقال : ذبذبته فتذبذب . ومنه قول النابغة - فى مدح
النعمان بل المنذر -ألم تر أن الله أعطاك سورة ... ترى كل ملك دونها
يتذبذبأى : يضطرب وقال ابن جنى : المذبذب : المهتز القلق الذى لا يثبت ولا
يتمهل . فهؤلاء المنافقون مترددون بين المؤمنين والمشركين .لا مخلصين
للإيمان ولا مصرحين بالكفر . وفى صحيح مسلم من حيث ابن عمر عن النبى صلى
الله عليه وسلم : " مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين - أى
المترددة بين قطعتين - تعير إلى هذه مرة وإلى هذه أخرى " .وقوله ( إلى
) هؤلاء وَلاَ إِلَى هؤلاء ) فى محل نصب على أنه حال من ضمير
مُّذَبْذَبِينَ ) أو على أنه بيان وتفسير له .وقوله : ( وَمَن يُضْلِلِ
الله فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً ) أى : ومن يضلله الله - تعالى - عن طريق
الحق ، بسبب إيثاره الغواية على الهداية . فلن تجد له سبيلا يوصله إلى
. الصراط المسقيم

يا ايها الذين امنوا لا تتخذوا الكافرين اولياء من دون المؤمنين اتريدون ان
تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا

كما فسرها الوسيط وبعد هذا الذم الشديد لما كان عليه المنافقون من خداع
ورياء وضلال . وجه - سبحانه - نداء إلى المؤمنين نهاهم فيه عن موالاة
الكافرين فقال - تعالى - : ( يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ
الكافرين أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ المؤمنين ) .أى : يأيها الذين آمنوا بالله
حق الإيمان ، لا يصح منكم ولا ينبغى لكم أن تتخذوا الكافرين بالحق الذى
آمنتم به ( أَوْلِيَآءَ ) أى نصراء وأصدقاء ، تاركين ولاية إخوانكم
المؤمنين ونصرتهم ، فإن ذلك لا يتفق مع الإيمان ، ولا يتناسب مع تعاليم
دينكم .فالآية الكريمة تنهى المؤمنين عن موالاة الكفرة . أى : عن مناصرتهم
. وإفشاء أسرار المؤمنين إليهم ، وعن كل ما من شأنه أن يكون مضرة بالمؤمنين

كما قال - تعالى - فى آية أخرى : ( لاَّ يَتَّخِذِ المؤمنون الكافرين أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ المؤمنين وَمَن يَفْعَلْ ذلك فَلَيْسَ مِنَ الله فِي شَيْءٍ إِلاَّ أن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ الله نَفْسَهُ وإلى الله المصير ) .وفى هذا النهى - أيضاً - توبيخ للمنافقين الذين ما زال الحديث متصلا عن قبائحهم ورذائلهم ، وتحذير من مسالكهم الخبيثة حيث كانوا يتركون ولاية المؤمنين وينضمون إلى صفوف الكافرين من اليهود وغيرهم ويقولون - مكا حكى القرآن عنهم - ( نخشى أن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ) والاستفهام فى قوله : ( أَتُرِيدُونَ أن تَجْعَلُواْ للَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُّبِيناً ) للإنكار والتحذير من أن تقع هذه الموالاة منهم .والمراد بالسلطان : الحجة والدليل أى : إنكم إن اتخذتم ، الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، فقد جعلتم لله عليكم حجة فى عقابكم وفى تخليه عن نصرتكم ورعايتكم .وتوجيه الإنكار إلى الإرادة دون متعلقها بأن يقال ، أتجعلون . للمبالغة فى التهويل من أمره؛ ببيان أنه مما لا ينبغى أن تصدر عن العاقل إرادته ، فضلا عن صدوره فى نفسه .قال بعضهم : وقد دلت الآية على تحريم موالاة المؤمنين للكافرين . قال الحاكم : وهى الموالاة فى الدين والنصرة فيه .لا المخالقة والإحسان .وقال الزمخشرى : وعن صعصعة بن صوحان أنه قال لابن أخ له؛ خالص المؤمن ، وخالق الكافر والفاجر . فإن الفاجر يرضى منك بالخلق الحسن . وأنه يحق عليكم أن تخالص المؤمن .

ان المنافقين في الدرك الاسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - المصير الشنيع الذى سيصير إليه المنافقون يوم القيامة فقال - تعالى - : ( إِنَّ المنافقين فِي الدرك الأسفل مِنَ النار وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً ) أى : فى الطبقة السفلى من طبقاتها وسميت دركاتها لكونها متدارکه أى : متتابعة بعضها تحت بعض . والدرك لغة فى الدرك وهو كالدرج ، إلا أن الدرج يقال باعتبار الصعود والدرك يقال باعتبار النزول والحدور . ولذا قيل : درجات الجنة ودركات النار : قال الآلوسى : والنار لها طبعات سبع : تسمى الأولى كما قيل : جهنم. والثانية : لظى .والثالثة : الحطمة . والرابعة : السعير . والخامسة: سقر . والسادسة : الجحيم . والسابعة : الهاوية . وقد تسمى النار جميعا باسم الطبقة الأولى ، وبعض الطبقات باسم بعض لأن لفظ النار يجمعها . .والمعنى : إن هؤلاء المنافقين الذين مردوا على النفاق . وسرى فى طباعهم مسرى الدم سيكونون يوم القيامة فى الطبقة السفلى من النار ، ولن تجد لهم نصيراً ينصرهم من عذاب الله أو يدفع عنهم عقابه .وإنما كان للمنافقين هذا العذاب الشديد ، لأنهم أضافوا إلى كفرهم ، الاستهزاء بالإسلام وأهله ، وجمعوا بسوء طابعهم بين الكفر . والفسق والتضليل ، والخداع ، وإشاعة الفاحشة فى صفوف المؤمنين ، وغير ذلك من رذائلهم المتعددة ، وقبائحهم المتنوعة .قال بعض العلماء : ولكن من هو المنافق الذى يستحق أشد العقاب ، ويكون فى أعمق النيران يوم القيامة؟ نقول فى الجواب عن ذلك : إنه المنافق الخالص الذى لم يكن فيه خصلة أو أكثر من خصلة فقط ، ولكن هو الذى كفر بالله وبالرياسة المحمدية ، ولم يكتف بذلك بل أظهر الإسلام ليفسد بين المسلمين ويتعرف أسرارهم .ذلك أن النفاق درجات هذا أعلاها ، وهو أشد الكفر . ودونه بعد ذلك مراتب تكون بين المسلمين ولا تخرج المسلم عن إسلامه ، وإن كانت تجعل إيمانه ضعيفا . ومن ذلك ممالأة الحكام ، والسكوت عن كلمة الحق مع النطق بالباطل ملقا وخداعا .قيل لابن عمر - رضى الله عنهما - : ندخل على السلطان ونتكلم بكلام فإذا خرجنا تكلمنا بخلافه!! فقال : كنا نعده من النفاق .ولقد جاء فى الحديث الشريف ما يفيد أن المنافقين فريقان : فريق خصل للنفاق ، وهذا منكوس القلب والنفس والفكر .وقسم فيه خصلة من النفاق ، وهذا يتنازعه الخير والشر فقد قال - عليه الصلاة والسلام - فيما رواه الإمام أحمد . " القلوب . أربعة قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر . وقلب أغلف مربوط على غلافه . وقلب منكوس ، وقلب مصفح . فأما القلب الأجرد ، فقلب المؤمن سراجه فيه نوره . وأما القلب الأغلف : فقلب الكافر . وأما القلب المنكوس : فقلب المنافق الخالص عرف ثم أنكر ، وأما القلب المصفح : فقلب فيه إيمان ونفاق . ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب . ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والدم . فأى المادتين غلبت على الأخرى غلبت عليه " .وإننا لهذا نقول : إن النفاق فى داخل الإسلام مراتب . وأعلاها أولئك الذين يتملقون الحكام ، وينحدرون إلى درجة وضعهم فى مقام النبيين . ومنهم من يذهب به فرط نفاقه ، فيفضل بعض النصوص من غير حجة فى التأويل . ويعبثون بظواهرها القاطعة لهوى الحكام .

الا الذين تابوا واصلحوا واعتصموا بالله واخلصوا دينهم لله فاولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين اجرا عظيما

كما فسرها الوسيط ثم بعد هذا الوعيد الشديد للمنافقين فتح - سبحانه - باب

التوبة ليدخل فيه كل من يريد أن يقلع عن ذنوبه من المنافقين وغيرهم ، حتى
ينجو من عقابه - سبحانه - فقال : ( إِلاَّ الذين تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ
واعتصموا بالله وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فأولئك مَعَ المؤمنين
وَسَوْفَ يُؤْتِ الله المؤمنين أَجْراً عَظِيماً ) .أى : هذا الجزاء الذى
بيناه هو جزاء المنافقين . لكن الذين تابوا منهم عن النفاق ، وأصلحوا ما
أفسدوا من أقوالهم وأفعالهم ( واعتصموا بالله ) أى تمسكوا بكتابه ، وتركوا
موالاة الكافرين ( وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ ) بحيث لا يريدون
بطاعتهم سوى رضاه ومثوبته ، ( فأولئك ) الذين فعلوا ذلك ( مَعَ المؤمنين )
، الصادقين الذين لم يصدر منهم نفاق . أى : معهم فى فضيلة الإيمان الصادق
وما يترتب على ذلك من أجر جزيل . وثواب عظيم . ( وَسَوْفَ يُؤْتِ الله
) : المؤمنين أَجْراً عَظِيماً )لا يقادر قدره ، ولا يكتنه كنهه .فقوله
إِلاَّ الذين تَابُواْ ) استثناء من المنافقين فى قوله ( إِنَّ المنافقين
- فِي الدرك الأسفل مِنَ النار ) .قال الفخر الرازى ما ملخصه : اشترط
سبحانه - فى إزالة العقاب عن المنافقين أموراً أربعة :أولها : التوبة
وثانيها : إصلاح العمل . فالتوبة عبارة عن ترك القبيح ، وإصلاح العمل.
عبارة عن الإقدام على الحسن .وثالثها : الاعتصام بالله . وهو أن يكون غرضه
من التوبة وإصلاح العمل طلب مرضاة الله .ورابعها : الإخلاص : بأن يكون طلب
مرضاة الله خالصا وأن يمتزج به غرض آخر .والإشارة فى قوله ( فأولئك مَعَ
المؤمنين ) تعود إلى الاسم الموصول وهو ( الذين ) باعتبار اتصافه بما فى
حيز الصلة .والمقصود بالمعية فى قوله ( مَعَ المؤمنين ) التشريف والتكريم
بصحبة الأخيار والتعبير " بسوف " لتأكيد وقوع الأمر المبشر به فى المستقبل
وليس لمجرد التسويف الزمانى .أى : وسوف يؤت الله المؤمنين ما وعدهم به ،
، إيتاء لا شك فى حصوله ووقوعه . وذكر - سبحانه - الآجر ووصفه بالعظم
. للتنويه بشأنه .ولإفادة أنه أجر لا يكتنه كنهه

ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وامنتم وكان الله شاكرا عليما

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - جانبا من مظاهر رحمته بعابده ، وفضله
عليهم فقال - تعالى - : ( مَّا يَفْعَلُ الله بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ
. وَآمَنْتُمْ وَكَانَ الله شَاكِراً عَلِيماً ) .و ( مّا ) استفهامية
المراد بالاستفهام هنا النفى والإنكار على أبلغ وجه وآكده والجملة الكريمة
استئنافية مسوقة لبيان أن مدار تعذيبهم وجودا وعدما إنما هو كفرهم ومعاصيهم
لا لشئ آخر .والمعنى : أى منفعة له - سبحانه - فى عذابكم وعقوبتكم إن شكرتم
نعمه ، وأديتم حقها ، وآمنتم به حق الإيمنا؟ لا شك أنه - سبحانه -لا يفعل
- بكم شيئا من العذاب ما دام الشكر والإيمان واقعين منكم؛ فقد اقتضت حكمته
سبحانه - أن لا يعذب إلا من يستحق العذاب ، بل إنه - سبحانه - قد يتجاوز عن
كثير من ذنوب عباده رحمة منه وفضلا .وقد أشار صاحب الكشاف إلى هذا المعنى
بقوله : قوله ( مّا يَفْعَلُ الله بِعَذَابِكُمْ ) أيتشفى به من الغيظ؟ أم
يدرك به الثأر؟ أم يستجلب به نفعا؟ أم يستدفع به ضرراً؟ كما هو شأن الملوك
وهو الغنى المتعالى الذى لا يجوز عليه شئ من ذلك . وإنما هو أمر اقتضته .
الحكمة أن يعاقب المسئ . فإن قمتم بشكر نعمته وآمنتم به فقد أبعدتم عن
أنفسكم استحقاق العذاب .و ( مّا ) فى محصل نصب ب ( يَفْعَلُ ) لأن
الاستفهام له الصدارة . والباء فى قوله ( بِعَذَابِكُمْ ) سببية متعلقة
بيفعل . والاستفهام هنا معناه النفى كما سبق أن أشرنا . وعبر عن النفى
بالاستفهام للإشارة إلى أنه - سبحانه - ربت الجزاء على العمل؛ وأنه يجب
على كل عاقل أن يدرك أن عدالة الله قد اقتضت أنه - سبحانه -لا يضيع أجر
من أحسن عملا ، وأن لا يعذب إلا من يستحق العذاب ، ويعفو عن كثير من
السيئات بفضله ومنته .وقوله : ( إِن شَكَرْتُمْ ) جوابه محذوف دل عليه ما
تقدم . أى : إن شكرتم وآمنتم فما الذى يفعله بعذابكم؟وقدم الشكر على
، الإيمان ، لأن الشكر سبب فى الإيمان ، إذ الإنسان عندما يرى نعم الله
ويتفكر فيها يوقدرها حق قدرها ، يسوقه ذلك إلى الإيمان الحق ، فالشكر يؤدى
إلى الإيمان والإيمان متى رسخ واستقر فى القلب ارتفع بصاحبه إلى أسمى
ألوان الشكر وأعظمها . فعطف الإيمان على الشكر من باب عطف المسبب على
السبب .وقوله : ( وَكَانَ الله شَاكِراً عَلِيماً ) تذييل قصد به تأكيد ما
سبق من الله - تعالى -لا يعذب عباده الشاكرين المؤمنين .أى : وكان الله
، شاكراً لعباده على طاعتهم . أي مثيبهم ومجازيهم الجزاء الحسن على طاعتهم
عليما بجميع أقوالهم وأفعالهم ، وسيجازى كل إنسان بما يستحقه . فالمراد
بالشكر منه - سبحانه - مجازاة عباده بالثواب الجزيل على طاعتهم له ووقوفهم
عند أمره ونهيه .وسمى - سبحانه - ثواب الطائعين شكراً منه ، للتنويه بشأن
الطاعة ، وللتشريف للمطيع ، ولتعليم عباده يشكروا للمحسنين إحسانهم . فمن
لا يشكر الناس لا يشكر الله ، ورحم الله الإمام ابن القيم حيث يقول :وهو
الشكور . فلن يضيع سعيهم ... لكن يضاعفه بلا حسبانما للعباد عليه حق واجب
هو أوجب الأجر العظيم الشأنكلا ولا عمل لديه بضائع ... إن كان ...
بالإخلاص والإحسانإن عذبوا فبعدله ، أو نعموا ... فبفضله ، والحمد

للرحمنوإلى هنا نرى أن الآيات الكريمة التى بدأت بقوله - تعالى - ( بَشِّرِ
، المنافقين ) قد كشفت عن حقيقة النفاق والمنافقين فى المجتمع الإسلامي
، وأماطت اللثام عن طباعهم المعجة ، وأخقلاهم القبيحة ، ومسالكهم الخبيثة
وهممهم الساقطة ، ومصيرهم الأليم . وذلك لكى يحذرهم المؤمنون ، ويتنبهوا
إلى مكرهم وسوء صنيعهم . ثم نرى الآيات الكريمة خلال ذلك تفتح باب التوبة
للتائبين من المنفقين وغيرهم وتعدهم إن تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله
وأخلصوا دينهم لله بالأجر العظيم . وأخيرا تجئ تلك اللفتة العجيبة المؤثرة
العميقة . أخيرا بعد ذكر العقاب المفزع الذى توعد الله به المنافقين ، وبعد
ذكر الأجر العظيم الذى وعد الله به المؤمنين . أخيرا بعد كل ذلك تجئ الآية
الكريمة التى تنفى بأبلغ أسلوب أن يكون هناك عذاب من الله لعباده الشاكرين
المؤمنين ، لأنه - سبحانه - وهو الغنى الحميد ، قد اقتضت حكمته وعدالته أن
لا يعذب إلى من يستحق العذاب ، وأنه - سبحانه - سيجازى الشاكرين المؤمنين
: - بأكثر مما يستحقون من خير عميم ، ونعيم مقيم ، وما أحكم قوله - تعالى.
مَّا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ )
اللهُ شَاكِراً عَلِيماً ) إنها الآية كريمة تخص الناس على أن يقبولا على
ربهم بقلب سليم فيعبدوه حق العبادة ، ويطيعوه حتى الطاعة لينالوا ثوابه
وجزاءه الحسن؛ ( يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ
مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سواءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا
وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً ) ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أنه يبغض الجهر
بالسوء من القول إلا فى أحوال تقتضى ذلك ، وتوعد الكافرين به ويرسله
: بالعذاب المهين ، وبشر المؤمنين حق الإيمان بالأجر العظيم فقال - تعالى
. ( لاَّ يُحِبُّ اللهُ . . . غَفُوراً رَّحِيماً )

لا يحب الله الجهر بالسوء من القول الا من ظلم وكان الله سميعا عليما

كما فسرها الوسيط قوله - تعالى - : ( لاَّ يُحِبُّ الله الجهر بالسواء مِنَ
القول إِلاَّ مَن ظُلِمَ ) نهى للمؤمنين عن الاسترسال فى الجهر بالسوء إلا
عندما يوجد المقتضى لهذا الجهر .وعدم محبته - سبحانه - لشئ كناية عن غضبه
، على فاعله وعدم رضاه عنه ، والجهر بالقول معناه : النطق به فى إعلان
: ونشره بين الناس ، وإذاعته فيهم فهو يقابل السر والإخفاء .والقول السوء
هو الذى يسوء من يقال فيه ويؤذيه فى شرفه ، أو عرضه أو غير ذلك مما يلحق به
شرا .والمعنى :لا يحب الله - تعالى - لأحد من عباده أن يجهر بالأقوال
السيئة أو الأفعال السيئة ، إلا من وقع عليه الظلم فإنه يجوز له أن يجهر
بالسوء من القول فى الحدود التى تمكنه من رفع الظلم عنه دون أن يتجاوز ذلك
كأنه يجهر الخصم بما ارتكبه خصمه فى حقه من مآثم . وكأن يذكر المظلوم ،
الظالم بالقول السئ فى المجالس العامة والخاصة متحريا البعد عن الكذب
والبهتان .قال القرطبى ما ملخصه : والذى يقتضيه ظاهر الآية أن للمظلوم أن
ينتصر من ظالمه - ولكن مع اقتصاد - إن كان مؤمنا ، فأما أن يقابل القذف
بالقذب ونحوه فلا ، وإن كان كافرا فأرسل لسانك وادع بما شئت من الهلكة وبكل
دعاء كما فعل النبى صلى الله عليه وسلم حيث قال : " اللهم اشدد وطأتك على
مضر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف " .وإن كان مجارها بالظلم دعا عليه
الداعى جهرا ، ولم يكن لهذا المجاهر عرض محترم ، ولا بدن محترم ، ولا بدن
محترم ولا مال محترم . وقد روى أبو داود " عن عائشة أنها قالت : سرق لها شئ
فجعلت تدعو عليه - أى على السابق - فقال رسول الله صلى الله علي وسلم "لا
- تسبخى عنه " أى :لا تخففى عنه العقوبة بدعائك عليه . وروى أبو داود
" : أيضا - عن عمر بن الشريد عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال
لى الواجد ظلم يحل عرضه وعقوبته " أى : المماطلة من القادر على دفع الحقوق
لأصحابها ظلم يبيح للناس أن يذكروه بالسوء .وقول السوء بدون مقتض يبغضه
الله سواء أكان هذا القول سرا أو جهرا إلا أنه - سبحانه - خص الجهر بالذكر
لأنه أشد فحشا ، ولأنه أكثر جلبا للعداوة بين الناس ، وأشد تأثيرا فى إشاعة
، الجرائم فى المجتمع ، فإن كثرة سماع الناس للكلام السئ . وللقول الماجن
، يغرى الكثير منهم بترديد ما سمعوه ، وبحكايته فى أول الأمر بشئ من الحياء
، ثم لا يلبث هذا الحياء أن يزول بسبب إلف الناس للكثير من الألفاظ النابية
والأقوال السيئة .وأنت تقرأ القرآن فتراه فى عشرات الآيات يأمر أبتاعه
بالمداومة على النطق بالكلام الطيب حتى تنتشر بينهم المحبة والمودة . ومن
ذلك قوله - تعالى - : ( وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ
إِنَّ الشيطان يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشيطان كَانَ لِلإِنْسَانِ
عَدُوّاً مُّبِيناً ) والخلاصة أن الإسلام يحب لأتباعه أن يلتزموا النطق
بالكلمة الطيبة ، ويكره لهم أن يجهروا بالسوء من القول إلا فى حالة وقوع
ظلم عليهم ، ففى هذه الحالة يجوز لهم أن يجهروا بالسوء من القول حتى يرتدع
، الظالم عن ظلمه .والاستثناء فى قوله ( إِلاَّ مَن ظُلِمَ ) استثناء منقطع
فتكون إلا بمعنى لكن .أى :لا يحب الله الجهر بالسوء من القول لكن من ظلم
له أن يجهر بالسوء لكى يدفع ما وقع عليه من ظلم .ويحتمل أن يكون متصلا
فيكون المعنى :لا يحب الله الجهر بالسوء من القول من أحد إلا ممن ظلم فإنه

يجوز له أن يجهر بالسوء من القول لرفع الظلم عنه فيكون الاستثناء من الفاعل المحذوف وهو - من أحد - أو :لا يحب الله الجهر السوء من القول إلا جهر من ظلم فإنه ليس بخارج عن محبة الله لأن دفع الظلم واجب . فيكون الكلام على تقدير مضاف محذوف .وقوله : ( وَكَانَ الله سَمِيعاً عَلِيماً ) تذييل قصد - به التحذير من التعدى فى الجهر المأذون فيه ، ووعد للمظلوم بأنه - تعالى يسمع شكواه ودعاءه ، ويعلم ظلم ظالمه .أى : وكان الله سميعا لكل ما يسر به المسرون أو يجهر به المجاهرون ، عليما بما يدور فى النفوس من بواعث وهواجس . وسجيازى كل إنسان بأقواله وأعماله ، إن خيرا فخير ، وإن شراً فشر ،

ان تبدوا خيرا او تخفوه او تعفوا عن سوء فان الله كان عفوا قديرا

كما فسرها الوسيط ثم أكد - سبحانه - هذا المعنى ، وحض على العفو والصفح وفعل الخير فقال : ( إِن تُبْدُواْ خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سوءٍ فَإِنَّ الله كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً ) .أى : إن تظهروا - أيها الناس - ( خَيْراً ) من طماعة وبر وقول حسن ، وفعل حسن ، أو ( تُخْفُوهُ ) أى ، تخفوه هذا الخير بأن تعملوه سرا ( أَوْ تَعْفُواْ عَن سوءٍ ) بأن ، تصفحوا عمن أساء إلكم ، يكافئكم الله - تعالى - على ذلك مكافأة حسنة ويتجاوز عن خطاياكم ، ( فَإِنَّ الله كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً ) أى : كثير العفو عن العصاة مع كمال قدرته على مؤاخذتهم ومعاقبتهم فاقتدوا بهذه الصفات الحميدة لتنالوا محبة الله ورضاه .فالآية الكريمة تدعو الناس إلى الإكثار منفعل الخير سواء أكان سرا أو جهرا ، كما تدعو إلى العفو عن المسيئين إليهم قال ابن كثير : وفى الحديث الصحيح : " ما نقص مال من صدقة . وما زاد الله. عبدا بعفو إلا عزا . وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله " .وقال الفخر الرازى اعلم أن معاقد الخير على كثرتها محصورة فى أمرين : صدق مع الحق وخلق مع : . الخلق .ويتعلق بالخلق محصور فى قسمين : إيصال نفع إليهم ودفع ضرر عنهم فقوله . ( إِن تُبْدُواْ خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ ) إشارة إلى إيصال النفع . إليهم . وقوله : ( أَوْ تَعْفُواْ عَن سوءٍ ) إشارة إلى فدع الضرر عنهم - فدخل فى هاتين الكلمتين جميع أنواع الخير وأعمال البر .ثم بين - سبحانه . رذائل أهل الكتاب وأباطيلهم وسوء مصيرهم بعد حديثه القريب عن المنافقين - فقال - تعالى

ان الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون ان يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون ان يتخذوا بين ذلك سبيلا

كما فسرها الوسيط ( إِنَّ الذين يَكْفُرُونَ بالله وَرُسُلِهِ ) بأن يجحدوا وحدانية الله ، وينكروا صدق رسله - عليهم الصلاة والسلام - ( وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ الله وَرُسُلِهِ ) أى يريدون أن يفرقوا بين الإيمان بالله - تعالى - وبين الإيمان برسله ، بأن يعلنوا إيمانهم بوجود الله - تعالى - وأنه خالق هذا الكون ، إلا أنهم يكفرون برسله أو ببعضهم قال القرطبى : نص - سبحانه - على أن التفريق بين الإيمان بالله والإيمان. برسله كفر ، وإنما كان كفراً لأن الله سبحانه - فرض على الناس أن يعبدوه بما شرع لهم على ألسنة الرسل ، فإذا جحدوا رسالة الرسل فقد ردوا عليهم شرائعهم ولم يقبلوها منهم ، فكانوا ممتنعين من التزام العبودية التى أمروا باتلزامها ، فكان كجحد الصانع - سبحانه - وجحد الصانع كفر لما فيه من ترك التزام الطاعة والعبودية . وكذلك التفريق بين رسله فى الإيمان بهم كفر وقوله - تعالى - ( وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ ). : حكاية لما نطقوا به من كفر وجحود . أى . ويقولون على سبيل التبجح والعناد نؤمن ببعض الرسل ونكفر ببعضهم كما قال اليهود نؤمن بموسى والتوراة ونكفر بما وراء ذلك . وكما قال النصارى . نؤمن بعيسى والإنجيل ونكفر بما سوى ذلك وقوله ( وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذلك سَبِيلاً ) أى ويريدون. ، بقولهم هذا أن يتخذوا بين الإيمان بالبعض والكفر وبالبعض طريقا يسلكونه ودينا يتبعونه مع أنه لا واسطة بينهما قطعا ، لأن الرسل جميعا قد بعثهم الله - تعالى - لدعوة الناس إلى توحيده ، وإخلاص العبادة لهو نشر مكارم الأخلاق فى الأرض . فمن كفر بواحد منهم كفر بهم جميعا .

اولئك هم الكافرون حقا واعتدنا للكافرين عذابا مهينا

كما فسرها الوسيط وقوله ( أولئك هُمُ الكافرون حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً ) إخبار عن سوء مصيرهم ، وشناعة عاقبتهم أى : أولئك الموصوفون بتلك الصفات القبيحة هم الكافرون الكاملون فى الكفر. الراسخون فى ظلماته ، وأعتدنا أى وهيأنا وادخرنا للكافرين جميعا عذابا ، يهينهم ويذلهم جزاء كفرهم وجحودهم .وقوله ( حَقّاً ) مصدر مؤكد لمضمون الجملة قبله ، وعامله محذوف أى : أولئك الكافرون حق ذلك حقا . ويجوز أن يكون صفة لمصدر محذوف . أى أولئك هم الكافرون كفرا حقا أى : كفرا كاملا لا

شك فى وقوعه منهم وانغماسهم فيه .هذا هو شأن الكافرين بالله ورسله ، وتلك هى عاقبتهم

والذين امنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين احد منهم اولئك سوف يؤتيهم اجورهم وكان الله غفورا رحيما

) : كما فسرها الوسيط *أما المؤمنين الصادقون فقد بشرهم الله بقوله والذين آمَنُواْ بِاللهِ ) حق الإيمان وآمنوا ( وَرُسُلِهِ ) جميعا ( وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ) أى : لم يفرقوا فى الإيمان بين رسول ورسول بل آمنوا بهم جميعا .( أولئك ) الذين استقر الإيمان الكامل فى قلوبهم ، والذين وصفهم الله - تعالى - بتلك الأوصاف الحميدة ( سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ ) الله - تعالى - ( أُجُورَهُمْ ) التى وعدهم بها ( وَكَانَ الله غَفُوراً رَّحِيماً ) أى : وكان الله وما زال كثير المغفرة والرحمة لمن هذه صفاتهم ، وتلك نعوتهم .والتعبير بسوف لتأكيد الأجر الذى وعدهم الله به ، وللدلالة على أنه كان لا محاولة وإن تراخى . وبذلك تكون الآيات الكريمة قد قابلت بين مصير الكافرين ومصير المؤمنين؛ ليقلع الناس عن الكفر والمعاصى ، ويستجيبوا لأوامر الله لينالوا رضاه .

يسالك اهل الكتاب ان تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سالوا موسى اكبر من ذلك فقالوا ارنا الله جهرة فاخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك واتينا موسى سلطانا مبينا

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - جانبا من الأسئلة المتعنتة التى كان اليهود يوجهونها إلى النبى صلى الله عليه وسلم ومن النعم التى أنعم - سبحانه - بها عليهم ومن المنكرات التى قالوها وفعلوها ، ومن العقوبات التى عاقبهم الله بها بسبب ظلمهم وفسوقهم . . إستمع إلى القرآن وهو يحكى كل ذلك فيقول : ( يَسْأَلُكَ أَهْلُ الكتاب . . . أَجْراً عَظِيماً ) .ذكر المفسرون فى سبب نزول قوله - تعالى ( يَسْأَلُكَ أَهْلُ الكتاب ) . . الخ ذكروا روايات منها : ما أخرجه ابن جرير عن محمد بن كعب القرظى قال : جاء أناس من اليهود إلى رسول الله فقالوا : يا محمد ، إن موسى جاء بالألواح من عند الله ، فأتنا أنت بالألواح من عند الله حتى نصدقك . فأنزل الله - تعالى - ( يَسْأَلُكَ أَهْلُ الكتاب ) . إلى قوله (وَقَوْلِهِمْ على مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً ) وعن السدى : قالت اليهود : يا محمد ، إن كنت صادقا فأتنا بكتاب من السماء كما جاء به موسى .وعن قتادة : أنهم سألوه أن ينزل على رجال منهم بأعيانهم كتبا ، تأمر بتصديقه واتباعه .والمراد بأهل الكتاب هنا اليهود خاصة ، بدليل سياق الأيات الكريمة التى ذكرت أوصافا تنطبق عليهم ، وبدليل ما ذكرناه فى سبب نزول الآيات .والمعنى يسألك اليهود يا محمد على سبيل التعنت والعناد ، أن تنزل عليهم كتابا من السماء مكتوبا جملة كما جاء موسى لآبائهم بالتوراة مكتوبة فى الألواح جملة . أو يسألونك أن تنزل على رجال منهم بأعيانهم كتبا من السماء تأمرهم بتصديقك ، وسؤالهم هذا مقصدهم من ورائه التعنت والجحود ، ولو كانوا يريدون الإيمان حقا لما وجهوا إليك هذه الأسئلة المتعنتة؛ لأن الأدلة القاطعة قد قامت على صدقك وعبر بالمضارع فى قوله ( يَسْأَلُكَ ) لقصد استحضار حالتهم العجيبة فى هذا السؤال ، حتى لكأن السامع يراهم ، وللدلالة على تكرار أسئلتهم وتجددها المرة تلو الأخرى بدون حياء أو خجل .وقوله : ( فَقَدْ سَأَلُواْ موسى أَكْبَرَ مِن ذلك فقالوا أَرِنَا الله جَهْرَةً ) بيان للون من رذائلهم وقبائحهم ، وتسلية للرسول صلى الله عليه وسلم عما لحقه منهم من أذى وسوء أدب .والفاء فى قوله ( فَقَدْ سَأَلُواْ ) معطوفة على جملة محذوفة والتقدير لا تبتئس يا محمد من أقوال هؤلاء اليهود ، ولا تهتم بأسئلتهم ، فتلك سنشنة قديمة معروفة عن آبائهم ، فقد سأل آباؤهم موسى أسئلة أكبر من ذلك فقالوا له : أرنا الله جهرة أى رؤية ظاهرة بحيث نعاينه ونشاهده بأبصارنا ، ويطلب إلينا الإيمان بك . ويصح أن تكون الفاء واقعة فى جواب شرط مقدر وإليه أشار صاحب الكشاف بقوله : ( فَقَدْ سَأَلُواْ موسى أَكْبَرَ مِن ذلك جواب لشرط مقدر معناه ( إن استكبرت ما سألوك فقد سألوا موسى أكبر من ، ( ذلك ) وإنما أسند السؤال إليهم وإن وجد من آبائهم فى أيام مموسى وهم النقباء السبعون لأنهم كانوا على مذهبهم ، وراضين بسؤالهم . ومضاهين لهم فى التعنت .أى : أن حاضر هؤلاء اليهود الذين يعيشون معك يا محمد كماضى آبائهم الأقدمين ، وأخلاق الأبناء صورة من أخلاق الآباء ، وجميعهم لا يبغون من سؤالهم الاهتداء إلى الحق وإنما يبغون إعنات الرسل - عليهم الصلاة والسلام - والإساءة إليهم .والفاء فى قوله : ( فقالوا أَرِنَا الله جَهْرَةً ) تفسيرية كما فى قولهم : توضأ فغسل وجهه . إذا أظهر ماءها . وجهر الشئ : كشفه ، وجهر الرجل : رآه بلا حجاب .أى : أرنا الله جهارا عيانا بحاسة البصر فيكون قوله (جَهْرَةً ) مفعولا مطلقا ، لأن لفظ (جَهْرَةً ) نوع من مطلق الرؤية فيلاقى عامله فى الفعل .ويصح أن يكون حالا من المفعول

الأول أى : أرنا الله مجاهرين معاينين وقوله : ( فَأَخَذَتْهُمُ الصاعقة
بِظُلْمِهِمْ ) بيان للعقوبة التى حلت بهم نتيجة سوء أدبهم وجرأتهم على
خالقهم وعلى أنبيائهم .والصاعقة - كما يقول ابن جرير - : كل أمر هائل رآه
الرائى أو عاينه أو أصابه ، حتى يصير من هوله وعظيم شأنه إلى هلاك وعطب
وذهاب عقل صوتا كان ذلك أو نارا أو زلزلة أو رجفة .وقال الراغب : الصاعقة
على ثلاثة أوجه : الموت كقوله : ( فَصَعِقَ مَن فِي السماوات وَمَن فِي
الأرض ) والعذاب كقوله : ( أنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ
عَادٍ وَثَمُودَ ) والنار كقوله : ( وَيُرْسِلُ الصواعق فَيُصِيبُ بِهَا
مَن يَشَآءُ ) وما ذكره - سبحانه إنما هى أشياء حاصلة من الصاعقة؛ فإن
الصاعقة هى الصوت الشديد فى الجو ، ثم يكون منه نار فقط ، أو عذاب ، أو موت
وهى فى ذاتها شئ واحد . وهذه الأشياء تأثيرات منها .ويبدو أن المراد ،
، بالصاعقة هنا : ذلك الصوت الشديد المجلجل المزلزل المصحوب بنار هائلة
والذى كان من آثاره أن صعقوا : أى خروا مغشيا عليهم أو هلكوا ، بسبب ظلمهم
وعنادهم وفسوقهم عن أمر الله .وقوله : ( ثُمَّ اتخذوا العجل مِن بَعْدِ مَا
جَآءَتْهُمُ البينات فَعَفَوْنَا عَن ذلك وَآتَيْنَا موسى سُلْطَاناً
مُّبِيناً ) بيان لنوع ثالث من جرائمهم ، ولمظهر من مظاهر رحمة الله بهم
أى : أن هؤلاء الذين سألوا موسى رؤية الله جهرة ، أخذتهم الصاعقة عقوبة.
لهم على ظلمهم ، لم يرتدعوا ولم ينزجروا ، بل لجوا فى طغيانهم وضلالهم
فاتخذوا العجل معبودا لهم من دون الله ( مِن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ
البينات ) أى من بعد ما جاءتهم الدلائل القاطعة على وحدانية الله وصدق
أنبيائه .وقوله : ( فَعَفَوْنَا عَن ذلك ) أى . عفونا من اتخاذهم العجل
) . إلها بعد أن تابوا وأقلعوا عن عبادته ، لأن التوبة تجب ما قبلها .وقوله
وَآتَيْنَا موسى سُلْطَاناً مُّبِيناً ) أى . أعطينا موسى بفضلنا ومنتنا
حججا بينات ومعجزات باهرات ، وقوة وقدرة على الانتصال على من خالفه و ( ثم
فى قوله . ( ثُمَّ اتخذوا العجل ) للتراخى الرتبى؛ لأن اتخاذهم العجل (
إلها أعظم جرما مما حكاه الله عنهم من جرائم قبل ذلك .وقوله ( مِن بَعْدِ
مَا جَآءَتْهُمُ البينات ) بيان لفرط ضلالهم وانطماس بصيرتهم ، لأنهم لم
يبعدوا العجل عن جهالة ، وإنما عبدوه من بعد ما وصلت إلى أسماعهم وعقولهم
الدلائلة الواضحة وعلى وحدانية الله ، وعلى أن عبادة العجل لا يقدم عليها
إنسان فيه شئ من العقل وحسن الإدراك .واسم الإشارة فى قوله ( فَعَفَوْنَا
عَن ذلك ) يعود إلى اتخاذ العجل معبودا من دون الله .والجملة الكريمة حض
لليهود المعاصرين للعهد النبوى على الدخول فى الإسلام فإنهم متى فعلوا ذلك
غفر الله لهم ما سلف من ذنوبهم كما غفر لآبائهم بعد أن تابوا من عبادة
العجل .هذا ، وما حكته هذه الآية الكريمة من جرائم بنى إسرائيل بصورة مجملة
قد جاء مفصلا فى مواطن أخرى ومن ذلك قوله - تعالى - : ( وَإِذْ قَالَ موسى
لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ باتخاذكم العجل
فتوبوا إلى بَارِئِكُمْ فاقتلوا أنفسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ
عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التواب الرحيم وَإِذْ
قُلْتُمْ ياموسى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتي نَرَى الله جَهْرَةً
فَأَخَذَتْكُمُ الصاعقة وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن
بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ )

ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سجدا وقلنا لهم لا
تعدوا في السبت واخذنا منهم ميثاقا غليظا

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - لونا آخر من عنادهم وجحودهم فقال
وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطور بِمِيثَاقِهِمْ ) .قال ابن كثير : وذلك أنهم
حين امتنعوا عن الالتزام بأحكام التوراة ، وظهر منهم إباء عما جاء به
، موسى - عليه السلام - رفع الله على رءوسهم جبلا . ثم ألزموا فالتزموا
- وسجدوا ، وجعلوا ينظرون إلى ما فوق رءوسهم خشية أن يسقط عليهم ، كما قال
تعالى - : ( وَإِذ نَتَقْنَا الجبل فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وظنوا
- أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَآ ءاتيناكم بِقُوَّةٍ ) الآية .وقوله
تعالى - : ( وَقُلْنَا لَهُمُ ادخلوا الباب سُجَّداً ) أى : وقلنا لهم على
: لسان أنبيائهم ادخلوا باب القرية التى أمرناكم بدخولها ساجدين لله ، أى
ادخلوها متواضعين خاضعين لله ، شاكرين له فضله وكرمه ، ولكنهم خالفوا ما
أمرهم الله مخالفة تامة .والمراد بالقرية التى أمرهم الله بدخول بابها
ساجدين : قيل : هى بيت المقدس وقيل : إيلياء ، وقيل : أريحاء . وقد أبهمها
الله - تعالى - لأنه لا يتعلق بذكرها مقصد أو غرض . ولم يرد فى السنة
الصحيحة بيان لها .وقد تحدث القرآن عن قصة أمرهم بدخول هذه القرية ساجدين
بصورة أكثر تفصيلا فى سورتى البقرة والأعراف ، فقال - تعالى - فى سورة
البقرة : ( وَإِذْ قُلْنَا ادخلوا هذه القرية فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ
شِئْتُمْ رَغَداً وادخلوا الباب سُجّداً وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ
لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ المحسنين فَبَدَّلَ الذين ظَلَمُواْ
قَوْلاً غَيْرَ الذي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الذين ظَلَمُواْ

رِجْزاً مِّنَ السمآء بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ) وقوله : ( وَقُلْنَا
لَهُمْ لاَ تَعْدُواْ فِي السبت ) أى : وقلنا لهم كذلك لا تتجاوزوا الحدود
التى أمركم الله بالتزامها فى يوم السبت والتى منها : ألا تصطادوا فى هذا
اليوم ، ولكنهم خالفوا أمر الله ، وتحايلوا على استحلال محارمه .وقصة
اعتداء اليهود على محارم الله فى يوم السبت قد جاء ذكرها فى كثير من آيات
القرآن الكريم . ومن ذلك قوله - تعالى - فى سورة البقرة : ( وَلَقَدْ
عَلِمْتُمُ الذين اعتدوا مِنْكُمْ فِي السبت فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ
قِرَدَةً خَاسِئِينَ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا
وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ )وقال - تعالى - فى سورة
الأعراف : ( وَسْئَلْهُمْ عَنِ القرية التي كَانَتْ حَاضِرَةَ البحر إِذْ
يَعْدُونَ فِي السبت إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ
شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ
بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ) وقوله : ( وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِّيثَاقاً
غَلِيظاً ) أى : وأخذنا منهم عهدا مؤكدا كل التأكيد ، وموثقا كل التوثيق
، بأن يعملوا بما أمرهم الله به ، ويتركوا ما نهاهم عنه . ولكنهم نقضوا
عهودهم ، وكفروا بآيات الله ، ونبذوها وراء ظهورهم .وأضاف - سبحانه - الأخذ
إلى ذاته الكريمة تقوية لأمر هذا الميثاق ، وتويها بشأنه وإشعاراً بوجوب
الوفاء به؛ لأن ما أخذه الله على عباده من مواثيق من واجبهم أن يفوا بها إذ
- هو - سبحانه - وحده سيجازيهم على نكثهم ونقضهم لعهودهم .ووصف - سبحانه
الميثاق الذى أخذه عليهم بالغلظ أى : بالشدة والقوة؛ لأنه كان قويا فى
معناه وفى موضعه وفى كل ما اشتمل عليه من أوامر ونواه وأحكام ، ولأن نفوسهم
كانت منغمسة فى الجحود والعناد فكان من المناسب لها تأكيد العهد وتوثيقه
لعلها ترعوى عن ضلالها وفسوقها عن أمر الله .

فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بايات الله وقتلهم الانبياء بغير حق وقولهم
قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلا

كما فسرها الوسيط ثم عدد - سبحانه - ألونا أخرى من جرائمهم التى عقابهم
عليها شديدا فقال - تعالى - : ( فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ
وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ الله وَقَتْلِهِمُ الأنبياء بِغَيْرِ حَقٍّ
وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ الله عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ
فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ) .والفاء فى قوله ( فَبِمَا نَقْضِهِم
مِّيثَاقَهُمْ ) للتفريع على ما تقدم من قوله ( وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ
مِّيثَاقاً غَلِيظاً ) والباء للسببية ، وما هنا مزيدة لتأكيد نقضهم
للميثاق . والجر والمجرور متعلق بمحذوف لتذهب نفس السامع فى تقديره كل مذهب
فى التهويل والتشنيع على هؤلاء الناقضين لعهودهم مع الله - تعالى - فيكون
المعنى :فسبب نقض هؤلاء لعهودهم وبسبب كفرهم بآياتنا ، وبسبب قتلهم
لأنبيائنا ، وبسبب أقوالهم الكاذبة . بسبب كل ذلك فعلنا بهم ما فعلنا من
أنواع العقوبات الشديدة ، وأنزلنا بهم ما أنزلنا من ظلم ومهانة وصغار ومسخ
) الخ .ويرى بعضهم أن الجار والمجرور متعلق بقوله - تعالى - بعد ذلك . . .
حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ) . . .أى : فسبب نقضهم
للميثاق . وكفرهم بآيات الله حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم .قال الفخر الرازى
واعلم أن القول الأول أولى ويدل عليه وجهان :أحدهما : أن الكلام طويل :
) : جداً من قوله : ( فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ ) إلى قوله
فَبِظُلْمٍ مِّنَ الذين هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ
- أُحِلَّتْ لَهُمْ ) .الثانى : أن تلك الجنايات المذكورة بعد قوله - تعالى
، عظيمة جدا . لأن كفرهم بآيات الله ( فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ )
، وقتلهم الأنبياء ، وإنكارهم للتكليف بقولهم : قلوبنا غلف ، أعظم الذنوب
وذكر الذنوب العظيمة ، إنما يليق أن يفرع عليه العقوبة العظيمة ، وتحريم
بعض المأكولات عقوبة خفيفة فلا حسن تعليقه بتلك الجنايات الكبيرة .فأنت ترى
أن الله - تعالى - قد لعن بنى إسرائيل كما جاء فى قوله - تعالى - ( فَبِمَا
نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ ) ومسخهم قردة وخنازير كما جاء فى قوله - تعالى
)فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ
قِرَدَةً خَاسِئِينَ ) وكما فى قوله - تعالى - ( هَلْ أُنَبِّئُكُمْ
بِشَرٍّ مِّن ذلك مَثُوبَةً عِندَ الله مَن لَّعَنَهُ الله وَغَضِبَ
عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ القردة والخنازير وَعَبَدَ الطاغوت ) وتلك
العقوبات كلها إنما كانت بسبب الجنايات والمنكرات التي سجلتها عليهم الآيات
القرآنية؛ والتى من أجمعها هذه الآيات التى معنا .فالآيات التى معنا تسجل
عليهم نقضهم للمواثيق ، ثم تسجل عليهم - ثانيا - كفرهم بآيات الله .وقد
عطف - سبحانه - كفرهم بآياته على نقضهم للميثاق الذى أخذه عليهم مع أن ذلك
الكفر من ثمرات النقض ، للإشعار بأن النقض فى ذاته إثم عظيم والكفر فى
ذاته إثم عظيم - أيضا - من غير التفات إلى أن له سبباً أو ليس له سبب .وسجل
عليهم - ثالثا - قتلهم الأنبياء غير حق . فقد قتلوا زكريا وحيى وغيرهما من
رسل الله - تعالى - .ولا شك أن قتل الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - يدل

على شناعة جريمة من قتلهم وعلى تولغه فى الجحود والعناد والفجور إلى درجة
تعجز العبارات عن وصفها ، لأنه بقتله للدعاة إلى الحق ، لا يريد للحق أن
يظهر ولا للفضيلة أن تنتشر ، ولا للخير أن يسود ، وإنما يريد أن تكون
الأباطيل والرذائل والشرور هى السائدة فى الأرض .وقوله : ( بِغَيْرِ حَقٍّ
) : ليس قيدا؛ لأن تقل النبيين لا يكون بحق أبداً ، وإنما المراد من قوله ( بِغَيْرِ حَقٍّ ) بيان أن هؤلاء القاتلين قد بلغوا النهاية فى الظلم
، والفجور والتعدى . لأنهم قد قتلوا أنبياء الله بدون أى مسوغ يوسغ ذلك
وبدون أية شبهة تحملهم على ارتكاب ما ارتكبوا ، وإنما فعلوا ما فعلوا لمجرد
إرضاء أحقادهم وشهواتهم وأهوائهم . .وقد أشار صاحب الكشاف إلى هذا المعنى
قوله : فإن قلت : وقتل الأنبياء لا يكون إلا بغير الحق فما فائدة ذكره؟ قلت
معناه أنهم قتلوهم بغير حق عندهم - ولا عند غيرهم - ، لأنهم لم يقتلوا .
ولا أفسدوا فى الأرض فيقتلوا . وإنما نصحوهم ودعوهم إلى ما ينفعهم فقتلوهم
فلو سئلوا وأنصفوا من أنفسهم لم يذكروا وجها يستحقون به القتل ثم سجل .
عليهم - رابعا - قولهم ( قُلُوبُنَا غُلْفٌ ) .وقوله : ( غُلْفٌ ) جمع
أغلف - كحمر جمع أحمر - والشئ الأغلف هو الذى جعل عليه شى يمنع وصول شئ آخر
إليه .والمعنى : أن هؤلاء الجاحدين قد قالوا عندما دعاهم الرسول صلى الله
عليه وسلم إلى الحق إن قلوبنا قد خلقها الله مغطاة بأغطية غليظة ، وهذه
الأغطية جعلتنا لا نعى شيئا مما تقوله يا محمد ، ولا نفقة شيئا مما تدعونا
إليه ، فهم بهذا الكلام الذى حكاه القرآن عنهم ، يريدون أن يتنصلوا من
مسئوليتهم عن كفرهم ، لأنهم يزعمون أن قلوبهم قد خلقها الله بهذه الطريقة
التى حالت بينهم وبين فهم ما يراد منهم .وقريب من هذا قوله - تعالى - حكاية
عن المشركين : ( وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا
إِلَيْهِ وَفِي آذانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فاعمل
- إِنَّنَا عَامِلُونَ ) وقيل : إن قوله : وغلف : جمع غلاف - ككتب وكتاب
وعليه يكون المعنى : أنهم قالوا إن قلوبنا غلف أى أوعية للعلم شأنها فى ذلك
شأن الكتب ، فلا حاجة بنا يا محمد إلى ما تدعونا إليه ، لأننا عندنا ما
، يكفينا .والذى يبدو لنا أن التأويل الأول أولى ، لأن أقرب إلى سياق الآية
فقد رد الله عليهم بقوله : ( بَلْ طَبَعَ الله عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ
فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ) . والطبع معناه . إحكام الغلق على
الشئ وختمه بحيث لا ينفذ إليه شئ آخر .والمعنى : أن هؤلاء القائلين إن
قلوبهم غلف كاذبون فيما يقولون ، وتخليهم عن مسئولية الكفر ليس صحيحا . لأن
كفرهم ليس سببه أن قلوبهم قد خلقت مغطاة بأغطية تحجب عنها إدراك الحق - كما
، يزعمون - بل الحق أن الله - تعالى - ختم عليها ، وطمس معالم الحق فيها
، بسبب كفرهم وأعمالهم القبيحة . فهو - سبحانه - قد خلق القلوب على الفطرة
بحيث تتمكن من اختيار الخير والشر ، إلا أن هؤلاء اليهود قد أعرشوا عن
الخير إلى الشر ، واختاروا الكفر على الإيمان نتيجة انقيادهم لأهوائهم
وشهواتهم . فالله - تعالى - طبع على قلوبهم بسبب إيثارهم سبيل الغى على
- سبيل الرشد ، فصاروا لا يؤمنون إلا إيمانا قليلا لا قيمة له عند الله
تعالى - .فقوله ( إِلاَّ قَلِيلاً ) نعت لمصدر محذوف أى إلا إيماناً قليلا
كإيمانهم بنبوة موسى - عليه السلام - وإنما كان إيمانهم هذا لا قيمة له .
عند الله ، لأن الإيمان ببعض الأنبياء والكفر ببعضهم ، يعتبره الإسلام
كفرا بالكل كما سبق أن بينا فى قوله - تعالى - ( إِنَّ الذين يَكْفُرُونَ
بالله وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ الله وَرُسُلِهِ
وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أن
يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذلك سَبِيلاً أولئك هُمُ الكافرون حَقّاً ) ومنهم من
جعل قوله ( إِلاَّ قَلِيلاً ) صفة لزمان محذوف أى : فلا يؤمنون إلا زمانا
قليلا . ومنهم من جعل الاستثناء فى قوله ( إِلاَّ قَلِيلاً ) من جماعة
اليهود المدلول عليهم بالواو فى قوله ( فَلاَ يُؤْمِنُونَ ) أى : فلا
يؤمنون إلا عددا قليلا منهم كعبد الله بن سلام وأشباهه . والجملة الكريمة
وهى قوله : ( طَبَعَ الله عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ) معترضة بين الجمل
المتعاطفة . وقد جئ بها للمسارعة إلى رد مزاعمهم الفاسدة ، وأقاربهم
الباطلة .

وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما

) : كما فسرها الوسيط ثم سجل عليهم - خامسا وسادسا - جريمتين شنيعتين فقال
وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ على مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً ) .والمراد
بالكفر هنا : كفرهم بعيسى - عليه السلام - وهو غير الكفر المذكور قبل ذلك
فى قوله : ( طَبَعَ الله عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ) لأن المراد به هنا مطلق
الجحود الذى لا يجعل الشخص يستقر على شئ ، فهو إنكار مطلق للحق .وقد أشار
) إلى هذا المعنى الآلوسى بقوله : وقوله : ( بِكُفْرِهِمْ ) عطف على
بِكُفْرِهِمْ ) الذى قبله - وهو قوله - تعالى - ( بَلْ طَبَعَ الله
عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ) - ولا يتوهم أنه من عطف الشئ على نفسه ولا فائدة
فيه ، لأن المراد بالكفر المعطوف : الكفر بعيسى . والمراد بالكفر المعطوف

عليه : إما الكفر المطلق . أو الكفر بمحمد - صلى الله عليه وسلم -؛
لاقترانه بقوله - تعالى - ( قُلُوبُنَا غُلْفٌ ) . وقد حكى الله عنهم هذه
المقالة فى مواجهتهم له - عليه الصلاة والسلام - فى مواضع . ففى العطف
إيذان بصلاحية كل من الكفرين للسببية ويجوز ان يكون قوله : ( بِكُفْرِهِمْ
معطوف على قوله ( فَبِمَا نَقْضِهِم ) .والبهتان : هو الكذب الشديد الذى (
: لا تقبله العقول ، بل يحيرها ويدهشها لغرابته وبعده عن الحقيقة . يقال
بهت فلان فلانا ، إذا قال فيه قولا يدهشه ويحيره لغرابته وشناعته فى الكذب
، والافتراء .والمعنى : إن من أسباب لعن اليهود وضرب الذلة والمسكنة عليهم
كفرهم بعيسى - عليه السلام - ، وهو الرسول المبعوث إليهم ليهديهم إلى الحق
وإلى الطريق المستقيم . وفتراؤهم الكذب على مريم أم عيسى ، ورميهم لها بما
هى ريئة منه ، وغافلة عنه ، فقد اتهموها بالفاحشة لولادتها لعيسى من غير أب
) وقد برأها الله - تعالى - مما نسبوه إليها . فى قوله - تعالى .
وَمَرْيَمَ ابنت عِمْرَانَ التي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ
مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ
- القانتين ) وقوله : ( بُهْتَاناً ) منصوب على أنه مفعول به لقوله - تعالى
فإنه متضمن معنى كلام نحو : قلت خطبة وشعرا . ويجوز أن ، ( وَقَوْلِهِمْ )
يكون نعتا لمصدر محذوف ، أى : وبفكرهم وقولهم على مريم قولا بهتانا . أو هو
مصدر فى موضع الحال أى : مباهتين . ووصفه بالعظم لشناعته وبلوغه النهاية فى
. الكذب والافتراء

وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن
شبه لهم وان الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم الا اتباع الظن
وما قتلوه يقينا

كما فسرها الوسيط ثم سجل عليهم بعد ذلك رذيلة سابعة ورد عليهم بما يخرس
) : ألسنتهم ، ويفضحهم على رءوس الأشهاد فى كل زمان ومكان فقال
وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا المسيح عِيسَى ابن مَرْيَمَ رَسُولَ الله
وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ ولكن شُبِّهَ لَهُمْ ) والمسيح : لقلب
تشريف وتكريم لعيسى - عليه السلام - قيل : لقب بذلك لأنه ممسوح من كل خلق
ذميم . وقيل : لأنه مسح بالبركة كما فى قوله - تعالى - : ( وَجَعَلَنِي
مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ ) وقيل لأن الله مسح عنه النذوب .أى : وبسبب
قولهم على سبيل التبجح والتفاخر إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله
لعنهم الله وغضب عليهم ، كما لعنهم وغضب عليهم - أيضا - بسبب جرائمهم ،
السابقة .وهذا القول الذى صدر عنهم هو فى ذاته جريمة؛ لأنهم قالوه على سبيل
التبجح والتفاخر لقتلهم - فى زعمهم - نبيا من أنبياء الله ، ورسولا من أولى
العزم من الرسل .وقولهم هذا وإن كان يخالف الحقيقة والواقع ، إلا أنه يدل
، على أنهم أرادوا قتله ففعلا ، وسلكوا كل السبل لبلوغ غايتهم الدنيئة
فدسوا عليه عند الرومان ، ووصفوه بالدجل والشعوذة ، وحاولوا أن يسلموه
- لأعدائه ليصلبوه ، بل زعموا أنهم أسلموا فعلا لهم ، ولكن الله - تعالى
- خيب سعيهم ، وأبطل مكرهم ، وحال بينهم وبين ما يشتهون ، حيث نجى عيسى
عليه السلام - من شرورهم ، ورفعه إليه دون أن يمسه سوء منهم .ولا شك أن صدر
عن اليهود فى حق عيسى - عليه السلام - من محاولة قتله ، واتخاذ كل وسيلة
لتنفيذ غايتهم ، ثم تفاخرهم بأنهم قتلوه وصلبوه ، لا شك أن كل ذلك يعتبر من
أكبر الجرائم؛ لأنه من المقرر فى الشرائع والقوانين أن من شرع فى ارتكاب من
، الجرائم واتخذ كل الوسائل لتنفيذها ، ولكنها لم تتم لأمر خارج عن إرادته
فإنه يعد من المجرمين الذين يستحقون العقاب الشديد .واليهود قد اتخذوا كافة
الطرق لقتل عيسى - عليه السلام - كما بينا - ، ولكن حيل بينهم وبين ما
يشتهون لأسباب خارجة عن طاقتهم . ومنعنى هذا أنه لو بقيت لهم أية وسيلة
لإتمام جريمتهم النكراء لما تقاعسوا عنها ، ولأسرعوا فى تنفيذها فهم
يستحقون عقوبة المجرم فى تفكيره ، وفى نيته ، وفى شروعه الأثيم ، لارتكاب
ما نهى الله عنه .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كانوا كافرين بعيسى - عليه
السلام - أعداء له ، عامدين لقتله ، يسمونه الساحر ابن الساحرة ، والفاعل
ابن الفاعلة ، فيكف قالوا : ( إِنَّا قَتَلْنَا المسيح عِيسَى ابن مَرْيَمَ
رَسُولَ الله ) ؟قلت : قالوه على وجه الاستهزاء ، كقول فرعون ( إِنَّ
رَسُولَكُمُ الذي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ) ويجوز أن يضع الله
الذكر الحسن مكان ذكرهم القبيح فى الحكاية عنهم ، رفعا لعيسى عما كانوا
يذكرونه به ، وتعظيما لما أرادوا بمثله كقوله : ( لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ
العزيز العليم الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرض مَهْداً ) وقوله - تعالى - ( وَمَا
، قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ ولكن شُبِّهَ لَهُمْ ) رد على مزاعمهم الكاذبة
. - وأقاويلهم الباطلة التى تفاخروا بها بأنهم قتلوا عيسى - عليهم السلام
أى : إن ما قاله اليهود متفاخرين به ، وهو زعمهم أنه قتلوا عيسى - عليه
السلام - ، هو من باب أكاذيبهم المعروفة عنهم؛ فإنهم ما قتلوه ، وما صلبوه
ولكن الحق أنهم قتلوا رجلا آخر يشبه عيسى - عليه السلام - فى الخلقة فظنوه
إياه وقتلوه وصلبوه ، ثم قالوا . إنا قتلنا المسيح ابن مريم رسول الله .قال

الفخر الرازى : قوله : ( شُبِّهَ ) مسند إلى ماذا؟ إن جعلته مسنداً إلى
المسيح فهو مشبه به وليس بمشبه . وإن أسندته إلى المقتول لم يجر له ذكر؟
والجواب من وجهين :الأول : أنه مسند إلى الجار والمجرور .وهو كقولك : خيل
إليه . كأنه قيل : ولكن قوع لهم الشبه . الثانى : أن يسند إلى ضمير المقتول
لأن قوله ( وَمَا قَتَلُوهُ ) يدل على أنه وقع القتل على غيره فصار ذلك ،
الغير مذكورا بهذا الطريق فحسن إسناد ( شُبِّهَ ) إليه .وقال فضيلة الشيخ
حسنين محمد مخلوف قوله : ( وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ ) زعم أكثر
) : اليهود أنهم قتلوا المسيح وصلبوه ، فأكذبهم الله - تعالى - فى ذلك وقال
ولكن شُبِّهَ لَهُمْ ) . أى : شبه لهم المقتول بأن ألقى عليه شبه المسيح
فلما دخلوا عليه ليقتلوه - أى ليقتلوا المسيح - وجدوا الشبيه فقتلوه وصلبوه
، يظنونه المسيح وما هو فى الواقع ، إذ قد رفع الله عيسى إلى السماء ،
ونجاه من شر الأعداء .وقيل المعنى : ولكن التبس عليهم الأمر حيث ظنوا
المقتول عيسى كما أوهم بذلك أحبارهم .هذا ، وللمفسرين فى بيان كيفية
التشبيه لهم وجوه من أهمها اثنان :الأول : أن الله - تعالى - ألقى شبه
عيسى - عليه السلام - على أحد الذين خانوه ودبروا قتله وهو ( يهوذا
الإسخربوطى ) الذى كان غينا وجاسوسا على المسيح ، والذى أرشد الجند الذين
، أرادوا قتله إلى مكانه ، وقال لهم : من أقبله أمامكم يكون هو المسيح
فاقبضوا عليه لتقتلوه ، فدخل بين عيسى ليدلهم عليه ليقتلوه فرفع الله عيسى
وألقى شبهه على المنافق ، فدخلوا عليه فقتلوه وهم يظنون أنه عيسى .وهذا ،
الوجه قد جاء مفصلا فى بعض الأناجيل وأشار إليه الآلوسى بقوله : كان رجل من
الحواريين ينافس عيسى - عليه السلام - فلما أرادوا قتله قال : أنا أدلكم
عليه ، وأخذ على ذلك ثلاثين درهما ، فدخل بيت عيسى - عليه السلام - فرفع
الله عيسى ، وألقى شبهه على المنافق ، فدخلوا عليه فتقوله ، وهم يظنون أنه
عيسى .الثانى : أن الله - تعالى - القى شبه المسيح على أحد تلاميذه
، المخلصين حينا أجمعت اليهود على قتله ، فأخبره الله بأنه سيرفعه إليه
فقال لأصحابه أيكم يرضى أن يلقى عليه شبهى فيقتل ويصلب ويدخل الجنة؟ فقال
رجل منهم أنا . فألقى الله صورة عيسى عليه ، فقتل ذلك الرجل وصلب .وقد
أطالب الإمام ابن كثير فى ذكر الروايات التى تؤيد هذا الوجه ، ومنها قوله
، عن ابن عباس قال : لما أراد الله - تعالى - أن يرفع عيسى إلى السماء :
خرج على أصحابه وفى البيت اثنا عشر رجلا من الحواريين فقال لهم إن منكم من
يكفر بعدى اثنتى عشرة مرة بعد أن آمن بى .قال : ثم قال : أيكم يلقى عليه
: شبهى فيقتل مكانى ، ويكون معى فى درجتى؟فقال شاب من أحدثهم سنا . فقال له
. اجلس . ثم أعاد عليهم . فقال ذلك الشاب . فقال له : اجلس . ثم أعاد عليهم
فقام ذلك الشاب . فقال : أنا .فقال له عيسى ، هو أنت ذاك . فألقى عليه شبه
عيسى . ورفع عيسى من روزنة فى البيت إلى السماء . قال : وجاء الطلب من
اليهود فأخذوا الشبه فقتلوه ثم صلبوه ، فكفر به بعضهم اثنتى عشرة مرة بعد
أن آمن . قال ابن كثير : وهذا إسناد صحيح عن ابن عباس ، ورواه النسائى عن
أبى كريب عن أبى معاوية ، وقال غير واحد من السلف : أنه قال لهم . أيكم
يلقى عليه شبهى فيقتل مكانى وهو رفيقى فى الجن . . .والذى يجب اعتقاده بنص
القرآن الكريم أن عيسى - عليه السلام لم يقتل ولم يصلب ، وإنما رفعه الله
- إليهم ، ونجاه من مكر أعدائه ، أما الذى قتل وصلب فهو شخص سواه .ثم قال
تعالى - ( وَإِنَّ الذين اختلفوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ
بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتباع الظن ) . أى : وإن الذين اختلفوا فى شأن
عيسى من أهل الكتاب لفى شك دائم من حقيقة أمره . أى : فى حيرة وتردد ، ليس
عندهم علم ثابت قطعى فى شأنه ، أو فى شأن قتله ، ولكنهم لا يتبعون فيما
يقولونه عنه إلا الظن الذى لا تثبت به حجة . ولا يقوم عليه برهان .ولقد
اختلف أهل الكتاب فى شأن عيسى اختلافا كبيراً . فمنهم من زعم أنه ابن الله
وادعى أن فى عيسى عنصرا إليها مع العنصر الإنسانى . وأن الذى ولدته مريم .
هو العنصر الإنسانى . ثم أفاض عليه بعد ذلك العنصر الإلهى .ومنهم من قال
إن مريم ولدت العنصرين معا .ولقد اختلفوا فى أمر قتله . فقال بعض اليهود :
إنه كان كاذبا فقتلناه قتلا حقيقا ، وتردد آخرون فقالوا : إن كان المقتول :
عيسى فأين صاحبنا . وإن كان المقتول صاحبنا فأين عيسى؟وقال آخرون : الوجه
وجه عيسى والبدن بدن صاحبنا .إلى غير ذلك من خلافاتهم التى لا تنتهى حول
حقيقة عيسى وحول مسألة قتله وصلبه .فالمراد بالموصول فى قوله : ( وَإِنَّ
الذين اختلفوا ) ما يعم اليهود والنصارى جميعا . والضمير فى قوله ( فيه )
يعود إلى عيسى - عليه السلام - .وقوله ( مِّنْهُ ) جار مجرور متعلق بمحذوف
صفة الشك .قال الآلوسى : وأصل الشك أن يستعمل فى تساوى الطرفين ، وقد
يستعمل فى لازم معناه وهو التردد مطلقا ، وإن لم يترجح أحد طرفيه وهو
) : - المراد هنا . ولذا أكده بنفى العلم الشامل لذلك أيضا بقوله - سبحانه
مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتباع الظن ) .وقوله ( إِلاَّ اتباع
الظن ) الراجح أن الاستثناء فيه منقطع ، أى مالهم به من علم لكنهم يتبعون
الظن .وقيل : هو متصل ، لأن العلم والظن يجمعهما مطلق الإدراك .قال صاحب
الكشاف : فإن قلت : قد وصفوا بالشك والشك أن لا يترجح أحد الجائزين .ثم
وصفوا بالظن والظن أن يترجح أحدهما فيكف يكونون شاكين ظانين؟ قلت : أريد

أنهم شاكون ما لهم من علم قط ، ولكن إن لاحت لهم إمارة ظنوا .ولم يرتض هذا
- الجواب صاحب الانتصاف فقال : وليس فى هذا الجواب شفاء الغليل . والظاهر
والله أعلم - أنهم كانوا أغلب أحوالهم الشك فى أمرهم والتردد ، فجاءت
العبارة الأولى على ما يغلب من حالهم ، ثم كانوا لا يخلون من ظن فى بعض
الأحوال وعنده يقفون لا يرتفعون إلى العلم فيه البتة . وكيف يعلم الشئ على
ما خلاف ما هو به؟ فجاءت العبارة الثانية على حالهم النادرة فى الظن نافية
. عنهم ما يترقى عن الظن

بل رفعه الله اليه وكان الله عزيزا حكيما

كما فسرها الوسيط وقوله : ( وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً بَل رّفَعَهُ الله
إِلَيْهِ وَكَانَ الله عَزِيزاً حَكِيماً ) تأكيد لنجاة عيسى مما يزعمونه
من قتلهم له ، وبيان لما أكرمه الله به من رعاية وتشريف .واليقين : هو
العلم الجازم الذى لا يحمتل الشك والضمير فى قوله ( وَمَا قَتَلُوهُ )
لعيسى .وقوله ( يَقِيناً ) ذكر النحاة فى إعرابه وجوها من أشهرها : أنه نعت
لمصدر محذوف مأخوذ من لفظ قتلوه : أى : ما قتلوه قتلا يقينا ، أى متيقنين
معه من أن المقتول عيسى عليه السلام - وهذا فيه ترشيح للاختلاف والشك الذى
. اعتراهم .أو هو حال مؤكدة لنفى القتل . أى انتفى قتلهم إياه إنتفاء يقينا
فاليقين منصب على النفى . أى : أن : نفى كونه قد قتل أمر متيقن مؤكد مجزوم
به ، وليس ظنا كظنكم أو وهما كوهمكم يا معشر أهل الكتاب .وقد أشار صاحب
الكشاف إلى ذلك بقوله : قوله : ( وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً ) أى : وما
قتلوه قتلا يقينا . أو ما قتلوه متيقنين كما ادعوا ذلك فى قولهم ( إِنّا
قَتَلْنَا المسيح ) أو يجعل ( يَقِيناً ) تأكيدا لقوله : ( وَمَا قَتَلُوهُ
كقولك : ما قتلوه حقا . أى حق انتفاء قتله حقا .والمعنى : أن اليهود قد (
زعموا أنهم قتلوا عيسى - عليه السلام - وزعمهم هذا أبعد ما يكون عن الحق
والصواب ، لأن الحق المتيقن فى هذه المسألة أنهم لم يقتلوه ، فقد نجاه الله
من مكرهم ، ورفع عيسى إليه ، وكان الله ( عَزِيزاً ) . أى منيع الجناب ، لا
يلجأ إليه أحد إلا أعزه وحماه . ( حَكِيماً ) فى جميع ما يقدره ويقضيه من
الأمور .هذا ، وجمهور العلماء على أن الله - تعالى - رفع عيسى إليه بجسده
وروحه لا بروحه فقط قال بعض العلماء : والجمهور على أن عيسى رفع حيا من غير
موت ولا غفوة بجسده وروحه إلى السماء . والخصوصية له - عليه السلام - هى فى
- رفعه بجسده وبقائه فيها إلى الأمر المقدر له .وفى بعضهم الرفع فى قوله
تعالى - ( بَل رّفَعَهُ الله إِلَيْهِ ) بأنه رفع بالروح فقط .وقد بسطنا
القول فى هذه المسألة عند تفسيرنا لسورة آل عمران فى قوله تعالى - : ( إِذْ
قَالَ الله ياعيسى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيّ ) و ( إِن )
هنا نافية بمعنى ما النافية ، والمخبر عنه محذوف قامت صفته مقامه .أى : وما
أحد من أهل الكتاب . وحذف أحد لأنه ملحوظ فى كل نفى يدخله الاستثناء . نحو
ما قام إلا زيد . أى ما قام أحد إلا زيد .وللمفسرين فى تفسير هذه الآية :
- اتجاهان :الأول : أن الضمير فى قوله ( قَبْلَ مَوْتِهِ ) يعود إلى عيسى
عليه السلام - وعليه يكون المعنى : وما من أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمن
: بعيسى - عند نزوله فى آخر الزمان - حق الإيمان ، ( قَبْلَ مَوْتِهِ ) أى
) - قبل موت عيسى ، ( وَيَوْمَ القيامة يَكُونُ ) عيسى - عليه السلام
عَلَيْهِمْ ) أى : على أهل الكتاب ( شَهِيداً ) فيشهد عليهم بأنه قد أمرهم
بعباده الله وحده ، وأنه قد نهاهم عن الإشراك معه آلهة أخرى .وقد انتصر
لهذا الاتجاه كثير من المفسرين وعلى رأسهم شيخهم ابن جرير . فقد قال - بعد
سرد الأقوال فى الآية - : وأولى الأقوال بالصحة والصواب قول من قال . تأويل
ذلك : وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى .وقد علق ابن كثير
. على ما رجحه ابن جرير بقوله : ولا شك أن الذى قاله ابن جرير هو الصحيح
، لأن المقصود من سياق الآيات ، بطلان ما زعمته اليهود من قتل عيسى وصلبه
وبطلان تسليم من سلم لهم من النصارى الجهالة ذلك . فقد أخبر الله - تعالى
. أن الأمر لم يكن كذلك ، وإنما شبه لهم فقتلوا الشبه وهم لا يتبينون ذلك
ثم إن الله - تعالى - رفع إليه عيسى ، وإنه باق حي ، وإنه سينزل قبل يوم
القيامة .ثم عقد ابن كثير فصلا عنونه بقوله : ذكر الأحاديث الواردة فى نزول
عيسى بن مريم إلى الأرض من السماء فى آخر الزمان قبل يوم القيامة وأنه يدعو
إلى عبادة الله وحده لا شريك به .ثم ساق ابن كثير جملة من الأحاديث فى هذا
المعنى منها ما رواه الشيخان عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم : " والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا
فيكسر الصلي ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد
. " وحتى تكون السجدة خيرا له من الدنيا وما فيها ،

وان من اهل الكتاب الا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا

كما فسرها الوسيط ثم يقول أبو هريرة : اقرؤا إن شئتم : ( وَإِن مّنْ
أَهْلِ الكتاب إِلاّ لَيُؤْمِنَنّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ) .أما الاتجاه

الثانى : فيرى أصحابه أن الضمير فى قوله ( قَبْلَ مَوْتِهِ ) يعود إلى الكتابى المدلول عليه بقوله : ( وَإِن مِّنْ أَهْلِ الكتاب ) وعليه يكون المعنى :وما من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمنن بعيسى قبل موته أى قبل موت هذا الكتابى ، لأنه عند ساعة الاحتضار يتجلى له الحق ، ويتبين له صحة ما كان ، ينكره ويجحده فيؤمن بعيسى - عليه السلام - ويشهد بأنه عبد الله ورسوله وأن الله واحد لا شريك له ، ولكن هذا الإيمان لا ينفعه ، لأنه جاء فى وقت : الغرغرة ، وهو وقت لا ينفع فيه الإيمان ، لانقطاع التكلي فيه .قالوا ويؤيد هذا التأويل قراءة أبى : ( إلا ليؤمنن به قبل موتهم ) - بضم النون وبميم الجمع - .وقد صدر صاحب الكشاف كلامه بذكر هذا التأويل فقال ما ملخصه والمعنى : وما من اليهود والنصارى أحد إلا ليؤمنن قبل موته بعيسى . وبأنه : عبد الله ورسوله . يعنى : إذا عاين قبل أن تزهق روحه حين لا ينفعه إيمانه فإن قلت : ما فائدة الإخبار بعيسى قبل موتهم؟ قلت فائدته الوعدي ، وليكون. عملهم بأنهم لا بد لهم من الإيمان به عن قريب عند المعاينة ، وأن ذلك لا ، ينفعهم ، بعثا لهم وتنبيها على معاجلة الإيمان به فى وقت الانتفاع به وليكون إلزاما للحجة لهم .وقيل : الضميران لعيسى بمعنى : وإن منهم أحد إلا ليؤمننن بعيسى قبل موت عيسى وهم أهل الكتاب الذين يكونون فى زمان نزوله والذى نراه أولى أنه لا تعارض بين التأويلين . فإن كلا منهما حق فى ذاته. فكل كتابى عندما تحضره الوفاة يعلم أن عيسى كان صادقا فى نبوته ، وأنه عبد. الله ، وأنه قد دعا الناس إلى عبادة الله وحده . وكذلك كل كتابى يشهد نزول . عيسى فى آخر الزمان سيؤمن به ويتبعه ويشهد بأنه صادق فيما بلغه عن ربه

فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات احلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - ألوانا أخرى من جرائم اليهود ، وحكى بعض العقوبات التى حلت بهم بسبب ظلمهم وبغيهم فقال - تعالى( فَبِظُلْمٍ مِّنَ الذين هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ الله كَثِيراً وَأَخْذِهِمُ الربا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ الناس بالباطل وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ) .والفاء فى قوله ( فَبِظُلْمٍ للتفريع على جرائمهم السابقة ، والباء للسببية ، والتنكير للتهويل ( والتعظيم ، والجار والجرور متعلق بحرمنا . وقدم الجار والمجرور على عامله للتنبيه على قبح سبب التحريم .والمعنى فبسبب ظلم عظيم شنيع وقع من أولئك اليهود حرمنا عليهم طسبات أحلت لهم ، ولو أنهم لم يقعوا فى هذا الظلم الشديد لما حرم الله عليهم هذه الطيبات التى هم فى حاجة إليها .والآية الكريمة تعليل لبعض العقوبات التى نزلت بهم بسبب ظلمهم وبغيهم ، ومن ضروب هذا الظلم والبغى ما سجله الله عليهم قبل ذلك من نقض للمواثيق ، ومن كفر بآيات الله . وما سجله عليهم - أيضا - بعد ذلك من صدر عن سبيل الله ، ومن أخذ للربا وقد نهاهم عن آخذه .وهذه الطيبات التى حرمها الله لعيهم منها ما حكاه - سبحانه - فى سورة الأنعام بقوله : ( وَعَلَى الذين هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ البقر والغنم حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الحوايآ أَوْ مَا اختلط بِعَظْمٍ ذلك جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وإِنَّا لَصَادِقُونَ والتعبير عنهم بقوله : ( فَبِظُلْمٍ مِّنَ الذين هَادُواْ ) إيذان بشناعة( ظلمهم ، حيث إنهم وقعوا فى هذا الظلم الشديد بعد توبتهم ورجوعهم عن عبادة : العجل . وقولهم : " إنا هدنا إليك " أى : بنا ورجعنا إليك يا ربنا .وقوله هذه الجملة صفة للطيبات فهى فى محل نصب .والمراد من ( أُحِلَّتْ لَهُمْ ) وصفها بذلك . بيان أنها كانت حلالا لهم قبل أن يرتكبوا ما راتكبوا من موبقات . أى : حرمنا عليهم طيبات كانت حالا لهم ، ثم حرمت عليهم بسبب بغيهم وظلمهم .قال ابن كثير : - سبحانه - أنه بسبب ظلم اليهود ، وبسبب ما ارتكبوه من ذنوب ، حرمت عليهم طيبات كان قد أحلها لهم . وقرأ ابن عباس : طيبات كانت أحلت لهم . وهذا التحريم قد يكون قدريا . بمعنى أن الله قيضهم لأن يتأولوا فى كتابهم ، وحرفوا وبدلوا أشياء كانت حلالا لهم فحرموها على أنفسهم تضييقا تنطعا . ويحتمل أن يكون شرعيا . بمعنى أنه - تعالى - حرم عليهم فى ، التوراة أشياء كانت حلال لهم قبل ذلك . كما قال - تعالى - ( كُلُّ الطعام كَانَ حِلاًّ لبني إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ على نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزِّلَ التوراة قُلْ فَأْتُواْ بالتوراة ) وقوله : ( وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ الله كَثِيراً ) معطوف هو وما بعده من أخذهم الربا وغيره على الظلم الذى تعاطوه . من عطف الخاص على العام ، لأن هذه الجرائم تفسير وتفصيل لظلمهم .والصد والصدود : المنع . أى : وبسبب صدهم أنفسهم عن طريق الحق التى شرعها الله لعباده وصدهم غيرهم عنها عنها صدا كثيرا ، بسبب ذلك عاقبناهم وطردناهم من رحمتنا .وقوله ( كَثِيراً ) صفة لمفعول محذوف منصوب بالمصدر وهو ( بِصَدِّهِمْ ) أى : وبصدهم عن سبيل الله جمعا كثيرا من الناس . أو صفة لمصدر محذوف ، أى : وبصدهم عن سبيل الله صدا

كثيرا .

واخذهم الربا وقد نهوا عنه واكلهم اموال الناس بالباطل واعتدنا للكافرين منهم عذابا اليما

كما فسرها الوسيط وقوله : ( وَأَخْذِهِمُ الربا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ الناس بالباطل ) بيان للون آخر من رذائلهم وقبائحهم أى : ومن أسباب تحريم بعض الطيبات عليهم ولعنهم ، أخذهم الربا مع نهيهم . عنه على ألسنة رسلنا ، وأكلهم اموال الناس بالباطل ، أى على طريق الرشوة والخيانة ، والسرقة وغير ذلك من سائر الوجوه المحرمة .وما حملهم على هذا الولوغ فى المحرمات بشراهة وعدم مبالاة إلا أنانيتهم وبيعهم الدين بالدنيا . وقوله . ( وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ ) جملة حالية فى محل نصب .قال الآلوسى . وفى الآية دلالة على أن الربا كان محرما عليهم كما هو محرم علينا لأى النهى يدل على حرمة المنهى عنه ، وإلا لما توعد - سبحانه - على مخالفته .تلك هى بعض العقوبات التى عاقبهم الله بها فى الدنيا . أما عقوبة هؤلاء اليهود فى الآخرة فقد بينها - سبحانه - فى قوله ( وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ) .أى : وهيأنا وأعددنا للكافرين من أولئك اليهود الذين فسدت نفوسهم عذابا موجعا أليما ، جزاء ظلمهم وفسوقهم عن أمر الله .وقوله ( لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ ) احتراس قصد به إخراج من آمن منهم من هذا العذاب الأليم ، لأن العذاب إنما هو للكافرين منهم فسحب ، أما من آمن منهم كعبد الله بن سلام وأشباهه فلهم أجرهم عند ربهم .

لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما انزل اليك وما انزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الاخر اولئك سنؤتيهم اجرا عظيما

كما فسرها الوسيط وقد أكد - سبحانه - هذا المعنى بعد ذلك ، بأن أكرم من يستحق الإكرام منهم ، وبشره بالأجر بالعظيم فقال ،( لكن الراسخون فِي العلم مِنْهُمْ والمؤمنون يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً ) .وقوله ( الراسخون ) جمع راسخ . ورسوخ الشئ ثباته وتمكنه . يقال شجرة راسخة ، أى ثابتة قوية لا تزحزحها الرياح ولا العواصف . والراسخ فى العلم هو المتحقق فيه ، الذى لا تؤثر فيه الشبه المتقن لما يعلمه إتقانا يبعده عن الميل والانحراف عن الحق ) وقوله ، ( لكن الراسخون فِي العلم ) استدراك من قوله قبل ذلك. وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ) وبيان لكونه بعض أهل الكتاب على خلاف حال عامتهم فى العاجل والآجل .والمعنى : إن حال ) ، اليهود على ما وصف لكم من سوء خلق فى الدنيا ، ومن سوء عاقبة فى الآخرة لكن الراسخون فِي العلم مِنْهُمْ ) أى الثابتون فيه ، المتقنون المستبصرون الذين أدركوا حقائقه وصدقوها وأذعنوا لها ، ورسخت فى نفوسهم رسوخا ليس معه شبهة تفسده ، أو هوى يعبث به ، أو ريب يزعزعه .( والمؤمنون ) أى منهم . وقد وصفوا بالإيمان بعد وصفهم بما يوجبه وهو الرسوخ فى العلم بطريق العطف المبنى على المغايرة المتعاطفين تنزيلا للاختلاف العنوانى منزلة الاختلاف الذاتى .وقوله ( يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيكَ ) خبر لقوله ( الراسخون ، أى هؤلاء الراسخون فى العلم من أهل الكتاب والمؤمنين منهم بالحق . ( يؤمنون بما أنزل إليك من قرآن ، ويؤمنون بما ( أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ) من كتب سماوية على أنبياء الله ورسله .وقوله : ( والمقيمين الصلاة ) للعلماء فيه وجوه من الإعراب أشهرها أنه منصوب على المدح . أى : وأمدح المقيمين الصلاة .قال صاحب الكشاف : وقوله ( والمقيمين الصلاة ) نصب على المدح لبيان فضل الصلاة وهو باب واسع . وقد كسره سيبويه على أمثله وشواهد . ولا يلتفت إلى ما زعموا من وقوعه لحنا فى خط المصحف : وما التفت إليه من لم ينظر فى الكتاب ، ولم يعرف مذاهب العرب ، وما لهم فى النصب على الاختصاص من الافتنان وغبى عليه أن السابقين الأولين الذين مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل ، كانوا أبعد همة فى الغيرة على الإسلام ، وذب المطاعن عنه ، من أن يتكروا فى كتاب الله ثلمة ليسدها من بعدهم . وخرقا يوفوه من يلحق بهم وقيل : هو عطف على ( بِمَآ أُنزِلَ إِلَيكَ ) أى : يؤمنون بالكتاب وبالمقيمين الصلاة وهم الأنبياء . وفى مصحف عبد الله : ( والمقيمين ) ) : بالواو : وهى قراءة مالك بن دينار ، والجحدرى ، وعيسى الثقفى .وقوله والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر ) معطوف على ( الراسخون ) أو على الضمير المرفوع فى ( يُؤْمِنُونَ ) .أو على أنه مبتدأ والخبر ما بعده وهو قوله . ( أولئك سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً ) .والمراد بالجميع مؤمنو أهل الكتاب الصادقون فى إيمانهم . فقد وصفهم - أولا - بالرسوخ فى العلم ، ثم وصفهم - ثانيا - بالإيمان الكامل بما أوحاه الله على أنبيائه من كتب وهدايات ، ثم مدحهم - ثالثا - بإقامة الصلاة إقامة مستوفية لكل

أركانها وسننها وآدابها وخشوعها ، ثم وصفهم - رابعاً - بإيتاء الزكاة لمستحقيها ، ثم وصفهم - خامساً - بالإيمان بالله إيماناً حقاً ، وبالإيمان باليوم الآخر وما فيه من حساب وثواب وعقاب .وبعد هذا الوصف الكريم لهؤلاء المؤمنين الصادقين ، بين - سبحانه - حسن عاقبتهم فقال : ( أولئك سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً ) .أى : أولئك الموصوفون بتلك الصفات الجليلة سنؤتيهم يوم القيامة أجرا عظيم لا يعلم كنهه إلا علام الغيوب ، لأنهم جمعوا بين الإيمان الصحيح وبين العمل الصالح .هذا . والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة ، يراها من أجمع الآيات التى تحدثت عن أحوال اليهود ، وعن أخلاقهم السيئة ، وعن فنون من رذائلهم وقبائحهم . . . . فأنت تراها - أولا - ستجل عليهم أسئلتهم المتعنتة وسوء أدبهم مع الله ، وعبادتهم للعجل ، من بعد أن قامت لديهم الأدلة على أن العبادة لا تكون إلا لله وحده وعصيانهم لأوامر الله ونواهيه ، ونقضهم للعهود والمواثيق ، وكفرهم بآيات الله ، وقتلهم الأنبياء بغير حق ، وقولهم قلوبنا غلف ، وبتهتهم لمريم القانتة العابدة الطاهرة ، وقولهم : إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله . . . إلى غير ذلك من الرذائل التى سجلها الله عليهم .ثم تراها - ثانيا - تذكرهم وتذكر الناس جميعا ببعض مظاهر رحمة الله بهم ، وعفوه عنهم ، ونعمه عليهم ، كما تذكرهم - أيضا - وتذكر الناس جميعا ، ببعض العقوبات التى عاقبهم بها بسبب ظلمهم وبغيهم .وكأن الآيات الكريمة تقول لهم وللناس إن نعم الله على عباده لا تحصى ورحمته بهم واسعة ، فاشكروه على نعمه ، وتوبوا إليه من ذنوبكم ، فإن الإصرار على العاصى يؤدى إلى سوء العاقبة فى الدنيا والآخرة .ثم تراها - ثالثاً - تدافع عن عيسى وأمه دفاعا عادلا مقنعاً وتبرئهما مما نسبه أهل الكتاب إليهما من زور وبهتان ، وتصرح بأن أهل الكتاب لا حجة عندهم فيما تقولوه على عيسى وعلى أمه مريم ، وأنهم فى أقوالهم ما يتبعون إلا الظن ، ( وَإِنّ الظن لاَ يُغْنِي مِنَ الحق شَيْئاً ) ثم تسوق الحقيقة التى لا باطل معها في شأن عيسى ، بأن تبين بأن الذين زعموا أنهم قتلوه كاذبوم مفترون فإنهم ما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ، وسيؤمنون به ، عند نزوله فى آخر الزمان ، أو عندما يكونون فى اللحظات الأخيرة من حياتهم حين لا ينفع الإيمان .ثم تراها - رابعاً -لا تعمم فى أحكامها ، وإنما تحق الحق وتبطل الباطل فهى بعد أ ، تبين ما عليه اليهود من كفر وظلم وفسوق عن أمر الله ، وتتوعدهم بالعذاب الشديد فى الآخرة .بعد كل ذلك تمدح الراسخين ، فى العلم منهم مدحا عظيما ، وتكرم المؤمنين الصادقين منهم تكريما عظيما وتبشرهم بالأجر الجزيل الذى يشرح صدورهم ، ويطمئن قلوبهم . ( ذَلِكَ فَضْلُ الله يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ والله ذُو الفضل العظيم ) هذا جانب مما اشتملت عليه هذه الآيات من عبر وعظات ( لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السمع وَهُوَ شَهِيدٌ ) وبعد هذا الحديث المستفيض عن شبهات اليهود وسوء طباعهم .

انا اوحينا اليك كما اوحينا الى نوح والنبيين من بعده واوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وعيسى وايوب ويونس وهارون وسليمان واتينا داوود زبورا

كما فسرها الوسيط ساق - سبحانه - ما يشهد بصدق النبى صلى الله عليه وسلم فى دعوته ، وأنه ليس بدعا من الرسل ، بل هو واحد منهم إلا أنه خاتمهم وأرفعهم منزلة عند الله - تعالى - فقال - سبحانه - : ( إِنّآ أَوْحَيْنَآ بالله شَهِيداً ) .قال الإمام الرازى : اعلم أنه - تعالى - لما . . . . حكى أن اليهود سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينزل عليهم كتابا من السماء ، وذكر - سبحانه - بعد ذلك أنهم لا يسألون لأجل الاسترشاد ، ولكن لأجل العناد واللجاج ، وحكى أنواعا كثيرة من فضائحهم وقبائحهم . . . شرع - سبحانه - بعد ذلك فى الجواب عن شبهاتهم فقال : ( إِنّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إلى نُوحٍ والنبيين مِن بَعْدِهِ ) .وقوله ( أَوْحَيْنَآ ) من الإيحاء و الوحى . والوحى فى الأصل : الإعلام فى خفاء عن طريق الإشارة ، أو الإيماء ، أو الإلهام ، أو غير ذلك من المعانى التى تدل على أنه إعلام خاص ، وليس أعلاما ظاهراً .والمراد به هنا إعلام الله - تعالى - نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم ما أراد إعلامه به من قرآن أو غيره .والمعنى : إنا أوحينا إليك يا محمد بكلامنا وأوامرنا نواهينا وهداياتنا . . كما اوحينا إلى نبينا نوح وإلى سائر الأنبياء الذين جاءوا من - بعده . فأنت يا محمد لست بدعا من الرسل ، وإنما أنت رسول من عند الله - تعالى - تلقيت رسالتك منه - سبحانه - كما تلقاها غيرك من الرسل .وأكد سبحانه - خبر إيحائه صلى الله عليه وسلم ، للاهتمام بهذا الخبر ، ولإبطال ما أنكره المنكرون لوحى الله - تعالى - على أنبيائه ورسله فقد حكى القرآن عن الجاحدين للحق أنهم قالوا : ( مَآ أَنزَلَ الله على بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ) وبدأ سبحانه بنوح عليه السلام ، لأنه الأب الثانى للبشرية بعد آدم عليه السلام ، ولأن فى ذكره معنى التهديد لأولئك الجاحدين للرسالة السماوية ، فقد أجاب الله تعالى ، دعاءه فى الكافرين فأغرقهم أجمعين .قال الجمل :

وإنما بدأ الله - تعالى - بذكر نوح - عليه السلام - لأنه أول نبى بعث بشريعة ، وأول نذير على الشرك . وكان أول من عذبت أمته لردهم دعوته . وكان أطول الأنبياء عمرا .والتشبيه فى قوله : ( كَمَآ أَوْحَيْنَآ إلى نُوحٍ ) تشبيه بجنس الوحى ، وإن اختلفت أنواعه ، واختلف الموحى به .والكاف فى قوله نعت لمصدر محذوف ، ( مَآ ) مصدرية . أى : إنا أوحينا إليك ( كَمَآ ) إيحاءاً مثل إيحائنا إلى نوح - عليه السلام - .وقوله ( مِن بَعْدِهِ ) جار ومجرور متعلق بمحذوف صفة للنبيين أى : والنبيين الكائنين من بعده أى : من بعد نوح .وقوله : ( وَأَوْحَيْنَآ إلى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ والأسباط ) معطوف على أوحينا إلى نوح ، داخل معه فى حكم التشبيه .أى : أوحينا إليك يا محمد كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وكما أوحينا إلى إبراهيم من آزر ، وكما أوحينا إلى ابنه اسماعيل وابنه إسحاق ، وكما أوحينا إلى يعقوب بن إسحاق ، وكما أوحينا إلى الأسباط - وهم أولاد يعقوب .قال الآلوسى : والأسباط هم أولاد يعقوب - عليه السلام فى المشهور . وقال غير واحد : إن الأسباط فى ولد إسحاق كالقبائل فى أولاد إسماعيل وقد بعث منهم عدة رسل . فيجوز أن يكون - سبحانه - أراد بالوحى إليهم ، الوحى إلى الأنبياء منهم . كما تقول : أرسلت إلى بنى تميم ، وتريد أرسلت إلى وجوههم ولم يصح أن الأسباط الذين هم إخوة يوسف كانوا أنبياء ، بل - الذى صح عندى - وألف فيه الجلال السيوطى رسالة - خلافه .وكرر - سبحانه كلمة ( وَأَوْحَيْنَآ ) للإعار بوجود فترة زمنية طويلة بين نوح وبين إبراهيم - عليهما السلام - .ثم ذكر - سبحانه - عدداً آخر من الأنبياء تشريفا وتكريما لهم فقال ( وعيسى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً ) .أى : أوحينا إليك يا محمد كما أوحينا إلى هؤلاء الأنبياء السابقين ، وكما أوحينا إلى عيسى ابن مريم الذى أنكر نبوته اليهود الذين يسألونك الأسئلة المتعنتة ، وإلى أيوب الذى ضرب به المثل فى الصبر ، وإلى يونس بن متى الذى لم ينس ذكر الله وهو فى بطن الحوت ، وإلى هارون أخى موسى ، وإلى سليمان بن داود الذى آتاه الله ملكما لم يؤته لأحد من بعده .وقوله : ( وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً ) معطوف على . قوله : أوحينا ، وداخل فى حكمه لأن إيتاء الزبور من باب الإيحاء .وأوثر قوله هنا : وآتينا على أوحينا ؛ لتحقق المماثلة فى أمر خاص وهو إيتاء الكتاب بعد تحققها فى مطلق الإيحاء .والزبور - بفتح الزاى - اسم الكتاب الذى أنزله الله على داود - عليه السلام - قالوا : ولم يكن فيه أحكام ، بل كان كله مواعظ وحكم وتقديس وتحميد وثناء على الله - تعالى - .ولفظ ( زبور ) هنا بمعنى مزبور أى متكوب . فهو على وزن فعول ولكن بمعنى مفعول . وزبر معناه كتب . أى : وآتينا داود كتابا مكتوبا .

ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما

) : كما فسرها الوسيط ثم أجمل - سبحانه - بيان الرسل الذين أرسلهم فقال وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ) .وقوله : (وَرُسُلاً ) منصوب بفعل مقدر قبله . أى وأرسلنا رسلا قد أخبرناك عنهم ، وقصصنا عليك أنباءهم فيما نزل عليك من : قرآن قبل نزول الآيات عليك . وأرسلنا رسلا آخرين غيرهم لم نقصص عليك أخبارهم؛ لأن حكمتنا تقتضى ذلك ، ولأن فيما قصصناه عليك من أخبار بعضهم عظات وعبرا لقوم يؤمنون .هذا ، وقد تكلم بعض العلماء عن عدد الأنبياء والرسل ، واستندوا فى كلامهم على أخبار وأحاديث لم تسلم أسانيدها من الطعن فيها .قال ابن كثير : وقد اختلف فى عدة الأنبياء والمرسلين ، والمشهور فى : ذلك حديث أبى ذر الطويل ، وذلك فيما رواه ابن مردويه فى تفسيره حيث قال حدثنا إبراهيم بن محمد . عن أبى إدريس الخولانى " عن أبى ذر قال : قلت يا رسول الله : كم عدد الأنبياء؟ قال : " مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا . قلت : يا رسول الله . كم الرسل منهم؟ قال : ثلاثمائة وثلاثة عشر . . " " .وقوله تشريف لموسى - عليه السلام - بهذه ( وَكَلَّمَ اللّه موسى تَكْلِيماً ) الصفة ولهذا يقال له : موسى الكليم . أى . وخاطب الله موسى مخاطبة من غير واسطة .قال الجمل : والجملة إما معطوفة على قوله : ( إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ) عطف القصة على القصة ، وإما حال بتقدير قد كما ينبئ عنه تغيير الأسلوب بالالتفات .وقوله ( تَكْلِيماً ) مصدر مؤكد لعامله رافع لاحتمال . المجاز .قال الفراء : العرب تسمى ما وصل إلى الإنسان كلاما بأى طريق وصل ) ما لم يؤكد بالمصدر . فإن أكد به لم يكن إلاَّ حقيقة الكلام .فدل قوله ، تَكْلِيماً ) على أن موسى قد سمع كلام الله - تعالى - حقيقة من غير واسطة ولكن بكيفية لا يعلمها إلا هو - سبحانه - .وقد سابق بعض المفسرين نقولا حسنة فى مسألة كلام الله - تعالى - فارجع إليها إن شئت .

رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما

كما فسرها الوسيط وقوله : ( رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ
- يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرسل ) .بيان لوظيفة الرسل
عليهم الصلاة والسلام - وللحكمة من إرسالهم . وقوله : ( رُّسُلاً ) منصوب
: على المدح ، أو بفعل مقدر قبله ، أى : وأرسلنا رسلا . والمراد بالحجة هنا
المعذرة التى يعتذر بها الكافرون والعصاة .أى : وكما أوحينا إليك يا محمد
بما أوحينا من قرآن وهدايات . وأرسلناك للناس رسولا ، فقد أرسلنا من قبلك
، رسلا كثيرين مبشرين من آمن وعمل صالحا يرضاه الله عنه فى الدنيا والآخرة
ومنذرين من كفر وعصى بسوء العقبى ، وقد أرسل - سبحانه - الرسل مبشرين
ومنذرين لكى ( لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ ) يوم
القيامة ، أى لكى لا تكون لهم معذرة يعتذرون بها كأن يقولوا . يا ربنا هلا
، أرسلت إلينا رسولا فيبين لنا شرائعك ، ويعلمنا أحكامك وأوامرك ونواهيك
، فقد أرسلنا إليهم الرسل مبشرين ومنذرين لكى لا تكون لهم حجة يحتجون بها
كما قال - تعالى - ( وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن
قَبْلِهِ لَقَالُواْ رَبَّنَا لولا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً
: فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ ونخزى ) قال الآلوسى
فالآية ظاهرة فى أنه لا بد من الشرع وإرسال الرسل . وأن العقل لا يغنى عن
ذلك . وزعم المعتزلة أن العقل كان وأن مسألة الرسل إنما هو للتنبيه عن سنة
الغفلة التى تعترى الإنسان من دون اختيار . فمعنى الآية عندهم : لئلا يبقى
للناس على الله حجة .وتسمية ما يقال عند ترك الإرسال حجة مع استحالة أن
- يكون لأحد عليه - سبحانه - حجة مجاز . بتنزيل المعذرة فى القبول عنده
) : تعالى - بمقتضى كرمه ولطفه منزلة الحجة القاطعة التى لا مرد لها .وقوله
حُجَّةٌ ) اسم يكون . وخبره قوله " للناس " وقوله : على الله حال من حجة
وقوله : ( بَعْدَ الرسل ) أى : بعد إرسال الرسل وتبليغ الشريعة على.
ألسنتهم وهو متعلق بالفنى أى : لتنفى حجتهم واعتذارهم بعد إرسال الرسل .قال
ابن كثير : وقد ثبت فى الصحيحين عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم "لا أحد أغير من الله ، ومن أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها
وما بطن . ولا أحد أحب إليه المدح من الله ، ومن أجل ذلك مدح نفسه ، ولا
" أحد أحبن إليه العذر من الله ، ومن أجل ذلك بعث النبيين مبشرين ومنذرين
وفى لفظ آخر :" ومن أجل ذلك أرسل رسله وأنزل كتبه " .وقوله : ( وَكَانَ
الله عَزِيزاً حَكِيماً ) تذييل قصد به بيان قدرته التى لا تغالب وحكمته
التى لا تحيط أحد بكنهها . أى : وكان الله - تعالى - وما زال هو القادر
الغالب على كل شئ ، الحكيم فى جميع أفعاله وتصرفاته ، وسيجازى الذين أساؤوا
بما عملوا ، وسيجازى الذين أحسنوا بالحسنى .هذا وللمرحوم الأستاذ الإمام
محمد عبده كلام نفس فى كتابه ( رسالة التوحيد ) عن : حاجة البشر إلى إرسال
الرسل ، وعن وظيفتهم - عليهم الصلاة والسلام - وما قاله فى ذلك : الرسل
يرشدون العقل إلى معرفة الله وما يجب أن يعرف من صفاته . ويبينون الحد الذى
يجب أن يقف عنده فى طلب ذلك العرفان . على وجه لا يشق عليه الاطمئنان إليه
ولا يرفع ثقته بما آتاه الله من القوة .الرسل يبينون للناس ما اختلفت ،
عليه عقولهم وشهواتهم . وتنازعته مصالحهم ولذاتهم . فيفصلون فى تلك
المخاصمات بأمر الله الصادع . ويؤيدون بما يبلغون عنه ما تقوم به المصالح
الخاصة .الرسل يضعون لهم بأمر الله حدودا عامة . يسهل عليهم أن يردوا إليها
، أعمالهم . كاحترام الدماء البشرية إلا بحق . مع بيان الحق الذى تهدر له
. وحظر تناول شئ ما كسبه الغير إلا بحق . مع بيان الحق الذى يبيح تناوله
واحترام الأعراض . مع بيان ما يباح وما يحرم من الأبضاع .يحملونهم على
تحويل أهوائهم عن اللذائذ الفانية إلى طلب الرغائب السامية آخذين فى ذلك
كله بطرق من الترغيب والترهيب والإنذار والتبشير حسبما أمرهم الله - جل
شأنه - .يفصلون فى جميع ذلك للناس ما يؤهلهم لرضا الله عنهم وما يعرضهم
لسخطه عليهم . ثم يحيطون بيانهم بنبأ الدار الآخرة ، وما أعد الله فيها من
الثواب وحسن العقبى ، لمن وقف عند حدوده . وأخذ بأوامره .وبهذا تطمئن
النفوس ، وتثلج الصدور ، ويعتصم المرزوء بالصبر ، انتظارا لجزيل الأجر . أو
إرضاء لمن بيده الأمر . وبهذا ينحل أعظم مشكل فى الاجتماع اللإنسانى ، لا
. يزال العقلاء يجهدون أنفسهم فى حلة إلى اليوم

لكن الله يشهد بما انزل اليك انزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله
شهيدا

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( لكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ
إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ والملائكة يَشْهَدُونَ وكفى باللَّهِ شَهِيداً
استدراك قصد به الرد على جحود أهل الكتاب للحق الذى جاء به النبى صلى (
الله عليه وسلم فقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال :" دخل على رسول الله
صلى الله عليه وسلم جماعة من اليهود فقال لهم : " إنى والله أعلم أنكم
لتعلمون أنى رسول الله . فقالوا : ما نعلم ذلك " فأنزل الله قوله : ( لكن
الله يَشْهَدُ ) . الآية .والمقصود من الآية الكريمة تسلية النبى صلى الله
- عليه وسلم عن تذيب كثير من الناس له ، وإدخال الطمأنينة على قلبه ، فكأنه

سبحانه - يقول له :لم يشهد أهل الكتاب بأنك رسول من عند الله وصادق فيما تبلغه عنه ( لكن الله يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ) أى : لكن الله ) : يشهد بأن الذى أنزله إليك من قرآن هو الحق الذى لا ريب فيه .وقوله أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ) أى : أنزله بعلم تام ، وحكمة بالغة ، أو بما علمه : من مصالح عباده فى إنزاله عليك .وقوله : ( والملائكة يَشْهَدُونَ ) أى والملائكة يشهدون بأنك صادق فى رسالتك ، وبأن ما أنزله الله عليك هو الحق الذى لا تحوم حوله شبهة .وقوله . ( وكفى بالله شَهِيداً ) أى : وكفى بشهادة الله شهادة بأنك على الحق وإن لم يشهد غيره لك . فإنه لا عبرة لإنكار المنكرين لنبوتك ، ولا قيمة لجحود الجاحدين لما نزل عليك بعد شهادة الله لك بأنك نبيه ورسوله ، لتخرج الناس بإذنه من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام وقد أجاد صاحب الكشاف فى توضيح تلك المعانى حيث قال : فإن قلت الاستدارك. لا بد له من مستدرك فما هو فى قوله : ( لكن الله يَشْهَدُ ) .قلت : لما سأل أهل الكتاب إنزال كتاب من السماء ، واحتج عليهم بقوله ( إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ) قال : لكن الله يشهد . بمعنى : أنهم لا يشهدون لكن الله يشهد ومعنى شهادة الله بما أنزل إليه ، إثباته لصحته بإظهار المعجزات ، كما. تثبت الدعاوى بالبينات وشهادة الملائكة : شهادة بأنه حق وصدق .فإن قلت : ما معنى قوله : ( أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ) قلت : معناه أنزله متلبسا بعلمه الخاص الذى لا يعلمه غيره . وهو تأليفه على نظم وأسلوب يعجز عنه كل بليغ . وصاحب بيان ، وموقعه مما قبله موقع الجملة المفسرة ، لأن بيان للشهادة وقيل : أنزله وهو عالم بأنك أهل لإنزاله إليك وأنك مبلغه . ويحتمل : أنه ، أنزله وهو عالم به رقيب عليه حافظ له من الشيطان برصد من الملائكة والملائكة يشهدون بذلك .هذا ، والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة يراها قد أثبتت صدق النبى صلى الله عليه وسلم فى رسالته بالأدلة الساطعة . والحجج ، الواضحة؛ وبينت وظيفة الرسل - عليهم السلام - وحكمة الله فى إرسالهم وزادت للنبى صلى الله عليه وسلم طمأنينة بأنه على الحق ، لأن الله قد شهد له بذلك ، وكفى بشهادة الله شهادة مهما خالفها المخالفون ، وأعرض عنها ، المعرضون .ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما عليه الكافرون من ضلال وخسران وما سيصير إليه حالهم يوم القيامة من ذل ومهانة ، ووجه إلى الناس جميعا نداء أمرهم فيه بالإيمان وترك الكفر والعصيان فقال - تعالى - : ( إِنَّ الذين كَفَرُواْ . . . عَلِيماً حَكِيماً ) .

ان الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالا بعيدا

كما فسرها الوسيط وقوله : ( وَصَدُّواْ ) من الصد بمعنى المنع والانصراف عن ) : الشئ .قال الراغب : والصد قد يكون انصرافا عن الشئ وامتناعا نحو يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً ) وقد يكون صرفا ومنعا نحو : ( وَزَيَّنَ لَهُمُ الشيطان أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السبيل ) والمعنى : إن الذين كفروا بالحق الذى جاءهم به محمد صلى الله عليه وسلم ( وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ الله ) أى : وأعرضوا عن الطريق الذى أمر الله بسلوكه وهو طريق الإسلام ولم يكتفوا بذلك بل منعوا غيرهم أيضا عن سلوكه .إنهم بفعلهم هذا ( قَدْ ضَلُّواْ ضلالا بَعِيداً ) أى : قد ضلوا - بسبب كفرهم وصدهم أنفسهم والناس عن الحق - ضلالا بلغ الغاية فى الشدة والشناعة .

ان الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا

كما فسرها الوسيط ثم أكد - سبحانه - هذا المعنى بقوله : ( إِنَّ الذين كَفَرُواْ ) بما يجب الإيمان به ( وَظَلَمُواْ ) أنفسهم بإيرادها موارد التهلكة ، وظلموا غيرهم بأن حببوا إليه الفسوق والعصيان وكرهوا إليه الطاعة والإيمان .

الا طريق جهنم خالدين فيها ابدا وكان ذلك على الله يسيرا

كما فسرها الوسيط إن هؤلاء الذين جمعوا بين الكفر والظلم ( لَمْ يَكُنِ الله لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَداً ) .أى : لم يكن الله ليغفر لهم ، - لأنه - سبحانه -لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ولم يكن سبحانه - ليهديهم طريق من طرق الخير ، لكنه - سبحانه - يهديهم إلى طريق ، تؤدى بهم إلى جهنم خالدين فيها أبدا ، بسبب إيثارهم الغى على الرشد والضلالة على الهداية ، وبسبب فساد استعدادهم ، وسوء اختيارهم .والتعبير بالهداية فى جانب طريق النار من باب التهكم بهم .وقوله ( خَالِدِينَ فِيهَآ حال مقدرة من الضمير المنصوب فى ( يَهْدِيَهُمْ ) ، لأن المراد بالهداية ( هداتيهم فى الدنيا إلى طريق جهنم . أى : ما يؤدى بهم إلى الدخول فيها وقوله ( أَبَداً ) منصوب على الظرفية ، وهو مؤكد للخلود فى النار؛ رافع. لاحتمال أن يراد بالخلود المكث الطويل .أى : خالدين فيها خلودا أبديا بحيث

لا يخرجون منها .وقوله : ( وَكَانَ ذلك عَلَى الله يَسِيراً ) تذييل قصد به تحقير شأنهم ، وبيان أنه - سبحانه - لا يعبأ بهم .والمراد : وكان ذلك - أى انتفاء غفران ذنبوهم ، وانتفاء هدايتهم إلى طريق الخير ، وقذفهم فى جهنم : - وبئس المهاد - كان كل ذلك على الله يسيرا . أى : هينا سهلا لأنه - سبحانه . لا يستعصى على قدرته شئ

يا ايها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فامنوا خيرا لكم وان تكفروا فان لله ما في السماوات والارض وكان الله عليما حكيما

كما فسرها الوسيط ثم وجه - سبحانه - نداء إلى الناس جميعا يأمرهم فيه بالإيمان وينهاهم عن الكفر فقال: ( ياأيها الناس قَدْ جَآءَكُمُ الرسول بالحق مِن رّبِّكُمْ فَآمِنُواْ خَيْراً لّكُمْ ) .أى : يأيها المكلفون من الناس جميعا ، قد جاءكم الرسول المشهود له بالصدق فى رسالته ، بالهدى ودين الحق من ربكم ، فآمنوا به وصدقوا وأطيعوه ، يكن إيمانكم خيرا لكم فى الدنيا والآخرة .فالخطاب فى الآية الكريمة للناس أجمعين ، سواء أكان عربيا أم غير عربى أبيض أم أسود ، بعيدا أم قريبا .. . لأنه رسالته صلى الله عليه وسلم عامة وشاملة للناس جميعا .والمراد بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم ) : فأل فيه للعهد : وإيراده بعنوان الرسالة لتأكيد وجوب طاعته .وقوله بالحق ) متعلق بمحذوف على أنه حال من الرسول . أى : جاءكم الرسول ملتبسا بالحق الذى لا يحوم حوله باطل .وقوله : ( مِن رَّبِّكُمْ ) متعلق بمحذف على - أنه حال أيضا من الحق . أو متعلق بجاء . أى : جاءكم من عند الله - تعالى ، وليس متقولا .ويرى بعضهم أن قوله ( خَيْراً ) خبر لكان المحذوفة مع اسمها أى : فآمنوا به يكن إيمانكم خيرا لكم .ويرى آخرون أنه صفة لمصدر محذوف . أى فآمنوا إيمانا خيرا لكم . وهى صفة مؤكدة على حد أمس الدابر لا يعود ، لأن : الإيمان لا يكون إلا خيراً .فأنت ترى أن هذه الجملة الكريمة قد حضت الناس على الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم لأنه لم يجئهم بشئ باطل وإنما جاءهم بالحق الثابت الموافق لفطرة البشر أجمعين ، ولأنه لم يجئهم بما جاءهم به من عند نفسه وإنما جاءهم بما جاءهم به من عند الله - تعالى - ولأنه لم يجئهم بما يفضى بهم إلى الشرور والآثام ، وإنما جاءهم بما يوصلهم إلى السعادة فى الدنيا وإلى الفوز برضا الله فى الآخرة .تلك هى عاقبة المؤمنين أما عاقبة الكافرين فقد حذر - سبحانه - منها بقوله : ( وَإِن تَكْفُرُواْ ، فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السماوات والأرض وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ) أى : وإن تكفروا - أيها الناس - فلن يضر الله كفركم ، فإنه - سبحانه - له. ما فى السماوات والأرض خلقا وملكا وتصرفا ، وكان الله - تعالى - عليما علما تاما بأحوال خلقه ، حكيما فى جميع أفعاله وتدبيراته .وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد توعدت الكافرين بسوء المصير ، وحضت الناس على الدخول فى زمرة المؤمنين ، وحذرتهم من الكفر حتى ينجوا يوم القيامة من عذاب السعير .

يا اهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله الا الحق انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته القاها الى مريم وروح منه فامنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم انما الله اله واحد سبحانه ان يكون له ولد له ما في السماوات وما في الارض وكفى بالله وكيلا

كما فسرها الوسيط ثم وجهت السورة الكريمة بعد ذلك نداء إلى أهل الكتاب حذرتهم فيه من المغالاة فى شأن عيسى - عليه السلام - وبينت لهم وللناس أن عيسى إنما هو عبد الله ورسوله ، وبشرت المؤمنين بالأجر الجزيل ، وأنذرت المستكبرين بالعذاب الأليم . استمع إلى القرآن الكريم وهو يرشد إلى كل ذلك فيقول : ( ياأهل . . . . صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً ) .وقوله : ( لاَ تَغْلُواْ ) أى :لا تتجاوزوا الحد المشروع . مأخوذ من الغلو ، وهو - كما يقول القرطبى - التجاوز فى الحد ومنه : غلا السعر يغلو غلاء . وغلا الرجل فى الأمر غلوا . وغلا الجارية لحمها وعظمها ، إذا أسرعت الشباب فجاوزت لداتها - أى : أترابها - .وقد تجاوز أهل الكتاب الحد وغالوا فى شأن عيسى . أما اليهود فقد أنكروا رسولته واتهموا أمه مريم بما هى منه بريئة .وأما النصارى فقد رفعوا عيسى - عليه السلام - إلى مرتبة فوق مرتبة البشرية ، واعتبروا بعضهم إلها ، واعتبره بعض آخر منهم ابنا لله ، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا .والمعنى : يا أهل الكتاب لا تتجاوزوا الحد المشروع والمعقول فى شأن دينكم ، ولا تقولوا على الله إلا القول الحق الذى شعره الله - تعالى - ، وارتضته العقول السليمة .وقد ناداهم - سبحانه - بعنوان أهل الكتاب . للتعريض بهم ، حيث إنهم خالفوا كتبهم التى بين أيديهم والخطاب هنا وإن كان يشمل أهل الكتاب جميعا من يهود ونصارى ، إلا أن. النصارى هم المقصودون هنا قصدا أوليا ، بدليل سياق الآية الكريمة ، فقد ذكرت حججا تبطل ما زعمه النصارى فى شأن عيسى ، ولذا قال ابن كثير ما ملخصه قوله - تعالى - ( ياأهل الكتاب لاَ تَغْلُواْ ) : ينهى - سبحانه - أهل الكتاب عن الغلو والإطراء . وهذا كثير فى النصارى ، فإنهم تجاوزا الحد فى

عيسى حتى رفعوه فوق المنزلة التى أعطاه الله إياها ، فنقلوه من حيز النبوة
إلى أن اتخذه إلها من دون الله يعبدونه كما يعبدونه . بل قد غلوا فى أتباعه
وأشياعه ممن زعم أنه على دينه فادعوا فيهم العصمة واتبعوهم فى كل ما قالوه
) - سواء أكان حقا أم باطلا ، أم ضلالا أم رشادا ، ولهذا قال - تعالى
اتخذوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّه ) وفى
الصحيح عن عمر بن الخطاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا
تطرونى كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم فإنما أنا عبده فقولا : عبد الله
ورسوله " .وقوله : ( وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللهِ إِلاَّ الحق ) من باب عطف
الخاص على العام ، للاهتمام بالنهى عن الافتراء الشنيع الذى افتروه على
الله .أى :لا تصفوه - سبحانه - بما يستحيل اتصافه به من الحلول والاتحاد
واتخاذ الصاحبة والولد ، ولا تقولوا عليه - سبحانه - إلا القول الحق الثابت
القائم على الدليل المقنع ، والبرهان الواضح .وعدى - سبحانه - قولهم بحرف
، على ، لتضمنه معنى الافتراء والكذب ، فقد قالوا قولا وزعموا أنه من دينهم
مع أن الأديان السماوية بريئة مما زعموه وافتروه .ثم بين - سبحانه - القول
الفصل فى شأن عيسى فقال : ( إِنَّمَا المسيح عِيسَى ابن مَرْيَمَ رَسُولُ
الله وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ) .أى : إنما
المسيح عيسى ابن مريم رسول الله . أرسله - سبحانه - لهداية الناس إلى الحق
أى : أن عيسى مكون ومخلوق ( وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ ) ،
بكلمة من الله وكلمة ( كن ) من غير واسطة أب ولا نطفة . وهذه الكلمة
ألقاها - سبحانه - إلى مريم ، أى : أوصلها إليها بنفخ جبريل فيها فكان عيسى
بإذن الله بشرا سويا .وقوله : ( وَرُوحٌ مِّنْهُ ) أى : ونفخة منه ، لأن
عيسى حدث بسبب نفخة جبريل فى درع مريم فكان عيسى بإذن الله . فنسب إلى أنه
. روح من الله ، لأنه بأمره كان . وسمى النفخ روحا لأنه ريح تخرج من الروح
قال - تعالى - : ( والتي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن
رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وابنها آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ) وقيل المراد
- بقوله : ( وَرُوحٌ مِّنْهُ ) أى : وذو روح من أمر الله ، لأنه - سبحانه
خلقه كما يخلق سائر الأرواح .وقيل : الروح هنا بمعنى الرحمة . كما فى
- قوله - تعالى - ( وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ ) أى : برحمة منه . وصدر
سبحانه الجملة الكريمة بأداة القصر ( إنما ) للتنبيه على أن عيسى - عليه
السلام - ليس إلا رسولا أرسله الله لهداية الناس إلى الحق .وذكره - سبحانه
بلقبه وباسمه وببنوته لمريم ، للاشارة إلى أنه إنسان كسائر الناس ، وبشر
. كسائر البشر ، فهو مولود خرج من رحم انثى كما يخرج الأولاد من أمهاتهم
وإذا كان لم يخرج من صلب أب ، فيكفى أنه قد خرج من رحم أم ، وكفى بذلك
دليلا على بشريته .قال بعض العلماء ما ملخصه : وقوله : ( وَكَلِمَتُهُ
. أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ ) أى : خلقه بكلمة منه وهى ( كن ) كما خلق آدم
وكان عيسى بهذا كلمة الله لأنه خلقه بها ، فقد خلق من غير بذر ببذر فى رحم
أمه ، فما كان تكوينه نماء لبذر وجد ، وللأسباب التى تجرى بين الناس ، بل
كان السبب هو إرادة الله وحده وكلمته ( كن ) وبذلك سمى كلمة الله .وتعلق
النصارى بأن كون عيسى كلمة الله دليل على ألوهيته - تعلق باطل - فما كانت
الكلمة من الله إلها يعبد . وإنما سمى بذلك ، لأنه نشأ بكلمة لا بمنى من
الرجل يمنى . .وقوله : ( وَرُوحٌ مِّنْهُ ) أى أنه - سبحانه - أنشأه بروح
مرسل منه وهو جبريل الأمين . وقد يقال : إنه نشأ بروح منه - سبحانه - أنه
أفاض بروحه فى جسمه كما أفاض بها على كل إنسان كما قال - تعالى - : ( الذي
أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإنسان مِن طِينٍ ثُمَّ
جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلاَلَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ
وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار والأفئدة
قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ) والرأى الأول أولى . وعلى ذلك يكون معنى قوله
أى : أنه نشأ بنفخ الله الروح فيه من غير توسيط ( وَرُوحٌ مِّنْهُ ) :
سلالة بشرية ، ونطفة تتكشل إنسانا ، وذلك بالملك الذى أرسله وهو جبريل
وسمى الله - تعالى - عيسى روحا باعتباره نشأ من الروح مباشرة ، ولأنه..
غلبت عليه الروحانية . .وبهذا يزول الوهم الذى سيطر على عقول من غالوا فى
شأن عيسى فنحلوه ما ليس له ، وما ليس من شأنه ، إذ جعلوه إلها ، أو ابن إله
) وقوله ( المسيح ) مبتدأ ، و ( عِيسَى ) عطف بيان أو بدل منه . وقوله. . .
) ابن مَرْيَمَ ) صفة له وقوله ( رَسُولُ الله ) خبر للمبتدأ . .وقوله
وَكَلِمَتُهُ ) معطوف على ما قبله وهو رسول الله . أو قوله ( أَلْقَاهَا
إلى مَرْيَمَ ) جملة حالية من الضمير المجرور فى ( كَلِمَتُهُ ) بتقدير قد
والعامل فيها معنى الإضافة . والتقدير . وكلمته ملقيا إياها إلى مريم ،
وقوله ( وَرُوحٌ مِّنْهُ ) معطوف على ( كَلِمَتُهُ ) والجار والمجرور.
متعلق بمحذوف صفة لروح . ومن لابتدائه الغاية مجازا وليست بتبعيضية ، أى أن
- الروح كائن من عند الله - تعالى - ونافخ بإذنه .وبعد أن بين - سبحانه
. القول الحق فى شأن عيسى ، دعا أهل الكتاب إلى الإيمان به وبجميع رسله
ونهاهم عن التمسك بالضلال والوهم فقال - تعالى - ( فَآمِنُواْ بالله
وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتهوا خَيْراً لَّكُمْ إِنَّمَا
الله إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي

) : السماوات وَمَا فِي الأرض وكفى بالله وَكِيلاً ) .والفاء فى قوله
فَآمِنُواْ ) للافصاح عن جواب شرط مقدر .أى : إذا كان ذلك هو الحق في شأن
عيسى ، فآمنوا بالله إيمانا حقا بأن تفردوه بالألوهية والعبادة ، وآمنوا
برسله جميعا بدون تفريق بينهم ، ولا تغالوا في أحدهم منهم بأن تخرجوه عن
طبيعته وعن وظيفته . .وقوله : ( وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ ) نهى لهم عن
النطق بالكلام بالباطل .أى : ولا تقولوا الآلهة ثلاثة ، أو المعبودات ثلاثة
فثلاثة خبر لمبتدأ محذوف وغبر - سبحانه - بقوله : ( وَلاَ تَقُولُواْ .
ثَلاَثَةٌ ) بدل قوله - مثلا - : ولا تؤمنن بثلاثة؛ لأن أمر الثلاثة قول
يقولونه ، فإن سألتهم عن معناه قالوا تارة معناه : الآب والإبن والروح
والقدس ، أى أنهم ثلاثة متفرقون . وتارة يقولون معناه : أن القانيم ثلاثة
والذات واحدة . . إلى غير ذلك من الأقوال التى ما أنزل الله بها من سلطان
قال صاحب الكشاف : والذى يدل عليه القرآن التصريح منهم بأن الله والمسيح.
- ومريم ثلاثة آلهة . وأن المسيح ولد الله من مريم .ألا ترى إلى قوله
تعالى - : ( أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتخذوني وَأُمِّيَ إلهين مِن دُونِ
الله ) ( وَقَالَتْ النصارى المسيح ابن الله ) والمشهور المستفيض عنهم أنهم
يقولون : فى المسيح لاهوتيه وناسوتيه من جهة الأب والأم . .هذا ، وقد أفاض
بعض العلماء فى الرد على مزاعم أهل الكتاب فى عقائدهم . .وقوله : ( انتهوا
خَيْراً لَّكُمْ ) أمر لهم بسلوك الطريق الحق ، والإقلاع عن الضلالات
والأوهام .أى : انتهوا عما أنتم فيه من ضلال يا معشر أهل الكتاب ، واتركوا
القول بالتثليث ، يكن انتهاؤكم خيرا لكم ، بعبادتكم لله وحده تكونون قد
خرجتم من ظلمات الشرك إلى نور الوحدانية .وقوله : ( إِنَّمَا الله إله
وَاحِدٌ ) إثبات لوحدانية الله - تعالى - بأقوى طريق . أى : إن المعبود بحق
ليس إلا واحد ، وهو الله - تعالى - ذو الجلال والإكرام ، الخالق لهذا
الكون ، والمدبر لأمره .وقوله : ( سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ )
تنزيه له - جل وعلا - عن صفات المخلوقين ، وتوبيخ لمن وصفه بصفات لا تليق
به .وسبحان منصوب بفعل مقدر من لظفه : أى : أسبحه تسبيحا وأنزهه تنزيها عن
- أن يكون له ولد ، لأن الأبوة والبنوة من صفات المخلوقين ، وهو - سبحانه
منزله عن صفات المخلوقين ، قال - تعالى - : ( لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ
وَهُوَ السميع البصير ) وقوله : ( لَّهُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض
جملة مستأنفة مسبوقة لتعليل التنزيه أى أنه - سبحانه - مالك لجميع (
الموجودات علويها وسفليها ، ولا يخرج من ملكه منها شئ .قال - تعالى - ( إِن
كُلُّ مَن فِي السماوات والأرض إِلاَّ آتِي الرحمن عَبْداً ) ومن كان شأنه
كذلك تنزه عن أن يلد أو يولد أو يكون له شريك فى ملكه .وقوله : ( وكفى
بالله وَكِيلاً ) تذييل قصد به بيان سعة قدرته - سبحانه وهيمنته على هذا
الكون . والوكيل : هو الحافظ والمدبر لأم غيره .أى : وكفى بالله وكيى يكل
إليه الخلق كلهم أمورهم ، فهو الغنى عنهم وهم الفقراء إليه .ومفعول كفى
محذوف للعموم . أى : كفى كل أحد وكالة الله وحفظه وتدبيره ، فتوكلوا عليه
. وحده ، ولا تتوكلوا على من تزعمونه ابنا له

لن يستنكف المسيح ان يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن
عبادته ويستكبر فسيحشرهم اليه جميعا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن المسيح عيسى - عليه السلام - عبد من
عباد الله - تعالى - ، وأنه لن يستنكف أبدا عن عبادة الله والإذعان لأمره
فقال : ( لَّن يَسْتَنكِفَ المسيح أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلَّهِ وَلاَ
الملائكة المقربون ) .وأصل ( يَسْتَنكِفَ ) - يقول القرطبى : نكف ، فالياء
والسين والتاء زوائد . يقال : نكفت من الشئ واستنكف منه وأنكفته أى : نزهته
عما يستنكف منه . ومنه الحديث : " سُئل - رسول الله صلى الله عليه وسلم عن
فقال : " إنكاف الله من كل سوء " . يعنى : تنزيهه ( سُبْحَانَ الله )
وتقديسه عن الأنداد والأولاد .قال الزجاج : استكف أى : أنف مأخوذ من نكفت
الدمع إذا نحيته بإصبعك عن خدك ومنه الحديث " ما ينكف العرق عن جبينه " أى
ما ينقطع .وقيل : هو من النِّكْف وهو العيب . يقال : ما عليه فى هذا :
الأمر من نِكْفٍ ولا وَكَف . أى عيب . أى لن يمتنع المسيح ولن يتنزه عن
العبودية لله - تعالى - ولن ينقطع عنها . ولن يعاب أن يكون عبداً لله تعالى
والجملة الكريمة مستأنفة لتقرير ما سبقها من تنزيه لله - تعالى - عن أن.
يكون له ولد ، وإثبات لوحدانيته - عز وجل - وإفراده بالعبادة .وقد روى
المفسرون فى سبب نزولها " أن وفد نجران قالوا لرسول الله صلى الله عليه
وسلم : لم تعيب صاحبنا يا محمد؟ قال : ومن صاحبكم؟ قالوا : عيسى ، قال صلى
الله عليه وسلم : وأى شئ قلت؟ قالوا تقول : إنه عبد الله ورسوله . قال صلى
الله عليه وسلم : إنه ليس بعار أن يكون عبداً لله " .والمعنى : لن يأنف
المسيح ولن يمتنع أن يكون عبداً لله ، وكذلك الملائكة المقربون لن يأنفوا
. ولن يمتنعوا عن ذلك ، فإن خضوع المخلوقات لخالقها شرف ليس بعده شرف
والله - تعالى - ما خلق الخلق إلا لعبادته وطاعته .قال - تعالى - ( وَمَا
خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن

رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ) وصدر - سبحانه - الجملة بحرف ( لن
المفيدة للنفى المؤكد ، لبيان أن عدم استنكاف المسيح والملائكة المقربين (
- عن عبادة الله والخضع له أمر مستمر وثابت ثبوتا لا شك فيه ، لأنه
سبحانه - هو الذى خلق الخلق ورزقهم . ومن حقه عليهم أن يعبدوه ، ويذعنوا
لأمره ، بل ويشعروا باللذة والأنس والشرف لعبادتهم له - سبحانه - كما قال
الشاعر الحكيم :ومما زادنى عجباً وتيها ... وكدت بإخمصى أطأ الثريادخولى
تحت قولك يا عبادي ... وجعلك خير خلقك لى نبياهذا ، وقد فهم بعض العلماء
من هذه الآية أن الملائكة أفضل من الأنبياء ، وممن فهم هذا الفهم الإمام
الزمخشرى فقد قال :وقوله : ( لّن يَسْتَنكِفَ المسيح ) أى : لن يأنف ولن
يهذب بنفسه عزة ، ( من نكفت الدمع إذا نحيته عن خدك بإصبعك ) ( وَلاَ
الملائكة المقربون ) أى : ولا من هو أعلى منه قدرا ، وأعظم منه خطرا وهم
الملائكة الذين حول العشر كجبريل وميكائيل وإسرافيل ومن فى طبقتهم .ثم قال
: فإن قلت : من أين دل قوله (وَلاَ الملائكة المقربون ) على أن المعنى :
ولا من فوقه؟ قلت : من حيث إن علم المعانى لا يقتضى غير ذلك . وذلك أن
. الكلام إنما سبق لرد مذهب النصارى وغلوهم فى رفع عيسى عن منزلة العبودية
. فوجب أن يقال لهم : لن يترفع عيسى عن العبودية ولا من هو أعلى منه درجة
فكأنه قيل : لن يستنكف الملائكة المقربون من العبودية فكيف بالمسيح؟ ويدل
عليه دلالة ظاهرة بينة ، تخصيص المقربين لكونهم أرفع الملائكة درجة وأعلاها
منزلة .وهذا الفهم الذى اتجه إليه الزمخشرى من أن الملائكة أفضل من
الأنبياء ، لم يوافقه عليه أكثر العلماء ، فقد قال الإمام ابن كثير :وقد
) : استدل بعض من ذهب إلى تفضيل الملائكة على البشر بهذه الآية حيث قال
وَلاَ الملائكة المقربون ) . وليس له فى ذلك دلالة ، لأنه إنما عطف
، الملائكة على المسيح ، لأن الاستنكاف هو الامتناع .وليس له فى ذلك دلالة
. لأنه إنما عطف الملائكة على المسيح ، لأن الاستنكاف هو الامتناع
والملائكة أقدر على ذلك من المسيح ، فلهذا قال ( وَلاَ الملائكة المقربون )
ولا يلزم من كونهم أقوى وأقدر على الامتناع أن يكونوا أفضل . وقيل إنما
ذكروا لأن بعض الناس اتخذهم آلهة مع الله كما اتخذ الضالون المسيح إلها أو
ابنا لله . فأخبر - سبحانه - أنهم عبيد من عباده ، وخلق من خلقه .وقد حاول
بعض العلماء أن يجعل الآية الكريمة بعيدة عن موطن النزاع فقال : وعندى أن
الترقى قائم ، ولكن فى المعنى الذى سيق له الكلام . وذلك أن النصارى غلوا
غلواً كبيرا فى المسيح ، لأنه لود من غير أب ، ولأنه جرت على يديه معجزات
كثيرة ، ولأنه روحانى المعانى ، فيبين الله - تعالى - أنه مع كل هذا لن
يستنكف أن يكون عبدا لله ، ولا يستنكف من هو أعلى منه فى هذه المعانى أن
يكون عبداً لله ، وهم الملائكة الذين خلقوا من غير أب ولا أم . وأجرى على
، أيديهم ما هو أشد وأعظم من معجزات ، ومنهم من كان الروح الذى نفخ فى مريم
وهم أرواح طاهرة مطهرة . فكان الترقى فى هذه المعانى ، وهم فيها يفضلون
عيسى وغيره . وبذلك تكون الآية بعيدة عن الأفضلية المطلقة ، فلا تدل على
أفضلية الملائكة على الرسل فى المنزلة عند الله . وتكون الآية بعيدة عن
موطن الخلاف ، والترقى دائما يكون فى المعانى التى سيق لها الكلام دون
غيرها . وليس المتأخر أعلى فى ذاته من المتقدم وأفضل ، ولكنه أعلى فى الفعل
الذى كان فيه كقول القائل : لا تضرب حراب ولا عبدا . فالتدرج هنا فى النهى
عن الضرب ، لأنه إذا كان ضرب العبد غير جائز فأولى أن يكون ضرب الحر غير
جائز .وذكر وصف المقربين ، لأنهم إذا كانوا لا يستنكفون فأولى بذلك غيرهم
ثم هدد - سبحانه - كل من يمتنع عن عبادته والخضوع له فقال : ( وَمَن.
يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ
جَمِيعاً ) .أى : ومن يأنف من عباده الله ويمتنع عنها ، ويأبى الخضوع لطاعة
الله ويستكبر عن كل ذلك ، فسيجد يوم القيامة ما يستحقه من عقاب بسبب
استنكافه واستكباره ، فإن مرد العباد جميعا إليه - سبحانه - وسيجازى المحسن
بإحسانه ، والمسئ بإساءته .فالمضير فى قوله ( فَسَيَحْشُرُهُمْ ) يعود إلى
المستنكفين والمستكرين وإلى غيرهم من المؤمنين المطيعين بدليل أن الحشر عام
- للمؤمنين والكافرين ، وبدليل التفصيل المفرع على هذا الحشر فى قوله
تعالى - بعد ذلك : ( فَأَمَّا الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات
( فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِ

فاما الذين امنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم اجورهم ويزيدهم من فضله واما
الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا اليما ولا يجدون لهم من دون الله
وليا ولا نصيرا

كما فسرها الوسيط ( فَأَمَّا الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات
فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِ ) أى : أن مرجع
العباد جميعا إلى الله من استكبر عن عبادته وامتنع ومن لم يفعل ذلك بل آمن
وأطاع . فأما الذين آمنوا عملوا الأعمال الصالحات ، ولم يستنكفوا ولم
يستكبروا ، فيسعطيهم - سبحانه - ثواب أعمالهم كاملة غير منقوصة ، ويزيدهم
على ذلك شئنا عظيما من الرضا والفضل ومضاعفة الأجر .( وَأَمَّا الذين

استنكفوا واستكبروا ) عن عبادة الله وطاعته ( فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً
أَلِيماً )لا يحيط به الوصف ( وَلاَ يَجِدُونَ لَهُمْ مِّن دُونِ الله
" وَلِيّاً ) أى أحدا يدافع عنهم ويلى أمورهم ، ولا يجدون كذلك " نصيرا
. ينصرهم وينجيهم من عذاب الله وبأسه

يا ايها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وانزلنا اليكم نورا مبينا

كما فسرها الوسيط وبعد هذا الوعد والوعيد والتبشير والإنذار ، والترغيب
والترهيب ، وجه - سبحانه - نداء عاما إلى الناس أمرهم فيه باتباع طريق الحق
فقال - تعالى - ( يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَآءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن
رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً ) .والمراد بالبرهان
هنا الدلائل والمعجزات الدالة على صدق النبى صلى الله عليه وسلم فيما يبلغه
- عن ربه . ويصح أن يكون المراد به النبى صلى الله عليه وسلم وسماه
سبحانه - بذلك بسبب ما أعطاه من البراهين القاطعة التى شهدت بصدقه صلى الله
: عليه وسلم ، والمراد بالنور المبين : القرآن الكريم .قال الفخر الرازى
اعلم أنه - تعالى - لما أورد الحجة على جميع الفرق من المنافقين والكفار
واليهود والنصارى ، وأجاب عن جميع شبهاتهم عمم الخطاب . ودعا جميع الناس
إلى الاعتراف برسالة محمد صلى الله عليه وسلم فقال : ( يَا أَيُّهَا النَّاسُ
قَدْ جَآءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ ) .والبرهان : هو محمد صلى الله
عليه وسلم وإنما سماه برهانا ، لأن حرفته إقامة البرهان على تحقيق الحق
وإبطال الباطل . والنور المبين هو القرآن الكريم . وسماه نورا ، لأنه سبب
لوقوع نور الإيمان فى القلب . .و ( مِّن ) فى قوله : ( مِّن رَّبِّكُمْ )
لابتداء الغاية مجازا ، والجار والمجرور متعلق بمحذوف صفة لبرهان . أى : قد
جاءكم برهان كائن من ربكم .وفى وصف البرهان بأنه من الله - تعالى - تقوية
- وتشريف لمعنى البرهان ، لأنه ما دام قد جاء من عند من له الخلق والأمر
- سبحانه - فلا بد أن يكون برهانا صادقا مقنعا لمن يريد أن تبع الحق .وقال
- سبحانه - ( وَأَنْزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ) بإسناد الإنزال إلى ذاته - تعالى
للإشارة إلى أنه هو مصدر الإنزال .وقال ( إِلَيْكُمْ ) مع أن المنزل ،
عليه هو النبى صلى الله عليه وسلم للإشعار بكمال اللفط بهم ، وللمبالغة فى
إزالة أعذارهم .ووصف الشرائع والمواعظ والآداب ولاكم التى اشتمل عليها
. القرآن الكريم بالنور المبين أى الواضح الظاهر ، لأن هذه الشرائع والآداب
لا يخفى صدقها واشتمالها على الحق إلا على من انطمست بصيرته ، وفسدت مداركه
.

فاما الذين امنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم
اليه صراطا مستقيما

كما فسرها الوسيط ثم بين - حسن عاقبة المستجيبين للحق ، السالكين
الطريق المستقيم ، فقال : ( فَأَمَّا الذين آمَنُواْ بالله واعتصموا بِهِ
فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ
صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً ) .أى : أن الله - تعالى - قد ارسل إلى الناس رسوله
، وأنزل عليهم بواسطته قرآنه ، فمنهم من آمن واهتدى ، ومنهم من كفر وغوى
- فأما الذين آمنوا بالله - تعالى - حق الإيمان ، واعتصموا به - سبحانه
مما يضرهم ويؤذيهم ، فلم يستجيروا إلا به ، ولم يخضعوا إلا له ، ولم
يعتمدوا إلا عليه .هؤلاء الذين فعلوا ذلك سيدخلهم الله - تعالى - فى رحمة
منه وفضل أى سيدخلهم فى جنته ورضوانه ، ويضفى عليهم من فضله وإحسانه بما
يشرح صدورهم ، ويبهج نفوسهم ، ويصلح بالهم .وقوله ( وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ
صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً ) أى : ويوفقهم فى دنياهم إلى سلوك الطريق الحق وهو
طريق الإسلام ، الذى يفضى بهم فى آخرتهم إلى السعادة والأمان والفوز برضا
الله - عز وجل - .وقد ذكرت الآية ثواب الذين آمنوا بالله واعتصموا به ، ولم
تذرك عقاب الذين كفروا إهمالا لهم ، لأنهم فى حيز الطرد والطرح ، أو لأن
عاقبتهم السيئة معروفة لكل عاقل بسبب كفرهم وسوقهم عن أمر الله .والسين فى
قوله ( فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ ) للتأكيد . أى
فسيدخلهم فى رحمة كائنة منه وفى فضل عظيم من عنده إدخالا لا شك فى حصوله
ووقوعه .وقوله ( صِرَاطاً ) مفعول ثان ليهدى لتضمنه معنى يعرفهم .وبذلك نرى
أن هذه الآيات الكريمة قد نهت أهل الكتاب عن المغالاة فى شأن عيسى - عليه
السلام - ، وعرفتهم حقيقته ، ودعتهم إلى الإيمان بوحدانية الله ، وبينت
لهم ولغيرهم أن عيسى وغيره من الملائكة المقربين لن يستنكفوا عن عبادة الله
وان من امتنع عن عابدة الله فسيحاسبه - سبحانه - حسابا عسيرا ، ويجازيه ،
بما يستحقه من عقاب . أما من آمن بالله - تعالى - واتبع الحق الذى أنزله
، على رسله ، فسينال منه - سبحانه - الرحمة الواسعة ، والفضل العظيم
. والسعادة التى ليست بعدها سعادة

يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة ان امرؤ هلك ليس له ولد وله اخت فلها

نصف ما ترك وهو يرثها ان لم يكن لها ولد فان كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك وان كانوا اخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الانثيين يبين الله لكم ان تضلوا والله بكل شيء عليم

كما فسرها الوسيط هذا ، وكما اشتملت سورة النساء فى مطلعها على الحديث عن أحكام الأسرة وأحكام الزواج والمواريث . فقد اختتمت بهذه الآية المتعلقة ببعض أحكام المواريث وهى قوله - تعالى - : ( يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ الله يُفْتِيكُمْ ) .أورد المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها ما أخرجه الشيخان وغيرهما عن جابر بن عبد الله قال : دخل على النبى صلى الله عليه وسلم وأنا مريض لا أعقل . فتوضأ فصب على أو قال : صبوا عليه . فعقلت فقلت : إنه لا يرثنى إلا كلالة . فكيف الميراث؟ فأنزل الله آية الفرائض . وفى بعض الألفاظ فأنزل الله آية الميراث ( يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ الله يُفْتِيكُمْ فِي الكلالة ) الآية . وفى رواية قال جابر : نزلت فى : ( يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ الله يُفْتِيكُمْ فِي الكلالة ) .ويبدو أن عدداً من الصحابة قد سألوا النبى صلى الله عليه وسلم فى شأن ميراث الكلالة فى أزمنة متفرقة فنزلت هذه الآية بآية الصيف ، لأنها نزلت فى هذا الوقت .قال القرطبى : " قال عمر : إنى والله لا أدع شيئا أهم إلى من أمر الكلالة . وقد سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها فما أغلظ لى فى شئ ما أغلظ لى فيها ، حتى طعن بإصبعه فى جنبى أو فى صدرى ثم قال : " يا عمر ، ألا تكفيك آية الصيف التى أنزلت فى آخر سورة النساء " " .وقوله : ( يَسْتَفْتُونَكَ ) من الاستفتاء بمعنى طلب التفيا أو الفتوى . يقال : استفتيت العالم فى مسألة كذا . أى : سألته أن يبين حكمها . فالإفتاء معناه : إظهار المشكل من الأحكام وتبينه .والكلالة كما يقول الراغب - : اسم لما عدا الولد والوالد من الورثة وروى " أن . . النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن الكلالة فقال : " من مات وليس له ولد ولا والد " ، فجعله اسما للميت . وقال ابن عباس : هو اسم لمن عدا الولد .وقال . ابن كثير ما ملخصه : وكان - رضى الله عنه - يقول : الكلالة من لا ولد له وكان أبو بكر - رضى الله عنه - يقول : الكلالة ما عدا الولد والوالد .ثم قال : وعن عمر أنه قال : إنى لأستحى أن أخالف أبا بكر . وهذا الذى قاله الصديق ، هو الذى عليه جمهور الصحابة والتابعين والأئمة فى قديم الزمان وحديثه . وهو مذهب الأئمة الأربعة والفقهاء السبعة ، وقول علماء الأمصار قاطبة ، وهو الذى يدل عليه القرآن .وقد ذكرت كلمة الكلالة مرتين فى هذه السورة .أما المرة الأولى ففى قوله - تعالى - . فى آيات المواريث : ( وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلاَلَةً أَو امرأة وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السدس فَإِن كانوا أَكْثَرَ مِن ذلك فَهُمْ شُرَكَآءُ فِي الثلث ) وقد بينا عند تفسيرنا لهذه الجملة الكريمة أن المراد بالإخوة والأخوات فيها : الإخوة لأم والأخوات لأم .أما هنا فالأمر يختلف إذا المراد بالإخوة والأخوات فى الآية التى معنا : الإخوة والأخوات ) الأشقاء حكمه وأطيعوه ولا تخالفوه .وقوله ( فِي الكلالة ) متعلق بقوله يُفْتِيكُمْ ) .وقد تولى - سبحانه - الإجابة مع أن المسئول هو النبى صلى الله عليه وسلم ، للتنويه بشأن الحكم المسئول عنه ، ولتأكيد أن المواريث من الأمور التى تكفل الله ببيانها وتوزيعها وحده ، فلا يصح لأحد أن يخالف ما شرعه الحكيم الخبير فى شأنها فهو - سبحانه - أعلم بمصالح عباده ، وأرحم بهم من آبائهم ومن أبنائهم ، ومن كل مخلوق .وقوله : ( إِن امرؤ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُنْ لَّهَآ وَلَدٌ ) كلام مستأنف مبين للاجابة عما سألوا عنه فى شأن ميراث الكلالة .والمختار الذى عليه المحققون من العلماء أن الولد هنا عام يتناول الذكر والأنثى ، لأن الكلام فى الكلالة وهو من ليس له ولد أصلا ولا ذكر ولا أنثى وليس له والد - أيضا إلا أنه اقتصر على ذكر الولد ثقة بظهور الأمر . ولأن الولد مشترك معنوى وقع نكرة فى سياق النفى فيعم الإبن والبنت .وقيل : المراد بالولد هنا الذكر خاصة لأنه المتبادر من معنى اللفظ والمراد بالأخت هنا - كما سبق أن أشرنا - الأخت الشقيقة أو الأخت لأب. والمعنى : يسألك أصحابك يا محمد عن توريث الكلالة فقل لهم : الله يفتيكم. . فى ذلك ، إذا مات إنسان ولم يترك أولاداً لا من الذكور ولا من الإناث ولم يترك كذلك والداً ، وترك أختا شقيقة أو من بين أبيه ، فلأخته فى تلك الحالة نصف ما تركه هذا الميت بالفرض ، والباقى للعصبة ، أولها بالرد إن لم يترك عصبة .وإذا ماتت الأخت قبل أخيها ولم يكن لها ولد - ذكراً كان أو أنهى - ، ولم يكن لها كذلك والد ، فإن الأخ فى تلك الحالة يحرز جميع مالها وقوله : ( امرؤ ) مرفوع بفعل محذوف يفسره ما بعده أى : إن هلك امرؤ وقوله. فى محل رفع على أنه صفة لقوله ( امرؤ ) أى : هلك ( لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ ) : امرؤ غير ذى ولد ولا والد .والفاء فى قوله ( فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ) واقعة فى جواب الشرط .وقوله ( وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُنْ لَّهَآ وَلَدٌ ) جملة مستأنفة . سدت مسد جواب الشرط فى قوله : ( إِن لَّمْ يَكُنْ لَّهَآ وَلَدٌ ) .قال الألوسى : والآية كما أنها لم تدل على سقوط الإخوة بغير الولد ، فإنها لم تدل على عدم سقوطهم به . وقد دلت السنة على أنهم لا

يرثون مع الأب . إذ صح عنه - صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقى فلأولى عصبة ذكر " ولا ريب فى أن الأب أولى من الأخ - وليس ما ذكر بأول حكمين بين أحدهما بالكتاب والآخر بالسنة .ثم بين . سبحانه - صورتين أخريين من صور الكلالة فقال : ( فَإِن كَانَتَا اثنتين فَلَهُمَا الثلثان مِمَّا تَرَكَ وَإِن كانوا إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأنثيين ) أى : فإن كانتا أى : الوارثتان بالأخوة اثنتين أو أكثر ، فلهما الثلثان مما ترك أخوهما المتوفى ، وإن كان الورثة لهذا الأخ المتوفى إخوة من الرجال والنساء ففى هذه الحالة تقسم تركته بينهم للذكر مثل حظ الانثيين .وبهذا نرى أن الآية الكريمة قد ذكرت . صورا أربعا لميراث الإخوة والأخوات للميت الذى لم يترك ولهذا ولا ولدا أى الميت الكلالة .1- أن يموت الميت وترثه أخت واحدة . ففى هذه الحالة يكون لها نصف تركته بالفرض والباقى للعصبة إن وجدوا ، فإن لم يوجدوا فلها الباقى بالرد .2- أن يكون الأمر بالعكس بأن تموت امرأة ويرثها أخ واحد . فيكون له جميع تركتها .3- أن يكون الميت أخا وأختا والوارث أختان فصاعدا ، ففى هذه الحالة يكون لهما أو لهن الثلثان .4- أن يكون الميت أخا أو أختا ، والورثة عدد من الإخوة والأخوات ، ففى هذه الحالة تقسم التركة بينهم للذكر مثل حظ الأنثيين .هذا ، وظاهر الآية يفيد أن لا فرق بين الإخوة الأشقاء والإخوة ، لأب فى أنهم يشتركون فى التركة إذا اجتمعوا؛ ولكن هذا الظاهر غير مراد فقد خصصت السنة هذا العموم ، فقدمت الأشقاء على الإخوة لأب . فإذا ما اجتمع الصنفان حجب الإخوة الأشقاء الإخوة لأب .وقد تكلفت كتب الفروع ببسط الكلام عن هذه الأحكام وأمثالها . هذا ، وقوله - تعالى - ( يُبَيِّنُ الله لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ والله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ) تذييل قصد به إظهار جانب من فضل الله - تعالى - على عباده ، وتحذيرهم من مخالفة شرعه وأمره .أى يبين الله لكم هذه الأحكام المتعلقة بالمواريث كما يبين لكم غيرها خشية : ، أن تضلوا طريق الحق فى ذلك . بأن تعطوا من لا يستحق أو تهملوا من يستحق والله - تعالى - عليم بكل شئ لا تخفى عليه خافية من أحوالكم ، وسيحاسبكم على أعمالكم ، فيجازى المتبع لشرعة بالثواب العظيم ، ويجازى المخالف له بالعذاب الأليم .والمفعول فى قوله : ( يُبَيِّنُ الله لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ ) محذوف ، والمصدر المنسبك من أن والفعل مفعول لأجله بتقدير مضاف محذوف أى : يبين الله لكم الحلال والحرام وجميع الأحكام خشية أن تضلوا ويجوز أن يكون المصدر هو مفعول قوله ( يُبَيِّنُ ) أى : يبين الله لكم. ضلالكم لتجتنبوه ، فإن الشر يعرف ليجتنب ، والخير يعرف ليفعل .ويرى بعضهم أن الكلام على تقدير ( اللام ولا ) فى طرفى " أن " والمعنى : يبين الله لكم ذلك لئلا تضلوا .ثم أما بعدك فهذا تفسير وسيط لسورة النساء .تلك السورة التى نظمت المجتمع الإسلامى تنظيما دقيقا حكيما .نظمته فيما يتعلق بأوضاعه الداخلية ، ونظمته فيما يتعلق بأوضاعه الخارجية . أما فيما يتعلق بأوضاعه الداخلية ، فقد رأينا فيما سبق ، كيف ساقت الأحكام والآداب والتوجيهات التى ، تكون مجتمعا فاضلا ، يعرف الفرد فيه واجبة نحو خالقه ، وواجبه نحو نفسه وواجبه نحو غيره .مجتمعا تقوم الأسرة فيه على دعائم ثابتة من الأمان ، والاطمئنان ، والمحبة والمودة والوئام .مجتمعا رجاله يكرمون نساءه ويعطفون عليهن ، ويعاشروهن بالمعروف . ونساؤه يحترمن رجاله ، ويؤدين ما عليهن نحوهم من حقوق بأدب ، وعفة ، وإخلاص ، ووفاء .مجتمعا حكامه يحكمون بالعدل ، ويراقبون الله فى أقوالهم وأعمالهم . المحكومون فيه يطيعيون حكامهم فيما يأمرونهم به من حق وخير .مجتمعا يرى أفراده أن خيراته وأمواله . هى أمانة فى أعناقهم جميعا ، وأن ثمارها ومنافعها ستعود عليهم جميعا . لذا فهم يحرصون على استغلال ما يملكونه منها فيما يرضى الله ، وفيما يعود عليهم وعلى أمتهم الخير والصلاح والاستغناء والفلاح .وأما فيما يتعلق بأواضعه الخارجية ، فقد رأينا - أيضا - فيما سبق ، كيف كشفت النقاب عن راذائل المنافقين . وعن العقائد الفاسدة التى يتشبث بها أهل الكتاب . وعن المسالك الخبيثة ، والوسائل المتعددة التى اتبعها هؤلاء جميعا لكيد الدعوة الإسلامية والإساءة إلى النبى صلى الله عليه وسلم .كما رأينا كيف أنها حذرت المؤمنين من شرور أعدائهم ، وبصرتهم بما يجب عليهم نحوهم . وبما يجعلهم دائما على أتم استعداد لمقاومتهم ، ولتأديبهم ولرد كيدهم فى نحوهم .ولقد ساقت السورة الكريمة من الآيات التى ترغب فى الجهاد فى سبل الله ، ما يجعل المؤمنين يقبلون عليه بقلوب منشرحة ، وبعزائم ثابتة ، وبأرواح غايتها الشهادة فى سبيل الله .وباتباع المسلمين السابقين لهذا التوجيه الحكيم الذى اشتملت عليه هذه السورة الكريمة ، نالوا ما نالوا من مجد وسؤدد ، وظفروا بما ظفر به من عزة وسعادة ، وأصابوا ما أصابوا من خير وفلاح .وأخيرا ، فإنى أحمد الله - تعالى - حمدا كثيرا على توفيقه لى لخدمة كتابه ، وأضرع إليه بإخلاص أن يعيننى على إتام ما بدأته من خدمة كتابه ، إنه أعظم مسئول وأكرم . مأمول

يا ايها الذين امنوا اوفوا بالعقود احلت لكم بهيمة الانعام الا ما يتلى عليكم غير محلي الصيد وانتم حرم ان الله يحكم ما يريد

كما فسرها الوسيط قوله : ( أَوْفُواْ ) من الإيفاء . ومعناه : الإتيان بالشيء وافياً تاماً لا نقص فيه ، ولا نقض معه . يقال وفي بالعهد وأوفى به إذا أدى ما التزم به .قال صاحب الكشاف : ورد في الكتاب العزيز ( وفى ) بالتضعيف في قوله - تعالى - : ( وَإِبْرَاهِيمَ الذي وفى ) ، وورد " أوفى كثيراً . ومنه ( أَوْفُواْ بالعقود ) . وأما ( وفى ) ثلاثياً فلم يرد إلا في قوله - تعالى - : ( وَمَنْ أوفى بِعَهْدِهِ ) لأنه بني أفعل التفضيل من - وفى " : إذ لا يبنى إلا من ثلاثي " .والعقود : جمع عقد - بفتح العين . وهو العهد الموثق .قال الراغب : الجمع بين أطراف الشيء . ويستعمل ذلك في الأجسام الصلبة كعقد الحبل ، وعقد البناء . ثم يستعار ذلك للمعاني نحو عقد البيع والعهد وغيرهما : فيقال : عاقدته ، وعقدته ، وتعاقدنا .وهو مصدر استعمل اسماً فجمع نحو . ( أَوْفُواْ بالعقود ) .وقد فرق بعضهم بين العقد والعهد فقال : " والعقود جمع عقد وهو بمعنى المعقود وهو أوكد العهود . والفرق بين العقد والعهد أن العقد فيه معنى الاستيثاق والشد ، ولا يكون إلا بين متعاقدين . والعهد قد ينفرد به الواحد . فكل عقد عهد ولا يكون كل عهد عقدا " .والمراد بالعقود هنا : ما يشمل العقود التي عقدها الله علينا وألزمنا بها من الفرائض والواجبات والمندوبات ، وما يشمل العقود التي تقع بين الناس بعضهم مع بعض في معاملاتهم المتنوعة وما يشمل العهود التي يقطعها الإنسان على نفسه ، والتي لا تتنافى مع شريعة الله - تعالى - .وبعضهم يرى أن المراد بالعقود هنا : ما يتعاقد عليه الناس فيما بينهم كعقود البيع وعقود النكاح .وبعضهم يرى أن المراد بها هنا : العهود التي كانت تؤخذ في الجاهلية على النصرة والمؤازرة للمظلوم حتى ينال حقه .والأول لأنه أولى أليق بعموم اللفظ ، إذ هو جمع محلى بأل المفيدة للجنس وأوفى بعموم الفائدة . قال القرطبي : والمعنى : أوفوا بعقد الله عليكم ، وبعقدكم بعضكم على بعض. وهذا كله راجع إلى القول بالعمم وهو الصحيح في الباب . قال - صلى الله عليه وسلم : " المؤمنون عند شروطهم " وقال : " كل شرط ليس في كتاب الله فهو باطل وإن كان مائة شرط " .فبين أن الشرط أو العقد الذي يجب الوفاء به ما وافق كتاب الله : أي : دين الله . فإن ظهر فيها ما يخالف رد ، كما قال صلى الله عليه وسلم : " من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد " .والبهيمة : اسم لذوات الأربع من دواب البر والبحر .قال الفخر الرازي : قالوا كل حي لا عقل له فهو : بهيمة من قولهم : استبهم الأمر على فلان إذا أشكل عليه .وهذا باب مبهم أي مسدود الطريق . ثم اختص هذا الاسم بكل ذات أربع في البر والبحر " .والأنعام جمع نعم - بفتحتين - وأكثر ما يطلق على الإبل ، لأنها أعظم نعمة عند العرب والمراد بالأنعام هنا : ما يشمل الإبل والبقر والغنم ويلحق بها كل حيوان. أو طير يتغذى من النبات ، ولم يرد نص بتحريمه فيدخل الظبي وحمار وغيرهما من آكلات العشب ، كما تدخل الطيور غير الجارحة وإضافة البهيمة إلى الأنعام إضافة بيانية من إضافة الجنس إلى ما هو أخص منه كشجر الأراك ، وثوب الخز أي : أحل الله لكم أيها المؤمنون الانتفاع ببهيمة الأنعام . وهذا الانتفاع. بلحمها وجلدها وعظمها وصوفها وما أشبه ذلك مما أحله الله منها .وقال الآلوسي ما ملخصه : وقال غير واحد : البهيمة اسم لكل ذات أربع من دواب البر والبحر . وإضافتها إلى الأنعام للبيان كثوب خز . أي : أحل لكم أكل البهيمة من الأنعام .وهي الأزواج الثمانية المذكورة في سورتها .وأفردت البهيمة لإرادة الجنس : وجزء الأنعام ليشمل أنواعها . وألحق بها الظباء وبقر الوحش وقيل : هما المراد بالبهيمة ونحوهما مما يماثل الأنعام في الاجترار وعدم . : الأنياب .وإضافتها إلى الأنعام حينئذ لملابسة المشابهة بينهما .وقيل المراد ببهيمة الأنعام : ما يخرج من بطونها من الأجنة بعد ذكاتها وهي ميتة فيكون مفاد الآية صريحاً حل أكلها . وبه قال الشافعي .وقوله : ( إِلاَّ ، - مَا يتلى عَلَيْكُمْ ) أي يقرأ عليكم في القرآن والسنة من قوله - تعالى في الآية الثالثة من السورة نفسها - ( حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الميتة والدم ) إلخ وقوله صلى الله عليه وسلم " كل ذي ناب من السباع فأكله حرام " .فإن قيل الذي يتلى علينا الكتاب وليس السنة؟ قلنا : كل سنة لرسول الله صلى الله : " عليه وسلم فهي كتاب الله . والدليل عليه أمران :أحدهما : حديث العسيف لأقضين بينكما بكتاب الله " والرجم ليس منصوصاً عليه في كتاب الله .الثاني حديث عبد الله بن مسعود : " ومالي لا ألعن من لعن رسول الله صلى الله : عليه وسلم وهو في كتاب الله " .ويحتمل : ألا ما يتلى عليكم الآن . أو ما يتلى عليكم فيما بعد من مستقبل الزمان على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيكون فيه دليل على جواز تأخير البيان عن وقت لا يفتقر فيه إلى تعجيل الحاجة .وقوله : ( غَيْرَ مُحِلِّي الصيد وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ) بيان لما حرم عليهم في أحوال معينة ، وبسبب أمور اقترنت به .وقوله : ( حُرُمٌ ) جمع حرام يقال . أحرم الرجل فهو محرم وحرام وهم حرم .وقوله : ( مُحِلِّي ) جمع محل . بمعنى مستحل . والصيد مصدر بمعنى الاصطياد . أو اسم للحيوان المصيد .وقوله ) : حال من الضمير في ( لَكُمْ ) .وقوله ( غَيْرَ مُحِلِّي الصيد ) : وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ) حال من الضمير في ( مُحِلِّي ) .والمعنى : يأأيها الذين آمنوا كونوا أوفياء بعهودكم مع الله ومع أنفسكم ومع غيركم ، فقد أحل

- الله - تعالى - بهيمة الأنعام لتنتفعوا بها فضلا منه وكرما ، إلا أنه سبحانه - حرم عليكم أشياء رحمة بكم فاجتنبوها . كما حرم عليكم الاصطياد أو الانتفاع بالمصيد وأنتم محرمون بحج أو عمرة ، سواء أكنتم في الحل أم كنتم في الحرم ، ويدخل في حكم المحرم من كان في الحرم وليس محرما .وذلك لأن ، المحرم أو من كان في أرض الحرم يجب عليه أن يكون مشتغلا بما يرضى الله وأن يحترم هذه الأماكن المقدسة التي جعلها الله أماكن أمان ، واطمئنان وعبادة لله رب العالمين .وقد دعا الله - تعالى - المؤمنين إلى الوفاء بالعقود وناداهم بوصف الإيمان ، ليحثهم على امتثال ما كلفهم به ، لأن الشأن في المؤمن أن يمتثل لما أمره الله به أو لما نهاه عنه .روى ابن أبي حاتم ، أن رجلا أتى عبد الله بن مسعود فقال : اعهد إلى . فقال له : إذا سمعت الله يقول ( يَا أَيُّهَا الذين ) فارعها سمعك فإنك خير يأمر به ، أو شر ينهى عنه وقوله : ( إِنَّ الله يَحْكُمُ مَا يُرِيد ) تذييل قصد به بيان مشيئة الله النافذة ، وإرادته الشاملة ، وحكمه الذي لا يعقب عليه معقب .أي إن الله يحكم بما يريد أن يحكم به من الأحكام التي تتعلق بالحلال : وبالحرام وبغيرهما ، بمقتضى مشيئته المبنية على الحكم البالغة ، دون أن ينازعه منازع ، أو يعارضه معارض ، فاستجيبوا - أيها المؤمنون - لحكمة لتنالوا السعادة في الدنيا والآخرة .هذا ، وقد أخذا العلماء من هذه الآية الكريمة وجوب الوفاء بالعهود التي شرعها الله - تعالى - وهذا المعنى ترى سورة المائدة زاخرة به في كثير من آياتها .فأنت ترى في مطلعها هذه الآية الكريمة التي تحض على الوفاء بالعقود ، ثم ترى الآية الثانية منها تنهى عن الإخلال بشيء من شعائر الله ، ثم تراها بعد ذلك بقليل تذكر المؤمنين بنعم الله عليهم وبميثاقه الذي أوثقهم به : ( واذكروا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الذي وَاثَقَكُم بِهِ ) ثم تحكى أن من الأسباب التي أدت إلى طرد بني إسرائيل من رحمة الله ، نقضهم لمواثيقهم . ( فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ ) وهكذا نرى السورة الكريمة حافلة بالتوجيهات التي تحض المؤمنين على التزام العهود والموثيق التي شرعها الله وتحذرهم عاقبة إهمالها ، أو الإخلال بشيء منها .كما أخذا العلماء منها حل بهيمة - الأنعام من جهة الانتفاع بلحومها وجلودها وأصوافها .وحرمة ما حرم الله تعالى - منها في مواطن أخرى .كما أخذوا منها حرمة الاصطياد أو الانتفاع بالمصيد على من كان محرما بحج أو عمرة ، وعلى من كان في أرض الحرم ولو لم يكن محرما .قال القرطبي : وهذه الآية تلوح فصاحتها .وكثرة معانيها على قلة ألفاظها لكل ذي بصيرة بالكلام فإنه تضمنت خمسة أحكام :الأول : الأمر بالوفاء بالعقود .الثاني : تحليل بهيمة الأنعام .الثالث : استثناء ما يلي بعد ذلك .الرابع : استثناء حال الإحرام فيما يصاد .الخامس : ما تقتضيه الآية من إباحة الصيد لمن ليس بمحرم .وحكى النقاش أن أصحاب الكندي قالوا له . أيها الحكيم اعمل لنا شيئاً مثل هذا القرآن فقال : نعم أعمل مثل بعضه : فاحتجب أياما كثيرة ثم خرج فقال : والله ما أقدر ولا يطيق هذا أحد . إني فتحت المصحف فخرجت سورة المائدة . فنظرت فإذا هو نطق بالوفاء ونهى عن النكث وحلل تحليلا عاماً ، ثم استثنى استثناء بعد استثناء ، ثم أخبر عن قدرته ، وحكمته في سطرين ، ولا يقدر أحد أن يأتي بهذا .

يا ايها الذين امنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدي ولا القلائد ولا امين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا واذا حللتم فاصطادوا ولا يجرمنكم شنان قوم ان صدوكم عن المسجد الحرام ان تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان واتقوا الله ان الله شديد العقاب

، كما فسرها الوسيط وبعد أن أشار - سبحانه - إلى ما أحل لعباده من طيبات وما حظره عليهم من أفعال ، أتبع ذلك بنداء آخر إليهم نهاهم فيه عن استحلال أشياء معينة فقال - تعالى - :( يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ . . . )قوله : ( لاَ تُحِلُّواْ ) من الإحلال الذي هو ضد ، التحريم . ومعنى عدم إحلالهم لشعائر الله : تقرير حرمتها عملا واعتقادا - والالتزام بها بالطريقة التي قررتها شريعة الله .والشعائر : جمع شعيرة على وزن فعلية - وهي في الأصل ما علت شعاراً على الشيء وعلامة عليه من الإشعار بمعنى الإعلام . وكل شيء اشتهر فقد علم . يقال : شعرت بكذا .أي علمته .والمراد بشعائر الله هنا : حدوده التي حدها ، وفرائضه التي فرضها : وأحكامه التي أوجبها على عباده .ويرى بعضهم أن المراد بشعائر الله هنا . مناسك الحج وما حرمه الحج وما حرمه فيه من لبس للثياب في أثناء الإحرام ومن غير ذلك من الأفعال التي نهى الله عن فعلها في ذلك الوقت فيكون المعنى لا تحلوا ما حرم عليكم حال إحرامكم .والقول الأول أولى لشموله جميع. التكاليف التي كلف الله بها عباده . وقد رجحه ابن جرير بقوله : وأولى التأويلات بقوله : ( لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ الله ) قول من قال :لا تحلوا حرمات الله ، ولا تضيعوا فرائضه . فيدخل في ذلك مناسك الحج وغير ذلك من حدوده وفرائضه وحلاله وحرامه .وإنما قلنا ذلك القول أولى ، لأن الله نهى

عن استحلال شعائره ومعالم حدوده وإحلالها ، نهيا عاماً من غير اختصاص شيء
من ذلك دون شيء . فلم يجز لأحد أن يوجه معنى ذلك إلى الخصوص إلا بحجة يجب
، التسليم لها ولا حجة بذلك .وأضاف - سبحانه - الشعائر إليه . تشريفا لها
وتهويلا للعقوبة التي تترتب على التهاون بحرمتها . وعلى مخالفة ما أمر الله
. به في شأنها .وقوله : ( وَلاَ الشهر الحرام ) معطوف على شعائر الله
والمراد به الجنس . فيدخل في ذلك جميع الأشهر الحرم . وهي أربعة : ذو
العقدة ، وذو الحجة والمحرم ، ورجب .وسمي الشهر حراماً : باعتبار أن إيقاع
القتال فيه حرام .أي :لا تحلوا - أيها المؤمنون - القتال في الشهر الحرام
ولا تبدأوا أعداءكم فيه بقتال .قال ابن كثير : يعني بقوله : ( وَلاَ ،
الشهر الحرام ) تحريمه ، والاعتراف بتعظيمه ، وترك ما نهى الله عن تعاطيه
فيه ، من الابتداء بالقتال كما قال - تعالى : ( يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشهر
) : - الحرام قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ) وقال - تعالى
إِنّ عِدّةَ الشهور عِندَ الله اثنا عَشَرَ شَهْراً ) وفي صحيح البخاري
عن أبي بكرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في حجة الوداع : " إن
الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض والسنة اثنا عشر
شهراً . منها أربعة حرم " وهذا يدل على استمرار تحريمها إلى آخر وقت . كما
هو مذهب طائفة من السلف .وذهب الجمهور إلى أن ذلك منسوخ . وأنه يجوز ابتداء
القتال في الأشهر الحرم .واحتجوا بقوله - ( فَإِذَا انسلخ الأشهر الحرم
. فاقتلوا المشركين حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ) والمراد أشهر التسيير الأربعة
قالوا : فلم يستثن شهراً حراما من غيره .والمقصود بالهدى في قوله ( وَلاَ
الهدي ) ما يتقرب به الإنسان إلى الله من النعم ليذبح في الحرم ، وهو جمع
هدية - بتسكين الدال - ، أي : ولا تحلوا حرمة ما يهدي إلى البيت الحرام من
الأنعام تقربا إلى الله - تعالى - بأن تتعرضوا له بنحو غصب وسرقة أو حبس عن
بلوغه إلى محله .وخص ذلك بالذكر مع دخوله في الشعائر ، لأن فيه نفعا للناس
) : لأنه قد يتساهل فيه أكثر من غيره ، ولأن في ذكره تعظيما لشأنه .وقوله ،
وَلاَ القلائد ) جمع قلادة ، وهي ما يقلد به الهدى ليعلم أنه مهدى إلى
البيت الحرام فلا يتعرض له أحد بسوء . وقد كانوا يضعون في أعناق الهدى
ضفائر من صوف ، ويربط بعنقها نعلان أو قطعة من لحاء الشجر أو غيرهما ليعلم
أنه هدى فلا يعتدى عليه .والمراد : ولا تحلوا ذوات القلائد من الهدى بأن
تتعرضوا لها بسوء .وخصت بالذكر مع أنها من الهدى تشريفاً لها واعناءً
بشأنها . لأن الثواب فيها أكثر ، وبهاء الحج بها أظهر . فكأنه قيل :لا
تحلوا الهدى وخصوصاً ذوات القلائد منه .ويجوز أن يراد النهي عن التعرض لنفس
القلائد مبالغة في النهي عن التعرض لذواتها أي : لا تتعرضوا لقلائد الهدى
فضلا عن ذاته .وقد أشار صاحب الكشاف إلى هذين الوجهين بقوله : وأما القلائد
. ففيها وجهان :أحدهما : أن يراد بها ذوات القلائد من الهدى وهي البدن
) وتعطف على الهدى للاختصاص وزيادة التوصية بها لأنها أشرف الهدى كقوله
وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ ) كأنه قيل : والقلائد منها خصوصا .والثاني : أن
: ينهى عن التعرض لقلائد الهدى مبالغة في النهي عن التعرض للهدى ، على معنى
ولا تحلوا قلائدها فضلا عن أن تحلوها . كما قال ( وَلاَ يُبْدِينَ
زِينَتَهُنّ ) فنهى عن إبداء الزينة مبالغة في النهي عن إبداء مواقعها
وقوله : ( ولا آمِّينَ البيت الحرام يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رّبِّهِمْ.
وَرِضْوَاناً ) معطوف على قوله : ( لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ الله ) .وقوله
: جمع آم من الأم وهو القصد المستقيم . يقال : أممت كذا أي ( آمِّينَ ) :
قصدته أي : ولا تحلوا أذى قوم قاصدين زيارة البيت الحرام بأن تصدوهم عن
دخوله حال كونهم يطلبون من ربهم ثواباً . ورضواناً لتعبدهم في بيته المحرم
ولكن ما المراد بهؤلاء الآمين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم.
ورضواناً؟قال بعضهم : المراد بهم المسلمون الذين يقصدون بيت الله للحج
والزيارة . فلا يجوز لأحد أن يمنعهم من ذلك بسبب نزاع أو خصام لأن بيت
الله - تعالى - مفتوح للجميع وعلى هذا يكون التعرض لعنوان الربوبية مع
الإضافة إلى ضميرهم في قوله ( مِّن رّبِّهِمْ ) للتشريف والتكريم .وجملة
حال من الضمير ( يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَاناً )
المستكن في قوله ( آمِّينَ ) وقد جيء بها لبيان مقصدهم الشريف ، ومسعاهم
الجليل .أي : قصدوا البيت الحرام يبتغون رزقا أو ثواباً من ربهم ، ويبتغون
ما هو أكبر من كل ذلك وهو رضاه - سبحانه - عنهم .وعلى هذا الاقول تكون
- الآية الكريمة محكمة ولا نسخ فيها ، وتكون توجيهاً عاماً من الله - تعالى
لعباده بعدم التعرض بأذى لمن يقصد زيارة المسجد الحرام من إخوانهم المؤمنين
. مهما حدث بينهم من نزاع أو خلاف .وقال آخرون : المراد بهم المشركون ،
واستدلوا بما رواه ابن جرير عن السدي من أن الآية نزلت في رجل من بني ربيعة
يقال له الحطين بن هند ، وذلك نه أتى إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله
إلام تدعو؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : ادعوا إلى شهادة أن لا إله
إلا الله وأني رسول الله ، فقال له : حسن ما تدعو إليه إلا أن لي أمراء لا
أقطع أمراً دونهم ، ولعلي أسلم وآتي بهم . فلما خرج مر بسرح من سرح المدينة
فساقه وانطلق به .ثم أقبل من العام القادم جارحاً ومعه تجارة عظيمة . فسأل
المسلمون النبي صلى الله عليه وسلم أن يأذن لهم في التعرض له . فأبى النبي

صلى الله عليه وسلم ثم نزلت الآية .وعلى هذا القول يفسر ابتغاء الفضل بمطلق الرزق عن طريق التجارة . وابتغاء الرضوان بأنهم كانوا يزعمون أنهم على سداد من دينهم ، وأن الحج يقربهم من الله ، فوصفهم - سبحانه - على حسب ظنهم وزعمهم . ثم نسخ ذلك بقوله - تعالى - ( إِنَّمَا المشركون نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ المسجد الحرام بَعْدَ عَامِهِمْ هذا ) وعليه يكون ابتغاء الفضل والرضوان عاما الدنيوي والأخروي ولو في زعم المشركين .والذي نراه أولى هو القول الأول ، لأن الآية الكريمة مسوقة لبيان ما يجب على المؤمنين أن يفعلوه نحو شعائر الله التي هي حدوده وفرائضه ومعالم دينه ، ولأن قوله - تعالى - : ( يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَاناً ) هذا الوصف إنما يليق بالمسلم دون الكافر ، إذ المسلمون وحدهم الذين يقصدون بحجهم وزيارتهم لبيت الله الثواب والرضوان منه - سبحانه - .قال الفخر الرازي " : أمرنا الله في هذه الآية أن لا نخيف من يقصد بيته من المسلمين ، وحرم علينا أخذا الهدى من المهدين إذا كانوا مسلمين . والدليل عليه أول الآية وآخرها أما أول الآية فهو : ( لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ الله ) وشعائر الله إنما ) : تليق بنسك المسلمين وطاعتهم لا بنسك الكفار .وأما آخر الآية فهو قوله يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَاناً ) وهذا إنما يليق بالمسلم لا بالكافر .وبذلك نرى الآية الكريمة قد نهت المؤمنين عن استحلال أي شيء من الشعائر التي حرم الله - تعالى - استحلالها ، وخصت بالذكر هذه الأمور الأربعة التي عطفت عليها اهتماما بشأنها وزجرا للنفوس عن انتهاك حرمتها ، لأن هذه الأمور الأربعة منها ما ترغب فيه النفوس بدافع شهوة الانتقام ، ومنها ما ترغب فيه النفوس بدافع المتعة والميل القلبي ، ومنها ما ترغب فيه النفوس بدافع الطمع وحب التملك .ثم أتبع - سبحانه - هذا النهي ببيان جانب من مظاهر فضله . حيث أباح لهم الصيد بعد الانتهاء من إحرامهم فقال : ( وَإِذَا حَلَلْتُمْ فاصطادوا ) .أي : وإذا خرجتم من إحرامكم أبيح لكم الصيد ، وأبيح لكم أيضا كل ما كان مباحا لكم قبل الإحرام .وإنما خص الصيد بالذكر ، لأنهم كانوا يرغبون فيه كثيرا . كبيرهم وصغيرهم ، وغنيهم وفقيرهم . والإشارة إلى أن الذي ينبغي الحرص عليه هو ما يعد قوتا تندفع به الحاجة فقط لا ما يكون من الكماليات ولا يكون إرضاء للشهوات .والأمر في قوله : ( فاصطادوا ) للإباحة ، لأنه ليس من الواجب على المحرم إذا حل من إحرامه أن يصطاد . بل يباح له ذلك كما كان الشأن قبل الإحرام ومثله قوله - تعالى - ( فَإِذَا قُضِيَتِ الصلاة فانتشروا فِي الأرض ) أي : أبيح لكم ذلك بعد الفراغ من الصلاة .ثم نهى - سبحانه - المؤمنين على أن يحملهم البعض السابق لقوم لأنهم صدوهم عن المسجد الحرام على أن يمنعوهم من دخوله كما منعهم من دخوله أولئك القوم فقال - تعالى - : ( وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أن صَدُّوكُمْ عَنِ المسجد الحرام أَن تَعْتَدُواْ ) والجلمة الكريمة معطوفة على قوله : ( لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ الله ). لزيادة تقرير مضمونه .ومعنى ( وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ ) ولا يحملنكم مأخوذ من جرمه على كذا إذا حمله عليه ، أو معناه : ولا يكسبنكم من جرم بمعنى كسب غير أنه في كسب ما لا خير فيه ومنه الجريمة .وأصل الجرم : قطع الثمرة من الشجرة ، أطلق على الكسب ، لأن الكاسب ينقطع لكسبه .قال صاحب الكشاف : جرم يجري مجرى " كسب " في تعديه إلى مفعول واحد واثنين .تقول : جرم ذنبا نحو كسبه وجرمته ذنبا ، نحو كسبته إياه . ويقال : أجرمته ذنبا ، على نقل المتعدي إلى معفول بالهمزة إلى مفعولين . كقولهم : أكسبته ذنبا " .والشنآن البغض الشديد . يقال : شئت الرجل أشنؤه شنأ وشنأة وشنآنا إذا أبغضته بغضا : شديداً .والمعنى : ولا يحملنكم - أيها المؤمنون - بغضكم الشديد لقوم بسبب ، أنهم منعوكم من دخول المسجد الحرام ، لا يحملنكم ذلك على أن تعتدوا عليهم فإن الشرك إذا كان يبرر هذا العمل ، فإن الإسلام - وهو دين العدل والتسامح -لا يبرره ولا يقبله ، ولكن الذي يقبله الإسلام هو احترام المسجد الحرام ، وفتح الطريق إليه أمام الناس حتى يزداد المؤمن إيماناً ويفئ العاصي إلى رشده وصوابه .قال ابن كثير : وقوله : ( وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ ) أي : ولا يحملنكم بغض قوم ، " قد كانوا صدوكم عن المسجد الحرام - وذلك عام الحديبية - ، على أن تعتدوا حكم الله فيهم فتقتصوا منهم ظلماً وعدواناً ، بل احكموا بما أمركم الله به من العدل . في حق كل أحد .. فإن العدل واجب على كل أحد . في كل أحد ، وفي كل حال والعدل ، به قامت السموات والأرض .وقال بعض السلف : ما عاملت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه .وعن زيد بن أسلم ، قال : " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه بالحديبية ، حين صدهم المشركون عن البيت ، وقد اشتد ذلك عليهم ، فمر بهم ناس من المشركني من أهل المشرق يريدون العمرة . فقال ) : الصحابة . نصد هؤلاء كما صدنا أصحابهم ، فنزلت هذه الآية " .وقوله شَنَآنُ قَوْمٍ ) مصدر مضاف لمفعوله . أي :لا يحملنكم بغضكم قوماً .وقوله : ( أن صَدُّوكُمْ ) : مفعول لأجله بتقدير اللام . أي - بفتح همزة أن - : لأن صدوكم فهو متعلق بالشنآن .وقوله ( أَن تَعْتَدُواْ ) في موضع نصب على أنه مفعول به .أي :لا يحملنكم بغضكم قوما لصدهم إياكم عن المسجد الحرام الاعتداء عليهم .وقراءة ( أن صَدُّوكُمْ ) بفتح الهمزة - هي قراءة الجمهور

وهي تشير إلى أن الصد كان في الماضي ، وهي واضحة ولا إشكال عليها .قال ، الجمل : وفي قراءة لأبي عمرو وابن كثير بكسر همزة أن على أنها شرطية وجواب الشرط دل عليه ما قبله . وفيها إشكال من حيث إن الشرط يقتضي أن الأمر المشروط لم يقع . مع أن الصد كان قد وقع . لأنه كان في عام الحديبية وهي سنة ست . والآية نزلت عام الفتح سنة ثمان ، وكانت مكة عام الفتح في أيدي المسلمين فيكف يصدون عنه؟ وأجيب بوجهين :أولهما :لا نسلم أن الصد كان قبل نزول الآية فإن نزولها عام الفتح غير مجمع عليه .والثاني : أنه وإن سلمنا أن الصد كان متقدما على نزولها فيكون المعنى : إن وقع صد مثل ذلك الصد الذي وقع عام الحديبية - فلا تعتدوا -قال بعضهم : وهذا لا يمنع من الجزاء على الاعتداء بالمثل ، لأن النهي عن استئناف الاعتداء على سبيل الانتقام ، فإن من يحمله البغض والعداوة على الاعتداء على من يبغضه يكون منتصرا لنفسه لا - للحق ، وحينئذ لا يراعى المماثلة ولا يقف عند حدود العدل .ثم أمر الله ) : تعالى - عباده بالتعاون على فعل الخيرات وعلى ترك المنكرات فقال وَتَعَاوَنُواْ عَلَى البر والتقوى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإثم والعدوان ) .والبر معناه : التوسع في فعل الخير ، وإسداء المعروف إلى الناس والتقوى تصفية النفس وتطهيرها وإبعادها عن كل ما نهى الله عنه .قال. القرطبي : قال الماوردي : ندب الله - تعالى - إلى التعاون بالبر ، وقرنه بالتقوى له ، لأن في التقوى رضا الله ، وفي البر رضا الناس .ومن جمع بين رضا الله ورضا الناس فقد تمت سعادته وعمت نعمته .والإثم - كما يقول الراغب - اسم للأفعال المبطئة عن الثواب وجمعه آثام ، والآثم هو المتحمل للإثم . ثم أطلق على كل ذنب ومعصية .والعدوان : تجاوز الحدود التي أمر الشارع الناس بالوقوف عندها .أي : وتعاونوا - أيها المؤمنون - على كل ما هو خير وبر وطاعة لله - تعالى - ، ولا تتعاونوا على ارتكابا الآثام ولا على الاعتداء على حدوده ، فإن التعاون على الطاعات والخيرات يؤدي إلى السعادة : أما التعاون على ما يغضب الله - تعالى - فيدؤي إلى الشقاء .قال الآلوسي والجملة عطف على قوله ( وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ ) من حيث المعنى ، فكأنه قيل لا تعتدوا على قاصدي المسجد الحرام لأجل أن صدوكم عنه ، وتعاونوا على العفو والإغضاء .وقال بعضهم : هو استئناف ، والوقف على ( أن تَعْتَدُواْ لازم .هذا ، وفي معنى هذه الجملة الكريمة وردت أحاديث كثيرة منها ما رواه ( مسلم عن أبي مسعود الانصاري قال : " جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إني أبدع بي - أي : هلكت دابتي التي أركبها - فاحملني فقال : " ما عندي " فقال رجل : يا رسول الله ، أنا أدله على من يحمله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من دل على خير فله مثل أجر فاعله " وروى الإمام مسلم - أيضاً - عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً . ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً " .وقوله - تعالى - ( واتقوا الله إنَّ الله شَدِيدُ العقاب ) تذييل قصد به إنذار الذين يتعاونون على الإثم والعدوان . أي : اتقوا الله - أيها الناس - واخشوه فيما مركم ونهاكم ، فإنه - سبحنه شديد العقاب لمن خالف أمره ، وانحرف عن طريقه القويم .وبذلك نرى أن الآية الكريمة قد نهت المؤمنين عن استحلال ما حرمه الله عليهم من محارم ، وعن الإخلال بشيء من أحكامها كما نهتهم عن أن يحملهم بغضهم لغيرهم على الاعتداء عليه وأمرتهم بأن يتعاونوا على فعل الخير الذي ينفعهم وينفع غيرهم من الناس وعلى ما يوصلهم إلى طاعته - سبحانه - وحسن مثوبته ، ولا يتعاونوا على الأفعال التي يأثم فاعلها ، وعلى مجاوزة حدود الله بالاعتداء على غيرهم ثم حذرتهم في نهايتها من العقاب الشديد الذي ينزله سبحانه - بكل من عصاه . وانحرف عن هداه ، .

حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما اهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما اكل السبع الا ما ذكيتم وما ذبح على النصب وان تستقسموا بالازلام ذلكم فسق اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لاثم فان الله غفور رحيم

كما فسرها الوسيط ثم شرع - سبحانه - في بيان المحرمات التي أشار إليها قبل ذلك بقوله : ( إِلاَّ مَا يتلى عَلَيْكُمْ ) فبين ما يحرم أكله من الحيوان . . . لأسباب معينة فقال - تعالى - :( حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الميتة والدم في هذه المحرمات يتلى في قوله - تعالى - : ( حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الميتة( والميتة كما يقول ابن جرير - كل ما له نفس - أي دم ونحوه - سائلة من. . ( دواب البر وطيره ، مما أباح الله أكلها . أهليها ووحشيها فارقتها روحها بغير تذكية .وقال : بعضهم : الميتة : هو كل ما فارقته الحياة من دواب البر وطيره بغير تذكية شرعية ، مما أحل الله أكله " أي : حرم الله عليكم - أيها المؤمنون - أكل الميتة لخبث لحمها ، ببقاء بعض المواد الضارة في جسمها .وقد أجمع العلماء على حرمة أكل الميتة ، أما شعرها وعظمها فقال الأحناف

بطارتهما وبجواز الانتفاع بهما . وقال الشافعية بنجاستهما وبعدم جواز
استعمالهما .وقد استثنى العلماء من الميتة المحرمة السمك والجراد . فقد
أخرج البخاري ومسلم وغيرهما من حديث ابن أبي أوفي قال : " غزونا مع رسول
الله صلى الله عليه وسلم سبع غزوات نأكل الجراد " .وفيهما - أيضاً - من
حديث جابر ، " إن البحر ألقى حوتاً ميتاً فأكل منه الجيش . فلما قدموا
: قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : فقال : " كلوا رزقاً أخرجه الله لكم
أطعمونا منه إن كان معكم . فأتاه بعضهم بشيء منه " .وعن ابن عمر قال : قال
رسول الله - صلى الله عليه وسلم : " أحل لنا ميتتان ودمان ، فأما الميتتان
فالسمك والجراد . وأما الدمان فالكبد والطحال " .وثاني هذه المحرمات ما
ذكره - سبحانه - في قوله : ( والدم ) أي : وحرم عليكم أكل الدم .والمراد به
الدم المسفوح . أي السائل من الحيوان عند التذكية . لقوله - تعالى - في :
. آية أخرى ( أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً ) وهي خاصة . والآية التي معنا عامة
والخاص مقدم على العام .وكان أهل الجاهلية يجعلونه في الماعز ويشوونه
ويأكلونه ، فحرمه الله - تعالى - لأنه يضر الأجسام . أما الدم الذي يكون
جامداً بأصل خلقته كالكبد والطحال فإنه حلال كما جاء في حديث ابن عمر الذي
سقناه منذ قليل .وثالث هذه المحرمات ما جاء في قوله - تعالى - ( وَلَحْمُ
، الخنزير ) أي : وحرم عليكم لحم الخنزير وكذلك شحمه وجلده وجميع أجزائه
لأنهن مستقذر تعافه الفطرة ، وتتضرر به الأجسام .وخص لحم الخنزير بالذكر مع
: أن جميع أجزائه محرمة لأنه هو المقصود بالأكل قال ابن كثير ما ملخصه
وقوله - تعالى - : ( وَلَحْمُ الخنزير ) يعني إنسيه ووحشية ، واللحم يعم
. جميع أجزائه حتى الشحم . كما هو المفهوم من لغة العرب ، ومن العرف المطرد
وفي الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله حرم بيع .
الخمر والميتة والخنزير والأصنام . فقيل : يا رسول الله ، أرأيت شحوم
الميتة فإنها تطلى بها السفن ، وتدهن بها الجلود . ويستصبح بها الناس؟ فقال
لا . هو حرام : ثم قال : قاتل الله اليهود . إن الله لما حرم شحومها :
- جملوه - أي أذابوه - ثم باعوه فأكلوا ثمنه " .ورابع هذه المحرمات بينه
سبحانه - بقوله : ( وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ) .الإهلال : رفع
الصوت عند رؤية الهلال ثم استعمل لرفع الصوت مطلقاً . ومنه : إهلال الصبي
أي : صراخه بعد ولادته ، والإهلال بالحج أي رفع الصوت بالتلبية .وكانوا في
- الجاهلية إذا أرادوا ذبح ما قربوه إلى آلهتهم ، سموا عليها أسماءها
كاللات والعزى - ورفعوا بها أصواتهم ، وسمي ذلك إهلالا . ثم توسع فيه فقيل
لكل ذابح : مهل سمي أو لم يسم . جهر بالتسمية أو لم يجهر .والمعنى : وحرم
- عليكم - سبحانه - أن تأكلوا مما ذبح فذكر عليه عند ذبحه غير اسم الله
تعالى - سواء اقتصر على ذكر غيره كقوله عند الذبح باسم الصنم فلان ، أو
باسم المسيح أو عزير أو فلان ، أو جمع بين ذكر الله وذكر غيره بالعطف عليه
كقوله : باسم الله واسم فلان .أما إذا جمع الذابح بين اسم الله واسم غيره
بدون عطف بأن قال : باسم الله المسيح نبي الله ، أو باسم الله محمد رسول
الله ، فالأحناف يجوزون الأكل من الذبيحة ويعتبرون ذكر غير الله كلاماً
مبتدأً بخلاف العطف فإنه يكون نصا في ذكر غير الله .وجمهور العلماء يحرمون
الأكل من الذبيحة متى ذكر مع اسم الله آخر سواء أكان ذلك بالعطف أو بدونه
وذهب جماعة من التابعين إلى تخصيص الغير بالأصنام ، وإلى حل ذبائح أهل.
الكتاب مطلقاً والتحريم هنا ليس لذات الحيوان ، بل لما صحبه من عمل فيه شرك
) : بالله - تعالى -ثم ذكر - سبحانه - أربعة أنواع أخرى من المحرمات فقال
والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة ) .والمنخنقة : هي التي تموت خنقاً
إما قصداً بأن يخنقها آدمي . وإما اتفاقاً بأن يعرض لها من ذاتها ما يخنقها
والموقوذة : هي التي تضرب بمثقل غير محدد كخشب أو حجر حتى تموت وكانوا في.
. الجاهلية يضربون البهيمة بالعصى حتى إذا ماتت أكلوها .والوقذ : شدة الضرب
وفلان وقيذ أي : مثخن ضرباً . ويقال : وقذه يقذه وقذا : ضربه ضرباً حتى
" استرخى وأشرف على الموت .قال القرطبي : وفي صحيح مسلم عن عدي بن حاتم قال
قلت يا رسول الله فإني أرمي الصيد فأصيب؟ - والمعراض : وهو سهم يرمى به بلا
" : ريش وأكثر ما يصيب بعرض عوده دون حده - فقال النبي صلى الله عليه وسلم
إذا رميت بالمعراض فخزق - أي نفذ وأسال الدم - فكله . وإن أصاب بعرضه فلا
تأكله " .والمتردية : هي التي تتردى أي : تسقط من أعلى إلى أسفل فتموت من
التردي مأخوذ من الردى بمعنى الهلاك سواء تردت بنفسها أم رداها غيرها
والنطيحة : هي التي تنطحها أخرى فتموت من النطاح يقال : نطحه ينطحه وينطحه.
أي أصابه بقرنه .والمعنى : وحرم الله عليكم كذلك - أيها المؤمنون - الأكل
من المنخنقة ، والموقوذة ، والمتردية ، والنطيحة ، إذا ماتت كل واحدة من
هذه الأنواع لهذه الأسباب دون أن تذكوها ذكاة شرعية ، لأن الأكل منها في
هذه الحالة يعود عليكم بالضرر .وتاسع هذه المحرمات ذكره - سبحانه - في قوله
المراد بالسبع كل ذي ناب. ( وَمَآ أَكَلَ السبع إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ ) :
وأظفار من الحيوان . كالأسد والنمر والذئب ونحوها من الحيوانات المفترسة
وقوله ( ذَكَّيْتُمْ ) من التذكية وهي الإتمام . يقال : ذكيت النار إذا.
، أتممت اشتعالها .والمراد هنا : إسالة الدم وفري الأوداج في المذبوح
والنحر في المنحور .والمعنى : وحرم عليكم - أيضاً - الأكل مما افترسه السبع

حتى مات سواء أكل منه أم لم يأكل ، إلا ما أدركتموه من هذه الأنواع وقد
بقيت فيه حياة يضرب معها اضطراب المذبوح وذكيتموه أي ذبحتموه ذبحا شرعياً :
فإنه في هذه الحالة يحل لكم الأكل منه . فقوله ( إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ )
الاستثناء هنا يرجع إلى هذه الأنواع الخمسة .وقيل : إن الاستثناء هنا مختص
بقوله : ( وَمَآ أَكَلَ السبع ) .أي : وحرم عليكم ما أكل السبع بعضه فمات
بسبب جرحه ، إلا ما أدركتموه حيا فذكيتموه ذكاة شرعية فإنه في هذه الحالة
يحل الأكل منه ، والأول أولى ، لأن هذه الأنواع الخمسة تشترك في أنها تعلقت
بها أحوال قد تفضي بها إلى الهلاك ، فإن هلكت بتلك الأحوال لم يبح أكلها
لأنها حينئذ ميتة ، وإذا أدركت بالذكاة في وقت تنفع فيه الذكاة لها جاز
الأكل منها .أما النوع العاشر في هذه المحرمات فيتجلى في قوله - تعالى -
( وَمَا ذُبِحَ عَلَى النصب ) والنصب : جمع نصاب : ككتب وكتاب . أو جمع نصب
كسقف وسقف . ويصح أن يكون لفظ النصب واحداً وجمعه أنصاب مثل : طنب أطناب
وعلى كل فهي حجارة كان الجاهليون ينصبونها حول الكعبة ، وكان عددها .
ثلاثمائة وستين حجراً ، وكانوا يذبحون عليها قرابينهم التي يتقربون بها إلى
أصنامهم . ويعتبرون الذبح أكثر قربة إلى معبوداتهم متى تم على هذه النصب .
وليست هذه النصب هي الأوثان ، فإن النصب حجارة غير منقوشة بخلاف الأوثان
فإنها حجارة مصورة منقوشة .والمعنى : وحرم عليكم - سبحانه - أن تأكلوا مما
ذبح على النصب لأنه لم يتقرب به إلى الله ، وإنما تقرب به إلى الأصنام وما
تقرب به إلى غير الله فهو فسق ورجس يجب البعد عنه .هذه عشرة أنواع من
المأكولات حرمت الآية الكريمة الأكل منها ، لما اشتملت عليه من مضرة وأذى ،
ولما صاحب بعضها من تقرب لغير الله ، ويكفى لتجنب الأكل من هذه المطعومات
أن وأذى ، ولما صاحب بعضها من تقرب لغير الله ، ويكفى لتجنب الأكل من هذه
المطعومات أن الله - تعالى - قد حرمها ، لأنه - سبحانه -لا يحرم الخبائث
ومن شأن المؤمن الصادق في إيمانه أن يقف عند ما أحله الله - تعالى - وحرم.
ثم ذكر - سبحانه - نوعاً من الأفعال المحرمة ، بعد ذكره لعشرة أنواع من.
المطاعم المحرمة فقال : ( وَأَنْ تَسْتَقْسِمُواْ بالأزلام ذلكم فِسْقٌ )
وإنما ذكر - سبحانه - هذا الفعل المحرم مع جملة المطاعم المحرمة ، لأنه.
مما ابتدعه أهل الجاهلية؛ كما ابتدعوا ما ابتدعوه في شأن المطاعم
والاستقسام : طلب معرفة ام قسم للإنسان من خير أو شر .والأزلام : قداح.
الميسر واحدها زلم - بفتح اللام وبفتح الزاي أو ضمها - وسميت قداح الميسر
بالأزلام ، لأنها زلمت أي سويت ، ويقال : رجل مزلم وامرأة مزلمة ، إذا كان
جيد القد ، جميل القوام .وكان لأهل الجاهلية طرق للاستقسام بالأزلام من
أشهرها : أنه كانت لديهم سهام مكتوب على أحدها : أمرني ربي وعلى الآخر :
نهاني ربي . والثالث غفل من الكتابة ، فإذا أرادوا سفراً أو حرباً أو
زواجاً أو غير ذلك أتوا إلى بيت الأصنام واستقسموها فإن خرج الآمر أقدموا
على ما يريدونه وإن خرج الناهي امسكوا عنه ، وإن خرج الغفل أجالوها ثانية
حتى يخرج الآمر أو الناهي .والمعنى : وحرم عليكم - سبحانه - أن تطلبوا
معرفة ما قسم لكم في سفر أو غزو أو زواج أو ما يشبه ذلك بواسطة الأزلام ،
" لأن هذا الفعل فسق ، أي : خروج عن أمر الله وطاعته .فاسم الإشارة " ذلكم
يعود إلى الاستقسام بالأزلام خاصة . ويجوز أن يعود إليه وإلى تناول ما حرم
عليهم .قال ابن كثير : وقد ثبت في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم
لما دخل الكعبة ، وجد إبراهيم وإسماعيل مصورين فيها . وفي أيديهما الأزلام
فقال صلى الله عليه وسلم : " قاتلهم الله . لقد علموا أنهما لم يستقسما .
بها أبدا " .وثبت في الصحيحين أيضاً " أن سراقة بن مالك بن جعشم لما خرج في
طلب النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر ، وهما ذاهبان إلى المدينة مهاجرين
قال فاستقسمت بالأزلام . هل أضرهم أولا؟ فخرج الذي أكره :لا تضرهم . قال :
فعصيت الأزلام واتبعتهم . ثم استقسم بها ثانية وثالثة . كل ذلك يخرج الذي :
يكره :لا تضرهم . وكان كذلك وكان سراقة لم يسلم إذ ذاك ، ثم أسلم بعد ذلك
فإن قيل إن الاستقسام بالأزلام هو لون من التفاؤل ، وكان صلى الله عليه. "
وسلم يحب الفأل الحسن فلم صار فسقاً؟فالجواب أن هناك فرقا واسعاً بين
الاستقسام بالأزلام وبين الفأل؛ فإن الفأل أمر اتفاقي تنفعل به النفس
وتنشرح للعمل مع رجاء الخير منه بخلاف الاستقسام بالأزلام فإن القوم كانوا
يستقسمون بالأزلام عند الأصنام ويعتقدون أن ما يخرج من الأمر والنهي على
تلك الأزلام بإرشاد من الأصنام فلهذا كان الاستقسام بها فسقا وخروجا عن
طاعة الله .وفضلا عن هذا فإن الاستقسام بالأزلام طلب لمعرفة علم الغيب الذي
استأثر الله به ، وذلك حرام وافتراء على الله - تعالى - .وإلى هنا تكون
الآية الكريمة قد ذكرت أحد عشر نوعاً من المحرمات عشرة منها تتعلق
بالمأكولات ، وواحدا يتعلق بالأفعال .وهناك مطعومات أخرى جاء تحريمها عن
طريق السنة النبوية ، كتحريمه صلى الله عليه وسلم الأكل من لحوم الحمر
الأهلية .وبعد أن بين - سبحانه - هذه الأنواع من المحرمات التي حرمها على
المؤمنين رحمة بهم ، ورعاية لهم ، أتبع ذلك ببيان مظاهر فضله عليهم ،
وأمرهم بأن يجعلوا خشيتهم منه وحده ، فقال - تعالى - : ( اليوم يَئِسَ
الذين كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ واخشون ) .وقوله ( اليوم
ظرف منصوب على الظرفية بقوله ( يَئِسَ ) والألف واللام فيه للعهد الحضوري (

فيكون المراد به يوماً معيناً وهو يوم عرفة من عام حجة الوداع .ويصح أن ، لا يكون المراد به يوما بعينه ، وإنما أراد به الزمان الحاضر وما يتصل به ويدانيه من الأزمنة الماضية والآتية .وقد حكى الإمام الرازي هذين الوجهين فقال ما ملخصه : وقوله : ( اليوم يَئِسَ الذين كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ ) فيه قولان :الأول : أنه ليس المراد به ذلك اليوم بعينه حتى يقال إنهم ما يئسوا قبله بيوم أو يومين ، وإنما هو كلام خارج على عادة أهل اللسان أي لا حاجة بكم الآن إلى مداهنة هؤلاء الكفار ، لأنكم الآن صرتم بحيث لا يطمع أحد من أعدائكم في توهين أمركم ، ونظيره قوله : كنت بالأمس شابا واليوم قد صرت شيخاً .لا يريد بالأمس اليوم الذي قبل يومك ، ولا باليوم يومك الذي أنت فيه .الثاني : أن المراد به يوم نزول هذه الآية . وقد " نزلت يوم الجمعة من يوم عرفة بعد العصر في عام حجة الوداع سنة عشر من الهجرة ، والنبي صلى الله عليه وسلم واقف بعرفات على ناقته العضباء " .وقوله : ( اليوم يَئِسَ الذين كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ ) أي انقطع رجاؤهم في التغلب عليكم ، وفي إبطال أمر دينكم . وفي صرف الناس عنه بعد أن دخلوا فيه أفواجاً وبعد أن صار المشركون مهقورين لكم . أذلة أمام قوتكم . وما دام الأمر كذلك ( فَلاَ تَخْشَوْهُمْ واخشون ) أي : فلا تجعلوا مكاناً لخشية المشركين في قلوبكم فقد ضعفوا واستكانوا ، بل اجعلوا خشيتكم وخوفكم وهيبتكم من الله وحده الذي جعل لكم الغلبة والنصر عليهم .ثم عقب ذلك - سبحانه - بيان أكبر نعمه وأعظم مننه على هذه الأمة الإسلامية فقال : ( اليوم أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسلام دِيناً ) .أي؛ اليوم أكملت لكم حدودي وفرائضي وحلالي وحرامي ، ونصري لكم على أعدائكم وتمكيني إياكم من أداء فريضة الحج دون أن يشارككم في الطواف بالبيت أحد من المشركين .وأتممت عليكم نعمتي ، بأن أزلت دولة الشرك من مكة ، وجعلت كلمتكم هي العليا وكلمة أعدائكم هي السفلى ، ورضيت لكم الإسلام دينا ، بأن اخترته لكم من بين الأديان . وجعلته الدين المقبول عندي ، فيجب عليكم الالتزام بأحكامه وآدابه وأوامره ونواهيه قال - تعالى - : ( وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخرة مِنَ الخاسرين ) وليس المراد بإكمال الدين أنه كان ناقصاً قبل اليوم ثم أكمله ، وإنما المراد أن من أحكامه قبل اليوم ما كان مؤقتاً في علم الله قابلا للنسخ . ولكنها اليوم كملت وصارت مؤبدة وصالحة لكل زمان ومكان ، وغير قابلة للنسخ ، وقد بسط هذا المعنى كثير من المفسرين فقال الإمام الرازي : قال القفال : إن الدين ما كان ناقصا البتة بل كان أبداً كاملا . يعني : كانت الشرائع النازلة من عند الله في كل وقت كافية في ذلك الوقت إلا أنه - تعالى - كان عالما في أول وقت المبعث بأن ما هو كامل في هذا اليوم بكامل في الغد ولا صلاح فيه . فلا جرم كان ينسخ بعد الثبوت . وكان يزيد بعد العدم . وأما في آخر زمان المبعث فأنزل الله شريعة كاملة وحكم ببقائها إلى يوم القيامة . فالشرع أبداً كان كاملا . إلا أن الأول كمال إلى زمان مخصوص . والثاني كمال إلى يوم القيامة . فلأجل هذا قال : ( اليوم أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ) وقال القرطبي ما ملخصه : لعل قائلا يقول : ( اليوم أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ) يدل على أن الدين كان غير كامل في وقت من الأوقات . وذلك يوجب أن يكون جميع من مات من المهاجرين والأنصار . قبل نزول هذه الآية - ماتوا على دين ناقص . ومعلوم أن النقص عيب؟فالجواب أن يقال له : لم قلت إن كل نقص عيب وما دليلك عليه؟ ثم يقال له : أرأيت نقصان الشهر هل يكون عيبا ، فهو ونقصان صلاة المسافر أهو عيب لها . ؟ لا شك أن هذا النقصان ليس بعيب وقوله : ( اليوم أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ) يخرج على وجهين :أحدهما : أن يكون المراد بلغته أقصى الحد الذي كان له عندي فيما قضيته وقدرته ، وذلك لا يوجب أن يكون ما قبل ذلك ناقصا نقصان عيب ، لكنه يوصف بنقصان مقيد فيقال له : إنه كان ناقصاً عما كان عند الله أنه ملحقه به ، وضامه إليه . . وهكذا شرائع الإسلام شرعها الله شيئاً فشيئاً إلى أن أنهى - سبحانه - الدين منتهاه الذي كان له عنده .وثانيهما : أنه أراد بقوله ( اليوم أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ) أنه وفقهم للحج الذي لم يكن بقي عليهم من أركان الدين غيره ، فحجوا فاستجمع لهم الدين أداء أركانه ، وقياما بفرائضه وفي الحديث ، بني الإسلام على خمس " وقد كانوا تشهدوا ، وصلوا ، وزكوا ، وصاموا ": وجاهدوا ، واعتمروا ، ولم يكونوا حجوا ، فلما حجوا ذلك اليوم مع النبي صلى الله عليه وسلم أنزل الله وهم بالموقف عشية عرفة ( اليوم أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ) أي : أكمل وضعه لهم .وقد روى الأئمة عن طارق بن شهاب قال " : جاء رجل من اليهود إلى عمر فقال : يا أمير المؤمنين آية في كتابكم تقرءونها ) : لو علينا أنزلت معشر اليهود لاتخذنا ذلك اليوم عيدا . قال وأي آية؟ قال اليوم أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ) فقال عمر : إني لأعلم اليوم الذي أنزلت فيه والمكان الذي أنزلت فيه نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعرفة في يوم جمعة " .وروى أنها " لما نزلت في يوم الحج الأكبر وقرأها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بكى عمر ، فقال له ما يبكيك؟ فقال : أبكاني أنا كنا في زيادة في ديننا فأما إذا كمل فإنه لم يكمل شيء إلا نقص فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : " صدقت " " .وبعد أن ذكر - سبحانه - في صدر

الآية أحد عشر نوعا من المحرمات ، وأتبع ذلك ببيان إكمال الذين وإتمام النعمة على المؤمنين . جاء ختام الآية لبيان حكم المضطر إلى أكل شيء من هذه المحرمات فقال - تعالى - : ( فَمَنِ اضطر فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لإِثْمٍ فَإِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ) .وقوله ( اضطر ) من الاضطرار بمعنى الوقوع في الضرورة .والمخمصة : خلو البطن من الغذاء عند الجوع الشديد . يقال خمصه الجوع خمصا ومخمصة .إذا اشتد به . وفي الحديث " : إن الطير تغدو خماصاً - أي جياعا ضامرات البطون - وتروح بطانا - أي مشبعات وقال الأعشى :يبيتون في المشتى ملاءً بطونهم ... وجاراتهم غرثى يبتن " خمائصاأي : وجاراتهم جوعى وقد ضمرت بطونهن من شدة الجوع .وقوله ( مُتَجَانِفٍ ) من الجنف وهو الميل ، يقال : جنف عن الحق - كفرح - إذا مال عنه وجنف عن طريقه - كفرح وضرب - جنفاً وجنوفاً إذا مال عنه .والمعنى : فمن ألجأته الضرورة إلى كل شيء من هذه المحرمات في مجاعة شديدة حالة كونه غير - مائل إلى ارتكاب إثم من الآثام فلا ذنب عليه في ذلك لأن الله - تعالى واسع المغفرة .فهو بكرمه يغفر لعباده تناول ما كان محرما إذا اضطروا إلى تناوله لدفع الضرورة بدون بغي أو تعد ، وهو واسع الرحمة حيث أباح لهم ما يدفع عنهم الضرر ولو كان محرما .قال الآلوسي : وقوله : ( غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لإِثْمٍ ) أي غير مائل ومنحرف إليه ومختار له بأن يأكل منها . زائداً على ما يمسك رمقه فإن ذلك حرام ، وقيل : يجوز أن يشبع عند الضرورة وقيل : المراد غير عاص بأن يكون باغياً أو عادياً بأن ينزعها من مضطر آخر أو خارجاً في معصية .وبذلك نرى الآية الكريمة قد بينت ما يحرم في حالة الاختيار ، وما يحل في حالة الاضطرار .وجاءت بين ذلك بجمل معترضة - وهي ) : قوله ( اليوم يَئِسَ الذين كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ ) إلى قوله وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسلام دِيناً ) لتأكيد تحريم هذه الأشياء ، لأن تحريمها ، من جملة الدين الكامل ، والنعمة التامة ، والإسلام المرضى عند الله .هذا ومن الأحكام التي أخذها العلماء من هذه الآية الكريمة ما يأتي :1 - حرمة هذه الأنواع الأحد عشر التي ذكرها الله - تعالى - في هذه الآية ووجوب الابتعاد عنها لأنها رجس أو فسق ، ولأن استحلال شيء منها يكون خروجاً عن تعاليم دين الله ، وانتهاكا لحرماته .2 - حل المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع ، متى ذبحت ذبحاً شرعياً وكانت بها بقية حياة تجعلها تضطرب بعد ذبحها اضطراب المذبوح .وللفقهاء كلام طويل في ذلك يؤخذ منه اتفاقهم على أن الخنق وما معه إذا لم يبلغ بالحيوان إلى درجة اليأس من حياته بأن غلب على الظن أنه يعيش مع هذه الحالة كانت الذكاة محللة له . أما إذا غلب على الظن أنه يهلك بما حصل له بسبب الخنق أو الوقذ أو التردي أو النطح أو أكل السبع منه ، فقد أفتى كثير من العلماء بعمل الذكاة فيه ، وقد أخذ بذلك الأحناف . فقد قالوا : متى كانت عينه أو ذنبه يتحرك أو رجله ترك ثم ذكى فهو حلال .وقال قوم لا تعمل الذكاة فيه ويحرم أكله .ومنشأ اختلافهم في أن الذكاة تعمل أولا تعمل يعود إلى : هل الاستثناء هن متصل أو منقطع؟فمن قال إنه متصل يرى أنه أخرج من الجنس بعض ما تناوله اللفظ ، فما قبل حرف الاستثناء حرام ، وما بعده خرج منه فيكون حلالا .ومن قال إنه منقطع يرى أنه لا تأثير للاستثناء في الجملة المتقدمة . وكأنه قال : ما ذكيتموه من غير الحيوانات المتقدمة فهو حلال أباح الله لكم التمتع به . أما هذه الحيوانات التي حرمها الله في الآية فلا يجوز لكم الأكل منها مطلقا .وقد رجح المحققون من العلماء أن الاستثناء متصل ، وقالوا : يؤيد القول بأن الاستثناء متصل بالإجماع على أن الذكاة تحلل ما يغلب على الظن أنه يعيش فيكون مخرجاً لبعض ما يتناوله المستثنى منه ، فيكون الاستثناء فيه متصلا .هذا ملخص لما قاله العلماء في هذه المسألة ومن أراد المزيد فليرجع إلى كتب الفروع .3 - إباحة تناول هذه المحرمات عند الضرورة لدفع الضرر ، ومن هذه الإباحة مقيدة بقيود ذكرها الفقهاء من أهمها قيدان .الأول : أن يقصد بالتناول دفع الضرر فقط الثاني : ألا يتجاوز ما يسد الحاجة ، أما إذا قصد التلذذ أو إرضاء الشهوة. أو تجلوز المقدار الذي يدفع الضرر فإنه في هذه الأحوال يكون واقعا في ، المحرم الذي نهى الله عنه .وقد تكلم الإمام ابن كثير عن هذه المسألة فقال : قوله - تعالى - ( فَمَنِ اضطر فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لإِثْمٍ فَإِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيم ) أي : فمن احتاج إلى تناول شيء من هذه المحرمات التي ذكرها الله لضرورة ألجأته إلى ذلك فله تناول والله غفور له رحيم به ، لأنه - تعالى - يعلم حاجة عبده المضطر وافتقاره إلى ذلك فيتجاوز : عنه ويغفر له .وفي المسند وصحيح ابن حبان عن ابن عمر - مرفوعاً - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الله يحب أن تؤتي رخصه كما يكره أن تؤتي معصيته " .ولهذا قال الفقهاء : قد يكون تناول الميتة واجباً في بعض الأحيان و هو إذا خاف على نفسه ولم يجد غيرها ، وقد يكون مندوبا ، وقد يكون ، مباحاً بحسب الأحوال . واختلفوا : هل يتناول منها قدر ما يسد به الرمق ، أوله أن يشبع ويتزود على أقوال ، وليس من شرط تناول الميتة أن يمضي عليه ثلاثة أيام لا يجد طعاماً ، كما قد يتوهمه كثير من العوام وغيرهم - بل متى اضطر إلى ذلك جاز له .وقد روى الإمام أحمد عن أبي واقد الليثي أنهم قالوا : يا رسول الله ، إنا بأرض تصيبنا بها المخمصة ، فمتى تحل لنا بها الميتة؟

" فقال : " إذا لم تصطحبوا ولم تغتبقوا ولم تحتفئوا بقلا فشأنكم بها والاصطباح شرب اللبن بالغداة فما دون القائلة ، وما كان منه بالعشي فهو. الاغتباق ومعنى لم تحتفئوا : أي تقتلعوا .وقوله : ( غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لإِثْمٍ ) أي متعاط لمعصية الله .وقد استدل بهذه الآية من يقول بأن العاصي بسفره لا يترخص بشيء من رخص السفر ، لأن الرخص لا تنال بالمعاصي .4 - أخذ العلماء من قوله - تعالى - ( وَأَنْ تَسْتَقْسِمُواْ بالأزلام ذلكم فِسْقٌ أن الاستقسام بالأزلام محرم ، ومحرم أيضاً كل ما يشبهه من القمار ( والتنجيم والرمل وما إلى ذلك قال بعض العلماء : من عمل بالأيام في السعد والنحس معتقداً لها تأثيراً كفر وإن لم يعتقد أثم .وقد روى أبو داود والنسائي وابن حبان عن قطن بن قبيصة ، عن أبيه أنه سمع النبي صلى الله عليه . وسلم يقول : " العيافة والطرق والطيرة من الجبت " .والعيافة : زجر الطير والطرق : الخط يخط في الأرض . وقيل : الطرق الضرب بالحصى الذي تفعله النساء وفي القاموس : عفت الطير عيافة زجرتها ، وهو أن تعتبر بأسمائها ومساقطها. فتسعد وتتشاءم . وهو من عادة العرب كثيراً . والطيرة : من اطيرت وتطيرت وهو ما يتشاءم من الفأل الرديء ، وفي الحديث أنه صلى الله عليه وسلم كان يحب الفأل ويكره الطيرة .والجبت : كل ما عبد من دون الله .وقد روى مسلم في صحيحيه عن بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من أتى عرافا فسأله عن شيء فصدقه ، لم تقبل له صلاة أربعين يوماً " .وروى الإمام أحمد وأبو داود والحاكم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من أتى عرافاً أو كاهنا فصدقه بما يقول ، فقد كفر بما أنزل على محمد - صلى الله عليه وسلم - " .وعن عمران بن حصين مرفوعا : " ليس منا من تطير أو تطير - له ، أو تكهن أو تكهن له . أو سحر أو سحر له "5 - استدل بعضهم بقوله تعالى - ( اليوم أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ) على نفي القياس وبطلان العمل به لأن إكمال الدين يقتضي أنه نص على أحكام جميع الوقائع إذ لو بقى بعض لم يبين حكمه لم يكن الدين كاملا .وأجيب على ذلك بأن غاية ما يقتضيه إكمال الدين أن يكون الله - تعالى - قد أبان الطرق لجميع الأحكام وقد أمر الله بالقياس ، وتعبد المكلفين به بمثل قوله - تعالى - ( فاعتبروا ياأولي الأبصار ) فكان هذا مع النصوص الصريحة بياناً لكل أحكام الوقائع ، غاية - الأمر أن الوقائع صارت قسمين : قسما نص الله على حكمه ، وقسما أرشد الله تعالى - إلى أنه يمكن استنباط الحكم فيه من القسم الأول . فلم تصلح الآية متمسكا لهم .6 - الآية الكريمة قد اشتملت على بشارات لأبناء هذه الأمة الإسلامية فقد بشرتهم - أولا - بأن أعداءهم قد انقطع رجاؤهم في إبطال أمر الإسلام أو تحريفه أو تبديل أحكامه التي كتب الله لها البقاء .وها نحن أولا . نراجع التاريخ فنرى المسلمين قد تغلب عليهم أعداؤهم في معارك حربية ولكن هؤلاء الأعداء لم يستطيعوا التغلب على أحكام هذا الدين ومبادئه . بل بقيت محفوظة يتناقلها الخلف عن السلف إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ولقد روى الإمام مسلم في صحيحه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في خطبه حجة الوداع :" إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ولكنه رضي بالتحريش بينهم " .وبشرتهم - ثالثاً - بإتمام نعمة الله عليهم . وأي نعمة أتم على المؤمنين من إخراج الله إياهم من ظلمات الشرك إلى نور الوحدانية ومن تمكينه لهم في الأرض واستخلافهم فيها ، وجعل كلمتهم العليا بعد أن كانوا في ضعف من أمرهم وفساد في أحوالهم .وبشرتهم - رابعا - بأن الله قد اختار لهم الإسلام دينا ، وجعله هو الدين المرضي عنده وهو الذي يجب على الناس أن يدخلوا فيه ، وأن يعملوا بأوامره ونواهيه ، لأنه من الحمق والغباء أن يبتعد إنسان عن الدين الذي اختاره الله وارتضاه ليختاره لنفسه طريقاً من نزغات نفسه وهواه .وهذه بعض الأحكام والآداب التي استلهمها العلماء من الآية الكريمة . وهناك أحكام أخرى ذكرناها خلال تفسيرنا لألفاظ الآية الكريمة .

يسالونك ماذا احل لهم قل احل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما امسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه واتقوا الله ان الله سريع الحساب

كما فسرها الوسيط وبعد أن بين - سبحانه - أنواعاً من : المحرمات . شرع في بيان ما أحله لهم من طيبات فقال - تعالى -( يَسْأَلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطيبات . . . )أورد المفسرين في سبب نزول هذه الآية روايات منها ما أخرجه ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير عن عدي بن حاتم : وزيد بن مهلهل الطائيين أنهما سألا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا يا رسول الله ، قد حرم الله الميتة فماذا يحل لنا منها؟ فنزلت هذه الآية والمعنى : يسألك أصحابك يا محمد ما الذي أحل لهم من المطاعم بعد أن عرفوا. ما حرم منها؟ قل لهم أحل لكم الطيبات .والطيبات : جمع طيب وهو الشيء المستلذ . وفسره بعضهم بالحلال .أي : قل لهم أحل الله لكم الأطعمة الطيبة التي تستلذها النفوس المستقيمة وتستطيبها ولا تستقذرها ، والتي لم يرد في الشرع ما يحرمها ويمنع من تناولها .وفي قوله ( يَسْأَلُونَكَ مَاذَآ

أُحِلّ لَهُمْ قُلْ أُحِلّ لَكُمُ ) التفاوت من الحاضر إلى الغائب ، لأن
في السياق حكاية عنهم كما يقال : أقسم فلان ليفعلن كذا ، لأن هذا الالتفات
- أدعى إلى تنبيه الأذهان ، وتوجيهها إلى ما يراد منها .وقد أمر الله
تعالى - نبيه صلى الله عليه وسلم أن يتولى الجواب عن سؤالهم لأنه هو المبلغ
) للرسالة وهو المبين لهم ما خفى عليهم من أمور دينهم ودنياهم .وقوله
مَاذَآ ) اسم استفهام مبتدأ ، وقوله ( أُحِلّ لَكُمُ ) خبره كقولك : أي
شيء أحل لهم .وجواب سؤالهم جاء في قوله تعالى : ( قُلْ أُحِلّ لَكُمُ
الطيبات ) .وقوله : ( وَمَا عَلَّمْتُمْ مِّنَ الجوارح مُكَلِّبِين ) معطوف
على الطيبات بتقدير مضاف و ( ما ) موصولة . والعائد محذوف .و ( الجوارح )
. جمع جارحه . وهي - كما يقال ابن جرير - الكواسب من سباع البهائم والطير
: سميت جوارح لجرحها لأربابها ، وكسبها إياهم أوقاتهم من الصيد . يقال منه
: جرح فلان لأهله خيراً . إذا أكسبهم خيراً وفلان جارحه أهله . يعني بذلك
- كاسبهم ، ويقال :لا جارحة لفلانه إذا لم يكن لها كاسب " .ومنه قوله
تعالى - ( وَهُوَ الذي يَتَوَفّاكُم بالليل وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم
بالنهار ) أي : كسبتم بالنهار. وقيل : سميت جوارح لأنها تجرح الصيد عند
. إمساكه .وقوله : ( مُكَلِّبِين ) أي : مؤدبين ومعودين لها على الصيد
فالتكليب : تعليم الكلاب وما يشبهها الصيد . فهو اسم فاعل مشتق من اسم هذا
الحيوان المعروف لأن التأديب أكثر ما يكون في الكلاب . أو هو مشتق من الكلب
بمعنى الضراوة . يقال : كلب الكلب يكلب واستكلب أي : ضرى وتعود نهش غيره
وهو حال من فاعل علمتم .والمعنى : أحل الله لكم الطيبات ، وأهل لكم صيد ما
) : علمتموه من الجوارح حال كونكم مؤدبين ومعودين لها على الصيد .وقوله
تُعَلِّمُونَهُنّ ممّا عَلَّمَكُمُ الله ) في محل نصب على أنه حال ثانية
: من فاعل ( عَلَّمْتُمْ ) أو من الضمير المستتر في ( مُكَلِّبِينَ ) .أي
تعلمون هذه الجوارح بعض ما علمكم الله إياه من فنون العلم والمعرفة بأن
تدربوهن على وسائل التحاليل وعلى الطرق المتنوعة للاصطياد وعلى الانقياد
لأمركم عند الإرسال وعند الطلب ، وعلى عدم الأكل من المصيد بعد صيده
فالمقصود بهذه الجملة الكريمة بيان بعض مظاهر فضل الله على الناس ، حيث.
منحهم العلم الذي عن طريقه علموا غيرهم ما يريدونه منه ، وسخروا هذا الغير
: لمنفعتهم ومصلحتهم .ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال عند تفسيره لهذه الآية
قوله : ( وَمَا عَلَّمْتُمْ مِّنَ الجوارح ) عطف على الطيبات : أي : أحل
لكم الطيبات وصيد ما علمتم من الجوارح ، فحذف المضاف أو تجعل " ما " شرطية
وجوابها ( فَكُلُواْ ) والجوارح : الكواسب من سباع البهائم والطير ، كالكلب
والفهد والنمر والعقاب والصقر والبازي ، والمكلب : مؤدب الجوارح ومغريها
) بالصيد لصاحبها ، ورائضها ذلك بما علم من الحيل وطرق التأديب .وانتصاب
مُكَلِّبِينَ ) على الحال من ( عَلَّمْتُمْ ) .فإن قلت : ما فائدة هذه
الحال وقد استغنى عنها بعملتم؟ قلت : فائدتها أن يكون من يعلم الجوارح
نحريرا في علمه ، مدربا فيه ، موصوفا بالتكليب .قوله ( تُعَلِّمُونَهُنّ )
حال ثانية أو استئناف . وفيه فائدة جليلة وهي أن على كل آخذ علما أن لا
، يأخذه إلا من أبرع أهله علما وأكثرهم دراية وأغوصهم على لطائفه وحقائقه
وإن احتاج إلى أن يضرب إليه أكباد الإبل . فكم من آخذ عن غير متقن ، قد
ضيع أيامه ، وعض عند لقاء النحارير أنامله .وقوله ( فَكُلُواْ مِمَّآ
، أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ ) جملة متفرعة على بيان حل صيد الجوارح المعلمة
) ومشيرة إلى نتيجة التعليم وأثره والأمر فيه للإباحة .و ( من ) في قوله
مِمَّآ أَمْسَكْنَ ) تبعيضة؛ إذ من الممسك ما لا يؤكل كالجلد والعظم
ونحوهما . ويحتمل أن تكون بيانية أي : فكلوا الصيد و هو ما أمسكن عليكم .و
: موصولة أو موصوفة والعائد محذوف أي : أمسكنه .وقوله ( أمسكن ) أي ( ما )
، حبس وصدن ، والضمير المؤنث يعود للجوارح .وقوله ( عليكم ) متعلق بأمسكن
وهو هنا بمعنى لكم ، والاستعلاء مجازي .والتقييد بذلك ، لإخراج ما أمسكنه
لأنفسهن لا لأصحابهن .والمعنى : إذا علمتم الجوارح وتوفرت شروط الحل فيما
تصيده ، فكلوا مما أمسكنه محبوسا عليكم ولأجلكم .والضمير في ( عليه ) من
قوله : ( واذكروا اسم الله عَلَيْهِ ) يعود إلى ( وَمَا عَلَّمْتُمْ مِّنَ
الجوارح ) أي : عند إرسالكم الجوارح للصيد فسموا عليها ، ويدل عليه قوله
- صلى الله عليه وسلم لعدي بن حاتم : " وإذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم
الله تعالى - فكل مما أمسك عليك " .وقال بعضهم إنه يعود على المصدر المفهوم
من الفعل وهو الأكل . فكأنه قيل : واذكروا اسم الله عند الأكل مما صدن لكم
وقيل : يعود على قوله ( مِمَّآ أَمْسَكْنَ ) أي : اذكروا اسم الله على ما .
أدركتم ذكاته مما أمسكن عليكم الجوارح . ولا بأس من عود الضمير إلى كل ما
ذكر ، بأن يذكر اسم الله عند إرسال الجوارح ، وعند الأكل مما صادته .وعند
) : تذكية الحيوان الذي صادته الجوارح .ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله
واتقوا الله إِنَّ الله سَرِيعُ الحساب ) .أي : واتقوا الله وراقبوه واخشوه
- في كل شئونكم واحذروا مخالفة أمره فيما شرع لكم وفيما كلفكم به فإنه
تعالى -لا يعجزه شيء ، وسيجازي كل إنسان بما يستحقه من خير أو شر .فالجملة
الكريمة تذييل قصد به التحذير من مخالفة أمر الله ، وانتهاك محارمه . هذا
ومن الأحكام التي أخذها العلماء من هذه الآية ما يأتي :1 - إباحة التمتع

بالطيبات التي أحلها الله - تعالى - لعباده ، والتي تستطيبها النفوس
- الكريمة ، والعقول القويمة ، من مطعومات ومشروبات وغير ذلك مما أحله
: - سبحانه - لعباده . وفي هذا المعنى وردت آيات كثيرة منها ، قوله - تعالى
قُلْ مَنْ حَرّمَ زِينَةَ اللهِ التي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ )
وَالْطّيِّبَاتِ مِنَ الرزق قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الحياة
الدنيا خَالِصَةً يَوْمَ القيامة ) 2 - إباحة الصيد بالجوارح بشرط كونها
معلمة ، وعلامة كونها معملة أن تسترسل إذا أرسلت ، وتنزجر إذا زجرت ، وتمسك
الصيد ولا تأكل منه ، وتعود إلى صاحبها متى دعاها .ويدخل في الجوارح - عند
- جمهور الفقهاء - كل يحوان ينمع صنيع الكلب ، وكل طير كذلك ، لأن قوله
تعالى - ( مّنَ الجوارح ) ، يعم كل يحوان يصنع صنيع الكلب . وكان التعبير
بمكلبين ، لأن الكلاب أكثر الحيوانات استعمالا للصيد .وقد جاء في حديث عدي
بن حاتم الذي رواه الإمام أحمد وأبو داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال له : " ما علمت من كلب أو باز ثم أرسلته وذكرت اسم الله عليه فكل ما
أمسك عليك " .ويرى بعض الفقهاء أن الصيد لا يكون إلا بالكلاب خاصة .قال
القرطبي ما ملخصه : وقد ذكر بعض من صنف في أحكام القرآن أن الآية تدل على
أن الإباحة تتناول ما علمناه من الجوارح وهو ينتظم الكلب وسائر جوارح
الطير . وذلك يوجب إباحة سائر وجوه الانتفاع ، فدل على جواز بيع الكلب
والجوارح والانتفاع بها وبسائر وجوه المنافع إلا ما خصه الدليل . وهو الأكل
) من الجوارح . أي : الكواسب من الكلاب وسباع الطير .وليس في قوله
مُكَلِّبِينَ ) دليل على أنه إنما أبيح صيد الكلاب خاصة ، وإن كان قد تمسك
- به من قصر الإباحة على الكلاب خاصة .3 - استدل بعض الفقهاء بقوله
تعالى - ( فَكُلُواْ مِمّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ ) على أن الكلب وما
يشبهه من الجوارح إذا أكل من الصيد الذي أمسكه ، فإنه في هذه الحالة لا يحل
الأكل منه ، لأنه لم يمسك لمن أرسله وإنما أمسك لنفسه وبهذا قال الشافعية
، والحنابلة .ويرى المالكية أن الجارح ما دام قد عاد بالصيد ولو مأكولا منه
فإنه يجوز الأكل منه ، لأنه بعودته بما صاده قد أمسكه على صاحبه .أما
الأحناف فقالوا : إن عاد بأكثره جاز الأكل منه ، لأنه في هذه الحالة يكون
قد أمسك لصاحبه ، وإن عاد بأقله لا يجوز الأكل منه ، لأنه يكون قد أمسك
لنفسه . وهذه المسألة بأدلتها الموسعة مبسوطة في كتب الفقه وفي بعض كتب
التفسير .4 - استدل بعض العلماء بقوله - تعالى - ( واذكروا اسم الله
- عَلَيْهِ ) على وجوب التسمية عند إرسال الجوارح للصيد ، ولقوله - تعالى
في آية أخرى : ( وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمّا لَمْ يُذْكَرِ اسم الله عَلَيْهِ
وَإِنّهُ لَفِسْقٌ ) ويرى بعضهم أن الأمر للندب ، ويرى فريق ثالث أن
التسمية إن تركت عمدا لا يحل الأكل من الصيد .قال القرطبي : وقد ذهب
الجمهور من العلماء إلى أن التسمية لا بد منها بالقول عند الإرسال لقوله
صلى الله عليه وسلم لعدي بن حاتم : " إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله
. فكل ما أمسك عليك " فلو لم توجد التسمية على أي وجه كان لم يؤكل الصيد
وهو مذهب أهل الظاهر وجماعة أهل الحديث .وذهب جماعة من أصحابنا وغيرهم إلى
أنه يجوز أكل ما صاده المسلم وذبحه وإن ترك التسمية عمدا ، وحملوا الأمر
بالتسمية على الندب .وذهب مالك في المشهور إلى الفرق بين ترك التسمية عمدا
، أو سهوا فقال لا تؤكل مع العمد ، وتؤكل مع السهو ، وهو قول فقهاء الأمصار
. وأحد قولي الشافعي

اليوم احل لكم الطيبات وطعام الذين اوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم
والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم اذا
اتيتموهن اجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي اخدان ومن يكفر بالايمان فقد
حبط عمله وهو في الاخرة من الخاسرين

، كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - جانباً آخر من مظاهر نعمه على عباده
ورحمته بهم وتيسيره عليهم في أمور دينهم ودنياهم فقال :( اليوم أُحِلّ
لَكُمُ الطيبات . . . )قوله : ( اليوم أُحِلّ لَكُمُ ) . يصح أن يراد به
- اليوم الذي نزلت فيه . فإنه يجوز أن تكون هذه الآية وما قبلها من قوله
تعالى - ( اليوم يَئِسَ الذين كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ ) ( اليوم
أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ) قد نزلت جميعها في يوم واحد وهو يوم عرفة من
عام حجة الوداع .ويصح أن يراد به الزمان الحاضر مع ما يتصل به من الماضي
والمستقبل . والراد بالطيبات : ما يستطاب ويشتهي مما أحله الشرع .والمراد
بطعام الذين أوتوا الكتاب : ذبائحهم خاصة . وهذا مذهب جمهور العلماء .قالوا
لأن ما سوى الذبائح فهي محللة قبل أن كانت لأهل الكتاب ، وبعد أن صارت :
لهم فلا يبقى لتخصيصها بأهل الكتاب فائدة . ولأن ما قبل هذه الآية في بيان
حكم الصيد والذبائح . فحمل هذه الآية عليه أولى ، لأن سائر الطعام لا يختلف
من تولاه من كتابي أو غيره . وإنما تختلف الذكاة . فلما خص أهل الكتاب
بالذكر ، دل على أن المراد بطعامهم ذبائحهم .وقيل المراد بطعام أهل الكتاب
هنا : الخبز والحبوب والفاكهة وغير ذلك مما لا يحتاج إلى تذكية . وينسب هذا
القول إلى بعض طوائف الشيعة .وقيل المراد به : ما يتناول ذبائحهم وغيرها من

الأطعمة . وقد روى هذا القول عن ابن عباس ، وأبي الدرداء ، وقتادة ومجاهد وغيرهم .والمراد بالذين أوتوا الكتاب : اليهود والنصارى .ال الآلوسي : وحكم الصابئين كحكم أهل الكتاب عند أبي حنيفة . وقال صاحباه الصائبة صنفان : صنف يقرأون الزبور ويعبدون الملائكة وصنف لا يقرأون كتابا ويعبدون النجوم فهؤلاء ليسوا من أهل الكتاب وأما المجوس فقد سن بهم سنة أهل الكتاب في أخذ الجزية منهم دون أكل ذبائحهم ونكاح نسائهم .واختلف العلماء في حل ذبيحة اليهودي والنصراني إذا ذكر عليها اسم غير الله - كعزير وعيسى - فقال ابن عمر :لا تحل . وذهب أكثر أهل العلم إلى أنها تحل . وهو قول الشعبي وعطاء قالا : " فإن الله قد أحل ذبائحهم وهو يعلم ما يقولون " .والمعنى : إن الله أسبغ عليكم نعمه - أيها المؤمنون - وأكمل لكم دينه ، ويسر لكم شرعه ، ومن مظاهر ذلك أنه - سبحانه - أحل لكم التمتع بالطيبات ، كما أحل لكم أن تأكلوا من ذبائح أهل الكتاب . وأن تطعموهم من طعامكم .قال ابن كثير : وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء ، أن ذبائحهم حلال للمسلمين ، لأنهم يعتقدون تحريم الذبح لغير الله ، ولا يذكرون على ذبائحهم إلا اسم الله ، وإن اعتقدوا فيه ما هو منزه عنه - تعالى وتقدس - .وإنما قال : ( وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ) أي يحل لكم أن تطعموهم من طعامكم للتنبيه على أن الحكم مختلف في الذبائح عن المناكحة .فإن إباحة الذبائح حاصلة من الجانبين ، بخلاف إباحة المنكاحات فإنها في جانب واحد ، إذ لا يحل لغير المسلم أن يتزوج بمسلمة - لأنه لو جاز ذلك لكان لأزواجهن الكفار ولاية شرعية عليهن ، والله - تعالى لم يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا شرعيا ، بخلاف إباحة الطعام من الجانبين فإنها لا تستلزم محظوراً .قال بعض العلماء : والجمهور على حل ذبائح أهل الكتاب إذا أهريق الدم ، وقد اتفق الجمهور على حل هذه الذبائح ، والخلاف عندهم فيما عدا الذبائح التي ثبت حلها بالنص ، وأما غير الذبائح فهو قسمان :القسم الأول : ما لا عمل لهم فيه كالفاكهة والبر وهو حلال بالاتفاق .والقسم الثاني : ما لهم يه عمل وهو قسمان - أيضاً - أحدهما ، ما يحتمل دخول النجاسات فيه كاستخراج الزيوت من النباتات أو الحيوانات وهذا قد اختلف فيه الفقهاء . فمنهم من منعه لاحتمال النجاسة ، ومن هؤلاء : ابن عباس لأن احتمال النجاسة ثابت ، وهو يمنع الحل . وقد تبع هذا الرأي بعض المالكية ، ومن هؤلاء الطرطوسي وقد صنف في تحريم جبن النصارى ويجري مجرى الجبن الزيت ، وعلى هذا الرأي يجري مجراها السمن الهولاندي وما شابهه . ولكن الجمهور على جواز ذلك ما دام لم يثبت أنه اختلط بهذا النوع من الطعام نجاسة ، والثاني : المحرم ، وهو ما ثبت أنه قد دخله أجزاء من الخمر أو الميتة ، أو الخنزير ، أو غير ذلك من المحرمات .ثم بين - سبحانه - حكم نكاح نساء أهل الكتاب بعد بيان حكم ذبائحهم فقال ( والمحصنات مِنَ المؤمنات والمحصنات مِنَ الذين أُوتُواْ الكتاب مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ متخذي أَخْدَانٍ ) .وقوله : ( والمحصنات ) عطف على ( الطيبات ) وهو جمع محصنة والإحصان يطلق على معان منها : الإسلام . ولا موضع له هنا لأن الكلام في. غير المسلمات ، ويطلق على التزوج ، ولا موضع له هنا - أيضاً - لأنه لا يحل تزوج ذات الزوج .ويطلق على العفة وعلى الحرية وهذان المعنيان هما المختاران هنا .فمن الفقهاء من قال : المراد بالمحصنات من أهل الكتاب هنا العفيفات ويكون الوصف للترغيب في طلف العفة ، والعمل على اختيار من هذه صفتها .ومنهم من قال : المراد بالمحصنات من أهل الكتاب هنا : الحرائر أي أنه لا يحل الزواج بنساء أهل الكتاب إلا إذا كن حرائر .والمراد بقوله ( أُجُورَهُنَّ ) أي مهورهن . وعبر عن المهر بالأجر لتأكيد وجوبه . وعدم الاستهانة بأي حق من حقوقهن .وقوله : محصنين - بكسر الصاد - أي متعففين بالزواج عن اقتراب الفواحش .يقال أحصن الرجل فهو محصن أي : تعفف فهو متعفف وأحصن بالزواج الرجل فهو محصن - بفتح الصاد - أي : أعفه بالزواج عن الوقوع في الفاحشة وقوله ( مُسَافِحِينَ ) جمع مسافح . والسفاح . الزنا . يقال : سافح الرجل. المرأة إذا ارتكب معها فاحشة الزنا ، وسمى الزاني مسافحاً .لأنه سفح ماءه أي : صبه ضائعاً .وقوله : ( أَخْدَانٍ ) جمع خدان - بكسر الخاء وسكون . الدال - بمعنى الصديق . ويطلق على الذكر والأنثى .والمراد بالخدن هنا . المرأة البغي التي يخادنها الرجل أي يصادقها ليرتكب معها فاحشة الزنا - وغالبا ما تكون خاصة به .والمعنى : وكما أحل الله لكم - أيها المؤمنون الطيبات من الرزق ، وأحل لكم ذبائح أهل الكتاب ، وأحل لكم أن تطعموهم من طعامكم ، فقد أحل لكم - أيضاً - نكاح المحصنات من المؤمنات . أي العفيفات الحرائر لأنهن أصون لعرضكم . وأنقى لنطفكم ، وأحل لكم نكاح النساء المحصنات أي : الحرائر العفيفات ( مِنَ الذين أُوتُواْ الكتاب مِن قَبْلِكُمْ ) أي ، من اليهود والنصارى .قال الآلوسي : وتخصيص المحصنات بالذكر في الموضعين : للحث على ما هو الأولى والأليق ، لا لنفي ما عداهن ، فإن نكاح الإماء المسلمات بشرطه ، صحيح بالاتفاق . وكذا نكاح غير العفائف منهن . وأما الإماء الكتابيات فهن كالمسلمات عند الإمام الأعظم " .وقوله : ( إِذَآ آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ) أي : مهورهن ، وهي عوض عن الاستمتاع بهن وقالوا : وهذا الشرط بيان للأكمل والأولى لا لصحة العقد ، إذ لا تتوقف صحة.

: العقد على دفع المهر ، إلا أن الأولى هو إيتاء الصداق قبل الدخول .وقوله
أمر لهم بالعفة ( مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ متخذي أَخْدَانٍ )
والبعد عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن . وقوله ( مُحْصِنِينَ ) حال في
، فاعل ( آتَيْتُمُوهُنَّ ) .وقوله : ( غَيْرَ مُسَافِحِينَ ) صفة لمحصنين
أو حال من الضمير المستتر في محصنين .وقوله : ( وَلاَ متخذي أَخْدَانٍ )
يحتمل أن يكون مجروراً على أنه عطف على مسافحين ، وزيدت فيه "لا " لتأكيد
) النفي المستفاد من لفظ غير . ويحتمل أن يكون منصوباً على أنه عطف على
غَيْرَ مُسَافِحِينَ ) .والمعنى : أبحنا لكم الزواج بالكتابيات المحصنات
لتشكروا الله - تعالى - على تيسيره لكم فيما شرع ، ولتطلبوا من وراء زواجكم
العفة والبعد عن الفواحش ، والصون لأنفسكم ولأنفس أزواجكم عن انتهاك حرمات
الله في السر أو العلن .وقدم - سبحانه - المحصنات من المؤمنات على المحصنات
من الذين أوتوا الكتاب للتنبيه على أن المحصنات من المؤمنات أحق باختيار
الزواج بهن من غيرهن ، وأن المحصنة المؤمنة الزواج بها أولى وأجدر وأحسن من
) : الزواج بالمحصنة الكتابية .ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله
وَمَن يَكْفُرْ بالإيمان فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخرة مِنَ
الخاسرين ) .أي : ومن يكفر بشرائع الله وبتكاليفه التي أنزلها على نبيه صلى
الله عليه وسلم فقد حبط عمله ، أي : خاب سعيه . وفسد عمله الذي عمله . وهو
في الآخرة من الهالكين الذين ضيعوا ما عملوه في الدنيا من أعمال بسبب
: انتهاكهم لحرمات الله وأحكام دينه .فالمقصود من هذه الجملة الكريمة
الترهيب من مخالفة أوامر الله والترغيب في طاعته - سبحانه - .هذا ، ومن
الأحكام التي أخذها العلماء من الآية الكريمة .1 - إباحة التمتع بالطيبات
التي أنعم بها - سبحانه - على عباده ، ولم يرد نص بحرمتها .2 - إباحة الأكل
من ذبائح أهل الكتاب وإباحة إطعامهم من طعامنا .3 - الترغيب في نكاح المرأة
المحصنة أي التي أحصنت نفسها عن الفواحش وصانتا عن كل ريبة واعتصمت بالعفاف
. والشرف ، وكان سلوكها المستقيم دليلا على أنها متمسكة بتعاليم دينها
وبالآداب الحميدة التي جاءت بها شريعة الإسلام .وقد وردت أحاديث كثيرة في
هذا المعنى ، ومن ذلك ما رواه الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة أن رسول الله
، صلى الله عليه وسلم قال : "لا تنكح المرأة لأربع : لمالها ، ولحسبها
: ولجمالها ، ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك " .ومعنى ( تربت يداك )
افتقرت وندمت إن لم تبحث عن ذات الدين ، وتجعلها محط طلبك للزواج بها .وروى
أبو داود والنسائي عن ابن عباس قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم
- فقال : " إن امرأتي لا تمنع يد لامس . قال صلى الله عليه وسلم : " غربها
أي طلقها - " . قال : أخاف أن تتبعها نفسي - أي : أرتكب معها ما نهى الله
عنه بعد طلاقها - قال صلى الله عليه وسلم : " فاستمتع بها " أي أبقها مع
المحافظة عليها .4 - إباحة نكاح النساء الكتابيات - وهذا مذهب أكثر الفقهاء
لأن هذا هو الظاهر من معنى قوله تعالى : ( والمحصنات مِنَ الذين أُوتُواْ ،
الكتاب مِن قَبْلِكُمْ ) .قال ابن كثير : وقد كان عبد الله بن عمر لا يرى
، التزويج بالنصرانية ويقول : لا أعلم شركا أعظم من أن تقول : إن ربها عيسى
وقد قال الله - تعالى - ( وَلاَ تَنْكِحُواْ المشركات حتى يُؤْمِنَّ ) وعن
ابن عباس قال : نزلت هذه الآية ( وَلاَ تَنْكِحُواْ المشركات حتى يُؤْمِنَّ
فحجز الناس عنهن حتى نزلت : ( والمحصنات مِنَ الذين أُوتُواْ الكتاب مِن (
قَبْلِكُمْ ) فنكح الناس نساء أهل الكتاب .وقد تزود جماعة من الصحابة من
نساء النصارى ولم يروا بذلك بأسا أخذا بهذه الآية ، وجعلوها مخصصة للتي في
سورة البقرة وهي قوله - تعالى - : ( وَلاَ تَنْكِحُواْ المشركات حتى
يُؤْمِنَّ ) إن قيل بدخول الكتابيات في عمومها . وإلا فلا معارضة بينها
. وبينها؛ لأن أهل الكتاب انفصلوا في ذكرهم عن المشركين في غير موضع
كقوله - تعالى - ( لَمْ يَكُنِ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب
والمشركين مُنفَكِّينَ حتى تَأْتِيَهُمُ البينة ) وقال بعض العلماء ما
ملخصه : قوله - تعالى - : ( والمحصنات مِنَ الذين أُوتُواْ الكتاب مِن
قَبْلِكُمْ ) أخذه الجمهور على عمومه ، فأباحوا التزوج من أهل الكتاب وإن
غيروا وبدلوا ، ذميين كانوا أو حربيين . وقيد جماعة بالذميين دون الحربيين
وذهب جماعة من السلف إلى أن أهل الكتاب قد غيروا أو بدلوا وعبدوا المسيح.
وقالوا : إن الله ثالث ثلاثة . فهم بذلك والمشركون في العقيدة سواء وقد.
حرم الله التزوج من المشركات ونسب هذا الرأي إلى عبدالله بن عمر وغيره من
الصحابة .وتأولوا الآية بوجوه أقر بها أنها رخصة خاصة في الوقت الذي نزلت
فيه . قال عطاء : إنما رخص الله في التزوج بالكتابية في ذلك الوقت؛ لأنه
كان في المسلمات قلة . أما الآن ففيهن الكثرة العظيمة ، فزالت الحاجة فلا
جرم زالت الرخصة .والذي نراه في المسألة أنه ليس في الآية ما يدل على أنه
رخصة ، ولا نعلم في الشريعة ما يدل على أنه رخصة . والآية دالة على
الإباحة المطلقة ، ولم تقيد بوقت خاص ، ولا بحالة خاصة .نعم إن ما نراه
اليوم في بعض المسلمين من رغبة التزوج بنساء الإفرنج لا لغاية سوى أنها
إفرنجية . ثم يضع نفسه وأولاده تحت تصرفها فتنشئهم على تقاليدها وعاداتها
التي تأباها تعاليم الإسلام .نعم إن ما نراه من كل ذلك يجعلنا نوجب على
الحكومات التي تدين بالإسلام وتغار على قوميتها وشعائرها . . أن تمنع من

التزوج بالكتابيات ، وأن تضع حدا لهؤلاء الذين ينسلخون عن قوامتهم على المرأة . حفاظاً على مبادئ الدين وعلى عقيدة أولاد المسلمين .وإن العمل على تقييد هذا احلكم في التشريع الإسلامي أو منعه ، لألزم وأوجب مما تقوم به بعض الحكومات الإسلامية ، أو تحاول أن تقوم به ، من تحديد سن الزواج للفتاة . وتقييد تعدد الزوجات ، وتقييد الطلاق ، وما إلى ذلك من التشريعات التي ينشط لها كثير من رجال الحكم ، سيراً وراء مدنية الغرب المظلمة .ألا وإن انحلال الكثرة الغالبة ممن يميلون إلى التزوج بالكتابيات للمعاني التي أشرنا إليها لمما يوجب الوقوف أمام هذه الإباحة التي أصبحت حالتنا لا تتفق والغرض المقصود منها .وهذا معين تشهد به كليات الدين وقواعده التي يتجلى فيها شدة حرصه على حفظ شخصية الأمة الإسلامية ، وعدم انحلالها وفنائها في غيرها .

يا ايها الذين امنوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وايديكم الى المرافق وامسحوا برءوسكم وارجلكم الى الكعبين وان كنتم جنبا فاطهروا وان كنتم مرضى او على سفر او جاء احد منكم من الغائط او لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وايديكم منه ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون

كما فسرها الوسيط وبعد أن بين - سبحانه - بعض مظاهر نعمه على عباده فيما يتعلق بمطاعمهم . وفيام يتعلق بما يحل لهم من النساء . أتبع ذلك ببيان مظاهر فضله عليهم فيما يتعلق بعبادتهم التي من أهمها الوضوء ، والغسل . والصلاة . وأمرهم بالمحافظة على شرعه لهم من شرائع وأحكام فقال - تعالى - قال( . . . يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصلاة ): الفخر الرازي : اعلم أنه - تعالى - افتتح السورة بقوله : ( يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ أَوْفُواْ بالعقود ) وذلك لأنه حصل بين الرب وبين العبد عهد الربوبية وعهد العبودية .فقوله : ( أَوْفُواْ بالعقود ) طلب الله - تعالى - من عباده أن يفوا بعهد العبودية . فكأنما قيل : يا إلهنا العهد نوعان : عهد الربوبية منك وعهد العبودية منا فأنت أولى بأن تقدم الوفاء بعهد الربوبية والإحسان . فقال - تعالى - : نعم أنا أوفى أولا بعهد الربوبية والكرم معلوم أن منافع الدنيا محصورة في نوعين : لذات المطعم ، ولذات المنكح. فاستقصى - سبحانه - في بيان ما يحل ويحرم من المطاعم والمناكح . وعند تمام هذا البيان كأنه يقول : قد وفيت بعهد الربوبية فيما يطلب في الدنيا بالوفاء بعهد الربوبية والكرم .معلوم أن منافع الدنيا محصورة في نوعين : لذات المطعم ، ولذات المنكح فاستقصى - سبحانه - في بيان ما يحل ويحرم من المطاعم والمناكح . وعند تمام هذا البيان كأنه يقول : قد وفيت بعهد الربوبية فيما يطلب في الدنيا من المنافع واللذات فاشتغل أنت في الدنيا بالوفاء بعهد العبودية .ولما كان أعظم الطاعات بعد الإيمان الصلاة وكانت الصلاة لا يمكن إقامتها إلا بالطهارة لا جرم بدأ - سبحانه - بذكر فرائض الوضوء فقال ( : يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصلاة فاغسلوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى المرافق ) .والمراد بالقيام إلى الصلاة إرادة القيام إليها ، والتهيؤ للدخول فيها من باب إطلاق المسبب وإرادة المسبب ، للإيجاز وللتنبيه على أن الشأن في المؤمنين أن يكونوا دائماً على ذكر من إرادتها ودم الإهمال في أدائها .وإنما قلنا المراد بالقيام إلى الصلاة إرادتها لأنه لو بقي الكلام على حقيقته للزم تأخير الوضوء عن الصلاة ، وهذا باطل بالإجماع .وليس المراد بالقيام انتصاب القامة أو ما يشبه ذلك ، بل المراد به الاشتغال بأفعال الصلاة وأقوالها وكل ما يتعلق بذاتها .قال الآلوسي ما ملخصه : وظاهر الآية يفيد وجوب الوضوء على كل قائم إلى الصلاة وإن لم يكن محدثا نظرا إلى عموم ( الذين آمَنُواْ ) من غير اختصاص بالمحدثين . لكن الإجماع على خلاف ذلك ، فقد أخرج مسلم وغيره " أن النبي : صلى الله عليه سلم صلى الصلوات الخمس يوم الفتح بوضوء واحد . فقال له عمر يا رسول الله صنعت شيئاً لم تكن تصنعه . فقال صلى الله عليه وسلم : " عمداً فعلته يا عمر " " .يعني : بيانا للجواز . فاستحسن الجمهور كون الآية مقيدة والمعنى : إذا قمتم إلى الصلاة وأنتم محدثون بقرينة دلالة الحال .ولأنه ، اشتراط الحدث في البدل وهو التيمم ، فلو لم يكن له مدخل في الوضوء مع المدخلية في التيمم لم يكن البدل بدلا .وقوله - تعالى - ( فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً ) صريح في البدلية .ويحكى عن داود الظاهري أنه أوجب الوضوء لكل صلاة ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء من بعده كانوا يتوضأون لكل صلاة ورد بأن فعل النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء لا يدل على أكثر من الندب " والاستحباب وقد ورد : " من توضأ على طهر كتب الله - تعالى - له عشر حسنات وقوله : ( فاغسلوا ) من الغسل وهو إمرار الماء على المحل حتى يسيل عنه. وزاد بعضهم : مع الدلك .وقوله : ( وُجُوهَكُمْ ) جمع وجه . وهو مأخوذ من المواجهة ووحد الوجه من مبدأ سطح الجبهة إلى منتهى الذقن طولا ومن الأذن إلى الأذن عرضاً .والمرافق : جمع مرفق - كمنبر ومجلس - وهو ملتقى عظم العضد بعظم الذراع .والكعبين : تثنية كعب . وهما الجزءان البارزان في أعلى القدم

والمعنى : يأيها الذين آمنوا إذا أردتم القيام إلى الصلاة وأنتم محدثون.
حدثا أصغر ، فاغسلوا وجوهكم ، أي : فأسيلوا الماء على وجوهكم ، وأسيلوه
أيضاً على أيديكم إلى المرافق وامسحوا بأيديكم المبللة بالماء رءوسكم
واغسلوا أرجلكم إلى الكعبين .وهنا توسع الفقهاء وبعض المفسرين في ذكر مسائل
تتعلق بهذه الآية نرى من الواجب الالمام بأهمها فنقول :أولا : أخذ جمهور
الفقهاء من قوله - تعالى - ( إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصلاة فاغسلوا ) إلخ أن
الوضوء لابد فيه من القصد إليه وإرادته لأجل الصلاة لا لأجل أي شيء آخر
كالنظافة وغيرها مما يشبهها ، وذلك لأن الوضوء عمل من الأعمال التي يقصد
بها المسلم الطاعة لله ، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول : " إنما الأعمال
بالنيات " وعليه تكون النية ركنا من أركان الوضوء ، فإذا لم يقصد بوضوئه
إرادة الصلاة وابتغاء رضاء الله ، لم تكن صلاته بهذا الوضوء صحيحة .وقال
الأحناف : إن النية في الوضوء ليست بفرض . لأن الوضوء ليس عبادة مقصودة
لذاتها .وإنما هو وسيلة لغيره وهو الصلاة ، والنية إنما هي شرط في العبادة
نفسها وهي الصلاة باعتبارها المقصد ، وليست شرطاً في الوسيلة وهي الوضوء
وعليه فالوضوء يتحقق بغسل ما يجب غسله من الأعضاء المعروفة ، ومسح ما يجب.
. مسحه منها ، وللمسلم أن يصلي بهذا الوضوء ما شاء من الفرائض والنوافل
قالوا : ومما يشهد بأن الوضوء وسيلة لعبادة ظاهر قوله - تعالى - ( إِذَا
قُمْتُمْ إِلَى الصلاة ) فإنه يدل على أن الصلاة هي المقصودة وهي الغاية
أما الوضوء فقد شرع ليكون سبيلا إليها .ثانيا : قوله ( فاغسلوا وُجُوهَكُمْ
اتفق الفقهاء على وجوب غسل الوجه إلا أنهم اختلفوا في دخول المضمضة (
، والاستنشاق فيه .فجمهور الفقهاء اتفقوا على أنهما لا يدخلان في غسل الوجه
بل هما سنتان كان يفعلهما النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه قبل غسل الوجه
وقال بعض الفقهاء : المضمضة والاستنشاق داخلان في الغسل .ثالثاً : أخذ.
كثير من الفقهاء من قوله - تعالى - ( إِلَى المرافق ) . . و ( إِلَى
الكعبين ) أن المرافق داخله مع اليدين في وجوب الغسل ، وأن الكعبين داخلان
مع الرجلين في وجوب الغسل .قالوا : لأن ( إلى ) هنا بمعنى مع ، ولأن بعض
علماء اللغة وعلى رأسهم سيبوية قد قرروا أن ما بعد إلى إذا كان من نوع ما
قبلها دخل في الحد ، وإذا لم يكن من نوعه لم يدخل . وهنا ما بعد إلى من نوع
ما قبلها فوجب دخوله في الحد .ولأن جعل ما قبل المرفقين حدا ، لا يصلح أن
يكون علامة واضحة على ذلك ، ومن شأن العلامات أن تكون واضحة وهذا لا يتأتى
إلا بغسل المرفقين والكعبين .وفضلا عن كل ذلك فالمعروف من وضوء النبي صلى
الله عليه وسلم أنه كان يغسل المرفقين والكعبين .قال القرطبي : وهذا هو
الصحيح لما رواه الدارقطني عن جابر " أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا
توضأ أدار الماء على مرفقيه " .ويرى بعض الفقهاء أن غسل المرفقين والكعبين
مستحب ، لأن الغاية من قوله : ( إِلَى المرافق ) و ( إِلَى الكعبين ) تحتمل
أن تدخل المرافق والكعبين في الوجوب وتحتمل عدم الدخول ، ولا وجوب مع
الاحتمال .وقد أشار صاحب الكشاف إلى هذه المسألة بقوله : قوله ( إِلَى
المرافق ) تفيد معنى الغاية مطلقا . فأما دخولها في الحكم وخروجها ، فأمر
يدور مع الدليل . فمما فيه دليل على الخروج قوله : ( فَنَظِرَةٌ إلى
مَيْسَرَةٍ ) لأن الإعسار علة الإنظار . وبوجود الميسرة تزول العلة . ولو
) دخلت الميسرة فيه لكان منظراً في كلتا الحالتين معسراً وموسراً . وكذلك
ثُمّ أَتِمُّواْ الصيام إِلَى الليل ) لو دخل الليل لوجب الوصال في الصوم
ومما فيه دليل على الدخول قولك : حفظة القرآن من أوله إلى آخره - لأن .
الكلام مسوق لحفظ القرآن كله . ومنه قوله - تعالى - : ( مِّنَ المسجد
الحرام إلى المسجد الأقصى ) لوقووع العلم بأنه لا يسرى به إلى بيت المقدس
من غير أن يدخله .وقوله ( إِلَى المرافق ) و ( إِلَى الكعبين )لا دليل فيه
. على أحد الأمرين ، فأخذ كافة العلماء بالاحتياط فحكموا بدخولها في الغسل
وأخذ زفر وداود بالمتيقن فلم يدخلاها . " وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه
كان يدير الماء على مرفقيه " .رابعا : أجمع الفقهاء على أن مسح الرأس من
أركان الوضوء ، لقوله - تعالى - ( وامسحوا بِرُؤُوسِكُمْ ) إلا أنهم
اختلفوا في مقدار المسح .فال المالكية : يجب مسح جميع الرأس أخذا بالاحتياط
وتبعهم في ذلك الحنابلة .وقال الشافعية : يكفى مسح أقل ما يطلق عليه اسم ،
المسح أخذا باليقين وقال الحنفية : يفترض مسح ربع الرأس .ومنشأ الخلاف هنا
اعتبار الباء زائدة أو أصلية . فقال المالكيبة والحنابلة إن الباء كما تكون
أصلية تكون - أيضاً - زائدة لتقوية تعلق العامل بالمعمول واعتبارها هنا
زائدة أولى ، لأن التركيب حينئذ يدل على مسح جميع الرأس ، ويكون البعض
داخلا في ذلك .وقال الأحناف والشافعية الباء هنا للتبعيض ، إلا أن البعض لم
يقدره الشافعية بمقدار معين ، وقدره الأحناف بمقدار ربع الرأس أخذا من حديث
المغيرة بن شعبة " أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في سفر فنزل لحاجته ثم
جاء فتوضأ ومسح على ناصيته " قالوا : والناصية تساوي ربع الرأس .قال بعض
العلماء : والسنة الصحيحة وردت بالبيان . وفيها ما يفيد جواز الاقتصار على
مسح البعض في بعض الحالات كما في صحيح مسلم وغيره من حديث المغيرة أنه صلى
. الله عليه وسلم أدخل يده من تحت العمامة فمسح مقدم رأسه ولم ينقض العمامة
وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة أنه مسح رأسه فأقبل وأدبر . وهذه هي التي

استمر عليها صلى الله عليه وسلم فاقتضى هذا أفضلية الهيئة التي يداوم عليها
: وهي مسح الرأس مقبلا ومدبراً . وإجراء غيرها في بعض الأحوال .خامساً .
قوله تعالى ( وَأَرْجُلَكُمْ ) وردت فيه قراءتان متواترتان .إحداهما : بفتح
اللام وهي قراءة نافع وابن عامر وحفص الكسائي ويعقوب .والثانية : بكسر
اللام وهي قراءة الباقين .أما قراءة النصب فعلى أن قوله ( وَأَرْجُلَكُمْ )
معطوف على قوله ( وُجُوهَكُمْ ) أو هو منصوب بفعل مقدر أي : وامسحوا
) برءوسكم واغسلوا أرجلكم إلى الكعبين .وأما قراءة الجر فعلى أن قوله
وَأَرْجُلَكُمْ ) معطوف على ( بِرُؤُوسِكُمْ ) .قال القرطبي ما ملخصه : فمن
قرأ بالنصب جعل العامل " اغسلوا " وبنى على ذلك أن الفرض في الرجلين الغسل
دون المسح . وهذا مذهب الجمهور والكافة من العلماء وهو الثابت من فعل النبي
صلى الله عليه وسلم واللازم من قوله في غير ما حديث . وقد رأى قوما يتوضئون
" وأعقابهم تلوح فنادى بأعلى صوته . " ويل للأعقاب من النار أسبغوا الوضوء
ثم إن الله حدهما فقال : ( إِلَى الكعبين ) كما قال في اليدين ( إِلَى
المرافق ) فدل على وجوب غسلهما .ومن قرأ بالخفض جعل العامل الباء . فقال
ابن العربي : اتفقت العلماء على وجوب غسلهما ، وما علمت من رد ذلك سوى
الطبري من فقهاء المسلمين ، والرافضة من غيرهم . وتعلق الطبري بقراءة
الخفض - أي قال بمسح الرجلين .ثم قال : وقد قيل : إن قوله ( وَأَرْجُلَكُمْ
بقراءة الخفض - معطوف على اللفظ دون المعنى - أي لفظ الرءوس - وهذا أيضاً (
يدل على الغسل ، فإن المراعي المعنى لا اللفظ وإنما خفض للجوار كما تفعل
العرب . وقد جاء هذا في القرآن وغيره قال - تعالى - ( يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا
شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلاَ تَنتَصِرَانِ ) بالجر لأن النحاس هو
، الدخان .ثم قال : والقاطع في الباب من أن فرض الرجلين الغسل ما قدمناه
" وما ثبت من قوله صلى الله عليه وسلم" ويل للأعقاب وبطون الأقدام من النار
فخوفنا ذكر النار على مخالفة مراد الله . ومعلوم أن النار لا يعذب بها إلا
من ترك الواجب . ومعلوم أن المسح ليس من شأنه الاستيعاب . ولا خلاف بين
القائلين بالمسح على الرجلين أن ذلك على ظهورهما لا على بطونهما فتبين بهذا
الحديث بطلان من قال بالمسح . إذ لا مدخل بطونهما عندهم ، وإنما ذلك يدرك
بالغسل لا بالمسح .ونقل الجمهور كافة عن كافة عن نبيهم صلى الله عليه وسلم
أنه كان يغسل رجليه في وضوئه مرة واثنتين وثلاثا حتى ينقيهما . وحسبك بهذا
احجة في الغسل مع ما بيناه فقد وضح وظهر أن قراءة الخفض المعنى فيها الغسل
لا المسح وأن العامل في قوله و ( وَأَرْجُلَكُمْ ) وقوله ( فاغسلوا )
والعرب قد تعطف الشيء على الشيء بفعل ينفرد به أحدهما . تقول : أكلت الخبز
واللبن . أي : وشربت اللبن .وقد عقد الإمام ابن كثير فصلا أورد فيه - عند
تفسيره لهذه الآية - كثيراً من الأحاديث التي وردت في غسل الرجلين ، وجعل
عنوانه : " ذكر الأحاديث الواردة في غسل الرجلين وأنه لابد منه " .ومن هذه
الأحاديث ما جاء في الصحيحين والسنن عن عثمان وعلى ابن عباس . أن رسول الله
. صلى الله عليه وسلم غسل الرجلين في وضوئه إما مرة ، وإما مرتين أو ثلاثاً
على اختلاف رواياتهم .وفي حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم توضأ فغسل قدميه ثم قال : " هذا وضوء لا يقبل الله
الصلاة إلا به " .وعن جابر بن عبد الله قال : رأى النبي صلى الله عليه وسلم
في رِجْلَ رَجل مثل الدرهم لم يغسله فقال : " ويل للأعقاب من النار " .ثم
قال ابن كثير : ووجه الدلالة من هذه الأحاديث ظاهرة . وذلك أنه لو كان فرض
الرجلين مسحهما ، أو أنه يجوز ذلك لما توعد على تركه ، لأن المسح لا يستوعب
جميع الرجل . بل يجري فيه ما يجري في مسح الخف .ويرى الزمخشري أن قراءة
الجر في قوله ( وَأَرْجُلَكُمْ ) محمولة في المعنى على النصب ويكون السبب
. في عطفها على الرءوس المجرورة ، للإشارة إلى وجوب عدم الإسراف في الماء
: فقد قال : فإن قلت : فما تصنع بقراءة الجر ودخولها في حكم المسح؟ قلت
الأرجل من بين الأعضاء الثلاثة المغسولة تغسل بصب الماء عليها : فكانت مظنة
للإسراف المذموم المنهي عنه ، فعطفت على الثالث المسموح لا لتمسح ، ولكن
لينبه على وجوب الاقتصاد في صب الماء عليها .وقد وضح هذا المعنى الشيخ ابن
المنير بقوله : لم يوجه الزمخشري قراءة الجر بما يشفي الغليل . والوجه فيه
أن الغسل والمسح متقاربان من حيث أن كل واحد منهما مسأس بالعضو ، فيسهل عطف
المغسول على الممسوح من ثم ، كقوله : متقلداً سيفاً ورمحاً .وعلفتها تبنا
وماء باردا . ونظائره كثيرة .ثم يقال : ما فائدة هذا التشريك بعلة التقارب؟
وهلا أسند إلى كل واحد منهما الفعل الخاص به على الحقيقة؟ فيقال : فائدته
الإيجاز والاختصار . وتحقيقه أن الأصل أن يقال مثلا : واغسلوا أرجلكم غسلا
خفيفاً لا إسراف فيه كما هو المعتاد ، فاختصرت هذه المقاصد بإشراكه الأرجل
مع الممسوح ، ونبه بهذا التشريك - الذي لا يكون إلا في الفعل الواحد أو
الفعلين المتقاربين جداً . على أن الغسل المطلوب في الأرجل غسل خفيف يقارب
المسح . وحسن إدراجه معه تحت صيغة واحدة وهذا تقرير كامل لهذا المقصود .هذا
ومن كل ما تقدم نرى وجوب غسل الرجلين في الوضوء سواء أكانت القراءة بالنصب
أم بالجر . وقد بسطت بعض كتب الفقه والتفسير هذه المسألة بسطا موسعا فليرجع
إليها من شاء .سادساً : أخذ الأحناف من هذه الآية الكريمة أن أركان الوضوء
، هي هذه الأربعة فحسب أي : غسل الوجه ، واليدين إلى المرفقين ، ومسح الرأس

وغسل الرجلين إلى الكعبين .وقد أضاف جمهور الفقهاء إلى ذلك النية - كما سبق
أن أشرنا - كما أضافوا الترتيب بين الأركان بحيث يغسل الوجه أولا ثم اليدان
ثم من بعدهما مسح الرأس ، ثم غسل الرجلين ، لأن هذه الأركان قد ذكرت بهذا
الترتيب في القرآن فيجب التزامه . ولأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يخالف
هذا الترتيب ولو مرة واحدة فوجب اتباع ما جاء عنه صلى الله عليه وسلم .وقال
الأحناف : الترتيب ليس فرضاً ، لأن العطف بين الأركان بالواو وهي لا تقتضي
ترتيبا ولا تعقيبا .كذلك أضاف بعض الفقهاء إلى أركان الوضوء الموالاة بمعنى
أن يواصل المتوضئ الاشتغال بوضوئه ولا ينقطع عنه . وذهب بعضهم إلى أن ذلك
سنة .والذي تطمئن إليه النفس أن المتوضئ إذا انقطع وضوؤه بعمل أجنبي لمدة
جفت معها أعضاء الوضوء وجب عليه استئناف الوضوء مبتدئاً بأوله . أما إذا قطع
المتوضئ وضوء لفترة قصيرة بحيث بقيت آثار الوضوء ظارهة فإنه في هذه الحالة
يجوز له الاستمرار فيه .تلك هي بعض المسائل التي رأينا أن نتكلم عنها
بإيجاز بمناسبة حديثنا عن هذه الآية الكريمة وهناك مسائل أخرى تتعلق بها
تكفلت كتب الفروع بتفصيلها . وقد انتقلت الآية الكريمة بعد حديثها عن
الوضوء إلى الحديث عن الاغتسال وموجبة فقال - تعالى - ( وَإِن كُنتُمْ
جُنُباً فاطهروا ) .والجنب من أصابته الجنابة بسبب جماع أو احتلام أو
غيرهما مما تتحقق معه الجنابة . وكلمة جنب من الألفاظ التي يستوي فيها
الواحد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث لجريانها مجرى المصدر ، فيقال : رجل
جنب ، وامرأة جنب ، وهما جنب ، ورجال ونساء جنب . . واشتقاقه من المجانبة
بمعنى المباعدة ، لأن الجنابة معنى شرعي يستلزم من السملم اجتناب الصلاة
وقراءة القرآن ومس المصحف ودخول المسجد إلى أن يتطهر .وقوله ( فاطهروا )
أصله فتطهروا فأدغمت التاء في الطاء فسكنت فأتى بالهمزة .والمعنى : يا أيها
الذين آمنوا إذا أردتم الدخول في الصلاة فعليكم أن تتوضئوا قبل دخولكم فيها
بأن تغسلوا وجوهكم وتغسلوا أيديكم إلى المرافق ، وتمسحوا برؤوسكم . وتغسلوا
أرجلكم إلى الكعبين ، هذا إذا كنتم محدثين حدثاً أصغر وأردتم الصلاة أما
إذا كنتم محدثين حدثا أكبر ، بأن كنتم جنبا بسبب خروج منى أو التقاء ختانين
وأردتم الدخول في الصلاة فعليكم في هذه الحالة أن تتطهروا . أي : تغسلوا
بالماء جميع بدنكم . لأن الأمر بالتطهر لما لم يتعلق بعضو دون عضو ، كان
أمراً شاملا لتطهير جميع البدن ، بدليل أن الوضوء لما تعلق بعضو دون عضو نص
الله - تعالى - في الآية على تلك الأعضاء التي أوجب غسلها .وإنما حملت
الطهارة هنا على الطهارة بالماء لأن الماء هو الأصل كما يشير إلى ذلك
قوله - تعالى - ( وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السمآء مَآءً
لِّيُطَهِّرَكُمْ بِهِ ) ولأنه - سبحانه - قد ذكر بعد هذه الجملة ما يحل
محل الماء عند فقده .والتعبير بقوله ( فاطهروا ) فيه إشارة إلى وجوب
العناية في تعميم الماء على الجسد كله ، وإيماء إلى أن النجاسة المعنوية قد
عمت كل أجزاء الجسم ، فوجب أن تكون الطهارة عامة لكل أجزاء الجسم ولا شك أن
الاغتسال بعد الجنابة أو الحيض أو النفاس فيه انتعاش الجسم بعد أن أصابه
التعب والإنهاك ، وفيه كذلك طهارة نفسية ، لأنه يبعث في الإنسان حسن
الاستعداد لذكر الله ، ولأداء تكاليفه .قال الفخر الرازي : والدلك غير واجب
في الغسل . وقال مالك : الدلك واجب وحجة غيره أن قوله ( فاطهروا ) أمر
: بتطهير البدن وتطهير البدن لا يعتبر فيه الدلك . ثم قال : والشافعي قال
المضمضة والاستنشاق غير واجبين في الغسل - ومثله في ذلك الإمام مالك .وقال
أبو حنيفة - والحنابلة - هما : واجبان لأن الآية تقول ( فاطهروا ) وهذا أمر
، بأن يطهروا أنفسهم . وتطهير النفس لا يحصل إلا بتطهير جميع أجزاء النفس
ما عدا الأجزاء الباطنة التي لا يمكن تطهيرها . وداخل الفم والأنف يمكن
" : تطيرهما . فوجب بقاؤهما تحت النص . ولأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال
" بلوا الشعر وأنقوا البشرة فإن تحت كل شعرة جنابة " فقوله " بلوا الشعر
يدخل فيه الأنف . لأن داخله شعر . وقوله " وأنقوا البشرة " يدخل في الجلدة
التي داخل الفم . وحجة الشافعي - ومالك قوله صلى الله عليه وسلم أما أنا
فأحثى على رأسي ثلاث حثيات فإذا أنا قد طهرت " وقد قال النبي صلى الله عليه
وسلم ذلك في مجلس جماعة من أصحابه كانوا يتحدثون أمامه في أمر الغسل ، وكل
يبين ما يعمله .ثم شرع - سبحانه - في بيان الأعذار التي تبيح التيمم من أجل
الطهارة عند العجز عن استعمال الماء فقال - تعالى - : ( وَإِن كُنتُم مرضى
أَوْ على سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِّنَ الغائط أَوْ
لاَمَسْتُمُ النسآء فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً
طَيِّباً فامسحوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِّنْهُ ) .والمراد بالمرضى
في قوله - تعالى - ( وَإِن كُنتُم مرضى ) المرض الذي يمنع من استعمال الماء
) مطلقاً كأن يكون استعمال الماء يزيد المرض شدة ، أو يبطئ البرء .وقوله
أَوْ على سَفَرٍ ) في محل نصب عطفا على خبر كان وهو قوله مرضي وليس المراد
بالسفر هنا سفر القصر ، وإنما المراد السير خارج العمران سواء أوصل المسافر
) : إلى مسافة القصر أم لا ، بخلافة في قوله - تعالى - في سورة البقرة
فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ على سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ
أُخَرَ ) فإن المراد به هناك سفر القصر ، إنما قيد الأمر هنا بالسفر مع أن
المنظور إليه عدم الماء لأن السفر هو الذي يغلب فيه عدم الماء بخلاف الحضر

ولو فرض عدم الماء في الحضر وجب التيمم على المحدث عند إرادة الصلاة عند الحنفية والمالكية والشافعية .وقوله ( أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِّنَ الغائط ) معطوف على ما قبله والغائط : من الغيط وهو المكان المنخفض من الأرض . وهو هنا كناية عن الحدث لأن العادة جرت أن من يريد الحدث يذهب إلى ذلك المكان المنخفض ليتوارى عن أعين الناس .وفي إسناد المجيء إلى واحد من مبهم من المخاطبين ، سمو في التعبير . حيث تحاشى - سبحانه - التصريح بنسبتهم إلى ما يستحيا من ذكره أو يستهجن التصريح به . وفي ذلك ما فيه من ، تعليم الناس الأدب في الخطاب ، والبعد عن الألفاظ التي تخدش الحياء ويمجها الذوق السليم .والمراد بالملامسة في قوله تعالى ( أَوْ لاَمَسْتُمُ النسآء ) الجماع : فهو هنا كناية عما يكون بين الرجل والمرأة مما يوجب الاغتسال : وهي كناية قرآنية أراد - سبحانه - أن يعلم الناس منها حسن التعبير ، والبعد عن الألفاظ التي تتنافى مع آداب الإسلام وتعاليمه السامية .وإلى هذا الرأي اتجه كثير من الصحابة ، منهم علي بن أبي طالب وابن عباس وأبو موسى .وتبعهم في ذلك كثير من الفقهاء كأبي حنيفة وأبي يوسف وزفر والثوري فقد قالوا :لا ضوءو على من مس امرأة سواء أكان المس بشهوة أو بدونها . واستدلوا بأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقبل نساءه ثم يصلي ولم يتوضأ وكان يقبلهن وهو صائم .واستدلوا - أيضاً - بأن ظاهر مادة المفاعلة يكون في الفعل من الجانبين مقصوداً ، وذلك إنما يتأتى في الجماع دون اللمس باليد . وأيضاً فإن اللمس وإن كان حقيقة في اللمس باليد إلا أنه قد عهد في القرآن إطلاقه كناية عن الجماع كما في قوله - تعالى -( وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنّ فَرِيضَةً ) ويرى جماعة من الصحابة منهم عمر بن الخطاب وابن مسعود أن المراد بالملامسة هنا اللمس باليد ، وكانا يوجبان على من مس امرأة الوضوء وقد سار الإمام الشافعي على هذا الرأي فقال : إذا مس جسدها فعليه الوضوء. سواء أكان المس بشهوة أم بغير شهوة .ومن أدلته أن اللمس حقيقة في المس باليد ، وهو في الجماع مجاز أو كناية ولا يعدل عن الحقيقة إلى غيرها إلا عند تعذر الحقيقة ويرى الإمام مالك أن اللمس إن كان بشهوة وتلذذ فعليه الوضوء ، وكاذا إذا مسته بشهوة وتلذذ ، وإن كان بغير شهوة فلا وضوء عليهما وقد انتصر كل فريق لرأيه بصورة أوسع من ذلك في كتب الفروع . والذي نراه. أولى بالصواب في هذ المسألة ما قاله الإمام مالك - رحمه الله - لأنه بني رأيه على وجود الشهوة وعدمها . والفاء في قوله : ( فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً عطفت ما بعدها على الشرط السابق وهو قوله ( وَإِن كُنتُم مرضى ) .والضمير ( في قوله : ( فَلَمْ تَجِدُواْ ) يعودل لكل ما تقدم من مريض ومسافر ومتغوط ) وملامس وفيه تغليب للخطاب على الغيبة .والمراد بعدم الوجدان في قوله هنا فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً ) ما هو أعم من الوجود الحسي أي : أن قوله : " فلم تجدوا ماء " كناية عن عدم التمكن من استعماله وإن وجد حسا ، إذ أن الشيء المتعذر استعماله هو والمعدوم سواء .وقوله : ( فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً ) جواب الشرط وهو قوله : ( وَإِن كُنتُم مرضى ) .والمعنى : وإن كنتم - أيها المؤمنون - في حالة مرض يحول بينكم وبين استعمال الماء أو كنتم ، مستقرين على سفر؛ أو كنتم محدثين حدثاً أصغر أو أكبر ، أو لامستم النساء ، فلم تجدوا ماء تستعملونه لطهارتكم ، ولأداء ما كلفكم الله به من تكاليف ، أو وجدتموه ولكن منعكم مانع من استعماله ، أو كنتم في حاجة ماسة إليه - فعليكم في هذه الأحوال أن تتيمموا صعيداً طيبا بدلا من الماء ، فإن الله تعالى - ( وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدين ) ومنهم من يرى أن الضمير في قوله : ( فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً ) يعود إلى الجميع ما عدا المرضي ، لأن المرضى يباح لهم التيمم مع وجود الماء إذا تضرروا من استعماله . وعلى هذا الرأي يكون المراد بعدم الوجدان ، عدم الوجدان الحسي .والتيمم لغة القصد . يقال تيممت الشيء إذا قصدته .ويطلق في الشرع على القصد إلى التراب لمسح الوجه واليدين به .وأما الصعيد - بوزن فعيل - فيطلق على وجه الأرض البارز ترابا كان أو غيره . وقيل يطلق على التراب فحسب .والطيب : الطاهر الذي لم تلوثه نجاسة ولا قذر .وقوله : ( فامسحوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ) بيان لكيفية التيمم .أي : إذا لم تجدوا ماء للتطهر به ، أو وجدتموه ولكنكم عجزتم عن استعماله ، فاقصدوا ترابا طاهرا فامسحوا منه بوجوهكم وأيديكم .وقد استدل بعض الفقهاء بقوله : ( فَتَيَمّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً ) على أن التيمم لا يجوز إلا بالتراب الطاهر ، لأنه هو المقصود بالصعيد الطيب .ويرى بعض آخر أن التيمم يجوز التراب وبالحجر وبما ماثله من كل ما كان من جنس . الأرض . متى كان طاهراً . قالوا : لأن الظاهر من لفظ الصعيد وجه الأرض وهذه الصفة لا تختص بالتراب .قال القرطبي - بعد أن ذكر آراء الفقهاء في ذلك - " وإذا تقرر هذا فالعم أن مكان الإجماع فيما ذكرناه أن تيمم الرجل على تراب طاهر غير منقول ولا مغصوب . ومكان الإجماع في المنع أن يتيمم الرجل على الذهب والصرف والفضة والياقوت والأطعمة كالخبز واللحم وغيرهما أو على النجاسات واختلف في غير هذا كالمعادن ، فأجيز وهو مذهب مالك وغيره ومنع ) - وهو مذهب الشافعي وغيره " .كما استدل الأحناف والشافعية بقوله - تعالى فامسحوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِّنْهُ ) على أن التيمم المطلوب شرعا

هو استعمال الصعيد في عضوين مخصوصين على قصد التطهير . والعضوان هما الوجه واليدان إلى المرفقين ، فقد جاء في الحديث الشريف عن جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " التيمم ضربتان ضربة للوجه . وضربة للذراعين إلى المرفقين " .ويرى الحنابلة والمالكية أن العضوين هما الوجه واليدين إلى الرسغين . هذا ، وقد تكلمنا عن هذه المسألة وغيرها بصورة أوسع عند تفسينا لقوله - تعالى - في سورة النساء : ( وَإِن كُنتُم مرضى أَوْ على سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِّنَ الغائط أَوْ لاَمَسْتُمُ النسآء فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فامسحوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ) .ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة ببيان بعض مظاهر رحمته بعباده ، ورعايته لمصالحهم فقال - تعالى ( مَا يُرِيدُ الله لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ ولكن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ) .أي : ما يريد الله - تعالى - بما فرض عليكم من الوضوء إذا قمتم إلى الصلاة ومن الغسل بعد الجنابة ، ومن الأمر بالتيمم عند وجود أسبابه ، ما يريد - سبحانه - بذلك ( لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ ) أي ضيق ومشقة وعسر ، ولكن يريد بذلك ليطهركم .أي : ليطهر نفوسكم من الأرجاس الحسية والمعنوية وليزيل عنها ما علق بها من ذنوب وأوساخ ، ويريد بذلك أيضا ( وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ ) بما شرع لكم من أحكام ميسرة ومن آداب عالية ، ومن تكاليف جليلة لكي تشكروه على نعمه وإحسانه وتشريعاته ، لأنكم متى شكرتموه زادكم من فضله ومننه .وعبر - سبحانه - عن نفي الحرج بنفي إرادته ، مبالغة في بيان رأفته - سبحانه - بعباده ، ورعايته لمصالحهم . فكأنه - سبحانه - يقول : ما كان من شأن الله - تعالى - مع عباده أن يشرع لهم ما فيه مشقة أو حرج .وقوله ( لِيَجْعَلَ ) يحتمل أن يكون الجعل بمعنى الخلق والإيجاد فيتعدى لواحد وهو قوله : ( مِّنْ حَرَجٍ ) وتكون ( من ) زائدة لتأكيد النفي وقوله ( عَلَيْكُم ) متعلق بالجعل . ويحتمل أن يكون بمعنى التصير فيكون قوله ( عَلَيْكُم ) هو المفعول الثاني ، وقوله : ( ولكن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ) استدراك قصد به بيان بعض مظاهر رحمته - سبحانه - بالمؤمنين ومحبته لسعادتهم ولتزكية نفوسهم وتطيرها من الذنوب والأدران كما قصد به حضهم على مداومة شكره حتى يزيدهم من فضله .وقريب من معنى هذه الجملة قوله - تعالى - ( يُرِيدُ الله بِكُمُ اليسر وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ العسر ) وقوله - تعالى - ( وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدين مِنْ حَرَجٍ ) وقوله تعالى وبذلك ( يُرِيدُ الله أَن يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإنسان ضَعِيفاً ) نرى الآية الكريمة قد بينت للمؤمنين ما يجب عليهم أن يفعلوه إذا ما أرادوا الدخول في الصلاة ، وما يجب عليهم أن يفعلوه إذا ما كانوا جنبا ، وما يجبع أن يفعلوه إذا ما فقدوا الماء أو عجزوا عن استعماله وكانوا يريدون الطهارو ، أو أداء ما علهيم من تكاليف ، كما بينت لهم حكمة الله في تشريعاته لهم ورعايته لمصالحهم حتى يشكروه على نعمه فيزيدهم منها .

واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به اذ قلتم سمعنا واطعنا واتقوا الله ان الله عليم بذات الصدور

كما فسرها الوسيط ثم بعد أن بين - سبحانه - بعض مظاهر فضله على عباده ) : ورحمته بهم ، أتبع ذلك بأمرهم بمداومة شكره ، وبالوفاء بعهده فقال واذكروا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الذي وَاثَقَكم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ) .أي : تنبهوا أيها المؤمنون - بعقولكم وقلوبكم لما أسبغه الله عليكم من منن فداوموه على شكرها ( واذكروا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ ) بدين الإسلام الذي هديتم به إلى الصراط المستقيم ، واذكروا كذلك ( وَمِيثَاقَهُ الذي وَاثَقَكُم ) أي : عهده الوثيق الذي أخذه عليكم ، وأمركم بالتزامه بكل قوة .وقوله : ( إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ) ظرف لقوله ( وَاثَقَكُم بِهِ ) أي : إذ قلتم وقت أن أخذ عليكم العهد الموثق : سمعنا قولك وأطعنا أمرك .فأنت ترى أن الآية الكريمة أوجبت على المؤمنين أمرين :أولهما : التنبه إلى نعم الله وعلى رأس هذه النعم نعمة الهداية إلى دين الإسلام ، ومداومة شكره - سبحانه - على ذلك وثانيهما : الوفاء بعهوده التي أخذها عليهم ، وتقبلوها بالسمع والطاعة. لأنهم متى شكروه على نعمه ، وكانوا أوفياء بعهودهم ، زادهم - سبحانه - من فضله وعطائه .قال الفخر الرازي : وإنما قال : ( واذكروا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ ) وهو يشعر بنسيانها مع أن مثلها في تواترها لا ينسى ، للإشارة إلى أنه لكثرة هذه النعم وتعاقبها ، صارت كالأمر المعتاد الذي لكثرة وجوده قد يغفل عنه المرء .والمراد بالميثاق الذي أخذه عليهم ما جرى بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين المؤمنين من عهود على أن يسمعوا له ويطيعوا في العسر واليسر ، والمنشط والمكره ، كما حدث مع الأنصار ليلة العقبة ، وكما حدث مع المؤمنين جميعا في بيعة الرضوان .وإنما أضيف الميثاق إلى الله تأكيداً لوجوب الوفاء به؛ ولأنه - سبحانه - هو الذي شرعه وهو الذي سيحاسبهم على

نقضه وعدم الوفاء به .وقال مجاهد : المراد به الميثاق الذي أخذه الله على
عباده حين أخرجهم من ظهر آدم ، وضعف هذا القول بأن الخطاب هنا للمؤمنين
وليس للبشر جميعاً .قال ابن جرير ما ملخصه : وأولى الأقوال بالصواب في
تأويل ذلك : قول ابن عباس ، وهو أن معناه : واذكروا أيها المؤمنون - نعمة
الله التي أنعمها عليكم بهدايته إياكم إلى الإسلام ( وَمِيثَاقَهُ الذي
وَاثَقَكُم بِهِ ) يعني : وعهده الذي عاهدكم به حين بايعتم رسوله محمداً
، صلى الله عليه وسلم السمع والطاعة له في المنشط والمكره ، والعسر واليسر
إذ قلتم سمعنا ما قلت لنا وأخذت علينا من المواثيق ، وأطعناك فيما أمرتنا
ونهيتنا عنه . . فأوفوا - أيها المؤمنون - بميثاقه الذي واثقكم به ونعمته
التي أنعم عليكم بها يوف لكم بما ضمن لكم الوفاء به ، من إتمام نعمته عليكم
وبإدخالكم جنته ، وإنعامكم بالخلود في دار كرامته وإنقاذكم من عذابه ،
وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب من قول من قال المراد بالميثاق ما أخذ عليهم.
في صلب آدم ، لأن الله بعد أن ذكر المؤمنين بميثاقه الذي واثقهم به ، ذكر
بعد ذلك أهل التوراة بالميثاق الذي أخذه الله عليهم في قوله : ( وَلَقَدْ
أَخَذَ الله مِيثَاقَ بني إِسْرَآئِيلَ ) منبها بذلك المؤمنين على مواضع
حظوظها من الوفاء لله بماعاهدهم عليه ، ويعرفهم سوء عاقبة أهل الكتاب في
تضييعهم ما ضعيوا من ميثاقه .وبعد أن ذكر الله - تعالى - المؤمنين بنعمته
- عليهم وبميثاقه الذي واثقهم به وأمرهم بالوفاء بما كلهم به ختم - سبحانه
الآية بأمرهم بخشيته والخوف منه قال : ( واتقوا الله إِنَّ الله عَلِيمٌ
بِذَاتِ الصدور ) .أي : اشكروا الله - أيها المؤمنون - على نعمته ، وكونوا
أوفياء بعهودكم واتقوا الله وراقبوه في كل ما تأتون وما تذرون ، وصونوا
أنفسكم عن كل ما يكرهه لكم ، فإنه - سبحانه - عليم علما تاما بخفيات
الأمور الكامنة في الصدور . وبكل ما يظهره الإنسان ويبطنه ، وسيحاسبكم يوم
القيامة على أعمالكم ، فيجاري المسحن بإحسانه ، والمسيء بإساءته و ( ذات
الصدور ) هي الأمور المستقرة في الصدور ، فهي بالنسبة للصدور كالصاحب
بالنسبة لصاحبه الذي يلازمه ولا يفارقه . ومثلوا لها بالنيات والاعتقادات
وسائر الأمور القلبية .والجملة الكريمة ( إِنَّ الله عَلِيمٌ بِذَاتِ
الصدور ) تعليل لقوله ( واتقوا ) .وكرر - سبحانه - اسمه الجليل لاشعار
المؤمنين برقابته التامة عليهم . واطلاعه على أحوالهم المختلفة ، وأعمالهم
المتنوعة وللإشارة إلى أنه إذا كان - سبحانه - يعلم خفيات الأمور ، فمن
باب أولى يعلم جلياتها .

يا ايها الذين امنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنان قوم
على الا تعدلوا اعدلوا هو اقرب للتقوى واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون

كما فسرها الوسيط وبعد أن أمر الله - تعالى عباده المؤمنين بالوفاء
بمواثيقه ، أتبع ذلك بأمرهم بالتزام الحق في كل أقوالهم وأعمالهم ، وذكرهم
بما أفاء عليهم من نعم فقال - سبحانه - :( يَا أَيُّهَآ الذين آمَنُواْ
كُونُواْ قَوَّامِينَ للَّهِ شُهَدَآءَ . . . )قوله : ( قَوَّامِينَ ) جمع
قوام . وهو صيغة مبالغة من قائم . والقوام : هو المبالغ في القيام بالشيء
- وفي الإتيان به على أتم وجه وأحسنه .وقوله : ( شُهَدَآءَ ) جمع شهيد
بوزن فعيل - والأصل في هذه الصيغة ، دلالتها على الصفات الراسخة في النفس
ككريم وحكيم .والقسط : العدل يقال أقسط فلان يقسط إذا عدل في أقواله
وأحكامه .وقوله (وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ ) أي : ولا يحملنكم من جرمه على
كذا إذا حمله عليه أو معناه : ولا يكسبنكم من جرم بمعنى كسب غير أنه في كسب
ما لا خير فيه ومنه الجريمة .وأصل الجرم قطع الثمرة من الشجرة وأطلق على
الكسب؛ لأن الكاسب ينقطع لكسبه .والشنآن : البغض الشديد . يقال : شنئت
الرجل أشنؤه شنأ وشنأه وشنآنا ، إذا أبغضته بغضاً شديداً .والمعنى: يأيها
الذين آمنوا بالحق إيماناً صادقاً ( كُونُواْ قَوَّامِينَ للَّهِ شُهَدَآءَ
بالقسط ) أي . ليكن من أخلاقكم وصفاتم أن تقوموا لله وحده بالحق في كل ما
يلزمكم القيام به . ومن العمل بطاعته ، واجتناب منهياته ، وليكن من دأبكم
وشأنكم - أيضاً - أن تلتزموا العدل في الأقوال والأحكام يتنافى مع تعاليم
- دين الإسلام . الذي آمنتم به، ورضيه الله لكم دينا .وفي ندائه - سبحانه
، بقوله : ( كُونُواْ قَوَّامِينَ ) بصفة الكينونة الدالة على الدوام
، وبصيغة المبالغة الدالة على الكثرة . لتمكين صفة الطاعة له من نفوسهم
وترسيخها في قلوبهم .فكأنه - سبحانه - يقول لهم : روضوا أنفسكم على طاعة
خالقكم ، وعودوها على التزام الحق والعدل . واجعلوا ذلك شأنكم في جميع
الظروف والأحوال فلا يكفى أن تلتزموا الطاعة والعدل مرة أو مرتين ، وإنما
) : الواجب عليكم أن يكون التزامكم لذلك في كل أوقاتكم وأعمالكم .وقوله
اعدلوا هُوَ أَقْرَبُ للتقوى ) تصريح بوجوب العدل بعد ما علم من النهي عن
تركه في قوله ( وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ على أَلاَّ
تَعْدِلُواْ ) للتأكيد على وجوب التزامهم بما أمرهم - سبحانه - به وما
نهاهم عنه ، ولبيان العلة في تكليفهم بذلك .والضمير ( هو ) يعود إلى المصدر
المفهوم من قوله : ( اعدلوا ) .أي : التزموا - أيها المؤمنون - العدل في كل

أحوالكم ، فإن العدل مع الأعداء ومع غيرهم أقرب إلى اتقاء المعاصي ، وإلى
صيانة النفس عن الوقوع في المهالك .وقال - سبحانه ( اعدلوا هُوَ أَقْرَبُ
للتقوى ) مع أن العدل دليل التقوى ولبابها لأن المؤمن في حال حربه وتعامله
، مع عدوه قد يرى أن من التقوى أن يستبيح ماله ، وأن يأخذ منه ما يمكن أخذه
، فبين له القرآن الكريم أن الأقرب إلى التقوى التامة أن يحسن معاملة عدوه
وأن لا يعتدى على حق من حقوقه .قال صاحب الكشاف ، قوله : ( اعدلوا هُوَ
أَقْرَبُ للتقوى ) نهاهم ألوا أن تحملهم البغضاء على ترك العدل ، ثم استأنف
فصرح لهم بالأمر بالعدل تأكيداً وتشديداً ، ثم استأنف فذكر لهم وجه الأمر
بالعدل وهو قوله ( أَقْرَبُ للتقوى ) أي : العدل أقرب للتقوى ، وأدخل في
مناسبتها .وفيه تنبيه على أن وجوب العدل مع الكفار الذين هم أعداء الله إذا
كان بهذه الصفة من القوة فما الظن بوجوبه مع المؤمنين الذين هم أولياؤه
وأحباؤه .ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ( واتقوا الله إِنَّ الله
خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ) .أي : واتقوا الله أيها المؤمنون - في كل ما
تأتون وما تذرون ، وصونوا أنفسكم عمّا لا يرضيه ، وافعلوا ما أمركم به ، إن
الله - تعالى -لا تخفى عليه خافية من أعمالكم ، وسيجازيكم يوم القيامة بما
تستحقونه على حسب أعمالكم .فالجملة الكريمة تذييل قصد به التحذير من مخالفة
أوامر الله ، ومن انتهاك حرماته .وبذلك نرى الآية الكيمة قد أمرت المؤمنين
بالمداومة على طاعة الله في جميع الأوقات والأحوال ، وبأداء الشهادات على
، وجهها بدون محاباة ولا ظلم ، وبوجوب العدل في معاملة الأعداء والأصدقاء
وبمراقبة الله - تعالى - وخشيته في السر والعلانية .قال الآلوسي : وقد تقدم
نظير هذه الآية في سورة النساء ( يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ كُونُواْ
قَوَّامِينَ بالقسط شُهَدَآءَ للَّهِ ) ولم يكتف بذلك لمزيد من الاهتمام
بالعدل والمبالغة في إطفاء ثائرة الغيظ . وقيل : لاختلاف السبب ، فإن
الأولى نزلت في المشركين ، وهذه في اليهود . وذكر بعض المحققين وجها لتقديم
القسط هناك وتأخيره هنا ، وهو أن آية النساء جيء بها في معرض الإقرار على
، نفسه ووالديه وأقاربه . بدأ فيها بالقسط الذي هو العدل من غير محاباة نفس
ولا والد ولا قرابة . والتي هنا جيء بها في معرض ترك العداوة فبدأ فيها
بالقيام لله - تعالى - لأنه أردع للمؤمنين ، ثم ثنى بالشهادة بالعدل فجيء
. في كل معرض بما يناسبه

وعد الله الذين امنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة واجر عظيم

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة المؤمنين ، وسوء عاقبة
الكافرين فقال - تعالى - ( وَعَدَ الله ) بفضله وإحسانه ( الذين آمَنُواْ )
إيمانا حقا ( وَعَمِلُواْ ) الأعمال ( الصالحات ) التي نالوا بها رضا الله
وعدهم بأن ( لَهُم مَّغْفِرَةٌ ) عظيمة ولهم ( وَأَجْرٌ عَظِيمٌ )لا ،
- يعرف مقداره إلا هو - سبحانه

والذين كفروا وكذبوا باياتنا اولئك اصحاب الجحيم

كما فسرها الوسيط ( والذين كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَآ ) التي جاء
بها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ( أولئك أَصْحَابُ الجحيم ) أي : أولئك
الموصفون بما ذكر من الكفر والتكذيب بآياتنا هم المستحقون لدخول النار
المشتعلة الشديدة التأجج ، بسبب إيثارهم الكفر على الإيمان والتكذيب على
. التصديق

يا ايها الذين امنوا اذكروا نعمت الله عليكم اذ هم قوم ان يبسطوا اليكم
ايديهم فكف ايديهم عنكم واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون

كما فسرها الوسيط ثم ذكرهم - سبحانه - بنعمة أخرى من نعمه الجزيلة ، حتى
يزدادوا شكراً له ، ووفاء بعهده؛ والتزاما لطاعته فقال - تعالى - ( يَا
أَيُّهَآ الذين آمَنُوا اذكروا نِعْمَتَ الله عَلَيْكُمْ إِذْ هَمّ
قَوْمٌ أن يَبْسُطُواْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفّ أَيْدِيَهُمْ
عَنكُمْ واتقوا الله وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمنون )وقد أورد
المفسرون في سبب نزول هذه الآية الكريمة روايات منها ما رواه عبد الرازق عن
معمر الزهري عن أبي أسامة عن جابر : أن النبي صلى الله عليه وسلم نزل منزلا
وتفرق الناس في العضاة يستظلون تحتها . وعلق النبي صلى الله عليه وسلم
سلاحه بشجرة فجاء أعرابي إلى سيف رسول الله فأخذه فسله . ثم أقبل عليه فقال
من يمنعك مني؟ قال : الله - عز وجل - فسقط السيف من يد الأعرابي . فدعا :
النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه فأخبرهم خبر الأعرابي ، وهو جالس إلى
جانبه ولم يعاقبه .قال ابن كثير : وذكر محمد بن إسحاق ومجاهد وعكرمة وغير
واحد أنها نزلت في شأن بني النضير حين أرادوا أن يلقوا على رأس رسول الله
صلى الله عليه وسلم الرحي لما جاءهم يستعينهم في دية العامرين ووكلوا عمرو
بن جحاش بذلك . وأمروه إن جلس النبي صلى الله عليه وسلم تحت الجدار

واجتمعوا عنده أن يلقي الرحي من فوقه . فأطلع الله ورسوله صلى الله عليه وسلم على ما تمالأوا عليه . فرجع إلى المدينة وتبعه أصحابه . فأنزل الله في - ذلك هذه الآية .وعلى هاتين الروايتين وما يشبههما يكون المراد بقوله تعالى - ( اذكروا نِعْمَتَ الله عَلَيْكُمْ ) تذكير المؤمنين بنعمة الله عليهم حيث نجى نبيهم صلى الله عليه وسلم مما أضمره له أعداؤه وأعدؤاهم وقال صاحب الكشاف عند تفسيره لهذه الآية . روى أن المشركين رأوا رسول الله. صلى الله عليه وسلم وأصحابه قاموا إلى صلاة الظهر يصلون معا بعسفان فيء غزوة ذات أنمار . فلما صلوا ندموا أن لا كانوا أكبوا عليهم فقالوا : إن لهم بعدها صلاة هي أحب إليهم من آبائهم وأبنائهم - يعنون صلاة العصر - وهموا أن يوقعوا بهم إذا قاموا إليها . فنزل جبريل بصلاة الخوف .وعلى هذه الرواية يكون المراد بقوله - تعالى - ( اذكروا نِعْمَتَ الله عَلَيْكُمْ ) تذكيرهم برعاية الله لهم ولنبيهم صلى الله عليه وسلم من كيد أعدائهم .وقد رجح ابن جرير أن تكون الآية قد نزلت بسبب ما أضمره بنو النضير من كيد وسوء للنبي وأصحابه فقال : وأولى الأقوال بالصحة في تأويل ذلك قول من قال : عني الله بالنعمة التي ذكر في هذه الآية نعمته على المؤمنين به وبرسوله التي أنعم بها عليهم في استنقاذه نبيهم صلى الله عليه وسلم مما كانت يهودي بني النضير همت به من قتله وقتل من معه يوم سار إليهم في الدية التي كان تحملها عن قتيل عمرو بن أمية وإنما قلنا ذلك أولى بالصحة في تأويل ذلك لأن الله عقب ذكر ذلك برمى اليهود بسوء صنائعها ، وقبيح أفعالها ، وخيانتها ربها وأنبياءها .والمعنى : يأيها الذين آمنوا تنبهوا إلى نعم الله عليكم وقابلوها بدوام الشكر والطاعة له - سبحانه - حيث أراد قوم من أعدائكم ، أن - يبسطوا إليكم أيديهم .أي : أن يبطشوا بكم القتل والإهلاك ولكنه - سبحانه رحمة ربكم ، ودفاعاً عنكم ، حال بين أعدائكم وبين ما يريدونه بكم من سوء فالآية الكريمة تذكير للمؤمنين بنعمة عظيمة من نعم الله عليهم حيث نجاهم. من كيد أعدائهم ، ومن محاولتهم إهلاكهم . إثر تذكيرهم قبل ذلك بنعم أخرى كإكمال الدين ، وهدايتهم إلى الإسلام ، وغير ذلك من الآلاء والمنن .وفي تكرار هذا التذكير ما فيه من الحض على تأكيد المداومة على طاعة الله والمواظبة على شكره .وقوله ( إِذْ هَمَّ قَوْمٌ ) ظرف لقوله : ( نِعْمَتَ الله ) والهم : إقبال النفس على فعل الشيء .أي : اذكروا نعمة الله عليكم وقت أن قصدكم قوم من أعدائكم بالسوء والاهلاك .وبسط اليد هنا كناية عن : البطش والإهلاك . يقال : بسط يده إليه ، إذا بطش به . وبسط إليه لسانه إذا شتمه . والبسط في الأصل : مطلق المد . وإذا استعمل في اليد واللسان كان : كناية عما ذكر .وقوله : ( فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ) معطوف على قوله وهذا الكف هو النعمة التي قصد تذكيرهم بها حتى يداوموا ( هَمَّ قَوْمٌ ) على شكره وطاعته .وعبر - سبحانه - بقوله ( إِذْ هَمَّ قَوْمٌ ) للإيذان بأن نعمة كف أيدي الأعداء عنهم قد جاءت عند شدة الحاجة إليها .والفاء في قوله ( فَكَفَّ ) للتعقيب المفيد لتمام النعمة وكمالها فهو - سبحانه - قد - حال بين الأعداء وبين ما يشتهونه بمجرد أن قصدوا السوء بالمؤمنين .وقال سبحانه - ( فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ) بإظهار الأيدي ، ولم يقل فكفها عنكم؛ لزيادة التقرير . وللإشارة إلى أنه - سبحانه - هو الذي قضى على موضع : قوة أعدائهم ، ومناط شدتهم إذ الأيدي هي من أهم وسائل البطش والقتل .أي أنه - سبحانه - قد منع أيديهم عن أن تمتد إليكم بالأذى عقيب همهم بذلك دفاعا عنكم - أيها المؤمنون - وحماية لكم من الشرور ، فقابلوا ذلك بالشكر ) : لخالقكم . وقوله : ( واتقوا الله ) معطوف على قوله : ( اذكروا ) وقوله وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمنون ) أمر لهم بالاعتماد على الله وحده ، أي : داوموا على شكر نعم الله عليكم ، وصونوا أنفسكم عن كل ما نهاكم عنه. وعليه وحده اعتمدوا وتوكلوا فإنه - سبحانه - هو الفعال لما يريد ، وهو الذي يدفع الشر عمن توكل عليه ، ويعطي الخير لمن شكره وأطاعه .فالجملة الكريمة تذييل مقرر لما قبله ، من وجوب المداومة على طاعة الله وشكره على نعمه وإلى هنا نرى أن السورة الكريمة قد وجهت إلى المؤمنين خمس نداءات ، أمرتهم. في أول نداء منها بالوفاء بالعقود . ونهتهم في الثاني عن إحلال شعائر الله وأرشدتهم في النداء الثالث إلى ما يجب عليهم أن يفعلوه إذا أرادوا الدخول ، في الصلاة ، وأمرتهم في النداء الرابع بالمداومة على القيام بالتكاليف التي كلفهم - سبحانه - بها وبالتزام العدل في أقوالهم وأحكامهم ، ثم أمرتهم في - النداء الخامس بالتنبيه إلى نعم الله ومداومة شكره عليها حيث نجاهم سبحانه - مما أراده لهم أعداؤهم من شرور واستئصال .وبعد هذه النداءات والتكليفات التي كلف الله - تعالى - بها المؤمنين ، شرعت السورة الكريمة في الحديث عن أحوال أهل الكتاب من اليهود ، فذكرت ما أخذه الله عليهم من عهود ): - موثقة ، وموقفهم منها ، وعقوبتهم على نقضهم لها . فقال - تعالى ( . . . وَلَقَدْ أَخَذَ الله مِيثَاقَ بني إِسْرَآئِيلَ

ولقد اخذ الله ميثاق بني اسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا وقال الله اني معكم لئن اقمتم الصلاة واتيتم الزكاة وامنتم برسلي وعزرتموهم واقرضتم الله قرضا حسنا لاكفرن عنكم سيئاتكم ولادخلنكم جنات تجري من تحتها الانهار فمن

كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل

. . . كما فسرها الوسيط ( وَلَقَدْ أَخَذَ اللهِ مِيثَاقَ بني إِسْرَآئِيلَ
قال الفخر الرازي : قوله - تعالى - ( وَلَقَدْ أَخَذَ اللهِ مِيثَاقَ بني(
إِسْرَآئِيلَ وَبَعَثْنَا مِنهُمُ اثني عَشَرَ نَقِيباً وَقَالَ اللهِ
: إِنِّي مَعَكُمْ ) اعلم أن في اتصال هذه الآية بما قبلها وجوه :الأول
أنه - تعالى - خاطب المؤمنين فيما تقدم فقال : ( واذكروا نِعْمَةَ اللهِ
عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الذي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا
وَأَطَعْنَا ) ثم ذكر الآن أنه أخذ الميثاق من بني إسرائيل لكنهم نقضوه
وتركوا الوفاء به ، فلا تكونوا - أيها المؤمنون - مثلهم في هذا الخلق
الذميم .الثاني : أنه لما ذكر قوله : ( اذكروا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ
إِذْ هَمّ قَوْمٌ ) وقد ذكرت بعض الروايات أنها نزلت في اليهود ، وأنهم
أرادوا إيقاع الشر بالمؤمنين . فلما ذكر - سبحانه - ذلك أتبعه بذكر فضائحهم
وبيان أنهم كانوا أبدا مواظبين على نقض العهود والمواثيق .الثالث : أن ،
الغرض من الآيات المتقدمة ترغيب المكلفين في قبول التكاليف وترك التمرد
والعصيان . فذكر - سبحانه - أنه كلف من كان قبل المسلمين كما كلفهم ليعلموا
أن عادة الله في التكليف والالزام غير مخصوصة بهم ، بل هي عادة جارية له مع
جميع عباده .والميثاق : العهد الموثق المؤكد ، مأخوذ من لفظ وثق المتضمن
معنى الشد والربط على الشيء بقوة وإحكام .والمراد به : ما أخذه الله على
بني إسرائيل لكي يؤدوا ما أوجب عليهم من تكاليف ولكي يعملوا بما تضمنته
. التوراة من أحكام وتشريعات وغير ذلك مما جاء فيها .والنقيب : كبير القوم
، والكفيل عليهم والمنقب عن أحوالهم وأسرارهم فيكون شاهدهم وضمينهم وعريفهم
وأصله من النقب وهو الثقب الواسع .قال الآلوسي : والنقيب : قيل فعيل بمعنى
فاعل مشتق من النقب بمعنى التفتيش ومنه ( فَنَقّبُواْ فِي البلاد ) وسمي
بذلك لتفتيشه عن أحوال القوم وأمرهم .قال الزجاج : وأصله من النقيب وهو
الثقب الواسع والطريق في الجبل :ويقول : فلان حسن النقيبة . أي : جميل
الخليقة ، ويقال : فلان نقاب؛ للعالم بالأشياء ، الذكي القلب ، الكثير
البحث عن الأمور .والمعنى : ولقد أخذ الله العهود المؤكدة على بني إسرائيل
لكي يعملوا بما كلفهم من تكاليف ، وأمر نبيه موسى - عليه السلام - أن .
يختار متهم اثني عشر نقيبا . وأن يرسل هؤلاء النقباء إلى الأرض المقدسة لكي
يطلعوا على أحوال ساكنيها ، ثم يخبروا نبيهم موسى - عليه السلام - بعد ذلك
بما شاهدوه من أحوالهم .وسنفصل القول في شأن بعث هؤلاء النقباء عند تفسيرنا
لقوله - تعالى - بعد ذلك ( وَإِذْ قَالَ موسى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ اذكروا
نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَآءَ وَجَعَلَكُمْ
مّلُوكاً ) وأكد - سبحانه - ما أخذه على بني إسرائيل من عهود بقد وباللام
- للاهتمام بشأن هذا الخبر ، ولترغيب المؤمنين في الوفاء بعهودهم مع الله ،
تعالى - حتى لا يصيبهم ما أصاب بني إسرائيل من عقوبات بسبب نقضهم لمواثيقهم
- وأسند - سبحانه - الأخذ إليه ، لأنه هو الذي أمر به موسى - عليه السلام.
ولأن في إسناد أخذ الميثاق إليه - سبحانه - ما أخذه على بني إسرائيل من
عهود بقد وباللام ، للاهتمام بشأن هذا الخبر ، ولترغيب المؤمنين في الوفاء
بعهودهم مع الله - تعالى - حتى لا يصيبهم ما أصاب بني إسرائيل من عقوبات
بسبب نقضهم لمواثيقهم .وأسند - سبحانه - الأخذ إلأيه ، لأنه هو الذي أمر به
موسى - عليه السلام - ولأن في إسناد أخذ الميثاق إليه - سبحانه - زيادة في
توثيقه ، وتعظيم توكيده وأي عهد يكون أقوى وأوثق من عهد يكون بين العبد
- والرب؟وفي قوله : ( وَبَعَثْنَا ) التفات إلى المتلكم العظيم - سبحانه
لتهويل شأن هذا الابتعاث ، لأن الله - تعالى - هو الذي أمر به .وإنما اختار
موسى - عليه السلام - اثني عشر نقيبا من بني إسرائيل لأنهم كانوا اثني عشر
سبطا ، كما قال - تعالى - ( وَقَطَّعْنَاهُمُ اثنتي عَشْرَةَ أَسْبَاطاً
أُمَماً ) ولأن كل نقيب كان بمنزلة الرقيب على القبيلة التي هو منها يذكرها
بالفضائل ويرغبها في اتباع موسى - عليه السلام - وينهاها عن معصيته
والمعية في قوله - تعالى - ( وَقَالَ اللهِ إِنِّي مَعَكُمْ ) معية مجازية.
بمعنى الحفظ والرعاية والنصرة .أي : أخذ الله على بني إسرائيل العهود
الموثقة ، وأمر نبيه موسى أن يرسل منهم اثني عشر نقيبا لمعرفة أحوال
، الجبارين الذين يسكنون الأرض المقدسة وقال الله - تعالى - لهؤلاء النقباء
. أو لبني إسرائيل جميعا : إني معكم لا تخفى علىّ خافية من أحوالكم
وسأؤيدكم برعايتي ونصري متى وفيتم بعهدي ، واتبعتم رسلي . فالجملة الكريمة
تحذير لهم من معصية الله؛ لأنه لا تخفى عليه خافية ، ووعد لهم بالنصر متى
أطاعوه .ثم بين - سبحانه - بعض التكاليف التي كلفهم بها ، وأخذ عليهم العهد
بالمحافظة عليها فقال : ( لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصلاة وَآتَيْتُمُ الزكاة
وَآمَنتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ الله قَرْضاً
حَسَناً لأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ) .واللام في قوله ( لئن ) موطئة
للقسم المحذوف ، و " إن " شرطية ، وقوله : ( لأكفرن ) جواب القسم وجواب
الشرط محذوف لدلالة جواب القسم عليه .وقوله : ( وَعَزّرْتُمُوهُمْ ) من

التعزيز بمعنى النصر والإعانة مع التعظيم والتفخيم يقال : عزر فلان فلانا إذا نصره وقواه ، وأصل معناه : المنع والذب؛ لأن من نصر إنسانا منع عنه أعداءه .والمعنى : لئن داومتم على إقامة الصلاة ، وعلى أدائها على الوجه الأكمل بخضوع وخشوع ، وأعطيتم الزكاة لمستحقيها ( وَآمَنتُمْ بِرُسُلِي ) إيمانا كاملا ، ونصرتموهم مع تعظيمهم وطاعتهم ( وَأَقْرَضْتُمُ الله قَرْضاً حَسَناً ) بأن أنفقتم جانبا من أموالكم في وجوه الخير والبر ، لئن فعلتم ذلك ( لأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ) بأن أغفرها لكم ، ولأدخلنكم في الآخرة جنات تجري من تحت أشجارها وبساتينها الأنهار .فأنت ترى أن الله - تعالى - قد كلف بني إسرائيل بخمسة أمور نافعة ووعدهم على أدائها بتكفير سيئاتهم في الدنيا ، وبإدخالهم جناته في الآخرة .قال الإمام الرازي وأخر - سبحانه - الإيمان بالرسل عن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة مع أنه : مقدم عليها؛ لأن اليهود كانوا مقربين بأنه لا بد من حصول النجاة من الصلاة وإيتاء الزكاة إلا أنهم كانوا مصرين على تكذيب بعض الرسل . فذكر بعد إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة أنه لا بد من الإيمان بجميع الرسل حتى يحصل المقصود وإلا لم يكن لإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة تأثير في حصول النجاة بدون . الإيمان بجميع الرسل .والمراد بالزكاة في قوله ( وَآتَيْتُمُ الزكاة ) الزكاة المفروضة .والمراد بالقرض الحسن في قوله ( وَأَقْرَضْتُمُ الله قَرْضاً حَسَناً ) الصدقات غير المفروضة التي يبذلها القادرون عليها في ) : وجوه الخير المتنوعة بدون رياء أو أذى وفي التعبير بقوله وَأَقْرَضْتُمُ الله قَرْضاً حَسَناً ) تأنيس للقلوب وترغيب للنفوس في البذل والعطاء ، حيث شبه - سبحانه - ما يعطي للمحتاج رغبة في الثواب بالقرض - الذي سيكافئ الله - تعالى - صاحبه عليه بأضعافه من الخير والنعم .وأضاف سبحانه - الرسل إليه في قوله ( وَآمَنتُمْ بِرُسُلِي ) لتشريفهم وتكريمهم وتعظيم شأن رسالاتهم وللإشارة إلى أن الإيمان بهم جميعا واجب ، فمن أطاعهم قد أطاع الله ، ومن كفر بواحد منهم كفر بالله - تعالى - .ثم بعد أن فتح الله - تعالى - لهم باب كرمه إن أدوا ما أمرهم به حذرهم من المخالفة والعصيان فقال : ( فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذلك مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ السبيل ) أي : فمن جحد منكم شيئاً مما أمرته به فتركه ، أو أعرض عن التكاليف التي كلفته بها بعد أن عرفها فقد بعد عن السبيل المستوية ، أخطأ الطريق الواضح المستقيم ، وسار في متاهات الضلال التي لا هداية فيها ولا خير معها .فالجملة الكريمة تهديد شديد لمن ترك الدين الحق واتجه إلى الأديان الباطلة .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : من كفر قبل ذلك أيضاً فقد ضل سواء السبيل ، فلم قال : ( فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذلك ) قلت : أجل من كفر قبل ذلك أيضاً فقد ضل . ولكن الضلال بعده أظهر وأعظم : لأن الكفر إنما عظم قبحه لعظم النعم المكفورة ، فإذا زادت النعمة زاد قبح الكفر وبلغ النهاية العظمى وبذلك نرى الآية الكريمة قد بينت أن الله - تعالى - قد أخذ الميثاق على. بني إسرائيل بأن يقوموا بالتكليفات التي كلفهم بها ، وحذرهم من النقض والخيانة والكفر ، ورغبهم في الطاعة والإيمان فماذا كان موقفهم من عهود الله - تعالى -؟

فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم الا قليلا منهم فاعف عنهم واصفح ان الله يحب المحسنين

كما فسرها الوسيط لقد بين - سبحانه - جانبا من رذائلهم ، ومن العقوبات التي عاقبهم بها بسبب فسوقهم عن أمره فقال : ( فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الكلم عَن : مّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظّا مِّمّا ذُكِرُواْ بِهِ ) .والفاء في قوله للتفريع على ما تقدم من الحديث عنهم ، والباء ( فَبِمَا نَقْضِهِم ) - للسببية و " ما " مزيدة لتوكيد الكلام وتمكينه في النفس والجار والمجرور متعلق بقوله : ( لَعنَّاهُمْ ) .وقوله : ( وَجَعَلنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ) معطوف على ما قبله .وقوله : ( قَاسِيَةً ) بوزن فاعلة - من القسوة بمعنى الصلابة واليبوسة يقال : قسا قلبه يقسو فهو قاس ، إذا غلظ واشتد وصار يابسا صلبا .وقساوة القلب هنا مجاز عن عدم تأثره بالمواعظ والترغيب والترهيب .أي فبسبب جرائمهم الشديدة أبعدناهم من رحمتنا وجعلنا قلوبهم يابسة غليظة تنبو عن قبول الحق ولا تتأثر بالمواعظ والنذر .وقرأ حمزة والكسائي : ( وجعلنا قلوبهم قسية ) بتشديد الياء من غير ألف على وزن فعيلة .وللمفسرين في معناها رأيان :أحدهما : ( قسية ) بمعنى قاسية ، غير أن فيها مبالغة ، إذ هي على وزن فعيلة ، وهذه الصفة تدل على تمكن صفة القسوة من قلوبهم .والثاني : أن معنى ( قسية ) هنا غير معنى قاسية ، لأن قسية في هذا الموضع مأخوذة من قولهم : درهم قسى - على وزن شقى - أي : فاسد رديء لأنه مغشوش بنحاس أو غيره مما يخلو منه الدرهم السليم .والمعنى على هذا الوجه : وجعلنا قلوبهم إيمانها ليس خالصا وإنما يخالطه كفر ونفاق كالدراهم القسية التي يخالط فضتها غش من نحاس أو رصاص أو غيرهما .وقد رجح ابن جرير

الرأي الأول - وهو أن قسية بمعنى قاسية غير أن فيها مبالغة - فقال ( وأولى التأويلين عندي بالصواب تأويل من تأول فعيلة من القسوة كما قيل : نفس زكية وزاكية ، وامرأة شاهدة وشهيدة ، لأن الله - تعالى - وصف القوم بنقضهم ميثاقهم ، وكفرهم به ، ولم يصفهم بشيء من الإيمان فتكون قلوبهم موصوفة بأن إيمانها يخالطه كفر كالدراهم القسية التي يخالط فضتها غش ) .وأما صاحب الكشاف فقد رد التفسير الثاني إلى الأول وجعل بينهما تعانقا وتلازماً في المعنى فقال : وقرأ عبد الله ( قسية ) أي : ردية مغشوشة . من قولهم : درهم قسى وهو من القسوة ، لأن الذهب والفضة الخالصين فيهما لين ، والمغشوش فيه يبس وصلابة .وقوله : ( يُحَرِّفُونَ الكلم عَن مَّوَاضِعِهِ ) استئناف مبين لشدة قساوة قلوبهم ، فإنه لا قسوة أشد من تحريف كلام الله - تعالى - والميل به عن الحق والصواب .أي : أنهم بلغ بهم الحال في قسوة قلوبهم ، وعدم تأثرها بوعيد الله أنهم يميلون كلامه - سبحانه - عن الموضع الذي نزل فيه ولأجله عن طريق التأويل الباطل ، أو التفسير الفاسد ، أو التبديل للألفاظ بالزيادة تراة وبالنقصان أخرى ، على حسب ما تمليه عليهم أهواؤهم وشهواتهم الممقوتة وعبر - سبحانه - بقوله : ( يُحَرِّفُونَ ) بصيغة الفعل المضارع ، لاستحضار صورة هؤلاء المحرفين . والدلالة على أن أبناءهم قد نهجوا نهج آبائهم في هذا الخلق الذميم .فإن هذا التحريف الذي حكاه الله - تعالى - في هذه الآية قد كان من بني إسرائيل بعد عهد موسى - عليه السلام - واستمروا على ذلك دون أن يصدهم عنه ما كان من نصح النبي صلى الله عليه وسلم لهم ومن تحذيره إياهم والمراد بالنسيان في قوله : ( وَنَسُواْ حَظّاً مِّمَّا ذُكِرُواْ بِهِ ) . الترك والإهمال قال الراغب : ( النسيان : ترك الإنسان ضبط ما استودع ( إما لضعف قلبه ، وإما عن غفلة ، وإما عن قصد حتى يزول عن القلب ذكره والأنواع الثلاثة التي ذكرها الراغب كأسباب للنسيان قد فعلها بنو إسرائيل. ، فهم قد أصابتهم الغفلة عن تدبر كتابهم والعمل بما فيه بسبب ضعف قلوبهم واستيلاء المطامع والشهوات عليها وأهملوا أمر دينهم وشريعتهم ولم يقيدوا أنفسهم بها عن تعمد وإصرار ، لأن تنفيذها يكلفهم الاستقامة على دين الله وهذا ما تأباه نفوسهم الجامحة وشهواتهم العارمة .والتنكير في قوله ( حَظّاً للتكثير والتهويل . أي : تركوا نصيبا كبيراً مما أمرتهم به شريعتهم ( وذكرتهم به توراتهم من وجوب اتباعهم للحق وإيمانهم بمحمد - صلى الله عليه وسلم - عند ظهوره .وهذه الجملة الكريمة وما يشبهها مما أورده القرآن في هذا المعنى تعتبر من المعجزات الدالة على صدق القرآن الكريم فإن الناس قبل البعثة النبوية الشريفة لم يكونوا يعرفون أن اليهود نسوا حظا كبيرا مما ذكرتهم به توراتهم ، فلما بين القرآن ذلك ، عرفوا ما لم يكونوا يعرفونه من قبل .ولما كانت أخلاق الآباء كثيراً ما يتوارثها الأبناء ، فقد رأينا ، القرآن الكريم يحذر النبي صلى الله عليه وسلم من اليهود المعاصرين له والذين ورثوا رذائل آبائهم فقال : ( وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ على خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ ) .وقوله ( خَآئِنَةٍ ) بمعنى الخيانة - أي عدم الوفاء بالعهد . فهي مصدر على وزن فاعله كالعافية والطاغية . قال تعالى - ( فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بالطاغية ) أي بالطغيان . ويحتمل أن يكون قوله ( خائنة ) صفة لموصوف محذوف أي على فرقة خائنة أو طائفة والمعنى : ولا تزال - أيها الرسول الكريم - ترى في هؤلاء اليهود المعاصرين. لك صورة السابقين في الغدر والخيانة . وإن تباعدت الأزمان فهؤلاء الذين يعاصرونك فيهم خيانة أسلافهم ، وغدرهم ونقضهم لعهودهم . إلا قليلا منهم دخلوا في الإسلام فوفوا بعهودهم ولم يكونوا ناقضين لها .وفي هذه الجملة الكريمة تسلية للرسول - صلى الله عليه وسلم عما لقيه من اليهود المعاصرين له من كيد ومكر وخيانة . فكأنه الله - تعالى - يقول له إن ما تراه منهم من غدر وخداع ليس شيئاً مستبعداً ، بل هو طبيعة فيهم ورثوها عن آبائهم منذ زمن بعيد : وفيها - أيضاً - تحذير له صلى الله عليه وسلم من شرورهم ومن مسالكم الخبيثة لكيد الإسلام والمسلمين فإن التعبير بقوله ( وَلاَ تَزَالُ ) المفيد للدوام والاستمرار يدل على استمرار خيانتهم ودوام نقضهم لعهودهم ومواثيقهم .وقوله : ( إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ ) استثناء من الضمير ، المجرور في قوله ( خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ ) والمراد بهذا العدد القليل منهم أولئك الذين دخلوا في الإسلام ، واتبعوا الحق كعبد الله بن سلام وأمثاله ثم ختم سبحانه - الآية بقوله : ( فاعف عَنْهُمْ واصفح إِنَّ الله يُحِبُّ. المحسنين ) والعفو عدم مقابلة الإساءة بمثلها .والصفح : ترك اللوم والمعاتبة . ولذا قالوا : الصفح أعلى رتبة من العفو ، لأن العفو ترك المقابلة بالمثل ظاهراً . أما الصفح فهو يتناول السماحة النفسية واعتبار الإساءة كأن لم تكن في الظاهر والباطن .وللعلماء أقوال في المراد بالذين أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالعفو والصفح عنه :1 - فيرى بعضهم أن المراد بهم ، القلة اليهودية التي أسلمت ، واستثناها الله بقوله ( إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ ) وهذا الرأي مردود بأنهم ما داموا قد آمنوا ، فقد عصموا دماءهم وأموالهم ، ولم يصبح للعفو والصفح عنهم موضع .2 - ويرى آخرون أن الذين أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالعفو والصفح عنهم هم كافة اليهود ، إلا أن الآية نسخت بآية التوبة وهي قوله ( قَاتِلُواْ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالله

وَلاَ باليوم الآخر وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرّمَ الله وَرَسُولُهُ وَلاَ
يَدِينُونَ دِينَ الحق مِنَ الذين أُوتُوا الكتاب حتى يُعْطُواْ الجزية
عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ) وهذا الرأي ضعيف لأن النسخ لا يصار إليه إلا
إذا تعذر الجمع بين الآيتين وهو غير متعذر - كما سنبين .3 - ويرى أبو مسلم
أن المراد بهم اليهود الذين بقوا على كفرهم ولكنهم لم ينقضوا عهودهم .والذي
نراه أولى أن العفو والصفح عام لليهود ، وأن من مظاهر ذلك مسالمتهم
ومساكنتهم ، ومجادلتهم بالتي هي أحسن ومعاملتهم بمبدأ لهم ما لنا وعليهم ما
علينا ، مع العفو عن زلاتهم التي لا تؤثر على كيان الدعوة الإسلامية .فإذا
ما نقضوا عهودهم وخانوا الله ورسوله والمؤمنين ، وأصبح العفو عنهم فيه مضرة
بالمسلمين ففي هذه الحالة تجب معاملتهم بالطريقة التي تقى المسلمين شرورهم
لأن العفو عنهم - عند استلزام قتالهم للدفاع عن النفس وعن العقيدة - يكون ،
إلقاء بالنفس إلى التهلكة ويكون قد وضع العفو في غير موضعه . وهذا القول
- يقارب ما ذهب إليه أبو مسلم . وربما اعتبر توضيحاً له . فكأن الله
تعالى - يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم فاعف عن هؤلاء اليهود الذين ورثوا
الخيانة عن آبائهم ، واصفح عن زلاتهم التي لا تؤثر في سير الدعوة
الإسلامية إلى الوقت المناسب لمحاسبتهم ، إن الله تعالى يحب المحسنين
وبذلك نرى السورة الكريمة قد بينت جانباً مما أخذ الله على بني إسرائيل من.
عهود ومواثيق ، ورغّبتهم في الوفاء بها وحذرتهم . من نقضها ، كما بينت بعض
العقوبات التي عاقبتهم الله بها بسبب فسوقهم عن أمره ورسمت للنبي صلى الله
. عليه وسلم طريق معالجتهم ومعاملتهم بما يقي المسلمين من شرورهم ومكرهم

ومن الذين قالوا انا نصارى اخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فاغرينا
بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون

كما فسرها الوسيط وبعد أن بين - سبحانه - جانباً من قبائح اليهود ونقضهم
لمواثيقهم عقب ذلك ببيان حال النصارى فقال - تعالى - :( وَمِنَ الذين
قَالُواْ إِنّا نصارى أَخَذْنَا . . . )قوله - تعالى - : ( وَمِنَ الذين
قَالُواْ إِنَّا نصارى ) معطوف على قوله قبل ذلك : ( وَلَقَدْ أَخَذَ الله
مِيثَاقَ بني إِسْرَآئِيلَ ) ونسب - سبحانه - تسميتهم نصارى إلى أنفسهم
فقال : ( وَمِنَ الذين قَالُواْ إِنّا نصارى ) جمع نصران كندامى جمع ندمان
ولم يستعمل نصران إلا بياء النسب . وقد صارت كلمة نصراني لكل من اعتنق ،
المسيحية .وقد سموا بذلك لدعواهم أنهم أنصار عيسى على أعدائهم . أو نسبة
إلى بلدة الناصرة التي فيها نشأ عيسى - عليه السلام - وأعلن دعوته للناس
والمعنى : وكما أخذنا على بني إسرائيل الميثاق بأن يعبدوا الله وحده.
ويطيعوا أنبياءه ، ويستجيبوا لمحمد صلى الله عليه وسلم الذي بشرت به الكتب
، السماوية ، فقد أخذنا - أيضاً - من الذين قالوا إنا نصارى الميثاق بذلك
ولكنهم كان شأنهم في الكفر ونقض العهود كشأن اليهود ، إذ ترك هؤلاء الذين
قالوا إنا نصارى قدراً كبيراً ، ونصيباً عظيما مما ذكروا به على لسان عيسى
عليه السلام - فقد أمرهم بتوحيد الله ، وبشرهم بظهور رسول من بعده هو محمد
صلى الله عليه وسلم ودعاهم إلى الإيمان به ، ولكنهم استحبوا الكفر على
- الإيمان ، فكان دأبهم كدأب بني إسرائيل في العناد والضلال ونسب
سبحانه - تسميتهم نصارى إلى أنفسهم فقال : ( وَمِنَ الذين قَالُواْ إِنّا
نصارى ) ولم يقل : " ومن النصارى " للإشارة إلى أن ادعاءهم النصرانية وهي
الدين الذي جاء به عيسى . إنما هو قول يقولونه بافواههم دون أن يتبعوه
بقلوبهم إذ لو كانوا متبعين حقاً لما جاء به عيسى عليه السلام - لأقروا
لله - تعالى - بالوحدانية ولآمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم الذي بشر به
عيسى - عليه السلام - .وإلى هذا المعنى أشار - صاحب الكشاف بقوله : فإن قلت
فهلا قيل : ومن النصارى؟قلت : لأنهم إنما سموا أنفسهم بذلك ادعاء لنصرة :
الله ، وهم الذين قالوا لعيسى : نحن أنصار الله . ثم اختلفوا بعد : نسطورية
ويعقوبية وملكانية ، أنصاراً للشيطان .وقوله - تعالى : ( فَنَسُواْ ،
: حَظّاً مِّمّا ذُكِرُواْ بِهِ ) بيان لما حدث منهم بعد أخذ الميثاق .أي
أخذنا من الذين قالوا إنا نصارى ميثاقهم على أن يعبدوا الله وحده ويطيعوا
أنبياءه ورسله ولكنهم لم يكونوا أوفياء بعهودهم ، بل تركوا نصيباً كبيرا
مما أمروا بفعله ومما ذكروا به على لسان المسيح عيسى بن مريم . والمراد
بالنسيان هنا الترك والإهمال عن تعمد وقصد ، لأن الناسي حقيقة لا يؤاخذه
الله - تعالى - :والإتيان بالفاء في قوله : ( فَنَسُواْ ) للإشارة إلى أن
تركهم لما أخذ عليهم من ميثاق ، كان عن تعجل وعدم تمهل بسبب استيلاء
الأهواء والشهوات على نفوسهم .والتنكير في قوله تعالى : ( حَظّاً ) للتهويل
والتكثير .أي تركوا نصيباً كبيراً مما أمرتهم به شريعتهم من وجوب ابتاعهم
للحق وإيمانهم بمحمد صلى الله عليه وسلم عن ظهوره " فكان تركهم لهذا النصيب
" : العظيم مما ذكروا به سببا في ضلالهم وسوء عاقبتهم " .قال بعضه العلماء
وسبب نسيان حظ أي نصيب كبير مما ذكروا به ، هو اضطهاد النصارى اضطهاداً
شديداً في عهد الرومان حتى ضاعت كتبهم ولم يعرف شيء منها إلا قليل غير سليم
بعد مائتي سنة من ترك المسيح هذه الدنيا . وما ظهرت هذه الأناجيل التي

- يتدارسونها - ولا يزالون يغيرون ويبدلون فيها على حسب الطبعات المختلفة إلا بعد أن دخل قسطنطين أمبراطور الرومان في المسيحية ، وغير وبدل في مجمع نيقية الذي انعقد في سنة 325 ميلادية .وقد ذهب لب الديانة وهو التوحيد وقوله : ( فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ العداوة والبغضآء إلى يَوْمِ القيامة. وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ الله بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ) وعيد شديد لهم - تعالى - بسبب تركهم لما أرشدوا إليه ، ولما ذكروا به .فالفاء في قوله ( فَأَغْرَيْنَا ) للسببية وأغرينا أي : ألقينا وهيجنا وألصقنا . يقال أغريت فلانا بكذا حتى أغرى به ، أي : ألزمته به وألصقته وأصل ذلك من الغراء وهو ما يلتصق به الشيء .وقوله : ( بينهم ) ظرف لأغرينا . والضمير فيه يعود إلى فرق النصارى المتعددة عند جمهور المفسرين ،والمعنى: بسبب ترك هؤلاء الذين قالوا إنا نصارى لما ذكروا به فرقناهم شيعاً وأحزاباً وجعلنا كل فرقة منهم تعادي الأخرى وتبغضها إلى يوم القيامة .ويرى بعضهم أن الضمير في قوله ( بينهم ) : تعود إلى اليهود والنصارى ، فيكون المعنى :بسبب ما عليه الطائفتان من عناد وضلال ، ألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة فهم في عداوة شديدة ، وكراهية مستحكمة .وقد رجح ابن جرير عودة الضمير إلى ، فرق النصارى فقال :وأولى التأويلين بالآية عندي : ما قاله الربيع بن أنس وغيره . وهو أن المعنى بالإغراء بينهم : النصارى في هذه الآية خاصة وأن الهاء والميم عائدتان على النصارى ، دون اليهود ، لأن ذكر الإغراء في خبر ، الله عن النصارى بعد تقضى خبره عن اليهود ، وبعد ابتداء خبره عن النصارى فلأن يكون ذلك معنياً به النصارى خاصة . أولى من أن يكون معنيا به الحزبان جميعا لام ذكرناه .وقال ابن كثير : قوله - تعالى - : ( فَنَسُواْ حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ العداوة والبغضآء إلى يَوْمِ القيامة ) أي : فألقينا بينهم العداوة والبغضاء لبعضهم بعضا ، ولا يزالون كذلك إلى يوم قيام الساعة . وكذلك طوائف النصارى على اختلاف أجناسهم لا يزالون متباغضين متعادين يكفر بعضهم بعضا ، ويلعن بعضهم بعضا ، فكل فرقة تحرم الأخرى ولا تدعها تلج معبدها فالملكانية تكفر اليعقوبية ، وكذلك الآخرون . وكذلك النسطورية الآريوسية كل طائفة تكفر الأخرى في هذه الدنيا ويوم يقود الأشهاد .والذي تطمئن إليه النفس أن قوله - تعالى - : ( فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ العداوة والبغضآء إلى يَوْمِ القيامة ) يشمل ما بين اليهود والنصارى من عداوة ظاهرة مستحكمة يراها الرائي في كل العصور والأزمان ، كما يشمل ما بين فرق النصارى من اختلاف وتباغض وتقاتل بسبب عقائدهم الزائغة وأهوائهم الفاسدة .وما نراه من تصارع وتقاتل بين طائفتي الكاثوليك والبروستانت في . إيرلاندا وفي غيرها خير شاهد على صدق القرآن الكريم ، وأنه من عند الله - عز وجل -وقوله - تعالى - : ( وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ الله بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ) بيان لسوء عاقبتهم في الآخرة بعد بيان ما حكم به عليه في الدنيا من عداوة وبغضاء . ( سوف ) هنا لتأكيد الخبر وتقويته وبيان أنه وإن تأخر آت لا محالة .والمعنى : لقد ألقينا العداوة والبغضاء بين هذه الطوائف الضالة وسوف يخبرهم الله في الآخرة بما كانوا يصنعون من كتمان الحق ، ومخالفة للرسل ، وانغماس في الباطل ، وسيجازيهم على كل ذلك بما يستحقون من عذاب شديد .

يا اهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين

كما فسرها الوسيط وبعد أن بين - سبحانه - بعض الرذائل التي انغمس فيها اليهود والنصارى . وجه إليهم نداء دعاهم فيه إلى الدخول في الدين الحق الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فقال : تعالى :( يَا أَهْلَ الكتاب قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ . . . )المعنى : ( يَا أَهْلَ الكتاب ) من اليهود والنصارى ( قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا ) محمد صلى الله عليه وسلم ) : يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الكتاب ) أي يظهركم لكم كثيراً من الأحكام والمسائل التي ذكرتها كتبكم وكتمتموها عن الناس ، كإخفائكم صفة النبي صلى الله عليه وسلم التي تجدونها في التوراة والإنجيل وكتمانكم ما جاء فيها من بشارات تبشر به . وغير ذلك من الأحكام التي أخفاها علماؤكم عن العامة ، وتولي الرسول صلى الله عليه وسلم إعلانها إظهاراً للحق ، ووضعا للأمور في نصابها .وقوله : ( وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ) أي : يعرض ولا يظهر كثيراً مما كنتم تخفونه ، لأنه لا ضرورة تدعو إلى بيانه ، ولا فائدة تعود على الناس من وراء إظهاره ، ففي السكوت عنه رحمة بكم ، وصيانة لكم عن الافتضاح والمؤاخذة .يقال : عفا عن المذنب ، أي : ستر عنه ذنبه فلم يعاقبه عليه .والمراد بالكتاب في قوله ( يَا أَهْلَ الكتاب ) جنس الكتب ، فيشمل التوراة والإنجيل .وفي ندائهم بهذا الوصف حمل لهم على الدخول في الإسلام؛ فإن علمهم بما في كتبهم من بشارات بالرسول صلى الله عليه ولم يدعوهم إلى الإيمان به . فإذا لم يؤمنوا به مع علمهم بأنه رسول صادق في رسالته كانت مذمتهم أشد وأقبح ، وكان عقابهم على كتمانهم الحق أعظم وأقسى . وكان التعبير بقوله - تعالى - ( قَدْ جَآءَكُمْ ) للإشارة إلى أنه

صلى الله عليه وسلم قد وصل إليهم ، ويعيش بينهم ، فهم يرونه ويراهم ويخاطبهم ويخاطبونه ، ليسمعوا منه ما يشهد بصدقه بدون حجاب أو وساطة .وفي التعبير بقوله - تعالى - ( رَسُولُنَا ) تشريف للرسول صلى الله عليه وسلم حيث أضافه - سبحانه - إلى ذاته ، وفيه كذلك إيذان بوجوب اتباعه لأنه رسول مبلغ عن الله - تعالى - ما يأمره بتبليغه بدون تغيير أو تبديل .والمراد بالكتاب في قوله : ( تُخْفُونَ مِنَ الكتاب ) التوراة والإنجيل . فقد امتدت أيدي اليهود والنصارى إلى هذين الكتابين فغيروا وبدلوا فيهما على حسب ما تمليه عليهم أهواؤهم وشهواتهم .وفي إظهار الرسول صلى الله عليه وسلم للكثير مما كتموه ، وعفوه عن الكثير مما أخفوه ، معجزة له ، لأنه لم يقرأ كتابا ، ولم يجلس أمام معلم ، فإخباره بأسرار ما في كتبهم إخبار عن أمور مغيبة ، فيكون معجزة له تحملهم على الإيمان به فيما يدعوهم إليه .ثم مدح الله - تعالى - رسوله ، وما جاء به من الخير والهدى فقال : ( قَدْ جَآءَكُمْ مِّنَ الله نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ) .والمراد بالنور هنا : محمد صلى الله عليه وسلم فهو نور الأنوار - كما يقول الآلوسي .والمراد بالكتاب : القرآن الكريم الذي أنزله - تعالى - على نبيه صلى الله عليه وسلم والجملة الكريمة مستأنفة مسووقة لبيان أن فائدة مجيء الرسول صلى الله عليه وسلم ليست منحصرة فيما ذكر من بيان ما كانوا يخفونه ، بل له منافع أخرى لا تحصى .قال ابن جرير ما ملخصه ، قوله : - تعالى - ( قَدْ جَآءَكُمْ مِّنَ الله نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ) يقول - جل ثناؤه - لهؤلاء الذين خاطبهم من أهل الكتاب : " قد جاءكم يا أهل التوراة والإنجيل من الله نور هو محمد صلى الله عليه وسلم الذي أنار الله به الحق ، وأظهر به الإسلام ومحق به الشرك قوله ( وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ) يعني : " كتابا فيه بيان ما اختلفوا فيه " بينهم من توحيد الله ، وحلاله وحرامه وشرائع دينه وهو القرآن الذي أنزله على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .ويرى بعض المفسرين أن المراد بالنور وبالكتاب هنا : القرآن الكريم .وقد اقتصر على هذا التفسير صاحب الكشاف فقال قوله : ( قَدْ جَآءَكُمْ مِّنَ الله نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ) يريد : القرآن لكشفه ظلمات الشرك والشك ، ولإبانته ما كان خافيا عن الناس من الحق أو لأنه ظاهر الإعجاز .ويبدو لنا أن ما ذهب إليه ابن جرير أرجح ، لأن ، العطف في الغالب يقتضي المغايرة في الذات إذ الرسول صلى الله عليه وسلم قد جاء للناس برسالة هي نور في شخصه صلى الله عليه وسلم كما جاءهم بالقرآن الكريم الدال على صدقه في رسالته .

يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - الغاية من رسالته صلى الله عليه وسلم فقال - تعالى - ( يَهْدِي بِهِ الله مَنِ اتبع رِضْوَانَهُ سُبُلَ السلام ) والضمير في قوله ( به ) يعود إلى مجموع ما ذكر ، أو إلى الكتاب المبين. باعتباره أقرب مذكور و ( سبل ) جمع سبيل بمعنى طريق . و ( السلام ) مصدر بمعنى السلامة .والمعنى : قد جاءكم - يا معشر أهل الكتاب - من الله نور وكتاب مبين - يهدي الله - تعالى - بذلك أو بالكتاب ( مَنِ اتبع رِضْوَانَهُ ) أي : من علم - سبحانه - منه أنه يريد اتباع ما يرضي بأن يخلص له العبادة ( - ويستجيب للحق الذي أرسل به أنبياءه فإنه متى كان كذلك ، أوصله - سبحانه إلى ( سُبُلَ السلام ) أي : إلى طرق السلامة والنجاة من كل خوف وشقاء ، بأن يثبته في الدنيا على طريق الحق ، ويكرمه في الآخرة بمثوبته وجنته هذه هي الثمرة الأولى من ثمار اتباع ما جاء من عندالله من نور وكتاب مبين . أما الثمرة الثانية فقد بينها - سبحانه - بقوله : ( وَيُخْرِجُهُمْ مِّنِ الظلمات إِلَى النور بِإِذْنِهِ ) .والضمير المنصوب في قوله ( ويخرجهم ) وهو ( هم ) يعود إلى ( من ) في قوله ( مَنِ اتبع رِضْوَانَهُ ) باعتبار المعنى .أي : ويخرج - سبحانه - هؤلاء الأخيار الذين علم منهم اتباع ما يرضيه يخرجهم من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الحق والإيمان ( بإذنه ) أي بإرادته وعلمه .وقوله : ( وَيَهْدِيهِمْ إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ) بيان : - للثمرة الثالثة من ثمار اتباع ما جاء من عند الله من حق وخير .أي : ويهدي سبحانه - هؤلاء الذين علم منهم اتباع ما يرضيه إلى صراط مستقيم ، وطريق قويم لا اعوجاج فيه ولا اضطراب ، وهو طريق الإسلام الذي يوصل إلى الفوز الفلاح في الدنيا والآخرة .وبذلك نرى الآيتين الكريمتين قد دعتا أهل الكتاب ، إلى اتباع الحق الذي جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - من عند الله بأوضح أسلوب ، وأكمل بيان ، وبينتا لهم ما يترتب على اتباعه صلى الله عليه وسلم من منافع جليلة ، وفوائد عظيمة تجعلهم يسارعون إلى تصديقه إن كانوا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئا ان اراد ان يهلك المسيح ابن مريم وامه ومن في الارض جميعا ولله ملك السماوات والارض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير

كما فسرها الوسيط وبعد أن أرشد - سبحانه - أهل الكتاب إلى الطريق القويم الذي يجب عليهم أن يسلكوه ، عقب ذلك ببيان ما عليه النصارى من ضلال وبطلان ) : فقال :( لَّقَدْ كَفَرَ الذين قآلوا إِنّ . . . )اللام في قوله لّقَدْ كَفَرَ ) واقعة جواباً لقسم مقدر .والمراد بالكفر : ستر الحق وإنكاره ، والانغماس في الباطل والضلال . والمعنى : أقسم لقد كفر أولئك النصارى الذين قالوا كذبا وزورا : إن الله المستحق للعبادة والخضوع هو المسيح عيسى ابن مريم .قال بعض العلما ما ملخصه : " لقد اتفق النصارى على أن يسوع عندهم فيه عنصر إلهي " وإذا كان الأمر المعروف عندهم أن يسوع ابن الله وفيه عنصر إلهي فقد قالوا : إن الألوهية قد حلت فيه . ولازم ذلك القول أن يكون هو الله ، أو هو إله يعبد ومهما يكون فقد قالوا باتحاد عنصر الألوهية فيه . وقد قال في ذلك البيضاوي : " هم الذين قالوا بالاتحاد منهم : وقيل : لم يصرح به أحد منهم . ولكنهم لما زعموا أن فيه لاهوتا ، وقالوا . لا إله إلا واحد لزمهم أن يكون هو المسيح فنسب إليهم لازم قولهم " .وذلك بلا ريب ينتهي إلى القول بأنهم يعتقدون أن المسيح هو الله ، وإن لم يصرحوا بذلك ، فهو لازم قولهم باتحاد عنصر الأولوهية فيه مع الله .وإن ذلك الكلام تخريج على أن النصارى مذهب واحد في اعتقاد الألوهية وأنه ابن الله وبذلك يكون قوله - تعالى - في أواخر هذه السورة ( لَّقَدْ كَفَرَ الذين قالوا إِنّ الله ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ ) متلاقيا مع هذا النص الكريم فهنا صرح بلازم قولهم وهناك صرح بذات قولهم .والحقيقة أن النصارى اليوم - وهم لا يزالون يغيرون ويبدلون - يصرحون بأن الأقانيم ثلاثة . وأنها شيء واحد . وينتهون إلى أن المسيح هو الله ، والله هو روح القدس . فقد قال الدكتور بوست في تاريخ الكتاب المقدس : " طبيعة الله عبارة عن ثلاثة أقانيم متساوية الجوهر هي : الله الأب ، والله الإبن والله الروح القدس فإلى الأب ينتمي الخلق بواسطة الابن وإلى الابن الفداء ، وإلى الروح القدس التطهير . غير أن ثلاثة الأقانيم تتقاسم جميع الأعمال على السواء . أما مسألة التثليث فغير واضحة في العهد القديم ، كما هي في العهد الجديد .وفي هذا الكلام يتبين أن ، النصارى يصرحون بأن الابن هو الله ، ولا يكون الكلام بطريق اللازم لقولهم بل بطريق الصريح منه . فهم يصرحون بأن الله هو الابن ، كما أن الله هو الأب كما أن الله هو روح القدس .هذا ، وقد أمر الله - تعالى - نبيه صلى الله ، عليه وسلم أن يرد على أولئك الذين قالوا ( إِنّ الله هُوَ المسيح ابن مَرْيَمَ ) بما يكشف عن جهلهم وضلالهم فقال - تعالى - :( فَمَن يَمْلِكُ مِنَ الله شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ المسيح ابن مَرْيَمَ وَأُمّهُ وَمَن فِي الأرض جَمِيعاً ) .أي : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء النصارى الذين قالوا : ( إِنّ الله هُوَ المسيح ابن مَرْيَمَ ) قل لهم على سبيل الإنكار والتوبيخ والتجهيل : من ذا الذي يملك من أمر الله وإرادته شيئاً يدفع به الهلاك عن المسيح وعن أمه وعن سائر أهل الأرض ، إن أراد الله - سبحانه - أن يهلكهم ويبيدهم؟ لا شك أن أحد لن يستطيع أن يمنع إرادته - سبحانه - لأنه هو المالك لأمر الوجود كله ، ولا يملك أحد من أمره شيئاً يستطيع به أن يصرفه عن عمل يريده؛ أو يحمله على أمر لا يريده ، أو يستقل بعمل دونه .وما دام الأمر كذلك فدعوى أن الله هو المسيح ابن مريم ظاهرة البطلان ، لأن المسيح وأمه من مخلوقات الله التي هي قابلة لطروء الهلاك والفناء عليها . وحاشا للمخلوق الفاني أن يكون إلها وإنما الألوهية لله الخالق الباقي ( أَلاَ لَهُ الخلق والأمر تَبَارَكَ الله رَبُّ العالمين ) قال الإمام الرازي ما ملخصه : " احتج - سبحانه - على فساد ما ذهب إليه النصارى بقوله : ( فَمَن يَمْلِكُ مِنَ الله شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ المسيح ابن مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأرض جَمِيعاً ) وهذه جملة شرطية قدم فيها الجزاء على الشرط .والتقدير : إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعا فمن الذي يقدر على أن يدفعه عن مراده ومقدوره . وقوله ( فَمَن يَمْلِكُ مِنَ الله شَيْئاً ) أي : فمن يملك من أفعال الله شيئاً والملك هو القدرة . يعني فمن الذي يقدر على دفع شيء من أفعال الله - تعالى - ومنع شيء من مراده .وقوله : ( وَمَن فِي الأرض جَمِيعاً ) يعني : أن عيسى مشاكل لمن في الأرض في الصورة والخلقة والجسمية والتركيب وتغيير الصفات والأحوال ، فلما سلم كونه - تعالى - خالقا للكل مدبراً للكل وجب أن يكون أيضاً خالقاً لعيسى .وفي توجيه الأمر إلى الرسول صلى الله عليه وسلم للرد عليهم تثبيت له وتقوية لحجته حتى يبطل قولهم الفاسد إبطالا يزداد معه المؤمنون إيمانا بالحق الذي آمنوا به .قال أبو السعود : وإنما نفيت المالكية المذكورة بالاستفهام الإنكاري عن أحد مع تحقيق الإلزام والتبكيت لا بنفيها عن المسيح فقط ، لتحقيق الحق بنفي الألوهية عن كل ما عداه - سبحانه - وإثبات المطلوب في ضمنه بالطريق البرهاني .وتعميم إرادة الإهلاك للكل - مع حصول المطلوب بقصرها على - المسيح - لتهويل الخطب ، وإظهار كمال العجز ببيان أن الكل تحت قهره تعالى - وملكوته .لا يقدر أحد على دفع ما أريد به . فضلا عن دفع ما أريد ، بغيره .وللإيذان بأن المسيح أسوة لسائر المخلوقات في كونه عرضة للهلاك

كما أنه أسوة لها فيما ذكر من العجز ، وعدم استحقاق الألوهية .وتخصيص الأم بالذكر مع اندارجها في عموم المعطوف ، لزيادة تأكيد عجز المسيح ، وأنه هو وأمه عبدان من عباد الله لا يقدران على رفع الهلاك عنهما .وعطف عليهما قوله من باب عطف العام على الخاص ، ليكونا قد ذكرا ( وَمَن فِي الأرض جَمِيعاً ) مرتين . مرة بالنص عليهما . ومرة بالاندراج في العام ، وذلك على سبيل التوكيد والمبالغة في تعلق نفاذ الإرادة فيهما .وقوله ( وَلِلَّهِ مُلْكُ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا ) تأكيد لاختصاص الألوهية به - تعالى - إثر بيان إنتفائها عما سواه .أي : والله - تعالى - وحده دون أن ينازعه منازع . أو يشاركه مشارك ، ملك جميع الموجودات ، والتصرف المطلق فيها ، إيجادا وإعداما ، وإحياء وإماته . فهو المالك للسموات وما فيها وللأرض وما عليها ، ولما بينهما من فضاء تجري فيه السحب بأمره ، ويطير فيه الطير بإذنه وقدرته . وما المسيح وأمه إلا من جملة ما في الأرض ، فهما عبدان من عباد الله يدينان له - سبحانه - بالعبادة والطاعة والخضوع .وقال - سبحانه - ( وَمَا بَيْنَهُمَا ) ولم يقل وما بينهن مع أن السموات بلفظ الجمع ، لأن المراد بالسموات والأرض النوعان أو الصنفان .أي : ولله - تعالى - وحده ملك السموات والأرض وما بين هذين النوعين من مخلوقات خاضعة لمشيئة الله وقدرته وقوله ( يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ) جملة مستأنفة مسوقة لبيان بعض أحكام الملك. والألوهية على وجه يزيح ما اعترى النصارى من شبه في أمر المسيح لولادته من غير أب ، وإحيائه الموتى ، وإبرائه الأكمه والأبرص ، كل ذلك بإذن الله .أي أنه - سبحانه - يخلق ما يشاء أن يخلقه من أنواع الخلق بالكيفية التي يريدها تبعا لمشيئته وإرداته .فتارة يخلق الإنسان من ذكر وأنثى كما هو المعتاد بين الناس ، وتارة يخلقه بدون أب أو أم كما هو الشأن في خلق آدم ، وتارة يخلقه بدون أب كما هو الشأن في خلق عيسى ، إلى ذلك من مخلوقاته التي ليست مقصورة على نوع واحد بل هي شاملة لهذا الكون بما فيه من إنسان وحيوان وجماد ، فكل ما تعلقت إرادته بإيجاده أوجده ، وكل ما تعلقت إرادته بإعدامه أعدمه ، لا راد لمشيئته ولا معقب لحكمه ولا حائل دون نفاذ قدرته .وقوله : ( والله على - كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ) تذييل مقرر لمضمون ما قبله .أي : والله - تعالى قدير على كل شيء ومالك لكل شيء ومهيمن على كل شيء لا يغلبه شيء طلبه ، ولا يعجزه أمر أراده وما عيسى وأمه إلا من مخلوقاته وعبيده ، وحاشا للمخلوق العاجز أن يكون إلها من دون الله - عز وجل - .فهذه الآية الكريمة تحكي أقوال النصارى الباطلة في شأن عيسى - عليه السلام - وترد عليهم بما يزهق باطلهم ، ويثبت أن عيسى إنما هو عبد من عباد الله وأن العبادة إنما تكون لله الواحد القهار .

وقالت اليهود والنصارى نحن ابناء الله واحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل انتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السماوات والارض وما بينهما واليه المصير

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - بعض دعاوى أهل الكتاب الباطلة وأمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يرد عليهم بما يخرس ألسنتهم فقال - تعالى - : ( وَقَالَتِ اليهود والنصارى نَحْنُ . . . )قال الإمام ابن كثير : روى محمد بن إسحاق بن أبي حاتم وابن جرير عن ابن عباس قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة من اليهود فكلموه وكلمهم ودعاهم إلى الله - تعالى - وحذرهم نقمته فقالوا : ما تخوفنا يا محمد؟ نحن أبناء الله وأحباؤه كقول النصارى؛ فأنزل الله - تعالى - فيهم .( وَقَالَتِ اليهود والنصارى نَحْنُ أَبْنَاءُ الله وَأَحِبَّاؤُهُ ) . . الآية .وقوله - تعالى - ( وَقَالَتِ اليهود والنصارى ) حكاية لما صدر عن الفريقين من أقاويل فاسدة ودعاوي باطلة ، يدل على سفاهة عقولهم ، وبلاده تفكيرهم ، حيث قالوا في حق الله - تعالى - ما لا يليق بعظمته - سبحانه - .قال الآلوسي : ما ملخصه : " ومرادهم بالأبناء المقربون . أي نحن مقربون عند الله - تعالى - قرب الأولاد من والدهم . ومن مرادهم بالأحباء : جمع حبيب بمعنى محب أو محبوب .ويجوز أن يكون أرادوا من الأبناء الخاصة ، كما يقال : أبناء الدنيا وأبناء الآخرة . ويجوز أن يكونوا أرادوا بما قالوا أنهم أشياع وأتباع من وصف بالبنوة . أي قالت اليهود : نحن أشياع ابنه عزير . وقالت النصارى : نحن أشياع ابنه عيسى . وأطلق الأبناء على الأشياع مجازا إما تغليبا أو تشبيها لهم بالأبناء في قرب المنزلة . وهذا كما يقول أتباع الملك : نحن الملوك .وقيل الكلام على حذف المضاف . أي نحن أبناء أنبياء الله - تعالى - وهو خلاف الظاهر .ومقصود الفريقين : بقوله - تعالى - حكاية عنهم ( نَحْنُ أَبْنَاءُ الله وَأَحِبَّاؤُهُ ) هو - المعنى المتضمن مدحا ، وحاصل دعواهم أن لهم فضلا ومزية عند الله - تعالى على سائر الخلق .والمعنى : وقالت طائفة اليهود التي تزعم أنها شعب الله المختار ، وقالت طائفة النصارى التي تزعم أنها على الحق دون غيرهم قالت كل طائفة منهما : نحن في القرب من الله - تعالى - بمنزلة أبنائه المدللين ، وأحبائه المختارين ، فلنا من الفضل والمنزلة والتكريم ما ليس لغيرنا من البشر .والذي حملهم على هذا القول الباطل ، جهلهم بما اشتلمت عليه كتبهم ،

" : وتخبطهم في الكفر والضلال وفهمهم السقيم لمعاني الألفاظ .قال ابن كثير
. ونقلوا عن كتبهم أن الله - تعالى - قال لعبده إسرائيل : أنت ابني بكري
فحملوا هذا على غير تأويله وحرفوه . وقد رد عليهم غير واحد ممن أسلم من
عقلائهم . وقالوا : هذا يطلق عندهم على التشريف والإكرام . كما نقل
النصارى عن كتابهم أن عيسى قال لهم : إني ذاهب إلى أبي وأبيكم ، يعني : ربي
وربكم . ومعلوم أنهم لم يدعوا لأنفسهم من البنوة ما ادعوها في عيسى - عليه
) : السلام - وإنما أرادوا بذلك معزتهم لديه ، وحظوتهم عنده ، ولهذا قالوا
) : نَحْنُ أَبْنَاءُ الله وَأَحِبّاؤُهُ ) .وعطف - سبحانه - قولهم
وَأَحِبّاؤُهُ ) على قولهم ( نَحْنُ أَبْنَاءُ الله ) للإشارة إلى غلوهم
في الجهل والغرور ، حيث قصدوا أنهم أبناء محبوبون وليسوا مغضوبا عليهم من
أبيهم بل هم محل رضاه وإكرامه .وقد أمر الله - نبيه صلى الله عليه وسلم أن
يرد عليهم بما يكتبهم فقال : ( قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ
أَنتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ ) .والفاء في قوله ( فَلِمَ يُعَذِّبُكُم )
، للافصاح ، لأنها تفصح عن جواب شرط مقدر أي : قل يا محمد لهؤلاء المغرورين
إن كان الأمر كما زعمتم من أنكم أبناء الله وأحباؤه فلأي شيء يعذبكم إذ
الحبيب لا يعذب حبيبه .وإن واقعكم يا أهل الكتاب يناقض دعواكم ، فقد
عذبكم - سبحانه - في الدنيا بسبب ذنوبكم بالقتل والأسر والمسخ وتهييج
العداوة والبغضاء بينكم إلى يوم القيامة .أما في الآخرة فإن كتبكم التي بين
أيديكم تشهد بأنكم ستعذبون في الآخرة على ما تقترفون من آثام في دنياكم
وقد أقر اليهود بأن العذاب سيقع بهم - في زعمهم - أياما معدودات في الآخرة.
وحكى القرآن عنهم ذلك في قوله - تعالى - ( قَالُواْ لَن تَمَسّنَا النار
إِلاّ أَيّاماً مّعْدُودَاتٍ ) وأقر النصارى بأن الله - تعالى - سيحاسب
الناس يوم القيامة ، وسيجازي كل إنسان على حسب عمله إن خيرا فخير ، وإن
شراً فشر .قال القرطبي : " رد الله عليهم قولهم فقال : ( فَلِمَ
يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ) فلم يكونوا يخلون من أحد وجهين ، إما إن
يقولوا هو يعذبنا ، فيقال لهم : فلستم إذا أبناءه ولا أحباءه فإن الحبيب لا
يعذب حبيبه . وأنتم تقرون بعذابه ، فذلك دليل على كذبكم - وهذا هو المسمى
، عند الجدليين ببرهان الخلف - أو يقولوا :لا يعذبنا فيكذبوا ما في كتبهم
، وما جاءت به رسلهم . ويبيحوا المعاصي وهم معترفون بعذاب العصاة منهم
ولهذا يلتزمون أحكام كتبهم وقوله : ( بَلْ أَنتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ )
رد على أصل دعواهم الباطلة ، وبيانلما هو الحق من أمرهم وهو معطوف على كلام
مقدر .أي : ليس الأمر كما زعمتم يا معشر اليهود والنصارى من أنكم أبناء
الله وأحباؤه ، بل الحق أنكم كسائر البشر من خلق الله . فإنكم إن آمنتم
وأصلحتم أعمالكم نلتم الثواب من الله ، وإن بقيتم على كفركم وغروركم حق
عليكم العقاب ، وليس لأحد فضل على أحد إلا بالإيمان والعمل الصالح .قال
أبو حيان قوله : ( بَلْ أَنتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ ) إضراب عن
الاستدلال من غير إبطال له إلى استدلال آخر من ثبوت كونهم بشرا من بعض خلقه
فهم مساوون لغيرهم في البشرية والحدوث ، وهما يمنعان البنوة ، فإن القديم ،
لا يلد بشرا ، والأب لا يخلق ابنه ، فامتنع بهذين الوجهين البنوة . وامتنع
- بتعذيبهم أن يكونوا أحباء الله ، فبطل الوصفان اللذان ادعوهما .وقوله
سبحانه - ( يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ) بيان لعموم
قدرته ، وشمول إرادته .أي أنه - سبحانه - يغفر لمن يشاء أن يغفر له من خلقه
وهم المؤمنون به وبرسله ، ويعذب من يشاء أن يعذبه منهم ، وهم المنحرفون ،
عن طريق الحق والهدى ، لا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه .وقوله ( وَلِلّهِ
مُلْكُ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ المصير ) تذييل قصد
به تأكيد ما قبله من عموم قدرته ، وشمول إرادته وهيمنته على سائر خلقه .أي
، والله - تعالى - وحده ملك جميع الموجودات وهو صاحب التصرف المطلق فيها :
إيجادا وإعداما ، وإحياء وإماتة ، وإليه وحده مصير الخلق يوم القيامة
فيجازيهم على ما عملوا من خير أو شر ، قال - تعالى - ( فَمَن يَعْمَلْ
مِثْقَالَ ذَرّةٍ خَيْراً يَرَهُ . وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ
شَرّاً يَرَهُ ) وبذلك تكون الآية الكريمة قد أبطلت حجة اليهود والنصارى
الذين زعموا أنهم ( أَبْنَاءُ الله وَأَحِبّاؤُهُ ) وأثبتت بالمنطق الواضح
أنهم كذابون فيما يدعون؛ وأنه لا فضل لأحد على أحد إلا بالإيمان والعمل
. الصالح

يا اهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل ان تقولوا ما
جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير

كما فسرها الوسيط وبعد أن بين - سبحانه - فساد أقوال أهل الكتاب وبطلان
عقائدهم ، ورد عليهم بما لا يدع للعاقل متمسكا بتلك الضلالات . أتبع ذلك
- بتوجيه نداء آخر إليهم تكريرا لوعظهم ، وتحريضا لهم على اتباع الحق فقال
. . . تعالى -( يَا أَهْلَ الكتاب قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيّنُ
أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : قال معاذ بن جبل ، وسعد بن عبادة وعقبة(
بن وهب لليهود : يا معشر اليهود ، اتقوا الله وأسلموا ، فوالله إنكم

لتعلمون أنه رسول الله . لقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه ، وتصفونه لنا بصفته . فقال رافع بن حرملة ووهب بن يهوذا : ما قلنا هذا لكم ، وما أنزل الله من كتاب من بعد موسى ، ولا أرسل بشيراً ولا نذيراً بعده ، فأنزل الله في قولهما قوله : ( يَا أَهْلَ الكتاب قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ على فَتْرَةٍ مِّنَ الرسل ) الآية .وقوله ( على فَتْرَةٍ مِّنَ الرسل ) أي : على انقطاع من الرسل ، إذ الفترة هي الزمن بين زمنين ، ويكون فيها سكون عما يكون في هذين الزمنين .قال الراغب : الفتور سكون بعد حدة ، وضعف بعد قوة . قال - تعالى ( يَا أَهْلَ الكتاب قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ على فَتْرَةٍ مِّنَ الرسل ) أي : سكون خال عن مجيء رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوله ( يُسَبِّحُونَ الليل والنهار لاَ يَفْتُرُونَ ) أي لا يسكنون عن نشاطهم في العادة فأصل الفتور السكون والانقطاع . يقال فتر عن عمله إذا انقطع عما كان عليه من الجد والنشاط .والمعنى : يا أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، يا من أنزل الله - تعالى - الكتب السماوية على أنبيائكم لهدايتكم وسعادتكم ، ها هو ذا رسولنا محمد - صلى الله عليه وسلم - قد جاءكم لكي يبين لكم شرائع الدين ، والطريق الحق الذي يوصلكم إلى السعادة الدينية والدنيوية ، وذلك بعد انقطاع من الرسل ، وطموس من السبل ، وضلال في العقائد ، وفساد في الأفكار والمعاملات .

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : قوله - تعالى - ( على فَتْرَةٍ مِّنَ الرسل ) أي : بعد مدة متطاولة ما بين إرساله صلى الله عليه وسلم وبين عيسى ابن مريم . وقد اختلفوا في مقدار هذه الفترة كم هي؟فعن قتادة خمسمائة وستون سنة .وكانت هذه الفترة بين عيسى ابن مريم - آخر أنبياء بني إسرائيل - وبين محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين من بني آدم على الإطلاق ، كما ثبت في " صحيح البخاري " عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أنا أولى الناس بابن مريم ليس بيني وبينه نبي " وهذا فيه رد على من زعم أنه بعث بعد عيسى نبي يقال له خالد بن سنان .والمقصود من هذه الآية ، أن الله - تعالى - بعث محمداً صلى الله عليه وسلم على فترة من الرسل ، وطموس من السبل وتغير الأديان ، وكثرة عُبّاد الأوثان والنيران والصلبان ، فكانت النعمة به أتم النعم .وفي ندائه - سبحانه - لليهود والنصارى بقوله : ( يَا أَهْلَ الكتاب ) تنبيه لهم إلى أن مصاحبتهم للكتاب وكونهم أهل معرفة ، يوجبان عليهم المبادرة إلى اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم الذي بشرت بمبعثه كتبهم التي بين أيديهم ، والذي يعرفون صدقه كما يعرفون أبناءهم .وإلا فسيكون عقابهم أشد إذا استمروا في كفرهم وضلالهم .وعبر - سبحانه - بقوله : ( قَدْ جَآءَكُمْ ) للإيذان بأنه صلى الله عليه وسلم قد أصبح بينهم ، بحيث يشاهدهم ويشاهدونه ، ويسمع منهم ويسمعون منه ، وأنه قد صار من اللازم عليهم اتباعه ، لأن الشواهد قد قامت على صدقه فيما يبلغه عن ربه .وأضاف سبحانه - الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ذاته فقال : ( قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا ) لتشريفه صلى الله عليه وسلم وتكريمه ، وللإشارة إلى قدسية هذه الرسالة وسمو منزلتها ، وأنها لا تسوغ مخالفة من أتى بها ، ولا يصح الخروج عن طاعته ، لأنه رسول من عند الله - تعالى - الذي له الخلق والأمر ، ومفعول ( يبين ) محذوف . أي : يبين لكم الشرائع والأحكام ، وما أمرتم به. وما نهيتم عنه ، وحذف هذا المفعول اعتماداً على ظهوره ، إذ من المعلوم أن ما يبينه الرسول هو الشرائع والأحكام .وقوله : ( على فَتْرَةٍ ) متعلق بقوله ( جاءكم ) على الظرفية ، وقوله : ( مِّنَ الرسل ) متعلق بمحذوف صفة لفترة . أي : قد جاءكم رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم على حين فتور من الإرسال وانقطاع الوحي ، ومزيد من الاحتياج إلى البيان .والتعبير بقوله - تعالى - ( على فَتْرَةٍ ) فيع معنى فوقية الرسالة على الفترة ، وعلوها عليها؛ كعلو البيان على الجهل ، والنور على الظلمة ، فمن الواجب عليهم أن يسارعوا إلى اتباع الرسول الذي جاءهم بالحق ، وإلا كانوا ممن يرتضي لنفسه الانحدار من الأعلى إلى الأدنى ، ومن العلم إلى الجهل ، ومن الهدى إلى الضلال .وقوله - تعالى - ( أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ ) جملة تعليلية المقصود بها قطع معاذيرهم إذا احتجوا بالجهل وعدم معرفتهم لأوامر الله ونواهيه .والمراد بالبشير : المبشر الذي يبشر أهل الحق والطاعة بالخير والسعادة .والمراد بالنذير : المنذر الذي ينذر أهل الباطل والضلال بسوء المصير .والمعنى : لقد جاءكم يا معشر أهل الكتاب رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم يبين لكم شرائع الله بعد فترة متطاولة من انقطاع الرسل لكي لا تقولوا على سبيل المعذرة يوم الحساب ، ما جاءنا من بشير يبشرنا ، بالخير عند الطاعة ، ولا نذير ينذرنا بسوء العاقبة عند المعصية .و ( من ) في قوله ( مِن بَشِيرٍ ) لتأكيد نفي المجيء .والتنكير في قوله : ( بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ ) للتقليل ، أي : ما جاءنا أي بشير ولو كان صغيرا ، وما جاءنا أي نذير ولو كان ضئيلا .وهنا يسوق الله - تعالى - ما يبطل معاذيرهم ، بإثبات أن البشير والنذير قد جاءهم فقال - تعالى - : ( فَقَدْ جَآءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ) .والفاء هنا للافصاح عن كلام مقدر قبلها . والتقدير : لا تعتذروا بقولكم ما جاءنا من بشير ولا نذير ، فقد جاءكم رسولنا الذي يبشركم بالخير إن آمنتم وينذركم بسوء المصير إذا ما بقيتم على كفركم .

والتنكير هنا في قوله : ( بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ) للتعظيم من شأن الرسول صلى الله عليه وسلم الذي هو خاتم النبيين ، والذي أرسله الله - تعالى - رحمة للعالمين .وقوله : ( بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ) وإن كانا وصفين للرسول صلى الله عليه وسلم إلا أن ثانيهما قد عطف على أولهما لتغايرهما في المعنى ، لأن التبشير عمل يختلف عن الإنذار ، وكلاهما من وظائف النبوة .وقوله - تعالى - تذييل قصد به شمول قدرة الله وأنه ( والله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ) سبحانه -لا يعجزه شيء . أي : والله على كل شيء قدير ، فلا يعجزه أن يرسل رسله تترى ، كما لا يعجزه أيضا أن يرسلهم على فترات متباعدة .وبذلك نرى الآية الكريمة قد بينت سمو الرسالة المحمدية وعظمتها ، وأنها جاءت والناس في أشد الحاجة إليها ، وأنه لا عذر لأهل الكتاب في عدم الاستجابة لها بعد أن بلغتهم ، وبشرتهم بالخير إن آمنوا وأطاعوا ، وبالعذاب الأليم إن استمروا على كفرهم وضلالهم .وبعد أن بين - سبحانه - جانبا من رذائل أهل الكتاب ، ومن أقوالهم الباطلة في حق الرسول الذي أرسله الله - تعالى - لهدايتهم وسعادتهم وإخراجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان .بعد كل ذلك ساق - سبحانه - جانبا مما حدث بين موسى - عليه السلام - وبين قومه بني إسرائيل ، ومما لقيه منه من سفاهة وجبن وتخاذل وعصيان . إذ في ذلك تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم عما شاهده منهم من عناد وجحود . استمع إلى القرآن وهو يحكي بعض قصص بني إسرائيل مع نبيه موسى فيقول :( وَإِذْ قَالَ موسى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ . . . )

واذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم اذ جعل فيكم انبياء وجعلكم ملوكا واتاكم ما لم يؤت احدا من العالمين

كما فسرها الوسيط هذه الآيات الكريمة تصور لنا ما جبل عليه بنو إسرائيل من جبن شديد ، وعزيمة خوارة ، وعصيان لرسلهم . وإيثار للذلة مع الراحة على العزة مع الجهاد وهي تحكي بأسلوبها البليغ قصة تاريخية معروفة ، وملخص هذه القصة :أن بني إسرائيل بعد أن ساروا مع نبيهم موسى - عليه السلام - إلى بلاد الشام ، عقب غرق فرعون أمام أعينهم . أوحى الله - تعالى - إلى موسى أن يختار من قومه اثني عشر نقيبا ، وأمره أن يرسلهم إلى الأرض المقدسة التي كان يسكنها الكنعانيون حينئذ . ليتحسسوا أحوال سكانها ، وليعرفوا شيئا من أخبارهم .وقد أشار القرآن قبل ذلك إلى هذه القصة بقوله : ( وَلَقَدْ أَخَذَ الله مِيثَاقَ بني إِسْرَآئِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثني عَشَرَ نَقِيباً ولقد نفذ موسى - عليه السلام - ما أمره به ربه - سبحانه - ، وكان مما ( قاله موسى للنقباء عند إرسالهم لمعرفة أحوال سكان الأرض المقدسة : "لا تخبروا أحد سواي عما ترونه " .فلما دخل النقباء الأرض المقدسة ، واطلعوا على أحوال سكانها . وجدوا منهم قوة عظيمة ، وأجساما ضخمة . . فعاد النقباء إلى موسى وقالوا له - وهو في جماعة من بني إسرائيل - : قد جئنا إلى الأرض التي بعثتنا إليها ، فإذا هي في الحقيقة تدر لبنا وعسلا ، وهذا شيء من ثمارها ، غير أن الساكنين فيها أقوياء ، ومدينتهم حصينة . وأخذ كل نقيب منهم ينهى سبطه عن القتال . إلا اثنين منهم ، فإنما نصحا القوم بطاعة نبيهم موسى - عليه السلام - وبقتال الكنعانيين معه . ولكن بني إسرائيل عصوا أمر هذين النقيبين ، وأطاعوا أمر بقية النقباء العشرة " وأصروا على عدم الجهاد ورفعوا أصواتهم بالبكاء وقالوا : يا ليتنا متنا في مصر أو في هذه البرية ، وحاول موسى - عليه السلام - أن يصدهم عما تردوا فيه من جبن وعصيان وأن. يحملهم على قتال الجبارين؛ ولكنهم عموا وصموا .وأوحى الله - تعالى - إلى موسى أن الأرض المقدسة محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض جزاء . عصيانهم وجبنهم .هذا هو ملخص هذه القصة كما وردت في كتب التفسير والتاريخ وقد حشا بعض المفسرين كتبهم بأوصاف للجبارين - الذين ورد ذكرهم في الآيات الكريمة -لا تقبلها العقول السليمة ، وليس لها أصل يعتمد عليه بل هي مما يستحي من ذكره كما قال ابن كثير .هذا ، وقوله - تعالى - : ( وَإِذْ قَالَ موسى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذكروا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ ) كلام مستأنف ساقه الله - تعالى - لبيان بعض ما فعله بنو إسرائيل من رذائل بعد أخذ الميثاق عليهم ، وتفصيل لكيفية نقضهم لهذا الميثاق .و ( إذا ) ظرف للزمن الماضي بمعنى وقت .وهو مفعول به لفعل ملاحظ في الكلام ، تقديره اذكر . وقد خوطب بهذا الفعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بطريق قرينة الخطاب وصرفه عن أهل الكتاب ، ليعدد عليهم ما سلف من بعضهم من جنايات .أي : واذكر يا محمد لهؤلاء اليهود المعاصرين لك ، قول موسى لآبائهم على سبيل النصح والإرشاد : يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم . أي : تذكروا إنعامه عليكم بالشكر والطاعة .والمراد بذكر الوقت تذكر ما حدث فيه من وقائع وخطوب .قال - ، أبو السعود : وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت ، دون ما وقع فيه من حوادث مع أنها هي المقصودة ، لأن الوقت مشتمل على ما وقع فيه تفصيلا فإذا استحضر كان ما وقع فيه بتفاصيله كأنه مشاهد عيانا .وفي قول موسى لهم - كما حكى القرآن عنه - : ( يَا قَوْمِ اذكروا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ ) تلطف معهم في الخطاب ، وحمل لهم على شكر النعمة ، واستعمالها فيما خلقت له لكي يزيدهم

الله منها . وفيه كذلك تذكير لهم بما يربطهم به من رابطة الدم والقرابة التي تجعله منهم ، يهمه ما يهمهم ، ويسعده ما يسعدهم ، فهو يوجه إليهم ما هو كائن لهدايتهم وسعادتهم .وقوله - تعالى - : ( وَآتَاكُمْ مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِّن الْعَالَمِينَ ) بيان لنعم الله عليهم .أما النعمة الأولى : فهي جعل كثير من الأنبياء فيهم كموسى وهارون ، واسحق ، ويعقوب ، ويوسف ، - عليهم السلام - . وقد أرسل الله - تعالى - هؤلاء الأنبياء وغيرهم في بني إسرائيل ، لكي يخرجوهم من ظلمات الكفر والفسوق والعصيان ، إلى نور الهداية والطاعة والإيمان .والتنكير في قوله ) أَنْبِيَآءَ ) للتكثير والتعظيم . أي : تذكروا يا بني إسرائيل نعم الله عليكم ، وأحسنوا شكرها ، حيث جعل فيكم أنبياء كثيرين يهدونكم إلى الرشد قال صاحب الكشاف : " لم يبعث الله في أمة ما بعث في بني إسرائيل من الأنبياء " .وأما النعمة الثانية : فهي جعلهم ملوكا . أي : جعلكم أحراراً تملكون أمر أنفسكم بعد أن كنتم مملوكين لفرعون وقومه ، الذين كانوا يسومونكم سوء العذاب .أي : جعلكم تملكون المساكن وتستعملون الخدم ، بعد أن " : كنتم لا تملكون شيئاً من ذلك وأنتم تحت سيطرة فرعون وقومه .قال الآلوسي أخرج البخاري عن عبد الله بن عمر أنه سأله رجل فقال : ألسنا من فقراء المهاجرين؟ فقال عبد الله : ألك زوجة تأوى إليها؟ قال : نعم ، قال : ألك مسكن تسكنه؟ قال : نعم . قال : فأنت من الأغنياء . قال الرجل : فإن لي خادما . قال عبد الله : فأنت من الملوك " .واخرج ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كانت بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خادم ودابة وامرأة كتب ملكا " .وهذه النعمة - أي : نعمة الحرية بعد الذل ، والسعة بعد الضيق - من النعم العظمى التي لا يقدرها ويحافظ عليها إلا أصحاب النفوس الكبيرة ، التي تعاف الظلم ، وتأبى الضيم ، وتحسن الشكر لله - تعالى - .قال صاحب الانصاف : فإن قلت : فلماذا لم يقل إذ جعلكم أنبياء ، كما قال : ( وَجَعَلَكُمْ مُّلُوكاً ) ؟ قلت : لأن النبوة مزية غير الملك . وآحاد الناس يشارك الملك في كثير مما به صار الملك ملكا ، ولا كذلك النبوة ، فإن درجتها أرفع من أن يشرك من لم تثبت له مع الثابتة نبوته في مزيتها وخصوصيتها ونعتها ، فهذا هو سر تمييز الأنبياء وتعميم الملوك وأما النعمة الثالثة : فهي أنه - سبحانه - : آتاهم من ألوان الإكرام. والمنن ما لم يؤت أحدا من عالمي زمانهم . فقد فلق لهم البحر فساروا في طريق ، يابس حتى نجوا وغرق عدوهم . وأنزل عليهم المن والسلوى ليأكلوا من الطيبات وفجر لهم من الحجر اثنتي عشرة عينا حتى يعلم كل أناس مشربهم . . إلى غير ذلك من ألوان النعم التي حباهم الله - تعالى - بها ، والتي كانت تستلزم " منهم المبادرة إلى امتثال أوامره ، واجتناب نواهيه .قال الآلوسي : و " أل في ( العالمين ) للعهد : والمراد عالمي زمانهم . أو للاستغراق والتفضيل من وجه لا يستلزم التفضيل من جميع الوجوه ، فإنه قد يكون للمفضول ما ليس للفاضل : وعلى التقديرين لا يلزم تفضيلهم على هذه الأمة المحمدية ، لأن الخطابات السابقة واللاحقة لبني إسرائيل ، فوجود خطاب في الأثناء لغيرهم مما يخل بالنظم الكريم .

يا قوم ادخلوا الارض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على ادباركم فتنقلبوا خاسرين

كما فسرها الوسيط وبعد هذا التذكير بالنعم ، وجه إليهم نداء ثانيا طلب منهم فيه دخول الأرض المقدسة فقال - كما حكى القرآن عنه : ( يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا على أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ) .ومعنى المقدسة : المطهرة المباركة بسبب أنها كانت موطنا لكثير من الأنبياء .والمراد بها . بيت المقدس وقيل المراد بها : اريحاء وقيل : الطور وما حوله .قال ابن جرير : وهي لا تخرج عن أن تكون من الأرض التي ما بين الفرات وعريش مصر ، لإجماع أهل التأويل والسير والعلماء بالأخبار على ذلك .ومعنى ( كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ) : قدر لكم سكناها ، ووعدكم إياها متى آمنتم به وأطعتم أنبياءه ، أو معناه : فرض عليكم دخولها وأمركم به كما أمركم بأداء الصلاة والزكاة - وسنفصل القول في هذه المسألة بعد تفسيرنا للآيات - .ومفعول ( كتب ) محذوف . أي كتب لكم أن تدخلوها وفرض عليكم دخولها لإنقاذكم من الأهوال التي نزلت ، بكم في أرض مصر من فرعون وجنده .وقد تعدى فعل ( كتب ) هنا باللام دون على للإشارة إلى أن ما فرضه عليهم إنما هو لمنفعتهم ولعزتهم ورفعة شأنهم .وفي تكرير النداء من موسى لهم بقوله : ( يَاقَوْمِ ) مبالغة في حثهم على الامتثال لما يأمرهم به ، وتنبيه إلى خطر ما يدعوهم إليه وعظم شأنه .وقوله فيه حض شديد لهم على الاستجابة لأمره ، وإغراء ( كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ) : لهم بالنصر والفوز ، لأن الذي كتب لهم أن يدخلوها متى آمنوا وأطاعوا هو الله الذي لا معقب لحكمه .قال الإمام الرازي : في قوله : ( كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ) فائدة عظيمة . وهي أن القوم كانوا جبارين إلا أن الله - تعالى - لما وعد هؤلاء الضعفاء بأن تلك الأرض لهم ، فإن كان مؤمنين مقرين بصدق

موسى - عليه السلام - علموا قطعا أن الله ينصرهم عليهم ، فلا بد وأن يقدموا على قتالهم من غير جبن ولا خوف ولا هلع " .وقوله - تعالى - : ( وَلاَ تَرْتَدُّوا على أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ) تحذير لهم من الجبن والإحجام ، بعد ترغيبهم الشديد في الشجاعة والإقدام .وقوله ) ترتدوا ) من الارتداد وهو الرجوع إلى الخلف .و ( الأدبار ) جمع دبر وهو الظهر .وهذا التعبير استعارة تمثيلية فيها تشبيه حال من يرجع عن الجهاد بعد أن توافرت أسبابه ، بحال من يتراجع سائرا بظهره إلى الوراء ، بدل أن يسير بوجهه إلى الأمام . وهذا التعبير يصور قبح الجبن والتخاذل حسا ومعنى .وقوله ( فتنقلبوا ) من الانقلاب بمعنى الرجوع والانصراف عن الشيء وهو مجزوم عطفا على فعل النهي وهو ( وَلاَ تَرْتَدُّوا ) .والمعنى : أمضوا أيها القوم لأمر الله ، وسيروا خلفي لقتال الأعداء ودخول الأرض المقدسة التي أمركم - سبحانه - بدخولها ، ولا ترجعوا القهقري منصرفين عن القتال خوفا من أعدائكم ومبتعدين عن طاعتي وأمري ، فإن ذلك يؤدي بكم إلى الخسران في الدنيا ، والآخرة ، وإلى الحرمان من خيرات الأرض التي أوجب الله عليكم دخولها .قال ابن جرير : فإن قال قائل : وما كان وجه قيل موسى لقومه إذ أمرهم بدخول الأرض المقدسة : ( وَلاَ تَرْتَدُّوا على أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ) أو يستوجب الخسارة من لم يدخل أرضا جعلت له؟ قيل : إن الله - تعالى - كان أمره بقتال من فيها من أهل الكفر به ، وفرض عليهم دخولها ، فاستوجب القوم الخسارة بتركهم فرض عليهم من وجهين :أحدهما : تضييع فرض الجهاد الذي كان الله فرضه عليهم .والثاني : مخالفتهم أمر الله في تركهم دخول الأرض المقدسة .هذا ، وقد جاءت هذه الجملة الكريمة ، وهي قوله - تعالى - : ( وَلاَ تَرْتَدُّوا على أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ) تحمل طابع التحذير الشديد ، وتنذرهم بالخسران المبين إذا لم يستجيبوا لأمر الله بعد أن ساق سلهم موسى ألوانا من المشجعات والمرغبات في الجهاد ، وذلك لأنه - عليه السلام - كان متوقعا منهم الإحجام عن القتال ، بعد أن جرب عنادهم وعصيانهم ونكوصهم على أعقابهم في مواطن كثيرة ، فهذه التجارب جعلته وهو يأمرهم بدخول الأرض المقدسة يذكر لهم أكبر النعم ويسوق لهم أكرم الذكريات وأقوى الضمانات وأشد التحذيرات لكي يقبلوا على الجهاد بعزيمة صادقة .

قالوا يا موسى ان فيها قوما جبارين وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فان يخرجوا منها فانا داخلون

كما فسرها الوسيط ولكن بني إسرائيل هم بنو إسرائيل ، مهما قيل لهم من ألوان الترغيب والترهيب فإن همتهم الساقطة وعزيمتهم الخائرة ، وطبيعتهم المنتكسة لم تتركهم فقد قالوا لنبيهم متذرعين بالمعاذير الكاذبة : ( ياموسى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حتى يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ) : وقوله ) جَبَّارِينَ ) جمع جبار " والجبار صيغة مبالغة من جبر الثلاثي .ويطلق في اللغة على الطويل القوي العاتي الذي يجير غيره على ما يريد . مأخوذ من قولهم : مخلة جبارة أي : طويلة لا ينال ثمرها بالأيدي .أي : قال بنو إسرائيل لنبيهم موسى - عليه السلام - إن الأرض التي وعدتنا بدخولها فيها قوم متغلبون على من يقاتلهم ، ولا قدرة لنا على لقائهم وإنا لن ندخل هذه الأرض المقدسة التي أمرتنا بدخولها ما دام هؤلاء الجبارين فيها ، فإن يخرجوا منها لأي سبب من الأسباب التي لا شأن لنا بها ، فنحن على استعداد لدخولها في راحة ويسر ، وبلا أدنى تعب أو جهد ولا شك أن قولهم هذا الذي حكته الآية الكريمة عنهم ليدل على منتهى الجبن والضعف ، لأنهم لا يريدون أن ينالوا نصرا باستخدام حواسهم البدنية أو العقلية ، وإنما يريدون أن ينالوا ما يبغون بقوة الخوارق والآيات ، وأمة هذا شأنها لا تستحق الحياة الكريمة لأنها لم تقدم العمل الذي يؤهلها لتلك الحياة :وفي ندائهم لنبيهم باسمه مجرداً ( قَالُوا ياموسى ) سوء أدب منهم معه ، حيث استهانوا بمقام النبوة فنادوه باسمه حتى يكف عن دعوتهم إلى الجهاد . وفي قولهم ( وَإِنَّا لن نَّدْخُلَهَا حتى يَخْرُجُواْ مِنْهَا ) امتناع عن القتال بإصرار شديد ، حيث أكدوا عدم دخولهم بحرف النفي ( لن ) وجعلوا غاية النفي أن يخرج الجبارون منها ، مع أن خروجهم منها بدون قتال أمر مستبعد ، وهم لا يريدون قتالا ، بل يريدون دخولا من غير معاناة ومجاهدة .

قال رجلان من الذين يخافون انعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فاذا دخلتموه فانكم غالبون وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين

كما فسرها الوسيط ثم بين القرآن بعد ذلك أن رجلين مؤمنين منهم قد استنكروا إحجام قومهم عن الجهاد ، وحرضاهم على طاعة نبيهم فقال : ( قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الذين يَخَافُونَ أَنْعَمَ الله عَلَيْهِمَا ادخلوا عَلَيْهِمُ الباب فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى الله فتوكلوا إِن

، كُنتُم مُّؤْمِنِينَ )والمراد بالرجلين : يوشع بن نون ، وكالب بن يوقنا
وكانا من الاثني عشر نقيباً .وقد وصف الله - تعالى - هذين الرجلين بوصفين
أولهما : قوله : ( مِنَ الذين يَخَافُونَ ) أي : من الذين يخافون الله.
وحده ويتقونه ولا يخافون سواه وفي وصفهم بذلك تعريض بأن من عداهما من القوم
لا يخافونه - تعالى - بل يخافون العدو .وقيل المعنى : من الذين يخافون
. الأعداء ويقدرون قوتهم إلا أن الله - تعالى - ربط على قلبيهما بطاعته
فجعلهما يقولان ما قالا :الوصف الثاني : فهو قوله : ( أَنْعَمَ الله
عَلَيْهِمَا ) فهذه الجملة صفة ثانية للرجلين . أي : قال رجلان موصوفان
بأنهما من الذين يخافون الله - تعالى - ولا يخافون سواه ، وبأنهما من الذين
أنعم الله عليهما بالإيمان والتثبيت والثقة بوعده ، والطاعة لأمره قالا
لقومهما .ادخلوا عليهم الباب .هذا ، وقد ذكر صاحب الكشاف وغيره وجها ثالثا
. فقال : ويجوز أن تكون الواو في قوله : ( يَخَافُونَ ) - لبني إسرائيل
والراجع إلى الموصول محذوف . والتقدير : قال رجلان من الذين يخاف بنو
" إسرائيل منهم ، - وهم الجبارون - وهما رجلان منهم " أنعم الله عليهما
بالإيمان فآمنا ، قالا لهم : إن العمالقة أجسام لا قلوب فلا تخافوهم
) : وازحفوا إليهم فإنكم غالبوهم ، يشجعانهم على قتالهم . وقراءؤة من قرأ
يخافون ) - يضم الياء - شاهدة له . وكذلك . أنعم الله عليهما .والذي نراه
) - أن الرأي الأول أرجح وهو أن الرجلين من بني إسرائيل ، وأن قوله - تعالى
مِنَ الذين يَخَافُونَ أَنْعَمَ الله عَلَيْهِمَا ) صفتان للرجلين وأن
مفعول يخافون محذوف للعلم به وهو الله - تعالى - أي : يخافون الله ويخشون
لأن هذا هو الظاهر من معنى الآية ، وهو الذي صدر به المفسرون تفسيرهم للآية
ولأنه لم يرد نص يعتمد عليه في أن أحد الجبارين قد آمن وحرض بني إسرائيل ،
على قتال قومه ، بينما وردت الآثار في بيان اسمى الرجلين وأنهما كانا من
الاثني عشر نقيبا - كما سبق أن ذكرنا - وقوله - تعالى - ( ادخلوا
عَلَيْهِمُ الباب فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ) تشجيع من
الرجلين لقومهما ليزيلا عنهم الخوف من قتال الجبارين .أي : قال الرجلان
اللذان يخافان الله لقومهما : ادخلوا على أعدائكم باب مدينتهم وفاجئوهم
، بسيوفكم ، وباغتوهم بقتالكم إياهم ، فإذا فعلتم ذلك أحرزتم النصر عليهم
وأدركتم الفوز ، فإنه " ما غزى قوم في عقر دارهم إلا ذلوا " .قال صاحب
الكشاف : فإن قلت : من أين علما أنهم غالبون؟ قلت : من جهة إخبار موسى بذلك
ومن جهة قوله - تعالى - ( كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ ) وقيل : من جهة غلبة .
الظن وما تبينا من عادة الله في نصرة رسله ، وما عهدوا من صنع الله لموسى
في قهر أعدائه ، وما عرفا من حال الجبابرة .وقوله - تعالى - : ( وَعَلَى
، الله فتوكلوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ) دعوة من الرجلين المؤمنين لقومهما
بأن يكلوا أمورهم إلى خالقهم بعد مباشرة الأسباب ، وأن يعقدوا عزمهم على
دخول الباب على أعدائهم ، إن كانوا مؤمنين حقا ، فإن النصر يحتاج إلى تأييد
، من الله - تعالى - لعباده ، وإلى توكل عليه وحده ، وإلى عزيمة صادقة
. ومباشرة للأسباب التي توصل إليه

قالوا يا موسى انا لن ندخلها ابدا ما داموا فيها فاذهب انت وربك فقاتلا انا
هاهنا قاعدون

كما فسرها الوسيط ولكن هذه النصيحة الحكيمة من هذين الرجلين المؤمنين ، لم
تصادف من بني إسرائيل قلوبا واعية ، ولا آذانا صاغية بل قابلوها بالتمرد
والعناد وكرروا لنبيهم موسى عليه السلام - نفيهم القاطع للإقدام على دخول
) : الأرض المقدسة ما دام الجبارون فيها فقالوا - كما حكى القرآن عنهم
: ياموسى إِنَّا لَنْ نَّدْخُلَهَآ أَبَداً مَّا دَامُواْ فِيهَا ) .أي
قالوا غير عابئين بالنصيحة . بل معلنين العصيان والمخالفة : يا موسى إنا لن
ندخل هذه الأرض التي أمرتنا بدخولها في أي وقت من الأوقات ، ما دام أولئك
الجبارون يقيمون فيها ، لأننا لا قدرة لنا على مواجهتهم .وقد أكدوا
، امتناعهم عن دخول هذه الأرض في هذه المرة بثلاث مؤكدات ، هي : إن ، ولن
وكلمة أبدا .أي : لن ندخلها بأي حال من الأحوال ما دام الجبارون على قيد
، الحياة ويسكنون فيها .ثم أضافوا إلى هذا القول الذي يدل على جبنهم وخورهم
) : سلاطة في اللسان ، وسوء أدب في التعبير ، وتطاولا على نبيهم فقالوا
فاذهب أَنتَ وَرَبُّكَ فقاتلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ) .أي : إذا كان
دخول هذه الأرض يهمك أمره ، فاذهب أنت وربك لقتال سكانها الجبابرة وأخرجاهم
منها لأنه - سبحانه - ليس ربا لهم - في زعمهم - إن كانت ربوبيته تكلفهم
قتال سكان تلك الأرض .وقولهم : ( إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ) تأكيد منهم
لعدم دخولهم لتلك الأرض المقدسة .أي : إنا ها هنا قاعدون في مكاننا لن
نبرجه ، ولن نتقدم خطوة إلى الأمام لأن كل مجد وخير يأتينا عن طريق قتال
الجبارين فنحن في غنى عنه ، ولا رغبة لنا فيه .وإن هذا الوصف الذي وصفوا به
أنفسهم ، ليدل على الخسة وسقوط الهمة ، لأن القعود في وقت وجوب النشاط
للعمل الصالح يؤدي بصاحبه إلى المذمة ، والمذلة ، قال - تعالى - ذمّا
لأمثالهم : ( وَلَوْ أَرَادُواْ الخروج لأَعَدُّواْ لَهُ عُدَّةً ولكن

كَرِهَ الله انبعاثهم فَثَبّطَهُمْ وَقِيلَ اقعدوا مَعَ القاعدين ) قال الآلوسي ما ملخصه : وقوله - تعالى - حكاية عنهم : ( فاذهب أَنتَ وَرَبُّكَ فقاتلا ) قالوا ذلك استهانة واستهزاء به - سبحانه - وبرسوله موسى وعدم مبالاة . وقصدوا ذهابهما حقيقة كما ينبئ عنه غاية جهلهم ، وقسوة قلوبهم والمقابلة : ( إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ) .

قال رب اني لا املك الا نفسي واخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين

كما فسرها الوسيط ولم يذكروا أخه هارون ولا الرجلين اللذين قالا ، كأنهم لم يجزموا بذهابهم ، أو يعبأوا بقتالهم وأرادوا بالعقود عدم التقدم لا عدم التأخر ثم قصت علينا السورة الكريمة أن موسى - عليه السلام - بعد أن رأى من قومه ما رأى من عناد وجبن ، لجأ إلى ربه يشكو إليه منهم ، يلتمس منه أن يفرق بينه وبينهم ، فقال : ( رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فافرق بَيْنَنَا وَبَيْنَ القوم الفاسقين ) .أي : قال موسى باثا شكواه وحزنه إلى الله ، ومعتذرا إليه من فسوق قومه وسفاهتهم وجبنهم : رب إنك تعلم أني لا أملك لنصرة دينك أمر أحد ألزمه بطاعتك سوى أمر نفسي ، وأمر أخي هارون ، ولا ثقة لي في غيرنا أن يطيعك في العسر واليسر والمنشط والمكره ولم يذكر الرجلين اللذين قالا لقومهما فيما سبق ( ادخلوا عَلَيْهِمُ الباب. لعدم ثقته الكاملة في دخولهما معه أرض الجبارين ، وفي وقوفهما بجانبه عند القتال إذا تخلى بقية القوم عنه فإن بعض الناس كثيرا ما يقدم على القتال مع الجيش الكبير ، ولكنه قد يحجم إذا رأى أن عدد المجاهدين قليل .ومن هنا لم يذكر أنه يملك أمر هذين الرجلين كما يملك أمر نفسه وامر أخيه .وصرح موسى - عليه السلام - بأنه يملك أمر أخيه هارون كما يملك أمر نفسه ، لمؤازرته التامة له في كفاحه ظلم فرعون ، ولوقوفه إلى جانبه بعزيمة صادقة في كل موطن من مواطن الشدة وليقينه بأنه مؤيد بروح من الله - تعالى .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : أما كان معه الرجلان المذكوران؟ قلت كأنه لم يثق بهما كل الوثوق ولم يطمئن إلى ثباتهما لما ذاق على طول الزمان واتصال الصحبة من أحوال قومه ، وتلونهم وقسوة قلوبهم فلم يذكر إلا النبي المعصوم الذي لا شبهة في أمره . ويجوز أن يكون قال ذلك لفرط ضجره عندما سمع منهم تقليلا لمن يوافقه ويجوز أن يريد ومن يؤاخيني على ديني .هذا وقد ذكر النحويون وجوها من الإعراب لقوله ( وأخي ) منها : أنه منصوب عطفا على قوله : ( نفسي ) أي : ولا أملك إلا أخي مع ملكي نفسي دون غيرهما .وقوله - تعالى - : ( فافرق بَيْنَنَا وَبَيْنَ القوم الفاسقين ) بيان لما يرجوه موسى من ربه - عز وجل - بعد أن خرج بنو إسرائيل عن طاعته .والفاء هنا لترتيب الفرق والدعاء به على ما قبله . والفرق معناه الفصل بين شيئين .والمعنى : قال موسى مخاطباً ربه : لقد علمت يا إلهي أني لا أملك لنصرة دينك إلا أمر نفسي وأمر أخي ، أما قومي فقد خرجوا عن طاعتي وفسقوا عن أمرك وما دام هذا شأنهم فافصل بيننا وبينهم بقضائك العادل ، بأن تحكم لنا بما نستحق ، وتحكم عليهم بما يستحقون فإنك أنت الحكم العدل بين العباد .

قال فانها محرمة عليهم اربعين سنة يتيهون في الارض فلا تاس على القوم الفاسقين

كما فسرها الوسيط وهذا الرجاء من موسى لربه في معنى الدعاء عليهم بسبب جبنهم وعصيانهم وقد أجاب الله - تعالى - دعاءه فيهم ، بأن أضلهم ظاهرا كما ضلوا باطنا وجاء الحكم الفاصل ممن يملكه فقال - تعالى - : ( قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأرض فَلاَ تَأْسَ عَلَى القَوم الفاسقين ) .وقوله : ( يَتِيهُونَ ) من التيه وهو الحيرة . يقال : تاه يتيه ويتوه إذا تحير وضل الطريق . ووقع فلان في التيه أي : في مواضع الحيرة .وقوله : ( فَلاَ تَأْسَ ) أي : فلا تحزن عليهم من الأسى وهو الحزن . يقال : أسي - كتعب - أي : حزن . فهو أسين مثل حزين . وأسا على مصيبته - من باب عدا - أي : حزن قال امرؤ القيس :وقوفا بها صحبي على مطيهم ... يقولون لا تهلك أسى وتجملأي : يقولون لا تهلك نفسك حزنا وتجمل بالصبر .والمعنى : قال الله - تعالى - لنبيه موسى مجيبا لدعائه : يا موسى إن الأرض المقدسة محرمة على هؤلاء الجبناء العصاة مدة أربعين سنة ، يسيرون خلالها في الصحراء تائيهن حياري لا يستقيم لهم أمر ، ولا يستقر لهم قرار ، فلا تحزن عليهم بسبب هذه العقوبة؛ فإننا ما عاقبناهم بهذه العقوبة إلا بسبب خورجهم عن طاعتنا ، وتمردهم على أوامرنا ، وجبنهم عن قتال أعدائنا وسوء أدبهم مع أنبيائنا .قال الآلوسي : قوله : ( مُحَرّمَةٌ عَلَيْهِمْ ، أي :لا يدخلونها ولا يملكونها . والتحريم تحريم منع لا تحريم تعبد ( وجوز أن يكون تحريم العبد والأول أظهر وقوله ( أَرْبَعِينَ سَنَةً ) متعلق بقوله : محرمة فيكون التحريم مؤقتا لا مؤبداً ، فلا يكون مخالفا لظاهر قوله - تعالى - ( ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ) والمراد بتحريمها عليهم أنه لا يدخلها أحد منهم هذه المدة ، لكن

- لا بمعنى أن كلهم يدخلونها بعدها ، بل بعضهم ممن بقي - يجوز له دخولها
فقد روى أن موسى سار بمن بقي من بني إسرائيل - بعد انقضاء هذه المدة - إلى
الأرض المقدسة .وقوله : ( يَتِيهُونَ فِي الأرض ) استئناف لبيان كيفية
) : حرمانهم . وقيل حال من ضمير ( عَلَيْهِمْ ) وقيل : الظرف متعلق بقوله
يَتِيهُونَ ) فيكون التيه مؤقتا والتحريم مطلقا يحتمل التأبيد وعدمه .وقال
الفخري الرازي : اختلف الناس في أن موسى وهارون - عليهما السلام - هل بقيا
في التيه أو لا؟ فقال قوم : إنهما ما كانا في التيه؛ لأن موسى دعا الله أن
يفرق بينه وبين القوم الفاسقين ، ودعوات الأنبياء مجابة ، لأن التيه كان
عذاباً والأنبياء لا يُعذبون .وقال آخرون : إنهما كانا مع القوم في ذلك
التيه ، إلا أن الله - تعالى - سهل عليهما ذلك العذاب كما سهل النار على
- إبراهيم فجعلها بردا وسلاما . وإنهما قد ماتا في التيه وبقي يوشع بن نون
وكان ابن أخت موسى ووصيه بعد موته - وهو الذي فتح الأرض المقدسة - بعد
انقضاء مدة التيه .وقيل بل بقي موسى بعد ذلك وخرج من التيه وحارب الجبارين
وقهرهم وأخذ الأرض المقدسة .هذا ونرى من المناسب في هذا المقام أن نتعرض
بشيء من التفصيل للمسائل الآتية :أولا : الرد على اليهود في دعواهم أن
) : - الأرض المقدسة - فلسطين - ملك لهم مستندين إلى قوله - تعالى
ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ) .ثانيا
الحكمة في كون عقابهم أربعين سنة يتيهون في الأرض .ثالثا : ما يؤخذ من :
هذه الآيات من العبر والعظات .وللإجابة على المسألة الأولى نقول
للمفسرين أقوال في المراد من الكتابة في قوله - تعالى - ( ادْخُلُوا
الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ) أشهرها قولان
أولهما : أن معنى ( كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ) : أمركم بدخولها ، وفرضه:
) - عليكم كما أمركم بالصلاة والزكاة فالكتب هنا مثله في قوله - تعالى
كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصيام ) أي : فرض عليكم وهذا قول قتادة والسدى .والثاني
أن معنى ( كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ) قدرها لكم وقضى أن تكون مساكن لكم دون :
الجبارين . وهذا القضاء مشروط بالإيمان ، وطاعة الأنبياء ، والجهاد في
سبيل نصرة الحق ، فإذا لم يكونوا كذلك - وهم لم يكونوا كذلك فعلا - لم
- يتحقق لهم التمكين في الأرض المقدسة ، ولذا بعد أن أغراهم نبيهم موسى
عليه السلام - بدخولها ، حذرهم من الجبن والعصيان فقال لهم : ( وَلاَ
: تَرْتَدُّوا على أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ) .قال الآلوسي
وترتيب الخيبة والخسران على الارتداد يدل على اشتراط الكتب بالمجاهدة "
- المترتبة على الإيمان .وقال ابن عباس : كانت هبة من الله لهم ثم حرمها
سبحانه - عليهم بشؤم تمردهم وعصيانهم .وقال الفخر الرازي : إن الوعد بقوله
مشروط بقيد الطاعة فلما لم يوجد الشرط لا جرم لم ( كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ )
يوجد المشروط .والخلاصة أن الكتابة في قوله - تعالى - ( كَتَبَ اللَّهُ
لَكُمْ ) : إما أن تكون تكليفية على معنى : أن الله - تعالى - كتب عليكم
وفرض أن تدخلوها مجاهدين مطيعين لنبيكم فإذا خالفتم ذلك حقت عليكم العقوبة
وإما أن تكون كتابة قدرية . أي : قضى وقدر - سبحانه - أن تكون لكم متى.
آمنتم وأطعتم . وبنو إسرائيل ما آمنوا وما أطاعوا ، بل كفروا وعصوا
فحرمها - سبحانه - عليهم .وبذلك ترى أن دعوى اليهود بأن الأرض المقدسة ملك
لهم ، بدليل قوله - تعالى - ( كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ )لا أساس لها من
: الصحة ولا يشهد لها عقل أو نقل .وللإجابة على المسألة الثانية نقول
اقتضت حكمة الله - تعالى - أن يجعل عقوبته لقوم مناسبة لما اجترحوا من ذنوب
وآثام وبنو إسرائيل لطول ما ألفوا من ذل واستعباد ، هانت عليهم نعمة الحرية
وضعف عندهم الشعور بالعزة . وأصبحت حياة الذلة مع العقود . أحب إليهم من .
حياة العزة مع الجهاد ولهذا عندما أمرهم نبيهم موسى - عليه السلام - بدخول
الأرض المقدسة اعتذروا بشتى المعاذير الواهية وأكدوا له عدم اقترابهم منها
ما دام الجبارون فيها :وقالوا : ( إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ) .فاقتضت
حكمة الله - تعالى - أن يحرمهم منها جزاء جبنهم وعصيانهم وأن يعاقبهم بما
يشبه القعود ، بأن يحكم عليهم بالتيهان في بقعة محدودة من الأرض ، يذهبون
فيها ويجيئون وهم حيارى لا يعرفون لهم مقرا وأن يستمروا على تلك الحالة
أربعين سنة حتى ينشأ من بينهم جيل آخر سوى ذلك الجيل الذي استمرأ الذل
) - والهوان .قال ابن خلدون في مقدمته . . ويظهر من مساق قوله - تعالى
قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ
فِي الأرض ) ومن مفهومه : أن حكمة ذلك التيه مقصودة ، وهي فناء الجيل الذين
خرجوا من قبضة الذل والقهر ، وأفسدوا من عصبيتهم ، حتى نشأ في ذلك التيه
جيل آخر عزيز لا يعرف القهر ولا يسام بالمذلة .فنشأت لهم بذلك عصبية أخرى
اقتدروا بها على المطالبة والتغلب ويظهر لك من ذلك أن الأربعين سنة أقل ما
يأتي فيها فناء جيل ونشأة جيل آخر .فسبحان الحكيم العليم .هذا ولصاحب
المنار كلام حسن في كمة هذه العقوبة ، نرى من المناسب إثباته هنا ، فقد
قال - رحمه الله - في ختام تفسيره لهذه الآيات :" إن الشعوب التي تنشأ في
مهد الاستبداد ، والإحساس بالظلم والاضطهاد ، تفسد أخلاقها ، وتذل نفوسها
وإذا طال عليها أمد الظلم تصير هذه الأخلاق موروثة ومكتسبة ، حتى تكون .
، كالغرائز الفطرية . والطبائع الخلقية ، وإذا أخرجت صاحبها من بيئتها

، ورفعت عن رقبته نيرها ، ألفيته ينزع بطبعه إليها ويتفلت منك ليقتحم فيها
وهذا شأن البشر في كل ما يألفونه ، ويجرون عليه من خير وشر ، وإيمان وكفر
أفسد ظلم فرعون فطرة بني إسرائيل في مصر ، وطبع عليها بطابع المهانة والذل.
وقد أراهم الله - تعالى - من الآيات الدالة على وحدانيته وقدرته وصدق .
رسوله موسى - عليه السلام - وبين لهم أنه أخرجهم من مصر لينقذهم من الذل
، إلى الحرية . ولكنهم كانوا مع هذا كله إذا أصابهم ضرر يتطيرون بموسى
ويذكرون مصر ويحنون إليها .وكان الله - تعالى - يعلم أنهم لا تطاوعهم
أنفسهم المهينة على دخول أرض الجبارين ، وأن وعده - تعالى - لأجدادهم إنما
يتم على وفق سنته في طبيعة الاجتماع البشرى ، إذا هلك ذلك الجيل الذي نشأ
في الوثنية والعبودية . ونشأ بعده جيل جديد في حرية البداوة ، وعدل الشريعة
ونور الآيات الإلهية ، وما كان الله ليهلك قوما بذنوبهم ، حتى يبين لهم ،
حجته عليهم ، ليعلموا أنه لم يظلمهم إنما يظلمون أنفسهم .وعلى هذه السنة
العادلة أمر الله - تعالى - بني إسرائيل بدخول الأرض المقدسة ، فأبوا
واستكبروا . فأخذهم الله بذنوبهم وأنشأ من بعدهم قوما آخرين .فعلينا أن
نعتبر بهذه الأمثال التي ضربها الله لنا ، وأن نعلم أن إصلاح الأمم من بعد
فسادها بالظلم والاستبداد إنما يكون بإنشاء جيل جديد جمع بين حرية البداوة
واستقلالها وعزتها ، وبين معرفة الشريعة والفضائل والعمل بها .وللإجابة
على المسألة الثالثة - وهي ما يؤخذ من هذه الآيات من عظات وعبر - نقول : إن
- هذه الآيات الكريمة قد اشتملت على لون حكيم في أسلوب الدعوة إلى الله
، تعالى - فقد بدأت بتذكير بني إسرائيل بأمجادهم وبعظم نعم الله عليهم
لتغرس فيهم الشعور بالعزة؛ ولتغريهم بالاستجابة لما أمر به - سبحانه - .كما
اشتملت على تحذيرهم من مغبة الجبن والمخالفة لأن ذلك يؤدي إلى الخسران
وفوق ذلك فقد صورت تصويرا معجزا طبيعة بني إسرائيل على حقيقتها وكشفت عن.
خور عزيمتهم ، وسقوط همتهم وسوء اختيارهم لأنفسهم . . بما جعلهم أهلا
العقوبات الرادعة وفي كل ذلك تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم عما لحقه من
اليهود المعاصرين له من أذى ، وتحذير لهم من السير على طريق آبائهم المعوجة
حتى لا يعرضوا أنفسهم للعقوبات التي حلت بأسلافهم .قال الإمام ابن جرير ،
- عند تفسيره للآيات الكريمة : وهذا - أيضاً - من الله - تعالى تعريف :
، لنبيه صلى الله عليه وسلم يتمادى هؤلاء اليهود في الغي ، وبعدهم عن الحق
، وسوء اختيارهم لأنفسهم ، وشدة خلافهم لأنبيائهم وبطء إثابتهم إلى الرشاد
مع كثرة نعم الله عندهم ، وتتابع آياته وآلائه عليهم ، مسليا بذلك نبيه صلى
: الله عليه وسلم عما ينزل به من مجادلاتهم في ذات الله ، يقول الله - له
لا تأس على ما أصابك منهم ، فإن الذهاب عن الله ، والبعد عن الحق ، وما فيه
، من الحظ لهم في الدنيا والآخرة ، من عاداتهم وعادات أسلافهم ، وأوائلهم
: وتعزّ بما لاقى منهم أخوك موسى - عليه السلام - .وقال الإمام ابن كثير
، وهذه القصة تضمنت تقريع اليهود ، وبيان فضائحهم ، ومخالفتهم لله ولرسوله
ونكولهم عن طاعتهما فيما أمرهم به من الجهاد ، فضعفت أنفسهم عن مصابرة
الأعداء ومجالدتهم ومقاتلتهم ، مع أن بين أظهرهم كليم الله وصفيه من خلقه
في ذلك الزمان . وهو يعدهم بالنصر والظفر بأعدائهم . هذا مع ما شاهدوا من
فعل الله بعدوهم فرعون من الغرق له ولجنوده في اليم وهم ينظرون . لتقر به
أعينهم - وما بالعهد من قدم - ثم ينكلون عن مقاتلة أهل بلد هي بالنسبة إلى
ديار مصر لا توازن عشر المعشار في عدة أهلها وعددهم . وظهرت قبائح صنيعهم
- للخاص والعام وافتضحوا فضيحة لا يغطيها الليل ، ولا يسترها الذيل .وقال
رحمه الله - قبل ذلك : وما أحسن ما أجاب به الصحابة - رضي الله عنهم - يوم
بدر رسول الله صلى الله عليه وسلم حين استشارهم في قتال قريش . فقد قالوا
فأحسنوا .لقد قال المقداد : يا رسول الله ، إنا لا نقول كما قالت بنو
إسرائيل لموسى؛ ( فاذهب أَنتَ وَرَبُّكَ فقاتلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ
ولكن نقول لك : " إذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون " .كذلك يؤخذ (
من هذه القصة أن معصية الله ورسله تؤدي إلى الخسران ، فإن بني إسرائيل لما
جبنوا عن دخول الأرض المقدسة ، وعصوا أمر نبيهم ، عاقبهم الله بالتيه مدة
. أربعين سنة ، صارت قصتهم عبرة للمعتبرين ، وموعظة للمتقين

واتل عليهم نبا ابني ادم بالحق اذ قربا قربانا فتقبل من احدهما ولم يتقبل
من الاخر قال لاقتلنك قال انما يتقبل الله من المتقين

كما فسرها الوسيط وبعد أن ساق - سبحانه - جوانب متعددة من أحوال أهل الكتاب
- وما جبلوا عليه من أخلاق سيئة ، أتبع ذلك بقصة ابنى آدم ، فقال - تعالى
" قال أبو حيان( . . . واتل عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابني ءَادَمَ بالحق إِذْ ):
مناسبة هذه الآيات لما قبلها ، هو أن الله لما ذكر تمرد بني إسرائيل
وعصيانهم أمره في النهوض لقتال الجبارين ، أتبع ذلك بذكر قصة ابني آدم
وعصيان قابيل أمر الله ، وأنهم اقتفوا في العصيان أول عاص لله وأنهم انتهوا
في خور الطبيعة . وهلع النفوس والجبن والفزع إلى غاية بحيث قالوا لنبيهم
الذي ظهرت على يديه خوارق عظيمة - ( فاذهب أَنتَ وَرَبُّكَ فقاتلا إِنَّا
هَاهُنَا قَاعِدُونَ ) وانتهى قابيل إلى طرف نقيض منه من الجسارة والعتو

، بأن أقدم على أكبر المعاصي بعد الشرك وهو قتل النفس التي حرم الله قتلها
بحيث كان أول من سن القتل ، وكان عليه وزره ووزر من عمل به إلى يوم القيامة
فاشتبهت القصتان من حيث الجبن عن القتل والإقدام عليه . ومن حيث المعصية .
بهما وأيضا فتقدم قوله في أوائل الآيات :( إِذْ هَمّ قَوْمٌ أَن
يَبْسُطُواْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ ) وتبين أن عدم اتباع بني إسرائيل
للنبي صلى الله عليه وسلم إنما سببه الحسد ، وقصة بني آدم انطوت على الحسد
وأن بسببه وقعت أول جريمة قتل على ظهر الأرض .وقوله : ( واتل ) من :
التلاوة . وأصل التلاوة القراءة المتتابعة الواضحة في مخارج حروفها .وفي
: النطق بها . والمراد بابني آدم : ولداه وهما قابيل وهابيل .قال القرطبي
واختلف في ابني آدم . فقال الحسن البصري : ليسا من صلبه كانا رجلين من بني
، إسرائيل - ضرب الله بهما المثل في إبانة حسد اليهود - وكان بينهما خصومة
: فتقربا بقربانين ، ولم تكن القرابين إلا في بني إسرائيل قال ابن عطية
وهذا وهم ، وكيف يجهل صورة الدفن أحد من بني إسرائيل يقتدى بالغراب؟
والصحيح أنهما ابناه لصلبه . هذا قول الجمهور من المفسرين وهما قابيل
وهابيل .والضمير في قوله : ( عليهم ) يعود على بني إسرائيل الذين سبق
الحديث عنهم . أو على جميع الذين أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم لهدايتهم
ويدخل فيه بنو إسرائيل دخولا أوليا ، لإعلامهم بما هو في كتبهم حيث وردت
هذه القصة في التوراة .وقوله ( بالحق ) متعلق بمحذوف وقع صفة لمصدر ( اتل )
أي : اتل عليهم تلاوة ملتبسة بالحق والصدق . والقربان : اسم لما يتقرب به
إلى الله - تعالى - من صدقة أو غيرها . ويطلق في أكثر الأحوال على الذبائح
التي يتقرب إلى الله - بذبحها .قال أبو حيان : وقد طول المفسرون في سبب
تقريب هذا القربان - من قابيل وهابيل - وملخصه : أن حواء كانت تلد في كل
بطن ذكرا وأنثى ، وكان آدم يزوج ذكر هذا البطن أنثى ذلك البطن الآخر . ولا
يحل للذكر نكاح توأمته : فولد مع قابيل أخت جميلة ، وولد مع هابيل أخت دون
ذلك .فأبى قابيل إلا أن يتزوج توأمته لا توأمه هابيل ، وأن يخالف سنة
النكاح ونازع قابيل وهابيل في ذلك ، فاتفقا على أن يقدما قربانا - فأيهما
- قبل قربانه تزوجها ، والقربان الذي قرباه هو زرع لقابيل - وكان صاحب زرع
وكبش هابيل - وكان صاحب غنم - فتقبل من أحدهما وهو هابيل ولم يتقبل من
الآخر وهو قابيل . وكانت علامة التقبل أن تأكل نار نازلة من السماء القربان
المتقبل وتترك غير المتقبل .والمعنى : واتل - يا محمد - على هؤلاء الحسدة
من اليهود ، وعلى الناس جميعا قصة قابيل وهابيل ، وقت أن قربا قرباناً
لله - تعالى - فتقبل الله - عز وجل - قربان أحدهما - وهو هابيل - لصدقة
وإخلاصه ، ولم يتقبل من الآخر - وهو قابيل - بسوء نيته وعدم تقواه .ثم
حكى - سبحانه - ما دار بين الأخوين من حوار فقال : ( قَالَ لأَقْتُلَنّكَ
أي قال قابيل متوعدا أخاه هابيل : لأقتلنك بسبب قبول قربانك ، دون قرباني (
فأنت ترى أن هذا الأخ الظالم قد توعد أخاه بالقتل - وهو من أكبر الكبائر ،
دون أن يقيم للأخوة التي بينهما وزنا ودون أن يهتم بحرمة الدماء وبحق .
غيره في الحياة والذي حمله على ذلك الحسد له على مزية القبول .وقد أكد
. تصميمه على قتله لأخيه بالقسم المطوي في الكلام والذي ، تدل عليه اللام
ونون التوكيد الثقيلة أي والله لأقتلنك بسبب قبول قربانك .وهنا يحكي القرآن
، الكريم ما رد به الأخ البار التقي هابيل على أخيه الظالم الحساد قابيل
فيقول : ( إِنّمَا يَتَقَبّلُ الله مِنَ المتقين ) .أي : قال هابيل
لقابيل ناصحا ومرشداً : إنما يتقبل الله الأعمال والصدقات من عباده المتقين
الذين يخشونه في السر والعلن؛ وليس من سواهم من الظالمين الحاسدين لغيرهم
على ما آتاهم الله من نعم ، فعليك أن تكون من المتقين لكي يقبل منك الله
قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف كان قوله : ( إِنّمَا يَتَقَبّلُ الله.
مِنَ المتقين ) جواباً لقوله : ( لأَقْتُلَنّكَ ) ؟ قلت : لما كان الحسد
لأخيه على تقبل قربانه هو الذي حمله على توعده بالقتل قال له : إنما أتيت
من قبل نفسك لانسلاخها من لباس التقوى ، لا من قبلي ، فلم تقتلني؟ ومالك لا
تعاتب نفسك ولا تحملها على تقوى الله التي هي السبب في القبول؟ فأجابه
بكلام حكيم مختصر جامع لمعان . وفيه دليل على أن الله - تعالى -لا يقبل
. طاعة إلا من مؤمن متق

لئن بسطت الي يدك لتقتلني ما انا بباسط يدي اليك لاقتلك اني اخاف الله رب العالمين

كما فسرها الوسيط ثم انتقل الأخ التقي من وعظ أخيه بتطهير قلبه ، إلى
- تذكيره بحقوق الأخوة وما تقتضيه من بر وتسامح فقال - كما حكى القرآن عنه
لَئِن بَسَطتَ إِلَيّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ )
إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إني أَخَافُ الله رَبّ العالمين ) وبسط اليد : مدها
والمراد هنا : مدها بالاعتداء .والمعنى : لئن مددت إلى - يا أخي - يدك
لتقتلني ظلما وحسداً ( مَآ أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ )
- فإن القتل - وخصوصا بين الأخوة جريمة منكرة ، تأباها شرائع الله - تعالى
وتنفر منها العقول السليمة .وإذا كان الأخ الظالم قابيل قد أكد تصميمه على

قتل أخيه هابيل بجملة قسمية وهي ( لَأَقْتُلَكَ ) فإن هابيل قد أكد عدم قتله له بجملة قسمية - أيضاً وهي ( لَئِن بَسَطتَ إِلَيّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ ) .فأنت ترى أن الجملة الكريمة تصور أكمل تصوير ما بين الأخيار والأشرار من تضاد .قال الآلوسي : قيل كان هابيل أقوى من قابيل ولكنه تخرج عن قتله واستسلم له خوفاً من الله - تعالى - لأن المدافعة لم تكن جائزة في ذلك الوقت ، وفي تلك الشريعة أو تحريماً لما هو الأفضل والأكثر ثواباً وهو كونه مقتولا ، لا قاتلا . وقوله : ( إني أَخَافُ الله رَبَّ العالمين ) جملة تعليلية مسوقة لبيان. سبب امتناع هابيل عن بسط يده إلى أخيه قابيل .أي : إني أخاف الله رب العالمين أن يراني باسطاً يدي إليك بالقتل . وقد أكد خوفه من الله - تعالى - بأن المؤكدة للقول ، وبذكره له - سبحانه - بلفظ الجلالة ، المشعر بأنه هو وحده صاحب السلطان ، وبوصفه له عز وجل بأنه رب العالمين ، أي : منشئ الكون ومن وما فيه ، وصاحب النعم التي لا تحصى على خلقه .وفي هذه الجملة الكريمة إرشاد لقابيل لخشية الله على أتم وجه ، وتعريض بأن القاتل لا يخاف الله .

اني اريد ان تبوء باثمي واثمك فتكون من اصحاب النار وذلك جزاء الظالمين

كما فسرها الوسيط ثم انتقل هابيل من وعظ أخيه بتطهير قلبه وبتذكيره بما تقتضيه الأخوة من بر وتسامح إلى تخويفه من عقاب الآخر فقال : ( إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النار وَذَلِكَ جَزَآءُ الظالمين ) .وقوله : ( أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ ) أي ترجع وتقر : من البوء وهو الرجوع واللزوم ، يقال : باء إليه : أي : رجع ، وبؤت . ، به إليه أي رجعت .والآية الكريمة تعليل آخر لامتناعه عن بسط يده إلى أخيه ولم تعطف على ما قبلها للإيذان باستقلالها في العلية ، ولدفع توهم أن تكون جزء علة لا علة تامة .والمعنى ( إني أُرِيدُ ) بامتناعي عن التعرض لك ببسط ، يدي ( أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ ) .أي : ترجع إلى بإثم قتلك إياي ) وبإثمك الذي قد كان منك قبل قتلي ، والذي بسببه لم يتقبل قربانك فَتَكُونَ ) بسبب الإثمين ( مِنْ أَصْحَابِ النار ) في الآخرة ( وَذَلِكَ أي : كينونتك من أصحاب النار ( جَزَآءُ الظالمين ) الذين ظلموا أنفسهم ( وظلموا غيرهم .قال الإمام الرازي : فإن قيل : كما لا يجوز للإنسان أن ، يريد نفسه أن يعصي الله ، فكذلك لا يجوز له أن يريد من غيره أن يعصي الله فلم قال : ( إني أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ ) .فالجواب : أن هذا الكلام إنما دار بينهما عندما غلب على ظن المقتول أنه يريد قتله ، وكان : ذلك قبل إقدام القاتل على إيقاع القتل به ، وكأنه لما وعظه ونصحه قال له وإن كنت لا تنزجر عن هذه الكبيرة بسبب هذه النصيحة فلابد وأن تترصد قتلي في وقت أكون غافلا عنك وعاجزا عن دفعك فحينئذ لا يمكنني أن أدفعك عن قتلي إلا إذا قتلتك ابتداء بمجرد الظن والحسبان .وهذا منى كبيرة ومعصية وإذا دار الأمر بين أن يكون فاعل هذه المعصية أنا ، وبين أن يكون أنت ، فأنا أحب أن تحصل هذه الكبيرة لك لا لي .ومن المعلوم أن إرادة صدور الذنب من الغير في هذه الحالة ، وعلى هذا الشرط لا يكون حراما . ويجوز أن يكون المراد : إني أريد أن تبوء بعقوبة قتلي . ولا شك أنه يجوز للمظلوم أن يريد من الله عقاب ظالمه .وقال صاحب الانتصاف : فأما إرادته - أي إرادة هابيل - لإثم أخيه وعقوبته - في قوله - تعالى ( إني أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فمعناه : إني لا أريد أن أقتلك فأعاقب . ولما لم يكن بد من إرادة أحد - ( الأمرين إما إثمه بتقدير أن يدفع عن نفسه فيقتل أخاه ، وإما إثم أخيه بتقدير أن يستسلم وكان غير مريد للأول . اضطر إلى الثاني .فهو لم يرد إذا - إثم أخيه لعينه ، وإنما أراد أن الإثم هو بالمدافعة المؤدية إلى القتل ولم تكن حينئذ مشروعة - فلزم من ذلك إرادة إثم أخيه . وهذا كما يتمنى الإنسان الشهادة ، ومعناه أن يبوء الكافر بقتله وبما عليه في ذلك من الإثم ، ولكن لم يقصد هو إثم الكافر لعينه ، وإنما أراد أن يبذل نفسه في سبيل الله .وإلى هنا نرى . أن هابيل قد استعمل في صرف أخيه عن جريمة القتل وسائل متنوعة فهو أولا أرشده إلى أن الله - تعالى - إنما يتقبل الأعمال من المتقين ، فإذا أراد أن يتقبل قربانه فعليه أن يكون منهم .وأرشده ثانيا إلى حقوق الأخوة وما تقتضيه من محبة ومودة وتسامح .وأرشده ثالثا إلى أنه لا يمنعه من بسط يده إليه إلا الخوف من الله رب العالمين .وأرشده رابعاً إلى أن ارتكابه لجريمة القتل سيؤدي به إلى عذاب النار يوم القيامة ، بسبب قتله لأخيه ظلماً وحسداً .

فطوعت له نفسه قتل اخيه فقتله فاصبح من الخاسرين

كما فسرها الوسيط فماذا كان وَقْعُ هذا النصح الحكيم ، والإرشاد القويم في نفس ذلك الإنسان الحاسد الظالم؟لقد بين الله ذلك بقوله : ( فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الخاسرين ) .قال

القرطبي : قوله ( فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ ) : أي : سولت وسهلت نفسه له
: الأمر . وشجعته وصورت له أن قتل أخيه طوع سهل . يقال : طاع الشيء يطوع أي
سهل وانقاد . " وطوعه فلان له أي سهله " .والمعنى : أن قابيل سهلت له نفسه
وزينت له - بعد هذه المواعظ - ( قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ
الخاسرين ) في دنياه وفي أخراه .وأصبح من الخاسرين في آخرته ، لأنه ارتكب
جريمة من أكبر الجرائم وأشنعها وقد توعد الله مرتكبها بالغضب واللعنة
والعذاب العظيم .والتعبير بقوله - تعالى ( فطوعت ) تعبير دقيق بليغ ، فإن
هذه الصيغة - صيغة التفعيل - تشير إلى أنه كانت هناك بواعث متعددة تتجاذب
نفسه ، كانت هناك بواعث الشر التي تدعوه إلى الإقدام على قتله ، ودوافع
الخير التي تمنعه من الاقدام على قتل أخيه ، وأخيراً تغلبت دوافع الشر على
دوافع الخير فقتل أخاه .وقد صور الإمام الرازي هذا المعنى تصويرا حسنا
فقال :قال المفسرون : فطوعت ، أي : سهلت له نفسه قتل أخيه ، وتحقيق الكلام
أن الإنسان إذا تصور القتل العمد العدوان وكونه من أعظم الكبائر فهذا
الاعتقاد يصير صارفا له عن فعله فيكون هذا الفعل كالشيء العاصي المتمرد
عليه الذي لا يطيعه بوجه ألبتة . فإذا أوردت النفس أنواع وساوسها ، صار هذا
الفعل سهلا عليه ، فكأن النفس جعلت بوساوسها العجيبة هذا الفعل كالمطيع له
بعد أن كان كالعاصي المتمرد عليه ، فهذا هو المراد بقوله : ( فَطَوَّعَتْ ،
لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ ) .هذا ، والآية الكريمة بعد كل ذلك ، تشير
إلى شناعة الجريمة في ذاتها من حيث الباعث عليها ، إذا الباعث عليها هو
الحسد ومن حيث الصلة بين القاتل والمقتول إذ هي صلة أخوة تقتضي المحبة
- والمودة والتراحم ومن حيث ذات الفعل فإنه أكبر جريمة بعد الإشراك بالله
تعالى - .قال الآلوسي : أخرج الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود - رضي الله
عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم "لا تقتل نفس ظلما إلا
كان على ابن آدم الأول كفل من دمها . لأنه أول من سن القتل " وأخرج ابن
جرير والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر - رضي الله عنه - قال : " إنا
. " لنجد ابن آدم القاتل ، يقاسم أهل النار العذاب . عليه شطر عذابهم

فبعث الله غرابا يبحث في الارض ليريه كيف يواري سوءة اخيه قال يا ويلتا
اعجزت ان اكون مثل هذا الغراب فاواري سوءة اخي فاصبح من النادمين

) : كما فسرها الوسيط ثم حكى القرآن بعض ما حدث بعد قتل الأخ أخاه فقال
فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي
سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَاوَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا
) : الغراب فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النادمين ) .وقوله
فَبَعَثَ ) من البعث بمعنى الإرسال . وهو هنا مستعمل في الإلهام بالطير
إلى ذلك المكان بحيث يراه قابيل .والغراب : طائر معروف . قالوا : والحكمة
في كونه المبعوث دون غيره من الطيور أو الحيوان ، لأنه يتشاءم به في الفراق
والاغتراب . أو لأن من عادة الغراب دفن الأشياء .وقوله : ( يَبْحَثُ فِي
الأرض ) أي : ينبش التراب بمنقاره ورجليه بحيث يستخرجه من الأرض ، ليعمل
، ما يشبه الحفرة .والتعبير بالمضارع ، للإشارة إلى أن البحث قد مكث وقتا
وكان مجال استمرار .وقوله : ( ليريه ) إما متعلق بقوله ( بعث ) فيكون
الضمير في الفعل لله - تعالى - أو متعلق بقوله : ( يبحث ) فيكون الضمير
للغراب .قال القرطبي : قال مجاهد : بعث الله غرابين فاقتتلا حتى قتل أحدهما
الآخر ثم حفر فدفنه - فتعلم قابيل ذلك من الغراب - وكان ابن آدم هذا أول من
قتل . وقيل إن الغراب بحث الأرض على طعمه - أي : أكله - ليخفيه إلى وقت
الحاجة إليه ، لأن عادة الغرب فعل ذلك ، فتنبه قابيل بذلك على مواراة أخيه
والسوءة " ما تسوء رؤيته من الجسد ، والمراد بها هنا : جميع جسد الميت ". "
وقيل : المراد بها العورة ، لأنها تسوء ناظرها . وخصت بالذكر مع أن المراد
مواراة جميع الجسد للاهتمام بها ، لأن سترها آكد .وهذه الآية مرتبطة بكلام
يسبقها لم يذكره القرآن الكريم لفهمه من السياق .والتقدير : أن القاتل بعد
أن ارتكب جريمته . ورأى جثة أخيه أمامه ملقاة في العراء . تحير ماذا يفعل
فيها حتى لا يتركها عرضة لنهش السباع والطيور . ( فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً
) يَبْحَثُ ) أي : يحفر وينبش بمنقاره ورجليه متعمقا ( فِي الأرض )
لِيُرِيَهُ ) أي : ليعلم ذلك القاتل ويعرفه ( كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ
أَخِيهِ ) أي : كيف يستر في التراب جسم أخيه بعد أن فارقته الحياة ، وأصبح
عرضة للتغير والتعفن .وقوله - تعالى - ( قَالَ يَاوَيْلَتَا أَعَجَزْتُ
أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هذا الغراب فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي ) بيان لما
اعترى هذا القاتل من تحسر وندم .وكلمة ( قَالَ يَاوَيْلَتَا ) أصلها : يا
ويلتي . وهي كلمة جزت وتحسر . تستعمل عند وقوع المصيبة العظيمة كأن المتحسر
ينادي ويلته ويطلب حضورها ، بعد تنزيلها منزلة من ينادي . ولا يكون ذلك إلى
في أشد الأحوال ألما ، والويلة كالويل : ومعناهما الفضيحة والبلية والهلاك
أي : قال القاتل لأخيه ظلما وحسدا بجزع وحسرة - بعد أن رأى غرابا يحفر.
حفرة ليدفن فيها شيئا - قال ( يَاوَيْلَتَا ) أي : يا فضيحتي وبليتي
أقبليي فهذا وقتك ، لأني قد نزلت بي أسبابك .وقوله : ( أَعَجَزْتُ أَنْ

أَكُونَ مِثْلَ هذا الغراب فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي ) أي : أضعفت عن
الحيلة التي تجعلني مثل هذا الغراب فأستر جسد أخي في التراب كما دفن الغراب
بمنقاره ورجليه في الأرض ما أراد دفنه؟! والاستفهام في ( أعجزت ) للتعجب من
عدم اهتدائه إلى ما اهتدى إليه الغراب ، مع أنه إنسان فيه عقل ، والغراب
طائر من أخس الطيور .وقوله : ( فأوارى ) معطوف على قوله : ( أن أكون )
وقوله : ( فَأَصْبَحَ مِنَ النادمين ) ، تذييل قصد به بيان ما أصاب قابيل.
بعد أن قتل أخاه عدوانا وحسدا ، ولم يعرف كيف يستر جثته إلا من الغراب
والندم : أسف الفاعل على فعل صدر منه .قال الراغب : الندم والندامة التحسر.
من تغير رأى في أمر فائت . قال - تعالى - : ( فَأَصْبَحَ مِنَ النادمين )
وأصله من منادمة الحزن له وملازمته إياه .والمعنى : فأصبح قابيل الذي قتل.
، أخاه هابيل بغيا وحسدا من النادمين على ما اقترف من فواحش تدل على جهله
- وبغيه ، وتمكن الحقد من نفسه .قال صاحب المنار : والندم الذي ندمه
قابيل - هو ما يعرض لكل إنسان عقب ما يصدر عنه من الخطأ في فعله فعله إذا
ظهر له أن قفعله كان شرا له لا خيرا . وقد يكون الندم توبة إذا كان سببه
الخوف من الله ، والتألم من تعدي حدوده ، وهذا هو المراد بحديث " الندم
توبة " - رواه أحمد والبخاري في تاريخه والحاكم البيهقي .وأما الندم
الطبيعي الذي أشرنا إليه فلا يعد وحده توبة . وفي حديث ابن مسعود في
- الصحيحين مرفوعا : "لا تقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم كفل - أي نصيب
من دمها؛ لأنه أول من سن القتل " .

من اجل ذلك كتبنا على بني اسرائيل انه من قتل نفسا بغير نفس او فساد في
الارض فكانما قتل الناس جميعا ومن احياها فكانما احيا الناس جميعا ولقد
جاءتهم رسلنا بالبينات ثم ان كثيرا منهم بعد ذلك في الارض لمسرفون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد أن ساق ما جرى بين ابني آدم - ما
شرعه من شرائع تردع المعتدى ، وتبشر التقي فقال - تعالى - ( مِنْ أَجْلِ
ذلك كَتَبْنَا على بني إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ
نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ في الأرض فَكَأَنَّمَا قَتَلَ الناس جَمِيعاً وَمَنْ
أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً ) .وأصل معنى الأجل :
الجناية التي يخشى منها آجلا . يقال : أجل الرجل على أهله شرا يأجله - بضم
الجيم وكسرها - أجلا إذا جناه أو أثاره وهيجه ، ثم استعمل في تعليل
الجنايات كما في قولهم : من أجلك فعلت كذا . أي بسببك ، ثم اتسع فيه
فاستعمل في كل تعليل .والجار والمجرور ( من أجل ) متعلق بالفعل ( كتبنا )
واسم الإشارة ( ذلك ) يعود ما ذكر في تضاعيف قصة ابن آدم من أنواع المفاسد
المترتبة على هذا القتل الحرام .والمعنى : يبسبب قتل قابيل لأخيه هابيل
حسداً وظلما ، ومن أجل ما يترتب على القتل بغير حق من مفاسد ( كَتَبْنَا )
أي فرضنا وأوجبنا ( على بني إِسْرَائِيلَ ) في التوراة ما يردع المعتدي وما
يبشر المتقي .قال الجمل : قال بعضهم : إن قوله : ( فَأَصْبَحَ مِنَ
النادمين ) - والمعنى : فأصبح من النادمين من أجل ذلك . يعني من أجل أنه
قتل أخاه هابيل ولم يواره ، ويروى عن نافع أنه كان يقف على قوله : من أجل
ذلك ويجعله من تمام الكلام الأول ، ولكن جمهور المفسرين وأصحاب المعاني على
أن قوله ( مِنْ أَجْلِ ذلك ) ابتداء كلام متعلق بقوله ( كَتَبْنَا ) فلا
يوقف عليه .و ( من ) هنا للسببية . أي : بسبب هذه الجناية شرعنا ما شرعنا
من أحكام لدفع الشر وإشاعة الخير .وعبر - سبحانه - عن السببية . بمن لبيان
الابتداء في الحكم . وأنه اقترن بوقوع تلك الجرية النكراء التي ستكون
آثارها سيئة إذا لم تشرع الأحكام لمنعها .وقد الجار والمجرور على ما تعلق
به وهو ( كتبنا ) لإفادة الحصر أي : من ذلك ابتدئ الكتب ومنه نشأ لا من شيء
آخر .وعبر - سبحانه - بقوله ( كتبنا ) للإشارة إلى أن الأحكام التي كتبها
قد سجلت بحيث لا تقبل المحو أو التبديل ، بل من الواجب على الناس أن ،
يلتزموا بها ، ولا يفرطوا في شيء منها .وخص بنو إسرائيل بالذكر مع أن الحكم
عام - لأنهم أول أمة نزل الوعيد عليهم في قتل الأنفس مكتوبا ، وكان قبل ذلك
قولا مطلقا ، ولأنهم أكثر الناس سفكا للدماء ، وقتلا للمصلحين ، فقد قتلوا
كثيرا من الأنبياء ، كما قتلوا أكثر المرشدين والناصحين ، ولأن الأسباب
، التي أدت إلى قتل قابيل لهابيل من أهمها الحسد ، وهو رذيلة معروفة فيهم
فقد حملهم حسدهم للنبي صلى الله عليه وسلم على الكفر به مع أنهم يعرفون
صدقة كما يعرفون أبناءهم ، كما حملهم على محاولة قتله ولكن الله - تعالى
نجاه من شرورهم .وما أشبههم في قتلهم للذين يأمرونهم بالخير بقابيل الذي
قتل أخاه هابيل؛ لأنه أرشده إلى ما يصلحه .وقوله - تعالى - : ( أَنَّهُ مَن
قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ في الأرض فَكَأَنَّمَا
قَتَلَ الناس جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ
جَمِيعاً ) بيان لما كتبه - سبحانه - من أحكام تسعد الناس متى اتبعوها
والمعنى : بسبب قتل قابيل لأخيه هابيل ظلما وعدوانا ، كتبنا في التوراة.
على بني إسرائيل ( أنه ) أي : الحال والشأن ( مَن قَتَلَ نَفْساً ) واحدة
من النفوس الإنسانية ( بِغَيْرِ نَفْسٍ ) .أي : بغير قتل نفس يوجب

الاقتصاص منه ( أَوْ فَسَادٍ فِي الأرض ) أي : أو بغير فساد في الأرض يوجب
إهدار الدم - كالردة وزنا المحصن - ( فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً )
لأن الذي يقتل نفسا بغير حق ، يكون قد استباح دما مصونا قد حماه الإسلام
بشرائعه وأحكامه ، ومن استباح هذا الدم في نفس واحدة ، فكأنه قد استباحه في
نفوس الناس جميعا ، إذا النفس الواحدة تمثل النوع الإنساني كله . ( وَمَنْ
أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً ) أي : ومن تسبب في
إحيائها وصيانتها من العدوان عليها ، كأن استنقذها مما يؤدي بها إلى الهلاك
والأذى الشديد ، أو مكن الحاكم من إقامة الحد على قاتلها بغير حق ، من فعل
ذلك فكأنما تسبب في إحياء الناس جميعا .وفي هذه الجملة الكريمة أسمى ألوان
- الترغيب في صيانة الدماء ، وحفظ النفوس من العدوان عليها ، حيث شبه
سبحانه 0 قتل النفس الواحدة بقتل الناس جميعا ، وإحياءها بإحياء الناس
جميعا .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف شبه الواحد بالجميع ، وجعل حكمه
، كحكمهم؟قلت : لأن كل إنسان يدلي بما يدلي به الآخر من الكرامة على الله
وثبوت الحرمة . فإذا قتل فقد أهين ما كرم على الله وهتكت حرمته ، وعلى
العكس . فلا فرق إذاً بين الواحد والجميع في ذلك .فإن قلت : فلما الفائدة
في ذكر ذلك؟ قلت : تعظيم قتل النفس وإحيائها في القلوب وليشمئز الناس عن
الجسارة عليها ، ويتراغبوا في المحاماة على حرمتها ، لأن المتعرض لقتل
النفس إذا تصور قتلها بصورة قتل الناس جميعا ، عظم ذلك عليه فثبطه - عن
القتل - وكذلك الذي أراد إحياءها .وقال الإمام ابن كثير : قال الحسن
وقتادة في قوله - تعالى - ( أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفساً ) . . إلخ .هذا
. تعظيم لتعاطي القتل . قال قتادة : عظيم والله وزرها ، وعظيم والله أجرها
وقيل للحسن : هذه الآية لنا كما كانت لبني إسرائيل؟ فقال : إي والذي لا إله
غيره - هي لنا 0 كما كانت لهم . وما جعل - سبحانه - دماءهم أكرم من دمائنا
وعلى هذا التفسير الذي سرنا عليه يكون المراد بالنفس في قوله ( أَنَّهُ.
مَن قَتَلَ نَفْساً ) : العموم أي : نفسا يحرم قتلها من بني الإنسان
وبعضهم يرى أن المراد نفس الإمام العادل ، لأن القتل في هذه الحالة يؤدي.
إلى اضطراب أحوال الجماعة ، وإشاعة الفتنة فيها . قال القرطبي : روى عن ابن
عباس أنه قال : المعنى : من قتل نبيا أو إمام عدل فكأنما قتل الناس جميعا
ومن أحياه بأن شد عضده ونصره ، فكأنما أحيا الناس جميعا .ويبدو لنا أن
تفسير النفس بالعموم أولى ، لأنه هو الذي عليه جمهور العلماء ، ولأنه أدعى
) . لحفظ الدماء الإنسانية ، وإعطائها ما تستحقه من صيانة واحترام .وقوله
بِغَيْرِ نَفْسٍ ) متعلق بالفعل قبله وهو ( قتل ) . وقوله ( أو فساد )
) مجرور عطفاً على نفس المجرورة بإضافة غير إليها .و " ما " في قوله
) : - فَكَأَنَّمَا ) كافة مهيئة لوقوع الفعل بعدها .وقوله - تعالى
وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بالبينات ثُمّ إِنّ كَثِيراً مِّنْهُمْ
بَعْدَ ذلك فِي الأرض لَمُسْرِفُونَ ) لبيان لموقف بني إسرائيل القبيح مما
جاءهم من هدايات على أيدي أنبيائهم ومرشديهم .أي : ولقد جاءت رسلنا لبني
إسرائيل بالآيات البينات ، والمعجزات الواضحات ، ( إِنَّ كَثِيراً
مِّنْهُمْ بَعْدَ ذلك ) أي : بعد الذي كتبناه عليهم من شرائع ، وبعد مجئ
الرسل إليهم بالبينات ( فِي الأرض لَمُسْرِفُونَ ) أي : لمجاوزون الحد في
ارتكاب المعاصي والآثام ، إذ الإسراف مجاوزة حدود الحق والعدل بدون مبالاة
أو اهتمام بهما . وأكد - سبحانه - جملة ( وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا )
بالقسم ، لكمال العناية بمضمونها ، ولبيان أن الرسل - عليهم السلام - ما
قصروا في إرشاد بني إسرائيل إلى ما يسعدهم ويهديهم ، فقد جاء وهم بالشرائع
" البينة الواضحة التي تحمل في نفسها دليل صلاحها . والتعبير " بجاءتهم
، يشير إلى أن الرسل - عليهم السلام - وصلوا إليهم ، وصاروا قريبين منهم
) بحيث يرونهم ويخاطبونهم ولا يتركون أمراً يهمهم إلا بينوه لهم .وجملة
ثُمّ إِنّ كَثِيراً مِّنْهُمْ ) معطوفة على جملة ( وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ
وكان العطف " بثم " المفيدة هنا للتراخي في الرتبة ، للإشارة إلى الفرق. (
الشاسع بين ما جاءتهم به الرسل من بينات وهدايات ، وبين ما كان عليه بنو
إسرائيل من جحود وعناد وإفساد في الأرض .واسم الإشارة " ذلك " يعود إلى
المذكور من مجيء الرسل إليهم بالبينات ومن كتابة الشرائع عليهم . وفي وصف
الكثيرين من بني إسرائيل بالاسراف احتراس في الحكم ، وإنصاف للقلة التي
آمنت منهم ، وهذا من عدالة القرآن الكريم في أحكامه ، ودقته في تعبيراته
وذكر - سبحانه - أن إسراف الكثيرين منهم ( فِي الأرض ) مع أنه لا يكون إلا.
فيها ، للإيذان بأن فسادهم وإسرافهم في القتل والمعاصي لم يكن فيما بينهم
فحسب ، بل انتشر وشره في الأرض ، وسرى إلى غيرهم من سكانها المنتشرين فيها
وبذلك نرى أن هذه الآيات قد حكت لنا ما دار بين ابني آدم من محاورات أدت .
إلى قتل أحدهما للآخر ظلما وحسدا ، إذ الحسد يأكل القلوب ، ويشعلها بالشر
، كما تشتعل النار في الحطب ، وبسببه ارتكبت أول جريمة قتل على ظهر الأرض
وبسببه كانت أكثر الجرائم في كل زمان ومكان . . كما حكت لنا أن بني
إسرائيل - مع علمهم بشناعة جريمة القتل - قد أسرفوا في قتل الأنبياء
والمصلحين مما يدل على قسوة قلوبهم ، وفي ذلك تسلية للنبي صلى الله عليه
وسلم ولأصحابه عما كانوا يلاقونه من اليهود المعاصرين لهم من عناد ومكر

وأذى .

انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فسادا ان يقتلوا او يصلبوا او تقطع ايديهم وارجلهم من خلاف او ينفوا من الارض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الاخرة عذاب عظيم

، كما فسرها الوسيط وبعد أن ذكر سبحانه - تغليظ الإثم في قتل النفس بغير حق ، وتعظيم الأجر لمن عمل على إحيائها ، أتبع ذلك ببيان الفساد المبيح للقتل فقال - تعالى - :( إِنَّمَا جَزَآءُ الذين يُحَارِبُونَ . . . )قال ابن جرير : اختلف أهل التأويل فيمن نزلت هذه الآية؟ فقال بعضهم : نزلت في قوم من أهل الكتاب كانوا أهل موادعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فنقضوا : العهد ، وأفسدوا في الأرض ، فعرف الله نبيه الحكم فيهم . . .وقال آخرون نزلت في قوم من المشركين .وقال آخرون : بل نزلت في قوم من عرينة وعكل - بضم العين وسكون الكاف - ارتدوا عن الإسلام ، وحاربوا الله ورسوله ، فعن أنس أن رهطا من عكل وعرينة أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول : الله إنا أهل ضرع ، ولم نكن أهل ريف ، وإنا استوخمنا المدينة - أي وجدناها رديئة المناخ - فأمر لهم النبي صلى الله عليه وسلم بذود وراع - أي بعدد من الإبل ومعهم راع - ، وأمرهم أن يخرجوا بها ، فيشربوا من ألبانها : وأبوالها ، فقتلوا الراعي ، واستقاوا الذود ، وكفروا بعد إسلامهم ، فأتى ، بهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقطع أيديهم وأرجلهم ، وسمل أعينهم وتركهم في الحرة حتى ماتوا ، فذكر لنا أن هذه الآية نزلت فيهم .ثم قال ابن جرير : وأولى الأقوال في ذلك عندي أن يقال : أنزل الله هذه الآية على نبيه صلى الله عليه وسلم : لمعرفة حكمه على من حارب الله ورسوله ، وسعى في الأرض فسادا ، بعد الذي كان من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعرنيين والذي يراه ابن جرير أولى هو الذي تطمئن إليه النفس ، فإن الآية الكريمة. تبين عقاب قطاع الطرق الذين يحاربون النظام القائم للأمة ، ويرتكبون جرائم القتل والنهب والسلب والسرقة سواء أكانوا من المشركين أم من غيرهم؟ إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .وقوله : سبحانه ( يُحَارِبُونَ ) من المحاربة . والمحاربة : مفاعلة من الحرب وهي ضد السلم ، والأصل في معنىكلمة الحرب : الأخذ والسلب . يقال : حربه ، إذا سلبه ماله ، والمراد بالمحاربة هنا : قطع الطريق على الآمنين بالاعتداء عليهم بالقتل أو السلب أو ما يشبه - ذلك في الجرائم التي حرمها الله - تعالى - :ومحاربة الناس لله - تعالى على وجه الحقيقة غير ممكنة ، لتنزهه - سبحانه - عن أن يكون من الجواهر والأجسام التي تُقَاتل؛ ولأن ، المحاربة تستلزم أن يكون كل من المتحاربين في وجهة ومكان والله منزه عن ذلك ، فيكون التعبير مجازاً عن المخالفة لشرع الله ، وارتكاب ما يغضبه أو المعنى : يحاربون وأولياء رسوله وهم المسلمون؛ فيكون الكلام على تقدير حذف مضاف .وصدر - سبحانه - الآية بلفظ ( إنما ) المفيد للمقصر ، لتأكيد العقاب ، ولبيان أنه عقاب لا هوادة فيه ، لأنه حد ، من حدود الله - تعالى - على تلك الجريمة النكراء التي تقوض بنيان الجماعة - وتهدم أمنها ، وتزلزل كيانها ، وتبعث الرعب والخوف في نفوس أفرادها .وعبر سبحانه - عمن يحارب أولياءه وشرعه بأنهم محاربون له ولرسوله لزيادة التشنيع عليهم ، ولبيان أن كل من يهدد أمن المسلمين ويعتدي عليهم يكون محارباً لله ولرسوله ومستحقاً لغضبه - سبحانه - وعقوبته .وقوله : ( وَيَسْعَوْنَ فِي الأرض فَسَاداً ) معطوف على قوله ( يُحَارِبُونَ ) .وقوله : ( وَيَسْعَوْنَ من السعي وهو الحركة السريعة المستمرة .والفساد : ضد الصلاح . فكل ما خرج ( عن وضعه الذي يكون به صالحاً نافعاً ، يقال إنه قد فسد . والسعي في الأرض بالفساد المراد به هنا : قطع الطريق على الناس ، وتهديد أمنهم ، والتعرض لهم بالأذى في أنفسهم أو أموالهم أو أعراضهم .وقوله : ( فسادا ) مفعول لأجله أي : يحاربون ويسعون لأجل الفساد . أو هو حال من فاعل ( يسعود ) . بتأويله بمفسدين ، أو ذوي فساد .وقوله : ( أَن يقتلوا أَوْ يصلبوا ) ألخ ) خبر عن المبتدأ هو ( جزاء ) .والمعنى : ( إِنَّمَا جَزَآءُ ) أي : عقاب ، الذين يُحَارِبُونَ الله وَرَسُولَهُ ) أي : يخالفونهما ويعصون أمرهما ويعتدون على أوليائهما ( وَيَسْعَوْنَ فِي الأرض فَسَاداً ) أي : يعملون بسرعة ونشاط في الأرض لا من أجل الإصلاح وإنما من أجل الإفساد فيها عن طريق تهديد أمن الناس ، والاعتداء على أموالهم وأنفسهم . جزاء هؤلاء ( أن يقتلوا ) والتقتيل هو القتل ، إلا أنه ذكر بصيغة التضعيف لإفادة الشدة في القتل وعدم التهاون في إيقاعه عليهم لكونه حق الشرع وللإشارة إلى الاستمرار في قتلهم ما داموا مستمرين في الجريمة فكلما كان منهم قتل قتلوا والتصليب : وضع الجاني الذي يراد قتله مشدودا على مكان ( أَوْ يصلبوا ). مرتفع بحيث يرى بعد القتل ليكون عبرة لغيره ، وردعاً له عن ارتكاب المعاصي . والجرائم ، قالوا : ويكون الصلب لمدة ثلاثة أيام وقيل : لمدة يوم واحد وجيء هنا أيضاً بصيغة التضعيف لإفادة التشديد في تنفيذ هذه العقوبة وإثبات أنه لا هوادة فيها .( أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ ) أي : تقطع مختلفة ، فقوله ( مِّنْ خِلافٍ ) حال في أيديهم

وأرجلهم أي :لا تكون اليد والرجل المقطوعتان من جانب واحد بل تكونان من
جانبين مختلفين .( أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرضِ ) أي ، يطردوا من الأرض التي
اتفقوا فيها على الإجرام إلى أرض أخرى ليتشتت شملهم ، ويتفرق جمعهم ، مع
مراقبتهم والتضييق عليهم . وفسر بعضهم النفي بالحبس في السجون ، لأن فيه
إبعادا لهم وتفريقا لجمعهم .واسم الإشارة في قوله - تعالى - ( ذلك لَهُمْ
. . خِزْيٌ فِي الدنيا ) يعود إلى العقاب المذكور في الآية من القتل والصلب
إلخ .والخزي : الذي والفضيحة أي ذلك العقاب المذكور ( ذلك لَهُمْ خِزْيٌ
، فِي الدنيا ) أي : ذل وفضيحة وعار عليهم ، لأنه كشف أمرهم ، وهتك سترهم
- وجعلهم عبرة لغيرهم .هذا هو عقاب الدنيا أما عقاب الآخرة قد بينه
سبحانه - بقوله : ( وَلَهُمْ فِي الآخرة عَذَابٌ عَظِيمٌ ) أي : ولهم في
. الآخرة عذاب عظيم في شدته وآلامه جزاء ما اقترفوا من جرائم

الا الذين تابوا من قبل ان تقدروا عليهم فاعلموا ان الله غفور رحيم

كما فسرها الوسيط وقوله : ( إِلاَّ الذين تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن
تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ فاعلموا أَنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ) بيان لحكم
هؤلاء المحاربين إذا ما تابوا قبل القدرة عليهم .أي نفذوا - أيها
، المسلمون - هذه العقوبات على هؤلاء المحاربين لأولياء الله وأولياء رسوله
والساعين في الأرض بالفساد ما داموا مستمرين في غيهم وعدوانهم ( إِلاَّ
الذين تَابُوا ) منهم ( مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ ) أي : من
قبل أن تتمكنوا من أخذهم ، بأن أتوكم طائعين نادمين ، ( فاعلموا أَنَّ الله
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ) أي واسع المغفرة والرحمة بعباده .هذا وهناك مسائل تتعلق
بهاتين الآيتين من أهمها ما يأتي :1 - احتج بعموم هذه الآية جمهور العلماء
في أن المحاربة في الأمصار وفي القرى وفي الصحراء على السواء ، فحيثما
تحققت إخافة المسلمين ، كان الفاعلون لتلك الإخافة محاربين الله ولرسوله
ويجب إنزال العقاب بهم ، لقوله - تعالى - ( وَيَسْعَوْنَ فِي الأرض
فَسَاداً ) وكل هذه الأماكن من الأرض . وعلى هذا الرأي سار الإمام مالك
والشافعي وأحمد وغيرهم .ويرى الإمام أبو حنيفة أن قطع الطريق لا يتصور في
داخل المصر ، إذ يمكن الإغاثة عند الاستغاثة ويد السلطان مبسوطة في داخل
الأمصار والقرى وإنما يتصور قطع الطريق في الصحراء وخارج المدن والقرى
والذي نراه متفقا مع الآية الكريمة أنه حيثما تحقق الوصف - وهو محاربة.
الآمنين؛ واستلاب أموالهم ، والاعتداء على أرواحهم - كانت الحرابة ، ولزمت
: العقوبة التي تردع هؤلاء المعتدين على أموال الناس وأنفسهم .قال القرطبي
واختلف العلماء فيمن يستحق اسم المحاربة . فقال مالك : المحارب عندنا من
حمل على الناس في مصر أو في برية وكابرهم على أنفسهم وأموالهم دون نائرة
قال ابن المنذر : اختلف عن مالك في هذه المسألة فأثبت المحاربة في المصر.
، مرة ونفي ذلك مرة . وقالت طائفة حكم ذلك في المصر أو في المنازل والطرق
، وديار أهل البادية والقرى سواء وحدودهم واحدة .قال ابن المنذر : كذلك هو
لأن كلا يقع عليه اسم المحاربة . والآية على العموم . وليس لأحد أن يخرج من
جملة الآية قوما بغير حجة . وقالت طائفة :لا تكون المحاربة في المصر إنما
تكون خارجة عن المصر .وقال ابن العربي : والذي نختاره أن الحرابة عامة في
، المصر والقفر ، وإن كان بعضها أفحش من بعض . ولكن اسم الحرابة بتناولها
ومعنى الحرابة موجود فيها . ولو خرج بعض من في المصر لقتل بالسيف . ويؤخذ
فيه بأشد ذلك لا بأيسره . فإنه سلب وغيلة ، وفعل الغيلة أقبح من فعل
الظاهرة ولذلك دخل العفو في قتل المجاهرة فكان قصاصا ، ولم يدخل في قتل
) - الغيلة وكان حدا .2 - اختلف الفقهاء في معنى التخيير في قوله - تعالى
أن يقتلوا أَوْ يصلبوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ
خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأرض ) .فقال قوم من السلف : الآية تدل على
التخيير بين هذه الأجزية : فمتى خرج المحاربون بقطع الطريق ، وقدر الإمام
عليهم ، فهو مخير بين أن يوقع بهم أي نوع من العقاب من هذه الأنواع الأربعة
القتل أو الصلب أو التقطيع أو النفي ، حتى ولو لم يقتلوا ولم يأخذوا مالا :
ما داموا قد اجتمعوا وقصدوا تهديد أمن الناس. فالمسألة متروكة لتقدير ،
الحاكم ، وعليه أن يوقع بهم ما يراه مناسباً لزجرهم وردعهم وجعلهم عبرة
لغيرهم حتى لا يستشرى الشر في الأمة .قال ابن كثير : قال ابن أبي طلحة عن
ابن عباس فيمن شره السلاح في قبة الإسلام . وأخاف السبيل ثم ظفر به
الإمام وقدر عليه ، فإمام المسلمين فيه بالخيار : إن شاء قتله وإن شاء
، صلبه وإن شاء قطع يده ورجله ، وكذا قال : سعيد بن المسيب ومجاهد ، وعطاء
والحسن البصري ، وإبراهيم النخعي ، والضحاك كما رواه ابن جرير عن أنس - وهو
مذهب المالكية .ومستند هذا القول أن ظاهر ( أو ) للتخيير كما في نظائر ذلك
من القرآن ، كما في قوله - تعالى - في كفارة الفدية : ( مَن كَانَ مِنكُم
مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ
صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ) فأو هنا للتخيير ، وكذلك في الآية التي معنا .وقال
قوم آخرون من السلف : الآية تدل على ترتيب الأحكام وتوزيعها على ما يليق
. بها من الجنايات . أي : أن ( أو ) لتنويع العقوبات على حسب طبيعة الجرائم

فإذا قتل هؤلاء المحاربون غيرهم وأخذوا المال قتلوا وصلبوا وإذا قتلوا فقط قتلوا ، وإذا أخذوا المال فحسب قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف . وإذا تجمعوا واتفقوا على إرتكاب الجرائم من غير أن يرتكبوا بالفعل نفوا من الأرض .وبهذا الرأي قال ابن عباس وقتادة والأوزاعي ، وهو مذهب الشافعية والأحناف والحنابلة .قال ابن كثير : وقال الجمهور : هذه الآية منزلة على أحوال ، فعن ، ابن عباس أنه قال في قطاع الطريق : إذا قتلوا وأخذوا المال قتلوا وصلبوا وإذا قتلوا ولم يأخذوا المال قتلوا ولم يصلبوا ، وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وإذا أخافوا السبيل ولم يأخذوا المال نفوا من الأرض .ثم قال ابن كثير : ويشهد لهذا التفصيل الحديث الذي رواه ابن جرير في تفسيره أن عبد الله بن مروان كتب إلى أنس بن مالك يسأله عن هذه الآية ، فكتب إليه يخبره أنها نزلت في أولئك النفر العرنيين الذين ارتدوا : عن الإسلام وقتلوا الراعي ، واستاقوا الإبل وخافوا السبيل . . قال أنس فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عن القضاء فيمن حارب ، فقال جبريل من سرق مالا وأخاف السبيل فاقطع يده بسرقته ورجله بإخافته ومن قتل فاقتله : : ومن قتل وأخاف السبيل واستحل الفرج الحرام فاصلبه .وقال الفخر الرازي . والذي يدل على ضعف القول الأول وجهان :الأول : أنه لو كان المراد من الآية التخيير لوجب أن يمكن الإمام من الاقتصار على النفي ، ولما أجمعوا على أنه ليس له ذلك علمنا أنه ليس المراد من الآية التخيير .الثاني : أن هذا المحارب إذا لم يقتل ولم يأخذ المال فقدهمّ بالمعصية ولم يفعل ، وذلك لا يوجب القتل كالعزم على سائر المعاصي فثبت أنه لا يجوز حمل الآية على : التخيير ، فيجب أن يضمر في كل فعل على حدة فعلا على حدة ، فصار التقدير أن يقتلوا إن قتلوا ، أو يصلبوا إن جمعوا بين أخذ المال والقتل أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف إن اقتصروا على أخذ المال . أو ينفوا من الأرض إن - أخافوا السبيل .والخلاصة أن أصحاب هذا الرأي الثاني يستدلون بأدلة نقلية سبق بيانها - كما يستدلون بأدلة عقلية منها ما ذكر الإمام الرازي ومنها أن العقل يقضي أن يكون الجزاء مناسبا للجناية بحيث يزداد بازديادها ، وينقص ، بنقصها ، وليس من المعقول أن تكون جريمة الاتفاق على الإرهاب بدون تنفيذ متساوية مع جريمة الإرهاب والقتل والسلب . إذا فالعدالة توجب تنويع العقوبة .ومنها أن التخيير الوارد في الأحكام المختلفة بحرف التخيير إنما يجري على ظاهره إذا كان سبب الوجوب واحداً كما في كفارة اليمين وكفارة - الفدية ، أما إذا كان السبب مختلفا فإنه يخرج التخيير عن ظاهره - كما هنا ويكون الغرض بيان الحكم لكل واحد في نفسه ، وذلك لأن قطع الطريق متنوع ، وبين أنواعه تتفاوت الجريمة : فقد يكون باستلاب المال فقط ، وقد يكون بالقتل فقط ، وقد يكون بهما وما دام الأمر كذلك وجب أن يكون العقاب مختلفاً ووجب أن يحمل ظاهر النص على غير التخيير . بأن يحمل على بيان الحكم لكل نوع قالوا : ونظير ذلك قوله - تعالى - ( قُلْنَا ياذا القرنين إمّآ أن. تُعَذِّبَ وَإِمّآ أن تَتّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً ) فإنه ليس الغر آلتخيير وإنما الغرض : ليكن شأنك مع قومك تعذيب من جحد وظلم ، والإحسان إلى من آمن وعمل صالحا .وإنما قلنا : ليس الغرض التخيير ، لأنه لا يمكن أن يكون له الحق في أي الأمرين من غير مرجح لأحدهما في الاعتبار ، إذ منطق العدالة يقتضي أن يكون العذاب لمن فسق وجحد ، وأن يكون الإحسان لمن آمن واستقام قال بعض العلماء : " وإن الفقه في التفرقة بين الرأيين أن الرأي الثاني. يحدد جرائم معينة ، ويعتبرها موضوع قطع بفعلها أو بالشروع فيها وهي القتل والسرقة . وأن الجرائم لا تخلو عن ذلك ، ولذلك كانت العقوبات مترددة بين القطع والقتل ، وأنه يكون ثمة تغليظ إذا ارتكبت الجريمتان معا .وإن كان الشروع بالتجمع واتخاذ الأسباب ، فإن العقوبة تكون بمنع الجريمة من الوقوع باتخاذ أسباب الوقاية بالنفي من الأرض ، ولذلك كان التنويع ، وكان تخريج حرف ( أو ) على ذلك الأساس ، ليكون التكافؤ سبين الجريمة والعقوبة ، وإن لم تكن جريمة كانت الوقاية .أما الرأي الأول فهو يتجه إلى أن عقوبة الحرابة لذات الحرابة لذات الحرابة والسعي في الأرض بالفساد ، ومنع الناس من السير والاستمتاع بأموالهم وحرياتهم الشخصية . وظاهر هذا الرأي أنه لا ينظر إلا إلى ذات الحرابة التي هي التخويف والإرهاب ، ولا ينظر إلى الجرائم التي ارتكبوها فعلا ، ولذلك يعمم الجرائم ولا يقصرها على القتل والسرقة كالرأي ، الثاني .ويرى أن العقوبات في جملتها هي لعلاج ذلك الشر ، وحسم مادته والقضاء على التفكير لمن يهم بمحاكاة من وقعوا فيه ، ولذلك يجب إطلاق يدولي الأمر واعتبار تلك العقوبات في ديه كالدواء بين يدي الطبيب ، يختار من أصنافه ما يراه أنجح في علاج الآفة التي أصابت الجسم الاجتماعي .وإنا نرى الرأي الثاني بالنسبة لتنويع العقاب ، ونرى الرأي الأول بالنسبة لتعميم الجرائم التي تفسد المجتمع . فإذا كانت عصابة تعمل لجمع الرجال على النساء وتخطف النساء لذلك الغرض ، أو كانت عصابة لتجميع المواد المخدرة المحرم دينا وقانونا تناولها ، فإنهم يكونون كقطاع الطريق ، ويدخلون في باب الحرابة .3 - تدل الآية بظاهرها على أن المحاربين يعاقبون في الدنيا - والآخرة ، ولا يكون العقاب الدنيوي ظهرة لهم ولو كانوا مسلمين لقوله تعالى ( ذلك لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدنيا وَلَهُمْ فِي الآخرة عَذَابٌ عَظِيمٌ

قال القرطبي : فقوله : ( ذلك لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدنيا ) لشناعة. ( المحاربة ، وعظم ضررها وإنما كانت المحاربة عظيمة الضرر ، لأن فيها سد سبيل الكسب على الناس . لأنه إذا أخيف الطيرق انقطع الناس عن السفر ، واحتاجوا إلى لزوم البيوت ، فانسد باب التجارة عليهم ، وانقطعت أكسابهم ، فشرع الله على قطاع الطريق الحدود المغلظة ، وذلك الخزي في الدنيا ردعا لهم عن سوء فعلهم ، وفتحا لباب التجارة التي أباحها الله لعباده . وتكون هذه المعصية خارجة عن المعاصي ومستثناه من حديث عبادة بن الصامت في قول النبي صلى الله عليه وسلم : " فمن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا فهو كفارة له " ويحتمل أن يكون الخزي لمن عوقب ، وعذاب الآخرة لمن سلم في الدنيا ، ويجزي. هذا الذنب مجرى غيره . ولا خلود لمؤمن في النار على ما تقدم ، ولكن يعظم عقابه لعظم ذنبه ، ثم يخرج إما بالشفاعة وإما بالقبضة وهذا الوعيد كغيره : - مقيد بالمشيئة ، وله - تعالى - أن يغفر هذا الذنب .4 - دل قوله - تعالى : ( إِلاَّ الذين تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ ) على أن توبة المحاربين قبل الظفر بهم ، تسقط عنهم حد المحاربين المذكور في الآية ، إلا أن كثيرا من الفقهاء قالوا إن الذي يسقط عنهم هو ما يتعلق بحقوق الله ، أما ما يتعلق بحقوق العباد فلا يسقط عنهم بالتوبة قبل القدرة عليهم .

يا ايها الذين امنوا اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون

كما فسرها الوسيط قال القرطبي : قوله - تعالى - : ( إِلاَّ الذين تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ ) : استثنى - جل شأنه - التائبين قبل أن يقدر عليهم ، وأخبر بسقوط حقه عنهم بقوله : ( فاعلموا أَنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ) . أما القصاص وحقوق الآدميين فلا تسقط ، وظاهر الآية أن من تاب بعد القدرة عليه فتوبته لا تنفع ، وتقام الحدود عليه كما تقدم .وقال الآلوسي : قوله ( إِلاَّ الذين تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ ) استثناء مخصوص بما هو من حقوق الله - تعالى - كما ينبئ عنه قوله ( فاعلموا أَنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ) . وأما ما هو من حقوق العباد - كحقوق الأولياء من القصاص ونحوه - فيسقط بالتوبة وجوبه على الإمام من حيث كونه حدا ، ولا يسقط جوازه بالنظر إلى الأولياء من حيث كونه قصاصاً؛ فإنهم إن شاءوا عفوا ، وإن أحبوا استوفوا .ويرى ابن جرير وابن كثير أن توبة المحاربين قبل القدرة عليهم تسقط عنهم جميع الحدود .فقد قال ابن جرير - بعد أن ساق الأقوال في ذلك - : " وأولى هذه الأقوال بالصواب عندي ، قول من قال : توبة المحارب الممتنع بنفسه ، أو بجماعة معه ، قبل القدرة عليه ، تضع عنه تبعات الدنيا التي كانت لزمته أيام حربه وحرابته ، ومن حدود الله ، وغرم لازم ، وقود وقصاص ، إلا ما كان قائما في يده من أموال المسلمين والمعاهدين فيرد على أهله " .وقال ابن كثير : وقوله - تعالى - ) إِلاَّ الذين تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ ) أما على قول من قال إنها في أهل الشرك ، فظاهر . - أي : فإنهم إذا آمنوا قبل القدرة عليهم سقطت عنهم جميع الحدود المذكورة - وأما المحاربون المسلمون فإذا تابوا قبل القدرة عليهم فإنه يسقط عنهم تحت القتل والصلب وقطع الرجل .وهل يسقط قطع اليد؟ فيه قولان للعلماء . وظاهر الآية يقتضي سقوط الجميع ، وعليه عمل الصحابة .ثم ساق آثارا في هذا المعنى منها : ما رواه ابن أبي حاتم عن الشعبي قال : كان جارثة بن بدر التميمي من أهل البصرة - وكان قد أفسد في الأرض وحارب - فكلم رجالا من قريش فكلموا عليا فيه فلم يؤمنه . فأتى سعيد بن قيس الهمداني فخلفه في داره ثم أتى عليا فقال : يا أمير المؤمنين : أرأيت من حارب الله ورسوله وسعى في الأرض فسادا ، فقرأ حتى بلغ ( إِلاَّ الذين تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ ) فقال على : اكتب له أمانا . .وبعد ، فهذه بعض الأحكام التي تتعلق بقطاع الطريق الذي سماهم الله - تعالى - محاربين لله ولرسوله ، وسمى الفقهاء عملهم حرابة .وقد رأينا أن الله - تعالى - قد عاقبتهم بتلك العقوبات الرادعة في الدنيا . وأعد لهم العذاب العظيم من الآخرة ، ما داموا مستمرين في عداوتهم وتهديدهم لأمن الناس ، واستلابهم لأموالهم .وإن المقصد من هذه العقوبات الشديدة ، أن يكف المعتدون عن عدوانهم ، وأن يحس الناس في حياتهم بالأمان والاطمئنان على أنفسهم وأموالهم وأغراضهم ، فإن الأمة التي ترتكب فيها الجرائم بدون خوف أو رجل ، ويفتقد أبناؤها الأمان والاطمئنان ، هذه الأمة التي هذا شأنها ، لابد أن تضطرب كلمتها ، ويهون أمرها ، وتنتزع الثقة بين الحاكمين والمحكومين فيها ، لذا فقد أوجب الإسلام على أتباعه أن يتكاتفوا ويتعاونوا للقضاء على كل من يحاول إثارة الفتن والاضطراب بين صفوفهم ، حتى يعيشوا آمنين مطمئنين مؤدين لما يجب عليهم نحو دينهم ودنياهم بدون خوف أو إزعاج .وقد قال ، القرطبي في هذا المعنى : " وإذا أخاف المحاربون السبيل ، وقطعو الطريق وجب على الإمام قتالهم من غير أن يدعوهم ، ووجب على المسلمين التعاون على قتالهم وكفهم عن أذى المسلمين ، فإن انهزموا لم يتبع منهم مدبراً إلا أن يكون قد قتل وأخذ مالا ، فإن كان كذلك أتبع ليؤخذ ويقام عليه ما وجب

لجنايته .وبعد أن بين - سبحانه - سوء عاقبة المحاربين له ولرسوله صلى الله
عليه وسلم وأخرج منهم من تاب إليه - سبحانه - قبل القدرة عليه بعد كل ذلك
وجه - سبحانه - نداء إلى المؤمنين أمرهم فيه بتقواه ، وبالتقرب إليه بالعمل
الصالح فقال - تعالى - :( يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ اتقوا . . . )يَا
أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ
الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (35)قوله
- من التقوى بمعنى صيانة النفس عن كل ما يبغضه الله - تعالى ( اتقوا ) :
وقوله : ( وابتغوا ) من الابتغاء وهو الاجتهاد في طلب الشيء .و ( الوسيلة.
على وزن فعيلة بمعنى ما يتوصل به ويتقربي به إلى الله - تعالى - ، من فعل (
الطاعات ، واجتناب المعاصي ، مأخوذة من وسل إلى كذا ، أي : تقرب إليه بشيء
، وقيل : الوسيلة الحاجة .قال الراغب : الوسيلة : التوصل إلى الشيء برغبة .
وهي أخص من الوصيلة ، لتضمنها معنى الرغبة ، وحقيقة الوسيلة إلى الله
مراعاة سبيله بالعلم والعبادة وتحري مكارم الشريعة ، وهي كالقربة . والواسل
الراغب إلى الله - تعالى . .والمعنى : يأيها الذين آمنوا بالحق الذي جاء :
به محمد صلى الله عليه وسلم ( اتقوا الله ) أي : خافوه وصونوا أنفسكم عن كل
ما لا يرضيه ( وابتغوا إِلَيهِ الوسيلة ) : أي : اطلبوا باجتهاد ونشاط
الزلفى والقربى إلأيه عن طريق مداومتكم على فعل الطاعات ، والتزود من
الأعمال الصالحات ، واجتناب المعاصي والمنكرات .( وَجَاهِدُواْ فِي
سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ) أي : وجاهدوا أنفسكم بكفها عن الأهواء
وكذلك جاهدوا أعداءكم حتى تكون كلمة الله هي العليا ، رجاء أن تفوزوا ،
بالفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة . وقد ناداهم - سبحانه - بصفة الإيمان ،
لتحريك حرارة العقيدة في قلوبهم وتوجيه عقولهم إلى ما يستدعيه الإيمان ،
من طاعة وإخلاص .وقوله : ( إليه ) متعلق بالفعل قبله وهو ( وابتغوا ) أو
بلفظ ( الوسيلة ) لأنها بمعنى المتوسل به ، وقدم الجار والمجرور لإفادة
، التخصيص .أي : اطلبوا برغبة وشدة ما يقربكم إلى الله من الأعمال الصالحة
ولا تتقربوا إلى غيره إلا في ظل طلب رضاه - سبحانه - .أو : اطلبوا متوجهين
إليه - سبحانه - حاجتكم ، فإن بيده مقاليد السموات والأرض ، ولا تطلبوها
متوجهين إلى غيره .وقد جاء لفظ الوسيلة في الأحاديث النبوية على أنه اسم
لأعلى الدرجات في الجنة ، وهذا المعنى متلاق مع أصل المعنى ، وهو التقرب
- إلى الله والتوسل إليه وحده بالطاعات ، لأن من يفعل ذلك ينال من الله
تعالى - أسمى الدرجات .وقد ساق الإمام ابن كثير جملة من الأحاديث في هذا
المعنى فقال ما ملخصه :الوسيلة : القربة . كذا قال ابن عباس ومجاهد
وأبووائل والحسن وقتادة وغير واحد .قال قتادة : أي تقربوا إليه بطاعته
والعمل بما يرضيه .والوسيلة أيضاً : علم على أعلى منزلة في الجنة وهي منزلة
رسول الله صلى الله عليه وسلم وداره في الجنة ، وهي أقرب أمكنة الجنة إلى
العرش . وقد ثبت في صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : " من قال حين سمع النداء - أي الآذان - : اللهم رب
هذه الدعوة التامة ، والصلاة القائمة ، آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه
مقاماً محموداً الذي وعدته حلت له شفاعتي يوم القيامة " .وثبت في صحيح مسلم
عن عبد الله بن عمرو أنه سمع النبي - صلى الله عليه وسلم يقول : " إذا
سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علي ، فإنه من صلى على صلاة صلى
الله عليه بها عشراً ، ثم سلوا لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي
إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو . فمن سأل الوسيلة حلت له
شفاعتي " .والمتأمل في هذه الآية الكريمة يراها قد أرشدت المؤمنين إلى ما
يسعدهم بأن ذكرت لهم ثلاث وسائل وغاية ، أو ثلاث مقدمات ونتيجة .أما
الوسائل الثلاث أو المقدمات الثلاث فهي : تقوى الله ، والتقرب إليه بما
يرضيه ، والجهاد في سبيله . وأما الغاية في أو النتيجة لكل ذلك فهي الفلاح
والفوز والنجاح .ولو أن المسلمين تمسكوا بهذه الوسائل حق التمسك لو صلوا
إلى ما يسعدهم في دنياهم وفي آخرتهم .هذا ، وللعلماء كلام طويل في التوسل
والوسيلة ، نرى أنه لا بأس من ذكر جانب منه .قال الإملام ابن تيمية : إن
لفظ الوسيلة والتوسل فيه إجمال واشتباه ، يجب أن تعرف معانيه ويعطي كل ذي
حق حقه . فيعرف ما ورد به به الكتاب والنسة من ذلك ومعناه : وما كان يتكلم
به الصحابة ويفعلونه ومعنى ذلك ، ويعرف ما أحدثه المحدثون في هذا اللفظ
ومعناه فإن كثيراً من اضطراب الناس في هذا الباب هو بسبب ما وقع من
الإجمال والاشتراك في الألفاظ ومعانيها حتى تجد أكثرهم لا يعرف في هذا
) - الباب فصل الخطاب .إن لفظ الوسيلة ورد في القرآن ومن ذلك قوله - تعالى
( يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ اتقوا الله وابتغوا إِلَيهِ الوسيلة
الوسيلة التي أمر الله أن تبتغي إليه . هي ما يتقرب به إليه من الواجبات.
والمستحبات .فجماع الوسيلة التي أمر الله الخلق بابتغائها ، هو التوسل إليه
باتباع ما جاء به الرسول ، لا وسيلة لأحد إلى الله إلا ذلك .ولفظ الوسيلة
ورد - أيضاً - في الأحاديث الصحيحة كقوله صلى الله عليه وسلم " سلوا الله
لي الوسيلة فإنها درجة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله . وأرجو أن
أكون أنا ذلك العبد " .ثم قال : والتوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم والتوجه
به في كلام الصحابة ، يريدون التوسل به وشفاعته . والتوسل به في عرف كثير

من المتأخرين يراد به الإقسام به والسؤال به .وحينئذ فلفظ التوسل به صلى الله عليه وسلم يراد به معنيان صحيحان باتفاق المسلمين ويراد به معنى ثالث لم ترد به سنة .أما المعنيان الصحيحان . فأحدهما : التوسل بالإيمان به وبطاعته .والثاني : دعاؤه وشفاعته . ومن هذا قول عمر بن الخطاب : اللهم إنا - كنا إذا أجدبنا توسلنا إليك بنينا فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا - العباس - فاسقنا أي بدعائه وشفاعته .والتوسل بدعائه وشفاعته كما قال عمر هو توسل بدعائه لا بذاته ، ولهذا عدلوا عن التوسل به إلى التوسل بعمه العباس .فلما عدلوا عن التوسل به إلى التوسل بالعباس ، علم أن ما يفعل في حياته قد تعذر بموته .وأما المعنى الثالث الذي لم ترد به سنة فهو التوسل به بمعنى الإقسام على الله بذاته والسؤال بذاته ، فهذا لم يكن الصحابة يفعلونه لا في حياته ولا بعد مماته ولا عند قبره ولا غير قبره . ولا يعرف في شيء من الأدعية المشهورة بينهم وإنما ينقل شيء من ذلك في أحاديث ضعيفة مرفوعة وموقوفة . أو عن من ليس قوله حجة .قال الآلوسي ما ملخصه : واستدل بعض الناس بهذه الآية على مشروعية الاستغاثة بالصالحين ، وجعلهم وسيلة بين : الله - تعالى - وبين العباد والقسم على الله - تعالى - بهم ، بأن يقال اللهم إنا نقسم عليك بفلان أن تعطينا كذا . ومنهم من يقول للغائب أو للميت من عباد الله الصالحين : يا فلان ادع الله أن يرزقني كذا وكذا ويزعمون أن ذلك من ابتغاء الوسيلة وكل ذلك بعيد عن الحق بمراحل .وتحقيق الكلام في هذا المقام أن الاستغاثة بمخلوق وجعله وسيلة بمعنى طلب الدعاء منه لا شك في جوازه إن كان المطلوب منه حيا ، ولا يتوقف على أفضليته من الطالب ، بل قد يطلب الفاضل من المفضول ، فقد صح أنه صلى الله عليه وسلم قال لعمر لما استأذنه في العمرة : "لا تنسنا يا أخي من دعائك " ولم يرد عن أحد من الصحابة - وهم أحرص الناس على كل خير - أنه طلب من ميت شيئا .وأما القسم على الله - تعالى - بأحد من خلقه مثل أن يقال : اللهم إني أقسم عليك أو أسألك بفلان إلا ما قضيت لي حاجتي ، فعن ابن عبد السلام جواز ذلك في النبي صلى الله عليه وسلم لأنه سيد ولد آدم . ولا يجوز أن يقسم على الله بغيره من الأنبياء أو الملائكة أو الأولياء . لأنهم ليسوا في درجته .ومن الناس من منع التوسل بالذات ، والقسم على الله بأحد من خلقه مطلقاً ، وهو الذي ترشح به كلام ابن تيمية ونقله عن أبي حنيفة وأبي يوسف ، وغيرهما من العلماء الأعلام . ثم قال بعد كلام طويل :وبعد هذا كله فأنا لا أرى بأسا في التوسل إلى الله - تعالى - بجاه النبي صلى الله عليه وسلم حيا وميتا ويراد من الجاه معنى يرجع إلى صفة من صفاته - تعالى - مثل أن يراد به المحبة التامة المستدعية عدم رده وقبول شفاعته فكون معنى القائل : إلهي أتوسل بجاه نبيك صلى الله عليه وسلم أن تقضي لي حاجتين ، أي : إلهي أجعل محبتك له وسيلة في - قضاء حاجتي ، بل لا أرى بأسا - أيضاً - في الأقسام على الله - تعالى بجاهه صلى الله عليه وسلم بهذا المعنى .ثم قال : وإن الناس قد أكثروا من دعاء غير الله - تعالى - من الأولياء . الأحياء منهم والأموات وغيرهم . مثل يا سيدي فلان أغثني . وليس ذلك من التوسل المباح في شيء . . واللائق بحال المؤمن عدم التفوه بذلك . وأن لا يحوم حول حماه ، وقد عده بعض العلماء شركا وإن لا يكنه فهو قريب منه .فالحزم التجنب عن ذلك وعدم الطلب إلا من ، الله - تعالى - القوى الغني الفعال لما يريد .

ان الذين كفروا لو ان لهم ما في الارض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب اليم

كما فسرها الوسيط وبعد أن حض - سبحانه - عباده المؤمنين على تقواه والتقرب إليه بصالح الأعمال لكي ينالوا الفلاح والنجاح ، عقب ذلك ببيان ما أعده للكافرين من عذاب أليم فقال - تعالى - :( إِنَّ الذين كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ المعنى : ( إِنَّ الذين كَفَرُواْ ) بآياتنا وجحدوا الحق الذي( . . . جاءتهم به رسلنا ( لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَّا فِي الأرض جَمِيعاً ) أي : لو أن : لم جميع ما في الأرض من أموال وخيرات ومنافع ( وَمِثْلَهُ مَعَهُ ) أي وضعفه معه ، وقدموا كل ذلك ( لِيَفْتَدُواْ بِهِ ) أي : ليخلصوا به أنفسهم أي : ما قبله الله ( مِنْ عَذَابِ يَوْمِ القيامة مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ) منهم ، لأن سنته قد اقتضت أن تكون نجاة الإنسان من العذاب يوم القيامة متوقفة على الإيمان والعمل الصالح ، لا على الأموال وما يشبهها من حطام : الدنيا مهما عظم شأنها وكثر عددها . ( وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ) أي شديد في آلامه وأوجاعه .فالآية الكريمة تبين ما أعده الله - تعالى - يوم القيامة للكافرين بآياته من عذاب أليم ، لن يصرفه عنهم صارف مهما قدموا من ثمن ، أو بذلوا من أموال .وقوله ( لَوْ أَنَّ لَهُمْ ) إلخ ، جملة شرطية جوابها قوله تعالى ( مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ) وهذه الجملة الشرطية وجوابها خبر إن في قوله : ( إِنَّ الذين كَفَرُواْ ) .وصدرت الآية الكريمة بأداة التوكيد " إن " للرد على ما ينكره الكافرون من وقوع عذاب عليهم يوم القيامة فقد حكى القرآن عنهم أنهم قالوا : ( نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ) .والمراد بقوله : ( لَوْ أَنَّ

لَهُمْ ) أي : لو أن لكل واحد من هم منفرداً ، ما في الأرض جميعا ومثله معه
. وقدمه يوم القيامة ليخلص نفسع من العذاب ، سما قبل منه ذلك الذي قدمه ،
) : وفي ذلك ما فيه من ثبوت العذاب عليهم ووقوعه بهم لا محالة . وقوله
جميعا ) توكيد للموصول وهو ( ما ) في قوله : ( مَّا فِي الأرض ) أو حال منه
وقوله : ( ومثله ) معطوف على اسم أن وهو ( ما ) الموصولة .وقوله : ( معه :
ظرف واقع موقع الحال من المعطوف والضمير يعود إلى الموصول . وجاء الضمير (
المجرور في قوله ( لِيَفْتَدُواْ بِهِ ) بصيغة الإفراد ، مع أن الذي تقدمه
شيئان وهما : ما في الأرض جميعا ومثله . للإشارة إلى أنهما لتلازمهما قد
صارا بمنزلة شيء واحد . أو لإجراء الضمير مجرى اسم الإشارة بأن يؤول
المرجع المتعدد بالمذكور أي ليفتدوا بذلك المذكور من عذاب يوم القيامة ما
تقبل منهم .ونفي - سبحانه - قبول الفدية منهم بقوله : ( مَا تُقُبِّلَ
مِنْهُم ) لإفادة تأكيد هذا النفي واستبعاده ، إذ أن صيغة " التقبل " تدل
على تكلف القبول أي : أنه لا يمكن قبول الفداء منهم مهما قدموا من أموال
: ومهما بذلوا من محاولات في سبيل الوصول لغرضهم .قال الفخر الرازي
والمقصود من هذا الكلام التمثيل للزوم العذاب لهم ، فإنه لا سبيل لهم إلى
الخلاص منه .روى البخاري عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى عليه وسلم
: يؤتي بالرجل من أهل النار فيقال له : يا بن آدم كيف وجدت مضجعك؟ فيقول ":
شر مضجع . فيقال له . أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهبا أكنت تفتدي به؟ فيقول
نعم ، فيقال له : قد كنت سئلت ما هو أيسر من ذلك : أن لا تشرك بالله :
. " شيئاً فيؤمر به إلى النار

يريدون ان يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - ( يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ النار
وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ) .بيان لدوام
) نزول العذاب بهم بعد بيان شدة آلامه وأوجاعه .أي : يريد هؤلاء الكافرون
أن يَخْرُجُواْ مِنَ النار ) بعد أن ذاقوا عذابها وآلامها ، ( وَمَا هُم
بِخَارِجِينَ مِنْهَا ) أبدا ، بسبب ما ارتكبوه في الدنيا من قبائح ومنكرات
أي : دائم ثابت لا ينقطع .فأنت ترى هاتين ( وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ )
الآيتين قد بينا سوء عاقبة الكافرين ، بعد أن رغب - سبحانه - المؤمنين في
. التقرب إليه بالإيمان والعمل الصالح ، وذلك لكي يزداد المؤمنون إيمانا
ولكي ينصرف الناس عن الكفر والفسوق والعصيان إلى الإيمان والطاعة
. والاستجابة لتعاليم الله الواحد القهار

والسارق والسارقة فاقطعوا ايديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم

كما فسرها الوسيط وبعد أن بين - سبحانه - عقوبة الذين يحاربون الله ورسوله
. ودعا المؤمنين إلى التقرب إليه بالعمل الصالح وبين سوء عاقبة الكافرين ،
بعد أن بين كل ذلك أعقبه ببيان عقوبة السرقة فقال - تعالى :( والسارق
والسارقة فاقطعوا . . . )قال الجمل ما ملخصه : قوله - تعالى - ( والسارق
والسارقة ) . . إلخ . شروع في بيان حكم السرقة الصغرى بعد بيان أحكام
الكبرى .وقرأ الجمهور : والسارق بالرفع وفيها وجهان :أحدهما : وهو مذهب
. سيبويه والمشهور من أقوال البصرين - أن السارق مبتدأ محذوف الخبر
والتقدير : فيما يتلى عليكم أو فيما فرض عليكم السارق والسارقة . أي : حكم
السارق ، ويكون قوله ( فاقطعوا ) بيانا لذلك الحكم المقدر . فما بعد الفاء
مرتبط بما قبلها ، ولذلك أتى بها فيه لأنه هو المقصود . ولو لم يؤت بالفاء
لتوهم أنه أجنبي ، والكلام على هذا جملتان : الأولى خبرية والثانية أمرية
والثاني : وهو مذهب الأخفش وجماعة كثيرة - أنه مبتدأ - أيضاً - والخبر.
الجملة الأمرية من قوله ( فاقطعوا ) وإنما دخلت الفاء في الخبر ، لأنه يشبه
الشرط إذ الألف واللام فيه موصولة بمعنى الذي والتي والصفة صلتها ، فهي في
قوة قولك والذي يسرق والتي تسرق فاقطعوا .والمعنى : ( السارق ) أي : من
الرجال ( السارقة ) أي : من النساء ( فاقطعوا ) أيديهما ، أي فاقطعوا يد كل
منهما الذكر إذا سرق قطعت يده . والأنثى إذا سرقت قطعت يدها .والخطاب في
- قوله : ( فاقطعوا ) لولاة الأمر الذين إليهم يرجع تنفيذ الحدود وجمع
سبحانه - اليد فقال " أيديهما " ولم يقل يديهما بالتثنية ، لأن فصحاء العرب
يستثقلون إضافة المثنى إلى ضمير التثنية .وقوله ( جَزَآءً بِمَا كَسَبَا
. نَكَالاً مِّنَ الله ) بيان لسبب هذه العقوبة وللحكمة التي من أجلها شرعت
، أي : اقطعوا أيديهما جزاء لهما بسبب فعلهما الخبيث ، وكسبهما السيء
وخيانتهما القبيحة ، ولكي يكون هذا القطع لأيديهما ( نكالا ) أي : عبرة
وزجرا من الله - تعالى - لغيرهما حتى يكف الناس عن ارتكاب هذه الجريمة
يقال : نكل فلان بفلان تنكيلا : أي : صنع به صنيعا يحذر غيره .والاسم.
النكال وهو ما نكلت به غيرك . وأصله من النكل - بالكسر - وهو القيد الشديد
، وحديدة اللجام ، لكونهما مانعين وجمعه انكال .وسميت هذه العقوبة نكالا ،

لأنها تجعل غير من نزلت به يخاف من ارتكابها حتى لا ينزل به ما نزل بمرتكبها من قطع ليده ، وفضيحة لأمره .وقوله : ( والله عَزِيزٌ حَكِيمٌ ) أي : والله - تعالى - غالب على أمره ، حكيم في شرائعه وتكاليفه .قال صاحب المنار ما ملخصه . وقد كانت العرب بدوها وحضرها تفهم الكثير من وضع اسماء : الله - تعالى - في الآيات بحسب المناسبة .ومن ذلك ما نقل الأصمعي أنه قال كنت أقرأ سورة المائدة ، ومعي أعرابي ، فقرأت هذه الآية فقلت ( الله . غَفُورٌ رّحِيمٌ ) سهوا فقال الأعرابي كلام من هذا؟ فقلت : كلام الله قال : أعد فأعدت ( الله غَفُورٌ رّحِيمٌ ) ثم تنبهت فقلت : ( والله عَزِيزٌ حَكِيمٌ ) فقال : الآن أصبت فقلت له .كيف عرفت؟ يا هذا ( عَزِيزٌ حَكِيمٌ ) فأمر بالقطع ، فلو غفر ورحم لما أمر بالقطع .فقد فهم الأعرابي - الأمي أن مقتضى العزة والحكمة ، غير مقتضى المغفرة والرحمة وأن الله . تعالى - يضع كل اسم موضعه من كتابه

فمن تاب من بعد ظلمه واصلح فان الله يتوب عليه ان الله غفور رحيم

) : كما فسرها الوسيط ثم فتح - سبحانه - لعباده باب التوبة فقال - تعالى فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنّ الله يَتُوبُ عَلَيْهِ أي : فمن تاب إلى الله - تعالى - توبة صادقة من بعد ظلمه لنفسه بسبب. ( إيقاعها في المعاصي التي من أكبرها السرقة وأصلح عمله بالطاعات التي تمحو - السيئات ( فَإِنّ الله يَتُوبُ عَلَيْهِ ) .أي : فمن تاب إلى الله تعالى - توبة صادقة من بعد ظلمه لنفسه بسبب إيقاعها في المعاصي التي من أكبرها السرقة وأصلح عمله بالطاعات التي تمحو السيئات ( فَإِنّ الله يَتُوبُ عَلَيْهِ ) أي : يقبل توبته ، ويغسل حوبته ، إن الله واسع المغفرة والرحمة ومن مظاهر ذلك أنه سبحانه - فتح لعباده باب التوبة والإنابة فالآية الكريمة ترغب العصاة من السراق وغيرهم في التوبة إلى الله ، وفي. الرجوع إلى طاعته حتى ينالوا مغفرته ورحمته .

الم تعلم ان الله له ملك السماوات والارض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء والله على كل شيء قدير

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - ما يدل على شمول قدرته ، ونفاذ إرادته بصيغة الاستفهام التقريري فقال - تعالى - : ( أَلَمْ تَعْلَمْ أَنّ الله لَهُ مُلْكُ السماوات والأرض ) بحيث يتصرف فيهما وفي غيرهما من خلقه تصرف المالك في ملكه بدون مدافع أو منازع .فالاستفهام هنا لتقرير العلم وتأكيده ، أي إنك تعلم أيها العاقل ذلك علما . متيقنا ، فاعمل بمقتضى هذا العلم . بأن تكون مطيعا لخالقك في كل ما أمر ونهى وبأن تدعو غيرك إلى هذه الطاعة وقوله : ( يُعَذّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ) تأكيد لشمول. قدرته ونفاذ إرادته ، أي : هو - سبحانه - المالك لكل شيء ، والخالق لكل شيء وهو صاحب السلطان المطلق في خلقه ، فله - سبحانه - أن يعذب من يشاء تعذيبه وله أن يرحم من يشاء رحمته .قال الآلوسي : وكان الظاهر لحديث : " سبقت رحمتي غضبي " تقديم المغفرة على التعذيب ، وإنما عكس هنا ، لأن التعذيب للمصر على السرقة ، والمغفرة للتائب منها . وقد قدمت السرقة في الآية أولا ثم ذكرت التوبة بعدها فجاء هذا اللاحق على ترتيب السابق .أو لأن المراد بالتعذيب القطع ، وبالمغفرة التجاوز عن حق الله - تعالى - والأول في الدنيا والثاني في الآخرة ، فجيء به على ترتيب الوجود . ولأن المقام مقام الوعيد وقوله : ( والله على كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ) تذييل مؤكد لما قبله ، ومقرر. ، لشمول قدرته - سبحانه - على كل شيء .هذا وقد تكلم العلماء عن معنى السرقة وعن شروط إقامة حدها ، وعن طريقة إثباتها .وعن غير ذلك من المسائل المتعلقة بها ، تكلموا عن كل ذلك باستفاضة في كتب الفقه وفي بعض كتب التفسير .ونرى أنه لا بأس من ذكر خلاصة لبعض المسائل التي تحدثوا عنها فنقول :1 - عرف الفقهاء السرقة شرعا بأنها أخذ العاقل البالغ مقدارا مخصوصاً من المال على طريق الاستخفاء من حرز بمكان أو حافظ وبدون شبهة .2 - وقد ذهب بع الفقهاء من أهل الظاهر إلى أنه متى سرق السارق شيئاً قطعت يده به ، سواء أكان قليلا أم كثيراً ، لعموم هذه الآية .ولكن جمهور الفقهاء يرون أنه لا تقطع يد السارق إلا إذا بلغ المسروق قدراً معيناً من المال ، وقد تفاوت أنظارهم في هذا القدر .فالأحناف يرون أنه لا قطع إلا في عشرة دراهم فصاعداً ، أو فيما قيمته عشرة دراهم . ومن حججهم ما رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا قطع فيما دون عشرة دراهم والمالكية والشافعية يرون أنه لا قطع إلا في ربع دينار أو فيما قيمته ذلك. ومن حججهم ما روى عن عائشة أنها قالت : " تقطع يد السارق في ربع دينار. فصاعداً " .قال القرطبي : وظاهر الآية العموم في كل سارق وليس كذلك لقوله صلى الله عليه وسلم "لا تقطع يد السارق إلا في ربع دينار فصاعداً " فبين أنه إنما أراد بقوله ( والسارق والسارقة ) بعض السراق دون بعض ، فلا تقطع يد السارق في أقل من ربع دينار ، ويقطع في ربع دينار أو فيما قيمته ربع

دينار أو في ثلاثة دراهم . . وقال أحمد : إن سرق ذهبا فربع دينار . وإن سرق
غير الذهب والفضة فالقيمة ربع دينار أو ثلاثة دراهم من الورق .وقال أبو
حنيفة وصاحباه والثوري :لا تقطع يد السارق إلا في عشرة دراهم كيلا ، أو في
. . دينار ذهبا عينا أو وزنا . ولا يطقع حتى يخرج بالمتاع من ملك صاحبه
ثم قال : وتقطع اليد من الرسغ . ولا خلاف في أن اليمنى هي التي تقطع أولا
وقد اشترط الفقهاء في المال المسروق الذي تقطع فيه يد السارق أن يكون - 3.
مالا محرزا ، أي مصونا محفوظا معنيا بحفظه العناية اللائقة بمثله .قال
القرطبي : الحرز هو ما نصب عادة لحفظ أموال الناس ، وهو يختلف في كل شيء
بحسب حاله . قال ابن المنذر : ليس في هذا الباب خبر ثابت لا مقال فيه لأهل
العلم . وإنما ذلك كالإجماع من أهل العلم . وحكى عن الحسن وأهل الظاهر
أنهم لم يشترطوا الحرز . وفي الموطأ لمالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال : "لا قطع في ثمر معلق - أي في ثمر على الأشجار - ولا حريسة جبل - أي
" ما يحرس بالجبل - فإذا أواه المراح أو الجرين فالقطع فيما بلغ ثمن المجن
" : كذلك اشترطوا عدم الشبهة في المال المسروق لقوله صلى الله عليه وسلم.
، ادرءوا الحدود بالشبهات ما استطعتم " .فلا يقطع من سرق مالا له فيه شركة
أو سرق من مدينة مثل دينه ، ولا يقطع البعد إذا سرق من مال سيده . ولا الأب
إذا سرق من مال ابنه وما أشبه ذلك لوجود الشبهة .كذلك اشترطوا في المسروق
، الذي يجب فيه الحد أن يكون مالا متقوما . أي : مما يتموّ له الناس
ويعدونه لمقاصدهم المختلفة فلا تقطع يد السارق إذا سرق شيئا تافها ، أو
سرق شيئا مما لا يتمول كالتراب والطين والماء وما يشبه ذلك .كذلك اشترطوا
فيه ألا يكون مما يحرم تناوله أو إستعماله . فإا كان مما يحرم تناوله أو
استعماله كالخمر أو الخنزير أو أدوات اللهو والمجون فإنه في تلك الأحوال لا
تقطع يد السارق .وهكذا نرى أن الشريعة الإسلامية وإن كانت قد شرعت
العقوبات الشديدة لزجر العصاة والمفسدين والخائنين . . إلا أنها لا تطبق
، هذه العقوبات إلا على الذين يستحقونها ، وفي أضيق الحدود ، وبأدق الشروط
عملا بقول الرسول صلى الله عليه وسلم " ادرءوا الحدود بالشبهات ما استطعتم
ولو أن المسلمين ساروا على هدى شريعة الله لنالوا الأمان والاطمئنان في. "
دنياهم ، والفوز والرضا من الله - تعالى - في أخراهم .4 - كذلك أخذ أكثر
الشافعية والحنابلة من قوله - تعالى - ( فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ
وَأَصْلَحَ فَإِنّ الله يَتُوبُ عَلَيْهِ ) أن التوبة تمنع إقامة الحد
قالوا : لأن هذه الآية قد اقترنت بقوله - تعالى : ( والسارق والسارقة.
فاقطعوا أيْدِيَهُمَا ) فكانت مخصصة للعموم في الأمر بالقطع ، وإلا ما
اقترنت به ولأنه قد ورد في الأحاديث الصحيحة أن التوبة تجب ما قبلها ومن
" ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم : " التائب من الذنب كمن لا ذنب له
ويرى الأحناف والمالكية أن التوبة لا تسقط الحد ، لأن الأمر بالقطع عام.
يشمل التائب وغير التائب ، والتوبة المنصوص عليها في هذه الآية هي ما يكون
- بعد إقامة الحد كما جاءت بذلك الأحاديث النبوية .قال ابن كثير : قوله
تعالى - ( فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ ) إلخ . أي : من تاب بعد سرقته
وأناب إلى الله إن الله يتوب عليه فيما بينه وبينه . فأما أموال الناس
فلابد من ردها إليهم أو رد بدلها . وهذا عند الجمهور .وقال أبو حنيفة : متى
قطع وقد تلفت في يده فإنه لا يرد بدلها .وقد روى الدارقطني عن أبي هريرة أن
رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بسارق قد سرق شملة فقال " " ما إخاله قد
" : سرق " فقال السارق : بلى يا رسول الله . فقال صلى الله عليه وسلم
اذهبوا به فاقطعوا ثم احسموه ثم ائتوني به " فقطع فأتي به فقال : تب إلى
الله ، فقال : تبت إلى الله . فقال : " تاب الله عليك "- أي : قبل توبتك
وروى ابن ماجه عن ثعلبة الأنصاري : أن عمر بن سمرة جاء إلى رسول الله صلى.
. الله عليه وسلم فقال :" يا رسول الله ، إني سرقت جملا لبني فلان فطهرني
. فأرسل إليهم النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : إنا افتقدنا جملا لنا
فأمر به فقطعت يده وهو يقول : الحمد لله الذي طهرني منك . أردت أن تدخلي
جسدي النار " .روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو " أن امرأة سرقت على
عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء بها الذين سرقتهم فقالوا : يا رسول
الله : إن هذه المرأة سرقتنا ، قال قومها : فنحن نفديها فقال رسول الله صلى
الله عليه وسلم - " اقطعوا يدها . فقطعت يدها اليمنى . فقالت المرأة : هل
لي من توبة يا رسول الله؟ قال : نعم . أنت اليوم من خطيئتك كيوم ولدتك أمك
فأنزل الله - تعالى - : ( فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ ،
فَإِنّ الله يَتُوبُ عَلَيْهِ ) " الآية .هذه خلاصة لبعض المسائل والأحكام
التي أخذها العلماء من هذه الآيات الكريمة ، ومن أراد المزيد من ذلك فليرجع
. إلى ما كتبه الفقهاء في كتبهم ، وإلى ما كتبه بعض المفسرين في تفاسيرهم

يا ايها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا امنا
بافواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم اخرين
لم ياتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون ان اوتيتم هذا فخذوه وان لم
تؤتوه فاحذروا ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا اولئك الذين لم
يرد الله ان يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خزي ولهم في الاخرة عذاب عظيم

كما فسرها الوسيط وبعد أن بين - سبحانه - ما بين من تكاليف قويمة ، وشرائع حكيمة ، تهدي من اتبعها إلى السعادة في الدنيا والآخرة . أتبع ذلك بالحديث عن بعض الوسائل الخبيثة التي ابتعها اليهود وأشباهم لكيد الدعوة الإسلامية فذكر تلاعبهم بأحكامه - تعالى - ، ومحاولتهم فتنة الرسول صلى الله عليه ، وسلم عند تقاضيهم أمامه ، وحذر - سبحانه - رسوله من مكرهم وساق له ما يسليه ويشرح صدره ، فقال - تعالى - :( ياأيها الرسول . . . )وردت أحاديث متعددة - في سبب نزول هذه الآيات الكريمة ، ومن ذلك : ما أخرجه البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما - أن اليهود جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكروا له أن رجلا منهم وامرأة قد زنيا . فقال النبي صلى الله عليه وسلم ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟ فقالوا : نفضحهم ويجلدون . فقال عبد الله بن سلام : كذبتم . إن فيها الرجم فأتوا بالتوراة فنشروها .فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها . فقال له عبدالله بن سلام : ارفع يدك . فرفع يده فإذا آية الرجم ، فقالوا : صدق يا محمد؛ فيها آية الرجم . فأمر بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجما .فقال عبد الله بن عمر : فرأيت الرجل يميل نحو المرأة يقيها الحجارة .وروى مسلم في صحيحه عن البراء بن عازب قال : مر على رسول الله صلى الله عليه وسلم بيهودي محمم مجلود - أي قد وضع الفحم الأسود على وجهه للتنكيل به - .فدعاهم فقال . هكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟ فقالوا : نعم فدعا رجلا من علمائهم فقال : انشدك بالذي أنزل التوراة على موسى أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟ فقال :لا والله ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك ، تجد حد الزاني في كتابنا الرجم ، ولكنه كثر في أشرافنا ، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه . وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد . فقلنا : تعالوا حتى نجعل شيئاً نقيمه على الشريف والوضيع . فاجتمعنا على التحميم والجلد - مكان الرجم .فقال النبي صلى الله عليه وسلم اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه قال : فأمر به فرجم . قال : فأنزل الله - تعالى : ( ياأيها الرسول لاَ يَحْزُنكَ ) .وأخرج الإمام أحمد عن ابن عباس قال : إن الله أنزل : ( وَمَن لّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ الله فأولئك هُمُ الكافرون ) ( فأولئك هُمُ الظالمون ) ( فأولئك هُمُ الفاسقون ) قال ابن عباس : أنزلها الله في الطائفتين من اليهود . وكانت إحداهما قد قهرت الأخرى في الجاهلية ، حتى ارتضوا واصطلحوا على أن كل قتيل قتلته العزيزة من الذليلة فديته خمسون وسقا . وكل قتيل قتلته الذليلة من العزيزة فديته مائة وسق . فكانوا على ذلك حتى قدم النبي صلى الله عليه وسلم فقتلت الذليلة من العزيزة قتيلا ، فأرسلت العزيزة إلى الذليلة أن ابعثوا لنا بمائة وسق فقالت الذليلة : وهل كان في حيين دينهما واحد ونسبهما واحد وبلدهما واحد ، دية بعضهم نصف دية بعض؟ إنما أعطيناكم هاذ خوفا منكم ، فأما إذ قدم محمد صلى الله عليه وسلم فلا نعطيكم ، فكادت الحرب تهيج بينهما . ثم ارتضوا على أن يجعلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم حكما بينهم .ثم ذكرت العزيزة فقالت : والله ما محمد بمعطيكم منهم ضعف ما يعطيهم منكم . ولقد صدقوا . ما أعطونا هذا إلا خوفا منا . فدسوا إلى محمد من يخبر لكم رأيه إن أعطاكم ما تريدون حكمتموه ، وإن لم يعطكم لا تحكموه . فدسوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ناسا من المنافقين ليخبروا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما جاءوه أخبر الله رسوله بأمرهم كله وما أرادوا . فأنزل الله - تعالى - :( ياأيها الرسول لاَ يَحْزُنكَ ) إلى قوله : ( وَمَن لّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ الله فأولئك هُمُ الفاسقون ) قال ابن كثير - بعد أن ساق هذه الأحاديث وغيرها - فهذه الأحاديث دالة على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حكم بما يوافق حكم التوراة . وليس هذا من باب الإكرام لهم بما يعتقدون صحته ، لأنهم مأمورون باتباع الشرع المحمدي لا محالة ، ولكن هذا بوحي خاص من الله - تعالى - إليه بذلك وسؤالهم إياه عن ذلك ليقررهم على ما بأيديهم مما تنواطأوا على كتمانه وجحوده وعدم العمل به تلك الدهور الطويلة . فلما اعترفوا به مع علمهم على خلافه ، ظهر زيفهم وعنادهم وتكذيبهم لما يعتقدون صحته من الكتاب الذي بأيديهم ، وعدولهم إلى تحكيم الرسول صلى الله عليه وسلم إنما كان عن هوى منهم وشهوه لموافقة آرائهم لا لاعتقادهم صحة ما يحكم به ، ولهذا قالوا : ( إِنْ أُوتِيتُمْ هذا فَخُذُوهُ ) أي : إن حكم بالجلد والتحميم فاقبلوا حكمه ، ( وَإِن لّمْ تُؤْتَوْهُ ( فاحذروا ) أي : وإن لم يحكم بذلك فاحذروا من قبوله واتباعه .وبمطالعتنا لهذه الأحاديث التي وردت في سبب نزول الآيات ، نراها جميعها قد وردت بأسانيدها صحيحة وفي كتب السنة المعتمدة ، وأن بعها قد حكى أن الآيات نزلت في شأن القضية التي تحاكم فيها اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم وبعضها قد حكى أنها نزلت في قضية دماء . ولا تعارض بين هذه الأحاديث ، فقد يكون هذان السببان قد حصلا في وقت واحد ، أو متقارب ، فنزلت هذه الآيات فيهما معا . وقد قرر العلماء أنه لا مانع من تعدد أسباب النزول للآية الواحدة أو للطائفة من الآيات .هذا ، وقد افتتحت هذه الآيات الكريمة بنداء من الله - تعالى - لرسوله صلى الله عليه وسلم فقال - سبحانه - : ( ياأيها الرسول لاَ يَحْزُنكَ الذين يُسَارِعُونَ فِي الكفر مِنَ الذين قالوا آمَنّا

بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الذين هَادُواْ ) .قال
القرطبي : قوله - تعالى - ( لاَ يَحْزُنكَ ) قرأ نفاع بضم الياء وكسر الزاي
وقرأ الباقون بفتح الياء وضم الزاي . والحزن خلاف السرور . ويقال : حزن
الرجل - بالكسر - فهو حزن وحزين .والمعنى : يأيها الرسول الكريم إن ربك
يقول لك :لا تهتم ولا تبال بهؤلاء المنافقين ، وبأولئك اليهود الذين يقعون
في الكفر بسرعة ورغبة ، ويوقولن بأفواهم آمنا بك وصدقناك مع أن قلوبهم
خالية من الإيمان ، ومليئة بالنفاق والفسوق والعصيان ..لا تهتم - أيها
الرسول الكريم - بهؤلاء جميعا ، فإني ناصرك عليهم ، وكافيك شرهم .وفي ندائه
صلى الله عليه وسلم بعنوان الرسالة ( ياأيها الرسول ) تشريف له وتكريم
وإشعار بأن وظيفته كرسول أن يبلغ رسالة الله دون أن يصرفه عن ذلك عناد
المعاندين ، أو كفر الكافرين ، فإن تكاليف الرسالة تحتم عليه الصبر على أذى
أعدائه حتى يحكم الله بينه وبينهم .والنهي عن الحزن - وهو أمر نفسي لا
اختيار للإنسان فيه - المراد به هنا : النهي عن لوازمه ، كالإكثار من
محاولة تجديد شأن المصائب . وتعظيم أمرها ، وبذلك تتجدد الآلام ، وتعز
السلوى .وفي هذه الجملة الكريمة تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم وتأنيس
لقلبه ، وإرشاد له إلى ما سيقع له من أعدائه من شرور حتى لا يتأثر بها عند
وقوعها .وفي التعبير بقوله : ( يُسَارِعُونَ فِي الكفر ) ذم لهم على
انحدارهم في دركات الكفر بسرعة من غير موانَاة ولا تدبر ولا تفكر . فهم
يتنقلون بحركات سريعة في ثنايا الكفر ومداخلة دون أن يزعهم وازع من خلق أو
: دين .قال صاحب الكشاف : يقال : أسرع فيه الشيب ، وأسرع في الفساد بمعنى
وقع فيه سريعا . فكذلك مسارعتهم في الكفر عبارة عن إلقائهم أنفسهم فيه على
: أسرع الوجوه ، بحيث إذا وجدوا فرصة لم يخطئوها .وقال أبو السعود
والمسارعة في الشيء : الوقوع فيه بسرعة ورغبة . وإيثار كلمة ( في ) على
كلمة إلى ، للإيمان إلى أنهم مستقرون في الكفر لا يبرحونه .وإنما ينتقلون
بالمسارعة عن بعض فنونه وأحكامه إلى بعض آخر منها ، كإظهار موالاة المشركين
وإبراز آثار الكيد للإسلام ونحو ذلك .وقوله : ( مِنَ الذين قالوا ،
آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ) بيان لأولئك
) المسارعين في الكفر .والمتنقلين في دركاته من دركة إلى دركة .وقوله
بأفواههم ) متعلق بقوله : ( قالوا ) وقوله : ( وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ
جملة حالية من ضمير ، قالوا .وقوله : ( وَمِنَ الذين هَادُواْ ) معطوف (
على قوله : ( مِنَ الذين قالوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِم ) وعليه فيكون الذين
هادوا داخلين في الذين يسارعون في الكفر .أي أن المسارعين في الكفر فريقان
فريق المنافقين الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ، وفريق :
اليهود الذين تميزوا بهذا الإسم واشتركوا مع المنافقين في نفاقهم والمعنى
لا تهتم يا محمد بأولئك الذين يسارعون في الكفر من المنافقين واليهود :
الذين من صفاتهم أنهم يظهرون الإيمان على أطراف ألسنتهم والحال أن قلوبهم
خالية منه .وعلى هذا المعنى يكون الكلام قد تم عند قوله - تعالى - ( وَمِنَ
. الذين هَادُواْ ) ويكون ما بعده وهو قوله : ( سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ )
إلخ . من أوصاف الفريقين معا ، لأنهم مشتركون في المسارعة في الكفر .ومنهم
من يرى أن قوله تعالى : ( وَمِنَ الذين هَادُواْ ) جملة مستأنفة لبيان
) أحوال فريق آخر من الناس وهم اليهود ، وأن قوله - تعالى - بعد ذلك
سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ ) إلخ .من أوصاف هؤلاء اليهود ، وأن الكلام قد تم
) : عند قوله - تعالى - ( وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ) وأن البيان بقوله
( مِنَ الذين قالوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ
لفريق المنافقين .قال الفخر الرازي : قوله ( وَمِنَ الذين هَادُواْ
( سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ
) : ذكر الفراء والزجاج ها هنا وجهين :الأول : أن الكلام إنما يتم عند قوله
وَمِنَ الذين هَادُواْ ) ثم يبدأ الكلام من قوله ( سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ
سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ ) وتقدير الكلام لا يحزنك الذين يسارعون في
الكفر من المنافقين ومن اليهود ثم بعد ذلك وصف الكل بكونهم سماعين للكذب
الثاني : أن الكلام تم عند قوله - تعالى - : ( وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ.
ثم ابتدأ من قوله : ( وَمِنَ الذين هَادُواْ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ ) (
وعلى هذا التقدير فقوله ( سماعون ) صفة لمحذوف .والتقدير : ومن الذين هادوا
قوم سماعون .قال الجمل : الأولى والأحسن أن يكون قوله : و ( وَمِنَ الذين
هَادُواْ ) معطوفا على البيان وهو قوله : ( مِنَ الذين قالوا آمَنَّا )
فيكون البيان بشيئين المنافقين واليهود . أما على القول الثاني فيكون
البيان بشيء واحد وهو المنافقون .وقوله : ( سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ
سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ) صفتان أخريان لأولئك الذين
يقعون في الكفر بسرعة ورغبة .وقوله : ( سماعون ) جمع سماع . وهو صيغة
مبالغة جيء بها لا فادة أنهم كثيروا السماع للكذب ، وأنهم لفساد نفوسهم
يجدون لذة في الاستماع إليه من رؤسائهم وأحبارهم ، ومن هم على شاكلتهم في
العناد والضلال .واللام في قوله : ( للكذب ) للتقوية أي : أنهم يسمعون
الكذب كثيراً سماع قبول وتلذذ ، ويأخذونه ممن يقوله من أعداء الإسلام على
أنه حقائق ثابتة لا مجال للريب فيها .وقيل إن اللام للتعليل أي أنهم كثيرو

السماع لكلام الرسول صلى الله عليه وسلم ولأخباره من أجل الكذب عليه ، عن
) : طريق تغيير وتبديل ما سمعوه على حسب ما تهواه نفوسهم المريضة .وقوله
( سَمّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ
، بيان لمسلك آخر من مسالكهم الخبيثة بعد بيان احتفالهم بالأخبار الكاذبة
وتقبلها بفرح وسرور .أي : أن هؤلاء المسارعين في الكفر من المنافقين
واليهود من صفاتهم أنهم كثيروا السماع للأكاذيب التي يروجها أعداء الدعوة
الإسلامية ضدها كثيرو السماع والقبول والاستجابة لما يقوله عنها قوم آخرون
من أعدائها لم يحضروا مجالس الرسول صلى الله عليه وسلم تكبرا وعتوا ويجوز
أن يكون المعنى : أنهم كثيروا السماع للكذب عن محبة ورغبة ، وأنهم كثيروا
السماع لما يقوله الرسول صلى الله عليه وسلم لينقلوه إلى قوم آخرين - من
أشباههم في الكفر والعناد - ولم يحضروا مجالس الرسول صلى الله عليه وسلم
أنفة وبغضا فأنت ترى أن القرآن قد وصفهم بفساد بواطنهم حيث استحبوا الكذب
على الصدق .كما وصفهم بضعف نفوسهم حيث صاروا مطايا لغيرهم يطيعون أمرهم
ويبلغون أخبار المسلمين ، فهم عيون على المسلمين ليبلغوا أخبارهم إلى زعماء
) الكفر والنفاق .وإلى هذين المعنيين أشار صاحب الكشاف بقوله : ومعنى
سَمّاعُونَ لِلْكَذِبِ ) : قابلون لما يفتريه الأحبار ويفتعلونه من الكذب
على الله وتحريف كتابه ، من قولك : الملك يسمع كلام فلان ، ومنه سمع الله
لمن حمده .وقوله : ( سَمّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ) يعني
اليهود الذين لم يصلوا إلى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وتجافوا عنه
لما أفرد فيهم من شدة البغضاء . وتبالغ من العداوة ، أي : قابلون من
الأحبار ومن أولئك المفرطين في العداوة الذين لا يقدرون أن ينظروا إليك
وقيل : سماعون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأجل أن يكذبوا عليه ، بأن
يمسخوا ما سمعوا منه بالزيادة والنقصان والتبديل والتغيير سماعون من رسول
الله لأجل قوم آخرين من اليهود وجهودهم عيونا ليبلغوهم ما سمعوا منه .وقوله
صفة أخرى للقوم الآخرين ( يُحَرِّفُونَ الكلم مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ) :
الذين لم يأتوا إلى مجالس الرسول صلى الله عليه وسلم أنفة وبغضا . أو
للمسارعين في الكفر من الفريقين .وقوله : ( يُحَرِّفُونَ ) من التحريف
وأصله من الحرف وهو طرف الشيء .ومعناه إمالة الكلام عن معناه ، وإخراجه عن
أطرافه وحدوده .والكلم : اسم جنس جمعي للفظ كلمة ومعناه الكلام .أي أن
هؤلاء القوم الآخرين الذين لم يحضروا مجلسك نفورا منك ، أو هم والمسارعون
في الكفر من المنافقين واليهود من صفاتهم ودأبهم تحريف جنس الكلم عن مواضعه
فهو يحرفون كلامك يا محمد ، ويحرفون التوراة ، ويحرفون معاني القرآن حسب .
أهوائهم وشهواتهم ويحرفون الحق الذي جئت به تارة تحريفا لفظيا ، وتارة
تحريفا معنويا ، وتارة بغير ذلك من وجوه التحريف والتبديل .وقوله : ( مِن
بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ) أي : يحرفون الكلم من بعد استقرار مواضعه وبيان
حلالها وحرامها .وعبر هنا " من بعد مواضعه " وفي مواطن أخرى بقوله ( عَن
مّوَاضِعِهِ ) لأن المقام هنا للحديث عن الأحكام المستقرة الثابتة التي
حاول أولئك المسارعون في الكفر تغييرها وإحلال أحكام أخرى محلها تبعا
لأهوائهم كما حدث في قضية الزنا وفي غيرها من القضايا التي تحاكموا فيها
) : إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان من المناسب هنا التعبير بقوله
مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ) أي : من بعد استقرار مواضعه وثبوتها لا يقبل
التحريف أو التغيير أو الإهمال .وقوله : ( يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هذا
فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فاحذروا ) بيان لما نطقت به أفواه أولئك
الذين لم يحضروا مجالس رسول الله من مكر وخداع وضلال .أي : أن أولئك القوم
الآخرين الذين لم يحضروا مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم عنادا وتكبرا
لم يكتفوا بتحريف الكلم عن مواضعه هم وأشياعهم .بل كانوا إلى جانب ذلك
يقولون لمطاياهم السامعين منهم أو السامعين من أجلهم : يقولون لهم عندما
أرسلوهم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ليحكم بينهم ( إِنْ أُوتِيتُمْ هذا
فَخُذُوهُ ) أي : إن أفتاكم محمد صلى الله عليه وسلم يمثل هذا الذي نفتيكم
به - كالجلد والتحميم بدل الرجم - فاقبلوا حكمه وخذوه واعملوا به ( وَإِن
لّمْ تُؤْتَوْهُ فاحذروا ) أي : وإن أفتاكم بغير ما أفتيناكم به فاحذروا
قبول حكمه ، وإياكم أن تستجيبوا له ، أو تميلوا إلى ما قاله لكم .واسم
الإشارة هذا في قوله : ( يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هذا ) يعود إلى القول
المحرف الذي تواضع أحبار اليهود على الإفتاء به تبعا لأهوائهم . كما حدث
منهم في قضية الزنا حيث غيروا حكم الرجم بحكم آخر هو الجلد والتحميم .وفي
ترتيب الأمر بالحذر على مجرد عدم إيتاء المحرف ، إشارة إلى تخوفهم الشديد
من ميل أتباعهم إلى حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فهم يحذرونهم بشدة من
) : الاستماع إلى ما يقوله لهم مما يخالف ما تواضعوا عليه من أباطيل .وقوله
إِنْ أُوتِيتُمْ ) مفعول لقوله : ( يقولون ) واسم الإشارة ( هذا ) مفعول
- ثان " لأوتيتم " والأول نائب الفاعل وقوله : ( فخذوه ) جواب الشرط ثم بين
سبحانه - سوء عاقبتهم فقال : ( وَمَن يُرِدِ الله فِتْنَتَهُ فَلَن
تَمْلِكَ لَهُ مِنَ الله شَيْئاً أولئك الذين لَمْ يُرِدِ الله أن
يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدنيا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخرة
عَذَابٌ عَظِيمٌ ) .أي : ومن يقض الله بكفره وضلاله ، فلن تملك له - أيها

الرسول الكريم - شيئا من الهداية لتدفع بها ضلالة وكفره ، أولئك الموصوفون بما ذكر من الصفات الذميمة لم يرد الله - تعالى - أن يطهر قلوبهم من النفاق والضلال؛ لأنهم استحبوا العمى على الهدى ، ( لَهُمْ فِي الدنيا خِزْيٌ ) أي فضيحة وهوان بسبب ظهور كذبهم ، وفساد نفوسهم ، وانتشار تعاليم الإسلام : التي يحاربونها ويشيعون الأباطيل حولها وحول من جاء بها صلى الله عليه وسلم وهو خلودهم في النار بسبب ( وَلَهُمْ فِي الآخرة عَذَابٌ عَظِيمٌ ).
. اجتراحهم السيئات ، ومحاربتهم لمن جاءهم بالحق والهدى والسعادة

سماعون للكذب اكالون للسحت فان جاءوك فاحكم بينهم او اعرض عنهم وان تعرض عنهم فلن يضروك شيئا وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط ان الله يحب المقسطين

كما فسرها الوسيط ثم كشف - سبحانه - عن رذيلة أخرى من رذائلهم المتعددة فقال - تعالى - : ( سَمّاعُونَ لِلكَذِبِ أكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ) والسحت : هو كل ما خبث كسبه وقبح مصدره ، كالتعامل بالربا وأخذ الرشوة وما : إلى ذلك من وجوه الكسب الحرام .وقد بسط الإمام القرطبي هذا المعنى فقال والسحت في اللغة أصله الهلاك والشدة .قال - تعالى - ( فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ) أي : - فيهلككم ويستأصلكم بعذاب - ويقال للحالق : أسحت أي : استأصل . وقال الفراء : أصل السحت كلب الجوع . يقال رجل مسحوت المعدة أي أكول ، فكأن بالمسترشي وآكل الحرام من الشره إلى ما يعطي مثل الذي بالمسحوت المعدة من النهم .وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :" " كل لحم نبت بالسحت فالنار أولى به " قالوا يا رسول الله وما السحت؟ قال : " الرشوة في الحكم " " .وقال بعضهم : من السحت أن يأكل الرجل بجاهه . وذلك بأن يكون له : جاه عند السلطان فيسأله إنسان حاجة فلا يقضيها إلا برشوة يأخذها .والمعنى ، أن هؤلاء المنافقين واليهود من صفاتهم - أيضا - أنهم كثيروا السماع للكذب وكثيروا الأكل للمال الحرام بجميع صورة وألوانه . ومن كان هذا شأنه فلا تنتظر منه خيرا ، ولا تؤمل فيه رشدا .وقوله : ( سماعون ) خبر لمبتدأ محذوف ) : أي : هم سماعون . وكرر تأكيدا لما قبله ، وتمهيدا لما بعده وهو قوله أكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ) .وجاءت هاتان الصفتان - سماعون وأكالون - بصيغة . المبالغة ، للإيذان بأنهم محبون حبا جما لما يأباه الدين والخلق الكريم فهم يستمرئون سماع الباطل من القول ، كما يستمرئون أكل أموال الناس بالباطل - إن اليهود بصفة خاصة قد اشتهروا في كل زمان بتقبل السحت ، وقد أرشد الله: تعالى - نبيه إلى ما يجب عليه نحوهم إذا ما تحاكموا إليه فقال : ( فَإِن جَآءُوكَ فاحكم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحكم بَيْنَهُمْ بالقسط إِنَّ الله يُحِبُّ المقسطين ) .أي : فإن جاءكم هؤلاء اليهود متحاكمين إليك - يا محمد - في قضاياهم ، فأنت مخير بين أن تحكم بما أراك الله ، وبين أن تتركهم وتهملهم وتعرض عنهم ، وإن تعرض عنهم ، فيما احتكموا فيه إليك قاصدين مضرتك وإيذاءك فلا تبال بشيء من كيدهم ، لأن الله حافظك وناصرك عليهم ، وإن اخترت - الحكم في قضاياهم ، فليكن حكمك بالعدل الذي أمرت به ، لأن الله - تعالى يحب العادلين في أحكامهم .والفاء في قوله : ( فَإِن جَآءُوكَ ) للإفصاح أي إذا كان هذا حالهم وتلك صفاتهم فإن جاءوك متحاكمين إليك فيما شجر بينهم : من خصومات ( فاحكم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ) .وجاء التعبير بإن المفيدة للشك - مع أنهم قد جاءوا إليه - للإيذان بأنهم كانوا مترددين في التحاكم إليه صلى الله عليه وسلم وأنهم ما ذهبوا إليه ظنا منهم بأنه سيحكم فيهم بما يتفق مع أهوائهم ، فلما حكم فيهم بما هو الحق كبتوا وندموا على مجيئهم إليه .قال أبو السعود : وقوله : ( وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ ) بيان لحال الأمرين إثر تخييره صلى الله عليه وسلم بينهما . وتقديم حال الإعراض للمسارعة إلى بيان أنه لا ضرر فيه ، حيث كان مظنة الضرر ، لما أنهم كانوا ، لا يتحاكمون إليه إلا لطلب الأيسر والأهون عليهم ، فإذا أعرض عنهم وأبى الحكومة بينهم شق ذلك عليهم؛ فتشتد عداوتهم ومضارتهم له ، فأمنه الله بقوله ) من الضر .وكان التعبير بإن أيضا في قوله ( فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئاً ) : وَإِنْ حَكَمْتَ فاحكم بَيْنَهُمْ ) للإشارة إلى أنه صلى الله عليه وسلم ليس حريصاً على الحكم بينهم بل هو زاهد فيه ، لأنهم ليسوا طلاب حق وانصاف بل هم يريدون الحكم كما يهوون ويشتهون ، والدليل على ذلك أن التوراة التي بين أيديهم فيها حكم الله ، إلا أنهم جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه ، وسلم مؤملين أن يقضي بينهم بغير ما أنزل الله ، فيشيعوا ذلك بين الناس ويعلنوا عدم صدقه في نبوته ، فلما حكم بما أنزل الله خاب أملهم وانقلبوا صاغرين .وقوله : ( إِنَّ الله يُحِبُّ المقسطين ) تذييل مقرر لما قبله من وجوب الحكم بينهم بالعدل إذا ما اختار أن يقضي بينهم .يقال : أقسط الحاكم ) - في حكمه ، إذا عدل وقضى بالحق فهو مقسط أي عادل ومنه قوله - تعالى إِنَّ الله يُحِبُّ المقسطين ) .روى مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن المقسطين عند الله على منابر من : نور عن يمين الرحمن . وكلتا يديه يمين . الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا " .هذا ، ومن الأحكام التي أخذها العلماء من هذه الآية الكريمة ما

يأتي :1 - أن أكل السحت حرام سواء أكان عن طريق الرشوة أم عن طريق محرم سواها .ولقد كان السابقون من السلف الصالح يتحرون الحلال . وينفرون من الحرام ، بل ومن الشبهات ، وكانوا يرون أن تأييد الحق ودفع الباطل واجب عليهم ، وأنه لا يصح أن يأخذوا عليه أجرا .قال ابن جرير : شفع مسروق لرجل في حاجة فأهدى إليه جارية ، فغضب مسروق غضباً شديدا وقال : لو علمت أنك تفعل هذا ما كلمت في حاجتك ، ولا أكلمه فيما بقي من حاجتك . سمعت ابن مسعود ، يقول : من شفع شفاعة ليرد بها حقا ، أو يرفع بها ظلما ، فأهدى له ، فقبل " " : فهو سحت .وعن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كل لحم أنبته السحت فالنار أولى به " قيل يا رسول الله وما السحت؟ قال صلى الله عليه وسلم : " الرشوة في الحكم " " .وعن الحكم بن عبد الله قال : قال . لي أنس بن مالك : إذا انقلبت إلى أبيك فقل له : إياك والرشوة فإنها سحت وكان أبوه على شرط المدينة .قال بعض العلماء : والرشوة قد تكون في الحكم " : وهي محرمة على الراشي والمرتشي . وقد روى أنه صلى الله عليه وسلم قال لعن الراشي والمرتشي والذي يمشي بينهما " لأن الحاكم حينئذ إن حكم له بما هو حقه كان فاسقاً من جهة أنه قبل الرشوة على أن يحكم بما يعرض عليه الحكم به . وإن حكم بالباطل كان فاسقا من جهة أنه أخذ الرشوة . ومن جهة أنه حكم بالباطل .وقد تكون الرشوة في غير الحكم مثل أن يرشو الحاكم ليدفع ظلمه عنه فهذه الرشوة محرمة على آخذها غير محرمة على معطيها ، فقد روى عن الحسن أنه قال :"لا بأس أن يدفع الرجل من ماله ما يصون به عرضه " وروى عن جابر بن زيد والشعبي أنهما قالا : "لا بأس بأن يصانع الرجل عن نفسه وماله إذا خاف الظلم " .وقد ورد أنه صلى الله عليه وسلم حين قسم غنائم بعض الغزوات وأعطى العطايا الجزيلة ، أعطى العباس بن مرداس أقل من غيره ، فلم يرق ذلك العباس وقال شعرا يتضمن التعجيب من هذا التصرف . فقال صلى الله عليه وسلم " اقطعوا لسانه " فزادوه حتى رضى . فهذا نوع من الرشوة رخص فيه السلف لدفع الظلم عن نفسه يدفعه إلأى من يريد ظلمه أو انتهاك عرضه .2 - استدل بعض العلماء بقوله - تعالى - : ( فَإِن جَآءُوكَ فاحكم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ) على أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان مخيرا في الحكم بين أهل الكتاب أو الإعراض عنهم ، وأن حكم التخيير غير منسوخ ، لأن ظاهر الآية يفيد ذلك .ويرى فريق من العلماء أن هذا التخيير قد نسخ بقوله - تعالى - بعد ذلك ( وَأَنِ احكم بَيْنَهُمْ بِمَآ أَنزَلَ الله ) قالوا : إن الرسول صلى الله عليه وسلم كان أولا مخيرا ثم أمر بعد ذلك بإجراء الأحكام عليهم .وقد رد القائلون بثبوت التخيير على القائلين بالنسخ بأن التخيير ثابت بهذه الآية .أما قوله : ( وَأَنِ احكم بَيْنَهُمْ بِمَآ أَنزَلَ الله ) فهو بيان لكيفية الحكم عند اختياره له .ويرى فريق ثالث من العلماء : أن التخيير ورد في المعاهدين الذين ليسوا من أهل الذمة كبني النضير وبني قريظة ، فهؤلاء : كان الرسول صلى الله عليه وسلم مخيرا بين أن يحكم بينهم أو أن يعرض عنهم

وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما اولئك بالمؤمنين

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - ( وَأَنِ احكم بَيْنَهُمْ بِمَآ أَنزَلَ الله ) ورد في أهل الذمة الذين لهم ما لنا وعليهم ما علينا . وعلى هذا فلا نسخ في الآية .قال الآلوسي : قال أصحابنا : أهل الذمة محمولون على أحكام الإسلام في البيوع ولمواريث وسائر العقود ، إلا في بيع الخمر والخنزير ، فإنهم يقرون عليه ، ويمنعون من الزنا كالمسلمين ، ولا يرجمون لأنهم غير محصنين ، واختلف في مناكحتهم ، فقال أبو حنيفة : يقرون عليها ، وخالفه - في بعض ذلك . محمد وزفر . وليس لنا عليهم اعتراض قبل التراضي بأحكامنا؛ فمتى تراضوا بها وترافعوا إلينا وجب إجراء الأحكام عليهم ، وتمام التفصيل في كتب الفروع .3 - أخذا العلماء من هذه الآية - أيضاً - أن الحاكم ينفذ حكمه فيما حكم فيه لأن اليهود حكموا رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض قضاياهم ، فحكم فيهم بما أنزل الله ، ونفذ هذا الحكم عليهم .قال بعضهم : إنه صلى الله عليه وسلم قد حكم بينهم بشريعة موسى - عليه السلام - ولكن هذا الحكم كان ، قبل أن تنزل عليه الحدود .أما الآن وقد أكمل الله الدين ، وتقررت الشريعة فلا يجوز لأي حاكم أن يحكم بغير الأحكام الإسلامية لا فرق بين المسلمين وغيرهم .

انا انزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين اسلموا للذين هادوا والربانيون والاحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا باياتي ثمنا قليلا ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الكافرون

كما فسرها الوسيط هذا ، وبعد أن وصف الله - تعالى - اليهود وأشباهم بجملة من الصفات القبيحة ، وخير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أن يحكم فيهم ، بشرع الله وبين أن يعرض عنهم . بعد كل ذلك أنكر عليهم مسالكهم الخبيثة

وعجب كل عاقل من حالهم فقال - تعالى - : ( وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ
وَعِنْدَهُمُ التوراة فِيهَا حُكْمُ الله ثُمّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ
، ذلك وَمَآ أولئك بالمؤمنين ) أي أن أمر هؤلاء اليهود لمن أعجب العجب
لأنهم يحكمونك - يا محمد - في قضاياهم مع أنهم لم يتبعوا شريعتك ومع أن
كتابهم التوراة قد ذرك حكم الله صريحا واضحا فيما يحكمونك فيه .فالاستفهام
في قوله : ( وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ ) للتعجب من أحوالهم حيث حكموا من لا
يؤمنون به قضية حكمها بين أيديهم ، ظنا منهم أنه سيحكم بينهم بما اتفقوا
عليه مما يرضى أهواءهم وشهواتهم .وقوله : ( وَعِنْدَهُمُ التوراة ) جملة
حالية من الواو ( يحكمونك ) والعامل ما في الاستفهام من التعجيب .قال صاحب
الكشاف : فإن قلت ( فِيهَا حُكْمُ الله ) ما موضعه من الإعراب؟ قلت : إما
أن ينتصب على الحال من التوراة ، وكلمة التوراة ، وكلمة التوارة هي مبتدأ
والخبر ( عندهم ) وإما أن يرتفع خبرا عنها كقولك : وعندهم التوراة ناطقة
بحكم الله . وإما أن لا يكون له محل وتكون جملة مبينة ، لأن عندهم ما
يغنيهم عن التحكيم كما تقول : عندك زيد ينصحك ويشير عليك بالصواب فما تصنع
بغيره .وقوله : ( ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذلك ) معطوف على
يحكمونك ) .وجاء العطف بثم المفيدة للتراخي للإشارة إلى التفاوت الكبير
) بين ما في التوراة من حق وبين ما هم عليه من باطل ومخادعة .وسم الإشارة
ذلك ) يعود إلى حكم الله الذي في التوراة ، والذي حكم به النبي صلى الله
عليه وسلم .أي : كيف يحكمونك يا محمد في قضاياهم والحال أنهم عندهم التوراة
فيها حكم الله واضحاً فيما تحاكموا إليك فيه ، ثم هم يعرضون من بعد تحكيمك
عن حكمك الموافق لما قضى الله به في كتابهم التوراة .وقوله : ( وَمَآ أولئك
بالمؤمنين ) تذييل مقرر لمضمون ما قبله .ونفي الإيمان عنهم مع حذف متعلقة
لقصد التعميم .أي : وما أولئك الذين جاءوا يتحاكمون إليك من اليهود
، بالمؤمنين لا بكتابهم التوراة . لأنهم لو كانوا مؤمنين به لنفذوا أحكامه
ولا بك يا محمد لأنهم لو كانوا مؤمنين بك استجابوا لك فيما تأمرهم به
وتنهاهم عنه .قال الفخر الرازي : قوله - تعالى - : ( وَكَيْفَ
يُحَكِّمُونَكَ ) . . إلخ : هذا تعجيب من الله لنبيه صلى الله عليه وسلم
بتحكيم اليهود إياه بعد علمهم بما في التوراة من حد الزاني ، ثم تركهم قبول
ذلك الحكم فعدلوا عما يعتقدونه حكما حقا إلى ما يعتقدونه باطلا طلبا للرخصة
فلا جرم ظهر جهلهم وعنادهم في هذه الواقعة من وجوه :أحدها : عدولهم عن حكم.
كتابهم .والثاني : رجوعهم إلى حكم من كانوا يعتقدون فيه أنه مبطل .والثالث
إعراضهم عن حكمه بعد أن حكموه . فبين الله حال جهلهم وعنادهم لئلا :
يغتريهم مغتر أنهم أهل كتاب الله ، ومن المحافظين على أمر الله .وبعد أن
وصف الله - تعالى - اليهود وأشباههم بجملة من الصفات القبيحة ، كمسارعتهم
في الكفر . وكثرة سماعهم للكذب ، وتحريفهم للكلم عن مواضعه ، وتهافتهم على
أكل السحت . وبعد أن خير رسوله صلى الله عليه وسلم في أن يحكم بينهم أو أن
يعرض عنهم إذا ما تحاكموا إليه ، وبعد أن عجب كل عاقل من أحوالهم . بعد كل
ذلك شرع - سبحانه - في بيان منزلة التوراة وفي بيان بعض ما اشتملت عليه من
أحكام فقال - تعالى - :( إِنَّآ أَنزَلْنَا التوراة فِيهَا . . . )

وكتبنا عليهم فيها ان النفس بالنفس والعين بالعين والانف بالانف والاذن
بالاذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما
انزل الله فاولئك هم الظالمون

كما فسرها الوسيط قوله - تعالى - : ( إِنَّآ أَنزَلْنَا التوراة فِيهَا
هُدًى وَنُورٌ ) بيان لشرف التوراة قبل أن تمتد إليها الأيدي الأثيمة
بالتحريف والتبديل . ويدل على شرفها وعلو مقامها أن الله - تعالى - هو الذي
أنزلها لا غيره ، وأنه - سبحانه - جعلها مشتملة على الهدى والنور . والمراد
بالهدى ، ما اشتملت عليه من بيان للأحكام والتكاليف والشرائع التي تهدي
الناس إلى طريق السعادة .والمراد بالنور : ما اشتملت عليه من بيان للعقائد
السليمة ، والمواعظ الحكيمة ، والأخلاق القويمة .والمعنى إنا أنزلنا
التوراة على نبينا موسى - عليه السلام - مشتملة على ما يهدي الناس إلى الحق
من أحكام وتكاليف وعلى ما يضئ لهم حياتهم من عقائد ومواعظ وأخلاق فاضلة .ثم
بين - سبحانه - بعض الوظائف التي جعلها للتوراة فقال : ( يَحْكُمُ بِهَا
النبيون الذين أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ والربانيون والأحبار بِمَا
استحفظوا مِن كِتَابِ الله وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ) .والمراد بقوله
من بعثهم الله في بني إسرائيل من بعد موسى لإقامة التوراة ( النبيون ) :
وقوله : الذين أسلموا صفة للنبيين . أي : أسلموا وجوههم لله وأخلصوا له.
العبادة والطاعة .وعن الحسن والزهري وقتادة : يحتمل أن يكون المراد
بالنبيين الذين أسلموا محمدا صلى الله عليه وسلم وذلك لأنه حكم على
اليهوديين الذين زنيا بالرجم ، وكان هذا حكم التوراة . وإنما ذكر بلفظ
الجمع تعظيما له .وقال ابن الأنباري : هذا رد على اليهود والنصارى لأن
) - بعضهم كانوا يقولون : الأنبياء كلهم يهود أو نصارى - فقال - تعالى
يَحْكُمُ بِهَا النبيون الذين أَسْلَمُواْ ) يعني أن الأنبياء ما كانوا

موصوفين باليهودية أو النصرانية ، بل كانوا مسلمين لله منقادين لتكاليفه
وقوله : ( لِلَّذِينَ هَادُوا ) أي : رجعوا عن الكفر . والمراد بهم.
اليهود . واللام للتعليل .وقوله : ( والربانيون ) معطوف على ( النبيون )
وهو جمع رباني . وهم - كما يقول ابن جرير - العلماء والحكماء البصراء
بسياسة الناس وتدبير أمورهم ، والقيام بمصالحهم .وقوله : ( الأحبار ) معطوف
: أيضا على ( النبيون ) .قال القرطبي ما ملخصه : والأحبار : قال ابن عباس
هم الفقهاء . والحبر بالفتح والكسر - الرجل العالم وهو مأخوذ من التحبير
بمعنى التحسين والتزيين ، ففهم يحبرون العلم .أي : يبينونه ، وهو محبر في
صدورهم .والباء في قوله : ( بِمَا استحفظوا مِن كِتَابِ الله ) متعلقة
بقوله ( يَحْكُم ) .وقوله ( استحفظوا ) من الاستحفاظ بمعنى طلب الحفظ
بعناية وفهم ، إذ أن السين والتاء للطلب ، والضمير في ( استحفظوا ) يعود
على النبيين والربانيين والأحبار .والمعنى : إنا أنزلنا التوراة فيها هداية
للناس إلى الحق ، وضاء لهم من ظلمات الباطل ، وهذه التوراة يحكم بها بين
، اليهود أنبياءهم الذين أسلموا وجوههم لله ، وأخلصوا له العبادة والطاعة
ويحكم أيضا بينهم الربانيون والأحبار الذين هم خلفاء الأنبياء . وكان هذا
الحكم منهم بالتوراة بين اليهود ، بسبب أنه - تعالى - حملهم أمانة حفظ
كتابه ، وتنفيذ احكامه وشرائعه وتعاليمه .ويصح أن يكون قوله ( بِمَا
استحفظوا ) متعلقا بالربانيين والأحبار ، وأن يكون الضمير عائدا عليهم
وحدهم . أي : على الربانيين والأحبار ويكون الاستحفاظ بمعنى أن الأنبياء قد
طلبوا منهم حفظه وتطبيق أحكامه .والمعنى : كذلك الربانيون والأحبار كانوا
يحكمون بالتوراة بين اليهود . بسبب أمر أنبيائهم إياهم بأن يحفظوا كتاب
الله من التغيير والتبديل .وقوله : ( وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ )
معطوف على ( استحفظوا ) .أي : وكان الأنبياء والربانيون والأحبار شهداء على
الكتاب الذي أنزله الله - وهو التوراة - بأنه حق ، وكانوا رقباء على تنفيذ
) : حدوده ، وتطبيق أحكامه حتى لا يهمل شيء منها .قال الفخر الرازي قوله
بِمَا استحفظوا مِن كِتَابِ الله ) : حفظ كتاب الله على وجهين :الأول : أن
يحفظ فلا ينسى .الثاني : أن يحفظ فلا يضيع .وقد أخذ الله على العلماء حفظ
: كتابه من وجهين .أحدهما : أن يحفظوه في صدورهم ويدرسوه بألسنتهم .والثاني
ألا يضيعوا أحكامه ولا يهملوا شرائعه .وقوله : ( وَكَانُواْ عَلَيْهِ
شُهَدَآءَ ) أي : هؤلاء النبيون والربانيون والأحبار كانوا شهداء على أن كل
ما في التوراة حق وصدق ومن عند الله فلا جرم كانوا يمضون أحكام التوراة
ويحفظونها من التحريف والتغيير .ثم أمر الله - تعالى - اليهود - ولا سيما
علماءهم وفقهاءهم - أن يجعلوا خشيتهم منه وحده .وألا يبيعوا دينهم بدنياهم
فقال - تعالى - : ( فَلاَ تَخْشَوُاْ الناس واخشون وَلاَ تَشْتَرُواْ
بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً ) .والخشية - كما يقول الراغب - خوف يشوبه
تعظيم ، وأكثر ما يكون ذلك على علم بما يخشى منه ، ولذلك خص العلماء بها في
- قوله : ( إِنَّمَا يَخْشَى الله مِنْ عِبَادِهِ العلماء ) وكأن الراغب
رحمه الله - يريد أن يفرق بين الخوف والخشية فهو يرى أن الخشية خوف يشوبه
تعظيم ومحبة للمخشى بخلاف الخوف فهو أعم من أن يكون من مرهوب معظم محبوب أو
مرهوب مبغوض مذموم .والفاء في قوله ( فَلاَ تَخْشَوُاْ ) للإفصاح عن كلام
مقدر .والمعنى : إذا كان الأمر كما ذكر من أن الله - تعالى - قد أنزل
التوراة لتنفيذ أحكامها ، وتطبيق تعاليمها . . فمن الواجب عليكم يا معشر
اليهود أن تقتدوا بأنبيائكم وصلحائكم في ذلك ، وأن تستجيبوا للحث الذي جاء
به رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم وأن تجعلوا خشيتكم منى وحدي لا من أحد
من الناس ، فأنا الذي بيدي نفع العباد وضرهم .وقوله : ( وَلاَ تَشْتَرُواْ
بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً ) معطوف على قوله ( فَلاَ تَخْشَوُاْ الناس
واخشون ) والاشتراء هنا المراد به الاستبدال .والمراد بالآيات : ما اشتملت
عليه التوراة من أحكام وتشريعات وبشارات بالنبي صلى الله عليه وسلم
والمراد بالثمن القليل : حظوظ الدنيا وشهواتها من نحو الرياسة والمال.
والجاه وما إلى ذلك من متع الحياة الدنيا .أي : ولا تستبدلوا بأحكام آياتي
التي اشتملت عليها التوراة احكاما أخرى وتغريرها وتخالفها ، لكي تأخذوا في
مقابل هذا الاستبدال ثمنا قليلا من حظوظ الدنيا وشهواتها كالمال والجاه وما
يشبه ذلك .وليس وصف الثمن بالقلة من الأوصاف المخصصة للنكرات ، بل هو من
الأوصاف اللازمة للثمن المحصل في مقابل استبدال الآيات؛ لأنه لا يكون إلا
قليلا - وإن بلغ ما بلغ من أعراض الدنيا - بالنسبة لطاعة الله ، والرجاء في
) : رحمته ورضاه .وهذا النهي الذي اشتملت عليه هاتان الجملتان الكريمتان
فَلاَ تَخْشَوُاْ ) ( وَلاَ تَشْتَرُواْ ) وإن كان موجها في الأصل إلى
، رؤساء اليهود وأحبارهم . إلا أنه يتناول الناس جميعا في كل زمان ومكان
لأنه نهى عن رذائل يجب أن يبتعد عنها كل إنسان يتأتى له الخطاب .وإلى هذا
المعنى أشار الآلوسي بقوله : ( فَلاَ تَخْشَوُاْ الناس ) خطاب لرؤساء
اليهود وعلمائهم بطريق الالتفات - إذ انتقل من الحديث عن الأحبار السابقين
منهم إلى خطاب هؤلاء المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم ويتناول غير أولئك
المخاطبين بطريق الدلالة .ثم ختم - سبحانه - الآية ببيان سوء عاقبة من يفعل
فعل اليهود ، فيحكم بغير شريعة الله فقال - تعالى - ( وَمَن لَّمْ يَحْكُم

بِمَآ أَنزَلَ الله فأولئك هُمُ الكافرون ) .أي : كل من رغب عن الحكم بما
- أنزل الله : وقضى بغيره من الأحكام ، فأولئك هم الكافرون بما أنزله
. سبحانه - لأنهم كتموا الحق الذي كان من الواجب عليهم إظهاره والعمل به
والجملة الكريمة - كما يقول الآلوسي - تذييل مقرر لمضمون ما قبلها أبلغ
تقرير ، وتحذير من الإخلال به أشد تحذير .هذا ومن الأحكام التي أخذها
- العلماء من هذه الآية ما يأتي :1 - سمو منزلة التوراة التي أنزلها الله
، تعالى - على نبيه موسى - عليه السلام ، فقد أضاف - سبحانه - إنزالها إليه
- فكان لهذه الإضافة مالها من الدلالة على علو مقامها ، كما بين - سبحانه
شرفها الذاتي بذكر ما اشتملت عليه من هداية إلى الحق ، ومن نور يكشف للناس
ما اشتبه عليهم من أمور دينهم ودنياهم .وهذا السمو إنما هو للتوراة التي لم
تمتد إليها أيدي اليهود بالتحريف والتبديل ، والزيادة والنقصان . أما تلك
التوراة التي بين أيديهم الآن ، والتي دخلها من التحريف ما دخلها فهي عارية
" : عن الثقة في كثير مما اشتملت عليه من قصص وأحكام .2 - قال الفخر الرازي
دلت الآية على أنه يحكم بالتوارة النبيون والربانيون والأحبار ، وهذا يقتضي
. كون الربانيين أعلى حالا من الأحبار ، فثبت أن يكون الربانيون كالمجتهدين
والأحبار كآحاد العلماء .ثم قال : وقد احتج جماعة بأن شرع من قبلنا لازم
علينا - إلا إذا قام الدليل على صيرورته منسوخا - بهذه الآية ، وتقريره
أنه - تعالى - قال في التوراة هدى ونوراً ، والمراد كونها هدى ونورا في
أصول الشرع وفروعه ، ولو كان ما فيها منسوخا غير معتبر الحكم بالكلية لما
كان فيها هدى ونور ، ولا يمكن أن يحمل الهدى والنور على ما يتعلق بأصول
الدين فقط ، لأنه ذكر الهدى والنور ولو كان المراد منهما معا ما يتعلق
بأصول الدين للزم التكرار ، وأيضاً فإن هذه الآية إنما نزلت في مسألة الرجم
فلا بد وأن تكون الأحكام الشرعية داخلة فيها لأنا - وإن اختلفنا في أن غير
سبب نزول الآية هل يدخل فيها أم لا - لكنا توافقنا على أن سبب نزول الآية
يجب أن يكون داخلا فيها .3 - استدل العلماء بهذه الآية على أن الحاكم من
الواجب عليه أن ينفذ أحكام الله دون أن يخشى أحدا سواه ، وأن عليه كذلك أن
يبتعد عن أكل المحرم بكل صورة وأشكاله ، وألا يغير حكم الله في نظير أي عرض
من أعراض الدنيا ، لأن الله - تعالى - يقول : ( فَلاَ تَخْشَوُاْ الناس
واخشون ) ( وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً ) .وقد أشار إلى
هذا المعنى صاحب الكشاف بقوله : قوله : ( فَلاَ تَخْشَوُاْ الناس واخشون )
نهى للحكام عن خشيتهم غير الله في حكومتهم ، وادهانهم فيها - أي ومصانعتهم
فيها - وإمضائها على خلاف ما أمروا به من العدل لخشية سلطان ظالم ، أو خيفة
أذية أحد من الأقرباء والأصدقاء وقوله : ( وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي
ثَمَناً قَلِيلاً ) وهو الرشوة وابتغاء الجاه ورضا الناس ، كما حرف أحبار
.4 - اليهود كتاب الله وغيروا أحكامه رغبة في الدنيا وطلبا للرياسة فهلكوا
قال بعض العلماء : في قوله : ( وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ الله
فأولئك هُمُ الكافرون ) تغليظ في الحكم بخلاف المنصوص عليه ، حيث علق عليه
الكفر هنا والظلم والفسق بعد . وكفر الحاكم لحكمه بغير ما أنزل الله مقيد
بقيد الاستهانة به . والجحود له ، وهذا ما سار عليه كثير من العلماء وأثروه
عن عكرمة وابن عباس .وعن عطاء : هو كفر دون كفر ، وظلم دون ظلم ، وفسق دون
. فسق . أي : أن كفر المسلم وظلمه وفسقه ليس مثل كفر الكافر وظلمه وفسقه
فإن كفر المسلم قد يحمل على جحود النعمة .وقال فضيلة الشيخ حسنين محمد
مخلوف : قوله : ( وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ الله فأولئك هُمُ
الكافرون ) : اختلف المفسرون فيمن نزلت هذه الآية والآيتان بعدها . فقيل في
اليهود خاصة وقيل : في الكفار عامة . وقيل : الأولى في هذه الأمة والثانية
في اليهود . والثالثة في النصارى والكفر إذا نسب إلى المؤمنين حمل على
التشديد والتغليظ ، لا على الكفر الذي ينقل عن الملة . والكافر إذا وصف
بالفسق والظلم أريد منهما العتو التمرد في الكفر . وعن ابن عباس : من لم
يحكم بما أنزل الله جاهدا به فهو كافر .ومن أقربه ولم يحكم به فهو ظالم
فاسق .وقال الآلوسي ما ملخصه : واحتجت الخوارج بهذه الآية على أن الفاسق
كافر غير مؤمن .ووجه استدلالهم بها أن كلمة ( من ) في قوله : ( وَمَن لَّمْ
يَحْكُم ) عامة شاملة لكل من لم يحكم بما أنزل الله فيدخل الفاسق المصدق
أيضاً لأنه غير حاكم وغير عامل بما أنزل الله .وأجيب عن شبهتهم بأن الآية
متروكة الظاهر فإن الحكم وإن كان شاملا لفعل القلب والجوارح لكن المراد به
- هنا عمل القلب وهو التصديق ولا نزاع في كفر من لم يصدق بما أنزل الله
تعالى .والذي يبدو لنا أن هذه الجملة الكريمة عامة في اليهود وفي غيرهم فكل
من حكم بغير ما أنزل الله ، مستهيناً بحكمه - تعالى - أو منكراً له ، يعد
كافراً لأن فعله هذا جحود وإنكار واستهزاء بحكم الله ومن فعل ذلك كان
، كافراً .أما الذي يحكم بغير حكم الله مع إقراره بحكم الله واعترافه به
. فإنه لا يصل في عصيانه وفسقه إلى درجة الكفر

وقفينا على اثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة واتيناه
الانجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعض ما اشتملت عليه التوراة من أحكام فقال ( وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنّ النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قِصَاصٌ ) .فالآية الكريمة معطوفة على ما سبقها وهو قوله - تعالى : ( إِنّآ أَنزَلْنَا التوراة ) .وقوله : ( كتبنا ) بمعنى فرضنا وقررنا ، والمراد بالنفس : الذات أي : أنزلنا التوراة على موسى لتكون هداية ونوراً لبني إسرائيل ، وفرضنا . عليهم ( أن النفس بالنفس ) أي : مقتولة أو مأخوذة بها إذا قتلتها بغير حق ) وأن ( والعين ) مفقوءة ( العين ) وأن ( والأنف ) مجدوع ( بالأنف ) وأن والأذن ) مقطوعة ( بالأذن ) وأن ( والسن ) مقلوعة ( بالسن ) وأن ( والجروح قِصَاصٌ ) أي : ذات قصاص ، بأن يقتص فيها إذا أمكن ذلك ، وإلا فما لا يمكن القصاص فيه - ككسر عظم وجرح لحم لا يمكن الوقوف على نهايته - ففهي حكومة عدل .وعبر - سبحانه - عما فرض عليهم من عقوبات في التوراة بقوله : ( كتبنا ، للإشارة إلى أن هذه العقوبات وتلك الأحكام لا يمكن جحدها أو محوها ( : لأنها مكتوبة والكتابة تزيد الكلام توثيقاً وقوة .قال القرطبي ما ملخصه قوله - تعالى - ( والعين بالعين والأنف بالأنف ) إلخ قرأ نافع وعاصم والأعمش وحمزة بالنصب في جميعها على العطف .وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وأبو جعفر بنصب الكل إلا الجروح، فإنه بالرفع على القطع عما قبله : والاستئناف به - أي أن الجروح مبتدأ وقصاص خبره .وقرأ الكسائي وأبو عبيد بالرفع ( والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح ) فيها كلها .قال أبو عبيد : حدثنا حجاج عن هارون عن عباد بن كثير ، عن عقيل عن الزهري ، عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ ( وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنّ النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قِصَاصٌ ) .والرفع من ثلاث جهات ، بالابتداء والخبر . والوجه الثاني : بالعطف على المعنى على موضع ( أن النفس ) لأن المعنى قلنا لهم : النفس بالنفس والوجه الثالث - قاله الزجاج - يكون عطفا على المضمر في النفس . لأن الضمير في النفس في موضع رفع ، لأن التقدير أن النفس هي مأخوذة بالنفس فالأسماء معطوفة على هي .وقوله : ( فَمَن تَصَدّقَ بِهِ فَهُوَ كَفّارَةٌ لّهُ ) ترغيب في العفو والصفح .والضمير في ( به ) يعود إلى القصاص . والتعبير عنه بالتصدق للمبالغة في الحث عليه فإنه أدعى إلى صفاء النفوس ، وإلى فتح باب التسامح بين الناس .وقوله : ( فهو ) يعود إلى التصدق المدلول عليه بالفعل ( تصدق ) والضمير في قوله ( له ) يعود إلى العافي المتصدق وهو المجني عليه أو من يقوم مقامه .والمعنى : ( فَمَن تَصَدّقَ ) بما ثبت له من حق القصاص ، بأن عفا عن الجاني فإن هذا التصدق يكون كفارة لذنوب هذا المتصدق ، حيث قدم العفو مع تمكنه من القصاص .وقيل إن الضمير في ( له ) يعود على الجاني فيكون المعنى : فمن تصدق بما ثبت له من حق القصاص ، بأن عفا عن الجاني ، فإن هذا التصدق يكون كفارة له . أي لذنوب الجاني ، بأن لا يؤاخذه الله بعد ذلك العفو . وأما المتصدق فأجره على الله وقد رجح ابن جرير عودة الضمير إلى العافي المتصدق وهو المجني عليه أو ولى. دمه فقال : وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب : قول من قال : عني به : فمن تصدق به فهو كفارة له أي المجروح ، ولأنهلأن تكون الهاء في قوله ( له ) عائدة على ( من ) أولى من أن تكون عائدة على ما لم يجر له ذكر إلا بالمعنى دون التصريح ، إذ الصدقة هي المكفرة ذنب صاحبها دون المتصدق عليه في سائر الصدقات .وقوله : ( وَمَن لّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ الله فأولئك هُمُ الظالمون ) تذييل قصد به التحذير من مخالفة حكم الله . أي : ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون لأنفسهم ، حيث تركوا الحكم العدل واتجهوا إلى الحكم الجائر الظالم .قال الرازي : وفيه سؤال وهو أنه - تعالى - . قال أولا : ( فأولئك هُمُ الكافرون ) وثانياً ( هُمُ الظالمون ) والكفر أعظم : من الظلم ، فلماذا ذكر أعظم التهديدات أولا وأي فائدة في ذكر الأخف ، بعده؟وجوابه : أن الكفر من حيث إنه إنكار لنعمة المولى وجحود لها فهو كفر ومن حيث إنه يقتضي إبقاء النفس في العقاب الدائم الشديد فهو ظلم على النفس ففي الآية الأولى ذكر الله ما يتعلق بتقصيره في حق الخالق - سبحانه - وفي . هذه الآية ذكر ما يتعلق بالتقصير في حق نفسه .هذا ، ومما أخذه العلماء من هذه الآية ما يأتي :1 - أن الآية الكريمة - ككثيرة غيرها - تنعى على بني إسرائيل إهمالهم لأحكام الله - تعالى - وتهافتهم على ما يتفق مع أهوائهم قال ابن كثير : هذه الآية وبخت به اليهود أيضاً وقرعت عليه ، فإن عندهم في. نص التوراة أن النفس بالنفس . وقد خالفوا حكم ذلك عمداً وعناداً فأقادوا النضرى من القرظى ، ولم يقيدوا القرظي من النضرى وعدولا إلى الدية ، كما خالفوا حكم التوراة في رجم الزاني المحصن ، وعدولا إلى ما اصطلحوا عليه من الجلد والتحميم والإشهار . ولهذا قال هناك ( وَمَن لّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ الله فأولئك هُمُ الكافرون ) لأنهم جحدوا حكم الله قصدا منهم وعناداً وعمداً . وقال هنا في تتمة الآية ( فأولئك هُمُ الظالمون ) لأنهم لم ينصفوا المظلوم من الظالم في الأمر الذي أمر الله بالعدل والتسوية بين الجميع فيه ، فخانوا وظلموا وتعدى بعضهم على بعض .ثم قال : واستدل كثير ممن ذهب من الأصوليين والفقهاء إلى أن شرع من قبلنا شرع لنا بهذه الآية . وذلك

إذا حكى مقررا ولم ينسخ . والحكم عندنا على وفقها في الجنايات عند جميع الأئمة . وقال الحسن البصري : هي عليهم وعلى الناس عامة .2 - استدل جمهور الفقهاء بعموم هذه الآية على أن الرجل يقتل بالمرأة . ويؤيد ذلك ما رواه النسائي وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب في كتاب عمرو بن حزم : أن الرجل يقتل بالمرأة . . وفي رواية للإمام أحمد أن الرجل إذا قتل المرأة لا يقتل بها ، بل تجب ديتها .قال الآلوسي : واستدل بعموم ( أنّ النفس بالنفس ) من قال : يقتل المسلم بالكافر ، والحر بالعبد ، والرجل بالمرأة ومن خالف استدل بقوله - تعالى :( الحر بِالْحُرِّ والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى ) وبقوله صلى الله عليه وسلم "لا يقتل مؤمن بكافر " .وأجاب بعض أصحابنا بأن النص تخصيص بالذكر فلا يدل على نفي ما عداه . والمراد بما روى في الحديث الكافر الحربي وق دروى أنه صلى الله عليه وسلم قتل مسلما بذمى استدل العلماء بجريان القصاص في الأطراف لقوله - تعالى - ( والعين - 3. بالعين ) ( والأنف بالأنف ) إلخ . إلا أنهم قالوا بوجوب استيفاء ما يماثل فعل الجاني بدون تعد أو ظلم فتؤخذ العين اليمنى باليمنى عند وجودها ، ولا تؤخذ اليسرى باليمنى .وقالوا : إنما تؤخذ العين بالعين إذا فقأها الجاني متعمداً . فإن أصابها خطأ ففيها نصف الدية : إن أصاب العينين معاً خطأ ففيهما الدية الكاملة .ويرى بعضهم أن في عين الدية كاملة لأن منفعته بها كمنفعة ذي عينين أو قريبة منها .وقد توسع الإمام القرطبي في بسط هذه - المسائل فارجع إليه إن شئت .4 - أخذ العلماء من هذه الآية أن الله - تعالى - رغب في العفو ، وحض عليه ، وأجزل المثوبة لمن يقوم به فقد قال تعالى - ( فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ) .أي : فمن تصدق بما ثبت له من حق القصاص فتصدقه كفارة لذنوبه .وقد وردت في الحض على العفو نصوص كثيرة ومن ذلك قوله - تعالى - : ( فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى الله ) وقوله - تعالى - ( والكاظمين الغيظ والعافين عَنِ الناس والله يُحِبُّ المحسنين ) وروى الإمام أحمد عن الشعبي أن عبادة بن الصامت قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ما من رجل يجرح في جسده جراحة فيتصدق بها إلا كفر الله عنه مثل ما تصدق به " .وروى ابن جرير عن أبي السفر قال : دفع رجل من قريش رجلا من الأنصار ، فاندقت ثنيته . فرفعه الأنصاري إلى معاوية . فلما ألح عليه الرجل قال معاوية : شأنك وصاحبك قال : وأبوالدرداء عند معاوية . فقال أبو الدرداء : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ما من مسلم يصاب بشيء من جسده ، فيهبه إلا رفعه الله به درجة وحط عنه به خطيئة " فقال الأنصاري : أنت سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : سمعته أذناي ووعاه قلبي - فخلى سبيل القرشي . فقال معاوية : مروا له بمال " .ومن هذه الآية وغيرها نرى أن الإسلام قد جمع فيما شرع " من عقوبات بين العدل والرحمة فقد شرع القصاص زجراً للمعتدى . وإشعاراً له ، بأن سوط العقاب مسلط عليه إذا ما تجاوز حده ، جبرا لخاطر المعتدى عليه وتمكينا له من أخذ حقه ممن اعتدى عليه .ومع هذا التمكين التام للمجني عليه من الجاني فقد رغب الإسلام المجني عليه في العفو عن الجاني حتى تشيع المحبة والمودة بين أفراد الأمة ، ووعده على ذلك بتكفير خطاياه ، وارتفاع درجاته عند الله - تعالى - .

وليحكم اهل الانجيل بما انزل الله فيه ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الفاسقون

كما فسرها الوسيط وبعد أن بين - سبحانه - منزلة التوراة وما اشتملت عليه من هدايات وتشريعات أتبع ذلك ببيان منزلة الإنجيل وما اشتمل عليه من مواعظ وأحكام . . . فقال - تعالى - :( وَقَفَّيْنَا على آثَارِهِم بِعَيسَى . . . قوله : ( وَقَفَّيْنَا ) معطوف على قوله قبل ذلك ( أنزَلْنَا التوراة )( : وأصل القفو اتباع الأثر : يقال قفاه يقفوه أي : اتبع أثره ، والتقفية الاتباع ، يقال : قفيته بكذا أي اتبعته . وإنما سميت قافية الشعر قافية؛ لأنها تتبع الوزن ، والقفا مؤخر الرقبة . ويقال : قفا أثره إذا سار وراءه واتبعه .قال صاحب الكشاف : قفيته مثل عقبته ، إذا أتبعته . ثم يقال قفيته وعقبته به ، فتعديه إلى الثاني بزيادة الباء .فإن قلت فأين المفعول الأول ، في الآية؟ قلت هو محذوف . والظرف الذي هو " على آثارهم " كالسّادمسّدم لأنه إذا قفى به على أثره فقد قفى به إياه . والضمير في قوله : ( على آثَارِهِم ) يعود على النبيين في قوله : ( يَحْكُمُ بِهَا النبيون الذين أَسْلَمُوا ) وقوله : ( آثَارِهِم ) جمع أثر وهو العلَم الذي يظهر للحس . وآثار القوم : ما أبقوا من أعمالهم . وقوله ( على آثَارِهِم ) تأكيد لمدلول فعل " قفينا " وإيماء إلى سرعة التقفية .وقوله . ( لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ أي : لما تقدمه ، لأن ما بين يدي الإنسان كأنه حاضر أمامه .والمعنى ( وأتبعنا على آثار أولئك النبيين الذين أسلموا وجوههم الله ، وأخلصوا له العبادة والذين كانوا يحكمون بالتوراة - كموسى وهارون وداود وسليمان وغيرهم - أتبعنا على آثارهم بعيسى ابن مريم ناهجا نهجهم في الخضوع والطاعة والإخلاص لله رب العالمين ومصدقا للتوراة التي تقدمته ، ومنفذا لأحكامها

إلا ما جاء نسخه في الإنجيل منها .وفي التعبير بقوله (وَقَفَّيْنَا على
، آثَارِهِم ) إشارة إلى أن عيسى - عليه السلام - لم يكن بدعة من الرسل
وإنما هو واحد منهم ، جاء على آثار من سبقوه ، سالكا مسلكهم في الدعوة إلى
عبادة الله وحده وإلى التحلي بمكارم الأخلاق .وفي التعبير بقوله ( بِعِيسَى
ابن مَرْيَمَ ) إيذان بأنه محدث كجميع المحدثات ، وأنه قد ولد من أمه كما
، يولد سائر البشر من أمهاتهم ، وأنه لا نسب له إلا من جهتها ، فليس له أب
، وليس ابنا لله - تعالى - ، وإنما هو عبد من عباد الله أوجده بقدرته
وأرسله - سبحانه - لدعوة الناس إلى توحيده وعبادته .وقوله : ( مصدقا ) حال
من عيسى - عليه السلام - :قال بعض العلماء : " ولو سايرنا الواقع عند
النصارى في هذه الأيام ، لكان لذكر كلمة التصديق في هذا المقام معنى أعمق
من مجرد التصديق بأصل النزول ، بل بالتنفيذ ، لأن الإنجيل ليس فيه أحكام
عملية كثيرة ، فأحكام الأسرة كلها مأخوذة عند النصارى من التوراة ، وليس
ثمة نص قاطع في الأناجيل التي بين أيدينا يغاير ما جاء في التوارة من أحكام
تتعلق بالأسرة ، ولا بأحكام العقوبات من حدود وقصاص .ولقد رويت عبارات
عندهم منسوبة للمسيح - عليه السلام - تدل على العمل بأحكام التوراة ، مثل
قوله - عليه السلام - " ما جئت لأنقض الناموس " أي التوراة .وكلمة ( بَيْنَ
يَدَيْهِ ) تعبير قرآني ، للدلالة على أن التوراة كانت حاضرة قائمة وقت
، مجيء عيسى - عليه السلام - وعلما عنده ، وهو علم خال من التحريف والتبديل
أوحى الله به إليه .ولفظ بين يديه في دلالته على الأمر المهيأ من
- الاستعارات الرائعة ، ومضمونها أن الأمر معلوم علما يقينا لعيسى بن مريم
عليه السلام - كعلم المحسوس يكون موضوعاً بين يديه .وقوله : ( وَآتَيْنَاهُ
الإنجيل فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ
التوراة وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ) معطوف على ( قفينا ) .وقد
وصف الله - تعالى - الإنجيل الذي أعطاه لعيسى بخمس صفات :أولها : أنه فيه
أي : فيه هداية للناس إلى الحق الذي متى اتبعوه سعدوا في دنياهم ( هدى )
وآخرتهم .وثانيها : أنه فيه ( نور ) أي : ضياء يكشف لهم ما التبس عليهم من
أمور دينية ودنيوية .وثالثها : كونه ( مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ
مِنَ التوراة ) أي أن الإنجيل مؤيد ومقرر لما جاءت به التوراة من أحكام
وآداب وشرائع أنزلها الله فيها .ورابعها : كونه : ( هدى ) أي : هو بذاته
هدى فضلا على اشتماله عليه .وخامسها : كونه : ( وَمَوْعِظَةً
، لِّلْمُتَّقِينَ ) أي : تذكير لهم بما يرق له القلب ، وتصفو به النفس
وتنزجر به القلوب عن غشيان المحرمات .وقوله ( فِيهِ هُدًى ) جملة مكونة من
خبر مقدم ومبتدأ مؤخر . وقوله ( هدى ) والجملة كلها في موض نصب على أنها
حال من الإنجيل .أي : أعطينا عيسى الإنجيل حالة كونه مشتملا على الهدى
والنور .وقوله : ( وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التوراة ) حال
أيضاً من الإنجيل . ولا تكرار بين ( مصدقا ) الأولى وبين ( مصدقا )
الثانية ، لأن الأولى لبيان حال عيسى وأنه جاء يدعو الناس إلى التصديق
بالتوراة وإلى تنفيذ أحكامها ، والثانية لبيان حال الإنجيل وأنه جاء مقرر
لما اشتملت عليه التوراة من أحكام أنزلها الله ، وأن من الواجب على بني
إسرائيل أن يسيروا على هدى هذه الأحكام إلا ما نسخه الإنجيل منها فعليهم
أن يتبعوا أحكام الإنجيل فيها .قال ابن كثير : وقوله : ( وَمُصَدِّقاً
لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التوراة ) أي : متبعا لها غير مخالف لما فيها
إلا في القليل . مما بين لبني إسرائيل بعض ما كانوا يختلفون فيه - كما
قال - تعالى - إخبارا عن المسيح أنه قال لبني إسرائيل : ( وَلأُحِلَّ لَكُم
بَعْضَ الذي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ) ولهذا كان المشهور من قول العلماء : " أن
الإنجيل نسخ بعض أحكام التوراة " .وقوله : ( وَهُدًى وَمَوْعِظَةً
لِّلْمُتَّقِينَ ) معطوف على ما تقدم ومنتظم معه في سلك الحالية .وقال أولا
وقال ثانيا ( هدى ) لزيادة المبالغة في التنويه بشأن ( فِيهِ هُدًى )
الإنجيل ، فهو مشتمل على ما يهدي الناس إلى الحق والخير ، وهو في ذاته هدى
لأنه منزل من عند الله ، ولأنه بشارة بنبي يرسل من بعد عيسى اسمه أحمد ،
قال الفخر الرازي : " وأما كونه ( هدى ) مرة أخرى ، فلأن اشتمال الإنجيل.
على البشارة بمجيء محمد صلى الله عليه وسلم سبب لاهتداء الناس إلى نبوته .
ولما كان أشد وجوه الاختلاف والمنازعة بين المسلمين وبين اليهود ، والنصارى
في ذلك ، لا جرم أعاده الله - تعالى - مرة أخرى تنبيها على أن الإنجيل يدل
دلالة ظاهرة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فكان هدى في هذه المسألة
: التي هي أشد المسائل احتياجا إلى البيان والتقرير .وأما كونه موعظة
فلاشتمال الإنجيل على النصائح والمواعظ والزواجر البليغة المتأكدة .وإنما
خصها بالمتقين ، لأنهم هم الذين ينتفعون بها .

وانزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه
فاحكم بينهم بما انزل الله ولا تتبع اهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا
منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم امة واحدة ولكن ليبلوكم في ما اتاكم
فاستبقوا الخيرات الى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإنجيل بِمَآ أَنزَلَ الله فِيهِ ) أمر من الله - تعالى - لأتباع سيدنا عيسى - عليه السلام - الذين وجدوا قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم بأن يحكموا فيام بينهم بمقتضى أحكام الإنجيل بدون تحريف أو تبديل . أما الذين وجدوا بعد بعثة النبي صلى الله عليه وسلم فمن الواجب عليهم أن يصدقوه ويتبعوا شريعته لأن الشريعة التي جاء بها النبي صلى الله عليه وسلم نسخت ما قبلها من ، شرائع .قال الآلوسي ما ملخصه ، قوله : ( وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإنجيل بِمَآ أَنزَلَ الله فِيهِ ) أمر مبتدأ لهم بأن يحكموا ويعملوا بما فيه من الأمور التي من جملتها دلائل رسالته صلى الله عليه وسلم وما قررته شريعته الشريفة من أحكام ، وأما الأحكام المنسوخة فليس الحكم بها حكما بما أنزل الله ، بل هو إبطال وتعطيل له إذا هو شاهد بنسخها وانتهاء وقت العمل بها ، لأن شهادته بصحة ما ينسخها من الشريعة الأحمدية شاهدة بنسخها ، واختار كونه أمراً مبتدأ الجبائي .وقيل هو حكاية للأمر الوارد عليهم بتقدير فعل معطوف على - قوله ( وآتيناه ) .أي : - وآتينا عيسى ابن مريم الإنجيل فيه هدى ونور وقلنا ليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه . وحذف القول - لدلالة ما قبله عليه - كثير في الكلام . ومنه قوله - تعالى - : ( وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِّن كُلِّ بَابٍ . سَلاَمٌ عَلَيْكُم ) واختار ذلك على بن عيسى .وقرأ حمزة ( وَلْيَحْكُمْ ) - بكسر اللام وفتح الميم - بأن مضمرة - بعد لام كي - والمصدر معطوف على ( وَهُدًى وَمَوْعِظَةً ) على تقدير كونهما معللين . أي : وآتيناه ليحكم .وقوله : ( وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ الله فأولئك هُمُ الفاسقون ) تذييل مقرر ومؤكد لوجوب الامتثال لأحكام الله - تعالى - . أي : ومن لم يحكم بما أنزل الله ، فأولئك هم المتمردون الخارجون عن جادة الحق . وعن السنن القويم ، والصراط المستقيم قال أبو حيان : قوله ( وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ الله فأولئك. هُمُ الفاسقون ) ناسب هنا ذكرالفسق .لأنه خرج عن أمر الله - تعالى - إذ تقدم قوله : ( وليحكم ) وهو أمر كما قال - تعالى - للملائكة ( اسجدوا لأَدَمَ فسجدوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجن فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ) أي : خرج عن طاعته .وقال صاحب المنار ما ملخصه : وأنت إذا تأملت الآيات السابقة ظهر لك نكتة التعبير بالكفر في الأولى وبوصف الظلم في الثانية ، وبوصف الفسق في الثالثة .ففي الآية الأولى كان الكلام في التشريع وإنزال الكتاب مشتملا على الهدى والنور ، والتزام الأنبياء وحكماء ، العلماء بالعمل والحكم به . فكان من المناسب أن يختم الكلام ببيان أن كل معرض عن الحكم به لعدم الإذعان له ، مؤثرا لغيره عليه . يكون كافرا به وأما الآية الثانية فلم يكن الكلام فيها في أصل الكتاب الذي هو ركن. الإيمان ، بل في عقاب المعتدين على الأنفس أو الأعضاء . فمن لم يحكم بحكم الله في ذلك يكون ظالما في حكمه .وأما الآية الثالثة فهي في بيان هداية الإنجيل وأكثرها مواعظ وآداب وترغيب في إقامة الشريعة على الوجه الذي يطابق مراد الشارع وحكمته . فمن لم يحكم بهذه الهداية ممن خوطبوا فهم الفاسقون بالمعصية ، والخروج عن محيط تأديب الشريعة .

وان احكم بينهم بما انزل الله ولا تتبع اهواءهم واحذرهم ان يفتنوك عن بعض ما انزل الله اليك فان تولوا فاعلم انما يريد الله ان يصيبهم ببعض ذنوبهم وان كثيرا من الناس لفاسقون

كما فسرها الوسيط وبعد أن تحدث - سبحانه - عن التوراة والإنجيل وما فيهما من الهدى والنور ، وأمر باتباع تعاليمهما . . عقب ذلك بالحديث عن القرآن الكريم الذي أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم فقال - تعالى - ): وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الكتاب بالحق . . .)قوله : ( وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الكتاب بالحق مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكتاب وَمُهَيْمِناً معطوف على قوله قبل ذلك ( إِنَّآ أَنزَلْنَا التوراة ) والمراد بالكتاب ( الأول : القرآن الكريم وأل فيه للعهد .والمراد بالكتاب الثاني : جنس الكتب ) السماوية المتقدمة فيشمل التوراة والإنجيل وأل فيه للجنس وقوله وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ ) أي : رقيبا على ما سبقه من الكتب السماوية المحفوظة من التغيير ، وأمينا وحاكما عليها؛ لأنه هو الذي يشهد لها بالصحة : ويقرر أصول شرائعها .قال ابن جرير : وأصل الهيمنة الحفظ والارتقاب . يقال ، إذا رقب الرجل الشيء وحفظه وشهده : قد هيمن فلان عليه . فهو يهيمن هيمنة - وهو عليه مهيمن .وقال صاحب الكشاف : وقرئ ( وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ ) - بفتح الميم - أي هو من عليه بأن حفظ من التغيير والتبديل كما قال - تعالى - : ( لاَّ يَأْتِيهِ الباطل مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ ) والذي هيمن عليه هو الله - عز وجل . أو الحفاظ في كل بلد ، لو حُرِّف حرف منه أو حركة أو سكون لتنبه له كل أحد ، ولاشمأزوا ، رادين ومنكرين .والمعنى لقد أنزلنا التوراة على موسى ، والإنجيل على عيسى ، وأنزلنا إليك يا : محمد الكتاب الجامع لكل ما اشتملت عليه الكتب السماوية من هدايات وقد أنزلناه ملتبسا بالحق الذي لا يحوم حوله باطل ، وجعلناه ( مُصَدِّقاً

لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكتاب ) أي : مؤيداً لما في تلك الكتب التي
. تقدمته : من دعوة إلى عبادة الله وحده ، و إلى التمسك بمكارم الأخلاق
وجعلناه كذلك " مهيمنا عليها " أي : أمينا ورقيبا وحاكما عليها .فأنت ترى
أن الله - تعالى - قد أشار إلى سمو مكانة القرآن من بين الكتب السماوية
بإشارات من أهمها :أنه - سبحانه - لم يقل : وقفينا على آثارهم - أي على
آثار الأنبياء السابقين - بمحمد صلى الله عليه وسلم وآتيناه القرآن . كما
قال في شأن عيسى ابن مريم ( وَقَفَّيْنَا على آثَارِهِم بِعَيسَى ابن
مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التوراة وَآتَيْنَاهُ
الإنجيل ) إلخ .لم يقل ذلك في شأن الرسول صلى الله عليه وسلم وفي شأن
القرآن الكريم ، وإنما قال : ( وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الكتاب بالحق )
، للإشارة إلى معنى استقلاله وعدم تبعيته لغيره من الكتب التي سبقته
وللإيذان بأن الشيعة التي هذا كتابها هي الشريعة الباقية الخالدة التي لا
تقبل النسخ أو التغيير .وأنه - سبحانه - لم يزد في تعريف الكتاب الذي أنزله
) : على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم على تعريفه بلام العهد فقال
وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الكتاب ) للإشارة إلى كماله وتفوقه على سائر الكتب
أي : أنه الكتاب الذي هو جدير بهذا الاسم ، بحيث إذا أطلق اسم الكتاب لا.
- ينصرف إلا إليه لأنه الفرد الكامل من بين الكتب في هذا الوجود .وأنه
سبحانه - قد وصفه بأنه قد أنزله ملتبسا بالحق والصدق ، وأنه مؤيد ومقرر لما
اشتملت عليه الكتب السماوية من الدعوة إلى الحق والخير ، وأنه - فضلا عن كل
ذلك - أمين على تلك الكتب ، وحاكم عليها ، فما أيده من أحكامها وأقوالها
فهو حق ، ومال مل يؤيده منها فهو باطل .قال ابن كثير : جعل الله هذا الكتاب
، العظيم الذي أنزله آخر الكتب وخاتمها ، جعله أشملها وأعظمها وأكملها
لأنه - سبحانه - جمع فيه محاسن ما قبله من الكتب وزاد فيه من الكمالات ما
- ليس في غيره ، فلهذا جعله شاهداً وأمينا وحاكما عليها كلها ، وتكفل
سبحانه - بحفظه بنفسه فقال : ( إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا
لَهُ لَحَافِظُونَ ) وقوله : ( فاحكم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ الله وَلاَ
- تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ الحق ) أمر من الله - تعالى
لنبيه صلى الله عليه وسلم بأن يتلزم في حكمه بين الناس الأحكام التي
: أنزلها - سبحانه - والفاء في قوله : ( فاحكم ) للإفصاح عن شرط مقدر .أي
إذا كان شأن القرآن كما ذكرت لك يا محمد فاحكم بين هؤلاء اليهود وبين غيرهم
من الناس بما أنزله الله من أحكام ، فإن ما أنزله هو الحق الذي لا باطل معه
ولا تتبع في حكمك أهواء هؤلاء اليهود وأشباههم لأن أتباعك لأهواهئهم ،
يجعلك منحرفا ومائلا عما جاءك من الحق الذي لا مرية فيه ولا ريب . ولم
) : يقل - سبحانه - " فاحكم بينهم به " بل ترك الضمير وعبر بالموصول فقال
فاحكم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ الله ) للتنبيه على عليه ما في حيز الصلة
: للحكم ، لأن الموصول إذا كان في ضمن حكم تكون الصلة هي علة الحكم .أي
التزم في حكمك بينهم بما يؤيده القرآن لأنه الكتاب الذي أنزله الله عليك
قال بعض العلماء : " وهذا يفيد أن اليهود الذين عاشروا النبي صلى الله.
عليه وسلم ومن جاءوا بعدهم مخاطبون بشريعة القرآن ، وأنه نسخ ما قبله من
الشرائع إلا ما جاء النص بوجوب العمل به كالقصاص ، أو ما لم يثبت أنهن نسخ
والمعول عليه في الحالين هو القرآن وما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم
ولقد روى أنه - عليه السلام - ذكر أن موسى لو كان حيا ما وسعه إلا الإيمان
به - عليه السلام .والضمير في قوله ، ( أهواءهم ) يعود إلى أولئك اليهود
الذين كانوا يتحاكمون إلى النبي صلى الله عليه وسلم لا بقصد الوصول إلى
الحق ، وإنما بقصد الوصول إلى ما يسهل عليهم احتماله من أحكام .قال الآلوسي
والنهي يجوز أن يكون لمن لا يتصور منه وقوع المنهي عنه . ولا يقال : كيف :
نهى صلى الله عليه وسلم عن اتباع أهوائهم ، وهو صلى الله عليه وسلم معصوم
عن ارتكاب ما دون ذلك .وقيل الخطاب له صلى الله عليه وسلم والمراد سائر
الحكام .وقوله : ( لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً )
استئناف جيء به لحمل أهل الكتاب على الانقياد لحكمه صلى الله عليه وسلم بما
أنزل الله إليه من الحق .والشرعة والشريعة بمعنى واحد . وهي في الأصل
الطريق الظاهر الموصول للماء . والمراد بها هنا ما اشتمل عليه الدين من
أحكام تكليفية يجب العمل بها أمرا ونهيا وندبا وإباحة . وسمي ما اشتمل عليه
الدين من أحكام شريعة تشبيها بشريعة الماء . من حيث إن كلا منهما سبب
الحياة . إذ أن الشريعة الدينية سبب في حياة الأرواح حياة معنوية . كما أن
الماء سبب في حياة الأرواح حياة مادية .والمنهاج : الطريق الواضح في الدين
: من نهج الأمر ينهج إذا وضح . والعطف باعتبار جمع الأوصاف .قال بعضهم ،
. هما كلمتان بمعنى واحد والتكرير للتأكيد .وقيل : ليستا بمعنى واحد
فالشرعة ابتداء الطريق . والمنهاج الطريق المستقيم .وقوله : ( منكم ) متعلق
بمحذوف وقع صفة لما عوض عنه تنوين " كل " .أي : لكل أمة من الأمم الحاضرة
والماضية وضعنا شرعة ومنهاجاً خاصين بها ، فالأمة التي كانت من مبعث موسى
. إلى مبعث عيسى - عليهما السلام - كانت شرعتها ما في التوراة من أحكام
والأمة التي كانت من مبعث عيسى إلى مبعث محمد - عليهما الصلاة والسلام كانت
شرعتها ما في الإنجيل . وأما هذه الأمة الإسلامية فشريعتها ما في القرآن

من أحكام ، لأنه مشتمل على ما جاء في الكتب السابقة عليه من أصول الدين وكلياته التي لا تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة وزاد عليها ما يناسب العصر الذي نزل فيه ، والعصور التي تلت ذلك إلى يوم القيامة .وأهل الكتاب إنما أمروا بأن يتحاكموا إلى كتبهم قبل نسخها بالقرآن الكريم ، أما بعد نزوله ومجيء النبي صلى الله عليه وسلم خاتما للرسالات السماوية ، فقد أصبح من الواجب عليهم الدخول في الإسلام ، واتباع رسوله محمد - صلى الله عليه وسلم في كل ما أمر به أو نهى عنه ، وليس لأحد بعد بعثته صلى الله عليه وسلم إيمان مقبول إلا باتباعه وتصديقه في جميع أقواله وأعماله .والاختلاف في الشرائع إنما يكون فيما يتعلق ببعض الأوامر والنواهي ، وببعض وجوه الحلال والحرام ، وبغير ذلك من فروع الشريعة ، فقد يحرم الله شيئاً على قوم عقوبة لهم ، ويحله لقوم آخرين تخفيفا عنهم ، كما قال - تعالى - : ( وَعَلَى الذين هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ البقر والغنم حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أو الحوايآ أَوْ مَا اختلط بِعَظْمٍ ذلك جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وإِنَّا لَصَادِقُونَ ) وكما قال - تعالى - حكاية عن عيسى - عليه السلام - : ( وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الذي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ) أما ما يتعلق بأصول الشريعة ، وجوهر الدين ، وأساس العقيدة كالأمر بعبادة الله وحده .والتحلي بمكارم الأخلاق ، فلا يتعلق به اختلاف في أي شريعة من الشرائع ، أو أي دين من الأديان .وقد تكلم عن هذا المعنى الإمام ابن كثير فقال : قوله ( لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ) هذا إخبار عن الأمم المختلفة الأديان باعتبار ما بعث الله به رسله الكرام من الشرائع المختلفة في الأحكام المتفقة في التوحيد . كما ثبت في صحيح البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " نحن معاشر الأنبياء إخوة لعلات - أمهاتهم شتى - ودينهم واحد " يعني بذلك التوحيد الذي بعث الله به كل رسول أرسله ، وضمنه كل كتاب أنزله ، كما قال - تعالى - : ( وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نوحي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إله إِلاَّ أَنَاْ فاعبدون ) وأما الشرائع فمختلفة في الأوامر والنواهي فقد يكون الشيء في هذه الشريعة حراماً ثم يحل في الشريعة الأخرى . كما قال - تعالى - في شأن شريعة عيسى : ( وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الذي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ) ، وبالعكس ، قد يكون الشيء حلالا في هذه الشريعة ثم يحرم في شريعة أخرى فيزداد في الشدة في هذه دون هذه ، وذلك لما له - تعالى - في ذلك من الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة .وقال الآلوسي ما ملخصه : وقوله : ( لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ) الخطاب فيه - كما قال جماعة من المفسرين - للناس كافة الموجودين والماضين بطريق التغليب . واستدل بالآية من ذهب إلى أننا غير متعبدين بشرائع من قبلنا ، لأن الخطاب يعم الأمم ، واللام للاختصاص فيكون لكل أمة دين يخصها .والتحقيق في هذا المقام أننا متعبدون بأحكام الشرائع السابقة من حيث إنها أحكام شريعتنا لا من حيث إنها شريعة للأولين .ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر قدرته ، وبالغ حكمته فقال : ( وَلَوْ شَآءَ الله لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ولكن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم ) .ومفعول المشيئة هنا محذوف لدلالة الجزاء عليه ,وقوله : متعلق بمحذوف يستدعيه المقام .والابتلاء ( ولكن لِّيَبْلُوَكُمْ ) - الاختبار والامتحان ليميز المطيع من المعاصي .والمعنى : لو شاء الله تعالى - أن يجعل الأمم جميعا أمة واحدة تدين بدين واحد وبشريعة واحدة لفعل لأنه - سبحانه -لا يعجزه شيء ولكنه - سبحانه - لم يشأ ذلك ، وإنما شاء ، أن يجعلكم أمما متعددة ليختبركم فيما آتاكم من شرائع مختلفة في بعض فروعها ولكنها متحدة في جوهرها وأصولها فيجازي من أطاعة بما يستحقه من ثواب؛ ويجازي من خالف أمره بما يستحقه من عذاب .وقوله : ( فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ ) حض منه - سبحانه - لعباده على الاجتهاد في فعل الطاعات .أي إذا كان الأمر كماوصفت لكم . فسارعوا إلى القيام بالأعمال الصالحة التي تسعدكم في الدنيا والآخرة ، وتنافسوا في تحصيلها بكل عزيمة ونشاط لتنالوا رضا الله - تعالى - وجزيل مثوبته .( فَاسْتَبِقُوا ) بمعنى فتسابقوا ، ولتضمنه معنى السبق والابتدار تعدي بنفسه من غير إلى كما في قوله - تعالى - أي : حاول كل واحد منهما الابتدار والوصول إلى الباب قيل ( واستبقا الباب ) الآخر .وقوله ( إلى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ) استئناف مسوق مساق التعليل لاستباق الخيرات وقوله ( فَيُنَبِّئُكُم ) أي فيخبركم والمراد بالإنباء والإخبار هنا . المجازاة على الأعمال ، وإنا عبر عنها بالإنباء لوقوعها موقع إزالة الاختلاف التي هي وظيفة الأنبياء .أي : إلى الله وحده مصيركم ومرجعكم فيخبركم عند الحساب بما كنتم تختلفون فيه في الدنيا ، ويجازيكم بما تستحقون : فأما الذين آمنوا وعملوا الصلاحات فلهم منه - سبحانه - جزيل الثواب . وأما الذين طغوا وآثروا الحياة الدنيا فلهم من شديد العقاب .ثم كرر - سبحانه - الأمر لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم بأن يحكم بين اليهود وغيرهم بما أنزله الله - تعالى - وحذره من مكرهم وكيدهم فقال : ( وَأَنِ احكم بَيْنَهُمْ بِمَآ أَنزَلَ الله وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ واحذرهم

أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَآ أَنزَلَ الله إِلَيْكَ ) .أخرج ابن جرير عن
ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : قال كعب بن أسد وابن صوريا وشاس بن قيس
بعضهم لبعض : اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه : فأتوه فقالوا : يا
محمد ، إنك قد عرفت أنا أحبار اليهود وأشرافهم وسادتهم ، وإنا إن اتبعناك
اتبعك يهود ولم يخالفونا . وإن بيننا وبين قومنا خصومة فنحاكمهم إليك فتقضي
لنا عليهم ، ونؤمن لك ونصدق فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك . فأنزل
الله فيهم : ( وَأَنِ احكم بَيْنَهُمْ بِمَآ أَنزَلَ الله وَلاَ تَتَّبِعْ
أَهْوَآءَهُمْ ) .إلى قوله : ( وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ الله حُكْماً
لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ) .وقوله : ( وَأَنِ احكم بَيْنَهُمْ بِمَآ أَنزَلَ
الله ) في محل نصب عطفا على الكتاب في قوله : ( وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ
) الكتاب بالحق ) .وقوله : ( أَن يَفْتِنُوكَ ) بدل اشتمال من المفعول في
واحذرهم ) كأنه قيل : واحذر فتنتهم كما تقول : أعجبني زيد علمه .والمراد
: بالفتنة هنا محاولة إضلاله وصرفه عن الحكم بما أنزل الله .والمعنى
وأنزلنا إليك الكتاب يا محمد فيه حكم الله ، وأنزلنا إليك فيه أن أحكم
بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواء هؤلاء اليهود الذين اتخذوا دينهم
لهوا ولعبا ، واحذرهم أن يضلوك أو يصدوك عن بعض ما أنزلناه إليك ولو كان
أقل قليل؛ بأن يصوروا لك الباطل في صورة الحق ، أو بأن يحاولوا حملك على
الحكم الذي يناسب شهواتهم :وقد كرر - سبحانه - على نبيه صلى الله عليه وسلم
وجوب التزامه في أحكامه بما أنزل الله ، لتأكيد هذا الأمر في مقام يستدعي
التأكيد ، لأن اليهود كانوا لا يكفون عن محاولتهم فتنته صلى الله عليه وسلم
وإغراءه بالميل إلى الأحكام التي تتفق مع أهوائهم ، ولأنه قد جاء في الآية
السابقة ما قد يوهم بأن لكل قوم شريعة خاصة بهم ( لِكُلٍّ جَعَلْنَا
مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ) وأن حكم القرآن ليس له صفة العموم فأراد
- سبحانه - أن ينفي هذا الوهم نفيا واضحا وأن يؤكد أن شريعته القرآن هي
الشريعة العامة الخالدة التي يجب أن يتحاكم إليها الناس في كل زمان ومكان ،
لأنها نسخت ما سبقها من شرائع .وقوله - تعالى - ( واحذرهم أن يَفْتِنُوكَ
عَن بَعْضِ مَآ أَنزَلَ الله إِلَيْكَ ) تيئيس لأولئك اليهود الذين حاولوا
إغراء الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يقضي لهم بما يرضيهم لكي يرضيهم لكي
يتبعوه ، ونهى له صلى الله عليه وسلم ولأتباعه عن الاستجابة لأهواء هؤلاء
ولو في أقل القليل مما يتنافى مع الحق الذي أمره الله - تعالى - بالسير
عليه في القضاء بين الناس .ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة كل من يعرض عن حكم
الله - تعالى - فقال : ( فَإِن تَوَلَّوْاْ فاعلم أَنَّمَا يُرِيدُ الله
أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ) .أي : فإن تووا عن حكمك ، وأعرضوا
عنك بعد تحاكمهم إليك وأرادوا الحكم بغير ما أنزل الله . فاعلم أن حكمة
الله قد اقتضت أن يعاقبهم بسبب بعض هذه الذنوب التي اقترفوها بتوليهم عن
حكم الله ، وإعراضهم عنك ، وانصرافهم عن الهدى والرشاد إلى الغي والضلال ،
لأن الأمة التي لا تخضع لحكم شرع الله ، وتسير وراء لذائذها ومتعها
وشهواتها وأهوائها الباطلة ، لابد أن يصيبها العقاب الشديد بسبب ذلك
وعبر - سبحانه - عما يصيبهم من عقاب بأنه بسبب ارتكابهم لبعض الذنوب ،
للإشارة بأن لهم ذنوبا كثيرة بعضها كاف لإنزال العقوبة الشديدة بهم .وقوله
( وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ الناس لَفَاسِقُونَ ) : اعتراض تذييلي مقرر
لمضمون ما قبله ، ومتضمن تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم عما لقيه من
مخالفيه ولا سيما اليهود .أي : وإن كثيرا من الناس لخارجون عن طاعتنا ،
ومتمردون على أحكامنا ، ومتبعون لخطوات الشيطان الذي استحوذ عليهم ، وإذا
كان الأمر كذلك فلا تبتئس يا محمد عما لقيه من أصحاب النفوس المريضة ، بل
اصبر حتى يحكم الله بينك وبينهم .

افحكم الجاهلية يبغون ومن احسن من الله حكما لقوم يوقنون

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - هذه الآية الكريمة بتوبيخ أولئك الذين
يرغبون عن حكم الله إلى حكم غيره فقال : ( أَفَحُكْمَ الجاهلية يَبْغُونَ )
فالهمزة هنا للاستفهام الإنكاري التوبيخي . والفاء للعطف على مقدر .
يستدعيه المقام .والمعنى : أينصرفون عن حكمك بما أنزل الله ويعرضون عنه
فيبغون حكم الجاهلية مع أن ما أنزله الله إليك من قرآن فيه الأحكام العادلة
" التي ترضى كل ذي عقل سليم ، ومنطق قويم .وقدم - سبحانه - المفعول " أفحكم
لإفادة التخصيص المفيد لتأكيد الأنكار والتعجيب من أحوال أولئك اليهود
الذين يريدون حكم الجاهلية .إذ أن التولي عن حكم رسول الله صلى الله عليه
وسلم إلى حكم آخر منكر عجيب ، وطلب حكم الجاهلية أقبح وأعجب .والمراد
بالجاهلية : الملة الجاهلية التي هي متابعة الهوى ، والمداهنة في الأحكام ،
فيكون ذلك توبيخاً لليهود بأنهم مع كونهم أهل كتاب؛ يبغون حكم الملة
الجاهلية . وعدم الأخذ بشريعة المساواة . فيكون ذلك - أيضاً - تعييراً لهم
لاقتدائهم بأهل الجاهلية .قال الآلوسي : فقد روى أن بني النضير لما تحاكموا
إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في خصومة قتيل وقعت بينهم وبين بني قريظة
طلب بعضهم من رسول الله أن يحكم بينهم بما كان عليه أهل الجاهلية من ،

- التفاضل ، فقال صلى الله عليه وسلم : " القتلى سواء " - أي : متساوون
) - فقال بنو النضير : نحن لا نرضى بحكمك ، فنزلت هذه الآية .وقوله - تعالى
- وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ) إنكار منه
سبحانه - لأن يكون هناك حكم أحسن من حكمه أو مساو له .أي :لا أحد أحسن
حكما من حكم الله - تعالى - عند قوم يوقنون بصحة دينه ، ويذعنون لتكاليف
) : شريعته ، ويقرون بوحدانيته ، ويتبعون أنبياءه ورسله .فاللام في قوله
لقوم ) بمعنى عند ، وهي متعلقة بأحسن ، ومفعول ( يوقنون ) محذوف أي لقوم
يوقنون بحكمه وأن أعدل الأحكام . والجملة حالية متضمنة لمعنى الإنكار
السابق .وخص - سبحانه - الموقنين بالذكر ، لأنهم هم الذين يحسنون التدبر
، فيما شرعه الله من أحكام ، وينتفعون بما اشتملت عليه من عدل ومساواة .هذا
وقد شدد الإمام ابن كثير النكير على الذي يرغبون عن حكم الله إلى أحكام من
عندَ البشر ، ووصف من يفعل ذلك بالكفر ، وأفتى بوجوب مقاتلته حتى يرجع إلى
حكم الله ورسوله فقال - رحمه الله - :" ينكر - تعالى - على من خرج عن حكم
الله - المشتمل على كل خير الناهي عن كل شر - وعدل عنه إلى ما سواه من
، الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله
كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات .مما يضعونهاه
بآرائهم وأهوائهم ، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن
ملكهم " جنكزخان " الذي وضع لهم " الباسق " وهو عبارة عن كتاب مجموع من
أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى . فصارت في بنية شرعا متبعا يقدمونه على
الحكم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فمن فعل ذلك منهم فهو كافر
يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله ، فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير
قال - تعالى - ( أَفَحُكْمَ الجاهلية يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ الله.
حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ) أي : ومن أعدل من الله في حكمه لمن عقل عن
الله شرعه وآمن به وأيقن .وعلم أنه - سبحانه - أحكم الحاكمين ، وأرحم بخلقه
من الوالدة بولدها؟ فإنه - تعالى - هو العالم بكل شيء ، والقادر على كل شيء
والعادل في كل شيء .روى الطبراني عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى ،
الله عليه وسلم " أبغض الناس إلى الله - تعالى - من يبتغي في الإسلام سنة
الجاهلين ومن طلب دم امرئ بغير حق ليريق دمه " .وإلى هنا نرى الآيات
الكريمة قد كشفت " باستفاضة " عن المسالك الخبيثة التي سلكها اليهود
وأشباههم لكيد الإسلام والمسلمين .فأنت تراها في مطلعها قد نادت الرسول صلى
الله عليه وسلم بهذا النداء بعدم المبالاة بما يصدر عن أولئك الذين يسارعون
في الكفر من مكر وخداع ووصفهم بجملة من الصفات القبيحة التي تجعل كل عاقل
ينفر من الاقتراب منهم ، وخيرات الرسول صلى الله عليه وسلم بين الحكم بينهم
أو الإعراض عنهم إذا ما تحاكموا إليه .ووبخت اليهود على إعراضهم عن
الأحكام العادلة التي أنزلها الله - تعالى - ووصفت المعرضين عن حكمه سبحانه
بالكفر تارة وبالظلم تارة وبالفسق تارة أخرى .وبعد أن مدحت التوراة
والإنجيل ، وبينت بعض ما اشتملا عليه من هدايات . . . عقبت ذلك ببيان
منزلة القرآن الكريم وأنه الكتاب الجامع في هدايته وفضله وتشريعاته لكل ما
جاء في الكتب السابقة .ثم ختمت بتكرير الأمر للنبي صلى الله عليه وسلم بأن
يلتزم في أحكامه بما أنزله الله ، وبتحذيره وتحذير أتباعه من خداع أعدائهم
، ومكرهم ، وتتوعد كل من يرغب عن حكم الله إلى حكم غيره ، بسوء العاقبة
وشديد العذاب .وبعد هذا الحديث المستفيض عن الكتب السماوية : وعن وجوب
الحكم بما أنزل الله ، وعن المسالك الخبيثة التي استعملها اليهود ومن على
شاكلتهم لكيد الدعوة الإسلامية بعد كل ذلك وجه - سبحانه - نداء إلى
المؤمنين حذرهم فيه من موالاة أعدائهم فقال - تعالى - :( ياأيها الذين
( . . . آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ

يا ايها الذين امنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى اولياء بعضهم اولياء بعض
ومن يتولهم منكم فانه منهم ان الله لا يهدي القوم الظالمين

كما فسرها الوسيط ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآيات الكريمة روايات منها
: ما رواه السدي من أنها نزلت في رجلين قال أحدهما لصاحبه بعد واقعة أحد:
أما أنا فإني ذاهب إلى ذلك اليهودي فأواليه واتهود معه لعله ينفعني إذا وقع
أمر أو حدث حادث . وقال الآخر : وأما أنا فإني ذاهب إلى فلان النصراني
بالشام فأواليه وانتصر معه . فأنزل الله تعالى الآيات .وقال عكرمة : نزلت
في أبي لبابة بن عبد المنذر ، حيث بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم : إلى
بني قريظة فسألوه : ماذا هو صانع بنا؟ فأشار بيده إلى حلقه ، أي : إنه
الذبح .وقيل نزلت في عبد الله بن أبي بن سلول فقد أخرج ابن جرير عن عطية بن
سعد قال : جاء عبادة بن الصامت من بني الحارث بن الخزرج إلى رسول الله صلى
الله عليه وسلم فقال يا رسول الله إن لي موالي من يهود كثير عددهم . وإني
أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود وأتولى الله ورسوله . فقال عبد الله بن
أبي : إني رجل أخاف الدوائر ، لا أبرأ من ولاية موالي . فقال رسول الله صلى
الله عليه وسلم لعبد الله بن أبي : يا أبا الحباب ، ما بخلت به من ولاية
يهود على عبادة بن الصامت فهو إليك دونه قال : قد قبلت . فأنزل الله تعالى

ياأيها الذين آمَنُواْ لاَ تَتّخِذُواْ اليهود والنصارى أَوْلِيَآءَ ) :
بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ . . . ) إلى قوله : ( نَادِمِينَ ) .والخطاب في
قوله عز وجل : ( ياأيها الذين آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ اليهود والنصارى
أَوْلِيَآءَ ) للمؤمنين جميعا في كل زمان ومكان ، إذ العبرة بعموم اللفظ لا
بخصوص السبب .الأولياء جمع ولي ويطلق بمعنى النصير والصديق والحبيب
والمراد بالولاية هنا : مصافاة أعداء الإسلام والاستنصار بهم ، والتحالف.
معهم دون المسلمين .أي : يا أيها الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله
، واليوم الآخر . ، لا يتخذ أحد منكم أحدا من اليهود والنصارى وليا ونصيرا
أي :لا تصافوهم مصافاة الأحباب ، ولا تستنصروا بهم ، فإنهم جميعا يد واحدة
عليكم ، يبغونكم الغوائل ، ويتربصون بكم الدوائر ، فكيف يتوهم بينكم وبينهم
موالاة؟وقد نادى - سبحانه - المؤمنين بصفة الإيمان ، لحملهم من أول الأمر
على الانزجار عما نهوا عنه ، إذ أن وصفهم بما هو ضد صفات الفريقين - اليهود
والنصارى - من أقوى الزواجر عن موالاتهما :وقوله : ( بَعْضُهُمْ
أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ) جملة مستأنفة بمثابة التعليل للنهي ، والتأكيد لوجوب
، اجتناب المنهي عنه .أي لا تتخذوا أيها المؤمنون اليهود والنصارى أولياء
لأن بعض اليهود أولياء لبعض منهم ، وبعض النصارى أولياء لبعض منهم ، والكل
يضمرون لكلم البغضاء والشر ، وهم وإن اختلفوا فيما بينهم ، لكنهم متفقون
على كراهية الإسلام والمسلمين .وقوله ( وَمَن يَتَوَلّهُمْ مِّنكُمْ
فَإِنّهُ مِنْهُمْ ) تنفير من موالاة اليهود والنصارى بعد النهي عن ذلك
والولاية لليهود والنصارى إن كانت على سبيل الرضا بدينهم ، والطعن في دين.
الإسلام ، كانت كفرا وخروجا عن دين الإسلام .وإلى هذا المعنى أشار ابن
جرير بقوله : قوله : ( وَمَن يَتَوَلّهُمْ مِّنكُمْ فَإِنّهُ مِنْهُمْ )
أي : ومن يتول اليهود والنصارى دون المؤمنين فإنه منهم ، فإنه لا يتولى
متول أحدا إلا وهو به وبدينه راض . وإذا رضى دينه ، فقد عادى من خالفه
وسخطه . وصار حكمه حكمه " .وإذا كانت الولاية لهم ليست على سبيل الرضا
بدينهم وإنما هي على سبيل المصافاة والمصادقة كانت معصية تختلف درجتها بحسب
قوة الموالاة وبحسب اختلاف أحوال المسلمين وتأثرهم بهذه الموالاة .قال
الفخر الرازي : قوله : ( وَمَن يَتَوَلّهُمْ مِّنكُمْ فَإِنّهُ مِنْهُمْ
قال ابن عباس : يريد كأنه مثلهم . وهذا تغليظ من الله وتشديد في وجوب (
مجانبة المخالف في الدين .روىعن أبي موسى الأشعري أنه قال : قلت لعمر بن
الخطاب - رضي الله عنه - إن لي كاتبا نصرانيا فقال : مالك قاتلك الله ، ألا
اتخذت حنيفيا أما سمعت قول الله تعالى ( ياأيها الذين آمَنُواْ لاَ
. تَتّخِذُواْ اليهود والنصارى أَوْلِيَآءَ ) قلت : له دينه ولي كتابته
فقال :لا أكرمهم إذا أهانهم الله ، ولا أعزهم إذ أذلهم الله . ولا أدنيهم
إذ أبعدهم الله قلت لا يتم أمر البصرة إلا به . فقال : مات النصراني
والسلام .يعني : هب أنه مات فما تصنع بعد ، فما تعمله بعد موته فاعمله الآن
واستغن عنه بغيره .وقوله : ( إِنّ الله لاَ يَهْدِي القوم الظالمين )
تعليل لكون من يواليهم منهم وتأكيد للنهي عن موالاتهم .أي : إن الله لا
يهدي القوم الظالمين لأنفسهم إلى الطريق المستقيم ، وإنما يخليهم وشأنهم
فيقعون في الكفر والضلال ، والفسوق والعصيان ، بسبب وضعهم الولاية في غير
. موضعها الحق ، وسيرهم في طريق أعداء الله

فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى ان تصيبنا دائرة فعسى
الله ان ياتي بالفتح او امر من عنده فيصبحوا على ما اسروا في انفسهم نادمين

كما فسرها الوسيط وبعد هذا النهي الشديد عن موالاة أعداء الله ، صور القرآن
حالة من حالات المنافقين بين فيها كيفية توليهم لأعداء الله ، وأشعر بسببه
فقال : ( فَتَرَى الذين فِي قُلُوبِهِم مّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ
يَقُولُونَ نخشى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ) .والدائرة : من الصفات الغالبة
التي لا يذكر معها موصوفها . وأصلها داورة . لأنها من دار يدور . ومعناها
لغة : ما أحاط بالشيء . والمراد بها هنا : المصيبة من مصائب الدهر التي
تحيط بالناس كما تحيط الدائرة بما في داخلها .والمعنى : فترى - يا محمد
أولئك المنافقين الذين ضعف إيمانهم ، وذهب يقينهم ، يسارعون في مناصرة
أعداء الإسلام مسارعة في الداخل في الشيء ، قائلين في أنفسهم أو للناصحين
لهم بالثبات على الحق : اتركونا وشأننا فإننا نخشى أن تنزل بنا مصيبة من
، المصائب التي تدور بها الزمان كأن تمسنا أزمة مالية ، أو ضائقة اقتصادية
أو أن يكون النصر في النهاية لهؤلاء الذين نواليهم فنحن نصادقهم ونصافيهم
لنتقي شرهم ، ولننال عونهم عند الملمات والضوائق .قال الجمل : والفاء في
قوله ( فَتَرَى ) إما للسببية المحضة : أي : بسبب أن الله لا يهدي القوم
الظالمين المتصفين بما ذكر ( فَتَرَى الذين فِي قُلُوبِهِم مّرَضٌ
يُسَارِعُونَ فِيهِمْ ) وإما للعطف على قوله : ( إِنَّ الله لاَ يَهْدِي
القوم الظالمين ) من حيث المعنى .والرؤية في قوله ( ترى ) بصرية ، فتكون
جملة يسارعون حال . وقيل علمية فتكون جملة يسارعون مفعولا ثانيا . والأول
أنسب بظهور نفاقهم .وقوله : ( يَقُولُونَ نخشى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ )

حال من ضمير يسارعون .والتعبير بقوله : ( فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ) تعبير
قوي رائع ، وصف القرآن به المنافقين وأشباههم في الكفر والضلال في مواطن
كثيرة ، لأنه لما كانت قوة القلب تضرب مثلا للثبات والتماسك .كان ضعف القلب
الذي عبر عنه بالمرض يضرب مثلا للخور ، والتردد والتزلزل ، وانهيار النفس
وهذه طبيعة المنافقين ومن على شاكلتهم في كل زمان ومكان . إنهم لا يمكن أن.
يكونوا صرحاء في انحيازهم إلى ناحية معينة . وإنما هم يترددون بين
الناحيتين ، ويلتمسون الحظوة في الجانبين - فهم كما يقال : يصلون خلف على
) : ويأكلون على مائدة معاوية - وأبلغ من كل ذلك وصف الله لهم بقوله
مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَؤُلاء ) والتعبير بقوله - سبحانه - ترى
تصوير للحال الواقعة منهم بأنها كالمرئية المكشوفة التي لا تخفى على . .
العقلاء البصراء .وفي ذلك تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وتحذير له
) : ولأصحابه من مكر أولئك الذين في قلوبهم مرض .والتعبير بقوله
" يُسَارِعُونَ فِيهِمْ ) يشير إلى أنهم لا يدخلون ابتداء في صفوف الأعداء
وإنما هم منغمرون فيهم دائما " ولا يخرجون عن دائرتهم بل ينتقلون في صفوفهم
بسرعة ونشاط من دركة إلى دركة ، ومن إثم إلى آثام .وقوله - تعالى - حكاية
عنهم : ( يَقُولُونَ نخشى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ) بيان لما اعتذروا به
من معاذير كاذبة تدل على سقوط همتهم ، وقلة ثقتهم بما وعد الله به المؤمنين
من حسن العاقبة .ولذا فقد رد الله عليهم بما يكتبهم ، وبما يزيد المؤمنين
إيمانا على إيمانهم فقال تعالى : ( فَعَسَى الله أَن يَأْتِيَ بالفتح أَوْ
أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُواْ على مَآ أَسَرُّواْ في أَنْفُسِهِمْ
، نَادِمِينَ ) .وعسى : لفظ يدل على الرجاء والطمع في الحصول على المأمول
وإذا صدر من الله - تعالى - كان متحقق الوقوع لأنه صادر من أكرم الأكرمين
الذي لا يخلف وعده ، ولا يخيب من رجاه .والفتح يطلق بمعنى التوسعة بعد
الضيق كما في قوله : ( وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القرى آمَنُواْ واتقوا
لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السمآء ) ويطلق بمعنى الفصل بين
الحق والباطل . ومن ذلك قوله - تعالى - : ( رَبَّنَا افتح بَيْنَنَا
- وَبَيْنَ قَوْمِنَا بالحق ) ويطلق بمعنى الظفر والنصر كما في قوله
تعالى - ( إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً ) ولفظ الفتح هنا يشمل
هذه الأمور الثلاثة فهو سبعة بعد ضيق ، وفصل بين حق وباطل ، ونصر بعد جهاد
طويل .والمعنى :لا تهتموا أيها المؤمنون بمسارعة هؤلاء الذين في قلوبهم
مرض إلى صفوف أعدائكم وارتمائهم في أحضانهم خشية أن تصيبهم دائرة ، فلعل
الله - عز وجل - بفضله وصدق وعده أن يأتي بالخير العميم والنصر المؤزر الذي
يظهر دينه . ويجعل كلمته هي العليا . . وفيه فيزلزل قلوب أعدائكم ، وينصركم عليهم ، ويجعل الهزيمة والندم للموالين
لأعدائكم ، وبسبب شكهم في أن تكون العاقبة للإسلام والمسلمين .ولقد صدق
الله وعده ، ففضح المنافقين وأذلهم ، وأنزل الهزيمة باليهود ، وأورث
) : - المؤمنين أرضهم وديارهم وأموالهم .وقد جاء التعبير في قوله - تعالى
فَعَسَى الله أَن يَأْتِيَ بالفتح ) بصيغة الرجاء ، لتعليم المؤمنين عدم
- اليأس من رحمة الله ، ومن مجيء نصره ، ولتعويدهم على أن يتوجهوا إليه
: سبحانه - في مطالبهم بالرجاء الصادق ، والأمل الخالص .قال الفخر الرازي
) : فإن قيل : شرط صحة التقسيم أن يكون ذلك بين قسمين متنافيين .وقوله
، فَعَسَى الله أَن يَأْتِيَ بالفتح أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ ) ليس كذلك
: لأن الإتيان بالفتح داخل في قوله : ( أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ ) .قلنا
قوله : ( أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ ) معناه : أو أمر من عنده لا يكون
للناس فيه فعل ألبتة ، كبني النضير الذين طرح الله في قلوبهم الرعب فأعطوا
بأيديهم من غير محاربة ولا عسكر .والضمير في قوله : ( فَيُصْبِحُواْ ) يعود
على أولئك المنافقين الذين في قلوبهم مرض والجملة معطوفة على ( أن
) يَأْتِيَ ) داخل معه في حيز خبر عسى .وعبر - سبحانه - عن ندمهم بالوصف
نَادِمِينَ )لا بالفعل ، للإيذان بأنه ندم دائم تصحبه الحسرات والآلام
. المستمرة ، بسبب ما وقعوا فيه من ظن فاسد ، وأمل خائب

ويقول الذين امنوا اهؤلاء الذين اقسموا بالله جهد ايمانهم انهم لمعكم حبطت
اعمالهم فاصبحوا خاسرين

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - ما قاله المؤمنون الصادقون على سبيل
الإنكار لمسالك المنافقين الخبيثة وتوبيخهم على ضعف إيمانهم ، وهوان
نفوسهم فقال - تعالى : ( وَيَقُولُ الذين آمَنُواْ أَهؤلاء الذين
أَقْسَمُواْ بالله جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ) .قال
الآلوسي : قوله : ( وَيَقُولُ الذين آمَنُواْ ) كلام مستأنف لبيان كمال سوء
حال الطائفة المذكورة : - وهي قراءة عاصم وحمزة والكسائي بإثبات الواو مع
، الرفع .وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر بغير واو على أنه استئناف بياني
كأنه قيل : فماذا يقول المؤمنون حينئذ؟ .وقرأ أبو عمرو ويعقوب : ويقول
: بالنصب عطفا على ( فَيُصْبِحُواْ ) .وقوله : ( جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ) أي
أقوى أيمانهم وأغلظها . والجهد : الوسع والطاقة والمشقة .يقال جهد نفسه

يجهدها في الأمر إذا بلغ بها أقصى وسعها وطاقتها فيه . والمراد : أنهم
أكدوا الإيمان ووثقوها بكل ألفاظ التأكيد والتوثيق .والمعنى : ويقول الذين
آمنوا بعضهم لبعض مستنكرين ما صدر عن المنافقين من خداع وكذب ، ومتعجبين من
ذبذبتهم والتوائهم : يقولون مشيرين إلى المنافقين : أهؤلاء الذين أقسموا
بالله مؤكدين إيمانهم بأقوى المؤكدات وأوثقها ، بأن يكونوا مع الرسول صلى
الله عليه وسلم ومعنا في ولايتهم ونصرتهم ومعونتهم .. . ؟فالاستفهام
للإنكار والتعجيب من أحوال هؤلاء المنافقين الذين مردوا على الخداع والكذب
: وقد ذكر صاحب الكشاف وجها آخر في معنى ويقول الذين آمنوا فقال : فإن قلت.
، لمن يقولون هذا القول؟ قلت : إما أن يقوله بعضهم لبعض تعجبا من حالهم
واغتباطا بما من الله عليهم من التوفيق في الإخلاص ( أهؤلاء الذين
أَقْسَمُواْ ) لكم بأغلظ الإيمان أنهم أولياؤكم ومعاضدوكم على الكفار
وإما أن يقولوه لليهود ، لأنهم - أي المنافقون - حلفوا لهم بالمعاضدة.
والنصرة كما حكى الله عنهم ( وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ ) ثم
خذلوهم - ، :وعلى كلا الوجهين فالجملة الكريمة تنعى على المنافقين كذبهم
) : وجبنهم ، وتعجب الناس من طباعهم الذميمة ، وأخلاقهم المرذولة .وقوله
حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَاسِرِينَ ) أي : فسدت أعمالهم
وبطلت فصاروا خاسرين في الدنيا والآخرة .ويحتمل أن تكون هذه الجملة مما
- حكاه الله - تعالى - من قول المؤمنين ويحتمل أنها من كلام الله - تعالى
وقد ساقها على سبيل الحكم عليهم بفساد أعمالهم ، وسوء مصيرهم .هذا ، وقد
اشتملت هذه الآيات الكريمة على ضرورب من توكيد النهي عن موالاة أعداء
- الله - تعالى - بأساليب متعددة .منها : النهي الصريح كما في قوله - تعالى
ومنها : بيان علة. ( لاَ تَتَّخِذُواْ اليهود والنصارى أَوْلِيَآءَ ) :
الني كما في قوله : ( بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ) .ومنها : التصريح
بأن من يواليهم فهو منهم وذلك في قوله : ( وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِّنكُمْ
) : فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ) .ومنها : تسجيل الظلم على من يواليهم كما في قوله
إِنَّ الله لاَ يَهْدِي القوم الظالمين ) .ومنها : الإخبار بأن موالاتهم
من طبيعة الذين في قلوبهم مرض قال - تعالى - : ( فَتَرَى الذين فِي
قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ ) .ومنها : قطع أطماع الموالين
لهم وتبشير المؤمنين بالفوز قال - تعالى - : ( فَعَسَى الله أن يَأْتِيَ
بالفتح أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ ) .ومنها : الإخبار عن حال الموالين لهم
بقوله : ( حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَاسِرِينَ ) .وهنا قد يرد
سؤال وهو : إن الآيات الكريمة وما يشبهها من الآيات القرآنية تؤكد النهي عن
موالاة غير المسلمين ومودتهم فهل هذا النهي على إطلاقه؟والجواب عن ذلك أن
غير المسلمين أقسام ثلاثة : القسم الأول : وهم الذين يعيشون مع المسلميلن
ويسالمونهم ، ولا يعملون لحساب غيرهم؛ ولم يبدر منهم ما يفضي إلى سوء الظن
بهم وهؤلاء لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، ولا مانع من مودتهم
والإحسان إليهم كما في قوله - تعالى - ( لاَّ يَنْهَاكُمُ الله عَنِ الذين
لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدين وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ أَن
تَبَرُّوهُمْ وتقسطوا إِلَيْهِمْ إِنَّ الله يُحِبُّ المقسطين ) والقسم
الثاني : وهم الذين يقاتلون المسلمين ، ويسيئون إليهم بشتى الطرق وهؤلاء لا
تصح مصافاتهم ، ولا تجوز موالاتهم ، وهم الذين عناهم الله في الآيات التي
معنا وفيما يشبهها من آيات كما في قوله - تعالى -( إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ
الله عَنِ الذين قَاتَلُوكُمْ فِي الدين وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ
وَظَاهَرُواْ على إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ
فأولئك هُمُ الظالمون ) والقسم الثالث : قوم لا يعلنون العداوة لنا ولكن
القرائن تدل على أنهم لا يبحبوننا بل يحبون أعداءنا ، وهؤلاء يأمرنا ديننا
بأن نأخذ حذرنا منهم دون أن نعتدي .ومهما تكن أحوال غير المسلمين؛ فإنه لا
. يجوز لولي الأمر المسلم أن يوكل إليهم ما يتعلق بأسرار الدولة الإسلامية
أو أن يتخذهم بطانة له بحيث يطلعون على الأمور التي يؤدي إفشاؤها إلى خسارة
الأمة في السلم أو الحرب .وبعد أن حذر - سبحانه - المؤمنين من ولاية اليهود
والنصارى ، عقب ذلك بنداء آخر وجهه إليهم ، وبين لهم فيه أن موالاة أعداء
الله قد تجر إلى الارتداد عن الدين ، وأنهم إن ارتدوا فسوف يأتي الله بقوم
آخرين لن يكونوا مثلهم ، وإن من الواجب عليهم أن يجعلوا ولا يتهم الله
. ولرسوله وللمؤمنين فقال - تعالى - :( ياأيها الذين آمَنُواْ مَن يَرْتَدّ
. . )

يا ايها الذين امنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف ياتي الله بقوم يحبهم
ويحبونه اذلة على المؤمنين اعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا
يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم

: كما فسرها الوسيط قوله - تعالى - ( مَن يَرْتَدّ ) من الارتداد . ومعناه
الرجوع إلى الخلف ونمه قوله - تعالى - ( رُدُّوهَا عَلَيّ ) أي : ارجعوها
على . وقوله : ( إِنَّ الذين ارتدوا على أَدْبَارِهِمْ ) والمراد بالارتداد
هنا : الرجوع عن دين الإسلام إلى الكفر والضلال ، والخروج من الحق الذي

جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى غيره من الأباطيل والأكاذيب
قالوا : وفي هذه الآية الكريمة إشارة إلى أن من الذين دخلوا في الإسلام.
من سيرتد عنه إلى غيره من الكفر والضلال ، وقد كان الأمر كما أشارت الآية
الكريمة؛ فقد ارتد عن الإسلام بعض القبائل كقبيلة بني حنيفة - قوم مسيلمة
الكذاب - وقبيلة بني أسد ، وقبيلة بني مدلج وغيرهم .وقد تصدى سيدنا أبو بكر
الصديق ومن معه من المؤمنين الصادقين للمرتدين فكسروا شوكة الردة ، وأعادوا
لكلمة الإسلام هيبتها وقوتها .قال الآلوسي ما ملخصه : هذه الآية من
الكائنات التي أخبر عنها القرآن قبل وقوعها - وقد وقع المخبر به على وفقها
فيكون معجزاً - فقد روى أنه ارتد عن الإسلام إحدى عشرة فرقة .ثلاث في عهد
" الرسول صلى الله عليه وسلم وهم : " بنو مدلج ، ورئيسهم الأسود العنسي و
. بنو حنيفة " قوم مسيلمة الكذاب و " بنو أسد " قوم طليحة بن خويلد الأسدي
وسبع في عهد أبي بكر وهم : فزارة ، وغطفان ، وبنو سليم ، وبنو يربوع ، وبعض
بني تميم ، وكنده ، وبنو بكر بن وائل .وارتدت فرقة واحدة في عهد عمر وهي
قبيلة " غسان قوم جبلة بن الأيهم " .والمعنى : يا أيها الذين آمنوا لا يتخذ
أحد منكم أحدا من أعداء الله وليا ونصيراً لأن ولايتهم تفضي إلى مضرتكم
وخسرانكم . بل وإلى ردتكم عن الحق الذي آمنتم به ، ومن يرتدد منكم عن دينه
الحق إلى غيره من الأديان الباطلة فلن يضر الله شيئا ، لأنه - سبحانه - سوف
يأتي بقوم آخرين مخلصين له ، ومطيعين لأوامره ، ومستجيبين لتعاليمه . بدل
) : - أولئك الذين ارتدوا على أدبارهم ، وكفروا بعد إيمانهم . قال - تعالى
وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يكونوا
، أَمْثَالَكُم ) ولفظ ( فسوف ) جيء به هنا لتأكيد وقوع الأمر في المستقبل
إذا ما ارتد بعض الناي على أدبارهم .وقد وصف الله - تعالى - أولئك القوم
الذين يأتي بهم بدل الذين كفروا بعد إيمانهم ، وصفهم بعدد من الصفات
الحميدة ، والسجايا الكريمة .وصفهم - أولا - بقوله : ( يُحِبُّهُمْ
وَيُحِبُّونَهُ ) .ومحبة الله - تعالى - للمؤمنين هي أسمى نعمة يتعشقونها
ويتطلعون إليها ، ويرجون حصولها ودوامها . وهي - كما يقول الآلوسي - محبة
- تليق بشأنه على المعنى الذي أراده .ومن علاماتها : أن يوفقهم - سبحانه
- لطاعته ، وأن ييسر لهم الخير في كل شئونم .ومحبة المؤمنين لله - تعالى
معناها : التوجه إليه وحده بالعبادة ، واتباع نبيه محمد صلى الله عليه وسلم
في كل ما جاء به ، والاستجابة لتعاليمه برغبة وشوق .وقوله : ( يحبهم ) جملة
- في محل جر صفة لقوم . وقوله " يحبونه " معطوف على ( يحبهم ) .وقدم
سبحانه - محبته لهم على محبتهم له ، لشرفها وسبقها ، إذ لولا محبته لهم لما
وصلوا إلى طاعته .وصفهم - ثانيا - بقوله : ( أَذِلَّةٍ عَلَى المؤمنين
أَعِزَّةٍ عَلَى الكافرين ) .وقوله : ( أذلة ) جمع ذليل ، من تذلل إذا
تواضع وحنا على غيره ، وليس المراد بكونهم أذلة أنهم مهانون ، بل المراد
المبالغة في وصفهم بالرفق ولين الجانب للمؤمنين .وقوله : ( أعزة ) جمع عزيز
- وهو المتصف بالعزة بمعنى القوة والامتناع عن أن يغلب أو يقهر ومن قوله
تعالى - ( وَعَزَّنِي فِي الخطاب ) أي : غلبني في الخطاب .والمعنى : إن من
صفات هؤلاء القوم الذين يأتي الله بهم بدل الذين كفروا بعد إيمانهم ، أنهم
أرقاء على المؤمنين ، عاطفون عليهم متواضعون لهم ، تفيض قلوبهم حنوا وشفقة
بهم . وأنهم في الوقت نفسه أشداء على الكافرين ، ينظرون إليهم نظرة العزيز
الغالب ، لا نظرة الضعيف الخانع .وهذه - كما يقوال ابن كثير - صفات
المؤمنين الكمل . أن يكون أحدهم متواضعا لأخيه ووليه ، متعززاً على خصمه
وعدوه كما قال - تعالى - : ( مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ الله والذين مَعَهُ
أَشِدَّآءُ عَلَى الكفار رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ) ومن صفات الرسول صلى الله
عليه وسلم : " أنه الضحوك القتال " فهو ضحوك لأوليائه قتال لأعدائه .وقال
: صاحب الكشاف : فإن قلت : هلا قيل أذلة للمؤمنين أعزة على الكافرين؟ قلت
فيه وجهان :أحدهما : أن يضمن الذل معنى الحنو والعطف كأنه قيل : عاطفين
عليهم على وجه التذلل والتواضع .والثاني : أنهم مع شرفهم وعلو طبقتهم
- وفضلهم على المؤمنين - خافضون لهم أجنحتهم .وقال الطيبي : إن قوله
تعالى - ( أَعِزَّةٍ عَلَى الكافرين ) جيء به للتكميل ، لأنه لما وصفهم قبل
ذلك بالتذلل ، ربما يتوهم أحد أنهم أذلاء محقرون في أنفسهم فدفع ذلك الوهم
بأنهم مع ذلتهم على المؤمنين أعزة على الكافرين على حد قول القائل :جلوس في
) : مجالسهم رزان ... وإن ضيم ألم بهم خفافثم وصفهم - ثالثا - بقوله
) : يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ الله وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائم ) وقوله
يُجَاهِدُونَ ) من المجاهدة وهي بذل الجهد ونهاية الطاقة من أجل الوصول إلى
المقصد الذي يسعى إليه الساعي .وقوله : ( فِي سَبِيلِ الله ) أي في سبيل
: إعلاء دين الله ، وإعزاز كلمته وليس في سبيل الهوى أو الشيطان .واللومة
هي المرة الواحدة من اللوم . وهو بمعنى اعتراض المعترضين ، ومخالفة
- المخالفين وعدم رضاهم عن هؤلاء القوم .والمعنى : أن من صفات هؤلاء القوم
أيضا - أنهم يبذلون أقصى جهدهم في سبيل إعلاء كلمة الله والعمل على مرضاته
وأنهم في جهادهم وجهرهم بكلمة الحق ، وحرصهم على ما يرضيه - سبحانه -لا ،
يخافون لوما قط من أي لائم كائنا من كان .لأن خشيتهم ليست إلا من الله وحده
وعبر - سبحانه - بلومة - بصيغة الإفراد والتنكير ، للمبالغة في نفي.

الخورف عنهم سواء أصدر اللوم لهم من كبير أم من صغير ، وسواء أكانت اللومة شديدة أم رفيقة . .فهم - كما يقول الزمخشري - : صلاب في دينهم ، إذا شرعوا في أمر من أمور الدين لإنكار منكر أو أمر بمعروف - مضوا فيه كالمسامير ، المحماة ، لا يرعبهم قول قائل ، ولا اعتراض معترض ، ولا لومة لائم والجملة على هذه معطوفة على ( يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ الله ) . ويحتمل أن تكون الواو للحال . أي أنهم يجاهدون وحالهم في المجاهدة خلاف حال المنافقين الذين كانوا إذا خرجوا في جيش المؤمنين خافوا أولياؤهم اليهود ، فلا يعملون شيئا مما يعلمون أنه يلحقهم فيه لوم من جهتهم ، وأما المؤمنون فكانوا يجاهدون لوجه الله لا يخافون لومة لائم .وقد ذكر المفسرون أقوالا متعددة في ، المراد بهؤلاء القوم الذين وصفهم الله - تعالى - بتلك الصفات الكريمة والذين يأتي بهم بدل أولئك الذين يرتدون على أعقابهم .قال بعضهم : المراد : بهم أبو بكر ومن معه من المؤمنين الذين قاتلوا المرتدين .وقال آخرون المراد بهم الأنصار الذين نصروا النبي - صلى الله عليه وسلم - وأيدوه .وقال مجاهد : المراد بهم أهل اليمن . . . وقيل غير ذلك .والذي نراه أنهم قوم ليسوا مخصوصين بزمن معين أو بلد معين ، أو أشخاص معينين ، وإنما هم كل من تنطبق عليهم هذه الصفات الجليلة . فكل من أحب الله وأحبه الله ، وتواضع للمؤمنين وأغلظ على الكافرين . وجاهد في سبيل الله دون أن يخشى أحدا سواه فهو منهم ، أما ذواتهم فيعلمها الله وحده ، لأنه لم يرد نص صحيح يعتمد عليه في بيان المراد بهؤلاء القوم .واسم الإشارة في قوله : ( ذلك فَضْلُ الله يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ والله وَاسِعٌ عَلِيمٌ ) يعود على ما تقدم ذكره من ، أوصاف القوم .أي : ذلك الذي أعطيناه لهم من صفات كريمة فضل الله وإحسانه يؤتيه من يشاء إيتاءه من عباده ، والله - تعالى - واسع الفضل والجود والعطاء ، عليم بأحوال خلقه ، لا تخفى عليه خافية من شئونهم .هذا ، ومن الأحكام التي أخذها العلماء من هذه الآية الكريمة : وجوب المجاهدة في سبيل إعلاء كلمة الله عن طريق قتال أعدائه - سبحانه - أو عن طريق الجهر بكلمة الحق ، أو عن طريق إحقاق الحق وإبطال الباطل - دون أن يخاف المجاهد لومة لائم .ولقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية جملة من الأحاديث في هذا المعنى ومن ذلك :ما رواه الإمام أحمد عن أبي ذر : " أمرني خليلي صلى الله عليه وسلم بسبع : أمرني بحب المساكين والدنو منهم ، وأمرني أن أنظر إلى من هو دوني ولا أنظر إلى من هو فوقي ، وأمرني أن أصل الرحم وإن ، أدبرت ، وأمرني أن لا أسأل أحدا شيئا ، وأمرني أن أقول الحق وإن كان مرا وأمرني أن لا أخاف في الله لومة لائم ، وأمرني أن أكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله فإنهن كنز تحت العرش " .وعن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ألا لا يمنعن أحدكم رهبة الناس أن يقول بحق إذا رآه أو شهده . فإنه لا يقرب من أجل ولا يباعد من رزق أن يقول بحق أو أن " : يذكر بعظيم " .وعنه - أيضا - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحقرن أحدكم نفسه قالوا : وكيف يحقر أحدنا نفسه؟ قال : أن يرى أمر الله فيه مقال فلا يقول فيه . فيقال له يوم القيامة . ما منعك أن تكون قلت في كذا وكذا؟ فيقول مخافة الناس . فيقول : إياي أحق أن تخاف " .وهناك أحاديث أخرى في هذا المعنى سوى التي ذكرها الإمام ابن كثير ومن ذلك ما أخرجه الشيخان عن عبادة بن الصامت قال : " بايعنا رسول الله - صلى الله عليه . وسلم - على السمع والطاعة في المنشط والمنكره ، وأن لا ننازع الأمر أهله وأن نقول بالحق حيثما كنا .لا نخاف في الله لومة لائم " .

انما وليكم الله ورسوله والذين امنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - من تجب موالاتهم ، بعد النهي عن تولي من تجب معاداتهم فقال : ( إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ الله وَرَسُولُهُ والذين ( آمَنُواْ الذين يُقِيمُونَ الصلاة وَيُؤْتُونَ الزكاة وَهُمْ رَاكِعُونَ أي : ( إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ الله ) المفيض عليكم كل خير ، والمرجو وحده. في الشدائد والكروب ( وَرَسُولُهُ ) الذي أخرجكم - بإذنه تعالى - من ظلمات الكف إلى نور التوحيد . ( والذين آمَنُواْ ) الذين هم منكم وأنتم منهم والذين ( يُقِيمُونَ الصلاة ) في مواقيتها بخشوع وإخلاص ( وَيُؤْتُونَ الزكاة ) لمستحقيها بسماحة وطيب نفس ( وَهُمْ رَاكِعُونَ ) أي : خاشعون متواضعون لله ، وليسوا مرائين أو منانين .وقوله : ( إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ الله ) جملة من مبتدأ وخبر . وقوله : ( وَرَسُولُهُ والذين آمَنُواْ ) معطوف على الخبر .قال صاحب الكشاف : ومعنى ( إنما ) وجوب اختصاصهم بالمولاة فإن قلت قد ذكرت - الآية - جماعة فهلا قيل إنما أولياؤكم؟ قلت : أصل . الكلام إنما وليكم الله ، فجعلت الولاية لله على طريق الأصالة ، ثم نظم في : سلك إثباتها له ، إثباتها لرسوله وللمؤمنين على سبيل التبع . ولو قيل إنما أولياؤكم الله ورسوله والذين آمنوا ، لم يكن في الكلام أصل وتبع - والمراد بالذين آمنوا عامة المؤمنين وليس فردا معينا منهم .قال - تعالى. والمؤمنون والمؤمنات بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ ) :

بالمعروف وَيَنْهَوْنَ عَنِ المنكر وَيُقِيمُونَ الصلاة وَيُؤْتُونَ الزكاة
وَيُطِيعُونَ الله وَرَسُولَهُ أُولئك سَيَرْحَمُهُمُ الله إِنّ الله
عَزِيزٌ حَكِيمٌ ) وما ورد من آثار تفيد أن المراد بالذين آمنوا شخصاً معينا
وهو علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -لا يعتمد عليها ، لأنهما كما يقول
ابن كثير - " لم يصح شيء منها بالكلية لضعف أسانيدها وجهالة رجالها " .وقد
توسع الإمام الرازي في الرد على الشيعة الذين وضعوا هذه الآثار فارجع إليه
إن شئت .وقوله : ( الذين يُقِيمُونَ الصلاة وَيُؤْتُونَ الزكاة ) بدل من
الذين آمنوا .وهما وصفان لهما ساقهما - سبحانه - على سبيل الثناء عليهم
والمدح لهم .وقوله : ( وَهُمْ رَاكِعُونَ ) حال من فاعل الفعلين - يقيمون
ويؤتون - .أي : يعملون ما ذكر من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وهم خاشعون
خاضعون لله - تعالى - إذ الركوع قد يطلق بمعنى الخضوع لله - تعالى - :قال
، الراغب : الركوع : الانحناء وتارة يستعمل في الهيئة المخصوصة في الصلاة
. وتارة يستعمل في التذلل والتواضع إما في العبادة وإما في غيرها

ومن يتول الله ورسوله والذين امنوا فان حزب الله هم الغالبون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة الذين يوالون الله ورسوله
والمؤمنين فقال : ( وَمَن يَتَوَلَّ الله وَرَسُولَهُ والذين آمَنُواْ
فَإِنّ حِزْبَ الله هُمُ الغالبون ) . والحزب معناه الجمع من الناس
) : يجتمعون على رأي واحد من أجل أمر حَزَبهم أي أهمهم وشغلهم .والمعنى
وَمَن يَتَوَلَّ الله ) - تعالى - بأن يطيعه ويتوكل عليه ، ويتول ( رسوله )
بأن يتبعه ويتأسى به ، ويتول ( والذين آمَنُواْ ) بأن يناصرهم ويشد أزرهم
ويتعاون معهم على البر والتقوى ، من يفعل ذلك لا شك في حسن عاقبته وظفره
بالفلاح والنصر ( فَإِنَّ حِزْبَ الله هُمُ الغالبون ) لغيرهم من الأحزاب
الأخرى التي استحوذ عليها الشيطان .و ( من ) في قوله ( وَمَن يَتَوَلَّ
الله ) شرطية ، وقوله : ( فَإِنَّ حِزْبَ الله هُمُ الغالبون ) دليل على
جواب الشرط .أي : ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا يكن من حزب الله
، المنتصر القوي ، فإن حزب الله هم الغالبون .وقال - سبحانه - فإن حزب الله
ولم يقل حزب الله ورسوله ، للإشارة إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا
يعمل إلا بأمر من الله - تعالى - وإنه صلى الله عليه وسلم لا يستمد العون
والنصرة إلا منه - سبحانه - .وقال بعض العلماء : وقوله - تعالى - ( فَإِنّ
حِزْبَ الله هُمُ الغالبون ) معناه : فإنهم الغالبون .فوضع الظاهر موضع
الضمير العائد إلى ( من ) دلالة على علة الغلبة .وهو أنهم حزب الله . فكأنه
قيل : ومن يتول هؤلاء فهو حزب الله .وحزب الله هم الغالبون . تنويها بذكرهم
وتعظيما لشأنهم ، وتشريفا لهم بهذا الاسم ، وتعريضا لمن يوالي غير هؤلاء ،
بأنه حزب الشيطان .وبذلك ترى أن هذه الآيات الكريمة قد نهت المؤمنين نهيا
شديدا عن موالاة أعداء الله ، لأن موالاتهم قد تجر إلى الارتداد عن الدين
الحق ، ومن يرتد عن الدين الحق فلن يضر الله شيئاً ، لأنه سبحانه - قادر
على أن يأتي بقوم آخرين صادقين في إيمانهم بدل أولئك الذين ارتدوا على
أعقابهم . كما نراها قد أرشدت المؤمنين إلى من تجب موالاتهم ، وبشرتهم
بالفلاح والنصر متى جعلوا ولايتهم لله ولرسوله ولإخوانهم في العقيدة
. والدين

يا ايها الذين امنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين
اوتوا الكتاب من قبلكم والكفار اولياء واتقوا الله ان كنتم مؤمنين

كما فسرها الوسيط ثم كرر - سبحانه - نهى المؤمنين عن موالاة أعدائه
): - وأعدائهم الذين استخفوا بتعاليم الإسلام ، وشعائر دينه فقال - تعالى
ياأيها الذين آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ . . . )قال الآلوسي : أخرج ابن
إسحاق وجماعة عن ابن عباس قال : كان رفاعة بن زيد بن التابوت ، وسويد بن
. الحارث قد أظهرا الإسلام ونافقا ، وكان رجال من المسلمين يوادونهما
. . . فأنزل الله - تعالى - : ( ياأيها الذين آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ )
الآية .والدين : هو ما عليه المرء من عقائد وأعمال ناشئة عن العقيدة . فهو
عنوان عقل المتدين ، ورائد آماله ، وباعث أعماله . والذي يتخذ دين امرئ
هزوا ولعبا ، فقد اتخذ ذلك المتدين بهذا الدين هزوا ولعبا .وقوله : ( هزوا
أي سخرية يقال : فلان هزئ من فلان إذا سخر منه ، واستخف به . وأصله هزءاً (
. فأبدلت الهمزة واوا لضم ما قبلها .وقوله : ( لعبا ) أي ملهاة وعبثا ،
وأصله من لعاب الطفل . يقال عن الطفل لعب - بفتح العين - إذا سال لعابه
والمعنى : يأيها الذين اتصفوا بالإيمان ( لاَ تَتَّخِذُواْ الذين اتخذوا
دِينَكُمْ ) الذي هو سر سعادتكم وعزتكم ( هُزُواً وَلَعِباً ) أي : اتخذوه
مادة لسخريتهم وتهكمهم ، وموضعا لعبثهم ولهوهم .و ( من ) في قوله : ( مِّنَ
: الذين أُوتُواْ الكتاب مِن قَبْلِكُمْ والكفار أَوْلِيَآءَ ) بيانية .أي
مبينة لأولئك الذين يستهزئون بدين الله ويجعلونه موضع عبثهم .والمراد
بالذين أوتوا الكتاب : اليهود والنصارى .وسموا بذلك؛ لأن أصل شرعهم ينتمي

إلى كتاب منزل هو التوراة والإنجيل .وفي وصفهم بذلك هنا ، توبيخ لهم ، حيث إنهم استهزؤوا بالدين الحق ، مع أن كتابهم ينهاهم عن ذلك .والمراد بالكفار هنا المشركون الذين لا كتاب لهم .وقرأ الجمهور ( والكفار ) بالنصب عطفا على المبين بقوله : ( مِّنَ الذين أُوتُواْ الكتاب ( الذين اتخذوا دِينَكُمْ ) وقرأ أبو عمرو والكسائي ( الكفارِ ) بالجر عطفا على ( مِّنَ الذين. ( أُوتُواْ الكتاب ) .وقرأ : ( أَوْلِيَآءَ ) أي : نصراء وأصفاء . وهو المفعول الثاني لقوله ( لاَ تَتَّخِذُواْ ) والآية الكريمة تنهى المؤمنين عن ولاية كل عدو لله - تعالى - ولهم سواء أكان هذا العدو من أهل الكتاب أم من المشركين؛ لأن الجميع يشتركون في الاستهزاء بتعاليم الإسلام ، وفي العبث بشعائره .وقوله : ( واتقوا الله إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ) تذييل قصد به استنهاض همتهم لامتثال أمر الله - تعالى - وإلهاب نفوسهم حتى يتركوا موالاة أعدائهم بسرعة ونشاط .أي : واتقوا الله في سائر ما أمركم به وما نهاكم عنه ، فلا تضعوا مواالاتكم في غير موضعها ، ولا تخالفوا لله أمراً . إن كنتم مؤمنين حقا ، ممتثلين صدقا ، فإن وصفكم بالإيمان يحتم عليكم الطاعة التامة لله رب العالمين .

واذا ناديتم الى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا ذلك بانهم قوم لا يعقلون

كما فسرها الوسيط ثم ذكر - سبحانه - بعض مظاهر استهزاء أولئك الضالين بالدين وشعائره ، فقال - تعالى - : ( وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصلاة اتخذوها هُزُواً وَلَعِباً ) .والمراد بالنداء للصلاة : الإعلام بها عن طريق الأذن .قال القرطبي : كان إذا أذن وقام المسلمون إلى الصلاة قالت اليهود : قاموا لا قاموا ، وكانوا يضحكون إذا ركع المسلمون وسجدوا .وقالوا في حق الأذان : لقد ابتدعت شيئا لم نسمع به فيما مضى من الأمم . فمن أين لك صياح مثل صياح العير؟ فما أقبحه من صوت ، وما أسمحه من أمر .وروى ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي في قوله : ( وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصلاة اتخذوها هُزُواً وَلَعِباً ) قال : كان رجل من النصارى بالمدينة ، إذا سمع المنادي ينادي : أشهد أن محمدا رسول الله . قال : حرق الكاذب . فدخل خادمه ليلا من الليالي بنار ، وهو نائم وأهله نيام ، فسقطت شرارة فأحرقت البيت . فاحترق هو وأهله .وقيل : كان المنافقون يتضاحكون عند القيام إلى الصلاة تنفيرا للناس منها .أي : وإذا ناديتم - أيها المؤمنون - بعضكم بعضا إلى الصلاة عن طريق الأذان ، اتخذ هؤلاء الضالون الصلاة والمناداة بها موضعا لسخريتهم وعبثهم وتهكمهم .واسم الإشارة في قوله : ( ذلك بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ ) يعود إلى ما كان منهم من استهزاء وسخرية .أي : ذلك الذي صدر عنهم من استهزاء وعبث سببه أنهم قوم سفهاء جهلاء ، لا يدركون الأمور على وجهها الصحيح ، ولا يستجيبون للحق الذي ظهر لهم بسبب عنادهم وأحقادهم .قال ابن كثير : هذا تنفير من موالاة أعداء الإسلام من الكتابيين والمشركين الذين يتخذون أفضل ما يعمله العاملون وهي شرائع الإسلام المطهرة ، المحكمة المشتملة على كل خير دينوي وأخروي ، يتخذونها هزوا يستهزئون بها ولعبا يعتقدون أنها نوع من اللعب في نظرهم الفاسد ، وفكرهم البارد ، كما قال القائل .وكم من عائب قولا صحيحا ... وآفته من الفهم السقيم

قل يا اهل الكتاب هل تنقمون منا الا ان امنا بالله وما انزل الينا وما انزل من قبل وان اكثركم فاسقون

كما فسرها الوسيط وبعد أن حذر - سبحانه - المؤمنين تحذيرا شديدا من موالاة أعدائه . عقب ذلك بتوبيخ أهل الكتاب على عنادهم وحسدهم ، ووصفهم بجملة من الصفات القبيحة التي ينأى عنها العقلاء وأصحاب المروءة فقال - تعالى - : ( " قُلْ ياأهل الكتاب هَلْ تَنقِمُونَ . . . )قال القرطبي : قال ابن عباس جاء نفر من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه عمن يؤمن به من الرسل - عليهم السلام - فقال : نؤمن بالله وما أنزل إلينا ، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل إلى قوله : ونحن له مسلمون " . فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته وقالوا : والله ما نعلم أهل دين أقل حظا في الدنيا والآخرة منكم ، ولا دينا شراً من دينكم . فنزلت هذه الآية وما بعدها .وتنقمون معناه : تسخطون وقيل تكرهون . وقيل تنكرون . والمعنى متقارب يقال : نقم من كذا ينقم ونقم ينقم والأول أكثر . . وفي التنزيل وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد . وانتقم منه أي : عاقبة : والاسم النقمة والجمع نقم والاستفهام ، للانكار والتعجب من حالهم حيث يعيبون على المؤمنين ما هو. المدح والثناء والتكريم .والمعنى : قل يا محمد على سبيل التوبيخ لأهل الكتاب ، والتعجيب من أحوالهم قل لهم : ( ياأهل الكتاب ) يا من كتابكم عرفكم مواطن الذم ( هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ ) أي : ما تعيبون وتنكرون وتكرهون منا ( إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بالله ) الذي يجب الإيمان به ، والخضوع له ، لأنه الخالق لكل شيء ، وآمنا بما أنزل إلينا من القرآن الكريم وآمنا بما أنزل من قبل من كتب سماوية كالتوراة والإنجيل والزبور وغير ذلك من

الكتب التي أنزلها الله على أنبيائه قبل إنزال القرآن الكريم .ولا شك أن
إيماننا بذلك لا يعاب ولا ينكر ، بل يمدح ويشكر ، ولكن لأن ( أَكْثَرَكُمْ
، فَاسِقُونَ ) - أي : خارجون عن دائرة هذا الإيمان الحق - كرهتم منا ذلك
وأنكرتموه علينا ، وحسدتمونا على توفيق الله إيانا لما يحبه ويرضاه .وقال
) الجمل ما ملخصه : وقوله : ( إِلاَّ أَنْ آمَنَّا ) مفعول لقوله
. تَنقِمُونَ ) بمعنى تكرهون .وهو استثناء مفرغ . وقوله : ( منا ) متعلق به
أي ما تكرهون من جهتنا إلا الإيمان بالله وبما أنزل إلينا وأصل نقم أن
يتعدى بعلى . تقول : نقمت عليه بكذا . وإنما عدي هنا بمن؛ لتضمنه معنى
تكرهون وتنكرون .وقوله : ( وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ) يحتمل أن
: يكون في محل رفع أو نصب أو جر فالرفع على أن يكون مبتدأ والخبر محذوف أي
وفسقكم ثابت عندكم ، لأنكم علمتم أنا على الحق وأنكم على الباطل إلا أن حب
الرياسة وجمع الأموال حملكم على العناد .والنصب على أن يكون معطوفا على
: قوله ( أن آمنا ) ولكن الكلام فيه مضاف محذوف لفهم المعنى . والتقدير
واعتقاد أن أكثرهم فاسقون وهو معنى واضح فإن الكفار ينقمون اعتقاد المؤمنين
أنهم - أي الكفار - فاسقون - أي : ما تعيبون منا إلا إيماننا بالله وما
أنزل إلينا . واعتقادنا أن أكثركم فاسقون .وأما الجر فعلى أن يكون معطوفاً
على علة محذوفة والتقدير : ما تنقمون منا إلا الإيمان بالله وبما أنزل
، لقلة إنصافكم وفسقكم واتباعكم شهواتكم .هذا ومن بلاغة القرآن الكريم.
وإنصافه في الأحكام ، واحتراسه في التعبير أنه لم يعمم الحكم بالفسق على
جميعهم . بل جعل الحكم بالفسق منصباً على الأكثرين منهم ، حتى يخرج عن هذا
) : الحكم القلة المؤمنة من أهل الكتاب .وشبيه بهذا قوله في آية أخرى
مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا
يَعْمَلُونَ ) قال بعض العلماء : في الآية تسجيل على أهل الكتاب بكمال
المكابرة والتعكيس ، حيث جعلوا الإيمان بما ذكر ، موجبا للنقمة ، مع كونه
في نفسه موجبا للقبول والرضا . وهذا مما تقصد العرب في مثله تأكيد النفي
. والمبالغة فيه بإثبات شيء وذلك الشيء لا يقتضي إثباته فهو منتف أبداً
ويسمى مثل ذلك عند علماء البيان تأكيد المدح بما يشبه الذم وبالعكس . فمن
الأول قول القائل :ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلول من قراع
الكتائبوقول الآخر :فتى كملت أخلاقه غير أنه ... جواد ، فما يبقى من المال
باقياًومن الثاني هذه الآية وما يشبهها . أي : ما ينبغي لهم أن ينقموا
شيئاً إلا هذا ، وهذا لا يوجب لهم أن ينقموا شيئاً إذاً فليس هناك شيء
ينقمونه ، وما دام الأمر كذلك ، فينبغي لهم أن يؤمنوا ولا يكفروا . وفيه
. أيضاً تقريع لهم حيث قابلوا الإحسان بسوء الصنيع

قل هل انبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم
القردة والخنازير وعبد الطاغوت اولئك شر مكانا واضل عن سواء السبيل

كما فسرها الوسيط ثم تابع - سبحانه - التهكم بهم ، وتعجب الناس من أفن
رأيهم ، مع تذكيرهم بسوء مصيرهم فقال : - ( قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ
بِشَرٍّ مِّن ذلك مَثُوبَةً عِندَ الله ) ؟والمشار إليه بقوله : ( ذلك )
يعود إلى ما نقمه اليهود على المؤمنين من إيمانهم بالله وبالكتب السماوية
وقيل يعود إلى الكثرة الفاسقة من أهل الكتاب المعبر عنها بقوله : ( وَأَنَّ
أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ) وتوحيد اسم الإشارة لكونه يشار به إلى الواحد
وغيره . أو لتأويله بالمذكور ونحوه .والخاطب لأهل الكتاب المتقدم ذكرهم
وقيل للكفار مطلقا ، وقيل للمؤمنين .والمثوبة : مصدر ميمي بمعنى الثواب
الثابت على العمل ، وأكثر استعمالها في الخير .وقد استعملت هنا بمعنى
العقوبة على طريقة التهكم بهم كما في قوله - تعالى - : ( فَبَشِّرْهُمْ
) : بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ) وهي منصوبة على أنها تمييز لقوله ( بشر ) .وقوله
مَن لَّعَنَهُ الله ) خبر لمبتدأ محذوف أي : هو من لعنه الله : والمراد
اليهود لأن الصفات التي ذكرت في الآية لا تنطبق إلا عليهم .والمعنى : قل يا
محمد لهؤلاء اليهود الذين عابوا على المؤمنين إيمانهم بالله وبما أنزله من
كتب سماوية والذين قالوا لكم : ما نعلم أهل دين أقل حظا في الدنيا والآخرة
منكم ، ولا دينا شرا من دنيكم قل لهم على سبيل التبكيت والتنبيه على ضلالهم
) هل أخبركم بشر من أهل ذلك الدين عقوبة عند الله يوم القيامة؟ هو من :
لَّعَنَهُ الله ) أي أبعده من رحمته ( وَغَضِبَ عَلَيْهِ ) بأن منع عنه
رضاه ( وَجَعَلَ مِنْهُمُ القردة والخنازير ) بأن مسخ بعضهم قردة وبضعهم
خنازير وجعل منهم من عبد الطاغوت ، أي : من عبد كل معبود باطل من دون الله
كالأصنام والأوثان وغير ذلك من المعبودات الباطلة التي اتبعوها بسبب
طغيانهم وفساد نفوسهم .فإن قيل : إن قوله - ( قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ
بِشَرٍّ مِّن ذلك مَثُوبَةً ) يفيد أن ما عابه اليهود على المؤمنين من
إيمانهم بالله فيه شر . إلا أن ما عليه اليهود أشد شرا ، مع أن إيمان
المؤمنين لا شر فيه ألبتة بل هو عين الخير فكيف ذلك؟فالجواب ، أن الكلام
مسوق على سبيل المشاكلة ، والمجاراة لتفكير اليهود الفاسد ، وزعمهم الباطل
فكأنه - سبحانه - يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم إن هؤلاء اليهود - يا ،

- محمد - ينكورن عليهكم إيمانكم بالله وبالكتب السماوية ويعتبرون ذلك شراً
مع أنه عين الخير - قل لهم على سبيل التبكيت وإلزامهم الحجة :لئن كنتم
تعيبون علينا إيماننا وتعتبرونه شرا لا خير فيه - في زعمكم فشر منه عاقبة
ومآلا ما أنتم عليه من لعن وطرد من رحمة الله ، وما أصاب أسلافكم من مسخ
بعضهم قردة ، وبعضهم خنازير ، وما عرف عنكم من عبادة لغير الله . . . وشبيه
بهذه الآية في مجاراة الخصم في زعمه قوله - تعالى - ( وَإِنَّآ أَوْ
إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ) وقوله : ( أُولَئِكَ شَرٌّ
مَّكَاناً وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ السَّبِيلِ ) بيان لسوء عاقبتهم وقبح مكانتهم
أي : أولئك المتصفون بما ذكر من الفسوق واللعن والطرد من رحمة الله. .
أولئك المتصفون بذلك ( شَرٌّ مَّكَاناً ) من غيرهم وأكثر ضلالا عن طريق
الحق المستقيم من سواهم ، فهم في الدنيا يشركون بالله ، وينتهكون محارمه
وفي الآخرة مأواهم النار وبئس القرار .وقوله ( أُولَئِكَ ) مبتدأ وقوله ( شر )
خبره ، وقوله ( مكانا ) تمييز محول عن الفاعل .وأثبت - سبحانه - الشرية
لمكانهم ليكون أبلغ في الدلالة على كثرة شرورهم ، إذ أن إثبات الشرية لمكان
الشيء كناية عن إثباتها للشيء نفسه . فكأن شرهم قد أثر في مكانهم ، أو عظم
. وضخم حتى صار متجسما .وقوله : ( وأضل ) معطوف على ( شر ) مقدر له
والمقصود من صيغتي التفضيل في قوله : ( أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ )
الزيادة مطلقا من غير نظر إلى مشاركة غيرهم في ذلك . أو بالنسبة إلى غيرهم
. من الكفار الذين لم يفجروا فجورهم ، ولم يحقدوا على المؤمنين حقدهم

واذا جاءوكم قالوا امنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به والله اعلم بما كانوا يكتمون

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك بعض مظاهر نفاقهم وخداعهم فقال
وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَّخَلُواْ بِالْكُفْرِ وَهُمْ ) :
قَدْ خَرَجُواْ بِهِ ) .قال الآلوسي : نزلت كما قال قتادة والسدى - في ناس
من اليهود كانوا يدخلون على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيظهرون له
الإيمان والرضا بما جاء به نفاقا .والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم
وأصحابه .والضمير في ( جاءكم ) يعود على اليهود المعاصرين للنبي .أي : وإذا
جاء إليكم - أيها المؤمنون - أولئك اليهود أظهروا أمامكم الإسلام ، وقالوا
لكم آمنا بأنكم على حق ، وحالهم وحقيقتهم أنهم قد دخلوا إليكم وهم متلبسون
بالكفر ، وخرجوا من عندكم وهم متلبسون به - أيضا - فهم يدخلون عليكم
ويخرجون من عندكم وقلوبهم كما هي لا تتأثر بالمواعظ التي يلقيها الرسول صلى
الله عليه وسلم لأنهم قد قست قلوبهم ، وفسدت نفوسهم .وقوله : ( وَقَدْ
دَّخَلُواْ بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِ ) جملتان في موضع الحال من
ضمير الجمع في ( قالوا ) .والباء في قوله : ( بالكفر ) وقوله : ( به )
للملابسة . أي : دخلوا وخرجوا وهم متلبسون بالكفر من غير نقصان منه ولا
تغيير فيه ألبتة .قال الفخر الرازي : وذكر عند الدخول كلمة ( قد ) وذكر عند
الخروج كلمة ( هم ) لأن الفائدة من ذكر كلمة ( قد ) تقريب الماضي من الحال
والفائدة من ذكر كلمة ( هم ) التأكيد في إضافة الكفر إليهم ، ونفي أن .
يكون للنبي صلى الله عليه وسلم في ذلك فعل ، أي : لم يسمعوا منك يا محمد
عند جلوسهم معك ما يوجب كفرا ، فتكون أنت الذي ألقيتهم في الكفر ، بل هم
) الذين خرجوا بالكفر باختيار أنفسهم .ويبدو لنا أنه عبر عن دخولهم بقوله
وَقَدْ دَّخَلُواْ بِالْكُفْرِ ) وعبر عن خروجهم بقوله : ( وَهُمْ قَدْ
خَرَجُواْ بِهِ ) بإضافة ضميرهم مع قد ، للإشارة إلى أنهم عند خروجهم
كانوا أشد كفراً ، وأقسى قلوبا منهم عند دخولهم .وهذا شأن الجاحديون
المنافقين ، لا تؤثر فيهم العظات مهما كانت بليغة ، ولا النذر مما كانت
قوية ، بخلاف قلوب المؤمنين فإن المواعظ تزيدها يقينا على يقينها ، وإيمانا
على إيمانها . ألا ترى إلى قوله - تعالى - :( وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ
سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هذه إِيمَاناً
. فَأَمَّا الذين آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُون
وَأَمَّا الذين فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى
رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ ) وقوله - تعالى - : ( والله
أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ) وعيد شديد لهم على كفرهم ونفاقهم
أي : والله - تعالى - أعلم بما كانوا يخفونه من نفاق وخداع عند دخولهم.
. وعند خروجهم ، لأنه - سبحانه -لا تخفى عليه خافية من أحوالهم

وترى كثيرا منهم يسارعون في الاثم والعدوان واكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - لونا آخر من رذائلهم فقال : ( وترى
( كَثِيراً مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإثم والعدوان وَأَكْلِهِمُ السحت
والرؤية في قوله : ( وترى ) بصرية .والإثم : هو كل قول أو عمل لا يرضاه.
الله - تعالى - .والعدوان : مجاوزة الحد في الظلم والتعدي . والسحت : هو

المال الحرام كالرشوة وغيرها .أي : وترى - أيها الرسول الكريم أو أيها السامع - كثيرا من هؤلاء اليهود ، يسارعون في ارتكاب الآثام وفي التعدي والظلم وأكل المال الحرام بدون تردد أو تريث . والتعبير بقوله : ( وترى ) يفيد أن ارتكابهم لهذه المنكرات لم يكن خافيا أو مستوراً ، وإنما هم يرتكبونها مجاهرة وعلانية ، لأن فضيلة الحياء قد نضبت من جوههم .والمسارعة في الشيء : المبادرة إليه بسرعة وخفة ونشاط ، وأكثر استعمالها في الخير كما قال - تعالى - ( أولئك يُسَارِعُونَ فِي الخيرات ) ( نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الخيرات ) وقد استعملت هنا في مسارعتهم في الإثم والعدوان وأكلهم السحت ، للإشارة إلى أنهم كانوا يقدمون على هذه المنكرات وكأنهم محقون فيها والتعدية بحرف ( في ) تؤذن بأنهم مغمورون في الآثام؛ وأنهم ينتقلون فيها . في حال إلى حال أخرى شر منها ، حتى لكأن السير في طريق الحق والصدق والفضيلة صار غير مألوف عندهم .وقوله : ( لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ) تذييل قصد به تقبيح أعمالهم التي يأباها الدين والخلق الكريم أي : لبئس شيئا كانوا يعملونه هذه المنكرات التي منها مسارعتهم في الإثم. والعدوان وأكلهم السحت .وهذه الجملة هي حكم من الله - تعالى - عليهم بذم أعمالهم . وقد جمع - سبحانه - في حكمه بين صيغة الماضي ( كانوا ) وصيغة ، المضارع ( يعملون ) للإشارة إلى أن هذا العمل القبيح كان منهم في الماضي - وأنهم قد استمروا عليه في حاضرهم ومستقبلهم بدون توبة أو ندم .وقد أكد سبحانه - هذا الحكم بالقسم ، وباللام الموطئة للقسم ، وبكلمة بئس الدالة على شدة الذم . أي : أقسم لبئس العمل الذي كان هؤلاء يعملونه من مسارعتهم في الإثم والعدوان وأكلهم السحت .

لولا ينهاهم الربانيون والاحبار عن قولهم الاثم واكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون

كما فسرها الوسيط ثم وبخ - سبحانه - رؤساء هؤلاء اليهود على سكوتهم على المنكر فقال :( لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الربانيون والأحبار عَن قَوْلِهِمُ الإثم وَأَكْلِهِمُ السحت ) .و ( لولا ) هنا للحض على الفعل في المستقبل ، وللتوبيخ على تركه في الماضي فهي لتوبيخ علماء اليهود على تركهم فضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الماضي . ولحضهم على مباشرتهم في المستقبل . وهي هنا بمعنى هلا .والربانيون : كما يقول ابن جرير - جمع رباني وهم العلماء الحكماء البصراء بسياسة الناس ، وتدبير أمورهم ، والقيام . بمصالحهم .والأحبار - جمع حبر - وهم علماء اليهود وفقهاؤهم المفسرون لما ورد في التوراة من أقوال وأحكام .والمعنى : إن هؤلاء دأبهم المسارعة إلى اقتراف الآثام وإلى أكل المال الحرام ، فهلا ينهاهم علماؤهم عن هذه الأقوال الكاذبة الباطلة ، وعن تلك المآكل الخبيثة التي أكلوها عن طريق السحت والسحت - كما سبق أن بينا - هو المال الحرام كالربا والرشوة . سمي سحتا من. سحته إذا استأصله لأنه مسحوت البركة أي مقطوعها . أو لأنه يذهب فضيلة الإنسان ويستأصلها واليهود أرغب الناس في المال الحرام وأحرصهم عليه .وقد وبخ الله - تعالى - علماء اليهود وفقهاءهم على عدم نهيهم لهم عن قولهم الإثم وأكلهم السحت ، لأن هاتين الرذيلتين هما جماع الرذائل ، إذ القول الباطل الكاذب إذا ما تعود عليه الإنسان هانت عليه الفضائل ، وقال في الناس ما ليس فيهم بدون تحرج أو حياء .وأكل السحت يقتل في نفسه المروءة والشرف ، ويجعله يستهين بحقوق الناس وأموالهم .ولقد ألف علماء اليهود أكل أموال الناس بالباطل بدعوى أن هذا الأكل سيغفره الله لهم ، ألا ترى قول الله - تعالى - : ( فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ الكتاب يَأْخُذُونَ عَرَضَ هذا الأدنى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَآ ) قال بعض العلماء : واقتصر - سبحانه - في توبيخ الربانيين على ترك نهيهم عن قول الإثم وأكل السحت ، ولم يذكر العدوان - الذي ورد في الآية السابقة إيماء إلى أن العدوان يزجرهم عنه المسلمون ولا يلتجئون في زجرهم إلى غيرهم لأن الاعتماد في النصرة على غير المجني عليه ضعف .وقوله : ( لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ) تذييل قصد به ذم علماء اليهود بسبب تركهم لفضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .وقوله : ( يَصْنَعُونَ ) من الصنع وهو العمل بدقة ومهارة وإحكام .أي : والله لبئس الصنع صنعهم حيث تركوا نهى عامتهم عن قول الإثم وأكل السحت .وقد تكلم المفسرون عن السر في أن الله تعالى - ذم اليهود بقوله : ( لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ) وذم علماءهم وفقهاءهم بقوله : ( لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ) .وقد أجاد الكلام عن ذلك الإمام الرازي فقال : والمعنى ، أن الله - تعالى - استبعد من علماء أهل الكتاب أنهم ام نهوا سفلتهم وعوامهم عن المعاصي ، وذلك يدل على أن تارك النهي عن المنكر بمنزلة مرتكبه ، لأنه - تعالى - ذم الفريقين . بل نقول : إن ذم تارك النهي عن المنكر أقوى ، لأنه - سبحانه - قال في المقدمين على الإثم والعدوان وأكل السحت ( لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ) وقال في العلماء التاركين للنهي عن المنكر ( لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ) والصنع أقوى من العمل ، لأن العمل إنما يسمى صناعة

إذا صار راسخا متمكنا ، فجعل جرم العاملين ذنبا غير راسخ . وذنب التاركين للنهي عن المنكر ذنبا راسخا . والأمر في الحقيقة كذلك ، لأن المعصية مرض الروح ، وعلاجه العلم بالله وبصفاته وبأحكامه ، فإذا حصل هذا العلم ومازالت المعصية كان كمثل المرض الذي شرب صاحبه الدواء إلا أن المرض بقي كما هو وقال ابن جرير : كان العلماء يقولون : ما في القرآن آية أشد توبيخا. للعلماء من هذه الآية ، ولا أخوف عليهم منها .وقال ابن كثير : روى الإمام أحمد عن جرير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما من قوم يكون بين أظهرهم من يعمل المعاصي ، هم أعز منه وأمنع ، ولم يغيروا ، إلا أصابهم الله منه بعذاب " .وروى ابن أبي حاتم عن يحيى بن يعمر قال : خطب علي بن أبي طالب فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس!! إنما هلك من كان قبلكم ، بركوبهم المعاصي ولم ينههم الربانيون والأحبار . فلما تمادوا أخذتهم العقوبات . فمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن ينزل بكم مثل الذي نزل بهم . واعلموا أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقطع رزقا ، ولا يقرب أجلا .وبذلك نرى هذه الآيات الكريمة قد وبخت اليهود على حسدهم للمؤمنين على ما آتاهم الله من فضله ، ووصفتهم بجملة من الصفات الذميمة حتى يحذرهم المؤمنون ، ويجعلوا ولاءهم لله ولرسوله ولإخوانهم في العقيدة والدين .

وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت ايديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء وليزيدن كثيرا منهم ما انزل اليك من ربك طغيانا وكفرا والقينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة كلما اوقدوا نارا للحرب اطفاها الله ويسعون في الارض فسادا والله لا يحب المفسدين

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك لونا آخر من سوء معتقد اليهود وخبث طويتهم ، وسوء أدبهم مع الله - تعالى - فقال :( وَقَالَتِ اليهود ، يَدُ الله مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ . . . )قال ابن عباس : قال رجل من اليهود يقال له شاس بن قيس : يا محمد إن ربك بخيل لا ينفق . فأنزل الله هذه الآية وقد أضاف - سبحانه - المقالة إلى اليهود جميعا ، لأنهم لم ينكروا على. القائل ما قاله ورضوا به .وقال عكرمة : إنما قال هذا فنحاص بن عازوراء وأصحابه . فقد كانت لهم أموال فلما كفروا بالنبي صلى الله عليه وسلم قل ما لهم ، فقالوا ما قالوا .وقيل : إنهم لما رأوا النبي صلى الله عليه وسلم في فقر وقلة مال وسمعوا ( مَّن ذَا الذي يُقْرِضُ الله قَرْضاً حَسَناً ) قالوا : إن إله محمد بخيل .وقوله - تعالى - حكاية عنهم : ( وَقَالَتِ - اليهود يَدُ الله مَغْلُولَةٌ ) إخبار من الهل عن جراءة اليهود عليه سبحانه - وسوء أدبهم معه ، وتوبيخ لهم على جحودهم نعمه التي لا تحصى وأرادوا بقولهم : ( يَدُ الله مَغْلُولَةٌ ) : أنه - سبحانه - بخيل عليهم. ممسك خيره عنهم ، مانع فضله عن أن يصل إلهم ، حابس عطاءه عن الاتساع لهم ، - كالمغلولة يده الذي لا يقدر أن يبسطها بعطاء ولا بذل معروف .وأصل الغل ، كما يقول الراغب - تدرع الشيء وتوسطه ، ومنه الغلل للماء الجاري بين الشجر والغل مختص بما يقيد به الشخص فيجعل الأعضاء وسطه ، وجمعه أغلال .وليس . المراد باليد هنا الجارحة المعروفة بهذا الاسم ، لأن الله - تعالى - منزه عن مشابهة الحوادث . وإنما غل اليد وبسطها مجاز مشهور عن التقتير والعطاء . والسبب فيه أن اليد آلة لأكثر الأعمال ، لا سيما في دفع المال وإنفاقه. فأطلقوا اسم السبب على المسبب ، وأسندوا الجود والبخل إلى اليد والكف فقيل للجواد فياض اليد ، مبسوط الكف ، وقيل للبخيل : مقبوض اليد ، كز الكف .وقد وضح هذا المعنى صاحب الكشاف بقوله : " غل اليد وبسطها مجاز عن البخل والجود ومنه قوله - تعالى - ( وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إلى عُنُقِكَ " وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ البسط ) ولا يقصد من يتكلم به إثبات يد ولا غل ولا بسط . ولا فرق عنده بين هذا الكلام وبين ما وقع مجازا عنه ، لأنهما كلامان معتقبان على حقيقة واحدة ، حتى إنه يستعمله في ملك لا يعطي عطاء قد ولا يمنعه إلا بإشارته من غير استعمال يد وقبضها وبسطها . ولو أعطى الأقطع إلى المنكب عطاء جزيلا لقالوا : ما أبسط يده بالنوال ، لأن بسط اليد وقبضها عبارتان معاقبتان البخل والجود .وقد استعملوها حيث لا تصح اليد كقول القائل جاد الحمى بسط اليدين بوابل ... شكرت نداه تلاعه ووهادهويقال : بسط اليأس: كفيه في صدري ، فجعلت لليأس الذي هو من المعاني لا من الأعيان كفين .وقد : علق صاحب الانتصاف على قول صاحب الكشاف " غل اليد وبسطها مجاز " فقال والنكتة في استعمال هذا المجاز تصوير الحقيقة المعنوية بصورة حسية تلزمها غالبا ، وهي بسط اليد للجود وقبضها للبخل ، ولا شيء أثبت من الصور الحسية في الذهن ، فلما كان الجود والبخل معنيين لا يدركان بالحس .عبر عنهما ) : بلازمهما لفائدة الإيضاح والإنتقال من المعنويات إلى المحسوسات .وقوله غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُوا ) دعاء عليهم بالشح المرير والبخل الشنيع بأن يخلق - سبحانه - فيهم الشح الذي يجعلهم منبوذين من الناس - ومن ثم كان اليهود أبخل خلق الله ، وحكم عليهم بالطرد من رحمة الله تعالى - بسبب سوء أدبهم معه - سبحانه - وجحودهم لنعمه .وهذه الجملة تعليم من الله لنا بأن ندعو على من فسدت قلوبهم ، وأساءوا الأدب مع خالقهم

ورازقهم ، فقالوا في شأنه ما هو منزه عنه - ( وتعالى عَمَّا يَقُولُونَ
عُلُوّاً كَبِيراً ) قال الآلوسي ما ملخصه : ويجوز أن يكون المراد بغل
الأيدي الحقيقة ، بأن يغلو في الدنيا أسارى - وفي الآخرة معذبين في أغلال
جهنم . ومناسبة هذا لما قبله حينئذ من حيث اللفظ فقد فيكون تجنيسا . وقيل
، من حيث اللفظ وملاحظة أصل المجاز كما تقوله : سبني سب الله دابره أي قطعه
لأن السب أصله القطع .وقوله : ( بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ) معطوف على
مقدر يقتضيه المقام ، وتكذيب لهم فيما قالوه من باطل .والمعنى : كلا - أيها
اليهود - ليس الأمر كما زعمتم من قول باطل ، بل هو - سبحانه - الواسع الفضل
الجزيل العطاء ، الذي ما من شيء إلا عنده خزائنه .فبسط اليد هنا كناية عن ،
) : الجواد والفضل والإنعام منه - سبحانه - على خلقه .وعبر بالمثنى فقال
بَلْ يَدَاهُ ) للإشارة إلى كثرة الفيض والإنعام ، لأن الجواد السخي إذا
أراد أن يبالغ في العطاء أعطى بكلتا يديه .قال ابن كثير قوله : ( بَلْ
يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ) أي : بل هو الواسع الفضل . الذي ما بخلقه من نعمة
فمنه وحده لا شريك له ، كما قال : ( وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ الله لاَ
تُحْصُوهَا إِنَّ الإنسان لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ) والآيات في هذا كثيرة .وقد
روى الإمام أحمد والشيخان عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه
- وسلم : " إن يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة - أي لا ينقصها الإنفاق
سحاء - أي مليئة - الليل والنهار . أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض
- فإنه لم يغض ما في يمينه . وكان عرشه على الماء ، وفي يده الأخرى الفيض ،
" أو القبض - يرفع ويخفض وقال : يقول الله - تعالى - : أنفق أنفق عليك
وقوله : ( يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ) جملة مستأنفة واردة لتأكيد كمال جوده.
والدلالة على أنه على مقتضى حكمته ومشيئته فهو - سبحانه - يبسط الرزق لمن ،
يشاء أن يبسطه له ويقبضه عمن يشاء أن يقبضه عنه ، وقبضه الرزق عمن يشاء من
خلقه لا ينافي سعة كرمه ، لأنه يعطي ويمنع على حسب مشيئته التي أقام بها
نظام خلقه .ثم بين - سبحانه - موقفهم الجحودي مما أنزله على رسوله صلى الله
عليه وسلم فقال : ( وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ
إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً ) .أي : إن ما أنزلنا عليك يا
محمد من قرآن كريم ، وما أطلعناك عليه من خفى أمور هؤلاء اليهود ، ومن
أحوال سلفهم كل ذلك ليزيدن الكثيرين منهم كفرا على كفرهم ، وطغيانا على
طغيانهم ، وذلك لأنهم قوم أكل الحقد قلوبهم ، واستولى الحسد على نفوسهم
وإذا كان ما أنزلناه إليك يا محمد فيه الشفاء لنفوس المؤمنين ، فإنه
) : - بالنسبة لهؤلاء اليهود يزيدهم بغيا وظلما وكفرا .قال - تعالى
وَنُنَزِّلُ مِنَ القرآن مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ
وَلاَ يَزِيدُ الظالمين إِلاَّ خَسَاراً ) فالجملة الكريمة بيان لموقف
اليهود الجحودي من الآيات التي أنزلها الله على رسوله صلى الله عليه وسلم
- وهي في الوقت ذاته تسلية له صلى الله عليه وسلم عما يلقاه منهم .وقد أكد
سبحانه - هذه الجملة بالقسم المطوي ، وباللام الموطئة له ، ونون التوكيد
الثقيلة لكي ينتفي الرجاء في إيمانهم ، وليعاملهم النبي صلى الله عليه وسلم
وأتباعه على أساس مكنون نفوسهم الخبيثة ، وقلوبهم المريضة بالحسد والخداع
وقوله ( كثيراً ) هو المفعول الأول لقوله ( وليزيدن ) وفاعله ما الموصولة.
- في قوله ( ما أنزل ) وقوله ( طغيانا ) هو المفعول الثاني .ثم زاد
سبحانه - في تسلية رسوله صلى الله عليه وسلم فأصدر حكمه فيهم بدوام العداوة
والبغضاء بين طوائفهم وفرقهم فقال : ( وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ العداوة
والبغضآء إلى يَوْمِ القيامة ) فالضمير في قوله ( بينهم ) يعود إلى فرق
اليهود المختلفة من فريسيين وصدوقيين وقرائين ، وكتبة وغير ذلك من فرقهم
المتعددة .وقيل : الضمير يعود إلى طائفتي اليهود والنصارى .والأول أرجح لأن
الحديث في هذه الآية عن اليهود الذين وصفوا الله - تعالى - بما هو منزه عنه
والعداوة والبغضاء يرى بعضهم أنهما اسمان لمعنى واحد .ويرى آخرون أن.
معناهما مختلف . فالعداوة معناها المناوأة الظاهرة ، والبغضاء هي الكراهية
التي تكون في القلب . فهما معنيان متغايران وإن كانا متلازمين أحيانا . فلا
عداوة من غير بغضاء ، ولكن قد يفترقان فتوجد البغضاء من غير إعلان للعداوة
قال أبو حيان : والعداوة أخص من البغضاء لأن كل عدو مبغض وقد يبغض من ليس.
، بعدو . وقال ابن عطية : وكأن العداوة شيء يشهد ، يكون عنه عمل وحرب
والبغضاء لا تتجاوز النفوس .والمعنى : وألقينا بين طوائف اليهود المتعددة
العداوة الدائمة ، والبغضاء المستمرة ، فأنت تراهم كلمتهم مختلفة ، وقلوبهم
شتى وكل فرقة منهم تلصق النقائص بالأخرى ، وهم على هذه الحال إلى يوم
القيامة .وما أظهره اليهود في هذا العصر من تعاون وتساند جعلهم ينشئون دولة
لهم بفلسطين ، هو أمر مؤقت ، فإن هذه الدولة لن تستمر طويلا ، بل ستعود إلى
أهلها المسلمين متى صدقوا في جهادهم واتبعوا تعاليم دينهم .قال الفخر
الرازي : واعلم أن اتصال هذه الآية بما قبلها ، هو أنه - تعالى - بين أن
هؤلاء اليهود إنما ينكرون نبوته صلى الله عليه وسلم بعد ظهورالدلائل على
صحتها ، لأجل الحسد . ولأجل حب الجاه والمال . ثم إنه - تعالى - بين أنهم
لما رجحوا الدنيا على الآخرة ، لا جرم أنه - تعالى - كما حرمهم سعادة الدين
فكذلك حرمهم سعادة الدنيا ، لأن كل فريق منهم بقي مصرا على مذهبه ومقالته ،

فصار ذلك سببا لوقوع الخصومة الشديدة بين فرقهم وطوائفهم . وانتهى . .
الأمر فيه إلى أن بعضهم يكفر بعضا . ويحارب بعضهم بعضاً .فإن قلت : فهذا
المعنى حاصل أيضاً بين فرق المسلمين فكيف يمكن جعله عيبا على الكتابيين حتى
يذموا عليه؟قلنا : بدعة التفرق التي حصلت في المسلمين إنما حدثت بعد عصر
النبوة وعصر الصحابة والتابعين . أما في الصدر الأول فلم يكن شيء من ذلك
حاصلا بينهم فحسن جعل ذلك عيباً على الكتابيين في ذلك العصر الذي نزل فيه
القرآن .وقوله : ( كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَاراً لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا
الله ) أي : كلما أرادوا حرب الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وهيأوا
الأسباب لذلك وحاولوا تفريق كلمتهم وإثارة العداوة بينهم . كلما فعلوا ذلك
أفسد الله عليهم خطتهم ، وأحبط مكرهم ، وألقى الرعب في قلوبهم .والتعبير
بهذه الجملة الكريمة جاء على وفق ما جرى عليه العرب من أنهم كانوا إذا
أرادوا حرباً بالإغارة على غيرهم أوقدوا ناراً يسمونها نار الحرب
والتعبير هنا لذلك على سبيل المجاز إذ عبر - سبحانه - عن إثارة الحروب.
بإيقاد نارها . باعتبارها أن الحروب في ذاتها وبما تشتمل عليه من مذابح
بشرية تشبه النار المستعرة في أخطارها ومصائبها .وقوله : ( وَيَسْعَوْنَ
فِي الأرض فَسَاداً والله لاَ يُحِبُّ المفسدين ) تذييل مقرر لما قبله من
الصفات الذميمة التي دمغ الله - تعالى - بها اليهود .أي : أن حال هؤلاء
اليهود أنهم يجتهدون في الكيد للاسلام وأهله وأنهم يسعون سعيا حثيثاً
. للافساد في الأرض عن طريق إثارة الفتن ، وإيقاظ الأحقاد بين الناس
والله - تعالى -لا يحب المفسدين بل يبغضهم ويمقتهم ، لإيثارهم الضلالة
على الهدى ، والشر على الخير .وبهذا نرى الآية الكريمة قد ردت على اليهود
في نسبتهم البخل إلى الله - تعالى - وبينت أنه - سبحانه - هو الواسع الفضل
- الجزيل العطاء وكشفت عن جوانب من رذائلهم وعنادهم وأوضحت أنه - سبحانه ،
يبغضهم لأنهم يفسدون في الأرض ولايصلحون .ولقد بسطنا القول في مظاهر فسادهم
. في الأرض في غير هذا الموطن فارجع إليه إن شئت

ولو ان اهل الكتاب امنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولادخلناهم جنات
النعيم

كما فسرها الوسيط وبعد أن حكى - سبحانه - ما حكي من رذائل أهل الكتاب
وخصوصاً اليهود عقب ذلك بفتح باب الخير لهم متى آمنوا واتقوا فقال - تعالى
المعنى : ( وَلَوْ أَنَّ( . . . وَلَوْ أَنّ أَهْلَ الكتاب آمَنُواْ ):
أَهْلَ الكتاب ) من اليهود والنصارى ( آمَنُواْ ) برسول الله - صلى الله
عليه وسلم وبما جاء به من حق ونور ( واتقوا ) الله - تعالى - بأن صانوا
أنفسهم عن كل ما لا يرضاه . لو أنهم فعلوا ذلك ( لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ
سَيِّئَاتِهِمْ ) بأن رفعنا عنهم العقاب وسترنا عليهم معاصيهم فلم نحاسبهم
عليها ، ( وَلأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النعيم ) في الآخرة .قال الفخر
الرازي : واعلم أنه - سبحانه - لما بالغ في ذمهم وفي تهجين طريقتهم عقب ذلك
ببيان أنهم لو آمنوا واتقوا لوجدوا سعادات الآخرة والدنيا . أما سعادات
الآخرة فهي محصورة في نوعين :أحدهما : رفع العقاب .والثاني : إيصال الثواب
أما رفع العقاب فهو المراد بقوله : ( لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ.
) : سَيِّئَاتِهِمْ ) وأما إيصال الثواب فهو المراد بقوله
. ( وَلأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النعيم

ولو انهم اقاموا التوراة والانجيل وما انزل اليهم من ربهم لاكلوا من فوقهم
ومن تحت ارجلهم منهم امة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون

كما فسرها الوسيط وأما سعادات الدنيا فقد ذكرها في قوله بعد ذلك : ( وَلَوْ
) : أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التوراة ) .وكرر - سبحانه - اللام في قوله
لَكَفَّرْنَا ) ( وَلأَدْخَلْنَاهُمْ ) لتأكيد الوعد . وفيه تنبيه إلى كثرة
ذنوبهم ومعاصيهم وإلى أن الإسلام يجب ما قبله من ذنوب مهما كثرت .وفي
إضافة الجنات إلى النعيم إشارة إلى ما يستحقونه من العذاب لو لم يؤمنوا
ويتقوا .وجمع - سبحانه - بين الإيمان والتقوى ، للإيذان بأن الإيمان
الذي ينجى صاحبه ، ويرفع درجاته ، هو ما كان نابعا عن يقين وإخلاص وخشية من
الله ، لا إيمان المنافقين الذين يدعون الإيمان وهو منهم برئ .والضمير في
قوله : ( وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التوراة والإنجيل ) يعود إلى أهل
الكتاب من اليهود والنصارى الذين فتح الله لهم باب الإيمان ليدخلوا فيه كي
ينالوا رضاه .والمراد بإقامة التوراة والإنجيل : العمل بما فيهما من
بشارات بصدق النبي صلى الله عليه وسلم وحضهم على الإيمان به عند ظهوره
وتنفيذ ما اشتملا عليه من أحكام أيدتها تعاليم الإسلام ، وأصل الإقامة
الثبات في المكان . ثم استعير في إقامة الشيء لتوفية حقه .والمراد بما أنزل
إليهم من ربهم القرآن الكريم ، لأنهم مخاطبون به ، وليسوا خارجين عن دائرة
التكاليف التي دعا إليها .قال - تعالى - ( وَأُوحِيَ إِلَيَّ هذا القرآن
لأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَن بَلَغَ ) أي : لأنذركم به يا أهل مكة ، ولأنذر به

أيضاً جميع من بلغه هذا الكتاب من اليهود والنصارى وغيرهم .وقيل : المراد بما أنزل إليهم من ربهم . وكتب أنبيائهم السابقين مثل كتاب شعياء ، وكتاب حزقيل ، وكتاب دانيال . فإنها مشتملة أيضاً على البشارة بالنبي صلى الله عليه وسلم .والمراد بقوله : ( لأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ) المبالغة في شرح ما ينعم الله به عليهم من خيرات وأرزاق تعمهم من كل جهة من الجهات لا أن هناك فوقا وتحتا .أي : لأكلوا أكلا متصلا ، وفيراً ، ولعمهم الخير والرزق من كل جهة بأن تعطيهم السماء مطرها وبركتها وتعطيهم الأرض نباتها وخيرها ، فيعيشوا في رغد من العيش؛ وفي بسطة من الرزق وفي ذلك دلالة على أن الاستقامة على شرع الله ، تأتي بالرزق الرغيد ، ولقد ):  - أشار القرآن إلى هذا المعنى في آيات كثيرة ومن ذلك قوله - تعالى - وَأَلَّوِ استقاموا عَلَى الطريقة لأَسْقَيْنَاهُم مَّآءً غَدَقاً ) وقال تعالى - حكاية عن هود أنه قال لقومه : ( ويا قوم إستغفروا رَبَّكُمْ ثُمَّ توبوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السمآء عَلَيْكُمْ مِّدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إلى قُوَّتِكُمْ ) والمعنى : ( وَلَوْ أَنَّهُمْ ) أي اليهود والنصارى ( أَقَامُواْ التوراة والإنجيل ) بأن عملوا بما فيهما من أقوال تدعوهم إلى الإيمان بالدين الحق الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وتركوا تحريف الكلم عن مواضعه .ولو أنهم - أيضاً آمنوا بما ( أُنزِلَ إِلَيهِمْ مِّن رَّبِّهِمْ ) من قرآن مجيد فيه هدايتهم وسعادتهم لو أنهم ، فعلوا ذلك لأتاهم الرزق الواسع من كل ناحية ولعمهم الخير من كل جهة ولعاشوا آمنين مطمئنين .والمراد بالأكل الانتفاع مطلقاً ، وعبر عن ذلك به لكونه أعظم الانتفاعات ويستتبع سائرها .ومفعول " كلوا " محذوف لقصد التعميم ) : أو القصد إلى نفس العفل كما في قولهم : فلان يعطي ويمنع .وقوله . مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ) مدح للقلة التي تستحق المدح من أهل الكتاب وذم للكثيرين منهم الذين قبح عملهم وفسدت نفوسهم .والأمة : الجماعة من الناس الذين يجمعهم دين واحد . أو جنس واحد . أو مكان واحد .ومقتصدة من الاقتصاد وهو الاعتدال في كل شيء والمراد به هنا : السير على الطريق المستقيم الذي يوصل إلى الحق والخير ، وهو طريق الإسلام .والمعنى : من أهل الكتاب جماعة مستقيمة على طريق الحق ، وهم قلة آمنت بالنبي - صلى الله عليه وسلم إلى جوار هذه الجماعة القليلة المستقيمة عدد كبير من أهل الكتاب ساء عملهم ، وأعوج سلوكهم ، وكان من حالهم ما يثير العجب والدهشة .والمراد بهذه الأمة - المقتصدة من أهل الكتاب من دخل منهم في الإسلام واتبع ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم .وبذلك نرى هاتين الآيتين قد بشرت أهل الكتاب بالسعادة الدنيوية والأخروية متى آمنوا بالله تعالى - واتبعوا ما جاء به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم .وبعد أن حكى الله - تعالى - في الآيات السابقة ما كان عليه أعداء الإسلام - وخصوصاً اليهود - من محاولات لفتنة الرسول صلى الله عليه وسلم ومن دسائس حاكوها لعرقلة سير الدعوة الإسلامية ، ومن استهزاء بتعاليم الإسلام ومن حقد على المؤمنين لإيمانهم برسل الله وكتبه ومن سوء أدب مع خالقهم ورازقهم . بعد أن حكى - سبحانه - كل ذلك ، أتبعه بتوجيه نداء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أمره فيه بأن يمضي في تبليغ رسالته إلى - الناس دون أن يلتفت إلى مكر الماكرين ، أو حقد الحاقدين فإنه - سبحانه قد حماه وعصمه منهم فقال :( ياأيها الرسول بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ . . )

يا ايها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ان الله لا يهدي القوم الكافرين

كما فسرها الوسيط روى المفسرون في سبب نزول هذه الآيى روايات منها ما أخرجه ابن أبي حاتم عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال : لما غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى أنمار ، نزل ذات الرقاع بأعلى نخل . فبينما هو جالس على رأس بئر قد دلى رجليه ، فقال الحارث من بني النجار : لأقتلن محمدا فقال له أصحابه : كيف تقتله؟ قال : أقول له أعطني سيفك ، فإذا أعطانيه قتلته به . قال : فأتاه فقال يا محمد . أعطني سيفك أشيمه - أي أراه - فأعطاه إياه فرعدت يده حتى سقط السيف من يده : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حال الله بينك وبين ما تريد .فأنزل الله - تعالى - ( ياأيها الرسول بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ) . . الآية .قال الفخر الرازي - بعد أن ذكر عشرة أقوال في سبب نزولها - واعلم أن هذه الروايات وإن كثرت إلا أن الأولى حمل الآية على أن الله - تعالى - آمنه من مكر اليهود والنصارى ، وأمره بإظهار التبليغ من غير مبالاة منه بهم ، وذلك لأن ما قبل هذه الآية بكثير وما بعدها بكثير لما كان كلاما مع اليهود والنصارى ، امتنع إلقاء هذه الآية الواحدة على وجه تكون أجنبية عما قبلها وما بعدها .وهذا الذي قاله الإمام - الرازي هو الذي تسكن إليه النفس أي أن الآية الكريمة ساقها الله - تعالى لتثبيت النبي صلى الله عليه وسلم وتقويه قلبه وأمره بالمضي في تبليغ رسالته ، بدون خوف من أعدائه الذين حدثه عن مكرهم به وكراهتهم له ، حديثا مستفيضاً

وقد بشره - سبحانه - في هذه الآية بأنه حافظه من مكرهم وعاصمه من كيدهم
وقوله : ( بلغ ) من التبليغ بمعنى : إيصال الشيء إلى المطلوب إيصاله إليه.
: والمعنى : ( ياأيها الرسول ) الكريم المرسل إلى الناس جميعا ( بلغ ) أي.
أوصل إليهم ( مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ) أي : كل ما أنزل إلأيك
من ربك من الأوامر والنواهي والأحكام والآداب والأخبار دون أن تخشى أحداً
إلا الله . ( وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ ) ما أمرت به من إيصال وتبليغ جميع ما
أنزل إليك من ربك إلى الناس ( فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ) أي : وإن لم
، تبلغ كل ما أنزل إليك من ربك كنت كمن لم يبلغ شيئاً مما أوحاه الله إليه
لأن ترك بعض الرسالة يعتبر تركا لها كلها .وقد عبر عن هذا المعنى صاحب
الكشاف بقوله : قوله : ( وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ ) أي : وإن لم تبلغ جميعه
كما أمرتك ( فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ) أي : فلم تبلغ إذا ما كلفت به
من أداء الرسالة ، ولم تؤد منها شيئاً قط ، وذلك ن بعضها ليس بأولى بالأداء
من بعض وإن لم تؤد بعضها فكأنك أغفلت أداءها جميعاً ، كما أن من لم يؤمن
، ببعضها كان كمن لم يؤمن بكلها ، لإدلاء كل منها بما يدلي به غيرها
وكونها لذلك في حكم شيء واحد .والشيء الواحد لا يكون مبلغا غير مبلغ؛ مؤمنا
به غير مؤمن به .وفي ندائه صلى الله عليه وسلم بوصف الرسالة تشريف له
وتكريم وتمهيد لما يأمره به الله من وجوب تبليغ ما كلف بتبليغه إلى الناس
دون أن يخشى أحداً سواه .لأن الله - تعالى - هو الذي خلقه ورباه وتعهده
بالرعاية والحماية . وهو الذي اختاره لحمل هذه الرسالة دون غيره؛ فمن
- الواجب عليه صلى الله عليه وسلم أن يبلغ جميع ما أنزل إليه منه - سبحانه
قال الجمل : وقوله : ( وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ.
ظاهر هذا التركيب اتحاد الشرط والجزاء ، لأنه يؤول ظاهراً إلى وإن لم ( 
تفعل فما فعلت ، مع أنه لا بد وأن يكون الجواب مغايراً للشرط لتحصل الفائدة
ومتى اتحدا اختل الكلام .وقد أجاب عن ذلك ابن عطية بقوله أي : وإن تركت
شيئاً فقد تركت الكل وصار ما بلغته غير معتد به فصار المعنى : وإن لم تستوف
ما أمرت بتبليغه فحكمك في العصيان وعدم الامتثال حكم من لم يبلغ شيئا أصلا
وقال صاحب الانتصاف ما ملخصه : ولما كان عدم تبليغ الرسالة أمرا معلوماً.
عند الناس أنه عظيم شنيع ، ينقم على مرتكبه بل إن عدم نشر العلم من العالم
أمر فظيع ، فضلا عن كتمان الرسالة من الرسول . لما كان الأمر كذلك استغنى
عن ذكر الزيادات التي يتفاوت بها الشرط والجزاء ، للصوقها بالجزاء في
الأفهام وإن كان من سمع عدم تبليغ الرسالة فهم ما وراءه من الوعيد والتهديد
وحسن هذا الأسلوب في الكتاب العزيز يذكر الشرط عاما بقوله : ( وَإِن ،
لَّمْ تَفْعَلْ ) ولم يقل : فإن لم تبلغ الرسالة فما بلغت الرسالة ، حتى
- يكون اللفظ متغايراً ، وهذه المغايرة اللفظية - وإن كان المعنى واحداً
أحسن رونقاً ، وأظهر طلاوة من تكرار اللفظ الواحد في الشرط والجزاء ، وهذا
الفصل كاللباب من علم البيان .هذا ، ومن المعلوم الذي لاخفاء فيه عند كل
مسلم ، أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد بلغ ما أمره الله به البلاغ التام
وقام به أتم القيام دون أن يزيد شيئاً على ما كلفه به ربه أو ينقص شيئاً ،
وقد ساق ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية جملة من النصوص التي تشهد بأن.
الرسول صلى الله عليه وسلم قد امتثل أمر الله في تبليغ رسالته ، ومن ذلك ما
رواه الشيخان عن عائشة أنها قالت لمسروق : من حدثك أن محمداً صلى الله عليه
وسلم كتم شيائً مما أنزل الله عليه فقد كذب .والله يقول : ( ياأيها الرسول
بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ) . . الآية .ثم قال : ابن كثير
وقد شهدت له صلى الله عليه وسلم أمته بإبلاغ الرسالة ، واستنطقهم بذلك في :
أعظم المحافل في خطبته يوم حجة الوداع . فقد قال في خطبته يومئذ : " أيها
الناس ، إنكم مسئولون عنى فماذا أنتم قائلون؟ قالوا : نشهد أنك قد بلغت
- وأديت ونصحت " .وقوله : ( والله يَعْصِمُكَ مِنَ الناس ) وعد منه
سبحانه - بحفظ نبيه من كيد أعدائه .وقوله : ( يَعْصِمُكَ ) من العصم بمعنى
الإمساك والمنع . وأصله - كما يقول ابن جرير - من عصام القربة ، وهو ما
... تربط به من سير وخيط ومنه قول الشاعر :وقلت عليكم بمالك إن مالكا
سيعصمك إن كان في الناس عاصمأي : سيمنعكم .والمعنى : عليك يا محمد أن تبلغ
رسالة الله دون أن تخشى أحدا سواه ، والله - تعالى - بحفظك من كيد أعدائك
ويمنعك من أن تعلق نفسك بشيء من شبهاتهم واعتراضاتهم ويصون حياتك عن أن
يعتدي عليها أحد بالقتل أو الإهلاك :فالمراد بالعصمة هنا : عصمة نفسه
وجسمه صلى الله عليه وسلم من القتل أو الإهلاك ، وعصمة دعوته من أن يحول
دون نجاحها حائل . وهذا لا ينافي ما تعرض له صلى الله عليه وسلم من بأساء
وضراء وأذى بدني ، فقد رماه المشركون بالحجارة حتى سالت دماؤه ، وشج وجهه
وكسرت رباعيته في غزوة أحد .والمراد بالناس هنا : المشركون والمنافقون
واليهود ومن على شاكلتهم في الكفر والضلال والعناد ، إذ ليس في المؤمنين
الصادقين إلا كل محب لله ولرسوله .ولقد تضمنت هذه الجملة الكريمة معجزة
كبرى للرسول صلى الله عليه وسلم قد عصم الله - تعالى - حياة رسوله عن أن
يصيبها قتل أو إهلاك على أيدي الناس مهما دبروا له من مكر وكيد .لقد نجاه
من كيدهم عندما اجتمعوا لقتله في دار الندوة ليلة هجرته إلى المدينة .ونجاه
م نكيد اليهود عندما هموا بإلقاء حجر عليه وهو جالس تحت دار من دورهم

ونجاه من مكرهم عندما وضعت إحدى نسائهم السم في طعام قدم إليه صلى الله. عليه وسلم .إلى غير ذلك من الأحداث التي تعرض لها النبي صلى الله عليه وسلم من أعدائه . ولكن الله - تعالى - نجاه وهناك آثار تشهد بأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحرس من بعض أصحابه فلما نزلت هذه الآية صرفهم عن حراسته فقد أخرج الترمذي والحاكم وابن أبي حاتم وابن جرير عن عائشة قالت : كان. رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرس ليلا حتى نزلت ( والله يَعْصِمُكَ مِنَ " : الناس ) فأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه من القبة فقال لهم أيها الناس انصرفوا لقد عصمني الله " .وقوله : ( إِنَّ الله لاَ يَهْدِي القوم الكافرين ) تذييل قصد به تعليل عصمته صلى الله عليه وسلم وتثبيت قلبه أي : إن الله - تعالى -لا يهدي القوم الكافرين إلى طريق الحق بسبب عنادهم وإيثارهم الغي على الرشد . ولا يوصلهم إلى ما يريدونه من قتلك ومن القضاء على دعوتك ، بل سينصرك عليهم ويجعل العاقبة لك .

قل يا اهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والانجيل وما انزل اليكم من ربكم وليزيدن كثيرا منهم ما انزل اليك من ربك طغيانا وكفرا فلا تاس على القوم الكافرين

كما فسرها الوسيط وبعد هذا التثبيت والتكريم لنبيه . أمره - سبحانه - أن يصارح أهل الكتاب بما هم عليه من باطل وأن يدعوهم إلى اتباع الحق الذي جاء به فقال - تعالى - :( قُلْ ياأهل الكتاب لَسْتُمْ . . . )قال الآلوسي : أخرج ابن إسحاق وابن جرير وغيرهما عن ابن عباس قال : جاء جماعة من اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا محمد ألست تزعم أنك على ملة ، إبراهيم ودينه ، وتؤمن بما عندنا من التوراة ، وتشهد أنها من الله حق فقال النبي صلى الله عليه وسلم بلى ، ولكنكم أحدثتم وجحدتم ما فيها مما أخذ عليكم من الميثاق وكتمتم منها ما أمكرم أن تبينوه للناس فبرئت من أحداثكم . قالوا : فإن لم تأخذ بما في أيدينا فإنا على الحق والهدى ولا نؤمن بك ولا نتبعك فأنزل الله ( قُلْ ياأهل الكتاب لَسْتُمْ على شَيْءٍ ) الآية والمعنى : قل يا محمد لهؤلاء اليهود والنصارى الذين امتدت أيديهم إلى. كتبهم بالتغيير والتبديل . قل لهم ( قُلْ ياأهل الكتاب لَسْتُمْ على شَيْءٍ يعتدبه من الدين أو العلم أو المروءة ( حتى تُقِيمُواْ التوراة والإنجيل ( وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ ) .أي : لستم على شيء يقام له وزن من أمر الدين حتى تعملوا بما جاء في التوراة والإنجيل من أقوال تبشر برسالة محمد صلى الله عليه وسلم وحتى تؤمنوا بما أنزل إليكم من ربكم من قرآن الكريم يهدي إلى الرشد : لأنكم مخاطبون به ، ومطالبون بتنفيذ أوامره ونواهيه ، ومحاسبون حساباً عسيراً على الكفر به ، وعدم الإذعان لما اشتمل عليه .والتعبير بقوله - تعالى - ( لَسْتُمْ على شَيْءٍ ) فيه ما فيه من الاستخفاف بهم ، والتهوين من شأنهم ، أي : لستم على شيء يعتد به ألبته من أمر الدين . وذلك كما يقول القائل عن أمر من الأمور : هذا الأمر ليس بشيء يريد تحقيره وتصغير شأنه . وفي الأمثال ، أقل من لا شيء .فالجملة الكريمة تنفي عنهم أن يكون في أيديهم شيء من الحق والصواب ما داموا لم يؤمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم الذي بشرت به التوراة والإنجيل وأنزل الله عليه ) : القرآن وهو الكتاب المهيمن على الكتب السماوية السابقة .وقوله وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُمْ مَّآ أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ، طُغْيَاناً وَكُفْراً ) جملة مستأنفة مبينة لغلوهم في العناد والجحود وناعية عليهم عدم انتفاعهم بما يشفي النفوس ، ويصلح القلوب والضمير في قوله يعود إلى أهل الكتاب .أي : وإن ما أنزلناه إليك يا محمد من هدايات ( منهم ) وخيرات ليزيدن هؤلاء الضالين من أهل الكتاب طغيانا على طغيانهم . وكفراً على كفرهم؛ لأن نفوسهم لا تميل إلى الحق والخير وإنما تنحدر نحو الباطل والشر .وقوله : ( فَلاَ تَأْسَ عَلَى القوم الكافرين ) تذييل قصد به تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم والفاء للإفصاح . والأسى : الحزن . يقال : أسى فلان على كذا يأسى أسى إذا حزن .أي : إذا كان شأن الكثيرين كذلك فلا تحزن عليهم ، ولا تتأسف على القوم الكافرين؛ فإنهم هم الذين استحبوا العمى على الهدى ، وفي المؤمنين غني لك عنهم .وليس المراد نهيه صلى الله عليه وسلم عن الحزن والأسى ، لأنهما أمران طبيعيان لا قدرة للإنسان عن صرفهما ، وإنما المراد نهيه عن لوازمهما ، كالإكثار من محاولة تجديد شأن المصائب وتعظيم أمرها وبذلك تتجدد الآلام ويحزن القلب .

ان الذين امنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من امن بالله واليوم الاخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أن الناس أمامه سواء وأنه لا تفاضل بينهم إلا بالإيمان والعمل الصالح ، وأن الإيمان الحق يقطع ما قبله من عقائد زائفة . وأفعال سيئة فقال - تعالى - :( إِنَّ الذين آمَنُواْ والذين . . . )الآية الكريمة تبين أن أساس النجاة يوم القيامة هو الإيمان

بالله واليوم الآخر ، وما يستتبع ذلك من أفعال طيبة وأعمال صالحة .وقد ذكر - سبحانه - في هذه الآية أربع فوق من الناس :أما الفرقة الأولى : فهي فرقة المؤمنين ، وهم الذين عبر عنهم - سبحانه - بقوله : ( إِنَّ الذين آمَنُواْ ) أي : آمنوا إيمانا صادقا ، بأن أذعنوا للحق الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وابتعوه في كل ما جاء به .وقد ابتدأ القرآن بهم لشرفهم وعلو منزلتهم وللإشعار بأن دين الإسلام دين قائم على أساس أن الفوز برضا الله لا ينال إلا بالإيمان الصادق والعمل الصالح ، ولا فضل لأمة على أمة إلا بذلك .والفرقة الثانية : فرقة الذين هادوا . أي اليهود . يقال : هاد وتهود إذا دخل في اليهودية . وسموا يهودا نسبة إلى يهوذا أكبر أولاد يعقوب - عليه السلام - وقد قلبت الذل في كلمة يهوذا دالا في التعريب . أو - سموا حين تابوا من عبادة العجل من هاد يهود هودا بمعنى تاب ومنه قوله تعالى - ( إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ) أي : تبنا ورجعنا إليك .والفرقة الثالثة : فرقة الصائبين جمع صابئ وهو الخارج من دين إلى دين . يقال صبا الظلف والناب والنجم - منع وكرم- إذا طلع .والمراد بهم قوم يعبدون الملائكة أو الكواكب ويزعمون أنهم على دين صابئ بن شيث بن آدم ، ولا تزال بقية ، منهم تعيش في تخوم العراق ، ومن العسير الجزم بحقيقة معتقدهم ، لأنهم أكتم الناس لعقائدهم .وأما الفرقة الرابعة : فهي فرقة النصارى جمع نصران بمعنى نصراني قيل سموا بذلك لأنهم ادعوا أنهم أنصار عيسى - عليه السلام - وقيل مسوا بذلك نسبة إلى قرية الناصرة التي ظهر بها عيسى - عليه السلام - واتبعه بعض أهلها .والإيمان المشار إليه في قوله : ( مَنْ آمَنَ بالله واليوم الآخر ) يفسره بعض العلماء بالنسبة لليهود والنصارى والصابئين بمعنى صدور الإيمان منهم على النحو الذي قرره الإسلام . فمن لم تبلغه منهم دعوة الإسلام ، وكان ينتمي إلى دين صحيح في أصله بحيث يؤمن بالله واليوم الآخر ويقوم بالعمل الصالح على الوجه الذي يرشده إليه دينه ، فله أجره على ذلك عند ربه .أما الذين بلغتهم دعوة الإسلام من تلك الفرق ولكنهم لم يقبلوها؛ فإنهم لا يكونون ناجين من عذاب الله مهما ادعوا أنهم يؤمنون بغيرها؛ لأن شريعة الإسلام قد نسخت ما قبلها ، والرسول صلى الله عليه وسلم قال : " لو كان موسى حيا ما وسعه إلا اتباعي " .ويفسرونه - أي الإيمان المشار إليه سابقا - بالنسبة للمؤمنين الذين عبر الله عنهم بقوله : ( إِنَّ الذين آمَنُواْ ) على أنه بمعنى الثبات والدوام والإذعان ، وبذلك ينتظم عطف قوله - تعالى - ( وعَمِلَ صَالِحاً ) على قوله ( آمَنَ ) مع مشاركته هؤلاء المؤمنين لتلك الفرق إيمانا بالنبي صلى الله عليه وسلم وبما جاء به من عند ربه .قالوا : لأن مقتضى المقام هو الترغيب في دين الإسلام ، وأما بيان من ماضى على دين آخر قبل نسخه فلا ملابسة له بالمقام ، فضلا عن أن الصابئين ليس لهم دين تجوز رعايته في وقت من الأوقات .وقوله : ( فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُون ) بيان الحسن عاقبتهم ، وجزيل ثوابهم .أي فلا خوف عليهم من أهوال يوم القيامة بل هم في مأمن منها ، ولا هم يحزنون : على ما مضى من أعمارهم لأنهم أنفقوها في العمل الصالح .هذا وقد قرأ جمهور القراء ( والصابئون ) بالرفع . وقرأ ابن كثير بالنصب .وقد ذكر النحويون وجوها من الإعراب لتخريج قراءة الرفع التي قرأها الرفع التي قرأها ) : الأكثرون ، ولعل خير هذه الوجوه ما ذكره الشيخ الجمل في قوله : وقوله : إِنَّ الذين آمَنُواْ ) أي : إيمانا حقا لا نفاقا . وخبر إن محذوف تقديره فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . دل عليه المذكور ، وقوله : ( والذين هَادُواْ ) مبتدأ . فالواو لعطف الجمل أو للاستئناف وقوله ( والصابئون والنصارى ) عطف على هذا المبتدأ . وقوله ( فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ) . خبر عن هذه المبتدآت الثلاثة . وقوله : ( مَنْ آمَنَ بالله واليوم الآخر ) بدل من كل منها بدل بعض من كل فهو مخصص . فكأنه قال : الذين آمنوا من اليهود والنصارى ومن الصابئين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . فالأخبار عن اليهود ومن بعدهم بما ذكر مشروط بالإيمان لا مطلقا .وقد ذكر صاحب الكشاف وجها آخر فقال : قوله : ( والصابئون ) رفع على الابتداء وخبره محذوف . والنية به التأخير عما في حيز ( إن ) من اسمها وخبرها . كأنه قيل : إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى حكمهم كذا . والصابئون كذلك .ثم قال : فإن قلت ما التأخير والتقديم إلا لفائدة فما فائدة هذا التقديم؟قلت : فائدته التنبيه على أن الصابئين يتاب عليهم إن صح منهم الإيمان والعمل الصالح فما الظن بغيرهم؟ وذلك لأن الصابئين أبين هؤلاء المعدودين ضلالا وأشدهم غيا ، وما سموا صابئين إلا لأنهم صبأوا عن الأديان كلها أي : خرجوا .والخلاصة ، أن الآية الكريمة مسوقة للترغيب في الإيمان والعمل الصالح ببيان أن كل من آمن بالله واليوم الآخر ، واتبع ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم واستمر على - هذا الإيمان وهذا الاتباع إلى أن فارق هذه الحياة ، فإن الله - تعالى يرضى عنه ويثيبه ثوابا حسنا ، ويتجاوز عما فرط منه من ذنوب ، لأن الإيمان الصادق يجب ما قبله ، من عقائد زائفة ، وأعمال باطلة وأقوال فاسدة .وبعد أن فتح - سبحانه - باب الإيمان أمام أهل الكتاب وغيرهم لكي يدخلوه فينالوا رضاه ومثوبته . عقب ذلك باستئناف الحديث من أنواع أخرى من الرذائل التي عرفت عن بني إسرائيل فقال - تعالى - :( لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بني

( . . . إِسْرَائِيلَ

لقد اخذنا ميثاق بني اسرائيل وارسلنا اليهم رسلا كلما جاءهم رسول بما لا تهوى انفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون

كما فسرها الوسيط المراد بالميثاق في قوله : ( لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بني إِسْرَائِيلَ ) : العهد الموثق الذي أخذه الله عليهم بواسطة أنبيائهم بأن يؤدوا ما كلفهم به من تكاليف وأن يتبعوا النبي صلى الله عليه وسلم عند ظهوره .وقد أكد الله هذا الميثاق الذي أخذه عليهم بلام القسم وبقد المفيدة للتحقيق أي : بالله لقد أخذنا الميثاق على بني إسرائيل بأن يعبدوني ولا يشركون بي شيئاً ، وبأن ينفذوا ما كلفتهم به من المأمورات والمنهيات والشرائع والأحكام .وقوله ( وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلاً ) معطوف على : والتنكير في قوله : ( رُسُلاً ) للتكثير والتعظيم .أي ( أَخَذْنَا ) أخذنا العهد المؤكد عليهم بأن يسيروا على الطريق المستقيم ، وأرسلنا إليهم ، رسلا ذوي عدد كثير ، وألوى شأن خطير ، لكي يتعهدوهم بالتبشير والانذار - ولكي يرشدوهم إلى ما يأتون وما يذرون من أمور دينهم .فأنت ترى أن الله تعالى - مع أخذه الميثاق عليهم لم يتركهم هملا ، بل أرسل إليهم الرسل ليعينوهم على تنفيذ ما جاء به .ولم يذكر - سبحانه - هنا موضوع هذا الميثاق اكتفاء بذكره في مواطن أخرى كثيرة . ومن ذلك قوله - تعالى - قبل ذلك في ، هذه السورة .( وَلَقَدْ أَخَذَ الله مِيثَاقَ بني إِسْرَآئِيلَ وَبَعَثْنَا مِنهُمُ اثني عَشَرَ نَقِيباً وَقَالَ الله إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصلاة وَآتَيْتُمُ الزكاة وَآمَنتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ الله قَرْضاً حَسَناً ) الآية .وقوله : ( كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تهوى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُواْ وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ ) بيان لموقفهم الذميم من الميثاق الذي أخذ عليهم ومن الرسل الكرام الذين أرسلهم الله لهدايتهم وسعادتهم .أي : أخذنا الميثاق المؤكد عليهم ، وأرسلنا إليهم رسلا كثيرين لهدايتهم ولكنهم نقضوا الميثاق ، وعصوا الرسل ، فكانوا ( كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌ ) لما لا تشتيه نفوسهم الشقية ، وبما لا تميل إليه قلوبهم الردية ، ناصبوه العداء؛ فكذبوا بعض الرسل ، ولم يكتفوا مع البعض الآخر بالتكذيب بل أضافوا إليه القتل .ولقد كذب اليهود جميع الرسل الذين جاءوا لهدايتهم ولم يؤمن بهم إلا قلة منهم . وقتلوا من بين من قتلوا من الرسل بعد أن كذبهم : زكريا ويحيى ، وحاولوا قتل عيسى - عليه السلام - كما حاولوا قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أن الله - تعالى - نجاهما من مكرهم وكيدهم .قال صاحب الكشاف : وقوله : ( كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌ ) جملة شرطية وقعت صفة لقوله : ( رُسُلاً ) والرابط محذوف : أي : رسول منهم ( بِمَا لاَ تهوى أَنْفُسُهُمْ ) أي بما يخالف هواهم ويضاد شهواتهم .فإن قلت : أين جواب الشرط قلت : هو محذوف يدل عليه ( فَرِيقاً كَذَّبُواْ وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ ) فكأنه قيل : كلما جاءهم رسول منهم ناصبوه .والتعبير بقوله : ( كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تهوى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُواْ وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ ) يدل على أن حال بني إسرائيل بالنسبة للرسل يدور بين أمرين أما التكذيب لهم ، والاستهانة بتعاليمهم وإما أن يجمعوا مع التكذيب قتلهم وإزهاق أرواحهم الشريفة .فكأن التكذيب والقتل قد صار سجيتين لهم لا تتخلفان في أي زمان ومع أي رسول ، وذلك لأن لفظ " كل " يدل على العموم . " وما " مصدرية ظرفية دالة على الزمان ، فكأنه - سبحانه - يقولك في كل أوقات مجيء الرسل إليهم كذبوا ويقتلون دون أن يفرقوا بين رسول ورسول أو بين زمان وزمان .وقال - سبحانه - ( بِمَا لاَ تهوى أَنْفُسُهُمْ ) للمبالغة في ذمهم ، إذ هوى النفس ميلها في الغالب إلى الشهوات التي لا تنبغي ، والرسل ما أرسلهم الله - تعالى - إلا الهداية الأنفس ، وكفها عن شهواتها التي يؤدي الوقوع فيها إلى المفاسد .وبنو إسرائيل لا يكذبون الرسل ويقتلونهم إلا لأنهم جاءهم بما يخالف هواهم ، ويتعارض مع أنانيتهم وشرهم ، ومطامعهم الباطلة .وهكذا الأمم عندما تفسد عقولها؛ وتسيطر عليها الأطماع والشهوات ، ترى الحسن قبيحا ، وتحارب من يهيدها إلى الرشاد حتى لكأنه عدو لها .وقدم - سبحانه - المفعول به في قوله ( فَرِيقاً كَذَّبُواْ وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ ) للاهتمام بتفصيل أحوال بني إسرائيل السيئة ، وبيان ما لقيه الرسل الكرام منهم .وعبر عن التكذيب بالفعل الماضي فقال : ( فَرِيقاً كَذَّبُواْ ) وعن القتل بالفعل المضارع فقال : ( وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ ) لحكاية الحال الماضية التي صدرت من أسلافهم بتصوير ما حصل في الماضي كأنه حاصل وقت التكلم ، ولاستحضار جريمتهم البشعة في النفوس حتى لكأنها واقعة في الحال ، وفي ذلك ما فيه من النعي عليهم . والتوبيخ لهم والتعجيب من أحوالهم التي بلغت نهاية الشناعة والقبح .

وحسبوا الا تكون فتنة فعموا وصموا ثم تاب الله عليهم ثم عموا وصموا كثير منهم والله بصير بما يعملون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أنهم مع ما فعلوه مع رسلهم من التكذيب والقتل لم ينزجروا ، ولم يندموا . . . بلغ بهم الغرور والسفه أنهم - ظنوا أن ما فعلوه شيئاً هينا وأنه لن يكون له أثر سيء في حياتهم . فقال تعالى - ( وحسبوا ألاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ الله عَلَيْهِمْ ثُمّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ والله بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ) .وقوله : ( وحسبوا ) معطوف على قوله كَذّبُواْ ) وهو من الحسبان بمعنى الظن : وقوله : ( فِتْنَةٌ ) من الفتن وهو إدخال الذهب في النار لتظهر جودته . والمراد بها هنا : الشدائد والمحن والمصائب التي تنزل بالناس .والمعنى إن بني إسرائيل قد أخذنا عليهم العهد المؤكد ، وأرسلنا إليهم الرسل لهدايتهم ، فكان حالهم أنهم كذبوا بعض الرسل وقتلوا البعض الآخر . ولم يكتفوا بهذا بل ظنوا - لسوء أعمالهم وفساد قلوبهم واستيلاء الغرور والتكبر على نفوسهم - أنهم لن يصيبهم بلاء ولا عقاب بتكذيبهم للرسل وقتلهم لهم فأمنوا عقاب الله وتمادوا في فنون البغي والفساد وعموا وصموا عن دلائل الهدى والرشاد التي جاء بها الرسل واشتملت عليها الكتب السماوية ( ثُمّ تَابَ الله عَلَيْهِمْ ) أي : قبل توبتهم بعد أن رجعوا عما كانوا عليه من فساد ( ثُمّ عَمُواْ وَصَمُّواْ ) أي : ثم نكسوا على رءوسهم مرة أخرى فعادوا إلى فسادهم وضلالهم وعدوانهم على هداتهم ، إلا عددا قليلا منهم بقي على إيمانه وتوبته فأنت ترى أن الآية الكريمة مسوقة لبيان فساد معتقدات بني إسرائيل وما جبلت عليه نفوسهم من جحود وغرور .حيث ارتكبوا ما ارتكبوا من جرائم ومنكرات تقشعر لها الأبدان ومع كل ذلك حسبوا أن الله - تعالى -لا يعاقبهم عليها ، لأنهم - كما يزعمون - أبناء الله وأحباؤه . ثم إنهم بعد أن تاب الله عليهم نقضوا عهودهم معه وعادوا إلى أعمالهم عن الدين الذي جاءتهم به رسلهم وإلى صممهم عن الاستماع إلى الحق الذي ألقوه إليهم .وقوله : ( ألاَّ تَكُونَ ) قراءة أبو عمر والكسائي وحمزة بضم النون على إعتبار " أن " هي المخففة من الثقيلة ، وأصله أنه لا تكون فتنة . فخفف ( أن ) وحذف ضمير الشأن - وهو اسمها - وحسبوا على هذه القراءة بمعنى علموا .وتعليق فعل الحسبان بها وهي للتحقيق لتنزيله منزلة " العلم لتمكنه في قلوبهم .وقراءة الباقون بفتح النون على اعتبار أن " أن ناصبة لتكون . وحسب على هذه القراءة على بابها من الشك والظن .وسد مسد مفعولي حسب على القراءتين ما اشتمل عليه الكلام من المسند والمسند إليه وهو وما في حيزها .وقوله ( فعموا ) معطوف على ( حسبوا ) وجيء بالفاء ( أن ) التي للسببية للدلالة على ترتيب ما بعدها على ما قبلها .أي أن عماهم عن الطريق القويم وصمم عن سماع الحق كان سببه ظنهم الفاسد ، واعتقادهم الباطل أن ما ارتكبوه من قبائح لن يعاقبوا عليه في الدنيا .ومن بديع إيجاز القرآن الكريم أوما إلى عدم اهتمامهم بمصيرهم في الآخرة ببيان أن ظنهم لن تنزلبهم مصائب في الدنيا بسبب مفاسدهم ، هذا الظن هو الذي جعلهم يرتكبون ما يرتكبون من قبائح . . أما الآخرة فلا مكان لها في تفكيرهم ، لأنهم قوم تعساء يحرصون على الدنيا حرصا شديداً دون أن يعيروا الآخرة وما فيها من حساب وثواب وعقاب أي اهتمام .وهذا شأن الأمم إذا ما استحوذ عليها الشيطان وتغلب عليها حب الشهوات وضعف الوازع الديني في نفوس أفرادها . إنهم في هذه الحالة يصير همهم مقصوراً على تدبير شئون دنياهم ، فإذا ما وجدوا فيها مأكلهم وشربهم وملذاتهم اغمضوا أعينهم عن آخرتهم ، بل وربما استهانوا وتهكموا بمن يذكرهم بها فتكون نتيجة إيثارهم الدنيا على الآخرة الشقاء والتعاسة .وجيء بحرف العطف ( ثم ) المفيد للتراخي في قوله ( ثُمّ تَابَ الله عَلَيْهِمْ ) للإشارة إلى أن قبول توبتهم كان بعد مفاسد عظيمة وقعت منهم أي : ثم تاب الله عليهم بعد أن كان منهم ما كان من منكرات وجرائم وإعرا عن الرشد والهدى ، وقوله ( ثُمّ عَمُواْ وَصَمُّواْ ) بيان لنقضهم لعهودهم مع الله. وارتكاسهم في الذنوب والخطايا والمنكرات . ارتكاسا شديد بحيث صاروا ليسوا أهلا لقبول التوبة منهم بعد ذلك .أي : بعد أن قبل الله توبتهم من جرائمهم المنكرة . عادوا إلى الانتكاس مرة أخرى فوقعوا في الذنوب والجرائم بإصرار وعناد فأصابهم ما أصابهم من عقوبات لم يتب الله عليهم بعدها .وقوله ( كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ) بدل من الضمير في قوله ( عَمُواْ وَصَمُّواْ ) وهذا الإبدال في غاية الحسن . لأنه لو قال ( عَمُواْ وَصَمُّواْ ) بدون هذا البدل لأوهم ذلك أنهم جميعا صاروا كذلك فلما قال ( كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ) دل على أن العمى والصمم قد حدث للكثيرين منهم ، وهناك قلة منهم لم تنقض عهودها مع الله - تعالى - بل بقيت على إيمانها وصدق توبتها .وهذا - كما قلنا مرارا - من إنصاف القرآن للناس في أحكامه ، وقدته في ألفاظه ، واحتراسه فيما يصدر من أحكامه .وقوله : ( والله بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُون ) تذييل قصد به بطلان حسبانهم المذكور ، والبصير مبالغة في المبصر وهو هنا بمعنى العليم بكل ما يكون منهم من أعمال سواء أبصرها الناس أم لم يبصروها والمقصود من هذا الخبر لازم معناه ، وهو الإنذار والتذكير بأن الله لا يخفى عليه شيء . وسيحاسبهم على أعمالهم .أي : والله - تعالى - عليم بما يعملونه علم من يبصر كل شيء دون أن تخفى عليه خافية ، والصمم الذي أصابهم

بعد ذلك و قد أجمل الإمام الرازي كلامهم فقال :والآية تدل على أن عماهم وصممهم عن الهداية إلى الحق حصل مرتين . واختلف المفسرون في المراد بهايتن المرتين على وجوه :الأول : المراد أنهم عموا وصموا في زمان زكريا ويحيى وعيسى - عليهم السلام - ثم تاب الله على بعضهم حيث وفق بعضهم للإيمان : ثم ، عموا وصموا كثير منهم في زمان محمد صلى الله عليه وسلم بأن أنكروا نبوته وقلة منهم هي التي آمنت به .الثاني : المراد أنهم عموا وصموا حيث عبدوا العجل ، ثم تابوا عنه فتاب الله عليهم ، ثم عموا وصموا كثير منهم بالتعنت وهو طلبهم رؤية الله جهرة .الثالث : قال القفال : ذكر الله - تعالى - في سورة الإسراء ما يجوز أن يكون تفسيرا لهذه الآية فقال : (وَقَضَيْنَآ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الكتاب لَتُفْسِدُنَّ فِي الأرض مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً ) والذي نراه أن تحديد عماهم وصممهم وتوبتهم بزمان معين أو بجريمة أو جرائم معينة تابوا بعدها هذا التحديد غير مقنع .ولعل أحسن منه أن نقول : إن القرآن الكريم يصور ما عليه بنو إسرائيل من صفات ذميمة ، وطبائع معوجة ، ومن نقض للعهود والمواثيق . فهم أخذ الله عليهم العهود فنقضوها ، وأرسل إليهم الرسل فاعتدوا عليهم وظنوا أن عدوانهم هذا شيء هين ولن يصيبهم بسببه عقاب دنيوي ، فلما أصابهم العقاب الدنيوي كالقحط والوباء والهزائم . بسبب مفاسدهم ، تابوا إلى الله فقبل الله توبتهم ورفع عنهم عقابه ، فعادوا إلى عماهم وصممهم - إلا قليلا منهم - ، وارتكبوا ما ارتكبوا من منكرات بتصميم وتكرار فأصابهم - سبحانه - بفتن لم يتب عليهم منها . ( وَمَا كَانَ الله لِيَظْلِمَهُمْ ولكن كانوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ) وبعد أن بين - سبحانه - أنماطا من قبائح اليهود ومن صفاتهم الذميمة شرع في بيان قبائح النصارى وضلالاتهم وأرشدهم إلى طريق الحق والصواب ، وحذرهم من السير في طريق الغواية والعناد فقال - تعالى :( لَقَدْ كَفَرَ الذين قالوا إِنَّ . . . )

لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بني اسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة وماواه النار وما للظالمين من انصار

كما فسرها الوسيط قال الفخر الرازي : اعلم أنه - تعالى - لما استقصى الكلام مع اليهود ، شرع ههنا في الكلام مع النصارى ، فحكى عن فريق منهم أنهم قالوا إن الله هو المسيح بن مريم .وهذا هو قول اليعقوبية؛ لأنهم يقولون : إن : مريم ولدت إلها ، ولعل معنى هذا المذهب أنهم يقولون : إن الله - تعالى - حل في ذات عيسى واتحد بذات عيسى .واللام في قوله : ( لَقَدْ كَفَرَ ) واقعة جواباً لقسم مقدر .والمراد بالكفر : ستر الحق وإنكاره والانغماس في الباطل والضلال .أي : اقسم لقد كفر أولئك النصارى الذين قالوا كذبا وزورا : إن - الله المستحق للعبادة والخضوع هو المسيح ابن مريم .وقد أكد - سبحانه كفرهم بالقسم المقدر؛ لأنهم غالوا في إطراء عيسى وفي وضعه في غير موضعه كما - غالت اليهود في الكفر به وفي وصفه بالأوصاف التي هو برئ منها .ثم حكى سبحانه - ما قاله عيسى في الرد على من جعلوه إلها فقال : ( وَقَالَ المسيح يابني إِسْرَائِيلَ اعبدوا الله رَبِّي وَرَبَّكُمْ ) .أي : وقال المسيح مكذبا لمن وصفه بالألوهية : يا بني إسرائيل اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به - شيئاً ، فهو ربي الذي خلقني وتهدني بالتربية والرعاية ، وهو ربكم - أيضاً الذي أنشأكم وأوجدكم ورزقكم من الطيبات .والواو في قوله : ( وَقَالَ المسيح للحال . والجملة حالية من الواو التي هي فاعل ( قالوا ) .أي : قالوا ما ( قالوا ، والحال أن عيسى قد تبرأ مما قالوه . وقال لبني إسرائيل حين إرساله إليهم : اعبدوا الله ربي وربكم .وقوله : ( رَبِّي وَرَبَّكُمْ ) تنبيه إلى ما هو الحجة القاطعة على فساد قولهم المذكور؛ لأن عيسى لم يفرق بينه وبين غيره في العبودية لله - تعالى - لأنه - سبحانه - هو الخلاق له ولهم وللكل شيء .ثم حكى - سبحانه - ما قاله عيسى محذراً من الإشراك فقال : ( إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بالله فَقَدْ حَرَّمَ الله عَلَيهِ الجنة وَمَأْوَاهُ النار وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أنصَارٍ ) .وهذه الجملة تعليل للأمر بعبادة الله وحده . والضمير المقترن بإن ضمير الشأن والمراد بتحريم الجنة على المشرك : منعه من دخولها ، لإشراكه مع الله آلهة أخرى .والمأوى : المكان الذي يأوى إليه الإنسان . أي يرجع إليه ويستقر فيه .أي : قال المسيح لبني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم ، لأنه أي الحال والشأن ( مَن يُشْرِكْ بالله ) شيئاً في عبادته - سبحانه - ( فَقَدْ حَرَّمَ الله عَلَيهِ الجنة ) : أي : منعه من دخولها ، بسبب شركه وكفره ، وجعل ( وَمَأْوَاهُ النار ) أي جعل مستقره ومكانه النار بدل الجنة ( وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أنصَارٍ ) ينصرونهم بأن ينقذوهم مما هم فيه من بلاء وشقاء مقيم .فالجملة الكريمة تحذير شديد من الإشراك بالله ، وبيان لما سيؤول إليه حال المشركين من تعاسة وشقاء .وجمع - سبحانه - بين العقوبة السلبية للمشركين وهي حرمانهم من الجنة وبين العقوبة الإيجابية وهي استقرارهم في النار ، للإشارة إلى عظيم جرمهم حيث أشركوا بالله ، وتقولوا عليه الأقاويل الباطلة التي تدل على

جهلهم وسفاهتهم .والمراد بالظالمين : المشركون الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم فتكون ال للعهد .ويجوز أن يراد بهم كل ظالم بسبب إشراكه ) - وكفره ويدخل فيه هؤلاء دخولا أوليا فتكون أل للجنس .وقال - سبحانه " وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ) بصيغة الجمع لكلمة " أنصار وبالتأكيد بمن المفيدة للاستغراق ، للإيذان بأنه إذا كان الظالمون لن يستطيع الأنصار مجتمعين أن ينصروهم فمن باب أولى لن يستطيع واحد أن ينصرهم أي : ما لهم من أحد كائنا من كان أن ينقذهم من عقاب الله بأي طريقة من. الطرق .وهذه الجملة الكريمة يحتمل أن تكون من كلام عيسى الذي حكاه الله عنه - كما سبق أن ذكرنا - ويحتمل أن تكون من كالم الله - تعالى - وقد ساقها - سبحانه - لتأكيد ما قاله المسيح من أمره لقومه بعبادة الله وحده ولتقرير مضمونه المفيد للتحذير من الإشراك .

لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة وما من اله الا اله واحد وان لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب اليم

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - ( لَّقَدْ كَفَرَ الذين قالوا إِنَّ الله ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ ) بيان لما قالته طائفة أخرى من طوائف النصارى الذين ، يتفرقون في العقائد والنحل ، ويتجمعون على الكفر والضلال ، فهم شيع شتى وفرق متنابذة ، كل شيعة منهم تكفر الأخرى وتعارضها في معتقداتها .قال الفخر الرازي ما ملخصه : في تفسير قول النصارى ( إِنَّ الله ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ ) طريقان : .الأول : أنهم أرادوا بذلك أن الله مريم وعيسى آلهة ثلاثة . والذي يؤكد ذلك قوله - تعالى - للمسيح ( أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتخذوني وَأُمِّيَ إلهين مِن دُونِ الله ) فقوله : ( ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ ) أي : أحد ثلاثة آلهة . أو واحد من ثلاثة آلهة .والطريق الثاني : أن المتكلمين حكوا عن النصارى أنهم يقولون : جوهر واحد ، ثلاثة أانيم : أب ، وابن وروح القدس . وهذه الثلاثة إله واحد ، كما أن الشمس اسم يتناول القرص والشعاع والحرارة وعنوا بالأب الذات . وبالابن الكلمة .وبالروح الحياة . وأثبتوا الذات والكلمة والحياة وقالوا : إن الكلمة التي هي كلام الله اختلطت بجسد عيسى اخلتاط الماء بالخمر أو اللبن فزعموا أن الأب إله ، والابن إله ، والروح إله ، والكل إله واحد .ثم قال الإمام الرازي : واعلم أن هذا معلوم البطلان ببديهة العقل . فإن الثلاثة لا تكون واحداً والواحد لا يكون ثلاثة ، ولا يرى في الدنيا مقالة أشد فساداً وأظهر بطلانا من مقالة النصارى .وقد ذكر بعض المفسرين أن الذين قالوا من النصارى إن الله ثالث ثلاثة هم النسطورية والمرقوسية .ومعنى ثالث ثلاثة : واحد من ثلاثة . أي : أحد هذه الأعداد مطلقا وليس الوصف بالثالث فقد ذكر النحاة أن اسم الفعل المصوغ من لفظ اثنين وشعرة وما بينهما لك أن تستعمله على وجوه منها : أن تستعمله مع أصله الذي صيغ هو منه ، ليفيد أن الموصوف به بعض تلك العدة المعينة لا غير .فتقول : رابع أربعة أي : واحد من أربعة وليس زائداً عليها ، ويجب حينئذ إضافته إلى أصله .وقوله : ( وَمَا مِنْ إله إِلاَّ إله وَاحِدٌ ) بيان للاعتقاد الحق بعد ذكر الاعتقاد الباطل .وقد جاءت هذه الجملة بأقوى أساليب القصر وهو اشتمالها على " ما " و " إلا " . مع تأكيد النفي بمن المفيدة لاستغراق النفي .والمعنى : لقد كفر الذين قالوا كذبا وزورا إن الله واحد من آلهة ثلاثة ، والحق أنه ليس في هذا الوجود إله مستحق للعبادة والخضوع سوى إله واحد وهو الله رب العالمين ، الذي خلق الخلق بقدرته ، ورباهم بنعمته . وإليه وحده مرجعهم وإيابهم .ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة هؤلاء الضالين الذين قالوا ما قالوا من ضلال وكذب فقال - تعالى - : ( وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الذين كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ) .وهذه الجملة الكريمة معطوفة على قوله : ( لَّقَدْ كَفَرَ ) - والمراد بانتهائهم : رجوعهم عما هم عليه من ضلال وكفر .والمراد بقوله ( عَمَّا يَقُولُونَ ) : أي عما يعتقدون وينطقون به من زور وبهتان .أي : لقد كفر أولئك الذين قلوا إن الله ثالث ثلاثة كفراً شديداص بينا والحق أنه ليس في الوجود سوى إله واحد مستحق للعبادة ، وإن لم يرجع هؤلاء الذين قالو ) بالتثليث عن عقائدهم الزائفة وأقوالهم الفاسدة ويعتصموا بعروة التوحيد لَيَمَسَّنَّ الذين كَفَرُواْ ) أي : ليصيبن الذين استمروا على الكفر منهم عذاب أليم .فالجملة الكريمة تحذير من الله - تعالى - لهم عن الاستمرار في ، هذا القول الكاذب .والاعقتاد الفاسد الذي يتنافى مع العقول السليمة والأفكار القويمة .وقوله : ( لَيَمَسَّنَّ ) جواب لقسم محذوف ، وهو ساد مسد جواب الشرط المحذوف في قوله ( وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ ) والتقدير : والله ) إن لم ينتهوا ليمسن .وأكد - سبحانه - وعيدهم بلام القسم في قوله لَيَمَسَّنَّ ) رداً على اعتقادهم أنهم لا تمسهم النار ، لأن صلب عيسى - في زعمهم - كان كفارة عن خطايا البشر .وعبر بالمس للإشارة إلى شدة ما يصيبهم من آلام : لأن المراد أن هذا العذاب الأليم يصيب جلدهم وهو موضع الإحساس فيهم إصابة مستمرة ، كما قال - تعالى - في آية أخرى : ( كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ العذاب )

وقال - سبحانه - ( لَيَمَسّنّ الذين كَفَرُواْ ) بالتعبير بالظاهر دون الضمير للإشارة إلى سبب العذاب وهو كفرهم؛ لأن التعبير بالموصول يشير إلى أن الصلة هي سبب الحكم .ومن في قوله ( منهم ) يصح أن تكون تبعيضية أي : ليمسن الذين استمروا على الكفر من هؤلاء النصارى عذاب أليم ، لأن كثيرا منهم لم يستمروا على الكفر بل رجعوا عنه ودخولا في دين الإسلام .ويصح أن تكون بيانية ، وقد وضح ذلك صاحب الكشاف بقوله : ومن في قوله ( لَيَمَسّنّ الذين كَفَرُواْ مِنْهُمْ ) للبيان كالتي في قوله ( فاجتنبوا الرجس مِنَ الأوثان ) والمعنى : ليمسن الذين كفروا من النصارى خاصة عَذَابٌ أَلِيمٌ ) أي نوع شديد الألم من العذاب . . كما تقول : أعطني عشرين من الثياب . تريد من الثياب خاصة لا من غيرها من الأجناس التي يجوز أن يتناولها عشرون .

افلا يتوبون الى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم

كما فسرها الوسيط وبعد هذا الترهيب الشديد للكافرين من العذاب الأليم ، فتح لهم - سبحانه - باب رحمته ، حيث رغبهم في الإيمان ، وأنكر عليهم تقاعسهم عنه بعد أن ثبت بطلان ما هم عليه من عقائد فقال - تعالى - : ( أَفَلاَ يَتُوبُونَ إلى الله وَيَسْتَغْفِرُونَهُ والله غَفُورٌ رّحِيمٌ ) والاستفهام هنا يتضمن حضهم على التوبة والرجوع إلى الحق وتوبيخهم على ما كان منهم من ضلال والتعجيب من استمرارهم على كفرهم وعقائدهم الفاسدة التي لا يقبلها عقل سليم ، ولا تصور قويم .والفاء للعطاف على مقدر يقتضيه الكلام أي : أيسمعون ما يسمعون من الحق الذي يزهق باطلهم ومن النذر التي ترقق القلوب لا يحملهم ذلك على التوبة والرجوع إلى الله وطلب مغفرته ، والحال أنه - سبحانه - عظيم المغفرة واسع الرحمة لمن آمن وعمل صالحا .إن إصرارهم على كفرهم بعد تفنيده وإبطاله ، وبعد تحذيرهم من سوء عاقبة الكافرين ليلد على أنهم قوم اضلون خاسرون يستحقون أن يكونوا محل عجب الناس وإهمالهم .قال أبو السعود : وقوله ( والله غَفُورٌ رّحِيمٌ ) جملة حالية من فاعل ( وَيَسْتَغْفِرُونَهُ ) مؤكدة للإنكار والتعجيب من إصرارهم على الكفر وعدم مسارعتهم إلى الاستغفار .أي : والحال أن الله : - تعالى - مبالغ في المغفرة - فيغفر لهم عند استغفارهم ويمنحهم من فضله .وقال ابن كثير : هذا من كرمه - تعالى - وجوده ولطفه ورحمته بخلقه . مع هذا الذنب العظيم ، وهذا الافتراء والكذب والإفك ، يدعوهم إلى التوبة والمغفرة . فكل من تاب إليه تاب عليه . كما قال ( والله غَفُورٌ رّحِيمٌ ) فيغفر لهؤلاء إن تاوبا ولغيرهم .

ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل وامه صديقة كانا ياكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الايات ثم انظر انى يؤفكون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - حقيقة عيسى عليه السلام - وحقيقة أمه مريم حتى يزيل عن ساحتهما ما افتراه عليهما المفترون فقال - تعالى - ( مّا المسيح ابن مَرْيَمَ إِلاّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرسل وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطعام ) .وقوله ( صديقة ) صيغة مبالغة في التمسك بفضيلة الصدق مثل شريب ومسيك مبالغة في الشرب والمسك .قال : الراغب : والصديق من كثير منه الصدق ، وقيل : بل يقال لمن لم يكذب قط وقيل : بل لمن لا يأتي منه الكذب لتعوده الصدق . وقيل ، لمن صدق بقوله واعتقاده وحقق صدقه بفعله . . قال - تعالى - ( فأولئك مَعَ الذين أَنْعَمَ الله عَلَيْهِم مِّنَ النبيين والصديقين والشهداء والصالحين )فالصديقون هم قوم دون الأنبياء في الفضيلة .والمعنى : إن الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة قد قالوا منكرا وزورا ، إذ ليس الألوهية إلا لله وحده لوليس المسيح عيسابن مريم سوى بشر من البشر ورسول مثل الرسل الذين سبقوه كنوح وإبراهيم وموسى وغيرهم من الرسل الذين مضوا دون أن يدعي واحد منهم الألوهية . وأما أم عيسى مريم فما هي إلا أمة من إماء الله كسائر النساء ديدنها الصدق مع خالقها - عز وجل - أو التصديق له في سائر أمورها . وهما - أي عيسى وأمه مريم - عبدان من عباد الله كانا يأكلان الطعام ، ويشربان الشراب ويتصرفان كما يتصرف سائر البشر فكيف ساغ لكم - يا معشر النصارى - أن تصفوهما بأنهما إلهين مع أن طبيعتهما الظاهرة أمامكم تتنافى تنافيا تاما مع صفات الأولوهية ، إن وصفكم لهما بالألوهية لدليل واضح على فساد عقولكم وضلال تفكيركم : وعظيم جهلكم .وقوله ( مّا المسيح ابن مَرْيَمَ إِلاّ رَسُولٌ ) جملة مشتملة على قصر موصوف على صفة ، وهو قصر إضافي ، أي أن المسيح مقصور على صفة الرسالة لا يتجاوزها إلى غيرها وهي الألوهية فالقصر قصر قلب لرد اعتقاد النصارى في عيسى أنه الله ، أو أنه جزء من الله أو أنه أحد آلهة ثلاثة وقوله : ( قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرسل ) صفة للرسول وهو عيسى أريد بها بيان أنه مساو للرسل الكرام الذين سبقوه في تبليغ رسالة الله إلى الناس؛ وأنهه ليس بدعا في هذا الوصف وإذا فلا شبهة للذين زعموا أنه إله " لأنه لم يجيء بشيء زائد على ما جاء به الرسل " .وقوله . ( وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ )

معطوف على قوله : ( مّا المسيح ابن مَرْيَمَ إِلاّ رَسُولٌ ) والقصد من ، وصف مريم بذلك مدحها والثناء عليها ، ونفي أن يكون لها وصف أعلى من ذلك فهي ليست إلها . كما أنها ليست رسولا .ولذا قال ابن كثير : دلت الآية على أن مريم ليست بنبية - كما زعمه ابن حزم وغيره ممن ذهب إلى نبوة سارة أم إسحاق وبنوة أم عيسى ونبوة أم موسى - استدلالا منهم بخطاب الملائكة لسارة ومريم وبقوله : ( وَأَوْحَيْنَآ إلى أُمّ موسى أَنْ أَرْضِعِيهِ ) والذي عليه الجمهور أن الله لم يبعث نبيا إلاّ من الرجال - قال تعالى - : ( وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاّ رِجَالاً نوحي إِلَيْهِمْ مِّنْ أَهْلِ القرى ) وقوله : ( كَانَا يَأْكُلاَنِ الطعام ) جملة مستأنفة لبيان خواصهما الآدمية بعد بيان منزلتهما السامية عند الله - تعالى - .وقد اختيرت هذه الصفة لهما من بين صفات كثيرة كالمشرب والملبس . لأنها صفة واضحة ظاهرة للناس ، ودالة على احتياجهما لغيؤرهما في مطلب حياتهما ، ومن يحتاج إلى غيره لا يكون إلها .وقال صاحب الكشاف : لأن من احتاج إلى الاغتذاء بالطعام وما يتبعه من الهضم والنفض ، لم يكن إلا جسما مركبا من عظم ولحم وعروض وأعصاب وأخلاط وأمزجة مع شهوة .. وغير ذلك مما يدل على أنه مصنوع مؤلف كغيره من الأجسام وحاسا للإله أن يكون كذلك .ففي هذه الجمل الكريمة رد على - ما زعمه النصارى في شأن عيسى وأمه بأبلغ وجه وأحكمه ، ولذا عجب الله تعالى - رسوله وكل من يصلح للخطاب من جهلهم وبعدهم عن الحق مع وضوحه وظهوره فقال : ( انظر كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيات ثُمّ انظر أنى يُؤْفَكُونَ - أي : يصرفون .يقال أفكه يأفكه إذا صرفه عن الشيء .أي : انظر - يا محمد ( كيف تبين لهم الأدلة المنوعة على حقيقة عيسى وأمه بيانا واضحاً ظاهراً . ثم ، انظر بعد ذلك كيف ينصرفون عن الإصاخة إليها والتأمل فيها لسوء تفكيرهم واستيلاء الجهل والوهم والعناد على عقولهم .فالجملتان الكريمتان تعجيب لكل عاقل من أحوال النصارى الذين زعموا أن الله هو المسيح ابن مريم ، أو أن الله ثالث ثلاثة . مع أنه - سبحانه - أقام لهم الأدلة المتعددة على بطلان ذلك .وكرر الله - سبحانه - الأمر بالنظر للمبالغة في التعجيب من أحوالهم الغريبة وجيء بثم المفيدة للتراخي في قوله ( ثُمّ انظر أنى يُؤْفَكُونَ ) لإظهار ما بين وضوح الآيات وانصرافهم عنها من تفاوت شديد أي : أن بياننا للآيات أمر بديع في بابه بحيث يجعل كل عاقل يستجيب لها ، ويخضع لما تدعو إليه من هدايات وخيرات . وانصراف هؤلاء الضالين عنها - مع وضوحها وتعاضد ما يوجب قبولها - أمر يدعو إلى العجب الشديد من جهلهم وضلالهم وسوء تفكيرهم .

قل اتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا والله هو السميع العليم

كما فسرها الوسيط ثم تابع - سبحانه - حديثه عن ضلال أهل الكتاب وجهالتهم فأمر رسوله - صلى الله عليه وسلم أن يوبخهم على عنادهم وغفلتهم وأن يواصل دعوتهم إلى الدين الحق فقال - تعالى :( قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله مَا لاَ يَمْلِكُ . . . )الاستفهام في قوله ( أَتَعْبُدُونَ ) لإنكار واقعهم والتعجيب مما وقع منهم ، وتوبيخهم على جهلهم وغفلتهم .و ( ما ) في قوله ( مَا لاَ يَمْلِكُ ) يجوز أن تكون موصولة بمعنى الذي وأن تكون نكرة موصوفة . والجملة بعدها صلة فلا محل لها أو صفة فمحلها النصب .وقوله ( يملك : من الملك بمعنى حيازة الشيء والتمكن من التصرف فيه بدون عجز .والمعنى ( : قل يا محمد لهؤلاء الضالين من النصارى وأشباههم في الكفر ولاشرك قل لهم أتعبدون معبودات غير الله - تعالى - هذه المعبودات لا تملك أن تصيبكم بشيء من الضرر كالمرض والفقر ، ولا تملك أيضاً أن تنفعكم بشيء من النفع كبسط : الرزق ودفع الضرر وغير ذلك مما أنتم في حاجة إليه .فالمراد بما لا يملك كل ما عبد من دون الله من حجر أو وثن أو غيرهما فتكون " ما " للعموم وليست - كناية عن عيسى وأمه فحسب .وقد سار على هذا المعنى ابن كثير فقال : يقول تعالى - منكراً على من عبد غيره من الأصنام والأوثان والأنداد ، ومبينا له أنها لا تستحق شيئاً من الألوهية فقال - تعالى - ( قُلْ ) أي : يا محمد لهؤلاء العابدين غير الله من سائر فرق بني آدم ودخل في ذلك النصارى وغيرهم أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلاَ ) نَفْعاً ) .ويرى كثير من المفسرين أن المراد بقوله : ( مَا لاَ يَمْلِكُ ) : عيسى - عليه السلام - أو هو وأمه لأن الكلام مع النصارى الذين قال بعضهم ، إن الله هو المسيح ابن مريم . وقال آخرون منهم : إن الله ثالث ثلاثة فتكون الآية دليلا آخر - بعد الأدلة السابقة - على فساد أقوال النصارى في عيسى وأمه مريم .والمعنى : قل يا محمد لهؤلاء النصارى أتعبدون - من دون الله - عيسى وأمه وهما لا يستطيعان أن يضراكم بشيء من الضرر في الأنفس والأموال ، ولا أن ينفعاكم بشيء من النفع كإيجاد الصحة والخصب والسعة ، لأن الضر والنفع من الله وحده وكل ما يستطيعه البشر من المضار أو المنافع هو بتمكين الله لهم وليس بقدرتهم الذاتية .وأوثرت " ما " على " من " لتحقيق ما هو المراد من كونهما بمعزل من الألوهية رأسا ، ببيان انتظامهما في مسلك الأشياء التي لا قدرة لها على شيء ألا ولا شك أن من صفات الرب أن يكون

قادراً على كل شيء ، فقول النصارى بأن الله هو المسيح ابن مريم أو هو ثالث
ثلاثة ، قال ظاهر البطلان واضح الفساد .وعلى كلا القولين فالآية الكريمة
- تنفي أن يكون هناك إله سوى الله - تعالى - يستحق العبادة والخضوع ، لأنه
سبحانه - هو المالك لكل شيء ، والخالق لكل شيء( أَلاَ لَهُ الخلق والأمر
) : تَبَارَكَ الله رَبُّ العالمين ) وقدم - سبحانه - الضر على النفع فقال
مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً ) لأن النفوس أشد تطلعا إلى
- دفعة من تطلعها إلى جلب الخير ، ولأنهم كانوا يبعدون غير الله - تعالى
وهمهم الأكبر أن هذا المعبود يستطيع أن يقربهم إلى الله زلفى ، وأن يمنع
عنهم المصائب والأضرار .وقوله : ( والله هُوَ السميع العليم ) في محل نصب
على الحال . من فاعل ( أَتَعْبُدُونَ ) أي أتعبدون آلهة سوى الله لا تملك
ضرركم أو نفعكم وتتركون عبادة الله والحال أن الله وحده هو السميع لكل ما
تنطقون به ، العليم بجميع أحوالكم وأعمالكم ، وسيحاسبكم على ذلك وسيجازيكم
. على أقوالكم الباطلة وعقائدكم الزائفة ، بما تستحقون من عذاب أليم

قل يا اهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا اهواء قوم قد ضلوا
من قبل واضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل

كما فسرها الوسيط ثم أرشدهم - سبحانه - إلى طريق الحق ، ونهاهم عن الغلو
الباطل فقال : ( قُلْ ياأهل الكتاب لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ
الحق وَلاَ تتبعوا أَهْوَآءَ قَوْمٍ ) والغلو مصدر غلا في الأمر : إذا
تجاوز الحد . وهو نقيض التقصير .وقد نهى النبي - صلى الله عليه وسلم عن
الغلو حتى في الدين ، فقد روى الإمام أحمد والنسائي وابن ماجه والحاكم عن
ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إياكم والغلو في الدين فإنما
هلك من كان قبلكم بالغو في الدين " .وروى البخاري عن عمر بن الخطاب أن رسول
الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم؛
إنما أنا عبد فقولوا : عبد الله ورسوله " .وروى مسلم عن ابن مسعود أن رسول
الله صلى الله عليه وسلم قال : " هلك المتنطعون . قالها ثلاثة " والمتنطعون
هم المتشددون المتجاوزون للحدود التي جاءت بها تعاليم الإسلام .وقد غالى
أهل الكتاب في شأن عيسى - عليه السلام - أما اليهود فقد كفروا به ونسبوه
إلى الزنا وافتروا عليه وعلى أمه افتراء شديداً وأما النصارى فقد وصفوه
بالألوهية فوضعوه في غير موضعه الذي وضعه الله فيه وهو منصب الرسالة . وكما
غالوا في شأن عيسى عليه السلام - فقد غالوا أيضا في تمسكهم بعقائدهم
) الزائفة ، مع أن الدلائل الواضحة قد دلت على بطلانها وفسادها .وقوله
غَيْرَ الحق ) منصوب على أنه صفة لمصدر محذوف . أي :لا تغلوا في دينكم
غلوا غير الحق : أي : غلوا باطلا .وقوله : ( وَلاَ تتبعوا أَهْوَآءَ قَوْمٍ
- معطوف على قوله : ( لاَ تَغْلُواْ ) .قال الفخر الرازي : الأهواء (
ههنا - المذاهب التي تدعو إليها الشهوة دون الحجة .قال الشعبي : ما ذكرالله
لفظ الهوى في القرآن إلا ذمه . قال : ( وَلاَ تتبعوا أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ
ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيراً وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ السبيل
وقال : ( واتبع هَوَاهُ فتردى ) وقال :( وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهوى ) وقال (
وقال أبو عبيدة : لم نجد الهوى ( أَرَأَيْتَ مَنِ اتخذ إلهه هَوَاهُ ) :
يوضع إلا في الشر لا يقال : فلان يهوي الخير إنما يقال يريد الخير ويحبه
وقيل : سمى الهوى هوى لأنه يهوي بصاحبه في النار . وأنشد في ذم الهوى :إن.
: الهوى الهوان بعينه ... فإذا هويت فقد لقيت هواناوقال رجل لابن عباس
الحمد لله الذي جعل هو أي على هواك . فقال ابن عباس : كل هوى ضلالة
والمعنى : قل يا محمد لأهل الكتاب الذين تجاوزوا الحدود التي تقرها.
الشرائع والعقول السليمة ، قل لهم يا أهل الكتاب : ( لاَ تَغْلُواْ فِي
دِينِكُمْ غَيْرَ الحق ) أي :لا تتجاوزوا حدود الله تجاوزوا باطلا ، كأن
تعبدوا سواه مع أنه هو الذي خلقكم ورزقكم ، وكأن تصفوا عيسى بأوصاف هو برئ
منها .وقل لهم أيضا : ( وَلاَ تتبعوا أَهْوَآءَ قَوْمٍ ) أي :ولا تتبعوا
شهوات وأقوال قوم من أسلافكم وعلمائكم ورؤسائكم ( قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ
أي : قد ضلوا من قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم بتحريفهم للكتب (
السماوية وتركهم لتعاليمها جرياً وراء شهواتهم وأهوائهم ( وَأَضَلُّواْ
كَثِيراً ) أي أنهم لم يكتفوا بضلال أنفسهم بل أضلوا أناساً كثيرين سواهم
ممن قلدهم ووافقهم على أكاذيبهم وقوله : ( وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ السبيل )
معطوف على قوله ( قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ ) .أي أنهم قد ضلوا من قبل
البعثة النبوية الشريفة ، وضلوا من بعدها عن ( سَوَآءِ السبيل ) أي : عن
الطريق الواضح الذي أتى به النبي صلى الله عليه وسلم وهو طريق الإسلام
وذلك لأنهم لم يتبعوه مع معرفتهم بصدقه؛ بل كفروا به حسدا له على ما آتاه
الله من فضله .فأنت ترى أنه - تعالى - قد وصفهم - كما يقول الإمام
الرازي - بثلاث درجات في الضلال : فبين أنهم كانوا ضالين من قبل ، ثم ذكر
أنهم كانوا مضلين لغيرهم ، ثم ذكر أنهم استمروا على تلك الحالة حتى الآن
ضالون كما كانوا ولا نجد حالة أقرب إلى البعد من الله والقرب من عقابه من
هذه الحالة ويحتمل أنهم ضلوا وأضلوا ثم ضلوا بسبب اعتقادهم في ذلك الإضلال

أنه إرشاد إلى الحق .هذا ، ومما أخذه العلماء من هذه الآية الكريمة أن الغلو في الدين لا يجوز وهو مجاوزة الحق إلى الباطل وقد سقنا من الآثار ما يشهد بذلك عند تفسيرنا لصدر الآية الكريمة .قال صاحب الكشاف ما ملخصه دلت ، الآية على أن الغلو في الدين غلوان " غلو حق " وهو أن يفحص عن حقائقه ويفتش عن أباعد معانيه ، ويجتهد في تحصيل حججه كما يفعل المتكلمون . وغلوا باطل ، وهو أن يتجاوز الحق ويتخطاه بالإعراض عن الأدلة واتباع الشبه . كما يفعل أهل الأهواء والبدع والضلال .

لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك بعض الرذائل التي شاعت في بني - إسرائيل ، والتي بسببها استحقوا اللعن والطرد من رحمة الله فقال - تعالى
قوله : ( لُعِنَ ) من اللعن بمعنى الطرد( . . . لُعِنَ الذين كَفَرُواْ ):
من رحمة الله فالملعون هو المحروم من رحمته - سبحانه - ولطفه وعنايته
والمعنى : لعن الله - تعالى - الذين كفروا من بني إسرائيل بأن طردهم من.
رحمته ، على لسان نبيين كريمين هما داود وعيسى - عليهما السلام - .وقد جاء
الفعل " لعن " بالبناء للمجهول لأن الفاعل معلوم وهو الله - تعالى - ولأن
الأنبياء ومنهم داود وعيسى لا يلعنون أحدا إلا بإذن الله - سبحانه - .وقد
- جاء الفعل " لعن " بالبناء للمجهول لأن الفاعل معلوم وهو الله - تعالى
- ولأن الأنبياء ومنهم داود داود وعيسى لا يلعنون أحدا إلا بإذن الله
سبحانه - .وقوله : ( مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ ) في محل نصب على الحال من الذين
كفروا أو من فاعل ( كَفَرُواْ ) وهو واو الجماعة .وقوله : ( على لِسَانِ
دَاوُودَ وَعِيسَى ابن مَرْيَمَ ) متعلق بلعن . أي : لعنهم - سبحانه - في
- الزبور والإنجيل على لسان هذين النبيين الكريمين اللذين كان أولهما
بجانب منصب الرسالة - قائدا مظفرا قادهم إلى النصر بعد الهزيمة . وكان
ثانيهما وهو عيسى - عليه السلام - رسولا مسالما جاءهم ليحل لهم بعض الذي
حرم عليهم .قال الآلوسي : لعنهم الله - تعالى - في الزبور والإنجيل على
لسان داود وعيسى ابن مريم بأن أنزل في هذين الكتابين " ملعون من يكفر من
بني إسرائيل بالله أو بأحد من رسله " وقيل : إن أهل أيلة لما اعتدوا في
السبت قال داود : اللهم ألبسهم اللعن مثل الرداء ومثل المنطقة على الحقوين
فمسخهم الله قردة .وأصحاب المائدة لما كفروا بعيسى قال : اللهم عذب من كفر
من المائدة عذابا لم تعذبه أحداً من العالمين ، والعنهم كما لعنت أصحاب
السبت .وقوله : ( ذلك بِمَا عَصَوْا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ) بيان لسبب
لعنهم وطردهم من رحمة الله .واسم الإشارة ( ذلك ) يعود إلى اللعن المذكور
، أي : ذلك اللعن للكافرين من بني إسرائيل سببه عصيانهم لله ولرسله.
وعدوانهم على الذين يأمرونهم بالقسط من الناس .أي أن لعنهم لم يكن اعتباطاً
أو جزافاً ، وإنما كان بسبب أقوالهم القبيحة وأفعالهم المنكرة ، وسلوكهم
) : السيء .وقوله : ( ذلك بِمَا عَصَوْا ) جملة من مبتدأ وخبر . وقوله
وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ) معطوف على صلة ما وهو ( عصوا ) فيكون داخلا في
حيز السبب الذي أدى إلى لعنهم والجملة المكونة من اسم الإشارة ( ذلك ) وما
بعدها مستأنفة واقعة موقع الجواب لسؤال تقديره لماذا لعن الذين كفروا من
بني إسرائيل؟وقد أفاد اسم الإشارة مع باء السببية ومع وقوع الجملة في جواب
سؤال مقدر أفاد مجموع ذلك ما يشبه القصر .وقد أشار صاحب الكشاف إلى هذا
المعنى بقوله : ( ذلك بِمَا عَصَوْا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ) .أي : لم
- يكن ذلك اللعن الشنيع إلا لأجل المعصية والاعتداء لا لشيء آخر .وعبر
سبحانه - عن عصيانهم بالماضي فقال ( ذلك بِمَا عَصَوْا ) للإشارة إلى
استقرار العصيان في طبائعهم ، وثباته في نفوسهم وجوارحهم .وعبر عن عدوانهم
بالمضارع ، للإيذان بأنه مستمر قائم ، فهم لم يتركوا نبياً إلا آذوه ، ولم
يتركوا مصلحا إلا واعتدوا عليه فاعتداؤهم على المصلحين مستمر في كل زمان
. ومكان

كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون

كما فسرها الوسيط ثم فسر - سبحانه - عصيانهم وعدوانهم بقوله : ( كَانُواْ
لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ
: يَفْعَلُونَ ) .وقوله ( يَتَنَاهَوْنَ ) من التناهي .قال الفخر الرازي
وللتناهي ههنا معنيان :أحدهما : وهو الذي عليه الجمهور - أنه تفاعل من
النهي . أي : كانوا لا ينهى بعضهم بعضاً .روى ابن مسعود عن النبي صلى الله
عليه وسلم أنه قال : " من رضى عمل قوم فهو منهم . ومن كثر سواد قوم فهو
منهم " .والمعنى الثاني : في التناهي أنه بمعنى الانتهاء عن الأمر ، تناهى
عنه إذا كف عنه " .والمنكر : هو كل ما تنكره الشرائع والعقول من الأقوال
والأفعال .أي أن مظاهر عصيان الكافرين من بني إسرائيل وتعديهم مما أدى إلى
لعنهم وطردهم من رحمة الله أنهم كانوا لا ينهى بعضهم بعضا عن اقتراف

المنكرات . واجتراح السيئات ، بل كانوا يرون المنكرات ترتكب فيسكتون عليها بدون استنكار مع قدرتهم على منعها قبل وقوعها .وهذا شر ما تصاب به الأمم حاضرها ومستقبلها : أن تفشو فيها المنكرات والسيئات والرذائل فلا تجد من يستطيع تغييرها وإزالتها .وقوله : ( لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ) ذم لهم على كثرة ولوغهم في المعاصي والمنكرات وتعجب من سوء فعلهم .واللام في قوله ( لَبِئْسَ ) لام القسم فكأنه - سبحانه - قال : أقسم لبئس ما كانوا يفعلون وهو ارتكاب المعاصي والعدوان وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قال صاحب الكشاف : قوله : ( لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ) للتعجيب. من سوء فعلهم مؤكدا لذلك بالقسم . فيا حسرة على المسلمين في إعراضهم عن باب التناهي عن المناكير ، وقلة عبئهم به ، كأنه ليس من ملة الإسلام في شيء مع ما يتلون من كلام الله وما فيه من المبالغات في هذا الباب .فإن قلت ما معنى وصف المنكر بفعلوه ، ولا يكون النهي بعد الفعل؟ قلت : معناه لا يتناهون عن معاودة منكر فعلوه ، أو عن منكر أرادوا فعله كما ترى أمارات الخوض في الفسق وآلاته تسوى وتهيأ فتنكر .هذا ، وقد أخذ العلماء من هذه الآية وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأنهما قوام الأمم وسياج الدين ولا صلاح لأمة من الأمم إلا بالقيام بحقهما .ومن ذلك ما جاء في الصحيحين عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان " .وروى الإمام أحمد في معنى الآية عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا فجالسوهم في مجالسهم أو في أسواقهم وواكلوهم وشاربوهم فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ولعنهم داود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون " .قال ابن مسعود : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم متكئا فجلس فقال : " لا والذي نفسي بيده حتى تأطروهم على الحق أطراً - أي تحملوهم على التزام الحق وتعطوفهم عليه " .وروى الترمذي عن حذيفة بن اليمان : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم " .وروى الإمام أحمد عن عدي بن عميرة - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الله -لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه . فإذا فعلوا ذلك لعن الله العامة والخاصة " .وروى ابن ماجه عن أنس بن مالك قال يا رسول الله ، متى نترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ قال : " إذا ظهر فيكم ما ظهر في الأمم قبلكم قلنا : يا رسول الله ، وما الذي ظهر في الأمم قبلنا؟ قال صلى الله عليه وسلم : الملك في صغاركم ، والفاحشة في كباركم ، والعلم في رذالتكم " أي في فساقكم .هذا جانب من الأحاديث التي وردت في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فعلى الأمة الإسلامية أن توقم بحقها حتى تكون مستحقة لمدح الله - تعالى - لها بقوله : ( كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بالمعروف وَتَنْهَوْنَ عَنِ المنكر وَتُؤْمِنُونَ بالله ) أي : ترى - أيها الرسول الكريم - كثيرا من بني إسرائيل المعاصرين لك يوالون الكافرين ويحالفونهم عليك؛ بسبب حسدهم لك على ما آتاك الله من فضله وبسبب كراهتهم للإسلام والمسلمين .والذي يقرأ تاريخ الدعوة الإسلامية يرى أن اليهود كانوا دائما يضعون العراقيل في طريقها ، وينأصرون كل محارب لها ، ففي غزوة الأحزاب انضم بنو قريظة إلى المشركين ولم يقيموا وزنا للعهود والمواثيق التي كانت بينهم وبين المسلمين وفي كل زمان ومكان نرى أن اليهود يحاربون الإسلام والمسلمين ، ويؤيدون كل. من يريد لهما الشرور والأضرار .

ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم انفسهم ان سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون

كما فسرها الوسيط وقوله : ( لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ الله عَلَيْهِمْ وَفِي العذاب هُمْ خَالِدُونَ ) ذم لهم على موالاتهم للمشركين وبيان لما حق بهم من سوء المصير بسبب مناصرتهم لأعداء الله ، ومحاربتهم لأوليائه .أي : لبئس ما قدمت لهم أنفسهم من أقوال كاذبة وأعمال قبيحة وأفعال منكرة استحقوا بسببها سخط الله عليهم ، ولعنه إياهم كما استحقوا أيضاً بسببها الخلود الدائم في العذاب المهين .قال الجمل : و ( ما ، في قوله ( لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ ) هي الفاعل ( وقوله : ( وَفِي العذاب هُمْ خَالِدُونَ ) هذه الجملة معطوفة على ما قبلها فهي من جملة المخصوص بالذم فالتقدير : سخط الله عليهم وخلدهم في العذاب .ثم بين - سبحانه - الدوافع التي حملت هؤلاء الفاسقين من أهل الكتاب على ولاية الكافرين ومصادقتهم ومعاونتهم على حرب المسلمين فقال :

ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما انزل اليه ما اتخذوهم اولياء ولكن كثيرا منهم فاسقون

كما فسرها الوسيط ( وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالله والنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ ولكن كَثِيراً مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ) .فالضمير في قوله : ( كانوا ) يعود إلى أولئك الكثيرين من أهل الكتاب الذين حملهم حقدهم وبغضهم للنبي صلى الله عليه وسلم ولأتباعه على موالاة الكافرين .والمراد - هنا - بالنبي : موسى - عليه السلام - وبما أنزل إليه التوراة ، لأن الحديث مع الكافرين من بني إسرائيل الذين يزعمون أنهم من أتباع موسى .وقيل المراد به النبي صلى الله عليه وسلم ، والمراد بما أنزل إليه : القرآن .أي : ولو كان هؤلاء اليهود يؤمنون بالله إيمانا حقا ، ويؤمنون بنبيهم موسى إيمانا صادقا ويؤمنون بالتوارة التي أنزلها الله عليه إيمانا سليما ، لو كانوا مؤمنين هذا الإيمان الصادق ، لكفوا عن اتخاذ الكافرين أولياء وأصفياء ، لأن تحريم موالاة المشركين متأكدة في التوراة وفي كل شريعة أنزلها الله على نبي من أنبيائه .وقوله : ( ولكن كَثِيراً مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ) استدارك لبيان حالهم ، ولبيان سبب موالاتهم للكافرين وعدواتهم للمسلمين .أي : ولكن كثيراً من هؤلاء اليهود فاسقون ، أي خارجون عن الدين الحق إلى الأديان الباطلة ، فدفعهم هذا الفسق ، وما : صاحبه من حقد وعناد على موالاة الكافرين ومعاداة المؤمنين .وقد كرر سبحانه وصف الكثيرين منهم بالصفات الذميمة ، إنصافا للقلة التي آمنت وتمييزا لها عن تلك الكثرة الكافرة الفاسقة . .وبذلك نرى الآيات الكريمة قد بينت ما عليه الكافرين من بني إسرائيل من صفات ذميمة ، أفضت إلى لعنهم وطردهم من رحمة الله ، حتى يحذرهم المسلمون ويجتنبوا سلوكهم السيء ، وخلقهم القبيح وبعد هذا الحديث الطويل الذي طوفت فيه سورة المائدة مع أهل الكتاب بصفة. عامة ومع اليهود بصفة خاصة ، والذي تحدثت خلاله عن علاقة المؤمنين بهم وعن العهود التي أخذها الله عليهم وموقفهم نمها ، وعن دعاواهم الباطلة وكيف در القرآن عليها ، وعن أخلاقهم السيئة ، وعن مسالكهم الخبيثة ليكد الإسلام والمسلمين ، وعن المصير السيء الذي ينتظرهم إذا ما استمروا على كفرهم وضلالهم ، وعن المنهاج القويم الذي استعمله القرآن معهم في دعوتهم إلى الدين الحق ، بعد هذا الحديث الطويل معهم في تلك الموضوعات وفي غيرها نرى السورة الكريمة في نهاية المطاف تحدثنا عن اشد الناس عداوة للمؤمنين وعن أقربهم مودة لهم فتقول :( لَتَجِدَنّ أَشَدّ الناس عَدَاوَةً لِّلّذِينَ . . . )

لتجدن اشد الناس عداوة للذين امنوا اليهود والذين اشركوا ولتجدن اقربهم مودة للذين امنوا الذين قالوا انا نصارى ذلك بان منهم قسيسين ورهبانا وانهم لا يستكبرون

كما فسرها الوسيط أخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير قال : بعث النجاشي وفدا ) : إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلموا ، قال : فأنزل الله فيهم لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ الناس عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ اليهود ) إلى آخر الآية . قال : فرجعوا إلى النجاشي فأخبروه فأسلم النجاشي فلم يزل مسلما حتى مات ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أخاكم النجاشي قد مات فصلوا عليه فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة والنجاشي : بالحبشه .ثم قال ابن جرير بعد أن ساق روايات أخرى في سبب نزول هذه الآيات والصواب في ذلك من القول عندي ، أن الله - تعالى - وصف صفة قوم قالوا : إنا نصارى ، وأن نبي الله صلى الله عليه وسلم يجدهم أقرب الناس مودة لأهل الإيمان بالله ورسوله ، ولم يسم لنا أسماءهم وقد يجوز أن يكون أريد بذلك أصحاب النجاشي ويجوز أن يكون أريد به قوم كانوا على شريعة عيسى فأدركهم الإسلام فأسلموا ، لما سمعوا القرآن ، وعرفوا أنه الحق ، ولم يستكبروا عنه فقوله - تعالى - ( لَتَجِدَنّ أَشَدّ الناس عَدَاوَةً لِّلّذِينَ. آمَنُواْ اليهود والذين أَشْرَكُواْ ) جملة مستأنفة لتقرير ما قبلها من آيات سجلت على اليهود كثيراً من الصفات القبيحة والمسالك الخبيثة .وقد أكد - سبحانه - هذه الجملة بلا القسم اعتناء ببيان تحقق مضمونها ، والخطاب للنبي - صلى الله عليه وسلم ويصح أن يكون لكل من يصلح للخطاب للإيذان بأن حالهم لا تخفى على أحد من الناس .والمعنى : أقسم لك يا محمد بأنك عند مخالطتك للناس ودعوتهم إلى الدين الحق ، ستجد أشدهم عداوة لك ولأتباعك فريقين منهم : وهما اليهود والذين أشركوا ، لأن عداوتهم منشؤها الحقد والحسد والعناد والغرور . وهذه الرذائل متى تمكنت في النفس حالت بينها وبين الهداية والإيمان بالحق .وقوله ( أَشَدّ الناس ) مفعول أول لقوله ( لتجدن ومفعول الثاني ( اليهود ) وقوله ( عداوة ) تمييز .قال الآلوسي : والظاهر ( أن المراد من اليهود العموم ، أي من كان منهم بحضرة الرسول الله صلى الله عليه وسلم من يهود المدنية وغيرهم ويؤيده ما أخرجه أبو الشيخ وابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما خلا يهودي بمسلم إلا هم بقتله " وقيل المراد بهم يهود المدينة وفيه بعد ، وكما اختلف في عموم اليهود اختلف في عموم الذين أشركوا . والمراد من ( الناس ) كما قال

- أبو حيان - الكفار : أي لتجدن أشد الكفار عداوة هؤلاء .ووصفهم - سبحانه بذلك لشدة كفرهم ، وانهماكهم في اتباع الهوى ، وقربهم إلى التقليد ، وبعدهم عن التحقيق ، وتمرنهم على التمرد والاستعصاء على الأنبياء ، وقد قيل : إن من مذهب اليهود أنه يجب عليهم إيصال الشر إلى من يخالفهم في الدين بأي طريق كان وفي تقديم اليهود على المشركين إشعار بتقدمهم عليهم في العداوة .وقوله وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الذين ) :
: قالوا إِنَّا نصارى ) معطوف على ما قبله لزيادة التوضيح والبيان .أي . لتجدن يا محمد أشد الناس عداوة لك ولأتباعك - اليهود - والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة ومحبة لك ولأتباعك الذين قالوا إنا نصارى .قال ابن كثير أي الذين زعموا أنهم نصارى من أتباع المسيح وعلى منهاج إنجيله فيهم مودة : للإسلام وأهله في الجملة : وما ذاك إلا لما في قلوبهم - من لين عريكة - إذ كانوا على دين المسيح من الرقة والرأفة ، كما قال - تعالى - ( وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الذين اتبعوه رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ) وفي كتابهم : " من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر " وليس القتال مشروعا في ملتهم .وقال الجمل : فإن قلت : كفر النصارى أشد من كفر اليهود لأن النصارى ينازعون في الألوهية فيدعون أن لله ولدا ، واليهود ينازعون في النبوة فينكرون نبوة بعض الأنبياء فلم ذم اليهود ومدح النصارى؟قلت : هذا مدح في مقابلة ذم وليس مدحا على إطلاقه ، وإيضا الكلام في عداوة المسلمين وقرب مودتهم لا في شدة الكفر وضعفه .وقوله : ( ذلك بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ) تعليل لقرب مودة النصارى للمؤمنين .والقسيسين : جمع قسيس . وأصله من قس إذا تتبع الشيء فطلبه ، وهم علماء النصارى والمرشدون لهم .والرهبان : جمع رابه كركبان جمع راكب وتطلق كلمة رهبان على المفرد كما تطلق على الجمع ، والراهب هو الرجل : العابد الزاهد المنصرف عن الدنيا ، مأخوذ من الرهبة بمعنى الخوف . يقال رهب فلان ربه يرهبه ، أي : خافه .والمعنى : ولتجدن يا محمد أقرب الناس مودة لك ولأتباعك الذين قالوا إنا نصارى ، وذلك لأن من القسيسين الذين يرغبون في طلب العلم ويرشدون غيرهم إليه ، ومنهم الرهبان الذين تفرغوا لعبادة الله وانصرفوا عن ملاذ الدنيا وشهواتهم وأيضاً فلأن هؤلاء الذين قالوا إنا نصارى من صفاتهم أنهم لا يستكبرون عن اتباع الحق والانقياد له إذا فهموه أو أنهم متواضعون وليسوا مغرورين أو متكبررين .وفي ذلك تعريض باليهود والمشركين لأن غرورهم واتسكبارهم جعلهم ينصرفون عن الحق فاليهود يرون أنفسهم شعب الله المختار ، وأن النبوة يجب أن تكون فيهم والمشركون يرون أن النبوة يجب أن تكون في أغنيائهم وزعمائهم ، وقد حملهم هذا الغرور على الكفر بالنبي صلى الله عليه وسلم لأنهم وجدوا أكثر أتباعه من الفقراء .قال الآلوسي : وفي الآية دليل على أن صفات التواضع والإقبال على العلم والعمل والإعراض عن الشهوات محمودة أينما كانت .

واذا سمعوا ما انزل الى الرسول ترى اعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا امنا فاكتبنا مع الشاهدين

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - ما كان منهم عند سماعهم لما أنزل الله - تعالى - على رسوله من هدايات فقال : ( وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى الرسول ترى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدمع مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الحق ) والمراد بالرسول : محمد صلى الله عليه وسلم وبما ) أنزل إليه : القرآن الكريم .والجملة الكريمة معطوفة على قوله؛ وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ) والضمير في قوله ( سَمِعُواْ ) يعود على الذين قالوا إنا نصارى بعد أن عرفوا الحق وآمنوا به .أي ، أن من صفات هؤلاء الذين قالوا إنا نصارى زيادة على ما تقدم ، أنهم إذا سمعوا ما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرآن تأثرت قلوبهم . وخشعت نفوسهم وسالت الدموع من أعينهم بغزرة وكثرة من أجل ما عرفوه من الحق الذي بينه لهم القرآن الكريم بعد أن كانوا غافلين عنه .وفي التعبير عنهم بقوله : ( ترى ) الدالة على الرؤية البصرية والتي هي أقوى أسباب العلم الحسي ، مبالغة في مدحهم ، حيث يراهم الرائي وهم على تلك الصورة من رقة القلب وشدة التأثر عند سماع الحق .فلقد كانوا يحسون أنهم في ظلام وضلال فلما سمعوا الحق أشرقت له نفوسهم ودخلوا في نوره وهدايته وأعينهم تتدفق بالدموع من شدة تأثرهم به وحبهم له .وقوله ( تَفِيضُ ) من الفيض وهو انصباب عن امتلاء : يقال فاض الإناء إذا امتلأ حين سال من جوانبه .وقد أجاد صاحب الكشاف في تصوير هذا : المعنى فقال : فإن قلت : ما معنى قوله : ( تَفِيضُ مِنَ الدمع ) قلت معناه تمتلئ من الدمع حتى تفيض ، لأن الفيض أن يمتلئ الإناء أو غيره حتى يطلع ما فيه من جوانبه . فوضع الفيض الذي هو من الامتلاء موضع الامتلاء وهو من إقامة المسبب مقام السبب ، أو قصدت المبالغة في وصفهم بالبكاء فجعلت : أعينهم كأنها تفيض بأنفسها . أي : تسيل من الدمع من أجل البكاء من قولك دمعت عينه دمعا .فإن قلت : أي فرق بين من ومن في قوله : ( مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الحق ) ؟ قلت : الأولى لابتداء الغاية على أن فيض الدمع ابتدأ ونشأ من

معرفة الحق وكان من أجله وبسببه ، والثانية لتبيين الموصول الذي هو ما عرفوا وتحتمل معنى التبعيض على أنهم عرفوا بعض الحق ، فأبكاهم وبلغ منهم فكيف إذا عرفوه كله وقرأوا القرآن وأحاطوا بالسنة؟ثم حكى - سبحانه - ما قالوه بعد سماعهم للحق فقال : ( يَقُولُونَ رَبَّنَآ آمَنَّا فاكتبنا مَعَ الشاهدين ) .أي : يقولون بعد أن سمعوا الحق : يا ربنا إننا آمنا بما سمعنا إيمانا صادقا فاكتبنا مع أمة محمد صلى الله عليه وسلم التي آمنت به وشهدت بصدق رسولك محمد صلى الله عليه وسلم وبصدق كل رسول أرسلته إلى الناس ليخرجهم من الظلمات إلى النور .

وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع ان يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك عنهم ما علمه منهم من إصرارهم على الدخول في الدين الحق ، فقال . ( وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بالله وَمَا جَآءَنَا مِنَ الحق وَنَطْمَعُ أن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ القوم الصالحين ) .فالآية الكريمة من تتمة قولهم .والاستفهام هنا لإنكار انتفاء الإيمان منهم مع قيام موجباته ، وظهور أماراته ووضوح أدلته وشواهده ، والمعنى : وأي مانع يمنعنا من الإيمان بالله الواحد الأحد الفرد الصمد. وبما جاءنا على لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم من قرآن يهدي إلى الرشد - ومن توجيهات توصل إلى السعادة ونحن نطمع أن يدخلنا ربنا - بسبب إيماننا مع القوم الذين صلحت أنفسهم بالعقيدة السليمة ، وبالعبادات الصحيحة وبالإخلاق الفاضلة وهم أتباع هذا النبي الأمي محمد صلى الله عليه وسلم فأنت تراهم بعد أن استمعوا إلى القرآن تأثرت نفوسهم به تأثراً شديداً فاضت معه أعينهم بالدمع . ثم بعد ذلك التمسوا من الله - تعالى - أن يكتبهم مع الأمة الإسلامية التي تشهد على غيرها يوم القيامة . ثم بعد ذلك استنكروا واستبعدوا أن يعوقهم معوق عن الإيمان الصحيح مع قيام موجباته . وهذا كله يدل على صفاء نفوسهم وطهارة قلوبهم ومسارعتهم إلى قبول الحق عند ظهوره بدون تردد أو تقاعس :وقولهم - كما حكى القرآن عنهم - ( وَنَطْمَعُ أن يُدْخِلَنَا ) يدل على قوة إيمانهم ، ' وصدق يقينهم ، لأنهم مع هذا الإقبال الشديد على الدين الحق والمسارعة إلى العمل الصالح ، لم يجزموا بحسن عاقبتهم ، بل التمسوا من الله - تعالى - الطمع في مغفرته ، وفي أن يجعلهم مع القوم الصالحين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم .وهكذا المؤمن - الصادق يستصغر عمله بجانب فضل الله ونعمه ، ويقف من جزائه وثوابه - سبحانه - موقف الخوف والرجاء .

فاثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين

كما فسرها الوسيط ولقد كان ما أعده الله - تعالى - لهؤلاء الأصفياء من ثواب شيئاً عظيماً ، عبر عنه - سبحانه - بقوله : ( فَأَثَابَهُمُ الله بِمَا قَالُواْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار خَالِدِينَ فِيهَا وذلك جَزَآءُ المحسنين ) .أي : فكافأهم الله - تعالى - بسبب أقوالهم الطيبة الدالة على إيمانهم وإخلاصهم ، جنات تجري من تحت بساتينها وأشجارها الأنهار ) ، أي : باقين في تلك الجنات بقاء لا موت معه ( خَالِدِينَ فِيهَا ) جَزَآءُ المحسنين ) أي : المؤمنين المخلصين في أقوالهم وأعمالهم .والمراد ) : بقوله : ( بِمَا قَالُواْ ) : ما سبق أن حكاه عنهم - سبحانه - من قولهم : رَبَّنَآ آمَنَّاً فاكتبنا مَعَ الشاهدين ) ورتب الثواب المذكور على القول لأنه قد سبق وصفهم بما يدل على إخلاصهم ، وعلى صدق يقينهم ، والقول إذا اقترن بذلك فهو الإيمان .قال الآلوسي : قوله ( فَأَثَابَهُمُ الله بِمَا قَالُواْ ) أي بسبب قولهم أو بالذي قالوه عن اعتقاد ، فإن القول إذا لم يقيد بالخلو عن الاعتقاد يكون المراد به المقارن له ، كما إذا قيل : هذا قول فلان ، لأن القول إنما يصدر عن صاحبه لإفادة الاعتقاد .وقيل : إن القول هنا مجاز عن الرأي والاعتقاد والمذهب كما يقال : هذا قول الإمام الأعظم أي : هذا مذهبه واعتقاده .وذهب كثير من المفسرين إلى أن المراد بهذا القول قولهم : ( رَبَّنَآ آمَنَّا ) وقولهم ( وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ ) وقد بينت هذه الآية الكريمة أنه - سبحانه - قد أجابهم إلى ما طلبوا ، بل. أكبر مما طلبوا فقد كانوا يطمعون في أن يكونوا مع القوم الصالحين ، وأن يكتبهم مع الشاهدين . فأعطاهم - سبحانه - جنات تجري من تحتها الأنهار . وسماهم محسنين . والإحسان أعلى درجات الإيمان ، وأكرم أوصاف المتقين .

والذين كفروا وكذبوا باياتنا اولئك اصحاب الجحيم

كما فسرها الوسيط هذا جزاء الذين سمعوا ما أنزل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فآمنوا به ، وقالوا ما قالوا مما يشهد بصفاء نفوسهم . أما الذين سمعوا

فأعرضوا وجحدوا فقد بين - سبحانه - مصيرهم السيء بقوله : ( والذين كَفَرُواْ وَكَذّبُواْ بِآيَاتِنَآ أُولـئِكَ أَصْحَابُ الجحيم ) .أي : والذين كفروا وجحدوا الحق الذي جاءهم ، و كذبوا بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وصدق رسلنا فأولئك أصحاب الجحيم ، أي : النار الشديدة الاتقاد . يقال : جحم فلان النار إذا شدد إيقادها .وبذلك نرى الآيات الكريمة قد مدحت أولئك الذين قالوا إنا نصارى ، لأنهم تأثروا بالقرآن عند سماعه فدخلوا في الدين الحق بسرعة ورغبة ، فأكرمهم الله غاية الإكرام ، وهذا ينطبق على كل نصراني ينهج نهجهم ، ويسلك مسلكهم ، فيدخل في الدين الحق كما دخل هؤلاء المحسنون .أما الذين كفروا وكذبوا بآيات الله وحججه فأولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير .

يا ايها الذين امنوا لا تحرموا طيبات ما احل الله لكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين

كما فسرها الوسيط ثم وجه - سبحانه - نداء إلى المؤمنين نهاهم عن تحريم الطيبات التي أحلها الله لهم ، وأمرهم أن يتمتعوا بما رزقهم من رزق طيب حلال فقال - تعالى :( ياأيها الذين . . . )قال صاحب المنار بدأ الله - هذه السورة بآيات من أحكام الحلال والحرام والنسك .ثم جاء بهذا السياق الطويل في بيان أحوال أهل الكتاب ومحاجتهم ، فكان أوفى وأتم ما ورد في القرآن من ذلك ، ولم يتخلله إلا قليل من الأحكام . وهاتان الآيتان وما بعدهما عود إلى أحكام الحلال والحرام والنسك التي بدئت بها السورة .وإنما لم تجعل آيات الأحكام كلها في أول السورة وتجعل الآيات في أهل الكتاب مفصلا بعضها ببعض في باقيها . لما بيناه غير مرة من حكمة مزج المسائل والموضوعات في القرآن من حيث هو مثاني تتلى دائما للاهتداء بها ، لا كتابا فنياً ولا قانونا يتخذ لأجل مراجعه كل مسألة من كل طائفة من المعاني في باب معين .على أن نظمه وترتيب آياته يدهش أصحاب الأفهام الدقيقة بحسنه وتنسيقه كما ترى في مناسبة هاتين الآيتين لما قبلهما مباشرة .ذلك أنه - تعالى - ذكر أن النصارى أقرب الناس مودة للذين آمنوا وذكر من سبب ذلك أن منهم قسيسين ورهبانا فكان من مقتضى هذا أن يرغب المؤمنون في الرهبانية ويظن الميالون للتقشف والزهد أنها مرتبة كما تقربهم إلى الله - تعالى - وهي إنما تتحقق بتحريم التمتع بالطيبات . وقد أزال الله - تعالى - هذا الظن وقطع طريق تلك الرغبة بقوله : ( ياأيها الذين آمَنُواْ لاَ تُحَرّمُواْ طَيّبَاتِ مَآ أَحَلّ الله لَكُمْ .هذا ، وقد ذكر المفسرون في سبب نزول هاتين الآيتين روايات متعددة منها ما أخرجه الترمذي وابن جرير عن ابن عباس : أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أني إذا أكلت انتشرت للنساء ، وأخذتني شهوتي فحرمت علي اللحم . فأنزل الله - تعالى - ( ياأيها الذين آمَنُواْ لاَ تُحَرّمُواْ ) الآية .وأخرج ابن جرير عن عكرمة قال ، كان : أناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم هموا بالخصاء وترك اللحم والنساء ، فنزلت هذه الآية ( ياأيها الذين آمَنُواْ لاَ تُحَرّمُواْ طَيّبَاتِ مَآ أَحَلّ الله لَكُمْ ) وعن أبي قلابة قال : أراد أناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أن يرفضوا الدنيا ، ويتركوا النساء ويترهبوا فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فغلظ فيهم المقالة . ثم قال : " إنما هلك من كان قبلكم بالتشديد شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم ، فأولئك بقاياهم في الديار والصوامع ، واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وحجوا واعتمروا واستقيموا " قال : ونزلت فيهم ( ياأيها الذين آمَنُواْ لاَ تُحَرّمُواْ ) الآية وعن أبي طلحة عن ابن عباس : قال : نزلت هذه الآية في رهط من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قالوا ، نقطع مذاكيرنا ، ونترك شهوات الدنيا ، ونسيح في الأرض كما تفعل الرهبان فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فأرسل إليهم ، فذكرلهم ذلك فقالوا : نعم فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " لكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأنام ، و. أنكح النساء ، فمن أخذ بسنتي فهو مني ، ومن لم يأخذ بسنتي فليس مني " .وقد وجه سبحانه النداء للمؤمنين بوصف الإيمان؛ لتحريك حرارة العقيدة في قلوبهم : حتى يمتثلوا أوامر الله ونواهيه .والمراد بقوله : ( لاَ تُحَرّمُواْ ) لا تعتقدوا تحريم ما أحل الله لكم من طيبات بأن تأخذوا على أنفسكم عهدا بعدم تناولها أو الانتفاع بها .فالنهي عن التحريم هنا ليس منصاب على الترك المجرد . فقد ترك الإنسان بعض الطيبات لأسباب تتعلق بالمرض أو غيره . وإنما هو منصب على اعتقاد أن هذه الطيبات يجب تركها ويأخذ الشخص على نفسه عهدا بذلك .والمراد بالطيبات : الأشياء المستلذة المستطابة المحللة التي تقوى بدن الإنسان وتعينه على الجهاد في سبيل الله ، من طعام شهى ، وشراب سائغ . وملبس جميل .والمعنى : يأيها الذين آمنوا بالله إيمانا حقا ، لا تحرموا على أنفسكم شيأ من الطيبات التي أحلها الله لكم ، فإنه - سبحانه - ما أحلها لكم إلا لما فيها من منافع وفوائد تعينكم على شئون دينكم ودنياكم وقوله : ( وَلاَ تعتدوا ) تأكيد للنهي السابق . والتعدي معناه : تجاوز. الحدود التي شرعها الله - تعالى - عن طريق الإسراف أو عن طريق التقتير - أو عن طريق الاعتداء على حق الغير أو عن طريق يخالف ما شرعه الله - تعالى

وقوله : ( إِنّ الله لاَ يُحِبُّ المعتدين ) في موضع التعليل لما قبله.
أي :لا تحرموا - أيها المؤمنون - على أنفسكم ما أحله الله لكم من طيبات.
ولا تتجاوزوا حدوده بالإسراف . أو بالتقتير أو بتناول ما حرمه عليكم
فإنه - سبحانه - لا يحب الذين يتجاوزون حدود شريعته ، وسنن فطرته . وهدى
نبيه صلى الله عليه وسلم .

وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واتقوا الله الذي انتم به مؤمنون

كما فسرها الوسيط وبعد أن نهى - سبحانه - عن تحريم الطيبات أمر بتناولها
والتمتع بها فقال : (وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّه حَلاَلاً طَيِّباً
واتقوا الله الذي أنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ) .والأمر في قوله ( وَكُلُواْ )
للإباحة . وقيل إنه للندب . ويرى بعضهم أنه للوجوب لأن من الواجب على
المؤمن ألا يترك أمرا أباحه الله - تعالى - تركا مطلقاً لأن هذا الترك يكون
من باب تحريم ما أحله الله .أي : وكلوا - أيها المؤمنون - من الرزق الحلال
الطيب الذي رزقكم الله إياه ، وتفضل عليكم به ( واتقوا الله الذي أنتُم
بِهِ مُؤْمِنُون ) بأن تصونوا أنفسكم عن كل ما يغضبه ، وتلتزموا في مأكلكم
ومشربكم وملبسكم وسائر شئونكم حدود شريعته ، وتوجيهات رسوله صلى الله عليه
وسلم .والمراد بالأكل هنا التمتع بألوان الطيبات التي أحلها الله ، فيدخل
فيه الشرب مما كان حلالا ، وكذلك يدخل فيه كل ما أباحه - سبحانه - من متعة
طيبة تميل إليها النفوس وتشتهيها .وعبر عن مطلق التمتع بما أحله الله
بالأكل ، لأنه أعظم أنواع المتع ، وأهم ألوان منافع الإنسان التي عليها
قوام حياته .وقد زكى - سبحانه - طلب التمتع بعطائه وخيره بأمور منها : أنه
جعله مما رزقهم إياه ، وأنه وصفه بكونه حلالا وليس محرما ، وبكونه طيباً
وليس خبيثاً .والمأكول أو المشروب أو غيرهما متى كان كذلك اتجهت نفس المؤمن
إليه بارتياح وطمأنينة واجتهدت في الشكر لواهب النعم على ما أنعم وأعطى
قال الآلوسي : قوله : ( وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّه حَلاَلاً.
طَيِّباً ) أي : كلوا ما حل لكم وطاب مما رزقكم الله - تعالى - فحلالا
مفعول به لكلوا . و ( مِمّا رَزَقَكُمُ ) حال منه وقد كان في الأصل صفة له
إلا أن صفة النكرة إذا قدمت صارت حالا . والآية دليل لنا في شمول الرزق
للحلال والحرام إذ لو لم يقع الرزق على الحرام لم يكن لذكر الحلال فائدة
سوى التوكيد وهو خلاف الظاهر في مثل ذلك .وقوله : ( واتقوا الله الذي
أنتُم بِهِ مُؤْمِنُون ) استدعاء إلى التقوى وامتثال الوصية بوجه حسن
والآية ظاهرة في أن أكل اللذائذ لا ينافي التقوى . وقد أكل النبي صلى الله.
: عليه وسلم ثريد اللحم ومدحه وكان يحب الحلوى .وقال القرطبي : قال علماؤنا
في هذه الآية وما شابهها ، والأحاديث الواردة في معناها ، رد على غلاة
المتزهدين ، وعلى كل أهل البطالة من المتصوفين ، إذ كل فريق منهم قد عدل عن
طريقه ، وحاد عن تحقيقه .قال الطبري :لا يجوز لأحد من المسلمين تحريم شيء
على نفسه مما أحل الله لعباده المؤمنين من طيبات المطاعم والملابس والمناكح
ولذلك رد النبي صلى الله عليه وسلم التبتل على ابن مظعون ، فثبت أنه لا .
فضل في ترك شيء مما أحله الله لعباده ، وأن الفضل والبر إنما هو في فعل ما
ندب عباده إليه وعمل به رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنه لأمته ، واتبعه
على منهاجه الأئمة الراشدون .وقد جاء رجل إلى الحسن البصري فقال له : إن لي
جارا لا يأكل الفالوذج فقال له ولم؟ قال : يقول ، لا يؤدي شكره . فقال
الحسن : أفيشرب الماء البارد؟ قال : نعم . فقال الحسن : إن جارك جاهل ، فإن
نعمة الله عليه في الماء البارد أكثر من نعمته عليه في الفالوذج .والخلاصة
، أن هاتين الآيتين تنهيان المؤمنين عن تحريم الطيبات التي أحلها الله لهم
وتأمرانهم بالتمتع بها بدون إسراف أو تقتير مع خشيتهم لله - تعالى - وشكره
على ما وهبهم من نعم .وذلك لأن ترك هذه الطيبات يؤدي إلى ضعف العقول
والأجسام ، والإسلام يريد من أتباعه أن يكونوا أقوياء في عقولهم وفي
أجسامهم وفي سائر شئونهم ، لأن المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن
، الضعيف - كما جاء في الحديث الشريف .ولأن دين الإسلام ليس دين رهبانية
وفي الحديث الشريف " إن الله لم يبعثني بالرهبانية " وإنما دين الإسلام
دين عبادة وعمل ، فهو لا يقطع العابد عن الحياة ، ولكنه يأمره أن يعيش
عاملا فيها غير منقطع عنها .وإن التفاصيل بين المؤمنين يكون باستقامة النفس
وسلامة العقبادة وكثرة إيصال النفع للناس . ولا يكون بالانقطاع عن الدنيا ،
وتحريم طيباتها التي أحلها الله - تعالى .وقد وردت آيات وأحاديث كثيرة ،
) - تؤيد معنى هاتين الآيتين الكريمتين .أما الآيات فمنها قوله - تعالى
يابني ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ واشربوا
) - وَلاَ تسرفوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المسرفينَ ) ومنها قوله - تعالى
ياأيها الذين آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ واشكروا
للّهِ إِن كُنْتُمْ إِيّاهُ تَعْبُدُونَ ) وأما الأحاديث فمنها ما أخرجه
الشيخان عن أنس بن مالك قال : " جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى
الله عليه وسلم يسألون عن عبادته فلما أخبروا كأنهم تقالوها - أي عدوها
قليلة - فقالوا : وأين نحن من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قد غفر له ما

تقدم من ذنبه وما تأخر .قال أحدهم : أما أنا فإني أصلي الليل أبداً ، وقال
آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر . وقال آخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج
أبداً .فجاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم فقال : أنتم الذين قلتم كذا
وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له . لكني أصوم وأفطر وأصلي
وأرقد؛ وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني " .ورحم الله الحسن
- البصري فقد قال : إن الله - تعالى - أدب عباده فأحسن أدبهم فقال - تعالى
ما عاب قوما ما وسع عليهم الدنيا ( لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ )
فتنعموا وأطاعوا ، ولا عذر قوما زواها عنهم فعصوه .فعلى المؤمن أن يجتنب
، تحريم الطيبات التي أحلها الله له ، وأن يتمتع بها بدون إسراف أو تقتير
وأن يداوم على شكر الله على نعمه وآلائه ، وأن يجعل جانباً من هذه النعم
: - للإحسان إلى الفقراء والمحتاجين .قال الفخر الرازي: لم يقل- سبحانه
وكلوا ما رزقكم الله ، ولكن قال : ( وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ الله )
وكلمة " من " للتبعيض . فكأنه قال : اقتصروا في الأكل على البعض واصرفوا
) : البقية إلى الصدقات والخيرات لأنه إرشاد إلى ترك الإسراف كما قال
وَلاَ تسرفوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المسرفين ) ثم بين - سبحانه - كفارة
). - اليمين ، وأمر المؤمنين بحفظ إيمانهم فلا يكثروا منها ، فقال - تعالى
( . . . لاَ يُؤَاخِذُكُمُ الله باللغو

لا يؤاخذكم الله باللغو في ايمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الايمان فكفارته
اطعام عشرة مساكين من اوسط ما تطعمون اهليكم او كسوتهم او تحرير رقبة فمن
لم يجد فصيام ثلاثة ايام ذلك كفارة ايمانكم اذا حلفتم واحفظوا ايمانكم كذلك
يبين الله لكم اياته لعلكم تشكرون

كما فسرها الوسيط أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : لما نزلت ( ياأيها الذين
آمَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَآ أَحَلَّ الله لَكُمْ ) في القوم
الذين كانوا حرموا على أنفسهم النساء واللحم : قالوا يا رسول الله . كيف
نصنع بأيماننا التي حلفنا عليها؟ فأنزل الله - تعالى - قوله : ( لاَ
يُؤَاخِذُكُمُ الله باللغو في أَيْمَانِكُمْ ولكن يُؤَاخِذُكُم بِمَا
عَقَّدتُّمُ الأيمان ) الآية واللغو من الكلام - كما يقول الراغب : ما لا
يعتد به منه ، وهو الذي يورد لا عن روية وفكر فيجري مجرى اللغا وهو صوت
) - العصافير ونحوها من الطيور ، وقد يسمي كل قبيح لغو . قال - تعالى
وَإِذَا سَمِعُواْ اللغو أَعْرَضُواْ عَنْهُ ) ولغو اليمين . أن يحلف
الحالف على شيء يرى أنه صادق فيه ثم يتبين له خلاف ذلك .ويرى بعضهم أن لغو
اليمين هو الذي يجري على اللسان بدون قصد ، كقولك لا والله ويلي والله .وقد
رجح هذا القول ابن كثير فقال ما ملخصه . واللغو في اليمين هو قول الرجل في
الكلام من غير قصد :لا والله وبلى والله وهو مذهب الشافعي . وقيل هو في
الهزل . وقيل في المعصية : وقيل على غلبة الظن وهو قول أبي حنيفة وأحمد
والصحيح أنه اليمين من غير قصد بدليل قوله : ( ولكن يُؤَاخِذُكُم بِمَا
عَقَّدتُّمُ الأيمان ) .وقولهك ( عَقَّدتُّمُ ) من العقد وهو الجميع بين
أطراف الشيء لتوثيقه وهو نقيض الحل : وقرأ حمزة والكسائي ( عَقَّدتُّمُ )
بالتخفيف . وقرأ ابن عامر " عاقدتم " .والمراد بعقد الأيمان توكيدها
وتوثيقها قصدا ونية .والمعنى :لا يؤاخذكم الله - أيها المؤمنون - فضلا منه
وكرما على اللغو في اليمين وهو ما يجري على ألسنتكم بدون قصد . ولكن
يؤاخذكم بالعقوبة في الآخرة أو بوجوب الكفارة بتعيدكم الأيمان وتوثيقها
بالقصد والنية ، إذا حنثتم فيها ، بأن تعمدتم الكذب في إيمانكم .فالمراد
بعدم المؤاخذة في قوله ( لاَ يُؤَاخِذُكُمُ الله باللغو في أَيْمَانِكُمْ )
عدم المعاقبة في الدنيا بالكفارة ولا في الآخرة بالعقوبة .والمراد :
: بالمؤاخذة في قوله : ( ولكن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأيمان )
العقوبة الأخروية عند جمهور الفقهاء ويرى الشافعي أن المراد بها الكفارة
التي تجب على الحانث .وقوله ( في أَيْمَانِكُمْ ) متعلق باللغو . وما في
قوله ( بِمَا عَقَّدتُّمُ ) مصدرية أي : ولكن يؤاخذكم بتعقيدكم الأيمان
وتوثيقها . ويحتمل أن تكون موصولة والعائد محذوف . أي ولكن يؤاخذكم بالذي
عقدتم الأيمان عليه .وقوله : ( فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ
مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ
أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ) بيان لكيفية الكفارة والضمير في قوله : فكفارته
يعود على الحنث الدال عليه سياق الكلام وإن لم يرج له ذكر .أي : فكفارة
: الحنث . ولا مانع من عودته إلى الحالف إذا حنث في يمينه فيكون المعنى
فكفارة الحالف إذا حنث في يمينه إطعام عشرة مساكين لأن الشخص الحانث في
، يمينه هو الذي يجب عليه التكفير عن حنثه .والكفارة من الكفر بمعنى الستر
وهي اسم للفعلة التي من شأنها أن تكفر الخطيئة ، أي تسترها وتمحوها ، لأن
الشيء الممحي يكون كالشيء المستور الذي لا يرى ولا يشاهد .وكلمة ( أَوْسَطِ
يرى بعضهم أنها بمعنى الأمثل والأحسن . لأن لفظ الأوسط كثيراً ما يستعمل (
بهذا المعنى ومنه قوله - تعالى ( قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ
لَوْلاَ تُسَبِّحُونَ ) أي : قال أحسنهم عقلا وأمثلهم فكرا ونظراً .ويرى

آخرون أن الأوسط هنا بمعنى المتوسط لأن هذا هو الغالب في استعمال هذه الكلمة ، أي يطعمهم لا من أفخر أنواع الطعام ولا من اردئه ولكن من الطعام الذي يطعم منه أهله في الغالب .والمعنى : لقد تفضل الله عليكم - أيها - المؤمنون - بأن رفع عنكم العقوبة والكفارة في الأيمان اللغو ، ولكنه سبحانه - يؤاخذكم بتعقيدكم الأيمان وتوثيقها إذا ما حنثتم فيها ومتى حنث أحدكم في يمينه ، فمن الواجب عليه لتكفير هذا اليمين ومحو إثمه أن يطعم عشرة مساكين طعاما يكون من متوسط ما يطعم منه أهله في الجودة والمقدار ، أو أن يكسو هؤلاء المساكين العشرة كساء مناسبا ساترا للبدن أو أن يحرر رقبة ) : بأن يعتق عبدا من الرق فيجعله حرا .قال الجمل ما ملخصه : وقوله ، فَكَفّارَتُهُ إِطْعَامُ ) مبتدأ وخبر .وقوله : إطعام مصدر مضاف لمفعوله وهو مقدر بحرف وفعل مبني للفاعل أي فكفارته أن يطعم الحانث عشرة ، وفاعل المصدر يحذف كثيراً .وقوله : ( مِنْ أَوْسَطِ ) في محل نصب مفعول ثان لإطعام؛ ومفعوله الأول عشرة أي : فكفارته أن تطعموا عشرة مساكين إطعاما من : أوسط ما تطعمون أهليكم . . وقوله : ( مَا تُطْعِمُونَ ) مفعوله الأول أهليكم ، ومفعوله الثاني : محذوف أي : " تطعمونه إهليكم " .فأنت ترى أن الله - قد خبر الحانث في يمينه بين أمور ثلاثة يختار إحداها ، فإذا لم يستطع إحداها ، فقد بين سبحانه له حكما آخر فقال : ( فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أيّامٍ ) .أي : فمن لم يجد ما يكفر حنثه في يمينه من إطعام أو كساء أو تحرير رقبة فعليه حينئذ أن يصوم ثلاثة أيام ، تطهيرا لنفسه ، وتكفيرا عن ذنبه ، وتقوية لإرادته وعزيمته .واسم الإشارة في قوله يعود إلى المذكور من ( ذلك كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ) : الإطعام والكساء وتحرير الرقبة والصوم .أي : ذلك الذي شرعناه لكم كفارة لأيمانكم إذا حلفتم وحنثتم فيها ، وخالفتم طريق الحق الذي أمركم الله تعالى باتباعه .وقوله : ( واحفظوا أَيْمَانَكُمْ ) أمر من الله تعالى لعباده بأن يصونوا أنفسهم عن الحنث في أيمانهم ، وعن الإكثار منها لغير ضرورة ، فإن الإكثار من الحلف بغير ضرورة يؤدي إلى قلة الحياء من الله تعالى . كما أن الحلف الكاذب يؤدي إلى سخطه سبحانه على الحالف وبغضه له .وقوله : ( كذلك يُبَيِّنُ الله لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلّكُمْ تَشْكُرُونَ ) تذييل قصد به : التذكير بنعم الله حتى يداوم الناس على شكرها وطاعة واهبها عز وجل .أي مثل هذا البيان البديع الجامع لوجوه والفلاح ، يبين الله لكم آياته المشتملة على الأحكام الميسرة ، والتشريعات الحكيمة ، والهدايات الجليلة لعلكم بذلك تستمرون على شكر الله وطاعته ، وتواظبون على خشيته ومراقبته فتنالون ما وعدكم من فلاح وسعادة .هذا ، ومن الأحكام التي أخذها العلماء من هذه الآية ما يأتي :1 - أن اليمين اللغو لا مؤاخذة فيها . أي :لا عقوبة عليها في الآخرة ولا كفارة لها في الدنيا لقوله تعالى : ( لاَ يُؤَاخِذُكُمُ الله باللغو في أَيْمَانِكُمْ ) .ونعني بها - كما سبق أن أشرنا - أن يقول الرجل من غير قصد الحلف لا والله وبلى والله .ومع هذا فمن الأفضل للمؤمن ألا يلجأ إلى الحلف إلا إذا كانت هناك ضرورة تدعو لذلك؛ لأن الإكثار من الحلف يسقط مهابة الإنسان ، وقد يفضي به إلى الاستهانة بالآداب الحميدة التي شرعها الله .قال تعالى : ( وَلاَ تتخذوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ السواء بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ الله وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ) 2 - أن اليمين التي يحلفها الحالف بالقصد والنية وهو كاذب فيها ، يستحق صاحبها العذاب الشديد من الله - تعالى - ، وهي التي يسميها الفقهاء باليمين الغموس ، أي التي تغمس صاحبها في النار - تعالى - ( ولكن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقّدتُّمُ الأيمان ) .أي : بما صممتم عليه منها وقصدتموه وأنتم حانثون فيها .قال القرطبي ما ملخصه : خرج البخاري عن عبد الله بن عمرو قال : " جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ما الكبائر؟ قال : " الإشراك بالله . قال : ثم ماذا؟ قال : عقوق الوالدين . قال : ثم ماذا؟ قال : اليمين الغموس " قلت : وما اليمين الغموس؟ قال : التي يقتطع بها مال أمرئ مسلم وهو كاذب فيها " .وخرج مسلم عن أبي أمامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من اقطتع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة . فقال رجل : وإن كان شيئا " يسيرا يا رسول الله؟ قال صلى الله عليه وسلم : وإن كان قضيبا من أراك وقد اختلف في اليمين الغموس فالذي عليه الجمهور أنها يمين مكر وخديعة وكذب. فلا تنعقد ولا كفارة فيها . لأن هذا الحالف قد جمع بين الكذب ، واستحلال مال الغير ، والاستخفاف باليمين بالله . فأهان ما عظمه الله ، وعظم ما حقره الله ، ولهذا قيل : إنما سميت اليمين الغموس غموسا ، لأنها تغمس صاحبها في النار .وقال الشافعي : " هي يمين منعقدة ، لأنها مكتسبة بالقلب ، معقودة بخبر ، مقرونة باسم الله - تعالى - ، وفيها الكفارة .والصحيح الأول : وهو قول مالك بن أنس ومن تبعه من أهل المدينة ، وبه قال الأوزاعي والثوري وأهل العراق وأحمد وإسحاق وأصحاب الحديث وأصحاب الرأي من أهل الكوفة .3 - أن ) أو ) في قوله - تعالى : ( فَكَفّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ

تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ) للتخيير .أي : أن الحالف إذا حنث في يمينه فهو مخير
بين واحد من أمور ثلاثة ليكفر عن يمينه التي حنث فيها . وهذه الثلاثة هي
الإطعام أو الكسوة ، أو عتق الرقبة . فإذا لم يجد إحدى هذه الكفارات
الثلاث انتقل إلى الصوم .قال الفخر الرازي : وأعلم أن الآية دالة على أن
الواجب في كفارة اليمين أحد الأمور الثلاثة على التخيير ، فإن عجز عنها
جميعا فالوجب شيء آخر وهو الصوم .ومعنى الواجب المخير أنه لا يجب عليه
الإتيان بكل واحد من هذه الثلاثة ولا يجوز له تركها جميعا . ومتى أتى بأي
واحد شاء من هذه الثلاثة فإنه يخرج عن العهدة . فإذا اجتمعت هذه القيود
الثلاثة فذاك هو الواجب المخير .وللعلماء أقوال متعددة في الإطعام المطلوب
لكفارة اليمين .قال القرطبي ما ملخصه : قوله - تعالى - : ( إِطْعَامُ
عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ ) لابد
عندنا - أي المالكية - وعند الشافعي من تمليك ما يخرج لهم ودفعه إليهم حتى
يتملكوه ويتصرفوا فيه .وقال أبو حنيفة : لو غداهم وعشاهم جاز . والأوسط هنا
منزلة بين منزلتين ونصفا بين طرفين - أي يطعمهم من غالب الطعام الذي يطعم
منه أهله لا من أدناه حتى لا يبخس المساكين حقهم ولا من أعلاه حتى لا يتكلف
ما يشق عليه - .والإطعام عند مالك : مد لكل واحد من المساكين العشرة . وبه
قال الشافعي . وقال أبو حنيفة : يخرج من البر نصف صاع ، ومن التمر والشعير
صاعا . أي يخرج ما يجب في صدقه الفطر .ولا يجوز عندنا دفع الكفارة إلى
مسكين واحد وبه قال الشافعي ، لأن الله - تعالى - نص على العشرة فلا يجوز
العدول عنهم ، وأيضاً فإن فيه إحياء جماعة من المسلمين وكفايتهم يوما واحدا
فيتفرغون فيه لعبادة الله ولدعائه ، فغفر للمكفر بسبب ذلك .وقال أبو ،
حنيفة : يجزئه - أي : إذا أطعم واحد عشر مرات أغني عن إطعام العشرة - لأن
المقصود من الآية التعريف بقدر ما يطعم ، فلو دفع ذلك القدر لواحد أجزأه
ذلك .قال الشافعي : لو دفع إلى كل واحد من العشرة ما يصدق عليه اسم
الكسوة - من قميص أو سراويل - أجزأه ذلك .وقال مالك وأحمد : لابد أن يدفع
إلى كل واحد منهم من الكسوة ما يصح أن يصلي فيه ، إن كان رجلا أو امرأة كل
بحسبه .وقال أبو حنيفة : الكسوة في كفارة اليمين لكل مسكين ثوب وإزار .ولا
تجزئ القيمة عن الطعام والكسوة عند الشافعي .وقال أبو حنيفة : تجزئ القيمة
لأن الغرض سد حاجة المحتاج ، وقد تكون القيمة أنفع له .والنوع الثالث ،
الذي به تكون كافرة اليمين : تحرير رقبة أي : إعتاقها من الرق ، والمراد
بالرقبة جملة الإنسان .قال الرازي : المراد بالرقبة : الجملة قيل : الأصل
في هذا المجاز أن الأسير في العرب كانت تجمع يداه إلى رقبته بحبل . فإذا
أطلق حل ذلك الحبل . فسمى الإطلاق من الرقبة فك الرقبة . ثم جرى ذلك على
العتق . وقد أخذ بإطلاقها أبو حنيفة فقال : تجزئ الكافرة كما تجزئ المؤمنة
وقال الشافعي وآخرون : لابد أن تكون مؤمنة .فإن قيل : أي فائدة في تقديم .
الإطعام على العتق مع أن العتق أفضل لا محالة؟ قلنا له وجوه .أحدها : أن
، المقصود منه التنبيه على أن هذه الكفارة وجبت على التخيير لا على الترتيب
لأنها لو وجبت على الترتيب لوجبت البداءة بالأغلظ .وثانيها : قدم الإطعام
- لأنه أسهل ، لكون الطعام أعم وجودا ، والمقصود منه التنبيه على أنه
، تعالى - يراعي التخفيف والتسهيل في التكاليف .وثالثها : أن الإطعام أفضل
لأن الحر الفقير قد لا يجد الطعام ، ولا يكون هناك من يعطيه الطعام فيقع في
الضر . أما العبد فإنه يجب على مولاه إطعامه وكسوته .4 - يرى مالك والشافعي
أن قوله : تعالى : ( فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيّامٍ ) يصدق على الصيام
المتتابع والمتفرق ، فلو صام الحالف ثلاثة أيام متفرقة أجزأه ذلك ، لأن
التتابع صفة لا تجب إلا بنص أو قياس على منصوص وقد عدما .ويرى أبو حنيفة
" وأحمد صوم الثلاثة أيام متتابعة ، فقد قرأ أبي بن كعب وعبد الله بن مسعود
فصيام ثلاثة أيام متتابعات " وقراءتهما لا تختلف عن روايتهما .وقال ابن
كثير : واختلف العلماء هل يجب فيها التتابع أو يستحب ولا يجب ويجزئ
التفريق؟ قولان :أحدهما :لا يجب وهذا منصوص الشافعي في كتاب الأيمان . وهو
قول مالك ، لإطلاق قوله : ( فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ ) وهو صادق على
المجموعة والمفرقة كما في قضاء رمضان لقوله : ( فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيّامٍ
أُخَرَ ) ونص الشافعي في موضع آخر في الأم على وجوب التتابع كما هو مذهب
الحنفية والحنابلة لأنه قد روى عن أبي بن كعب وغيره أنه كان يقرؤها " فصيام
ثلاثة أيام متتابعات " وحكاها مجاهد والشعبي وأبو إسحاق عن عبد الله بن
مسعود . وهذه ، أيام لم يثبت كونها قرآنا متواترا فلا أقل من أن يكون خبر
واحد أو تفسيرا من الصحابة وهو في حكم المرفوع .وروى ابن مردويه عن ابن
عباس قال : لما نزلت آية الكفارات قال حذيفة يا رسول الله نحن بالخيار؟ قال
أنت بالخيار . إن شئت أعتقت . وإن شئت كسوت . وإن شئت أطعمت .فمن لم يجد :
فصيام ثلاثة أيام متتابعات .ويبدو لنا أن الصيام المتتابع أفضل ، لأن قراءة
أبي وحديث حذيفة يزكيانه ، ولأنه رأى عدد كبير من الصحابة منهم عبد الله بن
مسعود .5 - أخذ بعض العلماء من قوله - تعالى : ( فَكَفّارَتُهُ إِطْعَامُ
عَشَرَةِ مَسَاكِينَ ) . . . إلخ . أن الكفارة لا تكون إلا بعد الحنث؛ لأن
السبب في الكفارة هو الحنث ، وم ادام لم يتحقق فإن لا كفارة .وقال آخرون
يجوز أن تتقدم الكفارة عند نية الحنث ، وتقوم النية مقام الحنث بالفعل .وقد

تكلم عن هذه المسألة الإمام القرطبي فقال ما ملخصه : اختلف العلماء في تقديم الكفارة على الحنث أتجزئ أم لا على ثلاثة أقوال :أحدها : يجزئ مطلقا وهو مذهب أربعة وعشرين من الصحابة ، وجمهور الفقهاء ، وهو مشهور مذهب مالك فقد قال أبو موسى الأشعري : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " وإني ، والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا كفرت عن يمين وأتيت الذي هو خير " رواه وأخرجه أبو داود .ومن جهة المعنى أن اليمين سبب الكفارة ، لقوله - تعالى ( ذلك كَفّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ) فأضاف الكفارة إلى اليمين والمعاني تضاف إلى أسبابها . وأيضاً بدل عن البر فيجوز تقديمها قبل الحنث .وثانيها : قال أبو حنيفة وأصحابه لا يجزئ بوجه لما رواه مسلم عن عدي بن حاتم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من حلف على يمين ثم رأى غيرها خيرا منها فليأت الذي هو خير - زاد النسائي - وليكفر عن يمينه "ومن جهة المعنى أن الكفارة إنما هو لرفع الإثم ، وما لم يحنث لم يكن هناك ما يرفع فلا معنى لفعلها . وأيضاً فإن كل عبادة فعلت قبل وجوبها لم تصح اعتباراً بالصلوات وسائر العبادات وثالثها : قال الشافعي : تجزئ بالإطعام والعتق والكسوة ولا تجزئ بالصوم؛ لأن عمل البدن لا يقدم قبل وقته . ويجزئ في غير ذلك تقديم الكفارة .6 - أخذ العلماء من قوله - تعالى - ( واحفظوا أَيْمَانَكُم ) أن من الواجب على المؤمن أن يقلل من الأيمان فلا يلجأ إليها إلا عند الضرورة ، وأن يحرص على أن يكون صادقا فيها حتى لا يحتاج إلى التفكير عنها؛ وأن يبادر إلى التفكير عنها إذا كانت المصلحة تستدعي الحنث فيها ، لما سبق أن ذكره القرطبي من حديث أبي موسى الأشعري وحديث عدي بن حاتم .ولما رواه الشيخان عن عبد الرحمن بن سمرة قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم" يا عبد الرحمن بن سمرة ، لا تسأل الإمارة فإنك إن أوتيتها عن مسألة وكلت إليها ، وأن أوتيتها عن غير مسألة أعنت عليها . وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فكفر عن يمينك وأت الذي هو خير " .هذا " وقد ساق صاحب المنار في نهاية تفسيره لهذه الآية بحوثا تتعلق بالأيمان فقال ما ملخصه :( أ )لا يجوز في الإسلام الحلف بغير الله تعالى - وأسمائه وصفاته ، لما رواه الشيخان من حديث ابن عمر : " من كان حالفا لا يحلف إلا بالله " ورويا عنه أيضا أن النبي صلى الله عليه وسلم سمع رجلا يحلف بأبيه فقال : " إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، فمن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت " .روى أحمد والبخاري وأصحاب السنن عن ابن عمر أيضا قال : كان أكثر ما يحلف به النبي صلى الله عليه وسلم يحلف : "لا ومقلب القلوب " .وهذه الأحاديث الصحيحة صريحة في حظر الحلف بغير الله ويدخل النبي صلى الله عليه وسلم في عموم غير الله وكذلك الكعبة وسائر ما هو معظم شرعا تعظيما يليق به .( ب ) ثم قال ويجوز الحنث للمصلحة الراجحة فقد روى الشيخان وأحمد عن عبد الرحمن بن سمرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا حلفت على يمين ورأيت غيرها خيرا منها فأت الذي هو خير وكفر عن يمينك وفي رواية فكفر عن يمينك وأت الذي هو خير " وينقسم الحلف باعتبار المحلوف عليه إلى أقسام :1 - أن يحلف على فعل واجب. وترك حرام ، فهذا تأكيد لما كلفه الله إياه فيحرم الحنث ويكون إثمه مضاعفا إن يحلف على ترك واجب أو فعل محرم ، فهذا يجب عليه الحنث ، لأنه يمين - 2. معصية على ترك فريضة من الفرائض ، أو حق من الحقوق الواجبة عليه .3 - أن يحلف على فعل مندوب أو ترك مكروه ، فهذا طاعة فيندب له الوفاء ويكره الحنث كذا قال بعضهم . والظاهر وجوب الوفاء كما قالوا في النذر .4 - أن يحلف على ترك مندوب أو فعل مكروه ، فيستحب له الحنث ويكره التمادي كذا قالوا . وظاهر الحديث وجوب الكفارة والحنث مطلقا .5 - أن يحلف على ترك مباح وقد اختلفوا فيه : فقال ابن الصباغ : إن ذلك يختلف باختلاف الأحوال .أي أن الحالف يوازن بين مقدار الضرر الذي سيترتب على الاستمرار في الترك ، والخير الذي يجلبه الحنث ، فإن رجح أحدهما مضى فيه .( ج ) - ثم قال : وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : الأيمان - بحسب صيغتها وأحكامها ثلاثة أقسام :أحدها : ما ليس من أيمان المسلمين وهو الحلف بالمخلوقات كالكعبة والملائكة والمشايخ والملوك والآباء ونحو ذلك ، فهذه يمين غير منعقدة ولا كفارة فيها باتفاق العلماء بلهي منهى عنها باتفاق أهل العلم والنهي نهي تحريم في أصح الأقوال . ففي الحديث : " إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، ومن كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت "الثاني : اليمين بالله كقول القائل : والله لأفعلن كذا . فهذه يمين منعقدة فيها الكفارة إذا حنث فيها باتفاق المسلمين .الثالث : أيمان المسلمين التي هي في معنى الحلف بالله ، ومقصود الحالف بها تعظيم الخالق لا الحلف بالمخلوقات كالحلف بالنذر والطلاق والعتاق كقوله إن فعلت كذا فعلي صيام شهر أو الحج إلى بيت الله .فهذه الأيمان للعلماء فيها أقوال أظهرها أنه إذا حنث فيها لزمته كفارة يمين كما قال - تعالى - ( ذلك كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ) وقال تعالى ( قَدْ فَرَضَ الله لَكُمْ تَحِلّةَ أَيْمَانِكُمْ ) ( د ) ثم ختم صاحب المنار مباحثه بقوله : واليمين الغموس التي يهضم بها الحق أو يقصد بها الغش والخيانة ، لن يكفرها عتق ولا صدقة ولا صيام ، بل لابد من التوبة وأداء الحقوق والإستقامة . قال - تعالى - ( وَلاَ تتخذوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ

قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ السواء بِمَا صَدَدتُّمْ عَن
سَبِيلِ الله وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ) وبذلك نرى الآية الكريمة قد بينت
، للمؤمنين ما يجب عليهم إذا ما حنثوا في إيمانهم ، وحضتهم على حفظ أيمانهم
. لكي ينالوا من الله - تعالى - الرضا والفلاح

يا ايها الذين امنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل
الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون

كما فسرها الوسيط وبعد أن نهى الله المؤمنين عن تحريم ما أحله لهم ، وأمرهم
بأن يتمتعوا بما رزقهم من خير بدون إسراف أو تقتير ، وبين لهم حكم ما عقدوه
من أيمان بعد كل ذلك وجه - سبحانه - نداء ثانيا إليهم بين لهم فيه مضار
الخمر وأشباهها من الرذائل ، وأمرهم باجتنابها ، فقال تعالى :( ياأيها
الذين آمَنُوا . . . )قال الفخر الرازي : اعلم أن هذا النوع الثالث من
الأحكام المذكورة في هذا الموضع - فقد امر الله المؤمنين بعدم تحريم
الطيبات ثم بين حكم الأيمان المنعقدة .ووجه اتصال هذه الآيات بما قبلها
أنه - تعالى - قال فيما تقدم : ( لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَآ أَحَلَّ
الله لَكُمْ ) إلى قوله : ( وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ الله حَلاَلاً
طَيِّباً ) ثم لما كان من جملة الأمور المستطابة الخمر والميسر ، لا جرم
- أنه - تعالى - بين أنهما غير داخلين في المحلات بل في المحرمات .والخمر
. بمعنى المصدر - هو الستر ، ولذلك يقال لما يستر به الرأس عند النساء خمار
والخمر - بمعنى الاسم - ما يخمر العقل ويستره ، ويمنعه من التقدير السليم
قال القرطبي : والخمر مأخوذة من خمر ، إذا ستر ، ومن خمار المرأة لأنه:
يستر وجهها . وكل شيء غطى شيئاً فقد خمره . ومنه : خمروا آنيتكم أي : غطوها
وقيل : إنما سميت الخمر خمراً ، لأنها تركت حتى أدركت كما يقال : قد اختمر.
العجين ، أي : بلغ إدراكه ، وخمر الرأي ، أي ترك حتى يتبين فيه الوجه .وقيل
. إنما سميت الخمر خمراً ، لأنها تخالط العقل . من المخامرة وهي المخالطة :
. ومنه قولهم : دخلت في خمار الناس - بفتح الخاء وضمها - أي : اختلطت بهم
فالمعاني الثالثة متقاربة ، فالخمر تركت حتى أدركت ، ثم خالطت العقل ، ثم
خمرته والأصل الستر .والميسر : القمار - بكسر القاف - وهو في الأصل مصدر
ميمي من يسر كالموعد من وعد . وهو مشتق من اليسر بمعنى السهولة ، لأن المال
يجيء للكاسب من غير جهد ، أو هو مشتق من يسر بمعنى جزأ ، ثم أصبح علما على
كل ما يتقامر عليه كالجزور ونحوه .قال القرطبي : الميسر : الجزور الذي
. كانوا يتقامرون عليه ، سمي ميسراً لأنه يجزأ أجزاء فكأنه موضوع التجزئة
. وكل شيء جزأته فقد يسرته . والياسر : الجازر ، لأنه يجزئ لحم الجزور
ويقال للضاربين بالقداح والمتقامرين على الجزور : ياسرون لأنهم جازرون إذ
كانوا سببا لذلك .والمراد بالميسر ما يشمل كل كسب يجيء بطريق الحظ المبني
على المصادفة فاللعب بالنرد على مال يسمى قماراً ، واللعب بالشطرنج على مال
يسمى قماراً وهكذا ما يشبه ذلك من ألوان تمليك المال بالمخاطرة وبطريق الحظ
المبني على المصادفة .وتحريم الميسر تحريم لذات الفعل . فالعمل في ذاته
حرام ، والكسب عن طريقه حرام .والأنصاب : جمع نصب ، وتطلق على الأصنام
التيك انت تنصب للعبادة لها أو على الحجارة التي كانت تخصص للذبح عليها
تقرباً للأصنام .والأزلام : جمع زلم . وهي السهام التي كانوا يتقاسمون بها
. الجزور أو البقرة إذا ذبحت فسهم عليه واحد ، وسهم اثنان وهكذا إلى عشرة
أو هي السهام التي كانوا يكتبون على أحدها : أمرني ربي وعلى الآخر نهاني
ربي ، ويتركون الثالث غفلا من الكتابة فإذا أرادوا سفراً أو حرباً أو
زواجاً أو غير ذلك ، أتوا إلى بيت الأصنام واستقسموها ، فإن خرج أمرني ربي
أقدموا على ما يرونه ، وإن خرج نهاني ربي أمسكوا عنه ، وإن خرج الغفل
أجالوها ثانية حتى يخرج الآمر أو الناهي .وقد نهى الله - تعالى - في إوائل
هذه السورة عن الاستقسام بالأزلام فقال ( وَأَنْ تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزلام
ذلكم فِسْقٌ ) وقوله : ( رِجْسٌ ) أي قذر تأباه النفوس الكريمة والعقول
السليمة لقذارته ونجاسته .قال الفخر الرازي : والرجس في اللغة كل ما استقذر
- من عمل . يقال : رجس الرجل رجسا إذا عمل عملا قبيحا : وأصله من الرجس
بفتح الراء - وهو شدة الصوت . يقال : سحاب رجاس إذا كان شديد الصوت بالرعد
فكأن الرجس هو العمل الذي يكون قوى الدرجة كامل الرتبة في القبح .وقد .
ذكرالمفسرون في سبب نزول هذه الآيات روايات منها : ما جاء في صحيح مسلم عن
سعد بن أبي وقاص أنه قال : نزلت في آيات من القرآن ، وفيه قال . وأتيت على
- نفر من الأنصار فقالوا : تعال نطعمك ونسقيك خمراً وذلك قبل أن تحرم الخمر
: قال فأتيتهم في حش - أي بستان - فإذا رأس جزور مشوى عندهم وزق من خمر قال
فأكلت وشربت معهم . قال : فذكرت الأنصار والمهاجرين عندهم فقلت : المهاجرون
خير من الأنصار . قال . فأخذ رجل - من الأنصار - لحي جمل فضربني به فجرح
- أنفي ، فأتيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم فأخبرته فأنزل الله - تعالى
ياأيها الذين آمَنُواْ إِنَّمَا الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رِجْسٌ )
مِّنْ عَمَلِ الشيطان فاجتنبوه ) . . الآيات .ومنها ما أخرجه ابن جرير عن
ابن عباس قال : نزل تحريم الخمر في قبيلتين من قبائل الأنصار . شربوا حتى

ثملوا ، فعبث بعضهم ببعض ، فلما أن صحوا ، وجعل الرجل منهم يرى الأثر بوجهه
- ولحيته فيقول : فعل هذا بي أخي فلان - وكانوا إخوة ليس في قلوبهم ضغائن
والله لو كان بي رءوفاً رحيما ما فعل بي هذا ، حتى وقعت في قلوبهم الضغائن
) : فأنزل الله : ( ياأيها الذين آمَنُواْ إِنَّمَا الخمر ) إلى قوله
فَهَلْ أَنْتُمْ مُّنتَهُونَ ) .والمعنى : ( ياأيها الذين آمَنُواْ )
إيمانا حقا . إنما تعاطي ( الخمر ) أي : الشراب الذي يخامر العقل ويخالطه
ويمنعه من التفكير السليم ( والميسر ) أي القمار الذي عن طريقه يكون تمليك
المال بالحظ المبني على المصادفة والمخاطرة ( والأنصاب ) أي : الحجارة التي
تذبح عليها الحيوانات تقربا للأصنام . ( والأزلام ) أي : السهام التي عن
) طريقها يطلب الشخص معرفة ما قسم له من خير أو شر . هذه الأنواع الأربعة
، رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشيطان ) أي : مستقذرة تعافها النفوس الكريمة
، وتأباها العقول السليمة ، لأنها من تزيين الشيطان الذي هو عدو للإنسان
ولا يريد له إلا ما كان شيئا قبيحا .قال - تعالى - : ( الشيطان يَعِدُكُمُ
، الفقر وَيَأْمُرُكُم بالفحشآء ) والفاء في قوله ( فاجتنبوه ) للإفصاح
والضمير فيه يعود على الرجس الذي هو خبر عن تلك الأمور الأربعة وهي الخمر
والميسر والأنصاب والأزلام .أي : إذا كان تعاطي هذه الأشياء الأربعة رجسا
وقذر ينأى عنه العقلاء فاجتنبوه لعلكم بسبب هذا الاجتناب والترك لذلك الرجس
تنالون الفلاح والظفر في دنياكم وآخرتكم .والنداء بقوله : ( ياأيها الذين
آمَنُواْ ) عام لجميع المؤمنين ، وقد ناداهم - سبحانه - بهذه الصيغة لتحريك
حرارة العقيدة في قلوبهم حتى يستجيبوا لما نودوا من أجله ، وهو اجتناب تلك
. الرذائل وتركها تركا تاما .وقوله : ( رجس ) خبر عن هذه الرذائل الأربعة
وصح الإخبار به - مع أنه مفرد - عن متعدد هو هذه الأربعة ، لأنه مصدر
يستوي فيه القليل والكثير وشبيه بذلك قوله - تعالى - ( إِنَّمَا المشركون
نَجَسٌ ) وقيل : لأنه خبر عن الخمر ، وخبر المعطوفات عليها محذوف ثقة
: بالمذكور .وقيل : لأن الكلام مضافا إلى تلك الأشياء ، وهو خبر عنه . أي
إنما شأن هذه الأشياء أو تعاطيها رجس .وقوله : ( مِّنْ عَمَلِ الشيطان ) في
، محل رفع على أنه صفة لقوله : ( رِجْسٌ ) أي : رجس كائن من عمل الشيطان
لأنه ناجم عن تزيينه وتسويله ، إذ هو خبيث والخبيث لا يدعو إلا إلى الخبيث
فالمراد من إضافة العمل إلى الشيطان المبالغة في كمال قبح ذلك العمل .وعبر
بقوله : ( فاجتنبوه ) للمبالغة في الأمر بترك هذه الرذائل ، فكأنه سبحانه
يقول لا آمركم فقط بترك الرذائل ، بل آمركم أيضاً بأن تكونوا أنتم في جانب
وهذه المنكرات في جانب آخر . فالأمر هنا نمصب على الترك وعلى كل ما يؤدي
. إلى اقتراف هذه المنكرات كمخالطة المرتكبين لها . وغشيان مجالسها . إلخ

انما يريد الشيطان ان يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم
عن ذكر الله وعن الصلاة فهل انتم منتهون

كما فسرها الوسيط ثم أكد سبحانه تحريم الخمر والميسر ببيان مفاسدهما
الدنيوية والدينية فقال تعالى ( إِنَّمَا يُرِيدُ الشيطان أَن يُوقِعَ
بَيْنَكُمُ العداوة والبغضآء فِي الخمر والميسر وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ
الله وَعَنِ الصلاة فَهَلْ أَنْتُمْ مُّنتَهُونَ ) .أي : إِنَّمَا يُرِيدُ
الشيطان ) بتزيينه المنكرات لكم ( أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العداوة والبغضآء
بأن يقطع ما بينكم من صلات ، ويثير في نفوسكم الأحقاد والضغائن ، بسبب (
تعاطيكم للخمر والميسر ، وذلك لأن شارب الخمر إذا ما استولت الخمر على عقله
أزالت رشده ، وأفقدته وعيه ، وتجعله قد يسيء إلى من أحسن إليه ، ويعتدي على
صديقه وجليسه . وذلك يورث أشد ألوان العداوة والبغضاء بين الناس .ولأن
متعاطي الميسر كثيراً ما يخسر ماله على مائدة الميسر . والمال كما نعلم
شقيق الروح ، فإذا ما خسره هذا المقامر صار عدوا لمن سلب ماله منه عند
المقامرة ، وأصبح يضمر له السوء . وقد يؤدي به الحال إلى قتله حتى يشفي
غيظه منه ، لأنه قد جعله فقيراً بائساً مجرداً من أمواله بعد أن كان مالكها
وفي ذلك ما فيه من تولد العداوة والبغضاء وإيقاد نار الفتن والشرور بين
الناس .فقوله تعالى : ( إِنَّمَا يُرِيدُ الشيطان أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ
العداوة والبغضآء فِي الخمر والميسر ) إشارة إلى مفاسدهما الدنيوية .أما
مفاسدهما الدينية فقد أشار إليها سبحانه بقوله : ( وَيَصُدَّكُمْ عَن
ذِكْرِ الله وَعَنِ الصلاة ) .أي : ويريد الشيطان أيضاً بسبب تعاطيكم للخمر
والميسر - أن يصدكم أي يشغلكم ويمنعكم ( عَن ذِكْرِ الله ) أي : عن طاعته
ومراقبته والتقرب إليه ( وَعَنِ الصلاة ) التي هي الركن الثاني من أركان
الإسلام .وذلك لأن شارب الخمر يمنعه ما حل به من نشوة كاذبة ، ومن فقدان
لرشده عن طاعة الله وعن أداء ما أوجبه عليه من صلاة وغيرها .ولأن متعاطي
الميسر ببسب استحلاله لكسب المال عن هذا الطريق الخبيث ، ويسبب فقدانه
للعاطفة الدينية السليمة صار لا يفكر في القيام بما أوجبه الله عليه من
عبادات .ورحم الله الآلوسي ، فقد قال عنده تفسيره لهذه الآية : ووجه صد
الشيطان لهم عن ذكر الله وعن الصلاة بسبب تعاطيهم للخمر لغلبة السرور بها
- والطرب على النفوس . والاستغراق في الملاذ الجسمانية ، تلهى عن ذكر الله

، تعالى - وعن الصلاة .وأن الميسر إن كان اللاعب به غالباً ، انشرحت نفسه وصده بحب الغلب والقهر والكسب عما ذكر ، وإن كان مغلوبا حصل له من الانقباض والقهر ما يحثه على الاحتيال لأن يصير غالبا فلا يخطر بقلبه غير ذلك .وقد شاهدنا كثيراً ممن يلعب بالشطرنج يجري بينهم من اللجاج والحلف الكاذب والغفلة عن ذكر الله تعالى ما ينفر منه الفيل وتكبو له الفرس ويحار لشناعته الفهم وتسود رقعة الأعمال .وجمع - سبحانه - الخمر والميسر مع الأنصاب والأزلام في الآية في الآية الأولى ثم أفردهما بالذكر في هذه الآية ، لأن الخطاب للمؤمنين ، والمقصود نيهم عن الخمر والميسر ، وإظهار أن هذه الأربعة متقاربة في القبح والمفسدة ، أي أن مجيء الأنصاب والأزلام مع الخمر والميسر إنما هو لتقبيح تعاطيهما ، وتأكيد حرمتهما ، حتى لكأن متعاطي الخمر والميسر يفعل أفعال أهل الجاهلية ، وأهل الشرك بالله - تعالى - وكأنه - كما يقول الزمخشري - :لا مباينة بين من عبد صنما وأشرك بالله في علم الغيب ، وبين ، من شرب خمراً أو قامر .وخص الصلاة بالذكر مع أنها لون من ألوان ذكر الله تعظيما لشأنها ، كما هو الحال في ذكر الخاص بعد العام ، وإشعارا بأن الصاد عنها كالصاد عن الإيمان ، لما أنها عماد الدين والفارق بين المسلم وبين الكافر .والاستفهام في قوله ( فَهَلْ أَنْتُمْ مُّنتَهُونَ ) لإنكار استمرارهم على الخمر والميسر بعد أن بين لهم ما بين من مضارهما الدنيوية والدينية ولحضهم على ترك تعاطيهما فورا ، أي : انتهوا سريعاً عنهما فقد بينت لكم ما يدعو إلى ذلك .

واطيعوا الله واطيعوا الرسول واحذروا فان توليتم فاعلموا انما على رسولنا البلاغ المبين

" : كما فسرها الوسيط ولقد لبى الصحابة - رضي الله عنهم - هذا الأمر فقالوا انتهينا يا رب؛ انتهينا يا رب " ( وَأَطِيعُواْ الله وَأَطِيعُواْ الرسول واحذروا ) .أي : اجتنبوا - أيها المؤمنون - هذه الرذائل وانتهوا عنها فقد بينت كلم مضارها ، ( وَأَطِيعُواْ الله وَأَطِيعُواْ الرسول ) في جميع ما أمرا به ونيها عنه ( واحذروا ) مخالفتهما ، لأن مخالفة أوامرهما تؤدي إلى الحسرة والخسران .وأمر - سبحانه - بطاعته وبطاعته رسوله مع أن طاعة رسوله طاعة له - سبحانه - لتأكيد الدعوة إلى هذه الطاعة ، ولتكريم الرسول صلى الله عليه وسلم حيث جعلت طاعته مجاورة لطاعة الله - تعالى - .وقوله ) : ( فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فاعلموا أَنَّمَا على رَسُولِنَا البلاغ المبين تأكيد للتحذير السابق وتنبيه إلى سوء عاقبة العاصين لأمر الله ورسوله وجواب الشرط محذوف والتقدير : أطيعوا الله وأطيعوا الرسول - أيها المؤمنون - واحذوار مخالفة أمرهما ، فإن توليتم وأعرضتم عن طاعتهما ، فقد وقعتم في الخطيئة وستعاقبون عليها عقاب شديدا ، واعلموا أنه ليس على رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم سوى التبليغ الواضح الين عن الله - تعالى - أما الحساب والجزاء ، والثواب والعقاب فمن الله وحده .فأنت ترى أن هذه الآيات الكريمة قد ذكرت أنواعا من التأكيدات ، وألوانا من التهديدات التي تدعو إلى اجتناب الخمر والميسر اجتنابا تاما وتركهما تركا لا عودة بعده إليهما .وقد وضح صاحب الكشاف هذا المعنى بقوله : أكد - سبحانه - تحريم الخمر والميسر بوجه من التأكيد .منها : تصدير الجملة بإنما .ومنها : قرنهما بعبادة " الأصنام ، ومنه قوله - صلى الله عليه وسلم " شارب الخمر كعابد الوثن ومنها : أنه جعلهما رجسا كما قال - تعالى ( فاجتنبوا الرجس مِنَ الأوثان ). ومنها : أنه جعلهما من عمل الشيطان ، والشيطان ، لا يأتي منه إلا الشر البحت .ومنها : أنه أمر بالاجتناب وظاهر الأمر للوجوب .ومنها : أنه جعل الاجتناب من الفلاح ، وإذا كان الاجتناب فلاحاً ، كان الارتكاب خيبة وخسراناً .ومنها : أنه ذكر ما ينتج منهما من الوبال - وهو وقوع التعادي والتباغض - وما يؤديان إليه من الصد عن ذكر الله وعن مراعاة أوقات الصلاة ، ومنها : قوله ( فَهَلْ أَنْتُمْ مُّنتَهُونَ ) فهو من أبلبغ ما ينهى به. كأنه قيل : قد تلى عليكم ما فيهما من أنواع الصوارف والموانع فهل أنتم مع هذه الصوارف منتهون أم أنتم باقون على ما كنتم عليه ، كأن لم توعظوا ولم تزجروا .هذا ومن الأحكام التي أخذها العلماء من هذه الآيات ما يأتي :1 - أن هذه الآيات الكريمة هي آخر ما نزل في القرآن الكريم لتحريم الخمر تحريما قاطعاً لأن التعبير بالانتهاء والأمر به فيه إشارة إلى تمهيدات سابقة للتحريم .قال القرطبي : تحريم الخمر كان بتدريج ونوازل كثيرة . فإنهم كانوا مولعين بشربها ، وأول ما نزل في شأن الخمر قوله - تعالى -( يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخمر والميسر قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ) أي : في تجارتهم . فلما نزلت هذه الآية تركها بعض الناس وقالوا :لا حاجة فيما فيه إثم كبير ، ولم يتركها بعض الناس . وقالوا : نأخذ منفعتها ونترك إثمها فنزلت هذه الآية ( يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصلاة وَأَنْتُمْ سكارى ) فتركها بعض الناس وقالوا :لا حاجة فيما يشغلنا عن الصلاة وشربها بعض الناس في غير أوقات الصلاة ، حتى نزلت : ( ياأيها الذين آمَنُواْ إِنَّمَا الخمر والميسر ) الآية . فصارت حراماً عليهم حتى

صار بعضهم يقول : ما حرم الله شيئا أشد من الخمر .وأخرج عبد بن حميد عن
الربيع أنه قال : لما نزلت آية البقرة ( يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخمر والميسر
، " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن ربكم يقدم في تحريم الخمر (
ثم نزلت آية في سورة النساء : ( لاَ تَقْرَبُواْ الصلاة وَأَنْتُمْ سكارى )
فقال صلى الله عليه وسلم : " إن ربكم يقدم في تحريم الخمر " ثم نزلت آية
المائدة : ( ياأيها الذين آمَنُواْ إِنَّمَا الخمر والميسر ) فحرمت عند ذلك
: ولما سمع عمر قوله - تعالى - ( فَهَلْ أَنْتُمْ مُّنتَهُونَ ) قال.
انتهينا يا رب .ولا شك في أن تدرج القرآن في تحريم الخمر يدل دلالة واضحة
على رحمة الله - تعالى - بعباده المؤمنين وتربية حكيمة حتى يقلعوا عما
تعودوه بسهولة ويسر وذلك لأن شرب الخمر كان من العادات المتأصلة في النفوس
ويكفي للدلالة على حب العرب لها قول أنس بن مالك : حرمت الخمر ولم يكن
للعرب عيش أعجب منها . وما حرم عليهم شيء أشد عليهم من الخمر .ولقد كان
موقف الصحابة من هذا التحريم لما يحبونه ويشتهونه ، يمثل اسمى ألوان الطاعة
والاستجابة لأمر الله - تعالى - فعندما بلغهم تحريم الخمر أراقوا ما عندهم
منها في الطرقات ، بل وحطموا الأواني التي كانت توضع فيها الخمر .أخرج
البخاري عن أنس قال : كنت ساقي القوم فيث منزل أبي طلحة ، وكان خمرهم يومئذ
الفضيح - أي : نقيع البسر فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم مناديا ينادي
: ألا إن الخمر قد حرمت " .قال : فقال لي أبو طلحة : أخرج فأهرقه . قال "
فخرجت فهرقتها فجرت في شكك المدينة .وأخرج ابن جرير عن قتادة عن أنس بن
، مالك قال : بينما أنا أدير الكأس على أبي طلحة ، وأبي عبيدة بن الجراح
ومعاذ بن جبل وسهيل بن بيضاء وأبي دجانة حتى مالت رءوسهم من خليط بسر وتمر
فسمعنا مناديا ينادي : إن الخمر قد حرمت . قال : لما دخل علينا داخل ولا ،
خرج ، حتى أهرقنا الشراب ، وكسرنا القلال ، وتوضأ بعضنا ، واغتسل بعضنا ثم
خرجنا إلى المسجد وإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ ( ياأيها الذين
آمَنُواْ إِنَّمَا الخمر والميسر ) .. إلى قوله ( فَهَلْ أَنْتُمْ
مُّنتَهُونَ ) .فقال رجل لقتادة : سمعته من أنس بن مالك؟ قال : نعم وقال
رجل لأنس أنت سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم . وحدثني
- من لم يكذب : والله ما كنا نكذب ، ولا ندري ما الكذب .وأخرج ابن جرير
أيضاً - عن أبي برريدة عن أبيه قال : بينما نحن قعود على شراب لنا ، ونحن
نشرب الخمر حلا ، إذ قمت حتى آتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم عليه
. . وقد نزل تحريم الخمر ( ياأيها الذين آمَنُواْ إِنَّمَا الخمر والميسر )
الآيات . فجئت إلى أصحابي فقرأتها عليهم ، إلى قوله : ( فَهَلْ أَنْتُمْ
مُّنتَهُونَ ) قال : وبعض القوم شربته في يده قد شرب بعضاً وبقي بعض
الإناء ، فقال بالإناء تحت شفته العليا ، كما يفعل الحجام . ثم صبوا ما
في باطينهم ، فقالوا : انتهينا ربنا ، انتهينا ربنا .وهكذا ترى أن قوة
الإيمان التي غرسها الإسلام في نفوس اتباعه عن طريق تعاليمه الحكيمة
وتربيته السامية . قد تغلبت على ما أحبته النفوس وأزالت من القلوب ما ألفته
الطبائع إلفا شديداً2 - أن كلمة خمر اسم خامر العقل وغطاه من الأشربة
المسكرة؛ سواء كانت من عصير العنب ، أم من الشعير ، أم من التمر ، أم من
ذلك وكلها سواء في التحريم قل المشروب منها أو كثر ، سكر شاربها أو لم يسكر
وأن على الشارب حد الشرب في الجميع .وبهذا القول قال جمهور العلماء : ومن ،
أدلتهم النقلية ما أخرجه البخاري عن ابن عمر قال : خطب عمر على منبر رسول
" : الله صلى الله عليه وسلم فقال : إنه قد نزل تحريم الخمر وهي خمسة أشياء
العنب والتمر والحنطة والشعير والعسل والخمر ما خامر العقل " .وأخرج أيضاً
عن عائشة قالت : " سئل رسول الله - صلى الله عليه وسلم عن البتع - وهو نبيذ
العسل - وكان أهل اليمن يشربونه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " كل
ما أسكر فهو حرام " " .وأخرج كذلك عن أنس قال : " حرمت علينا الخمر حين
حرمت وما نجد - يعني بالمدينة - خمر الأعناب إلا قليلا ، وعامة خمرنا البسر
والتمر " .فهذه الأحاديث الصحيحة صريحة في أن ما أسكر من هذه الأشربة
المأخوذة من التمر أو الحنطة أو الشعير أو العنب يسمى خمراً .ومن أدلتهم
العقلية الاشتقاق اللغوي لكلمة خمر ، فقد عرفنا أنها سميت بهذا الاسم
لمخامرتها العقل وستره ، فكل ما خامر العقل من الأشربة وجب أن يطلق عليه
لفظ خمر سواء أكان من العنب أم من غيره .ويرى الأحناف ووافقهم بعض العلماء
كإبراهيم النخعي ، وسفيان الثوري ، وابن أبي ليلى : أن كلمة خمر لا تطلق
إلا على الشراب المسكر من عصير العنب فقط .أما المسكر من غيره كالشراب الذي
من التمر والشعير فلا يسمى خمرا بل يسمى نبيذاً .ومن حججهم أن الخمر حرمت
ولم يكن العرب يعرفون الخمر في غير المأخوذ من ماء العنب ، فالخمر عندهم
اسم لهذا النوع فقط . وما وجد فيه مخامرة للعقل من غير هذا النوع لا يسمى
" : خمراً : لأن اللغة لا تثبت من طريق القياس .وقد ورد عن ابن عمر أنه قال
حرمت الخمر وما بالمدينة منها شيء " .ولقد كان بالمدينة من المسكرات نقيع
التمر والبسر ، فدل على أن ابن عمر - وهو عربي - ما كان يرى أن اسم الخمر
يتناول هذين .ويقول الأحناف ومن وافقهم : إن الأحاديث التي استشهد بها
الجهور على أن الخمر اسم لكل مسكر من عصير العنب أو غيره هذه الأحاديث
لبيان الحكم الشرعي ، والحرمة بالقياس لتحقيق علة الحرمة وهي الإسكار في

القدر المسكر من هذه الأشياء .وقد ابتنى على هذا الخلاف بين الجمهور
والأحناف أحكام أخرى تتعلق بنجاسة هذه الأشياء ، وبوجوب إقامة الحد على
، شاربها . . إلخ وتفصيل هذه الأحكام يرجع فيه إلى الكتب الفقه وأصوله .هذا
وقد رجح المحققون من العلماء ما ذهب إليه الجمهور وضعفوا ما ذهب إليه
الأحناف ومن وافقهم .قال ابن العربي : وتعلق أبو حنيفة بأحاديث ليس لها خطم
ولا أزمة فلا يلتفت إليها والصحيح ما رواه الأئمة أن أنسا قال : " حرمت
الخمر يوم حرمت وما بالمدينة خمر الأعناب إلا القليل ، وعامة خمرها البسر
والتمر " .واتفق الأئمة على رواية أن الصحابة إذ حرمت الخمر لم يكن عندهم
يؤمئذ خمر عنب وإنما كانوا يشربون خمر النبيذ فكسروا دنانهم - أي : أواني
الخمر - وبادروا إلى الامتثال لاعتقادهم أن ذلك كله خمر - أي : وأقرهم رسول
، الله على لذلك .وقال الآلوسي : وعندي أن الحق الذي لا ينبغي العدول عنه
أن الشراب المتخذ مما عدا العنب كيف كان وبأي اسم سمى متى كان بحيث يسكر من
لم يتعوده فهو حرام ، وقليله ككثيره ، ويحد شاربه ويقع طلاقه ، ونجاسته
غليظة . وفي الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلم سئل عن النقيع - وهو نبيذ
" : العسل - فقال : " كل شراب أسكر فهو حرام " .وصح عنه صلى الله عليه وسلم
ما أسكر كثيره فقليله حرام " والأحاديث متضافرة على ذلك .ولعمري إن اجتماع
الفساق في زماننا على شرب المسكرات مما عدا الخمر ، ورغبتهم فيها ، فوق
- اجتماعهم على شرب الخمر ورغبتهم فيه بكثير . وقد وضعوا لها أسماء
كالعنبرية والأكسير - ونحوهما ، ظنا منهم أن هذه الأسماء تخرجها من الحرمة
وتبيح شربها للأمة - وهيهات هيهات - فالأمر وراء ما يظنون وإنا لله وإنا ،
، إليه راجعون .3 - قال القرطبي ما ملخصه : " فهم الجمهور من تحريم الخمر
واستخباث الشرع لها ، وإطلاق الرجس عليها ، والأمر باجتنابها ، الحكم
. بنجاستها " .وخالفهم في ذلك - ربيعة والليث بن سعد والمزني صاحب الشافعي
وبعض المتأخرين من البغدادين والقرويين فرأوا أنها طاهرة وأن المحرم إنما
هو شربها .والصحيح ما عليه الجمهور لأن وصفها بأنها ( رِجْسٌ ) يدل على
نجاستها فإن الرجس في اللسان النجاسة .وقوله : ( فاجتنبوه ) يقتضي الاجتناب
المطلق الذي لا ينتفع معه بشيء بوجه من الوجوه وعلى هذا تدل الأحاديث
الواردة في هذا الباب .روى مسلم عن ابن عباس " أن رجلا أهدى لرسول الله صلى
الله عليه وسلم راوية خمر ، - أي قربة خمر - فقال له رسول الله صلى الله
عليه وسلم " هل علمت أن الله حرمها " قال :لا . قال : فسارّ رجلا فقال له
رسول الله صلى الله عليه وسلم " بم ساررته "؟ قال : أمرته أن يبيعها ، فقال
إن الذي حرم شربها حرم بيعها " " .ثم قال القرطبي : وهذه الآيات تدل على ":
أن كل لهو دعا قليلة إلى كثيرة ، وأوقع العداوة والبغضاء بين العاكفين عليه
وصد عن ذكر الله وعن الصلاة فهو كشرب الخمر ، ووجب أن يكون حراماً مثله ،
هذه الآيات الكريمة تدل على تأكيد تحريم الخمر وما ذكر معها من رذائل - 4.
كما تدل على تحريم ما تؤدي إليه من مفاسد ومضار ، وما يحيق بمرتكبها من ،
سوء عاقبة .وقد ساق ابن كثير عند تفسير لهذه الآيات جملة من الأحاديث في
" : هذا المعنى ، ومن هذه الأحاديث ما رواه الإمام أحمد عن ابن عمر قال
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعنت الخمر على عشرة أوجه : " لعنت الخمر
بعينها ، وشاربها ، وساقيها وبائعها ومبتاعها ، وعاصرها ومعتصرها ، وحاملها
: والمحمولة إليه ، وآكل ثمنها " " .وقال ابن وهب - قال عبد الله بن عمر
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم
القيامة : العاق لوالديه ، والمدمن الخمر ، والمنان بما أعطى " .وروى أبو
داود عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " كل مخمر خمر ، وكل
مسكر حرام ، ومن شرب مسكرا بخست صلاته أربعين صباحاً ، فإن تاب؛ تاب الله
عليه ، فإن عاد الرابعة كان حقّاً على الله أن يسقيه من طينة الخبال ، قيل
وما طينة الخبال يا رسول الله؟ قال صلى الله عليه وسلم : صديد أهل النار :
هذا جانب من الأحكام التي أخذها العلماء من هذه الآيات الكريمة ، ومن. "
. الأحاديث التي وردت في حرمة الخمر وفي سوء مصير شاربها

ليس على الذين امنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا اذا ما اتقوا وامنوا
وعملوا الصالحات ثم اتقوا وامنوا ثم اتقوا واحسنوا والله يحب المحسنين

كما فسرها الوسيط وقد أتبع - سبحانه - ذلك ببيان حكم من شربها ومات قبل أن
. ينزل تحريمها فقال - تعالى - :( لَيْسَ عَلَى الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ
روى المفسرون في سبب نزول هذه الآية روايات متقاربة في معناها ، ومن( . .
ذلك ما رواه الترمذي عن البراء بن عازب قال : ما تناس من أصحاب النبي صلى
الله عليه وسلم وهم يشربون الخمر . فلما نزل تحريمها قال ناس من أصحاب
: الرسول صلى الله عليه وسلم فكيف بأصحابنا الذين ماتوا وهم يشربونها قال
فنزلت ( لَيْسَ عَلَى الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ) الآية .وعن
" ابن عباس قال : قالوا يا رسول الله ، أرأيت الذين ماتوا وهم يشربون الخمر
لما نزل تحريم الخمر " فنزلت ( لَيْسَ عَلَى الذين آمَنُواْ ) الآية .وروى
الإمام أحمد من حديث أبي هريرة أنه بعد أن نزل قوله - تعالى - ( ياأيها
الذين آمَنُواْ إِنَّمَا الخمر والميسر ) الآيات ، قال الناس : يا رسول

الله ، ناس قتلوا في سبيل الله أو ماتوا على فرشهم ، كانوا يربون الخمر
- ويأكلون مال الميسر، وقد جعله الله رجسا ومن عمل الشيطان؟ فأنزل الله
تعالى - ( لَيْسَ عَلَى الذين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصالحات جُنَاحٌ
فِيمَا طعموا ) الآية .قال القرطبي : وهذه الآية وتلك الأحاديث نظير سؤالهم
عمن مات إلى القبلة الأولى فنزلت ( وَمَا كَانَ الله لِيُضِيعَ
إِيمَانَكُمْ ) ومن فعل ما أبيح له حتى مات على فعله لم يكن له ولا عليه
شيء ، لا إثم ول مؤاخذة ولا ذم ولا أجر ولا مدح ، لأن المباح مستوى الطرفين
بالنسبة إلى الشرع ، وعلى هذا فما كان ينبغي أن يتخوف ولا يسأل عن حال من
مات والخمر في بطنه وقت إباحتها ، فإما أن يكون ذلك القائل غفل عن دليل
الإباحة فلم يخطر له ، أو يكون لغلبة خوفه من الله - تعالى - وشفقته على
إخوانه المؤمنين توهم مؤاخذة ومعاقبة لأجل شرب الخمر المتقدم ، فرفع الله
التوهم بقوله : ( لَيْسَ عَلَى الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات
جُنَاحٌ فِيمَا طعموا ) الآية .وقال الآلوسي : وقيل إن هذه الآية نزلت في
القوم الذين حرموا على أنفسهم اللحوم وسلكوا طريق الترهب كعثمان بن مظعون
، وغيره والأول هو المختار .وقوله - تعالى - ( فِيمَا طعموا ) أي : ذاقوا
مأخوذ من الطعم - بالفتح - وهو تذوق الشيء والتلذذ به ، سواء أكان مأكولا
أم مشروبا وهو المراد هنا .قال القرطبي : وأصل هذه الكلمة في الأكل . يقال
طعم الطعام وشرب الشراب لكن قد تجوز في ذلك فيقال : لم أطعم خبزاً ولا " :
ماء ولا نوماً " .والمعنى : ( لَيْسَ عَلَى الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ
الصالحات جُنَاحٌ ) أي : حرج أو إثم ( فِيمَا طعموا ) أي فيما تناولوه من
خمر أو ما يشبهها من محرمات قبل أن يحرمها الله - تعالى - وكذلك لا إثم ولا
حرج على من مات قبل التحريم .وقوله : ( إِذَا مَا اتقوا وَآمَنُواْ
وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ) تحريض للمؤمنين على الأزدياد من الإيمان
والتقوى والعمل الصالح .أي : إذا ما اتقوا الله وخافوه وتلقوا أوامره
) : بالقبول ، وثبتوا على الإيمان ، وأكثروا من الأعمال الصالحات .وقوله
ثُمَّ اتَّقَواْ وَآمَنُواْ ) معطوف على ما قبله .أي : ثم استمروا على
تقواهم وامتلاء قلوبهم بخشية الله ، والإيمان الحق به - سبحانه - فتكرير
التقوى والإيمان هنا لبيان أنه يجب استمرارهم ومواظبتهم على ذلك ، مع
: تمسكهم بما يقتضيه الإيمان والتقوى من فعل الخير وابتعاد عن الشر .وقوله
معطوف على ما قبله - أيضاً - لتأكيد ( ثُمّ اتّقَواْ وّأَحْسَنُواْ )
معنى الاستمرار على هذه التقوى طول مدة حياتهم مع إحسانهم إلى أنفسهم
بالإكثار من العمل الصالح ، وإلى غيرهم بما يستطيعونه من إسداء الخير إليه
وقوله : ( والله يُحِبُّ المحسنين ) تذييل قصد به تأكيد ما قبله من الحض.
على الإيمان والتقوى والإحسان ، ومدح المتمسكين بتلك الصفات الحميدة .أي
والله - تعالى - يحب المحسنين إلى أنفسهم بإلزامهم بالوقوف عند حدود الله :
والاستجابة له فيما أمر أو نهى أو أحل أو حرم يرغبة ومسارعة ، وإلى غيرهم ،
بمد يد العون إليهم .فالآية الكريمة من مقاصدها بيان جانب من مظاهر رحمة
الله بعباده ، ورأفته بهم؛ حيث بين لهم : أن من شرب الخمر أو لعب الميسر أو
فعل ما يشبههما من محرمات ، ثم مات قبل أن ينزل الأمر بتحريم هذه الأشياء
فإن الله - تعالى -لا يؤاخذه على ذلك . لأن المؤاخذة على الفعل تبدأ من
وقت تحريمه لا من قبل تحريمه .وكذلك الحال بالنسبة لمن وقع في هذه الأشياء
قبل أن تحرم فإن الله لا يؤاخذه عليها ، وإنما يؤاخذه عليها بعد نزول
تحريمها وهذا من فضل الله على عباده ، ورحمته بهم .هذا ، وقد تعددت أقوال
المفسرين حول مسألتين تتعلقان بهذه الآية الكريمة .أما المسألة الأولى فهي
كيف شرط الله في رفع الجناح أي الإثم عن المطعوعات والمشروبات الإيمان :
والتقوى ، مع أن الجناح مرفوع عن المباح من هذه الأشياء حتى عن
الكافرين؟وقد قالوا في الإجابة على ذلك : إن تعليق نفي الجناح أي الإثم
بهذه الأحوال ليس على سبيل اشتراطها، فإن نفي الإثم عن الذي يتناول المباح
قبل أن يحرم لا يتشرط بشرط ، وإنما تعليق نفي الجناح بهذه الأحوال - وهي
التقوى والإيمان - وارد على سبيل المدح لهم ، والثناء عليهم؛ والدلالة على
أنهم جديرون بهذه الصفات ، ولإدخال الطمأنينة على قلوبهم حتى يوقنوا بأن
من تعاطي شيئا من المحرمات قبل تحريمها فلا يؤاخذه الله على ذلك ، وإنما
يؤاخذه إذا تعاطاها بعد تحريمها .وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله
قيل لما نزل تحريم الخمر قالت الصحابة : يا رسول الله!! كيف بإخواننا " :
الذين ماتوا وهم يشربون الخمر ويأكلون مال الميسر؟ فنزلت الآية ( لَيْسَ
عَلَى الذين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصالحات جُنَاحٌ ) .. إلخ يعني أن
المؤمنين لا جناح عليهم في أي شيء طعموه من المباحات إذا ما اتقوا المحارم
ثم اتقوا وآمنوا وأحسنوا ، على معنى : أن أولئك كانوا على هذه الصفة ثناء ،
: عليهم وحمدا لأحوالهم في الإيمان والتقوى والإحسان . ومثاله أن يقال لك
هل على زيد جناح فيما فعل؟ فتقول : وقد علمت أن ذلك أمر مباح : ليس على أحد
جناح في المباح إذا اتقى المحارم ، وكان مؤمنا محسناً . تريد : أن زيداً
تقي مؤمن محسن ، وأنه غير مؤاخذ بما فعل .وقال أبو السعود ما ملخصه : ما
عدا اتقاء المحرمات من الصفات الجميلة المذكورة ، لا دخل لها في انتفاء
الجناح . وإنما ذكرت في حيز ( إذا ) شهادة باتصاف الذين سألوا عن حالهم بها

ومدحا لهم بذلك ، وحمداً لأحوالهم . فكأنه قيل : ليس عليهم جناح فيما ، طعموه إذا كانوا في طاعته تعالى : مع ما لهم من الصفات الحميدة بحيث كلما أمروا بشيء تلقوه بالامتثال ، وإنما كننوا يتعاطون الخمر والميسر في حياتهم لعدم تحريمها إذ ذاك ، ولو حرما في عصرهم لا تقوهما بالمرة " .وأما المسألة الثانية التي كثرت أقوال المفسرين فيها فهي : تكرار التقوى مرة مع الإيمان والعمل الصالح . ومرة مع الإيمان ومرة مع الإحسان؟وقد ذكر القرطبي في ذلك أربعة أقوال فقال :الأول : أنه ليس في ذكر التقوى تكرار ، والمعنى : اتقوا شربها وآمنوا بتحريمها ، أو دام اتقاؤهم وإيمانهم ، أو على معنى إضافة ، الإحسان إلى الاتقاء .والثاني : اتقوا قبل التحريم في غيرها من المحرمات ثم اتقوا بعد تحريمها شربها ، ثم اتقوا فيما بقي من أعمالهم وأحسنوا العمل الثالث : اتقوا الشرك وآمنوا بالله ورسوله ، والمعنى الثاني ثم اتقوا. الكبائر ، وازدادوا إيمانا ، والمعنى الثالث ، ثم اتقوا الصغائر وأحسنوا أي تنفلوا .الرابع : قال ابن جرير : الاتقاء الأول : هو الاتقاء بتلقي أمر الله بالقبول والتصديق ، والدينونة به العمل . والاتقاء الثاني : الاتقاء بالثبات على التصديق ، والثالث : الاتقاء بالإحسان والتقرب بالنوافل والذي يبدو لنا أن ما قاله ابن جرير أقرب إلى الصواب ، وأن تكرير التقوى. إنما هو لتأكيد وجوب امتلاء قلب المؤمن بها ، واستمراره على ذلك حتى يلقى الله . فإن المؤمن بمداومته على خشيته - سبحانه - يتدرج من الكمال إلى الأكمل حتى يصل في إيمانه وتقواه إلى مرتبة الإحسان التي ترفعه إلى أعلى عليين ، والتي عرفها النبي - صلى الله عليه وسلم - بقوله : " الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك " .ولقد بين لنا القرآن في مواطن كثيرة أن المؤمن يقوى إيمانه ويزداد ، بكثرة تدبره ما أنزله الله من شرائع وهدايات . ومن ذلك قوله - تعالى - ( وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هذه إِيمَاناً فَأَمَّا الذين آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ . وَأَمَّا الذين فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ )وقال تعالى - ( وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَابَ النار إِلاَّ مَلآئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسْتَيْقِنَ الذين أوتُواْ الكتاب وَيَزْدَادَ الذين آمنوا إِيمَاناً ) وبذلك نرى الآية الكريمة قد طمأنت المؤمنين إلى أن الله - تعالى - لن يؤاخذهم بما تعاطوه محرمات قبل تحريمها ، وأن الواجب عليهم أن يستمروا على مراقبتهم له ، وخشيتهم منه حتى لقوه - عز وجل - .

يا ايها الذين امنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله ايديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب اليم

كما فسرها الوسيط وبعد أن حذر الله - تعالى - المؤمنين من تعاطي المنكرات كالخمر والميسر وبين لهم حكم من الآيات قبل تحريم هذه الأشياء بعد كل ذلك - بين - سبحانه - بشيء من التفصيل بعض الأحكام التي تتعلق بالصيد فقال تعالى -( ياأيها الذين آمَنُواْ . . . )قال الآلوسي : هذه الآية - كما خرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان - نزلت في عمرة الحديبية ، حيث ابتلاهم ، الله - تعالى - بالصيد وهم محرمون ، فكانت الوحوش تغشاهم في رحالهم وكانوا متمكنين من صيدها أخذاً بأيديهم وطعنا برماحهم فهموا بأخذها فنزلت وقوله : ( لَيَبْلُوَنَّكُمُ ) أي : ليخبرنكم وليمتحننكم من الابتلاء. بمعنى الاختبار والامتحان ولفظ الصيد في قوله : ( مِّنَ الصيد ) مصدر بمعنى - المصيد أي : ما يصطادونه .والمعنى : يا أيها الذين آمنوا ليختبرن الله سبحانه - إيمانكم ومبلغ قوته بأن يرسل إليكم وأنتم محرمون شيئا من الصيد ) : الذي تحبونه ، بحيث يكون في متناول أيديكم ورماحكم .وقوله لَيَبْلُوَنَّكُمُ الله ) جواب قسم محذوف والتقدير : والله ليعاملنكم سبحانه معاملة المختبر ليتبين المطيع من العاصي .وأكد سبحانه - هذا الخبر بلام القسم ونون التوكيد للإشارة إلى أهمية هذا الاختبار حتى يسارعوا إلى طاعته - سبحانه - وامتثال أمره .والتنوين في قوله ( بشيء ) للتقليل والتحقير . وإنما امتحنوا بهذا الشيء الصغير ، تنبيها إلى أن من لم يثبت ويعصم نفسه عن ارتكاب هذه الأشياء الصغيرة فإنه لن يثبت أمام التكاليف الكبيرة .ويمكن أن يقال ، إن التنوين هنا للتعظيم باعتبار الجزاء الأليم المترتب على الاعتداء على الصيد في حال الإحرام .قال صاحب الكشاف : فإن قلت ما معنى التقليل والتصغير في قوله : بشيء من الصيد؟قلت : قلل وصغر - ليعلم أنه ليس بفتنة من الفتن العظام التي تدحض عندها أقدام الثابتين كالابتلاء ببذل الأرواح والأموال - وإنما هو شبيه بما ابتلى به أهل أيله من صيد السمك ، وأنهم إذا لم يثبتوا عنده فكيف شأنهم عند ما هو أشد منه .وقوله هو موضع ( بِشَيْءٍ مِّنَ الصيد تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ ) : الاختبار ( من ) في قوله ( مِّنَ الصيد ) لبيان الجنس . أو التبعيض ، لأن ) المراد صيد البر دون البحر ، وصيد الإحرام دون صيد الإحلال .ومعنى تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ ) تستطيع أيدكم أن تأخذ هذا الصيد

بسهولة ويسر إذا كان كبيراً أو بعيداً بعدا نسبيا منكم .وخص الأيدي والرماح بالذكر ، لأن معظم التصرفات التي تتعلق بالصيد تكون بالأيدي ، ولأن معظم الآلات التي تستعمل تكون الرماح .وقوله : ( لِيَعْلَمَ الله مَن يَخَافُهُ بالغيب ) تعليل قصد به بيان الحكمة من وراء الابتلاء والاختبار .والمراد بالعلم في قوله : ( لِيَعْلَمَ الله . . . ) إظهار ما علمه أزلا من أهل طاعته ومعصيته ، حتى يتميز الخبيث من الطيب .والمعنى : اختبرناكم أيها المؤمنون بنوع من البلايا - وهو تحريم صيد البر صغاراً وكباراً - وأنتم محرمون أو في الحرم ، ليظهر ما علمه أزلا - سبحانه - من أهل طاعته ومعصيته وبذلك يتميز للناس الخبيث من الطيب ، ويعرف الشخص الذي يخاف الله ، ويراقبه - مع أنه لم ير الله - سبحانه - من الشخص الذي لا يخافه بالغيب قال الجمل : وقوله ( بالغيب ) حال من فاعل يخافه ، أي : يخاف الله حاله. كونه غائبا عن الله ومعنى كون العبد غائبا عن الله ، أنه لم ير الله تعالى أو حال من المفعول : أي : يخاف الله حال كونه - تعالى - ملتبسا بالغيب عن. العبد ، أي غير مرئى له .وقوله : ( فَمَنِ اعتدى بَعْدَ ذلك فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ) بيان لسوء عاقبة المخالف لأوامر الله والمتجاوز لحدوده .واسم الإشارة ( ذلك ) يعود ما بينه - سبحانه - لعباده من أحكام .والمعنى : لقد اختبرناكم - أيها المؤمنون - بما اختبرناكم به ، ليتميز قوى الإيمان من ضعيفه ، فمن تعدى منكم حدود الله بعد هذا البيان والإعلام ، فله عذاب شديد الآلام عظيم الإهانة ، لأن التعدي بعد الإنذار ، دليل على عدم المبالاة بأوامر الله ومن لم يبال بأوامر الله ساءت عاقبته .وقبح مصيره . هذا ، ولقد نجحت الأمة الإسلامية وخصوصا سلفها الصالح في هذا الاختبار فقد تجنب أبناءها وهم محرومون أول في الحرم مصيد البر مما أغراهم قربه منهم ، وحبهم له على صيده والانتفاع به .بينما أخفق بنو إسرائيل فيما يشبه هذا الاختبار؛ فقد نهاهم الله - تعالى - عن الصيد في يوم السبت ، فكانت الأسماك تظهر لهم في هذا اليوم امتحانا من الله لهم ، فما كان منهم إلا أن تحايلوا على صيدها بأن حبسوها في يوم السبت ليصيدوها في غيره . . فاستحقوا من الله اللعنة ، - والمسخ واستحقت الأمة الإسلامية أن تكون خير أمة أخرجت للناس .ثم نهى سبحانه - المؤمنين نهيا صريحا عن قتل الصيد وهم حرم وبين ما يجب على القاتل وكرر تحذيره وتهديده لمن يتعدى حدوده فقال - تعالى :( ياأيها الذين آمَنُواْ . . . )

يا ايها الذين امنوا لا تقتلوا الصيد وانتم حرم ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة او كفارة طعام مساكين او عدل ذلك صياما ليذوق وبال امره عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام

كما فسرها الوسيط قال القرطبي : قوله - تعالى - ( ياأيها الذين ) خطاب عام لكل مسلم ، وهذا النهي هو الابتلاء المذكور في قوله - تعالى - ( ياأيها الذين آمَنُواْ لاَ تَقْتُلُواْ الصيد ) . . الآية وروى أن أبا اليسر - واسمه عمرو بن مالك الأنصاري - كان محرماً عام الحديبية بعمرة فقتل حمار وحش فنزلت هذه الآية .والمراد بالصيد هنا المصيد ، لأنه هو الذي يقع عليه القتل .وقوله ( حرم ) جمع حرام . وهذا اللفظ المحرم بالحج أو بالعمرة أو بهما وإن كان في الحل ، كما يتناول من كان في الحرم وإن كان حلالا .قال ابن جرير : والحرم جمع حرام ، يقال : هذا رجل حرام ، وهذه أمرأة حرام ، فإذا قيل محرم ، قيل للمرأة محرمة والإحرام : هو الدخول فيه . يقال : أحرم القوم : إذا دخلوا في الشهر الحرام أو في الحرم ، فتأويل الكلام : "لا تقتلوا الصيد وأنتم محرمون " .والصيد المهي عن قتله هنا : صيد البر ، لأن صيد البحر قد أحله الله بعد ذلك بقوله : ( أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ البحر وَطَعَامُهُ ) الآية .والنهى كما يتناول قتل صيد البر بإزهاق روحه بأي طريق من طرق الإزهاق ، يتناول - أيضاً - قتله بطريق التسبب كالإشارة إليه مثلا ) : ويتناول كذلك حظر الصيد نفسه ، لقوله - تعالى - في مطلع هذه السورة . يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ أَوْفُواْ بالعقود أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الأنعام إِلاَّ مَا يتلى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصيد وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ) ولقوله - تعالى - بعد هذه الآية التي معنا : ( أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ البحر وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ البر مَا دُمْتُمْ حُرُماً ) فالنهي في قوله - تعالى - ( لاَ تَقْتُلُواْ الصيد وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ) يتناول القتل عن طريق المباشرة أو التسبب كما يتناول أي عمل يؤدي إلى صيد الحيوان .وإنما كان النهي في الآية منصبا على القتل ، لأنه هو المقصود الأعظم من وراء مباشرة عملية الصيد إذ الصائد يريد قتل المصيد لكي يأكله في الغالب .هذا ، وقد اختلف الفقهاء في المصيد الذي يحرم صيده على المحرم .فذهب بعضهم إلى أن المراد به ما يصاد مطلقاً سواء أكان مأكولا أم غير مأكول ولا يستثنى من ذلك إلا ما جاء النص باستثنائه ، وذلك لأن الصيد اسم عام يتناول كل ما يصاد من المأكول ومن غير المأكول .وبهذا الرأي قال الأحناف ومن وافقهم من الفقهاء .ويرى

الشافعية أن المراد به المأكول فقط ، لأن الصيد إنما يطلق على ما يحل أكله
فحسب .وقد انبنى على هذا الخلاف أن من قتل وهو محرم سبعاً ، فالأحناف يرون
أنه يجب عليه الجزاء الذي فصلته الآية . والشافعية يرون أنه لا يجب عليه
ذلك .قال الإمام ابن كثير : قوله - تعالى - ( لاَ تَقْتُلُواْ الصيد
وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ) .هذا تحريم منه - تعالى - لقتل الصيد في حال الإحرام
ونهي عن تعاطيه فيه . وهذا إنما يتناول من حيث المعنى المأكول ولو ما ،
تولد منه ومن غيره ، فأما غير المأكول من حيوانات البر ، فعند الشافعي يجوز
قتلها ، والجمهور على تحريم قتلها أيضاً ولا يستثنى من ذلك إلا ما ثبت في
الصحيحين عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " خمس فواسق
- " يقتلن في الحل والحرم : الغراب والحدأت والعقرب والفأرة والكلب والعقور
وفي رواية الحية بدل العقرب - ومن العلماء كمالك وأحمد من ألحق بالكلب
) : العقور : " الذئب والسبع والنمر والفهد ، لأنها أشد ضررا منه " .وقوله
وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّداً فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ
النعم ) بيان لما يجب على المحرم في حال قتله للصيد .قال الآلوسي ما ملخصه
: والمعنى ( وَمَن قَتَلَهُ ) كائنا ( منكم ) حال كونه ( متعمدا ) أي :
ذاكرا لإحرامه عالما بحرمة قتل ما يقتله ، ومثله من قتله خطأ .والفاء في
قوله ( فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النعم ) جزائية إذا اعتبرنا ( من
شرطية وهو الظاهر ، وإذا اعتبرناها موصولة تكون زائدة لشبه المبتدأ (
بالشرط .وقد خرجت هذه القراءة بتخريجات منها : أن تعتبر الإضافة بيانية أي
، جزاء هو مثل ما قتل .وظاهر الآية يفيد ترتيب الجزاء على القتل العمد :
- إلا أنهم اختلفوا هنا على أقوال ذكرها القرطبي فقال ما ملخصه :قوله
تعالى - ( وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّداً فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا
، قَتَلَ مِنَ النعم ) ذكر - سبحانه - المتعمد ولم يذكر المخطئ ولا الناسي
والمتعمد هنا هو القاصد للشيء مع العلم بالإحرام . والمخطئ هو الذي يقصد
شيئا فيصيب صيدا . والناسي هو الذي يتعمد الصيد ولا يذكر إحرامه . واختلف
العلماء في ذلك على خمسة أقوال :الأول : ما أسنده الدارقطني عن ابن عباس
: قال : إنما التكفير في العمد ، وإنما غلظوا في الخطأ لئلا يعودوا .الثاني
أن قوله ( متعمدا ) خرج على الغالب ، فألحق به النادر كأصول الشريعة
الثالث : أنه لا شيء على المخطئ والناسي به قال الطبري وأحمد - في إحدى
روايته - وطاووس وداود وأبو ثور .الرابع : أنه يحكم عليه في العمد والخطأ
والنسيان ، وبه قال مالك والشافعي وأبو حنيفة وأصحابهم .قال الزهري : وجب
الجزاء في العمد بالقرآن ، وفي الخطأ والنسيان بالسنة . فقد سئل النبي صلى
الله عليه وسلم عن الضبع فقال : " هي صيد " وجعل فيها إذا أصابها المحرم
كبشا ، ولم يقل عمدا ولا خطأ .الخامس : أن يقتله متعمدا لقتله ناسيا
لإحرامه - وهو قول مجاهد - ، لقوله - تعالى - بعد ذلك ( وَمَنْ عَادَ
فَيَنْتَقِمُ الله مِنْهُ ) قال : ولو كان ذاكرا لإحرامه لوجبت عليه
العقوبة الأول مرة .قال : فدل على أنه أراد متعمدا لقتله ناسيا لإحرامه
ويبدو لنا أن القول الرابع الذي قال به الأئمة أبو حنيفة والشافعي ، ومالك.
أقرب إلى الصواب ، لأن تخصيص العمد بالذكر في الآية ، لأجل أن يرتب عليه
الانتقام عند العود ، لأن العمد هو الذي يترتب عليه ذلك دون الخطأ ، ولأن
جزاء الخطأ معروف من الأدلة التي قررت التسوية في ضمان المتلفات ، إذ من
المعروف أن من قتل صيد إنسان عمدا أو خطأ في غير الحرم فعليه جزاؤه ، فهذا
حكم عام في جميع المتلفات وما دام الأمر كذلك كان الجزاء ثابتا على المحرم
متى قتل الصيد سواء أكان قتله له عمدا أم خطأ .وقد اختلف العلماء - أيضا في
المراد بالمثل في قوله - تعالى - ( وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّداً
فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النعم ) .فجمهور الفقهاء يرون أن المراد
بالمثل النظير . أي أن الجزاء يكون بالمماثلة بين الصيد المتقول وبين حيوان
يقاربه في الحجم والمنظر من النعم وهي الإبل والبقر والغنم .ومن حججهم أن
الله أوجب مثل المصيد المقتول مقيد بكونه من النعم ، فلابد أن يكون الجزاء
: مثلا من النعم ، وعليه فلا تصح القيمة لأنها ليست من النعم .قال ابن كثير
وفي قوله - تعالى - : ( فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النعم ) دليل
لما ذهب إليه مالك والشافعي وأحمد من وجوب الجزاء من مثل ما قتله المحرم
إذا كان له مثل من الحيوان الإنسي ، خلافا لأبي حنيفة حيث أوجب القيمة
سواء أكان الصيد المقتول مثليا أو غير مثلى . قال : وهو خير إن شاء تصدق
بثمنه . وإن شاء اشترى به هديا .والذي حكم به الصحابة في المثل أولى
بالاتباع ، فإنهم حكموا في النعامة ببدنه ، وفي بقرة الوحش ببقرة ، وفي
الغزال بعنز . وأما إذا لم يكن الصيد مثليا فقد حكم ابن عباس فيه بثمن يحمل
، إلى مكة .ثم بين - سبحانه - بعد ذلك طريق معرفة الجزاء ، ومآله ، وأنواعه
فقال - تعالى - ( يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ هَدْياً بَالِغَ
( الكعبة أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَو عَدْلُ ذلك صِيَاماً
: والضمير في قوله ( به ) يعود على الجزاء المماثل للمصيد المقتول .وقوله
: حال من جزاء ، أو منصوب على المصدرية . أي يهديه هدياً .والهدي ( هديا )
اسم لما يذبح في الحج لاهدائه إلى فقراء مكة .وقوله : ( بَالِغَ الكعبة )
صفة لقوله ( هدياً ) لأنه إضافته لفظية :وقوله : ( أو كفارة ) معطوف على

- جزاء . وأو للتخيير ، وكذلك في قوله ( أَو عَدْلُ ذلك صِيَاماً ) .والعدل
. بالفتح - ما عادل الشيء من غير جنسه . وأما بالكسر فما عادله من جنسه
: وقيل هما سيان ومعناهما المثل مطلقا .والمعنى الإجمالي للآية الكريمة
يأيها الذين آمنوا بالله إيمانا حقا ، لا تقتلو الصيد وأنتم محرمون ، ومن
قتل منكم الصيد وهو بهذه الصفة فعلية جزاء من النعم مماثل الصيد المقتول
ومقارب له في الخلقة والمنظر ، أو في القيمة ، وهذا الجزاء المماثل للصيد
المقتول يحكم به رجلان منكم تتوافر فيهما العدالة والخبرة حتى يكون حكمهما
أقرب إلى الحق والصواب ، ويكون هذا الجزاء الواجب على قاتل الصيد ( هَدْياً
بَالِغَ الكعبة ) أي : يصل إلى الحرم فيذبح فيه ويتصدق به على مساكينه ، أو
يكون على قاتل الصيد ( كَفَّارَةٌ ) هي ( طَعَامُ مَسَاكِينَ ) بأن يطعمهم
من غالب قوت البلد ما يساوي قيمة هذا الجزاء المماثل للصيد المقتول بحيث
يعطي لكل مسكين نصف صاغ من بر أو صاعا من غيره ، أو يكون عليه ما يعادل هذا
الطعام صياما ، بأن يصوم عن طعام كل مسكين يوما ، وما قل عن طعام المسكين
يصوم عنه يوما كاملا .وإذا لم يجد للصيد المقتول مماثلا كالعصفور وما يشبهه
فعليه قيمته ، يشتري بها طعاما لكل مسكين مد ، أو يصوم عن كل مد يوما
وبهذا نرى أن المحرم إذا قتل الصيد فعليه جزاء من النعم مماثل للصيد.
المقتول في الخلقة والمنظر أو عليه ما يساوي قيمة هذا الجزاء طعاما ، أو
عليه ما يعادل هذا الطعام صياما . وهذا ما يقول به جمهور الفقهاء أما أبو
حنيفة فيرى - كما سبق أن أشرنا - أن المماثلة إنما تعتبر ابتداء بحسب
القيمة ، فيقوم الصيد المقتول من حيث هو ، فإن بلغت قيمته هدى يخير الجاني
بين أن يشتري بها هديا يهدي إلى الكعبة ويذبح في الحرم ويتصدق بلحمه على
الفقراء ، وبين أن يشتري بها طعاما للمساكين . وبين أن يصوم عن طعام كل
مسكين يوما .والمراد من الكعبة هنا الحرم؛ وإن خصت بالذكر تعظيما لها .قال
بعض العلماء : ولا شك أن التخيير هنا ليس على حقيقته ، إنما هو ترتيب مراتب
، على حسب القدرة على كل رتبة ، فالأصل بلا ريب شراء هدى وذبحه في الحرام
فإن تعذر ذلك كان الطعام ، فإن تعذر كان الصيام .هذا هو الظاهر عند الحنفية
وروى عنهم أنهم قالوا بالتخيير إذا عرفت القيمة بين الذبح عند الكعبة ،
وبين إطعام المساكين ، وبين الصوم .وعندي أن الترتيب حسب القدرة أوضح وذلك
هو رأى أحمد وزفر .والمذاهب الأخرى تتلقى في الجملة مع الذهب الحنفي بيد
إنها تعتبر المماثلة في الأوصاف .وعندي أن المذهب الحنفي أوضح وأسهل
، تطبيقا ، وأدق في تعرف المثل وقد اضطروا إليه عند استبدال الطعام بالذبح
) - إذ لا يعرف مقدار الطعام إلا بمعرفة القيمة .هذا ، وقوله - تعالى
لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ ) تعليل لأيجاب الجزاء السابق على المحرم
القاتل للصيد عن تعمد .وقوله ( ليذوق ) من الذوق وهو إدراك المطعومات
: باللسان لمعرفة ما فيها من حلاوة أو مرارة أو غير ذلك .والمراد به هنا
إدراك ألم العذاب على سبيل الاستعارة .والوبال في الأصل : الثقل والشدة
والوخامة . ومنه طعام وبيل إذا كان ثقيلا على المعدة .ومرعى وبيل وهو الذي
يتأذى به بعد أكله .والمراد به هنا : سوء عاقبة فعله .والمعنى : شرعنا ما
شعرنا من جزاء على المحرم في حالة قتله للصيد ، ليدرك سوء عاقبة قتله وفعله
السيء ، وليعلم أن مخالفته لأمر الله تؤدي إلى الخسارة في الدنيا والآخرة
قال الإمام الرازي : وإنما سمي الله - تعالى - ذلك وبالا ، لأنه خيره.
- بيبن ثلاثة أشياء : اثنان منها توجب تنقيص المال - وهو ثقيل على الطبع
، وهما : الجزاء بالمثل والإطعام . والثالث : يوجب إيلام البدن وهو الصوم
وذلك أيضا ثقيل على الطبع .والمعنى أنه - تعالى - أوجب على قاتل الصيد أحد
هذه الأشياء التي كل واحد منها ثقيل على الطبع حتى يحترز عن قتل الصيد في
الحرم وفي حال الإحرام .وقوله : ( عَفَا الله عَمَّا سَلَفَ ) بيان لمظهر
من مظاهر رحمة الله بعباده ولطفه بهم ، لأنه - سبحانه - لم يؤاخذهم على
قتلهم للصيد وهم محرمون قبل تحريمها والنهي عنها .ثم ختم - سبحانه - الآية
) : الكريمة بتهديد شديد لمن تتكرر منه المخالفة لأوامر الله ونواهيه فقال
: وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ الله مِنْهُ والله عَزِيزٌ ذُو انتقام ) .أي
- ومن عاد وهو محرم إلى قتل الصيد بعد ورود النهي عن ذلك فإن الله - تعالى
ينتقم منه ويعاقبه عقابا شديدا فهو - سبحانه - العزيز الذي لا يغالب ولا
يقاوم ، المنتقم الذي لا يدفع انتقامه بأي وسيلة من الوسائل .هذا وجمهور
العلماء على أن المحرم يتكرر الجزاء عليه في قتل الصيد بتكرر وأن عقوبة
الآخرة - وهي انتقام الله من الجاني -لا تمنع وجوب الجزاء عليه في الدنيا
قال ابن كثير . ثم الجمهور من السلف والخلف على أنه متى قتل المحرم الصيد.
وجب الجزاء ولا فرق بين الأولى والثانية والثالثة وإن تكرر ما تكرر سواء
الخطأ في ذلك والعمد .وقال علي بن طلحة عن ابن عباس قال : من قتل شيئا من
الصيد خطأ وهو محرم يحكم عليه فيه كلما قتله . فإن قتله عمدا يحكم عليه فيه
مرة واحدة . فإن عاد يقال له ينتقم الله منك .وبذلك نرى الآية الكريمة قد
حذرت المؤمنين من التعرض للصيد في حالة إحرامهم ، وبينت الجزاء المترتب على
. من يفعل ذلك ، وهددت من يستهين بحدود الله بالعذاب الشديد

احل لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم وللسيارة وحرم عليكم صيد البر ما دمتم

حرما واتقوا الله الذي اليه تحشرون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما أحله للمحرم وما حرمه عليه مما يتلعق بالصيد فقال - تعالى - :( أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ البحر وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ . . . )المراد بصيد البحر : ما توالده ومثواه في الماء . والمراد بالبحر : ما يشمل جميع المياه العذبة والملحة سواء أكانت أنهارا أم غدرانا أم غيرهما .والمراد بالصيد : الاصطياد أو ما يصاد منه .والمراد بطعامه : ما يطعم من صيده . وهو عطف على ( صيد ) من عطف الخاص على العام ، ويكون الحل الواقع على الصيد المقصود به حل الانتفاع مطلقا ثم عطف عليه ما يفيد حل الأكل خاصة من باب إظهار الامتنان بالإنعام بما هو قوام الحياة وهو الأكل؛ فإن صيد البحر قد يقصد لمنافع أخرى غير الأكل ، كالانتفاع بزيت بعض أنواع المصيد منه .ويرى ابن أبي ليلى أن المراد بالصيد والطعام المعنى المصدري ، وقدر مضافا في صيد الحبر ، وجعل الضمير في يعود إليه لا إلى البحر ، فيكون المعنى :أحل لكم صيد حيوان البحر ( طعامه ) كما أحل لكم أن تأكلوا ما صدتموه منه . فهو يرى حل الأكل من جميع حيوانات البحر .وقيل : بل المراد بصيد البحر ما أخذ بحيلة ، وبطعامه ما ألقاه البحر من حيواناته أو انحسر عنه الماء وأخذه الآخذ من غير حيلة أو معالجة .وقوله مفعول لأجله .وقوله : ( وللسيارة ) متعلق بأحل . وهو جمع سيار ( متاعا ) : باعتبار الجماعة .والمراد بالسيارة : القوم المسافرون .والمعنى : أحل الله لكم أيها المحرومون صيد البحر كما أحل لكم أكل ما يؤكل منه ، لأجل تمتعكم وانتفاعكم بذلك في حال إقامتكم وفي حال سفركم فأنتم تتمتعون بهذه النعم مقيمين ومسافرين ، وذلك يقتضي منكم الشكر لله لكي يزيديكم من هذه النعم قال ابن كثير ما ملخصه : وقد استدل الجمهور على حل ميتة البحر بهذه الآية. وبما أخرجه الشيخان عن جابر قال : " بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثا قبل الساحل ، فأمر عليهم أبا عبيدة وهم ثلاثمائة - قال : وأنا فيهم - قال فخرجنا حتى إذا كنا ببعض الطريق فني الزاد . قال : ثم انتهينا إلى البحر فإذا حوت كبير . فأكل منه ذلك الجيش ثماني عشرة ليلة . فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرنا ذلك له فقال : هو رزق أخرجه الله لكم . هل معكم من لحمه شيء فتطعمونا؟ قال : فأرسلنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منه فأكله " .وأخرج الإمام أحمد وأهل السنن ومالك والشافعي عن أبي هريرة : " أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله!! إنا نركب البحر ونحمل معنا القليل من الماء . فإن توضأنا به عطشنا أنتوضأ بماء البحر؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هو الطهور ماؤه ": الحل ميتته " " .وعن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أحلت لنا ميتتان ودمان؛ فأما الميتتن : فالحوت والجراد ، وأما الدمان فالكبد والطحال " .رواه الشافعي وأحمد وابن ماجه والدراقطني والبيهقي وله شواهد .وقد احتج بهذه الآية أيضا من ذهب من الفقهاء إلى أنه تؤكل دواب البحر ولم يستثن من ذلك شيئا . وقد استثنى بعضهم الضفادع وأباح ما سواها وقال أبو حنيفة :لا يؤكل ما مات في البحر كما لا يؤكل ما مات في البر. - لعموم قوله - تعالى - : ( حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الميتة ) ثم أكد - سبحانه حرمة صيد البر للمحرمين فقال : ( وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ البر مَا دُمْتُمْ حُرُماً ) والمراد بصيد البر : ما كان توالده ومأواه في البر مما هو متوحش بأصل خلقته .وبعض الفقهاء يرى أن التحريم هنا منصب على الفعل ، وعليه فالآية إنما تدل على حرمة الاصطياد فقط ، وأما الأكل منه - أي من المصيد - بأن يصيده حلال فلا تدل عليه الآية .وبعضهم يرى أن التحريم هنا منصب على ذلك الصيد . وعليه فتكون الآية تقتضي تحريم جميع وجوه الانتفاع بالصيد إلا ما يخرجه الدليل .أو يكون الصيد بمعنى المصيد وهو الأظهر ، لإجماع العلماء أنه لا يجوز للمحرم قبول صيد وهب له ، ولا يجوز له شراؤه ولا اصطياده ، ولا ستحدث ملكه بوجه من الوجوه .وقد اختلف العلماء فيما يأكله المحرم من الصيد ، فقال مالك والشافعي وأحمد . إنه لا بأس بأكل المحرم الصيد إذا لم يصد له ولا من أجله ، لما رواه الترمذي والنسائي عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لصيد البر لكم حلال ما لم تصيدوه أو يصد لكم " .وقال أبو حنيفة : أكل الصيد للمحرم جائز على كل حال إذ اصطاده الحلال - سواء صيد من أجله أو لم يصد لظاهر قوله - تعالى - ( لاَ تَقْتُلُواْ الصيد وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ) فحرم صيده وقتله على المحرمين دون ما صاده غيرهم .وروى عن علي بن أبي طالب وابن عباس وابن عمر أنه لا يجوز للمحرم كل صيد على حال من الأحوال سواء صيد من أجله أو لم يصد . لحديث الصعب بن جثامة الليثي ، " أنه أهدى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : حمارا وحشيا وهو بالأبواه فرده عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فلما أن رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما في وجهي قال : " إنا لم نرده عليك إلا أنا حرم " خرجه الأئمة واللفظ لمالك .ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بالدعوة إلى خشيته وتقواه وبالتذكير بالحشر وما فيه من حساب وعقاب فقال : ( واتقوا الله الذي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ) .أي : واتقوا الله في كل أحوالكم ، وقفوا عند حدوده فلا تتجاوزوها ، واعلموا أن مرجعكم وحشركم إليه

وحده ، وسيجازيكم على أعمالكم التي عملتموها في دنياكم .وبذلك نرى الآيات الكريمة قد أحلت للمحرم صيد البحر - فضلا من الله ورحمة -؛ لأن البحر بعيد عن الحرم ، والمحرم قد يحرم في منطقة قد تكون فيها بحار فتحريم صيد البحر عليه قد يؤدي إلى تعبه وإجهاده دون أن تكون هناك فائدة تعود على سكان الحرم أما الحكمة من وراء تحريم الصيد البري على المحرمين فمنها : أن البيت. الحرام بواد غير زرع ، وسكان هذه المنطقة من وسائل حياتهم الصيد ، فلو أبيح الصيد للمحرمين القادمين لزيارة البيت من كل فج عميق . . لأدى ذلك إلى قتل . الكثير من الصيد البري الذي هو مصدر انتفاع للقاطنين في تلك المناطق وفضلا عن كل ذلك ففي تحريم الصيد البري الذي يعيش في مناطق الحرم ، تكريم لهذه المناطق ، وتشريف لها ، وإعلاء لشأنها ومكانتها . فهي أماكن الأمان والاطمئنان والسلام .لا للبشر وحدهم ، بل للبشر ولغير البشر من مخلوقات . الله التي نهت شريعته عن التعرض لها بسوء

جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد ذلك لتعلموا ان الله يعلم ما في السماوات وما في الارض وان الله بكل شيء عليم

كما فسرها الوسيط وبعد هذا النهي الشديد للمحريمن عن صيد البر وهم على هذه الحالة بين - سبحانه - المنزلة السامية للكعبة التي هي أشرف مكان ، وأصلحه لأمان الناس واطمئنانهم كما بين - سبحانه - مكانة الأشهر الحرم وما يقدم فيها من خيرات لسكان الحرم - فقال - تعالى - :( جَعَلَ الله الكعبة البيت ) - الحرام قِيَاماً . . . )قال الفخر الرازي : " اعلم أن اتصال هذه الآي جَعَلَ الله الكعبة ) بما قبلها هو أن الله - تعالى - حرم في الآية . المتقدمة الاصطياد على المحرم . فبين أن الحرم أنه سبب لأمن الوحش والطير فكذلك هو سبب لأمن الناس عن الآفات والمخافات ، وسبب لحصول الخيرات . والسعادات في الدنيا والآخرة .والكعبة في اللغة : البيت المكعب أي المربع وقيل المرتفع .قال القرطبي : وقد سميت الكعبة كعبة ، لأنها مربعة . . وقيل إنما سميت كبعة لنتوئها وبروزها ، فكل نأتئ بارز كعب ، ومنه كعب القدم : وكعوب الفتاة ، وكعب ثدى المرأة إذا ظهر في صدرها .وجعل هنا يحتمل أن تكون بمعنى صير فيتعدى لاثنين أولهما الكعبة وثانيهما قياما ويحتمل أن يكون بمعنى خالق أو شرع فيتعدى لواحد وهو الكعبة ويكون قوله : ( قياما ) حال من البيت الحرام .والبيت الحرام : بدل من الكعبة أو عطف بيان جيء به على سبيل - المدح والتعظيم ووصف بالحرام إيذانا بحرمته وإشعارا بشرفه ، حيث حرم سبحانه - القتل فيه ، وجعله مكان أمان الناس واطمئنانهم .وقوله ( قياما ) أصله قواماً فقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها .والقيام والقوام ما به صلاح الشيء ، كما يقال : الملك العادل قوام رعيته . لأنه يدبر أمرهم ويردع ظالمهم ، ويحجز قويهم عن ضعيفهم ، ومسيئتهم عن محسنهم .والمراد بالشهر الحرام : الأشهر الحرم على إرادة الجنس وهي : ذو العقدة وذو الحجة والمحرم ورجب .وقيل المراد به شهر ذي الحجة فحسب ، لأنه هو الذي تؤدي فيه فريضة الحج ، فالتعريف للعهد وليس للجنس .والهدى : اسم لما يهدي إلى الحرم من - حيوان ليتقرب بذبحه إلى الله تعالى - وهو جمع هدية - بسكون الدال والقلائد جمع قلادة وهي ما يقلد به الهدى ليعلم أنه مهدي إلى البيت الحرام. فلا يتعرض له أحد بسوء .فالمراد بالقلائد هنا الحيوانات ذوات القلائد التي تساق إلى الحرم لذبحها فيه ، فيكون ذكر القلائد بعد الهدى من باب التخصيص بالذكر على سبيل الاهتمام بشأنها ، لأن الثواب فيها أكثر .وقيل المراد بها ما كان يفعله بعض الناس من وضع قلادة من شعر أو من غيره في أعناقهم عندما : يحرمون حتى لا يتعرض لهم أحد بسوء .وقوله : ( والشهر الحرام والهدي - والقلائد ) معطوف على ما قبله وهو الكعبة .والمعنى : اقتضت حكمة الله تعالى - ورحمته بعباده أن يصير الكعبة التي هي البيت الحرام ( قِيَاماً لِّلنَّاسِ ) أي قوامهم في إصلاح أمورهم دينا ودنيا ، وكذلك جعل الأشهرا الحرم والهدى وخصوصاً ما يقلد منه قياماً للناس أيضاً .وذلك لأن البيت الحرام الذي يأتي الناس إليه من كل فج عميق ، يجدون في رحابه ما يقوى إيمانهم ، ويرفع درجاتهم ، ويغسل سيئاتهم ، ويصلح من شئون دنياهم عن طريق تبادل المنافع ، وبذل الأموال ، والشعور بالأمان والاطمئنان ، وتوثيق الصلات الدينية والدنيوية التي ترضي الله - تعالى - ، وتجعلهم أهلا لفضله ، ورحمته .ولأن الأشهر الحرم تأتي للناس فتجعلهم يمتنعون عن القتال فيها فتهدأ نفوسهم ، ويحصل التآلف والتزاور بعد التدابر والتقاطع والتعادي ولأن الهدى والقلائد التي يسوقها المحرمون إلى الحرم لذبحها فيها ما فيها من التوسعة على الفقراء . وإشاعة روح المحبة والتسامح والإخاء .ورحم الله الإمام القرطبي حيث يقول : " والحكمة في جعل الله - تعالى - هذه الأشياء قياماً للناس ، أن الله - سبحانه - خلق الخلق على سليقة الآدمية من التحاسد - والتقاطع والسلب والغارة . فلم يكن بد في الحكمة الإلهية من وازع يزعهم ، أي يزجرهم - عن التنازع ، ويحملهم على التآلف ، ويرد الظالم عن المظلوم فقد روى مالك أن عثمان بن عفان كان يقول : " ما يزع الإمام أكثر مما يزع

القرآن " .فجعل - سبحانه - الخليفة في الأرض حتى لا يكون الناس فوضى ، وعظم
في قلوبهم البيت الحرام ، وأوقع في نفوسهم هيبته ، فكان من لجأ إليه معصوما
- به ، وكان من اضطهد محميا بالكون فيه .ولما كان لهذا البيت موضعا مخصوصا
ومكانا معينا -لا يدركه كل مظلوم ، فقد جعل - سبحانه - الأشهر الحرم ملجأ
آخر . وقرر في قلوبهم حرمتها ، فكانوا لا يروعن فيها سربا - أي نفسا - ولا
. يطلبون فيها دما ، حتى كان الرجل يلقى قاتل أبيه وابنه وأخيه فلا يؤذيه
ثم شرع لهم الهدى والقلائد ، فكانوا إذا أخذوا بعيرا وأشعروه دما ، أو
علقوا عليه قلادة أو فعل ذلك الرجل بنفسه . لم يروعه أحد حيث لقيه .واسم
الإشارة في قوله : ( ذلك لتعلموا أنَّ الله يَعْلَمُ مَا فِي السماوات
وَمَا فِي الأرض ) .يعود على الجعل المذكور الذي هو تصيير البيت الحرام وما
: عطف عليه قياما للناس ، أي؛ صلاحا لأحوالهم الدينية والدنيوية .والمعنى
فعل الله - تعالى - ذلك لتعلموا أنه - سبحانه - يعلم علما تاما شاملا ما في
السموات وما في الأرض ، ولتوقنوا بأنه يعلم طبائع البشر وحاجاتهم ومكنونات
نفوسهم ، وهتاف أرواحهم . لأن التشريع هذه الشرائع المستتبعة لدفع المضار
ولجلب المصالح الدينية والدنيوية دليل على أنه - سبحانه - يعلم ما في
السموات وما في الأرض . وعلى أنه بكل شيء عليم دون أن تخفى عليه خافية مما
في هذا الكون : وكرر - سبحانه - " ما . وفي " في المعطوف والمعطوف عليه
للإشارة إلى دقة العلم وشموله ، وأنه -سبحانه -لا يغادر صغيرة ولا كبيرة
إلا أحصاها .وقوله : ( وَأَنَّ الله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ) تعميم إثر
تخصيص . للتأكيد وقدم الخاص على العام ليكون ذكر الخاص كالدليل على العام
قال الجمل : واسم الإشارة ( ذلك ) فيه ثلاثة أوجه :أحدها أنه خبر لمبتدأ.
محذوف أي : الحكم الذي حكمناه ذلك لا غير .والثاني : أنه مبتدأ وخبره محذوف
أي : ذلك الحكم هو الحق لا غيره .والثالث : أنه منصوب بفعل مقدر يدل عليه
) السياق . أي : شرع الله ذلك . وهذا أقواها ، لتعلق لام العلة به . وقوله
لتعلموا ) منصوب بإضمار أن بعد لام كي . وقوله : ( وَأَنَّ الله بِكُلِّ
شَيْءٍ عَلِيمٌ ) معطوف على ما قبله وهو ( أَنَّ الله يَعْلَمُ مَا فِي
. ( السماوات وَمَا فِي الأرض

اعلموا ان الله شديد العقاب وان الله غفور رحيم

كما فسرها الوسيط ثم رهب الله - تعالى - عباده من عقابه؛ ورغبهم في ثوابه
فقال : ( اعلموا أَنَّ الله شَدِيدُ العقاب وَأَنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ
، أي : اعلموا - أيها الناس - أن الله شديد العقاب لمن انتهك حرماته. (
وتجاوز حدوده وأنه - سبحانه - واسع المغفرة والرحمة لمن أطاعه وتاب إليه
توبة صادقة .وفي تصدير الآية الكريمة بفعل الأمر ( اعلموا ) تنبيه شديد إلى
أهمية ما سيلقى عليهم من أمر أو نهي ، حتى يستقر في قلوبهم ، ويرسخ في
نفوسهم ، فيسهل عليهم تنفيذه .وجمع - سبحانه - بين الترهيب والترغيب ، حتى
يكون المؤمن بين الرجاء والخوف ، فلا يقنط من رحمة الله ولا يجترئ على
. - ارتكاب ما يغضبه - سبحانه

ما على الرسول الا البلاغ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون

كما فسرها الوسيط وبعد هذا الترغيب والترهيب بين - سبحانه - وظيفة رسوله
صلى الله عليه ولم فقال : ( عَلَى الرسول إِلاَّ البلاغ والله يَعْلَمُ مَا
تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ) .وأصل البلاغ - كما يقول القرطبي - وهو
الوصول . يقال : بلغ يبلغ بلوغا وأبلغه إبلاغا . وبلغه تبليغا ، ومنه
البلاغة . لأنها إيصال المعنى إلى النفس في أحسن صورة من اللفظ .أي : ليس
على رسولنا - أيها الناس - إلا تبليغ ما أمرناه بتبليغه إليكم وتوصيل ما
كلفناه بتوصيله لكم ، وهو لم يقصر في ذلك ، ولم يأل جهدا في نصحكم وإرشادكم
فأطيعوه لتسعدوا واعلموا أن الله - تعالى - يعلم ما تظهرون وما تخفون من
خير أو شر ، وسيجازيكم بما تستحقون يوم القيامة .فالآية الكريمة تأكيد لما
اشتملت عليه سابقتها من ترغيب وترهيب ، ومن تبشير وإنذار ، وتصريح بأن
، الرسول صلى الله عليه وسلم عليه تبليغ ما كلفه الله بتبليغه إلى الناس
، وليس عليه بعد ذلك هدايتهم أو ضلالهم ، وإنما الله وحده هو الذي بيده ذلك
. وهو الذي بيده حسابهم ومجازاتهم على أعمالهم

قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو اعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله يا اولي
الالباب لعلكم تفلحون

كما فسرها الوسيط ثم صرح - سبحانه - بعد ذلك بأنه لا يستوي عنده الخبيث
والطيب فقال : ( قُل لاَّ يَسْتَوِي الخبيث والطيب وَلَوْ أَعْجَبَكَ
كَثْرَةُ الخبيث ) .والخبيث - كما يقول الراغب - ما يكره رداءه وخساسة
محسوسا كان أم معقولا ، وأصله الردئ الدخلة الجاري مجري خبث الحديد كما قال
الشاعر :سبكناه ونحسبه لجينا ... فأبدى الكير على خبث الحديدوذلك يتناول

: الباطل في الاعتقاد ، والكذب في المقال ، والقبيح في الفعال .والطيب
الشيء الحسن الذي أباحته الشريعة ورضيته العقول السليمة ، ويتناول الاعتقاد
: الحق ، والمقال الصدق ، والعمل الصالح .والمعنى : قل - يا محمد - للناس
إنه لا يستوي عند الله ولا عند العقلاء القبيح والحسن من كل شيء ، لأن
الشيء القبيح - في ذاته أو في سببه أو في غير ذلك من أشكاله - بغيض إلى
الله وإلى كل عاقل ، وسكون مصيره إلى الهلاك والبوار .أما الشيء الطيب
: الحسن فهو محبوب من الله ومن كل عاقل ، ومحمود العاقبة دنيا وديناً .وقوله
، زيادة في التنفير من الشيء الخبيث ( وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الخبيث )
وحض على التمسك بما هو طيب .أي :لا يستوي في ميزان الله ولا في ميزان
العقلاء الخبيث والطيب ، حتى ولو كان الفريق الخبيث كثير المظهر ، براق
الشكل ، تعجب الناظرين هيئته فلا تغتر به أيها العاقل ، ولا تؤثر في نفسك
، كثرته وسطوته فإنه مهما كثر وظهر وفشا . فإنه سيء العاقبة ، سريع الزوال
لذته تعقبها الحسرة ، وشهوته تتلوها الندامة ، وسطوته تصحبها الخسارة
والكراهية ، وطريقة المليئة بالدنس والقذر يجب أن يوصد أبوابها الأخيار
الشرفاء .أما الفريق الطيب أو الشيء الطيب فهو محمود العاقبة ، لذته الحلال
، يباركها الله ، وثماره الحسنة تؤيدها شريعته وتستريح لها العقول السليمة
والقلوب النقية من كل دنس وباطل وطريقه المستقيم - مهما قل - سالكوه - هو
الطريق الذي يوصل إلى كل خير وفلاح .ولا شك أن العقل عندما يتخلص من الهوى
سيختار الطيب على الخبيث لأن في الطيب سعادة الدنيا والآخرة .وما أحسن قول
أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها : " ما تمتع الأشرار بشيء إلا وتمتع به
الأخيار ، وزادوا عليهم رضا الله - عز وجل - " .والفاء في قوله : ( فاتقوا
، الله ياأولي الألباب لَعَلّكُمْ تُفْلِحُونَ ) للإفصاح عن كلام مقدر
والتقدير :إذا كان الأمر كما بينت لكم - أيها الناس - من أنه لا يستوي
الخبيث والطيب . لأن أهل الخبيث سيعاقبون ويندمون مهما كثروا وأهل الطيب
سيثابون ويفرحون ، إذا كان الأمر كذلك فاتقوا الله يا أصحابا العقول
السليمة بأن تجتنبوا كل ما هو خبيث ، وتقبلوا على كل ما هو طيب ، لعلكم
بسبب هذه التقوى والخشية من الله تنولون الفلاح والنجاح في دنياكم وآخرتكم
والجملة الكريمة تذييل قصد به تأكيد ما مر من الترغيب في الطاعات والتحذير
من المعاصي قال الفخر الرازي : لما ذكر - سبحانه - هذه الترغيبات الكثيرة
) في الطاعة ، والتحذيرات من المعصية ، أتبعها بوجه آخر يؤكدها فقالك
فاتقوا الله ياأولي الألباب لَعَلّكُمْ تُفْلِحُونَ ) : أي : فاتقوا الله
بعد هذه البيانات الجليلة والتعريفات القوية ، ولا تقدموا على مخالفته
. لعلكم تصيرون فائزين بالمطالب الدنيوية والدينية العاجلة والآجلة

يا ايها الذين امنوا لا تسالوا عن اشياء ان تبد لكم تسؤكم وان تسالوا عنها
حين ينزل القران تبد لكم عفا الله عنها والله غفور حليم

كما فسرها الوسيط وبعد هذا الحديث المستفيض عن الحلال والحرام في شريعة
الإسلام اتجهت آيات السورة الكريمة إلى تربية المسلمين وإرشادهم إلى
الآداب التي يجب أن يتمسكوا بها ونهيهم عن الأسئلة التي لا خير يرجى من
وراء إثارتها . . فقال تعالى :( ياأيها الذين آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ
عَنْ أَشْيَآءَ . . . )قد ذكر المفسرون في سبب نزول هاتين الآيتين روايات
- متعددة ، منها ما حكاه القرطبي في قوله : روى البخاري ومسلم وغيرهما
واللفظ للبخاري - عن أنس قال : " قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم يا رسول
الله من أبى؟ قال : " أبوك فلان " " .وخرج البخاري أيضاً عن أنس عن النبي
صلى الله عليه وسلم وفيه : " فوالله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم به ما
" دمت في مقامي هذا " فقام إليه رجل فقال : أين مدخلي يا رسول الله؟ قال
- النار " فقام عبد الله بن حذافة - وكان إذا لا حي يدعى إلى غيره أبيه
فقال من أبي يا رسول الله؟ فقال : أبوك حذافة " .وروى الدارقطني والترمذي
عن علي رضي الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية ( وَلِلَّهِ عَلَى الناس
حِجُّ البيت مَنِ استطاع إِلَيْهِ سَبِيلاً ) قالوا : " يا رسول الله ، أفي
كل عام؟ فسكت . فقالوا : أفي كل عام؟ قال : "لا ولو قلت نعم لوجبت " فأنزل
. . الله تعالى ( ياأيها الذين آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ )
الآية .وروى مجاهد عن ابن عباس أنها نزلت في قوم سألوا رسول الله صلى الله
عليه وسلم عن البحيرة والسائبة والوصيلة والحام .ثم قال القرطبي : ويحتمل
أن تكون الآية نزلت جوابا للجميع ، فيكون السؤال قريبا بعضه من بعض
والمعنى : يا أيها الذين آمنوا بالله حق الإيمان ، لا تسألوا نبيكم صلى
الله عليه وسلم أو غيره ، عن أشياء تتعلق بالعقيدة أو بالأحكام الشرعية أو
: بغيرها . هذه الأشياء ( إِن تُبْدَ لَكُمْ ) وتظهر ( تَسُؤْكُمْ ) أي
تتغمكم وتحزنكم وتندموا على السؤال عنها لما يترتب عليها من إحراجكم . ومن
- المشقة عليكم ، ومن الفضيحة لبعضكم .فالآية الكريمة - كما يقول ابن كثير
تأديب من الله لعباده المؤمنين ، ونهى لهم عن أن يسألوا عن أشياء مما لا
فائدة لهم في السؤال والتنقيب عنها ، لأنها إن ظهرت لهم تلك الأمور ربما
ساءتهم ، وشق عليهم سماعها ، كما جاء في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه

وسلم قال : "لا يبلغني أحد عن أحد شيئا ، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر " .وقد وجه - سبحانه - النداء إليهم بصفة الإيمان ، لتحريك حرارة العقيدة في نفوسهم ، حتى يستجيبوا بسرعة ورغبة إلى ما كلفوا به وقوله ( أشياء ) اسم جمع من لفظ شيء ، فهو مفرد لفظا جمع معنى كطرفاء. وقصباء - وهذا رأي الخليل وسيبويه وجمهور البصريين - .ويرى الفراء أن أشياء ) : جمع لشيء . وهو ممنوع من الصرف لألف التأنيث الممدودة ، ومتعلق بقوله تسألوا ) .ومفعول ( تسألوا ) محذوف للتعميم .أي : لا تسألوا الرسول صلى الله عليه وسلم ولا تسألوا غيره عن أشياء لا فائدة من السؤال عنها ، بل إن السؤال عنها قد يؤدي إلى إخراجكم وإلى المشقة عليكم .وقوله : ( إِن تُبْدَ " لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ) صفة لأشياء داعية إلى الانتهاء عن السؤال عنها .وعبر بإن " المفيدة للشك وعدم القطع بوقوع الشرط والجزاء للإشارة إلى أن هذا الشك كاف في تركهم للسؤال عن هذه الأشياء ، فإن المؤمن الحق يبتعد عن كل ما لا فائدة من ورائه من أسئلة أو غيرها .وقوله : ( وَإِن تَسْأَلُواْ عَنْهَا ) : حِينَ يُنَزَّلُ القرآن تُبْدَ لَكُمْ ) معطوف على ما قبله وهو قوله ) إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ) .والضمير في قوله : ( عنها ) يعود على أشياء ) و ( حين ) ظرف زمان منصوب بالفعل ( تسألوا ) .والمعنى :لا تكثروا - أيها المؤمنون - من الأسئلة التي لا خير لكم في السؤال عنها ، إن تسألوا عن أشياء نزل بها القرآن مجملة ، فتطلبوا بيانها تبين لكم حينئذ لاحتياجكم إليها .قال الفخر الرازي : السؤال على قسمين :أحدهما : السؤال عن شيء لم يجر ذكره في الكتاب والسنة بوجه من الوجوه . فهذا السؤال منهي عنه بقوله : ( لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ) والنوع الثاني من السؤال : السؤال عن شيء نزل به القرآن لكن السامع لم. يفهمه كما ينبغي فها هنا السؤال واجب ، وهو المراد بقوله : ( وَإِن تَسْأَلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ القرآن تُبْدَ لَكُمْ ) .والفائدة في ذكر هذا القسم ، أنه لما منع في الجملة الأولى من السؤال ، أو هم أن جميع أنواع السؤال ممنوع فيه ، فذكر ذلك تمييزا لهذا القسم عن ذلك القسم .فإن قيل : إن قوله ( وَإِن تَسْأَلُواْ عَنْهَا ) هذا الضمير عائد على الأشياء المذكورة في قوله ( لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ ) فكيف يعقل في ( أشياء بأعيانها أن يكون السؤال عنها ممنوعا وجائزاً معاً؟قلنا : الجواب عنه من ( وجهين :الأول : جائز أن يكون السؤال عنها ممنوعاً قبل نزول القرآن بها ومأمورا به بعد نزول القرآن بها . والثاني : " أنهما وإن كانا نوعين مختلفين ، إلا أنهما في حكم شيء واحد ، فلهذا حسن اتحاد الضمير ، وإن كانا في الحقيقة نوعين مختلفين" .وقال القرطبي : قوله - تعالى - : ( وَإِن تَسْأَلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ القرآن تُبْدَ لَكُمْ ) فيه غموض ، وذلك أن في ذلك الآية النهي عن السؤال ، ثم قال : ( وَإِن تَسْأَلُواْ ) . إلخ . فأباحه لهم .فقيل : المعنى وإن تسألوا عن غيرها فيما مست الحاجة . إليه ، فحذف المضاف ولا يصح حمله على غير الحذف .قال الجرجاني : الكناية في عنها " ترجع إلى أشياء أخر ، كقوله تعالى : ( وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان " مِن سُلاَلَةٍ مِّن طِينٍ ) يعني آدم ، ثم قال ( ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً ) أي : ابن آدم ، لأن آدم لم يجعل نطفة في قرار مكين ، لكن لما ذكر الإنسان وهو آدم دل على إنسان مثله ، وعرف ذلك بقرينة الحال .فالمعنى : وإن تسألوا عن أشياء - أخر - حين ينزل القرآن من تحليل أو تحريم أو حكم ، أو مست حاجتكم إلى التفسير ، فإذا سألتم فحينئذ تبدلكم فقد أباح - سبحانه - هذا النوع من السؤال .والضمير في قوله ( عَفَا الله عَنْهَا ) يعود إلى أشياء ، والجملة في محل جر صفة أخرى لأشياء .أي : أن هذه الأشياء التي نهيتم عن السؤال عنها هي مما عفا الله عنه - رحمة منه وفضلا- حيث لم يكلفكم بها . ولم يفضحكم ببيانها .ويجوز أن يعود الضمير إلى الأسئلة المدلول عليها بقوله ( لاَ تَسْأَلُواْ ) فتكون الجملة مستأنفة ، ويكون المعنى : عفا الله عن أسئلتكم السالفة التي سألتموها قبل النهي ، وتجاوز - سبحانه - عن معاقبتكم عليها رحمة منه وكرما؛ فمن الواجب عليكم بعد ذلك ألا تعودوا إلى مثلها أبداً .قال صاحب المنار : ولا مانع عندنا يمنعنا من إرادة المعنيين معا . فإن كل ما تدل عليه عبارات القرآن من المعاني الحقيقية والمجازية والكناية يجوز عندنا أن يكون مرادا منها مجتمعة تلك المعاني أو منفردة ما لم يمنع مانع من ذلك كأن تكون تلك المعاني مما لا يمكن اجتماعها شرعاً أو عقلا ، فحينئذ لا يصح أن تكون كلها مرادة بل يرجح بعضها على بعض بطرق الترجيح المعروفة من لفظية ومعنوية .وقوله ( والله غَفُورٌ حَلِيمٌ ) - اعتراض تذييلي مقرر لعفوه - سبحانه - أي : عفا الله عن كل ذلك ، وهو سبحانه - واسع المغفرة والحلم والصفح ولذا لم يكلفكم بما يشق عليهم ، ولم يؤاخذكم بها فرط منكم من أقوال وأعمال قبل النهي عنها .

قد سالها قوم من قبلكم ثم اصبحوا بها كافرين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر العبر والعظات والحكم من وراء نهيهم عن الأسئلة التي لا خير يرجى من ورائها فقال : ( قَدْ سَأَلَهَا

قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَافِرِينَ ) .والضمير في
- قوله : ( قَدْ سَأَلَهَا ) يعود إلى الأسئلة المنهي عنها في قوله - تعالى
أي : قد سأل قوم من قبلكم - أيها المؤمنون - أمثال. ( لاَ تَسْأَلُواْ )
هذه الأسئلة التي لا خير يرجى من ورائها ، ثم أصبحوا بعد إظهار الإجابة
عليها كافرين بها ، لأنهم استقلوا الإجابة عنها سألوا عنه ، وتركوا العمل
) بما تطلعوا إلى معرفته ويجوز أن يكون الضمير عائداً إلى أشياء في قوله
لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ ) على تقدير السؤال عن حكمها أو عن سببها
أو عن أصلها ، أو عن غير ذلك مما لا فائدة من السؤال عنه .إلى هذين المعنين
أشار الآلوسي بقوله : ( قَدْ سَأَلَهَا ) أي : المسألة ، فالضمير في موقع
المصدر لا المفعول به . والمراد : سأل مثلها في كونها محظورة ومستتبعة
للوبال ( قوم ) وعدم التصريح بالمثل للمبالغة في التحذير .وجوز أن يكون
، الضمير للأشياء على تقدير المضاف أيضاً ، فالضمير في موقع المفعول به
وذلك من باب الحذف والإيصال . والمراد : سأل عنها . واختلف في تعيين القوم
فعن ابن عباس هم قوم عيسى : سألوه إنزال المائدة ثم كفروا بها وقيل : هم :
قوم صالح - عليه السلام - سألوه الناقة ثم عقروها وكفروا بها ، وقيل : هم
بنو إسرائيل كانوا يسألون أنبياءهم عن أشياء فإذا أخبروهم كذبوهم .والذي
نراه أن لفظ ( قوم ) يشمل هؤلاء الأقوام الذين ذكرهم الآلوسي كما يشمل
غيرهم ممن سألوا عن أشياء لا خير من السؤال عنها فلما أجيبوا عما سألوا عنه
لم يعملوا بما أخبروا به بل كفروا به وهجروه وأنكروه .ونكر - سبحانه - لفظ
لأنه ليس الغرض تعيين ذواتهم ، بل الغرض النهي عن التشبه بهم مهما ( قوم )
، كانت أجناسهم أو أزمانهم .وجاء العطف في الآية " بثم " المفيدة للتراخي
للدلاله على التباعد المعنوي بين اللجاجة في السؤال وبين الجحود والكفر بعد
ذلك؛ فكأنهم كانوا يريدون حكما يناسب أهواءهم فلما جاءهم الحكم الذي لا
يهوونه كفروا به .وقوله ( ثُمّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَافِرِينَ ) يؤذن بأنهم
، قبل السؤال عن تلك الأشياء أو قبل الخوض في تلك الأسئلة لم يكونوا كافرين
ولكنهم أصبحوا بسبب الخوض فيها والتفتيش عنها كافرين لأنهم لم يمتثلوا ما
أجيبوا به ، وإنما نبذوه وراء ظهورهم .وبذلك ترى أن الآيتين الكريمتين
تنهيان المؤمنين في كل زمان ومان عن الخوض في الأسئلة عن أشياء يسوءهم
الكشف عنها ، وضربتا لهم الأمثال بحال الذين من قبلهم ممن كانوا يشددون على
أنفسهم بالأسئلة عن التكاليف والأحكام ، فلما كتبها الله عليهم كفروا بها
ولم يؤدوها ، ولو سكتوا عن هذه الأسئلة التي لا فائدة من ورائها لكان خيرا
لهم وأقوم .هذا ، و قد ساق الشيخ القاسمي - رحمه الله - عقب تفسيره لهاتين
الآيتين أقوالا متعددة للعلماء فيما يؤخذ منهما من آداب وأحكام ، فقال - ما
ملخصه - :قال ابن كثير : ظاهر الآية النهي عن السؤال عن الأشياء التي إذا
علم بها الشخص ساءته فالأولى الإعراض عنها :فقد روى الإمام أحمد ومسلم
والنسائي عن أبي هريرة : أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : " ذروني ما
. تركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم
فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم . وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه " .وروى
الدارقطني وأبو نعيم عن أبي ثعلبة الخشني : ن النبي صلى الله عليه وسلم قال
. إن الله - تعالى - فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحد حدودا فلا تعتدوها ":
وحرم أشياء فلا تقربوها . وترك أشياء من غير نسيان فلا تبحثوا عنها " .ثم
قال الشيخ القاسمي : ثم رأيت في " موافقات " الإمام الشاطبي في هذا
الموضوع - مبحثا جليلا قال فيه .الإكثار من الأسئلة مذموم . والدليل عليه
النقل المستفيض من الكتاب والسنة وكلام السلف الصالح . وهذه مواضع يكره
: السؤال فيها :1 - السؤال عما لا ينفع في الدين ، كسؤال عبد الله بن حذافة
، من أبي يا رسول الله؟ فأجابه أبوك حذافة .2 - أن يسأل عن شيء بيه القرآن
) كما سأل الرجل عن الحج : أكل عام يا رسول الله؟ مع أن قوله - تعالى
وَلِلّهِ عَلَى النَاسِ حِجُّ البيت مَنِ استطاع إِلَيْهِ سَبِيلاً ) قاض
بظاهره أنه للأبد لإطلاقه .3 - السؤال من غير احتياج إليه في الوقت ، وكأن
هذا - والله أعلم - خاص بما لم ينزل فيه حكم ، وعليه يدل قوله : " ذروني ما
" تركتكم " وقوله : " وسكت عن أشياء رحمة بكم لا عن نسيان فلا تبحثوا عنها
أن يسأل عن صعبا المسائل وشرارها ، كما جاء في النهي عن الأغلوطات - 4.
أن يسأل عن علة الحكم وهو من قبيل التعبدات ، أو يكون السائل ممن لا - 5.
يليق به ذلك السؤال - كما في حديث قضاء الصوم دون الصلاة .- فقد أخرج مسلم
في صحيحه عن معاذة قالت : سألت عائشة فقلت : ما بال الحائض تقضي الصوم ولا
تقضي الصلاة؟ فقالت : أحرورية أنت؟قلت : لست بحرورية ، ولكني أسأل . قالت
عائشة : كان يصيبنا ذلك فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة .6 - أن
يبلغ بالسؤال إلى حد التكلف والتعمق ، وعلى ذلك يدل ما أخرجه مالك في
الموطأ عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب أن عمر بن الخطاب خرج في ركب ، فيهم
!!عمرو بن العاص . حتى وردوا حوضاً . فقال عمرو بن العاص : يا صاحب الحوض
له ترد حوضك السباع؟ فقال عمر بن الخطاب : يا صاحب الحوض !لا تخبرنا . فإنا
نرد على السباع وترد علينا .7 - السؤال عن المتشابهات ، وعلى ذلك يدل
قوله - تعالى - ( فَأَمّا الّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتّبِعُونَ
مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ) الآية .وعن عمر بن عبد العزيز : من جعل دينه عرضاً

للخصومات أسرع التنقل .ومن ذلك سؤال رجل مالكا على الاستواء، فقد جاء رجل إلى مالك فقال : يا أبا عبد الله " الرحمن على العرش استوى " كيف استوى؟ قال راوي الحديث : فما رأيت مالكا وجد - أي غضب - في شيء كموجدته من مقالته ، وعلاه الرحضاء - أي العرق - وأطرق القوم . فقال مالك : الاستواء معلوم. والكيف غير معقول . والإيمان به واجب . والسؤال عنه بدعة وإني أخاف أن تكون ضلالا .8 - السؤال عما شجر بين السلف الصالح ، وقد سئل عمر بن عبد العزيز عن قتال أهل صفين فقال : تلك دماء كف الله عنها يدي ، فلا أحب أن ألطخ بها لساني .9 - سؤال التعنت والافحام وطلب الغلبة عند الخصام : وقد ذم القرآن هذا اللون من الناس فقال . ( وَهُوَ أَلَدُّ الخصام ) وقال ، ( بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ) وفي الحديث : " أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم ، هذه الجملة من المواضع التي يكره السؤال فيها ، ويقاس عليها ما سواها. " وليس النهي فيها واحداً ، بل فيها ما تشتد كراهيته ومنها ما يخفف ، ومنها ما يحرم . ومنها ما يكون محل اجتهاد .والنهي في الآية مقيد بما لا تدعو إليه الحاجة من الأسئلة؛ لأن الأمر الذي تدعو إليه الحاجة في أمور الدين قد أذن الله بالسؤال عنه فقال : ( فاسألوا أَهْلَ الذكر إِن كُنْتُم لاَ تَعْلَمُونَ ) وفي الحديث : " قاتلهم الله!! هلا سألوا إذا لم يعلموا ، فإنما شفاء الجهل بالسؤال . "

ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب واكثرهم لا يعقلون

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - بعض الأوهام والخرافات التي كان أهل الجاهلية يتمسكون بها ، ويعتبرونها من العادات الدينية الراسخة في نفوسهم ، مع أنها لا أصل لها ، وإنما هم الذين ابتدعوها ونسبوها إلى دين الله بدون دليل أو برهان فقال - تعالى - :( مَا جَعَلَ الله مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ . . . )قال الفخر الرازي : اعلم أنه - تعالى - لما منع الناس من البحث عن أمور ما كلفوا بالبحث عنها ، كذلك منعهم عن التزام أمور ما كلفوا التزامها . ولما كان الكفار يحرمون على انفسهم الانتفاع بهذه الحيوانات - وإن كانوا في غاية الاحتياج إلى الانتفاع بها - بين تعالى - أن ذلك باطل فقال : ( مَا جَعَلَ الله مِن بَحِيرَةٍ )وجعل هنا بمعنى شرع ووضع ، و ( من ) زائد لتأكيد النفي والبحيرة بزنة فعيلة بمعنى مفعولة من البحر وهو الشق .وكانوا في الجاهلية إذا ولدت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر ، شقوا أذنها ومنعوا ركوبها ، وتركوها لآلهتهم وامتنعوا عن نحرها وركوبها . وسموها " البحيرة " أي : مشقوقة الأذن .وعن قتادة أنهم كانوا إذا أنجبت خمسة أبطن نظروا في الخامس فإن ذكر ذبحوه وأكلوه ، وإن كان أنثى شقوا أذنها وتركوها ترعى دون أن يستعملها أحد في حلب أو ركوب .والسائبة بزنة فاعلة من ساب إذا جرى على وجه الأرض . يقال ساب الماء إذا ترك يجري .قال أبو عبيدة : كان الرجل في الجاهلية إذا قدم من سفر أو شفى من مرض . سيب ناقته وخلاها وجعلها كالبحيرة وتسمى السائبة .وقال محمد بن إسحاق : السائبة هي الناقة تلد عشرة أبطن إناث ، فتهمل ولا تركب ولا يجز وبرها ، ولا يشرب لبنها إلا ضيف .وعن ابن عباس : هي التي تسيب للأصنام ، فتعطى للسدنة ولا يطعم من لبنها إلا أبناء السبيل ونحوهم .والوصيلة بزنة فعيلة بمعنى فاعله . قال الفراء هي الشاة تنتج سبعة أبطن عناقين عناقين - أي اثنين اثنين - وإذا ولدت في آخرها انثى وذكرا . قيل : وصلت أخاها . فلا يشرب لبن الأم إلا الرجال دون النساء ، وتجري مجرى السائبة في تركها دون أن يجز وبرها .وقال الزجاج : هي الشاة إذا ولدت ذكرا كان لآلهتهم وإذا ولدت انثى كانت لهم وإذا ولدت ذكرا وانثى قالوا : وصلت أخاها فلا تذبح ويكون الذكر لآلهتهم .وقيل : هي الناقة تبكر بأنثى ثم تثنى بأنثى ، فكانوا يتركونها للطواغيت ، ويقولون قد وصلت أنثى بأنثى ليس بينهما ذكر .والحام اسم فاعل من حمى يحمي أي منع : قال الفراء : هو الفحل إذا لقح ولد ولده قالوا : قد حمى ظهره فلا يركب ولا يحمل عليه ، ولا يمنع من ماء أو مرعى .وقال أبو عبيدة : هو الفحل يولد من ظهره عشرة أبطن فيقولون : حمى ظهره فلا يحمل عليه ولا يمنع من ماء أو مرعى هذه بعض الأقوال التي ذكرها العلماء في تفسير هذه الألفاظ الأربعة ، وهناك. أقوال أخرى سواها تختلف عنها .ويبدو أن الخلاف في حقيقة هذه الأربعة مرجعه ، إلى اختلاف القبائل في بلاد العرب واختلاف الأماكن التي يقيمون فيها والعادات الباطلة التي شبوا عليها وألفوها .هذا ، وقد ذكر ابن كثير بعض الروايات التي وردت في تفسيره هذه الألفاظ ، كما ذكر أول من أدخل هذه العادات الباطلة في بلاد العرب فقال ما ملخصه : " روى البخاري ومسلم والنسائي عن سعيد بن المسيب قال . البحيرة : هي التي تكون درها للطواغيت . والسائبة : هي التي كانوا يسيبونها لآلهتهم لا يحمل عليها شيء ، والوصيلة : الناقة البكر تبكر في أول نتاج الإبل ثم تثنى بعد بأنثى وكانوا يسيبونها لطواغيتهم إن وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكر . والحام : فحل الإبل يضرب الضرائب المعدود فإذا قضى ضرابه تركوه للطواغيت ولا يحملون عليه شيئا وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال.

إن أول من سيب السوائب وعبد الإصنام أبو خزاعة عمرو بن لحي وإني رأيته " يجر أمعاءه في النار " .والمعنى : ما شرع الله - تعالى - شيئاً مما حرمه أهل الجاهلية على أنفسهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام وهذه الحيوانات إنما حرم أهل الجاهلية أكلها والانتفاع بها من عند أنفسهم بدون علم أو برهان ، وهم في هذا التحريم إنما يفترون على الله الكذب الصريح أنفسهم بدون علم أو برهان ، وهم في هذا التحريم إنما يفترون على الله الكذب الصريح القاطع بسبب كفرهم وضلالهم وأكثرهم لا يفقهون الحق ولا يستجيبون له انقيادا لأهوائهم ورؤسائهم .والمراد بالذين كفروا في قوله ( ولكن الذين كَفَرُوا يَفْتَرُونَ على الله الكذب ) رؤساؤهم وزعماؤهم الذين يأتون لعوامهم الفاسدة والمزاعم الباطلة ، وينسبونها إلى دين الله كذبا وزورا والمراد بأكثرهم في قوله : ( وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ) عوامهم. - ودهماؤهم الذين يسيرون خلف كل ناعق بدون تفكير أو تدبر .وقد عبر - سبحانه بقوله ( وَأَكْثَرُهُمْ ) إنصافاً للقلة العاقلة التي خالفت هذه الأوهام الباطلة ، وإستجابت للحق عند ظهوره .

واذا قيل لهم تعالوا الى ما انزل الله والى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه اباءنا اولو كان اباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - ما كان عليه هؤلاء العوام المقلدون من جمود وخضوع للباطل فقال . ( وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ الله وَإِلَى الرسول قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَآ ) .أي : وإذا قال قائل - على سبيل النصح والإرشاد إلى الخير - لهؤلاء المقلدين المنقادين انقيادا أعمى للأوهام إذا قال لهم هذا القائل : تعالوا أي : أقبلوا واستجيبوا لما أنزل الله في كتابه ، ولما أنزل على رسوله من هدايات لتسعدوا وتفوزوا قالوا : بعناد وغباء - ( حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَآ ) : كافينا في هذا الشأن ما وجدوا عليه آباءنا من عقائد وتقاليد وعادات . فلا نلتفت إلى ما سواه .وهذه حجة كل ضال مقلد لمن سبقوه بغير تعقل ولا تدبر . إنه يترك معاني العزة والكرامة وإعمال الفكر ليعيش أسير ذلته للأوهام التي شب عليها وسار خلفها مقلداً غيره ومنقاداً له انقياد الخانعين الأذلاء .ولم يذكر - سبحانه - القائل في قوله ( وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ) : للإشارة إلى أن الذين يدعونهم إلى طريق الحق متعددون ، فالنبي صلى الله عليه وسلم يدعوهم ، والمؤمنون يدعونهم . والأدلة الدالة على صدق هذا الدين تدعوهم . ومع كل ذلك فهم في ضلالهم سادرون ، وتحت سلطان سادتهم خانعون .وقوله - تعالى - ( أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ ) رد عليهم بأسلوب التأنيب والتعجيب من جهالاتهم وخضوعهم للباطل بدون مراجعة أو تفكير .والواو في قوله ( أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ ) واو الحال . والهمزة التي دخلت عليها للانكار والتعجب من ضلالهم .والمعنى : أيقولون حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا . ويغلقون على أنفسهم باب الهداية ليبقوا في ظلمات الضلالة ولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً من الحق ولا يهتدون إليه لانطماس بصيرتهم .وليس المراد أن آباءهم لو كانوا يعلمون شيئاً أو يهتدون إلى شيء لجاز لهم ترك ما أنزل الله وإنما المراد هنا تسجيل الواقع المظلم الذي كانوا عليه وكان عليه آباؤهم من قبلهم . فآباؤهم كانوا كذلك يتبعون ما شرعه لهم آباؤهم بدون تأمل أو تفكير فالآية الكريمة زيادة في توبيخهم وتوبيخ آبائهم؛ لأنهم جميعا مشتركون في الانغماس في الضلال والجهل .

يا ايها الذين امنوا عليكم انفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم الى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون

كما فسرها الوسيط وبعد أن بين - سبحانه - ما بين من التكاليف والأحكام واحلال والحرام ، وذم المقلدين لآبائهم تقليداً أعمى . وجه - سبحانه - نداء إلى المؤمنين ، أمرهم فيه بأن يلزموا أنفسهم طاعة الله ، وأنهم ليس عليهم شيء من آثام غيرهم ما داموا قد نصحوهم وأرشدوهم إلى الخير فقال - تعالى - : ( يا أيها الذين آمَنُواْ عَلَيْكُمْ ) . قوله ( عَلَيْكُمْ ) اسم فعل ( أمر بمعنى : الزموا وقوله : ( أَنْفُسَكُمْ ) منصوب على الإغراء بقوله ( عَلَيْكُمْ ) - والصحيح أنه في موضع جر كما كان قبل أن تنقل الكلمة أنه في موضع جر كما ان قبل أن تنقل الكلمة إلى الإغراء .والمعنى : يأيها الذين آمنوا بالله إيمانا حقا ، الزموا العمل بطاعة الله ، بأن تؤدوا ما أمركم به وتنتهوا عما نهاكم عنه ، وأنتم بعد ذلك "لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ، أي :لا يضركم ضلال من ضل وغوى ، ما دمتم أنتم قد أديتم حق أنفسكم عليكم بصيانتها عما يغضب الله وأديتم حق غيركم عليكم بإرشاده ونصحه وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر . فإن أبي هذا الغير الاستجابة لكم بعد النصح والإرشاد والأخذ على يده من الوقوع في الظلم فلا ضير عليكم في تمادية في غيه وضلاله ، فإن مصيركم ومرجعكم جميعاً إلى الله - تعالى - وحده )

فَيُنَبِّئُكُمْ ) يوم القيامة ( بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ) في الدنيا من خير أو شر ، ويجازي أهل الخير بما يستحقون من ثواب ، ويجازي أهل الشر بما يستحقون من عقاب .هذا ، وقد يقول قائل : إن ظاهر هذه الآية قد يفهم منه بعض الناس ، أنه لا يضر المؤمنين أن يتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما داموا قد أصلحوا أنفسهم ، لأنها تقول : ( عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مّن ضَلّ إِذَا اهتديتم ) فهل هذا الفهم مقبول؟والجواب على ذلك ، أن هذا الفهم ليس مقبولا ، لأن الآية الكريمة مسوقة لتسلية المؤمنين ، ولإدخال الطمأنينة ، على قلوبهم إذا لم يجدوا أذنا صاغية لدعوتهم .فكأنها تقول لهم : إنكم - أيه المؤمنون - إذا قمتم بما يجب عليكم ، لا يضركم تقصير غيركم . ولا شك أن مما يجب عليهم القيام به : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، إذ لا يكون المرء مهتديا إلى الحق مع تركه لفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإنما يكون مهتديا متى أصلح نفسه ودعا غيره إلى الخير والصلاح .أي أن الهداية التي ذكرها - سبحانه - في قولهم ( إِذَا اهتديتم )لا تتم إلا بإصلاح النفس ودعوة الغير إلى الخير والبر .وقد أشار صاحب الكشاف إلى هذه المعاني بقوله : كان المؤمنون تذهب أنفسهم حسرة على أهل العتو والعناد من الكفرة ، يتمنون دخولهم في الإسلام فقيل لهم ( عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ) وما كلفتم من إصلاحها والمشي بها ، في طرق الهدى ( لاَ يَضُرُّكُمْ ) الضلال عن دينكم إذا كنتم مهتدين . وليس المراد ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فإن من تركهما مع القدرة عليهما لا يكون مهتديا ، وإنما هو بعض الضلال الذين فصلت الآية بينهم وبينه ويبدو أن هذه الآية الكريمة قد فهمهما بعض الناس فهما غير سليم - حتى في الصدر الأول من الإسلام .قال القرطبي : روى أبو داود والترمذي وغيرهما عن قيس بن أبي حازم قال : خطبنا أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - فقال : أيها الناس - إنكم تقرءون هذه الآية وتتأولونها على غير تأويلها ( ياأيها الذين آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ) وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه ، أوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده " .وروى أبو داود والترمذي وغيرهما عن أبي أمية الشعباني قال : أتيت أبا ثعلبه الخشني فقلت له : كيف تصنع بهذه الآية؟ فقال أية آية؟ قلت : قوله - تعالى - ( ياأيها الذين آمَنُواْ عَلَيْكُمْ : أَنْفُسَكُم ) قال : أما والله لقد سألت عنها خبيرا . سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " ائتمروا كل ذي رأي برأيه ، فعليك بخاصة نفسك ودع عنك أمر العامة ، فإن من ورائكم أياماً الصبر فيهن مثل القبض على الجمر للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلا يعملون مثل عملكم " .وفي رواية قيل يا رسول الله! " أجر خمسين منا أو منهم؟ قال : " بل أجر خمسين منكم " " .وأخرج ابن جرير عن جبير بن نفير قال : " كنت في حلقة فيها أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وإني لأصغر القوم؛ فتذاكروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فقلت أنا : أليس الله يقول : ( ياأيها الذين آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُم ) فأقبلوا على بلسان واحد وقالوا : تنزع آية من القرآن لا تعرفها . ولا تدري ما تأويلها - حتى تمنيت أني لم أكن تكلمت - ثم أقبلوا يتحدثون ، فلما حضر قيامهم قالوا : إنك غلام حدث السن وإنك نزعت آية لا تدري ما هي ، وعسى أن تدرك ذلك الزمان ، إذا رأيت شحا مطاعاً ، وهوى متبعا ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بنفسك لا يضرك من ضل إذا اهتديت " .والخلاصة أن الآية الكريمة - لا ترخص في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إنها - كما قال الحاكم لو استدل بها على وجوبهما لكان أولى ، لأن قوله ( عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُم ) معناه : الزموا أن تصلحوا أنفسكم باتباع الدلائل من كتاب الله وسنة روله والعقليات المؤيدة بها ، ودعوة الإخوان إلى ذلك ، بإقامة الحجج ودفع الشبه وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ولا تقصروا في ذلك .ونقل الفخر الرازي ، عن عبد الله بن المبارك أنه قال : هذه أوكد آية في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فإنه - سبحانه - قال ( عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُم ) يعني ، عليكم أهل دينكم ولا يضركم من ضل من الكفار . وهذا كقوله فاقتلوا أنفسكم يعني أهل دينكم فقوله ( عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُم ) يعني بأن يعظ بعضكم بعضاً ويرغب بعضكم بعضا في الخيرات وينفره عن القبائح والسيئات .ثم ختمت . السورة حديثها الطويل المتنوع عن الأحكام الشرعية ببيان بعض أحكام المعاملات في المجتمع الإسلامي فتحدثت عن التشريع الخاص بالإشهاد على الوصية في حالة السفر ، وعن الضمانات التي شرعتها لكي يصل إلى أهله كاملا غير منقوص فقال - تعالى - :( يا أَيُّهَا الذين آمَنُوا شَهَادَةُ . . . )

يا ايها الذين امنوا شهادة بينكم اذا حضر احدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم او اخران من غيركم ان انتم ضربتم في الارض فاصابتكم مصيبة الموت تحبسونهما من بعد الصلاة فيقسمان بالله ان ارتبتم لا نشتري به ثمنا ولو كان ذا قربى ولا نكتم شهادة الله انا اذا لمن الاثمين

كما فسرها الوسيط ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآيات روايات مختلفة في

: تفاصيلها إلا أنها متقاربة في مغزاها .ومن ذلك ما ذكره ابن كثير بقوله
روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس عن تميم الداري في هذه الآية ( يَا أَيُّهَا
الذين آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ ) قال : برئ الناس منها غيري وغير عدي
بن بداء ، وكانا نصرانيين يختلفان إلى الشام قبل الإسلام ، فأتيا الشام
" لتجارتهما ، وقدم عليهما مولى لبني سهم يقال له " بديل بن أبي مريم
بتجارة ، معه جام من فضة أي إناء من فضة - يريد به الملك ، وهو أعظم
: تجارته؛ فمرض فأوصى إليهما ، وأمرهما أن يبلغا ما ترك إلى أهله - أي
يوصلا ما تركه من متاع لورثته .قال تميم : فلما مات أخذنا ذلك الجام فبعناه
بألف درهم ، واقتسمنا الثمن أنا وعدى ، فلما قدمنا إلى أهله دفعنا إليهم ما
كان معنا ، وفقدوا الجام فسألونا عنه ، فقلنا : ما ترك غير هذا ، وما دفع
إلينا غيره .قال تميم : فلما أسلمت بعد قدوم النبي صلى الله عليه وسلم
المدينة تأثمت من ذلك ، فأتيت أهله فأخبرتهم الخبر ، ودفعت إليهم خمسمائة
درهم ، وأخبرتهم أن عند صاحبي مثلها ، فوثبوا عليه ، فأمرهم النبي صلى الله
عليه وسلم أن يستحلفوه بما يحكم به على أهل دينه ، فحلف فنزلت : ( يَا
أَيُّهَا الذين آمَنُوا شَهَادَةُ ) الآيات فقام عمرو بن العاص ورجل آخر
منهم فحلفاه فنزعت الخمسمائة من عدي بن بداء .وقال القرطبي : ولا أعلم
خلافا أن هذه الآيات نزلت بسبب تميم الداري وعدي بن بداء ، روى البخاري
والدارقطني وغيرهما عن ابن عباس قال : " كان تميم الداري ودي بن بداء
، يختلفان إلى مكة فخرج معهما فتى من بني سهم فتوفي بأرض ليس بها مسلم
فأوصى إليهما فدفعا تركته إلى أهله وحبسا جاما من فضة مخوصا بالذهب - أي
عليه صفائح الذهب مثل خوص النخل - فاستحلفهما رسول الله صلى الله عليه وسلم
ما كتمتما ولا اطلعتما " ثم وجد الجام بمكة فقالوا : اشتريناه من عدي "
وتميم ، فجاء رجلان من ورثة السهمي فحلفا أن الجام للسهمي ، ولشهادتنا أحق
" من شهادتهما وما اعتدينا ، قال : فأخذوا الجام وفيهم نزلت هذه الآيات
هذا ، والمعنى الإجمالي لهذه الآيات : أن الله - تعالى - شرع لكم - أيها
المؤمنون - الوصية في السفر فعلى من يحس منكم بدنو أجله وهو في السفر أن
يحضر رجلا مسلما يوصيه بإيصال ماله لورثته فإذا لم يجد رجلا مسلما فليحضر
كافرا ، والاثنان أحوط ، فإذا أوصلا ما عندهما إلى ورثة الميت . وارتاب
الورثة في أمانة هذين الرجلين ، فعليهم في هذه الحالة أن يرفعوا الأمر
للحاكم ، وعلى الحاكم أن يستحلف الرجلين بالله بعد الصلاة بأنهما ما كتما
شيئا من وصية وما خانا .فإذا ظهر بعد ذلك للحاكم أو لورثه الميت أن هذين
الرجلين لم يكونا أمينين في أداء ما كلفهما الميت بأدائه ، فعندئذ يقوم
رجلان من أقرب ورثة الميت ، ليحلفا بالله أن شهادتهما أحق وأولى من شهادة
- الرجلين الأولين ، وأن هذين الرجلين لم يؤديا الوصية على وجهها .ثم بين
سبحانه - في الآية الثالثة أن ما شرعه الله لهم هو أضمن طريق لأداء الشهادة
على وجهها الصحيح وعليهم أن يراقبوه ويتقوه لكي يكونوا من المؤمنين
الصادقين :هذا هو المعنى الإجمالي للآيات الكريمة سقناه قبل تفصيل القول
في تفسيرها حتى يتهيأ الذهن لفهمها بوضوح.قال الآلوسي : وقوله : ( يَا
أَيُّهَا الذين آمَنُواْ شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ
الموت حِينَ الوصية اثنان ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ ) . . إلخ استئناف مسوق
لبيان الأحكام المتعلقة بأمور دنياهم ، إثر بيان الأحوال المتعلقة بأمور
، دينهم وفيه من إظهار العناية بمضمونه ما لا يخفى .وللشهادة معان منها
الإحضار والقضاء ، والحكم ، والحلف ، والعلم والإيصاء ، والمراد بها هنا
الأخير ، كما نص عليه جماعة من المفسرين .وقوله : ( شهادة ) يصح أن يكون
مبتدأ وخبره قوله : ( اثنان ) على حذف مضاف . أي : شهادة اثنين .ويصح أن
يكون مبتدأ والخبر محذوف . أي : فيما أمرتم به أن يشهد اثنان : ويكون قوله
فاعلا لقوله ( شهادة ) وعليه تكون إضافة قوله ( شهادة ) إلى ( اثنان )
الظرف وهو ( بينكم ) على التوسع .قال القرطبي : قوله ( شَهَادَةُ
بَيْنِكُمْ ) قيل : معناه شهادة ما بينكم فحذفت " ما " وأضيفت الشهادة إلى
الظرف ، واستعمل اسما على الحقيقية ، وهو المسمى عند النحويين بالمفعول على
السعة . ومنه قوله - تعالى - ( هذا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ) أي : ما
بيني وبينك .والمراد بقوله : ( إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الموت ) ظهور
أماراته وعلاماته وهو ظرف متعلق بقوله : " شهادة " .وقوله : ( حِينَ الوصية
بدل من الظرف . وفي هذا الابدال تنبيه على أن الوصية لا ينبغي أن يتهاون (
) : فيها .وقوله : ( ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ ) صفة لقوله ( اثنان ) .وقوله
أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ) صفة لقوله ( اثنان ) .والمراد من غير
المسلمين ، ويرى بعضهم أن المراد بقوله ( منكم ) أي : من قبيلتكم ، وبقوله
أي : من غير قبيلتكم .وقوله : ( إِنْ أَنتُمْ ( مِنْ غَيْرِكُمْ ) :
ضَرَبْتُمْ فِي الأرض فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الموت ) بيان لمكان الوصية
وزمانها .والمراد بالضرب في الأرض السفر فيها وقيل للمسافر ضارب في الأرض
لأنه يضربها برجليه أو بعصاه .والمراد بقوله : ( فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ
الموت ) أي : فقاربتم نهاية أجلكم بأن أحسستم بدنو الموت منكم . فليس
المراد الموت بالفعل وإنما المراد مشارفته ومقاربته .وسمي - سبحانه - الموت
مصيبة ، لأنه بطبيعته يؤلم ، أو يصحبه أو يقاربه أو يسبقه آلام نفسية .قال

القرطبي : " وفي الكلام حذف تقديره إن أنتم ضربتم في الأرض فأصابتكم مصيبة
، الموت ، فأوصيتم إلى اثنين عدلين في ظنكم ودفعتم إليها ما معكم من المال
ثم متم وذهبا إلى ورثتكم بالتركة فارتابوا في أمرهما ، وادعو عليهما خيانة
) : فالحكم أن تحبسوهما من بعد صلاة ، أي تستوثقوا منهما " .فقوله ،
تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصلاة فَيُقْسِمَانِ بالله ) كلام مستأنف
لبيان ما يجب على الحاكم أن يفعله عند الشك في أمانة الرجلين اللذين دفع
إليهما الميت ما له ليوصلاه إلى أهله .ومعنى ( تَحْبِسُونَهُمَا )
توقفونهما وتمكسونهما لأداء اليمين اللازمة عليهما والمراد بالصلاة : صلاة
: العصر . وقد روى ذلك عن ابن عباس وجماعة من التابعين .قال الفخر الرازي
إنما عرف هذا التعيين بوجوه :أحدها : أن هذا الوقت كان معروفا عندهم
بالتحليف بعده ، فالتقييد بالمعروف المشهور أغنى عن التقييد باللفظ
وثانيهما : ما روى أنه لما نزلت هذه الآية صلى النبي صلى الله عليه وسلم.
العصر ، ودعا بعدي وتميم فاستحلفهما عند المنبر فصار فعل الرسول دليلا على
التقييد .وثالثها : أن جميع أهل الأديان يعظمون هذا الوقت ويذكرون الله فيه
ويحترزون عن الكلف الكاذب .وقال الزهري : المراد بالصلاة ، الصلات مطلقاً ،
وإنما كان الحلف بعد الصلاة ، لأنها داعية إلى النطق بالصدق ، وناهية عن :
الكذب والزور .أي : توقفون - أيها المسلمون - هذين الرجلين بعد الصلاة
لأداء اليمين ( فَيُقْسِمَانِ بالله ) أي : فيحلفان بالله ( إِنِ ارتبتم )
في صدقهما ، بأن يقولا : ( لاَ نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً وَلَوْ كَانَ ذَا
قربى ) أي :لا نحصل بيمين الله عرضاً من أعراض الدنيا ، ولو كان من نقسم
له ونشهد عليه قريبا لنا .( وَلاَ نَكْتُمُ شَهَادَةَ الله ) أي : ولا نكتم
الشهادة التي أمرنا الله بإظهارها وأدائها ( إِنَّآ إِذاً لَّمِنَ الآثمين
أي : إنا إذا لتكونن معدودين من المستقرين في الذنوب والآثام إن كتمناها (
وبدلناها عن وجهها الصحيح .وقوله ( إِنِ ارتبتم ) شرط لا يتوجه الشاهدين
إلا به ، ومتى لم يقع ريب ولا اختلاف فلا يمين .وجواب الشرط محذوف للعلم به
مما قبله . أي : إن ارتبتم فحلفوهما .والضمير في قوله : ( به ) يعود إلى
القسم المفهوم من قوله : ( فيقسمان ) أي : فيقسمان بالله لا نشتري بصحة
القسم ثمنا مهما كان هذا الثمن .وقوله : ( وَلَوْ كَانَ ذَا قربى ) تأكيد
لتنزههما عن الحلف الكاذب .قال صاحب الكشاف : والضمير في ( به ) للقسم وفي
للقسم له . يعني :لا نستبدل بصحة القسم بالله عرضا من الدنيا . أي ( كان )
: لا نحلف كاذبين لأجل المال ، ولو كان من يقسم له قريباً منا ، على معنى :
- أن هذه عادتهم في صدقهم وأمانتهم أبداً ، وأنهم داخلون تحت قوله - تعالى
كُونُوا قَوَّامِينَ بالقسط شُهَدَآءَ للَّهِ وَلَوْ على أَنْفُسِكُمْ )
أَوِ الوالدين ) فأنت ترى أن الله - تعالى - قد أكد هذا القسم بجملة من
المؤكدات منها : أن الحالفين يحلفان بأنهما لا يحصلان بيمين الله ثمنا مهما
كنت قيمته ، وبأنهما لن يحابيا إنسانا مهما بلغت درجة قرابته وبأنهما لن
يبكتما الشهادة التي أمرهما الله بأدائها على وجهها الصحيح ، وبأنهما يقران
على أنفسهما باستحقاق عقوبة الآثم المذنب إن كتما أو خانا أو حادا عن الحق
. وهذا كله لأجل أن تصل وصية الميت إلى أهله كاملة غير منقوصة ،

فان عثر على انهما استحقا اثما فاخران يقومان مقامهما من الذين استحق عليهم
الاوليان فيقسمان بالله لشهادتنا احق من شهادتهما وما اعتدينا انا اذا لمن
الظالمين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - الحكم فيما إذا تبين أن الرجلين اللذين
دفع إليهما الموصى ما له لم يكونا أمينين فقال : ( فَإِنْ عُثِرَ على
أَنَّهُمَا استحقآ إِثْماً فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الذين
استحق عَلَيْهِمُ الأوليان ) .وقوله : ( عثر ) أي : اطلع . يقال عثر الرجل
على الشيء عثورا إذا اطلع عليه . ويقال : عثرت منه على خيانة أي : اطلعت
وقوله : ( الأوليان ) تثنية أولى بمعنى أقرب . فالمراد بقوله ( الأوليان ).
أي : الأحقان بالشهادة لقرابتهما ومعرفتهما بأحوال الميت .والمعنى : فإن
اطلع بعد تحليف الشاهدين الوصيين من جهة الميت على أنهما ( استحقآ إِثْماً
أي : فعلا ما يوجب الإثم من خيانة أو كتمان أو ما يشبههما ( فَآخَرَانِ (
يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا ) أي : فرجلان آخران يقومان مقام الذين اطلع على
خيانتهما : أي يقفان موقفهما في الحبس بعد الصلاة والحلف ويكون هذان
: الرجلان الآخران ( مِنَ الذين استحق عَلَيْهِمُ الأوليان ) .قال القرطبي
قال ابن السدي : أي من الذين استحق عليهم الإيصاء واختاره ابن العربي،
وأيضاً فإن التفسير عليه ، لأن المعنى عند أهل التفسير : من الذين استحقت
عليهم الوصية .وقال بعض العلماء : قوله ( مِنَ الذين استحق عَلَيْهِمُ
: الأوليان ) أي : من ورثة الميت الذين استحق من بينهم الأوليان أي
الأقربان إلى الميت؛ الوارثان له . الأحقان بالشهادة ، أي : اليمين . فقوله
" فاعل ( استحق ) .ومفعول ( استحق ) محذوف ، قدره بعضهم ( الأوليان )
وصيتهما " وقدره ابن عطية " ما لهم وتركتهم " وقدره الزمخشري ، أن يجردوهما
للقيام بالشهادة لأنها حقهما ويظهر بهما كذب الكاذبين .وقرئ ( استحق ) على

البناء للمفعول . أي من الذين استحق عليهم الإثم أي " جنى عليهم " ، وهم
) أهل الميت وعشيرته . وعليه فقوله : ( الأوليان ) هو بدل من الضمير في
يقومان ) أو من ( آخران ) .وقوله : ( فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا
( أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعتدينآ إِنَّا إِذاً لَّمِنَ الظالمين
بيان لكيفية اليمين التي يحلفها هذان الأوليان .أي : فيحلف بالله هذان
) الأوليان - أي الأقربان إلى الميت - قائلان ( لشهاداتنا ) أي : ليميننا
أحق ) بالقبول ( مِن شَهَادَتِهِمَا ) أي : من يمينهما ( وَمَا اعتدينآ )
أي : وما تجاوزنا الحق في يميننا وفيما نسبناه إليهما من خيانة ( إِنَّا
إِذاً لَّمِنَ الظالمين ) أي إنا إذا اعتدينا وقلنا فيهما خلاف الحق لنكونن
في زمرة الظالمين لأنفسهم المستحقين لسخط الله وعقابه .قال الآلوسي : وقوله
معطوف على ( يقومان ) في قوله : ( فَآخَرَانِ ( فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ )
يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا ) والسببية ظاهرة وقوله : ( لَشَهَادَتُنَا
أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا ) جواب القسم .والمراد بالشهادة هنا - عند
الكثيرين - اليمين كما في قوله - تعالى - ( فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ
أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ ) وصيغة التفضيل ( أحق ) إنما هي لإمكان قبول
. يمينهما في الجملة باعتبار صدقهما في إدعاء تملكهما لما ظهر في أيديهما

ذلك ادنى ان ياتوا بالشهادة على وجهها او يخافوا ان ترد ايمان بعد ايمانهم
واتقوا الله واسمعوا والله لا يهدي القوم الفاسقين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - وجه الحكمة والمصلحة فيما شرعه مما
تقدم تفصيله فقال ( ذلك أدنى أَن يَأْتُواْ بالشهادة على وَجْهِهَآ أَوْ
يخافوا أن تُرَدّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ ) .فاسم الإشارة ( ذلك
يعود إلى ما شرعه الله من أحكام تتعلق بالوصية التي تكون في السفر ويموت (
صاحبها .أي : ذلك الحكم المذكور ( أدنى أن يَأْتُواْ بالشهادة على
وَجْهِهَآ ) أي : أقرب إلى أن يؤدي الأوصياء الشهادة في هذه الحادثة
وأمثالها على وجهها الصحيح . أي : على حقيقتها من غير تغيير لها خوفا من
عذاب الآخرة . فالوجه في قوله ( على وَجْهِهَآ ) بمعنى الذات والحقيقة
) : والجملة الكريمة بيان لحكمة مشروعية التحليف بالتغليظ المتقدم ، وقوله.
أَوْ يخافوا أن تُرَدّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ ) بيان لحكمة رد
اليمين على الورثة . وهو معطوف على مقدر ينبئ عنه المقام فكأنه قيل : ذلك
الذي شرعناه لكم أقرب إلى أن يأتي الأوصياء بالشهادة على وجهها الصحيح
فكأنه قيل : ذلك الذي شرعناه لكم أقرب إلى أن يأتي الأوصياء بالشهادة على
وجهها الصحيح ويخافوا عذاب الآخرة بسبب اليمين الكاذبة ، أو يخافوا أن ترد
أيمان على الورثة بعد أيمانهم فيظهر كذبهم على رؤوس الأشهاد ، فيكون ذلك
الخوف داعيا لهم إلى النطق بالحق وترك الكذب والخيانة .فأي الخوفين حصل
عندهم سيقودهم إلى التزام الحق وترك الخيانة وإيصال الحقوق لذويها كاملة
غير منقوصة .فمن لم يمنعه خوف اله من أن يكذب أو يخون لضعف دينه منعه خوف
الفضيحة على رءوس الأشهاد .ثم قال - سبحانه ( ذلك أدنى ) أي أقرب إلى الحق
وأبعد عن الباطل لأن معرفة الحق من كل وجوهه وجزئياته ، مرجعها إلى الله
العليم بخفايا الأمور وبواطنها وبواعثها . أما الحاكم فإنه يحكم على حسب ما
يظهر له من حق ، وحكمه قابل للخطأ والصواب .والضمير في قوله ( يَأْتُواْ )
يعود إلى الأوصياء الذين أوصاهم الميت ( وَأَيْمَانِهِمْ ) ( يخافوا )
بإيصال ما يريد إيصاله لورثته ، ثم حدث شك من الورثة في أمانتهم .وجاء
الضمير مجموعا مع أن السياق لاثنين فقط ، لأن المراد ما يعم هذين المذكورين
) : وما يعم غيرهما من بقية الناس .ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله
واتقوا الله واسمعوا والله لاَ يَهْدِي القوم الفاسقين ) .أي : واتقوا الله
في كل ما يأتون وتذرون من أموركم واسمعوا ما تؤمرون به سماع إذاعان وقبول
وطاعة واعلموا أن الله - تعالى -لا يوفق القوم الخارجين عن طاعته إلى طريق
الخير والفلاح ، لأنهم آثروا الغي على الرشد واستحبوا العمى على الهدى
فهذا الختام للآية الكريمة اشتمل على أبلغ ألوان التحذير من معصية الله.
ومن مخالفة أمره .هذا؛ ومن الأحكام التي أخذها العلماء من هذه الآيات ما
يأتي :1 - الحث على الوصية وتأكيد أمرها ، وعدم التهاون فيها بسبب السفر أو
غيره ، لأن الوصية تثبت الحقوق ، وتمنع التنازل ولهذا شدد الإسلام في
ضرورة كتابة الوصية ، والشخص قوى معافي ، ففي صحيح مسلم عن ابن عمر أن رسول
الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما حق امرئ مسلم له شيء يريد أن يوصي فيه
: - يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده " .قال ابن عمر - راوي هذا الحديث
- ما مرت على ليلة منذ سمعت رسول الله قال ذلك إلا وعندي وصيتي " .2 "
الإشهاد على الوصية في الحضر والسفر ، ليكون أمرها أمرها أثبت ، والرجاء
في تنفيذها أقوى ، فإن عدم الإشهاد عليها كثيراً ما يؤدي إلى التنازل وإلى
التشكك في صحتها .3 - شرعية اختيار الأوقات والأمكنة والصيغ المغلظة التي
تؤثر في قلوب الشهود وفي قلوب مقسمى الأيمان ، وتحملهم على النطق بالحق
قال صاحب المنار : ويشهد لاختيار الأوقات جعل القسم بعد الصلاة ، ومثله في.
ذلك اختيار المكان ومما ورد في السنة في ذلك ما رواه مالك وأحمد وأبو داود

عن جابر مرفوعا ، "لا يحلف أحد عند منبري كاذاب إلا تبوأ مقعده من النار .
ويشهد بجواز التغليظ على الحالف على صيغة اليمين - بأن يقول فيه ما يرجى. "
- أن يكون رادعا للحالف عن الكذب - ما جاء في الآيات الكريمة من قوله
تعالى - ( فَيُقْسِمَانِ بالله إِنِ ارتبتم لاَ نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً
وَلَوْ كَانَ ذَا قربى وَلاَ نَكْتُمُ شَهَادَةَ الله إِنَّآ إِذاً
لّمِنَ الآثمين ) .4 - جواز تحليف الشهود إذا ارتاب الحكام أو الخصوم في
شهادتهم ، وقد روى عن ابن عباس أنه حلف المرأة التي شهدت في قضية رضاع بين
زوجين .5 - جواز شهادة غير المسلمين على المسلمين عند الضرورة ، وقد بسط
الإمام القرطبي القول في هذه المسألة على ثلاثة أقوال :الأول : أن الكاف
والميم في قوله ( اثنان ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ ) ضمير للمسلمين ، وفي قوله
للكافرين . فعلى هذا تكون شهادة أهل ( أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ )
الكتاب على المسلمين جائزة في السفر إذا كانت وصية . وهو الأشبه بسياق مع
: ما تقرر من الأحاديث .وهوقول ثلاثة من الصحابة الذين شاهدوا التنزيل وهم
أبو موسى الأشعري وعبد الله بن مسعود وعبدالله بن عباس ، وتبعهم في ذلك جمع
من التابعين ، واختاره أحمد بن حنبل وقال : شهادة أهل الذمة جائزة على
المسلمين في السفر عند عدم المسلمين ، كلهم يقولون : " منكم " من المؤمنين
- ومعنى ( مِنْ غَيْرِكُمْ ) يعني الكفار .القول الثاني : أن قوله .
سبحانه - ( أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ) منسوخ وهذا قول زيد بن أسلم؛
- والنخعي ومالك والشافعي وأبي حنيفة وغيرهم من الفقهاء .واحتجوا بقوله
تعالى - ( مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشهدآء ) وبقوله : ( وَأَشْهِدُواْ
ذَوَي عَدْلٍ مِّنكُمْ ) فهؤلاء زعموا أن الآية الدين من آخر ما نزل وأن
فيها ( مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشهدآء ) فهو ناسخ لذلك ، ولم يكن الإسلام
يومئذ إلا بالمدينة فجازت شهادة أهل الكتاب . وهو اليوم طبق الأرض فسقطت
شهادة الكفار وقد أجمع المسلمون على أن شهادة الفساق لا تجوز والكفار فساق
فلا تجوز شهادتهم .قال القرطبي : قلت : ما ذكرتموه صحيح إلا أنا نقول
بموجبه وأن ذلك جائز في شهادة أهل الذمة على المسلمين في الوصية في السفر
خاصة للضرورة بحيث لا يوجد مسلم وأما مع وجو مسلم فلا .ولم يأت ما ادعيتموه
من النسخ عن أحد ممن شهد التنزيل ، وقد قال بالأولى ثلاثة من الصحابة
ومخالفة الصحابة إلى غيرهم ينفر عنه أهل العلم .ويقوى هذا أن سورة المائدة
من آخر القرآن نزولا ، حتى قال ابن عباس والحسن وغيرهما : إنه لا منسوخ
فيها ، وما ادعوه من النسخ لا يصح ، فإن النسخ لابد فيه من إثبات الناسخ
على وجه ينافي الجمع بينهما مع تراخي الناسخ فما ذكروه لا يصح أن يكون
ناسخا ، فإنه في قصة غير قصة الوصية لمكان الحاجة والضرورة ، ولا يمتنع
اختلاف الحكم عند الضرورات .القول الثالث : أن الآية لا نسخ فيها . قاله
. الزهري والحسن وعكرمة ، ويكون معنى قوله ( منكم ) أي من عشيرتكم وقرابتكم
ومعنى ( أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ) أي : من غيرالقرابة والعشيرة .
وهذا ينبي على معنى غامض في العربية ، وذلك أن معنى ( آخر ) في العربية من.
، جنس الأول ، تقول : مررت بكريم وكريم آخر ولا تقول مررت بكريم وخسيس آخر
فوجب على هذا أن يكون قوله ( أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ) أي عدلان من
. غير عشيرتكم من المسلمين

يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا اجبتم قالوا لا علم لنا انك انت علام
الغيوب

كما فسرها الوسيط وبعد أن ساقت السورة الكريمة قبل ذلك ما ساقت من تشريعات
حكيمة ومن تفصيل لأحوال أهل الكتاب وعقائدهم الزائفة . بعد كل ذلك اتجهت
السورة في أواخرها إلى الكلام عن أحوال الناس يوم القيامة وعن معجزات
عيسى - عليه السلام - وعن موقف الحواريين منه . قال - تعالى :( يَوْمَ
يَجْمَعُ الله الرسل فَيَقُولُ . . . )قال الفخر الرازي : اعلم أن عادة
الله تعالى - جارية في هذا الكتاب الكريم أنه إذا ذكر أنواعا كثيرة من
الشرائع والتكاليف والأحكام ، أتبعها إما بالإلهيات وإما بشرح أحوال
الأنبياء أو بشرح أحوال القيامة ، ليصير ذلك مؤكدا لما تقدم ذكره من
، التكاليف والشرائع فلا جرم لما ذكر - فيما تقدم أنواعا كثيرة من الشرائع
أتبعها بوصف أحوال القيامة .ثم قال وفي هذه الآية قولان :أحدهما : أنها
متصلة بما قبلها والتقدير : واتقوا الله يوم يجمع الله الرسل - فيكون قوله
بدل اشتمال من قوله في الآية السابقة ( واتقوا الله ( يَوْمَ يَجْمَعُ ) :
والقول الثاني : أنها منقطعة عما قبلها والتقدير :اذكروا ( يَوْمَ (
يَجْمَعُ الله الرسل ) .والمعنى : لقد سقنا لكم - أيها الناس - ما سقنا من
الترغيب والترهيب وبينا لكم ما بينا من الأحكام والآداب ، فمن الواجب عليهك
أن تتقوا الله وأن تحذروا عقابه ، وأن تذكروا ذلك اليوم الهائل الشديد يوم
يجمع الله الرسل الذين أرسلهم إلى مختلف الأقوام . في شتى الأمكنة والأزمان
فيقول لهم : ماذا أجبتم من أقوامكم؟أي : ما الإجابة التي أجابكم بها
أقوامكم؟وخص - سبحانه - الرسل بالذكر - مع أن الرسل وغيرهم سيجمعون للحساب
يوم القيامة - لإظهار شرفهم وللإيذان بعدم الحاجة إلى التصريح بجمع غيرهم

من الأقوام لأن هؤلاء الأقوام إنما هم تبع لهم .وقال - سبحانه - ( مَاذَآ أَجِبْتُمْ ) ولم يقل - مثلا - " هل بلغتم رسالتي أولا "؟ للإشعار بأن الرسل الكرام قد بلغوا رسالة الله على أكمل وجه وأن الذين خالفوهم من أقوامهم سيتحملون وزر مخالفتهم يوم القيامة .وقوله : ( قَالُواْ لاَ عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الغيوب ) حكاية لاجابة الرسل فإن قيل : لماذا نفوا عن أنفسهم لاعلم مع أن عندهم بعض العلم؟ فالجواب على ذلك أن هذا من باب التأديب مع الله - تعالى - فكأنهم يقولون :لا علم لنا يذكر بجانب عليمك المحيط بكل شيء ، ونحن وإن كنا قد عرفنا ما أجابنا به أقوامنا ، إلا أن معرفتنا هذه لا تتعدى الظواهر ، أما علمك أنت - يا ربنا - فشامل للظواهر والبواطن ، أو أنهم قالوا ذلك إظهارا للتشكي والالتجاء إلى الله ليحكم بينهم وبين أقوامهم الذين كذبوهم . أو أن مرادهم لا علم لنا بما كان منهم بعد أن فارقناهم وفارقنا من جاء بعدنا من الناس ، لأن علمنا مقصور على حال من شاهدناهم وعاصرناهم .ورحم الله صاحب الكشاف قد حكى هذه الأقوال وغيرها بأسلوبه البليغ فقال :فإن قلت : ما معنى سؤالهم؟ قلت : توبيخ قومهم . كما كان سؤال الموءودة توبيخا للوائد . فإن قلت : كيف يقولون :"لا علم لنا وقد عملوا بما أجيبوا؟ " .قلت : يعلمون أن الغرض بالسؤال توبيخ أعدائهم فيكلون ، - الأمر إلى علمه وإحاطته بما منوا به منهم - أي : بما ابتلوا به منهم وكابدوا من سوء إجابتهم ، إظهارا للتشكي واللجأ إلى ربهم في الانتقام منهم وذلك أعظم على الكفرة ، وأفت في أعضادهم ، وأجلب لحسرتهم وسقوطهم في ، أيديهم ، إذا اجتمع توبيخ الله لهم وتشكى أنبيائه منهم . ومثاله : أن ينكب بعض الخوارج على السلطان خاصة من خواصه نكبة ، قد عرفها السلطان واطلع على كنهها وعزم على الانتصار له منه . فجمع بينهما ويقول له : ما فعل بك هذا الخارجي؟ - وهو عالم بما فعل به - يريد توبيخه وتبكيته ، فيقول له : أنت أعلم بما فعل بي ، تفويضاً للأمر إلى علم سلطانه واتكالا عليه ، وإظهارا للكشاية وتعظيما لما حل به منه - ولله المثل الأعلى - وقيل : من هول ذلك اليوم يفزعون ويذهلون عن الجواب ، ثم يجيبون بعدما تثوب إليهم عقولهم بالشهادة على أنفسهم .وقيل معناه : علمنا ساقط مع علمك ومغمور ، لأنك علام الغيوب ، ومن علم الخفيات لم تخف عليه الظواهر التي فيها إجابة الأمم لرسلهم .وقيل معناه : "لا علم لنا بما كان منهم بعدنا ، وإنما الحكم للخاتمة ، وكيف يخفي عليهم أمرهم وقد رأوهم سود الوجه موبخين . "

اذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك اذ ايدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلا واذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل واذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذني فتنفخ فيها فتكون طيرا باذني وتبرئ الاكمه والابرص باذني واذ تخرج الموتى باذني واذ كففت بني اسرائيل عنك اذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم ان هذا الا سحر مبين

كما فسرها الوسيط ثم ذكر - سبحانه - بعض النعم التي أنعم بها على عيسى وأمه فقال : ( إِذْ قَالَ الله ياعيسى ابن مَرْيَمَ اذكر نِعْمَتِي عَلَيْكَ وعلى وَالِدَتِكَ ) .وقوله : ( إِذْ قَالَ الله ياعيسى ابن مَرْيَمَ ) بدل من قوله : ( يَوْمَ يَجْمَعُ الله الرسل ) وقد نصب بإضمار اذكر .والمعنى : اذكر أيها المخاطب لتعتبر وتتعظ يوم يجمع الله الرسل فيقول لهم ماذا أجبتم؟ واذكر - أيضاً - زيادة في العبرة والعظة قوله - سبحانه - ( ياعيسى ابن مَرْيَمَ ) تذكر يا عيسى نعمتي المتعددة عليك وعلى والدتك - وعبر بالماضي في قوله : ( إذ قال الله ) مع أن هذا القول سيكون في الآخرة ، للدلالة على تحقيق الوقوع ، وأن هذا القول سيحصل بلا أدنى ريب يوم القيامة .قال أبو السعود : قوله - تعالى : ( إِذْ قَالَ الله ياعيسى ابن مَرْيَمَ ) شروع في بيان ما جرى بينه - تعالى - وبين واحد من الرسل المجموعين ، من المفاوضة على التفصيل ، إثر بيان ما جرى بينه - تعالى - وبين الكل على وجه الإجمال ، ليكون ذلك كالأنموذج لتفاصيل أحوال الباقين ، وتخصيص شأن عيسى بالبيان لما أن شأنه - عليه السلام - متعلق بكلا الفريقين من أهل الكتاب الذين نعت عليهم هذه السورة جناياتهم . فتفصيل شأنه يكون أعظم عليهم ، وأجلب لحسراتهم وأدخل في صرفهم عن غيهم وعنادهم .والمراد بالنعمة في قوله ( اذكر ، نِعْمَتِي ) النعم المتعددة التي أنعم بها - سبحانه - على عيسى وعلى والدته - مريم حيث طهرها من كل ريبة ، واصطفاها على نساء العالمين .وفي ندائه سبحانه - لعيسى بقوله ( ياعيسى ابن مَرْيَمَ ) إشارة إلى أنه ابن لها وليس ابنا لأحد سواها ، فقد ولد من غير أب ، ومن كان شأنه كذلك لا يصلح أن يكون إلها ، لأن الإله الحق لا يمكن أن يكون مولودا أو محدثا .وقوله : ( إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ القدس تُكَلِّمُ الناس فِي المهد وَكَهْلاً ) تعديد للنعم التي أنعم الله - تعالى - بها على عيسى .وقوله ( أيدتك ) أي قويتك من التأييد بمعنى التقوية .والمراد بروح القدس : جبريل - عليه السلام - فإن من وظيفته أن يؤيد الله به رسله بالتعليم الإلهي ، وبالتثبيت في المواطن التي من شأن البشر أن يضعفوا فيها .وقيل : المراد ( بِرُوحِ القدس ) روح عيسى حيث أيده - سبحانه - بطبيعة روحانية مطهرة في وقت سادت فيه المادية وسيطرت

أي : أيدتك بروح الطهارة والنزاهة والكمال ، فكنت متسما بهذه الروح.
الطاهرة من كل سوء .والمهد : سن الطفولة والصبا - والكهولة : السن التي
، يكون في أعقاب سن الشباب .والمعنى : اذكر يا عيسى نعمتي عليك وعلى والدتك
وقد أن قويتك بروح القدس الذي تقوم به حجتك ، ووقت أن جعلتك تكلم الناس في
طفولتك بكلام حكيم لا يختلف عن كلامك معهم في حال كهولتك واكتمال رجولتك
وقوله : ( إِذْ أَيّدتُّكَ ) ظرف لنعمتي . أي : اذكر إنعامي عليكما وقت.
تأييدي لك . وذكر - سبحانه - كلامه في حال الكهولة - مع أن الكلام في هذه
الحالة معهود في الناس - للإيذان بأن كلامه دون أن يكون هناك فرق بين حالة
الضعف وحالة القوة . قال الرازي : وهذه خاصية شريفة كانت حاصلة له ، وما
حصلت لأحد من الأنبياء قبله ولا بعده .وقال ابن كثير : قوله ( اذكر
نِعْمَتِي عَلَيْكَ ) أي في خلقي إياك من أم بلا ذكر ، وجعلي إياك آية
ودلالة قاطعة على كمال قدرتي ( وعلى وَالِدَتِكَ ) حيث جعلتك لها برهانا
على براءته مما نسبة الظالمون والجاهلون إليها من الفاحشة و ( إِذْ
أَيّدتُّكَ بِرُوحِ القدس ) وهو جبريل ، وجعلتك نبيا داعيا إلى الله في
. صغرك وكبرك . فأنطقتك في المهد صغيراً : فشهدت ببراءة أمك من كل عيب
واعترفت لي بالعبودية . وأخبرت عن رسالتي إياك ودعوتك إلى عبادتي ولهذا قال
أي : تدعو إلى الله الناس في ( تُكَلِّمُ الناس فِي المهد وَكَهْلاً ) :
صغرك وكبرك . وضمّن ( تكلم ) معنى تدعو ، لأن كلامه الناس في كهولته ليس
بأمر عجيب .وقوله : ( وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل
بيان لنعمة أخرى من النعم التي أنعم بها - سبحانه - على عيسى .والمراد (
بالكتاب : الكتابة . أي أن عيسى - عليه السلام - لم يكن أميا بل كان قارئا
وكاتبا وقيل المراد به ما سبقته من كتب النبيين كزبور وداود ، وصحف إبراهيم
وأخبار الأنبياء الذين جاءوا من قبله .والمراد بالحكمة : الفهم العميق ،
للعلوم مع العمل بما فهمه وإرشاد الغير إليه .أي : واذكر وقت أن علمتك
الكتابة حتى تستطيع أن تتحدى من يعرفونها من قومك . ووقت أن علمتك ( الحكمة
بحيث تفهم أسرار العلوم فهما سليما تفوق به غيرك ، كما علمتك أحكام (
الكتاب الذي أنزلته على أخيكح موسى وهو التوراة وأحكام الكتاب الذي أنزلته
عليك وهو الإنجيل .ثم ذكر - سبحانه - بعض معجزات عيسى ، بعد أن بين بعض ما
منحه من علم ومعرفة ، فقال : ( وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطين كَهَيْئَةِ
الطير بِإِذْنِي ) أي : واذكر وقت أن وفقتك لأن تخلق أي تصور من الطين صورة
مماثلة لهيئة الطوير ( فتنفخ فيها ) أي في تلك الهية المصورة ( فتكون ) أي
فتصير تلك الهيئة المصورة ( طَيْراً بِإِذْنِي ) أي : تصير كذلك بقدرتي
وإرادتي وأمري .ثم قال - تعالى : ( وَتُبْرِىءُ الأكمه ) وهو الذي يولد
أعمى؛ وتبرئ كذلك ( والأبرص ) وهو المريض بهذا المرض العضال ( بِإِذْنِي )
وقوله : ( وتبرئ ) معطوف على ( تخلق ) .وقوله : ( وَإِذْ تُخْرِجُ الموتى.
بِإِذْنِي ) معطوف على قوله : ( وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطين ) .أي : واذكر
. وقت أن جعلت من معجزاتك أن تخرج الموتى من القبور أحياء ينطقون ويتحركون
وكل ذلك بإذني ومشيئتي وإرادتي .وقد ذكر المفسرون أن إبراء عيسى للأكمة
، والأبرص وإحياءه للموتى كان عن طريق الدعاء ، وكان دعاؤه يا حي يا قيوم
وذكروا من بني من أحياهم سام بن نوح .وبعد أن ذكر - سبحانه - بعض المعجزات
التي أعطاها لعيسى لكي ينفع بها الناس ، أتبعها بذكر ما دفعه عنه من مضار
فقالك ( وَإِذْ كَفَفْتُ بني إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بالبينات
، أي : واذكر ينعمتي عليك وقت أن صرفت عنك اليهود الذين أرادوا السوء. (
وسعوا في قتلك وصلبك مع أنك قد بشرتهم وأنذرتهم وجئتهم بالمعجزات الواضحات
التي تشهد بصدقك في نبوتك .وقوله ( فَقَالَ الذين كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ
هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ) تذييل قصد به ذمم وتسجيل الحقد والجحود عليهم
أي : لقد أعطيناك يا عيسى ما أعطيناك من النعم والمعجزات لتكون دليلا.
ناطقا بصدقك ، وشاهداً يحمل الناس على الإيمان بنبوتك ، ولكن الكافرين من
، بني إسرائيل الذين أرسلت إليهم لم يصدقوا ما جئتهم به من معجزات واضحات
، بل سارعوا إلى كذيبك قائلين : ما هذا الذي جئتنا به يا عيسى إلا سحر ظاهر
وتخبيل بين .وهكذا نرى أن الكافرين من بني إسرائيل ، لم تزدهم البينات التي
. جاء بها عيسى إلا جحوداً وعناداً

واذ اوحيت الى الحواريين ان امنوا بي وبرسولي قالوا امنا واشهد باننا مسلمون

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما قاله الحواريون لعيسى ، وما
طلبوه منه ، مما يدل على إكرام الله - تعالى - لنبيه عيسى فقال :( وَإِذْ
: أَوْحَيْتُ إِلَى الحواريين أَنْ آمِنُواْ . . . )قال ابن كثير ما ملخصه
وقوله ( وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الحواريين ) هذا أيضاً من الامتنان على
عيسى ، بأن جعل اله له أصحاباً وأنصاراً - وهم الحواريون - والمراد بهذا
الوحي الإلهام كما في قوله : ( وَأَوْحَيْنَآ إلى أُمِّ موسى أَنْ
أَرْضِعِيهِ ) وكما في قوله ( وأوحى رَبُّكَ إلى النحل ) وقال بعض السلف في
هذه الآية ( وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الحواريين ) أي : ألهموا ذلك فامتثلوا

ما الهموا .فأنت ترى أن الإمام ابن كثير يرى أن المراد بالوحي هنا
) الإلهام . وعلى ذلك كثير من المفسرين ، ومنهم من يرى أن المراد بقوله
وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الحواريين ) أي : مرتهم في الإنجيل على لسانك أو
أمرتهم على ألسنة رسلي .قال الآلوسي معززاً هذا الرأي : وقد جاء استعمال
الوحي بمعنى الأمر في كلام العرب ، كما قال الزجاج وأنشد :الحمد لله الذي
استقلت ... بإذنه السماء وأطمأنتأوحى لها القرار فاستقرت ... أي : أمرها أن
تقر فامتثلت .والحواريون جمع حواري . وهم أنصار عيسى الذين لازموه وآمنوا
به وصدقوه . وكانوا عونا له في الدعوة إلى الحق .يقال : فلان حواري فلان
أي : خاصته من أصحابه . ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم في الزبير بن
العوام : " لكل نبي حواري وحواري الزبير " .وأصل مادة " حور " الدلالة على
شدةء الصفاء ونصوع البياض ، ولذلك قالوا في خالص لباب الدقيق : الحواري
- وقالوا في النساء البيض : الحواريات والحوريات .وقد سمى الله - تعالى
أنصار عيسى بالحواريين ، لأنهم أخلصوا لله نياتهم ، وطهورا نفوسهم من
النفاق والخداع فصاروا في نقائهم وصفائهم كالشيء الأبيض الخالص البياض .قال
الراغب : والحواريون أنصار عيسى - عليه السلام - قيل كانوا صيادين وقال بعض
العلماء إنما سموا حواريين لأنهم كانوا يطهرون نفوس الناس بإفادتهم الدين
والعلم .والمعنى : اذكر نعمتي عليك - يا عيسى - حين ( أَوْحَيْتُ إِلَى
الحواريين ) بطريق الإلهام أو بطريق الأمر على لسانك ، وقلت لهم : ( أَنْ
آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي ) أي : آمنوا وصدقوا بأني أنا الواحد الأحد
المستحق للعبادة والخضوع وآمنوا برسولي عيسى بأنه مرسل من جهتي لهدايتكم
- وسعادتكم .وفي ذكر كلمة ( برسولي ) إشارة إلى مقامه من الله - عز وجل
وانفصال شخصه عن ذات الله - سبحانه - وأن عيسى ما هو إلا رسول من رب
العالمين وأن من زعموا أنه غير ذلك جاهلون وضالون .وقوله : ( قالوا آمَنَّا
واشهد بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ) حكاية لما نطق به الحواريون من إيمان وطاعة
أي : أن الحوراريين عندما دعو إلى الدين الحق ( قالوا آمَنَّا ) بأن الله.
هو الواحد الأحد المستحق للعبادة وأنه لا والد له ولا ولد . ثم أكدوا
إيمانهم هذا ، بأن قالوا ( واشهد ) علينا يا آلهنا واشهد لنا يا عيسى يوم
القيامة ( بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ) أي : منقادون لكل ما جئتنا به وما
تدعونا إليه .وقدموا ذكر الإيمان لأنه صفة القلب ، وأخروا ذكر الإسلام
لأنه عبارة عن الانقياد الظاهر فكأنهم قالوا : لقد استقر الإيمان في قلوبنا
استقراراً مكيناً ، كان من ثماره أن انقادت ظواهرنا لكل ما يأمرنا الله به
- على لسانك يا عيسى .قال الفخر الرازي ما ملخصه : فإن قيل : إنه - تعالى
قال في أول الآية ( اذكر نِعْمَتِي عَلَيْكَ وعلى وَالِدَتِكَ ) ثم إن جميع
ما ذكره - تعالى - من النعم مختص بعيسى ، وليس لأمه تعلق بشيء منها . قلنا
كل ما حصل للولد من النعم الجليلة والدرجات العالية فهو حاصل على سبيل :
التضمن والتبع للأم ولذلك قال - تعالى - ( وَجَعَلْنَا ابن مَرْيَمَ
وَأُمَّهُ آيَةً ) فجعلهما معاً آية واحدة لشدة اتصال كل واحد منهما بالآخر
وإنما ذكر - سبحانه قوله ( وَإِذْ أَوْحَيْتُ ) في معرض تعديد النعم لأن.
صيرورة الإنسان مقبول القول عند الناس محبوباً في قلوبهم ، من أعظم نعم
) الله على الإنسان .وقد عدد عليه من النعم سبعاً : ( إِذْ أَيَّدتُّكَ )
وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ) ( وَإِذْ تَخْلُقُ ) ( وَإِذْ تُبْرِئُ ) ( وَإِذْ
تُخْرِجُ الموتى ) ( وَإِذْ كَفَفْتُ ) ( وَإِذْ أَوْحَيْتُ )

اذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك ان ينزل علينا مائدة من
السماء قال اتقوا الله ان كنتم مؤمنين

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - بعض ما دار بين عيسى وبين الحواريين
فقال : ( إِذْ قَالَ الحواريون ياعيسى ابن مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ
" رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السمآء ) ." المائدة
الخوان إذا كان عليه الطعام من ماد يميد ، إذا تحرك . فكأن المائدة تتحرك
: بما عليها . وقال أبو عبيدة : سميت " مائدة " لأنها ميد بها صاحبها . أي
أعطيها وتفضل عليه بها . والخوان : ما يؤكل عليه الطعام .ويرى الأخفش وغيره
أن المائدة هي لطعام نفسه ، مأخوذة من " مادة " إذا أفضل .و " إذ " في قوله
متعلق بمحذوف تقديره : أذكر ( إِذْ قَالَ الحواريون ياعيسى ابن مَرْيَمَ )
وقت قول الحواريين يا عيسى ابن مريم .وقد ذكروه باسمه ونسبوه إلى أمه - كما
) : حكى القرآن عنهم - لئلا يتوهم أنهم اعتقدوا ألوهيته أو ولديته وقوله
هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السمآء
فيه قراءتان سبعيتان :الأولى : ( يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ) بالياء - على أنه (
فعل فاعل . وقوله ( أَن يُنَزِّلَ ) المفعول .والاستفهام على هذه القراءة
محمول على المجاز ، لأن الحواريين كانوا مؤمنين ، ولا يعقل من مؤمن أن يشك
" في قدرة الله .ومن تخرجاتهم في معنى هذه القراءة أن قوله ( يستطيع ) بمعنى
يطيع " والسين زائدة . كاستجاب وأجاب .أي : أن معنى الجملة الكريمة : هل
يطيعك - ربك يا عيسى إن سألته أن ينزل علينا مائدة من السماء .وسنفصل القول
في تخريج هذه القراءة ، وفي اختلاف المفسرين في إيمان الحواريين بعد

انتهائنا من تفسير هذه الآيات الكريمة .أما القراءة الثانية : فهي " هل تستطيع ربك " بالتاء وبفتح الباء في " ربك " والمعنى : هل تستطيع يا عيسى أن تسأل ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء .فقوله " ربك " منصوب على التعظيم بفعل محذوف يقدر على حسب المقام وهذه القراءة لا إشكال فيها ، لأن الاستطاعة فيها متجهة إلى عيسى . أي : أتستطيع يا عيسى سؤال ربك إنزال المائدة أم لا تستطيع؟قال القرطبي : قراءة الكسائي وعلى وابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد " هل تستطيع " بالتاء " ربك " بالنصب وقرأ الباقون بالياء " هل تستطيع " " ربك " بالرفع .والمعنى على قراءة الكسائي - بالتاء : هل تستطيع أن تسأل ربك . .قالت عائشة : كان القوم أعلم بالله - تعالى - من أن يقولوا هل يستطيع ربك " وقال معاذ : أقرأنا النبي صلى الله عليه وسلم : هل " تستطيع ربك قال معاذ : وسمعت النبي صلى الله عليه وسلم مراراً يقرأ بالتاء وقوله - سبحانه - ( قَالَ اتقوا الله إِن كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ ) حكاية. " لما رد به عيسى على الحواريين فيما طلبوه من إنزال المائدة .أي قال لهم عيسى : اتقوا الله وقفوا عند حدوده ، واملأوا قلوبكم هيبة وخشية منه ، ولا تطلبوا أمثال هذه المطالب إن كنتم مؤمنين حق الإيمان ، فإن المؤمن الصادق في إيمانه يبتعد ، عن أمثال هذه المطالب التي قد تؤدي إلى فتنته .

قالوا نريد ان ناكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم ان قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين

) : كما فسرها الوسيط ثم حكى القرآن ما رد به الحواريون على عيسى فقال قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشاهدين ) .أي قال الحواريون لعيسى إننا نريد نزول هذه المائدة علينا من السماء لأسباب : أولها : إننا نرغب في الأكل منها لننال البركة ، ولأننا في حاجة إلى: الطعام بعد أن ضيق علينا أعداؤك وأعداؤنا الذين لم يؤمنوا برسالتك .وثانيها أننا نرغب في نزولها لكي تزداد قلوبنا اطمئنانا إلى أنك صادق فيما تبلغه : عن ربك ، فإن انضمام علم المشاهدة إلى العلم الاستدلالي ، مما يؤدي إلى رسوخ الإيمان ، وقوة اليقين .وثالثها : أننا نرغب في نزولها لكي نعلم أن ، قد صدقتنا في دعوة النبوة ، وفي جميع ما تخبرنا به من مأمورات ومنهيات لأن نزولها من السماء يجعلها تخالف ما جئتنا به من معجزات أرضية ، وفي ذلك ما فيه من الدلالة على صدقك في نبوتك .ورابع هذه الأسباب : أننا نرغب في نزولها لكي نكون من الشاهدين على هذه المعجزة عند الذين لم يحضروها من بني إسرائيل ، ليزداد الذين آمنوا منهم إيماناً ، ويؤمن الذي عنده استعداد - للإيمان .وبذلك نرى أن الحواريين قد بينوا لعيسى - كما حكى القرآن عنهم أنهم لا يريدون نزول المائدة من السماء لأنهم يشكون في قدرة الله ، أو في نبوة عيسى أو أن مقصدهم من هذا الطلب التعنت .وإنما هم يريدون نزولها لتلك الأسباب السابقة التي يبغون من ورائها الأكل وزيادة الإيمان واليقين والشهادة أمام الذين لم يحضروا نزولها بكمال قدرة الله وصدق عيسى في نبوته .

قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا انزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لاولنا واخرنا واية منك وارزقنا وانت خير الرازقين

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - ما تضرع به عيسى بعد أن سمع من ) - الحواريين ما قالوه في سبب طلبهم لنزول المائدة من السماء فقال - تعالى قَالَ عِيسَى ابن مَرْيَمَ اللهم رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السمآء تَكُونُ لَنَا عِيداً لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنْكَ وارزقنا وَأَنتَ خَيْرُ الرازقين ) .وقوله : ( اللهم ) أي : يا الله . فالميم المشددة عوض عن حرف النداء ، ولذلك لا يجتمعان . وهذا التعويض خاص ، بنداء الله ذي الجلالة والإكرام .وقوله : ( عيدا ) أي سرورا وفرحا لنا لأن كلمة العيد تستعمل بمعنى الفرح والسرور .قال القرطبي : والعيد واحد الأعياد . أصله من عاد يعود أي : رجع وقيل ليوم الفطر والأضحى عيد ، لأنهما يعودان كل سنة . وقال الخليل : " العيد كل يوم يجمع الناس فيه كأنهم عادوا إليه ، وقال ابن الانباري : سمعى عيدا للعود إلى المرح والفرح فهو يوم سرور ) - والمعنى : قال عيسى بضراعة وخشوع - بعد أن سمع من الحواريين حجتهم. " اللهم رَبَّنَآ ) أي : يا الله يا ربنا ومالك أمرنا ، ومجيب سؤالنا . أتوسل إليك أن تنزل علينا ( مَآئِدَةً مِّنَ السمآء ) أي : أطعمة كائنة من السماء هذه الأطعمة ( تَكُونُ لَنَا عِيداً لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا ) أي : يكون ، يوم نزولها عيدا نعظمه ونكثر من التقرب إليك فيه نحن الذين شاهدناها ويكون - أيضاً - يوم نزولها عيداً وسروراً وبهجة لمن سيأتي بعدنا ممن لم يشاهدنا .قال ابن كثير . قال السدي : أي نتخذ ذلك اليوم الذي نزلت فيه . عيداً نعظمه نحن ومن بعدنا . وقال سفيان الثوري : يعني يوما نصلي فيه وقال قتادة : أرادوا أن يكون لعقبهم من بعدهم . وقال سلمان الفارسي : تكون

عظة لنا ولمن بعدنا .وقوله : ( وَآيَةً مِّنْكَ ) معطوف على قوله ( عيداً )
أي : تكون هذه المائدة النازلة من السماء عيداً لأولنا وآخرنا ، وتكون.
أيضاً - دليلا - وعلامة منك - سبحانك - على صحة نبوتي ورسالتي ، فيصدقوني
فيما أبلغه عنك ، ويزداد يقينهم بكمال قدرتك .وقوله : ( وارزقنا وَأَنتَ
خَيْرُ الرازقين ) تذييل بمثابة التعليل لما قبله . أي : أنزلها علينا يا
ربنا وأرزقنا من عندك رزقنا هنيئا رغداً ، فإنك أنت خير الرازقين ، وخير
المعطين ، وكل عطاء من سواك لا يغني ولا يشبع .وقد جمع عيسى في دعائه بين
لفظي " اللهم ربنا " إظهاراً لنهاية التضرع وشدة الخضوع ، حتى يكون تضرعه
أهلا للقبول والإجابة .وعبر عن مجيء المائدة بالإنزال من السماء للإشارة
إلى أنها هبة رفيعة ، ونعمة شريفة ، آتية من مكان عال مرتفع في الحسن
والمعنى ، فيجب أن تقابل بالشكر لواهبها - عز وجل - وبتمام الخضوع
والإخلاص له .وقوله ( تَكُونُ لَنَا عِيداً ) صفة ثانية لمائدة ، وقوله
( لنا ) خبر كان وقوله ( عيداً ) حال من الضمير في الظرف .قال الفخر الرازي
: تأمل في هذا الترتيب ، فإن الحواريين لما سألوا المائدة ذكروا في طلبها
أغراضا ، فقدموا ذكر الأكل فقالوا ( نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا )
وأخروا الأغراض الدينية الروحانية .فأما عيسى فإنه لما ذكر المائدة وذكر
أغراضه فيها قدم الأغراض الدينية وأخر غرض الأكل حيث قال : ( وارزقنا )
وعند هذا يلوح لك مراتب درجات الأرواح في كون بعضها روحية ، وبعضها جسمانية
ثم إن عيسى لشدة صفاء دينه لما ذكرالرزق انتقل إلى الرازق بقوله ( وارزقنا.
لم يقف عليه : بل انتقل من الرزق إلى الرازق فقال : ( وَأَنتَ خَيْرُ
الرازقين ) فقوله : ( ربنا ) ابتداء منه بذكر الحق . وقوله ( أَنزِلْ
عَلَيْنَا ) انتقال من الذات إلى الصفات .وقوله ( تَكُونُ لَنَا عِيداً
لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا ) إشارة إلى ابتهاج الروح بالنعمة لا من حيث إنها
نعمة ، بل من حيث إنها اصدرة من المنعم .وقوله : ( وَآيَةً مِّنْكَ ) إشارة
إلى كون هذه المائدة دليلا لأصحاب النظرو الاستدلال .وقوله : ( وارزقنا )
إشارة إلى حصة النفس .ثم قال الإمام الرازي : فانظر كيف ابتدأ بالأشرف
فالأشرف نازلا إلى الأدون فالأدون .ثم قال : ( وَأَنتَ خَيْرُ الرازقين )
وهو عروج مرة أخرى من الخلق إلى الخالق ، ومن غير الله إلى الله ، وعند ذلك
تلوح لك سمة من كيفية عروج الأرواح المشرقة النورانية إلى الكمالات
الإلهية ونزولها .

قال الله اني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فاني اعذبه عذابا لا اعذبه
احدا من العالمين

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - حديثه عن هذه المائدة وما جرى بشأنها
بين عيسى والحواريين من أقوال فقال - تعالى - : ( قَالَ اللهُ إِنِّي
مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فإني أُعَذِّبُهُ
عَذَاباً لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِّنَ العالمين ) .وقوله : ( منزلها )
ورد فيه قراءاتان متواتران .إحداهما : منزلها - بتشديد الزاي - من التنزيل
وهي تفيد التكثير أو التدريج كما تنبئ عن ذلك صيغة التفعيل . وبهذه القراءة
قرأ ابن عامر وعاصم ونافع .وقرأ الباقون ( منزلها ) بكسر الزاي - من
الإنزال المفيد لنزولها دفعة واحدة .والمعنى : قال الله - تعالى - إني
- منزل عليكم المائدة من السماء إجابة لدعاء رسولي عيسى - عليه السلام )
فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ ) أي فمن يكفر بعد نزولها منكم أيها
الطالبون لها ( فإني أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِّنَ
العالمين ) أي : فإن الله - تعالى - يعذب هذا الكافر بآياته عذاباً لا يعذب
- مثله أحداً من عالمي زمانه أو من العالمين جميعاً .وقد أكد - سبحانه
: عذابه للكافر بآيات الله بعد ظهورها وقيام الأدلة على صحتها بمؤكدات منها
حرف إن في قوله ( فإني أُعَذِّبُهُ ) ومنها : المصدر في قوله ( فإني
أُعَذِّبُهُ عَذَاباً ) إذ المفعول المطلق هنا لتأكيد وقوع الفعل وهو
العذاب .ومنها : وصف هذا العذاب بأنه لا يعذب مثله لأحد من العالمين .وهذه
المؤكدات لوقوع العذاب على الكافر بآيات الله بعد وضوحها من أسبابه : أن
الكفر بعد إجابة ما طلبوه ، وبعد رؤيته ومشاهدته؛ وبعد قيام الأدلة على
وحدانية الله وكمال قدرته ، وبعد ظهور البراهين الدالة على صدق رسوله .أقول
الكفر بعد كل ذلك يكون سببه الجحود والعناد والحسد ، والجاحد والمعاند :
والحاسد يستحقون أشد العذاب ، وأعظم العقاب .هذا ، وهنا مسألتان تتعلقان
بهذه الآيات الكريم' ، نرى من الخير أن نتحدث عنهما بشيء من التفصيل
المسألة الأولى : آراء العلماء في إيمان الحواريين وعدم إيمانهم .المسألة.
الثانية : آراء العلماء في نزول المائدة وعدم نزولها .وللإجابة على المسألة
الأولى نقول : لعل منشأ الخلاف في إيمان الحواريين وعدم إيمانهم مرجعه إلى
قولهم لعيسى - كما حكى القرآن عنهم - ( هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن
يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السمآء ) ؟ فإن هذا القول يسشعر بشكهم
في قدرة الله على إنزال هذه المائدة .وقد ذهب فريق من العلماء - وعلى رأسهم
الزمخشري - إلى عدم إيمانهم ، وجعلوا الظرف في قوله : ( إِذْ قَالَ

الحواريون ) متعلقا بقوله قبل ذلك ( قالوا آمَنَّا واشهد بِأَنَّنَا
مُسْلِمُونَ ) .أي : أنهم قالوا لعيسى آمنا واشهد بأننا مسلمون ، في الوقت
الذي قالوا له فيه ( هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ) فكأنهم ادعوا الإيمان
والاسلام ادعاء بدون إيقان وإذعان ، وإلا فلو كانوا صادقين في دعواهم لما
قالوا لعيسى بأسلوب الاستفهام : ( هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ) .قال صاحب
الكشاف : فإن قلت : كيف قالوا : ( هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ) بعد إيمنهم
وإخلاصهم؟ قلت : ما وصفهم الله بالإيمان والإخلاص ، وإنما حكى ادعاءهم لهما
ثم اتبعه بقوله : ( وَإِذْ قَالُواْ ) فإذن دعواهم كانت باطلة ، وانهم ،
كانوا شاكين ، وقوله : ( هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ) كلام لا يرد مثله عن
مؤمنين معظمين لربهم . وكذلك قول عيسى لهم معناه : اتقوا الله ولا تشكوا في
اقتداره واستطاعته ، ولا تقترحوا عليه ولا تحكموا ما تشتهون من الآيات
فتهلكوا إذا عصيتموه بعدها ( إِن كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ ) أي : إن كانت
دعواكم للإيمان صحيحة .وذهب جمهور العلماء إلى أن الحواريين عندما قالوا
لعيسى ( هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ) كانوا مؤمنين واستدلوا على ذلك بأدلة
: منها :1 - أن الظرف في قوله : ( إِذْ قَالَ الحواريون ) ليس متعلقا بقوله
وإنما هو منصوب بفعل مضمر تقديره اذكر ، وهذا ما رجحه ( قالوا آمَنَّا )
العلامة أبو السعود في تفسيره فقد قال :قوله : ( إِذْ قَالَ الحواريون )
كلام مستأنف مسوق لبيان بعض ما جرى بينه عليه السلام - وبين قومه منقطع عما
قبله ، كما ينبئ عنه الإظهار في موضع الاضمار وإذ منصوب بمضمر .وقي : هو
ظرف لقالوا أريد به التنبيه على أن ادعاءهم الإيمان والإخلاص لم يكن عن
تحقيق وإيقان ولا يساعده النظم الكريم .2 - أن قول الحواريين لعيسى ( هَلْ
يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السمآء )لا
يسحب عنهم الإيمان ، وقد خرج العلماء قولهم هذا بتخريجات منها .( أ ) أن
قولهم لم يكن من باب الشك في قدرة الله ، وإنما هو من باب زيادة الاطمئنان
) عن طريق ضم علم المشاهدة إلى العلم النظري بدليل أنهم قالوا بعد ذلك
نُرِيدُ أن تَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا ) .وشبيه بهذا قول
إبراهيم ( رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الموتى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن
" : قَالَ بلى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ) قال القرطبي ما ملخصه
الحواريون خلصان الأنبياء ودخلاؤهم وأنصارهم ، وقد كانوا عالمين باستطاعة
الله لذلك ولغيره علم دلالة وخبرونظر فأرادوا علم معاينة كذلك ، كما قال
إبراهيم ( رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الموتى ) وقد كان إبراهمي علم ذلك
علم خبر ونظر ، ولكن أراد المعاينة التي لا يدخلها ريب ولا شبهة؛ لأن علم
النظر واخلبر قد تدخله الشبهة والاعتراضات ، وعلم المعاينة ، لا يدخله شيء
من ذلك ، ولذلك قال الحواريون : ( وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا ) كما قال
إبراهيم ( وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ) ( ب ) أن السؤال إنما هو الفعل
لا عن القدرة عليه ، وقد بسط الآلوسي هذا المعنى فقال : إن معنى ( هَلْ
يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ) هل يفعل ربك كما تقول للقادر على القيام : هل تستطيع
أن تقوم معي مبالغة في التقاضي .والتعبير عن الفعل بالاستطاعة ، من باب
التعبير عن المسبب بالسبب ، إذ هي - أي الاستطاعة - من أسباب الإيجاد .( ج
أن الاستطاعة هنا بمعنى الإطاعة - كما سبق أن أشرنا - ويشهد لذلك قول (
الفخر الرازي : قال السدي؛ قوله ( هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ) أي : هل
يطيعك ربك إن سألته . وهذا تفريع على أن استطاع بمعنى أطاع والسين زائدة
- والذي نراه أن رأى الجمهور أرجح للأدلة التي ذكرناها ، ولأن الله
): تعالى - قد ذكر قبل هذه الآية أنه قد امتن عليهم بإلهامهم الإيمان فقال
( وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الحواريين أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي
- ولأنهم لو كانوا غير مؤمنين لكشف الله عن حقيقتهم ، فقد جرت سنته
سبحانه - مع أنبيائه أن يظهر لهم نفاق المنافقين حتى يحذرهم .ولأنهم لو
كانوا غير مؤمنين ، لما أمر الله أتباع النبي صلى الله عليه وسلم بالتأسي
بهم في إخلاصهم ورسوخ يقيتهم قال - تعالى - : ( ياأيها الذين آمَنُواْ
كونوا أَنصَارَ الله كَمَا قَالَ عِيسَى ابن مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ
- مَنْ أنصاري إِلَى الله قَالَ الحواريون نَحْنُ أَنصَارُ الله ) وقال
تعالى - ( فَلَمَّآ أَحَسَّ عيسى مِنْهُمُ الكفر قَالَ مَنْ أنصاري إِلَى
الله قَالَ الحواريون نَحْنُ أَنْصَارُ الله آمَنَّا بالله واشهد بِأَنَّا
مُسْلِمُونَ ) فهاتان الآيتان صريحتان في مدح الحواريين وفي أنهم قوم
التفوا حول عيسى - عليه السلام - وناصروه مناصرة صادقة ، وآمنوا به إيمانا
سليما من الشك والتردد .وأما المسألة الثانية : وهي آراء العلماء في نزول
: المائدة : فالجمهور على أنها نزلت .وقد رجح ذلك ابن جرير فقال ما ملخصه
والصواب من القول عندنا في ذلك أن يقال :إن الله أنزل المائدة . . لأن الله
لا يخلف وعده ، ولا يقع في خبره الخلف وقد قال - تعالى - مخبرا في كتابه عن
إجابة نبيه عيسى حين سأله ما سأله من ذلك ( إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ
- وغير جائز أن يقول الله إني منزلهاه عليكم ثم لا ينزلها ، لأن ذلك منه (
تعالى - خبر ، ولا يكون منه خلاف ما يخبر .وقد علق ابن كثير على ما رجحه
ابن جرير فقال : وهذا القول هو - والله أعلم - الصواب ، كما دلت عليه
الأخبار والآثار عن السلف وغيرهم .ومن الآثار ما خرجه الترمذي عن عمار بن

ياسر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أنزلت المائدة من السماء خبزاً ولحما ، وأمروا أن لا يخونوا ولا يدخروا لغد : فخانوا وادخروا ورفعوا لغد فمسخهم قردة وخنازير " .قال الترمذي : وقد روى عن عمار من طريق موقوفا وهو أصح .وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن شهاب عن ابن عباس ، أن عيسى ابن مريم قالوا له ادع الله أن ينزل علينا مائدة من السماء . قال : فنزلت الملائكة بالمائدة يحملونها . عليها سبعة أحوات وسبعة أرغفة . فأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم .والذي يراجع بعض كتب التفسير يرى كلاما كثيراً عما كان على المائدة من أصناف الطعام ، وعن كيفية نزولها ومكانه ، وعن كيفية استقبالها وكشف غطائها ، والأكل منها والباقي عليها بعد الأكل . وهذا الكلام الكثير رأينا من الخير أن نضرب عنه صفحا ، لضعف أسانيده ، ولأنه لا يخلو عن غرابة ونكارة - كما قال ابن كثير - فقد ذكر - رحمه الله - أثرا طويلا في هذا المعنى ثم قال في نهايته : هذا أثر غريب جدا قطعه ابن حاتم في مواضع من هذه القصة ، وقد جمعته أنا ليكون سياقه أتم .ويعجبني في هذا المقام قول ابن جرير : وأما الصواب من القول فيما كان على المائدة ، فأن يقال : كان عليها مأكول . وجائز أن يكون هذا المأكول سمكا وخبزاً ، وجائز أن يكون من ثمر الجنة ، وغير نافع العلم به ، ولا ضار الجهل به ، إذا أقر تالي الآية بظاهر ما احتمله التنزيل .ويرى الحسن ومجاخد أن المائدة لم تنزل فقد روى ابن جرير - بسنده - عن قتادة قال : كان الحسن يقول : لما قيل لهم ، قالوا :لا حاجة لنا فيها فلم تنزل ( فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ ) : وروى منصور بن زادان عن الحسن أيضاً أنه قال في المائدة : إنها لم تنزل. وروى ابن أبي حاتم وابن جرير عن ليث بن أبي سليم عن مجاهد قال : هو مثل. ضربه الله ولم ينزل شيء .أي : مثل ضربه الله للناس نهيا لهم عن مسألة الآيات لأنبيائه .قال الحافظ ابن كثير : وهذه أسانيد صحيحة إلى مجاهد ، والحسن وقد يتقوى ذلك بأن خبر المائدة لا تعرفه النصارى . ولس في كتابهم ولو كانت قد نزلت لكان ذلك مما تتوفر الدواعي على نقله . وكان يكون موجوداً في كتابهم متواتراً ولا أقل من الآحاد .وقد علق بعض العلماء على كلام ابن كثير هذا فقال : ولنا أن نقول : إن هذا الاستدلال إن كان يعني عدم نزولها ، فقط ، فقد يكون له شيء من الوجاهة وإن كان يعني أنها لا تنزل ولم يسأل فهو محل نظير كبير ، لأن السؤال مالم ينته بإجابة كونية فعلية تبرز بها المائدة للناس ويرونها بأعينهم ويلمسونها بأيديهم فلا يعد بذلك مما تتوافر ، الدواعي على نقله ، لا سيما وعيسى في بيئة محصورة : جماعة سألوا وأجيبوا وانتهى الأمر برجوعهم عما سألوا فعدم تواتر سؤالها في كتب النصارى أو عدم وجوده فيها لا يستغرب كما يستغرب الأمر فيما لو نزلت المائدة فعلا ورآها الناس فعلا وأكلوا منها . وتذوقوا طعامها ، ولم يذكر عن ذلك شيء .وقد ذكر القرآن هذه الحقيقة ابتداء وانفرد بها عن سائر الكتب ، ولا يلزم أن يكون كل ما قصه الله - تعالى - في القرآن قد قصه في غيره من الكتب المتقدمة ، ولا أن أصحاب الأناجيل علموا بكل شيء حتى بمثل هذه المحاورة الخاصة التي لم - تنته بحادث كوني حتى يكون عدم ذكرهم إياها في أنا جيلهم - التي وضعوها دليلا على عدم سؤالها . فقصة السؤال إذن لم ترد فيما عند النصارى ولكنها وردت فيما عند المسلمين .ومن الجائز أن تكون مما ورد في الأناجيل ، وأن تكون مما أخفاه أهل الكتاب أو ضاع منهم علمه بسبب ما . والقرآن كما وصف بنفسه مهيمن على كتبهم التي وصفها بأنهم حرفوها وأنهم كانوا يخفون كثيراً منها ، وأنه يبين لهم كثقيرا مما كانوا يخفون .هذا ومما سبق يتبين لنا أن العلماء متفقون على أن الحواريين قد سألوا عيسى أن يدعو ربه أن ينزل عليهم مائدة من السماء ، وأن عيسى قد دعا ربه فعلا أن ينزلها ، كما جاء في الآية الكريمة .ومحل الخلاف بينهم أنزلت أم لا؟ فالجمهور يرون أنها نزلت لأن الله وعد بذلك في قوله ( إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ) والحسن ومجاهد يريان أنها لم تنزل ، لأن الوعد بنزلوها مقيد بما رتب علي من وقوع العذاب بهم إذا لم يؤمنوا بعد نزولها ، وأن القوم بعد أن سمعوا هذا الشرط قالوا :لا حاجة لنا فيها . فلم تنزل . ويبدو لنا أن رأى الجمهور أقرب إلى الصواب ، لأن ظاهر الآيات يؤيده ، وكذلك الآثار التي وردت في ذلك .

واذ قال الله يا عيسى ابن مريم اانت قلت للناس اتخذوني وامي الهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي ان اقول ما ليس لي بحق ان كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا اعلم ما في نفسك انك انت علام الغيوب

كما فسرها الوسيط ثم حكت السورة الكريمة ما سيقوله الله لعيسى يوم القيامة وما سيرد به عيسى على خالقه - عز وجل - حتى تزداد حسرة الذين وصفوا ، المسيح وأمه . بما هما بريئان منه فقال - تعالى - :( وَإِذْ قَالَ الله ياعيسى ابن مَرْيَمَ . . . )قوله : ( وَإِذْ قَالَ الله ياعيسى ابن مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتخذونِي وَأُمِّيَ إلهين مِن دُونِ الله معطوف على قوله - تعالى - قبل ذلك : ( إِذْ قَالَ الحواريون ) والخطاب ( للنبي صلى الله عليه وسلم وهذا القول إنما يكون في الآخرة - على الصحيح والمعنى : واذكر أيها الرسول الكريم وليذكر معك كل مكلف وقت أن يسأل-

) الله - تعالى - عبده ورسوله عيسى فيقول له يا عيسى : أأنت قلت للناس
اتخذوني ) أي : اجعلوني ( وَأُمِّيَ إلهين مِن دُونِ الله ) أي من غير الله
قال القرطبي : اختلف في وقت هذه المقالة ، فقال قتادة وابن جريج وأكثر
المفسرين : إنما يقول له هذا يوم القيامة . وقال السدي وقطرب : قال له ذلك
حين رفعه إلى السماء وقالت النصارى فيه ما قالت فإن ( إذ ) في كلام العرب
لما مضى والأول أصح ، يدل عليه ما قبله من قوله ( يَوْمَ يَجْمَعُ الله
الرسل ) الآية . كما يدل عليه ما بعده وهو قوله : ( يَوْمُ يَنفَعُ
الصادقين صِدْقُهُمْ ) .وعلى هذا تكون إذ بمعنى إذا كما في قوله : ( وَلَوْ
ترى إِذْ فَزِعُوا فَلاَ فَوْتَ ) أي : إذا فزعوا فعبر عن المستقبل بلفظ
الماضي . لأنه لتحقيق أمره وظهور برهانه . كأنه قد وقع .وكان النداء
بقوله - سبحانه - ( ياعيسى ابن مَرْيَمَ ) أي : بيغر ذكر النبوة ، للإشارة
إلى الولادة الطبيعية التي تنفي أن يكون إلها أو ابن إله أو فيه عنصر
الألوهية بأي وضع من الأوضاع لأن الألوهية والبشرية نقيضان لا يجتمعان فلا
يمكن أن يكون البشر فيه ألوهية ، ولا إله فيه بشرية .والتعبير بقوله
( اتخذوني ) يدل على أنه ليس له حقيقة ، بل هو في ذاته اتخاذ بما لا أصل له
والمقصود بالاستفهام في قوله : ( أَأَنتَ قُلتَ ) توبيخ للكفرة من قومه.
وتبكيت كل من نسب إلى عيسى وأمه ما ليس من حقهما ، وفضيحتهم على رءوس
الأشهاد في ذلك اليوم العصيب ، لأن عيسى سينفي عن نفسه أمامهم أنه قال ذلك
وإنما هو أمرهم بعبادة الله وحده . ولا شك أن النفي يعد السؤال أبلغ في "
التكذيب وأشد في التوبيخ والتقريع وادعى لقيام الحجة على من وصفوه بما هو
برئ منه .قال الآلوسي : واستشكلت الآية بأنه لا يعلم أن أحداً من النصارى
اتخذ مريم إلها .وأجيب عنه بأجوبة .الأول : أنهم لما جعلوا عيسى إلها لزمهم
أن يجعلوا والدته أيضاً كذلك لأن الولد من جنس من يلده ، فذكر ( إلهين )
على طريق الإلزام لهم .والثاني : أنهم لما عظموها تعظيم الإله أطلق عليها
اسم الإله كما أطلق اسم الرب على الأحبار والرهبان في قوله : ( اتخذوا
أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ الله ) والثالث : أنه
يحتمل أن ثيكون فيهم من قال بذلك .ويعضد هذا القول ما حكاه أبو جعفر
، الإمامي عن بعض النصارى أنه قد كان فيما مضى قوم يقال لهم : المريمية
يعتقدون في مريم الألوهية وهو أولى الأوجه عندي .وقوله - تعالى - ( قَالَ
سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ) بيان
لما أجاب به عيسى على خالقه - عز وجل - .أي : قال عيسى مجيبا ربه بكل أدب
وإذعان : تنزيها لك - يا إلهي - عن أن أقل هذا القول ، فإنه ليس من حقي ولا
من حق أحد أن ينطق به .فأنت ترى أن سيدنا عيسى - عليه السلام - قد صدر
كلامه بالتنزيه المطلق لله - عز وجل - ثم عقب ذلك بتأكيد هذا التنزيه ، بأن
أعلن بأنه ليس من حقه أن يقول هذا القول ، لأنه عبد له - تعالى - ومخلوق
بقدرته . ومرسل منه لهداية الناس فكيف يليق بمن كان شأنه كذلك أن يقول لمن
أرسل إليهم ( اتخذوني وَأُمِّيَ إلهين مِن دُونِ الله ) .ثم أضاف إلى كل
ذلك الاستشهاد بالله - تعالى - على براءته ، وإظهار ضعفه المطلق أمام علم
خالقه وقدرته فقال - كما حكي القرآن عنه - ( إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ
عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ
إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الغيوب ) .أي : إن كنت قلت هذا القول وهو ( اتخذوني
وَأُمِّيَ إلهين مِن دُونِ الله ) فأنت تعلمه ولا يخفى عليك منه شيء - لأنك
أنت - يا إلهي - تعلم ما في ( نفسي ) أي ما في ذاتي ، ولا أعلم ما في ذاتك
والمراد : تعلم ما أعلم ولا أعلم ما تعلم ، وتعلم ما في غيبي ولا أعلم ما.
- في غيبك ، وتعلم ما أقول وأفعل ولا أعلم ما تقول وتفعل إنك أنت - يا إلهي
- علام الغيوب .فهذه الجملة الكريمة بجانب تأكيدها لنفي ما سئل عنه عيسى
عليه السلام - تدل بأبلغ تعبير على إثبات شمول علم الله - تعالى - بكل شيء
وقد أكد عيسى ذلك ، بإن المؤكدة وبالضمير أنت ، وبصيغة المبالغة " علاّم ،
وبصيغة الجمع للفظ " الغيوب " فهو لم يقل : إنك أنت غالم الغيب وإنما "
قال - كما حكى القرآن عنه - ( إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الغيوب ) بكل أنواعها
. وبكل ما يتعلق بالكائنات كلها ،

ما قلت لهم الا ما امرتني به ان اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيدا ما
دمت فيهم فلما توفيتني كنت انت الرقيب عليهم وانت على كل شيء شهيد

، - كما فسرها الوسيط وبعد هذا التنزيه من عيسى - عليه السلام - لله عز وجل
بوبعد هذا النفي المؤكد لما سئل عنه بعد كل ذلك يحكي القرآن ما قاله عيسى
لقومه فيقول : ( مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ
اعبدوا الله رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ
فِيهِمْ ) أي : ما قلت لهم - يا إلهي - ( اتخذوني وَأُمِّيَ إلهين مِن
دُونِ الله ) وإنما القول الذي قلته لهم هو الذي أمرتني أن أبلغهم إياه وهو
، عبادتك وحدك لا شريك لك ، فأنت ربي وربهم ، وأنت الذي خلقتني وخلقتهم
- فجيب أن ندين لك جميعاً بالعبادة والخضوع والطاعة ، وأنت تعلم يا إلهي
أنن لم أقصر في ذلك ، وأنني كنت رقيباً وشهيداً على قومي ، وداعياً لهم إلى

: إخلاص العبادات لك والعمل بموجب أمرك مدة بقائي فيهم .قال الفخر الرازي
وأن في قوله ( أَنِ اعبدوا الله ) مفسرة والمفسر هو الهاء في ( به ) من
قوله ( إِلاَّ مَآ أَمَرْتَنِي بِهِ ) وهو يعود إلى القول المأمور به
والمعنى : ما قلت لهم إلا قولا أمرتني به ، وذلك القول هو أن : اعبدوا.
الله ربي وربكم واعلم أنه كان الأصل أن يقال : ما أمرتهم إلا بما أمرتني به
إلا أنه وضع القول موضع الأمر ، نزولا على موجب الأدب الحسن لئلا يجعل نفسه
وربه آمرين معا ، ودل على الأصل بذكر أن المفسرة .وقوله : ( فَلَمَّا
تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ على كُلِّ
شَيْءٍ شَهِيدٌ ) بيان لانتهاء مهمته بعد فراقه لقومه .أي : أنت تعلم يا
إلهي بأني ما أمرتهم إلا بعبادتك وبني ما قصرت في حملهم على طاعتك مدة
وجودي معهم ، ( فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي ) يا إلهي أي : قبضتني بالرفع إلى
السماء حيا ، كنت أنت الرقيب عليهم . أي : كنت أنت وحدك الحفيظ عليهم
المراقب لأحوالهم ، العليم بتصرفاتهم الخبير بمن أحسن منهم وبمن أساء
وأنت - يا إلهي - على كل شيء شهيد ، لا تخفى عليك خافية من أمور خلقك .هذا
وما ذهبنا إليه من أن معنى ( فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي ) أي : قبضتني .
بالرفع إلى السماء حيا قول جمهور العلماء .ومنهم من يرى أن معنى ( فَلَمَّا
تَوَفَّيْتَنِي ) أي : أمتني وزعموا أن رفعه إلى السماء كان بعد موته .قال
بعض العلماء مؤيدا ما ذهب إليه الجمهور قوله : ( فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي )
أي فلما أخذتني وافيا بالرفع إلي السماء حيا ، إنجاء لي مما دبروه من قتلي
من التوفي وهو أخذ الشيء وافيا أي كاملا . وقد جاء التوفي بهذا المعنى في ،
قوله - تعالى - ( ياعيسى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ
وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الذين كَفَرُواْ . . . ) ولا يصح أن يحمل التوفي على
الإماتة ، لأن إماتة عيسى في وقت حصار أعدائه له ليس فيها ما يسوغ
الامتنان بها ، ورفعه إلأى السماء جثة هامدة سخف من القول ، وقد نزه الله
السماء أن تكون قبرا لجثث الموتى ، وإن كان الرفع بالروح فقط ، فأي مزية
لعيسى في ذلك على سائر الأنبياء ، والسماء مستقر أرواحهم الطاهرة فالحق
، أنه - عليه السلام - رفع إلى السماء حيا بجسده وروحه وقد جعله الله آية
والله على كل شيء قدير .وقال الشيخ القاسمي : وقد دلت الآية الكريمة على أن
الأنبياء بعد استيفاء أجلهم الدنيوي ، ونقلهم إلى البرزخ لا يعلمون أعمال
أمتهم وقد روى البخاري هنا عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : خطب رسول
الله صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم :" يا أيها الناس إنكم
محشورون إلى الله حفاة عراة غولا " أي غير مختونين - ثم قال : ( كَمَا
بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا
فَاعِلِينَ ) . ثم قال صلى الله عليه وسلم : " ألا وإن أول الخلائق يكسي
يوم القيامة إبراهيم ألا وإنه يجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال
فأقول : يا رب أصحابي فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك فأقول كما قال
العبد الصالح ، وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب
. " عليهم ، فيقال لي : إن هؤلاء لا يزالون مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم

ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك انت العزيز الحكيم

. كما فسرها الوسيط وبعد أن أجاب عيسى على سؤال ربه تلك الإجابة الموفقة
فوض الأمر إليه - سبحانه - في شأن قومه . فقال - كما حكى القرآن عنه ( إِن
تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ
أَنتَ العزيز الحكيم ) .أي : إن تعذب - يا إلهي - قومي ، فإنك تعذب عبادك
الذين خلقتهم بقدرتك ، والذين تملكهم ملكا تاما ، والاعتراض على المالك
المطلق فيما يفعل بمملوكه . وإن تغفر لهم ، وتستر سيئاتهم وتصفح عنهم فذلك
إليك وحدك ، لأن صفحك عمن تشاء من عبادك هو صفح القوي القاهر الغالب الذي
لا يعجزه شيء . والذي يضع الأمور في مواضعها بمقتضى بحكمته السامية وقد قال
بعض المفسرين هنا : كيف جاز لعيسى أن يقول : ( وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ )
والله - تعالى -لا يغفر أن يشرك به؟وقد أجاب عن ذلك الإمام القرطبي بقوله
، قول عيسى ( وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ ) قاله على وجه الاستعطاف لهم :
والرأفة بهم ، كما يستعطف السيد لعبده ، ولهذا لم يقل : فإنهم عصوك . وقيل
قاله على وجه التسليم لأمره ، والاستجارة من عذابه، وهو يعلم أنه لا يغفر
لكافر وقيل . الهاء والميم في ( إِن تُعَذِّبْهُمْ ) أي : من أقام على
الكفر منهم ( فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ) وأنت مالكهم تتصرف فيهم كيف شئت لا
اعتراض عليك ( وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ ) أي : لمن آمن منهم ( فَإِنَّكَ
أَنتَ العزيز الحكيم ) الغالب على أمره ( الحكيم ) في صنعه .ومع وجاهة هذا
الوجه فإننا نرى أن الآية الكريمة حكاية للتفويض المطلق الذي فوضه عيسى إلى
ربه - سبحانه - في شأن قومه ولهذا قال ابن كثير :هذا الكلام يتضمن رد
المشيئة إلى الله - تعالى - فإنه الفعال لما يشاء الذي لا يسأل عما يفعل
وهم يسألون . ويتضمن التبري من النصارى الذين كذبوا على الله وكذبوا على
، رسوله ، وجعلوا لله ندا وصاحبه وولدا .وهذه الآية لها شأن عظيم ونبأ عجيب
وقد ورد في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قام بها ليلة حتى الصباح

يرددها .فقد روى الإمام أحمد عن أبي ذر قال : " صلى النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة : فقرأ بآية حتى أصبح يركع بها ويسجد بها ( إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ) الآية فلما أصبح قلت : يا رسول الله ألم تزل تقرأ هذه الآية حتى أصبحت تركع بها وتسجد بها؟ قال : إني سألت ربي - عز وجل . الشفاعة لأمتي فأعطانيها - وهي نائلة - إن شاء الله - لمن لا يشرك بالله شيئا " .وبعد أن حكى القرآن الكريم ما رد به عيسى عليه السلام - على قول ربه وخالقه - سبحانه - ( أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتخذوني - وَأُمِّيَ إِلهين مِن دُونِ الله ) وقد تضمن هذا الرد - كام سبق أن بينا التنزيه المطلق لله - تعالى - ، والنفي التام لأن يكون عيسى قد قال هذا القول .

قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ابدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم

كما فسرها الوسيط بعد كل ذلك ختم - سبحانه تلك المجاوبة ببيان حسن عاقبة الصادقين يوم القيامة فقال - تعالى - :( قَالَ الله هذا يَوْمُ يَنفَعُ الصادقين . . . )قال الآلوسي : ( قَالَ الله ) كلام مستأنف ختم به - سبحانه - حكاية ما حكى مما يقع يوم يجمع الله الرسل . وأشير إلى نتيجته ومآله . والمراد بقول الله - تعالى - عقيب جواب عيسى الإشارة إلى صدقه ضمن بيان حال الصادقين الذين هو في زمرتهم .والمراد باليوم في قوله ( هذا يَوْمُ ) يوم القيامة الذي تجازي فيه كل نفس بما كسبت وقد قرأ الجمهور برفع : - من غير تنوين على أنه خبر لاسم الإشارة أي : قال الله - تعالى ( يوم ) إن هذا اليوم هو اليوم الذي ينتفع الصادقون فيه بصدقهم في إيمانهم وأعمالهم لأنه يوم الجزاء والعطاء على ما قدموا من خيرات في دنياهم .أي أن صدقهم ، في الدنيا ينفعهم يوم القيامة ، بخلاف صدق الكفار يوم القيامة فإنه لا ينفعهم ، لأنهم لم يكونوا مؤمنين في دنياهم .وقرأ نافع ( يوم ) بالنصب من غير تنوين على أنه ظرف لقال . أي : قال الله - تعالى - هذا القول لعيسى يوم ينفع الصادقين في هذا اليوم .وقوله : ( لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَداً ) جملة مستأنفة لبيان مظاهر النفع الذي ظفر به الصادقون في هذا اليوم . أي : أن هؤلاء الصادقين في ) دنياهم قد نالوا في آخرتهم جنات تجري من تحت أشجارها وسررها الأنهار خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَداً ) أي : مقيمين فيها إقامة دائمة لا يعتريها انقطاع وقوله : ( رَّضِيَ الله عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ) أي : رضي الله عنهم فأعطاهم بسبب إيمانهم الصادق وعملهم الصالح عطاء هو نهاية الآمال والأماني . ورضوا عنه بسبب هذا العطاء الجزيل الذي لا تحيط العبارة بوصفه واسم الإشارة في قوله : ( ذلك الفوز العظيم ) يعود إلى ما انتفع به. الصادقون من جنات تجري من تحتها الأنهار . ومن رضا الله عنهم . أي : إلى النعيم الجثماني المتمثل في الجنات وما يتبعها من عيشة هنيئة ، وإلى النعيم - الروحاني المتمثل في رضا الله عنهم .قال الفخر الرازي : اعلم أنه - تعالى لما أخبر أن صدق الصادقين في الدنيا ينفعهم في القيامة شرح كيفية ذلك النفع ، وهو الثواب . وحقيقة الثواب : أنها منفعة خالصة دائمة مقرونة بالتعظيم فقوله : ( لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ) إشارة إلى المنفعة الخالصة عن الغموم والهموم ، وقوله ( خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَداً ) ) إشارة إلى الدوام . واعتبر هذه الدقيقة : فإنه أينما ذكر الثواب قال ، خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَداً ) وأينما ذكر العقاب للفساق من أهل الإيمان ذكر لفظ الخلود ولم يذكر معه التأييد ، وأما قوله : ( رَّضِيَ الله عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ) فتحته أسرار عجيبة لا تسمح الأقلام بمثلها . جعلنا الله من أهلها

لله ملك السماوات والارض وما فيهن وهو على كل شيء قدير

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بهذه الآية الدالة على شمول ملكه لكل شيء في الكون فقال : ( للَّهِ مُلْكُ السماوات والأرض وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ) .

الحمد لله الذي خلق السماوات والارض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون

، كما فسرها الوسيط افتتحت سورة الأنعام بتقرير الحقيقة الأولى فى كل دين وهى أن المستحق للحمد المطلق ، والثناء الكامل هو رب العالمين .والحمد : هو الثناء باللسان على الجميل الصادر عن اختيار من نعمة أو غيرها .وأل فى { الحمد } للاستغراق ، بمعنى أن المستحق لجميع المحامد ولكافة ألوان الثناء هو الله تعالى ، وإنما كان الحمد مقصورا فى الحقيقة على الله ، لأن كل ما يستحق أن يقابل بالثناء فهو صادر عنه ومرجعه إليه ، إذ هو الخالق لكل شىء ،

، وما يقدم إلى بعض الناس من حمد جزاء إحسانهم ، فهو فى الحقيقة حمد لله
لأنه - سبحانه - هو الذى وفقهم لذلك ، وأعانهم عليه .وقد بين بعض المفسرين
الحكمة فى ابتداء السورة الكريمة بقوله تعالى : { الحمد للَّهِ } كما بين
، الفرق بين المدح والحمد والشكر فقال : " اعلم أن المدح أعم من الحمد
والحمد أعم من الشكر ، أما بيان أن المدح أعم من الحمد ، فلأن المدح يحصل
للعاقل ولغير العاقل ، ألا ترى أنه كما يحسن مدح الرجل العاقل على أنواع
فاضائله فكذلك قد يمدح اللؤلؤ لحسن شكله ، وأما الحمد فإنه لا يحصل إلا
للفاعل المختار على ما يصدر منه من الإنعام والإحسان فثبت أن المدح أعم من
الحمد ، وأما بيان أن الحمد أعم من الشكر فلأن الحمد عبارة عن تعظيم الفاعل
، لأجل ما صدر عنه من الإنعام سواء كان ذلك الإنعام واصلا إليك أو إلى غيرك
وأما الشكر فهو عبارة عن تعظيمه لأجل إنعام وصل إليك فثبت بما ذكرنا أن
المدح أعم من الحمد وهو أعم من الشكر . إذا عرفت هذا فنقول : إنما لم يقل
. المدح لله لأننا بينا أن المدح كما يحصل للفاعل المختار فقد يحصل لغيره
أما الحمد فإنه لا يحصل إلا للفاعل المختار ، فكان قوله الحمد لله تصريحا
بأن المؤثر فى وجود هذا العالم فاعل مختار خلقه بالقدرة والمشيئة . وإنما
لم يقل الشكر لله ، لأنا بينا أن الشكر عبارة عن تعظيمه بسبب إنعام صدر منه
ووصل إليك ، وهذا مشعر بأن العبد إذا ذكر تعظيمه بسبب ما وصل إليه من
النعمة ، فحينئذ يكون المطلوب الأصلى له وصول النعمة إليه وهذه درجة حقيرة
فأما إذا قال بالحمد لله فهذا يدل على أن العبد حمده لأجل كونه مستحقا
، للحمد لا لخصوص أنه - تعالى - أوصل النعمة إليه ، فيكون الإخلاص أكمل
واستغراق القلب فى مشاهدة نور الحق أتم ، وانقطاعه عما سوى الحق أقوى وأثبت
هذا وفى القرآن الكريم خمس سور مكية اشتركت فى الافتتاح بتقرير أن الحمد. "
لله وحده ، ولكن كان لكل سورة منهج خاص فى بيان أسباب ذلك الحمد.أما
السورة الأولى فهى سورة الفاتحة التى تقول فى مطلعها { الحمد للَّهِ رَبِّ
العالمين } أى : أن الحمد لله وحده ، الذى ربى هذا العالم تربية خلقية
أساسها الإيجاد والتصوير ، ورباه تربية عقلية أساسها منح قوة التفكير
والإدراك ، كما أنه رباه تربية تشريعية قوامها الأحكام التى أوحى بها إلى
رسله فتربط استحقاق الحمد لله بربوبيته للعالمين ، والربوبية المطلقة تنتظم
التربية الخلقية جسمية وعقلية ، عن طريق الإيجاد والتصوير ، كما تنتظم
التربية التشريعية التى أساسها الأحكام التى أوحها الله إلى أنبيائه ورسله
وتجىء بعد سورة الفاتحة فى الترتيب المصحفى سورة الأنعام فأثبتت أيضاً.
استحقاق الحمد لله وحده ، لأنه " خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور
فهى تهتم بالحديث عن نوع خاص من التربية ، وهو التربية الخلقية التى ،
" أساسها الخلق والإيجاد والتسوية والتصوير الحقيقى .ثم تجىء بعدهما سورة
الكهف " فتثبت أن الحمد لله ، لأنه { أَنْزَلَ على عَبْدِهِ الكتاب وَلَمْ
يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا } فتراها تهتم بإبراز التربية التشريعية التى تهذب
الروح ، وتهدى الفكر .والسورة الرابعة التى افتتحت بإثبات أن { الحمد
للَّهِ } هى سورة سبأ ، لأنه - سبحانه - { الحمد للَّهِ الذي لَهُ مَا فِي
{ السماوات وَمَا فِي الأرض وَلَهُ الحمد فِي الآخرة وَهُوَ الحكيم الخبير
ثم تراها بعد ذلك زاخرة بالحديث عن أنواع التربية المطلقة التى تتجلى فى
ارساء مظاهر علم الله الشامل ، وملكه المطلق ، وتدبيره المحكم وقدرته
النافذة التى تجعله أهلا لكل حمد وثناء .أما السورة الخامسة فهى سورة فاطر
فقد أثبتت فى مطلعها أن الحمد لله ، لأنه { فَاطِرِ السماوات والأرض ،
جَاعِلِ الملائكة رُسُلاً أولي أَجْنِحَةٍ مثنى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ
{ يَزِيدُ فِي الخلق مَا يَشَآءُ إِنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ
والذى يقرا هذه السورة الكريمة بتدبير يراها تهتم بإبراز إثبات أن الحمد
لله وحده عن طريق الجمع بين التربيتين الخلقية والتشريعية فهى تذكر خلق
السموات والأرض والجبال وتصريف الليل والنهار والشمس والقمر . كما تذكر
أنواع الناس فى الانتفاع بوحى الله ، وبهدى أنبيائه ورسله .وهكذا نجد أن
السور الخمس قد اشتركت فى أنها افتتحت بجملة { الحمد للَّهِ } وفى قصر
الحمد والثناء عليه وحده . إلا أن كل واحدة منها قد سلكت منهجا خاصا فى
تقرير هذه الحقيقة ، وفى إقامة الأدلة على صدقها .وقد أحسن القرطبى عندما
قال : " فإن قيل : قد افتتح غيرها - أى سورة الأنعام - بالحمد لله فكان
، الاجتزاء بواحدة يغنى عن سائره فيقال : لأن لكل واحدةٍ منه معنى فى موضعه
لا يؤدى عن غيره من أجل عقده بالنعم المختلفة ، وأيضاً فلما فيه من الحجة
فى هذا الموضع على الذين هم بربهم يعدلون " .ثم بين القرآن بعد ذلك الأسباب
التى تحمل العقلاء على أن يجعلوا حمدهم كله لله - تعالى - فقال :{ الذي
خَلَقَ السماوات والأرض وَجَعَلَ الظلمات والنور } .والمعنى : الحمد كله
لله الذى أنشأ بقدرته هذه العوالم العلوية والسفلية ، وأوجد ما فيها من
مخلوقات ناطقة وصامتة ، وظاهرة وخافية ، وأحدث ما يتعاقب عليها من تحولات
- وتقلبات ونور وظلمات . فالجملة الكريمة قد اشتملت على صفتين من صفات الله
تعالى - تثبتان وجوب استحقاق الحمد الكامل لله - عز وجل - وهما خلق السموات
والأرض ، وجعل الظلمات والنور .وعبر - سبحانه - فى جانب السموات والأرض
بخلق ، وفى جانب الظلمات والنور بجعل ، لأن الخلق معناه هنا الإنشاء

والإيجاد الابتدائي من العدم ، أما الجعل فيتضمن معنى تكوين شئ من شئ أو من أشياء ، فالظلمات تتولد من اختفاء الشمس عن الأرض ، والنور يتكون من بزوغ الشمس على الأرض ، وهذه التقلبات الكونية هى بتقدير الله العزيز العليم .قال صاحب الكشاف : " والفرق بين الخلق والجعل . أن الخلق فيه معنى التقدير ، وفى الجعل معنى التضمين ، كإنشاء شئ من شئ ، أو تصيير شئ شيئاً ، أو نقله من مكان إلى مكان ، ومن ذلك { وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا } ، لأن الظلمات من الأجرام المتكاثفة ، { وَجَعَلَ الظلمات والنور } { والنور من النار " .وقال الفخر الرازى : " وإنما حسن لفظ الجعل هنا ، لأن النور والظلمة لما تعاقبا صار كل واحد منهما كأنما تولد من الآخر " .وقال أبو السعود : " والجعل هنا هو الإنشاء والإبداع كالخلق ، خلا أن ذلك - أى الخلق - مختص بالإنشاء التكوينى وفيه معنى التقدير والتسوية وهذا عام له كما فى الآية الكريمة والتشريعى أيضاً كما فى قوله - تعالى - { مَا جَعَلَ الله مِن بَحِيرَةٍ } وقد وردت نصوص تصرح بأن الأرض سبع طبقات كالسموات . إلا أنها فى كثير من المواضع القرآنية تفرد - أى الأرض - وتجمع السماء كما هنا ، لعظم السماء . ولإحاطتها بالأرض ، ولأنه لم يعرف أن الله - تعالى - قد عصى فيها ، ولأن طبقاتها متمايزة ينفصل بعضها عن بعض ، بخلاف طبقات الأرض فإنها متصلة .والمراد بالظلمات هنا الظلمات الحسية ، كما أن المراد بالنور النور الحسى لأن اللفظ حقيقة فيهما ، ولأنهما إذا جعلا مقرونين بذكر السموات والأرض فإنه لا يفهم منهما إلا هاتان الكيفيتان المحسوستان ، ولأن القرآن يستشهد عليهم بمقتضى ما يعلمونه من تفرده بالخلق وهم يعلمون تفرده - سبحانه - بخلق هذه الأشياء .ويرى بعض المفسرين أن المراد بالظلمات ، ظلمات الشرك والكفر والنفاق ، وأن المراد بالنور ، نور الإيمان والإسلام واليقين وعلى هذا الرأى يكون المراد بهما معنويا لا حسيا .قال صاحب المنار : قال ، الواحدى : والأولى حمل اللفظين عليهما ، واستشكله الرازى لأنه مبنى على القول بجواز الجمع بين الحقيقة والمجاز ، والمختار عندنا جوازه ، وجواز استعمال المشترك فى معنييه أو معانيه إذا احتمل المقام ذلك بلا التباس كما هنا ، والتعبير بالجعل دون الخلق يلائم هذا فإن الجعل يشمل الخلق والأمر - أى الشرع - كما تقدم ، فيفسر جعل كل نور بما يليق به .وعبر القرآن فى جانب الظلمات بصيغة الجمع ، وفى جانب النور بالإفراد لأن النور واحد ومن نتائجه الكشف والظهور ، وتعدد أسبابه لا يغير حقيقته . أما الظلمة فإنها متنوعة بتنوع أسبابها ، فهناك ظلمة الليل ، وهناك ظلمة السجون ، وهناك ظلمة القبور وهناك ظلمة الغمام ، وهى تتغير حقائقها بتغير أسبابها . ثم ثمة إشارة إلى أمر معنوى وهى أن ظلمة الإدراك تتعدد حقائقها ، فهناك ظلمة الانحراف ، وظلمة الأهواء ، والشهوات وطمس القلوب .والنور واحد { وَأَنَّ هذا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فاتبعوه وَلاَ تَتَّبِعُواْ السبل فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ } فالنور فى هذا واحد .ثم بين - سبحانه - الموقف الجحودى الذى وقفه المشركون من قضية الألوهية فقال { ثْمَّ الذين كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ } .العدل : المراد به هنا التسوية ، فقال : عدل الشئ بالشئ إذا سواه به والمعنى : أن الله - تعالى - هو الذى خلق السموات والأرض ، وهو الذى جعل الظلمات والنور ، فهو لذلك من حقه على خلقه أن يعبدوه وحده وأن يخصوه بالحمد والثناء ، ولكن المشركين مع كل هذه الدلائل الدالة على وحدانية الله وقدرته يساوون به غيره فى العبادة ، ويشركون معه آلهة أخرى لا تنفع ولا تضر .وهذه الجملة الكريمة معطوفة على جملة { الحمد للَّهِ } على معنى أن الله - تعالى - حقيق بالحمد على ما خلق من نعم ، وأوجد من كائنات ثم الذين كفروا يجحدون كل ذلك فيشركون معه آلهة أخرى .ويحتمل أن تكون معطوفة على جملة " خلق السموات والأرض " على معنى أن الله - تعالى - قد خلق الأشياء العظيمة التى لا يقدر عليها أحد سواه ، ثم إن المشركين بعد ذلك يعدلون به جماداً لا يقدر على شئ أصلا .وجاء العطف " بثم " لإفادة استبعاد واستقباح ما فعله الكافرون . فإنهم رغم البراهين الواضحة والدالة على وحدانية الله وقدرته ، قد نزلوا بمداركهم إلى الحضيض فسووا فى العبادة بين الخالق والمخلوق .قال القرطبى : قال ابن عطية : فثم دالة على قبح فعل الكافرين لأن المعنى أن خلق السموات والأرض قد تقرر ، وآياته قد سطعت ، وإنعامه بذلك قد تبين ، ثم بعد ذلك كله عدلوا بربهم ، فهذا كما تقول : يا فلان أعطيتك وأكرمتك وأحسنت إليك ثم تشتمنى! ولو وقع العطف بالواو فى هذا ونحوه لم يلزم التوبيخ كلزومه بثم " .

هو الذي خلقكم من طين ثم قضى اجلا واجل مسمى عنده ثم انتم تمترون

- كما فسرها الوسيط ثم ساق القرآن فى الآية الثانية دليلا آخر على أن الله تعالى - هو المستحق للعبادة والحمد ، وعلى أن يوم القيامة حق ، فتحدث عن أصل خلق الإنسان ، بعد أن تحدث فى الآية الأولى عن خلق السموات والأرض فقال { هُوَ الذي خَلَقَكُمْ مِّن طِينٍ ثُمَّ قضى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ } .أى : هو الذى أنشأكم من طين ، ثم تعهدكم برعايته فى مراحل خلقكم بعد ذلك ، كما قال - تعالى - : { وَلَقَدْ

خَلَقْنَا الإنسان مِن سُلاَلَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً
فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النطفة عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العلقة
مُضْغَةً فَخَلَقْنَا المضغة عِظَاماً فَكَسَوْنَا العظام لَحْماً ثُمَّ
أنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الخالقين ثُمَّ
إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلك لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القيامة
، تُبْعَثُونَ } وفى ذكر خلق الإنسان من طين ، دليل على قدرة الله وعظمته
لأنه - سبحانه - هو الذى حول هذا الطين إلى بشر سوى مفكر ، يختار الخير
فيهتدى ويختار الشر فيردى ، كما أن فيه تذكيراً له بأصله حتى لا يستكبر أو
يطغى ، وحتى يوقن بأن من خلقه من هذا الأصل قادر على أن يعيده إليه .قال
تعالى : { مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا
نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أخرى } قال أبو السعود : ( وتخصيص خلقهم بالذكر من
بين سائر دلائل صحة البعث ، مع أن ما ذكر من خلق السموات والأرض من أوضحها
وأظهرها . لما أن محل النزاع بعثهم ، فدلالة بدء خلقهم على ذلك أظهر ، وهم
) : بشئون أنفسهم أعرف ، والتعامى عن الحجة البينة أقبح ) .وقال الجمل
وإنما نسب هذا الخلق إلى المخاطبين لا إلى آدم - عليه السلام - وهو المخلوق
منه حقيقة . لتوضيح منهاج القياس ، والمبالغة فى إزاحة الاشتباه والالتباس
مع ما فيه من تحقيق الحق ، والتنبيه على حكمة خفية هى أن كل فرد من أفراد ،
البشر له حظ من إنشائه - عليه السلام - منه . حيث لم تكن فطرته البديعة
مقصورة على نفسه ، بل كانت أنموذجا منطويا على فطرة سائر آحاد البشر انطواء
إجماليا ، فكان خلقه - عليه السلام - من طين خلقا لكل أحد من فروعه ) .ثم
قال - تعالى - { ثُمَّ قضى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ } . الأجل
فى اللغة عبارة عن الوقت المضروب لانقضاء الأمد ، وأجل الإنسان هو الوقت
المضروب لانتهاء عمره . والمعنى : أنه سبحانه - قدر لعباده أجلين : أجلا
تنتهى عنده حياتهم بعد أن عاشوا زمنا معينا ، وأجلا آخر يمتد من وقت موتهم
إلى أن يبعثهم الله من قبورهم عند انتهاء عمر الدنيا ليحاسبهم على أعمالهم
هذا هو الرأى الأول فى معنى الأجلين .وقيل : المراد من الأجل الأول آجال ،
الماضين من الخلق ، ومن الثانى آجال الباقين منهم . وقيل المراد من الأول
النوم ومن الثانى الموت . وقيل : المراد من الأول ما مضى من عمر الإنسان
ومن الثانى ما بقى منه .والذى نرجحه هو الرأى الأول لأسباب منها .1 - أن من
تتبع ذكر الأجل المسمى فى القرآن فى سياق الكلام عن الناس يراه قد ورد فى
عمر الإنسان الذى ينتهى بالموت ، ومن ذلك قوله{ وَلَوْ يُؤَاخِذُ الله
الناس بِظُلْمِهِمْ مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ ولكن يُؤَخِّرُهُمْ
إِلَى أَجَلٍ مسمى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً
وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ } وقوله - تعالى - : { يَغْفِرْ لَكُمْ مِّن
ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ الله إِذَا
جَآءَ لاَ يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ } 2 - أن الآية الكريمة
مسوقة لإثبات وحدانية الله ولتقرير أن البعث حق ، فالمناسب أن يكون المراد
بالأجل الثانى هو انتهاء عمر الدنيا وبعث الناس من قبورهم .ولذا قال أبو
السعود فى تضعيفه للآراء المخالفة للرأى الأول : " ومن ها هنا تبين أن ما
قيل من أن الأجل الأول هو النوم والثانى هو الموت ، أو أن الأول أجل
الماضين والثانى أجل الباقين ، أو أن الأول مقدار ما مضى من عمر كل أحد
والثانى مقدار ما بقى منه؛ مما لا وجه له أصلا ، لما رأيت من أن مساق النظم
الكريم استبعاد امترائهم فى البعث الذى عبر عن وقته بالأجل المسمى . فحيث
أريد به أحد ما ذكر من الأمور الثلاثة ففى أى شىء تمترون؟ " .3 - أن الرأى
الأول هو الرأى المأثور عن بعض الصحابة ، وبه قال جمهور المفسرين ، وقد
، عزاه ابن كثير فى تفسيره إلى عشرة من التابعين .وعطفت الجملة الكريمة بثم
، للإشارة إلى أطوار خلق الإنسان المختلفة ، فهو فى أصله من سلالة من طين
- ثم يصيره الله - تعالى - نطفة ، فعلقة ، فمضغة ، فعظاما ، ثم يكونه
سبحانه - وتعالى خلقا آخر . فتبارك الله أحسن الخالقين " .ووصف الأجل
الثانى بأنه ( مسمى عنده ) ، لأن وقت قيام الساعة من الأمور التى لا يعلمها
إلا الله قال - تعالى - : { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الساعة أَيَّانَ مُرْسَاهَا
قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلاَّ
هُوَ ثَقُلَتْ فِي السماوات والأرض لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً
يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ
الله ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ } وجاء قوله تعالى { وَأَجَلٌ
مُّسَمًّى } مقدما على ( عنده ) لأنه مبتدأ ، والذى سوغ الابتداء به مع
كونه نكرة تخصصه بالوصف فقارب المعرفة لذلك ، فهو كقوله - تعالى - { }
وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ } ومعنى ( عنده ) أى : فى علمه
الذى لا يعلمه أحد سواه ، فهى عندية تشريف وخصوصية .ثم ختمت الآية الكريمة
بتوبيخ الشاكين فى البعث والحساب فقال - تعالى - :{ ثُمَّ أَنتُمْ
تَمْتَرُونَ } . الامتراء : هو التردد الذى ينتهى إلى محاجة ومجادلة وقد
ينتهى إلى شك ثم إلى إنكار . مأخوذ من مرى الضرع إذا مسحه للدر ووجه
المناسبة فى استعماله فى الشك ، أن الشك سبب لاستخراج العلم الذى هو كاللبن
الخالص نم بين فرث ودم .والمعنى : ثم إنكم بعد كل هذه الأدلة الدالة على

وحدانية الله ، وعلى أن يوم القيامة حق ، تشكون فى ذلك ، وتجادلون المؤمنين
فيما تشكون فيه " بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير " .وجاء العطف بثم لبيان
التفاوت الكبير بين الحقائق الثابتة الناصعة ، وبين ما سولته لهم أنفسهم من
المجادلة فيها .قال الالوسى : " والمراد استبعاد امترائهم فى وقوع البعث
وتحققه فى نفسه مع مشاهدتهم فى أنفسهم من الشواهد ما يقع مادة ذلك بالكلية
فإن من قدر على إفاضة الحياة على مادة غير مستعدة لشىء من ذلك ، كان أوضح
- اقتداراً على إقامته على مادة قد استعدت له وقارنته مدة " .وبعد أن أقام
، سبحانه - الأدلة فى الآيتين السابقتين على أنه هو المستحق للعبادة والحمد
وعلى أن يوم القيامة حق ، جاءت الآية الثالثة لتصفه - سبحانه بأنه هو صاحب
السلطان المطلق فى هذا الكون فقال - تعالى - : { هُوَ الله فِي السماوات
{ وَفِي الأرض يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ
أى : أنه - سبحانه - هو المعبود بحق فى السموات والأرض ، العليم بكل شىء.
فى هذا الوجود ، الخبير بكل ما يكسبه الإنسان من خير أو شر فيجازيه عليه
- بما يستحقه .والضمير " هو " الذى صدرت به الآية يعود إلى الله - تعالى
الذى نعت ذاته فى الآيتين السابقتين بأنه هو صاحب الحمد المطلق ، وخالق
السموات والأرض ، وجاعل الظلمات والنور ، ومنشىء الإنسان من طين ، وأنه
لذلك يكون مختصاً بالعبادة والخضوع .

وهو الله في السماوات وفي الارض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون

، كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : { وَهُوَ الله } جملة من متبدأ وخبر
معطوفة على ما قبلها ، سيقت لبيان شموال ألوهيته لجميع المخلوقات .قال أبو
السعود : وقوله { فِي السماوات وَفِي الأرض } متعلق بالمعنى الوصفى الذى
ينبىء عنه الاسم الجليل إما باعتبار اصل اشتقاقه وكونه علما للمعبود بالحق
كأنه قيل : وهو المعبود فيهما . وإما باعتبار أنه اسم اشتهر به الذات من ،
صفات الكمال ، فلوحظ معه منها ما يقتضيه المقام من المالكية حسبما تقتضيه
المشيئة المبنية على الحكم البالغة ، فعلق به الظرف من تلك الحيثية فصار
} : - كأنه قيل : هو المالك أو المتصرف المدبر فيهما ، كما فى قوله - تعالى
وَهُوَ الذي فِي السمآء إله وَفِي الأرض إله } وجملة { يَعْلَمُ سِرَّكُمْ
وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ } تقرير لمعنى الجملة الأولى لأن
الذى استوى فى علمه السر والعلن هو الله وحده . ويجوز أن تكون كلاما مبتدأ
بمعنى : هو يعلم سركم وجهركم ، أو خبراً ثانيا .

وما تاتيهم من اية من ايات ربهم الا كانوا عنها معرضين

كما فسرها الوسيط ثم صور - سبحانه - طبيعة الجاحدين الذين هم - لانطماس
، بصائرهم واصرارهم على العناد - غدوا لا يجدى معهم دليل ولا تنفع معهم حجة
وساق لهم أخبار من سبقوهم . فقال - تعالى - : { وَمَا تَأْتِيهِم . . . }
المعنى الإجمالى للآية الأولى : أن هؤلاء الجاحدين لرسالات الله ، لا.
تأتيهم معجزة من المعجزات الدالة على صدقك - يا محمد - فيما تبلغه عن ربك
، إلا تلقوها بالإعراض ، واستقبلوها بالنبذ والاستخفاف .فالآية الكريمة
كلام مستأنف سيق لبيان كفرهم بآيات الله - تعالى - وإعراضهم عنها بالكلية
بعد بيان كفرهم بالله - تعالى - وإعراضهم عن بعض آيات التوحيد . وامترائهم
فى البعث ، وإعراضهم عن أدلته .و { مِّنْ } الأولى لاستغراق الجنس الذى يقع
فى حيز النفى ، كقولك : ( ما آتانى من أحد ) والثانية للتبعيض ، أى : ما
يظهر لهم دليل قط من الأدلة التى توجب النظر والتأمل والاعتبار ، إلا
أهملوه وأعرضوا عنه . لقسوة قلوبهم وعدم تدبرهم للعواقب .

فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف ياتيهم انباء ما كانوا به يستهزئون

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

الم يروا كم اهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الارض ما لم نمكن لكم
وارسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الانهار تجري من تحتهم فاهلكناهم
بذنوبهم وانشانا من بعدهم قرنا اخرين

كما فسرها الوسيط { أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن
قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأرض مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ } .قال القرطبى
القرن الأمة من الناس والجمع القرون . قال الشاعر :إذا ذهب القرن الذى " :
كنت فيهم ... وخلفت فى قرن فأنت غريبفالقرن كل عالم فى عصره ، مأخوذ من
الاقتران ، أى عالم مقترن بعضهم إلى بعض ، وفى الحديث الشريف : " خير الناس
قرنى - يعنى أصحابى - ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم " فالقرن على هذا
مدة من الزمان ، قيل : ستون عاما ، وقيل : سبعون ، وقيل ، ثمانون ، وقيل
مائة - وعليه أكثر أصحاب الحديث - أن القرن مائة سنة ، واحتجوا بأن النبى

صلى الله عليه وسلم قال لعبد الله ابن بشر : " تعيش قرنا " فعاش مائة
والاستفهام الذى صدرت به الآية الكريمة لتوبيخ الكفار وتبكيتهم ، وإنكار.
ما وقع منهم من إعراض واستهزاء وهو داخل على فعل محذوف دل عليه سابق
الكلام ولاحقه .والتقدير : أعموا عن الحق وأعرضوا عن دلائله ، ولم يروا
بتدبر وتفكر كم أهلكنا من قبلهم من أقوام كانوا أشد منهم قوة وأكثر جمعا
وجملة { أَهْلَكْنَا } سدت فسد مفعولى رأى إن كانت بصرية ، وسدت مسد.
مفعوليها إن كانت علمية ، و { كَمْ } مفعول مقدم لأهلكنا ، و { مِن
قَبْلِهِم } على حذف المضاف ، أى : من قبل زمنهم ووجودهم .قال صاحب المنار
وكان الظاهر أن يقال : مكناهم فى الأرض - أى القرون - ما لم نمكنهم ، أى :
الكفار المحكى عنهم المستفهم عن حالهم ، فعدل عن ذلك بالالتفات من الغيبة
، إلى الخطاب ، لما فى إيراد الفعلين بضميرى الغيبة من إيهام اتحاد مرجعهما
وكون المثبت عين المفنى ، فقيل ما لم نمكن لكم .و { مَا } في قوله { مَا
لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ } يحتمل أن تكون موصولة بمعنى الذى ، وهى حينئذ صفة
، لمصدر محذوف . والتقدير : مكناهم فى الأرض التمكين الذى لم نمكن لكم
والعائد محذوف : أى الذى لم نمكنه لكم . ويحتمل أن تكون نكرة موصوفة
بالجملة المنفية بعدها والعائد محذوف .أى: مكناهم فى الأرض شيئاً لم نمكنه
لكم .وفى تعدية الأول وهو { مَّكَّنَّاهُمْ } بنفسه والثانى هو { نُمَكِّن
لَّكُمْ } باللام إشارة إلى أن السابقين قد مكنوا بالفعل من وسائل العيش
الرغيد ما لم يتيسر مثله لهؤلاء المنكرين لدعوة الإسلام ، وهذا أعظم فى باب
القدرة على إهلاك هؤلاء الذين هم أعجز من سابقيهم .هذا ، وقد وصف الله
أولئك المهلكين بسبب اجتراحهم للسيئات بصفات ثلاث لم تتوفر للمشركين
المعاصرين للنبى صلى الله عليه وسلم .وصفهم - أولا - بأنهم كانوا أوسع
سلطانا ، وأكثر عمرانا ، وأعظم استقرارا ، كما يفيده قوله تعالى { 
: مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأرض مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ } .قال صاحب الكشاف
والمعنى لم نعط أهل مكة نحو ما أعطينا قوم عاد وثمود وغيرهم من البسطة فى " 
الأجسام ، والسعة فى الأموال ، والاستظهار بأسباب الدنيا " .ووصفهم -
ثانيا - بأنهم كانوا أرغد عيشا ، وأسعد حالا ، وأهنأ بالا ، يدل على ذلك
قوله تعالى :{ وَأَرْسَلْنَا السمآء عَلَيْهِم مِّدْرَاراً } أى : أنزلنا
عليهم المطر النافع بغزارة وكثرة ، وعبر عنه بالسماء لأنه ينزل منها
ووصفهم - ثالثا - بأنهم كانوا منعمين بالمياه الكثيرة التى يسيرون مجاريها.
كما يشاءون ، فيبنون مساكنهم على ضفافها . ويتمتعون بالنظر إلى مناظرها
الجميلة ، كما يرشد إليه قوله - تعالى - : { وَجَعَلْنَا الأنهار تَجْرِي
مِن تَحْتِهِمْ } أى : صيرنا الأنهار تجرى من تحت مساكنهم .ولكن ماذا كانت
عاقبة هؤلاء المنعمين بتلك النعم الوفيرة التى لم تتيسر لأهل مكة؛ كانت
عاقبتهم - كما أخبر القرآن عنهم - { فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ
وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ } أى : فكفروا بنعمة الله
وجحدوا فأهلكناهم بسبب ذلك ، إذ الذنوب سبب الانتقام وزوال النعم .والإهلاك
بسبب الذنوب له مظهران :أحدهما : أن الذنوب ذاتها تهلك الأمم ، إذ تشيع
فيها الترف والغرور والفساد فى الأرض ، وبذلك تنحل وتضمحل وتذبه قوتها
- والمظهر الثانى : إهلاك الله - تعالى - لها عقابا على أوزارها .وقوله.
تعالى - فى ختام الآية { وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ }
يدل على كمال قدرة الله ، ونفاذ إرادته ، وأن إهلاكه لتلك الأمم بسبب
ذنوبها لم ينقص من ملكه شيئا ، لأنه - سبحانه - كلما أهلك أمة أنشأ من
بعدها أخرى .قال - تعالى - { وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً
غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يكونوا أَمْثَالَكُم } ثم بين القرآن توغلهم فى
الجحود والعناد ، وانصرافهم عن الحق مهما قويت أدلته ، وساق جانبا من
أقوالهم الباطلة ثم رد عليهم بما يدحضها فقال - تعالى - : { وَلَوْ
نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً . . . } .

ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بايديهم لقال الذين كفروا ان هذا الا
سحر مبين

كما فسرها الوسيط الكتاب فى الأصل مصدر كالكتابة ، ويستعمل غالبا بمعنى
المكتوب ، فيطلق على الصحيفة المكتوبة وعلى مجموعة الصحف .والقرطاس - بكسر
القاف وقد تفتح وتضم فى بعض اللغات - ما يكتب فيه سواء كان من رق أو من ورق
أو من غيرهما : ولا يطلق على ما يكتب فيه قرطاس إلا إذا كان مكتوبا
والمعنى : إن هؤلاء الجاحدين لا ينقصهم الدليل على صدقك يا محمد . ولكن.
الذى ينقصهم هو التفتح للحق ، والإنقياد للهداية ، فإننا لو نزلنا عليك
كتابا من السماء فى قرطاس - كما اقترحوا - فشاهدوه بأعينهم وهو نازل عليك
ولمسوه بأيديهم منذ وصوله إلى الأرض وباشروه بعد ذلك بجميع حواسهم بحيث
يرتفع عنهم كل ارتياب ، ويزول كل إشكال . لو أننا فعلنا ذلك . استجابة
لمقترحاتهم المتعنتة ، لقالوا بلغة العناد والجحود ما هذا الذى أبصرناه
ولمسناه إلا سحر مبين .فالآية الكريمة تصور مكابرتهم المتبجحة ، وعنادهم
الصفيق ، وإدبارهم عن الحق مهما تكن قوة أدلته ، ونصاعة حجته .قال الإمام

الرازى " بين الله - تعالى - فى هذه الآية أن هؤلاء الكفار لو أنهم شاهدوا
نزول كتاب من السماء دفعة واحدة عليك يا محمد لم يؤمنوا به بل حملوه على
أنه سحر . والمراد من قوله { فِي قِرْطَاسٍ } أنه لو نزل الكتاب جملة واحدة
فى صحيفة واحدة فرأوه ولمسوه وشاهدوه عياناً لطعنوا فيه وقالوا إنه سحر " .و
فى الآية الكريمة حرف امتناع ، أى : أنه - سبحانه - قد امتنع عن { لَوْ }
، إجابة مقترحاتهم لأنه يعلم أن إجابتها لا ثمرة لها ، ولا فائدة من ورائها
لأن هؤلاء الجاحدين لا ينقصهم الدليل على صدق النبى صلى الله عليه وسلم فى
، دعوته ، وإنما الذى ينقصهم هو الاستجابة للحق والاتجاه السليم لطلبه
والاستماع إليه بعناية وتفكير .وعبر - سبحانه - بقوله : { فَلَمَسُوهُ
، بِأَيْدِيهِمْ } . مع أن اللمس هو باليد غالبا - للتأكيد وزيادى التعيين
ودفع احتمال المجاز . فالجملة الكريمة المقصود بها تصوير فرط جحودهم
- ومكابرتهم ، وإعراضهم عن الحق مهما تكن قوة الدليل وحسيته .وفى قوله
تعالى - { لَقَالَ الذين كَفَرُواْ } إشارة إلى أن الكافرين وحدهم هم الذين
بسبب كفرهم - ينتحلون الأعذار لضلالهم ، ويصفون الحق الواضح بأنه سحر مبين
أما المؤمنون فإنهم يقابلون الحق بالتصديق والإذعان .وقد حكى القرآن عنهم .
أنهم قالوا : { إِنْ هاذآ إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ } ، فأكدوا حكمهم الباطل
، بطريق النفى والإثبات - أى : أنه مقصور على أنه سحر - وبالإشارة إليه
، وبأنه بين واضح فى كونه سحراً ، وذلك يدل على أن تبجحهم قد بلغ النهاية
وأن مكابرتهم قد كذبت ما شهدت بصدقه حواسهم ، وإن قوماً بهذه الدرجة من
العناد لا تجدى فيهم معجزة ، ولا ينفع معهم دليل .وفى معنى هذه الآية قد
وردت آيات أخرى فى القرآن الكريم منها قوله - تعالى - { وَلَوْ أَنَّنَا
نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ الملائكة وَكَلَّمَهُمُ الموتى وَحَشَرْنَا
عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ ليؤمنوا إِلاَّ أَن يَشَآءَ
الله ولكن أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ } ومنها قوله - تعالى - { وَلَوْ
فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السماء فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ
لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ
مَّسْحُورُونَ }

وقالوا لولا انزل عليه ملك ولو انزلنا ملكا لقضي الامر ثم لا ينظرون

كما فسرها الوسيط ثم حكى القرآن بعض مقترحاتهم المتعنتة ورد عليها بما
يدحضها فقال :{ وَقَالُواْ لولا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا
مَلَكاً لَّقُضِيَ الأمر ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً
لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ } .أى :
قال الكافرون للنبى صلى الله عليه وسلم هلا كان معك ملك يا محمد لكى يشهد
بصدقك ونسمع كلامه ، ونرى هيئته ، وحينئذ نؤمن بك ونصدقك .قال محمد بن
إسحاق " دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم - قومه إلى الإسلام ، وكلمهم
فأبلغ إليهم ، فقال له زمعة بن الأسود بن المطلب والنضر بن الحارث بن كلده
وعبد بن يغوث وأبى بن خلق بن وهب والعاص بن وائل بن هشام : لو جعل معك يا ،
محمد ملك يحدث عنك الناس ويروى معك " .فهم لا يريدون ملكا لا يرونه ، وإنما
يريدون ملكا يمشى معه ويشاهدونه بأعينهم .وأسند - سبحانه - القول إليهم مع
أن القائل بعضهم ، لأنهم جميعا متعنتون جاحدون ، وما يصدر عن بعضهم إنما هو
صادر فى المعنى عن جميعهم لأن الباعث واحد ، ولولا هنا للتحضيض فلا تحتاج
إلى جواب .أى : وقال الكافرون للنبى صلى الله عليه وسلم هلا كان معك ملك يا
محمد لكى يشهد بصدقك ونسمع كلامه ، ونرى هيئته ، وحينئذ نؤمن بك ونصدقك
وقد رد الله تعالى - على قولهم هذا بردين حكيمين :أما الرد الأول : فقال.
فيه : { وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكاً لَّقُضِيَ الأمر ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ }
أى : لو أنزلنا ملكا كما اقترح هؤلاء الكافرون وهم على ما هم عليه من.
الكفر والجحود ، لقضى الأمر بإهلاكهم ، ثم لا ينظرون ، أى :لا يؤخرون ولا
، يمهلون ليؤمنوا ، بل يأخذهم العذاب عاجلا ، فقد مضت سنة الله فيمن قبلهم
، أنهم كانوا إذا اقترحوا آية وأعطوها ولم يؤمنوا يعذبهم الله بالهلاك
والله - تعالى - لا يريد أن يهلك هذه الأمة التى بعث فيها خاتم رسله نبى
الرحمة صلى الله عليه وسلم بسبب إجابة مقترحات أولئك المعاندين المستكبرين
.

ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون

كما فسرها الوسيط وأما الرد الثانى فقال فيه : { وَلَوْ جَعَلْنَاهُ
مَلَكاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ
أى : لو جعلنا الرسول من الملائكة - كما اقترحوا - لكانت الحكمة تقتضى. {
أن نجعله فى صورة بشر ليتمكنوا من رؤيته ومن سماع كلامه الذى يبلغه عن
الله - تعالى - وفى هذه الحالة سيقولون لهذا الملك المرسل إليهم فى صورة
بشر - : لست ملكا ، لأنهم لا يدركون منه إلا صورته وصفاته البشرية التى
تمثل بها ، وحينئذ يقعون فى نفس اللبس والاشتباه الذى يلبسونه على أنفسهم

باستنكار جعل الرسول بشراً .ومعنى { وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ } لخلطنا عليهم مثل ما يخلطون على أنفسهم بسبب استبعادهم أن يكون الرسول بشراً مثلهم ,قال الإمام القرطبى : قوله تعالى { وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً } لأن كل جنس يأنس بجنسه وينفر من غير جنسه ، فلو جعل الله تعالى - الرسول إلى البشر ملكا لنفروا من مقاربته ولما أنسوا به ، ولداخلهم من الرعب من كلامه والاتقاء له ، ما يكفيهم عن كلامه ويمنعهم عن سؤاله فلا تعم المصلحة ، ولو نقله عن صورة الملائكة إلى مثل صورتهم ليأنسوا به وليسكنوا إليه لقالوا : لست ملكا وإنما أنت بشر فلا نؤمن بك ، وعادوا إلى مثل حالهم " .

ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون

كما فسرها الوسيط وبهذين الجوابين الحكيمين يكون القرآن الكريم قد دحض شبهات أولئك الجاحدين ، وبين أن الحكمة تقتضى أن يكون الرسول من جنس المرسل إليهم ، قال تعالى : - { وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نوحي إِلَيْهِمْ مِّنْ أَهْلِ القرى } ثم أخذ القرآن فى تسلية النبى صلى الله عليه وسلم عما أصابه من قومه فقال :{ وَلَقَدِ استهزىء بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بالذين سَخِرُواْ مِنْهُمْ مّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ } .والمعنى :لا تحزن يا محمد لما أصابك من قومك ، فإن من شأن الدعاة إلى الحق المجاهدين فى سبيله أن ينالهم الأذى من أعدائهم ، ولقد أوذى من سبقك من الرسل الكرام ، وسخر الساخرون منهم ، فصبروا على ذلك ، وجاءهم فى النهاية نصرنا الذى وعدناهم به . أما أعداؤهم الذين استهزأوا بهم فقد أخذناهم أخذ عزيز مقتدر { فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مّن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مّنْ أَخَذَتْهُ الصيحة وَمِنْهُمْ مّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأرض وَمِنْهُمْ مّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ الله لِيَظْلِمَهُمْ ولكن كَانوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } فالآية الكريمة تهدف إلى تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم والترويح عن نفسه ، وتبشيره بحسن العقابة وتثبيت قلبه حتى لا يتأثر أو يضعف أمام سفه المشركين وتطاولهم عليه .والاستهزاء بالشىء : الاستهانة به ، والاستهزاء بالشخص احتقاره وعدم الاهتمام بأمره . وتنكير الرسل للتكثير والتعظيم ، والفاء فى { فَحَاقَ } للسببية ، أى : بسبب هذا الاستهزاء برسل الله الكرام ، قوله أحاط العذاب بأولئك المستهزئين فأهلكهم .وقال - سبحانه - { فَحَاقَ بالذين سَخِرُواْ } ولم يقل بالساخرين ، للإشارة إلى أن ما أصابهم من عذاب لم يكن تجنباً عليهم ، وإنما كان بسبب سخريتهم برسل الله والاستخفاف بهم؛ لأن التعبير بالموصول يفيد أن لاصلة هى علة الحكم .وفى قوله - تعالى - : { فَحَاقَ بالذين سَخِرُواْ مِنْهُمْ مّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ } ، مجاز علاقته السببية ، لأن الذى حاق بهم هو العذاب المسبب عن الاستهزاء ، ففيه إطلاق السبب وإرادة المسبب ، وذلك يفيد أن العذاب ملازم لهذه السخرية لا ينفك عنها ، فحيثما وجد التطاول على أولياء الله والدعاة إلى دينه ، وجد معه عذاب الله وسخطه على المتطاولين والمستهزئين .

قل سيروا في الارض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين

كما فسرها الوسيط ثم أمر القرآن النبى صلى الله عليه وسلم أن يذكرهم بحال من سبقوهم عن طريق التطلع إلى آثارهم ، والتدبر فيما أصابهم ، والاتعاظ بما حل بهم فقال - تعال - :{ قُلْ سِيرُواْ فِي الأرض ثُمّ انظروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المكذبين } .أى : قل - يا محمد - لأولئك المكذبين لك ، المستهزئين بدعوتك ، لا تغتروا بما أنتم فيه من قوة وجاه ، فإن ذلك لا دوام له ، وسيروا فى فجاج الأرض متدبرين متأملين ، فسترون بأعينكم آثار أقوام كانوا أشد منكم قوة وأكثر جمعا ، ولكن ذلك لم يمنع وقوع العذاب بهم حين بدلوا نعمة الله كفرا ، وحاربوا رسل الله والدعاة إلى دينه .وقد ذكر القرآن الكريم فى سور متعددة أن آثار أولئك الأقوام المهلكين ، ما زال بعضها باقيا وإنها لتدعو العقلاء إلى الاتعاظ والاعتبار فقال - تعالى - : { ذَلِكَ ، { مِنْ أَنْبَآءِ القرى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ وقال - تعالى - فى شأن قوم لوط : { وَإِنّكُمْ لّتَمُرّونَ عَلَيْهِمْ مّصْبِحِينَ وبالليل أَفَلاَ تَعْقِلُونَ } وقد أمر الله - تعالى - رسوله صلى الله عليه وسلم أن يطلب منهم السير فى الأرض للتفكر والتدبر ، لأنهم كانوا يستهزئون به صلى الله عليه وسلم فكانت المخاطبة منه لهم من قبيل النصيحة والتحذير .وليس المراد مجرد النظر فى قوله ( فانظروا ) وبين قوله { ثُمّ انظروا } ؟ قلت : جعل النظر مسببا عن السير فى قوله ( فانظروا ) { فكأنه قيل : سيروا لأجل النظر ، ولا تسيروا سير الغافلين . وأما قوله { سِيرُواْ فِي الأرض ثُمّ انظروا } فمعناه إباحة السير فى الأرض للتجارة وغيرها من المنافع وإيجاب النظر فى آثار الهالكين ، ونبه على ذلك بثم لتباعد ما بين الواجب والمباح .وقد علق الشيخ ابن المنير على عبارة صاحب

الكشاف فقال : " وأظهر من هذا التأويل أن يجعل الأمر بالسير فى المكانين
، واحداً ، ليكون ذلك سببا فى النظر ، فحيث دخلت الفاء فلإظهار السببية
وحيث دخلت ثم فللتنبيه على أن النظر هو المقصود من السير وأن السير وسيلة
إليه لا غير وشتان بين المقصود والوسيلة " .والذى نرجحه أن التعبير بثم هنا
المفيدة للتراخى للإشارة إلى أن السير الذى هو وسيلة للتفكر مطلوب فى ذاته
كما أن النظر الذى يصحبه التفكر والاعتبار مطلوب أيضاً ، وكأنه أمر بدهى
نتيجة للسير ، أما التعبير بالفاء فى قوله " فانظروا " فلإبراز كون النظر
مسببا عن السير ، ومترتبا عليه ، وكلا الأسلوبين مناسب للمقام الذى سيق من
أجله ، ومتناسق مع البلاغة القرآنية .

قل لمن ما في السماوات والارض قل لله كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم الى يوم
القيامة لا ريب فيه الذين خسروا انفسهم فهم لا يؤمنون

كما فسرها الوسيط ثم ساق القرآن الكريم ألوانا من البراهين الدالة على
: - وحداينة الله وقدرته وعلى أنه هو المهيمن على هذا الكون ، فقال - تعالى
المعنى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين - على سبيل. { . . . قُل لِّمَن }
التوبيخ والتنبيه - من الذى يملك السموات والأرض وما فيهما من إنس وجن
وحيوان ونبات وغير ذلك من المخلوقات ، إن الإجابة الصحيحة التى يعترفون بها
} - ولا يستطيعون إنكارها أن جميع المخلوقات لله رب العالمين . قال - تعالى
وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ الله } فالمقصود
بالاستفهام تبكيتهم على عنادهم ، وتنبيههم إلى ضلالهم لعلهم يثوبون إلى
رشدهم .قال الإمام الرازى : وقوله : { قُل لِّمَن مَّا فِي السماوات والأرض
سؤال ، وقوله { قُل للَّهِ } جواب . فقد أمره الله - تعالى - بالسؤال {
أولا ثم بالجواب ثانيا ، وهذا إنما يحسن فى الموضع الذى يكون الجواب قد بلغ
، فى الظهور إلى حيث لا يقدر على إنكاره منكر ، ولا يقدر على دفعه دافع
وهنا كذلك لأن القوم كانوا معترفين بأن العالم كله لله وتحت تصرفه وقهره
- وقدرته " .ثم قال - تعالى - { كَتَبَ على نَفْسِهِ الرحمة } أى : أوجب
سبحانه - على نفسه رحمته التى وسعت كل شىء والتى من مظاهرها أنه منح خيره
ونعمه فى الدنيا للطائعين والعصاة ، وأنه سيحاسبهم يوم القيامة على أعمالهم
فيجازى الذين أساءوا بما عملوا ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .وفى الصحيحين
" : عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
" إن الله لما خلق الخلق كتب كتابا عنده فوق العرش ، إن رحمتى تغلب غضبى
وجملة ، ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ، يرى بعض العلماء أنها جواب.
لقسم محذوف أى : والله ليجمعنكم ، وجملة القسم والجواب لا محل لها من
الإعراب ، وإن تعلقت بما قبلها من حيث المعنى وعلى هذا الرأى يكون الكلام
قد تم عند قوله - تعالى - { كَتَبَ على نَفْسِهِ الرحمة } .ويرى الزجاج ومن
شايعه أن جملة ( ليجمنعكم ) فى محل نصب بدل من الرحمة ، وفسر ( ليجمعنكم )
بمعنى أمهلكم وأمد لكم فى العمر والرزق مع كفركم ، فهو تفسير الرحمة ، كما
قال - تعالى - فى السورة نفسها ( كتب على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءا
بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم ) .والمقصود بهذه الجملة
الكريمة ( ليجمعنكم ) بيان عدل الله بين عباده . فهو لم يجمعهم يوم القيامة
لتعذيبهم جميعا ، وإنما يجمعهم لإثابة المحسن ومعاقبة المسىء .ولما كان
الكافرون ينكرون حصول البعث والحساب فقد أكد الله - تعالى - حصولهما باللام
وبنون التوكيد الثقيلة ، وبتعدية الفعل بإلى دون فى للإشارة إلى أن هذا
الجمع نهايته يوم القيامة - وبأنه يوم لا ينبغى لأحد أن يرتاب فيه لوضوح
أدلته .ثم ختمت الآية الكريمة ببيان عاقبتهم السيئة فقال - تعالى - { الذين
خسروا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ } .أى : الذين خسروا أنفسهم
بانطماس فطرتهم ، وإصرارهم على العناد والجمود ، لا يتسرب الإيمان إلى
قلوبهم لأنها قست وأظلمت .قال الآلوسى : ( الفاء ) فى قوله ( فهم لا يؤمنون
للدلالة على أن عدم إيمانهم وإصرارهم على الكفر مسبب عن خسرانهم ، فإن - (
إبطال العقل والانهماك فى التقليد أدى بهم إلى الإصرار على الكفر والامتناع
. عن الإيمان

وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم

} : كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - ما يشهد بشمول علمه وقدرته فقال
وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي الليل والنهار وَهُوَ السميع العليم } .قال القرطبى
، سكن معناه هدأ واستقر ، والمراد ما سكن وما تحرك ، فحذف لعلم السامع ) :
: وقيل : خص الساكن بالذكر لأن ما يعمه السكون أكثر مما تعمه الحركة ، وقيل
المعنى ، ما خلق ، فهو عام فى جميع المخلوقات متحركها وساكنها ، فإنه يجرى
عليه الليل والنهار ، وعلى هذا فليس المراد بالسكون ضد الحركة بل المراد
- الخلق وهذا أحسن ما قيل لأنه يجمع شتات الأقوال ) .والمعنى : ولله
سبحانه - جميع ما استقر وتحرك ووجد فى كل زمان ومكان من إنسان وحيوان ونبات
وغير ذلك من المخلوقات ، وهو - سبحانه - السميع لكل دقيق وجليل ، العليم

بكل الظواهر والبواطن ، والتعبير بما فى قوله : { وَلَهُ مَا سَكَنَ } للدلالة على العموم والشمول .

قل اغير الله اتخذ وليا فاطر السماوات والارض وهو يطعم ولا يطعم قل اني امرت ان اكون اول من اسلم ولا تكونن من المشركين

كما فسرها الوسيط ثم أمر - سبحانه - نبيه صلى الله عليه وسلم أن يستنكر ما عليه المشركون من كفر وإلحاد ، وأن ينفى عن نفسه بشدة ما تردوا فيه من جهالة وضلالة فقال :{ قُلْ أَغَيْرَ الله أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السماوات والأرض وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ } .أى : قل لهم - يا محمد - موبخا وزاجرا ، بأى عقل أبحتم لأنفسكم الإشراك بالله ، واتخذتم من دونه معبودا سواه ، مع أنه - سبحانه - باعترافكم هو الخالق لكم وللسموات والأرض ولكل شىء؟وقد سلطت الهمزة على المفعول الأول لا على الفعل ، للإيذان بأن المستنكر إنما هو اتخاذ غير الله وليا لا اتخاذ الولى مطلقا ، ونظير هذه الآية قوله - تعالى - { قُلْ أَفَغَيْرَ الله تأمروني أَعْبُدُ أَيُّهَا الجاهلون } ثم دلل - سبحانه - على أنه هو وحده المستحق للعبادة بأمرين .أولهما : قوله - تعالى - { فَاطِرِ السماوات والأرض } .أى خالقهما ومنشئهما على غير مثال سبق ، فالفطر - كما قال اللغويون - الإبداع والإيجاد من غير سبق مثال يحتذى .وثانيهما : قوله - تعالى - { وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ } .أى : أنه - سبحانه - هو الذى لا يحتاج إلى أحد وكل ما سواه محتاج إليه وهو الرازق لغيره ، والمنافع كلها من عنده .وقرأ أبو عمرو ( وهو يطعم ولا يطعم ) بفتح الياء فى الثانى . أى : وهو يرزق غيره ويطعمه أما هو - سبحانه - فلا يتناول طعاما ولا شرابا .وهذه الجملة حالية مؤيدة لإنكار اتخاذ ولى سوى الله ، وفيها تعريض بمن اتخذوا أولياء من دونه من البشر بأنهم محتاجون إلى الطعام ، وأنه - سبحانه - هو الذى خلق لهم هذا الطعام فهم عاجزون عن البقاء بدونه .ثم أمره - سبحانه - بأن يصرح أمامهم بأنه برىء من شركهم ومن أفعالهم القبيحة فقال - تعالى - { قُلْ إني أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ المشركين } .أى : قل : أيها الرسول الكريم بعد إيراد هذه الآيات والحج الدالة على وحدانية الله إنى أمرت من خالقى أن أكون أول من يسلم له وجهه ويخصه بالعبادة ، كما أنى نهيت عن أن أكون من المشركين الذين يجعلون مع الله آلهة أخرى .وصح عطف الجملة الثانية الإنشائية على الأولى الخبرية لأن الأولى خبرية فى اللفظ ولكنها إنشائية فى المعنى فكانت فى قوة الجملة الطلبية والتقدير : كن أول من أسلم ولا تكونن من المشركين ، ويجوز عطفها على جملة { قُلْ إني أُمِرْتُ } وهى إنشائية فى اللفظ والمعنى .

قل اني اخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم

كما فسرها الوسيط ثم أمره - سبحانه - بأن يعلن أمامهم بأن خوفه من خالقه يحتم عليه أن يبتعد عن كل معصية فقال :{ قُلْ إني أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ } .أى : قل لهم - يا محمد - على سبيل الإنذار والتحذير من الاستمرار فى الكفر إنى أخاف إن عصيت خالقى عذاب يوم عظيم الأهوال تذهل فيه { كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى الناس سكارى وَمَا هُم بسكارى ولكن عَذَابَ الله شَدِيدٌ } وفى هذا التحذير أسمى ألوان التعبير والتصوير لأنه إذا كان النبى صلى الله عليه وسلم وهو أحب الخلق إلى الله سينالهُ العذاب إن كان - على سبيل الفرض والتقدير - قد عصى ربه فى الدنيا . فكيف بأولئك الذين أشركوا مع الله آلهة أخرى؟ فمن الواجب عليهم أن يقتدوا بالنبى صلى الله عليه وسلم فى عبادته وإخلاصه لربه .وكلمة { عَذَابَ } مفعول لأخاف ، وجواب الشرط محذوف والتقدير : إن عصيت ربى استحققت العذاب العظيم .

من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه وذلك الفوز المبين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن النجاة من هول هذا اليوم غنيمة ليس بعدها غنيمة فقال : { مّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الفوز المبين } .أى : من يصرف عنه عذاب هذا اليوم ، فإنه يكون ممن شملتهم رحمة الله ورعايته ، وذلك هو الفوز الذى ليس بعده فوز .والضمير الذى يعتبر نائب فاعل ليصرف ، يعود على العذاب العظيم الذى سيحل بالمجرمين يوم القيامة .وفى قراءة لحمزة والكسائى وأبى بكر عن عاصم ( من يصرف ) بفتح الياء فيكون الضمير عائدا على الله - ويكون المفعول محذوفاً . والتقدير من يصرف الله عنه هذا العذاب العظيم فى ذلك اليوم فقد شملته رحمة الله ، وعلى كلتا القراءتين فالضمير فى قوله ( فقد رحمه ) يعود على الله - تعالى - :هذا وفى هذه الآيات الخمس نجد القرآن قد أمر النبى صلى الله عليه وسلم بقوله ، - خمس مرات وهو أسلوب إنذارى تلقينى كثر استعماله فى هذه السورة { قُلْ }

كما سبق أن قلنا فى التمهيد لها - لأنه يلقن النبى صلى الله عليه وسلم الحجج التى تزلزل كيان المشركين وتأتى على بنيانهم من القواعد .وفضلا عن ذلك فهو لون من التفنن فى أسلوب الدعوة إلى أن يحتاج إليه المرشدون والدعاة لأن التزام أسلوب واحد فى إقامة الحجة على الخصم يفضى إلى السآمة والملل . ، ومن هنا فقد لون القرآن أساليبه حتى تناسب العقول على اختلاف مداركها ، وصدق الله إذ يقول { انظر كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيات لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ }

وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن نواصى العباد بيديه ، وأنه هو : - المتصرف فى خلقه بما يشاء ، لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه فقال - تعالى المس : أعم من اللمس فى. { . . . وَإِن يَمْسَسْكَ الله بِضُرٍّ } الاستعمال . يقال : مسه السوء والكبر والعذاب والتعب . أى : أصابه ذلك ونزل به ." والضر : اسم للألم والحزن والخوف وما يفضى إليهما أو إلى أحدهما كما أن النفع اسم للذة والسرور وما يفضى إليهما أو إلى أحدهما " .والخير : اسم لكل ما كان فيه منفعة أو مصلحة حاضرة أو مستقبله .والمعنى : إن الناس جميعاً تحت سلطان الله وقدرته ، فما يصيبهم من ضر كمرض وتعب وحزن اقتضته سنة الله فى هذه الحياة ، فلا كاشف له إلا هو ، وما يصيبهم من خير كصحة وغنى وقوة وجاه فهو - سبحانه - قادر على حفظه عليهم ، وإبقائه لهم ، لأنه على كل شىء قدير .والخطاب فى الآية يصح أن يكون موجها إلى النبى صلى الله عليه وسلم لتقويته فى دعوته ، وتثبيته أمام كيد الأعداء وأذاهم ، كما يصح أن يكون لكل من هو أهل للخطاب .قال صاحب المنار : " ومن دقائق بلاغة القرآن المعجزة ، تجرى الحقائق بأوجز العبارات ، وأجمعها لمحاسن الكلام مع مخالفته بعضها فى بادىء الرأى لما هو الأصل فى التعبير ، كالمقابلة هنا بين الضر والخير ، وإنما مقابل الضر النفع ومقابل الخير الشر ، فنكتة المقابلة أن الضر من الله ليس شرا فى الحقيقة بل هو تربية واختبار للعبد يستفيد به من هو أهل للاستفادة أخلاقا وأدباً وعلماً وخبرة . وقد بدأ بذكر الضر لأن كشفه " مقدم على نيل مقابله ، كما أن صرف العذاب فى الآخرة مقدم على النعيم وقوله : { وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ} جوابه محذوف تقديره : فلا راد له. غيره .وقوله : { فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدُيرٌ } تعليل لكل من الجوابين المذكورين فى الشرطية الأولى والمحذوف فى الثانية .وفى معنى هذه الآية جاءت آيات أخرى منها قوله - تعالى - : { مَّا يَفْتَحِ الله لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ العزيز الحكيم } وفى الحديث الشريف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : " اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد " .

وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير

} : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - كمال قدرته ، وعظيم سلطانه فقال { وَهُوَ القاهر فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الحكيم الخبير } .أى أنه - كما قال ابن كثير - " هو الذى خضعت له الرقاب ، وذلت له الجباه . وعنت له الوجوه ، وقهر كل شىء ، ودانت له الخلائق ، وتواضعت لعظمة جلاله وكبريائه الأشياء ، وتضاءلت بين يديه وتحت قهره وحكمه " .

قل اي شيء اكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم واوحي الي هذا القران لانذركم به ومن بلغ ائنكم لتشهدون ان مع الله الهة اخرى قل لا اشهد قل انما هو اله واحد وانني بريء مما تشركون

كما فسرها الوسيط ثم أمر الله : نبيه صلى الله عليه وسلم : فى بيان رائع حكيم ، أن يسأل المشركين عن أى شىء فى هذا الكون أعظم وأزكى شهادة بحيث تقبل شهادته ولا ترد فقال - تعالى - : { قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ الله شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ } .روى بعض المفسرين أن أهل مكة قالوا : يا محمد ، أرنا من يشهد أنك رسول الله ، فإنا لا نرى أحدا ، نصدقه ، ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أنه ليس لك عندهم ذكر فأنزل الله - تعالى - : { قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ الله شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ } .أى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يخاصمونك فيما تدعو إليه : أى شىء فى هذا الوجود شهادته أكبر شهادة وأعظمها بحيث تقبلونها عن تسليم وإذعان؟ ثم أمره أن يجيبهم على هذا السؤال بالحقيقة التى لا يمارى فيها عاقل وهى أن شهادة الله هى أكبر شهادة وأقواها وأزكاها لأنها شهادة من يستحيل عليه الكذب أو الخطأ ، وقد شهد - سبحانه - : بصدقى ، فيما أبلغه عنه فلماذا تعرضون عن دعوتى ، وتتنكبون الطريق المستقيم؟وصدرت الآية الكريمة بقل وبصيغة الاستفهام تنبيهاً إلى جلال الشاهد ، وإلى سلامة

دعوى النبى صلى الله عليه وسلم لكى يدركوا ما فيها من حق وما هم فيه من ضلال .وأوثرت كلمة " شىء " فى قوله - تعالى - : { قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً } لأنها تفيد الشمول والإحاطة والإستقصاء . قال صاحب الكشاف : ما ملخصه قوله - تعالى - : { قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ، قُلِ الله شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ } أراد : أى شهيد أكبر شهادة فوضع شيئاً مقام شهيد ليبالغ فى التعميم ، ويحتمل أن يكون تمام الجواب عنه قوله : { قُلِ الله } بمعنى : الله أكبر شهادة ، ثم ابتدأ . { شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ } أى : هو شهيد بينى وبينكم . وأن يكون { الله - شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ } هو الجواب ، لدلالته على أن الله - تعالى ( إذا كان هو الشهيد بينه وبينهم فأكبر شىء شهادة من هو شهيد له } : والمراد بشهادة الله ما جاء فى آياته القرآنية من أنه - سبحانه - : قد أرسل رسوله محمدا { بالهدى وَدِينِ الحق لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدين كُلِّهِ ثم بين - سبحانه - : أن القرآن هو المعجزة الخالدة للنبى صلى الله عليه { وسلم فقال : { وَأُوحِيَ إِلَيّ هذا القرآن لأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَن بَلَغَ } .أى : أن الله - تعالى - : قد أنزل هذا القرآن عن طريق وحيه الصادق ، لأنذركم به يا أهل مكة ، ولأنذر به - أيضاً - جميع من بلغه هذا الكتاب الكريم ووصلت إليه دعوته من العرب والعجم فى كل زمان ومكان إلى يوم القيامة .فهذه الجملة تدل على عموم بعثة النبى صلى الله عليه وسلم كما تدل على أن أحكام القرآن تعم الموجودين وقت نزوله ، وتعم - أيضاً - الذين وجدوا بعد نزوله وبلغتهم دعوته . ولم يروا النبى صلى الله عليه وسلم ففى الحديث الشريف :" بلغوا عن الله - تعالى - فمن بلغته آية من كتاب الله فقد بلغه أمر الله " .وعن محمد بن كعب قال : " من بلغه القرآن فكأنما رأى النبى صلى اله عليه وسلم وذلك لأن القرآن الكريم لما كان متواترا بلفظه ومعناه ، كان من بلغه فعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم : كأنما سمعه منه وإن كثرت الوسائط ، لأنه هو الذى بلغه بلا زيادة ولا نقصان ، أما من لم تبلغه دعوة القرآن فلا يصدق عليه أنه بلغته الدعوة ، وحينئذ لا يكون مخاطبا بتعاليم هذا الدين ، وإثمه يكون فى أعناق الذين قصروا فى تبليغ دعوة الإسلام إليه ثم أمره - سبحانه - أن يستنكر ما عليه المشركون من كفر وإلحاد ، وأن يعلن براءته منهم ومن معبوداتهم فقال - تعالى - : { أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ الله آلِهَةً أُخْرَى قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إله وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ } .أى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين : إذا كنتم قد ألغيتم عقولكم . وترديتم فى مهاوى الشرك والضلال ، وشهدتم بأن مع الله آلهة أخرى ، فإنى برىء منكم ومن أعمالكم القبيحة - ومحال أن أشهد بما شهدتم به ، وإنما الذى أشهد به وأعتقده ، أن الله تعالى - واحد لا شريك له ، وإننى بعيد كل البعد عن ضلالكم وجحودكم والاستفهام فى قوله { أَئِنَّكُمْ } إنكارى ، جىء به لاستقباح ما وقع منهم. من شرك ، وأكد قوله { لَتَشْهَدُونَ } للإشارة إلى تغلغل الضلال فى نفوسهم واستيلاء الجحود على قلوبهم .وعبر عن أوثانهم بأنها { آلِهَةً أُخْرَى } ، - مجاراة لهم فى زعمهم الباطل ومبالغة فى توبيخهم والتهكم بهم .وفى أمره سبحانه - لنبيه صلى الله عليه وسلم بأن يصارحهم بأنه لا يشهد بشهادتهم " قل لا أشهد " توبيخ لهم على جهالتهم ، وتوجيه لأتباعه إلى الافتداء به فى : } : - شجاعته أمام الباطل ، وفى ثباته على مبدئه .وقد تضمن قوله - تعالى قُلْ إِنَّمَا هُوَ إله وَاحِدٌ } اعتراف كامل بوحدانية الله ، وقصرها عليه - سبحانه - ، وتصريح بالبراءة التامة من الأوثان وعابديها ، وتنديد شديد بهذا العمل الباطل .وبذلك تكون الآية الكريمة قد تضمنت شهادة من ، الله - تعالى - بأن رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم صادق فى رسالته وشهادة من هذا الرسول الكريم بأن الله واحد لا شريك له ، وأنه برىء من إلحاد الملحدين وكفر الكافرين .

الذين اتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون ابناءهم الذين خسروا انفسهم فهم لا يؤمنون

كما فسرها الوسيط ثم ساق القرآن شهادة ثالثة بصدق النبى صلى الله عليه وسلم وهى شهادة أهل الكتاب فقال { الذين آتَيْنَاهُمُ الكتاب يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ الذين خسروا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ } :قال الجمل فى حاشيته على الجلالين : " روى أن النبى صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة وأسلم عبد الله بن سلام قال له عمر : إن الله أنزل على نبيه بمكة : { الذين آتَيْنَاهُمُ الكتاب يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ } فكيف هذه المعرفة؟ فقال عبد الله بن سلام : يا عمر ، لقد عرفته حين كما أعرف ابنى ، ولأنا أشد معرفة بمحمد منى بابنى!! فقال عمر : كيف ذلك؟ فقال : أشهد انه رسول الله حقاً ولا أدرى ما تصنع النساء " .والمعنى : إن علماء أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، يعرفون صدق ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم معرفة تماثل معرفتهم لأبنائهم الذين هم من أصلابهم ، فهى معرفة بلغت حد اليقين وذلك بسبب ما عندهم من الأخبار

والأنباء عن المرسلين المتقدمين ، فإن الرسل كلهم بشروا بوجود محمد صلى
الله عليه وسلم ومبعثه وصفته وبلده ومهاجره وصفة أمته .والضمير فى { يَعْرِفُونَهُ } يرى أكثر المفسرين أنه يعود على النبى صلى الله عليه وسلم
ويؤيد ذلك سبب نزول الآية ، ويرى بعضهم أنه يعود على القرآن لتقدمه فى قوله
أو على التوحيد لدلالة قوله { قُلْ { وَأُوحِيَ إِلَيّ هذا القرآن }
إِنّمَا هُوَ إله وَاحِدٌ } .والأولى عودة الضمير على جميع ما ذكر ، لأن
معرفتهم بما فى كتابهم يتناول كل ذلك .ثم بين - سبحانه - علة إنكار
} : المكابرين منهم لما يعرفونه من أمر نبوته صلى الله عليه وسلم فقال
الذين خسروا أَنْفُسَهُمْ } من المشركين ومن أهل الكتاب الجاحدين { فَهُمْ
لاَ يُؤْمِنُونَ } به جمعوا بين أمرين متناقضين فكذبوا على الله بما لا حجة
عليه ، وكذبوا بما ثبت بالحجة البينة والبرهان الصحيح حيث قالوا :{ لَوْ
شَآءَ الله مَآ أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا } وقالوا { والله أَمَرَنَا
بِهَا } وقالوا : " الملائكة بنات الله " ونسبوا إليه تحريم البحائر
والسوائب ، وذهبوا فكذبوا القرآن والمعجزات وسموها سحراً ولم يؤمنوا
بالرسول صلى الله عليه وسلم .وهذه الآية الكريمة من الآيات التى قيل أنها
- مدنية ، والصحيح أنها مكية ، ويشهد لذلك سبب النزول الذى سقناه عن عمر
رضى الله عنه - فقد قال لعبد الله بن سلام : " إن الله أنزل على نبيه بمكة
إلخ .ويؤكد كونها مكية - أيضا - سياق الآيات قبلها ، فالآية التى قبلها "
. وهى قوله - تعالى - : { قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً } . إلخ
فيها شهادة من الله لنبيه صلى الله عليه وسلم بأنه صادق فيما يبلغه عن ربه
والآية التى معنا فيها شهادة من أهل الكتاب بأنهم يعرفون صدق محمد صلى ،
الله عليه وسلم كما يعرفون أبناءهم ، ومن المعروف أن أهل مكة كانوا يسألون
أهل الكتاب عن النبى صلى الله عليه وسلم وفضلا عن ذلك لم يرد نص صحيح يثبت
أن هذه الآية الكريمة قد نزلت بالمدينة .قال بعض العلماء : ويظهر أنهم - أى
، القائلون بأن الآية مدنية - لما وجدوا الحديث فى هذه الآية عن أهل الكتاب
- ووجدوا أن هذه الآية نظيرة لآية أخرى مدنية تبدأ بما بدأت به ، وهى قوله
تعالى - : فى سورة البقرة{ الذين آتَيْنَاهُمُ الكتاب يَعْرِفُونَهُ كَمَا
يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنّ فَرِيقاً مّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الحق
وَهُمْ يَعْلَمُونَ } الاية 146 ، ومن المعروف أن صلة الإسلام بأهل الكتاب
إنما كانت بعد الهجرة وفى المدينة دون مكة ، لما وجدوا هذا قرروا أن الآية
مدنية ، فالمسألة ليست إلا اجتهاداً حسب رواية مسندة ، وهو اجتهاد غير صحيح
.

ومن اظلم ممن افترى على الله كذبا او كذب باياته انه لا يفلح الظالمون

كما فسرها الوسيط ولما كان هذا الخسران أكبر ظلم ظلم به هؤلاء الكفار
أنفسهم فقد قال - تعالى - فى شأنهم : { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى
عَلَى الله كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنّهُ لاَ يُفْلِحُ الظالمون
أى :لا أحد أشد ظلماً من أولئك المشركين الذين كذبوا بالله وملائكته. {
وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وإن هؤلاء الذين سقطوا فى أقصى دركات الكذب لن
يفوزوا ولن يفلحوا ، والاستفهام فى الآية الكريمة إنكارى للنفى ، وفيه
. توبيخ للمشركين

ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين اشركوا اين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعض أحوالهم عندما يحشرون يوم القيامة
، فقال - تعالى - : { وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ . . . } .الحشر : الجمع ،
: والمراد به جمعهم يوم القيامة لحسابهم على أعمالهم الدنيوية .والمعنى
وإذكر لهم أيها الرسول الكريم - ليعتبروا ويتعظوا - حالهم يوم نجمعهم
جميعاً فى الآخرة لنحاسبهم على أقوالهم وأفعالهم ، ثم نسالهم سؤال إفضاح لا
إيضاح - كما يقول القرطبى - : أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون أنهم شفعاء
لكى يدافعوا عنكم فى هذا اليوم العصيب .و { يَوْمَ } منصوب على الظرفية
بفعل مضمر بعده أى : ويوم نحشرهم كان كذا وكذا ، وحذف هذا الفعل من الكلام
ليبقى على الإبهام الذى هو أدخل فى التخويف والتهويل ، وقيل إنه منصوب على
أنه مفعول به بفعل محذوف قبله والتقدير ، واذكر يوم نحشرهم ، أى : اذكر هذا
اليوم من حيث ما يقع فيه ، والضمير فى { نَحْشُرُهُمْ } للذين افتروا على
الله كذبا ، أو كذبوا بآياته .وفائدة كلمة { جَمِيعاً } رفع احتمال التخصيص
أى : أن جميع المشركين ومعبوداتهم سيحشرون أمام الله للحساب .وكان العطف ،
بثم لتعدد الوقائع قبل هذا الخطاب الموجه للمشركين ، إذ قبل ذلك سيكون
قيامهم من قبورهم ، ويكون هول الموقف ، ويكون إحصاء الأعمار وقراءة كل
امرىء لكتابه . . . إلخ ، ثم يقول الله - تعالى - { لِلّذِينَ أَشْرَكُواْ
- أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ الذين كُنتُمْ تَزْعُمُونَ } ؟ووبخهم - سبحانه
بقوله : { أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ } مع أنهم محشورون معهم ، لأنهم لا نفع
يرجى من وجودهم معهم ، فلما كانوا كذلك نزلوا منزلة الغائب كما تقول لمن

جعل أحداً ظهيراً يعينه فى الشدائد إذا لم يعنه كوقد وقع فى ورطة بحضرته أين فلان؟ فتجعله لعدم نفعه - وإن كان حاضراً - كالغائب .

ثم لم تكن فتنتهم الا ان قالوا والله ربنا ما كنا مشركين

}: كما فسرها الوسيط ثم أخبر - سبحانه - عما يكون منهم من تخبط وحسرة فقال ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ والله رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ } .الفتنة مأخوذة من الفتن ، وهو إدخال الذهب فى النار ، لتعرف جودته من رداءته ، ثم استعمل فى معان أخرى كالاختبار ، والعذاب والبلاء ، والكفر .والمعنى : ثم لم تكن عاقبة كفرهم حين اختبروا بهذا السؤال ورأوا الحقائق ، وارتفعت الدعاوى إلا أن قالوا مؤكدين ما قالوا بالقسم الكاذب والله يا ربنا ما كنا مشركين . ظنا منهم أن تبرأهم من الشرك فى الآخرة سينجيهم من عذاب الله كما نجا المؤمنين بفضله ورضوانه .قال ابن عباس : يغفرالله - تعالى - لأهل الإخلاص ذنوبهم . ولا يتعاظم عليه ذنب أن يغفره ، فإذا رأى المشركون ذسلك قالوا : إن ربنا يغفر الذنوب ولا يغفر - الشرك ، فتعالوا نقول : إنا كنا أهل ذنوب ولم نكن مشركين . فقال الله تعالى - : أما إذ كتموا الشرك فاختموا على أفواههم ، فتنطق أيديهم وتشهد ، أرجلهم بما كانوا يكسبون ، فعندئذ يعرف المشركون أن الله لا يكتم حديثاً فذلك قوله :{ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الذين كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ الرسول لَوْ } - تسوى بِهِمُ الأَرْضُ وَلاَ يَكْتُمُونَ الله حَدِيثاً } ثم قال - تعالى انظر كَيْفَ كَذَبُواْ على أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ } .

انظر كيف كذبوا على انفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون

كما فسرها الوسيط { انظر كَيْفَ كَذَبُواْ على أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ }والمراد بالنظر هنا : التدبر والتفكير والمعنى : انظر - أيها العاقل - وتأمل كيف كذب هؤلاء المشركون على أنفسهم. فى قولهم والله ربنا وما كنا مشركين ، وغاب عن عملهم ما كانوا يفترونه فى الدنيا من الأقوال الباطلة ، وما كانوا يفعلونه من جعلهم لله شركاء .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف يصح أن يكذبوا حين يطلعون على حقائق الأمور مع أن الكذب والجحود لا وجه لمنفعته؟ قلت : الممتحن ينطق بما ينفعه وبما لا ينفعه من غير تمييز بينهما حيرة ودهشا : ألا تراهم يقولون { رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ } وقد أيقنوا بالخلود ولم يشكوا فيه { وَنَادَوْاْ يامالك لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ } وقد علموا أنه لا يقضى عليهم " .

ومنهم من يستمع اليك وجعلنا على قلوبهم اكنة ان يفقهوه وفي اذانهم وقرا وان يروا كل اية لا يؤمنوا بها حتى اذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا ان هذا الا اساطير الاولين

كما فسرها الوسيط وبعد أن بين - سبحانه - أحوال الكفار فى الآخرة أتبعه بما يوجب اليأس من إيمان بعضهم فقال : { وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وفي آذَانِهِمْ وَقْراً } .قال ابن عباس : إن أبا سفيان بن حرب ، والوليد بن المغيرة ، والنضر بن الحارث ، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأمية بن خلف . استمعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ القرآن ، فقالوا للنضر : يا أبا قتيلة ما يقول محمد؟ فقال : والذى جعلها بيته ما أدرى ما يقول ، إلا أنى أرى تحرك شفيته يتكلم بشىء فما يقول إلا أساطير ، مثل ما كنت أحدثكم عن القرون الماضية ، وكان النضر كثير الحديث عن القرون الأولى وكان يحدث قريشا فيستملحون حديثه فأنزل الله هذه الآية " .والأكنة : جمع كنان كغطاء وأغطية لفظا ومعنى والوقر - بالفتح - الثقل فى السمع .والمعنى : ومن هؤلاء المشكرين يا محمد من يستمع إليك حين تقرأ القرآن وقد جعلنا - بسبب عنادهم وجحودهم - على قلوبهم أغطية تحول بينهم وبين فقهه ، كما جعلنا فى أسماعهم صمما يمنع من سماعه بتدبر وتعقل .قال صاحب المنار : " وجعل الأكنة على القلوب والوقر فى الآذان فى الآية من تشبيه الحجب والموانع المعنوية بالحجب والموانع الحسية؛ فإن القلب الذى لا يفقه الحديث ولا يتدبره كالوعاء الذى وضع عليه الكن أو الكنان وهو الغطاء حتى لا يدخل فيه شىء . والآذان التى لا تسمع الكلام سماع فهم وتدبر كالآذان المصابة بالثقل او الصمم ، لأن سمعها وعدمه سواء .وقال بعض العلماء : " وهنا يسأل سائل : إذا كان منع الهداية من الله - تعالى - بالغشاوة على قلوبهم والختم عليا وبالوقر فى آذانهم فلا يسمعون سماع تبصر فماذا يكون عليهم من تبعة يحاسبون عليها حسابا عسيرا بالعذاب الأليم؟والجواب عن ذلك أن الله - سبحانه - يسير الأمور وفق حكمته العلاي فمن يسلك سبيل الهداية يرشده وينير طريقه ويثيبه ، ومن يقصد إلى

الغواية ويسير فى طريقها تجيئه النذر تباعاً إنذارا بعد إنذار ، فإن أيقظت
النذر ضميره وتكشفت العماية عن قلبه فقد اهتدى وآمن بعد كفر .ومن لم تجد
- فيه النذر المتتابعة ولم توقظ له ضميرا ولم تبصره من عمى فقد وضع الله
تعالى - على قلبه غشاوة وفى آذانه وقرا " .صم صور - سبحانه - عنادهم
وإعراضهم عن الحق مهما وضحت براهينه فقال : { وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ
لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا } .أى : وإن يروا كل آية من الآيات الدالة على صحة
نبوتك وصدق دعوتك فلن يؤمنوا بها لاستحواذ الغرور والعناد على قلوبهم
والمراد من الرؤية هنا البصرية ، ومن الآيات المعجزات الحسية كانشقاق.
القمر ونبع الماء من بين أصابعه الشريفة .وهذه الجملة الكريمة المقصود بها
ذمهم لعدم انتفاعهم بحاسة البصر بعد ذمهم لعدم انتفاعهم بعقولهم وأسماعهم
وجىء بكلمة { كُلَّ } لعموم النفى ، أى : أنهم لا يؤمنون بأية معجزة.
يرونها مهما وضحت براهينها ، ومهما كانت دلالتها ظاهرة على صدق النبى صلى
الله عليه وسلم .ثم بين - سبحانه - ما كان يجرى منهم مع رسول الله صلى الله
عليه وسلم فقال :{ حتى إِذَا جَآءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الذين كفروا
إِنْ هاذآ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأولين } .الأساطير جمع إسطارة أو أسطورة
ومعناها الخرافات والترهات .أى : حتى إذا ما صاروا إليك أيها الرسول
ليخاصموك وينازعوك فى دعوتك فإنهم يقولون لك بسبب كفرهم وجحودهم ، ما هذا
القرآن الذى نسمعه منك إلا أقاصيص الأولين المشتملة على خرافاتهم وأوهامهم
وفى قوله - تعالى - { حتى إِذَا جَآءُوكَ يُجَادِلُونَكَ } إشارة إلى أن.
مجيئهم لم يكن من أجل الوصول إلى الحق ، وإنما كان من أجل المجادلة
. المتعنتة مع الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم

وهم ينهون عنه ويناون عنه وان يهلكون الا انفسهم وما يشعرون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أنهم لا يكتفون بمحاربة الدعوة
- الإسلامية ، بل هم لفجورهم - يحرضون غيرهم على محاربتها معهم فقال
تعالى - :{ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن
، يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ } .النهى : الزجر
والنأى : البعد ، والضمير " هم " يعود على المشركين .والمعنى : إن هؤلاء
المشركين لا يكتفون بمحاربة الحق ، بل يزجرون الناس عن اتباعه ، ويبعدونهم
عن الاستماع إليه . فهم قد جمعوا بين فعلين قبيحين : محاربتهم للحق وحمل
غيرهم معهم على محاربته والبعد عنه .وهم بهذا العمل الباطل القبيح ما
يهلكون إلا أنفسهم ولكنهم لا يشعرون بذلك لانطماس بصيرتهم ، وقسوة قلوبهم
، وعملهم هذا يدل على أنهم كانوا معترفين فى قرارة أنفسهم بأن القرآن حق.
لأنهم لو كانوا يعتقدون أنه أساطير الأولين - كما زعموا - لتركوا الناس
يسمعونها ليتأكدوا من أنها خرافات وأوهام ، ولكنهم لما كانوا مؤمنين ببلاغة
القرآن وصدقه ، فإنهم نهوا غيرهم عن سماعه حتى لا يؤمن به وابتعدوا هم عنه
حتى لا يتأثروا به فيدخلوا فى دين الإسلام ، ولقد حكى الله عنهم هذا المعنى
فى قوله - تعالى -{ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لاَ تَسْمَعُواْ لِهذا القرآن
} - والغوا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ } والضمير فى قوله - تعالى
عَنْهُ } يرجع إلى النبى صلى الله عليه وسلم وما جاء به من آيات .ويرى بعض
المفسرين أن الضمير " هم " يرجع إلى عشيرة النبى صلى الله عليه وسلم فيكون
المعنى : وهم - أى أعمام النبى صلى الله عليه وسلم وعشيرته ينهون الناس عن
إيذائه والتعرض له بسوء ، ولكنهم فى الوقت نفسه ينأون عنه أى يبتعدون عن
دعوته فلا يؤمنون بها ، ولعل أوضح مثل لذلك أبو طالب ، فقد كان يدافع عن
النبى صلى الله عليه وسلم إلا أنه لم يدخل فى الإسلام مع تصريحه بأنه هو
الدين الحق .ومما روى عنه فى هذا المعنى قوله :والله لن يصلوا إليك بجمعهم
حتى أوسد فى التراب دفينا فاصدع بأمرك ما عليك غضاضه ... وابشر بذاك
وقر منك عيونا ودعوتنى وزعمت أنك ناصحى ... فلقد صدقت وكنت قبل أمينا وعرضت
دينا قد عرفت بأنه ... من خير أديان البرية دينا لولا الملامة أو حذار
مسبة ... لوجدتنى سمحا بذاك يقينا والذى تطمئن إليه النفس أن الرأى الأول
هو الأرجح . لأن الكلام مسوق فى بيان موقف المشركين من النبى صلى الله عليه
وسلم ، وأنهم قد بلغ بهم السفه والعناد أنهم لا يكتفون بالإعراض عن الحق
الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم بل تعدى شرهم إلى غيرهم ، وأنهم كانوا
. يحرضون الناس على إيذائه وعلى الابتعاد عنه

ولو ترى اذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بايات ربنا ونكون
من المؤمنين

، كما فسرها الوسيط ثم يصور - سبحانه - حالهم عند ما يعرضون على النار
وعندما يقفون أمام ربهم ، وحكى ما يقولونه فى تلك المواقف الشديدة فقال
تعالى : { وَلَوْ ترى إِذْ وُقِفُواْ . . . } .{ لَوْ } شرطية ، حذف
جوابها لتذهب النفس فى تصوره كل مذهب وذلك أبلغ من ذكره .و { وُقِفُواْ }
بالبناء للمفعول بمعنى : وقفهم غيرهم . يقال : وقف على الأطلال أى : عندها

مشرفاً عليها ، ويقال وقف على الشىء عرفه وتبينه .والمعنى : إنك أيها النبى الكريم - أو أيها الإنسان العاقل - لو اطلعت على هؤلاء المشركين عندما يقفون على النار ويشاهدون لهيبها وسعيرها . لرأيت شيئاً مروعاً مخيفاً يجعلهم يتحسرون على ما فرط منهم ، ويتمنون أن يعودوا إلى الدنيا ليصدقوا بآيات الله التى طالما كذبوها . وليكونوا من المؤمنين .وعبر - سبحانه - بإذ التى تدل على الماضي - مع أن الحديث عما سيحصل لهم فى الآخرة فكان يناسبه إذا - لإفادة تحقق الوقوع وتأكده ، وليتصور المستقبل على أنه موجود لا على أنه سيوجد ، وعطف بالفاء فى قوله { فَقَالُواْ } للدلالة على أن أول شىء يقع فى قلوبهم حينئذ إنما هو الندم على ما سلف منهم ، وتمنى الرجوع إلى الدنيا ليؤمنوا .

بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون

كما فسرها الوسيط ثم يعقب - سبحانه - على قولتهم هذه فيما لو أجيبوا إلى طلبهم على سبيل الفرض والتقدير فيقول : { بَلْ بَدَا لَهُمْ مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ } .بل هنا للإضراب عما يدل عليه تمنيهم من إدراكهم لقبح الكفر وسوء مغبته ، ولحقيقة الإيمان وحسن عاقبته .والمعنى : ليس الأمر كما يوهمه كلامهم فى التمنى من أنهم يريدون العودة للهداية ، بل الحق أنهم تمنوا العودة إلى الدنيا بعد أن استقبلتهم النار بلهبها ، وبعد أن ظهر لهم ما كانوا يخفونه فى الدنيا من أعمال قبيحة ، ومن أفعل سيئة ، وبعد أن بدا لهم ما كانوا يذكبون به ، وينكرون تحققه ، ولو أنهم ردوا إلى الدنيا بمتعها وشهواتها وأهوائها لعادوا لما نهوا عنه من التكذيب بالآيات والسخرية من المؤمنين ، وإنهم لكاذبون فى كل ما يدعون .فالآية الكريمة تصور ما طبع عليه هؤلاء الجاحدون من فجور وعناد وافتراء ، لأنهم حتى لو أجيبوا إلى طلبهم - على سبيل الفرض والتقدير - لما تخلوا عن كفرهم ومحاربتهم للأنبياء وللمصلحين .

وقالوا ان هي الا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعض مفترياتهم فى الدنيا واغترارهم بها فقال - تعالى - { وقالوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدنيا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ } .أى : أن هؤلاء الكافرين قد بلغ بهم الحب للدنيا والتعلق بها أنهم قالوا : ما الحياة التى تسمى حياة فى نظرنا إلا هذه الدنيا التى نتمتع فيها بما نريد من شهوات وما نحن بمبعوثين ولا محاسبين بعد ذلك ، فالآية الكريمة تحكى عنهم أنهم ينكرون أى حياة سوى الحياة التى يعيشونها. وينفون وقوع البعث والحساب والثواب والعقاب نفياً مؤكداً بالباء وبالجملة الإسمية .ويرى جمهور المفسرين أن هذه الآية الكريمة تتمة للآية السابقة لها ، من حيث المعنى ، وأن قوله { وقالوا } معطوف على { لَعَادُواْ } والتقدير ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه من الكفر وسيىء الأعمال وقالوا ما الحياة إلا حياتنا الدنيا ، ويكون قوله { وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ } جملة اعتراضية مؤكدة لمعنى دعوتهم إلى ما كانوا عليه إن عادوا إلى الدنيا ، إذ هى تكذيب لادعائهم أنهم لا يكذبون بآيات ربهم .

ولو ترى اذ وقفوا على ربهم قال اليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - حالهم عندما يقفون ليستمعوا إلى ما يوجهه إليهم ربهم من توبيخ وتقريع بسبب كفرهم فقال :{ وَلَوْ ترى إِذْ وُقِفُواْ على رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هذا بِالحق } .أى : قال لهم سبحانه - أليس هذا البعث الذى تشاهدونه بأعينكم ثابتاً بالحق؟ وهنا يجيبون - خالقهم مصدقين لأن الواقع يحتم عليهم ذلك فيقولون - كما حكى القرآن عنهم ، أى : قالوا : بلى يا ربنا إنه للحق الذى لا شك فيه { بلى وَرَبِّنَا } ولا باطل يحوم من حوله ، وأكدوا اعترافهم بالقسم شاهدين على أنفسهم بأنهم كانوا كافرين فى الدنيا .وهنا يحكم الله فيهم بحكمه العادل فيقول : { قَالَ فَذُوقُواْ العذاب بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ } أى : إذا كان الأمر كما ذكرتم وشهدتم على أنفسكم ، فانغمسوا فى العذاب ذائقين لآلامه وأهواله بسبب كفركم بآيات الله ، وإنكاركم لهذا اليوم العصيب .والذوق هنا كناية عن الإحساس الشديد بالعذاب بعد أن وقعوا فيه .

قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى اذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون اوزارهم على ظهورهم الا ساء ما يزرون

كما فسرها الوسيط ثم صور - سبحانه - عاقبتهم السيئة ، وخاسرتهم التى ليس بعدها خسارة فقال : { قَدْ خَسِرَ الذين كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ الله } .أى : أن أولئك الكفار الذين أنكروا البعث والحساب قد خسروا أعز شىء فى هذه الحياة ، ومن مظاهر ذلك أنهم خسروا الرضا الذى سيناله المؤمنون من ربهم ، وخسروا العزاء الروحى الذى يغرس فى قلب المؤمن الطمأنينة والصبر عند البلاء وخسروا الرضا الذى يعتقد أن ما عند الله خير وأبقى ، بخلاف الكافر فإن الدنيا ، لأن المؤمن يعتقد أن هؤلاء الخاسرين سيستمرون فى تكذيبهم بالحق وإعراضهم عنه منتهى آماله .وإن { حَتَّى إِذَا جَآءَتْهُمُ الساعة بَغْتَةً قَالُواْ ياحسرتنا على مَا فَرَّطْنَا فِيهَا } .أى : حتى إذا جاءتهم الساعة مباغته مفاجئة وهم فى طغيانهم يعمهون ، اعتراهم الهم ، وحل بهم البلاء وقالوا : بعد أن سقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا يا حسرتنا أقبلى فهذا أوانك ، فإننا لم نستعد لهذا اليوم ، بل أهملناه ولم نلتفت إليه . وعلى ذلك يكون المراد بالساعة ، يوم القيامة وما فيه من حساب .وقيل : المراد بالساعة وقت مقدمات الموت فالكلام على حذف المضاف ، أى : جاءتهم مقدمات الساعة وهى الموت وما فيه من الأهوال . فلما كان الموت من مبادىء الساعة سمى باسمها ، ولذا قال صلى الله عليه وسلم " من مات فقد قامت قيامته " .وسميت القيامة ساعة لسرعة الحساب فيها ، ولأنها تحمل أشد الأهوال ولأنها فاصلة بين نوعين من الحياة : فانية وأخرى باقية .وفى قوله - تعالى - { حتى إِذَا جَآءَتْهُمُ الساعة بَغْتَةً } يصح أن تكون مصدراً فى إشارة إلى أنها تفاجئهم بأهوالها من غير أن يكونوا مستعدين لها أو { متوقعين لحدوثها ، أما المؤمنين - فإنهم رغم عدم علمهم بمجيئها - فإنهم يكونون فى حالة استعداد لها بالإيمان والعمل الصالح .والبغت والبغتة مفاجأة الشىء بسرعة من غير إعداد له ، وكلمة { بَغْتَةً } يصح أن تكون مصدراً فى موضع الحال من فاعل جاءتهم أى : جائتهم مباغتة ، ويصح أن تكون مفعولا مطلقاً لفعل محذوف من لفظها أى : تبغتهم بغتة ، والحسرة : شدة الغم والندم على ما فات وانقضى .ثم قال - تعالى - : { وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ على ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَآءَ مَا يَزِرُونَ } .الأوزار جمع وزر وهو - بكسر الواو - الحمل الثقيل ، ويطلق على الإثم والذنب لأنهما أثقل الأحمال النفسية التى تنوء بها القوة .والجملة الكريمة من قبيل الاستعارة التمثيلية حيث شبهت حالهم وما يحملونه يوم القيامة من ذنوب ثقيلة مضنية ، بهيئة المثقل المجهد بحمل كبير يحمله على ظهره وينوء به . ثم حذفت الهيئة الدالة على المشبه به ورمز إليها بشىء من لوازمها .وقيل إن الكلام علىحقيقته وأنهم سيحملون ذنوبهم على ظهورهم فعلا ، حيث إن الذنوب والأعمال ستتجسم يوم القيامة ، وبهذا الرأى قال كثير من أهل السنة .والمعنى : إن هؤلاء الكافرين يأتون يوم القيامة وهم يحملون ذنوبهم وآثامهم على ظهورهم ، ألا ما أسوأ ما حملوا ، وما أشد ما سيستقبلونه بعد ذلك من عذاب أليم .

وما الحياة الدنيا الا لعب ولهو وللدار الاخرة خير للذين يتقون افلا تعقلون

. كما فسرها الوسيط ثم عقد - سبحانه - مقابلة بين الحياة الدنيا والآخرة بين فيها أن الحياة الآخرة هى الحياة العالية السامية الباقية ، أما الحياة الدنيا فهى إلى زوال وانتهاء فقال - تعالى - :{ وَمَا الحياة الدنيآ إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخرة خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ } .اللعب : هو العمل الذى لا يقصد به مقصداً صحيحاً من تحصيل منفعة أو دفع مضرة ، واللهو : هو طلب ما يشغل عن معالى الأمور وعما يهم الإنسان ويعنيه .والمعنى : إن هذه الحياة التى نعتها الكفار بأنها لا حياة سواها ما هى إلا لهو ولعب لمن يطلبها بأنانية وشره من غير استعداد لما يكون ، وراءها من حياة أخرى فيها الحساب والجزاء ، وفيها النعيم الذى لاينتهى وفيها السعادة التى لا تحد ، بالنسبة للذين اتقوا ربهم ، ونهوا أنفسهم عن الهوى .فالحياة الدنيا لعب ولهو لمن اتخذوها فرصة للتكاثر والتفاخر وجمع الأموال من حلال وحرام ، ولم يقيموا وزنا للأعمال الصالحة التى كلفهم الله - تعالى - بها . أما بالنسبة للذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا . فإن الحياة الدنيا تعتبر وسيلة إلى رضا الله الذى يظفرون به يوم القيامة ، وإن ما يحصل عليه المؤمنون فى هذا اليوم من ثواب جزيل ومن نعيم مقيم هو خير من الدنيا وما فيها من متعة زائلة ومن شهوات لا دوام لها .والاستفهام فى قوله - تعالى - { أَفَلاَ تَعْقِلُونَ } للحث على التدبر والتفكر والموازنة بين اللذات العاجلة الفانية التى تكون فى الدنيا ، وبين النعيم الدائم الباقى الذى يكون فى الآخرة .

قد نعلم انه ليحزنك الذي يقولون فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بايات الله يجحدون

كما فسرها الوسيط ثم أخذ القرآن الكريم فى مخاطبة النبى صلى الله عليه وسلم وفى تسليته عما أصابه من قومه فقال : { قَدْ نَعْلَمُ . . . } .{ قَدْ } هنا للتحقيق وتأكيد العلم وتكثيره ، والتحقيق هنا جاء من موضوعها لا من

ذاتها كما أن التكثير راجع إلى متعلقات العلم ، لا إلى العلم نفسه ، لأن صفة القديم لا تقبل الزيادة والتكثير وإلا لزم حدوثها . والحزن ألم يعترى النفس عند فقد محبوب ، أو امتناع مرغوب أو حدوث مكروه .قال الأمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : يوقل تعالى مسليا لنبيه صلى الله عليه وسلم . في تكذيب قومه له ومخالفتهم إياه { قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الذي يَقُولُونَ } أى : قد أحطنا علما بتكذيبهم لك وحزنك وتأسفك عليهم وقوله { فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ ولكن الظالمين ، بِآيَاتِ الله يَجْحَدُونَ } أى : هم لا يتهمونك بالكذب فى نفس الأمر ولكنهم يعاندون الحق ويدفعونه بصدورهم كما قال سفيان الثورى عن أبى إسحاق عن ناجيه عن على قال : قال أبو جهل للنبى صلى الله عليه وسلم : إنا لا نكذبك يا محمد ولكن نكذب ما جئت به فأنزل الله { فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ ولكن الظالمين بِآيَاتِ الله يَجْحَدُونَ } . وعن أبى يزيد المدنى أن النبى صلى الله عليه وسلم لقى أبا جهل فصافحه فقال له رجل : ألا أراك تصافح هذا الصابىء؟ فقال : والله إنى لأعلم أنه لنبى ، ولكن متى كنا لبنى عبد مناف تبعا؟ وتلا أبو زيد { قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الذي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ ولكن الظالمين بِآيَاتِ الله يَجْحَدُونَ } .فالآية الكريمة مسوقة على سبيل الاستئناف لتسلية النبى صلى الله عليه وسلم عما كان يصيبه من المشركين ومما لا شك فيه أنه - عليه الصلاة والسلام - كان حريصا على إسلامهم ، فإذا ما رآهم معرضين عن دعوته حزن وأسف ، وفى معنى هذه الآية جاءت آيات كثيرة منها قوله - تعالى - : { فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ على آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بهذا الحديث أَسَفاً } ومنها قوله - تعالى - { فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ الله عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ } ومنها قوله - تعالى - { فَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ } قال الجمل : والفاء فى قوله { فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ } للتعليل ، فإن قوله { قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ بمعنى لا يحزنك ، كما يقال فى مقام المنع والزجر نعلم ما تفعل . ووجه { التعليل : أن التكذيب فى الحقيقة لى وأنا الحليم الصبور ، فتخلق بأخلاقى . ويحتمل أن يكون المعنى : إنه يحزنك قولهم لأنه تكذيب لى فأنت لم تحزن لنفسك بل لما هو أهم .والمعنى : إن هؤلاء الكفار - يا محمد - لا ينسبونك إلى الكذب ، فهم قد لقبوك بالصادق الأمين ، ولكنهم يجحدون الآيات الدالة على صدقك بإنكارها بألسنتهم مع اعتقادهم صدقها .والجحود هو الإنكار مع العلم ، أى نفى ما فى القلب ثبوته ، أو إثبات ما فى القلب نفيه ، وفى التعبير بالجحود بعد نفى التكذيب إشارة إلى أن آيات الله واضحة بحيث يصدقها كل عاقل وأنه لا يصح إنكارها إلا عن طريق الجحود .وقال - سبحانه - { ولكن الظالمين ، ولم يقل ( ولكنهم ) ، لبيان سبب جحودهم وهو الظلم الذى استقر فى نفوسهم { . وفيه فوق ذلك تسجيل للظلم عليهم حتى يكونوا أهلا لما يصيبهم من عقاب

ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا واوذوا حتى اتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبا المرسلين

كما فسرها الوسيط ثم زاد القرآن فى تعزية النبى صلى الله عليه وسلم وتسليته عن طريق إخباره بما حدث للأنبياء من قبله فإن عموم البلوى مما يخفف وقعها فقال : { وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ على مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حتى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا } .أى : أن الرسل من قبلك - يا محمد - قد كذبتهم أقوامه وأنزلت بهم الأذى ، فليس بدعا أن يصيبك من أعدائك ما أصاب الأنبياء من قبلك ، ولقد صبر أولئك الأنبياء الكرام على التطاول والسفه فكانت نتيجة صبرهم أن آتاهم الله النصر والظفر ، فعليك - وأنت خاتمهم وإمامهم - أن تصبر كما صبروا حتى تنال ما نالوا من النصر ، فإن سنة الله لا تتخلف فى أى زمان أو مكان .وجاء قوله - تعالى - { وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ } مؤكدا بقد وباللام ، للإشارة إلى تأكيد التسلية والتعزية ، وإلى تأكيد التمسك بفضيلة الصبر التى سيعقبها النصر الذى وعد الله به الصابرين .و { مَا } فى قوله { على مَا كُذِّبُواْ } مصدرية ، { وَأُوذُواْ } معطوف على قوله { كُذِّبَتْ } أى : كذبت الرسل ، وأوذوا فصبروا على كل ذلك .وقوله { حتى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا } غاية للصبر أى : صبروا على التكذيب وما قارنه من الإيذاء إلى أن جاءهم نصرنا وفيه بشارة للنبى صلى الله عليه وسلم مؤكداً للتسلية بأنه - سبحانه - سينصره على القوم الظالمين .وقوله - تعالى - { وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ الله } معناه :لا مغير لكلمات الله وآياته التى وعد فيها عباده الصالحين بالنصر على أعدائه ، ومن ذلك قوله - تعالى - { كَتَبَ الله لأَغْلِبَنَّ أَنَاْ ورسلي إِنَّ الله قَوِيٌّ عَزِيزٌ } وقوله - تعالى - { وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المرسلين إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورون وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون } وقوله - تعالى - { إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا والذين آمَنُواْ فِي الحياة الدنيا وَيَوْمَ يَقُومُ الأشهاد } إلى غير ذلك

من الآيات التى بشر فيها عباده المؤمنين بالفلاح وحسن العاقبة .ويرى
، المحققون من العلماء أن المراد بكلمات الله : شرائعه ، وصفاته ، وأحكامه
وسننه فى كونه ، ويدخل فيها دخولا أوليا ما وعد الله به أنبياءه وأولياءه
من النصر والظفر . وهذا الرأى أرجح من سابقه لأنه أعم وأشمل .وإضافة
- الكلمات إليه - سبحانه - للإشعار باستحالة تبديلها أو تغييرها لأنه
سبحانه -لا يغالبه أحد فى فعل من الأفعال ، ولا يقع منه خلف فى قول من
الأقوال ، فما دام المؤمنون يخلصون له العبادة والقول والعمل ويجتهدون فى
مباشرة الأسباب واتخاذ الوسائل النافعة ، فإنه - سبحانه - سيجعل العاقبة
لهم .وقوله - تعالى - { وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِ المرسلين } تأكيد
وتقرير لما قبله أى : ولقد جاءك من أخبار المرسلين وأنبائهم - مما قصه عليك
فى كتابه - ما فيه العظات والعبر ، فلقد صبر المرسلون على الأذى فكافأهم
الله - تعالى - على ذلك بالظفر على أعدائهم .

وان كان كبر عليك اعراضهم فان استطعت ان تبتغي نفقا في الارض او سلما في
السماء فتاتيهم باية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أنه لا سبيل إلى إيمان هؤلاء الجاحدين
إلا بمشيئة الله وإرادته فقال { وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ
فَإِن استطعت أَن تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأرض أَوْ سُلَّماً فِي السماء
فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ } .كبر عليك : أى شق وعظم عليك . والنفق : السرب
النافذ فى الأرض الذى يخلص إلى مكان .والمعنى : وإن كان - يا محمد - قد شق
عليك إعراض قومك عن الإيمان وظننت أن إتيانهم بما اقترحوه من آيات يكون
سببا فى إيمانهم ، فإن استطعت أن تطلب مسلكا عميقا فى جوف الأرض ، أو
مرقاة ترتقى بها إلى السماء لتأتيهم بما اقترحوا من مطالب فافعل فإن ذلك لن
يفيد شيئا لأن هؤلاء المشركين لا ينقصهم الدليل الدال على صدقك ، ولكنهم
يعرضون عن دعوتك عنادا وجحودا .ثم قال - تعالى - { وَلَوْ شَآءَ الله
لَجَمَعَهُمْ عَلَى الهدى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الجاهلين } .أى : لو شاء
الله جمعهم على ما جئت به من الهدى والرشاد لفعل ، بأن يوفقهم إلى الإيمان
، فيؤمنوا ، ولكن الله لم يشأ ذلك لأنهم بسوء اختيارهم آثروا الحياة الدنيا
. فلا تكونن من الجاهلين بحكمة الله فى خلقه ، وبسننه التى اقتضاها علمه

انما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم اليه يرجعون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - من هم أهل للإيمان والاستجابة للحق
فقال :{ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الذين يَسْمَعُونَ } أى : إنما يستجيب لك
أيها الرسول الكريم أولئك الذين يسمعون توجيهك وأقوالك سماع تدبر وتفهم
وتأثر ، أما هؤلاء الذين يعاندونك فقد طبع الله على قلوبهم فهم لا يفقهون
فالمراد بالاستجابة هنا ، الإجابة المقرونة بالتفكر والتأمل ، فهى إجابة.
- محكمة دقيقة لأنها أتت بعد استقراء وتدبر وهذا ما تدل عليه السين .ثم بين
سبحانه - حال الكفار فقال : { والموتى يَبْعَثُهُمُ الله ثُمَّ إِلَيْهِ
يُرْجَعُونَ } أى : وموتى القلوب الذين لا يسمعون سماع تدبر وتقبل وهم
المشركون ، سيبعثهم الله من قبورهم يوم القيامة ويحاسبهم حسابا عسيرا على
أقوالهم الباطلة وأعمالهم السيئة .فالمراد بالموتى هنا الكفار لأنهم موتى
القلوب فشبههم - سبحانه - بموتى الأجساد ، وهذا من باب التهكم بهم والتحقير
من شأنهم .وقيل : إن لفظ الموتى على حقيقته وأن الله - تعالى - بقدرته
النافذة سيبعث الجميع يوم القيامة ويرجعهم إليه فيجازى الذين أساؤا بما
عملوا ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

وقالوا لولا نزل عليه اية من ربه قل ان الله قادر على ان ينزل اية ولكن
اكثرهم لا يعلمون

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - بعض الشبهات التى تذرع بها المشركون
تعنتا ، ورد عليها بما يخرس ألسنتهم ، وبما يؤكد قدرته النافذة وعلمه
} المحيط فقال - تعالى - : { وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ . . . } .و
لَوْلاَ } هنا تحضيضية بمعنى هلا ، والمعنى : وقال أولئك الكافرون : هلا
نزل عليك يا محمد معجزة حسية كتفجير الأنهار ، وفلق البحر ، ونزول الملائكة
معك . . . إلخ .فهذه الآيات الكريمة تحكى عنهم أنهم لم يكتفوا بالقرآن
معجزة خالدة للنبى صلى الله عليه وسلم وإنما يريدون معجزات حسية من جنس
معجزات الأنبياء السابقين .وإنما قالوا ذلك مع تكاثر ما أنزل على رسول الله
صلى الله عليه وسلم من الآيات ، لتركهم الاعتداد بما أنزل عليه ، حتى لكأنه
} - لم ينزل عليه شىء عنادا وجحودا منهم .وفى قولهم - كما حكى القرآن عنهم
لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ } ببناء الفعل للمجهول وذكر
لفظ الرب ، للإشارة إلى أنهم لا يوجهون الطلب إلى النبى صلى الله عليه وسلم
وإنما يوجهونه إلى الله تعالى ، لأنه إذا كان رسولا من عنده ، فليجب له هذا

الطلب الذى نتمناه ونكون من بعده مؤمنين .وقد رد الله - تعالى - عليهم بقوله : { قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ على أَن يُنَزِّلَ آيَةً ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ } .أى : قل لهم أيها الرسول الكريم على سبيل التوبيخ والتقريع إن الله - تعالى - قادر على تنزيل ما اقترحوا من آيات ، لأنه - سبحانه -لا يعجزه شىء ، ولكنه - سبحانه - ينزل ما تقتضيه حكمته إلا أنهم لجهلهم وعنادهم لا يعلمون شيئاً من حكم إلله فى أفعاله ، ولا من سننه فى خلقه .وقوله - تعالى : { ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ } يفيد أنهم لا يؤمنون حتى ولو جاءتهم الآيات التى اقترحوها ، لأن عدم إيمانهم ليس عن نقص فى الدليل ولكنه عن تكبر وجحود .

وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا امم امثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم الى ربهم يحشرون

كما فسرها الوسيط ثم ذكر - سبحانه - بعض الآيات الكونية المبثوثة فى الأرض والجو والمعروضة على البصائر والأبصار فقال - تعالى - :{ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأرض وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ } .الدابة : كل ما يدب على الأرض من حيوان . والطائر : كل ذى جناح يسبح فى الهواء ، والأمم : جمع أمة وهى جماعة يجمعهم أمر ما .والمعنى إنه لا يوجد نوع ما من أنواع الأحياء التى تدب على الأرض ولا من أنواع : الطير التى تسبح فى الهواء إلا وهى أمم مماثلة لكم فى أن الله خلقهم وتكفل بأرزاقهم .قال صاحب الكشاف : فإن قلت ما الغرض من ذكر ذلكظ قلت : الدلالة ، عن عظم قدرة الله . وسعة سلطانه ، وتدبير تلك الخلائق المتفاوتة الأجناس ، المتكاثرة الأصناف ، وهو حافظ لما لها ، وما عليها ، مهيمن على أحوالها لا يشغله شأن من شأن ، وأن المكلفين ليسوا بمخصوصين بذلك دون من عداهم من - سائر الحيوان " .وذكر الجناحين فى الطير لتوجيه الأنظار إلى بديع صنعه سبحانه - وحسن خلقه .قال - تعالى - : { أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطير فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرحمن إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ } ثم قال - تعالى - : { مَّا فَرَّطْنَا فِي الكتاب مِن شَيْءٍ ثُمَّ إلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ } .التفريط فى الأمر : التقصير فيه وتضييعه حتى يفوت . والمراد بالكتاب اللوح المحفوظ وقيل المراد به القرآن .والمعنى : ما تركنا فى الكتاب شيئا لم نحصه ولم نثبته ، وإنما أحطنا بكل شىء علماً ، وليس من مخلوق صغر أو كبر فى هذا الوجود إلا وسيجمع يوم القيامة أمام خالقه .فالآية الكريمة مسوقة لبيان سعة علم الله - تعالى - وكمال قدرته ، لتكون كالدليل على أنه - سبحانه - قادر على تنزيل الآية التى اقترحوها ، وإنما لم ينزلها لأن حكمته تقتضى ذلك وجملة { مّا فَرّطْنَا فِي الكتاب مِن شَيْءٍ } معترضة لتقرير مضمون ما قبلها .والتعبير بثم فى قوله { ثُمّ إلى رَبّهِمْ يُحْشَرُونَ } للإشارة إلى أنهم أعداد لا يحصيها العد ، وجمعهم ليس يسيراً فى ذاته ، وإن كان بالنسبة لقدرته - تعالى - أمرا هينا .ويرى بعض العلماء أن المراد بحشر : - البهائم موتها . ويرى آخرون أن المراد بعثها يوم القيامة لقوله - تعالى وفى الحديث الشريف عن أبى ذر الغفارى أن النبى { وَإِذَا الوحوش حُشِرَتْ } صلى الله عليه وسلم " رأى شاتين تتناطحان فقال : يا أبا ذر هل تدرى فيم تتناطحان؟ قال :لا . قال : ولكن الله يدرى ويقضى بينهما " .

والذين كذبوا باياتنا صم وبكم في الظلمات من يشا الله يضلله ومن يشا يجعله على صراط مستقيم

كما فسرها الوسيط ثم قال - تعالى - { والذين كَذّبُواْ بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظلمات } .أى : مثلهم فى جهلهم وقلة علمهم وعدم فهمهم كمثل الأصم الذى لا يسمع ، والأبكم الذى لا يتكلم وهو مع ذلك فى ظلمات لا يبصر ، فكيف يهتدى مثل هذا إلى الطريق القويم أو يخرج مما هو فيه من ضلال .ففى التعبير القرآنى استعارة تمثيلية إذ شبهت حال الجاحدين المعرضين عن كل دليل وبرهان بحال الصم البكم الذين يعيشون فى الظلام من حيث لا نور يهديهم .ثم قال - تعالى - : { مَن يَشَإِ الله يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ على صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ } .أى : من يشأ الله له الضلالة أضله بأن يجعله يسير فى طريق هواه بسبب إعراضه عن طريق الخير ، وإيثاره العمى على الهدى ، ومن يشأ الله له الهداية يهده ، لأنه قد خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فالهداية والضلالة ليسا إجباريين لا اختيار للعبد فيهما ، وإنما الحق أن للعبد اختيارا فى الطريق الذى يسلكه ، فإن كان خيرا خطا فيه إلى النهاية ، وإن كان شرا سار فيه إلى الهاوية .

قل ارايتكم ان اتاكم عذاب الله او اتتكم الساعة اغير الله تدعون ان كنتم صادقين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن هؤلاء المشركين عند ما تحيط بهم المصائب والأهوال لا يتوجهون بالضراعة والدعاء إلا إلى الله ، وأنهم مع ذلك } : - لا يخصونه بالعبادة كما يخصونه بالدعاء لكشف الضر ، فقال - تعالى
قُلْ أَرَأَيْتُكُم إِنْ . . . . } .{ أَرَأَيْتُكُم } المقصود به أخبرونى
وكلمة أرأيت فى القرآن تستعمل للتنبيه والحث على الرؤية والتأمل ، فهو ، استفهام للتنبيه مؤاده : أرأيت كذا فإن لم تكن رأيته فانظره وتأمله
والمعنى : قل - يا محمد - لهؤلاء المشركين : أخبرونى عن حالكم عندما. يداهمكم عذاب الله الدنيوى كزلزال مدمر ، أو ريح صر صر عاتية ، أو تفاجئكم الساعة بأهوالها وشدائدها ألستم فى هذه الأحوال تلتجئون إلى الله وحده وتنسون آلهتكم الباطلة ، لأن الفطرة حينئذ هى التى تنطق على ألسنتكم بدون شعور منكم؟ وما دام الأمر كذلك فلماذا تشركون مع الله آلهة أخرى؟ إن أحوالكم هذه لتدعو إلى الدهشة والغرابة ، لأنكم تلجأون إليه وحده عند الشدائد والكروب ومع ذلك تعبدون غيره ومن لا يملك ضرا ولا نفعا .والاستفهام فى قوله - تعالى - : { أَغَيْرَ الله تَدْعُونَ } للتوبيخ والتقريع والتعجب من حالهم .وجواب الشرط محذوف ، والتقدي : إن كنتم صادقين فى أن الأصنام تنفعكم فادعوها .

بل اياه تدعون فيكشف ما تدعون اليه ان شاء وتنسون ما تشركون

كما فسرها الوسيط ثم أكد - سبحانه - أنهم عند الشدائد والكروب لا يلجأون إلا إلى الله فقال - تعالى - : { بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ } .بل للإضراب ، الانتقالى عن تفكيرهم وأوهامهم ، أى : بل تخصونه وحده بالدعاء دون الآلهة } فيكشف ما تلتمسون كشفه إن شاء ذلك ، لأنه هو القادر على كل شىء وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ } أى : تغيب عن ذاكرتكم عند الشدائد والأهوال تلك الأصنام الزائفة والمعبودات الباطلة .وقدم - سبحانه - المفعول على الفعل فى قوله : { بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ } لإفادة الاختصاص ، أى :لا تدعون إلا إياه ، وذلك يدل على أن المشركين مهما بلغ ضلالهم فإنهم عند } الشدائد يتجهون بتفكيرهم إلى القوة الخفية الخالقة لهذا الكون .وفى قوله فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ } استعارة حيث شبه حال إزالة الشر بحال كشف غطاء غامر مؤلم بجامع إزالة الضر فى كل وإحلال السلامة محله .والمقصود فيكشف الضر الذى تدعونه أن يكشفه : فالكلام على تقدير حذف مضاف .وجواب الشرط لقوله : { إِنْ شَآءَ } محذوف لفهم المعنى ودلالة ما قبله عليه ، أى إن شاء أن يكشف الضر كشفه ، لأنه - سبحانه -لا يسأل عما يفعل .

ولقد ارسلنا الى امم من قبلك فاخذناهم بالباساء والضراء لعلهم يتضرعون

كما فسرها الوسيط ثم أخذ القرآن فى تسلية النبى صلى الله عليه وسلم وفى بيان أحوال الأمم الماضية فقال - تعالى - : { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بالبأسآء والضرآء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ } .البأساء : تطلق على المشقة والفقر الشديد ، وعلى ما يصيب الأمم من أزمات تجتاحها بسبب الحروب والنكبات . والضراء . تطلق على الأمراض والأسقام التى تصيب الأمم والأفراد .والمعنى : ولقد أرسلنا من قبلك يا محمد ، رسلا إلى أقوامهم ، فكان هؤلاء الأقوام أعتى من قومك فى الشرك والجحود فعاقبناهم بالفقر الشديد والبلاء المؤلم ، لعلهم يخضعون ويرجعون عن كفرهم وشركهم .فالآية الكريمة تصور لوناً من ألوان العلاج النفسى الذى عالج الله به الأمم التى تكفر بأنعمه ، وتكذب أنبياءه ورسله ، إذ أن الآلام والشدائد علاج للنفوس المغرورة بزخارف الدنيا ومتها إن كانت صالحة للعلاج .

فلولا اذ جاءهم باسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون

كما فسرها الوسيط ولقد بين - سبحانه - بعد ذلك . أن تلك الأمم لم تعتبر بما أصابها من شدائد فقال : { فلولا إِذْ جَآءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ ولكن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشيطان مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } .ولولا هنا للنفى ، أى أنهم ما خشعوا ولا تضرعوا وقت أن جاءهم بأسنا .وقيل إنها للحث والتحضيض بمعنى هلا ، أى : فهلا تضرعوا تائبين } : إلينا وقت أن جاءهم بأسنا.وقد اختار صاحب الكشاف أنها للنفى فقال فلولا إِذْ جَآءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ } معناه : نفى التضرع ، كأنه قيل . فلم يتضرعوا إذ جاءهم بأسنا ولكنه جاء بلولا ليفيد أنه لم يكن لهم عذر فى ترك التضرع إلا عنادهم وقوسة قلوبهم وإعجابهم بأعمالهم التى زينها الشيطان لهم " .ثم بين - سبحانه - أن أمرين حالا بينهم وبين التوبة والتضرع - عند نزول الشدائد بهم .أما الأمر الأول : فهو قسوة قلوبهم ، وقد عبر : سبحانه - عن هذا الأمر الأول بقوله : { ولكن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ } أى

غلظت وجمدت وصارت كالحجارة أو أشد قسوة .وأما الأمر الثانى : فهو تزيين الشيطان لهم أعمالهم السيئة ، بأن يوحى إليهم بأن ما هم عليه من كفر وشرك وعصيان هو عين الصواب ، وأن ما أتاهم به أنبياؤهم ليس خيراً لأنه يتنافى مع ما كان عليه آباؤهم .هذان هما الأمران اللذان حالا بينهم وبين التضرع إلى الله والتوبة إليه .

فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم ابواب كل شيء حتى اذا فرحوا بما اوتوا اخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أنه قد ابتلاهم بالنعم بعد أن عالجهم بالشدائد فلم يرتدعوا فقال - تعالى - :{ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حتى إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أوتوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُّبْلِسُونَ } .والمعنى : فلما أعرضوا عن النذر والعظات التى وجهها إليهم الرسل ، فتحنا عليهم أبواب كل شىء من الرزق وأسباب القوة والجاه . حتى إذا اغتروا وبطروا بما أوتوا من ذلك أخذناهم بغتة فإذا هم متحسرون يائسون من النجاة .ولفاء فى قوله - تعالى - { فَلَمَّا نَسُواْ } لتفصيل ما كان منهم . وبيان ما ترتب على كفرهم من عواقب قريبة وأخرى بعيدة .والمراد بالنسيان هنا : الإعراض والترك . أى : تركوا الإهتداء بما جاء به الرسل حتى نسوه أو جعلوه كالمنسى فى عدم الاعتبار والاتعاظ به لإصرارهم على كفرهم ، وجمودهم على تقليد من قبلهم .والتعبير بقوله - تعالى - { فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ } يرسم صورة بليغة لإقبال الدنيا عليهم من جميع أقطارها بجميع ألوان نعمها ، وبكل قوتها وإغرائها ، فهو اختبار لهم بالنعمة بعد أن ابتلاهم بالبأساء والضراء .وعبر - سبحانه - عن إعطائهم النعمة بقوله : { بِمَآ أوتوا } بالبناء للمجهول لأنهم يحسبون أن ذلك بعلمهم وقدرتهم وحدهم ، كما - قال قارون من قبل { إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ عندي } وأضاف سبحانه - الأخذ إلى ذاته فى قوله { أَخَذْنَاهُمْ } لأنهم كانوا لا ينكرون ذلك ، بل كانوا ينسبون الخلق والإيجاد إلى الله - تعالى - .وكان الأخذ بغتة ليكون أشد عليهم وأفظع هولا ، أى أخذناهم بعذاب الاستئصال حال كوننا مباغتين لهم . أو حال كونهم مبغوتين ، فقد فجأهم العذاب على غرة بدون إمهال وإذا فى قوله { فَإِذَا هُمْ مُّبْلِسُونَ } فجائية ، والمبلس : الباهت. الحزين البائس من الخير ، الذى لا يحير جواباً لشدة ما نزل به من سوء الحال : روى الإمام أحمد بسنده عن عقبة بن عامر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال. " وإذا رأيت الله يعطى العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج . . ثم تلا قوله - تعالى - { فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ } ، " الاية .

فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين

كما فسرها الوسيط ثم قال - تعالى - : { فَقُطِعَ دَابِرُ القوم الذين ظَلَمُواْ والحمد للَّهِ رَبِّ العالمين } .الدابر : الآخر ، والمعنى : فأهلك الله - تعالى - أولئك الأقوام عن آخرهم بسبب ظلمهم وفجورهم ، والحمد لله رب العالمين الذى نصر رسله وأولياءه على أعدائهم ، وفى ختام هذه الآية بقوله { والحمد للَّهِ رَبِّ العالمين } تعليم لنا ، إذ أن زوال الظالمين - نعمة تستوجب الحمد والثناء على الله - تعالى .

قل ارايتم ان اخذ الله سمعكم وابصاركم وختم على قلوبكم من اله غير الله ياتيكم به انظر كيف نصرف الايات ثم هم يصدفون

، كما فسرها الوسيط ثم ذكرهم - سبحانه - بنعمه عليهم فى خلقهم وتكوينهم - وبين لهم إذا سلبهم شيئاً من حواسهم فإنهم لا يتجهون إلا إليه فقال تعالى - : { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ . . . . } .المعنى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين الجاحدين : أخبرونى إن سلب الله عنكم نعمتى السمع والبصر ، فأصبحتم لا تسمعون ولا تبصرون ، وختم على قلوبكم فصرتم لا تفقهون شيئاً من إله غيره يقدر على رد ما سلب منكم وأنتم تعرفون ذلك ولا تنكرونه فلماذا - تشركون معه آلهة أخرى؟ ثم التفت عنهم إلى التعجيب من حالهم فقال - تعالى أى : انظر كيف { انظر كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيات ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ } ننوع الآيات والحجج والبراهين فنجعلها على وجوه شتى ليتعظوا ويعتبروا ثم هم - بعد ذلك يعرضون عن الحق ، وينأون عن طريق الرشاد .والاستفهام فى قوله تعالى - { أَرَأَيْتُمْ } للتنبيه أى : إن لم تكونوا قد رأيتم ذلك فتبينوه وتأملوا ما يدل عليه .والضمير فى { بِهِ } يعود إلى المأخوذ وهو السمع والبصر والفؤاد .وفى قوله { انظر كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيات ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ } تعجيب من عدم تأثرهم رغم كثرة الدلائل وتنوعها من أسلوب إلى أسلوب .وجملة { ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ } معطوفة على جملة نصرف الآيات

وداخلة فى حكمها ، وكان العطف بثم لإفادة الاستبعاد المعنوى ، لأن تصريف الآيات والدلائل يدعو إلى الإقبال ، فكان من المستبعد فى العقول والأفهام أن يترتب عليه الإعراض والابتعاد .قال القرطبى : { يَصْدِفُونَ } أى : يعرضون . يقال : صدق عن الشىء إذا أعرض صدفا وصدوفا فهو صادف . فهم ماثلون معرضون عن الحجج والدلالات .

قل ارايتكم ان اتاكم عذاب الله بغتة او جهرة هل يهلك الا القوم الظالمون

- كما فسرها الوسيط ثم وجه عقولهم إلى لون آخر من ألوان الإقناع فقال تعالى - :{ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ القوم الظالمون } . بغتة : أى مفاجأة ن وجهرة أى جهارا عيانا .والمعنى : قل لهم ايها الرسول الكريم أخبرونى عن مصيركم : إن أتاكم عذاب الله مباغتاً ومفاجئاً لكم من غير ترقب ولا انتظار ، أو أتاكم ظاهراً واضحاً بحيث ترون مقدماته ومباديه ، هل يهلك به إلا القوم الظالمون؟والاستفهام فى قوله { هَلْ يُهْلَكُ } بمعنى النفى : أى : ما يهلك به إلا القوم الظالمون ، الذين أصروا على الشرك والجحود ، فهلاكهم سببه السخط عليهم والعقوبة لهم ، لأنهم عمواوصموا عن الهداية .

وما نرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين فمن امن واصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - وظيفة الرسل فقال : { وَمَا نُرْسِلُ المرسلين إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ } ، أى : تلك سنتنا وطريقتنا فى اهلاك المكذبين للرسل ، والمعرضين عن دعوتهم ، فإننا ما نرسل المرسلين إليهم إلا بوظيفة معينة محددة هى تقديم البشارة لمن آمن وعمل صالحاً ، وسوق الإنذار لمن كذب وعمل سيئاً .فالجملة الكريمة كلام مستأنف مسوق لبيان وظيفة الرسل - عليهم الصلاة والسلام - ولإظهار أن ما يقترحه المشركون عليهم من مقترحات باطلة ليس من وظائف المرسلين أصلا .

والذين كذبوا باياتنا يمسهم العذاب بما كانوا يفسقون

} : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - عاقبة من آمن وعاقبة من كفر فقال فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ والذين كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ العذاب بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ } .والمعنى : فمن آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وأصلح فى عمله . فلا خوف عليهم من عذاب الدنيا الذى ينزل بالجاحدين ، ولا ، من عذاب الآخرة الذى يحل بالمكذبين ، ولا هم يحزنون يوم لقاء الله على شىء فاتهم .والمس اللمس باليد ، ويطلق على ما يصيب المرء من ضر أو شر - فى الغالب - وفى قوله { يَمَسُّهُمُ العذاب } استعارة تبعية ، فكأن العذاب كائن حى يفعل بهم ما يريد من الآلام والعذاب .

قل لا اقول لكم عندي خزائن الله ولا اعلم الغيب ولا اقول لكم اني ملك ان اتبع الا ما يوحى الي قل هل يستوي الاعمى والبصير افلا تتفكرون

كما فسرها الوسيط ثم لقن الله - تعالى - رسوله صلى الله عليه وسلم الأجوبة الحاسمة التى تدمغ شبهات الكافرين ، وتبين ضلال مقترحاتهم فقال : { قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي . . . . } .المعنى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يقترحون عليك المقترحات الباطلة قل لهم : ليس عندى خزائن الرزق فأعطيكم منها ما تريدون ، وإنما ذلك لله - تعالى - فهو الذى له خزائن السموات والأرض ، وقد كان المشركون يقولون للنبى صلى الله عليه وسلم إن كنت رسولا من الله فاطلب منه أن يوسع عيشنا ويغنى فقرنا ، وقل لهم كذلك إنى لا أعلم الغيب فاخبركم بما مضى وبما سيقع فى المستقبل ، وإنما علم ذلك عند الله ، وقد كانوا يقولون له أخبرنا بما ينفعنا ويضرنا فى المستقبل . حتى نستعد لتحصيل المصالح ودفع المضار ، وقل لهم : إنى لست ملكا فأطلع على مالا يطلع عليه الناس وأقدر على ما لا يقدرون عليه . وقد كانوا يقولون : ما لهذا الرسول يأكل طعاما ويمشى فى الأسواق ثم يتزوج النساء .ثم بين لهم وظيفته فقال : { إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يوحى إِلَيَّ } أى إن وظيفتى اتباع ما يوحى إلى من ربى . فأنا عبده وممتثل لأمره ، وحاشاى أن أدعى شيئا من تلك الأشياء التى اقترحتموها على . فالآية الكريمة مسوقة على سبيل الاستئناف لإظهار تبريه عما يقترحونه عليه .ثم بين لهم - سبحانه - الفرق بين المهتدى والضال فقال : { قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأعمى والبصير أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ } .أى : قل لهم : هلى يستوى أعمى البصيرة الضال عن الصراط المستقيم الذى دعوتكم إليه ، وذو البصيرة المنيرة التى اهتدت إلى الحق فآمنت به واتبعته؟فالمراد بالأعمى الكافر الذى لم يستجب للحق ، وبالبصير

المؤمن الذى انقاد له .والاستفهام للانكار ونفى الوقوع ، أى : كما أنه لا يتساوى أعمى العينين وبصيرهما ، فكذلك لا يتساوى المهتدى والضال والرشيد والسفيه ، بل إن الفرق بين المهتدى والضال أقوة وأظهر ، لأنه كم من أعمى العينين وبصير القلب هو من أعلم العلماء وأهدى الفضلاء وكم من بصير العينين } : أعمى القلب هو أضل من الأنعام ، ولذا قرعهم الله - تعالى - بقوله أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ } ؟ أى : أفلا تتفكرون فى ذلك فتميزوا بين ضلالة الشرك وهداية الإسلام ، وبين صفات الرب وصفات الإنسان . والاستفهام هنا للتحريض على التفكر والتدبر .

وانذر به الذين يخافون ان يحشروا الى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلهم يتقون

كما فسرها الوسيط ثم أمر الله - تعالى - نبيه صلى الله عليه وسلم أن يجتهد فى إنذار قوم يتوقع منهم الصلاح والاستجابة للحق ، بعد أن أمره قبل ذلك بتوجيه دعوته إلى الناس كافة فقال تعالى : { وَأَنذِرْ بِهِ الذين يَخَافُونَ أَن يحشروا إلى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ } .والمعنى : عظ وخوف يا محمد بهذا القرآن أولئك الذين يخافون شدة الحساب والعقاب ، وتعتريهم الرهبة عندما يتذكرون أهوال يوم القيامة لأنهم يعلمون أنه يوم لا تنفع فيه خلة ولا شفاعة فهؤلاء هم الذين ترجى هدايتهم لرقة قلوبهم وتأثرهم بالعظات والعبر ، فالمراد بهم المؤمنون العصاة الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ، ولذا قال. ابن كثير : { وَأَنذِرْ بِهِ الذين يَخَافُونَ أَن يحشروا إلى رَبِّهِمْ } أى وأنذر بهذا القرآن يا محمد الذين هم من خشية ربهم مشفقون ، والذين يخشون ربهم ويخافون سوء الحساب أى : يوم القيامة ، { لَيْسَ لَهُمْ } يومئذ ( من دون الله ولى ولا شفيع ) أى :لا قريب لهم ولا شفيع فيهم من عذابه إن أراده بهم { لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ } فيعملون فى هذه الدار عملا ينجيهم الله به ( يوم القيامة من عذابه ويضاعف لهم الجزيل من ثوابه .

ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين

كما فسرها الوسيط ثم أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقرب فقراء المسلمين من مجلسه لأنهم مع فقرهم أفضل عند الله من كثير من الأغنياء فقال تعالى :{ وَلاَ تَطْرُدِ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالغداة والعشي. يُرِيدُونَ وَجْهَهُ } .أى :لا تبعد أيها الرسول الكريم عن مجالسك هؤلاء المؤمنين الفقراء الذين يدعون ربهم صباح مساء ، ويريدون بعملهم وعبادتهم وجه الله وحده بل اجعلهم جلساءك وأخصاءك فهم أفضل عند الله من الأغنياء المتغطرسين والأقوياء الجاهلين .وقد روى المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها ما جاء عن ابن مسعود قال : مر الملأ من قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعنده خباب وصهيب وبلال وعمار فقالوا : يا محمد أرضيت بهؤلاء من قومك؟ أهؤلاء الذين من الله عليهم من بيننا؟ أنحن نصير تبعاً لهؤلاء؟ لا أطردهم فلعلك إن طردتهم نتبعك؟ فنزلت هذه الآية .ففى الآية الكريمة نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن أن يطرد هؤلاء الضعفاء من مجلسه . لأنه وإن كان صلى الله عليه وسلم يميل إلى تأليف قلوب الأقوياء للاسلام لينال بقوتهم قوة ، إلا أن الله تعالى بين له أن القوة فى الإيمان والعمل الصالح ، وأن هؤلاء الضعفاء من المؤمنين قد وصفهم خالقهم بأنهم يتضرعون إليه فى كل أوقاتهم ولا يقصدون بعبادتهم إلا وجه الله ، فكيف يطردون من مجالس الخير؟ثم قال تعالى : { مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظالمين } .أى : إن الله تعالى هو الذى سيتولى حسابهم وجزاءهم ولن يعود عليك من حسابهم شىء ، كما أنه لا يعود عليهم من حسابك شىء ، فهم مجزبون بأعمالهم ، كما أنك أنت يا محمد مجزى بعملك ، فإن طردتهم استجابة لرضى غيرهم كنت من الضالين . إذ انهم لم يصدر عنهم ما يستوجب ذلك ، وحاشا للرسول صلى الله عليه وسلم أن يطرد قوما تلك هى صفاتهم .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : أما كفى قوله { مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ } حتى ضم إليه { وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِّن شَيْءٍ } ؟ قلت : قد جعلت الجملتان بمنزلة جملة واحدة وقصد بهما مؤدى واحد وهو المعنى فى قوله }: وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى } ولا يستقل بهذا المعنى إلا الجملتان جميعاً كأنه قيل :لا تؤاخذ أنت ولا هم بحساب صاحبه .وقيل : الضمير للمشركين . والمعنى :لا يؤاخذون بحسابك ولا أنت بحسابهم حتى يهمك إيمانهم ويحركك الحرص عليه إلى أن تطرد المؤمنين .وهنا تخريج آخر لقوله : { مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِّن شَيْءٍ } بأن المعنى : ما عليك شىء من حساب رزقهم إن كانوا فقراء ، وما من حسابك فى الفقر والغنى عليهم من شىء ، أى أ ، ت مبشر ومنذر ومبلغ

للناس جميعاً سواء منهم الفقير والغنى ، فكيف تطرد فقيراً لفقره ، وتقرب غنيا لغناه؟ إنك إن فعلت ذلك كنت من الظالمين ، ومعاذ الله أن يكون ذلك منك } وقوله { فَتَكُونَ مِنَ الظالمين } جواب للنهى عن الطرد ، وقوله. فَتَطْرُدَهُمْ } جواب لنفى الحساب .

وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا اهؤلاء من الله عليهم من بيننا اليس الله باعلم بالشاكرين

كما فسرها الوسيط ثم قال تعالى : { وكذلك فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ليقولوا أهؤلاء مَنّ الله عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَآ أَلَيْسَ الله بِأَعْلَمَ بالشاكرين } .والمعنى : ومثل ذلك الفتن . أى الابتلاء والاختبار جعلنا بعض البشر فتنة لبعض ، ليترتب على هذه الفتن أن يقول المفتونون ، الأقوياء فى شأن الضعفاء : أهؤلاء الصعاليك خصهم الله بالإيمان من بيننا! وقد رد الله عليهم بقوله { أَلَيْسَ الله بِأَعْلَمَ بالشاكرين } أى : أليس هو بأعلم بالشاكرين له بأقوالهم وأفعالهم وضمائرهم فيوفقهم ويهديهم سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم والكاف فى قوله { وكذلك فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ } فى محل نصب على. أنها نعت لمصدر محذوف والتقدير : ومثل ذلك الفتون المتقدم الذى فهم من سياق أخبار الأمم الماضية فتنا بعض هذه الأمم ببعض ، ومن مظاهر ذلك أننا ابتلينا الغنى بالفقير ، والفقير بالغنى ، فكل واحد مبتلى بضده ، فكان ابتلاء الأغنياء الشرفاء حسدهم لفقراء الصحابة على كونهم سبقوهم إلى الإسلام وتقدموا عليهم ، فامتنعوا عن الدخول فى الإسلام لذلك ، فكان ذلك فتنة وابتلاء لهم وأما فتنة الفقراء بالأغنياء فلما يرون من سعة رزقهم وخصب عيشهم . فكان ذلك فتنة لهم .واللام فى قوله { ليقولوا أهؤلاء مَنّ الله عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَآ } تعليلية لأنها هى للباعث على الاختبار أى : ومثل ذلك الفتون فتنا ليقولوا هذه المقالة ابتلاء منا وامتحانا .والاستفهام فى قوله { أَلَيْسَ الله بِأَعْلَمَ بالشاكرين } للتقرير على أكمل وجه لأنه سبحانه محيط بكل صغير وكبير ودقيق وجليل .وكذلك تكون الآيات الكريمة قد قررت أن الفضل ليس بالغنى ولا بالجاه ولا بالقوة فى الدنيا ، ولكنه بمقدار شكر الله على ما أنعم ، وأنه سبحانه هو العالم وحده بمن يستحق الفضل علماً ليس فوقه علم .

واذا جاءك الذين يؤمنون باياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة انه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده واصلح فانه غفور رحيم

كما فسرها الوسيط السلام والسلامة مصدران من الثلاثى . يقال سلم فلان من المرض أو من البلاء سلاماً وسلامة ومعناهما البراءة والعافية . ويستعمل السلام فى التحية ، وهو بمعنى الدعاء بالسلامة من كل سوء ، فهو آية المودة والأمان والصفاء .والمعنى : وإذا حضر إلى مجالسك يا محمد أولئك الذين يؤمنون بآياتنا ويعتقدون صحتها فقل لهم : تحية لكم من خالقكم وبشارة لكم بمغفرته ورضوانه ما دمتم متبعين لهديه ، ومحافظين على فرائضه .{ كَتَبَ رَبُّكُمْ على نَفْسِهِ الرحمة } أى أنه سبحانه أوجب على نفسه الرحمة لعباده تفضلا منه وكرما .ثم بين سبحانه أصلا من أصول الدين فى هذه الرحمة المكتوبة فقال { أَنّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سواءا بِجَهَالَةٍ ثُمّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنّهُ غَفُورٌ رّحِيمٌ } .أى أنه من عمل منكم عملا تسوء عاقبته متلبساً بجهالة دفعته إلى ذلك السوء كغضب شديد ثم تاب من ، بعد تكل الجهالة وأصلح خطأه وندم على ما بدر منه ، ورد المظالم إلى أهلها . " فالله سبحانه شأنه فى معاملته لهذا التائب النادم " أنه غفور رحيم .

وكذلك نفصل الايات ولتستبين سبيل المجرمين

كما فسرها الوسيط ثم قال تعالى { وَكَذَلِكَ نفَصِّلُ الآيات } المنزلة فى }. بيان الحقائق التى يهتدى بها أهل النظر الصحيح والفقه الدقيق وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ المجرمين } أى ولأجل أن يظهر بها طريق المجرمين فيمتازوا بها عن جماعة المسلمين .

قل اني نهيت ان اعبد الذين تدعون من دون الله قل لا اتبع اهواءكم قد ضللت اذا وما انا من المهتدين

كما فسرها الوسيط ثم أمر الله - تعالى - نبيه صلى الله عليه وسلم ، أن يصارح أعداءه ببراءته من شركهم ومن اتباع باطلهم فقال - تعالى - : { قُلْ إِنِّي نُهِيتُ } .قال الإمام الرازى : اعلم أنه - تعالى - لما ذكر فى الآية المتقدمة ما يدل على أنه يفصل الآيات ليظهر الحق وليستبين سبيل المجرمين . ذكر فى هذه الآية أنه - تعالى - نهى عن سلوك سبيلهم فقال : إنى

نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله ، وبين أن الذين يعبدونها إنما يعبدونها بناء على محض الهوى والتقليد لا على سبيل الحجة والدليل ، لأنها جمادات وأحجار وهى أخس مرتبة من الإنسان بكثير . وكون الأشرف مشتغلا بعبادة الأخس أمر يدفعه صريح العقل ، وأيضاً فالقوم كانوا ينحتون تلك الأصنام ويركبونها ، ومن المعلوم بالبديهة أنه يقبح من هذا العامل الصانع أن يعبد معموله ومصنوعه ، فثبت أن عبادتها مبنية على الهوى ومضادة للهدى " .والمعنى قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يريدون منك أن تركن إليهم : إن الله : نهانى وصرفنى بفضله ، وبما منحنى من عقل مفكر عن عبادة الآلهة التى تعبدونها من دون الله ، وقل - أيضاً - لهم بكل صراحة وقوة : إنى لست متبعا لما تمليه عليكم أهواؤكم وشهواتكم من انقياد للأباطيل ، ولو أنى ركنت إليكم لضللت عن الحق وكنت خارجا عن طائفة المهتدين .فالآية الكريمة قطعت بكل حسم ، ووضوح أطماعهم الفارغة فى استمالة النبى صلى الله عليه وسلم إلى أهوائهم ووصمتهم بأنهم فى الضلال غارقون ، وعن الهدى مبتعدون .وجاءت كلمة { نُهِيتُ - بالبناء للمجهول للاستغناء عن ذكر الفاعل لظهوره ، أى : نهانى الله { تعالى - عن ذكل . وأجرى على الأصنام اسم الموصول الموضوع للعقلاء لأنهم " عاملوهم معاملة العقلاء فأتى لهم بما يحكى اعتقادهم .قال أبو حيان : و تدعون " معناه تعبدون : وقيل معناه تسمونهم آلهة من دعوت ولدى زيداً أى سميته بهذا الإسم . وقيل تدعون فى أموركم وحوائجكم وفى قوله تدعون من دون الله استجهال لهم ووصف بالاقتحام فيما كانوا منه على غير بصيرة ، ولفظة نهيت أبلغ من النفي بلا أعبد إذ ورد فيه ورود تكليف " .وجملة { قُلْ لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ } مستأنفة ، وعدل بها عن العطف إلى الاستئناف لتكون غرضاً مستقلا ، وأعيد الأمر بالقول زيادة فى الاهتمام بالاستئناف واستقلاله ليكون هذا النفى شاملا للاتباع فى عبادة الأصنام وفى غيرها من ألوان ضلالهم كطلبهم طرد المؤمنين من مجلسه ، وعبر بقوله { قُلْ لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ } دون لا أتبعكم . للإشارة إلى أنهم فى عبادتهم لغير الله تابعون للأهواء الباطلة ، نابذون للأدلة العقلية ، وفى هذا أكبر } برهان على انطماس بصيرتهم ، وبنائهم لدينهم على الأوهام والأباطيل .وجملة قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً } جواب لشرط مقدر . أى : إن اتبعت أهواءكم فقد ضللت } إذاً وما أهتديت .وجملة { وَمَآ أَنَا مِنَ المهتدين } معطوفة على جملة قَدْ ضَلَلْتُ } ومؤكدة لمضمونها أى : إنه إن فعل ذلك - على سبيل الفرض والتقدير - خرج عن الحالة التى هو عليها الآن من كونه فى عداد المهتدين إلى كونه فى زمرة الضالين .والتعبير بقوله { وَمَآ أَنَا مِنَ المهتدين } أبلغ من قوله وما أنا مهتد ، لأن التعريف فى المهتدين تعريض للجنس ، وإخبار التكلم عن نفسه بأنه من المهتدين يفيد أنه واحد من الفئة التى تعرف عند الناس بفئة المهتدين ، فيفيد أنه مهتد بطريقة تشبه طريقة الاستدلال ، فهو من قبيل الكناية التى هى إثبات الشىء بإثبات ملزومه وهى أبلغ من التصريح . ولذا قال صاحب الكشاف : قولك فلان من العلماء أبلغ من قولك فلان عالم ، " لأنك تشهد له بكونه معدوداً فى زمرتهم ومعرفة مساهمته معهم فى العلم .

قل اني على بينة من ربي وكذبتم به ما عندي ما تستعجلون به ان الحكم الا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين

كما فسرها الوسيط وبعد أن أمر الله - تعالى - نبيه بمصاحرة المشركين بأنه لن يكون فى يوم من الأيام متبعاً لأهوائهم ، أمره أن يخبرهم بأنه على الحق الواضح الذى لا يضل متبعه ، وبأن الله وحده هو الذى سيقضى بينه وبينهم فقال - تعالى - : { قُلْ إِنِّي على بَيِّنَةٍ . . . } .البينة : الدلالة الواضحة من بان يبين إذا ظهر ، أو الحجة الفاصلة بين الحق والباطل على أنها من البينونة أى الانفصال .والمعنى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يريدون منك اتباع أهوائهم كيف يتأتى لى ذلك وأنا على شريعة واضحة وملة صحيحة لا يعتريها شك ، ولا يخالطها زيغ لأنها كائنة من ربى الذى لا يضل ولا ينسى .والتنوين فى كلمة { بَيِّنَةٍ } للتفخيم والتعظيم ، وهى صفة لموصوف محذوف للعلم به فى الكلام ، أى : على حجة بينة واضحة محقة للحق ومبطلة للباطل فأنا لن أتزحزح عنها أبدا .وفى ذلك تعريض بالمشركين بأنهم ليسوا على بصيرة من أمرهم ، وإنما هم قد اتبعوا ما وجدوا عليه آبائهم بغير علم ولا } هدى ولا كتاب منير .وجملة { وَكَذَّبْتُم بِهِ } فى موضع حال من بَيِّنَةٍ } وهى تفيد التعجب منهم حيث كذبوا بما دلت عليه البينات ، واتفقت - على صحته العقول السليمة .والضمير فى قوله { بِهِ } يعود على الله تعالى - أى : وكذبتم بالله مع أن دلائل توحيده ظاهرة واضحة .وقيل : يعود على البينة والتذكير باعتبار أنها بمعنى البينان .وقيل : يعود على القرآن أى والحال أنكم كذبتم بالقرآن الذى هو بينتى من ربى .وقوله : { مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ } أى : ليس فى مقدورى أن أنزل بكم ما تستعجلونه من العذاب ، وإنما ذلك مرجعه إلى الله وحده .وهذه الجملة الكريمة رد على المشركين الذين استعجلوا نزول العذاب عندما أنذرهم النبى صلى الله عليه وسلم بسوء المصير إذا ما استمروا فى ضلالهم ، فقد حكى القرآن عنهم أنهم

قالوا { وَإِذْ قَالُواْ اللهم إن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ
فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السمآء أو ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ
فكان رد النبى صلى الله عليه وسلم عليهم بأن الذى يملك إنزال العذاب بهم { إنما هو الله وحده ، وتأخير العذاب عنهم إنما هو لحكمة يعملها الله ، فهو وحده الذى يقدر وقت نزوله .وقوله { إِنِ الحكم إِلاَّ لِلَّهِ } أى : ما الحكم فى تعجيل العذاب أو تأخيره وفى كل شأن من شئون الخلق إلا لله وحده فهو - سبحانه - الذى ينزل قضاءه حسب سنته الحكيمة ، وموازينه الدقيقة .وقرأ الكسائى وغيره " يقص الحق " ، أى : يقص - سبحانه - القضاء الحق فى كل شأن من شئونه .وقوله { يَقُصُّ الحق } أى : يتبع الحق والحكمة فيما يحكم به ويقدره { وَهُوَ خَيْرُ الفاصلين } أى : القاضين بين عباده .قال ابن جرير : أى : وهو من ميز بين المحق والمبطل وأعدلهم { وَهُوَ خَيْرُ الفاصلين } لأنه لا يقع فى حكمه وقضائه حيف إلى أحد لوسيلة إليه ولا لقرابة ولا مناسبة ولا فى قضائه جور لأنه لا يأخذ الرشوة فى الأحكام فيجور ، فهو أعدل الحكام وخير الفاصلين " .

قل لو ان عندي ما تستعجلون به لقضي الامر بيني وبينكم والله اعلم بالظالمين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - حالهم فيما لو كان أمر إنزال العذاب عليهم بيد النبى عليه الصلاة والسلام فقال : { قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي } أى قل لهم يا محمد لو أن فى قدرتى وإمكانى العذاب الذى تتعجلونه ، لقضى الأمر بينى وبينكم .قال صاحب الكشاف أى : " لأهلكتكم عاجلا غضباً لربى وامتعاضاً من تكذيبكم به ، ولتخلصت منكم سريعاً " .وجملة { والله أَعْلَمُ بالظالمين } تذييل ، أى : والله أعلم منى ومن كل أحد بحكمة تأخير العذاب } وبوقت نزوله ، لأنه العليم الخبير الذى عنده ما تستعجلون به .والتعبير بالظالمين } إظهار فى مقام ضمير الخطاب لإشعارهم بأنهم ظالمون فى شركهم وظالمون فى تكذيبهم لما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم .قال ابن كثير : فإن قيل : فكيف الجمع بين هذه الآية وبين ما ثبت فى الصحيحين عن عائشة أنها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا رسول الله ، هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ فقال : " لقد لقيت من قومك ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبنى إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهى فلم أستفق إلا بقرن الثعالب فرفعت رأسى فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى فنظرت فيها فإذا جبريل فنادانى فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا به عليك وقد بعث إليك ملك الجبال لامره بما شئت فيهم ، قال فنادانى ملك الجبال وسلم على ثم قال يا محمد : إن الله قد سمع قول قومك لك . وأنا ملك الجبال وقد بعثنى ربك إليك لتأمرنى بأمرك فإن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ، فقلت له : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا شريك له " .فقد عرض عليه عذابهم واستئصالهم فاستأناهم وسأل لهم التأخير لعل الله أن يخرج من أصلابهم من لا يشرك به شيئاً .قال ابن كثير : فالجواب على ذلك - والله أعلم - أن هذه الآية دلت على أنه لو كان إليه وقوع العذاب الذى يطلبونه حال طلبهم له لأوقعه بهم ، وأما الحديث فليس فيه أنهم سألوه وقوع العذاب بهم ، بل عرض عليه ملك الجبال أنه إن شاء أطبق عليهم الأخشبين وهما جبلا مكة يكتنفانها جنوبا وشمالا فلهذا استأنى بهم وسأل الرفق لهم " .

وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة في ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين

، كما فسرها الوسيط ثم يمضى السياق القرآنى مع المكذبين المتعجلين للعذاب فيسوق لهم صورة لعلم الله الشامل الذى لا يند عنه شىء { وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغيب لاَ يَعْلَمُهَآ إِلاَّ هُوَ } .قال القرطبى : { مَفَاتِحُ جمع مفتح ، ويقال مفتاح ويجمع مفاتيح ، وهى قراءة ابن السميقع ، والمفتح { عبارة عن كل ما يخل غلقاً محسوساً كان كالقفل على البيت ، أو معقولا كالنظر : وروى ابن ماجه فى سننه وأبى حاتم البستى فى صحيحه عن أنس بن مالك قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" إن من الناس مفاتيح للخير مغاليق للشر وإن من الناس مفاتيح للشر مغاليق للخير فطوبى لمن جعل الله مفاتيح الخير ، على يديه ، وويل لمن جعل الله مفاتيح الشر على يديه " ، وهو فى الآية استعارة عن التوصل إلى الغيوب كما يتوصل فى الشاهد بالمفتح إلى الغيب عن الإنسان . ولذلك قال بعضهم هو مأخوذ من قول الناس افتح على كذا ، أى : أعطنى أو علمنى ما أتوصل إليه به فالله - تعالى - عنده علم الغيب ، وبيده الطرق الموصلة إليه لا يملكها إلا هو ، فمن شاء إطلاعه عليها أطلعه ، ومن شاء حجبه عنها حجبه .والغيب : ما غاب عن علم الناس بحيث لا سبيل لهم إلى معرفته ، وهو يشمل الأعيان المغيبة كالملائكة والجن ، ويشمل الأعراض الخفية ومواقيت الأشياء وغير ذلك . وقدم الظرف لإفادة الاختصاص ، أى : عنده لا عند ، غيره مفاتيح الغيب ، وجملة "لا يعلمها إلا هو " فى موضع الحال من مفاتح

وهى مؤكدة لمضمون ما قبلها .ومعنى { لاَ يَعْلَمُهَآ إِلاَّ هُوَ } أى : لا يعلم الغيوب علماً تاماً مستقلا إلا هو - سبحانه - فأما ما أطلع عليه بعض أصفيائه من الغيوب فهو إخبار منه لهم ، فكان فى الأصل راجعاً إلى علمه هو .
قال - تعالى - { عَالِمُ الغيب فَلاَ يُظْهِرُ على غَيْبِهِ أَحَداً إِلاَّ مَنِ ارتضى مِن رَّسُولٍ } ثم بين - سبحانه - أن علمه ليس مقصوراً على المغيبات ، وإنما هو يشملها كما يشمل المشاهدات فقال : { وَيَعْلَمُ مَا فِي البر والبحر } .قال الراغب : أصل البحر كل مكان واسع جامع للماء الكثير وقيل إن أصله الماء الملح دون العذب وأطلق على النهر بالتوسع أو التغليب ، والبر ما يقابله من الأرض وهو ما يسمى باليابسة .وهذه الجملة معطوفة على جملة ، وعنده مفتاح الغيب ، لغفادة تعميم علمه - سبحانه - بالأشياء الظاهرة المتفاوتة فى الظهور بعد إفادة علمه بما لا يظهر الناس .وقدم ذكر البر على البحر على طريقة الترقى من الأقل إلى الأعظم ، لأن قسم البحر من الأرض أكبر من قسم البر ، وخفاياه أكثر وأعظم ، وخصهما بالذكر لأنهما أعظم المخلوقات المجاورة للبشر .ثم صرح - سبحانه - بشمول علمه لكل كلى وجزئى ، ولكل صغير وكبير ، ولكل دقيق وجليل ، فقال - تعالى - { وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأرض وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ } .أى : وما تسقط ورقة ما من شجرة من الأشجار ولا حبة فى باطن الأرض وأجوافها ، ولا رطب ولا يابس من الثمار أو غيرها إلا ويعلمه الله علما تاما شاملا ، لأن كل ذلك مكتوب ومحفوظ فى العلم الإلهى الثابت .وجملة { وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا } معطوفة على جملة ، ويعلم ما فى البر والبحر ، لقصد زيادة التعميم فى الجزئيات الدقيقة .والمراد بظلمات الأرض بطونها ، وكنّى بالظلمة عن البطن لأنه لا يدرك ما فيه كما لا يدرك ما فى الظلمة .وقوله { إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ } تأكيد لقوله "لا يعلمها " لأن المراد بالكتاب المبين علم - الله - تعالى - الذى وسع كل شىء ، أو اللوح المحفوظ الذى هو محل معلوماته عز وجل - .قال الإمام الرازى : قال الزجاج : يجوز أن الله - تعالى - : أثبت كيفية المعلومات فى كتاب من قبل أن يخلق الخلق كما قال - تعالى - : { مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأرض وَلاَ في أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ } ثم قال الإمام الرازى : وفائدة هذا الكتاب أمور :أحدها : أنه - تعالى - : إنما كتب هذه الأحوال فى اللوح المحفوظ لتقف الملائكة على نفاذ علمه فى المعلومات ، وأنه لا يغيب عنه مما فى السموات والأرض شىء ، فيكون ذلك عبرة تامة كاملة للملائكة باللوح المحفوظ لأنهم يقابلون به ما يحدث فى صحيفة هذا العالم فيجدونه موافقاً له .وثانيها : أنه يجوز أن يقال : أنه - تعالى - : ذكر ما ذكر من الورقة والحبة تنبيها للمكلفين على أمر الحساب ، وإعلاما بأنه لا يفوته من كل ما يصنعون فى الدنيا شىء ، لأنه إذا كان لا يهمل الأحوال التى ليس فيها ثواب ولا عقاب ولا تكليف فبأن لا يهمل الأحوال المشتملة على الثواب والعقاب أولى .وثالثها أنه - تعالى - : علم أحوال جميع الموجودات ، فيمتنع تغييرها عن مقتضى ذلك : العلم وإلا لزم الجهل ، فإذا كتب أحوال جميع الموجودات فى ذلك الكتاب على التفصيل التام امتنع - أيضاً - تغييرها ، وإلا لزم الكذب ، فتصير كتابة جملة الأحوال فى ذلك الكتاب موجبا تاما ، وسببا كاملا فى أنه يمتنع تقدم ما تأخر وتأخر ما تقدم كما قال صلى الله عليه وسلم " جف القلم بما هو كائن إلى - يوم القيامة " .ويؤخذ من هذه الآية الكريمة أمور من أهمها :أن علم الله تعالى - : محيط بالكليات والجزئيات ، وبكل شىء فى هذا الكون ، وبذلك يتبين بطلان رأى بعض الفلاسفة الذين قالوا بأن الله يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات .أن علم الغيب مرده إلى الله وحده ، قال الحاكم : دل قوله تعالى { وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغيب لاَ يَعْلَمُهَآ إِلاَّ هُوَ } على بطلان قول الإمامية : إن الإمام يعلم شيئاً من الغيب " .وقال القاسمى : قال صاحب فتح البيان " : فى هذه الآية الشريفة ما يدفع أباطيل الكهان والمنجمين وغيرهم من مدعى الكشف والإلهام ما ليس من شأنهم ولا يدخل تحت قدرتهم ولا يحيط به علمهم .ولقد ابتلى الإسلام وأهله بقوم سوء من هذه الأجناس الضالة والأنواع المخذولة ، ولم يربحوا من أكاذيبهم وأباطيلهم سوى خطة السوء المذكورة فى قول الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم " من أتى كاهنا أو منجما فقد كفر بما أنزل على محمد " قال ابن مسعود " أوتى نبيكم كل شىء إلا مفاتيح الغيب " .وروى البخارى بسنده عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " مفاتيح الغيب خمس لا يعملها إلا الله .لا يعلم أحد ما يكون فى غد إلا الله ، ولا يعلم أحد ما يكون فى الأرحام إلا الله . ولا تعمل نفس ماذا تكسب غداً ، ولا تدرى نفس بأى أرض تموت ، ولا يدرى أحد متى يجىء المطر وقال القرطبى : قال علماؤنا : أضاف - سبحانه علم الغيب إلى نفسه فى غير. " ما آية من كتابه إلا من اصطفى من عباده ، فمن قال : إنه ينزل الغيث غدا وجزم فهو كافر ، وكذلك من قال : إنه يعلم ما فى الرحم فهو كافر . وفى صحيح مسلم عن عائشة قالت : من زعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبر بما يكون فى غد فقد أعظم على الله الفرية، والله تعالى يقول : { قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السماوات والأرض الغيب إِلاَّ الله } ثم قال : وقد انقلبت

الأحوال فى هذه الأزمان بإتيان المنجمين والكهان لا سيما بالديار المصرية فقد شاع فى رؤسائهم وأتباعهم وأمرائهم اتخاذ المنجمين ، بل ولقد انخدع كثير من المنتسبين للفقر والدين فلجأوا إلى هؤلاء الكهنة والعرافين فبهرجوا عليهم بالمحال ، واستخرجوا منهم الأموال ، فحصلوا من أقوالهم على السراب والآل ، ومن أديانهم على الفساد والضلال ، وكل ذلك من الكبائر لحديث النبى صلى الله عليه وسلم " من أتى عرافا فسأله عن شىء لم تقبل له صلاة أربعين يوما " والعراف هو الحازر والمنجم الذى يدعى علم الغيب .

وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى اجل مسمى ثم اليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون

كما فسرها الوسيط وبعد أن بين - سبحانه - : شمول علمه لكل شىء ، أتبع ذلك بالحديث عن كمال قدرته ، ونفاذ إرادته فقال - تعالى : { وَهُوَ الذي يَتَوَفَّاكُم . . . . } .قوله - تعالى - : { وَهُوَ الذي يَتَوَفَّاكُم بالليل } أى : ينيمكم فيه . والتوفى أخذ الشىء وافياً ، أى تاما كاملا . والتوفى يطلق حقيقة على الإماتة ، وإطلاقه على النوم - كما هنا - مجاز لشبه النوم بالموت فى انقطاع الإدراك والعمل والإحساس قال - تعالى - : { الله يَتَوَفَّى الأنفس حِينَ مِوْتِهَا والتي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ التي قضى عَلَيْهَا الموت وَيُرْسِلُ الأخرى إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى } فهذه الآية صريحة فى أن التوفى أعم من الموت ، فقد صرحت بأن الأنفس التى تتوفى فى منامها غير ميتة ، فهناك وفاتان : وفاة كبرى وتكون بالموت ، ووفاة صغرة وتكون بالنوم . والمعنى : وهو - سبحانه - الذى يتوفى أنفسكم فى حالة نومكم بالليل ، دون غيره لأن غيره لا يملك موتاً ولا حياة ولا نشورا .{ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بالنهار } أى : ما كسبتم وعملتهم فيه من أعمال . وأصل الجرح تمزيق جلد الحى بشىء محدد مثل السكين والسيف والظفر والناب وأطلق هنا على ما يكتسبه الإنسان بجوارحه من يد أو رجل أو لسان .وتخصيص الليل بالنوم ، والنهار بالكسب جرياً على المعتاد ، لأن الغالب أن يكون النوم ليلا ، وأن يكون الكسب والعمل نهاراً ، قال - تعالى - ثُمّ } { وَجَعَلْنَا الليل لِبَاساً وَجَعَلْنَا النهار مَعَاشاً }: يَبْعَثُكُمْ فِيهِ ليقضى أَجَلٌ مُّسَمًّى } أى : ثم إن بعد توفيكم بالنوم - يوقظكم منه فى النهار ، لأجل أن يقضى كل فرد أجله المسمى فى علم الله تعالى - ، والمقدر له فى هذه الدنيا ، فقد جعل - سبحانه - لأعماركم آجالا محددة لا بد من قضائها وإتمامها .وجملة { ثُمّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ } معطوفة على { يَتَوَفَّاكُم بالليل } فتكون ثم للمهلة الحقيقة وهو الأظهر ثُمّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمّ يُنَبّئُكُم بِمَا كُنتُمْ }. تَعْمَلُونَ } أى : ثم إليه وحده يكون رجوعكم بعد انقضاء حياتكم فى هذه الدنيا ، فيحاسبكم على أعمالكم التى اكتسبتموها فيها ، إن خيراً فخير وإن شرا فشر .فالآية الكريمة تسوق للناس مظهراً من مظاهر قدرة الله وتبرهن لهم على صحة البعث والحساب يوم القيامة ، لأن النشأة الثانية - كما يقول القرطبى - منزلتها بعد الأولى كمنزلة اليقظة بعد النوم فى أن من قدر على أحدهما فهو قادر على الأخرى .هذا ، ويرى جمهور المفسرين أن ظاهر الخطاب فى الآية للمؤمنين والكافرين ، ولكن الزمخشرى خالف فى ذلك فجعلها خطابا للكافرين فقال : { وَهُوَ الذي يَتَوَفَّاكُم بالليل } الخطاب للكفرة ، أى أنتم منسدحون الليل كله كالجيف - أى مسطحون على القفا - { وَيَعْلَمُ مَا : جَرَحْتُم بالنهار } ما كسبتم من الآثام فيه { ثُمّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ } من القبور فى شأن ذلك الذى قطعتم به أعماركم من النوم بالليل وكسب الآثام بالنهار { ليقضى أَجَلٌ مُّسَمًّى } وهو الأجل الذى سماه وضربه لبعث الموتى وجزائهم على أعمالهم ) .والذى نراه أن رأى الجمهور أرجح لأنه لم يرد نص يدل على تخصيص الخطاب فى الاية للكافرين . ؟

وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى اذا جاء احدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون

كما فسرها الوسيط ثم قال - تعالى - : { هُوَ القاهر فَوْقَ عِبَادِهِ } أى وهو الغالب المتصرف فى شئون خلقه يفعل بهم ما يشاء إيجادا وإعداما وإحياء : وأماتة وإثابة وعقابا إلى غير ذلك ، والمراد بالفوقية فوقية المكانة والرتبة لا فوقية المكان والجهة .قال الإمام الرازى : وتقرير هذا القهر من وجوه :الأول : أنه قهار للعدم بالتكوين والإيجاد .والثانى : أنه قهار للوجود بالإفناء والإفساد ، فإنه - تعالى - هو الذى ينقل الممكن من العدم إلى الوجود تارة ، ومن الوجود إلى العدم تارة أخرى ، فلا وجود إلا بإيجاده ، ولا عدم إلا بإعدامه فى الممكنات .والثالث : أنه قهار لكل ضد بضده ، فيقهر النور بالظلمة ، والظلمة بالنور ، والنهار بالليل ، والليل بالنهار ، وتمام تقريره فى قوله : { قُلِ اللهم مَالِكَ الملك تُؤْتِي الملك مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ الملك مِمّنْ تَشَآءُ وَتُعِزّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلّ

} مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ الخير إِنَّكَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } وقوله
وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً } أى : ويرسل عليكم ملائكة تحفظ أعمالكم
وتحصيها وتسجل ما تعملونه من خير أو شر ، قال : - تعالى - : { وَإِنَّ
عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَاماً كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ
وقال - تعالى - : { إِذْ يَتَلَقَّى المتلقيان عَنِ اليمين وَعَنِ الشمال {
قَعِيدٌ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ } وفى
الصحيحين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يتعاقبون
فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار يجتمعون فى صلاة الفجر وصلاة العصر؛ ثم
يعرج بالذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم : كيف تركتم عبادى
: فيقولون : تركناهم وهم يصلون ، وأتيناهم وهم يصلون " .قال صاحب الكشاف
: فإن قلت إن الله - تعالى - غنى بعلمه عن كتابة الملائكة فما فائدتها؟ قلت
فيها لطف للعباد ، لأنهم إذا علموا أن الله رقيب عليهم ، والملائكة الذين
هم أشرف خلقه موكلون بهم يحفظون عليهم أعمالهم ويكتبونها فى صحائف تعرض على
رءوس الأشهاد فى مواقف القيامة ، كان ذلك أزجر لهم عن القبيح وأبعد عن
السوء ) .وجملة { وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً } يجوز أن تكون معطوفة على
اسم الفاعل الواقع صلة ل ( أل ) ، لأنه فى معنى يقهر والتقدير وهو الذى
يقهر عباده ويرسل ، فعطف الفعل على الإسم لأنه فى تأويله .وقوله { حتى
إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ الموت تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ
يُفَرِّطُونَ } أى : حتى إذا احتضر أحدكم وحان أجله قبضت روحه ملائكتنا
الموكلون بذلك حالة كونهم لا يتوانون ولا يتأخرون فى أداء مهمتهم .قال
الآلوسى : وحتى فى قوله { حتى إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ الموت } هى التى
يبتدأ بها الكلام وهى مع ذلك تجعل ما بعدها من الجملة الشرطية غاية لما
، قبلها ، كأنه قيل : ويرسل عليكم حفظة يحفظون ما يحفظون منكم مدة حياتكم
حتى إذا انتهت مدة أحدكم وجاءت أسباب الموت ومباديه توفته رسلنا الآخرون
المفوض إليهم ذلك ، وانتهى هناك حفظ الحفظة .والمراد بالرسل - على ما أخرجه
ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس - أعوان ملك الموت .وقال الجمل : فإن قلت
إن هناك آية تقول : { الله يَتَوَفَّى الأنفس حِينَ مِوْتِهَا } وثانية :
تقول : { قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الموت الذي وُكِّلَ بِكُمْ } والتى
معنا تقول { تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا } فكيف الجمع بين هذه الآيات؟فالجواب
على ذلك أن المتوفى فى الحقيقة هو الله ، فإذا حضر أجل العبد أمر الله ملك
الموت بقبض روحه ، ولملك الموت أعوان من الملائكة فيأمرهم بنزع روح ذلك
العبد من جسده ، فإذا وصلت إلى الحلقوم تلوى قبضها ملك الموت نفسه ، وقيل
المراد من قوله { تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا } ملك الموت وحده وإنما ذكر بلفظ
الجمع تعظيما له .

ثم ردوا الى الله مولاهم الحق الا له الحكم وهو اسرع الحاسبين

} : كما فسرها الوسيط ثم صرح - سبحانه - بأن مصير الخلق جميعا إليه فقال
ثُمَّ ردوا إلى الله مَوْلاَهُمُ الحق } أى : ثم رد الله - تعالى - هؤلاء
الذين توفتهم الملائكة إلى مالكهم الحق الذى لا يشوب ملكه باطل ليتولى
حسابهم وجزاءهم على أعمالهم .فالضمير { ردوا } يعود على الخلائق الذين
توفتهم الملائكة والمدلول عليهم بأحد . والسر فى الإفراد أولا الجمع ثانياً
وقوع التوفى على الأفراد والرد على الاجتماع . أى : ردوا بعد البعث فيحكم
فيهم بعدله . قال - تعالى - { قُلْ إِنَّ الأولين والآخرين لَمَجْمُوعُونَ
إلى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ } وقيل إن الضمير فى { ردوا } يعود على
الملائكة . أى : ثم ردوا أولئك الرسل بعد إتمام مهمتهم بإماتة جميع الناس
فيموتون هم أيضاً . وجملة { أَلاَ لَهُ الحكم وَهُوَ أَسْرَعُ الحاسبين }
تذييل ولذلك ابتدىء بأداة الاستفتاح المؤذنة بالتنبيه إلى أهمية الخبر .أى
ألا له الحكم النافذ لا لغيره وهو - سبحانه - أسرع الحاسبين لأنه لا :
يحتاج إلى ما يحتاج إليه الخلائق من تفكر واشتغال بحساب عن حساب .وبذلك
تكون هذه الآيات الثلاث قد أقامت أقوى البراهين وأصحها على كمال قدرة الله
. ونفاذ إرادته ، ومحاسبته لعباده يوم القيامة على ما قدموا وأخروا ،

قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن انجانا من هذه
لنكونن من الشاكرين

كما فسرها الوسيط ثم ساق القرآن لوناً آخر من الدلائل الدالة على كمال قدرة
الله وسابغ رحمته وفضله وإحسانه فقال - تعالى - : { قُلْ مَن يُنَجِّيكُمْ
مِّن ظُلُمَاتِ البر والبحر } .قال صاحب الكشاف : ظلمات البر والبحر مجاز
عن مخاوفهما وأهوالهما .يقال لليوم الشديد يوم مظلم ويوم ذو كواكب ، أى
اشتدت ظلمته حتى عاد كالليل " .وقيل : حمله على الحقيقة أولى فظلمة البر هى
ما اجتمع فيه من ظلمة الليل ومن ظلمة السحاب فيحصل من ذلك الخوف الشديد
لعدم الاهتداء إلى الطريق الصواب ، وظلمة البحر ما اجتمع فيه من ظلمة الليل
وظلمة الرياح العاصفة والأمواج الهائلة فيحصل من ذلك أيضاً الخوف الشديد من

. الوقوع فى الهلاك .والتضرع : المبالغة فى الضراعة مع الذل والخضوع والخفية- بالضم والكسر - الخفاء والاستتار . وللكرب الغم الشديد مأخوذ من كرب الأرض وهو إثارتها وقلبها بالحفر . فالغم يثير النفس كما يثير الأرض كاربها .والمعنى : قل يا محمد لهؤلاء الغافلين من الذى ينجيكم من ظلمات البر والبحر عندما تغشاكم بأهوالها المرعبة ، وشدائدها المدهشة ، إنكم فى هذه الحالة تلجأون إلى الله وحده تدعونه إعلانا وإسرارا بذلة وخضوع وإخلاص قائلين له : لئن أنجيتنا يا ربنا من هذه الشدائد والدواهى المظلمة لنكونن لك من الراسخين فى الشكر المداومين عليه

قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم انتم تشركون

كما فسرها الوسيط { قُلِ الله يُنَجِّيكُمْ مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ } أى قل لهم يا محمد : الله وحده هو الذى ينجيكم من هذه المخاوف والأهوال ومن كل غم يأخذ بنفوسكم ، ثم أنتم بعد هذه النجاة تشركون معه غيره ، مخلفين بذلك وعدكم حانثين فى أيمانكم .قال الإمام الرازى : " والمقصود من ذلك أنه عند اجتماع هذه الأسباب الموجبة للخوف الشديد لا يرجع الإنسان إلا إلى الله ، وهذا الرجوع يحصل ظاهرا وباطنا ، لأن الإنسان ، فى هذه الحالة يعظم إخلاصه فى حضرة الله ، وينقطع رجاؤه عن كل ما سواه وهو المراد من قوله { تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً } فبين - سبحانه - أنه إذا شهدت الفطرة السليمة والخلقة الأصلية فى هذه الحالة بأن لا ملجأ إلى إلى الله ولا تعويل إلا على فضله ، وجب أن يبقى هذا الإخلاص فى كل الأحوال ، لكن الإنسان ليس كذلك فإنه بعد الفوز بالسلامة والنجاة يميل تلك السلامة إلى الأسباب الجسمانية ويقدم على الشرك .ولفظ الآية يدل على أنه عند حصول الشدائد يأتى الإنسان بأمور :أحدها : الدعاء .وثانيها : التضرع .وثالثها : الإخلاص بالقلب هو المراد من قوله { وَخُفْيَةً } .ورابعها : التزام الاشتغال بالشكر . ونظير هذه الآية قوله - تعالى - { وَإِذَا مَسَّكُمُ الضر فِي البحر ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ } وقوله { وظنوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين } وبالجملة فعادة أكثر الناس أنهم إذا شاهدوا الأمر الهائل أخلصوا ، وإذا انتقلوا إلى الأمن والرفاهية أشركوا به " .

قل هو القادر على ان يبعث عليكم عذابا من فوقكم او من تحت ارجلكم او يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم باس بعض انظر كيف نصرف الايات لعلهم يفقهون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - قدرته على تعذيبهم تهديدا لهم حتى يخشوا بأسه أثر بيان قدرته على تنجيتهم فقال - تعالى - : { قُلْ هُوَ . . . المعنى : قل يا محمد لهؤلاء الجاحدين ، إن الله - تعالى - وحده هو. { القادر على أن يرسل عليكم عذابا عظيما من فوقكم أى : من جهة العلو كما أرسل على قوم لوط وعلى أصحاب الفيل الحجارة ، أو من تحت أرجلكم أى من السفل كما حدث بالنسبة لفرعون وجنده من الغرق ، وبالنسبة لقارون حيث خسف به الأرض وقيل : من فوقكم أى من قبل سلاطينكم وأكابركم ، ومن تحت أرجلكم أى : من. قبل سفلتكم وعبيدكم . وقيل : هو حبس المطر والنبات .وتصوير العذاب بأنه آت من أعلى أو من أسفل أشد وقعا فى النفس من تصويره بأنه آت من جهة اليمين أو من جهة الشمال ، لأن الآتى من هاتين الجهتين قد يتوهم دفعه ، أما الآتى من أعلى أو من أسفل فهو عذاب قاهر مزلزل لا مقاومة له ولا ثبات معه .وقوله { أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً } أى : يخلطكم فرقا مختلفة الأهواء ، متباينة المشارب ، مضطربة الشئون ، كل فرقة تتبع إماما لها تقاتل معه غيرها ، فيزول الأمن ويعم الفساد .و { شِيَعاً } جمع شيعة وهم الأتباع والأنصار ،.وكل قوم اجتمعوا على أمر فهم شيعة ، وقوله { وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ } معطوف على ما قبله ، أى : يسلط بعضكم على بعض بالعذاب والقتل ، لأن من عواقب ذلك اللبس التقاتل والتصارع . وفى هاتين الجملتين تصوير مؤثر للعذاب الذى يذوقه الناس بحواسهم إذ يجعلهم - سبحانه - شيعا وأحزابا غير منعزل بعضها عن بعض ، فهى أبدا فى جدال وصراع وفى خصومة ونزاع ، وفى بلاء يصبه هذا الفريق على ذاك ، وذلك أشنع ما تصاب به الجماعة فيأكل بعضها بعضا .ثم تختم الآية بهذا التعبير الحكيم { انظر كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيات لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ } .أى : انظر وتدبر - أيها الرسول الكريم - أو أيها العاقل كيف ننوع الآيات والعبر والعظات بالترغيب تارة وبالترهيب أخرى ، لعلهم يفقهون الحق ويدركون حقيقة الأمر ، فينصرفوا عن الجحود والمكابرة ويكفوا عن كفرهم وعنادهم .هذا ، وقد ساق ابن كثير عقب تفسير هذه الآية جملة من الأحاديث منها ما رواه الإمام مسلم عن سعد بن أبى وقاص أنه أقبل مع النبى صلى الله عليه وسلم ذات يوم من العالية ، حتى إذا مر بمسجد بنى معاوية دخل فركع فيه ركعتين وصلينا معه . ودعا ربه طويلا ثم انصرف إلينا فقال : سألت ربى ثلاثا فأعطانى ثنتين ومنعنى واحدة . سألت ربى أن لا يهلك أمتى بالسّنة فأعطانيها ، وسألته أن لا يهلك أمتى بالغرق فأعطانيها ،

. " وسألت ربى أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها

وكذب به قومك وهو الحق قل لست عليكم بوكيل

كما فسرها الوسيط بعد هذا التهديد الشديد للمعاندين اتجه القرآن إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فأمره أن يصارح قومه بسوء مصيرهم إذا ما استمروا فى ضلالهم فقال :{ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الحق } أى : وكذب جمهور قومك بهذا العذاب الذى حدثناك عنه فظنوا أن الله لن يعذبهم بسبب إعراضهم عن دعوتك ، أو كذبوا بهذا القرآن الذى هو معجزتك الكبرى .والتعبير عنهم بقومك تسجيل عليهم بسوء المعاملة لمن هو من أنفسهم وجمله { وَهُوَ الحق } مستأنفة : لقصد تحقيق القدرة على بعث العذاب عليهم ، أو حال من ىلهاء فى به ، أى كذبوا حال كونه حقا ، وهو أعظم فى القبح قل لهم - يا محمد - { لَّسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ } أى : لم يفوض إلى أمركم فأمنعكم من التكذيب وأجبركم على التصديق ، فأنا لست بقيم عليكم وإنما أنا منذر وقد بلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكنكم لا تحبون الناصحين .

لكل نبا مستقر وسوف تعلمون

كما فسرها الوسيط ثم ختم هذا التهديد بقوله - تعالى - { لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ } .قال الراغب : " النبأ : خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن ولا يقال للخبر نبأ حق يتضمن هذه الأشياء الثلاثة " .والمستقر : وقت الاستقرار .أى : لكل خبر عظيم وقت استقرار وحصول ، لا بد منه ، وسوف تعلمونه فى المستقبل عند حلوله بكم متى شائ الله ذلك قال - تعالى - { وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ } وبذلك تكون الآيات الكريمة قد ساقت ألوانا من قدرة الله ، وهددت المعاندين فى كل زمان ومكان بسوء المصير .

واذا رايت الذين يخوضون في اياتنا فاعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره واما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين

كما فسرها الوسيط ثم أمر الله - تعالى - رسوله وأتباعه بأن يهجروا المجالس التى لا توقر فيه آيات الله وشرائعه ، فقال - تعالى - :{ وَإِذَا رَأَيْتَ الذين يَخُوضُونَ في آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ } .قال الراغب : الخوض : هو الشروع فى الماء والورود فيه ، ثم استعير للأخذ فى الحديث فقيل تخاوضوا فى الحديث ، أى : أخذوا فيه على غير هدى ، وأكثر ما ورد فى القرآن ورد فيما يذم الشروع فيه نحو قوله - تعالى - { وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ } والمعنى : وإذا رأيت أيها النبى الكريم ، أو أيها المؤمن العاقل ، الذين يخوضون فى آياتنا بالتكذيب والطعن والاستهزاء فأعرض عنهم . وانصرف عن مجالسهم ، وأرهم من نفسك الاحتقار لتصرفاتهم ، ولا تعد إلى مجالسهم حتى يخوضوا فى حديث آخر ، لأن آياتنا المنسوبة إلينا من حقها أن تعظم وأن تحترم لا أن تكون محل تهكم واستهزاء .قال ابن جريج : كان المشركون يجلسون إلى النبى صلى الله عليه وسلم يحبون أن يسمعوا منه ، فإذا سمعوا استهزأوا فنزلت هذه الآية فجعل صلى الله عليه وسلم إذا استهزأوا قام فحذروا وقالوا :لا تستهزئوا فيقوم .وإنما عبر عن انتقالهم إلى حديث آخر بالخوض ، لأنهم لا يتحدثون إلا فيما لا جدوى فيه ولا منفعة من ورائه غالباً .وقوله { وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشيطان فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذكرى مَعَ القوم الظالمين } أى : وإما ينسينك الشيطان ما أمرت به من ترك مجالسة الخائضين على سبيل الفرض والتقدير فلا تقعد بعد التذكر مع القوم الظالمين لأنفسهم بتكذيب آيات ربهم والاستهزاء بها ، وقد جاء الشرط الأول بإذا لأن خوضهم فى الآيات محقق ، وجاء الشرط الثانى بأن لأن إنساء الشيطان له قد يقع وقد لا يقع .فإن قيل : النسيان فعل الله فلم أضيف إلى الشيطان؟ أجيب بأن السبب من الشيطان وهو الوسوسة والإعراض عن الذكر فأضيف إليه لذلك ، كما أن من ألقى غيره فى النار فمات يقال : إنه القاتل وإن كان الإحراق فعل الله .هذا وقد أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة أحكاما من أهمها ما يأتى :1 - وجوب الإعراض عن مجالسة المستهزئين بآيات الله أو برسله ، وأن لا يقعد لأن فى القعود إظهار عدم الكراهة ، وذلك لأن التكليف عام لنا ولرسوله صلى الله عليه وسلم .قال القرطبى : من خاض فى آيات الله تركت مجالسته وهجرته ، مؤمنا كان أو كافراً وقد منع أصحابنا الدخول إلى أرض العدو ودخول كنائسهم وبيعهم ، وكذلك ، منعوا مجالسة الكفار وأهل البدع . فقد قال بعض أهل البدع لأبى عمران النخعى - اسمع منى كلمة فأعرض عنه وقال : ولا نصف كلمة .وروى الحاكم عن عائشة : رضى الله عنها - قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من وقر صاحب بدعة فقد أعانه على هدم الإسلام " .وقال صاحب المنار : وسبب هذا النهى أن الإقبال على الخائضين والقعود معهم أقل ما فيه أنه إقرار لهم على خوضهم

وإغراء لهم بالتمادى فيه وأكبره أنه رضاء به ومشاركة فيه والمشاركة فى
الكفر والاستهزاء كفر ظاهر لا يقترفه باختياره إلا منافق مراء أو كافر
مجاهر قال - تعالى - { وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الكتاب أَنْ إِذَا
سَمِعْتُمْ آيَاتِ الله يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ
تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حتى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً
مِّثْلُهُمْ إِنَّ الله جَامِعُ المنافقين والكافرين فِي جَهَنَّمَ
جَمِيعاً } 2 - جواز مجالسة الكفار مع عدم الخوض . لأنه إنما أمرنا
بالإعراض فى حالة الخوض ، وأيضا فقد قال - تعالى - { حتى يَخُوضُوا فِي
حَدِيثٍ غَيْرِهِ } .قال بعض العلماء : " حتى غاية الإعراض ، لأنه إعراض
فيه توقيف دعوتهم زمانا أوجبته رعاية المصلحة ، فإذا زال موجب ذلك عادت
محاولة هدايتهم وإرشادهم إلى أصلها لأنها تمحضت للمصحلة " .3 - استدل بهذه
الآية على أن الناسى غير مكلف ، وأنه إذا ذكر عاد إليه التكليف فيعفى عما
ارتكبه حال نسيانه ففى الحديث الشريف " إن الله رفع عن أمتى الخطأ والنسيان
وما استكرهوا عليه " . رواه الطبرانى عن ثوبان مرفوعا وإسناده صحيح .4 -
قال القرطبى : قال بعضهم إن الخطاب فى الآية للنبى صلى الله عليه وسلم
والمقصود أمته ، ذهبوا إلى ذلك لتبرئته صلى الله عليه وسلم من النسيان
وقال آخرون إن الخطاب له صلى الله عليه وسلم والنسيان جائز عليه فقد قال.
صلى الله عليه وسلم خبرا عن نفسه : " إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون
فإذا نسيت فذكرونى " فأضاف النسيان إليه . واختلفوا بعد جواز النسيان عليه
هل يكون فيما طريقه البلاغ من الأفعال وأحكام الشرع أولا؟ فذهب إلى الأول -
فيما ذكره القاضى عياض - عامة العلماء والأئمة كما هو ظاهر القرآن
والأحاديث ، لكن اشترط الأئمة أن الله - تعالى - ينبهه على ذلك ولا يقره
عليه . ومنعت طائفة من العلماء السهو عليه فى الأفعال البلاغية والعبادات
الشرعية كما منعوه اتفاقا فى الأقوال البلاغية " .وقال الآلوسى : " وأنا
أرى أن محل الخلاف النسيان الذى لا يكون منشؤه اشتغال السر بالوساوس
والخطرات الشيطانية فإن ذلك مما لا يرتاب مؤمن فى استحالته على رسول الله
صلى الله عليه وسلم " .

وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ولكن ذكرى لعلهم يتقون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أنه لا تبعة على المؤمنين ما داموا قد
أعرضوا عن مجلس الخائضين فقال - تعالى - { وَمَا عَلَى الذين يَتَّقُونَ
مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ ولكن ذكرى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ } .أى : وما
على الذين يتقون الله شىء من حساب الخائضين على ما ارتكبوا من جرائم وآثام
ما داموا قد أعرضوا عنهم ، ولكن عليهم أن يعرضوا عنهم ويذكروهم ويمنعوهم
عما هم فيه من القبائح بما أمكن من العظة والتذكير لعل أولئك الخائضين
يجتنبون ذلك ، ويتقون الله فى أقوالهم وأفعالهم .وعليه يكون الضمير فى قوله
يعود على الخائضين .وقيل يجوز أن يكون الضمير { لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ } :
فى قوله : { لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ } للذين اتقوا أى : عليهم أى يذكروا
أولئك الخائضين ، لأن هذا التذكير يجعل المتقين يزدادون إيمانا على إيمانهم
ويثبتون على تقواهم .روى البغوى عن ابن عباس قال : لما نزلت : { وَإِذَا ،
رَأَيْتَ الذين يَخُوضُونَ في آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ } . . إلخ قال
المسلمون : كيف نقعد فى المسجد الحرام ونطوف بالبيت وهم يخوضون أبدا؟
فأنزل الله - تعالى - { وَمَا عَلَى الذين يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن
شَيْءٍ } يعنى إذا قمتم عنهم فما عليكم تبعة ما يقولون ، وما عليكم نصيب من
: إثم ذلك الخوض .قال الجمل : قوله ( ولكن ذكرى ) فيه أربعة أوجه :أحدها
أنها منصوبة على المصدر بفعل مضمر وقدره بعضهم أمراً ، أى : ولكن ذكروهم
ذكرى ، وبعضهم قدره خبراً . أى : ولكن يذكرونهم ذكرى .والثانى : أنه مبتدأ
خبره محذوف : أى : ولكن عليكم ذكرى ، أى : تذكيرهم .والثالث : أنه خبر
لمبتدأ محذوف أى : هو ذكرى أى : النهى عن مجالستهم والامتناع منها ذكرى
والرابع : أنه عطف على موضع شىء المجرور بمن أى : ما على المتقين من.
حسابهم شىء ولكن عليهم ذكرى فيكون من عطف المفردات وأما على الأوجه السابقة
فهو من عطف الجمل " .

وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا وذكر به ان تبسل
نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع وان تعدل كل عدل لا يؤخذ
منها اولئك الذين ابسلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم وعذاب اليم بما كانوا
يكفرون

كما فسرها الوسيط ثم أمر الله - تعالى - نبيه صلى الله عليه وسلم بأن ينطلق
فى تبليغ دعوته دون أن يشغل نفسه بسفاهة السفهاء ، وأن يذكر المعاندين بسوء
مصيرهم فقال - تعالى - { وَذَرِ الَّذِينَ اتخذوا . . . . } .المعنى :
واترك يا محمد هؤلاء الغافلين الذين اتخذوا دينهم الذى كلفوه ودعوا إليه
وهو دين الإسلام لعبا ولهوا حيث سخروا من تعاليمه واستهزأوا بها ، وغرتهم

الحياة الدنيا حيث اطمأنوا إليها ، واشتغلوا بذاتها وزعموا أنه لا حياة
بعدها .ولم يقل - سبحانه - اتخذوا اللعب واللهو ديناً لأنهم لم يجعلوا كل
ما هو من اللعب واللهو دينا لهم ، وإنما هم عمدوا إلى أن ينتحلوا ديناً
فجمعوا له أشياء من اللعب واللهو وسموها ديناً .قال الإمام الرازى ما ملخصه
ومعنى ( ذرهم ) : أعرض عنهم ولا تبال بتكذيبهم واستهزائهم ولا تقم لهم فى
نظرك وزناً ، وليس المراد أن يترك إنذارهم لأنه قال له بعده { وَذَكِّرْ
. . . بِهِ } وإنما المراد ترك معاشرتهم وملاطفهم لا ترك إنذارهم وتخويفهم
ومعنى اتخاذ دينهم لعبا ولهوا ، أنهم اتخذوا ما هو لعب ولهو من عبادة
الأصنام وغيرها ديناً لهم ، أو أن الكفار كانوا يحكمون فى دين الله بمجرد
التشهى والتمنى مثل تحريم السوائب والبحائر ، ولم يكونوا يحتاطون فى أمر
الدين ، بل كانوا يكتفون فيه بمجرد التقليد فعبر الله عنهم لذلك بأنهم
اتخذوا دينهم لعبا ولهوا . وأنهم اتخذوا عيدهم لعبا ولهوا قال ابن عباس :
جعل الله لكم قوم عيداً يعظمونه ويصلون فيه ويعمرونه بذكر الله ، ثم إن
المشركين وأهل الكتاب اتخذوا عيدهم لعبا ولهوا أما المسلمين فإنم اتخذوا
عيدهم كما شرعه الله . . . " .والضمير فى قوله { وَذَكِّرْ بِهِ } يعود إلى
القرآن : وقد جاء مصرحا به فى قوله - تعالى - { فَذَكِّرْ بالقرآن مَن
يَخَافُ وَعِيدِ } وقوله { أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ } أى : وذكر
بهذا القرآن أو بهذا الدين الناس مخافة أن تسلم نفس إلى الهلاك ، أو تحبس
، أو ترتهن أو تفتضحن أو تحرم الثواب بسبب كفرها واغترارها بالحياة الدنيا
واتخاذها الدين لعبا ولهوا .ولفظ تبسل مأخوذ من البسل بمعنى المنع بالقهر
أو التحريم أو الحبس ومنه أسد باسل لمنعه فريسته من الإفلات . وشراب بسيل
أى متروك وهذا الشىء بسيل عليك أى محرم عليك .ثم ين - سبحانه - أن هذه
النفس المعرضة للحرمان ليس لها ما يدفع عنها السوء فقال : { لَيْسَ لَهَا
مِن دُونِ الله وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ
يُؤْخَذْ مِنْهَآ } أى : ليس لهذه النفس من غير الله ناصر ينصرها ولا شفيع
يدفع عنها ، ومهما قدمت من فداء فلن يقبل منها ، فالمراد بالعدل هنا الفداء
فهو كقوله - تعالى - { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ
كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأرض ذَهَباً وَلَوِ
افتدى بِهِ } قال الإمام الرازى : والمقصود من هذه الآية بيان أن وجوه
الخلاص على تلك النفس منسدة فلا ولى يتولى دفع ذلك المحذور عنها ، ولا شفيع
يشفع فيها ، ولا فدية تقبل منها ليحصل الخلاص بسبب قبولها ، حتى لو جعلت
الدنيا بأسرها فدية من عذاب الله لم تنفع .فإذا كانت وجوه الخلاص هى
الثلاثة فى الدنيا وثبت أنها لا تفيد فى الآخرة البتة وظهر أنه ليس هناك
إلا الإبسال الذى هو الارتهان والاستسلام فليس لها البتة دافع من عذاب الله
وإذا تصور المرء كيفية العقاب على هذا الوجه يكاد يرعد إذا أقدم على ،
معاصى الله " .ثم ين - سبحانه - عاقبة أولئك الغافلين فقال : { أُولَئِكَ الذين
أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ
أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ } .أى : أولئك الذين أسلموا للهلاك
بسبب ما اكتسبوه فى الدنيا من أعمال قبيحة لهم شراب من حميم أى من ماء قد
بلغ النهاية فى الحرارة يتجرجر فى بطونهم وتتقطع به أمعاؤهم ، ولهم فوق ذلك
عذاب مؤلم بنار تشتعل بأبدانهم بسبب كفرهمن وما ظلمهم الله ولكن كانوا
أنفسهم يظلمون .

قل اندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على اعقابنا بعد اذ
هدانا الله كالذي استهوته الشياطين في الارض حيران له اصحاب يدعونه الى
الهدى ائتنا قل ان هدى الله هو الهدى وامرنا لنسلم لرب العالمين

كما فسرها الوسيط ثم ساق القرآن صورة منفرة للشرك والمشركين تدعو المؤمنين
إلى أن يزدادوا إيماناً على إيمانهم فقال - تعالى - : { قُلْ أَنَدْعُواْ
مِن دُونِ الله مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا } .قال ابن كثير : قال
السدى : قال المشركون للمؤمنين اتبعوا سبيلنا واتركوا دين محمد صلى الله
عليه وسلم فأنزل الله - عز وجل - { قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ الله مَا
لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ على أَعْقَابِنَا } .والمعنى :
قل يا محمد أو أيها العاقل لهؤلاء المشركين الذين يحاولون رد المسلمين عن
الإسلام ، قل لهم : أنعبد من دون الله مالا يقدر على نفعنا إن دعوناه ولا
على ضرنا إن تركناه { وَنُرَدُّ على أَعْقَابِنَا } أى نرجع إلى الشرك الذى
كنا فيه ، بعد أن هدانا الله إلى الإسلام وأنقذنا من الكفر والضلال . يقال
لمن رد عن حاجته ولم يظفر بها : قد رد على عقبيه .والاستفهام فى الآية
الكريمة للإنكار والنفى ، وجىء بنون المتكلم ومعه غيره ، لأن الكلام مع
الرسول صلى الله عليه وسلم عن نفسه وعن المسلمين كلهم .والمراد بما لا ينفع
ولا يضر : تلك الأصنام فإنها مشاهد عدم نفعها وعجزها عن الضر ، ولو كانت
، تستطيع الضر لأضرت بالمسلمين لأنهم خلعوا عبادتها ، وسفهوا أتباعها
} وأعلنوا حقارتها .وجملة { وَنُرَدُّ على أَعْقَابِنَا } معطوفة على
أَنَدْعُواْ } و " على " داخلة فى حيز الإنكار والنفى . والتعبير عن الشرك

بالرد على الأعقاب لزيادة تقبيحه بتصويره ما هو علم فى القبح مع ما فيه من الإشارة إلى أن الشرك حالة قد تركت ونبذت وراء الظهر ، ومن المستحيل أن يرجع إليها من ذاق حلاوة الإيمان .وحرف { على } { وَنُرَدُّ على أَعْقَابِنَا } للاستعلاء ، أى رجع على طريق هى جهة عقبه أى مؤخر قدمه كما يقال : رجع وراءه ثم استعمل هذا التعبير فى التمثيل للتلبس بحالة ذميمة كان قد فارقها صاحبها ثم عاد إليها وتلبس بها .وفى الحديث الشريف " اللهم أمض لأصحابي هجرتهم ولا تردهم على أعقابهم " .ثم ساق القرآن صورة مؤثرة دقيقة للضلالة والحيرة التى تناسب من يشرك بعد التوحيد فقال : { كالذي استهوته الشياطين فِي الأرض حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الهدى ائتنا } .{ استهوته الشياطين } أى استغوته وزينت هواه ودعته إليه ، والعرب تقول : استهوته الشياطين ، لمن اختطف الجن عقله فسيرته كما تريد دون أن يعرف له وجهة فى الأرض .والمعنى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين : أتريدون منا أن نعود إلى الكفر بعد أن نجانا الله منه فيكون مثلنا كمثل الذى ذهبت به مردة الشياطين فألقته فى صحراء مقفرة وتركته تائها ضالا عن الطريق القويم ولا يدرى ماذا يصنع وله أصحاب يدعونه إلى الطريق المستقيم قائلين له ائتنا لكى تنجو من الهلاك ولكنه لحيرته وضلاله لا يجيبهم ولا يأتيهم .قال : الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : " إن مثل من يكفر بالله بعد إيمانه كمثل رجل خرج مع قوم على الطريق فضل الطريق فحيرته الشياطين واستهوته فى الأرض وأصحابه على الطريق فجعلوا يدعونه إليهم ويقولون : ائتنا فإنا على الطريق فأبى أن يأتيهم ، فذلك مثل من يتبعهم بعد المعرفة بمحمد ، صلى الله عليه وسلم . ومحمد صلى الله عليه وسلم هو الذي يدعو إلى الطريق والطريق هو الإسلام " .ثم أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يرد على الكفار بما يخرس ألسنتهم فقال :{ قُلْ إِنَّ هُدَى الله هُوَ الهدى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ العالمين } أى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين إن هدى الله الذى أرسلت به رسله هو الهدى وحده وما وراءه ضلال وخذلان ، وأمرنا لنسلم وجوهنا لله رب العالمين .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : فما محل الكاف فى قوله " كالذى استهوته " قلت : النصب على الحال من الضميرى فى { نُرَدُّ على أَعْقَابِنَا } أى : أننكص مشبهين من استهوته الشياطين؟ فإن قلت ما معنى { استهوته } ؟ قلت هو استفعال من هوى فى الأرض أى ذهب فيها ، كأن معناه : طلبت هويه وحرصت عليه ، فإن قلت : فما محل أمرنا؟ قلت : النصب عطفاً على محل قوله : { إِنَّ هُدَى الله هُوَ الهدى } على أنهما مقولان . كأنه قيل : قل هذا القول وقل أمرنا لنسلم

وان اقيموا الصلاة واتقوه وهو الذي اليه تحشرون

كما فسرها الوسيط وقوله { وَأَنْ أَقِيمُواْ الصلاة واتقوه } معطوف على محل { لِنُسْلِمَ } كأنه قيل أمرنا لنسلم وأمرنا أيضاً بإقامة الصلاة والاتقاء وفى تخصيص الصلاة بالذكر من بين أنواع الشرائع وعطفها على الأمر بالإسلام. وقرنها بالأمر بالتقوى دليل على تفخيم أمرها وعظمة شأنها .وقوله { وَهُوَ ، الذي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ } جملة مستأنفة موجبة لامتثال ما أمر من الأمور الثلاثة ، أى : هو الذى تعودون إليه يوم القيامة للحساب لا إلى غيره .

وهو الذي خلق السماوات والارض بالحق ويوم يقول كن فيكون قوله الحق وله الملك يوم ينفخ في الصور عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير

كما فسرها الوسيط وقوله { وَهُوَ الذي خَلَقَ السماوات والأرض بالحق } " : معطوف على قوله { وَهُوَ الذي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ } .قال الآلوسى ولعله أريد بخلقهما خلق ما فيهما - أيضاً - وعدم التصريح بذلك لظهور اشتمالها على جميع المعلومات والسفليات .وقوله " بالحق " متعلق بمحذوف وقع حالا من فاعل " خلق " أى : قائما بالحق ، وجوز أن يكون صفة لمصدر الفعل المؤكد أى : خلقا متلبسا بالحق " .والحق فى الأصل مصدر حق إذا ثبت ، ثم صار اسما للأمر الثابت الذى لا ينكر ، وهو ضد الباطل .وقوله { وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الحق } أى : وقضاؤه المعروف بالحقيقة كائن ، حين يقول - سبحانه - لشىء من الأشياء " كن فيكون " ذلك الشىء يحدث .و { } وَيَوْمَ } خبر مقدم ، و { قَوْلُهُ } مبتدأ مؤخر ، و { الحق } صفته والجملة الكريمة بيان لقدرته - تعالى - على حشر المخلوقات بكون مراده لا يتخلف عن أمره ، وإن قوله هو النافذ وأمره هو الواقع قال - تعالى - { إِنَّمَآ أَمْرُهُ إِذَآ أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ } وفى قوله { قَوْلُهُ الحق } صيغة قصر للمبالغة أى : هو الحق الكامل ، لأن أقوال غيره وإن كان فيها كثير من الحق فهى معرضة للخطأ وما كان فيها غير معرض للخطأ فهو من وحى الله أو من نعمته بالعقل والإصابة للحق .وقوله { وَلَهُ الملك يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصور } أى : أن الملك لله تعالى وحده فى ذلك اليوم فلا ملك لأحد سواه .قال أبو السعود : " وتقييد اختصاص الملك له - تعالى - بذلك اليوم مع عموم الاختصاص لجميع الأوقات لغاية ظهور ذلك بانقطاع

، العلائق المجازية الكائنة فى الدنيا المصححة للمالكية المجازية فى الجملة
فهو كقوله - تعالى - { لِّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ الواحد القهار } وقوله
المراد " بالصور " القرن الذى ينفخ فيه { الملك يَوْمَئِذٍ الحق للرحمن }
الملك نفخة الصعق والموت ، ونفخة البعث والنشور والله أعلم بحقيقته .وروى
الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال : إن أعرابياً سأل النبى صلى الله
عليه وسلم عن الصور فقال : " قرن ينفخ فيه " رواه أبو داود والترمذى
والحاكم عنه أيضاً .وقيل المراد بالصور هنا جمع صورة والمراد بها الأبدان
أى : يوم ينفخ فى صور الموجودات فتعود إلى الحياة .ثم ختمت الآية بما يدل
} : - على سعة علم الله - تعالى - وعظم إتقانه فى صنعه فقال - تعالى
عَالِمُ الغيب والشهادة وَهُوَ الحكيم الخبير } .الغيب : ما غاب عن الناس
فلم يدركوه ، الشهادة : ضد الغيب وهى الأمور التى يشاهدها الناس ويتوصلون
إلى عملها .وصفة { الحكيم } تجمع إتقان الصنع فدل على عظم القدرة مع تعلق
العلم بالمصنوعات . وصفى { الخبير } تجمع العلم بالمعلومات ظاهرها وخفيها
أى : فهو - سبحانه - وحده العالم بأحوال جميع الموجودات ما غاب منها وما
. هو مشاهد ، وهو ذو الحكمة فى جميع أفعاله والعالم بالأمور الجلية والخفية

واذ قال ابراهيم لابيه ازر اتتخذ اصناما الهة اني اراك وقومك في ضلال مبين

كما فسرها الوسيط وبعد أن ساق القرآن ألواناً من الأدلة على وحدانية الله
وسعة علمه وقدرته أخذ فى التدليل على بطلان الشرك وإثبات التوحيد عن طريق
} : - القصة ، فحكى لنا جانباً مما قاله إبراهيم لأبيه وقومه فقال - تعالى
وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ . . . . } .المعنى : واذكر يا محمد وذكر قومك
ليعتبروا ويتعظوا وقت أن قال إبراهيم لأبيه آزر منكراً عليه عبادة الأصنام
تعبدها من دون الله الذى خلقك فسواك { أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً }
، فعدلك { إني أَرَاكَ وَقَوْمَكَ } الذين يتبعونك فى عبادتها فى ضلال مبين
أى فى انحراف ظاهر بين عن الطريق المستقيم .قال الآلوسى : ( وآزر بزنة آدم
علم أعجمى لأبى إبراهيم - عليه السلام - وكان من قرية من سواد الكوفة ، وهو
بدل من إبراهيم أو عطف بيان عليه ، وقيل : إنه لقب لأبى إبراهيم واسمه
الحقيقى تارخ وأن آزر لقبه ، وقيل هو اسم جده ومنهم من قال اسم عمه ، والعم
والجد يسميان أبا مجازا ) .والاستفهام فى قوله { أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً
آلِهَةً } للإنكار . والتعبير بقوله { أَتَتَّخِذُ } الذى هو افتعال من
الأخذ ، فيه إشارة بأن عبادته هو وقومه لها شىء مصطنع ، والأصنام ليست أهلا
للألوهية ، وفى ذلك ما فيه من التعريض بسخافة عقولهم ، وسوء تفكيرهم
والرؤية يجوز أن تكون بصرية قصد منها فى كلام إبراهيم أن ضلال أبيه وقومه
صار كالشىء المشاهد لوضوحه ، وعليه فقوله { فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ } فى موضع
المفعول الثانى .ووصف الضلال بأنه مبين يدل على شدة فساد عقولهم حيث لم
يتفطنوا لضلالهم مع أنه كالمشاهد المرئى .قال الشيخ القاسمى : قال بعض
مفسرى الزيدية : ثمرة الآية الدلالة على وجوب النصحية فى الدين لا سيما
للأقارب ، فإن من كان أقرب فهو أهم ، ولهذا قال - تعالى - { وَأَنذِرْ
عَشِيرَتَكَ الأقربين } وقال - تعالى - : { قوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ
نَاراً } وقال صلى الله عليه وسلم " أبدأ بنفسك ثم بمن تعول " ولهذا بدأ
النبى صلى الله عليه وسلم بعلى وخديجة وزيد وكانوا معه فى الدار فآمنوا
وسبقوا ، ثم بسائر قريش ، ثم بالعرب ، ثم بالموالى ، وبدأ إبراهيم بأبيه ثم
بقومه ، وتدل هذه الآية - أيضا - على أن النصيحة فى الدين ، والذم والتوبيخ
لأجله ليس من العقوق ، وقد ثبت فى الصحيح عن أبى هريرة عن النبى صلى الله
عليه وسلم قال : " يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة " وعلى وجه آزر قترة
وغبره " فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك لا تعصني؟ فيقول أبوه : فاليوم لا
أعصيك . فيقول إبراهيم : يا رب إنك وعدتنى أن لا تخزنى يوم يبعثون ، فأى
خزى أخزى من أبى الأبعد؟ فيقول الله - تعالى - " إنى حرمت الجنة على
الكافرين " " .ثم قال الشيخ القاسمى : والآية حجة على الشيعة فى زعمهم أنه
لم يكن أحد من آباء الأنبياء كافرا ، وأن آزر عم إبراهيم لا أبوه ، وذلك
. " لأن الأصل فى الإطلاق الحقيقة ومصله لا يجزم به من غير نقل

وكذلك نري ابراهيم ملكوت السماوات والارض وليكون من الموقنين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر نعمه على خليله إبراهيم
فقال - تعالى - { وَكَذَلِكَ نري إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السماوات والأرض
وَلِيَكُونَ مِنَ الموقنين } .أى : وكما أرينا إبراهيم الحق فى خلاف ما
عليه أبوه وقومه من الشرك ، نريه - أيضا - مظاهر ربوبيتنا ، ومالكيتنا
للسموات والأرض ، ونطلعه على حقائقها . ليزداد إيمانا على إيمانه وليكون من
العالمين علما كاملا لا يقبل الشك بأنه على الحق وأن مخالفيه على الباطل
والرؤية هنا المقصود بها الانكشاف والمعرفة . فتشمل المبصرات والمعقولات.
، التى يستدل بها على الحق .وإنما قال { نري إِبْرَاهِيمَ } بصيغة المضارع
مع أن الظاهر أن يقول " أريناه " لاستحضار صورة الحال الماضية التى كانت

تتجدد وتتكرر بتجدد رؤية آياته - تعالى - فى ذلك الملكوت العظيم .والملكوت مصدر كالرغبوت والرحموت والجبروت ، وزيدت فيه الواو والتاء للمبالغة فى الصفة ، والمراد به الملك العظيم وهو مخص بملكه - تعالى - كما قال الراغب فى مفرداته .

فلما جن عليه الليل راى كوكبا قال هذا ربي فلما افل قال لا احب الافلين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ثمار تلك الإرادة التى أكرم بها نبيه إبرايهم فقال : { فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيل رَأَى كَوْكَباً قَالَ هذا رَبِّي } .{ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيل } : أى ستره بظلامه وتغشاه بظلمته ، وأصل الجن : التستر عن الحاسة . يقال : جنه الليل وجن عليه يجن جنا وجنونا ، ومنه الجن والجنة - بالكسر - والجنة - بالفتح - وهى البستان الذى يستر بأشجاره الأرض .والمعنى : فلما ستر الليل بظلامه إبراهيم رأى كوكبا قال هذا ربى ، قال ذلك على سبيل الفرض وإرخاء العنان ، مجاراة مع عباد الأصنام والكواكب ليكر عليه بالإبطال ، ويثبت أن الرب لا يجوز عليه التغيير والانتقال .قال صاحب الكشاف : " كان أبوه وقومه يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب فأراد أن ينبههم على الخطأ فى دينهم ، وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال . ويعرفهم أن النظر الصحيح مؤد إلى أن شيئا منها لا يصح ، أن يكون إلها . لقيام دليل الحدوث فيها ، وأن وراءها محدثا أحداثها وصانعا صنعها ، ومدبرا دبر طلوعها وأفولها وانتقالها ومسيرها وسائر أحوالها وقول إبراهيم { هذا رَبِّي } قول من ينصف خصمة مع علمه بأنه مبطل ، فيحكى. ، قوله كما روى غير متعصب لمذهبه ، لأن ذلك أدعى إلى الحق وأنجى من الشغب ثم يكر عليه بعد حكايته فيبطله بالحجة .وجملة { قَالَ هذا رَبِّي } مستأنفة استئنافا بيانيا جوابا لسؤال ينشأ عن مضمون جملة " رأى كوكبا " وهو أن يسأل سائل : فماذا كان منه عندما رآه ، فيكون قوله : { قَالَ هذا رَبِّي } جوابا لذلك .وقوله { فَلَمَّآ أَفَلَ } أى : غاب وغرب : يقال أفل أفلا وأفولا أى غاب .وقوله { قَالَ لا أُحِبُّ الآفلين } أى :لا أحب عبادة الأرباب : ، المنتقلين من مكان إلى مكان ومن حال إلى حال ، لأن الأفول غياب وابتعاد وشأن الإله الحق أن يكون دائم المراقبة لتدبير أمر عباده .وجاء بالآفلين بصيغة جمع المذكر المختص بالعقلاء بناء على اعتقاد قومه أن الكواكب عاقلة متصرفة فى الأكوان .

فلما راى القمر بازغا قال هذا ربي فلما افل قال لئن لم يهدني ربي لاكونن من القوم الضالين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - حالة ثانية من الحالات التى برهن بها إبراهيم على وحدانية الله فقال - تعالى - : { فَلَمَّآ رَأَى القمر بَازِغاً قَالَ هذا رَبِّي } أى : فلما رأى إبراهيم القمر مبتدئا فى الطلوعن منتشرا ضوؤه من وراء الأفق قال هذا ربى .وبازغا : مأخوذ من البزوغ وهو الطلوع والظهور . يقال : بزغ الناب بزوغا إذا طلع .{ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ القوم الضالين } .أى فلما أفل القمر كما أفل الكوكب من قبله قال مسمعا من حوله من قومه : لئن لم يهدنى ربى إلى جناب الحق وإلى الطريق القويم الذى يرتضيه لأكونن من القوم الضالين عن الصراط المستقيم ، لأن هذا القمر الذى يعتوره الأفول - أيضاً -لا يصلح أن يكون إلها .وفى قول إبراهيم لقومه هذا القول تنبيه لهم لمعرفة الرب الحق وأنه واحد وأن الكواكب والقمر كليهما لا يستحقان الألوهية وفى هذا تهيئة لنفوس قومه لما عزم عليه من التصريح بأن له ربا غير . الكواكب . ثم عرض بقومه بأنهم ضالون ، لان قوله { لأَكُونَنَّ مِنَ القوم الضالين } يدخل على نفوسهم الشك فى معتقدهم أنه لون من الضلال .وإنما استدل على بطلان كون القمر إلها بعد أفوله ، ولم يستدل على بطلان ذلك بمجرد ظهوره مع أن أفوله محقق ، لأنه أراد أن يقيم استدلاله على المشاهدة لأنها أقوى وأقطع لحجة الخصم .

فلما راى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا اكبر فلما افلت قال يا قوم اني بريء مما تشركون

كما فسرها الوسيط ثم حكى القرآن الحالة الثالثة والأخيرة التى استدل بها إبراهيم على بطلان الشرك فقال - تعالى - { فَلَمَّا رَأَى الشمس بَازِغَةً قَالَ هذا رَبِّي هاذآ أَكْبَرُ } أى : فلما رأى إبراهيم الشمس مبتدئة فى الطلوع وقد عم نورها الآفاق ، قال مشيرا إليها { هذا رَبِّي هاذآ أَكْبَرُ } أى : أكبر الكواكب جرما وأعظمها قوة ، فهو أولى بالألوهية إن كان المدار فيها على التفاضل والخصوصية .فقوله { هاذآ أَكْبَرُ } تأكيد لما رامه من إظهار النصفة للقوم ، ومبالغة فى تلك المجاراة الظاهرة لهم ، وتمهيد لإقامة الحجة البالغة عليهم ، واستدراج لهم إلى ما يريد أن يلقيه على مسامعهم بعد

ذلك .قال صاحب الكشاف : فإن قلت ما وجه التذكير فى قوله { هذا رَبِّي } ، والإشارة للشمس؟ قلتك جعل المبتدأ مثل الخبر لكونهما عبارة عن شىء واحد كقولهم : ما جاءت حاجتك ومن كانت أمك ، وكان اختيار هذه الطريقة واجبا لصيانة الرب عن شبهة التأنيث ألا تراهم قالوا فى صفة الله علام ولم يقولوا علامة وإن كان العلامة أبلغ احترازاً من علامة التأنيث .وقوله { فَلَمَّآ أَفَلَتْ } قال : {قَالَ ياقوم إِنِّي برياء مِّمَّا تُشْرِكُونَ } أى فلما غابت الشمس واحتجب ضوؤها ، جاهر إبراهيم قومه بالنتيجة التى يريد الوصول إليها فقال : يا قوم إنى برىء من عبادة الأجرام المتغيرة التى يغشاها الأفول ، وبرىء من إشراككم مع الله آلهة أخرى .قال الآلوسى : وإنما احتج - عليه السلام - بالأفول دون البزوغ مع أنه انتقال ، لأن الأفول متعدد الدلالة أيضاً إذ هو انتقال مع احتجاب ولا كذلك البزوغ ، ولأن دلالة الأفول على المقصود ظاهرة يعرفها كل أحد ، فإن الآفل يزول سلطانه وقت الأفول .هذا والمتأمل فى هذه الحالات الثالث يرى أن إبراهيم - عليه السلام - قد سلك مع قومه أحكم الطرق فى الاستدلال على وحدانية الله ، فقد ترقى معهم وهو يأخذ بيدهم إلى النتيجة التى يريدها بأسلوب يقنع العقول السليمة ، ورحم الله } صاحب الانتصاف فقد بين ذلك بقوله : " والتعريض بضلالهم ثانيا أى فى قوله لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ القوم الضالين } أصرح وأقوى من قوله أولا {لا أُحِبُّ الآفلين } وإنما ترقى إلى ذلك ، لأن الخصوم قد أقام عليهم بالاستدلال الأول حجة ، فأنسوا بالقدح فى معتقدهم ، ولو قيل هذا فى الأول فلعلهم كانوا ينفرون ولا يصغون إلى الاستدلال ، فما عرض - صلوات الله عليه - بأنهم فى ضلالة إلا بعد أن وثق بإصغائهم إلى تمام المقصود واستماعهم إلى آخره . والدليل على ذلك أنه ترقى فى النوبة الثالثة إلى التصريح بالبراءة منهم والتقريع بأنهم على شرك حين تم قيام الحجة ، وتبلج الحق ، وبلغ من الظهور غاية المقصود .

اني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والارض حنيفا وما انا من المشركين

كما فسرها الوسيط ثم ختم إبراهيم هذا الترقى فى الاستدلال على وحدانية الله بقوله - كما حكى القرآن عنه - : { إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السماوات والأرض حَنِيفاً } أى : إنى صرفت وجهى وقلبى فى المحبة } والعبادة لله الذى أوجد وأنشأ السموات والأرض على غير مثال سابق .ومعنى حَنِيفاً } مائلا عن الأديان الباطلة والعقائد الزائفة كلها إلى الدين الحق .وهو - أى حنيفا - حال من ضمير المتكلم فى { وَجَّهْتُ } .وقوله { وَمَآ أَنَاْ مِنَ المشركين } أى : وما أنا من الذين يشركون مع الله آلهة أخرى لا فى أقوالهم ولا فى أفعالهم . وقد أفادت هذه الجملة التأكيد لجملة { إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ } . . . إلخ .وبذلك يكون إبراهيم - عليه السلام - قد أقام الأدلة الحكيمة والبراهين الساطعة على وحدانية الله - تعالى - وسفه المعبودات الباطلة وعابديها .

وحاجه قومه قال اتحاجوني في الله وقد هدان ولا اخاف ما تشركون به الا ان يشاء ربي شيئا وسع ربي كل شيء علما افلا تتذكرون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعض ما دار بين إبراهيم وبين قومه من مجادلات ومخاصمات فقال : { وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ . . . } .المحاجة : المجادلة والمغالبة فى إقامة الحجة ، والحجة الدلالة المبينة للمحجة أى : المقصد المستقيم - كما قال الراغب - وتطلق الحجة على كل ما يدلى به أحد الخصمين فى إثبات دعواه أو رد دعوى خصمه .فمعنى { وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ } أى : جادلوه وخاصموه أو شرعوا فى مغالبته فى أمر التوحيد تارة بإيراد أدلة فاسدة واقعة فى حضيض التقليد ، وأخرى بالتهديد والتخويف ، فقد حكى القرآن أنهم قالوا له عندما نهاهم عن عبادة الأصنام { وَجَدْنَآ آبَآءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ } وقد رد عليهم إبراهيم رداً قوياً جريئاً فقال لهم : - أى أتجادلوننى فى شأنه - تعالى { أتحاجواني فِي الله وَقَدْ هَدَانِ } وفى أدلة وحدانيته ، والحال أنه - سبحانه - قد هدانى أى أتجادلوننى فى شأنه - تعالى - وفى أدلة وحدانيته ، والحال أنه - سبحانه - قد هدانى إلى الدين الحق وإلى إقامة الدليل عليكم بأنه هو المستحق للعبادة .والاستفهام للانكار والتوبيخ وتيئيسهم من رجوعه إلى معتقداتهم .وجملة { وَقَدْ هَدَانِ } حال مؤكدة للانكار أى لا جدوى من محاجتكم إياى بعد أن هدانى الله إلى الطريق المستقيم ، وجعلنى من المبغضين للأصنام المحتقرين لها .ثم صارحهم بأنه لا يخشى أصنامهم ولا يقيم لها وزنا فقال : { وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ } أى لا أخاف معبوداتكم لأنها جمادات لا تضر ولا تنفع ، ولا تبصر ولا تسمع ، ولا تقرب ولا تشفع . ويبدو أن قومه كانوا قد خوفوه بطش أصنامهم وقالوا له كما قالت قبيلة عاد لنبيها هود { إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعتراك بَعْضُ آلِهَتِنَا بسواء } فرد عليهم إبراهيم هذا الرد القوى الصريح وقوله { إِلاَّ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْئاً } استثناء مما قبله أى :لا.

أخاف معبوداتكم فى جميع الأوقات إلا وقت مشيئة ربى شيئاً من المكروه يصيبنى من جهتها بأن يسقط على صنم يشجنى ، فإن ذلك يقع بقدرة ربى ومشيئته لا بقدرة أصنامكم أو مشيئتها ، وعلى هذا التفسير الذى ذهب إليه صاحب الكشاف يكون الاستثناء متصلا .ويرى ابن عطية وغيره أن الاستثناء منقطع على معنى :لا أخاف معبوداتكم ولكن أخاف أن يشاء ربى خوفى مما أشركتم به .وهذه الجملة الكريمة تدل على سمو أدب إبراهيم - عليه السلام - مع ربه ، وعلى نهاية استسلامه لمشيئته ، فمع أنه مؤمن بخالقه كل الإيمان وكافر بتلك الآلهة كل الكفران ، إلا أنه ترك الأمر كله لمشيئة الله ، وعلق مستقبله على ما يريد الله فيه .وقوله { وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً } أى : أن علم ربى وسع كل شىء وأحاط به ، فلا يبعد أن يكون فى علمه إنزال ما يخفينى من جهة تلك المعبودات الباطلة لسبب من الأسباب .وهذه الجملة الكريمة مستأنفة } : بيانيا فكأن قومه قد قالوا : كيف يشاء ربك شيئا تخافه فكان جوابه عليهم وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً } فأنا وإن كنت عبده وناصره إلا أنه أعلم بإلحاق الضر أو النفع بمن يشاء من عباده .و { عِلْماً } منصوب على التمييز المحول عن الفاعل ، إذ الأصل فى هذا التعبير " أن يقال : وسع علم ربى كل شىء ، ولكن عدل به عن هذا النسق ، وأسند الفعل فيه إلى الله لا إلى علمه ، وجعل لفظ العلم تمييزا لا فاعلا ليكون الوسع والإحاطة والشمول لله فيخلع التعبير ظلا أشمل وأفخم وأعمق وقعا فى النفس .وقوله { أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ } أى تعرضون ايها الغافلون عن التأمل والتكذير بعد أن أوضحت لكم بما لا يقبل مجالا للشك أن الله وحده هو المستحق للعبادة وأن هذه المعبودات التى سواه لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا .فالاستفهام للإنكار والتوبيخ لعدم تذكرهم مع وضوح الدلائل .وفى إيراد التذكر دون التفكر ونحوه إشارة إلى أن أمر آلهتهم مركوز فى العقول ولا يتوقف إلى على التذكير .

وكيف اخاف ما اشركتم ولا تخافون انكم اشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فاي الفريقين احق بالامن ان كنتم تعلمون

كما فسرها الوسيط ثم حكى القرآن عن إبراهيم - عليه السلام - أنه بعد أن صارح قومه بأنه لا يخشى آلهتهم ، أخذ فى التهكم بهم والتعجب من شأنهم لأنهم يخوفونه مما لا يخيف فقال : { وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بالله مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً } .أى : كيف ساغ لكم أن تظنوا أنى أخاف معبوداتكم الباطلة وهى مأمونة الخوف لأنها لا تضر ولا تنفع ، وأنتم لا تخافون إشراككم بالله خالقكم دون أن يكون معكم على هذا الإشراك حجة أو برهان من العقل أو النقل .فالاستفهام للإنكار التعجبى من إنكارهم عليه الأمن فى موضع الأمن ، وعدم إنكارهم على أنفسهم الأمن فى موضع أعظم المخوفات وأهوالها وهو إشراكهم بالله .قال بعض العلماء : وجملة { وَكَيْفَ أَخَافُ } . . إلخ . معطوفة على جملة { وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ } ليبين لهم أن عدم خوفه من آلهتهم أقل عجباً من عدم خوفهم من الله ، وهذا يؤذن بأن قومه كانوا يعرفون الله وأنهم أشركوا معه فى الإلهية غيره فلذلك احتج عليهم بأنهم أشركوا بربهم المعترف به دون أن ينزل عليهم سلطانا بذلك .وقال الآلوسى : وقوله { وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ } استئناف - كما قال شيخ الإسلام - مسوق لنفى الخوف عنه - عليه السلام - بحسب زعم الكفر بالريق الإلزامى بعد نفيه عنه بحسب الواقع ونفس الأمر ، وفى توجيه الإنكار إلى كيفية الخوف من المبالغة ما ليس فى توجيهه إلى نفسه بأن يقال : أأخاف لما أن كل موجود لا يخلو عن كيفية ، فإذا انتفت جميع كيفياته فقد انتفى من جميع الجهات بالطريق البرهانى " .وما فى قوله { مَآ أَشْرَكْتُمْ } موصولة والعائد محذوف أى : ما أشرككم به ، ثم ركب - عليه السلام - على هذا الإنكار التعجبى ما هو نتيجة له فقال : { فَأَيُّ الفريقين أَحَقُّ بالأمن إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ } .أى : فأى الفريقين فريق الموحدين أم فريق المشركين أحق وأولى بالأمن من لحوق الضرر به ، إن كنتم تعلمون ذلك فأخبرونى به وأظهروه بالدلائل والحجج . فجواب الشرط محذوف تقديره أخبرونى بذلك .وهذا لون من إلجائهم إلى الاعتراف بالحق إن كانوا ممن يعقل أو يسمع ، وحث لهم على الإجابة .قال صاحب المنار : " ونكتة عدوله عن قوله " فأينا أحق بالأمن إلى قوله { فأى الفريقين " هى بيان أن هذه المقابلة عامة لكل موحد ومشرك من حيث إن أحد الفريقين موحد والآخر مشرك ، لا خاصة به وبهم ، فهى متضمنة لعلة الأمن . وقيل إن نكتته الاحتراز عن تزكية النفس ، واسم التفضيل على غير بابه ، فالمراد أينا حقيق بالأمن ، ولكنه عبر باسم التفضيل ناطقا فى استنزالهم عن منتهى الباطل وهو ادعاؤهم أنهم هم الحقيقون بالأمن وأنه الحقيق بالخوف إلى الوسط النظرى بين الأمرين؛ وهو أى الفريقين أحق ، واحترازا عن تنفيرهم من الإصغاء إلى قوله كله " .

الذين امنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم اولئك لهم الامن وهم مهتدون

- كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - من هو الفريق الأحق بالأمن فقال تعالى - :{ الذين آمَنُواْ وَلَمْ يلبسوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أولئك لَهُمُ الأمن وَهُمْ مُّهْتَدُونَ } أى : الذين آمنوا ولم يخلطوا إيمانهم بأى لون من ألوان الشرك كما يفعله فريق المشركين حيث إنهم عبدوا الأصنام وزعموا أنهم ما عبدوها إلا ليتقربوا بها إلى الله زلفى ، أولئك المؤمنون الصادقون لهم الأمن دون غيرهم لأنهم مهتدون إلى الحق وغيرهم فى ضلال مبين هذا وقد وردت أحاديث صحيحة فسرت الظلم فى هذه الآية بالشرك ، ومن ذلك ما رواه البخارى ومسلم عن عبد الله بن مسعود قال : لما نزلت { الذين آمَنُواْ وَلَمْ يلبسوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ } قال الصحابة : وأينا لم يظلم نفسه؟ فنزلت { إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال لما نزلت هذه الآية { الذين آمَنُواْ وَلَمْ يلبسوا إِيمَانَهُمْ : بِظُلْمٍ } شق ذلك على الناس فقالوا يا رسول الله : " فأينا لا يظلم نفسه؟ قال : " إنه ليس الذى تعنون . ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح ( إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ) ، إنما هو الشرك " .قال الإمام الرازى : والدليل على أن هذا هو المراد أن هذه القصة من أولها إلى آخرها إنما وردت فى نفى الشركاء والأضداد والأنداد ، وليس فيها ذكر الطاعات والعبادات فوجب حمل : الظلم ها هنا على ذلك " .وقد فسر الزمخشرى فى كشافه الظلم بالمعصية فقال أى لم يخلطوا { الذين آمَنُواْ وَلَمْ يلبسوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ } إيمانهم بمعصية تفسقهم ، وأبى تفسير الظلم بالكفر لفظ اللبس . أى : لأن ليس الإيمان بالشرك أى خلطه به مما لا يتصور لأنهما ضدان لا يجتمعان فى رأى الزمخشرى .قال الشيخ القاسمى : وفهم الزمخشرى هذا مدفوع بأنه يلابسه ، لأنه إن أريد بالإيمان مطلق التصديق سواء كان باللسان أو غيره فظاهر أنه يجامع الشرك كالمنافق . وكذا إن أريد تصديق القلب لجواز أن يصدق بوجود الصانع دون وحدانيته لما فى قوله - تعالى - { وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بالله إلاّ وَهُمْ مُّشْرِكُونَ } ولو أريد التصديق بجميع ما يجب التصديق به بحيث يخرج عن الكفر ، فلا يلزم من لبس الإيمان بالكفر الجمع بينهما ، بحيث يصدق عليه أنه مؤمن ومشرك ، بل تغطيته بالكفر وجعله مغلوبا مضمحلا ، أو اتصافه بالإيمان ثم الكفر ، ثم الإيمان ثم الكفر مراراً " .وقال صاحب الانتصاف : " وإنما يروم الزمخشرى بذلك تنزيل الآية على معتقدة فى وجوب وعيد العصاة وأنهم لاحظ لهم فى الأمن كالكفار . ويجعل هذه الآية تقتضى تخصيص الأمن بالجامعين بين الأمرين : الإيمان والبراءة من المعاصى . ونحن ، نسلم ذلك ولا يلزم أن يكون الخوف اللاحق للعصاة هو الخوف اللاحق للكفار ، لأن العصاة من المؤمنين إنما يخافون العذاب المؤقت وهم آمنون من الخلود وأما الكفار فغير آمنين بوجه ما " .والذى نراه أنه ما دام قد ورد عن الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح أنه قد فسر الظلم فى الآية - بالشرك فيجب أن نسلم به وأن نعض عليه بالنواجذ ، واجتهاد الزمخشرى هنا لتأييد مذهبه - مجانب للصواب ، لأنه لا اجتهاد مع النص .لا سيما وأن حديث . عبد الله بن مسعود المتقدم قد خرجه الشيخان وغيرهما من أعلام السنة

وتلك حجتنا اتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء ان ربك حكيم عليم

- كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - مظاهر فضله على نبيه إبراهيم - فقال - تعالى : { وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ . . . } .قال الإمام الرازى : إعلم أنه تعالى - لما حكى عن إبراهيم - عليه السلام - أنه أظهر حجة الله فى التوحيد ونصرها ، وذب عنها ، عدد وجوه نعمه وإحسانه عليه .فأولها : قوله { وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ آتَيْنَاهَآ إِبْرَاهِيمَ } والمراد إنا نحن آتيناه تلك الحجة وهديناه إليها ، وأوقفنا عقله على حقيقتها .وثانيها : أنه - تعالى - خصه بالرفعة والاتصال إلى الدرجات العالية وهى قوله { نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مّن نّشَآءُ } .وثالثها : أنه جعله عزيزا فى الدنيا وذلك لأنه - تعالى - جعل أشرف الناس وهم الأنبياء والرسل من نسله وذريته وأبقى هذه الكرامة فى نسله إلى يوم القيامة ، لأن من أعظم أنواع السرور علم المرء بأنه يكون من عقبه الأنبياء والملوك .والإشارة فى قوله - تعالى - { وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ } إلى جميع ما تكلم به إبراهيم فى مجادلة قومه فى شأن وحدانية الله وبطلان الشرك " وأضاف - سبحانه - الحجة إليه مع ذكر اللفظ الدال على العظمة وهو " نا . تنويها بشأنها وتفخيما لأمرها ، والمراد بالحجة جنسها لا فرد من أفرادها أى : وتلك الحجة التى لا يمكن نقضها أو مغالبتها فى إثبات الحق وتزييف. الباطل أعطيناها إبراهيم ليكون مستعليا بها على قومه ، قاطعا لألسنتهم عن المجادلة والمخاصمة .وجملة { آتَيْنَاهَآ } فى محل نصب على الحال والعامل فيها معنى الإشارة .وقوله { على قَوْمِهِ } متعلق " بحجتنا " إن جعل خبرا لتلك ، وبمحذوف إن جعل بدله . أى : آتيناها حجة ودليلا على قومه الكثيرين لتكون الغلبة عليهم .وقوله { نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مّن نّشَآءُ } أى نرفع من شئنا من عبادنا درجات عالية من العلم والحكمة .والدرجات فى الأصل تطلق على مراقى السلم . والمراد بها هنا المراتب المعنوية فى الخير على سبيل التمثيل ، فقد شبهت حالة المفضل على غيره بحال المرتقى فى سليم إذا ارتفع

من درجة إلى درجة .والجملة مستأنفة على سبيل التقرير لما قبلها ، وقيل هى
. حال من فاعل ) ( أَتَيْنَا ) أى حال كوننا رافعين .ومفعول المشيئة محذوف
أي : من نشاء رفعه على حسب ما تقتضيه حكمتنا . وقد دل قوله { مّن نّشَآءُ
على أن هذا التكريم لا يكون لكل أحد لأنه لو كان حاصلا لكل الناس لم يحصل {
الرفع ولا التفضيل .وقوله - تعالى - { إِنّ رَبّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ }
تذييل مقرر لمضمون ما قبله ، أى : إن ربك الذى خلقك فسواك فعدلك { حَكِيمٌ
فى كل ما يفعل من رفع هذا وخفض ذاك ، { عَلِيمٌ } كل العلم بحال خلقه {
وسياسة عباده .قال الإمام الرازى : واعلم أن هذه الآية من أدل الدلائل على
أن كمال السعادة فى الصفات الروحانية لا فى الصفات الجسمانية ، والدليل على
ذلك أن الله - تعالى - قال { وَتِلْكَ حُجّتُنَآ آتَيْنَاهَآ إِبْرَاهِيمَ
على قَوْمِهِ } ثم قال بعده { نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مّن نّشَآءُ } وذلك يدل
على أن الموجب لحصول هذه الرفعة هو إيتاء تلك الحجة وهذا يقتضى أن وقوف
النفس على حقيقة تلك الحجة واطلاعها على إشراقها اقتضى ارتفاع الروح من
حضيض العالم الجسمانى إلى أعالى العالم الروحانى ، وذلك يدل على أنه لا
. " رفعة ولا سعادة إلا فى الروحانيات

ووهبنا له اسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داوود
وسليمان وايوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين

كما فسرها الوسيط وقوله : { وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ
هَدَيْنَا } أى : ووهبنا لإبراهيم فضلا منا وكرما وعوضاً عن قومه لما
اعتزلهم؛ إسحاق وهو ولده من زوجه سارة ، ويعقوب هو ابن إسحاق لتقر عينه
} ببقاء عقبه؛ إذ فى رؤية أبناء الأبناء سرور للنفس ، وراحة للفؤاد .وقوله
كُلاًّ هَدَيْنَا } أى : كلا من إسحاق ويعقوب هديناه الهداية الكبرى
بلحقوهما بدرجة أبيهما فى النبوة .ولفظ { كُلاًّ } مفعول لما بعده وقدم
لإفادة اختصاص كل منهما بالهداية على سبيل الاستقلال والتنويه بشأنهما
وقوله : { وَنُوحاً هَدَيْنَا مِن قَبْلُ } أى : وهدينا نوحاً من قبل.
إبراهيم إلى مثل ما هدينا إليه إبراهيم وذريته من النبوة والحكمة .وهذا لون
آخر من تشريف إبراهيم حيث أنه من نسل نوح الى وصفه الله بالهداية ، ولا شك
أن شرف الآباء يسرى على الأبناء .وقال ابن كثير ، " وكل منهما له خصوصية
عظيمة . أما نوح فإن الله لما أغرق أهل الأرض إلا من آمن به وهم الذين
، صحبوه فى السفينة ، جعل الله ذريته هم الباقين ، فالناس كلهم من ذريته
- وأما الخليل إبراهيم فلم يبعث الله بعده نبياً إلا من ذريته كما قال
تعالى - { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي
{ ذُرِّيّتِهِمَا النبوة والكتاب

وزكريا ويحيى وعيسى والياس كل من الصالحين

كما فسرها الوسيط ثم قال - تعالى - { وَمِن ذُرّيّتِهِ دَاوُودَ
وَسُلَيْمَانَ وَأَيّوبَ وَيُوسُفَ وموسى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي
المحسنين وَزَكَرِيّا ويحيى وعيسى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مّنَ الصالحين
وَإِسْمَاعِيلَ واليسع وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى
العالمين } .الضمير فى قوله - تعالى - { وَمِن ذُرّيّتِهِ } يرى ابن جرير
وغيره أنه يعود إلى نوح لأنه أقرب مذكور .ويرى جمهور المفسرين أنه يعود على
إبراهيم لأن الكلام فى شأنه وفى شأن النعم التى منحها الله إياه .وقد ذكر
الله فى هذه الآيات أربعة عشر نبيا وهم :1 - داود بن يسى من بط يهوذا من
بنى إسرائيل وكانت ولادته فى بيت لحم سنة 1085 ق . م تقريبا وهو الذى قتل
جالوت كما جاء فى القرآن الكريم { وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ الله
الملك والحكمة وَعَلّمَهُ مِمّا يَشَآءُ } وكانت وفاته سنة 1000 ق . م
تقريبا .2 - سليمان بن داود - عليهما السلام - ولد بأورشليم حوالى سنة 1043
ق . م وتوفى سنة 975 ق . م . وقد جاء ذكر داود وسليمان فى كثير من آيات
القرآن الكريم ، ومن ذلك قوله - تعالى -{ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ
وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالاَ الحمد لِلّهِ الذي فَضّلَنَا على كَثِيرٍ
مّنْ عِبَادِهِ المؤمنين } 3 - أيوب ، قال ابن جرير : هو ابن موصى بن روم
- بن عيص بن إسحاق ، وروى الطبرانى أن مدة عمره كانت ثلاثة وتسعين سنة .4
يوسف وهو ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - عليه السلام - وكانت ولادته قبل
ميلاد عيسى - عليه السلام - بألفى سنة تقريبا .5 - موسى وهو ابن عمران بن
يصهر بن ماهيث بن لاوى بن يعقوب وكانت ولادته حوالى القرن الرابع عشر ق . م
هارون وهو أخو موسى لأمه وقيل لأبيه وأمه ، وقيل مات قبيل موسى بزمن - 6.
- يسير .7 - زكريا وهو ابن أزن بن بركيا ويتصل نسبه بسليمان - عليه السلام
} وكان قريب العهد بعيسى حيث تولى كفالة أمه مريم كما جاء فى القرآن الكريم
وَكَفّلَهَا زَكَرِيّا } 8 - يحيى وهو ابن زكريا .9 - عيسى وهو ابن مريم
قال ابن كثير . وفى ذكر عيسى فى ذرية إبراهيم أو نوح دلالة على دخول ولد .
- البنات فى ذرية الرجل ، لأن انتساب عيسى ليس إلا من جهة أم مريم .10

الياس وهو ابن فنحاص بن العيزار بن هارون أخى موسى وهو المعروف فى كتب
الإسرائيليين باسم " إيليا " وقد أرسله الله إلى بني إسرائيل حين عبدوا
الأوثان قال - تعالى - { وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ
لِقَوْمِهِ أَلاَ تَتَّقُونَ أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ
الخالقين } ويقال إنه كان موجوداً فى زمن الملك " آخاب " ملك بنى إسرائيل
فى حوالى سنة 918 ق . م .11 - إسماعيل وهو الابن الأكبر لإبراهيم - عليهما
السلام - وجد محمد صلى الله عليه وسلم .12 - اليسع وهو ابن شافاط وكانت
وفاته حوالى سنة 840 ق . م ودفن بالسامرة .13 - يونس وهو ابن متى أرسله
الله إلى أهل نينوى من بلاد أشور فى حوالى القرن الثامن ق . م .14 - لوط
وهو ابن هاران بن تارح فهو ابن أخى إبراهيم وكانت رسالته إلى أهل سدوم من
شرق الأردن .وقوله { وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى العالمين } أى : وكل واحد
من هؤلاء الأنبياء المذكورين لا بعضهم دون بعض فضلناه بالنبوة على العالمين
من أهل عصره .قال الجمل : اعلم أن الله - تعالى - ذكر هنا ثمانية عشر نبياً
، من غير ترتيب لا بحسب الزمان ولا بحسب الفضل لأن الواو لا تقتضى الترتيب
ولكن هنا لطيفة فى هذا الترتيب وهى أن الله - تعالى - خص كل طائفة من
الأنبياء بنوع من الكرامة والفضل . فذكر أولا نوحاً وإبراهيم وإسحاق ويعقوب
لأنهم أصول الأنبياء وإليهم يرجع حسبهم جميعاً . ثم من المراتب المعتبرة
بعد النبوة الملك والقدرة والسلطان وقد أعطى الله من ذلك داود وسليمان حظاً
وافراً .ومن المراتب الصبر عند نزول البلاء والمحن والشدائد وقد خص الله
بهذه أيوب . ثم عطف على هاتين المرتبتين من جمع بينهما وهو يوسف فإنه صبر
على البلاء والشدة إلى أن آتاه الله ملك مصر مع النبوة ، ثم من المراتب
المعتبرة فى تفضيل الأنبياء كثرة المعجزات وقوة البراهين وقد خص الله موسى
وهارون من ذلك بالحظ الوافر ، ومن المراتب المعتبرة الزهد فى الدنيا وقد خص
الله بذلك زكريا ويحيى وعيسى وإلياس ، ثم ذكر الله بعد هؤلاء الأنبياء من
لم يبق له أتباع ولا شريعة وهم إسماعيل واليسع ويونس ولوط فإذا اعتبرنا هذه
اللطيفة كان هذا الترتيب حسناً والله أعلم بمراده وأسرار كتابه .ومن
المعروف أن الأنبياء الذين يجب الإيمان بهم على التفصيل خمسة وعشرون نبياً
وهم هؤلاء الثمانى عشرة الذين ذكروا فى هذه الآيات ، يضاف إليهم سبعة .
نظمهم الناظم فى قوله :حتم على كل ذى التكليف معرفة ... بأنبياء على
التفصيل قد علموافى تلك حجتنا منهم ثمانية ... من بعد عشر ويبقى سبعة
وهمإدريس ، هود ، شعيب ، صالح وكذا ... ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا

واسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين

`<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html} كما فسرها الوسيط

ثم قال - تعالى - { وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ
وَيُوسُفَ وموسى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي المحسنين وَزَكَرِيَّا
ويحيى وعيسى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصالحين وَإِسْمَاعِيلَ واليسع
وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى العالمين } .الضمير فى
قوله - تعالى - { وَمِن ذُرِّيَّتِهِ } يرى ابن جرير وغيره أنه يعود إلى
نوح لأنه أقرب مذكور .ويرى جمهور المفسرين أنه يعود على إبراهيم لأن الكلام
فى شأنه وفى شأن النعم التى منحها الله إياه .وقد ذكر الله فى هذه الآيات
أربعة عشر نبيا وهم :1 - داود بن يسى من بط يهوذا من بنى إسرائيل وكانت
ولادته فى بيت لحم سنة 1085 ق . م تقريبا وهو الذى قتل جالوت كما جاء فى
القرآن الكريم { وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ الله الملك والحكمة
- وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَآءُ } وكانت وفاته سنة 1000 ق . م تقريبا .2
سليمان بن داود - عليهما السلام - ولد بأورشليم حوالى سنة 1043 ق . م وتوفى
، سنة 975 ق . م . وقد جاء ذكر داود وسليمان فى كثير من آيات القرآن الكريم
ومن ذلك قوله - تعالى -{وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً
وَقَالاَ الحمد لِلَّهِ الذي فَضَّلَنَا على كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ
المؤمنين } 3 - أيوب ، قال ابن جرير : هو ابن موصى بن روم بن عيص بن إسحاق
وروى الطبرانى أن مدة عمره كانت ثلاثة وتسعين سنة .4 - يوسف وهو ابن ،
- يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - عليه السلام - وكانت ولادته قبل ميلاد عيسى
عليه السلام - بألفى سنة تقريبا .5 - موسى وهو ابن عمران بن يصهر بن ماهيث
بن لاوى بن يعقوب وكانت ولادته حوالى القرن الرابع عشر ق . م .6 - هارون
- وهو أخو موسى لأمه وقيل لأبيه وأمه ، وقيل مات قبيل موسى بزمن يسير .7
زكريا وهو ابن أزن بن بركيا ويتصل نسبه بسليمان - عليه السلام - وكان قريب
العهد بعيسى حيث تولى كفالة أمه مريم كما جاء فى القرآن الكريم { 8
وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا } - يحيى وهو ابن زكريا .9 - عيسى وهو ابن مريم
قال ابن كثير . وفى ذكر عيسى فى ذرية إبراهيم أو نوح دلالة على دخول ولد .
- البنات فى ذرية الرجل ، لأن انتساب عيسى ليس إلا من جهة أم مريم .10
الياس وهو ابن فنحاص بن العيزار بن هارون أخى موسى وهو المعروف فى كتب
الإسرائيليين باسم " إيليا " وقد أرسله الله إلى بنى إسرائيل حين عبدوا

الأوثان قال - تعالى - { وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ المرسلين إِذْ قَالَ
لِقَوْمِهِ أَلاَ تَتَّقُونَ أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ
الخالقين } ويقال إنه كان موجوداً فى زمن الملك " آخاب " ملك بنى إسرائيل
فى حوالى سنة 918 ق . م .11 - إسماعيل وهو الابن الأكبر لإبراهيم - عليهما
السلام - وجد محمد صلى الله عليه وسلم .12 - اليسع وهو ابن شافاط وكانت
وفاته حوالى سنة 840 ق . م ودفن بالسامرة .13 - يونس وهو ابن متى أرسله
الله إلى أهل نينوى من بلاد أشور فى حوالى القرن الثامن ق . م .14 - لوط
وهو ابن هاران بن تارح فهو ابن أخى إبراهيم وكانت رسالته إلى أهل سدوم من
شرق الأردن .وقوله { وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى العالمين } أى : وكل واحد
من هؤلاء الأنبياء المذكورين لا بعضهم دون بعض فضلناه بالنبوة على العالمين
من أهل عصره .قال الجمل : اعلم أن الله - تعالى - ذكر هنا ثمانية عشر نبياً
، من غير ترتيب لا بحسب الزمان ولا بحسب الفضل لأن الواو لا تقتضى الترتيب
ولكن هنا لطيفة فى هذا الترتيب وهى أن الله - تعالى - خص كل طائفة من
الأنبياء بنوع من الكرامة والفضل . فذكر أولا نوحاً وإبراهيم وإسحاق ويعقوب
لأنهم أصول الأنبياء وإليهم يرجع حسبهم جميعا . ثم من المراتب المعتبرة
بعد النبوة الملك والقدرة والسلطان وقد أعطى الله من ذلك داود وسليمان حظاً
وافراً .ومن المراتب الصبر عند نزول البلاء والمحن والشدائد وقد خص الله
بهذه أيوب . ثم عطف على هاتين المرتبتين من جمع بينهما وهو يوسف فإنه صبر
على البلاء والشدة إلى أن آتاه الله ملك مصر مع النبوة ، ثم من المراتب
المعتبرة فى تفضيل الأنبياء كثرة المعجزات وقوة البراهين وقد خص الله موسى
وهارون من ذلك بالحظ الوافر ، ومن المراتب المعتبرة الزهد فى الدنيا وقد خص
الله بذلك زكريا ويحيى وعيسى وإلياس ، ثم ذكر الله بعد هؤلاء الأنبياء من
لم يبق له أتباع ولا شريعة وهم إسماعيل واليسع ويونس ولوط فإذا اعتبرنا هذه
اللطيفة كان هذا الترتيب حسناً والله أعلم بمراده وأسرار كتابه .ومن
المعروف أن الأنبياء الذين يجب الإيمان بهم علي التفصيل خمسة وعشرون نبياً
وهم هؤلاء الثمانى عشرة الذين ذكروا فى هذه الآيات ، يضاف إليهم سبعة .
نظمهم الناظم فى قوله :حتم على كل ذى التكليف معرفة ... بأنبياء على
التفصيل قد علموافى تلك حجتنا منهم ثمانية ... من بعد عشر ويبقى سبعة
وهمإدريس ، هود ، شعيب ، صالح وكذا ... ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا

ومن ابائهم وذرياتهم واخوانهم واجتبيناهم وهديناهم الى صراط مستقيم

كما فسرها الوسيط ثم ذكر - سبحانه - فضائل من يتصل بهؤلاء الأنبياء الكرام
فقال :{ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ } أى : ومن
آباء هؤلاء الأنبياء وذرياتهم وإخوانهم من هديناه إلى الطريق المستقيم فمن
هنا للتبعيض .والجملة معطوفة على { فَضَّلْنَا } أى : فضلنا هؤلاء الأنبياء
واخترناهم وهديناهم إلى الطريق الواضح . قال الراغب : " والاجتباء الجمع
على طريق الاصطفاء قال - تعالى - { فاجتباه رَبُّهُ } واجتباء العبد تخصيصه
إياه بفيض إلهى يتحصل له منه أنواع من النعم بلا سعى من العبد وذلك
للأنبياء وبعض من يقاربهم من الصديقين والشهداء " .

ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ولو اشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون

كما فسرها الوسيط وقوله : { ذلك هُدَى الله يَهْدِي بِهِ مَن يَشَآءُ مِنْ
عِبَادِهِ } أى : ذلك الهدى إلى صراط مستقيم الذى اهتدى إليه أولئك الأخيار
هو هدى الله الذى يهدى به من يشاء هدايته من عباده وهم المستعدون لذلك .وفى
قوله : { مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ } من الإبهام ما يبعث النفوس على طلب
هدى الله - تعالى - والتعرض لنفحاته .وقوله { وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ
عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } أى ، ولو فرض أن أشرك بالله أولئك
المهديون المختارون لبطل وسقط عنهم ثواب ما كانوا يعملونه من أعمال صالحة
، فكيف بغيرهم .قال ابن كثير : فى هذه الآية تشديد لأمر الشرك وتغليظ لشأنه
وتعظيم لملابسته ، كقوله - تعالى - { وَلَقَدْ أُوْحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى
الذين مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ
وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الخاسرين } ، والشرط لا يقتضى جواز الوقوع ، فهو كقوله
{ قُلْ إِن كَانَ للرحمن وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ العابدين } : وكقوله
لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّآ إِن
كُنَّا فَاعِلِينَ } وقوله { أولئك الذين آتَيْنَاهُمُ الكتاب والحكم
والنبوة }

اولئك الذين اتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فان يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين

كما فسرها الوسيط وقوله { أولئك الذين آتَيْنَاهُمُ الكتاب والحكم والنبوة

اسم الإشارة فيه يعود إلى المذكورين من الأنبياء الثمانية عشرة والمعطوفين { عليهم باعتبار اتصافهم بما ذكر من الهداية وغيرها من النعوت الجليلة .وقصر بعضهم عودته على الأنبياء فحسب وإليه ذهب ابن جرير والرازى أى : أولئك المصطفون الأخيار هم الذين آتيناهم الكتاب أى جنسه المتحقق فى ضمن أى فرد كان من أفراد الكتب السماوية .والمرد بإيتائه : التفهيم التام لما اشتمل عليه من حقائق وأحكام ، وذلك أعم من أن يكون بالإنزال ابتداء أو بالإيراث : بقاء ، فإن المذكورين لم ينزل على كل واحد منهم كتاب معين .والحكم أى الحكمة وهى علم الكتاب ومعرفة ما فيه من الأحكام . أو الإصابة فى القول } والعمل . أو القضاء بين الناس بالحق .و { والنبوة } أى : الرسالة .وقوله فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هؤلاء فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ } أى : فإن يكفر بهذه الثلاث التى اجتمعت فيك يا محمد هؤلاء المشركون من أهل مكة ، فلن يضرك كفرهم لأنا قد وفقنا للإيمان بها قوما كراما ليسوا بها بكافرين فى وقت من الأوقات وإنما هم مستمرون على الإيمان بك والتصديق برسالتك وفى ذلك ما فيه من التسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن إعراض بعض قومه عن دعوته .والمراد بالقوم الذين وكلوا بالقيام بحق هذه الرسالة ووفقوا للإيمان بها أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم من المهاجرين والأنصار مطلقاً ، لأنهم هم الذين دافعوا عن دعوة الإسلام وبذلوا فى سبيل إعلانها نفوسهم وأموالهم ، ويدخل معهم كل من سار على نهجهم فى كل زمان ومكان .وقيل : المراد بهم أهل المدينة من الأنصار . وقيل : المراد بهم الأنبياء المذكورون وأتباعهم ، وقيل غير ذلك .والذى نراه أن الرأى الأول ارجح لأن أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم هم المقابلون لكفار قريش الذين كفروا بها .وفى التكنية عن توفيقهم للإيمان بها بالتوكيل الذى أصله الحفظ للشىء ومراعاته ، وإيذان بفخامة وعلو قدرها .قال الإمام الرازى : " دلت هذه الآية على أن الله - تعالى - سينصر نبيه ، ويقوى دينه ويجعله مستعليا على كل من عاداه ، قاهراً لكل من نازعه ، وقد وقع هذا الذى أخبر الله عنه فى هذا الموضع ، فكان جاريا مجرى الإخبار عن الغيب فيكون معجزاً " .

اولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده قل لا اسالكم عليه اجرا ان هو الا ذكرى للعالمين

كما فسرها الوسيط ثم قال - تعالى - { أولئك الذين هَدَى الله فَبِهُدَاهُمُ اقتده } أى : أولئك الأنبياء الذين ذكرناهم لك - يا محمد - هم الذين هديناهم إلى الحق وإلى الطريق المستقيم فبهداهم ، أى : فبطريقتهم فى الإيمان بالله وفى تمسكهم بمكارم الأخلاق كن مقتديا ومتأسيا .والمقصود إنما هو التأسى بهم فى أصول الدين ، أما الفروع القابلة للنسخ فإنهم يختلفون فيها ويجوز عدم الإقتداء بهم بالنسبة لها قال - تعالى - { لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً } وتكرير اسم الإشارة لتأكيد } تمييز المشار إليه ، ولما يقتضيه للتكرير من الاهتمام بالخبر .وفى قوله فَبِهُدَاهُمُ اقتده } تعريض بالمشركين إذ أن النبى صلى الله عليه وسلم ما جاء إلا على سنة الرسل كلهم وأنه ما كان بدعا منهم ، أما هم فقد اختلقوا لأنفسهم عبادات ما أنزل الله بها من سلطان .ثم ختم الله - تعالى - هذا السياق بقوله : { قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً } أى : قل أيها الرسول الكريم لمن بعثت إليهم لا أطلب منكم على ما أدعوكم إليه من خير وما أبلغكم إياه من قرآن أجرا قليلا أو كثيرا .{ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذكرى لِلْعَالَمِينَ } أى : ما هذا القرآن إلا تذكيرا وموعظة للناس أجمعين فى كل زمان ومكان.قال بعضهم : وفى الآية دليل على أنه صلى الله عليه وسلم كان - مبعوثاً إلى الجن والإنس وأن دعوته قد عمت جميع الخلائق .وبعد أن بين ، سبحانه - ما دار بين إبراهيم وقومه من مجالات تتعلق بإثبات وحدانية الله وإبطال الشرك ، وحكى جانبا من النعم التى أنعم بها على خليله وعلى كل من سار على نهجه ، وأخبر بأن هذا القرآن ما هو إلا تذكير للعالمين وأن المذكر به - لا يريد منهم أجرا على تبليغه ، بعد كل ذلك أخذ القرآن فى الرد على منكرى نزول الكتب السماوية وفى بيان عاقبتهم الوخيمة بسبب هذا الجحود . فقال - تعالى - : { وَمَا قَدَرُواْ الله . . . }

وما قدروا الله حق قدره اذ قالوا ما انزل الله على بشر من شيء قل من انزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا وعلمتم ما لم تعلموا انتم ولا اباؤكم قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون

كما فسرها الوسيط قوله { وَمَا قَدَرُواْ الله حَقّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ الله على بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ } كلمة { قَدَرُواْ } مأخوذة من القدر - بفتح سكون - ، وأصل القدر معرفة مقدار الشىء بالسبر والحزر ، يقال : قدر الشىء يقدره إذا سبره وحزره ليعرف مقداره ، ثم استعمل

فى معرفة الشىء على أتم الوجوه حتى صار حقيقة فيه .والمعنى : ما عظموا الله حق تعظيمه ، وما عرفوه حق معرفته فى اللطف بعباده وفى الرحمة بهم ، بل أخلوا بحقوقه إخلالا عظيما ، وضلوا ضلالا كبيرا ، إذ أنكروا بعثة الرسل وإنزال الكتب ، وقالوا تلك المقالة الشنعاء ما أنزل الله على بشر شيئاً من الأشياء ، قاصدين بهذا القول الطعن فى نبوة النبى صلى الله عليه وسلم وفى أن القرآن من عند الله .ولفظ { حَقّ } منصوب على المصدرية ، وهو فى الأصل صفة للمصدر ، أى : قدره الحق فلما أضيف إلى موصوفه انتصب على ما كان ينتصب عليه .ثم أمرالله - تعالى - رسوله صلى الله عليه وسلم أن يلزمهم بما يخرس ألسنتهم ، وأن يرد على سلبهم العام بإثبات قضية جزئية بديهية التسليم فقال - تعالى - { قُلْ مَنْ أَنزَلَ الكتاب الذي جَآءَ بِهِ موسى نُوراً وَهُدًى لِّلنّاسِ } أى : قل يا محمد لهؤلاء الزاعمين بأن الله ما أنزل على بشر شيئاً من الأشياء : قل لهم من الذى أنزل التوراة وهو الكتاب الذى جاء به موسى { نُوراً وَهُدًى لِّلنّاسِ } أى : ضياء من ظلمة الجهالة وهداية تعصم من الأباطيل والضلالة .وكلمة { نُوراً } حال من الضمير فى به أو من الكتاب .ثم بين - سبحانه ما فعله الجاحدون بكتبه من تحريف وتغيير فقال : { تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً } القراطيس : جمع قرطاس وهو ما يكتب فيه من ورق ونحوه .أى : تجعلون هذا الكتاب الذى أنزله الله نورا وهداية للناس أوراقا مكتوبة مفرقة لتتمكنوا من إظهار ما تريدون إظهاره منها ، ومن إخفاء الكثير منها على حسب ما تمليه عليكم نفوسكم السقيمة وشهواتكم الأثيمة .فالمراد من هذه الجملة الكريمة ذم المحرفين لكتب الله ، وتوبيخهم على هذا الفعل الشنيع ، الذى قصدوا من ورائه الطعن فى نبوة النبى صلى الله عليه وسلم والتوصل إلى ما يبغونه من مطامع وأهواء .وقوله { وَعُلِّمْتُمْ مّا لَمْ تعلموا أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ } أى : وعلمتم على لسان محمد صلى الله عليه وسلم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم من المعارف التى لا يرتاب عاقل فى أنها تنزيل ربانى .وقوله { قُلِ الله ثُمّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ } .أى : قل أيها الرسول لهؤلاء الجاحدين : الله - تعالى - هو الذى أنزل الكتاب على موسى ، ثم بعد هذا القول الفصل ذرهم فى باطلهم الذى يخوضون فيه يلعبون ، وفى غيهم يعمهون ، حتى يأتيهم من الله اليقين .وفى أمره صلى الله عليه وسلم بأن يجيب عنهم إشعار بأن الجواب متعين لا يمكن غيره ، وتنبيه على أنهم بهتوا بحيث إنهم لا يقدرون على الجواب .وكان العطف بثم فى قوله { ثُمَّ ذَرْهُمْ } للدلالة على الترتيب الرتبى أى : أنهم لا تنجح فيهم الحجج والأدلة فتركهم وخوضهم بعد التبليغ هو الأولى ، وإنما كان الاحتجاج عليهم لتبكيتهم وقطع معاذيرهم .هذا ، وللمفسرين لهذه الآية قولان :الأول : أنها مكية النزول تبعاً للسورة ، وأن الذين قالوا { مَآ أَنزَلَ الله على بَشَرٍ } مشركو مكة ، وإنما ألزمهم الله بإنزال التوراة لأنهم كانوا يعرفون ذلك ولا ينكرون أن الله قد أنزلها على موسى .قال ابن جرير : وأولى الأقوال بالصواب فى تأويل ذكل قول من قال : عنى بذلك { وَمَا قَدَرُواْ الله حَقّ قَدْرِهِ } مشركو قريش . وذلك أن ذلك فى سياق الخبر عنهم . فأن يكون ذلك أيضاً خبرا عنهم أشبه من أن يكون خبرا عن اليهود ولما يجر لهم ذكر . . وليس ذلك مما تدين به اليهود ، بل المعروف من دين اليهود الإقرار بصحف إبراهيم وموسى . . . ) .وقد تابع ابن كثير رأى ابن جرير وقال : وهذا الرأى هو الأصح ، لأن اليهود لا ينكرون إنزال الكتب من السماء ، وأما كفار قريش فكانوا ينكرون رسالة النبى صلى الله عليه وسلم لأنه من البشر كما قال - تعالى - { أَكَانَ لِلنّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَآ إلى رَجُلٍ مّنْهُمْ أَنْ أنذِرِ الناس } وكذا قالوا هنا { مَآ أَنزَلَ الله على بَشَرٍ مّن شَيْءٍ } .الثانى : أن هذه الآية مدنية النزول ، وكون سورة الأنعام مكية لا يمنع من وجود بعض آيات منها مدنية كما نص عليه كثير من العلماء .ومما يؤيد كون هذه الآية مدنية ما ورد من آثار فى أسباب نزولها ، ومن هذه الآثار ما أخرجه ابن جرير من طريق ابن أبى طلحة عن ابن عباس قال : قالت اليهود : والله ما أنزل الله من المساء كتابا ) فنزل قوله - تعالى - { وَمَا قَدَرُواْ الله حَقّ قَدْرِهِ } الخ وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير - مرسلا - قال : جاء رجل . . . من اليهود يقال له ملك بن الصيف فخاصم النبى صلى الله عليه وسلم قال له النبى : " أنشدك بالذى أنزل التوراة على موسى هل تجد فى التوراة أن الله يبغض الحبر السمين " - وكان حبرا سمينا - فغضب وقال : ( هل أنزل الله على بشى من شىء ) فقال له أصحابه : ويحك ولا على موسى فأنزل الله { وَمَا قَدَرُواْ الله حَقّ قَدْرِهِ } الآية .والذى نراه أن الآية الكريمة تصلح للرد على الفريقين : فريق المشركين وفريق اليهود إلا أن سياقها يجعلنا نرجح أن الخطاب فيها موجه بالأصالة إلى اليهود وإلى غيرهم بالتبع ، لأنهم هم الذين جعلوا التوراة قراطيس أى أوراقا مفرقة ليظهروا منها ما يناسب أهواءهم وليخفوا منها ما فيه شهادة بصدق النبى صلى الله عليه وسلم ولأن هناك آثارا متعددة تثبت أنها نزلت فى شأنهم .وتوجيه الخطاب إلى اليهود لا يتنافى مع كونها مكية ، لأنه ليس بلازم أن يكون كل قرآن مكى خطابا لغير اليهود .

وهذا كتاب انزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر ام القرى ومن حولها
والذين يؤمنون بالاخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون

كما فسرها الوسيط وبعد أن أبطل - سبحانه - بالدليل قول من قال { مَآ
أنزَلَ الله على بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ } أتبعه ببيان أن هذا القرآن من عند
}: - الله وأنه مصدق للكتب السماوية السابقة ومهيمن عليها فقال - تعالى
{ وهذا كِتَابٌ أنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الذي بَيْنَ يَدَيْهِ
والمعنى : وهذا القرآن كتاب أنزلناه على قلبك يا محمد وهذا الكتاب من.
صفاته أنه مبارك أى : كثير الفوائد لاشتماله على منافع الدين والدنيا
والمبارك اسم مفعول من باركه وبارك فيه ، إذا جعل له البركة ، ومعناها.
" كثرة الخير ونماؤه .وقدم هنا وصفه بالإنزال على وصفه بالبركة بخلاف قوله
وهذا ذكر مبارك أنزلناه " لأن الأهم هنا وصفه بالإنزال ، إذ جاء عقيب
إنكارهم أن ينزل الله على بشر من شىء بخلافه هناك .ووقعت الصفة الأولى جملة
فعلية لأن الإنزال يتجدد وقتا فوقتا ، والثانية اسمية لأن الاسم يدل على
الثبوت والاستقرار وهو مقصود هنا أى : أن بركته ثابتة مستقرة .قال الإمام
الرازى : العلوم إما نظرية وإما عملية ، أما العلوم النظرية فأشرفها
وأكملها معرفة ذات الله وصفاته وأفعاله وأحكامه وأسمائه ، ولا ترى فى هذه
العلوم أكمل ولا أشرف مما تجده فى هذا الكتاب ، وأما العلوم العملية
فالمطلوب إما أعمال الجوارح ، وإما أعمال القلب ، وهو المسمى بطهارة
، الأخلاق وتزكية النفس ، ولا تجد هذين العلمين مثل ما تجده فى هذا الكتاب
ثم قد جرت سنة الله بأن الباحث فيه والمتمسك به يحصل له عز الدنيا وسعادة
الآخرة .وقوله { مُّصَدِّقُ الذي بَيْنَ يَدَيْهِ } أى أن هذا القرآن موافق
ومؤيد للكتب التى قبله فى إثبات التوحيد ونفى الشرك ، وفى سائر أصول
الشرائع التى لا تنسخ .وقوله : { وَلِتُنذِرَ أُمَّ القرى وَمَنْ حَوْلَهَا
أى : ولتنذر بهذا الكتاب أم القرى أى مكة ، ومن حولها من أطراف الأرض {
شرقا وغربا لعموم بعثته صلى الله عليه وسلم قال - تعالى - { وَأُوحِيَ
} - إِلَيَّ هذا القرآن لأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَن بَلَغَ } وقال - تعالى
قُلْ ياأيها النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ جَمِيعاً } وسميت مكة
بأم القرى لأنها مكان أول بيت وضع للناس ، ولأنها قبلة أهل القرى كلها
، ومحجهم ، ولأنها أعظم القرى شأنا وغيرها كالتبع لها كما يتبع الفرع الأصل
وفى ذكرها بهذا الاسم المبنىء عما ذكر إشعار بأن إنذار أهلها مستتبع لإنذار
أهل الأرض كافة .ووجه الاقتصار على مكة ومن حوهلا فى هذه الآية أنهم الذين
جرى الكلام والجدال معهم فى قوله - تعالى - قبل ذلك{ وَكَذَّبَ بِهِ
قَوْمُكَ وَهُوَ الحق } قال الآلوسى : ويمكن أن يقال خصهم بالذكر لأنهم
الأحق بإنذاره صلى الله عليه وسلم فهو كقوله - تعالى - : { وَأَنذِرْ
عَشِيرَتَكَ الأقربين } ولذا أنزل كتاب كل رسول بلسان قومه " .وقال صاحب
المنار " وزعم بعض اليهود المتقدمين وغيرهم أن المراد بمن حولها بلاد العرب
فخصه بمن قرب منها عرفا ، واستدلوا به على أن بعثة النبى صلى الله عليه
وسلم خاصة بقومه العرب .والاستدلال باطل وإن سلم التخصيص المذكور ، فإن
إرساله إلى قومه لا ينافى إرساله إلى غيرهم ، وقد ثبت عموم بعثته صلى الله
عليه وسلم من آيات أخرى كقوله - تعالى - { وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ
كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً } وقوله : { والذين يُؤْمِنُونَ
بالآخرة يُؤْمِنُونَ بِهِ } .أى : والذين يؤمنون بالآخرة وما فيها من ثواب
وعقاب يؤمنون بهذا الكتاب الذى أنزله الله هداية ورحمة لأن من صدق بالآخرة
خاف العاقبة ، وحرص على العمل الصالح الذى ينفعه .ثم ختمت الآية بهذا
الثناء الجميل عليهم فقالت { وَهُمْ على صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ } أى
يؤدونها فى أوقاتها مقيمين لأركانها وآدابها فى خشوع واطمئنان ، وخصت
الصلاة بالذكر لكونها أشرف العبادات وأعظمها خطراً بعد الإيمان .قال الإمام
الرازى : " ويكفيها شرفا أنه لم يقع اسم الإيمان على شىء من العبادات
الظاهرة إلا عليها كما فى قوله - تعالى - { وَمَا كَانَ الله لِيُضِيعَ
إِيمَانَكُمْ } إى صلاتكم ، ولم يقع اسم الكفر على شىء من المعاصى إلا على
ترك الصلاة ، ففى الحديث الشريف " من ترك الصلاة متعمداً فقد كفر " فلا
اختصت الصلاة بهذا النوع من التشريف لا جرم خصها الله بالذكر فى هذا المقام
وبعد أن بين - سبحانه - مزايا هذا القرآن أتبع ذلك ببيان عاقبة الذين. "
يفترون الكذب على الله - تعالى - ، وصور أحوالهم عند النزع الأخير وعندما
: - يقفون أمام ربهم للحساب بصورة ترتجف لها الأفئدة فقال - تعالى

ومن اظلم ممن افترى على الله كذبا او قال اوحي الي ولم يوح اليه شيء ومن
قال سانزل مثل ما انزل الله ولو ترى اذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة
باسطو ايديهم اخرجوا انفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على
الله غير الحق وكنتم عن اياته تستكبرون

كما فسرها الوسيط { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِباً أَوْ
قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ } .والمعنى لا أحد

أشد ظلما ممن اختلق الكذب على الله فجعل له شركاء من خلقه ، وأنكر ما جاء
به النبى صلى الله عليه وسلم من هدايات ، وحلل وحرم بهواه ما لم يأذن به
الله .والاستفهام إنكارى فهو فى معنى النفى . و { مَنْ } اسم موصول والمراد
}. به الجنس . أى : كل من افترى على الله كذبا ، وليس المراد فردا معينا
أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ } أى : قال بأن
الله أوحى إلى بالرسالة أو النبوة مع أنه كاذب فى دعواه ، فإن الله ما أوحى
إليه شيئا ، وهذا يصدق على ما ادعاه مسيلمة الكذاب والأسود العنسى من أنهما
نبيان يوحى إليهما .ويصدق - أيضا - على كل مدع للوحى والنبوة فى كل زمان
ومكان .وهذه الجملة الكريمة معطوفة على صلة { مَنْ } من عطف الخاص على
العام ، لأن هذا القول هو نوع من أنواع افتراء الكذب.{ وَمَن قَالَ
سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ الله } أى : ولا أحد أظلم - أيضا - ممن قال
بأنى قادر على أن أنزل قرآنا مثل الذى أنزله الله كالذين حكى القرآن عنهم
قوله : { وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ
نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هذا إِنْ هاذا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأولين } وبذلك
، نرى أن الآية الكريمة قد توعدت بأشد ألوان الوعيد كل مفتر على الله الكذب
وكل مدع أنه يوحى إليه شىء وكل من زعم أنه فى قدرته أن يأتى بقرآن مثل هذا
- القرآن كما حدث من النضر بن الحارث وعبد الله بن سعد بن أبى سرح .ثم بين
سبحانه - مصير كل ظالم أثيم فقال : { وَلَوْ ترى إِذِ الظالمون فِي
غَمَرَاتِ الموت } أى : ولو ترى أيها الرسول الكريم أو أيها العاقل حالة
أولئك الظالمين وهم فى غمران الموت أى : فى شدائده وكرباته وسكراته لرأيت
شيئا فظيعا هائلا ترتعد منه الأبدان ، فجواب الشرط محذوف .والغمرات : جمع
غمرة وهى الشدة . وأصلها الشىء الذى يغمر الأشياء فيغطيها ، يقال غمره
الماء إذا علاه وستره ثم استعمل فى الشدائد والمكارم .وتفييد الرؤية بهذا
الوقت لإفادة أنه ليس المراد مجرد الرؤية ، بل المراد رؤيتهم على حال فظيعة
عند كل ناظر .وقوله { والملائكة باسطوا أَيْدِيهِمْ أخرجوا أَنْفُسَكُمُ }
أى والملائكة الموكلون بقبض أرواحهم باسطوا أيديهم إليهم بالإماتة والعذاب
قائلين لهم على سبيل التوبيخ والزجر : أخرجوا إلينا أرواحكم من أجسادكم
والأمر هنا للتعجيز أى : أخرجوا أنفسكم من هذا العذاب إن استطعتم إلى ذلك.
سبيلا .قال الآلوسى : وذهب بعضهم إلى أن هذا تمثيل لفعل الملائكة فى قبض
أرواح الظلمة بفعل الغريم الملح يبسط يده إلى من عليه الحق ويعنف عليه فى
المطالبة ولا يمهله ويقول له : أخرج مالى عليك الساعة ولا أبرح مكانى حتى
انتزعه منك . وفى الكشاف : أنه كناية عن العنف فى السياق والإلحاح والتشديد
فى الإزهاق من غير تنفيس وإمهال ولا بسط ولا قول حقيقة هناك واستظهر ابن
المنير أنهم يفعلون معهم هذه الأمور حقيقة على الصور المحكية وإذا أمكن
البقاء على الحقيقة فلا معدل عنها " .ولعل مما يؤيد قول ابن المنير فى
} - تعليقه على ما قال صاحب الكشاف ما جاء فى آية أخرى وهى قوله - تعالى
وَلَوْ ترى إِذْ يَتَوَفَّى الذين كَفَرُواْ الملائكة يَضْرِبُونَ
وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ } وقوله : { اليوم تُجْزَوْنَ عَذَابَ الهون
بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى الله غَيْرَ الحق وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ
تَسْتَكْبِرُونَ } هذا القول من تتمة ما تقوله الملائكة لأولئك الظالمين
أى : تقول لهم أخرجوا أنفسكم ، اليوم تلقون عذاب الذل والهوان لا بظلم من.
الرحمن ، وإنما بسبب أنكم كنتم فى دينكم تفترون على الله الكذب ، وبسبب
أنكم كنتم معرضين عن آياته ، مستكبرين عنها ولا تتأملون فيها ، ولا تعتبرون
بها .والمراد باليوم مطلق الزمن لا اليوم المتعرف عليه ، وهو إما حين الموت
، أو ما يشمله وما بعده .والهون معناه : الهوان والذل ، وفسره صاحب الكشاف
بالهوان الشديد وقال : " وإضافة العذاب إليه كقولك ، رجل سوء يريد العراقة
. " فى الهوان والتمكن فيه

ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم اول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما
نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم انهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما
كنتم تزعمون

} : كما فسرها الوسيط ثم صور - سبحانه - حالهم عندما يعرضون للحساب فقال
: وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فرادى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ } .أى
ولقد جئتمونا للحساب والجزاء منعزلين ومنفردين عن الأموال والأولاد وعن كل
ما جمعتموه فى الدنيا من متاع ، أو منفردين عن الأصنام والأوثان التى
زعمتهم أنها شفعاؤكم عند الله .وفرادى قيل هو جمع فرد ، وفريد وقيل : هو
اسم جمع لأن فرداً لا يجمع على فرادى وقول من قال إنه جمع : أراد أنه جمع
له فى المعنى .وهذه الجملة الكريمة مستأنفة جاءت لبيان ما سيقوله الله
لهؤلاء الظالمين يوم القيامة ، بعد بيان ما تقوله ملائكة العذاب عند موتهم
وقوله : { كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوّلَ مَرّةٍ } تشبيه للمجىء أريد منه.
: معنى الإحياء بعد الموت الذى كانوا ينكرونه فقد رأوه رأى العين .أى
جئتمونا منعزلين عن كل ما كنتم تعتزون به فى الحياة الدنيا ، مجيئا مثل
مجيئكم يوم خلقناكم أول مرة حفاة عراة . فالكاف فى محل نصب صفة لمصدر محذوف

روى الشيخان عن ابن عباس قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة.
فقال : " أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلا ( كَمَا
بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا
فَاعِلِينَ ) " .ورويا - أيضاً - عن عائشة قالت : " قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم " تحشرون حفاة عراة غرلا . قالت : يا رسول الله ، الرجال والنساء
جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال صلى الله عليه وسلم : الأمر أشد من أن
يهمهم ذلك " " .وروى الطبرانى بسنده عن عائشة أنها قالت " قرأت قول الله
- تعالى - { وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فرادى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ
مَرَّةٍ } فقالت : يا رسول الله واسوأتاه! الرجال والنساء جميعاً ينظر
بعضهم إلى سوأة بعض؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لكل امرىء منهم
يومئذ شأن يغنيه لا ينظر الرجال إلى النساء ولا النساء إلى الرجال ، شُغل
بعضهم عن بعض" .قوله : { وَتَرَكْتُمْ مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ
ظُهُورِكُمْ } أى : تركتم ما أعطيناكم وملكناكم فى الدنيا من أموال وأولاد
وغيرهما وراء ظهوركم ولم تحملوا منه معكم نقيرا عندما جئتمونا للحساب
الخول : ما أعطاه الله لعباده من النعم : يقال : خوله الشىء تخويلا ، ملكه.
إياه ومكنه منه . ومنه التخول بمعنى التعهد .والجملة الكريمة تتضمن توبيخهم
لأنهم لم يقدموا منه شيئاً فى دنياهم ليكون نافعا لهم فى أخراهم ، بل ،
جمعوه وتركوه لغيرهم دون أن ينتفعوا به فى معادهم .وقد ثبت فى الصحيح أن
رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " يقول ابن آدم : مالى! مالى! وهل لك
من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت وما سوى ذلك
فهو ذاهب وتاركه للناس" .وقوله : { وَمَا نرى مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ
الذين زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَآءُ } تقريع وتوبيخ لهم على
شركهم .أى : ما نرى وما نبصر معكم من زعمتم أنهم سيشفعون لكم عند الله من
الأصنام والأوثان التى توهمتم أنهم شركاء لله تعالى فى ربوبيتكم واستحقاقه
عبادتكم .وقوله { لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ } أى : لقد تقطع الاتصال
الذى كان بينكم فى الدنيا واضمحل .ففاعل { تَّقَطَّعَ } ضمير يعود على
الاتصال المدلول عليه بلفظ { شُرَكَآءُ } و { بَيْنَكُمْ } منصوب على
الظرفية .وقرىء بالرفع أى : لقد تقطع شملكم فإن البين مصدر يستعمل فى الوصل
وفى الفراق بالاشتراك والأصل لقد تقطع ما بينكم وقد قرىء به أى : تقطع ما
بينكم من الأسباب والصلات .{ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ } أى
. وغلب عنكم ما كنتم تزعمون من شفاعة الشفعاء ، ورجاء الأنداد والأصنام :
كما قال - تعالى - { إِذْ تَبَرَّأَ الذين اتبعوا مِنَ الذين اتبعوا
وَرَأَوُاْ العذاب وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأسباب وَقَالَ الذين اتبعوا لَوْ
أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا
كَذَلِكَ يُرِيهِمُ الله أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم
بِخَارِجِينَ مِنَ النار } وهكذا يسوق القرآن مشهد هؤلاء الظالمين بتلك
. الصورة التى تهز النفوس ، وتحمل العقلاء على الإيمان والعمل الصالح

ان الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ذلكم
الله فانى تؤفكون

كما فسرها الوسيط وبعد أن ساق - سبحانه - ألواناً من الدلائل على وحدانيته
وعلى صدق نبيه صلى الله عليه وسلم فيما يبلغه عن ربه ، شرع - سبحانه - فى ،
، سرد مظاهر قدرته ، وكمال علمه وحكمته عن طريق التأمل فى هذا الكون العجيب
وفى بدائع مخلوقاته فقال - تعالى - : { إِنَّ الله . . . } .قوله : { إِنَّ
الله فَالِقُ الحب والنوى } .فالق : أى شاق ، والفلق هو الشق وقيل ، فالق
بمعنى خالق وأنكر ابن جرير الطبرى ذلك وقال :لا يعرف فى كلام العرب فلق
الشىء بمعنى خلق .والحب : ما ليس له نوى كالحنطة والشعير .والنوى : جمع
نواة وهو الموجود فى داخل الثمرة ، مثل نوى التمر وغيره .والمعنى : أن الله
، وحده هو الذى يشق الحبة اليابسة كالحنطة فيخرج منها النبات الأخضر النامى
ويشق النواة الصلبة فيخرج منها النخلة والشجرة النامية ، وفى ذلك أكبر
دلالة على قدرة الله التى لا تحد وعلى أنه هو المستحق للعبادة لا غيره .هذا
وقد أفاض الإمام الرازى وهو يتحدث عن هذه الآية فى بيان قدرة الله فقال ،
ما ملخصه :" إذا عرفت هذا فنقول : إنه إذا وقعت الحبة أو النواة فى الأرض
الرطبة ثم مر بها قدر من المدة أظهر الله - تعالى - فى تلك الحبة والنواة
من أعلاها شقا ومن أسفلها شقا آخرن فالأول يخرج من الشجرة الصاعدة إلى
الهواء ، والثانى يخرج منه الشجرة الهابطة فى الأرض ثم إن ها هنا عجائب
فإحداها : أن طبيعة تلك الشجرة إن كانت تقتضى الهوى فى عمق الأرض فكيف.
تولدت منها الشجرة الصاعدة فى الهواء؟ وإن كانت تقتضى الصعود فى الهواء
فكيف تولدت منها الشجرة الهابطة فى الأرض؟ فلما تولد منها الشجرتان مع أن
- الحس والعقل يشهد بكون طبيعة إحدى الشجرتين مضادة لطبيعة الشجرة الأخرى
علمنا أن ذلك ليس بمقتضى الطبع والخاصية ، بل بمقتضى الإيجاد والإبداع
والتكوين .وثانيهما : أن باطن الأرض جرم كثيف صلب لا تنفذ المسلة القوية
فيه ولا يغوص السكين الحاد القوى فيه ، ثم إنا نشاهد أطراف تلك العروق فى

غاية الدقة واللطافة وبحيث لو دلكها الإنسان بإصبعه بأدنى قوة لصارت كالماء
ثم إنها مع غاية اللطافة تقوى على النفوذ فى تلك الارض الصلبة ، والغوص ،
فى بواطن تلك الأجرام الكثيفة . فحصول هذه القرى الشديدة لهذه الأجرام
الضعيفة التى هى فى غاية اللطافة لا بد وأن يكون بتقدير العزيز الحكيم .ثم
قال - رحمه الله - بعد كلام طويل : فانظر أيها المسكين بعين رأسك فى تلك
الورقة الواحدة من تلك الشجرة ، واعرف كيفية خلقه تلك العروق والأوتار فيها
ثم انتقل من مرتبة إلى ما فوقها حتى تعرف أن المقصود الأخير منها حصول ،
المعرفة والمحبة فى الأرواح البشرية ، فحينئذ ينفتح لك باب من المكاشفات لا
آخر له ، ويظهر لك أن أنواع نعم الله فى حقك غير متناهية كما قال : { وَإِن
تَعُدُّواْ نِعْمَتَ الله لاَ تُحْصُوهَا } وكل ذلك إنما ظهر من كيفية خلقه
: تلك الورقة من الحبة والنواة .وقوله { يُخْرِجُ الحي مِنَ الميت } أى
يخرج ما ينمو من الحيوان والنبات والشجر مما لا ينمو كالنطفة والحبة
والجملة الكريمة مستأنفة مبينة لما قبلها ولذلك ترك العطف ، وقيل خبر ثان.
} : ولم يعطف لاستقلاله فى الدلالة على عظمة الله - تعالى - .وقوله
وَمُخْرِجُ الميت مِنَ الحي } أى : مخرج الميت كالحب والنوى من النبات
والبيضة والنطفة من الحيوان .قال صاحب المنار : فإن قيل إن علماء المواليد
يزعمون أن فى كل اصول الأحياء حياة فكل ما ينبت من ذلك ذو حياة كامنة إذا
عقم بالصناعة لا ينبت ، قلنا : إن هذا اصطلاح لهم يسمون القوة أو الخاصية
التى يكون بها الحب قابلا للإنبات حياة ، ولكن هذا لا يصح فى اللغة إلا
بضرب من التجوز وإنما حقيقة الحياة فى اللغة ما يكون به الجسم متغذياً
نامياً بالفعل ، وهذا أدنى مراتب الحياة عند العرب ، ولها مراتب أخرى
كالإحساس والقدرة والإرادة والعلم والعقل والحكمة والنظام ، وهذا أعلى
مراتب الحياة فى المخلوق .ونقل بعض المفسرين عن ابن عباس أن معنى الجملتين
يخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن ومثله إخراج البار من الفاجر :
والصالح من الطالح والعالم من الجاهل وعكسه ، وذلك بحمله الحياة والموت على
المعنوى منها كما فى قوله - تعالى - { أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً
فَأَحْيَيْنَاهُ } ويبدو لنا أن حمل الحياة والموت هنا على المعنى المعنوى
لا يناسبه سياق الآيات التى معنا ، لأنها تتحدث عن آثار قدرة الله المحسوسة
ليزداد المؤمنون إيمانا على إيمانهم ، ويتأمل كل ذى عقل فى مظاهر قدرة الله
فى كونه يهتدى إلى طريق الحق والصواب .وقوله { وَمُخْرِجُ الميت مِنَ الحي
معطوف على ما قبله وهو قوله { يُخْرِجُ الحي مِنَ الميت } لأنه إخبار بضد {
مضمونه وهو وضع آخر عجيب دال على كمال القدرة .وجىء بجملة { يُخْرِجُ الحي
مِنَ الميت } معطوف على { فَالِقُ }لا على { يُخْرِجُ } لأنه بيان لفالق
الحب والنوى .قال - رحمه الله : فإن قلت : كيف قال { وَمُخْرِجُ الميت مِنَ
: الحي } بلفظ اسم الفاعل بعد قوله : { خْرِجُ الحي مِنَ المَيت } ؟ قلت
عطفه على فالق الحب والنوى لا على الفعل ، ويخرج الحى من الميت : موقعه
موقع الجملة المبينة لقوله { فَالِقُ الحب والنوى } لأن فالق الحب والنوى
بالنبات والشجر الناميين من جنس إخراج الحى من الميت ، لأن النامى فى حكم
الحيوان ألا ترى إلى قوله - تعالى - { وَيُحْيِي الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا
وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ } { ذلكم الله فأنى تُؤْفَكُونَ } الأفك - بفتح
الهمزة - مصدر أفكه يأفكه من باب ضرب إذا صرفه عن مكان أو عن عمل ، ويقال
، أفكت الأرض أفكا : أى صرف عنها المطر .والإشارة بذلكم لزيادة التمييز
وللتعريض بغباوة المخاطبين والمشركين لغفلتهم عن هذه الدلالة على أنه هو
المستحق للعبادة .والمعنى : ذلكم المتصف بما ذكر من مقتضى الحكمة البالغة
والقدرة النفاذة هو الله خالق كل شىء فكيف تصرفون عن عبادة من يخلق إلى
عبادة من لا يخلق ، وتشركون معه من لا يملك لنفسه نفعا ولا ضراً؟قال الإمام
الرازى : والمقصود منه أن الحى والميت متضادات متنافيان ، فحصول المثل عن
المثل يوهم أن يكون بسبب الطبيعة والخاصية .أما حصول الضد من الضد فيمتنع
أن يكون بسبب الطبيعة والخاصية بل لا بد أن يكون بتقدير المقدر الحكيم
. " والمدبر العليم

فالق الاصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ألوانا أخرى من مظاهر قدرته وحكمته
فقال : { فَالِقُ الإصباح وَجَعَلَ الليل سَكَناً والشمس والقمر حُسْبَاناً
الإصباح : مصدر سمى به الصبح ، أى : شاق ظلمة الصبح - وهى الغبش فى آخر. {
، الليل الذى يلى الفجر المستطيل الكاذب - عن بياض النهار فيضىء الوجود
ويضمحل الظلام ، ويذهب الليل بسواده ، ويجىء النهار بضيائه .وجملة " فالق
الإصباح " خبر لمبتدأ محذوف أى : هو فالق ، أو خبر آخر لإنّ { وَجَعَلَ
الليل سَكَناً } أى وجعل الليل محلا لسكون الخلق فيه ، وراحة لهم بعد
معاشهم بالنهار وسعيهم للحصول على رزقهم .قال صاحب الكشاف : السكن : ما
. يسكن إليه الرجل ويطمئن استئناسا به واسترواحا إليه ، من زوج أو حبيب
ومنه قيل للنار سكن لأنه يستأنس بها ، ألا تراهم سموها المؤنسة ، والليل

يطمئن إليه المتعب بالنهار لاستراحته فيه ، ويجوز أن يراد : وجعل الليل مسكونا فيه من قوله : ( لِتَسْكُنُواْ فِيهِ ) .{ والشمس والقمر حُسْبَاناً الحسبان فى الأصل مصدر حسب - بفتح السين - كالغفران والشكران تقول حسبت { المال حسبانا : أى أحصيته عددا . والمعنى : وجعل الشمس والقمر يجريان فى الفلك بحساب مقدر معلوم لا يتغير ولا يضطرب حتى ينتهى إلى أقصى منازلهما بحيث تتم الشمس دورتها فى سنة ويتم القمر دورته فى شهر ، وبذلك تنتظم المصالح المتعلقة بالفصول الأربعة وغيرها ، قال - تعالى - { هُوَ الذي جَعَلَ الشمس ضِيَآءً والقمر نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السنين والحساب } وقوله { ذلك تَقْدِيرُ العزيز العليم } أى : ذلك الجعل والتسيير البديع الشأن تقدير العزيز ، أى : الغالب القاهر الذى لا ، يتعاصاه شىء من الأشياء التى من جملتها تسييرهما على الوجه المخصوص العليم بكل شىء فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء .قال الإمام الرازى عند تفسيره لهذه الآية الكريمة ما ملخصه :" اعلم أن هذا نوع } آخر من دلائل وجود الصانع وعلمه وقدرته وحكمته فالنوع المتقدم - أى قوله إِنّ الله فَالِقُ } . . . إلخ - كان مأخوذا من دلالة أحوال النبات والحيوان ، والنوع المذكور فى هذه الآية مأخوذ من الأحوال الفلكية ، وذلك لأن فلق ظلمة الليل بنور الصبح أعظم فى كمال القدرة من فلق الحب والنوى بالنبات والشجر ولأن من المعلوم بالضرورة أن الأحوال الفلكية أعظم فى القلوب وأكثر وقعاً من الأحوال الأرضية " .وبعد أن ساق - رحمه الله - الأدلة على ذلك قال : والعزيز إشارة إلى كمال قدرته ، والعليم إشارة إلى كمال علمه ، ومعناه : أن تقدير الأفلاك بصفاتها المخصوصة ، وهيآتها المحدودة ، وحركاتها المقدرة بالمقادير المخصوصة فى البطء والسرعة ، لا يمكن تحصيله إلا بقدرة كاملة متعلقة بجميع الممكنات ، وعلم نافذ فى جميع المعلومات من الكليات والجزئيات ، وذلك تصريح بأن حصول هذه الأحوال والصفات ليس بالطبع والخاصة ، وإنما هو بتخصيص الفاعل المختار والله أعلم .

وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الايات لقوم يعلمون

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - نوعا ثالثا من الدلائل على كمال قدرته ورحمته وحكمته فقال - تعالى - { وَهُوَ الذي جَعَلَ لَكُمُ النجوم لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ البر والبحر } أى : وهو - سبحانه - وحده الذى أنشأ لكم هذه الكواكب النيرة لتهتدوا بها إلى الطرق والمسالك خلال } سيركم فى ظلمات الليل بالبر والبحر حيث لا ترون شمسا ولا قمرا .وجملة ، لِتَهْتَدُواْ بِهَا } بدل اشتمال من ضمير { لَكُمُ } بإعادة العامل فكأنه قيل : جعل النجوم لاهتدائكم .{ قَدْ فَصَّلْنَا الآيات لِقَوْمٍ - يَعْلَمُونَ } أى : قد وضحنا وبينا الآيات الدالة على قدرته - تعالى ، ورحمته بعباده ، لقوم يعلمون وجه الاستدلال بها فيعلمون بموجب علمهم ويزدادون إيمانا على إيمانهم .فالجملة الكريمة المستأنفة للتسجيل والتبليغ وقطع معذرة من لم يؤمنوا .والتعريف فى الآيات للاستغراق فيشمل آية خلق النجوم وغيرها .

وهو الذي انشاكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الايات لقوم يفقهون

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - لونا رابعا من دلائل كمال قدرته ورحمته فقال - تعالى - : { وَهُوَ الذي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ . فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ } .أى : وهو - سبحانه - الذى أوجدكم من نفس واحدة هى نفس أبيكم آدم - عليه السلام - قال - تعالى - { ياأيها الناس اتقوا رَبّكُمُ الذي خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَآءً } وفى هذه الجملة الكريمة تذكير بنعمة أخرى من نعم الله على خلقه ، لأن رجوع الناس إلى أصل واحد أقرب إلى التواد والتراحم والتعاطف ، وفيها - أيضاً - دليل على عظيم قدرته - عز وجل - . والفاء فى قوله - تعالى - { فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ } للتفريع عن أنشأكم .أى : أنشأكم من نفس واحدة فلكم موضع الاستقرار فى الأرحام أو فى الأرض وموضع استيداع فى الأصلاب أو فى القبور وهذا التفسير مأثور عن ابن عباس ، وقد زكاه الإمام الرازى فقال : ومما يدل على قوة هذا القول أن النطقة الواحدة لا تبقى فى صلب الأب زمانا طويلا فالمستقر أقرب إلى الثبات من المستودع " .وقيل المستقر حالة الإنسان بعد ، الموت لأنه إن كان سعيدا فقد استقرت تلك السعادة ، وكذلك إن كان شقيا والمستودع حالة قبل الموت لأن الكافر قد ينقلب مؤمنا .وقيل : المستقر من خلق من النفس الأولى ودخل الدنيا واستقر فيها ، والمستودع الذى لم يخلق بعد ، وسيخلق .والذى نراه أن الرأى الأول هو الصحيح لأنه رأى جمهور المفسرين ولأن شواهد القرآن تؤيده كما فى قوله - تعالى - { وَلَكُمْ فِي الأرض مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إلى حِينٍ } وكما فى قوله - تعالى - { وَنُقِرُّ فِي

- الأرحام مَا نَشَآءُ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى } وقرىء { فَمُسْتَقِرٌّ }
بكسر القاف - أى : فمنكم مستقر فى الأرحام ومنكم مستودع .وقوله { قَدْ
فَصَّلْنَا الآيات لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ } أى : قد فصلنا الآيات الدالة على
قدرتنا ووضحناها لقوم يفقهون ما يتلى عليهم ويتدبرونه فينتفعون بذلك .قال
صاحب الكشاف : فإن قلت : لم قيل " يعلمون " مع ذكر النجوم و { يَفْقَهُونَ
مع ذكر إنشاء بنى آدم؟ قلت : كان إنشاء الإنس من نفس واحدة وتصريفهم بين {
أحوال مختلفة ألطف وأدق صنعة وتدبيراً فكان ذكر الفقه الذى هو استعمال فطنته
وتدقيقه نظره مطابقا له .وقد علق صاحب الانتصاف على كلام الزمخشرى بما
ملخصه : " جواب الزمخشرى صناعى ، والتحقيق أنه لما أريد فصل كليهما بفاصلة
تنبيها على استقلال كل واحدة منهما بالمقصود من الحجة ، كره فصلهما
بفاصلتين متساويتين فى اللفظ ، لما فى ذلك من التكرار فعدل إلى فاصلة
مخالفة تحسيناً للنظم واتساقا فى البلاغة ، ويحتمل وجهاً آخر فى تخصيص
الأولى بالعلم والثانية بالفقه وهو أنه لما كان المقصود التعريض بمن لا
يتدبر آيات الله ولا يعتبر بمخلوقاته وكانت الآية الأولى خارجة عن أنفس
النظار ومنافية لها ، إذ النجوم والنظر فيها وعلم الحكمة الإلهية فى تدبيره
، لها أمر خارج عن نفس الناظر ، ولا كذلك النظر فى إنشائهم من نفس واحدة
، وتقلباتهم فى أطوار مختلفة فإنه نظر لا يعدو نفس الناظر ولا يتجاوزها
فإذا تمهد ذلك فجهل الإنسان بنفسه وبأحواله أبشع من جهله بالأمور الخارجة
عنه كالنجوم والأفلاك ، فلما كان الفقه أدنى درجات العلم إذ هو عبارة عن
الفهم نفى من أبشع القبيلين جهلا وهم الذين لا يتبصرون فى أنفسهم ، ونفى
: الأدنى أبشع من نفى الأعلى درجة فخص به أسوأ الفريقين حالا . . وإذا قيل
فلان " لا يفقه شيئاً " كان أذم فى العرف من قولك : فلان لا يعلم شيئاً
" وكأن معنى قولك لا يفقه شيئاً ليست له أهلية الفهم وإن فهم ، وأما قولك
لا يعلم شيئاً " فغايته نفى حصول العلم له ، وقد يكون له أهلية الفهم
. والعلم لو يعلم

وهو الذي انزل من السماء ماء فاخرجنا به نبات كل شيء فاخرجنا منه خضرا نخرج
منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من اعناب والزيتون
والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا الى ثمره اذا اثمر وينعه ان في ذلكم
لايات لقوم يؤمنون

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - حجة خامسة تدل دلالة واضحة على كمال
قدرته وعلمه ورحمته وإحسانه إلى خلقه فقال - تعالى -:{ وَهُوَ الذي
أَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ } .أى
وهو - سبحانه - الذى أنزل من السحاب ماء فأخرجنا بسبب ذلك كل صنف من :
- أصناف النبات والثمار المختلفة فى الكم والكيف والطعوم والألوان ، قال
تعالى -{ وَفِي الأرض قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ
وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يسقى بِمَآءٍ وَاحِدٍ
وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا على بَعْضٍ فِي الأكل إِنَّ فِي ذلك لآيَاتٍ
، لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } وسمى السحاب سماء لأن العرب تسمى كل ما علا سماء
} - و نزول الماء من السحاب قد جاء صريحاً فى مثل قوله - تعالى
أَفَرَأَيْتُمُ المآء الذي تَشْرَبُونَ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ
المزن أَمْ نَحْنُ المنزلون } و { مِنَ } فى قوله { مِنَ السماء } ابتدائية
لأن ماء المطر يتكون فى طبقات الجو العليا البادرة عند تصاعد البخار ،
الأرضى إليها فيصير البخار كثيفا وهو السحاب ثم يتحول إلى ماء ، والباء فى
، للسببية . حيث جعل الله - تعالى - الماء سبباً فى خروج النبات { بِهِ }
والفاء فى قوله {فَأَخْرَجْنَا بِهِ } للتفريع و { أَخْرَجْنَا } عطف على
والالتفات إلى التكلم إظهار لكمال العناية بشأن ما أنزل الماء { أنزَلَ }
} : لأجله .ثم شرع - سبحانه - فى تفصيل ما أجمل من الإخراج فقال
فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً } أى : فأخرجنا من النبات الذى لا ساق له
نباتا غضا أخر ، وهو ما تشعب من أصل النبات الخارج من الحبة ، وخضر بمعنى
أخضر اسم فاعل . يقال " خضر الزرع - من باب فرح - وأخضر ، فهو خضر وأخضر
وقوله { نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُّتَرَاكِباً } . أى : نخرج من هذا.
النبات الخضر { حَبّاً مُّتَرَاكِباً } أى : متراكما بعضه فوق بعض كما فى
الحنطة والشعير وسائر الحبوب ، يقال : ركبه - كسمعه - ركوباً ومراكباً . أى
علاه .وجملة { نُّخْرِجُ مِنْهُ } صفة لقوله " خضرا " . وعبر عنها بصيغة :
المضارع لاستحضار الصورة لما فيها من الغرابة لأن إخراج الحب المتراكب من
- هذا الخضر الغض يدعو إلى التأمل والإعجاب بمظاهر قدرة الله .وبعد أن ذكر
سبحانه - ما ينبت من الحب أتبعه بذكر ما ينبت من النوى فقال : { وَمِنَ
النخل مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ } .الطلع : أول ما يبدو ويخرج من
تمر النخل كالكيزان . وقشره يسمى الكفرى؛ وما فى داخله يسمى الإغريق لبياضه
والقنوان : جمع قنو وهو العرجون بما فيه الشماريخ ، وهو ومثناه سواه لا.
يفرق بينهما إلا فى الإعراب . أى : ونخرج بقدرتنا من طلع النخل قنوان دانية
القطوف ، سهلة التناول أو بعضها دان قريب من بعض لكثرة حملها .قال صاحب

الكشاف : و { قِنْوَانٌ } رفع بالابتداء ، و { مِنَ النخل } خبره و { مِن طَلْعِهَا } بدل منه . كأنه قيل : وحاصلة من طلع النخل قنوان دانية . وذكر القريبة وترك ذكر البعيدة ، لأن النعمة فيها أظهر وأدل ، واكتفى بذكر القريبة على ذكر البعيدة كقوله : { سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحر } وقوله { وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ } معطوف على { نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ } أى : فأخرجنا بهذا الماء نبات كل شىء وأخرجنا به جنات كائنة من أعناب .وجعله بعضهم عطفاً على { خَضِراً } . وقيل هو معطوف على { حَبّاً } .وقوله : { والزيتون والرمان } منصوب على الاختصاص أى : وأخص من نبات كل شىء الزيتون والرمان ، وقيل معطوف على { نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ } .قال الآلوسى : وقوله { مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ } إما حال من الزيتون لسبقه اكتفى به عن حال ما عطف عليه وهو الرمان والتقدير : والزيتون مشتبها وغير متشابه والرمان كذلك ، وإما حال من الرمان لقربه ويقدر مثله فى الأول .وأياما كان ففى الكلام مضاف مقدر وهو بعض . أى بعض ذلك مشتبهاً وبعضه غير متشابه فى الهيئة والمقدار واللون والطعم وغير ذلك من الأوصاف الدالة على كمال قدرة صانعها ، وحكمة منشئها ومبدعها كما قال - تعالى - { يسقى بِمَآءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا على بَعْضٍ فِي الأكل } ثم أمر الله عباده أن يتأملوا فى بديع صنعه فقال : { انظروا إلى ثَمَرِهِ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ } أى : انظروا نظر تأمل واعتبار إلى ثمار كل واحد مما ذكرنا حال ابتدائه حين يكون ضئيلا ضعيفاً لا يكاد ينتفع به ، وحال ينعه أى : نضجه كيف يصير كبيراً أو جامعاً لألوان من المنافع والملاذ .يقال : أينعت الثمرة إذا نضجت .وقوله { إِنَّ فِي ذلكم لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } أى : إن فى ذلكم الذى ذكرناه من أنواع النبات والثمار ، وذلكم الذى أمرتم بالنظر إليه لدلائل عظيمة على وجود القادر الحكيم لقوم يصدقون بأن الذى أخرج هذا النبات وهذه الثمار لهو المستحق للعبادة دون ما سواه أو هو القادر على أن يحيى الموتى ويبعثهم .قال الشيخ القاسمى : قال بعضهم : القوم كانوا ينكرون البعث فاحتج عليهم بتعريف ما خلق ونقله من حال إلى حال وهو ما يعلمونه قطعاً . ويشاهدونه من إحياء الأرض بعد موتها ، وإخراج أنواع النبات والثمار منها وأنه لا يقدر على ذلك أحد إلى الله - تعالى - فبين أنه - سبحانه - كذلك قادر على إنشائهم من نفوسهم وأبدانهم ، وعلى البعث بإنزال المطر من السماء ثم إنبات الأجساد كالنبات ، ثم جعلها خضرة بالحياة ثم تصوير الأعمال ، بصورة كثيرة ، وإفادة أمور زائدة وتفريعها ، وإعطاء أطعمة مشتبهة فى الصورة غير متشابهة فى اللذة جزاء عليها " .هذا وقد أفاض الإمام الرازى - رحمه الله - عند تفسيره لهذه الآية فى بيان مظاهر قدرة الله وكمال رحمته وحكمته فقال ما ملخصه :" اعلم أنه - تعالى - ذكره هنا أربعة أنواع من الأشجار : النخل والعنب والزيتون والرمان . وإنما قدم الزرع على الشجر لأن الزرع غذاء وثمار الأشجار فواكه ، والغذاء مقدم على الفاكهة ، وإنما قدم النخل على سائر الفواكه لأن التمر يجرى مجرى الغذاء بالنسبة إلى العرب . وإنما ذكر العنب عقيب النخيل ، لأن العنب أشرف أنواع الفواكه ، وذلك لأنه من أول ما يظهر يصير منتفعاً به إلى آخر الحال .وأما الزيتون فهو - أيضاً - كثير النفع لأنه يمكن تناوله كما هو وينفصل - أيضاً - عنه دهن كثير عظيم النفع . وأما الرمان فحاله عجيب جداً . واعلم أن أنواع النبات أكثر من أن تفى بشرحها مجلدات ، فلهذا السبب ذكر - سبحانه - هذه الأقسام الأربعة التى هى أشرف أنواع النبات ، واكتفى بذكرها تنبيهاً على البواقى .ثم قال : وقد أمر - سبحانه - بالنظر فى حال ابتداء الثمر ونضجه لأن هذا هو موضوع الاستدلال ، والحجة التى هى تمام المقصود من هذه الآية وذلك لأن هذه الثمار والأزهار تتولد فى أول حدوثها عن صفات مخصوصة وعند تمامها لا تبقى على حالاتها الأولى بل تنتقل إلى أحوال مضادة للأحوال السابقة مثل أنها كانت موصوفة بلون الخضرة فتصير ملونة بلون السواد أو بلون الحمرة وكانت موصوفة بالحموضة فتصير موصوفة بالحلاوة ، وربما كانت فى أول الأمر باردة بحسب الطبيعة فتصير فى آخر أمرها حارة بحسب الطبيعة - أيضاً - فحصول هذه المتبدلات والمتغيرات لا بد له من سبب ، وذلك السبب ليس هو تأثير الطبائع والفصول والأنجم والأفلاك ، لأن نسبة هذه الأحوال بأسرها إلى جميع هذه الأجسام المتباينة متساوية متشابهة ، والنسب المتشابهة لا يمكن أن تكون أسباباً لحدوث الحوادث المختلفة . ولما بطل إسناد حدوث هذه الحوادث إلى الطبائع والأنجم والأفلاك وجب إسناده إلى القادر المختار الحكيم الرحيم المدبر لهذا العالم على وفق الرحمة ، والمصلحة الحكيمة " .

وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون

كما فسرها الوسيط وبعد أن ذكر - سبحانه - تلك الدلائل الدالة على عظيم قدرته ، وباهر حكمته ووافر نعمته . واستحقاقه الألوهية ، أتبعها بتوبيخ المشركين والرد عليهم بما يرشدهم إلى الطريق القويم لو كانوا يعقلون فقال - تعالى - : { وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ . . . } .قوله { وَجَعَلُواْ

لِلَّهِ شُرَكَآءَ الجن } أى : وجعل هؤلاء المشركون لله - سبحانه - شركاء فى
الألوهية والربوبية من الجن .وفى المراد بالجن هنا أقوال :أحدها : أنهم
الملائكة حيث عبدوهم وقالوا إنهم بنات الله وتسميتهم جنا مجازاً لاجتنانهم
. واستتارهم عن الأعين كالجن .والثانى : أن المراد بالجن هنا الشياطين
- ومعنى جعلهم شركاء أنهم أطاعوهم فى أمور الشرك والمعاصى كما يطاع الله
تعالى - .والثالث : أن المراد بالجن إبليس فقد عبده قوم وسموه ربا ومنهم من
سماه إله الشر والظلمة وخص البارى بألوهية الخير والنور . وقد نقل هذا
الرأى عن ابن عباس ، وقد قال الرازى عن هذا الرأى أنه أحسن الوجوه المذكورة
فى هذه الآية .أما ابن كثير فقد رجح الرأى الثانى وقال : فإن قيل كيف عبدت
الجن مع أنهم إنما كانوا يعبدون الأصنام؟فالجواب : أنهم ما عبدوها إلا عن
طاعة الجن وأمرهم لهم بذلك كقوله : { إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ
إِنَاثاً وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَاناً مَّرِيداً }.وكقوله { أَلَمْ
أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يابني ءَادَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُواْ الشيطان إِنَّهُ
لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ وَأَنِ اعبدوني هذا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ } وتقول
الملائكة يوم القيامة : { سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ بَلْ
- كَانُواْ يَعْبُدُونَ الجن أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ } وقال
سبحانه - { وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ الجن } ولم يقل : وجعلوا الجن
شركاء لله . لإفادة أن محل الغرابة والنكارة أن يكون لله شركاء . ولو قال
وجعلوا الجن شركاء لله لأوهم أن موضع الإنكار أن يكون الجن شركاء لله
لكونهم جنا . وليس الأمر كذلك ، بل المنكر أن يكون لله شريك من أى جنس كان
وجملة : { وَخَلَقَهُمْ } حال من فاعل { وَجَعَلُواْ } مؤكدة لما فى جعلهم.
ذلك من كمال القباحة والبطلان .أى : وجعلوا لله شركاء الجن والحال أنهم قد
، علموا أن الله وحده هو الذى خلقهم دون الجن وليس من يخلق كم لا يخلق
وعليه فالضمير فى خلقهم يعود على المشركين الذين جعلوا لله شركاء .وقيل
الضمير للشركاء أى : والحال أنهم قد علموا أن الله هو الذى خلق الجن فكيف
يجعلون مخلوقه شريكا له؟وقوله { وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ
بِغَيْرِ عِلْمٍ } أى : واختلقوا وافتروا له بجهلهم وانطماس بصيرتهم بنين
وبنات من غير أن يعلموا حقيقة ما قالوه من خطأ أو صواب ، ولكن رميا بقول
عن عمى وجهالة من غير فكر وروية . أو بغير علم بمرتبة ما قالوا وأنه من
الشناعة والبطلان بحيث لا يقادر قدره ، وفيه ذم لهم بأنهم يقولون ما يقولون
بمجرد الرأى والهوى وفيه إشارة إلى أنه لا يجوز أن ينسب إليه - تعالى - إلا
ما قام الدليل على صحته .قال الراغب : " أصل الخرق قطع الشىء على سبيل
الفساد من غير تدبر ولا تفكر ، قال - تعالى -{ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ
أَهْلَهَا } وهو ضد الخلق لأن الخلق هو فعل الشىء بتقدير ورفق " .ثم ختمت
} : - الآية الكريمة بتنزيه الله - تعالى - عما نسبوه فقال - تعالى
سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يَصِفُونَ } أى : تقدس وتنزه وتعاظم عما يصفه به
. هؤلاء الضالون من الأجداد والأولاد والنظراء والشركاء

بديع السماوات والارض انى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو
بكل شيء عليم

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - الأدلة المبطلة لما تفوه به المشركون
من مزاعم فقال - تعالى - { بَدِيعُ السماوات والأرض أنى يَكُونُ لَهُ
وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهُوَ بِكُلِّ
، شَيْءٍ عَلِيمٌ } .أى : هو مبدعهما ومنشئهما وخالقهما على غير مثال سبق
ومنه سميت البدعة بدعة لأنه لا نظير لها فيما سلف .وقوله : { أنى يَكُونُ
لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَّهُ صَاحِبَةٌ } أى : من أين وكيف يكون له
ولد - كما زعموا - والحال أنه ليس له صاحبة يكون الولد منها ، ويستحيل
ضرورة وجود الولد بلا والدة وإن أمكن وجوده بلا والد ، وأيضا الولد لا
يحصل إلا بين متجانسين ولا مجانس له - سبحانه - .وجملة { أنى يَكُونُ لَهُ
وَلَدٌ } مستأنفة لتقرير تنزهه عن ذلك ، وجملة { وَلَمْ تَكُنْ لَّهُ
صَاحِبَةٌ } حال مؤكدة لاستحالة ما نسبوه إليه من الولد .وقوله { وَخَلَقَ
كُلَّ شَيْءٍ } جملة أخرى مستأنفة لتحقيق ما ذكر من الاستحالة ، أو حال
ثانية مقررة لها .أى : كيف يكون له ولد والحال أنه خلق كل شىء انتظمه
- التكوين والإيجاد من الموجودات التى من جملتها ما سموه ولداً له - تعالى
فكيف يتصور أن يكون المخلوق ولداً لخالقه؟قال صاحب الكشاف : " وفى هذه
الآية الكريمة إبطال لأن يكون لله ولد من ثلاثة أوجه :أحدها : أن مبتدع
السموات والأرض وهى أجسام عظيمة لا يستقيم أن يوصف بالولادة . لأن الولادة
: من صفات الأجسام ، ومخترع الأجسام لا يكون جسما حتى يكون والداً .والثانى
أن الولادة لا تكون إلا لمن له صاحبة والله - تعالى -لا صاحبة له فلم تصح
الولادة .والثالث : أنه ما من شىء إلا وهو خالقه والعالم به ، ومن كان بهذه
الصفة كان غنياً عن كل شىء والولد إنما يطلبه المحتاج .وجملة { وهُوَ
بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } مستأنفة مقررة لمضمون ما قبلها من الدلائل
، القاطعة ببطلان أن يكون له ولد .أى : أنه - سبحانه - عالم بكل المعلومات

فلو كان له ولد فلا بد أن يتصف بصفاته ومنها عموم العلم ، وهو منفى عن غيره بالإجماع .

ذلكم الله ربكم لا اله الا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل

كما فسرها الوسيط وبعد أن أبطل - سبحانه - الشرك ونعى على معتنقيه سوء تفكيرهم ، دعا المكلفين إلى إخلاص العبودية لله وحده فقال - تعالى - :{ ذلكم الله رَبُّكُمْ لا إله إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فاعبدوه } أى ذلكم الموصوف بما سمعتم من جلائل الصفات هو الله ربكم لا من زعمتم من الشركاء ، فأخلصوا له العبادة فهو - سبحانه - الخالق لكل شىء وما عداه فهو مخلوق يجب أن يعبد خالقه .وقوله { وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ } أى ، وهو مع تلك الصفات الجليلة رقيب على عباده حفيظ عليهم ، يدبر أمرهم ويتولى جميع شئونهم .

لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير

كما فسرها الوسيط وقوله : { لاَّ تُدْرِكُهُ الأبصار } جملة مستأنفة إما مؤكدة لقوله { وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ } ذكرت للتخويف بأنه رقيب من حيث لا يرى فيجب أن يخاف ويحذر ، وأما مؤكدة أعظم تأكيد لما تقرر قبل من تنزهه وتعاليمه عما وصفه به المشركون ، ببيان أنه لا تراه الأبصار المعبودة وهى أبصار أهل الدنيا لجلاله وكبريائه وعظمته . فكيف يكون له ولد؟والإدراك اللحاق والوصل إلى الشىء والإحاطة به . والأبصار جمع بصر يطلق - كما قال : الراغب - على الجارحة الناظرة وعلى القوة التى فيها .والمعنى :لا تحيط بعظمته وجلاله على ما هو عليه - سبحانه - أبصار الخلائق ، أو لا تدركه الأبصار إدراك إحاطة بكنهه وحقيقته فإن ذلك محال والإدراك بهذا المعنى أخص من الرؤية التى هى مجرد المعاينة ، فنفيه لا يقتضى نفى الرؤية ، لأن نفى الأخص لا يقتضى نفى الأعم فأنت ترى الشمس والقمر ولكنك لا تدرك كنههما وحقيقتهما .هذا : وهناك خلاف مشهور بين أهل السنة والمعتزلة فى مسألة رؤية الله - تعالى - فى الآخرة .أما أهل السنة فيجيزن ذلك ويستشهدون بالكتاب والسنة ، فمن الكتاب قوله - تعالى - { وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ } ومن السنة ما رواه الشيخان عن جرير بن عبد الله البجلى قال : كنا جلوساً عند النبى صلى الله عليه وسلم إذ نظر إلى القمر ليلة البدر وقال : " إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر ، لا تضامون فى رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ثم قرأ ( وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشمس وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ) " .قال الإمام ابن كثير : تواترت الأخبار عن النبى صلى الله عليه وسلم أن المؤمنين يرون الله فى الدار الآخرة فى العرصات وفى روضات الجنات " .أما المعتزلة فيمنعون رؤية المؤمنين لله - تعالى - فى الآخرة ، واستدلوا فيما استدلوا بهذه الآية ، وقالوا : إن الإدراك المضاف إلى الأبصار إنما هو الرؤية ولا فرق بين ما أدركته ببصرى ورأيته إلا فى اللفظ .والذى نراه أن رأى أهل السنة أقوة لأن ظواهر النصوص تؤيدهم ولا مجال هنا لبسط حجج كل فريق ، فقد تكفلت بذلك كتب علم الكلام .وقوله { وَهُوَ يُدْرِكُ الأبصار } أى : وهو يدرك القوة التى تدرك بها المبصرات . ويحيط بها علما ، إذ هو خالق القوى والحواس .وقوله { وَهُوَ اللطيف الخبير } أى : هو الذى يعامل عباده باللطف والرأفة وهو العليم بدقائق الأمور وجلياتها .

قد جاءكم بصائر من ربكم فمن ابصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما انا عليكم بحفيظ

كما فسرها الوسيط ثم أخذ القرآن فى تثبيت النبى صلى الله عليه وسلم وفى تسليته ، وفى مدح ما جاء به من هدايات فقال - تعالى - : { قَدْ جَآءَكُمْ بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ } البصائر : جمع. { . . . قوله { قَدْ جَآءَكُمْ بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ } البصائر ، بصيرة ، وهى للقلب بمنزلة البصر للعين ، فهى النور الذى يبصر به القلب كما أن البصر هن النور الذى تبصر به العين .والمراد بها آيات القرآن ودلائله التى يفرق بها بين الهدى والضلالة . أى : قد جاءكم أيها الناس من ربكم وخالقكم هذا القرآن ودلائله التى يفرق بها بين الهدى والضلالة . أى : قد جاءكم أيها الناس من ربكم وخالقكم هذا القرآن بآياته وحججه وهداياته لكى تميزوا بين الحق والباطل ، وتتبعوا الصراط المستقيم .وإطلاق البصائر على هذه الآيات من إطلاق اسم المسبب على السبب .وقوله : { فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا } أى : فمن أبصر الحق وعلمه بواسطة تلك البصائر وآمن به فلنفسه أبصر وإياها نفع ، ولسعادتها ما قدم من ألوان الخير ، ومن عمى عن الحق وجهله بإعراضه عن هذه البصائر فعلى نفسه وحدها جنى وإياها ضرب العمى وهذا كقوله -تعالى : { إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا } وقوله : { مَّنْ عَمِلَ

} صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا } واختتمت الآية بقوله
وَمَآ أَنَاْ عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ } أى : وما أنا عليكم برقيب أحصى عليكم
أعمالكم ، وأحفظكم من الضلال ، وإنما أنا علىَّ البلاغ والله وحده هو الذى
يحصى عليكم أعمالكم ويجازيكم عليها بما تستحقون .

وكذلك نصرف الايات وليقولوا درست ولنبينه لقوم يعلمون

كما فسرها الوسيط وقوله : { وكذلك نُصَرِّفُ الآيات } أى : وكما فصلنا
الآيات الدالة على التوحيد فى هذه السورة تفصيلا بديعا محكما نفصل الايات
ونبينها وننوعها فى كل موطن لتقوم على الجاحدين الحجة ، وليزداد المؤمنون
إيمانا على إيمانهم .{ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ } يقال درس الكتاب يدرسه
دراسة إذا أكثر قراءته وذلك للحفظ . وأصله من در الحنطة يدرسها درسا ودراسا
إذا داسها ، فكأن التالى يدوس الكلام فيخفف على لسانه .والمعنى : وليقول
المشركون فى الرد عليك : إنك يا محمد قد قرأت الكتب على أهل الكتاب وتعلمت
منهم ، وحفظت عن طريق الدراسة أخبار من مضى ، ثم جئتنا بعد كل ذلك تزعم أن
ما جئت به من عند الله ، وما هو من عند الله .وقد حكى القرآن فى مواضع
كثيرة التهم الباطلة التى وجهها المشركون إلى النبى صلى الله عليه وسلم ومن
ذلك قوله - تعالى - :{ وَقَالَ الذين كفروا إِنْ هذا إِلاَّ إِفْكٌ افتراه
وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَآءُوا ظُلْماً وَزُوراً
وقالوا أَسَاطِيرُ الأولين اكتتبها فَهِيَ تملى عَلَيْهِ بُكْرَةً
وَأَصِيلاً } قال ابن عباس : { وَلِيَقُولُواْ } يعنى : أهل مكة حين تقرأ
عليهم القرآن {دَرَسْتَ } يعنى : تعلمت من يسار وخير - وكانا عبدين من سبى
الروم - ثم قرأت علينا تزعم أنه من عند الله .وقال الفراء : معناه ، تعلمت
من اليهود لأنهم كانوا معروفين عند أهل مكة بالعلم والمعرفة .وقرىء ( دارست
بالألف وفتح التاء - أى : دارست غيرك ممن يعلم الأخبار الماضية كأهل - )
الكتاب ، من المدارسة بين الإثنين ، أي : قرأت عليهم وقرءوا عليك .قال
تعالى: { وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ
بَشَرٌ لِّسَانُ الذي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وهذا لِسَانٌ
عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ } وقرىء - أيضا - ( درست ) - بفتح الدال والراء والسين
وسكون التاء - أى : وليقولوا مضت وقدمت وتكررت على الأسماع ، وقد حكى
القرآن أنهم قالوا أساطير الأولين قال - تعالى - { حتى إِذَا جَآءُوكَ
{ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الذين كفروا إِنْ هاذآ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأولين
وهذه القراءات الثلاث متواترة وهناك قراءات أخرى شاذة لا مجال لذكرها هنا
وقوله : { وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } أى : ولنبين ونوضح هذا.
القرآن لقوم يعلمون الحق فيتبعونه والباطل ليجتنبونه ، فهم المنتفعون به
دون سواهم .فالضمير فى { وَلِنُبَيِّنَهُ } يعود إلى القرآن لكونه معلوما
وإن لم يجر له ذكر ، وقيل : يعود إلى الآيات لأنها فى معنى القرآن.قال
} صاحب الكشاف : فإن قلت : أى فرق بين اللامين فى { وَلِيَقُولُواْ } و
، لِنُبَيِّنَهُ } ؟ قلت : الفرق بينهما أن الأول مجاز والثانية حقيقةَ
وذلك لأن الآيات صرفت للنبيين ولم تصرف ليقولوا درست ، ولكن لأنه حصل هذا
القول بتصريف الآيات كما حصل للنبيين شبه به فسيق مساقه .

اتبع ما اوحي اليك من ربك لا اله الا هو واعرض عن المشركين

كما فسرها الوسيط ثم أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يستمر فى
دعوته دون أن يعول على تعنت المشركين فقال - تعالى - { اتبع مَآ أُوحِيَ
إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إله إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ المشركين } .أى
عليك يا محمد أن تداوم على تبليغ رسالتك ، متبعا فى ذلك ما أوحاه إليك ربك
الذى لا إله إلا هو من آيات وهدايات ، معرضا عن المشركين الذين يفترون على
الله الكذب وهم يعلمون .وجملة {لا إله إِلاَّ هُوَ } معترضة لتأكيد إيجاب
الاتباع ، أو حال مؤكدة لقوله " من ربك " بمعنى : منفرداً فى الألوهية .

ولو شاء الله ما اشركوا وما جعلناك عليهم حفيظا وما انت عليهم بوكيل

كما فسرها الوسيط ثم هون عليه أمر إعراضهم فقال - تعالى - { وَلَوْ شَآءَ
الله مَآ أَشْرَكُواْ } . أى : ولو شاء الله عدم إشراكهم لما أشركوا ،
ولكنه - سبحانه - لم يشأ ذلك لأنه جرت سنته برعاية الاستعدادات .قال
الآلوسى : وهذا دليل أهل السنة على أنه تعالى -لا يريد إيمان الكافر لكن
لا بمعنى أنه يمنعه عنه مع توجهه إليه ، ولكن بمعنى أنه - تعالى -لا يريده
منه لسوء اختياره الناشىء من سوء استعداده " .وقوله { وَمَا جَعَلْنَاكَ
عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ } أى : وما جعلناك
عليهم حفيظا يحفظ عليهم أعمالهم لتحاسبهم وتجازيهم عليها وما أنت عليهم
- بوكيل تدبر عليهم أمورهم وتتصرف فيها ، وإنما أنت وظيفتك التبليغ قال
تعالى - { وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البلاغ } { وَعَلَيْنَا

الحساب } وقال - تعالى - { فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ }

ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم كذلك زينا لكل امة عملهم ثم الى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون

كما فسرها الوسيط ثم أرشد الله المؤمنين إلى مكارم الأخلاق ، فنهاهم عن سب آلهة المشركين حتى لا يقابلهم المشركون بالمثل فقال - تعالى - { وَلاَ تَسُبُّواْ الذين يَدْعُونَ مِن دُونِ الله } .السب : الشتم الوضيع وذكر مساوىء الغير لمجرد التحقير والإهانة .وعدوا : مصدر بمعنى العدوان والظلم والتجاوز من الحق إلى الباطل وهو مفعول مطلق " لتسبوا " . من معناه ، لأن السب عدوان ، وقيل هو حال من ضمير { يَسُبُّواْ } مؤكدة لمضمون الجملة وكذلك قوله { بِغَيْرِ عِلْمٍ } .والمعنى : ولا تسبوا أيها المؤمنون آلهة المشركين الباطلة فيترتب على ذلك أن يسب المشركون معبودكم الحق جهلا منهم وضلالا .قال الآلوسى : ومعنى سبهم الله - تعالى - إفضاء كلامهم إليه كشتمهم له صلى الله عليه وسلم ولمن يأمره وقد فسر { بِغَيْرِ عِلْمٍ } بذلك أى : فيسبوا الله - تعالى - بغير علم أنهم يسبونه وإلا فالقوم كانوا يقرون - بالله - تعالى - وعظمته وأن آلهتهم إنما عبدوها لتكون شفعاء لهم عنده سبحانه - فكيف يسبونه؟ ويحتمل أن يراد سبهم له - عز وجل - صراحة ولا إشكال بناء على أن الغضب والغيظ قد يحملهم على ذلك ، ألا ترى أن المسلم قد تحمله شدة غيظة على التكلم بالكفر! ومما شاهدناه أن بعض جهلة العوام رأى بعض الرافضة يسب الشيخين - أبا بكر وعمر - فغاظه ذلك جداً فسب علياً - كرم الله وجهه - فسئل عن ذلك فقال : ما أردت إلا إغاظتهم ولم أر شيئاً يغيظهم مثل ذلك فاستتيب عن هذا الجهل العظيم " .وقد روى المفسرون فى سب نزول هذه الآية الكريمة روايات منها ما رواه معمر عن قتادة قال : كان المسلمون يسبون أوثان الكفار فيسب الكفار الله عدوا بغير علم فنزلت " .قال صاحب الكشاف : فإن قلت سب الآلهة الباطلة حق وطاعة فكيف صح النهى عنه وإنما يصح النهى عن : المعاصى؟ قلت رب طاعة علم أنها تؤدى إلى مفسدة فتخرج عن أن تكون طاعة فيجب النهى عنها لأنها معصية لا لأنها طاعة . كالنهى عن المنكر هو من أجل الطاعات ، فإذا علم أنه يؤدى إلى زيادة الشر انقلب إلى معصية ووجب النهى عن ذلك كما يجب النهى عن المنكر " .وقال الشيخ القاسمى : قال ابن الفارس فى الآية : إنه متى خيف من سب الكفار وأصنامهم أن يسبوا الله أو رسوله أو القرآن لم يجز أن يسبوا آلهتهم ولا دينهم ، وهذا أصل فى سد الذرائع " .وقال السيوطى : " وقد يستدل بها على سقوط وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إذا خيف من ذلك مفسدة أقوى وكذا كل مفعول مطلوب ترتب على فعله مفسدة أقوى من مفسدة تركه " .وقال الحاكم : نهوا عن سب الأصنام لوجهين :أحدهما : أنها . - جماد لا ذنب لها .والثانى : أن ذلك يؤدى إلى المعصية بسب الله - تعالى والذى يجب علينا إنما هو بيان بغضها وأنه لا تجوز عبادتها ، وأنها لا تضر ولا تنفع ، وأنها لا تستحق العبادة ، وهذا ليس بسب . ولهذا قال أمير المؤمنين على - يوم صفين - "لا تسبوهم ولكن اذكروا قبيح أفعالهم " .وقال بعض العلماء : ووجه النهى عن سب أصنامهم هو أن السب لا تترتب عليه مصلحة دينية ، لأن المقصود من الدعوة هو الاستدلال على إبطال الشرك وإظهار استحالة أن تكون الأصنام شركاء لله - تعالى - فذلك الذى يتميز به المحق من المبطل ، فأما السب فإنه مقدور للمحق وللمبطل فيظهر بمظهر التساوى بينهما ، وربما استطاع المبطل بوقاحته وفحشه مالا يستطيعه المحق ، فيلوح للناس أنه تغلب على المحق . على أن سب آلهتهم لما كان يحمى غيظهم ويزيد تصلبهم صار منافياً لمراد الله من الدعوة فقد قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم { وَجَادِلْهُم بالتي هِيَ أَحْسَنُ } وأصبح هذا السب متمحضا للمفسدة وليس مشوباً بمصلحة ، وليس هذا مثل تغيير المنكر إذا خيف إفضاؤه إلى مفسدة ، لأن تغيير المنكر مصحلة بالذات وإفضاؤه إلى المفسدة بالعرض . وذلك مجال تتردد فيه أنظار العلماء المجتهدين بحسب الموازنة بين المصالح والمفاسد قوة وضعفاً وتحققاً واحتمالا ، وكذلك القول فى تعارض المصالح والمفاسد كلها وهذه الآية الكريمة ليست منسوخة بآية السيف - كما قيل - وإنما هى محكمة. ولذا قال القرطبى : قال العلماء : حكمها باق فى هذه الأمة على كل حال فمتى كان الكافر فى منعة وخيف أن يسب الإسلام أو النبى صلى الله عليه وسلم أو الله - تعالى - فلا يحل لمسلم أن يسب صلبانهم ولا كنائسهم ، ولا يتعرض إلى ما يؤدى إلى ذلك ، لأنه بمنزلة البعث على المعصية " .وقوله { كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ } .التزيين تفعيل من الزين وهو الحسن والمعنى : مثل ذلك التزيين الذى حمل المشركين على الدفاع عن عقائدهم. الباطلة جهلا منهم وعدوانا ، زينا لكل أمة من الأمم عملهم ، من الخير والشر ، والإيمان والكفر ، فقد مضت سننا فى أخلاق البشر أن يستحسنوا ما تعودوه . وأن يتعلقوا بما ألفوه .وقيل : المراد بكل أمة أمم الفكر لأن الكلام فيهم - والمراد بعملهم . شرورهم ومفاسدهم . والمشبه به تزيين سب الله - تعالى لهم .أى : كما زينا لهؤلاء المشركين سوء أعمالهم زينا لكل أمة من الأمم

الماضية على الضلال عملهم السيء .قال الآلوسى : " وقد استدل بالآية على
أنه - تعالى - هو الذى زين للكافر كفره كما زين للمؤمن إيمانه . وأنكر ذلك
المعتزلة فتأولوا الآية بما لا يخفى ضعفه " .وقال صاحب المنار : فظهر بهذا
التزيين أثر لأعمال اختيارية لا جبر فيها ولا إكراه وليس المراد به أن الله
خلق فى قلوب بعض الأمم تزيينا للكفر والشر ، وفى قلوب بعضها الآخر تزيينا
للإيمان والخير خلقا ابتدائيا من غير أن يكون لهم عمل اختيارى نشأ عنه ذلك
إذ لو كان الأمر كما ذكر لكان الإيمان والكفر والخير والشر من الغرائب ،
الخلقية التى تعد الدعوة إليها والترغيب فيها وما يقابلهما من النهى
والترهيب عنها من العبث الذى يتنزه الله عن إرسال الرسل وإنزال الكتب لأجله
وقد غفلت المعتزلة عن هذا التحقيق فأول بعضهم الآية بأنها خاصة بالمؤمنين.
- الذين زين الله فى قلوبهم الإيمان ، وبعضهم بغير ذلك .ثم ختم الله
تعالى - الآية بقوله : { ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَّرْجِعُهُمْ
فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } أى : ثم إلى ربهم أمورهم
ورجوعهم ومصيرهم بعد البعث ، فيخبرهم من غير تسويف أو تأخير بما كانوا
يعملونه فى الدنيا ، ويجازيهم على ذلك بما يستحقونه . وفى هذه الجملة
الكريمة تهديد وتوبيخ لأولئك المشركين الذين تجاسروا على مقام الله ، وزين
لهم سوء أعمالهم فرأوه حسنا .

واقسموا بالله جهد ايمانهم لئن جاءتهم اية ليؤمنن بها قل انما الايات عند
الله وما يشعركم انها اذا جاءت لا يؤمنون

كما فسرها الوسيط ثم حكى القرآن بعض المقترحات المتعنتة التى كان يقترحها
المشركون على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : { وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ
جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ } .الجهد : الوسع والطاقة من جهد نفسه يجهدها فى
: الأمر إذا بلغ أقصى وسعها وطاقتها فيه . وهو مصدر فى موضع الحال .أى
وأقسم أولئك المشركون بالله مجتهدين فى أيمانهم ، مؤكدين إياها بأقصى ألوان
التأكيد ، معلنين أنهم لئن جاءتهم آية من الآيات الكونية التى اقترحوها
عليك يا محمد ليؤمنن بها أنها من عند الله وأنك صادق فيما تبلغه عن ربك
: وقد لقن الله - تعالى - رسوله صلى الله عليه وسلم الرد المفحم لهم فقال.
أى : قل لهم يا محمد إن هذه الآيات. { قُلْ إِنَّمَا الآيات عِندَ الله }
التى اقترحتموها تعنتا وعنادا مردها إلى الله ، فهو وحده القادر عليها
والمتصرف فيها حسب مشيئته وحكمته ، إن شاء أنزلها وإن شاء منعها ، أما أنا
" : فليس ذلك إلىّ .أخرج ابن جرير - بسنده - عن محمد بن كعب القرظى قال
كلم نفر من قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا له ، يا محمد تخبرنا
، أن موسى كان معه عصا ضرب بها الحجر ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً
وتخبرنا أن عيسى كان يحيى الموتى ، وتخبرنا أن ثمود كانت لهم ناقة فأتنا
" : بآية من هذه الآيات حتى نصدقك ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم
أى شىء تحبون أن آتيكم به "؟ قالوا ، تجعل لنا الصا ذهبا ، فقال لهم" فإن
فعلت تصدقونى "؟ قالوا نعم . والله لئن فعلت لنتبعنك أجمعون فقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم يدعو فجاءه جبريل فقال ، إن شئت أصبح الصفا ذهبا على أن
يعذبهم الله إذا لم يؤمنوا ، وإن شئت فاتركهم حتى يتوب تائبهم ، فقال صلى
الله عليه وسلم" بل أتركهم حتى يتوب تائبهم " ، فأنزل الله - تعالى - قوله
إلى قوله ( ولكن . { وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ } :
أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ) " .وقوله : { وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ
إِذَا جَآءَتْ لاَ يُؤْمِنُونَ } .أى : وما يدريكم أيها المؤمنون الراغبون
فى إنزال هذه الآيات طمعاً فى إسلام هؤلاء المشركين أنها إذا جاءت لا يؤمنون
أى : إذا جاءت هذه الآيات فأنا أعلم أنهم لا يؤمنون وأنتم لا تعلمون ذلك
، ولذا توقعتم إيمانهم ورغبتم فى نزول الآيات .فالخطاب هنا للمؤمنين
والاستفهام فى معنى النفى ، وهو إخبار عنهم بعدم العلم وليس للإنكار عليهم
أى : إنكم إيها المؤمنون ليس عندكم شىء من أسباب الشعور بهذا الأمر الغيبى.
الذى لا يعلمه إلا علام الغيوب وهو أنهم لا يؤمنون إن جاءتهم الآيات التى
يقترحونها على رسول الله صلى الله عليه وسلم تعنتا وجهلا .قال صاحب الكشاف
وما يدريكم { أَنَّهَآ } أى الآية التى تقترحونها { وَمَا يُشْعِرُكُمْ } :
يعنى أنا أعلم أنها إذا جاءت لا يؤمنون { إِذَا جَآءَتْ لاَ يُؤْمِنُونَ }
بها وأنتم لا تدرون بذلك ، وذلك أن المؤمنين كانوا يطمعون فى إيمانهم إذا
جاءت تلك الآية ويتمنون مجيئها ، فقال - عز وجل - وما يدريكم أنهم لا
يؤمنون ، وقيل : إنها بمعنى " لعل " من قول العرب : ائت السوق أنك تشترى
حماراً .وقال امرؤ القيس .عوجا على الطلل المحيل لأننا ... نبكى الديار كما
بكى ابن خذامأى : لعلنا نبكى الديار .وقرىء بكسر " إنها " على أن الكلام قد
: تم قبله بمعنى : وما يشعركم ما يكون منهم؟ ثم أخبرهم بعلمه فيهم فقال
. " إنها إذا جاءت لا يؤمنون البتة

ونقلب افئدتهم وابصارهم كما لم يؤمنوا به اول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون

كما فسرها الوسيط وقوله { وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ
كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ } معطوف على { لاَ
يُؤْمِنُونَ } وداخل معه فى حكم { وَمَا يُشْعِرُكُمْ } مقيد بما قيد به
أى : وما يشعركم أنا نقلب أفئدتهم عن إدراك الحق فلا يفقهونه ، وأبصارهم.
عن اجتلائه فلا يبصرونه ، كشأنهم فى عدم إيمانهم بما جاءهم أول رمة من آيات
وهدايات على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يقترحوا عليه تلك .
المقترحات الباطلة .إنكم إيها المؤمنون لا تدرون ذلك ولا تشعرون به لأنه
علمه عند الله وحده .قال الآلوسى : وهذا التقليب ليس مع توجه الأفئدة
، والأبصار إلى الحق واستعدادها له ، بل لكمال نبوها عنه وإعراضها بالكلية
ولذلك أخر ذكره عن ذكر عدم إيمانهم إشعارا بأصالتهم فى الكفر ، وحسما لتوهم
أن عدم إيمانهم ناشىء من تقليبه - تعالى - مشاعرهم بطريق الإجبار " .وقوله
معطوف على { لاَ { وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ }
يُؤْمِنُونَ } .والعمه : التردد فى الأمر مع الحيرة فيه ، يقال : عمه كفرح
ومنع - عمها إذا تردد وتحير .أى : ونتركهم فى تجاوزهم الحد فى العصيان
. يترددون متحيرين ، لا يعرفون لهم طريقا ، ولا يهتدون إلى سبيل

ولو اننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما
كانوا ليؤمنوا الا ان يشاء الله ولكن اكثرهم يجهلون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن هؤلاء المشركين الذين يزعمون أنهم
} : - لو جاءتهم آية ليؤمنن بها كاذبون فى أيمانهم الفاجرة ، فقال - تعالى
وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ . . . . } .المعنى : ولو أننا يا محمد لم نقتصر
على إيتاء ما اقترحه هؤلاء المشركون من آيات كونية ، بل أضفنا إلى ذلك أننا
نزلنا عليهم الملائكة يشهدون بصدقك وأحيينا لهم الموتى فشهدوا بحقيقة
الإيمان ، وزدنا على ذلك فجمعنا لهم جميع الخلائق مقابلة ومعاينة حتى
يواجهوهم بأنك على الحق ، لو أننا فعلنا كل ذلك ما استقام لهم الإيمان لسوء
استعدادهم وفساد فطرهم ، وانطماس بصيرتهم ، فإن قوما يمرون على تلك الآيات
الكونية التى زخر بها هذا الكون والتى استعرضتها هذه السورة فلا تتفتح لها
بصائرهم ، ولا تتحرك لها مشاعرهم ، ليسوا على استعداد لأن يخالط الإيمان
شغاف قلوبهم ، والذي ينقصهم إنما هو القلب الحى الذى يتلقى ويتأثر ويستجيب
وليس الآيات التى يقترحونها فإن أمامهم الكثير منها ، واقتراحاتهم إنما هى
} نوع من العبث السخيف ، والتعنت المرذول الذى لا يستحق أن يهتم به .و
قُبُلاً } - بضم القاف والباء - حال من " كل شىء " وفيه أوج :الأول : أنه
جمع قبيل بمعنى كفيل مثل قليب وقلب ، أي : وحشرنا عليهم كل شىء من
المخلوقات ليكونوا كفلاء بصدقك .والثانى : أنه مفرد كقبل الإنسان ودبره
فيكون معناه المواجهة والمعاينة ومنه آتيك قبلا لا دبرا أى آتيك من قبل
وجهك والمعنى . وحشرنا عليهم كل شىء مواجهة وعيانا ليشهدوا بأنك على الحق
والثالث : أن يكون قبلا جمع قبيل لكن بمعنى جماعة جماعة أو صنفا صنفا.
والمعنى : وحشرنا عليهم كل شىء فوجا فوجا ونوعا نوعا من سائر المخلوقات
ليشهدوا بصدقك .وجملة { مّا كَانُواْ ليؤمنوا إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله }
جواب لو .أى : لو فعلنا لهم كل ذلك ما كانوا ليؤمنوا فى حال من الأحوال
، بسبب غلوهم فى التمرد والعصيان ، إلى فى حال مشيئة الله إيمانهم فيؤمنوا
لأنه - سبحانه - هو القادر على كل شىء .وقوله { ولكن أَكْثَرَهُمْ
يَجْهَلُونَ } .أى : ولكن أكثر هؤلاء المشركين يجهلون أنهم لو أوتوا كل آية
لم يؤمنوا فهم لذلك يحلفون الأيمان المغلظة بأنهم لو جاءتهم آية ليؤمنن بها
أو يجهلون أن الإيمان بمشيئة الله لا بخوارق العادات .وقيل الضمير يعود .
على المؤمنين فيكون المعنى . ولكن أكثر المؤمنين يجهلون عدم إيمان أولئك
، المشركين عند مجىء الآيات لجهلهم عدم مشيئة الله - تعالى - لإيمانهم
} فيتمنون مجىء الآيات طمعاً فى إيمانهم .قال الشيخ القاسمى : فى قوهل
إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله } حجة واضحة على المعتزلة لدلالته على أن جميع
الأشياء بمشيئة الله - تعالى - حتى الإيمان والكفر . وقد اتفق سلف هذه
. " الأمة وحملة شريعتها على أنه " ما شاء الله كان وما لم يشا لهم يكن
. " والمعتزلة يقولون " إلا أن يشاء الله مشيئة قسر وإكراه

وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الانس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف
القول غرورا ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون

كما فسرها الوسيط ثم سلى الله - تعالى - نبيه عن تعنت المشركين وتماديهم فى
الباطل ببيان أن كل نبى كان له أعداء يسيئون إليه ويقفون عقبة فى طريق
دعوته فقال :{ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ
الإنس والجن } .والمعنى : ومثل ما جعلنا لك يا محمد أعداء يخالفونك
- ويعاندونك جعلنا لكل نبى من قبلك - أيضا - أعداء ، فلا يحزنك ذلك ، قال
تعالى - { مَّا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن
- قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ } وقال

تعالى - { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِّنَ المجرمين
، وكفى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً } والمراد بشياطين الإنس والجن
} المردة من النوعين . والشيطان : كل عات متمرد من الإنس والجن .وجملة
وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوّاً } الخ مستأنفة لتسلية النبى
صلى الله عليه وسلم عما يشاهده من عداوة قريش له ، والكاف فى محل نصب على
أنها نعت لمصدر مؤكد لما بعده .و ( جعل ) ينصب مفعولين أولهما { عَدُوّاً }
، وثانيهما { لِكُلِّ نِبِيٍّ } و { شَيَاطِينَ } بل من المفعول الأول
} وبعضهم أعرب { شَيَاطِينَ } مفعولا أولا و { عَدُوّاً } مفعولا ثانيا ، و
لِكُلِّ نِبِيٍّ } حالا من {عَدُوّاً } .وقوله : { يُوحِي بَعْضُهُمْ إلى
بَعْضٍ زُخْرُفَ القول غُرُوراً } .الوحى : الإعلام بالأشياء من طريق خفى
. دقيق سريع . زخرف القول : باطله الذى زين وموه بالكذب . وأصل الزخرف
الزينة المزوقة ، ومنه قيل للذهب : زخرف ، ولكل شىء حسن مموه : زخرف
والغرور : الخداع والأخذ على غرة وغفلة .والمعنى : يلقى بعضهم إلى بعض
بطرق خفية دقيقة القول المزين المموه الذى حسن ظاهره وقبح باطنه لكى يخدعوا
به الضعفاء ويصرفونهم عن الحق إلى الباطل .والجملة المستأنفة لبيان إحكام
عداوتهم ، أو حال من الشياطين وقد ورد أن النبى صلى الله عليه وسلم أمر
أتباعه أن يستعيذوا بالله من شياطين الإنس والجن ، فعن أبى ذر قال : أتيت
رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مجلس . قد أطال فيه الجلوس فقال : " يا
أبا ذر هل صليت؟ قلت :لا يا رسول الله . قال : قم فاركع ركعتين قال : ثم
جئت فجلست إليه فقال : يا أبا ذر ، هل تعوذت بالله من شياطين الجن والإنس؟
قال : قلت لا يا رسول الله ، وهل للإنس من شياطين؟ قال : نعم ، هم شر من
شياطين الجن " .وقد ساق الإمام ابن كثير عدة روايات عن أبى ذر فى هذا
المعنى ، ثم قال فى نهايتها : فهذه طرق لهذا الحديث ومجموعها يفيد قوته
وصحته " .وقوله : { وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا
يَفْتَرُونَ } .أى : ولو شاء ربك ألا يفعل هؤلاء الشياطين ما فعلوه من
- معاداة الأنبياء ومن الإيحاء بالقول الباطل لتم له ذلك ، لأنه - سبحانه
هو صاحب المشيئة النافذة ، والإرادة التامة ولكنه - سبحانه - لم يشأ أن
يجبرهم على خلاف ما زينته لهم أهواؤهم باختيارهم ، لكى يميز الله الخبيث من
الطيب .فدعهم يا محمد وما يفترون من الكفر وغيره من ألوان الشرور ، فسوف
. يعلمون سوء عاقبتهم

ولتصغى اليه افئدة الذين لا يؤمنون بالاخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم
مقترفون

كما فسرها الوسيط وقوله : { ولتصغى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الذين لاَ
، يُؤْمِنُونَ بِالآخرة } . معطوف على { غُرُوراً } فيكون علة أخرى للإيحاء
: والضمير فى { إِلَيْهِ } يعود إلى زخرف القول .وأصل الصغو : الميل . يقال
صغا يصغو ويصغى صغوا ، وصغى يصغى صغا أى : مال ، وأصغى إليه مال إليه
يسمعه ، وأصغى الإناء : أماله . ويقال : صغت الشمس والنجوم صغوا : مالت إلى
، الغروب .والمعنى : يوحى بعضهم إلى بعضهم زخرف القول ليغروا به الضعفاء
ولتميل إلى هذا الزخرف الباطل من القول قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة
لموافقته لأهوائهم وشهواتهم .وخص عدم إيمانهم بالآخرة بالذكر - مع أنهم لا
يؤمنون بأمور أخرى يجب الإيمان بها - لأن من لم يؤمن بالآخرة وما فيها من
ثواب وعقاب يمشى دائما وراء شهواته وأهوائه ولا يتبع إلا زخرف القول وباطله
} : ثم بين - سبحانه - تدرجهم السىء فى هذا العمل الأثيم فقال.
وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ } .أى : وليرضوا
هذا الفعل الخبيث لأنفسهم بعد أن مالت إليه قلوبهم ، وليقترفوا ما هم
- مقترفون أى : وليكتسبوا ما هم مكتسبون من الأعمال السيئة فإن الله
تعالى - سيجازيهم عليها بما يستحقونه .وأصل القرف والاقتراف . قشر اللحاء
عن الشجر ، والجلدة عن الجرح . واستعير الاقتراف للاكتساب مطلقا ولكنه فى
: الإساءة أكثر . فيقال : قرفته بكذا إذا عبته واتهمته .قال أبو حيان
وترتيب هذه المفاعيل فى غاية الفصاحة ، لأنه أولا يكون الخداع ، فيكون
. الميل ، فيكون الرضا ، فيكون الاقتراف ، فكل واحد مسبب عما قبله

افغير الله ابتغي حكما وهو الذي انزل اليكم الكتاب مفصلا والذين اتيناهم
الكتاب يعلمون انه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين

كما فسرها الوسيط ثم أمر الله - تعالى - رسوله صلى الله عليه وسلم أن يصارح
المشركين بأن الله وحده هو الحكم الحق ، وإن كتابه هو الآية الكبرى الدالة
على صدقه فيما يبلغه عنه فقال - تعالى- : { أَفَغَيْرَ الله . . . . } .روى
أن مشركى مكة قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم واجعل بيننا حكما من
أحبار اليهود أو من أساقفة النصارى ليخبرنا عنك بما فى كتابهم من أمرك فنزل
} : قوله - تعالى - { أَفَغَيْرَ الله أَبْتَغِي حَكَماً } الآية .وقوله
، أَفَغَيْرَ الله أَبْتَغِي حَكَماً } كلام مستأنف على إرادة القول

- والهمزة للإنكار ، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام .والحكم بفتحتين - وهو من يتحاكم إليه الناس ويرضون بحكمه ، وقالوا : إنه أبلغ من الحاكم " وأدل على الرسوخ ، كما أنه لا يطلق إلا على العادل وعلى من تكرر منه الحكم بخلاف الحاكم .والمعنى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين ، أأميل إلى ، زخارف الشياطين ، فأطلب معبودا سوى الله - تعالى - ليحكم بينى وبينكم ويفصل المحق منها من المبطل .وأسند صلى الله عليه وسلم الابتغاء لنفسه لا إلى المشركين ، لإظهار كمال النصفة أو لمراعاة قولهم : إجعل بيننا وبينك حكما .و ( غير ) مفعول ل { أَبْتَغِي } و { حَكَماً } إما أن يكون حالا لغير أو تمييزا له . وجملة { وَهُوَ الذي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الكتاب مُفَصَّلاً } حالية مؤكدة للإنكار أى : أفغير الله أطلب من يحكم بينى وبينكم ، والحال أنه - سبحانه - هو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا ، أى مبينا فيه الحق والباطل ، والحلال والحرام ، والخير والشر ، وغير ذلك من الأحكام التى أنتم فى حاجة إليها فى دينكم ودنياكم ، وأسند الإنزال إليهم لاستمالتهم نحو المنزل واستدعائهم إلى قبول حكمه ، لأن من نزل الشىء من أجله ، من الواجب عليه أن يتقبل حكمه .ثم ساق - سبحانه - دليلا آخر على أن القرآن حق فقال : { والذين آتَيْنَاهُمُ الكتاب يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بالحق } .أى : والذين آتيناهم الكتاب أى التوراة والإنجيل من اليهود والنصارى يعلمون علم اليقين أن هذا القرآن منزل عليك من ربك بالحق . لأنهم يجدون فى كتبهم البشارات التى تبشر بك ، ولأن هذ القرآن الذى أنزله الله عليك مصدق لكتبهم ومهيمن عليها .فهذه الجملة الكريمة تقرير لكون القرآن منزلا من عند الله ، لأن الذين وثق بهم المشركون من علماء أهل الكتاب عالمون بحقيقته وأنه منزل من عند الله .وقوله : { فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الممترين } أى : فلا تكونن من الشاكين فى أن أهل الكتاب يعلمون أن القرآن منزل من عند ربك بالحق ، لأن عدم اعتراف بعضهم بذلك مرده إلى الحسد والجحود ، وهذا النهى إنما هو زيادة فى التوكيد ، وتثبيت لليقين ، كى لا يجول فى خاطره طائف من التردد فى هذا اليقين .قال ابن كثير : وهذا كقوله - تعالى - { فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الذين يَقْرَءُونَ الكتاب مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ الحق مِن رَّبِّكَ ، فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الممترين }قال : وهذا شرط ، والشرط لا يتقضى وقوعه " ولهذا جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لا أشك ولا أسأل وقيل : الخطاب لكل من يتأتى له الخطاب على معنى أنه إذا تعاضدت الأدلة على صحته وصدقه فلا ينبغى أن يشك فى ذلك أحد .وقيل : الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمقصود أمته ، لأنه صلى الله عليه وسلم حاشاه من الشك .

وتمت كلمت ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن هذا الكتاب كامل من حيث ذاته بعد أن - بين كماله من حيث إضافته إليه - تعالى - بكونه منزلا منه بالحق فقال تعالى - : { وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً } وقرىء ( كلمات - ربك ) .والمراد بها - كما قال قتادى وغيره - القرآن .أى : كمل كلامه تعالى - وهو القرآن ، وبلغ الغاية فى صدق أخباره ومواعيده ، وفى عدل أحكامه } وقضاياه .وصدقا وعدلا مصدران منصوبان على الحال من { رَبِّكَ } أو من كَلِمَتُ } وقيل : هما منصوبان على التمييز .وجملة { لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ } مستأنفة لبيان فضل هذه الكلمات على غيرها أثر بيان فضلها فى ذاتها . أى :لا مغير لها بخلف فى الأخبار ، أو نقض فى الأحكام ، أو - تحريف أو تبديل كما حدث فى التوراة والإنجيل ، وهذا ضمان من الله - تعالى لكتابه بالحفظ والصيانة ، قال - تعالى - { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } ثم ختمت الآية بقوله { وَهُوَ السميع العليم أى : هو - سبحانه - السميع لكل ما من شأنه أن يسمع ، العليم بكل ما يسرون { وما يعلنون .

وان تطع اكثر من في الارض يضلوك عن سبيل الله ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون

كما فسرها الوسيط وبعد أن أقام - سبحانه - الأدلة على وحدانيته وصدق نبيه صلى الله عليه وسلم أتبع ذلك بنهيه صلى الله عليه وسلم من الالتفات إلى جهالات أعدائه فقال - تعالى - : { وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأرض يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ الله } .أى : وإن تطع أكثر من فى الأرض من الناس الذين استحبوا العمى على الهدى يضلوك عن الطريق المستقيم ، وعن الدين القويم الذى شرعه الله لعباده ، لأن هؤلاء المجادلين ما يتبعون فى جدالهم وعقائدهم وأعمالهم إلا الظن الذى تزينه لهم أهواؤهم ، وما هم إلا يخرصون أى يكذبون .وأصل الخرص : القول بالظن . يقال : خرصت النخل خرصا - من باب : قتل - حزرت ثمره وقدرته بالظن والتخمين . واستعمل فى الكذب لما يداخله من الظنون الكاذبة ، فيقال : خرص فى قوله - كنصر - أى : كذب .قال صاحب المنار

وهذا الحكم القطعى بضلال أكثر أهل الأرض ظاهر بما بيّنه به من اتباع " : الظن والخرص ولا سيما فى ذلك العصر - تؤيده تواريخ الأمم كلها ، فقد اتفقت ، على أن أهل الكتاب كانوا قد تركوا هداية أنبيائهم وضلوا ضلال بعيداً وكذلك أمم الوثنية التى كانت أبعد عهداً عن هداية رسلهم وهذا من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم وهو أمى لم يكن يعلم من أحوال الأمم إلا شيئاً يسيراً من شئون المجاورين لبلاد العرب خاصة " .

ان ربك هو اعلم من يضل عن سبيله وهو اعلم بالمهتدين

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - { إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بالمهتدين } تقرير للآية السابقة ، وتأكيد لما يفيده مضمونها ، أى : إن ربك الذى لا تخفى عليه خافية هو أعلم منك ومن سائر خلقه بمن يضل عن طريق الحق وهو أعلم منك ومن سائر الخلق - أيضاً - بالمهتدين السالكين صراطه المستقيم ، فعليك - أيها العاقل - أن تكون من فريق المهتدين لتسعد كما سعدوا واحذر أن تركن إلى فريق الضالين ، فتشقى كما شقوا .وبذلك تكون هذه الآيات الكريمة قد قررت أن الله وحده هو الحكم العدل ، وأ ، كتابه هو المهيمن على الكتب السابقة ، وأن أهل الكتب يعرفون ذلك كما يعرفون أبناءهم ، وأنه - سبحانه - قد تكفل بحفظ كتابه من التغيير والتبديل ، وأن الطبيعة الغالبة فى البشر هى اتباع الظنون والأهواء ، لأن طلب الحق متعب ، والكثيرون لا يصبرون على مشقة البحث والتمحيص ، والقليلون هم الذين يتبعون اليقين فى أحكامهم ، والله وحده هو الذى يعلم الضالين والمهتدين من عباده .وبعد أن أقام - سبحانه - الأدلة على وحدانيته وكمال قدرته . وسعة علمه ورد على الشبهات التى أثارها المشركون حول الدعوة الإسلامية بما يخرس ألسنتهم . وأثبت - سبحانه - أنه هو الحكم الحق ، وأن كتابه هو الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأن أكثر أهل الأرض يتبعون الظن فى أحكامهم ، بعد كل ذلك انتقل القرآن إلى الكلام فى مسألة كثر فيها الجدل بين المسلمين والمشركين ، وهى مسألة الذبائح ما ذكر عليه اسم الله منها وما لم يذكر فقال - تعالى - : { فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ . . . . } .

فكلوا مما ذكر اسم الله عليه ان كنتم باياته مؤمنين

كما فسرها الوسيط روى أبو داود بسنده عن ابن عباس قال : أتى ناس إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فقالوا يا رسول الله إنا نأكل ما نقتل ولا نأكل ما يقتل الله - فأنزل الله - { فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسم الله عَلَيْهِ } . إلى قوله { وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ } وذكر الواحدى أن المشركين قالوا : يا محمد أخبرنا عن الشاة إذا ماتت من قتلها فقال الله قتلها . قالوا : فتزعم أن ما قتلت أنت وأصحابك حلال وما قتل الصقر أو الكلاب حلال وما قتله الله حرام فأنزل الله - تعالى - قوله : { فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسم الله عَلَيْهِ } والخطاب فى الآية الآية .والمعنى الكريمة للمؤمنين الذين ضايقهم جدال المشركين لهم فى شأن الذبائح .كلوا أيها المؤمنون مما ذكر اسم الله عليه عند ذبحه واتركوا ما ذكر عليه - اسم غيره كالأوثان أو ما ذبح على النصب ، أو ما ذكر اسم مع اسمه - تعالى أو ما مات حتف أنفه ، ولا تضرنكم مخالفتكم للمشركين فى ذلك فإنهم ما يتبعون فى عقائدهم ومآكلهم وأعمالهم إلا تقاليد الجاهلية وأوهامها التى لا ترتكز على شىء من الحق .والفاء فى قوله : { فَكُلُواْ } يرى الزمخشرى أنها جواب لشرط مقدر والتقدير : إن كنتم محقين فى الإيمان فكلوا ، ويرى غيره أنها معطوفة على محذوف والتقدير " كونوا على الهدى فكلوا " .وقوله : { إِن كُنتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ } أى : إن كنتم بآياته التى من جملتها الآيات الواردة فى هذا الشأن مؤمنين ، فإن الإيمان بها يقتضى استباحة ما أحله سبحانه واجتناب ما حرمه .

وما لكم الا تاكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ما حرم عليكم الا ما اضطررتم اليه وان كثيرا ليضلون باهوائهم بغير علم ان ربك هو اعلم بالمعتدين

كما فسرها الوسيط ثم أنكر - سبحانه - عليهم ترددهم فى أكل ما أحله الله من طعام لأنهم لم يتعودوه قبل ذلك فقال : { وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسم الله عَلَيْهِ } .أى : أى مانع يمنعكم من أن تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه ، وأى فائدة تعود عليكم من ذلك؟ فالاستفهام لإنكار أن يكون هناك شىء يدعوهم إلى اجتناب الأكل من الذبائح التى ذكر اسم الله عليها سواء أكانت تلك الذبائح من البحائر أو السوائب أو غيرها مما حرمه المشركون على أنفسهم بدون علم .وقوله { وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ } جملة حالية مؤكدة للإنكار السابق أى والحال أن الله - تعالى - قد فصل لكم على لسان رسلوكم صلى الله عليه وسلم ما حرمه عليكم من المطعومات

وبين لكم ذلك فى كتابه كما فى قوله - تعالى - { قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَآ ، أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً على طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ الله بِهِ فَمَنِ اضطر غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }إذاً فمن الواجب عليكم أيها المسلمون أن تأكلوا وأنتم مطمئنون من جميع المطاعم التى أحلها الله لكم وذكر اسمه عليها ولو خالفتم فى ذلك المشركين وأن تتجنبوا أكل ما حرمه الله عليكم ولو كان مما يستبيحه المشركون .وقوله { إِلاَّ مَا اضطررتم إِلَيْهِ استثناء مما حرم الله عليهم أكله .أى : إلا أن تدعوكم الضرورة إلى أكل { شىء من هذه المحرمات بسبب شدة الجوع ففى هذه الحالة يباح لكم أن تأكلوا من هذه المحرمات ما يحفظ عليكم حياتكم . هذا هو حكم الله الذى يريد بكم اليسر ولا يريد بكم العسر فعليكم أن تتبعوه ، وألا تلقوا بالا إلى أوهام } المتخرصين وأصحاب الظنون الباطلة . ثم نعى على المشركين جهالاتهم فقال وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ } .قرأ الجمهور " يضلون " بضم الياء ، والمعنى عليه : وإن كثيراً من الكفار ليضلون غيرهم بتحريم الحلال وتحليل الحرام بسبب أهوائهم الزائفة وشهواتهم الباطلة دون أن يكون عندهم أى علم مقتبس من وحى الله ومستنبط من عقل سليم .وقرأ ، ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب " ليضلون " بفتح الياء ، والمعنى عليه : وإن كثيرا من الكفار لينحرفون عن الحق ويقعون فى الضلال بسبب اتباعهم لأهوائهم بغير علم ولا هدلا ولا كتاب منير .وقراءة الجمهور أبلغ فى الذم لأنها تتضمن قبح فعلهم حيث ضلوا فى أنفسهم وأضلوا غيرهم .وقوله : { بِغَيْرِ عِلْمٍ } متعلق بمحذوف وقع حالا أى : يضلون مصاحبين للجهل .وقوله { إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بالمعتدين } أى : أعلم منك يا محمد ومن كل مخلوق بالمتجاوزين لحدود الحق إلى الباطل والحلال والحرام .ففى الجملة الكريمة التفات عن خطاب المؤمنين إلى خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم .قال الإمام الرازى : وقد دلت هذا الآية على أن القول فى الدين بمجرد التقليد حرام ، لأن القول بالتقليد قول بمحض الهوى الشهوة ، والآية دلت على أن ذلك حرام .

وذروا ظاهر الاثم وباطنه ان الذين يكسبون الاثم سيجزون بما كانوا يقترفون

كما فسرها الوسيط ثم أمر الله عباده أن يتركوا ما ظهر من الآثام وما استتر فقال :{ وَذَرُواْ ظَاهِرَ الإثم وَبَاطِنَهُ } أى اتركوا جميع المعاصى ما كان منها سرا وما كان منها علانية ، أو ما كان منها بالجوارج وما كان منها بالقلوب ، لأن الله - تعالى -لا يخفى عليه شىء .ثم بين- سبحانه - عاقبة المرتكبين للآثام فقال : { إِنَّ الذين يَكْسِبُونَ الإثم سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ } أى : إن الذين يعملون المعاصى ويرتكبون القبائح الظاهرة والباطنة لن ينجو من المحاسبة والمؤاخذة بل سيجزون بما يستحقونه من عقوبات بسبب اجتراحهم للسيئات .

ولا تاكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وانه لفسق وان الشياطين ليوحون الى اوليائهم ليجادلوكم وان اطعتموهم انكم لمشركون

كما فسرها الوسيط وبعد أن أمر الله المؤمنين بالأكل مما ذكر اسم الله عليه نهاهم صراحة عن الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه لشدة العناية بهذا الأمر ، فقال - تعالى - :{ وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسم الله عَلَيْهِ } أى :لا تأكلوا أيها المسلمون من أى حيوان لم يذكر عليه اسم ، - الله عند ذبحه ، بأن ذكر عليه اسم غيره ، أو ذكر اسم من اسمه - تعالى أو غير ذلك مما سبق بيانه من المحرمات .وقوله { وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ } جملة حالية والضمير يعود على الأكل من الذى لم يذكر اسم الله عليه ، أى : وإن الأكل من ذلك الحيوان المذبوح الذى لم يذكر اسم الله عليه لخروج عن طاعة الله - تعالى - وابتعاد عن الفعل الحسن إلى الفعل القبيح ، وفى ذلك ما فيه من تنفيرهم من أكل ما لم يذكر اسم الله عليه .ثم كشف للمسلمين عن المصدر الذى يمد المشركين بمادة الجدل حول هذه المسألة فقال : { وَإِنَّ الشياطين لَيُوحُونَ إلى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ } .أى : وإن إبليس وجنوده ليوسوسون إلى أوليائهم الذين اتبعوهم من المشركين ليجادلوكم فى تحليل الميتة وفى غير ذلك من الشبهات الباطلة { وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ } فى : استحلال ما حرمه الله عليكم { إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ } .قال ابن كثير أى : حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه إلى قول غيره فقدمتم عليه غيره فهذا هو الشرك ، كقوله - تعالى - { اتخذوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ الله } الاية ، وقد ورى الترمذى فى تفسيرها عن عدى بن حاتم أنه قال : يا رسول الله ما عبدوهم فقال : " بلى إنهم أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم " .هذا ، وقد استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب إلى أن الذبيحة لا تحل غذا لم يذكر اسم الله عليها وإن كان الذابح مسلما ، وقد اختلف الفقهاء فى هذه المسألة على

ثلاثة أقوال .فمنهم من قال لا تحل الذبيحة التى يترك اسم الله عليها سواء كان الترك عمدا أو سهوا ، وإلى هذا الرأى ذهب ابن عمر ونافع وعامر والشعبى ومحمد بن سيرين ، وداود الظاهرى وفى رواية عن الإمامين مالك وأحمد بن حنبل واحتجوا لمذهبهم هذا بهذه الآية التى وصفت ما ذبح ولم يذكر اسم الله عليه. بأنه فسق ، كما احتجوا بقوله - تعالى - { فَكُلُواْ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ واذكروا اسم الله عَلَيْهِ } وبالأحاديث التى وردت فى الأمر بالتسمية عند الذبيحة والصيد كحديث عدى بن حاتم وفيه " إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله عليه فكل " .وحديث رافع بن خديج وفيه " ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه " .أما القول الثانى فيرى أصحابه أن التسمية ليست شرطا بل هى مستحبة ، وتركها عن عمد أو نسيان لا يضر ، وقد حكى هذا المذهب عن ابن عباس وأبى هريرة وعطاء وهو مذهب الشافعى وأصحابه وفى رواية عن الإمامين مالك وأحمد بن حنبل .وحجتهم أن هذه الآية { وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسم الله عَلَيْهِ .. . } واردة فيما ذبح لغير الله بأن يذكر على الذبيحة اسم الصنم كما كان يفعل المشركون عند ذبائحهم واحتجوا أيضاً بما رواه الدارقطنى عن ابن عباس أنه قال : " إذا ذبح المسلم. ولم يذكر اسم الله فليأكل فإن المسلم فيه اسم من أسماء الله " .أما القول الثالث فيرى أصحابه أن ترك التسمية نسيانا لا يضر ، أما عمدا فلا تحل الذبيحة ، وإلى هذا المذهب ذهب على وابن عباس وسعيد بن المسيب والحسن البصرى وهو المشهور من مذهب أحمد بن حنبل وعليه أبو حنيفة وأصحابه .واحتجوا لمذهبهم بأحاديث منها ما رواه عبد الله بن عمرو عن النبى صلى الله عليه " وسلم أنه قال : " إن الله وضع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه ولعل هذا المذهب أقرب المذاهب إلى الصواب ، لأن المتعمد هو الذى يؤاخذ على. عمله أما الناسى فليس مؤاخذا .وقد تولت بعض كتب التفسير بسط الأقوال فى هذه المسألة فليرجع إليها من شاء .

اومن كان ميتا فاحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون

كما فسرها الوسيط ثم ضرب الله مثلا لحال المؤمن والكافر فقال :{ أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ } .الهمزة للاستفهام الإنكارى ، وهى داخلة على جملة محذوفة للعلم بها من الكلام السابق .والتقدير : أأنتم أيها المؤمنون مثل أولئك المشركين الذين يجادلونكم بغير علم وهل يعقل أن من كان ميتاً فأعطيناه الحياة وجعلنا له نوراً عظيما يمشى به فيما بين الناس آمنا كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها .فالآية الكريمة تمثيل بليغ للؤمن والكافر لتنفير المسلمين عن طاعة المشركين بعد أن نهاهم صراحة عن طاعتهم قبل ذلك فى قوله { وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ } .فمثل المؤمن المهتدى إلى الحق كمن كان ميتا هالكًا فأحياه الله وأعطاه نوراً يستضىء به فى مصالحه ، ويهتدى به إلى طرقه . ومثل الكافر الضال كمن هو منغمس فى الظلمات لا خلاص له منها فهو على الدوام متحير لا يهتدى فكيف يستويان؟والمراد بالنور : القرآن أو الإسلام ، والمراد بالظلمات : الكفر والجهالة وعمى البصيرة . فهو كقوله - تعالى - : { وَمَا يَسْتَوِي الأعمى والبصير وَلاَ الظلمات وَلاَ النور وَلاَ الظل وَلاَ الحَرُورِ وَمَا يَسْتَوِي الأحياء وَلاَ الأموات } وقوله : { كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } أى : مثل ذلك التزيين الذى تضمنته الآية - وهو تزيين نور الهدى للمؤمنين وظلمات الشرك للضالين قد زين للكافرين ما كانوا يعملونه من الآثام كعداوة النبى صلى الله عليه وسلم وذبح القرابين لغير الله - تعالى - وتحليل الحرام ، وتحريم الحلال وغير ذلك من المنكرات .وجمهور المفسرين يرون أن المثل فى الآية عام لكل مؤمن وكل كافر وقيل إن المراد بمن أحياه الله وهداه عمر بن الخطاب ، والمراد بمن بقى فى الظلمات ليس بخارج منها عمرو بن هشام ، فقد أخرج ابن أبى الشيخ أن الآية نزلت فيهما ، وقيل نزلت فى عمار بن ياسر وأبى جهل ، وقيل فى حمزة وأبى جهل والذى نراه أن الآية عامة فى كل من هداه الله إلى الإيمان بعد أن كان. كافراً ، وفى كل من بقى على ضلاله مؤثراً الكفر على الإيمان ويدخل فى ذلك هؤلاء المذكورون دخولا أوليا .

وكذلك جعلنا في كل قرية اكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون الا بانفسهم وما يشعرون

كما فسرها الوسيط ثم سلى الله - تعالى - نبيه صلى الله عليه وسلم ببيان أن المترفين فى كل زمان ومكان هم أعداء الإصلاح ، وأن ما لقيه صلى الله عليه وسلم من أكابر مكة ليس بدعا بل هو شىء رآه الأنبياء قبله على أيدى أمثال هؤلاء المترفين فقال - تعالى - : { وكذلك جَعَلْنَا . . . } .أكابر : جمع أكبر ، وهم الرؤساء والعظماء فى الأمم . والمجرمون : جمع مجرم ، من أجرم إذا اكتسب أمرا قبيحا ، ومنه الجرم والجريمة للذنب والإثم .والمعنى : وكما

جعلنا فى قريتك مكة رؤساء دعاة إلى الكفر وإلى عداوتك جعلنا فى كل قرية من قرى الرسل من قبلك رؤساء من المجرمين مثلهم ليمكروا فيها ، ويتجبروا على الناس ، ثم كانت العاقبة للرسل ، فلا تبتئس يا محمد مما يصيبك من زعماء مكة فتلك طبيعة الحياة فى كل عصر ، أن يكون زعماء الأمم وكبراؤها أشد الناس عداوة للرسل والمصلحين .قال الجمل : وقوله : { أَكَابِرَ } مفعول أول لجعل وأكابر مضاف ومجرميها مضاف إليه ، و { فِي كُلِّ قَرْيَةٍ } المفعول الثانى لجعل ، ووجب تقديمه ليصح عود الضمير عليه ، فهو على حد قوله :كذا إذا عاد عليه مضمر ... مما به عنه مبينا يخبرهذا أحسن الأعاريب وهناك أوجه أخرى للأعراب لا تخلو من مقال .وخص الأكابر بالمكر ، لأنهم هم الحاملون لغيرهم على الضلال ، وهم الذين يتبعهم الضعفاء فى كفرهم وفجورهم .قال ابن كثير : والمراد بالمكر هنا دعاؤهم غيرهم إلى الضلالة بزخرف من المقال والفعال كقوله - تعالى - إخباراً عن قوم نوح { وَمَكَرُواْ مَكْراً كُبَّاراً } وكقوله : { وَلَوْ ترى إِذِ الظالمون مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ القَولَ يَقُولُ الذين استضعفوا لِلَّذِينَ استكبروا لَوْلاَ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ قَالَ الذين استكبروا لِلَّذِينَ استضعفوا أَنَحْنُ صَدَدنَاكُمْ عَنِ الهدى بَعْدَ إِذْ جَآءَكُمْ بَلْ كُنتُمْ مُّجْرِمِينَ وَقَالَ الذين استضعفوا لِلَّذِينَ استكبروا بَلْ مَكْرُ الليل والنهار إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بالله وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَاداً } الآية . وقوله - سبحانه - { وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ } .أى وما يمكر أولئك الأكابر المجرمون الذين يعادون الرسل والمصلحين فى كل وقت إلا بأنفسهم ، حيث يعود ضرره عليهم وحدهم فى الدنيا والآخرة ولكنهم لانطماس بصيرتهم ، لا يشعرون بأن مكرهم سيعود عليهم ضرره ، بل يتوهمون أنهم سينجون فى مكرهم بغيرهم من الأنبياء والمصلحين .فالجملة الكريمة بيان لسنة من سنن الله فى خلقه ، وهى أن المكر السىء لا يحيق إلا بأهله ، وفى ذلك تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم عما يصيبه منهم ، وبشارة له ، ولأصحابه بالنصر عليهم ، ووعيد لأولئك الماكرين بسوء المصير .وجملة { وَمَا يَشْعُرُونَ } حال من ضمير يمكرون ، وهى تسجل عليهم بلاهتهم وجهالتهم حيث فقدوا الشعور بما من شأنه أن يعترف به كل عاقل .

واذا جاءتهم اية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما اوتي رسل الله الله اعلم حيث يجعل رسالته سيصيب الذين اجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون

كما فسرها الوسيط ثم حكى القرآن لوناً من ألوان مكرهم فقال : { وَإِذَا جَآءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حتى نؤتى مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ الله } .أى : وإذا جاءت أولئك المشركين الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم " لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها " حجة قاطعة تشهد بصدقك يا محمد فيما تبلغه عن ربك ، قالوا حسدا لك ، لن نؤمن لك يا محمد حتى تعطى من الوحى والرسالة مثلما أعطى رسل الله ، وأضافوا الإيتاء إلى رسل الله ، لأنهم لا يعترفون بما أوتيه صلى الله عليه وسلم من الوحى والرسالة .روى أن الوليد بن المغيرة قال للنبى صلى الله عليه وسلم : لو كانت النبوة حقا لكنت أنا أولى بها منك لأنى أكبر منك سناً وأكثر مالا فأنزل الله هذه الآية " .وقال مقاتل نزلت فى أبى جهل وذلك أنه قال : زاحمنا بنو عبد المطلب فى الشرف حتى إذا : صرنا كفرسى رهان قالوا : منا نبى يوحى إليه ، والله لا نؤمن به ولا نتبعه - أبدا إلا أن يأتينا وحى كما يأتيه ، فأنزل الله هذه الآية " .وقد رد الله تعالى - على هؤلاء الحاسدين ردا حاسما فقال : { الله أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ } أى : أن للرسالة موضوعا مخصوصا لا يصلح وضعها إلا فيه ، فمن كان مخصوصاً موصوفا بتلك الصفات لأجلها يصلح وضع الرسالة فيه كان رسولا وإلا فلا ، والعالم بتلك الصفات ليس إلا الله - تعالى - ثم قال : وفى هذه الجملة الكريمة تنبيه على دقيقة أخرى وهى أن أقل ما لا بد منه فى حصول النبوة والرسالة والبراءة عن المكر والغدر والغل والحسد ، وقوله { لن نُّؤْمِنَ حتى نؤتى مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ الله } عين المكر والغدر والغل والحسد ، فكيف يعقل حصول النبوة والرسالة مع هذه الصفات " .وهذه الجملة حجة لأهل الحق على أن الرسالة هبة من الله يختص بها من يشاء من عباده ، ولا ينالها أحد بكسبه ولا بذكائه ولا بنسبه .ولذا قال الإمام الآلوسى : وجملة { الله أَعْلَمُ } . . . الخ . استئناف بيانى ، والمعنى : أن منصب الرسالة ليس مما ينال بما يزعمونه من كثرة المال والولد ، وتعاضد الأسباب والعدد ، وإنما ينال بفضائل نفسانية ، ونفس قدسية أفاضها الله - تعالى - بمحض الكرم والجود على من كمل استعدادهم " .هذا . وقد وردت أحاديث كثيرة تحدث النبى صلى الله عليه وسلم فيها عن اصطفاء الله له وفضله عليه ، ومن ذلك ما رواه الإمام مسلم عن وائلة ابن الأسقع قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله - عز وجل - اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من بنى إسماعيل بنى كنانة ، واصطفى من بنى كنانة قريشا ، واصطفى من

قريش بنى هاشم ، واصطفى من بنى هاشم محمدا صلى الله عليه وسلم " .وروى
الإمام أحمد عن المطلب عن أبى وداعة عن العباس عن رسول الله صلى الله عليه
، وسلم قال : " إن الله خلق الخلق فجعلنى فى خير خلقه ، وجعلهم فريقين
، فجعلنى فى خير فرقة ، وخلق القبائل فجعلنى فى خير قبيلة ، وجعلهم بيوتا
- فجعلنى فى خيرهم بيتا ، فأنا خيركم بيتا وخيركم نفسا " .ثم بين - سبحانه
عاقبة أولئك الماكرين الحاسدين للنبى - صلى الله عليه وسلم - على ما آتاه
الله من فضله فقال : { سَيُصِيبُ الذين أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ الله
: وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ } .قال القرطبى ما ملخصه
الصغار : الضيم والذل والهوان . والمصدر الصغر بالتحريك - وأصله من الصغر
دون الكبر فكأن الذل يصغر إلى المرء نفسه وقيل : أصله من الصغر وهو الرضا
بالذل . والصاغر : الراضى بالذل . وأرض مصغرة : نبتها صغير لم يطل . ويقال
: صغر - بالكسر - يصغر صغراً وصغاراً فهو صاغر إذا ذل وهان " .والمعنى :
سيصيب الذين أجرموا بعد تكبرهم وغرورهم وتطاولهم ذل عظيم وهوان شديد ثابت
لهم عند الله فى الدنيا والآخرة ، وبسبب مكرهم المستمر ، وعدائهم الدائم
لرسل الله وأوليائه .والجملة الكريمة استئناف آخر ناع على أولئك الماكرين
ما سيلقونه من ألوان العقوبات بعد ما نعى عليهم حرمانهم مما أنكره من
إيتائهم مثل ما أوتى رسل الله ، والسين للتأكيد .والعندية فى قوله " عند
الله " مجاز عن حشرهم يوم القيامة ، أو عن حكمه سبحانه - وقضائه فيهم بذلك
كقولهم : ثبت عند فلان القاضى كذا أى : فى حكمه ، ولذا قدم الصغار على ،
العذاب لأنه يصيبهم فى الدنيا .قال ابن كثير : ولما كان المرك غالبا إنما
يكون خفيا ، وهو التلطف فى التحيل والخديعة ، قوبلوا بالعذاب الشديد من
الله يوم القيامة جزاء وفاقا ولا يظلم ربك أحداً . وجاء فى الصحيحين عن
رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ينصب لكل غادر لواء عند إسته يوم
القيامة فيقال : هذه غدرة فلان بن فلان " والحكمة فى ذلك أنه لما كان الغدر
خفيا لا يطلع عليه الناس ، فيوم القيامة يصير علما منشوراً على صاحبه بما
. " فعل

فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد ان يضله يجعل صدره ضيقا
حرجا كانما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - حال المستعد لهداية الإسلام ، وحال
المستعد للضلال فقال :{ فَمَن يُرِدِ الله أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ
صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ } .أى : فمن يرد الله أن يهديه للإسلام ، ويوفقه له
يوسع صدره لقبوله ، ويسهله له بفضله وإحسانه .وشرح الصدر : توسعته ، يقال ،
شرح الله صدره فانشرح ، أى : وسعه فاتسع ، وهو مجاز أو كناية عن جعل :
النفس مهيأة لحلول الحق فيها . مصفاة عما يمنعه وينافيه .روى عبد الرازق أن
النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن هذه الآية : كيف يشرح صدره؟ فقال : " نور
: يقذف فينشرح له وينفسح ، قالوا : فهل لذلك من أمارة يعرف بها؟ قال
الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافة عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل
لقاء الموت " .وقوله : { وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ
ضَيِّقاً حَرَجاً } أى ومن يرد أن يضله لسوء اختياره ، وإيثاره الضلالة على
الهداية يصير صدره ضيقا متزايد الضيق لا منفذ فيه للإسلام .والحرج : مصدر
، حرج صدره حرجا فهو حرج ، أى : ضاق ضيقا شديداً . وصف به الضيق للمبالغة
كأنه نفس الضيق ، وأصل الحرج مجتمع الشىء ويقال : للحديقة الملتفة الأشجار
التى يصعب دخولها حرجة .وقرىء حرجا - بكسر الراء - صفة لقوله { ضَيِّقاً }
روى أن جماعة من الصحابة قرأوا أمام عمر - رضى الله عنه - " ومن يرد أن.
يضله يجعل صدره ضيقا حرجا " بكسر الراء فقال عمر : يا فتى ما الحرجة فيكم؟
قال الحرجة فينا الشجرة تكون بين الأشجار التى لا تصل إليها راعية ولا
} وحشية . فقال عمر : كذلك قلب المنافق لا يصل إليه شىء من الخير " .وقوله
كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السمآء } استئناف ، أو حال من ضمير الوصف ، أو
وصف آخر لقلب الضال ، والمراد المبالغة فى ضيق صدره حيث شبه بمن يزاول ما
: لا يقدر عليه ، فإن صعود السماء مثل فيما هو خارج عن دائرة الاستطاعة .أى
. كأنما إذا دعى إلى الإسلام قد كلف الصعود إلى السماء وهو لا يستطيعه بحال
ويصعد أى : يتصعد ، بمعنى يتكلف الصعود فلا يقدر عليه .وفيه إشارة إلى أن
الإيمان يمتنع منه كما يمتنع منه الصعود .وقوله : { كذلك يَجْعَلُ الله
الرجس عَلَى الذين لاَ يُؤْمِنُونَ } أى : مثل جعل الصدر ضيقا حرجا
بالإسلام ، يجعل الله الرجس . أى : العذاب ، أو الخذلان ، أو اللعنة فى
. الدنميا على الذين لا يؤمنون بالإسلام

وهذا صراط ربك مستقيما قد فصلنا الايات لقوم يذكرون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن طريق الإسلام هو الطريق الحق
المستقيم فقال :{ وهذا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً } أى : وهذا البيان
الذى جاء به القرآن ، أو سبيل التوحيد ، وإسلام الوجه إلى الله ، هو طريق

ربك الواضح المستقيم الذى ارتضاه لعباده ، والذى لا ميل فيه إلى إفراط أو تفريط فى الاعتقادات والأخلاق والأعمال .و { مُسْتَقِيماً } حال مؤكدة لصاحبها وعاملها محذوف وجوبا مثل : هذا أبوك عطوفا ، وقيل حال مؤسسة والعامل فيها معنى الإشارة أو ( ها ) التى للتنبيه .وقوله : { قَدْ فَصَّلْنَا الآيات لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ } أى : جعلناها بينة واضحة مفصلة لقوم يتذكرون ما فيها من هدايات وإرشادات فيعملون بها لينالوا السعادة فى الدنيا والآخرة .

لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما أعده للمتذكرين فقال : { لَهُمْ دَارُ . . . } .أى : أن هؤلاء المتذكرين المتقين لهم جنة عرضها السموات والأرض فى جوار ربهم وكفالته ، وهو - سبحانه - { وَلِيُّهُمْ } أى : متولى إيصال الخير إليهم ، أو محبهم أو ناصرهم بسبب أعمالهم الصالحة . وسميت الجنة بدار السلام ، لأن جميع حالاتها مقرونة بالسالمة من جميع المكاره قال الجمل : وقوله { عِندَ رَبِّهِمْ } فى المراد بهذه العندية وجوه. } أحدها : أنها معدة عنده كما تكون الحقوق معدة مهيأة حاضرة كقوله: جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ } وثانيها : أن هذه العندية تشعر بأن هذا الأمر المدخر موصوف بالقرب من الله بالشرف والرتبة لا بالمكان والجهة } لتنزهه - تعالى - عنهما .وثالثهما : هى كقوله - تعالى - فى صفة الملائكة وَمَنْ عِنْدَهُ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ } وقوله : أنا عند المنكسر قلوبهم وأنا عند ظن عبدى بى " .ثم بين - سبحانه - جانبا من أحوال الظالمين يوم القيامة عند ما يقفون أمام ربهم للحساب فقال :

ويوم يحشرهم جميعا يا معشر الجن قد استكثرتم من الانس وقال اولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا اجلنا الذي اجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها الا ما شاء الله ان ربك حكيم عليم

كما فسرها الوسيط { وَيَوْمَ يحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَامَعْشَرَ الجن قَدِ استكثرتم مِّنَ الإنس وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الإنس } .ففى هذه الآيات عرض مؤثر زاخر بالحوار والاعتراف والمناقشة والحكم تحكيه السورة الكريمة وهى تصور مشاهد المجرمين يوم القيامة .وقوله : { وَيَوْمَ يحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَامَعْشَرَ الجن قَدِ استكثرتم مِّنَ الإنس وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الإنس } .المعشر : الجماعة الذين يعاشر بعضهم بعضا أو : الذين يربطهم أمر مشترك بينهم والمراد بالجن شياطينهم ومردتهم .والمعنى واذكر يا محمد - أو أيها العاقل - يوم نحشر الضالين والمضلين جميعا من : الإنس والجن ، فنقول للمضلين من الجن : { قَدِ استكثرتم مِّنَ الإنس } أى قد أكثرتم من إغوائكم الإنس وإظلالكم إياهم ، أو قد أكثرتم منهم بأن جعلتموهم أتباعكم ، وأهل طاعتكم ، ووسوستم لهم بالمعاصى حتى غررتموهم وأوردتموهم هذا المصير الأليم .و " يوم " منصوب على الظرفية والعامل فيه مقدر ، أى : اذكر يوم نحشرهم جميعاً . والضمير المنصوب فى " نحشرهم " لمن يحشر من الثقلين . وقيل للكفار الذين تتحدث عنهم هذه الآيات .ووجه الخطاب إلى معشر الجن ، لأنهم هم الأصل فى إضلال أتباعهم من الإنس ، وهم السبب فى صدقهم عن السبيل القويم .والمقصود من هذا القول لهم توبيخهم وتقريعهم على ما كان يصدر منهم من إغواء الغافلين من الإنس .وهنا يحكى القرآن رد الضالين من الإنس على هذا التوبيخ فيقول : { وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الإنس رَبّنَا استمتع بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا الذي أَجَّلْتَ لَنَا } .أى : وقال الذين أطاعوهم وانقادوا لهم من الإنس يا ربنا ، لقد استمتع بعضنا ببعض .أى : انتفع الإنس بالجن حيث دلوهم على المفاسد وما يوصل إليها ، وانتفع الجن بالإنس ، حيث أطاعوهم واستجابوا لوسوستهم ، وخالفوا أمر ربهم .وقال الحسن : ما كان استمتاع بعضهم ببعض إلا أن الجن أمرت وعملت الإنس .أى : فالجن نالت التعظيم منهم فعبدت ، والإنس بوسوستهم تمتعوا بإيثار الشهوات الحاضرة على اللذات الغائبة .وقيل : استمتاع الإنس بالجن معناه أن الرجل فى الجاهلية كان إذا سافر فنزل بأرض قفر خاف على نفسه من الجن فيقول . أعوذ بسيد هذا الوداى من شر سفهاء قومه ، فيبيت فى جوارهم ، وأما استمتاع الجن بالإنس فهو أنهم قالوا . سدنا الإنس حتى عاذوا بنا فيزدادون بذلك شرفا فى قومهم وعظما فى أنفسهم .وقيل : استمتاع الإنس بالجن هو ما كانوا يلقون إليهم من الأراجيف والسحر والكهانة ، واستمتاع الجن بالإنس هو طاعة الإنس لهم فيما يزينون لهم من المعاصى فصاروا كالرؤساء لهم والذى نراه . أن استماع الجن بالإنس والإنس بالجن يتناول كل ذلك ، حيث انتفع كل فريق من صاحبه باللذة العاجلة التى أوردته إلى سوء المصير .وقولهم هذا ، هو تحسر منهم على حالهم ، إذ قالوه اعترافا بما فعلوه من طاعة للشياطين واتباع الهوى ، وتكذيب أمر البعث .وإنما قال الأتباع من الإنس هذا القول مع أن الخطاب موجه إلى المتبوعين من شياطين الجن ، للإيذان بأن

شياطين الجن قد أفحموا . ولم يستطيعوا أن ينطقوا أو يجيبوا . ثم أتبعوا
تحسرهم هذا بتحسر آخر وهو قولهم : " وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا " .أى " ها
. نحن يا ربنا قد استمتع بعضنا ببعض فى الدنيا عن طريق الشهوات المحرمة
واللذات الفانية القبيحة ، وها نحن قد وصلنا بعد استمتاع بعضنا ببعض إلى
الأجل الذى حددته لنا ، وهو يوم القيامة والجزاء . ونحن فى أقبح صورة وأسوأ
عيش .وهنا يأتيهم الرد الحاسم . والحكم النافذ من الله العلى الكبير . حيث
يقول - سبحانه - { قَالَ النار مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَآ إِلاَّ مَا
شَآءَ الله } .مثواكم : الثواء مع الإقامة مع الاستقرار . يقال : ثوى يثوى
- ثواء أى : استقر ، والثوية مأوى الغنم .والمعنى : قال الله - تعالى
لهؤلاء الظالمين المعترفين على أنفسهم بارتكاب الموبقات : النار منزلكم
ومحل إقامتكم الدائمة . فأنتم خالدين فيها فى كل وقت إلا فى وقت مشيئة الله
بخلاف ذلك ، لأن الأمور كلها متروكة إليه ، وخاضعة لمشيئته .والأرجح أن
: المراد بهذا الاستثناء وبنظائره فى آيات أخر ، المبالغة فى الخلود .أى
. أنه لا ينتفى فى وقت ما إلا وقت مشيئته - تعالى - وهو سبحانه لا يشاء ذلك
فقد أخبر فى آيات متعددة من كتابه أن هؤلاء الكفار لا يخرجون من النار أبدا
وفى إيراد هذا المعنى بتلك الصورة ، بلاغ للناس بأن مرد الأمور كلها إلى.
مشيئة الله ، وأن خلود المشركين فى نار جهنم إنما هو بمحض مشيئته ، ولو شاء
غير ذلك ما خلدوا ، وفيه إلى جانب ذلك تنكيل آخر بهؤلاء الأشقياء لأنهم قد
صاروا فى حيرة دائمة من أمرهم .تجعلهم مشتتين بين الطمع فى الخروج مما هم
، فيه ، واليأس منه .وهذا التفسير للجملة الكريمة هو الذى نختاره ونرجحه
} : وهناك وجوه أخرى فى تفسيرها منها ما ذهب إليه الزمخشرى حيث قال :وقوله
خَالِدِينَ فِيهَآ إِلاَّ مَا شَآءَ الله } أى : يخلدون فى عذاب النار
الأبد كله إلا الأوقات التى ينقلون فيها من عذاب النار إلى عذاب الزمهرير
، فقد روى أنهم يدخلون وادياً فيه من الزمهرير ما يميز بعض أوصالهم من بعض
فيتعاوون ويطلبون الرد إلى الجحيم ، أو أن يكون من قول الموتور - أى
المظلوم - الذى ظفر بواتره ، ولم يزل يحرق عليه أنيابه ، وقد طلب أن ينفس
عن خناقه . أهلكنى الله إن نفست عنك إلا إذا شئتُ ، علم أنه لا يشاء إلى
التشفى منه بأقصى ما يقدر عليه من التعنت والتشديد . فيكون قوله إلا إذا
شئت من أشد الوعيد مع تهكم بالموعد لخروجه فى صورة الاستثناء الذى فيه
إطماع .ومنها : ما نقل عن ابن عباس أنه - تعالى - استثنى قوما قد سبق فى
علمه أنهم يدخلون فى الإسلام ، وهو مبنى على أن الاستثناء . ليس من المحكى
وأن " ما " بمعنى " من " .ومنها : أنهم تفتح لهم أبواب الجنة ويخرجون من
النار فإذا توجهوا للدخول أغلقت فى وجوههم استهزاء بهم . فهم فيها إلا
الوقت الذى يخرجون منها متجهين إلى الجنة حيث تقفل فى وجوههم ليكون ذلك
أعظم فى حسرتهم .ومنها : أن هذا الاستثناء إشارة إلى فناء النار . أى : إلا
وقت مشيئة الله فناءها وزوال عذابها . وهى مسألة خلافية بين العلماء .وهناك
أقوال أخرى لا مجال لذكرها . والقول الذى نرجحه ونعتمده هو الذى سقناه أولا
كما أشرنا إلى ذلك من قبل لأنه قول المحققين من العلماء؛ ولأنه يتناسب مع
ما يليق بذات الله من كمال قدرته . ونفاذ إرادته .وجملة " إن ربك حكيم عليم
تسلية لبيان ما تقتضيه حكمته وإرادته . أى : إن ربك حكيم فى التعذيب "
والإثابة وفى كل أفعاله . عليم بأحوال الثقلين وأعمالهم وبما يلي بها من
. جزاء

وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون

كما فسرها الوسيط ثم يعقب القرآن على هذا الاستمتاع المتبادل بين الضالين
والمضلين من الجن والإنس فيقول : { وكذلك نُوَلِّي بَعْضَ الظالمين بَعْضاً
بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } .ونولى : من الولاية بمعنى القرابة ، والنصرة
والمحالفة وما إلى ذلك من أنواع الاتصال .أى : ومثل ما سبق من تمكين الجن ،
من إغواء الإنس وإضلالهم لما بينهم من التناسب والمشاكلة ، نولى بعض
الظالمين من الإنس بعضا آخر منهم بأن نجعلهم يزينون لهم السيئات ، ويؤثرون
فيهم بالإغواء . بسبب ما كانوا مستمرين على اكتسابه من الكفر والمعاصى .قال
الإمام الرازى : " لأن الجنسية علة الضم " فالأرواح الخبيثة تنضم إلى ما
يشاكلها فى الخبث . وكذا القول فى الأرواح الطاهرة ، فكل أحد يهتم بشأن من
يشاكله فى النصرة والمعونة والتقوية .ثم قال : والآية تدل على أن الرعية
متى كانوا ظالمين فالله - تعالى - يسلط عليهم ظالما مثلهم . فإن أرادوا أن
يتخلصوا من ذلك الأمير الظالم فليتركوا الظلم " .وقال ابن كثير : معنى
الآية الكريمة : كما ولينا هؤلاء الخاسرين من الإنس تلك الطائفة التى
أغوتهم من الجن ، كذلك نفعل بالظالمين ، نسلط بعضهم على بعض ، ونهلك بعضهم
ببعض ، وننتقم من بعضهم ببعض جزاء على ظلمهم وبغيهم " .وقال الفضيل بن عياض
إذا رأيت ظالما ينتقم من ظالم . فقف وانظر فيه متعجبا .فالآية الكريمة :
تصور لنا مشهدا واقعا فى حياة الأمم ، وهو أن الظالمين من الناس يوالى
بعضهم بعضا ، ويناصر بعضهم بعضا ، بسبب ما بينهم من صلات فى المشارب
والأهداف والطباع وأن الأمة التى لا تتمسك بمبدأ العدالة بل تسودها روح

الظلم والاعتداء يكون حكامها عادة على شاكلتها لأن الحاكم الظالم لا يستطيع البقاء عادة فى مجتمع أفراده تسودهم العدالة والشجاعة فى الحق .

يا معشر الجن والانس الم ياتكم رسل منكم يقصون عليكم اياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على انفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على انفسهم انهم كانوا كافرين

كما فسرها الوسيط والآية فى الوقت ذاته تهدد الظالمين ، وتتوعدهم بسوء المصير إذا لم يقلعوا عن ظلمهم ، ويثوبوا إلى رشدهم ، ويقيدوا أنفسهم بمبدأ العدالة ورعاية الحق ثم بعد هذا التعقيب بتلك الآية التى بينت طبيعة الأشرار يعود القرآن إلى سؤال الإنس والجن فيقول : { يَا مَعْشَرَ الجن والإنس أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هذا } ؟قال الإمام ابن جرير : وهذا خبر من الله - جل ثناؤه - عما هو قائل يوم القيامة ، لهؤلاء العادلين به من مشركى الإنس والجن ، يخبر أنه - تعالى - يقوله لهم : { يَا مَعْشَرَ الجن والإنس أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي } ، يقول : يخبرونكم بما أوحى إليهم من تنبيهى إياكم على مواضع حججى وتعريفى لكم أدلتى على توحيدى وتصديقى أنبيائى والعمل بأمرى والانتهاء إلى حدودى ، { وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هذا } يقول : يحذرونكم لقاء عذابى فى يومكم هذا وعقابى على معصيتكم إياى فتنتهوا عن معاصى ، وهذا من الله - تعالى - تقريع لهم وتوبيخ على ما سلف منهم فى الدنيا من الفسوق والمعاصى ومعناه ، قد أتاكم رسل منكم ينبهونكم على خطأ ما كنتم عليه مقيمين } بالحجج البالغة ، وينذرونكم وعيد الله ، فلم تقبلوا ولم تتذكروا " .وقوله { رُسُلٌ مِّنْكُمْ } استدل به من قال إن الله قد أرسل رسلا من الجن إلى أبناء جنسهم إلا أن جمهور العلماء يخالفون ذلك ويرون أن الرسل جميعا من الإنس ، وإنما قيل : رسل منكم لأنه لما جمع الثقلان فى الخطاب صح ذلك وإن كان من أحدهما ، كقوله : " يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ، وإنما يخرجان من أحدهما وهو الماء الملح دون العذب .قال أبو السعود : والمعنى : ألم يأتكم رسل من جملتكم : لكن لا على أنهم من جنس الفريقين معاً بل من الإنس خاصة ، وإنما جعلوا منهما إما لتأكيد وجوب اتباعهم ، والإيذان بتقاربهما ذاتا واتحادهما تكليفا وخطابا .كأنهما من جنس واحد ، ولذلك تمكن أحدهما من إضلال الآخر ، وإما لأن المراد بالرسل ما يعم رسل الرسل ، وقد ثبت أن الجن استمعوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم وأنذروا بما سمعوه . أقوامهم ، إذ حكى القرآن عنهم أنهم { وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ } وأنهم قالوا لهم : { إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً } وقال صاحب المنار ، وجملة القول فى الخلاف أنه ليس فى المسألة نص قطعى ، والظواهر التى استدل بها الجمهور يحتمل أن تكون خاصة برسل الإنس ، لأن الكلام معهم ، وليست أقوى من ظاهر ما استدل به من قال إن الرسل من الفريقين . والجن عالم غيبى لا نعرف عنه ألا ما ورد به النص . وقد دل القرآن وكذا السنة على رسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إليهم ، فنحن نؤمن بما ورد ونفوض الأمر فيما عدا ذلك إلى الله - تعالى - " .ثم يحكى القرآن أنهم قد شهدوا على أنفسهم بالكفر فقال : { قَالُواْ شَهِدْنَا على أَنْفُسِنَا } أن الرسل قد بشرونا وأنذرونا ، ولم يقصروا فى تبليغنا وإرشادنا .وقوله - سبحانه - { وَغَرَّتْهُمُ الحياة الدنيا } أى غرهم متاع الحياة الدنيا من الشهوات والمال والجاه وحب الرياسة ، فاستحبوا العمى على الهدى ، وباعوا آخرتهم بدنياهم . { وَشَهِدُواْ على أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ } أى : شهدوا على أنفسهم عندما وقفوا بين يدى الله للحساب فى الآخرة أنهم : كانوا كافرين فى الدنيا بما جاءتهم به الرسل .قال صاحب الكشاف : فإن قلت ما لهم مقرين فى هذه الآية - على أنفسهم بالكفر - جاحدين فى قوله { والله رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ } قلت : يوم القيامة يوم طويل ، والأحوال فيه مختلفة فتارة يقرون وأخرى يجحدون ، وذلك يدل على شدة خوفهم واضطراب أحوالهم ، فإن على أفواههم . فإن قلت : لم كرر ذكر شهادتهم على أنفسهم؟ قلت الأولى : حكاية لقولهم كيف يقولون ويعترفون .والثانية : ذم لهم وتخطئة: لرأيهم ووصف لقلة نظرهم لأنفسهم وأنهم قوم غرتهم الحياة الدنيا واللذات ، الحاضرة وكانت عاقبة أمرهم أن اضطروا إلى الشهادة على أنفسهم بالكفر ، والاستسلام لربهم ، وإنما قال ذلك تحذيراً للسامعين من مثل حالهم " .هذا وإنك لتقرأ هذه الآية الكريمة وغيرها من الآيات التى تصور مشهداً من مشاهد يوم القيامة فيخيل إليك أنك أمام مشهد حاضر أمام عينيك ترى فيه الظالمين وحسراتهم ، والضالين والمضلين وهم يتبادلون التهم وذلك من إعجاز القرآن الكريم وأنه من عند الله ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً .

ذلك ان لم يكن ربك مهلك القرى بظلم واهلها غافلون

كما فسرها الوسيط ثم يحدثنا القرآن بعد ذلك عن عدالة الله فى أحكامه ، وعن
سعة غناه ورحمته ، وعن حسن عاقبة المؤمنين ، وسوء مصير الكافرين فيقول :
{ ذلك أَن لَّمْ يَكُنْ . . . . } .قال الآلوسى :" ذلك " إشارة إلى إتيان
الرسل ، أو السؤال المفهوم من { أَلَمْ يَأْتِكُمْ } أو ما قص من أمرهم
، أعنى شهادتهم على أنفسهم بالكفر وهو إما مرفوع على أنه خبر مبتدأ مقدر أى :
الأمر ذلك ، أو مبتدأ خبره مقدر ، أو خبره قوله - سبحانه - { أن لَّمْ
يَكُنْ رَّبُّكَ مُهْلِكَ القرى } بخلاف اللام على أن { أن } مصدرية ، أو
مخففة من أن وضمير الشأن اسمها .وإما منصوب على أنه مفعول به لفعل مقدر كخذ
ذلك ، أو فعلنا ذلك .وفى قوله { بِظُلْمٍ } متعلق بمهلك أى : بسبب ظلم . أو
بمحذوف وقع حالا من القرى أى : ملتبسة بظلم . . . " .والمعنى : ذلك الذى
ذكرناه لك يا محمد من إتيان الرسل يقصون على الأمم آيات الله ، سببه أن ربك
لم يكن من شأنه ولا من سننه فى تربية خلقه أن يهلك القرى من أجل أى ظلم
، فعلوه قبل أن ينبهوا على بطلانه ، وينهوا عنه بواسطة الأنبياء والمرسلين
فربك لا يظلم ، ولا يعذب أحداً وهو غافل لم ينذر قال - تعالى - { وَمَا
كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً } وقال - تعالى - { وَإِن مِّنْ
أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ } فالآية الكريمة صريحة فى أن
- سبحانه - قد أعذر إلى الثقلين بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، وتبيين الآيات
وإلزام الحجة { رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ ،
{ لِلنَّاسِ عَلَى الله حُجَّةٌ بَعْدَ الرسل

ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن الدرجات إنما هى على حسب الأعمال
فقال - تعالى - { وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ } أى : ولكل من
المكلفين جناً كانوا أو إنساً درجات أى منازل ومراتب { مِّمَّا عَمِلُواْ }
أى : من أعمالهم صالحة كانت أو سيئة أو من أجل أعمالهم إذ الجزاء من جنس
العمل والعمل متروك للناس يتسابقون فيه ، والجزاء ينتظرهم عدلا لا ظلم فيه
بل هو عالم بأعمالهم { وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ }.
. ومحصيها عليهم ، لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء

وربك الغني ذو الرحمة ان يشا يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما انشاكم
من ذرية قوم اخرين

كما فسرها الوسيط ثم صرح - سبحانه - بغناه عن كل عمل وعن كل عامل ، وبأنه
هو صاحب الرحمة الواسعة ، والقدرة النافذة فقال : { وَرَبُّكَ الغني ذُو
الرحمة } .أى : وربك يا محمد هو الغنى عن جميع خلقه من كل الوجوه ، وهم
الفقراء إليه فى جميع أحوالهم ، وهو وحده صاحب الرحمة الواسعة العامة التى
شملت جميع خلقه .والجملة الكريمة تفيد الحصر . وقوله : وربك مبتدأ ، والغنى
" خبره ، وقوله { ذُو الرحمة } خبر بعد خبر . وجوز أن يكون هو الخبر و
الغنى " صفة لربك .وفى هذه الجملة تنبيه إلى أن ما سبق ذكره من إرسال الرسل
وغيره ، ليس لنفعه - سبحانه - ، بل لترحمه على العباد ، وتمهيد لقوله بعد
ذلك .{ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُمْ مَّا
يَشَآءُ } أى : أنه - سبحانه - إن يشأ إذهابكم إيها الناس بالإهلاك لفعل
ذلك فهو قدير على كل شىء وعلى أن يشىء بعد إذهابكم ما يشاء من الخلق الذين
يعملون بطاعته ، ولا يكونون أمثالكم .والكاف فى قوله : { كَمَآ أَنشَأَكُمْ
- مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ } فى موضع نصب والمعنى : إن الله
تعالى - قادر على أن يستخلف من بعدكم ما يشاء استخلافه مثل ما أنشأكم من
ذرية قوم آخرين . ونظريه قوله - تعالى - { إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ
أَيُّهَا الناس وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ الله على ذلك قَدِيراً } وقوله
ياأيها الناس أَنتُمُ الفقرآء إِلَى الله والله هُوَ الغني الحميد إِن }
يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى الله
{ بِعَزِيزٍ

ان ما توعدون لات وما انتم بمعجزين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن أمر البعث والحساب كائن لا ريب فيه
" : فقال : { إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لآتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ } .أى
، إن ما توعدون من أمر القيامة والحساب ، والعقاب والثواب لواقع لا شك فيه
وما أنتم بمعجزين ، أى : بجاعليه عاجزا عنكم ، غير قادر على إدراككم . من
أعجزه بمعنى جعله عاجزا ، أو : بفائتين العذاب ، من أعجزه الأمر . إذا فاته
. أى لا مهرب لكم من عذابنا بل هو مدرككم لا محالة .

قل يا قوم اعملوا على مكانتكم اني عامل فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار
انه لا يفلح الظالمون

كما فسرها الوسيط ثم أمر الله - تعالى - نبيه صلى الله عليه وسلم أن ينفض
يده من هؤلاء المشركين ، وأن يتركهم لأنفسهم . وأن ينذرهم بسوء العاقبة إذا
ما ستمروا فى كفرهم فقال - تعالى - { قُلْ يَاقَوْمِ اعملوا على
مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ
عَاقِبَةُ الدار إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالمون } .أى : قل يا محمد لهؤلاء
. المصرين على كفرهم اعمولا على غاية تمكنكم من أمركم ، وأقصى استطاعتكم
مصدر مكن - ككرم - مكانة ، إذا تمكن أبلغ التمكن وأقواه ، أو المعنى اعملوا
على جهتكم واثبتوا على كفركم وحالتكم التى أنتم عليها من قولهم . مكان
ومكانة كمقام ومقامة .قال الزمخشرى : يقال للرجل إذا أمر أن يثبت على حالة
مكانك يا فلان أى : اثبت على ما أنت عليه لا تنحرف عنه .والأمر للتهديد :
والوعيد ، وإظهار ما هو عليه صلى الله عليه وسلم فى غاية التصلب فى الدين
ونهاية الوثوق بأمره ، وعدم المبالاة بأعدائه أصلا .وقوله { إِنِّي عَامِلٌ
فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ } أى : إنى عامل على مكانتى ، ثابت على الإسلام لا
أتزحزح عن الدعوة إليه ، فسوف تعلمون بعد حين من تكون له العاقبة الحسنى فى
هذه الدنيا .وقوله : { فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ } بجانب إفادته للإنذار ، فيه
، إنصاف فى المقال ، وحسن أدب فى الخطاب ، حيث لم يقل - مثلا - العاقبة لنا
وإنما فوض الأمر إلى الله ، فهو كقوله - تعالى - { وَإِنَّآ أَوْ
إِيَّاكُمْ لعلى هُدًى أَوْ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ }وفيه تنبيه على وثوق
المنذر بأنه على الحق .قال الجمل - وسوف لتأكيد مضمون الجملة ، وهذه الجملة
تعليل لما قبلها والعلم عرفان ، ومن استفهامية معلقة لفعل العلم محلها .
الرفع على الابتداء وخبرها جملة تكون ، وهى مع خبرها فى محل نصب لسدها مسد
مفعول تعلمون . أى : فسوف تعلمون أينا تكون له العاقبة الحسنى التى خلق
الله هذه الدار لها ، ويجوز أن تكون موصولة فيكون محلها النصب على أنها
مفعول لتعلمون . أى : فسوف تعلمون الذى له عاقبة الدار " .ثم ختمت الآية
بقوله - تعالى - { إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظالمون } أى : لن يظفروا
بمطلوبهم بسبب ظلمهم ، وقيل المراد بالظلم هنا الكفر ، ووضع الظلم موضع
، الكفر ، إيذاناً بأن امتناع الفلاح يترتب على أى فرد كان من أفراد الظلم
فما ظنك بالكفر الذى هو أعظم أفراده .قال ابن كثير ، وقد أنجز الله موعوده
لرسوله صلى الله عليه وسلم فمكن فه فى البلاد ، وحكمه فى نواصى مخالفيه من
العباد ، وفتح له مكة ، وأظهره على من كذبه من قومه ، واستقر أمره على سائر
. جزيرة العرب . ، وكل ذلك فى حياته ، ثم فتحت الأقاليم والأمصار بعد وفاته
قال - تعالى - { إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا والذين آمَنُواْ فِي الحياة
الدنيا وَيَوْمَ يَقُومُ الأشهاد } ثم تبدأ السورة بعد ذلك حديثاً مستفيضاً
، عن أوهام المشركين وجهالاتهم التى تتعلق بمآكلهم ، ومشاربهم ، ونذورهم
وذبائحهم ، وعاداتهم البالية ، وتقاليدهم الموروثة ، فتناقشهم فى كل ذلك
مناقشة منطقية حكيمة ، وترد عليهم فيما أحلوه وحرموه بدون علم ولا هدى ولا
. كتاب منير ، وترشدهم إلى الطريق السليم الذى من الواجب عليهم أن يسلكوه
استمع إلى سورة الأنعام وهى تحكى كل ذلك فى بضع عشرة آية بأسلوبها البليغ
. المؤثر فتقول : { وَجَعَلُواْ لِلَّهِ . . . . }

وجعلوا لله مما ذرا من الحرث والانعام نصيبا فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا
لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل الى الله وما كان لله فهو يصل الى
شركائهم ساء ما يحكمون

كما فسرها الوسيط لقد حكت هذه الآيات الكريمة بعض الرذائل التى كانت متفشية
فى المجتمع الجاهلى ، أما الرذيلة الأولى فملخصها أنهم كانوا يجعلون من
زروعهم وأنعامهم وسائر أموالهم نصيباً لله ونصيباً لأوثانهم ، فيشركونها فى
أموالهم فما كان لله صرفوه إلى الضيفان والمساكين ، وما كان للأوثان أنفقوه
عليها وعلى سدنتها فإذا رأوا ما جعلوه لله أزكى بدلوه بما للأوثان ، وإذا
رأوا ما جعلوه للأوثان أزكى تركوه لها .استمع إلى القرآن وهو يقص ذلك
بأسلوبه الحكيم فيقول : { وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الحرث
والأنعام نَصِيباً } ." ذرأ " بمعنى خلق يقال : ذرأ الله الخلق يذرؤهم
ذرءًا أى : خلقهم وأوجدهم وقيل . الذرأ الخلق على وجه الاختراع .أى : وجعل
هؤلاء المشركون مما خلقه الله - تعالى - من الزروع والأنعام نصيباً لله
يعطونه للمساكين وللضيوف وغيرهم ، وجعلوا لأصنامهم نصيباً آخر يقدمونه
لسدنتها ، وإنما لم يذكر النصيب الذى جعلوه لأصنامهم اكتفاء بدلالة ما بعده
وهو قوله : { فَقَالُواْ هذا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وهذا لِشُرَكَآئِنَا }
: أى : فقالوا فى القسم الأول : هذا لله نتقرب به إليه .وقالوا فى الثانى.
وهذا لشركائنا نتوسل به إليها .وقوله - تعالى - فى القسم الأول { هذا
لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ } أى : بتقولهم ووضعهم الذى لا علم لهم به ولا هدى
قال الجمل : ومن المعلوم أن الزعم هو الكذب ، وإنما نسبوا للكذب فى هذه.
المقالة مع أن كل شىء لله ، لأن هذا الجعل لم يأمرهم به الله وإنما هو مجرد
اختراع منهم .وقال أبو السعود : وإنما قيد الأول بالزعم للتنبيه على أنه فى

الحقيقة جعل لله - تعالى - غير مستتبع لشىء من الثواب كالتطوعات التى يبتغى بها وجه الله -لا لما قيل من أنه للتنبيه على أن ذلك مما اخترعوه ، فإن ذلك مستفاد من الجعل ولذلك لم يقيد به الثانى ، ويجوز أن يكون ذلك تمهيداً لما بعده على معنى أن قولهم هذا لله مجرد زعم منهم لا يعلمون بمقتضاه الذى هو اختصاصه - تعالى - به .ثم فصل - سبحانه - ما كانوا يعملونه بالنسبة للقسمة فقال : { فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إلى الله وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إلى شُرَكَآئِهِمْ } .أى : فما كان من هذه الزروع والأنعام من القسم الذى يتقرب به إلى شركائهم ، فإنهم يحرمون الضيفان والمساكين منه ولا يصل إلى الله منه شىء ، وما كان منها من القسم الذى يتقرب به إلى الله عن طريق إكرام الضيف والصدقة ، فإنهم يجورون عليه ويأخذون منه ما يعطونه لسدنة الأصنام وخدامها .فهم يجعلون قسم الأصنام لسدنتها وأتباعها وحدهم ، بينما القسم الذى جعلوه لله بزعمهم ينتقصونه ويضعون الكثير منه فى غير موضعه ، ويقولون : إن الله غنى وإن آلهتنا محتاجة وقد عقب القرآن على هذه القسمة الجائرة بقوله : { سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ }. أى : ساء وقبح حكمهم وقسمتهم حيث آثروا مخلوقا عاجزا عن كل شىء ، على خالق قادر على كل شىء ، فهم بجانب عملهم الفاسد من أساسه لم يعدلوا فى القسمة هذه هى الرذيلة الأولى من رذائلهم ، أما الرزيلة الثانية فهى أن كثيراً. منهم كانوا يقتلون أولادهم ، ويئدون بناتهم لأسباب لا تمت إلى العقل السليم بصلة وقد حكى القرآن ذلك فى قوله .

وكذلك زين لكثير من المشركين قتل اولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون

كما فسرها الوسيط { وكذلك زَيّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ المشركين قَتْلَ أَوْلاَدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ } .أى : ومثل ذلك التزيين فى قسمة الزروع والأنعام بين الله والأوثان ، زين للمشركين شركاؤهم من الشياطين أو السدنة قتل بناتهم خشية العار أو الفقر فأطاعوهم فيما أمروهم به من المعاصى والآثام .والتزيين : التحسين ، فمعنى تزيينهم لهم أنهم حسنوا لهم هذه الأفعال القبيحة ، وحضوهم ، على فعلها .سموا شركاء لأنهم اطاعوهم فيما أمروهم به من قتل الأولاد فأشركوهم مع الله فى وجوب طاعتهم ، أو سموا شركاء لأنهم كانوا يشاركون الكفار فى أموالهم التى منها الحرث والأنعام .و { شُرَكَآؤُهُمْ } فاعل { زَيّنَ } وأخر عن الظرف والمفعول اعتناء بالمقدم واهتماما به ، لأنه موضع التعجب .وقوله : { لِيُرْدُوهُمْ } أى ليهلكوهم من الردى وهو الهلاك . يقال ردى - كرضى - أى : هلك .وقوله : { وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ } معطوف على ليردوهم ، أى : ليخلطوا عليهم ما كانوا عليه من دين اسماعيل - عليه السلام - حتى زالوا عنه إلى الشرك .ويلبسوا مأخوذ من اللبس بمعنى الخلط بين الأشياء التى يشبه بعضها بعضاً وأصله التستر بالثوب ، ومنه اللباس ، ويستعمل فى المعانى فيقال : لبس الحق بالباطل يلبسه ستره به . ولبست عليه الأمر . خلطته عليه وجعلته مشتبها حتى لا يعرف جهته ، فأنت ترى أن شركاءهم قد حسنوا لهم القبيح من أجل أمرين : إهلاكهم وإدخال الشبهة عليهم فى دينهم عن طريق التخليط والتلبيس . ثم سلى الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم وهدد أعداءه فقال : { وَلَوْ شَآءَ الله مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ } .أى : ولو شاء الله ألا يفعل الشركاء ذلك ، التزيين أو المشركون ذلك القتل لما فعلوه ، لأنه - سبحانه -لا يعجزه شىء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات بسبب ما يفعلونه ، بل دعهم وما يفترونه من الكذب } فإنهم لسوء استعدادهم آثروا الضلالة على الهداية .والفاء فى قوله ، فَذَرْهُمْ } فصيحة . أى : إذا كان ما قصصناه عليك بمشيئة الله ، فدعهم وافتراءهم ولا تبال بهم ، فإن فيما يشاؤه الله حكما بالغة .ثم حكى القرآن رذيلة ثالثة من رذائلهم المتعددة ، وهى أن أوهام الجاهلية وضلالاتها ساقتهم إلى عزل قسم من أموالهم لتكون حكرا على آلهتهم بحيث لا ينتفع بها أحد سوى سدنتها ، ثم عمدوا إلى قسم من الأنعام فحرموا ركوبها وعمدوا إلى قسم آخر فحرموا أن يذكر اسم الله عليها عند ذبحها أو ركوبها إلى آخر تلك الأوهام المفتراة .

وقالوا هذه انعام وحرث حجر لا يطعمها الا من نشاء بزعمهم وانعام حرمت ظهورها وانعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه سيجزيهم بما كانوا يفترون

كما فسرها الوسيط استمع إلى القرآن وهو يقص ذلك فيقول : { وَقَالُواْ هذه أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَآ إِلاَّ مَن نّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ } .حجر : بمعنى المحجور أى : الممنوع من التصرف فيه ، ومنه : قيل للعقل حجر لكون الإنسان فى منع منه مما تدعوه إليه نفسه من اثام .أى ومن بين أوهام المشركين وضلالتهم أنهم يقتطعون بعض أنعامهم وأقواتهم من

الحبوب وغيرها ويقولون : هذه الأنعام وتلك الزروع محجورة علينا أى : محرمة
ممنوعة ، لا يأكل منها إلا من نشاء ، يعنون : خدم الأوثان والرجال دون
} : النساء أى :لا يأكل منها إلا خدم الأوثان والرجال فقط .وقوله
بِزَعْمِهِمْ } متعلق بمحذوف وقع حالا من فاعل قالوا . أى : قالوا ذلك
متلبسين بزعمهم الباطل من غير حجة .وقوله : { وَقَالُواْ هذه } الإشارة إلى
ما جعلوه لآلهتهم ، والتأنيث باعتبار الخبر وهو قوله : { أَنْعَامٌ
وَحَرْثٌ } وقوله { حِجْرٌ } صفة لأنعام وحرث ، وقوله { لاَّ يَطْعَمُهَآ }
صفة ثانية لأنعام وحرث .هذا هو النوع الأول الذى ذكرته الآية من أنواع
ضلالاتهم .أما النوع الثانى فهو قوله - تعالى - { وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ
ظُهُورُهَا } أى : وقالوا مشيرين إلى طائفة أخرى من أنعامهم : هذه أنعام
حرمت ظهورها فلا تركب ولا يحمل عليها ، يعنون بها البحائر والسوائب
} والوصائل والحوامى التى كانوا يزعمون أنها تعتق وتقصى لأجل الآلهة .فقوله
وَأَنْعَامٌ } خبر لمبتدأ محذو والجملة معطوفة على قوله { هذه أَنْعَامٌ }
} : وأما النوع الثالث من أنواع اختراعاتهم الذى ذكرته الآية فهو قوله.
وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسم الله عَلَيْهَا } .أى : وقالوا أيضا هذه
أنعام لا يذكر اسم الله عليها عند الذبح ، وإنما يذكر عليها أسماء الأصنام
لأنها ذبحت من أجلها .وقد عقب - سبحانه - على تلك الأقسام الثلاثة الباطلة
بقوله : { افتراء عَلَيْهِ } أى فعلوا ما فعلوا من هذه الأباطيل وقالوا ما
- قالوا من تلك المزاعم من أجل الافتراء على الله وعلى دينه ، فإنه
سبحانه - لم يأذن لهم فى ذلك ولا رضيه منهم .ثم ختمت الآية بهذا التهديد
الشديد حيث قال : - سبحانه - { سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ }
أى : سيجزيهم الجزاء الشديد الأليم بسبب هذا الافتراء القبيح .ثم يحكى
القرآن الرذيلة الرابعة من رذائلهم وملخصها : أنهم زعموا أن الأجنة التى فى
بطون هذه الأنعام المحرمة ، ما ولد منها حياً فهو حلال للرجال ومحرم على
النساء ، وما ولد ميتاً اشترك فى أكله الرجال والنساء .

وقالوا ما في بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على ازواجنا وان يكن
ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم انه حكيم عليم

} : كما فسرها الوسيط استمع إلى القرآن وهو يفضح زعمهم هذا فيقول
وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هذه الأنعام خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا
وَمُحَرَّمٌ على أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ
: شُرَكَآءُ } ومرادهم بما فى بطون هذه الأنعام أجنة البحائر والسوائب .أى
ومن فنون كفرهم أنهم قالوا ما فى بطون هذه الأنعام المحرمة إذا نزل منها
حياً فأكله حلال للرجال دون النساء ، وإذا نزل ميتاً فأكله حلالا للرجال
والنساء على السواء .وفى رواية العوفى عن ابن عباس أن المراد بما فى بطونها
اللبن ، فقد كانوا يحرمونه على إناثهم ويشربه ذكرانهم وكانت الشاة إذاولدت
ذكراً ذبحوه ، وكان للرجال دون النساء ، وإن كانت أنثى تركت فلم تذبح ، وإن
كانت ميتة فهم فيه شركاء .قال بعضهم : " ومن مباحث اللفظ فى الآية أن قوله
خالصة " فيه وجوه :أحدها : أن التاء قيد للمبالغة فى الوصف كراوية وداهية "
فلا يقال إنه غير مطابق للمبتدأ على القول بأنه خبر .وثانيا : أن المبتدأ
وهو { مَا فِي بُطُونِ هذه الأنعام } مذكر اللفظ مؤنث المعنى ، لأن المراد
به الأجنة فيجوز تذكير خبره باعتبار اللفظ وتأنيثه باعتبار المعنى .وثالثها
أنه مصدر فتكون العبارة مثل قولهم : عطاؤك عافية والمطر رحمة والرخصة :
} نعمة .ورابعها : أنه مصدر مؤكد أو حال من المستكن فى الظرف وخبر المبتدأ
لِّذُكُورِنَا } .وقوله : { سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ
عَلِيمٌ } تهديد لهم أى : سيجزيهم بما هم أهله من العذاب المهين جزاء وصفهم
أو بسبب وصفهم الكذب على الله فى أمر التحليل والتحريم على سبيل التحكم
، والتهجم بالباطل على شرعه . إنه - سبحانه - حكيم فى أقواله وأفعاله وشرعه
} عليم بأعمال عباده من خير أو شر وسيجازيهم عليها .قال الآلوسى : ونصب
وَصْفَهُمْ } - على ما ذهب إليه الزجاج - لوقوعه موقع مصدر { سَيَجْزِيهِمْ
فالكلام على تقدير مضاف . أى : جزاء وصفهم . وقيل : التقدير . سيجزيهم {
العقاب بوصفهم أى : بسببه فلما سقطت الباء نصب وصفهم .ثم قال : وهذا كما
قال بعض المحققين من بليغ الكلام وبديعه ، فإنهم يقولون ، كلامه يصف الكذب
. إذا كذب ، وعينه تصف السحر ، أى ساحرة ، وقد يصف الرشاقة ، بمعنى رشيق
مبالغة ، حتى كأن من سمعه أو رآه وصف له ذلك بما يشرحه له " .وإلى هنا تكون
الآيات الأربعة التى بدأت بقوله - تعالى - { وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا
ذَرَأَ مِنَ الحرث والأنعام نَصِيباً } . . . إلخ . قد قصت علينا أربع
رذائل من أفعال المشركين وأقوالهم .وإن العاقل ليعجب وهو يستعرض هذه
الضلالات - التى حكتها الآيات . يعجب لما تحملوه فى سبيل ضلالاتهم من أعباء
مادية وخسائر وتضحيات ، يعجب للعقيدة الفاسدة وكيف تكلف أصحابها الكثير ومع
ذلك فهم مصرون على اعتناقها ، وعلى التقيد بأغلالها ، وأوهامها ، وتبعاتها
لكأن القرآن وهو يحكى تلك الرذائل وما تحمله أصحابها فى سبيلها يقول.
لأتباعه - من بين ما يقول - إذا كان أصحاب العقائد الفاسدة قد ضحوا حتى

بقلذات أكبادهم إرضاء لشركائهم . . . فأولى بكم ثم أولى أن تضحوا فى سبيل عقيدتكم الصحيحة ، وملتكم الحنيفية السمحاء بالأنفس والأموال .هذا وقد عقب القلرآن بعد إيراه لتلك الرذائل بقوله .

قد خسر الذين قتلوا اولادهم سفها بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين

كما فسرها الوسيط { قَدْ خَسِرَ الذين قتلوا أَوْلاَدَهُمْ سَفَهاً
{ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرّمُوا مَا رَزَقَهُمُ الله افترآء عَلَى الله
قال الإمام ابن كثير : قد خسر الذين فعلوا هذه الأفاعيل فى الدنيا والآخرة.
، أما فى الدنيا فخسروا أولادهم بقتلهم ، وضيقوا على أنفسهم فى أموالهم ،
فحرموا أشياء ابتدعوها من تلقاء أنفسهم . وأما فى الآخرة فيصيرون إلى أسوأ
المنازل بكذبهم على الله وافترائهم " .والتعبير بخسر بدون ذكر مفعول معين
يقع عليه الفعل للإشارة إلى أن خسارتهم خسارة مطلقة من أى تحديد ، فهى
خسارة دينية وخسارة دنيوية - كما قال ابن كثير .وقرأ ابن عامر { قتلوا }
بالتشديد . أى : فعلوا ذلك كثيراً ، إذ التضعيف يفيد التكثير .و { سَفَهاً
منصوب على أنه على لقتلوا أى : لخفة عقولهم وجهلهم قتلوا أولادهم . أو {
منصوب على أنه حال من الفاعل فى قتلوا وهو ضمير الجماعة .والسفه : خفة فى
النفس لنقصان العقل فى أمور الدنيا أو الدين .وقوله { وَحَرّمُواْ مَا
رَزَقَهُمُ الله } أى من البحائر والسوائب ونحوهما ، وهو معطوف على { قتلوا
ثم بين - سبحانه - نتيجة ذلك القتل والتحريم فقال : { قَدْ ضَلُّواْ. {
وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ } أى : قد ضلوا عن الصراط المستقيم بأقوالهم
وأفعالهم القبيحة وما كانوا مهتدين إلى الحق والصواب .قال الشهب ، وفى قوله
بعد قوله { قَدْ ضَلُّواْ } مبالغة فى نفى { وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ }
الهداية عنهم ، لأن صيغة الفعل تقتضى حدوث الضلال بعد أن لم يكن . فلذا
أردف بهذه الحال لبيان عراقتهم فى الضلال ، وإنما ضلالهم الحادث ظلمات
بعضها فوق بعض " .روى البخارى عن ابن عباس قال : إذا سرك أن تعلم جهل العرب
فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام { قَدْ خَسِرَ الذين قتلوا
أَوْلاَدَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ الله
. { افترآء عَلَى الله قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ

وهو الذي انشا جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا اكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه كلوا من ثمره اذا اثمر واتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أنه هو الخالق لكل شىء من الزروع والثمار والأنعام التى تصرف فيها المشركون بآرائهم الفاسدة ، وأن من الواجب عليهم أن يستعملوا نعم الله فيما خلقت لهم فقال - تعالى - : {وَهُوَ الذي أَنشَأَ . . . . } .قوله - تعالى - { وَهُوَ الذي أَنشَأَ جَنّاتٍ
: مّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ } .أنشأ : أى أوجد وخلق . والجنات
البساتين والكروم المتلفة الأشجار .ومعروشات : أصل العرش فى اللغة شىء مسقف
يجعل عليه الكرم وجمعه عروش ، يقال عرشت الكرم أعرشه عرشاً من بابى - ضرب
ونصر - ، وعرشته تعريشاً إذا جعلته كهيئة السقف . فالمادة تدل على الرفع
ومنها عرش الملك . قال ابن عباس : المعروشات . ما انبسط على الأرض وانبسط
من الزروع مما يحتاج إلى أن يتخذ له عريش يحمل عليه ، كالكرم والبطيخ
والقرع ونحو ذلك . وغير المعروشات ما قام على ساق واستغنى باستوائه وقوة
ساقه عن التعريش كالنخل والشجر .وقيل المعروشات وغي المعروشات كلاهما فى
الكرم خاصة ، لأن منه ما يعرش ومنه مالا يعرش بل يبقى على وجه الأرض منبسطا
وقيل المعروشات ما غرسه الناس فى البساتين واهتموول به فعرشوه من كرم أو.
غيره ، وغير المعروشات . هو ما أنبته الله فى البرارى والجبال من كرم وشجر
أى : وهو - سبحانه - الذى أوجد لكم هذه البساتين المختلفة التى منها.
المرفوعات عن الأرض ، ومنها غير المرفوعات عنها ، فخصوه وحده بالعبادة
، والخضوع .وقوله : { والنخل والزرع مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ } عطف على جنات
أى : أنشأ جنات ، وأنشأ النخل والزرع ، والمراد بالزرع جميع الحبوب التى
يقتات بها .وإنما أفردها مع أنهما داخلان فى الجنات لما فيهما من الفضيلة
على سائر ما ينبت فى الجنات .و { مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ } أى ، ثمره وحبه فى
، اللون والطعم والحجم والرائحة .والضمير فى أكله راجع إلى كل واحد منهما
أى : النخل والزرع والمراد بالأكل المأكول أى ، مختلف المأكول فى كل منهما
فى الهيئة والطعم .قال الجمل : وجملة . { مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ } حال مقدرة
لأن النخل والزرع وقت خروجه لا أكل منه حتى يكون مختلفا أو متفقا ، فهو ،
مثل قولهم : مررت برجل معه صقر صائداً له غدا " .وقوله : { والزيتون
والرمان مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ } أى : وأنشأ الزيتون والرمان
متشابها فى المنظر وغير متشابه فى الطعم أو متشابها بعض أفرادها فى اللون
أو الطعم أو الهيئة " وغير متشابه فى بعضها .قال القرطبى : وفيه ألدة ثلاثة

أحدها : ما تقدم من قيام الدليل على أن المتغيرات لا بد لها من مغير.
الثانى : على المنة منه - سبحانه - علينا ، فلو شاء إذ خلقنا ألا يخلق لنا.
غذاء ، وإذا خلقه ألا يكون جميل المنظر طيب الطعم ، وإذ خلقه كذلك ألا يكون
سهل الجنى ، فلم يكن عليه أن يفعل ذلك ابتداء ، لأنه لا يجب عليه شىء
الثالث : على القدرة فى أن يكون الماء الذى من شأنه الرسوب يصعد بقدرة.
الله الواحد علام الغيوب من أسافل الشجرة إلى أعاليها ، حتى إذا انتهى إلى
، آخرها نشأت فيها أوراق ليست من جنسها ، وثمر خارج من صفته : الجرم الوافر
واللون الزاهر ، والجنى الجديد ، والطعم اللذيذ ، فأين الطبائع وأجناسها
وأي الفلاسفة وأسسها ، هل هى فى قدرة الطبيعة أن تتقن هذا الإتقان أو ترتب
، هذا الترتيب العجيب .كلا ، لا يتم ذلك فى العقول إلا لحى قادر عالم مريد
فسبحان من له فى كل شىء آية ونهاية .ووجه اتصال هذا بما قبله أن الكفار لما
افتروا على الله الكذب . وأشركوا معه وحللوا وحرموا دلهم على وحدانيته بأنه
- خالق الأشياء ، وأنه جعل هذه الأشياء أرزاقا لهم" .ثم ذكر - سبحانه
المقصود من خلق هذه الأشياء فقال : { كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَآ أَثْمَرَ
أى : كلوا من ثمر تلك الزروع والأشجار التى أنشأناها لكم ، شاكرين الله {
على ذلك . والأمر للإباحة . وفائدة التقييد بقوله { إِذَآ أَثْمَرَ } إباحة
الأكل قبل النضوج والإدراك .وقيل فائدته : الترخيص للمالك فى الأكل من قبل
أداء حق الله - تعالى - لأنه لما أوجب الحق فيه ربما يتبادر إلى الأذهان
أنه يحرم على المالك تناول شىء منه لمكان شركة المساكين له فيه ، فأباح
الله له هذا الأكل .ثم أمرهم - سبحانه - بأداء حقوق الفقراء والمحتاجين مما
رزقهم فقال : { وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ } أى ، كلوا من ثمر ما
أنشأنا لكم ، وأدوا حق الله فيه للفقراء والمحتاجين يوم حصاده .ويرى بعض
العلماء أن المراد بهذا الحق الصدقة بوجه عام على المستحقين لها ، بأن يوزع
صاحب الزرع منه عند حصاده على المساكين والبائسين ما يسد حاجتهم بدون إسراف
أو تقتير .وأصحاب هذا الراى فسروا هذا الحق بالصدقة الواجبة من غير تحديد
للمقدار وليس بالزكاة المفروضة لأن الآية مكية والزكاة إنما فرضت بالمدينة
وهم يرون أن هذا الحق لم ينسخ بالزكاة المفروضة ، بل على صاحب الزرع أن.
يطعم منه المحتاجين عند حصاده .ويرى بعض آخر من العلماء أن المراد بهذا
الحق ما فصلته السنة النبوية من الزكاة المفروضة وهذه الآية مدنية وإن كانت
السورة مكية .ويبدو لنا أن الرأى الأول أرجح ، لأنه لا دليل على أن هذه
الآية مدنية ولأن فرضية الزكاة لا تمنع إعطاء الصدقات ، وفى الأمر بإيتاء
: هذا الحق يوم الحصاد ، مبالغة فى العزم على المبادرة إليه .والمعنى
اعزموا على إيتاء هذا الحق واقصدوه ، واهتموا به يوم الحصاد حتى لا تؤخروه
عن أول وقت يمكن فيه الإيتاء .وقيل : إنما ذكر وقت الحصاد تخفيفاً على
أصحاب الزروع حتى لا يحسب عليهم ما أكل قبله .ثم ختمت الآية بالنهى عن
الإسراف فقالت ، { وَلاَ تسرفوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المسرفين } . أى لا
، تسرفوا فى أكلكم قبل الحصاد ولا فى صدقاتكم ولا فى أى شأن من شئونكم
، لأنه - سبحانه -لا يحب المسرفين .وقال ابن جريج ، نزلت فى ثبات بن قيس
قطع نخلا له فقال .لا يأتينى اليوم أحد إلا أطعمته ، فأطعم حتى أمسى وليست
له ثمرة ، فنزلت هذه الآية .وقال عطاء ، نهوا عن السرف فى كل شىء .وقال
. إياس بن معاوية ، ما جاوزت به أمر الله هو سرف

ومن الانعام حمولة وفرشا كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه
لكم عدو مبين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - حال الأنعام ، وأبطل ما تقولوه عليه فى
شأنها بالتحريم والتحليل فقال : { وَمِنَ الأنعام حَمُولَةً وَفَرْشاً }
الحمولة ، هى الأنعام الكبار الصالحة للحمل . والفرش هى صغارها الدانية من.
الأرض ، مثل الفرش المفروش عليها .وقيل الحمولة كل ما حمل عليه من إبل وبقر
وبغل وحمار . والفرش ما اتخذ من صوفه ووبره وشعره ما يفرش .أى : وأنشأ
لكم - سبحانه - من الأنعام حمولة وهى ما تحملون عليه أثقالكم ، كما أنشأ
لكم منها فرشا وهى صغارهاه التى تفرش للذبائح من الضأن والمعز والإبل
والبقر .والجملة معطوفة على جنات ، والجهة الجامعة بينهما إباحة الانتفاع
بهما .وقوله { كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ الله وَلاَ تَتَّبِعُواْ
خُطُوَاتِ الشيطان إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ } .أى : كلوا مما رزقكم
الله من هذه الثمار والزروع والأنعام وغيرها ، وانتفعوا منها بسائر أنواع
الانتفاع المشروعة ، ولا تتبعوا وساوس الشيطان وطرقه فى التحريم والتحليل
كما أتبعها أهل الجاهلية ، إذ حرموا ما رزقهم الله افتراء عليه ، إن
الشيطان عداوته ، ظاهرة واضحة لكم ، فهو يمنعكم مما يحفظ روحكم ، ويطهر
قلوبكم ، فالجملة الكريمة { إِنَّهُ لَكُمْ } تعليل للنهى عن اتباع خطوات
. الشيطان

ثمانية ازواج من الضان اثنين ومن المعز اثنين قل الذكرين حرم ام الانثيين
اما اشتملت عليه ارحام الانثيين نبئوني بعلم ان كنتم صادقين

كما فسرها الوسيط ثم بين القرآن بعد ذلك بعض ما كان عليه الجاهليون من
}: جهالات ، وناقشهم فيما أحلوه وحرموه مناقشة منطقية حكيمة فقال
ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضأن اثنين وَمِنَ المعز اثنين } أى . من
الضأن زوجين اثنين هما الكبش والنعجة ، { وَمِنَ المعز اثنين } أى . ومن
المعز زوجين اثنين هما التيس والعنز .ثم أمر الله - تعالى - نبيه صلى الله
عليه وسلم أن يبكتهم على جهلهم فقال { قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ
الأنثيين أَمَّا اشتملت عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأنثيين } .أى : قل لهم يا
محمد على سبيل التوبيخ وإلزامهم الحجة : أحرم الله الذكرين وحدهما من الضأن
والمعز أم الأنثيين وحدهما ، أم الأجنة التى اشتملت عليها أرحام إناث
} : الزوجين كليهما سواء أكانت تلك الأجنة ذكوراً أم إناثا؟وقوله
نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ } أى : أخبرونى بأمر معلوم من
جهته - تعالى - جاءت به الأنبياء ، يدل على أنه - سبحانه - قد حرم شيئاً
مما حرمتموه إن كنتم صادقين فى دعوى التحريم .والأمر هنا للتعجيز لأنهم لا
. دليل عندهم من العقل أو النقل على صحة تحريمهم لبعض الأنعام دون بعض

ومن الابل اثنين ومن البقر اثنين قل الذكرين حرم ام الانثيين اما اشتملت
عليه ارحام الانثيين ام كنتم شهداء اذ وصاكم الله بهذا فمن اظلم ممن افترى
على الله كذبا ليضل الناس بغير علم ان الله لا يهدي القوم الظالمين

} كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - { وَمِنَ الإبل اثنين } عطف على قوله
} مِّنَ الضأن اثنين } أى : وأنشأ لكم من الإبل اثنين هما الجمل والناقة
وَمِنَ البقر اثنين } هما الثور وأنثاه البقرة .{ قُلْ } إفحاما فى أمر
} ، هذين النوعين أيضاً { ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ } الله - تعالى منهما
أَمِ الأنثيين أَمَّا اشتملت عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأنثيين } من ذينك
النوعين؟قال الآلوسى : والمعنى - كما قال كثير من أجلة العلماء : إنكار أن
الله - تعالى - حرم عليهم شيئا من هذه الأنواع الأربعة ، وإظهار كذبهم فى
ذلك وتفصيل ما ذكر من الذكور والإناث وما فى بطونها للمبالغة فى الرد عليهم
بإيراد الإنكار على كل مادة من مواد افترائهم ، فإنهم كانوا يحرمون ذكور
الأنعام تارة ، وإناثها ، تارة . وأولادها كيفما كانت تارة أخرى ، مسندين
- ذلك كله إلى الله - سبحانه - .ثم قال : وإنما لم يل المنكر - وهو التحريم
الهمزة ، والجارى فى الاستعمال أن ما نكر وليها لأن ما فى النظم الكريم
أبلغ .وبيانه - على ما قاله السكاكى - أن إثبات التحريم يستلزم إثبات محلة
لا محالة ، فإذا انتفى محله وهو الموارد الثلاثة لزم انتفاء التحريم على
وجه برهانى . كأنه وضع الكلام موضع من سلم أن ذلك قد تم ، وطالبه ببيان
محله كى يتبين كذبه ، ويفتضح عند الحاجة .وإنما لم يورد - سبحانه - الأمر
عقيب تفصيل الأنواع الأربعة ، بأن يقال : قل ءآلذكور حرم أم الإناث أما
اشتملت عليه أرحام الإناث ، لما فى التكرير من المبالغة أيضا فى الإلزام
والتبكيت " .وقوله - تعالى - { أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّاكُمُ
الله بهذا } تكرير للإفحام والتبكيت .أى : أكنتم حاضرين حين وصاكم الله
وأمركم بهذا التحريم؟ لا ، ما كنتم حاضرين فمن أين لكم هذه الأحكام
الفاسدة؟فالجملة الكريمة تبكتهم غاية التبكيت على جهالاتهم وافترائهم الكذب
على الله ، والاستفهام فى قوله - تعالى - { فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى
عَلَى الله كَذِباً لِيُضِلَّ الناس بِغَيْرِ عِلْمٍ } للنفى والإنكار .أى
لا أحد أشد ظلما من هؤلاء المشركين الذين يفترون على الله الكذب بنسبتهم :
إليه - سبحانه - تحريم ما لم يحرمه لكى يضلوا الناس عن الطريق القويم بغير
علم ولا هدى ولا كتاب منير .وقوله ، { بِغَيْرِ عِلْمٍ } متعلق بمحذوف حال
من فاعل افترى ، أى : افترى عليه - تعالى - جاهلا بصدور التحريم .وإنما وصف
بعدم العلم مع أن المفترى عالم بعدم الصدور ، إيذاناً بخروجه فى الظلم عن
الحدود والنهايات ، لأنه إذا كان المفترى بغير علم يعد ظالماً فكيف بمن
يفترى الكذب وهو عالم بذلك .ثم ختمت الآية بقوله - تعالى - { إِنَّ الله
، لاَ يَهْدِي القوم الظالمين } أى لا يهديهم إلى طريق الحق بسبب ظلمهم
وإيثارهم طريق الغى على طريق الرشد .هذا ، والمتأمل فى هاتين الآيتين
- الكريمتين يراهما قد ردتا على المشركين بأسلوب له - مع سهولته وتأثيره
الطابع المنطقى الذى يزيد المؤمنين إيماناً بصحة هذا الدين ، وصدق هذا
القرآن ، ويقطع على المعارضين والملحدين كل حجة وطريق .وتقرير ذلك - كما
- قال بعض العلماء - أن تطبق قاعدة ( السير والتقسيم ) فيقال ، إن الله
تعالى - خلق من كل صنف من المذكورات نوعين : ذكراً وأنثى ، وأنتم أيها
- المشركون حرمتم بعض هذه الأنعام ، فلا يخلو الأمر فى هذا التحريم من :1
أن يكون تحريماً معللا بعلة .2 - أو أن يكون تحريماً تعبدياً ملقى من
) الله - تعالى - .ولا جائز أن يكون تحريماً معللا ، لأن العلة إن كانت هى
الذكورة ) فأنتم أبحتم بعض الذكور وحرمتم بعضا ، فلم تجعلوا الأمر فى
الذكورة مطرداً وإن كانت العلة هى ( الأنوثة ) فكذلك الأمر : حيث حرمتم بعض
الإناث وحللتم بعضا ، فلم تطرد العلة ، ومثل هذا يقال إذا جعلت العلة هى

اشتمال الرحم من الأنثى على النوعين ، لأنها حينئذ تقتضى أن يكون الكل
حراما فلماذا أحلوا بعضه .وهذا كله يؤخذ من قوله - تعالى - { قُلْ
ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأنثيين أَمَّا اشتملت عَلَيْهِ أَرْحَامُ
الأنثيين } .فبطل إذن أن يكون التحريم معللا .ولا جائز أن يكون التحريم
تعبديا لا يدرى له علة ، أى : مأخوذ عن الله ، لأن الأخذ عن الله إما
بشهادة توصيته بذلك وسماع حكمه به ، وقد أنكر هذا عليهم بقوله : { أَمْ
كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّاكُمُ الله بهذا } وإما أن يكون برسول أبلغهم
} ذلك ، وهم لم يأتهم رسول بذلك ، وفى هذا يقول - جل شأنه - متحديا لهم
نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ } { فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ
افترى عَلَى الله كَذِباً لِّيُضِلَّ الناس بِغَيْرِ عِلْمٍ } .وإذن فما
قالوه من التحريم إنما هو افتراء وضلال " .

قل لا اجد في ما اوحي الي محرما على طاعم يطعمه الا ان يكون ميتة او دما
مسفوحا او لحم خنزير فانه رجس او فسقا اهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ
ولا عاد فان ربك غفور رحيم

كما فسرها الوسيط ثم أمر الله - تعالى - رسوله صلى الله عليه وسلم بعد
إلزام المشركين وتبكيتهم ، وبيان أن ما يتقولونه فى أمر التحريم افتراء
محض - بعد كل ذلك أمره بأن يبين لهم ما حمره الله عليهم فقال : { قُل لاَّ
أَجِدُ فِي . . . . } .أى : { قُل } يا محمد لهؤلاء المفترين على الله
الكذب فى أمر التحليل والتحريم وغيرهما { لاَّ أَجِدُ فِي مَآ أُوْحِيَ
إِلَيَّ مُحَرَّماً على طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ } .أى :لا أجد فيما أوحاه الله
إلى من القرآن طعاما محرما على أكل يريد أن يأكله من ذكر أو أنثى رداً على
قولهم { مُحَرَّمٌ على أَزْوَاجِنَا } والجملة الكريمة تفيد أن طريق
التحريم والتحليل إنما هو الوحى وليس مجرد الهوى والتشهى ، وأن الأصل فى
الأشياء الحل إلا أن يرد نص بالتحريم .و { مُحَرَّماً } صفة لموصوف محذوف
، أى : شيئاً محرما ، أو طعاما محرما ، وهو المفعول الأول لأجد ، أما المفعول
الثانى فهو { فِي مَآ أُوْحِيَ إِلَيَّ } قدم للاهتمام به .وقوله
{ يَطْعَمُهُ } فى موضع الصفة لطاعم جىء به قطعا للمجاز كما فى قوله { وَلاَ
طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ } ثم بين - سبحانه - ما حرمه فقال
: { إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ
فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ الله بِهِ } .أى :لا أجد
فيما أوحاه الله إلى الآن شيئاً محرما من المطاعم إلا أن يكون هذا الشىء أو
ذلك الطعام { مَيْتَةً } أى : بهيمة ماتت حتف أنفها .{ أَوْ دَماً
مَّسْفُوحاً } أى : دما مصبوبا سائلا كالدم الذى يخرج من المذبوح عند ذبحه
لا الدم الجامد كالكبد والطحال ، والسفح : الصب والسيلان .{ أَوْ لَحْمَ
خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ } أى اللحم لأنه المحدث عنه ، أو الخنزير لأنه الأقرب
أو جميع ما ذكر من الميتة والدم ولحم الخنزير .{ رِجْسٌ } أى : قذر خبيث
تعافه الطباع السليمة وضار بالأبدان { أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ الله
- بِهِ } أى : خروجا عن الدين ، لكونه عند ذبحه قد ذكر عليه غير اسمه
تعالى - من صنم أو وثن أو طاغون أو نحو ذلك .والإهلال : رفع الصوت عند رؤية
الهلال ، ثم استعمل لرفع الصوت مطلقا ، ومنه إهلال الصبى ، والإهلال بالحج
وكانوا فى الجاهلية إذا أرادوا ذبح ما قربوه إلى آلهتهم سموا عليها ،
أسماءها - كاللات والعزى - ورفعوا بها أصواتهم ، وسمى ذلك إهلالا .وإنما
سمى { مَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ الله بِهِ } فسقا ، لتوغله فى باب الفسق
والخروج عن الشريعة الصحيحة ، ومنه قوله - تعالى - ( وَلاَ تَأْكُلُواْ
- مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسم الله عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ) .ثم بين
سبحانه - حكم المضطر فقال : {فَمَنِ اضطر غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ } .أى
فمن أصابته ضرورة قاهرة ألجأته إلى الأكل من هذه الأشياء المحرمة حالة :
كونه غير باغ فى أكله ، أى غير طالب للمحرم وهو يجد غيره . أو غير طالب له
للذته ، أو على جهة الاستئثار به على مضطر آخر بأن ينفرد بتناوله فيها عن
الآخر .أو حالة كونه - أيضاً - غير عاد فيما يأكل ، أى : غير متجاوز سد
الجوعة فلا إثم عليه فى هذه الأحوال .وباغ : مأخوذ من البغاء وهو الطلب
تقول : بغيته بغاء وبغى بغية وبغية أى : طلبته .وعاد : اسم فاعل بمعنى متعد
تقول : فلان عدا طوره إذا تجاوز حده وتعداه إلى غيره فهو عاد ، ومنه ،
قوله - تعالى - { بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ } وقوله { فَإِنَّ رَبَّكَ
، غَفُورٌ رَّحِيمٌ } أى : فإن ربك واسع المغفرة والرحمة لا يؤاخذ المضطرين
ولا يكلف الناس بما فوق طاقتهم ، وإنما هو رءوف رحيم بهم يريد بهم اليسر
ولا يريد بهم العسر .والجملة الكريمة جواب الشرط باعتبار لازم المعنى وهو
عدم المؤاخذة . وقيل جواب الشرط محذوف : أى فمن اضطر ، فلا مؤاخذة عليه
وهذه الجملة تعليل له .هذا ، والآية الكريمة ليس المقصود منها حصر المحرمات
فى هذه الأربعة وإنما المقصود منها الرد على مزاعم المشركين فيما حرموه
بغير علم من البحائر والسوائب وغيرها .قال ابن كثير : الغرض من سياق هذه
الآية الرد على المشركين الذين ابتدعوا ما ابتدعوه من تحريم المحرمات على

. أنفسهم بآرائهم الفاسدة من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك
فأمر - تعالى - رسوله أنه لا يجد فيما أوحاه الله إليه أن ذلك محرم ، وأن
الذى حرمه هو الميتة وما ذكر معها وما عدا ذلك فلم يحرم ، وإنما هو عفو
- مسكوت عنه . فكيف تزعمون أنه حرام؟! ومن أين حرمتموه ولم يحرمه الله
تعالى -؟! وعلى هذا فلا ينفى تحريم أشياء أخر فيما بعد هذا . كما جاء النهى
: عن الحمر الأهلية ولحوم السباع وكل ذى مخلب من الطير " .وقال القرطبى
والآية مكية ، ولم يكن فى الشريعة فى ذلك الوقت محرم غير هذه الأشياء ، ثم
نزلت سورة المائدة بالمدينة وزيد فى المحرمات كالمنخنقة والموقوذة
والمتردية والنطيحة وغير ذلك ، وحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة
أكل كل ذى ناب من السباع وكل ذى مخلب من الطير ، وقد اختلف العلماء فى حكم
هذه الآية وتأويلها على أقوال :الأول : ما أشرنا إليه من أن هذه الآية مكية
وكل محرم حرمه رسول الله أو جاء فى الكتاب مضموم إليها ، فهو زيادة حكم من
" الله على لسان نبيه . على هذا أكثر أهل العلم من أهل النظر والفقه والأثر
والخلاصة : أن الآية الكريمة ليس المقصود منها حصر المحرمات فى هذه.
. الأربعة وإنما المقصود منها الرد على مزاعم المشركين ، وذلك أن الكفار
كما قال الإمام الشافعى - لما حرموا ما أحل الله وأحلوا ما حرمه الله
- وكانوا على المضادة والمحادة جاءت الآية مناقضة لغرضهم ، فكأنه قال
سبحانه -لا حلال إلا ما حرمتموه ولا حرام إلا ما أحللتموه ، نازلا منزلة
من يقول :لا تأكل اليوم حلاوة .فتقول :لا أكل اليوم إلا الحلاوة ، والغرض
المضادة لا للنفى والإثبات على الحقيقة .فهو - تعالى - لم يقصد ما وراء
الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ، إذ القصد إثبات التحريم
لا إثبات الحل .قال إمام الحرمين : وهذا فى غاية الحسن ، ولولا سبق الشافعى
إلى ذلك لما كنا نستجيز مخالفة مالك - رضى الله عنه - فى حصر المحرمات فيما
ذكرته الآية " .وفى حكم هذه الآية وتأويلها أقوال أخرى بسطها العلماء فارجع
. إليها إذا شئت

وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما
الا ما حملت ظهورهما او الحوايا او ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وانا
لصادقون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما حرمه الله على اليهود بسبب
ظلمهم وبغيهم فقال - تعالى - { وَعَلَى الذين هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ
ذِي ظُفُرٍ } .فقوله - تعالى - { وَعَلَى الذين هَادُواْ حَرَّمْنَا } بيان
لما حرمه الله - تعالى - على بنى إسرائيل جزاء ظلمهم ، وفى هذا البيان رد
على اليهود ، وتكذيب لهم ، إذ زعموا أن الله لم يحرم عليهم شيئاً ، وإنما
هم حرموا على أنفسهم ما حرمه إسرائيل على نفسه ، فجاءت هذه الآية الكريمة
لتبين بعض ما حرمه الله عليهم من الطيبات - التى كانت حلالا لهم - بسبب
فسقهم وطغيانهم .والمراد بقوله تعالى { كُلَّ ذِي ظُفُرٍ } ما ليس بمنفرج
الأصابع من البهائم والطير ، كالإبل والنعام والإوز والبط ، كما روى عن ابن
} : - عباس وسعيد ابن جبير وقتادة .قال الإمام الرازى : قوله - تعالى
وَعَلَى الذين هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ } يفيد تخصيص هذه
الحرمة بهم من وجهين :الأول : أن قوله - تعالى - { وَعَلَى الذين هَادُواْ
حَرَّمْنَا } كذا وكذا يفيد الحصر فى اللغة ، لتقدم المعمول على عامله
الثانى : أنه لو كانت هذه الحرمة ثابتة فى حق الكل لم يبق لقوله { وَعَلَى.
الذين هَادُواْ حَرَّمْنَا } فائدة .ثم بين - سبحانه - ما حرم عليهم من غير
ذوى الظفر فقال - تعالى - : { وَمِنَ البقر والغنم حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ
شُحُومَهُمَآ إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الحوايآ أَوْ مَا
اختلط بِعَظْمٍ } .والشحم : هو المادة الدهنية التى تكون فى الحيوان وبها
يكون لحمه سميناً والعرب تسمى سنام البعير ، وبياض البطن شحماً ، وغلب إطلاق
الشحم على ما يكون فوق أمعاء الحيوان .والحوايا : - كما قال ابن جرير - جمع
حاوياء وحاوية ، وحوية هى ما تحوى من البطن فاجتمع واستدار ، وفسرت
بالمباعر ، والمرابض التى هي مجتمع الأمعاء فى البطن .والمعنى : كما حرمنا
على اليهود كل ذى ظفر ، فقد حرمنا عليهم كذلك من البقر والغنم شحومهما
الزائدة التى تنتزع بسهولة ، إلا ما استثنيناه من هذه الشحون وهو ما حملت
ظهورهما او ما حملت حواياهما ، أو اختلط من هذه الشحوم بعظمهما . فقد
أحللناه لهم .ثم بين - سبحانه - أن هذا التحريم كان نتيجة لطغيانهم فقال
تعالى : { ذلك جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وِإِنَّا لَصَادِقُونَ } أى : هذا
الذى حرمناه على الذين هادوا من الأنعام والطير ومن البقر والغنم ، وهذا
، التضييق الذى حكمنا به عليهم ، إنما ألزمناهم به ، بسبب بغيهم وظلمهم
وتعديهم حدود الله تعالى .قال قتادة : إنما حرم الله عليهم ما ليس بخبيث
عقوبة لهم وتشديداً عليهم .ولما كان هذا النبأ عن شريعة اليهود ، من
الأنباء التى لم يكن النبى صلى الله عليه وسلم وقومه يعلمون عنها شيئاً
، لأميتهم ، وكان تكذيب اليهود له بأن الله لم يحرم ذلك عليهم عقوبة لهم
لما كان الأمر كذلك ، أكد الله هذا النبأ بقوله : { وِإِنَّا لَصَادِقُونَ

أى : وإنا لصادقون - يا محمد - فيما أخبرناك به ، ومن بينه ما أعلمناك . { عنه مما حرمناه على اليهود من الطيبات وهم الكاذبون فى زعمهم أن ذلك إنما حرمه إسرائيل على نفسه ، وأنهم إنما حرموه لتحريم إسرائيل إياه على نفسه ومع أن الشحوم جميعها باستثناء ما أحله لهم منها محرمة عليهم ، فإنهم. تحايلوا على شرع الله ، وأخذوا يذيبونها ويستعملونها فى شئونهم المختلفة أو يبيعونها ويأكلون ثمنها ، ولقد لعنهم النبى صلى الله عليه وسلم بسبب هذا - التحايل فى أحاديث متعددة .من ذلك ما روى عن إبن عباس - رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قاعداً خلف المقام ، فرفع بصره إلى السماء وقال : " لعن الله اليهود - ثلاثا - إن الله حرم عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا ثمنهان وإن الله لم يحرم على قوم أكل شىء إلا حرم عليهم ثمنه " .وعن جابر بن عبد الله قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عام الفتح " إن الله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام فقيل يا رسول الله أرأيت شحوم الميتة فإنها يدهن بها الجلود ، وتطلى بها السفن ويستصبح بها الناس ، فقال : "لا . هو حرام " ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك " قاتل الله اليهود " ، إن الله لما حرم عليهم شحومها جملوها . أى أذابوها ثم باعوها وأكلوا ثمنها : " .

فان كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد باسه عن القوم المجرمين

- كما فسرها الوسيط ثم حذرهم الله من الكفر والطغيان ، فقال - تعالى : { فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ القوم المجرمين } أى : فإن كذبوك - يا محمد - هؤلاء اليهود وأمثالهم من المشركين ، فيما أخبرناك عنه من أنا حرمنا على هؤلاء اليهود بعض الطيبات عقوبة لهم ، فقل لهم . إن الله - تعالى - ذو رحمة واسعة حقاً ، ورحمته وسعت كل شىء ، ومن مظاهر رحمته أنه لا يعاجل من كفر به بالعقوبة ولا من عصاه بالنقمة ، ولكن ذلك لا يقتضى أن يرد بأسه ، أو يمنع عقابه عن القوم المصرين على إجرامهم المستمرين على اقتراف المنكرات ، وارتكاب السيئات .فالآية الكريمة قد جاءت لتزجرهم عن البغى والكفران ، حتى يعودوا إلى طريق الحق . إن كانوا ممن ينتفع بالذكرى ، ويعتبر بالموعظة .

سيقول الذين اشركوا لو شاء الله ما اشركنا ولا اباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا باسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن وان انتم الا تخرصون

كما فسرها الوسيط ثم حكى القرآن بعد ذلك شبهة من الشبهات الباطلة التى تمسك بها المشركون فى شركهم وجهالاتهم ورد عليها بما يبطلها ويخرس ألسنة قائليها أو المتذرعين بها فقال : { سَيَقُولُ الذين أَشْرَكُواْ . . . } .إن هذه الآيات الكريمة تعرض لشبهة قديمة جديدة : قديمة لأن كثيرا من مجادلى الرسل موهوابها ، وحديثة لأنها دائما تراود كثيرا من المتمسكين بالأوهام فى سبيل إرضاء نزواتهم من المتع الباطلة والشهوات المحرمة .إنهم يقولون عندما يرتكبون القبائح والمنكرات : هذا أمر الله ، وهذا قضاؤه ، وتلك مشيئته وإرادته ، ولو شاء الله عدم فعلنا لهذه الأشياء لما فعلناها وإذا كان الله قد قضى علينا بها فما ذنبنا؟ ولماذا يعاقبنا عليها؟ إلى غير ذلك من اللغو الباطل ، والكلام العابث الذى يريدون من ورائه التحلل من أوامر الله ونواهيه .ولنتدبر سوياً أيها القارىء الكريم - هذه الآيات ، وهى تحكي تلك الشبهات الباطلة ، ثم تقذفها بالحق الواضح ، والبرهان القاطع ، فإذا هي زاهقة يقول - سبحانه - { سَيَقُولُ الذين أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ الله مَآ أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ } .أى : سيقو هؤلاء المشركون لو شاء الله - تعالى - ألا نشرك به وألا يشرك به آباؤنا من قبلنا ، لنفذت مشيئته ، ولما أشركنا نحن ولا آباؤنا .ولو شاء كذلك ألا نحرم شيئاً مما حرمناه من الحرث والأنعام وغيرها لتمت مشيئته ولما حرمنا شيئاً مما حرمنا .ولكنه - سبحانه - لم يشأ ذلك ، بل شاء لنا أن نشرك معه فى العبادة هذه الأصنام ، وأن نحرم ما نحرم من الحرث والأنعام وقد رضى لنا ذلك فلماذا تطالبنا يا محمد بتغيير مشيئة الله ، وتدعونا إلى الدخول فى دينك الذى لم يشأ الله دخولنا فيه؟قال الآلوسى ما ملخصه : " وهم لم يريدوا بهذا الكلام الاعتذار عن ارتكاب القبيح ، لأنهم لم يعتقدوا قبح أفعالهم وإنما مرادهم من هذا القول الاحتجاج على أن ما ارتكبوه - من الشرك والتحريم - حق ومشروع ومرضى عند الله ، بناء على أن المشيئة والإرادة تسابق الأمر وتستلزم الرضا ، فيكون حاصل كلامهم :إن ما نرتكبه من الشرك والتحريم وغيرهما تعلقت به مشيئة الله وإرادته ، وكل ما تعلقت به مشيئة الله وإرادته فهو مشروع ومرضى عنده . فينتج أن ما نرتكبه من الشرك والتحريم مشروع ومرضى عند الله " - وقد حكى القرآن فى كثير من آياته ما يشبه قولهم هذا ، ومن ذلك قوله. تعالى - { وَقَالَ الذين أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ الله مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ ولا آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ

} - مِن شَيْءٍ كذلك فَعَلَ الذين مِن قَبْلِهِمْ } وقوله - تعالى
وَقَالُوا لَوْ شَآءَ الرحمن مَا عَبَدْنَاهُمْ مّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ
عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاّ يَخْرُصُونَ } وقد رد القرآن على قولهم بما يبطله
: فقال : { كَذَلِكَ كَذَّبَ الذين مِن قَبْلِهِم حتى ذَاقُواْ بَأْسَنَا } .أى
مثل هذا التكذيب من مشركى مكة للرسول صلى الله عليه وسلم فيما جاء به من
إبطال الشرك ، قد كذب الذين من قبلهم لرسلهم ، واستمروا فى تكذيبهم لهم حتى
أنزلنا على هؤلاء المكذبين عذابنا ونقمتنا .ومن مظاهر تكذيب هؤلاء المشركين
لرسلهم ، أنهم عندما قال لهم الرسل عليهم السلام - اعبدوا الله ولا تشركوا
، به شيئا . كذبوهم واحتجوا عليهم بأن ما هم عليه من شرك واقع بمشيئة الله
وزعموا أنه ما دام كذلك فهو مرضى عنده - سبحانه - فكان الرد عليهم بأنه لو
كان هذا الشرك وغيره من قبائحهم مرضيا عنده - سبحانه - : لما أذاق أسلافهم
المكذبين - الذين قالوا لرسلهم مثل قولهم - عذابه ونقمته . ولما أخذهم أخذ
عزيز مقتدر .قال الآلوسى ما ملخصه : وحاصل هذا الرد أن كلام المشركين يتضمن
تكذيب الرسل وقد دلت المعجزة على صدقهم ، ولا يخفى أن المقدمة الأولى وهى
أن كل شىء بمشيئة الله :لا تكذيب فيها ، بل هى متضمنة لتصديق ما تطابق فيه
العقل والشرع من كون كل شىء بمشيئة الله ، وامتناع أن يجرى فى ملكه خلاف ما
يشاء . فمنشأ التكذيب هو المقدمة الثانية ، وهى أن كل ما تعلقت به مشيئة
الله وإرادته فهو مشروع ومرضى عنه ، لأن الرسل عليهم السلام : يدعونهم إلى
التوحيد ويقولون لهم : إن الله لا يرضى لعباده الكفر دينا ولا يأمر
بالفحشاء ، فيكون قوله : إن ما نرتكبه مشروع ومرضى عنده سبحانه : تكذيب
لقول الرسل . وحيث كان فساد هذه الحجة باعتبار المقدمة الثانية تعين أنها
ليست بصادقة ، وحينئذ يصدق نقيضها وهى أنه ليس كل ما تعلقت به المشيئة
والإرادة بمشروع ومرضى عنده - سبحانه - بناء على أن الإرادة لا تساوق الأمر
ثم بعد هذا الرد المفحم للمشركين أمر الله : تعالى : رسوله أن يطالبهم.
بدليل على مزاعمهم فقال : { قُلْ هَلْ عِندَكُم مّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ
لَنَآ } .أى : قل لهم يا محمد على سبيل التوبيخ والتعجيز : هل عندكم من علم
ثابت تعتمدون عليه فى قولكم { لَوْ شَآءَ الله مَآ أَشْرَكْنَا } ! إن كان
عندكم هذا العلم فاخرجوه لنا لنتباحث معكم فيه ، ونعرضه على ما جئتكم به من
آيات بينة ودلائل ساطعة . فإن العاقل هو الذى لا يتكلم بدون علم ، ولا يحيل
على مشيئة الله التى لا ندرى عنها شيئاً .و { مِّنْ } فى قوله { مِّنْ
عِلْمٍ } زائدة ، وعلم مبتدأ ، وعندكم خبر مقدم .وقوله : { فَتُخْرِجُوهُ }
منصوب بأن المضمرة بعد فاء السببية الواقعة بعد الاستفهام الإنكارى . ثم بين
حقيقة حالهم فقال : { إِن تَتّبِعُونَ إِلاّ الظن وَإِنْ أَنتُمْ إِلاّ
تَخْرُصُونَ } .أى : أنتم لستم على شىء ما من العلم ، بل ما تتبعون فى
أقوالهم وأعمالكم وعقائدكم إلا الظن الباطل الذى لا يغنى من الحق شيئا .
وما أنتم إلا تخرصون أى تكذبون على الله فيما ادعيتموه .واصل الخرص : القول
بالظن . يقال : خرصت النخل خرصا - من باب قتل - حزرت ثمره وقدرته بالظن
والتخمين ، واستعمل فى الكذب لما يداخله من الظنون الكاذبة ، فيقال : خرص
. فى قوله - كنصر - أى كذب

قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم اجمعين

كما فسرها الوسيط وبعد أن نفى - سبحانه - عنهم أدنى ما يقال له علم وحصر ما
، هم عليه من دين فى أدنى مراتب الظن مع أن أعلاها لا يغنى من الحق شيئاً
ووصمهم بالكذب فيما يدعونه ، بعد كل ذلك أثبت لذاته - سبحانه - فى مقابلة
ذلك الحجة العليا التى لا تعلوها حجة فقال :{ قُلْ فَلِلَّهِ الحجة البالغة
فَلَوْ شَآءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ } .الحجة : كما قال الراغب فى
مفرداته : الدلالة المبينة للمحجة ، أى : المقصد المستقيم .أى : قل أيها
الرسول الكريم لهؤلاء المشركين الذين بنوا قواعد دينهم على الظن والكذب بعد
أن عجزوا عن الإثبات بأدنى دليل على مزاعمهم ، قل لهم : لله وحده الحجة
، البالغة . أى البينة الواضحة التى بلغت أعلى درجات العلم والقوة والمتانة
والتى وصلت إلى أعلى درجات الكمال فى قطع عذر المحجوج وإزالة الشكوك عمن
تدبرها وتأملها .وقوله . { فَلَوْ شَآءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ } أى : لو
شاء - سبحانه - هدايتكم جميعا لفعل؛ لأنه لا يعجزه شىء ، ولكنه لم يشأ ذلك
بل شاء هداية البعض لأنهم صرفوا اختيارهم إلى سلوك طريق الحق ، وشاء ،
ضلالة آخرين ، لأنهم صرفوا اختيارهم إلى سلوك طريق الباطل .ونريد أن نزيد
هذه الشبهة القديمة الحديثة تمحيصا وكشفا ودفعا فنقول لأولئك الذين يبررون
ارتكابهم للموبقات بأنها واقعة بمشيئة الله .نحن معكم فى أنه لا يقع فى
ملكه - سبحانه - هدايتكم جميعا لفعل؛ لأنه لا يعجزه شىء ، ولكنه لم يشأ ذلك
بل شاء هداية البعض لأنهم صرفوا اختيارهم إلى سلوك طريق الحق ، وشاء ،
ضلالة آخرين ، لأنهم صرفوا اختيارهم إلى سلوك طريق الباطل .ونريد أن نزيد
هذه الشبهة القديمة الحديثة تمحيصا وكشفا ودفعا فنقول لأولئك الذين يبررون
ارتكابهم للموبقات بأنها واقعة بمشيئة الله .نحن معكم فى أنه لا يقع فى
، ملكه - سبحانه - إلا ما يشاؤه ، فالطائع تحت المشيئة والعاصى تحت المشيئة

ولكن المشيئة لم تجبر أحدا على طاعة أو معصية وقضاء الله وقدره هو علمه بكل
- ما هو كائن قبل أن يكون ، وليس العلم صفة تأثير وجبر .ولقد شاء الله
تعالى - أن يجعل فى طبيعة البشر الاستعداد للخير والشر ، ووهبهم العقل
ليهتدوا به وأرسل إليهم الرسل لينموا فيهم استعدادهم وسن لهم شريعة لتكون
مقياساً ثابتا لما يأخذون وما يدعون ، كى لا يتركهم لعقولهم وحدها .وإذن
مشيئة الله متحققة حسب سنته التى ارتضاها مختارا - وهو قادر على اختيار
غيرها وعلى تغييرها وتبديلها - متحققة سواء اتخذ العبد طريقه إلى الهدى أو
إلى الضلال ، وهو مؤاخذ إن ضل ومأجور إذا اهتدى .غير أن سنة الله اقتضت أن
من يفتح عينه يبصر النور ، ومن يغمضها لا يراه ، كذلك من يفتح قلبه لإدراك
دلائل الإيمان يهتدى . ومن يحجب قلبه عنها يضل ، سنة الله ولن تجد لسنة
الله تبديلا .وإذن فزعم الزاعمين بأن الله شاء هذا على معنى أنه أجبرهم
عليه فهم لا يستطيعون عنه فكاكا ، إنما هو زعم باطل لا سند له من العلم
والتفكير الصحيح فإن المشيئة الإلهية لها سنة تقيدت بها ، وهذه السنة هى
- أنه لا جبر على طاعة ولا قسر على معصية .وتقرير ذلك يؤخذ من قوله - تعالى
أى { قُلْ فَلِلَّهِ الحجة البالغة فَلَوْ شَآءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ }
فلو شاء أن يكرهكم ويفرض هدايتكم بقدرته وقدره لهداكم ، ولكنه لم يشأ :
إجباركم على الضلالة ، فهى مشيئة المنح والتيسير وليست مشيئة الإلجاء
والتسخير قال - تعالى - {فَأَمَّا مَنْ أعطى واتقى وَصَدَّقَ بالحسنى
فَسَنُيَسِّرُهُ لليسرى وَأَمَّا مَن بَخِلَ واستغني وَكَذَّبَ بالحسنى
فَسَنُيَسِّرُهُ للعسرى }

قل هلم شهداءكم الذين يشهدون ان الله حرم هذا فان شهدوا فلا تشهد معهم ولا
تتبع اهواء الذين كذبوا باياتنا والذين لا يؤمنون بالاخرة وهم بربهم يعدلون

كما فسرها الوسيط ثم أمر الله - تعالى - رسوله صلى الله عليه وسلم بأن
يطالب المشركين بإحضار من يشهد لهم بأن الله قد حرم عليهم ما زعموا تحريمه
من الحرث والأنعام وغيرها فقال :{ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ الذين
يَشْهَدُونَ أَنَّ الله حَرَّمَ هذا } .هلم : لفظ يقصد به الدعوة إلى الشىء
وهى اسم فعل بمعنى أقبل إذا كان لازما ، وبمعنى أحضر وائت إذا كان متعديا ،
كما هنا ، ويستوى فيه الواحد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث فى لغة
الحجازين .أى : أحضروا شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم عليكم هذا الذى
زعمتم تحريمه ، وهم كبراؤهم الذين أسسوا ضلالهم .والمقصود من إحضارهم
تفضيحهم وإلزامهم الحجة ، وإظهار أنه لا متمسك لهم كمقلدين ، ولذلك قيد
الشهداء بالإضافة ، ووصفوا بما يدل على أنهم شهداء معروفون بالشهادة لهم
وبنصر مذهبهم .ثم قال - سبحانه - { فَإِن شَهِدُواْ فَلاَ تَشْهَدْ
مَعَهُمْ } أى : فإن فرض إحضار هؤلاء الشهود الذين عرفوا بضلالهم فلا
تصدقهم ولا تقبل شهادتهم ولا تسلمها لهم بالسكوت عليها فإن السكوت عن
الباطل فى مثل هذا المقام كالشهادة به وإنما عليك أن تبين لهم بطلان زعمهم
بواسطة ما آتاك الله من حجج وبينات .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف أمره
باستحضار شهدائهم الذين يشهدون أن الله حرم ما زعموه محرما ثم أمره بأن لا
يشهد معهم؟ قلت : أمره باستحضارهم وهم شهداء بالباطل ليلزمهم الحجة ويلقمهم
الحجر ، ويظهر للمشهود لهم بانقطاع الشهداء أنهم ليسوا على شىء لتساوى
. أقدام الشاهدين والمشهود لهم فى أنهم لا يرجعون إلى ما يصح التمسك به
وقوله { فَلاَ تَشْهَدْ مَعَهُمْ } يعنى فلا تسلم لهم ما شهدوا به ولا
تصدقهم ، لأنه إذا سلم لهم فكأنه شهيد معهم مثل شهادتهم وكان واحدا منهم
ثم قال - سبحانه - { وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ الذين كَذَّبُواْ.
بِآيَاتِنَا } أى : ولا تتبع أهواء هؤلاء الناس الذين كذبوا بآياتنا التى
- أنزلها الله عليك لتكون هداية ونورا لقوم يعقلون ، فإن شهادتهم - إن وقعت
فإنما هى صادرة عن هوى وضلال .ولم يقل - سبحانه - ولا تتبع أهواءهم بل قال
ولا تتبع أهواء الذين كذبوا ، فوضع الظاهر موضع الضمير لبيان أن المكذب :
بهذه الآيات والحجج الظاهرة إمعانا فى التمسك بتقاليده الباطلة ، إنما هو
صاحب هوى وظن لا صاحب علم وحجة .وقوله { والذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة
وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ } عطف على الموصوف قبله لتعدد صفاتهم
القبيحة .أى : ولا تتبع أهواء الذين يجمعون بين تكذيب آيات الله ، وبني
الكفر بالآخرة ، وبين جعلهم لله عديلا أى شريكا مع أنه - سبحانه - هو
، الخالق لكل شىء ، لأن هذه الصفات لا تؤهلهم لشهادة حق ، ولا للثقة بهم
وإنما للاحتقار فى الدنيا ، ولسوء العذاب فى الآخرة .وإلى هنا تكون السورة
الكريمة قد حكت فى بضع عشرة آية جانبا من رذائل المشركين وسخف تقاليدهم
، وعبث أهوائهم وفساد معاذيرهم وبطلان شبهاتهم وردت عليهم بما يخرس ألسنتهم
ويبطل حجتهم ، فيما أحلوه وحرموه فى شأن النذور والذبائح والمطاعم والمشارب
وغير ذلك مما حكته الآيات الكريمة .ثم تنتقل السورة بعد ذلك إلى أفق أرحب
وأوسع ، وإلى ميدان أفسح وأشمل فتناديهم بأسلوب مؤثر بليغ ليستمعوا إلى ما
حرم الله عليهم فيجتنبوه وإلى ما كلفهم به فيعملوه ، تناديهم ليتدبروا فى
، الأصول الكلية التى تقوم عليها العقيدة السليمة ، ويسعد بها المجتمع

ويحيا فى ظلها الأفراد والجماعات فى أمان واطمئنان . تناديهم ليسمعوا البيان الصحيح الحق فيما أحل الله وحرم من الأفعال والأقوال ليسمعوه ممن له وحده الحق فى أن يقوله ، وفى أن يتلقى عنه تناديهم فتقول :{ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ . . . } .

قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم الا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا ولا تقتلوا اولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون

كما فسرها الوسيط إن المتأمل فى هذه الآيات يراها قد رسمت للإنسان علاقته بربه علاقة ينال بها السعادة والثواب ، ورسمت له علاقته بأسرته بحيث تقوم على المودة والمحبة وسدت فى وجهه أبواب الشر التى تؤدى إلى انتهاك حرمات " الأنفس والأموال والأعراض ، وقد أطلق العلماء على هذه الآيات الكريمة اسم الوصايا العشر " نظرا لتذييل آياتها الثلاث بقوله - تعالى - { ذلكم وَصَّاكُمْ بِهِ } .روى الترمذى - بسنده - عن ابن مسعود أنه قال : من سره أن ينظر إلى وصية محمد التى عليها خاتمه فليقرأ هذه الآيات { قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ } . إلى قوله : { لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } .وروى الحاكم وصححه ، وابن أبى حاتم عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله صلى - الله عليه وسلم : " أيكم يبايعنى على هؤلاء الآيات الثلاث ، ثم تلا قوله تعالى - : { قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ } . حتى فرغ منها ثم قال : من وفى بهن فأجره على الله ، ومن انتقص منهن شيئاً فأدركه الله فى الدنيا كانت عقوبته ومن أخره إلى الآخرة كان أمره إلى الله ، إن شاء الله أخذه ، وإن شاء عفا ، عنه " .وروى البيهقى عن على بن أبى طالب - رضى الله عنه - قال . لما أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يعرض نفسه على قبائل العرب ، خرج إلى منى وأنا وأبو بكر معه ، فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على منازل القوم ومضاربهم . فسلم عليهم وردوا السلام ، وكان فى القوم مفروق بن عمرو وهانى بن قبيصة والمثنى بن حارثة ، والنعمان بن شريك ، وكان مفروق بن عمرو أغلب القوم لساناً وأفصحهم بياناً ، فالتفت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له :إلام تدعو يا أخا قريش؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنى رسول الله ، وأن تؤوونى وتنصرونى وتمنعونى حتى اؤدى حق الله الذى أمرنى به ، فإن قريشاً تظاهرت على أمر الله وكذبت رسوله واستغنت بالباطل عن الحق ، والله هو الغنى الحميد فقال له مفروق : وإلام تدعو أيضاً يا أخا قريش؟ فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم { قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ } . إلى آخر الآيات الثلاث .فقال له مفروق : وإلام تدعو أيضاً يا أخا قريش؟ فوالله ما هذا من كلام أهل الأرض ولو كان من كلامهم لعرفناه . فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم { إِنَّ الله يَأْمُرُ بالعدل والإحسان } الآية فقال له مفروق : دعوت والله يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق ، ومحاسن الأعمال ، وقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك .وقال هانىء بن قبيصة : قد سمعت مقالتك ، واستحسنت قولك يا أخا قريش ، ويعجبنى ما تكلمت به ، فبشرهم الرسول - إن آمنوا - بأرض فارس وأنهار كسرى .فقال له النعمان : اللهم وإن ذلك لك يا أخا قريش؟ فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم { ياأيها النبي إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَدَاعِياً إِلَى الله بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً } ثم نهض رسول الله صلى الله عليه وسلم .هذا جانب من فضائل هذه الآيات الثلاث ، وذلك هو تأثيرها فى نفوس العرب ، والآن فلنبدأ فى التفسير التحليلى لها فنقول :لقد بدئت الآيات بقوله - تعالى - { قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ } .أى : قل أيها الرسول الكريم لهؤلاء الذين حللوا وحرموا حسب أهوائهم ، تعالوا إلى وأقبلوا نحوى لأبين لكم ما حرمه ربكم عليكم ، ولأتلو على مسامعكم ما أمركم به ، وما نهاكم عنه خالقكم ومربيكم ، فإنكم إن أقبلتم نحوى وأطعتمونى سعدتم فى دينكم ودنياكم .وفى تصدير هذه الوصايا بكلمة { قُلْ } إشعار من أول الأمر بأن هذا بيان إلهى ، ليس الرسول فيه إلا ناقلا مبلغا ، وفيه - أيضا - دلالة على أن المأمور به يحتاج إلى مزيد عناية واهتمام وقد سبق أن بينا أن سورة الأنعام زاخرة بهذا الأسلوب التلقينى الذى يبدأ بكلمة { قُلْ } .والأصل فى كلمة ( تعال ) أن يقولها من كان فى مكان عال لمن هو أسفل منه ، ثم اتسع فيها حتى عمت ، وهى تتضمن إرادة تخليص المخاطبين ورفعتهم من انحطاط هم فيه إلى علو يراد لهم ويدعون إليه' وتتضمن كذلك أن المتكلم يريد منهم أن يلتفوا من حوله لتتحد وجهتهم ، ولا تتفرق بهم الأهواء والسبل .وفى قوله { أَتْلُ } إيماء قوى بأن المتكلم يقدر المخاطبين ويرتفع بهم إلى درجة أنهم لا يحتاجون فى الإرشاد إلا لأن يتلو عليهم ما يريدهم أن يعملوه ثم هم بعد ذلك سيمتثلون لحسن استعدادهم لقبول الحق -. وإنه لأسلوب قد بلغ الغاية فى اللطف وفى التكريم وفى حسن الموعظة وتوجيه الخطاب .- وخص التحريم بالذكر مع أن الوصايا قد اشتملت على المحرمات وعلى

غيرها لأن سياق الآيات قبل ذلك كان منصبا على كشف ما اخترعه المشركون من
تحريم فى الحرث والنسل ما أنزل الله به من سلطان ، ولأن بيان أصول المحرمات
يستلزم حل ما عداها لأنه الأصل .وفى نسبة التحريم إلى الرب الذى هو منبع
الخير والإحسان . حض لهم على التدبر والاستجابة . لأن الذى حرم عليهم ذلك
هو مربيهم ، فليس معقولا أن يحرم عليهم ما فيه منفعة لهم ، وإنما هو بمقتضى
ربوبيته قد حرم عليهم ما فيه ضررهم .- وقوله { أَتْلُ } جواب الأمر ، أى :
إن تأتونى أتل . و { مَا } فى قوله { مَا حَرَّمَ } موصولة بمعنى الذى
، والعائد محذوف أى : أقرأ الذى حرمه ربكم عليكم ، وهى فى محل نصب مفعول به
ويحتمل أن تكون مصدرية ، أى أتل تحريم ربكم ، ونفس التحريم لا يتلى وإنما
} هو مصدر واقع موقع المفعول به ، أى : أتل محرم ربكم الذى حرمه هو .و
عَلَيْكُمْ } متعلق ب { حَرَّمَ } أو ب { أَتْلُ } .قال بعض العلماء : وهذه
العبارة التى قدمت بها الوصايا - وهى { قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا
حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ } فيها إشعار بأن الحقائق الأولى التى قام
، عليها الجدال فى السورة قد أصبحت واضحة .لا مفر من قبولها والبناء عليها
فالله - تعالى - يأمر رسوله بأن يبلغهم ، وإذن فهناك إله من شأنه أن يرسل
الرسل ، وهناك رسل من شأنهم أن يتلقوا عن الله ، وهناك محرمات وردت من
المصدر الذى يحق له التحريم وحده لأنه هو الرب { مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ }
ثم هناك لازم عقلى لهذا التحريم هو أن من تعداه وانتهكه كان مغضباً للرب
الذى قرره . مستحقاً لعقوبته ، وإذن فهناك دار للجزاء " . ولننظر بعد ذلك
: فى الوصايا .الوصية الأولى : { أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً } أى
أوصيكم ألا تشركوا مع الله فى عبادتكم آلهة أخرى . بل خصوه وحده بالعبادة
والخضوع والطاعة فإنه هو الخالق لكل شىء .وصدر - سبحانه - هذه الوصايا
بالنهى عن الشرك ، لأنه أعظم المحرمات وأكبرها إفساداً للفطرة ، ولأنه هو
- الجريمة التى لا تقبل المغفرة من الله ، بينما غيره قد يغفره - سبحانه
قال - تعالى - : { إِنَّ الله لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ
مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَآءُ } وقد ساق القرآن مئات الآيات التى تدعو
إلى الإيمان وتنفر من الشرك وتقيم الأدلة الساطعة ، والبراهين الدامغة على
وحدانية الله - عز وجل - .هذا ، وقد ذكر الشيخ الجمل فى إعراب هذه الجملة
الكريمة ألا تشركوا به شيئاً عدة آراء منها :1 - أنّ ( أن ) تفسيرية ، لأنه
- تقدمها ما هو بمعنى القول لا حروفه ، ولا ناهية ولا تشركوا مجزوم بها .2
} أن تكون ( أن ) ناصية للفعل بعدها ، وهى وما فى حيزها فى محل نصب بدلا من
مَا حَرَّمَ } ولا زائدة لئلا يفسد المعنى كزيادتها فى قوله : { أَلاَّ
تَسْجُدَ } و { لِّئَلاَّ يَعْلَمَ } 3 - تكون ( أن ) ناصبة وما فى حيزها
منصوب على الإغراء بعليكم ويكون الكلام قد تم عند قوله { رَبُّكُمْ } ثم
ابتدأ فقال : عليكم ألا تشركوا أى الزموا نفى الشرك .4 - أنها وما فى حيزها
فى محل نصب أو جر على حذف لام العلة ، والتقدير تعالوا أتل ما حرم ربكم
عليكم لئلا تشركوا به شيئاً .5 - أن تكون هى وما بعدها فى محل نصب بإضمار
فعل تقديره : أوصيكم ألا تشركوا .ونكتفى بهذا القدر من وجوه الإعراب التى
، توسع فيها النحاة توسعاً كبيراً ، بسبب ورود بعض هذه الوصايا بصيغة النهى
وبعضها بصيغة الأمر ، مع تقدم فعل التحريم على جميعها .أما الوصية الثانية
فى قوله - تعالى - { وبالوالدين إِحْسَاناً } أى : أحسنوا بهما إحسانا :
كاملا لا إساءة معه .وقد قرن - سبحانه - هذه الوصية بالوصية الأولى التى هى
توحيده وعدم الإشراك به ، فى هذه الآية وفى غيرها ، للإشعار بعظم هذه
الوصى وللتنبيه إلى معنى واحد - يجمعها مع الأولى وهو أن المنعم يجب أن
- يشكر؛ فالوالدان سبب فى حياة الولد فيجب أن يشركهما ويحسن إليهما ، والله
تعالى - هو الخالق المنعم فيجب أن يشكر ويفرد بالعبادة والطاعة .- قال بعض
العلماء : وقد جاءت هذه الوصية بأسلوب الأمر بالواجب المطلوب وهو الإحسان
إلى الوالدين ، ولم تذكر بأسلوب النهى عن المرحم وهو الإساءة ، سموا
بالإنسان عن أن تظن به الاساءة إلى الوالدين ، وكأن الإساءة إليهما ، ليس
من شأنها أن تقع منه حتى يحتاج إلى النهى عنها ، ولأن الخير المنتظر من هذه
الوصية وهو تربية الأبناء على الاعتراف بالنعم وشكر المنعمين عليها إنما
يتحقق بفعل الواجب ، وهو الإحسان لا بمجرد ترك المحرم وهو الإساءة . ولهذا
وذاك قال - سبحانه - { وبالوالدين إِحْسَاناً } .- والإحسان يتعدى بحرفى
الباء وإلى ، فقال : أحسن به ، وأحسن إليه ، وبينهما فرق واضح ، فالباء تدل
" على الإلصاق ، وإلى تدل على الغاية ، والإلصاق يفيد اتصال الفعل بمدخول
الباء " دون انفصال ولا مسافة بينهما ، أما الغاية فتفيد وصول الفعل إلى
مدخول ( إلى ) ولو كان منه على بعد أو كان بينهما واسطة ، ولا شك أن
الإلصاق فى هذا المام أبلغ فى تأكيد شأن العناية والإحسان بالوالدين ، ومن
هنا لم يعد الإحسان بالباء فى القرآن إلا حيث أريد ذلك التأكيد ، وقد جاءت
جميع الآيات القرآنية التى توحى بالإحسان بالوالدين على هذا الأسلوب" .ثم
جاءت الوصية الثالثة وهى قوله - تعالى - { وَلاَ تقتلوا أَوْلاَدَكُمْ
، مِّنْ إِمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ } .الإملاق : الفقر
مصدر أملق الرجل إملاقا إذا احتاج وافتقر .أى :لا تقتلوا أولادكم الصغار
من أجل الفقر فنحن قد تكفلنا برزقكم ورزقهم . { وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي

الأرض إِلاّ عَلَى الله رِزْقُهَا } ولا شك أن الحياة حق لهؤلاء الصغار
كما أنها حق لكم . فمن الظلم البين الاعتداء على حقوقهم ، والتخلص منهم
خوفا من الفقر ، مع أن الله - تعالى - هو الرازق لكم ولهم .والمجتمع الذى
يبيح قتل الأولاد خوفا من الفقر أو خوفا من العار ، هو الرازق لم ولهم
والمجتمع الذى يبيح قتل الأولاد خوفا من الفقر أو خوفا من العار ، لا يمكن.
أن يصلح شأنه ، لأنه مجتمع نفعى تسوده الأثرة والأنانية ، ويكون فى الوقت
نفسه مجتمعاً أفراده يسودهم التشاؤم ، وتتغشاهم الأوهام ، لأنهم يظنون أن
الله يخلق خلقاً لا يدبر لهم حقهم من الرزق ، ويعتدون على روح بريئة طاهرة
تخوفا من جريمة متوهمة ، وذلك هو الضلال المبين .- وقد روى النهى عن قتل
- الأولاد هنا بهذه الصيغة ، وورد فى سورة الإسراء بصيغة أخرى هى قوله
تعالى - { وَلاَ تقتلوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ نَّحْنُ
نَرْزُقُهُمْ وَإِيّاكُم } وليس إحداهما تكراراً للأخرى . وإنما كل واحدة
: منهما تعالج حالة معينة .- فهنا يقول - سبحانه - { مِّنْ إِمْلاَقٍ } أى
لا تقتلوهم بسبب الفقر الموجود فيكم أيها الآباء لذا قال : { نَّحْنُ
نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ } فجعل الرزق للآباء ابتداء ، لأن الفقر الذى
} : يقتلون من أجله أولادهم حاصل لهم فعلا .- وفى سورة الإسراء يقول
خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ } أى : خوفا من فقر ليس حاصلا ، ولكنه متوقع بسبب
الأولاد ولذا قال : { نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيّاكُم } فقدم رزق الأولاد
لأنهم سبب توقع الفقر ، ليكف الآباء عن هذا التوقع ، وليضمن للأولاد رزقهم
ابتداء مستقلا عن رزق الآباء .ففى كلتا الحالتين القرآن ينهى عن قتل
} الأولاد ، ويغرس فى نفوس الآباء الثقة بالله ، والاعتماد عليه .وجملة
نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ } تعليلية لإبطال ما اتخذوه سبباً
لمباشرة جريمتهم ، وضمان منه - سبحانه - لأرزاقهم أى : نحن نرزق الفريقين
لا أنتم وحدكم ، فلا تقدموا على تلك الجريمة النكراء وهى قتل الأولاد لأن
الأولاد قطعة من أبيهم ، والشأن حتى فى الحيوان الأعجم أنه يضحى من أجل
} : أولاده ، ويحميهم ويتحمل الصعاب فى سبيلهم .أما الوصية الرابعة فتقول
. وَلاَ تَقْرَبُواْ الفواحش مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ } الفواحش
جمع فاحشة وهى كما قال الراغب فى مفرداته - ما عظم قبحه من الأقوال
والأفعال يقال : فحش فلان ، أى صار فاحشاً مرتكباً للقبائح ، والمتفحش هو
الذى يأتى بالفحش من القول أو الفعل ، كالسرقة والزنا والنميمة وشهادة
الزور .وأنهاكم عن أن تقتربوا من الأقوال والأفعال القبيحة ما كان منها
ظاهراً وما كان منها خافياً .وقد تعلق التحريم والنهى بهذا الوصف الذى يشعر
بالعلة - كما يقول علماء الأصول - فكأنه قال . إن كل قول أو عل تستقبحه
" العقول فهو فاحشة يجب البعد عنها .والمجتمع الذى يؤمن بأن هناك " فواحش
يجب أن تجتنب ، و " محاسن " يجب أن تلتمس هو المجتمع الفاضل الطهور .أما
المجتمع الذى يسوى بين القبيح والحسن ، ويقوم على الإباحة التى لا تفرق بين
ما يجب أن يفعل وما يجب أن يترك ، فلا بد أن يكون مصيره إلى التدهور
والتعاسة والمهانة .وجملة { مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ } بدل اشتمال
من الفواحش .وتعليق النهى بقربانها للمبالغة فى الزجر عنها لأن قربانها قد
يؤدى إلى مباشرتها ، فمن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، وهذا لون حكيم من
ألوان الإصلاح ، لأنه إذا حصل النهى عن القرب من الشىء ، فلأن ينهى عن فعله
من باب أولى .ثم جاءت الآية فى ختامها بالوصية الخامسة فقالت : { وَلاَ
تَقْتُلُواْ النفس التي حَرّمَ الله إِلاّ بالحق } .أى :لا تقتلوا النفس
التى حرم الله قتلها بأن عصمها بالإسلام إلا بالحق الذى يبيح قتلها شرعاً
كردة أو قصاص أو زنا يوجب الرجم .قال ابن كثير : وهذا مما نص - تبارك
وتعالى - على النهى عنه تأكيدا ، وإلا فهو داخل فى النهى عن الفواحش ما ظهر
منها وما بطن . فقد جاء فى الصحيحين عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم : " لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى
رسول الله إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزانى ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه
} المفارق للجماعة " .وقوله { إِلاّ بالحق } فى محل نصب على الحال من فاعل
تَقْتُلُواْ } أى :لا تقتلوها ملتبسين بالحق ، ويجوز أن يكون وصفاً لمصدر
: محذوف أى : قتلا ملتبساً بالحق ، وهو استثناء مفرغ من أعم الأحوال ، أى
لا تقتلوها فى حال من الأحوال إلا حال ملابستكم بالحق .وذلك لأن الإسلام
ينظر إلى وجود الإنسان على أنه بناه الله فلا يحق لأحد أن يهدمه إلا بالحق
وبذلك يقرر عصمة الدم الإنسانى ، ويعتبر من يعتدى على نفس واحدة فكأنما ،
قد اعتدى على الناس جميعاً : { أَنّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ
أَوْ فَسَادٍ فِي الأرض فَكَأَنّمَا قَتَلَ الناس جَمِيعاً وَمَنْ
أَحْيَاهَا فَكَأَنّمَا أَحْيَا النّاسَ جَمِيعاً } ثم ختمت الآية
: بقوله - تعالى - { ذلكم وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } .أى
، ذلكم الذى ذكرناه لكم من وصايا جليلة ، وتكاليف حكيمة ، وصاكم الله به
وطلبه منكم . لعلكم تستعملون عقولكم التى تعقل نفوسكم وتحبسها عن مباشرة
القبائح .فاسم الإشارة { ذلكم } مشار به إلى الوصايا الخمس السابقة ، وهو
مبتدأ وجملة وصاكم به خبر . ولفظ وصاكم من اللطف والرأفة وجعلهم أوصياء
له - تعالى - ما يحمل النفس على الطاعة والاستجابة .هذه هى الوصايا الخمس

التى تضمنتها الآية الأولى من هذه الآيات الثلاث وكلها تشترك فى معنى واحد هو أنها حقائق أو حقوق ثابتة فى نفسها ، ولم يكن ثبوتها إلا تجاوبا مع الطفرة ، فالله واحد سواء آمن الناس بهذه الحقيقة عقيديا وعمليا أم لم يؤمنوا ، وشكر النعمة يقتضى الإحسان إلى الوالدين طبعا ووضعا ، وللنسل حق الحياة والحفظ ، والفواحش فحش ونكر فى ذاتها فيجب أن تجتنب ، والنفوس معصية فليس لأحد أن يهدمها إلا بحق ، ولاتفاقها كلها فى هذا المعنى جاءت فى آية واحدة ، وختمت بعبارة تفيد أن هذا مرجعه إلى حكم العقول { لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } .

ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي احسن حتى يبلغ اشده واوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا الا وسعها واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله اوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون

} : كما فسرها الوسيط والوصية السادسة تأتى فى مطلع الآية الثانية فتقول { وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ اليتيم إِلاَّ بالتي هِيَ أَحْسَنُ حتى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ } .أى :لا تقربوا مال اليتيم الذى فقد الأب الحانى ، ولا تتعرضوا لما هو من حقه بوجه من الوجوه إلا بالوجه الذى ينفعه فى الحال أو المآل ، كتربيته وتعليمه ، وحفظ ماله واستثماره .وإذن ، فكل تصرف مع اليتيم أو فى ماله لا يقع فى تلك الدائرة - دائرة الأنفع والأحسن - محظور ، ومنهى عنه .قال بعض العلماء : وكثيرا ما يتعلق النهى فى القرآن بالقربان من الشىء وضابطه بالاستقراء : أن كل منهى عنه كان من شأنه أن تميل إليه النفوس ، وتدفع إليه الأهواء النهى فيه عن " القربان " ويكون القصد التحذير من أن يأخذ ذلك الميل فى النفس مكانة تصل بها إلى اقتراف المحرم ، وكان من ذلك فى الوصايا السابقة النهى عن الفواحش ، ومن هذا الباب { وَلاَ تَقْرَبَا هذه الشجرة } { وَلاَ تَقْرَبُواْ الزنى } { وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حتى يَطْهُرْنَ } إلخ .أما المحرمات التى لم يؤلف ميل النفوس إليها ولا إقتضاء الشهوات لها ، فإن الغالب فيها أن يتعلق النهى عنها بنفس الفعل لا بالقربان منه . ومن ذلك فى الوصايا السابقة الشرك بالله ، وقتل الأولاد ، وقتل النفس التى حرم الله قتلها ، فإنها وإن كان الفعل المنهى عنه فيها أشد قبحا وأعظم جرما عند الله من أكل مال اليتيم وفعل الفواحش ، إلا أنها ليست ذات دوافع نفسية يميل إليها الإنسان بشهوته ، وإنما هى فى نظر العقل على المقابل من ذلك ، يجد الإنسان فى نفسه مرارة من ارتكابها ، ولا يقدم عليها إلا وهو كاره لها أو فى حكم الكاره .وقوله : { حتى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ } ليس غاية للنهى ، إذ ليس المعنى فإذا بلغ أشده فاقربوه لأن هذا يقتضى إباحة أكل الولى له بعد بلوغ الصبى ، بل هو غاية لما يفهم من النهى كأنه قيل : احفظوه حتى يصير بالغا رشيداً فحينئذ سلموا إليه ماله .والخطاب للأولياء والأوصياء أى : احفظوا ماله حتى يبلغ الحلم فإذا بلغه فادفعوه إليه .والأشد : قوة . الإنسان واشتعال حرارته : من الشدة بمعنى القوة والارتفاع . يقال : شد النهار إذا ارتفع . وهو مفرد جاء بصيغة الجمع . ولا واحد له .والوصية السابعة : { وَأَوْفُواْ الكيل والميزان بالقسط لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا } .أى : أتموا الكيل إذا كلتم للناس أو اكتلتم عليهم لأنفسكم ، وأوفوا الميزان إذا وزنتم لأنفسكم فيما تبتاعون أو لغيركم فيما تبيعون .فالجملة الكريمة أمر من الله - تعالى - لعباده بإقامة العدل فى التعامل : بحيث يعطى صاحب الحق حقه من غير نقصان ولا بخس ، ويأخذ صاحب الحق حقه من غير طلب الزيادة .والكيل والوزن : مصدران أريد بهما ما يكال وما يوزن ، كالعيش بمعنى ما يعاش به . وبالقسط حال من فاعل أوفوا أى : أوفوهما مقسطين أى : متلبسين بالقسط . ويجوز أن يكون حالا من المفعول أى : أوفوا الكيل والميزان بالقسط أى : تامّين .وهذه الوصية هى مبدأ العدل والتعادل ، وكل مجتمع محتاج إليها ، فالناس لا بد لهم من التعامل ، ولا بد لهم من التبادل ، والكيل والوزن هما وسيلة ذلك ، فلا بد من أن يكونا منضبطين بالقسط ، والمجتمعات الأمينة التى لا تجد فيها أحدا يغبن عن جهل أو غفلة ، وهى أيضاً المجتمعات الأمينة التى لا تجد فيها من يحاول أن يأخذ أكثر من حقه . أو يعطى أقل مما يبج عليه .وقوله { لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا } أى :لا نكلف نفسها إلا ما يسعها ولا يعسر عليها . والجملة مستأنفة جىء بها عقيب الأمر بإيفاء الكيل والميزان بالعدل ، للترخيص فيما خرج عن الطاقة ، ولبيان قاعدة من قواعد الإسلام الرافعة للحرج وذلك لأن التبادل التجاري لا يمكن أن يتحقق على وجه كامل من المساواة أو التعادل ، فلا بد من تقبل اليسير من الغبن فى هذا الجانب أو ذاك .والوصية الثامنة تقول : { وَإِذَا قُلْتُمْ فاعدلوا وَلَوْ كَانَ ذَا قربى } .أى : وإذا قلتم قولا فاعدلوا فيه ولو كان المقول له أو عليه صاحب قرابة منكم .إذ العدل هو أساس الحكم السليم : العدل فى القول ، والعدل فى الحكم ، والعدل فى كل فعل .وإنما خصصت الآية العدل فى القول مع أن العدل مطلوب فى الأقوال والأفعال وفى كل شىء ، لأن أكثر ما يكون فيه العدل أقوال كالشهادة ، والحكم ثم الأقوال هى التى تراود النفوس فى كل حال . فالإنسان حين تصادفه قضية ،

من القضايا القولية أو العملية يحدث نفسه فى شأنها ، ويراوده معنى العدل ، وكأنه يطالبه بأن ينطق به ويؤيده ، فيقول فى نفسه سأفعل كذا لأنه العدل فإذا لم يكن صادقا فى هذا القول فقد جافى العدل وقال زوراً وكذبا .أما قوله فهو أخذ بالإنسان عما جرت به عادته من التأثر { وَلَوْ كَانَ ذَا قربى } بصلات القربى فى المحاباة للأقرباء والظلم لغيرهم .فالقرآن يرتفع بالضمير البشرى إلى مستوى سامق رفيع ، على هدى من العقيدة فى الله ، بأن يكلفه بتحرى العدل فى كل أحواله ولو إزاء أقرب المقربين إليه .أما الوصية التاسعة والأخيرة فى هذه الآية فهى قوله - تعالى - { وَبِعَهْدِ الله أَوْفُواْ } أى : كونوا أوفياء مع الله فى كل ما عهد إليكم به من العبادات والمعاملات وغيرها .إذ الوفاء أصل من الأصول التى يتحقق بها الخير والصلاح ، وتستقر عليها أمور الناس .وقوله : { وَبِعَهْدِ الله أَوْفُواْ } يفيد الحصر لتقديم المعمول ، وفى هذا إشعار بأن هناك عهوداً غير جديرة بأن تنسب إلى الله ، وهى العهود القائمة على الظلم أو الباطل ، أو الفساد ، فمثل هذه العهود غير جديرة بالاحترام ، ويجب العمل على التخلص منها .ثم ختمت الآية بقوله - تعالى - { ذلكم وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } أى : ذلكم المتلو عليكم فى هذه الآية من الأوامر والنواهى وصاكم الله به فى كتابه رجاء أن تتذكروا وتعتبروا وتعملوا بما أمرتم به وتجتنبوا ما نهيتم عنه أو رجاء أن يذكِّر بعضكم بعضا فإن التناصح واجب بين المسلمين .

وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون

كما فسرها الوسيط أما الوصية العاشرة فهى قوله - تعالى - فى الآية الثالثة من هذه الآيات : { وَأَنَّ هذا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فاتبعوه وَلاَ تَتَّبِعُواْ السبل فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ } .قرأة الجمهور بفتح همزة { أَنَّ } وتشديد النون . ومحلها مع ما فى حيزها الجر بحذف لام العلة أى : ولأن هذا الذى وصيتكم به من الأوامر والنواهى طريقى ودينى الذى لا اعوجاج فيه ، فمن الواجب عليكم أن تتبعوه وتعملوا به .ويحتمل أن يكون محلها مع ما فى حيزها النصب على { مَا حَرَّمَ } أى : وأتلوا عليكم أن هذا صراطى مستقيما .وقرأ حمزة والكسائى " إن " بكسر الهمزة على الاستئناف .وقوله { وَلاَ تَتَّبِعُواْ السبل } يعنى الأديان الباطلة ، والبدع والضلالات الفاسدة { فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ } أى : فتفرقكم عن صراط الله المستقيم وهو دين الإسلام الذى ارتضاه لكم .روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - قال : " خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا ثم قال : هذا سبيل الله ، ثم خط خطوطا عن يمينه وعن شماله ثم قال : هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه ثم قرأ { وَأَنَّ هذا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً } " .وقد أفرد - سبحانه - الصراط المستقيم وهو سبيل الله ، وجمع السبل المخالفة له لأن الحق واحد والباطل ما خالفه وهو كثير فيشمل الأديان الباطلة ، والبدع الفاسدة ، والشبهات الزائفة ، والفرق الضالة وغيرها .ثم ختمت الآية بقوله - تعالى - { ذلكم وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } أى : ذلكم المذكور من اتباع سبيله - تعالى - وترك اتباع السبل وصاكم الله به لعلكم تتقون اتباع سبل الكفر والضلالة ، وتعملون بما جاءكم به هذا الدين .قال أبو حيان : ولما كانت الخمسة المذكورة فى الآية الأولى من الأمور الظاهرة الجلية مما يجب تعلقها وتفهمها ختمت الآية بقوله { لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } ، ولما كانت الأربعة المذكورة فى الآية الثانية خافية غامضة ولا بد فيها من الاجتهاد والتفكر حتى يقف الإنسان فيها على موضع الاعتدال ختمت بقوله : { لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } ولما كان الصراط المستقيم هو الجامع للتكاليف ، وأمر - سبحانه - باتباعه ونهى عن اتباع السبل المختلفة ختم ذلك بالتقوى التى هى اتقاء النار ، إذ من اتبع صراطه نجا النجاة الأبدية وحصل على السعادة السرمدية " .وبعد : فهذه هى الوصايا العشر التى جاءت بها هذه الآيات الكريمة ، والمتأمل فيها يراها قد وضعت أساس العقيدة السليمة فى توحيد الله - تعالى - وبنت الأسرة الفاضلة على أساس الإحسان بالوالدين والرحمة بالأبناء ، وحفظت المجتمع من التصدع عن طريق تحريمها لانتهاك الأنفس والأموال والأعراض ، ثم ربطت كل ذلك بتقوى الله التى هى منبع كل خير وسبيل كل فلاح .فأين المسلمون اليوم من هذه الوصايا؟ إنهم لو عملوا بها لعزوا فى دنياهم ولسعدوا فى أخراهم ، فهل تراهم فاعلون؟اللهم خذ بيدنا إلى ما يرضيك وجنبنا مالا يرضيك .

ثم اتينا موسى الكتاب تماما على الذي احسن وتفصيلا لكل شيء وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون

كما فسرها الوسيط ولما كان هذا الصراط قديماً ، والديانات قبله كانت فى اتجاهه ، أشار - سبحانه - إلى موسى وكتابه ، وبين منزلة هذا القرآن ، وأمر الناس باتباعه فقال : { ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى . . . . } .قال الآلوسى :

- قوله { ثُمّ آتَيْنَا مُوسَى الكتاب } . الخ . كلام مستأنف مسوق من جهته تعالى - تقريرا للوصية وتحقيقا لها ، وتمهيدا لما تقبه من ذكر إنزال القرآن المجيد كما ينبىء عنه تغيير الأسلوب بالالتفات إلى التكلم معطوف على مقدر يقتضيه المقام ويستدعيه النظام كأنه قيل بعد قوله { ذلكم وَصّاكُمْ بِهِ } بطريق الاستئناف تصديقا له وتقريراً لمضمونه ، فعلنا ذلك { ثُمّ آتَيْنَا } وقيل عطف على { ذلكم وَصَّاكُمْ بِهِ } وعند الزجاج أنه عطف على معنى التالوة ، كأنه قيل : { قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ } ( ثم أتل عليهم ما آتاه الله موسى ) .وكلمة ثم لا - تفيد الترتيب الزمنة هنا ، وإنما تفيد عطف معنى على معنى ، فكأنه سبحانه - يقول : لقد بينت لكم فى هذه الوصايا ما فيه صلاحكم ثم أخبركم بأنا آتينا موسى الكتاب وهو التوراة ليكون هدى ونوراً .وقوله : { تَمَاماً عَلَى الذي أَحْسَنَ } قرأ الجمهور أحسن بفتح النون على أنه فعل ماض وفاعله ضمير الذى ، أى : آتينا موسى الكتاب تماماً للكرامة والنعمة على من أحسن القيام به كائناً من كان . فالذى لجنس المحسنين .وتدل عليه قراءة عبد الله " تماماً على الذين أحسنوا " وقراءة الحسن " على المحسنين " .ويجوز أن يكون فاعل أحسن ضمير موسى - عليه السلام - ومفعوله محذوف أى : آتينا موسى الكتاب - تتمة للكرامة على العبد الذى أحسن الطاعة فى التبليغ وفى كل أمر وهو موسى عليه السلام - و " تماماً " مفعول لأجله أى : آتيناه لأجل تمام نعمتنا ، أو " حال من الكتاب ، أى : حال كونه أى الكتاب تاماً . أو مصدر لقوله " آتينا من معناه ، لأن إيتاء الكتاب إتمام للنعمة . كأنه قيل : أتممنا النعمة إتماماً . أو مصدر لقوله " آتينا " من معناه ، لأن إيتاء الكتاب إتمام للنعمة . كأنه قيل : أتممنا النعمة إتماماً . فهو " كنباتاً " فى قوله { والله أَنبَتَكُمْ مِّنَ الأرض نَبَاتاً } أى إنباتاً .وقرأ يحيى بن يعمر " بضم النون على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، و " الذى " وصف للدين أى : تماماً على الدين الذى هو أحسن دين وأرضاه .قال ابن جرير : وهذه قراءة لا أستجيز القراءة بها وإن كان لها فى العربية وجه صحيح ، لخلافها ما عليه الحجة مجمعة من قراء الأمصار " .وقوله : { وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ } معطوف على ما قبله ، أى : وبيانا مفصلا لكل ما يحتاج إليه قومه فى أمور دينهم ودنياهم .وقوله : { وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلّهُمْ بِلِقَآءِ رَبّهِمْ يُؤْمِنُونَ } أى : هذا الكتاب هداية لهم إلى طريق الحق ، ورحمة لمن عمل به لعلهم - أى قوم موسى وسائر أهل الكتاب - يصدقون بيوم الجزاء ، ويقدمون العمل الصالح الذى ينفعهم فى هذا اليوم الشديد .

وهذا كتاب انزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - منزلة القرآن فقال : { وهذا كِتَابٌ أنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ } أى : وهذا القرآن الذى قرأ عليكم أوامره ونواهيه ، رسولنا صلى الله عليه وسلم كتاب عظيم الشأن أنزلناه بواسطة الروح الأمين : وهو جامع لكل أسباب الهداية الدائمة ، والسعادة الثابتة .{ فاتبعوه } أى اعملوا بما فيه من الأوامر والنواهى والأحكام .{ واتقوا } مخالفته واتباع غيره .{ اتقوا لَعَلّكُمْ تُرْحَمُونَ } أى : لترحموا بواسطة اتباعه والعمل بما فيه .

ان تقولوا انما انزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وان كنا عن دراستهم لغافلين

} : كما فسرها الوسيط ثم قطع - سبحانه - عذر كل من يعرض عن هذا الكتاب فقال أن تقولوا إِنّمَآ أُنزِلَ الكتاب على طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ } .أى : أنزلنا هذا الكتاب لهدايتكم كراهة أن تقولوا يوم القيامة ، أو لئلا تقولوا لو لم ننزله : إنما أنزل ، الكتاب الناطق بالحجة على جماعتين كائنتين من قبلنا وهما اليهود والنصارى وإنا كنا عن تلاوة كتابهم لغافلين لا علم لنا بشىء منها لأنها ليست بلغتنا فقوله : { أن تقولوا } مفعول لأجله والعامل فيه أنزلناه مقدراً مدلولا. عليه بنفس أنزلناه الملفوظ به فى الآية السابقة أى : أنزلناه كراهية أن } - تقولوا .وقيل إنه مفعول به والعامل فيه قوله فى الآية السابقة - أيضاً واتقوا . . . } أى . واتقوا قولكم كيت وكيت . وقوله { لَعَلّكُمْ تُرْحَمُونَ } معترض جار مجرى التعليل .والمراد بكتاب جنسه المنحصر فى التوراة والإنجيل والزبور .وتخصيص الإنزال بكتابيهما لأنهما اللذان اشتهرا من بين الكتب السماوية بالاشتمال على الأحكام .والخطاب لكل من أرسل إليهم الرسول صلى الله عليه وسلم .

او تقولوا لو انا انزل علينا الكتاب لكنا اهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة فمن اظلم ممن كذب بايات الله وصدف عنها سنجزي الذين يصدفون عن اياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون

كما فسرها الوسيط ثم ساق -سبحانه- آية أخرى لقطع أعذارهم فقال { أَوْ
{ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا الكتاب لَكُنَّآ أهدى مِنْهُمْ
أى : وأنزلنا الكتاب - أيضاً - خشية أن تقولوا معتذرين يوم القيامة لو أنا.
أنزلنا علينا الكتاب كما أنزل على الذين من قبلنا ، لكنا أهدى منهم إلى
الحق وأسرع منهم استجابة لله ولرسوله لمزيد ذكائنا ، وتوقد أذهاننا ، وتفتح
قلوبنا .وقوله : { فَقَدْ جَآءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى
وَرَحْمَةٌ } جواب قاطع لأعذارهم وتعلاتهم أى : فقد جاءكم من ربكم عن طريق
نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم هذا الكتاب الواضح المبين ، والذى هو هداية
لكم إلى طريق الحق ، ورحمة لمن يعمل بما اشتمل عليه من توجيهات وإرشادات
وقوله : { فَقَدْ جَآءَكُمْ } متعلق بمحذوف تبنىء عنه الفاء الفصحية إما.
معلل به أى :لا تعتذروا فقد جاءكم . . . وإما شرط له أى : إن صدقتم فيما
كنتم تعدون به . فقد حصل ما فرضتم وجاءكم بينه من ربكم .والاستفهام فى قوله
{ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ الله وَصَدَفَ عَنْهَا }
للإنكار والنفى . أى :لا أحد أظلم ممن كذب بآيات الله وأعرض عنها بعد أن
جاءته ببياناتها الكاملة ، وهداياتها الشاملة .والفاء لترتيب ما بعدها على
ما قبلها . فإن مجىء القرآن المشتمل على الهدى والرحمة موجب لغاية أظلمية
: من يكذبه أى : وإذا كان الأمر كذلك فمن أظلم . . ؟ ومعنى : وصدف عنها أى
أعرض عنها غير متفكر فيها ، أو صرف الناس عنها وصدهم عن سبيلها . فجمع بين
الضلال والإضلال .ثم ختم - سبحانه - الآية بتهديد أولئك المعرضين عن آياته
بقوله : { سَنَجْزِي الذين يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سواء العذاب بِمَا
كَانُواْ يَصْدِفُونَ } أى : سنجزيهم أسوأ العذاب وأشده بسبب تكذيبهم
لآياتنا وإعراضهم عنها .فالآيتان الكريمتان تقطعان كل عذر قد يتعلل به يوم
القيامة المكذبون لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللقرآن الكريم ، وتتوعدهم
. بأشد ألوان العذاب

هل ينظرون الا ان تاتيهم الملائكة او ياتي ربك او ياتي بعض ايات ربك يوم
ياتي بعض ايات ربك لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن امنت من قبل او كسبت في
ايمانها خيرا قل انتظروا انا منتظرون

كما فسرها الوسيط ثم يمضى القرآن فى تهديدهم خطوة أخرى . رداً على ما كانوا
يطلبون من الآيات الخارقة ، وتحذيراً من إعراضهم وتقاعسهم عن طريق الحق مع
أن الزمن لا يتوقف ، والفرص لا تعود فيقول : { هَلْ يَنظُرُونَ . . . }أى
ما ينتظر مشركو مكة وغيرهم من المكذبين بعد إعراضهم عن آيات الله إلا أن :
تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم من أجسادهم .والجملة الكريمة مستأنفة لبيان
أنهم لا يتأتى منهم الإيمان بإنزال ما ذكر من البينات والهدى .قال البيضاوى
وهم ما كانوا منتظرين لذلك ، ولكن لما كان يلحقهم لحوق المنتظر شبهوا :
بالمنتظرين .وقوله : { أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ } أى : إتياناً يناسب ذاته
الكريمة بدون كيف أو تشبيه للقضاء بين الخلق يوم القيامة ، وقيل المراد
بإتيان الرب ، إتيان ما وعد به من النصر للمؤمنين والعذاب للكافرين .وقوله
، أى : بعض علامات قيام الساعة { أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ } :
وذلك قبل يوم القيامة ، وفسر فى الحديث بطلوع الشمس من مغربها .فقد روى
البخارى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لا تقوم
الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها . فإذا رآها الناس آمن من عليها . فذاك
حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل " .وفى رواية لمسلم والترمذى
عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ثلاث إذا خرجن لا
ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً : طلوع
الشمس من مغربها ، والدجال ، ودابة الأرض" .ثم بين - سبحانه - أنه عند
مجىء علامات الساعة لا ينفع الإيمان فقال :{ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ
رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ
، أَوْ كَسَبَتْ في إِيمَانِهَا خَيْراً } .أى : عند مجىء بعض أشراط الساعة
يذهب التكليف ، فلا ينفع الإيمان حينئذ نفساً كافرة لم تكن آمنت قبل ظهورها
ولا ينفع العمل الصالح نفساً مؤمنة تعمله عند ظهور هذه الأشراط ، لأن ،
العمل أو الإيمان عند ظهور هذه العلامات لا قيمة له لبطلان التطليف فى هذا
الوقت .قال الطبرى : معنى الآية لا ينفع كافراً لم يكن آمن قبل الطلوع - أى
طلوع الشمس من مغربها - إيمان بعد الطلوع . ولا ينفع مؤمناً لم يكن عمل
. صالحاً قبل الطلوع ، بعد الطلوع . لأن حكم الإيمان والعمل الصالح حينئذ
} - حكم من آمن أو عمل عند الغرغرة ، وذلك لا يفيد شيئاً . كما قال - تعالى
فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا } وكما
ثبت فى الحديث الصحيح : " إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر " .وقال ابن
كثير : إذا أنشأ الكافر إيماناً يومئذ لم يقبل منه ، فأما من كان مؤمناً
قبل ذلك فإن كان مصلحاً فى عمله فهو بخير عظيم ، وإن لم يكن مصلحاً فأحدث
- توبة حينئذ لم تقبل منه توبته ، كما دلت عليه الأحاديث ، وعليه يحمل قوله
تعالى - : { أَوْ كَسَبَتْ في إِيمَانِهَا خَيْراً } أى :لا يقبل منها كسب

عمل صالح إذا لم يكن عاملا به قبل ذلك " .وقوله : { قُلِ انتظروا إِنَّا
مُنتَظِرُونَ } تهديد لهم . أى : قل يا محمد لهؤلاء الكافرين : انتظروا ما
تنتظرونه من إتيان أحد الأمور الثلاثة لتروا أى شىء تنتظرون ، فإنا منتظرون
معكم لنشاهد ما يحل بكم من سوء العاقبة .

ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء انما امرهم الى الله ثم
ينبئهم بما كانوا يفعلون

} : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أحوال الفرق الضالة بوجه عام فقال
إِنَّ الذين فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي
شَيْءٍ } .أى : إن الذين فرقوا دينهم بأن اختلفوا فيه مع وحدته فى نفسه
فجعلوه أهواء متفرقة ، ومذاهب متباينة : {وَكَانُواْ شِيَعاً } أى فرقاً
ونحلا تتبع كل فرقة إماماً لها على حسب أهوائها ومتعها ومنافعها بدون نظر
إلى الحق .وقوله : { قُلِ انتظروا إِنَّا مُنتَظِرُونَ } تهديد لهم . أى
: قل يا محمد لهؤلاء الكافرين : انتظروا ما تنتظرونه من إتيان أحد الأمور
الثلاثة لتروا أى شىء تنتظرون ، فإنا منتظرون معكم لنشاهد ما يحل بكم من
} : سوء العاقبة .ثم بين - سبحانه - أحوال الفرق الضالة بوجه عام فقال
إِنَّ الذين فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي
شَيْءٍ } .أى : إن الذين فرقوا دينهم بأن اختلفوا فيه مع وحدته فى نفسه
فجعلوه أهواء متفرقة ، ومذاهب متباينة : {وَكَانُواْ شِيَعاً } أى فرقاً
ونحلا تتبع كل فرقة إماماً لها على حسب أهوائها ومتعها ومنافعها بدون نظر
إلى الحق .وقوله : { لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ } أى : أنت برىء منهم
محمى الجناب عن مذاهبهم الباطلة ، وفرقهم الضالة . أو لست من هدايتهم إلى
التوحيد فى شىء إذ هم قد انطمست قلوبهم فأصبحوا لا يستجيبون لمن يدعوهم إلى
الهدى .وقوله : { إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى الله } تعليل للنفى المذكور
قبله أى : هو يتولى وحده أمرهم جميعاً ، ويدبره حسب ما تقتضيه حكمته ، فلا
تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون " .وقوله : { ثُمَّ
يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ } أى : ثم يخبرهم يوم القيامة بما
كانوا يفعلونه فى الدنيا من آثام وسيئات ، ويعاقبهم على ذلك بما يستحقونه
من عقوبات .والآية الكريمة عامة فى كل من فارق تعاليم الإسلام سواء أكان
مشركاً أو كتابياً ، ويندرج فيها أصحاب الفرق الباطلة والمذاهب الفاسدة فى
كل زمان ومكان ، كالقاديانية ، والباطنية ، والبهائية ، وغير ذلك من أصحاب
الأهواء والبدع والضلالات .قال ابن كثير : " والظاهر أن الآية عامة فى كل
من فارق دين الله وكان مخالفاً له ، فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق
ليظهره على الدين كله ، وشرعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق .فمن اختلف
فيه { وَكَانُواْ شِيَعاً } أى : فرقا كأهل الأهواء والملل والنحر
} : والضلالات ، فإن الله قد برأ رسوله منهم . وهذه الآية كقوله تعالى
شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدين مَا وصى بِهِ نُوحاً والذي أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ
الاية .وفى الحديث : " نحن معاشر الأنبياء أولاد علات . ديننا واحد " فهذا{
هو الصراط المستقيم ، وهو ما جاءت به الرسل من عبادة الله وحده والتمسك
، بشريعة الرسول المتأخر ، وما خالف ذلك فضلالات وجهالات وآراء وأهواء
. والرسل برآء منها كما قال - تعالى - { لست منهم فى شىء }

من جاء بالحسنة فله عشر امثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلها وهم لا
يظلمون

، كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - لطفه فى حكمه ، وفضله على عباده
بمناسبة الحديث عن الجزاء فقال : { مَن جَآءَ بالحسنة فَلَهُ عَشْرُ
أَمْثَالِهَا } .أى : من جاء يوم القيامة بالأعمال الحسنة . فله عشر حسنات
- أمثالها فى الحسن ، فضلا من الله - تعالى - وكرماً .قال بعضهم : وذلك
ولله المثل الأعلى - كمن أهدى إلى سلطان عنقود عنب يعطيه بما يليق بسلطنته
لا قيمة العنقود . والعشر أقل ما وعد من الأصناف ، وقد جاء الوعد بسبعين
وبسبعمائة وبغير حساب ، ولذلك قيل : المراد بذكر العشر بيان الكثرة لا
} الحصر فى العدد الخاص .{ وَمَن جَآءَ بالسيئة } أى : بالأعمال السيئة
فَلاَ يجزى إِلاَّ مِثْلَهَا } أى : فلا يجزى بحكم الوعد إلا بمثلها فى
العقوبة واحدة بواحدة { وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ } بنقص الثواب وزيادة
العقاب . فإن ربك لا يظلم أحداً .وقد ورت أحاديث كثيرة فى معنى الآية منها
ما رواه الشيخان عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " يقول
الله - تعالى - : إذا أراد عبدى أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها
فإن عملها فاكتبوها بمثلها . وإن تركها من أجلى فاكتبوها له حسنة ، وإذا
أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة . فإن عملها فاكتبوها له
بعشر أمثالها إلى سبعمائة " .

قل انني هداني ربي الى صراط مستقيم دينا قيما ملة ابراهيم حنيفا وما كان من

المشركين

كما فسرها الوسيط ثم ختمت السورة الكريمة بخمس آيات جامعة لوجوه الخير ، من تأملها تجلى له أنها ختام حكيم يناسب هذه السورة التى هى سورة البلاغ - والإعلان ، والمبادىء العليا لدعوة الإيمان .أما الآيات الخمس فهى قوله تعالى - : { قُلْ إِنَّنِي . . . } .أى : قل يا محمد لهؤلاء الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا ، ولغيرهم ممن أرسلت إليهم ، قل لهم جميعاً : لقد هدانى : خالقى ومربينى إلى دين الإسلام الذى ارتضاه لعباده { دِيناً قِيَماً } أى } ثابتاً أبداً لا تغيره الملل والنحل ولا تنسخه الشرائع والكتب .وقوله ، دِيناً } نصب على البدل من محل { إلى صِرَاطٍ } لأن معناه هدانى صراطاً أو مفعول لمضمر يدل عليه المذكور . أى : عرفنى ديناً .وقوله { قِيَماً } } صفى ل { ديناً } والقَيِّم والقِيَم لغتان بمعنى واحد وقرىء بهما .وقوله } مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ } منصوب بتقدير أعنى أو عطف بيان ل { دِيناً } و حَنِيفاً } حال من إبراهيم . أى : هدانى ربى ووفقنى إلى دين الإسلام الذى هو الصراط المستقيم والدين القيم المتفق مع ملة إبراهيم الذى كان مائلا عن كل دين باطل إلى دين الحق ، والذى ما كان أبدا { مِنَ المشركين } مع الله آلهة أخرى فى شأن من شئونه .لا كما يزعم المشركون وأهل الكتاب أن إبراهيم كان على دينهم .

قل ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين

كما فسرها الوسيط ثم قل لهم للمرة الثانية : إن صلاتى التى أتوجه بها إلى ربى { وَنُسُكِي } أى عبادتى وتقربى إليه - وهو من عطف العام على الخاص - وقيل المراد به ذبائح الحج والعمرة . { وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي } أى : ما أعمله في حياتى من أعمال وما أموت عليه من الإيمان والعمل الصالح .كل ذلك } للَّهِ رَبِّ العالمين } فأنا متجرد تجرداً كاملا لخالقى ورازقى بكل خالجة فى القلب ، وبكل حكة فى هذه الحياة .

لا شريك له وبذلك امرت وانا اول المسلمين

كما فسرها الوسيط فهو - سبحانه - رب كل شىء . ولا شريك له فى ملكه ، بذلك القول الطيب ، وبذلك العمل الخالص أمرت وأنا أول المسلمين الممتثلين لأوامر الله والمنتهين عن نواهيه من هذه الأمة .

قل اغير الله ابغي ربا وهو رب كل شيء ولا تكسب كل نفس الا عليها ولا تزر وازرة وزر اخرى ثم الى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون

كما فسرها الوسيط ثم قال لهم للمرة الثالثة على سبيل التعجب من حالهم ، والاستنكار لواقعهم :{ أَغَيْرَ الله أَبْغِي رَبّاً } أى : أغير الله - تعالى - تريدوننى أن أطلب رباً فأشركه فى عبادته ، والحال والشأن أنه سبحانه - هو رب كل شىء ومليكه ، وهو الخالق لكل شىء .فجملة { وَهُوَ رَبُّ - كُلِّ شَيْءٍ } حال فى موضع العلة لإنكار ما هم عليه من ضلال .ثم بين سبحانه - أن كل إنسان مجازى بعمله فقال : { وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا } أى :لا تجترح نفس إثما إلا عليها من حيث عقابه . فلا يؤاخذ سواها به ، وكل مرتكب لإثم فهو وحده المعاقب به .{ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى } أى : ولا تحمل نفس مذنبة ولا غير مذنبة ذنب نفس أخرى ، وإنما تتحمل الآثمة وحدها عقوبة إثمها الذى ارتكبته بالمباشرة أو بالتسبب .قال القرطبى : واصل الوزر الثقل ، ومنه قوله تعالى ( وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ) وهو هنا الذنب كما فى قوله تعالى{ وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ } ثم بين - سبحانه - نهايتهم فقال : { ثُمَّ } إلى رَبِّكُمْ مَّرْجِعُكُمْ } أى : رجوعكم بعد الموت يوم القيامة فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ } بتمييز الحق من الباطل ، ومجازاة كل إنسان بما يستحقه من خير أو شر على حسب علمه .

وهو الذي جعلكم خلائف الارض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما اتاكم ان ربك سريع العقاب وانه لغفور رحيم

كما فسرها الوسيط ثم ختمت السورة بهذه الآية { وَهُوَ الذي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأرض } أى : خلائف القرون الماضية ، فأورثكم أرضهم لتخلفوهم فيها وتعمروها بعدهم .وخلائف : جمع خليفة ، وكل من جاء بعد من مضى فهو خليفة ، لأنه يخلفه .وقوله : { وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ } أى : فاوت بينكم فى الأرزاق والأخلاق والمحاسن والمساوىء والمناظر والأشكال والألوان وغير ذلك .ثم بين - سبحانه - العلة فى ذلك فقال أى : ليختبركم فى الذى أنعم به { لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُمْ } :

عليكم ، يختبر الغنى فى غناه ويسأله عن شكره ، ويختبر الفقير فى فقره ويسأله عن صبره .وفى الحديث الشريف الذى رواه الإمام مسلم عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الدنيا حلوة خضرة . وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء ، فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء " .ثم رهب - سبحانه - من معصيته ، ورغب فى طاعته فقال . { إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ العقاب } لمن عصاه وخالف رسله . { وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ } لمن أطاعه واتبع سبيل المؤمنين الصادقين .أما بعد : فهذه هى سورة الأنعام التى عالجت من مبدئها إلى نهايتها قضية العقيدة بكل مقوماتها علاجاً قوياً حكيماً يهدى إلى الرشد لمن عنده الاستعداد لذلك ، والتى طوفت بالنفس البشرية فى الكون كله لترشدها إلى خلق هذا الكون ، وتجعلها تستجيب له وتنتفع بما منحها من نعم ، والتى كشفت عن مواطن الشرك ومظاهره فى كل مظانه ومكامنه . لتدمغه وتدحضه وتخلص النفس البشرية والحياة الإنسانية من أمراضه وأدرانه .تلك هى سورة الأنعام التى نزلت مشعة بالملأ العظيم من الملائكة وذلك تفسير تحليلى لها ، لا نزعم أننا ، استقصينا فيه كل ما يتعلق بهذه السورة الكريمة ، من توجيهات وهدايات وإنما هو قبسات من نور القرآن الكريم ، نرجو الله أن ينفع به ، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم .{ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ السميع العليم } وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

المص

" كما فسرها الوسيط سورة الأعراف من السور التى ابتدأت ببعض حروف التهجى ) : ألمص " ولم يسبقها فى النزول من هذا النوع من السور سوى ثلاثة وهى سور ن ، ق ، ص ) ويبلغ عدد السور القرآنية التى ابتدئت بالحروف المقطعة تسعاً وعشرين سورة .هذا ، وقد وقع خلاف بين العلماء فى المعنى المقصود من حروف التهجى التي افتتحت بها بعض السور القرآنية ، ويمكن إجمال اختلافهم فى رأيين :الرأى الأول : أن المعنى المقصود منها غير معروف ، فهى من المتشابه الذى استأثر الله بعلمه وإلى هذا الرأى ذهب ابن عباس - فى إحدى الروايات عنه - كما ذهب إليه الشعبى ، وسفيان الثورى ، وغيرهما من العلماء؛ فقد أخرج ابن المنذر وغيره عن الشعبى أنه سئل عن فواتح السور فقال : " إن لكل كتاب سرّا ، وإن سر هذا القرآن فواتح السور " وروى عن ابن عباس أنه قال : " عجزت العلماء عن إدراكها " وعن على - رضى الله عنه - أنه قال : " إن لكل كتاب صفوة ، وصفوة هذا الكتاب حروف التهجى " وفى رواية أخرى للشعبى أنه قال : " سر الله فلا تطلبوه " .ومن الاعتراضات التى وجهت إلى هذا الرأى أنه إذا كان الخطاب بهذه الفواتح غير مفهوم للناس لأنه من المتشابه فإنه يترتب على ذلك أنه كالخطاب بالمهمل ، أو مثل ذلك كمثل التكلم بلغة أعجمية مع أناس عرب لا يفهمونها .وقد أجيب عن ذلك بأن هذه الألفاظ لم ينتف الإفهام عنها عند لك الناس فالرسول - صلى الله عليه وسلم - كان يفهم المراد منها ، وكذلك بعض أصحابه المقربين . ولكن الذى ننفيه أن يكون الناس جميعاً فاهمين لمعنى هذه الحروف المقطعة فى أوائل بعض السور . وهناك مناقشات للعلماء حول هذا الرأى لا مجال لذكرها هنا .أما الرأى الثانى : فيرى أصحابه أن المعنى المقصود منها معلوم ، وأنها ليست من المتشابه الذى استأثر الله بعلمه ، وأصحاب هذا الرأى قد اختلفوا فيما بينهم فى تعيين هذا المعنى المقصود على أقوال كثيرة من أهمها ما يأتى :1 - أن هذه الحروف أسماء للسور ، بدليل قول النبى صلى الله عليه وسلم : " من قرأ حم السجدة ، حفظ إلى أن يصبح " ، وبدليل اشتهار بعض السور بالتسمية بها ، كسورة " ص " وسورة " يس " إلخ .ولا يخلو هذا القول من الضعف ، لأن كثيرا من السور قد افتتحت بلفظ واحد من هذه الفواتح ، فلو كانت أسماء للسور لم تتكر لمعان مختلفة؛ لأن الغرض من التسمية رفع الاشتباه . وأيضا فالتسمية بها أمر عارض لا يتنافى مع المراد منها فى ذاتها .2 - وقيل إن هذه الحروف قد جاءت هكذا فاصلة للدلالة على انقضاء سورة ، وابتداء أخرى .3 - وقيل إنها حروف مقطعة بعضها من أسماء اللّه تعالى وبعضها من صفاته ، فمثلا : " ألم " أصلها أنا الله أعلم .4 - وقيل إنها اسم الله الأعظم ، إلى غير ذلك من الأقوال التى لا تخلو من مقال ، والتى أوصلها الإمام السيوطى في كتابه " الإتقان " ، إلى أكثر من عشرين قولا .5 - ولعل أقرب الأقوال إلى الصواب أن هذه الحروف المقطعة قد وردت فى بعض سور القرآن على سبيل الإيقاظ والتنبيه للذين تحداهم القرآن ، فكأن الله - تعالى - يقول لأولئك العارضين فى أن القرآن من عند الله : هاكم القرآن ترونه مؤلفا من كلام هو جنس ما تؤلفون منه كلامكم . ومنوما من حروف هى من جنس الحروف الهجائية التى تنظمون منها حروفكم ، فإن كنتم فى شك من كونه منزلا من عند الله فهاتوا مثله ، أو ادعوا من شئتم من الخلق لكى يعاونوكم فى ذلك .ومما يشهد بصحة هذا الرأى أن الآيات التى تلى هذه الأحرف المقطعة تتحدث عن الكتاب المنزل معجزة للرسول صلى الله عليه وسلم وكثيراً ما تبدأ هذه الآيات باسم الإشارة صراحة ، مثل قوله تعالى : ( الاما ذَلِكَ الكتاب لاَ رَيْبَ

فِيهِ ) أو ضمنا مثل قوله - تعالى - : في أول سورة الأعراف ( الاماصا
كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ
لِتُنذِرَ بِهِ ) وأيضا فإن هذه السور تجعل هدفها الأول منذ بدئها إلى
نهايتها اثبات الرسالة عن طريق هذا الكتاب المنزل .هذه خلاصة موجزة لآراء
العلماء فى الحروف المقطعة التى افتتحت بها بعض السور القرآنية ، ومن أراد
" مزيدا لذلك فليردع - مثلا - إلى كتاب " البرهان " للزركشى ، وإلى كتاب
الإتقان " للسيوطى .

كتاب انزل اليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين

كما فسرها الوسيط ثم مدح - سبحانه - الكتاب الذى أنزله على نبيه صلى الله
عليه وسلم فقال : ( كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُنْ فِي صَدْرِكَ
حَرَجٌ مِّنْهُ ) .المراد بالكتاب جملة القرآن الكريم ، وقيل : المراد به
هنا السورة . وحرج الصدر ضيقه وغمه ، مأخوذ من الحرجة التى هى مجتمع الشجر
المشتبك الملتف الذى لا يجد السالك فيه طريقا يخرج منه .والمعنى ، هذا كتاب
كريم أنزلناه إليك يا محمد فيه هداية الثقلين ، فبلغ تعاليمه للناس . ولا
تحزن أو تضجر إذا وجدت من بعضهم صدوداً عنه ، فأنت عليك البلاغ ونحن علينا
الحساب .ولقد حكى لنا القرآن أن المشركين وصفوا النبى صلى الله عليه وسلم
بأنه ساحر . أو مجنون ، كما وصفوا القرآن بأنه ليس من عند الله ،فكان صلى
الله عليه وسلم يضيق صدره لذلك .قال تعالى : ( كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ
فَلاَ يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ ) تقوية قلب النبى صلى الله عليه
، وسلم ، وتثبيت فؤاده ، وتسليته عما يتقوله المشركون من أكاذيب وأباطيل
وإفهام الداعى إلى الله فى كل زمان ومكان أن من الواجب عليه أن يكون قوى
، القلب فى تحمل مهمته ، مطمئن البال على حسن عاقبته ، لا يتأثر بالمخالفة
ولا يضيق صدره بالإنكار .وقد فسر صاحب الكشاف الحرج بالشك فقال : ( فَلاَ
يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ ) أى شك منه كقوله : ( فَإِن كُنتَ فِي
شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ) وسمى الشك حرجا لأن الشاك ضيق الصدر
حرجه ، كما أن المتيقن منشرح الصدر منفسحه . أى :لا تشك فى أنه منزل من
الله ، ولا تتحرج من تبليغه ، لأنه كان يخاف قومه وتكذيبهم له وإعراضهم عنه
وأذاهم . فكان ضيق صدره من الأداء ولا ينبسط له ، فأمنه الله ونهاه عن
المبالاة بهم " .وعلى أية حال فإن من فسر الحرج بالضيق راعى مدلول الكلمة
الأصلى ومن فسره بالشك راعى الاستعمال المجازى ولذا قال الآلوسى :قوله
تعالى - : ( فَلاَ يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ ) أى : شك . وأصله
الضيق ، واستعماله فى الشك مجاز علاقته اللزوم ، فإن الشاك يعتريه ضيق
الصدر ، كما أن المتيقن يعتريه انشرحه وانفساحه " .ولفظ ( كِتَابٌ ) يكون
مبتدأ إذا جعلنا " المص " اسما للسورة ، وإلا كان خبراً لمبتدأ محذوف
والتقدير : هذا كتاب . وتنكيره للتفخيم والتعظيم وجملة ( أُنزِلَ إِلَيْكَ
) :صفة له دالة على كمال تعظيم قدره وقدر من أنزل عليه .وإنما قيل (
أُنزِلَ ) ولم يقل أنزله الله وأنزلناه ، للإيذان بأن المنزل مستغن عن
التعريف لشرفه وغاية ظهوره .ثم بين - سبحانه - العلة فى إنزال الكتاب فقال
الإنذار : هو الإعلام المقترن. ( لِتُنذِرَ بِهِ وذكرى لِلْمُؤْمِنِينَ ) :
بالتخويف من سوء عاقبة المخالفة .أى : أنزلنا إليك الكتاب لتنذر به قومك
وسائر الناس ، وتذكر به أهل الإيمان والطاعة ذكرى نافعة مؤثرة ، لأنهم هم
المستعدون لذلك ، وهم المنتفعون بإرشادك .قال تعالى : ( وَذَكِّرْ فَإِنَّ
الذكرى تَنفَعُ المؤمنين ) وقال تعالى : ( تَبْصِرَةً وذكرى لِكُلِّ عَبْدٍ
مُّنِيبٍ ) وقال تعالى : ( إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الألباب ) قال
صاحب الكشاف : فما محل ذكرى؟ قلت يحتمل الحركات الثلاث . النصب بإضمار
فعلها . كأنه قيل : لتنذر به وتذكر تذكيرا ، لأن الذكرى اسم بمعنى التذكير
والرفع عطفا على كتاب ، أو لأنه خبر مبتدأ محذوف . والجر للعطف على محل ،
" لتنذر ، أى : للإنذار وللذكر .

اتبعوا ما انزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه اولياء قليلا ما تذكرون

كما فسرها الوسيط ثم أمر القرآن الناس باتباع تعاليم الإسلام التى جاء بها
محمد صلى الله عليه وسلم فقال : (اتبعوا مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِّن
رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ قَلِيلاً مَّا
تَذَكَّرُونَ ) .أى : اتبعوا أيها الناس ملة الإسلام وأحلوا حلاله ، وحرموا
حرامه ، وامتثلوا أوامره ، واجتنبوا نواهيه ، لأن الذى أنزل عليكم هذه
الشريعة هو ربكم الذى هو خالقكم ومربيكم ومدبر أموركم والعليم بما فيه
مصلحتكم وحذار من أن تتركوا شريعة الإسلام التى تدعوكم إلى إفراد الله
بالعبودية ، وتتخذوا معه شركاء يزينون لكم الأباطيل ، ويصرفونكم عن دينه
القويم فالآية الكريمة كلام مستأنف خوطب به كافة المكلفين لحضهم على إفراد
الله بالعبودية ، ونهيهم عن اتباع أحد من الخلق فيما يتعلق بالأمور الدينية
التى وضحتها الشريعة الإسلامية .وقوله - تعالى - : ( قَلِيلاً مَّا

تَذَكَّرُونَ ) معناه : تذكراً قليلا تتذكرون ، أو زمناً قليلا تتذكرون فهو منصوب على أنه نعت لمصدر محذوف أو لظرف زمان محذوف . وما مزيدة لتأكيد القلة .

وكم من قرية اهلكناها فجاءها باسنا بياتا او هم قائلون

كما فسرها الوسيط ثم ساق لهم بعد ذلك على سبيل الإنذار والتخويف جانبا من العذاب الذى نزل بمن سبقوهم بسبب ظلمهم وعنادهم فقال - تعالى - :( وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَآءَهُمْ بَأْسُنَآ إِلاَّ أن قالوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ) .كم هنا خبرية بمعنى كثير . وهى فى محل رفع على الابتداء والجملة بعدها خبرها ، و ( مِّن قَرْيَةٍ ) تمييز .والقرى تطلق على مكان اجتماع الناس . وبأسنا : أى عذابنا وعقابنا . وبياتا : أى ليلا ومنه البيت لأنه يبات فيه . يقال : بات يبيت بيتا وبياتا . وقائلون من القائلة وهى القيلولة وهى نوم نصف النهار . وقيل : هى الاستراحة نصف النهار إذا اشتد الحر وإن لم يكن معها نوم . ودعواهم ، أى : دعاؤهم واستغاثتهم بربهم أو قولهم .والمعنى : وكثيراً من القرى الظالمة أردنا إهلاكها ، فنزل على بعضها عذابنا فى وقت نوم أهلها بالليل كما حصل لقوم لوط ، ونزل على بعضها فى وقت استراحة أهلها بالنهار كما حصل لقوم شعيب ، فما كان منهم عندما باغتهم العذاب فى وقت اطمئنانهم وراحتهم إلى أن اعترفوا بذنوبهم وقالوا على سبيل التحسر والندم وطمعا فى الخلاص : إنا كنا ظالمين .فهاتان الآيتان الكريمتان توضحان بأجلى بيان أن هلاك الأمم سببه بغيها وفسادها وانحرافها عن الطريق المستقيم ، وتلك سنة الله التى لا تختلف فى أى زمان أو مكان . وأن الظالمين عندما يفاجأون بالعقوبة يتحسرون ولا يستطيعون إنكار ما ارتكبوه من جرائم ومنكرات ولكن ذلك لن ينفعهم لأن ندمهم وتحسرهم قد فات وقته ، وكان الأجدر بهم أن يتوبموا من ذنوبهم عندما جاءتهم النذر ، وقبل حلول العذاب .ولذا قال ابن كثير : قال ابن جرير : فى هذه الآية الدالالة الواضحة فى صحة ما جاءت به الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من ) : قوله : " ما هلك قوم حتى يعذروا عن أنفسهم " .و ( أَوْ ) فى قوله فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ) للتنويع ، أى أن بعضهم جاءهم عذابنا ليلا وبعضهم جاءهم نهاراً عند استراحتهم . وإنما خص هذان الوقتان بنزول العذاب ، لأنهما وقتا غفلة ودعة واستراحة ، فيكون نزول العذاب فيهما أشد وأوجع .ومن العبر التى نأخذها من هاتين الآيتين أن العاقل ، هو الذى يحافظ على أداء الأوامر واجتناب النواهى ، ولا يأمن صفو الليالى )ورخاء الأيام ، بل يعيش حياته وصلته بربه مبنية على الخوف والرجاء فإنه ( فَلاَ يَأمَنُ مَكْرَ الله إِلاَّ القوم الخاسرون

فما كان دعواهم اذ جاءهم باسنا الا ان قالوا انا كنا ظالمين

`<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html} كما فسرها الوسيط

ثم ساق لهم بعد ذلك على سبيل الإنذار والتخويف جانبا من العذاب الذى نزل بمن سبقوهم بسبب ظلمهم وعنادهم فقال - تعالى - :( وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَآءَهُمْ بَأْسُنَآ إِلاَّ أن قالوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ) .كم هنا خبرية بمعنى كثير . وهى فى محل رفع على الابتداء والجملة بعدها خبرها ، و ( مِّن قَرْيَةٍ ) تمييز .والقرى تطلق على مكان اجتماع الناس . وبأسنا : أى عذابنا وعقابنا . وبياتا : أى ليلا ومنه البيت لأنه يبات فيه . يقال : بات يبيت بيتا وبياتا . وقائلون من القائلة وهى القيلولة وهى نوم نصف النهار . وقيل : هى الاستراحة نصف النهار إذا اشتد الحر وإن لم يكن معها نوم . ودعواهم ، أى : دعاؤهم واستغاثتهم بربهم أو قولهم .والمعنى : وكثيراً من القرى الظالمة أردنا إهلاكها ، فنزل على بعضها عذابنا فى وقت نوم أهلها بالليل كما حصل لقوم لوط ، ونزل على بعضها فى وقت استراحة أهلها بالنهار كما حصل لقوم شعيب ، فما كان منهم عندما باغتهم العذاب فى وقت اطمئنانهم وراحتهم إلى أن اعترفوا بذنوبهم وقالوا على سبيل التحسر والندم وطمعا فى الخلاص : إنا كنا ظالمين .فهاتان الآيتان الكريمتان توضحان بأجلى بيان أن هلاك الأمم سببه بغيها وفسادها وانحرافها عن الطريق المستقيم ، وتلك سنة الله التى لا تختلف فى أى زمان أو مكان . وأن الظالمين عندما يفاجأون بالعقوبة يتحسرون ولا يستطيعون إنكار ما ارتكبوه من جرائم ومنكرات ولكن ذلك لن ينفعهم لأن ندمهم وتحسرهم قد فات وقته ، وكان الأجدر بهم أن يتوبموا من ذنوبهم عندما جاءتهم النذر ، وقبل حلول العذاب .ولذا قال ابن كثير : قال ابن جرير : فى هذه الآية الدالالة الواضحة فى صحة ما جاءت به الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من ) : قوله : " ما هلك قوم حتى يعذروا عن أنفسهم " .و ( أَوْ ) فى قوله

فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ) للتنويع ، أى أن
بعضهم جاءهم عذابنا ليلا وبعضهم جاءهم نهاراً عند استراحتهم . وإنما خص
هذان الوقتان بنزول العذاب ، لأنهما وقتا غفلة ودعة واستراحة ، فيكون نزول
العذاب فيهما أشد وأوجع .ومن العبر التى نأخذها من هاتين الآيتين أن العاقل
، هو الذى يحافظ على أداء الأوامر واجتناب النواهى ، ولا يأمن صفو الليالى
)ورخاء الأيام ، بل يعيش حياته وصلته بربه مبنية على الخوف والرجاء فإنه
( فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ الله إِلاَّ القوم الخاسرون

فلنسالن الذين ارسل اليهم ولنسالن المرسلين

. كما فسرها الوسيط وبعد أن بين القرآن ما أصاب الظالمين من عذاب دنيوى
عقبه ببيان ما سيحل بهم من عذاب أخروى ، فقال :( فَلَنَسْأَلَنَّ الذين
أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ المرسلين فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم
بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ) .والمراد بالذين أرسل إليهم جميع الأمم
التى بلغتها دعوة الرسل ، يسأل كل فرد منها عن رسوله إليه وعن تبليغه لدعوة
الله ، ويسأل المرسلون عن التبليغ منهم وعن إجابة أقوامهم لهم ، وقد ورد
ذلك فى كثير من آيات القرآن . قال - تعالى - : ( يَوْمَ يَجْمَعُ الله
الرسل فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُواْ لاَ عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ
أَنتَ عَلاَّمُ الغيوب ) وقال تعالى : ( وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ
مَاذَآ أَجَبْتُمُ المرسلين ) والمعنى : فلنسألن المرسل إليهم عما أجابوا
به رسلهم الذين جاءوا لهدايتهم ، ولنسألن المرسلين عما أجيبوا به من
أقوامهم وعن تبليغهم لرسالات الله ، ولنقصن على الرسل والمرسل إليهم كل ما
وقع منهم عن علم دقيق وإحصاء شامل ، لأننا لا يغيب عنا شىء من أحوالهم
وعطفت جملة ( فَلَنَسْأَلَنَّ ) على ما قبلها بالفاء ، لأن هذا السؤال.
. سيكون فى الآخرة ، وما ذكر قبل ذلك من عقوبات هو آخر أمرهم فى الدنيا
فالآية الكريمة بيان لعذابهم الأخروى إثر بيان عذابهم الدنيوى .وأكد الخبر
بلام القسم ونون التوكيد ، لأن المخاطبين كانوا ينكرون البعث والجزاء .فإن
قيل : قد أخبر الله عنهم قبل ذلك أنهم قالوا عند نزول العذاب بهم ( إِنَّا
كُنَّا ظَالِمِينَ ) فلماذا يسألون يوم القيامة مع أنهم اعترفوا بظلمهم فى
، الدنيا؟فالجواب : أنهم لما اعترفوا سئلوا بعد ذلك عن سبب هذا الظلم
والمقصود من هذا السؤال تقريعهم وتوبيخهم لكفرهم وعنادهم .فإن قيل : فما
فائدة سؤال الرسل مع العلم بأنهم قد بلغوا الأمانة ونصحوا للأمة؟فالجواب من
فوائده الرد على من أنكر من المشركين أن الرسل قد بلغوهم ، فقد حكى القرآن
- أن بعضهم قال : ( مَا جَآءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ ) ومن فوائده
أيضاً - مضاعفة الثواب لهؤلاء الرسل الكرام حيث إنهم قد بذلوا قصارى جهدهم
فى التبشير والإنذار ، ولم يصدر عنهم تقصير قط . فسؤال المرسل إليهم إنما
هو سؤال توبيخ وإفضاح ، وسؤال المرسلين إنما هو سؤال استشهاد بهم وإفصاح
فإن قيل : هناك بعض الآيات تثبت أن المجرمين لن يسألوا يوم القيامة كما فى.
قوله تعالى : ( وَلاَ يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ المجرمون ) وكما فى قوله
تعالى : ( فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَآنٌّ )
فكيف نجمع بين هذه الآيات الت تنفى السؤال والآيات التى تثبته كما فى قوله
فالجواب ، أن فى يوم. ( فَلَنَسْأَلَنَّ الذين أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ) :
القيامة مواقف متعددة ، فقد يسألون فى موقف الحساب ولا يسألون فى موقف
العقاب .أو أن المراد بالسؤال فى قوله : ( فَلَنَسْأَلَنَّ الذين ) التوبيخ
والتقريع . والمنفى فى قوله : ( فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ )
سؤال الاستعلام ، أى أن المذنب لا يسأل يوم القيامة هل أذنبت أو لا ، لأن
- الله لا تخفى عليه خافية ، وإنما يسأل : لم فعلت كذا؟ بعد أن يعرفه
: - سبحانه - بما فعله ، ويؤيد هذا القول قوله - تعالى

فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين

كما فسرها الوسيط ( فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا
غَآئِبِينَ ) أى : فلنخبرنهم بما فعلوا إخبارا ناشئا عن علم منا .قال بعض
العلماء : " والذى يهمنا هنا ، أن نقرر أن هذا السؤال لم يكن سؤال استفهام
، ولا استخبار ، وإنما هو سؤال تبكيت وتنديد ، فليس فى السائل مظنة أن يجهل
ولا فى المسئول مظنة أن ينكر ، وهو تصوير لما يكون من شعور المكذبين
بتكذيبهم ، وشعور المرسلين بتبليغهم ، وهو نوع من تسجيل الحجة على من
، أنكرها وأعرض عنها فى الوقت الذى كان يجديه الإققال عليها والإيمان بها
وهو نوع من زيادة الحسرة ، وقطع الآمال فى النجاة بوضع يد المجرم على جسم
جريمته ، وهو فى الوقت نفسه نوع من زيادة الأمن و الطمأنينة للرسل فى
- القيام بدعوتهم وتبليغهم ما أمروا بتبليغه ، ولعل كل ذلك يرشد إليه قوله
تعالى - : ( فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ )
.

والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فاولئك هم المفلحون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - مظاهر عدله مع عباده يوم القيامة فقال
والوزن يَوْمَئِذٍ الحق فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فأولئك هُمُ ):
المفلحون وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فأولئك الذين خسروا أَنْفُسَهُم
بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يِظْلِمُونَ ) .الوزن : عمل يعرف به قدر الشىء
يقال : وزنته وزنا وزنة . وهو مبتدأ ، ويومئذ متعلق بمحذوف خبره . والحق ،
صفته ، أى : والوزن الحق يوم القيامة .ومعنى الآيتين الكريمتين : والوزن
الحق ثابت فى ذلك اليوم الذى يسأل الله فيه الرسل والمرسل إليهم . ويخبرهم
جميعا بما كان منهم فى الدنيا ، فمن رجحت موازين أعماله بالإيمان والعلم
الصالح ، فأولئك هم الفائزون بالثواب والنعيم ، ومن خفت موازين أعماله
بالكفر والمعاصى فأولئك الذين خسروا أنفسهم بسبب ما اقترفوا من سيئات أدت
بهم إلى سوء العقاب .قال تعالى : ( وَنَضَعُ الموازين القسط لِيَوْمِ
القيامة فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ
مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وكفى بِنَا حَاسِبِينَ ) وقد اختلف العلماء
فى كيفية الوزن فقال بعضهم : إن التى توزن هى صحائف الأعمال التى كتبت فيها
الحسنات والسيئات تأكيداً للحجة وإظهاراً للنصفة ، وقطعا للمعذرة . قال ابن
عمر : " توزن صحائف أعمال العباد يوم القيامة " .وقيل : إن الوزن هنا كناية
، عن القضاء السوى ، والعدل التام فى تقدير ما يمكن به الجزاء من الأعمال
. وذكر الوزن إنما هو ضرب مثل كما تقول : هذا الكلام فى وزن هذا وفى وزانه
أى يعادله ويساويه وإن لم يكن هناك وزن .والذى نراه أن من الواجب علينا أن
، نؤمن بأن فى الآخرة وزنا للأعمال ، وأنه على مقدار ما يظهر يكون الجزاء
وأنه وزن أو ميزان يليق بما يجرى فى ذلك اليوم الهائل الشديد ، أما كيفية
هذا الوزن فمرده إلى الله ، لأنه شىء استأثر الله بعلمه ، وعلينا أن نعفى
أنفسنا من محاولة الكشف عن أمر غيبى لم يرد فى حقيقته خبر قاطع فى كتاب
الله أو سنة رسوله .قال الجمل فى حاشيته على الجلالين : فإن قلت : أليس
الله - تعالى - يعلم مقادير أعمال العباد ، فما الحكمة فى وزنها؟ قلت فيه
: حكم : منها ، إظهار العدل وأن الله - تعالى -لا يظلم عباده ، ومنها
. امتحان الخلق بالإيمان بذلك فى الدنيا وإقامة الحجة عليهم فى العقبى
ومنها تعريف العباد بما لهم من خير أو شر وحسنة أو سيئة ، ومنها إظهار
علامة السعادة والشقاوة ونظيره أنه - سبحانه - " أثبت أعمال العباد فى
اللوح المحفوظ وفى صحائف الحفظة الموكلين ببنى آدم من غير جواز النسيان
عليه " .وقوله - تعالى - : ( فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ) تفصيل للأحكام
المترتبة على الوزن ، وثقل الموازين المراد به رجحان الأعمال الحسنة على
غيرها ، كما أن خفة الموازين المراد بها رجحان الأعمال القبيحة على ما
سواها .وقوله - تعالى - : ( بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يِظْلِمُونَ )
متعلق بخسروا؛ أى : أن خسرانهم لأنفسهم فى الآخرة كان سببه جحودهم لآيات
. الله واستهزاءهم بها فى الدنيا

ومن خفت موازينه فاولئك الذين خسروا انفسهم بما كانوا باياتنا يظلمون

`<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html} كما فسرها الوسيط

ثم بين - سبحانه - مظاهر عدله مع عباده يوم القيامة فقال :( والوزن
يَوْمَئِذٍ الحق فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فأولئك هُمُ المفلحون وَمَنْ
خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فأولئك الذين خسروا أَنْفُسَهُم بِمَا كَانُواْ
بِآيَاتِنَا يِظْلِمُونَ ) .الوزن : عمل يعرف به قدر الشىء ، يقال : وزنته
: وزنا وزنة . وهو مبتدأ ، ويومئذ متعلق بمحذوف خبره . والحق صفته ، أى
والوزن الحق يوم القيامة .ومعنى الآيتين الكريمتين : والوزن الحق ثابت فى
ذلك اليوم الذى يسأل الله فيه الرسل والمرسل إليهم . ويخبرهم جميعا بما كان
منهم فى الدنيا ، فمن رجحت موازين أعماله بالإيمان والعلم الصالح ، فأولئك
هم الفائزون بالثواب والنعيم ، ومن خفت موازين أعماله بالكفر والمعاصى
فأولئك الذين خسروا أنفسهم بسبب ما اقترفوا من سيئات أدت بهم إلى سوء
العقاب .قال تعالى : ( وَنَضَعُ الموازين القسط لِيَوْمِ القيامة فَلاَ
تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ
أَتَيْنَا بِهَا وكفى بِنَا حَاسِبِينَ ) وقد اختلف العلماء فى كيفية الوزن
فقال بعضهم : إن التى توزن هى صحائف الأعمال التى كتبت فيها الحسنات
" : والسيئات تأكيداً للحجة وإظهاراً للنصفة ، وقطعا للمعذرة . قال ابن عمر
توزن صحائف أعمال العباد يوم القيامة " .وقيل : إن الوزن هنا كناية عن
القضاء السوى ، والعدل التام فى تقدير ما يمكن به الجزاء من الأعمال ، وذكر
الوزن إنما هو ضرب مثل كما تقول : هذا الكلام فى وزن هذا وفى وزانه . أى
يعادله ويساويه وإن لم يكن هناك وزن .والذى نراه أن من الواجب علينا أن
، نؤمن بأن فى الآخرة وزنا للأعمال ، وأنه على مقدار ما يظهر يكون الجزاء
وأنه وزن أو ميزان يليق بما يجرى فى ذلك اليوم الهائل الشديد ، أما كيفية

هذا الوزن فمرده إلى الله ، لأنه شىء استأثر الله بعلمه ، وعلينا أن نعفى أنفسنا من محاولة الكشف عن أمر غيبى لم يرد فى حقيقته خبر قاطع فى كتاب الله أو سنة رسوله .قال الجمل فى حاشيته على الجلالين : فإن قلت : أليس الله - تعالى - يعلم مقادير أعمال العباد ، فما الحكمة فى وزنها؟ قلت فيه : حكم : منها ، إظهار العدل وأن الله - تعالى -لا يظلم عباده ، ومنها امتحان الخلق بالإيمان بذلك فى الدنيا وإقامة الحجة عليهم فى العقبى . ومنها تعريف العباد بما لهم من خير أو شر وحسنة أو سيئة ، ومنها إظهار علامة السعادة والشقاوة ونظيره أنه - سبحانه - " أثبت أعمال العباد فى اللوح المحفوظ وفى صحائف الحفظة الموكلين ببنى آدم من غير جواز النسيان عليه " .وقوله - تعالى - : ( فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ) تفصيل للأحكام المترتبة على الوزن ، وثقل الموازين المراد به رجحان الأعمال الحسنة على غيرها ، كما أن خفة الموازين المراد بها رجحان الأعمال القبيحة على ما سواها .وقوله - تعالى - : ( بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ) متعلق بخسروا؛ أى : أن خسرانهم لأنفسهم فى الآخرة كان سببه جحودهم لآيات الله واستهزاءهم بها فى الدنيا .

ولقد مكناكم في الارض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون

- كما فسرها الوسيط ثم حكى القرآن جانباً من مظاهر نعم الله على خلقه فقال تعالى - : ( وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي . . . . ) .مكناكم : من التمكين بمعنى التمليك ، أو معناه : جعلنا لكم فيها مكانا وقراراً وأقدرناكم على التصرف فيها ومعايش : جمع معيشة وهى ما يعاش به من المطاعم والمشارب وما تكون به الحياة .والمعنى : ولقد جعلنا لكم - يا بنى آدم - مكانا وقرارا فى الأرض ، وأقدرناكم على التصرف فيها ، وأنشأنا لكم أنواعا شتى من المطاعم والمشارب التى تتعيشون بها عيشة راضية ، ولكن كثيراً منكم لم يقابلوا هذه النعم بالشكر ، بل قابلوها بالجحود والكفران . وفضلا عن ذلك فنحن الذين خلقنا أباكم آدم من طين غير مصور ، ثم صورناه بعد ذلك .

ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لادم فسجدوا الا ابليس لم يكن من الساجدين

كما فسرها الوسيط أو المعنى نحن الذين خلقناكم فى ظهر آدم . ثم صورناكم حين أخذنا عليكم الميثاق ، ثم أمرنا بعد ذلك ملائكتنا بالسجود لآدم فسجدوا إلا إبليس فإنه لم يكن من الساجدين .والسجود : لغة ، التذلل والخضوع مع انخفاض بانحناء وغيره ، وخص فى الشرع بوضع الجبهة على الأرض بقصد العبادة وللعلماء أقوال فى كيفية السجود الذى أمر الله به الملائكة لآدم وأرجح هذه الأقوال . أن السجود المأمور به فى الآية يحمل على المعنى المعروف فى اللغة أى : أن الله - تعالى - أمرهم بفعل تجاه آدم يكون مظهرا من مظاهر التواضع . والخضوع له تحية وتعظيما ، وإقراراً له بالفضل دون وضع الجبهة على الأرض الذى هو عبادة ، إذ عبادة غير الله شرك يتنزه الملائكة عنه ، وعلى هذا الرأى سار علماء أهل السنة .وقيل إن السجود كان لله . وآدم إنما كان كالقبلة يتوجه إليه الساجدون تحية له . وإلى هذا الرأى اتجه علماء المعتزلة وقد قالوا ذكل هربا من أن تكون الآية الكريمة حجة عليهم ، إذ أن أهل السنة قالوا : إبليس من الملائكة والصالحون من البشر أفضل من الملائكة . واحتجوا بسجود الملائكة لآدم وخالفت المعتزلة فى ذلك ، وقالت الملائكة أفضل من البشر ، وسجود الملائكة لآدم كان كالقبلة .والذى نراه أن ما سار عليه أهل السنة أرجح لأن ما ذهب إليه المعتزلة يبعده أن المقام مقام لإظهار فضل آجم على الملائكة ، وإظهار فضله عليهم لا يتحقق بمجرد كونه قبلة للسجود : وأمر الله الملائكة بالسجود لآدم ، هو لون من الابتلاء والاختبار ، ليميز الله الخبيث من الطيب ، وينفذ ما سبق به العلم واقتضته المشيئة والحكم وإبليس : اسم مشتق من الإبلاس ، وهو الحزن الناشىء عن شدة اليأس وفعله بلس. ، والراجح أنه اسم أعجمى ، ومنعه من الصرف للعلمية والعجمة وهو كائن حى . وقد أخطأ من حمله على معنى داعى الشر الذى يخطر فى النفوس ، إذ ليس من المعقول أن يكون ذلك مع أن القرآن أخبرنا بأنه يرى الناس ولا يرونه . قال - تعالى - : ( إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ )وللعلماء فى كون إبليس من الملائكة أولا قولان :أحدهما : أنه كان منهم ، لأنه - سبحانه - أمرهم بالسجود لأدم ، ولولا أنه كان منهم لما توجه إليه الأمر بالسجود ، ولو لم يتوجه إليه الأمر بالسجود لم يكن عاصياً ولما استحق الخزى والنكال ، ولأن الأصل فى المستثنى أن يكون داخلا تحت اسم المستثنى منه حتى يقوم دليل على أنه خارج عنه .والثانى : أنه ليس منهم لقوله - تعالى - : ( إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجن فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ) فهو أصل الجن ، كما أن آدم أصل الإنس ، ولأنه خلق من نار والملائكة خلقوا من نور ، ولأن له ذرية ولا ذرية للملائكة .ففى هاتين ، الآيتين بيان لنعمتين عظيمتين من نعم الله على عباده :أولاهما : نعمة

التمكين فى الأرض واتخاذهم إيها وطنا مزوداً بضروب شتى مما يحتاجون إليه من معايشهم وما به قوام حياتهم وكمالها .وثانيهما : نعمة خلقهم من أب واحد ، تجمعهم به رحم واحدة ، وبسببها كانوا خلفاء فى الأرض وفى عمارة الكون وفضلوا على كثير من الخلق ، فكان الواجب عليهم أن يقابلوهما بالشكر والإيمان .

قال ما منعك الا تسجد اذ امرتك قال انا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين

كما فسرها الوسيط ثم حكى القرآن الكريم الأسباب التى حملت إبليس على عدم السجود لآدم فقال : ( قَالَ مَا مَنَعَكَ . . . . ) .أى : قال الله - تعالى - لإبليس : ما ألزمك واضطرك إلى أن لا تسجد لآدم؟ فالمنع مجاز عن الإلجاء والاضطرار . أو ما حملك ودعاك إلى ألا تسجد؟ فالمنع مجاز عن الحمل والاستفهام للتوبيخ والتقريع .و (لا ) فى قوله : ( أَلاَّ تَسْجُدَ ) . مزيدة للتنبيه على أن الموبخ عليه ترك السجود . وتوكيد لمعنى الفعل الذى دخلت عليه وتحقيقه ، كأنه قيل : ما منعك أن تحقق السجود وتلزمه نفسك .وقد حكى القرآن ما أجاب به إبليس فقال : ( قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ) أى : قال إبليس أنا خير من آدم ، لأنى مخلوق من عنصر النار الذى هو أشرف من عنصر الطين ، والأشرف لا يليق به الانقياد لمن هو دونه .قال ابن كثير : " وقول إبليس - لعنة الله - ( أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ ) . . . إلخ . من العذر الذى هو أكبر من الذنب ، إذ بين بأنه خير من آدم لأنه خلق من النار وآدم خلق من الطين ، فنظر اللعين إلى أصل العنصر ول ينظر إلى التشريف العظيم ، وهو أن الله - تعالى - خلق آدم بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وقاس قياساً فاسداً فى مقابلة نص ، وهو قوله - تعالى - : ( فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ ) فشذ من بين الملائكة لترك السجود فأبعده الله عن رحمته ، وكان قياسه فاسداً لأن النار ليست أشرف من الطين ، فإن الطين من شأنه الرزانة والأناة والتثبت ، وهو محل النبات والنمو والزيادة والإصلاح ، والنار من شأنها الإحراق والطيش والسرعة ولهذا خان إبليس عنصره ، ونفع آدم عنصره بالرجوع والإنابة والاستكانة ، والانقياد والاستسلام لأمر الله . وفى صحيح مسلم عن عائشة قالت :قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خلت الملائكة من نور ، وخلق إبليس من مارج من نار ، وخلق آدم ما وصف لكم " .

قال فاهبط منها فما يكون لك ان تتكبر فيها فاخرج انك من الصاغرين

كما فسرها الوسيط وقد حكى القرآن ما رد الله به على إبليس بقوله : ( قَالَ فاهبط مِنْهَا . . . . ) .أى : قال الله - تعالى - لإبليس : فاهبط من الجنة بسبب عصيانك لأمرى وخروجك عن طاعتى .وقيل إن الضمير فى ( مِنْهَا ) يعود على المنزلة التى كان فيها قبل أن يطرده الله من رحمته . أى : فاهبط من رتبة الملكية التى كنت فيها إلى رتبة العناصر الشريرة .وقيل : إن الضمير - يعود على روضة كانت على مرتفع من الأرض خلق فيها آدم - عليه السلام وقوله : ( فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا ) معناه : فما يصح. ولا يستقيم ولا يليق بشأنك أن تتكبر فيها ، لأنها ليست مكانا للمتكبرين وإنما هى مكان للمطيعين الخاشعين المتواضعين .وقوله : ( فاخرج ) تأكيد للأمر بالهبوط ومتفرع عليه .وقوله : ( إِنَّكَ مِنَ الصاغرين ) تعليل للأمر بالخروج . أى : فاخرج منها فأنت من أهل الصغار والهوان على الله وعلى أوليائه لتكبرك وغرورك .ثم حكى القرآن ما طلبه إبليس من الله - تعالى - وما أجاب الله به عليه .

قال انظرني الى يوم يبعثون

كما فسرها الوسيط أى : قال إبليس لله - تعالى - أخرنى ولا تمتنى إلى يوم بعث آدم وذريته من القبور ، وهو وقت النفخة الثانية عند قيام الساعة . وقد أراد بذلك النجاة من الموت : إذ لا موت بعد البعث . كما أراد بذلك أن يجد فسحة من الإغواء لبنى آدم .وقوله : ( أَنظِرْنِي ) مأخوذ من الإنظار بمعنى الإمهال والتأخير . تقول أنظرته بحقى أنظره إنظارا أى : أمهلته .

قال انك من المنظرين

كما فسرها الوسيط وقوله : ( قَالَ إِنَّكَ مِنَ المُنظَرِينَ ) معناه : قال الله - تعالى - له : إنك من المؤخرين إلى يوم الوقت المعلوم كما جاء فى قوله - تعالى - : ( قَالَ رَبِّ فأنظرني إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ - فَإِنَّكَ مِنَ المنظرين إلى يَوْمِ الوقت المعلوم ) وهو - على الراجح وقت النفخة الأولى فيموت كما يموت غيره . وقيل : المراد به الوقت المعلوم

فى علم الله أنه يموت فيه .قال ابن كثير : أجابه الله - تعالى - إلى ما سأل لما له فى ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة التى لا تخالف ولا تمانع ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب .

قال فبما اغويتني لاقعدن لهم صراطك المستقيم

كما فسرها الوسيط ثم حكى القرآن ما توعد به إبليس آدم وذريته من كيد وأذى فقال : ( قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنّ لَهُمْ صِرَاطَكَ المستقيم ) .الباء للقسم أو للسببية أى : فأقسم بإغوائك إياى ، أو بسبب إغوائك إياى ، لأترصدن لآدم وبنيه على طريق الحق وسبيل النجاة ، كما يترصد قطاع الطرق للسائرين فيها فأصدنهم عنها وأحاول لك السبل أن اصرفهم عن صراطك المستقيم ، ولن أتكاسل عن العمل على إفسادهم وإضلالهم .والإغواء : خلق الغى بمعنى الضلال . وأصل الغى الفساد ، ومنه غوى الفصيل - كرضى - غوى ، إذا بشم من اللبن ففسدت معدته ، أو منع الرضاع فهزل وكاد يهلك ، ثم استعمل فى الضلال ، يقال : غوى يغوى غياً وغواية فهو غاو ، وغوى إذا ضل ، وأغواه غيره أضله : .

ثم لاتينهم من بين ايديهم ومن خلفهم وعن ايمانهم وعن شمائلهم ولا تجد اكثرهم شاكرين

كما فسرها الوسيط وقوله : ( ثُمّ لآتِيَنّهُمْ مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ) زيادة بيان لحرص الشيطان على إضلال بنى آدم بشتى الوسائل ، أى : آتيهم من الجهات الأربع التى اعتاد العدو أن يهاجم عدوه منها ، والمراد : لأسولنّ لهم ولأظلنّهم بحيث لا أفتر عن ذلك ولا أيأس .وقيل إن معنى ( ثُمّ لآتِيَنّهُمْ مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ) أى : من قبل الآخرة لأنها مستقبلة آتية ، وما هو كذلك فكأنه بين الأيدى . ( وَمِنْ خَلْفِهِمْ ) أى من قبل الدنيا لأنها ماضية بالنسبة إلى الآخرة ولأنها فانية متروكة " وعن أيمانهم وعن شمائلهم " أى : من جهة حسناتهم وسيئاتهم بحيث أزين لهم السيئات وأزهدهم فى الحسنات .وقوله : ( وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ) أى : مطيعين مستعملين لقواهم وجوارحهم وما أنعم الله به عليهم فى طريق الطاعة والتقرب - إلى الله .وإنما قال ذلك لما رآه من الأمارات على طريق الظن كقوله تعالى - :( وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فاتبعوه إِلاّ فَرِيقاً مِّنَ المؤمنين ) ولقد وردت آيات كثيرة وأحاديث متعددة فى التحذير من الشيطان وكيده ، ومن ذلك قوله - تعالى - :( إِنّ الشيطان لَكُمْ عَدُوٌّ فاتخذوه عَدُوّاً إِنّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَابِ السعير ) وجاء فى الحديث الشريف الذى رواه الإمام أحمد عن سبرة بن الفاكه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه ، فقعد له بطريق الإسلام ، فقال : أتسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء أبيك؟ قال : فعصاه فأسلم . ثم قعد له بطريق الهجرة أتسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء أبيك؟ قال : فعصاه فأسلم . ثم قعد له بطريق الهجرة فقال : أتهاجر وتدع أرضك وسماءك وإنما مثل المهاجر كالفرس فى الطول - أى كالفرس المربوطة بالحبل . قال : فعصاه فهاجر . قال : ثم قعد له بطريق الجهاد فقال له : هو جهاد النفس والمال . فتقاتل فتقتل فتنكح المرأة ويقسم المال ، قال فعصاه فجاهد : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فمن فعل ذلك منهم فمات ، كان حقا على الله أن يدخله الجنة ، أو قتل كان حقا على الله أن يدخله الجنة ، وإن غرق كان حقا على الله أن يدخله الجنة ، أو وقصته دابة كان حقا على الله أن يدخله الجنة " .وروى الإمام أحمد وأبو داود والنسائى وغيرهم عن عبد الله بن عمر قال لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يترك هؤلاء الدعوات حين يصبح وحين يمسى . يقول : " اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى وأهلى ومالى . اللهم استر عوراتى وآمن روعاتى اللهم احفظنى من بين يدى ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالى ومن فوقى ، وأعوذ بعظمتك ان اغتال من تحتى " .

قال اخرج منها مذءوما مدحورا لمن تبعك منهم لاملان جهنم منكم اجمعين

كما فسرها الوسيط ثم حكى القرآن ما توعد الله به الشيطان وأتباعه فقال : ( قَالَ اخرج مِنْهَا مَذْءُوماً ) أى : اخرج من الجنة أو من تلك الروضة : مهانا محقرا .يقال : ذأمه يذأمه ذأماً إذا عاقبه وحقره فهو مذءوم ، وقوله أى : مطرودا مبعدا . يقال : دحره دحرا ودحورا طرده وأبعده ( مَّدْحُوراً ) ( لّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنّ جَهَنّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ).
: - أى : لمن أطاعك من الجن والإنس لأملأن جهنم من كفاركم . كقوله - تعالى قَالَ اذهب فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنّ جَهَنّمَ جَزَآؤُكُمْ ) ) جَزَاءً مّوْفُوراً ) واللام فى قوله : ( لّمَن ) لتوطئة القسم والجواب

( لأَمْلأَنّ جَهَنّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ

ويا ادم اسكن انت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين

) : كما فسرها الوسيط ثم حكى القرآن ما أمر الله - تعالى - به آدم فقال وَيَآءَادَمُ اسكن . . . ) .صدر الكلام بالنداء للتنبيه على الاهتمام بالمأمور به ، وتخصيص الخطاب بآدم - عليه السلام - للإيذان بأصالته بالتلقى وتعاطى المأمور به .وقوله : ( اسكن ) من السكنى وهو اللبث والإقامة والاستقرار ، دون السكون الذى هو ضد الحركة .والزوج . يطلق على الرجل والمرأة . والمراد به هنا حواء ، حيث تقول العرب للمرأة زوج ولا تكاد تقول زوجة .والجنة : هى كل بستان ذى شجر متكاثف ملتف الأغصان ، يظلل ما تحته ويستره من الجن وهو ستر الشىء عن الحواس .وجمهور أهل السنة على أن المراد بها هنا دار الثواب التى أعدها الله للمؤمنين يوم القيامة ، لأن هذا هو المتبادر إلى الذهن عند الإطلاق .ويرى جمهور علماء المعتزلة أن المراد بها هنا بستان بمكان مرتفع من الأرض ، خلقه الله لاسكان آدم وزوجته . واختلفوا " فى مكانه ، فقيل انه بفلسطين ، وقيل بغيرها .وقد ساق ابن القيم فى كتابه حادى الأرواح " أدلة الفريقين دون أن يرجح شيئا منها .والذى نراه أن الأحوط والأسلم . الكف عن تعيينها وعن القطع به ، وإليه ذهب أبو حنيفة وأبو منصور الماتريدى فى التأويلات ، إذ ليس لهذه المسألة تأثير فى العقيدة .وتوجيه الخطاب إليهما فى قوله : ( فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا ) لتعميم التشريف والإيذان بتساويهما فى مباشرة المأمور به . أى : كلا من مطاعم الجنة وثمارها أكلا واسعا من أى مكان أردتم .ثم بين - سبحانه - أنه نهاهم عن الأكل من شجرة معينة فقال : ( وَلاَ تَقْرَبَا هذه الشجرة فَتَكُونَا مِنَ الظالمين ) .القرب : الدنو والمنهى عنه هو الأكل من ثمار الشجرة . وتعليق النهى على القرب منها القصد منه المبالغة فى النهى عن الأكل ، إذ فى النهى عن القرب من الشىء نهى عن فعله من باب أولى . وأكد النهى بأن جعل عدم اجتناب الأكل من الشجرة ظلما . فقال : ( فَتَكُونَا مِنَ الظالمين ) وقد ظلما أنفسهما إذ أكلا منها ، فقد ترتب على أكلهما منها أن أخرجا من الجنة التى كانا يعيشان فيها عيشة راضية .وقد تكلم العلماء كثيرا عن اسم هذه الشجرة ونوعها فقيل هى التينة ، وقيل هى السنبلة ، وقيل هى الكرمة . . . إلخ إلا أن القرآن لم يذكر نوعها على عادته فى عدم التعرض لذكر ما لم يدع المقصود من سياق القصة إلى بيانه .وقد أحسن ابن جرير فى التعبير عن هذا المعنى فقال : " والصواب فى ذلك أن يقال : إن الله - تعالى - نهى آدم وزوجه عن الأكل من شجرة بعينها من أشجار الجنة دون سائر إشجارها فأكلا منها ، ولا علم عندنا بأى شجرة كانت على التعيين ، لأن الله لم يضع لعباده دليلا على ذلك فى القرآن ولا من السنة الصحيحة ، وقد قيل كانت شجرة البر ، وقيل شجرة العنب ، وذلك علم إذا علم لم ينفع العالم به علمه ، وان جهله جاهل لم يضره جهله به " .

فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سواتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا ان تكونا ملكين او تكونا من الخالدين

: كما فسرها الوسيط قوله - تعالى - : ( فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشيطان ) أى ألقى إليهما إبليس الوسوسة ، والوسوسة فى الأصل الصوت الخفى ، ومنه قيل لصوت الحلى . وسواس . والمراد بها هنا : الحديث الخفى الذى يلقيه الشيطان فى قلب الإنسان ليقارف الذنب .وقوله : ( لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا ) و ( وُورِيَ ) من المواراة وهى الستر والسوءة . فرج الرجل والمرأة ، من السوء . وسميت بذلك ، لأن انكشافها يسوء صاحبها . وقيل الكلام كناية عن إزالة الحرمة وإسقاط الجاه .والمعنى : أن إبليس وسوس إلى آدم وحواء بأن يأكلا من الشجرة المحرمة لتكون عاقبة ذلك أن يظهر لهما ما ستر عنهما من عوراتهما ، وكانا لا يريانها من أنفسهما ولا أحدهما من الآخر . وفى هذا التعبير تصريح بأن كشف العورة من أقبح الفواحش ، التى نهى الله - تعالى - عنها .وقد حكى القرآن أن إبليس لم يكتف بالوسوسة وإنما خدعهما بقوله : ( مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هذه الشجرة إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الخالدين ) .أى قال لهما : ما نهاكما عن الأكل من هذه الشجرة إلا كراهية أن تكونا مكلين أو تكونا من الخالدين الذين لا يموتون ويبقون فى الجنة ساكنين .وقوله : ( إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ ) استثناء مفرغ من المفعول لأجله بتقدير مضاف أو حذف حرف النفى ليكون علة . أى كراهية أن تكونا ملكين .

وقاسمهما اني لكما لمن الناصحين

كما فسرها الوسيط ثم حكى القرآن أن إبليس لم يكتف بالوسوسة أو بالقول

المجرد ، وإنما أضاف إلى ذلك القسم المؤكد فقال : ( وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي
لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ) أى : أقسم لهما بالله إنه لهما لمن الناصحين
المخلصين الذين يسعون لما فيه منفعتهما .قال الآلوسى : إنما عبر بصيغة
المفاعلة للمبالغة ، لأن من يبارى أحداً فى فعل يجد فيه . وقيل المفاعلة
على بابها ، والقسم وقع من الجانبين ، لكنه اختلف متعلقه ، فهو أقسم لهما
على النصح وهما أقسما له على القبول .

فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سواتهما وطفقا يخصفان عليهما من
ورق الجنة وناداهما ربهما الم انهكما عن تلكما الشجرة واقل لكما ان الشيطان
لكما عدو مبين

) : كما فسرها الوسيط ثم حكى القرآن كيف نجح إبليس فى خداع آدم وحواء فقال
فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ ) . أى : فأنزلهما عن رتبة الطاعة إلى رتبة
المعصية ، وأطمعهما فى غيرٍ مطمع بسبب ما غرهما به من القسم .ودلاهما مأخوذ
، من التدلي ، وأصله أن الرجل العطشان يدلى فى البئر بدلون ليشرب من مائها
فإذا ما أخرج الدلو لم يجد به ماء ، فيكون مدليا فيها بغرور . والغرور
إظهار النصح مع إضمار الغش ، وأصله من غررت فلانا أى أصبت غرته وغفلته ونلت
منه ما أريد .ثم بين القرآن الآثار التى ترتبت على هذه الخديعة من إبليس
لهما فقال : ( فَلَمَّا ذَاقَا الشجرة بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا
وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الجنة ) .أى : فلما خالفا
، أمر الله - تعالى - بأن أكلا من الشجرة التى نهاهما الله عن الأكل منها
أخذتهما العقوبة وشؤم المعصية ، فتساقط عنهما لباسهما ، وظهرت لهما
عوراتهما .وشرعا يلزقان من ورق الجنة ورقة فوق أخرى على عوراتهما لسترها
ويخصفان : مأخوذ من الخصف ، وهو خرز طاقات النعل ونحوه بإلصاق بعضها ببعض.
وفعله من باب ضرب .قال بعض العلماء : " ولعل المعنى - والله أعلم - أنهما ،
لما ذاقا الشجرة وقد نهيا عن الأكل منها ظهر لهما أنهما قد زلا ، وخلعا ثوب
الطاعة ، وبدت منهما سوأة المعصية ، فاستحوذ عليهما الخوف والحياء من ربهما
فأخذا يفعلان ما يفعل الخائف الخجل عادة من الاستتار والاستخفاء حتى لا ،
يرى ، وذلك بخصف أوراق الجنة عليهما ليستترا بها ، وما لهما إذ ذاك حيلة
سوى ذلك . فلما سمعا النداء الربانى بتقريعهما ولومهما ألهما أن يتوبا إلى
الله ويستغفرا من ذنبهما بكلمات من فيض الرحمة الإلهية ، فتاب الله عليهما
: وهو التواب الرحيم ، وقال لهما فقط أولهما ولذرتيهما ، أو لهما ولإبليس
اهبطوا من الجنة إلى الأرض ، لينفذ ما أراد الله من استخلاف آدم وذريته فى
) ، الأرض ، وعمارة الدنيا بهم إلى الأجل المسمى . ومنازعة عدوهم لهم فيها
إِنَّ الله بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ الله لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً ) ثم
) : بين القرآن ما قاله الله - تعالى - لهما بعد أن خالفا أمره . فقال
وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَآ ) بطريق العتاب والتوبيخ ( أَلَمْ أَنْهَكُمَا
عَن تِلْكُمَا الشجرة ) . أى عن الأكل منها ( وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ
الشيطآن لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ) أى : ظاهر العداوة لا يفتر عن إيذائكما
. وإيقاع الشر بكما

قالا ربنا ظلمنا انفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين

كما فسرها الوسيط وهنا التمس آدم وحواء من ربهما الصفح والمغفرة ( قَالاَ
رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا ) أى : أضررناها بالمعصية والمخالفة ( وَإِن
) لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا ) ما سلف من ذنوبنا ( وَتَرْحَمْنَا ) بقبول توبتنا
لَنَكُونَنَّ مِنَ الخاسرين ) أى : لنصيرن من الذين خسروا أنفسهم فى الدنيا
. " والآخرة

قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الارض مستقر ومتاع الى حين

، كما فسرها الوسيط وقد حكى القرآن ما رد به الله على آدم وحواء وإبليس
فقال : ( قَالَ اهبطوا ) أى من الجنة إلى ما عداها . وقيل الخطاب لآدم
) وحواء وذريتهما . وقيل الخطاب لهما فقط لقوله - سبحانه - فى آية أخرى
قَالَ اهبطا مِنْهَا جَمِيعاً ) والقصة واحدة ، وضمير الجمع لكونهما أصل
البشر .وجملة ( بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ) فى موضع الحال من فاعل
اهبطوا ، والمعنى اهبطوا إلى الأرض حالة كون العداوة لا تنفك بين آدم
وذريته ، وبين إبليس وشيعته ( وَلَكُمْ فِي الأرض مُسْتَقَرٌّ ) أى موضع
استقرار ( وَمَتَاعٌ ) أى : تمتع ومعيشة ( إلى حِينٍ ) أى : إلى حين انقضاء
. آجالكم

قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون

) كما فسرها الوسيط قال : ( فِيهَا ) أى فى الأرض ( تَحْيَوْنَ ) تعيشون

، وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ) أى : يوم القيامة للجزاء
كما فى قوله - تعالى - : ( مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ
وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أخرى ) وبعد أن قص القرآن على بنى آدم قصة
خلقهم وتصويرهم وما جرى بين أبيهم وبين إبليس ، وكيف أن إبليس قد خدع آدم
وزوجه خداعا ترتب عليه إخراجهما من الجنة . بعد كل ذلك أورد القرآن أربع
نداءات لبنى آدم حضهم فيها على تقوى الله وحذرهم من وسوسة الشيطان وذكرهم
بنعمه عليهم ، فقال فى النداء الأول : ( يا بني ءَادَمَ . . . ) .

يا بني ادم قد انزلنا عليكم لباسا يواري سواتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير
ذلك من ايات الله لعلهم يذكرون

كما فسرها الوسيط السوءة : العورة . والريش : لباس الزينة ، استعير من ريش
الطائر ، لأنه لباسه وزينته . وقال الجوهرى : " الريش والرياش بمعنى كاللبس
واللباس ، وهو اللباس الفاخر " .والمعنى : يا بنى آدم تذكروا واعتبروا
واشكروا الله على ما حباكم من نعم ، فإنه - سبحانه - قد هيأ لكم سبيل
الحصول على الملبس الذى تسترون به عوراتكم ، وتتزينون به فى مناسبات التجمل
والتعبد .والمراد بإنزال ما ذكر أنه خلق لبنى آدم مادة هذا اللباس التى
تتكون من القطن والصوف والحرير وما إليها ، وألهمهم بما خلق فيهم من غرائز
طرق استنباتها وصناعتها بالغزل والنسج والخياطة .والتعبير بأنزلنا يفيد
خصوصية البشر باللباس الذى يستر العورة ، وبالرياش التى يتزينون بها ، أى
أنزلنا عليكم لباسين : لباسا يوارى سوآتكم ، ولباسا يزينكم ، لأن الزينة
غرض صحيح وحبها من طبيعة البشر . قال - تعالى - : ( والخيل والبغال والحمير
لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ) قال الجمل : " وقوله - تعالى - : (وَرِيشاً )
: يحتمل أن يكون من باب عطف الصفات . والمعنى : أنه وصف اللباس بوصفين
مواراة السوأة ، والزينة . ويحتمل أن يكون من باب عطف الشىء على غيره . أى
أنزلنا عليكم لباسا موصوفا بالمواراة ، ولباسا موصوفا بالزينة " .ثم :
بين - سبحانه - أن هناك لباسا آخر أفضل وأكمل من كل ذلك فقال : ( وَلِبَاسُ
، التقوى ذلك خَيْرٌ ) أى : أن اللباس الذى يصون النفس من الدنايا والأرجاس
. ويسترها بالإيمان والعمل الصالح هو خير من كل لباس حسى يتزين به البشر
فاسم الإشارة هنا يعود على لباس التقوى . وقد عبر القرآن هنا عن التقوى
بأنها لباس ، وعبر عنها فى موضع آخر بأنها زاد مشاكلة للسياق الذى وردت فيه
هنا أو هناك . وذلك من باب تجسيم المعنويات وتنسيقها مع الجو العام الذى
: ورت فيه ، وتلك طريقة انفرد بها القرآن الكريم .قال صاحب الكشاف : وقوله
مبتدأ ، وخبره إما الجملة التى هى ( ذلك خَيْرٌ ) ( وَلِبَاسُ التقوى )
كأنه قيل : ولباس التقوى هو خير ، لأن أسماء الإشارة تقرب من الضمائر فيما
يرجع إلى عود الذكر . وإما المفرد الذى هو خير ، وذلك صفة للمبتدأ ، كأنه
قيل : ولباس التقوى المشار إليه خير " .وقوله - تعالى - : ( ذلك مِنْ
آيَاتِ الله لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ) معناه : ذلك الذى أنزله الله على
بنى آدم من النعم من دلائل قدرته وإحسانه عليهم ، لعلهم بعد ذلك لا يعودون
إلى النسيان الذى أوقع أبويهم فى المعصية .قال صاحب الكشاف : وهذه الآية
واردة على سبيل الاستطراد عقب ذكر ظهور العورات وخصف الورق عليها ، إظهارا
للمنة فيما خلق من اللباس ، ولما فى العرى وكشف العورة من المهانة والفضيحة
. وإشعاراً بأن التستر باب عظيم من أبواب التقوى ،

يا بني ادم لا يفتننكم الشيطان كما اخرج ابويكم من الجنة ينزع عنهما
لباسهما ليريهما سواتهما انه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم انا جعلنا
الشياطين اولياء للذين لا يؤمنون

كما فسرها الوسيط ثم أتبع القرآن النداء الأول بنداء آخر مبالغة فى وعظ بنى
. . . . آدم وتذكيرهم بفضل الله عليهم ، فقال - تعالى - : ( يا بني ءَادَمَ
المعنى : يا بنى آدم لا يصرفنكم الشيطان عن طاعة الله ، بأن تمكنوه من. (
أن يوقعكم فى المعاصى كما أوقع أبويكم من قبل فيها ، فكان ذلك سبباً فى
خروجهما من الجنى التى كانا يتمتعان بنعيمها .وقوله : ( يَنزِعُ عَنْهُمَا
لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَآ ) جملة حالية من أبويكم . أى
أخرجهما من الجنة حال كونه نازعاً عنهما لباسهما . وأسند النزع إلى الشيكان
) : لأنه كان متسبباً فيه . ثم أكد تحذيرهم من الشيطان بجملة تعليلية فقال
: إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ ) أى
إن الشيطان وجنوده يرونكم يا بنى آدم وأنتم لا ترونهم ، فالجملة الكريمة
، تعليل للنهى السابق . وهو قوله : ( لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ ) وتأكيد للتحذير
: لأن العدو إذا أتى من حيث لا يرى كان أشد وأخوف ، ولذا قال مالك بن دينار
) : إن عدواً يراك ولا تراه لشديد المؤنة إلا على من عصمه الله " .وقوله "
وَقَبِيلُهُ ) معطوف على الضمير المستتر فى قوله : ( يَرَاكُمْ ) المؤكد
بقوله : ( هُوَ ) .قال الآلوسى ما ملخصه : والقضية مطلقة لا دائمة ، فلا
تدل على ما ذهب إليه المعتزلة من أن الجن لا يرون ولا يظهرون للإنس أصلا

ولا يتمثلون . ويشهد لما قلنا ما صح من رؤية النبى صلى الله عليه وسلم
لأحدهم حين رام أن يشغله عن الصلاة فأمكنه الله منه ، وأراد أن يربطه فى
سارية من سوارى المسجد ثم ذكر دعوة سليمان فى قوله : ( قَالَ رَبِّ اغفر
- لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّن بَعْدِي ) فتركه . ثم بين
سبحانه - سنته فى خلقه فقال : ( إِنَّا جَعَلْنَا الشياطين أَوْلِيَآءَ
لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ ) . أى : إنا صيرنا الشياطين قرناء للذين لا
يؤمنون ، مسلطين عليهم ، متمكنين من إغوائهم ، لأن حكمتنا اقتضت أن يكون
الشياطين الذين هم شرار الجن ، متجانسين مع الكافرين الذين هم شرار الإنس
وبذلك نرى أن الآية الأولى التى ورد فيها النداء الأول قد ذكرت بنى آدم.
بجانب من نعم الله عليهم ، ثم جاءت هذه الآية مصدرة بنداء آخر حذرتهم منه
. من وسوسة الشيطان ومداخله حتى لا يقعوا فيما وقع فيه أبوهم آدن من قبل

واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها اباءنا والله امرنا بها قل ان الله لا
يامر بالفحشاء اتقولون على الله ما لا تعلمون

، كما فسرها الوسيط ثم حكى القرآن بعض القبائح التى كان يفعلها المشركون
ورد عل أكاذيبهم بما يدحضها فقال : ( وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً . . . )
، الفاحشة : هى كل فعل قبيح يتنافى مع تعاليم الشريعة مثل الإشراك بالله.
" : والطواف بالبيت الحرام بدون لباس يستر العورة . قال الإمام ابن كثير
كانت العرب - ما عدا قريشا - لا يطوفون بالبيت الحرام فى ثيابهم التى
لبسوها ، يتأولون فى لك أنهم لا يطوفون فى ثياب عصوا الله فيها ، وكانت
قريش - وهم الحمس - يطوفون فى ثيابهم ، ومن أعاره أحمسى ثوبا طاف فيه ، ومن
معه ثوب جديد طاف فيه ثم يلقيه فلا يتملكه أحد ، ومن لم يجد ثوبا جديداً
ولا أعاره أحمسى ثوبا طاف عريانا ، وربما كانت المرأة تطوف عريانة ، فتجعل
، على فرجها شيئا ليستره بعض الستر ، وأكثر ما كان النساء يطفن عراة ليلا
وكان هذا شيئا قد ابتدعوه من تلقاء أنفسهم واتبعوا فيه آباءهم ، ويعتقدون
) : أن فعل آبائهم مستند إلى أمر من الله فأنكر الله عليهم ذلك وقال
وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ آبَاءَنَا والله
أَمَرَنَا بِهَا ) . فالآية الكريمة تحكى عن هؤلاء المشركين أنهم كانوا
يرتكبون القبائح التى نهى الله عنها كالطواف بالكعبة عرايا ، وكالإشراك
بالله ، ثم بعد ذلك يحتجون بأنهم قد وجدوا آباءهم كذلك يفعلون ، وبأن الله
قد أمرهم بذلكن ولا شك أن احتجاجهم هذا من الأكاذيب التى ما أنزل الله بها
من سلطان ، ولذا عاجلهم القرآن بالرد المفحم ، فقال : ( قُلْ إِنَّ الله
لاَ يَأْمُرُ بالفحشآء أَتَقُولُونَ عَلَى الله مَا لاَ تَعْلَمُونَ ) . أى
قل يا محمد لهؤلاء المفترين على الله الكذب : إن كلامكم هذا يناقضه العقل :
والنقل . أما أن العقل يناقضه ويكذبه . فلأنه لا خلاف بيننا وبينكم فى أن
ما تفعلونه هو من أقبح القبائح بدليل أن بعضكم قد تنزه عن فعله ، وأما أن
النقل يناقضه ويكذبه فلأنه لم يثبت عن طريق الوحى أن الله أمر بهذا ، بل
، الثابت أن الله لا يأمر به ، لأن الفاحشة فى ذاتها تجاوز لحدود الله
وانتهاك لحرماته ، فهل من المعقول أن يأمر الله بانتهاك حدوده وحرماته؟
والاستفهام فى قوله - تعالى - : ( أَتَقُولُونَ ) للإنكار والتوبيخ وفيه
. معنى النهى

قل امر ربي بالقسط واقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما
بداكم تعودون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما أمر به من طاعات عقب تكذيبه
للمشركين فيما افتروه فقال : ( قُلْ أَمَرَ . . . ) . أى : قل لهم يا محمد
إن الذى أمر الله به هو العدل فى الأمور كلها ، لأنه هو الوسط بين الإفراد
والتفريط ، كما أنه - سبحانه - قد أمركم بأن تتوجهوا إليه وحده فى كل عبادة
من عباداتكم ، وأن تكثروا من التضرع إليه بخالص الدعاء وصالحه ، فإنه مخ
. العبادة

فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة انهم اتخذوا الشياطين اولياء من دون
الله ويحسبون انهم مهتدون

كما فسرها الوسيط ثم ذكرهم - سبحانه - بمبدئهم ونهايتهم فقال : ( فَرِيقاً
هدى وَفَرِيقاً حَقّ عَلَيْهِمُ الضلالة ) . أى : أن الذى قدر على ابتدائكم
، وإنشائكم ولم تكونوا شيئًا ، يقدر على إعادتكم ليجازيكم على أعمالكم
فأخلصوا له العبادة والطاعة . قال صاحب المنار : " وهذه الجملة من أبلغ
الكلام الوجز المعجز؛ فإنها دعوى متضمنة الدليل ، بتشبيه الإعادة بالبدى
فهو يقول : كما بدأكم ربكم خلقا وتكوينا بقدرته تعودون إليه يوم القيامة
حالة كونكم فريقين ، فريقاً هداهم فى الدنيا فاهتدوا بإيمانهم به وإقامة
وجوههم له وحده فى العبادة ودعائه مخلصين له الدين ، وفريق حق عليهم

الضلالة لاتباعهم إغواء الشيطان ، ودعائه مخلصين له الدين ، وفريق حق عليهم الضلالة لاتباعهم إغواء الشيطان ، وإعراضهم عن طاعة الحرمن ، وكل فريق يموت على ما عاش ويبعث على ما مات عليه ، ومعنى حقت عليهم الضلالة ، ثبتت بثبوت أسبابها الكسبية ، لأنها جعلت غريزة لهم فكانوا مجبورين عليها ، يدل عى هذا تعليلها على طريق الاستئناف البيانى بقوله : ( إِنَّهُمُ اتخذوا الشياطين أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ الله وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ) ومعنى اتخاذهم الشياطين أولياء ، أنهم أطاعوهم فى كل ما يزينونه فهم من الفواحش والمنكرات ، ويحسبون أنهم مهتدون فيما تلقنهم الشيطاين إياه من الشبهات . "

يا بني ادم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين

كما فسرها الوسيط ثم وجه القرآن بعد ذلك نداء ثالثا إلى بنى آدم أمرهم فيه بالتمتع بالحلال ، وبزينة الله التى أخرجها لعباده بدون إسراف أو تبذير فقال - تعالى - : ( يابني ءَادَمَ . . . ) .المعنى : عليكم يا بنى آدم أن ، تتجملوا بما يستر عورتكم ، وأن تتحلوا بلباس زينتكم كلما صليتم أو طفتم واحذروا أن تطوفوا بالبيت الحرام وأنتم عرايا .قال القرطبى : " يا بنى آدم هو خطاب لجميع العالم ، وإن كان المقصود بها من كان يطوف من العرب بالبيت عريانا ، فإنه عام فى كل مسجد للصلاة ، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب " .وقال ابن عباس : " كان بعض العرب يطوفون بالبيت عراة ، الرجال بالنهار ، والنساء بالليل . يقولون :لا نطوف فى ثياب عصينا الله فيها . " فأنزل الله - تعالى - : ( يابني ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ) .ثم أمرهم - سبحانه - أن يتمتعوا بالطيبات بدون إسراف أو تقتير فقال : ( وكُلُواْ واشربوا وَلاَ تسرفوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المسرفين ) أى : كلوا من المآكل الطيبة ، واشربوا المشارب الحلال ولا تسرفوا لا فى. زينتكم ولا فى مأكلكم أو مشربكم . لأنه - سبحانه - يكره المسرفين .قال ) : الإمام ابن كثير : " قال بعض السلف : جمع الله الطب فى نصف آية فى قوله وكُلُواْ واشربوا وَلاَ تسرفوا ) " وقال البخارى : قال ابن عباس : " كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان : سرف ومخيلة " .وقد كان السلف الصالح يقفون بين يدى الله فى عبادتهم وهم فى أكمل زينة ، فهذا - مثلا - الإمام الحسن بن على ، كان إذا قام إلى الصلاة لبس أحسن ثيابه فقيل له؛ يابن بنت رسول الله لم تلبس أجمل ثيابك . فقال : إن الله جميل يحب الجمال ، فأنا أتجمل لربى ، لأنه هو القائل : ( خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ) وقال الكلبى : " كانت بنو عامر لا يأكلون فى أيام حجهم إلا قوتا ولا. يأكلون لحما ولا دسما يعظمون بذلك حجهم ، فهم المسلمون أن يفعلوا كفعلهم فأنزل - تعالى - : ( وكُلُواْ واشربوا وَلاَ تسرفوا ) .فهذه الآية الكريمة تهدى الناس إلى ما يصلح معاشهم ومعادهم ، إذ أنها أباحت للمسلم أن يتمتع بالطيبات التى أحلها الله ، ولكن بدون إسراف أو بطر ، ولذا جاء الرد على المتنطعين الذين يضيقون على أنفسهم ما وشعه الله فى قوله - تعالى - بعد ذلك : ( . . . قُلْ مَنْ حَرَّمَ ) .

قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين امنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الايات لقوم يعلمون

، كما فسرها الوسيط أى : قل يا محمد لأولئك الذين يطوفون بالبيت عرايا ويمتنعون عن أكل الطيبات : من أين أتيتم بهذا الحكم الذى عن طريقه حرمتم على أنفسكم بعض ما أحله الله لعباده؟ فالاستفهام فإنكار ما هم عليه بأبلغ وجه .ثم أمر رسوله أن يرد عليهم بأبلغ رد فقال : ( قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الحياة الدنيا خَالِصَةً يَوْمَ القيامة ) .أى : قل أيها الرسول لأمتك : هذه الزينة والطيبات من الرزق ثابتة للذين آمنوا فى الحياة الدنيا ، ويشاركهم فيها المشركون أيضا ، أما فى الآخرة فهى خالصة للمؤمنين ) : - ولا يشاركهم فيها أحد ممن أشرك مع الله آلهة أخرى .وقوله - تعالى كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيات لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ) معناه : مثل تفصيلنا هذا ، الحكم نفصل سائر الأحكام لقوم يعلمون ما فى تضاعيفها من توجيهات سامية وآداب عالية .

قل انما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغي بغير الحق وان تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وان تقولوا على الله ما لا تعلمون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ألوانا من المحرمات التى نهى عباده عن اقترافها فقال تعالى : ( قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ . . . ) .والمعنى قل يا محمد لهؤلاء الذين ضيقوا على أنفسهم ما وسعه الله ، قل لهم : إن ما : حرمه الله عليكم فى كتبه وعلى ألسنة رسله هو هذه الأنواع الخمس التى أولها أى : ما كان قبيحاً من ، ( الفواحش مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ )

الأقوال والأفعال سواء أكان فى السر أو العلن ، وثانيها وثالثها ( الإثم
، والبغي بِغَيْرِ الحق ) والإثم : هو الشىء القبيح الذى فعله يعتبر معصية
: والبغى : هو الظلم والتطاول على الناس وتجاوز الحد .قال الإمام ابن كثير
وحاصل ما فسر به الإثم أنه الخطايا المتعلقة بالفاعل نفسه ، والبغى هو "
، التعدى على الناس ، فحرم الله هذا وهذا " .وقيد البغى بكونه بغير الحق
لأنه لا يكون إلا كذلك . إذ معناه فى اللغة تجاوز الحد . يقال : بغى الجرح
إذ تجاوز الحد فى فساده .وقيل قيده بذلك ليخرج البغى على الغير فى مقابلة .
بغيه ، فإنه يسمى بغيا فى الجملة . لكنه بحق ، وهو قول ضعيف لأن دفع البغى
) : لا يسمى بغيا . وإنما يسمى إنتصافا من الظالم ، ولذا قال القرآن
وَلَمَنِ انتصر بَعْدَ ظُلْمِهِ فأولئك مَا عَلَيْهِمْ مِّن سَبِيلٍ ) وقيل
إن القيد هنا لإخراج الأمور التى ليس لهم فيها حقوق ، أو التى تطيب أنفسهم
فيها عن بعض حقوقهم فيبذلونها عن رضى وارتياح لمنفعة أو مصلحة لهم يرجونها
ببذلها .ورابع الأمور التى حرمها الله أخبر عنه القرآن بقوله : ( وَأَن
تُشْرِكُواْ بالله مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً ) .أى : وحرم عليكم
أن تجعلوا لله شركاء فى عبادته بدون حجة وبرهان . وقوله : ( مَا لَمْ
يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً ) بيان للواقع من شركهم ، إذ أنهم لا حجة عندهم
على شركهم : لا من العقل ولا من النقل ، فالجملة الكريمة قد اشتملت على
التهكم بالمشركين وتوبيخهم على كفرهم .وخامسها قوله - تعالى - : ( وَأَن
تَقُولُواْ عَلَى الله مَا لاَ تَعْلَمُونَ ) أى : حرم عليكم أن تقولوا
قولا يتعلق بالعبادات أو المحللات أو المحرمات أو غيرها بدون علم منكم بصحة
ما تقولون ، وبغير بينة على صدق ما تدعون .قال صاحب المنار : " ومن تأمل
هذه الآية حق التأمل ، فإنه يتجنب أن يحرم على عباد الله شيئاً ويوجب عليهم
: شيئا فى دينهم بغير نص صريح عن الله ورسوله ، بل يجتنب - أيضاً - أن يقول
هذا مندوب أو مكروه فى الدين بغير دليل واضح من النصوص ، وما أكثر الغافلين
. " عن هذا المتجرئين على التشريع

ولكل امة اجل فاذا جاء اجلهم لا يستاخرون ساعة ولا يستقدمون

كما فسرها الوسيط وبعد أن بين القرآن ما أحله الله وما حرمه . عقب على ذلك
بأن بين أن أجل الناس فى هذه الدنيا محدود ، وأنهم إن آجلا أو عاجلا سوف
: يقفون أمام ربهم للحساب فقال : ( وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ . . . . ) .أى
، لكل أمة من الأمم ولكل جيل من الأجيال مدة من العمر محدودة فى علم الله
فإذا ما انتهت هذه المدة انقطعت حياتهم وفارقوا هذه الدنيا بدون أى تقديم
أو تأخير .وليس المراد بالساعة هنا ما اصطلح عليه الناس من كونها ستين
. دقيقة ، وإنما المراد بها الوقت الذى هو فى غاية القلة

يا بني ادم اما ياتينكم رسل منكم يقصون عليكم اياتي فمن اتقى واصلح فلا خوف
عليهم ولا هم يحزنون

، كما فسرها الوسيط ثم أورد القرآن بعد ذلك النداء الرابع والأخير لبنى آدم
وحضهم فيه على اتباع الرسل ، والسير على الطريق المستقيم فقال : ( يابني
، ءَادَمَ . . . . ) .المعنى : يا بنى آدم إن يأتكم رسل من أبناء جنسكم
يتلون عليكم آياتى التى أنزلتها عليهم لهدايتكم فآمنوا بهم وعزروهم
، وانصروهم ، فإن من آمن بهم واتقى ما نهاه عنه به ، وأصلح نفسه وعمله
فأولئك لا خوف عليهم يوم القيامة ، ولا هم يحزنون لمفارقتهم الدنيا ، أما
الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون
فالآيتان الكريمتان تخبران جميع بنى آدم أن رسل الله قد بلغوا الرسالة.
وأدوا الأمانة ، فعلى المرسل إليهم أن يطيعوهم حتى يفوزوا برضاء خالقهم
قال الجمل : " وإنما رسل بلفظ الجمع وإن كان المراد به واحدا وهو النبى.
، صلى الله عليه وسلم ، لأنه خاتم الأنبياء ، وهو مرسل إلى كافة الخلق
) : فذكره بلفظ الجمع على سبيل التعظيم ، فعلى هذا يكون الخطاب فى قوله
يابني ءَادَمَ ) لأهل مكة ومن يلحق بهم . وقيل أراد جميع الرسل . وعلى هذا
: الخطاب فى قوله : ( يابني ءَادَمَ ) عام لكل بنى آدم ، وإنما قال منكم أى
من جنسكم ومثلكم من بنى آدم ، لأن الرسول إذا كان من جنسهم كان أقطع لعذرهم
وأثبت للحجة عليهم ، لأنهم يعرفونه ويعرفون أحواله ، فإذا أتاهم بما لا
يليق بقدرته أو بقدرة أمثاله علم أن ذلك الذى أتى به معجزة له ، وحجة على
. " من خالفه

والذين كذبوا باياتنا واستكبروا عنها اولئك اصحاب النار هم فيها خالدون

`<!-- TODO:MISSING -->`{=html} كما فسرها الوسيط

فمن اظلم ممن افترى على الله كذبا او كذب باياته اولئك ينالهم نصيبهم من
الكتاب حتى اذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا اين ما كنتم تدعون من دون الله

قالوا ضلوا عنا وشهدوا على انفسهم انهم كانوا كافرين

كما فسرها الوسيط ثم تعرض السورة الكريمة بعد ذلك لمشاهد يوم القيامة فى خمس عشرة آية فتصور لنا فى أسلوبها البليغ المؤثر حال المشركين عند قبض أرواحهم ، وحالهم عندما يقفون أمام الله للحساب يوم الدين ، وتحكى لنا ما يجرى بين رؤساء المشركين ومرءوسيهم من مجادلات وملاعنات ، ثم تعقب على ذلك ببيان ما أعده الله للمؤمنين من أجر عظيم وثواب جزيل ، ثم يختم هذه المشاهدة بالحديث عما يدور بين أصحاب الجنة وأصحاب النار من محاورات ونداءات . استمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى كل ذلك بطريقته التصويرية المعجزة فيقول : ( فَمَنْ أَظْلَمُ . . . . ) .أى : با أحد أشد ظلما ممن افترى الكذب على الله ، بأن أحل ما حرمه أو حرم ما أحله ، أو كذب بآياته المنزلة على أنبيائه ، والاستفهام فى قوله : ( فَمَنْ أَظْلَمُ ) للإنكار ثم بين - سبحانه - عاقبتهم فقال : ( أولئك يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الكتاب ) . أى : أولئك الذين كذبوا بآيات الله سينالهم نصيبهم مما كتب لهم وقدر من رزق وأجر ، وخير وشر ، والمراد بالكتاب ، كتاب الوحى الذى أنزل على الرسل ، فإنه يتضمن ما أعده الله للمؤمنين من ثواب وما أعده للكافرين من عقاب ، وقيل المراد به اللوح المحفوظ ، أى أولئك ينالهم نصيبهم المكتوب لهم فى كتاب المقادير ، وهو : اللوح المحفوظ .ثم صور القرآن حالهم عند قبض أرواحهم فقال : ( حتى إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قالوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ الله قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ على أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ ) .أى : أولئك المفترون ينالهم نصيبهم الذى كتب لهم مدة حياتهم ، حتى إذا ما انتهت آجالهم وجاءتهم ملائكة الموت لقبض أرواحهم سألتهم سؤال توبيخ وتقريع : أين الآلهة التى كنتم تعبدونها فى الدنيا ، وتزعمون أنها شفعاؤكم عند الله لكى تنقذكم من هذا الموقف العصيب؟ وهنا يجيب المشركون على الملائكة بقولهم بحسرة وندامة : ( ضَلُّواْ عَنَّا ) أى : غابوا عنا وصرنا لا ندرى مكانهم ، ولا نرجو منهم خيرا أو نفعا ، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين بعبادتهم لغير الله الواحد القهار .

قال ادخلوا في امم قد خلت من قبلكم من الجن والانس في النار كلما دخلت امة لعنت اختها حتى اذا اداركوا فيها جميعا قالت اخراهم لاولاهم ربنا هؤلاء اضلونا فاتهم عذابا ضعفا من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون

كما فسرها الوسيط وهنا يصدر عليهم قضاء الله العادل الذى صوره القرآن فى قوله : ( قَالَ ادخلوا . . . ) .أى : قال الله - تعالى - لأولئك المكذبين ادخلوا فى ضمن أمم من الجن والإنس قد سبقتكم فى الكفر ، وشاركتكم فى الضلالة .ثم بين - سبحانه - بعض أحوالهم فقال : ( كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ) أى : كلما دخلت أمة من أمم الكفر لعنت أختها فى الدين والملة ، فالأمة المتبوعة تلعن الأمة التابعة لأنها زادتها ضلالا - والأمة التابعة تلعن الأمة المتبوعة لأنها كانت سببا فى عذابها .ثم قال ، تعالى - : ( حتى إِذَا اداركوا فِيهَا جَمِيعاً ) أى : حتى إذا ما اجتمعوا جميعا فى النار الرؤساء والأتباع ، والأغنياء ، والفقراء ، قالت أخراهم دخولا أو منزلة وهم الأتباع ، لأولاهم دخولا أو منزلة وهم الزعماء والمتبوعين ( رَبَّنَا هؤلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النار ) .أى : قال الأتباع : يا ربنا هؤلاء الرؤساء هم السبب فى ضلالنا وهلاكنا ، فأذقهم ضعفا من عذاب النار لإضلالهم إيانا فضلا عن أنفسهم .وهنا يأتيهم الجواب الذى يحمل لهم التهكم والسخرية ، فيقول الله لهم : ( قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ ولكن لاَّ تَعْلَمُونَ ) أى : لكل منكم ومنهم عذاب مضاعف من النار . أما أنتم فبسبب تقليدكم الأعمى ، وأما هم فبسبب إضلالهم لكم ولغيركم ، ولكنكم يا معشر المقلدين لا تعلمون ذلك لجهلكم وانطماس بصيرتكم .

وقالت اولاهم لاخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون

: كما فسرها الوسيط أى : قال الزعماء لأتباعهم بعد أن سمعوا رد الله عليهم إنا وإياكم متساوون فى استحقاق العذاب ، ولكنا فيه سواء ، لأنا لم نجبركم ، على الكفر ، ولكنكم أنتم الذين كفرتم باختياركم ، وضللتم بسبب جهلكم فذوقوا العذاب المضاعف مثلنا بسبب ما اكتسبتموه فى الدنيا من قبائح ومنكرات فقوله - تعالى - ( بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ) بيان لأسباب الحكم عليهم: : وأنهم ما وردوا هذا المصير الأليم إلا بسبب ، ما اكتسبوه من آثام. واجترحوه من سيئات .

ان الذين كذبوا باياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم ابواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط وكذلك نجزي المجرمين

كما فسرها الوسيط ثم بين القرآن بعد ذلك لونا آخر من ألوان عذاب المكذبين
فقال : ( إِنَّ الذين . . . . ) .هاتان الآيتان تصوران أكمل تصوير استحالة
دخول المشركين الجنة بسبب تكذيبهم لآيات الله واستكبارهم عنها .وقد فسر بعض
العلماء قوله - تعالى - : ( لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السمآء ) بمعنى
- لا تقبل أعمالهم ولا ترفع إلى الله كما ترفع أعمال الصالحين . قال ،
تعالى - : ( إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكلم الطيب والعمل الصالح يَرْفَعُهُ )
وفسره بعضهم بمعنى أن أرواحهم لا تصعد إلى السماء بعد الموت ، لأنها قد
أغلقت عليهم بسبب شركهم ، ولكنها تفتح لأرواح المؤمنين .والمراد أن
الكافرين عند موتهم وعند حسابهم يوم القيامة يكونون على غضب الله ولعنته
بسبب ما ارتكبوه فى الدنيا من شرك وظلم .أما قوله - تعالى - : ( وَلاَ
يَدْخُلُونَ الجنة حتى يَلِجَ الجمل فِي سَمِّ الخياط ) فمعناه : أن هؤلاء
المشركين لا تفتح لأعمالهم ولا لأرواحهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى
يدخل ما هو مثل فى الضخامة وهو الجمل الكبير ، فيما هو مثل فى الضيق وهو
ثقب الإبرة .وفى قراءة ( حتى يَلِجَ الجمل فِي سَمِّ الخياط ) - بضم الجيم
وتشديد الميم وفتحا - وهو الحبل الغليظ أى :لا يدخلون الجنة حتى يدخل
الحبل الغليظ الذى تربط به السفن فى ذلك الثقب الصغير للإبرة ، وهيهات أن
يحصل هذا ، فكما أنه غير ممكن حصول ذلك فكذلك غير ممكن دخول المشركين الجنة
. قال الجمل فى حاشيته : ولا يدخلون الجنى حتى يلج الجمل فى سم الخياط.
الولوج : الدخول بشدة ، ولذلك يقال هو الدخول فى ضيق فهو أخص من مطلق
، الدخول . والجمل معروف وهو الذكر من الإبل ، وسم الخياط ، ثقب الإبرة
وإنما خص الجمل بالذكر من بين سائر الحيوانات لأنه أكبرها ، وثقب الإبرة من
أضيق المنافذ ، فكان ولوج الجمل مع عظم جسمه فى ثقب الإبرة الضيق محالا
فثبت أن الموقوف على المحال محال ، فوجب بهذا الاعتبار أن دخول الكفار
الجنة ميئوس منه قطعا .وقوله : ( وكذلك نَجْزِي المجرمين ) معناه : ومثل
. ذلك الجزاء الرهيب نجزى جنس المجرمين ، الذين صار الإجرام وصفا لازما لهم

لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك نجزي الظالمين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما أعد لهم فى النار فقال : ( لَهُمْ
( مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وكذلك نَجْزِي الظالمين
جهنم : اسم الدار العذاب . والمهاد : الفراش . والغواشى جمع غاشية ، وهى.
ما يغشى الشىء أى يغطيه ويستره .أى : أن هؤلاء المكذبين لهم نار جهنم تحيط
بهم من فوقهم ومن تحتهم ، فهى من تحتهم بمنزلة الفراش ، ومن فوقهم بمثابة
الغطاء ، ومثل ذلك الجزاء نجزى كل ظالم ومشرك . وإلى هنا تكون الآيات
، الكريمة قد بينت لنا بأسلوب مؤثر مصور حال المشركين عندما تقبض أرواحهم
، وحالهم عندما يقفون أمام الله للحساب ، وحالهم عندما يلعن بعضهم بعضا
وحالهم والعذاب من فوقهم ومن أسفل منهم ، وهى مشاهد تفزع النفوس ، وتحمل
. العقلاء على الاستقامة والاهتداء

والذين امنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفسا الا وسعها اولئك اصحاب الجنة هم
فيها خالدون

كما فسرها الوسيط ثم نرى السورة بعد ذلك تسوق لنا ما أعده الله للمؤمنين
. بعد أن بينت فيما سبق عاقبة الكافرين فقال - تعالى - : ( والذين آمَنُواْ
، أى : والذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. ( . .
وعملوا الأعمال الصالحة التى لا عسر فيها ولا مشقة ، إذ لا يكلف الله نفساً
إلا وسعها ، أولئك الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح ، هم أصحاب الجنة هم
فيها خالدون .وجملة - لا نكلف نفساً إلا وسعها - معترضة بين المبتدأ الذى
هو قوله : ( والذين آمَنُواْ ) وبين الخبر الذى هو قوله : ( أولئك
أَصْحَابُ الجنة ) .قال الجمل : " وإنما حسن وقوع هذا الكلام بين المبتدأ
، والخبر ، لأنه من جنس هذا الكلام ، لأنه - سبحانه - لما ذكر عملهم الصالح
ذكر أن ذلك العلم من وسعهم وطاقتهم وغير خارج عن قدرتهم ، وفيه تنبيه
للكفار على أن الجنة مع عظم قدرها ، يتوصل إليها بالعمل السهل من غير مشقة
ولا صعوبة " .وقال صاحب الكشاف : " وجملة ( لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ
وُسْعَهَا ) معترضة بين المبتدأ والخبر ، للترغيب فى اكتساب ما لا يكتنهه
وصف الواصف من النعيم الخالد مع التعظيم بما هو فى الوسع ، وهو الإمكان
. " الواسع غير الضيق من الإيمان والعمل الصالح

ونزعنا ما في صدورهم من غل تجري من تحتهم الانهار وقالوا الحمد لله الذي
هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق
ونودوا ان تلكم الجنة اورثتموها بما كنتم تعملون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما هم عليه فى الجنة من صفاء نفسى

ونقاء قلبي فقال - تعالى - : ( وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ
تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأنهار ) أى : قلعنا ما فى قلوبهم من تحاقد
وعداوات فى الدنيا ، فهم يدخلون الجنة بقلوب سليمة ، زاخرة بالتواد
والتعاطف حالة كونهم تجرى من تحتهم الأنهار فيرونها وهم فى غرفات قصورهم
فيزداد سرورهم وحبورهم ( وَقَالُواْ الحمد للَّهِ الذي هَدَانَا لهذا
وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لولا أَنْ هَدَانَا الله ) . أى : قالوا شاكرين
لله أنعمه ومننه : الحمد لله الذى هدانا فى الدنيا إلى الإيمان والعمل
الصالح ، وأعطانا فى الآخرة هذا النعيم الجزيل ، وما كنا لنهتدى إلى ما نحن
فيه من نعيم لولا أن هدانا الله إليه بفضله وتوفيقه . وجواب لولا محذوف
لدلالة ما قبله عليه ، والتقدير : ولولا هداية الله موجودة ما اهتدينا
: وقوله : ( لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بالحق ) جملة قسمية ، أى.
والله لقد جاءت رسل ربنا فى الدنيا بالحق ، لأن ما أخبرونا به قد وجدنا
مصداقه فى الآخرة .( ونودوا أن تِلْكُمُ الجنة أُورِثْتُمُوهَا بِمَا
: كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ) أى : ونودوا من قبل الخالق - عز وجل - بأن قيل لهم
تلكم هى الجنة التى كانت الرسل تعدكم بها فى الدنيا قد أورثكم الله إياها
بسبب ما قدمتموه من عمل صالح .فالآية الكريمة صريحة فى أن الجنة قد ظفر بها
المؤمنون بسبب أعمالهم الصالحة .فإن قيل : إن هناك أحاديث صحيحة تصرح بأن
دخول الجنة ليس بالعمل وإنما بفضل الله ، ومن ذلك ما جاء فى الصحيحين عن
أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :" لن يدخل أحداً عمله
الجنة ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله
بفضله ورحمته " .فالجواب على ذلك أنه لا تنافى فى الحقيقة ، لأن المراد أن
العمل لا يوجب دخول الجنة ، بل الدخول بمحض فضل الله ، والعمل سبب عادى
ظاهرى . وتوضيحه أن الأعمال مهما عظمت فهى ثمن ضئيل بالنسبة لعظمة دخول
الجنة ، فإن النعمة الأخروية سلعة غالية جداً فمثل هذه المقابلة كمثل من
يبيع قصوراً شاهقة وضياعا واسعة بدرهم واحد .فإقبال البائع على هذه
المبادلة ليس للمساواة بين العمل ونعمة الجنة ، بل لتفضله على المشترى
ورحمته به ، فمن رحمته بعباده المؤمنين أن جعل بعض أعمالهم الفانية
وأموالهم الزائلة ثمنا لنعيم لا يبلى ، ولذلك قال ابن عباس عندما قرأ
قوله - تعالى - : ( إِنَّ الله اشترى مِنَ المؤمنين أَنفُسَهُمْ
وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الجنة ) نعمت الصفقة ، أنفس هو خالقها
وأموال هو رازقها ثم يمنحنا عليها الجنة .على أنه - سبحانه - هو المتفضل فى
- الحقيقة بالثمن والمثمن جميعاً .لا جرم كان دخول الجنة بفضله - سبحانه
وهو الموفق للعمل والمعين عليه .ويمكن أن يجاب - أيضاً - بأن الفوز بالجنة
ونعيمها إنما هو بفضل الله والعمل جميعا ، فقوله : ( ونودوا أَن تِلْكُمُ
- الجنة أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ) أى : مع فضل الله
" : تعالى - ، وإنما لم يذكر ذلك لئلا يتكلوا . وقوله صلى الله عليه وسلم
لن يدخل أحدا عمله الجنة . . . " أى مجردا من فضل الله ، وإنما اقتصر على
هذا لئلا يغتروا .هذا أصح الآراء فى الجمع بين الآية والحديث ، وهناك آراء
أخرى لم نذكرها لضعفها .وبعد هذه الموازنة بين مصير الكافرين ومصير
المؤمنين ، بدأ القرآن يسوق لنا مشهداً آخر من الحوار الذى يدور يوم
القيامة بين أصحاب الجنة وأصحاب النار .

ونادى اصحاب الجنة اصحاب النار ان قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما
وعد ربكم حقا قالوا نعم فاذن مؤذن بينهم ان لعنة الله على الظالمين

كما فسرها الوسيط استمع إلى سورة الأعراف وهى تحكى لنا هذا المشهد المؤثر
بأسلوبها العجيب فتقول : ( ونادى أَصْحَابُ الجنة . . . ) .المعنى : أن
أصحاب الجنة سوف يسألون أهل النار سؤال تعيير وتوبيخ يوم القيامة فيقولون
لهم قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا من الثواب والجزاء ، فهل وجدتم أنتم ما
: وعدكم ربكم حقا من العقاب وسوء المصير؟ قالوا : نعم . أى : قال أهل النار
نعم وجدنا ما وعدنا ربنا على ألسنة رسله حقا .وهذا النداء إنما يكون بعد
استقرار أهل الجنة فى الجنة ، وأهل النار فى النار .والظاهر أن هذا النداء
من كل أهل الجنة لكل أهل النار لأن الجمع إذا قابل الجمع يوزع الفرد على
الفرد . فكل فريق من أهل الجنة ينادى من كان يعرفه من الكفار فى دار الدنيا
وعبر بالماضى مع أن هذا النداء يكون فى الآخرة لتحقق الوقوع وتأكده .وكلمة.
نصبت فى الموضعين على الحالية ، وقيل إنها مفعول ثان ويكون وجد ( حَقّاً )
بمعنى علم .

الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالاخرة كافرون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما جرى بعد ذلك فقال : ( فَأَذَّنَ
مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أن لَّعْنَةُ الله عَلَى الظالمين الذين يَصُدُّونَ
عَن سَبِيلِ الله وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً ) .التأذن : رفع الصوت بالإعلام
بالشىء . واللعنة : الطرد والإبعاد مع الخزى والإهانة .والمعنى : بعد أن

قامت الحجة على الكافرين وثبت الفوز للمؤمنين . نادى مناد بين الفريقين بقوله : لعنة الله على الظالمين لأنفسهم ، ولغيرهم ، الذين من صفاتهم أنهم يمنعون الناس عن اتباع شريعة الله ، ويريدون لها أن تكون معوجة غير مستقيمة حتى لا يتبعها الناس ، وهم بالآخرة وما فيها من ثواب وعقاب جاحدون مكذبون وفى قوله : ( فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ ) . نكر المؤذن؛ لأن معرفته. غير مقصودة بل المقصود بالإعلام بما يكون هناك من الأحكام ولم يرو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه شىء ، فهو من أمور الغيب التى لا تعلم علما صحيحا إلا بالتوقيف المستند إلى الوحى ، وما ورد فى ذلك فهو من الآثار التى لا يعتمد عليها .قال بعض العلماء : " وفى هاتين الآيتين تعرض السورة لمرحلة أخرى من مراحل العذاب ، وهى نداء أصحاب الجنة لأصحاب النار نداء يسجل عليهم الخزى والنكال ، ويشعرهم بالحسرة والندامة ، إذ كذبوا بما يرونه الأن واقعا .وفى فى مقابلة النعيم الذى صار إليه أهل الإيمان ، وأحسوا به كذلك واقعا هذا نرى صورة من الحديث الذى يمثل الرضا والاطمئنان واللذة من جانب . ويمثل الحسرة والذلة والقلق من جانب آخر . ويصور الحكم النافذ الذى لا مرد له ولا محيص عنه يؤذن به مؤذن لا يدرك كنهه ولا يعلم من هو ولا ما صوته ولا كيف يلقى أذانه ، ولا كيف يكون أثر هذا الأذن فى نفوس سامعه .وإنه لتصوير قوى بارع ، يحرك إليه النفوس ، ويهز المشاعر ، ويبين أن النهاية الأليمة المتوقعة لهؤلاء المكذبين ، إنما هى تسجيل اللعنة عليهم ، والطرد والحرمان من رحمة الله ، مشيرا إلى أسباب ذلك الحرمان الماثلة فى ظلمهم الذى كونه صدهم عن سبيل الله ، وبغيهم إياها عوجا وانحرافا وكفرهم بدار الجزاء .

وبينهما حجاب وعلى الاعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ونادوا اصحاب الجنة ان سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون

كما فسرها الوسيط ثم ينتقل القرآن إلى الحديث عن مشهد آخر من مشاهد يوم القيامة ، يحدثنا فيه عن أصحاب الأعراف وما يدور بينهم وبين أهل الجنة وأهل النار من حوار فيقول :( وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ) أى : بين أهل الجنة وأهل النار حجاب يفصل بينهما ، ويمنع وصول أحد الفريقين إلى الآخر .ويرى بعض العلماء أن هذا الحجاب هو السور الذى ذكره الله فى قوله - تعالى- فى سورة الحديد : ( يَوْمَ يَقُولُ المنافقون والمنافقات لِلَّذِينَ آمَنُواْ انظرونا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارجعوا وَرَآءَكُمْ فالتمسوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرحمة وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ العذاب ) ثم قال - تعالى -:( وَعَلَى الأعراف رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْاْ أَصْحَابَ الجنة أَن سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ) .الأعراف : جمع عرف ، وهو المكان المرتفع من الأرض وغيرها . ومنه عرف الديك وعرف الفرس وهو الشعر الذى يكون فى أعلى الرقبة .والمعنى : وبين الجنة والنار حاجز يفصل بينهما وعلى أعراف هذا الحاجز - أى فى أعلاه - رجال يرون أهل الجنة وأهل النار فيعرفون كلا منهم بسيماهم وعلاماتهم التى وصفهم الله بها فى كتابه كبياض الوجوه بالنسبة لأهل الجنة ، وسوادها بالنسبة لأهل النار ، ونادى ) أصحاب الأعراف أصحاب الجنة عند رؤيتهم لهم بقولهم : سلام عليكم وتحية لكم لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ) .هذا ، وللعلماء أقوال فى أصحاب : الأعراف أوصلها بعض المفسرين إلى اثنى عشر قولا من أشهرها قولان :أولهما أن أصحاب الأعراف قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم ، وقد روى هذا القول عن حذيفة وابن عباس وابن مسعود وغير واحد من السلف والخلف .وقد استشهد أصحاب هذا القول بما رواه ابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : " سئل رسول الله صلى ، الله عليه وسلم عمن استوت حسناتهم وسيئاتهم فقال : " أولئك أصحاب الأعراف لم يدخلوها وهم يطمعون " " .وعن الشعبى عن حذيفة أنه سئل عن أصحاب الأعراف ، فقال : " هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فقعدت بهم سيئاتهم عن الجنة وخلفت بهم حسناتهم عن النار . قال : فوقفوا هناك على السور حتى يقضى الله فيهم " .وهناك آثار أخرى تقوى هذا الرأى ذكرها الإمام ابن كثير فى تفسيره أما الرأى الثانى : فيرى أصحابه أن أصحاب الأعراف قوم من أشرف الخلق. وعدولهم كالأنبياء والصديقين والشهداء . وينسب هذا القول إلى مجاهد وإلى أبى مجلز فقد قال مجاهد : " أصحاب الأعراف قوم صالحون فقهاء علماء " وقال أبو مجلز : أصحاب الأعراف هم رجال من الملائكة يعرفون أهل الجنة وأهل النار ومعنى كونهم رجالا - فى قول أبى مجلز أى : فى صورتهم .وقد رجح بعض العلماء. الرأى الثانى فقال : " وليس أصحاب الأعراف ممن تساوت حسناتهم وسيئاتهم كما جاء فى بعض الروايات ، لأن ما نسب إليهم من أقوال لا يتفق مع انحطاط منزلتهم عن أهل الجنة ، انظر قولهم للمستكبرين :( مَآ أغنى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ) فإن هذا الكلام لا يصدر إلا من أرباب المعرفة الذين اطمأنوا إلى مكانتهم . ولذا أرجح أن رجال الأعراف هم عدول الأمم والشهداء على الناس ، وفى مقدمتهم الأنبياء والرسل " .والذى نراه : أن هناك حجابا بين الجنة والنار ، الله أعلم بحقيقته ، وأن هذا الحجاب لا يمنع وصول الأصوات عن طريق المناداة ، وأن هذا الحجاب من فوقه

رجال يرون أهل الجنة وأهل النار فينادون كل فريق بما يناسبه ، يحيون أهل الجنة ويقرعون أهل النار ، وأن هؤلاء الرجال - يغلب على ظننا - أنهم قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم . لأن هذا القول هو قول جمهور العلماء من السلف والخلف ، ولأن آثار تؤيده ، ولذا قال ابن كثير : " واختلفت عبارات المفسرين فى أصحاب الأعراف من هم؟ وكلها قريبة ترجع إلى معنى واحد ، وهو أنهم قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم ، نص عليه حذيفة وابن عباس وابن مسعود وغير واحد من السلف والخلف رحمهم الله " .وقوله : ( لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ) فيه وجهان :أحدهما : أنه فى أصحاب الأعراف ، أى أن أصحاب الأعراف عندما رأوا أهل الجنة سلموا عليهم حال كونهم - أى أصحاب الأعراف - لم يدخلوها معهم وهم طامعون فى دخولها مترقبون له .وثانيهما : أنه فى أصحاب الجنة : أى : أنهم لم يدخلوها بعد ، وهم طامعون فى دخولها لما ظهر لهم من يسر الحساب . وكريم اللقاء .

واذا صرفت ابصارهم تلقاء اصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين

كما فسرها الوسيط ثم قال - تعالى - : ( وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَابِ النار قَالُواْ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا مَعَ القوم الظالمين ) .أى : وإذا ما اتجهت أبصار أصحاب الأعراف إلى جهة النار قالوا مستعيذين بالله من سوء ما رأوا من أحوالهم : يا ربنا لا تجعلنا مع هؤلاء القوم الظالمين ، ولا تجعلنا وإياهم فى هذا المكان المهين .قال صاحب المنار وقد أفاد هذا التعبير بالفعل المبنى للمجهول أنهم يوجهون أبصارهم إلى " : أصحاب الجنة بالقصد والرغبة ويلقون إليهم السلام ، وأنهم يكرهون رؤية أصحاب النار ، فإذا صرفت أبصارهم تلقاءهم من غير قصد ولا رغبة ، بل بصارف يصرفهم إليها قالوا : ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين .ثم قال : والإنصاف أن هذا الدعاء أليق بحال من استوت حسناتهم وسيئاتهم وكانوا موقوفين مجهولا مصيرهم " .

ونادى اصحاب الاعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم قالوا ما اغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما يقوله أهل الأعراف لرءوس الكفر فى هذا الموقف العصيب فقال : ( ونادى أَصْحَابُ الأعراف رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُواْ مَآ أغنى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ) .أى : ونادى أصحاب الأعراف رجالا من أهل النار وكانوا أصحاب وجاهة وغنى فى الدنيا ، فيقولون لهم على سبيل التوبيخ والتقريع ما أغنى عنكم جمعكم وكثرتكم واستكباركم فى الأرض بغير الحق . فقد صرتم فى الآخرة بسبب كفركم وعنادكم إلى هذا الوضع المهين .وقد كرر - سبحانه - ذكرهم مع قرب العهد بهم ، فلم يقل " ونادوا " لزيادة التقرير ، وكون هذا النداء خاصاً فى موضوع خاص فكان مستقلا .وقوله : ( يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ ) أى : بعلاماتهم الدالة على سوء حالهم يومئذ كسواد الوجوه ، وظهور الذلة على وجوههم . أو يعرفونهم بصورهم التى كانوا يعرفونهم بها فى الدنيا .

اهؤلاء الذين اقسمتم لا ينالهم الله برحمة ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا انتم تحزنون

كما فسرها الوسيط ثم يزيدون توبيخهم وتبكيتهم فيقولون لهم : ( أهؤلاء الذين أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ الله بِرَحْمَةٍ ادخلوا الجنة لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ) .أى : أن أصحاب الأعراف يشيرون إلى أهل الجنة من الفقراء والذين كانوا مستضعفين فى الأرض ثم يقولون لرءوس الكفر الذين كانوا يعذبونهم : أهؤلاء الذين أقسمتم فى الدنيا أن الله - تعالى -لا ينالهم برحمة فى الآخرة لأنه لم يعطهم فى الدنيا مثل ما أعطاكم من مال وبنين وسلطان .وهنا ينادى مناد من قبل الله - تعالى - على هؤلاء الفقراء فيقول لهم : ( ادخلوا الجنة لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ) .أى : ادخلوا الجنة لا خوف عليكم مما يكون فى المستقبل ، ولا أنتم تحزنون على ما خلفتموه فى الدنيا .وقيل : إن قوله - تعالى - : ( ادخلوا ) . من كلام أصحاب الأعراف - أيضا ، فكأنهم التفتوا إلى أولئك المشار إليهم من أهل الجنة وقالوا لهم : امكثوا فى الجنة غير خائفين ولا محزونين على أكمل سرور وأتم كرامة .

ونادى اصحاب النار اصحاب الجنة ان افيضوا علينا من الماء او مما رزقكم الله قالوا ان الله حرمهما على الكافرين

كما فسرها الوسيط ثم تسوق لنا السورة الكريمة بعد ذلك مشهداً ختاميا من
): مشاهد يوم القيامة تدور محاوراته بين أصحاب الجنة وأصحاب النار فتقول
ونادى أَصْحَابُ النار أَصْحَابَ الجنة أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ
المآء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ الله قالوا إِنَّ الله حَرَّمَهُمَا عَلَى
الكافرين الذين اتخذوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الحياة
الدنيا فاليوم نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هذا وَمَا
كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ) .إفاضة الماء : صبه ، ومادة الفيض فيها
- معنى الكثرة .والمعنى : أن أهل النار - بعد أن أحاط بهم العذاب المهين
أخذوا يستجدون أهل الجنة بذلة وانكسار فيقولون لهم : أفيضوا علينا من الماء
أو مما رزقكم الله من طعام ، لكى نستعين بهما على ما نحن فيه من سموم وحميم
وهنا يرد عليهم أهل الجنة بما يقطع آمالهم بسبب أعمالهم فيقولون لهم : إن.
الله منع كلا منهما على الكافرين ، الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا ، أى
الذين اتخذوا دينهم - الذى أمرهم الله باتباع أوامره واجتناب نواهيه - مادة
للسخرية والتلهى ، وصرف الوقت فيما لا يفد ٍ فأصبح الدين - فى زعمهم - صورة
ورسوما لا تزكى نفساً ، ولا تطهر قلباً ، ولا تهذب خلقا وهم فوق ذلك قد
غرتهم الحياة الدنيا - أى شغلتهم بمتعها ولذائذها وزينتها عن كل ما يقربهم
إلى الله ، ويهديهم إلى طريقه القويم .وقوله - تعالى - : ( فاليوم
نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هذا ) معناه فاليوم نفعل بهم
فعل الناسى بالمنسى من عدم الاعتناء بهم وتركهم فى النار تركا كليا بسبب
تركهم الاستعداد لهذا اليوم ، وبسبب جحودهم لآياتنا التى جاءتهم بها
أنبياؤهم .فالنسيان فى حق الله - تعالى - مستعمل فى لازمه ، بمعنى أن الله
لا يجيب دعاءهم ، ولا يرحم ضعفهم وذلهم ، بل يتركهم فى النار كما تركوا
الإيمان والعمل الصالح فى الدنيا .وهكذا تسوق لنا السورة الكريمة مشاهد
متنوعة لأهوال يوم القيامة ، فتحكى لنا أحوال الكافرين ، كما تصور لنا ما
أعده الله للمؤمنين . كما تسوق لنا ما يدور بين الفريقين من محاورات
ومناقشات فيها العبر والعظات ( لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السمع
( وَهُوَ شَهِيد

الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا فاليوم ننساهم كما
نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا باياتنا يجحدون

`<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html} كما فسرها الوسيط

ثم تسوق لنا السورة الكريمة بعد ذلك مشهداً ختاميا من مشاهد يوم القيامة
تدور محاوراته بين أصحاب الجنة وأصحاب النار فتقول :( ونادى أَصْحَابُ
النار أَصْحَابَ الجنة أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ المآء أَوْ مِمّا
رَزَقَكُمُ الله قالوا إِنّ الله حَرّمَهُمَا عَلَى الكافرين الذين
اتخذوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرّتْهُمُ الحياة الدنيا فاليوم
نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هذا وَمَا كَانُواْ
بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ) .إفاضة الماء : صبه ، ومادة الفيض فيها معنى
الكثرة .والمعنى : أن أهل النار - بعد أن أحاط بهم العذاب المهين - أخذوا
يستجدون أهل الجنة بذلة وانكسار فيقولون لهم : أفيضوا علينا من الماء أو
مما رزقكم الله من طعام ، لكى نستعين بهما على ما نحن فيه من سموم وحميم
وهنا يرد عليهم أهل الجنة بما يقطع آمالهم بسبب أعمالهم فيقولون لهم : إن.
الله منع كلا منهما على الكافرين ، الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا ، أى
الذين اتخذوا دينهم - الذى أمرهم الله باتباع أوامره واجتناب نواهيه - مادة
للسخرية والتلهى ، وصرف الوقت فيما لا يفد ٍ فأصبح الدين - فى زعمهم - صورة
ورسوما لا تزكى نفساً ، ولا تطهر قلباً ، ولا تهذب خلقا وهم فوق ذلك قد
غرتهم الحياة الدنيا - أى شغلتهم بمتعها ولذائذها وزينتها عن كل ما يقربهم
إلى الله ، ويهديهم إلى طريقه القويم .وقوله - تعالى - : ( فاليوم
نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هذا ) معناه فاليوم نفعل بهم
فعل الناسى بالمنسى من عدم الاعتناء بهم وتركهم فى النار تركا كليا بسبب
تركهم الاستعداد لهذا اليوم ، وبسبب جحودهم لآياتنا التى جاءتهم بها
أنبياؤهم .فالنسيان فى حق الله - تعالى - مستعمل فى لازمه ، بمعنى أن الله
لا يجيب دعاءهم ، ولا يرحم ضعفهم وذلهم ، بل يتركهم فى النار كما تركوا
الإيمان والعمل الصالح فى الدنيا .وهكذا تسوق لنا السورة الكريمة مشاهد
متنوعة لأهوال يوم القيامة ، فتحكى لنا أحوال الكافرين ، كما تصور لنا ما
أعده الله للمؤمنين . كما تسوق لنا ما يدور بين الفريقين من محاورات
ومناقشات فيها العبر والعظات ( لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السمع
( وَهُوَ شَهِيد

ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - منزلة القرآن الكريم فى إثباته للرسالة

المحمدية عن طريق الإخبار بأحوال الأمم السابقة وبيان سوء عاقبة من كذب به
فقال : ( وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ . . . ) .قوله : ( وَلَقَدْ ،
جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ ) . . . إلخ .التفصيل : عبارة عن جعل
الحقائق والمسائل بيانها مفصولا بعضها عن بعض بحيث لا يبقى فيها اشتباه أو
لبس .والمعنى : ولقد جئنا لهؤلاء الناس على لسانك يا محمد بكتاب عظيم الشأن
كامل التبيان ، فصلنا آياته تفصيلا حكيما ، وبينا فيه ما هم فى حاجة إليه ،
من أمور الدنيا والآخرة بيانا شافيا يؤدى إلى سعادتهم متى اتبعوه واهتدوا
بهديه " .والضمير لأولئك الكافرين الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا ، وقيل هو
لهم وللؤمنين ، والمراد بالكتاب : القرآن الكريم .وقوله : ( على عِلْمٍ )
حال من فاعل " فصلناه " ، أى : فصلناه على أكمل وجه وأحسنه حالة كونا
عالمين بذلك أتم العلم .فالمراد بهذه الجملة الكريمة بيان أن ما فى هذا
القرآن من أحكام وتفصيل وهداية ، لم يحصل عبثا ، وإنما حصل مع العلم التام
" بكل ما اشتمل عليه من فوائد متكاثرة ، ومنافع متزايدة .وقرأ ابن محيص
فضلناه " بالضاد المعجمة . أى : فضلناه على سائر الكتب عالمين بأنه حقيق
بذلك .وقوله : ( هُدًى وَرَحْمَةً ) حال من مفعول " فصلناه " وقرىء بالجر
على البديلة من " علم " وبالرفع على إضمار المبتدأ ، أى : هو هدى عظيم
، ورحمة واسعة .وقال : ( لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ) لأنهم هم المنتفعون بهديه
والمستجيبون لتوجيهات.

هل ينظرون الا تاويله يوم ياتي تاويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل
ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا او نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل
قد خسروا انفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - عاقبة هؤلاء الذين كذبوا بالقرآن الذى
أنزله الله هداية ورحمة فقال : ( هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ )
: النظر هنا بمعنى الانتظار والتوقع لا بمعنى الرؤية . فالمراد بينظرون.
ينتظرون ويتوقعون ، وتأويل الشىء : مرجعه ومصيره الذى يئول إليه ذلك الشىء
والاستفهام بمعنى النفى .والمعنى : إن هؤلاء المشركين ليس أمامهم شىء
ينتظرونه بعد أن أصروا على شركهم إلا ما يئول إليه أمر هذا الكتاب وما
تتجلى عنه عاقبته ، من تبين صدقه ، وظهور صحة ما أخبر به من الوعد والوعيد
والبعث والحساب ، وانتصار المؤمنين به واندحار المعرضين عنه .فإن قيل : كيف
، ينتظرون ذلك مع كفرهم به؟فالجواب : أنهم قبل وقوع ما هو محقق الوقوع
، صاروا كالمنتظرين له ، لأن كل آت قريب ، فهم على شرف ملاقاة ما وعدوا به
وسينزل بهم لا محالة .ثم بين - سبحانه - حالهم يوم الحساب فقال : ( يَوْمَ
يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الذين نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ
رَبِّنَا بالحق فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ
نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الذي كُنَّا نَعْمَلُ ) .أى : يوم يأتى يوم
، القيامة الذى أخبر عنه القرآن ، والذى يقف الناس فيه أمام خالقهم للحساب
) ، يقول هؤلاء الكافرون الذين جحدوا هذا اليوم عندما تكشف لهم الحقائق
قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بالحق ) وتبين صدقهم ولكننا نحن الذين
كذبناهم وسرنا فى طريق الضلال ، ( فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ
فَيَشْفَعُواْ لَنَآ ) فى هذه الساعة العصيبة ويدفعوا عنا ما نحن فيه من
كرب وبلاء ، أو نرد إلى الدنيا فنعمل عملا صالحا غير الذى كنا نعمله من
الجحود واللهو واللعب .أى : أنه لا طريق لنا إلى الخلاص مما نحن فيه من
العذاب الشديد إلا أحد هذين الأمرين ، وهو أن يشفع لنا شفيع فلأجل تلك
الشفاعة يزول هذا العذاب ، أو يردنا الله إلى الدنيا حتى نعمل غير ما كنا
نعمل .فالجملة الكريمة تصور حسرتهم يوم القيامة تصويرا يهز المشاعر ، ويحمل
العقلاء على الإيمان والعمل الصالح .والاستفهام فى قوله : ( فَهَل لَّنَا
مِن شُفَعَآءَ ) للتمنى والتحسر ، ومن مزيدة للاستغراق والتأكيد وشفعاء
مبتدأ مؤخر ولنا خبر مقدم .ثم بين - سبحانه - نهايتهم فقال : ( قَدْ خسروا
أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ) .أى : قد خسر
هؤلاء الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا أنفسهم ، بسبب إشراكهم بالله ، وذهب
، عنهم ما كانوا يفترونه فى الدنيا من أن أصنامهم ستشفع لهم يوم الجزاء
. وأيقنوا أنهم كانوا كاذبين فى دعواهم

ان ربكم الله الذي خلق السماوات والارض في ستة ايام ثم استوى على العرش
يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بامره الا له
الخلق والامر تبارك الله رب العالمين

، كما فسرها الوسيط ثم ذكر - سبحانه - جانبا من بديع صنعه ، وجليل قدرته
. . . لكى يدل على أنه هو المعبود الحق فقال - تعالى - : ( إِنَّ رَبَّكُمُ
أى : إن سيدكم ومالككم الذى يجب عليكم أن تفردوه بالعبادة هو الله الذى. (
: أنشأ السموات والرض على غير مثال سابق فى مقدار ستة أيام .قال الشهاب
اليوم فى اللغة مطلق الوقت ، فإن أريد هذا فالمعنى فى ستة أوقات . وإن أريد

المعارف وهو زمان طلوع الشمس إلى غروبها فالمعنى فى مقدار ستة أيام ، لأن
اليوم إنما كان بعد خلق الشمس والسموات فيقدر فيه مضاف .وقال صاحب فتح
البيان : " قيل هذه الأيام من أيام الدنيا ، وقيل من أيام الآخرة ، قال ابن
عباس : يوم مقداره ألف سنة وبه قال الجمهور وقال سعيد ابن جبير ، " كان
الله قادرا على أن يخلق السموات والأرض وما بينهما فى لمحة ولحظة ، فخلقهن
فى ستة أيام تعليما لخلقه التثبت والتأنى فى الأمور " .وقوله : ( ثُمَّ
استوى عَلَى العرش ) قال الشيخ القاسمى :ورد الاستواء على معان اشترك لفظه
فيها ، فجاء بمعنى الاستقرار ، ومنه ( واستوت عَلَى الجودي ) وبمعنى القصد
ومنه ( ثُمَّ استوى إِلَى السمآء وَهِيَ دُخَانٌ ) وكل من فرغ من أمر وقصد
لغيره فقد استوى له وإليه . قال الفراء : تقول العرب استوى إلى يخاصمنى أى
قصد لى وأقبل على . ويأتى بمعنى الاستيلاء .قال الشاعر :قد استوى بشر على :
العراق ... ويأتى بمعنى العلو ومنه هذه الآية .قال البخاري فى آخر صحيحه فى
كتاب الردل على الجهمية فى باب قوله - تعالى - : ( وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى
المآء ) أى : علا وارتفع .وعرش الله - كما قال الراغب - مما لا يعلمه البشر
إلا بالاسم ، وليس كما تذهب إليه أوهام العامة ، فإنه لو كان كذلك لكان
حاملا له - تعالى الله عن ذلك -لا محمولا .وقد ذكر العرش فى إحدى وعشرين
آية . وذكر الاستواء على العرش فى سبع آيات .أما الاستواء على العرش فذهب
سلف الأمة إلى أن صفة لله - تعالى - بلا كيف ولا انحصار ولا تشبيه ولا
تمثيل لاستحالة اتصافه - سبحانه - بصفات المحدثين ، ولوجوب تنزيهه عما لا
يليق به ( لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السميع البصير ) وأنه يجب
- الإيمان بها كما ورت وتفويض العلم بحقيقتها إليه - تعالى - .فعن أم سلمة
رضى الله عنها - فى تفسير قوله - تعالى - : ( الرحمن عَلَى العرش استوى )
أنها قالت : الكيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ، والاقرار به من
الإيمان ، والجحود به كفر .وقال الإمام مالك : الكيف غير معقول ، والاستواء
: غير مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .وقال محمد بن الحسن
اتفق الفقهاء جميعا على الإيمان بالصفات من غير تفسير ولا تشبيه .وقال
الإمام الرازى : إن هذا المذهب هو الذى نقول به ونختاره ونعتمد عليه .وذهب
بعض علماء الخلف إلى وجوب صرفه - أى الاستواء - عن ظاهره لاستحالته ، وأن
المراد منه - كما قال الإمام القفال - أنه استقام ملكه ، واطرد أمره ونفذ
حكمه - تعالى - فى مخلوقاته ، والله - تعالى - دل على ذاته وصفاته وكيفية
تدبيره للعالم على الوجه الذى ألفوه من ملوكهم واستقر فى قلوبهم " تنبيها
- على عظمته وكمال قدرته " وذلك مشروط بنفى التشبيه ، ويشهد بذلك قوله
تعالى - : ( ثُمَّ استوى عَلَى العرش يُدَبِّرُ الأمر ) هذا وللعلماء كلام
طويل حول هذه المسألة التى تتعلق بالمحكم والمتشابه فليرجع إليها من شاء
وقوله : ( يُغْشِي الليل النهار ) التغشية : التغطية والستر ، أى : يجعل.
الليل غاشيا للنهار مغطيا له فيذهب بنوره ، ويصير الكون مظلما بعد أن كان
مضيئا ، ويجعل النهار غاشية لليل فيصير الكون مضيئا بعد أن كان مظلما ، وفى
ذلك من منافع الناس ما فيه وبه تتم الحياة ، وهو دليل القدرة والحكمة
والتدبير من الإله العلى العظيم .ولم يذكر فى هذه الآية يغشى الليل بالنهار
اكتفاء بأحد الأمرين عن الآخر كقوله - تعالى - : ( سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ
الحر ) أو لدلالة الحال عليه ، أو لأن اللفظ يحتملهما : يجعل الليل مفعولا
أول والنهار مفعولا ثانيا أو بالعكس .والآية الكريمة من باب أعطيت زيداً
عمراً ، لأن كلا من الليل والنهار يصلح أن يكون غاشياً ومغشياً ، فوجب جعل
الليل هو الفاعل المعنوى ، والنهار ه المفعول من غير عكس لئلا يلتبس المعنى
وقد قال - تعالى - فى آية أخرى : ( يُكَوِّرُ الليل عَلَى النهار.
: وَيُكَوِّرُ النهار عَلَى الليل )وقوله : ( يَطْلُبُهُ حَثِيثاً ) أى
، يطلب الليل النهار أو كلاهما بطلب الآخر طلباً سريعاً حتى يلحقه ويدركه
وهو كناية عن أن أحدهما يأتى عقب الآخر ويخلفه بلا فاصل ، فكأنه يطلبه
طلباً سريعاً لا يفتر عنه يحلقه .والحث على الشىء : الحض عليه . يقال : حث
: الفرس على العدو يحثه حثاً صاحب ه أو وكزه برجل أو ضرب . وذهب حثيثاً أى
: مسرعاً .والجملة حال من الليل ، لأنه هو المتحدث عنه أو حال من النهار أى
مطلوب حثيثاً ، أو من كل منهما على الرأى الثانى الذى يفسر " يطلبه حثيثاً
بأن كليهما يطلب الأخر .وقوله : ( والشمس والقمر والنجوم مُسَخَّرَاتٍ "
، بِأَمْرِهِ ) أى : وخلق الشمس والقمر والنجوم كونهن مذللات خاضعات لتصرفه
منقادات لمشيئته ، كأنهن مميزات أمرن فانقدن ، فتسمية ذلك أمر على سبيل
التشبيه .قال الآلوسى : ويصح حمل الآمر على الإرادة . أى : هذه الأجرام
العظيمة والمخلوقات البديعة منقادة لإرادته : ومنهم من حمل الأمر على الأمر
الكلامى وقال : إنه - سبحانه - أمر هذه الأجرام بالسير الدائم والحركة
المستمرة على الوجه المخصوص إلى حيث شاء ولا مانع أن يعطيها الله إدراكا
وفهما لذلك " .وقرأ الجمهور بنصب الألفاظ الثلاثة على أنها معطوفة على
) السموات ، أى : خلق السموات وخلق الشمس والقمر والنجوم . وبنصب
مُسَخَّرَاتٍ ) أيضا على أنها حال من هذه الثلاثة .وقرأ أبو عامر بالرفع فى
جميعها على الابتداء والخبر مسخرات .وقوله : ( أَلاَ لَهُ الخلق والأمر )
ألا : أداة يفتتح بها القول الذة يهتم بشأنه بأجل تنبيه المخاطب لمضمونه

وحمله على تأمله . والخلق : إيجاد الشىء من العدم . والأمر : التدبير والتصرف على حسب الإرادة لما خلقه . فهو - سبحانه - الخالق والمدبر للعالم على حسب إرادته وحكمته لا شريك له فى ذلك .وهذه الجملة الكريمة كالتدليل للكلام السابق أى : أنه - سبحانه - هو الذى خلق الأشياء كلها ويدخل فى ذلك السموات والأرض وغيرهما ، وهو الذى دبر هذا الكون على حسب إرادته ويدخل فى ذلك : ( مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ) .وقوله ) : تَبَارَكَ الله رَبُّ العالمين ) .تبارك : فعل ماض لا يتصرف ، أى لم يجىء منه مضارع ولا أمر ولا اسم فاعل . من البركة بمعنى الكثرة من كل خير . وأصلها النماء والزيادة . أى : كثر خيره وإحسانه وتعاظمت وتزايدت بركات الله رب العالمين .أو من البركة بمعنى الثبوت . يقال : برك البعير ، إذا أناخ فى موضعه فلزمه وثبت فيه . وكل شىء ثبت ودام فقد برك . أى : ثبت ودام خيره على خلقه .أو المعنى : تعالى الله رب العالمين وتعظيم وارتفع وتنزه عن كل نقص .

ادعوا ربكم تضرعا وخفية انه لا يحب المعتدين

كما فسرها الوسيط ثم أمر الله - تعالى - عباده أن يكثروا من التضرع إليه بالدعاء الخالص فقال : ( ادعوا رَبَّكُمْ . . . ) .التضرع : تفعل من الضراعة وهى الذلة والاستكانة . يقال : ضرع فلان ضراعة : أى خشع وذل وخضع . ويقال : تضرع ، أى أظهر الضراعة والخضوع . وتضرعا حال من الضمير فى ادعوا الخفية : بضم الخاء وكسرها - مصدر خفى كمرض بمعنى اختفى أى : استتر وتوارة. ولم يجهر بدعائه .والمعنى : سلوا ربكم - أيها الناس - حوائجكم بتذلل ، واستكانة وإسرار واستتار فإنه - سبحانه - يسمع الدعاء ، ويجيب المضطر ويكشف السوء ، وهو القادر على إيصالها إليكم ، وغيره عن ذلك عاجز .وإنما أمر الله عباده بالإكثار من الدعاء فى ضراعة وإسرار ، لأن الدعاء ما هو إلا ، اتجاه إلى الله بقلب سليم ، واستعانة به بإخلاص ويقين ، لكى يدفع المكروه ويمنح الخير ، ويعين على نوائب الدهر ، ولا شك أن الإنسان فى هذه الحالة يكون فى أسمى درجات الصفاء الروحى ، والنقاء النفسى ، ويكون كذلك مؤدياً لأشرف ألوان العبادة والخضوع لله الواحد القهار ، معترفا لنفسه بالعجز والنقص . ولربه بالقدرة والكمال .هذا ، وقد أخذ العلماء من هذه الآية من آداب الدعاء الخشوع والإسرار واستدلوا على ذلك بأحاديث وآثار متعددة منها ما جاء فى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى " قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فكنا إذا أشرفنا على واد هللنا وكبرنا وارتفعت أصواتنا . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : " أيها الناس ، اربعوا على أنفسكم - أى ارفقوا بها - وأقصروا من الصياح - فإنكم لا تدعون اصم ولا غائباً . إنه معكم - إنه سميع قريب . تبارك اسمه وتعالى جده " " .وقال عبد الله بن المبارك عن مبارك بن فضالة ، عن الحقن قال : إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به الناس وإن كان الرجل ، لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر به الناس . وإن كان الرجل ، ليصلى الصلاة الطويلة فى بيته وعنده الزور - أى الزوار - وما يشعرون به . ولقد أدركنا أقواما ما كان على الأرض عمل يقدرون أن يعملوه فى السر فيكون علانية أبداً . ولقد كان المسلمون يجهدون فى الدعاء وما يسمع لهم صوت ، إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم . وذلك أن الله - تعالى - يقول : ( ادعوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً ) وذلك أن الله ذكر عبدا صالحا رضى فعله وهو زكريا فقال : (ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّآ إِذْ نادى رَبَّهُ نِدَآءً خَفِيّاً ) وقال ابن المنير : " وحسبك فى تعين الإسرار فى الدعاء اقترانه بالتضرع فى الآية ، فالاخلال بالضراعة إلى الله إخلال بالدعاء . وإن دعاء لا تضرع فيه ولا خشوع لقليل الجدوى . فكذلك دعاء لا خفية فيه ولا وقار يصحبه . وترى كثيراً من أهل زمانك يعمدون إلى الصراخ والصياح فى الدعاء خصوصا فى الجوامع حتى يعظم اللفظ ويشتد ، وتستك المسامع وتنسد ، ويهتز الداعى بالناس ، ولا يعلم أنه جمع بين بدعيتن : رفع الصوت فى الدعاء وفى المسجد ، وربما حصلت للعوام حينئذ رقة لا تحصل مع خفض الصوت ، ورعاية سمت الوقار ، وسلوك السنة الثابتة بالآثار .وما هى إلا رقة شبيهة بالقرة العارضة للنساء والأطفال ليست خارجة عن صميم الفؤاد ، لأنها لو كانت من أصل لكانت عند اتباع السنة فى الدعاء . وفى خفض الصوت به أوفر وأوفى وأزكى فما أكثر التباس الباطل بالحق على عقول كثير من الخلق . " اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه " .وقوله ) : إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المعتدين ) الاعتداء تجاوز الحد أى :لا يحب المتجاوزين حدودهم فى كل شىء ، ويدخل فيه الاعتداء فى الدعاء دخولا أوليا . ومن مظاهر الاعتداء فى الدعاء أن يترك هذهين الأمرين وهما التضرع والإخفاء كذلك من مظاهر الاعتداء فى الدعاء أن يتكلف فيه .روى أبو داود فى سننه أن ، سعد بن أبى وقاص سمع ابنا له يدعو ويقول : اللهم إنى أسألك الجنة ونعيمها وإستبرقها ونحوا من هذا ، وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها . فقال له يا بنى : إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنه سيكون قوم يعتدون فى الدعاء ثم قرا سعد هذه الآية ( ادعوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً

وَخُفْيَةً ) وإن يحسبك أن تقول : اللهم إنى أسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل ، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل " .

ولا تفسدوا في الارض بعد اصلاحها وادعوه خوفا وطمعا ان رحمت الله قريب من المحسنين

) : كما فسرها الوسيط ثم نهى الله عباده عن كل لون من ألوان المعاصى فقال وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأرض بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ) أى : لا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاح الله إياها ، بأن خلقها على أحسن نظام ، فالجملة الكريمة نهى عن سائر أنواعى الافساد كإفساد النفوس والأموال والأنساب والعقول والأديان .روى ابو الشيخ عن أبى بكر بن عياش أنه سئل عن قوله - تعالى - : ) وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأرض بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ) أى : لا تفسدوا فى الأرض بعد إصلا الله إياها ، بأن خلقها على أحسن نظام ، فالجملة الكريمة نهى عن سائر أنواع الافساد كإفساد النفوس والأموال والأنساب والعقول والأديان .روى أبو الشيخ عن أبى بكر عن عياش أنه سئل عن قوله - تعالى - : ) وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأرض بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ) فقال : إن الله بعث ، محمداً صلى الله عليه وسلم إلى أهل الأرض وهم فى فساد فأصلحهم الله به فمن دعا إلى خلاف ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فهو من المفسدين فى الأرض " .قال صاحب المنار : وقال - سبحانه - : ( وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأرض بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ) لأن الإفساد بعد الإصلاح أشد قبحاً من الإفساد على الإفساد ، فإن وجوه الإصلاح أكبر حجة على المفسد إذا هو لم يحفظه ويجرى على سننه .فكيف إذا هو أفسده وأخرجه عن وضعه؟ ولذا خص بالذكر وإلا فالإفساد مذموم ومنهى عنه فى كل حال " .وقوله : ( وادعوه خَوْفاً وَطَمَعاً ) .أصل الخوف : انزعاج فى الباطن يحصل من توقع أمر مكروه يقع فى المستقبل .والمعنى وادعوه خائفين من عقابه إياكم على مخالفتكم لأوامره ، طامعين فى رحمته : وإحسانه وفى إجابته لدعائكم تفضلا منه وكرما .قال الجمل : فإن قلت : قال فى أول الآية : ( ادعوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً ) وقال هنا : ( وادعوه خَوْفاً وَطَمَعاً ) وهذا عطف للشىء على نفسه فما فائدة ذلك؟ قلت : الفائدة أن المراد بقوله - تعالى - : ( ادعوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً ) بيان شرطين من شروط الدعاء وبقوله : ( ادعوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً ) وقال هنا : ( وادعوه خَوْفاً وَطَمَعاً ) بيان شرطين آخرين ، والمعنى : كونوا جامعين فى أنفسكم بين الخوف والرجاء فى أعمالكم ولا تطمعوا أنكم وفيتم حق الله فى العبادة والدعاء وإن اجتهدتم فيهما " .وقوله : ( إِنَّ رَحْمَتَ الله قَرِيبٌ مِّنَ المحسنين ) أى إن رحمته - تعالى - وإنعامه على عباده قريب من المتقنين لأعمالهم ، المخلصين فيهما ، لأن الجزاء من جنس العمل ، فمن أحسن عبادته نال عليها الثواب الجزيل ، ومن أحسن فى أمور دنياه كان أهلا للنجاح فى مسعاه ، ومن أحسن فى دعائه كان جديراً بالقبول والإجابة .قال الشيخ القاسمى : وفى الآية الكريمة ترجيح للطمع على الخوف ، لأن المؤمن بين الرجاء والخوف ، ولكنه إذا رأى سعة رحمته - سبحانه - وسبقها ، غلب الرجاء عليه . وفيها تنبيه على ما يتوسل به إلى الإجابة وهو الاحسان فى القول والعمل .قال مطر الوراق : استنجزوا موعود " الله بطاعته ، فإنه قضى أن رحمته قريب من المحسنين " .هذا ، وكلمة " قريب " وقعت خبراً للرحمة ، ومن قواعد النحو أن يكون الخبر مطابقا للمبتدأ فى التذكير والتأنيث ، فكان مقتضى هذه القواعد أن يقال إن رحمة الله قريبة . وقد ذكر العلماء فى تعليل ذلك بضعة عشر وجها ، منها أن تذكير " قريب " صفة لمحذوف أى أمر قريب ، أو لأن كلمة الرحمة مؤنثة تأنيثا مجازيا ، فجاز فى خبرها التذكير والتأنيث أو لأن الرحمة هنا بمعنى الثواب وهو مذكر فيكون تذكير قريب باعتبار ذلك وقيل غير ذلك مما لا مجال لذكره هنا .وبعد أن بيّن - سبحانه - أنه هو الخالق للسموات والأرض ، وأنه هو المتصرف الحاكم المدبر المسخر ، وأن رحمته قريبة من المحسنين الذين يكثرون من التضرع إليه بخشوع وإخلاص .

وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى اذا اقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فانزلنا به الماء فاخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون

كما فسرها الوسيط بعد كل ذلك تحدث - سبحانه - عن بعض مظاهر رحمته التى تتجلى فى إرسال الرياح ، وإنزال المطر ، وعن بعض مظاهر قدرته التى تتجلى فى بعث الموتى للحساب ، وفى هداية من يريد هدايته وإضلال من يريد ضلالته فقال - تعالى - : ( وَهُوَ الذي يُرْسِلُ . . . ) .قوله - تعالى - : ) وَهُوَ الذي يُرْسِلُ الرياح بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ) معطوف على ما سبق من قوله - تعالى - : ( إِنَّ رَبَّكُمُ الله الذي خَلَقَ السماوات والأرض ) لبيان مظاهر قدرته ورحمته . وقرأ حمزة والكسائى " الريح " بالافراد :و ( بُشْراً ) - بضم الباس فسكون الشين - مخفف و ( بُشُراً )

بضمتين - جمع بشير كنذر ونذير ، أى : مبشرات بنزول الغيث المستتبع لمنفعة
- الخلق .وقرأ أهل المدينة والبصرة " نشرا " - بضم النون والشين - جمع نشور
كصبور وصبر - بمعنى ناشر من النشر ضد الطى ، وفعول بمعنى فاعل يطرد جمعه
وهناك قراءات أخرى غير ذلك .والمعنى وهو - سبحانه - الذى يرسل الرياح.
مبشرات عباده بقرب نزول الغيث الذى به حياة الناس .وقوله : ( بَيْنَ يَدَيْ
رَحْمَتِهِ ) أى بين يدى المطر الذي هو من أبرز مظاهر رحمة الله بعباده
قال تعالى : ( وَهُوَ الذي يُنَزِّلُ الغيث مِن بَعْدِ مَا قَنَطُواْ.
وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الولي الحميد ) وقال تعالى : ( وَمِنْ
: آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرياح مُبَشِّرَاتٍ ) قال الإمام الرازى : وقوله
من أحسن أنواع المجاز ، والسبب فى ذلك أن ( بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ )
اليدين يستعملهما العرب فى معنى التقدمة على سبيل المجاز . يقال : إن الفتن
تحصل بين يدى الساعة يريدون قبيلها ، كذلك مما حسن هذا المجاز أن يدى
الإنسان متقدمة ، فكل ما كان يتقدم شيئا يطلق عليه لفظ اليدين على سبيل
المجاز لأجل هذه المشابهة ، فلما كانت الرياح تتقدم المطر ، لا جرم عبر عنه
بهذا اللفظ .وقوله : ( حتى إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ
. لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ ) حتى : غاية لقوله : ( يُرْسِلُ ) . وأقلت : أى حملت
وحقيقة أقله وجده قليلا ثم استعمل بمعنى حمله . لأن الحامل لشىء يستقل ما
يحمله بزعم أنه ما يحمله قليل .و ( سَحَاباً ) أى : غيما ، سمى بذلك
لانسحابه فى الهواء ، وهو اسم جنس جمعى يفرق بينه وبين واحده بالتاء كتمر
وتمرة ، وهو يذكر ويؤنث ويفرد وصفه ويجمع .و ( ثِقَالاً ) جمع ثقيلة من
الثقل - كعنب - ضد الخفة . يقال : ثقل الشىء - ككرم - ثقال وثقالة فهو ثقيل
وهى ثقيلة .والمعنى : أن الله - تعالى - هو الذى يرسل الرياح مبشرات بنزول
، الغيث ، حتى إذا حملت الرياح سحابا ثقالا من كثرة ما فيها من الماء
، سقناه - أى السحاب إلى " بلد ميت " أى إلى أرض لا نبات فيها ولا مرعى
فاهتزت وربت وأخرجت النبات والمرعة . فأطلق - سبحانه - الموت على الأرض
التى لا نبات فيها ، وأطلق الحياة على الأرض الزاخرة بالنبات والمرعى لأن
حياتها بذلك .قال - تعالى - : ( والله الذي أَرْسَلَ الرياح فَتُثِيرُ
سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إلى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأرض بَعْدَ
: مَوْتِهَا كَذَلِكَ النشور )وقوله : (فَأَنْزَلْنَا بِهِ المآء ) أى
فأنزلنا فى هذا البلد الميت الماء الذى يحمله السحاب . فالباء فى ( بِهِ )
للظرفية .وقيل إن الضمير فى ( بِهِ ) للسحاب ، أى : فأنزلنا بالسحاب الماء
وعليه فتكون الباء للسببية .وقوله : ( فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ
الثمرات ) أى : فأخرجنا بهذا الماء من كل أنواع الثمرات المعتادة فى كل بلد
تخرج به على الوجه الذى أجرى الله العادة بها ودبرها .فليس المراد أن كل
بلد ميت تخرج منه أنواع الثمار التى خلقها الله ، متى نزل به الماء ، وإنما
المراد أن كل بلد تخرج منه الثمار التى تناسب تربته على حسب مشيئة الله
وفضله وإحسانه ، إذ من المشاهد أن البلاد تختلف أرضها فيما تخرجه ، وهذا
أدل على قدرة الله ، وواسع رحمته .وقوله : ( كَذلك نُخْرِجُ الموتى
لَعَلّكُمْ تَذَكَّرُونَ ) إشارة إلى إخراج الثمرات ، أو إلى إحياء البلد
الميت .أى : مثل ما أحيينا الأرض بعد موتها وجعلناها زاخرة بأنواع الثمرات
بسبب نزول الماء عليها ، نخرج الموتى من الأرض ونبعثهم أحياء فى اليوم
الآخر لنحاسبهم على أعمالهم ، فالتشبيه فى مطلق الإخراج من العدم . وهذا رد
على منكرى البعث بدليل ملزم ، لأن من قدر على إخراج النبات من الأرض بعد
) : نزول الماء عليها ، قادر - أيضا - على إخراج الموتى من قبورهم .وقوله
: لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ) تذييل قصد به الحث على التدبر والتفكر ، أى
لعلكم تذكرون وتعتبرون بما وصفنا لكم فيزول إنكاركم للبعث والحساب .قال
الشيخ القاسمى : " من أحكام الآية كما قال الجشمى : أنها تدل على على عظم
نعمة الله علينا بالمطر ، وتدل على الحجاج فى إحياء الموتى بإحياء الارض
بالنبات وتدل على أنه أراد من الجميع التذكر ، وتدل على أنه أجرى العادة
بإخراج النبات بالماء . وإلا فهو قادر على إخراجه من غير ماء فأجرى العادة
" . . . على وجوه دبرها عليها على ما نشاهده ، لضرب من المصلحة دينا ودنيا
.

والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه والذي خبث لا يخرج الا نكدا كذلك نصرف
الايات لقوم يشكرون

كما فسرها الوسيط ثم ضرب - سبحانه - مثلا لاختلاف استعداد البشر للخير
والشر فقال : ( والبلد الطيب . . ) .( والبلد الطيب يَخْرُجُ نَبَاتُهُ
: بِإِذْنِ رَبِّهِ والذي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً ) .أصل النكد
العسر القليل الذى لا يخرج إلا بعناء ومشقة . يقال : نكد عيشه ينكد ، اشتد
. وعسر . ونكدت البئر : قل ماؤها ، ومنه : رجل نكد ، ونكد وأنكد ، شؤم عسر
وهم أنكاد ومناكيد .وقال فى اللسان : والنكد : قلة العطاء ، قال الشاعر لا
تنجز الوعد إن وعدت وإن ... أعطيت ، أعطيت تافها نكدا أى : عطاء قليلا لا
جدوى منه .والمعنى : أن الأرض الكريمة التربة يخرج نباتها وافيا حسنا غزير

النفع بمشيئة الله وتيسيره ، والذى خبث من الأرض كالسبخة منها لا يخرج
نباته إلا قليلا عديم الفائدة .فالأول : مثل ضربه الله للمؤمن يقول : هو
طيب وعمله طيب .والثانى : مثل للكافر ، يقول : هو خبيث وعمله خبيث ، وفيهما
بيان أن القرآن يثمر فى القلوب التى تشبه الأرض الطيبة التربة ، ولا يثمر
فى القلوب التى تشبه الأرض الرديئة السبخة .ونكدا منصوب على أنه حال أو على
أنه نعت لمصدر محذوف والتقدير : والذى خبث لا يخرج إلا خروجا نكدا .قال
صاحب الكشاف : " وهذا مثل لمن ينجح فيه الوعظ والتذكير من المكلفين ، ولمن
لا يؤثر فيه شىء من ذلك . وعن مجاهد : آدم وذريته منهم خبيث وطيب . وعن
قتادة : المؤمن سمع كتاب الله فوعاه بعقله وانتفع به ، كالأرض الطيبة
أصابها الغيث فأنبتت . والكافر بخلاف ذلك . وهذا التمثيل واقع على أثر ذكر
المطر . وإنزاله بالبلد الميت ، وإخراج الثمرات به على طريق الاستطراد
وقريب من معنى الآية الكريمة ما رواه الشيخان عن أبى موسى قال : قال رسول"
الله صلى الله عليه وسلم :" مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل
الغيث الكثير أصاب أرضا ، فكانت منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب
الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا
، وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ
فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعلم ، ومثل من
لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به " .وقوله : ( كذلك
نُصَرِّفُ الآيات لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ) أصل التصريف : تبديل حال بحال
ومنه تصريف الرياح . والآيات : الدلائل الدالة على قدرة الله .أى : مثل ذلك
التصريف البديع والتنويع الحكيم نصرف الايات الدالة على علمنا وحكمتنا
ورحمتنا بالإتيان بها على أنواع جلية واضحة لقوم يشكرون نعمنا ، باستعمالها
فيما خلقت له ، فيستحقون مزيدنا منها وإثابتنا عليها .وعبر هنا بالشكر لأن
هذه الآية موضوعها الاهتداء بالعلم والعمل والإرشاد ، بينما عبر فى الآية
السابقة عليها بالتذكر لأن موضوعها يتعلق بالاعتبار والاستدلال على قدرة
- الله - تعالى - فى إحياء الموتى .وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد حدثتنا
من بين ما حدثتنا - عن عظمة القرآن الكريم وعن وجوب اتباعه ، وعن قصة آدم
وما فيها من عبر وعظات ، وعما أحله الله وحرمه ، وعما يدور بين أهل النار
من مجادلات واتهامات ، وعن العاقبة الطيبة التى أعدها الله للصالحين من
عباده ، وعن المحاورات التى تدور بيهم وبين أهل النار ، ثم عن مظاهر قدرة
الله ، وأدلى وحدانيته .وبعد كل ذلك تبدأ السورة جولة جديدة مع الأمم
الخالية ، والقرى المهلكة التى جاء ذكرها فى مطلعها ( وَكَم مِّن قَرْيَةٍ
( أَهْلَكْنَاهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ
فتحدثنا السورة الكريمة عن مصارع قوم نوح ، وقوم هود ، وقوم صالح ، وقوم
لوط ، وقوم شعيب ، ثم حديثا مستفيضا عن قصة موسى مع فرعون ومع بنى إسرائل
وقد تكلم الإمام الرازى عن فوائد مجىء قصص هؤلاء الأنبياء مع أقوامهم فى.
هذه السورة بعد أن تحدثت عن أدلة توحيده وربوبيته - سبحانه - فقال : اعلم
أنه - تعالى - لما ذكر فى تقرير المبدأ والمعاد دلائل ظاهرة ، وبينات قاهرة
وبراهين باهرة أتبعها بذكر قصص الأنبياء وفيه فوائد :أحدها : التنبيه على ،
أن إعراض الناس عن قبول هذه الدلائل والبينات . ليس من خواص قوم النبى صلى
، الله عليه وسلم بل هذه العادة المذمومة كانت حاصلة فى جميع الأمم السالفة
والمصيبة إذا عمت خفت ، فكان ذكر قصصهم ، وحكاية إصرارهم وعنادهم ، يفيد
- تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وتخفيف ذلك على قلبه .ثانيها : أنه
تعالى - يحكى فى هذه القصص أن عاقبة أمر أولئك المنكرين كان إلى اللعن فى
، الدنيا ، والخسارة فى الآخرة ، وعاقبة أمر المحقين إلى الدولة فى الدنيا
والسعادة فى الآخرة ، وذلك يقوى قلوب المحقين ، ويكسر قلوب المبطلين
وثالثها : التنبيه على أنه - تعالى - وإن كان يمهل هؤلاء المبطلين ، ولكنه.
لا يهملهم ، بل ينتقم منهم على أكمل الوجوه .ورابعها : بيان أن هذه القصص
دالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لأنه كان أمياً . وما طالع كتاباً
ولا تتلمذ على أستاذ . فإذا ذكر هذه القصص على هذا الوجه من غير تحريف ولا
. " - خطأ دل ذلك على أنه إنما عرفها بالوحى من الله - تعالى

لقد ارسلنا نوحا الى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره اني
اخاف عليكم عذاب يوم عظيم

كما فسرها الوسيط والآن فلنستمع بتدبر واعتبار إلى السورة الكريمة وهى
تحدثنا عن قصة نوح مع قومه فتقول : ( لَقَدْ أَرْسَلْنَا . . ) .تلك هى قصة
نوح مع قومه كماوردت فى هذه السورة ، وقد وردت بصورة أكثر تفصيلا فى سورة
هود ، والمؤمنون ، ونوح وغيرها .وقوله : ( لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إلى
قَوْمِهِ ) جواب قسم محذوف ، أى : والله لقد أرسلنا نوحا إلى قومه والدليل
على هذا القسم وجود لامه فى بدء الجملة .قال الآلوسى : " واطرد استعال هذه
. اللام مع قد فى الماضى - على ما قال الزمخشري - وقل الاكتفاء بها وحدها
والسر فى ذلك أن الجملة القسمية لا تساق إلا تأكيدا للجملة المقسم عليها
التى هي جوابها ، فكانت مظنة لتوقع المخاطب حصول المقسم عليه ، لأن القسم

دل على الاهتمام فناسب ذلك إدخال قد " .وينتهى نسب نوح - عليه السلام - إلى
شيث بن آدم - عليه السلام - وقد ذكر نوح فى القرآن فى ثلاث وأربعين موضعا
وقوم الرجل أقرباؤه الذين يجتمعون معه فى جد واحد . وقد يقيم الرجل بين
الأجانب فيسميهم قومه مجازا للمجاورة .وكان قوم نوح يعبدون الأصنام فأرسل
الله إليهم نوحا ليدلهم على طريق الرشاد . قال ابن كثير : قال عبد الله بن
عباس وغير واحد من علماء التفسير : كان أول ما عبدت الأصنام أن قوما صالحين
ماتوا ، فبنى قومهم عليهم مساجد ، وصوروا صور أولئك الصالحين فيها ليتذكروا
حالهم وعبادتهم فيتشبهوا بهم ، فلما طال الزمان جعلوا أجسادا على تلك الصور
: فلما تمادى الزمان عبدوا تلك الأصنام وسموها بأسماء أولئك الصالحين ،
وداً وسواعاً ويغوث ويعوق ونسرا فلما تفاقم الأمر بعث الله - تعالى - رسوله
نوحا فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له " .وقوله : ( فَقَالَ يَاقَوْمِ
اعبدوا الله مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ ) حكاية لما وجهه نوح لقومه من
إرشادات ، أى : قال لهم بتلطف وأدب تلك الكلمة التى وجهها كل رسول لمن أرسل
إليهم : اعبدوا الله وحده لا شريك له ، فإنه هو المستحق للعبادة ، أما سواه
فلا يملك نفعا أو ضرا .وكلمة ( غَيْرُهُ ) قرئت بالحركات الثلاث ، بالرفع
. على أنها صفة لإله باعتبار محله الذى هو الرفع على الابتداء أو الفاعلية
وقرأ الكسائى بالجر باعتبار اللفظ ، وقرىء بالنصب على الاستثناء بمعنى ، ما
لكم من إله إلا إياه .ثم حكى القرآن أن نوحا حذر قومه من سوء عاقبة التكذيب
وأظهر لهم شفقته بهم وخوفه عليهم فقال : ( إني أَخَافُ عَلَيْكُمْ ،
عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ) أى : إنى أخاف عليكم إذا ما سرتم فى طريق الكفر
والضلال وتركتم عبادة الله وحده عذاب يوم عظيم ، ووصف اليوم بالعظم لبيان
عظم ما يقع فيه ولتكميل الإنذار .قال صاحب الكشاف : فإن قلت ما موقع
الجملتين بع قوله : ( اعبدوا الله ) قلت : الأولى - وهى ما لكم من إله
- غيره - بيان لوجه اختصاصه بالعبادة ، والثانية وهى - إنى أخاف .. . إلخ
بيان الداعى إلى عبادته لأنه هو المحذور عقابه دون ما كانوا يعبدونه من دون
الله . واليوم العظيم : يوم القيامة ، أو يوم نزول العذاب بهم وهو الطوفان
" .

قال الملا من قومه انا لنراك في ضلال مبين

كما فسرها الوسيط بهذا الأسلوب المقنع المهذب دعا نوح قومه إلى وحدانية
: الله . فكيف كان ردهم عليه؟ لقد ردوا عليه ردا سقيما حكاه القرآن فى قوله
( قَالَ الملأ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ )
الملأ : الأشراف والسادة من القوم . سموا بذلك لأنهم يملأون العيون مهابة.
: وقيل : هم الرجال ليس فيهم نساء . والملأ : اسم جمع لا واحد له من لفظه .
كرهط .والجملة الكريمة مستأنفة ، كأنه قيل فماذا قالوا له؟ فقيل : قال
الملأ . . . إلخ والرؤية هنا قلبية ومفعولاها الضمير والظرف ، وقيل : بصرية
فيكون الظرف فى موضع الحال . أى : قال الأشراف من قوم نوح له عندما دعاهم
إلى وحدانية الله : إنا لنراك بأمرك لنا بعبادة الله وحده وترك آلهتنا فى
انحراف بين عن طريق الحق والرشاد .يقال : ضل الطريق يضل وضل عنه ضلالا
وضلالة ، أى زل عنه فلم يهتدوا إليه ، وجعلوا الضلال ظرفا له ( فِي ضَلاَلٍ
مُّبِينٍ ) مبالغة فى وصفهم له وزادوا فى المبالغة بأن أكدوا ذلك بالجملة
المصدرة بإن ولام التأكيد .ورحم الله ابن كثير فقد قال عند تفسيره لهذه
- الآية . وهكذا حال الفجار ، إنما يرون الأبرار فى ضلالة ، كقوله - تعالى
وَقَالَ الذين ) ( وَإِذَا رَأَوْهُمْ قالوا إِنَّ هؤلاء لَضَالُّونَ ) :
كَفَرُواْ لِلَّذِينَ آمَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَآ
إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِ فَسَيَقُولُونَ هاذآ إِفْكٌ قَدِيمٌ
. إلى غير ذلك من الآيات )

قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين

كما فسرها الوسيط ويرد نوح على قومه بأسلوب عف مهذب ، فينفى عن نفسه
- الضلالة ، ويكشف لهم عن حقيقة دعوته ومصدرها فيقول - كما حكى القرآن عنه
أى : قال نوح لقومه مستميلا ( قَالَ يَاقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ ):
لقلوبهم : يا قوم ليس بى أدنى شىء مما يسمى بالضلال فضلا عن الضلال المبين
الذى رميتمونى به ، فقد نفى الضلال عن نفسه الكريمة على أبلغ وجه ، لأن
، التاء فى - ضلالة - للمرة الواحدة منه ، ونفى الأدنى أبلغ من نفى الأعلى
والمقام يقتضى ذلك ، لأنهم لما بالغوا فى رميه بالضلال المبين ، رد عليهم
بما يبرئه من أى لونه من ألوانه . وفى تقديم الظرف ( بي ) تعريض بأنهم هم
. فى ضلال واضح

ابلغكم رسالات ربي وانصح لكم واعلم من الله ما لا تعلمون

كما فسرها الوسيط ثم قفى على نفى الضلالة عنه بإثبات مقابلها لنفسه وهى

الهداية والتبليغ عن الله - تعالى - فقال : ( وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن
رَّبِّ العالمين أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ
وَأَعْلَمُ مِنَ الله مَا لاَ تَعْلَمُونَ ) .فأنت ترى أن نوحا - عليه
السلام - بعد أن نفى عن نفسه أى لون من ألوان الضلالة وصف نفسه بأربع صفات
: كريمة :أولها : قوله : ( وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ العالمين ) أى
لست بمنجاة من الضلال الذى أنتم فيه فحسب ، ولكنى فضلا عن ذلك رسول من رب
) : العالمين إليكم لهدايتكم وإنقاذكم مما أنتم فيه من شرك وكفر .قال الجمل
وقد جاءت لكن هنا أحسن مجىء لأنها ين نقيضين ، لأن الإنسان لا يخلو من أحد
شيئين : ضلال أو هدى ، والرسالة لا تجامع الضلال و ( مِّن رَّبِّ العالمين
صفة لرسول ومن لابتداء الغاية ) .وثانيها : قوله : ( أُبَلِّغُكُمْ (
، رِسَالاَتِ رَبِّي ) أى : أبلغكم ما أوحاه الله إلى من الأوامر والنواهى
والمواعظ والزواجر ، والبشائر والنذائر ، والعبادات والمعاملات .قال
الآلوسى : وجمع الرسالات مع أن رسالة كل نبى واحدة ، رعاية لاختلاف أوقاتها
أو تنوع معانى ما أرسل - عليه السلام - به من العبادات والمعاملات - أو أنه
- أراد رسالته ورسالة غيره ممن قبله من الأنبياء كإدريس - عليه السلام
) : والجملة الكريمة مستأنفة لتقرير رسالته وتقرير أحكامها .وثالثها : قوله
وَأَنصَحُ لَكُمْ ) أى : أبلغكم جميع تكاليف الله وأتحرى ما فيه صلاحكم
وخيركم فأرشدكم إليه وآخذكم نحوه .وأنصح : مأخوذ من النصح - وهو كما قال
القرطبى - إخلاص النية من شوائب الفساد ، يقال : نصحته ونصحت له نصيحة
ونصاحة - أى أرشدته إلى ما فيه صلاحه - ويقال : رجل ناصح الجيب ، أى : نقى
القلب . والناصح الخالص من العسل وغيره ، مثل الناصع . وكل شىء خلص فقد نصح
والفرق بين تبليغ الرسالة وبين النصح ، هو أن تبليغ الرسالة معناه أن.
يعرفهم جميع أوامر الله ونواهيه وجميع أنواع التكاليف التى كلفهم الله بها
وأما النصح فمعناه أن يرغبهم فى قبول تلك الأوامر والنواهى والعبادات ،
ويحذرهم من عذاب الله إن عصوه .وأما الصفة الرابعة فهى قوله : ( وَأَعْلَمُ
مِنَ الله مَا لاَ تَعْلَمُونَ ) أى : أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم عن
إخلاص ، وأعلم فى الوقت نفسه من الأمور الغيبية التى لا تعلم إلا عن طريق
الوحى أشياء لا علم لكم بها ، لأن الله قد خصنى بها .أو المعنى : وأعلم من
قدرة الله الباهرة ، وشدة بطشه على أعدائه ، ما لا تعلمونه فأنا أحذركم عن
علم ، وأنذركم عن بينة ( فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ ) قال ابن كثير : وهذا
شأن الرسول أن يكون مبلغا نصيحاً عالماً بالله لا يدركه أحد من خلق الله فى
هذه الصفات كما جاء فى صحيح مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال
لأصحابه يوم عرفة وهم أوفر ما كانوا وأكثر جمعاً : " أيها الناس ، إنكم
. مسئولون عنى ، فما أنتم قائلون؟ قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت
فجعل يرفع إصبعه إلى السماء وينكسها عليهم ، ويقول : اللهم اشهد ، اللهم
. " اشهد

اوعجبتم ان جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون

كما فسرها الوسيط وبعد أن وصف نوح نفسه بتلك الصفات الأربع ، وبين لهم
): وظيفته أكمل بيان أخذ ينكر عليهم استبعادهم أن يخصه الله بالنبوة فقال
أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ على رَجُلٍ
( مِّنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ
الهمزة فى أول الجملة للاستفهام الإنكارى ، والواو بعدها للعطف على محذوف
مقدر بعد الهمزة .والمعنى : أكذبتم وعجبتم من أن جاءكم ذكر أى موعظة من
ربكم وخالقكم على لسان رجل من جنسكم ، تعرفون مولده ونشأته .ولقد حكى
- القرآن عن قوم نوح أنهم عجبوا من أن يختار الله رسولا منهم ، قال - تعالى
فَقَالَ الملأ الذين كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ مَا هذا إِلاَّ بَشَرٌ ):
مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ الله
: لأَنزَلَ مَلاَئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بهذا في آبَآئِنَا الأولين ) .وقوله
علة للمجىء ، أى : وليحذركم العذاب والعقاب على الكفر ( لِيُنذِرَكُمْ )
والمعاصى .وقوله : ( وَلِتَتَّقُواْ ) علة ثانية مرتبة على العلة التى
قبلها ، أى : ولتوجد منكم التقوى ، وهى الخشية من الله بسبب الإنذار .وقوله
: علة ثالثة مترتبة على التى قبلها . أى ( وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ) :
ولترحموا بسبب التقوى إن وجدت منكم .قال بعض العلماء : وهذا الترتيب فى
غاية الحسن ، لأن المقصود من الإرسال الإنذار ، ومن الإنذار التقوى . ومن
التقوى الفوز بالرحمة .وفائدة حرف الترجى ( وَلَعَلَّكُمْ ) التنبيه على
عزة المطلب ، وأن التقوى غير موجبة للرحمة ، بل هى منوطة بفضل الله ، وأن
المتقى ينبغى ألا يعتمد على تقواه ولا يأمن عذاب الله " .وإلى هنا نكون قد
عرفنا أسلوب نوح فى دعوته كما جاء فى هذه السورة الكريمة ، فماذا كان موقف
قومه؟

فكذبوه فانجيناه والذين معه في الفلك واغرقنا الذين كذبوا باياتنا انهم
كانوا قوما عمين

كما فسرها الوسيط لقد صرحت السورة الكريمة بأن موقفهم كان قبيحا ، ولذا
عوقبوا بما يناسب جرمهم قال - تعالى - : ( فَكَذَّبُوهُ ) أى : فكذب قوم
نوح نبيهم ومرشدهم نوحا ، وأصروا على التكذيب مع أنه دعاهم إلى الهدى ليلا
" ونهاراً ، وسراً وجهاراً ، ومع أنه مكث فيهم " ألف سنة إلا خمسين عاما
كانت نتيجة ذلك - كما حكى القرآن :( فَأَنجَيْنَاهُ والذين مَعَهُ فِي
الفلك ) أى : فأنجيناه من الغرق هو والذين آمنوا معه بأن حملناهم فى
السفينة التى صنعها . والفاء فى ( فَأَنجَيْنَاهُ ) للسببية .قيل كان عدد
الذين آمنوا معه أربعين رجلا وأربعين امرأة . وقيل غير ذلك . والقرآن قد
صرح بأن المؤمنين به كانوا قلة ، فقال : ( وَمَآ آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ
قَلِيلٌ ) ( وَأَغْرَقْنَا الذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَآ إِنَّهُمْ
- كَانُواْ قَوْماً عَمِينَ ) عمين : جمع عم صفة مشبهة ، يقال : هو عم
كفرح - لأعمى البصيرة .أى : وأغرقنا بالطوفان أولئك الذين كذبوا بآياتنا من
قوم نوح لأنهم كانوا قوماً عمى البصائر عن الحق والإيمان لا تنفع فيهم
. المواعظ ولم يجد معهم التذكير

والى عاد اخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره افلا تتقون

، كما فسرها الوسيط وهذه سنة الله فى خلقه أن جعل حسن العاقبة للمؤمنين
وسوء العذاب للجاحدين . ثم تحكى لنا السورة بعد ذلك قصة هود - عليه
السلام - مع قومه ، فيقول الله - تعالى - : ( وإلى عَادٍ . . . . ) .تلك هى
- قصة هود - عليه السلام - مع قومه كما حكتها سورة الأعراف . وقد وردت
أيضاً - فى سورة أخرى ، منها : سورة هود ، والشعراء ، والأحقاف . . . إلخ
وينتهى نسب هود إلى نوح - عليهما السلام - كما قال بعض المؤرخين . فهو هود.
بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح .وقومه
هم قبيلة عاد - نسبة إلى أبيهم الذى كان يسمى بهذا الاسم - وكانت مساكنهم
بالأحقاف جمع حقف وهو الرمل الكثير المائل .وكانوا يعبدون الأصنام من دون
- الله ، فأرسل الله إليهم هوداً لهدايتهم ، ويقال بأن هوداً - عليه السلام
قد أرسله الله إلى عاد الأولى ، أما عاد الثاني فهم قوم صالح ، وبينهما
مائة سنة .وقوله : ( وإلى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَاقَوْمِ اعبدوا
) :- الله مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ ) إلخ معطوف على قوله - تعالى
لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إلى قَوْمِهِ ) والمعنى :وأرسلنا إلى قبيلة عاد
أخاهم فقال لهم ما قاله كل نبى لقومه : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله
غيره .ووصفه بأنه أخاهم لأنه من قبيلتهم نسباً ، أو لأنه أخوهم فى
، الإنسانية ، ثم حكى القرآن أن هوداً أنكر على قومه عبادتهم لغير الله
وحضهم على إفراده بالعبادة فقال : ( أَفَلاَ تَتَّقُونَ ) استعطاف وتحضيض
على تحصيل التقوى . ولما كان ما حل بقوم نوح من أمر الطوفان واقعة لم يظهر
فى العالم مثلها قال لهم : ( إني أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ
عَظِيمٍ ) وواقعة هود كانت مسبوقة بواقعة نوح وعهد الناس قريب بها فاكتفى
هود بقوله لهم : ( أَفَلاَ تَتَّقُونَ ) . والمعنى تعرفون أن قوم نوح لما
، لم يتقوا الله وعبدوا غيره حل بهم ذلك العذاب الذى اشتهر خبره فى الدنيا
" فقوله : ( أَفَلاَ تَتَّقُونَ ) إشارة إلى التخويف بتلك الواقعة المشهورة
.

قال الملا الذين كفروا من قومه انا لنراك في سفاهة وانا لنظنك من الكاذبين

كما فسرها الوسيط وكأنما عظم على هؤلاء الطغاة أن يستنكر عليهم هود - عليه
): السلام - عبادتهم لغير الله ، فردوا عليه ردا قبيحا حكاه القرآن فى قوله
قَالَ الملأ الذين كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ
أى : قال الأغنياء الذين كفروا من قوم هود له : إنه لنراك متمكنا فى خفة (
العقل ، راسخا فيها ، حيث هجرت دين قومك إلى دين آخر . وجعلت السفاهة ظرفاً
على طريق المجاز ، فقد أرادوا أنه متمكن فيها ، غير منفك عنها .وأصل السفه
الخفة والرقة والتحرك والاضطراب ، يقال : ثوب سفيه إذا كان ردىء النسج :
: خفيفه ، أو كان باليا رقيقاً : تسفهت الريح الشجر : مالت به . وزمام سفيه
كثير الاضطراب لمنازعة الناقة إياه . وشاع السفه فى خفة العقل وضعف الرأى
ولم يكتفوا بوصفه بالسفه بل أضافوا إلى ذلك قولهم : ( وإِنَّا.
لَنَظُنُّكَ مِنَ الكاذبين ) أى : وإنا لنظنك من الكاذبين فى دعوى التبليغ
عن الله تعالى .وأكدوا ظنهم الآثم كما أكدوا اتهامهم له بالسفه مبالغة منهم
فى الإساءة إليه . ويرجح بعض العلماء أن الظن هنا على حقيقته ، لأنهم لو
، قالوا وإنا لنعتقد أنك من الكاذبين ، لكانوا كاذبين على أنفسهم فى ذلك
لأنهم يعلمون منه الصدق وحسن السيرة .ومن بلاغة القرآن وإنصافه فى أحكامه
أنه قيد القائلين لهود هذا القول الباطل بأنهم " الملأ الذين كفروا من قومه
. ليخرج منهم الملأ - أى الأشراف الذين آمنوا من قومه "

قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين

كما فسرها الوسيط وبعد هذا الرد القبيح منهم ، أخذ هود يدافع عن نفسه ويبين لهم وظيفته بأسلوب حكيم فقال : ( يَاقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ ) أى : ليس بى أى نوع من أنواع السفاهة كما تزعمون ( وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ العالمين أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ) .فأنت ترى أن هودا فى هذا الرد الحكيم على قومه ، قد نفى عن نفسه تهمة السفاهة كما نفى أخوه نوح من قبله عن نفسه تهمة الضلالة ، ثم بين لهم بعد ذلك وظيفته وطبيعة رسالته ، ثم أخبرهم بعد ذلك بمقتضى أخوته لهم ليس معقولا أن يكذب عليهم أو يخدعهم - فإن الرائد لا يكذب أهله - ، وإنما هو ناصح أمين يهديهم إلى ما يصلحهم ويبعدهم عما يسوءهم :قال صاحب الكشاف : " وفى إجابة الأنبياء - عليهم السلام - على من نسبهم إلى الضلالة والسفاهة بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحلم والاغضاء ، وترك المقابلة بما قالوا لهم ، مع علمهم بأن خصومهم أضل الناس وأسفههم - فى إجابتهم هذه أدب حسن ، وخلق عظيم ، وحكاية الله - عز وجل - ذلك ، تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء ، وكيف يغضون عنهم ويسلبون أذيالهم على ما يكون منهم " .

ابلغكم رسالات ربي وانا لكم ناصح امين

`<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html} كما فسرها الوسيط

وبعد هذا الرد القبيح منهم ، أخذ هود يدافع عن نفسه ويبين لهم وظيفته بأسلوب حكيم فقال : ( يَاقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ ) أى : ليس بى أى نوع من أنواع السفاهة كما تزعمون ( وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ العالمين أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ) .فأنت ترى أن هودا فى هذا الرد الحكيم على قومه ، قد نفى عن نفسه تهمة السفاهة كما نفى أخوه نوح من قبله عن نفسه تهمة الضلالة ، ثم بين لهم بعد ذلك وظيفته وطبيعة رسالته ، ثم أخبرهم بعد ذلك بمقتضى أخوته لهم ليس معقولا أن يكذب عليهم أو يخدعهم - فإن الرائد لا يكذب أهله - ، وإنما هو ناصح أمين يهديهم إلى ما يصلحهم ويبعدهم عما يسوءهم :قال صاحب الكشاف : " وفى إجابة الأنبياء - عليهم السلام - على من نسبهم إلى الضلالة والسفاهة بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحلم والاغضاء ، وترك المقابلة بما قالوا لهم ، مع علمهم بأن خصومهم أضل الناس وأسفههم - فى إجابتهم هذه أدب حسن ، وخلق عظيم ، وحكاية الله - عز وجل - ذلك ، تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء ، وكيف يغضون عنهم ويسلبون أذيالهم على ما يكون منهم " .

اوعجبتم ان جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة فاذكروا الاء الله لعلكم تفلحون

كما فسرها الوسيط ونلمس من خلال التعبير القرآنى أن قوم هود قد تعجبوا من اختصاص هود بالرسالة كما تعجب قوم نوح من قبلهم من ذلك ، فأخذ هود - عليه السلام - فى إزالة هذا العجب من نفوسهم ، فقال :( أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ على رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ) أى : أكذبتم وعجبتم من أن جاءكم ذكر وموعظة من ربكم على لسان رجل منكم تعرفون صدقه ونسبه وحسبه ، إن ما عجبتم له ليس موقع عجب ، بل هو عين الحكمة فقد اقتضت رحمة الله أن يرسل لعباده من بينهم من يرشدهم إلى الطريق القويم و الله أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ) ثم أخذ فى تذكيرهم بواقعهم الذى يعيشون فيه لكى يحملهم على شكر الله فقال :( واذكروا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ) أى : اذكروا بتأمل واعتبار فضل الله عليكم ونعمه حيث جعلكم مستخلفين فى الأرض من بعد قوم نوح الذين أغرقوا بالطوفان لكفرهم وجحودهم .قال الآلوسى ما ملخصه : و " إذا " منصوب على المفعولية لقوله : ( واذكروا ) أى : اذكروا هذا الوقت المشتمل على النعم الجسام . وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت دون ما وقع فيه مع أنه المقصود بالذات للمبالغة فى إيجاب ذكره ، ولأنه إذا استحضر الوقت كان هو حاضرا بتفاصيله . وهو معطوف على مقدر كأنه قيل :لا تعجبوا وتدبروا فى أمركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح " .ثم ذكرهم بنعمة ثانية فقال : ( وَزَادَكُمْ فِي الخلق بَصْطَةً ) أى : زادكم فى المخلوقات بسطة وسعة فى الملك والحضارة ، أو زادكم بسطة فى قوة أبدانكم وضخامة أجسامكم ، ومن حق هذا الاستخلاف وتلك القوة ، أن تقابلا بالشكر لله رب العالمين .وقد ذكر بعض المفسرين روايات تتعلق بضخامة أجسام قوم هود وقوتهم وهى روايات ضعيفة لا يعتد بها ، ولذا أضربنا عنها ، ويكفينا أن القرآن الكريم قد أشار إلى قوتهم وجبروتهم بدون تفصيل لذلك كما فى قوله - تعالى - : ( وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ) وكما فى قوله : ( كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ) : ثم كرر هود - عليه السلام - تذكيرهم بنعم الله فقال

فاذكروا آلآءَ الله لَعَلّكُمْ تُفْلِحُونَ ) . أى : فاذكروا نعم الله واشكروها له لعلكم تفوزون بما أعده للشاكرين من إدامتها عليهم وزيادتها لهم ولن تكونوا كذلك إلا بعبادتكم له وحده - عز وجل - .وآلاء الله : نعمه ، ، الكثيرة . والألاء جمع إلى كحمل وأحمال . أو ألى ، كقفل وأقفال . أو إلى كمعى وأمعاء .وإلى هنا يكون هود - عليه - السلام - قد رد على قومه رداً مقنعاً حكيما ، كان المتوقع من ورائه أن يستجيبوا له ، وأن يقبلوا على دعوته ، ولكنهم لسوء تفكيرهم وانطماس بصيرتهم ، أخذتهم العزة بالإثم فماذا قالوا لنبيهم ومرشدهم؟( قالوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ الله وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين )

قالوا اجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد اباؤنا فاتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين

كما فسرها الوسيط ( قالوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ الله وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين )أى : قالوا له على سبيل الإنكار والاستهزاء : أجئتنا يا هود لأجل أن نعبد الله وحده ، ونترك ما كان يعبد آباؤنا من الأوثان والأصنام إن هذا لن يكون منا أبداً فأتنا بما تعدنا به من العذاب إن كنت من الصادقين فيما تخبر به .وننظر فى هذا الرد من قوم هود فنراه طافحا بالتهور والتحدى والاستهزاء واستعجال العذاب .حتى لكأن هودا - عليه السلام - يدعوهم إلى منكر لا يطيقون سماعه ولا يصبرون على الجدل فيه!!أليس هو يدعوهم إلى وحدانية الله وإفراده بالعبادة وترك ما كان يعبد آباؤهم ، وهذا فى زعمهم أمر منكر لا يطيقون الصبر عليه .وهكذا يستحوذ الشيطان على قلوب بعض الناس وتفكيرهم فيصور لهم الحسنات فى صورة سيئات ، والسيئات فى صورة حسنات .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما معنى المجىء فى قوله : ( أَجِئْتَنَا ) ، قلت فيه أوجه : أن يكون لهود - عليه السلام - مكان معتزل عن قومه يتحنث فيه كما كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بحراء قبل المبعث ، فلما أوحى إليه - جاء قومه يدعوهم .وأن يريدوا به الاستهزاء ، لأنهم كانوا يعتقدون أن الله تعالى -لا يرسل إلا الملائكة ، فكأنهم قالوا : أجئتنا من السماء كما يجىء الملك . وأنهم لا يريدون حقيقة المجىء . ولكن التعريض بذلك والقصد كما يقال ذهب يشتمنى ولا يراد حقيقة الذهاب ، كأنهم قالوا أقصدتنا لنعبد الله وحده : وتعرضت لنا بتكليف ذلك " .وقولهم : ( فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ) يدل على أنه كان يتوعدهم بالعذاب من الله . إذا استمروا - على شركهم ، ويدل - أيضا - على تصميمهم على الكفر ، واحتقارهم لأمر هود عليه السلام - واستعجالهم إياه بالعقوبة على سبيل التحدى ، لأنهم كانوا يتوهمون أن العقوبة لن تقع عليهم أبداً .وإزاء هذا التحدى السافر من قوم هود له ولدعوته ولوعيد الله لهم ، ما كان من هود - عليه السلام - إلا أن جابههم بالرد الحاسم الذى تتجلى فيه الشجاعة التامة ، والثقة الكاملة بأن الله سينصره عليهم وينتقم له منهم .

قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب اتجادلونني في اسماء سميتموها انتم واباؤكم ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا اني معكم من المنتظرين

كما فسرها الوسيط ( قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ) أى : قال هود لقومه بعد أن لجوا فى طغيانهم : قد حق ووجب عليكم من قبل ربكم عذاب وسخط بسبب إصراركم على الكفر والعناد .والرجس والرجز ، بمعنى ، وأصل معناه الاضطراب يقال : رجست السماء أى : رعدت رعداً شديداً وهم فى مرجوسة من أمرهم أى : فى اختلاط والتباس . ثم شاع فى العذاب لاضطراب من حل به .وعبر عن العذاب المتوقع وقوعه بأنه ( قَدْ وَقَعَ ) مبالغة فى تحقيق الوقوع ، وأنه أمر لا مفر لهم منه .وعطف الغضب على الرجس ، للإشارة إلى ما سينزل بهم من عذاب هو انتقام لا يمكن دفعه ، لأنه صادر من الله الذى غضب عليهم بسبب كفرهم ، وبعد أن أنذرهم هددهم بوقوع العذاب عليهم ، ووبخهم على مجادلتهم إياه بدون علم فقال : ( أتجادلونني في أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنْتُمْ وَآبَآؤُكُمْ ) أى : أتجادلونى وتخاصمونى فى شأن أشياء ما هى إلا أسماء ليس تحتها مسميات ، لأنكم تسمونها آلهة مع أن معنى الإلهية فيها معدوم ومحال وجوده إذ المستحق للعبادة إنما هو الله الذى خلق كل شىء ، أما هذه الأصنام التى زعمتم أنها آلهة فهى لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا .فأنت ترى أن هوداً - عليه السلام - قد حول ألهتهم إلى مجرد أسماء لا تبلغ أن تكون شيئاً وراء الاسم الذى يطلق عليها ، وهذا أعمق فى الإنكار عليهم ، والاستهزاء بعقولهم .وقوله : ( مّا نَزّلَ الله بِهَا مِن سُلْطَانٍ ) أى : ما أنزل الله بها من حجة أو دليل يؤيد زعمكم فى ألوهيتها أو فى كونها شفعاء لكم عند الله ، وإنما هى أصنام باطلة قلدتم آباءكم فى عبادتها بدون علم أو تفكير .ثم هدد بالعاقبة المقررة المحتومة فقال ) :

فانتظروا إِنِّي مَعَكُمْ مِّنَ المنتظرين ) أى : فانتظروا نزول العذاب الذى استعجلتموه وطلبتموه حين قلتم ( فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ ) فإنى معكم من المنتظرين لما سيحل بكم بسبب شرككم وتكذيبكم .

فانجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا باياتنا وما كانوا مؤمنين

كما فسرها الوسيط ولم يطل انتظار هود عليهم ، فقد حل بهم العقاب الذى توعدهم به سريعا ولذا قال - تعالى - : ( فَأَنجَيْنَاهُ والذين مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ) الفاء فصيحة . أى : فوقع ما وقع فأنجينا هودا والذين اتبعوه فى عقيدته برحمة عظيمة منا لا يقدر عليها غيرنا .( وَقَطَعْنَا دَابِرَ الذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا ) أى : استأصلناهم عن آخرهم بالريح العقيم التى ( مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كالرميم ) فقطع الدابر كناية عن الاستئصال والاهلاك للجميع يقال قطع الله دابره أى : أذهب أصله .وقوله : ( وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ) مع إثبات التكذيب بآيات الله؟ قلت : هو تعريض بمن آمن منهم - كمرثد بن سعد - ومن نجا مع هود - عليه السلام - كأنه قال : وقطعنا دابر الذين كذبوا منهم ، ولم يكونوا مثل من آمن منهم ليؤذن أن الهلاك للمكذبين ونجى الله المؤمنين " وهكذا طويت صفحة أخرى من صحائف المكذبين ، وتحقق النذير فى قوم هود كما تحقق قبل ذلك فى قوم نوح .

والى ثمود اخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم اية فذروها تاكل في ارض الله ولا تمسوها بسوء فياخذكم عذاب اليم

كما فسرها الوسيط ثم قصت علينا السورة بعد ذلك قصة صالح - عليه السلام - مع قومه فقالت : ( وإلى ثَمُودَ . . . . ) .صالح - كما قال الحافظ البغوى - هو ابن عبيد بن آسف بن ماسح بن عبيد ابن حاذر بن ثمود : وينتهى نسبه إلى نوح - عليه السلام - .وثمود اسم للقبيلة التى منها صالح سميت باسم جدها ثمود ، وقيل سميت بذلك لقلة مائها لأن الثمد هو الماء القليل .وكانت مسكنهم بالحجر - بكسر الحاء وسكون الجيم - ، وقيل سميت بذلك لقلة مائها لأن الثمد - هو الماء القليل .وكانت مساكنهم بالحجر - بكسر الحاء وسكون الجيم ، والحجر مكان يقع بين الحجاز والشام إلى وادى القرى ، وموقعه الآن تقريباً - المنطقة التى بين الحجاز وشرق الأردن ، وما زال المكان الذى كانوا يسكنونه يسمى بمدائن صالح إلى اليوم ، وقد مر النبى صلى الله عليه وسلم على ديارهم وهو ذاهب إلى غزوة تبوك سنة تسع من الهجرة .وقبيلة صالح من قبائل العرب ، وكانوا خلفاء لقوم هود - عليه السلام - بعد أن هلكوا فورثوا أرضهم ، وآتاهم الله نعما وفيرة ، وكانوا يعبدون الأصنام فأرسل إليهم نبيهم صالحا مبشرا ونذيراً .قال - تعالى - : ( وإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعبدوا الله مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ قَدْ جَآءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ) .أى : وأرسلنا إلى ثمود أخاهم فى النسب والموطن صالحا - عليه السلام - فقال لهم الكلمة التى دعا بها كل نبى قومه : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله سواه ، قد جاءتكم معجزة ظاهرة الدلائل ، شاهدة بنبوتى وصدقى فيما أبلغه عن ربى .وقوله : ( مِّن رَّبِّكُمْ ) متعلق بمحذوف صفة لبينة ، أى هذه البينة كائنة من ربكم وليست من صنعى فعليكم أن تصدقونى لأنى مبلغ عن الله - تعالى - .ثم كشف لهم عن معجزته وحجته فقال : ( هذه نَاقَةُ الله لَكُمْ آيَةً ) أى : هذه التى ترونها وأشير إليها ناقة الله ، والتى جعلها - سبحانه - علامة لكم على صدقى - واضاف الناقة إلى الله للتفضيل والتخصيص والتعظيم لشأنها . وقيل : لأنه سبحانه - خلقها على خلاف سنته فى خلق الإبل وصفاتها ، وقيل : لأنها لم يكن لها مالك .وقد ذكر المفسرون عنها قصصا لا تخلو من ضعف ، لذا اكتفينا بما ورد فى شأنها فى القرآن الكريم .ثم أرشدهم إلى ما يجب عليهم نحوها فقال ) : فَذَرُوهَا تَأْكُلْ في أَرْضِ الله وَلاَ تَمَسُّوهَا بسواء فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ) .أى ارتكوا الناقة حرة طليقة تأكل فى أرض الله لاتى لا يملكها أحد سواه ولا تعتدوا عليها بأى لون من ألوان الاعتداء لأنكم لو فعلتم ذلك أصابكم عذاب أليم .والفاء فى قوله : ( فَذَرُوهَا ) ، للتفريع على كونها آية من آيات الله ، فيجب إكرامها وعدم التعرض لها بسوء - و ( تَأْكُلْ ) مجزوم فى جواب الأمر .وأضيفت الأرض إلى الله - أيضاً قطعا لعذرهم فى التعرض لها ، فكأنه يقول لهم ، الأرض أرض الله والناقة ناقته ، فذروها تأكل فى أرضه لأنها ليست لكم ، وليس ما فيها من عشب ونبات من صنعكم ، فأى عذر لكم فى التعرض لها؟وفى نهيهم عن أن يمسوها بسوء تنبيه بالأدنى على الأعلى ، لأنه إذا كان قد نهاهم عن مسها بسوء إكراما لها فنهيهم عن نحرها أو عقرها أو منعها من الكلأ والماء من باب أولى. فالجملة الكريمة وعيد شديد لمن يمسها بسوء .وقوله : ( فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ

أَلِيمٌ ) الفعل المضارع منصوب فى جواب النهى .وبعد أن بين لهم صالح - عليه السلام - وظيفته ، وكشف لهم عن معجزته ، وأنذرهم بسوء العاقبة إذا ما خالفوا أمره ، أخذ فى تذكيرهم بنعم الله عليهم . وبمصائر الماضين قبلهم .

واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبواكم في الارض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا الاء الله ولا تعثوا في الارض مفسدين

كما فسرها الوسيط فقال - كما حكى القرآن عنه - : ( واذكروا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِن بَعْدِ عَادٍ ) .أى : واذكروا بتدبر واتعاظ نعم الله عليكم حيث جعلكم خلفاء لقبيلة عادة فى الحضارة والعمران والقوة والبأس ، بعد أن أهلكهم الله بسبب طغيانهم وشركهم .وقوله : ( وَبَوَّأَكُمْ فِي الأرض ) أى أنزلكم فيها وجعلها مباءة ومساكن لكم . يقال : بوأه منزلا ، أى : أنزله : وهيأه له ومكن له فيه .والمراد بالأرض : أرض الحجر التى كانوا يسكنونها وهى بين الحجاز والشام ، تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا .السهول الأراضى السهلة المنبسطة . والجبال : الأماكن المتحجرة المترفعة .أى : أنزلكم فى أرض الحجر ، ويسر لكم أن تتخذوا من سهولها قصورا جميلة ، ودورا - عالية ، ومن جبالها بيوتا تسكنونها بعد نحتكم إياها .يقال : نحته ينحته كيضربه وينصره ويعلمه - أى : براه وسواه .قيل إنهم كانوا يسكنون الجبال فى الشتاء لما فى البيوت المنحوتة من القوة التى لا تؤثر فيها الأمطار والعواصف ، ولما فيها من الدفء . أما فى غير الشتاء فكانوا يسكنون السهول لأجل الزراعة والعمل ومن التعبير القرآنى نلمح أثر النعمة والتمكين فى الأرض لقوم صالح ، وندرك طبيعة الموقع الذى كانوا يعيشون فيه ، فهو سهل وجبل ، يتخذون فى السهل القصور ، وينحتون فى الجبال البيوت ، فهم فى حضارة عمرانية واضحة المعالم ، ولذا نجد صالح - عليه السلام - يكرر عليهم التذكير بشكر النعم فيقول :( فاذكروا آلآءَ الله وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأرض مُفْسِدِينَ ) .أى : فاذكروا بتدبر واتعاظ نعم الله عليكم ، واشكروه على هذه النعم الجزيلة ، وخصوه وحده بالعبادة ، ولا تتمادوا فى الفساد حال إفسادكم فى الأرض .والمقصود النهى عما كانوا عليه من التمادي في الفساد . مأخوذ من العيث وهو أشد الفساد . يقال : عثى - كرضى - عثوا إذ أفسد أشد الإفساد .وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد ذكرت لنا جانبا من النصائح التى وجهها صالح لقومه فماذا كان موقفهم منه .

قال الملا الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن امن منهم اتعلمون ان صالحا مرسل من ربه قالوا انا بما ارسل به مؤمنون

كما فسرها الوسيط لقد كان موقفهم لا يقل فى القبح والتطاول والعناد عن موقف قوم نوح وقوم هود ، وهاك ما حكاه القرآن عنهم :( قَالَ الملأ الذين استكبروا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ استضعفوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ ) ؟أى : قال المترفون المتكبرون من قوم صالح للمؤمنين المستضعفين الذين هداهم الله إلى الحق : أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه إليكم لعبادته وحده لا شريك له؟وهو سؤال قصد المترفون منه تهديد المؤمنين والاستهزاء بهم ، لأنهم يعلمون أن المؤمنين يعرفون ان صالحا مرسل من ربه .ولذا وجدنا المؤمنين لا يردون عليهم بما يقتضيه ظاهر السؤال بأن يقولوا لهم : نعم أنه مرسل من ربه ، وإنما ردوا عليهم بقوله : ( إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ) ، مسارعة منهم ، إلى إحقاق الحق وإبطال الباطل ، وإظهاراً للإيمان الذى استقر فى قلوبهم وتنبيها على أن أمر إرسال صالح - عليه السلام - من الظهور والوضوح حيث لا ينبغى لعاقل أن يسأل عنه ، وإنما الشىء الجدير بالسؤال عنه هو الإيمان بما جاء به هذا الرسول الكريم ، والامتثال لما يقتضيه العقل السليم .وهو رد من ، المؤمنين المستضعفين يدل على شجاعتهم فى الجهر بالحق وعلى قوة إيمانهم وسلامة يقينهم .وقوله : ( لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ ) بدل من ( لِلَّذِينَ استضعفوا ) بإعادة الجار بدل كل من كل ، والضمير فى ( مِنْهُمْ ) يعود على قوم صالح .

قال الذين استكبروا انا بالذي امنتم به كافرون

، كما فسرها الوسيط وهنا يعلن المستكبرون عن موقفهم فى عناد ، وصلف وجحود واستمع إلى القرآن وهو يحكى ذلك فيقول : ( قَالَ الذين استكبروا إِنَّا بالذي آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ) .أى : قال المستكبرون ردا على المؤمنين ، الفقراء : إنا بما آمنتم به كافرون ، ولم يقولوا إنا بما أرسل به كافرون إظهارا لمخالفتهم إياهم ، وردا على مقالتهم ( إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ) .قال صاحب الانتصاف : ولو طابقوا بين الكلامين لكان مقتضى المطابقة أن يقولوا ، بما أرسل به كافرون ولكنهم أبوا ذلك حذرا مما فى ظاهره من إثباتهم لرسالته ، وهم يجحدونها ، وقد يصدر مثل ذلك على سبيل

التهكم ، كما قال فرعون : إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون ، فأثبت إرساله تهكما ، وليس المقام هنا مقام التهكم ، فإن الغرض إخبار كل واحد من الفريقين المؤمنين والمكذبين عن حاله ، فرد كل فريق على الآخر بما يناسبه " .

فعقروا الناقة وعتوا عن امر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا ان كنت من المرسلين

كما فسرها الوسيط ثم أتبع المستكبرون قولهم القبيح بفعل أقبح يتجلى فى قوله - تعالى - عنهم : ( فَعَقَرُوا الناقة ) أى : نحروها وأصل العقر : قطع عرقوب البعير ، ثم استعمل فى النحر ، لأن ناحر البعير يعقره ثم ينحره أى : عقروا الناقة التى جعلها الله حجة لنبيه صالح - عليه السلام - والتى قال لهم صالح فى شأنها : ( وَلاَ تَمَسُّوهَا بسواء فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ) .وأسند العقر إلى جميعهم لأنه كان برضاهم ، وإن لم يباشره إلا بعضهم ، ويقال للقبيلة الكبيرة أنتم فعلتم كذا مع أن الفاعل واحد منهم لكونه بين أظهرهم .وقوله : ( وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ) أى : استكبروا عن امتثال أوامره واجتناب نواهيه . من العتو وهو النبو ، أى الارتفاع عن الطاعة والتكبر عن الحق والغلو فى الباطل . يقال : عتا يعتو عتيا ، إذا تجاوز الحد فى الاستكبار . فهو عات وعتى .وقد اختار القرآن كلمة لإبراز ما كانوا عليه من تجبر وتبجح وغرور خلال اقترافهم ( وَعَتَوْا ) للمعاصى والجرائم التى من أبرزها عقر الناقة ، فهم قد فعلوا ما فعلوا عن تعمد وإصرار على ارتكاب المنكر .ثم لم يكتفوا بكل هذا ، بل قالوا لنبيهم فى سفاهة وتطاول : ( يَاصَالِحُ ائتنا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ المرسلين ) .نادوه باسمه تهوينا لشأنه ، وتعريضا لما يظنون من عجزه؛ وقالوا له على سبيل تعجل العذاب الذى توعدهم به إذا استمروا فى طغيانهم ائتنا بما توعدتنا به إن كنت صادقا فى رسالتك .

فاخذتهم الرجفة فاصبحوا في دارهم جاثمين

كما فسرها الوسيط ولقد كان رد القدر على تبجحهم وعتوهم واستكبارهم سريعا؛ قال - تعالى - ( فَأَخَذَتْهُمُ الرجفة فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ) .الرجفة : الزلزلة الشديدة . يقال : رجفت الأرض ترجف رجفا ، إذا اضطربت وزلزلت؛ ومنه الرجفان للاضطراب الشديد .وجاثمين : من الجثوم وهو للناس والطير بمنزلة البروك للإبل ، يقال جثم الطائر يجثم جثما وجثوما فهو جاثم إذا وقع على صدره أو لزم مكانه فلم يبرحه .والمعنى : فأخذت أولئك المستكبرين الرجفة ، أى : الزلزلة الشديدة فأهلكتهم ، فأصبحوا فى بلادهم أو مساكنهم باركين على الركب ، ساقطين على وجوههم ، هامدين لا يتحركون . وما ظلمهم الله ولكن كانوا انفسهم يظلمون .

فتولى عنهم وقال يا قوم لقد ابلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين

كما فسرها الوسيط ويتركهم القرآن على هيئتهم جاثمين ، ليتحدث عن نبيهم صالح الذى كذبوه فيقول : ( فتولى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ الناصحين ) .أى : فأعرض عنهم نبيهم صالح ، ونفض يديه منهم وتركهم للمصير الذى جلبوه على أنفسهم ، وأخذ يقول متحسراً على ما فاتهم من الإيمان : يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى كاملة غير منقوصة ، ونصحت لكم بالترغيب تارة والترهيب أخرى ، ولكن كان شأنكم الاستمرار على بغض الناصحين وعداوتهم " .هذا وقد وردت أحاديث تصرح بأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد مر على ديار ثمود المعروفة الآن بمدائن صالح وهو ذاهب إلى تبوك سنة تسع من الهجرة ، فأمر أصحابه أن يدخلوها خاشعين وجلين كراهة أن يصيبهم ما أصاب أهلها ، ونهاهم عن أن يشربوا من مائهاروى الإمام أحمد عن ابن عمر قال : نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس عام تبوك ، نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود فاستسقى الناس من الآبار التى كانت تشرب منها ثمود فعجنوا منها ونصبوا القدور باللحم ، فأمرهم النبى صلى الله عليه وسلم فأهرقوا القدور ، وعلفوا العجين الإبل ، ثم ارتحل بهم عن البئر التى كانت تشرب منها الناقة ، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا وقال : إنى أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم " .وروى الشيخان عن ابن عمر قال : " لما مر رسول الله ، صلى الله عليه وسلم بالحجر قال :لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين . فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم ، أن يصيبكم مثل ما أصابهم ، ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى جاوزوا الوادى " .وهكذا طويت صفحة أخرى من صحائف المكذبين ، وحلت العقوبة بمن كانوا يتعجلونها ويستهزئون بها .

ولوطا اذ قال لقومه اتاتون الفاحشة ما سبقكم بها من احد من العالمين

كما فسرها الوسيط ثم حكت لنا السورة بعد ذلك جانبا مما دار بين لوط وقومه فقالت : ( وَلُوطاً إِذْ قَالَ . . . . ) .قال ابن كثير : لوط . هو ابن هاران بن آزر وهو ابن أخى إبراهيم ، وكان قد آمن مع إبراهيم وهاجر معه إلى أرض الشام ، فبعثه الله إلى أهل سدوم وما حولها من القرى يدعوهم إلى الله - تعالى - ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المآثم والمحارم والفواحش التى اخترعوها لم يسبقهم بها أحد من بنى آدم ولا من غيرهم ، وهو إتيان الذكور دون الإناث ، وهذا شىء لم يكن بنو آدم تعهده ولا تألفه ولا يخطر ببالهم " حتى صنع ذلك أهل سدوم - وهى قرية بوادى الأردن - عليهم لعائن الله " .وقوله - تعالى - : ( وَلُوطاً ) منصوب بفعل مضمر معطوف على ما سبق أى : وأرسلنا لوطا و ( إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ) ظرف لأرسلنا ، وجوز أن يكون منصوبا باذكر محذوفا فيكون من عطف القصة على القصة ، و ( إِذْ ) ( لُوطاً ) بدل من اشتمال بناء على أنها لا تلزم الظرفية .وقوله : ( أَتَأْتُونَ الفاحشة مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن العالمين ) .أى : أتفعلون تلك الفعلة التي بلغت نهاية القبح والفحش ، والتى ما فعلها أحد قبلكم فى زمن من الأزمان فأنتم أول من ابتدعها فعليكم وزرها ووزر من عملها إلى يوم القيامة ، والاستفهام ، للانكار والتوبيخ قال عمر بن دينار : " ما نزا ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط " .وقال الوليد بن عبد الملك : " لولا أن الله قص علينا خبر قوم لوط ما ظننت أن ذكراً يعلوا ذكرا " والباء فى ( بِهَا ) كما قال الزمخشري - للتعدية ، من قولك سبقته بالكرة إذا ضربتها قبله ومن قوله صلى الله عليه وسلم : " سبقك بها عكاشة " و ( مِنْ ) فى قوله : ( مِنْ أَحَدٍ ) لتأكيد النفى وعمومه المستغرق لكل البشر .والجملة - كما قال أبو السعود - مستأنفة مسوقة لتأكيد النكير وتشديد التوبيخ والتقريع ، فإن مباشرة القبح قبيح واختراعه أقبح ، فأنكر عليهم أولا إتيان الفاحشة ، ثم وبخهم بأنهم أول من عملها " .

انكم لتاتون الرجال شهوة من دون النساء بل انتم قوم مسرفون

كما فسرها الوسيط ثم أضاف لوط إلى إنكاره على قومه إنكارا آخر وتوبيخا أشنع فقال : ( إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرجال شَهْوَةً مِّن دُونِ النسآء ) .أى : إنكم إيها القوم الممسوخون فى طبائعكم حيث تأتون الرجال الذين خلقهم الله ليأتوا النساء ، ولا حامل لكم على ذلك إلا مجرد الشهوة الخبيثة القذرة والاتيان : كناية عن الاستمتاع والجماع . من أتى المرأة إذا غشيها .وفى. إيراد لفظ ( الرجال ) دون الغلمان والمردان ونحوهما ، مبالغة فى التوبيخ والتقريع .قال صاحب الكشاف : و ( شَهْوَةً ) مفعول له ، أى للاشتهاء ولا حامل لكم عليه إلا مجرد الشهوة من غير داع آخر . ولا ذم أعظم منه ، لأنه وصف لهم بالبهيمية ، وأنه لا داعى لهم من جهة العقل البتة كطلب النسل ونحوه ) : أو حال بمعنى مشتهين تابعين للشهوة غير متلفتين إلى السماحة " .وقوله. مِّن دُونِ النسآء ) حال من الرجال أو من الواو فى تأتون ، أى : تأتون الرجال حالة كونكم تاركين النساء اللائي هن موضع الاشتهاء عند ذوى الطبائع السليمة ، والأخلاق المستقيمة .قال الجمل : وإنما ذمهم وعيرهم ووبخهم بهذا الفعل الخبيث ، لأن الله - تعالى - خلق الإنسان وركب فيه شهوة النكاح لبقاء النسل وعمران الدنيا ، وجعل النساء محلا للشهوة وموضعا للنسل . فإذا تركهن الإنسان وعدل عنهن إلى غيرهن من الرجال فقد أسرف وجاوز واعتدى ، لأنه وضع الشىء فى غير محله وموضعه الذى خلق له ، لأن أدبار الرجال ليست محلا للولادة التى هى مقصودة بتلك الشهوة للإنسان " .وقوله : ( بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ) إضراب عن الإنكار إلى الإخبار عن الأسباب التى جعلتهم يرتكبون هذه القبائح ، وهى أنهم قوم عادتهم الاسراف وتجاوز الحدود فى كل شىء .أى : أنتم أيها القوم لستم ممن يأتى الفاحشة مرة ثم يهجرها ويتوب إلى الله بل أنتم قوم مسرفون فيها وفى سائر أعمالكم ، لا تقفون عند حد الاعتدال فى عمل من الأعمال .وقد حكى القرآن أن لوطا - عليه السلام - قال لهم فى سورة العنكبوت : ( أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرجال وَتَقْطَعُونَ السبيل وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ المنكر ) وقال لهم فى سورة النمل : ( بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ) أى : متجاوزون لحدود الفطرة وحدود الشريعة .وقال لهم فى سورة النمل : ( أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ) وهو يشمل الجهل الذي هو ضد العلم ، والجهل الذى هو بمعنى السفه والطيش ، ومجموع الآيات يدل على أنهم كانوا مصابين بفساد العقل ، وانحطاط الخلق. وإيثار الغى والعدوان على الرشاد والتدبر .

وما كان جواب قومه الا ان قالوا اخرجوهم من قريتكم انهم اناس يتطهرون

، كما فسرها الوسيط ولقد حكى القرآن جوابهم القبيح على نصائح نبيهم لهم

فقال : ( وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاّ أَن قالوا أَخْرِجُوهُمْ
مِّن قَرْيَتِكُمْ ) .أى : وما كان جواب الطغاة المستكبرين على نصائح نبيهم
لوط - عليه السلام - إلا أن قال بعضهم لبعض أخرجوا لوطا ومن معه من
المؤمنين من قريتكم سدوم التى استوطنتموها وعشتم بها .وقوله : ( إِلاّ أن
قالوا ) استثناء مفرغ من أعم الأشياء ، أى : ما كان جوابهم شيئا من الأشياء
سوى قول بعضهم لبعض أخرجوهم .لماذا هذا الإخراج؟ بين القرآن أسبابه كما
) : تفوهت به ألسنتهم الخبيثة ، واتفقت عليه قولبهم المنكوسة فقال
إِنّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهّرُونَ ) بهذه الجلمة التعليلية .أى : إن لوطا
وأتباعه أناس يتنزهون عن إتيان الرجال ، وعن كل عمل من أعمالنا لا يرونه
مناسبا لهم . يقال : تطهر الرجل ، أى : تنزه عن الآثام والقبائح .وما أعجب
العقول عندما تنتكس ، والأخلاق عندما ترتكس ، إنها تستنكف أن يبقى معها
الطهور المتعفف عن الفحش ، وتعمل على إخراجه ، ليبقى لها الملوثون
الممسوخون وإنه لمنطق يتفق مع المنحرفين الذين انحطت طباعهم ، وانقلبت
موازينهم ، وزين لهم الشيطان سوء أعمالهم فرأوه حسنا .ورحم الله صاحب
الكشاف فقد قال : وقولهم : ( إِنّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهّرُونَ ) سخرية بهم
وبتطهرهم من الفواحش ، وافتخار بما كانوا فيه من القذارة ، كما يقول الفسقة
لبعض الصلحاء إذا وعظهم : أبعدوا عنا هذا المتقشف وأريحونا من هذا المتزهد
" .

فانجيناه واهله الا امراته كانت من الغابرين

كما فسرها الوسيط ثم حكت السورة عاقبة الفريقين فقالت : ( فَأَنجَيْنَاهُ
وَأَهْلَهُ ) أى : أنجينا لوطا ومن يختص به من ذويه أو من المؤمنين به
) : - قالوا : ولم يؤمن به أحد منهم سوى أهل بيته فقط ، كما قال - تعالى.
فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ المؤمنين فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا
غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ المسلمين ) وقوله : ( إِلاّ امرأته ) استثناء من أهله
أى : فأنجيناه وأهله إلا امرأته فإنا لم ننجها لخبثها وعدم إيمانها .قال ،
ابن كثير : إنها لم تؤمن به ، بل كانت على دين قومها ، تمالئهم عليه
وتخبرهم بمن يقدم عليه من ضيفانه بإشارات بينها وبينهم ، ولهذا لما أمر
، لوط - عليه السلام - ليسرى بأهله أمر أن لا يعلمها ولا يخرجها من البلد
، ومنهم من يقول بل اتبعتهم ، فلما جاء العذاب التفتت هى فأصابها ما أصابهم
والأظهر أنها لم تخرج من البلد ولا أعلمها لوط بل بقيت معهم ، ولهذا قال ها
" هنا : ( إِلاّ امرأته كَانَتْ مِنَ الغابرين ) أى : " الباقين فى العذاب
والغابر : الباقى . يقال : غبر الشىء يغبر غبورا ، أى " بقى " . وقد.
يستعمل فيما مضى - أيضا - فيكون من الأضداد ، ومنه قول الأعشى : فى الزمن
. الغابر . أى : الماضى

وامطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين

: كما فسرها الوسيط وقوله : ( وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَّطَراً ) أى
وأرسلنا على قوم لوط نوعا من المطر عجيبا أمره ، وقد بينه الله فى آية أخرى
بقوله : ( فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ
حِجَارَةً مِّن سِجّيلٍ ) أى : جازيناهم بالعقوبة التى تناسب شناعة جرمهم
فإنهم لما قلبوا الأوضاع فأتوا الرجال دون النساء ، أهلكناهم بالعقوبة التى
قلبت عليهم قريتهم فجعلت أعلاها أسفلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل أى من
- طين متجمد .ثم ختمت القصة بالدعوة إلى التعقل والتدبر والاعتبار فقال
تعالى - : ( فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المجرمين ) .أى : فانظر أيها
، العاقل نظرة تدبر واتعاظ فى مآل أولئك الكافرين المقترفين لأشنع الفواحش
واحذر أن تعمل أعمالهم حتى لا يصيبك ما أصابهم وسر فى الطريق المستقيم
لتنال السعادة فى الدنيا والآخرة .هذا ، وقد وردت أحاديث تصرح بقتل من يعمل
عمل قوم لوط فقد روى الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه والترمذى والحاكم
والبيهقى عن ابن عباس .قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من
وجدتموه يعمل عمل قوم لوط . فاقتلوا الفاعل والمفعول به " .وذهب الإمام أبو
حنيفة إلى أن اللائط يلقى من شاهق ويتبع بالحجارة كما فعل بقوم لوط .وذهب
. بعض العلماء إلى أن يرجم ، سواء أكان محصنا أو غير محصن

والى مدين اخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره قد
جاءتكم بينة من ربكم فاوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس اشياءهم ولا
تفسدوا في الارض بعد اصلاحها ذلكم خير لكم ان كنتم مؤمنين

، كما فسرها الوسيط ثم قصت علينا سورة الأعراف بعد ذلك قصى شعيب مع قومه
فقالت : ( وإلى مَدْيَنَ . . . ) .قوله : ( وإلى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ
شُعَيْباً قَالَ يَاقَوْمِ اعبدوا الله مَا لَكُمْ مّنْ إله غَيْرُهُ ) أى
وأرسلنا إلى مدين أخاهم شعيبا . ومدين اسم للقبيلة التى تنسب إلى مدين بن :

إبراهيم - عليه السلام - وكانوا يسكنون فى المنطقة التى تسمى معان بين حدود
الحجاز والشام ، وهم أصحاب الأيكة - والأيكة : منطقة مليئة بالشجر كانت
مجاورة لقرية معان ، وكان يسكنها بعض الناس فأرسل الله شعيبا إليهم جميعا
وشعيب هو ابن ميكيل بن يشجر بن مدين بن إبراهيم فهو أخوهم فى النسب وكان.
النبى صلى الله عليه وسلم إذا ذكر شعيب قال : " ذلك خطيب الأنبياء لحسن
مراجعته لقومه ، وقوة حجته " .وكان قومه أهل كفر وبخس للمكيال والميزان
فدعاهم إلى توحيد الله - تعالى - ونهاهم عن الخيانة وسوء الأخلاق .وعن
، السدى وعكرمة : أن شعيبا أرسل إلى أمتين : أهل مدين الذين أهلكوا بالصيحة
وأصحاب الأيكة الذين أخذهم الله بعذاب يوم الظلة ، وأنه لم يبعث نبى مرتين
إلا شعيب - عليه السلام - .ولكن المحققين من العلماء اختاروا أنهما أمة
- واحدة فأهل مدين هم أصحاب الأيكة أخذتهم الرجفة والصيحة وعذاب يوم الظلة
أى السحابة - ، وأن كل عذاب كان كالمقدمة للآخر .وبعد أن دعاهم إلى وحدانية
الله شأن جميع الرسل فى بدء دعوتهم قال لهم : ( قَدْ جَآءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ
مِّن رَّبِّكُمْ ) أى : قد جاءتكم معجزة شاهدة بصحة نبوتى توجب عليكم
الإيمان بى والأخذ بما آمركم به والانتهاء عما أنهاكم عنه .قال صاحب الكشاف
فإن قلت : ما كانت معجزته؟ قلت : قد وقع العلم بأنه كانت له معجزة لقوله :
ولأنه لا بد لمدعى ، ( قَدْ جَآءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ) :
النبوة من معجزة تشهد له وتصدقه وإلا لم تصح دعواه ، وكان متنبئا لا نبياً
غير أن معجزته لم تذكر فى القرآن كما لم تذكر معجزات نبينا صلى الله عليه ،
- وسلم فيه .ثم أخذ فى نهيهم عن أبرز المنكرات التى كانت متفشية فيهم فقال
كما حكى القرآن عنه - :( فَأَوْفُوا الكيل والميزان ) الكيل والميزان
مصدران أريد بهما ما يكال وما يوزن به ، كالعيش بمعنى ما يعاش به . أو
المكيل والموزون .أى : فأتموا الكيل والميزان للناس بحيث يعطى صاحب الحق
حقه من غير نقصان ، ويأخذ صاحب الحق حقه من غير طلب الزيادة .( وَلاَ
تَبْخَسُواْ الناس أَشْيَاءَهُمْ ) أى : ولا تنقصوهم حقوقهم بتطفيف الكيل
ونقص الوزن فيما يجرى بينكم وبينهم من معاملات .يقال : بخسه حقه يبخصه إذا
نقصه إياه . وظلمه فيه " وتبخسوا " تعدى إلى مفعولين أولهما الناس والثانى
أشياءهم .وفائدة التصريح بالنهى عن النقص بعد الأمر بالإيفاء ، تأكيد ذلك
الأمر وبيان قبح ضده .قال الآلوسى : وقد يراد بالأشياء الحقوق مطلقا فإنهم
كانوا مكاسين لا يدعون شيئا إلا مكسوه . وقد جاء عن ابن عباس أنهم كانوا
قوما طغاة بغاة يجلسون على الطريق فيبخسون الناس أموالهم . قيل ويدخل فى
ذلك بخس الرجل حقه من حسن المعاملة والتوقير اللائق به وبيان فضله على ما
هو عليه للسائل عنه . وكثير ممن ينتسب إلى أهل العلم اليوم مبتلون بهذا
البخس ، وليتهم قنعوا به بل جمعوا " حشفا وسوء كيلة " فإنا لله وإنا إليه
راجعون .ثم نهاهم عن الافساد بوجه عام فقال : ( وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي
الأرض بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ) أى :لا تفسدوا فى الأرض بما ترتكبون فيها من
ظلم وبغى ، وكفر وعصيان ، بعد أن أصلح أمرها وأمر أهلها الأنبياء وأتباعهم
الصالحون الذين يعدلون فى معاملاتهم ويلتزمون الحق فى كل تصرفاتهم .ثم ختمت
الآية بتلك الجملة الكريمة التى استجاش بها شعيب مشاعر الإيمان فى نفوس
قومه حيث قال لهم : ( ذلكم خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ) .أى
ذلكم الذى آمركم به وأنهاكم عنه خير لكم فى الحال والمآل فبادروا إلى :
الاستجابة لى إن كنتم مصدقين قولى ، ومنتفعين بالهدايات التى جئت بها إليكم
من ربكم .فاسم الإشارة ( ذلكم ) يعود إلى ما ذكر من الأمر بالوفاء فى الكيل
والميزان والنهى عن بخس الناس أشياءهم وعن الافساد فى الأرض .

ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من امن به وتبغونها عوجا
واذكروا اذ كنتم قليلا فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين

كما فسرها الوسيط ثم انتقل شعيب إلى نهيهم عن رذائل أخرى كانوا متلبسين بها
فقال : ( وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ ) توعدون : من
التوعد بمعنى التخويف والتهديد . أى : ولا تقعدوا بكل طريق من الطرق
المسلوكة تهددون من آمن بى بالقتل ، وتخيفونه بأنواع الأذى ، وتلصقون بى
وأنا نبيكم التهم التى أنا برىء منها ، بأن تقولوا لمن يريد الإيمان
) : برسالتى : إن شعيبا كذاب وإنه يريد أن يفتنكم عن دينكم .وقوله
( وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً
أى : وتصرفون عن دين الله وطاعته من آمن به ، وتطلبون لطريقه العوج بإلقاء
الشبه أو بوصفها بما ينقصها ، مع أنها هى الطريق المستقيم الذى هو أبعد ما
) يكون من شائبه الاعوجاج .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : صراط الحق واحد
وَأَنَّ هذا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فاتبعوه وَلاَ تَتَّبِعُواْ السبل
فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ) فكيف قيل : بكل صراط؟ قلت : صراط الحق
واحد ، ولكنه يتشعب إلى معارف وحدود وأحكام كثيرة مختلفة ، فكانوا إذا رأوا
) أحداً يشرع فى شىء منها أوعدوه وصدوه فإن قلت : إلام يرجع الضمير فى
آمَنَ بِهِ ) ؟ قلا : إلى كل صراط ، والتقدير : توعدون من آمن به وتصدون
، عنه . فوضع الظاهر الذى هو سبيل الله موضع الضمير زيادة فى تقبيح أمرهم

ودلالة على عظم ما يصدون عنه .وقوله : توعدون . وتصدون ، وتبغون هذه الجمل أحوال ، أى :لا تقعدوا موعدين وصادين ، وباغين ، ولم يذكر الموعد به لتذهب النفس فيه كل مذهب ، ثم ذكرهم شعيب بنعم الله عليهم فقال : ( واذكروا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ ) أى : اذكروا ذلك الزمن الذى كنتم فيه قليلى العدد فكثركم الله بأن جعلكم موفورى العدد ، وكنتم فى قلة من الأموال فأفاضها الله بين أيديكم ، فمن الواجب عليكم أن تشكروه على هذه النعم ، وأن تفردوه بالعبادة والطاعة ثم اتبع هذا التذكير بالنعم بالتخويف من عواقب الافساد فقال : ( وانظروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المفسدين ) أى : انظروا نظر تأمل واعتبار كيف كانت عاقبة المفسدين من الأمم الخالية ، والقرون الماضية ، كقوم لوط وقوم صالح ، فسترون أنهم قد دمروا تدميراً بسبب إفسادهم فى الأرض ، وتكذيبهم لرسلهم ( فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ وَلاَ تطيعوا أَمْرَ المسرفين ) لأن سيركم على طريقهم سيؤدى بكم إلى الدمار .

وان كان طائفة منكم امنوا بالذي ارسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين

، كما فسرها الوسيط ثم نصحهم بأن يأخذوا أنفسهم بشىء من العدل وسعة الصدر : وأن يتركوا أتباعه أحراراً فى عقيدتهم حتى يحكم الله بين الفريقين ، فقال ( وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُواْ بالذي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فاصبروا حتى يَحْكُمَ الله بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الحاكمين ) .أى : إن كان بعضكم قد آمن بما أرسلنى الله به إليكم من التوحيد وحسن الأخلاق ، وبعضكم لم يؤمن بما أرسلت به بل اصر على شركه وعناده ، فتربصوا وانتظروا حتى يحكم الله بيننا وبينكم بحكمه العادل ، الذى يتجلى فى نصرة المؤمنين ، وإهلاك الظالمين ، وهو - سبحانه - خير الحاكمين ) : قال صاحب الكشاف : وهذا وعيد للكافرين بانتقام الله منهم ، كقوله. فتربصوا إِنَّا مَعَكُمْ مُّتَرَبِّصُونَ ) أو هو عظة للمؤمنين وحث على الصبر واحتمال ما كان يلحقهم من أذى المشركين إلى أن يحكم الله بينهم وينتقعم لهم منهم . ويجوز أن يكون خطابا للفريقين . أى : ليصبر المؤمنون على أذى الكفار ، وليصبر الكفار على ما يسوءهم من إيمان من آمن حتى يحكم الله فيميز الخبيث من الطيب " .وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد حكت لنا جانبا من الحجج الناصعة ، والنصائح الحكيمة ، والتوجيهات الرشيدة التى وجهها شعيب - خطيب الأنبياء إلى قومه .وارجع البصر - أيها القارئ الكريم - فى هذه النصائح ترى شعيبا - عليه السلام - يأمر قومه بوحدانية الله لأنها أساس العقيدة وركن الدين الأعظم ، ثم يتبع ذلك بمعالجة الجرائم التى كانت متفشية فيهم ، فيأمرهم بإيفائهم الكيل والميزان ، وينهاهم عن بخس الناس أشياءهم وعن الإفساد فى الأرض ، وعن القعود فى الطرقات لتخويف الناس وتهديدهم ، وعن محاولة صرفهم عن طريق الحق ، بإلقاء الشبهات ، وإشاعة الاباطيل . مستعملا فى وعظه التذكير بنعم الله تارة . وبنقمه من المذبين تارة أخرى .

قال الملا الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين امنوا معك من قريتنا او لتعودن في ملتنا قال اولو كنا كارهين

كما فسرها الوسيط ولقد كان من المنتظر أن يتقبل قوم شعيب هذه المواعظ تقبلا حسنا ، وأن يصدقوه فيما يبلغه عن ربه ، ولكن المستكبرين منهم عموا وصموا عن الحق ، واستمع إلى القرآن وهو يحكى موقفهم فيقول : ( قَالَ الملأ . . . ) أى : قال الأشراف المستكبرون من قوم شعيب له رداً على مواعظه لهم : والله. لنخرجنك يا شعيب أنت والذين آمنوا معك من قريتنا بغضا لكم ، ودفعا لفتنتكم المترتبة على مساكنتنا ومجاورتنا ، أو لتعودن وترجعن إلى ملتنا وما نؤمن به من تقاليد ورثناها عن آبائنا ومن المستحيل علينا تركها . فعليك يا شعيب أنت ومن معك أن تختاروا لأنفسكم أحد أمرين : الإخراج من قريتنا أو العودة إلى ملتنا .هكذا قال المترفون المغرورون لشعيب وأتباعه باستعلاء وغلظة وغضب وجملة ( قَالَ الملأ ) إلخ . مستأنفة استئنافا بيانيا ، كأنه قيل : فماذا. كان رد قوم شعيب على نصائحه لهم؟ فكان الجواب : قال الملأ . . . إلخ .وقد أكدوا قولهم بالجملة القسمية للمبالغة فى إفهامه أنهم مصممون على تنفيذ ما ، يريدونه منه ومن أتباعه .ونسبوا الإخراج إليه أولا وإلى أتباعه ثانيا للتنبيه على أصالته فى ذلك ، وأن الذين معه إنما هم تبع له ، فإذا ما خرج هو كان خروج غيره أسهل .وجملة : ( أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ) معطوفة على جملة ( لَنُخْرِجَنَّكَ ) وهى - أى جملة ( أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ) المقصود الأعظم عندهم ، فهؤلاء المستكبرون يهمهم فى المقام الأول أن يعود من فارق ملتهم ودياناتهم إليها ثانية .والتعبير بقولهم : ( أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ) يقتضى أن شعيبا ومن معه كانوا على ملتهم ثم خرجوا منها ، وهذا محال بالنسبة لشعيب - عليه السلام - فإن الأنبياء معصومون - حتى قبل النبوة - عن ارتكاب الكبائر فضلا عن الشرك .وقد

أجيب عن ذلك بأن المستكبرين قد قالوا ما قالوا من باب التغليب ، لأنهم لما
، رأوا أن أتباعه كانوا من قبل ذلك على ملتهم ثم فارقوهم واتبعوا شعيبا
قالوا لهم : إما أن تخرجوا مع نبيكم الذى اتبعتموه وإما أن تعودوا إلى
ملتنا التى سبق أن كنتم فيها ، فأدرجوا شعيبا معهم فى الأمر بالعودة إلى
ملتهم من باب تغليبهم عليه هنا ، هذا هو الجواب الذى ارتضاه كثير من
العلماء ولعى رأسهم صاحب الكشاف ، فقد قال : فإن قلت : كيف خاطبوا شعيبا
عليه السلام - بالعود فى الكفر فى قولهم : ( أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي
مِلَّتِنَا ) وكيف أجابهم بقوله : ( إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ
( إِذْ نَجَّانَا اللَّه مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ
والأنبياء - عليهم السلام -لا يجوز عليهم من الصغائر إلا ما ليس فه تنفير
فضلا عن الكبائر ، فضلا عن الكفر؟ قلت : قالوا : ( لَنُخْرِجَنَّكَ ،
ياشعيب والذين آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ ) فعطفوا على ضميره الذين
، دخلوا فى الإيمان منهم بعد كفرهم قالوا : لتعودن فغلب الجماعة على الواحد
فجعلوهم عائدين جميعاً ، إجراء للكلام على حكم التغليب . وعلى ذلك أجرى
شعيب - عليه السلام - جوابه فقال : ( إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ
إِذْ نَجَّانَا اللَّه مِنْهَا ) وهو يريد عودة قومه ، إلا أنه نظم نفسه فى
جملتهم وإن كان بريئا من ذلك إجراء لكلامه على حكم التغليب .هذا هو الجواب
الذى اختاره الزمخشرى وتبعه فيه بعض العلماء ، وهناك أجوبة أخرى ذكرها
المفسرون ومنها :1 - أن هذا القول جار على ظنهم أنه كان فى ملتهم ، لسكوته
قبل البعثة عن الانكار عليهم .2 - أنه صدر عن رؤسائهم تلبيسا على الناس
وإيهاماً لهم بأنه كان على دينهم وما صدر عن شعيب - عليه السلام - كان على
طريق المشاكلة .3 - أن قولهم : ( أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ) بمعنى
أو لتصيرن ، إذ كثيراً ما يرد " عاد " بمعنى " صار " فيعمل عمل كان . ولا :
يستدعى الرجوع إلى حالة سابقة ، بل عكس ذلك ، وهو الانتقال من حال سابقة
إلى حال مؤتنفة ، وكأنهم قالوا لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا
أو لتصيرن كفاراً مثلنا " .قال الإمام الرازى : تقول العرب : قد عاد إلى
فلان مكره ، يريدون : قد صار منه المكر ابتداء .وقال صاحب الانتصاف : إنه
يسلم استعمال " العود " بمعنى الرجوع إلى أمر سابق ، ويجاب عن ذلك بمثل
الجواب عن قوله - تعالى - : ( اللَّه وَلِيُّ الذين آمَنُواْ يُخْرِجُهُمْ
مِّنَ الظلمات إِلَى النور والذين كفروا أَوْلِيَآؤُهُمُ الطاغوت
يُخْرِجُونَهُمْ مِّنَ النور إِلَى الظلمات ) والاخراج يستدعى دخولا سابقا
فيما وقع الاخراج منه . ونحن نعلم أن المؤمن الناشىء فى الإيمان لم يدخل قط
فى ظلمة الكفر ، ولا كان فيها . وكذلك الكافر الأصلى ، لم يدخل قط فى نور
الإيمان ولا كان فيه ، ولكن لما كان الإيمان والكفر من الأفعال الاختيارية
التى خلق الله العبد متيسراً لكل واحد منهما متمكنا منه لو أراده ، فعبر عن
تمكن المؤمن من الكفر ثم عدوله إلى الإيمان ، إخباراً بالاخراج من الظلمات
إلى النور توفيقا من الله له ، ولطفا به ، وبالعكس فى حق الكافر وفائدة
اختياره فى هذه المواضع ، تحقيق التمكن والاختيار؛ لإقامة حجة الله على
عباده " .هذه بعض الأجوبة التى أجاب بها العلماء على قول شعيب ( أَوْ
لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ) ولعل أرجحها هو الرأى الذى اختاره صاحب
): الكشاف " لبعده عن التكلف ، واتساقه مع رد شعيب عليهم " . فقد قال لهم
أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ) . أى : أتجبروننا على العودة إلى ملتكم حتى
ولو كنا كارهين لها ، لاعتقادنا أنها باطلة وقبيحة ومنافية للعقول السليمة
والأخلاق المستقيمة .لا . لن نعود إليها بأى حال من الأحوال . فالهمزة
لانكار الوقوع ونفيه ، والتعجيب من أحوالهم الغريبة حيث جهلوا أن الدخول فى
. العقائد اختيارى محض ولا ينفع فيه الاجبار أو الاكراه

قد افترينا على الله كذبا ان عدنا في ملتكم بعد اذ نجانا الله منها وما
يكون لنا ان نعود فيها الا ان يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء علما على
الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وانت خير الفاتحين

كما فسرها الوسيط ثم صارحهم برفضه التام لما يتوهمونه من العودة إلى ملتهم
فقال : ( قَدِ افترينا عَلَى الله كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ
- بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّه مِنْهَا ) .أى : قد اختلقنا على الله - تعالى
أشنع أنواع الكذب إن عدنا فى ملتكم الباطلة بعد إذ نجانا الله بهدايتنا إلى
الدين الحق وتنزيهنا عن الاشراك به - سبحانه - .قال صاحب المنار : وهذا
كلام مستأنف لبيان أهم الأمرين بالرفض والكراهية ، وهو إنشاء فى صور الخبر
، فإما أن يكون تأكيداً قسميا لرفض دعوة الملأ إياهم إلى العودة فى ملتهم .
كما يقول القائل : برئت من الذمة إن فعلت كذا ، فيكون مقابلة لقسمهم بقسم
أعرق منه فى التوكيد وإما أن يكون تعجبا خرج لا على مقتضى الظاهر ، وأكد
بقد والفعل الماضى ، والمعنى ما أعظم افتراءنا على الله - تعالى - إن عدنا
فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وهدانا إلى صراطه المستقيم " .ثم كرر هذا
الرفض بأبلغ وجه فقال : ( وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلاَّ
أَن يَشَآءَ الله رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً ) أى ما

يصح لنا ولا يتأتى منا أن نعود فى ملتكم الباطلة فى حال من الأحوال أو فى
وقت من الأوقات إلى فى حال أو فى وقت مشيئة الله - المتصرف فى جميع
الشئون - عودتنا إليها ، فهو وحده القادر على ذلك ولا يقدر عليه غيره لا
أنتم ولا نحن ، لأننا موقنون بأن ملتكم باطلة وملتنا هى الحق والموقن لا
يستطيع إزالة يقينه ولا تغييره وإنما ذلك بيد مقلب القلوب ، الذى وسع علمه
كل شىء .وهذا اللون من الأدب العالى ، حكاه القرآن عن الأنبياء - عليهم
الصلاة والسلام - فى مخاطبتهم ، فأنت ترى أن شعيبا - عليه السلام - مع ثقته
المطلقة فى أنه لن يعود هو وأتباعه إلى ملة الكفر أبداً ، مع ذلك هو يفوض
، الأمر إلى الله تأدباً معه ، فلا يجزم بمشيئته هو ، بل يترك الأمر لله
فقد يكون فى علمه سبحانه ما يخفى على البشر ، مما تقتضيه حكمته وإرادته
قال صاحب الانتصاف : " وموقع قوله : ( وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ
عِلْماً ) الاعتراف بالقصور عن علم العاقبة ، والاطلاع على الأمور الغائبة
فإن العود إلى الكفر جائز فى قدرة الله أن يقع من العبد : ولو وقع فبقدرة ،
الله ومشيئته المغيبة عن خلقه . فالحذر قائم ، والخوف لازم ، ونظيره قول
إبراهيم - عليه السلام - ( وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن
يَشَآءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلاَ
- تَتَذَكَّرُونَ ) لما رد الأمر إلى المشيئة وهى مغيبة ، مجد الله - تعالى
بالانفراد بعلم الغائبات " .ثم يترك شعيب - عليه السلام - قومه وتهديدهم
ووعيدهم ، ويتوجه إلى الله بالاعتماد والدعاء فيقول : ( عَلَى الله
تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افتح بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا باعلى الله
تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افتح بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بالحق وَأَنتَ
خَيْرُ الفاتحين ) .أى : على الله وحده وكلنا أمرنا ، فهو الذى يكفينا أمر
تهديدكم ووعيدكم ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، ربنا احكم بيننا وبين
قومنا الذين ظلمونا بالحق وأنت خير الحاكمين ، لخلو حكمك عن الجور والحيف
فقوله : ( عَلَى الله تَوَكَّلْنَا ) إظهار للعجز من جانب شعيب ، وأنه فى.
مواجهته لأولئك المستكبرين لا يعتمد إلا على الله وحده ، ولا يأوى إلا إلى
ركنه المكين ، وحصنه الحصين . والجملة الكريمة تفيد الحصر لتقديم المعمول
فيها .وقوله : ( رَبَّنَا افتح بَيْنَنَا ) إعراض عن مجادلتهم ومفاوضتهم
بعد أن تبين لهم عنادهم وسفههم ، وإقبال على الله - تعالى - بالتضرع
والدعاء .والفتح : أصله إزالة الأغلاق عن الشىء ، واستعمل فى الحكم ، لما
فيه من إزالة الاشكال فى الأمر . ومنه قيل للحاكم : فاتح وفتاح لفتحه أغلاق
الحق ، وقيل للحكومة : الفتاحة - بضم الفاء وكسرها .أخرج البيهقى عن ابن
عباس قال : ما كنت أدرى قوله - تعالى - ( رَبَّنَا افتح ) حتى سمعت ابنة ذى
يزن تقول لزوجها وقد جرى بينها وبينه كلام : تعال أفاتحك ، تريد أقاضيك
وأحاكمك .وقوله : ( بالحق ) بهذا القيد إظهارا للنصفة والعدالة .والخلاصة
أنك إذا تأملت فى رد شعيب - عليه السلام - على ما قاله المستكبرون من قومه
تراه يمثل اسمى ألوان الحكمة وحسن البيان ، فهو يرد على وعيدهم وتهديدهم ،
بالرفض التام لما يبغون ، والبغض السافر لما يريدونه منه ، ثم يكل الأمور
- كلها إلى الله ، مظهرا الاعتماد عليه وحده ، ثم يتجه إليه - سبحانه
بالدعاء متلمسا منه أن يفصل بينه وبين قومه بالحق الذى مضت به سنته فى
. التنازع بين المرسلين والكافرين ، وبين سائر المحقين والمبطلين

وقال الملا الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا انكم اذا لخاسرون

كما فسرها الوسيط وهنا نلمح أن الملأ من قوم شعيب قد يئسوا من استمالة شعيب
وأتباعه إلى ملتهم ، فأخذوا يحذرون الناس من السير فى طريقه ، ويحكى القرآن
ذلك بأسلوبه الحكيم فيقول : (وَقَالَ الملأ الذين كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ
لَئِنِ اتبعتم شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ ) .أى : قال
الأشراف الكافرون من قوم شعيب لغيرهم : ( لَئِنِ اتبعتم شُعَيْباً
إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ ) لشرفكم ومجدكم ، بإيثار ملته على ملة
آبائكم وأجدادكم ، وخاسرون لثروتكم وربحكم المادى . لأن ابتاعكم له سيحول
بينكم وبين التطفيف فى الكيل والميزان وهو مدار غناكم واتساع أموالكم
وقولهم هذا يقصدون به تنفير الناس من دعوة شعيب ، وتثبيطهم عن الإيمان به.
وإغرائهم بالبقاء على عقائدهم الباطلة ، وتقاليدهم التى ورثوها عن آبائهم ،
. وأجدادهم ، فهم لم يكتفوا بضلالهم فى أنفسهم ، بل عملوا على إضلال غيرهم
وقولهم هذا معطوف على قوله - تعالى - فيما سبق : ( قَالَ الملأ الذين
استكبروا مِن قَوْمِهِ ) . وليس رداً على شعيب ، لأنه لو كان كذلك لجاء
، مفصولا بدون عطف ، وقد أكدوا قولهم بعدة مؤكدات منها اللام الموطئة للقسم
والجملة الاسمية المصدرة بأن وذلك لكى يخدعوا السامعين بأنهم ما يريدون إلا
خيرهم وعدم خسرانهم .وحذف متعلق الخسران ليعم كل أنواعه الدينية والدنيوية
) : قال صاحب الكشاف : فإن قلت : أين جواب القسم الذى وطأته اللام فى قوله.
لَئِنِ اتبعتم ) وجواب الشرط؟ قلت : قوله : ( إِنَّكُمْ إِذاً
. " لَّخَاسِرُونَ ) ساد مسد الجوابين

فاخذتهم الرجفة فاصبحوا في دارهم جاثمين

كما فسرها الوسيط وبعد هذه المحاورات والمجادلات التى دارت بين شعيب وقومه جاءت الخاتمة التى حكاها القرآن فى قوله : ( فَأَخَذَتْهُمُ الرجفة ، فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ) . أى : فأخذتهم الزلزلة الشديدة - فأصبحوا فى دارهم هامدين صرعى لا حراك بهم .قال ابن كثير ما ملخصه : أخبر سبحانه - هنا بأنهم أخذتهم الرجفة ، كما أرجفوا شعيبا وأصحابه وتوعدوهم بالجلاء ، كما أخبر عنهم فى سورة هود بأنهم أخذتهم الصيحة ، والمناسبة هناك - والله أعلم - أنهم لما تهكموا به فى قولهم : ( قَالُوا ياشعيب أصلاوتك تَأْمُرُكَ ) : فجاءت الصيحة فأسكتتهم . وقال فى سورة الشعراء ( فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظلة ) وما ذاك إلا لأنهم قالوا له فى سياق القصة ( فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِّنَ السمآء ) فأخبر - سبحانه - أنهم أصابهم عذاب يوم الظلة ، وقد اجتمع عليهم ذلك كله ، أصابهم عذاب يوم الظلة . وهى سحابة أظلتهم فيها شرر من نار ولهب ، ثم جاءتهم صيحة من السماء ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم ، فزهقت الأرواح ، وفاضت النفوس ، وخمدت الأجسام " .

الذين كذبوا شعيبا كان لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين

كما فسرها الوسيط ثم يعقب القرآن على مصرعهم بالرد على قولتهم : إن من يتبع شعيبا خاسر ، فيقرر على سبيل التهكم أن الخسران لم يكن من نصيب من اتبع شعيبا ، وإنما الخسران كان من نصيب الذين خالفوه وكذبوه ، فيقول : ( الذين كَذَّبُواْ شُعَيْباً كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا الذين كَذَّبُواْ شُعَيْباً كَانُواْ هُمُ الخاسرين ) .أى : الذين كذبوا شعيبا وتطاولوا عليه وهددوه وأتباعه بالاخراج من قريتهم ، كأنهم عندما حاقت بهم العقوبة لم يقيموا فى ديارهم ناعمى البال ، يظلهم العيش الرغيد ، والغنى الظاهر .يقال غنى بالمكان يغنى ، أقامبه وعاش فيه فى نعمة ورغد .والجلمة الكريمة : استئناف لبيان ابتلائهم بشؤم قولهم : ( لَنُخْرِجَنَّكَ ياشعيب والذين آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ ) فكأن سائلا ، قال : فكيف كان مصيرهم؟ فكان الجواب : الذين هددوا شعيبا ومن معه وأنذروهم بالاخراج كانت عاقبتهم أن هلكوا وحرموا من قريتهم حتى لكأنهم لم يقيموا بها ، ولم يعيشوا بالاخراج كانت عاقبتهم أن هلكوا وحرموا من قريتهم حتى لكأنهم لم يقيموا بها ، ولم يعيشوا فيها مطلقا ، لأنه متى انقضى الشىء صار كأنه لم يكن .والاسم الموصول مبتدأ ، وخبره جملة ( كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ) .ثم أعاد ( الذين ) القرآن الموصول وصلته لزيادة التقرير ، وللإيذان بأن ما ذكر فى حيز الصلة هو الذى استوجب العقوبتين فقال : ( الذين كَذَّبُواْ شُعَيْباً كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا الذين كَذَّبُواْ شُعَيْباً كَانُواْ هُمُ الخاسرين ) ، أى : الذين كذبوا شعيبا وكفروا بدعوته كانوا هم الخاسرين دينيا ودنيويا. وليس الذين اتبعوه كما زعم أولئك المهلكون .وبهذا القدر اكتفى القرآن عن التصريح بإنجائه هنا ، وقد صرح بإنجائه فى سورة هود فقال : ( وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً والذين آمَنُواْ مَعَهُ ) قال صاحب الكشاف : وفى هذا الاستئناف والابتداء ، وهذا التكرير ، مبالغة فى رد مقالة الملأ لأشياعهم ، وتسفيه لرأيهم ، واستهزاء بنصحهم لقومهم واستعظام لما جرى عليهم " .

فتولى عنهم وقال يا قوم لقد ابلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فكيف اسى على قوم كافرين

كما فسرها الوسيط وأخيراً تطوى السورة الكريمة صفحتهم مشيعة إياهم بالتبكيت والاهمال من رسولهم وأخيهم فى النسب فتقول : ( فتولى عَنْهُمْ وَقَالَ ياقوم لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسى على قَوْمٍ كَافِرِينَ ) .الأسى : الحزن . وحقيقته اتباع الفائت بالغم يقال : أسيت عليه - آسا ، أى : حزنت والمعنى فأعرض عنهم شعيب بعد أن أصابهم ما أصابهم من النقمة والعذاب وقال مقرعا إياهم يا قوم : ( لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي ) التى أرسلنى بها إليكم من العقائد والأحكام والمواعظ ( وَنَصَحْتُ لَكُمْ ) بما فيه إصلاحكم وهدايتكم " فكيف أحزن على قوم كافرين " بذلت جهدى فى سبيل هدايتهم ونجاتهم ، ولكنهم كرهوا النصح ، واستحبوا العمى على الهدى لا ، لن آسى عليهم . ولن أحزن من أجل هلاكهم ، لأنهم لا يستحقون ذلك .وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد حدثتنا عن جانب من قصص نوح وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب مع أقوامهم . بعد أن بدأت بقصة آدم وإبليس وسنراها بعد قليل تحدثنا حديثا مستفيضا عن قصة موسى مع فرعون ومع بنى إسرائيل .ويلاحظ أن سورة الأعراف قد اتبعت فى حديثها عن هؤلاء الرسل الكرام التسلسل التاريخى ، وذلك لأهداف من أهمها :1 - إبراز وحدة العقيدة فى دعوة الأنبياء جميعا ، فأنت رأيت أن كل رسول أتى قومه

ليقول لهم : يا قوم ابعدوا الله ما لكم من إله غيره ، يقولها ثم يسوق لهم بأسلوبه الخاص أنصع الدلائل ، وأقوى الحجج ، وخير البراهين ومختلف وجوه الإرشاد ، لكى يقنعهم بأنه صادق فيما يبلغه عن ربه .2 - تصوير وحدة طبيعة الإيمان ووحدة طبيعة الكفر فى نفوس الناس على مدار التاريخ ، فالمؤمنون يلتفون حول رسولهم يصدقون قوله ، ويتأسون به فى كل أحواله ويدافعون عن عقيدتهم بقوة وشجاعة ، والكافرون يستكبرون أن يرسل الله رسولا من البشر ، ويأبون بدافع الحقد والعناد والتطاول الاستجابة لرجل منهم ، ويلقون التهم جزافا لكى يصرفوا الناس عنه .وهكذا نرى أن نفوس المؤمنين تتشابه فى إخلاصها - ونقائها وصفائها وحسن تقبلها للخير . بينما نفوس الكافرين تتشابه - أيضاً فى ظلامها وقوستها وفجورها وسوء تقبلها للهداية .3 - بيان العاقبة الطيبة التى انتهى إليها المؤمنون بسبب إيمانهم وصبرهم وعملهم الطيب ، والعاقبة السيئة التى حاقت بالكافرين المستكبرين ، بسبب إعراضهم عن الحق ، واستهزائهم بأصحابه ، ( فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصيحة وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأرض وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ الله لِيَظْلِمَهُمْ ولكن كانوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ )وبعد هذا الحديث الزاخر بالعظات والعبر عن بعض الأنبياء مع أقوامهم تمضى السورة الكريمة فى سرد هداياتها ، فتسوق للناس ألوانا من سنن الله التى لا تتغير ولا تتبدل ، لعل قلوبهم ترق ، ونفوسهم تتذكر ، وعقولهم تعى .وكأن السورة الكريمة تقول للناس : لقد سقت لكم الكثير من أخبار الماضين . وقصصت عليكم ما فيه الذكر لكل قلب سليم من أخبار بعض الأنبياء مع أقوامهم ، وأريتكم كيف كانت عاقبة الأخيار ، وكيف كانت عاقبة الأشرار ، فاجتهدوا فى طاعة الله ، وسيروا فى طريق الأخيار لتسعدوا كما سعدوا . واجتنبوا سبيل الأشرار حتى لا يصيبكم ما أصابهم ، فقد جرت سنته - سبحانه - أنه يمهل ولا يهمل ، وأن يبتلى الناس بالسراء والضراء لعلهم يضرعون ، وأن يفتح أبواب خيراته وبركاته لمن آمن به واتقاه ، وأبواب عقوباته لمن كفر به وعصاه .

وما ارسلنا في قرية من نبي الا اخذنا اهلها بالباساء والضراء لعلهم يضرعون

كما فسرها الوسيط واستمع إلى السورة الكريمة وهى تصور هذه المعانى وغيرها بأسلوبها الحكيم فتقول : ( وَمَآ أَرْسَلنَا فِي قَرْيَةٍ . . . . ) .هذه هى الآيات التى جاءت فى السورة الكريمة بعد حديثها المتنوع عن بعض الأنبياء مع أقوامهم ، وقبل حديثها المستفيض - الذى سنراه بعد قليل عن قصة موسى مع فرعون ومع بنى إسرائيل .وقد بدئت بقوله - تعالى - : ( وَمَآ أَرْسَلنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بالبأساء والضرآء لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ) البأساء : الشدة والمشقة كالحرب والجدب وشدة الفقر . والضراء : ما يضر الإنسان فى بدنه أو معيشته كالمرض والمصائب والمعنى : ذلك الذى قصصناه عليك يا محمد شأن الرسل السابقين مع أقوامهم. الهالكين لهم ألوانا من الشدائد والمصائب لعلهم ينقادون لأمر الله ، ويثوبون إلى رشدهم ، ويكثرون من التضرع إليه والاستجابة لهديه .فالآية الكريمة إشارة إجمالية إلى بيان أحوال سائر الأمم ، إثر بيان أحوال الأمم - التى سبق الحديث عنها وهى أمة نوح وهود وصالح ولوط وشعيب - عليه السلام والمقصود منها التحذير والتخويف لكفار قريش وغيرهم ، لينزجروا عن الضلال. والعناد ، ويستجيبوا لله ولرسوله .وإنما ذكر القرية لأنها مجتمع القوم الذين بعث إليهم ، ويدخل تحت هذا اللفظ المدينة لأنها مجتمع الأقوام .وقوله فيه حذف وإضمار والتقدير : من نبى كذبه قومه أو أهل ( مِّن نَّبِيٍّ ) : ، القرية لأن قوله : ( إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا )لا يترتب على الإرسال وإنما يترتب على التكذيب والعصيان . و ( مِّن ) لتأكيد النفى .والاستثناء ) فى قوله : ( إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا ) مفرغ من أعم الأحوال ، و أَخَذْنَا ) فى موضع نصب على الحال من فاعل ( أَرْسَلْنَا ) أى : وما أرسلنا - فى قرية من القرى المهلكة بسبب ذنوبها - نبيا من الأنبياء فى حال من الأحوال إلا حال كوننا آخذين أهلها بالبأساء والضراء . قبل إنزال العقوبة المستأصلة لهم .وجملة ( لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ) تعليلية . أى فعلنا ما فعلنا لكى يتضرعوا ويتذللوا ويتوبوا من ذنوبهم .فما يأخذ الله : به الغافلين من الشدائد والمحن ليس من أجل التسلية والتشفى - تعالى الله عن ذلك - وإنما من أجل أن ترق القلوب الجامدة ، وتتعظ المشاعر الخامدة ، ويتجه البشر الضعاف إلى خالقهم ، يتضرعون إليه ويستغفرونه ، عما فرط منهم من خطايا .

ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس اباءنا الضراء والسراء فاخذناهم بغتة وهم لا يشعرون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - لونا آخر من ألوان ابتلائه للناس فقال المراد بالسيئة ما يسوء ( ثُمَّ بَدَّلنَا مَكَانَ السيئة الحسنة ) :

ويحزن كالشدائد والأمراض . وبالحسنة السعة والصحة وأنواع الخيرات .أى : ثم
، بعد ان ابتلينا هؤلاء الغافلين بالبأساء والضراء رفعنا ذلك عنهم
وابتليناهم بضده ، بأن أعطيناهم بدل المصائب نعما ، فإذا الرخاء ينزل بهم
. مكان الشدة ، واليسر مكان الحرج ، والعافية بدل الضر ، والذرية بدل العقم
والكثرة بدل القلة ، والأمن محل الخوف .قال الآلوسى : وقوله : ( ثُمَّ
- بَدَّلْنَا ) معطوف على ( أَخَذْنَا ) داخل فى حكمه ، وهو - أى بدلنا
: متضمن معنى أعطى الناصب لمفعولين وهما هنا الضمير المحذوف والحسنة أى
أعطيناهم الحسنة فى مكان السيئة ومعنى كونها فى مكانها أنها بدل منها .ويرى
بعض العلماء أن لفظ ( مَكَانَ ) مفعول به لبدلنا وليس ظرفا ، والمعنى بدلنا
مكان الحال السيئة الحال الحسنة ، فالحسنة هى المأخوذة الحاصلة فى مكان
السيئة المتروكة .وقوله : ( حتى عَفَوْاْ ) أى : كثروا ونموا فى أنفسهم
وأموالهم . يقال : عفا النبات ، وعفا الشحم إذا كثر وتكاثف . وأعفيته . أى
تركته يعفو ويكثر ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : " وأعفوا اللحى " أى :
وفروها وكثروها .فماذا كان موقفهم من ابتلاء الله إياهم بالشدائد تارة :
وبالنعم أخرى؟ لقد كان موقفهم يدل على فساد فطرتهم ، وانحطاط نفوسهم ، وعدم
اتعاظهم بما تجرى به الأقدار ، وبما بين أيديهم من سراء وضراء تحمل كل عاقل
) : على التفكير والاعتبار .استمع إلى القرآن وهو يصور موقفهم فيقول
وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضرآء والسرآء ) .أى : أنهم حينما رأوا
ألوان الخيرات بين أيديهم بعد أن كانوا فى بأساء وضراء ، لم يعتبروا ولم
يشكروا الله على نعمه ، بل قالوا بغباء وجهل . قد مس آباءنا من قبلنا ما
، يسوء وما يسر ، وتناوبهم ما ينفع وما يضر ، ونحن مثلهم يصيبنا ما أصابهم
وقد أخذنا دورنا من الضراء كما أخذوا ، وجاء دورنا فى السراء فلنغنمها فى
إرواء شهواتنا . وإشباع متعنا ، فتلك عادة الزمان من أبنائه ولا داعى لأن
ننظر إلى السراء والضراء على أنهما نوع من الابتلاء والاختبار .وهذا شأن
الغافلين الجاهلين فى كل زمان ومكان ، إنهم لا يعتبرون بأى لون من ألوان
العبر ، ولا يستشعرون فى أنفسهم تحرجا من شىء يعملونه .وإن قولهم هذا ليوحى
بحالة نفسية خاصة " حالة عدم المبالاة والاستهتار " وهى حالة أكثر ما تكون
مشاهدة فى أهل الرخاء والجاه . فهم يسرفون ويبذرون بدون تحرج ، ويرتكبون كل
كبيرة تقشعر لها الأبدان بدون اكتراث ، وتغشاهم العبر من بين أيديهم ومن
خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، ومع كل ذلك لا يعتبرون ولا يتعظون .هذا
شأنهم ، أما المؤمنون فإنهم ليسوا كذلك ، وإنما هم كما وصفهم رسول الله صلى
الله عليه وسلم فى قوله : " عجبا لأمر المؤمن : إن أمره كله خير ، وليس ذاك
لأحد إلا للمؤمن . إن اصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر
فكان خيرا له " .ولم يترك القدر أولئك الغافلين بدون قصاص ، وإنما فاجأهم
بالعقوبة التى تناسبهم ، قال - تعالى - : (فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً
وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ) أى : فكان عاقبة بطرهم وأشرهم وغفلتهم أن أخذناهم
، بالعذاب فجأة ، من غير شعور منهم بذلك ، ولا خطور شىء من المكاره ببالهم
لأنهم كانوا - لغبائهم - يظنون أنهم سيعيشون حياتهم فى نعم الحياة ورغدها
بدون محاسبة لهم على أعمالهم القبيحة ، وأقوالهم الذميمة .فالجملة الكريمة
تشير إلى أن أخذهم بالعقوبة كان أليما شديدا ، لأنهم فوجئوا بها مفاجأة
) بدون مقدمات .وجملة ( وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ) حال من المفعول به فى
. أَخَذْنَاهُمْ ) مؤكدة لمعنى البغتة

ولو ان اهل القرى امنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض ولكن
كذبوا فاخذناهم بما كانوا يكسبون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن سنته قد جرت بفتح أبواب خيراته
للمحسنين ، وبإنزال نقمه على المكذبين الضالين فقال : ( وَلَوْ أَنَّ
أَهْلَ القرى آمَنُواْ واتقوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ
، السمآء والأرض ) .البركات : جمع بركة : وهى ثبوت الخير الإلهى فى الشىء
وسمى بذلك لثبوت الخير فيه كما يثبت الماء فى البركة .قال الراغب : ولما
كان الخير الإلهى يصدر من حيث لا يحس ، وعلى وجه لا يحصى ولا يحصر ، قيل
لكل ما يشاهد منه زيادة غير محسوسة هو مبارك وفيه بركة " .والمعنى : ولو أن
أهل تلك القرى المهلكة آمنوا بما جاء به الرسل . واتقوا ما حرمه الله عليهم
لآتيناهم بالخير من كل وجه . ولوسعنا عليه الرزق سعة عظيمة ، ولعاشوا ،
حياتهم عيشة رغدة لا يشوبها كدر ، ولا يخالطها خوف .وفى قوله : ( فَتَحْنَا
استعارة تبعيه ، لأنه شبه تيسير البركات وتوسعتها عليهم بفتح الأبواب فى (
سهولة التناول .وقيل : المراد بالبركات السماوية المطر ، وبالبركات الأرضية
النبات والثمار وجميع ما فيها من خيرات .وقوله : ( ولكن كَذَّبُواْ
: فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ) بيان لموقفهم الجحودى .أى
ولكنهم لم يؤمنوا ولم يتقوا بل كذبوا الرسل الذين جاءوا لهدايتهم فكانت
نتيجة تكذيبهم وتماديهم فى الضلال أن عاقبناهم بالعقوبة التى تناسب جرمهم
واكتاسبهم للمعاصى ، فتلك هى سنتنا التى لا تتخلف ، نفتح للمؤمنين المتقين
: أبواب الخيرات ، وننقتم من المكذبين الضالين بفنون العقوبات .وقد يقال

إننا ننظر فنرى كثيرا من الكافرين والعصاة مفتوحا عليهم فى الرزق والقوة والنفوذ وألوان الخير ، وترى كثيرا من المؤمنين مضيقاً عليهم فى الرزق وفى غيره من وجوه النعم ، فأين هذا من سنة الله التى حكتها الآية الكريمة؟والجواب على ذلك أن الكافرين والعصاة قد يبسط لهم فى الأرزاق وفى - ألوان الخيرات بسطا كبيراً ، ولكن هذا على سبيل الإستدراج كما فى قوله تعالى - : ( فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حتى إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُّبْلِسُونَ ) ومما لا شك فيه أن الابتلاء بالنعمة الذى مر ذكره فى الآية السابقة ( ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السيئة الحسنة حتى عَفَوْاْ ) لا يقل خطراً عن الابتلاء بالشدة . فقد ابتلى الله كثيراً من الناس بألوان النعم فأشروا وبطروا ولم يشكروه عليها فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر .وشتان بين نعم تساق لإنسان على سبيل الاستدراج فى الشرور والآثام فتكون نقمة على صاحبها لأنه يعاقب عقابا شديداً بسبب سوء استعمالها وبين النعم التى وعد بها من يؤمنون ويتقون . إنها نعم مصونة عن المحق ، والسلب والخوف ، لأن أصحابها شكروا الله عليها .واستعملوها فيما خلقت له ، فكانت النتيجة أن زادهم الله غنى على غناهم ، وأن منحهم الأمان والاطمئنان وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

افامن اهل القرى ان ياتيهم باسنا بياتا وهم نائمون

كما فسرها الوسيط ثم يتجه القرآن إلى الغافلين ، ليوقظ فيهم مشاعر الخوف من بأس الله وعقابه فيقول : ( أَفَأَمِنَ أَهْلُ القرى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَآئِمُونَ ) .البيات : قصد العدو ليلا . يقال : بيت القوم بياتا ، إذا أوقعوا به ليلا ، وهو حال بمعنى بائتين .والاستفهام للانكار والتعجيب من أمر ليس من شأنه أن يقع من العاقل ، والمراد بأهل القرى : أهل مكة وغيرهم من القرى التى بعث إليها الرسول صلى الله عليه وسلم وقيل المراد بهم الأمة المحمدية من عصر النور الأعظم إلى يوم القيامة. لتعتبر بما أنزل بغيرها كما يرشد إليه قوله - تعالى - بعد ذلك : ( أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأرض مِن بَعْدِ أَهْلِهَآ ) .وقيل المراد بهم من ذكر حالهم فيما تقدم من القرى المهلكة بسبب ذنوبها .قال الجمل : ) : والفاء للعطف على ( فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً ) وما بينهما وهو قوله وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القرى ) إلى هنا اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه جىء به للمسارعة إلى بيان أن الأخذ المذكور إنما هو بما كسبت أيديهم . والمعنى أبعد ذلك الأخذ أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون؟ :

اوامن اهل القرى ان ياتيهم باسنا ضحى وهم يلعبون

، كما فسرها الوسيط فالآية الكريمة تحذر الناس من الغفلة عن طاعة الله وتحثهم على التيقظ والاعتبار : وقوله : ( أَوَ أَمِنَ أَهْلُ القرى ) إنكار بعد إنكار للمبالغة فى التوبيخ والتشديد ( أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ) أى : أن يأتيهم عقابنا فى ضحوة النهار وانبساط الشمس ، وهم لاهون لاعبون من فرط الغفلة .فقد خوفهم - سبحانه - بنزول ، العذاب فى الوقت الذى يكونون فيه فى غاية الغفلة وهو حال النوم بالليل ، وحال الضحى بالنهار لأنه الوقت الذى يغلب على المرء التشاغل فيه باللذات .

افامنوا مكر الله فلا يامن مكر الله الا القوم الخاسرون

كما فسرها الوسيط وقوله : ( أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ الله ) تكرير لمجموع الإنكارين السابقين ، جمعا بين التفريق قصدا إلى زيادة التحذير والإنذار والمكر فى الأصل الخداع ، ويطلق على الستر يقال : مكر الليل أى : ستر. بظلمته ما هو فيه ، وإذا نسب إليه - سبحانه - فالمراد به استدراجه للعبد العاصى حتى يهلكه فى غفلته تشبيها لذلك بالخداع .قال صاحب الكشاف : فإن قلت فلم رجع فعطف بالفاء قوله : ( أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ الله ) ؟قلت : هو : تكرير لقوله : ( أَفَأَمِنَ أَهْلُ القرى ) ومكر الله : استعارة لأخذه العبد من حيث لا يشعر ولاستدراجه ، فعلى العاقل أن يكون فى خوفه من مكر الله كالمحارب الذى يخاف من عدوه الكمين والبيات والغيلة . وعن الربيع بن خثعم أن ابنته قالت له : مالى أراك لا تنام والناس ينامون؟ فقال : يا بنتاه إن إباك يخاف البيات . أراد قوله : ( أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً والمعنى : أفأمنوا مكر الله وتدبيره الخفى الذى لا يعلمه البشر فغفلوا. ( عن قدرتنا على إنزال العذاب بهم بياتاً أو ضحوة؟ لئن كانوا كذلك فهم بلا ريب عن الصراط لناكبون ، وعن سنن الله فى خلقه غافلون ، فإنه ( فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ الله إِلاَّ القوم الخاسرون ) أى : إلا القوم الذين خسروا أنفسهم وعقولهم ، ولم يستفيدوا شيئا من أنواع العبر والعظات التى بثها الله فى أنحاء هذا الكون .هذا ، ويرى الإمام الشافعى وأتباعه أن الأمن من مكر

الله كبيرة من الكبائر ، لأنه استرسال فى المعاصى اتكالا على عفو الله
) : - وقال الحنفية إن الأمن من مكر الله كفر كاليأس ، لقوله - تعالى.
) : إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ الله إِلاَّ القوم الكافرون ) وقوله
فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ الله إِلاَّ القوم الخاسرون ) .ثم بين - سبحانه - أن
، من الواجب على الأحياء الذين يرثون الأرض من أهلها الذاهبين المهلكين
الذين أهلكتهم ذنوبهم ، وجنت عليهم غفلتهمن وعوقبوا على استهتارهم وغرورهم
من الواجب على هؤلاء الأحياء أن يعتبروا ويتعظوا وسحنوا القول والعمل حتى
. ينجوا من العقوبات

اولم يهد للذين يرثون الارض من بعد اهلها ان لو نشاء اصبناهم بذنوبهم ونطبع
على قلوبهم فهم لا يسمعون

كما فسرها الوسيط قال - تعالى - : ( أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ
الأرض مِن بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ
الاستفهام للانكار والتوبيخ . ويهد : أى يتبين ، يقال : هداه السبيل أو. (
الشىء وهداه إليه ، إذا دله عليه وبينه له .أى : أو لم يتبين لهؤلاء الذين
يعيشون على تلك الأرض التى ورثوها بعد أهلها المهلكين ، أننا فى قدرتنا أن
ننزل بهم العذاب بسبب ذنوبهم كما أنزلناه بأولئك المهلكين .والمراد بالذين
يرثون الأرض من بعد أهلها ، أهل مكة ومن حولها الذين أرسل النبى صلى الله
عليه وسلم لهدايتهم . وقيل المراد بهم الأحياء فى كل زمان ومكان الذين
: يخلفون من سبقهم من الأمم .قال الجمل : وفاعل ( يَهْدِ ) فيه وجوه أظهرها
أنه المصدر المؤول من أن وما فى حيزها والمفعول محذوف . والتقدير : أو لم
يهدى أى يبين ويوضح للوارثين مآلهم وعاقبة أمرهم إصابتنا إياهم بذنوبهم لو
شئنا ذلك .وقوله : ( وَنَطبَعُ على قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ )
جملة مستأنفة لإثبات حصول الطبع على قلوبهم .أى : ونحن نطبع على قلوبهم
ونختم عليها ، بسبب اختيارهم الكفر على الإيمان ، فهم لذلك لا يسمعون الحكم
والنصائح سماع تفقه وتدبر واتعاظ .والذى يتأمل فى الآيات السابقة يراها
تحذر الناس بأساليب متنوعة حكيمة من الغفلة عن العظات والعبر ، وتحضهم على
التخلص من الأمن الكاذب ، والشهوات المردية . والمتع الزائلة .وما يريد
القرآن بهذا أن يعيش الناس قلقين ، يرتجفون من الهلاك والدمار أن يأخذهم فى
لحظة من ليل أو نهار .كلا ، ما يريد منهم ذلك لأن القلق الدائم من المستقبل
يشل طاقة البشر ، وقد ينتهى بهم إلى اليأس من العمل والإنتاج وتنمية ،
الحياة .وإنما الذى يريد القرآن منهم أن يتعظوا بآيات الله فى كونه ، وأن
يكونوا دائماً على صلة طيبة به ، وأن يبتغوا فيما آتاهم الله من فضله الدار
الآخرة دون أن ينسوا نصيبهم من الدنيا ، والا يغتروا بطراوة العيش ، ورخاء
الحياة ، وقوة الجاه ، كى لا يقودهم ذلك إلى الفساد والطغيان ، والاستهتار
والانحلال .وإذا كان القرآن فى هذه الآية قد حذرو أنذر ، فلأنه يعالج كل
أمة وجماعة بالطب الذى يناسبها ويلائمها ، فهو يعطيها جرعات من الأمن
والثقة والطمأنينة حين يرسخ الإيمان فى قلوب أبنائها ، وحين يراقبون خالقهم
فى سرهم وعلنهم ، ويشكرونه على نعمه ، وهو يعطيها جرعات من التحذير
والتخويف ، حين تستولى الشهوات على النفوس ، وحين تصبح الدنيا بمتعها
ولذائذها المطلب الأكبر عند الناس .هذا وبعد أن انتهت السورة الكريمة من
، الحديث عما جرى لبعض الأنبياء مع أقوامهم ، ومن بين سنن الله فى خلقه
وبعد أن حذرت وأنذرت ، اتجهت بالخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم
لتطلعه على النتيجة الأخيرة لابتلاء تلك القرى ، وما تكشف عنه من حقائق
تتعلق بطبيعة الكفر وطبيعة الإيمان فقالت : ( تِلْكَ القرى نَقُصُّ
، عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا ) .أى : تلك القرى التى طال الأمد على تاريخها
وجهل قومك أيها الرسول الكريم أحوالها . وهى قرى قوم نوح وعاد وثمود وقوم
شعيب ، نقص عليكم ما فيه العظات والعبر من أخبارها . ليكون ذلك تسلية لك
. وتثبيتاً لفؤادك ، وتأييداً لصدقك فى دعوتك

تلك القرى نقص عليك من انبائها ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا
ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين

كما فسرها الوسيط قال الزمخشرى : قوله - تعالى - : ( تِلْكَ القرى نَقُصُّ
عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا ) كقوله : ( وهذا بَعْلِي شَيْخاً ) فى أنه
) مبتدأ وخبر وحال . ويجوز أن يكون القرى صفة لتلك ونقص خبراً ، وأن يكون
القرى نَقُصُّ ) خبراً بعد خبر . فإن قلت : ما معنى ( تِلْكَ القرى ) ؟ حتى
يكون كلاما مفيداً . قلت : هو مفيد ولكن بشرط التقييد بالحال كما يفيد بشرط
التقييد بالصفة فى قولك : هو الرجل الكريم . فإن قلت : ما معنى الإخبار عن
القرى بنقص عليك من أنبائها؟ قلت : معناه أن تلك القرى المذكورة نقص عليك
بعض أخبارها ولها أنباء أخرى لم نقصها عليك " .وإنما قص الله - تعالى - على
رسوله صلى الله عليه وسلم أنباء أهل هذه القرى ، لأنهم اغتروا بطول الإمهال
مع كثرة النعم ، فتوهموا أنهم على الحق ، فذكرها الله لمن أرسل إليهم

الرسول صلى الله عليه وسلم ليحترسوا عن مثل تلك الأعمال ، وليعتبروا بما أصاب الغافلين الطاغين من قبلهم .ثم بين - سبحانه - أنه قد أعذر إليهم بأن وضح لهم الحق بالحجج على ألسنة الرسل فقال :( وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بالبينات فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ ) أى : ولقد جاء إلى أهل تلك القرى رسلهم بالدلائل الدالة على صدقهم فما كانوا ليؤمنوا بعد رؤية المعجزات من رسلهم بما كانوا قد كذبوا به قبل ، رؤيتها منهم ، لأنهم لجحودهم وعنادهم تحجرت قلوبهم ، واستوت عندهم الحالتان حالة مجىء الرسل بالمعجزات وحالة عدم مجيئتهم بها .وقيل إن المعنى : ما : كانوا لو أحييناهم بعد إهلالكهم ورددناهم إلى دار التكليف ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل إهلاكهم ، ونظيره قوله - تعالى - ( وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ ) .وقوله : ( كَذَلِكَ يَطْبَعُ الله على قُلُوبِ الكافرين ) أى : " مثل ذلك الطبع الشديد المحكم الذى طبع الله به على قلوب أهل تلك القرى المهلكة ، يطبع الله على قلوب أولئك الكافرين الذين جاءوا من بعدهم بسبب إيثارهم الضلالة على الهداية .

وما وجدنا لاكثرهم من عهد وان وجدنا اكثرهم لفاسقين

كما فسرها الوسيط ثم كشف القرآن عن طبيعتهم فقال : ( وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ) أى : ما وجدنا لأكثر الناس من وفاء بعهودهم فى الإيمان والتقوى ، بل الحال. والشأن أننا علمنا أن أكثرهم فاسقين ، أى خارجين عن طاعتنا ، تاركين لأوامرنا ، منتهكين لحرماتنا .وبعضهم يجعل الضمير فى ( لأَكْثَرِهِم ) لأهل القرى المهلكة ، وأنهم كانوا إذا عاهدوا الله بعهد نقضوه ولم يوفوا به . والأول أرجح .والمراد بالعهد ما عاهدهم الله عليه من الإيمان والتقوى والعمل الصالح .ومن فى قوله ( مِّنْ عَهْدٍ ) مزيدة للاستغراق وتأكيد النفى وإنما حكم على الأكثرين منهم بنقض العهود ، لأن الأقلية منهم قد آمنوا. ووفوا بما عاهدوا الله عليه من الإيمان والعمل الصالح .وهذا لون من الاحتراس الذى امتاز به القرآن فى عرضه للحقائق ، فهو لا يلقى التهم جزافاً وإنما يعطى كل ذى حق حقه ، فإن كان الأكثرون قد استحقوا الذم لكفرهم ، ونقضهم لعهودهم ، فإن هناك قلة آمنت فاستحقت المدح والثناء .قال الآلوسى : و ( إِن ) مخففة من الثقيلة وضمير الشأن محذوف ، ولا عمل لها فيه لأنها ملغاة على المشهور . وذهب الكوفيون إلى أن ( إِن ) هنا نافية واللام فى ( لَفَاسِقِينَ ) بمعنى إلا ، أى : ما وجدنا أكثرهم إلا فاسقين " .وإلى هنا تكون الآيات الكريمة التى جاءت فى أعقاب الحديث عن أهل القرى المهلكة ، قد بينت لنا السنن الإلهية فى سعادة الأمم وشقائها ، وكشفت لنا عن حكمته - سبحانه - فى ابتلائه لعباده بالسراء تارة وبالضراء أخرى ، وحضت الناس على المراقبة لله وشكره على نعمائه ، وحذرتهم من الغفلة والأمان من مكره - سبحانه - فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون . ثم اتجهت فى النهاية بالخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .فأطلعته على الطبائع الغالبة فى البشر حتى لا يضيق ذرعاً بأحوال من أرسل إليهم .ثم عادت السورة بعد ذلك إلى الحديث عن قصة أخرى من قصص الأنبياء مع أقوامهم ، فحدثتنا عن قصة موسى مع فرعون ومع بنى إسرائيل بعد حديثها قبل ذلك عن شعيب الذى كان معاصراً لموسى - عليهما السلام - .فأنت ترى أن السورة الكريمة قد التزمت الترتيب التاريخى فى حديثها عن الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - .ولقد قلنا من قبل إن الأسلوب البارز فى هذه السورة الكريمة وهى تدعو الناس إلى وحدانية الله يتجلى فى تذكيرهم بنعم الله التى لا تحصى ، وتخويفهم عن طريق سرد أحوال الأمم المهلكة ، بسبب مخالفتها لرسلها ، وعتوها عن أمر ربها ، ولعل هذا هو السر فى أنها سقات لنا قصص نوح وهود وصالح ولوط وشعيب مع أممهم الذين أهلكوا بسبب كفرهم ولم تذكر لنا - مثلا - قصة إبراهيم مع قومه مع أن لوطا - عليه السلام - كان معاصراً له ، وذلك لأن قوم إبراهيم لم يهلكوا ، ولم يلتمس هو من ربه ذلك ، بل اعتزلهم وما يعبدون من دون الله .فالسورة الكريمة قد التزمت فى مجموعها الحديث عن مصارع المكذبين ليكونوا عبرة لكل عاقل ، وذكرى لكل عبد منيب .ومن هنا فهى لا تحدثنا عن قصة موسى من أولها كما جاء فى سورة القصص مثلا وإنما هى تبدأ عنها بالغرض الذى جاءت من أجله وهو التخويف من عواقب التكذيب فتقول :( ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم موسى بِآيَاتِنَآ إلى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المفسدين ) وهكذا تصرح السورة الكريمة فى أول آية من قصة موسى بالهدف الذى سيقت من أجله وهو النظر والتدبر فى عاقبة المفسدين ثم بعد ذلك تحدثنا حديثاً مستفيضاً زاخراً بالعبر والعظات عما دار بين موسى وفرعون من محاورات ومجادلات انتهت بغرق فرعون وقومه ، ثم عما دار بين موسى وين بنى إسرائيل من مجادلات تدل على أصالتهم فى الكذب والافساد والفسوق عن أمر الله .

ثم بعثنا من بعدهم موسى باياتنا الى فرعون وملئه فظلموا بها فانظر كيف كان

عاقبة المفسدين

كما فسرها الوسيط والآن فلنستمع إلى السورة الكريمة وهي تحكى لنا قصة موسى مع فرعون ومع بنى إسرائيل فى نحو سبعين آية تبدؤها بقوله - تعالى - : ( ثُمَّ بَعَثْنَا مِن . . . ) .هذا هو الدرس الأول من قصة موسى مع فرعون وفيه نرى ما دار بين موسى وفرعون من محاورات ، وما دار بين موسى والسحرة من مناقشات ومساجلات انتهت بإيمان السحرة وهم يضرعون إلى الله بلسان صادق وقلب سليم فيقولون - كما حكى القرآن عنهم - : ( رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ) . ولنبدأ فى تفسير آيات هذا الدرس من أولها فنقول :قوله - تعالى - ( ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم موسى بِآيَاتِنَآ إلى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ) معطوف على ما قبله من قصص الأنبياء الذين تحدثت عنهم السورة الكريمة .وموسى - عليه السلام - هو ابن عمران من نسل لاوى بن يعقوب . ويرى بعض المؤرخين أن ولادة موسى كانت فى حوالى القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، وأن بعثته كانت فى عهد منفتاح بن رمسيس الثانى .وفرعون : لقب لملوك مصر القدماء ، كلقب قيصر لملك الروم ، وكسرى لملوك الفرس ، والمعنى : ثم بعثنا من بعد أولئك الرسل الذين سبق الحديث عنهم - وهم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب - بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا التى تدل على صدقه فيما يبلغه عن ربه إلى فرعون وملئه ، وهم أشراف قومه ، ووجهاء دولته .قال بعض العلماء : " ولم يقل - سبحانه - إلى فرعون وقومه ، لأن الملك ورجال الدولة هم الذين كانوا مستعبدين لبنى إسرائيل وبيدهم أمرهم ، وليس لسائر المصريين من الأمر شىء ، ولأنهم كانوا مستعبدين - أيضا ولكن الظلم على بنى إسرائيل الغرباء كان أشد " .وقوله ( بِآيَاتِنَآ ) متعلق بمحذوف وقع حالا من مفعول بعثنا ، أو صفة لمصدره . أى بعثناه - عليه السلام - ملتبسا بها . أو بعثناه بعثاً ملتبساً بها : والمراد بها الآيات التسع وهى العصا ، واليد البيضاء ، والسنون ، ونقص - الثمرات ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم .ثم بين سبحانه - فى الآية الأولى من هذه القصة كيف تلقى فرعون وملؤه دعوة موسى وآياته فقال : ( فَظَلَمُواْ بِهَا ) أى : فكفروا بهذه الآيات تكبراً وجحوداً ، فكان عليهم وزر ذلك ، وقد عدى الظلم هنا بالباء مع أنه يتعدى بنفسه لتضمنه معنى الكفر ، إذ هما من واد واحد قال - تعالى - : ( إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ) ويجوز أن تكون الباء للسببية والمفعول محذوف ، أى : ظلموا أنفسهم بسببها بأن عرضوها للعقاب المهين . أو ظلموا الناس بصدهم عن الإيمان بهذه الآيات ، واستمروا على ذلك إلى أن حق عليهم العذاب الأليم .ثم ختمت الاية بالأمر بالتدبر فى أحوال هؤلاء الظالمين وفيما حل بهم من سوء المصير فقال - تعالى - : ( فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المفسدين ) أى : فانظر أيها الرسول الكريم - أو أيها العاقل - كيف كانت عاقبة فرعون وملئه الذين أفسدوا فى الأرض ، لقد أخذهم الله بذنوبهم فأغرقهم فى اليم ، وموسى - وقومه ينظرون إليهم ، وتلك عاقبة كل من طغى وآثر الحياة الدنيا .ووضع سبحانه - المفسدين موضع ضميرهم للايذان بأن الظلم مستلزم للافساد .و ( كَيْفَ ) خبر لكان مقدم عليها لاقتضائه الصادرة . وعاقبة ، اسمها ، وهذه الجملة الاستفهامية فى محل نصب على إسقاط حرف الجر ، إذ التقدير : فانظر بعين عقلك إلى كيفية ما فعلناه بهم .وهكذا نرى السورة الكريمة ترينا فى أول آية من هذه القصة الغرض الذى سيقت من أجله وهو التدبر فى عواقب المكذبين ، والتخويف من المصير الذى ساروا إليه ، وتنهى الناس فى كل زمان ومكان عن السير على منوالهم . والسورة الكريمة عندما ترينا ذلك فى مطلع هذه القصة تكون متناسقة كل التناسق مع أسلوبها الذى اختارته فى دعوة الناس إلى وحدانية الله وإلى مكارم الأخلاق ، وهو أسلوب التذكير بالنعم ، والتحذير من عواقب الظلم والطغيان - كما سبق أن أشرنا إلى ذلك فى التمهيد بين يدى السورة .

وقال موسى يا فرعون اني رسول من رب العالمين

كما فسرها الوسيط ثم بعد هذا التنبيه الاجمالى إلى مآل المفسدين ، أخذت السورة تحكى لنا ما دار بين موسى - عليه السلام - وبين فرعون بصورة مفصلة فقالت : (وَقَالَ موسى يافرعون إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ العالمين ) أى قال موسى - عليه السلام - لفرعون فى أدب واعتزاز إنى رسول من رب العالمين : أرسلنى إليك لأدعوك لعبادته والخضوع له ، .

حقيق على ان لا اقول على الله الا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فارسل معي بني اسرائيل

كما فسرها الوسيط ثم بين له أنه بمقتضى هذه الرسالة لا يقول إلا كلمة الحق فقال : ( حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لاَّ أَقُولَ عَلَى الله إِلاَّ الحق ) أى : جدير بألا أقول على الله إلا القول الحق .و ( حَقِيقٌ ) : صفة ( رَسُولٌ )

أو خبر لمبتدأ محذوف أى : أنا حقيق . أو خبر بعد خبر . و ( عَلَى ) بمعنى الباء .وقرأ أبىّ " حقيق بأن لا أقول على الله إلا الحق " وقرأ عبد الله ابن مسعود " حقيق ألا أقول " .وقرأ نافع " حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق " أى : واجب وحق على أن لا أخبر عنه - تعالى - إلا بما هو حق وصدق
ثم قال : ( قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ) أى : قد جئتكم. ) بحجة قاطعة من الله أعطانيها دليلا على صدقى فيما جئتكم به . وفى قوله . مِّن رَّبِّكُمْ ) إشعار بأن ما جاء به من حجج وبراهين لم يكن من صنعه وإنما هو من عند رب العالمين ، الذى بيده ملكوت كل شىء .( فَأَرْسِلْ مَعِيَ بني إِسْرَائِيلَ ) أى : قد جئتكم ببينة عظيمة الشأن فى الدلالة على صدقى . فأطلق بنى إسرائيل من أسرك واعتقهم من رقك وقهرك ، ودعهم يخرجون - أحراراً من تحت سلطانك ليذهبوا معى إلى دار سوى دارك .وإلى هنا يكون موسى عليه السلام - قد بين لفرعون طبيعة رسالته وطالبه برفع الظلم عن المظلومين . فماذا كان رد فرعون

قال ان كنت جئت باية فات بها ان كنت من الصادقين

كما فسرها الوسيط يحكى القرآن رده فيقول : ( قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ ) أى : بمعجزة تشهد بصدقك من عند من أرسلك كما تدعى ( فَأْتِ بِهَآ أى : فأحضرها عندى ليثبت بها صدقك فى دعواك ( إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ) ( فى دعواك أنك من الملتزمين لقول الحق .وعبر بإن المفيدة للشك فى تحقيق مضمون الجملى الشرطية ، للايذان بأنه ليس معتقداً فى صدق موسى - عليه السلام .

فالقى عصاه فاذا هي ثعبان مبين

كما فسرها الوسيط وهنا يحكى لنا القرآن ما أسرع بفعله موسى للرد على فرعون فقال : ( فألقى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ) : أى فألقى موسى عصاه التى كانت بيده أمام فرعون فإذا هى ثعبان مبين ، أى : ظاهر بين لاخفاء فى كونه ثعبانا حقيقيا يسعى فى خفة وسرعة كأنه جان .والثعبان : الذكر العظيم من الحيات ، وقيل : إنه الحية مطلقا .وذد ذكر بعض المفسرين روايات عن ضخامة هذا الثعبان وأحواله ، إلا أننا أضربنا عنها صفحا لضعفها .

ونزع يده فاذا هي بيضاء للناظرين

) : كما فسرها الوسيط ثم حكى القرآن معجزة أخرى لموسى تشهد بصدقة فقال وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّاظِرِينَ ) النزع : إخراج الشىء من مكانه . أى : وأخرج موسى يده من درعه بعد أن أدخلها فيه أو من طوق قميصه ، أو من إبطه فإذا هى بيضاء بياضاً عجيبا خارقا للعادة من غير أن يكون بها على من مرض أو غيره . قيل : إنه كان لها شعاع يغلب ضوء الشمس .قال الآلوسى : قوله ( فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّاظِرِينَ ) أى : بيضاء بياضا نورانيا خارجا عن العادى يجتمع عليه النظار . وقيل المعنى : بيضاء - لأجل النظار لا أنها بيضاء فى اصل خلقتها ، لأنه - عليه السلام - كان آدم أى أسمر - شديد الأدمة فقد أخرج البخارى عن عبد الله بن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " وأما موسى فآدم جثيم سبط كأنه من رجال الزط " وعنى صلى الله عليه وسلم بالزط جنسا من السودان والهنود .

قال الملا من قوم فرعون ان هذا لساحر عليم

كما فسرها الوسيط وبذلك يكون موسى قد أتى بالبينة التى تدعو فرعون وملأه إلى الإيمان به فهل آمنوا؟ كلا إنهم ما آمنوا بل استمروا فى ضلالهم ، وحكى لنا القرآن أن حاشية فرعون السيئة ، وأصحاب الجاه والغنى فى دولته غاظهم ما جاء به موسى ، يدل على ذلك قوله - تعالى - ( قَالَ الملأ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هذا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ) .أى : قال الأشراف من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم ، أى : راسخ فى علم السحر ، ماهر فيه . ولم يكتفوا بهذا القول الباطل ، بل أخذوا يثيرون الناس على موسى ، ويهولون لهم الأمر ليقفوا فى وجهه فقالوا ( يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ) .

يريد ان يخرجكم من ارضكم فماذا تامرون

كما فسرها الوسيط ( يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ )أى : يريد هذا الساحر أن يسلب منكم ملككم ، وأن يصبح هو ملكا على مصر ، فماذا تأمرون لإتقاء هذا الخطر الداهم؟ وبماذا تشيرون فى أمره؟ فهو من الأمر بمعنى المشاورة .يقال : آمرته فآمرنى . أى : شاورته فأشار على

قال صاحب الكشاف : فإن قلت قد عزى هذا الكلام إلى فرعون فى سورة الشعراء. حيث قال : ( قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ ) أى قال فرعون للملأ حوله ( إِنَّ هذا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ) ؟ وهنا عزى إلى الملأ فكيف الجمع ، قلت : قد قاله هو وقالوه هم فحكى قوله هناك وقولهم ههنا . أو قاله ابتداء فتلقفه منه الملأ فقالوه لأعقابهم . أو قالوه عنه للناس عن طريق التبليغ كما يفعل الملوك ، يرى الواحد منهم الرأى فيكلم به من يليه من الخاصة ، ثم تبلغه الخاصة العامة . وقولهم : ( فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ) من كلام فرعون ، قاله للملأ لما قالوا له : إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم " كأنه قيل : فماذا تأمرون؟ فأجابوه : " . . . ارجه وأخاه :

قالوا ارجه واخاه وارسل في المدائن حاشرين

) : كما فسرها الوسيط ثم حكى القرآن ما أشار به الملأ من قوم فرعون فقال : ( قَالوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي المدآئن حَاشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ) .أرجه : أصله أرجئه - وقد قرىء به - حذفت الهمزة وسكنت الهاء ، تشبيها للضمير المنفصل بالضمير المتصل . والإرجاء التأخير . يقال : ارجيت هذا الأمر وارجأته ، إذا أخرته . ومنه ( تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ ) - والمدائن : أى : البلاد جمع مدينة ، وهى من مدن بالمكان - كنصر - إذا أقام به ، و ( حَاشِرِينَ ) أى : جامعين ، يقال : حشر الناس - من باب نصر وضرب - يحشرهم حشرا إذا جمعهم ، ومنه : يوم الحشر والمحشر والمعنى : قال الملأ من قوم فرعون حني استشارهم فى أمر موسى : أخر أمره. وأمر أخيه ولا تتعجل بالقضاء فى شأنهما ، وأرسل فى مدائن ملكك رجالا أو جماعات من الشرطة يجمعون إليك السحرة المهرة ، لكى يقفوا فى وجه هذا الساحر العليم ، ويكشفوا عن سحره ويبطلوه بسحر مثله أو أشد " وكان السحر فى عهد فرعون من الأعمال الغالبة التى يحسنها كثير من أهل مملكته .وقال بعضهم : الأمر بالتأخير دل على أنه تقدم منه أمر آخر ، وهو الهم بقتله ، فقالوا له أخره ليتبين حاله للناس .وقال القاسمى : تدل الآية على معجزة عظيمة لموسى : وتدل على جهل فرعون وقومه ، حيث لم يعلموا أن قلب العصا حية تسعى لا يقدر ، عليه إلا الله وتدل على أن من عادة البشر أن من رأى أمراً عظيما أن يعارضه فلذلك دعا فرعون بالسحرة وتدل على أنهم أنكروا أمره محافظة على الملك ، والمال ، لذلك قالوا ( يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ ) فيدل على أن من أقوى الدواعى إلى ترك الدين ، المحافظة على الرياسة والمال والجاه كما هى عادة الناس فى هذا الزمن " .وقوله ( فِي المدآئن ) متعلق . بأرسل ، و ( حَاشِرِينَ ) نعت لمحذوف أى : رجالا حاشرين . ومفعوله محذوف . أى : حاشرين السحرة ، بدليل ما بعده .

ياتوك بكل ساحر عليم

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

وجاء السحرة فرعون قالوا ان لنا لاجرا ان كنا نحن الغالبين

كما فسرها الوسيط ولا يذكر السياق القرآنى بعد ذلك أنهم أرسلوا إلى السحرة ولا أنهم جمعوهم ، وإنما يترك ذلك للعقل يفهمه حيث لا داعى لذكر هذه ، التفاصيل . ويتجه القرآن إلى الحديث عما دار بين السحرة وبين فرعون بعد أن جمعوا من مدائن الصعيد بمصر حيث كان مقرهم هناك فيقول : ( وَجَآءَ السحرة فِرْعَوْنَ قالوا إِنَّ لَنَا لأَجْراً إِن كُنَّا نَحْنُ الغالبين قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ المقربين ) .أى : وأقبل السحرة سريعا على فرعون بعد أن أرسل إليهم فقالوا له بلغة المحترف الذى مقصده الأول مما يعمله الأجر والعطاء : إن لنا لأجراً عظيما إن كانت لنا الغلبة على هذا الساحر العليم؟ فهم يستوثقون أولا من جزالة الأجر وضخامته . وهنا يجيبهم فرعون بقوله : نعم لكم أجر مادى جزيل إذا انتصرتم عليه ، وفضلا عن ذلك فأنتم تكونون بهذا الانتصار من الظافرين بقربى وجوارى . فهو يغريهم بالأجر المادى ويعدهم بالقرب المعنوى من قلبه تشجيعا لهم على الإجادة ، وهو وهم لا يعلمون أن الموقف ليس موقف الاحتراف والمهارة والتضليل ، وإنما هو موقف المعجزة والرسالة والاتصال بالقوة الغالبة التى لا يستطيع الوقوف فى وجهها الساحرون ، ولا المتجبرون وغيرهم .هذا ، وقد اختلف الفسرون فى عدد هؤلاء السحرة فقيل . كانوا اثنين وسبعين ساحراً ، وقيل كانوا أكثر من ذلك بكثير

قال نعم وانكم لمن المقربين

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html}

ولا يذكر السياق القرآنى بعد ذلك أنهم أرسلوا إلى السحرة ، ولا أنهم جمعوهم وإنما يترك ذلك للعقل يفهمه حيث لا داعى لذكر هذه التفاصيل . ويتجه ، القرآن إلى الحديث عما دار بين السحرة وبين فرعون بعد أن جمعوا من مدائن الصعيد بمصر حيث كان مقرهم هناك فيقول : ( وَجَآءَ السحرة فِرْعَوْنَ قالوا إِنَّ لَنَا لأَجْراً إِن كُنَّا نَحْنُ الغالبين قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ المقربين ) .أى : وأقبل السحرة سريعا على فرعون بعد أن أرسل إليهم فقالوا له بلغة المحترف الذى مقصده الأول مما يعمله الأجر والعطاء : إن لنا لأجراً عظيما إن كانت لنا الغلبة على هذا الساحر العليم؟ فهم يستوثقون أولا من جزالة الأجر وضخامته . وهنا يجيبهم فرعون بقوله : نعم لكم أجر مادى جزيل إذا انتصرتم عليه ، وفضلا عن ذلك فأنتم تكونون بهذا الانتصار من الظافرين بقربى وجوارى . فهو يغريهم بالأجر المادى ويعدهم بالقرب المعنوى من قلبه تشجيعا لهم على الإجادة ، وهو وهم لا يعلمون أن الموقف ليس موقف الاحتراف والمهارة والتضليل ، وإنما هو موقف المعجزة والرسالة والاتصال بالقوة الغالبة التى لا يستطيع الوقوف فى وجهها الساحرون ولا المتجبرون وغيرهم هذا ، وقد اختلف الفسرون فى عدد هؤلاء السحرة فقيل ، كانوا اثنين وسبعين. ساحراً ، وقيل كانوا أكثر من ذلك بكثير .

قالوا يا موسى اما ان تلقي واما ان نكون نحن الملقين

، كما فسرها الوسيط وبعد أن اطمأن السحرة على الأجر ، وتطلعت نفوسهم إليه يحكى لنا القرآن أنهم توجهوا إلى موسى بلغة الواثق من قوته ، المتحدى لخصمه قَالُواْ ياموسى إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ) : الملقين ) .أى : أنت يا موسى مخير بين أن تلقى عصاط أولا؛ وبين أن نلقى نحن أولا وأنت تفعل ما تشاء بعدنا ، وكأنهم يقولون له : وفى كلتا الحالتين فنحن على قة من الفوز والنصر فأرح نفسك واستسلم لنا مقدما .ويرى الزمخشرى أن تخييرهم إياه أدب حسن راعوه معه ، كما يفعل أهل الصناعات إذا التقوا كالمتناظرين قبل أن يتخاوضوا فى الجدال ، والمتصارعين قبل أن يتآخذوا فى الصراع .ولقد حكى لنا القرآن فى سورة طه أن موسى نصحهم بعدم الدخول معه فى معركة هم الخاسرون فيها قطعا فقال : ( قَالَ لَهُمْ موسى وَيْلَكُمْ لاَ تَفْتَرُواْ عَلَى الله كَذِباً فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افترى )

قال القوا فلما القوا سحروا اعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم

كما فسرها الوسيط أما هنا فيحكى لنا القرآن أن موسى - عليه السلام - قد طلب ، منهم أن يلقوا أولا مستهينا بتحديهم له ، غير مبال بهم ولا بمن جمعهم لأنه قد اعتمد على خالقه ( قَالَ أَلْقَوْاْ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سحروا أَعْيُنَ الناس واسترهبوهم وَجَآءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ) .أى : قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون أولا ، فلما ألقوا ما كان معهم من الحبال والعصى أى : خيلوا إلى الأبصار أن ما فعلوه له حقيقة فى ( سحروا أَعْيُنَ الناس ) الخارج مع أنه لم يكن إلا مجرد صنعة وخيال ، ولذا لم يقل - سبحانه - سحروا ) . الناس .وقوله ( واسترهبوهم ) أى : خوفوهم وأفزعوهم بما فعلوا من السحر وَجَآءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ) أى : فى باب السحر ، أو فى عين من رآه ، فإنه ) - ألقى كل واحد منهم عصاه ، فصارت كأنها ثعابين .والتعبير بقوله - سبحانه واسترهبوهم ) تعبير مصور بليغ ، فهو يوحى بأنهم استجاشوا وجدان الناس قسرا وساقوهم سوقا بوسائل مصطنعة مفتعلة لا تستند إلى واقع سليم .روى أنهم ، ألقوا حبالا غلاظا وخشبا طوالا ، فإذا حيات كأمثال الجبال قد ملأت الوادى يركب بعضها بعضا .وروى أنهم لونوا حبالهم وخشبهم وجعلوا فيها ما يوهم الحركة . قيل : جعلوا فيها الزئبق .وقال بعض العلماء : قيل إنها كانت عصيا ، مجوفة قد ملئت زئبقا ، وقد حفروا قبل ذلك تحت المواضع أسرابا ملؤها نارا فلما طرحت عليها العصى المجوفة المملوءة عليها العصى المجوفة المملوءة بالزئبق حركها ، لأن شأن الزئبق إذا أصابته النار أن يطير ، فأخبر الله أن ذلك كان مموها على غير حقيقته . فعلى هذا يكون سحرهم لأعين الناس عبارة عن هذه الحيلة الصناعية . "

واوحينا الى موسى ان الق عصاك فاذا هي تلقف ما يافكون

كما فسرها الوسيط ويمضى القرآن فيبين لنا أن هذا السحر العظيم الذى استرهب الناس وسحر أعينهم ، قد تهاوى فى لحظة ، وانطوى فى ومضة ، وزالت آثاره بعد أن قذفه موسى بسلاح الحق الذى سلحه به ربه ، استمع إلى القرآن وهو يحكى ذلك فيقول : ( وَأَوْحَيْنَآ إلى موسى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَوَقَعَ الحق وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وانقلبوا صَاغِرِينَ ) .اللقف : التناول بسرعة . يقال : لقف الشىء يلقفه لقفا ولقفانا ، أخذه بسرعة .والإفك : الكذب . يقال

أفَكَ يأفِكُ ، وأفك يأفك إفكا وأفكا - كضرب وعلم - إذا كذب ، واصله من الأفك - بفتح أوله - وهو بمعنى صرف الشىء عن وجهه الذى يجب أن يكون عليه . واطلق على الكذب إفك - بكسر الهمزة - لكونه مصروفا عن وجه الحق ، ثم صار حقيقة فيه .والمعنى : وأوحينا إلى موسى - بعد أن أوجس خيفة مما رآه من أمر السحرة - أن الق عصاك ولا تخف إنك أنت الأعلى ، فألقاها فإذا هى تبتلع وتلتقم بسرعة ما يكذبون ويموهون به أولئك السحرة

فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون

- كما فسرها الوسيط ( فَوَقَعَ الحق ) أى : ظهر وتبين الحق الذى عليه موسى وفسد وبطل ما كانوا يعملون من الحيل والتخييل وذهب تأثيره . وترتب على ذلك أن أصابت الهزيمة المنكرة فرعون وملأه وسحرته فى ذلك المجمع العظيم ، الذى حشر الناس له فى يوم عيدهم وزينتهم ، وانقلب الجميع إلى بيوتهم صاغرين أذلاء ، بعد أن أنزل بهم موسى الخذلان والخيبة .وأن قوله ( أَنْ أَلْقِ ) يجوز أن تكون مفسرة لتقدم ما فيه معنى القول دون حروفه وهو الإيحاء ، ويجوز ) أن تكون مصدرية فتكون هى وما بعدها مفعول الإيحاء .والفاء فى قوله فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ ) فصيحة أى : فألقاها فصارت حية فإذا هى تلقف ما يأفكون .وإنما حذف هذا المقدر للإيذان بمسارعة موسى إلى الإلقاء ، وبغاية سرعة الانقلاب ، كأن ابتلاعها لما يأفكون قد حصل متصلا بالأمر بالإلقاء .و فى قوله ( مَا يَأْفِكُونَ ) موصولة والعائد محذوف أى : الذى ( مَا ) يأفكونه ، أو مصدرية وهى مع الفعل بمعنى المفعول أى : فإذا هى تلقف المأفوك وفى التعبير بقوله - سبحانه - ( فَوَقَعَ الحق وَبَطَلَ مَا كَانُواْ . ، يَعْمَلُونَ ) تجسيم لهذا الحق الذى كان عليه موسى ، وتثبيت واستقرار له حتى لكأنه شىء ذو ثقل نزل على شىء آخر خفيف الوزن فأزاله ومحاه من الوجود وهذه الآيات الكريمة تصور لنا كيف أن الباطل قد يسحر عيون الناس ببريقه. لفترة من الوقت ، وقد يسترهب قلوبهم لساعة من الزمان ، حتى ليخيل إلى الكثيرين الغافلين أنه غالب وجارف . ولكن ما إن يواجهه الحق الهادىء الثابت المستقر بقوته التى لا تغالب حتى يزهق ويزول ، وينطفىء كشعلة الهشيم ، وإذا بأتباع هذا الباطل يصيبهم الذل والصغار ، وهم يرون صروحهم تتهاوى ، وآمالهم تتداعى ، أمام نور الحق المبين ، وإذا بتحديهم الصريح ، وتطاولهم الأحمق يتحول إلى استسلام مهين ، وذل مشين .

فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين

كما فسرها الوسيط ثم يحكى لنا القرآن بعد ذلك موقف السحرة بعد أن رأوا ) : بأعينهم أن ما فعله موسى - عليه السلام - ليس من قبيل السحر فقال ( فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وانقلبوا صَاغِرِينَ وَأُلْقِيَ السحرة سَاجِدِينَ أى : خبروا سجدا ، كأنما - كما قال الزمخشرى - قد القاهم ملق لشدة خرورهم أو لم يتمالكوا أنفسهم مما رأوا فكأنهم ألقوا .

والقي السحرة ساجدين

كما فسرها الوسيط والمراد أن ظهور بطلان سحرهم ، وإدراكهم بأن موسى على الحق ، قد حملهم على السجود لله - تعالى - وأن ور الحق قد بهرهم وجعلهم يسارعون إلى الإيمان حتى لكأن أحدا قد دفعهم إليه دفعا ، وألقاهم إليه إلقاء .

قالوا امنا برب العالمين

كما فسرها الوسيط وقوله ( قالوا آمَنَّا بِرَبِّ العالمين رَبِّ موسى ، وَهَارُونَ ) أى : قال السحرة بعد أن تبين لهم الحق وخروا ساجدين لله آمنا بمالك أمر العالمين ومدبر شئونهم ، والمتصرف فيهم ، وجملة ( رَبِّ موسى وَهَارُونَ ) بدل من الجملة التى قبلها ، أو صفة لرب العالمين ، أو عطف بيان . وفائدة ذلك نفى توهم من يتوهم أن رب العالمين قد يطلق على غير الله - تعالى - كقول فرعون ( أَنَا رَبُّكُمُ الأعلى ) وهكذا نرى أثر الحق عندما تخالط بشاشته القلوب الواعية ، لقد آمن السحرة وصرحوا بذلك أمام فرعون وشيعته ، لأنهم أدركوا عن يقين قطعى أن ما جاء به موسى - عليه السلام - ليس من قبيل السحر ، والعالم فى فنه هو أكثر الناس استعداداً للتسليم بالحقيقة حين تتكشف له ، ومن هنا فقد تحول السحرة من التحدى السافر إلى التسليم المطلق أمام صوله الحق الذى لا يجحده إلا مكابر حقود .

رب موسى وهارون

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html}

وقوله ( قالوا آمَنّا بِرَبِّ العالمين رَبِّ موسى وَهَارُونَ ) أى : قال السحرة بعد أن تبين لهم الحق وخروا ساجدين لله ، آمنا بمالك أمر العالمين ومدبر شئونهم ، والمتصرف فيهم ، وجملة ( رَبِّ موسى وَهَارُونَ ) بدل من الجملة التى قبلها ، أو صفة لرب العالمين ، أو عطف بيان . وفائدة ذلك نفى ) توهم من يتوهم أن رب العالمين قد يطلق على غير الله - تعالى - كقول فرعون أَنَا رَبُّكُمُ الأعلى ) وهكذا نرى أثر الحق عندما تخالط بشاشته القلوب الواعية ، لقد آمن السحرة وصرحوا بذلك أمام فرعون وشيعته ، لأنهم أدركوا عن يقين قطعى أن ما جاء به موسى - عليه السلام - ليس من قبيل السحر ، والعالم فى فنه هو أكثر الناس استعداداً للتسليم بالحقيقة حين تتكشف له ، ومن هنا فقد تحول السحرة من التحدى السافر إلى التسليم المطلق أمام صوله الحق الذى لا يجحده إلا مكابر حقود .

قال فرعون امنتم به قبل ان اذن لكم ان هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها اهلها فسوف تعلمون

كما فسرها الوسيط ولكن فرعون وملأه لم يرقهم ما شاهدوا من إيمان السحرة ، ولم يدركوا لانطماس بصيرتهم فعل الإيمان فى القلوب ، فأخذ يتوعدهم بالموت الأليم ويحكى القرآن ذلك فيقول : ( قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُمْ بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُمْ ) أى : قال فرعون منكراً على السحرة إيمانهم ، آمنتم برب موسى وهارون قبل أن آمركم أنا بذلك؟ فهو لغروره وجهله ظن أن الإيمان بالحق بعد أن تبين يحتاج إلى استئذان .ثم أضاف إلى ذلك اتهامهم بأن إيمانهم لم يكن عن إخلاص ليصرف الناس عنهم فقال : ( إِنَّ هذا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي المدينة لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا ) أى : إن ما صنعتموه من الإيمان برب موسى وهارون ليس عن اقتناع منكم بذلك ، بل هو حيلة احتلتموها أنتم وموسى قبل أن يلقى كل منكم بسحره ، لكى تخرجوا من مصر أهلها الشرعيين وتخلص لكم ولبنى إسرائيل .وغرضه من هذا القول إفهام قبط مصر أن إيمان ، السحرة كان عن تواطؤ مع موسى ، وأنهم يهدفون من وراء ذلك إلى إخراجهم من أوطانهم ، فعليهم . - أية القبط - أن يستمسكوا بدينهم وأن يعلنوا عداوتهم لموسى وللسحرة ولبنى إسرائيل .ولا شك أن هذا لون من الكذب الخبيث أراد من ورائه فرعون صد الناس عن الإيمان بموسى - عليه السلام - .ثم أتبع هذا الاتهام الباطل بالوعيد الشديد فقال : ( فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ) أى : فسوف تعلمون عاقبة ما فعلتم .

لاقطعن ايديكم وارجلكم من خلاف ثم لاصلبنكم اجمعين

كما فسرها الوسيط ثم فصل هذا الوعيد بقوله : ( لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلاَفٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ) .أى : أقسم لأقطعن من كل شق منكم عضواً مغايراً للآخر ، كاليد من الجانب الأيمن والرجل من الجانب الأيسر ، ثم لأصلبنكم أجمعين تفضيحاً لكم ، وتنكيلا لأمثالكم . ومع أن فرعون قد توعد هؤلاء المؤمنين بالعذاب والتشويه والتنكيل والموت القاسى البطىء الموهوب ، فإننا نراهم يقابلون كل ذلك بالصبر الجميل والإيمان العميق ، والاستهانة ببطش فرعون وجبروته فيقولون له بكل ثبات ، واطمئنان :

قالوا انا الى ربنا منقلبون

كما فسرها الوسيط ( إِنَّآ إلى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ) قال صاحب الكشاف : فيه أوجه : أن يريدوا إنا لا نبالى بالموت لانقلابنا إلى لقاء ربنا ورحمته وخلاصنا منك ومن لقائك .أو ننقلب إلى الله يوم الجزاء فيثيبنا على شدائد القطع والصلب . أو إنا جميعاً يعنون أنفسهم وفرعون ننقلب إلى الله فيحكم بيننا . أو إنا لا محالة ميتون منقلبون إلى الله فما تقدر أن تفعل بنا إلا ما لا بد لنا منه " .

وما تنقم منا الا ان امنا بايات ربنا لما جاءتنا ربنا افرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين

كما فسرها الوسيط ثم قالوا له على سبيل الاستهزاء والتوبيخ ( وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ) أى : وما تكره منا وتعيب إلا الإيمان بالله ، مع أن ما تكرهه منا وتعيبه علينا هو أعظم محاسننا ، لأنه خير الأعمال ، وأعظم المناقب ، فلا نعدل عنه طلباً لمرضاتك .يقال : نقم عليه أمره ، ونقمت منه نقما - من باب ضرب - عبته وكرهته أشد الكراهة .قال الجمل : وقوله ( إِلاَّ أَنْ آمَنَّا ) يجوز أن يكون فى محل نصب مفعول به ، أى : ما تعيب علينا إلا إيماننا .ويجوز أن يكون

. مفعولا من أجله . أى : ما تنال منا وتعذبنا لشىء من الأشياء إلا لإيماننا
وعلى كل من القولين فهو استثناء مفرغ " .ثم ختموا مناقشتهم لفرعون
بالانصراف عنه والالتجاء إلى الله - تعالى - فقالوا : ( رَبَّنَآ أَفْرِغْ
عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ) أى : يا ربنا افض علينا
صبراً واسعاً لنثبت على دينك ، وتوفنا إليك حالة كوننا مسلمين لك مذعنين
لأمرك ونهيك ، مستسلمين لقضائك .وبذلك يكون السحرة قد ضربوا للناس فى كل
زمان ومكان أروع الأمثال فى التضحية من أجل العقيدة ، وفى الوقوف أمام
الطغيان بثبات وعزة ، وفى الصبر على المكاره والآلام ، وفى المسارعة إلى
الدخول فى الطريق الحق بعد أن تبين لهم ، وفى التعالى عن كل مغريات الحياة
، قال قتادة : كانوا فى أول النهار كفاراً سحرة . وفى آخره شهداء بررة.
فرضى الله عنهم وحشرنا فى زمرتهم .وبعد هذا الحديث الذى ساقته السورة عما
دار بين موسى وفرعون ، وبين موسى والسحرة ، والذى انتهى بإيمان السحرة برب
العالمين بعد ذلك بدأت السورة تحكى لنا ما قاله الملأ من قوم فرعون بعد
هزيمتهم المنكرة ، وما قاله موسى - عليه السلام - لقومه بعد أن بلغهم وعيد
) : فرعون وتهديده لهم ، وما رد به قومه عليه مما يدل على سفاهتهم فقالت
. ( . . . . وَقَالَ الملأ

وقال الملا من قوم فرعون اتذر موسى وقومه ليفسدوا في الارض ويذرك والهتك
قال سنقتل ابناءهم ونستحيي نساءهم وانا فوقهم قاهرون

كما فسرها الوسيط قوله - تعالى - ( وَقَالَ الملأ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ
أَتَذَرُ موسى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأرض وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ
أى : قال الزعماء والوجهاء من قوم فرعون له ، بعد أن أصابتهم الهزيمة. (
والخذلان فى معركة الطغيان والإيمان ، قالوا له على سبيل التهييج والإثارة
أتترك موسى وقومه أحراراً آمنين فى أرضك ، ليفسدوا فيها بإدخال الناس فى :
دينهم ، أو جعلهم تحت سلطانهم ورياستهم .روى أنهم قالوا له ذلك بعد أن رأوا
) عدداً كبيراً من الناس ، قد دخل فى الإيمان متبعاً السحرة الذين قالوا
: آمَنَّا بِرَبِّ العالمين ) وقوله ( وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ) معناه
أتتركهم أنت يعبدون رب موسى وهارون ، ويتركون عبادتك وعبادة آلهتك ، فيظهر
: للناس عجزك وعجزها ، فتكون الطامة الكبرى التى بها بفسد ملكك .قال السدى
إن فرعون كان قد صنع لقومه أصناماً صغاراً وأمرهم بعبادتها ، وسمى نفسه
الرب الأعلى .وقال الحسن إنه كان يعبد الكواكب ويعتقد أنها المربية للعالم
السفلى كله ، وهو رب النوع الإنسانى .وقد قرىء ( وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ )
بالنصب والرفع أما النصب فعلى أنه معطوف على ( لِيُفْسِدُواْ ) وأما الرفع
فعلى أنه عطف على ( أَتَذَرُ ) أو على الاستئناف ، أو على أنه حال بحذف
المبتدأ أى : وهو يذرك .والمتأمل فى هذا الكلام الذى حكاه القرآن عن الملأ
من قوم فرعون ، يراه يطفح بأشد ألوان التآمر والتحريض . فهم يخوفونه فقدان
الهيبة والسلطان بتحطيم الأوهام التى يستخدمها السلطان ، لذا نراه يرد
عليهم بمنطق الطغاة المستكبرين فيقول : ( سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ
وَنَسْتَحْيِي نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ) .أى :لا
تخافوا ولا ترتاعوا أيها الملأ فإن قوم موسى أهون من ذلك ، وسننزل بهم ما
كنا نفعله معهم من قبل وهو تقتيل الأبناء ، وترك النساء أحياء ، وإنا فوقهم
غالبون كما كنا ما تغير شىء من حالنا ، فهم الضعفاء ونحن الأقوياء ، وهم
الأذلة ونحن الأعزة .فأنت ترى أن ما قاله الملأ من قوم فرعون هو منطق حاشية
السوء فى كل عهود الطغيان فهم يرون أن الدعوة إلى وحدانية الله إفساد فى
الأرض ، لأنها ستأتى على بنيانهم من القواعد . ولأنها هى الدعوة إلى
. وحدانية الله إفساد فى الأرض ، لأنها ستأتى على بنيانهم من القواعد
، ولأنها هى الدعوة إلى وحدانية الله التى ستحرر الناس من ظلمهم وجبرتهم
وتفتح العيون على النور الذى يخشاه أولئك الفاسقون .وترى أن ما قاله فرعون
هو منطق الطغاة المستكبرين دائماً . فهم يلجأون إلى قوتهم المادية ليحموا
بها آثامهم ، وشهواتهم ، وسلطانهم القائم على الظلم ، والبطش ، والمنافع
الشخصية .ويبلغ موسى وقومه هذا التهديد والوعيد من فرعون وملئه فماذا قال
موسى - عليه السلام -؟ لقد حكى القرآن عنه أنه لم يحفل بهذا التهديد بل
. أوصى قومه بالصبر ، ولوح لهم بالنصر

قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا ان الارض لله يورثها من يشاء من
عباده والعاقبة للمتقين

- كما فسرها الوسيط استمع إلى القرآن وهو يحكى قول موسى - عليه السلام
فيقول :( قَالَ موسى لِقَوْمِهِ استعينوا بالله واصبروا إِنَّ الأرض للَّهِ
: يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ والعاقبة لِلْمُتَّقِينَ ) .أى
قال موسى لقومه على سبيل التشجيع والتسلية حين ضجوا وارتعبوا من تهديدات
، فرعون وملئه : يا قوم استعينوا بالله فى كل أموركم . واصبروا على البلاء
- فهذه الأرض ليست ملكا لفرعون وملئه ، وإنما هى ملك لله رب للعالمين ، وهو

سبحانه - يورثها لمن يشاء من عباده ، وقد جرت سنته - سبحانه - أن يجعل العاقبة الطيبة لمن يخشاه ولا يخشى أحداً سواه .

قالوا اوذينا من قبل ان تاتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم ان يهلك عدوكم ويستخلفكم في الارض فينظر كيف تعملون

، كما فسرها الوسيط بهذا الأسلوب المؤثر البليغ ، وبهذه الوصايا الحكيمة وصى موسى قومه بنى إسرائيل فماذا كان ردهم عليه؟ لقد كان ردهم يدل على سفاهتهم ، فقد قالوا له : ( أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ) أى : قال بنو إسرائيل لموسى رداً على نصيحته لهم : لقد أصابنا الأذى من فرعون قبل أن تأتينا يا موسى بالرسالة ، فقد قتل منا ذلك الجبار الكثير من أبنائنا وأنزل بنا ألواناً من الظلم والاضطهاد وأصابنا الأذى بعد أن جئتنا بالرسالة كما ترى من سوء أحوالنا . واشتغالنا بالأشغال الحقيرة المهينة ، فنحن لم نستفد من رسالتك شيئاً ، فإلى متى نسمع منك تلك النصائح التى لا جدوى من ورائها؟ومع هذا الرد السفيه من قوم موسى عليه ، نراه يرد عليهم بما يليق به فيقول : ( عسى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ ) فرعون الذى فعل بكم ما فعل من أنواع الظلم ، وتوعدكم بما توعد من صنوف الاضطهاد .( وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ ) أى يجعلكم خلفاء فيها من بعد هلاكه هو وشيعته . ( فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ) أى : فيرى - سبحانه - الكائن منكم من العمل ، حسنه وقبيحه ، ليجازيكم على حسب أعمالكم ، فإن استخلافكم فى الأرض من بعد هلاك أعدائكم ليس محاباة لكم ، وإنما هو استخلاف للاختبار والامتحان ، فإن أحسنتم زادكم الله من فضله وإن أسأتم كان مصيركم كمصير أعدائكم .وفى التعبير " بعسى " الذى يدل على الرجاء ، أدب عظيم من موسى مع ربه - عز وجل - : وتعليم للناس من بعده أن يلتزموا هذا الأدب السامى مع خالقهم ، وفيه كذلك منع لهم من الاتكال وترك العمل ، لأنه لو جزم لهم فى الوعد فقد يتركون السعى والجهاد اعتماداً على ذلك .وقيل : إن موسى ساق لهم ما وعدهم به فى صيغة الرجاء لئلا يكذبوه ، لضعف نفوسهم بسبب ما طال عليهم من الذل والاستخذاء لفرعون وقومه واستعظامهم لملكه وقوته ، فكأنهم يرون أن ما قاله موسى مستبعد الحصول ، لذا ساقه لهم فى صورة الرجاء .ثم تمضى السورة الكريمة بعد ذلك فتحدثنا فى بضع آيات عن العذاب الذى أخذ الله به آل فرعون بسبب ظلمهم وطغيانهم ، وكيف أن الله - تعالى - قد حقق لموسى رجاءه ، وكيف أن أولئك الظالمين لمن يمنعهم العذاب الذى نزل بهم من ارتكاب المنكرات والآثام .

ولقد اخذنا ال فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون

كما فسرها الوسيط تدبر معنا أيها القارىء الكريم تلك الآيات الكريمة التى تحكى كل ذلك وغيره بأسلوبها البليغ المؤثر .قال القرطبى : قوله - تعالى - : ( وَلَقَدْ أَخَذْنَآ آلَ فِرْعَونَ بالسنين ) يعنى الجدب ، وهذا معروف فى اللغة ، يقال : أصابتهم سنة ، أى : جدب . وتقديره : جدب سنة ، وفى الحديث " اللهم اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف " والسنة هنا بمعنى الجدب لا بمعنى الحول . ومنه أسنت القوم ، أى أجدبوا وقحطوا .وقال الآلوسى : هذا شروع فى تفصيل مبادئ الهلاك الموعود به ، وإيذان بأنهم لم يمهلوا حتى تحولوا من حال إلى حال إلى أن حل بهم عذاب الاستئصال .والمعنى : ولقد أخذنا آل فرعون أى : اختبرناهم وامتحناهم بالجدب والقحط ، وضيق المعيشة ، وانتقاص الثمرات لعلهم يثوبون إلى رشدهم؛ ويتذكرون ضعفهم أمام قوة خالقهم ، ويرجعون عما هم فيه من الكفر والعصيان ، فإن الشدائد من شأنها أن ترقق القلوب ، وتصفى النفوس ، وترغب فى الضراعة إلى الله ، وتدعو إلى اليقظة والتفكير ومحاسبة النفس على الخطايا اتقاء للبلاء .وصدرت الآية الكريمة بالقسم ، لاظهار الاعتناء بمضمونها .والمراد بآل فرعون قومه وأتباعه ، فهم مؤاخذون بظلمه وطغيانه ، لأن قوته المالية والجندية منهم ، وقد خلقهم الله أحراراً؛ وأكرمهم بالعقل والفطرة التى تكره الظلم والطغيان بالغريزة فكان حقا عليهم ألا يقبلوا استعباده لهم وجعلهم آلة لطغيانه ، لا سيما بعد بعثة موسى - عليه السلام - ووصول دعوته إليهم ، ورؤيتهم لما أيده الله به من الآيات .وإضافة الآل إليه وهو لا يضاف إلا إلى الأشراف ، لما فيه من الشرف الدنيوى الظاهر ، وإن كان فى نفس الأمر خسيسا .

فاذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وان تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه الا انما طائرهم عند الله ولكن اكثرهم لا يعلمون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن آل فرعون لم يعتبروا بهذا الأخذ والامتحان ، وإنما ازدادوا تمردا وكفرا فقال : ( فَإِذَا جَآءَتْهُمُ الحسنة قَالُواْ لَنَا هذه ) .أى : فإذا جاءهم ما يستحسنونه من الخصب والسعة والرخاء ، قالوا بغرورن وصلف : ما جاء هذا الخير إلا من أجلنا لأننا

أهل له ، ونحن مستحقوه وبكدنا واجتهادنا وامتيازنا على غيرنا ناسين فضل الله عليهم ، ولطفه بهم ، غافلين عن شكره على نعمائه .( وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بموسى وَمَن مَّعَهُ ) أى : وإن اتفق أن أصابتهم ، سيئة أى : حالة تسوءهم كجدب أو قحط أو مصيبة فى الأبدان أو الأرزاق تشاءموا بموسى ومن معه من أتباعه ، وقالوا : ما أصابنا ما أصابنا إلا بشؤمهم ونحسهم ، ولو لم يكونوا معنا لما أصبنا .وأصل ( يَطَّيَّرُواْ ) يتطيروا فأدغمت التاء فى الطاء لمقاربتها لها . والتطير التشاؤم والأصل فى إطلاق التطير على التشاؤم : أن العرب كانت تزجر الطير فتتشاءم بالبارح وهو ما طار إلى الجهة اليسرى ، وتتيامن بالسانح وهو ما طار إلى الجهة اليمنى . ومنه سموا الشؤم طيرا وطائراً ، والتشاؤم تطيرا . وقد يطلق الطائر على الحظ والنصيب خيراً كان أو شراً ، ولكنه غالب فى الشر .وإنما عرف الحسنة وذكرها ، مع أداة التحقيق - وهى إذا - لكثرة وقوعها وتعلق الإرادة بإحداثها بالذات . لأن العناية الإلهية إقتضت سبق الرحمة وعموم النعمة قبل حصول الأعمال ونكر السيئة وذكرها بأداة الشك - وهى إن - لندورها وعدم تعلق الإرادة بإحداثها إلا بالتبع ، فإن النقمة بمقتضى تلك العناية إنما تستحق بسبب الأعمال السيئة .وقوله - تعالى - ( ألا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ الله ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ) استئناف مسوق للرد على خرافاتهم وأباطيلهم . وصدر بلفظ " ألا " الذى يفيد التنبيه لإبراز كمال العناية بمضمون هذا الخبر .أى : إنما سبب شؤمهم هو أعمالهم السيئة المكتوبة لهم عند الله ، فهى التى ساقت إليهم ما يسوءهم وليس لموسى ولا لمن معه أى تدخل فى ذلك . ولكن أكثرهم يجهلون هذه الحقيقة ، فيقولون ما يقولون مما تمليه عليهم أهواؤهم وجهالاتهم .وفى إسناد عدم العلم إلى أكثرهم ، إشعار بأن قلة منهم تعلم ذلك ، ولكنها لا تعمل بمقتضى علمها .هذا ، وقد أفادت الآية الكريمة أن القوم لم يتأثروا لا بالرخاء ولا بالشدائد . الرخاء العظيم ، والخصب الواسع زادهم غروراً وبطراً ، والشدائد والمحن جعلتهم ينسبون أسبابها إلى غيرهم دون أن يتوبوا إلى الله من ذنوبهم . مع أن الشدائد - كما يقول صاحب " الكشاف - تجعل الناس " أضرع خدوداً وألين أعطافا ، وأرق أفئدة .

وقالوا مهما تاتنا به من اية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين

كما فسرها الوسيط ثم تحكى السورة الكريمة أن آل فرعون قد لجوا فى طغيانهم يعمهون فقالت : ( وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ) .أى : قال الملأ من بنى إسرائيل لموسى بعد أن رأوا من حججه الدالة على صدقه : إنك يا موسى إن تجئنا بكل نوع من أنواع الآيات التى تستدل بها على حقية دعوتك لأجل أن تسحرنا بها ، أى تصرفنا بها عما نحن فيه ، فما نحن لك بمصدقين ، ولا لرسالتك بمتبعين .ومنطقهم هذا يدل على منتهى العناد والجحود ، فهم قد صاروا فى حالة نفسية لا يجدى معها دليل ولا ينفع فيها إقناع ، لأنهم قد أعلنوا الإصرار على التكذيب حتى ولو أتاهم نبيهم بألف دليل ودليل ، وهكذا شأن الجبارين الذين قست قلوبهم ، ومسخت نفوسهم وأظلمت مشاعرهم ، حين يدمغهم الحق ، ويطاردهم الدليل الساطع بنوره الواضح ، إنهم تأخذهم العزة بالإثم فيأبون أى لون من ألوان التفكير والتدبر .قال الجمل : و ( مَهْمَا ) اسم " شرط جازم - يدل على العموم - ، و ( مِن آيَةٍ ) بيان له ، والضميران فى به " و " بها " راجعان لمهما الأول مراعاة للفظها لإبهامه ، والثانى مراعاة لمعناها " .وسموا ما جاء به موسى - عليه السلام - آية من باب المجاراة له والاستهزاء بها حيث زعموا أها نوع من السحر كما ينبئ عنه قولهم ( لِّتَسْحَرَنَا بِهَا ) .

فارسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ايات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين

كما فسرها الوسيط ثم حكت السورة الكريمة ما حل بهؤلاء الفجرة من عقوبات جزاء عتوهم وعنادهم فقالت : ( فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيَاتٍ مُّفَصَّلاَتٍ فاستكبروا وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ ) .أى : فأرسلنا على هؤلاء الجاحدين عقوبة لهم الطوفان .قال الآلوسى : أى : ما طاف بهم ، وغشى أماكنهم وحروثهم من مطر وسيل ، فهو اسم جنس من الطواف . وقد اشتهر فى طوفان الماء ، وجاء تفسيره هنا بذلك فى عدة روايات عن ابن عباس وجاء عن عطاء ومجاهد تفسيره بالموت ،وفسره بعضهم بالطاعون وكانوا أول من عذبوا به " .وأرسلنا عليهم ( الْجَرَادَ ) فأكل زروعهم وثمارهم وأعشابهم ، حتى ترك أرضهم سوداء قاحلة .وأرسلنا عليهم ( القمل ) وهو ضرب معروف من الحشرات المؤذية ، وقيل : هو السوس الذى أكل حبوبهم وما اشتملت عليه بيوتهم .وأرسلنا عليهم ( الضفادع ) فصعدت من الأنهار والخلجان والمنابع فغطت الأرض وضايقتهم فى معاشهم ومنامهم .وأرسلنا عليهم ( الدم ) فصارت مياه الأنهار مختلطة به ، فمات السمك فيها ، وقيل

المراد بالدم الرعاف الذى كان يسيل من أنوفهم .تلك هى النقم التى أنزلها الله - تعالى - على هؤلاء المجرمين ، بسبب فسوقهم عن أمر ربهم ، وتكذيبهم لنبيهم - عليه السلام - .وقوله : ( آيَاتٍ ) حال من العقوبات الخمس المتقدمة .وقوله : ( مّفَصَّلاَتٍ ) أى : مبينات واضحات لا يشك عاقل فى كونها آيات إلهية لا مدخل فيها للسحر كما يزعمون .وقيل ( مّفَصَّلاَتٍ ) أى مميزا بعضها عن بعض ، منفصلة بالزمان لامتحان أحوالهم . وكان بين كل اثنين منها شهر ، وكان امتداد كل واحدة منها شهرا ، كما أخرج ذلك ابن المنذر عن ابن عباس .ثم وضحت الآية فى نهايتها موقفهم من هذا الابتلاء وتلك العقوبات فقالت :( فاستكبروا وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ ) أى ، فاستكبروا عن الإيمان بموسى - عليه السلام - وعما جاء به من معجزات . وكانوا قوما طبيعتهم الاجرام ودينهم الكفر والفسوق

ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني اسرائيل

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - حالهم عند نزول العقاب بهم فقال وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرجز قَالُواْ ياموسى ادع لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرجز لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بني إِسْرَآئِيلَ ) .أى وحين وقع على فرعون ومثله العذاب المذكور فى الآية السابقة ، والمتمثل فى الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، حين وقع عليهم ذلك أخذوا يقولون لموسى بتذلل واستعطاف عقب كل عقوبة من تلك العقوبات : يا موسى ادع لنا ربك واسأله بحق ما عهد عندك من أمر إرسالك إلينا لانقاذنا من الهلاك أن يكشف عنا هذا العذاب ، ونحن نقسم لك بأنك إن كشفته عنا لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل .قال صاحب الكشاف : والباء إما أن تتعلق بقوله : ( ادع لَنَا رَبَّكَ ) على وجهين :أحدهما ، ما مصدرية ، والمعنى بعهده عندك وهو النبوة ( بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ) : أسفنا إلى ما نطلب إليك من الدعاء لنا بحق ما عندك من عهد الله وكرامته بالنبوة .أو ادع الله لنا متوسلا إليه بعهدنه عندك .وإما أن يكون قسما " مجابا بلنؤمنن ، أى أقسمنا بعهد الله عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك .

فلما كشفنا عنهم الرجز الى اجل هم بالغوه اذا هم ينكثون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - موقفهم الجحودى فقال : ( فَلَمآ كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرجز إلى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ أى : فلما كشفنا عنهم العذاب مرة بعد مرة إلى الوقت الذى أجل لهم وهو وقت ( إغراقهم فى اليم ، إذا هم ينكثون أى : ينقضون عهدهم الذى التزموه ، ويحنثون فى قسمهم فى كل مرة .وينكثون : من النكث . وأصله فك طاقات الصوف المغزول ليغزل ثانيا ، ثم استعير لنقض العهد بعد إبرامه .قال الآلوسى : وجواب " لما فعل مقدر يؤذن به إذا الفجائية لا الجملة المقترنة بها ، أى : فلما كشفنا " عنهم ذلك فاجأوا بالنكث من غير توقف " .هذا ، وقد ساق بعض المفسرين آثارا متعددة فى كيفية نزول هذا العذاب بهم . ونم هذه الآثار ما رواه أبو جعفر بن جرير - بسنده - عن سعيد بن جبير قال :لما أتى موسى - عليه السلام - فرعون قال له : أرسل معى بنى إسرائيل ، فأرسل الله عليهم الطوفان وهو المطر فصب عليهم منه شيئا خافوا أن يكون عذابا . فقالوا لموسى : ادع لنا ربك أن يكشف عنا هذا المطر فنؤمن لك ونرسل معك بنى إسرائيل . فدعا ربه ، فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بنى إسرائيل . فأنبت لهم فى تلك السنة شيئا لم ينبته قبل ذلك من الزروع والثمار والكلأ ، فقالوا : هذا ما كنا نتمنى ، فأرسل الله عليهم الجراد فسلطه على الكلأ فلما رأوا أثره فى الكلأ عرفوا أنه لا يبقى الزرع فقالوا : يا موسى ادع لنا ربك أن يكشف عنا الجراد فنؤمن لك ونرسل معك بنى إسرائيل ، فدعا ربه فكشف عنهم الجراد فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بنى إسرائيل ، فداسوا وأحرزوا فى البيوت فقالوا : قد أحرزنا . فأرسل الله عليهم القمل وهو السوس الذى يرخج منه ، فكان الرجل يخرج عشرة أجربة إلى الرحى فلم يرد منها إلا ثلاثة أقفزة - والجريب والقفزير مكيالان للحبوب ، والجريب أربعة أقفزة - فقاولا : يا موسى ادع لنا ربك أن يكشف عنا القمل فنؤمن لك ونرسل معك بنى إسرائيل ، فدعا ربه فكشف عنهم فأبوا أن يرسلوا معه بنى إسرائيل . فبينما هو جالس عند فرعون إذ سمع نقيق ضفدع فقال لفرعون : ما تلقى أنت وقومك من هذا . فقال : وما عسى أن يكون كيد هذا ، فما أمسوا حتى كان الرجل يجلس إلى ذقنه فى الضفادع ، ويهم أن يتكلم فيثبت الضفدع فى فيه فقالوا لموسى ادع لنا ربك أن يكشف عنا هذه الضفادع فنؤمن لك ونرسل معك بنى إسرائيل فدعا ربه فكشف عنهم فلم يؤمنوا ، وأرسل الله عليهم الدم فكانوا ما استقوا من الأنهار والآبار ، وما كان فى أوعيتهم وجدوه دما عبيطا ، فشكوا إلى فرعون ، فقالوا إنا قد ابتلينا بالدم وليس لنا شراب ، فقال : إنه قد سحركم ، فقالوا : من أين سحرنا ونحن لا نجد فى أوعيتنا شيئا من الماء إلا

وجدناه دما عبيطا؟ فأتوه وقالوا : يا موسى ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فنؤمن لك ونرسل معك بنى إسرائيل ، فدعا ربه فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بنى إسرائيل " .قال ابن كثير : قد روى نحو هذا عن ابن عباس والسدي وقتادة وغير واحد من علماء السلف أنه أخبر بهذا .

فانتقمنا منهم فاغرقناهم في اليم بانهم كذبوا باياتنا وكانوا عنها غافلين

كما فسرها الوسيط ثم حكت السورة الكريمة نهايتهم الأليمة ، بسبب نقضهم لعهودهم ومواثيقهم فى كل مرة ، وبسبب تكذيبهم لآيات الله . وعصيانهم لنبيهم موسى - عليه السلام - فقالت : ( فَانتقمنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي اليم بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ ) أى : فانتقمنا منهم عند بلوغ الأجل المضروب لإهلاكهم . بأن أغرقناهم فى اليم - أى البحر - ، وذلك بسبب تكذيبهم لآياتنا الواضحة ، وحججنا الساطعة ، وكانوا عنها غافلين بحيث لا يتدبرونها ، ولا يتفكرون فيما تحمله من عظات وعبر .والقرآن هنا يسوق حادث إغراق فرعون وملئه بصورة مجملة ، فلا يفصل خطواته كما فصلها فى مواطن أخرى ، وذلك لأن المقام هنا هو مقام الأخذ الحاسم بعد الإمهال الطويل ، فلا داعى إذن إلى طول العرض والتفصيل . إن الحسم السريع هنا أوقع فى النفس ، وأرهب للحس ، وأزجر للقلب ، وأدعى إلى العظة والاعتبار ، ولأن سورة الأعراف - كما سبق أن بينا - يغلب عليها هذا الأسلوب الذى يزلزل قلوب الطغاة ، ويغرس فى النفوس الرهبه والخوف وهى تقص على الناس ما أصاب الظالمين من عذاب دنيوى مضى وصار تاريخا يعلمونه ويتحدثون عنه ، وهو ما حل بالأمم السابقة التي كذبت رسلها وعتت عن أمر ربها ثم وهى تحكى لهم ما أعد للمستكبرين من عذاب أخروى بسبب عصيانهم وانتهاكهم. لحرمات الله .

واورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمت ربك الحسنى على بني اسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - مظاهر فضله وكرمه على بنى إسرائيل بعد أ ، بين نهاية فرعون وآله فقال : ( وَأَوْرَثْنَا القوم الذين كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأرض وَمَغَارِبَهَا التي بَارَكْنَا فِيهَا ) أى : وأعطينا القوم الذين كانوا يستضعفون فى مصر من فرعون وملئه. بالاستعباد وقتل الأبناء ، وسوء العذاب ، أعطيناهم من طريق الاستخلاف - قبل أن يزيغوا ويضلوا - مشارق أرض الشام ومغاربها التى باركنا فيها بالخصوبة ، وسعة الأرزاق ، وبكونها مساكن الأنبياء والصالحين ليكون ذلك امتحانا لهم واختبارا لنفوسهم .وجمع - سبحانه - بين صيغتى الماضى والمستقبل للدلالة على استمرار الاستضعاف وتجدده ، والمراد بهم بنو إسرائيل ، وذكروا بعنوان القوم إظهارا لكمال اللطف بهم ، وعظيم الإحسان إليهم ، حيث رفعوا من حضيض المذلة إلى أوج العزة .وقوله : ( وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الحسنى على بني إِسْرَآئِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ) ، أى : ونفذت كلمة الله الحسنى ومضت عليهم تامة كاملة ، حيث رزقهم - سبحانه - النصر على أعدائهم . والتمكين فى الأرض بسبب صبرهم على ظلم فرعون وملئه .قال الزمخشرى : وحسبك به حاثا على الصبر . ودالا على أن من قابل البلاء بالجزع وكله الله إليه . ومن قابله بالصبر ، وانتظار النصر ، ضمن الله له الفرج .وعن الحسن : عجبت ممن خف كيف خف وقد سمع قوله - تعالى - ثم تلا هذه الآية ( وَأَوْرَثْنَا القوم الذين كَانُواْ . . . ) ومعنى " خف " طاش جزعا وقلة صبر ، ولم يرزق رزانة أولى الصبر " .ثم ختمت الآية بقوله - تعالى - ( وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ ) من بناء القصور الشاهقة والمنازل القوية ، وما كانوا يرفعونه من البساتين ، والصروح المشيدة ، كصرح هامان وغيره .و ) يَعْرِشُونَ ) بكسر الراء وضمها - أى يرفعون من العرش وهو الشىء المسقف المرفوع .قال الجمل : وقوله ( وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ ) فى إعرابه أوجه :أحدها : أن يكون فرعن اسم كان ويصنع خبر مقدم والجملة الكونية صلة والعائد محذوف . والتقدير : ودمرنا الذى كان فرعون ، يصنعه .والثانى : أن اسم كان ضمير عائد على ما الموصولة ، ويصنع مسند لفرعون . والجملة خبر عن كان ، والعائد محذوف ، والتقدير : ودمرنا الذى كان هو يصنعه فرعون .الثالث : أن تكون كان زائدة وما مصدرية والتقدير ودمرنا ما يصنع فرعون أى : صنعه " .وهكذا تنهى السورة الكريمة هذا الدرس بذكر ما أصاب الظالمين والغادرين من دمار وخراب ، وما أصاب المستضعفين الصابرين من خير واستخلاف فى الأرض .

وجاوزنا ببني اسرائيل البحر فاتوا على قوم يعكفون على اصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا الها كما لهم الهة قال انكم قوم تجهلون

كما فسرها الوسيط ثم بدأت السورة بعد ذلك مباشرة حديثاً طويلا عن هؤلاء المستضعفين من بنى إسرائيل بينت فيه ألوانا من جحودهم لنعم الله ، ونسيانهم - لما كانوا فيه من ذل واستعباد ، وتفضيلهم عبادة الأصنام على عبادة الخالق عز وجل - وغير ذلك من أنواع كفرهم ومعاصيهم ، واستمع إلى القرآن وهو يحكى لونا من رذائلهم فيقول : ( وَجَاوَزْنَا ببني إِسْرَآئِيلَ . . ) .إن هذه الآيات تحكى قصة عجيبة لبنى إسرائيل ملخصها : أنهم بعد أن خرجوا من مصر بقيادة موسى - عليه السلام تبعهم فرعون وجنوده ليعيدوهم إليها ، إلا أن الله - تعالى - انتقم لهم من فرعون وجنده فأغرقهم أمام أعينهم وسار بنو إسرائيل نحو المشرق متجهين إلى الأرض المقدسة بعد أن عبروا البحر ، ولكنهم ما إن جاوزوا البحر الذى غرق فيه عدوهم والذى ما زالت رماله رطبة عالقة بنعالهم ، حتى وقعت أبصارهم على قوم يعبدون الأصنام ، فماذا كان من بنى - إسرائيل؟كان منهم أن عاودتهم طبيعتهم الوثنية ، فطلبوا من نبيهم موسى عليه السلام - الذى جاء لهدايتهم وإنقاذهم مما هم فيه من ظلم أن يصنع لهم آلهة من جنس الآلهة التى يعبدها أولئك القوم .وهنا غضب عليهم موسى غضباً ، شديداً . ووصفهم بأنهم قوم يجهلون الحق ، وبين لهم فساد ما عليه المشركون وذكرهم بما حباهم الله - تعالى - به من نعم جزيلة ، يوجب عليهم إفراده بالخضوع والعبادة والطاعة والشكر .وقوله - تعالى - ( وَجَاوَزْنَا ببني إِسْرَآئِيلَ البحر ) بيان للمنة العظيمة التى منحهم الله إياها ، وهى عبورهم البحر بعد أن ضربه موسى بعصاه ، فأصبح طريقا يابسا يسيرون فيه بأمان واطمئنان حتى عبروه إلى الناحية الأخرى ، يصحبهم لطف الله ، وتحدوهم عنايته ورعايته .وجاوز بمعنى أصل الفعل الذى هو جاز ، أى : قطعنا بهم البحر . يقال جاز الوادى وجاوزه إذا قطعه وخلفه وراء ظهره .والمراد بالبحر : بحر : القلزم وهو المسمى الآن بالبحر الأحمر .وقوله تعالى ( فَأَتَوْاْ على قَوْمٍ يَعْكُفُونَ على أَصْنَامٍ لَّهُمْ ) بيان لما شاهدوه من أحوال بعض المشركين عقب عبورهم البحر ونجاتهم من عدوهم ، فماذا كانت نتيجة هذه المشاهدة؟ لقد كان المتوقع منهم أن يحتقروا ما شاهدوه ، وأن ينفروا مما أبصروه ، لأن العهد لم يطل بهم منذ أن كانوا يسامون سوء العذاب فى ظل عبادة الأصنام عند فرعون وقومه ، ولأن نجاتهم مما كانوا فيه من ذل وهوان ، قد تمت على يد نبيهم الذى دعاهم إلى توحيد الله - تعالى - لكى يزيدهم من فضله ولكن طبيعة بنى إسرائيل المعوجة لم تفارقهم ، فهاهم أولاء ما إن وقعت أبصارهم على قوم يعكفون ويداومون على عبادة أصنام لهم ، حتى انجذبوا إليها وطلبوا من نبيهم الذى جاء لهدايتهم ، أن يجعل لهم وثناً كغيرهم لكى يعدبوه من جديد . لقد حكى القرآن عنهم أنهم عندما شاهدوا هذا المنظر ، ما لبثوا أن قالوا لنبيهم ( ياموسى اجعل لَّنَآ إلها كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ) . قالوا ذلك لأن الإيمان لم يستقر فى قلوبهم ، ولأن ما ألفوه من عبادة الأصنام أيام ، استعباد فرعون لهم ، ما زال متمكناً من نفوسهم ، ومسيطراً على عقولهم وهكذا عدوى الأمراض تصيب النفوس كما تصيب الأبدان ، وهكذا طبيعة بنى إسرائيل ما تكاد تهتدى حتى تضل ، وما تكاد ترتفع حتى تنحط؛ وما تكاد تسير فى طريق الاستقامة حتى ترتكس وتنتكس .وفى قولهم لنبيهم ( اجعل لَّنَآ إلها كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ) بصيغة الأمر؛ أكبر دليل على غباء عقولهم ، وسوء أدبهم؛ لأنهم لو استأذنوه - مثلا - فى اتخاذ صنم يعبدونه كغيرهم لكان شأنهم أقل غرابة؛ ولكن الذى حصل منهم أنهم طلبوا منه - وهو نبيهم الداعى لهم إلى توحيد الله تعالى؛ والمنقذ لهم من عدوهم الوثنى الجبال - أن يقوم هو بنفسه بصناعة صنم لكى يعبدوه كغيرهم!! .قال القرطبى : ونظيره قول جهال الأعراب وقد رأوا شجرة خضراء للكفار تسمى ذات أنواط - لأنهم كانوا ينوطون بها سلاحهم أى يعلقونه - وكان الكفار يعظمون هذه الشجرة فى كل سنة يوماً ، قال الأعراب : " يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " الله أكبر . قلتم والذى نفسى بيده كما قال قوم موسى ( اجعل لَّنَآ إلها كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ) لتركبن سنن من قبلكم حذو القذة بالقذة حتى إنهم لو دخلوا حجر ضب لدخلتموه " وكان هذا فى مخرجه إلى حنين .ولقد غضب موسى - عليه السلام - من طلبهم هذا - وهو الغضوب بطبيعته لربه ودينه - فرد عليهم رداً قوياً فيه توبيخ لهم وتعجب من قولهم بعد أن رأوا من المعجزات ما رأوا فقال : ( إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ) أى : إنكم يا بنى إسرائيل بطلبكم هذا برهنتم على أنكم قوم قد ملأ الجهل قلوبكم ، وغطى على عقولكم ، فصرتم لا تفرقون بين ما عليه هؤلاء من ضلال مبين ، وبين ما تستحقه الألوهية من صفات وتعظيم ولم يقيد ما يجهلونه ليفيد أنه جهل كامل شامل يتناول فقد العالم ، وسفه النفس ، وفساد العقل . وسوء التقدير .

ان هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون

كما فسرها الوسيط وبعد أن كشف لهم سوء حالهم ، وفرط جهالاتهم ، بين لهم فساد ما طلبوه فى ذاته ، وقبح عاقبة من أرادوا تقليدهم ، فقال لهم بأسلوب الاستئناف المفيد للتعليل ( إِنَّ هؤلاء مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ

وَبَاطِلٌ مّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ) متبر : من التتبير بمعنى الإهلاك أو
التكسير والتحطيم يقال : تبره يتبره وتبره أى أهلكه ودمره .أى : إن هؤلاء
، الذين تبغون تقليدهم فى عبادة الأوثان ، محكوم على ما هم فيه بالدمار
ومقضى على ما يعملونه من عبادة الأصنام بالاضمحلال والزوال لأن دين التوحيد
سيظهر فى هذه الديار ، وستصير العبادة لله الواحد القهار .وبهذا الرد يكون
موسى - عليه السلام - قد كشف لقومه عن سوء ما يطلبون ، وصرح لهم بأن مصير
ما يبغونه إلى الهلاك والتدمير .قال الإمام الرازى : ( والمراد من بطلان
عملهم أنه لا يعود عليهم من عبادة ذلك العجل نفع ولا دفع ضرر ، وتحقيق
القول فى هذا الباب أن المقصود من العبادة أن تصير المواظبة على تلك
الأعمال سببا لاستحكام ذكر الله تعالى فى القلب حتى تصير الروح سعيدة بحصول
، تلك المعرفة فيها ، فإذا اشتغل الإنسان بعبادة غير الله تعلق قلبه بغيره
ويصير ذلك التعلق سببا لإعراض القلب عن ذكره تعالى .وإذا ثبت هذا التحقيق
ظهر أن الاشتغال بعبادة غير الله متبر وباطل وضائع . وسعى فى تحصيل ضد هذا
- الشىء ونقيضه ، لأنا بينا أن المقصود من العبادة رسوخ معرفة الله - تعالى
فى القلب . والاشتغال بعبادة غير الله يزيل معرفته عن القلب ، فكان هذا ضد
. ( - الغرض ونقيضا للمطلوب - والله أعلم

قال اغير الله ابغيكم الها وهو فضلكم على العالمين

، كما فسرها الوسيط ثم مضى موسى عليه السلام - يستنكر عليهم هذا الطلب
ويبين لهم أن الله وحده هو المستحق للعبادة فقال : ( أَغَيْرَ الله
أَبْغِيكُمْ إلها وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى العالمين ) .أى قال موسى - عليه
: السلام مذكرا قومه بنعم الله عليهم الموجبة لإفراده بالعبادة والخضوع
أغير الله أطلب لكم معبوداً أحملكم على العبودية له ، وهو فضلكم على عالمى
زمانكم ، وقد كان الواجب عليكم أى تخصوه بالعبادة ، كما اختصكم هو بشتى
النعم الجليلة . فالاستفهام فى الآية الكريمة للانكار المشرب معنى التعجب
لابتغائهم معبودا سوى الله - تعالى - الذى غمرهم بنعمه ، وأحاطهم بألوان
إحسانه .و " غير " كما قال الجمل - منصوب على أنه مفعول به لأبغيكم على حذف
اللام والتقدير : أأبغى لكم غير الله إلها ، فلما حذف الحرف وصل الفعل
. بنفسه وهو غير منقاس . و " إلها " تمييز لغير

واذ انجيناكم من ال فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون ابناءكم ويستحيون
نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم

، كما فسرها الوسيط ثم ذكرهم - سبحانه - بنعمة إنجائهم من العذاب والتنكيل
ليبتليهم أيشكرون أم يكفرون ، فقال تعالى : ( وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِّنْ
آلِ فِرْعَونَ يَسُومُونَكُمْ سواء العذاب يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ
". ( وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي ذلكم بلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ
: إذ " بمعنى وقت ، وهى مفعول به لفعل ملاحظ فى الكلام وهو اذكروا أى
اذكروا وقت أن أنجيناكم من آل فرعون . والمراد من التذكير بالوقت تذكيرهم
بما وقع فيه من أحداث .وآل الرجل : أهله وخاصته وأتباعه . ويطلق غالباً على
) أولى الشأن والخطر من الناس ، فلا يقال آل الحجام أو الاسكاف .و
يَسُومُونَكُمْ سواء العذاب ) يبغون لكم أشد العذاب وأفضعه من السوم وهو
، مطلق الذهاب ، أو الذهاب فى ابتغاء الشىء . يقال : سامت الابل فهى سائمة
- أى ذهبت إلى المرعى . وسام السلعة ، إذا طلبها وابتغاها .والسوء - بالضم
كل ما يحزن الإنسان ويغمه من الأمور الدنيوية أو الأخروية . ويستحيون : أى
يستبقون . يقال : استحياه أى : استبقاه ، وأصله : طلب له الحياة والبقاء
والبلاء : الامتحان والاختبار ويكون بالخير والشر .والمعنى : واذكروا يا
بنى إسرائيل لتعتبروا وتتعظوا وتشكروا الله على نعمه وقت أن أنجيناكم من آل
فرعون الذين كانوا يعذبونكم أشق العذاب وأصعبه ، حيث كانوا يزهقون أرواح
ذكوركم ، ويستبقون نفوس نسائكم ليستخدموهن ويستذلوهن .وفى ذلكم العذاب وفى
النجاة منه امتحان لكم لتشكروا الله على نعمه ، ولتقلعوا عن السيئات التى
تؤدى بكم إلى الاذلال فى الدنيا ، والعذاب فى الأخرى .وجعلت النجاة هنا من
آل فرعون ولم تجعل منه ، مع أنه هو الآمر بتعذيب بنى إسرائيل ، للتنبيه على
أن حاشيته وبطانته كانت عونا له على إذاقتهم سوء العذاب ، وفى إنزال ألوان
الأذلال بهم .وجعلت الآية الكريمة استحياء النساء عقوبة لبنى إسرائيل - مع
أنه فى ظاهرة نعمة لهم - لأن هذا الابقاء على النساء كان المقصود من
الاعتداء على أعراضهن ، واستعمالهن فى شتى أنواع الخدمة ، وإذلالهن
، بالاسترقاق ، فبقاؤهن كذلك بقاء ذليل؛ وعذاب أليم ، تأباه النفوس الكريمة
والطباع الحرة الأبية .قال الامام الرازى ما ملخصه : فى قتل الذكور دون
الإناث مضرة م وجوه : أحدها : أن ذبح الأبناء يقتضى فناء الرجال ، وذلك
، يقضى انقطاع النسل ، لأن النساء إذا انفردن فلا تأثير لهن البتة فى ذلك
وهذا يقضى فى نهاية الأمر إلى هلاك الرجال والنساء جميعا .ثانيها : أن هلاك
الرجال يقتضى فساد مصالح النساء فى أمر المعيشة .فإن المرأة لتتمنى الموت

: إذا انقطع عنها الجرال . لما قد تقع فيه من نكد العيش بالانفراد .ثالثها
إن قتل الولد عقب الحمل الطويل ، وتحمل الكد ، والرجاء القوى فى الانتفاع
: به من أعظم العذاب . فنعمة الله فى تخليصهم من هذه المحنة كبيرة .رابعاً
أن بقاء النساء بدون الذكران من أقاربهن ، يؤدى إلى صيرورتهن مستفرشات
للأعداء . وذلك نهاية الذل والهوان .وقد رجح كثير من المفسدين أن المراد
بالأبناء هنا الأطفال لا البالغين ، لأن اللفظ من حيث وضعه يفيد ذلك ، ولأن
قتل الرجال لا يفيدهم حيث أنهم كانوا يستعملونهم فى الأعمال الشاقة
والحقيرة ، ولأنه لو كان المقصود بالذبح الرجال لما قامت أم موسى بإلقائه
فى اليم وهو طفل صغير لتنجيه من الذبح .ويرى بعض المفسرين أن المراد
بالأبناء الرجال ، لا الأطفال ، لأن لفظ الأبناء هنا جعل فى مقابلة النساء
والنساء هن البالغات .والذى نرجحه هو القول الأول لما ذكرنا ، ولأنه أتم ،
، فى إظهار نعمة الانجاء ، حيث كان آل فرعون يقتلون الصغار قطعاً للنسل
ويسترقون الأمهات استعباداً لهن ، ويبقون الرجال للخدمة حتى ينقرضوا على
سبيل التدرج ، وبقاء الرجال على هذه الحالة أشد عليهم من الموت .وبهذا تكون
، الآيات الكريمة قد ردت على بنى إسرائيل فيما طلبوا أبلغ رد وأحكمه
ووصفتهم بما هم أهله من سوء تدبير ، وسفاهة تفكير . فقد بدأت بإثبات جهلهم
، بربهم وبأنفسهم ، حيث طلبوا من نبيهم أن يجعل لهم إلهاً كما لغيرهم آلهة
ثم ثنت بإظهار فساد ما طلبوه فى ذاته ، لأن مصيره إلى الزوال والهلاك ، وما
كان كذلك لا يصلح أن يكون إلهاً ، ثم بينت بعد ذلك بأن العبادة لغير الله
لا تجوز بأى حال ، لأنه هو وحده صاحب الخلق والأمر ، ثم ذكرتهم فى ختامها
بوجوه النعم التى أسبغها الله عليهم ، لتشعرهم بأن ما طلبوه من نبيهم ، هو
من قبيل مقابلة الاحسان بالجحود والنكران ، ولتحملهم على أن يتدقبروا أمرهم
ويراجعوا أنفسهم ، ويتوبوا إلى خالقهم توبة صادقة نصوحا .أن كانوا ممن ،
. ينتفع بالعظات ويعتبر بالمثلات

وواعدنا موسى ثلاثين ليلة واتممناها بعشر فتم ميقات ربه اربعين ليلة وقال
موسى لاخيه هارون اخلفني في قومي واصلح ولا تتبع سبيل المفسدين

كما فسرها الوسيط ثم حكت لنا السورة الكريمة بعد ذلك مشهد تطلع موسى - عليه
السلام - للقاء ربه ، ووصيته لأخيه هارون قبل ذهابه لهذا اللقاء العظيم
فقالت : ( وَوَاعَدْنَا . . . ) .قال صاحب الكشاف : " روى أن موسى - عليه
السلام - وعد بنى إسرائيل وهو بمصر ، إن أهلك الله عدوهم اتاهم بكتاب من
عند الله ، فيه بيان ما يأتون وما يذرون ، فلما هلك فرعون سأل موسى ربه
الكتاب فأمره بصوم ثلاثين يوما وهو شهر ذى القعدة ، فلما اتم الثلاثين انكر
خلوف فمه فتسوك . فقالت له الملائكة : كنا نشم من فمك رائحة المسك فأفسدته
. بالسواك فأمره الله - تعالى - أن يزيد عليها عشرة أيام من ذى الحجة لذلك
وقيل أمره الله أن يصوم ثلاثين يوما وأن يعمل فيها بما يقربه من الله ثم
أنزل الله عليه فى العشر التوراة وكلمه فيها " .والمواعدة مفاعلة من
- الجانبين ، وهى هنا على غير بابها ، لأن المراد بها هنا أن الله - تعالى
أمر موسى أن ينقطع لمناجاته أربعين ليلة تمهيداً لإعطائه التوراة ، ويؤيد
ذلك قراءة أبى عمروا ويعقوب " وعدنا " .وقيل المفاعلة على بابها على معنى
أن الله - تعالى - وعد نبيه موسى أن يعطيه التوراة وأمره بالحضور للمناجاة
فوعد موسى ربه بالطاعة والامتثال .وقوله ( ثَلاَثِينَ ) مفعول ثان لواعدنا
) بحذ المضاف ، أى : إتمام ثلاثين ليلة أو إتيانها .والضمير فى قوله
) وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ ) يعود على المواعدة المفهومة من قوله
وَاعَدْنَا ) أى : وأتممنا مواعدته بعشر ، أو أ ، ه يعود على ثلاثين .وحذف
تمييز عشر لدلالة الكلام عليه ، أى : وأتممناها بعشر ليال .و ( أَرْبَعِينَ
- منصوب على الحالية أى : فتم ميقات ربه بالغاً أربعين ليلة .ثم حكى (
سبحانه - ما وصى به موسى أخاه هارون فقال : ( وَقَالَ موسى لأَخِيهِ
هَارُونَ اخلفني فِي قَوْمِي ) أى : قال موسى لأخيه هارون حين استودعه
ليذهب لمناجاة ربه : كن خليفتى فى قومى ، وراقبهم فيما يأتون ويذرون فإنهم
) فى حاجة إلى ذلك لضعف إيمانهم ، واستيلاء الشهوات والأهواء عليهم
وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ المفسدين ) الذين ( إِن يَرَوْاْ
سَبِيلَ الرشد لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الغي
يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ) وإننا لنلمح من هذه الوصية أن موسى - عليه
السلام - كان متوقعاً شراً من قومه ، ولقد صح ما توقعه ، فإنهم بعد أن
فارقهم موسى استغلوا جانب اللين فى هارون فعبدوا عجلا جسداً له خوار صنعه
. لهم السامرى

ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب ارني انظر اليك قال لن تراني ولكن
انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا
وخر موسى صعقا فلما افاق قال سبحانك تبت اليك وانا اول المؤمنين

كما فسرها الوسيط ثم حكى القرآن ما كان من موسى عندما وصل إلى طور سيناء

لمناجاة ربه فقال : ( وَلَمَّا جَآءَ موسى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ
رَبُّهُ ) أى : وحين حضر موسى لموقتنا الذى وقتناه له وحددناه ، وكلمه ربه
: أى : خاطبه من غير واسطة ملك ( قَالَ رَبِّ أرني أَنظُرْ إِلَيْكَ ) أى ،
قال موسى حين كلمه ربه وسمع منه : رب أرنى ذاتك الجليلة . والمراد مكنى من
رؤيتك .أو تجلى لى أنظر إليك وأراك .و ( أرني ) فعل أمر مبنى على حذف الياء
وياء المتكلم مفعول ، والمفعول الثانى محذوف أى : ذاتك أو نفسك ولم يصرح .
به لأنه معلوم ، وزيادة فى التأدب مع الخالق - عز وجل - .وجملة ( قَالَ لَن
تَرَانِي ) أى : لن تطيق رؤيتى ، وأنت فى هذه النشأة وعلى الحالة التى أنت
عليها فى هذه الدنيا فنفى الرؤية منصب على الحالة الدنيوية ، أما فى الآخرة
فقد ثبت فى الأحاديث الصحيحة أن المؤمنين يرون ربهم فى روضات الجنات .ثم
قال - تعالى - ( ولكن انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ
فَسَوْفَ تَرَانِي ) أى : لن تطيق رؤيتى يا موسى وأنت فى هذه الحياة الدنيا
ولكن انظر إلى الجبل الذى هو أقوى منك ، فإن استقر مكانه أى ثبت مكانه ،
حيت أتجلى له لوم يتفتت من هذا التجلى ، فسوف ترانى أى تثبت لرؤيتى إذا
. . تجليت لك وإلا فلا طاقة لك برؤيتى .وفى هذا الاستدراك ( ولكن انْظُرْ )
، الخ ، تسلية لموسى - عليه السلام - وتلطف معه فى الخطاب ، وتكريم له .
وتعظيم لأمر الرؤية ، وأنه لا يقوى عليها إلا من قواه الله بمعونته .ثم
بين - سبحانه - ما حدث للجبل عند التجلى فقال : ( فَلَمَّا تجلى رَبُّهُ
لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً ) أى : فحين ظهر نوره - سبحانه - للجبل على
- الوجه اللائق بجلاله ( جَعَلَهُ دَكّاً ) أى مدقوقا مفتتا ، فنبه
سبحانه - بذلك على أن الجبل مع شدته وصلابته ما دام لم يستقر عند هذا
، التجلى ، فالآدمى مع ضعف بنيته أولى بأن لا يستقر . والدك والدق بمعنى
وهو تفتيت الشىء وسحقه وفعله من باب رد .قال الآلوسى : وهذا كما لا يخفى من
المتشابهات التى يسلك فيها طريق التسليم وهو أسلم وأحكم ، أو التأويل بما
يليق بجلال ذاته - تعالى - .وقوله ( وَخَرّ موسى صَعِقاً ) أى : سقط من
هول ما رأى من النور الذى حصل به التجلى مغشيا عليه ، كمن أخذته الصاعقة
) : يقال : صعقتهم السماء تصعقهم صعقا فهو صعق أى : غشى عليه .وقوله
فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوّلُ
المؤمنين ) أى : فلما أفاق موسى من غشيته ، وعاد إلى حالته الأولى التى كان
عليها قبل أن يخر مغشيا عليه ، قال تعظيما لأمر الله ( سُبْحَانَكَ ) أى
تنزيها لك من مشابهة خلقك فى شىء ( تُبْتُ إِلَيْكَ ) من الإقدام على
السؤال بغير إذن ( وَأَنَاْ أَوّلُ المؤمنين ) بعظمتك وجلالك أو وأنا أول
المؤمنين بأنه لا يراك أحد .قال أبو العالية : قد كان قبله مؤمنون : ولكن
يقول أنا أول المؤمنين أنه لا يراك أحد من خلقك إلى يوم القيامة . قال ابن
كثير : وهو قول حسن .هذا ، وقد توسع بعض المفسرين عند تفسيره لهذه الآية فى
الحديث عن رؤية الله - تعالى - وعلى رأس هذا البعض الإمام الآلوسى ، فقد
قال - رحمه الله - : " واستدل أهل السنة المجوزون لرؤيته - سبحانه - بهذه
، الآية على جوازها فى الجملة ، واستدل بها المعتزلة النفاة على خلاف ذلك
: وقامت الحرب بينهما على ساق ، وخلاصة الكلام فى ذلك أن أهل السنة قالوا
- إن الآية تدل على إمكان الرؤية من وجهين .الأول : أن موسى - عليه السلام
سألها بقوله ( رَبِّ أرني أَنظُرْ إِلَيْكَ ) ولو كانت مستحيلة فإن كان
موسى عالما بالاستحالة فالعالم - فضلا عن النبى مطلقا ، فضلا عمن هو من
أولى العزم -لا يسأل المحال ولا يطلبه . وإن لم يكن عالما بذلك ، لزم أن
، يكون آحاد المعتزلة أعلم بالله وما يجوز عليه وما لا يجوز من النبى الصفى
والقول بذلك غاية الجهل والرعونة و حيث بطل القول بالاستحالة تعين القول
بالجواز .والثانى : أن فيها تعليق الرؤية على استقرار الجبل وهو ممكن فى
ذاته وما علق على الممكن ممكن " .ثم قال ما ملخصه : واعترض الخصوم على
الوجه الأول بوجوه منها أنا لا نسلم أن موسى سأل الرؤية وإنما سأل العلم
الضرورى به - تعالى - إلا أنه عبر عنه بالرؤية مجازاً . أو أنه سأل رؤية
علم من أعلامه الساعة بطريق حذف المضاف ، أى : أرنى أنظر إلى علم من أعلامك
) الدالة على الساعة . أو أنه سأل الرؤية لا لنفسه ولكن لدفع قومه القائلين
أَرِنَا الله جَهْرَةً ) وإنما أضاف الرؤية إليه دونهم ليكون منعه أبلغ فى
دفعهم وردعهم عما سألوه تنبيها بالأدنى على الأعلى .واعترضوا على الوجه
الثانى بأنا لا نسلم أنه علق الرؤية على أمر ممكن ، لأن التعليق لم يكن على
استقرار الجبل حال سكونه وإلا لوجدت الرؤية ضرورة وجود الشرط ، لأن الجبل
حال سكونه كان مستقرا ، بل على استقراره حال حركته وهو محال لذاته .ثم أورد
الآلوسى بعد ذلك ما رد به كل فريق على الآخر مما لا مجال لذكره هنا .والذى
نراه أن رؤية الله فى الآخرة ممكنة كما قال أهل السنة لورود الآيات
القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة التى تشهد بذلك ، أما فى الدنيا فقد
- منع العلماء وقوعها ، وقد بينا ذلك بشىء من التفصيل عند تفسيرنا لقوله
تعالى - ( لاَّ تُدْرِكُهُ الأبصار وَهُوَ يُدْرِكُ الأبصار )

قال يا موسى اني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما اتيتك وكن من
الشاكرين

- كما فسرها الوسيط ثم حكى القرآن بعد ذلك ما كرم الله - تعالى - به موسى عليه السلام فقال : ( قَالَ ياموسى إِنِّي اصطفيتك عَلَى الناس بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي ) .الاصطفاء . افتعال من الصفوة ، وصفوة الشىء خالصة وخياره أى : قال الله تعالى - لموسى إنى اخترتك واجتبيتك على الناس الموجودين فى زمانك لأن الرسل كانوا قبل موسى وبعده ، فهو اصطفاء على جيل معين من الناس بحكم هذه القرينة .وقوله ( بِرِسَالاَتِي ) أى : بأسفار التوراة ، أو بإرسالى إياك إلى من أرسلت إِلَيْهِمْ . و ( بِكَلاَمِي ) أى : بتكليمى إياك بغير واسطة قال - تعالى - ( وَكَلَّمَ الله موسى تَكْلِيماً ) والجملة الكريمة مسوقة لتسليته - عليه السلام - عما أصابه من عدم الرؤية فكأنه - سبحانه - يقول له : إن منعتك الرؤية فقد أعطيتك من النعم العظام ما أعطيتك فاغتنمه ودم على شكرى .وقدم الرسالة على الكلام لأنها أسبق ، أو ليترقى إلى الأشرف .ثم قال - تعالى - ( فَخُذْ مَآ آتَيْتُكَ وَكُنْ مِّنَ الشاكرين ) أى : فخذ يا موسى ما أعطيتك من شرف الاصطفاء والنبوة والمناجاة وكن من الراسخين فى الشكر على ما أنعمت به عليك ، فأنت أسوة وقدوة لأهل زمانك .

وكتبنا له في الالواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء فخذها بقوة وامر قومك ياخذوا باحسنها ساريكم دار الفاسقين

كما فسرها الوسيط ثم فصل - سبحانه - بعض النعم التى منحها لنبيه موسى وقال : ( وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الألواح مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ ) .والمراد بالألواح كما قال ابن عباس - رضى الله عنهما - زبرجد أو زمرد . . . إلخ .والذى نراه تفويض معرفة ذلك إلى الله - تعالى - لأنه لم يرد نص صحيح عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى عددها أو كيفيتها .والمعنى : وكتبنا لموسى - عليه السلام - فى ألواح التوراة من كل شىء يحتاجون إليه من الحلا والحرام ، والمحاسن والقبائح . ليكون ذلك موعظة لهم من شأنها أن تؤثر فى قلوبهم ترغيبا وترهيبا . كما كتبنا له فى تلك الألواح تفصيل كل شىء يتعلق بأمر هذه الرسالة الموسوية .وإسناد الكتابة إليه - تعالى - إما على معنى أن ذلك كان بقدرته - تعالى - وصنعه ولا كسب لأحد فيه ، وإما على معنى أنها كتبها بأمره ووحيه سواء كان الكاتب لها موسى أو ملك من ملائكته - عز وجل - .قال صاحب المنار : قال بعض المفسرين : إن الألواح كانت مشتملة على التوراة : وقال بعضهم بل كانت قبل التوراة . والراجح أنها كانت أول ما أوتيته من وحى التشريع فكانت أصل التوراة الإجالى وكانت سائر الأحكام من العبادات والمعاملات الحربية والمدنية والعقوبات ، تنزل يخاطبه بها الله - تعالى - فى أوقات الحاجة إليها " .وقوله ( مِن كُلِّ شَيْءٍ ) بدل من قوله ( مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ ) باعتبار محله وهو النصب لأن من مزيدة كما يرى كثير من النحاة . أى : كتبنا له فيها كل شىء من المواعظ وتفصيل الأحكام .والضمير فى قوله - تعالى - ( فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ ) يعود إلى الألواح . والفاء عاطفة لمحذوف على كتبنا ، والمحذوف هو لفظ قلنا وقوله ( بِقُوَّةٍ ) حال من فاعل خذها أى : كتبنا له فى الألواح من كل شىء ، وقلنا له خذها بقوة أى بجد وحزم ، وصبر وجلد ، لأنه - عليه السلام - قد أرسل إلى قوم طال عليهم الأمد وهم فى الذل والاستعباد ، فإذا لم يكن المتولى لإرشادهم وإلى ما فيه هدايتهم ذا قوة وصبر ويقين ، فإنه قد يعجز عن تربيتهم . ويفشل فى تنفيذ أمر الله فيهم .قال الجمل : وقوله - تعالى - ( وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا ) أى التوراة ومعنى بأحسنها بحسنها إذ كل ما فيها حسن ، أو أمروا فيها بالخير ونهوا عن الشر ، وفعل الخير أحسن من ترك الشر ، وذلك لأن الكلمة المحتملة لمعنيين أو لمعان تحمل على أشبه محتملاتها بالحق وأقربها إلى الصواب .أو أن فيها حسناً وأحسن كالقود والعفو ، والانتصار والصبر ، والمأمور به والمباح فأمروا بأن يأخذوا بما هو أكثر ثوابا .وقوله - تعالى - ( سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الفاسقين ) توكيد لأمر القوم بالأخذ بالأحسن وبعث عليه على نهج الوعيد والتهديد .أى : سأريكم عاقبة من خالف أمرى ، وخرج عن طاعتى ، كيف يصير إلى الهلاك والدمار ، فتلك سنتى التى لا تتغير ولا تتبدل .قال ابن كثير : وإنما قال ( سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الفاسقين ) كما يقول القائل لمن يخاطبه : سأريك غداً ما يصير إليه حال من خالفنى على وجه التهديد والوعيد ، لمن عصاه وخالف أمره .وقيل المراد بدار الفاسقين دار فرعون وقومه وهى مصر كيف أقفرت منهم ودمروا لفسهم لتعتبروا فلا تفسقوا مثل فسقهم فيصيبكم ما أصابهم .وقيل المراد بها منازل عاد وثمود والأقوام الذين هلكوا بسبب كفرهم وقيل المراد بها أرض الشام التى كان يسكنها الجبارون . فإنهم لم يدخلوها . إلا بعد أربعين سنة من خروجهم من مصر على يد يوشع بن نون .والذى نراه أن الرأى الأول أرجح ، لأن الآية الكريمة تحكى سنة من سنن الله فى خلقه ، وهذه

، السنة تتمثل فى أن كل دار تفسق عن أمر ربها تكون عاقبتها الذل والدمار
ولأنه لم يرد حديث صحيح يعين المراد بدار الفاسقين .فالآية الكريمة قد
اشتملت على جانب من مظاهر نعم الله على نبيه موسى - عليه السلام - كما
اشتملت على الأمر الصريح منه - سبحانه - له بأن يهيىء نفسه لحمل تكاليف
الرسالة بعزم وصبر ، وأن يأمر قومه بأن يأخذوا بأكملها وأعلاها بدون ترخيص
. أو تحايل ، لأنهم قوم كانت طبيعتهم رخوة وعزيمتهم ضعيفة ، ونفوسهم منحرفة
. كما اشتملت على التحذير الشديد لكل من يخرج عن طاعة الله وينتهك حرماته

ساصرف عن اياتي الذين يتكبرون في الارض بغير الحق وان يروا كل اية لا
يؤمنوا بها وان يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وان يروا سبيل الغي يتخذوه
سبيلا ذلك بانهم كذبوا باياتنا وكانوا عنها غافلين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - عاقبة من يتكبرون فى الأرض بغير الحق
فقال - تعالى - : ( سَأَصْرِفُ عَنْ . . . ) .قوله - تعالى - ( سَأَصْرِفُ
عَنْ آيَاتِي الذين يَتَكَبَّرُونَ فِي الأرض بِغَيْرِ الحق ) استئناف مسوق
لبيان أن أعداء دعاة الحق هم المستكبرون ، لأن من شأن التكبر أن يصرف أهله
عن النظر والاستدلال عى وجوه الخير . ومعنى صرف هؤلاء المتكبرين عن
الانتفاع بآيات الله وحججه ، منعهم عن ذلك بالطبع على قلوبهم لسوء
استعدادهم لا يتفكرون ولا يتدبرون ولا يعتبرون .أى : سأطبع على قلوبهم
، هؤلاء الذين يعدون أنفسهم كبراء ، ويرون أنفسهم أنهم أعلى شأناً من غيرهم
مع أنهم أجهل الناس عقلا ، وأتعسهم حالا .وقوله ( بِغَيْرِ الحق ) صلة
للتكبر على معنى يتكبرون ويتطاولون بما ليس بحق وهو دينهم الباطل ، وسفههم
المفرط ، أو متعلق بمحذوف هو حال من فاعله ، أى يتكبرون متلبسين بغير الحق
ثم بين - سبحانه - ما هم عليه من عناد وجحود فقال : ( وَإِن يَرَوْاْ.
كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا ) أى : وأن يروا كل آية من الآيات التى
تهدى إلى لاحق وترشد إلى الخير لا يؤمنوا بها لفساد قلوبهم ، وحسدهم لغيرهم
على ما آتاه الله من فضله ، وتكبرهم على الناس . والجلمة الكريمة معطوفة
على جملة ( يَتَكَبَّرُونَ فِي الأرض بِغَيْرِ الحق ) داخلة معها فى حكم
الصلة .والمقصود بالآية إما المنزلة فيكزن المراد برؤيتها مشاهدتها
والإحساس بها عن طريق السماع . وإمّا ما يعمها وغيرها من المعجزات ، فيكون
المراد برؤيتها مطلق المشاهدة المنتظمة للسماع والإبطار .( وَإِن يَرَوْاْ
سَبِيلَ الرشد ) أى : الصلاح والاستقامة والسداد ( لاَ يَتَّخِذُوهُ
) سَبِيلاً ) أى :لا يتوجهون إليه ولا يسلكونه لمخالفته لأهوائهم وشهواتهم
وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الغي ) أى : طريق الضلال عن الحق ( يَتَّخِذُوهُ
. سَبِيلاً ) أى : طريقاً يميلون إليه ، ويسيرون فيه بدون تفكر أو تدبر
وهذا شأن من مرد على الضلال ، وانغمس فى الشرور والآثام . إنه لإلفه
) : المنكرات صار الحسن عنده قبيحا والقبيح حسنا ، وصدق الله إذ يقول
- أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سواء عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً ) ثم ختم - سبحانه
: - الآية ببيان الأسباب التى أدت بهم إلى هذا الضلال العجيب فقال - تعالى
( ذلك بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ )
أى : ذلك المذكور من التكبر وعدم الإيمان بشىء من الدلائل الدالة على الحق
وإعراضهم عن سبيل الهدى . وإقبالهم التام على طريق الغواية ، كائن بسبب
أنهم كذبوا بآياتنا الدالة على بطلان ما هم عليه من أباطيل ، وبسبب أنهم
كانوا عن هذه الآيات غافلين لاهين لا يتفكرون فيها ، ولا يعتبرون بما
اشتملت عليه من عظات .فالله - تعالى - لم يخلقهم مطبوعين على شىء مما ذكر
طبعاً ، ولم يجبرهم ويكرههم عليه إكراهاً ، بل كان ذلك بكسبهم واختيارهم
للتكذيب بآياته الدالة على الحق .واسم الإشارة ( ذلك ) مبتدأ ، وخبره الجار
. والمجرور بعده ، أى : ذلك الصرف بسبب تكذيبهم

والذين كذبوا باياتنا ولقاء الاخرة حبطت اعمالهم هل يجزون الا ما كانوا
يعملون

كما فسرها الوسيط ثم قال - تعالى - ( والذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا
وَلِقَآءِ الآخرة حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ) أى : بطلت وفسدت وصارت هباء
منثورا ، بسبب تكذيبهم لآيات الله ، وإنكارهم للآخرة وما فيها من ثواب
وعقاب .والاستهفام فى قوله ( هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُواْ
يَعْمَلُونَ ) للنفى : أى :لا يجزون يوم القيامة إلا الجزاء الذى يستحقونه
بسبب أعمالهم فى الدنيا . فربك - سبحانه -لا يظلم أحدا .وقوله ( والذين
كَذَّبُواْ ) فى خبره وجهانكأحدهمل : أنه الجملة من قوله : ( حَبِطَتْ
أَعْمَالُهُمْ ) وهل يجزون خبر ثان أو مستأنف .والثانى : أن الخبر ( هَلْ
يُجْزَوْنَ ) والجملة من قوله ( حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ) فى محل نصب على
) الحال وقد مضمرة عند من يشترط ذلك ، وصاحب الحال فاعل كذبوا .وقوله
وَلِقَآءِ الآخرة ) فيه وجهان :أحدهما : أنه من باب إضافة المصدر لمفعوله
والفاعل محذوف والتقدير : ولقائهم الآخرة .والثانى : أنه من باب إضافة

المصدر إلى الظرف بمعنى : ولقاء ما وعد الله فى الآخرة " .ثم قصت السورة
علينا رذيلة من رذائل بنى إسرائيل المتعددة ، وذلك أنهم بعد أن تركهم
موسى - عليه السلام - وذهب لمناجاة ربه مستخلفا عليهم أخاه هارون ، انتهزوا
لين جانب هارون معهم ، فعبدوا عجلا جسداً له خوار صنعه لهم السامرى من
- الحلى التى استعارها نساؤهم من نساء قبط مصر .وحاول هارون - عليه السلام
أن يصدهم عن ذلك بشتى السبل ، ولكنهم أعرضوا عنه قائلين ( لَن نَّبْرَحَ
- عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حتى يَرْجِعَ إِلَيْنَا موسى ) وأعلم الله - تعالى
موسى بما حدث من قومه فى غيبته فعاد إليهم مغضبا حزينا ، فوبخهم على كفرهم
وجهالاتهم ، وعاتب بشدة أخاه هارون لتركه إياهم يعبدون العجل ولكن هارون
اعتذر له ، وأقنعه بأنه لم يقصر فى نصيحتهم ولكنهم قوم لا يحبون الناصحين
وعلى مشهد من بنى إسرائيل أحرق موسى العجل ، وقال للسامرى رأس الفتنة.
ومدبرها ( وانظر إلى إلهك الذي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَّنُحَرِّقَنَّهُ
ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً إِنَّمَآ إلهكم الله الذي لا إله
إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً ) وبذلك أثبت موسى - عليه
. السلام - لقومه أن المستحق للعبادة إنما هو الله رب العالمين

واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار الم يروا انه لا يكلمهم
ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين

كما فسرها الوسيط واستمع معى إلى هذه الآيات التى قصت علينا ما حدث منهم
بأسلوبها البليغ فقالت : ( واتخذ قَوْمُ موسى مِن بَعْدِهِ . . . ) .قوله
تعالى : ( واتخذ قَوْمُ موسى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً
جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ ) بيان لما صنعه بنو إسرائيل بعد فراق موسى - عليه
السلام - لهم ، وذهابه لتلقى التوراة عن ربه . مستخلفا عليهم أخاه هارون
والحلى - بضم الحاء والتشديد - جمع حلى - بفتح فسكون - كثدى وثدى - وهى.
- اسم لما يتزين به من الذهب والفضة ، وهذه الحلى كان نساء بنى إسرائيل
- قبيل خروجهن من مصر - قد استعرنها من نساء المصريين ، فلما أغرق الله
تعالى - فرعون وقومه ، بقيت تلك الحلى فى أيديهن ، فجمعها السامرى بحجة
أنها لا تحل لهن ، وصاغ منها عجلا جسدا له خوار ، وأوهمهم بأن هذا إلههم
وإله موسى فعبدوه من دون الله .قال الحافظ ابن كثير : ( وقد اختلف المفسرون
فى هذا العجل هل صار لحما ودما له خوار ، أو استمر على كونه من ذهب إلا أنه
يدخل فيه الهواء فيصوت كالبقر ، على قولين والله أعلم .والمعنى : واتخذ قوم
موسى من بعد فراقه لهم لأخذ التوراة عن ربه عجلا جسدا له صوت البقر ليكون
معبودا لهم .وقوله ( عِجْلاً ) مفعول اتخذ بمعنى صاغ وعمل ، وقيل إن اتخذ
) متعد إلى اثنين وهو بمعنى صير والمفعول الثانى محذوف أى : إلها .و
جَسَداً ) بدل من ( عِجْلاً ) أو عطف بيان أو نعت له بتأويل متجسدا .قال
صاحب الكشاف : ( فإن قلت لم قيل : ( واتخذ قَوْمُ موسى مِن بَعْدِهِ مِنْ
حُلِيِّهِمْ عِجْلاً ) والمتخذ هو السامرى؟ قلت فيه وجهان :أحدهما : أن
ينسب الفعل إليهم لأن رجلا منهم باشره ووجد بين ظهرانيهم ، كما يقال بنو
تميم قالوا كذا ، وفعلوا كذا والقائل والفاعل واحد . ولأنهم كانوا مريدين
لاتخاذه راضين به فكأنهم أجمعوا عليه .والثانى : أن يراد واتخذوه إلها
وعبدوه . فإن قلت لم قال من حليهم ولم تكن الحلى لهم إنما كانت عارية فى
ايديهم؟ قلت : الإضافة تكون بأدنى ملابسه وكونها عوارى فى أيديهم كفى به
ملابسة على أنهم قد ملكوها بعد المهلكين كما ملكوا غيرها من أملاكهم ألا
ترى إلى قوله تعالى : ( فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ
( وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بني إِسْرَائِيلَ
اه .وقوله تعالى : ( أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ
، يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً ) تقريع لهم على جهالاتهم . وبيان لفقدان عقولهم
والمعنى : أبلغ عمى البصيرة بهؤلاء القوم ، أنهم لم يفطنوا حين عبدوا العجل
أنه لا يقدر عليه أحاد البشر ، من الكلام والارشاد إلى أى طريق من طرق ،
- الإفادة ، وليس ذلك من صفات ربهم الذى له العبادة ، لأن من صفاته - تعالى
أنه يكلم أنبياءه ورسله ، ويرشد خلقه إلى طريق الخير ، وينهاهم عن طرق
الشر!! .ثم أكد - سبحانه - ذمهم بقوله ( اتخذوه وَكَانُواْ ظَالِمِينَ ) أى
اتخذوا العجل معبودا لهم وهم يشاهدونه لا يكلمهم بأى كلام ، ولا يرشدهم :
إلى أى طريق ، ولا شك أنهم بهذا الاتخاذ كانوا ظالمين لأنفسهم بعبادتهم غير
) الله ، وبوضعهم الأمور فى غيرها مواضعها .وفى التعبير عن ظلمهم بلفظ
كانوا ) المفيد للدوام والاستمرار ، إشعار بأن هذا الظلم دأبهم وعادتهم قبل
هذا الاتخاذ وأن ما صدر عنهم ليس بدعا منهم ولا أول مناكيرهم ، فقد سبق لهم
أن قالوا لنبيهم بمجرد أن أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ( ياموسى اجعل
( لَّنَآ إلها كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ

ولما سقط في ايديهم وراوا انهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا
لنكونن من الخاسرين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما كان منهم بعد أن رأوا ضلالهم فقال تعالى : ( وَلَمَّا سُقِطَ في أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا ، لَنَكُونَنَّ مِنَ الخاسرين ) أى وحين اشتد ندمهم على عبادة العجل وتبينوا ضلالهم واضحا كأنهم أبصروه بعيونهم قالوا متحسرين ( لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخاسرين ) أى لنكونن من الهالكين الذين حبطت أعمالهم .وكان هذا الندم بعد رجوع موسى إليهم من الميقات وقد أعطاه الله التوراة ، بدليل أنه لما نصحهم هارون بترك عبادة العجل قالوا ( قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حتى يَرْجِعَ إِلَيْنَا موسى ) وبدليل أن موسى - عليه السلام - لما رجع أنكر عليهم ما هم عليه وهذا دليل على أنهم كانوا مستمرين على عبادته إلى أن رجع موسى إليهم وبصرهم بما هم عليه من ضلال مبين .ولذلك قال ابن جرير عند تفسيره لقوله تعالى ( وَلَمَّا سُقِطَ في أَيْدِيهِمْ ) ( ولما ندم الذين عبدوا العجل الذى وصف - جل ثناؤه - صفته ، عند رجوع موسى إليهم ، واستسلموا ، لموسى وحكمه فيهم ، وكذلك تقوم العرب لكل نادم على أمر فات منه أو سلف وعاجز عن شىء : قد سقط فى يديه وأسقط ، لغتان فصيحتان ، وأصله من الاستئسار وذلك بأن يضرب الرجل الرجل أو يصرعه ، فيرمى به من بين يديه إلى الأرض ، ليأسره ، فالمرمى به مسقوط فى يدى الساقط به ، فقيل لكل عاجز عن شىء ومتندم على ما فاته : سقط فى يديه وأسقط ) .وعبر - سبحانه - عن شدة ندمهم بقوله تعالى : ( وَلَمَّا سُقِطَ في أَيْدِيهِمْ ) لأن من شأن من اشتد ندمه وحسرته أن يعض يده غما فتصير يده مسقوطاً فيها ، لأن فاه قد وقع فيها وكأن أصل الكلام ولما سقطت أفواههم فى أيديهم ، أى ندموا أشد الندم .قال صاحب تاج العروس : وفى ( العباب ) هذا نظم لم يسمع به قبل القرآن ولا عرفته العرب ( والأصل فيه نزول الشىء من أعلى إلى أسفل ) ، وقوعه على الأرض ، ثم اتسع فيه فقيل للخطأ من الكلام ( سقط ) لأنهم شبهوه بما لا يحتاج إليه ، وذكر اليد لأن الندم يحدث في القلب .وأثره يظهر فى اليد ، كقوله تعالى ) : فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَآ أَنْفَقَ فِيهَا ) ولأن اليد هى الجارحة العظمى ، فربما يسند إليه ما لم تباشره كقوله تعالى : ( ذلك بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ) اه .

ولما رجع موسى الى قومه غضبان اسفا قال بئسما خلفتموني من بعدي اعجلتم امر ربكم والقى الالواح واخذ براس اخيه يجره اليه قال ابن ام ان القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الاعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين

كما فسرها الوسيط وقوله تعالى : ( وَلَمَّا رَجَعَ موسى إلى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً ) بيان للحالة التى كان عليها موسى - عليه السلام - عند رجوعه من الطور ، ومشاهدته للعجل الذى عبده قومه ، فهو كان غاضبا عليهم لعبادتهم غير الله - تعالى - وحزينا لفتنتهم بعبادتهم عجلا جسدا له خوار ، قال الإمام الرازى : فى الأسف قولان :الأول : أن الأسف الشديد : الغضب. ) : وهو قول أبى الدرداء وعطاء عن ابن عباس ، واحتجوا له بقوله تعالى ، فَلَمَّآ آسَفُونَا انتقمنا ) أى : أغضبونا .والثانى : أن الاسف هو الحزن وهو قول الحسن والسدى وغيرهما ، واحتجوا له بحديث عائشة أنها قالت : " إن أبا بكر رجل أسيف أى حزين " .قال الواحدى : والقولان متقاربان لأن الغضب من الحزن ، والحزن من الغضب ، فإذا جاءك ما تكره ممن هو دونك غضبت . وإذا جاءك ممن هو فوقك حزنت ، فتسمى إحدى هاتين الحالتين حزنا والأخرى غضبا " .وقوله ( غَضْبَانَ أَسِفاً ) منصوبان على الحال من موسى عند من يجيز تعدد الحال . وعند من لا يجيزه يجعل أسفا حالا من الضمير المستكن فى غضبان فتكون حالا متداخلة .وقول موسى لقومه : ( بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بعدي ) ذم منه لهم ، والمعنى : بئس خلافة خلفتمونيها من بعد ذهابى عنكم إلى مناجاة ربى ، وبئس الفعل فعلكم بعد فراقى إياكم . حيث عبدتم العجل ، وأشربت قلوبكم محبته ولم تعيروا التفاتا لما عهدت به إليكم ، من توحيد الله ، وإخلاص العبادة ، والسير على سنتى وشريعتى .قال الجمل : و " بئس " فعل ماض لإنشاء الذم ، وفعله مستتر تقديره هو ، و " ما " تمييز بمعنى خلافة ، وجملة خلفتمونى صفة لما . والرابط محذوف ، والمخصوص بالذم محذوف ، والتقدير بئس خلافة خلفتمونيها من بعدى خلافتكم .وقوله ( مِن بعدي ) معناه : من بعد ما رأيتم منى توحيد الله ، ونفى الشركاء عنه ، وإخلاص العبادة له ، أو من بعد ما كنت احمل بنى إسرائيل على التوحيد واكفهم عما طمحت نحوه أبصارهم من عبادة البقر حين قالوا ( اجعل لَّنَآ إلها كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ) ومن حق الخلفاء أن يسيروا بسيرة المستخلف من بعده ولا يخالفوه .وقوله تعالى ( أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ) معناه أسبقتم بعبادة العجل ما أمركم به ربكم وهو انتظارى حافظين لعهدى ، وما أوصيتكم به من التوحيد وإخلاص العبادة لله حتى آتيكم بكتاب الله ، فغيرتم وعبدتم العجل قيل : كانوا قد استبطأوا نزوله من الجبل ، فخدعهم السامرى وصنع لهم العجل فعبدوه ، وجعلوا يغنون ويرقصون حوله

: ويقولون : هذا هو الإله الحق الذى انقذنا من الظلم ، قال صاحب الكشاف
: يقال عجل عن الأمر إذا تركه غير تام .ويضمن معنى سبق فعدى تعديته فقال
عجلت الأمر . والمعنى : اعجلتم عن أمر ربكم وهو انتظار موسى حافظين لعهده
، وما وصاكم به ، فبينتم الأمر على أن الميعاد قد بلغ آخره ولم أرجع إليكم
فحدثتم أنفسكم بموتى فغيرتم كما غيرت الأمم بعد أنبيائهم .وروى أنهم عدوا
- عشرين يوما بلياليها فجعلوها أربعين ثم أحدثوا ما أحدثوا .ثم بين
: سبحانه - أن غضب موسى ترتب عليه أمران يدلان على شدة الانفعال :أولهما
قوله تعالى : ( وَأَلْقَى الألواح ) حاصله أن موسى لما رأى من قومه ما رأى
غضب غضبا شديدا حمية لدينه فعجل فى وضع الألواح لتفرغ يده فيأخذ برأس :
أخيه فعبر عن ذلك الوضع بالإلقاء تفظيعا لفعل قومه حيث كانت معاينته سببا
لذلك وداعيا إليه ، وليس فيه ما يتوهم منه الإهانة لكتاب الله بوجه من
الوجوه . وإنكسار بعض الألواح حصل من فعل مأذون فيه ولم يكن غرض موسى ولا
مر بباله ولا ظن ترتيبه على ما فعل . وليس هناك إلا العجلة فى الوضع
، الناشئة من الغيرة لله . وقد أنكر بعض العلماء أن يكون شىء منها قد تكسر
لأن ظاهر القرآن خلافه . نعم أخرج أحمد وغيره عن ابن عباس قال : قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم " يرحم الله موسى ، ليس المعاين كالمخبر أخبره ربه
أن قومه فتنوا بعده فلم يلق الألواح فلما رآهم وعاينهم ألقى الألواح فتكسر
منها " . وثانيهما : قوله تعالى : ( وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ
إِلَيْهِ ) أى : أخذ موسى بشعر رأس أخيه هارون يجره إليه غضبا منه ، لظنه
- أنه قد قصر فى نصحهم وزجرهم عن عبادة العجل . ولكن هارون - عليه السلام
. أخذ يستجيش فى نفس موسى عاطفة الأخوة الرحيمة ، ليسكن من غضبه الشديد
) : وليكشف له عن طبيعة الموقف ، وليبرىء ساحته من مغبة التقصير ، فقال له
ابن أُمَّ إِنَّ القوم استضعفوني وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلاَ تُشْمِتْ
بِيَ الأعدآء وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ القوم الظالمين ) . أى : قال هارون
- لموسى مستعطفا : يا ابن أمى - بهذا النداء الرقيق وبتلك الوشيجة الرحيمة
لا تعجل بلومى وتعنيفى ، فإنى ما آليت جهدا فى الإنكار عليهم ، وما قصرت فى
نصيحتهم ولكنهم لم يستمعو إلى ، بل قهرونى واستضعفونى ، وأوشكوا أن يقتلونى
عندما بذلت أقصى طاقتى لأخفف هياجهم واندفاعهم نحو العجل ، فلا تفعل بى ما
ه أمنيتهم ومحل شماتتهم ، من الاستهانة بى والإساءة إلى ، فإن من شأن
الأخوة التى بيننا أن تكون ناصرة معينة حين يكون هناك أعداء ، ولا تجعلنى
فى زمرة القوم الظالمين ، فإنى برىء منهم ، ولقد نصحتهم ولكنهم قوم لا
. يحبون الناصحين

قال رب اغفر لي ولاخي وادخلنا في رحمتك وانت ارحم الراحمين

كما فسرها الوسيط وهنا اقتنع موسى - عليه السلام - ببراءة هارون من مغبة
التقصيرفقال :( رَبِّ اغفر لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ
وَأَنتَ أَرْحَمُ الراحمين ) أى : قال موسى ليرضى أخاه ، وليظهر لأهل
الشماتة رضاه عنه بعد أن ثبتت براءته : رب اغفر لى ما فرط منى من قول أو
فعل فيه غلظة على أخى .واغفر له كذلك ما عسى أن يكون قد قصر فيه مما أنت
أعلم به منى ، وأدخلنا فى رحمتك التى وسعت كل شىء فأنت أرحم بعبادك من كل
راحم .وبهذا يكون القرآن الكريم قد برأ ساحة هارون من التقصير ، وأثبت أنه
قد عرض نفسه للأذى فى سبيل أن يصرف عابدى العجل عن عبادته وفى ذلك تصحيح
لما جاء فى التوراة ( الفصل الثانى والثلاثين من سفر الخروج ) من أن
هارون - عليه السلام - هو الذى صنع العجل لبنى إسرائيل ليعبدوه فى غيبة
. - موسى - عليه السلام

ان الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك
نجزي المفترين

كما فسرها الوسيط ثم أصدر القرآن الكريم حكمه الفاصل فى شأن عبدة العجل
فقال تعالى :( إِنَّ الذين اتخذوا العجل سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن
( رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الحياة الدنيا وَكَذَلِكَ نَجْزِي المفترين
والمعنى . إن الذين اتخذوا العجل معبودا ، واستمروا على ضلالتهم سيحيق بهم.
سخط شديد من ربهم ، ولا تقبل توبتهم إلا إذا قتلوا أنفسهم ، وسيصيبهم كذلك
هوان وصغار فى الحياة الدنيا ، وبمثل هذا الجزاء نجازى المفترين جميعا فى
كل زمان ومكان ، لخروجهم عن طاعتنا ، وتجاوزهم لحدودنا ، فهو جزاء متكرر
. كلما تكررت الجريمة من بنى إسرائيل وغيرهم

والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وامنوا ان ربك من بعدها لغفور رحيم

كما فسرها الوسيط ثم فتح - سبحانه - بابه لكل تائب صادق فى توبته فقال
تعالى : ( والذين عَمِلُواْ السيئات ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِهَا وآمنوا
إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ) .والمعنى : والذين عملوا

- السيئات ثم تابوا من بعد فعلهم لها توبة صادقة نصوحا ، ورجعوا إلى الله
تعالى - معتذرين نادمين مخلصين الإيمان له ، فإن الله - تعالى - من بعد
، الكبائر التى أقلعوا عنها لساتر عليهم أعمالهم السيئة ، وغير فاضحهم بها
- رحيم بهم وبكل من كان مثلهم من التائبين .وإلى هنا تكون الآيات الكريمة
بعد أن دمغت بنى إسرائيل بما يستحقونه من تقريع وويعد - قد فتحت أمامهم
وأمام غيرهم باب التوبة ليفيئوا إلى نور الحق ، وليتركوا ما انغمسوا فيه من
ضلالات وجهالات .

ولما سكت عن موسى الغضب اخذ الالواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم
يرهبون

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما فعله موسى بعد أن هدأ غضبه فقال
وَلَمَّا سَكَتَ . . . ) .السكوت فى أصل اللغة ترك الكلام ، والتعبير
القرآنى هنا يشخص الغضب كأنما هو كائن حى يدفع موسى ويحركه ، ثم تركه بعد
ذلك . ففى الكلام استعارة مكنية حيث شبه الغضب بشخص آمر ، ناه . واثبت له
السكوت على طريق التخييل .قال صاحب الكشاف : قوله : ( وَلَمَّا سَكَتَ عَن
مُّوسَى الغضب ) هذا مثل . كأن الغضب كان يغريه على ما فعل ويقول له : قل
لقومك كذا ، والق الألواح ، وجر برأس أخيك إليك ، فترك النطق بذلك ، وقطع
الإغراء . ولم يستحسن هذه الكلمة ولم يستفصحها كل ذى طبع سليم وذوق صحيح
" إلا لذلك ولأنه من قبل شُعب البلاغة . وإلا ، فما لقراءة معاوية بن قرة
ولما سكن عن موسى الغضب "لا تجد النفس عندها شيئا من تلك الهزة ، وطرفا من
تلك الروعة " .والمعنى : وحين سكت غضب موسى بسبب اعتذار أخيه وتوبة قومه
، أخذ الألواح التى كان قد ألقاها .وظاهر الآية يفيد أن الألواح لم تتكسر
ولم يرفع من التوراة شىء ، وأنه أخذها بعينها .وقوله ( وَفِي نُسْخَتِهَا
هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ) أى : أخذ
موسى الألواح التى سبق له أن ألقاها ، وفيما نسخ فى هذه الألواح أى : كتب
: هداية عظيمة إلى طريق الحق ، ورحمة واسعة للذين هم لربهم يرهبون . أى
يخافون أشد الخوف من خالقهم - عز وجل - .والنسخ : الكتابة ، ونسخة هنا
) بمعنى منسوخة أى . مكتوبة ، والمراد وفى منسوخها ومكتوبها هدى ورحمة .و
) هُمْ ) مبتدأ . ويرهبون خبره ، والجملة صلة الموصول ، واللام فى
لِّلَّذِينَ ) متعلقة بمحذوف صفة لرحمة أى : كائنة لهم . أو هى لام العلة
أى . هدى ورحمة لأجلهم . واللام فى لربهم " لتقوية عمل الفعل المؤخر كما فى
قوله - تعالى - : ( إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ) أو هى ايضا لام
العلة والمفعول محذوف ، أى : يرهبون المعاصى لأجل ربهم لا للرياء والتباهى
ثم تمضى السورة فى حديثها عن بنى إسرائيل فتحكى لنا قصة موسى مع السبعين .
الذين اختارهم من قومه فنقول : ( واختار . . . ) .

واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا فلما اخذتهم الرجفة قال رب لو شئت
اهلكتهم من قبل واياي اتهلكنا بما فعل السفهاء منا ان هي الا فتنتك تضل بها
من تشاء وتهدي من تشاء انت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وانت خير الغافرين

كما فسرها الوسيط قال الآلوسى : قوله - تعالى - ( واختار موسى قَوْمَهُ
سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا ) تتمة لشرح أحوال بنى إسرائيل وقال
- البعض : إنه شروع فى بيان كيفية استدعاء التوبة وكيفية وقوعها . واختار
من الاختيار بمعنى الانتخاب والاصطفاء - وهو يتعدى إلى اثنين ثانيهما مجرور
بمن وقد حذفت هنا وأوصل الفعل والأصل من قومه ، والمفعول الأول سبعين " .أى
اختار موسى سبعين رجلا من قومه للميقات الذى وقته الله له ، ودعاهم :
للذهاب معه .وهؤلاء السبعون كانوا من خيرتهم أو كانوا خلاصتهم ، لأن الجملة
الكريمة جعلتهم بدلا من القوم جميعا فى الاختيار ، وكأن بنى إسرائيل على
كثرتهم لا يوجد من بينهم فضلاء سوى هؤلاء السبعين .وتختلف روايات المفسرين
فى سبب هذا الميقات وزمانه ، فمنهم من يرى أنه الميقات الكلامى الذى كلم
الله فيه موسى تكليما فقد كان معه سبعون رجلا من شيوخ بنى إسرائيل ينتظرونه
فى مكان وضعهم فيه غير مكان المناجاة ، فلما تمت مناجاة موسى لربه طلبوا
منه أن يخاطبوا الله - تعالى - وأن يكلموه كما كلمه موسى ، وأن يروه جهرة
فأخذتهم الصاعقة ، وكان ذلك قبل أن يخبر الله - تعالى - موسى أن قومه قد
عبدوا العجل فى غيبته .والذى نرجحه وعليه المحققون من المفسرين والسياق
، القرآنى يؤيده أن هذا الميقات الذى جاء فى هذه الآية غير الميقات الأول
وأنه كان بعد عبادة بنى إسرائيل للعجل فى غيبة موسى ، فقد عرفنا أن الله قد
أخبره بذلك عند ذهابه إليه لتلقى التوراة ، فرجع موسى إليهم مسرعا ووبخهم
على صنيعهم وأحرق العجل ، وأمره الله - تعالى - بعد ذلك أن يأتيه مع جماعة
، من بنى إسرائيل ليتوبوا إليه من عبادة العجل فاختار موسى هؤلاء السبعين
وهناك روايات ترجح ذلك منها ما جاء عن محمد بن إسحاق قال : إن موسى - عليه
السلام - لما رجع إلى قومه فرأى ما هم فيه من عيادة العجل ، وقال لأخيه
والسامرى ما قال وحرق العجل وذراه فى اليم ، اختار من بنى إسرائيل سبعين

رجلا الخيّر فالخير ، وقال : انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه مما صنعتم واسألوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم ، فصوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم . فخرج بهم إلى طور سيناء لميقات وقته له ربه ، وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم ، فقال له السبعون - فيما ذكر لى - حين صنعوا ما أمرهم به . وخرجوا معه للقاء ربه يا موسى : اطلب لنا نسمع كلام ربنا . فقال : أفعل فلما دنا موسى من الجبل ، وقع عليه عمود الغمام حتى تغشى الجبل كله ، ودنا موسى فدخل فيه ، وقال للقوم : ادنوا . وكان موسى إذا كلمه الله وقع على جبهة موسى نور ساطع ، لا يستطيع أحد من بنى آدم أن ينظر إليه .ودنا القوم حتى إذا دخلوا فى الغمام وقعوا سجودا فسمعوه وهو يكلم موسى ، يأمره وينهاه ) : أفعل ولا تفعل ، فلما انكشفت عن موسى الغمام أقبل إليهم فقالوا له ، لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى نَرَى الله جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصاعقة ) وهى الصاعقة التى يحصل منها الاضطراب الشديد فماتوا جميعاً فقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه ويقول : ( رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ ) قد سفهوا ، أتهلك من ورائى من بنى إسرائيل " .وهكذا نرى أن هؤلاء السبعين المختارين من بنى إسرائيل قد طلبوا من نبيهم موسى - عليه السلام - مالا يصح لهم أن يطلبوه فأخذتهم الرجفة بسبب ذلك ، أو بسبب أنهم عندما عبد بنو إسرائيل العجل فى غيبة موسى لم ينهوهم عن المنكر ولم يأمروهم بالمعروف .وقوله : ( فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرجفة قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ ) أى : فلما أخذت هؤلاء السبعين المختارين الرجفة قال موسى يا رب إننى أتمنى لو كانت سبقت مشيئتك أن تهلكهم من قبل خروجهم معى إلى هذا المكان وأن تهلكنى معهم حتى لا أقع فى حرج شديد مع بنى إسرائيل ، لأنهم سيقولون لى : قد ذهبت بخيارنا لإهلاكهم .ويرى بعض المفسرين أن هذه الرجفة التى أخذتهم وصعقوا منها أدت إلى موتهم جميعا ثم أحياهم الله - تعالى - بعد ذلك ، ويرى آخرون أنهم غشى عليهم ثم أفاقوا .وقد قال موسى هذا القول لاستجلاب العفو من ربه عن هذه الجريمة التى اقترفها قومه . بعد أن من عليهم - سبحانه - بالنعم السابقة الوافرة ، وأنقذهم من فرعون وقومه . فكأنه يقول : يا رب لقد رحمتهم من ذنوب كثيرة ارتكبوها فيما سبق فارحمهم الآن كما رحمتهم من قبل جرياً على مقتضى كرمك .ومفعلو المشيئة محذوف ، أى : لو شئت إهلاكهم لأهلكتهم .وقوله ( وَإِيَّايَ ) معطوف على الضمير فى ( أَهْلَكْتَهُمْ ) ، وقد قال موسى ذلك تسليما منه لأمر الله وقضائه وإن كان لم يسبق منه ما يوجب هلاكه ، بل الذى سبق منه إنما هو الطاعة الكاملة لله رب العالمين .والاستفهام فى قوله ( أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السفهآء مِنَّآ ) للاستعطاف الذى بمعنى النفى أى : ألجأ إليك يا مولانا ألا تهلكنا بذنب غيرنا فلئن كان هؤلاء السفهاء قد خرجوا عن طاعتك وانتهكوا حرماتك . فنحن يا رب مطيعون لك وخاضعون لأمرك .قوله ( إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ ) استئناف مقرر لما قبله ، و ( إِنْ ) نافية . والفتنة : الابتلاء والاختبار والباء فى ( بِهَا ) للسببية أى : ما الفتنة التى وقع فيها السفهاء إلا ، اختبارك وابتلاؤك وامتحانك لعبادك ، فأنت الذى ابتليتهم واختبرتهم ، فالأمر كله لك وبيدك .لا يكشفه إلا أنت .كما لم يمتحن به ويختبر إلا أنت . فنحن عائذون بك منك . ولاجئون منك إليك . ما شئت كان وما لم تشأ لم يكن .وقوله ( أَنتَ وَلِيُّنَا فاغفر لَنَا وارحمنا وَأَنتَ خَيْرُ الغافرين ) أى : أنت القائم بأمورنا كلها لا أحد غيرك ، فاغفر لنا ما فرط منا ، وارحمنا برحمتك التى وسعت كل شىء ، وأنت خير الغافرين إذ كل غافر سواك إنما يغفر لغرض نفسانى ، كحب الثناء ، واجتلاب المنافع ، أما أنت - يا إلهنا - فمغفرتك لا لطلب عوض أو غرض وإثما هى لمحض الفضل والكرم .

واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الاخرة انا هدنا اليك قال عذابي اصيب به من اشاء ورحمتي وسعت كل شيء فساكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم باياتنا يؤمنون

كما فسرها الوسيط أضاف موسى إلى هذه الدعوات الطيبات دعوات أخرى فقال - كما حكى القرآن فيه - ( واكتب لَنَا فِي هذه الدنيا حَسَنَةً وَفِي الآخرة ) أى وأثبت لنا فى هذه الدنيا ما يحسن من نعمة وطاعة وعافية وتوفيق ، وأثبتت : لنا فى الآخرة - أيضا - ما يحسن من مغفرة ورحمة وجنة عرضها السموات والأرض وقوله ( إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ) استئناف مسوق لتعليل الدعاء فإن التوبة. الصادقة تجعل الدعاء جديرا بالإجابة ، أى : لأنا تبنا إليك من المعاصى التى جئناك للاعتذار منها . فاكتب لنا الحسنات فى الدارين ، ولا تحرمنا من عطائك الجزيل .وهدنا : بمعنى تبنا . يقال : هاد يهود إذا رجع وتاب .وصدرت الجملة الكريمة ب " إن " المفيدة للتحقيق لإظهار كمال النشاط والرغبة فى مضمونها . وقوله : ( قَالَ عذابي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ) استئناف وقع جوابا عن سؤال ينساق إليه الجواب ، كأنه قيل : فماذا قال الله - تعالى - عند دعاء موسى ، فكان الجواب : قال عذابى . . . الخ .ثم قال الله - تعالى - لموسى ردا على دعائه : يا موسى إن عذابى الذى

تخشى أن يصيب قومك أصيب به من اشاء تعذيبه من العصاة ، فلا يتعين أن يكون قومك محلا له بعد توبتهم ، فقد اقتضت حكمتى ان اجازى الذين اساءوا بما عملوا واجازى الذين احسنوا بالحسنى .( وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ) فلا تضيق عن قومك ، ولا عن غيرهم من خلقى ممن هم أهل لها .وقد استفاضت الآيات والأحاديث التى تصرح بأن رحمة الله - تعالى - قد وسعت كل شىء ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : " إن لله عز وجل مائة رحمة فمنها رحمة يتراحم بها الخلق ، وبها تعطف الوحوش على أولادها ، وأخر تسعة وتسعين إلى يوم القيامة ".ثم بين - سبحانه - من هم أهل لرحمته فقال : ( فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزكاة والذين هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ) .أى : فسأكتب رحمتى للذين يصونون أنفسهم عن كل ما يغضب الله ويؤدون الزكاة المفروضة عليهم فى أموالهم .وتخصيص إيتاء الزكاة بالذكر مع اقتضاء التقوى له للتعريض بقوم موسى . لأن إيتاءها كان شاقاً على نفوسهم لحرصهم الشديد على المال .ولعل الصلاة لم تذكر مع أنها مقدمة على سائر العبادات . اكتفاء عنها بالاتقاء الذى هو عبارة عن فعل الواجبات بأسرها . وترك المنهيات عن آخرها .وسأكتبها كذلك للذين هم بآياتنا يؤمنون إيمانا تاما خالصاً لا رياء فيه . ولا نقص معه .

الذين يتبعون الرسول النبي الامي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل يامرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والاغلال التي كانت عليهم فالذين امنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي انزل معه اولئك هم المفلحون

كما فسرها الوسيط ثم أضاف - سبحانه - صفات أخرى لمن هم أهل لرحمته ورضوانه وهذه الصفات تنطبق كل الانطباق على محمد صلى الله عليه وسلم الذى أمر بنو إسرائيل وغيرهم باتباعه فقال تعالى : ( الذين يَتَّبِعُونَ الرسول النبي الأمي ) فى محل جر. ( الذين يَتَّبِعُونَ الرسول النبي الأمي ) قوله - تعالى - على أنه نعت لقوله : ( لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ) أو بدل منه . أو مرفوع على - أنه خبر لمبتدأ محذوف . أى : هم الذين يتبعون . . . الخ .وقد وصف الله تعالى - رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بأوصاف كريمة تدعو العاقل المنصف إلى اتباعه والإيمان به .الوصف الأول : أنه رسول الله إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً .الوصف الثانى : أنه بنى أوحى الله إليه بشريعة عامة كاملة باقية إلى يوم الدين .الوصف الثالث : أنه أمى ما قرأ ولا كتب ولا جلس إلى معلم ولا أخذ علمه عن أحد ولكن الله - تعالى - أوحى إليه بالقرآن الكريم عن طريق جبريل - عليه السلام - ، وأفاض عليه من لدنه علوما نافعة ومبادىء توضح ما أنزله عليه من القرآن الكريم ، فسبق بذلك الفلاسفة والمشرعين والمؤرخين وأرباب العلوم الكونية والطبيعية ، فأميته مع هذه العلوم التى يصلح عليها أمر الدنيا والآخرة ، أوضح دليل على أن ما يوقله إنما هو بوحى من الله إليه قال تعالى : ( وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكتاب وَلاَ الإيمان ولكن جَعَلْنَاهُ نُوراً نّهْدِي بِهِ مَن نّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ) وقال - سبحانه - ( وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لاّرْتَابَ المبطلون ) الصفة الرابعة : أشار إليها بقوله ( الذي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التوراة والإنجيل ) أى هذا الرسول النبى الأمى من صفاته أن أهل الكتاب يجدون اسمه ونعته مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ، ووجود اسمه ونعته فى كتبهم من أكبر الدواعى إلى الإيمان به وتصديقه واتباعه ولقد كان اليهود يبشرون ببعثة النبى صلى الله عليه وسلم قبل زمانه ويقرؤون فى كتبهم ما يدل على ذلك ، فلما بعث الله - تعالى - نبيه بالهدى ودين الحق آمن منهم الذين فتحوا قلوبهم للحق ، وخافوا مقام ربهم ونهوا أنفسهم عن الهوى ، وأما الذين استنكفوا واستكبروا ، وحسدوا محمدا صلى الله عليه وسلم على ما آتاه الله من فضله فقد أخذوا يحذفون من كتبهم ما جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم فيها ، " أو يؤولونه تأويلا فاسداً أو يكتمونه عن عامتهم .ورغم حرصهم على حذف ما جاء عن الرسول فى كتبهم أو تأويلهم السقيم له ، أو كتمانه عن الأميين منهم . أبى الله - تعالى - إلا أن يتم نوره ، إذ بقى فى التوراة والإنجيل ما بشر بالنبى صلى الله عليه وسلم وصرح بنعوته وصفاته ، بل وباسمه صريحا .وذد تحدث العلماء الاثبات عن بشارات الأنبياء بمحمد صلى الله عليه وسلم وجمعوا عشرات النصوص التى ذكرت نعوته وصفاته ، وها نحن نذكر طرفا مما قاله العلماء فى هذا الشأن .قال الإمام الماوردى فى ( أعلام النبوة ) : ( وقد تقدمت بشائر من سلف من الأنبياء ، بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم مما هو حجة على أممهم ، ومعجزة تدل على صدقه عند غيرهم ، بما أطلعه الله - تعالى - على غيبه ، ليكون عونا للرسل ، وحثا على القبول ، فمنهم من عينه باسمه ، ومنهم من ذكره بصفته ومنهم من عزاه إلى قومه ، ومنهم من أضافه إلى بلده ، ومنهم من خصه بأفعاله ، ومنه من ميزه بظهوره وانتشاره ، وقد حقق الله - تعالى - هذه الصفات جميعها فيه ، حتى صار جلياً بعد الاحتمال ، ويقينا بعد الارتياب ) .وجاء فى ( منية الأذكياء فى

قصص الأنبياء ) : ( إن نبينا - عليه الصلاة والسلام - قد بشر به الأنبياء
السابقون ، وشهدوا بصدق نبوته ، ووصفوه وصفا رفع كل احتمال ، حيث صرحوا
باسمه وبلده وجنسه وحليته وأطواره وسمته ، ومع أن أهل الكتاب حذفوا اسمه من
نسخهم الأخيرة إلا أن ذلك لم يجدهم نفعا ، لبقاء الصفات التى اتفق عليها
المؤرخون من كل جنس وملة وهى أظهر دلالة من الاسم على المسمى ، إذ قد يشترك
اثنان فى اسم ، ويمتنع اشتراك اثنين فى جميع الأوصاف . لكن من أمد غير بعيد
قد شرعوا فى تحريف بعض الصفات ليبعد صدقها على النبى صلى الله عليه وسلم
فترى كل نسخة متأخرة تختلف عما قبلها فى بعض المواضع اختلافا لا يخفى على
. اللبيب أمره ، ولا ما قصد به . ولم يفدهم ذلك غير تقوية الشبهة عليهم
لانتشار النسخ بالطبع وتيسير المقابلة بينها " .وقال المرحوم الشيخ ( رحمة
الله الهندى ) فى كتابه ( إظهار الحق ) ( إن الأخبار الواقعة فى حق محمد
صلى الله عليه وسلم توجد كثيرة إلى الآن - أيضا - مع وقوع التحريفات فى هذه
الكتب . ومن عرف أولا طريق أخبار النبى المتقدم عن النبى المتأخر . ثم نظر
ثانيا بنظر الانصاف إلى هذه الاخبارات وقابلها بالاخبارات التى نقلها
الانجيليون فى حق عيسى - عليه السلام - جزم بأن الاخبارات المحمدية فى غاية
القوة ) .وقد جمع صاحب كتاب ( إظهار الحق ) وغيره من العلماء والمؤرخين
كثيراً من البشائر التى وردت فى التوراة والإنجيل خاصة بالنبى صلى الله
عليه وسلم ومبينة نعوته وصفاته .ومن أجمع ما جاء فى التوراة خاصاً بالنبى
صلى الله عليه وسلم ما أخرجه البخارى عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى
الله عنهما - قال : ( قرأت فى التوراة صفة النبى صلى الله عليه وسلم ( محمد
رسول الله : عبدى ورسولى ، سميته المتوكل ، ليس بفظ ، ولا غليظ ، ولا صخاب
فى الأسواق ، ولا يجزى بالسيئة السيئة ، بل يعفو ويصفح ، ولن أقبضه حتى
أقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا :لا إله إلا الله ) .كذلك مما يشهد
بوجود النبى صلى الله عليه وسلم فى التوراة ، ما أخرجه الإمام أحمد عن أبى
صخر العقيلى قال : ( حدثنى رجل من الأعراب فقال : جلبت حلوبة . إلى المدينة
فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم فلما فرغت من بيعى قلت لألقين هذا الرجل
فلأسمعن منه ، قال : فتلقانى بين ابى بكر وعمر يمشيان ، فتبعتهم حتى إذا
أتوا على رجل من اليهود وقد نشر التوراة يقرؤها يعزى بها نفسه عن ابن له فى
: الموت كأجمل الفتيان وأحسنها ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم
أنشدك بالذى أنزل التوراة هل تجد فى كتابك هذا صفتى ومخرجى ) فقال برأسه
هكذا ، أى :لا ، فقال ابنه : أى والذى أنزل التوراة إنا لنجد فى كتابنا
صفتك ومخرجك ، وإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله ، فقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم " أقيموا اليهودى عن أخيكم " ثم تولى كفنه
والصلاة عليه .هذا ، ومن أراد مزيد معرفة بتلك المسألة فليراجع ما كتبه
العلماء فى ذلك .ثم وصف الله - تعالى - رسوله صلى الله عليه وسلم بصفة
خامسة فقال تعالى : ( يَأْمُرُهُم بالمعروف وَيَنْهَاهُمْ عَنِ المنكر ) أى
هذا الرسول النبى الأمى الذى يجده أهل الكتاب مكتوبا عندهم فى التوراة
والإنجيل من صفاته كذلك أنه يأمرهم بالمعروف الذى يتناول الإيمان بالله
وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر كما يتناول مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم
وغير ذلك من الأمور التى جاء بها الشرع الحنيف . وارتاحت لها العقول
السليمة ، والقلوب الطاهرة وينهاهم عن المنكر الذى يتناول الكفر والمعاصى
ومساوىء الأخلاق .ثم وصف الله - تعالى - رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم
بصفة سادسة فقال تعالى : ( وَيُحِلُّ لَهُمُ الطيبات وَيُحَرِّمُ
عَلَيْهِمُ الخبآئث ) أى : يحل لهم ما حرمه الله عليهم من الطيبات كالشحوم
وغيرها بسبب ظلمهم وفسوقهم عقوبة لهم ، ويحل لهم كذلك ما كانوا قد حرموه
على أنفسهم دون أن يأذن به الله كلحوم الإبل وألبانها ، ويحرم عليهم ما هو
خبيث كالدم ولحم الميتة والخنزير فى المأكولات ، وكأخذ الربا وأكل أموال
- الناس بالباطل فى المعاملات وفى ذلك سعادتهم وفلاحهم .ثم وصف الله تعالى
رسوله صلى الله عليه وسلم بصفة سابعة فقال تعالى : ( وَيَضَعُ عَنْهُمْ
إِصْرَهُمْ والأغلال التي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ) .الإصر : الثقل الذى يأصر
: صاحبه . أى يحبسه عن الحركة الثقيلة ، ويطلق على العهد كما فى قوله تعالى
أى عهدى .قال ( قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ على ذلكم إِصْرِي )
القرطبى : " وقد جمعت هذه الآية المعنيين ، فإن بنى إسرائيل قد كان أخذ
عليهم عهد أن يقوموا بأعمال ثقال فوضع عنهم بمحمد صلى الله عليه وسلم ذلك
، العهد وثقل تلك الأعمال ، كغسل البول ، وتحليل الغنائم ، ومجالسة الحائض
ومؤاكلتها ومضاجعتها .فإنهم كانوا إذا أصاب ثوب أحدهم بول قرضته . وإذا
. جمعوا الغنائم نزلت نار من السماء فأكلتها وإذا حاضت المرأة لم يقربوها
إلى غير ذلك مما ثبت فى الصحيح وغيره " .والأغلال : جمع غل . وهو ما يوضع
فى العنق أو اليد من الحديد . والتعبير بوضع الإصر والأغلال عنهم استعارة
لما كان فى شرائعهم من الأشياء الشاقة والتكاليف الشديدة كاشتراط قتل النفس
لصحة التوبة . فقد شبه - سبحانه - ما أخذ به بنو إسرائيل من الشدة فى
العبادات والمعاملات والمأكولات جزاء ظلمهم بحال من يحمل أثقالا يئن من
حملها وهو فوق ذلك مقيد بالسلاسل؛ والأغلال فى عنقه ويديه ورجليه .والمعنى
إن من صفات هذا الرسول النبى الأمى أنه جاءهم ليرفع عنهم ما ثقل عليهم من :

تكاليف كلفهم الله بها بسبب ظلمهم . لأنه - عليه الصلاة والسلام - جاء بالتبشير والتخفيف . وبعث بالحنيفية السمحة . ومن وصاياه صلى الله عليه وسلم : " بشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا " .قال الإمام ابن كثير : وقد كانت الأمم التى قبلنا فى شرائعهم ضيق عليهم . فوسع الله على هذه الأمة أمورها . وسهلها لهم . ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الله تجاوز لأمتى ما حدثت به أنفسهم ما لم تقل أو تعمل " وقال : " رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه " ولهذا قال : أرشد الله هذه الأمة أن يقولوا : ( رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الذين مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ واعف عَنَّا واغفر لَنَا وارحمنا أَنتَ مَوْلاَنَا فانصرنا عَلَى القوم الكافرين ) وثبت فى صحيح مسلم أن الله تعالى قال بعد كل سؤال من هذه : قد فعلت قد فعلت " .إذا ، فمن الواجب على بنى إسرائيل أن يتبعوا محمداً صلى الله عليه وسلم الذى هذه صفاته ، والذي فى اتباعه سعادتهم فى دنياهم وآخرتهم ، ولهذا ختم الله - تعالى - الآية الكريمة ببيان حالة المصدقين لنبيه فقال تعالى :( فالذين آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ واتبعوا النور الذي أُنزِلَ مَعَهُ أولئك هُمُ المفلحون ) .أى ، فالذين آمنوا بهذا الرسول النبى الأمى من بنى إسرائيل وغيرهم وعزروه : بأن منعوه وحموه من كل من يعاديه ، مع التعظيم والتوقير له ونصروه بكل وسائل النصر ( واتبعوا النور الذي أُنزِلَ مَعَهُ ) وهو القرآن والوحى الذى جاء به ودعا إليه الناس ، ( أولئك هُمُ المفلحون ) أى الفائزون الظافرون برحمة الله ورضوانه .وبذلك تكون الآية الكريمة قد وصفت النبى صلى الله عليه وسلم بأحسن الصفات وأكرم المناقب ، وأقامت الحجة على أهل الكتاب بما يجدونه فى كتبهم وعلى ألسنة رسلهم بأنه ما جاء إلا لهدايته وسعادتهم ، وأنهم إن آمنوا به وصدقوه ، كانوا من ( الذين يَسْتَمِعُونَ القول فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أولئك الذين هَدَاهُمُ الله وأولئك هُمْ أُوْلُواْ الألباب )

قل يا ايها الناس اني رسول الله اليكم جميعا الذي له ملك السماوات والارض لا اله الا هو يحيي ويميت فامنوا بالله ورسوله النبي الامي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون

كما فسرها الوسيط ثم أمر الله رسوله أن يبين للناس أنه مرسل إلى الناس كافة فقال تعالى : ( قُلْ ياأيها الناس إِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ ، جَمِيعاً ) أى : قل يا محمد لكافة البشر من عرب وعجم ، إنى رسول الله إليكم جميعاً ، لا فرق بين نصرانى أو يهودى ، وإنما رسالتى إلى الناس عامة ، وقد جاء فى القرآن الكريم وفى السنة النبوية ما يؤيد عموم رسالته .أما فى القرآن الكريم ، فمن ذلك قوله تعالى : ( وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ) وقال تعالى : ( وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ) وقال تعالى : ( وَأُوحِيَ إِلَيَّ هذا القرآن لأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَن بَلَغَ ) أى وأنذر من بلغه القرآن ممن سيوجد إلى يوم القيامة من سائر الأمم وفى ذلك دلالة على عموم رسالة النبى صلى الله عليه وسلم وعلى أن أحكام القرآن تعم الثقلين إلى يوم الدين .وأما فى السنة فمن ذلك ما رواه البخارى عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة " .وفى صحيح مسلم عن أبى موسى الأشعرى - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " والذى نفسى بيده لا يسمع بى رجل من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم لا يؤمن بى إلا دخل النار " .قال الإمام ابن كثير : والآيات فى هذا كثيرة ، كما أن الأحاديث فى هذا أكثر من أن تحصر ، وهو معلوم من دين الإسلام ضرورة أنه رسول إلى الناس كلهم ه .ثم وصف الله تعالى ذاته بما هو أهل له من صفات القدرة والوحدانية فقال تعالى : ( الذي لَهُ مُلْكُ السماوات والأرض لا إله إلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ) أى : قل - يا ، محمد - للناس إنى رسول إليكم من الله الذى له التصرف فى السموات والأرض والذى لا معبود بحق سواه والذي بيده الاحياء والإماتة ، ومن كان هذا شأنه فمن الواجب أن يطاع أمره ، وأن يترك ما نهى عنه ، وأن يصدق رسوله . ثم بنى - سبحانه - على هذه النعوت الجليلة التى وصف بها نفسه الدعوة إلى الإيمان فقال تعالى : ( فَآمِنُواْ بالله وَرَسُولِهِ النبي الأمي الذي يُؤْمِنُ بالله وَكَلِمَاتِهِ واتبعوه لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ) أى : فآمنوا أيها الناس جمعاً بالله الواحد الأحد وآمنوا - أيضاً برسوله محمد صلى الله عليه وسلم النبى الأمى الذى يؤمن بالله ، وبما أنزل عليه وعلى من تقدمه من الرسل من كتبه ووحيه واسلكوا سبيله ، واقتفوا آثاره ، فى كل ما يأمر به أو ينهى عنه رجاء أن تهتدوا إلى الراط المستقيم .وفى وصفه صلى الله عليه وسل بالأمية مرة ثانية ، إشارة إلى كمال علمه ، لأنه مع عدم مطالعته

للكتاب ، أو مصاحبته لمعلم . فتح الله له أبواب العلم ، وعلمه لما لم يكن يعلم من سائر العلوم التى تعلمها الناس عنه ، وصاروا بها أئمة العلماء وقادة المفكرين ، فأكرم بها من أمية تضاءل بجانبها علم العلماء فى كل زمان ومكان .وبذلك تكون الآيتان الكريمتان قد وصفتا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأشرف الصفات وأقامتا أوضح الحجج وأقواها على صدقه فى نبوته ، ودعتا اليهود بل الناس جميعاً إلى الإيمان به لأنه قد بشرت به الكتب السماوية السابقة ولأنه صلى الله عليه وسلم ما جاءهم إلا بالخير ، وما نهاهم إلا عن الشر . ولأن شريعته تمتاز باليسر والسماحة ، ولأن أنصاره وأتباعه هم المفلحون ، ولأن رسالته عامة للجن والانس ، ومن كانت هذه صفاته ، وتلك شريعته ، جدير أن يتبع ، وقمين أن يصدق ويطاع ، وما يعرض عن دعوته إلا من طغى وآثر الحياة الدنيا .

ومن قوم موسى امة يهدون بالحق وبه يعدلون

كما فسرها الوسيط ثم بين القرآن الكريم أن قوم موسى لم يكونوا جميعا ضالين . وإنما كان فيهم الأخيار وفيهم الأشرار فقال - تعالى - : ( وَمِن قَوْمِ . أى : ومن قوم موسى جماعة عظيمة يهدون الناس بالحق الذى جاءهم به من. ( . . ، عند الله ، وبالحق - أيضاً - يسيرون فى أحكامهم فلا يجورون ، ولا يرتشون وإنما يعدلون فى كل شئونهم .والمراد بهم أناس كانوا على خير وصلاح فى عهد موسى - عليه السلام ، مخالفين لأولئك السفهاء من قومه .وقيل المراد بهم من آمن بالنبى صلى الله عليه وسلم عند بعثته .وهذا لون من ألوان عدالة القرآن فى أحكامه ، وإنصافه لمن يستحق الانصاف من الناس .إنه لا يسوق أحكامه معممة بحيث يندرج تحتها الصالح والطالح بدون تمييز ، كلا وإنما القرآن يسوق أحكامه بإنصاف واحتراس ، فهو يحكم للصالحين بما يستحقونه ، وتلك هى العدالة التى ما أحوج الناس فى كل زمان ومكان إلى السير على طريقها ، وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - :( لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ الكتاب أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ الله آنَآءَ الليل وَهُمْ يَسْجُدُونَ ) وقوله وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الكتاب لَمَن يُؤْمِنُ بالله وَمَآ أُنزِلَ ) : إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ للَّهِ لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ الله ثَمَناً قَلِيلاً ) وقوله ( بالحق ) الباء للملابسة ، وهى مع مدخولها فى محل الحال من الواو فى يهدون . أى : يهدون الناس حال كونهم ملتبسين بالحق .

وقطعناهم اثنتي عشرة اسباطا امما واوحينا الى موسى اذ استسقاه قومه ان اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل اناس مشربهم وظللنا عليهم الغمام وانزلنا عليهم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا انفسهم يظلمون

كما فسرها الوسيط ثم ذكر القرآن بعض النعم التى أنعم الله بها على بنى ) : - إسرائيل ، وكيف وقفوا من هذه النعم موقف الجاحد الكنود فقال - تعالى وَقَطَّعْنَاهُمُ اثنتي عَشْرَةَ . . . ) .قوله ( وَقَطَّعْنَاهُمُ اثنتي عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً ) اى : فرقنا قوم موسى وصيرناهم اثنتى عشرة . أمة تتميز كل أمة عن الأخرى .والأسباط فى بنى إسرائيل كالقبائل فى العرب والسبط : ولد الولد فهو كالحفيد . وقد يطلق السبط على الولد .وكان بنو إسرائيل اثنتى عشرة قبيلة من اثنى عشر ولداً هم أولاد يعقوب - عليه السلام - قالوا : والظاهر أن قطعناهم متعد لواحد لأنه لم يضمن معنى ما يتعدى لاثنين ، فعلى هذا يكون اثنتى عشرة حالا من مفعول ( قَطَّعْنَاهُمُ ) وهو ضمير الغائبين " هم " .ويرى الزمخشرى وغيره أن " قطعناهم " بمعنى صيرناهم وأن ( اثنتي عَشْرَةَ ) مفعول ثان ، وتمييز اثنتى محذوف لفهم المعنى والتقدير وقطعناهم اثنتى عشرة فرقة .و ( أَسْبَاطاً ) بدل من ذلك التمييز ، و ( أُمَماً ) بدل بعد بدل من اثنتى عشرة .والجملة الكريمة معطوفة على ما قبلها من أخبار بنى إسرائيل ، لمشاركتها لها فى كل ما يقصد به من العظات والعبر .وقوله : ( وَأَوْحَيْنَآ إلى موسى إِذِ استسقاه قَوْمُهُ أَنِ اضرب بِّعَصَاكَ الحجر فانبجست مِنْهُ اثنتا عَشْرَةَ عَيْناً ) .الاستسقاء : طلب السقيا عند عدم الماء أو حبس المطر . وذلك عن طريق الدعاء لله - تعالى - فى خشوع واستكانة ، وقد سأل موسى - عليه السلام - ربه أن يسقى بنى إسرائيل الماء بعد أن استبد بهم العطش بعد ما كانوا فى التيه .فعن ابن عباس أنه قال : كان ذلك فى التيه ضرب لهم موسى " الحجر فصار منه اثنتا عشرة عينا من ماء لكل سبط منهم عين يشربون منها وقيل : كان الاستسقاء فى البرية ولكن الآثار التى تدل على أنه كان فى. التيه أصح وأكثر .والمعنى : وأوحينا إلى موسى حين طلب منه قومه الماء أن اضرب بعصاك الحجر فضربه فخرج منه الماء من اثنتى عشرة عينا ليروا بأعينهم مظاهر قدرتنا ، وليشاهدوا دليلا من الأدلة المتعددة التى تؤيد موسى فى أنه صادق فيما يبلغه عن ربه - عز وجل - .وقوله ( إِذِ استسقاه قَوْمُهُ ) يفيد

، أن الذى سأل ربه السقيا هو موسى وحده ، لتظهر كرامته لدى ربه عند قومه وليشاهدوا بأعينهم كيف أن الله - تعالى - قد أكرمه حيث أجاب دعاءه ففجر لهم الماء من الحجر .وال فى ( الحجر ) لتعريف الجنس ، أى : اضرب أى حجر شئت بدون تعيين ، وقيل للعهد ، ويكون المراد حجرا معينا معروفا لموسى - عليه السلام - بوحى من الله - تعالى - وقد أورد بعض المفسرين فى ذلك آثاراً حكم عليها المحققون من العلماء بالضعف ، ولذا لم نعتد بها .والذى نرجحه أن " أل هنا لتعريف الجنس ، لأن انفجار الماء من أى حجر بعد ضربه أظهر فى إقامة " البرهان على صدق موسى - عليه السلام - وأدعى لإيمان بنى إسرائيل وانصياعهم للحق بعد وضوحه ، وأبعد عن التشكيك فى إكرام الله لنبيه موسى ، إذ لو كان انفجار الماء من حجر معين لأمكن أن يقولوا إن انفجار الماء منه لمعنى خاص بهذا الحجر ، وليس لكرامة موسى عند ربه - عز وجل - .والفاء فى قوله ( انبجست مِنْهُ اثنتا عَشْرَةَ عَيْناً ) معطوفة على محذوف والتقدير : فضرب فانبجست .قال بعضهم : والانبجاس والانفجار واحد . يقال بجست الماء أبجسه فانبجس ، بمعنى فجرته فانفجر .وقيل : إن الانبجاس خروج الماء من مكان ضيق بقلة ، والانفجار خروجه بكثرة .ولا تنافى بين قوله - تعالى - فى سورة البقرة ( فانفجرت ) وبين قوله هنا ( انبجست ) لأنه انبجس أولا ثم انفجر ثانيا . وكذا العيون يظهر الماء منها قليلا ثم يكثر لدوام خروجه .وكانت العيون اثنتى عشرة عينا بحسب عدد أسباط بنى إسرائيل إتماما للنعمة عليهم حتى لا يقع بينهم تنازع أو تشاجر .وقوله ( قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ) إرشاد وتنبيه إلى حكمة الانقسام إلى اثنتى عشرة عينا . أى قد عرف كل سبط من أسباط بنى إسرائيل مكان شربه فلا يتعداه إلى غيره ، وفى ذلك ما فيه من استقرار أمورهم ، واطمئنان نفوسهم ، وعدم تعدى بعضهم على بعض ثم ذكر - سبحانه - نعما أخرى مما أنعم به عليهم فقال : ( وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الغمام ) .الغمام : جمع غمامة وهى السحابة : وخصه بعض علماء اللغة بالسحاب الأبيض .أى : وسخرنا لبنى إسرائيل الغمام بحيث يلقى عليهم ظله ليقيهم من حر الشمس .قله ( وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ المن والسلوى ) معطوف على ما قبله .والمن : اسم جنس لا واحد له من لفظه ، وهو - على أرجح الأقوال - مادة صمغية تسقط من الشجر تشبه حلاته حلاوة العسل .والسلوى : اسم جنس جمعى واحدته سلواه ، وهو طائر برى لذيذ اللحم ، سهل الصيد يسمى بالسمانى ، كانت تسوقه لهم ريح الجنوب كل مساء فيمسكونه قبضا بدون تعب وتظليلهم بالغمام وإنزال المن والسلوى عليهم كان فى مدة تيههم بين مصر. والسام المشار إليه بقوله - تعالى - : ( قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأرض ) إليه بقوله - تعالى - : (قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأرض ) أين الطعام؟ فأنزل اللَّهُ عليهم المن فكان ينزل على شجر الزنجبيل والسلوى وهو طائر يشبه السمانى فكان يأتى أحدهم فينظر إلى الطير فإن كان سمينا ذبحه وإلا أرسله ، فإذا سمن أتاه ، فقالوا : هذا الطعام فأين الشراب؟ فأمر الله موسى أن يضرب بعصاه الحجر فضربه فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا فشرب كل سبط من عين . فقالوا : هذا الشراب فأين الظل! فظلل الله عليهم بالغمام فقالوا : هذا الظل فأين اللباس؟ فكانت ثيابهم تطول معهم كما تطول الصبيان ولا يتمزق لهم ثوب فذلك قوله - تعالى - ( وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الغمام وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ المن والسلوى ) .وقوله ( كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ) أى : وقلنا لهم كلوا من طيبات ما رزقناكم ، واشكروا ربكم على هذه النعم لكى يزيدكم منها .وقوله : ( وَمَا ظَلَمُونَا ولكن كانوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ) معطوف على محذوف أى : فعصوا أمر ربهم وكفروا بهذه النعم الجليلة وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .ويرى البعض أنه لا حاجة إلى هذا التقدير ، وأن جملة ( وَمَا ظَلَمُونَا ) معطوفة على ما قبلها لأنها مثلها فى أنها من أحوال بنى " إسرائيل .والتعبير عن ظلمهم لأنفسهم بكلمة " كانوا " والفعل المضارع يظلمون " يدل على أن ظلمهم لأنفسهم كان يتكرر منهم ، لأنك لا تقول فى ذم إنسان " كان يسىء إلى الناس " إلا إذا كانت الإساءة تصدر منه المرة تلو الأخرى .قال ابن جرير عند تفسيره لهذه الجملة الكريمة ما ملخصه : " هذا من الذى استغنى بدلالة ظاهره على ما ترك منه وذلك أن معنى الكلام : كلوا من طيبات ما رزقناكم فخالفوا ما أمرناهم به ، وعصوا ربهم ، ثم رسولنا إليهم : وما ظلمونا " فاكتفى بما ظهر عما ترك . وقوله : ( وَمَا ظَلَمُونَا ) أى : ما ظلمونا بفعلهم ذلك ومعصيتهم ، وما وضعوا فعلهم ذلك وعصيانهم إيانا موضع مضرة علينا ومنقصة لنا ، ولكنهم وضعوه من أنفسهم موضع مضرة عليها ومنقصة لها . فإن الله - تعالى -لا تضره معصية عاص ، ولا يتحيف خزائنه ظلم ظالم ، ولا تنفعه طاعة مطيع ، ولا يزيد فى ملكه عدل عادل ، لنفسه يظلم الظالم ، وحظها يبخس العاصى ، وإياها ينفع المطيع ، وحظها يصيب العادل . "

واذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدا نغفر لكم خطيئاتكم سنزيد المحسنين

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - ( وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسكنوا هذه القرية وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وادخلوا الباب سُجَّداً ) . . . الخ . تذكير لهم بصفة جليلة مكنوا منها فما أحسنوا قبولها وما رعوها حق رعايتها ، وهى نعمة تمكينهم من دخول بيت المقدس ونكولهم عن ذلك .قال الآلوسى : وقوله ( وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ) معمول لفعل محذوف تقديره اذكر . وإيراد الفعل هنا مبنيا للمفعول جريا على سنن الكبرياء " مع : " الإيذان بأن الفاعل غنى عن الصريح . أى : أذكر لهم وقت قولنا لأسلافهم والقرية هى البلدة المشتملة على مساكن ، والمراد بها هنا بيت المقدس - على الراجح - وقيل المراد بها أريحاء .والحطة : كجلسة ، اسم للهيئة ، من الحط : بمعنى الوضع والإنزال ، وأصله إنزال الشىء من علو . يقال : استحطه وزره سأله أن يحطه عنه وينزله .وهى خبر مبتدأ محذوف أى : مسألتنا حطة ، والأصل فيها النصب بمعنى : حط عنا ذنوبنا حطة ، وإنما رفعت لتعطى معنى الثبات والمعنى : واذكروا أيها المعاصرون للعهد النبوى من بنى إسرائيل وقت أن قيل لأسلافكم اسكنوا قرية بيت المقدس بعد خروجهم من التيه ، وقيل لهم كذلك كلوا من خيراتها أكلا واسعا ، وأسالوا الله أن يحط عنكم ذنوبكم ، وادخلوا من بابها خاضعين خاشعين شكرا لله على نعمه ، فإنكم إن فعلتم ذلك غفرنا لكم خطيئاتكم .وقوله - تعالى - ( وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ ) فيه إشعار بكمال النعمة عليهم واتساعها وكثرتها ، حيث أذن لهم فى التمتع بثمرات القرية وأطعمتها من أى مكان شاءوا .وقوله : ( وَقُولُواْ حِطَّةٌ وادخلوا الباب سُجَّداً ) إرشاد لهم إلى ما يجب عليهم عمله نحو خالقهم ، وتوجههم إلى ما يعينهم على بلوغ غاياتهم بأيسر الطرق وأسهل السبل لأن كل ما كلفهم الله - تعالى - به أن يضرعوا إليه بأن يحط عنهم خطيئاتهم ، وأن يدخلوا من باب المدينة التى فتحها الله عليهم مخبتين .وقوله ( نَّغْفِرْ لَكُمْ خطيائاتكم ) مجزوم فى جواب الأمر .وهذه الجملة الكريمة بيان للثمرة التى تترتب على طاعتهم وخضوعهم لخالقهم وإغراء لهم على الامتثال والشكر - لو كانوا يعقلون - لأن غاية ما يتمناه العقلاء هو غفران الذنوب .وقوله - تعالى - ( سَنَزِيدُ المحسنين ) وعد بالزيادة من خيرى الدنيا والآخرة لمن أسلم وجهه لله وهو محسن .وقد أمر الله - تعالى - أن يفعلوا ذلك ، وأن يقولوا هذا القول ، لأن تغلبهم على أعدائهم نعمة من أجل النعم التى تستدعى منهم الشكر الجزيل لله - تعالى - . ولهذا كان النبى صلى الله عليه وسلم يظهر أقصى درجات الخضوع ، وأسمى ألوان الشكر عند النصر والظفر وبلوغ المطلوب ، فعندما تم له فتح مكة دخل إليها من الثنية العلاي وهو خاضع لربه حتى إن رأسه الشريف ليكاد يمس عنق ناقته شكرا لله على نعمة الفتح ، وبعد دخوله مكة اغتسل وصلى ثمانى ركعات سماها بعض الفقهاء صلاة الفتح .ومن هنا استحب العلماء للفاتحين من المسلمين إذا فتحوا بلدة أن يصلوا فيها ثمانى ركعات عند أول دخولها شكرا لله ، وقد فعل ذلك سعد بن أبى وقاص عندما دخل إيوان كسرى . فقد ثبت أنه صلى بداخله ثمانى ركعات .ولكن ماذا كان من بنى إسرائيل بعد أن أتم الله لهم نعمة الفتح .

فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذي قيل لهم فارسلنا عليهم رجزا من السماء بما كانوا يظلمون

) : كما فسرها الوسيط لقد حكى القرآن ما كان منهم من جحود وبطر فقال فَبَدَّلَ الذين ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الذي قِيلَ ) .قال صاحب الكشاف : " أى وضعوا مكان حطة قولا غيرها ، يعنى أنهم أمروا بقول معناه التوبة والاستغفار فخالفوه إلى قول ليس معناه معنى ما أمروا به ، ولم يمتثلوا أمر الله ، وليس الغرض أنهم أمروا بلفظ بعينه وهو لفظ الحطة فجاءوا بلفظ آخر ، لأنهم لو جاءوا بلفظ آخر مستقل بمعنى ما أمروا به لم يؤخذوا به كما لو قالوا مكان حطة نستغفرك ونتوب إليك ، أو اللهم اعف هنا وما أشبه ، ذلك " .وقال الإمام ابن كثير : " وحاصل ما ذكره المفسرون وما دل عليه السياق أنهم بدلوا أمر الله لهم من الخضوع بالقول والفعل . فقد أمروا أن يدخلوا الباب سجدا فدخلوا يزحفون على أستاهم رافعى رؤوسهم . وأمروا أن يقولوا حطة - أى احطط عنا ذنوبنا - فاستهزأوا وقالوا حنطة فى شعيرة . وهذا فى غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة ولهذا أنزل الله بهم بأسه وعذابه بفسهم وخروجهم عن طاعته .وأخرج البخارى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : " قيل لبنى إسرائيل ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة فبدلوا ودخلوا يزحفون على أستاهم وقالوا . حبة فى شعيرة " .والعبرة التى تؤخذ من هذه الجملة الكريمة أن من أمره الله - تعالى - بقول أو فعل فتركه وأتى بآخر لم يأذن به الله دخل فى زمرة الظالمين ، وعرض نفسه لسوء المصير وقوله - تعالى - ( فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِّنَ السمآء بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ ) تصريح بأن ما أصابهم من عذاب كان نتيجة عصيانهم وتمردهم وجحودهم لنعم الله .والرجز : هو العذاب ، سواء أكان بالأمراض المختلفة أو بغيرها .وفى النص على أن الرجز قد أتاهم من السماء إشعار بأنه عذاب لا يمكن دفعه ، وأنه لم يكن له سبب أرضى من عدوى أو نحوها ، بل رمتهم

به الملائكة من جهة السماء فأصيب به الذين ظلموا دون غيرهم .هذا وقد وردت
فى سورة البقرة آيتان تشبهان فى ألفاظهما هاتين الآيتين اللتين معنا هنا فى
سورة الأعراف ، أما آيتا سورة البقرة فهما قوله - تعالى - :( وَإِذْ
قُلْنَا ادخلوا هذه القرية فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً
وادخلوا الباب سُجَّداً وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ
وَسَنَزِيدُ المحسنين فَبَدَّلَ الذين ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ الذي قِيلَ
لَهُمْ فَأنزَلْنَا عَلَى الذين ظَلَمُواْ رِجْزاً مِّنَ السمآء بِمَا
كَانُواْ يَفْسُقُونَ ) وقد عقد الإمام الرازى مقارنة بين أسلوب الآيتين فى
كل من السورتين فقال ما ملخصه : إن ألفاظ الآيتين فى سورة الأعراف تخالف
ألفاظ آيتى سورة البقرة من وجوه :الأول : أنه قال - سبحانه - فى سورة
البقرة : ( وَإِذْ قُلْنَا ادخلوا هذه القرية ) وهنا قال : وإذ قيل لهم
اسكنوا هذه القرية .الثانى : أنه قال فى سورة البقرة : ( فَكُلُواْ )
بالفاء ، وقال هنا ( وَكُلُواْ ) بالواو .الثالث : أنه قال فى سورة البقرة
وهذه الكلمة غير مذكورة هنا .الرابع : أنه قال فى سورة ( رَغَداً ) :
البقرة : ( نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ) وقال ها هنا ( نَّغْفِرْ
لَكُمْ خطيائاتكم ) .السادس : أنه قال فى سورة البقرة : ( وَسَنَزِيدُ
) : المحسنين ) وها هنا حذف حرف الواو .السابع : أنه قال فى سورة البقرة
فَأنزَلْنَا عَلَى الذين ظَلَمُواْ ) وقال ها هنا ( فَأَرْسَلْنَا
عَلَيْهِمْ ) .الثامن : أنه قال فى سورة البقرة : ( بِمَا كَانُواْ
يَفْسُقُونَ ) وقال ها هنا ( بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ ) .واعلم أن هذه
الألفاظ متقاربة ولا منافاة بينها البتة ، ويمكن ذكر فوائد هذه الألفاظ
المختلفة من وجوه .الأول : وهو أنه قال فى سورة البقرة ( ادخلوا هذه القرية
وقال ها هنا اسكنوا ، فالفرق أنه لا بد من دخول القرية أولا ثم سكناها (
ثانيا .الثانى : أنه هناك قال ( فَكُلُواْ ) بالفاء وهنا بالواو . والفرق
أن الدخول حالة مخصوصة ، فإنه إنما يكون داخلا فى أول دخوله ، وأما ما بعد
ذلك فيكون سكونا لا دخولا ، إذا ثبت هذا فنقول : الدخول حالة منقضية زائلة
) : وليس لها استمرار فلا جرم أن يحسن ذكر فاء التعقيب بعده ، فلهذا قال
ادخلوا هذه القرية فَكُلُواْ ) وأما السكون فحالة مستمرة باقية فيكون الأكل
حاصلا معه لا عقيبه ، فظهر الفرق .وأما الثالث : وأنه ذكر هناك ( رَغَداً )
ولم يذكره هنا ، فالفرق أن الأكل عقيب دخول القرية يكون ألذ ، لأن الحاجة
" إلى ذلك الأكل كانت أكمل وأتم ، ولما كان الأمر كذلك ذكر كلمة " رغدا
وأما الأكل حال سكون القرية فالظاهر أنه لا يكون فى محل الحاجة الشديدة ولم
تكن اللذة فيه متكاملة . فلا جرم ترك قوله ( رغدا ) فيه .وأما الرابع : وقو
، قوله هناك ( وادخلوا الباب سُجَّداً وَقُولُواْ حِطَّةٌ ) وهنا على العكس
فالمراد التنبيه على أنه لا منافاة فى ذلك ، لأن المقصود هو تعظيم أمر الله
وإظهار الخضوع والخشوع له ، فلم يتفاوت الحال بحسب التقديم والتأخير .وأما
الخامس : وهو أنه قال هناك ( خَطَايَاكُمْ ) وقال هنا ( خطيائاتكم ) فهو
إشارة إلى أ ، هذه الذنوب سواء كانت قليلة أو كثيرة فهى مغفورة عند الإتيان
بهذا التضرع والدعاء .وأما السادس : وهو قوله هناك ( وَسَنَزِيدُ المحسنين
بالواو ، وقال هنا ( سَنَزِيدُ ) بحذفها ، فالفائدة فى حذف الواو أنه (
تعالى وعد بشيئين : بالغفران وبالزيادة للمحسنين من الثواب وإسقاط الواو لا
: يخل بذلك لأنه استئناف مرتب على تقدير قول القائل ماذا بعد الغفران فقيل
، إنه سيزيد المحسنين .وأما السابع : وهو الفرق بين أنزلنا وبين أرسلنا
فلأن الإنزال لا يشعر بالكثرة والإرسال يشعر بها . فكأنه - سبحانه - بدأ
بإنزال العذاب القليل ثم جعله كثيراً .وأما الثامن : فهو الفرق بين قوله
هناك ( يَفْسُقُونَ ) وقوله هنا ( يَظْلِمُونَ ) فذلك لأنهم موصوفون بكونهم
ظالمين لأجل أنهم ظلموا أنفسهم ، وبكونهم فاسقين لأجل أنهم خرجوا عن طاعة
الله . فالفائدة فى ذكر هذين الوصفين التنبيه على حصول هذين الأمرين منهم
ثم قال : فهذا ما خطر بالبال فى ذكر فوائد هذه الألفاظ المختلفة ، وتمام.
العلم بها عند الله - تعالى - " .وبذلك تكون الآيات الكريمة قد بينت أن بنى
إسرائيل مكنوا من النعمة فنفروا منها ، وفتحت لهم أبواب الخير فأبوا دخولها
فكانت عاقبتهم أن محقت النعم من بين أيديهم ، وسلط الله عليهم عذابا ،
شديدا من عنده بسبب ظلمهم وفسوقهم عن أمره .وفى ذلك إثارة لحسرة اليهود
المعاصرين للعهد النبوى على ما ضاع من أسلافهم بسبب انتهاكهم لحرمات الله
وتحذير لهم من سلوك طريق آبائهم حتى لا يصيبهم ما أصابهم من عذاب أليم .ثم
تحدث القرآن بعد ذلك عن رذيلة أخرى من رذائل بنى إسرائيل الكثيرة ، وهى
تحايلهم على استحلال محارم الله بسبب جهلهم وجشعهم وضعف إرادتهم .وذلك أن
الله - تعالى - أخذ عليهم عهدا بأن يتفرغوا لعبادته فى يوم السبت ، وحرم
عليهم الاصطياد فيه دون سائر الأيام ، واختبارا منه - سبحانه - لإيمانهم
ووفائهم بعهودهم أرسل إليهم الحيتان فى يوم السبت دون غيره ، فكانت تتراءى
لهم على الساحل فى ذلك اليوم ، قريبة المأخذ ، سلهة الاصطياد .وهنا سال
لعاب شهواتهم ومطامعهم وفكروا فى حيلة لاصطياد هذه الحيتان فى يوم السبت
فقالوا :لا مانع من أن نحفر إلى جانب ذلك البحر الذى يزخر بالأسماك فى يوم
السبت أحواضا تنساب إليها المياه ومعها الأسماك ، ثم نترك هذه الأسماك

محبوسة فى الأحواض فى يوم السبت - لأنها لا تستطيع الرجوع إلى البحر لضآلة الماء الذى فى الأحواض . ثم نصطادها بعد ذلك فى غير يوم السبت ، وبذلك نجمع بين احترام ما عهد إلينا فى يوم السبت وبين ما تشتهيه أنفسنا من الحصول على تلك الأسماك .ولقد نصحهم الناصحون بأن عملهم هذا هو احتيال على محارم الله وأن حبس الحيتان فى الأحواض هو صيد لها فى المعنى ، وهو فسوق عن أمر الله ، ونقض لعهوده .ولكنهم لجهلهم واستيلاء المطامع على نفوسهم لم يعبأوا بنصح الناصحين بل نفذوا حيلتهم الشيطانية ، فغضب الله عليهم ومسخهم قردة ، وجعلهم عبرة لمن عاصرهم ولمن أتى بعدهم وموعظة للمتقين .

واسالهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر اذ يعدون في السبت اذ تاتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تاتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون

كما فسرها الوسيط واستمع إلى سورة الأعراف وهى تحكى لنا هذه القصة بأسلوبها البليغ فتقول : ( وَسْئَلْهُمْ عَنِ القرية . . . . ) .قوله - تعالى - ( وَسْئَلْهُمْ عَنِ القرية ) . . . الخ . معطوف على اذكر المقدر فى قوله تعالى - : ( وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسكنوا ) والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم وضمير الغيبة للمعاصرين له من اليهود .أى : سل يا محمد هؤلاء اليهود المعاصرين لك كيف كان حال أسلافهم الذين تحايلوا على استحلال محارم الله فإنهم يجدون أخبارهم فى كتبهم ولا يستطيعون كتمانها .والمقصود من سؤالهم تقريعهم على عصيانهم ، لعلهم أن يتوبوا ويرجعوا إلى الحق ، ولا يعرضوا أنفسهم لعقوبات كالتى نزلت بسابقيهم ، وتعريفهم بأن هذه القصة من علومهم المعروفة لهم والتى لا يستطيعون إنكارها ، والتى لا تعلم إلا بكتاب أو وحى . فإذا أخبرهم بها النبى الأمى الذى لم يقرأ كتابهم كان ذلك معجزة له ، ودليلا على أنه نبى صادق موحى إليه بها .قال الإمام ابن كثير عند تفسيره للآية الكريمة : ( أى واسأل - يا محمد - هؤلاء اليهود الذين بحضرتكم عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله ففاجأتهم نقمته على اعتدائهم واحتيالهم فى المخالفة ، وحذر هؤلاء من كتمان صفتك التى يجدونها فى كتبهم " لئلا يحل بهم ما حل بإخوانهم وسلفهم وهذه القرية هى " أيلة " وهى على شاطىء بحر القلزم ، أى - البحر الأحمر- ) .وقال الإمام القرطبى : وهذا سؤال تقرير وتوبيخ وكان ذلك علامة لصدق النبى صلى الله عليه وسلم إذ أطلعه الله على تلك الأمور من غير تعلم وكانوا يقولون : نحن أبناء الله وأحباؤه ، لأنا من سبط إسرائيل . ومن سبط موسى كليم الله ، ومن سبط ولده عزير فنحن أولادهم ، فقال الله - عزل وجل - لنبيه سلهم - يا محمد - عن القرية . أما عذبتهم بذنوبهم ، وذلك بتغيير فرع من فروع الشريعة .وجمهور المفسرين على أن المراد بهذه القرية . قرية ( أيلة ) التى تقع بين مدين والطور ، وقيل هى قرية طبرية وقيل هى مدين .ومعنى كونها ( حَاضِرَةَ البحر ) : قريبة منه ، مشرفة على شاطئه ، تقول كنت بحضرة الدار أى قريبا منها .وقوله ( إِذْ يَعْدُونَ فِي السبت ) أى يظلمون ويتجاوزون حدود الله - تعالى - بالصيد فى يوم السبت ويعدون بمعنى يعتدون ، يقال : عدا فلان الأمر واعتدى إذا تجاوز حده .وقوله تعالى ( إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ ) بيان لموضع الاختبار والامتحان و ( إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ ) ظرف ليعدون . وحيتان جمع حوت وهو السمك الكبير . وشرعا : أى : شارعة ظاهرة على وجه الماء . جمع شارع ، من شرع عليه إذا دنا وأشرف وكل شىء دنا من شىء فهو شارع ، وقوله : شرعا حال من الحيتان .والمعنى : إذ تأتيهم حيتانهم فى وقت تعظيمهم ليوم السبت ظاهرة على وجه الماء دانية من القرية بحيث يمكنهم صيدها بسهولة ، فإذا مرت يوم السبت وانتهى لا تأتيهم كما كانت تأتيهم فيه ، ابتلاء من الله - تعالى - لهم .قال ابن عباس : ( اليهود أمروا باليوم الذى أمرتم به ، وهو يوم الجمعة ، فتركوه ، واختاروا السبت فابتلاهم الله - تعالى - به ، وحرم عليهم الصيد فيه وأمرهم بتعظيمه ، فإذا كان يوم السبت شرعت لهم الحيتان ينظرون إليها فى البحر ، فإذا انقضى السبت ذهبت وما تعود إلا فى السبت المقبل ، وذلك بلاء ابتلاهم الله به ، فذلك معنى قوله تعالى ( وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ ) .وقال الإمام القرطبى : ( وروى فى قصص هذه الآية أنها كانت فى زمن داود - عليه السلام - وأن إبليس أوحى إليهم فقال إنما نهيتهم عن أخذها يوم السبت ، فاتخذوا الحياض ، فكانوا يسوقون الحيتان إليها يوم السبت ( فتبقى فيها ، فلا يمكنها الخروج منها لقلة الماء . فيأخذونها يوم الأحد : وقوله تعالى ( كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ) معناه. بمثل هذا الابتلاء ، وهو ظهور السمك لهم فى يوم السبت ، واختفائه فى غيره نبتليهم ونعاملهم معاملة من يختبرهم ، لينالوا ما يستحقونه من عقوبة بسبب فسقهم وتعديهم حدود ربهم ، وتحايلهم القبيح على شريعتهم ، فقد جرت سنة الله بأن من أطاعة سهل له أمور دنياه ، وأجل له ثواب أخراه ، ومن عصاه أخذه أخذ عزيز مقتدر .ثم بين - سبحانه - طوائف هذه القرية وحال كل طائفة فقال تعالى ( وَإِذَا قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً الله )

مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُواْ مَعْذِرَةً
إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ) .والذى يفهم من هذه الآية
الكريمة ، - وعليه جمهور المفسرين - أن أهل القرية كانوا ثلاث فرق :1- فرقة
المعتدين فى السبت ، المتجاوزين حدود الله عن تعمد وإصرار .2 - فرقة
الناصحين لهم بالانتهاء عن تعديهم وفسوقهم .3 - فرقة اللائمين للناصحين
. لياسهم من صلاح العادين فى السبت

واذ قالت امة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم او معذبهم عذابا شديدا قالوا
معذرة الى ربكم ولعلهم يتقون

كما فسرها الوسيط وهذه الفرقة الثالثة هى التى عبر القرآن الكريم عنها
بقوله : ( وَإِذَا قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً الله
مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً ) أى : قالت فرقة من
أهل القرية ، لإخوانهم الذين لم يألوا جهدا فى نصيحة العادين فى السبت ، لم
تعظون قوما لا فائدة من وعظهم ولا جدوى من تحذيرهم ، لأن الله تعالى قد قضى
باستئصالهم وتطهير الأرض منهم ، أو بتعذيبهم عذاباً شديداً ، جزاء تماديهم
فى الشر ، وصممهم عن سماع الموعظة فكان رد الناصحين عليهم ( مَعْذِرَةً إلى
رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ) .فهم قد عللوا نصيحتهم للعادين
بعلتين :الأولى : الاعتذار إلى الله - تعالى - من مغبة التقصير فى واجب
الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .والثانية : الأمل فى صلاحهم وانتفاعهم
بالموعظة حتى ينجو من العقوبة ، ويسيروا فى طريق المهتدين .وقيل : إن أهل
القرية كانوا فرقتين ، فرقة أقدمت على الذنب فاعتدت فى السبت ، وفرقة أحجمت
عن الاقدام ، ونصحت المعتدين بعدم التجاوز لحدود الله - تعالى - فلما داومت
الفرقة الواعظة على نصيحتها للفرقة العادية ، قالت لها الفرقة العادية على
سبيل التهكم والاستهزاء : لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً
شديدا فى زعمكم؟ فأجابتهم الناصحة بقولها .معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون
والذى نرجحه أن أهل القرية كانوا ثلاث فرق كما قال جمهور المفسرين - لأن.
هذا هو الظاهر من الضمائر فى الآية الكريمة ، إذ لو كانوا فرقتين لقالت
الناهية للعاصية ( ولعلكم تتقون ) بكاف الخطاب ، بدل قولهم ( ولعلهم يتقون
الذى يدل على أن المحاورة قد دارت بين الفرقة اللائمة ، والفرقة الناصحة (
قال الإمام القرطبى عند تفسيره الاية الكريمة : إن بنى إسرائيل افترقت.
ثلاث فرق " فرقة عصت وصدت ، وكانوا ، نحوا من سبعين ألفاً ، فرقة نهت
، واعتزلت ، وكانوا نحوا من اثنى عشر ألفاً ، وفرقة اعتزلت ولم تنه ولم تعص
وأن هذه الطائفة هى التى قالت للناهية ، لم تعظون قوما - عصاة - الله
مهلكهم ، أو معذبهم على غلبة الظن . وما عهد حينئذ من فعل الله تعالى
: بالأمم العاصية؟ ) .وقوله ( مَعْذِرَةً ) بالنصب على أنها مفعول لأجله أى
: وعظناهم لأجل المعذرة ، أو منصوبة على أنها مصدر لفعل مقدر من لفظها أى
: نعتذر معذرة وقرئت " معذرة " بالرفع على أنها خبر لمبتدأ محذوف أى
موعظتنا معذرة وقد اختار سيبويه هذا الوجه وقال فى تعليله : لأنهم لم
يريدوا أن يعتذروا اعتذاراً مستأنفاً ولكنهم قيل لهم لم تعظون؟ فقالوا
. موعظتنا معذرة

فلما نسوا ما ذكروا به انجينا الذين ينهون عن السوء واخذنا الذين ظلموا
بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - عاقبة كل من الفرقة الناهية والعاصية
فقال تعالى ( فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا الذين
يَنْهَوْنَ عَنِ السواء وَأَخَذْنَا الذين ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ
بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ) أى : فلما لج الظالمون فى طغيانهم ، وعموا
وصموا عن النصيحة أنجينا الناصحين ، وأخذنا العادين بعذاب شديد لا رحمة فيه
بسبب خروجهم على أوامر الله .والآية الكريمة صرحية فى بيان أن الذين أخذوا
، بالعذاب البئيس هم الظالمون المعتدون وأن الذين نجوا هم الناهون عن السوء
أما الفرقة الثالثة التى لامت الناهين عن السوء على وعظهم للمعتدين ، فقد
. سكتت عنها .ويرى بعض المفسرين : أنها لم تنج ، لأنها لم تنه عن المنكر
، فضلا عن أنها لامت الناصحين لغيرهم .ويرى جمهور المفسرين : أنها نجت
، لأنها كانت كارهة لما فعله العادون فى السبت ولم ترتكب شيئاً مما ارتكبوه
، وإذا كانت قد سكتت عن النصيحة ، فلأنها كانت يائسة من صلاح المعتدين
، ومقتنعة بأن القوم قد أصبحوا محل سخط الله وعذابه ، فلا جدوى وراء وعظهم
: وإلى هذا الرأى ذهب صاحب الكشاف وغيره .قال صاحب الكشاف : ( فإن قلت
الأمة الذين قالوا لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً - من
أى الفريقين هم؟ أمن فريق الناجين أم من فريق المعذبين .قلت من فريق
الناجين ، لأنهم من فريق الناهين ، غرضاً صحيحاً لعلمهم بحال القوم . وإذا
علم الناهى حال المنهى ، وأن النهى لا يؤثر فيه ، سقط عنه النهى ، وربما
وجب الترك لدخوله فى باب العبث ، ألا ترى أنك لو ذهبت إلى المكاسين

القاعدين على المآصر والجلادين المرتبين للتعذيب ، لتعظهم وتكفهم عما هم
فيه ، كان ذلك عبثاً منك ، ولم يكن إلا سبباً للتلهى بك ، أما الآخرون
، فإنهم لم يعرضوا عنهم ، إما لأن يأسهم لم يستحكم كما استحكم يأس الأولين
ولم يخبرهم كما خبروهم . أو لفرط حرصهم وجدهم فى أمرهم ، كما وصف الله
تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام فى قوله ( فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ
على آثَارِهِمْ إن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بهذا الحديث أَسَفاً ) وقال الإمام
ابن كثير : ( ويروى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه قال عندما سئل عن
مصير الفرقة اللائمة ، ما أدرى ما فعل بهم ، ثم صار إلى نجاتهم لما قال له
غلامه عكرمة : ألا ترى أنهم قد كرهوا ما هم عليه وخالفوهم فقال ( لِمَ
تَعِظُونَ قَوْماً اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً
قال عكرمة : فلم أزل به حتى عرفته أنهم نجوا فكسانى حلة ) .والذى نرجحه (
أن مصير هذه الفرقة مفوض إلى الله ، لأنه لم يرد نص صحيح فى شأنها ، فإن
الآية الكريمة قد ذكرت صراحة عاقبة كل من الناصحين والعادين ولم تذكر مصير
الفرقة اللائمة للناصحين ولعل ذلك مرجعه إلى أنها وقفت من العادين ولم تذكر
فى السبت موقفاً سلبياً استحقت معه الإهمال ، إن لم تكن بسببه أهلا
للمؤاخذة .

فلما عتوا عن ما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين

كما فسرها الوسيط ثم فصل - سبحانه - ما عوقبوا به من العذاب البئيس الذى
أصابهم فقال تعالى : ( فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا
لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ ) أى فلما تكبروا عن ترك ما نهاهم عنه
) : الواعظون ، قلنا لهم كونوا قردة صاغرين فكانوا كذلك .قال الآلوسى
والأمر فى قوله تعالى ( قُلْنَا ) تكوينى لا تكليفى ، لأنه ليس فى وسعهم
حتى يكلفوا به ، وهذا كقوله تعالى ( إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ
أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ) فى أنه يحتمل أن يكون هناك
- قول وأن يكون الغرض مجرد التمثيل ) .وقيل فى تفسير الآية : إن الله تعالى
عاقب القوم أو لا بالعذاب البئيس الذى يتناول البؤس والشقاء والفقر فى
، المعيشة ، فلما لم يرتدعوا ويثوبوا إلى رشدهم ، مسخهم مسخا خِلقيا وجسميا
: فكانوا قردة على الحقيقة ، وهو الظاهر من الآية ، وعليه الجمهور :وقيل
مسخهم مسخاً خُلقياً ونفسياً ، فصاروا كالقردة فى شرورها وإفسادها لما تصل
إليه أيديها ، وهذا مروى عن مجاهد .وتلك العقوبة كانت جزاء إمعانهم فى
، المعاصى ، وتأبيهم عن قبول النصحية ، وضعف إرادتهم أمام مقاومة أطماعهم
وانتكاسهم إلى عالم الحيوان لتخليهم عن خصائص الإنسان ، فكانوا حيث أرادوا
لأنفسهم من الصغار والهوان .هذا وقد استدل العلماء بهذه الآيات الكريمة على
تحريم الحيل القبيحة التى يتخذها بعض الناس ذريعة للتوصل إلى مقاصدهم
الذميمة . وغاياتهم الدنيئة ومطامعهم الخسيسة .وقد أفاض الإمام ابن القيم
فى كتابه ( إغاثة اللهفان ) فى إيراد الأدلة الدالة على هذا التحريم ، فقال
ما ملخصه : ( ومن مكايد الشيطان التى كاد بها الإسلام وأهله ، الحيل والمكر
والخداع الذى يتضمن تحليل ما حرم الله وإسقاط ما فرضه ، ومضادته فى أمره
ونهيه ، وهى من الباطل الذى اتفق السلف على ذمه ، فإن الرأى رأيان : رأى
يوافق النصوص وتشهد له بالصحة والاعتبار ، وهو الذى اعتبره السلف وعملوا به
ورأى يخالف النصوص وتشهد له بالإبطال والإهدار ، وهو الذى ذموه وأهدروه .
وكذلك الحيل نوعان : نوع يتوصل به إلى فعل ما أمر الله - تعالى - به وترك.
ما نهى عنه ، والتخلص من الحرام وتخليص المحق من الظالم المانع له ، وتخليص
المظلوم من يد الظالم الباغى ، فهذا النوع محمود يثاب فاعله ومعلمه . ونوع
يتضمن إسقاط الواجبات ، وتحليل المحرمات ، وقلب المظلوم ظالما ، والظالم
، مظلوما ، والحق باطلا ، والباطل حقا . فهذا الذى اتفق السلف على ذمه
وصاحوا بأهله من أقطار الأرض . . ثم قال :إن الله تعالى أخبر عن أهل السبت
من اليهود بمسخهم قردة ، لما تحايلوا على إباحة ما حرمه الله تعالى - عليهم
من الصيد ، بأن نصبوا الشباك يوم الجمعة ، فلما وقع فيها الصيد ، أخذوه يوم
الأحد .قال بعض الأئمة : ففى هذا زجر عظيم لمن يتعاطى الحيل على المناهى
- الشرعية ، ممن يتلبس بعلم الفقه وهو غير فقيه ، إذ الفقيه من يخشى الله
تعالى - بحفظ حدوده ، وتعظيم حرماته ، والوقوف عندها ، وليس المتحيل على
إباحة محارمه ، وإسقاط فرائضه ، ومعلوم أنهم لم يستحلوا ذلك تكذيباً
، لموسى - عليه السلام - وكفراً بالتوراة ، وإنما هو استحلال تأويل واحتيال
ظاهرة ظاهر الإيفاء ، وباطنه باطن الاعتداء ، ولهذا مسخوا قردة ، لأن صورة
القردة فيها شبه من صورة الإنسان ، فلما مسخ أولئك المعتدون دين الله تعالى
بحيث لم يتمسكوا إلا بما يشبه الدين فى بعض مظاهره دون حقيقته ، مسخهم
سبحانه قردة يشبهونهم فى بعض ظواهرهم دون الحقيقة جزاء وفاقا ، وفى الحديث
الشريف "لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود ، وتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل
": وفى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال"
قاتل الله اليهود ، حرمت عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا ثمنها "وعن ابن
عباس - رضى الله عنهما - قال :" بلغ عمر - رضى الله عنه - أن سمرة باع

خمراً فقال : قاتل الله سمره . ألم يعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لعن الله اليهود ، حرمت عليهم الشحوم فجملوها - أى أذبوها - فباعوها وبهذا تكون الآيات الكريمة قد دمغت العادين فى السبت من اليهود ، برذيلة. ( الجهالة وضعف الإرادة ، وتحايلهم القبيح على استحلال محارم الله ، مما جعلهم أهلا للعذاب الشديد والمسخ الشنيع ، جزاء إمعانهم فى المعصية وصممهم عن سماع الموعظة ، وما ربك بظلام للعبيد .

واذ تاذن ربك ليبعثن عليهم الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ان ربك لسريع العقاب وانه لغفور رحيم

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما توعد به أولئك اليهود من عقوبات بسبب كفرهم وفسوقهم وإفسادهم فى الأرض فقال - تعالى - : ( وَإِذْ تَأَذَّنَ قوله ( وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ ) منصوب على المفعولية بمقدر. ( . . . معطوف على ( وَسْئَلْهُمْ ) أى : واذكر يا محمد لليهود وقت أن تأذن ربك . وتأذن بمعنى آذن ، أى : أعلم . يقال : آذن الأمر وبالأمر أى : أعلمه. ، وأذن تأذيناً : أكثر الإعلام .وأجرى مجرى فعل القسم كعلم الله وشهد الله ولذلك جىء بلام القسم ونون التوكيد فى جوابه وهو قوله - تعالى - " ليبعثن ) عليهم . . . إلخ " .وقوله ( إلى يَوْمِ القيامة ) متعلق بقوله - لَيَبْعَثَنَّ ) .والمعنى : واذكر يا محمد وقت أن أعلم الله - تعالى ، هؤلاء اليهود وأسلافهم بأنهم إن غيروا وبدلوا ولم يؤمنوا بأنبيائهم ليسلطن عليهم إلى يوم القيامة من يذيقهم سوء العذاب كالإذلال وضرب الجزية وغير ذلك من صنوف العذاب إن ربك لسريع العقاب لمن أقام على الكفر ، وجانب طريق الحق ، وإنه لغفور رحيم لمن تاب وآمن وعمل صالحاً . وهذا من باب قرن الترغيب بالترهيب حتى لا ييأس العاصى من رحمة الله بسبب ذنوبه السابقة إذا هو أقبل على الله بالتوبة والعمل الصالح كما قال - تعالى - ( وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحَاً ثُمَّ اهتدى ) ولقد يبدو للبعض أن هذا الوعيد لليهود قد توقف بسبب ما نرى لهم الآن من دولة وصولة ولكن الذى نعتقده أن هذا الوعيد ما توقف مع ما لهم من دولة ، فإنهم ما زالوا محل احتقار الناس وبغضهم ، وحتى الدول التى تناصرهم إنما تناصرهم لأن السياسة تقتضى ذلك بينما شعوب هذه الدول تكره أولئك اليهود وتزدريهم وتنفر منهم .وما قامت لليهود تلك الدولة إلا لأن المسلمين قد فرطوا فى حق خالقهم ، وفى حق أنفسهم ، ولم يأخذوا بالأسباب التى شرعها الله لهم لحرب أعدائهم فكانت النتيجة أن أقام اليهود دولة لهم فى قلب البلاد الإسلامية وعندما يعود المسلمون إلى الأخذ التام الكامل بتعاليم دينهم وإلى مباشرة الأسباب التى شرعها الله مباشرة سليمة ، عندما يفعلون ذلك تعود إليهم عزتهم المسلوبة وكرامتهم المغصوبة .

وقطعناهم في الارض امما منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون

كما فسرها الوسيط وصدق الله إذ يقول : ( ذلك بِأَنَّ الله لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا على قَوْمٍ حتى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ ) هذا وقوله - تعالى - ( وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأرض ، أُمَماً ) إخبار عن عقوبة أخرى من عقوباتهم المتنوعة بسبب كفرهم وجحودهم وتتمثل هذه العقوبة فى تفريقهم فى الأرض ، وتمزيقهم شر ممزق حتى لا تكون لهم شوكة .و ( أُمَماً ) حال من مفعول ( وَقَطَّعْنَاهُمْ ) أو مفعول ثان لقطعناهم على أنه بمعنى صيرناهم .أى : أن هؤلاء اليهود قد مزقناهم فى الأرض شر ممزق بسبب عصيانهم وفسوقهم ، وصيرناهم فرقا متقطعة الأوصال ، مشتتة الأهواء . وقوله ( مِّنْهُمُ الصالحون وَمِنْهُمْ دُونَ ذلك ) بيان حالهم أى : من هؤلاء اليهود قلة آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. فصلح حالها ، وحسنت عاقبتها ، ومنهم كثرة منحطة عن رتبة أولئك المؤمنين الصالحين ، بسبب فسوقهم عن أمر الله ، وانتهاكهم لحرماته .والجملة من ) المبتدأ والخبر ، فى موضع نصب على أنها صفة ل ( أُمَماً ) .وقوله وَمِنْهُمْ دُونَ ذلك ) الجار والمجرور خبر مقدم ( دُونَ ذلك ) نعت لمنعوت محذوف هو المبتدأ والتقدير : ومنهم ناس أو جماعة دون ذلك .وهذه الجملة الكريمة تدل على أن القرآن الكريم يستعمل الإنصاف والعدالة وتقرير الحقائق مع أعدائه وأتباعه على السواء ، فهو يمدح من يستحق المديح ، ويذم من هو أهل الذم ، وما أحوج الناس فى كل زمان ومكان إلى التخلق بهذه الأخلاق .وقوله - تعالى - ( وَبَلَوْنَاهُمْ بالحسنات والسيئات لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ) أى عاملناهم معاملة المبتلى الممتحن تارة بالنعم الكثيرة كالصحة والخصب وسعة الأرزاق ، وتارة بالنقم المتنوعة كالجدب والأمراض والشدائد ، لعلهم يرجعون إلى طاعة ربهم ، ويتركون ما نهوا عنه من المعاصى والسيئات .يقال : بلاه يبلوه بلوا ، وابتلاه ابتلاء ، إذا جربه واختبره ، ولقد كانت نتيجة هذا الابتلاء والاختبار أن تكشفت الحقائق عن أن الكثرة من بنى إسرائيل سلكت

طريق الضلالة والغواية ، والقلة هى التى آمنت وأصلحت ولذا عاقب الله تلك
الكثرة بالعقوبة التى تناسبها جزاءً وفاقا .هذا ، وما أخبر به القرآن من أن
الله - تعالى - قد توعد بنى إسرائيل وأخبرهم بأنه سيسلط عليهم إلى يوم
، القيامة من يسومهم سوء العذاب بسبب كفرهم وفسوقهم قد شهد بصدقه التاريخ
وأيدته الحوادث ، وهذه نماذج قليلة من تلك العقوبات التى نزلت بهم فى
الأزمنة المختلفة .أولا : بعد وفاة سليمان - عليه السلام - حوالى سنة 975 ق
) م انقسمت مملكته إلى قسمين : مملكة الشمال ، واسمها ( إسرائيل ) ومقرها .
السامرة ) وتتكون من الأسباط العشرة .ومملكة الجنوب واسمها ( يهوذا )
ومقرها ( أورشليم ) وتتكون من سبطى يهوذا وبنيامين .وقد استمرت المنازعات
بين المملكتين مدة طويلة ، انتهت بانقضاض ( سرجون ) ملك آشور على مملكة
الشمال ( إسرائيل ) سنة 721ق . م فقتل الآلاف من رجالها ، وأسر البقية منهم
فرحلهم إلى ما وراء نهر الفرات ، وقضى على هذه المملكة قضاء لم تقم لها
، بعده قائمة .وأما مملكة الجنوب ( أورشليم ) فقد حاولت أن تتشبث بالبقاء
ولكن معاول الهدم غزتها من الشرق ومن الجنوب وكانت نهايتها على يد بختنصر
البابلى سنة 586ق . م .ويصور أحد الكتاب الغربيين قصة النكبات التى أدت إلى
زوال مملكة ( يهوذا وإسرائيل ) فيقول : ( هى قصة نكبات وقصة تحررات لا تعود
، عليهم إلا بإرجاء النكبة القاضية ، هى قصة ملوك همج يحكمون شعبا من الهمج
حتى إذا وافت سنة 721ق . م " محت يد الأسر الأشورى مملكة إسرائيل من الوجود
وزال شعبها من التاريخ زوالا تاما ، وظلت مملكة يهوذا تكافح حتى أسقطها ،
البابليون سنة 856ق . م .ثانيا : استرد اليهود بعض أنفاسهم بعد وقوعهم تحت
حكم الفرس من حوالى سنة 536 إلى سنة 332ق .م . سار إليهم ( بطليموس ) خليفة
، الإسكندر ، فهدم القدس ، ودك أسوارها ، وأرسل منهم مائة ألف أسير إلى مصر
لأنهم ثاروا عليه .ثالثاً : فى سنة 20ق . م تقريبا ، وقع اليهود تحت سيطرة
السلوقيين السوريين بعد انتصارهم على البطالسة ، ورأى بعض الحكام السلوقيين
من اليهود تمرداً وعصيانا ، فأنزلوا بهم أشد العقوبات فى عدة مواقع ، وكان
من أبرز المنكلين باليهود ( انطو خيوس ) ما بين سنة 170 . وسنة 168ق . م
فقد هاجم ( أورشليم ) وهدم أسوارها وهيكلها . ونهب ما فيها من أموال وقتل
من أهلها أربعين ألفا فى ثلاثة أيام وباع مثل ذلك العدد عبيدا منهم ولم
يفلت من يده إلا اليهود الذين هربوا إلى الجبال ، وقد أقام ( أنطو خيوس )
قمة على أحد الجبال ليشاهد منها كل من يقترب من اليهود إلى أورشليم ليقتله
وقد وصل به الحال أنه أكره عدداً كبيراً منهم على ترك الديانة اليهودية ،
وجعل هيكلهم فى أورشليم معبدا لإلهه .رابعاً : وفى سنة 63ق . م أغار
الرومان بقيادة ( بامبيوس ) على أورشليم فاحتلوها ، واستمر احتلالهم حتى
سنة 614م . وخلال احتلال الرومان لفلسطين قام اليهود بعدة ثورات باءت كلها
بالفشل ، ولقوا بسبب تمردهم وعصيانهم من الرومان ألوانا من القتل والسبى
والتشريد .كان من أشهرها ما أنزله بهم " تيطس الرومانى " سنة 70م فقد اقتحم
فى هذه السنة أورشليم فدمرها تدميراً ، وقتل الآلاف من اليهود وأحرق هيكلهم
خامساً : بعد هذه النماذج التى سقناها لما أنزله الرومان من عقوبات على.
اليهود ، نتابع سيرنا فى سرد بعض العقوبات التى أنزلها المسلمون باليهود
بسبب بغيهم وخياناتهم فنقول : بعد هجرة النبى صلى الله عليه وسلم إلى
المدينة ، عامل اليهود القاطنين والمجاورين لها معاملة طيبة ، وعقد معهم
معاهدة ضمنت لهم حقوقهم ولكنهم نقضوا عهودهم ، ولم يتركوا وسيلة من وسائل
الكيد للإسلام والمسلمين إلا فعلوها ، وحاول الرسول صلى الله عليه وسلم أن
يثنيهم عن جحودهم وبغيهم ولكنهم لم يستجيبوا له . فعاقب صلى الله عليه وسلم
كل طائفة منهم بالعقوبة التى تناسب جرمهم وخيانتهم وتكفل للمسلمين أن
يعيشوا فى مأمن من شرورهم ، ومن بين العقوبات التى أنزلها النبى صلى الله
عليه وسلم بهم إجلاؤه لبنى قينقاع ولبنى النضير عن المدينة ، وقتله لبنى
، قريظة وإهداره لدم بعض كبرائهم ككعب بن الأشرف وسلام بن ابى الحقيق
ومحاربته ليهود خيبر ومصالحته لهم بعد مقتل عدد كبير منهم ، ورفعهم راية
الأمان ، والاستسلام ، وقبولهم الشروط التى اشترطها عليهم النبى صلى الله
عليه وسلم .ولقد كان من آخر الكلمات التى نطق بها الرسول صلى الله عليه
وسلم قبل وفاته قوله موصيا أصحابه ( أخرجوا اليهود من جزيرة العرب لا يبقى
فى جزيرة العرب دينان ) .وفى عهد عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - تم إخراج
جميع اليهود من جزيرة العرب ، استجابة لوصية الرسول صلى الله عليه وسلم
سادساً : وفى ختام عرضنا لبعض العقوبات التى نزلت باليهود فى الأزمنة.
المختلفة جزاء إجرامهم وإثارتهم للفتن نسوق بعض الأمثلة لما حل بهم على
أيدى بعض الدول الأوربية .( أ ) ففى بريطانيا : لقى اليهود فى بعض العهود
ألواناً من التعذيب ، وصنوفاً من القتل والتشريد .1 - من ذلك أن الملك
الإنجيزى ( يوحنا ) أصدر أمرا بحبسهم فى جميع أنحاء مملكته .وفى سنة 1328م
جأر الشعب البريطانى بالشكوى من اليهود ، فأصدر الملك ادوارد الاول أمرا
بطرد اليهود من جميع البلاد البريطانية فى غضون ثلاثة أشهر ، إلا أن الشعب
البريطانى لم يصبر على اليهود حتى تنقضى تلك المدة ، بل أخذ يقتل منهم
العشرات والمئات وفى قلعة ( بورك ) التى احتمى بها عدد كبير من اليهود أحرق
الإنجليز أكثر من خمسمائة يهودى وقد اضطر الملك إلى ترحيلهم قبل انقضاء

المدة لئلا يفتك الشعب بهم جميعا فى كل مكان ، وظلت بريطانيا خالية من
اليهود طوال ثلاثة قرون تقريبا . ولكن عادوا إليها سنة 1656م فى عهد
الطاغية ( كروموبل ) الذى اغتصب الملك ( شارل الأول ) بعد أن قدم له اليهود
الأموال الطائلة فى سبيل بلوغ أغراضه .( ب ) وفى فرنسا : تعرض اليهود فى
، أزمنة مختلفة لنقمة الشعب الفرنسى وغضبه ، لأنهم دمروا اقتصاده الوطنى
وخنقوه بالربا الفاحش ، والمعاملات السيئة .1 - ففى عهد ( لويس التاسع )
تدهورت الحالة الاقتصادية فى فرنسا فأصدر أمرا بإلغاء ثلث ما لليهود على
الفرنسيين من ديون ، ثم أصدر أمرا بإحراق جميع كتبهم المقدسة ، وخاصة
التلمود . وقد قال أحد المؤرخين إنهم أحرقوا فى باريس وحدها محمول أربع
وعشرين مركبة من نسخ التلمود وغيرها ) .2 - وخلال تولى ( فيليب الجميل )
حكم فرنسا . أنزل الفرنسيون باليهود صنوفا من القتل والنهب والتشريد ، ثم
طردوا من فرنسا نهائيا ، ولكنهم عادوا إليها بعد أن دفعوا ( لفيليب ) ثلثى
الديون التى لهم فى فرنسا .3 - وفى سنة 1321م هاجمهم الشعب الفرنسى وذبح
عددا كبيرا منهم ، ونكل بهم تنكيلا شديدا ، ثم طردوا من فرنسا بعد أن نهبت
أموالهم ولم يستطيعوا العودة إليها إلا فى أواسط القرن السادس عشر .4 - وفى
أوائل القرن التاسع عشر حاول ( نابليون ) أن يستغلهم لبلوغ مطامعه ، ولكنهم
خانوه ، فاحتقرهم ، وبطش بعدد منهم ، وقال عنهم إنهم حثالات البشر وجراثيمه
ولم ينج اليهود من بطش الشعب الفرنسى إلا فى القرنين التاسع عشر والعشرين.
) وفى إيطاليا ، حاربهم البابوات حربا شعواء وأطلقوا عليهم اسم ( ج ).
الشعب المكروه ) وأغروا الشعب الإيطالى بهم فأعمل فيهم القتل والتشريد وقد
أصدر البابوات مراسيم عديدة لتكفير اليهود وتسفيه ديانتهم القائمة على
التلمود .وفى سنة 1242م أعلن البابا ( جريجورى ) التاسع اتهامات صريحة ضد
التلمود الذى يطعن فى المسيح والمسيحية ، وأصدر أوامره بإحراقه فأحرقت جميع
نسخه .وفى سنة 1540 ثار الشعب الإيطالى على اليهود ثورة عارمة قتل فيها
الآلاف منهم وطردوا من بقى حيا خارج إيطاليا .( د ) وفى أسبانيا : ذاق
اليهود من الشعب الأسبانى وملوكه صنوف الذل وألوان الهوان ، ولم يظفروا
بالراحة إلا فى أيام الحكم الإسلامى لأسبانيا . ولنكتف بذكر عقوبة واحدة من
العقوبات المتعددة التى نزلت بهم فى تلك البلاد .فى عهد الملك ( فرديناند )
وزوجته ( إيزابلا ) وصلت موجة السخط على اليهود أقصاها، لتغلغلهم فى الحياة
الأسبانية ، واستيلائهم على اقتصادها وإشعالهم نار الخلافات الدينية بين
الطوائف . . . فرأى الملك وزوجته أن خير وسيلة لوقاية البلاد من شرورهم هى
طردهم من أسبانيا طردا نهائيا .وفى 31 من مارس سنة 1952 صدر المرسوم التالى
عن الملك ( فرديناند ) : ( يعيش فى مملكتنا عدد غير قليل من اليهود ، ولقد
أنشأنا محاكم التفتيش منذ اثنتى عشرة سنة . وهى تعمل دائما على توقيع
العقوبة على المذنبين ، وبناء على التقارير التى رفعتها لنا محاكم التفتيش
ثبت أن الصدام الذى يقع بين المسيحيين واليهود يؤدى إلى ضرر عظيم ، ويؤدى ،
بالتالى إلى القضاء على المذهب الكاثوليكى ، ولذا قررنا نفى اليهود ذكورا
وإناثا خارج حدود مملكتنا وإلى الأبد وعلى اليهود جميعا الذين يعيشون فى
بلادنا وممتلكاتنا ومن غير تمييز فى الجنس أو الأعمال أن يغادروا البلاد فى
غضون فترة أقصاها نهاية يوليو من نفس العام ، وعليهم ألا يحاولوا العودة
تحت أى ظرف أو سبب .وبمقتضى هذا القرار طرد اليهود شر طردة من أسبانيا بعد
أن أرغموا على ترك ذهبهم ونقودهم ، وبعد أن نفثوا سمومهم فى أسبانيا زهاء
سبعة قرون وكان عددهم عندما خرجوا منها مطرودين يبلغ نصف مليون نسمة ويعتبر
بعض اليهود هذا القرار وما تلاه من طرد وتشريد أسوأ من خراب أورشليم .( ه )
وفى روسيا : كان يعيش نصف يهود العالم تقريبا خلال القرن التاسع عشر وقد
، استعملوا طول مدة إقامتهم فى روسيا كل وسائلهم الخبيثة للتدمير والتخريب
ففتحوا الحانات وتاجروا فى الخمور ، وأقرضوا بالربا الفاحش ، واستولوا على
الكثير من أموال الدولة بالطرق المحرمة ، وقتلوا الكثير من أبناء الشعب
الروسى عندما مكنتهم الظروف من ذلك وكونوا الجمعيات السرية التى عملت على
هدم نظام الحكم القيصرى واستمرت فى نشاطها حتى أزالته بواسطة الثورة
الشيوعية فى سنة 1917م هذه الثورة التى كان معظم قوادها من اليهود . ولم
ينس الروس لليهود ما قاموا به نحوهم من عدوان واستغلال ، فانقضوا عليهم عدة
مرات للتخلص منهم وأعملوا فيهم الذبح والقتل بلا رحمة ، وكان من أبرز
المذابح التى أوقعها الروس باليهود مذبحة سنة 1881م ومذبحة سنة 1882م فقد
حاول الفلاحون الروس أن يدمروا اليهود تدميرا فى هاتين السنتين .وعندما نشر
الكتاب الروسى ( نيلوس ) نسخا قليلة من ( بروتوكولات حكماء صهيون ) نسة
م التى تفضح نيات اليهود الإجرامية تجاه العالم أجمع ، جن جنونهم خوفا1602
وفزعا .وعمت المذابح ضدهم فى روسيا حتى لقد قتل منهم فى إحداها نحو عشرة
آلاف يهودى .( و ) وفى ألمانيا : انتشر اليهود فى كثير من مدنها منذ القرن
الثامن الميلادى ، وسكنوا على ضفاف نهر الراين . واستغلوا الشعب الألمانى
أسوأ استغلال حتى كادوا يستولون على أمواله عن طريق الربا الفاحش واستخدام
الوسائل المختلفة لجمع المال الحرام . ولقد هاج الشعب الألمانى ضدهم فى
أوقات مختلفة ، واستعمل معهم كل وسائل القتل والسلب والطرد .يقول صاحب كتاب
وظل القتل والذبح منتشرا فى اليهود إلى أن صدرت ( تاريخ الإسرائيليين )

الأوامر بطردهم من أنحاء - ألمانيا - فى أزمنة متتابعة ، وذلك ما بين القرنين الثانى عشر والرابع عشر ، حتى لم يكد يبقى منهم واحدا فيها ) .وكان آخر ما لاقوه من عذاب وتقتيل وتشريد على يد " هتلر " ابتداء من توليه الحكم فى ألمانيا سنة 1933 إلى أن سقط حكمه سنة 1945 .وفى كل البلاد التى نزل بها اليهود ، تعرضوا لنقمة السكان وغضبهم وازدرائهم ، يستوى فى ذلك تاريخهم القديم والوسيط والحديث ، لقد أنزل العالم بهم ضربات قاصمة ، وعقوبات صارمة شملت التنكيل والطرد والسجن والقتل ومصادرة الأموال .ويقرر أحد الكتاب ، الغربيين أن كل الأمم المسيحية اشتركت فى إضطهاد اليهود وإنزال مختلف العقوبات بهم ، وكانت القسوة مع اليهود تعد مأثرة يمتدح المسيحيون بعضهم بعضا عليها .هذا ، والشىء الذى نؤكده بعد سرد هذه النماذج من العقوبات التى نزلت باليهود فى مختلف العصور والأمم ، هو أن اليهود هم المسئولون عن كل اضطهاد وقع بهم ، وأنهم مستحقون لهذه العقوبات لأسباب من أهمها : أولا : أنانيتهم وأطماعهم التى لا حدود لها " فقد سوغت لهم أنانيتهم أن العالم ملك لهم بكل من فيه وما فيه ، وأن عليهم متى حلوا فى أى دولة أن ينهبوا خيراتها بكل وسيلة وإن يجمعوا أموالها بأى طريقة ، فإن المال هو معبود اليهود من قديم .وأنانية اليهود وجشعهم وأكلهم أموال الناس بالباطل ، جعلهم محل نقمة العالم وغضبه ، ولقد فطن بعض الزعماء العقلاء إلى خطر تغلغل اليهود فى بلاده ، فأخذ يطردهم منها ، ويحذر أبناء أمته من شرورهم ، ومن هؤلاء الزعماء العقلاء ( بنيامين فرانكلين ) أحد رؤساء الولايات المتحدة ، فإنه ألقى خطابا سنة 1789م قال فيه : ( هناك خطر عظيم يهدد الولايات المتحدة الأمريكية ، وذلك الخطر هو ( اليهود ) . أيها السادة : حيثما استقر اليهود تجدونهم يوهنون من عزيمة الشعب ، ويزعزعون الخلق التجارى الشريف . إنهم ، لا يندمجون بالشعب . لقد كونوا . حكومة داخل الحكومة . وحينما يجدون معارضة . . من أحد فإنهم يعملون على خنق الأمة ماليا كما حدث للبرتغال وأسبانيا إذا لم يمنع اليهود من الهجرة بموجب الدستور . ففى أقل من مائتى سنة سوف يتدفقون على هذه البلاد بأعداد ضخمة تجعلهم يحكموننا ويدمروننا ويغيرون شكل الحكومة التى ضحينا وبذلنا لإقامتها دماءنا وحياتنا وأموالنا وحريتنا إذا لم يستثن اليهود من الهجرة فإنه لن يمضى أكثر من مائتى سنة ليصبح. أبناؤنا عمالا فى الحقول لتأمين الغذاء لليهود . . ، إنى أحذركم أيها السادة . إذا لم تستثنوا اليهود من الهجرة إلى الأبد فسوف يلعنكم ابناؤكم وأحفادكم فى قبوركم ، إن عقليتهم تختلف عنا حتى لو عاشوا بيننا عشرة أجيال والنمر لا يستطيع تغيير لونه . اليهود خطر على هذه البلاد . وإذا دخلوها . فوسف يخربونها ويفسدونها ) .وللتعليق على هذا الخطاب نقول : ما أصدق ما توقعه ( فرانكلين ) لولا أنه قد أخطأ التقدير فى المدة اللازمة لتحويل أمريكا إلى بقرة حلوب لليهود ، فقد قدر ( فرانكلين ) هذه المدة بمائتى سنة ، أى فى سنة 1989 ، بينما استطاع اليهود أن يسخروا سياسة أمريكا وأسلحتها وأموالها وعلمها ونفوذها وخيراتها ، لمنفعتهم الخاصة فى مدة تقل عما توقعه بأكثر من خمسين سنة .ثانيا : غرورهم وتعاليهم : فاليهود يعتبرون أنفسهم أبناء الله وأحباؤه ، وشعبه المختار . ومن قديم الزمن وهم يقسمون العالم ، إلى قسمين متقابلين : قسم إسرائيل وهم صفوة الخلق وأصحاب الحظوة عند الله ، وقسم آخر يسمونه الأمم ( الجوييم ) أى غير اليهود ومعنى ( جوييم ) عندهم ، وثنيون وكفرة وبهائم وأنجاس . وقد أدى هذا الغرور والتعالى باليهود إلى إهدار كل حق لغيرهم عليهم ، وأن من حق اليهود أن يسرقوا من ليس يهوديا وأن يغشوه ويكذبوا عليه ويقتلوه إذا أمنوا اكتشاف جرائمهم ، وقد أشار القرآن الكريم إلى تلك الرذيلة التى تمكنت من اليهود بقوله . ( وَمِنْ أَهْلِ الكتاب مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِماً ذلك بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأميين سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الكذب وَهُمْ يَعْلَمُونَ ) وكتب اليهود -لا سيما التلمود - طافحة بالوصايا التى تبيح لهم أن يعاملوا غيرهم بمعاملة تخالف معاملتهم مع بعضهم ، من ذلك ما جاء فى التلمود : إذا خدع يهود أحداً من الأمم وجاء يهودى آخر واختلس من الأممى بعض ما عنده بنقص الكيل أو زيادة الثمن ، فعلى اليهوديين أن يقتسما الغنيمة التى أرسلها إليهما ( يهواه ) ويهواه هو إله اليهود .ونتيجة لهذا الغرور والتعالى الذى تميز به اليهود ، وأهدروا بسببه كل حق أو كرامة لسواهم من الناس ، قام غيرهم من الأمم ليدافع عن حقه الذى سلبوه منهم ، وليوقع بهم أقسى العقوبات جزاء غرورهم الكاذب ، وتعاليهم الباطل .ثالثا : عزلتهم وعصيبتهم وخيانتهم للبلاد التى آوتهم فهم متعصبون متحزبون ، لا يجمعهم حب بعضهم لبعض ولكن تجمعهم كراهية من ليس على ملتهم ، كما يجمعهم الحقد على العالم بأسره . وقد أصبحت العزلة والعصبية والعنصرية طابع اليهود الذى لا محيد لهم عنه .ويصف ) : الدكتور ( ويزمان ) أول رئيس لإسرائيل طابع العزلة فى اليهود بقوله وكان اليهود فى موتول ( مسقط رأسه ) بروسيا ، يعيشون كما يعيش اليهود فى مئات المدن الصغيرة والكبيرة منعزلين منكمشين ، وفى عالم غير عالم الناس الذين يعيشون معهم ) .ولعل أدق صورة للتحريض على العزلة والتمسك بها ، ما

) : ذكره ( سلامون شحتر ) فى خطابه بمدرسة اللاهوت اليهودية العليا حيث قال
إن معنى الاندماج فى الأمم هو فقدان الذاتية . وهذا النوع من الاندماج مع
ما يترتب عليه من النتائج ، هو ما أخشاه أكثر مما أخشى المذابح والاضطهادات
وقد تسبب عن عزلتهم وعصبيتهم أمور خطيرة ، فقد نظروا إلى من سواهم من. (
الأمم نظرة كلها عداء وريبة وحذر ، وصار طابعهم فى كل زمان ومكان عدم
الإخلاص لاية هيئة دينية أو دنيوية . وعدم الولاء للأوطان التى يعيشون فيها
ويأكلون من خيراتها ، وإنما يجعلون ولاءهم لجماعتهم ومصالحهم الخاصة دون
غيرها ، لأن اليهودى يهودى قبل كل شىء ، مهما تكن جنسيته ، ومهما يعتنق من
، عقائد ومبادىء فى الظاهر ، وإذا تعارضت جنسيته مع يهوديته ناصر يهوديته
وحاول أن يشيع الخراب والدمار فى الأمة التى هو فرد من أفرادها خصوصا إذا
أمن العقاب والصهيونية العالمية تأمر اليهود فى كل مكان أن يجعلوا ولاءهم
لإسرائيل وليس للدولة التى يعيشون فيها .تقول جولدا مايير وزيرة خارجية
إسرائيل سابقا : ( إن اليهود المقيمين خارج إسرائيل طوائف مشتتة تعيش فى
المنفى ، وأنهم مواطنون إسرائيليون قبل كل شىء ، ويتحتم عليهم الولاء
المطلق لهذه الدولة الجديدة مهما تكن جنسيتهم الرسمية التى يسبغونها على
أنفسهم ، وإن اليهودى الإنجليزى الذى ينشد بحكم إنجليزيته نشيد ( حفظ الله
الملكة ) لا يمكن أن يكون فى نفس الوقت صهيونيا ) .وما أكثر الحوادث التى
قام فيها اليهود بدور العيون والجواسيس على الأوطان التى يعيشون فيها لحساب
أعدائها ، واظهر مثل على ذلك ما قام به اليهود المقيمون فى ألمانيا من
خيانات لها خلال الحرب العالمية الأولى ، وكان ثمرة هذه الخيانات هزيمة
ألمانيا ، ومنح اليهود جزاء غدرهم الوطنى وعد ( بلفور ) من الحكومة
البريطانية سنة 1917م .وقد عدد ( هتلر ) خيانات اليهود لألمانيا فذكر منها
استنزاف أموال الشعب بالربا الفادح وإفساد التعليم والسيطرة لصالحهم على
المصارف والبورصة والشركات التجارية ، والسيطرة على دور النشر ، والتدخل فى
سياسة الدولة لغير مصلحة ألمانيا وفى القمة من خياناتهم التجسس ضد ألمانيا
) الذى احترفه عدد كبير منهم .ويختم هتلر حديثه الطويل عن اليهود بقوله
وإذا قيض لليهودى أن يتغلب على شعوب هذا العالم ، فسيكون تاجه إكليل جنازة
البشرية ، وعندما يستأنف كوكبنا السيار طوافه فى الأثير كما فعل منذ ملايين
السنين لن يكون هناك بشر على سطحه . . لهذا أعتقد أنى تصرفت معهم حسبما شائ
خالقنا ، لأنى بدفاعى عن نفسى ضد اليهودى ، أنما أناضل فى سبيل الدفاع ، عن
عمل الخالق ) .وإذن فعزلة اليهود ، وعصبيتهم ، وخيانتهم للأوطان التى آوتهم
كان جزاؤها العادل ما حل بهم من دمار وتشريد خلال العصور المختلفة ،
رابعاً : اضطهادهم لغيرهم متى ملكوا القدرة الظاهرة أو الخفية لذلك وتاريخ.
اليهود ملطخ بجرائم القتل والذبح والنهب والسلب والغدر والبطش بغيرهم وملىء
بالمجازر التى قاموا بها ضد الشعوب التى كان لهم النصر عليها ، وقد ساعدهم
، على ذلك ما أمرتهم به كتبهم من قتل وإذلال لغيرهم متى واتتهم الفرصة عليه
ففى سفر الخروج ما نصه .( حين تقترب من مدينة لكى تحاربها استدعها إلى
، الصلح ، فإذا أجابتك فكل الشعب الموجود فيها يكون للتسخير ، ويستعبد لك
وإن لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها ، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك
، فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جداً
( وأما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك اللرب إياها فلا تستبق منها نسمة ما
ولقد طبق اليهود هذه التعاليم أسوأ تطبيق فى كل أدوار تاريخهم فلقد قتلوا.
فى روما وحدها مائة ألف مسيحى سنة 214م بإيعاز من الإمبراطور ( مارك أوريل
وما لنا نذهب بعيداً فى الاستشهاد على إجرامهم ، ومعارك فلسطين ما زالت. (
ماثلة فى أذهاننا ، يقول أحد الكتاب المعاصرين : ( إن مذبحة دير ياسين كانت
من أبشع المذابح التى ارتكبها اليهود . فقد قتلوا مائتين وخمسين إنسانا فى
قرية صغيرة ومثلوا بأجسامهم ، وذبحوا الأطفال فى أحضان أمهاتهم وأمام
أعينهن ) . وحدث ما يشبه هذه المذابح فى كثير من مدن فلسطين كحيفا ويافا
، وقبية وكفر قاسم .والحق ، أن مفاهيم اليهود الباطلة ، وأنانيتهم الطاغية
، وطباعهم اللئيمة وأخلاقهم الفاسدة ، وعصبيتهم الذميمة ، وقلوبهم القاسية
واستباحتهم لقتل غيرهم ، وإهدار كرامته ، كل ذلك جعلهم محل نقمة العالم
وغضبه ، وبسبب هذه الأخلاق المرذولة سلط الله عليهم من يسومهم سوء العذاب
إلى يوم القيامة ، ومن يمزقهم شر ممزق .ويعجبنى فى هذا المقام قول المؤرخ
اليهودى " يوسيفوس " "لا توجد أمة فى الأرض فى كل أجيال التاريخ منذ بدء
الخليقة إلى الآن تحملت ما تحمل بنو إسرائيل من الكوارث والآلام ، على أن
هذه الكوارث والآلام لم تكن إلا من صنع بنى إسرائيل أنفسهم " .والآن ، بعد
- سرد هذه العقوبات التى حلت ببني إسرائيل فى مختلف العصور تأييداً لقوله
تعالى - ( لَيَبْعَثَنّ عَلَيْهِمْ إلى يَوْمِ القيامة مَن يَسُومُهُمْ
سواء العذاب ) بسبب أعمالهم السيئة نعود إلى السورة الكريمة فنراها تحدثنا
عن لون من ألوان الدعاوى الباطلة التى حكاها القرآن عنهم ، وهو زعمهم أن
، ذنوبهم مغفورة لهم ، وأنهم مهما فعلوا من ذنوب ، وارتكبوا من موبقات
واستحلوا من أموال حرام ، فلن يحاسبهم الله على ذلك إلا حسابا يسيراً لأنهم
) : أبناؤه وأحباؤه ، واستمع إلى السورة الكريمة وهى تحكى ذلك عنهم فتقول
. ( . . . فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ

فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب ياخذون عرض هذا الادنى ويقولون سيغفر لنا
وان ياتهم عرض مثله ياخذوه الم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ان لا يقولوا على
الله الا الحق ودرسوا ما فيه والدار الاخرة خير للذين يتقون افلا تعقلون

، كما فسرها الوسيط قال الإمام القرطبى : الخلْف - بسكون اللام - الأولاد
الواحد والجمع فيه سواء ، الخلف - بفتح اللام - البدل ، ولداً كان أو غريبا
، وقال ابن الأعرابى : الخلف - بفتح اللام - الصالح ، وبسكونها الطالح .
ومنه قيل للردى من الكلام خلف - بسكون اللام - ومنه المثل السائر " سكت
ألفا ونطق خلْفا " قال لبيد .ذهب الذين يعاش فى أكنافهم ... وبقيت فى خلف
كجلد الأجربفخلْف فى الذم بالإسكان ، وخَلَف بالفتح فى المدح ، هذا هو
" المستعمل المشهور ، وفى الحديث الشريف " يحمل هذا العلم من كل خلف عدو له
وقد يستعمل كل واحد منهما موضع الآخر .والعرض - بفتح الراء - متاع الدنيا
وحطامها من المال وغيره .قال صاحب الكشاف : قوله تعالى : ( يَأْخُذُونَ
عَرَضَ هذا الأدنى ) أى حطام هذا الشىء الأدنى ، يريد الدنيا وما يتمتع به
، منها ، وفى قوله هذا تخسيس وتحقير ، والأدنى إما من الدنو بمعنى القرب
لأنه عاجل قريب ، وإما من دنو الحال وسقوطها وقلتها والمراد ما كانوا
( يأخذونه من الرشا فى الأحكام على تحريف الكلم للتسهيل على العامة
والضمير فى قوله ( مِن بَعْدِهِمْ ) يعود إلى اليهود الذين وصفهم الله فى.
الآية السابقة بقوله ( وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأرض أَمَماً مِّنْهُمُ
الصالحون وَمِنْهُمْ دُونَ ذلك وَبَلَوْنَاهُمْ بِالحسنات والسيئات
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ) والمعنى : فخلف من بعد أولئك القوم الذين
قطعناهم فى الأرض أمماً خلف سوء ، ورثوا كتاب الله وهو التوراة فقرأوه
وتعلموه ، ووقفوا على ما فيه من تحليل وتحريم وأمر ونهى ولكنهم لم يتأثروا
به بل خالفوا أحكامه ، واستحلوا محارمه مع علمهم بها ، فهم يتهافتون على
حطام الدنيا ومتاعها ويتقبلون المال الحرام بشراهة نفس . ويأكلون الحست
أكلا لما ويقولون وهم والغون فى المعاصى ومصرون على الذنوب : إن الله سيغفر
لنا ذنوبنا ولا يؤاخذنا بما أكلنا من أموال ، لأننا من نسل أنبيائه ، فنحن
شعبه الذى اصطفاه من سائر البشر ، إلى غير ذلك من الأقاويل التى يفترونها
على الله وهم يعلمون .وجملة ( يَأْخُذُونَ عَرَضَ هذا الأدنى ) مستأنفة
لبيان ما يصنعون بالكتاب بعد وراثتهم إياه . وقيل : هى حال من الضمير فى
ورثوا .ثم أخبر - سبحانه - عنهم بأنهم أهل إصرار على ذنوبهم ، وليسوا بأهل
إنابة ولا توبة فقال تعالى : ( وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ
يَأْخُذُوهُ ) أى : أنهم يأخذون عرض الحياة الدنيا ويعرضون عن شريعة الله
التى أنزلها عليهم فى التوراة ويزعمون أن الله لا يؤاخذهم بما فعلوا . ثم
هم بعد ذلك لا يتوبون إلى الله ولا يستغفرونه ، وإنما حالهم أنهم إن لاح
لهم عرض حرام آخر مثل الذى أخذوه أولا بالباطل ، تهافتوا عليه من جديد
) واستحلوه وأكلوه فى بطونهم ، وبدون توبة أو ندم .قال مجاهد قوله تعالى
وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ )لا يشرف لهم شىء من متاع
الدنيا إلا أخذوه حلالاً كان أو حراما ، ويتمنون المغفرة ( وَيَقُولُونَ
سَيُغْفَرُ لَنَا ) وإن يجدوا عرضا مثله يأخذوه .وقال السدى : ( كانت بنو
إسرائيل لا يستقضون قاضيا إلا ارتشى فى الحكم وإن خيارهم اجتمعوا ، فأخذ
بعضهم على بعض العهود أن لا يفعلوا ولا يرتشوا ، فجعل الرجل منهم إذا
استقضى ارتشى ، فيقال له ما شأنك ترتشى فى الحكم؟ فيقول شيغفر لى ، فيطعن
عليه البقية الآخرون من بنى إسرائيل صنعه فإذا مات أو نزع وجعل مكانه رجل
ممن كان يطعن عليه قبل الرشوة ، يقول الله : ( وإن يأت الآخرين عرض الدنيا
يأخذوه ) .ثم أنكر - سبحانه - عليهم ما زعموه بقولهم : ( سَيُغْفَرُ لَنَا )
وهم مصرون على معصيتهم فقال تعالى : ( أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ (
مِّيثَاقُ الكتاب أَن لاَّ يِقُولُواْ عَلَى الله إِلاَّ الحق وَدَرَسُواْ
مَا فِيهِ ) .والمعنى : لقد أخذ الله العهد فى التوراة على هؤلاء المرتشين
فى أحكامهم : والقائلين سيغفر الله فعلنا هذا ألا يقولوا على الله إلا
القول الحق ، ولا يخبروا عنه إلا بالصدق ولا يخالفوا أمره . ولا ينقضوا
، عهده ، ولا يتجاوزوا حدوده ، وقد درس هؤلاء الكتاب ، أى : قرأوه وفهموه
، ولكنهم لم يعملوا بما أخذ عليهم من عهود ولم يتبعوا أوامر كتابهم ونواهيه
تلأنهم درسوه ولم يتأثروا به ، ولم تخالط تعاليمه شغاف قلوبهم ، فضيعون
واشتروا به ثمناً قليلا فبئس ما يشترون .وقوله ( أَن لاَّ يِقُولُواْ عَلَى
الله إِلاَّ الحق ) بدل من ميثاق الكتاب أو عطف بيان له . وقيل إنه مفعول
لأجله أى : لئلا يقولوا .وجملة ( وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ ) معطوفة فى المعنى
على قوله تعالى ( أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِّيثَاقُ الكتاب ) أى أن
الله تعالى قد أخذ عليهم الميثاق فى التوراة ودرسوه .قال ابن دريد : ( كان
يأتيهم المحق برشوة فيخرجون له كتاب الله فيحكمون له به ، فإذا جاء المبطل
أخذوا منه الرشوة وأخرجوا له كتابهم الذى كتبوه بأيديهم وحكموا له .ثم بين
الله لهم أن ما أعده فى الآخرة للمتقين الذين يتعففون عن السحت وعن أكل
أموال الناس بالباطل خير من متاع الدنيا وزهرتها الذى آثره هؤلاء الذين

يفترون عليالله الكذب فقال تعالى : ( والدار الآخرة خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ) أى : والدار الآخرة وما أعده فيها من نعيم لأولئك الذين يتقونه حق تقاته فى السر والعلن ، خير من عرض هذا الأدنى الذى استحله هؤلاء اليهود بدون حق وآثروه على ما عند الله من نعيم مقيم وثواب جزيل ( أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ) - يا من أكلتم أموال الناس بالباطل وقلتم سيغفر الله لنا ذنوبنا - هذا الحكم الواضح ، الذى لا يخفى على ذى عقل سليم ، لم تطمسه الشهوات ، ولم يستحوذ عليه الشيطان .وفى هذا إشارة إلى أن الطمع فى متاع الحياة الدنيا هو الذى جعل بنى إسرائيل يقولون على الله غير الحق . ويتشبعون من المال الحرام بدون تعفف ويبيعون دينهم بدنياهم .قال الإمام الآلوسى : ( والمراد من الآية توبيخ أولئك الورثة على بتهم القول بالمغفرة مع إصرارهم على الذنوب وجاء البت من السين فإنها للتأكيد كما نص عليه المحققون ، وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - إنهم وبخوا على إيجابهم على الله - تعالى - غفران ذنوبهم التى لا يزالون يعودون إليها ثم لا يتوبون منها .وقد أطبق أهل السنة على ذم المتمنى على الله ، ورووا ع شداد بن أوس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد : الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى " ومن هنا قيل إن القوم ذموا بأكلهم أموال الناس بالباطل وبإتباعهم أنفسهم هواها وتمنيهم على الله - سبحانه - الأمانى ، ووبخوا على افترائهم على الله فى الأحكام التى غيروها ، وأخذوا عرض هذا الأدنى على تغييرها ، وقالوا على الله ما ليس بحق من القول ) .

والذين يمسكون بالكتاب واقاموا الصلاة انا لا نضيع اجر المصلحين

كما فسرها الوسيط ثم أثنى الله - تعالى - على من تمسك بكتابه ، فأحل حلاله وحرم حرامه ، ولم يتقول على الله الكذب فقال تعالى : ( والذين يُمَسِّكُونَ بِالكتاب وَأَقَامُواْ الصلاة إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ المصلحين ) والمراد بالكتاب التوراة أو القرآن أو جنس الكتب السماوية عموما .والمعنى : والذين يستمسكون بأوامر الكتاب الذى أنزله الله ويعتصمون بحبله فى جميع شئونهم إنا لا نضيع أجرهم لأنهم قد أصلحوا دينهم ودنياهم والله لا يضيع أجر من أحسن عملا .وخص الصلاة بالذكر مع دخولها فيما قبلها إظهارا لمزيتها لكونها عماد الدين وناهية عن الفحشاء والمنكر .وبذلك تكون الآيتان الكريمتان قد وبختا اليهود لافترائهم على الله الكذب وردتا عليهم فى دعواهم أن ذنوبهم مغفورة لهم مع تعمدهم أكل أموال الناس بالباطل ، وبينتا لهم طريق الفلاح لكى يسيروا عليها ، إن كانوا ممن ينتفع بالذكر ، ويعتبر بالمثلات .

واذ نتقنا الجبل فوقهم كانه ظلة وظنوا انه واقع بهم خذوا ما اتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون

كما فسرها الوسيط ثم ختمت السورة الكريمة حديثها الطويل عن بنى إسرائيل بتذكيرهم بالعهد الذى أخذه الله عليهم ، وبأمرهم بالإيمان والعمل الصالح فقالت : ( والذين يُمَسِّكُونَ . . . ) .الآية الكريمة معطوفة على ما سبق من أحوال بنى إسرائيل بتقدير : اذكر .ونتقنا : من النتق وهو الزعزعة والرفع والجذب بشدة ، يقال : نتق الشىء ينتقه وينتقه ، جذبه واقتلعه .والمراد بالجبل جبل الطور الذى سمع موسى عليه الكلام من ربه .قيل : " إن موسى لما أتى بنى إسرائيل بالتوراة وقرأها عليهم وسمعوا ما فيها من التغليظ كبر ذلك عليهم ، وأبوا أن يقبلوا ذلك ، فأمر الله الجبل فانقطع من أصله حتى قام على رءوسهم مقدار عسكرهم ، فلما نظروا إليه فوق رءوسهم خروا ساجدين ، فسجدوا كل واحد منهم لعى خده وحاجبه الأيسر ، وجعل ينظر بعينه اليمنى إلى الجبل خوفا من أن يسقط فوقهم .أى : واذكر يا محمد وذكر بنى إسرائيل المعاصرين لك وقت أن رفعنا الجبل فوق آبائهم الذين كانوا فى عهد موسى حتى صار كأنه غمامة أو سقيفة فوق رءوسهم لنريهم آية من الآيات التى تدل على قدرتنا وعلى صدق نبينا موسى - عليه السلام - .قال بعض العلماء : " ورفع الجبل فوقهم لإرشادهم آية من آيات الله تقوى إيمانهم بأن التوراة منزلة من عند الله ، وقوة الإيمان ) من شأنها أن تدفع إلى العمل بها فى الكتاب المنزل بجد واجتهاد " .وقوله وظنوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ ) أى : ووقع فى نفوسهم أن الجبل ساقط عليهم ) إذا لم يستجيبوا لما أمرهم به نبيهم - عليه السلام - .قال الجمل : وقوله وظنوا ) فيه أوجه :أحدها : أنه فى محل جر نسقا على نتقنا المخفوض بالظرف تقديرا .والثانى : أنه حال ، و " قد " مقدرة عند بعضهم ، وصاحب الحال الجبل أى : كأنه ظلة فى حال كونه مظنونا وقوعه بهم .والثالث : أنه مستأنف فلا محل له . والظن هنا على بابه ، وقيل بمعنى اليقين " .وقوله ( خُذُواْ مَآ ءاتيناكم بِقُوَّةٍ ) مقول لقول محذوف دل عليه المعنى .والتقدير : وقلنا ، لهم خذوا ما آتيناكم بقوة ، أى تمسكوا به وأعملوا بما فيه بجد ونشاط وتقبلوه بحسن استعداد وبدون تقصير أو تردد .والمراد بقوله : ( مَآ ءاتيناكم ) التوراة التى أنزلها الله على موسى لتكون هدى ونوراً لهم .وقوله (

واذكروا مَا فِيهِ ) أى : احفظوه وتدبروه وتدارسوه واعملوا به بلا تعطيل لشىء منه .قال القرطبى : وهذا هو من المقصود من الكتب : العمل بمقتضاها لا تلاوتها باللسان فحسب ، فقد روى النسائى عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن من شر الناس رجلا فاسقا يقرأ القرآن لا يرعوى إلى شىء منه " .و " لعل " فى قوله ( لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ) إما للتعليل فيكون المعنى : خذوا الكتاب بجد وعزم ، واعملوا بما فيه بصدق وطاعة لتتقوا الهلاك فى دنياكم وآخرتكم .وإما للترجى ، وهو منصرف إلى المخاطبين فيكون المعنى : خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه ولا تنسوه وأنتم ترجون أن تكونوا من طائفة المتقين .ولكن بنى إسرائيل لم يذكروا ولم يتدبروا بل نقضوا العهد ، ولجوا فى المعصية ، فاستحقوا لعنة الله وغضبه ، وما ربك بظلام للعبيد .وبذلك تكون سورة الأعراف قد حدثتنا - من بين ما حدثتنا - من مطلعها إلى هنا عن هداية القرآن الكريم ، وعن يوم القيامة وما فيه من ثواب وعقاب ، وجنة ونار ، وعن النداءات التى وجهها الله - تعالى - لبنى آدم تذكيراً وتوجيهاً وتعليماً حتى يسعدوا فى دينهم ودنياهم ، وعن أحوال السعداء والأشقياء فى الآخرة وما يدور بينهم من مناقشات ومحاورات ، وعن قصة آدم وإبليس وعن قصص نوح وهود وصالح ولوط وشعيب مع أقوامهم ، ثم أفاضت السورة الكريمة فى حديثها عن قصة موسى مع فرعون ومع بنى إسرائيل .والهدف الأول الذى قصدته السورة مما عرضته من قصص وتوجيهات وإرشادات هو إثبات وحدانية الله ، وإخلاص العبادة له ، وحمل الناس على السير فى الطريق المستقيم ، وقد استعملت السورة فى عرضها لتلك الحقائق أساليب الترغيب والترهيب ، والتذكير بالنعم والتحذير من النقم ، وإقامة الحجج ودفع الشبه ثم بدأت السورة بعد أن انتهت من حديثها عن بنى إسرائيل وحتى نهايتها. تحدثنا عن قضية التوحيد من زاوية جديدة عميقة ، زاوية الفطرة التى فطر الله عليها البشر ، ولنتصاحب سويا - أيها القارىء الكريم - متأملين فيما ساقته لنا السورة الكريمة فى الربعين الأخيرين منها من آيات تزخر بالأدلة العقلية والمنطقية التى تثبت وحدانية الله وتبطل الشرك والشركاء ، مستعيننة فى ذلك - بما تهدى إليه الفطرة البشرية والطبيعة الإنسانية .تدبر معى قوله - تعالى - : ( . . . وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ ) .

واذ اخذ ربك من بني ادم من ظهورهم ذريتهم واشهدهم على انفسهم الست بربكم قالوا بلى شهدنا ان تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين

كما فسرها الوسيط قال صاحب المنار ، هذه الآيات بدء سياق جديد فى شئون البشر العامة المتعلقة بهداية الله لهم بما أودع فى فطرتهم وركب فى عقولهم من الاستعداد للايمان به وتمجيده وشكره ، فى إثر بيان هدايته لهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب فى قصة بنى إسرائيل . فالمناسبة بين هذا وما قبله ظاهرة ولذلك عطف عليه عطف جملة على جملة أو سياق على سياق .قوله ( وَإِذْ ، أَخَذَ رَبُّكَ مِن بني ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ) الظهور : جمع ظهر وهو العمود الفقرى لهيكل الإنسان الذى هو قوام بنيته .والذرية : سلالة الإنسان من الذكور والإناث .وقوله ( مِن ظُهُورِهِمْ ) بدل بعض من قوله ( مِن بني ءَادَمَ ) و ( ذُرِّيَّتَهُمْ ) مفعول أخذ .والمعنى : واذكر أيها الرسول وذكر كل عاقل وقت أن استخرج الله - تعالى - من أصلاب بنى آدم ذريتهم ، وذلك الإخراج أنهم كانوا نطفة فاخرجها - سبحانه - فى أرحام الأمهات ، وجعلها علقة ثم مضغة ، ثم جعلها بشراً سويا ، وخلقا كاملا مكلفاً قال الآلوسى : وإيثار الأخذ على الإخراج للإيذان بشأن المأخوذ إذ ذاك لما فيه من الإنباء عن الإجتباء والاصطفاء وهو السبب فى إسناده إلى اسم الرب بطريق الالتفات مع ما فيه من التمهيد للاستفهام الآتى . وقيل إن إيثار الأخذ على الإخراج لمناسبة ما تضمنته الآية من الميثاق ، فإن الذى يناسبه هو الأخذ دون الإخراج .والتعبير بالرب لما أن ذلك الأخذ باعتبار ما يتبعه من آثار الربوبية .وقوله : ( وَأَشْهَدَهُمْ على أَنفُسِهِمْ ) أى : أشهدهم ، على أنفسهم بما ركب فيهم من دلائل وحدانيته ، وعجائب خلقه ، وغرائب صنعته وبما أودع فى قلوبهم من غريزة الإيمان ، وفى عقولهم من مدارك تهديهم إلى معرفة ربهم وخالقهم .وقوله : ( أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ) مقول لقول محذوف : أى : قائلا لهم - بعد أن أشهدهم على أنفسهم بما ركب فيهم من دلائل الوحدانية - ألست بربكم ، ومالك أمركم ، ومربيكم على الإطلاق ، من غير أن يكون لأحد مدخل فى شأن من شئونكم ( قَالُواْ بلى شَهِدْنَآ ) أى : قالوا بلى شهدنا على أنفسنا عن عقيدة وإقناع بأنك أنت ربنا وخالقنا ولا رب لنا سواك ، فإن آثار رحمتك وعجائب خلقك ، ومظاهر قدرتك تجعلنا لا نتردد فى هذه الشهادة .و ( بلى ) حرف جواب ، وتختص بالنفى فلا تقع إلا جوابه فتفيد إبطاله سواء أكان مجردا أم مقرونا بالاستفهام ولذلك قال ابن عباس وغيره ، لو قالوا نعم لكفروا . لأن نعم حرف تصديق للمخبر بنفى أو إيجاب .قال صاحب الكشاف : وقوله : ( أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى ) من باب التمثيل ومعنى ذلك أنه نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته ، وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التى ركبها فيهم وجعلها مميزة بين الضلالة والهدى ، فكأنه أشهدهم

على أنفسهم وقررهم وقال لهم : ألست بربكم؟ وكأنهم قالوا : بلى أنت ربنا
- شهدنا على أنفسنا وأقررنا بوحدانيتك ، وباب التمثيل واسع فى كلام الله
تعالى - وفى كلام رسوله صلى الله عليه وسلم وفى كلام العرب .ونظيره قوله
تعالى - ( إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ
لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ) وقوله ( فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائتيا طَوْعاً
أَوْ كَرْهاً قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ) ومعلوم أنه لا قول ثم وإنما
تمثيل وتصوير للمعنى " .والمقصود من الآية الكريمة الاحتجاج على المشركين
بمعرفتهم ربوبيته - تعالى - معرفة فطرية لازمة لهم لزوم الاقرالر منهم
والشهادة . قال - تعالى - : ( فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً
( فِطْرَتَ الله التي فَطَرَ الناس عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله
والفطرة هى معرفة ربوبيته - سبحانه - :وقد وردت أحاديث كثيرة تشهد بأن
الناس قد فطرهم الله - تعالى - على معرفته ، ومن ذلك ما جاء فى الصحيحين عن
أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من مولود إلا
ويولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج
البهيمة جمعاء - أى سالمة الأذن - هل تحسون فيها من جدعاء - أى مقطوعة
الأذن " .وفى صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال : قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم : " يقول الله - تعالى - إنى خلقت عبادى حنفاء ، فجاءتهم الشياطين
" فاجتالهم عن دينهم - أى صرفتهم عن دينهم - وحرمت عليهم ما أحللت لهم
وروى الطبرى عن الحسن الأسود بن سريع قال : قال رسول الله صلى الله عليه.
وسلم " كل نسمة تولد على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها فأبواهل يهودانها أو
- ينصرانها " ولذلك يتبين لنا أن المعنى الإجمالى للآية الكريمة أن الله
تعالى - نصب للناس فى كل شىء من مخلوقاته - ومنها أنفسهم - دلائل توحيده
وربوبيته ، وركز فيهم عقولا وبصائر يتمكنون بها تمكنا تاما من معرفته
والاستجلال بها على التوحيد والربوبية حتى صاروا بمنزلة من إذا دعى إلى
الإيمان بها سارع إليه بدون شك أو تردد .فالكلام على سبيل المجاز التمثيلى
لكون الناس قد فطرهم الله - تعالى - على معرفته والإيمان به ، وجعلهم
مستعدين جميعا للنظر المؤدى إلى الاعتراف بوحدانيته ، ولا إخراج للذرية ولا
قول ولا إشهاد بالفعل .وعلى هذا الرأى سار المحققون من مفسرى السلف والخلف
ويرى بعض المفسرين أن معنى الآية الكريمة : أن الله - تعالى - مسح ظهر آدم.
فأخرج منه ذريته كالذر ، وأحيانهم وجعل لهم العقل والنطق ، وألهمهم ذلك
الاقرار ، ثم أعادهم إلى ظهر ابيهم آدم ، واستشهدوا لذلك بأحاديث وآثار
ليست صحيحة الاسناد ، وما حسن إسناده منها فقد أوله العلماء بما يتفق مع
: منطوق الآية الكريمة .وقد رد أصحاب الرأى الأول على هذا البعض بردود منها
أ ، الله - تعالى - قال : ( وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بني ءَادَمَ ) ولم
) يقل من آدم ، وقال ( مِن ظُهُورِهِمْ ) ولم يقل من ظهره ، وقال
ذُرِّيَّتَهُمْ ) ولم ذريته . قال ( أَوْ تقولوا إِنَّمَا أَشْرَكَ
- آبَاؤُنَا ) ولم يكن لهم يومئذ أب مشرك ، لأن آدم حاشاه من الشرك بالله
تعالى :قال الإمام ابن كثير بعد أن ساق عدداً كبيراً من الأحاديث فى هذا
المعنى : ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف : إن المراد بهذا الاشهاد إنما
هو فطرهم على التوحيد كما تقدم فى حديث أبى هريرة وعياض والأسود بن سريع
) : وقد فسر الحسن الاية بذلك " ثم بين - سبحانه - سبب الاشهاد وعلله فقال
: أَن تَقُولُواْ يَوْمَ القيامة إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غَافِلِينَ ) أى
فعلنا ما فعلنا كراهة أن تقولوا ، أو منعا من أن تقولوا يوم القيامة
معتذرين عن شرككم : إنا عن هذا الأمر وهو إفراد الله - تعالى - بالربوبية
غافلين لم ننبه إليه ، لأنهم ما داموا قد خلقوا على الفطرة ، ونصب الله لهم
فى كل شىء من مخلوقاته ما يدل على وحدانيته ، وجاءتهم الرسل فبشرتهم
. وأنذرتهم ، فقد بطل عذرهم ، وسقطت حجتهم

او تقولوا انما اشرك اباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم افتهلكنا بما فعل المبطلون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - سببا أخر لهذا الاشهاد فقال : ( أَوْ
تقولوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن
: بَعْدِهِمْ ) .أى : وفعلنا ذلك - أيضا منعا لكم من أن تقولوا يوم الحساب
إن آباءنا هم الذين سنوا هذا الاشراك وساروا عليه فنحن قد اتبعناهم فى ذلك
بمقتضى أننا أبناؤهم ، وننهج نهجهم من بعدهم ، فإن قولكم هذا غير مقبول بعد
أن هيأ الله لكم من الأسباب ما يفتح قلوبكم لنور الحق لو كنتم مستعدين
لقبوله .والاستفهام فى قوله ( أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ المبطلون )
للإنكار . أى : أنت يا ربنا حكيم وعادل فهل تؤاخذنا بما فعل آباؤنا من
الشرك وأسسوا من الباطل أو بفعل آبائنا الذين أبطلوا تأثير العقول وأقوال
الرسل؟ إنك يا ربنا قد وعدت أنك لا تأخذ الأبناء بفعل الآباء ونحن قد سلكنا
طريقهم والحجة عليهم بما شرعوا لنا من الباطل فكيف تؤاخذنا؟والجواب على ذلك
أن الإقرار بالربوبية والتوحيد هو فى أصل فطرتكم فلم لم ترجعوا إليه عندما
دعاكم رسولنا الكريم إلى وحدانية الله ونبذ الشركاء إن انقيادكم للاباء بعد

أن وهبكم الله العقول المفكرة ، وأرسل إليكم الرسل مبشرين ومنذرين لن يعفيكم من المسئولية ، ولن ينقذكم من العذاب .

وكذلك نفصل الايات ولعلهم يرجعون

كما فسرها الوسيط ثم قال - تعالى - ( وكذلك نُفَصِّلُ الآيات وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ) أى : ومثل هذا التفصيل البليغ نفصل لبنى آدم الآيات والدلائل ، ليستعملوا عقولهم ، ولعلهم يرجعون إلى فطرتهم وما استكن فيها من ميثاق وإلى خلقتهم وما كمن فيها من ناموس .فالرجوع إلى الفطرة القويمة كفيل بغرس عقيدة التوحيد فى القلوب ، وردها إلى بارئها الواحد القهار الذى فطرها على الحق ، وصرفها عن الجهل والتقليد .هذا ، وقد أخذ العلماء من هذه الآيات أمورا من أهمها :1 - فساد التقليد فى الدين ، وأنه - تعالى - قد أزاح العذر - وأزال العلل بحيث أصبح لا يعذر أحد بكفره أو شركه .2 - أن معرفته ، تعالى - فطرية ضرورية . قال - تعالى - ( وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض لَيَقُولُنَّ الله ) وروى الترمذى عن عمران بن الحصين قال قال النبى صلى الله عليه وسلم لأبى : يا حصين كم إلها تعبد اليوم . قال " : أبى : سبعة؛ ستة فى الرض وواحدا فى السماء قال : فأيهم تعد لرغبتك ورهبتك قال : الذى فى السماء " .فالله - تعالى - فطر الخلق كلهم على معرفة فطرة التوحيد ، حتى من خلق مجنونا لا يفهم شيئا ما يحلف إلا به ، ولا يلهج لسانه بأكثر من اسمه المقدس .

واتل عليهم نبا الذي اتيناه اياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين

-كما فسرها الوسيط ثم ضرب - سبحانه - مثلا لمن لا يعمل بعلمه فقال - تعالى - : ( . . . واتل عَلَيْهِمْ ) قال صاحب المنار : هذا مثل ضربه الله. تعالى - للمكذبين بآيات الله المنزلة على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وهو مثل من آتاه الله آياته فكان عالما بها حافظا لقواعدها وأحكامها قادرا على بيانها والجدل بها ، ولكنه لم يؤت العمل مع العلم ، بل كان عمله مخالفا تمام المخالفة لعلمه فسلب هذه الآيات ، لأن العلم الذى لا يعمل به لا يلبث أن يزول فأشبه الحية التى تنسلخ من جلدها وتخرج منه وتتركه على الأرض ، أو كان فى التباين بين علمه وعمله كالمنسلخ من العلم التارك له ، كالثواب الخلق يلقيه صاحبه ، والثعبان يتجرد من جلده حتى لا تبقى له به صلة على حد ، قول الشاعر :خلقوا ، وما خلقوا لمكرمة ... فكأنهم خلقوا وما خلقوارزقوا وما رزقوا سماح يد ... فكأنهم رزقوا وما رزقوافحاصل معنى المثل : أن المكذبين بآيات الله المنزلة على رسوله مع إيضاحها بالحجج والدلائل كالعالم الذى حرم ثمرة الانتفاع من علمه ، لأن كلا منهما لم ينظر فى الآيات نظر تأمل واعتبار وإخلاص " .وقوله - تعالى - ( واتل عَلَيْهِمْ نَبَأَ الذي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فانسلخ مِنْهَا ) أي : أقرأ على قومك يا محمد ليعتبروا ويتعظوا خبر ذلك الإنسان الذى آتيناه بأن علمناه إياها ، وفهمناه مراميها ، فانسلخ من تلك الآيات انسلاخ الجلد من الشاة ، أو الحية من جلدها والمراد أنه خرج منه بالكلية بأن كفر بها ، ونبذها وراء ظهره ، ولم ينتفع. بما اشتملت عليه من عظات وإرشادات .وحقيقة السلخ كشط الجلد وإزالته بالكلية عن المسلوخ عنه ، ويقال لكل شىء فارق شيئا على أتم وجه انسلخ منه . وفى التعبير به مالا يخفى من المبالغة وقوله : ( فَأَتْبَعَهُ الشيطان فَكَانَ مِنَ الغاوين ) أى : فلحقه الشيطان وأدركه فصار هذا الإنسان بسبب ذلك من زمرة الضالين الراسخين فى الغواية ، مع أنه قبل ذلك كان من المهتدين :وفى التعبير بقوله ( فَأَتْبَعَهُ الشيطان ) مبالغة فى ذم هذا الإنسان وتحقيره جعل كأنه إمام للشيطان والشيطان يتبعه ، فهو على حد قول الشاعر :وكان فتى ، من جند إبليس فارتقى ... به الحال حتى صار إبليس من جندهقال الجمل : أتبعه فيه وجهان :أحدهما : أنه متعد لواحد بمعنى أدركه ولحقه ، وهو مبالغة فى حقه حيث جعل إماما للشيطان .

ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه اخلد الى الارض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث او تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا باياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون

كما فسرها الوسيط وثانيهما : أن يكون متعديا لاثنين لأنه منقول بالهمزة من تبع ، والمفعول الثانى محذوف تقديره : فأتبعه الشيطان خطواته ، أى جعله تابعا لها :وقوله ( وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا ) كلام مستأنف مسوق لبيان ما ذكر من الانسلاخ وما يتبعه .والضمير فى قوله ( لَرَفَعْنَاهُ ) يعود إلى الشخص المعبر عنه بالاسم الموصول ( الذي ) والضمير فى قوله بِهَا ) يعود إلى الآيات . ومفعول المشيئة محذوف .أى : ولو شئنا رفعه بسبب تلك الآيات إلى درجات الكمال والعرفان لرفعناه لأننا لا يستعصى على قدرتنا

شىء ، ولكننا لم نفعل ذلك لأن سنتنا جرت أن نرفع من عنده الاستعداد لذلك
أما الذين استحبوا العمى على الهدى فنذرهم فى ضلالهم يعمهون .وقد بين
القرآن هذا المعنى فى قوله : ( ولكنه أَخْلَدَ إِلَى الأرض واتبع هَوَاهُ )
أخلد إلى الأرض : أى ركن إليها . وأصل الإخلاد اللزوم للمكان من الخلود .أى
ولو شئنا لرفعنا هذا الإنسان إلى منازل الأبرار بسبب تلك الآيات ولكنه هو :
الذى ركن إلى الدنيا ، واطمأن بها ، واستحوذت بشهواتها على نفسه ، واختار
لنفسه طريق التسفل المنافى للرفعة ، واتبع هواه فى ذلك فلم ينتفع بشىء من
الآيات التى آتيناه إياه .أى : أن مقتضى هذه الآيات أن ترفع صاحبها إلى
أعلى عليين ، ولكن هذا المقتضى عارضه مانع وهو إخلاد من أتى هذه الآيات إلى
الأرض واتباعه للهوى ، فتغلب المانع على المقتضى ، فهو كما قال القائل
... قالوا فلان عالم فاضل ... فأكرموه مثلما يقتضيفقلت : لما لم يكن عاملا:
تعارض المانع والمقتضىقال الآلوسى : وما ألطف نسبة إتيان الآيات والرفع
- إليه - تعالى - ونسبة الانسلاخ والإخلاد إلى العبد ، مع أن الكل من الله
تعالى - ، أذ فيه من تعليم العباد حسن الأدب ما فيه . ومن هنا قال صلى الله
عليه وسلم " اللهم إن الخير بيديك والشر ليس إليك" .وقوله ( فَمَثَلُهُ
( كَمَثَلِ الكلب إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث
اللهث : إدلاع اللسان بالنفس الشديد . يقال : لهث الكلب يلهث - كسمع.
ومنع - لهثا ولهاثا ، إذا أخرج لسانه فى التنفس .والمعنى : فمثل هذا
الإنسان الذى آتيناه فانسلخ منها وأصبح إيتاء الآيات وعدمها بالنسبة له
سواء ، مثله كمثل الكلب إن شددت عليه وأتبعته لهث ، وإن تركته على حاله
لهث - أيضا - ، فهو دائم اللهث فى الحالين . لأن اللهث طبيعة فيه ، وكذلك
حال الحريص على الدنيا ، المعرض عن الآيات بعد إيتائها ، إن وعظته فهو
- لإيثاره الدنيا على الآخرة لا يقبل الوعظ ، وإن تركت وعجه فهو حريص
أيضا - على الدنيا وشهواتها .والإشارة فى قوله ( ذَّلِكَ مَثَلُ القوم )
إلى وصف الكلب أو إلى المنسلخ من الآيات ، أى : ذلك المثل البعيد الشأن فى
الغرابة مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا من الجاحدين المستكبرين المنسلخين
عن الهدى بعد أن كان فى حوزتهم .وقوله ( اقصص القصص لَعَلَّهُمْ
يَتَفَكَّرُونَ ) أى : إذا ثبت ذلك ، فاقصص على قومك أيها الرسول الكريم
المقصوص عليك من جهتنا لعلهم يتفكرون فينزجرون عما هم عليه من الكفر
والضلال .والفاء فى قوله ( اقصص ) لترتيب ما بعدها على ما قبلها . والقصص
مصدر بمعنى اسم المفعول ، واللام فيه للعهد ، وجملة الترجى فى محل نصب على
أنها حال من ضمير المخاطب أو فى موضع المفعول له . أى فاقصص القصص راجيا
لتفكرهم ، أو رجاءً لتفكرهم .

ساء مثلا القوم الذين كذبوا باياتنا وانفسهم كانوا يظلمون

كما فسرها الوسيط وقوله : ( سَآءَ مَثَلاً القوم الذين كَذّبُواْ
) بِآيَاتِنَا ) استئناف مسوق لبيان كمال قبحهم بعد البيان السابق . و
سَآءَ ) بمعنى بئس وفاعلها مضمر . و ( مَثَلاً ) تمييز مفسر له ، والمخصوص
بالذم قوله - تعالى - ( القوم الذين كَذّبُواْ بِآيَاتِنَا ) .أى : ساء
مثلا مثل أولئك القوم الذين كذبوا بآياتنا حيث شبهوا بالكلاب إما فى استواء
الحالتين فى النقصان وأنهم ضالون وعظوا أم لم يوعظوا ، وإما فى الخسة ، فإن
الكلاب لاهمة لها إلا فى تحصيل أكلة أو شهوة ، فمن خرج عن خير الهدى والعلم
وأقبل على هواه صار شبيها بالكلب ، وبئس المثل مثله ولهذا ثبت فى الصحيحين
. عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ليس لنا مثل السوء
العائد فى هبته كالكلب يعود فى قيئه " .وقوله ( وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ
يَظْلِمُونَ ) معطوف على ( كَذّبُواْ ) داخل معه فى حكم الصلة بمعنى أنهم
جمعوا بين أمرين قبيحين : التكذيب وظلمهم أنفسهم أو منقطع عنه بمعنى وما
ظلموا إلا أنفسهم وحدها بارتكابهم تلك الموبقات والخطيئات . فإن العقوبة لا
تقع إلا عليهم لا على غيرهم .هذا ، والذى ذهب إليه المحققون من العلماء أن
، هذه الآيات الكريمة المثل فيها مضروب لكل إنسان أوتى علما ببعض آيات الله
ولكنه لم يعمل بمقتضى علمه ، بل كفر بهم وبنذها وراء ظهره وصار هو والجاهل
سواء .وقيل : إن الآيات الكريمة واردة فى شخص معين ، واختلفوا فى هذا
، المعين .فبعضهم قال إنها فى أمية بن أبى الصلت ، فإنه كان قد قرأ الكتيب
- وعلم أن الله مرسل رسولا وتمنى أن يكون هو هذا الرسول ، فلما أرسل الله
: تعالى - نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم حسده ومات كافراً .وبعضهم قال
" نزلت فى أبى عامر الراهب الذى سماه النبى صلى الله عليه وسلم : " الفاسق
كان يترهب فى الجاهلية فلما جاء الإسلام خرج إلى الشام ، وأمر المنافقين
، باتخاذ مسجد الضرار والشقاق .وبعضهم قال : إنها فى منافقى أهل الكتاب
- كانوا يعرفون صفة النبى صلى الله عليه وسلم ومخرجه ، فلما بعثه الله
تعالى - كفروا به .وبعضهم قال : إنها نزلت لتحكى قصة رجل من علماء اليهود
اسمه بلعم ابن باعوراء أوتى علم بعض كتب الله ثم انسلخ منها بأن كفر بها
ونبذها بعد أن رشاه اليهود .والذى نراه أن الرأى الأول الذى عليه المحققون
من المفسرين هو الراجح ، وأن هؤلاء الذين ذكروا يندرجون تحته ، لأنه لم يرد

نص صحيح يعين اسم الذى وردت الآيات فى حقه ، فوجب أن نحملها على أنها واردة
. فى شأن كل من علم الحق فأعرض عنه واتبع هواه

من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فاولئك هم الخاسرون

كما فسرها الوسيط ثم يعقب القرآن على هذا المثل ببيان أن الهداية والضلال
من الله وأن هناك أقواماً من الجن والإنس قد خلقوا لجهنم بسبب إيثارهم طريق
) الشر على طريق الخير قال - تعالى - : ( مَن يَهْدِ الله . . . ) .قوله
مَن يَهْدِ الله فَهُوَ المهتدي ) أى : من يوفقه الله - تعالى - إلى سلوك
، طريق الهدى باستعمال عقله وحواسه بمقتضى سنة الفطرة فهو المهتدى حقاً
الواصل إلى رضوان الله صدقاً .( وَمَن يُضْلِلْ فأولئك هُمُ الخاسرون ) أى
ومن يخذله - سبحانه - بالحرمان من هذا التوفيق بسبب إيثاره السير فى طريق :
الهوى والشيطان على طريق الهدى والإيمان ، فأولئك هم الخاسرون لدنياهم
، وآخرتهم .وأفرد - سبحانه - المهتدى فى الجملة الأولى مراعاة للفظ ( مَن )
وجمع الخاسرين فى الثانية مراعاة لمعناها فإنها من صيغ العموم .وحكمه إفراد
المهتدى للإشارة إلى أن الحق واحد لا يتعدد ولا يتنوع ، وحكمة جمع الثانى
وهو قوله ( الخاسرون ) للإشارة إلى تعدد أنواع الضلال ، وتنوع وسائله
. وأساليبه

ولقد ذرانا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم اعين
لا يبصرون بها ولهم اذان لا يسمعون بها اولئك كالانعام بل هم اضل اولئك هم
الغافلون

كما فسرها الوسيط وقوله ( وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنّمَ كَثِيراً مِّنَ
. الجن ) كلام مستأنف مقرر لمضمون ما قبله ومفصل له .و " الذرء " الخلق
يقال : ذرأ الله خلقه يذرؤهم ذرءًا ، أى : خلقهم . واللام فى ( لِجَهَنّمَ
للعاقبة والصيرورة .أى : ولقد خلقنا لدخول جهنم والتعذيب بها كثيراً من (
الجن والإنس وهم الكفار المعرضون عن الآيات وتدبرها ، الذين علم الله منهم
أزلا اختيارهم الكفر فشاءه منهم وخلقه فيهم وجعل مصيرهم النار لذلك .ثم
بين - سبحانه - صفاتهم التى أدت بهم إلى هذا المصير السيىء فقال . ( لَهُمْ
قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا ) أى : لا يفقهون بها الآيات الهادية إلى
الكمالات مع أن دلائل الإيمان مبثوثة فى ثنايا الكون تدركها القلوب
المتفتحة ، والبصائر المستنيرة .وجملة ( لَهُمْ قُلُوبٌ ) فى محل نصب صفة
أخرى لقوله ( كَثِيراً ) وجملة ( لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا ) فى محل رفع صفة
لقلوب .وقوله ( وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا ) أى : لهم أعين
لا يبصرون بها ما فى هذا الكون من براهين تشهد بوحدانية الله ، مع أنها
معروضة للأبصار مكشوفة للأنظار ، فهم كما قال - تعالى - ، ( وَكَأَيِّن
مِّن آيَةٍ فِي السماوات والأرض يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا
مُعْرِضُونَ ) فهم لهم أعين ترى وتبصر ولكن بدون تأمل أو اعتبار ، فكأن
: وجودها وعدمه سواء .وقوله (وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَآ ) أى
لا يسمعون بها الآيات والمواعظ سماع تدبر واتعاظ ، أى أنهم لا ينتفعون بشىء
من هذه الجوارح التى جعلها الله سببا للهداية .قال صاحب الكشاف : " هم
المطبوع على قلوبهم الذين علم الله أنه لا لطف لهم : وجعلهم فى أنهم لا
يلقون أذهانهم إلى معرفة الحق ، ولا ينظرون بأعينهم إلى ما خلق الله نظر
اعتبار ، ولا يسمعون ما يتلى عليهم من آيات سماع تدبر كأنهم عدموا فهم
القلوب ، وإبصار العيون واستماع الآذان ، وجعلهم - لإعراقهم فى الكفر وشدة
، شكائمهم فيه ، وأنه لا يأتى منهم إلا أفعال أهل النار - مخلوقين للنار
دلالة على توغلهم فى الموبقات ، وتوغلهم فيما يؤهلهم لدخول النار " .وقوله
أى : أولئك الموصفون بتلك الصفات المذكورة كالأنعام ( أولئك كالأنعام )
السارحة التى لا تنتفع بشىء من هذه الجوارح التى جعلها الله سبباً للهداية
وقوله ( بَلْ هُمْ أَضَلُّ ) تنقيص لهم عن رتبة الأنعام ، أى : بل هم أسوأ.
حالا من الأنعام ، إذ أن الأنعام ليس لها وسى الاستعدادات الفطرية التى
تهديها أما الإنسان فقد زود إلى جانب الفطرة بالقلب الواعى ، والعقل المدرك
والعين المبصرة ، وزود بالقدرة على اتباع الهدى أو اتباع الضلال ، فإذا ،
لم يفتح بصره وقلبه وسمعه على الحق فإنه يكون أضل من الأنعام الموكولة إلى
استعداداتها الفطرية .وقوله ( أولئك هُمُ الغافلون ) أى أولئك المنعوتون
بما ذكرهم الكاملون فى الغفلة عما فيه صلاحهم وخيرهم وسعادتهم ، بسبب
. استحواذ الهوى والشيطان عليهم ولا يظلم ربك أحدا

ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في اسمائه سيجزون ما
كانوا يعملون

كما فسرها الوسيط وبعد أن بين - سبحانه - حال المخلوقين لجهنم بسبب غفلتهم
وإهمالهم لعقولهم وحواسهم ، أعقبه ببيان العلاج الذى يشفى من ذلك ، وبالنهى

. . عن اتباع المائلين عن الحق فقال - تعالى - : ( وَللَّهِ الأسمآء الحسنى
قال القرطبى : قوله - تعالى - : ( وَلِلَّهِ الأَسمآء الحسنى فادعوه. ( .
. بِهَا ) أمر بإخلاص العبادة لله - تعالى - ومجانبة الملحدين والمشركين
قال مقاتل وغيره من المفسرين : نزلت الآية فى رجل من المسلمين كان يقول فى
صلاته : يا رحمن يا رحيم . فقال رجل من مشركى مكة : أليس يزعم محمد وأصحابه
: أنهم يعبدون ربا واحداً فما بال هذا يدعو ربين اثنين؟ فنزلت " .والأسماء
جمع اسم ، وهو اللفظ الدال على الذات فقط أو على الذات مع صفة من صفاتها
: سواء كان مشتقا كالرحمن ، والرحيم ، أو مصدراً كالرب والسلام .والحسنى
تأنيث الأحسن أفعل تفضيل ، ومعنى ذلك أنها أحسن الأسماء وأجلها ، لأنبائها
عن أحسن المعانى وأشرفها .والمعنى : ولله - تعالى - وحده جميع الأسماء
الدالة على أحسن المعانى وأكمل الصفات فادعوه أى سموه واذكروه ونادوه بها
روى الشيخان عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن.
لله تسعة وتسعين اسماً من حفظها دخل الجنة والله وتر يحب الوتر " .قال
الآلوسى : والذى أراه أنه لا حصر لأسمائه - عزت أسماؤه - فى التسعة
والتسعين ، ويدل على ذلك ما أخرجه البيهقى عن ابن مسعود قال : قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم " من أصابه هم أو حزن فليقل : اللهم إنى عبدك وابن
عبدك وابن أمتك ، ناصيتى فى يدك ماضى فىّ حكمك ، عدل فىّ قضاؤك ، أسألك بكل
اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك أو
استاثرت به فى علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن ربيع قلبى ونور صدرى وذهاب
همى وجلاء حزنى . . . إلخ " فهذا الحديث صريح فى عدم الحصر .وحكى النووى
اتفاق العلماء على ذلك وأن المقصود من الحديث الإخبار بأن هذه التسعة
والتسعين من أحصاها دخل الجنة ، وهو لا ينافى أن له - تعالى - أسماء غيرها
ثم قال - تعالى - ( وَذَرُواْ الذين يُلْحِدُونَ في أَسْمَآئِهِ. "
سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ) .ويلحدون من الإلحاد وهو الميل
والانحراف ، يقال : ألحد إلحاداً إذا مال عن القصد والاستقامة ، وألحد فى
دين الله : حاد عنه؛ ومنه لحد القبر لأنه يمال بحفره إلى جانبه بخلاف
الضريح فإنه يحفر فى وسطه .والمعنى : ولله - تعالى - أشرف الأسماء وأجلها
- فسموه بها أيها المؤمنون ، واتركوا جميع الذين يلحدون فى أسمائه - سبحانه
بالميل لألفاظها أو معانيها عن الحق من تحريف أو تأويل أو تشبيه أو تعطيل
أو ما ينافى وصفها بالحسنى اتركوا هؤلاء جميعا فإنهم سيلقون جزاء عملهم من
الله رب العالمين .ومن مظاهر إلحاد الملحدين فى أسمائه - تعالى - تسمية
أصنامهم باسماء مشتقة منها ، كاللات : من الله - تعالى - ، والعزى : من
، العزيز ، ومناة : من المنان وتسميته - تعالى - بما يوهم معنى فاسدا
- كقولهم له - سبحانه - : يا أبيض الوجه كذلك من مظاهر الإلحاد فى أسمائه
تعالى - ، تسميته بما لم يسم به نفسه فى كتابه ، أو فيما صح من حديث رسوله
. إلى غير ذلك مما يفعله الجاهلون والضالون ،

وممن خلقنا امة يهدون بالحق وبه يعدلون

كما فسرها الوسيط ثم تمضى السورة الكريمة فى هديها وتوجيهها فتفصل صنوف
الخلق ، وتمدح من يستحق المدح وتذم من يستحق الذم فتقول: ( وَمِمَّنْ
خَلَقْنَآ أُمَّةٌ . . . ) .قوله ( وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ
بالحق وَبِهِ يَعْدِلُونَ ) معطوف على قوله ( وَلَقَدْ ذَرَأْنَا
لِجَهَنَّمَ ) أمة يهدون بالحق ، أى : يدعون إليه ويسيرون عليه ، وبه
يعدلون أى : به يقضون وينصفون الناس .وقد وردت آثار تفيد أن المراد بهذه
الأمة : الأمة المحمدية ففى الصحيحين عن معاوية بن أبى سفيان قال : قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم "لا تزال طائفة من أمتى على الحق ظاهرين لا
يضرهم من خالفهم حتى تقوم الساعة ، وفى رواية : " حتى يأمر الله وهم على
ذلك "وقال قتادة : بلغنا أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ هذا
الآية يقول : هذه لكم ، وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها .وعن الربيع بن
أنس - فى هذه الآية - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم" أن من أمتى
قوما على الحق حتى ينزل عيسى بن مريم متى ما نزل " .وقد استدل بعض العلماء
بهذه الآية على أن الإجماع حجة فى كل عصر ، وعلى أنه لا يخلو عصر من مجتهد
. إلى قيام الساعة

والذين كذبوا باياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون

كما فسرها الوسيط ثم ذكر - سبحانه - حال المكذبين فقال : ( والذين
( كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ
. الاستدراج : - كما قال القرطبى - هو الأخذ بالتدريج منزلة بعد منزلة.
. والدرج لف الشىء ، يقال : أدرجته ودرجته . ومنه أدرج الميت فى أكفانه
وقيل : هو من الدرجة ، فالاستدراج أن يحط درجة بعد درجة إلى المقصود . قال
: الضحاك : كلما جددوا لنا معصية جددنا لهم نعمة " .وقال صاحب الكشاف
الاستدراج : استفعال من الدرجة بمعنى الاستصعاد أو الاستنزال درجة بعد درجة

ومنه : درج الصبى إذا قارب بين خطوه ، وأدرج الكتاب . طواه شيئا بعد شىء ، ودرج القوم : مات بعضهم فى أثر بعض . ومعنى ( سَنَسْتَدْرِجُهُمْ ) ، سنستدينهم قليلا قليلا إلى ما يهلكهم ويضاعف عقابهم . ( مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ ) ما يراد بهم . وذلك أن يواتر الله نعمه عليهم مع انهماكهم فى الغى ، فكلما جدد عليهم نعمة ، ازدادوا بطرا وجددوا معصية ، فيتدرجون فى المعاصى بسبب ترادف النعم ، ظانين أن مواترة النعم محبة من الله وتقريب . وإنما هى خذلان منه وتبعيد ، فهو استدراج من الله - تعالى - نعوذ بالله منه وقد قيل : إذا رأيت الله - تعالى - أنعم على عبد وهو مقيم على معصيته. " فاعلم أنه مستدرج .

واملي لهم ان كيدي متين

كما فسرها الوسيط وقوله : ( وَأُمْلِي لَهُمْ إِنّ كَيْدِي مَتِينٌ ) ، الإملاء : الإمداد فى الزمن والإمهال والتأخير ، مشتق من الملاوة والملوة وهى الطائفة الطويلة من الزمن . والملوان : الليل والنهار .ويقال : أملى له إذا أمهله طويلا ، وأملى للبعير : إذ أرخى له فى الزمام ووسع له فى القيد ليستع المرعى .والكيد كالمكر ، وهو التدبير الذى يقصد به غير ظاهره بحيث ينخدع المكيد له بمظهره فلا يفطن له حتى ينتهى إلى ما يسوءه من مخبره وغايته . وإضافته إلى الله - تعالى - يحمل على المعنى اللائق به ، كإبطال مكر أعدائه أو إمدادهم بالنعم ثم أخذهم بالعذاب .ومتين : من المتانة بمعنى الشدة والقوة . ومنه المتن للظهر أو للحم الغليظ .والمعنى . والذين كذبوا بآياتنا سنستدنيهم قليلا قليلا إلى ما يهلكهم ويضاعف عقابهم بكثرة النعم بين أيديهم ، حتى يفاجئهم الهلاك من حيث لا يعلمون أن صنعنا هذا معهم هو لون من الاستدراج . وأمهل لهؤلاء المكذبين المستدرجين فى العمر ، وأمد لهم فى أسباب الحياة الرغدة ، إن كيدى شديد متين لا يدافع بقوة ولا بحيلة . وفى الحديث الشريف الذى رواه الشيخان عن أبى موسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته " .وقوله ( وَأُمْلِي لَهُمْ ) جوز بعضهم أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف أى : وأنا أملى لهم . وقيل هو معطوف على قوله ( سَنَسْتَدْرِجُهُمْ ) وقيل هو مستأنف .

اولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة ان هو الا نذير مبين

كما فسرها الوسيط ثم أمر - سبحانه - هؤلاء الظالمين بالتفكر والتدبر فقال : ( أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِمْ مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ) .الهمزة للانطار والتوبيخ ، وهى داخلة على فعل حذف للعلم به من سياق القول ، والواو للعطف على مقدر يستدعيه المقام والجنة : مصدر كالجلسة بمعنى الجنون . وأصل الجن الستر عن الحاسة .والمعنى. أكذب هؤلاء الظالمون رسولهم صلى الله عليه وسلم ولم يتفكروا فى أنه ليس به أى شىء من الجنون ، بل هو أكمل الناس عقلا ، وأسدهم رايا ، وأنقاهم نفساً .والتعبير ( بِصَاحِبِهِمْ ) للايذان بأن طول مصاحبتهم له مما يطلعهم على نزاهته عما اتهموه به ، فهو صلى الله عليه وسلم قد لبث فيهم قبل الرسالة أربعين سنة كانوا يلقبونه فيها بالصادق الأمين ، ويعرفون عنه أسمى ألوان الإدراك السليم والتفكير المستقيم .قال الجمل : وجملة " ما بصاحبهم من جنة " فى محل نصب معمولة ليتفكروا فهو عامل فيها محلا لا لفظا لوجود المعلق له عن العمل وهو ما النافية .ويجوز أن يكون الكلام قد تم عند قوله ( أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ ) ثم ابتدأ كلاما آخر إما استفهام إنكار وإما نفياً . ويجوز أن تكون " ما " استفهامية فى محل الرفع بالابتداء والخبر بصاحبهم . موالتقدير : أى شىء استقر بصاحبهم من الجنون " .وقوله ( إِنْ هُوَ إِلاّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ) بيان لوظيفته صلى الله عليه وسلم أى : ليس بمجنون كما زعمتم أيها المشركون وإنما هو مبالغ فى الإنذار ، مظهر له غاية الإظهار ، فهو لا يقصر فى تخويفكم من سوء عاقبة التكذيب ، ولا يتهاون فى نصيحتكم وإرشادكم إلى ما يصلح من شأنكم .

اولم ينظروا في ملكوت السماوات والارض وما خلق الله من شيء وان عسى ان يكون قد اقترب اجلهم فباي حديث بعده يؤمنون

كما فسرها الوسيط ثم دعاهم القرآن إلى النظر والاستدلال العقلى قال : ( أَوَلَمْ يَنْظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السماوات والأرض وَمَا خَلَقَ الله مِن شَيْءٍ ) .الملكوت : هو الملك العظيم زيدت فيه اللام والتاء للمبالغة كما فى جبروت .والجملة الكريمة مسوقة لتوبيخهم على إخلالهم بالتأمل فى الآيات التكوينية إثر تقريعهم على عدم تفكرهم فى أمر نبيهم صلى الله عليه وسلم .أى أكذبوا ولم يتفكروا فى شان رسولهم صلى الله عليه وسلم وما هو عليه من كمال العقل ، ولم ينظروا نظر تأمل واعتبار واستدلال فى ملكوت السموات من الشمس والقمر والنجوم وغيرها ، وفى ملكوت الأرض من البحار والجبال والجواب

وغيرها ، ولم ينظروا كذلك فيما خلق الله مما يقع عليه اسم الشىء من أجناس
لا يحصرها العدد ولا يحيط بها الوصف مما يشهد بأن لهذا الكون خالقا قادرا
هو المستحق وحده للعبادة والخضوع .وقوله ( مِن شَيْءٍ ) بيان " لما " وفى
ذلك تنبيه على أن الدلالة على التوحيد غير مقصورة على السموات والأرض ، بل
كل ذرة من ذرات العالم دليل على توحيده .وقوله : ( وَأَنْ عسى أَن يَكُونَ
قَدِ اقترب أَجَلُهُمْ ) فى محل جر معطوف على ما قبله ، و ( أَنْ ) مخففة
من الثقيلة واسمها ضمير الشأن ، وخبرها عسى مع فاعلها الذى هو ( أن
يَكُونَ ) .والمعنى : أولم ينظروا - أيضا - فى اقتراب آجالهم ، وتوقع
حلولها فيسارعوا إلى طلب الحق والتوجه إلى ما ينجيهم قبل مفاجأة الموت لهم
ونزول العذاب بهم وهم فى أتعس حال .إنهم لو تفكروا فى أمر رسولهم صلى الله
، عليه وسلم ولو نظروا فيما خلق الله من مخلوقات بعين التدبر والاتعاظ
لآمنوا وهدوا إلى صراط العزيز الحميد .وقوله : ( فَبِأَيِّ حَدِيثٍ
بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ) أى : إذا لم يؤمنوا بالقرآن وهو أكمل كتب الله
بيانا ، وأقواها برهانا ، فبأى كلام بعده يؤمنون؟والجملة الكريمة مسوقة
للتعجب من أحوالهم . ولقطع أى أمل فى إيمانهم لأنهم ما داموا لم يؤمنوا
بهذا الرسول المؤيد بالمعجزات ، وبهذا الكلام المعجز الجامع لكل ما يفيد
الهداية ، فأخرى بهم ألا يؤمنوا بغير ذلك .

من يضلل الله فلا هادي له ويذرهم في طغيانهم يعمهون

: كما فسرها الوسيط ثم عقب القرآن على هذا التوبيخ والتهديد للمشركين بقوله
مَن يُضْلِلِ الله فَلاَ هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ )
يَعْمَهُونَ ) .أى : من يرد الله إضلاله بسبب اختياره للضلالة ، وصممه عن
الاستماع للحق فلا قدرة لأحد على هدايته ، وهو - سبحانه - يترك هؤلاء
الضالين فى طغيانهم متحيرين مترددين .

يسالونك عن الساعة ايان مرساها قل انما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها الا
هو ثقلت في السماوات والارض لا تاتيكم الا بغتة يسالونك كانك حفي عنها قل
انما علمها عند الله ولكن اكثر الناس لا يعلمون

- كما فسرها الوسيط ثم بينت السورة الكريمة أن أمر الساعة مرده إلى الله
تعالى - ، وأن السائلين عن وقتها من الأحسن لهم أن يستعدوا لها بدل أن
. . . يكثروا من السؤال عن زمن مجيئها فقالت : ( يَسْأَلُونَكَ عَنِ الساعة
قال الآلوسى : عن ابن عباس أن قوماً من اليهود قالوا : يا محمد ، أخبرنا . (
متى الساعة إن كنت نبيا . إنا نعلم متى هى ، وكان ذلك امتحاناً منهم ، مع
عملهم أن الله - تعالى - قد استاثر بعلمها . وأخرج ابن جرير عن قتادة أن
جماعة من قريش قالوا : يا محمد أسر إلينا متى الساعة لما بيننا وبينك من
القرابة فنزلت " .وقوله : ( يَسْأَلُونَكَ عَنِ الساعة أَيَّانَ مُرْسَاهَا
استئناف مسوق لبيان بعض أنواع ضلالهم وطغيانهم .والساعة فى الأصل اسم ( )
لمدار قليل من الزمان غير معين ، وتطلق فى عرف الشرع على يوم القيامة وهو
المراد بالسؤال هنا .وأطلق على يوم القيامة ساعة إما لوقوعه بغتة ، أو
لسرعة ما فيه من الحساب ، أو لأنه على طوله قدر يسير عند الله - تعالى- .و
ظرف زمان متضمن معنى متى . و ( مُرْسَاهَا ) مصدر ميمى من ( أَيَّانَ )
أرساها إذا اثبته وأقره ، ولا يكاد يستعمل الإرساء إلا فى الشىء الثقيل كما
فى قوله - تعالى - ( والجبال أَرْسَاهَا ) ونسبته هنا إلى الساعة باعتبار
تشبيه المعانى بالأجسام . و ( أَيَّانَ ) خبر مقدم و ( مُرْسَاهَا ) مبتدأ
مؤخر .والمعنى : يسألك يا محمد هؤلاء القوم عن الساعة قائلين أيان
) مرساها؟أى متى إرساؤها واستقرارها ، أو متى زمن مجيئها وحصولها؟وقوله
قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي ) جواب عن سؤالهم : أى : قل أيها
الرسول الكريم : علم الساعة أو علم قيامها عند ربى وحده ليس عندى ولا عند
- غيرى من الخلق شىء منه .والتعبير بإنما المفيد للحصر للاشعار بأنه
سبحانه - هو الذى استأثر بعلم ذلك ولم يخبر أحدا به من ملك مقرب أو نبى
مرسل .وقوله ( لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلاَّ هُوَ ) بيان لاستمرار
إخفائها إلى حين قيامها وإقناط كلى عن إظهار أمرها بطريق الإخبار .والتجلية
الكشف والإظهار . يقال : جلى لى الأمر وانجلى تجلية بمعنى : كشفه وأظهره :
أتم الإظهار .والمعنى : لا يكشف الحجاب عن خفائها ، ولا يظهرها للناس فى
الوقت الذى يختاره إلا الله وحده .قال بعضهم : والسبب فى إخفاء الساعة عن
العباد لكى يكونوا دائما على حذر ، فيكون ذلك أدعى للطاعة وأزجر عن المعصية
- فإنه متى علمها المكلف ربما تقاصر عن التوبة وأخرها .ثم عظم - سبحانه ،
أمر الساعة فقال ( ثَقُلَتْ فِي السماوات والأرض ) أي : كبرت أو شقت على
أهلها لخوفهم من شدائدها وأهوالها وما فيها من محاسبة ومجازاة ، وعن السدى
أن من خفى عليه علم شىء كان ثقيلا عليه .أو المعنى : ثقلت عند الوقوع على :
نفس السموات حتى انشقت وانتثرت نجومها وكورت شمسها ، وعلى نفس الأرض حتى
سيرت جبالها ، وسجرت بحارها ، وقوله : "لا تأتيكم إلا بغتة " أى :لا

تأتيكم إلا فجأة وعلى حين غفلة من غير توقع ولا انتظار .وقد وردت أحاديث
متعددة تؤيد وقوع الساعة فجأة ، ومنها ما رواه الشيخان عن أبى هريرة أن
رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان
ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه . ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل
بلبن لقحته - أى ناقته ذات اللبن - فلا يطعمه ولتقومن الساعة وهو يليط
حوضه - أى يطليه بالجص أو الطين - فلا يسقى فيه . ولتقومن الساعة وقد رفع
أحدكم أكلته إلى فمه فلا يطعمها " .ثم قال - تعالى - ( يَسْأَلُونَكَ
كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللهِ ولكن
أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ) .أى : يسألونك يا محمد هذا السؤال كأنك
حفى عنها أى : كأنك عالم بها . من حفى عن الشىء إذا بحث عن تعرف حاله بتتبع
واستقصاء ومن بحث عن شىء وسأل عنه استحكم علمه به ، وعدى ( حَفِيٌّ ) بعن
اعتباراً لأصل معناه ، وهو السؤال والبحث .قال صاحب الكشاف : ( كَأَنَّكَ
حَفِيٌّ عَنْهَا ) عالم بها . وحقيقته كأنك بليغ فى السؤال عنها ، لأن من
بالغ فى المسألة عن الشىء والتنقير عنه . استحكم علمه فيه ورصن - أى ثبت
وتمكن - ، وهذا التركيب معناه المبالغة ومنه احفاء الشارب ، واحتفاء البقل
استئصاله ، وأحفى فى المسألة إذا ألحف - إى ألح وتشدد - وحفى بقلان وتحفى ،
به : بالغ فى البربه . وقيل : إن قريشا قالت له إن بيننا وبينك قرابة فقل
لنا متى الساعة؟ فقيل : يسألونك عنها كأنك حفى تتحفى بهم فتختصهم بتعليم
وقتها لأجل القرابة وتزوى علمها عن غيرهم ، ولو أخبرت بوقتها لمصلحة عرفها
الله فى إخبارك به ، لكنت مبلغه للقريب والبعيد من غير تخصيص ، كسائر ما
: أوحى إليك .ثم قال : فإن قلت : لم كرر يسألونك وإنما علمها عند الله؟ قلت
للتأكيد ولما جاء به من زيادة قوله ( كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ) وعلى هذا
تكرير العلماء والحذاق " .وقال صاحب الانتصاف : وفى هذا النوع من التكرير
نكتة لا تلقى إلا فى الكتاب العزيز ، وهو أجل من أن يشارك فيها . وذاك أن
المعهود فى أمثال هذا التكرار أن الكلام إذا بنى على مقصد واعتراض فى
أثنائه عارض فأريد الرجوع لتتميم المقصد الأول وقد بعد عهده ، طرى بذكر
المقصد الأول للتصل نهايته ببدايته ، وقد تقدم لذلك فى الكتاب العزيز أمثال
وسيأتى ، وهذا منها فإنه لما ابتدأ الكلام . بقوله ( يَسْأَلُونَكَ عَنِ
الساعة أَيَّانَ مُرْسَاهَا ) ثم اعترض ذكر الجواب المضمن فى قوله ( قُلْ
إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي ) إلى قوله ( بَغْتَةً ) أن يدمغ تتميم
سؤالهم عنها بوجه من الإنكار عليهم ، وهو المضمن فى قوله ( كَأَنَّكَ
حَفِيٌّ عَنْهَا ) وهو شديد التعلق بالسؤال وقد بعد عهده ، فطرى ذكره تطرية
عامة ، ولا تراه أبداً يطرى إلا بنوع من الإجمال كالتذكرة للأول مستغنى عن
" تفصيله بما تقدم .فمن ثم قيل ( يَسْأَلُونَكَ ) ولم يذكر المسئول عنه وهو
الساعة " اكتفاء بما تقدم ، فلما كرر السؤال لهذه الفائدة كرر الجواب أيضا
مجملا فقال : ( قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ الله ) ويلاحظ هذا فى تلخيص
الكلام بعد بسطه " .هذا ، وإذا كان علم الساعة مرده إلى الله وحده ، فإن
هناك نصوصاً من الكتاب والسنة تحدثت عن أماراتها وعلاماتها ، ومن ذلك
قوله - تعالى - : ( فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ الساعة أَن تَأْتِيَهُمْ
بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنى لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ
ذِكْرَاهُمْ ) والأشراط : جمع شرط - بفتح الشين والراء - وهى العلامات
- الدالة على قربها ، وأعظم هذه العلامات بعثة النبى - صلى الله عليه وسلم
إذ بها كمل الدين وما بعد الكمال إلا الزوال .وقد ثبت فى الصحيحين أن رسول
الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : " بعثت أنا والساعة كهاتين " ويفرج بين
أصبعيه الوسطى والسبابة .وفى حديث جبريل المشهور " أنه سأل النبى صلى الله
عليه وسلم عن الساعة ، فقال له ما المسئول عنها بأعلم من السائل ، وسأخبرك
أشراطها :" إذ ولدت الأمة ربها - أى سيدها - ، وإذا تطاول رعاة الإبل فى
، البنيان " " .ومن علامات الساعة - كما صرحت بذلك الأحاديث - قبض العلم
" : ففى الصحيحين عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال
إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض
العلماء ، حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالا فسئلوا فأفتوا بغير
علم فضلوا وأضلوا " ومنها - أى من علامات الساعة - كثرة الزلازل ، وتقارب
الزمان - اى قلة البركة فى الوقت بحيث يمر الشهر كأنه أسبوع ، وظهور الفتن
وكثرة الهرج - أى القتل إلى غير ذلك من العلامات التى وردت فى الأحاديث
. النبوية ، وقد ساق بعض المفسرين وعلى رأسهم ابن كثير جملة منها

قل لا املك لنفسي نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله ولو كنت اعلم الغيب
لاستكثرت من الخير وما مسني السوء ان انا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون

كما فسرها الوسيط ثم أمر الله - تعالى - رسوله صلى الله عليه وسلم أن يبين
- للناس أن كل الأمور بيد الله - تعالى - ، وأن علم الغيب كله مرجعة إليه
: سبحانه - فقال :( قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً ) أى
لا أملك لأجل نفسى جلب نفع ما ولا دفع ضرر ما .وقوله ( لِنَفْسِي ) متعلق
بأملك . أو بمحذوف وقع حالا من ( نَفْعاً ) والمراد :لا أملك ذلك فى وقت

من الأوقات .وقوله ( إِلاَّ مَا شَآءَ الله ) استثناء متصل . أى لا أملك لنفسى نفعا ولا ضراً فى وقت من الأوقات إلا فى وقت مشيئة الله بأن يمكننى من ذلك ، فإننى حينئذ أملكه بمشيئته .وقيل الاستثناء منقطع ، أى لكن ما شاء الله من ذلك كائن .وقوله ( وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الغيب لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخير وَمَا مَسَّنِيَ السواء ) أى : لكانت حالى - كما قال الزمخشرى - على خلاف ما هى عليه من استكثار الخير ، واستغزار المنافع واجتناب السوء ، والمضار حتى لا يمسنى شىء منها ولم أكن غالبا مرة ومغلوبا أخرى فى الحروب ورابحا وخاسرا فى التجارات ومصيبا ومخطئا فى التدابير " .قال الجمل : فإن قلت : قد أخبر صلى الله عليه وسلم عن المغيبات وقد جاءت أحاديث فى الصحيح بذلك وهو من أعظم معجزاته فكيف نوفق بينه وبين قوله - تعالى - ( وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الغيب ) . . الخ . . ؟ قلت : يحتمل أنهقاله على سبيل التواضع والأدب ، والمعنى :لا أعلم الغيب إلا أن يطلعنى الله عليه ويقدره لى .ويحتمل أن يكون قال ذلك قبل أن يطلعه الله على علم الغيب . فلما أطلعه الله أخبر به كما قال - تعالى - ( عَالِمُ الغيب فَلاَ يُظْهِرُ على غَيْبِهِ أَحَداً إِلاَّ مَنِ ارتضى مِن رَّسُولٍ ) أو يكون خرج هذا الكلام مخرج الجواب عن سؤالهم ، ثم بعد ذلك أظهره - سبحانه - على أشياء من المغيبات فأخبر عنها ليكون ذلك معجزة له ودلالة على صحة نبوته .ثم بين القرآن وظيفة الرسول صلى الله عليه وسلم فى قوله ( إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ) أى : ما أنا إلا بعد أرسلنى الله نذيراً وبشيراً ، وليس من مهمتى أو وظيفتى معرفة علم الغيب .وقوله ( لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ) يجوز أن يتعلق بقوله ( نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ) جميعا لأن المؤمنين هم الذين ينتفعون بالإنذار والتبشير ، ويجوز أن يتعلق بقوله ( بَشِيرٌ ) وحده ، وعليه يكون متعلق النذير محذوف أى : للكافرين . وحذف للعلم به :

هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به فلما اثقلت دعوا الله ربهما لئن اتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين

كما فسرها الوسيط ثم تحدثت السورة بعد ذلك عن مظاهر قدرة الله وأدلة وحدانيته ، فذكرت الناس بمبدأ نشأتهم ، وكيف أن بعضهم قد انحرف عن طريق التوحيد إلى طريق الشرك ، وساقت ذلك في صورة القصة لضرب المثل من واقع الحياة فقالت : ( هُوَ الذي خَلَقَكُمْ . . . ) .قوله - تعالى - ( هُوَ الذي خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ) استئناف مسوق لبيان ما يقتضى التوحيد الذى هو المقصد الأعظم .أى : إن الذى يستحق العبادة والخضوع ، والذى عنده مفاتح الغيب هو الله الذى خلقكم من نفس واحدة هى نفس أبيكم آدم ، وجعل من نوع هذه النفس وجنسها زوجها حواء ، ثم انتشر الناس منهما بعد ذلك كما قال - تعالى - ( ياأيها الناس اتقوا رَبَّكُمُ الذي خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَآءً )
وقوله ( لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ) أى : ليطمئن إليهاويميل ولا ينفر ، لأن ( الجنس إلى الجنس أميل وبه آنس . وإذا كانت بعضا منه كان السكون والمحبة أبلغ ، كما يسكن الإنسان إلى ولده ويحبه محبة نفسه لكونه بضعة منه .فالأصل فى الحياة الزوجية هو السكن والاطمئنان والأنس والاستقرار وهذه نظرة الإسلام إلى تلك الحياة قال - تعالى - ( وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لتسكنوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ) والضمير المستكين فى ( لِيَسْكُنَ ) يعود إلى النفس ، وكان الظاهر تأنيثه لأن النفس من المؤنثات السماعية ولذا أنثت صفتها وهى قوله ( وَاحِدَةٍ ) إلا أنه جاء مذكرا هنا باعتبار أن المراد من النفس هنا - آدم عليه السلام - " ولو أنث على حسب الظاهر لتوهم نسبة السكون إلى الأنثى ، فكان التذكير كما يقول الزمخشرى - أحسن طباقا للمعنى .وقوله ( فَلَماَّ تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ ) .الغشاء غطاء الشىء الذى يستره من فوقه ، والغاشية؛ الظلة التى تظل الإنسان من : سحابة أو غيرها . والتغشى كناية عن الجماع . أى فلما تغشى الزوج الذى هو الذكر الزوجى التى هى الأنثى وتدثرها لقضاء شهوتهما (حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً ) . أى : حملت منه محمولا خفيفا وهو الجنين فى أول حملة لا تجد المرأة له ثقلا لأنه يكون نطفة ثم مضغة ، ولا ثقل له يذكر فى تلك الأحوال ) فَمَرَّتْ بِهِ ) أى : فمضت به إلى وقت ميلاده من غير نقصان ولا إسقاط . أو المعنى : فاستمرت به كما كانت من قبل حيث قامت وقعدت وأخذت وتركت من غير مشقة وتلك هى المرحلة الأولى من مراحل الحمل .وتأمل معى - أيها القارىء الكريم - مرة أخرى قوله - تعالى - : ( فَلَماَّ تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً ) لترى سمو القرآن فى تعبيره ، وأدبه فى عرض الحقائق . إن أسلوبه يلطف ويدق عند تصوير العلاقة بين الزوجين ، فهو يسوقها عن طريق كناية بديعة تتناسب مع جو السكن والمودة بين الزوجين وتتسق مع جو الستر

الذى تدعو إليه الشريعة الإسلامية عند المباشرة بين الرجل والمرأة ، ولا نجد كلمة تؤدى هذه المعانى أفضل من كلمة ( تَغَشَّاهَا ) .ثم تأتى المرحلة الثانية من مراحل الحمل فيعبر عنها القرآن بقوله : ( فَلَمَّآ أَثْقَلَتْ دَّعَوَا الله رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشاكرين ) .أى : فحين صارت ذات ثقل يسبب نمو الحمل فى بطنها ، فالهمزة للصيرورة كقولهم : أتمر فلان وألبن أى : صار ذا تمر ولبن .أى : وحين صارت الأم كذلك وتبين الحمل ، وتعلق به قلب الزوجين ، توجها إلى ربهما يدعوانه بضراعة وطمع بقولهما : ( لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً ) أى لئن أعطيتنا نسلا سويا تام الخلقة ، يصلح للأعمال الإنسانية النافعة ( لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشاكرين ) لك على نعمائك التى من أجلها هذه النعمة واستجاب الله للزوجين دعاءهما ، فرزقهما الولد الصالح فماذا كانت النتيجة؟

فلما اتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما اتاهما فتعالى الله عما يشركون

، كما فسرها الوسيط لقد كانت النتيجة عدم الوفاء لله فيما عاهداه عليه ويحكى القرآن ذلك فيقول : ( فَلَمَّآ آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَآءَ فِيمَآ آتَاهُمَا ) أى : فحين أعطاهما - سبحانه - الولد الصالح الذى كانا يتمنيانه ، جعلا لله - تعالى - شركاء فى هذه العطاء ، وأخلا بالشكر فى مقابلة هذه النعمة أسوأ إخلال ، حيث نسبوا هذا العطاء إلى الأصنام والأوثان ، أو إلى الطبيعة كما يزعم الطبعيون أو إلى غير ذلك مما يتنافى مع إفراد الله - تعالى - بالعبادة والشكر .وقوله ( فَتَعَالَى الله عَمَّا يُشْرِكُونَ ) تنزيه فيه معنى التعجيب من أحوالهم . أى : تنزه - سبحانه - وتقدس عن شرك هؤلاء الأغبياء الجاحدين الذين يقابلون نعم الله بالإشراك والكفران .والضمير فى ( يُشْرِكُونَ ) يعود على أولئك الآباء الذين جعلوا لله شركاء : هذا والمحققون من العلماء يرون أن هاتين الآيتين قد سيقتا توبيخا للمشركين حيث إن الله - تعالى - أنعم عليهم بخلقهم من نفس واحدة ، وجعل أزواجهم من أنفسهم ليأنسوا بهن ، وأعطاهم الذرية ، وأخذ عليهم العهود بشكره على هذه النعم ، ولكنهم جحدوا نعمه وأشركوا معه فى العبادة والشكر آلهة أخرى ( فَتَعَالَى الله عَمَّا يُشْرِكُونَ ) .ويرى بعض المفسرين أن المراد بهذا السياق آدم وحواء ، واستدلوا على ذلك بما رواه الإمام أحمد - بسنده - عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " لما طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال لها سميه عبد الحارث فإنه يعيش فسمته عبد الحارث فعاش ، وكان ذلك من وحى الشيطان وأمره .وقد أثبت ابن كثير فى تفسيره - ضعف هذا الحديث من عدة وجوه ، ثم قال : قال الحسن : عنى الله - تعالى : بهذه الآية ذرية آدم ومن أشرك منهم بعده ، وقال قتادة : كان الحسن يقول هم اليهود والنصارى رزقهم الله اولاداً فهودوا ونصروا . قال ابن كثير : وهو من أحسن التفاسير وأولى ما حملت عليه الآية ، ونحن على مذهب الحسن البصرى فى هذا ، وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته ، ولهذا قال : ( فَتَعَالَى الله عَمَّا يُشْرِكُونَ ) وقال صاحب الانتصاف : والأسلم والأقرب أن يكون المراد - والله أعلم - جنسى ، الذكر والأنثى لا يقصد فيه إلى معين . وكأن المعنى خلقكم جنسا واحداً ، وجعل أزواجكم منكم أيضاً لتسكنوا إليهن ، فلما تغشى الجنس الذى هو الذكر الجنس الآخر الذى هو الأنثى جرى من هذين الجنسين كيت وكيت . وإنما نسب هذه المقالة إلى الجنس وإن كان فيهم الموحدون على حد قولهم : " بنو فلان قتلوا قتيلا " يعنى من نسبة البعض إلى الكل .والذى نراه أن الآيتين ورادتان فى توبيخ المشركين على شركهم ونقضهم لعهودهم مع الله - تعالى - لأن الأحاديث والآثار التى وردت فى أنهما وردتا فى شأن آدم وحواء لتسميتهما ابنهما بعبد الحارث اتباعا لوسوسة الشيطان لهما - ليست صحيحة ، كما أثبت ذلك علماء الحديث .

ايشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون

كما فسرها الوسيط ثم أخذت السورة بعد ذلك فى توبيخ المشركين ، وفى إبطال شركهم بأسلوب منطقى حكيم فقالت : ( أَيُشْرِكُونَ . . . ) .قوله - تعالى - : أى ( أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ) أيشركون به - تعالى - وهو الخالق لهم ولكل شىء ، مالا يخلق شيئا من الأشياء مهما يكن حقيراً ، بل إن هذه الأصنام التى تعبد من دون الله مخلوقة ومصنوعة ، فكيف يليق بسليم العقل أن يجعل المخلوق العاجز شريكا للخالق القادر .والاستفهام للإنكار والتجهيل . والمراد بما فى قوله ( مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً ) أصنامهم ، ورجع الضمير إليها مفرداً لرعاية لفظها ، كما أن إرجاع ضمير الجمع إليها فى قوله ( وَهُمْ يُخْلَقُونَ ) لرعاية معناها وجاء بمضير العقلاء فى ( يُخْلَقُونَ ) مسايرة لهم فى اعتقادهم أنها تضر. وتنفع .

ولا يستطيعون لهم نصرا ولا انفسهم ينصرون

كما فسرها الوسيط ثم قال - تعالى - : ( وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلاَ أَنْفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ) أى : أن هذه الأصنام فضلا عن كونها مخلوقة ، فإنها لا تستطيع أن تجلب لعابديها نصرا على أعدائهم ، بل إنها لا تستطيع أن تدفع عن نفسها شراً ، ومن هذه صفته كيف يعبد من دون الله؟ قال - تعالى - ( إِنَّ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله لَن يَخْلُقُواْ ذُبَاباً وَلَوِ اجتمعوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذباب شَيْئاً لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطالب والمطلوب )

وان تدعوهم الى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم ادعوتموهم ام انتم صامتون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - عجز الأصنام عما هو أدنى من النصر المنفى عنهم وأيسر وهو مجرد الدلالة على المطلوب من غير تحصيله للطالب فقال : أى : وإن تدعو ( وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الهدى لاَ يَتَّبِعُوكُمْ ) أيها المشركون هذه الأصنام إلى الهدى والرشاد لا يتبعوكم ، أى أنهم لا ينفعوكم بشىء ولا ينتفعون منكم بشىء .وقوله ( سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ) استئناف مقرر لمضمون ما قبله أى : مستو عندكم دعاؤكم إياهم وبقاؤكم على صمتكم ، فإنه لا يتغير حالكم فى الحالين ، كما لا يتغير حالهم بحكم أنهم جماد .

ان الذين تدعون من دون الله عباد امثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم ان كنتم صادقين

كما فسرها الوسيط ثم مضى القرآن فى دعوته إياهم إلى التدبر والتعقل فقال : أى : إن. ( إِنَّ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ) هذه الآصناف التى تعبدونها من دون الله ، أو تنادونها لدفع الضرب أو جلب النفع ( عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ) أى : مماثلة لكم فى كونها مملوكة لله مسخرة مذللة لقدرته كما أنكم أنتم كذلك فكيف تعبدونها أو تنادونها؟وأطلق عليها لفظ ( عِبَادٌ ) - مع أنها جماد - وفق اعتقادهم فيها تبكيتا لهم وتوبيخا .وقوله ( فادعوهم فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ ) تحقيق لمضمون ما قبله بتعجيزهم وتبكيتهم أى : فادعوهم فى رفع ما يصيبكم من ضر ، أو فى جلب ما أنتم فى حاجة إليه من نفع ( إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ) فى زعمكم أن هذه الأصنام قادرة على ذلك .

الهم ارجل يمشون بها ام لهم ايد يبطشون بها ام لهم اعين يبصرون بها ام لهم اذان يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون

كما فسرها الوسيط ثم تابع القرآن تقريعه لهذه الأصنام وعابديها فقال : ( أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ) .الاستفهام للإنكار ، والمعنى : أن هذه الأصنام التى تعمون أنها تقربكم إلى الله زلفى هى أقل منكم مستوى لفقدها الحواس التى هى مناط الكسب إنها ليس لها أرجل تسعى بها إلى دفع ضر أو جلب نفع؛ وليس لها أيد : تبطش بها أى تأخذ بها ما تريد أخذه ، وليس لها أعين تبصر بها شئونكم وأحوالكم وليس لها آذان تسمع بها أقوالكم ، وتعرف بواسطتها مطالبكم ، فأنتم أيها الناس تفضلون هذه الأصنام بما منحكم الله - تعالى - من حواس السمع والبصر - وغيرها فكيف يعبد الفاضل المفضول ، وكيف ينقاد الأقوى للاضعف؟ثم أمر الله تعالى - رسوله صلى الله عليه وسلم أن يناصبهم الحجة وأن يكرر عليهم التوبيخ : فقال : ( قُلِ ادعوا شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلاَ تُنظِرُونِ ) أى قل أيها الرسول الكريم لهؤلاء الذين هبطوا بعقولهم إلى أحد المستويات نادوا شركاءكم الذين زعمتموهم أولياء ثم تعاونوا أنتم وهم على كيدى وإلحاق الضر بى من غير انتظار أو إمهال ، فإنى أنا معتز بالله ، ولمتجىء إلى حماه ومن كان كذلك فلن يخشى شيئا من المخلوقين جميعا .وهذا نهاية التحدي من جانب الرسول صلى الله عليه وسلم لهم والحط من شأنهم وشأن آلهتهم .

ان وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين

كما فسرها الوسيط ثم بين لهم الأسباب التى دعه إلى تحديهم وتبكيتهم فقال ( إِنَّ وَلِيِّيَ الله الذي نَزَّلَ الكتاب وَهُوَ يَتَوَلَّى الصالحين أى : قل يا محمد لهؤلاء الضالين إننى ما تحديتكم وطلبت كيدكم وكيد أصنامكم - إن كنتم أنتم وهم تقدرون على ذلك على سبيل الفرض - إلا لأنى معتز بالله وحده ، فهو ناصرى ومتولى أمرى ، وهو الذى نزل هذا القرآن لأخرجكم به من الظلمات إلى النور ، وقد جرت سنته - سبحانه - أن يتولى الصالحين وأن

يجعل العاقبة لهم .قال الحسن البصرى : إن المشركين كانوا يخوفون الرسول صلى الله عليه وسلم بآلهتهم فقال - تعالى - ( قُلِ ادعوا شُرَكَاءَكُمْ ) الآية - ليظهر لكم أنه لا قدرة لها على إيصال الضار إلى بوجه من الوجوه . وهذا كما قال هود - عليه السلام - لقومه رداً على قولهم . ( إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعتراك بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسواء قَالَ إِني أُشْهِدُ الله واشهدوا أَنِّي برياء مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ )

والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا انفسهم ينصرون

كما فسرها الوسيط ثم قال - تعالى - ( والذين تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ ولا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ) أى : والذين تعبدونهم من دون الله أو تنادونهم لدفع الضر أو جلب النفع لا يستطيعون نصركم فى أى أمر من الأمور ، وفضلا عن ذلك فهم لا يستطيعون رفع الأذى عن أنفسهم إذا ما اعتدى عليهم معتد .

وان تدعوهم الى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون

: كما فسرها الوسيط ثم قال - تعالى - ( وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الهدى ) أى إلى أن يرشدوكم إلى ما تحصلون به مقاصدكم من النصر على الأعداء أو غير ذلك - أى :لا يسمعوا شيئاً مما تطلبونه منهم ، ولو سمعوا ( لاَ يَسْمَعُواْ ) على سبيل الفرض - ما استجابوا لكم لعجزهم عن فعل أى شىء .وقوله ( وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ ) بيان لعجزهم عن الإبصار بعد بيان عجزهم عن السمع ، أى : وترى هذه الصنام كأنها تنظر إليك بواسطة تلك العيون الصناعية التى ركبت فيها ولكنها فى الواقع لا تبصر لخلوها من الحياة .وبذلك تكون هذه الآيات الكريمة قد وبخت المشركين وآلهتهم أعظم توبيخ ، وأثبتت بالأدلة المنطقية الحكيمة ، وبوسائل الحس والمشاهدة أن هذه الأصنام لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً ، وأن الذين قالوا فى شأنها ( مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى الله زلفى ) هم قوم غافلون جاهلون ، قد هبطوا بعقولهم إلى أحط الدركات ، لأنهم يتقربون إلى الله زلفى عن طريق مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنهم شيئا ، بل لا يستطيع أن يدفع الأذى عن نفسه .وفى الوقت نفسه فالآيات دعوة قوية لكل عاقل إلى أن يجعل عبادته وخضوعه لله الواحد القهار .

خذ العفو وامر بالعرف واعرض عن الجاهلين

كما فسرها الوسيط ثم تتجه السورة الكريمة بعد ذلك إلى شخص الرسول صلى الله عليه وسلم فترسم له ولكل عاقل طريق معاملته للخلق على وجه يقيه شر الحرج والضيق فتقول : ( خُذِ العفو . . . ) .العفو : يطلق فى اللغة على خالص الشىء وجيده ، وعلى الفضل الزائد فيه ، وعلى السهل الذى لا كلفة فيه .أى : خذ ما عفا وسهل وتيسر من أخلاق الناس ، وارض منهم بما تيسر من أعمالهم ، وتسهل من غير كلفة . ولا تطلب منهم ما يشق عليهم ويرهقهم حتى لا ينفروا وكن لينا رفيقاً فى معاملة أتباعك ، فإنك ( وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ القلب لاَنْفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ) و ( وَأْمُرْ بالعرف ) أى : مر غيرك بالمعروف المستحسن من الأفعال ، وهو كل ما عرف حسنه فى الشرع ، فإن ذلك أجدر بالقبول من غير نكير ، فإن النفوس حين تتعود الخير الواضح الذى لا يحتاج إلى مناقشة وجدال ، يسلس قيادها ، ويسهل توجيهها .( وَأَعْرِضْ عَنِ الجاهلين ) الذين لا يدركون قيم الأشياء والأشخاص والكلمات فيما يبدر منهم من أنواع السفاهة والإيذاء لأن الرد على أمثال هؤلاء ومناقشتهم لا تؤدى إلى خير ، ولا تنتهى إلى نتيجة . والسكوت عنهم احتزام للنفس ، واحترام للقول وقد يؤدى الإعراض عنهم إلى تذليل نفوسهم وترويضها .وهذه الآية على قصرها تشتمل - كما قال العلماء - على مكارم الأخلاق فيما يتعلق بمعاملة الإنسان لأخيه الإنسان ، وهى طريق قويم لكل ما تطلبه الإنسانية الفاضلة لأبنائها الأبرار ، وقد جاءت فى أعقاب حديث طويل عن أدلة وحدانية الله - تعالى - وأبطال الشرك والشركاء ، لكى تبين للناس فى كل زمان ومكان أن التحلى بمكارم الأخلاق إنما هو نتيجة لإخلاص العبادة لله الواحد الأحد ، الفرد الصمد .قال القرطبى : هذه الآية من ثلاث كلمات ، تضمنت قواعد الشريعة فى المأمورات والمنهيات .فقوله ( خُذِ العفو ) دخل فيه صلة القاطعين والعفو عن المذنبين والرفق بالمؤمنين ، وغير ذلك من أخلاق المطيعين . ودخل فى قوله ، ( وَأْمُرْ بالعرف ) صلة الأرحام ، وتقوى الله فى الحلال والحرام ، وغض الأبصار ، والاستعداد لدار القرار .وفى قوله ( وَأَعْرِضْ عَنِ الجاهلين ) الحض على التعلق بالعلم ، والإعراض عن أهل الظلم ، والتنزه عن منازعة السفهاء ، ومساواة الجهلة الأغبياء ، وغير ذلك من الأخلاق المجيدة والأفعال الرشيدة " .

واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه سميع عليم

كما فسرها الوسيط ثم يرشد القرآن المسلمين فى شخص الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم إلى ما يهدىء غضبهم ويطفىء ثورتهم فيقول : ( وَإِمَّا يَنَزَغَنَّكَ . . . ) .النزغ والنخس والغرز بمعنى واحد ، وهو إدخال الإبرة أو طرف العصا ونحوها فى الجلد .أى : وإن تعرض لك من الشيطان وسوسة تثير غضبك ، وتحملك على خلاف ما أمرت به من أخذ العفو الأمر بالمعروف والإعراض عن الجاهلين ، فالتجىء إلى الله ، واستعذ بحماه ، فإنه - سبحانه - سميع ، لدعائك ، عليم بكل أحوالك . وهو وحده الكفيل بصرف وسوسة الشياطين عنك وصيانتك من همزاتهم ونزغاتهم .

ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - حالة المتقين فقال ( إِنَّ الذين اتقوا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشيطان تَذَكَّرُوا ) .طائف من الطواف والطواف بالشىء أى : الاستدارة به أو حوله . يقال : طاف بالشىء إذا دار حوله . والمراد به هنا وسوسة الشيطان وهمزاته .أى : إن الذين اتقوا الله - تعالى - وصانوا أنفسهم عن كل ما يغضبه إذا مسهم شىء من وسوسة الشيطان ونزغاته التى تلهيهم عن طاعة الله وماقبته ( تَذَكَّرُوا ) أى : تذكروا أن المس إنما هو من عدوهم الشيطان فعادوا سريعا إلى طاعة الله ، وإلى خوف مقامه ونهوا أنفسهم عن اتباع همزات الشياطين .والجملة الكريمة مستأنفة مقررة لما قبلها من الأمر ببيان أن الاستعاذة سنة مسلوكة للمتقين ، وأن الإخلال بها من طبيعة الضالين .وفى قوله ( إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ ) إشعار بعلو منزلتهم ، وقوة إيمانهم ، وسلامة يقينهم لأنهم بمجرد أن تطوف بهم وساوس الشيطان أو بمجرد أن يمسهم شىء منه فإنهم يتذكرون عداوته ، فيرجعون سريعا إلى حمى ربهم يستجيرون به ويتوبون إليه .وفى التعبير عن الوسوسة بالطائف إشعار بأنها وإن مست هؤلاء المتقين فغنها لا تؤثر فيهم ، لأنها كأنها طافت حولهم دون أن تصل إليهم .وقوله (فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ) أى فإذا هم مبصرون مواقع الخطأ ، وخطوات الشيطان ، فينتهون عنها .وفى هذه : الآية الكريمة ما يهدى العقول ، ويطب النفوس ، إذ هى تبين لنا أن مس الشيطان قد يغلق بصيرة الإنسان عن كل خير ، ولكن التقوى هى التى تفتح هذه البصيرة ، وهى التى تجعل الإنسان دائماً يقظاً متذكراً لما أمره الله به أو نهاه عنه ، فينتصر بذلك على وساوس الشيطان وهمزاته وتبقى لهم بصيرتهم على أحسن ما تكون صفاء ونقاء وكشفاً .

واخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون

كما فسرها الوسيط أما الذين لم يتقوا الله ، ولم يلجأوا إلى حماه ، ولم يخالفوا الشيطان فقد عبر عنهم القرآن بقوله : ( وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغي ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ ) .يمدونهم من المد ، وهو الزيادة يقال : مده يمده أى : زاده . والغى : الضلال ، مصدر غوى يغوى غيا وغواية .أى : وإخوان الشياطين من المشركين والغافلين تزيدهم الشياطين من الضلال عن طريق الوسوسة والإغراء بأرتكاب المعاصى والموبقات ( ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ ) أى : ثم لا يكف هؤلاء الشياطين عن إمداد أوليائهم من الإنس بألوان الشرور والآثام حتى يهلكوهم . ويجوز أن يعود الضمير لإخوانهم : أى ثم لا يكف هؤلاء الناس عن الغى والضلال مهما وعظهم الواعظون وأرشدهم المرشدون .و ( يُقْصِرُونَ ) من أقصر عن الشىء إذا كف عنه ونزع مع القدرة عليه .

واذا لم تاتهم باية قالوا لولا اجتبيتها قل انما اتبع ما يوحى الي من ربي هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون

: كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - لونا من ألوان غوايتهم وضلالهم فقال الاجتباء : افتعال من الجباية بمعنى. ( . . . وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ ) الجمع ، يقال : جبيت الماء فى الحوض أى جمعته ، ومنه قيل للحوض جابية والمعنى : وإذا لم تأت أيها الرسول هؤلاء المشركين بآية من القرآن وتراخى. الوحى بنزولها ، أو بآية مما اقترحوه عليك من الآيات الكونية ، إذا لم تفعل ذلك قالوا لك بجهالة وسفاهة ( لَوْلاَ اجتبيتها ) أى : هلا جمعتها من عند نفسك واخترعتها اختراعا بعقلك ، أو هلا ألححت فى الطلب على ربك ليعطيك ) إياها ويجمعها لك .قل لهم يا محمد على سبيل التبكيت رداً على تهكمهم بك إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يوحى إِلَيَّ مِن رَّبِّي ) أى إنما أنا متبع لا مبتدع فما يوحيه الله إلى من الآيات أنا أبلغه إليكم بدون تغيير أو تبديل ثم أرشدهم - سبحانه - إلى أن هذا القرآن هو أعظم المعجزات ، وأبين.

الدلالات وأصدق الحجج والبينات فقال : ( هذا بَصَآئِرُ مِن رّبِّكُمْ
وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ) .أى : هذا القرآن بمنزلة
، البصائر للقلوب ، به تبصر الحق . وتدرك الصواب وهو هداية لكم من الضلالة
. ورحمة من العذاب لقوم يؤمنون به ، ويعملون بإرشاداته ووصاياه

واذا قرئ القران فاستمعوا له وانصتوا لعلكم ترحمون

كما فسرها الوسيط وكما افتتحت السورة بالثناء على القرآن ( كِتَابٌ أُنزِلَ
إِلَيْكَ فَلاَ يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وذكرى
لِلْمُؤْمِنِينَ ) فقد اتجهت فى أواخرها إلى أمر الناس بحسن الاستماع إلى
هذا القرآن ، وإلى تدبره والعمل به فقالت : ( وَإِذَا قُرِىءَ . . . . )
أى وإذا قرىء القرآن الذى ذكرت خصائصه ومزاياه عليكم فاستمعوا له بتدبر.
وخشوع ، واصغوا إليه بأسماعكم وكل جوارحكم لتفهموا معانيه ، وتفقهوا
توجيهاته ، وأنصتوا لقراءته حتى تنقضى تعظيما له ، وإكبارا لشأنه ، لكى
تفوزوا برحمة الله ورضاه .وبعض العلماء يحمل القراءة فى الآية على القراءة
خلف الإمام فى الصلاة ، أى أن علىالمؤتم أن يستمع إلى قراءة الإمام بتدبر
وخشوع ، واستدلوا على ذلك بأحاديث فى هذا المعنى . وبعضهم يجعل الآية عامة
فى وجوب الاستماع فى قراءة القرآن بتدبر وإنصات وخشوع فى الصلاة وفى غير
الصلاة وحملوا الأحاديث التى أوردها أصحاب الرأى الأول على العموم أيضاً
والذى نراه أن الآية تأمر بوجوب الاستماع والإنصات عند قراءة القرآن فى.
الصلاة وفى غير الصلاة ، لأن تعاليم الإسلام وآدابه تقتضى منا أن نستمع إلى
القرآن بتدبر وإنصات وخشوع ، ليؤثر تأثيره الشافى فى القلوب ، وليقودها إلى
. الطاعة والتقوى ، فتنال المغفرة والرحمة

واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والاصال ولا تكن
من الغافلين

كما فسرها الوسيط ثم اختتمت السورة الكريمة بالحديث عن ذكر الله الذى هو طب
القلوب ودواؤها وعافية الأبدان وشفاؤها فقالت : ( واذكر رّبّكَ فِي
نَفْسِكَ . . . ) .أى : استحضر عظمة ربك - جل جلاله - فى قلبك . واذكره بما
يقربك إليه عن طريق قراءة القرآن والدعاء والتسبيح والتحميد والتهليل وغير
: ذلك .وقوله ( تَضَرُّعاً وَخِيفَةً ) فى موضع الحال بتأويل اسم الفاعل أى
اذكره متضرعا متذللا له وخائفا منه - سبحانه - :وقوله ( وَدُونَ الجهر مِنَ
، القول ) معطوف على قوله ( فِي نَفْسِكَ ) أى : اذكر ربك ذكراً فى نفسك
وذكرا بلسانك دون الجهر .والمراد بالجهر : رفع الصوت بإفراط ، وبما دونه
مما هو أقل منه ، وهو الوسط بين الجهر والمخافتة ، قال ابن عباس : هو أن
يسمع نفسه .وقوله ( بالغدو والآصال ) متعلق باذكر ، والغدو جمع غدوة وهو ما
بين طلوع الفجر وطلوع الشمس .والآصال جمع أصيل وهو من العصر إلى الغروب .أى
اذكر ربك مستحضرا عظمته ، فى كل وقت ، وراقبه فى كل حال ، لا سيما فى :
هذين الوقتين لأنهما طرفا النهار ومن افتتح نهاره بذكر الله واختتمه به كان
جديرا برعاية ربه .قيل : وخص هذان الوقتان بالذكر لأنهما وقت سكون ودعة
وتعبد واجتهاد . وما بينهما من أوقات الغالب فيها الانقطاع لأمر المعاش .ثم
نهى - سبحانه - عن الغفلة عن ذكره فقال : ( وَلاَ تَكُنْ مِّنَ الغافلين )
- الذين شغلتهم الدنيا عن ذكر الله .وفيه إشعار بطلب دوام ذكره - تعالى
: واستحضار عظمته وجلاله وكبريائه بقدر الطاقة البشرية .قال بعض العلماء
ويؤخذ من هذه الآية الكريمة أن للذكر آدابا من أهمها :1 - أن يكون فى النفس
- لأن الإخفاء أدخل فى الإخلاص ، وأقرب إلى الإجابة ، وأبعد من الرياء .2
أن يكون على سبيل التضرع وهو التذلل والخضوع والاعتراف بالتقصير .3 - أن
يكون على وجه الخيفة أى الخوف والخشية من سلطان الربوبية وعظمة الألوهية من
المؤاخذة على التقصير فى العمل لتخشع النفس ويخضع القلب .4 - أن يكون دون
: الجهر لأنه أقرب إلى حسن التفكر ، وفي الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى قال
رفع الناس أصواتهم بالدعاء فى بعض الأسفار ، فقال لهم النبى صلى الله "
عليه وسلم يأيها الناس :اربعوا على أنفسكم - أى هونوا على أنفسكم - فإنكم
لا تدعون أصم ولا غائباً . إن الذى تدعونه سميع قريب ، أقرب إلى أحدكم من
) عنق راحلته " .5 - أن يكون باللسان لا بالقلب وحده ، وهو مستفاد من قوله
وَدُونَ الجهر ) لأن معناه ومتكلما كلاماً دون الجهر ، فيكون صفة لمعمول
حال محذوفة ، معطوفاً على ( تَضَرُّعاً ) أو هو معطوف على ( فِي نَفْسِكَ )
. أى : اذكره ذكراً فى نفسك وذكراً بلسانك دون الجهر

ان الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون

كما فسرها الوسيط ثم ذكر - سبحانه - ما يقوى دواعى الذكر ، وينهض بالهمم
) : إليه ، بمدحه للملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون فقال
إِنَّ الذين عِندَ رَبِّكَ ) وهم ملائكة الملأ الأعلى .والمراد بالعندية

القرب من الله - تعالى - بالزلفى والرضا لا المكانية لتنزهه - سبحانه - عن ذلك .( لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ) بل يؤدونها حسبما أمروا به بخضوع وطاعة .( وَيُسَبِّحُونَهُ ) أى : ينزهونه عن كل مالا يليق بجلاله على أبلغ وجه .( وَلَهُ يَسْجُدُونَ ) أي : يخصونه وحده بغاية العبودية والتذلل والخضوع ، ولا يشركون معه أحداً فى عبادة من عباداتهم .أما بع : فهذه هى سورة الأعراف التي سبحت بنا سبحاً طويلا وهى تحدثنا عن أدلة وحدانية الله ، وعن هداية القرآن الكريم ، وعن مظاهر نعم الله على خلقه ، وعن اليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب ، وعن بعض الأنبياء وما جرى لهم مع أقوامهم ، وكيف كانت عاقبة هؤلاء الأقوام ، وعن سنن الله - تعالى - فى إسعاد الأمم وإشقائها ، وغير ذلك من أصول التشريع وآداب الاجتماع ، وشئون البشر .وقد استعملت السورة فى أوامرها ونواهيها وتوجيهاتها أساليب التذكير بالنعم ، والتخويف من النقم ، وإيراد الحجج المقنعة ، ودفع الشبهات الفاسدة وهذا تفسير لها تناولنا فيه بالشرح والتحليل ما اشتملت عليه من توجيهات. سامية ، وآداب عالية ، ومقاصد جليلة ، وحجج باهرة ، ومواعظ مؤثرة .والله نسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم ، ونافعا لنا يوم الدين والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله. وصحبه وسلم .

يسالونك عن الانفال قل الانفال لله والرسول فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم واطيعوا الله ورسوله ان كنتم مؤمنين

كما فسرها الوسيط لعل من الخير قبل أن نتكلم فى تفسير هذه الآيات الكريمة أن نذكر بعض الروايات التى وردت فى سبب نزولها . فإن معرفة سبب النزول يعين على الفهم السليم .قال الإمام ابن كثير - ما ملخصه - روى الإمام أحمد بن عبادة بن الصامت قال خرجنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فشهدت معه بدرا فالتقى الناس . فهزم الله - تعالى - العدو ، فانطلقت طائفة فى آثام يهزمون ويقتلون . وأقبلت طائفة على العسكر يحوزونه ويجمعونه . وأحدقت طائفة برسول الله - صلى الله عليه وسلم - لكى لا يصيب العدو منه غرة . حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض ، قال الذين جمعوا الغنائم : نحن : حويناها وجمعناها ، فليس لأحد فيها نصيب ، وقال الذين خرجوا فى طلب العدو لستم بأحق بها منا ، نحن نفينا عنها العدو وهزمناهم . وقال الذين أحدقوا برسول الله - صلى الله عليه وسلم - : لستم أحق بها منا . نحن أحدقنا برسول ) : الله - صلى الله عليه وسلم مخافة أن صيب منه غرة فاشتغلنا به - فنزلت يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأنفال قُلِ الأنفال للَّهِ والرسول ) . . فقسمها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بين المسلمين .وروى أبو داود والنسائى وابن جرير وابن مردويه - واللفظ له - عن ابن عباس قال : " لما كان يوم بدر قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من صنع كذا وكذا فله كذا وكذا ، فتسارع فى ذلك شبان القوم ، وبقى الشيوخ تحت الرايات . فلما كانت المغانم جاءوا يطلبون الذى جعل لهم . فقال الشيوخ :لا تستأثروا علينا فإنا كنا ردءاً لكم ) : - لو انكشفتم لبثتم إينا . فتنازعوا ، فأنزل الله - تعالى ، يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأنفال قُلِ الأنفال للَّهِ والرسول ) " .وقال الثورى عن الكلبى ، عن أبى صالح عن ابن عباس قال : لما كان يوم بدر قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " " من قتل قتيلا فله كذا وكذا ، ومن أتى بأسير فله كذا وكذا " ، فجاء أبو اليسر بأسيرين ، فقال : يا رسول الله صلى الله عليك - أنت وعدتنا . فقام سعد بن عبادة فقال : يا رسول الله ، إنك لو أعطيت هؤلاء لم يبق لأصحابك شئ ، وإنه لم يمنعنا من هذا زهادة فى الأجر ولا جبن عن العدو ، وإنما قمنا هذا المقام محافظة عليك مخافة أن يأتوك من ورائك فتشاجروا ، ونزل القرآن : ( يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأنفال قُلِ الأنفال . للَّهِ والرسول ) " .وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن سلمة عن ابن إسحاق عن عبد الرحمن عن سليمان بن موسى عن مكحول عن أبى أمامة قال : سألت عبادة ، بن الصامت عن الأنفال فقال : فينا معشر أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا فى النفل ، وساءت فيه أخلاقنا ، فنزعه الله من أيدنا وجعله إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - فقسمه بين المسلمين عن بواء - أى : على السواء .هذه بعض الروايات التى وردت فى سبب نزول هذه الآيات ، ومنها يتبين لنا أن نزاعاً حدث بين بعض الصحابة الذين اشتركوا فى غزوة بدر ، حول الغنائم التى ظفروا بها من هذه الغزوة ، فأنزل الله - تعالى - فى هذه الآيات بيان حكمه فيها والضمير فى قوله ( يَسْأَلُونَكَ ) يعود إلى بعض الصحابة الذين اشتركوا فى. غزوة بدر ، وصح عود الضمير إليهم مع أنهم لم يسبق لهم ذكر ، لأن السورة نزلت فى هذه الغزوة ، ولأن هؤلاء الذين اشتركوا فيها هم الذين يهمهم حكمها ويعنيهم العلم بكيفية قسمتها .قال الإمام الرازى - ما ملخصه - : فإن قيل ، من هم الذين سألوا؟ فالجواب : إن قوله ( يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأنفال ) إخبار عمن لم يسبق ذكرهم ، وحسن ذلك ههنا ، لأنه فى حالة النزول كان السائل عن هذا السؤال معلوماً فانصرف اللفظ إليهم . ولا شك أنهم كانوا أقواماً لهم تعلق بالغنائم والأنفال ، وهم أقوام من الصحابة اشتركوا فى غزوة بدر

والأنفال جمع نفل - بفتح النون والفاء - كسبب وأسباب - وهو فى أصل اللغة.
من النفل - بفتح فسكون - أى : الزيادة ، ولذا قيل للتطوع نافلة ، لأنه
. زيادة عن الأصل وهو الفرض وقيل لولد الولد نافلة ، لأنه زيادة على الولد
قال - تعالى - : ( وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ) قال
الآلوسى : ثم صار النفل حقيقة فى العطية ، لأنها لكونها تبرعاً غير لازم
كان زيادة ، ويسمى به الغنيمة أيضا وما يشترطه الإمام للغازى زيادة على
سهمه لرأى يراه سواء أكان لشخص معين أو لغير معين ، وجعلوا من ذلك ما يزيده
الإمام لمن صدر منه اثر محمود فى الحرب كبراز وحسن إقدام ، وغيرهما
وإطلاقه على الغنيمة ، باعتبار أنها زيادة على ما شرع الجهاد له وهو إعلاء.
كلمة الله ، أو باعتبار أنها زيادة خص الله بها هذه الأمة ، أو باعتبار
أنها منحة من الله - تعالى - من غير وجوب .ثم قال : ومن الناس من فرق بين
الغنيمة والنفل بالعموم والخصوص . فقيل : الغنيمة ما حصل مستغنماً سواء
أكان بتعب أو بغير تعب ، قبل الظفر أو بعده ، والنفل ما كان قبل الظفر ، أو
ما كان بغير قتال وهو " الفئ " .والمراد بالأنفال هنا الغنائم كما ورى عن
ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، وابن زيد ، وطائفة من الصحابة
وغيرهم .هذا ، وجمهور العلماء على أن المقصود من سؤال بعض الصحابة لرسول
الله - صلى الله عليه وسلم - عن الأنفال - أى الغنائم - إنما هو حكمها وعن
المستحق لها ، فيكون المعنى :يسألك بعض أصحابك يا محمد عن غنائم بدر كيف
- تقسم؟ ومن المستحق لها؟ قل لهم : الأنفال يحكم فيها بحكمه - سبحانه
وللرسول - صلى الله عليه وسلم - فهو الذى يقسمها على حسب حكم الله وأمره
فيها .وفى هذه الإجابة على سؤالهم تربية حكيمة لهم - وهم فى أول لقاء لهم
مع أعداءهم حتى يجعلوا جهادهم من أجل إعلاء كملة الله . أما الغنائم
والأسلوب وأعراض الدنيا التى تأتيهم من وراء جهاده فعليهم ألا يجعلوها ضمن
غايتهم السامية من جهادهم ، وأن يفوضوا الأمر فيها لله ورسوله عن إذعان
وتسليم .وبعض العلماء يرى أن السؤال للاستعطاء ، وأن المراد بالأنفال ما
، شرط للغازى زيادة على سهمه ، وأن حرف " عن " زائدة ، أو هو بمعنى من
فيكون المعنى : يسألك بعض أصحابك يا محمد إعطاءهم الأنفعال التى وعدتهم بها
زايدة على سهامهم فيها . قل لهم : الأنفال لله ولرسوله .والذى نراه أن
الرأى الأول أرجح وذلك لأمور منها :1- بعض الروايات التى وردت فى أسباب
نزول هذه الآية تؤيده تأييداً صريحاً ، ومن ذلك ما سبق أن ذكرناه عن عبادة
، بن الصامت أنه قال : " فينا معشر أصحاب بدر نزلت ، حين اختلفنا فى النفل
وساءت فيه أخلاقنا ، فنزعه الله من أيدينا . فجعله إلى الرسول - صلى الله
عليه وسلم فقسمه بين المسلمين عن بواء " .2- ولأن غزوة بدر كانت أول غزوة
لها شأنها وأثرها بين المسلمين والكافرين ، وكانت غنائمها الضخمة التى ظفر
بها المؤمنون من المشركين ، حافزاً لسؤال بعض المؤمنين رسولهم - صلى الله
- عليه وسلم -عن حكمها وعن المستحق لها .3- ولأن الجواب عن السؤال بقوله
تعالى - : ( قُلِ الأنفال للَّهِ والرسول ) يؤيد أن السؤال إنما هو عن حكم
الأنفال وعن مصرفها ، إذ أن هذا الجواب يفيد أن اختصاص أمرها وحكمها مرجعه
إلى الله ورسوله دون تدخل أحد سواهما .ولو كان السؤال للاستعطاء لما كان
هذا جواباً له ، فإن اختصاص حكم ما شرط لهم بالله والرسول لا ينافى إعطاءه
إياهم بل يحققه ، لأنهم إنما يسألونه بموجب شطره لهم الصادر عنه بإذن
الله - تعالى -لا بحكم سبق أيديهم إليهم أو نحو ذلك مما يخل بالاختصاص
المذكور .4- ولأن قوله - تعالى - بعد ذلك ( فاتقوا الله وَأَصْلِحُواْ
ذَاتَ بِيْنِكُمْ . . ) إلخ يؤيد أن السؤال عن حكم الأنفال ومصرفها بعد أن
تنازعوا فى شأنها ، فهو - سبحانه - ينهاهم عن هذا التنازع ، وبأمرهم بأن
يصونوا أنفهسم عن كل ما يغضب الله . . . ولو كان السؤال للاستعطاء - بناء
على ما شرطه الرسول - صلى الله عليه وسلم - لبعض زيادة على سهامهم - لما
كان هناك محذور يجب اتقاؤه ، لأنهم لم يطلبوا من الرسول إلا ما وعدهم به
وهذا لا محظور فيه .5- ولأن الآية الكريمة بمطوقها الواضح ، وبتركيبها
البليغ ، وبتوجيهها السامى ، تفيد أن السؤال إنما هو عن حكم الأنفال وعن
المستحق لها . . أما القول بأن السؤال سؤال استعطاء وأن عن زائدة أو بمعنى
من فهو تكلف لا ضرورة إليه .والمعنى الواضح الجلى للآية الكريمة - كما سبق
أن بينا - : يسألك بعض أصحابك يا محمد عن غنائم بدر كيف تقسم ، ومن المستحق
لها؟ قل لهم : الأنفال لله يحكم فيها بحكمه ، ولرسوله يقسمها بحسب حكم الله
فيها ، فهو - سبحانه - العليم بمصالح عباده ، الحكيم فى جميع أقواله
وأفعاله .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما وحه الجمع بين ذكر الله والرسول
فى قوله : ( قُلِ الأنفال للَّهِ والرسول ) ؟قلت : معناه أن حكمها مختص
بالله ورسوله ، يأمر الله بقسمتها على ما تقتضيه حكمته ، و يمتثل الرسول
أمر الله فيها ، وليس الأمر فى قسمتها مفوضاً إلى رأى أحد ، والمراد : " أن
الذى اقتضته حكمته الله وأمر به رسوله أن يواسى المقاتلة المشروط لهم
التنفيل الشيوخ الذين كانوا عند الرايات ، فيقاسموهم على السوية ولا
يستأثروا بما شرط لهم ، فإنهم إن فعلوا لم يؤمن أن يقدح ذلك فيما بين
المسلمين من التحاب والتصافى " .وقوله : ( فاتقوا الله وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ
بِيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ الله وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ) حض

لهم على تقوى الله وامتثال أمره ، وإصلاح ذات بينهم ، وتحذير لهم من الوقوع
، . فى المعاصى والنزاع والخلاف .وكلمة ( ذَاتَ ) بمعنى حقيقة الشئ ونفسه
) ولا تستعمل إلا مضافة إلى الظاهر ، كذات الصدور ، وذات الشوكة .وكلمة
بِيْنِكُمْ ) ، من البين ، وهو مصدر بان يبين بيناً ، متى بعد ، ويطلق على
الاتصال والفراق ، أى : على الضدين ، ومنه قول الشاعر :فوالله لولا البين
لم يكن الهوى ... ولولا الهوى ما حس للبين آلفوالمراد به فى الآية الاتصال
أى : فاتقوا الله - أيها المؤمنون - ، واصلحوا نفس ما بينكم وهى الحال.
والصفة التى بينكم والتى تربط بعضكم ببضع وهى رابطة الإسلام . وإصلاحها
يكون بما يقتضيه كمال الإيمان من الموادة والمصافاة ، وترك الاختلاف
والتنازع ، والتمسك بفضيلة الإيثار .وكلمة ( ذَاتَ ) على هذا المعنى مفعول
، به .ومنهم من يرى أن كلمة " ذات " بمعنى صاحبة ، وأنها صفة لمفعول محذوف
فيكون المعنى : فاتقوا الله وأصلحوا أحوالا ذات بينكم .وإلى هذا المعنى
أشار صاحب الكشاف بقوله : " فإن قلت : ما حقيقة قوله : ( ذَاتَ بِيْنِكُمْ
قلت : أحوال بينكم ، يعنى ما بينكم من الأحوال ، حتى تكون أحوال ألفة . " (
ومودة واتفاق .كقوله : ( بِذَاتِ الصدور ) وهى مضمراتها .ولما كانت أحوال
ملابسة للبين قيل لها : ذات البين ، كقولهم : استقنى ذا إنائك ، يريدون ما
فى الإناء من الشراب . .وقوله ( وَأَطِيعُواْ اللَّه وَرَسُولَهُ ) معطوف
على ما قبله ، وهو قوله : ( فاتقوا الله ) .أى : فاتقوا الله - أيها
المؤمنون - فى كل أقوالكم وأفعالكم ، وأصلحوا ما بينكم من الأحوال التى
تكون أحوال ألفة ومحبة ومودة ، وأطيعوا الله ورسوله فى حكمه الذى قضاه فى
- الأنفال وفى غيرها ، من كل أمر ونهى ، وقضاء وحكم . .وقد كر - سبحانه
الاسم الجليل فى هذه الآية ثلاث مرات ، لتربية المهابة فى القلوب ، وتعليل
الحكم حتى تقبله النفوس بإذعان وتسليم .وذكر - سبحانه - رسوله معه مرتين فى
هذه الآية ، لتعظيم شأنه ، وإظهار شرفه ، والإذيان بأن طاعته - صلى الله
عليه وسلم - طاعة لله - تعالى - ، ومخالفته مخالفة لأمر الله - تعالى؟
قال - سبحانه - : ( مَّنْ يُطِعِ الرسول فَقَدْ أَطَاعَ الله وَمَن تولى
فَمَآ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً ) ووسّط - سبحانه - الأمر بإصلاح
ذات البين بين الأمر بالتقوى والأمر بالطاعة ، لإظهار كمال العناية
بالإصلاح ، وليندرج الأمر به بعينه تحت الأمر بالطاعة .وقوله : ( إِن
، كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ) متعلق بالأوامر الثلاثة السابقة ، وهى : التقوى
وإصلاح ذات البين ، وطاعة الله ورسوله .وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله
أى : إن كنتم مؤمنين إيمانا حقا فامتثلوا هذه الأوامر الثلاثة السابقة ،
قال الآلوسى : قوله ( إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ) جوابه محذوف ثقة بدلالة.
المذكور عليه ، أو المذكور هو الجواب على الخلاف المشهور . وأيا ما كان
فالمراد بيان ترتب ما ذكر عليه لا التشكيك فى إيمانهم ، وهو يكفى التعليق
بالشرط .والمراد بالإيمان : التصديق . ولا خفاء فى اقتضائه ما ذكر ، على
معنى أنه من شأنه ذلك لا أنه لازم له حقيقة .وقد يراد بالإيمان الكامل
والأعمال شرط فيه أو شطر ، فالمعنى : إن كنتم كاملى الإيمان ، فإن كمال
الإيمان يدور على تلك الخصال الثلاثة : الاتقاء ، والإصلاح ، وإطاعة
الله - تعالى - .ويؤيد إرادة الكمال قوله - سبحانه - بعد ذلك ( إِنَّمَا
. المؤمنون ) إذ المراد به قطعا الكاملون فى الإيمان وإلا لم يصح الحصر
وعلى أية حال ففى هذا التذييل تنشيط للمخاطبين ، وحث لهم على الامتثال.
والطاعة ، ودعوة لهم إلى أن يكون إيمانهم إيمانا عميقا راسخا ، متفقا مع كل
ما جاءهم به رسولهم - صلى الله عليه وسلم - من هدايات وإرشادات ، ومتساميا
. عن كل ما يخدش صفاءه ونقاءه من متع وشهوات

انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم اياته
زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون

كما فسرها الوسيط ثم وصف - سبحانه - المؤمنين الصادقين بخمس صفات ، وبشرهم
بأعلى الدرجات ، فقال فى بيان صفتهم الأولى : ( إِنَّمَا المؤمنون الذين
إِذَا ذُكِرَ اللَّه وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ) فالجملة الكريمة مستأنفة وهى
مسوقة لبيان أحوال المؤمنين الذين هم أهل الرضا الله وحسن ثوابه ، حتى
: يتأسى بهم غيرهم .وقوله ( وَجِلَتْ ) من الوجَل وهو استشعار الخوف . يقال
وجل يوجل وجلا فهو وجل ، إذا خاف وفزع .والمراد بذكر الله : ذكر صفاته
الجليلة ، وقدرته النافذة ، ورحمته الواسعة ، وعقابه الشديد ، وعلمه المحيط
بكل شئ ، وما يستتبع ذلك من حساب واثواب وعقاب .والمعنى : إنما المؤمنون
، الصادقون الذين إذا ذكر اسم الله وذكرت صفاته أمامهم ، خافت قلوبهم وفزعت
، استعظاماً لجلاله وتهيبا من سلطانه ، وحذراً من عقابه ، ورغبة فى ثوابه
وذلك لقوة إيمانهم ، وصفاء نفوسهم ، وشدة مراقبتهم لله - عز وجل - وقوفهم
" عند أمره ونهيه . .وقد جاء التعبير عن صفاتهم بصيغة من صيغ القصر وهى
إنما " ، للإشعار بأن من هذه صفاتهم هم المؤمنون الصادقون فى إيمانهم
، وإخلاصهم ، أما غيرهم ممن لم تتوفر به هذه الصفات ، فأمره غير أمرهم
: وجزاؤه غير جزائهم .قال الفخر الرازى : فإن قيل : إنه - تعالى - قال ههنا

وقال فى آية أخرى : ( الذين آمَنُواْ ( وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ )
وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ الله ألاَ بِذِكْرِ الله ) فكيف الجمع
بينهما؟قلنا : الاطمئنان : إنما يكون عن ثلج اليقين ، وشرح الصدر بمعرفة
التوحيد ، والوجل : إنما يكون من خوف العقوبة . ولا منافاة بين هاتين
: الحالتين . بل نقول : هذان الوصفان اجتمعا فى آية واحدة وهى قوله - تعالى
الله نَزّلَ أَحْسَنَ الحديث كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ )
تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمّ تَلِينُ
جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إلى ذِكْرِ الله ) والمعنى تقشعر الجلود من خوف
عذاب الله ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم عند رجاء ثواب الله .والصفة الثانية من
صفات هؤلاء المؤمنين الصادقين عبر عنها - سبحانه - بقوله : ( وَإِذَا
تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً ) .أى أن من صفات
هؤلاء المؤمنين أنهم إذا قرئت عليهم آيات الله أى : حججه وهى القرآن؛
زادتهم إيمانا ، أى : زادتهم قوة فى التصديق ، وشدة فى الإذعان ، ورسوخا
فى اليقين ، ونشاطا فى الأعمال الصالحة ، وسعة فى العالم والمعرفة .وجاء
التعبير بصيغة الفعل المبنى للمفعول فى قوله : ( ذُكِرَ الله ) و ( وَإِذَا
تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ ) ، للإيذان بأن هؤلاء المؤمنين الصادقين
إذا كانوا يخافون عندما يسمعون من غيرهم آيات الله . . فإنهم يكونون أشد
خوفا وفزعا عند ذكرهم لله وعند تلاوتهم لآياته بألسنتهم وقلوبهم .فالمقصود
من هذه الصيغة : مدحهم ، والثناء عليهم ، وبيان الأثر الطيب الذى يترتب على
) : - ذكر الله وعلى تلاوة آياته .والصفة الثالثة من صفاتهم قوله - تعالى
- وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ) .أى : أن من صفات هؤلاء المؤمنين
، أيضاً - أنهم يعتمدون على ربهم الذى خلقهم بقدرته ، ورباهم بنعمته
فيفوضون أمورهم كلها إليه وحده - سبحانه -لا إلى أحد سواه ، كما يدل عليه
تقديم المتعلق على عامله .ورحم الله الإمام ابن كثير فقد قال عند تفسيره
لهذه الجملة : أى : أنهم لا يرجون سواه ، ولا يقصدون إلا إياه ، ولا يلوذون
إلا بجنابه ، لا يطلبون الحوائج إلى منه ، ولا يرغبون إلا إليه ، ويعلمون
، أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه المتصرف فى الملك لا شريك له
ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب .ولهذا قال سعيد بن جبير : " التوكل على
الله جماع الإيمان " .ومن الواضح عند ذوى العقول السليمة أن التوكل على
الله لا ينافى الأخذ بالأسباب التى شرعها - سبحانه - بل إن الأخذ بالأسباب
التى شعرها الله وأمر بها لبلوغ الغايات ، لدليل على قوة الإيمان ، وعلى
حسن طاعته - سبحانه - فيما شرعه وفيما أمر به .وليس من الإيمان ولا من
العقل ولا من التوكل على الله أن ينتظر الإنسان ثماراً بدون غرس ، أو شبعا
بدون أكل ، أو نجاحا بدون جهد ، أو ثواباً بدون عمل صالح .إنما المؤمن
العاقل المتوكل على الله ، هو الذى يباشر الأسباب التى شرعها الله لبلوغ
الأهداف مباشرة سليمة . ثم بعد ذلك يترك النتائج له - سبحانه - يُسيِّرها
. . كيف يشاء ، وحسبما يريد

الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون

كما فسرها الوسيط أما الصفتان الرابعة والخامسة من صفات هؤلاء المؤمنين
فهما قوله - تعالى - ( الذين يُقِيمُونَ الصلاة وَمِمّا رَزَقْنَاهُمْ
يُنفِقُونَ ) .والمراد بإقامة الصلاة : أداؤها فى مواقيتها مستوفية
لأركانها وشروطها وآدابها وخشوعها - من أقام الشئ إقامة إذا قومه وأزال
عوجه لأن الشأن فى صلاة المؤمنين أن تكون : إحساسا عميقا بالوقوف بين يدى
الله ، وانقطاعا تاما لمناجاته ، وتمثلا حياً لجلاله وكبريائه ، واسغراقا
كاملا فى دعائه .والمراد بقوله : ( يُنفِقُونَ ) يخرجون ويبذلون ، من
الإنفاق وهو إخراج المال وبذله وصرفه .والجملة الكريمة فى محل رفع صفة
للموصول فى الآية السابقة أو بدل منه أو بيان له .والمعنى : أن من صفات
هؤلاء المؤمنين أنهم يؤدون الصلاة فى مواقيتها مستوفية لأركانها وشروطها
وسننها وآدابها وخشوعها . . وأنهم يبذلون أموالهم للفقراء والمحتاجين
- بسماحة نفس ، وسخاء يد ، استجابة لتعاليم دينهم .فأنت ترى أنه - سبحانه
قد وصف هؤلاء المؤمنين بخمس صفات : الأولى والثانية والثالثة منها ترجع إلى
العبادات القلبية التى تدل على شدة خشيتهم من ربهم ، وقوة تأثرهم بآيات
خالقهم ، واعتمادهم عليه - سبحانه وحده لا على أحد سواه .

اولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم

كما فسرها الوسيط والصفة الرابعة ترجع إلى العبادات البدنية ، وهى إقامة
الصلاة بإخلاص وخشوع . أما الصفة الخامسة ترجع إلى العبادات المالية ، وهى
إنفاق المال فى سبيل الله ولاشك أن هذه الصفات متى تمكنت فى النفوس ، كان
، صاحبها أهلا لمحبة الله؛ ورضوانه ، ولذا مدح - سبحانه - أصحاب هذه الصفات
وبين ما أعده لهم من ثواب جزيل فقال : ( أولائك هُمُ المؤمنون حَقّاً
: لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ) .أى

أولئك المتصفون بتلك الصفات الكريمة هم المؤمنون إيمانا حقا ( لَّهُمْ
دَرَجَاتٌ ) عالية ، ومكانة سامية ( عِندَ رَبِّهِمْ ) ولهم ( وَمَغْفِرَةٌ
، شاملة لما فرط منهم من ذنوب ، ولهم ( وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ) فى الجنة (
يجعلهم يحيون فيها حياة طيبة( لاَّ لَغْوٌ فِيهَا وَلاَ تَأْثِيمٌ ) وقوله
منصوب على أنه صفة لمصدر محذوف ، أى : أولئك هم المؤمنون ( حَقّاً )
إيماناً حقاً .والتنوين فى قوله ( دَرَجَاتٌ ) للتعظيم والتهويل أى : لهم
درجات رفيعة ، ومنازل عظيمة ، وفى وصف هذه الدرجات بأنها ( عِندَ رَبِّهِمْ
مزيد تشريف لهم ، ولطف بهم ، وإيذان بأن ما وعدهم به متيقن الوقوع ، لأنه (
وعد من كريم لا يخلف وعده - سبحانه - .وفى وصف الرزق الذى أعده لهم بالكرم
زيادة فى إدخال السرور على قلوبهم؛ لأن لفظ الكريم يصف به العرب كل شئ ،
حسن فى بابه ، بحيث يكون لا قبح فيه ولا شكوى معه .وبذلك نرى أن أصحاب تلك
الصفات الحميدة قد مدحهم الله - تعالى - مدحاً عظيما ، وكأفأهم على إيمانهم
الحق بالدرجات العالية ، والمغفرة الشاملة ، والرزق الكريم : ( ذَلِكَ
فَضْلُ الله يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ والله ذُو الفضل العظيم ) هذا ، وقد
استنبط العلماء من تلك الآيات جملة من الأحكام والآداب منها :1- حرص
الصحابة على سؤال النبى - صلى الله عليه وسلم - عما يهمهم من أمور دينهم
ودنياهم .فإن قيل : كيف تأتى لأصحابه الذين شهدوا بدراً - وهم من هم فى
عفتهم وزهدهم - أن يختلفوا فى شأن الغنائم .فالجواب ، ، أن بعض الصحابة
المشتركين فى هذه الغزوة هم الذين حدث بينهم الخلاف فى شأنها؛ لأنهم لم يكن
لهم عهد سابق بكيفية تقسيمها ، أما أكثر الصحابة فإنهم لم يلتفتوا إلى هذه
الغنائم ، بل تركوا أمرها إلى رسول الله - يضعها كيف يشاء .وأيضاً فإن
هؤلاء الذين حدث بينهم الخلاف فى شأن الغنائم ، كان من الدوافع التى دفعتهم
إلى هذا الخلاف ، ما فهموه من أن حيازة الغنائم تدل على حسن البلاء ، وشدة
القتال فى سبيل الله ، فكان كل واحد منهم يحرص على أن يظهر بهذا المظهر
المشرف وهم فى أول لقاء لهم مع أعدائهم .وعندما جاوز هذا الحرص حده ، بأن
غطى على ما يجب أن يسود بينهم من سماحة وصفاء ، نزل القرآن ليربيهم بتربيته
. . الحكيمة ، وليؤدبهم السامى ، وليخبرهم بحكم الله فى شأن هذه الأنفال
-وبعد ان عرفوا حكم الله فى شأنها ، قابلوه بالرضا والإذعان والتسليم .2
أن القرآن فى ترتيبه للحوادث ، لا يلزم سردها على حسب زمن وقوعها ، وإنما
يرتبها بأسلوبه الخاص الذى يراعى فيه مقتضى حال المخاطب .فلقد افتتحت
السورة التى معنا بالحديث عن الغنائم التى غنمها المسلمون فى بدر - مع أن
ذلك كان بعد انتهاء الغزوة - ليشعر المخاطبين من أول الأمر أن النصر فى هذه
الغزوة كان للمسلمين ، وأن الإسلام قد صرع الكفر منذ أول معركة نازله
فيها .وهذا اللون من الافتتاح هو ما يعبر عنه البلغاء ببراعة الاستهلال
ولقد أفاض بعض العلماء فى شرح هذا المعنى فقال ما ملخصه .وقد بدأت السورة.
بموضوع الأنفال واختلافهم فى قسمتها وسؤالهم عنها ، فساقت فى ذلك أربع آيات
هن : ( يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأنفال قُلِ الأنفال للَّهِ والرسول فاتقوا ،
الله ) إلى قوله - ( وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ) .وقد عالجت هذه الآيات نفوس
المؤمنين ، وعملت على تطهيرها من الاختلاف الذى ينشأ عن حب المال والتطلع
إلى المادة ، ولا ريب أن حب المال والتطلع إلى المادة من أكبر أسباب الفشل
ولأهمية هذا الموضوع فى حياة المؤمنين بدأت به السورة ، وإن كان اختلافهم.
فى قسمة الأنفال متأخراً فى الوجود عن اختلافهم فى الخروج إلى بدر ، وقتال
الأعداء .وقد عرفنا من سنة القرآن فى ذكر القصص والوقائع أنه لا يعرض لها
مرتبة حسب وقوعها ، وذلك لأنه لا يذكرها على أنها تاريخ يعين لها الوقت
والمكان ، وإنما يذكرها لما فيها من العبر والمواعظ ، ولما تطلبه من
الأحكام والحكم .وقد بدأت السورة بالحديث عن الأنفال للمسارعة من أول الأمر
بنتائج النصر الذى كفله الله للمؤمنين .وليس من تربية النفوس أن نبدأ
، الكلام معا بما يدل على الاضطراب والفزع والتردد أمام وسائل العزة والشرف
متى وجد لهم بجانب هذا التردد ما يدل على مواقف الشرف والكرامة . .ولا كذلك
يكون الأمر إذا بدئت ببيان تثاقلهم فى الخروج إلى الغزوة ، وانظر كيف يكون
وقع المطلع إذا جاء على هذا الوجه ( كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ
بالحق وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ المؤمنين لَكَارِهُونَ . . ) إلخ لا ريب أنه
مطلع شديد الوقع على النفوس ، يصور علاقة المؤمنين بنبيهم فى صورة يأباها
إيمانهم به وامتثالهم لأمره . يصورهم فى شقاق واختلاف مع قائدهم ورسولهم
ويصوره فى ثوب الكراهية الشديدة لمعالى الأمور وعز الحياة .لهذا كله جاء
-الأسلوب فى سرد الوقائع غير مكترث بمخالفة ترتيبها فى الوجود الخارجى .3
استدل جمهور العلماء بقوله - تعالى - ( وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ
آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً ) على أن الإيمان يزيد وينقص . . .ومن
المفسرين الذين بسطوا القول فى هذه المسألة الإمام الآلوسى ، فقد قال ما
ملخصه :قوله - تعالى - ( وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ ) أى :
القرآن ( زَادَتْهُمْ إِيمَاناً ) أى : تصديقا كما هو المتبادر ، فإن تظاهر
الأدلة وتعاضد الحجج مما لا ريب فى كونه موجبا لذلك .وهذا أحد أدلة من ذهب
إلى أن الإيمان يقبل الزيادة والنقص ، وهو مذهب الجم الغفير من الفقهاء
والمحدثين والمتكلمين ، وبه أقول لكثرة الظواهر الدالة على ذلك من الكتاب

والسنة من غير معارض لها عقلا .بل قد احتج عليه بعضهم بالعقل - أيضا - وذلك
أنه لو لم تتفاوت حقيقة الإيمان لكان إيمان آحاد الأمة بل المنهمكين فى
الفسق والمعاصى ، مساويا لإيمان الأنبياء والملائكة ، واللازم باطل فكذا
الملزوم .وقال النووى : إن كل أحد يعلم أن ما فى قلبه يتفاضل حتى يكون فى
بعض الأحيان أعظم يقينا وإخلاصا منه فى بعضها ، فكذا التصديق والمعرفة
يتفاضلان بحسب ظهور البراهين وكثرتها .وذهب الإمام أبو حنيفة وكثير من
، المتكلمين إلى أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، واختاره إمام الحرمين
محتجين بأنه اسم للتصديق البالغ حد الجزم والإذعان ، وذلك لا يتصور فيه
زيادة ولا نقصان فالمصدق إذا اتى أو ارتكب المعاصى فتصديقه بحاله لم يتغير
أصلا ، وإنما يتفاوت إذا كان اسما للطاعات المتفاوتة قلة وكثرة .وذهب جماعة
منهم الإمام الرازى إلى أن الخلاف فى زيادة الإيمان ونقصانه وعدمها لفظى
وهو فرع تفسير الإيمان ، فمن فسره بالتصديق قال : إنه لا ينقص ، ومن ،
" فسره بالأعمال مع التصديق قال : إنه يزيد وينقص ، وعلى هذا قول البخارى
لقيت اكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار ، فما رأيت أحدا منهم يختلف فى
أن الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص ، وهو المعنى بما روى " عن ابن عمر أنه
قال . قلنا يا رسول الله إن الإيمان يزيد وينقص ، قال ، نعم ، يزيد حتى
يدخل صاحبه الجنة ، وينقص حتى يدخل صاحبه النار " .ويبدو لنا أن رأى جمهور
العلماء فى هذه المسألة ، أولى بالقبول؛ لأنه من الواضح أن إيمان
الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ارسخ وأقوى من إيمان آحاد الناس ، ولأنه
كلما تكاثرت الأدلة كان الإيمان أشد رسوخا فى النفس وأعمق أثراً فى القلب
فلا تزلزله الشبهات ولا تزعزعه العوارض والفتن .ومن أوضح الأدلة على أن ،
- الإيمان يقوى بقوة البرهان إلى درجة الاطمئنان ، ما حكاه الله - تعالى
عن إبراهيم فى قوله : ( وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ
تُحْيِي الموتى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بلى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ
، قَلْبِي ) فهذه الآية تدل دلالة واضحة على أن مقام الطمأنينة فى الإيمان
يزيد على ما دونه من الإيمان المطلق قوة وكمالا . إن إبراهيم - عليه
السلام -لا شك أنه كان مؤمنا عندما سأل ربه هذا السؤال ، سأله ذلك لينتقل
من مرتبة علم اليقين إلى مرتبة أعلى : وهى مرتبة عين اليقين . .هذا ، وشبيه
: بهذه الآية فى الدلالة على قبول الإيمان للزيادة والنقصان قوله - تعالى
الذين قَالَ لَهُمُ الناس إِنَّ الناس قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فاخشوهم )
فَزَادَهُمْ إِيمَاناً ) وقوله - تعالى - : ( هُوَ الذي أَنزَلَ السكينة
- فِي قُلُوبِ المؤمنين ليزدادوا إِيمَاناً مَّعَ إِيمَانِهِمْ ) وقوله
تعالى - : ( وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ
أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هذه إِيمَاناً فَأَمَّا الذين آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ
إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الذين فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ
( فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إلى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ
وقوله - تعالى - : ( وَلَمَّا رَأَى المؤمنون الأحزاب قَالُواْ هذا مَا
وَعَدَنَا الله وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ الله وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ
إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً ) إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التى وردت
فى هذا المعنى .4- فى هذه الآيات الكريمة تربية ربانية للمؤمنين ، وتوجيه
لهم إلى ما يسعدهم ، وإرشاد لهم إلى أن المؤمن الصادق فى إيمانه ، هو الذى
يجمع بين سلامة العقيدة ، وسلامة الخلق ، وصلاح العمل ، وأن المؤمن متى جمع
بين هذه الصفات ارتفع إلى أعلى الدرجات ، وأحسن بحلاوة الإيمان فى قلبه
- روى الحافظ الطبرانى " عن الحارث بن مالك الأنصارى أنه مر برسول الله..
صلى الله عليه وسلم - فقال له : " كيف أصبحت يا حارث "؟ قال : أصبحت مؤمنا
حقا ، فقال له الرسول - صلى الله عليه وسلم -" انظر ما تقول فإن لكل شئ
، حقيقة ، فما حقيقة إيمانك "؟ فقال الحارث : عزفت عن الدنيا فأسهرت ليلى
وأظمأت نهارى . وكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزاً ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة
يتزاورون فيها ، وكأنى أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها ، فقال - صلى الله
. " عليه وسلم - :" يا حارث عرفت فالزم " ثلاثا

كما اخرجك ربك من بيتك بالحق وان فريقا من المؤمنين لكارهون

كما فسرها الوسيط ثم أخذت السورة - بعد هذا الافتتاح المشتمل على أروع
استهلال وأبلغه وأحكمه . . فى الحديث عن الغزوة التى كان من ثمارها تلك
الأنفال . فاستعرضت مجمل أحداثها ، وصورت نفوس فريق من المؤمنين الذين
اشتركوا فيها أكمل تصوير ، استمع معى - أخى القارئ - بتدبر وتعقل إلى
قوله - تعالى - : ( كَمَآ أَخْرَجَكَ . . . كَرِهَ المجرمون ) .الكاف فى
قوله - تعالى - : ( كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ ) بمعنى مثل ، أى : للتشبيه
وهى خبر لمبتدأ محذوف هو المشبه ، وما بعدها هو المشبه به ، ووجه الشبه
مطلق الكراهة ، وما ترتب على ذلك من خير للمؤمنين .والمعنى : حال بعض أهل
بدل فى كراهتهم تقسيمك الغنائم بالسوية ، مثل حال بعضهم فى كراهة الخروج
للقتال ، مع ما فى هذه القسمة والقتال من خير وبركة .ونحن عندما نستعرض
أحداث غزوة بدر ، نرى أنه قد حدث فيها أمران يدلان على عدم الرضا من فريق

من الصحابة ، ثم أعقبها الرضا والإذعان والتسليم لحكم الله ورسوله .أما
الأمر الأول فهو أن فريقا من الصحابة - وأكثرهم من الشبان - كانوا يرون أن
قسمة الغنائم بالسوية فيها إجحاف بحقهم ، لأنهم هم الذين قاموا بالنصيب
الأوفر فى القتال ، وأن غيرهم لم يكن له بلاؤهم - كما سبق أن بينا فى أسلوب
نزول قوله - تعالى - ( يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأنفال ) ولكن الرسول - صلى
- الله عليه وسلم - قسم غنائم بدر بين الجميع بالسوية ، كما أمره الله
تعالى - .وكان هذا التقسيم خيراً للمؤمنين ، إذ أصلح الله به بينهم ، وردهم
إلى حالة الرضا والصفاء . .وأما الأمر الثانى : فهو أن جماعة منهم كرهوا
قتال قريش بعد نجاة العير التى خرجوا من أجل الحصول عليها ، وسبب كراهيته
لذلك أنهم خرجوا أجل الحصول عليها ، وسبب كراهيتهم لذلك أنهم خرجوا بدون
استعداد للقتال ، لا من حيث العدد ولا من حيث العدد .ولكنهم استجابوا بعد
. . قليل لما نصحهم به رسولهم - صلى الله عليه وسلم - من وجوب قتال قريش
وكان فى هذه الاستجابة نص الإسلام نصر الإسلام ، ودحر الطغيان .قال ابن
كثير : روى الحافظ بن مردويه - بسنده - عن أبى أيوب الأنصارى قال : قال
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ونحن بالمدينة : " " إنى أخبرت عن عير
أبى سفيان بأنها مقبلة ، فهل لكم أن نخرج قبل هذه العير لعل الله أن يغنمنا
إياها؟ فقلنا نعم . فخرج وخرجنا فلما سرنا يوما أو يومين قال لنا :" ما
ترون فى قتال القوم؟ إنهم قد أخبروا بخروجكم "؟ فقلنا : ما لنا طاقة بقتال
العدو ولكننا أردنا العير ، ثم قال :" ما ترون فى تقال القوم "؟ فقال
المقداد بن عمرو : إذن لا نقول لك يا رسول الله كما قال بنو إسرائيل لموسى
ولكن ( . . فاذهب أنتَ وَرَبُّكَ فقاتلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ) :
إذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون" .وفى رواية أن أبا بكر وعمر وسعد
بن معاذ تكلموا بكلام سر له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .هذا ، وما
قررناه قبل ذلك من أن الكاف فى قوله - تعالى - ( كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ
بمعنى مثل ، هو ما نرجحه من بين أقوال المفسرين التى أوصلها بعضهم ( . .
إلى عشرين قولا .قال الجمل ، قوله ( كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ . . ) فيه
عشرون وجهاً ، أحدهما : أن الكاف نعت لمصدر محذوف تقديره؛ الأنفعال ثابتة
لله ثوبتاً لكما أخرجك ربك ، أى : ثبوتاً بالحق كإخراجك من بيتك ، يعنى أنه
، لا مرية فى ذلك .الثانى : أن تقديره وأصلحوا ذات بينكم إصلاحاً كما أخرجك
وقد التفت من خطاب الجماعة إلى خطاب الواحد .الثالث : تقديره : وأطيعوا
الله ورسوله طاعة ثابتة محققة كما أخرجك أى : كما أن إخراج الله إياك لا
مرية فيه ولا شبهة . الخ . .والحق أن معظم الوجوه النحوية التى ذكرها الجمل
وغيره من المفسرين - كأبى حيان والآلوسى - أقول : إن معظم هذه الوجوه يبدو
عليها التكلف ومجانبة الصواب .ورحم الله صاحب الكشاف فقد أهمل أكثر ما ذكره
المفسرون فى ذلك ، واكتفى بوجهين فقال :قوله : ( كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ
: فيه وجهان أحدهما : أن يرتفع محل الكاف على أنه مبتدأ محذوف تقديره . (
هذه الحال كحال إخراجك . يعنى أن حالهم فى كراهية ما رأيت من تنفيل الغزوة
مثل حالهم فى كراهة خروجك للحرب .والثانى : أن ينتصب على أنه صفة مقدر
الفعل المقدر فى قوله : ( الأنفال لِلَّهِ والرسول ) أى : الأنفال استقرت
لله والرسول ، وثبتت مع كراهتهم ثباتاً مثل ثبات إخراج ربك إياك من بيتك
وهم كارهون .والوجه الأول من الوجهين اللذين ذكرهما صاحب الكشاف هو الذى
- نميل إليه ، وهو الذى ذكرناه قبل ذلك بصورة أكثر تفصيلا .وأضاف - سبحانه
الإخراج إلى ذاته فقال : ( كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ ) للإشعار بأن هذا
الإخراج كان بوحى منه - سبحانه - وبأنه هو الراعى له فى هذا الخروج
- والمراد بالبيت فى قوله : ( مِن بَيْتِكَ ) مسكنه - صلى الله عليه وسلم.
بالمدينة أو المراد المدينة نفسها ، لأنها مثواه ومستقرة ، فهى فى اختصاصها
به كاختصاص البيت بساكنه .وقوله : ( بالحق ) متعلق بقوله : ( أَخْرَجَكَ )
والباء للسببية ، أى : أخرجك بسبب نصرة الحق ، وإعلاء كلمة الدين ، وإزهاق
، باطل المبطلين .ويجوز أن يكون متعلقا بمحذوف على أنه حال من مفعول أخرجك
وتكون الباء للملابسة ، أى : أخرجك إخراجاً متلبساً بالحق الذى لا يحوم
حوله باطل .قال الآلوسى : وقوله : ( وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ المؤمنين
لَكَارِهُونَ ) ، أى : للخروج ، إما لعدم الاستعداد للقتال ، أو للميل
للغنيمة ، أو للنفرة الطبيعية عنه ، وهذا مما لا يدخل تحت القدرة والاختيار
فلا يرد أنه لا يليق بمنصب الصحابة .والجملة فى موضع الحال ، وهى حال ،
مقدرة؛ لأن الكراهة وقعت بعد الخروج .والمعنى الإجمال للآية الكريمة : حال
بعض المسلمين فى بدر فى كراهة قسمة الغنيمة بالسوية بينهم ، مثل حال فريق
، منهم فى كراهة الخروج للقتال ، مع أنه قد ثبت أن هذه القسمة ولك القتال
. كان فيهما الخير لهم ، إذ الخير فيما قدره الله وأراده ، لا فيما يظنون

يجادلونك في الحق بعدما تبين كانما يساقون الى الموت وهم ينظرون

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( يُجَادِلُونَكَ فِي الحق بَعْدَ مَا
تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الموت وَهُمْ يَنظُرُونَ ) حكاية
لما حدث من هذا الفريق الكاره للقتال ، وتصوير معجز لما استبد به من خوف

وفزع .والمراد بقوله ( يُجَادِلُونَكَ ) مجادلتهم للنبى صلى الله عليه وسلم
فى شأن القتال وقولهم له : ما كان خروجنا إلا للعير ، ولو أخبرتنا بالقتال
لأعددنا العدة له .والضمير يعود للفريق الذى كان كارها للقتال .والمراد
بالحق الذى جادلوا فيه : أمر القتال الذى حضهم الرسول - صلى الله عليه
وسلم - على أن يعدوا أنفسهم له .وقوله : ( بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ ) متعلق
بـ ( يُجَادِلُونَكَ ) يعود ( تَبَيَّنَ ) مصدرية والضمير فى الفعل ( مَا )
على الحق .والمراد بتبينه : إعلام الرسول - صلى الله عليه وسلم - لهم بأنهم
سينصرون على أعدائهم فقد روى أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - أخبرهم قبل
نجاة العير بأن الله وعده الظفر بإحدى الطائفتين : العير أو النفير ، فلما
نجت العير علم أن الظفر الموعود به إنما هو النفير ، أى : على المشركين
الذين استنفرهم أبو سفيان للقتال لا على العير ، أى : الإبل الحاملة
لأموال المشركين .والمعنى : يجادلك بعض أصحابك - يا محمد - ( فِي الحق ) أي
فى أمر القتال ( بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ ) أى ، بعدما تبين لهم الحق بإخبارك
إياهم بأن النصر سيكون حليفهم ، وأنه لا مفر لهم من لقاء قريش تحقيقاً لوعد
الله الذى وعد بإحدى الطائفتين .وقوله : (كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى
الموت وَهُمْ يَنظُرُونَ ) أى : يكرهون القتال كراهة من يساق إلى الموت
، وهو ناظر إلى أسبابه ، ومشاهد لموجباته .والجملة فى محل نصب على الحالية من
الضمير فى قوله : ( لَكَارِهُونَ ) .وفى هذه الجملة الكريمة تصوير معجز لما
استولى على هذا الفريق من خوف وفزع من القتال بسبب قلة عددهم وعددهم .وقوله
: ( بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ ) زيادة فى لومهم ، لأن الجدال في الحق بعد
تنبينه أقبح من الجدال فيه قبل ظهوره .

واذ يعدكم الله احدى الطائفتين انها لكم وتودون ان غير ذات الشوكة تكون لكم
ويريد الله ان يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين

، كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - جانباً من مظاهر فضله على المؤمنين
) : مع جزع بعضهم من قتال عدوه وعدوهم ، وإيثارهم العير على النفير فقال
وَإِذْ يَعِدُكُمُ الله إِحْدَى الطائفتين أَنَّهَا لَكُمْ ) .والمراد
بإحدى الطائفتين : العير أو النفير ، والخطاب للمؤمنين .والمراد بغير ذات
الشوكة : العير ، والمراد بذات الشوكة : النفير .والشوكة فى الأصل واحد
الشوك وهو النبات الذى له حد ، ثم استعيرت للشدة والحدة . ومنه قولهم : رجل
شائك السلاح أى : شديد قوى .والمعنى : واذكروا - أيها المؤمنون - وقت أن
وعدكم الله - تعالى - على لسان رسوله - بأن إحدى الطائفتين : العير أو
النفير هى لكم تظفرون بها ، وتتصرفون فيها تصرف المالك فى ملكه ، وأنتم مع
ذلك تودون وتتمنون أن تظفروا بالطائفة التى ليس معها سلاح وهى العير
وعبر - سبحانه - عن وعده لهم بصيغة المضارع ( يَعِدُكُمُ ) مع أن هذا.
الوعد كان قبل نزول الآية ، لاستحضار صورة الموعود به فى الذهن ، ولمداومة
شكره - سبحانه - على ما وهبهم من نصر وفوز .وإنما وعدهم - سبحانه - إحدى
الطائفتين على الإبهام مع أنه كان يريد إحداهما وهى النفير ، ليستدرجهم
إلى الخروج إلى لقاء العدو حتى ينتصروا عليه . وبذلك تزول هيبة المشركين من
قلوب المؤمنين .وقوله ( إِحْدَى ) مفعول ثاني ليعد . وقوله : ( أَنَّهَا
لَكُمْ ) بدل اشتمال من ( إِحْدَى ) مبين لكيفية الوعد .أى : يعدكم أن إحدى
الطائفتين كائنة لكم ، ومختصة لكم ، تتسلطون عليها تسلط الملاك ، وتتصرفون
فيها كيفيما شئتم .وقوله : ( وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشوكة
تَكُونُ لَكُمْ ) معطوف على قوله : ( يَعِدُكُمُ ) أى : وعدكم - سبحانه -
إحدى الطائفتين بدون تحديد لإحداهما ، وأنتم تحبون ان تكون لكم طائفة
العير التى لا قتال فيها يذكر ، على طائفة النفير التى تحتاج منكم إلى قتال
شديد ، وإلى بذل للمهج والأرواح .وفى هذه الجملة تعريض بهم ، حيث كرهوا
القتال ، وأحبوا المال ، وما هكذا يكون شأن المؤمنين الصادقين .ثم بين
لهم - سبحانه - أنهم وإن كانوا يريدون العير ، إلا أنه - سبحانه - يريد لهم
النفير ، ليعلو الحق ، ويزهق الباطل ، فقال : ( وَيُرِيدُ الله أَن يُحِقَّ
الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الكافرين ) .أى : ويريد الله
بوعده غير ما أردتم . ( 1649;لشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ الله أَن
يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ) أى أن يظهر الحق ويعلمه بآياته المنزلة
على رسوله ، وبقضائه الذى لا يتخلف ، وأن يستأصل الكافرين ويذلهم ، ويقطع
دابرهم؛ أى آخرهم الذى يدبرهم .والدابر : التابع من الخلف ، يقال : دبر
فلان القوم يدبرهم دبورا ، إذا كان آخرهم فى المجئ ، والمراد أنه سبحانه
يريد أن يستأصلهم استئصالا .وقد هلك فى غزوة بدر عدد كبير من صناديد قريش
الذين كانوا يحاربون الإسلام ، ويستهزئون بتعاليمه .قال صاحب الكشاف في
معنى الآية الكريمة ، قوله : ( وَيُرِيدُ الله أَن يُحِقَّ الحَقَّ
بِكَلِمَاتِهِ ) يعنى أنكم تريدون العاجلة وسفساف الأمور ، وأن لا تلقوا ما
يرزؤكم فى أبدانكم وأموالكم ، والله - عز وجل - يريد معالى الأمور ، وما
يرجع إلى عمارة الدين ، ونصرة الحق ، وعلو الكلمة والفوز فى الداري ، وشتان
، ما بين المرادين ولذلك اختار لكم الطائفة ذات الشوكة ، وكسر قوتهم بضعفكم

وغلب كثرتهم بقلتكم ، وأعزكم وأذلهم ، وحصل لكم مالا تعارض أدناه العير وما فيها .

ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون

، كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - الحكمة فى اختيار ذات الشوكة لهم ونصرتهم عليهم فقال : ( لِيُحِقَّ الحق وَيُبْطِلَ الباطل وَلَوْ كَرِهَ المجرمون ) .أى : فعل ما فعل من النصرة والظفر بالأعداد ( لِيُحِقَّ الحق ) أى : ليثبت الدين الحق دين شوقوله : ( وَلَوْ كَرِهَ المجرمون ) بيان لنفاذ ، إرادته - سبحانه - أى : اقتضت إرادته أن يعز الدين الحق وهو دين الإسلام وأن يمحق ما سواه ، ولو كره المشركون ذلك ، لأن كراهيتهم لا وزن لها ، ولا تعويل عليها . .وبهذا يتبين أنه لا تكرار بين الآيتين السابقتين ، لأن المراد بإحقاق الحق فى قوله - تعالى - ( وَيُرِيدُ الله أن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ) : إعلاؤه وإظهاره ونصرته عن طريق قتال المؤمنين ) للمشركين .والمراد بإحقاق الحق فى قوله بعد ذلك فى الآية الثانية لِيُحِقَّ الحق وَيُبْطِلَ الباطل ) : تثبيت دين الإسلام وتقويته وإظهار شريعته ، ويمحق دين الكفر .فكان ما اشتملت عليه الآية الأولى هو الوسيلة والسبب وما اشتملت عليه الآية الثانية هو المقصد والغاية .وقد بسط هذا المعنى الإمام الرازى فقال ما ملخصه : فإن قيل : أليس قوله : ( وَيُرِيدُ الله أن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ) ثم قوله بعد ذلك : ( لِيُحِقَّ الحق ) تكرارا محضا ، فالجواب : ليس ههنا تكرير؛ لأن المراد بالأول سبب ما وعد به فى هذه الواقعة من النصر والظفر بالأعداء ، والمراد بالثانى تقوية القرآن والدين ونصرة هذه الشريعة ، لأن الذى وقع من المؤمنين يوم بدر ) بالكافرين ، كان سببا لعزة الدين وقوته ، ولهذا السبب قرنه بقوله وَيُبْطِلَ الباطل ) الذى هو الشرك ، وذلك فى مقابلة ( الحق ) الذى هو الدين والإيمان .وإلى هنا نرى السورة الكريمة قد حدثتنا فى الأربع الآيات الأولى منها عن حكم الله - تعالى - فى غنائم بدر بعد أن اختلف بعض المؤمنين - فى شأنها ، وعن صفات المؤمنين الصادقين الذين يستحقون من الله - تعالى أرفع الدرجات .ثم حدثتنا فى الأربع الثانية منها عن حال بعض المؤمنين عندما دعاهم النبى - صلى الله عليه وسلم - إلى قتال أعدائهم ، وعن مجادلتهم له فى ذلك ، وعن إيثارهم المال على القتال ، وعن إرادة ما هو خير لهم فى دنياهم وآخرتهم ، وفى ذلك ما فيه من العبر والعظات لقوم يعقلون .

اذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم اني ممدكم بالف من الملائكة مردفين

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - بعض مظاهر تدبيره المحكم فى هذه الغزوة وبعض النعم التى أنعم بها على المؤمنين ، وبعض البشارات التى تقدمت تلك الغزوة أو صاحبتها ، والتى كانت تدل دلالة واضحة على أن النصر سيكون للمسلمين فقال - تعالى - : ( إِذْ تَسْتَغِيثُونَ . . عَذَابَ النار ) .قال : القرطبى : قوله - تعالى - : ( إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ ) الاستغاثة طلب الغوث والنصر ، يقال : غوّث الرجل ، أى : قال واغوثاه ، والاسم الغوث والغواث ، واستغاثنى فلان فأغثته ، والاسم الغياث .وقوله ( مُمِدُّكُمْ ) من الإمداد بمعنى الزيادة والإغاثة ، وقد جرت عادة القرآن أن يستعمل ) : - الإمداد فى الخير ، وأن يستعمل المد فى الشر والذم .قال - تعالى واتقوا الذي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ) وقال - تعالى - : ( ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الكرة عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً ) قال - تعالى - : ( قُلْ مَن كَانَ فِي الضلالة فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرحمن مَدّاً ) وقال - تعالى - : ( الله يَسْتَهْزِىءُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ) وقوله من الإرداف بمعنى التتابع .قال الفخر الرازى : قرأ نافع ( مُرْدِفِينَ ) : ، وأبو بكر عن عصام ( مُرْدِفِينَ ) - بفتح الدال - وقرأ الباقون بكسرها والمعنى على الكسر ، أى : ممتابعين يأتى بعضهم فى إثر البعض كالقوم الذين أردفوا على الدواب .والمعنى على قراءة الفتح ، أى : فعل بهم ذلك ، ومعناه أن الله - تعالى - أردف المسلمين وأمدهم بهم أى جعلهم خلف المسلمين لتقويتهم .والمعنى : اذكروا - أيها المؤمنون - وقت أن كنتم - وأنتم على أبواب بدر - ( تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ ) أى : تطلبون منه الغوث والنصر على عدوكم ( فاستجاب لَكُمْ ) دعاءكم ، وكان من مظاهر ذلك أن أخبركم على لسان نبيكم - صلى الله عليه وسلم - بأنى ( مُمِدُّكُمْ ) أى : معينكم وناصركم بألف من الملائكة مردفين ، أى : متتابعين ، بعضهم على إثر بعض ، أو أن الله - تعالى - جعلهم خلف المسلمين لتقويتهم وتثبيتهم .ويروى الإمام مسلم عن ابن عباس قال : " حدثنى عمر بن الخطاب قال : كان يوم بدر ، فاستقبل نبى الله - القبلة ، ثم مد يديه فجعل يهتف بربه ويقول : اللهم أنجز لى ما وعدتنى ، اللهم أنجز لى ما وعدتنى ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل

الإسلام لا تعبد فى الأرض ، فما زال يهتف بربه ويقول : اللهم أنجز لى ما
وعدتنى ، اللهم أنجز لى ما وعدتنى ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل
الإسلام لا تعبد فى الأرض ، فما زال يهتف بربه مادا يديه حتى سقط رداؤه
منكبيه .فأتاه أبو بكر ، فأخذ رداءه ، فألقاه على منكبيه ، ثم التزمه من
وراءه ، وقال : يا نبى الله!! كفاك مناشدتك ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك .
فأنزل الله - عز وجل - : ( إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فاستجاب لَكُمْ )
- الآية فأمده الله بالملائكة .وروى البخارى عن ابن عباس قال : قال النبى "
صلى الله عليه وسلم - يوم بدر ، " اللهم أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن شئت
- لم تعبد ، فأخذ أبو بكر بيده ، فقال حسبك ، فخرج - صلى الله عليه وسلم
وهو يقول : " سيهزم الجمع ويولون الدبر " " .وروى سعيد بن منصور عن طريق
- عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال : " لما كان يوم بدر نظر رسول الله
صلى الله عليه وسلم - إلى المشركين وتكاثرهم ، وإلى الله فاستقلهم ، فركع
ركعتين وقام أبو بكر عن يمينه ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو
فى صلاته : " اللهم لا تودع منى اللهم لا تخذلنى ، اللهم لا تترنى - أى لا
تقطعنى عن أهلى وأنصارى - أولا تنقضى شيئاً من عطائك - اللهم أنشدك ما
وعدتنى - أى : أستنجزك وعدك " " .وروى ابن إسحاق فى سيرته أنه - صلى الله
عليه وسلم - قال : اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب
رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتنى .فإن قيل : إن هذه النصوص يؤخذ منها أن
هذه الاستغاثة كانت من رسول الله - صلى الله عليه وسلم فلماذا أسندها
القرآن إلى المؤمنين؟فالجواب : أن المؤمنين كانوا يؤمنون على دعائه - صلى
الله عليه وسلم - ويتأسون به فى الدعاء ، إلا ان الروايات ذكرت دعاء
الرسول - صلى الله عليه وسلم - لأنه هو قائد المؤمنين ، وهو الذى يحرص
: الرواة على نقل دعائه ، أكثر من حرصهم على نقل دعاء غيره من أصحابه .وقيل
إن الضمير فى قوله ( تَسْتَغِيثُونَ ) للرسول - صلى الله عليه وسلم - وجئ
به مجموعا على سبيل التعظيم ، ويعكر على هذا القبل أن السياق بعد ذلك لا
يلتئم معه ، لأنه خطاب للمؤمنين بالنعم التى أنعم بها - سبحانه - عليهم
وعبر - سبحانه - بالمضارع ( تَسْتَغِيثُونَ ) مع أن استغاثتهم كانت قبل.
نزول الآية - استحضارا للحال الماضية ، حتى يستمروا على شكرهم لله ، ولذلك
عطف عليه . فاستجاب لكم ، بصيغة الماضى مسايرة للواقع .وكان العطف بالفاء
للإشعار بأن إجابة دعائهم كانت فى أعقاب تضرعهم واستغنائهم وهذا من فضل
الله عليهم ، ورحمته بهم ، حيث أجارهم من عدوهم ، ونصرهم عليه - مع قلتهم
عنه - نصرا مؤزرا .والسين والتاء فى قوله : ( تَسْتَغِيثُونَ ) للطلب ، أى
تطلبون منه الغوث بالنصر .فإن قيل : إن الله - تعالى - ذكر هنا انه أمدهم :
بألف من الملائكة ، وذكر فى سورة آل عمران أنه امدهم بأكثر من ذلك فكيف
الجمع بينهما؟فالجواب أن الله - تعالى - أمد المؤمنين بألف من الملائكة فى
يوم بدر ، كما بين هنا فى سورة الأنفال ، ثم زاد عددهم إلى ثلاثة آلاف كما
قال - تعالى - فى سورة آل عمران : ( وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ الله بِبَدْرٍ
وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فاتقوا الله لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ إِذْ تَقُولُ
لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاَثَةِ
آلاَفٍ مِّنَ الملائكة مُنزَلِينَ . . . )ثم زاد عددهم مرة أخرى إلى خمسة
آلاف ، قال - تعالى - ( بلى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُمْ
مِّن فَوْرِهِمْ هذا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلاف مِّنَ
الملائكة مُسَوِّمِينَ ) وقد صبروا واتقوا وأتاهم المشركون من مكة فورا حين
استنفرهم أبو سفيان لإنقاذ العير . . فكان المدد خمسة آلاف .واختار ابن
جرير أنهم وعدوا بالمدد بعد الألف ، ولا دلالة فى الآيات على أنهم أمدوا
بما زاد على ذلك ، ولا على أنهم لم يمدوا ، ولا يثبت شئ من ذلك إلا بنص
وهذا بناء على أن المدد الذى وعد الله به المؤمنين فى آيات سورة آل عمران.
كان خاصا بغزوة بدر .أما على الرأى القائل بأن هذا المدد الذى بتلك الآيات
كان خاصا بغزوة أحد فلا يكون هناك إشكال بين ما جاء فى السورتين .وقد بسط
القول فى هذه المسألة الإمام ابن كثير فقال ما ملخصه :" اختلف المفسرون فى
- هذا الوعد هل كان يوم بدر أو يوم أحد على قولين :أحدهما : أن قوله
تعالى - : ( إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَن
يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِّنَ الملائكة ) متعلق بقوله
: ( وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ الله بِبَدْرٍ )
وهذا قول الحسن والشعبى والربيع بن
أنس وغيرهم . . .فإن قيل فكيف الجمع بين هذه الآيات - التى فى سورة آل
عمران وبين قوله فى سورة الأنفال - : ( إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ
فاستجاب لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ الملائكة مُرْدِفِينَ )
فالجواب : أن التنصيص على الألف هنا ، لا ينافى الثلاثة الآلاف فما فوقها.
لقوله - تعالى - ( مُرْدِفِينَ ) بمعنى يردفهم غيرهم ويتبعهم ألوف أخر
، مثلهم .قال الربيع بن أنس : أمد الله المسلمين بألف ثم صاروا ثلاثة آلاف
- ثم صاروا خمسة آلاف .والقول الثانى يرى أصحابه أن هذا الوعد - وهو قوله
تعالى - : ( إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَن
- يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِّنَ الملائكة ) متعلق بقوله
قبل ذلك - ( وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ المؤمنين مَقَاعِدَ

لِلْقِتَالِ ) وذلك يوم احد .وهو قول مجاهد ، وعكرمة ، والضحالك ، وغيرهم
لكن قالوا : لم يحصل الإمداد بالخمسة الآلاف ، لأن المسلمين يومئذ فروا .
وزاد عكرمة : ولا بالثلاثة الآلاف لقوله - تعالى ( بلى إن تَصْبِرُواْ .
وَتَتّقُواْ ) فلم يصبروا بل فروا فلم يمدوا ملك واحد .

وما جعله الله الا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر الا من عند الله ان
الله عزيز حكيم

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر فضله عليهم ورحمته بهم فى
هذا الإمداد فقال : ( وَمَا جَعَلَهُ الله إِلاّ بشرى وَلِتَطْمَئِنّ
بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النصر إِلاّ مِنْ عِندِ الله إِنّ الله عَزِيزٌ
حَكِيمٌ ) فالآية الكريمة كلام مستأنف ساقه - سبحانه - لبيان عبض مظاهر
فضله على المؤمنين ، ولبيان أن المؤثر الحقيق هو الله وحده حتى يزدادوا ثقه
- به ، وحتى لا يقنطوا من النصر عند قلة أسبابه .أى : وما جعل الله - تعالى
هذا الإمداد بالملائكة إلا بشارة لكم - أيها المؤمنون - بالنصر على
أعدائكم فى هذه الغزوة الحاسمة وقوله ( بشرى ) مفعول لأجله مستثنى عن أعم
: العلل .وقوله : ( وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ) معطوف عليه : أى
ولتسكن بهذا الإمداد قلوبكم ، ويزول عنكم الخوف ، وتهاجموا أعداءكم بنفوس
لا يداخلها الإحجام أو التردد . . .وقوله : ( وَمَا النصر إِلاّ مِنْ
عِندِ الله ) أى : ليس النصر بالملائكة أو غيرهم إلا كائن من عند الله وحده
لأنه - سبحانه - هو الخالق لكل شئ ، والاقدر على كل شئ .وإن الوسائل مهما ،
عظمت ، والأسباب مهما كثرت ، ولا تؤدى إلى النتيجة المطلوبة والغاية
المرجوة ، إلا إذا أيدتها إرادة الله وقدرته ورعايته .وقوله : ( إِنّ الله
عَزِيزٌ حَكِيمٌ ) أى : غالب لا يقهره شئ ، ولا ينازعه منازع حكيم فى
تدبيره وأفعاله .فالجملة الكريمة بتذييل قصد به التعليل لما قبله ، وفيه
- إشعار بأن النصر الواقع على الوجه المذكور من مقتضيات حكمته البالغة
. - سبحانه

اذ يغشيكم النعاس امنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب
عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الاقدام

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك بعض المنن الأخرى التى منحها
للمؤمنين قبل أن يلتحموا مع أعدائهم فى بدر فقال : ( إِذْ يُغَشِّيكُمُ
النعاس أَمَنَةً مّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مّن السمآء مَآءً
لّيُطَهّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشيطان وَلِيَرْبِطَ على
قُلُوبِكُمْ وَيُثَبّتَ بِهِ الأقدام ) .وقوله : ( يُغَشِّيكُمُ ) بتشديد
الشين من التغشية بمعنى التغطية عن غشاه تغشية أى : غطاه .والنعاس : أول
الوم قبل أن يثقل . وفعله - على الراجح - على وزن منع .والأمنة : مصدر
بمعنى الأمن . وهو طمأنينة القلب وزوال الخوف ، يقال : أمنت من كذا أمنة
وأمنا وأمانا بمعنى .قال الجمل : فى قوله : ( إذ يغشاكم النعاس ) ثلاثة
قراءات سبعية .الأولى : يغشاكم كيلقاكم ، من غشية إذا أتاه وأصابه وفى
المصباح : غشيته أغشاه من باب تعب بمعنى أتيته - وهى قراءة أبى عمرو وابن
كثير .الثانية : يُغْشِيكم - بإسكان الغيب وكسر الشين - من أغشاه . أى
أنزله بكم وأوقعه عليكم - وهو قراءة نافع - .الثالثة : يغشيكم - بتشديد
: الشين وفتح الغين وهى قراءة الباقين - من غشاه تغشية بمعنى غطاه .أى
يغشيكم الله النعاس أى يجعله عليكم كالغطاء من حيث اشتماله عليكم .والنعاس
على القراءة الأولى مرفوع على الفاعلية ، وعلى الأخيرتين منصوب على
المفعولية . وقوله : " أمنة " حال أو مفعول لأجله .وقال القرطبى : وكان هذا
النعاس فى الليلة التى كان القتال من غدها ، فكان النوم عجيبا مع ما كان
بين أيديهم من الأمر المهم ، ولكن الله ربط جأشهم .وعن على - رضى الله
عنه - قال : ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد على فرس أبلق ، ولقد
رأيتنا وما فينا إلا نائم سوى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تحت شجرة
- : يصلى حتى أصبح .وفى امتنان الله عليهم بالنوم فى هذه الليلة وجهان
أحدهما : أن قواهم بالاستراحة على القتال من الغد .الثانى : أن أمنهم بزوال
: الرعب فى قلوبهم : كما يقال : الأمن منيم ، والخوف مسهر .وقال ابن كثير
وجاء فى الصحيح " أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما كان يوم بدر فى
- العريش مع الصديق ، وهما يدعوان ، أخذت رسول الله - صلى الله عليه وسلم
سنة من النوم . ثم استيقظ متبسما ، فقال : " أبشر يا أبا بكر ، هذا جبريل
) - على تثناياه النقع " . ثم خرج من باب العريش وهو يتلو قول الله - تعالى
سَيُهْزَمُ الجمع وَيُوَلّونَ الدبر ) " .والمعنى : واذكروا - أيها
، المؤمنون - أيضا ، وقت أن كنتم متعبين وقلقين على مصيركم فى هذه المعركة
فألقى الله عليكم النعاس ، وغشاكم به قبل التحامكم بأعدائكم ، ليكون أمانا
لقلوبكم ، وراحة لأبدانكم ، وبشارة خير لكم .هذا ، ومن العلماء الذين
تكلموا عن نعمة النعاس التى ساقها الله للمؤمنين قبل المعركة ، الإمامان

الرازى ومحمد عبده .أما الامام الرازى فقد قال ما ملخصه : واعلم أن كل نوم
ونعاس لا يحصل إلا من قبل الله - تعالى - فتخصيص هذا النعاس بأنه من الله
لا بد فيه من مزيد فائدة ، وذكروا فى ذلك وجوها : منها : أن الخائف إذا خاف
من عدوه فإنه لا يأخذه النوم ، وإذا نام الخائفون أمنوا . فصار حصول النوم
لهم فى وقت الخوف الشديد ، يدل على إزالة الخوف وحصول الأمن .ومنها : أنهم
ما ناموا نوما غرقا يتمكن مع العدو من معافصتهم ، بل كان ذلك نعاسا يزول
، معه الإعياء والكلال ، ولو قصدهم العدو فى هذه الحالة لعرفوا وصوله
، ولقدروا على دفعه .ومنها : أنه غشيهم هذا النعاس دفعة واحدة مع كثرتهم
ومحصول النعاس للجمع العظيم فى الخوف الشديد أمر خارق للعادة . فلهذا السبب
قيل : إن ذلك النعاس كان فى حكم المعجز .وقال الامام محمد عبده : لقد مضت
سنة الله فى الخلق ، بأن من يتوقع فى صبيحة ليلته هو لا كبيرا ، ومصابا
عظيما ، فإنه يتجافى تجنبه على مضجعه فيصبح خاملا ضعيفا . وقد كان المسلمون
يوم بدر يتوقعون مثل ذلك ، إذ بلغهم أن جيشا يزيد على عددهم ثلاثة أضعاف
. . سيحاربهم غدا فكان من مقتضى العادة أن يناموا على بساط الأرض والسهاد
، ولكن الله رحمهم بما أنزل عليهم من النعاس : غشيهم فناموا ، واثقين بالله
. . . . مطمئنين لوعده ، وأصبحوا على همة ونشاط فى لقاء عدوهم وعدوه
فالنعاس لم يكن يوم بدر فى وقت الحرب بل قبلها .وبذلك نرى أن النعاس الذى
أنزله الله تعالى - على المؤمنين قبل لقائهم بأعدائهم فى بدر كان نعمة
عظيمة ومنه جليلة .وقوله - تعالى - : ( وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السمآء
مَآءً لِّيُطَهِّرَكُمْ بِهِ ) وهو - أى : إنزال الماء من السماء نعمة عظمى
- تحمل فى طياتها نعما وسننا .أولهما : يتجلى فى هذه الجملة الكريمة ، أنه
: سبحانه - أنزل على المؤمنين المطر من السماء ليطهرهم به من الحدثين
الأصغر والأكبر ، فإن المؤمن كما يقول الإمام الرازى - " يكاد يستقذر نفسه
إذا كان جنبا ، وبغتم إذا لم يتمكن من الاغتسال ، ويضطرب قلبه لأجل هذا
: السبب " .وثانيها : قوله - تعالى - : ويهذب عنكم رجز الشيطان .وأصل الرجز
الاضطراب ويطلق على كل ما تشتد مشقته على النفوس .قال الراغب : أصل الرجز
الاضطراب ، ومنه قيل رجز البعير رجزا فهو أرجز ، وناقة رجزاء إذا تقارب
خطوها واضطرب لضعفها . .والمراد برجز الشيطان : وسوسته للمؤمنين ، وتخويفه
إياهم من العطش وغيره عند فقدهم الماء وإلقاؤه الظنون السيئة فى قلوبهم .أى
أنه - سبحانه - أنزل عليكم الماء - أيها المؤمنون - ليطهركم به تطهيرا :
حسيا وليزيل عنكم وسوسة الشيطان ، بتخويفه إياكم من العطش وبإلقائه فى
- نفوسكم الظنون والأوهام . . وهذا هو التطهير الباطنى .وثالثها قوله
تعالى - : ( وَلِيَرْبِطَ على قُلُوبِكُمْ ) أى : وليقويها بالثقة فى نصر
الله ، وليوطنها على الصبر والطمأنينة . . ولا شك أن وجود الماء فى حوزة
المحاربين يزيدهم قوة على قوتهم ، وثباتاً على ثباتهم ، أما فقده فإنه يؤدى
. إلى فقد الثقة والاطمئنان ، بل وإلى الهزيمة المحققة .وأصل الربط : الشد
ويقال لكل من صبر على أمر : ربط قلبه عليه ، أى : حبس قلبه عن أن يضطرب أو
يتزعزع ، ومنه قولهم : رجل رابط الجأش : أى : ثابت متمكن .ورابع هذه النعم
، التى تولدت عن نزول الماء من السماء على المؤمنين ، قبل خوضهم معركة بدر
- يتجلى فى قوله - تعالى - ( وَيُثَبِّتَ بِهِ الأقدام ) .أى : أنه
، سبحانه - أنزل عليهم المطر قبل المعرفة لتطهيرهم حسياً ومعنوياً
ولتقويتهم وطمأنينتهم ، وليثبت أقدامهم به حتى لا تسوخ فى الرمال ، وحتى
يسهل المشى عليها ، إذ من المعروف أن من العسير المشئ على الرمال . فإذا ما
نزلت عليها الأمطار جمدت وسهل السير فوقها ، وانطفأ غبارها . . فالضمير فى
قوله ( بِهِ ) يعود على الماء المنزل من السماء .قال الزمخشرى : ويجوز أن
يعود للربط - فى قوله ( وَلِيَرْبِطَ على قُلُوبِكُمْ ) ، لأن القلب إذا
تمكن فيه الصبر والجراءة ثبت القدم فى مواطن القتال .وهذا ، وقد وردت آثار
متعددة توضح ما اشتملت عليه هذه الآية الكريمة من نعم جليلة ، ومن ذلك ما
جاء عن ابن عباس أنه قال : نزل النبى - صلى الله عليه وسلم - يغنى حين سار
إلى بدر - والمسلمون بينهم وبين الماء رملة دعصة - أى كثيرة مجتمعة - فأصاب
المسلمين ضعف شديد ، وألقى الشيطان فى قلوبهم الغيظ ، فوسوس بينهم ، تزعمون
أنكم أولياء الله وفيكم ورسوله ، وقد غلبكم المشركون على الماء ، وأنتم
، تصلون مجنبين؟ فأمطر الله عليهم مطرا شدديا ، فشرب المسلمون وتطهروا
وأذهب الله عنهم رجز الشيطان وثبت الرمل حين أصابه المطر ، ومشى الناس عليه
والدواب ، فاسروا إلى القوم ..وعن عروة بن الزبير قال : بعث الله السماء
وكان الوادى دهساً فاصاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه مالبد
لهم الأرض ولم منعهم من المسير ، وأصاب قريشا ما لم يقدروا على أن يرحلوا
معه .ومن هذا القول المنقول عن عروة - رضى الله عنه - نرى أن المطر كان
خيراً للمسلمين ، وكان شراً على الكافرين ، لأن المسلمين كانوا فى مكان
. يصلحه المطر ، بينما كان المشركون فى مكان يؤذيهم فيه المطر

اذ يوحي ربك الى الملائكة اني معكم فثبتوا الذين امنوا سالقي في قلوب الذين
كفروا الرعب فاضربوا فوق الاعناق واضربوا منهم كل بنان

كما فسرها الوسيط ثم ذكرهم بنعمة أخرى كان لها اثرها العظيم فى نصرهم على المشركين فقال - سبحانه - : ( إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الملائكة أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الذين آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الذين كَفَرُواْ الرعب فاضربوا فَوْقَ الأعناق واضربوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ) والبنان : - كما يقول القرطبى - واحده بنانه . وهى هنا الأصابع وغيرها من الأعضاء . . وهو - أى البنان - مشتق من قولهم أبّن الرجل بالمكان إذا أقام به . فالبنان يُعتَملُ به ما يكون للإقامة والحياة . وقيل : المراد بالبنان هنا أطراف الأصابع من اليدين والرجلين ، وهو عبارة عن الثبات فى الحرب وموضع الضرب ، فإذا ضربت البنان تعطل من المضروب القتال بخلاف سائر الأعضاء . .وذكر بعضهم أنها سميت بنانا لأن بها صلاح الأحوال التى بها يستقر الإنسان . .والمعنى : واذكر - أيها الرسول الكريم - وقت أن أوحى ربك إلى الملائكة الذين أمد بهم المسلمين فى بدر ( أَنِّي مَعَكُمْ ) أى بعونى وتأييدى ( فَثَبِّتُواْ الذين آمَنُواْ ) أى فقووا قلوبهم ، واملأوا نفوسهم ثقة بالنصر ، وصححوا نياتهم فى القتال حتى غايتهم إعلا كلمة الله .قال الآلوسى : والمراد بالتثبيت : الحمل على الثبات فى موطن الحرب والجد فى مقاساة شدائد القتال . وكان ذلك هنا - فى قوله - بظهورهم لهم فى صورة بشرية يعرفونها ، ووعدهم إياهم النصر على أعدائهم ، فقد أخرج البيهقى فى الدلائل أن الملك كان يأتى الرجل فى صورة الرجل يعرفه فيقول له : أبشروا فإنهم ليسوا بشئ ، والله معكم . كروا عليهم .وقال الزجاج : كان بأشياء يلقونها فى قلوبهم تصح بها عزائمهم ويتأكد جدهم . وللملك قوة إلقاء الخير فى القلب - ويقال له إلهام ، كما أن للشيطان قوة إلقاء الشر ويقال له وسوسة .وقوله تعالى - : ( سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الذين كَفَرُواْ الرعب ) بشارة عظيمة - للمؤمنين .أى : سأملأ قلوب الكافرين بالخوف والفزع منكم - أيها المؤمنون وسأقذف فيها الهلع والجزع حتى تتمكنوا منهم .والرعب : انزعاج النفس ، وخوفها من توقع مكروه ، وأصله التقطيع من قولهم : رعبت السنام ترعيبا إذا قطعته مستطيلا ، كأن الخوف يقطع الفؤاد .وقوله : ( فاضربوا فَوْقَ الأعناق واضربوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ) الخطاب فيه للمؤمنين ، وقيل ، للملائكة والمراد بما فوق الأعناق الرءوس كما روى عن عطاء وعكرمة . أو المراد بها . الأعناق ذاتها فتكون فوق بمعنى : على وهو قول أبى عبيدة .ويرى صاحب الكشاف أن المراد بما فوق الأعناق : أعالى الأعناق التى هى المذابح ، لأنها مفاصل فكان إيقاع الضرب فيها جزا وتطييرا للرءوس .والمراد بالبنان - كما سبق أن - بينا - الأصابع أو مطلق الأطراف .والمعنى : لقد أعطيتكم - أيها المؤمنون ، من وسائل النصر ما أعطيتكم ، فهاجموا أعدائى واعداءكم بقوة وغلظة واضربوهم على أعناقهم ورءوسهم ومواضع الذبح فيهم . واضربوهم على كل أطرافهم حتى تشلوا حركتهم ، فيصبحوا عاجزين عن الدفاع عن أنفسهم .

ذلك بانهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فان الله شديد العقاب

كما فسرها الوسيط ثم بين سبحانه - السبب فى تكليفه المؤمنين بمجاهدة الكافرين والإغلاظ عليهم وقتلهم .فقال - تعالى - ( ذلك بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ الله وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ الله وَرَسُولَهُ فَإِنَّ الله شَدِيدُ العقاب ) .فاسم الإشارة ( ذلك ) يعود إلى ما سبق بيانه من تأييد المؤمنين ، وأمرهم بضرب الكافرين . . وهو فى محل رفع على الابتداء . وقوله خبره . والباء للسببية .وقوله : ( شَآقُّواْ ) من المشاقة ( بِأَنَّهُمْ ) بمعنى المخالفة والمعاداة مشتقة من الشق - أى الجانب - فكل واحد من المتعاديين أو المتخالفين صار فى شق غير شق صاحبه .والمعنى : ذلك الذى ذكره ، الله - تعالى - فيما سبق ، من تأييده للمؤمنين وأمره إياهم بضرب الكافرين سببه أن هؤلاء الكافرين ( شَآقُّوا الله وَرَسُولَهُ ) أى : عاد وهما وخالفوا شرعهما : ( وَمَن يُشَاقِقِ الله وَرَسُولَهُ ) بأن يسير فى غير الطريق الذى أمرا به ، ( فَإِنَّ الله شَدِيدُ العقاب ) لهذا المادى والمخالف .قال الآلوسى : وقوله : ( فَإِنَّ الله شَدِيدُ العقاب ) إما نفس الجزاء ، وقد حذف منه العائد عند من يكتفى ولا يلتزم بالعائد فى الربط . أى - شديد العقاب له . أو قائم مقام الجزاء المحذوف أى : يعاقبه الله : تعالى - فإن الله شديد العقاب . وأياما كان فالشرطية بيان للسببية السابقة - بطريق برهانى . كأنه قيل : ذلك العقاب الشديد المشاقة لله - تعالى ، ولرسوله - صلى الله عليه وسلم - وكل من يشاقق الله ورسوله كائنا من كان . فله بسبب ذلك عقاب شديد ، فإن لهم بسبب مشاقة الله ورسوله عقابا شديدا

ذلكم فذوقوه وان للكافرين عذاب النار

كما فسرها الوسيط ثم يوجه - سبحانه - خطابه على سبيل الالتفات لأولئك الذين شاقوا الله ورسوله ، متوعدا إياهم بسوء المصير فيقول : ( ذلكم فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النار ) فاسم الإشارة ( ذلكم ) يعود إلى ما سبق بيانه من تأييد المؤمنين ، وخذلان الكافرين وإنزال العقوبة بهم .أى

ذلكم الذى نزل بكم - أيها الكافرون - من القتل والأسر فى بدر ، هو العقاب المناسب لطغيانكم وشرككم وعنادكم ، فذوقوا آلامه ، وتجرعوا غصصه ، وعيشوا فى مذلته .هذا فى الدنيا ، أما فى الآخرة فلكم عذاب النار الذى هو أشد وأبقى من عذاب الدنيا . فاتركوا الكفر ، وادخلوا فى الإيمان لتنجوا من العذاب وتنالوا الثواب .قال الجمل ما ملخصه وقوله : ( ذلكم فَذُوقُوهُ . . ) يجوز فيه وجوه من الأعراب أحدها أن يرفع بالابتداء والخبر محذوف أى ( ذلكم العقاب . الثانى : أن يرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أى : العقاب ذلكم أو الأمر ذلكم وعلى هذين الوجهين يكون قوله ( فَذُوقُوهُ )لا تعلق له بما قبله من جهة الاعراب فهو مستأنف ، والوقف يتم على قوله : ( ذلكم ) الثالث : أن يرتفع بالابتداء . والخبر قوله ( فَذُوقُوهُ ) وهذا على رأى الأخفش وقوله ( وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النار ) معطوف على قوله ( ذلكم ). أو منصوب على أنه مفعول معه ، والمعنى : ذوقوا ما عجل لكم مع ما أجل لكم فى الآخرة ، ووضع الظاهر فيه موضع المضمر - بأن قال ( فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ ) ولم يقل فذوقوه وأن لكم - للدلالة على أن الكفر سبب للعذاب الآجل أو للجمع بينهما .ومن هذا نرى أن تلك الآيات الكريمة قد ذكّرت المؤمنين الذين اشتركوا فى غزوة بدر بألوان من نعم الله عليهم ، وبأنواع من البشارات التى كانت تدل على أن النصر سيكون لهم .1- ذكّرتهم بوعد الله لهم - بأن إحدى الطائفتين : العير أو النفير ستكون لهم ، وقد وفى لهم - سبحانه - بوعده ، حيث جعل النصر لهم ، ومن أوفى بعهده من الله؟2- وذكرتهم بإجابة الله لدعائهم ، حيث أمدهم بألف من الملائكة مردفين .3- وذكرتهم بالنعاس الذى ألقاه - سبحانه - عليهم قبل المعركة ، ليكون أماناً لهم ، وراحة لأبدانهم .4- وذكرتهم بنزول المطر عليهم من السماء ليكون طهارة ظاهرية وباطنية لهم ، وليكون طمأنينة لقلوبهم ، وتثبيتاً لأقدامهم .5- وذكرتهم بأمر الله لملائكته أن يثبتوهم ، بأن يغرسوا فى قلوبهم الثقة فى نصر الله لهم ، والاستهانة بقوة أعدائهم .6- وذكرتهم بما ألقاه - سبحانه - فى قلوب الكافرين من رعب وفزع وجزع ، جعلهم ينهزمون أمامهم .7- وذكرتهم بأن ما أصاب أعداء الله وأعداءهم من قتل وأسر وخسران كان سببه كفرهم وعنادهم وإيثارهم سبل الغى على سبيل الرشد ، وأنهم - إذا استمروا فى كفرهم - فسيلقون فى الآخرة عذاباً أشد وأبقى مما نزل فى الدنيا .ولا شك أن هذا التذكير من مقصاد الأساسية حض المؤمنين على الاستجابة لله ولرسوله : وعلى مداومة الشكر لخالقهم ، فهو - سبحانه - الذى منحهم هذه النعم الجزيلة التى تمكنوا معها من رقاب أعدائهم ، وهو الذى جعلهم يغنمون كل هذه الغنائم بعد أن خرجوا من ديارهم بلا مال ولا ظهر ولا عتاد .هذا ، ومن الخير قبل أن ننقل من هذه الآيات إلى غيرها ، أن نتكلم بشئ من التفصيل عن مسألة كثر الحديث عنها وهذه المسألة هى : ماذا كانت وظيفة الملائكة فى بدر؟ أكانت وظيفتهم تثبيت المؤمنين فحسب أم أنهم بجانب هذا التثبيت قاتلوا فعلا؟ إننا بمطالعتنا لما كتبه الكاتبون عن هذه المسألة نراهم فى كتابهم ينقسمون إلى ثلاثة أقسام ): أ ) أما القسم الأول منهم ، فيرى أن الملائكة فى غزوة بدر لم تكن وظيفتهم التثبيت فحسب ، وإنما هم قاتلوا مع المؤمنين فعلا ، ويستدلوا على ذلك بأدلة من أهمها :1- ما جاء عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه بينما رجل من المسلمين يشتد فى إثر رجل من المشركين أمامه .إذ سمع ضربة بالوسط فوقه وقائلا يقول : أقدم حيزوم ، فخر المشرك مستلقيا فنظر إليه فإذا هو قد حطم وشق وجهه . فجاء فحدث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة .2- وجاء عنه أنه قال - أيضاً - : كانت سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيضاء ، ويوم أحد عمائم خضراء ، ولم تقاتل الملائكة فى يوم سروى بدر وكانوا فيما سواه عددا ومددا .3- وعن أبى داود المزنى قال : تبعت رجلا من المشركين لأضربه يوم بدر . فوقع رأسه بين يدى قبل أن يصل إليه سيفى .4- وروى عن عبد الله بن مسعود أن أبا جهل سأله يوم بدر : من أين كان ذلك الصوت الذى كنا نسمعه ولا نرى شخصاً؟ فقال : من الملائكة ، فقال له أبو جهل : هم إذن غلبونا لا أنتم .5- وقال القرطبى : وتظاهرت الروايات بأن الملائكة حضرت يوم بدر وقاتلت . ومن ذلك قول أبى أسيد مالك بن ربيعة وكان شهد بدراً : لو كانت معكم الآن ببدر ومعى بصرى لأريتكم الشعب - أى الطريق فى الجبل - الذى خرجت منه الملائكة .لا أشك ولا أمارى . وعن سهل بن حنيف قال لقد رأيتنا يوم بدر إن أحدنا يشير بسيفه إلى راس المشرك فتقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه .هذه أهم الروايات التى استند إليها العلماء الذين يرون أن الملائكة قد قاتلوا مع المؤمنين يوم بدر ، وعلى رأس هؤلاء العلماء القرطبى ، فهو يرى أن هذا هو الصحيح وأنه رأى الجمهور .( ب ) أما القسم الثانى من العلماء فيرى أن الملائكة لم تقاتل يوم بدر ، وإنما كانت وظيفتهم تثبيت المؤمنين فى المعركة ، وتقوية أرواحهم وقلوبهم ، واستدلوا على ذلك بأدلة من أهمها :1- أنه ليس فى الآيات القرآنية التى تحدثت عن غزوة بدر آية واحدة صريحة فى أن الملائكة قد قاتلت بالفعل ، وإنما هى صريحة فى أن الله تعالى - قد أمد المؤمنين بالملائكة ، وجعل هذا الإمداد بشارة لهم .قال الآلوسى عند تفسيره لقوله - تعالى - : ( وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى ) وفى الآية إشعار بأن الملائكة لم يباشروا قتالا ، وهو مذهب لبعضهم . ويشعر

ظاهرها بأن النبى - صلى الله عليه وسلم - أخبرهم بذلك الإمداد ، وفى
- الأخبار ما يؤدي ذلك .بل جاء فى غير ما خبر أن الصحابة رأوا الملائكة
عليهم السلام - .2- أن بعض الآيات القرآنية التى تحدثت عن غزوة بدر قد وضحت
وظيفة الملائكة توضيحاً تاماً ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ( إِذْ يُوحِي
رَبُّكَ إِلَى الملائكة أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الذين آمَنُواْ
سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الذين كَفَرُواْ الرعب فاضربوا فَوْقَ الأعناق
واضربوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ) .قال ابن جرير فى معنى ( فَثَبِّتُواْ
الذين آمَنُواْ ) قووا عزمهم ، وصححوا نياتهم فى قتال أعدائهم من المشركين
: وقال فى معنى قوله - تعالى - ( فاضربوا فَوْقَ الأعناق . . . ) . .
والصواب من القول فى ذلك أن يقال إن الله أمر المؤمنين معلما إياهم كيفية
قتل المشركين وضربهم بالسيف ، أن يضربوا فوق الأعناق منهم والأيدى والأرجل
وقال الفخر الرازى : قوله ( فاضربوا فَوْقَ الأعناق ) فيه وجهان : الأول . .
أنه أمر للملائكة متصل بقوله - تعالى - ( فَثَبِّتُواْ ) . وقيل : بل أمر :
للمؤمنين ، وهذا هو الأصح لما بينا أنه - تعالى - ما أنزل الملائكة لأجل
المقاتلة والمحاربة . .3- أن الروايات التى استند إليها من قال بأن
الملائكة قالت مع المؤمنين فى بدر لم ترد فى كتب السنة المعتمدة ، بل لم
. يذكر معظمها الإمام ابن جرير مع علمنا باهتمامه بالمرويات فى تفسيره
وفضلا عن ذلك فإن أكثر هذه الروايات لم تصرح بأن الملائكة قد قاتلت . فمثلا
رواية أبى داود المازنى لم تصرح بأن المشرك الذى أارد هو أن يقتله قد قتله
ملك . وكذلك الحال بالنسبة لروايتى أبى أسيد وسهيل بن حنيف وأما قول أبى
جهل لابن مسعود : " هم إذن غلبونا - يعنى الملائكة -لا أنتم ، فنرجح أنه
من باب التبرير والمغالطة . فهو يريد أن ينفى - حقداً منه وعناداً - قوة
- المؤمنين الذين صرعوا أمثاله من الطغاة . . " .والخلاصة أن معظم الروايات
مع ضعفها - لم تصرح بأن الملائكة قد قاتلوا مع المؤمنين يوم بدر .4- استبعد
كثير من العلماء اشتراك الملائكة فى القتال ، ومن هؤلاء العلماء الإمام
أبو بكر الأصم فقد قال :" إن الملك الواحد يكفى فى إهلاك أهل الأرض كما فعل
جبريل بمدائن قوم لوط . فإذا حضر هو يوم بدر - وجميع الروايات تذكر أنه كان
على رأس الملائكة - فأى حاجة إلى مقاتلة الناس مع الكفار؟ بل أى حاجة حينئذ
إلى إرسال سائر الملائكة؟ وأيضاً فإن أكابر الكفار كانوا مشهورين ، وقاتل
كل منهم من الصحابة معلوم .وأيضاً لو قاتلوا فإما أن يكونوا بحيث يراهم
الناس أوْلا . . وعلى الأول يكون المشاهد من عسكر الرسول ثلاثة آلاف وأكثر
، ولم يقل أحد بذلك . . وعلى الثانى كان يلزم جز الرءوس ، وتمزيق البطون ،
وغسقاط الكفارمن غير مشاهدة فاعل ، ومثل هذا من أعظم المعجزات ، فكان يجب
أن يتواتر ويشتهر بين المسلم والكافر والموافق والمخالف . . .وقال صاحب
المنار : مقتضى السياق أن وحى الله للملائكة ( وَمَا جَعَلَهُ الله إِلاَّ
بشرى ) إلخ .وقوله - تعالى - ( سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الذين كَفَرُواْ
الرعب . . ) إلخ بدء كلام خوطب به النبى - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنون
تتمة للبشرى . فيكون الأمر بالضرب موجهاً إلى المؤمنين قطعاً ، وعليه
المحققون الذين جزموا بأن الملائكة لم تقاتل يوم بدر تبعاً لما قبله من
الآيات .ثم قال : وفى كتب السير وصف للمعركة علم منه القاتلون والآسرون
لأشد المشركين بأسا ، فهل تعارضه ذه البينات النقلية بروايات لم يرها شيخ
المفسرين ابن جرير حرية بأن تنقل .كفانا الله شر هذه الروايات الباطلة التى
- شوهت التفسير وقلبت الحقائق ، حتى إنها خالفت نص القرآن نفسه فالله
تعالى - يقول فى إمداد الملائكة ( وَمَا جَعَلَهُ الله إِلاَّ بشرى
وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ . . . ) وهذه الروايات تقول بل جعله
مقاتلة . وإن هؤلاء السبعين الذين قتلوا من المشركين لم يمكن قتلهم إلا
باجتماع ألف أو ألوف من الملائكة عليهم مع المسلمين الذين خصهم الله بما
، ذكر من أسباب النصر المتعددة .ألا إن فى هذا من تعظيم شأن المشركين
، وتكبير شجاعتهم وتصغير شأن أفضل أصحاب الرسول وأشجعهم مالا يصدر عن عاقل
إلا وقد سلب عقله لتصحيح روايات باطلة لا يصح لها سند ، ولم يرفع منها إلا
حديث مرسل عن ابن عباس ذكره الآلوسى وغيره بغير سند . وابن عباس لم يحضر
غزوة بدر لأنه كان صغيرا ، فرواياته عنها حتى فى الصحيح مرسله . .هذه أهم
الأدلة التى استند إليها القائلون بأن الملائكة لم تقاتل يوم بدر ، وإنما
كانت وظيفتهم تثبيت المؤمنين ، وتقوية عزائمهم . وتصحيح نياتهم .( ج ) أما
القسم الثالث من العلماء الذين كتبوا فى هذه المسألة ، فمنهم الذى اكتفى
بسرد الآراء دون أن يرجح بينها ، ومن هؤلاء صاحب الكشاف ، فقد قال :فإن قلت
هل قاتلت الملائكة يوم بدر؟ قلت : اختلف فيه . فقيل : نزل جبريل فى يوم :
بدر فى خمسمائة ملك على الميمنة وفيها أبو بكر ، وميكائيل فى خمسمائة على
الميسرة وفيها على بن أبى طالب فى صورة الرجال . فقاتلت . وقيل : قاتلت يوم
بدر ولم تقاتل يوم الأحزاب . . وقيل : لم يقاتلوا وإنما كانوا يكثرون
السواد ، ويثبتون المؤمنين ، وإلا فملك واحد كاف فى إهلاك أهل الدنيا كلهم
ومنهم الذى يرى أن البحث فى تفاصيل أمثال هذه المسائل ليس من الجد الذى. .
هو طابع هذه العقيدة ، ومن هؤلاء صاحب " فى ظلال القرآن " فقد قال ما ملخصه
تروى روايات كثيرة مفصلة عن الملائكة فى يوم بدر : عددهم وطريقة ":

مشاركتهم فى المعركة . وما كانوا يقولونه للمؤمنين مثبتين ، وما كانوا
يقولونه للمشركين مخذلين . ونحن - على طريقتنا فى الظلال - نكتفى فى مثل
، هذا الشأن من عوالم الغيب بما يرد فى النصوص المتيقنة من قرآن أو سنة
والنصوص القرآنية هنا فيها الكفاية : ( إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ
فاستجاب لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ الملائكة . ) فهذا
عددهم ( إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الملائكة أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ
الذين آمَنُواْ . . ) فهذا عملهم . ولا حاجة إلى التفصيل وراء هذا فإن فيه
الكفاية . وبحسبنا أن تعلم أن الله لم يترك العصبة المسلمة وحدها فى ذلك
اليوم ، وهى قلة والاعداء كثرة ، وأن أمر هذه العصبة وأمر هذا الدين قد
شارك فيه الملأ الأعلى مشاركة فعلية على النحو الذى يصفه الله سبحانه فى
كلماته . . إننا نؤمن بوجود خلق أسماهم الملائكة ، ولكنا لا ندرك من
طبيعتهم إلا ما أخبرنا به خالقهم عنهم ، فلا نملك من إدراك الكيفية التى
. اشتركوا بها في نصرة المسلمين يوم بدر إلا بمقدار ما يقرره النص القرآنى
-. وقد أوحى إليهم ربهم : أنى معكم . وأمرهم أن يثبتوا الذين آمنوا ففعلوا
لأنهم يفعلون ما يؤمرون - ولكننا لا ندرى كيف فعلوا .إن البحث التفصيلى فى
كيفيات هذه الأفعال كلها ليس من الجد الذى هو طابع هذه العقيدة . وطابع
الحركة الواقعية بهذه العقيدة ولكن هذه المباحث صارت من باحث الفرق
الإسلامية ومباحث علم الكلام فى العصور المتأخرة ، عندما فرغ الناس من
الاهتمامات الإيجابية فى هذا الدين ، وتسلط الترف العقلى على النفوس
والعقول . وإن وقفة أمام الدلالة الهائلة لمعية الله - سبحانه - للملائكة
. فى المعركة ، واشتراك الملائكة فيها مع العصبة المسلمة لهى أنفع واجدى
وبعد فهذه أهم الأقوال التى قالها العلماء فى مسألة وظيفة الملائكة فى بدر.
بسطنا بشئ من التفصيل لتتضح آراؤهم فيها .والذى نراه بعد كل ذلك : أن ،
أقرب الأقوال إلى الصواب ، هو القول الذى ذهب أصحابه إلى أن الملائكة فى
بدر لم تقاتل ، وإنما كانت وظيفتهم تثبيت وتقوية عزائم المؤمنين . . . وذلك
- لما سبق أن بيناه من أدلة وحجج - والله أعلم بالصواب .وبعد أن بين
. سبحانه - بعض البشارات والنعم التى ساقها للمؤمنين الذين اشتكروا فى بدر

يا ايها الذين امنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الادبار

كما فسرها الوسيط وجه - سبحانه - نداء إليهم أمرهم فيه بالثبات فى وجوه
أعدائهم ، وذكرهم بجانب من مننه عليهم .فقال - تعالى - : ( يَآأَيُّهَا
الذين . . . مَعَ المؤمنين ) .قوله - سبحانه - ( زَحْفاً ) : مصدر زحف
وأصله للصبى ، وهو ان يزحف على إسته قبل أن يمشى . ثم أطلق على الجيش
الكثيف المتوجه لعدوه لأنه لكثرته وتكاتفه يرى كأن جسم واحد يزحف ببطء وإن
كان سريع السير .قال الجمل : وفى المصباح : زحف القوم زحفا وزحوفا . ويطلق
على الجيش الكثير زحف تسمية بالمصدر والجمع زحوف مثل فلس وفلوس . ونصب قوله
على أنه حال من المفعول وهو ( الذين كَفَرُوا ) أى إذا ( زَحْفاً ) :
- لقيتم الذين كفروا حال كونهم زاحفين نحوكم .والأدبار : جمع دبر - بضمتين
وهو الخلف ، ومقابله القبل وهو الأمام ، ويطلق لفظ الدبر على الظهر وهو
المراد هنا .والمعنى : يا أيها الذين آمنوا بالله إيمانا حقا ( إِذَا
لَقِيتُمُ الذين كَفَرُواْ ) زاحفين نحوكم لقتالكم ( فَلاَ تُوَلُّوهُمُ
الأدبار ) أى . فلا تفروا منهم ، ولا تولوهم ظهوركم منهزمين ، بل قابلوهم
بقوة وغلظة وشجاعة ، فإن من شأن المؤمن أن يكون شجاعا لا جبانا ، ومقبلا
غير مدبر .فالمراد من تولية الأدبار : الانهزام ، لأن المنهزم يولى ظهره
، وقفاه لمن انهزم منه . وعدل من لفظ الظهور إلى الأدبار ، تقبيحا للانهزام
. وتنفيرا منه ، لأن القبل والدبر يكنى بهما عن السوءتين

ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال او متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من
الله وماواه جهنم وبئس المصير

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن تولية الأدبار محرمة إلا فى حالتين
فقال - تعالى - : ( وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ
مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إلى فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ
) : بِغَضَبٍ مِّنَ الله وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المصير ) .وقوله
مُتَحَرِّفاً ) من التحرف بمعنى الميل والانحراف من جهة إلى جهة بقصد
المخادعة فى القتال وهو منصوب على الحالية .وقوله ( أَوْ مُتَحَيِّزاً إلى
فِئَةٍ ) من التحيز بمعنى الانضمام . تقول : حزت الشئ أحوزه إذا ضممته إليك
وتحوزت الحية أى انطوت على نفسها .والفئة : الجماعة من الناس . سميت بذلك .
لرجوع بعضهم إلى بعض فى التعاضد والتناصر . من الفئ بمعنى الرجوع إلى حالة
: محمودة .والمعنى : أن تولية الأدبار محرمة إلا فى حالتين :الحالة الأولى
أن يكون المؤمن عند توليته منحازا إلى جماعة أخرى من الجيش ومنضما إليها
للتعاون معها على القتال ، حيث إنها فى حاجة إليه .وهذا كله من أبواب خدع
الحرب ومكايدها .وقد توعد - سبحانه - الذى ينهزم أمام الأعداء فى غير هاتين

الحالتين بقوله : ( فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ الله وَمَأْوَاهُ جَهَنّمُ وَبِئْسَ المصير ) .أى : ومن يول الكافرين يوم لقائهم دبره غير متحرف ولا متحيز فقد رجع متلبسا بغضب شديد كائن من الله - تعالى - ومأواه الذى يأوى إليه فى الآخرة جهنم وبئس المصير هى .وقوله : ( فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ الله . . . ) جواب الشرط لقوله ، ومن يولهم .هذا ، ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هاتين الآيتين ما يأتى :1- وجوب مصابرة العدو ، والثبات فى وجهه عند القتال ، وتحريم الفرار منه .قال الآلوسى : فى الآية دلالة على تحريم الفرار من الزحف على غير المتحرف أو المتحيز . أخرج الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : " اجتنبوا السبع الموبقات - أى المهلكات - قالوا : يا رسول الله وما هن قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات " .ثم قال : وجاء وعد - التولى الزحف - من الكبائر فى غير ما حديث .2- أن الخطاب فى الآيتين لجميع المؤمنين وليس خاصاً بأهل بدر . قال الفخر الرازى ما ملخصه : اختلف المفسرون فى أن هذا الحكم - وهو تحريم التولى أمام الزحف - هل هو مختص بيوم بدر أو هو حاصل على الإطلاق؟فنقل عن أبى سعيد الخدرى والحسن وقتادة والضحاك أن هذا الحكم مختص بمن كان انهزم يوم بدر . قالوا : والسبب فى اختصاص بدر بهذا الحكم أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان حاضراً يوم بدر . . وأنه - سبحانه - شدد الأمر على أهل بدر ، لأنه كان أول الجهاد ، ولو اتفق للمسلمين انهزام فيه لزم منه الخلل العظيم .والقول الثانى : أن الحكم المذكور فى هذه الآية كان عاماً فى جميع الحروب بديل أن قوله - تعالى - ( يَآأَيُّهَا الذين آمنوا إِذَا لَقِيتُمُ الذين كَفَرُواْ ) عام فيتناول جميع الصور . أقصى ما فى الباب أنه نزل فى واقعة بدر ، لكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .وهذا القول الثانى هو الذى نرجحه ، لأن ظاهر الآية يفيد العموم لكل المؤمنين فى كل زمان ومكان ، ولأن سورة الأنفال كلها قد نزلت بعد الفراغ من غزوة بدر لا قبل الدخول فيها .3- أن الآيتين محكمتان وليستا منسوختين . أى أن تحريم التولى يوم الزحف على غير المتحرف أو لمتحيز ثابت لم ينسخ .وقد رجح ذلك الإمام ابن جرير فقال ما ملخصه : " سئل عطاء بن أبى رباح عن قوله ( وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ ) فقال : هذه الآية منسوخة بالآية التى فى الأنفال بعد ذلك وهى قوله - تعالى - : ( الآن خَفَّفَ الله عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِن يَكُنْ مِّنكُمْ مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ . . . ) وليس لقوم أن يفروا من مثليهم .وقال آخرون بل هذه الآية حكمها عام فى كل من ولى الدبر عن العدو منهزما .وأولى : التأويلين بالصواب فى هذه الآية عندى : قول من قال : حكمها محكم ، وأنها نزلت فى أهل بدر . وحكمها ثابت فى جميع المؤمنين . وأن الله حرم على المؤمنين إذا لقوا العدو أن يولوهم الدبر منهزمين إلا لتحرف القتال ، أو التحيز إلى فئة من المؤمنين ، حيث كانت من أرض الإسلام ، وأن من ولادهم الدبر بعد الزحف لقتال منهزما - بغير نية إحدى الخلتيين اللتين أباح الله التولية بهما - فقد استوجب من الله وعيده ، إلا أن يتفضل عليه بعفوه .وإنما قلنا : هى محكمة غير منسوخة ، لما قد بينا فى غير موضع ، أنه لا يجوز أن يحكم لحكم آية بنسخ وله فى غير النسخ وجه ، إلا بحجة التسليم لها : من خبر يقطع العذر ، أو حجة عقل ، ولا حجة من هذين المعنيين تدل على نسخ حكم قوله - تعالى - ( وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إلى فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ الله ) .

فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى وليبلي المؤمنين منه بلاء حسنا ان الله سميع عليم

كما فسرها الوسيط ثم بين لهم - سبحانه - بعض مظاهر فضله عليهم ليزدادوا شكراً له ، وطاعة لأمره فقال - تعالى - : ( فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ ولكن الله قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ولكن الله رمى وَلِيُبْلِيَ المؤمنين مِنْهُ بلاء حَسَناً إِنَّ الله سَمِيعٌ عَلِيمٌ ) .قال القرطبى : قوله - تعالى - : ( فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ ولكن الله قَتَلَهُمْ ) ، أى يوم بدر . روى أن أصحاب رسلو الله - صلى الله عليه وسلم لما صدروا عن بدر .ذكر كل واحد منهم ما فعل فقال : قتلت كذا ، وأسرت كذا ، فجاء من ذلك تفاخر ونحو ذلك . فنزلت الآية إعلاما بأن الله هو المميت والمقدر لجميع الأشياء ، وأن العبد إنما يشارك بكسبه وقصده . .وقال ابن كثير : قال على بن طلحة عن ابن عباس : " رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم - ، يديه - يعنى يوم بدر - فقال يا رب إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض أبدا ، فقال جبريل : " خذ " : قبضة من التراب فرمى بها فى وجوههم " فأخذ قبضة من التراب فرمى بها فى وجوههم " ، فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك - القبضة فولوا مدبرين .وقال السدى : " قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم

لعلى يوم بدر " أعطنى حصا من الأرض " فناوله حصا عليه تراب ، فرمى به فى وجوه القوم " ، فلم يبق مشرك إلا دخل فى عينيه من ذلك التراب شئ ، ثم ردفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم ، وأنزل الله : ( فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ ولكن الله قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ولكن الله رمى ) .وقال أبو معشر المدنى " عن محمد بن قيس ومحمد بن كعب القرظى قالا : لما دنا القوم بعضهم من بعض أخذ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قبضه من تراب فرمى بها فى جوه القوم وقال : " شاهت الوجوه " ، فدخلت فى أعينهم كلهم . وأقبل أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأنزل الله .( وَمَا رَمَيْتَ إِذْ ) - رَمَيْتَ ولكن الله رمى ) .وهناك روايات أخرى ذكرت أن قوله - تعالى وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ولكن الله رمى ) المقصود به رميه - صلى الله عليه وسلم - لأبى بن خلف يوم أحد ، أو رميه لكنانة بن أبى الحقيق فى غزوة خيبر ، أو رميه المشركين فى غزوة حنين .قال ابن كثير : وقد روى فى هذه القصة عن عروة ومجاهد وعكرمة وقتادة وغير واحد من الأئمة أنها نزلت فى رمية النبى - صلى الله عليه وسلم - يوم بدر . . وسياق الآية فى سورة الأنفال فى - قصة بدر لا محالة ، وهذا مما لا يخفى على أئمة العلم .والمعنى : إنكم - أيها المؤمنون - لم تقتلوا المشركين فى بدر بقوتكم وشجاعتكم ، ولكن الله ، تعالى - هو الذى أظفركم بحوله وقوته ، بأن خذلهم ، وقذف فى قلوبهم الرعب وقوى قلوبكم ، وأمدك بالملائكة ، ومنحكم من معونته ورعايته ما بلغكم هذا النصر .والفاء فى قوله : ( فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ . . ) يرى صاحب الكشاف أنها جواب شرط محذوف تقديره : إن افتخرتم بقتلهم فأنتم لم تقتلوهم ( ولكن الله قَتَلَهُمْ ) لأنه و الذى أنزل الملائكة ، وألقى الرعب فى قلوبهم ، وشاء النصر والظفر وأذهب عن قلوبكم الفزع والجزع .وقوله : ( وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ولكن الله رمى ) خطاب للنبى - صلى الله عليه وسلم بطريق التلوين .أى : ( وَمَا رَمَيْتَ ) بالرعب فى قلوب الأعداء ( إِذْ رَمَيْتَ فى وجوههم بالحصباء يوم بدر ( ولكن الله ) - تعالى - هو الذى ( رمى ) ( بالرعب فى قلوبهم فهزمهم ونصركم عليهم .أو المعنى : ما أوصلت الحصبا إلى أعينهم إذ رميتهم بها ، ولكن الله هو الذى أوصلها إليها .ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال عند تفسيره لهذه الجملة الكريمة : يعنى أن الرمية التى رميتها - يا محمد - لم ترمها أنت على الحقيقة ، لأنك لو رميتها ما بلغ أثرها إلا ما يبلغه أثر رمى البشر ، ولكنها كانت رمية الله ، حيث أثرت ذلك الأثر العظيم . . فأثبت الرمية لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأن - صورتها وجدت منه ، ونفاها عنه ، لأن أثرها الذى لا تطيقه البشر فعل الله عز وجل - ، فكان الله - تعالى - هو فاعل الرمية على الحقيقة ، وكأنها لم توجد من الرسول - صلى الله عليه وسلم - أصلا .وقال الآلوسى : واستدل بالآية على أن أفعال العباد بخلقه - تعالى - وإنما لهم كسبها ومباشرتها وقال الإمام : أثبت - سبحانه - كونه - صلى الله عليه وسلم - راميا ، فوجب حمله على أنه - صلى الله عليه وسلم - رمى كسبا ، والله - تعالى - رمى خلقا .فإن قيل : لماذا ذرك مفعول القتل منفياً ومثبتاً ولم يذكر للرمى مفعول قط؟فالجواب - كما يقول أبو السعود - : " أن المقصود الأصلى بيان حال الرمى نفيا وإثباتا ، إذ هو الذى ظهر منه ما ظهر ، وهو المنشأ لتغير المرمى به فى نفسه وتكثره إلى حيث أصاب عينى كل واحد من أولئك الأمة الجمة شئ من ذلك وقوله - سبحانه - : ( وَلِيُبْلِيَ المؤمنين مِنْهُ بلاء حَسَناً ) بيان. ) لبعض وجوه حكمته - سبحانه - فى خذلان الكافرين ، ونصر المؤمنين .وقوله ، لِيُبْلِيَ ) من البلاء بمعنى الاختبار . وهو يكون بالنعمة لإظهار الشكر كما يكون بالمحنة لإظهار الصبر . والمراد به هنا : الإحسان والنعمة والعطاء ، ليزداد المؤمنون شكراً لربهم لاذى وهبهم ما وهب من نعم .واللام للتعليل متعلقة بمحذوف مؤخر .والمعنى ، ولكى يحسن - سبحانه - إلى عباده المؤمنين ، وينعم عليهم بالنصر والغنائم ، ليزدادوا شكراً له ، فعل ما فعل من خذلان الكافرين وإذلالهم .وقوله ( إِنَّ الله سَمِيعٌ عَلِيمٌ ) تذييل قصد به الحض على طاعة الله ، والتحذير من معصيته ، أى : إن الله سميع لأقوالكم ودعائكم ، عليم بضمائركم وقلوبكم ، فاستبقوا الخيرات لتنالوا المزيد من رعايته ونصره .

ذلكم وان الله موهن كيد الكافرين

كما فسرها الوسيط ثم يقرر - سبحانه سنة من سننه التى لا تتخلف ، وهى تقوية الحق وتوهين الباطل . وليزداد المؤمنون إيمانا على إيمانهم ، وثباتا على ثباتهم فيقول : ( ذلكم وَأَنَّ الله مُوهِنُ كَيْدِ الكافرين ) .قال الإمام الرازى : قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ( موهن ) - بفتح الواو وتشديد الهاء والتنوين . من التوهين . تقول وهنت الشئ أى ضعفته - ، ( كيد ) بالنصب على المفعولية . وقرأ حفص عن عاصم ( موهن كيد ) بالإضافة . وقرأ الباقون ( موهن ) بالتخفيف ، - من أوهنه فأنا موهنه بمعنى أضعفته - ( وكيد ) بالنصب وتوهين الله كيدهم ومكرهم يكون بأشياء منها : إطلاع المؤمين على عوراتهم ، وإلقاء الرعب فى قلوبهم ، وتفريق كلمتهم .واسم الإشارة ( ذلكم )

يود إلى ما سبق من نعمة الإبلاء والقتل والرمى وغير ذلك من النعم . وهو
مبتدأ وخبره محذوف . وقوله : ( وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ ) معطوف عليه .المعنى
ذلكم الذى منحته إياكم من العطاء الحسن ، والقتل للمشركين ، والإمداد :
بالملائكة ، وإنزال الماء عليكم . ذلكم كله نعم منى إليكم ، ويضاف إلى ذلك
: كله أنه - سبحانه - مضعف لكيد الكافرين ومفسد لمكرهم بكم .قال ابن كثير
وهذه بشارة أخرى مع ما حصل من النصر ، فإنه أعلمهم بأنه مضعف كيد الكافرين
- فيما يستقبل ، مصغر أمرهم ، وأنهم فى تبار ودمار وبعد أن ذكر - سبحانه
عباده المؤمنين بما حباهم به من منن فى غزوة بدر ، ليستمروا على طاعتهم له
ولرسوله . . أتبع ذلك بتوجيه الخطاب إلى الكافرين الذين حملهم الرسوخ فى
- الكفر على أن يدعو الله أن يجعل الدائرة فى بدر على أضل الفريقين فقال
تعالى - : ( إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ الفتح وَإِن تَنتَهُواْ
فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنْكُمْ
فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنّ الله مَعَ المؤمنين
. )

ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وان تنتهوا فهو خير لكم وان تعودوا نعد ولن
تغني عنكم فئتكم شيئا ولو كثرت وان الله مع المؤمنين

كما فسرها الوسيط ( إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ الفتح وَإِن
تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ
عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنّ الله مَعَ المؤمنين
روى الإمام أحمد والنسائى والحاكم وصححه ، عن ثعلبة ، أن أبا جهل قال حين(
، التقى القوم - فى بدر - : اللهم أقطعنا للرحم ، وأتانا بما لا نعرفه
فأحنه - أى فأهلكه - الغداة . فكان المستفتح .وعن السدى أن المشركين حين
خرجوا من مكة إلى بدر أخذوا بأستار الكعبة فاستنصروا الله وقالوا : اللهم
) - انصر أهدى الجندين ، وأكرم الفئتين ، وخير القبيلتين . فقال - تعالى
إِن تَسْتَفْتِحُواْ . . . ) الآية .قال الراغب : وقوله : ( إِن
. . تَسْتَفْتِحُواْ ) أى : إن طلبتم الظفر ، أو طلبتم لافتاح أى الحكم
والفتح إزالة الإغلاق والإشكال . . ويقال : فتح القضية فتاحا ، أى فصل
الأمر فيها وأزال الإغلاق عنها . قال - تعالى - : ( وَكَانُواْ مِن قَبْلُ
يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الذين كَفَرُواْ فَلَمّا جَآءَهُمْ مّا عَرَفُواْ
كَفَرُواْ . . . ) والمعنى : إن تطلبوا الفتح أى : القضاء والفصل بينكم
وبين أعدائكم المؤمنين ( فَقَدْ جَآءَكُمُ الفتح ) أى : فقد جاءكم الفصل
والقضاء فيما طلبتم حيث حكم الله وقضى بينكم وبين المؤمنين ، بأن أعزهم
ونصرهم لأنهم على الحق ، وخذلكم وأذلكم لأنكم على الباطل .فالخطاب مسوق
- للكفارين على سبيل التهكم بهم ، والتوبيخ لهم ، حيث طلبوا من الله
تعالى - القضاء بينهم وبين المؤمنين ، والنصر عليهم ، فكان الأمر على عكس
، ما أرادوا حيث حكم الله فيهم بحكمه العادل وهو خذلانهم لكفرهم وجحودهم
وإعلاء كلمة المؤمنين ، لأنهم على الطريق القويم .وقوله : ( وَإِن
تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ) أى : وأن تنتهوا عن الكفر وعداوة الحق
يكن هذا الانتهاء خيراً لكم من الكفر ومحاربة الحق .وقوله : ( وَإِن ،
تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ
كَثُرَتْ . . . ) تحذير لهم من التمادى فى الباطل بعد ترغيبهم فى الانقياد
- للحق .أى : ( وَإِن تَعُودُواْ ) إلى محاربة الرسول - صلى الله عليه وسلم
والمؤمنين وعداوتهم ( نَعُدْ ) عليكم بالهزيمة والذلة . وعلى المؤمنين
بالنصر والعزة ، ولن تستطيع فئتكم وجماعتكم - ولو كثرت - أن تدفع عنكم شيأ
من تلك الهزيمة وهذه الذلة ، فإن الكثرة والقوة لا وزن لها ولا قيمة إذا لم
يكن الله مع أصحابها بعونه وتأييده .وقوله : ( وَأَنّ الله مَعَ المؤمنين
تذييل قصد به تثبيت المؤمنين ، وإلقاء الطمأنينة فى نفوسهم .أى : وأن (
الله مع المؤمنين بعونه وتأييده ، ومن كان الله معه فلن يغلبه غالب مهما
" بلغت قوته .قال الجمل : " قرأ نافع وابن عامر وحفص عن عاصم بفتح " أن
والباقون بكسرها فالفتح من أوجه :أحدها : أنه على لام العلة والمعلل تقديره
ولأن الله مع المؤمنين كان كيت وكيت .والثانى : أن التقدير : ولأن الله ،
مع المؤمنين امتنع عنادهم . والثالث أنه خبر مبتدأ محذوف . أى : والأمر أن
الله مع المؤمنين .والوجه الأخير يقرب فى المعنى من قراءة الكسر لأنه
استئناف .هذا وما جرينا عليه من أن الخطاب فى قوله - تعالى - ( إِن
تَسْتَفْتِحُواْ .. ) للمشركين هو رأى جمهور المفسرين .ومنهم من يرى أن
الخطاب فى الآية الكريمة للمؤمنين ، وعليه يكون المعنى : ( إِن
) تَسْتَفْتِحُواْ . . . ) أى تطلبوا - أيها المؤمنون - النصر على أعدائكم
). فَقَدْ جَآءَكُمُ الفتح ) أى : فقد جاءكم النصر من عند الله كما طلبتم
وَإِن تَنتَهُواْ ) أى عن المنازعة فى أمر الانفال ، وعن التكاسل فى طاعة
الله ورسوله ، ( فَهُوَ ) أى هذا الانتهاء ( خَيْرٌ لَّكُمْ ) .( وَإِن
تَعُودُواْ ) إلى المنازعات والتكاسل ( نَعُدْ ) عليكم بالإنكار وتهييج
الأعداء .( وَلَن تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ )
أى : ولن تفيدكم كثرتكم شيئاً مهما كثرت إن لم يكن الله معكم بنصره .وأن

الله - تعالى - مع المؤمنين الصادقين فى إيمانهم وطاعتهم له .والذى يبدو لنا أن كون الخطاب للكافرين أرجح ، لأن أسباب النزول تؤيده ، فقد سبق أن بينا أن الكافرين عند خروجهم إلى بدر تعلقوا بأستار الكعبة وقالوا : اللهم انصر اهدى الجندين . . وأن أبا جهل قال حين التقى القوم :اللهم أينا أقطع للرحم . . فأحنه الغداة . قال ابن جرير : فكان ذلك استفتاحه ، فأنزل الله فى ذلك ( إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ الفتح . . ) .ولعل مما يرجح أن الخطاب فى قوله - تعالى - ( إِن تَسْتَفْتِحُواْ . . . ) للكافرين ، أن بعض المفسرين - كابن جرير وابن كثير - ساروا فى تفسيرهم للآية على ذلك ، وأهملوا الرأى القائل بأن الخطاب للمؤمنين فلم يذكروه أصلا .أما صاحب الكشاف فقد ذكره بصيغة " وقيل " وصدر كلامه بكون الخطاب للكافرين فقال : قوله - تعالى - : ( إِن تَسْتَفْتِحُواْ . . ) خطاب لأهل مكة على سبيل التهكم . وذلك أنهم حين أرادوا أن ينفروا تعلقوا بأستار الكعبة وقالوا : اللهم انصر أقرانا للضيف ، وأوصلنا للرحم ، وأفكنا للعانى . . .وبذلك نرى هذه الآيات الكريمة التى افتتحت بنداء المؤمنين ، قد أمرتهم بالثبات عند لقاء الأعداء . . وبينت لهم جوانب من مظاهر فضل الله عليهم ، ورعايته لهم . وغربت المشركين فى الانتهاء عن شركهم وعن محاربتهم للحق ، وحذرتهم من التمادى فى باطلهم وطغيانهم . . وأخبرتهم فى ختامها بأن الله - تعالى - مع المؤمنين بتأييده ونصره .

يا ايها الذين امنوا اطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وانتم تسمعون

، كما فسرها الوسيط ثم وجهت السورة الكريمة نداء ثانياً إلى المؤمنين أمرتهم بطاعة الله ورسوله ، ونهتهم عن التشبه بالكافرين وأمثالهم من المنافقين .فقال - تعالى - : ( ياأيها الذين . . . وَّهُمْ مُّعْرِضُونَ ) والمعنى : يأيها الذين آمنوا حق الإيمان ، أطيعوا الله ورسوله فى كل أحوالكم ، ( وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ ) أى ولا تعرضوا عنه ، فإن فى إعراضكم عنه خسارة عظيمة لكم فى دنياكم وآخرتكم .قال الآلوسى : " وأعيد الضمير - إليه - صلى الله عليه وسلم - ، لأن المقصود طاعته ، وذكر طاعة الله تعالى - توطئة لطاعته ، وهى مستلزمة لطاعة الله - تعالى - ، لأنه مبلغ عنه " - فكان الراجع إليه - صلى الله عليه وسلم - كالراجع إلى الله - تعالى ، وقوله : ( وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ) جملة حالية مسوقة لتأكيد وجوب الانتهاء عن التولى مطلقا ، لا لتقييد النهى عنه بحال السماع .

ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون

كما فسرها الوسيط أى أطيعوا الله ورسوله - أيها المؤمنون - ولا تتولوا عنه والحال أنكم تسمعون القرآن الناطق بوجوب طاعته ، والمواعظ الزاجرة عن مخالفته وقوله : ( وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ ) تأكيد لما قبله ، ونهى لهم عن التشبه بالضالين .أى أطيعوا الله ورسوله فى كل أحوالكم عن إخلاص وإذعان ، ولا تقصروا فى ذلك فى وقت الأوقات ، وإياكم أن تتشبهوا بأولئك الكافرين والمنافقين الذين ادعوا السماع فقالوا سمعنا ، والحال أنهم لم يسمعوا سماع تدبر واتعاظ ، لأنهم لم يصدقوا ما سمعوه ، ولم يتأثروا به . بل نبذوه وراء ظهورهم .فالمنفى فى قوله - تعالى - ( وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ ) سماع خاص ، وهو سماع التدبر والاتعاظ ، لكنه جئ به على سبيل الإطلاق ، للإشعار بأنهم قد نزلوا من لم يسمع أصلا ، بجعل سماعهم بمنزلة العدم ، حيث إنه سماع لا وزن له ، ولا فائدة لهم من روائه ، مع أنهم لو فتحوا آذانهم وقلوبهم للحق لاستفادوا ، ولكنهم آثروا الغى على الرشد .

ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون

كما فسرها الوسيط ثم وصف - سبحانه - الكافر والمنافقين وأشباههم وصفاً يحمل العقلاء على النفور منهم ، فقال - تعالى - : ( إِنَّ شَرَّ الدوابِ عِندَ الله الصم البكم الذين لاَ يَعْقِلُونَ ) .والدواب : جمع دابة وهى كل ما يدب على الأرض . قال - تعالى - : ( والله خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي على بَطْنِهِ وَمِنهُمْ مَّن يَمْشِي على رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي على أَرْبَعٍ . . ) قال الجمل : " وإطلاق الدابة على الإنسان لما ذكروه فى كتب اللغة من أنها تطلق على كل حيوان ولو آدميا ، وفى المصباح : الدابة كل حيوان فى الأرض مميزا أو غير مميز " .وقد روى أن هذه الآيات نزلت فى نفر من بنى عبد الدار ، كانوا يقولون : نحن صم بكم عما جاء به محمد ، فقتلوا جميعا يوم بدر .وهذا لا يمنع أن الآية الكريمة يشمل حكمها جميع المشركين والمنافقين ، إذ العبرة بعموم اللفظ ، لا بخصوص السبب .والمعنى : إن شر ما يدب على الأرض ( عِندَ الله ) أى : فى حكمه وقضائه ، وهم أولئك : ( الصم ) عن سماع الحق ( البكم ) عن

النطق به ( الذين لاَ يَعْقِلُونَ ) أى لا يعلقون التمييز بينه وبين الباطل
ووصفهم - سبحانه - بذلك مع أنهم يسمعون وينطقون ، لأنهم لم ينتفعوا بهذه.
الحواس ، بل استعملوها فيما يضر ويؤذى ، فكان وجودها فيهم كعدمها .وقدم
الصمم على البكم ، لأن صممهم عن سماع الحق متقدم على بكمهم فإن السكوت عن
النطق بالحق من فروع عدم سماعهم له ، كما أن النطق به من فروع سماعه .وقوله
تحقيق لكمال سوء حالهم ، لأن الأصم الأبكم إذا ( الذين لاَ يَعْقِلُونَ )
كان له عقل ربما فهم بعض الأمور . . . أما إذا كان بجانب صممه وبكمه فاقد
العقل ، فإنه فى هذه الحالة يكون قد بلغ الغاية فى سوء الحال . .قال صاحب
المنار : وقوله : ( الذين لاَ يَعْقِلُونَ ) أى : فقدوا فضيلة العقل الذى
يميز بين الحق والباطل والخير والشر ، إذ لو عقولا لطلبوا ، ولو طلبوا
لسمعوا وميزوا ولو سمعوا لنطقوا وبينوا ، وتذكروا وذكروا . . فهم لفقدهم
منفعة العقل والسمع والنطق صاروا كالفاقدين لهذه المشاعر والقوى . . بل هم
شر من ذلك لأنهم اعطيت لهم المشاعر والقوى فأفسدوها على أنفسهم لعدم
استعمالها فيما خلقها الله لأجله ، فهم كما قال الشاعر :خُلِقوا ، وما
... خُلِقوا لمكرمة ... فكأنهم خلقوا وما خلقوارُزِقوا وما رزقوا سماح يد
فكأنهم رزقوا وما رزقواولم يصفهم هنا بالعمى كما وصفهم فى آية الأعراف
وآيتى البقرة ، لأن المقام هنا مقام تعريض بالذين ردوا دعوة الإسلام ، ولم
يهتدوا بسماع آيات القرآن .

ولو علم الله فيهم خيرا لاسمعهم ولو اسمعهم لتولوا وهم معرضون

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - ( وَلَوْ عَلِمَ الله فِيهِمْ خَيْراً
لأَسْمَعَهُمْ ) بيان لما جبلوا عليه من إيثار الغى على الرشد ، والضلالة
على الهداية .أى : ولو علم الله - تعالى - فى هؤلاء الصم والبكم ( خَيْراً
أى : استعدادا للإيمان ورغبة فيما يصلح نفوسهم وقلوبهم ( لأَسْمَعَهُمْ (
- سماع تفهم وتدبر ، أى : لجعلهم سامعين للحق ، ومستجيبين له ، ولكنه (
سبحانه - لم يعلم فيهم شيئا من ذلك ، فحجب خيره عنهم بسبب سوء استعدادهم
ولذا قال - تعالى - بعد ذلك : ( وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُمْ.
مُّعْرِضُونَ ) أى : ولو أمسعهم سماع تفهم وتدبر ، وهم على هذه الحالة
العارية من كل خير لتولوا عما سمعوه من الحق ( وَّهُمْ مُّعْرِضُونَ ) عن
قبوله جحودا وعنادا .قال الفخر الرازى : قوله - تعالى - : ( وَلَوْ عَلِمَ
الله فِيهِمْ خَيْراً لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ
وَّهُمْ مُّعْرِضُونَ ) أى : أن كل ما كان حاصلا ، فإنه يجب أن يعلمه الله
فعدم علم الله بوجوده من لوازم عدمه ، فلا جرم حسن التعبير عن عدمه فى ،
نفسه بعدم علم الله بوجوده ، وتقرير الكلام : لو حصل فيهم خير لأسمعهم الله
الحجج والمواعظ سماع تعليم وتفهم ، ولو أسمعهم بعد أن علم أنه لا خير فيهم
لم ينتفعوا به ، ولتولوا وهم معرضون .

يا ايها الذين امنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم واعلموا ان
الله يحول بين المرء وقلبه وانه اليه تحشرون

كما فسرها الوسيط ثم وجه - سبحانه - إلى المؤمنين نداء ثالثا أمرهم فيه
بالاستجابة لتعاليمه ، وحذرهم من الأقوال والأعمال التى تكون سبباً فى
. عذابهم ، وذكرهم بجانب من منته عليهم ، فقال - تعالى - : ( ياأيها الذين
لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ) .قال القرطبى : قوله - تعالى - ( ياأيها . .
الذين آمَنُواْ استجيبوا للَّهِ وَلِلرَّسُولِ . . ) هذا الخطاب للمؤمنين
المصدقين بلا خلاف ، والاستجابة :الإجابة . . . قال الشاعر :وداع داع يا
من يجيب إنى الندى ... فلم يستجبه عند ذاك مجيبأى : فلم يجبه عند ذاك مجيب
وكان الإمام القرطبى يرى أن السين والتاء فى قوله : " استجيبوا " زائدتان.
ولعل الأحسن من ذلك أن تكون السين والتاء للطلب ، لأن الاستجابة هى.
الإجابة بنشاط وحسن استعداد .وقوله ( لِمَا يُحْيِيكُمْ ) أى لما يصلحكم
من أعمال البر والخير والطاعة ، التى توصلكم متى تمسكتم بها إلى الحياة
الكريمة الطيبة فى الدنيا ، وإلى السعادة التى ليس بعدها سعادة فى الآخرة
وهذا المعنى الذى ذكرناه لقوله ( لِمَا يُحْيِيكُمْ ) أدق مما ذكره بعضهم.
، من أن المراد بما يحييهم القرآن ، أو الجهاد ، أو العلم . . إلخ .وذلك
لأن أعمال البر والخير والطاعة تشمل كل هذا .والمعنى :( ياأيها الذين
آمَنُواْ ) بالله حق الإيمان ، ( استجيبوا للَّهِ وَلِلرَّسُولِ ) عن
طواعية واختيار ، ونشاط وحسن استعداد ( إِذَا دَعَاكُم ) الرسول - صلى الله
عليه وسلم - ( لِمَا يُحْيِيكُمْ ) أى : إلى ما يصلح أحوالكم ، ويرفع
درجاتكم ، من الأقوال النافعة ، والأعمال الحسنة ، التى بالتمسك بها تحيون
) حياة طيبة : وتظفرون بالسعادتين : الدنيوية والأخروية .والضمير فى قوله
دَعَاكُم ) يعود إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأنه هو المباشر
- للدعوة إلى الله ، ولأن فى الاستجابة له استجابة لله - تعالى - .قال
سبحانه - : ( مَّنْ يُطِعِ الرسول فَقَدْ أَطَاعَ الله وَمَن تولى فَمَآ

أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً ) وقوله : ( وَاعْلَمُواْ أَنّ الله
يَحُولُ بَيْنَ المرء وَقَلْبِهِ ) تحذير لهم من الغفلة عن ذكر الله ، وبعث
لهم على مواصلة الطاعة له - سبحانه -يَحُولُ .وقوله : ( يَحُولُ ) من الحول
بين الشئ والشئ ، بمعنى الحجز والفصل بينهما .قال الراغب : أصل الحول تغير
الشئ وانفصاله عن غيره ، وباعتبار التغير قيل حال الشئ يحول حولا واستحال
، تهيأ لأن يحول : وباعتبار الانفصال قيل حال بينى وبينك كذا أى فصل . .هذا
وللمفسرين فى معنى هذه الجملة الكريمة أقوال متعددة أهمها قولان :أما القول
: - الأول فهو أن المراد بالحيلولة بين المرء وقلبه - كما يقول ابن جرير
، أنه - سبحانه - أملك لقلوب عباده منهم وأنه يحول بينهم وبينها إذا شاء
حتى لا يقدر ذو قلب أن يدرك شيئا من إيمان أو كفر ، أو أن يعى به شيئا ، أو
أن يفهم إلا بإذنه ومشيئته ، وذلك أن الحول بين الشئ والشئ إما هو الحجز
، بينهما ، وإذا حجز - جل ثناؤه - بين عبد وقلبه فى شئ أن يدركه أو يفهمه
لم يكن للعبد إلى إدراك ما قد منع الله قلبه إدراكه سبيل ، وإذا كان ذلك
معناه دخل فى ذلك قول من قال : يحول بين المؤمن والكفر ، وبين الكافر
والإيمان .وقول من قال : يحول بينه وبين عقله . وقول من قال : يحول بينه
وبين قلبه حتى لا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر إلا بإذنه . . فالخبر على العموم
حتى يخصصه ما يجب التسليم له .وقد رجح ابن جرير هذا القول بعد أن ذكر قبله
بعض الأقوال الأخرى .وقال ابن كثير - بعد أن لخص القول الذى رجحه ابن
" : جرير - : وقد وردت الأحاديث عن رسول الله - صلى الله علي وسلم - يقول
" إن قلوب بنى آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد ، يصرفها كيف شاء
ثم قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " اللهم يا مصرف القلوب صرف ،
قلوبنا إلى طاعتك " .وروى : الإمام أحمد والنسائى وابن ماجه عن النواس بن
سمعان الكلابى قال : سمعت النبى - صلى الله عليه وسلم - يقول : " ما من قلب
إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن رب العالمين ، إذا شاء أن يقيمه أقامه
وإذا شاء أن يزيغه أزاغه " .أما القول الثانى فهو أن المراد بالحيلولة ،
بين المرء وقلبه - كما يقول الزمخشرى - " أنه - سبحانه - يميت المرء فتفوته
، الفرصة التى هى واجدها ، وهى التمكن من إخلاص القلب ومعالجة أدوائه وعلله
ورده سليما كما يريده الله ، فاغتنموا هذه الفرصة ، وأخلصوا قلوبكم لطاعة
الله ورسوله .أو - كما يقول الفخر الرازى - بعبارة أوضح : " أن المراد
أنه - تعالى - يحول بين المرء وبين ما يتماه ويريده بقلبه ، فإن الأجل يحول
دون الأمل . فكأنه قال : بادروا إلى الأعمال . الصالحة ولا تعتمدوا على ما
يقع فى قلوبكم من توقع طول البقاء ، فإن ذلك غير موثوق به ، وإنما حسن
إطلاق لفظ القلب على الأمانى الحاصلة فى القلب ، لأن تسمية الشئ باسم ظرفه
جائزة كقولهم : سال الوادى .والذى نراه أن القول الثانى أولى بالقبول ، لأن
الآية الكريمة ساقته لحض المؤمنين على سرعة الاستجابة للحق الذى دعاهم إليه
رسوله صلى الله عليه وسلم والذى باتباعه يحيون حياة طيبة ، وتذكيرهم بيوم
الحساب وما فيه من ثواب وعقاب ، كما قال - تعالى - فى ختامها ( وَأَنّهُ
إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ) .وليست مسوقة لإثبات قدرة الله ، وأنه أملك لقلوب
عباده منهم : وأنه يحول بينهم وبينها إذا شاء .فالمعنى الذى ذكره ابن
جرير - وتابعه عليه ابن كثير وغيره ، معنى وجيه فى ذاته ، إذ لا ينكر أحد
أن الله مقلب القلوب ومالكها . . ولكن ليس مناسبا هنا مناسبة المعنى الذى
ذكره الزمخشرى والرازى . لأن الآية الكريمة التى معنا والتى بعدها صريحتان
فى دعوة المؤمنين إلى الاستجابة للحق قبل أن يفاجئهم الموت ، وقبل أن تحل
) بهم مصيبة لا تصيب الظالمين منهم خاصة .والمعنى الإجمال للآية الكريمة
، ياأيها الذين آمَنُواْ استجيبوا للّهِ وَلِلرّسُولِ ) بعزيمة صادقة
وسرعة فائقة ، ( إِذَا دَعَاكُم ) الرسول - صلى الله عليه وسلم - ( لِمَا
) يُحْيِيكُمْ ) أى لما به تحيون حياة طيبة من الأقوال والأعمال الصالحة
وَاعْلَمُواْ ) علما يقينا ( أَنّ الله يَحُولُ بَيْنَ المرء وَقَلْبِهِ )
أى يحول بين المرء وبين ما يتمناه قلبه من شهوات الدنيا ومتعها : فكم من
، إنسان يؤمل أنه سيفعل كذا غدا ، وسيجمع كذا غدا ، وسيجمع كذا فى المستقبل
. . وسيحصل على كذا قريبا . . ثم يحول الموت ويفصل بينه وبين آماله وأمانيه
) : فبادروا إلى اغتنام الأعمال الصالحة من قبل أن يفاجئكم الموت .وقوله
وَأَنّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ) تذييل قصد به تذكيرهم بأهوال يوم القيامة
. والضمير فى قوله ( وَأَنّهُ ) يعود إلى الله تعالى - أو هو ضمير الشأن .
أى : وأنه - سبحانه - إليه وحده ترجعون لا إلى غيره ، فيحاسبكم على ما
قدمتم وما أخترتم ، ويجاز كل إنسان بما يستحقه من خير أو شر .فأنت ترى أن
الآية الكريمة قد جمعت بين الترغيب . فى العمل الصالح بسرعة ونشاط ، وبين
. الترهيب من التكاسل والغفلة عن طاعة الله

واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا ان الله شديد العقاب

كما فسرها الوسيط ثم يؤكد - سبحانه - بعد ذلك ترهيبه لهم من التراخى فى
تغيير المنكر فيقول : ( واتقوا فِتْنَةً لاّ تُصِيبَنّ الذين ظَلَمُواْ
مِنكُمْ خَآصّةً واعلموا أَنّ الله شَدِيدُ العقاب ) .والفتنة : من الفتن

، وأصله - كما يقول الراغب - : إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته ، واستعمل فى إدخال الإنسان النار .كما فى قوله - تعالى - ( ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ ) أى : عذابكم . وتارة يسمون ما يحصل عنه العذاب فتنة فيستعمل فيه نحو قوله - تعالى - : ( ألا فى الفتنة سَقَطُواْ ) وتارة فى الاختيار نحو قوله - تعالى - ( وَفَتَنّاكَ فُتُوناً ) والمراد بالفتنة هنا العذاب الدنيوي ، كالأمراض ، والقحط ، واضطراب الأحوال ، وتسلط الظلمة ، وعدم الأمان . . وغير ذلك من المحن والمصائب والآلام التى تنزل بالناس بسبب غشيانهم الذنوب ، وإقرارهم للمنكرات ، والمداهنة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .والخطاب لجميع فى كل زمان ومكان .فالمعنى : دوامو أيها المؤمنون على طاعة الله بقوة ونشاط ، واحذروا من أن ينزل بكم عذاب سيعم عند نزوله الأخيار والفجار والمحسنين والمسيئين .وقوله : ( واعلموا أنّ الله - شَدِيدُ العقاب ) المراد منه الحث على لزوم الاستقامة خوفا من عقاب الله تعالى - .أى : واعلموا أن الله شديد العقاب لمن خالف أمره ، وانتهك حرماته قال صاحب الكشاف : وقوله ( لاَّ تُصِيبَنَّ ) لا يخلو من أن يكون جواباً للأمر ، أو نهيا بعد أمر ، أو صفة لفتنة .فإذا كان جوابا فالمعنى : إن أصابتكم لا تصيب الظالمين منكم خاصة ولكنها تعمكم . . وإذا كانت نهيا بعد أمر فكأنه قيل : واحذروا ذنباً أو عقاباً ، ثم قيل :لا تتعرضوا للظلم فيصيب العقاب أو أثر الذنب ووباله الجميع وليس من ظلم منكم خاصة .فإن قلت : كيف جاز دخول النون المؤكدة فى جواب الأمر؟قلت : لأن فيه معنى النهى - ومتى كان كذلك جاز إدخال النون المؤكدة - كما إذا قلت : انزل عن الدابة لا تطرحك أو لا تطرحنك . ومنه قوله - تعالى - : ( ياأيها النمل ادخلوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ ) وقوله ( خَآصّةً ) منصوب على الحال من الفاعل المستكن فى قوله ( لاَّ تُصِيبَنَّ ) .ويجوز أن يكون صفة لمصدر محذوف . إصابة خاصة .هذا ، وقد دلت الآية الكريمة على وجوب الإقلاع عن المعاصى ، ووجوب محاربة مرتكبيها ، فإن الأمة التى تشيع فيها المعاصى والمظالم والمنكرات . . ثم لا تجد من يحاربها ويعمل على إزالتها ، تستحق العقوبة جزاء سكوتها واستخذائها وجبنها .وقد ذكر بعض المفسرين أن هذه الآية الكريمة نزلت فى حق بعض الصحابة الذين اشتركوا فى وقاعة الجمل فيما بعد .ولكن هذا القول غير صحيح؛ لأن الآية الكريمة تخاطب المؤمنين جميعاً فى كل زمان ومكان ، وأمرهم بالبعد عن المعاصى والمنكرات التى تفضى بهم إلى العذاب الدنيوى قبل الأخروى . وليست خاصة بفريق دون فريق .لذا قال ابن كثير والقول بأن هذا التحذير يعم الصحابة وغيرهم الصحيح ، ويدل عليه الأحاديث : الواردة فى التحذير من الفتن .ومن ذلك ما رواه الإمام أحمد عن عدى بن - عميرة قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : " إن الله تعالى -لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه ، فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة وروى الإمام أحمد أيضاً عن جرير بن عبد الله أن رسول الله صلى الله. " عليه وسلم - قال : " ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصى وهم أعز وأكثر ممن : يعملون ، ثم لم يغيروه ، إلا عمهم الله بعقاب " .وقال الإمام القرطبى قال ابن عباس : أمر الله المؤمنين ألا يقروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم العذاب .ففى صحيح مسلم " عن زينب بنت جحش أنها سألت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالت له : يا رسول الله ، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال : " نعم إذا كثر الخبث " " .وفى صحيح الترمذى : " إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه ، أو شك أن يعمهم الله بعقاب من عنده " .وفى صحيح البخارى والترمذى عن النعمان بن بشير عن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : " مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا - أى اقترعوا - على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا : لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا ، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً " .ففى هذا الحديث تعذيب العامة بذنوب الخاصة .قال علماؤنا : فالفتنة إذا عمت هلك الكل وذلك عند ظهور المعاصى ، وانتشار المنكر وعدم التغيير . وإذا لم تغير وجب على المؤمنين المنكرين لها بقلوبهم هجران تلك البلدة والهرب منها .روى ابن وهب عن مالك قال : تهجر الأرض التى يصنع فيها المنكر جهارا ولا يستقر فيها .واحتج بصنيع أبى الدرداء فى خروجه عن أرض معاويةحين أعلن بالربا ، فأجاز بيع ساية الذهب بأكثر من وزنها .فإن قيل : فقد قال الله - تعالى - ( وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى ) وقال : وهذا يوجب ألا يؤخذ أحد بذنب ( كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ) أحد ، وإنما تتعلق العقوبة بصاحب الذنب؟فالجواب أن الناس إذا تظاهروا بالمنكر فمن الفرض على كل من رآه أن يغيره ، فإذا سكت عليه فكلهم عاص؛ هذا بفعله وهذا برضاه ، وقد جعل الله فى حكمه الراضى بمنزلة العامل؛ فانتظم فى العقوبة .وقال بعض العلماء : وذكر القسطلانى " أن علامة الرضا بالمنكر عدم التألم من الخلل الذى يقع فى الدين بفعل المعاصى ، فلا يتحقق كون الإنسان كارها له ، إلا إذا تألم للخلل الذى يقع فى الدين ، كما يتألم ويتوجع لفقد ماله أو ولده . فكل من لم يكن بهذه الحالة ، فهو راض بالمنكر ، فتعمه

العقوبة والمصيبة بهذا الاعتبار .

واذكروا اذ انتم قليل مستضعفون في الارض تخافون ان يتخطفكم الناس فاواكم وايدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون

كما فسرها الوسيط وبعد أن أمر - سبحانه - المؤمنين بالاستجابة له ونهاهم عن الوقوع فى المعاصى . . أخذ فى تذكيرهم بجانب من فضله عليهم فقال : ( واذكروا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأرض تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ الناس . . . ) . أى : ( واذكروا ) يا معشر المؤمنين ( إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأرض ) أى : وقت أن كنتم قلة مستضعفة فى أرض مكة تحت أيدى كفار قريش . أو فى أرض الجزيرة العربية حيث كانت الدولة لغيركم من الفرس والروم .وقوله : ( تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ الناس ) أى : تخافون أن يأخذكم أعداؤكم أخذا سريعا . لقوتهم وضعفكم . يقال خطفه - من باب تعب - أى : استلبه بسرعة .والمراد بالتذكر فى قوله : ( واذكروا ) أن يتنبهوا بعقولهم وقلوبهم إلى نعم الله ، وأن يداوموا على شكرها حتى يزيدهم - سبحانه - من فضله .و ( إِذْ ) ظرف بمعنى وقت . و ( أَنتُمْ ) مبتدأ ، أخبر عنه بثلاثة أخبار بعده وهى ( قَلِيلٌ ) و ( مُّسْتَضْعَفُونَ ) و ( تَخَافُونَ ) .والمراد بالناس : كفار قريش ، أوهم وغيرهم من كفار العرب والفرس والروم .وقوله : ( فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِّنَ الطيبات ) بيان لما من به عليهم من نعم بعد أن كانوا محرومين منها .أى : اذكروا وقت أن كنتم قلة ضعيفة مستضعفة تخشى - أن يأخذها أعداؤها أخذا سريعا ، فرفع الله عنكم بفضله هذه الحال ، وأبدلكم خيرا منها ، بأن ( آوَاكُمْ ) إلى المدينة ، وألف بين قلوبكم يا معشر المهاجرين والأنصار ( وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ ) فى غزوة بدر ، وقذف فى قلوب أدائكم الرعب منكم ( وَرَزَقَكُمْ مِّنَ الطيبات ) أى : ورزقكم من الغنائم التى أحلها لكم بعد أن كانت محرمة على الذين من قبلكم ، كما رقزكم - أيضا بكثير من المطاعم والمشارب الطيبة التى لم تكن متوفرة لكم قبل ذلك .وقوله ( لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ) تذييل قصد به حضهم على مداومة الشكر والطاعة لله - عز وجل - أى : نقلكم الله - تعالى - من الشدة إلى الرخاء ، ومن القلة إلى الكثرة ، ومن الضعف إلى القوة ، ومن الخوف إلى الأمن ، ومن الفقر إلى الغنى . . حتى تستمروا على طاعة الله وشكره ، ولا يشغلكم عن ذلك أى شاغل .قال ابن جرير : قال قتادة فى قوله - تعالى - ( واذكروا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأرض . . . ) ." كان هذا الحى من العرب أذل الناس ذلا ، وأشقاه عيشا وأجوعه بطونا ، وأعراه جلودا ، وأبيته ضلالا ، من عاش منهم عشا شقيا ، ومن مات منهم ردى فى النار يؤكلون ولا يأكلون ، والله ما نعلم قبيلا من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا ، أشر منهم منزلا ، حتى جاء الله بالإسلام ، فمكن به فى البلاد ، ووسع به فى الرزق ، وجعلكم به ملوكا على رقاب الناس . فبالإسلام أعطى الله ما رأيتم ، فاشكروا الله على نعمه ، فإن ربكم منعم يحب الشكر ، فى مزيد من الله - تعالى - " .وبذلك نرى أن هذه الآيات قد جمعت بين الترغيب والترهيب والتذكير الترغيب كما فى قوله - تعالى - : ( ياأيها الذين آمَنُواْ استجيبوا . . للَّهِ وَلِلرَّسُولِ . . . ) .والترهيب كما فى قوله - تعالى - : ( واتقوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الذين ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً . . . ) والتذكير كما فى قوله - تعالى - ( واذكروا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ. مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأرض . . . ) .وبالتغريب فى الطاعات ، وبالترهيب من المعاصى ، وبالتذكير بالنعم ، ينجح الدعاة فى دعوتهم إلى الله .

يا ايها الذين امنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا اماناتكم وانتم تعلمون

كما فسرها الوسيط ثم وجه - سبحانه - بعد ذلك نداء رابعا وخامسا إلى المؤمنين فقال : ( ياأيها الذين آمَنُواْ . . . الفضل العظيم ) .روى المفسرون فى سبب نزول قوله - تعالى - : ( ياأيها الذين آمَنُوا لاَ تَخُونُواْ ) روايات منها :ما جاء عن ابن عباس من أنها نزلت فى أبى لبابة حين بعثه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى بنى قريظة فقالوا له : يا أبا لباية ما ترى؟ أنزل على حكم سعد بن معاذ فينا؟ فأشار أبو لبابة إلى حلقه . أى أن حكم سعد فيكم سيكون الذبح فلا تنزلوا .قال أبو لبابة : والله ما زالت قدماى - عن مكانهما - حتى علمت أنى قد خنت الله ورسوله .ومنها ما جاء عن جابر بن عبد الله من أنها نزلت فى منافق كتب إلى أبى سفيان يطلعه على سر من أسرار المسلمين .ومنها ما جاء عن السدى من أنها نزلت فى قوم كانوا يسمعون الشئ عن النبى - صلى الله عليه وسلم - ثم يحدثون به المشركين قال ابن كثير : والصحيح أن الآية عامة وإن صح أنها وردت على سبب خاص؛ . . فإن الأخذ بعمون اللفظ لا بخصوص السبب و المعتمد عند الجماهير من العلماء وقوله ( لاَ تَخُونُواْ ) من الخون بمعنى بمعنى النقص . يقال خونه تخويناً. أى : نسبه إلى الخيانة ونقصه .قال صاحب الكشاف : معنى الخون : النقص ، كما

أن معنى الوفاء التام . ومنه تخونه إذا تنقصه ، ثم استعمل فى ضد الأمانة
والوفاء؛ لأنك إذا خنت الرجل فى شئ فقد أدخلت عليه النقصان فيه . وقد
استعير فقيل : خان الدلو الكرب - والكرب حبل يشد فى رأس الدلو - وخان
المشتار السبب . والمشتار مجتنى العسل والسبب الحبل - لأنه إذا انقطع به
فكأنه لم يف له .والمقصود بخيانة الرسول - صلى الله عليه وسلم - : إهمال
سسنه التى جاء بها وأمرنا بالتقدي بتعاليمها .والمقصود بالأمانات : الأسرار
والعهود والودائع وغير ذلك من الشئون التى تكون بينهم وبين غيرهم مما يجب
أن يصان ويحفظ .والمعنى : ( ياأيها الذين آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ الله )
بأن تهملوا فرائضه ، وتتعدوا حدوده ، ولا تخونوا ( والرسول ) - صلى الله
عليه وسلم - ، بأن تتركوا سنته وتتصرفوا إلى غيرها ، وتخالفوا ما أمركم به
وتجترحوا ما نهاكم عنه ، ولا تخونوا ( أَمَانَاتِكُمْ ) بأن تفشوا الأسرار
التى بينكم ، وتنقضوا العهود التى تعاهدتم على الوفاء بها ، وتنكروا
الودائع التى أودعها لديكم غيركم ، وتستجيبوا ما يجب حفظه من سائر الحقوق
) المادية والمعنوية ، فقوله : ( وتخونوا أَمَانَاتِكُمْ ) معطوف على قوله
لاَ تَخُونُواْ ) .وأعاد النهى للإشعار بأن كل واحد من المنهى عنه مقصود
، بذاته اهتماما به .وقوله : ( وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ) الواو للحال
والمفعول محذوف . أى . والحال أنكم تعلمون سوء عاقبة الخائن لله ولرسوله
وللأمانات التى اؤتمن عليها ، فعليكم أن تتجنبوا الخيانة فى جميع صورها؛
لتنالوا رضى الله ومثوبته .

واعلموا انما اموالكم واولادكم فتنة وان الله عنده اجر عظيم

كما فسرها الوسيط ولما كان حب الأموال والأولاد والاشتغال بهم من أهم دواعى
الاقدام على الخيانة ، نبه - سبحانه - إلى ذلك فقال : ( واعلموا أَنَّمَا
أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ الله عِندَهُ أَجْرٌ
عَظِيمٌ ) .أى : واعلموا - أيها المؤمنون - أنما أموالكم وأولادكم فتنة ،
أى امتحان واختبار لكم من الله - تعالى - ليتبين قوى الإيمان من ضعيفه
أما قوى الإيمان فلا يشغله ماله وولده عن طاعة الله ، وأما ضعيف الإيمان.
فيشغله ذلك عن طاعة الله ويجعله يعيش حياته عبداً لأمواله ، ومطيعا لمطالب
أولاده حتى ولو كانت هذه الطاعة متنافية مع تعاليم دينه وآدابه .وقال صاحب
المنار : الفتنة هى الاختبار والامتحان بما يشق على النفس فعله أو تركه ،
أو قبوله أو إنكاره .وأموال الإنسان عليها مدار حياته ، وتحصيل رغائبه
وشهواته ، ودفع كثير من المكاره عنه ، فهو يتكلف فى طلبها المشاق ، ويكرب
الصعاب ، ويكلفه الشرع بها التزام الحلال واجتناب الحرام ، ويرغبه فى القصد
والاعتدال فى إنفاقها .وأما الأولاد فحبهم - كما يقول الأستاذ الامام - ضرب
من الجنون يلقيه الفاطر الحكيم فى قلوب الأمهات والاباء ، فيحملهم على بذل
كل ما يستطاع بذله فى سبيلهم .روى أبو ليلى من حديث أبى سعيد الخدرى مرفوعا
" . فحب الولد قد يحمل الولد ثمرة القلب ، وإنه مجبنة مبخلة محزنة "
الوالدين على اقتراف الآثام ، وعلى الجبن ، وعلى البخل ، وعلى الحزن
، فالواجب على المؤمن اتقاء خطر الفتنة الأولى بسكب المال من وجوهه الحلال.
وإنفاقه فى وجوهه المشروعة . . واتقاء خطر الفتنة الثانية باتباع ما أوجبه
الله على الآباء من حسن تربية الأولاد على الدين والفضائل ، وتجنبهم أسباب
المعاصى والرذائل .وقوله ( وَأَنَّ الله عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ) تذييل
قصد به ترغيب المؤمنين فى طاعة الله ، بعد أن حذرهم من فتنة المال والولد
أى : واعلموا أن الله عند أجر عظيم لمن آثر طاعته ورضاه على جمع المال وحب.
الأولاد ، فكونوا - أيها المؤمنون - من حزب المؤثرين لحب الله على حب
الأموال والأولاد لتنالوا السعادة فى الدنيا والآخرة .

يا ايها الذين امنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم
ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم

كما فسرها الوسيط ثم ختم سبحانه - نداءاته للمؤمنين بهذا النداء الذى
يهديهم إلى سبيل الخير والفلاح فقال - سبحانه - ( يا أَيُّهَا الذين آمنوا
إِن تَتَّقُواْ الله يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ
سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ والله ذُو الفضل العظيم ) .والفرقان فى
كلام العرب - كما يقول ابن جرير - مصدر من قولهم فرقت بين الشئ والشئ أفرق
بينهما فرقاً وفرقاناً - أى أفرق وأفصل بينهما .وقد اختلف أهل التأويل فى
العبارة عند تأويل قوله ( يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً ) فقال بعضهم : يجعل
لكم مخرجا . وقال بعضهم نجاة ، وقال بعضهم فصلا وفرقا بينن حقكم وباطل من
يبغيكم السوء من أعدائكم . وكل ذلك متقارب المعنى ، وإن اختلفت العبارة .
وقال الآلوسى : ( فُرْقَاناً ) أى : هداية ونورا فى قلوبكم تفرقون به بين.
الحق والباطل - كما روى عن ابن جريج وابن زيد - أو نصرا يفرق به بين الحق
والباطل بإعزاز المؤمنين وإذلال الكافرين - كما قال الفراء - أو نجاة في
- الدارين - كما هو كلام السدى - أو مخرجا من الشبهات - كما جاء عن مقاتل

أو ظهورا يشهر أمركم وينشر صيتكم - كما يشعر به كلام محمد بن إسحاق - من بت أفعال كذا حتى سطع الفرقان أى الصبح . وكل المعانى ترجع إلى الفرق بين أمرين . وجوز البعض من المحققين الجمع بينها .ونحن مع هذا البعض من المحققين فى جواز الجمع بين هذه المعانى فيكون المعنى : ( يا أَيُّهَا الذين آمنوا إِن تَتَّقُواْ الله ) بأن تصونوا أنفسكم عن كل ما يغضبه ، وتطيعوه فى السر والعلن ( يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً ) أى هداية فى قلوبكم تفرقون بها بين الحق والباطل ، ونصرا تعلو به كلمتكم على كلمة أعدائكم ، ومخرجا من الشبهات التى تقلق النفوس ، ونجاة مما تخافون ، وفضلا عن كل ذلك ) ، فإنه - سبحانه - يكفر عنكم سيئاتكم ، أى يسترها عليكم فى الدنيا وَيَغْفِرْ لَكُمْ ) أى : ويغفر لكم يوم القيامة ما فرط منكم من ذنوب بلطفه وإحسانه وقوله : ( والله ذُو الفضل العظيم ) تذييل قصد به التعليل لما قبله والتنبيه على أن ما وعد به - سبحانه - المؤمنين على تقواهم إنما هو تفضل منه لهم ، فهو - سبحانه - صاحب العطاء الجزيل ، والخيرا لعميم . لمن أطاعه واتقاه ، وصان نفسه عما يسخطه ويغضبه .فأنت ترى أنه - سبحانه - قد رتب على تقواه وعلى الخوف منه نعما عظمى ، ومننا كبرى ، وأى نعم يتطلع إليها المؤمنون أفضل من هداية القلوب وتكفير الخطايا والذنوب؟ اللهم لا تحرمنا من هذه النعم والمنن بفضلك وإحسانك ، فأنت وحدك صاحب العطاء العميم ، وأنت وحدك ذو الفضل العظيم ، وأنت وحدك على كل شئ قدير .وبعد : فنحن - أخى القارئ - لو استعرضنا سورة الأنفعال من مطلعها إلى هنا ، لرأينا تحدثنا على سبيل الإجمال - عن :( أ ) أحكام الأنفال ، وأن مرد الحكم فيها إلى الله ورسوله . .( ب ) وعن الصفات الكريمة التى يجب أن يتجلى بها المؤمنون لينالوا مغفرة الله ورضوانه .( ج ) وعن أحوال بعض المؤمنين الذين اشتركوا فى غزوة بدر ، وكانوا يفضلون العير على النفير . ولكن - الله تعالى - بين لهم أن الخير فيما قدره لا فيما يفضلون .( د ) وعن النعم والبشارات وأسباب النصر التى أمد الله بها المؤمنين فى بدر والتى كان من آثارها ارتفاع شأنهم واندحار شأن أعدائهم .( ه ) وعن التوجيهات الحكيمة التى أعقبت تلك النداءات الخمسة التى نادى الله بها المؤمنين ، فقد أمرهم - سبحانه - بالثبات فى وجه أعدائهم ، وبالطاعة التماة له ولرسوله - صلى الله عليه وسلم - وبالاستجابة السريعة للحق الذى جاءهم به الرسول - صلى الله عليه وسلم - .. ونهتهم عن التولى يوم الزحف؛ وعن التشبه بمن قالوا سمعنا وهم لا يسمعون ، وعن إقرار المنكرات والبدع والرضا بهم ، وعن خيانة الله والرسول ، وعن خيانة الأمانات ، التى تجب صيانتها والمحافظة عليها .ووعدهم - سبحانه - بهداية القلوب وتكفير الخطايا والذنوب ، متى اتقوه ووقفوا عند حدوده .( و ) والآن ، وبعد ، هذ التوجيه الحكيم ، والتأديب القويم ، والتعليم النافع والتذكير بالنعم والتحذير من النقم . . ماذا نرى؟نرى السورة الكريمة تأخذ فى تذكير المؤمنين بجوانب من جرائم أعدائهم فتقص عليهم ما كان من هؤلاء الأعداء من تآمر على حياة رسولهم - صلى الله عليه وسلم - ومن تهكم بالقرآن الكريم ودعاء أنهم فى استطاعتهم أن يأتوا بمثله لو شاءوا ، ومن استهزاء بتعاليم الإسلام ، وسخرية بشعائره وعباداته ، ومن إنفاق لأموالهم ليصدوا الناس عن الطريق للحق ومن إصرار على العناد والجحود جعلهم يستعجلون العذاب .ومع كل هذا فالسورة الكريمة تفتح الباب فى وجوه هؤلاء الجاحدين المعاندين ، وتأمر المؤمنين أن ينصحوهم بالدخول فى دين الله . . فإذا لم يستجيبوا لنصحهم فعليهم أن يقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله .

واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك او يقتلوك او يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين

كما فسرها الوسيط استمع - أخى القارئ - بتدبر إلى الآيات التى حكى كل ذلك بأسلوبها البليغ المثر فتقول : ( وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ . . . وَنِعْمَ النصير ) .قال ابن كثير : " عن ابن عباس فى قوله : ( وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الذين كَفَرُواْ ) أنه قال : تشاورت قريش ليلة بمكة - فى شأن النبى - صلى - الله عليه وسلم ، وذلك بعد أن رأوا أمره قد اشتهر ، وأن غيرهم قد آمن به فقال بعضهم إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق . وقال بعضهم بل اقتلوه ، وأمره أن لا يبيت فى مضجعه ، فأمر النبى - صلى الله عليه وسلم - عليا أن يبيت مكانه ففعل وخرج النبى - صلى الله عليه وسلم - حتى لحق بالغار ، وبات المشركون يحرسون عليا يحسبونه النبى - صلى الله عليه وسلم - فلما أصبحوا ثاروا إليه فلما رأوا عليا قالوا له أين صاحبك؟ قال :لا أدرى . فاقتصوا أثره ، فلما ، بلغوا الجبل اختلط عليهم ، فصعدوا فى الجبل فرموا بالغار ، فرأوا على بابه نسج العنكبوت ، فقالوا لو دخل هنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه ، فمكث فيه ثلاثة ليال " .وقد ذكر ابن كثير وغيره روايات أخرى تتعلق بهذه الآية ، إلا أننا نكتفى بهذه الرواية ، لإفادتها بالمطلوب فى موضوعنا ، ولأن غيرنا قد اشتمل على أخبار أنكرها بعض المحققين ، كما أنكرها ابن كثير نفسه .وقوله : ( . . وَإِذْ يَمْكُرُ ) تذكير من الله - تعالى - لنبيه وللمؤمنين ببعض نعمه عليهم ، حيث نجى نبيه - صلى الله عليه وسلم - من مكر المشركين حين

تأمروا على قتله وهو بينهم بمكة .قال ابن جرير : أنزل الله على النبى - صلى الله عليه وسلم - بعد قدومه المدينة سورة الأنفال ، يذكره نعمه عليه - ومن ذلك قوله - تعالى - ( وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الذين كَفَرُواْ . . ) الآية وقوله ( يَمْكُرُ ) من المكر ، وهو - كما يقول الراغب - صرف الغير عما يقصده بحيلة وذلك ضربان : مكر محمود وذلك أن يتحرى بمكره فعلا جميلا ومنه قوله - تعالى - ( والله خَيْرُ الماكرين ) . ومكر مذموم ، وهو أن يتحرى بمكره فعلا قبيحا ، ومنه قوله - تعالى - ( وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الذين كَفَرُواْ . . ) وقال - سبحانه - وتعالى - فى الأمرين : ( وَمَكَرُواْ مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ) وقوله : " ليثبتوك أى ليحبسوك . يقال أثبته إذا حبسته .والمعنى : واذكر - يا محمد - وقت أن نجيتك من مكر أعدائك ، حين تآمروا عليك وأنت بين اظهرهم فى مكة ، لكى يُثْبِتُوكَ ) أى : يحبسوك فى دارك ، فلا تتمكن من لقاء الناس ومن طعوتهم إلى الدين الحق ( أَوْ يَقْتُلُوكَ ) بواسطة مجموعة من الرجال الذين إختلفت قبائلهم فى النسب ، حتى يتفرق دمك فيهم فلا تقدر عشيرتك على الأخذ بثأرك من هذه القبائل المتعددة . . ( أَوْ يُخْرِجُوكَ ) أى : من مكة منفيا مطاردا حتى يحولوا بينك وبين لقاء قومك .وقوله : ( وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ الله والله خَيْرُ الماكرين ) بيان لموضع النعمة والمنة ، أى : والحال أن هؤلاء المشركين يمكرون بك وبأتباعك المكر السئ ، والله - تعالى - يرد مكرهم فى نحورهم ، ويحبط كيدهم ، ويخيب سعيهم ، ويعاقب عليهم عقابا شديداً ، ويدبر أمرك وأمر أتباعك ، ويحفظكم من شرورهم ، فهو - سبحانه - أقوى الماكرين وأعظم تأثيرا ، وأعلمهم بما يضر منه وما ينفع .قال الآلوسى : قوله ( وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ الله ) أى : برد مكرهم ويجعل وخامته عليهم ، أو يجازيهم عليه أو يعاملهم معاملة الماكرين ، وذلك بأن أخرجهم إلى بدر ، وقلل المسلمين فى أعينهم حتى حملوا فلقوا منهم ما يشب منه الوليد .( والله خَيْرُ الماكرين ) إذ لا يعتد بمكرهم عند مكره - سبحانه - وإطلاق هذا المركب الإضافى عليه - تعالى - إن كان باعتبار أن مكره - سبحانه - أنفذ وأبلغ تأثيرا فالإضافة للتفضيل ، لأن لمكر الغير - أيضا نفوذا أو تأثيراً فى الجملة . . وإن كان باعتبار أنه - سبحانه -لا ينزل إلا الحق ولا يصيب إلا ما يستوجب الممكور به ، فلا شكرة لمكر الغير فيه ، وتكون الإضافة - حينئذ للاختصاص ، لانتفاء المشاركة . .هذا والصورة التى يرسمها قوله تعالى - : ( وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ الله ) صورة عميقة التأثير ، ذلك حين تتراءى للخيال ندوة قريش ، وهم يتآمرون ويتذاكرون ويدبرون ويمكرون ، والله ، من ورائهم محيط ، ويمكر بهم ويبطل كيدهم وهم لا يشعرون .إنها صورة ساخرة وهى فى الوقت ذاته صورة مفزعة . . فأين هؤلاء البشر الضعاف المهازيل ، من تلك القدرة . . . . قدرة الله الجبار ، القاهر فوق عباده ، الغالب على أمره وهو بكل شئ محيط؟والتعبير القرآنى يرسم الصورة على طريقة القرآن الفريدة ، فى التصوير ، فيهز بها القلوب ، ويحرك بها أعماق الشعور .

واذا تتلى عليهم اياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا ان هذا الا اساطير الاولين

كما فسرها الوسيط ثم حكى القرآن بعد ذلك جانبا من الدعاوى الكاذبة التى تفوه بها المشركون فقال - تعالى - ( وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هذا إِنْ هاذآ إِلاّ أَسَاطِيرُ الأولين ) .وقد ذكر كثير من المفسرين " أن القائل لهذا القول : النضر بن الحارث؛ فإنه كان قد ذهب إلا بلاد فارس فأحضر منها قصصاً عن ملوكهم . . ولما قدم مكة ووجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يتلو القرآن قال للمشركين : لو شئت لقلت مثل هذا ، وكان - صلى الله عليه وسلم إذا قام من مجلس ، جاء بعده النضر فجلس فيه وحدث المشركين بأخبار ملوك الفرس والروم ، وغيرهم ثم قال : أينا أحس قصصا؟ أنا أو محمد؟ وقد أمكن الله منه يوم بدر ، فقد أسره المقداد بن عمرو ، فأمر النبى - صلى الله عليه وسلم - بضرب عنقه وقال فيه : " إنه كان يقول فى كتاب الله - عز وجل - ما يقول " " .وأسند - سبحانه - قول النضر إلى جميع المشركين ، لأنهم كانوا راضين بقوله ، ولأنه كان من زعمائهم الذين يقودونهم إلى طريق الغواية والأساطير - كما يقول ابن جرير - : جمع أسطر ، لأن واحد الأسطر سطر . ثم. يجمع السطر : أسطر وسطور ، ثم يجمع الأسطر أساطير وأساطر . وقد كان بعض أهل : العربية يقول : واحد الأساطير : أسطورة - كأحاديث وأحدوثة .والمراد بها تلك القصص والحكايات التى كتبها الكاتبون عن القدامى ، والتى يغلب عليها طابع الخرافة والتخيلات التى لا حقيقة لها .والمعنى : أن هؤلاء المشركين قد بلغ بهم الكذب والتمادى فى الطغيان ، أنهم كانوا إذا تتلى عليهم آيات الله بصفاته ووقاحة : ( قَدْ سَمِعْنَا ) أى : قد معنا ما قرأته ( قَالُواْ ) علينا - يا محمد - ووعيناه ( لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هذا ) أى لو نشاء لقلنا مثل هذا القرآن الذى تتلوه علينا يا محمد وما هو إلا من قصص الأولين وحكاياتهم التى سطرها بعضهم عنهم وليس من عند الله - تعالى - .ولا

شك أن قولهم هذا يدل على تعمدهم الكذب على أنفسهم وعلى الناس فإن هذا
القرآن - الذى زعموا أنهم لو شاءوا لقالوا مثله - قد تحداهم فى نهاية
المطاف أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا وانقلبوا خاسرين .والذى نعتقده أن
قولهم هذا ، ما هو إلا من قبيل الحرب النفسية التى كاوا يشنونها على الدعوة
الإسلامية ، بقصد تضليل البسطاء ، والوقوف فى وجه تأثير القرآن فى القلوب
ومحاولة طمس معالم الحق ولو إلى حين .ولكنهم لم يفلحوا . فإن نور الحق لا ،
، تحجبه الشبهات الزائفة ، ولا يعدم الحق أن يجد له أنصاراً حتى من أعدائه
" : يكفى هنا أن نستشهد بما قاله الوليد بن المغيرة فى وصف القرآن الكريم
. . إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن اسفله لمغدق ، وإن أعلاه لمثمر
- وما يقول هذا بشر " .ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال عند تفسيره لقوله
تعالى - ( لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هذا . . . ) : نفاجة منهم وصلت
تحت الراعدة ، فإنهم لم تيوانوا فى مشيئتهم لو ساعدتهم الاستطاعة ، وإلا
فما منعهم إن كانوا مستطيعين أن يشاؤوا غلبة من تحداهم وقرعهم بالعجز حتى
يفوزوا بالقدح المعلى دونه ، مع فرط أنفتهم ، واستنكافهم أن يغلبوا فى باب
. . البيان خاصة

واذ قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء
او ائتنا بعذاب اليم

كما فسرها الوسيط ثم تمضى السورة فى حديثها عن رذائل مشركى قريش ، فتحكى
لونا عجيبا من ألوان عنادهم ، وجحودهم للحق . فتقول : ( وَإِذْ قَالُوا
اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا
حِجَارَةً مِّنَ السمآء أَوِ ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ) . .وقائل هذا القول
النضر بن الحارث صاحب القول السالف ( لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هذا :
ذكر ذلك عطاء ومجاهد وسعيد بن جبير .وأخرج البخارى عن أنس بن مالك ( . . .
أن قائل ذلك : أبو جهل بن هشام .وأخرجه ابن جرير عن ابن رومان ومحمد بن قيس
أن قريشا قال بعضها لبعض : أأكرم الله محمدا - صلى الله عليه وسلم - من
بيننا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء
والمعنى : أن هؤلاء المشركين قد بلغ بهم العناد والجحود أنهم لم يكتفوا.
بإنكار أن القرآن من عند الله ، وأن محمدا قد جاءهم بالحق . . بل أضافوا
إلى ذلك قولهم : اللهم إن كان هذا الذى جاء به محمد بن قرآن وغيره وهو الحق
المنزل من عندك ، فعاقبنا على إنكاره والكفر به ، بأن تنزل علينا حجارة من
: السماء تهلكنا . أو تنزل علينا عذابا أليما يقضى علينا .قال الجمل : قوله
قرأ العامة " الحق " بالنصب على أنه خبر الكون ولفظ ( هُوَ ) ( هُوَ الحق )
" للفصل . وقرأ الأعمش وزيد بن على " الحق " بالرفع ووجوهها ظاهر برفع لفظ
هو " على الابتداء ، والحق خبره ، الجملة خبر الكون .وفى إطلاقهم ( الحق )
على ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وجعله من عند الله؛ تهكم بمن
يقول ذلك سواء أكان هذا القائل - رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أو
المؤمنين .وأل فيه للعهد : أى الحق الذى ادعى محمد أنه جاء به من عند الله
وقوله : ( مِّنَ السمآء ) متعلق بمحذوف صفة لقوله ( حِجَارَةً ) وفائدة.
هذا الوصف الدلالة على أن المراد بها حجارة معينة مخصوصة لتعذيبا لظالمين
قال صاحب الكشاف : وهذا أسلوب من الجحود بليغ . يعن إن كان القرآن هو الحق.
. . فعاقبنا على إنكاره بالسجيل كما فعلت بأصحاب الفيل ، أو بعذاب آخر
ومرادهم نفى كونه حقا ، وإذا انتفى كونه حقا لم يستوجب منكره عذابا ، فكان
: تعليق العذاب بكونه حقا ، مع اعتقاد أنه ليس بحق كتعليقه بالمحال فى قولك
) إن كان الباطل حقا فأمطر علينا حجارة من السماء .فإن قلت : ما فائدة قوله
: مِّنَ السمآء ) والأمطار لا تكون إلا منها؟قلت : كأنهم يريدون أن يقولوا
فامطر علينا السجيل وهى الحجارة المسومة للعذاب ، فوضع حجارة من السماء
موضع السجيل .وعن معاوية أنه قال لرجل من سبأ : ما أجهل قومك حين ملكوا
- عليهم امرأة ، فقال الرجل : أجهل من قومى قومك ، فقد قالوا لرسول الله
صلى الله عليه وسلم - حين دعاهم إلى الحق : ( إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ
: عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السمآء . . . ) ولم يقولوا
إن كان هذا هو الحق فاهدنا له .ولقد كان هذا الرجل حكيما فى رده على معاوية
لأنه كان الأولى بأولئك المشركين أن يقولوا اللهم إن كان هذا هو الحق من ،
عندك فاهدنا له ووفقنا لاتباعه . . ولكن العناد الجامع الذى استولى عليهم
جعلهم يؤثرون الهلاك على الإذعان للحق ويفضلون عبادة الأصنام على اتباع
محمد - صلى الله عليه وسلم - الذى دعاهم إلى عبادة الله وحده .. وهكذا
النفوس عندما تنغمس فى الأحقاد وتتمادى فى الجحود . وتنقاد للأهواء
والشهوات ، وتأخذها للأهواء والشهوات ، وتأخذها العزة بالإثم . ترى الباطل
حقا ، والحق باطلا ، وتؤثر العذاب وهى سادرة فى باطلها ، على الخضوع للحق
. والمنطق والصواب

وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون

، كما فسرها الوسيط ثم تعقب السورة على هذا الغريب الذى حكته عن مشركى مكة
فتبين الموجب لإمهالهم وعدم إجابة دعائهم فتقول : ( وَمَا كَانَ الله
لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ الله مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ
يَسْتَغْفِرُونَ ) .أى : وما كان الله مريداً لتعذيب هؤلاء الذين دعوا بهذا
، الدعاء الغريب تعذب استئصال وإهلاك ، وأنت مقيم فيهم - يا محمد - بمكة
فقد جرت سنته - سبحانه - ألا يهلك قرية مكذبة وفيها نبيها والمؤمنون به حتى
يخرجهم منها ثم يعذب الكافرين .واللام فى قوله ( لِيُعَذِّبَهُمْ ) لتأكيد
النفى ، وللدلالة على أن تعذيبهم والرسول - صلى الله عليه وسلم - بين
أظهرهم غير مستقيم فى الحكمة .والمراد بالاستغفار فى قوله : ( وَمَا كَانَ
الله مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ) استغفار من بقى بينهم من
المؤمنين المستضعفين الذين لم يستطيعوا مغادرة مكة بعد أن هاجر منها
النبى - صلى الله عليه وسلم والمؤمنون .أى : ما كان الله مريداً لتعذيبهم
وأنت فيهم - يا محمد - ما كان - أيضا - مريداً تعذيبهم وبين أظهرهم بمكة من
المؤمنين المستضعفين من يستغفر الله ، وهو الذين لم يستطيعوا مغادرتها
- واللحاق بك فى المدينة .قالوا : ويؤيد أن هذا هو المراد بالاستغفار قوله
تعالى - فى آية أخرى : ( لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الذين كَفَرُوا
مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ) أى : لو تميز المؤمنون عن الكافرين لعذبنا
، الذين كفروا عذابا أليما .وأسند - سبحانه - الاستغفار إلى ضمير الجميع
لوقوعه فيما بينهم ، ولتنزيل ما صدر عن البعض منزلة ما صدر عن الكل . كما
يقال : قتل أهل بلدة كذا فلانا والمراد بعضهم . ويرى بعضهم أن المراد
بالاستغفار المذكور : استغفار الكفرة أنفسهم كقولهم : غفرانك . فى طوافهم
بالبيت ، أو ما يشبه ذلك من معانى الاستغفار وكأن هذا البعض يرى أن مجرد
طلب المغفرة منه - سبحانه - يكون مانعا من عذابه ولو كان هذا الطلب صادرا
من الكفرة .ويرجع ابن جرير أن المراد بقوله : ( وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ )
نفى الاستغفار عنهم فقد قال بعد أن ذكر بضعة آراء : وأولى هذه الأقوال عندى
، بالصواب قول من قال : تأويله وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم يا محمد
وبين أظهرهم مقيم ، حتى أخرجك من بين أظهرهم ، لأنى لا أهلك قرية وفيها
نبيها ، وما كان الله معذبهم وهم يستغرون من ذنوبهم وكفرهم ، ولكنهم لا
يستغفرون من ذلك بل هم مصرون عليه ، فهم للعذاب مستحقون . .قال بعض
المحققين : والقول الأول أبلغ لدلالته على أن استغفار الغير مما يدفع به
العذاب عن أمثال هؤلاء الكفرة .ثم قال : روى الترمذى عن أبى موسى الأشعرى
قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - " أنزل الله على أَمَانَيْنِ لأمتى
الآية . فإذا مضيت تركت فيهم " ( وَمَا كَانَ الله لِيُعَذِّبَهُمْ )
الاستغفار إلى يوم القيامة .قال ابن كثير : ويشهد لهذا ما رواه الإمام
: أحمد والحاكم وصححه عن أبى سعيد أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال
إن إبليس قال لربه : بعزتك وجلالك لا أبرح أغوى بنى آدم ما دامت الأرواح "
" فيهم . فقال الله - تعالى - فبعزتى وجلالى لا أبرح أغفر لهم ما استغفرونى
.

وما لهم الا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا اولياءه ان
اولياؤه الا المتقون ولكن اكثرهم لا يعلمون

، كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعض الجرائم التى ارتكبها المشركون
والتى تجعلهم مستحقين لعذاب الله ، فقال - تعالى - : ( وَمَا لَهُمْ أَلاَّ
يُعَذِّبَهُمُ الله وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ المسجد الحرام وَمَا كانوا
أَوْلِيَآءَهُ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُ إِلاَّ المتقون ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ
يَعْلَمُونَ ) .والمعنى : وأى شئ يمنع من عذاب مشركى قريش بعد خروجك - يا
محمد - وخروج المؤمنين المستضعفين من بين أظهرهم؟ إنه لا مانع أبدا من وقوع
العذاب عليهم وقد وجد مقتضيه منهم ، حيث اجترحوا من المنكرات والسيئات ما
يجعلهم مستحقين للعقاب الشديد .فالاستفهام فى قوله ( وَمَا لَهُمْ . . )
إنكارى بمعنى النفى . أى :لا مانع من تعذيب اله لهم وقوله ( وَهُمْ
يَصُدُّونَ عَنِ المسجد الحرام ) جملة حالية مبينة لجريمة من جرائمهم
الشنيعة ، أى :لا مانع يمنع من تعذيبهم : وكيف لا يعذبهم وحالهم أنهم
يمنعون المؤمنين عن الطواف بالمسجد الحرام ، ومن زيارته . ومن مباشرة
عباداتهم عنده . . ؟ إنهم لا بد أن يعذبوا على هذه الجرائم .ولقد أوقع الله
بهم عذابه فى الدنيا : ومن ذلك ما حدث لهم يوم بدر من قتل صناديدهم ومن أسر
وجهائهم .وأما عذابهم فى الآخرة فهو أشد وأبقى من عذابهم فى الدنيا .وقوله
رد على ما كانوا يقولونه بالباطل : نحن ( وَمَا كانوا أَوْلِيَآءَهُ ) :
ولاة البيت الحرام ، فلنا أن نصد من نشاء عن دخوله ، ولنا أن نبيح لمن نشاء
دخوله .أى : إن هؤلاء المشركين ما كانوا فى يوم من الأيام أهلا لولاية
) البيت الحرام بسبب شركهم وعداوتهم - لله تعالى - رب هذا البيت .وقوله
( إِنْ أَوْلِيَآؤُهُ إِلاَّ المتقون ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ
بيان للمستحقين لولاية البيت الحرام ، بعد نفيها عن المشركين .أى : إن
هؤلاء المشركين ليسوا أهلا لولاية البيت الحرام ، وليسوا أهلا لأن يكونوا

أولياء لله - تعالى - بسبب كفرهم وجحودهم ، وإنما المستحقون لذلك هم المتقون الذين صانوا أنفسهم عن الكفر وعن الشرك وعن كل ما يغضب الله ، ولكن أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون ذلك بسبب جهلهم وتماديهم فى الجحود والضلال وقد جاءت جملة ( إِنْ أَوْلِيَآؤُهُ إِلاَّ المتقون ) مؤكدة بأقوى ألوان.
- التأكيد ، لنفى كل ولاية على البيت الحرام سوى ولا يتهم هم .ونفى سبحانه - العلم عن أكثر المشركين ، لأن قلة منهم كانت تعلم أنه لا ولاية لها على المسجد الحرام ولكنها كانت تجحد ذلك عناداً وغروراً . أو أن المراد بالأكثر الكل ، لأن للأكثر حكم الكل فى كثير من الأحكام ، كما أن الأقل قد لا يعتبر فينزل منزلة العدم .

وما كان صلاتهم عند البيت الا مكاء وتصدية فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - لونا آخر من ألوان ضلال هؤلاء المشركين وجحودهم فقال : ( وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِندَ البيت إِلاَّ مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُواْ العذاب بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ) .وقال القرطبى ، ما ملخصه : قال ابن عباس : كانت قريش تطوف بالبيت عراة ، يصفقون ويصفرون فكان ذلك عبادة فى ظنهم .والمكاء : الصفير . يقال مكا يمكو مكوا ومكاء إذا : صفر .والتصدية : التصفيق . يقال : صدى يصدى تصدية إذا صفق .قال قتادة المكاء : ضرب بالأيدى ، والتصدية : الصياح .والمعنى : أن هؤلاء المشركين لم تكن صلاتهم عند البيت الحرام إلا تصفيقا وتصفيراً ، وهرجا ومرجا لاوقار فيه ولا استشعار لحرمة البيت ، ولا خشوع لجلاله الله - تعالى - ، وذلك ، لجلهلهم بما يجب عليهم نحو خالقهم ، ولحصرهم على أن يسيئوا إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - وهو يقرأ القرآن ، أو وهو يطوف بالبيت ، أو وهو يؤدى شيئا من شعائر الإسلام وعباداته . فقد حكى القرآن عنهم أنهم كانوا إذا سمعوا - القرآن رفعوا أصواتهم بالصياح والغناء ليمنعوا الناس من سماعه . قال تعالى - : ( وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لاَ تَسْمَعُواْ لهذا القرآن والغوا ، فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ) وروى ابن جرير أن ابن عمر حكى فعلهم فصفر ، وأمال خده وصفق بيديه .وقال مجاهد إنهم كانوا يصنعون ذلك ليخلطوا على النبى - صلى الله عليه وسلم - صلاته .وعن سعيد بن جبير : كانت قريش يعارضون النبى - صلى الله عليه وسلم - فى الطواف يستهئزون به ، يصفرون ويصفقون .وقال الفخر الرازى : فإن قيل المكاء والتصدية ما كانا من جنس الصلاة فكيف جاز استثناؤهما من الصلاة؟قلنا : فيه وجوه : الأول : أنهم كانوا يعتقدون أن المكاء والتصدية من جنس الصلاة فخرج هذا الاستثناء على حسب ، معتقدهم .الثانى : أن هذا كقولك : وددت الأمير فجعل جفائى صلتى . أى أقام الجفاء مقام الصلة فكذا هنا .الثالث : الغرض منه أن من كان المكاء : والتصدية صلاته فلا صلاة له . كما تقول العرب : ما لفلان عيب إلا السخاء . يريد من كان السخاء عيبه فلا عيب له .وقوله : ( فَذُوقُواْ العذاب بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ) وعيد لهم على كفرهم وجحودهم ، واستهزائهم بشعائر الله .أى : فذوقوا - أيها الضالون - العذاب الشديد بسبب كفركم وعنادكم ، واستهزائكم بالحق الذى جاءكم به محمد - صلى الله عليه وسلم - من عند الله

ان الذين كفروا ينفقون اموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا الى جهنم يحشرون

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - ما كانوا يفعلونه من إنفاق أموالهم لا - فى الخير ولكن فى الشرور والآثام وتوعدهم على ذلك بسوء المصير فقال تعالى - : ( إِنَّ الذين كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ الله فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ والذين كفروا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ .. ) .روى المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها ما ذكره محمد بن إسحاق عن الزهرى وغيره قالوا : لما أصيبت قريش يوم بدر ، ورجع فلهم - أى جيشهم المهزوم - إلى مكة ورجع أبو سفيان بعيره ، مشى عبد الله بن ربيعة وعكرمة بن أبى جهل ، وصفوان بن أمية فى رجال من قريش أصيب آباؤهم وأنباؤهم وإخوانهم فى بدر ، فكلموا أبا سفيان بن حرب ، ومن كانت له فى تلك العير من قريش تجارة ، فقالوا : يا معشر قريش إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم ، فأعينونا بها المال على حربه ، لعلنا أن ندرك منه ثأراً بمن أصيب منا . ففعلوا . قال ففيهم - كما ذكر عن ابن عباس - أنزل الله - تعالى - ( إِنَّ الذين : كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ الله ( . . ، الآية .وروى ابن جرير عن سعيد بن جبرير قال : نزلت فى أبى سفيان بن حرب - استأجر يوم غزوة أحد ألفين من الأحابيش من بنى كنانة ، فقاتل بهم النبى صلى الله عليه وسلم - :وروى عن الكلبى والضحاك ومقاتل أنها نزلت فى المطعمين يوم بدر ، وكانوا اثنى عشر رجلا من قريش . . . كان كل واحد منهم يطعم الناس كل يوم عشر جزر .قال ابن كثير : وعلى كل تقدير فهى عامة وإن كان سبب نزولها خاصا .أى : أن الآية الكريمة تتناول بوعديها كل من يبذل أمواله

فى الصد عن سبيل الله ، وفى تأييد الباطل ومعارضة الحق .المعنى : أن الذين
، كفروا بالحق لما جاءهم ( يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ) لافى جوه الخير
وإنما ينفقونها ( لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ) أى : ينفقونها ليمنعوا
الناس عن الدخول فى الدين الذى يوصلهم إلى رضا الله وغلى طريقه القويم
واللام فى قوله : ( لِيَصُدُّواْ ) لام الصيرورة ، ويصح أن تكون للتعليل؛.
لأن غرضهم منع الناس عن الدخول فى دين الله الذى جاء به النبى - صلى الله
عليه وسلم - ، والذى يرونه دينا مخالفا لما كان عليه الآباء والأجداد
فيجب محاربته فى زعمهم .وقوله : ( فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ
عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ . . . ) بيان لما سيؤول إليه أمرهم
فى الدنيا من الخيبة والهزيمة والندامة .أى : فيسنفقون هذه الأموال فى
- الشرور والعدوان ، ثم تكون عاقبة ذلك حسرة وندامة عليهم ، لأنهم لم يصلوا
ولن يصلوا - من وراء إنفاقها إلى ما يبغون ويؤملون . وفضلا عن كل هذا
فستكون نهايتهم الهزيمة والإذلال فى الدنيا ، لأن سنة الله قد اقتضت أن
) : يجعل النصر فى النهاية لأتباع الحق لالأتباع الباطل .وقوله
فَسَيُنفِقُونَهَا ) خبر إن فى قوله ( إِنَّ الذين كَفَرُواْ . . ) واقترن
الخبر بالفاء لتضمن المبتدأ الموصول مع صلته معنى الشرط ، فصار الخبر
، بمنزلة الجزاء بحسب المعنى .وفى تكرير الإنفاق فى شبه الشرط والجزاء
إشعار بكمال سوء إنفاقهم ، حيث إنهم لم ينفقوا أموالهم فى خير أو ما يشبه
الخير ، وإنما أنفقوها فى الشرور المحضة .وجاء العطف بحرف ( ثُمَّ )
للدلالة على البون الشاسع بين ما قصدوه من نفقتهم وبين ما آل ويئول إليه
. أمرهم . فهم قد قصوا بنفقتهم الوقوف فى وجه الحق والانتصار على المؤمنين
ولكن هذا القصد ذهب أدراج الرياح ، فقد ذهبت أموالهم سدى ، وغلبوا المرة .
بعد المرة ، وعاد المؤمنون إلى مكة فاتحين ظافرين بعد أن خرجوا منها
مهاجرين .وقوله : ( والذين كفروا إلى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ) بيان لسوء
مصيرهم فى الآخرة ، بعد بيان حسرتهم وهزيمتهم فى الدنيا .أى : أن هؤلاء
الكافرين ستكون عاقبة إنفاقهم لأموالهم الحسرة والهزيمة فى الدنيا ، أما فى
. الآخرة فسيكون مصيرهم الحشر والسوق إلى نار جهنم لا إلى غيرها

ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله
في جهنم اولئك هم الخاسرون

كما فسرها الوسيط وقوله : ( لِيَمِيزَ الله الخبيث مِنَ الطيب وَيَجْعَلَ
الخبيث بَعْضَهُ على بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي
جَهَنَّمَ ) بيان لحكمته - سبحانه - فى هزيمة الكافرين وحشرهم إلى جهنم
، وقوله : ( فَيَرْكُمَهُ ) أى : فيجمعه ويضم بعضه يقال : ركم الشئ يركمه.
: إذا جمعه وألقى بعضه على بعضه . وارتكم الشئ وتراكم أى : اجتمع .والمعنى
أنه - سبحانه - فعل ما فعل من خذلان الكافرين وحشرهم إلى جهنم ، ومن تأييد
المؤمنين وفوزهم برضوانه ، ليتميز الفريق الخبيث وهو فريق الكافرين ، من
الفريق الطيب وهو فريق المؤمنين ، فإذا ما تمايزوا جل - سبحانه - الفريق
الخبيث منضما بعضه على بعض ، فيلقى به فى جهنم جزاء خبثه وكفره . واللام فى
قوله ( لِيَمِيزَ ) متلعقة بقوله ( يُغْلَبُونَ ) أو بقوله ( يُحْشَرُونَ )
ويجوز أن يكون المراد بالخبيث ما أنفقه الكافرون من أموال للصد عن سبيل
الله ، وبالطيب ما أنفقه المؤمنون من أموال لإعلاء كلمة الله . وعليه تكون
اللام فى قوله ( لِيَمِيزَ ) متعلقة بقوله : ( ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ
حَسْرَةً ) أى : أنه - سبحانه - يميز هذه الأموال بعضها من بعض ، ثم يضم
الأموال الخبيثة بعضها إلى بعض ، فيلقى بها بوأصحابها فى جهنم .والتعبير
بقوله - سبحانه - ( فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً ) تعبير مؤثر بليغ ، لأنه يصور
، الفريق الخبيث كأنه لشدة تزاحمه وانضمام بعضه إلى بعض شئ متراكم مهمل
يقذف به فى النار بدون اهتمام أو اعتبار .واسم الإشارة فى قوله : ( أولئك
هُمُ الخاسرون ) يعود إلى هذا الفريق الخبيث ، أى : أولئك الكافرون الذين
. أنفقوا أموالهم فى الصد عن سبيل الله هم الخاسرون لدنياهم وآخرتهم

قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وان يعودوا فقد مضت سنت
الاولين

- كما فسرها الوسيط وبعد كل هذا التهديد والوعيد للكافرين . . يوجه
سبحانه - خطابه إلى نبيه - صلى الله عليه وسلم - يأمره فيه أن يبلغهم حكم
الله إذا ما انتهوا عن كفرهم ، كما يأمر المؤمنين أن يقاتلوهم حتى تكون
كلمة الله هى العليا ، فيقول - سبحانه - : ( قُل لِّلَّذِينَ كفروا إِن
يَنتَهُواْ يُغَفَرْ لَهُمْ مّا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُواْ فَقَدْ
مَضَتْ سُنّةُ الأَوّلِينَ وَقَاتِلُوهُمْ حتى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ
وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لله فَإِنِ انْتَهَوْاْ فَإِنّ اللَّهَ بِمَا
يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ وَإِن تَوَلّوْاْ فاعلموا أَنّ الله مَوْلاَكُمْ
نِعْمَ المولى وَنِعْمَ النصير ) .أى : ( قُل ) يا محمد لهؤلاء الذين كفروا

بالحق بما جاءهم ، من أهل مكة وغيرهم ، قل لهم : ( إِن يَنتَهُواْ ) عن
كفرهم وعداوتهم للمؤمنين ( يُغَفَرْ لَهُمْ مّا قَدْ سَلَفَ ) من كفرهم
ومعاصيهم ( وَإِنْ يَعُودُواْ ) إلى قتالك ويستمروا فى ضلالهم وكفرهم
وطغيانهم ، انتقمنا منهم ، ونصرنا المؤمنين عليهم ( فَقَدْ مَضَتْ سُنّةُ
الأوّلِينَ ) على ذلك .أى : فقد مضت سنة الله - تعالى - فى الأولين ، وسنته لا تتخلف فى أنه - سبحانه - يعذب المكذبين بعد إنذارهم وتبليغهم دعوته ، وينصر عباده المؤمنين وينجيهم ويمكن لهم فى الأرض . وقد رأى هؤلاء المشركون كيف كانت عاقبة أمرهم فى بدر ، وكيف أهلك - سبحانه - الكافرين من الأمم قبلهم .وجواب الشرط لقوله ( وَإِنْ يَعُودُواْ ) محذوف والتقدير : وإن يعودوا ننتقم منهم .وقوله ( فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ ) تعليل للجواب المحذوف .قال الآلوسى : قوله ( فَقَدْ مَضَتْ سُنّةُ الأَوّلِينَ ) أى عادة الله الجارية فى الذين تحزبوا على الأنبياء ، من نصر المؤمنين عليهم وخذلانهم وتدميرهم . وأضيفت السنة إليهم لما بينهما من الملابسة الظاهرة . ونظير ذلك قوله - سبحانه - ( سُنّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا ) فأضاف السنة إلى المرسلين مع أنها سنته لقوله - سبحانه - ( وَلاَ تَجِدُ لِسُنّتِنَا تَحْوِيلاً ) باعتبار جريانها على أيديهم . ويدخل فى الأولين الذين حاق بهم مكرهم يوم بدر .والآية حث على الإيمان وترغيب فيه . . واستدل بها على أن الإسلام يجب ما قبله ، وأن الكافر إذا أسلم لا يخاطب بقضاء ما فاته من صلاة أو زكاة أو وصوم أو إتلاف مال أو نفس : وأجرى المالكية ذلك كله فى المرتد إذا تاب لعلموم الآية . .والمعنى . ، عليكم - أيها المؤمنون - إذا ما استمر أولئك الكافرون فى كفرهم وعدوانهم ، أن تقاتلوهم بشدة وغلظة ، وأن تستمروا فى قتالهم حتى تزول صولة الشرك وحتى تعيشوا أحرارا فى مبشارة تعاليم دينكم ، دون أن يجرؤ أحد على محاولة فتنتكم فى عقيدتكم أو عبادتكم . . حتى تصير كلمة الذين كفروا هى السفلى قال الجمل : وقوله : ( وَقَاتِلُوهُمْ ) معطوف على قوله ( قُل لِلَّذِينَ. كفروا ) . ولكن لما كان الغرض من الأول التلطف بهم وهو وظيفة النبى وحده جاء بالإفراد . ولما كان الغرض من الثانى تحريض المؤمنين على القتال جاء بالجمع فخوطبوا جميعا .وقوله ( فَإِنِ انْتَهَوْاْ فَإِنّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ) أى : فإن انتهوا عن كفرهم وعن معاداتكم ، فكفوا أيديكم عنهم ، فإن الله - تعالى -لا يخفى عليه شئ من أعمالهم ، وسيجازيهم عليها بما يستحقون من ثواب أو عقاب .

وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فان انتهوا فان الله بما يعملون بصير

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html}

وبعد كل هذا التهديد والوعيد للكافرين . . يوجه - سبحانه - خطابه إلى نبيه - صلى الله عليه وسلم - يأمره فيه أن يبلغهم حكم الله إذا ما انتهوا ، عن كفرهم ، كما يأمر المؤمنين أن يقاتلوهم حتى تكون كلمة الله هى العليا فيقول - سبحانه - : ( قُل لِلَّذِينَ كفروا إِن يَنتَهُواْ يُغَفَرْ لَهُمْ مّا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنّةُ الأَوّلِينَ وَقَاتِلُوهُمْ حتى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لله فَإِنِ انْتَهَوْاْ فَإِنّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ وَإِن تَوَلّوْاْ فاعلموا أَنّ الله مَوْلاَكُمْ نِعْمَ المولى وَنِعْمَ النصير أى : ( قُل ) يا محمد لهؤلاء الذين كفروا بالحق بما جاءهم ، من أهل مكة. ( ) وغيرهم ، قل لهم : ( إِن يَنتَهُواْ ) عن كفرهم وعداوتهم للمؤمنين يُغَفَرْ لَهُمْ مّا قَدْ سَلَفَ ) من كفرهم ومعاصيهم ( وَإِنْ يَعُودُواْ ( إلى قتالك ويستمروا فى ضلالهم وكفرهم وطغيانهم ، انتقمنا منهم ، ونصرنا المؤمنين عليهم ( فَقَدْ مَضَتْ سُنّةُ الأَوّلِينَ ) على ذلك .أى : فقد - مضت سنة الله - تعالى - فى الأولين ، وسنته لا تتخلف فى أنه - سبحانه يعذب المكذبين بعد إنذارهم وتبليغهم دعوته ، وينصر عباده المؤمنين وينجيهم ويمكن لهم فى الأرض . وقد رأى هؤلاء المشركون كيف كانت عاقبة أمرهم فى بدر ) وكيف أهلك - سبحانه - الكافرين من الأمم قبلهم .وجواب الشرط لقوله ، ) وَإِنْ يَعُودُواْ ) محذوف والتقدير : وإن يعودوا ننتقم منهم .وقوله : فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ ) تعليل للجواب المحذوف .قال الآلوسى قوله ( فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ ) أى عادة الله الجارية فى . الذين تحزبوا على الأنبياء ، من نصر المؤمنين عليهم وخذلانهم وتدميرهم - وأضيفت السنة إليهم لما بينهما من الملابسة الظاهرة . ونظير ذلك قوله سبحانه - ( سُنّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا ) فأضاف السنة إلى المرسلين مع أنها سنته لقوله - سبحانه - ( وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ) باعتبار جريانها على أيديهم . ويدخل فى الأولين الذين حاق بهم مكرهم يوم بدر .والآية حث على الإيمان وترغيب فيه . . واستدل بها على أن الإسلام يجب ما قبله ، وأن الكافر إذا أسلم لا يخاطب بقضاء ما فاته من صلاة أو زكاة

أو وصوم أو إتلاف مال أو نفس . وأجرى المالكية ذلك كله فى المرتد إذا تاب لعلموم الآية . .والمعنى : عليكم - أيها المؤمنون - إذا ما استمر أولئك الكافرون فى كفرهم وعدوانهم ، أن تقاتلوهم بشدة وغلظة ، وأن تستمروا فى قتالهم حتى تزول صولة الشرك ، وحتى تعيشوا أحرارا فى مبشارة تعاليم دينكم ، دون أن يجرؤ أحد على محاولة فتنتكم فى عقيدتكم أو عبادتكم . حتى تصير كلمة الذين كفروا هى السفلى .قال الجمل : وقوله : ( وَقَاتِلُوهُمْ ) معطوف على قوله ( قُل لِّلَّذِينَ كفروا ) . ولكن لما كان الغرض من الأول التلطف بهم وهو وظيفة النبى وحده جاء بالإفراد . ولما كان الغرض من الثانى تحريض المؤمنين على القتال جاء بالجمع فخوطبوا جميعا .وقوله ( فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ) أى : فإن انتهوا عن كفرهم وعن معاداتكم ، فكفوا أيديكم عنهم ، فإن الله - تعالى -لا يخفى عليه شئ من أعمالهم ، وسيجازيهم عليها بما يستحقون من ثواب أو عقاب .

وان تولوا فاعلموا ان الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير

كما فسرها الوسيط وقوله ( وَإِن تَوَلَّوْاْ فاعلموا أَنَّ الله مَوْلاَكُمْ نِعْمَ المولى وَنِعْمَ النصير ) بشارة منه - سبحانه - للمؤمنين بالنصر والتأييد .أى : وإن أعرضوا عن الإيمان ولم ينتهوا عن الكفر والطغيان ( فاعلموا أَنَّ الله مَوْلاَكُمْ ) أى : ناصركم ومعينكم عليهم ، فثقوا بولايته ونصرته ، فهو - سبحانه - ( مَوْلاَكُمْ نِعْمَ المولى وَنِعْمَ النصير ) لأنه لا يضيع من تولاه ، ولا يهزم من نصره .وبذلك ، نرى أن هذه الآيات الكريمة قد فتحت الباب للكافرين حتى يفيئوا إلى رشدهم وينتهوا عن كفرهمن وبشرتهم بأنهم إذا فعلوا ذلك غفر الله لهم ما سلف من ذنوبهم . . أما إذا استمروا فى كفرهم ومعاداتهم للح ، فقد أمر الله عباده المؤمنين بقتالهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله . .أى أن القتال فى الإسلام شرعه الله - تعالى - من أجل إعلاء كلمته ومن أجل رفع الأذى والفتنة والعدوان عمن يعتنقون دينه وشريعته .هذا ، وقد ساق ابن كثير عند تفسيره الآيات جملة من الأحاديث التى تشهد بأن القتال فى الإسلام إنما شرعه الله - تعالى - لإعلاء كلمته ، وليس لأجل الغنيمة أو السيطرة على الغير . . وأنه لا يجوز لمسلم أن يقتل إنسانا بعد نطقه بالشهادتين . فقال - رحمه الله - : وقوله - تعالى - ( وَقَاتِلُوهُمْ حتى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ ) روى البخارى عن ابن عمر أن رجلا جاءه - فى فتنة ابن الزبير - فقال له يا . ( أبا عبد الرحمن ، ألا تصنع ما ذكره الله فى كتابه ( وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ المؤمنين اقتتلوا ) الآية . فما يمنعك من القتال؟ فقال يا ابن أخى لأن ) : أعير بهذه الآية ولا أقاتل ، أحب إلى من أن أعير بالآية التى تقول وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا ) الآية .فقال الرجل : فإن الله يقول : ( وَقَاتِلُوهُمْ حتى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ ) فقال ابن عمر : " قد فعلنا على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذ كان الإسلام قليلا ، فكان الرجل يفتن فى دينه : إما أن يقتلوه ، وإما أن يوثقوه حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة " .وعن سعيد بن جبير قال : خرج إلينا ابن عمر فقال له قائل : كيف ترى فى قتال الفتنة؟ فقال له ابن عمر وهل تدرى ما الفتنة؟ كان محمد - صلى الله عليه وسلم - يقاتل المشركين ، وكان الدخول عليهم فتنة ، وليس بقتالكم على الملك .وفى رواية أنه قال : قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين كله لله وأنتم تريدون أن ) تقاتلوا حتى تكون فتنة ، ويكون الدين لغير الله .ثم قال ابن كثير : وقوله فَإِنِ انْتَهَوْاْ ) أى؛ بقتالكم عما هم فيه من الكفر فكفوا عنه وإن لم تعلموا بواطنهم ( فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ) ..وفى الصحيح " أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال لأسامة لما علا ذلك الرجل بالسيف ، فقال الرجل لا إله إلا الله ، فضربه فقتله فذكر ذلك للرسول - صلى الله عليه وسلم - فقال لأسامة : أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟ فكيف تصنع " بلا إله إلا الله " يوم القيامة؟ فقال : يا رسول الله إنما قالها تعوذا فقال . هلا شققت عن قلبه؟ وجعل يقول ويكرر عليه من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة ، قال أسامة : حتى تمنيت أنى لم أكن أسلمت إلا يومئذ . "

واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ان كنتم امنتم بالله وما انزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير

كما فسرها الوسيط وبعد هذا الحديث المتنوع عن مكر الكافرين وعن دعاويهم الكاذبة ، وعن وجوب مقاتلتهم إذا ما استمروا فى طغيانهم وعدوانهم . . لعد كل ذلك بين - سبحانه - للمؤمنين كيفية قسمة الغنائم التى كثيرا ما تترب على قتال أعدائهم ، فقال - تعالى - : ( واعلموا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ . . . ) وقوله : ( غَنِمْتُمْ ) من الغنم بمعنى الفوز والربح يقال : غنم غنما.

وغنيمة إذا ظفر بالشئ قال القرطبى ما ملخصه : الغنيمة فى اللغة ما يناله
... الرجل أو الجماعة بسعى ، ومن ذلك قول الشاعر :وقد طوفت فى الآفاق حتى
- رضيت من الغنيمة بالإياب واعلم أن الاتفاق حاصل على أن المراد بقوله
تعالى - : ( غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ ) مال الكفار إذا ظفر به المسلمون على
: وجه الغلبة والقهر .وسمى الشرع الواصل من الكافر إلينا من الأموال باسمين
غنيمة وفيئا . فالشئ الذى يناله المسلمون من عدوهم بالسعى وإيجاف الخيل
والركاب يسمى غنيمة . ولزم هذا الاسم هذا المعنى حتى صار عرفا .والفئ مأخوذ
. من فاء يفئ إذا رجع ، وهو كل ما دخل على المسلمين من غير حرب ولا إيجاف
) : كخراج الأرضين ، وزية الجماجم .والمعنى : الإجمالى للآية الكريمة
واعلموا ) - أيها المسلمون -( أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ ) أى : ما
أخذتموه من الكفار قهرا ( فَأَنَّ لِلَّهِ ) الذى منه - سبحانه - النصر
المتفرع عليه الغنيمة ( خُمُسَهُ ) أى خمس ما غنمتموه شكرا له على هذا
: النعمة ( وَلِلرَّسُولِ ) الذى هو سبب فى هدايتكم (وَلِذِي القربى ) أى
ولأصحاب القرابة من رسول الله - صلى الله عليه وسلم والمراد بهم على الراجح
بن هاشم وبنو المطلب .( واليتامى ) وهم أطفال المسلمين الذين مات آباؤهم
قبل أن يبلغوا .( والمساكين ) وهم أهل الفاقة والحاجة من المسلمين .( وابن
السبيل ) وهو المسافر الذى نقد ماله وهو الطريق قبل أن يصل إلى بلده .وقوله
معطوف على قوله قبل ذلك ( وَقَاتِلُوهُمْ حتى لاَ تَكُونَ ( واعلموا )
فِتْنَةٌ . . . ) الخ و ( مَا ) فى قوله : ( أَنَّمَا غَنِمْتُمْ ) موصولة
والعائد محذوف .وقوله : ( مِّن شَيْءٍ ) بيان الموصول محله النصب على أنه
حال من العائد المقدر .أى : أن ما غنمتموه من شئ سواء أكان هذا الشئ قليلا
أم كثيرا ( فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ) .وقوله : ( فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ
)خبر مبتدأ محذوف والتقدير : فحكمه أن لله خمسة والجار والمجرور خبر (
أَنَّ ) مقدم ، وخمسة اسمها مؤخر . والتقدير : فأن خمسه كائن لله وللرسول
ولذى القربى . . إلخ .وأعيدت اللام فى قوله ( وَلِذِي القربى ) دون غيرهم
من الأصناف التالية لدفع توهم اشتراكهم فى سهم النبى - صلى الله عليه
وسلم - لمزيد اتصالهم به .وقوله : ( إِن كُنتُمْ آمَنْتُمْ بالله . . . )
شرط جزاؤه محذوف .أى : إن كنتم آمنتم بالله حق الإيمان ، وآمنتم بما
أنزلنا على عبدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - ( يَوْمَ الفرقان ) أى يوم
بدر ( يَوْمَ التقى الجمعان ) أى : جمع المؤمنين وجمع الكافرين . . إن كنتم
آمنتم بكل ذلك ، فاعملوا بما علمتم ، وارضوا بهذه القسمة عن إذعان وتسليم
وحسن قبول .وما أنزله الله على نبيه - صلى الله عليه وسلم - يوم بدر
يتناول ما نزل من آيات قرآنية ، كما يتناول نزول الملائكة لتثبيت المؤمنين.
وتبشيرهم بالنصر كما يتناول غير ذلك مما أيدهم الله به فى بدر .وسمى يوم ،
) بدر بيوم الفرقان ، لأنه اليوم الذى فرق الله فيه بين الحق والباطل وقوله
والله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ) تذييل قصد به بيان أن ما أصابه المؤمنون
يوم بدر من غنيمة ونصر إنما هو بقدرة الله التى لا يعجزها شئ فعليهم أن
يداموا على طاعته وشكره ليزيدهم من عطائه وفضله .هذا ، وقد ذكر العلماء عند
تفسيره لهذه الآية جملة من المسائل والأحكام من أهمها ما يأتى :1- أن هذه
الآية وضحت أن غنائم الحرب تخمس فيجعل الخمس الأول منها لله وللرسول ولذى
القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، والأربعة الأخماس الباقية بينت
السنة أنها تقسم على الجيش : للراجل سهم ، وللفارس ثلاثة أسهم أو سهمان
قال ابن كثير : ويؤيد هذا ما رواه البيهقى بإسناد صحيح عن عبد الله بن.
، شقيق عن رجل قال : أتيت النبى - صلى الله عليه وسلم - ، وهو بوادى القرى
وهو معترض فرسا فقلت : يا رسول الله ، ما تقول فى الغنيمة ، فقال : لله
، خمسها وأربعة أخماسها للجيش ، قلت : فما أحد أولى به من أحد ، قال :لا
ولا السهم تستخرجه من جيبك ، ليس أنت أحق به من أخيك المسلم .وقال بعض
العلماء : أفادت الآية أن الواجب فى المغنم تخميسه ، وصرف الخمس إلى من
، ذكره الله - تعالى - وقسمه الباقى بين الغانمين بالعدل ، للراجل سهم
وللفارس ثلاثة أسهم ، سهم له وسهمان لفرسه . هكذا قسم النبى - صلى الله
عليه وسلم الغنائم عام خيبر .ومن الفقهاء من يقول : للفارس سهمان . والأول
هو الذى دلت عليه السنة الصحيحة ، ولأن الفرس يحتاج إلى مؤمنة نفسه وسائسه
ومنفعة الفارس بن أكثر من منفعة رجلين .ويجب قسمتها بينهم بالعدل ، فلا ،
يحابى أحدا ، لا لرياسته ولا لنسبه ولا لفضله وفى صحيح البخارى " أن سعد بن
- أبى وقاص رأى أن له فضلا على من دونه ، فقال النبى - صلى الله عليه وسلم
هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم "ذهب جمهور العلماء إلى ان المقصود "
بإيتاء لفظ الجلالة فى قوله ( فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ) : التبرك
- والتعظيم والحض على إخلاص النية عند القسمة وعلى الامتثال والطاعة له
سبحانه - .وليس المقصود أن يقسم الخمس على ستة منها الله - تعالى - ، فإنه
سبحانه - له الدنيا والآخرة ، وله ما فى السماوات وما فى الأرض وما بينهما
وعليه يكون خمس الغنيمة مقسما على خمسة أقسام : للرسول ، ولذى القربى.
واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل .ويرى أبو العالية والربيع والقاسم أن
- هذا الخمس يقسم إلى ستة أقسام ، عملا بظاهر الآية ، وأن سهم الله - تعالى
: يصرف فى وجوه الخير ، أو يؤخذ للكعبة .وقد رجح ابن جرير رأى الجمهور فقال

وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب من قال : قوله ( فَأَنّ لِلّهِ خُمُسَهُ )
افتتاح كلام ، وذلك لاجتماع الحجة على أن الخمس غير جائز قسمه على ستة أسهم
ولو كان لله فيه سهم - كما قال ابو العالية - لوجب أن يكون خمس الغنيمة .
مقسوما على ستة أسهم . وإنما اختلف أهل العلم فى قسمه على خمسة فما دونها
فأما على أكثر من ذلك فلا نعلم قائلا غير الذى ذكرناه من الخبر عن أبى.
العالية . وفى إجماع من ذكرت - الدلالة الواضحة على ما اخترناه .وسهم
) النبى - صلى الله عليه وسلم - جعله الله - تعالى - له فى قوله
وَلِلرّسُولِ ) كان مفوضا إليه فى حياته ، يتصرف فيه كما شاء ، ويضعه حيث
، يشاء .روى الإمام أحمد" أن أبا الدرداء قال لعبادة بن الصامت : يا عبادة
ما كلمات رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى غزوة كذا وكذا فى شأن
الأخماس؟ فقال عبادة : إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - صلى بهم فى
- غزوهم إلى بعير من المقسم . فلما سلم قام رسول الله - صلى الله عليه وسلم
فتناول وبرة فقال : إن هذه من غنائمكم ، وأنه ليس لى فيها إلا نصيبى معكم
، الخمس ، والخمس مردود عليكم ، فأدوا الخيط والمخيط وأكبر من ذلك وأصغر
ولا تغلوا فإن الغلو نار وعار على أصحابه فى الدنيا والآخرة ، وجاهدوا
الناس فى الله تبارك وتعالى القريب والبعيد ، ولا تبالوا فى الله لومة لائم
وأقيموا الحدود فى الحضر والسفر ، وجاهدوا فى سبيل الله ، فإن الجهاد باب ،
من أبواب الجنة . ينجى الله به من الغم والهم " ، قال ابن كثير : هذا حديث
حسن عظيم .وروى أبو داود والنسائى " عن عمرو بن عبسة ، أن رسول الله - صلى
الله عليه وسلم - صلى بهم إلى بعير من الغنم ، فلما سلم أخذ وبرة من جنب
البعير ثم قال : ولا يحل لى من غنائمكم مثل هذا إلا الخمس ، والخمس مردودة
عليكم " .هذا بالنسبة لسهمه - صلى الله عليه وسلم - فى حياته ، أما بعد
وفاته ، فمنهم من يرى : أن سهمه - صلى الله عليه وسلم - يكون لمن يلى الأمر
- من بعده . روى هذا عن أبى بكر وعلى قتادة وجماعة . .ومنهم من يرى أن سهمه
صلى الله عليه وسلم - يصرف فى مصالح المسلمين . روى ابن جرير عن الأعمش عن
- إبراهيم قال : كان أبو بكر وعمر يجعلان سهم النبى - صلى الله عليه وسلم
فى الكراع والسلاح .ومنهم من يرى صرفه لبقية الأصناف : ذوى القربى واليتامى
والمساكين وابن السبيل .وقد رجح ابن جرير هذا الرأى فقال : والصواب من
القول فى ذلك عندنا : ان سهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مردود فى
الخمس ، والخمس مقسوم على أربعة اسهم على ما روى عن ابن عبسا : للقرابة سهم
- ولليتامى سهم ، وللمساكين سهم ، ولابن السبيل سهم ، لأن الله - تعالى ،
أوجب الخمس لأقوام موصوفين بصفات ، كما أوجب الأربعة الأخماس الآخرين . وقد
اجمعوا أن حق أهل الأربعة الأخماس لن يستحقه غيرهم ، فكذلك حق أهل الخمس لن
يستحقه غيرهم ، فغير جائز أن يخرج عنهم إلى غيرهم . .4- المراد بذى
القربى - كما سبق أن أشرنا - بنو هاشم وبنو المطلب على الراجح . وعليه فإن
السهم المخصص لذى القربى لا يصرف إلى لهم .قال القرطبى ما ملخصه : اختلف
العلماء فى ذوى القربى على ثلاثة أقوال :أولها : أن المراد بهم بنو هاشم
وبنو المطلب . " قاله الشافعى وأحمد وأبو ثور ومجاهد . . لأن النبى - صلى
" : الله عليه وسلم - لما قسم سهم ذوى القربى بين بنى هاشم وبنى المطلق قال
إنهم لم يفارقونى فى جاهلية ولا إسلام وإنما بنو هاشم وبنو المطلب شئ واحد
وشبك بين أصابعه " أخرجه البخارى والنسائى .ثالثها : أن المراد بهم بنو "
هاشم خاصة . قاله مجاهد وعلى بن الحسين . وهو قول مالك والثورى والأوزاعى
وغيرهم .وقال الآلوسى : وكيفية القسمة عند الأصحاب أنها كانت على عهد رسول
- الله - صلى الله عليه وسلم - على خمسة أسهم سهم له - صلى الله عليه وسلم
للمذكورين من ذوى القربى ، وثلاثة أسهم للاصناف الثلاثة الباقية .وأما بعد
، وفاته - صلى الله عليه وسلم - فسقط سهمه . . وكذا سقط سهم ذوى القربى
، وإنما يعطون بالفقر ، ويقدم فقراؤهم على فقراء غيرهم ، ولا حق لأغنيائهم
لأن الخلفاء الأربعة قسموا الخمس كذلك وكفى بهم قدوة . .ثم قال : ومذهب
المالكية أن الخمس لا يلزم تخمسه ، وأنه مفوض إلى رأى الإمام .- أى انهم
يرون أن خمس الغنيمة يجعل فى بيت المال فينفق منه على ما ذكر وعلى غيرهم
بحسب ما يراه الأمام من مصلحة المسلمين ، وكأنهم يرون أن هذه الأصناف إنما
ذكرت على سبيل المثال ، وأنها من باب الخاص الذى قصد به العام ، بينما يرى
غيرهم أن هذه الاصناف من باب الخاص الذى قصد به الخاص .ثم قال : ومذهب
: الإمامية أنه ينقسم إلى ستة أسهم كما ذهب أبو بالعالية ، إلا أنهم قالوا
إن سهم الله - تعالى - ، وسهم رسوله - صلى الله عليه وسلم - وسهم ذوى
القربى الكل للإمام القائم مقام الرسول - صلى الله عليه وسلم - أما الاسهم
الثلاثة الباقية فهم لليتامى من آل محمد - صلى الله عليه وسلم - وسهم
لمساكينهم ، وسهم لأبناء سبيلهم ، لا يشركهم فى ذلك غيرهم .رووا ذلك عن زين
العابدين ، ومحمد بن على الباقر .ثم قال : والظاهر أن الاسهم الثلاثة
الأولى التى ذكروها اليوم تخبأ فى السرداب ، إذ القام مقام الرسول - صلى
الله عليه وسلم - قد غاب عندهم فتخبأ له حتى يرجع من غيبته . .هذا ، ومن كل
، ما سبق نرى أن أكثر العلماء يرون أن خمس الغنيمة يقسم إلى خمسة أقسام
ومنهم من يرى أنه يقسم الى ستة أقسام ، ومنهم من يرى أنه لا يلزم تقسيمه
. . إلى خمسة أقسام أو الى ستة ، وإنما هو موكول إلى نظر الإمام واجتهاده

ومنهم من يرى غير ذلك ، ولكل فريق أدلة المبسوطة فى كتب الفروع .5- ذكرنا
عند تفسيرنا لقوله - تعالى - فى مطلع السورة ( يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأنفال
أن المراد بالأنفال : الغنائم وعليه تكون الآية التى معنا وهى قوله ( . . .
مفصلة لما أجملته الآية التى فى مطلع ( واعلموا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ )
السورة .أى أن الآية التى فى مطلع السورة بينت أن الأمر فى قسمة الانفال
مفوض إلى الله ورسوله ، ثم جاءت الآية التى معنا ففصلت كيفية قسمة الغنائم
حتى لا يتطلع أحد إلى ما ليس من حقه .وهذا أولى من قول بعضهم : إن الآية
التى معنا نسخت الآية التى فى مطلع السورة : لأن النسخ لا يصار إليه عند
التعارض وهنا لا تعارض بين الآيتين .6- الآية الكريمة أرشدت المؤمنين إلى
أن من الواجب عليهم أن يخلصوا فى طاعتهم لله - تعالى - ولرسوله - صلى الله
عليه وسلم - وأن يجعلوا غياتهم من جهادهم إعلاء كلمة الله ، لكى يكونوا
) : مؤمنين حقا .ويشعر بهذا الإرشاد تصديره - سبحانه - الآية بقوله
واعلموا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ) كما
يشعر به قوله - تعالى - ( إِن كُنتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا
على عَبْدِنَا يَوْمَ الفرقان . . ) ، فإن كل ذلك فيه معنى الحض على إخلاص
- النية لله - تعالى - والامتثال لحكمه ، والمداومة على شكره ، حيث منحهم
سبحانه - هذه النعم بفضله وإحسانه .وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله
فإن قلت : بم تعلق قوله ( إِن كُنتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ ) : قلت بمحذوف :
يدل عليه قوله ( واعلموا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ ) والمعنى : إن كنتم آمنتم
بالله فاعلموا أن الخمس من الغنيمة يجب التقرب به ، فاقطعوا عنه أطماعكم
واقتنعوا بالأخماس الأربعة . وليس المراد بالعلم المجرد ، ولكنه العلم
المضمن بالعمل ، والطاعة لأمر الله - تعالى - ، لأن العلم المجرد يستوى فيه
المؤمن والكافر .هذه بعض المسائل والأحكام التى استنبطناها من الآية
الكريمة ، وهناك مسائل وأحكام اخرى تتعلق بها ذكرها بعض المفسرين فارجع
. إليه إن شئت

اذ انتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب اسفل منكم ولو تواعدتم
لاختلفتم في الميعاد ولكن ليقضي الله امرا كان مفعولا ليهلك من هلك عن بينة
ويحيى من حي عن بينة وان الله لسميع عليم

، كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - بعض مظاهر فضله وحكمه فى غزوة بدر
فبين الأماكن التى نزل فيها كل فريق ، كما بين الحكمة فى لقاء المؤمنين
. والكافرين على غير ميعاد ، والحكمة في تقليل كل فريق منهما فى عين الآخر
فقال تعالى : ( إِذْ أَنتُمْ بِالْعُدْوَةِ . . . تُرْجَعُ الأمور ) .
قوله : ( إِذْ أَنتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدنيا ) بدل من قوله ( يَوْمَ.
الفرقان ) أو معمول لفعل محذوف . والتقدير : اذكروا .والعدوة - مثلثة
العين - جانب الوادى وحافته . وهى من العدو بمعنى التجاوز سميت بذلك لأنها
: عدت . . - أى منعت - ما فى الوادى من ماء ونحوه أن يتجاوزها .والدنيا
: تأنيث الأدنى بمعنى الأقرب . والقصوى : تأنيث الأقصى بمعنى الأبعد والركب
اسم جمع لراكب ، وهم العشرة فصاعدا من راكبى الإبل .قال القرطبى : ولا
تقول العرب : ركب إلا للجماعة الراكبى الإبل . .والمراد بهذا الركب : أبو
سفيان ومن معه من رجال قريش الذين كانوا قادمين بتجارتهم من بلاد الشام
ومتجهين بها إلى مكة ، فلما بلغ النبى - صلى الله عليه وسلم - أمرها ، أشار
- على أصحابه بالخروج لملاقاته ، كما سبق أن بينا عند تفسيرنا لقوله
: تعالى - (كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بالحق . . ) والمعنى
) اذكروا - أيها المؤمنون - وقت أن خرجتم إلى بدر ، فسرتم إلى أن كنتم
، بِالْعُدْوَةِ الدنيا ) أى : بجانب الوادى وحافته الأقرب الى المدينة
وكان اعداؤكم الذين قدموا لنجدة العير ( بالعدوة القصوى ) أى : بالجانب
) الآخر الأبعد من المدينة ، وكان أبو سفيان ومن معه من حراس العير
أَسْفَلَ مِنكُمْ ) أى : فى مكان أسفل من المكان الذى أنتم فيه ، بالقرب من
ساحل البحر الأحمر ، على بعد ثلاثة أميال منكم .قال الجمل : قوله ( والركب
) أَسْفَلَ مِنكُمْ ) الأحسن فى هذه الواو ، والواو التى قبلها الداخلة على
هُم ) أن تكون عاطفة ما بعدها على ( أَنتُمْ ) لأنها مبدأ تقسيم أحوالهم
وأحوال عدوهم ويجوز أن يكونا واو حال ، واسفل منصوب على الظرف النائب عن
الخبر ، وهو فى الحقيقة صفة لظرف مكان محذوف . أى : والركب فى مكان أسفل من
مكانكم وكان الركب على ثلاثة أميال من بدر . .وقال الإمام الزمخشري - رحمه
الله - فإن قلت : ما فائدة هذا التوقيت ، وذكر مراكز الفريقين ، وأن العير
كانت أسفل منهم؟ .قلت : الفائدة فيه الإخبار عن الحال الدالة على قوة
، الشأن للعدو ، وتكامل عدته ، وتمهد أسباب الغلبة له ، وضعف شأن المسلمين
- والتياث أمرهم ، وأن غلبتهم فى هذه الحال ليس إلا صنعا من الله - سبحانه
ودليلا على أن ذلك أمر لم يتيسر إلا بحوله وقوته وباهر قدرته .وذلك أن
العدوة القصوى التى أناخ بها المشركون ، كان فيه الماء ، وكانت أرضا لا بأس
بها . ولا ماء العدوة الدنيا ، وهى خبار - أى أرض لينة رخوة - تسوخ فيها
الأرجل ، ولا يمشى فيها إلا بتعب ومشقة .وكانت العير وراء ظهور العدو ، مع

كثرة عددهم ، فكانت الحماية دونها تضاعف حميتهم ، وتشحذ فى المقاتلة عنها
نياتهم ، ولهذا كانت العرب تخرج إلى الحرب بظعنهم وأموالهم ، ليبعثهم الذب
عن الحريم على بذل جهودهم فى القتال .وفيه تصوير ما دبر - سبحانه - من أمر
، غزوة بدر ( لِّيَقْضِيَ اللَّه أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً ) ومن إعزاز دينه
وإعلاء كلمته ، حين وعد المسلمين إحدى الطائفتين مبهمة غير مبينة حتى خرجوا
ليأخذوا العير راغبين فى الخروج ، وأقلق قريشا ما بلغهم من تعرض المسلمين
لأموالهم ، فنفروا لمنعوا عيرهم ، وسبب الأسباب حتى أناخ هؤلاء بالعدوة
الدنيا وهؤلاء بالعدوة القصوى ، وراءهم العير يحامون عليها ، حتى قامت
الحرب في ساق ، وكان ما كان .وقوله : ( وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ
لاَخْتَلَفْتُمْ فِي الميعاد ولكن لِّيَقْضِيَ اللَّه أَمْراً كَانَ
مَفْعُولاً ) بيان لتدبير الله الحكيم ، وإرادته النافذة .أى : ولو تواعدتم
، وأهل مكة على موعد تلتقون فيه للقتال ، لتخلفتم عن الميعاد المضروب بينكم
- لأن كل فريق منكم كان سيتهيب الإقدام على صاحبه ، ولكن الله - تعالى
- بتدبيره الخفى شاء أن يجمعكم للقتال على غير ميعاد ، ليقضى - سبحانه
أمراً كان مفعولا ، أى : ثابتا فى علمه وحكمته ، وهو : إعزاز الإسلام
وأهله ، وخذلان الشرك وحزبه .روى ابن جرير من حديث كعب بن مالك - رضى الله
عنه - قال : إنما خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والمسلمون يريدون
- عير قريش ، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد . وروى - أيضا
عن عمير بن إسحاق قال : أقبل أبو سفيان فى الكرب من الشام ، وخرج أبو جهل
ليمنعه من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه فالتقوا ببدر ، ولا
يشعر هؤلاء بهؤلاء ، ولا هؤلاء بهؤلاء ، حتى التقى السقاة قال : ونظر الناس
بعضهم إلى بعض .وقوله ( لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ ويحيى مَنْ
حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ) بدل من قوله ( لِّيَقْضِيَ ) بإعادة الحروف ، أو هو
متعلق بقوله ( مَفْعُولاً ) .والمراد بالهلاك والحياة هنا ما يشمل الحسى
والمعنوى منهما .والمراد بالبينة الحجة الدالة على حقية الإسلام وبطلان
الكفر .قال الآلوسى : أى : ليموت من يموت عن حجة عاينها ، ويعيش من يعيش عن
حجة شاهدها ، فلا يبقى محل للتعليل بالأعذار ، فإن وقعة بدر من الآيات
، الواضحة والحجج الغر المحجّلة .ويجوز أن يراد بالحياة : الإيمان
: وبالموت : الكفر على سبيل الاستعارة أو المجاز المرسل بأن يراد بالبينة
إظهار كمال القدرة الدالة على الحجة الدامغة .أى : ليصدر كفر من كفر وإيمان
من آمن عن ووضح وبينة وإلى هذا ذهب قتادة وابن اسحاق . والظاهر أن ( عَن )
هنا بمعنى بعد كقوله - تعالى - ( قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ
- نَادِمِينَ ) وقرأ نافع وابن كثير وأبو بكر ويعقوب ( حيى ) - على وزن تعب
بفك الإدغام . وقرأ الباقون بإدغام الياء الأولى فى الثانية على وزن شد
ومد .وقوله ( وَإِنَّ اللَّه لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ) تذييل قصد به الترغيب فى
الإيمان - والترهيب من الكفر ، أى : وإن الله لسميع لأقوال أهل الايمان
والكفر عليم بما تنطوى عليه قلوبهم وضمائرهم ، وسيجازى - كل إنسان بما
. يستحقه من ثواب أو عقاب على حساب ما يعلم وما يسمع منه

اذ يريكهم الله في منامك قليلا ولو اراكهم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم في الامر
ولكن الله سلم انه عليم بذات الصدور

كما فسرها الوسيط ثم يبين - سبحانه - بعض وجوه نعمه على المؤمنين ، وتدبيره
الخفى لنصرهم وفوزهم فيقول : ( إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّه فِي مَنَامِكَ
قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي
الأمر ولكن الله سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ) .أى : اذكر يا
محمد فضل الله عليك وعلى أصحابك ، حيث أراك فى منامك الكافرين قليلا عددهم
ضئيلا وزنهم فأخبرت بذلك اتباعك فازدادوا ثباتا واطمئنانا وجرأة على ،
) عدوهم ( وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً ) أى : ولو أراك الأعداء عددا كثيرا
لَّفَشِلْتُمْ ) أى : لتهيبتهم الإقدام عليهم ، لكثرة عددهم ، من الفشل
وهو ضعف مع جبن ( وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأمر ) أى : فى أمر الإقدام
عليهم والاحجام عنهم . فمنكم من يرى هذا ومنكم من يرى ذلك .وقوله ( لأَمْرِ
ولكن الله سَلَّمَ ) بيان لمحل النعمة . أى : ولكن الله - تعالى - بفضله
وإحسانه أنعم عليكم بالسلامة من الفشل والنزاع وتفرق الآراء فى شأن القتال
حيث ربط على قلوبكم ، ورزقكم الجرأة على أعدائكم وعدم المبالاة بهم بسبب :
رؤيا نبيكم .وقوله : ( إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ) تذييل يدل على
شمول علمه - سبحانه - .أى : إنه - سبحانه - عليكم بكل ما يحصل فى القلوب
وما يخطر بها من شجاعة وجبن ومن صبر وجزع ولذلك دير ما دبر .قال الفخر
الرازى ، قال مجاهد : أرى الله النبى - صلى الله عليه وسلم - كفار قريش فى
، منامه قليلا ، فأخبر بذلك أصحابه فقالوا : رؤيا النبى حق . القوم قليل
فصار ذلك سبب لجرأتهم وقوة قلوبهم .فإن قيل : رؤية الكثر قليلا غلط ، فيكف
يجوز من الله - تعالى - أن يفعل ذلك؟قلنا : ذهبنا أنه - تعالى - يفعل ما
يشاء ويحكم ما يريده وأيضا لعله - سبحانه - أراه البعض دون البعض فحكم
الرسول على أولئك الذين رآهم بأنهم قليلون .ونستطيع أن نضيف إلى ما أجاب به

: الفخر الرازى أنه يجوز أن يكون المراد بالقلة : الضعف وهوان الشأن . .أى
أن المشركين وإن كانوا فى حقيقتهم يقاربون الألف - أى أكثر من ثلاثة أمثال
المؤمنين - إلا أنهم لا قوة لهم ولا وزن ، فهم كثير عددهم ولكن قليل غناؤهم
قليل وزنهم فى المعركة . لأنهم ينقصهم الإيمان الصحيح الذى يقوى القلوب ،
ويدفع النفوس إلى الإقدام لنصرة الحق لكى تفوز برضا الله وحسن مثوبته ،
وإلى هذا المعنى أشار صاحب المنار بقوله : وقد تقدم أن النبى - صلى الله.
عليه وسلم - قدر عدد المشركين بألف وأخبر أصحابه بذلك ، ولكنه أخبرهم مع
هذا أنه رآهم فى منامه قليلا ، لا أنهم قليل فى الواقع ، فالظاهر أنهم
أولوا الرؤيا بأن بلاءهم يكون قليلا ، وأن كيدهم يكون ضعيفا ، فتجروا وقويت
قلوبهم .هذا ، ونسب إلى الحسن أنه ذكر أن هذه الآراء كانت فى اليقظة ، وأن
المراد من المنام العين التى هى موضع النوم . قال الزمخشري . وهذا تفسير
فيه تعسف . وما أحسبت الرواية صحيحة فيه عن الحسن .وقال الآلوسى : وعن
الحسن أنه فسر المنام بالعين ، لأنها مكان النوم كما يقال للقطيفة المنامة
لأنها ينام فيها ، فلم يكن عنده هناك رؤيا أصلا بل كانت رؤية ، وإليه ذنب
البالخى . ولا يخفى ما فيه ، لأن المنام شائع بمعنى النوم مصدر ميمى . ففى
- الحمل على خلاف ذلك تعقيد ولا نكتة فيه . . على أن الروايات الجمة برؤيته
صلى الله عليه وسلم - إياهم مناما ، وقص ذلك على أصحابه مشهورة لا يعارضها
كون العين مكان النوم نظرا إلى الظاهر . . ولعل الرواية عن الحسن غير صحيحة
. فانه الفصيح العالم بكلام العرب ،

واذ يريكموهم اذ التقيتم في اعينكم قليلا ويقللكم في اعينهم ليقضي الله
امرا كان مفعولا والى الله ترجع الامور

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التقيتم
في أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ . . . ) معطوف
على ما قبله وهو قوله ( إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً )
وذلك لتأكيد الرؤيا المنامية بالرؤية فى اليقظة .والمعنى : واذكروا - أيها
المؤمنون - وقت أن التقيتم مع أعدائكم وجها لوجه فى بدر ، فكان من فضل الله
عليم قبل أن تلتحموا معهم أن جعل عددهم قليلا فى أعينكم وجعل عددكم قليلا
فى أعينهم ، وذلك لإغرائهم على خوض المعركة .أما أنتم فتخوضونها بدون
مبالاة بهم لقلتهم فى أعينكم ، ولثقتكم بنصر الله إياكم . .وأما هم
فيخوضونها معتمدين على غرورهم وبطرهم وقلتكم فى أعينهم ، فيترتب على ذلك أن
- يتركوا الاستعداد اللازم لقتالكم ، فتكون الدائرة عليهم . .قال ابن مسعود
وهو ممن حضر بدرا - : لقد قللوا فى أعيننا حتى قلت لرجل إلى جنبى : أتراهم
: سبعين؟ قال : أراهم مائة ، فأسرنا رجلا منهم فقلنا له : كم كنتم؟ قال
ألفا .وقال أبو جهل - فى ذلك اليوم وقبل الالتحام - : إن محمداً وأصحابه
أكلة جزور - أى هم قليل يشبعهم لحم ناقة واحدة - خذوهم أخذا و اربطوهم
) بالحبال . .وقد أجاد صاحب الكشاف عند تفسيره لهذه الآية حيث يقول : قوله
) . وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ ) الضميران مفعولان يعنى : وإذ يبصركم إياهم
قَلِيلاً ) حال ، وإنما قَللهم فى أعينهم تصديقا لرؤيا رسول الله - صلى الله
. . عليه وسلم - ، وليعاينوا ما أخبرهم به فيزداد يقينهم ويجدوا ويثبتوا
فإن قلت : الغرض من تقليل الكفار فى أعين المؤمنين ظاهر ، فما الغرض من.
تقليل المؤمنين فى أعينهم؟قلت : قد قللهم فى أعينهم قبل اللقاء ، ثم كثرهم
فيها بعده ، ليجترئوا عليهم ، قلة مبالاة بهم ، ثم تفجؤهم الكثرة فيبهتوا
يهابوا ، وتقل شوكتهم ، حير يرون ما لم يكن فى حسابهم وتقديرهم ، وذلك
قوله( قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ التقتا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي
( سَبِيلِ الله وأخرى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ العين
ولئلا يستعدوا لهم ، وليعظم الاحتجاج عليهم فاستيضاح الآية البينة من قلتهم
أولا ، وكثرتهم آخرا .ثم قال : فإن قلت : بأى طريق يبصرون الكثير قليلا؟قلت
بأن يستر الله عنهم بعضه بساتر ، أو يحدث فى عيونهم ما يستقلون به الكثير :
كما أحدث فى أعين الحول ما يرون به الواحد اثنين .قيل لبعضهم : إن الأحول ،
يرى الواحد اثنين - وكان بين يديه ديك واحد - فقال : ما لى لا أرى هذين
الديكين أربعة .وقوله - سبحانه - ( لِيَقْضِيَ الله أَمْراً كَانَ
مَفْعُولاً وَإِلَى الله تُرْجَعُ الأمور ) ما فعل من تقليل كل فريق فى عين
الآخر ، ليقضى أمرا كان مفعولا ، أى : ثابتا فى علمه وحكمته ، وهو نشوب
القتال المفضى إلى انتصار المؤمنين ، واندحار الكافرين وإلى الله وحده ترجع
الأمور لا إلى إحد سواه ، فإن كل شئ عنده بمقدار ، ولأن كل شئ فى هذا الكون
بقضائه وقدره ، وما من شئ إلا مصيره ومرده إليه .قال بعض العلماء : ولا
يقال إن قوله - تعالى - : ( لِيَقْضِيَ الله أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً )
مكرر مع ما سبق ، لأننا نقول : ان المقصود من ذكره أولا - فى قوله : إذ
أنتم بالعدوة الدنيا . . هو اجتماعهم بلا ميعاد ليحصل استيلاء المؤمنين على
- الكافرين ، على وجه معجزة دالة على صدق النبى - صلى الله عليه وسلم
والمقصود منه هنا بيان خارق آخر ، وهو تقليلهم فى أعين المشركين ثم تكثيرهم
للحكم المتقدمة .وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة حكت لنا جانبا من أحداث

غزوة بدر بأسولب تصويرى بديع فى استحضار لمشاهدها ومواقفها ، وكشفت لنا عن
، جوانب من مظاهر قدرته الله ، ومن تدبيره المحكم الذى كان فوق تدبير البشر
ومن تهيئة الاسباب الظاهرة والخفية التى أدت إلى نصر المؤمنين وخذلان
. الكافرين

يا ايها الذين امنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون

كما فسرها الوسيط وبعد هذا التذكير النافع ، والتصوير المؤثر لأحداث غزوة
، بدر ، وجه - سبحانه - فى هذه السورة إلى المؤمنين النداء السادس والأخير
حيث أمرهم بالثبات فى وجه أعدائهم ، وبالمداومة على ذكره وطاعته . . ونهاهم
عن التنازع والاختلاف فقال - تعالى - : ( ياأيها الذين آمنوا . . . مَعَ
، الصابرين ) .وقوله : ( لَقِيتُمْ ) من اللقاء بمعنى المقابلة والمواجهة
: ويغلب استعماله فى لقاء القتال وهو المراد هنا .وقوله : ( فِئَةً ) أى
جماعة . مشقة من الفئ بمعنى الرجوع ، لأن بعضهم يرجع إلى بعض .والمراد بها
هنا : جماعة المقاتلين من الكافرين وأشباههم .والمتتبع لاستعمال القرآن
لهذه الكلمة ، يراه يستعملها - فى الأعم الأغلب - فى الجماعة المقاتلة أو
الناصرة أو ما يشبه ذلك .قال - تعالى - : ( كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ
غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ الله . . . ) وقال - تعالى - : ( قَدْ
كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ التقتا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ
الله وأخرى كَافِرَةٌ . . . ) وقال - تعالى - : ( وَلَمْ تَكُن لَّهُ
: فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ الله وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً ) والمعنى
: يأيها الذين آمنوا بالله حق الإيمان ، ( إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً ) أى
حاربتم جماعة من أعدائكم ، فاثبتوا لقتالهم وأغلظوا عليهم فى النزال ، ولا
تولوهم الأدبار ، ( ثْبُتُواْ واذكروا الله كَثِيراً )لا سيما فى مواطن
الحرب ، فإن ذكر الله عن طريق القلب واللسان من أعظم وسائل النصر : لأن
المؤمن متى استحضر عظمة الله فى قلبه لا تهوله قوة عدوه ، ولا تخيفه كثرته
وقوله ( لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ ) أى : لعلكم تظفرون بمرادكم من النصر. .
. وحسن الثواب ، متى فعلتم ذلك عن إخلاص

واطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين

كما فسرها الوسيط وقوله ( وَأَطِيعُواْ الله وَرَسُولَهُ ) معطوف على ما
قبله ، أى : اثتبوا عند لقاء الأعداء ، وأكثروا من ذكر الله ، وأطيعوا الله
ورسوله فى كل أقوالكم وأعمالكم ، وفى سركم وجهركم ، وفى كل ما تأتون وما
تذرون .وقوله ( وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ )
نهى لهم عن الاختلاف المؤدى إلى الفشل وضياع القوة بعد أمرهم بالثبات
والمداومة على ذكر الله وطاعته .وقوله ( تَنَازَعُواْ ) من النزع بمعنى
الجذب وأخذ الشئ . . . والتنازع والمنازعة المجاذبة كأن كل واحد من
: المتنازعين يريد أن ينزع ما عند الآخر ويلقى به .والمراد بالتنازع هنا
: الخصام والجدال والاختلاف المفضى إلى الفشل أى : الضعف .قال الآلوسى
. وقوله : ( وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ) ، قال الأخفش : الريح مستعارة للدولة
لشبهها بها فى نفوذ أمرها وتمشية ، ومن كلامهم هبت رياح فلان إذا دالت له
الدولة وجرى أمره على ما ريد . وركدت رياحه إذا ولت عنه وأدبر أمره . قال
الشاعر :إذا هبت رياحك فاغتنمها ... فإن لكل خافقة سكونا تغفل عن الإحسان
- فيها ... فما تدرى السكون متى يكونوالمعنى : كونوا - أيها المؤمنون
ثابتين ومستمرين على ذكر الله وطاعته عند لقاء الأعداء ، ولا تنازعوا
وتختمصوا وتختلفوا ، فإن ذلك يؤدى بكم إلى الفشل أى الضعف ، وإلى ذهاب
، دولتكم ، وهوان كلمتكم ، وظهور عدوكم عليكم .( واصبروا ) على شدائد الحرب
وعلى مخالفة أهوائكم التى تحملكم على التنازع ، ( إِنَّ الله مَعَ الصابرين
بتأييده ومعونته ونصره .هذا والمتأمل فى هاتين الآيتين يراهما قد رسمتا (
للؤمنين فى كل زمان ومكان الطريق التى توصلهم إلى الفلاح إلى النصر أكثرهما
ثباتا .ويأمرون بمداومة ذكر الله ، لأن ذكر الله هو الصلة التى تربط
الإنسان بخالقه الذى بيده كل شئ ، ومتى حسنت صلة الإنسان بخالقه ، صغرت
فى عينه قوة أعدائه مهما كبرت .ويأمران بطاعة الله ورسوله ، حتى يدخل
المؤمنون المعركة بقلوب نقية ، وبنفوس صافية . .لا مكان فيها للتنازع
والاختلاف المؤدى إلى الفشل ، وذهاب القوة . . ويأمران بالصبر ، أى بتوطين
النفس على ما يرضى الله ، واحتمال المكاره والمشاق فى جلد . وهذه الصفة لا
بد منها لمن يريد أن يصل إلى آماله وغاياته .ورحم الله الإمام ابن كثير
- فقد قال عند تفسيره لهاتين الآيتين الكريمتين : " هذا تعليم من الله
تعالى - لعباده - المؤمنين آداب اللقاء ، وطريق الشجاعة عند مواجهة الأعداء
وقد ثبت فى الصحيحين عن عبد الله بن أبى أوفى " أن رسول الله - صلى الله. "
عليه وسلم - انتظر فى بعض أيامه التى لقى فيها العدو حتى إذا مالت الشمس

، قام فيهم فقال : يأيها الناس لاتتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية
: فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف . ثم قام وقال
اللهم منزل الكتاب ، ومجرى السحاب ، وهازم الأحزاب ، اهزمهم وانصرنا عليهم
وفى الحديث الآخر المرفوع يقول الله - تعالى - " إن عبدى كل عبدى الذى. "
يذكرنى وهو مناجز قرنه " أى : لا يشغله ذلك الحال عن ذكرى ودعائى واستعانتى
وعن قتادة فى هذه الآية : " افترض الله ذكره عند اشتغل ما يكون . الضرب.
بالسيوف " .ثم قال : " وقد كان للصحابة - رضى الله عنهم - فى باب الشجاعة
والائتمار بما أمرهم الله ورسوله ، وامتثال ما أرشدهم إليه ، ما لم يكن
لأحد من الأمم والقرون قبلهم ، ولا يكون لأحد من بعدهم ، فإنهم ببركة
الرسول - صلى الله عليه وسلم - وطاعته فيما أمرهم ، فتحوا القلوب والأقاليم
شرقا وغربا ، فى المدة اليسيرة ، مع قلة عددهم بالنسبة إلى جيوش سائر
الأقاليم من الروم والفرس . . قهروا الجميع حتى علت كلمة الله وظهر دينه
على سائر الأديان ، وامتدت الممالك الاسلامية فى مشارق الأرض ومغاربها فى
أقل من ثلاثين سنة فرضى الله عنهم وأرضاهم أجمعين ، وحشرنا فى زمرتهم إنه
. كريم وهاب

ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله
والله بما يعملون محيط

كما فسرها الوسيط وبعد هذه التوجيهات السامية التى رسمت للمؤمنين طريق
النصر ، نهاهم - سبحانه - عن التشبه بالكافرين الذين صدهم الشيطان عن
السبيل الحق ، فقال تعالى : ( وَلاَ تَكُونُواْ كالذين . . . عَزِيزٌ
حَكِيمٌ ) .قال الفخر الرازى عند تفسيره لقوله - تعالى - ( وَلاَ
. تَكُونُواْ كالذين خَرَجُواْ ) المراد قريش حين خرجوا من مكة لحفظ العير
خرجوا يالقيان والمغنيات والمعازف ، فلما وردوا الجحفة ، بعث خفاف
: الكناتى - وكان صديقا لأبى جهل - بهدايا إليه مع ابن له ، فلما أتاه قال
إن أبى ينعمك صباحا ويقول لك : إن شئت أن أمدك بالرجال أمددتك ، وإن شئت أن
أزحف إليك بمن معى من قرايتى فعلت .فقال أبو جهل : قل لأبيك جزاك الله
. والرحم خيرا . إن كنا نقاتل الله كما يزعم محمد فوالله ما لنا بالله طاقة
وإن كنا إنما نقاتل الناس . فوالله إن بنا على الناس لقوة . والله ما نرجع
عن قتال محمد حتى نرد بدرا فنشرب فيها الخمور ، وتعزف فيها القيان ، فإن
بدرا موسم من مواسم العرب ، وسوق من أسواقهم . وحتى تسمع العرب - بمخرجنا
فتهابنا آخر الآبد - .قال المفسرون : فوردوا بدرا ، وشربوا كؤوس المنايا
مكان الخمر ، وناحت عليهم النوائح مكان القيان .وقوله ( بَطَراً ) مصدر
بطر - كفرح - ومعناه كما يقول الراغب : دهش يعترى الإنسان من سوء احتمال
النعمة ، وقلة القيام بحقها ، وصرفها إلى غير وجهها .أى أن البطر ضرب من
التكبر والغرور واتخاذ نعم الله - تعالى - وسيلة إلى ما لا يرضيه وه ومفعول
لأجله ، أو حال ، أى : حال كوهم بطرين .وقوله ( وَرِئَآءَ ) مصدر رأى
ومعناه : القول أو الفعل الذى لا يقصد معه الإخلاص ، وإنما يقصد به
التظاهر وحب الثناء .والمعنى : كونوا أيها المؤمنون - ثابتين عند لقاء
الأعداء ، ومكثرين من ذكر الله وطاعته . وصابرين فى كل المواطن . . واحذروا
أن تتشبهوا بأولئك المشركين الذين خرجوا من مكة ( بَطَراً وَرِئَآءَ الناس
أى خرجوا غرورا وفخرا وتظاهرا بالشجاعة والحمية . . حتى ينالوا الثناء (
منهم . .وقوله : ( وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله ) معطوف على ( بَطَراً )
والسبيل : الطريق الذى فيه سهولة . والمراد بسبيل الله : دينه . لأنه يوصل
الناس إلى الخير والفلاح .أى : خرجوا بطرين بما أوتوا من نعم ومرائين بها
الناس ، وصادين إياهم عن دين الإسلام الذى باتباعه يصلون إلى السعادة
، والنجاح .وعبر عن بطرهم ورياءهم بصيغة الاسم الدال على التمكن والثبوت
وعن صدهم بصيغة الفعل الدال على التجدد والحدوث ، للإشار بأنهم كانوا
مجبولين على البطر والمفاخرة والرياء ، وأن هذه الصفات دابهم وديدنهم ، أما
الصد عن سبيل الله فلم يحصل منهم إلا بعد أن دعا الرسول - صلى الله عليه
وسلم - الناس إلى الإسلام .وقوله : ( والله بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ )
- تذييل قصد به التحذير من الاتصاف بهذه الصفات الذميمة ، لأنه - سبحانه
محيط بكل صغيرة وكبيرة وسيجازى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجازى الذين
. أحسنوا بالحسنى .فعلى المؤمنين أن يخصلوا الله - تعالى - أعمالهم

واذ زين لهم الشيطان اعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس واني جار لكم
فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال اني بريء منكم اني ارى ما لا ترون
اني اخاف الله والله شديد العقاب

كما فسرها الوسيط وقوله : ( وَإِذْ زَيّنَ لَهُمُ الشيطان أَعْمَالَهُمْ
( . . وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ اليوم مِنَ الناس وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ
تذكير للمؤمنين بما خدع به الشيطان الكافرين من وعود كاذبة ، وأمانى باطلة
والمراد بهذا التذكير : حضهم على المداومة على طاعة الله وشكره ، حيث.

: إنه - سبحانه - لم يجعلهم كأولئك الذين استحوذ عليهم الشيطان .والمعنى
احذروا - أيها المؤمنون - أن تتشبهوا بأولئك الذين خرجوا من ديارهم بطرا
ومفاخرة . . واذكروا وقت أن ( زَيَّنَ لَهُمُ الشيطان أَعْمَالَهُمْ ) فى
معاداتكم ، بأن وسوس لهم بأنهم على الحق وانتم على الباطل ، وحسن لهم ما
، جبلوا عليه من غرور ومراءاة ، وأوهمهم بأن النصر سيكون لهم عند لقائكم
بأن قال لهم ( لاَ غَالِبَ لَكُمُ اليوم مِنَ الناس وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ
، أى : لن يغلبكم أحد من الناس ، لا محمد - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه (
ولا غيرهم من قبائل العرب ، وأنى مجير ومعين وناصر لكم ، إذ المراد بالجار
: هنا : الذى يجير غيره . أى : يؤمنه مما يخاف ويخشى .قال الآلوسى : أى
ألقى فى روعهم وخيل لهم أنهم لا يغلبون لكثرة عددهم ، وعددهم ، وأوهمهم أن
اتباعهم إياه فيما يظنون أنها قربات - تجعله مجيرا لهم ، وحافظا إياهم عن
السوء حتى قالوا : اللهم انصر اهدى الفئتين ، وأفضل الدينين .فالقول مجاز
عن السوسة . والإسناد فى قوله ( وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ) من قبيل الاسناد
إلى السبب الداعى . و ( لَّكُمْ ) خبر ( لاَ ) أو صفة ( غَالِبَ ) والخبر
) محذوف . أى :لا غالب كائنا لكم موجود . و ( اليوم ) معمول الخبر . و
مِنَ الناس ) حال من ضمير الخبر . .وقوله : ( فَلَمَّا تَرَآءَتِ الفئتان
نَكَصَ على عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي برياء مِّنْكُمْ إني أرى مَا لاَ
تَرَوْنَ إني أَخَافُ الله والله شَدِيدُ العقاب ) بيان لما فعله الشيطان
وقاله بعد أن رأى ما رأى من قوة لا طاقة له بها . .وقوله : ( تَرَآءَتِ
الفئتان ) أى : تقاربتا بحيث صارت كل فئة ترى الأخرى رؤية واضحة .ومنهم من
جعل ( تَرَآءَتِ ) بمعنى التقت وقوله ( نَكَصَ على عَقِبَيْهِ ) أى : ولى
: هاربا ورجع القهقرى . وأبطل كيده وذهب ما مناهم به من الصنرة والعون يقال
نكص عن الأمر نكوصا ونكصا أى : تراجع عنه وأحجم . والعقب : مؤخر القدم
- والمعنى : لقد حرض الشيطان جنوده من الكافرين على حربكم - أيها المؤمنون.
، ومناهم بالنصر عليكم . . . ولكنه حينا تراءت الفئتان : فئتكم وفئته ،
ورأى ما أمدكم الله به من الملائكة ، ولىم دبرا وقال للكافرين : ( إِنِّي
برياء مِّنْكُمْ ) أى : من عهدكم وجواركم ونصرتكم ، ( إني أرى ) من
الملائكة النازلة لتأييد المؤمنين مالا ترونه أنتم ( إني أَخَافُ الله ) أن
يعذبنى قبل يوم القيامة ، أو إنى أخاف الله أن يصيبنى بمكروه من قبل
ملائكته .وقوله : ( والله شَدِيدُ العقاب ) يحتمل أن من كلام إبليس الذى
: حكاه الله - تعالى عنه ، ويحتمل أنه جملة مستأنفة من كلامه عز وجل .أى
والله شديد العقاب لمن عصاه وخالف أمره .هذا ، وهناك قولان فى كيفية تزيين
الشيطان للمشركين :أحدهما : أن هذا التزيين لم يكن حسيا ، وإنما كان معنويا
) عن طريق الوسوسة دون أن يتحول الشيطان إلى صورة إنسان .وعليه يكون قوله
لاَ غَالِبَ لَكُمُ اليوم . . . ) مجازا عن الوسوسة . وقوله ( نَكَصَ على
عَقِبَيْهِ ) استعارة لبطلان كيده ، شبه بطلان كيده بعد وسوسته بمن رجع
القهقرى عما يخافه .وثانيهما : أن هذا كان حسيا بمعنى أن الشيطان تمثل لهم
فى صورة إنسان ، وقال لهم ما قال مما حكاه الله - تعالى - عنه .وقد ذكر
صاحب الكشاف هذين الوجهين فى تفسير الآية فقال : واذكر ( وَإِذْ زَيَّنَ
لَهُمُ الشيطان أَعْمَالَهُمْ ) التى عملوها فى معاداة رسول الله - صلى
الله عليه وسلم - ، ووسوس إليهم أنهم لا يغلبون ولا يطاقون ، وأوهمهم أن
اتباع خطوات الشيطان وطاعته مما يجيرهم ، فلما تلاقى الفريقان نكص الشيطان
وتبرأ منهم ، أى : بطل كيده حين نزلت جنود الله .وكذا عن الحسن - رحمه
الله - قال : كان ذلك على سبيل الوسوسة ولم يتمثل لهم .وقيل : لما اجتمعت
قريش على السير - لحرب المسلمين فى بدر - ذكرت الذى بينها وبين كنانة من
الحرب ، فكاد ذلك يثنيهم عن حرب المسلمين ، فتمثل لهم إبليس فى صورة سراقة
ابن مالك بن جعشم الشاعر الكنانى - وكان من أشرفهم - فى جند من الشياطين
معه راية وقال : لا غالب لكم اليوم وإنى مجيركم من بنى كنانة . فلما رأى
الملائكة تنزل ، نكص .وقيل : كانت يده فى يد الحارث بن هشام ، فلما نكص قال
، له الحارث : إلى أين؟ أتخذلنا فى هذه الحالة؟ فقال : إنى أرى ما لا ترون
ودفع صدر الحارث وانطلق وانهزموا .فلما بلغوا مكة قالوا : هزم الناس سراقة
فبلغ ذلك سراقة فقال : والله ما شعرت بمسيركم حتى بلغتنى هزيمتكم . فلما ،
أسلموا علموا أنه الشيطان .وفى الحديث - الذى أخرجه مالك فى الموطأ - " وما
رئى إبليس يوما أصغرى ولا أدحر ولا أغيظ منه فى يوم عرفة لما يرى من نزول
الرحمة . إلا مارئى يوم بدر " .وقد ذكر ابن جرير وابن كثير روايات أخرى
، تتفق فى جملتها مع ما ذكره صاحب الكشاف ، وإن كانت تختلف عنها فى التفصيل
ومن ذلك قول ابن جرير :" وكان تزيينه ذلك لهم كما حدثنى المثنى قال : حدثنا
عبد الله بن صالح ، قال : حدثنى معاوية عن على بن أبى طلحة عن ابن عباس قال
جاء إبليس يوم بدر فى جند من الشياطين معه رايته فى صورة رجل من بنى مدلج :
فى صورة سارقة بن مالك بن جعشم ، فقال الشيطان للمشركين :لا غالب لكم ،
اليوم من الناس وإنى جار لكم فلما اصطف الناس ، أخذ رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - قبضة من التراب ، فرمى بها فى وجوه المشركين ، فولوا الأدبار
وأقبل جبريل إلى إبليس ، فلما رآه - وكانت يده فى رجل من المشركين - انتزع.
إبليس يده فولى مدبرا هو وشيعته .فقال الرجل : يا سراقة تزعم أنك لنا جار؟

قال : ( إني أرى مَا لاَ تَرَوْنَ إني أَخَافُ الله والله شَدِيدُ العقاب )
وذلك حين رأى الملائكة .ثم قال : وحدثنا أحمد بن الفرج ، قال : حدثنا عبد
الملك بن عبد العزيز الماجشون ، قال : حدثنا مالك ، عن ابراهيم بن أبى عبلة
عن طلحة بن عبد ابن عبيد الله بن كريز : أن رسول الله - صلى الله عليه ،
وسلم - قال : " " مارئى إبليس يوما هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أغيظ ولا أدحر
من يوم عرفة وذلك مما يرى من تنزيل الرحمة والعفو عن الذنوب ، إلا ما رأى
يوم بدر " قالوا : يا رسول الله ، وما رأى يوم بدر؟ قال : أما إنه رأى
جبريل يزع الملائكة أى : يرتبهم ويسويهم ويصفهم للحرب " .وقد سار - ابن
جرير وابن كثير - فى تفسيرهما للآية على أن التزيين من الشيطان كان حسيا
فابن جرير يقول . بعد أن ذكر بضع روايات فى تفسير الآية : فتأويل : وإن.
. الله لسميع عليم فى هذه الأحوال ، وحين زين لهم الشيطان خروجهم إليكم
ايها لامؤمنون لحربكم وقتالاكم ، وحسن ذلك لهم ، وحثهم عليكم وقال لا غالب
لكم اليوم ، من بنى آدم ، فاطمئنوا وابشروا وإنى جار لكم من كنانة أن
تأتيكم من روائكم . . واجعلوا جدكم وبأسكم على محمد وأصحابه ( فَلَمَّا
تَرَآءَتِ الفئتان ) يقول : فلما تزاحفت جنود الله من المؤمنين ، وجنود
: الشيطان من الكافرين ، ونظر بعضهم إلى بعض ( نَكَصَ على عَقِبَيْهِ ) أى
رجع القهقرى على قفاه هاربا . . وقال للمشركين ( إني أرى مَا لاَ تَرَوْنَ
يعنى أنه يرى الملائكة الذين بعثهم الله مددا للمؤمنين ، والمشركون لا (
يرونهم .وابن كثير يقول : وقوله - تعالى - ( وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشيطان
أَعْمَالَهُمْ ) الآية .أى : حسن لهم لعنة الله - ما جاءوا له ، وما هموا
به ، وذلك أنه تبدى لهم فى صورة سراقة بن مالك بن جعشم سيد بنى مدلج . . ثم
قال : فلما رأى إبليس الملائكة ( نَكَصَ على عَقِبَيْهِ ) وقال إنى برئ
منكم إنى أرى ما لا ترون ، وهو فى صورة سراقة ، وأقبل أبو جهل يحض أصحابه
ويقول لهم :لا يهولنكم خذلان سراقة إياكم ، فإنه كان على موعد من محمد
وأصحابه . .ومن هذا يتضح أن هذين الإمامين الجليلين يسيران فى تفسيرهما
للآية الاكريمة ، على أن التزيين كان حسيا ، ويهملان القول بغير ذلك ممن
تابعهما فى هذا الإمام القرطبى ، فقد ذكر عرض الروايات التى وردت فى معنى
الآية ، والتى صرحت بأن الشطيان قد تمثل للمشركين فى صورة إنسان ، وبنى
تفسيره للآية على ذلك ..وقد خالف صاحب المنار هؤلاء الأئمة ، فرجح القول
الأول وهو أن التزيين لم يكن حسيا ، أى أن ما قاله الشيطان لهم من قبيل
: الوسوسة ، وأنه لم يتمثل لهم فى صورة إنسان .فقد قال - رحمه الله - قوله
وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشيطان أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ )
اليوم مِنَ الناس . . ) أى : واذكر ايها الرسول للمؤمنين إذ زين الشيطان
لهؤلاء المشركين أعمالهم بوسوسته ، وقال لهم بما ألقاه فى هواجسهم لا غالب
لكم اليوم من الناس .( فَلَمَّا تَرَآءَتِ الفئتان نَكَصَ على عَقِبَيْه )
. . أى : فلما قرب كل من الفريقين من الآخر . نكص ، أى : رجع القهرى
والمراد أنه كف عن تزيينه لهم ، وتغريره إياهم ، فخرج الكلام مخرج التمثيل
: بتشبيه وسوسته بما ذكر بحال المقبل على الشئ ، وتركها بحال من ينكص ، أى
رجع القهقرى . . والمراد أنه كف عن تزيينه لهم ، وتغريره إياهم ، فخرج
الكلام مخرج التمثيل بتشبيه وسوسته بما ذكر بحال المقبل على الشئ ، وتركها
، بحال من ينكصر عن ويوليه دبره ، ثم زاد على هذا ما يلد على براءته منهم
وتكره إياهم وشأنهم ، وهو ( وَقَالَ إِنِّي برياء مِّنْكُمْ إني أرى مَا
لاَ تَرَوْنَ إني أَخَافُ الله ) أى : تبرأ منهم وخاف عليهم ، وأيس من
حالهم لما رأى إمداد الله المسلمين بالملائكة .ثم قال - بعد أن ضعف
الروايات التى أوردها ابن جرير وابن كثير - والمختار عندنا فى تفسير الآية
أن الشيطان القى فى قلوب المشركين أن أحدا لن يغلبهم . .والخلاصة : أننا
بمراجعنا لأقوال المفسرين فى كيفية تزيين الشيطان للمشركين ، تراهم ينقسمون
إلى ثلاثة أقسام :( أ ) قسم منهم ذكر القولين السابقين فى كيفية التزين دون
أن يرجح أحدهما على الآخر ، وممن فعل ذلك الزمخشرى ، والفخر الرازى
والآلوسى .( ب ) وقسم منهم سار فى تفسيره على أن التزيين كان حسياً ، بمعنى
أن الشيطان تمثل للمشركين فى صورة إنسان وقال لهم ما قال ، وأهمل القول بأن
التزيين لم يكن حسياً ، وممن فعل ذلك ابن جرير ، وابن كثير ، والقرطبى .( ج
وقسم منهم رجح أن التزيين لم يكن حسياً ، بل كان طريق الوسوسة ، وأن (
الشيطان ما تمثل للمشركين فى صورة إنسان ، وقد اسر فى هذا الاتجاه صاحب
: المنار مشككا فى صحة ما سواه .والذى نراه بعد هذا العرض لأقوال المفسرين
أن الآية الكريمة صريحة فى أن الشيطان قد زين للمشركين أعمالهم ، وأنه قد
قال لهم - ما حكاه القرآن عنه : ( لاَ غَالِبَ لَكُمُ اليوم مِنَ الناس
) وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ) وأنه حين تراءى الجمعان كذب فعلهُ قوله ، فقد
نَكَصَ على عَقِبَيْهِ ) وقال للمشركين الذين وعدهم ومناهم بالنصر ( إِنِّي
برياء مِّنْكُمْ إني أرى مَا لاَ تَرَوْنَ إني أَخَافُ الله والله شَدِيدُ
العقاب ) .ومن العسير علينا بعد ذلك أن نحدد تحديداً قاطعاً كيفية هذا
التزيين والقول والنكوص : أهو حسى أم غير حسى؛ لأن التحديد القاطع لا بد أن
يستند إلى نص صريح فى دلالته على المعنى المراد ، وصحيح فى نسبته إلى رسول
الله - صلى الله عليه وسلم - .وهذا النص غير موجود ، لأن الحديث الذى أخرجه

الإمام مالك فى موطئه - والذى سبق أن ذكرناه - قال عنه ابن كثير وابن حجر
إنه حديث مرسل ، وزيادة على ذلك ففى بعض رجاله من هو ضعيف الحديث كابن
الماجشون ، ولأن الروايات التى رويت فى تمثيل الشيطان بصورة سراقة قد جاء
معظمها عن ابن عباس ، وابن عباس - كما يقول صاحب المنار - كان سنة يوم بدر
خمس سنين . روايته لأخبارها منقطعة .إذا فنحن نؤمن بما أثبته القرآن من أن
الشيطان قد زين للمشركين أعمالهم ، وأنه قد حال لهم ما قاله - مما حكاه
القرآن عنه - ، وأنه قد نكص على عقبيه . . إلا أننا لا نستطيع أن نحدد
كيفية ذلك .ويعجبنى فى هذا المقام قول بعض الكاتبين عند تفسيره لهذه الآية
، وفى هذا الحادث نص قرآنى يثبت منه أن الشيطان زين للمشركين أعمالهم " :
وشجعهم على الخروج . . وأنه بعد ذلك ( نَكَصَ على عَقِبَيْهِ ) فخذلهم
وتركهم يلاقون مصيرهم وحدهم .ولكننا لا نعمل الكيفية التى زين لهم بها
أعمالهم والتى قال لهم بهاك لا غالب لكم اليوم من الناس . . والتى نكص بها
كذلك .الكيفية فقط هى التى لا نجزم بها . ذلك أن أمر الشياطن كله غيب ، ولا
سبيل لنا إلى الجزم بشئ من أمره إلا بنص قرآنى أو حديث نبوى صحيح ، والنص
هنا لا يذكر الكيفية إنما يثبت الحادث .فإلى هنا ينتهى إجتهادنا ، ولا نميل
إلى المنهج الذى تتخذه مدرسة الشيخ محمد بعد فى محاولة تأويل كل أمر غيبى
من هذا القبيل تأويلا معينا ينفى الحركة الحسية عن هذه العوالم ، وذلك كقول
الشيخ رشيد رضا فى تفسير الآية .( وَإِذْ زَيّنَ لَهُمُ الشيطان
أَعْمَالَهُمْ ) واذكر أيها الرسول للمؤمنين إذ زين الشيطان لهؤلاء
المشركين أعمالهم بوسوسته ، وقال لهم بما ألقاه فى هواجسهم :لا غالب لكم
اليوم من الناس . . الخ ما ذكره الشيخ رشيد فى تفسيره الآية .

اذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم ومن يتوكل على الله
فان الله عزيز حكيم

كما فسرها الوسيط هذا ، وقوله - تعالى - بعد ذلك : ( إِذْ يَقُولُ
المنافقون والذين فِي قُلُوبِهِم مّرَضٌ غَرّ هؤلاء دِينُهُمْ ) بيان
لصنفين آخرين من أعداء المسلمين بعد بيان العدو الرئيسى وهم المشركون الذين
خرجوا بطرا ورئاء الناس لمحاربة الإسلام وقد شجعهم الشيطان على ذلك . قال
الفخر الرازى : أما المنافقون فهم قوم من الأوس والخزرج - كانوا يظهرون
- الإسلام ويخفون الكفر ولم يخرج منهم أحد إلى بدر سوى عبد الله بن أبى
وأما الذين فى قلوبهم مرض فهم قوم من قريش أسلموا ولم يهاجروا .ثم إن قريشا
لما خرجوا لحرب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال أولئك : نخرج مع
. قومنا فإن كان محمد فى كثرة خرجنا إليه ، وإن كان فى قلة أقمنا فى قومنا
وعامل الاعراب فى " إذ " فيه وجهان : الأول : التقدير ، والله شديد العقاب.
إذ يقول المنافقون .والثانى : اذكروا إذ يقول المنافقون .وقوله : ( غَرّ )
أى : خدع ، من الغرور وهو كل ما يغر الإنسان من مال وجاه وشهرة وشيطان .أى
: اذكروا - أيها المؤمنون - وقت أن قال المنافقون والذين فى قلوبهم مرض :
، غر هؤلاء دينهم : أى خدعهم ، لأنكم أقدمتم على قتال يفوقكونكم عدة وعددا
وهذا القتال - فى زعمهم - لون من إلقاء النفس إلى التهلكة ، لأنهم قوم لا
يدركون حقيقة أسباب النصر وأسباب الهزيمة ، فهم لخراب بواطنهم من العقيدة
السليمة ، لا يعرفون أثرها فى الإقدام من أجل نصرة الحق ولا يقدرون ما
عليه أصحابها من صلة طيبة بالله - عز وجل - الذى بيده النصر والهزيمة .وما
داموا قد فقدوا تلك المعرفة ، وهذا التقدير ، فلا تستبعدوا منهم - أيها
المؤمنون - أن يقولوا هذا القول عنكم ، فذلك مبلغهم من العلم ، وتلك
موازينهم فى قياس الأمور . . والحق ، أن الإنسان عندما يتدبر ما قاله
المنافقون والذين فى قلوبهم مرض فى حق المؤمنين عندما أقدما على حرب
أعدائهم فى بدر . .أقول : عندما يتدبر ذلك ليرى أن هذا القول دأب كل
المنافقين والذين فى قلوبهم مرض فى كل زمان ومكان .إننا فى عصرنا الحاضر
رأينا كثيرين من أصحاب العقيدة السليمة ، والنفوس النقية ، والقولب المضحية
بكل شئ فى سبيل نصرة الحق . . رأينا هؤلاء يبلغون رسالات الله دون أن يخشوا
أحدا سواه ويهاجمون الطغاة والمبطلين والفجار ، ليمكنوا لدين الله فى الأرض
حتى ولو أدت بهم هذه المهاجمة إلى بذل أرواحهم .ورأينا فى مقابل هؤلاء ،
الصادقين أقواما - ممن آثروا شهوات الدنيا على كل شئ -لا يكتفون بالصمت
وهم يشاهدون أصحاب العقيدة السليمة يصارعون الطغاة .بل هم - بسبب خلو
نفوسهم من المثل العليا - يلقون باللوم على هؤلاء المؤمنين ، ويقولون ما
حكاه القرآن من أقوال فى أشباههم السابقين من المنافقين والذين فى قلوبهم
مرض : غر هؤلاء دينهم .إنهم لا يدركون الأمور ببصيرة المؤمن ، ولا يزنونها
بميزان الإيمان .إن المؤمن يرى التضحية فى سبيل الحق مؤدية إلى إحدى
الحسنين النصر أو الشهاد' .أما هؤلاء المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ، فلا
يرون الحياة إلا متعة وشهوة وغنيمة ( فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ
) - وَإِن لّمْ يُعْطَوْاْ مِنهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ )وقوله - تعالى
وَمَن يَتَوَكّلْ عَلَى الله فَإِنّ الله عَزِيزٌ حَكِيمٌ ) حض للمؤمنين
على التمسك بما يدعوهم إليه إيمانهم من استقامة وقوة . .أى : ومن يكل أمره

إلى الله ، ويثق به - ينصره - سبحانه - على أعدائه ، فإنه - عز وجل - عزيز
لا يغلبه شئ ، حكيم فيما يدبر من أمر خلقه .وبذلك نرى أن هذه الآيات
الكريمة ، قد صورة تصويرا بديعا ما عليه الكافرون وأشباههم من بطر ومفاخرة
وصد عن سبيل الله . . ومن طاعة للشيطان أوردتهم المهالك . وحكت ما قالوه من
أقوال تدل على جبنهم وجهلهم وانطماس بصيرتهم .ونهت المؤمنين عن التشبه بهم
لأن البطر والمفاخرة والبغى ، واتباع الشيطان : كل ذلك يؤدى إلى خزى ،
- الدنيا وعذاب الآخرة .ولقد كان أبو جهل قمة فى البغى والمراءة عندما قال
بعد أن نصحه الناصحون بالرجوع عن الحرب فقد نجت العير : " لا لن نرجع حتى
نرد بدراً ، فتقيم ثلاثا ، ننحر الجزر ، ونشرب الخمر ، وتعزف القيان علينا
فلن تزال العرب تهابنا أبدا " .وعندما بلغت مقالة أبى جهل أبا سفيان قال ،
واقوماه!! هذا عمل عمرو ابن هشام " يعنى أبا جهل " كره أن يرجع؛ لأنه " :
" ترأس على الناس فبغى ، والبغى منقصة وشؤوم . إن أصاب محمد النفير ذللنا
وصدقت فراسة أبى سفيان ، فقد أصاب محمد - صلى الله عليه وسلم - النفير.
وتسربل المشكرون بالذل والهوان فى بدر بسبب بطرهم ورياءهم وصدهم عن سبيل
الله واتباعهم لخطوات الشيطان . فاللهم نأسلك أن توفقنا إلى ما يرضيك ، وأن
تجنبنا البطر والرياء وسوء الأخلاق .

ولو ترى اذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وادبارهم وذوقوا عذاب
الحريق

كما فسرها الوسيط وبعد هذا البيان لأحوال الكافرين فى حياتهم؛ انتقل القرآن
لبيان أحوالهم عند مماتهم . فقال - تعالى - : ( وَلَوْ ترى . . . لَيْسَ
بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ) .والخطاب فى قوله - تعالى - : ( وَلَوْ ترى
، للنبى - صلى الله عليه وسلم - أو لكل من يصلح للخطاب و ( لَوْ ) شرطية (
، وجوابها محذوف لتفظيع الأمر وتهويله .والمراد بالذين كفروا : كل كافر
وقيل المراد بهم قتلى غزوة بدر من المشركين .قال ابن كثير : وهذا السياق
وإن كان سببه غزوة بدر ، ولكنه علم فى حق كل كافر . ولهذا لم يخصصه الله
بأهل بدر قال - سبحانه - ( وَلَوْ ترى إِذْ يَتَوَفَّى الذين كَفَرُواْ
الملائكة يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ . . ) .والفعل المضارع
هنا وهو ( ترى ) بمعنى الماضى ، لأن لو الامتناعية ترد المضارع ماضيا
: والفعل ( يَتَوَفَّى ) فاعله محذوف للعلم به وهو الله - عز وجل - وقوله.
) هو المفعول وعليه يكون : ( الملائكة ) مبتدأ وجملة ( الذين كَفَرُواْ )
يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ . . . ) خبر .والمعنى لو عاينت وشاهدت أيها العاقل
، حال الذين كفروا حين يتوفى الله أرواحهم ، لعاينت وشاهدت منظراً مخيفا
وأمراً فظيعاً تقشعر من هوله الأبدان .ثم فصل - سبحانه - هذا المنظر المخيف
بجملة مستأنفة فقال : ( الملائكة يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ
: والمراد بوجودههم : ما أقبل منهم وبأدبارهم : ما أدبر وهو كل الظهر .أى (
الملائكة عندما يتوفى الله - تعالى - هؤلاء الكفرة يضربون ما أقبل منهم وما
أدبر ، لإعراضهم عن الحق ، وإيثارهم الغى على الرشد .ومنهم من يرى أن
الفعل ( يَتَوَفَّى ) فاعله ( الملائكة ) وأن قوله ( الذين كَفَرُواْ ) هو
المفعول وقدم على الفاعل للاهتمام به .وعليه تكون جملة ( يَضْرِبُونَ
وُجُوهَهُمْ . . ) حال من الفاعل وهو الملائكة .فيكون المعنى : ولو رأيت
أيها العاقل - حال الكافرين عندما تتوفى الملائكة أرواحهم فتضرب منهم
الوجود والأدبار ، لرأيت عندئذ ما يؤلم النفس ، ويخيف الفؤاد .ويبدو لنا أن
التفسير الأول أبلغ ، لأن توضيح وتفصيل الرؤية بالجملة الاسمية المستأنفة
خير منه بجملة الحال ، ولأن لإسناد التوفى إلى الله أكثر مناسبة هنا ، إذ
أن الله - تعالى - قد بين وظيفة الملائكة هنا فقال : ( يَضْرِبُونَ
وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ) .وخص - سبحانه - الضرب للوجوه والأدبار
بالذكر ، لأن الوجوه أكرم الأعضاء ، ولأن الأدبار هى الأماكن التى يكره
الناس التحدث عنها فضلا عن الضرب عليها .أو لأن الخزى والنكال فى ضربهما
) أشد وأعظم .وقوله : ( وَذُوقُواْ عَذَابَ الحريق ) معطوف على قوله
: يَضْرِبُونَ ) بتقدير القول . أى يضربون وجوههم وأدبارهم ويقولون لهم
ذوقوا عذاب تلك النار المحرقة التى كنتم تكذبون بها فى الدنيا .والذوق
. حقيقة إدراك المطعومات . والأصل فيها أن يكون أمر مرغوب فى ذوقه وطلبه
والتعبير به هنا ذوق العذاب هو لو من التهكم عليهم ، والاستهزاء بهم ، كما
فى قوله - تعالى - : ( فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ) وهو أيضا يشعر بأن
ما وقع عليهم من عذاب إنما هو بمنزلة المقدمة لما هو أشد منه ، كما أن
الذوق عادة يكون كالمقدمة للمطعوم أو الشئ المذاق .

ذلك بما قدمت ايديكم وان الله ليس بظلام للعبيد

كما فسرها الوسيط وقوله : ( ذلك بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ الله
لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلعَبِيدِ ) بيان للأسباب التى أدت بهم إلى هذا
المصير السئ . وأنهم هم الذين جنوا على أنفسهم بشؤوم صنيعهم ، وانقيادهم

للهوى والشيطان .أى : ذلك الذى نزل بكم - أيها الكافرون - من الضرب وعذاب
النار ، سببه ما قدمته أيديكم من عمل سئ ، وفعل قبيح ، وقول منكر ، وجحود
- للحق . وأن الله - تعالى - ليس بذى ظلم لكم ولا لغيركم ، لأن حكمته
سبحانه - قد اقتضت ألا يعذب أحدا إلا بسبب ذنب ارتكبه ، وجرم اقترفه .فاسم
) الإشارة " ذلك " يعود إلى الضرب وعذاب الحريق ، وهو مبتدأ ، وخبره قوله
، بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ) .والمراد بالأيدى : الأنفس والذوات
والتعبير بالأيدى عن ذلك من قبيل التعبير بالجزء عن الكل .وخصت الأيدى
بالذكر ، للدلالة على التمكن من الفعل وإرادته ، وأن أكثر الأفعال يكون عن
، طريق البطش بالأيدى . ولأن نسبة الفعل إلى اليد تفيد الالتصاق به
والاتصال بذاته .وقوله : ( وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ )
خبر لمبتدأ محذوف ، والجملة اعتراض تذييلى مقرر مضمون ما قبله .أى : ذلك
الذى نزل بكم سببه ما قدمته ايدكم ، والأمر أن الله - تعالى - ليس بمعذب
لعبيده من غير ذنب جنوه .ويجوز أن يكون معطوفا على ( ما ) المجرورة بالباء
أى : ذلك بسبب ما قدمته ايدكم وأن الله ليس بظلام للعبيد .قال بعض .
العلماء : فإن قيل ما سر التعبير بقوله ( بِظَلاَّمٍ ) بالمبالغة ، مع أن
نفى نس الظلم أبلغ من نفى كثتره ، ونفى الكثرة لا ينفى أصله ، بل ربما يشعر
بوجوده ، وبرجوع النفى للقيد؟ .وأجيب بأجوبة :منها : أنه نفى لأصل الظلم
، وكثرته ، باعتبار آحاد من ظلم ، كأنه قيل ظالم لفلان ولفلان وهلم جرا
فلما جمع هؤلاء عدل إلى ( بِظَلاَّمٍ ) لذلك ، أى : لكثرة الكمية فيه
ومنها : أنه إذا انتفى الظلم الكثير ، أنتفى الظلم القليل ، لأن من يظلم.
يظلم للانتفاع بالظلم ، فإذا ترك كثيره ، مع زيادة نفعه فى حق من يجوز عليه
" النفع والضر ، كان لقليله مع قلة نفعه أكثر تركا .ومنها : أن " ظلاما
- للنسب كعطار ، أى :لا ينسب إليه الظلم أصلا .ومنها : أن كل صفة له
تعالى - فى أكمل المراتب ، فلو كان - سبحانه - ظالما ، كان ظلاما ، فنفى
اللازم نفى للملزوم .ومنها : أن نفى ( الظلام ) لنفى الظالم ضرورة أنه إذا
انتفى الظلم انتفى كماله ، فجعل نفى المبالغة كناية عن نفى أصله ، انتقالا
من اللازم إلى الملزوم .ومنها : أن العذاب من العظم بحيث لولا الاستحقاق
لكان المعب بمثله ظلاما بليغ الظلم متفاقمه ، فالمراد تنزيهه - تعالى - وهو
جدير بالمبالغة .وفى صحيح مسلم عن أبى ذر عن رسول الله - صلى الله عليه
، وسلم - أن الله - تعالى - يقول :" يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى
وجعلته بينكم محرما ، فلا تظالموا " .وبذلك نرى أن هاتين الآيتين قد بينتا
حالة المشركين عند قبض أرواحهم بيانا يحمل النفوس على الإيمان والطاعة
لله - تعالى - فقد رسم القرآن رصورة مفزعة لهم ، صورة الملائكة وهى تضرب
وجوههم وأدبارهم بأمر من الله - تعالى الذى ما ظلمهم ، ولكنهم هم الذين
أحلوا بأنفسهم هذا المصير المؤلم المهين ، حيث كفروا بالحق ، وحاربوا
أتباعه ، واستحيوا العمى على الهدى

كداب ال فرعون والذين من قبلهم كفروا بايات الله فاخذهم الله بذنوبهم ان
الله قوي شديد العقاب

كما فسرها الوسيط ثم بين سبحانه - أن هؤلاء الكافرين عادتهم فى كفرهم
وطغيانهم كعادة من سبقهم من الأمم الظاملة وإن من سنة الله - تعالى - فى
) : - خلقه ألا يعاقب إلا بذنب ، وألا يغير النعمة إلا لسبب . فقال - تعالى
) : كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ . . . كَانُواْ ظَالِمِينَ ) .والكاف فى قوله
كَدَأْبِ ) ، للتشبيه ، والجار والمجرور فى موضع رفع خبر لمبتدأ محذوف
- والدأب : أصله الدوام والاستمرار ، يقال : دأب فلان على كذا يدأب دأباً.
بفتح الهمزة - ودأباً - بسكونها - ودؤوباً ، إذا دوام عليهي وجد فيه ، ثم
غلب استعماله فى الحال والشأن والعادة ، لأن الذي يستمر فى عمل أمدا طويلا
يصيره هذا العمل عادة من عاداته ، وحالا من أحواله ، فهو من باب إطلاق
الملزوم وإرادة اللازم .والآل - كما يقول الراغب - مقلوب عن الأهل ، ويصغر
على أهيل ، إلا أنه خص بالإضافة إلى أعلام الناطقين دون النكرات ودون
الأزمنة والأمكنة يقال : آل فلان ، ولا يقال : آل رجل ، ولا يقال : آل
، الحجام . . بل يضاف إلى الأشرف والأفضل يقال : آل الله ، وآل السلطان
. والأهل يضاف إلى الكل ، فيقال : أهل الله ، وأهل الحجام ، وأهل زمان كذا
والمقصود بآل فرعون : هو وأغوانه وبطانته ، لأن الآل يطلق على أشد الناس.
التصاقا واختصاص بالمضاف إليه .والمعنى : شأن هؤلاء الكافرين الذين حربواك
يا محمد ، والذين هلك منهم من هلك فى بدر ، شأنهم وحالهم وعادتهم فيما
اقترفوه من الكفر والعصيان وفيما فعل بهم من عذاب وخذلان ، كشأن آل فرعون
الذين استحبوا العمى على الهدى ، والذين زينوا له الكفر والطغيان حتى صار
عادته له ولهم ، وقد أخذهم - سبحانه - أخذ عزيز مقتدر ، بسبب كفرهم وفجورهم
وقد خص - سبحانه - فرعون وآله بالذكر من بين الأمم الكافرة ، لأن فرعون.
كان أشد الطغاة طغيانا ، وأكثرهم غرورا وبطرا ، وأكثرهم فى الاستهانة بقومه
وفى الاحتقار لعقولهم وكيانهم .ألم يقل لهم - كم حكى القرآن عنه - ( أَنَا
رَبُّكُمُ الأعلى ) وألم يبلغ به غروره أن يقول لهم : ( أَلَيْسَ لِي

مُلْكُ مِصْرَ وهذه الأنهار تَجْرِي مِن تحتي أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ) أما
آله وبطانته وأعوانه ، فهم الذين زينوا له السوء ، وحرضوه على البطش موسى
لأنه جاءهم بالحق ، ولقد حكى الله عنهم نفاقهم وضلالهم وانغماسهم فى الآثام
فى آيات كثيرة ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ( وَقَالَ الملأ مِن قَوْمِ
فِرْعَونَ أَتَذَرُ موسى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأرض وَيَذَرَكَ
وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَآءَهُمْ
وَإِنّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ) ولقد وصف الله - تعالى - قوم فرعون بهوان
الشخصية ، وتفاهة العقل ، والخروج عن كل مكرمة فقال : ( فاستخف قَوْمَهُ
فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فَاسِقِينَ ) وذلك لأن الأمة التى
تترك الظالم وبطانته يعيثون فى الأرض فساداً ، لا تستحق الحياة ، ولا يكون
مصيرها إلا إلى التعاسة والخسران .وقوله ( كَفَرُواْ بِآيَاتِ الله ) تفسير
لصنيعهم الباطل ، ودأبهم على الفساد والضلال .والمراد بآيات الله : ما يعم
المتلوة فى كتب الله - تعالى - ، والبراهين والمعجزات الدالة على صدق
، الأنبياء فيما يبلغونه عن ربهم .وفى إضافتها إلى الله : تعظيم لها وتشريف
وتنبيه إلى قوة دلالتها على الحق والخير .وقوله : ( فَأَخَذَهُمُ الله
بِذُنُوبِهِمْ ) معطوف على قوله ( كَفَرُوا بِآيَاتِ الله ) لبيان ما ترتب
، على كفرهم من عقوبات أليمة .وفى التعبير بالأخذ إشارة إلى شدة العذاب
فهو - سبحانه - قد أخذهم كما يؤخذ الأسير الذى لا يستطيع الفكاك من آسره
والباء فى قوله : ( بِذُنُوبِهِمْ ) للسببية أى كفروا بآيات الله.
، فعاقبتهم - سبحانه - بسبب كفرهم وفسوقهم عن أمره .ويجوز أن تكون للملابسة
أى : أخذهم وهم تلبسون بذنوبهم دون أن يثوبوا منها ، أو يقعلوا عنها .وعلى
الوجهين فالجملة الكريمة تدل على كمال عدل الله - تعالى - لأنه ما عاقبهم
إلا لأنهم استحقوا العقاب .والمراد بذنوبهم : كفرهم وما ترتب علهي من فسوق
، وعصيان ، وأصل الذنب : الأخذ بذنب الشئ أى بمؤخرته ، ثم أطلق على الجريمة
لأن مرتكبها يعاقب بعدها .وقوله : ( إِنَّ الله قَوِيٌّ شَدِيدُ العقاب )
تذييل مقرر لمضمون ما قبله من الأخذ الشديد ، بسبب الكفر والمعاصى .أى : إن
الله - تعالى - قوى لا يغلبه غالب ، ولا يدفع قضاءه دافع ، شديد عقابه لمن
كفر بآياته ، وفسق عن أمره .

ذلك بان الله لم يك مغيرا نعمة انعمها على قوم حتى يغيروا ما بانفسهم وان
الله سميع عليم

كما فسرها الوسيط وقوله : ( ذلك بِأَنَّ الله لَمْ يَكُ مُغَيِّراً
. . نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا على قَوْمٍ حتى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ
، بيان لسنة من سننه - تعالى - فى خلقه ، وتعليل لتعذيب أولئك الكفار ( .
ولسلب نعمه عنهم وعن أشباههم من العصاة والجاحدين واسم الإشارة : ( ذلك )
يعود إلى تعذيب الكفرة المعبر عنه بقوله - تعالى - ( فَأَخَذَهُمُ الله
) - بِذُنُوبِهِمْ ) .وهو ، أى : اسم الإشارة مبتدأ وخبره قوله - سبحانه
بِأَنَّ الله لَمْ يَكُ مُغَيِّراً . . ) إلخ .والمعنى : ذلك الذى نزل
بهؤلاء الكفرة من التعذيب والخذلان عدل إلهيى ، فقد جرت سنته - سبحانه - فى
، خلقه ، واقتضت حكمته فى حكمه ألا يبدل نعمه بنقم إلا بسبب ارتكاب الذنوب
، واجتراح السيئات ، فإذا لم يتلق الناس نعمه - عز وجل - بالشكر والطاعة
- وقابلوها بالكفر والعصيان ، بدل نعمتهم بنقم جزاء وفاقا .وشبيه بهذا قوله
تعالى - فى آية أخرى : ( إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حتى
يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ ) قال الفخر الرازى : قال القاضى : معنى
الآية أنه - تعالى - أنعم عليهم بالعقل والقدرة وإزالة الموانع وتسهيل
السبل ، والمقصود أن يشتغلوا بالعبادة والشكر ، ويعدلوا عن الكفر ، فإذا
صرفوا هذه الأحوال إلى الفسق والكفر ، فقد غيروا نعمة الله - تعالى - على
أنفسهم ، فلا جرم استحقوا تبديل النعم بالنقم ، والمنح بالمحن .قال : وهذا
من أوكد ما يدل على أنه - تعالى -لا يبتدئ أحدا بالعذاب والمضرة .وقال
صاحب الكشاف : " فإن قلت : فما كان من تغيير آل فرعون ومشركى مكة حتى غير
: الله نعمته عليهم ، ولم تكن لهم حال مرضية فيغيروها إلى حال مسخوطة؟ .قلت
كما تغير الحال المرضية إلى المسخوطة ، تغير الحال المسخوطة إلى أسخط منها
وأولئك كانوا قبل بعثه الرسول - صلى الله عليه وسلم - إليهم كفرة عبدة
أصنام ، فلما بعث إليهم بالآيات البينات فكذبوه وعادوه وتحزبوا عليه ساعين
فى إراقة دمه ، غيروا حالهم إلى أسوأ مما كانت ، فغير الله ما أنعم به
عليهم من الإمهال وعاجلهم بالعذاب .وقوله : ( وَأَنّ الله سَمِيعٌ
عَلِيمٌ ) معطوف على قوله : ( بِأَنَّ الله لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً
إلخ .أى : ذلك التعذيب بسبب جحودهم لنعم ، وبسبب أنه - سبحانه - سميع لما ( )
نطقوا به من سوء ، وعليم بما ارتكبوه من قبائح ومنكرات ، وقد عاقبتهم على
ذلك بما يستحقون من عذاب : ( وَمَا ظَلَمَهُمُ الله ولكن أَنْفُسَهُمْ
( يَظلِمُونَ

كداب ال فرعون والذين من قبلهم كذبوا بايات ربهم فاهلكناهم بذنوبهم واغرقنا

ال فرعون وكل كانوا ظالمين

كما فسرها الوسيط ثم ذكر - سبحانه - ما عليه المشركون من جحود وغرور وعناد
على سبيل التأكيد والتوبيخ فقال : ( كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ والذين مِن
قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ
وَأَغْرَقْنَآ آلَ فِرْعَونَ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَالِمِينَ ) .أى : أن شأن
هؤلاء المشركين الذين حاربوك يا محمد ، كشأن آل فرعون ومن تقدمهم من
الأقوام السابقة ، كقوم نوح وقوم هود . . ، كذب أولئك جميعا بآيات ربهم
- التى أوجدها - سبحانه - لهدايتهم وسعادتهم . . فكانت نتيجة ذلك أن أهلكهم
). سبحانه - بسبب ما ارتكبوه من ذنوب ، وبسبب النعم فى غير ما خلقت له
). وَأَغْرَقْنَآ آلَ فِرْعَونَ ) الذين زينوا له الكفر والبطر والطغيان
وَكُلٌّ كَانُواْ ظَالِمِينَ ) أى : وكل من الأقوام المذكورين ومن على
شاكلتهم فى الكفر والضلال ، كانوا ظالمين لأنفسهم بكفرهم ، ولأنبيائهم بسبب
محاربتهم لهم ، وإعراضهم عنهم مع أن الأنبياء ما جاءوا إلا لهدايتهم .وجمع
الضمير فى (كَانُواْ ) و ( ظَالِمِينَ ) مراعاة لمعنى ( كُلٌّ ) لأنها متى
قطعت عن الإضافة جاز مراعاة لفظها تارة ، ومراعاة معناها أخرى ، واختير
هنا مراعاة المعنى أجل الفواصل .قال الجمل : فإن قلت : ما الفائدة من تكرير
هذه الآية مرة ثانية؟ .قلت : فيها فوائد منها : أن الكلام الثانى يجرى مجرى
التفصيل للكلام الأول ، لأن الآية الأولى فيها ذكر أخذهم ، والثانية ذكر
إغراقهم فذلك تفسير للأول .ومنها : أنه ذكر فى الآية الأولى أنهم كفروا
بآيات الله وفى الآية الثانية أنهم كذبوا بآيات ربهم ، ففى الآية إشارة إلى
أنهم كفروا بآيات الله وجحدوها ، وفى الثانية إشارة إلى أنهم كذبوا بها مع
جحودهم لها ، وكفرهم بها .ومنها : أن تكرير هذه القصة للتأكيد .وبعد ، فإن
المتدبر فى هذه الآيات الكريمة ، يراها تصور تصويرا واضحا سنة من سنن الله
فى خلقه ، وهى أنه - سبحانه -لا يسلب نعمه عن قوم إلا بسبب ذنوب اقترفوها
، وأنه - تعالى -لا ينزل عقوباته بهم إلا بعد لجاجهم فى طغيانهم ،
وإدبارهم عن نصح الناصحين .ورحم الله الأستاذ الإمام محمد عبده فقد كتب
مقالا جيداً صدره بقوله تعالى : ( ذلك بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً
.. نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا على قَوْمٍ حتى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ
ومما جاء فى هذا المقال قوله : تلك آيات الكتاب الحكيم ، تهدى إلى الحق. (
، وإلى طريق مستقيم .أرشدنا - سبحانه - إلى أن الأمم ما سقطت من عرش عزها
ولا بادت ومحى اسمها من لوح الوجود إلا بعد نكوبها عن تلك السنن التى
سنها - سبحانه - على أساس الحكمة البالغة ، إن الله لا يغير ما بقوم من عز
وسلطان ، ورفاعة وخفض عيش ، وأمن وراحة حتى يغير أولئك ما بأنفسهم من نور
العقل ، وصحة الفكر ، وإشراق البصيرة ، والاعتبار بأفعال الله فى الأمم
السابقة ، والتدبر فى أحوال الذين حادوا عن صراط الله فهلكوا ، أو حل بهم
، الدمار ، ثم لعدولهم عن سنة العدل ، وخروجهم عن طريق البصيرة والحكمة
، حادوا عن الاستقامة فى الرأى ، والصدق فى القول ، والسلام فى الصدر
والعفة عن الشهوات ، والحمية على الحق ، والقيام بنصرته والتعاون على
حمايته . . خذلوا العدل ولم يجمعوا همم على إعلاء كلمته وابتعوا
الأهواءالباطلة ، وانكبوا على الشهوات الفانية . . فأخذهم بذنوبهم وجعلهم
عبرة للمعتبرين .هكذا جعل الله بقاء الأمم ونماءها فى التحلى بالفضائل وجعل
هلاكها ودمارها فى التخلى عنها .سنة ثابتة لا تختلف باختلاف الأمم ، ولا
تتبدل بتبدل الأخيال ، كسنته - سبحانه - فى الخلق والإيجاد ، وتقدير
. . الأرزاق وتحديد الآجال

ان شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون

، كما فسرها الوسيط وبعد أن شرح - سبحانه - أحوال المهلكين من شرار الكفرة
) : - شرع فى بيان أحوال الباقين منهم ، وتفصيل أحكامها ، فقال - تعالى
: إِنَّ شَرَّ الدواب . . إِنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ ) .قال الفخر الرازى
إعلم أنه - تعالى - لما وصف كل الكفار بقوله : ( وَكُلٌّ كَانُوا
ظَالِمِينَ ) أفرد بعضهم بمزية فى الشر والعناد فقال : ( إِنَّ شَرَّ
الدواب عِندَ الله ) أى : فى حكمه وعلمه من حصلت له صفتان :الأولى : الكافر
الذى يكون مستمراً على كفره مصرا عليه . .الثانية : أن يكون ناقصا للعهد
- على الدوام . .قال ابن عباس : هم بنو قريظة ، فإنهم نقضوا عهد رسول الله
صلى الله عليه وسلم - وأعانوا عليه المشركين بالسلاح فى يوم بدر ، ثم قالوا
أخطأنا ، فعاهدهم مرة أخرى فنقضوه أيضا يوم الخندق . .والدواب : جمع دابة :
وهى كل ما يدب على الأرض قال - تعالى - ( والله خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ .
مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي على بَطْنِهِ وَمِنهُمْ مَّن يَمْشِي
على رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي على أَرْبَعٍ ) قال الجمل : وإطلاق
الدابة على الإنسان إطلاق حقيقى ، لما ذكروه فى كتب اللغة من أنها تطلق
على كل حيوان ولو أدميا . وفى الصباح " الدابة كل حيوان فى الأرض مميزاً
وغير مميز " .والمعنى : إن شر ، ما يدب على الأرض ( عِندَ اللَّه ) أى : فى

حكمه وقضائه ( الذين كَفَرُواْ ) أى : الذين أصروا على الكفر ولجوا فيه
وقد وصفهم - سبحانه - بأنهم شر الدواب لا شر الناس ، للإشعار بأنهم بمعزل.
عما يتحلى به الناس من تعقل وتدبر للأمور ، لأن لفظ الدواب وإن كان يطلق
على الناس ، إلا أنه عند إطلاقه عليهم يلقى ظلا خاصا يجعل العقول تتجه إلى
أن هؤلاء الذين أطلق عليهم اللفظ هم إلى الدواب التى لا تعقل أقرب منهم إلى
الآدميين العقلاء ، وفى وصفه - سبحانه - لهم بأنهم شر الدواب زيادة توبيخ
لهم ، لأنهم ليسوا دوابا فحسب بل هم شرها وأخسها .وقوله : ( فَهُمْ لاَ
يُؤْمِنُونَ ) تذييل جئ به على وجه الاعتراض بالبيان أى : أنهم - بسبب
إصرارهم على الكفر - صار الإيمان بعيدا عنهم ، وأنهم سواء أنذروا أو لم
ينذروا مستمرون فى الضلال والعناد .

الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون

كما فسرها الوسيط وقوله : ( الذين عَاهَدْتَّ مِنْهُمْ ثُمّ يَنقُضُونَ
عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرّةٍ ) بدل من الموصول الأول وهو قوله : ( الذين
كَفَرُواْ ) أو عطف بيان له .أى : إن شر الدواب عند الله الذين أصروا على
الكفر ورسخوا فيه ، الذين ( عَاهَدْتَّ مِنْهُمْ ) أى : أخذت منهم عهدهم ،
ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة دون أن يفوا بعهودهم ولو مرة واحدة من المرات
المتعددة .فقوله : ( عَاهَدْتَّ ) مضمن معنى الأخذ ، ولذا عدى بمن .قال
الآلوسى : قوله : ( الذين عَاهَدْتَّ مِنْهُمْ ) بدل من الموصول الأول ، أو
عطف بيان ، أو نعت ، أو خبر مبتدأ محذوف ، أو نصب على الذم ، وعائد الموصل
قيل : ضمير الجمع المجرور ، والمراد : عاهدتم ، و ( مِن ) للإيذان بأن
المعاهدة - التى هى عبارة عن إعطاء العهد وأخذه من الجانبين - معتبرة هنا
من حيث أخذه - صلى الله عليه وسلم - ، إذ هو المناط لما نعى عليهم من النقض
لا إعطاؤه - عليه الصلاة والسلام إياهم عهده كأنه قيل : الذين أخذت منهم ،
عهدهم ، وقال أبو حيان : بتعيضية ، لأن المباشر لا كلهم ..وقوله : ( ثُمّ
" يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرّةٍ ) معطوف على الصلة .وكان العطف
بثم " المفيدة للتراخى ، للإيذان بالتفاوت الشديد بين ما أخذ عليهم من
) عهود ، وبين ما تردوا فيه من نقض لها ، واستهانة بها .وجئ بصيغة المضارع
، يَنقُضُونَ ) المفيدة للحال والاستقبال ، لدلالة على تعدد النقض وتجدده
وأنهم على نيته فى كل مرة يعاهدون فيها غيرهم .وقوله : ( وَهُمْ لاَ
يَتّقُونَ ) فى موضع الحال من فاعل ( يَنقُضُونَ ) .أى : أن هؤلاء الوم
دأبهم نقض العهود والمواثيق فى كل وقت ، ومع ذلك فحالهم وشأنهم أنهم لا
يشعرون خلال نقضهم للعهود بآ تحرج أو خجل ، بل يرتكبون ما يرتكبون من
المنكرات دون أن يتقوا عارها ، أو يخشوا سوء عاقبتها .

فاما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما يجب على المؤمنين نحو هؤلاء
الناقضين لعهودهم فى كل مرة بدون حياء أو تدبر للعواقب فقال : ( فَإِمّا
تَثْقَفَنّهُمْ فِي الحرب فَشَرّدْ بِهِم مّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلّهُمْ
يَذّكّرُونَ ) فالقاء فى قوله ( فَإِمّا ) لترتيب ما عدها على ما قبلها
وقوله : ( تَثْقَفَنّهُمْ ) من الثقف بمعنى الحذق فى إدراك الشئ وفعله.
قال الراغب : يقال ثقفت كذا إذا أدركته ببصرك لحذق فى النظر ، ثم يتجوز.
فيه فيستعمل فى الإدراك وإن لم تكن معه ثقافته .قال - تعالى - ( فَإِمّا
تَثْقَفَنّهُمْ فِي الحرب ) .وقوله : ( فَشَرّدْ بِهِم ) التشريد وهو
عبارة عن التفريق مع الاضطراب ، يقال شردت بنى فلان ، أى : قلعتهم عن
... مواطنهم وطردتهم عنها حتى فارقوها قال الشاعر :أطوف فى الأباطح كل يوم
مخافة أن يشرد بى حكيمأى : مخافة أن يسمع بى ويطردنى حكيم ، وحكيم رجل من
بنى سليم كانت قريش قد ولته الأخذ على أيدى السفهاء .والمعنى : إنك يا محمد
إذا ما أدركت فى الحرب هؤلاء الكافرين الناقضين لعهودهم وظفرت بهم - وهم
بنو قريظة ومن لف لفهم - . . فافعل بهم فعلا من القتل والتنكيل يتفرق معه
جمع كا ناقض للعهد ، ويفزع منه كل من كان على شاكلتهم فى الكفر ونقض العهود
ويعتبر به كل من سمعه من أهل مكة وغيرهم .فالباء فى قوله ( فَشَرّدْ ،
بِهِم ) للسبية ، وقوله ( مّنْ خَلْفَهُمْ ) مفعول شرد .والمراد بمن خلفهم
كفار مكة وغيرهم من الضالين ، أى : إفعل ببنى قريظة ما يشرط غيرهم خوفا :
وفزعا .وقوله ( لَعَلّهُمْ يَذّكّرُونَ ) أى : لعل أولئك المشردين
، يتعظون بهذا القتل والتنكيل الذى نزل بهؤلاء الناقضين لعهودهم فى كل مرة
فيمنعهم ذلك عن نقض العهد .هذا ، وإن تلك الآية الكريمة لمن أحكم الآيات
التى ترشد المؤمنين إلى وجوب أخذ المستمرين على كفرهم وعنادهم ونقضهم
العهود أخذاً شديداً رادعا . . حتى يبقى للمجتمع الإسلامى أمانة واستقرارم
، وهيبته أمام أعدائه .إن الآية الكريمة ترسم صورة بديعة للأخذ المفزع
والهول المرعب ، الذى يكفى السماع به للهرب والشرود ، فما بال من يحل به
هذا الأخذ الشديد؟إن الضربة المروعة ، بأمر الله - تعالى - رسوله أن ينزلها

على رأس كل مستحق لها بسبب كفره وتلاعبه بالعهود . . وبذلك تبقى لدين الله هيبته وسطوته .

واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ان الله لا يحب الخائنين

كما فسرها الوسيط هذا هو حكم المصرين على كفرهم الناقضين لعهودهم . . أما الذين تخشى منهم الخيانة فقد بين - سبحانه - حكمهم بقوله : ( وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فانبذ إِلَيْهِمْ على سَوَآءٍ إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ الخائنين ) .وقوله : ( تَخَافَنَّ ) من الخوف والمراد به هنا العلم .وقوله : ( فانبذ ) من النبذ بمعنى الطرح ، وهو مجاز عن إعلامهم بأنهم لا عهد لهم بعد اليوم ، فشبه - سبحانه - العهد بالشئ الذى يرمى لعدم الرغبة فيه ، وثبت النبذ له على سبيل التخييل ، ومفعول " فانبذ " محذوف أى فانبذ إليهم عهودهم .قال الجمل : وقوله : ( على سَوَآء ) حال من الفاعل : - والمفعول معا ، أى : فاعل الفعل وهو ضمير النبى - صلى الله عليه وسلم . ومفعوله وهو المجرور بإلى .أى : حال كونكم مستوين فى العلم بطرح العهد فعلمك أنت به لأنه فعل نفسك ، وعلمهم به بإعلامك إياهم ، فكأنه قيل فى الآية : فانبذ عهدهم وأعلمهم بنبذه ، ولا تقاتلهم بغتة لئلا يتهموك بالغدر وليس هذا من شأنك ولا من صفاتك .والمعنى : وإما تعلمن - يا محمد - من قومك ، بينك وبينهم عهد أنهم على وشك نقضه منهم ، بأمارات تلوح لك تدل على غدرهم فاطرح إليهم عهدهم على طريق مستو ظاهر : بأن تعلمهم بنبذك عهدهم قبل أن تحاربهم ، حتى تكون أنت وهم فى العلم بنبذ العهد سواء ، لأن تعلمهم بنبذك عهدهم قبل أن تحاربهم ، حتى تكون أنت وهم فى العلم بنبذ العهد سواء ، لأن - الله - تعالى -لا يحب الخائنين وإن من ظاهر الخيانة التى يبغضها الله تعالى - أن يحارب أحد المتعاهد معه دون أن يعلمه بإنهاء عهده .قال ابن كثير قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر ، قال : حدثنا شبعة عن أبى الفيض " : عن سليم بن عامر قال : كان بين معاوية وبين الروم عهد ، وكان يسير نحو : بلادهم ليقرب منها ، حتى إذا انقضى العهد غزاهم فإذا شيخ على دابة يقول - الله أكبر الله أكبر ، وفاء لا غدرا : إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم قال : " من كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلن عقدة ، ولا يشدها حتى ينقضى أمدها أو ينبذ إليهم على سواء " " .قال : فبلغ ذلك معاوية فرجع ، فإذا بالشيخ عمرو بن عيسة .ثم قال ابن كثير ، وهذا الحديث رواه أبو داود الطيالسى عن شبعة ، وأخرجه أبو داود والترمذى والنسائى وابن نحبان فى صحيح من طرق عن شعبة به ، وقال الترمذى حسن صحيح .وروى الإمام أحمد " عن سلمان الفارسى أنه انتهى إلى حصن أو مدينة فقال لأصحابه : دعونى ادعوهم كما رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يدعوهم ، فقال : إنما كنت رجلا منكم فهدانى الله إلى الإسلام؛ فإن أسلمتم فلكم ما لنا وعليكم ما علينا ، وإن أنتم أبيتم ، فأدوا الجزية وأنتم صاغرون فإن أبيتم نابذناكم على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين ، يفعل ذلك بهم ثلاثة أيام ، فلما كان اليوم الرابع : غدا الناس إليها ففتحوها بعون الله " .وقال الفخر الرازى : قال أهل العلم آثار نقض العهد إذا ظهرت ، فإما أن تظهر ظهوراً محتملاً ، أو ظهورا مقطوعا به .فإن كان الأول : وجب الإعلام على ما هو مذكور فى هذه الآية ، وذلك لأن بنى قريظة عاهدوا النبى - صلى الله عليه وسلم ثم أجابوا أبا سفيان ومن معه من المشركين إلى مظاهرتهم على رسول الله ، فحصل لرسول الله - صلى الله عليه وسلم خوف الغدر منهم به وأصحابه ، فهنا يجب على الإمام أن ينبذ إليهم ، عهودهم على سواء ويؤذنهم بالحرب .أما إذا ظهر نقض لعهد ظهوراً مقطوعاً به فهنا لا حاجة إلى نبذ العهد ، وذلك كما فعل رسول الله - صلى الله عليه - وسلم - بأهل مكة ، فإنهم لما نقضوا العهد بقتل خزاعة وهم فى ذمة النبى صلى الله عليه وسلم - وصل إليهم جيش رسول الله بمر الظهران ، وذلك على أربعة فراسخ من مكة .أى : أنهم لم يعلموا بجيش رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الذى جاء لمحاربتهم إلا بعد وصوله إلى هذا المكان .وبذلك ترى أن . . تعاليم الإسلام ترتفع بالبشرية إلى أسمى آفاق الوفاء والشر والأمان وتحقر من شان الخيانة والخائنين ، وتتوعدهم بالطرد من رحمة الله ، وبالبعد عن رضوانه ومحبته .

ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا انهم لا يعجزون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أن الكافرين لن ينجوا من عقابه وبشر المؤمنين بالنصر فقال : ( وَلاَ يَحْسَبَنَّ الذين كَفَرُواْ سبقوا ، إِنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ ) وقوله ( يَحْسَبَنَّ ) من الحسبان بمعنى الظن وقد قرأ ابن عامر وحفص وحمزة " يحسبن " بالياء ، وقرأ الباقون بالتاء ، وقوله : ( يُعْجِزُونَ ) من العجز ، وأصله - كما يقول الراغب - : التأخر. عن الشئ . . ثم صار فى التعارف اسماً للقصور عن فعل الشئ ، وهو ضد القدرة . والعجوز سميت بذلك لعجزها فى كثير من الأمور . .والمعنى - على القراءة . بالياء - : ولا يحسبن الذين كفروا أنفسهم أنهم قد سبقوا الله فنجوا من

عقابه ، وخلصوا من عذابه .. كلا إن حسبانهم هذا باطل - لأنهم لا يعجزون
الله ، بل هو - سبحانه - قادر على إهلاكهم وتعذيبهم فى كل وقت . وأن
نجاتهم من القتل أو السر فى الدنيا لن تنفعهم شيئاً من العذاب المهين فى
الآخرة .وعلى هذه القراءة يكون فاعل ( يَحْسَبَنّ ) قوله ( الذين
كَفَرُواْ ) ويكون المفعول الأول ليحسبن محذوف أى : ولا يحسبن الذين كفروا
) أنفسهم ، والمفعول الثانى جملة ( سبقوا ) .وأما على القراءة الثانية
. وَلاَ يَحْسَبَنّ ) فيكون قوله ( الذين كَفَرُواْ ) هو المفعول الأول
- وجملة ( سبقوا ) هى المفعول الثانى .أى : ولا تحسبن - أيها الرسول الكريم
أن هؤلاء الكافرين قد سبقونا خيانتهم لك ، أو أفلتوا من عقابنا وصاروا فى
مأمن منا . . كلا ، إنهم لا يعجزوننا عن إدراكهم وإنزال العقوبة بهم فى أى
وقت نريده فنحن لا يعجزنا شئ . .وعلى كلتا القراءتين فالمقصود من الآية
- الكريمة قطع أطماع الكافرين فى النجاة ، وإقناطهم من الخلاص ، فكأنه
، سبحانه - يقول لهم : إن من لم يصبه عذاب الدنيا ، فسوف يصيبه عذاب الآخرة
ولا مفر له من ذلك ما دام قد استحب الكفر على الإيمان ، أما المؤمنون فلهم
. من الله - تعالى - التأييد والنصر وحسن العقابة

واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم
واخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله
يوف اليكم وانتم لا تظلمون

كما فسرها الوسيط ثم أمر - سبحانه - المؤمنين باعداد وسائل القوة التى بها
: - يصلون إلى النصر ، وعلى بعث الرعب فى قلوبهم أعدائهم . . فقال - عز وجل
) : وقوله. ( . . . وَأَعِدُّواْ لَهُمْ مّا استطعتم مِّن قُوّةٍ )
وَأَعِدُّواْ ) معطوف على ما قبله ، وهو من الإعداد بمعنى تهيئة الشئ
، للمستقبل ، والخطاب لكافة المؤمنين .والرباط فى الأصل مصدر ربط ، أى شد
ويطلق ، بمعنى المربوط مطلقا ، وكثر استعماله فى الخيل التى تربط فى سبيل
الله ، فالإضافة إما باعتبار عموم المفهوم الأصلى ، أو بملاحظة كون الربط
مشتركا بين معان أخر كملازمة الثغور ، والمواظبة على الأمر ، فإضافته لأحد
معانيه للبيان .قال صاحب الكشاف : والرباط : اسم للخيل التى تربط فى سبيل
الله ، ويجوز أن يسمى بالرباط الذى هو بمعنى المرابطة ، ويجوز أن يكون جمع
: ربيط كفصيل وفصال - يقال نعم الربيط هذا ، لما يرتبط من الخيل .والمعنى
عليكم - أيها المؤمنون - أن تعدوا لقتال أعدائكم ما تستطيعون إعداه من
) وسائل القوة على اختلاف صنوفها وألوانها وأسبابها .وجاء - سبحانه - بلفظ
قُوّةٍ ) منكراً ، ليشمل كل ما يتقوى به فى الحرب كائنا ما كان .قال الجمل
: وقوله ( مِّن قُوّةٍ ) فى محل نصب على الحال ، وفى صاحبها وجهان :
أحدهما أنه الموصول . والثانى : أنه العائد عليه ، إذ التقدير ما استطعتموه
حال كونه بعض القوة ، ويجوز أن تكون ( مِن ) لبيان الجنس .وقوله : ( وَمِن
رّبَاطِ الخيل ) معطوف على ما قبله من عطف الخاص على العام .أى : أعدوا
: لقتال أعدائكم ، ما أمكنكم من كل ما يتقوى به عليهم فى الحرب ، من نحو
حصون وقلاع وسلاح . ومن رباط الخيل للغزو والجهاد فى سبيل الله .وخص رباط
الخيل بالذكر من بين ما يتقوى به ، لمزيد فضلها وغنائها فى الحرب ، ولأن
) : الخيل كانت الأداة الرئيسية فى القتال فى العهد النبوى ، وقوله
تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوّ الله وَعَدُوّكُمْ ) بيان للمقصود من الأمر
بإعداد ما يمكنهم إعداده من قوة .وقوله : ( تُرْهِبُونَ ) من الرهبة وهى
مخافة مع ترحز واضطراب .والضمير المجرور - وهو قوله ( بِهِ ) - يعود إلى
الإعداد المأخوذ من قوله ( وَأَعِدُّواْ ) .أى : أعدوا ما استطعتم من قوة
حال كونكم مرهبين بهذا الإعداد عدو الله وعدوكم ، من كل كافر ومشرك ،
ومنحرف عن طريق الحق ، وعلى رأس هؤلاء جميعا ، كفار مكة الذين أخرجوكم من
دياركم بغير حق ، ويهود المدينة الذين لم يتركوا وسيلة للإضرار بكم إلا
فعلوها .وقوله ( وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ الله
يَعْلَمُهُمْ ) معطوف على ما قبله .أى : ترهبون بهذا الإعداد أعداء
معروفين لكم - كمشركى مكة ويهود المدينة ، وترهبون به أيضاً أعداء آخرين
- غيرهم أنتم لا تعرفونهم لأنهم يخفون عداوتهم لكم ، ولكن الله - تعالى
الذى لا يخفى عليه شئ يعلمهم ، وسيحبط أعمالهم .وقد اختلف المفسرون فى
المراد بهؤلاء الأعداء الذين عبر الله عنهم بقوله لا تعلمونهم الله يعلمهم
فمنهم من قال : المراد بهم بنو قريظة ومنهم من قال : المراد بهم أهل فارس ،
والروم .ورجح ابن جرير أن المراد بهم : كفار الجن . . لأن المؤمنين كانوا
عالمين بمداراة بنى قريضة وفارس والروم لهم . . والمعنى ترهبون بذلك
الإعداد عدو الله وعدوكم من بنى آدم الذين علمتم عداوتهم ، وترهبون به
، جنسا آخر من غير بنى آدم لا تعلمون أماكنهم وأحوالهم : الله يعلمهم دونكم
: لأن بنى آدم لا يرونهم .ورجح الفخر الرازى أن المراد بهم المنافقون ، قال
لأن المنافقين من عادته أن يتربص ظهور الآفات ، ويحتال فى إلقاء الإفساد
والتفريق بين المسلمين - بطرق قد لا تعرف ، فإذا شاهد كون المسلمين فى غاية
القوة خافهم وترك الأفعال المذمومة .ولعل ما رجحه الفخر الرازى هو الأقرب

إلى الصواب ، لأن عداوة المنافقين للمؤمنين كثيراً ما تكون خافية ، ويشهد
لهذا قوله - تعالى - فى آية أخرى : ( وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِّنَ الأعراب
مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ المدينة مَرَدُواْ عَلَى النفاق لاَ
تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ) ثم ختم - سبحانه الآية الكريمة بالدعوة
إلى الإنفاق فى سبيله ، وبشر المنفقين بسحن الجزاء فقال : ( وَمَا
تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ الله يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ
تُظْلَمُونَ ) .أى : ( وَمَا تُنفِقُواْ ) - أيها المؤمنون - ( مِن شَيْءٍ
قل أو أكثر هذا المنفق ( فِي سَبِيلِ الله ) أى فى وجوه الخيرات التى من (
أجَلِّها الجهاد لإعلاء كلمة الدين ( يُوَفَّ إِلَيْكُمْ ) أى : يصل إليكم
عوضه فى الدنيا وأجره فى الآخرة ( وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ ) أى :لا
تنقصون شيئاً من العوض أو الأجر .قال : والتعبير بالظلم - مع أن الأعمال
- غير موجبة للثواب حتى يكون ترك ترتيبه عليها ظلما - لبيان كمال نزاهته
، سبحانه - عن ذلك بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه - تعالى - من القبائح
وإبراز الإثابة فى معرض الأمور الواجبة عليه - تعالى - .هذا ، ومن الأحكام
التى أخذها العلماء من هذه الآية ما يأتى :1- وجوب إعداد القوة الحربية
للدفاع عن الدين وعن الوطن وعن كل ما يجب الدفاع عنه ، لأن أعداء الإسلام
إذا ما علموا أن أتباعه أقواياء هابوهم ، وخافوا بأسهم ، ولم يجرؤوا على
مهاجمتهم .قال القرطبى : وقوله - تعالى - ( وَأَعِدُّواْ لَهُمْ ) . أمر
الله المؤمنين بإعداد القوة للأعداء ، بعد أن أكد تقدمه التقوى . فإن
، الله - تعالى - لو شاء لهزمهم بالكلام والتفل فى وجوههم ، وبحفنة من تراب
كما فعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، ولكن أراد أن يبتلى بعض الناس
ببعض بعلمه السابق وقضائه النافذ . .وقال بعض العلماء : دلت هذه الآية على
وجوب إعداد القوة الحربية ، أتقاء بأس العدو وهجومه ، ولما عمل الأمراء
، بمقتضى هذه الآية أيام حضاره الإسلام ، كان الإسلام عزيزاً ، عظيماً
أبى الضيم ، قوى القنا ، جليل الجاه ، وفير السنا ، إذ نشر لواء سلطته على
منبسط الأرض ، فقبض على ناصية الأقطار والأمصار .أما اليوم فقد ترك
المسلمون العمل بهذه الآية الكريمة ، ومالوا إلى النعيم والترف ، فأهملوا
فرضاً من فروض الكفاية ، فأصحبت جميع الأمة آثمة بترك هذا الفرض ، ولذا
تعانى اليوم من غصته ما تعانى .وكيف لا يطمع العدو فى بلاد الإسلام ، وهو
لا يرى فيها معامل للأسلحة ، وذخائر الحرب ، بل كلها مما يشترى من بلاط
العدو؟أما آن لها أن تتنبه من غفلتها ، فتعد العدة التى أمر الله بها
. . لأعدائه ، وتتلافى ما فرطت قبل أن يداهم العدو ما بقى منها بخيله ورجله
؟إن القوة التى طلب الله من المؤمنين إعدادها لإرهاب الأعداء ، تتناول كل
ما من شأنه أن يجعل المؤمنين أقوياء . كإعداد الجيوش المدربة ، والأسلحة
- المتنوعة التى تختلف بحسب الأزمنة والأمكنة .وما روى من تفسيره القوة
التى وردت فى الآية - بالرمى ، فإنما هو على سبيل المثال ، ولأن الرمى كان
، فى ذلك الوت أقوى ما يتقوى به .قال الفخر الرازى عند تفسيره للآية
: والمراد بالقوة هنا ما يكون سبباً لحصول القوة ، وذكروا فيه وجوها :الأول
- المراد من القوة أنواح الأسلحة .الثانى : روى أنه - صلى الله عليه وسلم
قرأ هذه الآية على المنبر وقال : " ألا إن القوة الرمى " قالها ثلاثاً
: الثالث : قال بعضهم : القوة هى الحصون .الرابع : قال أصحاب المعانى.
الأولى أن يقال : هذا عام فى كل ما يتقوى به على حرب العدو ، ولك ما هو آلة
للغزو والجهاد فهو من جملة القوة ، وقوله - صلى الله عليه وسلم - : " القوة
هى الرمى "لا ينفى كون غير الرمى معتبراً . كما أن قوله - صلى الله عليه
وسلم - " الحج عرفه " " والندم توبة "لا ينفى اعتبار غيره . بل يدل على أن
هذا المذكور جزء شريف من المقصود فكذا هنا .وهذه الآية تدر على أن
الاستعداد للجهاد بالنبل ، والسلاح ، وتعليم الفروسية ، والرمى فريضة إلا
، أنه من فرض الكفايات .إن رباط الخيل للجهاد فى سبيل الله فضله عظيم
وثوابه كبير فقد كانت الخيل هى خير ما عرف العرب من وسائل الانتقال فى
الحرب وأسرعها ، وما زالت الخيل لها قيمتها فى بعض أنواع الحروب .قال
القرطبى ، فإن قيل : إن قوله ( وَأَعِدُّواْ لَهُمْ مَّا استطعتم مِّن
قُوَّةٍ ) كان يكفى ، فلماذا خص الخيل بالذكر؟قيل له : إن الخيل لما كانت
أصل الحرب وأوزارها الى عقد الخير فى نواصيها ، وهى أقوى القوة ، وأشد
العدة ، وحصون الفرسان ، وبها يجال فى الميدان ، لما كانت كذلك خصها بالذكر
تشريفاً ، وأقسم بغبارها تكريماً ، فقال : ( والعاديات ضَبْحاً ) وقال
الإمام ابن العربى : وأما رباط الخيل هو فضل عظيم ومنزلة شريفة .روى
الأئمة عن أبى هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال :" الخيل
ثلاثة ، لرجل ستر ، ولرجل أجر ، وعلى رجل وزر . فأما الذى هى عليه وزر رجل
ربطها رياء وفخراً ونواء لأهل الإسلام - أى : مناوأة ومعاداة - فهى عليه
وزر " .وأما الذى هى له أجر فرجل ربطها فى سبيل الله ، فأطال لها فى مرج أو
روضة ، فما أكلت من ذلك المرج أو الروضة من شئ إلا كتب الله له عدد ما أكلت
- حسنات . .وروى البخارى ومسلم عن جابر بن عبد الله قال : " رأيت رسول الله
صلى الله عليه وسلم - يلوى ناصية فرس بأصبعيه وهو يقول : " الخير معقود فى
نواصى الخيل إلى يوم القيامة " " .4- أن المقصود من إعداد العدة فى

، الإسلام إنما هو إرهاب الأعداء حتى لا يفكروا فى الاعتداء على المسلمين
وحتى يعيش أتباع هذا الدين آمنين مطمئنين فى ديارهم ، وحتى يستطيعوا أن
. يبلغوا رسالة الله إلى خلقه من الناس دون أن يخشوا أحداً سواه - عز وجل
وليس المقصود بأعداد العدة إرهاب المسالمين ، أو العدوان على الآمنين ، أو.
القهر والإذلال للناس واستغلالهم فيما يغضب الله - تعالى - .ولذلك وجدنا
) الآية صريحة فى بيان المقصود من هذا الإعداد ، وهو - كما عبرت عنه
تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ
تَعْلَمُونَهُمُ الله يَعْلَمُهُمْ ) .وهناك آيات أخرى صريحة فى بيان سبب
مشروعيته القتال فى الإسلام ومن ذلك قوله - تعالى - : ( وَقَاتِلُواْ فِي
سَبِيلِ اللهِ الذين يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تعتدوا إِنَّ اللهِ لاَ يُحِبُّ
المعتدين ) وقوله - تعالى - : ( وَقَاتِلُوهُمْ حتى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ
وَيَكُونَ الدين للَّهِ فَإِنِ انتهوا فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى
الظالمين ) والخلاصة : أن من تتبع آيات القرآن الواردة فى القتال يجدها
جميعها تقرر أن سبب القتال فى الإسم ينحصر فى رد العدوان ، وحماية الدعوة
الإسلامية من التطاول عليها وتثبيت حرية العقدية ، وتطهير الأرض من الظلم
والطغيان .5- وجوب الإنفاق فى سبيل الله ، ومن أشرف وجوه الإنفاق فى سبيل
الله أن يبذل المسلم ما يستطيع بذله فى الجهاد الذى هو ذروة سنام الإسلام
والذى ما تركه قوم إلا ذلوا . . وألقوا بأنفسهم فى التهلكة . .ولقد بشرت ،
الآية الكريمة المنفقين فى سبيل الله ، بأنه - سبحانه - سيجازيهم على
إنفاقهم جزاء وافيا لا نقص معه ولا ظلم .قال - تعالى - ( وَمَا تُنفِقُواْ
مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ الله يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ
تُظْلَمُونَ ) وفى الحديث الشريف الذى رواه الترمذى عن أبى يحيى قال : قال
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " من أنفق نفقة فى سبيل الله كتب له
. " سبعمائة ضعف

وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه هو السميع العليم

كما فسرها الوسيط ثم أمر - تعالى - رسوله - صلى الله عليه - بقبول السلم
والمصالحة ، إذا ما رغب أعداؤه فى ذلك ، وكانت ظواهرهم وأفعالهم تدل على
صدق نواياهم فقال - تعالى - : ( وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ . . . عَزِيزٌ
حَكِيمٌ ) .قوله ( جَنَحُواْ ) من الجنوح بمعنى الميل ، يقال : جنح فلان
: للشئ وإليه - يجنح - مثلث النون - جنوحاً . أى : مال إليه .قال القرطبى
والجنح : الميل . وجنح الرجل إلى الآخر : مال إليه . ومنه قيل للأضلاع
جوانح ، لأنها مالت على الحشورة - بضم الحاء وكسرها - أى : الأمعاء .وجنحت
الإبل : إذا مالت أعناقها فى السير قال ذو الرمة :إذا مات فوق الرحل أحييت
" روحه ... بذكراك والعيس المراسيل جنحوقرأ الأعمش وأبو بكر وابن محيص
للسلم " - بكسر السين - وقرأ الباقون بالفتح . وإنما قال ( لَهَا ) لأن
السلم مؤنثة - تأنيث نقيضها وهى الحرب . . ويجوز أن يكون التأنيث للفعلة
والمعنى : عليك - أيها الرسول الكريم - أن تنكل فى الحرب بأولئك الكافرين.
الناقضين لعهودهم فى كل مرة ، وأن تهيئ ما استطعت من قوة لإرهابهم فإن
مالوا بعد ذلك إلى ( لِلسَّلْمِ ) أى : المسالمة والمصالحة فوافقهم ومل
إليها ما دامت المصلحة فى هذه المسالمة .وقوله ( وَتَوَكَّلْ عَلَى الله
إِنَّهُ هُوَ السميع العليم ) معطوف على ( فاجنح لَهَا ) لقصد التثبيت وبعث
الطمأنينة فى قلبه .أى : اقبل المسالمة ما دام فيها مصلحتك ، وفوض أمرك إلى
الله - تعالى - ولا تخش مكرهم وكيدهم وغدرهم ، إنه - سبحانه - ( هُوَ
السميع ) لأقوالهم ( العليم ) بأحوالهم ، فيجازيهم بما يستحقون ، ويرد
كيدهم فى نحورهم .وعبر - سبحانه - عن جنوحهم إلى السلم بحرف ( إِن ) الذى
يعبر به عن الشئ المشكوك فى وقوعه ، للإشارة إلى أنهم ليسوا أهلاً لاختيار
، المسالمة أو المصالحة لذاتها ، وإنما هم جنحوا إليها لحاجة فى نفوسهم
فعلى المؤمنين أن يكونوا دائماً على حذر منهم ، وألا يأمنوا مكرهم .هذا وقد
اختلف العلماء فيمن عنى بهذه الآية ، فمنهم من يرى أن المعنى بها أهل
الكتاب ، ومنهم من يرى أن الآية عامة ، أى تشمل أهل الكتاب والمشركين . ثم
اختلفوا بعد ذلك فى كونها منسوخة أولاً؟وقد حكى ابن جرير معظم هذه الخلافات
ورجح أن المقصود بهذه الآية جماعة من أهل الكتاب ، وأن الآية ليست منسوخة
فقال ما ملخصه :عن قتادة أن قوله ( وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فاجنح لَهَا
منسوخة بقوله فى سورة براءة ( فاقتلوا المشركين حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ) (
وبقوله (وَقَاتِلُواْ المشركين كَآفَّةً ) فقد كانت هذه - أي الآية التى
. معنا وهى قوله - تعالى - ( وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ . . . ) قبل براءة
، كان النبى - صلى الله عليه وسلم - يوادع القول إلى أجل ، فإما أن يسلموا
وإما أن يقاتلهم ، ثم نسخ ذلك بعد براءة فقال : ( فاقتلوا المشركين حَيْثُ
وَجَدتُّمُوهُمْ ) وعن عكرمة والحسن البصرى قالا : ( وَإِن جَنَحُواْ
) - لِلسَّلْمِ . . . ) نسختها الآية التى فى براءة وهى قوله - تعالى
قَاتِلُواْ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالله وَلاَ باليوم الآخر )الآية .ثم قال
ابن جرير : فأما ما قاله قتادة ومن قال مثل قوله من أن الآية منسوخة ، فقول

لا دلالة عليه من كتاب ولا سنة ولا فطرة عقل .لأن قوله ( وَإِن جَنَحُواْ
- لِلسَّلْمِ فاجنح لَهَا . . ) إنما عنى به بنو قريظة - كما قال مجاهد
وكانوا يهودا أهل كتاب وقد أذن الله - جل ثناؤه - للمؤمنين بصلح أهل الكتاب
ومتاركتهم الحرب ، على أخذ الجزئية منهم ، وأما قوله : ( فاقتلوا ،
المشركين حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ) فإنما عنى به مشركو العرب ن عبدة
الأوثان ، الذين لا يجوز قبول الجزية منهم ، فليس فى إحدى الآتين نفى حكم
الأخرى ، بل كل واحدة منهما محكمة فيما أنزلت فيه . .هذا ما يراه ابن جرير
أما ابن كثير فقد وافقه على أن الآية ليست منسوخة ، وخالفه فى أن المقصود .
) : بها بنو قريظة ، فهو يرى أن الآية عامة فقد قال - رحمه الله - :قوله
وَإِن جَنَحُواْ ) أى : مالوا ( لِلسَّلْمِ ) أى المسالمة والمصالحة
والمهادنة ( فاجنح لَهَا ) أى : فمل إليها واقبل منهم ذلك . ولهذا لما طلب
المشركون عام الحديبية الصلح ووضع الحرب بينهم وبين رسول الله - صلى الله
. عليه وسلم - تسع سنين أجابهم إلى ذلك مع ما اشترطوا من الشروط الأخر
وقال مجاهد : نزلت فى بنى قريظة ، وهذا فيه نظر ، لأن السياق كله فى موقعه.
بدر ، وذكرها مكتنف لها كله .وقال ابن عباس ومجاهد وزيد بن أسلم وعطاء
، الخراسانى وعكرمة والحسن وقتادة : إن الآية منسوخة بآية السيف فى براءة
وهى قوله - تعالى - ( قَاتِلُواْ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالله وَلاَ باليوم
الآخر وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ الله وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ
دِينَ الحق مِنَ الذين أُوتُواْ الكتاب حتى يُعْطُواْ الجزية عَن يَدٍ
وَهُمْ صَاغِرُونَ ) وفيه نظر أيضاً ، لأن آية براءة فيها الأمر بقتالهم
إذا أمكن ذلك ، فأما إذا كان العدو كثيفاً فإنه يجوز مهادنتهم كما دلت عليه
هذه الآية الكريمة ( وَإِن جَنَحُواْ ) وكما فعل النبى - صلى الله عليه
وسلم - يوم الحديبية ، فلا منافاة ولا نسخ ولا تخصيص . .ويبدو لنا أن ما
ذهب إليه ابن كثير أرجح ، لأن الآية الكريمة تقرر مبدأ عاماً فى معاملة
الأعداء ، وهو أنه من الجائز مهادنتهم ومسالمتهم ما دام ذلك فى مصلحة
" - المسلمين .ولعل هذا هو ما قصده صاحب الكشاف بقوله عند تفسير الآية
والصحيح أن الأمر موقوف على ما يرى فيه الإمام صلاح الإسلام وأهله من حرب
. " أو سلم . وليس يحتم أن يقاتلوا أبداً . أو يجابوا إلى الهدنة أبداً

وان يريدوا ان يخدعوك فان حسبك الله هو الذي ايدك بنصره وبالمؤمنين

كما فسرها الوسيط ثم أمن الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - من
خداع أعدائه ، إن هم أرادوا خيانته ، ويبتوا له الغدر من وراء الجنوح إلى
السلم فقال - تعالى - : ( وَإِن يريدوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ
الله هُوَ الذي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وبالمؤمنين ) .أى : وإن يرد هؤلاء
الأعداء الذين جنحوا إلى السلم فى الظاهر أو يخدعوك - يا محمد - لتكف عنهم
حتى يستعدوا لمقاتلتك فلا تباك بخداعهم ، بل صالحهم مع ذلك إن كان فى الصلح
، مصلحة للإسلام وأهله ، ولا تخف منهم ، فإن الله كافيك بنصره ومعوته
فهو - سبحانه - الذى أمدك بما أمدك بم أمدك به من وسائل النصر الظاهرة
والخافية ، وهو - سبحانه - الذى أيدك بالمؤمنين الذين هانت عليهم أنفسهم
وأموالهم فى سبيل إعزاز هذا الدين ، وإعلاء كلمته . .فالآية الكريمة تشجيع
للنبى - صلى الله عليه وسلم - على السير فى طريق الصلح ما دام فيه مصلحة
للإسلام وأهله ، وتبشير له بأن النصر سيكون له حتى ولو أراد الأعداء
بإظهار الميل إلى السلم المخادعة والمراوغة . وقوله : ( حَسْبَكَ ) صفة
: مشبهة بمعنى اسم الفاعل . أى . بحسبك وكافيك .قال الفخر الرازى : فإن قيل
أليس قد قال - تعالى - ( وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فانبذ
إِلَيْهِمْ . . . ) أى : أظهر نقض ذلك العهد ، وهذا يناقض ما كذره فى هذه
الآية؟قلنا : قوله : ( وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً ) محمول
على ما إذا تأكد ذلك الخوف بأمارات قوية دالة عليها ، وتحمل هذه المخادعة
على ما إذا حصل فى قلوبهم بنوع نفاق وتزوير ، إلا أنه لم تظهر أمارات على
كونهم قاصدين للشر وإثارة الفتنة ، بل كان الظهر من أحوالهم الثبات على
المسالمة وترك المنازعة . .فإن قيل : لما قال : ( هُوَ الذي أَيَّدَكَ
بِنَصْرِهِ ) فأى حاجة مع نصره إلى المؤمنين حتى قال ( وبالمؤمنين ) ؟قلنا
التأييد ليس إلا من الله لكنه على قسمين : أحدهما ما يحصل من غير واسطة :
أسباب معلومة معتادة والثانى ما يحصل بواسطة أسباب معلومة .فالأول هو
) : المراد من قوله ( أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ ) والثانى هو المراد من قوله
. ( وبالمؤمنين

والف بين قلوبهم لو انفقت ما في الارض جميعا ما الفت بين قلوبهم ولكن الله
الف بينهم انه عزيز حكيم

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر فضله فى كيفية تأييده لرسوله
بالمؤمنين فقال - تعالى - : ( وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ
مَا فِي الأرض جَمِيعاً مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ولكن الله

- أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ) .أى : أن من مظاهر فضل الله عليك يا محمد أن أيدك
سبحانه - بنصره وأن أيدك بالمؤمنين ، بأن حبب إليهم الإيمان وزينه فى
، قلوبهم ، وجعل منهم قوة موحدة ، فاصاروا بفضله - تعالى - كالنفس الواحدة
بعد أن كانوا متنازعين متفرقين وأنت يا محمد ( لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي
الأرض جَمِيعاً ) من الذهب والفضة وغيرهما ما استطعت أن تؤلف بين قلوبهم
المتنافرة المتنازعة ( ولكن الله ) بفضله وقدرته هو وحده الذى ( أَلَّفَ
) - بَيْنَهُمْ ) فصاروا إخواناً متحابين متصافين ( إِنَّهُ ) - سبحانه
عَزِيزٌ ) أى : غالب فى ملكه وسلطانه على كل ظاهر وباطن ( حَكِيمٌ ) فى كل
أفعاله وأحكامه ..وهذه الآية الكريمة يؤديها التاريخ ، ويشهد بصدقها أحداثه
فنحن نعلم أن العرب - وخصوصاً الأوس والخزرج - كانوا قبل الإسلام فى ،
حالة شديدة من التفرق والتخاصم والتنزاع التحارب . . فلما دخلوا فى
. . الإسلام تحول بغضهم إلى حب ، وتخاصمهم إلى مودة ، وتفرقهم إلى اتحاد
. وصاروا فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم ، إلى مستوى لم يعرفه التاريخ من قبل
" : ولقد أجاد صاحب الكشاف - رحمه الله - فى تصويره لهذه المعانى حيث قال.
التأليف بين قلوب من بعث إليهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الآيات
الباهرة ، لأن العرب - لما فيهم من الحمية والعصبية ، والانطاء على الضغينة
- لا يكاد يأتلف منهم قلبان ، ثم ائتلفت قلوبهم على اتباع رسول الله . .
صلى الله عليه وسلم - واتحدوا ، وأنشأوا يرمون عن وس واحدة ، وذلك لما نظم
الله من ألفتهم ، وجمع من كلمتهم ، وأحدث بينهم من التحاب والتواد ، وأماط
عنهم عن التباغض والتماقت ، وكلفهم من الحب ، فى الله والبغض فى الله ، ولا
يقدر على ذلك إلا من يملك القلوب ، فهو يقلبها كيف يشاء ، ويصنع فيها ما
يريد .قيل : هم الأوس والخزرج ، كان بينهم من الرجوب والوقائع ما أهلك
سادتهم ورؤساءهم ، ودق جماجمهم . ولم يكن لبغضائهم أمد ومنتهى . وبينهما
التاور الذى يهيج الضغائن ، ويديم التحاسد والتنافس . وعادة كل طائفتين
كانتا بهذه الماثبة أن تتجنب هذه ما بثرته أختها ، وتكرهه وتنفر منه
فأنساهم الله - تعالى - ذلك كله ، حتى اتفقوا على الطاعة ، وتصافوا وصاروا.
أنصاراً ، وعادوا أعواناً ، وما ذاك إلا بلطيف صنعه ، وبليغ قدرته " . هذا
وفى الصحيحين " أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما خطب الأنصار فى ،
شأن غنائم " حنين " قال لهم : يا معشر الأنصار!! ألم أجدكم ضلالا فهداكم
الله بى؛ وعالة فأغناكم الله بى؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بى؟ فكانوا
يقولون كلما قال شيئا : الله ورسوله آمن " .وروى الحاكم أن ابن عباس كان
يقول : إن الرحم لتقطع ، وإن النعمة لتنكر ، وإن الله إذا قارب بين القلوب
لم يزحزحها شئ . ثم يقرأ قوله - تعالى - : ( لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأرض
جَمِيعاً مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ولكن الله أَلَّفَ بَيْنَهُمْ
. )

يا ايها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين

- كما فسرها الوسيط ثم مضت السورة الكريمة فى تثبيت الطمأنينة فى قلب النبى
، صلى الله عليه وسلم - وفى قلوب أصحابه فبينت لهم أن الله كافيهم وناصرهم
) : - وأن القلة منهم تغلب الكثرة من أعداء الله وأعدائهم فقال - تعالى
- ياأيها النبي . . . مَعَ الصابرين ) .قال الفخر الرازى : اعلم أنه
تعالى - لما وعده بالنصر عند مخادعة الأعداء ، وعده بالنصر والظفر فى هذه
الآية مطلقاً على جميع التقديرات ، وعلى هذا الوجه لا يلزم حصول التكرار؛
لأن المعنى فى الآية الأولى؛ إن أرادوا خداعك كفاك الله أمرهم .والمعنى فى
هذه الآية عام فى كل ما يحتاج إليه فى الدين والدنيا .وهذه الآية نزلت
بالبيداء فى غزوة بدر قبل القتال . .وقوله : ( حَسْبُكَ ) صفة مشبهة بمعنى
اسم الفاعل ، والكاف فى محل جر .والواو فى قوله ( وَمَنِ اتبعك ) بمعنى مع
و ( مَنِ ) فى محل نصب عطفاً على الموضع ، فإن قوله ( حَسْبُكَ ) بمعنى ،
كافيك فى جميع أمورك .والمعنى : يأيها النبى كافيك الله وكافى متبعيك من
المؤمنين فهو - سبحانه - ناصركم ومؤيدكم على أعدائكم وإن كثر عددهم وقل
عددكم ، وما دام الأمر كذلك ، فاعتمدوا عليه وحده ، وأطيعوا فى السر
والعلن؛ لكى يديم عليكم عونه وتأييده ونصره .قال بعض العلماء : قال ابن
القيم عند تفسيره لهذه الآية : أى : الله وحده كافيك وكافى أتباعك فلا
يحتاجون معه إلى أحد . ثم قال : وههنا تقديران :أحدهما : أن تكون الواو
" عاطفة للفظ " من " على الكاف المجرروة . .والثانى : أن تكون الواو بمعنى
مع " وتكون " من " فى محل نصب عطفاً على الموضع . فإن " حسبك " فى معنى
كافيك أى : الله يكفيك ويكفى من اتبعك ، كما يقول العرب : حسبك وزيدا درهم
قال الشاعر :وإذا كانت الهيجاء وانشقت العصا ... فحسبك والضحاك سيف ،
مهندوهذا أصح التقديرين . وفيها تقدير ثالث : أن تكون " من " فى موضع رفع
بالابتداء : أى ومن اتبعك من المؤمنين فحسبهم الله .وفيها تقدير رابع وهو
. خطأ من جهة المعنى ، وهو أن يكون " من " فى موضع رفع عطفا على اسم الله
، ويكون المعنى : حسبك الله وأتباعك .هذا وإن قال به بعض الناس فهو خطأ محض
لا يجوز حمل الآية عليه ، فإن الحسب والكفاية لله وحده ، كالتوكل والتقوى

. . والعبادة

يا ايها النبي حرض المؤمنين على القتال ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وان يكن منكم مائة يغلبوا الفا من الذين كفروا بانهم قوم لا يفقهون

- كما فسرها الوسيط ثم أمر الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - بتحريض المؤمنين على القتال من أجل إعلاء كلمة الحق ، فقال - تعالى - : ( يا أيها النبي حَرِّضِ المؤمنين عَلَى القتال . . . ) .وقوله : ( حَرِّضِ ) من التحريض بمعنى الحث على الشئ بكثرة التزيين له ، وتسهيل اللأمر فيه حتى تقدم عليه النفس برغبة وحماس .قال الراغب : الحرض ما لا يعتد به ولا خير فيه ، ولذلك يقال لمن أشرف على الهلاك حرض . قال - تعالى - ( حتى تَكُونَ . . حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الهالكين . . . ) .والتحريض : الحث على الشئ فكأنه فى الأصل إزالة الحرض نحو حرضته وقذيته أى : أزلت عنه الحرض والقذى والمعنى : يأيها النبى بالغ فى حث المؤمنين وإحمائهم على القتال بصبر.. وجلد ، من أجل إحقاق الحق وإبطال الباطل .ولهذا " كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يحرض أصحابه على القتال عند وصفهم ومواجهة الأعداء كما قال لأصحابه يوم بدر حين أقبل المشركون فى عددهم وعددهم : " قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض " . فقال عمير بن الحمام : عرضها السماوات والأرض؟ " : - فقال رسول الله : نعم فقال عمير : بخ بخ فقال - صلى الله عليه وسلم ما يحملك على قولك بخ بخ "؟ قال : رجاء أن أكون من أهلها ، قال - صلى الله عليه وسلم -" فإنك من أهلها " فتقدم الرجل فكسر جفن سيفه وأخرج تمرات فجعل يأكل منهن " ثم ألقى بقيتهن من يده وقال : لئن أنا حييت حتى آكلهن ، إنها لحياة طويلة ، ثم تقدم فقاتل حتى قتل - رضى الله عنه - " .وقوله : ( إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُنْ مِّنكُمْ مِّئَةٌ يغلبوا أَلْفاً مِّنَ الذين كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ ) بشارة من الله - تعالى - للمؤمنين ووعد لهم بالظفر على أعدائهم .أى : قابلوا - أيها المؤمنون أعداءكم بقوة وإقدام ، فإنكم إن يوجد منكم عشرون رجلاً صابروا يغلبوا - بسبب إيمانهم وصبرهم - مائتين من الكافرين ، وإن يوجد منكم مائة يغلبوا ألفاً منهم ، وذلك بسبب أن هؤلاء الكافرين قوم جهلة بحقوق الله - تعالى - وبما يجب عليهم نحوه .فهم - كما يقول صاحب الكشاف - : " يقاتلون على غير احتساب وطلب ثواب كالبهائم " فيقل ثباتهم . ويعدمون لجهلهم بالله نصرته ، ويستحقون الخذلان . بخلاف من يقاتل على بصيرة ومعه يستوجب به النصر والإظهار من الله - تعالى .وقال صاحب المنار : والآية تدل على أن من شأن المؤمنين أن يكونوا أعلم من الكافرين وأفقه منهم بكل علم وفن يتعلق بحياة البشر وإرتقاء الأمم . وأن حرمان الكفار من هذا العلم هو السبب فى كون المائة منهم دون العشرة من المؤمنين الصابرين . .وهكذا كان المؤمنون فى قرونهم الأولى . . أما الآن فقد أصبح . . المسلمون غافلين عن هذه المعانى الجليلة ، فزال مجدهم

الان خفف الله عنكم وعلم ان فيكم ضعفا فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وان يكن منكم الف يغلبوا الفين باذن الله والله مع الصابرين

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - بعض مظاهر فضله على المؤمنين ورحمته بهم فقال : ( الآن خَفَّفَ الله عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِن يَكُنْ مِّنكُمْ مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يغلبوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ الله ) .وقوله ( ضَعْفاً ) قرأه بعضهم بفتح الضاد ، وقرأه آخرون بضمها ، وهما بمعنى واحد عند ( الجمهور ، والمراد به الضعف فى الدين .وقيل : الضعف - بالفتح يكون فى الرأى والعقل ، وبالضم يكون فى البدن .والمعنى : لقد فرضنا عليكم - أيها المؤمنون - أول الأمر أن يثبت الواحد منكم أمام عشرة من الكافرين .. والآن وبعد أن شق عليكم الاستمرار على ذلك ، ولم تبق هناك ضرورة لدوام هذا الحكم لكثرة عددكم . . شرعنا لكم التخفيف رحمة بكم ، ورأية لأحوالكم ، فأوجبنا عليكم أن يثبت الواحد منكم أمام اثنين من أعدئاكم بدلاً من عشرة ، وبشرناكم بأنه إن يوجد منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين من أعدائكم ، وإن يوجد منكم ألف يغلبوا ألفين منهم بإذن الله وتيسيره وتأييده .وقوله : ( والله مَعَ الصابرين ) تذييل مقرر لمضمون ما قبله .أى : والله - تعالى - مع الصابرين بتأييده ورعايته ونصره ، فاحرصوا على أن تكونوا من المؤمنين الصادقين لتنالوا منه - سبحانه - ما يسعدكم فى دنياكم وآخرتكم .هذا ، ومن العلماء من يرى أن هذه الآية قد نسخت الآية السابقة عليها ، ومنهم من يرى غير ذلك .قال الآلوسى : قوله : ( إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ . . ) شرط فى معنى الأمر بمصابرة الواحد العشرة ، والوعد بأنهم إن صبروا غلبوا - بعون الله وتأييده - فالجملة خبرية لفظاً إنشائية معنى .والمعنى : ليصبرن الواحد لعشرة؛ وليست بخير محض . .وقوله : ( الآن خَفَّفَ الله عَنكُمْ . . ) أخرج البخارى وغيره عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : لما نزلت ( إِن يَكُن

مِّنكُمْ عِشْرُونَ ) شق ذلك على المسلمين إذ فرض عليهم أن لا يفر واحد من
عشرة فجاء التخفيف وهل يعد نسخا أولا؟ قولان : اختار بعضهم الثانى منها
وقال : إن الآية مخففة ، ونظير ذلك التخفيف على المسافر بالفطر .وذهب
الجمهور إلى الأول ، وقالوا : إن الآية الثانية ناسخة للأولى . وقال بعض
العلماء : فرض الله على المؤمنين أول الأمر ألا يفر الواحد من المؤمنين من
، العشرة من الكفار ، وكان ذلك فى وسعهم ، فأعز الله بهم الدين على قلتهم
وخذل بأيدهم المشركين على كثرتهم ، وكانت السرايا تهزم من المشركين أكثر من
عشر أمثالها تأييداً من الله ليدنه .ولما شق على المؤمنين الاستمرار على
ذلك ، وضعفوا عن تحمله ، ولم تبق ضرورة لدوام هذا الحكم لكثرة عدد المسلمين
ممن دخلوا فى دين الله أفواجاً نزل التخفيف ، ففرض على الواحد الثبات
للاثنين من الكفار ، ورخص له فى الفرار إذا كان العدو أكثر من اثنين .وهو
رخصة كالفطر للمسافر ، وذهب الجمهور إلى أنه نسخ .وقال الشيخ القاسمى : إن
قيل : إن كفاية عشرين لمائتين تغنى عن كفاية مائة لألف ، وكفاية مائة
لمائتين تغنى عن كفاية ألف لألفين ، لما تقرر من وجوب ثبات الواحد للعشرة
: فى الأولى ، وثبات الواحد للاثنين فى الثانية فما سر هذا التكرير؟أجيب
بأن سره كون كل عدة بتأييد القليل على الكثير لزيادة التقرير المفيد لزيادة
الاطمئنان ، والدلالة على أن الحال مع القلة والكثرة واحدة لا تتفاوت ، فإن
العشرين قد لا تغلب المائتين ، وتغلب المائة الألف ، وأما الترتيب فى
: المكرر فعلى ذكر الأقل مث الأكثر على الترتيب الطبيعى .وقيل فى سر ذلك
إنه بشارة للمسلمين بأن جنود الإسلام سيجاوز عددهم العشرات والمئات إلى
الألوف .ثم قال : وقال فى البحر : انظر إلى فصاحة هذا الكلام ، حيث اثبت فى
الشرطية الأولى قيد الصبر ، وحذف نظيره من الثانية ، وأثبت فى الثانية قيد
كونهم من الكفرة ، وحذفه من الأولى ، ولما كان الصبر شديد المطلوبية أثبت
فى أولى جملتى التخفيف وحذف من الثانية لدلالة السابقة عليه ، ثخم ختمت
بقوله : ( واللّه مَعَ الصابرين ) مبالغة في شدة المطلوبية ، وإشارة إلى
. . تأييدهم ، وأنهم منصورون حتماً ، لأن من كان الله معه لا يغلب

ما كان لنبي ان يكون له اسرى حتى يثخن في الارض تريدون عرض الدنيا والله
يريد الاخرة والله عزيز حكيم

. . كما فسرها الوسيط وبعد هذا الحديث المستفيض عن القتال فى سبيل الله
عقب - سبحانه - ذلك بالحديث عن بعض الأحكام التى تتعلق بالأسرى بمناسبة ما
- فعله الرسول - صلى الله عليه وسلم - مع أسرى غزوة بدر من الكافرين ، فقال
تعالى - : ( مَا كَانَ لِنَبِيٍّ . . . غَفُورٌ رَّحِيمٌ ) .ذكر المفسرون
فى سبب نزول هذه الآيات روايات منها ، ما أخرجه مسلم فى صحيح عن ابن عباس
قال : حدثنى عمر بن الخطاب : " أنه لما كان يوم بدر نظر رسول الله - صلى
الله عليه وسلم - إلى المشركين وهم ألف ، وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً
.فاستقبل القبلة ثم مد يديه فجعل يهتف بربه : اللهم أنجز لى ما وعدتنى ،
فقتل المسلمون من المشركين يومئذ سبعين وأسروا سبعين .قال ابن عباس : فلما
اسروا الأسارى قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأبى بكر وعمر : ما
ترون فى هؤلاء الأسارى؟ فقال أبو بكر : يا رسول الله هم بنو العم والعشيرة
أرى أن تأخذ منهم فدية تكون لنا قوة على الكفار فعسى أن يهديهم الله إلى ،
الإسلام .فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما ترى يا ابن الخطاب؟
قال : قلت لا والله يا رسول الله ، ما أرى الذى رأى أبو بكر ، ولكن أرى أن
تمكننا فنضرب أعناقهم ، فتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه ، وتمكن حمزة من
العباس فيضرب عنقه ، وتمكننى من فلان - نسيب لعمر - فأضرب عنقه ، - حتى
يعلم الله أن ليس فى قلوبنا هوادة للمشركين : فإن هؤلاء أئمة الكفر
وصناديده . فهو رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما قال أبو بكر ، ولم يهو
: ما قلت :فلما كان من الغد جئت ، فإذا رسول الله وأبو بكر يبكيان ، فقلت
، يا رسول الله . أخبرنى من أى شيئ بتكبى أنت وصاحبك . فإن وجدت بكاء بكيت
: - وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما .فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم
أبى على أصحابك من أخذهم الفداء عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة لشجرة
قريبة منه - صلى الله عليه وسلم - وأنزل الله - عز وجل - : ( مَا كَانَ
لِنَبِيٍّ أن يَكُونَ لَهُ أسرى حتى يُثْخِنَ فِي الأرض ) " إلخ الآيات
وروى الإمام والترمذى عن عبد الله بن مسعود قال : " لما كان يوم بدر قال.
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " ما تقولون فى هؤلاء الأسارى "؟ فقال
أبو بكر : يا رسول الله! قومك وأهلك إستبقهم واستتبهم لعل الله أن يتوب
عليهم .وقال عمر : يا رسول الله! كذبوك وأخرجوك فقدمهم فاضرب أعناقهم .وقال
عبد اللّه بن رواحة : يا رسول اللّه ، أنت بواد كثير الحطب فأضرم الوادى
- عليهم ناراً ثم ألقهم فيه .قال : فسكت رسول الله - صلى الله عليه وسلم
: فلم يرد شيئاً . ثم قال فدخل فقال ناس : يأخذ بقول أبى بكر . وقال ناس
يأخذ بقول عمر . وقال ناس : يأخذ بقول ابن رواحة .ثم خرج عليهم رسول الله
فقال :" إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن؛ ويشدد قلوب
رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم إذ قال

فَمَن تَبِعَنِي فَإِنّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنّكَ غَفُورٌ )
رّحِيمٌ ) وكمثل عيسى إذ قال : ( إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنّهُمْ عِبَادُكَ
وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنّكَ أَنتَ العزيز الحكيم ) .وإن مثلك يا عمر
كمثل نوح إذ قال : ( رّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأرض مِنَ الكافرين
دَيّاراً ) ، وكمثل موسى إذ قال : ( رَبّنَا اطمس على أَمْوَالِهِمْ
واشدد على قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حتى يَرَوُاْ العذاب الأليم ) .ثم
قال - صلى الله عليه وسلم - : " أنتم عالة فلا ينفلتن أحد إلا بفداء أو
ضربة عنق " .قال ابن مسعود : فقلت يا رسول ، إلا سهيل بن بيضاء ، فإنه يذكر
- الإسلام ، فسكت رسول الله ثم قال : " إلا سهيل بن بيضاء " . وأنزل الله
عز وجل - ( مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أسرى حتى يُثْخِنَ فِي
- الأرض . . . ) "إلى آخر الآية .وقال ابن إسحاق - وهو يحكى أخبار غزوة بدر
فلما وضع القوم أيدهم يأسرون ورسوله الله - صلى الله عليه وسلم - فى ":
العريش ، وسعد بن معاذ قائم على باب العريش الذى فيه رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - متوشحاً السيف ، فى نفر من الأنصار يحرسون رسول الله ، يخافون
عليه الكرة . ورأى رسول الله - فيما ذكر لى - فى وجه سعد الكراهية لما يصنع
الناس ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " والله لكأنك يا سعد تكره
ما يصنع القوم "؟ فقال : أجل والله يا رسول الله : كانت هذه أول وقعة
أوقعها الله بأهل الشكر ، فكان الإثخان فى القتل أحب إلى من استبقاء
الرجال" .قوله : ( أسرى ) : جمع أسير كقتلى جمع قتيل . وهو مأخوذ من الأسر
بمعنى الشد بالإسار أى : القيد به حتى لا يهرب ، ثم صار لفظ الأسير يطلق
على كل من يؤخذ من فتنة فى الحرب ، ولو لم يشد بالإسار .وقوله ( يُثْخِنَ
من الثخانة وهى فى الأصل الغلظ والصلابة . يقال : ثخن الشيئ يثخن ثخونة (
وثخانة وثخنا ، أى : غلظ وصلب فهو ثخين ، ثم استعمل فى النكاية والمبالغة
فى قتل العدو فقيل : أثخن فلان فى عدوه . أى : بالغ فى قتله وإنزال الجراحة
الشديدة به ، لأنه بذلك بمنعه من الحركة فيصير كالثخين الذى لا يسيل ولا
يتحرك .والمراد بالنبى فى قوله ( مَا كَانَ لِنَبِيٍّ ) : نبينا محمد - صلى
- الله عليه وسلم - وإنما جئ باللفظ منكراً تلطفاً به - صلى الله عليه وسلم
حتى لا يواجه بالعتاب .والمعنى : ما صح وما استقام لنبى من الأنبياء عليهم
الصلاة والسلام ( أن يَكُونَ لَهُ أسرى ) من أعدائه الذين يريدون به
، وبدعوته شراً ( حتى يُثْخِنَ فِي الأرض ) أى : حتى يبالغ فى قتلهم
) : وإنزاله الضربات الشديدة عليهم إذلالاً للكفر وإعزازا لدين الله .وقوله
تُرِيدُونَ عَرَضَ الدنيا والله يُرِيدُ الآخرة ) استئناف مسوق للعتاب
، والعرض : ما لا ثبات له ولا دوام من الأشياء ، فكأنها تعرض ثم تزول.
والمراد بعرض الدنيا هنا : الفداء الذى أخذوه من أسرى غزوة بدر حتى يطلقوا
سراحهم .تريدون - أيها المؤمنون - بأخذكم الفداء من أعدائكم الأسرى عرض
الدنيا ومتاعها الزائل ، وحطامها الذى لا ثبات له ، والله - تعالى - يريد
لكم ثواب الآخرة .فالكلام فى قوله : ( والله يُرِيدُ الآخرة ) على حذف
- المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه والإرادة هنا بمعنى الرضا أى : والله
تعالى - يرضى لكم العمل الذى يجعلكم تظفرون بثوابه فى الآخرة ، وهو تفضيل
إذلال الشرك على أخذ الفداء من أهله .وقوله : ( والله عَزِيزٌ حَكِيمٌ ) أى
والله - تعالى - ( عَزِيزٌ )لا يغالب بل هو الغالب على أمره ( حَكِيمٌ ) :
فى كل ما يأمر به أو ينهى عنه .فالآية الكريمة تعتب على المؤمنين ، لأنهم
آثروا الفداء على القتال والإثخان فى الأرض ، وذلك لأن غزوة بدر كانت أول
، معركة حاسمة بين الشرك والإيمان ، وكان المسلمون فيها قلة والمشركون كثرة
فلو أن المسلمين آثروا المبالغة فى إذلال أعدائهم عن طريق القتل لكان ذلك
أدعى لكسر شوكة الشرك وأهله ، وأظهر فى إذلال قريش وحلفهائها ، وأصرح فى
بيان أن العمل على إعلاء كلمة الله كان عند المؤمنين فوق متع الدنيا
، واعرضها ، وأنهم لا يوادون من حارب الله ورسوله مهما بلغت درجة قرابته
وهذا ما عبر عنه عمر - رضى الله عنه - بقوله : " وحتى يعلم الله أن ليس فى
قلوبنا هوادة للمشركين " .والخلاصة أن غزوة بدر - بظروها وملابساتها التى
سبق أن أشرنا إليها - كان الأولى بالمسلمين فيها أن يبالغوا فى قتل أعدائهم
- لا أن يقبلوا منهم فداء حتى يذلوها ويعجزوهم عن معاودة الكرة .ورضى الله
تعالى - عن " سعد بن معاذ " فقد هرت الكراهية على وجهه بسبب أخذ الفداء من
الأسرى ، وقال - كما سبق أن بينا - : " كانت غزوة بدر - أول وقعة أوقعها
" الله بأهل الشرك ، فكان الإثخان فى القتل أحب إلىّ من استبقاء الرجال
قال الفخر الرازى : قال ابن عباس : هذا الحكم إنما كان يوم بدر ، لأن.
المسلمين كانوا قليلين ، فلما كثروا وقوي سلطانهم أنزل الله بعد ذلك فى
الأسارى ( حتى إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ الوثاق فَإِمّا مَنّاً
بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حتى تَضَعَ الحرب أَوْزَارَهَا ) ثم قال الرازى
: وأقول : إن هذا الكلام يوهم أن قوله ( فَإِمّا مَنّاً بَعْدُ وَإِمّا
فِدَآءً ) يزيد على حكم الآية التى نحن فى تفسيرها : وليس الأمر كذلك ، لأن
الآيتين متوافقتان ، فإن كلتيهما تدل على أنه لا بد من تقديم الإثخان ثم
بعده أخذ الفداء .

لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما اخذتم عذاب عظيم

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك بعض مظاهر رحمته بالمؤمنين
لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ الله سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ
عَظِيمٌ ) .والمراد بالكتابه هنا : الحكم ، وأطلق عليه كتاب لأن هذا الحكم
مكتوب فى اللوح المحفوظ .وللمفسرين أقوال فى تفسير هذا الحكم السابق فى علم
الله - تعالى - : فمنهم من يرى أن المراد به أنه - سبحانه -لا يعذب المخطئ
فى اجتهاده .وقد سرد صاحب الكشاف تفسيره لهذه الآية بهذا الرأى فقال قوله
: ( لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ الله سَبَقَ ) اى : لولا حكم منه سبق إثباته فى .
اللوح المحفوظ ، وهو أنه - سبحانه - لا يعاقب أحداً بخطأ ، وكان هذا خطأ فى
الاجتهاد ، لأنهم نظروا فى أن استبقاءهم ربما كان سبباً فى إسلامهم وتوبتهم
وأن فداءهم يتقوى بهم على الجهاد فى سبيل الله ، وخفى عليهم أن قتلهم أعز
للإسلام وأهيب لمن وراءهم ، وأقل لشوكتهم . .ومنهم من يرى أن المراد به
أنه - سبحانه - لا يعذب قوماً إلا بعد تقديم النهى عن الفعل ولم يتقدم نهى
عن أخذ الفداء .ومنهم من يرى أن المراد به أنه - سبحانه -لا يعذبهم ما دام
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بينهم .أو أنه - سبحانه - لا يعذب أحداً
ممن شهد بدراً .وقد ساق الإمام الرازى هذه الأقوال وناقشها ثم اختار أن
المراد بالكتاب الذى سبق : هو حكمه - سبحانه - فى الأزل بالعفو عن هذه
الواقعة ، لأنه كتب على نفسه الرحمة . وسبقت رحمته غضبه .أما الإمام ابن
جرير فهو يرى : أن الاية خبر عام محصور على معنى دون معنى ، وأنه لا وجه
لأن يخص من ذلك معنى دون معنى . . فقال : يقول الهل - تعالى - لأهل بدر
الذين أخذوا من الأسرى الفداء ( لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ الله سَبَقَ ) .أى
لولا قضاء من الله سبق لكم أهل بدر فى اللوح المحفوظ أن الله يحل لكم :
الغنيمة ، وأن الهل قضى أنه لا يضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما
يتقون ، وأنه لا يعذب أحداً شهد هذا المشهد الذى شهدتموه ببدر . . لولا كل
ذلك لنالكم من الله بأخذكم الفداء عذاب عظيم .ويبدو لنا أن ما ذهب إليه ابن
جرير - من أن الآية خبر عام يشمل كل هذه المعانى - أولى بالقبول ، لأنه لم
يوجد نص صحيح عن النبى - صلى الله عليه وسلم - يحدد تفسيره المراد من هذا
الكتاب السابق فى علمه - تعالى - .ولعل الحكمة فى هذا الإبهام لتذهب
الأفهام فيه إلى كل ما يحتمله اللفظ ، ويدل عليه المقام ، ولكى يعرفوا أن
أهذهم الفداء كان ذنباً يستحقون العقوبة عليه لولا أن الله - تعالى - قدر
فى الأزل العقو عنهم بسبب وجود النبى - صلى الله عليه وسلم - فيهم ، ولأنهم
قد أخطأوا فى اجتهادهم ، ولأنهم لم يتقدم لهم نهى عن ذلك ، ولأنهم قد شهدوا
" : - هذه الغزوة التى قال الرسول فى شأن من حضرها على لسان ربه - عز وجل
- اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم " .فقد روى الشيخان وغيرهما أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم - قال لعرم فى قصة حاطب بن أبى بلتعة عندما أخبر
المشركين بأن الرسول سيغزوهم قبل فتح مكة وكان حاطب قد شهد بدراً : " وما
يدريك لعل الله - تعالى - اطلع على أهل بدر وقال : " اعملوا ما شئتم فقد
غفرت لكم " .والمعنى الإجمالى للآية الكريمة : ( لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ
الله سَبَقَ ) أى : لولا حكم من الله - تعالى - سبق منه فى الأزل ألا يعذب
المخطئ على اجتهاده أو ألا يعذب قوماً قبل تقديم البيان إليهم . . . ولولا
كل ذلك ( لَمَسَّكُمْ ) أى لأصابكم ( فِيمَآ أَخَذْتُمْ ) أى بسبب ما أخذتم
من الفداء قبل أن تؤمروا به ( عَذَابٌ عَظِيمٌ )لا يقادر قدره فى شدته
وألمه .قال ابن جرير : قال ابن زيد : لم يكن من المؤمنين أحد ممن نصر إلا
: أحب الغنائم إلا عمر بن الخطاب ، جعل لا يلقى أسيراً إلا ضرب عنقه وقال
يا رسول الله مالنا وللغنائم؟ نحن قوم نجاهد فى دين الله حتى يعبد الله
فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " لو عذبنا فى هذا الأمر يا عمر
ما نجا غيرك " .وقال ابن اسحاق : لما نزلت ( لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ الله
سَبَقَ ) الآية . قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " لو نزل عذاب من
السماء لم ينج منه إلا سعد بن معاذ لقوله : يا نبى الله ، كان الإثخان فى
القتل أحب إلى من استبقاء الرجال " .وقال بعض العلماء : قال القاضى ، وفى
الآية دليل على أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يجتهدون ، وأنه قد يكون
خطأ ولكن لا يقرون عليه .

فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا واتقوا الله ان الله غفور رحيم

كما فسرها الوسيط ثم زاد - سبحانه - المؤمنين فضلا ومنه فقال : ( فَكُلُواْ
مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّباً واتقوا الله إِنَّ الله غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ) .قال الآلوسى روى أنه لما نزلت الآية الأولى ( مَا كَانَ
لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أسرى . . . ) كف الصحابة أيديهم عما أخوا من
الفداء فنزلت هذه الآية .فالمراد بقوله ( مِمَّا غَنِمْتُمْ ) إما الفدية
وإما مطلق الغنائم ، والمراد بيان حكم ما اندرج فيها من الفدية ، وإلا فحل
الغنيمة مما عداها علم سابقاً من قوله :( واعلموا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ )
وقيل المراد بقوله : ( مِمَّا غَنِمْتُمْ ) الغنائم من غير اندراج الفدية

فيها ، لأن القوم لما نزلت الآية الأولى امتنعوا عن الأكل والتصرف فيها
تزهداً منهم ، لا ظناً لحرمتها . . والفاء للعطف على سبب مقدر ، أى قد أبحت
- لكم الغنائم فكلوا مما غنمتم .والمعنى : لقد عفوت عنكم - أيها المؤمنون
فيما وقعتم فيه من تفضيلكم أخذ الفداء من الأسرى على قتلهم ، وأبحت لكم
الانتفاع بالغنائم فكلوا مما غنمتم من أعدائكم حلالا طيباً ، أى لذيذاً
هينئاً لا شبهة فى أكله ولا ضرر ( واتقوا الله ) فى كل أحوالكم بأن تخشوه
وتراقبوه ( إِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ) ولذا غفر لكم ما فرط منكم وأباح
) : إليه توبة صادقة .وقوله ( حَلاَلاً ) حال من " ما " الموصولة فى قوله
مِمَّا غَنِمْتُمْ ) أو صفة لمصدر محذوف ، أى : أكلاً حلالا .ووصف هذا
المأمور بأكله بأنه حلال طيب ، تأكيداً للإباحة حتى يقبلوا على الأكل منه
بدون تحرج أو تردد ، فإن معاتبتهم على أخذ الفداء قبل ذلك جعلتهم يترددون
. فى الانتفاع به وبما غنموه من أعدائهم

يا ايها النبي قل لمن في ايديكم من الاسرى ان يعلم الله في قلوبكم خيرا
يؤتكم خيرا مما اخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم

كما فسرها الوسيط ثم أمرت السورة النبى - صلى الله عليه وسلم - أن يخبر
الأسرى بأنهم إذا فتحوا قلوبهم للحق واستجابوا له - سبحانه - سيعوضهم عما
فقدوه خيراً منه ، أما إذا استمروا فى كفرهم وعنادهم فإن الدائرة ستدور
عليهم . استمع إلى السورة الكريمة وهى تصور هذا المعنى بأسلوبها البليغ
" : فتقول : ( ياأيها النبي . . . والله عَلِيمٌ حَكِيمٌ ) .قال : ابن كثير
عن الزهرى عن جماعة سماهم قالوا : بعثت قريش إلى رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - فى فداء أسراهم ، ففدى كل قوم أسيرهم بما رضوا .وقال العباس : يا
رسول الله! قد كنت مسلماً! فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " الله
أعلم بإسلامك ، فإن يكن كما تقول ، فإن الله يجزيك . وأما ظاهرك فقد كان
، علينا ، فافتد نفسك وابنى أخيك نوفل بن الحارث ، وعقيل بن أبى طالب
وحليفك عتبة بن عمرو أخى بنى الحارث بن فهر" . قال العباس : ما ذاك عندى يا
رسول الله ، فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " فأين المال الذى
دفنته أنت وأم الفضل ، فقلت لها : إن أصبت فى سفرى هذا فهذا المال الذى
دفنته لبنىّ : الفضل ، وعبد الله ، وقثم "؟قال : والله يا رسول الله إنى
لأعلم أنك رسول الله . إن هذا الشئ ما علمه أحد غيرى وغير أم الفضل ، فاحسب
لى يا رسول الله ما أصبتم منى : - عشرين أوقية من مال كان معى - .فقال رسول
الله - صلى الله عليه وسلم "لا ، ذاك شئ أعطانا الله منك " .ففدى نفسه
وابنى أخويه وحليفه . فأنزل الله - تعالى - فيه ( ياأيها النبي قُل لِّمَن
في أَيْدِيكُمْ مِّنَ الأسرى ) الآية .قال العباس : فأعطانى الله مكان
العشرين الأوقية فى الإسلام ، عشرين عبداً كلهم فى يده مال يضرب به . مع ما
أجرو من مغفرة الله - تعالى - " .وفى صحيح البخارى " عن أنس : أن رجالاً من
الأنصار قالوا : يا رسول الله ائذن لنا فلنترك لابن أختنا عباس فداءه
فقال - صلى الله عليه وسلم - : "لا والله !لا تذرون منها درهما " هذا.
: والآية الكريمة وإن كانت قد نزلت فى العباس إلا أنها عامة فى جميع الأسرى
إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، ولأن الخطاب فيها موجه إلى سائر
الأسرى لا إلى فرد منهم دون آخر .والمعنى : ( ياأيها النبي قُل لِّمَن في
أَيْدِيكُمْ ) أى : قل للذين تحت تصرف أيدكم ( مِّنَ الأسرى ) أى : من اسرى
المشركين فى بدر الذين أخذتم منهم الفداء لتطلقوا سراحهم .قل لهم - أيها
: النبى الكريم - ( إِن يَعْلَمِ الله فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً ) أى
إيماناً وتصديقاً وعزماً على اتباع الحق ونبذ الكفر والعناد . . إن يعلم
الله - تعالى - منكم ذلك ( يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ ) من
فداء ، بأن يخلفه عليكم فى الدنيا ، ويمنحكم الثواب الجزيل فى الآخرة .ولقد
صدق الله - تعالى - وعده مع من آمن وعمل صالحاً من هؤلاء الأسرى ، فأعطاهم
الكثير من نعمه كما قال العباس - رضى الله عنه -وقوله : ( وَيَغْفِرْ
لَكُمْ ) زيادة فى حضهم على الدخول فى الإيمان .وقوله : ( والله غَفُورٌ
: رَّحِيمٌ ) تذييل قصد به تأكيد ما قبله من الوعد بالخير والمغفرة .أى
والله - تعالى - واسع المغفرة ، والرحمة لمن إستجاب للحق ، وقدم العمل
الصالح .والتعبير ، بقوله : ( لِّمَن في أَيْدِيكُمْ ) للإشعار بأن هؤلاء
الأسرى المشركين قد صاروا فى قبضة المؤمنين وتحت تصرفهم ، حتى لكأن أيديهم
قابضة عليهم .وأسند وجود الخير فى قلوبهم إلى علم الله - تعالى - للإشارة
إلى أن ادعاء الإيمان باللسان فقط لا يكفل لهم الحصول على الخير الذى
فقدوه ولا يوصلهم إلى مغفرة الله - تعالى - فعليهم أن يخلصوا لله فى
. إيمانهم حتى ينالوا فضله وثوابه ، فهو - سبحانه - عليم بذات الصدور

وان يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فامكن منهم والله عليم حكيم

كما فسرها الوسيط وقوله : ( وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ
الله مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ) إنذار لهم بسوء المصير إذا مالجوا

فى عنادهم وغدرهم ، وبشارة من الله - تعالى - لرسوله والمؤمنين بأن العاقبة
- ستكون لهم .أى : وإن يرد هؤلاء الأسرى نقض عهودهم معك - يا محمد
والاستمرار فى محاربتك ومعاداتك . . فلا تهتم بهم ، ولا تجزع من خيانتهم
فهم قد خانوا الله - تعالى - من قبل هذه الغزوة بكفرهم وجحودهم لنعمه فكانت
نتيجة ذلك أن أمكنك منهم ، وأظفرك بهم ، وسينصرك عليهم بعد ذلك كما نصرك
عليهم فى بدر ، والله - تعالى - عليم بما يسرونه وما يعلنونه ، حكيم فى
تدبيره وصنعه .فالآية الكريمة إنذار للأسرى إذا ما استحبوا العمى على الهدى
وتبشر للرسول - صلى الله عليه وسلم - بأن خيانتهم سيكون وبالها عليهم ،
قال الفخر الرازى : وقوله ( فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ) قال الأزهرى : يقال.
أمكننى الأمر يمكننى فهو ممكن ومفعول الإمكان محذوف .والمعنى : فأمكن
المؤمنين منهم ، أى : أنهم خانوا الله بما أقدموا عيله من محاربة الرسول
يوم بدر . فأمكن الله منهم قتلا وأسرا ، وذلك نهاية الإمكان والظفر . فنبه
الله بذلك على أنهم ذاقوا وبال ما فعلوه ، فإن عادوا كان التمكين منهم
ثابتاً حاصلاً ، وفيه بشارة للرسول - صلى الله عليه وسلم - أنه يتمكن من كل
من يخونه وينقض عهده .هذا ، ومن الأحكام والآداب التى حدثت عن أسرى غزوة
بدر ما يأتى :1- أن على المؤمنين فى كل زمان ومكان أن يجعلوا جهادهم خالصاً
لوجه الله ومن اجل إعلاء كلمته ونصرة دينه ، وذلك بأن يبالغوا فى قتال
أعدائه وأعدائهم إذلالا للكفر وإعزاراً للحق ، وأن يؤثروا كل ذلك على أعراض
الدنيا ومتعها .2- أن أخذ الفداء من الأسرى لا شئ فيه فى ذاته ، وإنما عاتب
الله المؤمنين على أخذه من أسرى بدر ، لأن هذه الغزوة كانت المعركة الأولى
بين المؤمنين والمشركين ، وكان إذلال المشركين فيها عن طريق المبالغة فى
قتلهم أهم من أخذ الفداء منهم ، وأظهر فى كسر شوكتهم ، وعجزهم عن معاودة
الكرة على المسلمين .قال ابن كثير . وقد استقر الحكم فى الأسرى عند جمهور
العلماء ، أن الإمام مخير فيهم ، إن شاء قتل - كما فل ببنى قريظة - وإن
شاء فادى بمال - كما فعل بأسرى بدر - أو بمن أسر من المسلمين ، كما فعل
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى تلك الجارية وابنتها اللتين كانتا فى
سبى سلمة بن الأكوع ، حيث ردهما وأخذ فى مقابلتهما من المسلمين الذين كانوا
عند المشركين ، وإن شاء استرق من أسر هذا مذهب الإمام الشافعى وطائفة من
العلماء ، وفى المسألة خلاف آخر بين الأئمة مقرر فى موضعه .3- أن الذين
، شهدوا بدراً من المسلمين كانت لهم مكانتهم السامية ، ومنزلتهم العالية
عند الله - تعالى - .ومما يدل على ذلك أنه - سبحانه - عفا عن خطئهم فى أخذ
الفداء من الأسرى ثم زادهم فضلاً ومنة فجعل غنائم الحرب حلالا لهم ، بعد أن
كانت محرمة على أتباع الرسل السابقين .ففى البخاري عن جابر بن عبد الله قال
قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " أعطيت خمسا يعطهن أحد من
الأنبياء قبلى . نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً
فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل وأحصلت لى الغنائم ولم تحل لأحد
قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس
عامة " .4- أن الإسلام لا يستبقى الأسرى لديه للإذلال والقهر والاستغلال
وإنما يستبقيهم ليوقظ فى فطرتهم نور الحق الذى باتباعه يعوضهم الله ما ،
أخذ منهم فى الدنيا ، ويمنحهم ثوابه ومغفرته فى الآخرة .أما إذا استمروا فى
عداوتهم للحق ، فان الدائرة ستدور عليهم .5- أن الإيمان لا يكون صحيحا إلا
إذا صاحبه التصديق والإذعان .قال ابن العربى : لما أسر من أسر من المشركين
فى بدر ، تكلم قوم منهم بالإسلام ، ولم يمضوا فيه عزيمة ، ولا اعترفوا به
اعترافا جازما ، ويشبه أنهم أرادوا أن تقربوا من المسلمين ولا يبعدو عن
المشركين فنزلت الآية : ( يا أيها النبي قُل لِّمَن في أَيْدِيكُمْ مِّنَ
الأسرى ) . الآية .قال علماؤنا : إن تكلم الكافر بالإيمان فى قلبه وبلسانه
ولم يمض فيه عزيمة لم يكن مؤمنا ، وإذا وجد مثل ذلك المؤمن كان كافرا إلا
ما كان من الوسسة التى لا يقدر المرء على دفعها ، فإن اله قد عفا عنها
) : وأسقطها .وقد بين الله لرسوله - صلى الله عليه وسلم - الحقيقة فقال
) وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ ) أى إن كان هذا القول منهم خيانة ومكرا
فَقَدْ خَانُواْ الله مِن قَبْلُ ) بكفرهم ومكرهم بك وقتالهم لك ، فأمكنك
منهم . وإن كان هذا القول منهم خيرا ويعلمه الله فيقبل ذلك منهم ، ويعوضهم
. خيرا مما أخذ منهم ، ويغفر لهم ما تقدم من كفرهم وخيانتهم ومكرهم

ان الذين امنوا وهاجروا وجاهدوا باموالهم وانفسهم في سبيل الله والذين اووا
ونصروا اولئك بعضهم اولياء بعض والذين امنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم
من شيء حتى يهاجروا وان استنصروكم في الدين فعليكم النصر الا على قوم بينكم
وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير

كما فسرها الوسيط ثم ختم الله - تعالى - سورة الأنفال بالحديث عن علاقة
المسلمين بعضهم ببعض ، وعن علاقتهم بغيرهم من الكفار عن الأحكام المنظمة
لهذه العلاقات فقال - تعالى - : ( إِنّ الذين آمَنُواْ . . . بِكُلِّ
شَيْءٍ عَلِيمٌ ) .هذه الآيات الكريمة التى ختم الله - تعالى - بها سورة
الأنفال ، وضحت أن المؤمنين فى العهد النبوى أقسام ، وذكرت حكم كل قسم منهم

أما القسم الأول : فهم المهاجرون الأولون أصحاب الهجرة الأولى .وأما القسم الثانى : فهم الأنصار من أهل المدينة .والقسم الثالث : المؤمنون الذين لم يهاجروا .والقسم الرابع : المؤمنون الذين هاجروا بعد صلح الحديبية .وقد عبر - سبحانه - عن القسمين : الأول والثانى بقوله : ( إِنَّ الذين آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ - الله والذين آوَواْ ونصروا ) .أى : ( إِنَّ الَّذِين آمَنُواْ ) بالله تعالى - حق الإيمان ( وَهَاجَرُواْ ) أى تركوا ديارهم وأوطانهم وكل نفيس من زينة الحياة الدنيا . من أجل الفرار بدينهم من فتنة المشركين ، ومن أجل نشر دين الله فى الأرض ( وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي - سَبِيلِ الله ) أى : أنهم مع إيمانهم الصادق ، وسبقهم بالهجرة إرضاء الله تعالى - ، قد بالغوا فى إتعاب أنفسهم من أجل نصرة الحق ، فقدموا ما يملكون من أموال ، وقدموا نفوسهم رخيصة لا فى سبيل عرض من أعراض الدنيا ، وإنما فى سبيل مرضاة الله ونصرة دينه .فأنت ترى أن الله - تعالى - قد وصف هذا القسم الأول من ال مؤمنين وهم الذين سبقوا إلى الهجرة . بأعظم الصفات وأكرمها ، فقد وصفهم بالإيمان الصادق ، وبالمهاجرة فرار بدينهم من الفتن. وبالمجاهد بالمال والنفس فى سبيل إعلاء كلمة الله .وقد جاءت هذه الأوصاف الجليلة مرتبة حسب الوقوع ، فإن أول ما حصل منهم هو الإيمان ، ثم جاءت من بعده الهجرة ، ثم الجهاد .ولعل تقديم المجاهدة بالأموال هنا على المجاهدة بالأنفس ، لأن المجاهدة بالأموال أكثر وقوعا ، وأتم دفعا للحاجة ، حيث لا تتصور المجاهدة بالنفس بلا مجاهدة بالأموال .وقوله ( فِي سَبِيلِ الله ) ، متعلق بقوله ( وَجَاهَدُواْ ) لإبراز أن جهادهم لم يكن لأى غرض دنيوى وإنما كان من أجل نصرة الحق وإعلاء كلمته - سبحانه - .وقوله : ( والذين ، آوَواْ ونصروا ) بيان للقسم الثانى من أقسام المؤمنين فى العهد النبوى وهم الأنصار من أهل المدينة الذين فتحوا للمهاجرين قلوبهم ، واستقبلوهم أحسن استقبال ، حيث أسكنوهم منازلهم ، وبذلوا لهم أموالهم ، وآثروهم على أانفسهم ، ونصروهم على أعدائهم .فالآية الكريمة قد وصفت الأنصار بوصفين كريمين .أولهما : الإيواء الذى يتضمن التأمين من الخوف ، إذا المأوى هو المجلأ والمأمن مما يخشى منه ، ومن ذلك قوله - تعالى - ( إِذْ أَوَى الفتية إِلَى الكهف . . . ) وقوله - تعالى - ( وَلَمَّا دَخَلُواْ على يُوسُفَ آوى إِلَيْهِ أَخَاهُ . . . ) ولقد كانت المدينة مأوى وملجأ للمهاجرين ، وكان اهلها مثالا للكرم والإيثار . .ثانيهما : النصرة ، لأن أهل المدينة قد نصروا الرسول - صلى الله عليه وسلم - والمهاجرين بكل ما يملكون من وسائل التأييد والمؤازرة ، فقد قاتلوا من قاتلهم ، وعادوا من عاداهم ، ولذا جعل الله - تعالى - حكمهم المهاجرين واحدا فقال : ( أولئك بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ) .فاسم الإشارة يعود إلى المهاجرين السابقين ، وإلى الانصار .وقوله : ( أَوْلِيَآءُ ) جمع ولى ويطلق على الناصر والمعين والصديق والقريب . .والمراد بالولاية هنا : الولاية العامة التى تتناول التناصر والتعاون والتوارث . .أى : أولئك المذكورون الموصوفون بهذه الصفات ، الفاضلة يتولى بعضهم بعضا فى النصرة والمعاونة والتوارث . . . وغير ذلك لأن حقوقهم ومصالحهم مشتركة .قال الالوسى ما ملخصه : " روى عن ابن عباس أن النبى - صلى الله عليه وسلم - آخى بين المهاجرين والأنصار ، فكان المهاجر يرثه أخوه الأنصارى ، إذا لم يكن له بالمدينة ولى مهاجرى وبالعكس ، واستمر . . أمهرهم على ذلك إلى فتح مكة ثم توارثوا بالنسب بعد إذ لم تكن هجرة وعليه فالآية منسوخة بقوله - تعالى - بعد ذلك ( وَأُوْلُواْ الأرحام بَعْضُهُمْ أولى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ الله . . . ) " .وقال الأصم : الآية محكمة ، والمرد الولاية بالنصرة والمظاهرة .والذى نراه أن الولاية هنا عامة فهى تشمل كل ما يحتاج إليه المسلمون فيما بينهم من تعاون وتناصر وتكافل وتوارث وغير ذلك . .وقوله - تعالى - : ( والذين آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُمْ مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حتى يُهَاجِرُواْ . . . بيان لحكم القسم الثالث من أقسام المؤمنين فى العهد النبوى . .أى : هذا الذى ذكرته لكم قبل ذلك فى الآية هو حكم المهاجرين السابقين والأنصار الذى آووهم ونصروهم أما حكم الذين آمنوا ولم يهاجروا ، وهم المقيمون فى أرض الشرك تحت سلطان المشركين وحكمهم. فإنهم ليس بينهم وبين المهاجرين والأنصار ولاية إرث ( حتى يُهَاجِرُواْ ) إلى المدينة ، كما أنكم - أيها المؤمنون -لا تنتظروا منهم تعاونا أو مناصرة ، لأنهم بسبب إقامتهم فى أرض - الشرك وتحت سلطانه - أصبحوا لا يملكون وسائل المناصرة لكم .ثم قال تعالى - : ( وَإِن استنصروكم فِي الدين فَعَلَيْكُمُ النصر إِلاَّ على قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ ) .أى : وان طلب منكم هؤلاء المؤمنون الذين لم يهاجروا النصرة على أعدائكم فى الدين ، فيجب عليكم أن تنصروهم ، لأنهم إخوانكم فى العقدية ، بشرط ألا يكون بينكم وبين هؤلاء الأعداء عهد ومهادنة ، فإنكم فى هذه الحالة يحظر عليكم نصرة هؤلاء المؤمنين الذين لم يهاجروا ، لأن فى نصرتهم - على من بينكم وبينهم عند - نقضا لهذا العهد .أى : إن نصرتكم لهم إنما تكون على الكفار الحربيين لا على الكفار المعاهدين وهذا يدل على رعاية الإسلام للعهود ، واحترامه للشروط والعقود

قال الجمل : أثبت الله - تعالى - للقسمين الأولين النصرة والإرث ، ونفى.
عن هذا القسم الإرث وأثبت لها النصرة .وقوله : ( والله بِمَا تَعْمَلُونَ
: بَصِيرٌ ) تذييل قصد به الترغيب فى طاعة الله ، والتحذير عن معصيته .أى
. والله - تعالى - مطلع على كل أعمالكم فأطيعوه ، ولا تخالفوا أمره

والذين كفروا بعضهم اولياء بعض الا تفعلوه تكن فتنة في الارض وفساد كبير

كما فسرها الوسيط قبل أن تذكر السورة القسم القسم الرابع من أقسام المؤمنين
تتحدث عن ولاية الكفار بعضهم لبعض فتقول : ( والذين كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ ،
أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلاّ تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأرض
وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ) .أى : والذين كفروا بعضهم أولياء بعض فى النصرة
والتعاون على قتالكم وإيذائكم - أيها المؤمنون - فهم وإن اختلفوا فيما
بينهم إلا أنهم يتفقون على عداوتكم وإنزال الأضرار بكم .وقوله : ( إِلاّ
تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأرض وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ) تحذير شديد
للمؤمنين عن مخالفة أمره - سبحانه - .أى : إلا تفعلوا - أيها المؤمنون - ما
أمرتكم به من التناصر والتواصل وتولى بعضكم بعضا ، ومن قطع العلائق بينكم
وبين الكفار ، تحصل فتنة كبيرة فى الأرض ، ومفسدة شديدة فيها ، لأنكم إذا
لم تصيروا يداً واحدة على الشرك ، يضعف شأنكم ، وتذهب ريحكم ، وتسفك دماؤكم
. . . ويتطاول أعداؤكم عليكم ، وتصيرون عاجزين عن الدفاع عن دينكم وعرضكم
. وبذلك تعم الفتنة ، وينتشر الفساد

والذين امنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين اووا ونصروا اولئك هم المؤمنون حقا لهم مغفرة ورزق كريم

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - ( والذين آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ
وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ الله والذين آوَواْ ونصروا أولئك هُمُ المؤمنون
حَقّاً ) كلام مسوق للثناء على القسمين الأولين من الأقسام الثلاثة
للمؤمنين وهم المهاجرون والأنصار .إذ أن الآية الأولى من هذه الآيات
الكريمة قد ساقها الله - تعالى - لإيجاب التواصل بينهم ، أما هذه الآية فقد
ساقها سبحانه - للثناء عليهم والشهادة لهم بأنهم هم المؤمنون حق الايمان
وأكمله ، بخلاف من أقام من المؤمنين بدار الشرك ، مع الحاجة إلى هجرته
وجهاده .قال الفخر الرازى : أثنى الله - تعالى - على المهاجرين والأنصار من
ثلاثة أوجه :أولها - قوله : ( أولئك هُمُ المؤمنون حَقّاً ) فإن هذه الجملة
تفيد المبالغة فى مدحهم ، حيث وصفهم بكونهم حقين فى طريق الدين .وقد كانوا
كذلك ، لأن من لم يكن محقا فى دينه لم يتحمل ترك الأديان السالفة ، ولم
يفارق الأهل والوطن ، ولم يبذل النفس والمال .وثانيها - قوله : ( لَّهُمْ
مّغْفِرَةٌ ) والتنكير يدل على الكمال ، أى : مغفرة تامة كاملة .وثالثها
- قوله : ( وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ) والمراد منه الثواب الرفيع .والحاصل : أنه
سبحانه - شرح أحوالهم فى الدنيا والآخرة . أما فى الدنيا فقد وصفهم بقوله :
، وأما فى الآخرة فالمقصود إما دفع العقاب. ( أولئك هُمُ المؤمنون حَقّاً )
. وإما جلب الثواب .أما دفع العقاب فهو المراد بقوله ( لَّهُمْ مّغْفِرَةٌ
. وأما جلب الثواب فهو المراد بقوله ( وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ) ( . .

والذين امنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فاولئك منكم واولو الارحام بعضهم اولى ببعض في كتاب الله ان الله بكل شيء عليم

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ببيان القسم الرابع من
أقسام المؤمنين فى العهد النبوى فقال : ( والذين آمَنُواْ مِن بَعْدُ
وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ فأولئك مِنكُمْ . . ) .أى : والذين
آمنوا من بعد المؤمنين السابقين إلا الإيمان والهجرة ، وهاجروا إلى المدينة
وجاهدوا مع المهاجرين السابقين والأنصار من أجل إعلاء كلمة الله ، فأولئك ،
الذين هذا شأنهم ( مِنكُمْ ) أى : من جملتكم - أيها المهاجرون والأنصار فى
استحقاق الموالاة والنصرة ، واستحقاق الأجر من الله ، إلا أن هذا الأجر
ينقص عن أجركم ، لأنه لا يتساوى السابق فى الإيمان والهجرة والجهاد مع
، المتأخر فى ذلك .قالوا : والمراد بهذا القسم الرابع من أقسام المؤمنين
أهل الهجرة الثانية التى وقعت بعد الهجرة الأولى ، وقيل المرد بهذا القسم
، المهاجرون بعد صلح الحديبية ، أو بعد غزوة بدر ، أو بعد نزول هذه الاية
) : فيكون الفعل الماضى ( آمَنُواْ ) وما بعده بمعنى المستقبل .وقوله
( . . وَأُوْلُواْ الأرحام بَعْضُهُمْ أولى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ الله
بيانا لحقوق الأقارب بالنسب .والأرحام جمع رحم ، وأصله رحم المرأة الذى هو
موضع تكوين الولد فى بطنها ، وسمى به الأقارب ، لأنهم فى الغالب من رحم
واحدة وأولا الأرحام فى اصطلاح علماء الفرائض : هم الذين لا يرثون بفرض ولا
تعصيب .أى : وذوو القرابة بعضهم أولى فى التوارث وفى غير ذلك مما تقتضيه
مطالب الحياة من التكافل والتراحم .وقوله : ( فِي كِتَابِ الله ) أى : فى

حكمه الذى كتبه على عباده المؤمنين ، وأوجب به عليهم صلة الأرحام فى هذه الآية وغيرها .قال الآلوسى : " أخرج الطيالسى والطبرانى وغيرها عن ابن عباس قال : آخى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بين أصحابه ، وورث بعضه من بعض حتى نزلت هذه الآية فتكروا ذلك وتوارثوا بالنسب .أى أن هذه الآية الكريمة نسخت ما كان بين المهاجرين والانصار من التوارث بسبب الهجرة والمؤاخاة .وقوله : ( إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ) تذييل ختمت به السورة الكريمة لحض المؤمنين على التمسك بما اشتملت عليه من آداب وتشريعات وأحكام لينالوا رضاه وثوابه .أى : إن الله - تعالى - مطلع على كل شئ مما يدور ويجرى فى هذا الكون ، ولا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء ، وسيجازى الذين أساؤوا بما عملوا ، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .وبذلك نرى الآيات الكريمة قد مدحت المهاجرين والأنصار مدحا عظيما ، كما مدحت المؤمنين من بعدهم ، وحضت على الجهاد فى سبيل الله ، وأمرت بالوفاء بالعهود وبالوقوف صفا واحدا فى وجه الكفار حتى تكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا هى السفلى .وبعد : فهذا ما وفق الله إليه فى تفسيره سورة الأنفال ، أو سورة بدر - كما سماها ابن عباس - لأنها تحدثت باستفاضة عن أحداث هذه الغزوة وعن أحوال المشتركين فيها ، وعن باشارت النصر التى تقدمتها وصاحبتها وعن غنائمها وأسراها .كما تحدثت عن صافت المؤمنين الصادقين ، وعن الأقوال والأعمال التى يجب عليهم أن يتمسكوا بها لينالوا رضا الله ونصره ، وعن رذائل المشركين ومسالكهم القبيحة لمحاربة الدعوة الاسلامية ، وعن المبادئ التى جيب أن يسير عليهم المسلمون فى حربهم وسلمهم - وعن سنن الله فى خلقه التى لا تتغير ولا تتبدل ، والتى من أهمها :أنه ، سبحانه -لا يسلب نعمة عن قوم إلا بسبب معاصيهم وتنكبهم الطريق القويم ، قال - تعالى - :( ذلك بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا على قَوْمٍ حتى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ ) وأنه - سبحانه - قد جعل العاقبة الحسنة للمؤمنين ، والعاقبة السيئية للفاسقين وأخبر المنمحرفين عن صراطه بأنه سيغفر لهم ما سلف من خطاياهم متى أقلعوا عنها ، وأخلصوا له العبادة .قال - تعالى - ( قُل لِلَّذِينَ كفروا إِن يَنتَهُواْ يُغَفَرْ لَهُمْ مّا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنّةُ الأَوّلِينَ وَقَاتِلُوهُمْ حتى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لله فَإِنِ انْتَهَوْاْ فَإِنّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ) وختاما : نسأل الله - تعالى - أن يوفقنا للمداومة على خدمة كتابه ، وأن يهيئ لنا من أمرنا رشدا ، وأن يتم لنا نورنا ويغفر لنا إنه على كل شئ قدير .وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين

كما فسرها الوسيط قال الإمام ابن كثير : أول هذه السورة نزل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم لما رجع من غزوة " تبوك " وهم بالحج ، ثم ذكر أن المشركين يحضرون عامهم هذا الموسم على عادتهم فى ذلك ، وأنهم يطوفون بالبيت عراة ، فكره مخالطتهم وبعث أبا بكر الصديق - رضى الله عنه - أميرا على الحج تلك السنة ، ليقيم للناس مناسكهم ، ويعلم المشركين أن لا يحجوا بعد عامهم هذا ، وأن ينادى بالناس ( بَرَآءَةٌ مِّنَ الله وَرَسُولِهِ . . . . ) فلما - قفل أبتعه بعلى ابن أبى طالب ، ليكون مبلغا عنه - صلى الله عليه وسلم ليكونه عصبة له .وقال محمد بن إسحاق : " لما نزلت ( بَرَآءَةٌ ) على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد كان بعث أبا بكر الصديق - ليقيم للناس الحج ، قيل له : يا رسول الله ، لو بعثت بها إلى أبى بكر؟ فقال : " لا يؤدى عنى إلا رجل من أهل بيتى " " .ثم دعا على بن أبى طالب فقال له : أخرج بهذه القصة من صدر براءة ، وأذن فى الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى : أنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عهد فهو له إلى مدته .فخرج " على بن أبى طالب على ناقة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " العضباء : حتى أدرك أبا بكر بالطريق ، فلما رآه أبو بكر قال : أمير أم مأمور؟ فقال بل مأمور . ثم مضيا ، فأقام أبو بكر للناس الحج ، والعرب إذ ذاك فى تلك السنة على منازلهم من الحج التى كانوا عليها فى الجاهلية .حتى إذا كان يوم النحر قام على بن أبى طالب فأذن فى الناس بالذى أمره به رسول الله . صلى الله عليه وسلم . فقال : أيها الناس ، إنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج - بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عهد عند رسول الله صلى الله عليه وسلم - فهو إلى مدته ، وأجل الناس أربعة أشهر من يوم أذن فيهم ، ليرجع كل قوم إلى مأمنهم وبلادهم ، ثم لا عهد لمشرك ولا ذمة ، إلا أحد كان له عند رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، عهد إلى مدة ، فهو له إلى مدته . فلم يحج بعد العام مشرك ، ولم يطف بالبيت عريان ، ثم قدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم .وقال الفخر الرازى : روى أن النبى ، صلى الله عليه وسلم ، لما خرج إلى غزوة تبوك وتخلف المنافقون وأرجفوا الأراجيف ، جعل المشركون ينقضون العهد ، فنبذ رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، العهد

- إليهم .هذه بعض الآثار التي ذكرها المفسرون فى هذا المقام .وقوله - تعالى
مصدر بَرِئ " كتعب " ، وأصل البراءة : التباعد عن الشئ ( بَرَآءَةٌ ) :
والتخلص منه . تقول : برئت من هذا الشئ أبرأ براءة فأنا منه برئ ، إذا
أزلته عن نفسك ، وقطعت الصلة بينك وبينه . ومنه قولهم : برئت من الدين أى
تخلصت منه .ولفظ ( بَرَآءَةٌ ) مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، والتنويف
، فيه للتفخيم و ( مِّنَ ) لابتداء الغاية ، والعهد : العقد الموثق باليمين
والخطاب فى قوله ( عَاهَدْتُمْ ) للمسلمين .والمعنى : هذه براءة واصلة من
الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين بسبب نقضهم لعهودهم وإصرارهم على
باطلهم . .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم علقت البراءة بالله ورسوله
والمعاهدة بالمسلمين؟ .قلت : قد أذن الله فى معاهدة المشركين أولا ، فاتفق
المسلمون مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعاهدوهم ، فلما نقضوا العهد
أوجب الله - تعالى - النبذ إليهم ، فخوطب المسلمون بما تجدد من ذلك فقيل
لهم : اعلموا أن الله ورسوله قد برئا مما عاهدتم به المشركين .وروى أنهم
عاهدوا المشركين من أهل مكة وغيرهم من العرب ، فنكثوا إلا ناسا منهم ، فنبذ
العهد إلى الناكثين ، وأمروا أن يسيحوا فى الأرض أربعة أشهر آمنين . .وقال
بعض العلماء : والمعنى أن الله قطع ما بينه وبين المشركين من صلات فلا عهد
ولا تعاهد ولا سلم ولا أمان ، وتركهم تعمل فيهم سيوف المؤمنين حتى يقوموهم
أو يبيدوهم . ولا يدخل فى هذا التبرى قطع رحمته العامة عنهم التى كتبها على
نفسه من جهة أنه الخالق وأنهم المخلوقون . . فهو مع هذا التبرى لا يزال من
هذه الجملة يرحمهم بمنح الحياة وموارد الرزق ، والتمكين من العمل حسب
تقديره العام وسنته الشاملة فى خلقه ولو أن التبرى كان على إطلاقه لما عاش
كافر طرفة عين ، ولما استطاع كافر أن يقف فى وجه مسلم .فالآية تقرر حكما
تكليفيا للمسلمين فى شأن معاملة المشركين . . .واعتبار أن الآية تقرر حكما
شرعيا والمشرع هوالله أضيف صدور البراءة إليه - سبحانه - وعطف عليه
، الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى هذا المقام ، لأنه هو المبلغ عنه
والمنفذ لما يبلغه . .ولما كان التعاهد بين المؤمنين وغيرهم تنفيذا لأمر
، الله به ، وأصله حق لجماعتهم ، وإنما يقوم الإمام به نائبا عن الجماعة
. . أضيف - أى التعاهد - إلى جماعة المسلمين ، فقيل : ( عَاهَدْتُمْ )
وكثيراً ما ينسب القرآن الأحكام العامة لجماعة المؤمنين . .ويؤخذ من تقرير
البراءة من المشركين فى هذه الآية جواز نبذ العهود لمن كان بيننا وبينه عهد
متى رأى الإمام مصلحة الأمة فى ذلك ، كأن خيف منهم خيانة ، أو نقضوا شيئا
من شروط المعاهدة ، أو وضعت المعاهدة على غير شرط احترامها الشرعى ، وذلك
كله أخذا من هذا المقام ، ومن قوله - تعالى - فى سورة الأنفال :( وَإِمَّا
تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فانبذ إِلَيْهِمْ على سَوَآءٍ ) كما يؤخذ
أن عقد المعاهدات إنما هو حقا للجماعة ، يوافق عليه أصحاب الرأى والاختصاص
فى موضوع المعاهدة ، وما هو فى مصلحة الجماعة ، ثم يباشرها الإمام بعد ذلك
. نيابة عن الجماعة

فسيحوا في الارض اربعة اشهر واعلموا انكم غير معجزي الله وان الله مخزي الكافرين

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - ( فَسِيحُواْ فِي الأرض أَرْبَعَةَ
أَشْهُرٍ . . . ) بيان للمهلة التى منحها - سبحانه - للمشركين ليدبروا فيها
أمرهم .والسياحة فى الأصل : جريان الماء وانبساطه على موجب طبيعته ، ثم
استعملت فى الضرب فى الأرض والاتساع فى السير والتجوال . يقال : ساح فلان
فى الأرض سيحا وسياحة وسيوحا إذا تنقل بين أرجائها كما يشاء .والخطاب
للمؤمنين على تقدير القول . أى : فقولوا أيها المؤمنون للمشركين سيحوا فى
الأرض أربعة أشهر .ويجوز أن يكون الخطاب للمشركين أنفسهم الالتفات من
الغيبة إلى الضحور ، لقصد تهيئة خطابهم بالوعيد المذكور بعد ذلك فى
قوله - - سبحانه - ( واعلموا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي الله ) .والمقصد
بالأمر فى قوله : ( فَسِيحُواْ ) الإباحة والإعلام بحصول الأمان لهم فى
لك المدة من أن يقتلوا أو يقاتلوا أو يعتدى عليهم . . .والمعنى : قولوا
: أيها المسلمون للمشركين - بعد هذه البراءة منهم ، سيحوا فى الأرض ، أى
سيروا فيها مقبلين ومدبرين حيث شئتم وأنتم آمنون فى هذه المدة .وفى التعبير
) بقوله ( فَسِيحُواْ ) من الدلالة على كمال التوسعة ، ما ليس فى قوله
سيروا ) أو ما يشبهه ، لأن لفظ السياحة يدل الا الاتساع فى السير والبعد عن
المدن ، وعن موضع العمارة .والحكمة فى إعطائهم هذه المدة تمكينهم من النظر
فى أمر أنفسهم حتى يختاروا ما فيه مصلحتهم ، ويعلموا أنهم ليس أمامهم بعد
هذه المدة إلا الإسلام أو السيف ، ولكى لا نسب إلى المسلمين الغدر وبنذ
العهد دون إعلام أو إنذار .وهذا من سمو تعاليم الإسلام . تلك التعاليم
التى لم تبح لأتباعها أن يأخذوا أعدى أعدائكم على غرة ، بل منحت هؤلاء
الأعداء مهلة كافية يدبرون فيها أمر أنفسهم وهم آمنون من أن يتعرض لهم أحد
من المسلمين بأذى .ومتى كان ذلك؟ كان ذلك فى الوقت الذى نقض فيه المشركون
عهودهم عند أول بادرة لاحت لهم ، وفى الوقت الذى أرجف فيه المرجفون أن

المسلمين لن يعودوا من تبوك سالمين ، بل إن الروم سيأخذونهم أسرى ، وفى الوقت الذى كانت المجتمعات فيه يغزو بعضها بعضا بدون إنذار أو إعلام . .فإن قيل : وما الحكمة فى تقدير هذه المهلة بأربعة أشهر؟فالجواب - كما يقول الجمل - اقتصر على الأربعة - هنا لقوة المسلمين إذ ذاك ، بخلاف صلح الحديبية فإنه كان لمدة عشرة سنين لضعف المسلمين إذا ذاك ، والحاصل أن المقرر فى الفروع أنه إذا كان بالمسلمين ضعف جاز عقد الهدنة عشر سنين فأقل : وإذا لم يكن بهم ضعف لم تجز الزيادة على أربعة أشهر .وقال بعض العلماء ، ولعل الحكة فى تقدير تلك المدة بأربعة أشهر ، أنها هى المدة التى كانت ، تكفى - إذ ذاك بحسب ما يألفون - لتحقيق ما أبيح لهم من السياحة فى الأرض والتقلب فى شبه الجزيرة على وجه يمكنهم من التشاور والأخذ والرد مع كل من يريدون أخذ رأيه فى تكوين الرأى الأخير ، وفيه فوق ذلك مسايرة للوضع الإلهى فى جعل الأشهر الحرم من شهور السنة أربعة .على أنا نجد فى القرآن جعل الأربعة أمدا فى غير هذا فمدة إيلاء الرجل من زوجه أربعة أشهر - وعدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشر .ولعل ذلك - وراء ما يعلم الله - أنها المدة التى تكفى بحسب طبيعة الإنسان لتقليب وجوه النظر فيما يحتاج إلى النظر ، وتبدل الأحوال على وجه تستقر فيه إلى ما يقصد فيه .ويؤخذ من تقرير الهدنة للأعداء فى هذا المقام تقرر مبدأ الهدنة والصلح فى الإسلام ، طلبها - العدو أم تقدم بها المسلمون ، وأصل ذلك مع هدنة المشركين هذه قوله تعالى - فى سورة الأنفال ( وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فاجنح لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى الله ) وأن مدتها تكون على حسب ما يرى الإمام وأرباب الشورى المقررة فى قوله - تعالى - ( وَشَاوِرْهُمْ فِي الأمر ) وقد اختلف المفسرون فى ابتداء هذه الأشهر الأربعة فقال مجاهد والسدى وغيرهما : كان ابتداء هذه الأشهر الأربعة يوم الحج الأكبر من السنة التاسعة ونهايتها فى العاشر من شهر ربيع الآخر من السنة العاشرة ، وذلك لأن المشركين قد أعلموا بهذه الملهلة يوم النحر من السنة التاسعة على لسان على بن أبى طالب - كما سبق أن بينا .وقيل كان ابتداء هذه الأشهر الأربعة يوم النحر لعشر من ذى القعدة من السنة التاسعة ونهايتها فى اليوم العاشر من شهر ربيع الأول من السنة العاشرة ، وذلك لأن الحج فى تلك السنة كان فى ذلك الوقت بسبب النسئ الذى ابتدعه المشركون .والرأى الأول أرجح وعليه الأكثرون ، لأن معظم الآثار تؤيده . وكذلك اختلف المفسرون اختلافا كبيرا فيمن تنطبق عليهم هذه المهلة فقال مجاهد ، هذا تأجيل للمشركين مطلقا ، فمن كان مدة عهده أقل من أربعة ، أشهر رفع إليها ، ومن كانت أكثر حط إليها ، ومن كان عهده بغير أجل حد بها . ثم هو بعد ذلك حرب لله ولرسوله ، يقتل حيث أدرك ، ويؤسر ، إلا أن يتوب ويؤمن .وقال آخرون : كانت هذه الأربعة الأشهر مهلة لمن له عهد دون الأربعة الأشهر ، فأما من كان له عهد مؤقت فأجله إلى مدته مهما كانت هذها لمدة لقوله - تعالى - بعد ذلك : ( فأتموا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إلى مُدّتِهِمْ ) وهذا القول قد اختاره ابن جرير وغيره ، فقد قال ابن جرير - بعد أن ذكر عدة اقوال فى ذلك :" وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب قول من قال : الأجل الذى جعله الله إنما هو لأهل العهد الذين ظاهروا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ونقضوا عهدهم قبل انقضاء مدته ، فأما الذين لم ينقضوا عهدهم ، ولم يظاهروا عليه ، فإن الله - تعالى - أمر نبيه - صلى الله عليه وسلم - بإتمام العهد بينه وبينهم إلى مدته بقوله : ( إِلاَّ الذين عَاهَدتُّم مِّنَ المشركين ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَداً فأتموا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إلى مُدّتِهِمْ إِنَّ الله يُحِبُّ المتقين ) ، ثم قال : وبعد ففى الأخبار المتظاهرة " عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه حين بعث عليا ببراءة إلى أهل العهود بينه وبينهم أمره فيما أمره أن ينادى به فيهم " ومن كان بينه وبين رسول الله عهد فعهده إلى مدته " وهو أوضح دليل على صحة ما قلنا .وذلك أن الله لم يأمر نبيه - صلى الله عليه وسلم بنقض عهد قوم كان عاهدهم إلى أجل ، فاستقاموا على عهدهم بترك نقضه ، وأنه لما أجل أربعةأشهر من كان قد نقض عهده قبل التأجيل ، أو كان له عهد إلى أجل غير محدود ، فأما من كان أجل عهده محدودا ، ولم يجعل بنقضه على نفسه سبيلا ، فإن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان بإتام عهده إلى غاية اجله مأمورا ، وبذلك بعث مناديه فى أهل الموسم من العرب . والذى يبدو لنا بعد مراجعة الأقوال المتعددة فى شأن من تنطبق عليهم هذه المهلة من المشركين - أن ما اختاره ابن جرير هو خير الأقوال وأقواها ، لأن النصوص من الكتاب والسنة تؤيده .ومن أراد معرفة هذه الأقوال بالتفصيل فليراجع ما كتبه المفسرون فى ذلك .ثم بين - سبحانه - أن هذا الإمهال - للمشركين لن ينجيهم من إنزال العقوبة بهم متى استمروا على كفرهم فقال تعالى - : ( واعلموا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي الله وَأَنَّ الله مُخْزِي الكافرين ) .أى : واعلموا - أيها المشركون - أنكم بسياحتكم فى الأرض خلال تلك المهلة لن تعجزوا الله - تعالى - فى طلبكم ، فأنتم حيثنا كنتم تحت سلطانه وقدرته ، واعلموا كذلك أنه - سبحانه - مذل للكافرين ، فى الدنيا بالقتل والأسر ، وفى الآخرة بالعذاب المهين .فالآية الكريمة قد ذيلت بما يزلزل قلوب المشركين بالحقيقة الواقعة ، وهى أن ذلك الإمهال لهم ، وتلك

السياحة فى الأرض منهم ، كل هذا لن يجعلهم فى مأمن من عقاب الله ، ومن إنزال الهزيمة بهم ، لأنهم فى قبضته .ومها أعدوا خلال تلك المهلة من عدد وعدد لقتال المؤمنين ، فإن ذلك لن ينفعهم ، لأن سنته - سبحانه - قد اقتضت أن يجعل النصر والفوز للمؤمنين والخزى والسوء على الكافرين .قال الفخر الرازى ما ملخصه ، وقوله : ( واعلموا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي الله ) . المقصود منه : أنى أمهلتكم - أيها المشركون - وأطلقت لكم السياحة فى الأرض - فافعلوا كل ما أمكنكم فعله من إعداد الآلات والأدوات ، فإنكم لا تعجزون الله بل هو الذى يعجزكم ، لأنكم حيث كنتم فأنتم فى ملكه وتحت سلطانه .

واذان من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الاكبر ان الله بريء من المشركين ورسوله فان تبتم فهو خير لكم وان توليتم فاعلموا انكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب اليم

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك الموعد الذى تعلن فيه هذه البراءة من المشركين حتى لا يكون لهم عذر بعد هذا الإعلان فقال - تعالى - وَأَذَانٌ مِّنَ الله وَرَسُولِهِ إِلَى الناس يَوْمَ الحج الأكبر أَنَّ ): الله برياء مِّنَ المشركين وَرَسُولُهُ . . . ) .الأذان : الإعلام تقول : آذنته بالشئ إذا أعلمته به . ومنه الأذان للصلاة أى الإعلام بحلول وقتها وهو بمعنى الإيذان كما أن العطاء بمعنى الإعطاء .قال الجمل : وهو مرفوع بالابتداء . و ( مِّنَ الله ) إما صفته أو متعلق به ( إِلَى الناس ) الخبر ويجوز أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف . أى : وهذه ، أى : الآيات الآتى ذكرها ، إعلام من الله ورسوله . .والمعنى : وهذه الآيات إيذان وإعلان من الله ورسوله إلى الناس عامة يوم الحج الأكبر بأن الله ورسوله قد برئا من عهود المشركين ، وأن هذه العهود قد نبذت إليهم ، بسبب إصرارهم على شركهم ونقضهم لمواثيقهم .وأسند - سبحانه - الأذان إلى الله ورسوله ، كما أسندت البراءة إليهما ، إعلاء لشأنه وتأكيدا لأمره :قال صاحب الكشاف : فإن قلت : أى فرق بين معنى الجملة الأولى والثانية؟ قلت : تلك إخبار بثبوت البراءة ، وهذه إخبار بوجوب الإعلام بما ثبت .فإن قلت : لم علقت البراءة بالذين عوهدوا من المشركين وعلق الأذان بالناس؟ قلت : لأن البراءة مختصة بالمعاهدين والناكثين منهم وأما الأذان فعام لجميع الناس " من عاهد ومن لم يعاهد ، ومن نكث من المعاهدين ومن لم ينكث " .واختير يوم الحج الأكبر لهذا الإعلام ، لأنه اليوم الذى يضم أكبر عدد من الناس يمكن أن يذاع الخبر عن طريقهم فى جميع أنحاء البلاد .وأصح ما قيل فى يوم الحج الأكبر أنه يوم النحر . وقيل : هو يوم عرفة ، وقيل : هو جميع أيام الحج .وقد رجح ابن جرير - بعد أن بسط الأقوال فى ذلك - أن المراد بيوم الحج الأكبر : يوم النحر فقال . وأولى الأقوال فى ذلك بالصحة عندنا : قول من قال : يوم الحج الأكبر ، يوم النحر ، لتظاهر الأخبار عن جماعة من الصحابة أن علياً بما أرسله به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى المشركين يوم النحر ، هذا مع الأخبار التى ذكرناها عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال يوم النحر : " أتدرون أى يوم هذا؟ هذا يوم الحج الأكبر " .وقال بعض العلماء : قال ابن القيم : والصواب أن المراد بيوم الحج الأكبر يوم النحر ، لأنه ثبت فى الصحيحين أن أبا بكر وعليا أذنا بذلك يوم النحر لا يوم عرفة . وفى سنن أبى داود بأصح إسناد أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : " يوم الحج الأكبر يوم النحر ، وكذا قال أبو هريرة وجماعة من الصحابة .ويوم عرفة مقدمة ليوم النحر بين يديه ، فإن فيه يكون الوقوف والتضرع ثم يوم النحر تكون الوافدة والزيارة . ويكون فيه ذبح القرابين ، وحلق الرءوس ، ورمى الجمار ، ومعظم أفعال الحج . وقد ساق ابن كثير جملة من الأحاديث التى ما اكن ينادى به على بن أبى طالب. والناس يوم الحج الأكبر ومن ذلك ما أخرجه الإمام أحمد عن محرز بن أبى هريرة عن أبيه قال : كنت مع على بن أبى طالب حين بعثه النبى - صلى الله عليه وسلم - ينادى ، فكان إذا صحل ناديت - أى كان إذا بح صوته وتعب من كثرة النداء ناديت - قلت : بأى شئ كنتم تنادون؟ قال : بأربع :لا يطوف بالبيت عريان ، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ، ولا يحج بعد عامنا هذا مشرك ، ومن كانله عهد عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فعهده إلى مدته .وسمى يوم النحر بالحج الأكبر ، لأن العمرة كانت تمسى بالحج الأصغر ولأن ما يفعل فيه ) معظم الحج - كما قال ابن القيم .هذا ، وللعلماء أقوال فى إعراب لفظ وَرَسُولِهِ ) من قوله - تعالى - ( أَنَّ الله برياء مِّنَ المشركين وَرَسُولُهُ ) . وقد لخص الشيخ الجمل هذه الأقوال تلخيصا حسنا فقال : قوله بالرفع باتفاق السبعة وقرئ شاذا بالجر على المجاورة . أو ( وَرَسُولُهُ ) على أن الواو للقسم وقرئ شاذا أيضاً بالنصب على أنه مفعول معه ، أو معطوف على لفظ الجلالة ، وفى الرفع ثلاثة وجوه : أحدها أنه مبتدأ والخبر محذوف أى ورسوله برئ منهم ، وإنما حذف للدلالة عليه . والثانى أنه معطوف على : الضمير المستتر فى الخبر . . والثالث : أنه معطوف على محل اسم أن . .ثم أردف - سبحانه - هذا الإعلام بالبراءة من عهود المشركين بترغيبهم فى

الإيمان وتحذيرهم من الكفر والعصيان فقال : ( فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ
خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فاعلموا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي
الله وَبَشِّرِ الذين كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ) .أى : فإن تبتم أيها
المشركون من كفركم ، ورجعتم إلى الإيمان بالله وحده واتبعتم ما جاءكم به
محمد - صلى الله عليه وسلم - فهو أى المتاب والرجوع إلى الحق ( خَيْرٌ
لَّكُمْ ) من التمادى فى الكفر والضلال : ( وَإِن تَوَلَّيْتُمْ ) وأعرضتم
عن الإيمان ، وأبيتم إلا الإقامة على باطلكم ( فاعلموا أَنَّكُمْ غَيْرُ
مُعْجِزِي الله ) أى : فأيقنوا أنكم لا مهرب لكم من عقاب الله ، ولا إفلات
) : لكم من أخذه وبطشه ، لأنكم أينما كنتم فأنتم فى قبضته وتحت قدرته .وقوله
وَبَشِّرِ الذين كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ) تذييل قصد به تأكيد زجرهم
عن التولى والإعراض عن الحق .أى : وبشر - يا محمد - هؤلاء الذين كفروا
بالحق لما جاءهم بالعذاب الأليم فى الآخرة بعد إنزال الخزى والمذلة بهم فى
الدنيا .ولفظ البشارة ورد هنا على سبيل الاستهزاء بهم ، كما يقال : تحيتهم
. الضرب ، وإكرامهم الشتم

الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم احدا
فاتموا اليهم عهدهم الى مدتهم ان الله يحب المتقين

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - بعد ذلك : ( إِلاَّ الذين عَاهَدتُّم
مِّنَ المشركين ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُواْ
( عَلَيْكُمْ أَحَداً فأتموا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إلى مُدَّتِهِمْ
استثناء من المشركين فى قوله : ( بَرَآءَةٌ مِّنَ الله وَرَسُولِهِ إِلَى
الذين عَاهَدْتُمْ مِّنَ المشركين ) .والمعنى : اعلموا . أيها المؤمنون أن
الله ورسوله بريئان من عهود المشركين بسبب نقضهم لها ، لكن الذين عاهدتموهم
منهم ولم ينقضوا عهودهم ، ولم ينقصوكم شيئاً من شورط العهد ، ولم يعاونوا
عليكم أحدا من الأعداء ، فهؤلاء أتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم ولا تعاملوهم
معاملة الناكثين .فالآية الكريمة تدل على أن المراد بالمشركين الذين تبرأ
الله ورسوله منهم وأعطوا مهلة الأربعة الأشهر ، هم أولئك الذين عرفوا بنقض
العهود .أما الذين عاهدوا ووفوهم بعهودهم ، فإن هؤلاء يجب إتمام عهدهم إلى
مدتهم وفاء بوفاء ، وكرامة بكرامة .وعبر - سبحانه - بثم فى قوله : ( ثُمَّ
لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئاً ) للدلالة على ثباتهم على عهدهم مع تمادى المدة
وتطاولها .وقراءة الجمهور ( يَنقُصُوكُمْ ) بالصاد المهملة ، وعليها يجوز
أن يتعدى لواحد فيكون شيئاً منصوباً على المصدرية أى : يم ينقصوكم شيئا من
النقصان لا قليلا ولا كثيرا ، ويجوز أن يتعدى لاثنين فيكون شيئا مفعوله
الثانى ، أى : لم ينقصوكم شيئا من شروط العهد بل أدوها بتمامها .وقرأ عطاء
بن السائب الكوفى وعكرمة وأبو زيد ( ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ ) بالضاد
المعجمة وهى على حذف مضاف أى : ثم لم ينقضوا عهدكم فحذف المضاف وأقيم
المضاف إليه مقامه .وفى تنكير كلمة " شيئا " وكلمة " أحدا " دلالة على أن
. انتقاص المعاهدة ولو شيئا يسيرا ، وأن معاونة الأعداء بأى وسيلة مهما قلت
كل ذلك مبيح لنبذ العهد ، لأن الخيانة الصغيرة كثيرا ما تؤدى إلى الخيانة .
: الكبيرة .قالوا : والمراد بهؤلاء الذين أمر المسلمون بإتمام عهدهم معهم
، بنو ضمرة وبنو مدلج وهم من قبائل بنى بكر وان قد بقى من عهدهم تسعة أشهر
ولم ينقضوا مواثيقهم .وقوله ( إِنَّ الله يُحِبُّ المتقين ) تذييل قصد به
التعليل لوجوب الامتثال ، والتنبيه على أن الوفاء بالعهد إلى نهايته مع
الموفين بعهدهم منت تقوى الله التى يحبها لعباده ويحبهم بسببها .قال صاحب
المنار : والآية تدل على أن الوفاء بالعهد من فرائض الإسلام ما دام العهد
معقدا ، وعلى أن العهد المؤقت لا يجوز نقضه إلا بانتهاء وقته وأن شرط وجوب
الوفاء به علينا محافظة العدو المعاهد لنا عليه بحذافيره .فإن نقص شيئاً ما
) - من شروط العهد ، وأخل بغرض ما من إغراضه عد ناقضاً ، لقوله - تعالى
ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئاً ) ، ولفظ شئ أعم الألفاظ وهو نكرة فى سياق
النفى فيصدق بأدنى إخلال بالعهد .ومن الضرورى أن من شروطه التى ينتقض
بالإخلال بها ، عدم مظاهرة أحد من أعدائنا وخصومنا علينا ، وقد صرح بهذا
للاهتمام به ، وإلا فهو يدخل فى عموم ما قبله ، وذلك أن الغرض الأول من
المعاهدات ترك قتال كل من الفريقين المتعاهدين للآخر ، فمظاهرة أحدهما لعدو
الآخر ، أى معاونته ومساعدته على قتاله وما يتعلق به ، كمباشرته للقتال
بنفسه .يقال : ظاهره إذا عاونه ، وظاهره عليه إذا ساعده عليه ، وتظاهروا
عليهم تعاونوا وكله من الظهر الذى يعبر به عن القوة ، ومنه بعير ظهير أى
قوى .وقال بعض العلماء : ويؤخذ من هذا أن الإسلام يقرر فى حالة نبذ العهود
لزوم إعلان العدو بذلك النبذ ، على وجه يمكن العدو من إيصال خبر النبذ إلى
، أطراف بلده وأنحاء مملكته .وفى ذلك يقول الكمال بن الهمام الفقيه الحنفى
وهو بصدد قوله ، تعالى . ( وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فانبذ
إِلَيْهِمْ على سَوَآءٍ ) أنه لا يكفى مجرد إعلانهم ، بل لا بد من مضى مدة
يتمكن فيه مَلِكهم بعد علمه بالنبذ من إنفاذ الخبر إلى أطراف مملكته ، ولا
يجوز للمسلمين أن يغيروا على شئ من أطرافهم قبل مضى المدة .وذلك كله أثر من

. آثار وجوب رعاية العهد والبعد عن النكث بكل ما يستطاع

فاذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فان تابوا واقاموا الصلاة واتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ان الله غفور رحيم

كما فسرها الوسيط وبعد أن قررت السورة الكريمة براءة الله ورسوله من عهود المشركين الخائنين ، وأمرت بالوفاء بمن وفى بعهده منهم . . بعد كل ذلك أخذت - فى بيان كيفية معاملة المشركين بعد انتهاء المهلة الممنوحة هلم فقال تعالى - : ( فَإِذَا انسلخ الأشهر . . . . ) .وقوله : ( انسلخ ) من السلخ بمعنى الكشط ، يقال : سلخ الإهاب عن الشاة يسلخه ويسلخه سلخا إذا كشطه ونزعه عنها . أو بمعنى الإخراج من قولهم : سلخت الشاة عن الإهاب إذا أخرجتها منه ، ثم استعير للانقضاء والانتهاء فانسلاخ الأشهر إستعارة لانقضائها والخروج منها .قال الآلوسى : والانسلاخ فيما نحن فيه استعارة حسنة ، وذلك أن الزمان محيط بما فيه من الزمانيات مشتمل عليه اشتمل الجلد ، على الحيوان ، وكذا كل جزء من أجزاءه الممتدة كالأيام والشهور والسنين فإذا مضى فكأنه انسلخ عما فيه ، وفى ذلك ميزد لطف لما فيه من التلويح بأن تلك الأشهر كانت حرزاً لأولئك المعاهدين عن غوائل أيدى المسلمين فنيط قتالهم بزوالها .والمراد بالأشهر الحرم : أشهر الأمان الأربعة التى سبق ذكرها فى قوله ، تعالى ، ( فَسِيحُواْ فِي الأرض أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ) . وعليه فتكون أى فى قوله ( الأشهر الحرم ) للعهد الذكرى .وسميت حرما لأنه سبحانه . جعلها فترة أمان للمشركين ، ونهى المؤمنين عن التعرض لهم فيها ووضع - سبحانه - المظهر موضع المضمر حيث لم يقل فإذا انسلخت ، ليكون ذريعة. إلى وصفها بالحرمة ، تأكيداً لما ينبئ عنه إباحة السياة من حرمة التعرض لهم : مع ما فيه من ميزيد الاعتناء بشأنها .وقيل المراد بالأشهر الحرم هنا ، الأشهر المعروفة وهى رجب ، وذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، روى ذلك عن ، ابن عباس والضحاك والباقر واختاره ابن جرير .قال ابن كثير : وفيه نظر والذى يظهر من حيث السياق ما ذهب إليه ابن عباس فى رواية العوفى عنه وبه قال مجاهد ، وعمرو بن شعيب ، وابن إسحاق ، وقتادة والسدى وعبد الرحمن ابن ) : زيد بن أسلم أن المراد بها أشهر التيسير الأربعة المنصوص عليها بقوله فَسِيحُواْ فِي الأرض أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ) ثم قال ( فَإِذَا انسلخ الأشهر ، الحرم ) أى : إذا انقضت الأشهر الأربعة التى حرنما عليكم فيها قتالهم وأجلناهم فيها حيثما وجدتموهم فاقتلوهم ، لأن عود العهد على مذكور أولى من مقدر ، ثم إن الأشهر الأربعة المحرمة سيأتى بيان حكمها فى آية أخرى وهى . . قوله - تعالى - ( إِنَّ عِدَّةَ الشهور عِندَ الله اثنا عَشَرَ شهْراً . والمراد بالمشركين فى قوله : ( فاقتلوا المشركين حَيْثُ ( . وَجَدتُّمُوهُمْ ) أولئك الخائنون الذين انتهت مدة الأمان لهم ، أما الذين لم يخونوا ولهم عهود مؤقتة بمدة معينة فلا يحل للمسلمين قتالهم ، إلا بعد ) : - انتهاء هذه المدة ، كما سبق أن بينا قبل قليل تفسير قوله - تعالى إِلاَّ الذين عَاهَدتُّم مِّنَ المشركين ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَداً فأتموا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إلى مُدّتِهِمْ ) والمعنى : فإذا انتهت هذه الأشهر الأربعة التى جعلها مهلة للخائنين ، فاقتلوا - أيها المؤمنون - أعداءكم المشركين ( حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ) أى : فى أى مكان تجدونهم فيه ( وَخُذُوهُمْ ) وهو كناية : عن السر ، وكانت العرب تعبر عن الأسير بالأخيذ ، ( واحصروهم ) أى وامنعوهم من الخروج إذا كانت مصحلتكم فى ذلك ( واقعدوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ) والمرصد الموضع الذى يقعد فيه للعدو لمراقبته ، يقال : رصدت الشئ أرصده رصدا ورصَدا إذا ترقبته .والمعنى : واقعدوا لهم فى كل موضع يجتازون منه فى أسفارهم ، حتى تسد السبل فى وجوههم ، وتضعف شوكتهم ، وتذهب ريحهم ، فيستسلموا لكم .والمتدبر لهذه الآية الكريمة يرى أن هذه الوسائل الأربع - القتل والأسر والمحاصرة والمراقبة - هى الوسائل الكفيلة بالقضاء على الأعداء ، ولا يخلو عصر من العصور من استعمال بعضها أو كلها عند المهاجمة .هكذا نرى تعاليم الإسلام تحض المسلمين على استعمال كل الوسائل المشروعة لكيد أعدائهم ، والعمل على هزيمتهم . . ما دام هؤلاء الأعداء مستمرين فى ضغانيهم وعدوانهم وانتهاكهم لحدود الله - تعالى - .أما إذا ، فتحوا قلوبهم للحق واستجابوا له ، فإن الآية الكريمة ترفع عنهم السيف وتأمر المؤمنين بإخلاء سبيلهم .إستمع إلى بقيتها حيث تقول : ( فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصلاة وَآتَوُاْ الزكاة فَخَلُواْ سَبِيلَهُمْ إِنّ الله غَفُورٌ رّحِيمٌ ) .أى : عليكم - أيها المؤمنون - إذا ما انتهت أشهر الأمان الأربعة أن تقتلوا المشركين الناكثين لعهودهم أينما وجدتموهم . وأن تأسروهم وتبسوهم وتراقبوهم على كل طريق حتى تضعف شوكتهم فيناقدوا لكم ، عن الشرك بأن دخلوا فى الإسلام فاتركوا التعرض لهم ( فَإِن تَابُواْ ) . - وكفوا عن قتالهم ، وافتحوا المسالك والطرق فى وجوههم .واكتفى - سبحانه بذكر الصلاة والزكاة عن ذكر بقية العبادات ، لكونهما الأساسين للعبادات

البدنية والمالية .وقوله : ( إِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ) تذييل قصد به التعليل لوجوب إخلاء سبيلهم أى ، إن فعلوا ذلك فخلوا سبيلهم ، ولا تعاملوهم بما كان منهم من شرك ، فإن الإسلام يجُب ما قبله ، وإن الله قد غفر لهم ما سلف من الكفر والغدر بفضله ورحمته .قال الإمام ابن كثير : وقد اعتمد الصديق - رضى الله عنه - فى قتال ما نعى الزكاة على هذه الآية وأمثالها ، حيث حرمت قتالهم بشرط هذه الأفعال وهى الدخول فى الإسلام والقيام بأداء واجباته ، ونبه بأعلاها على ادناها فإن أشرف أركان الإسلام بعد الشهادتين ، الصلاة التى هى حق الله - تعالى - وبعدها الزكاة هى نفع متعد إلى الفقراء وهى أشرف الأفعال المتعلقة بالخلوقين ، ولهذا كثيرا ما يقرن الله الصلاة والزكاة .وقد جاء فى الصحيحين عن ابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة " .وروى الإمام أحمد عن أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : " أمرت أن أقتال الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، فإذا شهدوا واستقبلوا قبلتنا وأكلوا ذبيحتنا ، وصلوا صلاتنا فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها ، لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم "ورواه البخارى وغيره .وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : أبى الله أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة ثم قال : يرحم الله أبا بكر ما كان أفقهه .وبذلك ترى هذه الآية قد جمعت فى إرشادها بين الترغيب والترهيب؛ فقد أمرت المؤمنين بأن يستعملوا مع أعدائهم كل الوسائل المشروعة لإرهابهم ثم أمرتهم فى الوقت نفسه بإخلاء سبيلهم متى تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة . .

وان احد من المشركين استجارك فاجره حتى يسمع كلام الله ثم ابلغه مامنه ذلك بانهم قوم لا يعلمون

كما فسرها الوسيط وبعد ان بين - سبحانه - حكم المصرين على الشرك وهو تقالهم وأخذهم ، وحكم الراجعين عنه وهو إخلاء سبيلهم . بعد ذلك بين - سبحانه - حكم المشركين الذين يطلبون الأمان لمعرفة شرائع الإسلام فقال - تعالى - : ( وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ المشركين . . . ) .وقوله : استجارك ، أى ، طلب جوارك وحمايتك من الاعتداء عليه ، وقد كان من الأخلاق الحميدة المتعارف عليها حماية الجار والدفاع عنه ، حتى سمى النصير جارا ، وعلى هذا المعنى جاء قوله تعالى : ( وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشيطان أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ اليوم مِنَ الناس وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ) أى : نصير لكم .و ( إِنْ ) شرطية و ( أَحَدٌ ) مرفوع بفعل مضمر يفسره الفعل الظاهر وهو استجارك ) والمعنى : وإن استأمنك - يا محمد - أحد من المشركين ، وطلب جوارك وحمايتك بعد انقضاء مدة المحددة له ، (فَأَجِرْهُ ) أى : فأمنه وأجبه إلى طلبه ، ( حتى يَسْمَعَ كَلاَمَ الله ) أى : لكى يسمع كلام الله ويتدبره ويطلع على حقيقة ما تدعو إليه من تعاليم مقنعة للعقول السليمة بأن الشرك ظلم عظيم . .واقتصر على ذكر السماع لعدم الحاجة إلى شئ آخر فى الفهم ، لأنهم من أهل الفصاحة والبلاغة ، وقد كان سماع بعضهم لشئ من كلام الله سببا فى هدايته .وقوله : ( ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ) بيان لما يجب على المسلمين نحو هذا المشرك المستجير إذا ما استمع إلى كلام الله ثم بقى على شركه .أى : عليك - يا محمد - أن تجيزه حتى يسمع كلام الله ويتدبره ولا يبقى له عذر فى الاصرار على شركه ، فإن آمن بعد سماعه صار من أتباعك ، وإن بقى على شركه وأراد الرجوع إلى جماعته ، فعليك أن تحافظ عليه حتى يصل إلى مكان أمنه واستقراره ، وهو ديار قومه : ثم بعد ذلك يصبح حكمه كحكم المصرين على الشرك ، ويعامل بما يعاملون به .واسم الإشارة فى قوله : ( ذلك بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ ) يعود إلى الأمر بالإجارة وإبلاغ المأمن .أى : ذلك الذى أمرناك به من إجارة المستجير من المشركين وإبلاغه مأمنه إذا لم يسلم ، بسبب أنهم قوم لا يعلمون الإسلام ولا حقيقة ما تدعوهم إليهم أى قوم يحتاجون إلى فترة من الوقت يسمعون كلام الله فيها وهم آمنون ، وبهذا السماع منك ومن أصحابك لا يبقى لهم عذر أصلا فى استمرارهم على الباطل .عن سعيد بن جبير قال : جاء رجل من المشركين إلى على بن أبى طالب فقال : إن أراد الرجل منا أن يأتى إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - بعد انقضاء هذا الأجل لسماع كلام الله أولحاجة : قتل؟ فقال له على :لا ، لأن الله يقول ( وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ المشركين استجارك فَأَجِرْهُ حتى يَسْمَعَ كَلاَمَ الله ) الآية .هذا ، ومن الأحكام والآداب التى أخذها العلماء من الآية ما يأتى :1- أن المستأمن لا يؤذى ، بل يجب على المسلمين حمايته فى نفسه وماله وعرضه ما دام فى دار الإسلام ، وقد حذر الإسلام أتباعه من الغدر أشد تحذير ، ومن ذلك ما رواه البخارى والنسائى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال :" من أمن رجلا على دمه فقتله فأنا برئ من القاتل وإن كان المقتول كافرا " .2- يلحق بالمستجير الطالب لسماع كلام الله؛ من كان طالبا لسماع الأدلة على كون الإسلام حقا ، ومن كان طالبا للجواب على الشبهات التى أثارها اعداء الإسلام ، لأن هؤلاء وأمثالهم بطرقون باب الفهم والمعرفة ويبحثون عن الحق

فعلينا أن نحميهم ، وأن نبذل أقصى الجهود فى تعليمهم وإرشادهم وإزالة الشبهات عنهم ، لعل الله أن يشرح صدورهم للاسلام بسبب هذا التعليم والإرشاد .قال ابن كثير : كان رسول الله - صلى اله عليه وسلم - يعطى الأمان لمن جاءه مسترشداً أو فى رسالة ، كما جاءه يوم الحديبية جماعة من الرسل من قريش منهم عروة بن مسعود ، ومكرز بن فرأوا من إعظام المسلمين لرسولهم - صلى الله عليه وسلم - ما بهرهم وما لم يشاهدوه عند ملك ولا قيصر فرجعوا إلى قومهم ، وأخبروهم بذلك ، وكان ذلك وأمثاله من أكبر أسباب هداية أكثرهم .3- على الإمام أو من يقوم مقامه أن يعطى المستأمن المهلة ، التى يراها كافية لفهمه حقائق الاسلام وأن يبغله مأمنه بعد انقضاء حاجته وأن لا يمكنه من الإقامة فى دار الاسلام إلا بمقدار قضاء حاجته .قال ، الامام الرازى : ليس فى الآية ما يدل على أن مقدار هذه المهلة كم يكون ولعله لا يعرف مقدارها إلا بالعرف ، فمتى ظهر على المشرك علامات كونه طالبا للحق باحثا عن وجه الاستدلال أمهل وترك ومتى ظهر عليه كونه معرضا عن الحق دافعا للزمان بالأكاذيب لم يلتفت اليه .4- أخذ العلماء من هذه الآية وجوب التفقه فى الدين ، وعدم الاكتفاء بالظنون والتقليد للغير ، وقد وضح الإمام الرازى هذا المعنى فقال :دلت الآية على ان التقليد غير كاف فى الدين ، وأنه لا بد من النظر والاستدلال ، وذلك لأنه لو كان التقليد كافيا ، لوجب أن لا يمهل هذا الكافر ، بل يقال له : إما أن تؤمن وإما أن نقتلك . فلما لم يقل له ذلك - بل أمهلوأزيل الخوف عنه ووجب تبليغه مأمنه - علم أن ذلك لأجل عدم كفاية التقليد فى الدين ، وأنه لا بد من الحجة والدليل : فلذا أمهل ليحل له النظر .5- تكلم العلماء عمن له حق إعطاء الأمان للمستأمن فقال القرطبى : " ولا خلاف بين كافة العلماء أن أمان السلطان جائز؛ لأنه النظر والمصلحة . واختلفوا فى أمان غير الخليفة نائب عن الجميع فى جلب المصالح ودفع المضار . وأما العبد فله الأمان فى مشهور ، فالحر يمضى أمانه عند كافة العلماء . وقال أبو حنيفة؛ لا أمان له . والأول مذهب المالكية وبه قال الشافعى وأحمد .ولا ينسى الإسلام - وهو يعطى هذا الحق اصح لقوله - صلى الله عليه وسلم -" المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم " .قالوا : فلما قال " أدناهم " جاز أمان العبد . .وقال بعض العلماء هذه الآية كانت أصلا عند الفقهاء فى إباحة تأمين المشرك ، وقد توسع : الإسلام فى باب الأمان فقرر به عصمة المستأمن ، وأوجب على المسلمين حمايته ما دام فى دار الإسلام ، وجعل للمسلمين حق إعطاء ذلك الأمان ، ولم يشترط فى ذلك إلا ما يضمن على المسلمين سلامتهم ، بأن لا تظهر على المستأمن مظاهر الركون إلى التجسس على المسلمين .ولا ينسى الإسلام - وهو يعطى هذا الحق للافراد - حق الإمام المهيمن على شئون المسلمين ، بل جعل له بمقتضى هيمنته العامة ، وتقديره لوجوه المصلحة ، حق إبطال أى أمان لم يصادف محله ، أو لم يستوف شروطه ، كما له أن ينتزع ذلك الحق من الأفراد متى رأى المصلحة فى ذلك والإسلام يبيح بهذا الأمان التبادل التجارى والصناعى والثقافى ، وفى سائر الشئون ما لم يتصل شئ منها بضرر الدولة .6- هذه الآية الكريمة تشهد بسمو تعاليم الاسلام وسماحتها وحرصها على هداية الناس الى الحق ، وعلى صيانة دمائهم وأموالهم وأعراضهم من العدوان عليها . . حتى ولو كان هؤلاء الناس من أعداء الإسلام .وقد بسط هذا المعنى بعض العلماء فقال ما ملخصه : إن هذه الآية تعنى أن الإسلام حريص على كل قلب بشرى أن يهتدى وأن يثوب ، وأن المشركين يطلبون الجوار والأمان فى دار الإسلام يجب أن يعطوا الجوار والأمان ذلك أنه فى هذه الحالة آمن حربهم وتجمعهم وتألبهم عليه ، فلا ضير إذن من إعطائهم فرصة سماع القرآن ومعرفة هذا الدين ، لعل قلوبهم أن تتفتح وتستجيب وحتى إذا لم تستجب فقد أوجل الله لهم على أهل دار الإسلام أن يحرسوهم بعد إخراجهم حتى يصلوا إلى بدل يأمنون فيه على أنفسهم .ولقد كانت قمة عالية تلك الإجارة والأمان لهم فى دار الاسلام . . ولكن قمة القمم هذه الحراسة للمشرك - عدو الإسلام والمسلمين - حتى يبلغ مأمنه خارج حدود دار السلام .إنه منهج الهداية لا منهج الابادة ، حتى وهو يتصدى لتأمين قاعدة الإسلام .إن هذا لدين إعلام لمن لا يعلمون ، وإجارة لمن يستجيرون ، حتى من أعدائه الذين شهروا عليه السيف وحاربوه وعاندوه . .وبعد أن صرحت السورة الكريمة ببراءة الله ورسوله من عهود المشركين الخائنين ، وأمرت المؤمنين بإعطائهم مهلة يسيحون فيها فى الأرض ، ويتدبرون خلالها أمرهم ، ثم بعد ذلك على المؤمنين أن يقتلوهم حيث وجدوهم ، وان يستعملوا معهم كل الوسائل المشروعة لإذلالهم ، وأن يؤمنوا المشرك الذى يريد أن يسمع كلام الله ، وان يحافظوا عليه حتى يصل الى مكان استقراره . .

كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله الا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ان الله يحب المتقين

كما فسرها الوسيط بعد كل ذلك أخذت السورة الكريمة فى بيان الاسباب التى أوجبت البراءة من عهود المشركين ، والحِكَم التى من أجلها أمر الله بقتالهم . . . والتضييق عليهم فقال - تعالى - : ( كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ) .وقوله - سبحانه - : ( كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ

لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ الله وَعِندَ رَسُولِهِ ) الاستفهام فيه
. للانكار والاستبعاد لأن يكون للمشركين عهد . وهو إنكار للوقوع لا للواقع
أى؛ تحذير للمؤمنين من أن يقع منهم ذلك فى المستقبل .والمراد بالمشركين
أولئك الذين نقضوا عهودهم ، لأن البراءة إنما هى فى شأنهم والعهد : ما يتفق
شخصان او طائفتان من الناس على التزامه بينهما ، فإن أكداه ووثقاه بما
يقتضى زيادة العناية بالوفاء به سمى ميثاقا ، لاشتقاقه من الوثاق - بفتح
الواو - وهو الحبل أو القيد . وإن أكداه بالميمين خاصة سمى يمينا .ومسى
بذلك لوضع كل من المتعاقدين يمينه فى يمين الآخر عند عقده .والمعنى :لا
ينبغى ولا يجوز أن يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله لأن هؤلاء
المشركين لا يدينون لله بالعبودية ، ولا لرسوله بالطاعة ، ولأنهم قوم دأبهم
الخيانة . وعادتهم الغدر ، ومن كان كذلك لا يكون له عهد عند الله ولا عند
رسوله .قالوا : وفى توجيه الإنكار إلى كيفية ثبوت العهد من المبالغة ما
ليس فى توجيهه إلى ثبوته ، لأن كل موجود يجب أن يكون وجوده على حال من
الأحوال ، فإذا انتفت جميع أحوال وجوده ، فقد انتفى وجوده بالطريق البرهانى
- وتكرير كلمة ( عِندَ ) للايذان بعدم الاعتداء بعهودهم عند كل من الله .
تعالى - ورسوله - صلى الله عليه وسلم - على حدة .و ( يَكُونُ ) من الكون
التام و ( كَيْفَ ) محلها النصب على التشبيه بالحال أو الظرف . أو من الكون
الناقص فيكون قوله ( عَهْدٌ ) اسمها ، وقوله ( كَيْفَ ) خبرها وهو واجب
التقديم ، لأن الاستفهام له صدر الكلام .وقوله : ( إِلاَّ الذِين
. عَاهَدْتُمْ عِندَ المسجد الحرام فَمَا استقاموا لَكُمْ فاستقيموا لَهُمْ
استثناء من المشركين الذين استنكرت الآية أن تكون لهم عهود عند الله ( .
وعند رسوله .والمراد بالمشركين الذين استثنوا هنا : أولئك الذين سبق الحديث
عنهم فى قوله - تعالى - قبل ذلك ( إِلاَّ الذين عَاهَدتُّم مِّنَ المشركين
ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَداً
فأتموا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إلى مُدَّتِهِمْ ) وهم - كما رجحه ابن جرير
والخازن - بنو خزيمه وبنو مدلج وبنو مضرة من قبائل بنى بكر ، وكانوا قد
وفوا بعهودهم مع المسلمين .وأيد ذكر استثنائهم هنا ، لتأكيد هذا الحكم
وتقريره .والمراد بالمسجد الحرام : جميع الحرم ، فيكون الكلام على حذف مضاف
، أى : عند قرب المسجد الحرام .والتعرض لكون المعاهدة عند المسجد الحرام.
لزيادة بيان اصحابها ، وللإشعار بسبب وجوب الوفاء بها .والمعنى : لا ينبغى
- ولا يصح أن يكون للشمركين عهد عند الله وعند رسوله ، لكن الذين عاهدتموهم
أيها المؤمنون - عند المسجد الحرام من المشركين ولم ينقضوا عهودهم ( فَمَا
استقاموا لَكُمْ فاستقيموا لَهُمْ ) .أى : فاستقيموا لهم مدة استقامتهم لكم
فتكون ( مَا ) مصدرية منصوبة المحل على الظرفية .ويصح أن تكون شرطية ،
وعائدة محذوف فيكون المعنى : فأى زمان استقاموا لكم فيه فاستقيموا لهم ، إذ
لا يجوز أن يكون نقض العهد من جهتكم .وقوله : ( إِنَّ الله يُحِبُّ المتقين
تذييل قصد به التعليل لوجوب الامتثال ، وتبيين أن الوفاء بالعهد إلى مدته (
مع الموفين بعهدهم من تقوى الله التى يحبها لعباده ، ويحبهم بسبب تمسكهم
بها .هذا ، وقد أخذ العلماء من هذه الآية : ان العهد المعتد به فى شريعة
الإسلام ، هو عهد الأوفياء غير الناكثين ، وأن من استقام على عهده عاملناه
. بمقتضى استقامته ، وأن الالتزام بالعهود من تقوى الله التى يحبها لعباده

كيف وان يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم الا ولا ذمة يرضونكم بافواههم وتابى
قلوبهم واكثرهم فاسقون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ
لاَ يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً . . . ) لاستبعاد ثبات
المشركين على العهد ، ولاستنكار ان يكون لهم عهد حقيق بالمرعاة ، وبيان لما
) يكون عليه أمرهم عند ظهورهم على المؤمنين .وفائدة هذا التكرار للفظ
كَيْفَ ) : التأكيد والتمهيد لتعداد الأسباب التى تدعو المؤمنين إلى
مجاهدتهم والإغلاظ عليهم ، والحذر منهم .قال الآلوسى : وحذف الفعل كيف هنا
لكونه معلوماً من الآية السابقة ، وللإيذان بأن النفس مستضحرة له ، مترقبة
لورود ما يوجب استنكاره .وقد كثر الحذف للفعل المستفهم عنه مع كيف ويدل
عليه بجملة حالية بعده . ومن ذلك قول كعب الغنوى يرثى أخاه أبا المغوار
وخبرتمانى أنما الموت بالقرى ... فيكف وماتا هضبة وقليبيريد فكيف مات:
والحال ما ذكر .والمراد هنا : كيف يكون لهم عهد معتد به عند الله وعند
رسوله وحالهم أنهم ( وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُواْ فِيكُمْ
إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً ) .وقوله : ( يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ ) يظفروا بكم
) - ويغلبوكم . يقال : ظهرت على فلان أى : غلبته ومنه قوله - تعالى
( فَأَيَّدْنَا الذين آمَنُواْ على عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَاهِرِينَ
أى : غالبين .وقوله : ( لاَ يَرْقُبُواْ فِيكُمْ ) أى :لا يراعوا فى شأنكم
يقال : رقب فلان الشئ يرقبه إذا رعاه وحفظه . . ورقيب القوم حارسهم .
والإِل : يطلق على العهد ، وعلى القرابة ، وعلى الحلق .قال ابن جرير - بعد.
: أن ساق أوالا فى معنى الإِل - وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب أن يقال

والإل : اسم يشتمل على معان ثلاثة : وهى العهد والعقد ، والحلف ، والقرابة
ومن ادلالة على أنه يكون بمعنى القرابة قول ابن مقبل :أفسد الناس خلوف . .
خلفوا ... قطعوا الإل وأعراق الرحمأى قطعوا القرابة .ومن الدلالة على أنه
يكون بمعنى العهد قول القائل :وجدناهم كاذبا إلهم ... وذو الإل والعهد لا
يكذبوإذا كان الكلمة تشمل هذه المعانى الثلاثة ، ولم يكن الله خص من ذلك
معنى دون معنى ، فالصواب أن يعم ذلك كما عم بها - جل ثناؤه - معانيها
الثلاثة . .والذمة : كل أمر لزمك يحيث إذا ضيعته لزمك مذمة أو هى ما يتذمم
به أى يجتنب فيه الذم .والمعنى : بأية صفة أو بأية كيفية يكون للمشركين عهد
عند الله وعند رسوله ، والحال المعهود منهم أن إن يظفروا بكم ويغلبوكم ، لا
- يراعوا فى أمركم لا عهدا ولا حلفا ولا قرابة ولا حقا من الحقوق .وقوله
تعالى - ( يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وتأبى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ
فَاسِقُونَ ) زيادة بيان للأحال القبيحة الملازمة لهؤلاء المشركين .أى : أن
هؤلاء المشركين إن غلبوكم - أيها المؤمنون - فلعوا بكم الأفاعيل ، وتفتنوا
، فى إيذاكم من غير أن يقيموا وزنا لما بينكم وبينهم من عهود ومواثيق
) وقرابات وصلات . .أما إذا كانت الغلبة لكم فإنهم في هذه الحالة
يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ ) أى : يعطونكم من ألسنتهم كلاما معسولا
إرضاء لكم ، وهم فى الوقت نفسه ( وتأبى قُلُوبُهُمْ ) المملوءة حقدا عليكم
) : وبغضا لكم تصديق ألسنتهم ، فهم كما وصفهم - سبحانه - فى آية أخرى
) : يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ) وقوله
وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ) أى : خارجون عن حدود الحق ، منفصلون عن كل
فضيلة ومكرمة ، إذ الفسق هو الخروج والانفصال . يقال : فسقت الرطبة إذا
خرجت عن قشرتها وفسق فلان إذا خرج عن حدود الشرع .وإنما وصف أكرهم بالفسوق
لأن هؤلاء الاكثرين منهم ، هم الناقضون لعهودهم ، الخارجون على حدود ربهم ،
، أما الأقلون منهم فهم الذين وفوا بعهودهم ، ولم ينقصوا المؤمنين شيئا ،
ولم يظاهروا عليهم أحدا .وبذلك نرى أن الاية الكريمة قد وصفت هؤلاء
المشركين وصفا فى نهاية الذم والقبح ، لأنهم إن كانوا أقوياء فجروا واسرفوا
فى الإيذاء ، نابذين كل عهد وقراءة وعرف . . أما إذا شعروا بالضعف فإنهم
يقدمون للمؤمنين الكلام اللين الذى تنطق به ألسنتهم ، وتأباه قلوبهم
الحاقدة الغادرة .أى أن الغدر ملازم لهم في حالتى قوتهم وضعفهم ، لأنهم فى
حالة قوتهم ( لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً ) . وفى
. حالة ضعفهم يخادعون ويداهون حتى تحين لهم الفرصة للانقضاض على المؤمنين

اشتروا بايات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله انهم ساء ما كانوا يعملون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك السبب الأصيل الذى جعل الغدر
ديدنهم ، والحقد على المؤمنين دأبهم فقال : ( اشتروا بِآيَاتِ الله ثَمَناً
قَلِيلاً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِ إِنّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ
يَعْمَلُونَ ) .والمراد بالاشتراء هنا الاستبدال والاستيعاض .والمراد بآيات
الله : كل ما جاء به النبى - صلى الله عليه وسلم - من آيات قرآنية ، ومن
تعاليم سامية تهدى إلى الخير والفلاح .والمعنى؛ إن السبب الأصيل الذى حمل
هؤلاء المشركين على الغدر ، وعلى الفجور والطغيان عند القوة وعلى المداهنة
والمخادعة عند الضعف . هو أنهم استبدلوا بآيات الله المتضمنة لكل خير وفلاح
ثمنا قليلا . أى : عرضا حقيرا من أعراض الدنيا وزخارفها .وليس وصف . .
الثمن بالقلة هنا من الأوصاف المخصصة للنكرات . بل هو من الأوصاف اللازمة
للثمن المحصل بالآيات . لأن كل ثمن يؤخذ فى مقابل آيات الله فهو قليل وإن
بلغ ما بلغ من اعراض الدنيا وزينتها .وقوله : ( فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِ )
بيان لما ترتب على استبدالهم بآيات الله ثمنا قليلا .والصد : المنع
والحيلولة بين الشيء وغيره ، ويستعمل لازما فيقال : صد فلان عن الشئ صدودا
بمعنى أعرض عنه . ويستعمل متعديا فيقال : صده عنه إذا صرفه عن الشئ .وهنا
تصح إرادة المعنيين فيكون التقدير : أن هؤلاء المشركين قد اشتروا بآيات
الله ثمنا قليلا ، يترتب على ذلك أن أعرضوا عن طريق الله الواضحة المستقيمة
التى جاء بها نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - يترتب على ذلك أن أعرضوا عن
طريق الله الواضحة المستقيمة التى جاء بها نبيه محمد - صلى الله عليه
وسلم - ، ولم يكتفوا بهذا بل صرفوا غيرهم عنها ، ومنعوه من الدخول فيها
وقوله : ( إِنّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ) تذليل قصد به بيان.
سوء عاقبتهم ، وقبح أعمالهم .أى : إنهم ساء وقبح عملهم الذى كانوا يعملون
من اشترائهم بآيات الله ثمنا قليلا ، ومن صدودهم عن الحق وصدهم لغيهرم عنه
. وسيجازيهم الله على ذلك بما يستحقونه عن عقاب شديد . .

لا يرقبون في مؤمن الا ولا ذمة واولئك هم المعتدون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن عداوة هؤلاء المشركين ليست خاصة
بالمؤمنين الذين يقمون معهم ، وإنما هى عداوة شاملة كل مؤمن مهما تباعد
عنهم فقال - تعالى - : ( لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ

ذِمّةً وأولئك هُمُ المعتدون ) .أى : أن هؤلاء المشركين لا يراعون فى أمر
مؤمن يقدرون على الفتك به عهدا يحرم الغدر ، ولا قرابة تقتضى الود ، ولا
ذمة توجب الوفاء خشية الذم . . وإنما يبيتون الحقد والغدر والأذى لكل مؤمن
من غير أن يقيموا للعهود أو للفضائل وزنا .وهذه الآية الكريمة أعم من ،
قوله - تعالى - : قبل ذلك : ( كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ
يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً ) لأن هذه بينت أن عدوانهم على
المؤمنين مقيد بظهورهم عليهم ، أما التى معنا فقد بينت أن عدوانهم ليست
مقيدا بشئ ، فهم متى وجدوا الفرصة اهتبلوها فى الاعتداء على المؤمنين ولأن
التى معنا بينت ان عداوتهم قد شملت كل مؤمن مهما كان موضعه . أما الآية
السابقة فهى تخاطب المؤمنين الذين كان بينهم وبين الشمركين الكثير من
الحروب والدماء .وقوله ( وأولئك هُمُ المعتدون ) تذييل قصد به ذمهم
والتحقير فى شأنهم .أى : وأولئك المشركون الموصوفون بتلك الصفات السيئة هم
المتجاوزون لحدود الله والخارجون على كل فضيلة ومكرمة . .

فان تابوا واقاموا الصلاة واتوا الزكاة فاخوانكم في الدين ونفصل الايات
لقوم يعلمون

كما فسرها الوسيط وبعد أن وضحت السورة الكريمة طبيعة هؤلاء المشركين
بالنسبة لكل مؤمن ، وبينت الاسباب التى جعلتهم بمعزل عن الحق والخير . .
شرعت فى بيان ما يجب أن يفعله المؤمنون معهم فى حالتى إيمانهم وكفرهم فقال
تعالى ( فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصلاة وَآتَوُاْ الزكاة
فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدين وَنُفَصِّلُ الآيات لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَإِن
نكثوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ
فقاتلوا أَئِمَّةَ الكفر إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ
يَنتَهُونَ ) .أى : فان تابوا عن شركهم وما يتبعه من رذائل ومنكرات وأقاموا
) الصلاة وآتوا الزكاة ، على الوجه الذى أمر الله به فهم فى هذه الحالة
فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدين ) لهم ما لكم وعليهم ما عليكم وهذ الأخوة تجُبُّ
ما قبلها من عداوات .وقوله : ( وَنُفَصِّلُ الآيات لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ )
جملة معترضة ، جئ بها للحث والتحري على ما فصله - سبحانه - من أحاكم
المشركين ، وعلى الالتزام بها .هذا ما يجب على المؤمنين نحو هيلاء المشركين
إن تابوا وأقاموا الصلاة وأتوى الزكاة . .

وان نكثوا ايمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا ائمة الكفر انهم
لا ايمان لهم لعلهم ينتهون

كما فسرها الوسيط أما إن كانت الآخرى ، أى إذا لم يتوبوا وصاروا على
عداوتهم ، فقد بين سبحانه . ما يجب على المؤمنين نحوهم فى هذه الحالة فقال
أى : وإن نقضوا. ( وَإِن نكثوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ ) :
عهودهم من بعد أن تعاقدوا معكم على الوفاء بها .وقوله : ( نكثوا ) من النكث
بمعنى النقض والحل . يقال نكث فلان الحبل إذا نقض فتله وحل خيوطه ومنه
قوله - تعالى - : ( وَلاَ تَكُونُواْ كالتي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ
قُوّةٍ أنكَاثاً ) وقوله : ( وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ ) معطوف على ما
قبله . أى : وعابوه وانتقضوه .وقوله : ( فقاتلوا أَئِمَّةَ الكفر ) أى
: فقاتلوهم فهم أئمة الكفر ، وحملة لوائه . فوضع - سبحانه - الاسم الظاهر
المبين لشر صفاتهم موضع الضمير على سبيل الذم لهم .وقيل : المراد بأئمة
الكفر رؤسائهم وصناديدهم الذين كانوا يحرضونهم على عداوة المؤمنين ،
ويقودونهم لقتال النبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه .وعطف . سبحانه -
قوله ( وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ ) على ما قبله مع أن نقض العهد كاف فى
إباحة قتالهم ، لزيادة تحريض المؤمنين على مجاهدتهم والاغلاظ عليهم .وقوله
تعليل للأمر بقتالهم أى قاتلوا هؤلاء ( إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ ) :
المشركين بعزيمة صادقة ، وقلوب ثابتة ، لأنهم قوم لا أيمان عهود لهم
الحقيقة ، لأنهم لما لم يفوا بها صارت أيمانهم كأنها ليست بأيمان .وقرأ ابن
عامر ( إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ ) - بكسر الهمزة . على أنها مصدر
آمنه إيمانا بمعنى أعطاء الأمان . أى أنهم لا أمان لهم فاحذروا الاغترار
بهم . أو المراد الإيمان الشرعى . أى إنهم لا تصديق ولا دين لهم ، ومن كان
كذلك فلا وفاء له .وقوله : ( لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ) متعلق بقوله
فقاتلوا أَئِمّةَ الكفر ) .أى : ليكن مقصدكم من مقاتلتهم - بعد أن وجد
منهم ما وجد إيذائكم الرجاء فى هدايتهم ، والانتهاء عن كفرهم وخيانتهم . .
واحذروا أن يكون مقصدكم من ذلك العدوان واتباع الهوى .هذا ، ومن الأحكام
والآداب التى أخذها العلماء من هذه الآيات سوى ما سبق - ما يأتى :1- أن ما
ذكرته الآيات من كون المشركين ، لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة ، يقرر
حقيقة واقعة ، ومن الأدلة على ذلك ما فعله التتار بالمسلمين - وخاصة مسلمى
بغداد . سنة 656 . وما فعله الوثنيون الهنود مع مسلمى باكستان ، وما فعله
الشيوعيون .قال الآلوسى : قوله تعالى ( ألاَ تُقَاتِلُونَ قَوْماً ) تحريض

على القتال بأبلغ وجه - ، لأن الاستفهام فيه للإنكار ، والاستفهام الإنكارى فى معنى النفى ، وقد دخل هنا على نفى ، ونفى النفى إثبات . وحيث كان الترك منكراً أفاد بطريق برهانى أن إيجاده أمر مطلوب مرغوب فيه ، فيفيد الحث والتحريض عليهم . بأقوى الأدلة ، وأسمى الأساليب .

الا تقاتلون قوما نكثوا ايمانهم وهموا باخراج الرسول وهم بدءوكم اول مرة اتخشونهم فالله احق ان تخشوه ان كنتم مؤمنين

كما فسرها الوسيط وقد ذكر - سبحانه - هنا ثلاثة أسباب كل واحد منها يحمل المؤمنين على قتال المشركين بغلظة وشجاعة .أما السبب الأول فهو قوله تعالى : ( نكثوا أَيْمَانَهُمْ ) أى : نقضوا عهودهم وحنثوا فى أيمانهم التى حلفوها لتأكيد هذه العهود .ومن مظاهر ذلك أن هؤلاء المشركين الذين تعاهدوا معكم فى صلح الحديبية على ترك القتال عشر سنين . قد نقضوا عهودهم بمساعدة حلفائهم بنى بكر على قتال حلفائكم بنى خزاعة عند أول فرصة سنحت لهم .والسبب الثانى قوله . سبحانه . ( وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ الرسول ) والهم : المقاربة من الفعل من غير دخول فيه .أى : وهموا بإخراج الرسول - صلى الله عليه وسلم - من مكة التى ولد فيها وعاش بها زمنا طويلا . . لكنهم لم يستطيعوا ذلك ، بل خرج باختيار . وبإذن الله له فى الهجرة .وقد فصل سبحانه ما هموا به فى قوله ( وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الذين كَفَرُواْ . لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ الله والله خَيْرُ الماكرين ) وإنما اقتصر ، سبحانه ، فى الآية التى معنا على همهم بإخراجه . صلى الله عليه وسلم . من مكة ، مع أن آية الأنفال قد بينت أنهم قد هموا بأحد أمور ثلاثة - لأن الإخراج هو الذى وقع أثره فى الخارج بحسب الظاهر ، أما القتل والحبس فلم يكن لهما أثر فى الخارج .وقيل : إنه سبحانه . قد اقتصر على الأدنى وهو الهم بالإخراج ، ليعلم غيره بالطريق الأولى ، إذ الإخراج أهون من القتل والحبس .وأما السبب الثالث فهو قوله . سبحانه . ( وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوّلَ مَرّةٍ ) أى : وهم الذين كانوا بادئين بقتالكم فى أول لقاء بينكم وبينهم وهو يوم بدر ، كما كانوا بادئين بالعدوان عليكم فى كل قتال بعد ذلك ، كما حدث منهم فى أحد والخندق وكما حدث منهم مع حلفائكم من بنى خزاعة .قال صاحب الكشاف : قوله : ( وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوّلَ مَرّةٍ ) أى : وهم الذين كانت منهم البداءة بالمقاتلة ، لأن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جاءهم أولا بالكتاب المنير ، وتحداهم به ، فعدلوا عن المعارضة لعجزهم عنها إلى القتال . فهم البادئون بالقتال والبادئ أظلم ، فما يمنعكم من أن تقابلوهم بمثله ، وأن تصدموهم بالشر كما صدموكم؟فأنت ترى أن هذه الآية الكريمة قد ذكرت ثلاثة أمور كل واحد منها كفيل بحمل المؤمنين على قتال المشركين . . فكيف وقد توفرت هذه الأمور الثلاثة فى هؤلاء المشركين؟ .ولم تكتف الآية الكريمة بهذا التهييج ، والتحريض للمؤمنين على القتال ، بل أمرتهم بأن تكون خشيتهم من الله وحده فقال سبحانه ( أَتَخْشَوْنَهُمْ فالله أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ) .أى : أتتركون - أيها المؤمنون - قتال هؤلاء المشركين الذين نكثوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ الرسول وَهُم بَدَءُوكُمْ ) أَوَّلَ مَرَّةٍ ) خشية منهم . . ؟ لا ، إن هذا لا يليق بكم ، وإنما الذى يليق بكم - إن كنتم مؤمنين حقا - أن تكون خشيتكم من الله وحده .قال الإمام الرازى : وهذا الكلام يقوى داعية القتال من وجوه :الأول : أن تعديد الموجبات الموقية وتفصيلها مما يقوى هذه الداعية .الثانى : أنك إذا قلت للرجل : أتخشى خصمك؟ كان ذلك تحريكا لأن يستنكف أن ينسب إلى كونه خائفا من خصمه .الثالث : أن قوله : ( فالله أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ ) يفيد ذلك كأنه قيل : إن كنت تخشى أحدا فالله أحق أن تخشاه ، لكونه فى غاية القدرة والكبرياء والجلالة . .الرابع : أن قوله : ( إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ) معناه : إن كنتم مؤمنين إيمانا حقا ، وجب عليكم أن تقدموا على هذه المقاتلة ومعناه : أنكم إذا لم تقدموا لا تكونوا كذلك ، فثبت أن هذا الكلام مشتمل على سبعة أنواع من الأمور التى تحملهم على مقاتلة أولئك الكفار الناقضين للعهد .

قاتلوهم يعذبهم الله بايديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين

كما فسرها الوسيط ثم أمرهم - سبحانه - أمراً صريحاً قاطعاً بمقاتلة المشركين ، ورتب على هذه المقاتلة خمسة أنواع من الفوائد فقال : ( قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ الله بِأَيْدِيكُمْ ) .أى : أقدموا على قتالهم وباشروهم بشجاعة وإخلاص كما أمركم ربكم ، فإنكم متى فعلتم ذلك ( يُعَذِّبْهُمُ الله بِأَيْدِيكُمْ ) بسبب ما تنزلونه بهم من قتل وأسر وجراحات بليغة ، وإغتنام للأموال .وأسند - سبحانه - التعذيب إليه ، لأنه . . أمر زائد على أسبابه من الطعن والضرب وما يفضيان إليه من القتل والجرح والأسر . تلك هى الفائدة الأولى من قتالهم .أما الفائدتان الثانية والثالثة

فتتجليان فى قوله . تعالى . ( وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ )
أى : ويخزهم بسبب ما ينزل بهم من هزيمة وهوان وهم يتفاخرون بقواتهم وبأسهم.
وينصركم عليهم بأن يجعل كلمتكم هى العليا وكلمتهم هى السفلى .قال الإمام ،
، الرازى : فإن قالوا : لما كان حصول ذلك الخزى مستلزما لحصول هذا النصر
كان إفراده بالذكر عبثاً؟فتقول : ليس الأمر كذلك ، لأنه من المحتمل أن يحصل
، الخزى لهم من جهة المؤمنين ، إلا أن المؤمنين قد تحصل لهم آفة لسبب آخر
فلما قال : ( وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ ) دل على أنهم ينتفعون بهذا النصر
والفتح والظفر .والفائدة الرابعة بينها - سبحانه - فى قوله ( وَيَشْفِ
، صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ) .أى : أنكم بقتالكم لهم وانتصاركم عليهم
تشفون قلوب جماعة من المؤمنين من غيظها المكظوم ، لأن هذه الجماعة قد لقيت
ما لقيت من أذى المشركين وظلمهم وغدرهم . . فكان انتصاركم عليهم شفاء
لصدورهم .قالوا : المراد بهؤلاء القوم بنو خزاعة الذين غدر بهم بنو بكر
بمساعدة قريش .والأولى أن تكون الجملة الكريمة عامة فى كل من آذاهم
. المشركون

ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم

) كما فسرها الوسيط أما الفائدة الخامسة فقد بينها - سبحانه - . فى قوله
وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ) : أى : ويذهب غيظ قلوب هؤلاء القوم
المؤمنين ويزيل كربها وغمها ، لأن الشخص الذى طال أذى خصمه له . ثم مكنه
منه على أحسنا لوجوه فإن هذا الشخص فى هذه الحالة يعظم سروره ، ويفرح قلبه
ويتحول غيظه السابق إلى غبطة وارتياح نفسى .قال الآلوسى : " وظاهر العطف ،
أن إذهاب الغيظ غير شفاء الصدور . ووجه بأن الشفاء يكون بقتل الأعداء
وخزيهم ، وإذهاب الغيظ يكون بالنصر عليهم . . وقيل؛ إذهاب الغيظ كالتأكيد
لشفاء الصدر ، وفائدته المبالغة فى جعلهم مسرورين بما يمن الله به عليهم من
تعذيبه لأعدائهم ، ونصرته لهم عليهم ، ولعل إذهاب الغيظ من القلب أبلغ مما
عطف عليه ، فيكون ذكره من باب الترقى . .وقوله : - تعالى - ( وَيَتُوبُ
الله على مَن يَشَآءُ والله عَلِيمٌ حَكِيمٌ ) كلام مستأنف لبيان شمول قدرة
الله - تعالى - ، وواسع رحمته ، وبالغ حكمته .أى : ويتوب الله على من يشاء
- أن يتوب عليه من عباده فيوفقه للايمان ، ويشرح صدره للاسلام ، والله
، تعالى - عليم بسائر شئون خلقه ، حكيم فى كل أقواله وأفعاله وسائر تصرفاته
فامتثلوا أمره ، واجتنبوا نهيه ، لتنالوا السعادة فى دنياكم وآخرتكم .قال
الإمام الرازى ما ملخصه : وهذه الآية تدل على كون الصحابة مؤمنين فى علم
الله - تعالى - إيمانا حقيقيا؛ لأنها تدل على أن قلوبهم كانت مملوءة بالغضب
، وبالحمية من أجل الدين ، ومن أجل الرغبة الشديدة فى علو دين الإسلام
وهذه الأحوال لا تحصل إلا فى قلوب المؤمنين الصادقين .كما تدل على أنها من
المعجزات ، لأنه - تعالى - أخبر عن حصول هذه الأحوال ، وقد وقعت كما أخبر
فقد انتصر المؤمنون ، وأسلم من المشركين أناس كثيرون - فيكون ذلك إخبار عن
. الغيب ، والإخبار عن الغيب معجزة

ام حسبتم ان تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون
الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خبير بما تعملون

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات الكريمة التى حرضت المؤمنين
على القتال أعظم تحريض ، ببيان بعض الحكم التى من أجلها شرع الجهاد فى سبيل
" الله ، فقال - تعالى - : ( أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ . . . ) .و
أم " هنا للاستفهام الانكارى . وحسب - كما يقول الراغب - مصدره الحسبان وهو
أن يحكم الشخص لأحد النقيضين من غير أن يخطر الآخر بباله ، فيحسبه ويعقد
عليه الأصابع ، ويكون بعرض أن يعتريه فيه شك . ويقارب ذلك الظن ، لكن الظن
) : أن يخطر النقيضان بباله فيغلب أحدهما على الآخر .والواو فى قوله
، وَلَمَّا يَعْلَمِ الله ) حالية ، و ( لَمَّا ) للنفى مع توقع الحصول
ونفى العلم هنا مجاز عن نفى التبين والازهار والتمييز .وقوله : ( وَلِيجَةً
أى ، بطانة ومداخلة . من الولوج فى الشئ أى الدخول فيه .يقال : ولج يلج (
ولوجا إذا دخل . وكل شئ أدخلته فى شئ ولم يكن منه فهو وليجة .والمراد
بالوليجة هنا : البطانة من المشركين الذين يطلعون على أسرارهم المؤمنين
ويداخلونهم فى أمورهم .قال ابن جرير : قوله : ( وَلِيجَةً ) هو الشئ يدخل
فى غيره . يقال منه : ولج فلان فى كذا يجله فهو وليجة . وإنما عنى بها فى
هذا الموضع : البطانة من المشركين ، نهى الله المؤمنين أن يتخذوا من عدوهم
من المشركين أولياء يفشون إليهم أسرارهم .والمعنى : أحسبتم - أيها
- المؤمنون - أن تتركوا دون أن تؤمنوا بقتال المشركين ، والحال أن الله
. تعالى - لم يظهر الذين جاهدوا منكم بإخلاص ولم يتخذوا بطانة من أعدائكم
ممن جاهدوا منكم بدون إخلاص؟لا . أيها المؤمنون ، إن كنتم حسبم ذلك فهو .
حسبان باطل ، لأن سنة الله قد اقتضت أن يميز المخلص فى جهاده من غيره ، وأن
- يجعل من حكم مشروعية الجهاد والتمحيص .قال ابن كثير : والحاصل أنه

تعالى - لما شرع الجهاد لعباده ، بين أن له فيه حكمة وهو اختبار عبيده من يطيعه ممن عصيه ، وهو - تعالى - العالم بما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون ، فيعم الشئ قبل كونه على ما هو عليه ، لا إله إلا هو ولا رب سواه ، ولا راد لما قدره وأمضاه .وقوله تعالى . ( واللَّه خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ) - بيان لشمول علمه - سبحانه لجميع شئون خلقه .أى : واللَّه - تعالى - خبير بجميع أعمالكم ، مطلع على نياتكم ، فأخلصوا له العمل والطاعة لتنالوا ثوابه ورضاه وعونه .وبذلك نرى السورة الكريمة من أولها إلى هما ، قد أعلنت براءة اللَّه ورسوله من عهود المشركين ، وأعطتهم مهلة يتدبرون خلالها أمرهم ، وأمرت المؤمنين بعد هذه المهلة - أن يقتلوا المشركين حيث وجدوهم . . . ثم ساقت الأسباب التى تدعو إلى مجاهدتهم ، والفوائد التى تترتب على هذه المجاهدة ، والحكم التى من أجلها شرعت هذه المجاهدة .

ما كان للمشركين ان يعمروا مساجد الله شاهدين على انفسهم بالكفر اولئك حبطت اعمالهم وفي النار هم خالدون

كما فسرها الوسيط ثم أخذت السورة بعد ذلك فى إعلان حكم آخر يتعلق بتعمير مساجد اللَّه ، فبينت أنه يحرم على المشركين أن يعمروا مساجد اللَّه ، وأن المستحقين لذلك هم المؤمنين الصادقون ، فقال - تعالى - : ( مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ . . . مِنَ المهتدين ) .قال الجمل : وسبب نزول هذه الآية أن جماعة من رؤساء قريش أسروا يوم بدر ، منهم العباس بن عبد المطلب ، فأقبل عليهم نفر من أصحاب رسول اللَّه - صلى اللَّه عليه وسلم - يعيرونهم بالشرك . وجعل على بن أبى طالب يوبخ العباس بسب قتال رسول اللَّه - صلى اللَّه عليه وسلم - وقطيعة الرحم .فقال العباس : ما لكم تذكرون مساوئنا وتكتمون محاسننا؟ فقيل له : وهل لكم محاسن؟ قال : نعم . ونحن أفضل منكم . إنا لنعمر المسجد الحرام . ونحجب الكعبة - أى نخدمها - ، ونسقى الحجيج ، ونفك العانى - أى الأسير - فنزلت هذه الأية .وقال صاحب المنار : والمراد أن هذه الآية تتضمن الرد على ذلك القول الذى كان يقوله ويفخر به العباس وغيره من كبراء المشركين ، لا أنها نزلت عندما قال ذلك القول لأجل الرد عليه فى أيام بدر من السنة الثانية من الهجرة ، بل نزلت فى ضمن السورة بعد الرجوع من غزوة تبوك كما تقدم .وقوله : ( يَعْمُرُوا ) من العمارة التى هى نقيض الخراب . يقال : عمر فلان أرضه يعمرها عمارة إذا تعهدها بالخدمة والاصلاح والزراعة .والمراد بعمارة المساجد ، هنا : ما يشمل إقامة العبادة فيها ، وإصلاح بنائها وخدمتها ، ونظافتها ، واحترامها ، وصيانتها عن كل مالا يتناسب مع الغرض الذى ينبت من أجله .وقوله : ( مَسَاجِدَ اللَّه ) قرأ أبو عمر وابن كثير ( مسجد اللَّه ) بالإفراد ، فيكون المراد به المسجد الحارم لأنه أشرف فى المساجد فى الأرض ، ولأنه قلبه المساجد كلها . . فلا يجوز للمشركين دخوله أو الخدمة فيه .وقرأ الجمهور ( مَسَاجِدَ اللَّه ) بالجمع ، فيكون المراد من المساجد جميعها لأنها جميع مضاف فى سياق النفى فيعم سائر المساجد ، ويدخل فيها المسجد الحرام دخولا أوليا ، لأن تعميره منط افتخارهم ، وأهم مقاصدهم . وهذه القراءة آكد فى النفى ، لأن نفى الجمع يدل على النفى عن كل فرد ، فيلزم نفيه عن الفرد المعين بطريق الكناية ، كما لو قلت : فلان لا يقرأ كتب اللَّه ، فإن قولك هذا أنفى لقراءته القرآن من تصريحك بذلك .قوله : (شَاهِدِينَ على أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ ) حال من الواو فى قوله ( يَعْمُرُوا ) .وفائدة المجئ بهذه الجملة : الأشعار بأن كفرهم كفر صريح ، وأنهم يعترفون به اعترافا لا يملكون إنكاره ، ولا يسعهم إلا إقراره والمعنى :لا ينبغى ولا يصح للمشركين أن يعمروا مساجد اللَّه التى بنيت. لعبادته وحده - سبحانه . وذلك لأن هؤلاء المشركين قد شهدوا على أنفسهم بالكفر شهادة نطقت بها السنتهم ، وأيدتها أعمالهم .فهم لا ينطقون بكلمة التوحيد ، وإنما ينطقون بكلمة التوحيد ، وإنما ينطقون بالكفر والاشراك . وهم لا يعملون أعمال المؤمنين ، وإنما يعملون الأعمال القبيحة التى تدل على إصرارهم على باطلهم كسجودهم للأصنام عقب الطواف بالكعبة .قال الفخر الرازى وذكروا فى تفسيره هذه الشهادة وجوها :الأول - وهو الأصح : أنهم أقروا على : أنفسهم بعبادة الأوثان ، وتكذيب القرآن ، وإنكار نبوة محمد - عليه الصلاة والسلام - وكل ذلك كفر؛ فمن يشهد على نفسه بكل هذه الأشياء فقد شهد على نفسه بما هو كفر فى نفس الأمر ، وليس المراد أنهم شهدوا على أنفسهم بأنهم كفرة .الثانى . قال السدى : شهادتهم على أنفسهم بالكفر هو أن يقول عابد الوثن أنا عابد الوثن .الثالث : أنهم كانوا يطوفون عراة؛ وكلما طافوا شوطاً سجدوا للأصنام ، وكانوا يقولون : لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك .ثم بين - سبحانه - : فى ختام الآية سوء عاقبتهم فقال ( أُوْلَـئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النار هُمْ خَالِدُونَ ) :أى : أولئك المشركون الشاهدون على أنفسهم بالكفر قد فسدت أعمالهم التى كانوا يفتخرون بها مثل العمارة والحاجة والسقاية لأنها مع الكفر ى قيمة لها ، ( وَفِي النار هُمْ خَالِدُونَ ) يوم القيامة بسبب كفرهم وإصرارهم على باطلهم .

انما يعمر مساجد الله من امن بالله واليوم الاخر واقام الصلاة واتى الزكاة ولم يخش الا الله فعسى اولئك ان يكونوا من المهتدين

كما فسرها الوسيط ثم بين . سبحانه . أن المؤمنين الصادقين هم الجديرون بعمارة مساجد الله ، فقال : ( إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاة وآتى الزكَاة وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّه ) .أى : ليس المشركون أهلا لعمارة مساجد الله؛ وإنما الذين هم أهل لذلك المؤمنون الصادقون الذين آمنوا بالله إيماناً حقاً ، وآمنوا باليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب ، وآمنوا بما فرضه الله عليهم من فرائض فأدوها بالكيفية التى أرشدهم إليها نبيهم - صلى الله عليه وسلم - فهم فى صلاتهم خاشعون؛ وللزكاة معطون بسخاء وإخلاص .وهم بجانب ذلك لا يخشون أحداً إلا الله فى تبليغ ما كلفوا بتبليغه من أمور الدين؛ ولا يقصرون فى العمل بموجب أوامر الله ونواهيه .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : هلا ذكر الإيمان برسول الله - صلى الله عليه وسلم - قلت : لما عُلِم وشهر أن الإيمان بالله قرينته الإيمان بالرسول . عليه الصلاة والسلام . لاشتمال كلمة الشهادة والأذان والإقامة وغيرها عليهما مقترنين كأنهما شئ واحد . . انطوى تحت ذكر الإيمان بالله . تعالى . الإيمان بالرسول - صلى الله عليه وسلم - فإن قلت كيف قال : ( وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّه ) والمؤمن يخشى المحاذير ولا : يتمالك أن لا يخشاها .قلت : هي الخشية والتقوى فى أبواب الدين ، وأن لا يختار على رضا الله رضا غيره لتوقع مخوف : وإذا اعترض أمران : أحدهما حق الله والآخر حق نفسه ، آثر حق الله على حق نفسه .وقوله - تعالى - ( فعسى أولئك أن يَكُونُواْ مِنَ المهتدين ) تذييل قصد به حسن عاقبة المؤمنين الصادقين .أى : فعسى أولئك المتصفون بتلك الصفات الجليلة من الإيمان بالله واليوم الآخر . . أن يكونوا من المهتدين إلى الجنة وما أعد فيها من خير عميم ، ورزق كبير .

اجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن امن بالله واليوم الاخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين

كما فسرها الوسيط ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات روايات منها : ما رواه مسلم وأبو داود وابن جرير وابن المنذر عن النعمان بن بشير قال : كنت عند منبر النبى - صلى الله عليه وسلم - فى نفر من أصحابه فقال رجل : ما أبالى لا أعمل عملا بعد الإسلام إلا أن أسقى الحاج . وقال آخر : بل عمارة المسجد الحرام وقال آخر بل الجهاد فى سبيل الله خير مما قلتم ، فزجرهم عمر وقال :لا ترفعوا أصواتكم عند منبر النبى - صلى الله عليه وسلم - وذلك يوم الجمعة ولكن إذا صليتم الجمعة دخلت على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فاستنفيته فيما اختلفتم فيه . فأنزل الله . تعالى : ( أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الحاج . . . . ) الآية .وأخرج ابن جرير عن عبيد بن سليمان قال : سمعت الضحاك يقول فى قوله : ( أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الحاج ) : أقبل المسلمون على العباس وأصحابه الذين أسروا يوم بدر يعيرونهم بالشرك . فقال العباس : أما والله لقد كنا نعمر المسجد الحرام . ونفك العانى ، ونحجب البيت ، ونسقى الحاج فأنزل الله . تعالى . : ( أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الحاج . . ) .وقال صاحب المنار ، بعد أن ساق عدداً من الروايات فى سبب نزول هذه الآيات . والمعتمد فى هذه الروايات حديث النعمان لصحة سنده ، وموافقة متنه لما دلت عليه الآيات من كون موضوعها فى المفاضلة أو المساواة بين خدمة البيت وحجابه . من أعمال البر الهينة المسلتذلة . وبين الإيمان والجهاد بالمال والنفس والهجرة وهى أشق العبادات البدنية والمالية .والسقاية والعمارة : مصدران من سقى وعمر . بتخفيف الميم .والمراد بسقاية الحاج ما كانت قريش تسقيه للحجاج من الزبيب المنبوذ فى الماء ، وكان العباس . رضى الله عنه . هو الذى يتولى إدارة هذا العمل .قال الجمل : السقاية هى المحل الذى يتخذ فيه الشراب فى الموسم . كان يشترى الزبيب فينبذ فى ماء زمزم ويسقى للناس ، وكان يليها العباس جاهلية وإسلاماً ، وأقرها النبى - صلى الله عليه وسلم - له . . ويظهر أن المراد بها هنا المصدر . أى إسقاء الحجاج ، وإعطاء الماء لهم .والمراد بعمارة المسجد الحرام : ما يشمل العبادة فيه . وإصلاح بنائه ، وخدمته ، وتنظيفه . . . كما سبق أن بينا .والهمزة فى قوله ( أَجَعَلْتُمْ ) للاستفهام الإنكارى المتضمن معنى النهى .والكلام على حذف مضاف ، لأن العمارة والسقاية مصدران ولا يتصور تشبيههما بالأعيان ، فلا بد من تقدير مضاف فى أحد الجانبين حتى يتأتى التشبيه والمعنى : أجلتم أهل سقاية الحاج وأهل عمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر ، وجاهد فى سبيل الله؟ ويؤديه قراءة ( أَجَعَلْتُمْ سُقَايَةَ الحاج ) بضم السين جمع ساق . ( وعمرة المسجد الحرام ) بفتح العين والميم جمع عامر .وعلى هذا المعنى يكون التقدير فى جانب الصفة ، ويجوز أن يكون التقدير فى جانب الذات فيكون المعنى .أجعلتموهما ، أى السقاية والعمارة . كإيمان من آمن وجهاد من جاهد؟ والخطاب يشمل بعض المؤمنين الذين آثروا السقاية والعمارة على الجهاد

كما جاء فى حديث النعمان . كما يشمل المشركين الذين كانوا يتفاخرون بأنهم سقاة الحجيج ، وعمارة المسجد الحرام .والمقصود من الجملة الكريمة إنكار التسوية بين العملين وبين الفريقين . وقد جاء هذا الانكار صريحاً فى قوله تعالى . ( لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ اللهِ ) .أى :لا يساوى الفريق الأول الثانى فى حكم الله ، إذ أن الفريق الثانى له بفضل إيمانه الصادق . وجهاده الخالص الأجر الجزيل عند الله .فالجملة الكريمة مستأنفة لتقرير الانكار المذكور وتأكيده ثم ختم - سبحانه . الآية الكريمة بقوله . ( والله لاَ يَهْدِي القوم الظالمين ) .أى . والله تعالى . لا يوفق القوم الضالمين إلى معرفة الحق ، وتمييزه من الباطل ، لأنهم قد آثروا الشر على الخير والضلالة على الهداية .

الذين امنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله باموالهم وانفسهم اعظم درجة عند الله واولئك هم الفائزون

كما فسرها الوسيط وقوله . ( الذين آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللهِ ) : استئناف لبيان مراتب فضلهم زيادة فى الرد ، وتكميلا له .أى . ( . . الذين آمَنُواْ ) بالله - تعالى - إيماناً حقاً ، ( وَهَاجَرُواْ ) من دار الكفر إلى دار الإيمان فراراً بدينهم ، ( وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ ) لإعلاء كلمة الله ( بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ) هؤلاء الذين توفرت فيهم هذه الصفات الجليلة ( أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ الله ) أى : أعلى مقاماً وأشرف منزلة فى حكم الله وتقديره من أهل سقاية الحاج . وعمارة المسجد ( الحرام ) ومن كل من لم يتصف بهذه الصفات الأربعة الكريمة وهى : الايمان ، والهجرة ، والجهاد بالمال ، والجهاد بالنفس .قال الفخر الرازى : فان قيل : لما أخبرتم أن هذه الصفات كانت بين المسلمين والكافرين . كما جاء فى بعض روايات أسباب النزول . فكيف قال فى وصفهم اعظم درجة مع أنه ليس للكفار درجة .قلنا . الجواب عنه من وجوه . الأول أن هذا ورد على حسب ما كانوا يقدرون لأنفسهم من الدرجة والفضيلة عند الله ، ونظيره قوله . سبحانه الثانى : أن يكون المراد أن أولئك ( ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ) أعظم درجة من كل من لم يكن موصوفاً بهذه الصفات ، تنبيهاً على أنهم لما كانوا أفضل من المؤمنين ما كانوا موصوفين بهذه الصفات ، فبأن لا يقاسوا إلى الكفار أولى .الثالث : أن يكون المراد أن المؤمن المجاهد المهاجر أفضل ممن على الساقية والعمارة والمراد منه ترجيح تلك الأعمال . ولا شك أن السقاية والعمارة من أعمال الخير . وإنما بطل ثوابها فى حق الكفار بسبب كفرهم وقوله : ( وأولئك هُمُ الفائزون ) أى : وأولئك الموصوفون بتلك الصفات. الكريمة ، هم الفائزون ، بثواب الله الأعظم ، وبرضائه الأسمى الذى لا يصل إليه سواهم ممن لم يفعل فعلهم .

يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم

كما فسرها الوسيط ثم فصل - سبحانه - هذا الفوز فقال : ( يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَداً إِنَّ اللهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ) .أى يبشرهم ربهم على لسان نبيهم - صلى الله عليه وسلم - فى الدنيا وعلى لسان الملائكة عند الموت ( بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ ) أى : برحمة واسعة منه - سبحانه - وبرضائه التام عنهم ، وبجنات عالية لهم فيها نعيم عظيم لا يزول ولا يبيد .

خالدين فيها ابدا ان الله عنده اجر عظيم

كما فسرها الوسيط ( خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَداً ) أى : ماكثين فى تلك الجنات مكثاً أبدياً .( إِنَّ اللهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ )لا يقادر قدره لهؤلاء الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموارهم وأنفسهم .قال الآلوسى : ذكر أبو حيان أنه - تعالى - لما وصف المؤمنين بثلاث صفات الإيمان والهجرة والجهد بالنفس والمال ، قابلهم على ذلك بالتبشير بثلاث : الرحمة والرضوان ، والجنة .وبدأ - سبحانه - بالرحمة فى مقابلة الإيمان لتوقفها عليه ، ، ولأنها أعم النعم وأسبقها كما أن الإيمان هو السابق .وثنى - سبحانه - بالرضوان الذى هو نهاية الإحسان فى مقابلة الجهاد الذى هو بذل الأنفس والأموال .وثلث بالجنات فى مقابلة الهجرة وترك الأوطان ، إشارة إلى أنهم لما آثروا تركها - فى سبيله أعطاهم بدلها داراً عظيمة دائمة وهى الجنات وفى الحديث الصحيح يقول الله - سبحانه - : " يا أهل الجنة هل رضيتم؟. - فيقولون كيف لا نرضى وقد باعدتنا عن نارك وأودخلتنا جنتك؟ فيقول - سبحانه لكم عندى أفضل من ذلك ، فيقولون : وما أفضل من ذلك؟ فيقول جل شأنه : أحل لكم رضائى فلا أسخط عليكم بعده أبداً " .وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة

قد بينت أنه لا تصح المساواة بين المؤمنين الصادقين الذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، وبين غيرهم ممن لم يفعل فعلهم ، ولم يجاهد جهادهم . .

يا ايها الذين امنوا لا تتخذوا اباءكم واخوانكم اولياء ان استحبوا الكفر على الايمان ومن يتولهم منكم فاولئك هم الظالمون

كما فسرها الوسيط وبعد أن بين - سبحانه - ما أعده من عطاء عظيم للمؤمنين الصادقين ، الذين هاجروا وجاهدوا فى سبيله بأموالهم وأنفسهم . . . أتبع ذلك بتوجيه نداء إليهم ، حثهم فه على أن يجردوا أنفسهم لعقيدتهم ، وأن يقاطعوا أعداءهم فى الدين مهما بلغت درجة قرابتهم منهم ، وأن يؤثروا حب الله وروسوله على كل شئ من زينة الحياة الدنيا فقال - تعالى - : ( ياأيها الذين آمَنُواْ ) . . . والمعنى : ( ياأيها الذين لاَ يَهْدِي القوم الفاسقين ) إيمانا حقاً ( لاَ تتخذوا آبَآءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ ) المشركين أَوْلِيَآءَ ) وأصدقا تفشون إليهم أسراركم ، وتطلعونهم على ما لا يجوز إطلاعهم عليه من شئونكم ، وتلقون إليهم بالمودة . . . فإن ذلك يتنافى مع الإيمان الحق ، ومع الإخلاص للعقيدة وإيثارها على كل ما سواها من زينة الحياة .والمراد النهى لكل فرد من أفراد المخاطبين عن موالاة أى فرد من أفراد المشركين ، لأن الجمع إذا قوبل بالجمع يوزع الفرد على الفرد ، كما فى قوله - تعالى - : ( وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ) قال القرطبى : وخص - سبحانه - الآباء والإخوة إذ لا قرابة أقرب منها . فنفى الموالاة بينهم ليبين أن القرب قرب الأديان لا قرب الأبدان .ولم يذكر الآبناء فى هذه الآية ، إذ الأغلب من البشر أن الأبناء هم التبع للآباء . والإحسان والهبة مستثناه من الولاية . " قالت أسماء : يا رسول الله إن أمى قدمت على راغبة وهى مشركة أفأصلها؟ قال نعم . " صلى أمك " " .وقوله - سبحانه - : ( إِنِ استحبوا الكفر عَلَى الإيمان ) قيد فى النهى عن اتخاذهم أولياء . والاستحباب : طلب المحبة : يقال : استحب له بمعنى أحبه كأنه طب محبته .أى : لا تتخذوهم أولياء إن اختاروا الكفر على الإيمان وأصروا على شركهم وباطلهم أما إذا أقعلوا عن ذلك ودخلوا فى دينكم ، فلا حرج عليكم من اتخاذهم . . أولياء وأصفياء .وقوله : ( وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِّنكُمْ فأولئك هُمُ الظالمون ) تذييل قصد به الوعيد والتهديد لمن يفعل ذلك .أى : ومن يتولهم منكم فى حال استحبابهم الكفر على الإيمان . فأولئك الموالون لهم هم الظالمون لأنفسهم ، لأنهم وضعوا الموالاة فى غير موضعها ، وتجاوزا حدود الله التى نهاهم عن تجاوزها . وسيجازيهم - سبحانه - على ذلك بما يستحقونه من عقاب .ثم أمر - سبحانه - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يعلن للناس - هذه الحقيقة : وهى أن محبة الله ورسوله يجب أن تفوق كل محبة لغيرهما فقال تعالى - : ( قُلْ ) يا محمد لمن اتبعك من المؤمنين : ( إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ ) الذين أنتم بضعة منهم ، ( وَأَبْنَآؤُكُمْ ) الذين هم قطعة منكم ( وَإِخْوَانُكُمْ ) الذين تربطكم بهم وشيخة الرحم ( وَأَزْوَاجُكُمْ ) اللاَّئى جعل الله بينكم وبينهن مودة ورحمة ( وَعَشِيرَتُكُمْ ) أى : أقاربكم الأدنون الذين تربطكم بهم رابطة المعاشرة والعصبة ( وَأَمْوَالٌ اقترفتموها ) أى : اكتسبتموها فهى عزيزة علكيم .وأصل القرف والاقتراف قشر اللحاء عن الشجر ، والجلدة عن الجرح ثم استعير الاقتراف للاكتاسب مطلقاً ): ( وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا ) أى : تخافون بوارها وعدم رواجها بسبب اشتغالكم بغيرها من متطلبات الايمان .يقال : كسد الشئ من باب نصر وكرم . كساداً وكسوداً . إذا قل رواجه وربحه . ( وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَآ ) أى : ومنازل تعجبكم الإقامة فيها .قل لهم يا محمد : إن كان كل ذلك - من الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة ، والأموال ، والتجارة ، والمساكن - أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ الله وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ ) فَتَرَبَّصُواْ حتى يَأْتِيَ الله بِأَمْرِهِ ) .أى : إن كانت هذه الأشياء أحسن فى نفوسكم وأقرب إلى قلوبكم من طاعة الله وطاعة رسوله ومن الجهاد فى سبيل إعلاء كلمة الحق ، فانتظروا حتى يحكم الله فيكم ، وهو العذاب العاجل أو العقاب الآجل .فالجملة الكريمة تهديد وتخويف لمن آثر محبة الأباء والأبناء . . . على محبة الله ورسوله ، وعلى الجهاد من أجل إعلاء كلمة الدين .وقوله : ( والله لاَ يَهْدِي القوم الفاسقين ) تذييل قصد به تأكيد التهديد السابق أى : والله - تعالى - قد اقتضت حكمته أن لا يوفق القوم الخارجين عن حدود دينه وشريعته إلى ما فيه مثوبته ورضاه .هذا ، ومن الأحكام والآداب التى أخذها العلماء من هاتين الآيتين ما يأتى :( 1 ) تحريم موالاة الكافرين مهما بغلت درجة قرابتهم ، واعتبار - هذه الموالاة من الكبائر ، لوصف فاعلها بالظلم : قال - تعالى - : ( وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِّنكُمْ فأولئك هُمُ الظالمون ) .( 2 ) قوة إيمان الصحابة ، وسرعة امتثالهم لأوامر الله ، فإنهم فى سبيل عقيدتهم قاطعوا أقرب الناس إليهم ممن خالفوهم فى الدين ، بل وحاربوهم وقتلوهم .قال ابن كثير : روى الحافظ البيهقى من حديث عبد الله بن شوذب قال : جعل أبو أبى عبيدة بن الجراح ينعت له الآلهة يوم

بدر وجعل أبو عبيدة يحيد عنه . فلما أكثر الجراح ، قصده ابنه أبو ع بيدة فقتله ، فأنزل الله فيه هذه الآية - التى بآخر سورة المجادلة - ( لاَّ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بالله واليوم الآخر يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ الله وَرَسُولَهُ وَلَوْ كانوا آبَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أولئك كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإيمان وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّآتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ الله عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ أولئك حِزْبُ الله ألاَ إِنَّ حِزْبَ الله هُمُ المفلحون ) ( 3 )

إن المؤمن لا يتم إيمانه إلا إذا كانت محبته لله ورسوله مقدمة على كل محبوب وقد وردت عدة أحاديث فى هذه المعنى ، " ومن ذلك ما أخرجه البخارى ، والإمام أحمد بن أبى عقيل زهرة بن معبد أنه سمع جده عبد الله بن هشام قال كنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال : يا رسول الله لأنت أحب إلى من كل شئ إلا من نفسى . فقال رسول الله - صلى : الله عليه وسلم - "لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه " فقال عمر فأنت والله أحب إلى من نفسى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " الآن يا عمر " " .( 4 ) فى الآية الثانية دليل على أنه إذا تعارضت مصلحة من مصالح الدين مع مهمات الدنيا ، وجب ترجيح جانب الدين على الدنيا ليبقى الدين : سليماً ، وهذا عمل لا يستطيعه إلا الأتقياء .. ولذا قال الإمام الزمخشرى وهذه آية شديدة لا ترى أشد منها . كأنها تنعى على الناس ما هم عليه من ، رخاوة عقد الدين واضطراب حبل اليقين . فلينصف أورع الناس وأتقاهم من نفسه هل يجد عنده من التصلب فى ذات الله والثبات على دينه ، ما يستحب له دينه على الآباء والأبناء والإخوان والعشائر والمال والمساكن وجميع حظوظ الدنيا ويتجرد منها لأجله؟ أم يزوى الله عنه أحقر شئ منها لمصلحته ، فلا يدرى أى طرفيه أطول؟ ويغويه الشيطان عن أجَلِّ حظ من حظوظ الدين ، فلايبالى كأنما وقع على أنفه ذباب فطيره؟

قل ان كان اباؤكم وابناؤكم واخوانكم وازواجكم وعشيرتكم واموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها احب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى ياتي الله بامره والله لا يهدي القوم الفاسقين

كما فسرها الوسيط ( 5 ) قال بعض العلماء : وليس المطلوب . من قوله - تعالى إلخ . أن ينقطع المسلم عن الأهل ( . . . قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ ) والعشيرة والزوج والولد والمال والعمل والمتاع واللذة ، ولا أن يترهبن ، ويزهد فى طيبات الحياة . . كلا إنما تريد هذه العقيدة أن يفرغ لها القلب . ويخلص لها الحب ، وأن تكون هى المسيطرة الحاكمة ، وهى المحركة الدافعة فإذا تم لها هذا فلا حرج عندئذ أن يستمتع المسلم بكل طيبات الحياة ، على أن يكون مستعداً لنبذها كلها فى اللحظة التى تتعارض مع مطالب العقيدة .ومفرق الطريق هو أن تسيطر العقيدة أو يسيطر المتاع ، وأن تكون الكلمة الأولى للعقدية أو لعرض من أعراض هذه الحياة؟ فإذا اطمأن المسلم إلى أن قلبه خالص . . لعقيدته فلا عليه بعد هذا أن يستمتع بالأنباء والإخوة والعشيرة والزوج وعليه أن يتخذ الأموال والمتاجر والمساكن . ولا عليه أن يستمع بزينة الله و ، الطيبات من الرزق . فى غير سرف ولا مخيلة .بل إن المتاع حينئذ لمستحب باعتباره لوناً من الوان الشكر لله الذى أنعم بها ليتمتع بها عباده . وهم يذكرون أنه الرازق المنعم الوهاب .

لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين اذ اعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الارض بما رحبت ثم وليتم مدبرين

كما فسرها الوسيط ثم انتقلت السورة الكريمة من نهى المؤمنين عن موالاة المشركين مهما بالغت درجة قرابتهم ، وعن إيثارهم محبة الآباء والأبناء على محبة الله . . انتقلت من ذلك إلى تذكيرهم بجانب من نعم الله عليهم . حيث نصرهم - سبحانه - فى حنين بعد أن ولوا مدبرين دون أن تنفعهم كثرتهم وقوتهم فقال - تعالى - : ( لَقَدْ نَصَرَكُمُ الله . . . غَفُورٌ رَّحِيمٌ ) .قال ابن كثير . هذه أول آية نزلت من براءة يذكر - تعالى - المؤمنين فضله عليهم وإحسانه لديهم فى نصره إياهم فى مواطن كثيرة من غزواتهم مع رسوله ، وأن ذلك من عنده - تعالى - : وبتأييده وتقديره لا بعددهم ، ونبههم إلى أن النصر من عند سواء قل الجمع أم كثر ، فإنهم يوم حنين أعجبتهم كثرتهم ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيئاً فولوا مدبرين إلا القليل منهم . . . ثم أنزلا لله نصره على رسوله والمؤمنين ." وقد كانت واقعة حنين بعد فتح مكة فى شوال سنة ثمان من الهجرة : وذلك أنه لما فرغ - صلى الله عليه وسلم - من فتح مكة ، وتمهدت أمورها ، وأسلم عامة أهلها ، وأطلقهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم بلغه أن هوزان جمعوا له ليقاتلوه ، معهم ثقيف بكمالها وبنو سعد بن بكر .فخرج إليهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى جيشه الذى جاء للفتح وهو عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب ، ومعه الذين أسلموا من أهل مكة

وهم الطلقاء فى ألفين . فسار بهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى العدو ، فالتقوا بواد بين مكة والطائف يقال له حنين ، فكانت فيه الموقعة فى أول النهار فى غلس الصبح .انحدروا فى الاودى وقد كمنت فيه هوزان ، فلما تواجهوا لم يشعر المسلمون إلا بهم قد بادروهم ، ورشقوا بالنبال ، وأصلتوا السيوف ، وحملوا حمله رجل واحد . . فعند ذلك ولى المسلمون الأدبار ، وثبت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وثبت معه من أصحابه قريب من مائة .ثم أمر - صلى الله عليه وسلم - عمه العباس - وكان جهير الصوت - أن ينادى بأعلى صوته يا أصحاب الشجرة - أى شجرة بيعة الرضوان التى بايعه المسلمون تحتها على أن لا يفروا عنه - فجعل ينادى بهم . . فجعلوا يقولون : ليبيك لبيك وانعطف الناس فتراجعوا . . فأمرهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن. يصدقوا الحملة ، وأخذ قبضة من تراب ثم رمى بها القوم ، فما بقى إنسان منهم إلا أصابه منها فى عينيه وفمه ما شغله عن القتال ، ثم انهزموا فاتبع المسلمون أقفائهم يتقلون ويأسرون ، وما تراجع بقية الناس إلا والأسرى مجندلة بين ديدى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " .هذه خلاصة لغزوة حنين ، التى اجتمع فيها للمسلمين - للمرة الأولى - جيش تعداده اثنا عشر ألفاً . . . فلما أعجبتهم هذه الكثرة والقوة ، . . أصيبوا بالهزيمة فى أو معركة - ليعلموا أن كثرتهم لن تغنى عنهم شيئاً إذا لم يكن عون الله معهم .فقوله تعالى - : ( لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً

تذكير للمؤمنين ببعض نعم الله عليهم؛ حتى يداموا على طاعته ومحبته .وحتى ( لا يغتروا بقوتهم مهما كثرت .والمواطن : جمع موطن . وهو المكان الذى يقيم فيه الإنسان . يقال : استوطن فلان بمكان كذا ، إذا جعله وطنا له .والمراد بالمواطن هنا : الأماكن التى حدثت فيها الحروب بين المسلمين وأعدائهم .قال الآلوسى : وقوله : ( وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ) معطوف على محل مواطن وعطف ظرف الزمان على ظرف المكان وعكسه جائز . . . وأوجب الزمخشرى كون ( يَوْمَ ) منصوباً بفعل مضمر والعطف من قبيل عطف الجملة على الجملة . .أى : " ونصركم يوم حنين " .وقوله : ( إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ) بدل من يوم حنين . أو عطف بيان له .وأعجبتكم : من الإعجاب بمعنى السرور بما يتعجب منه ، وسبب هذا الإعجاب أن عدد المسلمين كان اثنا عشر ألفا ، وعددهم أعدائهم كان أربعة آلاف .وقوله : ( فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً ) بيان للأثر السئ الذى أعقب الإعجاب بالكثرة ، وأن سرورهم بهذه الكثرة لم يدم طويلاً ، بل تبعه الحزن والهزيمة .وقوله : ( تُغْنِ ) من الغناء بمعنى النفع . تقول : ما يغنى عنه : هذا الشئ ، أى : ما يجزئ عنه وما ينفعك .وقوله : ( وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأرض بِمَا رَحُبَتْ ) بيان لشدة خوفهم وفزعهم .قال القرطبى : - والرحب - بضم الراء - السعة . تقول منه : فلان رحب الصدر . والرحب - بالفتح - الواسع . تقول منه : بلد رحب وأرض رحبة .وقيل : الباء بمعنى مع ، أى : وضاقت عليكم الأرض مع رحبها ، وقيل معنى على . أى : على رحبها . وقيل - المعنى برحبها فتكون " ما " مصدرية .والمعنى : اذكروا - أيها المؤمنون نعم الله عليكم ، وحافظوا عليها بالشكر وحسن الطاعة ، ومن مظاهر هذه النعم أنه - سبحانه - قد نصركم على أعدائكم مع قلتكم . فى مواقف حروب كثيرة؛ كغزوة بدر ، وغزوة بنى قينقاع والنضير . . كما نصركم . أيضاً . فى يوم غزوة حنين ، وهو اليوم الذى راقتكم فيه كثرتكم فاعتمدتم عليها حتى قال بعضكم : لن نغلب اليوم من قلة . .ولكن هذه الكثرة التى أعجبتم بها لم تنفعكم شيئاً من النفع فى أمر العدو بل انهزمتم أمامه فى أول الأمر ، وضاقت فى وجوهكم الأرض مع رحابتها وسعتها بسبب شدة خوفكم ، فكنتم كما قال الشاعر :كأن بلاد الله وهى عريضة ... على الخائف المطلوب كِفّة حابلووقوله : ( ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ) تذييل مؤكد لما قبله وهو شدة خوفهم .ووليتم : من التولى بمعنى الإعراض . ومدبرين : من الإيار بمعنى الذهاب إلى الخلف .أى ثم وليتم الكفار ظهوركم منهزمين لا تلوون على شئ .وهكذا ، نرى الآية : . . الكريمة تصور ما حدث من المؤمنين فى غزوة حنين تصويراً بديعاً معجزاً ، فهى تنتقل من تصوير سرورهم بالكثرة ، إلى تصوير عدم نفعهم بهذه الكثرة ، إلى تصوير شدة خوفهم حتى لكأن الأرض على سعتها تضيق بهم ، وتقف فى وجوههم إلى تصوير حركاتهم الحسية المتثلة فى تولية الأدبار ، والنكوص على الأعقاب .

ثم انزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وانزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين

كما فسرها الوسيط وبعد هذا الخوف الشديد الذى أصاب المؤمنين فى مبدأ لقائهم ) : بأعدائهم فى غزوة حنين ، يجئ نصر الله الذى عبر عنه - سبحانه - بقوله ( ثُمَّ أَنزَلَ الله سَكِينَتَهُ على رَسُولِهِ وَعَلَى المؤمنين

والسكينة : الطمأنينة والرحمة والأمنة وهى فعلية من السكون : وهو ثبوت. الشيئ بعد التحرك . أو من السكن وهو كل ما سكنت إليه واطمأنت به من أهل - وغيرهم .أى : ثم أنزل الله - تعالى - على رسوله - صلى الله عليه وسلم

وعلى المؤمنين رحمته التى تسكن إليها القلوب ، وتطمئن بها اطمئناناً يستتبع النصر القريب .وقد كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى حاجة إلى هذه السكينة؛ لأنه مع شجاعته وثباته ووقوفه فى وجه الأعداء كالطود الأشم . أصابه الحزن والآسى لفرار هذا العدد الكبير من أصحابه عنه .وكان المؤمنون الذين ثتبوإ من حوله فى حاجة إلى هذه السكينة؛ ليزدادوا ثباتاً على ثباتهم وإيماناً على إيمانهم .وكان الذين فروا فى حاجة إلى السكينة ، ليعود ، إليهم ثباتهم ، فيقبلوا على قتالهم أعدائهم بعد أن دعاهم رسولهم - صلى الله عليه وسلم - إلى ذلك .وقوله : ( وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا ) بيان لنعمة أخرى سوى إنزال السكينة .أى : وأنزل مع هذه السكينة جنوداً من الملائكة لم تروها بأبصاركم ، ولكنكم وجدتم آثرها فى قلوبكم ، حيث عاد إليكم ثباتكم وإقدامكم .وقوله : ( وَعذَّبَ الذين كَفَرُواْ ) ، بيان لنعمة ثالثة سوى السابقتين .أى : أنزل سكينته وأنزل جنوداً لم تروها ، وعذب الذين ) : كفروا بأن سلطكم عليهم فقتلتم منهم من قتلتم ، وأسرتم من أسرتم .وقوله وذلك جَزَآءُ الكافرين ) أى وذلك الذى نزل بهؤلاء الكافرين من التعذيب جزاء لهم على كفرهم ، وصدهم عن سبيل الله .

ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم

- كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر قدرته ورحمته بعباده فقال تعالى - ( ثُمَّ يَتُوبُ الله مِن بَعْدِ ذلك على مَن يَشَآءُ والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ) .أى : ثم يتوب الله - تعالى - من بعد هذا التعذيب للذين كفروا فى الدنيا ، على من يشاء أن يتوب عليهم منهم ، بأن يوفقه للدخول فى الإسلام ، والله - تعالى - واسع المغفرة ، عظيم الرحمة ، لا يحاسب الكافرين بعد إيمانهم على ما حصل منهم من كفر .قال - تعالى - : ( قُل لِّلَّذِينَ كفروا إِن يَنتَهُواْ يُغَفَرْ لَهُمْ مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ ) : يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ ) قال ابن كثير : وقوله ثُمَّ يَتُوبُ الله مِن بَعْدِ ذلك على مَن يَشَآءُ . . . ) قد تاب الله على بقية هوزان فاسلموا ، وقدموا عليهم مسلمين، ولحقوه وقد قارب مكة عند الجعرانة ، وذلك بعد الوقعة بقريب من عشرين يوماً فعند ذلك خيرهم بين سبيهم وبين أموالهم فاختاروا سبيهم ، وكانوا ستة آلاف أسير ، ما بين صبى وامرأة فرده عليهم : وقسم الأموال بين الغانمين ، ونفل أناسا من الطلقاء لكى يتألف قلوبهم على الإسلام ، فأعطاهم مائة مائة من الإبل ، وكان من جملة من اعطاهم مائة من الإبل مالك بن عوف النضرى واستعمله على قومه .وبذلك نرى هذه الآيات الكريمة قد ذكرت لامؤمنين بجانب من نعم الله عليهم . ومن رحمته بهم ، وأرشدتهم إلى أن النصر لا يتأتى لمن أعجبوا بكثرتهم فانشغلوا بها عن الاعتماد عليه - سبحانه - وإنما النصر يتأتى لمن أخلصوا لله سرائرهم وعلانيتهم . وباشروا الأسباب الى شرعها - سبحانه - للوصول إلى الفوز والظفر قال ابن القيم : افتتح الله - تعالى - غزوات العرب بغزوة بدر ، وختم غزوهم. بغزوة حنين ، لهذا يقرن بين هاتين بالذكر ، فقال بدر وحنين وإن كان بينهما سبع سنين . . وبهاتين الغزوتين طفئت جمرة العرب لغزوة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والمسلمين . فالأولى خوفتهم وكسرت من حدتهم ، والثانية استفرغت قواهم ، واستنفدت سهامهم ، وأذلت جمعهم ، حتى لم يجدوا بدا من الدخول فى دين الله .

يا ايها الذين امنوا انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله ان شاء ان الله عليم حكيم

كما فسرها الوسيط وبعد هذا التذكير والتوجيه من الله - تعالى - لعباده المؤمنين - وجه - سبحانه - إليهم نداء أمرهم فيه بمنع المشركين من قربان المسجد الحرام ، ووعدهم بالعطاء الذى يغنيهم ، فقال : ( ياأيها الذين آمنوا وقوله : ( نَجَسٌ ) بالتحريك - مصدر نجس الشئ ينجس فهو نجس إذا. ( . . . . كان قذراً غير نظيف ، وفعله من باب " تعب " وفى لغة من باب " قتل " .قال صاحب الكشاف : النجس : مصدر . يقال نجس نجسا وقذر قذرا ، لأن معهم الشرك الذى هو بمنزلة النجس ، ولأنهم لا يتطهرون ولا يغتسلون ولا يجتنبون النجاسات فهى ملابسة لهم . أو جعلوا كأنهم النجاسة بعينها ، مبالغة فى وصفهم بها .قيل : وجوز أن يكون لفظ " نجس " صفة مشبهة - وإليه ذهب الجوهرى ولا بد حينئذ من تقدير موصوف مفرد لفظاً مجمع معنى ، ليصح الإخبار به عن الجمع . أى جنس ونجس ونحوه .وقوله : ( إِنَّمَا المشركون نَجَسٌ ) فيه ما فيه من التعبير البديع المصور المجسم لهم ، حتى لكأنهم بأرواحهم وماهيتهم وكيانهم : النجس يمشى على الأرض فيتحاشاه المتطهرون ، ويتحاماه الأتقياء من الناس .وقوله : ( فَلاَ يَقْرَبُواْ المسجد الحرام بَعْدَ عَامِهِمْ هذا ) تفريع على نجاستهم والمراد النهى عن الدخول إلا أنه عبر عنه بالنهى عن القرب مبالغة فى إبعادهم عن المسجد الحرام .والنهى وإن كان موجهاً إلى المشركين ، إلا أن المقصود منه نهى المؤمنين عن تمكينهم من ذلك ، والمراد

بقوله : ( بَعْدَ عَامِهِمْ هذا ) العام الذى حصل فيه النداء بالبراءة من المشركين ، وبعدم طوافهم بالمجسد الحرام . . وهو العام التاسع من الهجرة
قال ابن كثير : أمر الله عباده المؤمنين الطاهرين ديناً وذاتاً بنفى.
المشركين الذين هم نجس دينا - عن المسجد الحرام ، وأن لا يقربوه بعد نزول هذه الآية . وكان نزولها فى سنة تسع .ولهذا بعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عليا صحبة أبى بكر رضى الله عنهما - عامئذ ، وأمره أن ينادى فى المشركين : أن لا يحج بعد هذا العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان . فأتم الله ذلك وحكم به شرعاً وقدراً .وقوله : ( وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ الله مِن فَضْلِهِ إِن شَآءَ ) بشارة من الله تعالى للمؤمنين بأن سيعطيهم من فضله ما يغنيهم عن المشركين .والعيلة : الفقر والفاقة : يقال : عال الرجل يعيل عيلة فهو عائل إذا افتقر ، ومنه قول الشاعر :وما يدرى الفقير متى غناه ... وما يدرى الغنى متى يقيلوقرئ " عائلة بمعنى المصدر كالعافية : اسم فاعل صفة لموصوف مؤنث مقدر أى : حالا عائلة "
قال ابن جرير - بعد أن ساق روايات فى سبب نزول الآية - : عن عطية العوفى. قال : لما قيل " ولا يحج بعد العام مشرك " قالوا : قد كنا نصيب من بياعاتهم فى الموسم ، قال فنزلت ( ياأيها الذين آمنوا إِنَّمَا المشركون نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ المسجد الحرام بَعْدَ عَامِهِمْ هذا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ الله مِن فَضْلِهِ ) الآية .والمعنى :لا ، تمكنوا أيها المؤمنون . المشركين من دخول المسجد الحرام بعد هذه السنة لأنهم نجس . . . ولا تخشوا الفقر والفاقة بسبب عدم تمكينهم ، حيث إنكم تتبادلون معهم التجارات والمبايعات . . لأن الله - تعالى - قد وعدكم أن يغنيكم من فضله بالعطايا والخيرات التى تكفيكم أمر معاشكم . .وقد أنجز ، الله - تعالى - لهم وعده ، فأرسل السماء عليهم مدرارا ، وفتح لهم البلاد فكثرت بين أيديهم الغنائم وألوان الخيرات ، ودخل فى دين الله من هم أيس حالا وأغنى مالا من هؤلاء المشركين . .قال صاحب الكشاف : قوله : ( فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ الله مِن فَضْلِهِ ) أى : من عطائه أو من تفضله بوجه آخر ، فأرسل عليهم السماء مدرارا ، فأغزر بها خيرهم ، وأكثر مسيرهم . وأسلم أهل تبالة وجرس فحملوا إلى مكة الطعام وما يعاش به : فكان أعود عليهم مما خافوا العيلة لفواته .والتقييد بالمشيئة فى قوله : ( إِن شَآءَ ) ليس للتردد ، بل هو لتعليم المؤمنين رعاية الأدب مع الله - تعالى - كما فى قوله ) : لَتَدْخُلُنّ المسجد الحرام إِن شَآءَ الله آمِنِينَ ) ولبيان أن هذا الاغناء بإرادته - سبحانه - وحده ، فعليهم أن يجعلوا اعتمادهم عليه ، وتضرعهم إليه لا إلى غيره ، وللتنبيه على أن عطاءه سبحانه لهم ، هو من باب التفضل ولا الوجوب ، لأنه لو كان واجبا مع قيده بالمشيئة .ولما كانت مشيئته - سبحانه - تجرى حسب مقتضى علمه وحكمته ، فقد ختم الآية بقوله ) : إِنَّ الله عَلِيمٌ حَكِيمٌ ) .أى : إن الله عليم بأحوالكم ومصالحكم ، وبما يكون عليه أمر حاضركم ومستقبلكم حكيم فيما شرعه لكم . فاستجيبوا له لتنالوا السعادة فى دنياكم وآخرتكم .هذا ، ومن الأحكام والآداب التى استنبطها العلماء من هذه الآية ما يأتى :1- أن المراد بالمشركين فى الآية ما يناول عبدة الأوثان وغيرهم من أهل الكتاب . كما هو مقتضى ظاهر اللفظ ، وكما يدل عليه قوله - تعالى - ( إِنَّ الله لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَآءُ . . ) أى :لا يغفر أن يشرك به بأى لون من ألوان الشرك .ويرى كثير من الفقهاء أن المراد بالمشركين هنا عبدة الأوثان فحسب ، لأن الحديث خاص بهم من أول السورة إلى هنا .2- يرى جمهور الفقهاء أن نجاسة المشركين مرجعها إلى خبث بواطنهم لعبادتهم سوى الله - تعالى - أما أبدانهم فطاهرة .وقد بسط صاحب المنار القول فى هذه المسألة فقال ما ملخصه : " قال بعضهم بنجاسة أعيان المشركين ، ووجوب تطهير . . ما تصيبه أبدانهم مع البلل .حكى هذا القول عن ابن عباس والحسن البصرى وجمهور الظاهرية . .ويرى جمهور السلف والخلف وأصحاب المذاهب الأربعة أن أعيانهم طاهرة . لأنه من المعلوم أن المسلمين كانوا يعاشرون المشركين ويخالطونهم . ومع هذا فالنبى - صلى الله عليه وسلم - لم يأمر بغسل شئ مما أصابته أبدانهم .. بل الثابت أنه - صلى الله عليه وسلم - توضأ من مزادة مشركة وأكل من طعام اليهود . . وأطعم هو وأصحابه وفداً من الكفار ولم يأمر بغسل الأوانى التى أكلوا وشربوا وروى الإمام أحمد وأبو داود من حديث عبد الله بن مسعود قال : كنا نغزو مع رسول الله ، فنصيب من آنية المشركين وأسقيتهم فنستمتع بها ولا يعيب ذلك علينا . .3- اختلف الفقهاء فى المراد بالمسجد الحرام فى قوله - تعالى - ( فَلاَ يَقْرَبُوا المسجد الحرام بَعْدَ عَامِهِمْ هذا . . . ) .فقال ابن عباس وابن جبير ومجاهد وعطاء : المراد به الحرم كله فيشمل المسجد الحرام ومكة ، لأن المسجد الحرام حيث أطلق فى القرآن فالمراد به الحرم كله . وعليه فالكافر يمنع من دخول الحرم كله . .ويرى الشافعى أن المراد المسجد الحرام بخصوصه أخذا بظاهر اللفظ .قال القرطبى : وقال الشافعى : الآية فى سائر المشركين ، خاصة فى المسجد الحرام ولا يمنعون من دخول غيره ، فأباح دخول اليهود والنصرانى فى سائر المساجد ، ويرى الإمام مالك أن المراد المسجد الحرام بالنص وبقية المساجد تقاس عليه.

لأن العلة - وهى النجاسة - موجودة فى المشركين ، والحرمة موجودة فى كل ، مسجد .وعليه فلا يجوز تمكينهم لا من المسجد الحرام ولا من غيره من المساجد
ويرى الأحناف أن المراد بالمسجد الحرم كله ، إلا أن النهى هنا ليس منصباً.
: على دخوله وإنما هو منصب على المنع من الحج والعمرة . ومن الحج إليه أى
لا تمكنوا - أيها المؤمنون - المشركين من الطواف بالمسجد الحرام بعد عامهم
هذا .قال الآلوسى : ويؤيده قوله - تعالى - ( لْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ
. هذا ) ، فإن تقييد النهى يدل على اختصاص المنهى عنه بوقت من اوقات العام
. . أى :لا يحجوا ولا يعتمروا بعد حج عامهم هذا وهو عام تسعة من الهجرة
ويدل عليه نداء على - كرم الله وجهه - يوم نادى ببراءة ألا لا يحج بعد
عامنا هذا مشرك ، وكذا قوله - سبحانه - ( وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً ) أى
فقراً بسبب منعهم ، لما أنهم كانوا يأتون فى الموسم بالمتاجر ، فإنه إنما
يكون إذا منعوا من دخول الحرم كما لا يخفى .ثم قال : والحاصل أن الإمام
الأعظم يقول بالمنع عن الحج والعمرة ويحمل النهى عليه ، ولا يمنعون عنده من
دخول المسجد الحرام ومن دخول سائر المساجد .4- قال القرطبى : فى هذه الآية
، دليل على أن تعلق القلب بالأسباب فى الرزق جائز ، وليس ذلك بمناف للتوكل
وإن كان الرزق مقدراً ، ولكنه علقه بالأسباب لتظهر القلوب التى تتعلق
بالأسباب ، من القلوب التى تتوكل على رب الأرباب وقد تقدم أن السبب لا
ينافى التوكل ، ففى الحديث الذى أخرجه البخارى أن الرسول - صلى الله عليه
وسلم - قال :" لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو
خماصا وتروح بطانا " - أى : تغدو صباحا وهى جياع ، وتعود عشية وهى ممتلئة
البطون - .هذا ، وبتدبير آيات السورة الكريمة - من أولها إلى هنا - نراها
قد وضحت العلاقات النهائية بين المسلمين وعبدة الأوثان ، وفصلت كثيراً من
الأحكام التى تخص الفريقين ، ومن ذلك أنها قررت :1- براءة الله ورسوله من
عهود المشركين الذين مردوا على نقض المواثيق .2- إعطاؤهم مهلة مقدارها
-أربعة أشهر يتدبرون خلالها أمرهم ، دون أن يتعرض المسلمون لهم بسوء .3
إعلان الناس جميعاً يوم الحج الأكبر بهذه البراءة . .4- أمر المؤمنين
بإتمام مدة العهد لمن حافظ من المشركين على عهده .5- بيان ما يجب على
المؤمنين فعله إذا ما انقضت أشهر الأمان التى أعطيت للمشركين .6- إرشاد
المؤمنين إلى أن من الواجب عليهم تأمين المشرك المستجير بهم حتى يسمع كلام
الله ، ويطلع على حقيقة الإسلام . . ثم توصيله إلى موضع أمنه إن لم يسلم
بيان الأسباب التى تدعو إلى قتال المشركين ، وإلى وجوب البراءة منهم -7.
-بيان بعض الحكم والأسرار التى من أجلها شرع الجهاد فى الإسلام .9 -8.
بيان أن المشركين ليسوا أهلاً لعمارة مساجد الله . . وأن الذين هم أهل لذلك
المؤمنون الصادقون .10- توجيه المؤمنين إلى أن إيمانهم يحتم عليهم أن :
يؤثروا محبة الله ورسوله على أى شئ آخر ، من الآباء والأبناء والإخوان
تذكيرهم بجانب من نعم الله عليهم حيث نصرهم فى مواطن كثيرة ونصرهم يوم -11.
غزوة حنين ، بعد أن هزموا فى أول المعركة دون أن تنفعهم كثرتم التى أعجبوا
بها .12- نهيهم عن تمكين المشركين من قربان المسجد الحرام ، وإزالة الوساوس
التى قد تخطر ببالهم بسبب هذا النهى ، بأن وعدهم - سبحانه - بأنه سيعطيهم
من فضله ما يغنيهم عن المكاسب التى تأتيهم عن طريق تبادل المنافع مع
المشركين فى موسم الحج .هذه أهم الموضوعات التى تعرضت لها سورة التوبة فى
. ثمان وعشرين آية من أولها إلى هنا . وهى موضوعات وضحت . كما أسلفنا
. الأحكام النهائية فى علاقات المسلمين بالمشركين عبدة الأوثان

قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الاخر ولا يحرمون ما حرم الله
ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد
وهم صاغرون

كما فسرها الوسيط ثم ساقت السورة الكريمة بعد ذلك سبع آيات بينت فيها ما
يجب أن يكون عليه موقف المسلمين من المنحرفين من أهل الكتاب ، كما حكت بعض
أقوالهم الذميمة ، وأفعالهم القبيحة ، التى تدعو المسلمين إلى قتالهم حتى
) - يخضعوا لسلطان الإسلام ، وقد بدئت هذه الآيات بقوله - تعالى
قَاتِلُواْ الذين لآ يُؤْمِنُونَ . . . . ) .قال الإمام الرازى : اعلم
أنه لما ذكر - سبحانه - حكم المشركين فى إظهار البراءة من عهدهم ، وفى
إظهار البراءة عنهم فى أنفسهم ، وفى وجوب مقاتلتهم ، وفى تبعيدهم عن المسجد
الحرام . . ذكر بعده حكم أهل الكتاب ، وهو أن يقاتلوا إلى أن يعطوا الجزية
فحينئذ يقرون على ما هم عليه بشرائط ، ويكونون عند ذلك من أهل الذمة والعهد
- وقال ابن كثير ما ملخصه : هذه الآية أول أمر نزل بقتال أهل الكتاب.
اليهود والنصارى . وكان ذلك فى سنة تسع ، ولهذا " تجهز رسول الله - صلى
الله عليه وسلم - لقتال الروم ، ودعا الناس إلى ذلك ، وأظهره لهم ، وبعث
إلى أحياء العرب حول المدينة ، فندبهم فأوعبوا معه ، واجتمع من المقاتلة
نحو من ثلاثين ألفا ، وتخلف بعض الناس من أهل المدينة . ومن حولها من
- المنافقين وغيرهم ، وكان ذلك فى عام جدب ، ووقت قيظ حر . وخرج رسول الله
، صلى الله عليه وسلم - يريد الشام لقتال الروم ، فبلغ تبوك ، ونزل بها

وأقام بها قريباً من عشرين يوماً ، ثم استخار الله فى الرجوع ، فرجع عامه
ذلك لضيق الحال ، وضعف الناس . . . " .وقوله : ( قَاتِلُواْ الذين ) أمر
منه - سبحانه - للمؤمنين بقتال أهل الكتاب ، وبيان للأسباب التى اقتضت هذا
الأمر ، وهى أنهم :أولاً : ( لاَ يُؤْمِنُونَ بالله ) لأنهم لو كانوا
، - مؤمنين به إيماناً صحيحاً ، لاتبعوا رسوله محمداً - صلى الله عليه وسلم
ولأن منهم من قال : ( عُزَيْرٌ ابن الله ) ومنهم من قال : ( المسيح ابن
- الله ) وقولهم هذا كفر صريح ، لأنه - سبحانه - منزله عما يقولون .قال
تعالى - ( قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ الله الصمد لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ
وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ ) وثانياً : أنهم "لا يؤمنون باليوم
. الآخر " على الوجه الذى أمر الله - تعالى - به ، ومن كان كذلك كان إيمانه
على فرض وجوده . كلا إيمان .قال الجمل ما ملخصه : فإن قلت : اليهود
والنصارى يزعمون أنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر فكيف نفى الله عنهم
- ذلك؟قلت : إن إيمانهم بهما باطل لا يفيد ، بدليل أنهم لم يؤمنوا بالنبى
صلى الله عليه وسلم - فلما لم يؤمنوا به كان إيمانهم بالله واليوم الآخر
كالعدم فصح نفيه فى الآية ولأن إيمانهم بالله ليس كإيمان المؤمنين ، وذلك
أن اليهود يعتقدون التجسيم والتشبيه ، والنصارى يعتقدون الحلول ، ومن اعتقد
ذلك فليس بمؤمن بالله بل هو مشرك .وأيضاً فإن إيمانهم باليوم الآخر ليس
كإيمان المؤمنين ، وذلك لأنهم يعتقدون بعث الأرواح دون الأجساد ، وأن أهل
الجنة لا يأكلون فيها ولا يشربون ولا ينكحون - أى أنهم يرون نعيم الجنة
وعذاب النار يتعلقان بالروح فقط ولا شأن للجسد بذلك .ومن اعتقد ذلك فليس
إيمانه كإيمان المؤمنين وإن زعم أنه مؤمن .وثالثاً : أنهم ( وَلاَ
يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ الله وَرَسُولُهُ ) أى :لا يحرمون ما حرمه الله
ورسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - فى القرآن والسنة ، وفضلاً عن ذلك فهم
لا يلتزمون ما حرمته شريعتهم على ألسنة رسلهم ، وإنما غيروا وبدلوا فيها
على حسب ما تمليه عليهم أهواؤهم . أى أنهم لا يحرمون ما حرمه الله لا فى
شريعتنا ولا فى شريعتهم .فاليهود - بجانب كفرهم بشريعتنا - لم يطيعوا
شريعتهم ، بدليل أنهم استحلوا أكل أموال الناس بالباطل مع أنها . أى
شريعتهم . نهتهم عن ذلك .قال - تعالى - ( وَأَخْذِهِمُ الربا وَقَدْ
- نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ الناس بالباطل . . . ) والنصارى
بجانب كفرهم - أيضاً - بشريعتنا - لم يطيعوا شريعتهم بدليل أنهم ابتدعوا
الرهبانية مع أن شريعتهم لم تشرع لهم ذلك .قال - تعالى - ( ثُمَّ
قَفَّيْنَا على آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابن مَرْيَمَ
وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيل وَجَعَلْنَا فِي قُلُوب الذين اتبعوه رَأْفَةً
وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابتدعوها مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ
) : ابتغآء رِضْوَانِ الله فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ) ورابعاً
وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الحق ) وقوله : ( يَدِينُونَ ) بمعنى يعتقدون
ويطيعون . يقال : فلان يدين بكذا إذا اتخذه دينه ومعتقده وأطاع أوامره
: ونواهيه .والمراد بدين الحق : دين الإسلام الناسخ لغيره من الأديان .أى
أنهم لا يتخذون دين الإسلام ديناً لهم ، مع أنه الدين الذى ارتضاه الله
لعباده ، والذى لا يقبل - سبحانه - ديناً سواه . قال - تعالى - : ( اليوم
أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ
لَكُمُ الإسلام دِيناً . . ) وقال - تعالى - : ( وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ
( الإسلام دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخرة مِنَ الخآسرين
ويصح أن يكون المراد بدين الحق . ما يشمل دين الإسلام وغيره من الأديان
السماوية التى جاء بها الأنبياء السابقون .أى : ولا يدينون بدين من الأديان
التى أنزلها الله على أنبيائه ، وشرعها لعباده ، وإنما هم يتبعون أحبارهم
) : ورهبانهم فيما يحلونه لهم ويحرمونه عليهم .وعبر عنهم فى قوله
قَاتِلُواْ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ . . ) بالاسم الموصول للإيذان بعلية ما
فى حيز الصلة للأمر بالقتال .أى أن العلة فى الأمر بقتالهم ، كونهم لا
يؤمنون بالله لا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا
يدينون دين الحق .وقوله : ( مِنَ الذين أُوتُواْ الكتاب ) بيان للمتصفين
بهذه الصفات الأربعة وهم اليهود والنصارى؛ لأن الحديث عنهم ، وعن الأسباب
: التى توجب قتالهم .والمراد بالكتاب : جنسه الشامل للتوراة والإنجيل .أى
قاتلوا من هذه صفاتهم ، وهم اليهود والنصارى الذين أعطاهم الله التوراة
والإنجيل - عن طريق موسى وعيسى - عليهما السلام - ولكنهم لم يعملوا
بتعاليمهما وإنما عملوا بما تمليه عليهم أهواؤهم وشهواتهم .والمقصود بقوله
تميزهم عن المشركين عبدة الأوثان في ( مِنَ الذين أُوتُواْ الكتاب ) :
الحكم ، لأن حكم هؤلاء قتالهم حتى يسلموا ، أما حكم أهل الكتاب فهو القتال
أو الإسلام ، أو الجزية :وقوله : ( حتى يُعْطُواْ الجزية عَن يَدٍ ،
وَهُمْ صَاغِرُونَ ) غاية لإنهاء القتال .أى : قاتلوا من هذه صفاتهم من
أهل الكتاب حتى يعطو الجزية عن طوع وانقياد ، فإن فعلوا ذلك فاتركوا قتالهم
والجزية : ضرب من الخراج يدفعه أهل الكتاب للمسلمين وهى - كما يقول.
القرطبى : - من جزى يجزى - مجازاة - إذا كافأ من اسدى إليه . فكأنهم أعطوها
للمسلمين جزاء ما منحوا من الأمن ، وهى كالقعدة والجلسة ، ومن هذا المعنى

قول الشاعر : يجزيك أو يثنى عليك وإن من ... أثنى عليك بما فعلت فقد
جزى والمراد بإعطائها فى قوله : ( حتى يُعْطُوا الجزية ) ، التزام دفعها
وإن لم يذكر الوقت المحدد لذلك . واليد هنا : يحتمل أن تكون كناية عن
الاستسلام والانقياد . أى : حتى يعطوا الجزية عن خضوع وإنقياد . ويحتمل أن
تكون كناية و " عن " الدفع نقداً بدون تأجيل . أى : حتى يعطوها نقداً بدون
تسويف أو تأخير . ويحتمل أن تكون على معناها الحقيقى ، و " عن " بمعنى الباء
أى : حتى يعطوها بيدهم إلى المسلمين لا أن يبعثوا بها بيد أحد سواهم . وهذه
المعانى لليد إنما تتأتى إذا أريد بها يد المعطى . أى : يد الكتابى . أما
إذا أردنا بها اليد الآخذة - وهى يد الحاكم المسلم - ففى هذه الحالة يكون
معناها القوة والقهر والغلبة . أى : حتى يعطوها عن يد غالبة قوية لا قبل لهم
بالوقوف أمامها . ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال : قوله : " عن يد " إما أن
يراد يد المعطى أو الآخذ فمعناه على إرادة يد المعطى حتى يعطوها عن يده
، أى عن يد مؤاتيه غير ممتنعة ، إذ أن من أبى وامتنع لم يعط يده ، بخلاف
المطيع المنقاد ، ولذلك قالوا : أعطى بيده ، إذا انقاد وأصحب - أى : سهل
بعد صعوبة - ألا ترى إلى قولهم : نزع يده عن الطاعة ، كما يقال : خلع ربقة
الطاعة عن عنقه . أو المعنى : حتى يعطوها عن يد إلى يد نقداً غير نسيئة ، لا
مبعوثاً بها على يد أحد ، ولكن يد المعطى إلى يد الآخذ . ومعناه على إرادة
يد الآخذ : حتى يعطوها عن يد قاهرة مستولية - وهى يد المسلمين - أو حتى
يعطوها عن إنعام عليهم ، لأن قبول الجزية منهم ، وترك أرواحهم لهم ، نعمة
عظيمة عليهم . وقوله : ( وَهُمْ صَاغِرُونَ ) من الصغار بمعنى الذل والهوان
. يقال : صغر فلان يصغر صغراً وصغاراً إذا ذل وهان وخضع لغيره . والمعنى :
قاتلوا من هذه صفاتهم من أهل الكتاب حتى يدفعوا لكم الجزية عن طواعية
وانقياد . وهم أذلاء خاضعون لولايتكم عليهم . . فإن الذين لا يؤمنون بالله
ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرمه الله ورسوله . ولا يتخذون الدين الحق
ديناً لهم . يستحقون هذا الهوان فى الدنيا ، أما فى الآخرة فعذابهم أشد
وأبقى . هذا . ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآية ما يأتى : 1- إن
هذه الآية أصل فى مشروعية الجزية ، وأنها لا تؤخذ إلا من أهل الكتاب عند
كثير من الفقهاء - لأن أهل الكتاب هم الذين يخيرون بين الإسلام أو القتال
أو الجزية ، أما غيرهم من مشركى العرب فلا يخيرون إلا بين الإسلام أو
القتال . قال القرطبى ما ملخصه : وقد اختلف العلماء فيمن تؤخذ منه الجزية
فقال الشافعى : لا تقبل الجزية إلا من أهل الكتاب خاصة ، عربا كانوا أو
عجماً لهذه الآية : فإنهم هم الذين خصوا بالذكر فتوجه الحكم إليهم دون من
سواهم ، لقوله - تعالى - فى شأن المشركين : ( فاقتلوا المشركين حَيْثُ
وَجَدتُّمُوهُمْ ) ولم يقل : حتى يعطوا الجزية كما قال فى أهل الكتاب . وقال
الشافعى : وتقبل من المجوس لحديث " سنوا بهم سنة أهل الكتاب " أى : فى أخذ
الجزية منهم . وبه قال وأبو ثور . وهو مذهب الثورى وأبى حنيفة وأصحابه وقال
الأوزاعى : تؤخذ الجزية من كل عابد وثن أو نار أو جاحد أو مكذب . وكذلك
مذهب مالك ؛ فإنه يرى أن الجزية تؤخذ من جميع أجناس الشرك والجحد ، عربيا
أو عجمياً تغليبا أو قرشياً ؛ كئنا من كان إلا المرتد . 2- أن أخذ الجزية
منهم إنما هو نظير ما ينالهم ، وكفنا عن قتالهم ، ومساهمة منهم فى رفع شأن
الدولة الإسلامية التى أمنتهم وأموالهم وأعراضهم ومعتقداتهم . ومقدساتهم .
وإقرار منهم بالخضوع لتعاليم هذه الدولة وأنهم متى التزموا بدفعها وجب .
علينا حمايتهم ، ورعايتهم ، ومعاملتهم بالعدل والرفق والرحمة . . وفى تاريخ
الإسلام كثير من الأمثلة التى تؤيد هذا المعنى ، ومن ذلك ، ما جاء فى كتاب
الخراج لأبى يوسف أنه قال فى خطابه لهارون الرشيد " وينبغى يا أمير
المؤمنين - أيدك الله - أن تتقدم فى الرفق بأهل ذمة نبيك وابن عمك محمد
- صلى الله عليه وسلم - والتفقد لهم حتى لا يظلموا ولا يؤذوا ولا يكلفوا فوق
طاقتهم ، ولا يؤخذ شئ من أموالهم إلا بحق يجب عليهم ؛ فقد روى عن رسول
الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : " من ظلم من أمتى معاهداً أو كلفه
فوق طاقته فأنا حجيجه " . وكان فيما تكلم عمر بن الخطاب عند وفاته : أوصى
الخليفة من بعدى بذمة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يوفى لهم بعهدهم
وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفوهم فوق طاقتهم . وجاء فى كتاب " أشهر مشاهير ،
الإسلام " أن جيوش التتار ، لما اكتسحت بلاد الإسلام من حدود الصين إلى
الشام ، ووقع فى أسرهم من وقع من المسلمين والنصارى ثم خضد المسلمون شوكة
التتار ، ودان ملوكهم بالإسلام ، خاطب شيخ الإسلام ابن تيمية ، أمير
التتار بإطلاق الأسرى فسمح له بالمسلمين وأبى أن يسمح بأهل الذمة ، فقال
له شيخ الإسلام : لا بد من إطلاق وجميع من معك من اليهود والنصارى الذين
هم أهل ذمتنا ولا ندع أسيرا لا من أهل الملة ، ولا من أهل الذمة ، فأطلقهم
له . وجاء فى كتاب " الإسلام والنصرانية " للأستاذ الإمام محمد عبده ما
ملخصه : " . . . الإسلام كان يكتفى من الفتح بإدخال الأرض المفتوحة تحت
سلطانه ، ثم يترك الناس وما كانوا عليه من دين . ثم يكلفهم بجزية يدفعونها
لتكون عوناً على صيانتهم والمحافظة على أمنهم فى ديارهم ، وهم عقائدهم
ومعابدهم وعاداتهم بعد ذلك أحرار ، لا يضايقون فى عمل ، ولا يضامون فى
معاملة " . خلفاء المسلمين كانوا يوصون قوادهم باحترام العباد الذين انقطعوا

عن العامة فى الصوامع والأديرة للعبادة ، كما كانوا يوصونهم باحترام دماء النساء والأطفال وكل من لم يعن على القتال .جاءت السنة بالنهى عن إيذاء أهل الذمة ، وبتقرير ما لهم من الحقوق على المسلمين ، " لهم ما لنا وعليهم ما علينا " و " من آذى ذميا فليس منا " .واستمر العمل على ذلك ما استمرت قوة الإسلام . ولست أبلى إذا انحرف بعض المسلمين عن هذه الأحكام عندما بدأ الضعف فى أبناء الإسلام فضيق الصدر من طبع الضعيف .ثم قال : أما المسيحية فترى لها حق القيام على كل دين يدخل تحت سلطانها تراقب أعمال أهله ، وتخصهم دون الناس بضروب من المعاملة لا يحتملها الصبر مهما عظم ، حتى إذا تمت لها ، القدرة على طردهم - بعد العجز عن إخراجهم من دينهم - طردتهم عن ديارهم وغسلت الديار عن آثارهم ، كما حصل ويحصل فى كل أرض استولت عليها أمة مسيحية استيلاء حقيقاً .ولا يمنع غير المسيحى من تعدى المسيحى إلا كثرة العدد أو شدة العضد ، كما شهد التاريخ ، وكما يشهد كاتبوه .ثم قال : فأنت ترى ، الإسلام يكتفى من الأمم والطوائف التى يغلب على أرضها ، بشئ من المال أقل مما كانوا يؤدونه من قبل تغلبه عليهم ، وبأن يعيشوا فى هدوء ، لا يعكرون معه صفو الدولة ، ولا يخلون بنظام السلطة العامة ، ثم يرخى لهم بعد ذلك عنان الاختيار فى شئونهم الخاصة بهم ، لا رقيب عليهم فيها سوى ضمائرهم ) - وقال الشيخ القاسمى ما ملخصه : قال السيوطى : استدل بقوله - تعالى. وَهُمْ صَاغِرُونَ وَهُمْ صَاغِرُونَ ) من قال إنها تؤخذ بإهانة ، بأن يجلس الآخذ ويقوم الذمى ويطأطئ رأسه ، ويجنى ظهره ، ويقبض الآخذ لحيته . . . إلخ وقد رد الإمام ابن القيم على هذا القائل بقوله : هذا كله مما لا دليل. عليه ، ولا هو من مقتضى الآية ، ولا نقل عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولا عن أصحابه .والصواب فى الآية : أن الصغار : هو التزامهم بجريان أحكام الله عليهم ، وإعطاء الجزية ، فإن ذلك هو الصغار ، وبه قال الشافعى والذى ناره أن ما قاله الإمام ابن القيم فى رده هو عين الصواب ، وأن ما. نقله السيوطى عن بعضهم . . . يتنافى مع سماحة الإسلام وعدله ورحمته بالناس هذا ، وهناك أحكام أخرى تتعلق بالجزية لا محال لذكرها هنا ، فليرجع إليها. من شاء فى بعض كتب الفقه والتفسير .

وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بافواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله انى يؤفكون

كما فسرها الوسيط وبعد أن بين - سبحانه - بعض رذائل أهل الكتاب على سبيل الإجمال ، اتبع ذلك بتفصيل هذه الرذائل ، فحكى أقوالهم الباطلة ، وأفعالهم الذميمة ، ونواياهم السئة فقال - تعالى - : ( وَقَالَتِ اليهود عُزَيْرٌ وَلَوْ كَرِهَ المشركون ) .أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : أتى رسول . . . الله - صلى الله عليه وسلم - سلام بن مشكم ، ونعمان بن أوفى . وشاس بن قيس ومالك بن الصيف فقالوا : كيف نتبعك - يا محمد - وقد تركت قبلتنا ، وأنت ، لا تزعم أن عزيراً ابن الله ، فأنزل الله فى ذلك : ( وَقَالَتِ اليهود " عُزَيْرٌ ابن الله وَقَالَتْ النصارى المسيح ابن الله ) الآية .و " عزير كاهن يهودى سكن بابل سنة 457 ق . م تقريباً ، ومن أعامله أنه جمع أسفار التوراة؛ وأدخل الأحرف الكلدانية عوضاً عن العبرانية القديمة ، وألف أسفار الأيام ، وعزرا ، ونحميا .وقد قدسه اليهود من أجل نشره لكثير من علوم : الشريعة ، وأطلقوا عليه لقب " ابن الله " .قال البيضاوى : وإنما قالوا ذلك - أى : عزير ابن الله - لأنه لم يبق فيهم بعد وقعة " بختصر " - سنة 586 ق . م . ه من يحفظ التوارة . وهو لما أحياه الله بعد مائة عام أملى عليهم التوارة حفظاً فتعجبوا من ذلك وقالوا : ما هذا إلا لأنه ابن الله .وقال صاحب المنار ما ملخصه : جاء فى دائرة المعارف اليهودية الانكليزية - طبعة أن عصر عزرا هو ربيع التاريخ الملى لليهودية الذى تفتحت فيه أزهاره - 1903 وعبق شذا ورده . وأنه جدير بأن يكون هو ناشر الشريعة . .وقد ذكر المفسرون ، هنا أقوالاً متعددة فى الأسباب التى حملت اليهود على أن يقولوا " عزير ابن الله " وأغلب هذه الأقوال لا يؤيدها عقل أو نقل ، ولذا فقد ضربنا عنها صفحا وقد نسب - سبحانه - القول إلى جميع اليهود مع أن القائل بعضهم ، لأن الذين. لم يقولوا ذلك لم ينكروا على غيرهم قولهم ، فكانوا مشاركين لهم فى الإثم والضلال ، وفيما يترتب على ذلك من عقاب .وأما قول النصارى " المسيح ابن الله " فهو شائع مشهور ، ومن أسبابه أن الله - تعالى - قد خلق عيسى بدون أبى على خلاف ما جرت به سنته فى التوالد والتناسل ، فقالوا عنه " ابن الله وقد حاجهم - سبحانه - فى سورة آل عمران بأن آدم قد خلقه الله من غير أب. " أو أم ، فكان أولى بنسبة البنوة إليه ، لكنهم لم ينسبوا إليه ذلك ، فينبغى أن يكون عيسى كآدم .قال - تعالى - ( إِنَّ مَثَلَ عيسى عِندَ الله كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ الحق مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُنْ مِّن الممترين ) وقوله : ( ذلك قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ ) ذم لهم على ما نطقوا به يمجه العقل السليم ، والفكر القويم .أى : ذلك الذى قالوه فى شأن " عزير والمسيح " قول تلوكه ألسنتهم فى ، أفواههم بدون تعقل ، ولا مستند لهم فيما زعموه سوى افترائهم واختلاقهم

فهو من الألفاظ الساقطة التى لا وزن لها ولا قيمة ، فقد قامت الأدلة السمعية
- والعقلية على استحالة أن يكون لله ولد أو والد أو صاحبه أو شريك .قال
تعالى - ( وَمَا يَنبَغِي للرحمن أن يَتَّخِذَ وَلَداً إِن كُلُّ مَن فِي
السماوات والأرض إِلاَّ آتِي الرحمن عَبْداً لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ
وَعَدَّهُمْ عَدّاً وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ القيامة فَرْداً ) ولقد أنذر
سبحانه ، الذين نسبوا إليه الولد بالعقاب الشديد فقال : ( وَيُنْذِرَ ،
الذين قَالُواْ اتخذ الله وَلَداً مّا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلاَ
لآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ
إِلاّ كَذِباً ) وأسند ، سبحانه ، القول إلى الأفواه مع أنه لا يكون إلا
بها ، لاستحضار الصورة الحسية الواقعية ، حتى لكأنها مسموعة مرئية ولبيان
أن هذا القول لا وجود له فى عالم الحقيقة والواقع ، وإنما هو لغو ساقط وليد
الخيالات والأوهام ، ولزيادة التأكيد فى نسبة هذا القول إليهم ، أى : أنه
قول صادر منهم وليس محكيا عنهم .قال صاحب الكشاف ، فإن قلت : كل القول يقال
بالفم فما معنى قوله ( ذلك قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ ) ؟ .قلت : فيه وجهان
، أحدهما - أن يراد أنه قول لا يعضده برهان ، فما هو إلا لفظ يفوهون به :
فارغ من أى معنى تحته ، كالألفاظ المهملة التى هى أجراس ونغم ، لا تدل على
معان . وذلك أن القول الدال على معنى ، لفظه مقول بالفم ، ومعناه مؤثر فى
: القلبن وما لا معنى له مقول بالفم لا غير .والثانى - أن يراد بالقول
: المذاهب ، كقولهم " قول أبى حنيفة " يريدون مذهبه ما يقول به ، كأنه قيل
ذلك مذهبهم ودينهم بأفواههم لا بقلوبهم ، لأنه لا حجة معه ولا شبهة ، حتى
يؤثر فى القلوب ، وذلك أنهم اعترفوا أنه لا صاحبة له لم تبق شبهة فى انتفاء
الولد .وقوله : ( يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الذين كَفَرُواْ مِن قَبْلُ ) ذم آخر
لهم على تقليدهم لمن سبقوهم بدون تعقل أو تدبر .قال الجمل ما ملخصه : قرأ
العامة ( يضاهون ) بضم الهاء بعدها واو - وقرأ عاصم " يضاهئون " بهاء
مكسورة بعدها همزة مضمومة - فقيل هما بمعنى واحد وهو المشابهة ، وفيه لغتان
ضاهات وضاهيت . . .والمراد بالذين كفروا من قبل : قيل ، أهل مكة وأمثالهم :
من المشركين السابقين الذين قالوا ، الملائكة بنات الله وقيل ، المراد بهم
قدماء أهل الكتاب ، أى ، أن اليهود والنصارى المعاصرين للنبى - صلى الله
عليه وسلم - يشابه قولهم فى الغرير وعيسى قول آبائهم الأقدمين ، - أى
المعاصرين للعهد النبوى - قد ورثوا الكفر كابرا عن كابر .والأولى من هذين
الوجهين أن يكون المراد بالذين كفروا من قبل . جميع الأمم التى ضلت وانحرفت
عن الحق ، وأشركت مع الله فى العبادة آلهة أخرى .قال صاحب المنار ، وقد
علمنا من تاريخ قدماء الوثنيين فى الشرق والغرب أن عقيدة الابن لله والحلول
والتثليث ، كانت معروفة عند البراهمة فى الهند وفى الصين واليابان وقدماء
المصريين وقدماء الفرس .وهذه الحقيقة التاريخية - والتى بينها القرآن فى هذه
الآية - من معجزاته لأنه لم يكن يعرفها أحد من العرب ولا ممن حولهم ، بل لم
) تظهر إلا فى هذا الزمان .والمعنى . أن هؤلاء الضالين الذين قال بعضهم
عُزَيْرٌ ابن الله ) وقال البعض الآخر ( المسيح ابن الله ) ليس لهم على
قولهم الباطل هذا دليل ولا برهان ، ولكنهم يشابهون ويتابعون فيه قول الذين
) : كفروا من قبلهم من الأمم ( فَهُمْ على آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ) وقوله
قَاتَلَهُمُ الله ) تعجيب من شناعة قولهم ، ودعاء عليهم بالهلاك فإن من
قاتله الله لا بد أن يقتل ، ومن غالبه لا بد أن يغلب .وعن ابن عباس ، أن
معنى ( قَاتَلَهُمُ الله ) لعنهم الله وكل شئ فى القرآن قتل فهو لعن .وقوله
تعجيب آخر من انصرافهم الشديد عن الحق الواضح إلى ( أنى يُؤْفَكُونَ ) :
الباطل المظلم المعقد .و ( أنى ) بمعنى كيف . و ( يُؤْفَكُونَ ) من الإفك
، بمعنى الانصراف عن الشئ والابتعاد عنه ، يقال ، أفكه عن الشئ يأفكه أفكا
أى ، صرفه عنه وقلبه . ويقال ، أفكت الأرض أفكا ، أى : صرف ، عنها المطر
والمعنى : قاتل الله هؤلاء الذين قالوا ( عُزَيْرٌ ابن الله ) والذين.
قالوا ( المسيح ابن الله ) لأنهم بقوله هذا محل مقت العقلاء وعجبهم ، إذ
- كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل ، بعد وضوح الدليل على استحالة أن يكون له
تعالى - ولد أو والد أو صاحبة أو شريك . . ؟!إن ما قالوه ظاهر البطلان وهو
. محل عجب العقلاء واستنكارهم وغضبهم

اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما امروا
الا ليعبدوا الها واحدا لا اله الا هو سبحانه عما يشركون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه ( اتخذوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ
أَرْبَاباً مِّن دُونِ الله والمسيح ابن مَرْيَمَ ) بيان للون آخر من ألوان
انحراف اليهود والنصارى عن الحق إلى الباطل ، وتقرير لما سبقت حكايته عنهم
من أقوال فاسدة ، وأفعال ذميمة .والضمير فى قوله ( اتخذوا ) يعود إلى
: الفريقين اللذين حكت الآية السابقة ما قالوه من باطل وبهتان .والأحبار
، علماء اليهود جمع حبر ، بكسر الحاء وفتحها - وهو الذى يحسن القول ويتقنه
مأخوذ من التحبير بمعنى التحسين والتزيين ، ومنه ثوب محبر أى جمع الزينة
، والحسن ، والرهبان : علماء النصارى جمع راهب وهو الزاهد فى متع الدنيا

المنعزل عن الناس مأخوذ من الرهبة بمعنى الخشية والخوف من الله - تعالى
والمراد باتخاذهم لأحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ، أنهم أطاعوهم.
فيما أحلوه لهم ، وفيما حرموه عليهم ، ولو كان هذا التحليل والتحريم
مخالفاً لشرع الله .وهذا التفسير مأثور " عن رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - فقد روى الإمام أحمد والترمذى وابن جرير من طرق عن عدى بن حاتم أنه
لما بلغته دعوة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فر إلى الشام : وكان قد
تنصر فى الجاهلية ، فاسرت أخته وجماعة من قومها ، ثم مَنَّ رسول الله - صلى
الله عليه وسلم - على أخته وأعطاها . فرجعت إلى أخيها ، فرغبته فى الإسلام
وفى القدوم على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقدم عدى المدينة ، وكان
، رئيسا فى قومه طيئ وأبوه حاتم الطائى المشهور بالكرم فتحدث الناس بقدومه
فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفى عنق عدى صليب من فضة ، وكان
الرسول يقرأ هذه الآية ( اتخذوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً
مِّن دُونِ الله . . . ) " .قال عدى : فقت ، إنهم لم يعبدوهم ، فقال ، بلى
إنهم حرموا عليهم الحلال ، وأحلوا لهم الحرام ، فاتبعوهم ، فذلك عبادتهم ،
إياهم .قال ابن كثير : وهكذا قال حذيفة بن اليمان وابن عباس وغيرهما فى
تفسير الآية : أنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا .وقال السدى : استنصحوا
الرجال ، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم .وقال الآلوسى : وقيل اتخاذهم
أرباباً بالسجود لهم ونحوه مما لا يصلح إلا لله ، تعالى ، وحينئذ فلا مجاز
إلا أنه لا مقال لأحد بعد صحة الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
والآية ناعية على كثير من الفرق الضالة الذين تركوا كتاب الله وسنة رسوله.
لكلام علمائهم ورؤسائهم ، والحق أحق بالاتباع ، فمتى ظهر الحق فعلى ،
المسلم اتابعه وإن أخطأه اجتهاد مقلده .وقوله : ( والمسيح ابن مَرْيَمَ )
: معطوف على قوله ( أَحْبَارَهُمْ ) والمفعول الثانى بالنسبة إليه محذوف أى
اتخذوه رباً وإلها .قال صاحب المنار ما ملخصه : جمع - سبحانه . بين اليهود
والنصارى فى اتخاذ رجال دينهم أربابا بأن أعطوهم حتى التشريع فيهم : وذكر
بعد ذلك ما انفرد به النصارى دون اليهود من اتخاذهم المسيح ربا وإلها
، يعبدونه واليهود لم يعبدوا عزيرا ، ولم يؤثر عمن قال منهم إنه ابن الله
أنهم عنوا ما يعنيه النصارى من قولهم فى المسيح : إنه هو الله الخالق
المدبر لأمور العباد .وقوله : ( وَمَآ أمروا إِلاَّ ليعبدوا إلها وَاحِداً
لاّ إله إِلاّ هُوَ ) جملة حالية أى : اتخذ هؤلاء المفترون على الله
الكذب من اليهود والنصارى أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ، بأن
أطاعوهم فيما يحلونه لهم وفيا يحرمونه عليهم ولو كان مخالفا لشرع الله؛
وكذلك اتخذ النصارى المسيح ابن مريم رباً وإلها .والحال أنهم جميعاً ما
أمروا على ألسنة رسلهم إلا بعبادة الله وحده ، فهو المعبود الذى لا تعنو
الوجوه إلا له ، ولا يكون الاعتماد إلا عليه ، وكل ما سواه فهو مخلوق له
وقوله : ( لاّ إله إِلاّ هُوَ ) صفة ثانية لقوله ( إلها ) . أو هو.
استئناف بيانى لتعليل الأمر بعبادة الله وحده ، وأنه - سبحانه - هو المستحق
لذلك شرعا وعقلا .وقوله : ( سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ) تنزيه له عن
- الشرك والشركاء إثر الأمر بإخلاص العبادة له .أى : تنزه الله - عز وجل
، وتقدس عن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد والأولاد ، فهو رب العالمين
: وخالق الخلائق أجمعين . .قال صاحب الظلال عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه
ومن النص القرآنى الواضح الدلالة ، ومن تفسير رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - للآية وهو فصل الخطاب ، ثم من مفهومات المفسرين الأوائل والمتأخرين
تخلص لنا حقائق فى العقيدة والدين ذات أهمية بالغة نشير إليها هنا بغاية ،
الاختصار وهى : أن العبادة هى الاتباع فى الشرائع بنص القرآن وتفسير
الرسول - صلى الله عليه وسلم - فاليهود والنصارى لم يتخذوا الأحبار
والرهبان أربابا بمعنى الاعقاد فى ألوهيتهم ، أو تقديم الشعائر التعبدية
، إليهم . . ومع هذا فقد حكم الله ، سبحانه ، عليهم بالشرك فى هذه الآية
وبالكفر فى آية تالية فى السياق لمجرد أنهم تلقوا منهم الشرائع فأطاعوها
واتبعوها - فهذا وحده دون الاعتقاد والشعائر يكفى لاعتبار من يفعله مشركا
بالله ، الشرك الى يخرجه من عداد المؤمنين ، ويدخله فى عداد الكافرين .إن
النص القرآنى يسوى فى الوصف بالشرك واتخاذ الأرباب من دون الله ، بين
اليهود الذين قبلوا التشريع من أحبارهم وأطاعوه واتبعوه ، وبيان النصارى
. الذين قالوا بألوهية المسيح اعتقاد وقدموا إليه الشعائر فى العبادة

يريدون ان يطفئوا نور الله بافواههم ويابى الله الا ان يتم نوره ولو كره الكافرون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما يهدف إليه أهل الكتاب من
وراء أقاويلهم الكاذبة ، ودعاواهم الباطلة فقال : ( يُرِيدُونَ أن
يُطْفِئُواْ نُورَ الله بِأَفْوَاهِهِمْ ويأبى الله إِلاَّ أن يُتِمَّ
نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الكافرون ) .والمراد بنور الله : دين الإسلام الذى
، ارتضاه . سبحانه - لعباده ديناً وبعث به رسوله ، صلى الله عليه وسلم
وأعطاه من المعجزات والبراهين الدالة على صدقه ، وعلى صحته ما جاء به مما

يهدى القلوب ، ويشفى النفوس ، ويجعلها لا تدين بالعبادة والطاعة إلا لله
- الواحد القهار .وقيل المراد بنور الله : حججه الدالة على وحدانيته
سبحانه - وقيل المراد به ، القرآن ، وقيل المراد به : نبوة النبى - صلى
الله عليه وسلم - وكلها معان متقاربة .والمراد بإطفاء نور الله : محاولة
طمسه وإبطاله والقضاء عليه ، بكل وسيلة يستطيعها أعداؤه ، كثغراهم للشبهات
من حول تعاليمه ، وكتحريضهم لأتباعهم وأشياعهم على الوقوف فى وجهه ، وعلى
محاربته .والمراد بأفواههم . أقوالهم الباطلة الخارجة من تلك الأفواه التى
تنطق بما لا وزن له ولا قيمة .والمعنى : يريد هؤلاء الكافرون بالحق من أهل
الكتاب أن يقضوا على دين الإسلام ، وأن يطمسوا تعاليمه السامية التى جاء
بها نبيه - صلى الله عليه وسلم - عن طريق أقاويلهم الباطلة الصادرة عن
أفواههم من غير أن يكون لها مصداق من الواقع تنطبق عليه ، أو أصل تستند
إليه ، وإنما هى أقوال من قبيل اللغو الساقط المهمل الذى لا وزن له ولا
- قيمة . .قال الآلوسى ما ملخصه : فى الكلام استعارة تمثيلية ، حيث شبه
سبحانه - حال أهل الكتاب فى محاولة إبطار نبوة النبى ، صلى الله عليه وسلم
عن طريق تكذيبهم له ، بحال من ريد أن ينفخ فى نور عظيم مثبت فى الآفاق ،
ليطفئه بنفخه ..وروعى فى كل من المشبه به معنى الإفراط والتفريط ، حيث شبه
الإبطال والتكذيب بالإطفاء بالفم ، ونسب النور إلى الله - تعالى - العظيم
الشأن .ومن شأن النور المضاف إليه - سبحانه - أن يكون عظيما ، فكيف يطفأ
بنفخ الفم . .وقوله : ( ويأبى الله إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ
كَرِهَ الكافرون ) بشارة منه - سبحانه - للمؤمنين ، وتقرير لسنة التى لا
تتغير ولا تتبدل فى جعل العاقبة للحق وأتباعه .والفعل ( يأبى ) هنا بمعنى
لا ريد أو لا يرضى - أى : أنه جار مجرى النفى ، ولذا صح الاستثناء منه .قال
أبو السعود : وإنما صح الاستثناء المفرغ - وهو قوله ( إِلاَّ أَن يُتِمَّ
، نُورَهُ ) . من الموجب ، وهو قوله ( ويأبى الله ) - لكونه بمعنى النفى
ولوقوعه فى مقابلة قوله : ( يُرِيدُونَ ) ، وفيه من المبالغة والدلالة على
الامتناع ما ليس فى نفى الإرادة ، أى :لا يريد شيئا من الأشياء إلا إتمام
نوره فيندرج فى المستثنى منه بقاؤه على ما كان عليه ، فضلا عن الإطفاء .وفى
إظهار " النور " فى مقام الإضمار مضافا إلى ضميره - سبحانه - زيادة اعتناء
بشأنه ، وتشريف له على تشريف ، وإشعار بعلة الحكم .وجواب (وَلَوْ ) فى
: قوله ( وَلَوْ كَرِهَ الكافرون ) محذوف لدلالة ما قبله عليه .والمعنى
- يريد أعداء الله أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، والحال أن الله - تعالى
- لا يريد إلا إتمام هذا النور ، ولو كره الكافرون هذا الإتمام - سبحانه
دون أن يقيم لكراهتهم وزنا .فالآية الكريمة وعد من الله ، تعالى للمؤمنين
بإظهار دينهم وإعلاء كلمتهم لكى يمضوا قدما إلى تنفيذ ما كلهم الله به
بدون إبطاء أو تثاقل ، وهى فى الوقت نفسه تتضمن فى ثناياها الوعيد لهؤلا
-. الضالين وأمثالهم

هو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون

كما فسرها الوسيط ثم أكد - سبحانه - وعده بإتمام نوره ، وبين كيفية هذا
الإتمام فقال : ( هُوَ الذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بالهدى وَدِينِ الحق
لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدين كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المشركون ) .والمراد
بالهدى : القرآن الكريم المشتمل على الارشادات السامية ، والتوجيهات
القويمة ، والأخبار الصادقة ، والتشريعات الحكيمة .والمراد بدين الحقك دين
الإسلام الذى هو خاتم الأديان .وقوله ( لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدين كُلِّهِ
من الإظهار بمعنى الإعلاء والغلبة بالحجة والبرهان ، والسيادة والسلطان (
) والجملة تعليلية لبيان سبب هذا الإرسال والغاية منه .والضمير فى.
- لِيُظْهِرَهُ ) يعود على الدين الحق أو الرسول - صلى الله عليه وسلم
والمعنى : هو الله - سبحانه - الذى أرسل رسوله محمدا - صلى الله عليه وسلم
بالقرآن الهادى للتى هى أقوم ، وبالدين الحق الثابت الذى لا ينسخه دين ،
آخر ، وكان هذا الإرسال لإظهار هذا الدين الحق على سائر الأديان بالحدة
، والغلبة ، ولاظهار رسوله ، صلى الله عليه وسلم ، على أهل الأديان كلها
. . .. بما أوحى إليه - سبحانه - من هدايات ، وعبادات ، وتشريعات ، وآداب
) : فى اتباعها سعادة الدنيا والآخرة .وختم - سبحانه - هذه الآية بقوله
وَلَوْ كَرِهَ المشركون ) وختم التى قبلها بقوله : ( وَلَوْ كَرِهَ
المشركون ) للاشعار بأن هؤلاء الذين قالوا : ( عُزَيْرٌ ابن الله وَقَالَتْ
النصارى المسيح ابن الله ) قد جمعوا بسبب قولهم الباطل هذا ، بين رذيلتى
الكفر والشكر ، وأنه ، سبحانه ، سيظهر أهل دينه على جميع أهل الأديان
الأخرى .هذا ، وقد ساق الإمام ابن كثير بعض الأحاديث الى تؤيد ذلك ، منها
ما ثبت فى الصحيح عن رسول الله . صلى الله عليه وسلم . أنه قال : " إن :
" الله زوى لى الأرض من مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمتى ما زوى لى منها
وروى الإمام أحمد عن مسعود بن قبيصة بن مسعود يقول : صلى هذا الحى من.
محارب الصبح ، فلما صلوا قال شاب منهم : سمعت رسول الله ، صلى الله عليه

وسلم ، يقول : " إنه ستفتح لكم مشارق الأرض ومغاربها ، وإن عمالها فى النار إلا من اتقى الله وأدى الأمانة " .وروى أيضا عن تميم الدارى قال : سمعت ، رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : " ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترك الله بيت مدر ولا بر إلا أدخله هذا الدين ، يعز عزيزا ويذل ذليلا ، عزا يعز الله به الإسلام ، وذلا يذل الله به الكفر " وكان تميم الدارى يقول : قد عرفت ذلك فى أهل بيتى ، لقد أصاب من أسلم منهم الشرف والخير والعز ، ولقد أصاب من كان كافرا منهم الذل والصغار والجزية .وأخرج أيضا " عن عدى بن حاتم قال : دخلت على رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : فقال : " يا عدى أسلم تسلم " ، فقلت يا رسول الله : إنى من أهل دين . قال أنا أعلم بدينك منك ، فقلت : أنت أعلم بدينى منى؟ قال نعم ، ألست من " الركوسية ، وأنت تأكل من مرباع قومك" . قلت : بلى . قال : " فإن هذا لا يحل لك فى دينك " .ثم قال : - صلى الله عليه وسلم - : " أما إنى أعلم ما الذى يمنعك من الإسلام تقول : إنما اتبعه ضعفة الناس ، ومن لا قوة له ، ومن رمتهم العرب ، أعرف الحيرة "؟قلت : لم أرها وقد سمعت بها .قال :" فوالذى نفسى بيده ليتمن الله هذا الأمر ، حتى تخرج الضعينة من الحيرة ، حتى تطوف بالبيت من غير جوار أحد ، ولتفتحن كنوز كسرى بن هرمز " .قلت : كسرى بن هرمز؟ قال : " نعم . كسرى بن هرمز ، وليبذلن المال حتى لا يقبله أحد " .قال عدى بن حاتم : فهذه الظعينة تخرج من الحيرة ، فتطوف بالبيت من غير جوار أحد ، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز ، والذى نفسى بيده لتكونن الثالثة .

لأن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد قالها .وإلى هنا نرى أن هذه الآيات الكريمة قد كذبت أهل الكتاب فى قولهم ( عُزَيْرٌ ابن الله وَقَالَتْ النصارى المسيح ابن الله ) ، وأرشدتهم إلى الطريق الحق الواضح المستقيم ليسيروا عليه ، ووبختهم على تشبههم فى هذه الأقوال الباطلة بمن سبقهم من الضالين ، وعلى انقيادهم لأحبارهم ورهبانهم بدون تعقل أو تدبر ، وبشرت المؤمنين بظهور دينهم الذى ارتضاه الله هم على الأديان كلها .

يا ايها الذين امنوا ان كثيرا من الاحبار والرهبان لياكلون اموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - الحديث عن أهل الكتاب بتوجيه نداء إلى المؤمنين بين لهم فيه بعض الرذائل التى انغمس فيها الأحبار والرهبان ، وكيف جمعوا بين ضلال أنفسهم وإضلال أتباعهم ، حيث أمروا هؤلاء الأتباع بالانقياد لهم فيما يأتون ويذرون . . . فقال - تعالى - : ( ياأيها الذين آمَنُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ) .قال الفخر الرازى : اعلم أنه - تعالى - لما وصف رؤساء اليهود والنصارى بالتكبر والتجبر وادعاء الربوبية والترفع على الخلق وصفهم فى هذه الآية بالطمع والحرص على أخذ أموال الناس ، تنبيها على أن المقصود من إظهار تلك الربوبية والتجبر والفخر ، أخذ أموال الناس بالباطل ولعمرى من تأمل أحوال أهل الناموس والتزوير فى زمانان وجد هذه الآيات. كأنها ما أنزلت إلا فى شأنهم ، وفى شرح أحوالهم ، فترى اواحد منهم يدعى أنه لا يلتفت إلى الدنيا ، ولا يتعلق خاطره بجميع المخلوقات ، وأنه فى الطهارة والعصمة مثل الملائكة المقربين؛ حتى إذا آل الأمر إلى الرغيب الواحد تراه يتهالك عليه؛ ويتحمل نهاية الذل والدناءة فى تحصيله .المراد بالأكل فى قوله ( لَيَأْكُلُونَ ) : مطلق الأخذ والانتفاع .وعبر عن ذلك بالأكل ، لأنه المقصود الأعظم من جمع الأموال ، فسمى الشئ باسم ما هو أعظم مقاصده ، على سبيل المجاز المرسل ، بعلاقة العلية والمعلولية . وأكلهم أموالهم الناس بالباطل ، يتناول ما كانوا يأخذونه من سفلتهم عن طريق الرشوة والتدليس أو التحايل أو الفتاوى الباطلة . كما يتناول ما سوى ذلك ما كانوا يأخذونه بغير وجه حق .وأسند - سبحانه - هذه الجريمة - وهى أكل أموال الناس بالباطل - إلى كثير من الأحبار والرهبان ولم ينسدها إلى جميعهم ، إنصافا للعدد القليل منهم الذى لم يفعل ذلك ، فإن كل طائفة أو جماعة لا تخلو من وجود أفراد من بينها يتعففون عن الحرام ، ويقيدون أنفسهم بالحلال .قال صاحب المنار : وإسناد هذه الجريمة المزرية إلى الكثيرين منهم دون جميعهم من دقائق تحرى الحق فى عبارات الكتاب العزيز ، فهو لا يحكم على الأمة الكبيرة بفساد جميع أفرادها أو فسقهم أو ظلمهم ، بل يسند ذلك إلى الكثير أو الأكثر ، أو يطلق اللفظ العام ثم يستثنى منه .فمن الأول قوله - تعالى - فى اليهود : ( وترى كَثِيراً مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإثم والعدوان وَأَكْلِهِمُ السحت لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الربانيون والأحبار عَن قَوْلِهِمُ الإثم وَأَكْلِهِمُ السحت لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ) ومن الثانى قوله - تعالى - فى اليهود أيضاً : ( قُلْ ياأهل الكتاب هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بالله وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ) ومن الثالث قوله - سبحانه - فى شأن المحرفين للكلم الطاعنين فى الإسلام من اليهود - أيضاً - : ( مِّنَ الذين هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الكلم عَن

مّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا واسمع غَيْرَ مُسْمَعٍ
وَرَاعِنَا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِينِ وَلَوْ أَنّهُمْ
قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا واسمع وانظرنا لَكَانَ خَيْراً لّهُمْ
وَأَقْوَمَ وَلَكِن لّعَنَهُمُ الله بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ
إِلاّ قَلِيلاً ) وقد نبهنا فى تفسير هذه الآيات وأمثالها على العدل
) : الدقيق فى أحكام القرآن على البشر وإنما نكرره لعظيم شأنه ..وقوله
وَيَصُدّونَ عَن سَبِيلِ الله ) جريمة من جرائمهم الكثيرة .والصد : المنع
والصرف عن الشئ . . وسبيل الله : دينه وشريعته .أى : أن هؤلاء الكثيرين من
الأحبار والرهبان لا يكتفون بأكل أموال الناس بالباطل ، بل إنهم يضيفون إلى
ذلك جريمة ثانية من جرائمهم المتعددة وهى انهم ينصرفون عن الدين الحق وهو
دين الإسلام انقياداً لأحقادهم وشهواتهم ، ويصرفون أتباعهم عنه بشتى
الوسائل ، كأن يصفوه لهم بأنه دين باطل ، أو بأن رسوله - صلى الله عليه
وسلم - ليس هو الرسول الذى بشرت به الكتب السماوية السابقة . . إلى إير ذلك
) : من وسائلهم المتنوعة فى صرف الناس عن الحق .والاسم الموصول فى قوله
. . والذين يَكْنِزُونَ الذهب والفضة وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ الله
يرى بعضهم أن المراد به أولئك الأحبار والرهبان ، لأن الكلام مسوق فى ( .
ذمهم ، وتكون هذه الجملة ذما لهم على رذيلة ثالثة هى الحرص والبخل ، بعد
ذمهم على رذيلتى أكل أموال الناس بالباطل والصد عن سبيل الله .ويرى آخرون
أن المراد بهم البخلاء من المسلمين ، وأن الجملة مستأنفة لذم ما نعى الزكاة
بقرينة قوله : ( وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ الله ) ويكون نظمهم مع
أهل السوء من الأحبار والرهبان من باب التحذير والوعيد والإشارة إلى أن
الأشحاء المانعين لحقوق الله ، مصيرهم كمصير الأحبار والرهبان فى استحقاق
البشارة بالعذاب .وترى طائفة ثالثة من العلماء أن المراد به كل من كنز
المال ، ولم يخرج الحقوق الواجبة فيه ، سواء أكان من المسلمين أم من غيرهم
لأن اللفظ مطلق ، فيجب إجراؤه على إطلاقه وعمومه ، إذ لم ما يقديه أو ،
يخصصه .وقوله : ( يَكْنِزُونَ ) من الكنز ، وأصله فى اللغة العربية : الضم
الجمع .يقال : كنزت التمر فى الوعاء إذا جمعته فيه . وكل شئ مجموع بعضه إلى
بعض فى بطن الأرض أو على ظهرها فهو كنز ، وجمعه كنوز .وخص الذهب والفضة
بالذكر ، لأنها الأصل الغالب فى الأموال ولأنهما اللذان يقصدان بالكنز أكثر
من غيرهما .وقال الفخر الرازى ما ملخصه : ذكر - سبحانه - شيئين هما الذهب
والفضة ثم قال : ( وَلاَ يُنفِقُونَهَا ) - وكان الظاهر أن يقول " ولا
ينفقونهما " والجواب من وجهين : الأول : أن الضمير عائد إلى المعنى دون
اللفظ ، لأن كل واحد منهما جملة وافية؛ وعدة كثيرة ودنانير ودراهم فهو
كقوله - تعالى - ( وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ المؤمنين اقتتلوا ) أو أن يكون
التقدير : والذين يكنزون الكنوز ولا ينفقونها فى سبيل الله ، فيكون الضمير
عائد إلى الكنوز المدلول عليها بالفعل ( يَكْنِزُونَ ) .الثانى : أن يكون
- الضمير عائد إلى اللفظ ، ويكون ذكر أحدهما يغنى عن ذكر الآخر ، كقوله
تعالى - ( وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفضوا إِلَيْهَا ) جعل
الضمير للتجارة . .وقوله : ( فَبَشّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ) خبر
الموصول .والتعبير بالبشارة من باب التهكم بهم ، والسخرية منهم ، فهو
. كقولهم : تحيتهم الضرب؛ وإكرامهم الشتم

يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لانفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون

كما فسرها الوسيط وقوله : ( يَوْمَ يحمى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنّمَ
فتكوى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ . . ) تفصيل لهذا
العذاب الأليم ، وبيان لميقاته ، حتى يقلع البخلاء عن بخلهم ، والأشحاء عن
شحهم . .والظرف ( يَوْمَ ) منصوب بقوله : ( عَذَابٍ أَلِيمٍ ) ؛ أو بفعل
محذوف يدل عليه هذا القول .أى : يعذبون يوم يحمى عليها ، أو بفعل مقدر؛ أى
- اذكر يوم يحمى عليها .وقوله : ( يحمى ) يجوز أن يكون من حميت وأحميت :
ثلاثيا ورباعيا - يقال : حميت الحديدة وأحميتها ، أى : أوقدت عليها لتحمى
وقوله : ( عَلَيْهَا ) جار مجرور فى موضع رفع لقيامه مقام الفاعل . ويجوز.
أن يكون القائم مقام الفاعل مضمرا ، أى : يحمى الوقود أو الجمر عليها .قال
الآلوسى : وأصله تحمى بالنار من قولك : حميت الميسم وحميته فجعل الإحماء
للنار مبالغة؛ لأن النار فى ذاتها ذات حمى ، فإذا وصفت بأنها تحمى دل على
شدة توقدها . ثم حذفت النار ، وحول الإسناد إلى الجار والمجرور تنبيها على
المقصود بأتم وجه فانتقل من صيغة التأنيث إلى التذكير كما تقول : رفعت
: القصة إلى الأمير . فإذا طرحت القصة وأنسد الفعل إلى الجار والمجرور وقتل
. رفع إلى الأمير ، وقرأ ابن عامر ( تحمي ) بالتاء بإسناده إلى النار كأصله
والمعنى : بشر - يا محمد - أولئك الذين يكنزون الأموال فى الدنيا ولا
ينفوقنها فى سبيل الله ، بالعذاب الأليم يوم الحساب يوم تحمى النار
المشتعلة على تلك الأموال التى لم يؤدوا حق الله فيها ( فتكوى بِهَا
، جِبَاهُهُمْ ) أى : فتحرق بها جباههم التى كانوا يستقبلون بها الناس

" والتى طالما ارتفعت غرورا بالمال المكنوز ، وتحرق بها - ايضا - " جنوبهم
التى كثيرا ما انتفتحت من شدة الشبع وغيرها جائع ، وتحرق بها كذلك " ظهورهم
: التى نبذت وراءها حقوق الله بجحود وبطر . .قال صاحب الكشاف : فإن قلت "
لم خصت هذه الأعضاء بالكى؟قلت : لأنهم لم يطلبوا بأموالهم - حيث لم ينفقوها
فى سبيل الله - إلا الأغراض الدنيوية من وجاهة عند الناس ، وتقدم ، وأن
يكون ماء وجوههم مصونا عندهم ، يتلقون بالجميل ويحيون بالإكرام ، ويجبلون
ويحتمشون ، ومن أكل طيبات يتضلعون منها وينفخون جنوبهم ، ومن لبس عامة من
الثياب يطرحونها على ظهورهم ، كما ترى أغنياء زمانك ، هذا أغراضهم وطلباتهم
من أموالهم ، لا يخطر ببالهم قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " ذهب
، أهل الدثور بالأجر كله " .وقيل : لأنهم كانوا إذا أبصروا الفقير عبسوا
وإذا ضمهم وإياه مجلس ازوروا عنه ، وتولوا بأركانهم ،.وولوه ظهورهم .وقوله
هذا مَا كَنَزْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ) :
مقول لقول محذوف .والتفسير : تقول لهم ملائكة العذاب على سبيل التبكيت (
والتوبيخ ، وهى تتولى حرق جباههم وجنوبهم وظهورهم : هذا العذاب الأليم
النازل بكم فى الآخرة هو جزاء ما كنتم تكنزونه فى الدنيا من مال لمنفعة
أنفسكم دون أن تؤدوا حق الله فيه .فذوقوا وحدكم وبال كنزكم . وتجرعوا غصصه
وتحملوا سوء عاقبته فأنتم الذين جنيتم على أنفسكم ، لأنكم لم تشكروا الله ،
على هذه الأموال ، بل استعملتوها فى غير ما خلقت له .هذا ، ومن الأحكام
والآداب التى أخذها العلماء من هاتين الآيتين ما يأتى .1- التحذير من
الانقياد لدعاة السوء ، ومن تقليدهم فى رذائلهم وقبائحهم ووجوب السير على
حسب ما جاء به الإسلام من تعاليم وتشريعات . .ولذا قال ابن كثير عند
، تفسيره للآية الأولى : والمقصود التحذير من علماء السوء ، وعباد الضلال
، كما قال سفيان بن عيينه : من فسد من علمائنا كان فيه شبه من أحبار اليهود
" : ومن فسد من عبادنا كان فيه شبه من رهبان النصارى .وفى الحديث الصحيح
لتركبن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة " قالوا : اليهود والنصارى؟ قال
فمن "؟ وفى رواية : فارس والروم؟ قال :" فمن الناس إلا هؤلاء " والحاصل " :
التحذير من التشبه بهم فى أقوالهم وأحوالهم .هذا ، ونص الحديث الصحيح الذى
ذكره الإمام ابن كثير - كما رواه الشيخان - هكذا عن أبى سعيد الخدرى أن
النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : " لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر
، وذراعا بذراع ، حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه ، قلنا : يا رسول الله
، اليهود والنصارى؟ قال : فمن " .أما الحديث الذى جاء فيه حذو القذة بالقذة
فقد أخرجه الإمام أحمد عن شداد بن أوس ونصه : " ليحملن شرار هذه الأمة على
سنن الذين خلوا من قبلهم . أهل الكتاب ، حذو القذة بالقذة " .2- يرى جمهور
العلماء أن المقصود بالكنز فى قوله ، تعالى ، ( والذين يَكْنِزُونَ الذهب
والفضة وَلاَ يُنفِقُونَهَا ) . . . ألخ المال الذى لم تؤد زكاته ، أما إذا
أديت زكاته فى يسمى كنزا ، ولا يدخل صاحبه تحت الوعيد الذى اشتملت عليه
الآية .وقد وضح الإمام القرطبى هذه المسألة فقال : واختلف العلماء فى
المال الذى أديت زكاته هل يسمى كنزا أولا؟ .فقال قوم : نعم . رواه أبو
الضحا عن جعدة بين هبيرة عن على قال : أربعة آلاف فما دونها نفقة ، وما كثر
فهو كنز وإن أديت زكاته . . ولا يصح .وقال قوم : ما أديت زكاته مئة أو من
غيره عنه فليس بكنز ، قال ابن عمر : ما أديت زكاته فليس بكنز وإن كانت تحت
سبع أرضين ، وكل ما لم تؤد زكاته فهو كنز وإن كان فوق الأرض . ومثله عن
جابر ، وهو الصحيح .وروى البخارى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - صلى
الله عليه وسلم - " من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته ، مثل له يوم القيامة
شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ، ثم يأخذ بلهمزميته - يعنى
: شدقيه - ثم يقول : أنا مالك أنا كنزك . . " .وفيه أيضا عن أبى ذر قال
انتهيت إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : " والذى نفسى بيده ، ما من
رجل تكون له إبل أو بقر أو غنم ، لا يؤدى حقها ، إلا أتى بها يوم القيامة
أعظم ما تكون وأسمنه ، تطؤه بأخفافها ، وتنطحه بقرونها ، كلما جازت أخراها
ردت عليه أولاها حتى يقضى بين الناس " .فدل دليل خطاب هذين الحديثين على
صحة ما ذكرنا . وقد بين ابن عمر فى صحيح البخارى هذا المعنى . قال له
أعرابى : أخبرنى عن قول الله - تعالى - ( والذين يَكْنِزُونَ الذهب والفضة
الآية فقال ابن عمر : من كنزها فلم يؤد زكاتها فويل له ، إنما كان ( . .
هذا قبل أن تنزل الزكاة ، فلما أنزلت جعلها الله طهراً للأموال .وروى أبو
داود " عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية ( والذين يَكْنِزُونَ الذهب
والفضة . . ) كبر ذلك على المسلمين ، فقال عمر : أنا أفرج عنكم ، فانطلق
فقال : يا نبى الله ، إنه كبر على أصحابك هذه الآية . فقال - صلى الله عليه
وسلم - " إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب ما بقى من أموالكم ، وإنما فرض
المواريث لتكون لمن بعدكم " قال : فكبر عمر . ثم قال له رسول الله - صلى
الله عليه وسلم - : " ألا أخبرك بخير ما يكنز المرء؟ المرأة الصالحة ، إذا
نظر إليها سرته ، وإذا أمرها أطاعته ، وإذا غاب عنها حفظته " " .3- أخذ بعض
الصحابة من هذه الآية تحريم اكتناز الأموال التى تفيض عن حاجات الإنسان
الضرورية .قال ابن كثير : كان من مذهب أبى ذر - رضى الله عنه - تحريم إدخار
ما زاد على نفقة العيال ، وكن يفتى بذلك ، ويحثهم عليه ويأمرهم به ، ويغلظ

فى خلافه ، فنهاه معاوية فلم ينته ، فخشى أن يضر بالناس فى هذا ، فكتب يشكوه إلى أمير المؤمنين عثمان ، وأن يأخذه إليه ، فاستقدمه عثمان إلى المدينة وأزله بالربذة - وهى بلدة قريبة من المدينة - وبها مات - رضى الله عنه - فى خلافة عثمان .وروى البخارى فى تفسير هذه الآية عن زيد بن وهب قال مررت بالربذة ، فإذا بأبى ذر ، فقلت له : ما أنزلك بهذه الأرض؟ قال : كنا بالشام فقرأت ( والذين يَكْنِزُونَ الذهب والفضة وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ الله فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ) . فقال معاوية : ما هذه فينا ما هذه إلا فى أهل الكتاب . قال : قلت : إنها لفينا وفيهم .ثم قال ابن كثير : وفى الصحيح " أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال لأبى ذر " : ما يسرنى أن عندى مثل أحد ذهبا يمر على ثلاثة أيام وعندى منه شئ إلا دينار أرصده لدين " فهذا - والله أعلم - هو الذى حدا أباذر على القول بهذا " وقال الشيخ القاسمى : قال ابن عبد البر : وردت عن أبى ذر آثار كثيرة تدل. على أنه كان يذهب إلى أن كل مال مجموع يفضل عن القوت وسداد العيش ، فهو كنز ، يذم فاعله ، وأن آية الوعيد نزلت فى ذلك .وخالفه جمهور الصحابة ومن بعدهم وحملوا الوعيد على ما نعى الزكاة ، وأصح ما تمسكوا به حديث طلحة وغيره فى قصة الأعرابى حيث قال : هل على غيرها؟ قال :لا إلا أن تطوع .وحديث طلحة الذى أشار إليه ابن عبد البر ، قد جاء فى صحيح البخارى ونصه : " عن طلحة بن عبيد الله قال : جاء رجل إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من أهل نجد ثائر الرأس يسمع دوى صوته ولا يفقه ما يقول حتى دنا فإذا هو يسأل عن الإسلام .فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " خمس صلوات فى اليوم والليلة ، فقال : هل على غيرها؟ .قال : "لا . . إلا أن تطوع ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " وصيام رمضان " قال : هل على غيره؟ قال : "لا ، إلا أن تطوع " ، قال . وذكر له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الزكاة . قال . هل على غيرها؟ قال "لا إلا أن تطوع " .قال ، فأدبر الرجل وهو يقول - والله لا أزيد على ذلك ولا أنقص . فقال ، رسول الله - صلى الله عليه وسلم أفلح إن صدق " " .هذا؛ ومما استدل به جمهور الصحابة ومن بعدهم من العلماء " على عدم حرمة اقتناء الأموال التى تفيض عن الحاجة - ما دام قد أدى حق ، الله فيها - ما يأتى :( أ ) أن قواعد الشرع لا تحرم ذلك ، وإلا لما شرع الله المواريث لأنه لو وجب إنفاق كل ما زاد عن الحاجة ، لما كان لمشروعية المواريث فائدة .( ب ) تثبت فى الحديث الصحيح " أن سعد بن أبى وقاص عندما كان مريضاً ، وزاره رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال له : يا رسول الله : أأوصى بمالى كله؟ قال : "لا . قال سعد : فالشطر؟ قال :لا . قال سعد : فالثلث؟ فقال له - صلى الله عليه وسلم - فالثلث والثلثَ كثير . إنك لإن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس . . " " .ولو كان جمع المال واقتناؤه محرما ، لأقر النبى - صلى الله عليه وسلم - سعدا على التصدق بجميع ماله ، ولأمر المسلمين أن يحذوا حذو سعد ، ولكنه صلى الله عليه وسلم - لم يفعل ذلك ، بل قال لسعد :" إنك إن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس . . " .وقد كان فى عهده - صلى الله عليه وسلم - من الصحابة من يملكون الكثير من الأموال - كعثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف وغيرهما - ومع هذا فلم يأمرهم بإنفاق كل ما زاد عن حاجتهم الضرورية .قال القرطبى : قرر الشرع ضبط الأموال وأداء حقها ، ولو كان ضبط المال ممنوعا ، لكان حقه أن يخرج كله ، وليس فى الأمة من يلزم هذا . وحسبك حال الصحابة وأموالهم - رضوان الله عليهم - وأما ما ذكر عن أبى ذر فهو مذهب له .( ج ) ما ورد من آثام فى ذم الكنز و الكانزين كان قبل أن تفرض الزكاة أو هو فى حق من امتنع عن أداء حق الله فى ماله .قال صاحب الكشاف . فإن قلت فما تصنع فى قوله - صلى الله عليه وسلم - " من ترك صفراء أو بيضاء كوى بها قلت : كان هذا قبل أن تفرض الزكاة ، فأما بعد فرضيتها ، فالله أعدل. " وأكرم من أن يجمع عبده مالا من حيث أذن له فيه ، ويؤدى عنه ما أوجب عليه فيه ، ثم يعاقبه .ولقد كان كثير من الصحابة كعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبدي الله يقتنون الأموال ويتصرفون فيها ، وما عابهم أحد ممن أعرض عن القنية لأن الإعراض اختيار للأفضل ، والاقتناء مباح موسع لا يذم صاحبه ، ولك شئ حد .4- أن الإسلام وإن كان قد أباح للمسلم اقتناء المال - بعد أداء حق الله فيه - إلا أنه أمر أتباعه أن يكونوا متوسطين فى حبهم لهذا الاقتناء حتى يشغلهم حب المال عن طاعة الله .ورحم الله الإمام الرازى ، فقد قال ، عند تفسيره لهذه الآيات ما ملخصه ، اعلم أن الطريق الحق أن يقال ، الأولى أن لا يجمع الرجل الطالب للدين المال الكثير ، إلا أنه لم يمنع عنه فى ظاهر الشرع ، فالأول محمول على التقوى والثانى على ظاهر الفتوى .أما بيان أن الأولى الاحتراز عن طلب المال الكثير فلوجوه منها :أن كثرة المال سبب لكثرة الحرص فى الطلب ، والحرص متعب للروح والنفس والقلب . . والعاقل هو الذى يحترز عما يتعب روحه ونفسه وقلبه . وأن كسب المال شاق شديد؛ وحفظه بعد حصوله أشد وأشق وأصعب ، فيبقى الإنسان طول عمره تارة فى طلب التحصيل - وأخرى فى تعب الحفظ وأن كثرة الجاه والمال تورث الطغيان ، كما قال تعالى - ( كَلاَّ إِنَّ الإنسان لَيَطْغَى أَن رَّآهُ استغنى ) هذا ، وقد ساق الإمام ابن كثير جملة من الأحاديث فى ذم التكثر من الذهب والفضة ، ومن ذلك

ما رواه الإمام أحمد عن حسان بن عطية قال :كان شداد بن أوس - رضى الله عنه - فى سفر ، فنزل منزلا فقال لغلامه : ائتنا بالسفرة نعبث بها ، فأنكرت عليه ذلك .فقال ما تكلمت بكلمة منذ أسلمت لا وأنا أخطمها وأزمها غير كلمتى هذه فلا تحفظوها عنى واحفظوا ما أقول لكم : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : " إذا كنز الناس الذهب والفضة ، فاكنزوا هؤلاء الكلمات : اللهم إنى أسألك الثبات فى الأمر ، والعزيمة على الرشد؛ وأسألك شكر نعمتك ، وأسألك حسن عبادتك ، وأسألك قلبا سليما ، وأسألك لسانا صادقا ، واسألك من خير ما تعلم ، وأعوذ بك من شر ما تعلم ، وأستغفرك لما تعلم . إنك أنت علام الغيوب " .وبعد : فهذه سبع آيات عن أهل الكتاب ، بدأت - بقوله تعالى ( قَاتِلُواْ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالله وَلاَ باليوم الآخر ) وانتهت بقوله تعالى : ( فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ) .وقد بينت هذه الآيات ما يجب أن يكون عليه موقف المؤمنين منهم ، وكشفت عن أقوالهم الباطلة ، وعن جحود رؤسائهم للحق ، وعن انقياد : عامتهم للضلال ، وعن استحلال كثير من أحبارهم ورهبانهم لمحارم الله . .

ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السماوات والارض منها اربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن انفسكم وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا ان الله مع المتقين

كما فسرها الوسيط ثم عادت السورة بعد ذلك إلى تكملة الحديث عن أحوال المشركين السيئة ، وعن وجوب مقاتلتهم ، فقال تعالى . ( إِنَّ عِدَّةَ الشهور . . . القوم الكافرين ) .قال صحاب المنار ، هاتان الآيتان عود إلى الكلام فى أحوال المشركين ، وما يشرع من معاملاتهم بعد الفتح ، وسقوط عصبية الشرك ، وكان الكلام قبل هاتين الآيتين - فى قتال أهل الكتاب وما يجب أن ينتهى به من إعطاء الجزية من قبيل الاستطراد ، اقتضاه ما ذكر قبله من أحكام قتال المشركين ومعاملتهم ، وقد ختم الكلام فى أهل الكتاب ببيان حال كثير من رجال الدين الذين أفسدت عليهم دينهم المطامع المالية ، التى هى وسيلة العظمة الدنيوية والشهوات الحيوانية ، وإنذار من كانت هذه حالهم بالعذاب الشديد يوم القيامة وجعل هذا الإنذار موجهاً إلينا وإليهم جميعاً .
والعدة - فى قوله . إن عدة الشهور - : على وزن فعله من العدد وهى بمعنى المعدود . قال الراغب : العدة : هى الشئ المعدود ، قال - تعالى ( وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَابَ النار إِلاَّ مَلاَئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ) أى : وما جعلنا عددهم إلا فتنة للذين كفروا . .والشهور : جمع شهر . والمراد بها هنا : الشهور التى تتألف منها السنة القمرية وهى شهور . المحرم . وصفر . وربيع الأول . . الخ .وهذه الشهور عليها مدار الأحكام الشرعية ، وبها يعتد المسلمون فى عباداتهم وأعيادهم وسائر أمورهم .والمراد بقوله : ( يَوْمَ خَلَقَ السماوات والأرض ) الوقت الذى خلقهما فيه ، وهو ستة أيام كما جاء فى كثير من الآيات ، ومن ذلك قوله - تعالى - ( إِنَّ رَبَّكُمُ الله الذي خَلَقَ السماوات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ استوى عَلَى العرش ) والمعنى : إن عدد الشهور عِندَ الله ) أى : فى حكمه وقضائه ( اثنا عَشَرَ شَهْراً ) هى الشهور القمرية التى عليها يدور فلك الأحكام الشرعية .وقوله ( فِي كِتَابِ الله ) أى : فى اللوح المحفوظ .قال القرطبى : وأعاده بعد أن قال ( عِندَ الله ) ، لأن كثيراً من الأشياء يوصف بأنه عند الله ، ولا يقال إنه مكتوب فى كتاب الله ، كقوله ( إِنَّ الله عِندَهُ عِلْمُ الساعة ) وقيل معنى ( فِي كِتَابِ الله ) أى فيما كتبه - سبحانه - وأثبته وأوجب على عباده العمل به منذ خلق السماوات والأرض .قال الجمل : وقوله . ( فِي كِتَابِ الله ) صفة لاثنى عشر ، وقوله : ( يَوْمَ خَلَقَ السماوات والأرض ) متعلق بما تعلق به الظرف قبله من معنى الثبوت والاستقرار ، أو بالكتاب ، إن جعل مصدرا والمعنى : أن هذا أمر ثابت فى نفس الأمر منذ خلق الله الأجرام والأزمنة أى.
- أن المقصود من هذه الآية الكريمة ، بيان أن كون الشهور كذلك حكم أثبته : سبحانه فى اللوح المحفوظ منذ أوجد هذا العالم ، وبينه لأنبيائه على هذا الوضع . . فمن الواجب اتباع ترتيب الله لهذه الشهور ، والتزام أحكامها ونبذ ما كان يفعله أهل الجاهلية من تقديم بعض الشهور أو تأخيرها أو الزيادة عليها ، أو انتهاك حرمة المحرم منها .وقوله : ( حُرُمٌ ) جمع حرام - كسحب جمع سحاب - مأخوذ من الحرمة وذلك لأن الله تعالى - أوجب على الناس احترام هذه الشهور ، ونهى عن القتال فيها :وقد أجمع العلماء على أن المراد بها ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب ، وبذلك تظاهرت الأخبار عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم .فقد أخرج البخارى عن أبى بكر عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه قال فى خطبة حجة الوداع : " إن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السماوات والأرض ، السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ثلاث متواليات : ذو القعدة وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان " .وسماه - صلى الله عليه وسلم - رجب مبضر ، لأن بنى ربيعة بن نزار كانوا يحرمون شهر رمضان ويسمونه رجباً وكانت قبيلة مضر تحرم رجباً

نفسه ، لذا قال - صلى الله عليه وسلم - فيه " ورجب مضر الذى بين جمادى
. وشعبان " .قال ابن كثير . وإنما كانت الأشهر المحرمة أربعة : ثلاث سرد
وواحد فرد لأجل أداء مناسك الحج والعمرة فحرم قبل الحج شهراً وهو ذو القعدة
يقعدون فيه عن القتال وحرم شهر ذى الحجة لأنهم يوقعون فيه الحج ، ويشتغلون
بأداء المناسك ، وحرم بعده شهرا آخر هو المحرم ، ليرجعوا فيه إلى أقصى
بلادهم آمنين ، وحرم رجب فى وسط الحول لأجل زيارة البيت والاعمار به لمن
يقدم إليه من أقصى جزيرة العرب ، فيزوره ثم يعود إلى وطنه آمنا .واسم
- الإشارة فى قوله : ( ذلك الدين القيم ) يعود إلى ما شعره الله - تعالى
من أن عدة الشهور أثنا عشر شهراً ، ومن أن منها أربعة حرم .والقيم : القائم
الثابت المستقيم الذى لا التواء فيه ولا اعوجاج أى : ذلك الذى شرعناه لكم
، من كون عدة الشهور كذلك ، ومن كون منها أربعة حرم : هو الدين القويم
والشرع الثابت الحكيم ، الذى لا يقبل التغيير أو التبديل . .لا ما شرعه
أهل الجاهلية لأنفسهم من تقديم بعض الشهور وتأخير بعضها استجابة لأهوائهم
وشهواتهم ، وإرضاء لزعمائهم وسادتهم .والضمير المؤنث فى قوله ( فَلاَ
تَظْلِمُواْ فِيهِنّ أَنْفُسَكُمْ ) يرى ابن عباس أنه يعود على جميع
الشهور أى : فلا تظلموا فى الشهور الاثنى عشر أنفسهم ، بأن تفعلوا فيها
شيئاً مما نهى الله عن فعله ، ويدخل فى هذا النهى هتك حرمة الأشهر الأربعة
الحرم دخولا أوليا .ويرى جمهور العلماء أن الضمير يعود إلى الأشهر الأربعة
الحرم ، لأنه إليها أقرب؛ لأن الله تعالى قد خص هذه الأربعة بمزيد من
الاحترام تشريفا لها .وقد رجح ابن جرير ما ذهب إليه الجمهور فقال ما ملخصه
وأولى الأقوال فى ذلك عندى بالصواب قول من قال : فلا تظلموا فى الأشهر :
: الأربعة أنفسكم باستحلال حرامها ، فإن الله عظمها وعظم حرمتها .وعن قتادة
، إن الله اصطفى صفيا من خلقه ، اصطفى من الملائكة رسلا ، ومن الناس رسلا
واصطفى من الكلام ذكره ، واطفى من الأرض المساجد واصطفى من الشهور رمضان
والأشهر الحرم ، واصطفى من الأيام يوم الجمعة واصطفى من الليالى ليلة القدر
. فعظموا ما عظم الله ، فإنما تعظم الأمور بما عظمها الله عند أهل الفهم ،
فإن قال قائل : فإن كان الأمر على ما وصفت ، فقد يكون مباحا لنا ظلم .
أنفسنا فى غيرهن من سائر شهور السنة .قيل : ليس ذلك كذلك ، بلذلك حرام
علينا فى كل وقت ولكن الله عظم حرمة هؤلاء الأشهر وشرفهم على سائر شهور
- لاسنة : فخص الذنب فيهن، بالتعظيم كما خصهن بالتشريف ، وذلك نظير قوله
تعالى - ( حَافِظُواْ عَلَى الصلوات والصلاة الوسطى ) ولا شك أن الله قد
أمرنا بالمحافظة على الصلوات المفروضات كلها بقوله : ( حَافِظُواْ عَلَى
، الصلوات ) ولم يبح ترك المحافظة عليهن بأمره بالمحافظة على الصلاة الوسطى
ولكنه تعالى - زادها تعظيما ، وعلى المحافظة عليها توكيداً ، وفى تضييعها
تشديداً ، فكذلك فى قوله ( مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذلك الدين القيم
فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنّ أَنْفُسَكُمْ ) .وقد كانت الجاهلية تعظم هذه
الأشهر الحرم وتحرم القتال فيهن ، حتى لو لقى الرجل منهم فيهن قاتل أبيه لم
يهجه .وقال القرطبى :لا يقال كيف جعلت بعض الأزمنة أعظم حرمة من بعض فإنا
نقول : للبارى - تعالى - أن يفعل ما شاء ، ويخص بالفضيلة ما يشاء ليس لعمله
علة ، ولا عليه حجر ، بل يفعل ما ريد بحكمته ، وقد تظهر فيه الحكمة وقد
تخفى .وقوله : ( وَقَاتِلُواْ المشركين كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ
كَآفَّةً ) تحريض للمؤمنين على قتال المشركين بقلوب مجتمعه ، وعزيمة صادقة
وكلمة ( كَآفَّةً ) مصدر فى موضع الحال من ضمير الفاعل فى ( قَاتِلُواْ ).
أو من المفعول وهو لفظ المشركين . ومعناها : جميعا .وقالوا : وهذه الكلمة
من الكلمات التى لا تثنى ولا تجمع ولا تدخلها أل ولا تعرب إلا حالا فهى
- ملزمة للإفراد والتأنيث مثل : عامة وخاصة .أى : قاتلوا - أيها المؤمنون
المشركين جميعا ، كما يقاتلونكم هم جيمعا ، بأن تكونوا فى قتالكم لهم
مجتمعين متعاونين متناصرين .لا مختلفين ولا متخاذلين .وقوله : ( واعلموا
أَنّ الله مَعَ المتقين ) تذييل قصد به إرشادهم إلى ما ينفعهم فى قتالهم
لأعدائهم بعد أمرهم به .أى : واعلموا - أيها المؤمنون أن الله تعالى - مع
عباده المتقين بالعون ولانصر والتأييد ، ومن كان الله معه فلن يغلبه شئ
فكونوا - أيها المؤمنين من عباد الله المتقين الذين صانوا أنفسهم عن كل ما
. نهى عنه؛ لتنالوا عونه وتأييده

انما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما
ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله زين لهم سوء اعمالهم والله لا
يهدي القوم الكافرين

كما فسرها الوسيط ثم نعى - سبحانه - على ما كانوا يفعلون من تحليل وتحريم
للشهور على حسب أهوائهم . . فقال تعالى : ( إِنّمَا النسياء زِيَادَةٌ فِي
الكفر . . . ) والنسئ : مصدر بزنة فعيل مأخوذ من نسأ الشئ إذا أخره .ومنه
: نسأت الإبل عن الحوض إذا أخرتها عنه . ومنه أنسأ الله فى أجل فلان ، أى
أخره والمراد به : تأخير حرمة شهر إلى شهر آخر .وقد أشار صاحب الكشاف إلى
الأسباب التى جعلت المشركين يحلون الأشهر الحرم فقال : " كانوا أصحاب حروب

، وغارات ، فإذا جاء الشهر الحرام وهم محاربون شق عليهم ترك المحاربة فيحلونه ويحرمونه مكانه شهر آخر - وكان يشق عليهم أن يمكثوا ثلاثة أشهر لا يغيرون فيها - حتى رفضوا تخصيص الأشهر الحرم بالتحريم، فكانوا يرحمون من شتى شهور العام أربعة أشهر ، وذلك قوله ( لِّيُوَاطِئُواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللهُ ) أى ليوافقو العدة التى هى الأربعة ولا يخالفوها وقد خالفوا التخصيص الذى هو أحد الواجبين " .والمعنى : إنما النسئ الذى يفعله المشركون من تأخيرهم حرمة شهر إلى آخر ، ( زِيَادَةٌ فِي الكفر ) أى : زيادة فى كفرهم؛ لأنهم قد ضموا إلى كفرهم أخر ، هو تحليلهم لما حرمه الله وتحريمهم لما أحله وبذلك يكونون قد جمعوا بين الكفر فى العقيدة والكفر فى التشريع قال القرطبى : وقوله : ( زِيَادَةٌ فِي الكفر ) بيان لما فعلته العرب من. جمعها أنواعا من الكفر ، فإنها أنكرت وجد البارى - تعالى - فقالت : ( وَمَا الرحمن ) فى أصح الوجوه . وأنكرت البعث فقالت ( مَن يُحيِي العظام وَهِيَ رَمِيمٌ ) وأنكرت بعثة الرسل فقالوا : ( أَبَشَراً مِّنَّا وَاحِداً نَّتَّبِعُهُ ) وزعمت أن التحليل والتحريم إليها ، فابتدعته من ذاتها مقتفية لشهواتها فأحلت ما حرمه الله :ولا مبدل لكلماته ولو كره المشركون وقوله ( يُضَلُّ بِهِ الذين كَفَرُواْ ) قرأه الكوفيون بضم الياء وفتح. الضاد بالبناء للمفعول .أى : يوقع الذين كفروا بسبب ارتكابهم للنسئ فى الضلال والموقع لهم فى هذا الضلال كبراؤهم وشياطينهم .وقرأه أهل الحرمين وأبو عمرو ( يُضَلُّ ) بفتح الياء وكسر الضاد بالبناء للفاعل .أى : يضل الله الذين كفروا ، بأن يخلق فيهم الضلال بسبب مباشرتهم لما أدى إليه وهو ارتكابهم للنسئ .ويصح أن يكون الفاعل هو الذين كفروا أى يضل الذين كفروا عن الحق بسبب استعمالهم للنسئ الذى هو لون من ألوان استحلال محارم الله .وقوله بيان وتفسير ليكفية ( يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً ) : ضلالهم .والضمير المنصوب فى ( يُحِلُّونَهُ . . وَيُحَرِّمُونَهُ ) يعود إلى النسئ ، أى الشهر المؤخر عن موعده .والمعنى أن هؤلاء الكافرين من مظاهر ضلالهم ، أنهم يحلون الشهر المؤخر عن وقته عاما من الأعوام ، ويحرمون مكانه شهرا آخر ليس من الأشهر الحرم ، وأنهم يحرمونه أى : يحافظون على حرمة الشهر الحرام عاما آخر ، إذا كانت مصلحتهم فى ذلك .والمواطأة : الموافقة . يقال : واطأت فلاناً على كذا إذا وافقته عليه بدون مخالفته .والمعنى : فعل المشركون ما فعلوه من التحليل والتحريم للأشهر على حسب أهوائهم ، ليوافقوا بما فعلوا عدة الأشهر الحرم ، بحيث تكون أربعة فى العدد وإن لم تكن عين الأشهر المحرمة فى شريعة الله .قال ابن عباس : ما أحل المشركون شهراً من الأشهر الحرم إلا حرموا مكانه شهراً من الأشهر الحلال . وما حرموا شهراً من الحلال إلا أحلوا مكانه شهرا من الأشهر الحرام ، لكى يكون عدد الأشهر الحرم أربعة .وقوله : ( فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ الله ) تفريع على ما تقدم .أى : فيحلوا بتغييرهم الشهور المحرمة ، ما حرمه الله فى شره ، فهم وإن كانوا وافقوا شريعة الله فى عدد الشهور المحرمة ، إلا أنهم خالفوه فى تخصيصها فقد كانوا - مثلا - يستحلون شهر المحرم بدله شهر صفر .وقوله : ( زُيِّنَ لَهُمْ سواء أَعْمَالِهِمْ ) ذم لهم على انتكاس بصائرهم ، وسوء تفكيرهم .أى : زين ) : لهم الشيطان سوء أعمالهم ، فجعلهم يرون العمل القبيح عملا حسنا . وقوله والله لاَ يَهْدِي القوم الكافرين ) تذييل قصد به التنفير والتوبيخ للكافرين .أى : والله تعالى . اقتضت حكمته أن لا يهدى القوم الكافرين إلى طريقه القويم ، لأنهم بسبب سوء اختيارهم استحبوا العمى على الهدى ، وآثروا طريق الغى على طريق الرشاد . . فكان أمرهم فرطا .هذا ، ومن الأحكام والآداب التى أخذها العلماء من هاتين الآيتين ما يأتى .1- أن السنة اثنا عشر شهراً وأن شهور السنة القمرية هى المعول عليها فى الأحكام لا شهور السنة ، الشمسية .قال الفخر الرازى ، اعلم أن السنة عند العرب عبارة عن اثنى عشر شهراً من الشهور القمرية ، والدليل عليه هذه الآية - ( إِنَّ عِدَّةَ الشهور ) الآية ، وقوله . تعالى : ( هُوَ الذي جَعَلَ الشمس ضِيَآءً والقمر نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السنين والحساب ) . . . فجعل تقديره القمر بالمنازل علة للسنين والحساب وذلك إنما يصح إذا كانت السنة معلقة بسير القمر .وأيضاً قوله . تعالى : ( يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهلة قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ والحج ) ثم قال : واعلم أن مذهب العرب من الزمان الأول أن تكون السنة قمرية لا شمسية ، وهذا الحكم توارثوه عن إبراهيم وإسماعيل . عليها السلام . فأما عند اليهود والنصارى ، فليس الأمر كذلك . .وقال الجمل : قوله ( اثنا عَشَرَ شَهْراً ) هذه شهور السنة القمرية التى هى مبنية على سير القمر فى المنازل ، وهى شهور العرب التى يعتد بها المسلمون فى صيامهم ومواقيت حجهم وأعيادهم وسائر أمورهم وأحكامهم وأيام هذه الشهور ثلثمائة وخمسة وخمسون يوماً . والسنة الشمسية عبارة عن . دوران الشمس فى الفلك دورة تامة ، وهى ثلثمائة وهمسة وستون يوماً . وربع يوم . فتنقص السنة الهلالية عن السنة الشمسية عشرة أيام ، فبسبب هذا النقصان تدور السنة الهلالية فيقع الصوم والحج تارة فى الشتاء وتارة فى الصيف .هذا ، وقد تكلم بعض المفسرين عن الشهور القمرية ، وعن سبسب تسميتها بما سميت به فارجع إليه إن شئت .2- وجوب التقييد بما شعره الله من أحكام

بدون زيادة أو نقصان عليها .قال القرطبى ما ملخصه : وضع - هذه الشهور وسماها بأسمائها على مارتبها عليه يوم خلق السماوات والأرض ، وأنزل ذلك على أنبيائه فى كتبه المنزلة ، وهى معنى قوله : ( إِنَّ عِدَّةَ الشهور عِندَ الله اثنا عَشَرَ شَهْراً ) .وحكمها باق على ما كانت عليه لم يزلها عن ترتيبها تغيير المشركين لأسمائها ، وتقديم المقدم فى الاسم منها .والمقصود من ذلك اتباع أمر الله فيها ، ورفض ما كان عليه أهل الجاهلية من تأخير أسماء الشهور وتقديمها .ولذا قال - صلى الله عليه وسلم - فى خطبته فى حدة الوداع : " إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض " .ثم قال القرطبى : كانوا يحرمون شهراً فشهراً حتى استدار التحريم على السنة كلها فقام الإسلام وقد رجع المحرم إلى موضعه الذى وضعه الله فيه . فهذا معنى . قوله - صلى الله عليه وسلم - " إن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السماوات والأرض " .3- أخذ بعضهم من قوله تعالى - ( فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ) أن تحريم القتال فى الأشهر الحرم ثابت لم ينسخ ، وأنه لا يصح القتال فيها إلا أن يكون دفاعاً .قال ابن جريج : حلف بالله عطاء بن أبى رباح أنه ما يحل للناس أن يغزوا فى الحرم ولا فى الأشهر الحرم إلا أن يقاتلوا فيها .وذهب جمهور العلماء إلى أن تحريم القتال فى الأشهر الحرم قد نسخ ، بدليل أن الله - تعالى - بعد أن نهى المؤمنين عن أن يظلموا أنفسهم بالقتال فيها أمرهم بقتال المشركين من غير تقيد بزمن فقال ( وَقَاتِلُواْ المشركين كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ) فدل ذلك على أن القتال فى الأشهر الحرم مباح .وبدليل أن النبى - صلى الله عليه وسلم - حاصر أهل الطائف فى شهر حرام وهو شهر ذى القعدة .قال ابن كثير : ثبت فى الصحيحين أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خرج إلى هوزان فى شوال ، فلما كسرهم . . لجأوا إلى الطائف ، فعمد - صلى الله عليه وسلم - إلى الطائف فحاصرهم أربعين يوماً ، وانصرف ولم يفتحها فثبت أنه حاصر فى الشهر الحرام - ) أى . فى شهر ذى القعدة .ثم قال ما ملخصه : وأما قوله - تعالى - ( وَقَاتِلُواْ المشركين كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ) فيحتمل أنه منقطع عما قبله وأنه حكم مستأنف . ويكون من باب التهييج للمؤمنين على قتال أعدائهم . . ويحتمل أنه أذن للمؤمنين بقتال أعدائهم فى الشهر الحرام إذا كانت البداءة منهم - أى من الأعداء : كما قال : - تعالى - ( الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قِصَاصٌ ) وكما قال - تعالى - ( وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ المسجد الحرام حتى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فاقتلوهم ) وهكذا الجواب عن حصار رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أهل الطائف واستصحابه الحصار إلى أن دخل الشهر الحرام ، فإنه من تتمة قتال هوزان وأحلافها ، فإنهم الذين بدأوا القتال للمسلمين .. فعند ذلك قصدهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلما تحصنوا بالطائف ذهب إليهم لينزلهم من حصونهم فنالوا من المسلمين ، وقتلوا جماعة منهم . . واستمر حصار المسلمين لهم أربعين يوماً ، وكان ابتداؤه فى شهر حلال ، ودخل الشهر الحرام فاستمر فيه أياما ثم قفل عنهم ، لأنه يغتفر فى الدوام مالا يغتفر فى الابتداء ، وهذا أمر مقرر .ومن كلام ابن كثير . رحمه الله - نستنتج أنه يميل إلى القول بأن المنهى عنه هو ابتداء القتال فى الأشهر الحرم ، لا إتمام القتال فيها متى بدأ الاعداء ذلك وهو قريب من قول القائل :لا يحل القتال فيها ولا فى الحرم إلا إن يكون دفاعاً .وهذا القول هو الذى تطمئن إليه النفس ، لأنه لم يثبت أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - بدأ أعداءه القتال فى الأشهر الحرم ، وإنما الثابت أن الأعداء هم الذين ابتدأوا قتال المسلمين فيها ، فكان موقف المسلمين هو الدفاع عن أنفسهم :4- ذكر المفسرون روايات فى أول من أخر حرمة شهر إلى آخر ، فعن مجاهد قال : كان رجل من بنى كنانة يأتى كل عام إلى الموسم على حمار له فيقول : أيها الناس . إنى لا أعاب ولا أخاب ولا مرد لما أقول . إن قد حرمنا المحرم وأخرنا صفر . ثم يجئ العام المقبل بعده فيقول مثل مقالته ويقول : إنا قد حرمنا صفر وأخرنا المحرم .وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هذا رجل من بنى كنانة يقال له " القلمس " وكان فى الجاهلية . وكانوا فى الجاهلية لا يغير بعضهم على بعض فى الشهر الحرام يلقى الرجل قاتل أبيه فلا يمد إليه يده . فلما كان هو قال لقومه : أخرجوا بنا - أى للقتال - فقالوا له : هذا المحرم . قال : ننسئه العام ، هى العام صفران . فإذا كان العام القابل قضينا . . جعلنا هما محرمين .قال : ففعل ذلك . فلما كان عام قابل قال :لا تغزوا فى صفر . حرموه مع المحرم . هما محرمان .وقد كان بعض أهل الجاهلية يتفاخر بهذا النسئ ، ومن ذلك قول شاعرهم ومنا ناسئ الشهر القلمس ... قال آخر :ألسنا الناسئين على معد ... شهور: الحل نجعلها حراماوقد أبطل الإسلام كل ذلك ، وأمر بترتيب الشهور على ما رتبها - سبحانه - عليه يوم خلق السماوات والأرض .وبعد : فهذه سبع وثلاثون آية من أول السورة إلى هنا ، نراها - فى مجموعها كما سبق أن بينا - قد حددت ، العلاقات النهائية بين المسلمين وبين أعدائهم من المشركين وأهلا لكتاب ، كما نراها قد أبرزت الأسباب التى دعت إلى هذا التحديث بأسلوب حكيم مؤثر يقنع العقول ، ويشبع العواطف .ثم انتقلت السورة بعد ذلك إلى الحديث عن غزوة تبوك وما جرى فيها من أحداث متنوعة . . وقد استغرق هذا الحديث معظم آيات

. السورة ، لا سيما فيما يتعلق بهتك أستار المنافقين ، والتحذير منهم

يا ايها الذين امنوا ما لكم اذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم الى الارض ارضيتم بالحياة الدنيا من الاخرة فما متاع الحياة الدنيا في الاخرة الا قليل

كما فسرها الوسيط وقد بدأت السورة حديثها عن غزوة تبوك بتوجيه نداء إلى المؤمنين نعت فيها على المتثاقلين عن الجهاد ، وحرضت عليه بشتى ألوان التحريض قال تعالى : ( ياأيها الذين آمَنُواْ . . . إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ) .قال الإمام ابن كثير : هذا شروع فى عتاب فى عتاب من تخلف عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى غزوة تبوك ، حين طابت الثمار والظلال فى شدة الحر ، وحمارة القيظ .وتبوك : اسم لمكان معروف فى أقصى بلاد الشام من ناحية الجنوب ، ويبعد عن المدينة المنور من الجهة الشمالية بحوالى ستمائة كيلو متر .وكانت غزوة تبوك فى شهر رجب من السنة التاسعة ، وهى آخر غزوة لرسول الله ، - صلى الله عليه وسلم - .وكان السبب فيها أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - بلغة أن الروم قد جمعوا له جوعا كثيرة على أطارف الشام ، وأنهم يريدون أن يتجهوا إلى الجنوب لمهاجمة المدينة .فاستنفر - صلى الله عليه وسلم - الناس إلى قتال الروم ، وكان - صلى الله عليه وسلم - قلما يخرج إلى غزوة إلا ورى بغيرها حتى يبقى الأمر سراً .ولكنه فى هذه الغزوة ، صرح للمسلمين بوجهته وهى قتال الروم ، وذلك لبعد المسافة ، وضيق الحال وشدة الحر ، وكثرة العدو .وقد لبى المؤمنون دعوة رسولهم - صلى الله عليه وسلم - لقتال الروم ، وصبروا على الشدائد ، والمتاعب وبذلوا الكثير من أموالهم ، ولم يتخلف منهم إلا القليل .أما المنافقون وكثير من الأعراب ، فقد تخلفوا عنها ، وحرضوا غيرهم على ذلك ، وحكت السورة . فى كثير من آياتها الآتية . ما كان منهم من جبن ومن تخذيل الناس عن القتال ، ومن تحريض لهم على القعود وعدم الخروج .وبعد أن وصل الرسول - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنون إلى تبوك ، لم يجدوا جموعا للروم . فأقاموا هناك بضع عشرة ليلة ، ثم عادوا إلى المدينة .وقوله - سبحانه - : ( انفروا ) من النفر وهو التنقل بسرعة من مكان إلى مكان لسبب من الأسباب الداعية لذلك .يقال : نفر فلان إلى الحرب ينفر وينفر نفراً ونفوراً ، إذا خرج بسرعة ويقال : استنفر الإمام الناس ، إذا حرضهم على الخروج للجهاد . ومنه قوله - صلى الله عليه وسلم - : " وإذا استنفرتم فانفروا " أى : وإذا دعاكم الإمام إلى الخروج معه للجهاد فاخرجوا معه بدون تثاقل .واسم القوم الذين يخرجون للجهاد : النفير والنفرة والنفر .ويقال : نفر فلان من الشئ ، إذا فزع منه ، وأدبر عنه ، ومنه قوله تعالى - ( وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي القرآن وَحْدَهُ وَلَّوْاْ على أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً ) وقوله : ( اثاقلتم ) : من الثقل ضد الخفة . يقال تثاقل فلان عن الشئ ، إذا تباطأ عنه ولم يهتم به . . ويقال : تثاقل القوم : إذا لم ينهضوا لنجدة المستجير بهم . وأصل ( اثاقلتم ) تثاقلتم ، فأبدلت : التاء ثاء ثم أدغمت فيها ، ثم اجتلبت همزة الوصل من أجل التوصل للنطق بالساكن .والمعنى : أيها الذين آمنوا بالله ورسوله ، ( مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفروا فِي سَبِيلِ الله اثاقلتم إِلَى الأرض ) أى : ما الذى جعلكم تباطأتم عن الخروج إلى الجهاد ، حين دعاكم رسولكم - صلى الله عليه وسلم - إلى قتال الروم ، وإلى النهوض لإعلاء كلمة الله ، ونصرة دينه؟وقد ناداهم - سبحانه - بصفة الإيمان ، لتحريك حرارة العقيدة فى قلوبهم ، وتوجيه عقولهم إلى ما يستدعيه الإيمان الصادق من طاعة الله ولرسوله والاستفهام فى قوله : ( مَا لَكُمْ ) لإنكار واستبعاد صدور هذا التثاقل منهم ، مع أن هذا يتنافى مع الإيمان والطاعة .قال الجمل : و " ما " مبتدأ و " لكم " خبر ، وقوله " أثاقلتم " حال . وقوله : ( إِذَا قِيلَ لَكُمُ ) ، ظرف لهذه الحال مقدم عليها .والتقدير : أى شئ ثبت لكم من الأعذار . حال كونكم متثاقلين فى وقت قول الرسول لكم : انفوا فى سبيل الله .وقوله ( إِلَى الأرض ) متعلق بقوله : " اثاقلتم " على تضمينه معنى الميل إلى الراحة والإخلاد إلى الأرض ، ولذا عدى بإلى .أى : اثاقلتم مائلين إلى الراحة وإلى شهوات الدنيا الفانية ، وإلى الإقامة بأرضكم ودياركم ، وكرهتم الجهاد مع أنه ذروة سنام الإسلام .وإن التعبير بقوله ، سبحانه ، ( اثاقلتم ) لفى أسمى درجات البلاغة ، وأعلى مراتب التصوير الصادق ، لأنه بلفظه وجرسه يمثل الجسم المسترخى الثقيل الذى استقر على الأرض . . . والذى كلما حاول الرافعون أن يرفعوه عاد إليه ثقله فسقط من بين أيديهم ، وأخلد إلى الأرض وذلك لأن ما استولى عليه من حب للذائذ الدنيا وشهواتها ، أثقل بكثير من حبه لنعيم الآخرة وخيراتها .وقوله ، سبحانه ، : ( أَرَضِيتُمْ بالحياة الدنيا مِنَ الآخرة ) إنكار آخر لتباطئهم عن الجهاد ، وتعجب من ركونهم إلى الدنيا مع أن إيمانهم يتنافى مع ذلك .وقوله . ( فَمَا مَتَاعُ الحياة الدنيا فِي الآخرة ) بيان لحقارة متاع الدنيا بالنسبة لنعيم الآخرة الدائم والمعنى : أى شئ حال بينكم ، أيها المؤمنون ، وبين المسارعة إلى الجهاد: عندما دعاكم رسولكم - صلى الله عليه وسلم - إليه . أرضيتم براحة الحياة

الدنيا ولذائذها النقاصة .إن كان أمركم كذلك ، فقد أخطأتم الصواب ، لأن
، متاع الحياة الدنيا مهما كثر فهو قليل مستحقر بجانب متاع الآخرة الباقي
ونعيهما الخالد .قال الآلوسى ما ملخصه : " فى " من قوله ( فَمَا مَتَاعُ
الحياة الدنيا فِي الآخرة ) تسمى بفى القياسية . لأن المقيس يوضع فى جنب ما
يقاس به . وفى ترشيح الحياة الدنيا بما يؤذن بنفاستها ، ويستدعى الرغبة
فيها . وتجريد الآخرة عن ذلك مثل مبالغة فى بيان حقارة الدنيا ودناءتها
وعظم شأن الآخر ورفعتها .وقد أخرج أحمد ومسلم والترمذى والنسائى وغيرهم عن
المستورد ، أخى بنى فهر ، قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " ما
الدنيا فى الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه هذه فى اليمن ، فلينظر بم ترجع
، وقال الفخر الرازى : اعلم أن هذه الآية تدل على وجوب الجهد فى كل حال. "
لأنه ، سبحانه ، نص على أن تثاقلهم عن الجهاد أمر منكر ، ولو لم يكن الجهاد
واجبا لما كان هذا التثاقل منكرا . وليس لقائل أن يقول : الجهاد إنما يجب
فى الوقت الذى يخاف هجوم الكفار فيه ، لأنه عليه اللاسم ، ما كان يخاف هجوم
الروم عليه ، ومع ذلك فقد أوجب الجهاد معهم . . وأيضاً هو واجب على الكفاية
فإذا قام به البعض سقط عن الباقين . والخطاب فى الآية للمؤمنين الذين ،
. - تقاعسوا فى الخروج إلى غزوة تبوك مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم

الا تنفروا يعذبكم عذابا اليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا والله
على كل شيء قدير

كما فسرها الوسيط ثم هددهم ، سبحانه ، بالعذاب الأليم ، إن لم ينفروا
للجهاد فى سبيله فقال ( إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً
) : وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئاً ) .أى
) إِلاّ تَنفِرُواْ ) ، أيها المؤمنين ، للجهاد كما أمركم رسولكم
، يُعَذِّبْكُمْ ) الله ( عَذَاباً أَلِيماً ) فى الدنيا بإنزال المصائب
بكم ، وفى الآخرة بنار جهنم .وقوله : ( وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ
. أى : ويستبدل بكم قوما يطيعون رسوله فى العسر واليسر ، والمنشط والمكره (
كما قال : ( وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمّ .
: لاَ يكونوا أَمْثَالَكُم ) قال صاحب المنار : قيل المراد بهؤلاء القوم
أهل اليمن ، وقيل أهل فارس وليس فى محله ، فإن الكلام للتهديد ، والله يعلم
أنه لا يقع اشلرط ولا جزاؤه .وإنما المراد يطيعونه - سبحانه - ويطيعون
رسوله ، لأنه قد وعده بالنصر؛ وإظهار دينه ، فإن لم يكن هذا الإظهار
بأيديكم . فلا بد أن يكون بأيدى غيركم ( وَلَن يُخْلِفَ الله وَعْدَهُ )
وقد مضت سنته - تعالى - بأنه لا بقاء للأمم التى تتثاقل عن الدفاع عن نفسها
وحفظ حقيقتها وسيادتها ، ولا تتم فائدة القوة الدفاعية والهجومية إلا بطاعة
الامام ، فكيف إذا كان الأمام والقائد هو النبى الموعود من ربه بالنصر
والضمير فى قوله (وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئاً ) يعود إلى الله ، تعالى .أى.
إن تباطأتم " أيها المؤمنون " عن الجهاد ، يعذبكم الله عذاباً أليما :
ويستبدل بكم قوماً سواكم لنصرة نبيه ، ولن تضروا الله شيئاً من الضرر بسبب
: تقاعسكم . لأنكم أنتم الفقراء إليه ، وهو ، سبحانه ، الغنى الحميد .وقيل
الضمير يعود للرسول ، - صلى الله عليه وسلم - أى : ولا تضروا الرسول شيئاً
ما من الضرر بسبب تثاقلكم عن الجهاد ، لأن الله قد وعده بالنصر ووعده كائن
لا محاله .وقوله : ( والله على كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ) تذييل مؤكد لما قبله
أى : والله ، تعالى : على كل شئ من الأشياء قدير ، ولا يعجزه أمر ، ولا.
يحول دون نفاذ مشيئته حائل ، فامتثلوا أمره لتفوزوا برضوانه .فأنت ترى أن
، هذه الآية وسابقتها قد اشتملت على أقوى الأساليب التى ترغب فى الجهاد
. وترهب عن النكوص عنه ، وتبعث على الطاعة لله ولرسوله

الا تنصروه فقد نصره الله اذ اخرجه الذين كفروا ثاني اثنين اذ هما في الغار
اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا فانزل الله سكينته عليه وايده بجنود
لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز
حكيم

كما فسرها الوسيط ثم ذكرهم ، سبحانه ، بما يعرفونه من حال الرسول - صلى
الله عليه وسلم - حيث نصره الله .تعالى ، على أعدائه بدون عون منهم ، وأيده
بجنود لم يروها فقال ، ( إِلاّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ الله ) .قال
ابن جرير . هذا إعلام من الله لأصحاب رسوله - صلى الله عليه وسلم - أنه
المتوكل بنصر رسوله على أعداء دينه ، وإظهاره عليهم دونهم ، أعانوه أو لم
يعينوه ، وتذكير منه لهم بأنه فعل ذلك به ، وهو من العدد فى قلة ، والعدو
، فى كثرة فكيف به وهو من العدد فى كثرة والعدو فى قلة .والمعنى : إنكم
أيها المؤمنون ، إن آثرتم القعود والراحة على الجهاد وشدائده ، ولم تنصروا
رسولكم الذى استنفركم للخروج معه . فاعلموا أن الله سينصره بقدرته النافذة
) كما نصره ، وأنتم تعلمون ذلك ، وقت أن أخرجه الذين كفروا من مكة ،
ثَانِيَ اثنين ) أى : أحد اثنين . والثانى : أبو بكر الصديق ، رضى الله عنه

يقال . فلان ثالث ثلاثة ، أو رابع أربعة . . أى : هو من الثلاثة أو من الأربعة .فإن قيل : فلان رابع ثلاث أو خامس أربعة ، فمعناه أنه صير الثلاثة أربعة بإضافة ذاته اليهم ، أو صير الأربعة خمسة .وأسند سبحانه الإخراج إلى المشركين مع أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد خرج بنفسه بإذن من الله تعالى ، لأنهم السبب فى هذا الخروج حيث اضطروه إلى ذلك ، بعد أن تآمروا على قتله .قيل : وجواب الشرط فى قوله ، ( إِلاَّ تَنصُرُوهُ ) محذوف وقوله ( فَقَدْ نَصَرَهُ الله ) تعليل لهذا لمحذوف .والتقدير : إلا تنصروه ينصره الله فى كل حال . ( فَقَدْ نَصَرَهُ ) سبحانه وقت أن أخرجه الكافرون من بلده ولم يكن معه سوى رجل واحد .وقال صاحب الكشاف : فإن قلت . كيف يكون قوله ( فَقَدْ نَصَرَهُ الله ) جواباً للشرط؟ .قلت " فيه وجهان " أحدهما : إلا تنصروه فسينصره من نصره حين لم يكن معه إلا رجل واحد . ولا أقل من الواحد ، فدل بقوله . ( فَقَدْ نَصَرَهُ الله ) على أنه ينصره فى المستقبل كما نصره فى ذلك الوقت .والثانى . أنه أوجب له النصرة وجعله منصوراً فى ذلك الوقت ، فلن يخذل من بعده .وقوله : ( ثَانِيَ إِثنين ) حال من الهاء فى قوله ( أَخْرَجَهُ ) أى اخرجه الذين كفروا حال كونه منفرداً عن جميع الناس إلا أبا بكر الصديق - رضى الله عنه .وقوله : ( إِذْ هُمَا فِي الغار ) بدل من قوله ( إِذْ أَخْرَجَهُ ) .والغار : النقب العظيم يكون فى الجبل . والمراد به هنا : غار جبل ثور . وهو جبل فى الجهة الجنوبية لمكة ، وقد مكثا فيه ثلاثة أيام .وقوله : ( إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ الله مَعَنَا ) بدل ثان من قوله ( إِذْ أَخْرَجَهُ ) .أى :لا تنصروه فقد نصره الله وقت أن أخرجه الذين كفروا من مكة ، ووقت أن كان هو وصاحبه أبو بكر فى الغار ، ووقت أن كان - صلى الله عليه وسلم - يقول لصاحبه الصديق :"لا تحزن إن الله معنا بتأييده ونصره وحمايته " .وذلك أن أبا بكر وهو مع النبى - صلى الله عليه وسلم - فى الغار ، أحسن بحركة المشركين من فوق الغار ، فخاف خوفا شديداً لا على حياته هو ، وإنما على حياة النبى - صلى الله عليه وسلم - فلما رأى النبى - صلى الله عليه وسلم - منه ذلك ، أخذ فى تسكين روعة وجزعه . وجعل يقول له :لا تحزن إن الله معنا .أخرج الشيخان " عن أبى بكر قال نظرت إلى أقدام المشركين ونحن فى الغار ، وهم على رءوسنا ، فقلت . يا رسول الله ، لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه ، فقال : " يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما ، لا تحزن إن الله معنا " " .وقوله : ( فَأَنزَلَ الله سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ) بيان لما أحاط الله به نبيه - صلى الله عليه وسلم - من مظاهر الحفظ والرعاية .والسكينة : من السكون ، وهو ثبوت الشئ بعد التحرك . أو من السكن - بالتحريك - وهو كل ما سكنت إليه نفسك ، واطمأنت به من أهل وغيرهم والمراد بها هنا : الطمأنينة التى استقرت فى قلب النبى - صلى الله عليه وسلم - فجعلته لا يبالى بجموع المشركين المحيطين بالغار ، لأنه واثق بأنهم لن يصلوا إليه .والمراد بالجنود المؤيدين له . الملائكة الذين أرسلهم - سبحانه - لهذا الغرض : والضمير فى قوله : ( عَلَيْهِ ) يعود إلى النبى - صلى الله عليه وسلم .أى . فأنزل الله سكينته وطمأنينته وأمنه على رسوله صلى الله عليه وسلم - وأيده وقواه بجنود من الملائكة لم تروها أنتم ، كان من وظيفتهم حراسته وصرف أبصار المشركين عنه .ويرى بعضهم أن الضمير فى قوله يعود إلى ابى بكر الصديق ، لأن الأصل فى الضمير أن يعود إلى ( عَلَيْهِ ) أقرب مذكور ، وأقرب مذكور هنا هو الصاحب ولأن الرسول لم يكن فى حاجة إلى السكينة . وإنما الذى كان فى حاجة إليها هو أبو بكر ، بسبب ما اعتراه من فزع وخوف .وقد رد أصحاب الرأى الأول على ذلك بأن قوله ( وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ) الضمير فيه لا يصح إلا للنبى - صلى الله عليه وسلم - وهو معطوف على ما قبله فوجب أن يكون الضمير فى قوله ( عَلَيْهِ ) عائداً إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - حتى لا يحصل تفكك فى الكلام .أما نزول السكينة فلا يلزم منه أن يكون لدفع الفزع والخوف ، بل يصح أن يكون لزيادة الاطمئنان ، وللدلالة على علو شأنه - صلى الله عليه وسلم .قال ابن كثير قوله ( فَأَنزَلَ الله سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ ) أى . تأييده ونصره عليه أى .على الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى أشهر القولين . وقيل . على أبى بكر .قالوا : لأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لم تزل معه سكينة . وهذا لا ينافى تجدد سكينة خاصة بتلك الحال ، ولهذا قال : ( وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ) أى : الملائكة .وقوله : ( وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السفلى وَكَلِمَةُ الله هِيَ العليا ) بيان لما ترتب على إنزال السكينة والتأييد بالملائكة .والمراد بكلمة الذين كفروا . كلمة الشرك أو كلمتهم التى اجتمعوا عليها فى دار الندوة وهى اتفاقهم على قتل رسول الله - صلى الله عليه وسلم .والمراد بكلمة الله : دينه الذى ارتضاه لعباده وهو دين الإسلام ، وما يترتب على اتباع هذا لدين من نصر وحسن عاقبة ، أى ، كانت نتيجة إنزال السكينة والتأييد بالملائكة ، أن جعل كلمة الشرك هى : السفلى ، أى . المقهورة الذليلة . وكلمة الحق والتوحيد المتمثلة فى دين الإسلام هى العليا أى : هى الثابتة الغالبة النافذة .وقراءة الجمهور برفع ) : على الابتداء . وقوله ( هِيَ ) مبتدأ ثان : وقوله ( كَلِمَةَ ) .

العليا ) خبرها ، والجملة خبر المبتدأ الأول .ويجوز أن يكون الضمير ( هِيَ
ضمير فصل ، وقوله ( العليا ) هو الخبر وقرأ الأعمش ويعقوب ( وَكَلِمَةُ (
: الله ) بالنصر عطفاً على مفعول جعل وهو ( كَلِمَةَ الذين كَفَرُواْ ) .أى
وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وجعل كلمة الله هى العليا .قالوا : وقراءة
الرفع أبلغ وأوجه ، لأن الجملة الأسمية تدل . على الدوام والثبوت ، ولأن
الجعل لم يتطرق إلى الجملة الثانية وهى قوله : ( وَكَلِمَةُ الله هِيَ
. العليا ) لأنها فى ذاتها عالية ثابتة ، بدون جعلها كذلك فى حالة معينة
بخلاف علو غيرها فهو ذاتى ، وإنما هو علو مؤقت فى حال معينة ، ثم مصيرها
إلى الزوال والخذلان بعد ذلك .وقوله : ( والله عَزِيزٌ حَكِيمٌ ) تذييل
، مقرر لمضمون ما قبله .أى : والله - تعالى - ( عَزِيزٌ )لا يغلبه غالب
ولا يقهر قاهر ، ولا ينصر من عاقبه ناصر ، ( وَحَكِيمٌ ) فى تصريفه شأن
خلقه ، لا قصور فى تدبيره ، ولا نقص فى أفعاله .هذا ، ومن الأحكام التى
أخذها العلماء من هذه الآية : الدلالة على فضل أبى بكر الصديق - رضى الله
- عنه - وعلى علو منزلته ، وقوة إيمانه ، وشدة إخلاصه لله - تعالى
ولرسوله - صلى الله عليه وسلم - .ومما يشهد لذلك ، أن الرسول - صلى الله
عليه وسلم - عندما أذن الله له بالهجرة ، لم يخبر أحدا غيره لصحبته فى طريق
هجرته إلى المدينة .ولقد أظهر الصديق - رضى الله عنه - خلال مصاحبته
للرسول - صلى الله عليه وسلم - الكثير من ألوان الوفاء والإخلاص وصدق
العقيدة .قال الآلوسى ما ملخصه : واستدل بالآية على فضل أبى بكر . . فإنها
خرجت مخرج العتاب للمؤمنين ما عدا أبا كبر . . فعن الحسن قال : عاتب الله
جميع أهل الأرض غير أبى بكر فقال : ( إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ
الله ) الآية .ولأن فيها النص على صحبته للرسول - صلى الله عليه وسلم - ولم
يثبت ذلك لأحد من الصحابة : لأنه هو المراد بالصاحب فى قوله ( إِذْ يَقُولُ
لِصَاحِبِهِ ) وهذا مما وقع عليه الإجماع .ومن هنا قالوا : من أنكر صحبة
أبى بكر فقد كفر ، لإنكار كلام الله ، وليس ذلك لسائر الصحابة .وقد ساق
الإمام الرازى ، والشيخ رشيد رضا ، عند تفسيرهما لهذه الآية اثنى عشر
. وجهاً فى فضل أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - ، فارجع إليهما إن شئت

انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا باموالكم وانفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم
ان كنتم تعلمون

كما فسرها الوسيط وبعد هذا التذكير للمؤمنين بما كان منه - سبحانه - من
) : تأييد لرسوله عند هجرته ، أمرهم - جل شأنه - بالنفير فى كل حال فقال
انفروا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ
فِي سَبِيلِ الله ذلكم خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ) .قال
الفخر الرازى ما ملخصه : اعلم أنه - تعالى - لما توعد من لا ينفر مع
الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، وضرب له من الأمثال ما وصفنا ، ابتعه بهذا
الأمر الجازم فقال : ( انفروا خِفَافاً وَثِقَالاً ) .والمراد : انفروا
سواء أكنتم على الصفة التى يخف عليكم الجهاد فيها ، أو على الصفة التى يثقل
وهذا الوصف يدخل تحته أقسام كثيرة .منها : ( خِفَافاً ) فى النفور .
لنشاطكم له ، و ( وَثِقَالاً ) عنه لمشقته عليكم .ومنها : ( خِفَافاً )
، لقلة عيالكم ، و ( وَثِقَالاً ) لكثرتها .ومنها : ( خِفَافاً ) من السلاح
و ( وَثِقَالاً ) منه .والصحيح ما ذكرنا ، إذ الكل داخل فيه ، لأن الوصف
المذكور وصف كلى يدخل فيه كل هذه الجزئيات .والمعنى : ( انفروا ) - أيها
المؤمنون - ( خِفَافاً وَثِقَالاً ) أى : فى حال سهولة النفر عليكم ، وفى
حال صعوبته ومشقته .( وَجَاهِدُواْ ) أعداءكم ببذل أموالكم . وببذل أنفسكم
- أى : فى سبيل إعلاء كلمة الله ونصرة دينه ورسوله ( فِي سَبِيلِ الله )
صلى الله عليه وسلم - .فمن استطاع منكم الجهاد بالمال والنفس وجب عليه
الجهاد بها . ومن قدر على أحدهما دون الآخر ، وجب عليه ما كان فى قدرته
منهما .قال القرطبى روى أبو داود عن أنس أن رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - قال : " جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم " .وهذا وصف
لأكمل ما يكون الجهاد وأنفعه عند الله - تعالى - فقد حض - سبحانه - على
كمال الأوصاف .وقدم الأموال فى الذكر ، إذ هى أول مصرف وقت التجهيز ، فرتب
الأمر كما هو فى نفسه .واسم الإشارة فى قوله : ( ذلكم خَيْرٌ لَّكُمْ إِن
كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ) يعود إلى المذكور من الأمرين السابقين وهما : النفور
والجهاد .أى : ذلكم الذى أمرتم به من النفور والجهاد فى سبيل الله ، خير
لكم فى دنياكم وفى آخرتكم من التثاقل عنهما ، إن كنتم من أهلا لعلم بحقيقة
ما بين لكم خالقكم ومربيكم على لسان رسوله - صلى الله عليه وسلم - .ولقد
أدرك المؤمنون الصادقون هذا الخير فامتثلوا أمر ربهم ، ونفروا للجهاد فى
سبيله خفاقاً وثقالاً ، بدون تباطؤ أو تقاعس .وقد ساق المفسرون عند تفسيرهم
لهذه الآية كثيراً من الأمثة التى تدل على محبة السلف الصالح للجهاد فى
سبيل الله ، ومن ذلك .ما جاء عن أنس أن أبا طلحة قرأ سورة براءة ، فأتى على
هذه الآية : ( انفروا خِفَافاً وَثِقَالاً ) فقال : أى بنى ، جهزونى جهزونى
فقال بنوه . يرحمك الله!! لقد غزوت مع النبى - صلى الله عليه وسلم - تحتى .

مات ، ومع أبى بكر حتى مات . ومع عمر حتى مات . فنحن نغزو عنك . فقال : لا
جهزونى . فغزا فى البحر فمات فى البحر ، فلما يجدوا له جزيرة يدفنونه ،
فيها إلا بعد سبعة أيام فدفنوه فيها ، ولم يتغير - رضى الله عنه .وقال
الزهرى : خرج سعيد بن المسيب إلى الغزو وقد ذهبت إحدى عينيه فقيل له : إنك
عليل : فقال : استنفر الله الخفيف والثقيل ، فإن لتم يمكنى الحرب كثرت
السواد وحفظت المتاع .وأخرج ابن جرير عن حيان بن زيد الشرعبى قال : نفرنا
مع صفوان بن عمرو : وكان والياً على حمص ، فلقيت شيخاً كبيراً هرما ، لى
: راحلته فيمن نفر ، فأقبلت عليه فقلت : يا عماه لقد أعذر الله إليك .قال
فرفع حاجبيه فقال . يا ابن أخى ، استنفرنا الله خفافا وثقالا ، من يحبه
الله يتليه ، ثم يعيده فيبقيه ، وإنما يبتلى الله من عباده من شكر وصبر
وذكر ، لوم يعبد إلا الله .وعن أبى راشد الحبرانى قال . وافيت المقداد بن
الأسود ، فارس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جالساً على تابوت من
توابيت الصيارفة بحمص ، وهو يريد الغزو - وقد تقدمت به السن - فقلت : له
: لقد أعذر الله إليك .فقال : أبت علينا سورة البعوث ذلك . يعنى هذه الآية
هذا ، ومن العلماء من يرى أن هذه الآية. ( انفروا خِفَافاً وَثِقَالاً )
، تجعل الجهاد على الجميع حتى المريض والزمن والفقير . . وليس الأمر كذلك
فما معنى هذا الأمر؟قلت . من العلماء من حمله على الوجوب ثم إنه نسخ
بقوله - تعالى - ( لَّيْسَ عَلَى الضعفآء وَلاَ على المرضى ) ومنهم من حمل
هذا الأمر الندب .والصحيح أنها منسوخة ، لأن الجهاد من فروض الكفاية ، ويدل
- عليه أن هذه الآيات نزلت فى غزوة تبوك ، وأن النبى - صلى الله عليه وسلم
خلف فى المدينة فى تلك الغزوة النساء وبعض الرجال ، فدل ذلك على أن الجهد
من فروض الكفايات ، وأنه ليس على الأعيان .ويرى بعض العلماء أن الاية ليست
منسوخة ، فقد قال الإمام القرطبى - ما ملخصه - واختلف فى هذه الآية ، فقيل
إنها منسوخة بقوله - تعالى - ( لَّيْسَ عَلَى الضعفآء وَلاَ على المرضى
) - والصحيح أنها ليست بمنسوخة .روى ابن عباس عن أبى طلحة فى قوله - تعالى(
. انفروا خِفَافاً وَثِقَالاً ) قال : شباناً وكهولا . ما سمع الله عذر أحد
فخرج إلى الشام فجاهد حتى مات .ثم قال - بعد أن ساق نماذج متعددة لمن خرجوا
للجهاد خفافاً وثقالا - فلهذا وما كان مثله مما روى عن الصحابة والتابعين
قلنا . إن النسخ لا يصح .فقد تكون هناك حالة يجب فيها نفير الكل ، وذلك إذا
تعين الجهاد لغلبة العدو على قطر من الأقطار الإسلامية ، أو بحلوله فى
العقر . ففى هذه الحالة يجب على جميع أهل الدار أن ينفروا ويخرجوا إليه
خفافاً وثقالاً؛ شباباً وشيوخاً ، كل على قدر طاقته . ولا يتخلف أحد يقدر
على الخروج .فإن عجز أهل تلك البلدة عن صد عدوهم؛ كان على من قاربهم أن
يخرجوا معهم لصد العدو ، وكذلك الشأن بالنسبة لكل من علم بضعفهم عن عدوهم
فالمسلمون كلهم يد على من سواهم .حتى إذا قام بدفع العدو أهل الناحية التى
نزل العدو عليها ، سقط الفرض على الآخرين .ثم قال - رحمه الله - ومن الجهاد
أيضاً ما هو نافلة ، وهو إخراج الإمام طائفة . . لإظهار القوة ، وإعزاز
. دين الله .ثم قال : وقال ابن العربى ، ولقد نزل بنا العدو - قصمه الله
. . سنة سبع وعشرين وخمسمائة : فجاس ديارنا ، وأسر خيرتنا ، وتوسط بلادنا
فقلت للوالى والمولى عليه : عدو الله قد حصل فى الشرك والشبكة ، فلتكن
عندكم بركة ، ولتظهر منكم إلى نصرة الدين المعينة عليكم حركة ، فليخرج إليه
، جميع الناس . . فيحاط به فيهلك .فغلبت الذنوب ، ورجفت القلوب بالمعاصى
وصار كل أحد من الناس ثعلباً يأوى إلى وجاره ، وإن رأى المكيدة بجاره .فإنا
لله وإنا إليه راجعون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .والذى نراه . أن ما ذهب
إليه الإمام القرطبى ، من أن الآية الكريمة ليست منسوخة ، أولى بالاتباع
لأن الجهاد قد يكون فرض كفاية فى بعض الحالات ، وقد يكون فرض عين فى حالات.
أخرى والآية الكريمة التى معنا تدعو المؤمنين إلى النفي العام فى تلك
الحالات الأخرى التى يكون الجهد فيها فرض عين وبذلك يمكن الجمع بين الآيات
التى تدعو إلى النفير العام . والآيات التى تعفى بعض الن عاسن مشاقه
ومتاعبه .ومن كل ما تقدم يتبين لنا أن هذه الآيات الأربع قد عاتبت المؤمنين
الذين تخلفوا عن الجهاد فى غزوة تبوك عتاباً شديداً؛ وأنذرتهم بالعذاب
الأليم إن لم ينفروا . . وذكرتهم بما كان من نصر الله لنبيه حين أخرجه
الذين كفروا ثانى اثنين . . وأمرتهم بالنفور إلى الجهاد خفافاً وثقالا
وبمجاهدة المشركين بأموالهم وأنفهسم ، فذلك هو الخير لهم فى عاجلتهم.
. وآجلتهم

لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون
بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون انفسهم والله يعلم انهم لكاذبون

، كما فسرها الوسيط ثم أخذت السورة الكريمة فى بيان قبائح المنافقين
- ومعاذيرهم الواهية ، ومساكلهم الخبيثة . وأيمانهم الفاجرة . . فقال
تعالى - : ( لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً . . . ) .قال الفخر الرازى هذه
الآية نزلت فى المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك والعرض . ما يعرض
للانسان من منافع الدنيا وشهواتها .والسفر القاصد : هو السفر القريب السهل

الذى لا يصاحبه ما يؤدى إلى التعب الشديد . من المقصد بمعنى التوسط والاعتدال فى الشئ .والشقة : المسافة التى لا تقطع إلا بعد تكبد المشقة والتعب ، فهى مأخوذة من المشقة وشدة العناء .قال القرطبى : حكى أبوع بيدة وغيره أن الشقة : السفر إلى أرض بعيدة . يقال : منه شقة شاقة . والمراد بذلك كله غزوة تبوك . .والمعنى : لو كان الذى دعوتهم إليه يا محمد ، متاعاً ، من متع الحياة الدنيا ، وسفراً سهلا قريباً ، لاتبعوك فيما دعوتهم إليه لأنه يوافق أهواءهم ، ويشبع رغباتهم ، ولكنهم حين عرفوا أن ما دعوتهم إليه . . هو الجهاد فى سبيل الله وما يصحبه من أسفار شاقة . وتضحيات جسمية ، تعللوا لك بالمعاير الكاذبة ، وتخلفوا عن الخروج معك ، حباً منهم وحباً للراحة والسلام .وشبيه بهذه الآية من حيث المعنى ، قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى شأن المتخلفين عن صلاة الجماعة " لو يعلم أحدهم أنه يجد عظماً سميناً ، أو مرماتين حسنتين لشهد العشاء " .أى : لو يعلم أحد هؤلاء المتخلفين عن صلاة العشاء فى جماعة ، أنه يجد عند حضور صلاتها فى جماعة شيئاً من اللحم لحضرها .ثم حكى - سبحانه - ما سيقوله هؤلاء المنافقون بعد عودة المؤمنين من الجهاد فقال : ( وَسَيَحْلِفُونَ بالله لَوِ استطعنا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ) .أى : وسيحلق هؤلاء المنافقون بالله - كذباً وزوراً - قائلين . لو استطعنا أيها المؤمنون أن نخرج معكم للجهاد فى تبوك لخرجنا : فاننا لم نتخلف عن الخروج معكم إلا مضطرين ، فقد كانت لنا أعذارنا ) : القاهرة التى حملتنا على التخلف!!وأتى - سبحانه - بالسين فى قوله وَسَيَحْلِفُونَ ) لأنه من قبيل الإخبار بالغيب . فقد كان نزول هذه الآية قبل رجوعه - صلى الله عليه وسلم - من تبوك . وحلفهم هذا كان بعد رجوعه منها قال الفخر الرازى : قالوا : الرسول - صلى الله عليه وسلم - أخبر عنهم أنهم سيحلفون ، وهذا إخبار عن غيب يقع فى المستقبل ، والأمر لما وقع كما أخبر ) : كان هذا إخباراً عن الغيب فكان معجزاً .والمراد بالاستطاعة فى قوله لَوِ استطعنا ) : وجد وسائل للجهاد معهم ، من زاد وعدة وقوة فى البدن وغير ذلك مما يستلزمه الجهاد فى سبيل الله .وقوله : ( لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ) ساد مسد جوابى القسم والشرط .ثم بين - سبحانه - سوء مصيرهم بسبب كذبهم ونفاقهم فقال : ( يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ والله يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ) .أى . أن هؤلاء المتخلفين عن الجهاد يهلكون أنفسهم بسبب حلفهم الكاذب ، وجرأتهم على الله . تعالى .فى اختلاق المعاذير الباطلة ، مع أنهز سبحانه . يعلم إنهم لكاذبون فى أيمانهم ، وفيما انتحلوه من أعذار .قال ابن جرير قوله : ( والله يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ) فى قولهم ) : لَوِ استطعنا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ) ، لأنهم كانوا للخروج مطيقين ، بوجود السبيل إلى ذلك بالذى كان عندهم من الأموال ، مما يحتاج إليه الغازى فى غزوه ، وصحة الأبدان ، وقوة الأجسام .هذا ، ومن الإحكام التى أخذها العلماء من هذه الآية ، أن الأيمان الكاذبة تؤدى إلى الخسران والهلاك : وفى الحديث الشريف : " اليمين الغموس تدع الديار بلاقع " .

عفا الله عنك لم اذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين

- كما فسرها الوسيط ثم عاتب الله : تعالى . نبيه - صلى الله عليه وسلم ، عتاباً رقيقاً لأنه اذن للمنافقين بالتخلف عن الجهاد حين طلبوا منه ذلك دون أن يتبين أحوالهم فقال . تعالى . ( عَفَا الله عَنكَ لِمَ أَذِنتَ ) قال ابن كثير . قال مجاهد . نزلت هذه الآية فى أناس قالوا : استأذنوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فإن أذن لكم فاقعدوا . وإن لم يأذن لكم فاقعدوا .والعفو : يطلق على التجاوز عن الذنب أو التقصير ، كما يطلق على ترك المؤاخذة على عدم فعل الأولى والأفضل ، وهو المراد هنا .والمعنى : عفا الله عنك يا محمد ، وتجاوز عن مؤاخذتك فيما فعلته مع هؤلاء المنافقين من سماحك لهم بالتخلف عن الجهاد معك فى غزوة تبوك ، حين اعتذروا إليك بالأعذار الكاذبة ، وكان الأولى بك أن تتريث وتتأنى فى السماح لهم بالتخلف ، حتى تيبين لك الذين صدقوا فى اعتذارهم من الذين كذبوا فيه ، فقد كانوا - إلا قليلا منهم - كاذبين فى معاذيرهم ، وكانوا مصرين على القعود عن الجهاد حتى ولو لم تأذن لهم به .وقدم سبحانه . العفو على العتاب . وهو قوله : ( لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ) - للإشارة إلى المكانة السامية التى له - صلى الله عليه وسلم - عند ربه .قال بعض العلماء : هل سمعتم بعتاب أحسن من هذا؟ لقد خاطبه : سبحانه بالعفو قبل أن يذكر المفعو عنه .وقال العلامة أبو السعود ما ملخصه ، وعبر - سبحانه - عن الفريق الأول بالموصول الذى صلته فعل دال على الحدوث وعن الفريق الثانى باسم الفاعل المفيد للدوام ، للإيذان بأن ما ظهر من الأولين صدق حادث فى أمر خاص غير مصحح لنظمهم فى سلك الصادقين ، وبأن ما صدر من الآخرين ، وإن كان كاذباً حادثاً متعلقاً بأمر خاص لكنه أمر جار على عادتهم المستمرة ، ناشئ عن رسوخهم فى الكذب .وعبر عن ظهور الصدق بالتبين ، وعما يتعلق بالكذب بالعلم ، لما هو المشهور من أن مدلول الخبر هو الصدق والكذب احتمال عقلى ، فظهور صدق الخبر إنما هو تيين ذلك المدلول ، وانقطاع احتمال نقيضه بعدما كان محتملا له احتمالا عقلياً ، وأما كذبه فأمر حادث لا

. دلالة للخبر عليه فى الجملة حتى يكون ظهوره تبييناً له ، بل نقيض لمدلوله
فما يتعلق به يكون علما مستأنفاً .هذا ، ومن الأمور التى تكلم عنها العلماء
عند تفسيرهم لهذه الآية ما يأتى :1- أن النبى - صلى الله عليه وسلم - كان
يحكم بمقتضى اجتهاده فى بعض الوقائع . وقد بسط القول فى هذه المسألة صاحب
المنار فقال ما ملخصه :وقد كان الإذن المعاتب عليه اجتهاداً منه - صلى
الله عليه وسلم - فيما لا نص فيه من الوحى ، وهو جائز وواقع من الأنبياء
صلوات الله وسلامه عليهم . وليسوا بمعصومين من الخطأ فيه ، وإنما العصمة
المتفق عليها خاصة بتبليغ الوحى ببيانه والعمل به ، فيستحيل على الرسول أن
يكذب أو أن يخطئ فيها يبلغه عن ربه أو يخالفه بالعمل .ويؤيده " حديث طلحة
فى تأبير النخل إذ رآهم - صلى الله عليه وسلم - يلقحونها فقال : " ما أظن
، يغنى ذلك شيئاً " فأخذوا بذلك فتركوه ظناً منهم أن قوله هذا من أمر الدين
فنفضت النخل وسقط ثمرها . فأخبر بذلك فقال : " إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه
فانى ظننت ظناً فلا تؤاخذونى بالظن ، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً ،
فخذوا به ، فانى لن أكذب على الله عز وجل " " .وقد صرح علماء الأصول بجواز
الخطأ فى الاجتهاد على الأنبياء . عليهم الصلاة والسلام : قالوا : ولكن لا
يقرهم الله على ذلك ، بل يبين لهم الصواب فيه . .2- أن من الواجب على
المسلم التريث فى الحكم على الأمور .قال الفخر الرازى : دلت الآية على وجوب
، الاحتراز عن العجلة ، ووجوب التثبت والتأنى ، وترك الاغترار بظاهر الأمور
والمبالغة فى التفحص ، حتى يمكنه أن يعامل كل فريق بما يستحقه من التقريب
أو الإبعاد .3- أن المتتبع لآراء العلماء عند تفسيرهم لهذه الآية يرى لهم
ثلاثة أقوال :أما القول الأول فهو لجمهور العلماء : وملخصه : أن المراد
بالعفو فى قوله سبحانه : ( عَفَا اللَّهُ عَنكَ ) عدم مؤاخذته : - صلى الله
عليه وسلم - فى تركه الأولى والأفضل ، لأنه كان من الأفضل لهألا يأذن
للمنافقين فى التخلف عن الجهاد حتى يتبين أمرهم .وهذا القول هو الذى نختاره
ونرجحه ، لأنه هو المناسب لسياق الآية ولما ورد فى سبب نزولها :وأما القول
الثانى فهو لصاحب الكشاف : وملخصه : أن العفو هنا كناية عن الجناية ، فقد
، قال : قوله ( عَفَا اللَّهُ عَنكَ ) كناية عن الجناية لأن العفو مرادف لها
ومعناه . أخطأت وبئس ما فعلت ، وقوله ( لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ) بيان لما كنى
عنه بالعفو .ولم يرتض كثير من العلماء ما ذهب إليه صاحب الكشاف من أن العفو
هنا كناية عن الجناية ، ووصفوا ما ذهب إليه بالخطأ وإساءة الأدب .قال أبو
السعود : ولقد أخطأ وأساء الأدب وبئسما فعل فيما قال وكتب من زعم أن الكلام
كناية عن الجناية ، وأن معناه أخطأت ، وبئس ما فعلت .هب أنه كناية ، أليس
إيثارها على التصريح بالجناية للتلطيف فى الخطاب والتخفيف فى العقاب؟وقال
الشيخ أحمد بن المنير : ليس له - أى الزمخشرى : - أن يفسر هذه الآية بهذا
التفسير ، وهو بين أحد أمرين : إما أن لا يكون هو المراد وإما أن يكون هو
المراد ، ولكن قد أحل الله نبيه الكريم عن مخاطبته بصريح العتب ، وخصوصاً
فى حق المصطفى - عليه الصلاة والسلام - فالزمخشرى على كلا التقديرين ذهل
: عما يجب فى حقه - صلى الله عليه وسلم - .ولقد أحسن من قال فى هذه الآية
إن من لطف الله - تعالى - بنبيه ، أن بدأه بالعفو قبل العتب ، ولو قال له
ابتداء ( لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ) لتفطر قلبه - عليه الصلاة والسلام .فمثل
هذا الأدب يجب احتذاؤه فى حق سيد البشر - عليه الصلاة والسلام .وأما القول
الثالث فهو للامام الفخر الرازى ، ولمن حذا حذوه كالقرطبى وغيره ، وملخص
- هذا القول أنه يجوز أن يكون المراد بالعفو هنا المبالغة فى تعظيم النبى
صلى الله عليه وسلم توقيره ، أو أن قوله - سبحانه : ( عَفَا اللَّهُ عَنكَ )
) - افتتاح كلام .قال الفخر الرازى ما ملخصه : لا نسلم أن قوله - تعالى
عَفَا اللَّهُ عَنكَ ) يوجب الذنب ، ولم لا يجوز أن يقال : إن الله يدل على
مبالغة الله ، تعالى فى تعظيمه وتوقيره ، كما يقول الرجل لغيره إذا كان
معظما عنده ، عفا الله عنك ما صنعت فى أمرى . . فلا يكون غرضه من هذا
الكلام إلا مزيد التبجيل والتعظيم .ويؤيد ذلك قول على بن الجهم يخاطب
المتوكل وقد أمر بنفيه :عفا الله عنك ألا حرمة ... تعوذ بعفوك أن أبعدألم
... ترى عبداً عدا طوره ... ومولى عقا ورشيداً هدىأقالنى أقالك من لم يزل
يقيك ، ويصرف عنك الردىوقال القرطبى : قوله : - تعالى - ( عَفَا اللَّهُ عَنكَ
لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ) قيل : هو افتتاح كلام؛ كما تقول : أصلحك الله وأعزك
وحرمك كان كذا وكذا . .والذى نراه أن القول الأول هو الراجح لما سبق أن
. بيناه

لا يستاذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الاخر ان يجاهدوا باموالهم وانفسهم
والله عليم بالمتقين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - الصفات التى يتميز بها المؤمنين
الصادقون، عن غيرهم من ضعاف الإيمان ، فقال - تعالى - : ( لاَ
يَسْتَأْذِنُكَ الذين . . . رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ) .أى : ليس من شأن
المؤمنين الصادقين أن يستأذنوك - يا محمد - فى ( أَن يُجَاهِدُواْ
. بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ) فى سبيل إعلاء كلمة الله ، ونصرة دينه

وإنما الذى من شأنهم وعادتهم - كما أثبته واقعهم وتاريخهم - أن ينفروا . خفافا وثقالا عندما يدعو الداعى إلى الجهاد ، دون أن ينتظروا إذنا من أحد فهم لقوة إيمانهم ، وصفاء نفوسهم ، يسارعون إلى الجهاد بقلوب مشتاقة إليه. وبنفوس تتمنى الموت عن طريقه .وهم فى ذلك ممتثلون لقول النبى - صلى الله ، عليه وسلم - : " من خير معاش الناس رجل ممسك بعنان فرسه فى سبيل الله يطير على متنه ، كلما سمع هيعة - أى صيحة - وفزعا طار على متنه يبتغى القتل أو الموت فى مظانه " .وقوله : ( والله عَلِيمٌ بالمتقين ) تحريض لهم على ، الاتصاف بهذه الصفة الكريمة ، وهى صفة التقوى .والمراد بالعلم هنا لازمه وهو مجازاتهم بالثواب الجزيل على تقواهم .أى : والله - تعالى - عليهم بهؤلاء الذين ملأت خشية قلوبهم . وسيثيبهم على ذلك ثوابا يرضيهم .هذا ، وقد استنبط العلماء من هذه الاية أنه ينبغى على المؤمن أن يقوم بأداء الأعمال الحسنة ، والأفعال الجميلة بدون تردد أو استئذان .قال صاحب الانتصاف عند تفسيره لهذه الآية : وهذا الأدب يجب أن يقتفى مطلقا ، فلا يليق بالمرء أن يستأذن أخاه فى أن يسدى له معروفا ، ولا بالمضيف ولا يستأذن ضيفه فى أن يقدم إليه طعاما؛ فإن الاستئذان فى أمثال هذه المواطن أمارة التكلف والتكره وصلوات الله وسلامه على خليله إبراهيم ، فقد بلغ من كرمه وأدبه مع ضيوفه . أنه كان لا يتعاطى شيئاً من أسباب التهيؤ للضايفة بمرأى منهم ، فلذلك مدحه الله - تعالى - : بهذه الخلة الجميلة ، فقال : ( فَرَاغَ إلى أَهْلِهِ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ . . . ) أى : ذهب على خفاء منهم ، كيلا يشعروا به وقال صاحب المنار : وقد استنبط من الآية أنه لا ينبغى الاستئذان فى أداء . ، شئ من الواجبات ، ولا فى الفضائل والفواضل من العادات ، كقرى الضيف : وإغاثة الملهوف ، وسائر عمل المعروف .وبعجبنى قول بعض العلماء ما معناه من قال لك أتأكل؟ هل آتيك بكذا من الفاكهة مثلا؟ فقل له :لا فإنه لو أراد . أن يكرمك لما استأذنك

انما يستاذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الاخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون

كما فسرها الوسيط ثم بين سبحانه - الصفات التى يعرف بها المنافقون ، بعد بيانه للصفات التي يعرف بها المؤمنون الصادقون فقال : ( إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالله واليوم الآخر وارتابت قُلُوبُهُمْ ) .أى : إنما يستأذنك - يا محمد - فى القعود عن الجهاد أولئك الذين من صفاتهم أنهم لا يؤمنون بالله إيمانا كاملا ، ولا يؤمنون باليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب إيمانا يقينيا .قال الآلوسى : وتخصيص الإيمان بها - أى بالله واليوم الآخر - فى الموضعين للإيذان بأن الباعث على الجهاد والمانع عنه الإيمان بهما وعدم الإيمان بهما ، فمن آمن بهما قاتل فى سبيل ، دينه ، وهان عليه القتل فيه لما يرجوه فى اليوم الآخر من النعيم المقيم ومن لم يؤمن كان بمعزل عن ذلك .على أن الإيمان بهما مستلزم للإيمان بسائر ما يجب الإيمان به .وقوله : ( وارتابت قُلُوبُهُمْ ) ثالثة من صفاتهم الذميمة .أى : أنهم بجانب عدم إيمانهم بالله واليوم الآخر ، رسخ الريب فى قلوبهم فصاروا يشكون فى صحة ما جئت به - أيها الرسول الكريم - ، ويقفون من تعاليمك وتوجيهاتك ، موقف المكذب المرتاب لا موقف المصدق المذعن .وأضاف الشك والارتياب إلى القلوب ، لأنها محل المعرفة والإيمان . وأوثرت صيغة : الماضى - ارتابت ، للدلالة على تحقق الريب وتوبيخهم . وأصل معنى التردد الذهاب والمجئ . والمراد به هنا لتحير على سبيل المجاز ، لأن المتحير لا ، يستقر فى مكان ، ولا يثبت على حال .أى : فهم فى شكهم الذى حل بهم يتحيرون فنراهم كما وصفهم - سبحانه - فى آية أخرى . ( مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذلك لاَ إلى هؤلاء وَلاَ إلى هؤلاء ) أى : متحيرين بين الكفر وبين الإيمان وبذلك نرى أن هاتين الآيتين قد ذكرتا السمات التى بها يتميز المؤمنون. . الصادقون عن غيرهم من الذين قالوا آمنا وما هم بمؤمنين

ولو ارادوا الخروج لاعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - بعض المسالك الخبيثة التى كان يبتعها هؤلاء المنافقون لمحاربة الدعوة الإسلامية ، وكيف أنه - سبحانه - أحبط مكرهم فقال - تعالى - : ( وَلَوْ أَرَادُواْ الخروج . . . وَهُمْ كَارِهُونَ ) .وقوله : ( وَلَوْ أَرَادُواْ الخروج ) كلام مستأنف لبيان المزيد من رذائل المنافقين . أو معطوف على قوله - سبحانه - قبل ذلك ( لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لاَّتَّبَعُوكَ ) وقوله : ( انبعاثهم ) أى : نهوضهم وانطلاقهم للخروج بنشاط وهمة . من البعث وهو إثارة الإنسان أو الحيوان وتوجيهه إلى الشئ بقوة وخفة .تقول : بعثت البعير فانبعث إذا أثرته للقيام والسير بسرعة .وقوله : " فثبطهم " أى : فمنعهم وحبسهم ، من التثبيط " وهو رد الإنسان عن الفعل الذى هم به عن طريق تعويقه

عنه ومنعه منه " .يقال : ثبطه تثبيطا ، أى : قعد به عن الأمر الذى يريده
ومنعه منه بالتخذيل ونحوه .والمعنى : ولو أراد هؤلاء المنافقون الخروج
معك - يا محمد - إلى تبوك لأعدوا لهذا الخروج عدته اللازمة له من الزاد
والراحلة ، وغير ذلك من الأشياء التى لا يستغنى عنها المجاهد فى سفره
الطويل ، والتى كانت فى مقدورهم وطاقتهم .وقوله . ( ولكن كَرِهَ الله
، انبعاثهم ) استدراك على ما تقدم .أى : ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدته
، ولكنهم لم يريدوا ذلك ، لأن الله - تعالى - كره خروجهم معك ، فحبسهم عنه
لما يعلمه - سبحانه - من نفاقهم وقبح نواياهم ، وإشاعتهم للسوء فى صفوف
المؤمنين .قال صاحب الكشاف : فإن قلت . كيف موقع حرف الاستدراك؟ قلت : لما
كان قوله ( وَلَوْ أَرَادُواْ الخروج ) معطيا معنى نفى خروجهم واستعدادهم
للغزو ، قيل : ( عُدَّةً ولكن كَرِهَ الله انبعاثهم ) ، كأنه قيل : ما
خرجوا ولكن تثبطوا عن الخروج لكارهة انبعاثهم ، كما تقول . ما أحسن إلى زيد
ولكن أساء إلى .وقال الجمل . وهاهنا يتوجه سؤال ، وهو أن خروج المنافقين مع
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إما أن يكون فيه مصلحة أو مفسدة ، فإن
كان فيه مصلحة فلم قال : ( عُدَّةً ولكن كَرِهَ الله انبعاثهم
فَثَبَّطَهُمْ ) وإن كان فيه مفسدة فلماذا عابت نبيه - صلى الله عليه
وسلم - فى إذنه لهم فى القعود؟والجواب عن هذا السؤال : أن خروجهم مع رسول
- الله - صلى الله عليه وسلم - كان فيه مفسدة عظيمة : بدليل أنه - سبحانه
أخبر بتلك المفسدة بقوله ( لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ
خَبَالاً ) .بقى أن يقال . فلم عاتب الله نبيه بقوله : ( لِمَ أَذِنتَ
، لَهُمْ ) فنقول : إنه - صلى الله عليه وسلم - اذن لهم قبل إتمام الفحص
وإكمال التدبير والتأمل فى حالهم ، فلهذا السبب قال - تعالى - ( لِمَ
أَذِنتَ لَهُمْ ) وقيل إنما عتبه لأجل أنه أذن لهم قبل أن يوحى إليه فى
أمرهم بالقعود .وقوله . ( فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقعدوا مَعَ القاعدين )
تذييل المقصود منه ذمهم ووصفهم بالجبن الخالع ، والهمة الساقطة ، لأنهم
بقعودهم هذا سيكونون مع النساء والصبيان والمرضى والمستضعفين الذين لا قدرة
لهم على خوض المعارك والحروب .قال الآلوسى . وقوله : ( فَثَبَّطَهُمْ
، وَقِيلَ اقعدوا مَعَ القاعدين ) : تمثيل لخلق الله داعية القعود فيهم
وإلقائه كراهة الخروج فى قلوبهم بالأمر بالقعود أو تمثيل لوسوسة الشيطان
بذلك فليس هناك قول حقيقة . ويجوز أن يكون حكاية قول بعضهم لبعض؛ أو حكاية
لإذن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لهم فى القعود ، فيكون القول على
حقيقته .هذا ، ومن الأحكام التى اخذها العلماء من هذه الآية . أن الفعل
يحسن بالنية ، ويقبح بها . أيضاً . . وإن استويا فى الصورة ، لأن النفير
. واجب مع نية النصر . وقبيح مع إرادة تحصيل القبيح ، وذلك لأنه . تعالى
أخبر أنه كره انبعاثهم لما يحصل من إرادة المكر بالمسلمين .ومنها : أن
للإمام أن يمنع من يتهم بمضرة المسلمين من الخروج للجهاد؛ حماية هلم من
- شروره مفاسده .ومنها : أن إعداد العدة للجهاد أمر واجب ، وقد قال - تعالى
فى آية أخرى : ( وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَّا استطعتم مِّن قُوَّةٍ )

لو خرجوا فيكم ما زادوكم الا خبالا ولاوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم
سماعون لهم والله عليم بالظالمين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - المفاسد المترتبة على خروج المنافقين
فى جيش المؤمنين فقال : ( لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ
خَبَالاً ) ، وأصل الخبال . الاضطراب والمرض الذى يؤثر فى العقل كالجنون
ونحوه . أو هو الاضطراب فى الرأى .أى : لو خرج هؤلاء المنافقون معكم أيها
المؤمنون إلى تبوك ما زادوكم شيئاً من الأشياء إلا اضطراباً فى الرأى؛
وفسادا فى العمل ، وضعفا فى القتال ، لأن هذا هو شأن النفوس المريضة التى
، تكره لكم الخير ، وتحب لكم الشر .قال الآلوسى . والاستثناء مفرغ متصل
والمستثنى منه محذوف ، ولا يستلزم أن يكون لهم خبال حتى لو خرجوا زاده؛ لأن
الزيادة باعتبار أعم العام الذى وقع منه الاستثناء .وقال أبو حيان : إنه
كان فى تلك الغزوة منافقون لهم خبال فلو خرج أيضاً اجتمعوا بهم زاد الخبال
فلا فساد فى ذلك الاستلزام لو ترتب .وقوله : ( ولأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ ،
معطوف على قوله : " ما زادوكم " . والإيضاع . كما يقول القرطبى . سرعة (
. السير قال الراجز .يا ليتنى فيها جذع ... أخب فيها وأضعيقال : وضع البعير
إذا أسرع فى السير ، وأوضعته . حملته على العدو .والخلل الفرجة بين الشيئين
والجمع الخلال ، أى : الفرج التى تكون بين الصفوف وهو هنا ظرف مكان بمعنى .
بين ، ومفعول الإيضاح محذوف ، أى . ولأسرعوا بينكم ركائبهم بالوشايات
والنمائم والإفساد .ففى الكلام استعارة تبعية ، حيث شبه سرعة إفسادهم لذات
البين بسرعة سير الراكب ، ثم استعير لها الإيضاع وهو للإبل وأصل الكلام
ولأوضعوا ركائبهم ، ثم حذفت الركائب .وجملة ( يَبْغُونَكُمُ الفتنة ) فى
محل نصب على الحال من فاعل ( أوضعوا ) .أى : لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا
، شراً وفساداً ، ولأسرعوا بينكم بالإشاعات الكاذبة ، والأقوال الخبيثة
حال كونهم باغين وطالبين لكم الافتتان فى دينكم ، والتشكيك فى صحة عقائدكم

والتثبيط عن القتال ، والتخويف من قوة أعدائكم ، ونشر الفرقة فى صفوفكم ، فالمراد بالفتنة هنا : كل ما يؤدى إلى ضعف المسلمين فى دينهم أو فى دنياهم.
وقوله : ( وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ) بيان لأحوال المؤمنين فى ذلك.
الوقت .أى . وفيكم . فى ذلك الوقت . يا معشر المؤمنين ، أناس كثيرو السماع لهؤلاء المنافقين ، سريوا الطاعة لما يلقون إليهم من أباطيل .قال ابن كثير
قوله : ( وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ) أى : مطيعون لهم ، ومستحسنون .
لحديثهم وكلامهم ، يستنصحونهم وإن كانوا لا يعلمون حالهم ، فيؤدى إلى وقع
) شر بين المؤمنين وفساد كبير .وقال مجاهد وزيد بن أسلم وابن جرير
وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ) أى : عيون يسمعون لهم الأخبار وينقلونها
إليهم .وهذا لا يبقى له اختصاص بخروجهم معهم ، بل هذا عام فى جمع الأحوال
والمعنى الأول أظهر فى المناسبة بالسياق . وإليه ذهب قتادة وغيره من.
المفسرين .وقال محمد بن إسحاق : كان الذين استأذنوا ، فيما بلغنى ، من ذوى
الشرف ، منهم عبد الله بن أبى بن سلول ، والجد بن قيس ، وكانوا أشرافا فى
قومهم ، فثبطهم الله لعلمه بهم أن يرخجوا فيفسدوا عليه جنده . وكان فى جنده
قوم أهل محبة لهم ، وطاعة فيما يدعونه إليه لشرفهم فقال : ( وَفِيكُمْ
سَمَّاعُونَ لَهُمْ ) .وقوله : ( والله عَلِيمٌ بالظالمين ) تذييل المقصود
: منه وعيد هؤلاء المنافقين وتهديديهم بسبب ما قدمت أيديهم من مفاسد .أى
والله - تعالى -لا تخفى عليه خافية من أحوال هؤلاء الظالمين ، وسيعاقبهم
بالعقاب المناسب لجرائمهم ورذائلهم .وبذلك نرى أن الآية الكريمة قد وضحت أن
هناك ثلاث مفاسد كانت ستترتب على خروج هؤلاء المنافقين مع المؤمنين إلى
تبوك .أما المفسدة الأولى : فهى زيادة الاضطراب والفوضى فى صفوف المجاهدين
وأما المفسدة الثانية : فهى الإسراع بينهم بالوشايات والنمائم والإشاعات.
الكاذبة .وأما المفسدة الثالثة : فهى الحرص على تفريق كلمتهم ، وتشكيكهم فى
عقيدتهم .وهذه المفاسد الثلاث ما وجدت فى جيش إلا وأدت إلى انهزامه وفشله
ومن هنا كان تثبيط الله - تعالى - لهؤلاء المنافقين ، نعمة كبرى للمؤمنين.
ومن هنا - أيضاً - كانت الكثرة العددية فى الجيوش لا تؤتى ثمارها المرجوة.
منها ، إلا إذا كانت متحدة فى عقيدتها ، وأهدافها ، واتجاهاتها . . أما إذا
كانت هذه الكثرة مشتملة على عدد كبير من ضعاف الإيمان ، فإنها فى هذه
. الحالة يكون ضرر أكبر من نفعها

لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الامور حتى جاء الحق وظهر امر الله وهم كارهون

كما فسرها الوسيط ثم ذكر الله تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - بطرف من
الماضى لهؤلاء المنافقين فقال : ( لَقَدِ ابتغوا الفتنة مِن قَبْلُ
وَقَلَّبُواْ لَكَ الأمور حتى جَآءَ الحق وَظَهَرَ أَمْرُ الله وَهُمْ
كَارِهُونَ ) .أى : لقد ابتغى هؤلاء المنافقون إيقاع الشرور والمفاسد فى
صفوف المسلمين ، من قبل ما حدث منهم فى غزوة تبوك .ومن مظاهر ذلك أنهم
ساءهم انتصاركم فى غزوة بدر ، وامتنعوا عن مناصرتكم فى غزوة أحد ، مبتعين
فى ذلك زعيمهم عبد الله بن أبى بن سلول ، ثم واصلوا حربهم لكم سراً وجهراً
حتى كانت غزوة تبوك التى فضح الله فيها أحوالهم .فالمراد بقوله : ( مِن
- قَبْلُ ) أى : من قبل هذه الغزووة التى كانت آخر غزوة غزاها رسول الله
صلى الله عليه وسلم - .أى أن ما صدر عن هؤلاء المنافقين من مسالك خبثة خلال
غزوة تبوك ليس هو الأول من نوعه ، بل هم لهم فى هذا المضمار تاريخ مظلم بدأ
منذ أوائل عهد الدعوة الإسلامية بالمدينة .وقوله : ( وَقَلَّبُواْ لَكَ
الأمور ) بيان لتفننهم فى وجوه الأذى للنبى - صلى الله عليه وسلم - وتقليب
: الأمر : تصريفه ، وترديده ، وإجالة الرأى فيه ، والنظر إليه من كل نواحيه
لمعرفة أى ناحية منه توصل إلى الهدف المنشود .والمراد أن هؤلاء المنافقين
- قد ابتغوا الأذى للدعوة الإسلامية من قبل هذه الغزوة ، ودبروا لصاحبها
، صلى الله عليه وسلم - المكايد ، واستعملوا قصارى جهدهم ، ومنهى اجتهادهم
وخلاصة مكرهم ، من أجل صد الناس عن الحق الذى جاء به محمد - صلى الله عليه
، وسلم - .وقوله : ( حتى جَآءَ الحق وَظَهَرَ أَمْرُ الله ) غاية لمحذوف
والتقدير : أن هؤلاء المنافقين استمروا على حربهم للدعوة الإسلامية ( حتى
جَآءَ الحق ) أى : النصر الذى وعد الله عباده به ( وَظَهَرَ أَمْرُ الله )
أى : دينه وشرعه " وهم " أى المنافقون وأشباههم " كارهون " لذلك؛ لأنهم
- يكرهون انتصار دين الإسلام ، ويحبون هزيمته وخذلانه ، ولكن الله - تعالى
خيب آمالهم ، وأحبط مكرهم .قال الإمام ابن كثير : عندما قدم النبى - صلى
الله عليه وسلم - المدينة ، رمته العرب عن قوس واحدة ، وحاربته يهود
المدينة ومنافقوها ، فلما نصره الله يوم بدر وأعلى كلمته ، قال عبد الله بن
أبى ، واصحابه : هذا أمر قد توجه ، فدخلوا فى الإسلام ظاهراً ، ثم كلما
أعز الله الإسلام وأهله غاظهم وساءهم ، ولهذا قال - تعالى - : ( حتى جَآءَ
. ( الحق وَظَهَرَ أَمْرُ الله وَهُمْ كَارِهُونَ

ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني الا في الفتنة سقطوا وان جهنم لمحيطة

بالكافرين

، كما فسرها الوسيط ثم واصلت السورة الكريمة حديثها عن هؤلاء المنافقين
: - فحكت جانبا من أعذارهم الكاذبة ، ومن أقوالهم الخبيثة . . فقال - تعالى
روى محمد. ( وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ . . . . مَعَكُمْ مُّتَرَبِّصُونَ )
بن إسحاق ويزيد بن رومان ، وعبد الله بن أبى بكر ، وعاصم بن قتادة وغيرهم
قالوا : " قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذات يوم وهو جهازه - أى
لغزوة تبوك - للجد عن قيس اخى بنى سلمة : " هل لك ياجد فى جلاد بنى الأصفر
؟ - يعنى الروم - فقال الجد : يا رسول الله أو تأذن لى ولا تفتنى؟ فهو"
الله لقد عرف قومى ما رجل أشد عجبا بالنساء منى ، وإنى أخشى إن رأيت نساء
- بنى الأصفر ألا أصبر عنهن ، فأعرض عنه رسول الله - صلى الله عليه وسلم
وقال قد أذنت لك" " . ففى الجد بن قيس نزلت هذه الآية ( وَمِنْهُمْ مَّن
يَقُولُ ائذن لِّي وَلاَ تَفْتِنِّي ) .أى : ومن هؤلاء المنافقين الذين لم
ينته الحديث عنهم بعد " من يقول " لك - يا محمد - " أئنذ لى " فى القعود
بالمدينة ، " ولا تفتنى " أى ولا توقعنى فى المعصية والإثم بسبب خروجى معك
إلى تبوك ، ومشاهدتى لنساء بنى الأصفر .وعبر - سبحانه - عن قول هذا المنافق
بالفعل المضارع ، لا ستحضار تلك الحال لغرابتها ، فإن مثله فى نفاقه وفجوره
لا يخشى إثم الافتتان بالنساء إذا لا يجد من دينه ما نعا من غشيان الشهوات
الحرام .وقوله : ( أَلا فِي الفتنة سَقَطُواْ ) رد عليه فيما قال ، وذم له
على ما تفوه به .أى : ألا إن هذا وأمثاله فى ذات الفتنة قد سقطوا ، لافى أى
، " شئ آخر مغاير لها .وبدأ - سبحانه - الجملة الكريمة بأداة التنبيه " ألا
لتأكيد الخبر ، وتوجيه الأسماع إلى ما اشتمل عليه من توبيخ لهؤلاء
المنافقين .وقدم الجار والمجرور على عامله؛ لدلالة على الحصر . أى فيها لا
فى غيرها قد سقطوا وهووا إلى قاع سحيق .قال الآلوسى : وفى التعبير عن
الافتتان بالسقوط فى الفتنة ، تنزيل لها منزلة المهواة المهلكة المفصحة عن
ترديدهم فى دركات الردى أسفل سافلين .وقال الفخرى الرازى ما ملخصه : " وفيه
- تنبيه على أن القوم إنما اختاروا القعود لئلا يقعوا فى الفتنة ، فالله
تعالى - بيّن أنهم فى عينا لفتنة واقعون ، لأن أعظم أنواع الفتنة الكفر
" . . . بالله وبرسوله ، والتمرد على قبول التكاليف التى كلفنا الله بها
وقوله : ( وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بالكافرين ) وعيد وتهديد لهم على.
أقوالهم وأفعالهم .أى : وإن جهنم لمحيطة بهؤلاء الكافرين بما جاء من عند
الله ، دون أن يكون لهم منها مهرب أو مفر .وعبر عن إحاطتها بهم باسم الفاعل
الدال على الحال ، لإفادة تحقيق ذلك حتى لكأنه واقع مشاهد .قالوا : ويحتمل
أنها محيطة بهم الآن ، بأن يراد بجهنم الأسباب الموصلة إليها من الكفر
. والنفاق وغير ذلك من الرذائل التى سقطوا فيها

ان تصبك حسنة تسؤهم وان تصبك مصيبة يقولوا قد اخذنا امرنا من قبل ويتولوا
وهم فرحون

كما فسرها الوسيط وقوله : ( إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ . . ) بيان
لنوع آخر من خبث نواياهم ، وسوء بواطنهم .أى : " إن تصبك " يا محمد حسنة من
نصر أو نعمة أو غنيمة - كما حدث يوم بدر - " تسؤهم " تلك الحسنة ، وتورثهم
حزنا وغما ، بسبب شدة عداوتهم لك ولأصحابك .( وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ )
) من هزيمة أو شدة - كما حدث يوم أحد - " يقولوا " باختيال وعجب وشماتة
يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ ) .أى : قد تلافينا ما
، يهمنا من الأمر بالحزم والتيقظ ، من قبل وقوع المصيبة التى حلت بالمسلمين
) : ولم نلق بأيدينا إلى التهلكة كما فعل هؤلاء المسلمون .وقوله
وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ ) تصوير لحالهم ، ولما جبلوا عليه من
شماتة بالملسمين .أى : عندما تصيب المسلمين مصيبة أو مكروه ، ينصرف هؤلاء
المنافقون إلى أهليهم وشيعتهم - والفرح يملأ جوانحهم - ليبشروهم بما نزل
بالمسلمين من مكروه .قال الجمل : فإن قلت : فلم قابل الله الحسنة بالمصيبة
ولم يقابلها بالسيئة كما قال فى سورة آل عمران : ( وَإِن تُصِبْكُمْ ،
سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ) قلت : لأن الخطاب هنا للنبى - صلى الله عليه
وسلم - وهى فى حقه مصيبة يثاب عليها ، ولا سيئة يعاتب عليها ، والتى فى آل
. عمران خطاب للمؤمنين

قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون

كما فسرها الوسيط وقوله : ( قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلاَّ مَا كَتَبَ الله
لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا . . ) إرشاد للرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى
الجواب الذى يكبتهم ويزيل فرحتهم .أى : " قل " يا محمد - لهؤلاء المنافقين
الذين يسرهم ما يصبك من شر ، ويحزنهم ما يصيبك من خير ، والذين خلت قلوبهم
من الإيمان بقضاء الله وقدره ، قل لهم على سبيل التقريع والتبكيت . لن
يصيبنا إلاَّ ما كتبه الله لنا وقدره علينا " هو مولانا " الذى يتولانا فى كل

أمورنا ، ونلجأ إليه فى كل أحوالنا . وعليه وحده - سبحانه نكل أمورنا وليس على أحد سواه .

قل هل تربصون بنا الا احدى الحسنيين ونحن نتربص بكم ان يصيبكم الله بعذاب من عنده او بايدينا فتربصوا انا معكم متربصون

كما فسرها الوسيط وقوله : ( قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلاَّ إِحْدَى الحسنيين . . ) إرشاد آخر للرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى الجواب الذى يخرس ألسنة هؤلاء المنافقين ويزيل فرحتهم .وقوله : ( تَرَبَّصُونَ ) التربص بمعنى الانتظار فى تمهل . يقال : فلان يتربص بفلان الدوائر ، إذا كان ينتظر ووقع مكروه به .والحسنيان : مثنى الحسنى . والمراد بهما : النصر أو الشهادة أى : قل يا محمد لهؤلاء المنافقين - أيضا - إنكم ما تنتظرون بنا إلا إحدى العاقبتين اللتين كل وحدة منهما أحسن من جميع العواقب ، وهما إما النصر على الأعداء ، وفى ذلك الأجر والمغنم والسلامة ، وإما أن نقتل بأيدهم وفى ذلك الشهادة والفوز بالجنة والنجاة من النار .قال الآلوسى : والحاصل أن ما تنتظرونه بنا - أيها المنافقون -لا يخلوا من أحد هذين الأمرين ، كل منهما عاقبته حسنى لا كما تزعمون من أن ما يصيبنا من القتل فى الغزوة سوء ، ولذلك " : سررتم به .وصح من حديث أبى هريرة عن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال تكفل الله - تعالى - لمن جاهد فى سبيله لا يخرجه من بيته إلا الجهاد فى سبيله ، وتصديق كلمته أن يدخله الجنة . أو يرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه مع ما نال من أجر وغنيمة " .وقوله : ( وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ الله بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا ) بيان لما ينتظر المؤمنون وقوعه بالمنافقين .أى : ونحن معشر المؤمنين نتربص بكم أيها " المنافقون إحدى السوءتين من العواقب : إما " أن يصيبكم الله بعذاب " كائن " من عند " فيهلككم كما أهلك الذين من قبلكم ، وإما أن يصبكم بعذاب كائن بأيدينا " بأن يأذن لنا فى قتالكم وقتلكم .والفاء فى قوله : ( فتربصوا إِنَّا مَعَكُمْ مُّتَرَبِّصُونَ ) للإفصاح .أى إذا كان الأمر كذلك فتربصوا بنا ما هو عاقبتنا ، فإنا معكم متربصون ما هو عاقبتكم ، وسترون أن عاقبتنا على كل حال هو الخير ، وأن عاقبتكم هى الشر .وبذلك ترى أن هذه الآيات الكريمة ، قد حكت طرفا من رذائل المنافقين ومن مسالكهم الخبيثة لكيد الدعوة الإسلامية ، وردت عليهم بما يكبتهم ، ويفضحهم على رءوس الأشهاد .

قل انفقوا طوعا او كرها لن يتقبل منكم انكم كنتم قوما فاسقين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن هؤلاء المنافقين نفقاتهم غير مقبولة لأن قلوبهم خالية من الإيمن . ولأن عباداتهم ليست خالصة لوجه الله ، وأن ما ينفقونه سيكون عليهم حسرة فقال - تعالى - : ( قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعاً أَوْ كَرْهاً وَهُمْ كَافِرُونَ ) .روى أن بعض المنافقين قال للنبى - صلى الله عليه وسلم - عندما دعاهم إلى الخروج معه إلى تبوك : ائذن لى فى القعود وهذا مالى أعينك به ، فنزل قوله - تعالى - : ( قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لّن يُتَقَبّلَ مِنكُمْ . . ) .والمعنى : قل يا محمد لهؤلاء؛ أنفقوا ما شئتم من أموالكم فى وجوه الخير حالة كونكم طائعين ، أى : من غير إجبار أحد لكم ، أو كارهين ، أى بأن تجبروا على هذا الإنفاق إجباراً ، فلن يقبل منكم ذلك الإنفاق .والكلام وإن كان قد جاء فى صورة الأمر ، إلا أن المراد به الخبر وقد أشار إلى ذلك صاحب الكشاف بقوله .فإن قلت : كيف أمرهم بالإنفاق ، ثم قال : ( لّن يُتَقَبّلَ مِنكُمْ ) ؟قلت : هو أمر فى معنى الخبر كقوله - تعالى - ( قُلْ مَن كَانَ فِي الضلالة فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرحمن مَدّاً ) ومعناه : لن يتقبل منكم أنفقتم طوعاً أو كرها ، ونحوه قوله - تعالى - : ( استغفر لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ) وقول الشاعر أسيئى بنا أو أحسنى لا ملومة ... لدينا ولا مقلية إن تقلتأى : لن يغفر: الله لهم ، استغفرت لهم . . أم لم تستغفر لهم . ولا نلومك سواء أسأت إلينا أم وجاء الكلام فى صورة الأمر ، للمبالغة فى تساوى الأمرين ، وعدم الاعتداء بنفقتهم سواء أقدموها عن طواعية أم عن كراهية .وقوله . ( لّن يُتَقَبّلَ مِنكُمْ ) بيان لثمرة إنفاقهم . أى : لن يتقبل منكم ما أنفقتموه ، ولن تنالوا عليه ثوابا .وقوله : ( إِنّكُمْ كُنتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ ) ، تعليل لعدم قبول نفقاتهم .أى : لن تقبل منم نفاقتكم بسبب عتوكم فى الكفر وتمردكم على تعاليم الإسلام وخروجكم عن الطاعة والاستقامة .قال القرطبى ما ، ملخصه . وفى الآية دليل على أن أفعاله الكافر إذا كانت برأ كصلة القرابة وجبر الكسير ، وإغاثة الملهوف ، ولا يثاب عليها ، ولا ينتفع بها فى الآخرة بيد أنه يطعم بها فى الدنيا .دليله ما رواه مسلم " عن عائشة - رضى الله ، عنها - قالت : قلت يا رسول الله ، ابن جدعان كان فى الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين ، فهل ذلك نافعه؟قال :لا ينفعه ، إنه لم يقل يوما رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين " .وروى عن أنس قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة يعطى بها فى الدنيا ويجزى بها فى

الآخرة وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل لله بها فى الدنيا ، حتى إذا أفضى
إلى الآخرة لم يكن له حسنة يجزى بها " .وقال الجمل : وهذه الآية وإن كانت
، خاصة فى إنفاق المنافقين ، فهى عامة فى حق كل من أنفق ماله لغير وجه الله
. بل أنفقه رياء وسمعة فإنه لا يقبل منه

وما منعهم ان تقبل منهم نفقاتهم الا انهم كفروا بالله وبرسوله ولا ياتون
الصلاة الا وهم كسالى ولا ينفقون الا وهم كارهون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - على التفصيل لمظاهر فسقهم - أن هناك
- ثلاثة أسباب أدت إلى عدم قبول نفقاتهم .أما السبب الأول فقد عبر عنه
سبحانه - بقوله : ( وَمَا مَنَعَهُمْ أن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ
إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بالله وَبِرَسُولِهِ . . ) .أى : وما منعهم
قبول نفقاتهم شئ من الأشياء إلا كفرهم بالله - تعالى - ورسوله - صلى الله
عليه وسلم - .فالاستثناء من أهم الأشياء . والضمير فى " منعهم " هو المفعول
" الأول للفعل ، وقوله : ( أن تُقْبَلَ ) هو المفعول الثانى ، لأن الفعل
منع " يتعدى لمفعولين تارة بنفسه كما هنا ، وتارة يتعدى إلى المفعول الثانى
بحرف الجر وهو حرف " من " أو " عن " .والفاعل ما فى حيز الاستثناء وهو قوله
- وأما السبب الثانى فقد عبر عنه. ( . . إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ ) :
" سبحانه - بقوله : ( وَلاَ يَأْتُونَ الصلاة إِلاَّ وَهُمْ كسالى ) .ولفظ
كسالى " . جمع كسلان ، مأخوذ من الكسل بمعنى التثاقل عن الشئ ، والفتور عن
أدائه . وفعله بزنة فرح .أى : ولا يأتون الصلاة التى كتبها الله عليهم فى
حال من الأحوال ، إلا فى حال كونهم قوم خلت قلوبهم من الإيمان ، فصاروا لا
يرجون من وراء أدائها ثواباً ولا يشخون من وراء تركها عقاباً ، وإنما
- يؤدونها رياء أو تقية للمسلمين .وشبيه بهذه الجملة الكريمة قوله - تعالى
فى سورة النساء : ( إِنَّ المنافقين يُخَادِعُونَ الله وَهُوَ خَادِعُهُمْ
وَإِذَا قاموا إِلَى الصلاة قَامُواْ كسالى يُرَآءُونَ الناس وَلاَ
- يَذْكُرُونَ الله إِلاَّ قَلِيلاً ) وأما ، السبب الثالث فقد عبر عنه
سبحانه - بقوله : ( وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ ) .أى . ولا
، ينفقون نفقة فى سبيل الله إلا وهم كارهون لها لأنهم يعدونها مغرماً
ويعتبرون تركها مغنما ، وما حملهم على الإنفاق إلا الرياء أو المخادعة أو
: الخوف من انكشاف أمرهم ، وافتضاح حالهم .قال صاحب الكشاف : فإن قلت
الكراهية خلاف الطواعية ، وقد جعلهم الله - تعالى - طائعين فى قوله " طوعاً
ثم وصفهم هنا بأنهم لا ينفقون إلا وهم كارهون فكيف ذلك .قلت : المراد "
بطوعهم أنهم يبذلون نفقتهم من غير إلزام من رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - أو من رؤسائهم ، وما طوعهم ذاك إلا عن كراهية واضطرار ، لا عن رغبة
واختيار .أى : أن نفقتهم فى جميع الأحوال لا يقصد بها الاستجابة لشرع الله
. وإنما يقصد بها الرياء أو المخادعة ، أو خدمة مصالحهم الخاصة ،

فلا تعجبك اموالهم ولا اولادهم انما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة
الدنيا وتزهق انفسهم وهم كافرون

كما فسرها الوسيط ثم نهى الله - تعالى - المؤمنين فى شخص نبيهم - صلى الله
عليه وسلم - عن التطلع إلى ما فى أيدى هؤلاء المنافقين فقال . ( فَلاَ
تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ . . ) .والإعجاب بالشئ
: معناه : أن تسر به سروراً يجعلك راضياً به ومتمنياً له ، والفاء فى قوله
للإفصاح .أى إذا كان هذا هو شأن المنافقين ، فلا ( فَلاَ تُعْجِبْكَ )
تستحسن . أيها العاقل . ما أعطيناهم إياه من أموال وأولاد ، فإنه نوع من
الاستدراج .وقوله : ( إِنَّمَا يُرِيدُ الله لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي
الحياة الدنيا ) تعليل للنهى عن الإعجاب بما أعطاهم الله من أموال وأولاد
أى : إنما يريد الله بعطائهم تلك الأمول والأولاد أن يعذبهم بها فى الحياة.
الدنيا ، وقد بسط الإمام الرازى مظاهر تعذيب المنافقين فى الدنيا بالأموال
والأولاد فقال ما ملخصه :المنافقون يعذبهم الله بأموالهم وأولادهم فى
الحياة الدنيا من وجوه :أحدها : أن الرجل إذا آمن بالله واليوم الآخر ، علم
أنه خلق للآخرة لا للدنيا ، وبهذا العلم يفتر حبه للدنيا ، وأما المنافق
فإنه لما اعتقد أنه لا سعادة له إلا فى هذه الخيرات العجلة ، عظمت رغبته
. . فيها ، واشتد حبه لها ، وكانت الآلام الحاصلة بسبب فواتها أكثر فى حقه
: فهذا النوع من العذاب حاصل هم فى الدنيا بسبب الأموال والأولاد .وثانياً
أن النبى - صلى الله عليه وسلم - كان يكلفهم إنفاق تلك الأموال فى وجوه
الخيرات ، ويكلفهم إرسال أولادهم إلى الجهاد والغزو ، وذلك يوجب تعريض
، أولادهم للقتل ، وهم كانوا يعتقدون أن محمداً ليس صادقا فى كونه رسول
وكانوا يعتقدون أن إنفاق تلك الأموال تضييع لها من غير فائدة وأن تعريض
أولادهم للقتل التزام لهذه المكروه الشديد من غير فائدة ، ولا شك أن هذا
- كله تعذيب لهم .وثالثاً : أنهم كانوا يبغضون محمداً - صلى الله عليه وسلم
بقلوبهم ، ثم إنهم كانوا يحتاجون إلى بذل أموالهم وأولادهم فى خدمته . ولا

شك أن هذه الحالة شاقة شديدة عليهم .ورابعاً : أنهم كانوا خائفين من أن يفتضحوا ويظهر نفاقهم وكفرهم ظهوراً تاماً ، فيصيرون أمثال سائر أهل الحرب من الكفار . وحينئذ يتعرض الرسول - صلى الله عليه وسلم - لهم بالقتل وسبى الأولاد . . . . وكل ذلك يوجب ألمهم وقلقهم .وخامسا : أن كثيراً من المنافقين كان لهم أولاد أتقياء كحنظلة بن أبى عامر وعبد الله بن عبد الله بن أبى . . وكانوا لا يرتضون طريقة آبائهم فى النفاق ، ويقدحون فيهم والإبن إذا صار هكذا عظم تأذى الأب به ، واستيحاشه منه ، فصار حصول تلك الأولاد .وقوله : ( وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ) بيان لسوء مصيرهم فى الآخرة بعد بيان عذابهم فى الدنيا .وزهوق النفس : خروجها عن الجسد بصعوبة ومشقة . يقال : زهقت نفسه تزهق إذا خرجت ، وزهق الشئ إذا هلك . . . واضمحل ، ومنه قوله - تعالى - : ( وَقُلْ جَآءَ الحق وَزَهَقَ الباطل والمعنى :لا تعجبك - أيها العاقل - أموال هؤلاء المنافقين ولا أولادهم ( إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الدنيا ، ويريد كذلك أن تخرج أراوحهم من أجسادهم وهم كافرون ، فيعذبهم بسبب كفرهم عذابا أليما .فأنت ترى أن الآية الكريمة قد توعدت المنافقين بسوء المسير فى الآخرة ولن يسحد إنسان مصيره كهذا المصير .قال الإمام الرازى : ومن تأمل فى هذه الآيات عرف أنها مرتبة على أحسن الوجوه ، فإنه - سبحانه - لما بين قبائح أفعالهم ، وفضائح أعمالهم بين ما لهم فى الآخرة من العذاب الشديد ، وما لهم فى الدنيا من وجوه ، المحنة والبلية ، ثم بين بعد ذلك أن ما يفعلونه من أعمال البر لا ينفعون به يوم القيامة ألبتة ثم بين فى هذه الآية أن ما يظنونه من منافع الدنيا ، فهو فى حقيقته سبب لعذابهم وبلائهم وتشديد المحنة عليهم ، وعند ذلك يظهر أن النفاق جالب لجميع الآفات فى الدنيا والدين ، ومبطل لجميع الخيرات فى الدين والدنيا . . .

ويحلفون بالله انهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون

كما فسرها الوسيط وبعد أن بينت السورة الكريمة أن هؤلاء المنافقين قد خسروا الدنيا والآخرة ، أتبعت ذلك بالحديث عن رذائلهم وقبائحهم التى على رأسها الجبن والكذب فقال - تعالى - : ( وَيَحْلِفُونَ بالله . . . وَهُمْ يَجْمَحُونَ ) .أى : أن هؤلاء المنافقين يحلفون بالله لكم - أيها المؤمنون - " إنهم لمنكم " أى : فى الدين والملة ، والحق أنهم ما هم منكم ، لأنهم يظهرون الإسلام ويخفون الكفر ، فهم كما وصفهم - سبحانه - فى قوله : ( إِذَا جَآءَكَ المنافقون قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ الله والله يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ والله يَشْهَدُ إِنَّ المنافقين لَكَاذِبُونَ اتخذوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ الله إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ) وقوله : ( ولكنهم قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ) استدراك للرد عليهم فيما قالواه وأقسموا عليه كذاب وزروا .وقوله : ( يَفْرَقُونَ ) من الفرق ، بمعنى الفزع الشديد من أمر يتوقع حصوله .يقا : فرق فرقا إذا اشتد خوفه وهلعه .أى : أن هؤلاء المنافقين لشدة خوفهم وهلعهم - أيها المؤمنون - يحلفون لكم كذبا وزورا بأنهم منكم ، والحق أنهم ما هم منكم ، ولكنهم قوم جبناء . لا يستطيعون مصارحتكم بالعداوة ، ولا يجرؤون على مجابهتكم بما تخفيه قلوبهم لكم به بغضاء .

لو يجدون ملجا او مغارات او مدخلا لولوا اليه وهم يجمحون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَئاً أَوْ مَغَارَاتٍ . . . ) تأكيد لما كان عليه أولئك المنافقون من جبن خالع والملجأ : اسم للمكان الذى يلجأ إليه الخائف ليحتمى به سواء أكان حصنا أو قلعة أو غيرهما .والمغارات : جمع مغارة وهى المكان المنخفض فى الأرض أو فى الجبل . قال بعضهم : والغور - يفتح الغين - من كل شئ قعره . يقال : غار الرجل غورا إذا أتى الغور هو المنخفض من الأرض .والمدخل - بتشديد الدال اسم ) : للموضع الذى يدخلون فيه ، بصعوبة ومشقة لضيقه ، كالنفق فى الأرض .وقوله ( يَجْمَحُونَ ) أى : يسرعون أشد الإسراع مأخوذ من الجموح وهو أن يغلب الفرس صاحبه فى سيره وجريه . يقال : جمع الفرس براكبه جموحا ، إذا استعصى عليه حتى غلبه .والمعنى : أن هؤلاء المنافقين لو يجدون حصنا يلتجئون إليه أو مغارات يستخفون فيها . أو سردابا فى الأرض ينجحرون فيه ، لقبلوا نحوه مسرعين أشد الإسراع دون أن يردهم شئ ، كالفرس الجموح الذى عجز صاحبه عن منعه من النفور والعَدْو .فالآية الكريمة تصوير معجز لما كان عليه أولئك المنافقون من خوف شديد من المؤمنين ، ومن بغض دفين لهم ، حتى إنهم لو وجدوا شيئا من هذه الأمكنة - التى هى منفور منها - لأسرعوا نحوها إسراعا شديداً .

ومنهم من يلمزك في الصدقات فان اعطوا منها رضوا وان لم يعطوا منها اذا هم يسخطون

، كما فسرها الوسيط ثم تمضى السورة بعد ذلك فى الكشف عن الأقوال المنكرة والأفعال القبيحة التى كانت تصدر عن المنافقين فتقول . ( وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ . . . إِلَى اللهِ رَاغِبُونَ ) .قال الإمام الرازى : اعلم أن المقصود من هذا ، شرح نوع آخر من قبائحهم وفضائحهم ، وهو طعنهم فى الرسول - صلى الله عليه وسلم - بسبب أخذ الصدقات من الأغنياء ، ويقولون إنه يؤثر بها من يشاء من أقاربه وأهل مودته ، وينسبونه إلى أنه لا يراعى العدل .هذا ، وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هاتين الآتين روايات منها :ما أخرجه البخارى والنسائى " عن أبى سعيد الخردى - رضى الله عنه - قال : بينما النبى - صلى الله عليه وسلم - يقسم قسما إذ جاءه ذو الخويصرة التميمى فقال : اعدل يا رسول الله ، فقال : " ويلك! ومن يعدل إذا لم أعدل "؟ فقال عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - : ائذن لى فأضرب عنقه ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :" دعه فإن له أصحاب يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصايمه مع صيامهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم فى الرمية . . " " .قال أبو سعيد ، فنزلت ، فيهم : ( وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصدقات . . ) .وروى ابن مردويه " عن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال : " لما قسم النبى - صلى الله عليه وسلم - غنائم حين سمعت رجلا يقول : إن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله . فأتيت النبى - صلى الله عليه وسلم - فذكرت له ذلك فقال : " رحمة الله على موسى ، لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر " ونزل ( وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصدقات ) .وقوله : ( يَلْمِزُكَ ) أى : يعيبك ويطعن عليك فى قسمة الصدقات وغيرها من الأموال ، مأخوذ من اللمز وهو العيب . يقال لمزه وهمزه يلمزه ويهمزه إذا عابه وطعن عليه ، ومنه قوله - تعالى - : ( وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ) وقيل : اللمز ما كان يحضره الملموز ، والهمز ما كان فى غيابه .والمعنى : ومن هؤلاء المنافقين - يا محمد - من يعيبك ويطعن عليك فى قسمة الصدقات والغنائم ، زاعمين أنك لست عادلا فى قسمتك .وقوله : ( فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ . . . ) بيان لفساد لمزهم وطعنهم ، وأن الدافع إليه إنما هو الطمع والشره فى حطام الدنيا ، وليس الغضب من أجل إحقاق الحق : أو من أجل نشر العدالة بين الناس .أى : أن هؤلاء المنافقين إن أعطيتهم . يا محمد . من تلك الصدقات ، رضوا عنك ، وحكموا على هذا العطاء بأنه عدل حتى ولو كان ظلماً ، وإن لم تعطهم منهم سخطوا عليك ، واتهموك بأنك غير عادل ، حتى ولو كان عدم عطائهم هو الحق بعينه ، فهم لا يقولون ما يقولونه فيك غضبا للعدل ، ولا حماسة للحق ، ولا غيرة على الدين . . وإنما يقولون ما يقولون من أجل مطامعهم الشخصية ، ومنافعهم الذاتية .

ولو انهم رضوا ما اتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله انا الى الله راغبون

`<!-- TODO:MISSING -->`{=html} كما فسرها الوسيط

انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم

كما فسرها الوسيط قال الإمام ابن كثير . لما ذكر الله - تعالى - اعتراض المنافقين الجهلة على النبى - صلى الله عليه وسلم - ولمزهم إياه فى قسم الصدقات . بين - سبحانه - أنه هو الذى قسمها ، وبين حكمها ، وتولى أمرها بنفسه ، ولم يكل قسمها إلى أحد غيره فجزأها لهؤلاء المذكورين ، كما رواه أبو داود فى سننه عن زيادة بن الحارث الصدائى قال . أتين النبى - صلى الله عليه وسلم - فبايعته .فأتى رجل فقال . أعطنى من الصدقة فقال له . " إن الله لم يرض بحكم نبى ولا غيره . فى الصدقات حتى حكم فيها هو ، فجزأها ثمانية أصناف ، فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك .والمراد بالصدقات هنا - عند كثير من العلماء - الزكاة المفروضة .ولفظ الصدقات . مبتدأ . والخبر محذوف ، والتقدير : إنما الصدقات مصروفة للفقراء والمساكين . . إلخ .والفقراء . جمع فقير ، وهو من له أدنى شئ من المال . أو هو من لا يملك المال الذى يقوم بحاجاته الضرورية من مأكل ومشرب وملبس ومسكن .يقال فقر الرجل - من باب تعب - إذا قل ماله .قالوا : وأصل الفقير فى اللغة : الشخص الذى كسر فقار ظهره ، ثم استعمل فيمن قل ماله لانكساره بسبب احتياجه إلى غيره .أو هو من الفقرة بمعنى الحفرة ، ثم استعمل فيما ذكر لكونه أدنى حالا من اكثر الناس ، كما أن الحفرة أدنى من مستوى سطح الأرض المستوية .والمساكين : جمع مسكين ، وهو من لا شئ له ، فيحتاج إلى سؤال الناس لسد حاجاته ومطالب حياته .وهو مأخوذ من السكون الذى هو ضد الحركة ، لأن احتياجه إلى غيره أسكنه وأذله وقيل : المسكين هو الذى مال أو كسب ولكنه لا يكفيه ، وعلى هذا يكون قريب الشبه بالفقير .وقوله : ( والعاملين عَلَيْهَا ) بيان للصنف الثالث من الأصناف الذين تجب لهم الزكاة .والمارد بهم . من كلفهم الإمام بجمع الزكاة وتحصيلها ممن يملكون نصابها .ويدخل فيهم العريف ، والحاسب ، والكاتب ، وحافظ المال ، وكل من كلفه الإمام أو نائبه بعمل يتعلق بجمع الزكاة او

حفظها ، أو توزيعها .وقوله . ( والمؤلفة قُلُوبُهُمْ ) بيان للصنف الرابع
والمراد بهم الأشخاص الذين يرى الإمام دفع شئ من الزكاة إليهم تأليفاً.
، لقلوبهم ، واستمالة لنفوسهم نحو الإسلام ، لكف شرهم ، أو لرجاء نفعهم
وهم أنواع :منهم قوم من الكفار ، كصفوان بن أمية ، فقد أعطاه النبى - صلى
الله عليه وسلم - من غنائم حنين ، وكان صفوان يومئذ كافراً ، ثم أسلم وقال
، والله لقد أعطانى النبى - صلى الله عليه وسلم - وكان أبغض الناس إلى :
فما زال يعطينى . حتى أسلمت وإنه لأحب الناس إلى .ومنهم قوم كانوا حديثى
عهد بالإسلام وكانوا من ذوى الشرف فى أقوامهم فكان النبى - صلى الله عليه
وسلم - يعطيهم ، ليثبت إيمانهم ، وليدخل معهم فى الإسلام أتباعهم .ومن
أمثلة ذلك ما فعله الرسول - صلى الله عليه وسلم - مع الأقرع بن حابس وعيينة
بن حصن ، والزبرقان بن بدر ، فقد أعطاهم - صلى الله عليه وسلم - لمكانتهم
فى عشيرتهم ، ولشرفهم فى أقوامهم . وليدخل معهم فى الإسلام غيرهم .ومن
أمثلة هذا الصنف العباس من مرداس السلمى ، فقد أعطاه النبى - صلى الله عليه
وسلم - تأليفاً لقلبه ، وتثبيتاً لإيمانه .والخلاصة أن النبى - صلى الله
عليه وسلم - كان يتألف قلوب بعض الناس بالعطاء ، دفعاً لشرهم ، أو أملا فى
نفعهم ، أو رجاء هدايتهم .وقوله : ( وَفِي الرقاب ) بيان لنوع خامس من
مصارف الزكاة . وفى الكلام مجاز بالحذف ، والتقدير : وتصرف الصدقات أيضا فى
فك الرقاب بأن يعان المكاتبون بشئ منها علىأداء بدل الكتابة؛ لكن يصروا
أحراً . أو بأن يشترى بجز منها عدداً من العبيد لكى يعتقوا من الرق .وذلك
لأن الإسلام يحب أتباعه فى عتق الرقاب ، وفى مساعدة الأرقاء على أن يصيروا
. أحراراً .وقوله : ( والغارمين ) من الغرم بمعنى الملازمة للشئ ومنه قوله
تعالى : ( إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً ) أى : عذاب جهنم كان ملازماً
لأهلها من الكافرين .والمراد بالغارمين : من لزمتهم الديون فى غير معصية
لله ، ولا يجدون المال الذى يدفعونه لدائنيهم ، فيعطون من الزكاة ما يعينهم
على سداد ديونهم .وقوله : ( وَفِي سَبِيلِ الله ) بيان لنوع سابع من مصارف
الزكاة .والسبيل : الطريق الذى فيه سهولة ، وجمعه سبل . وأضيف إلى الله
تعالى للإشارة إلى أنه هو السبيل الحق الذى لا يحرم حوله باطل ، وهو الذى
يوصل السائر فيه إلى مرضاة الله ومثوبته .أى : وتصرف الصدقات فى سبيل الله
يدفع جزء منها لمساعدة المجاهدين والغزاة والفقراء الذين خرجوا لإعلاء ،
. كلمة الله .قال بعض العلماء ما ملخصه : قال أبو حنيفة ومالك والشافعى
يصرف سهم سبيل الله المذكور فى الآية الكريمة إلى الغزاة . . لأن المفهوم
فى الاستعمال المتبادر إلى الأفهام أن سبيل الله هو الغزو ، وأكثر ما جاء
فى القرآن الكريم كذلك .وقال الإمام أحمد : يجوز صرف سبيل الله إلى مريد
الحج .وقال بعضهم : يجوز صرف سبيل الله إلى طلبة العلم .وفسره بعضهم بجميع
، القربات . فيخل فيه جميع الخير ، مثل تكفين الموتى ، وبناء القناطر
) : والحصون ، وعمارة المساجد ( وَفِي سَبِيلِ الله ) عام فى الكل . .وقوله
وابن السبيل ) بيان للصنف الثامن والأخير من الأصناف الذين هم مصارف الزكاة
والمراد بابن السبيل : المسافر المنقطع عن ماله فى سفره . ولو كان غنياً.
فى بلده ، فيعطى من الزكاة ما يساعده على بلوغ موطنه .وقد اشترط العلماء
لابن السبيل الذى يعطى من الصدقة ، أن يكون سفره فى غير معصية الله . فإن
كان فى معصية لم يعط : لأن إعطاءه يعتبر إعانة له على المصعية ، وهذا لا
يجوز .وقد ألحقوا بابن السبيلن كل من غاب من ماله ، ولو كان فى بلده .وقوله
، فريضة من الله ، منصوب بفعل مقر أى : فرض الله لهم هذه الصدقات فريضة .
فلا يصح لكم أن تبخلوا بها عنهم ، أو تتكاسلوا فى إعطائها لمستحقيها
) : فالجملة الكريمة زجر للمخاطبين عن مخالفة أحكامه . سبحانه .وقوله.
: والله عَلِيمٌ حَكِيمٌ ) تذييل قصد به بيان الحكمة من فرضية الزكاة .اى
، والله - تعالى - عليم بأحوال عباده ، ولا تخفى عليه خافية من تصرفاتهم
، حكيم فى كل أوامره ونواهيه ، فعليكم . أيها المؤمنون أن تأتمروا بأوامره
وأن تنتهوا عن نواهيه لتنالوا رضاه .هذا ، من الأحكام والآداب التى أخذها
العماء من هذه الآية ما يأتى :1- أن المراد بالصدقات هنا ما يتناول الزكاة
المفروضة وغيرها من الصدقات المندوبة ، وذلك لأن اللفظ عام فيشمل كل صدقة
سواء أكانت واجبة أم مندوبة ، ولأن لفظ الصدقة فى عرف الشرع وفى صدر
- الإسلام ، كان يشمل الزكاة المفروضة ، والصدقة المندوبة ، ويؤيده قوله
تعالى - : ( خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ
: وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ) ومن العلماء من يرى أن المراد بالصدقات فى الآية
الزكاة المفروضة ، لأن ( أل ) فى الصدقات للعهد الذكرى والمعهود هو الصدقات
الواجبة التى أشار إليها القرآن . بقوله قبيل هذه الآية . ( وَمِنْهُمْ
مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصدقات ) ولأن الصدقات المندوبة يجوز صرفها فى غير
الأصناف الثمانية كبناء المساجد والمدارس .ويبدو لنا أن لفظ الصدقات فى
الآية عام بحيث يتناول كل صدقة ، إلا أن الزكاة المفروضة تدخل فيه دخولا
أوليا .2- قال بعض العلماء : ظاهر الآية يقضى بالقسمة بين الثمانية الأصناف
ويؤيد هذا وجهان .الأول . ما يقتضيه اللفظ اللغوى ، إن قلنا . الواو ،
للجمع والتشريك .والثانى : ما رواه أبو داود فى سننه من قوله - صلى الله
عليه وسلم - " إن الله لم يرض بحكم نبى ولا غيره فى الصدقات ، حتى حكم فيها

فجزأ ثمانية أجزاء " .وقد ذهب إلى هذا الشافعى وعكرمة والزهرى ، إلا إن ، استغنى أحدهما فتدفع إلى الآخرين بلا خلاف .وذهبت طوائف إلى جواز الصرف فى صنف واحد . منهم عمر وابن عباس وعطاء وابن جبير ومالك وأبو حنيفة .قال فى : التهذيب : وخرجوا عن الظاهر فى دلالة الآية المذكورة والخبر بوجوه :الأول أن الله - تعالى - قال فى سورة البقرة : ( وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الفقرآء فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ) فدل على أن ذكر العدد هنا لبيان جنس من " : يستحقها .الثانى : الخبر ، وهو قوله - صلى الله عليه وسلم - لمعاذ أعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة فى أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد فى فقرائهم " .الثالث : حديث سلمة بن صخر . فإنه - صلى الله عليه وسلم - جعل له صدقة بنى زريق .الرابع : أنه لم يظهر فى ذلك خلاف من جهة الصحابة فجرى كالمجمع عليه .3- يرى جمهور العلماء أن الفقراء والمساكين صنفان من مصارف الزكاة لأن الله . - تعالى - قد ذكر كل صنف منهما على حدة ، إلا أنهم اختلفوا فى أيهما أسوأ حالا من الآخر . فالشافعية يرون أن الفقير أسوأ حلالا من المسكين .ومن أدلتهم على ذلك ، أن الله . تعالى . بدأت فى الآية بالفقراء ، وهذا البدء ، يشير إلى أنهم أشد حاجة من غيرهم ، لأن الظاهر تقديم الأهم على المهم .ولأن لفظ الفقير أصله فى اللغة المفقور الذى نزعت فقرة من فقار ظهره : فلا يستطيع التكسب ، ومعلوم أنه لا حال فى الاقلال والبؤس آكد من هذه الحال .ولأن الله . تعالى . وصف بالمسكنة من كانت له سفينة من سفن البحر فقال : ( أَمَّا السفينة فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي البحر ) أما الأحناف والمالكية فيرون أن المسكين أسوأ حالا من الفقير .ومن أدلتهم على ذلك : أن علماء اللغة عرفوا المسكين بأنه أسوأ حالا من الفقير ، وإلى هذا ذهب يعقوب بن السكيت ، والقتبى ، ويونس بن حبيب ولأن الله - تعالى - وصف المسكين وصفا يدل على البؤس وصفا يدل على البؤس. والفاقة فقال : ( أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ ) أى : مسكينا ذا حاجة . شديدة ، حتى لكأنه قد لصق بالتارب من شدة الفاقة ، ولم يصف الفقير بذلك قال بعض العلماء : وأنت إذا تأملت أدلة الطرفين وجدت أنها متعارضة ومحل. نظر ، وأياما كان فقد اتفق الرأيان على أن الفقراء والمساكين صنفان .وروى عن ابى يوسف ومحمد أنهما صنف واحد واختاره الجبائى ، ويكون العطف بينهما لاختلاف المفهوم . وفائدة الخلاف تظهر فيما إذا أوصى لفلان وللفقراء والمساكين؛ فمن قال إنهما صنف واحد جعل لفلان نصف الموصى به ، ومن قال إنهما صنفان جعل له الثلث من ذلك .4- ظاهر الآية يدل على أن الزكاة يتجوز دفعها لكل من يشكله اسم الفقير والمسكين ، إلا أن هذا الظاهر غير مراد؛ لأن - الأحاديث الصحيحة قد قيدت هذا الإطلاق .قال القرطبى : اعلم أن قوله تعالى - : ( لِلْفُقَرَآءِ ) مطلق ليس فيه شرط وتقييد ، بل فيه دلالة على ، جواز الصرف إلى جملة الفقراء ، سواء أكانوا من بنى هاشم أو من غيرهم إلاأن السنة وردت باعتبار شروط ، منها : ألا يكونوا من بنى هاشم ، وألا يكونوا ممن تلزم المتصدق نفقته ، وهذا لا خلاف فيه .وشرط ثالث ألا يكن قوياً على الاكتساب؛ لأنه - سبحانه - قال : " لا تحل الصدقة لغنى ، ولا لذى مرة سوى " .ولا خلاف بين علماء المسلمين فى أن الصدقة المفروضة لا تحل للنبى - صلى الله عليه وسلم - ولا لنبى هاشم ولا لمواليهم . .وكذلك لا يصح أن تعطى لغير المسلمين ، ففى الصحيحين عن ابن عباس - رضى الله عنهما -" أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال معاذ حين بعثه إلى ايمن : " أعلمهم أنعليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم " فاقتضى ذلك أن الصدقة مقصورة على فقراء المسلمين .إلا أنه نقل عن أبى حنيفة جواز دفع صدقة الفطر إلى الذمى .5- أخذ بعض العلماء من قوله - تعالى ( والعاملين عَلَيْهَا ) أنه يجب على الإمام أن يرسل من يراه أهلا لجمع الزكاة ممن تجب عليهم .وقد تأكد هذا الوجوب بفعل النبى - صلى الله عليه وسلم فقد ثبت فى أحاديث متعددة : أنه أرسل بعض الصحابة لجمع الزكاة .روى البخارى عن أبى حميد الساعدى قال استعمل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رجلا على صدقات بنى سليم يدعى ابن - اللتبية ، فلما جاء حاسبه .6- أخذ بعض العلماء - أيضاً - من قوله - تعالى أن حكمهم باق ، لأنهم قد ذكروا من بين مصارف ( والمؤلفة قُلُوبُهُمْ ) الزكاة ، ولأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد أعطاهم ، فيعطون عند الحاجة .قال الإمام القرطبى ما ملخصه : واختلف العلماء فى بقاء المؤلفة قلوبهم .فقال عمر والحسن والشعبى وغيرهم : انقطع هذا الصنف بعز الإسلام . وظهوره .وهذا مشهور من مذهب مالك وأصحاب الرأى .قال بعض علماء الحنفية لما أعز الإسلام وأهله ، أجمع الصحابة فى خلافة أبى بكر على سقوط سهمهم وقال جماعة من العلماء : هم باقون لأن الإمام ربما احتاج أن يستألف على. الإسلام وإنما قطعهم عمر لما رأى من إعزاز الدين .وقال ابن العربى . الذى عندى أنه إن قوى الإسلام زالوا ، وإن احتيج إليهم أعطوا سهمهم كما كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يعطيهم ، فإن فى الصحيح " بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ " .والذى يبدو لنا أن ما قاله ابن العربى أقرب الأقوال إلى الصواب لأن مسألة إعطاء المؤلفة قلوبهم تختلف باختلاف الأحوال؛ فإن كان الإمام يرى أن من مصلحة الإسلام إعطاءهم ، وإن كانت المصلحة فى غير ذلك لم يعطهم .7- دلت الآية الكريمة على أن الزكاة ركن من أركان

الاسلام ، لقوله تعالى ( فَرِيضَةً مِّنَ الله ) . قال بعض العلماء ما ملخصه
تلك هى فريضة الزكاة . ليست أمر الرسول وإنما هى أمر الله وفريضته وقسمته ،
وما الرسول فيها إلا منفذ للفريضة المقسومة من رب العالمين . وهذه الزكاة
تؤخذ من الأغنياء على أنها فريضة من الله ، وترد على الفقراء على أنها
فريضة من الله ، وهى محصورة فى طوائف من الناس عينهم القرآن وليست متروكة
لاختيار أحد حتى ولا اختيار الرسول نفسه ، وبذلك تأخذ الزكاة مكانها فى
شريعة ، ومكانها فى النظام الإسلامي ، لا تطوعاً ولا تفضلا ممن فرضت عليهم
فهى فريضة محتمة ، ولا منحة ولا جزافًا من القاسم الموزع فهى فريضة معلومة ،
إنها إحدى فرائض الإسلام تجمعها الدولة المسلمة بنظام معين لتؤدى بها .
خدمة اجتماعية محددة . وهى . ليست إحساناً من المعطى ، وليست شحاذرة من
الآخذ ، كلا فما قام النظام الاجتماعى فى الإسلام على التسول ولن يقوم . إن
قوم الحياة فى النظام الإسلامى هو العمل - بلكَ صنوفه وألوانه - على الدولة
المسلمة أن توفر العمل لكل قادر عليه . والزكاة ضريبة تكافل اجتماعى بين
القادرين والعاجزين ، تنظمها الدولة وتتولاها فى الجمع والتوزيع ، متى قام
المجمع على أساس الإسلام الصحيح ، منفذاً شريعة الله لا يبتغى له شرعاً
ولا منهجاً سواه . إن فريضة الزكاة تؤدى فى صورة عبادة إسلامية ، ليطهر الله
بها القلوب من الشح ، وليجعلها شرعة تراحم وتضمن بين أفراد الأمة المسلمة
إنها فريضة من الله ، الذى يعلم ما يصلح لهذه البشرية ، ويدير أمرها .
بالحكمة ( والله عَلِيمٌ حَكِيمٌ ) .

ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو اذن قل اذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن
للمؤمنين ورحمة للذين امنوا منكم والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب اليم

كما فسرها الوسيط وبعد هذا الحديث عن الصدقات التى كان المنافقون يلمزون
الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيها ، أخذت السورة فى مواصلة حديثها عن
رذائل المنافقين ، وعن سوء أدبهم . . فقال تعالى - : ( وَمِنْهُمُ الذين
يُؤْذُونَ النبي . . . ) . روى المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها
ما أخرجه ابن أبى حاتم عن السدى أنها نزلت فى جماعة من المنافقين منهم
، الجلاس بن سويد بن صامت ورفاعة ابن عبد المنذر ، وديعة بن ثابت وغيرهم
قالوا مالا ينبغى فى حقه - صلى الله عليه وسلم - . فقال رجل منهم لا تفعلوا
فإنا نخاف أن يبلغ محمداً ما تقولونه فيقع فينا . فقال الجلاس : بل نقول ما
شئنا ، ثم نأتيه فيصدقنا بما نقول فإن محمداً أذن . فمرادهم بقولهم " هو أذن
" : أى : كثير الاستماع والتصديق لكل ما يقال له . قال صاحب الكشاف : الأذن
الرجل الذى يصدق كل ما يسمع ، ويقبل قول كل أحد سمى بالجارحة التى هى آلة
السماع كأن جملته أذن سامعة ونظيره قولهم للربيئة - أى الطليعة - عين . وقال
بعضهم : " الأذن " الرجل المستمع القابل لما يقال له . وصفوا به الذكر
، والانثى والواحد والجمع . فيقال : رجل أذن ، وامرأة أذن ورجال ونساء أذن
فلا ينثى ولا يجمع . إنما سموه باسم العضو تهويلا وتشنيعا فهو مجاز مرسل
، أطلق فيه الجزع على الكل مبالغة بجعل جملته - لفرط استماعه - آلة السماع
كما سمى الجاسوس عيناً لذلك . والمعنى : ومن هؤلاء المنافقين قوم يؤذون
النبى - صلى الله عليه وسلم - فيقولون عنه أنه كثير السماع والتصديق لكل ما
يقال له بدون تمييز بين الحق والباطل . وقوله : ( قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ
لّكُمْ ) رد عليهم بما يخرس ألسنتهم ويكبت أنفسهم وهو من قبيل إضافة
الموصوف إلى الصفة على سبيل المبالغة فى المدح كقولهم رجل صدق أى قد بلغ
النهاية فى الصدق والاستقامة . والمعنى : قبل لهم يا محمد على سبيل التوبيخ
والتبكيت : سلمنا . كما تزعمون . أنى كثير السماع والتصديق لما يقال ، لكن
هذه الكثرة ليست للشر والخير بدون تمييز وإنما هى للخير ولما وافق الشرع
فحسب . ويجوز أن تكون الإضافة فيه على معنى " فى " ، أى هو اذن فى الخير
والحق ، وليس بأذن فى غير ذلك من وجوه الباطل والشر . وهذه الجملة الكريمة
- من أسمى الأساليب وأحكمها فى الرد على المرجفين والفاسقين ، لأنه
سبحانه - صدقهم فى كونه - صلى الله عليه وسلم - أذناً ، وذلك بما هو مدح له
حيث وصفه بأنه أذن خير لا شر . قال صاحب الإنصاف : لا شئ أبلغ من الرد ،
عليهم بهذا الوجه ، لأن فى الأول إطماع لهم بالموافقة ثم كر على طمعهم
بالحسم ، وأعقبهم فى تنقصه باليأس ، منه ، ولا شئ أقطع من الإطماع ثم
اليأس يتلوه ويعقبه . وقوله : ( يُؤْمِنُ بالله وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ
وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ ) تفسير وتوضيح لكونه - صلى الله
عليه وسلم - أذن خير لهم لا أذن شر عليهم . أى : أن من مظاهر كونه - صلى
الله عليه وسلم - أذن خير ، أنه " يؤمن بالله " إيماناً حقاً لا يحوم حوله
شئ من الرياء ، أو الخداع أو غيرهما من ألوان السوء " ويؤمن للمؤمنين " أى
، يصدقهم فيما يقولونه من أقوال توافق الشرع لأنهم أصحابه الذين أطاعوه :
واتبعوا النور الذى أنزل معه ، فهم أهل للتصديق والقبول . دون غيرهم من
المنافقين والفاسقين . قال الفخر الرازى : فإن قيل لماذا عدى الإيمان إلى
الله بالباء ، وإلى المؤمنين باللام؟ قلنا : لأن الإيمان المعدى إلى الله
المراد منه التصديق الذى هو نقيض الكفر فعدى بالباء . والإيمان المعدى إلى

المؤمنين المراد منه الاستماع منهم ، والتسليم لقولهم فعدى باللام ، كما فى
) : قوله ( وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ) أى بمصدق لنا . وقوله
أَنُؤْمِنُ لَكَ واتبعك الأرذلون ) وقوله : ( قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ
أَنْ آذَنَ لَكُمْ ) وقوله : ( وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ )
معطوف على قوله : ( أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ) .أى : أن هذا الرسول الكريم
- بجانب أنه أذن خير لكم هو رحمة للذين آمنوا منكم - أيها المنافقون
إيماناً صحيحاً ، لأنه عن طريق إرشاده لهم إلى الخير ، واتباعهم لهذا
الإرشاد يصلون إلى ما يسعدهم فى دنياهم وآخرتهم .وعلى هذا يكون المارد
بالذين آمنوا من المنافقين : أولئك الذيم صدقوا فى إيمانهم ، وأخلصوا لله
قلوبهم ، وتركوا النفاق والرياء .أو أن المراد بالذين آمنوا بهم : أولئك
الذين أظهروا الإيمان ، فيكون المعنى : أن هذا الرسول الكريم رحمة للذين
- أظهروا الإيمان منكم - أيها المنافقون - حيث إنه - صلى الله عليه وسلم
عاملهم بحسب الظاهر ، دون أن يشكف أسرارهم ، أو يهتك أستارهم؛ لأن الحكمة
تقتضى ذلك .وعلى هذا المعنى سار صاحب الكشاف فقد قال : وهو رحمة لمن آمن
منكم ، أى : أظهر الإيمان - أيها المنافقون - ، حيث يسمع منكم ، ويقبل
إيمانكم الظاهر ، ولا يكشف أسراركم ، ولا يفضحكم ، ولا يفعل بكم ما يفعل
بالمشركين ، مراعاة لما رأى الله من المصلحة فى الإبقاء عليكم . .وقوله :
تذييل قصد به ( والذين يُؤْذُونَ رَسُولَ الله لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ )
تهديدهم وزجرهم عن التعرض لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - بآية إساءة
أى : والذين يؤذون رسول الله بأى لون من ألوان الأذى ، لهم عذاب أليم فى.
دنياهم وآخرتهم؛ لأنهم بإيذائهم له يكونون قد استهانوا بمن أرسله الله رحمة
للعالمين .

يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله احق ان يرضوه ان كانوا مؤمنين

كما فسرها الوسيط ثم حكى القرآن بعد ذلك لوناً من جبنهم وعجزهم من مصارحة
المؤمنين بالحقائق ، فقال - سبحانه - : ( يَحْلِفُونَ بالله . . . الخزي
العظيم ) .قال القرطبى : روى قوماً من المنافقين اجتمعوا ، وفيهم غلاما من
الأنصار يدعى عامر بن قيس ، فحقروه تكلموا فقالوا : إن كان ما يقوله محمد
حقاً لنحن شر من الحمير . فغضب الغلام وقال : والله إن ما يقوله محمد - صلى
الله عليه وسلم لحق ، ولأنتم شر من الحمير . ثم أخبر النبى - صلى الله عليه
وسلم - بقولهم فحلفوا إن عامرا كاذب .فقال عامر : هم الكذبة ، وحلف على ذلك
وقال : اللهم لا تفرق بيننا حتى يتبين صدق الصادق وكذب الكاذب ، فأنزل الله
هذه الآية .فقوله - سبحانه - : ( يَحْلِفُونَ بالله لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ )
خطاب للمؤمنين الذين كان المنافقون يذكرونهم بالسوء ، ثم يأتون إليهم بعد
- ذلك معتذرين .أى : إن هؤلاء المافقين يحلفون بالله لكم - أيها المؤمنون
ليرضوكم ، فتطمئنوا إليهم ، وتقبلوا معاذيرهم .قال أبو السعود : وإفراد
- إرضائهم بالتعليل مع أن عمدة أغراضهم إرضاء الرسول - صلى الله عليه وسلم
للإيذان بأن ذلك بمعز عن أن يكون وسيلة لإرضائه ، وأنه - عليه الصلاة
والسلام - إنما لم يكذبهم رفقا بهم ، وسترا لعيوبهم ، لا عن رضا بما فعلوا
وقبول قلبى لما قالوا . .وقوله : ( والله وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أن ،
يُرْضُوهُ ) جملة حالية فى محل نصب من ضمير " يحلفون " جئ بها لتوبيخهم على
إيثارهم رضا الناس على رضا الله ورسوله .أى : هم يحلفون لكم ، والحال أن
رسوله أحق بالإرضاء منكم لأن الله - تعالى هو خالقهم ورازقهم ومالك أمرهم
- وهو العليم بما ظهر وبطن من أحوالهم . ولأن رسوله - صلى الله عليه وسلم ،
هو المبلغ لوحيه - عز وجل - .قال صاحب المنار ما ملخصه : وكان الظاهر أن
يقال : " يرضوهما " ونكتة العدول عنه إلى " يرضوه " : الإعلام بأن إرضاء
رسوله عين إرضائه سبحانه . . وهذا من بلاغة القرآن فى نفس الإيجاز . ولو
قال " يرضوهما " لما أفاد هذا المعنى؛ إذ يجوز فى نفس العبارة أن يكون
، إرضاء كل منهما فى غير ما يكون به إرضاء الآخر ، وهو خلاف المراد هنا
وكذلك لو قيل : " والله أحق أن يرضوه ، ورسوله أحق أن يرضوه "لا يفيد هذا
المعنى أيضاً وفيه ما فيه من الركاكة والتطويل . .وقد خرجه علماء النحو على
قواعدهم . . وأقرب الأقوال إلأى قواعدهم قول سيبويه : إن الكلام جملتان حذف
خبر إحداهما لدلالة خبر الأخرى عليه ، كقول الشاعر :نحن بما عندنا وأنت بما
، عندك راض والرأى مختلف ... فهذا لا تكلف فيه من ناحية التركيب العربى
ولكن تفوت به النكتة الى ذكرناها . . .وقوله : ( إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ
تذييل قصد به بيان أن الإيمان الحق لا يتم إلا بإرضاء الله ورسوله عن (
طريق طاعتهما والانقياد لأوامرهما .أى : إن كانوا مؤمنين حقاً ، فليعملوا
على إرضاء الله ورسوله ، بأن يطيعوا أوامرهما ، ويجتنبوا نواهيهما ، وإلا
كانوا كاذبين فى دعواهم الإيمان ثم توعدهم - سبحانه - بسوء المصير بسبب
مخالفتهم لله ورسوله فقال :( أَلَمْ يعلموا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ الله
وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا ) .

الم يعلموا انه من يحادد الله ورسوله فان له نار جهنم خالدا فيها ذلك الخزي

العظيم

كما فسرها الوسيط ( أَلَمْ يعلموا أَنّهُ مَن يُحَادِدِ الله وَرَسُولَهُ فَأَنّ لَهُ نَارَ جَهَنّمَ خَالِداً فِيهَا )وقوله : ( يُحَادِدِ ) من المحادة بمعنى المخالفة والجانبة والمعاداة ، مأخوذة من الحد بمعنى الجانب كأن كل واحد من المتخاصمين فى جانب غير جانب صاحبه . ويقال : حاد فلان ، فلانا ، إذا صار فى غير حده وجهته بأن خالفه وعاداه .والاستفهام فى الآية الكريمة للتوبيخ والتأنيب وإقامة الحجة .والمعنى : ألم يعلم هؤلاء المنافقون الذين مردوا على الفسوق والعصيان أنه من يخالف تعاليم الله ورسوله ، فجزاؤه نار جهنم يصلاها يوم القيامة خالداً فيها؟! إن كانوا لا يعلمون ذلك - على سبيل الفرض - فأعلمهم يا محمد بسوء مصيرهم إذا ما استمروا على نفاقهم ومعاداتهم لله ولرسوله .قال الجمل ما ملخصه : " من " شرطية مبتدأ . وقوله : ( فَأَنّ لَهُ نَارَ جَهَنّمَ ) فى موضع المبتدأ المحذوف الخبر ، والتقدير . فحق أن له نار جهنم ، أى : فكون نار جهنم له أمر حق ثابت . وهذه الجملة جواب من اشلرطية ، والجملة الشرطية ، أى مجموع اسم الشرط وفعله والجزاء خبر أن الأولى ، وهى ( أَنّهُ مَن يُحَادِدِ الله وَرَسُولَهُ ) وجملة أن الثانية واسمها وخبرها سدت مسد مفعولى يعلم إن لم يكن بمعنى العرفان ، ومسد مفعوله أى الواحد إن كان بمعنى العرفان .واسم الإشارة فى قوله : ( ذلك الخزي العظيم ) يعود على ما ذكر من العذاب أى : ذلك الذى ذكرناه من خلودهم فى النار يوم القيامة هو الذل العظيم ، الذى يتضاء أمامه كل خزى وذلك فى الدنيا .فأنت ترى أن هاتين الآيتين قد ذكرتا جانباً من راذئل المنافقين وأكاذيبهم ، وتوعدتا كل مخالف لأوامر الله وروسوله بسوء المصير .

يحذر المنافقون ان تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم قل استهزئوا ان الله مخرج ما تحذرون

كما فسرها الوسيط ثم مواصلت السورة حملتها على المنافقين ، فكشفت عن خباياهم ، وهتكت أستارهم ، وأبطلت معاذيرهم ، وتوعدتهم بسوء المصير فقال - تعالى - :( يَحْذَرُ المنافقون . . . كَانُواْ مُجْرِمِينَ ) .قال صاحب المنار : هذه الآيات فى بيان شأن آخر من شئون المنافقين التى كشفت سوأتهم فيها غزوة تبوك . أخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد فى قوله - تعالى - : ( يَحْذَرُ المنافقون أن تُنَزّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ ) قال : كانوا يقولون القول فيما بينهم ثم يقولون : عسى أن لا يفشى علينا هذا .وعن قتادة قال : كانت هذه السورة تسمى الفاضحة . فاضحة المنافقين ، وكان يقال لها المنبئة . أنبأت بمثالبهم وعوراتهم .والضمير فى قوله : ( عَلَيْهِمْ ) وفى قوله : ( تُنَبّئُهُمْ ) يعود على المنافقين . فيكون المعنى : ( يَحْذَرُ المنافقون ) ويخافون من ( أن تُنَزّلَ عَلَيْهِمْ ) أى : فى شأنهم وحالهم سورة من سور القرآن الكريم " ، تنبئهم بما فى قلوبهم . أى : تخبرهم بما " انطوت عليه قلوبهم من أسرار خفية ، ومن أقوال كانوا يتناقلونها فيما بينهم ويحرصون على إخفائها عن المؤمنين .وفى التعبير بقوله : ( تُنَبّئُهُمْ ) ، مبالغة فى كون السورة مشتملة على أسرارهم ، حتى أنها تعلم من أحوالهم الباطنة مالا يعلمونه هم عن انفسهم ، فتنبئهم بهذا الذى لا يعلمونه ، وتنعى عليهم قبائحهم ورذائلهم . وتذيع على الناس ما كانوا يخشون ظهوره من أقوال ذميمة ، وأفعال أثيمة .ومنهم من يرى أن الضمير فى قوله ( عَلَيْهِمْ ) وقوله : ( تُنَبّئُهُمْ ) يعود على المؤمنين ، فيكون المعنى : يحذر المافقيون ويخشون من أن تنزل على المؤمنين سورة تخبرهم بما فى قلوب المنافقين من أضغان وأحقاد وفسوق عن أمر الله .وقد ذكر هذين الوجهين صاحب الشكشاف فقال : والضمير فى " عليهم " و " تنبئهم " للمؤمنين ، و " فى قلوبهم " للمنافقين . وصح ذلك لأن المعنى يقود إليه .ويجوز أن تكون الضمائر للمنافقين : لأن السورة إذا نزلت فى معناهم - أى فى شأنهم وأحوالهم - فهى نازلة عليهم . ومعنى ( تُنَبّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِم ) كأنها تقول لهم : فى قلوبكم كيت وكيت : يعنى أنها تذيع أسرارهم عليهم حتى يسمعوها مذاعة منتشرة فكأنها تخبرهم بها .وقال الإمام الرازى . فإن قيل : المنافق كافر فيكف يحذر نزول الوحى على الرسول - صلى الله عليه وسلم -؟ قلنا فيه وجوه؟قال أبو مسلم : هذا حذر أظهره المنافقون على وجه الاستهزاء حين رأوا الرسول - صلى الله عليه وسلم - يذكر كل شئ ، ويديعى أنه عن الوحى ، وكان المنافقون يكذبون بذلك فيما بينهم ، فأخبر الله رسوله بذلك ، وأمره أن يعلمهم أنه يظهر سرهم الذى حذروا ظهوره ، وفى قوله : ( قُلِ استهزءوا ) دلالة على ما قلناه .2- أن القوم وإن كانوا كافرين بدين الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلا أنهم شاهدوا أنه - صلى الله عليه وسلم - كان يخبرهم بما يضمرونه ويكتمونه ، فلهذه التجربة وقع الحذر والخوف فى قلوبهم .3- قال الأصم . إنهم كانوا يعرفون كون الرسول - صلى الله عليه وسلم - صادقا ، إلا أنهم كفروا به حسداً وعناداً . .4- معنى الحذر : الأمر بالحذر . أى : ليحذر

المنافقون ذلك .5- أنهم كاوا شاكين فى صحة نبوته ، وما كانوا قاطعين
بفسادها ، والشاك خائف ، فلهذا السبب خافوا أن ينزل عليه فى أمرهم ما
يفضحهم . والذى نراه أن الرأى الخامس أقرب الآراء إلى الصواب ، لأن
- المنافقين كانوا مترددين بين الإيمان والكفر : فهم كما وصفهم الله
. . تعالى - ( مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذلك لاَ إلى هؤلاء وَلاَ إِلَى هؤلاء
ومن شأن هذا التذبذب أن يغرس الخوف والحذر فى القلوب .أى أن هذا الحذر (
والإشفاق . كما يقول بعض العلماء . أثر طبيعى للشك والاتياب ، لأنهم لو
كانوا موقنين بتكذيب الرسول - صلى الله عليه وسلم - لما خطر لهم هذا الخوف
على بال ، ولو كانوا موقنين بتكذيب الرسول - صلى الله عليه وسلم - لما خطر
لهم هذا الخوف على بال ، ولو كانوا موقنين بتصديقه ، لما كان هناك محل لهذا
الحذر " لأن قلوبهم مطمئنة بالإيمان " .وقوله : ( قُلِ استهزءوا إِنَّ
الله مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ) تهديد ووعيد لهم على نفاقهم وسوء أدبهم
، أى : قل يا محمد لهؤلاء المنافقين المذبذبين بين الحق والباطل . قل لهم.
على سبيل التهديد والتبكيت : افعلوا ما شئتم من الاستخفاف بتعاليم الإسلام
إن الله - تعالى - مهر ما تحذرونه من إنزال الآيات القرآنية التى تفضحكم
على رءوس الأشهاد ، والتى تكشف عن أسراركم ، وتهتك أستاركم ، وتظهر
. للمؤمنين ما آردتم إخفاءه عنهم

ولئن سالتهم ليقولن انما كنا نخوض ونلعب قل ابالله واياته ورسوله كنتم
تستهزئون

- كما فسرها الوسيط وأسند الإخراج إلى الله - تعالى - للإشارة إلى أنه
سبحانه - يخرج ما يحذرونه إخراجاً لا مزيد عليه من الكشف والوضوح ، حتى
يحترس منهم المؤمنون ، ولا يغرتوا بأقوالهم المعسولة .وقوله : ( وَلَئِن
( . . . سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ
بيان للون آخر من معاذيرهم الكاذبة ، وجبنهم عن مواجهة الحقائق .وأصل
الخوض - كما يقول الآلوسى - الدخول فى مائع مثل الماء والطين ، ثم كثر حتى
صار اسماً لكل دخول فيه تلويث وأذى .أى : ولئن سألت يا محمد هؤلاء
المنافقين عن سبب استهزائهم بتعاليم الإسلام ليقولن لك على سبيل الاعتذار
إنما كنا نفعل ذلك على سبيل الممازحة والمداعبة لا على سبيل الجد .وقوله ،
إبطال ( قُلْ أَبالله وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ) :
لحجتهم ، وقطع لمعاذيرهم ، وتبكيت لهم على جهلهم وسوء أخلاقهم .أى : قل لهم
يا محمد - على سبيل التوبيخ والتجهيل - ألم تجدوا ما تستهزئون به فى مزاحكم
ولعبكم - كما تزعمون - سوى فرائض الله وأحكامه وآياته ورسوله الذى جاء
، لهدايتكم وإخراجكم من الظلمات إلى النور؟فالاستفهام للانكار والتوبيخ
. ودفع ما تذرعوا به من معاذيرهم واهية

لا تعتذروا قد كفرتم بعد ايمانكم ان نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بانهم
كانوا مجرمين

كما فسرها الوسيط قوله - سبحانه - : ( لاَ تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُمْ
بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ) تأكيد لإبطال ما أظهروه من معاذير .والاعتذار معناه
محاولة محو أثر الذنب ، مأخوذ من قولهم : اعتذرت المنازل إذا اندثرت وزالت
لأن المعتذر يحاول إزالة أثر ذنبه .والمعنى : قل يا محمد لهؤلاء ،
المنافقين المستهزئين بما يجب إجلاله واحترامه وتوقيره : قبل له على سبيل
التوبيخ والتجهيل أيضاً -لا تشتغلوا بتلك المعاذير الكاذبة فإنها غير
مقبولة ، لأنكم بهذا الاستهزاء بالله وآياته ورسوله ( قَدْ كَفَرْتُمْ
بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ) أى : قد ظهر كفركم وثبت ، بعد إظهاركم الإيمان على
سبيل المخادعة ، فإذا كنا قبل ذلك نعاملكم معاملة المسلمين بمقتضى نطقكم
بالشهادتين فنحن الآن نعاملكم معاملة الكافرين بسبب استهزائكم بالله وآياتة
ورسوله - صلى الله عليه وسلم - لأن الاستهزاء بالدين . كما يقول الإمام
الرازى . يعد من باب الكفر ، إذا أنه يدل على الاستخفاف ، والأساس الأول فى
الإيمان تعظيم الله - تعالى - بأقصى الإمكان ، والجمع بينهما محال
وقوله - تعالى - : ( إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ.
- طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ) بيان لمظهر من مظاهر عدله
سبحانه - ورحمته .أى : ( إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنْكُمْ ) - أيها
المنافقون - بسبب توبتهم وإقلاعهم عن النفاق ، ( نُعَذِّبْ طَآئِفَةً )
أخرى منكم بسبب إصرارهم على النفاق واستمرارهم فى طريق الفسوق والعصيان
هذا ، وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات روايات منها :ما جاء عن.
زيد بن أسلم : " أن رجلاً من المنافقين قال لعوف بن مالك فى غزوة تبوك : ما
!رأى قراءنا هؤلاء إلا أرغبنا بطوناً ، وأكذبنا ألسنة وأجبننا عند اللقاء
فقال له عوف : كذبت ، ولكنك منافق ، لأخبرن رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - فذهب عوف إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليخبره ، فوجد
القرآن قد سبقه .قال زيد : قال عبد الله بن عمر : فنظرت إليه - أى إلى

المنافق - متعلقاً بحقب ناقة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تنكبه الحجارة يقول : إنما كنا نخوض ونلعب ، فيقول له الرسول - صلى الله عليه وسلم - " أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون " " .وعن قتادة قال : " بينما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يسير فى غزوته إلى تبوك ، وبين يديه ناس من المنافقين فقالوا : يرجو هذا الرجل أن يفتح قصور الشام وحصونها!! هيهات هيهات .فأطلع الله نبيه - صلى الله عليه وسلم - فقال نبى الله - صلى الله عليه وسلم - " أحسبوا على الركب " فأتاهم فقال لهم . قلتم كذا ، قلتم كذا . فقالوا : " يا نبى الله إنما كنا نخوض ونلعب " فأنزل الله تبارك وتعالى فيهم ما تسمعون .وقال ابن اسحاق : " كان جماعة من المنافقين منهم وديعة بن ثابت " . ومنهم رجل من أشجع حليف لبنى سلمة يقال له " مخشى بن حمير يسيرون مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو منطلق إلى تبوك - فقال بعضهم - أتحسبون جلاد بنى الأصفر - أيى الروم - كقتال العرب بعضهم؟ والله لكأنا بكم غدا مقرنين فى الحبال ، إرجافا وترهيباً للمؤمنين .فقال مخشى بن حمير : والله لوددت أن أقاضى على أن يضرب كل منا مائة جلدة ، وأننا ننجو أن ينزل فينا قرآن لما قتلكم هذه .وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيما بلغنى - لعمار بن ياسر - أدرك القوم فإنهم قد احترقوا ، فسلهم عما قالوا ، فإن أنكروا فقل : بلى ، قلتم كذا وكذا . فانطلق إليهم عمار؛ فقال ذلك لهم فأتوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يعتذرون إليه .فقال وديعة بن ثابت ، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - واقف على راحلته - يا رسول الله ، إنما كنا نخوض ونلعب .فقال مخشى بن حمير : يا رسول الله - قعد بى اسمى واسم أبى ، فكان الذى عفى عنه فى هذه الاية مخشى بن حمير ، فتسمى عبد الرحمن وسأل الله أن يقتل شهيداً ، لا يعلم مكانه . فقتل يوم اليمامة ولم يوجد له أثر " .هذه بعض الآثار التى وردت فى سبب نزول هذه الآيات ، وهى توضح ما كان عليه المنافقون من كذب فى المقال ، وجبن عن مواجهة الحقائق .

المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يامرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون ايديهم نسوا الله فنسيهم ان المنافقين هم الفاسقون

كما فسرها الوسيط ثم مضت السورة الكريمة بعذ ذلك فى تقرير حقيقة المنافقين ) : - وفى بيان جانب من صفاتهم ، والمصير السئ الذى ينتظرهم فقال - تعالى ، المنافقون والمنافقات . . . عَذَابٌ مُّقِيمٌ ) .قال الإمام الرازى : اعلم أن هذا شرح لنوع آخر من أنواع فضائحهم وقبائحهم ، والمقصود بيان أن إناثهم كذكورهم فى تلك الأعمال المنكرة ، والأفعال الخبيثة فقال : ( المنافقون والمنافقات بَعْضُهُمْ مِّن بَعْضٍ ) أى : فى صفة النفاق ، وذلك كما يقول إنسان لآخر : أنت منى وأنا منك . أى : أمرنا واحد لا مباينة فيه ولا مخالفة وقوله : ( يَأْمُرُونَ بالمنكر وَيَنْهَوْنَ عَنِ المعروف ) تفصيل لجانب . من راذائلهم ، ومن مسالكهم الخبيثة .أى : يأمرون غيرهم بكل ما تستنكره الشرائع ، وتستقبحه العقول ، وينهونه عن كل أمر دعت إليه الأديان ، وأحبته القلوب السليمة .وقوله : ( وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ) كناية عن بخلهم وشحهم ، لأن الإنسان السخى يبسط يده بالعطاء ، بخلاف الممسك القتور فإنه يقبض يده عن ذلك .أى : أن من صفات هؤلاء المنافقين أنهم بخلاء أشحاء عن بذل المال فى وجوهه المشروعة .وقوله : ( نَسُواْ الله فَنَسِيَهُمْ ) كناية عن رسوخهم فى الكفر ، وانغماسهم فى كل ما يبعدهم عن الله - تعالى - .والمقصود بالنسيان هنا لازمه ، وهو الترك والإهمال؛ لأن حيقة النسيان ممحالة على الله - تعالى - ، كما أن النسيان الحقيقى لا يذم صاحبه عليه لعدم التكليف به .أى : تركوا طاعة الله وخشيته ومراقبته ، فتركهم - سبحانه - وحرمهم من هدايته ورحمته وفضله .وقوله : ( إِنَّ المنافقين هُمُ الفَاسِقُونَ ) تذييل قصد به المبالغة فى ذمهم .أى : إن المنافقون هم الكاملون فى الخروج عن طاعة الله ، وفى الانسلاخ عن فضائل الإيمان ، ومكارم الأخلاق .

وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَعَدَ الله الْمُنَافِقِينَ والمنافقات والكفار نَارَ جَهَنَّمَ . . . ) بيان لسوء مصيرهم ، بعد بيان جانب من صفاتهم الذميمة .أى : وعد الله - تعالى - المنافقين والمنافقات والكفار المجاهرية بكفرهم ( نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ) خلوداً أبدياً .وقوله : ( هِيَ حَسْبُهُمْ ) أى : إن تلك العقوبة الشديدة كافية لإهانتهم وإذلالهم بسبب فوسقهم عن أمر ربهم .وقوله : ( وَلَعَنَهُمُ الله أى : طردهم وأبعدهم من رحمته ولطفه .وقوله : ( وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ( أى : ولهم عذاب دائم لا ينقطع؛ فهم فى الدنيا يعشون فى عذاب القلب والحذر ( من أن يطلع المسلمون على نفاقهم ، وفى الآخرة يذوقون العذاب الذى هو أشد وأبقى ، بسبب إصرارهم على الكفر والفسوق والعصيان .وبذلك نرى الآيتين الكريمتين قد بينتا جانباً من قبائح المنافقين ، ومن سوء مصيرهم فى عاجلتهم

. وآجلتهم

كالذين من قبلكم كانوا اشد منكم قوة واكثر اموالا واولادا فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذي خاضوا اولئك حبطت اعمالهم في الدنيا والاخرة واولئك هم الخاسرون

كما فسرها الوسيط ثم ساقت السورة الكريمة - لهؤلاء المنافقين - نماذج لمن حبطت أعمالهم بسبب غرورهم ، وضربت لهم الأمثال بمن هلك من الطغاة السابقين . . . بسبب تكذيبهم لأنبيائهم ، فقال - تعالى - : ( كالذين مِن قَبْلِكُمْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ) .قوله - تعالى - ( كالذين من قَبْلِكُمْ . كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً . . . ) جاء على أسلوب الالفتات من الغيبة إلى الخطاب لزجر المنافقين ، وتحريك نفوسهم إلا الاعتبار والاتعاظ والكاف فى قوله : ( كالذين ) للتشبيه ، وهى فى محل رفع خبر لمبتدأ محذوف. والتقدير : أنتم - أيها المنافقون - حالكم كحال الذين خلوا من قبلكم من. الطغاة فى الانحراف عن الحق ، والاغترار بشهوات الدنيا وزينتها ، ولكن هؤلاء الطغاة المهلكين ، يمتازون عنكم بأنهم ( كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً ) فى أبدانهم ، وكانوا " أكثر " منكم ( أَمْوَالاً وَأَوْلاَداً ) وقوله : ( فاستمتعوا بِخَلاَقِهِمْ ) بيان لموقف هؤلاء المهلكين من نعم. الله - تعالى - والخلاق : مشق من الخلق بمعنى التقدير . وأطلق على الحظ والنصيب لأنه مقدر لصاحبه .أى : كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً ، ولكنهم لم يشكروا الله على إحسانه ، بل فتنوا بما بين أيديهم من نعم ، واستمتعوا بنصيبهم المقدر لهم فى هذه الحياة الدنيا ، استمتاع الجاحدين الفاسقين .والتعبير بالفاء المفيدة للتعقيب فى قوله : ( فاستمتعوا ) ؛ للإشعار بأن هؤلاء المهلكين بمجرد أن امتلأت أيديهم بالنعم ، قد استعملوها فى غير ما خلقت له ، وسخروها لإرضاء شهواتهم الخسيسة ، وملذاتهم الدنيئة وقوله : ( فاستمتعوا بِخَلاَقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاَقِكُمْ كَمَا. اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بِخَلاَقِهِمْ ) ذم للمخاطبين وللذين - سبقوهم؛ لانتهاجهم جميعاً طريق الشر والبطر .أى : فأنتم - أيها المنافقون قد استمعتم بنصيبكم المقدر لكم من ملاذ الدنيا ، وشهواتها الباطلة ، كما استمتع الذين من قبلكم بنصيبكم فى ذلك .وقوله : ( وَخُضْتُمْ كالذي خاضوا ) معطوف على ما قبله .أى : وخضتم - أيها المنافقون - فى حمأة الباطل وفى طريق الغرور والهوى ، كالخوض الذى خاضه السابقون من الأمم المهلكة .قال الآلوسى قوله : " وخضتم " أى : دخلتم فى الباطل ( كالذي خاضوا ) .أى : كالذين فحذفت نونه تخفيفاً ، كما فى قول الشاعر :إن الذى حانت بفلج دماؤهم ... هم القو كل القوم يا أم خالدويجوز أن يكون " الذى " صفة لمفرد اللفظ ، مجموع المعنى كالفوج والفريق ، فلوحظ فى الصفة اللفظ . وفى الضمير المعنى ، و هو صفة ، لمصدر محذوف ، أى : كالخوض الذى خاضوه ، ورجح بعدم التكلف فيه .وقال صاحب : الكشاف : فإن قلت : أى فائدة فى قوله : ( فاستمتعوا بِخَلاَقِهِمْ ) وقوله مغن عنه كما ( كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بِخَلاَقِهِمْ ) : أغنى قوله : ( كالذي خاضوا ) عن أن يقال : وخاضوا فخضتم كالذى خاضوا؟قلت ، فائدته أن يذم الأولين بالاستمتاع بما أوتوا من حظوظ الدنيا ورضاهم بها ، والتهائم بشهواتهم الفانية عن النظر فى العاقبة ، وطلب الفلاح فى الآخرة وأن يخسس أمر الاستمتاع ، ويهجن أمر الرضا به ، ثم يشبه بعد ذلك حال : المخاطبين بحالهم ، كما تريد أن تنبيه بعض الظلمة على سماجة فعله فنقول أنت مثل فرعون : كان يقتل بغير جرم ، ويعذب ويعسف وأنت تفعل مثل ما فعله وأما ( وَخُضْتُمْ كالذي خاضوا ) فمعطوف على ما قبله مستند إليه ، مستغن. باسناده إليه عن تلك التقدمة .وقوله : ( أولئك حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدنيا والآخرة وَأَوْلَئِكَ هُمُ الخاسرون ) بيان لسوء مصيرهم فى الدارين واسما الإشارة يودان على المتصفين بتلك الصفات القحبية من السابقين. ، واللاحقين .أى : أولئك المستمتعون بنصيبهم المقدر لهم فى الشهوات الخسيسة والخائضون فى الشرور والآثام " حبطت أعمالهم " أى : فسدت وبطلت أعمالهم التى كانوا يرجون منفعتها ( فِي الدنيا والآخرة ) لأن هذه الأعمال لم يكن ، معها إيمان أو إخلاص ، وإنما كان معها الرياء والنفاق ، والفسوق والعصيان والله - تعالى -لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم .وقوله أى : الكاملون فى الخسران ، الجامعون لكل ( وَأَوْلَئِكَ هُمُ الخاسرون ) : ما من شأنه أن يؤدى إلى البوار والهلاك .

الم ياتهم نبا الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم ابراهيم واصحاب مدين والمؤتفكات اتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون

كما فسرها الوسيط ثم ساق لهم - سبحانه - من أخبار السابقين ما فيه الكفاية للعظة والاعتبار لو كانوا يعقلون ، فقال - تعالى - : ( أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الذين مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ) .والاستفهام

للتقرير والتحذير . والمراد بنبأ الذين من قبلهم : أخبارهم التى تتنول
أقوالهم وأعمالهم ، كما تتناول ما حل لهم من عقوبات ، بسبب تكذيبهم
لأنبيائهم .والمعنى : ألم يصل إلى أسماع هؤلاء المنافقين ، خبر أولئك
" المهلكين من الأقوام السابقين بسبب عصيانهم لرسلهم ، ومن هؤلاء الأقوام
قوم نوح " الذين أغرقوا بالطوفان ، وقوم " عاد " الذين أهلكوا بريح صرصر
" ، عاتية ، وقوم " ثمود " الذين أخذتم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين
وقوم إبراهيم " الذين سلب الله نعمه عنهم ، وأذل غررو زعيمهم الذى حاج
" إبراهيم فى ربه ، و " أصحاب مدين " وهم قوم شعيب الذين أخذتهم الصحية ، و
. المؤتفكات " وهم أصحاب قرى قوم لوط ، التى جعل الله عاليها سافلها
والائتفاك : معناه الانقلاب بجعل أعلى الشئ أسفله . يقال أفكه يأفكه إذا.
قلبه رأساً على عقب .وذكر - سبحانه - هنا هذه الطوائف الست ، لأن آثارهم
باقية ، ومواطنهم هى الشام والعراق واليمن ، وهى مواطن قريبة من أرض العرب
فكانوا يمرون عليها فى أسفارهم ، كما كانوا يعرفون الكثير من أخبارهم ،
قال - تعالى - : ( وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ.
وبالليل أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ) وقوله : ( أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ ) كلام
، مستأنف لبيان أنبائهم وأخبارهم .أى : أن هؤلاء الأقوام المهلكين السابقين
قد أتتهم رسلهم بالحجج الواضحات الدالة على وحدانية الله ولعى وجوب إخلاص
العباة له . .والفاء فى قوله : ( فَمَا كَانَ الله لِيَظْلِمَهُمْ ) للعطف
على كلام مقدر يدل عليه المقام .أى : أتتهم رسلهم بالبينات ، فكذبوا هؤلاء
- الرسل ، فعاقبهم الله - تعالى - على هذا التكذيب . وما كان من سنته
سبحانه - ليظلمهم ، لأنه لا يظلم الناس شيئاً ( ولكن كانوا أَنْفُسَهُمْ
يَظْلِمُونَ ) بسبب كفرهم وجحودهم ، واستحبابهم العمى على الهدى ، وإيثارهم
الغى على الرشد .هذا ، ومن هاتين الآيتين الكريمتين نرى بوضوح ، أن الغرور
بالقوة ، والافتتان بالأموال والأولاد ، والانغماس فى الشهوات والملذات
. الخسيسة . والخوض فى طريق الباطل ، وعدم الاعتبار بما حل بالطغاة والعصاة
كل ذلك يؤدى إلى الخسران فى الدنيا والآخرة ، وإلى التعرض لسخط الله.
وعقابه .كما نرى منها أن من نسة الله فى خله ، أنه - سبحانه -لا يعاقب إلا
بذنب ، ولا يأخذ العصاة والطغاة أخذ عزيز مقتدر ، إلا بعد استمرارهم فى
طريق الغواية ، وإعراضهم عن نصح الناصحين ، وإرشاد المرشدين . وصدق الله إذ
يقول : ( إِنَّ الله لاَ يَظلِمُ الناس شَيْئاً ولكن الناس أَنفُسَهُمْ
يَظْلِمُونَ ) وبعد أن تحدثت السورة الكريمة عن أحوال المنافقين ، وصفاتهم
وسوء عاقبتهم . . أتبعت ذلك بالحديث عن المؤمنين الصادقين ، وعما أعده ،
. . . الله لهم من نعيم مقيم ، فقال - سبحانه - : ( والمؤمنون والمؤمنات
. ( هُوَ الفوز العظيم

والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض يامرون بالمعروف وينهون عن المنكر
ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله اولئك سيرحمهم الله ان
الله عزيز حكيم

كما فسرها الوسيط قال الإمام ابن كثير : لما ذكر - سبحانه - صفات
المنافقين الذميمة ، عطف بذكر صفات المؤمنين المحمودة فقال : ( والمؤمنون
والمؤمنات بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ) .أى : يتناصرون ويتعاضدون كما
جاء فى الحديث الصحيح : " المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا " وفى
الصحيح - أيضا - : " مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد
- إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر " .وقال - سبحانه
) هنا ( بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ) بينما قال فى المنافقين
بَعْضُهُمْ مِّن بَعْضٍ ) للإشعار بأن المؤمنين فى تناصرهم وتعاضدهم
وتراحمهم مدفعون بدافع العقيدة الدينية التى ألفت بين قلوبهم ، وجعلتهم
أشبه ما يكون بالجسد الواحد ، أما المنافقون فى توجد بيهم هذه الروابط
السامية ، وإنما الذى يوجد بينهم هو التقليد واتباع الهوى ، والسير رواء
العصبية الممقوتة ، فهم لا ولاية بينهم ، وإنما الذى بينهم هو التقليد
) وكراهية ما أنزل الله على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .وقوله
يَأْمُرُونَ بالمعروف وَيَنْهَوْنَ عَنِ المنكر . . . ) بيان للآثار التى
تترتب على تلك الولاية الخاصة ، وتفصيل للصفات الحسنة التى تحلى بها
المؤمنون والمؤمنات .أى : أن من صفات هؤلاء المؤمنين والمؤمنات الذين
جمعتهم العقيدة الدينية على التناصر والتراحم . . من صفاتهم ( يَأْمُرُونَ
، بالمعروف وَيَنْهَوْنَ عَنِ المنكر ) أى يأمرون بكل خير دعا إليه الشرع
وينهون عن كل شر تأباه تعاليم الإسلام الحنيف .وقوله : ( وَيُقِيمُونَ
الصلاة ) أى : يؤدونها فى أوقاتها بإخلاص وخشوع . .وقوله : ( وَيُؤْتُونَ
) : الزكاة ) أى : يعطونها لمستحقيها بدون منّ أو أذى . .وقوله
وَيُطِيعُونَ الله وَرَسُولَهُ ) أى : فى سائر الأحوال بدون ملل أو انقطاع
أو تكاسل . .وقوله : ( أولئك سَيَرْحَمُهُمُ الله إِنَّ الله عَزِيزٌ
حَكِيمٌ ) بيان للجزاء الطيب الذى ادخره الله - تعالى - لهم .أى : أولئك
- المؤمنون والمؤمنات المتصفون بتلك الصفات السامية ، سيرحمهم الله - تعالى

برحمته الوساعة ، إنه - سبحانه - " عزيز "لا يعجزه شئ " حكيم " فى كل أفعاله وتصرفاته .قال صاحب الكشاف : والسين هنا مفيد لوجود الرحمة ، فهى تؤكد الوعد ، كما تؤكد الوعيد كما فى قولك : سأنتقم منك يوما ، تعنى أنك لا تفوتنى وإن تباطأ ذلك ، ونحوه : ( إِنَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرحمن وُدّاً )

وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله اكبر ذلك هو الفوز العظيم

كما فسرها الوسيط ثم فصل - سبحانه - مظاهر رحمته للمؤمنين والمؤمنات أصحاب تلك الصفات السابقة فقال : ( وَعَدَ الله المؤمنين والمؤمنات جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ) .أى : ( وَعَدَ الله ) بفضله وكرمه المؤمنين والمؤمنات جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ) أى : من تحت بساتينها وأشجارها وقصورها ( خَالِدِينَ فِيهَا ) فى تلك الجنات خلودا أبديا .ووعدهم كذلك " مساكن طيبة " أى : منازل حسنة ، تنشرح لها الصدور وتستطيبها النفوس .وقوله : ( فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ) أى فى جنات ثابتة مستقرة .يقال : فلان عدن بمكان كذا ، إذا استقر به وثبت فيه ، ومنه سمى المعدن معدنا لاستقراره فى باطن الأرض .وقيل : إن كلمة " عدن " علم على " مكان مخصوص فى الجنة ، أى فى جنات المكان المسمى بهذا الاسلام وهو " عدن ثم بشرهم - سبحانه - بما هو أعظم من كل ذلك فقال : ( وَرِضْوَانٌ مِّنَ الله أَكْبَرُ ) .أى أن المؤمنين والمؤمنات ليس لهم هذه الجنات والمساكن الطيبة فحسب وإنما لهم ما هو أكبر من ذلك وأعظم وهو رضا الله - تعالى - عنهم ، وتجليه عليهم ، وتشرفهم بمشاهدة ذاته الكريمة ، وشعورهم بأنهم محل رعاية الله وكرمه .والتنكير فى قوله : ( وَرِضْوَانٌ ) للتعظيم والتهويل ، وللإشارة إلى أن الشئ اليسير من هذا الراض الإلهى على العبد ، أكبر من الجنات ومن المساكن الطيبة ، ومن كل حطام الدنيا .روى الشيخان عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : " إن الله - عز وجل - يقول لأهله الجنة : يا أهل الجنة ، فيقولون : لبيك ربنا وسعديك والخير فى يديك . فيقول : هل رضيتم؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يار رب ، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك؟ فيقو : ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون : يا ربنا " وأى شئ أفضل من ذلك؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدا وروى البزار فى مسنده عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا دخل أهل الجنة الجنة ، قال الله - تعالى - هل تشتهون شيئا فأزيدكم؟قالوا : يا ربنا وما خير مما أعطيتنا؟ قال : رضوانى أكبر " وقوله : ( ) أى : ذلك الذى وعد الله به المؤمنين والمؤمنات فى جنات ومساكن طيبة ، ومن رضا من الله عنهم ، هو الفوز العظيم الذى لا يقاربه فوز ، ولا يدانيه نعمي ، ولا ياسمى شرفه شرف . .وبهذا نرى أن هاتين الآيتين الكريمتين ، قد شبرتا المؤمنين والمؤمنات بأعظم البشارات ، ووصفتهم بأشرف الصفات وقابلت بين جزائهم وبين جزاء الكفار والمنافقين ، بما يحمل العاقل على أن يسلك طريق المؤمنين ، وعلى أن ينهج نهجهم ، ويتحلى بأوصافهم . . . وبذلك يفوز بنعيم الله ورضاه كما فازوا ، ويسعد كما سعدوا ، وينجو من العذاب الذى ، توعد الله به المنافقين والكافرين : بسبب اصرارهم على الكفر والنفاق . وإيثارهم الغىّ على الرشد

يا ايها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم وماواهم جهنم وبئس المصير

- كما فسرها الوسيط ثم أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم بمجاهدة الكفار والمنافقين بكل وسيلة ، لأنهم جميعا لا يريدون الانتهاء عن المكر السئ بالدعوة الإسلامية فقال - تعالى - : ( ياأيها النبي . . . ) قوله - سبحانه - ( جَاهِدِ ) من المجاهد ، بمعنى بذلك الجهد فى دفع ما لا( يرضى ، سواء أكان ذلك بالقتال أم بغيره .وقوله : ( واغلظ عَلَيْهِمْ ) من الغلظة التى هى نقيض الرقة والرأفة . يقال أغلظ فلان فى الأمر إذا اشتد فيه ولم يترفق .ونحن عندما نقرأ السيرة النبوية . نجد أنه - صلى الله عليه وسلم - بعد هجرته إلى المدينة ، ظل فترة طويلة يلاين المنافقين ، ويغض الطرف عن رذائلهم ، ويصفح عن مسيئهم . . إلا أن هذه المعاملة الحسنة لهم زادتهم رجسا إلى رجسهم . . لذا جاءت هذه السورة - وهى من أواخر ما نزل من القرآن لتقول للنبى - صلى الله عليه وسلم - لقد آن الأوان لإحلال الشدة والحزم ، محل اللين والرفق ، فإن للشدة مواضعها وللين مواضعه . .والمعنى : عليك - أيها النبى الكريم - أن تجاهد الكفار بالسيف إذا كان لا يصحلهم سواه وأن تجاهد المنافقين - الين يظهرون الإسلام ويخفون الكفر - بما تراه ، مناسبا لردهم وزجرهم وإرهابهم ، سواء أكان ذلك باليد أم باللسان أم بغيرهما حتى تأمن شرهم .قال الإمام ابن كثير ، أمر الله رسوله - صلى الله عليه وسلم - بجهاد الكفار والمنافقين ، كما أمره أن يخفض جناحه لمن اتبعه من

المؤمنين . . - وقد تقدم عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب أنه قال : بعث
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بأربعة أسياف . سيف للمشركين ( فَإِذَا
انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ . . . ) وسيف
للكفار أهل الكتاب ( قَاتِلُواْ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالله وَلاَ باليوم
الآخر وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ الله وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ
دِينَ الحق مِنَ الذين أُوتُواْ الكتاب . . ) وسيف للمنافقين ( جَاهِدِ
الكفار والمنافقين ) وسيف للبغاة ( فَقَاتِلُواْ التي تَبْغِي حتى تفيآء
، إلى أَمْرِ الله ) وهذا يقتضى أنهم يجاهدون بالسيوف إذا أظهروا النفاق
وهو اختيار ابن جرير .وقال ابن مسعود فى قوله : ( جَاهِدِ الكفار
والمنافقين ) قال بيده ، فإن لم يستطع فليشكر فى وجهه - أى فليلق المنافق
- بوجه عابس لا طلاقة فيه ولا انبساط .وقال ابن عباس : أمره الله - تعالى
بجهاد المنافقين باللسان وأذهب الرفق عنهم .وقد يقال أنه لا منافاة بين هذه
الأقوال ، لأنه تارة يؤاخذهم بهذا ، وتارة بهذا على حسب الأحوال . .والضمير
المجرور فى قوله : ( واغلظ عَلَيْهِمْ ) يعود على الفريقين : الكفار
، والمنافقين أى : جاهدهم بكل ما تستطيع مجاهدتهم به ، مما يقتضيه الحال
واشدد عليهم فى هذه المجاهدة بحيث لا تدع مجالا معهم للترفق واللين ، فإنهم
ليسوا أهلا لذلك ، بعد أن عمواوصموا عن النصحية ، وبعد أن لجوا فى طغيانهم
وقوله : ( وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المصير ) تذييل قصد به بيان.
: سوء مصيرهم فى الآخرة بعد بيان ما يجب على المؤمنين نحوهم فى الدنيا .أى
عليك - أيها النبى - أن تجاهدهم وأن تغلظ عليهم فى الدنيا ، أما فى الآخرة
فإن جهنم هى دارهم وقرارهم .والمخصوص بالذم محذوف والتقدير : وبئس المصير
مصيرهم ، فانه لا مصير أسوأ من الخلود فى جهنم .ومن هذه الآية الكريمة نرى
أن على المؤمنين - فى كل زمان ومكان - أن يجاهدوا أعداءهم من الكفار
والمنافقين باللاسح الذى يرونه كفيلا بأن يجعل كلمة الله هى العليا وكلمة
الذين كفروا السفلى .

يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد اسلامهم وهموا بما
لم ينالوا وما نقموا الا ان اغناهم الله ورسوله من فضله فان يتوبوا يك خيرا
لهم وان يتولوا يعذبهم الله عذابا اليما في الدنيا والاخرة وما لهم في
الارض من ولي ولا نصير

، كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما كان عليه المنافقون من كذب وفجور
ومن خيانة وغدر ، وفتح أمامهم باب التوبة ، وأنذرهم بالعذاب الأليم إذا ما
. . استمروا فى نفاقهم فقال - سبحانه - : ( يَحْلِفُونَ بالله مَا قَالُواْ
ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها : ما رواه ابن جرير. ( .
عن هشام بن عروة عن أبيه قال : " نزلت هذه الآية : ( يَحْلِفُونَ بالله مَا
قَالُواْ ) . الآية فى الجلاس بن سويد بن الصامت . أقبل هو ابن امرأته مصعب
من قباء . فال الجلاس : إن كان ما يقول محمد حقا لنحن أشر من حمرنا هذه
التى نحن عليها!!فقال مصعب : أما والله يا عدو الله لأخبرن رسول الله - صلى
- الله عليه وسلم - بما قلت : قال مصعب : فأتيت النبى - صلى الله عليه وسلم
وخشيت أن ينزل فى القرآن أو تصيبنى قارعة . . فقلت يا رسول الله : أقبلت
أنا والجلاس من قباء . فقال كذا وكذا ، ولولا مخافة أن أخلط بخطيئة أو
- تصيبنى قارعة ما أخبرتك .قال مصعب : فدعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم
الجلاس فقال له : أقلت الذى قال مصعب؟ فحلف الجلاس بأنه ما قال ذلك . فأنزل
الله الآية " .وأخرج ابن اسحاق وابن أبى حاتم عن كعب بن مالك قال : لما نزل
القرآن وفيه ذكر المنافقين قال الجلاس بن سويد : والله لئن كان هذا الرجل
صادقا لنحن شر من الحمير . فسمعه عمير بن عسد فقال : والله لا جلاس إنك
لأحب الناس إلى . وأحسنهم عندى أثرا . ولقد قلت مقالة لئن ذكرتها لتفضحنك
ولئن سكت عنها هلكت ، ولإحداهما أشد عن الأخرى .فمشى عمير إلى رسول ،
، الله - صلى الله عليه وسلم - صلى الله عليه وسلم - الجلاس عما قاله عمير
فحلف بالله ما قال ذلك ، وزعم أن عميرا كذب عليه فنزلت هذه الآية .وقال
الإمام أحمد : " حدثنا يزيد أخبرنا الوليد بن عبد الله بن جميع عن أبى
الطفيل . قال : لما أقبل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من غزوة تبوك
- أمر مناديه فنادى إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أخذ طريق العقبة
وهو مكان مرتفع ضيق - فلا يأخذها أحد .قال : فبينما رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - يقود ركابه حذيفة ويسوقه عمار ، إذا أقيل رهط ملثمون على
، - الرواحل ، فغشوا عماراً وهو يسوق برسول الله - صلى الله عليه وسلم
- فأقبل عمار يضرب وجوه الرواحل . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم
لحذيفة : " قد ، قد " . أى حسبك حسبك . حتى هبط رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - ورجع عمار .فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يا عمار " هل
عرفت القوم "؟ فقال : لقد عرفت عام الرواحل والقوم متلثمون . قال :" هل
تدرى ما أرادوا "؟ قال : الله ورسوله اعلم . قال :" أرادوا أن ينفورا برسول
الله - صلى الله عليه وسلم - راحلته فيطرحوه " " .هذه بعض الروايات التى
. وردت فى سبب نزول هذه الآية وهى تكشف عن كذب المنافقين وغدرهم .وقوله

سبحانه : ( يَحْلِفُونَ بالله مَا قَالُواْ . . . ) استئناف مسوق لبيان
جانب مما صدر عنهم من جرائم تستدعى جهادهم والإغلاظ عليهم .أى : يحلف
هؤلاء المنافقون بالله كذاب وزورا أنهم ما قالوا هذا القول القبيح الذى
بلغك عنهم يا محمد .والحق أنهم قد قالوا " كلمة الكفر " وهى تشمل كل ما
" : نطقوا به من اقوال يقصدون بها إيذاءه - صلى الله عليه وسلم - ، كقولهم
هو أذن " وقولهم . " لئن كان ما جاء به حقا فنحن أشر من حمرنا . . "وغير
ذلك من الكلمات القبيحة التى نطقوا بها .وأنهم قد ( وَكَفَرُواْ بَعْدَ
) إِسْلاَمِهِمْ ) أى : أظهروا الكفر بعد إظهاره الإسلام .وأنهم قد
- وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ ) أى : حاولوا إلحاق الأذى رسول الله
صلى الله عليه وسلم - ولكنهم لم يستطيعوا ذلك ، لأن الله - تعالى - عصمة من
شرورهم .وقوله : ( وَمَا نقموا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ الله وَرَسُولُهُ
مِن فَضْلِهِ ) توبيخ لهم على جحودهم وكنودهم ومقابتلهم الحسنة بالسيئة
، ومعنى : نقموا : كرهوا وعابوا وأنكروا ، يقال نقم منه الشئ إذا أنكره.
وكرهه وعابه ، وكذا إذا عاقبه عليه .أى : وما أنكر هؤلاء المنافقون من أمر
الإسلام شيئا ، إلا أنهم بسببه أغناهم الله ورسوله من فضله بالغنائم
وغيرها من وجوه الخيرات التى كانوا لا يجدونها قبل حللو الرسول - صلى الله
عليه وسلم - وأصحابه بنيهم .وهذه الجملة الكريمة جاءت على الأسلوب الذى
- يسميه علماء البلاغة : تأكيد المدح بما يشه الذم .قال الجمل : كأنه قال
سبحانه - ليس له - صلى الله عليه وسلم - صفة تكره وتعاب ، سوى أنه ترتب على
قدومه إليهم وهجرته عندهم ، إغناء الله إياهم بعد شدة الحاجة ، وهذه ليست
صفة ذم - بل هى صفة مدح - فحينذ ليس له صفة تذم أصلا .وشبيه بهذا الاسلوب
قول الشاعر يمدح قوما بالشجاعة والإقداموولا عيب فيم غير أن سيوفهم ... بهن
فلول من قراع الكتاتبثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بترغيبهم وترهيبهم
فقال : ( فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْراً لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْاْ
: يُعَذِّبْهُمُ الله عَذَاباً أَلِيماً فِي الدنيا والآخرة . . . ) .أى
فإن يتب هؤلاء المنافقون عن نفاقهم وشقاقهم وقبائح أقوالهم وأفعالهم ، يكن
: المتاب خيرا لهم فى دنياهم وآخرتهم . " وإن يتلوا "ويعرضوا علن الحق
ويتسمروا فى ضلالهم ( يُعَذِّبْهُمُ الله عَذَاباً أَلِيماً فِي الدنيا
والآخرة ) .أما عذاب الدنيا فمن مظاهره : حذرهم وخوفهم من أن يطلع المؤمنين
على أسرارهم وجبنهم عن مجابهة الحقائق ، وشعورهم بالضعف أمام قوة المسلمين
وإحساسهم بالعزلة والمقاطعة من جانب المؤمنين ومعاقبة الرسول - صلى الله ،
عليه وسلم - إياهم بالعقوبة المناسبة لجرمهم ..وأما عذاب الآخرة ، فهو أشد
وأبقى ، بسبب إصرارهم على النفاق ، وإعراضهم عن دعوة الحق .وقوله : ( وَمَا
لَهُمْ فِي الأرض مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ) تذييل قصد به تيئيسهم من كل
معين أو ناصر .أى : أن هؤلاء المنافقين ليس لهم أحد فى الأرض يدفع عنهم
عذاب الله ، أو يحميهم من عقابه ، لأن عقابه الله لن يدفعه دافع إلا هو
. فعليهم أن يثوبوا إلى رشدهم ، وأن يتوبوا إلى ربهم قبل أن يحل بهم عذابه

ومنهم من عاهد الله لئن اتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك نماذج أخرى من جحودهم ، ونقضهم
لعهودهم ، وبخلهم بما آتاهم الله من فضله فقال - سبحانه - : ( وَمِنْهُمْ
: مَّنْ عَاهَدَ . . . عَلاَّمُ الغيوب ) .قال الإمام ابن كثير ما ملخصه
وقد ذكر كثر من المفسرين منهم ابن عباس والحسن البصرى ، أن سبب نزول هذه
- الآيات أن ثعلبة ابن حاطب الانصارى قال لرسول الله - صلى الله عليه وسلم
يا رسول الله ، ادع الله أن يرزقنى مالا . فقال له الرسول - صلى الله عليه
وسلم - : " ويحك يا ثعلبة ، قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه . ثم قال
له مرة أخرى : " أما ترضى أن تكون مثل نبى الله؟ فو الذى نفسى بيده لو شئت
أن تصير الجبال معى ذهبا وفضة لصارت " .فقال ثعلبة ، والذى بعثك بالحق لئن
دعوت الله فرزقنى مالا لأعطين كل ذى حق حقه .فقال رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - " اللهم ارزق ثعلبة مالا " .فاتخذ ثعلبة غنما فمنت ، ثم ضاقت
عليه المدينة فتنحى عنها ونزل واديا من أوديتها حتى جعل يصلى الظهر والعصر
فى جماعة ويترك ما سواهما . ثم نمت وكثرت فتنحى حتى ترك الصلوات إلا الجمة
ثم ترك الجمعة . .وأنزل الله - تعالى - ( خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ،
صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ) فبعث الرسول - صلى الله
عليه وسلم - رجلين على الصدقة من المسلمين . . وقال لهما : " مرا على ثعلبة
وعلى فلان . رجل من بنى سليم . فخذا صدقاتهما " .فخرجا حتى أيتا ثعلبة
فسألاه الصدقة ، وأقراه كتاب رسول الله . فقال : ما هذه إلا جزية ، ما هذه
إلا أخت الجزية ، ما أدرى ما هذا؟ انطلقا حتى تفرغا ثم عوندا إلى . فانطلقا
وسمع بهما السملى " فنظر إلى خيار أسنان إبله فعزلها للصدقة . ثم استقبلهم
. بها . فلما رأوها قالوا له : ما يجب عليك هذا ، وما نريد أن نأخذ منك
فقال : بل خذوها فإن نفسى بذلك طيبة ، فأخذاها منه ومرا على ثعلبة فقال
لهما : أرونى كتابكما فقرأه فقال : ما هذه إلا جزية . . . انطلقا حتى أرى
: رأيى .. فانطلقا حتى أتيا النبى - صلى الله عليه وسلم - ، فلما رآهما قال

يا ويح ثعلبة " قبل أن يكلمهما ، ودعا للسملى بالبركة . فأخبراه بالذى " صنعه ثعلبة معهما . .فأنزل الله تعالى : ( وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ الله لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصالحين الآيات .فسمع رجل من أقارب ثعلبة هذه الآيات فذهب إليه وأخبره بما أنزل . ( فيه من قرآن .فخرج ثعلبة حتى أتى النبى - صلى الله عليه وسلم - وسأله أن يقبل منه صدقته فقال له : إن الله منعنى أن أقبل منك صدقتك . .ثم لم يقبلها ، منه بعد ذلك أبو بكر أو عمر أو عثمان ، وهلك ثعلبة فى خلافة عثمان .هذا وقد ضعف بعض العلماء هذا الحديث ، لأسباب تتعلق بسنده ، وبصاحب القصة وهو ثعلبة بن حاطب .والذى نراه أن هذه الآيات الكريمة تحكى صورة حقيقية وواقعية لبعض المنافقين المعاصرين للعهد النبوى . والذين عاهدوا الله فنقضوا عهودهم معه ، وقابلوا ما أعطاهم من نعم بالبخل والجحود . .وتلك الصورة قد تكون لثعلبة بن حاطب وقد تكون لغيره ، لأن المهم هو حصولها فعلا من بعض المنافقين .وهذه الآيات - أيضا - تنطبق فى كل زمان ومكان على من يقابل نعم الله بالكفران ، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .وإلى هذا المعنى أشار صاحب المنار بقوله : هذا بيان لحال طائفة من أولئك المنافقين الذين أغناهم الله ورسوله من فضله بعد الفقر والإملاق ، ويوجد مثلهم فى كل زمان وهم الذين يلجأون إلى الله - تعالى - فى وقت العسرة والفقر ، أو الشدة ، والضر ، فيدعونه ويعاهدونه على الشكر له ، والطاعة لشرعه ، إذا هو كشف ضرهم ، وأغنى فقرهم . فإذا استجاب لهم نكسوا على رءوسهم ، ونكصحوا على أعقابهم ، وكفروا النعمة ، وبطروا الحق ، وهضموا حقوق الخلق وهذا مثل من شر أمثالهم ومعنى الآيات الكريمة : ومن المنافقين قوم " عاهدوا الله " وأكدوا عهودهم. بالايمان المغلظة فقالوا : " لئن آتانا " الله - تعالى - من فضله مالا " وفيرا لنصدقن منه على المحتاجين ، ولنعطين كل ذى حق حقه ولنكونن من عباد الصالحين " الذين يؤدون واجبهم نحو الله والناس ، والذين يصلحون فى الأرض ، ولا يفسدون .قال الجمل وقوله : ( مَّنْ عَاهَدَ الله ) فيه معنى القسم وقوله : ( لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ ) تفسير لقوله : عاهد الله . واللام موطئة لقسم مقدر . وقد اجتمع هنا قسم وشرط ، فالمذكور وهو قوله : " لنصدقن . . " جواب القسم ، وجواب الشرط محذوف . . . ولالام فى قوله " لنصدقن . . " واقعة فى جواب القسم .

فلما اتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون

كما فسرها الوسيط وقوله : ( فَلَمَّآ آتَاهُمْ مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ ) . . بيان لموقفهم الجحودى من عطاء الله وكرمه .أى : فلما أعطى " الله - تعالى - من فضله هؤلاء المنافقين ما منوه من مال وفير " بخلوا به أى : بخلوا بهذا المال ، فلم ينفقوا منه شيئا فى وجوهه المشروعة ، ولم يعترفوا فيه بحققو الله أو حقوق الناس ، ولم يكتفوا بذلك بل ( وَتَوَلَّواْ وَّهُمْ مُّعْرِضُونَ ) .أى : أدبروا عن طاعة الله وعن فعل الخير ، وهم قوم دأبهم التولى عن سماع الحق ، وشأنهم الانقياد للهوى والشيطان .

فاعقبهم نفاقا في قلوبهم الى يوم يلقونه بما اخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون

كما فسرها الوسيط وقوله : ( فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إلى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ) تصوير للآثار الذميمة التى ترتبت على بخلهم وإعراضهم عن الحق والخير .أى : فجعل الله - تعالى - عاقبة فعلهم نفاقا وسوء اعتقاد فى قلوبهم إلى يوم يلقونه للحساب ، فيجازيهم بما يستحقون على بخلهم وإعراضهم عن الحق .فالضمير المستتر فى " أعقب " لله - تعالى - وكذا الضمير المنصوف فى قوله : " يلقونه " .ويصح أن يكون الضمير فى " أعقب " يعود على البخل والتولى والإعراض ، فيكون المعنى : فأعقبهم وأورثهم ذلك البخل والإعراض عن الحق والخير ، نفاقاً راسخا فى قلوبهم ، وممتدا فى نفوسهم إلى اليوم الذى يلقون فيه ربهم ، فيعاقبهم عقابا أليما على سوء أعمالهم .والباء فى قوله : ( بِمَآ أَخْلَفُواْ الله مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ) للسببية .أى : أن النفاق قد باض وفرخ فى قلوبهم إلى يوم يلقون الله - تعالى - ، بسبب إخلافهم لوعودهم مع خالقهم ، وبسبب استمرارهم على الكذب ، ومداومتهم عليه .

الم يعلموا ان الله يعلم سرهم ونجواهم وان الله علام الغيوب

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات الكريمة ، بتوبيخهم على إصرارهم على المعاصى ، مع علمهم بأنه - عز وجل - عليم رقيب عليهم ، ومطلع على أحوالهم فقال : ( أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ الله يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ الله عَلاَّمُ الغيوب ) .أى : ألم يعلم هؤلاء المنافقون أن الله - تعالى - يعلم ما يسرونه فى أنفسهم من نفاق ، وما

يتناجون به فيما بينهم من أقوال فاسدة ، وأنه - سبحانه -لا يخفى عليه شئ
فى الأرض ولا فى السماء؟ بلى إنهم ليعلمون ذلك علم اليقين ، ولكنهم
: لاستيلاء الهوى والشيطان عليهم ، لم ينتفعوا بعلمهم .فالاستفهام في قوله
للتوبيخ والتهديد والتقرير . وتنبيههم إلى أن الله ( أَلَمْ يَعْلَمُواْ )
عليم بأحوالهم ، وسيجازيهم عليها .هذا ، ومن الأحكام والآداب التى أخذها
، العلماء من هذه الآيات ما يأتى :1- وجوب الوفاء بالعهود ، فإن نقض العهود
وخلف الوعد ، والكذب كل ذلك يورث النفاق ، فيجب على المسلم أن يبالغ فى
الاحتراز عنه ، فإذا عاهد الله فى أمر فليجتهد فى الوفاء به .ومذهب الحسن
البصرى - رحمه الله - أنه يوجب النفاق لا محالة ، وتمسك فيه بهذه الآية
وبقوله - صلى الله عليه وسلم - : " ثلاث من كن فيه فهو منافق ، وإن صلى
-وصام وزعم أنه مؤمن : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان " .2
، أن للإمام أن يمتنع عن قبول الصدقة من صاحبها إذا رأى المصلحة فى ذلك
اقتداء بما فعله الرسول - صلى الله عليه وسلم - مع ثعلبة ، فإنه لم يقبل
- منه الصدقة بعد أن جاء بها .قال الإمام الرازى : فإن قيل إن الله
تعالى - أمره - أى ثعلبة - بإخراج الصدقة فكيف يجوز من الرسول - صلى الله
عليه وسلم - أن لا يقبلها منه؟قلنا :لا يبعد أن يقال أنه - تعالى - منع
رسوله عن قبول الصدقة منه على سبلي الإهانة له ، ليعتبر غيره به ، فلا
يمتنع عن أداء الصدقات .ولا يبعد - أيضا - أنه إنما أتى بها على وجه الرياء
لا على وجه الإخلاص وأعلم الله ورسوله بذكل ، فلم يقبل تلك الصدقة لهذا
السبب .ويحتمل - أيضا - أنه - تعالى - لما قال : ( خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ
صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ) وكان هذا المقصود غير حاصل
فى ثعلبة مع نفاقه ، فلهذا السبب امتنع رسول الله - صلى الله عليه وسلم عن
أخذ تلك الصدقة .3- أن النفس البشرية ضعيفة شحيحة - إلا من عصم الله .وأن
مما يعين الإنسان على التغلب على هذا الضعف والشح ، أن يوطن نفسه على طاعة
الله ، وأن يجبرها إجباراً على مخالفة الهوى والشيطان ، وأن يؤثر ما عند
، الله على كل شئ من حطام الدنيا .أما إذا ترك لنفسه أن تسير على هواها
فإنها ستورده المهالك ، التى لن ينفع معها الندم ، وستجعله أسر شهواته
) : وأطمامعه ونفاقه إلى أن يلقى الله ، وصدق - سبحانه -حيث يقول
فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إلى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَآ
أَخْلَفُواْ الله مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ) .

الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون الا جهدهم
فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب اليم

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - موقف هؤلاء المنافقين من المؤمنين
) : الصادقين الذين كانوا يبذلون أموالهم فى سبيل الله ، فقال - سبحانه
الذين يَلْمِزُونَ المطوعين . . . ) .قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه
الآية : وهذا أيضا من صفات المنافقين لا يسلم أحد من عيبهم ولمزهم فى جميع
، الأحوال ، حتى ولا المتصدقون يسلمون منهم . إن جاء أحد منهم بمال جزيل
، قالوا : هذا مراء ، وإن جاء بشئ يسير قالوا : إن الله لغنى عن صدقة هذا
كما روى البخارى عن أبى مسعود - رضى الله عنه - قال : لما نزلت آية الصدقة
كنا نحامل على ظهورنا - أى : نؤاجر أنفسنا فى الحمل - فجاء رجل فتصدق بشئ
كثير ، فقالوا هذا يقصد الرياء ، وجاء رجل فتصدق بصاع فقالوا : إن الله
لغنى عن صدقة هذا ، فنزلت هذه الآية .وأخرج ابن جرير عن عمر بن أبى سلمة عن
أبيه : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : " تصدقوا فإنى أريد أن
أبعث بعثنا ، - أى إلى تبوك - قال : فقال عبد الرحمن بن عوف : يا رسول الله
إن عندى أربعة آلاف : ألفين أقرضهما الله ، وألفين لعيالى .قال : فقال . .
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " بارك الله لك فيما أعطيت وبارك لك
، فيما أمسكت "؟! فقال رجل من الأنصار : وإن عندى صاعين من تمر ، صاعا لربى
وصاعا لعيالى ، قال : فلمز المنافقون وقالوا : ما أعطى أبو عوف هذا إلا
) - رياء!!وقالوا: أو لم يكن الله غنيا من صاع هذا!! فأنزل الله - تعالى
الذين يَلْمِزُونَ المطوعين مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ )" .وقال
ابن اسحاق : كان المطوعون من المؤمنين فى الصدقات : عبد الرحمن بن عوف
- وعاصم بن عدى - أخا بنى عجلان - وذلك أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم
، رغب فى الصدقة وحض عليها . فقام عبد الرحمن بن عوف فتصدق بأربعة آلاف
وقام عاصم بن عدى وتصدق بمائة وسق من تمر ، فلمزوهما ، وقالوا : ما هذا إلا
، رياء . وكان الذى تصدق بجهده أبا عقيل - أخبانى أنيف - أتى بصاع من تمر
فأفرغها فى الصدقة ، فتضاحكوا به ، وقالوا : إن الله لغنى عن صاع أبى عقيل
، هذه بعض الروايات التى وردت فى سبب نزول هذه الآية ، وهناك روايات أخرى.
قريبة فى معناها بما ذكرناها .وقوله : " يلمزون " من اللمز ، يقال : لمز
فلان فلانا إذا عابه وتنقصه .والمراد بالمطوعين : أغنياء المؤمنين الذين
قدموا أموالهم عن طواعية واختيار ، من أجل إعلاء كلمة الله .والمراد
بالصدقات : صدقات التطوع التى يقدمها المسلم زيادة على الفريضة .والمراد
بالذين لا يجدون إلا جهدهم : فقراء المسلمين . الذين كانوا يقدمون أقصى ما

يستطيعونه من مال مع قلته ، إذ الجهد : الطاقة ، وهى أقصى ما يستطيعه
الإنسان .والمعنى : إن من الصفات القبيحة - أيضاً للمنافقين ، أنهم كانوا
، يعيبون على المؤمنين ، إذا ما بذلوا أموالهم لله ورسوله عن طواعية نفس
ورضا قلب ، وسماحة ضمير ..وذلك لأن هؤلاء المنافقين - لخلو قلوبهم من
الإيمان - كانوا لا يدركون الدوافع السامية ، والمقاصد العالية من وراء
هذا البذل . .ومن أجل هذا كانوا يقولون عن المكثر : إنه يبذل رياء ، وكانوا
يقولون عن المقل : إن الله غنى عن صدقته ، فهم - لسوء نواياهم وبخل نفوسهم
وخبث قلوبهم -لا يرضيهم أن يروا المؤمنين يتنافسون فى إرضاء الله رسوله ،
وقوله : ( وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ ) معطوف على قوله.
أى : أن هؤلاء المنافقين يلزمون الأغنياء المطوعين بالمال. ( المطوعين ) :
، الكثير ، ويلمزون الفقراء الباذلين للمال القليل، لأنه هو مبلغ جهدهم
وآخر طاقتهم .وقوله : ( فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ) بيان لموقفهم الذميم من
المؤمنين .أى : إن هؤلاء المنافقين يستهزئون بالمؤمنين عندما يلبون دعوة
) رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى الإنفاق فى سبيل الله .وجاء عطف
فَيَسْخَرُونَ ) على ( يَلْمِزُونَ ) بالفاء ، للإشعار بأنهم قوم يسارعون
إلى الاستهزاء بالمؤمنين ، بمجرد أن يصدر عن المؤمنين أى عمل من الأعمال
الصالحة التى ترضى الله ورسوله .وقوله : ( سَخِرَ الله مِنْهُمْ وَلَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ) بيان لجزائهم وسوء عاقبتهم .أى : إن هؤلاء الساخرين من
المؤمنين جازاهم الله على سخريتهم فى الدنيا ، بأن فضحهم وأخزاهم ، وجعلهم
حل الاحتقار والازدراء . . .أما جزاؤهم فى الآخرة فهو العذاب الأليم الذى
لا يخف ولا ينقطع .وبذلك نرى الآية الكريمة قد بينت جانبا من طبائع
المنافقين وردت عليهم بما يفضحهم ويخزيهم ويبشرهم بالعذاب الأليم .

استغفر لهم او لا تستغفر لهم ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم
ذلك بانهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدي القوم الفاسقين

، كما فسرها الوسيط ثم عقب الله - تعالى - هذا الحكم عليهم بالعذاب الأليم
- بحكم آخر وهو عدم المغفرة لهم بسبب إصرارهم على الكفر والفسوق ، فقال
تعالى - : ( استغفر لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ . . . ) .قال الجمل : قال
، المفسرون : لما نزلت الآيات المتقدمة فى المنافقين ، وفى بيان نفاقهم
وظهر أمرهم للمؤمنين ، جاءوا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يعتذرون
إليه ، ويقولون : استغفر لنا فنلزت هذه الآية .وهذا كلام خرج مخرج الأمر
ومعناه الخبر ، والتقدير : استغفارك وعدمه لهم سواء .وإنما جاء هذا الخبر
هنا فى صورة الأمر للمبالغة فى بيان استوائهما .وقد جاء هذا الحكم فى صورة
الخبر فى موضع آخر هو قوله - تعالى ( سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ
لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ الله لَهُمْ إِنَّ الله
لاَ يَهْدِي القوم الفاسقين ) والمقصود بذكر السبعين فى قوله : ( إِن
تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً ) إرادة التكثير ، والمبالغة فى
كثرة الاستغفار ، فقد جرت عادة العرب فى أساليبهم على استعمال هذا العدد
للتكثير لا للتحديد ، فهو لا مفهوم له .ونظيره قوله - تعالى - ( ذَرْعُهَا
سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ ) أى : مهما استغفرت لهم يا محمد فلن يغفر
الله لهم .وقوله : ( ذلك بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بالله وَرَسُولِهِ والله
لاَ يَهْدِي القوم الفاسقين ) بيان للأسباب التى أدت إلى عدم مغفرة الله
لهم .واسم الإشارة " ذلك " يعود إلى امتناع المغفرة لهم ، المفهوم من قوله
أى : ذلك الحكم الذى أصدرناه عليهم بعد. ( فَلَن يَغْفِرَ الله لَهُمْ ) :
مغفرة ذنوبهم مهما كثر استغفارك لهم ، سببه : أنهم قوم ( كَفَرُواْ بالله
وَرَسُولِهِ ) ومن كفر بالله ورسوله ، فلن يغفر الله له ، مهما استغفر له
المستغفرو ، وشفع له الشافعون .وقوله : ( والله لاَ يَهْدِي القوم الفاسقين
تذييل مؤكد لما قبله ، أى والله - تعالى -لا يهدى إلى طريق الخير أولئك (
، الذين فسقوا عن أمره ، وخرجوا عن طاعته ، ولم يستمعوا إلى نصح الناصحين
وإرشاد المرشدين ، وإنما آثروا الغاواية على الهداية .هذا ، ويؤخذ من هذه
الآية الكريمة ، شدة شفقته - صلى الله عليه وسلم - بأمته ، وحرصه على
هدايتها ، وكثرة دعائه لها بالرحمة والمغفرة ، وأنه مع إيذاء المنافقين له
كان يستغفر لهم - أملا فى توبتهم - إلى أن نهاه الله عن ذلك .روى ابن جرير
- عن ابن عباس أنه لما نزلت هذه الآية ، قال الرسول - صلى الله عليه وسلم "
أسمع ربى قد رخص له فيهم ، فوالله لأستغفرن أكثر من سبعين مرة ، فلعل الله
أن يغفر لهم ، فقال الله - تعالى - من شدة غضبه عليهم ( سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ
أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ الله
لَهُمْ ) " .وهكذا أصدر الله حكمه العادل فى هؤلاء المنافقين ، بعدم
المغفرة لهم ، بسبب كفرهم به وبرسوله . . .

فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا ان يجاهدوا باموالهم وانفسهم
في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم اشد حرا لو كانوا
يفقهون

كما فسرها الوسيط وبعد هذا الحديث الطويل المتنوع عن أحوال المنافقين ومسالكهم الخبيثة ، أخذت السورة الكريمة فى الحديث عن حال المنافقين الذين تخلفوا فى المدينة ، وأبوا أن يخرجوا مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى تبوك ، فقال - تعالى - : ( فَرِحَ المخلفون . . . مَعَ الخالفين ) .وقوله : المخلفون " اسم مفعول مأخوذ من قولهم خلف فلان فلانا وراءه إذا تركه خلفه " والمراد بهم : أولئك المنافقيون الذين تخلفوا عن الخروج إلى غزوة تبوك. بسبب ضعف إيمانهم ، وسقوط همتهم ، وسوء نيتهم . .قال الجمل : وقوله ) خِلاَفَ رَسُولِ الله ) فيه ثلاثة أوجه : أحدها : أنه منصوب على المصدر بفعل مقدر مدلول عليه بقوله " مقعدهم " لأنه فى معنى تخلفوا أى : تخلفوا خلاف رسول الله . الثانى : أن خلاف مفعول لأجله والعامل فيه إما فرح مقعد . أى : فرحوا لأجل مخالفتهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حيث مضى هو للجهاد وتخلفوا هم عنه . أو بقعودهم لمخالفتهم له ، وإليه ذهب الطبرى والزجاج ، ويؤيد ذلك قراءة من قرأ : " خلف رسول الله " - بضم الخاء واللام الثالث : أن ينتصب على الظرف . أى بعد رسول الله ، يقال : أقام زيد خلاف ، القوم ، أى : تخلف بعد ذهابهم ، وخلاف يكون ظرفا ، وإليه ذهب أبو عبيدة وغيره ، ويؤيد هذا قراءة ابن عباس ، وأبى حيوه ، وعمرو بن ميمون ، " خلف رسول الله " - بفتح الخاء وسكون اللام .والمعنى : فرح المخلفون : من هؤلاء المنافقين ، بسبب قعودهم فى المدينة ، وعدم خروجهم إلى تبوك للجهاد مع الرسول صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين ، وكرهوا أن يبذلوا شيئا من أموالهم وأنفسهم من أجل إعلاء كلمة الله .وإنما فرحوا بهذا القعود ، وكرهوا الجهاد؛ لأنهم قوم خلت قلوبهم من الإيمان بالله واليوم الآخر ، وهبطت نفوسهم عن الارتفاع إلى معالى الأمور ، وآثروا الدنيا وشهواتها الزائلة على الآخرة ونعيمها الباقى .وفى التعبير بقوله : ( المخلفون ) تحقير لهم ، وإهمال لشأنهم ، حتى لكأنهم شئ من سقط المتاع الذى يخلف ويترك ويهمل؛ لأنه لا قيمة له ، أو لأن ضرره أكبر من نفعه .قال الآلوسى : وإيثار ما فى النظم الكريم على أن يقال ، وكرهوا أن يخرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إيذان بأن الجهاد فى سبيل الله مع كونه من أجل الرغائب التى ينبغى أن يتنافس فيها المتنافسون ، قد كرهوه ، كما فرحوا بأقبح القبائح وهو القعود خلاف رسول الله - صلى الله عليه وسلم ، وفى الكلام تعريض بالمؤمنين الذين آثروا ذلك وأحبوه .وقوله : ( وَقَالُواْ لاَ تَنفِرُواْ فِي الحر ) حكاية لأقوالهم التى تدل على ضعفهم وجبنهم ، وعلى أنهم قوم لا يصلحون للأعمال التى يصلح لها الرجال .أى . وقال هؤلاء المنافقون المخلفون لغيرهم ، أقعدوا معنا فى ، المدينة ، ولا تخرجوا للجهاد مع المؤمنين ، فإن الحر شديد ، والفر طويل وقعودكم يريحكم من هذه المتاعب ، ويحمل غيرنا وغيركم على القعود معنا ومعكم وبذلك ننال بغيتنا من تثبيط همة المجاهدين عن الجهاد فى سبيل الله .وقوله ، رد على أقوالهم القبيحة ( قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً ) : وأفعالهم الخبيثة ، أى ، قل يا محمد لهؤلاء المنافقين على سبيل التهكم بهم والتحقير من شأنهم : نار جهنم أشد حرا من هذا الحر الذى تخشونه وترونه ، مانعا من النفير بل هى أشد حرا من نار الدنيا . . .روى الإمام مالك عن أبى " : الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال نار بنى آدم التى توقدونها . جزء من سبعين جزءا من نار جهنم ".ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال : وقوله : ( قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً ) استجهال لهم ، لأن من تصون مشقة ساعة ، فوقع بسبب ذلك التصون فى مشقة الأبد كان أجهل من كل جاهل ، ولبعضهم :مسرة أحقاب تلقيت بعدها ... مساءة يوم ، أريها شبه الصابفكيف بأن تلقى مسرة ساعة ... وراء تقضيها مساءة أحقابأى : أن حزن يوم واحد يجعل المسرات الطويلة قبله تتحول إلى ما يشبه الصاب مرارة فيكف يكون الحال إذا كانت المسرات ساعة واحدة تعقبها أحقاب طويلة من ، المساءات؟!! .وقوله : ( لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ) تذييل قصد به الزيادة فى توبيخهم وتحقيرهم .أى : لو كانوا يفقهون أن نار جهنم أشد حرا ويعتبرون بذلك ، لما فرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ، ولما كرهوا الجهاد ، ولما قالوا ما قالوا ، بل لحزنوا واكتأبوا على ما صدر منهم ، ولبادروا بالتوبة . والاستغفار ، كما فعل أصحاب القلوب والنفوس النقية من النفاق والشقاق

فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون

كما فسرها الوسيط وقوله : ( فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيراً . . . ) وعيد لهم بسوء مصيرهم ، وإخبار عن عاجل أمرهم وآجله ، من الضحك القليل فى الدنيا والبكاء الكثير فى الآخرة .والمعنى : إنهم وإن فروا ، وضحكوا طوال أعمارهم فى الدنيا ، فهو قليل بالنسبة إلى بكائهم فى الآخرة لأن الدنيا فانية والآخرة باقية ، والمنقطع الفانى قليل بالنسبة إلى الدائم الباقى .قال صاحب المنار : وفى معنى الآية قوله - صلى الله عليه وسلم " لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً " متفق عليه ، بل رواه الجماعة إلا أبا داود من حديث أنس ، ورواه الحاكم من حديث أبى هريرة بلفظ " لبكيتم

، كثيراً ولضحكتم قليلا " .ثم قال : وإنما كان الأمر فى الآية بمعنى الخبر
لأنه إنذار بالجزاء لا تكليف وقد قيل فى فائدة هذا التعبير عن الخبر
بالإنشاء ، إنه يدل على أنه حتم لا يحتمل الصدق والكذب كما هو شأن الخبر
لذاته فى احتمالها ، لأن الأصل فى الأمر أن يكون للإيجاب وهو حتم. .وقوله
، تذييل قصد به بيان عدالته ( جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ) :
سبحانه ، فى معاملة عباده .أى : أننا ما ظلمناهم بتوعدنا لهم بالضحك القليل
وبالبكاء الكثير ، وإنما هذا الوعيد جزاء لهم على ما اكتسبوه من فنون
المعاصى ، وما اجترحوه من محاربة دائمة لدعوة الحق .وقوله : ( جَزَآءً )
. مفعول للفعل الثانى .أى : ليبكوا جزاء ، ويجوز أن يكون مصدرا حذف ناصبه
) أى : يجزون بما ذكر من البكاء الكثير جزاء .وجمع - سبحانه - فى قوله
بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ) بين صيغتى الماضى والمستقبل ، للدلالة على
. الاستمرار التجددى ما داموا فى الدنيا

فان رجعك الله الى طائفة منهم فاستاذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي ابدا ولن
تقاتلوا معي عدوا انكم رضيتم بالقعود اول مرة فاقعدوا مع الخالفين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما يجب على الرسول نحو هؤلاء المخلفين
الكارهين للجهاد ، فقال : ( فَإِن رَّجَعَكَ الله إلى طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ
فاستأذنوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَداً وَلَن
تُقَاتِلُواْ مَعِيَ عَدُوّاً . . . ) .قوله : ( رَّجَعَكَ ) من الرجع
بمعنى تصيير الشئ إلى المكان الذى كان فيه أولا . والفعل رجع أحياناً
يستعمل لازما كقوله - تعالى - : ( فَرَجَعَ موسى إلى قَوْمِهِ غَضْبَانَ
أَسِفاً . . . ) وفى هذه الحالة يكون مصدر الرجوع ، وأحيانا يستعمل متعديا
كالآية التى معنا ، وكقوله - تعالى - : ( فَرَجَعْنَاكَ إلى أُمِّكَ كَيْ
تَقَرَّ عَيْنُها وَلاَ تَحْزَنَ . . ) وفى هذه الحالة يكون مصدره الرجوع
لا الرجوع .قال الآلوسى : " ورجع " هنا بمعنى رد ومصدره الرجع ، وقد يكون
لازما ومصدره الرجوع ، وأوثر هنا استعمال المتعدى - وإن كان استعمال اللازم
كثيرا - إشارة إلى أن ذلك السفر لما فيه من الخطر يحتاج الرجوع منه إلى
تأييد إلهى ، ولذا أوثرت كلمة " إن " على " إذا " .والمعنى : فإن ردك
الله - تعالى - من سفرك هذا - أيها الرسول الكريم - إلى طائفة من هؤلاء
المنافقين الذين تخلفوا عن الخروج معك إلى تبوك " فاستأذنوك للخروج " معك
) فى غزوة أخرى بعد هذه الغزوة " فقل " لهم على سبيل الإهانة والتحقير
لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَداً ) ما دمت على قيد الحياة ( وَلَن
، تُقَاتِلُواْ مَعِيَ عَدُوّاً ) من الأعداء الذين أمرنى الله بقتالهم
والسبب فى ذلك " إنكم " أيها المنافقون " رضيتم بالقعود " عن الخروج معى
وفرحتم به فى " أول مرة " دعيتم فيها إلى الجهاد ، فجزاؤهم وعقاباكم أن
تقعدوا " مع الخالفين " أى : مع الذين تخلفوا عن الغزو لعدم قدرتهم على
تكاليفه كالمرضى والنساء والصبيان . أو مع الأشرار الفاسدين الذين يتشابهون
معكم فى الجبن والنفاق وسوء الأخلاق .قال الإمام الرازى ما ملخصه ، ذكروا
فى تفسير الخالف وجوها :الأول : قال أبو عبيدة الخالفون جمع ، واحدهم خالف
وهو من يخلف الرجل فى قومه ، ومعناه : فاقعدوا مع الخالفين من الرجال ،
، الذين يخلفون فى البيت فلا يبرحونه .الثانى : أن الخالفين فسر بالمخالفين
يقال : فلان خالفه أهل بيته إذا كان مخالفا لهم ، وقوم خالفون أى : كثيرو
الخلاف لغيرهم .الثالث : أن الخالف هو الفاسد . قال الأصمعى : يقال خلف عن
كل خير يخلف خلوفا إذا فسد وخلف اللبن إذا فسد .إذا عرفت هذه الوجوه
الثلاثة فلاشك أن اللفظ يصلح حمله على كل واحد منها ، لأن أولئك المنافقين
كانوا موصوفين بجميع هذه الصفات السيئة ." وقال - سبحانه - ( فَإِن
رَّجَعَكَ الله إلى طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ . . . ) ولم يقل فإن رجعك الله
- إليهم ، لأن جميع الذين تخلفوا عن الخروج مع الرسول - صلى الله عليه وسلم
، إلى تبوك ، لم يكونوا من المنافقين ، بل كان هناك من تخلف بأعذار مقبولة
" : كالذين أتوا إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - ليحملهم معه ، فقال لهم
لا أجد ما أحملكم عليه " فتولوا " وأعينهم تفيض من الدمع حزنا " ".وسيأتى
الحديث عنهم بعد قليل .وقوله : ( لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَداً وَلَن
- تُقَاتِلُواْ مَعِيَ عَدُوّاً ) إخبار فى معنى النهى للمبالغة وجمع
سبحانه - بين الجملتين زيادة فى تبكيتهم ، وفى إهمال شأنهم ، وفى كراهة
مصاحبتهم . .وذلك ، لأنهم لو خرجوا مع المؤمنين ما زادهم إلا خبالا ، ولو
قاتلوا معهم ، لكان قتالهم خاليا من الغاية السامية التى من أجلها قاتل
المؤمنون وهى إعلاء كلمة الله ، وكل قتال خلا من تلك الغاية كان مآله إلى
، الهزيمة . .هذا ، وقد اشتملت هذه الآيات الكريمة على أسوأ صفات المنافقين
كما اشتملت على أشد ألوان الوعيد لهم فى الدنيا والآخرة ( جَزَآءً بِمَا
كَانُواْ يَكْسِبُونَ ) .قال الجمل : وفى قوله - تعالى - ( فَإِن رَّجَعَكَ
الله إلى طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ ) الآية دليل على أن الشخص إذا ظهر منه مكر
وخداع وبدعة ، يجب الانقطاع عنه ، وترك مصاحبته ، لأنه - سبحانه - منع
المنافقين من الخروج مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى الجهاد ، وهو

مشعر بإظهار نفاقهم وذمهم وطردهم وإبعادهم لما علم من مكرهم وخندانعهم إذا خرجوا إلى الغزوات .

ولا تصل على احد منهم مات ابدا ولا تقم على قبره انهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون

كما فسرها الوسيط وبعد أن بين - سبحانه - ما يجب أن يفعله الرسول - صلى الله عليه وسلم - معهم فى حياتهم ، أتبع ذلك ببيان ما يجب أن يفعله معهم بعد مماتهم فقال - تعالى - : ( وَلاَ تُصَلِّ على أَحَدٍ ) .قال الإمام - ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : " أمر الله - تعالى - رسوله صلى الله عليه وسلم - أن يبرأ من المنافقين ، وان لا يصلى على أحد منهم إذا مات ، وأن لا يقوم على قبره ليستغفر له ، أو يدعو له؛ لأنهم كفروا بالله ورسوله ، وهذا حكم عام فى كل من عرف نفاقه ، وإن كان سبب نزول الآية فى عبد الله بن أبى بن سلول رأس المنافقين " .فقد روى البخارى " عن ابن عمر قال : لما توفى عبد الله بن أبى جاء ابنه عبد الله إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فسأله أن يعطيه قميصه ليكفن فيه أباه ، فأعطاه إياه ، ثم سأله أن يصلى عليه ، فقام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليصى عليه ، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقال : يا رسول الله ، تصلى عليه ، وقد نهاك ربك أن تصلى عليه؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " وإنما خيرنى الله فقال : ( استغفر لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرّةً فَلَن يَغْفِرَ الله لَهُمْ ) وسأزيده على السبعين . قال : إنه منافق - قال : فصلى عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأنزل الله - تعالى - قوله : ( وَلاَ تُصَلِّ على أَحَدٍ مِّنْهُم مّاتَ أَبَداً . . . ) الآية " .وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : " سمعت عمر بن الخطاب يقول : لما توفى عبد الله ابن أبى دعى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - للصلاة عليه ، فقام عليه " فلما وقف عليه يريد الصلاة - تحولت حتى قمت فى صدره فقلت : يا رسول الله ، أعلى عدو الله : عبد الله بن أبى القائل يوم كذا ، كذا وكذا ، - وأخذ يعدد أيامه . قال : ورسول الله - صلى الله عليه وسلم يبتسم حتى إذا أكثرت عليه قال : تأخر عنى يا عمر . إنى خيرت فاخترت ، قد قيل لى : ( استغفر لَهُمْ ) الآية . لو أعلم أنى لو زدت على السبعين غفر له لزدت ، قال : ثم صلى عليه ومشى معه وقام على قبره حتى فرغ منه . قال : فعجبت من جرأتى على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والله ورسوله أعلم . قال فوالله ما كان إلا يسيراً حتى نزلت ( وَلاَ تُصَلِّ على أَحَدٍ مِّنْهُم مّاتَ أَبَداً ) الآية . قال : فما صلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعد ذلك على منافق ولا قام على قبره حتى قبضه الله - عز وجل " .والمعنى : "لا تصل " - أيها الرسول الكريم - " على أحد من هؤلاء المنافقين " مات أبدا ولا تقم على قبره " أى : ولا تقف على قبره ، عند الدفن أو بعد بقصد الزيارة أو الدعاء له ، وذلك لأن صلاتك عليهم ووقوفك على قلوبهم شفاعة لهم ، ورحمة بهم ، وتكريم لشأنهم . وهم ليسوا أهلا لذلك .وقوله : ( إِنّهُمْ كَفَرُواْ بالله وَرَسُولِهِ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَاسِقُونَ ) تعليل للنهى عن الصلاة عليهم ، والوقوف على قبورهم .أى نهيناك - يا محمد - عن ذلك ، لأن هؤلاء المنافقين قد عاشوا حياتهم كافرين بالله ورسوله ، ومحاربين لدعوة الحق ، وماتوا وهم خارجون عن حظيرة الإيمان ، وجمع - سبحانه - بين وصفهم بالكفر ووصفهم بالفسق زيادة فى تقبيح أمرهم. وتحقير شأنهم؛ فهم لم يكتفوا بالكفر وحده ، وإنما أضافوا إليه الفسق ، وهو الخروج عن كل قول طيب ، وخلق حسن ، وفعل كريم .قال بعضهم : فإن قلت : الفسق أدنى حالا من الكفر ، فما الفائدة فى وصفهم بالفسق بعد وصفهم بالكفر؟ قلت إن الكافر قد يكون عدلا بأن يؤدى الأمانة ، ولا يضمر لأحد سوءاً ، وقد يكون خبيثا كثير الكذب والمكر والخداع وإضمار السوء للغير ، وهذا أمر مستقبح عن كل أحد ، ولما كان المنافقون بهذه الصفة الخبيثة ، وصفهم الله - تعالى - بكونهم فاسقين بعد أن وصفهم بالكفر .هذا ، ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآية ما يأتى :1- تحريم الصلاة على الكافر ، والوقوف على قبره ، ومفهومه وجوب الصلاة على المسلم ودفنه ومشروعية الوقوف على قبره ، والدعاء له .قال الإمام ابن كثير : ولما نهى الله - تعالى - عن الصلاة على المنافقين والقيام على قبوهم للاستغفار لهم ، كان هذا الصنيع من أكبر القربات فى حق المؤمنين ، فشرع ذلك وفى فعله الأجر الجزيل ، كما ثبت فى الصحاح وغيرها من حديث أبى هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : " من شهد الجنازة حتى يصلى عليها فله قيراط ، من شهدها حتى تدفن فله قيراطان ، قيل : وما القيراطان ، قال : " أصغرهما مثل أحد " وأما القيام عند قبر المؤمن إذا مات ، فروى أبو دواد عن عثمان بن عفان قال : " كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا فرغ من الميت وقف عليه وقال : " استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يسأل " " .2- وجوب منع كل مظهر من مظاهر التكريم - فى الحياة وبعد الممات عن الذين يحاربون دعوة الحق ، ويقفون فى وجه انتشارها وظهورها : أما منع تكريمهم فى حياتهم فتراه فى

قوله - تعالى - فى الآية السابقة : ( فَإِن رَّجَعَكَ الله إلى طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فاستأذنوك لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَداً وَلَن تُقَاتِلُواْ مَعِيَ عَدُوّاً )وأما منع تكريمهم بعد مماتهم فتراه فى هذه الآية : ( وَلاَ تُصَلِّ على أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً وَلاَ تَقُمْ على قَبْرِهِ ) .ولا شك أن حجب كل تكريم عن أولئك المنافقين فى العهد النبوى ، كان له أثره القوى فى انهيار دولتهم ، وافتضاح أمرهم ، وذهاب ريحهم ، وتهوين شأنهم . .هذا ، وما فعله الرسول - صلى الله عليه وسلم - مع عبد الله بن أبى من الصلاة عليه ، والقيام على قبره إنما كان قبل نزول هذه الآية . .أو أنه - صلى الله عليه وسلم - فعل ذلك تطييباً لقلب ابنه الذى كان من فضلاء الصحابة وأصدقهم إسلاما .فقد سبق أن ذكرنا ما رواه البخارى عن ابن عمر أنه قال : لما توفى عبد الله ابن أبى جاء ابنه عبد الله إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فسأله أن يعطيه قميصه ليكفن فيه أباه فأعطاه إياه ثم سأله أن يصلى عليه . . الحديث ، .

ولا تعجبك اموالهم واولادهم انما يريد الله ان يعذبهم بها في الدنيا وتزهق انفسهم وهم كافرون

كما فسرها الوسيط ثم نهى الله - تعالى - كل من يصلح للخطاب عن الاغترار بما عند هؤلاء المنافقين من مال وولد ، فقال - تعالى - : ( وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ . . . . ) .أى : عليك - أيها العاقل - أن لا تغتر بما عند هؤلاء المنافقين من أموال وأولاد ، وأن لا يداخل قلبك شئ من الإعجاب بما بين أيديهم من نعم ، فإن هذه النعم - التى من أعظمها الأموال والأولاد - إنما أعطاهم الله إياها ، ليعذبهم بسببها فى الدنيا عن طريق التعب فى تحصيلها ، والحزن عند فقدها وهلاكها .وقوله : ( وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ) بيان لسوء مصيرهم فى الآخرة ، بعد بيان عذابهم فى الدنيا ، وزهوق النفس : خروجها من الجسد بمشقة وتعب .أى : أنهم فى الدنيا تكون النعم التى بين أيديهم ، مصدر عذاب لهم ، وأما فى الآخرة فعذابهم أشد وأبقى ، لأن أرواحهم قد خرجت من أبدانهم وهم مصرون على الكفر والضلال .فأنت ترى أن الآية الكريمة قد توعدت هؤلاء المنافقين بسوء العاقبة فى الدنيا والآخرة ، ومن كان مصيره كهذا المصير ، لا يستحق الإعجاب أو التكريم وإنما يستحق الاحتقار والإهمال .وهذه الآية الكريمة ، قد سبقتها فى السورة نفسها آية أخرى شبيهة بها . وهى قوله - تعالى - : ( وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ الله أَن يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدنيا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ) وقد أشار صاحب الكشاف إلى سر هذا التكرار فقال : " وقد أعيد قوله. ( وَلاَ تُعْجِبْكَ ) ؛ لأن تجدد النزول له شأنه فى تقرير ما نزل له وتأكيده وإرادة أن يكون على بال من المخاطب لا ينساه ولا يسهو عنه ، وأن يعقتد أن العمل به مهم يفتقر إلى فضل عناية به ، لا سيما إذا تراخى ما بين النزولين فأشبه الشئ الذى أهم صاحبه ، فهو يرجع إليه فى أثناء حديثه ، ويتخلص إليه ، وإنما أعيد هذا المعنى لقوته فيما يجب أن يحذر منه ، " .

واذا انزلت سورة ان امنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استاذنك اولو الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - موقف المنافقين وموقف المؤمنين بالنسبة للجهاد ، كما بين عاقبة كل فريق فقال - تعالى - : ( وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ . . . ) - سبحانه - والمراد بالسورة فى قوله - الفوز العظيم ) .
( وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ ) : كل سورة ذكر الله - تعالى - فيها وجوب الإيمان به والجهاد فى سبيله .أى : أن من الصفات الذميمة لهؤلاء المنافقين أنهم كلما نزلت سورة قرآنية ، تدعو فى بعض آياتها الناس إلى الإيمان ، بالله والجهاد فى سبيله ، ما كان منهم عند ذلك إلا الجبن والاستخذاء والتهرب من تكاليف الجهاد . . .وقوله : ( استأذنك أُوْلُواْ الطول مِنْهُمْ بيان لحال هؤلاء المنافقين عند نزول هذه السورة .والطول - بفتح الطاء - يطلق على الغنى والثروة ، مأخوذ من مادة الطول بالضم التى هى ضد القصر .والمراد بأولى الطول : رؤساء المنافقين وأغنياؤهم والقادرون على تكاليف الجهاد .أى : عند نزول السورة الداعية إلى الجهاد ، يجئ هؤلاء - المنافقين أصحاب الغنى والثروة ، إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم ليستأذنوا فى القعود وعدم الخروج . . وليقولوا له بجبن واستخذاء ( ذَرْنَا نَكُنْ مَّعَ القاعدين ) .أى : اتركنا يا محمد مع القاعدين فى المدينة من العجزة والنساء والصبيان ، واذهب أنت وأصحابه إلى القتال .وإنما خص ذوى الطول بالكذر ، تخليداً لمذمتهم واحتقارهم؛ لأنه كان المتوقع منهم أن يتقدموا صفوف المجاهدين ، لأنهم يملكون وسائل الجهاد والبذل ، لا ليتخاذلوا ويعتذروا ، ويقولوا ما قالوا مما يدل على جبنهم والتوائهم .

رضوا بان يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون

كما فسرها الوسيط وقوله : ( رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الخوالف ) زيادة في تحقيرهم وذمهم .والخوالف : جمع خالفة ، ويطلق على المرأة المتخلفة عن أعمال الرجال لضعفها ، كما يطلق لفظ الخالفة - أيضاً - على كل من لا خير فيه .والمعنى : رضى هؤلاء المنافقون لأنفسهم ، أن يبقوا فى المدينة مع النساء ، ومع كل من لا خير فيه من الناس ، ولا يرضى بذلك إلا من هانت كرامته ، وسقطت مروءته ، وألف الذل والصغار .وقوله ( وَطُبِعَ على قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ ) بيان لما ترتب على استمرارهم فى النفاق ، وعدم رجوعهم إلى طريق الحق .أى : أنه ترتب على رسوخهم فى النفاق وإصرارهم على الفسوق والعصيان أن ختم الله على قلوبهم ، فصارت لا تفقه ما فى الإيمان والجهاد من الخير والسعادة ، وما فى النفاق والشقاق من الشقاق والهلاك .

لكن الرسول والذين امنوا معه جاهدوا باموالهم وانفسهم واولئك لهم الخيرات واولئك هم المفلحون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( لكن الرسول والذين آمَنُواْ مَعَهُ جَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ) استدراك لبيان حال الرسول - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين ، بعد بيان حال المنافقين .أى : إذا كان حال المنافقين كما وصفنا من جبن وتخاذل وهو أن . . . فإن حال المؤمنين ليس كذلك ، فإنهم قد وقفوا إلى جانب رسولهم - صلى الله عليه وسلم - فجاهدوا معه ، بأموالهم وأنفسهم من أجل إعلاء كلمة الله ، وأطاعوه فى السر والعلن وآثروا ما عند الله على كل شئ فى هذه الحياة . .وقد بين - سبحانه - جزاءهم الكريم فقال : ( وأولئك لَهُمُ الخيرات ) أى : أولئك المؤمنون الصادقون لهم الخيرات التى تسر النفس ، وتشرح الصدر فى الدنيا والآخرة ( وأولئك هُمُ المفلحون ) الفائزون بسعادة الدارين .

اعد الله لهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم

كما فسرها الوسيط ( أَعَدّ الله ) - تعالى - لهؤلاء المؤمنين الصادقين ) جَنّاتٍ تَجْرِي مِن ) تحت ثمارها وأشجارها ومساكنها ( الأنهار خَالِدِينَ فى تلك الجنات خلودا أبديا ، و " ذلك " العطاء الجزيل ، هو ( الفوز ( العظيم ) الذى لا يدانيه فوز ، ولا تقاربه سعادة .وبذلك ترى أن هذه الآيات الكريمة قد ذمت المنافقين لجبنهم ، وسوء نيتهم ، وتخلفهم عن كل خير . . . ومدحت الرسول - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين ، الذين نهضوا بتكاليف العقيدة ، وأدوا ما يجب عليهم نحو خالقهم وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم من أجل إعلاء كلمته - سبحانه .

وجاء المعذرون من الاعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا الله ورسوله سيصيب الذين كفروا منهم عذاب اليم

كما فسرها الوسيط وبعد أن بين - سبحان- أحوال المنافقين من سكان المدينة ، أتبع ذلك بالحديث عن المنافقين من الأعراب سكان البادية فقال - تعالى : ( وَجَآءَ المعذرون مِنَ الأعراب . . . ) .قال القرطبى ما ملخصه : قوله - تعالى - : ( وَجَآءَ المعذرون مِنَ الأعراب ) قرأ الأعرج والضحاك المعذرون مخففا ، ورواها أبو كريب عن أبى بكر عن عاصم . . وهى من أعذر ، ومنه قد أعذر من أنذر ، أى : قد بالغ فى العذر من تقدم إليك فأنذرك ، وأما " المعذرون " بالتشديد - وهى قراءة الجمهور - ففيها قولان :أحدهما : أنه يكون المحق ، فهو في المعنى المعتذر ، لأن له عذراً ، فيكون " المعذرون " على هذه أصله المعتذرون ، ثم أدغمت التاء فى الذال . .وثانيهما : أن المعذر قد يكون غير محق ، وهو الذى يعتذر ولا عذر له .والمعنى ، أنهم اعتذروا بالكذب قال الجوهرى : وكان ابن عباس يقول : لعن الله المعذرين ، كان الأمر عنده. . أن المعذر - بالتشديد - هو المظهر للعذر ، اعتلالاً من غير حقيقة له فى العذر . .ومن هذه الأقوال التى نقلناها عن القرطبى يتبين لنا أن من المفسرين من يرى أن المقصود من المعذرين : أصحاب الأعذار المقبولة .وقد رجح الإمام ابن كثير هذا الرأى فقال : بين الله - تعالى - حال ذوى الأعذار فى ترك الجهاد ، وهم الذين جاءوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يعتذرون إليه ، ويبينون له ما هم فيه من الضعف وعدم القدرة على الخروج وهم من أحياء العرب ممن حول المدينة .قال الضحاك عن ابن عباس : إنه كان يقرأ " وجاء المعذرون " - بالتخفيف ، ويقول : هم أهل العذر . . وهذا القول أظهر فى معنى الآية؛ لأنه - سبحانه - قال بعد هذا : ( وَقَعَدَ الذين كَذَبُوا الله وَرَسُولَهُ ) .أى : لم يأتوا فيعتذروا . . .وعلى هذا الرأى تكون الآية قد ذكرت قسمين من الأعراب : قسما جاء معتذرا إلى رسول الله - صلى الله عليه

وسلم - وقسما لم يجئ ولم يعتذر ، وهذا القسم هو الذى توعده الله بسوء المصير .ومنهم من يرى أن المقصود بالمعذرين : أصحاب الأعذار الباطلة ، وقد سار على هذا الرأى صاحب الكشاف فقال : " المعذرون " عن عذر فى الأمر ، إذا قصر فيه وتوانى ولم يجد فيهن وحقيقته أنه يوهم أن له عذرا فيما يفعل ولا عذر له .أو المعتذرون بإدغام التاء فى الذال ، وهم الذين يعتذرون بالباطل ، كقوله ، يعتذرن إليكم إذا رجعتم إليهم . .وقرئ " المعذرون " بالتخفيف : وهو الذى يجتهد فى العذر ويحتشد فيه . قيل هم أسد وغطفان . قالوا : إن لنا عيالا ، وإن بنا جهدا فائذن لنا فى التخلف .وقيل : " هم رهط عامر بن الطفيل قالوا : إن غزونا معك أغارك أعراب طئ على أهالينا ومواشينا ، فقال - صلى . الله عليه وسلم - " سيغنين الله عنكم " وعن مجاهد : نفر من غفارا عتذروا فلم يعذرهم الله - تعالى - وعن قتادة : اعتذروا بالكذب ..وعلى هذا الرأى تكون الآية الكريمة قد ذكرت قسمين - أيضا - من الأعراب ، إلا أن أولهما قد اعتذر بأعذار غير مقبولة ، وثانيهما لم يعتذر ، بل قعد فى داره مصرا على كفره ، ولذا قال أبو عمرو بن العلاء : كلا الفريقين كان سيئا : قوم تكلفوا ، عذرا بالباطل وهم الذين عناهم الله - تعالى . بقوله ( وَجَآءَ المعذرون ) وقوم تخلفوا من غير عذر فقعدوا جرأة على الله وهم المنافقون ، فتوعدهم الله قوله : ( سَيُصِيبُ الذين كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ) .والذين ، يبدو لنا أن الرأى الأول أقرب إلى الصواب؛ لتناسقه مع يفيده ظاهره الآية لأن الآية الكريمة ذكرت نوعين من الأعراب ، أحدهما : المعذرون .أى أصحاب ، الأعذار ، وثانيهما : الذين قعدوا فى بيوتهم مكذبين لله ولرسوله فتوعدهم - سبحانه - بالعذاب الأليم ، ولأنه لا توجد قرينة قوية تجعلنا نرجح أن المراد بالمعذرين هنا ، أصحاب الأعذار الباطلة ، لأن التفسير اللغوى للكلمة - كما نقلنا عن القرطبى - يجعلها صالحة للأعذار المقبولة ، فكان الحلم على حسن الظن أولى ، والله ، تعالى ، بعد ذلك هو العليم بأحوال العباد ، ما ظهر منها وما بطن .وعلى هذا يكون معنى الآية الكريمة : وعندما استنفر النبى ، صلى الله عليه وسلم ، الناس إلى غزة تبوك ، جاءه أصحاب الأعذار من الأعراب ليستأذنوه فى عدم الخروج معه ، فقبل - صلى الله عليه وسلم ما هو حق منها .وقوله : ( وَقَعَدَ الذين كَذَبُواْ الله وَرَسُولَهُ بيان للفريق الثانى من الأعراب وهو الذى لم يجئ إلى الرسول صلى الله عليه ( - وسلم معتذرا .أى : وقعد عن الخروج إلى تبوك ، وعن المجئ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم - للاعتذار ، أولئك الذين كذبوا الله ورسوله فى دعوى الإيمان ، وهم الراسخون فى النفاق والعصيان من الأعراب سكان البادية وقوله : ( سَيُصِيبُ الذين كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ) وعيد لهم. بسوء العاقبة فى الدارين .أي : سيصيب الذين أصروا على كفرهم ونفاقهم من هؤلاء الأعراب ، عذاب أليم فى الدنيا والآخرة ، أما الذين رجعوا عن كفرهم ونفاقهم منهم ، وتابوا إلى الله - تعالى توبة صادقة ، فهؤلاء عسى الله أن . يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا

ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج اذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم

كما فسرها الوسيط ثم ذكر - سبحانه - الأعذار الشرعية المقبولة عنده وعند ، رسوله ، والتى تجعل صاحبها لا حرج عليه إذا ما قعد معها عن القتال ، فقال تعالى : ( لَّيْسَ عَلَى الضعفآء . . . . مَا يُنْفِقُونَ ) .ذكر المفسرون فى سبب نزول هاتين الآيتين روايات ، منها ما جاء عن زيد بن ثابت أنه قال كنت أكتب لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فكنت أكتب " براءة " ، فإنى لواضح القلم على أذنى ، إذ أمرنا بالقتال ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر ما ينزل عليه ، إذ جاء أعمى فقال : كيف بى يا رسول الله وأنا أعمى؟ فنزلت ( لَّيْسَ عَلَى الضعفآء وَلاَ على المرضى ) الآية .وروى العوفى عن ابن عباس " أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أمر الناس اني ، نبعثوا غازين معه . فجاءته عصابة من أصحابه فيهم عبد الله بن مقرن المزنى فقالوا : يا رسول الله ، احملنا . فقال لهم : " والله لا أجد ما أحملكم عليه " ، فتولوا وهم يبكون وعز عليهم أن يجلسوا عن الجهاد ، ولا يجدون نفقة ولا محلا ، فلما رأى الله حرصهم على محبته ومحبة رسوله ، أنزل عذرهم فى كتابه فقال : ( لَّيْسَ عَلَى الضعفآء وَلاَ على المرضى ) . . " الآية وقال محمد بن إسحاق - فى سياق غزوة تبوك - ثم : " إن رجالا من المسلمين. أتوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهم البكاءون وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم . . فاستحملوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم ، وكانوا أهل حاجة فقال : "لا أجد ما أحملكم عليه " تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون " .والضعفاء : جمع ضعيف ، وهو من ليس عنده القوة على ، القيام بتكاليف الجهاد ، كالشيوخ والنساء والصبيان .والمرضى : جمع مريض وهم الذين عرضت لهم أمراض حالت بينهم وبين الاشراك فى القتال ، وهؤلاء عذرهم ينتهى بزوال أمراضهم .والمعنى : ( لَّيْسَ عَلَى الضعفآء ) العاجزين عن القتال لعلة فى تكوينهم ، أو لشيخوخة أقعدتهم ، (وَلاَ على المرضى )

الذى حالت أمراضهم بينهم وبين الجهاد ( وَلاَ عَلَى الذين لاَ يَجِدُونَ
مَا يُنفِقُونَ ) وهم الفقراء القادرون على الحرب ، ولكنهم لا يجدون المال
الذين ينفقونه فى مطالب الجهاد ، ولا يجدون الرواحل التى يسافرون عليها أرض
المعركة ، ليس على هؤلاء جميعا ( حَرَجٌ ) أى : إثم أو ذنب بسبب عدم خروجهم
) : مع النبى - صلى الله عليه وسلم - إلى تبوك لقتال الكافرين . .وقوله
إِذَا نَصَحُواْ للَّهِ وَرَسُولِهِ ) : بيان لما يجب عليهم فى حال قعودهم
قال الجمل : ومعنى النصح - هنا - أن يقيموا فى البلد ، ويحترزوا عن إنشاء.
الأراجيف ، وإثارة الفتن ، ويسعوا فى إيصال الخير إلى أهل المجاهدين الذين
خرجوا إلى الغزو ، ويقوموا بمصالح بيوتهم ، ويخلصوا الإيمان والعمل لله؛
ويتابعوا الرسول - صلى الله عليه وسلم - فجملة هذه الأمور تجرى مجرى النصح
لله ورسوله .وقوله : ( مَا عَلَى المحسنين مِن سَبِيلٍ ) استئناف مقرر
لمضمون ما قبله .والمحسنون . جمع محسن ، وهو الذى يؤدى ما كله الله به على
وجه حسن .والسبيل : الطريق السهل المهد الموصل إلى البغية . ومن ، زائدة
لتأكيد النفى .أى : ليس لأحد أى طريق يسكلها لمؤاخذة هؤلاء المحسنين ، بسبب
تخلفهم عن الجهاد ، بعد أن نصحوا لله ولرسوله ، وبعد أن حالت الموانع
الحقيقة بنيهم وبين الخروج للجهاد .قال الآلوسى : والجملة استئناف مقرر
، مضمون ما سبق على أبلغ وجه : وألطف سبك ، وهو من بليغ الكلام ، لأن معناه
لا سبيل لعاتب عليهم ، أى :لا يمر بهم العاتب ، ولا يجوز فى أرضهم ، فما
أبعد العتاب عنهم ، وهو جار مجرى المثل .ويحتمل أن يكون تعليلا لنفى الحرج
عنهم و ( المحسنين ) على عمومه . أى ليس عليهم حرج ، لأنه ما على جنس
المحسنين سبيل ، وهم من جملتهم .وقال صاحب المنار : " والشرع الإلهى يجازى
المحسن بأضعاف إحسانه ، ولا يؤاخذ المسئ إلا بقدر إساءته ، فإذا كان أولئك
. المعذورون فى القعود عن الجهاد محسنين فى سائر أعمالهم بالنصح المذكور
انقطعت طرق المؤاخذة دونهم والإحسان أعم من النصح المذكرو فالجملة الكريمة
، تتضمن تعليل رفع الحرج عنهم مقرونا بالدليل ، فكل ناصح لله ورسوله محسن
ولا سبيل إلى مؤاخذة المحسن وإيقاعه فى الحرج وهذه المبالغة فى أعلى مكانه
- من أساليب البلاغة .وقوله : ( والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ) أى ، والله تعالى
واسع المغفرة ، كثير الرحمة ، يستر على عباده المخلصين ما يصدر عنهم من
. تقصير تقتضيه طبيعتهم البشرية

ولا على الذين اذا ما اتوك لتحملهم قلت لا اجد ما احملكم عليه تولوا
واعينهم تفيض من الدمع حزنا الا يجدوا ما ينفقون

كما فسرها الوسيط وقوله : ( وَلاَ عَلَى الذين إِذَا مَآ أَتَوْكَ
لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ . . ) معطوف
على ما قبله ، من عطف الخاص على العام ، اعتناء بشأنهم ، وجعلهم كأنهم
لتميزهم جنس آخر ، مع أنهم مندرجون مع الذين وصفهم الله قبل ذلك ( لاَ
يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ ) .أى : لا حرج ولا إثم على الضعفاء ولا على
المرضى ولا على الذين يجدون ما ينفقون ، إذا ما تخلفوا عن الجهاد ، وكذلك
لا حرج ولا إثم - أيضاً - على فقراء المؤمنين ، الذين إذا ما أتوك لتحملهم
على الرواحل التى يركبونها لكى يخرجوا معك إلى هذا السفر الطويل قلت لهم يا
محمد "لا أجد ما أحملكم عليه " .وفى هذا التعبير ما فيه من تطييب قلوب
هؤلاء السائلين فكأنه - صلى الله عليه وسلم - يقول لهم إن ما تطلبونه أنا
) : أسأل عنه ، وأفتش عليه فلا أجده ، ولو وجدته لقدمته إليكم .وقوله
تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدمع حَزَناً أَلاَّ يَجِدُواْ
مَا يُنْفِقُونَ ) بيان للآثار التى ترتبت على عدم وجود ما يحملهم من رواحل
لكى يخرجوا مع الرسول صلى الله عليه وسلم إلى تبوك .أى : أن هؤلاء :
" المؤمنين الفقراء ، عندما اعتذرت لهم بقولك : "لا أجد ما أحملكم عليه
انصرفوا من مجلسك ، وأعينهم تسيل بالدموع من شدة الحزن لأنهم لا يجدون
المال الذى ينفقونه فى مطالب الجاهد ، ولا الرواحل التى يركبونها فى حال
سفرهم إلى تبوك .فالجملة الكريمة تعطى صورة صادقة مؤثرة للرغبة الصادقة فى
الجهاد ، وللألم الشديدة للحرمان من نعمة أدائه .وبمثل هذه الروح ارتفعت
راية الإسلام ، وعزت كلمته ، وانتشرت دعوته .هذا ، ومن الأحكام والآداب
التى نستطيع أن نأخذها من هاتين الآيتين ما يأتى : 1- أن التكاليف
الإسلامية تقوم على اليسر ورفع الحرج ، ومن مظاهر ذلك : أن الجهاد . وهو
ذروة سنام الإسلام ، قد أعفى الله - تعالى - منه الضعفاء والمرضى والذين
يجدون وسائله ومتطلباته .قال الإمام القرطبى : قوله تعالى : ( لَّيْسَ
عَلَى الضعفآء وَلاَ على المرضى ) هذه الآية أصل فى سقوط التكليف عن العاجز
فكل من عجز عن شئ مسقط عنه ، ولا فرق بين العجز من جهة القوة أو العجز من ،
جهة المال . ونظير هذه الآية قوله . تعالى : ( لاَ يُكَلِّفُ الله نَفْساً
إِلاَّ وُسْعَهَا ) وقوله : ( لَّيْسَ عَلَى الأعمى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى
الأعرج حَرَجٌ وَلاَ عَلَى المريض حَرَجٌ ) 2- أنه متى وجدت النية الصادقة
فى فعل الخير . حصل الثواب وإن لم يكن هناك عمل ، بدليل أن المؤمنين الذين
لم يخرجوا للجهاد لعذر شرعى ، بشرهم النبى صلى الله عليه وسلم بأنهم

مشاركون لمن خرج فى الأجر .قال الإمام ابن كثير : فى الصحيحين من حديث أنس
أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : " إن بالمدينة أقواما ما قطعتم
وادياً . ولا سرتم سيراً إلا وهم معكم قالوا : وهم بالمدينة قال نعم حبسهم
العذر " .وروى الإمام أحمد عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم : " ولقد خلفتم بالمدينة رجالا ، ما قطعتم وادياً ، ولا سلكتم طريقاً
- إلا شاركوكم فى الأجر ، حبسهم المرض " .3- أن الصحابة - رضى الله عنهم ،
ضربوا أروع الأمثال فى الحرص على الجهاد والاستشهاد وأن أعذارهم الشرعية
لم تمنع بعضهم من المشاركة فى القتال . ." فهذا عبد الله بن أم مكتوم وكان
يخرج إلى غزوة أحد ويطلب أن يحمل اللواء . وهذا عمرو ابن الجموح - وكان
" : - أعرج - يخرج من مقدمة الجيوش فيقول له الرسول - صلى الله عليه وسلم
إن الله قد عذرك " فيقول : " والله لأحقرن بعرجتى هذه الجنة " - أى لأتركن
آثار أقدامى فيها .ومن كان يؤتى به وهو يمشى بين الرجلين معتمدا عليهما من
شدة ضعفه ومع ذلك يقف فى صفوف المجاهدين .وبهذه القلوب السليمة ، والغزائم
. . القوية والنفوس القوية والنفوس النقية التى خالط الإيمان شغافها
. ارتفعت كلمة الحق ، وعزت كلمة الإسلام

انما السبيل على الذين يستاذنونك وهم اغنياء رضوا بان يكونوا مع الخوالف
وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون

، كما فسرها الوسيط وبعد أن بين - سبحانه - أحكام أصحاب الأعذار المقبولة
) : أتبع ذلك ببيان أحكام الأعذار الكاذبة ، والصفات القبيحة ، فقال تعالى
إِنَّمَا السبيل . . . . القوم الفاسقين ) .فهذه الآيات الكريمة بيان لما
سيكون من أمر المنافقين الذين قعدوا فى المدينة بدون عذر ، بعد أن يرجع
الرسول صلى الله عليه وسلم إليهم والمؤمنون من تبوك .والمعنى : إذا كان
الضعفاء والمرضى ومن حكمهم ، لا إثم ولا عقوبة عليهم بسبب تخلفهم عن الجهاد
فإن " السبيل " أى الإثم والعقوبة ( عَلَى الذين يَسْتَأْذِنُونَكَ ) فى ،
التخلف " وهم أغنياء " أى يمكلون كل وسائل الجهاد من مال وقوة وعدة .وقوله
استئناف تعليلى مسبوق لمزيد ( رَضُوا بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الخوالف ) :
مذمتهم .أى : استأذنوك مع غناهم وقدرتهم على القتال ، لأنهم لخو قلوبهم من
الإيمان ، ولسوقط همتهم وجبنهم ، رضوا لأنفسهم أن يبقوا فى المدينة مع
الخالف من النساء والصبيان والعجزة .وقوله : ( وَطَبَعَ الله على
قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ) بيان لسوء مصيرهم .أى : وبسبب هذا
- الإصرار على النفاق ، والتمادى فى الفسوق العصيان ، ختم الله - تعالى
على قلوبهم ، فصارت لا تعلم ما يترتب على ذلك من مصائب دينية ودنيوية
. وأخروية

يعتذرون اليكم اذا رجعتم اليهم قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبانا الله من
اخباركم وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم
بما كنتم تعملون

كما فسرها الوسيط قوله : ( يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ
إِلَيْهِمْ ) ، إخبار عما سيقولونه للمؤمنين عند لقائهم بهم .أى : أن هؤلاء
المنافقين المتخلفين عن الجهاد مع قدرتهم عليه ، سيعتذرون إليكم - أيها
المؤمنون - إذا رجعتم إليهم من تبوك . بأن يقولوا لكم مثلا : إن قعودنا فى
المدينة وعمد خروجنا معكم كانت له مبرراته القوية . فلا تؤاخذونا .وهذه
- الجملة الكريمة من الأنباء التى أنبأ الله بها نبيه - صلى الله عليه وسلم
عن أحوال المنافقين وعما سيقولونه له وللمؤمنين بعد عودتهم إليهم ، وهذا
يدل على أن هذه الآيات نزلت فى أثناء العودة ، وقبل وصول الرسول وأصحابه
إلى المدينة من تبوك .وقوله : ( قُل لاَّ تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ
، لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا الله مِنْ أَخْبَارِكُمْ ) ، إبطال لمعاذيرهم
- وتلقين من الله - تعالى - لرسوله بالرد الذى يخرس ألسنتهم .أى : قل لهم
: أيها الرسول الكريم - عندما يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم ، قل لهم
دعوكم من هذه المعاذير الكاذبة ، ولا تتفوهوا بها أمامنا ، فإننا ( لَن
نُّؤْمِنَ لَكُمْ ) ولن نصدق أقوالكم ، فإن الله ، تعالى . قد كشف لنا عن
، حقيقتكم ووضح لنا أحوالكم ، وبين لنا ما أنتم عليه من نفاق وفسوق وعصيان
، وما دام الأمر كذلك ، فوفروا على أنفسكم هذه المعاذير الكاذبة .وقال
، سبحانه . ( قَدْ نَبَّأَنَا الله مِنْ أَخْبَارِكُمْ ) ولم يقل قد نبأنى
للاشعار بأن الله - تعالى - قد أمر رسوله . صلى الله عليه وسلم . أن يبلغ
) : المؤمنين بأحوال هؤلاء المنافقين حتى يكونوا على بينة من أمرهم .وقوله
وَسَيَرَى الله عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ) تهديد لهم على نفاقهم وكذبهم .أى
، دعوا عنكم هذه الأعذار الباطلة ، فإن الله - تعالى - مطلع على أحوالكم :
وسيعلم سركم وجهركم علما يترتب عليه الجزاء العادل لكم ، ويبلغ رسوله - صلى
" الله عليه وسلم - بأخباركم ، هذا فى الدنيا ، أما فى الآخرة ، فأنتم
ستردون " يوم القيامة ( إلى عَالِمِ الغيب والشهادة ) الذى لا يخفى عليه شئ

: فى الأرض ولا فى السماء ( فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ) أى
فيخبركم بما كنتم تعلمونه فى الدنيا من أعمال قبيحة ، وسيجازيكم عليها بما
. تستحقونه من عقاب

سيحلفون بالله لكم اذا انقلبتم اليهم لتعرضوا عنهم فاعرضوا عنهم انهم رجس
وماواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون

كما فسرها الوسيط ثم أخبر - سبحانه - رسول الله - صلى الله عليه وسلم بأن
) : هؤلاء المنافقين ، سيؤكدون أعذارهم الكاذبة بالأيمان الفاجرة فقال
سَيَحْلِفُونَ بالله لَكُمْ إِذَا انقلبتم إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ
عَنْهُمْ . . . ) .أى : أنهم سيحلفون بالله لكم - أيها المؤمنون - إذا ما
رجعتم إليهم من تبوك وذلك لكى تعرضوا عنهم فلا توبخوهم على قعودهم ، ولا
تعنفوهم على تخلفهم .وقوله ( فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ )
تعليل لوجوب الإعراض عنهم ، لا على سبيل الصفح والعفو ، بل على سبيل
الإهمال والترك والاحتقار .أى : فأعرضوا - أيها المؤمنون - عن هؤلاء
المنافقين المتخلفين ، لأنهم " رجس " .أى : قذر ونجس لسوء نواياهم ، وخبث
طواياهم .وقد جعلهم - سبحانه - نفس الرجس . مبالغة فى نجاسة أعمالهم ، وقبح
بواطنهم .وقوله : ( وَمَأْوَاهُمْ جَهَنّمُ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ
يَكْسِبُونَ ) بيان لسوء مصيرهم فى الآخرة .أى : أنهم فى الدنيا محل
الاحتقار والازدراء لنجاسة بواطنهم ، أما فى الآخرة فمستقرهم وموطنهم جهنم
) : بسبب ما اكتسبوه من أعمال قبيحة ، وما اجترحوه من أفعال سيئة .وقوله
وَمَأْوَاهُمْ جَهَنّمُ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ) بدل مما
. قبله

يحلفون لكم لترضوا عنهم فان ترضوا عنهم فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين

كما فسرها الوسيط ولم يذكر - سبحانه - المحلوف به لظهوره أى : يحلفون بالله
لترضوا عنهم ، ولتصفحوا عن سيئاتهم . .وقوله : ( فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ
- فَإِنَّ اللّهَ لاَ يرضى عَنِ القوم الفاسقين ) بيان لحكم الله - تعالى
فيهم ، حتى يكون المؤمنون على حذر منهم .أى : إن هؤلاء المنافقين المتخلفين
، عن الجهاد يحلفون بالله لكم بأنهم ما تخلفوا إلا لعذر ، لكى تصفحوا عنهم
أيها المؤمنون ، فإن صفحتم عنهم على سبيل الفرض فإن الله - تعالى -لا يصفح
، ولا يرضى عن القوم الذين فسقوا عن أمره ، وخرجوا عن طاعته .وقال الآلوسى
والمراد من الآية الكريمة ، نهى المخاطبين عن الرضا عنهم ، وعن الاغترار "
- بمعاذيرهم الكاذبة على أبلغ وجه وأكده ، فإن الرضا عمن لا يرضى عنه الله
تعالى - مما لا يكاد يصدر عن المؤمنين ، والآية نزلت على ما روى عن ابن
عباس فى جد بن قيس ، ومعتب بن قشير ، وأصحابها من المنافقين ، وكانا ثمانين
رجلا ، أمر النبى صلى الله عليه وسلم - المؤمنين لما رجعوا إلى المدينة ،
ألا يجالسوهم ولا يكلموهم فامتثلوا .وقال - سبحانه - ( فَإِنّ الله لاَ
يرضى عَنِ القوم الفاسقين ) ولم يقل فإن الله لا يرضى عنهم ، لتسجيل الفسق
عليهم ، وللإيذان بشمول هذا الحكم لكل من كان مثلهم فى الفسوق وفى الخروج
عن طاعة الله ، تعالى .وجواب الشرط فى قوله : ( فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ
محذوف ، والتقدير : فإن ترضوا عنهم على سبيل الفرض ، فإن رضاكم عنهم لن (
ينفعهم ، لأن الله تعالى .لا يرضى عن القوم الذين خرجوا عن طاعته .وبذلك
، نرى أن هذه الآيات الكريمة قد جانبا آخر من الأحوال القبيحة للمنافقين
، وردت على معاذيرهم الكاذبة ، وأيمانهم الفاجرة بما يفضحهم ويخزيهم
. وتوعدتهم بسوء العاقبة فى الدنيا والآخرة

الاعراب اشد كفرا ونفاقا واجدر الا يعلموا حدود ما انزل الله على رسوله
والله عليم حكيم

كما فسرها الوسيط ثم بعد الحديث الطويل عن النفاق والمنافقين ، أخذت السورة
الكريمة ، فى الحديث عن طوائف أخرى منها الصالح ، ومنها غير الصالح ، وقد
بدأت بالحديث عن الأعراب سكان البادية ، فقال - تعالى - : ( الأعراب
) : أَشَدُّ . . . غُفُورٌ رّحِيمٌ ) .قال صاحب المنار : قوله ، سبحانه
الأعراب أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً ) . بيان مستأنف لحال سكان البادية من
المنافقين ، لأنه مما يسأل عنه بعد ما تقدم فى منافقى الحضر من سكان
المدينة وغيرها من القرى .والأعراب : اسم جنس لبدو العرب ، واحده : أعرابى
والأنثى أعرابية ، والجمع أعاريب ، والعرب : اسم جنس لهذا الجيل الذى ،
: ينطق بهذه اللغة ، بدوه وحضره ، واحده : عربى .والمراد بالأعراب هنا
جنسهم لا كل واحد منهم ، بدليل أن الله . تعالى . قد ذم من يستحق الذم منهم
ومدح من يستحق المدح منهم ، فالآية الكريمة من باب وصف الجنس بوصف بعض ،
، أفراده .وقد بدأ ، سبحانه ، بذكر المنافقين من الأعراب قبل المؤمنين منهم
إلحاقا لهم بمنافقى المدينة الذين تحدثت السورة عنهم قبل ذلك مباشرة حديثا

مستفيضاً ، وبهذا الترتيب الحكيم تكون السورة الكريمة قد واصلت الحديث عن منافقى الحضر والبدو .والمعنى : " الأعراب " سكان البادية ( أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً ) من الكفار والمنافقين الذين يسكنون الحضر والقرى ، وذلك ، لأن ظروف حياتهم البدوية ، وما يصاحبها من عزلة وكفر فى الصحراء. وخشونة فى الحياة . . . كل ذلك جعلهم أقسى قلوباً ، وأجفى قولا ، وأغلظ طبعا ، وأبعد عن سماع ما يهدى نفوسهم إلى الخير من غيرهم سكان المدن .وقوله وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ الله على رَسُولِهِ ) : معطوف على ما قبله لتعديد صفاتهم الذميمة .قال القرطبى : قوله : " وأجدر ( : عطف على " أشد " ومعناه : أخلق ، وأحق ، يقال : فلان جدير بكذا ، أى " خليق به . وأنت جدير أن تفعل كذا ، والجمع جدراء وجديرون ، وأصله من جدر الحائط وهو رفعه بالبناء فقوله : هو أجدر بكذا ، أى : أقرب إليه وأحق به والمعنى : الأعراب أشد كفرا ونفاقا من أهل الحضر الكفار والمنافقين ، وهم. ، كذلك أحق وأخلق من أهل الحضر بأن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله بسبب ابتعادهم عن مجالس رسول الله . صلى الله عليه وسلم . وعدم مشاهدتهم ) : لما ينزل عليه . صلى الله عليه وسلم . من شرائع وأداب وأحكام .وقوله والله عَلِيمٌ حَكِيمٌ ) أى : " عليم " بأحوال عباده الظاهرة والباطنة لا ، يخفى عليه شئ من صفاتهم وطباعهم " وحكيم " فى صنعه بهم ، وفى حكمه عليهم وفيما يشرعه لهم من أحكام ، وفيما يجازيهم به من ثواب أو عقاب .هذا ، وقد ذكر المفسرون هنا أمثلة متعدد لجفاء الأعراب وجهلهم ، ومن ذلك قول الإمام ابن كثير :قال الأعمش عن ابراهيم قال : جلس أعرابى إلى زيد بن صومان ، وهو يحدث أصحابه ، وكانت يده قد أصيبت يوم " نهاوند " فقال الأعرابى : والله إن حديثك ليعجبنى وإن يدك لتريبنى!! فقال زيد : وما يريبك من يدى؟ إنها الشمال!! فقال الأعرابى : والله ما أدرى اليمين يقطعون أو الشماء!! فقال زيد : صدق الله إذ يقول : ( الأعراب أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ اللّه على رَسُولِهِ ) .وورى الأَمام عن ابن عباس عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : " من سكن البادية جفا ، ومن اتبع الصيد غفل ، ومن أتى السلطان افتتن " .وورى الإمام مسلم " عن عائشة قال : قدم ناس من الاعراب على رسول الله - صلى الله عليه . وسلم - فقالوا : أتقبلون صبيانكم؟ فقال - صلى الله عليه وسلم - نعم فقالوا : لكنا والله ما نقبل!! فقال - صلى الله عليه وسلم - " وما أملك إن " كان الله نزع منكم الرحمة " .

ومن الاعراب من يتخذ ما ينفق مغرما ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم

: كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - حال فريق آخر من منافقى الاعراب فقال أى : ومن الاعراب. ( وَمِنَ الأعراب مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَماً ) قوم آخرون يعتبرون ما ينفقونه فى سبيل الله غرامة وخسارة عليهم لأنهم لا ينفقون ما ينفقونه طمعا فى ثواب ، أو خوفا من عقاب وإنما ينفقونه تقية ورياء ومداراة للمسلمين ، لا مساعدة للغزاة والمجاهدين ولا حبا فى انتصار المؤمنين .قال الجمل : وقوله : ( وَمِنَ الأعراب مَن يَتّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَماً ) " من " مبتدأ وهى موصولة أو موصوفة ، و " مغرما " . مفعول ثان " لأن " اتخذ " هنا بمعنى صير ، والمفعول الأول قوله : " ما ينفق ، والمغرم : الخسران ، مشتق من الغربم وهو الهلاك لأنه سببه ، وقيل أصله. الملازمة ، ومنه الغريم للزومه من يطالبه .وقوله : ( وَيَتَرَبّصُ بِكُمُ الدوائر ) معطوف على ما قبله ، والتربص : الانتظار والترقب والدوائر : جمع دائرة . وهو ما يحيط بالإنسان من مصائب ونكبات ، كما تحيط الدائرة بالشئ الذى بداخلها .أى : أنهم بجانب اعتبارهم ما ينفقونه غرامة وخسارة ، ينتظرون بكم - أيها المؤمنون - صروف الدهر ونوائبه التى تبدل حالكم من الخير إلى الشر ومن النصر إلى الهزيمة ، ومن الصحة إلى المرض والأسقام ، ومن الأمان والاطمئنان إلى القلب والاضطراب . .وقوله : ( عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السوء ) - جملة معترضة ، جئ بها للدعاء عليهم .أى : عليهم لا عليكم - أيها المؤمنون - تدور دائرة السوء ، التى يتبدل بها حالهم إلى الهلاك والفساد .والسوء - بفتح السين - مصدر ساءه يسوءه سوءا ، إذا فعل به ما يكره ، والسوء بالضم - اسم منه . وقيل المفتوح بمعنى الذم ، والمضموم بمعنى العذاب والضرر وإضافة الدائرة إلى السوء من إضافة الموصوف إلى صفته للمبالغة ، كما فى. ، قولهم : رجل صدق .وفى هذا التعبير ما فيه من الذم لهؤلاء المنافقين لأنه - سبحانه - جعل السوء كأنه دائرة تطبق عليهم فلا تفلتهم ، وتدور بهم فلا تدع لهم مهربا أو منجاة من عذابها وضررها .وقوله : ( والله سَمِيعٌ عَلِيمٌ ) تذييل قصد به تهديدهم وتحذيرهم بما ارتكسوا فيه من نفاق وكفر وشقاق .والله تعالى - " سميع " لكل ما يتفوهون به أقوال ، " عليم " بكل ما يظهرونه وما يبطنونه من أحوال ، وسيحاسبهم على ما صدر منهم حسابا عسيرا يوم القيامة : وينزل بهم العقاب الذى يناسب جرائمهم . .

ومن الاعراب من يؤمن بالله واليوم الاخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول الا انها قربة لهم سيدخلهم الله في رحمته ان الله غفور رحيم

، كما فسرها الوسيط وبعد أن ذكر - سبحانه - حال هؤلاء الأعراب المنافقين أتبعه ببيان حال المؤمنين الصادقين منهم فقال : ( وَمِنَ الأعراب مَن يُؤْمِنُ بالله واليوم الآخر ) .أى : ومن الأعراب قوم آخرون من صفاتهم أنهم يؤمنون بالله إيمانا صادقا ، ويؤمنون باليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب وقوله : ( وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ الله وَصَلَوَاتِ. الرسول ) مدح لهم على إخلاصهم وسخائهم وطاعتهم . .والقربات : جمع قربة وهى : ما يتقرب به الإنسان إلى خالقه من أعمال الخير ، والمراد بصلوات الرسول دعواته للمتقربين إلى الله بالطاعة .أى : ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم - الآخر إيمانا حقا ، ويعتبر كل ما ينفقه فى سبيل الله وسيلة للتقرب إليه سبحانه - وتعالى بالطاعة ، ووسيلة للحصلو على دعوات الرسول - صلى الله عليه وسلم - له بالرحمة والمغفرة ، وبحسنات الدنيا والآخرة .ولقد كان من عادة النبى - صلى الله عليه وسلم - أن يدعو للمتصدقين بالخير والبركة ، فقد ورد فى الحديث الشريف " أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - دعا لآل أبى أوفى : عندما تقدموا إليه بصدقاتهم فقال : " اللهم صلى على آل أبى أوفى" أى ارحمهم وبارك لهم فى أموالهم . .وقوله : ( ألا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ) شهادة لهم منه سبحانه - بصدق إيمانهم ، وخلوص نياتتهم ، وقبول صدقاتهم والضمير فى قوله ( إِنَّهَا ) يعود على النفقة التى أنفقوها فى سبيل الله. أداة استفتاح جئ بها لتأكيد الخبر والاهتمام به . أى : ألا إن هذا ( ألا ) ، النفقات التى تقربوا بها إلى الله ، مقبولة عنده - سبحانه - قبولا مؤكدا وسيجازيهم عليها بما يستحقون من أجر جزيل . . .وقوله ( سَيُدْخِلُهُمُ الله فِي رَحْمَتِهِ ) وَعْدٌ لهم بإحاطة رحمته بهم . والسين للتحقيق والتأكيد أى : أن هؤلاء المؤمنين بالله واليوم الآخر ، والمتقربين إليه سبحانه. بالطاعات ، سيغمرهم الله تعالى برحمته التى لا شقاء معها .قال صاحب الكشاف وقوله : ( ألا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ الله فِي : رَحْمَتِهِ ) شهادة من الله للمتصدق بصحة ما اعتقد من كون نفقته قربات وصلوات ، وتصديق لرجائه على طريق الاستئناف مع حرفى التنبيه والتحقيق المؤذنتين بثبات الأمر وتمكنه ، وكذلك قوله : ( سَيُدْخِلُهُمُ ) وما فى السين من تحقيق الوعد . وما أدل هذا الكلام على رضا الله تعالى عن ) : المتصدقين ، وأن الصدقة منه مكان ، إذا خلصت النية من صاحبها .وقوله : إِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ) تذييل مقرر لما قبله على سبيل التعليل .أى إن الله تعالى - واسع المغفرة ، كثير الرحمة للمخلصين الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم .

والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه واعد لهم جنات تجري تحتها الانهار خالدين فيها ابدا ذلك الفوز العظيم

كما فسرها الوسيط وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد ذمت من يستحق الذم من الأعراب ومدحت من يستحق المدح منهم ، وبينت مصير كل فريق ليكون عبرة للمعتبرين وذكرى للمتذكرين وبعد هذا التقسيم للأعراب ، انتقلت السورة للحديث عن المؤمنين الصادقين الذين وقفوا إلى جانب الرسول - صلى الله عليه . . . وسلم - ، وأطاعوه فى السر والعلن ، فقال تعالى : ( والسابقون الأولون فهذه الآية الكريمة قد مدحت ثلاث طوائف من المسلمين المعاصرين للعهد. ( النبوى .الطائفة الأولى ( والسابقون الأولون مِنَ المهاجرين ) وهم الذين تركوا ديارهم وأموالهم بمكة ، وهاجروا إلى الحبشة ، ثم الى المدينة من أجل - إعلاء كلمة الله واستمروا فى المدينة مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم إلى أن تم الفتح ودخل الناس فى دين الله أفواجا .وقيل المراد بهم : الذين : صلوا إلى القبلتين ، وقيل : الذين شهدوا غزوة بدر .والطائفة الثانية السابقون الأولون من الأنصار ، وهم الذين بايعوا النبى - صلى الله عليه وسلم - قبل أن يهاجر اليهم إلى المدينة بيعة العقبة الأولى والثانية .وكانت بيعة العقبة الأولى فى السنة الحادية عشرة من البعثة ، وكان عدد المشتركين فيها سبعة أفراد .أما بيعة العقبة الثانية فكانت فى السنة الثانية عشرة من البعثة ، وكان عدد المشتركين فيها سبعين رجلا وامرأتين .ثم يلى هؤلاء أولئك ، المؤمنون من أهل المدينة الذين دخلوا فى الإسلام على يد مصعب بن عمير قبل وصول الرسول - صلى الله عليه وسلم - اليها .ثم يلى هؤلاء جميعا أولئك الذين آمنوا بالنبى - صلى الله عليه وسلم - بعد مقدمه إلى المدينة والطائفة الثالثة : ( والذين اتبعوهم بِإِحْسَانٍ ) أى : الذين اتبعوا السابقين فى الإسلام من المهاجرين والأنصار ، اتباعا حسنا فى أقوالهم وأعمالهم وجهادهم ونصرتهم لدعوة الحق .قال الآلوسى ما ملخصه : وكثير من . الناس ذهب إلى أن المراد بالسابقين الأولين : جميع المهاجرين والأنصار ومعنى كونهم سابقين : أنهم أولون بالنسبة إلى سائر المسلمين .روى عن حميد

بن زياد قال : قلت يوما لمحمد بن كعب القرظى ، ألا تخبرنى عن الصحابة فيما كان بينهم من الفتن؟ فقال لى : إن الله - تعالى - قد غفر لجميعهم ، وأوجب لهم الجنة فى كتابه ، محسنهم ومسيئهم ، فقلت له : وفى أى موضع أوجب لهم الجنة ، فقال : سبحانه!! ألم تقرأ قوله . تعالى - : ( والسابقون الأولون الآية فقد أوجب . سبحانه لجميع الصحابة الجنة وشرط على تبايعهم أن ( . . يقتدروا بهم فى أعمالهم الحسنة وألا يقولوا فيهم إلا حسنا لا سوءا .وقوله بيان لسمو منزلتهم ، وارتفاع ( رَّضِيَ الله عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ) : مكانتهم .أى : رضى الله عنهم فى إيمانهم وإخلاصهم ، فتقبل أعمالهم ، ورفع ، درجاتهم وتجاوز عن زلاتهم ، ورضوا عنه ، بما أسبغه عليهم من نعم جليلة وبما ناله منه . سبحانه . من هداية وثواب .ثم ختم سبحانه الآية الكريمة ببيان ما هيأه لهم فى الآخرة من إكرام فقال : ( وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ ( تَجْرِي تَحْتَهَا الأنهار خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَداً ذلك الفوز العظيم - أى : أنه - سبحانه - بجانب رضاه عنهم ورضاهم عنه فى الدنيا ، قد أعد لهم. سبحانه - فى الآخرة جنات تجرى من تحت أشجارها الأنهار خالدين فيها خلودا ، أبديا وذلك الرضا والخلود فى الجنات من الفوز العظيم الذى لا يقاربه فوز ولا تدانيه سعادة .قال الإمام ابن كثير : أخبر الله - تعالى - فى هذه الآية " أنه قد رضى عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان . فياويل من أبغضهم ، أو سبهم ، أو أبغض أو سب بعضهم ، ولا سيما سيد الصحابة بعد الرسول ، وخيرهم وأفضلهم أعنى الصديق الأكبر والخليفة الأعظم أبا بكر بن أبى قحافة ، فإن الطائفة المخذولة من الرافضة يعادون أفضل الصحابة ، ويبغضونهم ويسبونهم ، عياذا بالله من ذلك ، وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة وقلوبهم منكوسة ، فأين هؤلاء من الايمان بالقرآن إذ يسبون من رضى الله عنهم؟وأما أهل السنة فإنهم يترضون عمن رضى الله عنه ، ويسبون من سبه الله ورسوله ، ويوالون من يوالى الله ، ويعادون من يعادى الله ، وهم متبعون لا مبتدعون ، وهؤلاء هم حزب الله المفلحون ، وعباده المؤمنون .وبهذا نرى أن هذه الآية الكريمة قد مدحت السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ومن تبعهم بإحسان ، وذلك لقوة إيمانهم ، وصفاء نفوسهم وإيثارهم ما عند الله على هذه الدنيا وما فيها . .ثم تحدثت السورة بعد ذلك عن أصناف أخرى من الناس ، منهم قوم . أجادوا النفاق ، ومرنوا عليه ، ولجوا فيه . ومنهم قوم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ، ومنهم قوم موقوف أمرهم إلى أن يظهر الله حكمه فيهم فقال تعالى : ( وَآخَرُونَ اعترفوا بِذُنُوبِهِمْ . . . عَلِيمٌ حَكِيمٌ ) .قال القرطبى : ومعنى ( مَرَدُواْ عَلَى النفاق ) أقاموا عليه ولم يتوبوا منه ، أو لجوا فيه وأبوا غيره وأصل الكلمة من اللين والملاسة والتجرد ، فكأنهم تجردوا للنفاق ، ومنه رملة مرداء أى لانبت فيها ، وغصن : أمرد . أى : لا ورق له . . ويقال : مرد يمرد مروداً ومرادة .والمعنى ، اذكروا أيها المؤمنون أن يسكن من حلو مدينتكم قوم من الأعراب منافقون فاحترسوا منهم ، واحترسوا - أيضا - من قوم آخرين يسكنون معكم داخل المدينة مردوا على النفاق ، أى : مرنوا عليه ، وأجادوا فنونه ، حتى بلغوا فيه ، الغاية .

وممن حولكم من الاعراب منافقون ومن اهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون الى عذاب عظيم

) كما فسرها الوسيط قال الآلوسى ما ملخصه : والمراد بالمصول . فى قوله وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ ) . قبائل : جهينة ، ومزينة وأشجع ، وأسلم . . وكانت منازلهم حول المدينة وإلى هذا ذهب جماعة من المفسرين .واستشكل ذلك بأن النبى - صلى الله عليه وسلم - مدح بعض هذه القبائل ودعا لبعضها فقد أخرج ، الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة أنه قال : " قريش ، والأنصار ، وجهينة ومزينة ، وأشجع وأسلم ، وغفار ، موالى الله - تعالى - ورسوله لا والى لهم غيره " .وأجيب ذلك باعتبار الأغلب منهم .وقوله : ( لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ) بيان لتمردهم فى النفاق وتمهرهم فيه .أى : أنت أيها الرسول الكريم .لا تعرف هؤلاء المنافقين . مع كمال فطنتك ، وصدق فراستك لأنك تعامل الناس بظاهرهم ، وهم قد أجادوا النافق وحذقوه ، واجتهدوا فى الظهرو بمظهر المؤمنين ، أما نحن فإننا نعلمهم لأننا لا يخفى علينا شئ من ظواهرهم أو بواطنهم .قال الإمام ابن كثير : وقوله تعالى ( لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ )لا ينافى قوله تعالى ( وَلَوْ نَشَآءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ القول . . . لأن هذا من باب التوسم فيهم بصفات يعرفون بها لا أنه يعرف جميع من عنده ( من أهل النفاق والريب على التعيين ، وقد كان - صلى الله عليه وسلم - يعلم أن فى بعض من يخالطه من أهل المدينة نفاقا ، وإن كان يراه صباحا ومساء وشاهد هذا بالصحة " ما رواه الإمام أحمد بن جبير بن مطعم قال : قلت : يا. رسول الله ، إنهم يزعمون أنه ليس لنا أجر بمكة ، فقال : " لتأتينكم أجوركم ولو كنتم فى جحر ثعلب " وأصغى إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - برأسه فقال : " إن فى أصحابى منافقين " ومعناه أنه قد يبوح بعض المنافقين

والمرجفين بما لا صحة له من الكلام ، ومن مثلهم صدر هذا الكلام الذى سمعه
جبير بن مطعم ثم قال : وقد تقدم فى تفسير قوله - تعالى - ( وَهَمُّوا
بِمَا لَمْ يَنَالُوا ) أنه - صلى الله عليه وسلم - أعلم حذيفة بأعيان
أربعة عشر أو خمسة عشر منافقا . وهذا تخصيص لا يقتضى أنه اطلع على أسمائهم
وأعيانهم كلهم .وروى الحافظ بن عساكر " عن أبى الدرداء ، أن رجلا يقال له
حرملة أتى النبى - صلى الله عليه وسلم - فقال : الإيمان ها هنا وأشار بيده
إلى لسانه ، والنفاق ها هنا وأشار بيده إلى قلبه فقال رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - " اللهم اجعل له لسانا ذاكرا . وقلبا شاكرا ، وارزقه حبى ، وحب
من يحبنى ، وصير أمره إلى خير " .فقال الرجل يا رسول الله : إنه كان لى
أصحاب من المنافقين وكنت راسا فيهم ، أفلا آتيك بهم؟ فقال : - صلى الله
عليه وسلم - : " ومن أتانا استغفرنا له ، ومن اصر فالله أولى به ، ولا
تخرقن على أحد سترا " " .وقال الآلوسى . واستدل بالآية على أنه لا ينبغى
الإقدام على دعوى معرفة الأمور الخفية من أعمال القلب ونحوها ، فقد أخرج
بعد الرازق وابن المنذر وغيرهما عن قتادة : أنه قال : ما بال أقوام يتكلفون
على الناس يقولون : فلان فى الجنة وفلان فى النار ، فإذا سألت أحدهم ما بال
أقوام يتكلفون على الناس يقولون : فلان فى الجنة وفلان فى النار ، فإذا
سألت أحدهم عن نفسه قال :لا أدرى . لعمرى لأنت بنفسك أعلم منك بأعمال
الناس ، ولقد تكلفت شيئا ما تكلفه نبى . فقد قال نوح عليه السلام " وما
. " علمى بما كانوا يعملون " وقال شعيب عليه السلام " وما أنا عليكم بحفيظ
وقال الله تعالى لنبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - ( لاَ تَعْلَمُهُمْ
نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ) .وهذه الآيات ونحوها أقوى دليل على الرد على من يزعم
الكشف والاطلاع لعى المغيبات بمجرد صفاء القلب ، وتجرد النفس عن الشواغل
ثم قال : والجملة الكريمة ( لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ) تقرير.
، لما سبق من مهارتهم فى النفاق ، أى :لا يقف على سرائرهم المذكورة فيهم
إلا من لا تخفى عليه خافية ، لما هم عليه من شدة الاهتمام بإبطان الكفر
وظهار الإخلاص .وقوله : ( سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ
إلى عَذَابٍ عَظِيمٍ ) وعيد لهم بسوء المصير فى الدنيا والآخرة .أى : هؤلاء
المنافقون الذين مردوا على النفاق ، سنعذبهم فى الدنيا مرتين ، مرة عن طريق
فضحيتهم وهتك أستارهم وجعلهم يعيشون فى قلب وهم دائم ، والأخرى عن طريق ضرب
الملائكة لوجوههم وأدبارهم عند قبض أرواحهم وما يتبع ذلك من عذابهم فى
- قبورهم إلى أن تقوم الساعة ، فيجدون العذاب الأكبر الذى عبر عنه - سبحانه
بقوله ( ثُمَّ يُرَدُّونَ إلى عَذَابٍ عَظِيمٍ ) .أى : ثم يعودن ويرجعون
إلى خالقهم - سبحانه - يوم القيامة فيعذبهم عذابا عظيما بسبب إصرارهم على
، النفاق ، ورسوخهم فى المكر والخداع .قال أبو السعود : ولعل تكرير عذابهم
لما فيهم من الكفر المشفوع بالنفاق ، أو النفاق المؤكد بالتمرد فيه . ويجوز
أن يكون المراد بالمرتين مجرد التكثير ، كما فى قوله تعالى( فارجع البصر
. هَلْ ترى مِن فُطُورٍ ) أى : كرة بعد أخرى

واخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا واخر سيئا عسى الله ان يتوب عليهم
ان الله غفور رحيم

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - حال طائفة أخرى من المسلمين فقال
وَآخَرُونَ اعترفوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ
سَيِّئاً ) . .قال الآلوسى : قوله : وآخرون اعترفوا بذنبوبهم . . بيان لحال
طائفة من المسلمين ضعيفة الهمم فى أمر الدين ، ولم يكونوا منافقين على
الصحيح . وقيل هم طائفة من المنافقين إلا أنهم وفقوا للتوبة فتاب الله
عليهم .والمعنى : ويوجد معكم أيها المؤمنون قوم آخرون من صفاتهم أنهم
اعترفوا بذنوبهم أى أقروا بها ولم ينكروها .وقوله : ( خَلَطُواْ عَمَلاً
صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً ) أى خلطوا عملهم الصالح وهو جهادهم فى سبيل
الله قبل غزوة تبوك ، بعمل سئ وهو تخلفهم عن الخروج إلى هذه الغزوة .وقوله
أى عسى الله تعالى : أن يقبل ( عَسَى الله أن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ) :
توبتهم ، ويغسل ، حوبتهم ، ويتجاوز عن خطاياهم .وعبر - سبحانه - بعسى
للإشعار بأن ما يفعله تعالى ليس إلا على سبيل التفضل منه ، حتى لا يتكل
الشخص ، بل يكون على خوف وحذر .وقد قالوا إن كلمة عسى متى صدرت عن الله
تعالى - فهى متحققة الوقوع ، لأنها صادرة من كريم ، والله تعالى أكرم من أن
يطمع أحدا فى شئ لا يعطيه إياه . وقوله : إن الله غفور رحيم ، تعليل لرجاء
قبول توبتهم ، إذ معناه ، إن الله تعالى كثير المغفرة للتائبين ، واسع
الرحمة للمحسنين .هذا ، وقد ذكر المفسرون هنا روايات متعددة فى سبب نزول
هذه الآية ولعل أرجح هذه الروايات ما رواه ابن جرير من " أن هذه الآية نزلت
فى أبى لبابة وأصحابه ، وكانوا تخلفوا عن النبى - صلى الله عليه وسلم - فى
غزوة تبوك ، لما قفل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من غزوته ، وكان
قريبا من المدينة ندموا على تخلفهم عن رسول الله وقالوا : نكون فى الضلال
والأطعمة والنساء ونبى الله فى الجهاد واللأواء . والله لنوثقن أنفسنا
بالسوارى ، ثم لا نطلقها حتى يكون نبى الله هو الذى يطلقنا .وأوثقوا أنفسهم

وبقى ثلاثة لم يوثقوا أنفسهم بالسوارى فقد رسول الله - صلى الله عليه .
وسلم - من غزوته فمر بالمسجد فأبصرهم فسأل عنهم ، فقيل : له : إنه أبو
لبابة وأصحابه تخلفوا عنك يا نبى الله ، فصنعوا بأنفسهم ما ترى ، وعاهدوا
الله ألا يطلقوا أنفسهم حتى تكون أنت الذى تطلقهم .فقال - صلى الله عليه
وسلم - : "لا أطلقهم حتى أؤمن بإطلاقهم ، ولا أعذرهم حتى يعذرهم الله ، قد
رغبوا بأنفسهم عن غزوة المسلمين " ، فأنزل الله تعالى : ( وَآخَرُونَ
اعترفوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً . . ) .
الآية ، فأطلقهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعذرهم " .

خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم ان صلاتك سكن لهم والله
سميع عليم

كما فسرها الوسيط ثم أمر الله تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يأخذ
الصدقات من هؤلاء الذين اعترفوا بذنوبهم ومن غيرهم ، فقال : ( خُذْ مِنْ
أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ) .أخرج ابن
جرير عن ابن عباس قال : " لما أطلق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أبا
لبابة وأصحابه جاءوا بأموالهم إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالوا
له يا رسول الله هذه أموالنا فتصدق بها عنا ، واستغفر لنا ، فقال " ما أمرت
أن آخذ من أموالكم شيئا " " .فأنزل الله تعالى ( خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ
صَدَقَةً . . . ) الآية .وقال الإمام ابن كثير : أمر الله تعال - رسوله أن
يأخذ من أموالهم صدقة يطهرهم ويزكيهم بها . وهذا عام وإن أعاد بعضهم الضمير
فى أموالهم إلى الذين اعترفوا بذنوبهم .ولهذا اعتقد بعض مانعى الزكاة من
أحياء العرب أن دفع الزكاة إلى الإمام لا يكون ، وإنما كان هذا خاصا
بالرسول - صلى الله عليه وسلم - ولهذا احتجوا بقوله : - تعالى - : ( خُذْ
مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً . . . . ) الآية .وقد رد عليهم هذا التأويل
والفهم الفاسد أبو بكر الصديق وسائر الصحابة ، وقاتلوهم حتى أدوا الزكاة
الى الخليفة كما كانوا يؤدونها إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى
قال الصديق : " الله لومنعونى عناقا كانوا يؤدونه لرسول الله صلى الله عليه
وسلم لقاتلتهم على منعه " .والمعنى : خذ - أيها الرسول الكريم - من أموال
هؤلاء المعترفين بذنوبهم ، ومن غيرهم من اصحابك " صدقة " معينة ، كالزكاة
المفروضة ، أو غير معينة كصدقة التطوع .وقوله : ( تُطَهِّرُهُمْ
وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ) بيان للفوائد المترتبة على هذه الصدقة .أى : من
فوائد هذه الصدقة أنها تطهر النفوس من رذائل الشح والبخل والطمع . . وتزكى
" : القلوب من الأخلاق الذميمة ، وتنمى الأموال والحسنات قال بعضهم : قوله
تطهرهم " قرئ مجزوما على أنه جواب للأمر . وقرئ . مرفوعا على أنه حال من
ضمير المخاطب فى قوله : " خذ " أو صفة لقوله " صدقة " والعائد على الأول
محذوف ثقة بما بعده أى : تطهرهم بها . .وقوله : " وتزكيهم " لم يقرأ إلا
بإثبات الياء ، على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، والجملة حال من الضمير فى الأمر
، " أو فى جوابه . أى : وأنت تزكيهم بها .هذا على قراءة الجزم فى " تطهرهم
وأما على قراءة الرفع فيكون قوله " وتزكيهم بها " معطوف على قوله " تطهرهم
حالا أو صفة .وقوله : وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم أى : وادع لهم بالرحمة "
والمغفرة ، وقبول التوبة ، فإن دعاءك لهم تسكن معه نفوسهم ، وتطمئن به
قلوبهم ، ويجعلهم فى ثقة من أن الله - تعالى - قد قبل توبتهم ، فأنت روسله
الأمين ، ونبيه الكريم .فالمراد بالصلاة هنا : الدعاءلهم بالرحمة والمغفرة
قال بعضهم : " وظاهر " قوله : " وصل عليهم " أنه يجب على الإمام أو نائبه.
إذا أخذ الزكاة أن يدعو للمتصدق . وبهذا أخذ داود وأهل الظاهر .وأما سائر
الفقهاء فقد حملوا الأمر هنا على الندب والاستحباب ، " لأن الرسول - صلى
الله عليه وسلم - قال لمعاذ : " أعلمهم أن عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم
فترد على فقراءهم " ولم يأمره بالدعاء . .أما صيغة الدعاء فلم يرد فيها
" - تعيين إلا ما رواه الستة - غير الترمذى من قوله - صلى الله عليه وسلم
اللهم صلى على آل أبى أوفى " - عندما أخذ منهم الزكاة - .ومن هنا قال
الحنابلة وداود وأهل الظاهر لا مانع من أن يقول آخذ الزكاة : اللهم صل على
آل فلان .وقال باقى الأئمة لا يجوز أن يقال : اللهم صل على آل فلان ، وإن
ورد فى الحديث ، لأن الصلاة صارت مخصوصة فى لسان السلف بالانبياء - صلوات
- الله عليهم - ، كما أن قولنا : - عز وجل - صار مخصوصا بالله - تعالى
قالوا : وإنما أحدث الصلاة على غير الأنبياء مبتدعو الرافضة فى بعض الأئمة.
والتشبه بأهل البدع منهى عنه .ولا خلاف فى أنه يجوز أن يجعل غير الأنبياء ،
. . تبعا لهم فيقال : اللهم صل على محمد وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته
لأن السلف استعملوا ذلك ، وأمرنا به فى التشهد ، ولأن الصلاة على التابع
تعظيم للمتبوع . .وقوله : ( والله سَمِيعٌ عَلِيمٌ ) أى : سميع لاعترافهم
بذنوبهم وسميع لدعائهم سماع قبول وإجابة ، وعليم بندمهم وتوبتهم ، وبكل شئ
. فى هذا الكون ، وسيجازى كل إنسان بما يستحقه من ثواب أو عقاب

الم يعلموا ان الله هو يقبل التوبة عن عباده وياخذ الصدقات وان الله هو

التواب الرحيم

كما فسرها الوسيط ثم حرضهم - سبحانه - على التوبة النصوح ، وحثهم على بذل الصدقات فقال : ( أَلَمْ يعلموا أَنَّ الله هُوَ يَقْبَلُ التوبة عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصدقات . . . ) .أى : ألم يعلم هؤلاء التائبون من ذنوبهم ، أن الله - تعالى - وحده ، هو الذى يقبل التوبة الصادقة من عباده المخلصين ، وأنه - سبحانه - هو الذى " يأخذ الصدقات " .أى : يتقبلها من أصحابها قبول من يأخذ شيئا ليؤدى بدله : فالتعبير بالأخذ للترغيب فى بذل الصدقات ، ودفعها للفقراء . والاستفهام للتقرير والتحضيض على تجديد التوبة وبذل الصدقة .وقوله : ( وَأَنَّ الله هُوَ التواب الرحيم ) تذييل قصد به تقرير ما قبله وتأكيده .أى : وأن الله وحده هو الذى يقل توبة المرة بعد الأخرى ، وأنه هو الواسع الرحمة بهم ، الكثير المغفرة لهم :قال ابن كثير : قوله : ( أَلَمْ يعلموا أَنَّ الله هُوَ يَقْبَلُ التوبة عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصدقات ) هذا تهييج إلى التوبة والصدقة اللتين كل منهما يحط الذنوب ويمحقها ، وأخبر - تعالى - أن كل من تاب إليه تاب عليه ، ومن تصدق بصدقة من كسب حلال فإن الله يتقبلها بيمينه ، فيربيها لصاحبها حتى تصير الثمرة مثل أحد ، كل جاء بذلك الحديث عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فعن أبى هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : " إن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيربيها لأحدكم كما يربى أحدكم مهره ، حتى إن اللقمة لتكون مثل أحد " وتصديق ذلك فى كتاب الله قوله : ( أَلَمْ يعلموا أَنَّ الله هُوَ يَقْبَلُ التوبة عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصدقات ) . وقوله : وعن عبد الله بن مسعود قال : إن ( يَمْحَقُ الله الربا وَيُرْبِي الصدقات ) الصدقة تقع فى يد الله - تعالى - قبل أن تقع فى يد السائل ، ثم قرأ هذه الآية . ( أَلَمْ يعلموا أَنَّ الله هُوَ يَقْبَلُ التوبة عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصدقات . . . ) .

وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون

كما فسرها الوسيط ثم أمر - سبحانه - بالتزود من العمل الصالح ، وحذر من الوقوع فى العمل السئ ، فقال - تعالى - : ( وَقُلِ اعملوا فَسَيَرَى الله عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ والمؤمنون ) .أى : وقل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء التائبين وغيرهم ، قل لهم : اعملوا ما تشاءون من الأعمال ، فإن الله - سبحانه - سيطلع رسوله والمؤمنين عليها كذلك .وخص رسوله والمؤمنين بالذكر ، لأنهم هم الذين يهتم المخاطبون باطلاعهم .قال الآلوسى ما ملخصه : وقوله : ( فَسَيَرَى الله عَمَلَكُمْ ) تعليل لما قبله ، أو تأكيد لما يستفاد منه من الترغيب والترهيب ، والسين للتأكيد . . والمراد من رؤية الله العمل - عند جمع - الاطلاع عليه ، وعلمه علما جليا ، ونسبة ذلك للرسول - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين ، باعتبار ان الله - تعالى - لا يخفى ذلك عنهم ، بل يطلعهم عليه . . . . " .وقوله : ( وَسَتُرَدُّونَ إلى عَالِمِ الغيب والشهادة فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ) بيان لما سيكون عليه حالهم فى الآخرة .أى : وسترجعون بعد موتكم إلى الله - تعالى - الذى لا يخفى عليه شئ ، فينبئكم بما كنتم تعملونه فى الدنيا من خير أو شر ، وسيجازيكم بما تستحقونه من ثواب أو عقاب .

واخرون مرجون لامر الله اما يعذبهم واما يتوب عليهم والله عليم حكيم

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - حال قسم آخر من أقسام المتخلفين عن غزوة تبوك ، فقال - تعالى - : ( وَآخَرُونَ لأَمْرِ الله إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ . . ) .قال الجمل : قوله : ( وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ . . ) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عمر وابو بكر عن عاصم " مرجأون " بهمزة مضمونة بعدها واو ساكنة . وقرأ الباقون " مرجون " دون تلك الهمزة . . وهما لغتان ، يقال أرجأته وأرجيته . . "وهذه الآية الكريمة معطوفة على قوله - تعالى - قبل ذلك : ( وَآخَرُونَ اعترفوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً ) .والمعنى : ومن المتخلفين عن الخروج معك إلى تبوك - يا محمد - قوم آخرون موقوف أمرهم إلى أن يحكم الله بحكمه العادل ، فهو - سبحانه -" إما يعذبهم " بأن يميتهم بلا توبة ( وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ) أى : يقبل توبتهم .وهذا الترديد - الذى يدل عليه لفظ " إما " ، إنما هو بالنسبة للناس ، وإلا فالله - تعالى - عليم بما هو فاعله بهم .والحكمة من إيهام أمرهم ، إثارة الهم والخوف فى قلوبهم لتصح توبتهم؛ لأن التوبة عندما تجئ بعد ندم شديد ، وتأديب نفسى . . تكون مرجوة القبول منه - سبحانه - .وقوله ( والله عَلِيمٌ ) أى : والله - تعالى - عليم بأحوال خلقه وبما يصلحهم فى أمورهم ، حكيم فيما يشرعه لهم من أحكام .قال الآلوسى : والمراد بهؤلاء " المرجون لأمر الله . . . " " كما

جاء فى الصحيحين : هلال بن أمية ، وكعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، كانوا
قد تخلفوا عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى غزوة تبوك ، وهموا
- باللحاق به فلم يتيسر لهم ذلك - فقعدوا فى المدينة كسلا وميلا إلى الدعة
ولم يكن تخلفهم عن نفاق ، فلما قدم النبى - صلى الله عليه وسلم - وكان ما
كان من أمر المتخلفين - قالوا :لا عذر لنا إلا الخطئية ، ولم يعتذروا كما
اعتذر غيرهم ، فأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - باجتنابهم . . إلى أن
نزل قوله - تعالى - بعد ذلك : ( لَقَدْ تَابَ الله على النبي والمهاجرين
والأنصار ) . . ( وَعَلَى الثلاثة الذين خُلِّفُواْ ) فأمر - صلى الله عليه
وسلم - بخالطتهم ، وكانت مدة وقفهم خمسين ليلة بقدر مدة التخلف ، إذ كانت
مدة غيبته - صلى الله عليه وسلم - عن المدينة خميسن ليلة ، فلما تمتعوا
بالراحة فى تلك المدة مع تعب إخوانهم فى السفر ، عوقبوا بهجرهم ووقفهم تلك
المدة " .وبذلك تكون هذه الآيات الكريمة قد ذكرت ثلاث طوائف من المتخلفين
عن غزوة تبوك .أما الطائفة الأولى فهى التى مردت على النفاق ، وقد عبر
عنها - سبحانه - بقوله :( وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِّنَ الأعراب
مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ المدينة مَرَدُواْ عَلَى النفاق . . ) وأما
الطائفة الثانية فهى التى سارعت إلى الاعتذار والاتراف بالذنب ، فقبل الله
توبتهم ، وقد عبر عنها - سبحانه - بقوله : ( وَآخَرُونَ اعترفوا
بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً ) .وأما
الطائفة الثالثة فهى التى لم تجد عذراً تعتذر به ، فأوقف الله أمرهم إلى أن
) : حكم بقبول توبتهم بعد خمسين ليلة ، وقد عبر عنها - سبحانه - بقوله
وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ الله إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ
عَلَيْهِمْ . ( . .

والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وارصادا لمن حارب
الله ورسوله من قبل وليحلفن ان اردنا الا الحسنى والله يشهد انهم لكاذبون

كما فسرها الوسيط ثم ختم السورة الكريمة حديثها الطويل المتنوع عن النفاق
والمنافقين ، بالحديث عن مسجد الضرار الذى بناه المنافقون ليكون مكانا
للإضرار بالإسلام والمسلمين ، فقال - تعالى - . ( والذين اتخذوا
مَسْجِداً . . . والله عَلِيمٌ حَكِيمٌ ) .قال الإمام ابن كثير : سبب نزول
هذه الآيات الكريمات ، أنه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - إليها ، رجل من الخروج يقال له أبو عامر الراهب ، وكان قد تنصر
فى الجاهلية ، وقرأ علم أهل الكتاب ، وكان فيه عبادة فى الجاهلية ، وله شرف
فى الخزرج كبير ، فلما قدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مهاجرا إلى
المدينة ، واجتمع المسلمون عليه وصار للإسلام كلمة عالية ، وأظهرهم الله
يوم بدر ، شرق اللعين أبو عامر بريقه وبارزة العداوة ، وظاهر بها ، وخرج
فارا إلى كفار مكة ليمالئهم على حرب المسلمين فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء
- العرب ، وقدموا عام " أحد " فكان من أمر المسلمين ما كان ، وامتحنهم الله
تعالى - وكانت العاقبة للمتقين .وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين
الصفين ، فوقع فى إحداهن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصيب فى ذلك
اليوم ، فجرح وجهه وكسرت رباعتيه اليمنى والسفلى وشج رأسه . وتقدم أبو عامر
فى أول المبارزة إلى قومه من الأنصار ، فخاطبهم ، واستمالهم إلى نصره
وموافقته ، فلما عرفوا كلامه قالوا :لا أنعم الله لك عينا يا فاسق يا عدو
الله ، ونالوا منه وسبوه .وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد دعاه
. إلى الله قبل فراره - إلى مكة - وقرأ عليه القرآن ، فأبى أن يسلم وتمرد
فدعا عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يموت بعيدا طريداً فنالته
هذه الدعوة .وذلك أنه لما فرغ الناس من " أحد " ورأى أمر الرسول - صلى الله
- عليه وسلم - فى ارتفاع وظهور ، ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبى
صلى الله عليه وسلم - ، فوعده ومناه ، وأقام عنده ، وكتب إلى جماعة من قومه
من الأنصار من أهل النفاق والريب يعدهم ويمنيهم ، أنه سيقدم بجيش ليقاتل به
النبى - صلى الله عليه وسلم - ويغلبه ، ويرده عما هو فيه . وأمرهم أن
يتخذوا له معقلا يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه ، ويكون مرصدا
له إذا قد عليه بعد ذلك .فشرعوا فى بناء مسجد مجاور لمسجد قباء ، فبنوه
وأحكموه ، وفرغوا منه قبل خروج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى تبوك
وجاءوا فسألوه أن يأتى إليهم فيصلى فى مسجدهم ، ليحتجوا بصلاته فيه على
تقريره وإثباته وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم ، وأهل العلة فى الليلة
الشاتية!! فعصمه الله من الصلاة فيه فقال : " إنا على سفر ولكنا إذا
رجعنا - إن شاء الله - آتيناكم فصلينا لكم فيه " .فلما قفل راجعاً إلى
المدينة من تبوك ، ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم ، نزل عليه
جبريل بخبر مسجد الضرار وما اعتمده بانوه من الكفر ، والتفريق بين جماع
المؤمنين فى مسجدهم . مسجد قباء ، الذى أسس من أول يوم على التقوى فبعث
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى مجسد الضرار من هدمه قبل مقدمه إلى
المدينة .وقوله : ( والذين اتخذوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً
وَتَفْرِيقاً بَيْنَ المؤمنين ) منصوب على الذم .أى : وأذم الذين اتخذوا

: مسجدا ضراراً . . أو معطوف على ما سبق من أحوال المنافقين ، والتقدير
: ومنهم الذين اتخذوا مسجداً ضراراً .وقوله " ضراراً " مفعول لأجله أى
اتخذوا هذا المسجد لا من أجل العبادة والطاعة لله تعالى . وإنما اتخذوه من
" أجل الإضرار بالمؤمنين . وإيقاع الأذى بهم .وقوله " وكفرا " معطوف على
ضراراً "؛ وهو علة ثانية لاتخاذ هذا المسجد .أى : اتخذوه للإضرار
: بالمؤمنين ، وللازدياد من الكفر الذى يضمرونه من الغل الذى يحفونه .وقوله
علة ثالثة .أى : واتخذوه أيضاً للتفريق ( وَتَفْرِيقاً بَيْنَ المؤمنين )
بين جماعة المؤمنين الذين كانوا يصلون فى مسجد واحد هو مسجد قباء ، فأراد
هؤلاء المنافقون من بناء مسجد الضرار إلى جوار مسجد قباء ، أن يفرقوا وحدة
المؤمنين ، بأن يجعلوهم يصلون فى أماكن متفرقة . حسدا لهم على نعمة
) : الإخاء والتآلف والاتحاد التى غرسها الإسلام فى قلوب أتباعه .وقوله
وَإِرْصَاداً لِّمَنْ حَارَبَ الله وَرَسُولَهُ ) علة رابعة لاتخاذ هذا
المسجد .أى : واتخذوه ليكون مكانا يرقبون فيه قوم ( مَنْ حَارَبَ الله
وَرَسُولَهُ ) وهو أبو عامر الراهب ، الذى أعلن عداوته لدعوة الإسلام" من
قبل " بناء مسجد الضرار .فقد سبق أن ذكرنا فى أسباب نزول هذه الآيات ، أن
، أبا عامر هذا ، كتب إلى جماعة من قومه . وهو عند هرقل . يعدهم ويمنيهم
ويطلب منهم أن يتخذوا له معقلا يقدم عليهم فيه فشرعوا فى بناء هذا المسجد
فأنت ترى أن هذه الآية الكريمة ، قد ذكرت أربعة من الأغراض الخبيثة التى.
حملت المنافقين على بناء هذا المسجد ، وهى : مضارة المؤمنين ، وتقوية الكفر
وتفريق كلمة أهل الحق وجعله معقلا لالتقاء المحاربين لله ولرسوله .وقد ،
خيب الله تعالى مساعيهم؛ وأبطل كيدهم ، بأن أمر نبيه - بهدمه وإزالته
وقوله : ( وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الحسنى ) ذم لهم على.
أيمانهم الفاجرة ، وأقوالهم الكاذبة .أى : أن هؤلاء المنافقين قد بنوا مسجد
الضرار لتلك المقاصد الخبيثة . ومع ذلك فهم يقسمون بأغلظ الأيمان بأنهم ما
أرادوا ببنائه إلا الخصلة الحسنى التى عبروا عنها قبل ذلك . كذبا . بقولهم
) : إننا بنيناه للضعفاء ، وأهل العلة فى الليلة الشاتية " .وقوله " :
: والله يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ) زيادة فى مذمتهم وتحقيرهم .أى
والله - تعالى - يعلم ويشهد أن هؤلاء المنافقين لكاذبون فى أيمانهم بأنهم
، ما أرادوا من بناء مسجدهم إلا الحسنى ، فانهم فى الحقيقة لم يريدوا ذلك
وإنما أرادوا تلك الأغراض القبيحة السابقة ، وهى مضارة المؤمنين ، وتفريق
. كلمتهم

لا تقم فيه ابدا لمسجد اسس على التقوى من اول يوم احق ان تقوم فيه فيه رجال
يحبون ان يتطهروا والله يحب المطهرين

كما فسرها الوسيط ثم نهى الله - تعالى - ورسوله والمؤمنين عن الصلاة فى هذا
: المسجد نهيا مؤكداً فقال - سبحانه - : ( لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَداً ) .أى
لا تصل . أيها الرسول الكريم . فى هذا المسجد فى أى وقت من الأوقات لأنه لم
- يبين لعبادة الله ، وإنما بنى للشقاق والنفاق .قال القرطبى : قوله
تعالى - ( لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَداً ) يعنى مسجد الضرار .لا تقم فيه
، للصلاة ، وقد يعبر عن الصلاة بالقيام . يقال : فلان يقوم الليل أى : يصلى
ومنه الحديث الصحيح : " من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من
ذنبه " .وقد روى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما نزلت هذه الآية
كان لا يمر بالطريق التى فيها هذا المسجد ، وأمر بموضعه أن يتخذ كناسة تلقى
فيها الجيف والأقذار . .وقوله : ( لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التقوى مِنْ
أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ) جملة مسوقة لمدح مسجد قباء
وتشريفه .أى : لمسجد بنى أساسه ، ووضعت قواعده لعى تقوى الله وإخلاص
العبادة له منذ أول يوم بدئ فى بنائه ، أحق أن تقوم للصلاة فيه من غيره
. قال الآلوسى ما ملخصه : واللام فى قوله " لمسجد " إما للابتداء أو للقسم.
، أى : والله لمسجد ، وعلى التقديرين فمسجد مبتدأ ، والجملة بعده صفته
، وقوله ( أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ) خبر المبتدأ : " وأحق " أفعل تفضيل
والمفضل عليه كل مسجد . أو مسجد الضرار على الفرض والتقدير ، أو على زعمهم
وقيل إنه بمعنى حقيق ، أى : ذلك المسجد بأن تصلى فيه . .وقوله : ( فِيهِ ،
رِجَالٌ يُحِبُّونَ أن يَتَطَهَّرُواْ والله يُحِبُّ المطهرين ) جملة
مسوقة لتكريم رواد هذا المسجد ومديحهم .أى : فى هذا المسجد رجال أتقياء
الظاهر والباطن ، إذهم يحبون الطهارة من كل رجس حسى ومعنوى ، ومن كان كذلك
. أحبه الله ورضى عنه

افمن اسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير ام من اسس بنيانه على شفا جرف
هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين

، كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أنه لا يتسوى من أسس بنيانه على الحق
ومن أسس نبيانه على الباطل فقال : ( أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ على تقوى
مِنَ اللّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ على شَفَا

جُرُفٍ هَارٍ فانهار بِهِ فِي نَارِ جَهَنّمَ ) .قال صاحب الكشاف : قرئ
. أَسّسَ بنيانَه ، وأسِسّ بنيانَهُ على البناء للفاعل والمفعول . والشفا
الحرف والشفير . وحرف الوادى : جانبه الذي يتحفر أصله بالماء وتجرفه السيول
فيبقى واهيا ، والهار وهو المتصدع الذى أوشك على التهدم - وهار صفة لجرف ،
أى جرف موصوف بأنه هائر أى متساقط .والمعنى : أفمن أسس بنيان دنيه على ،
قاعدة قوية محكمة ، وهى الحق الذى هو تقوى الله ورضوانه ( خَيْرٌ أم مّنْ
أسسه على قاعدة هى أضعف القواعد وأرخاها وأقلها بقاء ، وهو الباطل (
والنفاق الذى مثله مثل ( شَفَا جُرُفٍ هَارٍ ) فى قلة الثبات والاستمساك
وضع شفا الجرف فى مقابلة التقوى ، لأنه جعل مجازاً عما ينافى التقوى .فإن.
قلت : فما معنى قوله : ( فانهار بِهِ فِي نَارِ جَهَنّمَ ) .قلت : لما جعل
: الجرف الهائر مجازا عن الباطل ، قيل : فانهار به فى نار جهنم ، على معنى
فطاح به الباطل فى نار جهنم ، إلا أنه شح المجاز فجئ بلفظ الانهيار الذى هو
، للجرف ، وليتصور أن المبطل كأنه اسس بنيانه على شفا جرف من اودية جهنم
فانهار به ذلك الجرف فهوى فى قعرها ، ولا ترى أبلغ من هذا الكلام ، ولا أدل
منه على حقيقة الباطل ولكنه أمره .وقال صاحب المنار ما ملخصه : والمراد
بالمثل هنا ببيان ثبات الحق الذى هو دين الإسلام وقوته ، ودوامه ، وسعادة
أهله به ، وذكره باثره وثمرته فى عمل أهله وجماعها التقوى ، وبيان ضعف
الباطل واضمحلاله وقرب زواله ، وخيبة صاحبه ، وسرعة انقطاع آماله .وقد ذكر
فى وصف بنيان الفريق الأول وهم المؤمنون المشبه دون المشبه به لأنه هو
المقصود بالذات ، وذكر من وصف الفريق الثانى - وهم المنافقون - الهيئة
المشبه بها دون المشبه ، لأنه ذكر قبل ذلك مقاصدهم الخبيثة من بناء مسجد
الضرار . وهذا من دقائق إيجاز القرآن .وقوله : ( والله لاَ يَهْدِي القوم
الظالمين ) أى مضت سنة الله - تعالى - فى خلقه أنه - سبحانه - لا يهدى إلى
طريق الخير ، أولئك الذين استحبوا العمى على الهدى وظلموا أنفسهم بوضعهم
. الأمور فى غير مواضعها

لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم الا ان تقطع قلوبهم والله عليم حكيم

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - الآثار التى ترتبت على هدم مسجد الضرار
فى نفوس هؤلاء المنافقين الأشرار فقال - تعالى - : ( لاَ يَزَالُ ،
بُنْيَانُهُمُ الذي بَنَوْاْ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاّ أَن تَقَطّعَ
قُلُوبُهُمْ والله عَلِيمٌ حَكِيمٌ ) .الريبة : اسم من الريب بمعنى الشك
، والقلب والحيرة ، وتقطع - بفتح التاء - أصلها تتقطع فحذفت إحدى التاءين
من التقطع بمعنى التمزق . وقرأ بعضهم . " تقطع " - بضم التاء - من التقطيع
، بمعنى التفريق والتمزيق .والاستثناء مفرغ من أعم الأوقات والأحوال
والمستثنى منه محذوف ، والتقدير :لا يزال ما بناه هؤلاء المنافقون موضع
ريبة وقلق فى نفسهم فى كل وقت حال إلا فى وقت واحد وهو وقت أن تتمزق قلوبهم
بالموت والهلاك أى : أنهم لا يزالون فى قلق وحيرة ما داموا أحياء ، أما بعد
موتهم فستتكشف لهم الحقائق ، ويجدون مصيرهم الأليم .والسبب فى أن هذا
البناء كان مثار يبتهم وقلقهم حتى بعد هدمه ، أنهم بنوه نبية سيئة ، ولتلك
المقاصد الأربعة الخبيثة التى بينتها الآية الأولى . فكانوا يخشون أن يطلع
، الله نبيهم على مقاصدهم الذميمة ، فهذه الخشية أورثتهم القلبق والريبة
فلما أطاع الله - تعالى - نبيه على أغراضهم ، وتم هدم مسجد الضرار ، وانهار
الجرف المتداعى المتساقط ، استمر قلقهم وريبهم؛ لأنهم لا يدرون بعد ذلك
ماذا سيفعل المؤمنون بهم .وهكذا شأن الماكرين فى كل زمان ومكان ، إنهم
يعيشون طول حياتهم فى فزع وقلق وخوف من أن ينكشف مكرهم ، ويظهر خداعهم
: وقوله : ( والله عَلِيمٌ حَكِيمٌ ) تذييل قصد به تهديهم وزجرهم .أى.
والله - تعالى - عليم بكل شئ فى هذا الكون ، وبكل ما يقوله ويفعله هؤلاء
، المنافقون سرا وجهرا : حكيم فى كل تصرفاته وأفعاله وفى صنعه بهم
وسيجازيهم يوم القيامة بما يستحقونه من عقاب .هذا ، ومن الأحكام والآداب
التى أخذها العلماء من هذه الآيات ما يأتى :1- وجوب بناء المسجد على تقوى
من الله ورضوان ، لأنها إذا بنيت على هذا الأساس ، كانت محل القبول والثواب
من الله ، أما إذا بنيت لأى مقصد يتنافى مع آداب الإسلام وأحكامه
وتشريعاته ، فإنها تكون بعيدة عن رضا الله - تعالى - وقبوله .قال بعض
العلماء ، دلت الآيات على أن كل مسجد بنى على ما بنى عليه مسجد الضرار ، أن
- هلا حكم له ولا حركة ، ولا يصح الوقف عليه . وقد حرق الراضى بالله
الخليفة العباسى - كثيرا من مساجد الباطنية والمشهبة والمجبرة .وقال
الزمشخرى : قيل كل مسجد بنى مباهاة أو رياء وسمعة ، أو لغرض سوى ابتغاء وجه
الله ، أو بمال غير طيب ، فهو لا حق بمسجد الضرار .وعن عطاء : لما فتح الله
تعالى . الأمصار على عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - أمر المسلمين أن .
يبينوا المساجد ، وألا يتخذوا فى مدينة مسجدين ، يضار أحدهما صاحبه .2- أن
مسجد قباء هو المقصود بقوله - تعالى - : ( لَّمَسْجِدٌ أُسّسَ عَلَى
التقوى مِنْ أوّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ . . . ) وذلك لأن

سياق الآيات فى الحديث عنه ، وفى بيان أحقية الصلاة فيه ، وقد كان رسول
الله - صلى الله عليه وسلم يزوروه راكبا وماشيا ويصلى فيه ركعتين .ولا
منافاة بين كون مسجد قباء هو المقصود هنا ، وبين الأحاديث التى وردت فى أن
المسجد الذى اسس من أول على تقوى من الله ورضوان ، هو المسجد النبوى ، لأن
كليهما قد أسس على ذلك .قال الإمام ابن كثير : وقد صرح بأنه مسجد قباء
جماعة من السلف منهم ابن عباس ، وعروة بن الزبير ، والحسن البصرى ، وسعيد
بن جبير ، وقتادة .وقد ورد فى الحديث الصحيح أن مسجد رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - الذى فى جوف المدينة هو المسجد الذى أسس على التقوى ، وهذا
صحيح .ولا منافة بين الآية وبين هذا ، أنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على
التقوى من أول يوم ، فمسجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بطريق الأولى
- والأحرى " .3- أن المحافظة على الطهارة من الصفات التى يحبها الله
تعالى - فقد قال - تعالى - : ( فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أن
يَتَطَهَّرُواْ والله يُحِبُّ المطهرين ) .وقد ساق الإمام ابن كثير عند
: تفسيره لهذه الآية جملة من الأحاديث منها : ما جاء " عن ابن عباس أنه قال
لما نزلت هذه الآية ، بعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى عويم بن
مساعدة فقال له : " ما هذا الطهور الذى أثنى الله عليه به "؟فقال : يا رسول
الله ما خرج منا رجل ولا امرأة من الغائط إلا غسل فرجه . فقال - صلى الله
عليه وسلم - :" هو هذا " " .4- كذلك يؤخذ من الآيات الكريمة ، استحباب
الصلاة فى المساجد القديمة المؤسسة من أول بنائها على عبادة الله وحده لا
شريك له ، وعلى استحباب الصلاة مع الجماعة الصالحة ، والعباد العاملين
. المحافظين على إسباغ الوضوء . والتنزه عن ملابسة القاذورات

ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة يقاتلون في سبيل
الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والانجيل والقران ومن اوفى
بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم

، كما فسرها الوسيط وبعد أن بين - سبحانه - أنواع المتخلفين عن غزوة تبوك
تبع ذلك بالترغيب فى الجهاد وفى بيان فضله فقال - تعالى - : ( إِنَّ الله
اشترى . . ) .قال الفخر الرازى : أعلم الله - تعالى - لما شرع فى شرح فضائح
المنافقين وقبائحهم لسبب تخلفهم عن غزوة تبوك ، فلما تمم ذلك الشرح والبيان
وذكر أقسامهم وفرع كل قسم ما كان لائقا به ، عاد إلى بيان فضيلة الجهاد
وحيقته فقال - تعالى - : ( إِنَّ الله اشترى مِنَ المؤمنين ) الآية .وقال
القرطبى : " نزلت هذه الآية فى البيعة الثانية ، وهى بيعة العقبة الكبرى
وهى التى أناف فيها رجال الأنصار على السبعين ، وذلك أنهم اجتمعوا إلى رسول
- الله - صلى الله عليه وسلم - عند العقبة ، فقال عبد الله بن رواحة للنبى
صلى الله عليه وسلم - : اشترط لربك ولنفسك ما شئت ، فقال النبى - صلى الله
عليه وسلم - : أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأشترط لنفسى أن
": تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم قالوا : فإذا فعلنا فمالنا؟ قال
لكم الجنة " قالوا : ربح البيع ، لا نقيل ولا نستقيل فنزلت هذه الآية " .ثم
هى بعد ذلك عامة فى كل مجاهد فى سبيل الله من أمة محمد - صلى الله عليه
وسلم إلى يوم القيامة . تثميل للثواب الذى منحه الله - تعالى - للمجاهدين
، فى سبيله .فقد صور - سبحانه - جهاد المؤمنين ، وبذل أموالهم وأنفسهم فيه
: وإثابته - سبحانه - لهم على ذلك بالجنة ، صور كل ذلك بالبيع والشراء .أى
أن الله - تعالى - وهو المالك لكل شئ ، قد اشترى من المجاهدين أنسهم
وأموالهم التى بذلوها فى سبيله ، وأعطاهم فى مقابل ذلك الجنة .قال أبو
السعود : الآية الكريمة ترغيب للمؤمنين فى الجهاد . . وقد بلوغ فى ذلك على
وجه لا مزيد عليه ، حيث عبّر عن قبول الله - تعالى - من المؤمنين أنفسهم
وأموالهم التى بذلوا فى سبيله - تعالى - وإثباته إياهم بمقابلتها الجنة
بالشراء على طريقة الاستعارة التبعية . ثم جعل المبيع الذى هو العمدة
والمقصد فى العقد : أنفس المؤمنين وأموالهم ، والثمن الذى هو الوسيلة فى
الصفقة : الجنة .ولم يجعل الأمر على العكس بأن يقال : إن الله باع الجنة من
المؤمنين بأنفسهم وأموالهم؛ ليدل على أن المقصد فى العقد هو الجنة ، وما
بله المؤمنون فى مقابلتها من الأنفس والأمول وسيلة إليها ، إيذانا بتعليق
كمال العناية بهم وبأوالهم .ثم إن لم يقل " بالجنة " بل قل : ( بِأَنَّ
لَهُمُ الجنة ) مبالغة فى تقرير وصول الثمن إليهم " واختصاصه بهم " فكأنه
قيل : بالجنة الثابتة لهم ، المختصة بهم .وقوله : ( يُقَاتِلُونَ فِي
سَبِيلِ الله فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ) جملة مستأنفة جئ بها لبيان
الوسيلة التى توصلهم إلى الجنة وهى القتال فى سبيل الله .أى : أنهم يقاتلون
فى سبيل الله ، فمنهم من يقتل أعداء الله ، ومنهم من يقتل على أيدى هؤلاء
الأعداء ، وكلا الفريقين القاتل والمقتول جزاؤه الجنة .وقرأ حمزة والكسائى
فيقتلون ويقتلون " بتقديم الفعل المبنى للمفعول على الفعل المبنى للفاعل "
وهذه القراءة فيها إشارة إلا أن حرص هؤلاء المؤمنين الصادقين على.
الاستشهاد أشد من حرصهم على النجاة من القتل؛ لأن هذا الاستشهاد يوصلهم إلى
) : جنة عرضها السماوات والأرض ، وإلى الحياة الباقية الدائمة . .وقوله

وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التوراة والإنجيل والقرآن ) تأكيد للثمن الذى
- وعدهم الله به .أى : أن هذه الجنة التى هى جزاء المجاهدين ، قد جعلها
سبحانه - تفضلا منه وكرما ، حقا لهم عليه ، وأثبت لهم ذلك فى الكتب
السماوية التى أنزلها على رسله .قال الآلوسى ما ملخصه : قوله : " وعدا عليه
مصدر مؤكد لمضمون الجملة وقوله " حقا " نعت له ، وقوله " عليه " فى موضع
الحال من قوله " حقا " لتقدمه عليه ، وقوله : ( فِي التوراة والإنجيل
والقرآن ) متعلق بمذحوف وقع نعتا لقوله " وعدا " أيضاً .أى : وعدا مثبتاً
فى التوراة والإنجيل كما هو مثبت فى القرآن فالمراد إلحاق مالا يعرف بما
يعرف . إذ من المعلوم ثبوت هذا الحكم فى القرآن . ثم إن ما فى الكتابين إما
أن يكون أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم
بذلك ، أو أن من جاهد بنفسه وماله . من حقه ذلك ، وفى كلا الأمرين ثبوت
موافق لما فى القرآن . .وقوله : ( وَمَنْ أوفى بِعَهْدِهِ مِنَ الله ) جملة
معترضة مسوقة لتأكيد مضمون ما قبلها من حقية الوعد وتقريره : والاستفهام
للنفى .أى :لا أحد أوفى بعهده من الله - تعالى - لأنه إذا كان خلف الوعد
لا يكاد يصدر من كرام الخلق مع إمكان صدوره منهم ، فكيف يكون الحال من جانب
) : الخالق - عز وجل - المنزه عن كل نقص ، المتصف بكل كمال .وقوله
فاستبشروا بِبَيْعِكُمُ الذي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الفوز العظيم
: تحريض على القتال ، وإعلام لهم بأنهم رابحون فى هذه الصفقة .والاستبشار (
الشعور بفرح البشرى ، شعورا تنبسط له أسارير الوجه .أى : إذا كان الأمر
، كذلك فافرحوا ببيعكم الذى بايعتم به غاية الفرح ، وارضوا به نهاية الرضى
: فإن ذلك البيع هو الفوز العظيم الذى لا فوز أعظم منه .قال بعض العلماء
ولا ترى ترغيبا فى الجهاد أحسن ولا أبلغ من هذه الآية لأنه أبرزه فى صورة
عقد عقده رب العزة ، وثمنه مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب
بشر ، ولم يجعل المقعود عليه كونهم مقتولين فقط بل إذا كانوا قاتلين أيضاً
لإعلاء كلمته ، ونصر دينه ، وجعله مسجلا فى الكتب السماوية ، وناهيك به من
، صك .وجعل وعده حقاً ، ولا أحد أوفى من وعده فنسيئته أقوى من نقد غيره
وأشار إلى ما فيه من الربح والفوز العظيم وهو استعارة تمثيلية ، حيث صور
، جهاد المؤمنين ، وبذل أموالهم وأنفسهم فيه وإثباة الله لهم على ذلك الجنة
بالبيع والشراء وأتى بقوله : " يقاتلون " . . بيانا لمكان التسليم وهو
المعركة وإليه الإشارة بقوله - صلى الله عليه وسلم - " الجنة تحت ظلال
السيوف " ، ثم أمضاه بقوله ( وَذَلِكَ هُوَ الفوز العظيم ) .ويروى عن الحسن
البصرى أنه قرأ هذه الآية فقال : انظروا إلى كرم الله . تعالى . أنفس هو
خالقها ، وأموال هو رازقها ، ثم يكافئنا عليها متى بذلناها فى سبيله بالجنة
.

التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الامرون بالمعروف
والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين

كما فسرها الوسيط ثم وصف الله - تعالى - هؤلاء المؤمنين الصادقين بجملة من
. الأوصاف الكريمة فقال : ( التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون
قال الجمل ما ملخصه : ذكر الله - تعالى - فى هذه الآية تسعة أوصاف. ( . .
للمؤمنين ، الستة الأولى منها تتعلق بمعاملة الخالق ، والوصفان السابع
) : والثامن يتعلقان بمعاملة المخلوق ، والوصف التاسع يعم القبيلتين .وقوله
التائبون ) فيه وجوه من الأعراب منها : أنه مرفوع على المدح . فهو خبر
، لمبتدأ محذوف وجوباً للمبالغة فى المدح أى : المؤمنون المذكورون التائبون
ومنها أن الخبر هنا محذوف ، أى : التائبون المصوفون بهذه الأوصاف من أهل
الجنة . .والمعنى : " التائبون " عن المعاصى وعن كل ما نهت عنه شريعة الله
- العابدون " لخالقهم عبادة خالصة ولجهه ، " الحامدون " له - سبحانه " ،
" فى السراء والضراء ، وفى المنشط والمكره ، وفى العسر واليسر ، " السائحون
فى الأرض للتدبر والاعتبار وطاعة الله . والعمل على مرضاته ( الراكعون
الساجدون ) لله - تعالى - عن طريق الصلاة التى هى عماد الدين وركنه الركين
" الآمرون " غيرهم " بالمعروف " أى : بكل ما حسنه الشرع " والناهون " له "
عن المنكر " الذى تأباه الشرائع والعقول السليمة ، ( والحافظون لِحُدُودِ
الله ) أى : لشرائعهم وفرائضه وأحكامه وآدابه . . هؤلاء المتصفون بتلك
الصفات الحميدة ، بشرهم . يا محمد . بكل ما يسعدهم ويشرح صدورهم ، فهم
المؤمنون حقاً ، وهم الذين أعد الله - تعالى - لهم الأجر الجزيل ، والرزق
، الكريم .ولم يذكر - سبحانه - المبشر به فى قوله : ( وَبَشِّرِ المؤمنين )
- للاشارة إلى أنه أمر جليل لا يحيط به الوصف ، ولا تحده العبارة .ولم يذكر
، سبحانه - فى الآية لهذه الأوصاف متعلقاً ، فلم يقل " التائبون " من كذا
لفهم ذلك من المقام ، لأن المقام فى مدح المؤمنين الصادقين الذين أخلصوا
نفوسهم لله ، تعالى . فصاروا ملتزمين طاعته فى كل أقوالهم وأعمالهم .وعبر
عن كثرة صلاتهم وخشوعهم فيها بقوله . ( الراكعون الساجدون ) للاشارة إلى أن
الصلاة كأنها صفة ثابتة من صفاتهم ، وكأن الركوع والسجود طابع مميز لهم بين
الناس . وإنما عطف النهى عن المنكر على الأمر بالمعروف للإيذان بأنهما

فريضة واحدة لتلازمهما فى الغالب ، أو لما بينهما من تباين إذ الأمر
) . بالمعروف طلب فعل ، والنهى عن المنكر طلب ترك أو كف .وكذلك جاء قوله
والحافظون لِحُدُودِ الله ) بحرف العطف ومما قالوه فى تعليل ذلك . أن سر
العطف هنا التنبيه على أن ما قبله مفصل للفضائل وهذا مجمل لها ، لأنه شامل
لما قبله وغيره ، ومثله يؤتى به معطوفاً ، نحو زيد وعمرو وسائر قبيلتهما
كرماء ، فلمغايرته لما قبله بالإجمال والتفصيل والعموم والخصوص عطف عليه
هذا ، وما ذركناه من أن المراد بقوله : " السائحون " أى : السائرون فى.
الأرض للتدبر والاعتبار والتفكر فى خلق الله ، والعمل على مرضاته .. هذا
الذى ذكرناه رأى لبعض العلماء . ومنهم من يرى أن المراد بهم الصائمون ومنهم
من يرى أن المراد بهم : المجاهدون .قال الآلوسى : وقوله : " السائحون " أى
الصائمون . فقد أخرج ابن مردويه عن أبى هريرة أن النبى - صلى الله عليه
. وسلم - سئل عن ذلك فأجاب بما ذكر ، وإليه ذهب جماعة من الصحابة والتابعين
وجاء عن عائشة : " سياحة هذه الأمة الصيام " .وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن
- زيد أن السائحين هم المهاجرون ، وليس فى أمة محمد - صلى الله عليه وسلم
سياحة إلا الهجرة .وعن عكرمة أنهم طلبة العمل ، لأنهم يسيحون فى الأرض
لطلبه .وقيل : هم المجاهدون فى سبيل الله ، لما أخرج الحاكم وصححه
والطبرانى وغيرهما ، " عن أبى أمامة أن رجلا استأذن رسول الله - صلى الله
. " عليه وسلم - فى السياحة فقال : إن سياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله
والذى نراه أقرب إلى الصواب أن المراد بالسائحين هنا : السائرون فى الأرض
لمقصد شريف ، وغرض كريم . كتحصيل العلم ، والجهادفى سبيل الله ، والتدبر فى
ملكوته - سبحانه - والتفكر فى سنته فى كونه ، والاعتبار بما اشتمل عليه هذا
، الكون من عجائب .ولعل ما يؤيد ذلك أن لفظ " السائحون " معناه السائرون
لأنه مأخذو من السيح وهو الجرى على وجه الأرض ، والذهاب فيها . وهذه المادة
تشعر بالانتشار ، يقال : ساح الماء أى جرى وانتشر .وما دام الأمر كذلك فمن
الأولى حملا للفظ على ظاهره ، ما دام لم يمنع مانع من ذلك ، وهنا لا مانع
من حمل اللفظ على حقيته وظاهره .أما الأحاديث والآثار التى اشتشهد بها من
قال بأن المراد بالسائحين الصائمون فقد ضعفها علماء الحديث .قال صاحب
المنار : وأقول : وروى ابن جرير من حديث أبى هريرة مروفوعاً وموقوفاً حديث
السائحون هم الصائمون "لا يصح رفعه . .وفضلا عن كل هذا ، فإن تفسير " :
السائحين بأنهم السائرون فى الأرض لكل مقصد شريف ، وغرض كريم . . . يتناول
الجهاد فى سبيل ، كما يتناول الرحلة فى طلب العلم ، وغير ذلك من وجوه الخير
وما أكثر الآيات القرآنية التى حضت على السير فى الأرض ، وعلى التكفر فى.
خلق الله ، ومن ذلك قوله تعالى : ( قُلْ سِيرُواْ فِي الأرض ثُمّ انظروا
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المكذبين )وقوله تعالى ( أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي
الأرض فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ
( بِهَا فَإِنّهَا لاَ تَعْمَى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي فِي الصدور
قال الإمام الرازى : للسياحة أثر عظيم فى تكميل النفس لأن الإنسان يلقى
الأكابر من الناس ، يفتخر نفسه فى مقابلتهم ، وقد يصل إلى المرادات الكثيرة
فينتقع بها ، وقد يشاهد اختلاف أحوال الدنيا بسبب ما خلق الله . تعالى . فى
كل طرف من الأحوال الخاصة بهم فتقوى معرفته . وبالجلمة فالسياحة لها آثار
. قوية فى الدين

ما كان للنبي والذين امنوا ان يستغفروا للمشركين ولو كانوا اولي قربى من
بعد ما تبين لهم انهم اصحاب الجحيم

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أنه لا يصح للنبى - صلى الله عليه
وسلم - ولا للمؤمنين أن يستغفروا للمشركين مهما بلغت درجة قرابتهم ، لأن
رابطة العقيدة هى الوشيجة الأساسية فيما بينهم فقال - تعالى : ( مَا كَانَ
لِلنّبِيّ . . . . مِن وَلِيّ وَلاَ نَصِيرٍ ) .قال الفخر الرازى : اعلم
أنه - تعالى - لما بين من أول هذه السورة إلى هذا الموضوع وجوب إظهر
البراءة عن الكفار والمنافقين من جميع الوجوه ، بين فى هذه الآية أنه تجب
البراءة عن أمواتهم وإن كانوا فى غاية القرب من الإنسان ، كما أوجبت
، البراءة عن أحيائهم ، والمقصود منه بيان وجوب مقاطعتهم على أقصى الغايات
والمنع من مواصلتهم بسبب الأسباب .والمعنى : ما كان من شأن النبى - صلى
- الله عليه وسلم - ولا من شأن أصحابه المؤمنين ، أن يدعوا الله - تعالى
بأن يغفر للمشركين فى حال من الأحوال ، ولو كان هؤلاء المشركون من أقرب
أقربائهم ( مِن بَعْدِ مَا تَبَيّنَ لَهُمْ ) أى : للرسول - صلى الله عليه
وسلم - ولأصحابه ، أن هؤلاء المشركين من أصحاب الجحيم ، بسبب موتهم على
الكفر ، وإصرارهم عليه ، وعدم اعترافهم بدين الإسلام .قال الآلوسى ما
ملخصه : والآية على الصحيح " نزلت فى أبى طالب ، فقد أخرج الشيخان وغيرهما
عن المسيب بن حزن قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة ، دخل عليه النبى - صلى
الله عليه وسلم - وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية فقال النبى - صلى
الله عليه وسلم - أى عم ، قل لا إله إلا الله أحاج لك بها عند الله . فقال
أبو جهل يا أبا طالب أترغب من ملة عبد المطلب؟ فجعل رسول الله - صلى الله

عليه وسلم - يعرضها عليه . وأبو جهل وعبد الله بن أمية يعاودانه بتلك المقالة . فقال ابو طالب آخر ما كلمهم : هو على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول :لا إله إلا الله . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأستغفرون لك ما لم أنْهَ عن ذلك فنزلت : ( مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ والذين آمنوا أن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ ) الآية " .ثم قال . واستبعد بعضهم ذلك ، لأن موت أبى طالب كان قبل الهجرة بثلاث سنين ، وهذه السورة من أواخر ما نزل بالمدينة .وهذا الاستبعاد مستبعد ، لأنه لا بأس من أن يقال : كان النبى - صلى الله عليه وسلم - يستغفر لأبى طالب من ذلك الوقت إلى وقت نزول هذه الآية وعليه فلا يراد من قوله " فنزلت " فى الخبر أن النزول كان عقيب القول بل يراد أن ذلك سبب النزول فحسب . فتكون الفاء للسببية لا للتعقيب .وقال القرطبى : هذه الآية تضمنت قطع موالاة الكفار حيهم وميتهم ، فإن الله لم يجعل للمؤمنين أن يستغفروا للمشركين . فطلب الغفران للمشرك مما لا يجوز ، وقال كثير من العلماء . بأنه لا بأس أن يدعو الرجل لأبويه الكافرين ما داما حيين ، فأما من مات على الكفر فقد انقطع عنه الرجاء فلا يدعى له .

وما كان استغفار ابراهيم لابيه الا عن موعدة وعدها اياه فلما تبين له انه عدو لله تبرا منه ان ابراهيم لاواه حليم

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - السبب الذى حمل إبراهيم على الاستغفار لأبيه ، ثم على ترك هذا الاستغفار فقال : ( وَمَا كَانَ استغفار إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ) .قال القرطبى : روى النسائى عن على بن أبى طالب قال : سمعت رجلا يستغفر لأبويه وهما مشركان فقلت : أتستغفر لهما وهما مشركان؟ فقال : أو لم يستغفر إبراهيم لأبيه . فأتيت النبى - صلى الله عليه وسلم - فذكرت له ذلك فنزلت ( وَمَا كَانَ استغفار إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ الآية .والمعنى :لا حجة لكم أيها المؤمنون فى استغفار إبراهيم ، لأن ( استغفاره له إنما كان بسبب وعد صدر له بذلك . فلما أصر " آزر " أبو إبراهيم على كفره ، ومات مشركا بالله تبرأ إبراهيم ومن عمله .والمراد بهذا الوعد ما جاء فى القرآن من قوله له : ( قَالَ سَلاَمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رِبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً ) وقوله : ( لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ) وقوله : ( إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ) جملة مستأنفة مسوقة لبيان الداعى الذى دعا إبراهيم إلى الاستغفار لأبيه قبل التبين .أى : إن إبراهيم لكثير التأوه والتوجع من خشية الله ، وكثير الحلم والصفح عمن آذاه .قال الآلوسى : قوله ( إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ) أى لكثير التأوه ، وأصل التأوه قوله أه ونحوه مما يقوله الحزين . . وهو عند جماعة كناية عن كمال الرأفة . ورقة القلب . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وغيرهما " عن عبد الله بن شداد ، قال " " رجل : يا رسول الله ما الأواه؟ قال : " الخاشع المتضرع الكثير الدعاء ويؤخذ من هاتين الآيتين ، أنه لا يجوز لمسلم أن يستغفر لمشكر بعد موته على. الشكر مهما بلغت درجة قرابته له .

وما كان الله ليضل قوما بعد اذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون ان الله بكل شيء عليم

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - سنة من سننه العامة فى خلقه ، وهى تدل على سعة رحمته ، ووافر عدله فقال : ( وَمَا كَانَ الله لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حتى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ . . ) .أى : وما كان من شأن الله - تعالى - فى لطفه وعدله . . أن يصف قوما بالضلال عن طريق الحق ( بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ ) إلا الإسلام ، لمجرد قول أو عمل صدر عنهم عن طريق الخطأ فى الاجتهاد .وإنما يصفهم بذلك بعد أن يبين لهم ما يبج اتقاؤه من الأقوال والأفعال ، فلا يطيعون أمره ، ولا يستجيبون لتوجيه - سبحانه - .قال صاحب الكشاف : يعنى - سبحانه - أن أمر باتقائه واجتنا به كالاستغفار للمشركين وغيرهما مما نهى عنه وبين أنه محظور ، لا يؤاخذ به عباده الذين هداهم للإسلام ، ولا يسميهم ضلالا ، إلا إذا أقدموا عليه بعد بيان حظره عليهم ، وعلمهم أنه واجب الاتقاء والاجتناب . وأما قبل العلم والبيان فلا سبيل عليهم ، كما لا يؤاخذون بشر الخمر ، ولا ببيع الصاع بصاعين قبل التحريم .وهذا بيان لعذر من خاف المؤاخذة بالاستغفار للمشركين قبل ورود النهى عنه . وفى هذه الآية شديدة ما ينبغى أن يغفل عنها : وهى أن المهدى للإسلام إذا أقدم على بعض محظورات الله صار داخلا فى حكم الإضلال وقال صاحب المنار : أخرج ابن المنذر أن عبد الله بن معسود كان يخطب أصحابه. ، لك عشية خميس ثم يقول : فمن استطاع منكم أن يغدو عالما أو متعلما فليفعل : ولا يغدو لسوى ذلك ، فإن العالم والمتعلم شريكان فى الخير . أيها الناس ) - إنى والله لا أخاف عليكم أن تؤخذوا بما لم يبين لكم ، وقد قال - تعالى

وَمَا كَانَ الله لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حتى يُبَيِّنَ
لَهُم مّا يَتّقُونَ . . ) .وقوله : ( إِنّ الله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ
تعليل لما قبله ، أى إن الله - تعالى - عليم بكل شئ ، ولا يخفى عليه شئ ( من أقوال الناس وأفعالهم ، وسيحاسبهم يوم القيامة على ذلك ، وسيجازى الذين أساؤوا بما عملوا ، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

ان الله له ملك السماوات والارض يحيي ويميت وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات ببيان أنه - سبحانه - وهو المالك لكل شئ ، والخالق لكل شئ ، فقال : ( إِنّ الله لَهُ مُلْكُ
السماوات والأرض يُحْيِي وَيُمِيتُ ) .أى : إن الله - تعالى - هو المالك للسماوات والأرض وما بينهما ، ولا شريك له فى خلقهما ، ولا فى تدبير شؤنهما وهو - سبحانه - الذى يحيى من يريد إحياءه ، ويميت من يريد إماتته ، لا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه .( وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ اللّهِ مِن
وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ) أى : وليس لكم - أيها الناس - أحد سوى الله يتولى أمركم وينصركم على أعدائكم .وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد نهت - المؤمنين عن الاستغفار للمشركين المصرين على شركهم ، كما بشرتهم بأنه سبحانه -لا يؤاخذهم على استغفارهم لهم قبل نهيهم عن ذلك . كما أخبرتهم بأن ملك هذا الكون إنما هو لله وحده . فعليهم أن يستجيبوا لأمره ، لكى ينالوا رحمته ورضاه .

لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والانصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم انه بهم رءوف رحيم

كما فسرها الوسيط ثم ذكر - سبحانه - جانبا من مظاهر فضله على عباده ) : - المؤمنين ، حيث تقبل توبتهم ، وتجاوز عن زلاتهم ، فقال - تعالى - لَقَدْ تَابَ الله على النبي . . . . ) .قال الإمام الرازى : اعلم أنه - تعالى - لما استقصى فى شرح أحوال غزوة تبوك ، وبين أحوال المتخلفين عنها ، وأطال القول فى ذلك على الترتيب الذى لخصناه فيما سبق ، عاد فى هذه الآية إلى شرح ما بقى من أحكامها ، ومن بقية تلك الأحكام أنه قد صدر عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما يجرى مجرى ترك الأولى ، وصدر عن المؤمنين كذلك نوع زلة ، فذكر - سبحانه - أنه تفضل عليهم ، وتاب عليهم ، فى تلك الزلات ، فقال - تعالى - : ( لَقَدْ تَابَ الله على النبي والمهاجرين والأنصار ) .وللعلماء أقوال في المراد بالتوبة التى تابها الله على النبى - صلى الله عليه وسلم - وعلى المهاجرين والأنصار : فمنهم من يرى أن المرد بها قبول توبتهم ، وغفران ذنوبهم ، والتجاوز عن زلاتهم التى حدثت منهم فى تلك الغزوة أو فى غيرها ، وإلى هذا المعنى أشارة القرطبي بقوله :قال ابن عباس : كانت التوبة على النبى - صلى الله عليه وسلم - لأجل أنه أذن للمنافقين فى القعود ، بدليل قوله - سبحانه - قبل ذلك : ( عَفَا الله عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ . . . ) وكانت توبته على المؤمنين من ميل قلوب بعضهم إلى التخلف عنه - أى : إلى التخلف عن الخروج معه إلى غزوة تبوك .ومنهم من يرى أن المقصود بذكر التوبة هنا التنويه بفضلها ، والحض على تجديدها ، وإلى هذا المعنى اتجه صاحب الكشاف فقال : ( تَابَ الله على النبي ) كقوله ) : لِّيَغْفِرَ لَكَ الله مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ) وكقوله ( واستغفر لِذَنبِكَ ) : وهو بعث للمؤمنين على التوبة ، وأنه ما من مؤمن ، وإلا وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار ، حتى النبى والمهاجرين والأنصار ، وإبانة لفضل التوبة ومقدارها عند الله ، وأن صفة التوابين الأوابين صفة الأنبياء كما وصفهم بالصالحين ليظهر فضيلة الصلاح . .ومنهم من يرى أن المراد بالتوبة هنا : دوامها لا أصلها ، وإلى هذا المعنى أشار بعضهم بقوله لقد تاب الله على النبى . . " أى : أدام توبته على النبى والمهاجرين والأنصار . وهذا جواب عما يقال : من أن النبى معصوم من الذنب ، وأن المهاجرين والأنصار لم يفعلوا ذنبا فى هذه القضية ، بل اتبعوه من غير تلعثم قلنا : المراد بالتوبة فى حق الجميع دوامها لا أصلها . . " .ومنهم من يرى ، أن ذكر النبى هنا إنما هو من باب التشريف ، والمراد قبول توبة المهاجرين والأنصار فيما صدر عن بعضهم من زلات . وقد وضح هذا المعنى الإمام الآلوسى ، فقال : قال أصحاب المعانى : المراد ذكر التوبة على المهاجرين والأنصار إلا أنه جئ فى ذلك بالنبى - صلى الله عليه وسلم - تشريفا لهم ، وتعظيما لقدرهم ، وهذا كما قالوا فى ذكره - تعالى - فى قوله :( فَأَنّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرّسُولِ ) الآية أى : عفا - سبحانه - عن زلات صدرت منهم يوم أحد ويوم حنين . .ويبدو لنا أن الرأى الأول أقرب الآراء إلى الصواب ، لأن الآية الكريمة مسوقة لبيان فضل الله - تعالى - على رسوله وعلى المؤمنين ، حيث غفر لهم ما فرط منهم من هفوات وقعت فى هذه الغزوة وهذه الهفوات صدرت - منهم بمقتضى الطبيعة البشرية ، وبمقتضى الاجتهاد فى أمور لم يبين الله

- تعالى - حكمه فيها ، فهى لا تنقص من منزلة الرسول - صلى الله عليه وسلم
- ولا من منزلة أصحابه الصادقين فى إيمانهم .والمعنى : لقد تقبل الله
تعالى - توبة النبى - صلى الله عليه وسلم - كما تقبل توبة أصحابه المهاجرين
والأنصار ، الذين اتبعوه عن طواعية واختيار وإخلاص فى ساعة العسرة . أى فى
وقت الشدة والضيق ، وهو وقت غزوة تبوك ، فالمراد بالساعة هنا مطلق الوقت
وقد كانت غزوة تبوك تسمى غزوة العسرة ، كما كان الجيش الذى اشترك فيها .
، يسمى بجيش العسرة ، وذلك لأن المؤمنين خرجوا إليها فى مجدبة ، وحر شديد
وفقر فى الزاد والماء والراحلة .قال ابن كثير : قال مجاهد وغير واحد : نزلت
هذه الآية فى غزة تبوك ، وذلك أنهم خرجوا إليها فى شدة من الأمر ، فى سنة
مجدبة ، وحر شديد ، وعسر فى الزاد والماء .وقال قتادة : خرجوا إلى الشام
عام تبوك فى لهبان الحر - أى شدته - على ما يعلم الله من الجهد ، أصابهم
تعب شديد ، حتى لقد ذكر لنا أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما .وقال
الحسن : كان العشرة منهم يعتقبون بعيرا واحداً . يركب الرجل منهم ساعة ثم
ينزل فيركب صاحبه كذلك ، وكان النفر منهم يخرجون وليس معهم إلا التمرات
اليسيرة فإذا بلغ الجوع من أحدهم أخذ التمرة فلاكها حتى يجد طعمها ، ثم يشر
عليها جرعة من الماء . . ومضوا مع النبى - صلى الله عليه وسلم - على صدقهم
ويقينهم - رضى الله عنهم .وقوله : ( مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ
: فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ) بيان لتناهى الشدة ، وبلوغها الغاية القصوى .أى
تاب - سبحانه - على الذين اتبعوا رسوله من المهاجرين والأنصار من بعد أن
أشرف فريق منهم على الميل عن التخلف عن الخروج إلى غزوة تبوك ، لما لابسها
وصاحبها من عسر وشدة وتعب .وفى ذكر ( فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ) إشارة إلى أن
معظم المهاجرين والأنصار ، مضوا معه - صلى الله عليه وسلم - إلى تبوك دون
أن تؤثر هذه الشدائد فى قوة إيمانهم وصدق يقينهم ، وضماء عزيمتهم ، وشدة
" إخلاصهم .قال الآلوسى ما ملخصه : وفى " كاد " ضمير الشأن و " قلوب " فاعل
، يزيغ " والجملة فى موضع الخبر لكاد . . وهذا على قراءة " يزيغ " بالياء
وهى قراءة حمزة ، وحفص والأعمش .وأما على قراء " تزيغ " بالتاء ، وهى قراءة
الباقين . فيحتمل أن يكون " قلوب " اسم كان " وتزيغ " خبرها ، وهى ضمير
يعود على اسمها .وقوه : ( ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ
رَّحِيمٌ ) تذييل مؤكد لقبول التوبة ولعظيم فضل الله عليهم . ولطفه بهم .أى
ثم تاب عليهم - سبحانه - بعد أن كابدوا ما كابدوا من العسر والمشقة :
ومجاهدة النفس . إنه بهم رءوف رحيم .قال بعضهم : فإن قلت : قد ذكر التوبة
أولا ثم ذكرها ثانياً فما فائدة التكرار؟قلت : إنه - سبحانه - ذكر التوبة
أولا قبل ذكر الذنب تفضلا منه وتطييبا لقلوبهم ، ثم ذكر الذنب بعد ذلك
وأردفه بذكر التوبة مرة أخرى ، تعظيما لشأنهم ، وليعلموا أنه - تعالى - قد
قبل توبتهم ، وعفا عنهم ، ثم أتبعه بقوله - سبحانه - ( إِنَّهُ بِهِمْ
، رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ) تأكيدا لذلك . والرأفة عبارة عن السعى فى إزالة الضرر
والرحمة عبارة عن السعى فى إيصال النفع .وقال القرطبى : قوله ( ثُمَّ تَابَ
عَلَيْهِمْ ) قيل : توبته عليهم أن تدارك قلوبهم حتى لم تزغ وتلك سنة
الحق - سبحانه - مع أوليائه إذا أشرفوا على العطب ووطنوا أنفسهم على الهلاك
أمطر عليهم سحائب الجود فأحيا قلوبهم .قال الشاعر :منك أرجوا ولست أعرب ،
ربا ... يرتجى منه بعض ما منك أرجووإذا اشتدت الشدائد فى الأر ... ض على
الخلق فاستغاثوا وعجواوابتليت العباد بالخوف والجو ... ع ، وصروا على
الذنوب ولجوالم يكن لى سواك ربى ملاذ ... فتيقنت أننى بك أنجو

وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى اذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت وضاقت عليهم
انفسهم وظنوا ان لا ملجا من الله الا اليه ثم تاب عليهم ليتوبوا ان الله هو
التواب الرحيم

كما فسرها الوسيط وكما تقبل الله - تعالى - توبة المهاجرين والأنصار الذين
اتبعوا رسولهم - صلى الله عليه وسلم - فى ساعة السعرة . ز فقد تقبل توبة
) : - الثلاثة الذين تخلفوا عن الاشتراك فى غزوة تبوك ، فقال - تعالى
وَعَلَى الثلاثة الذين . . . ) .هذه الآية الكريمة معطوفة على الآية
السابقة لها . والمعنى : لقد تقبل الله - تعالى - بفضله وإحسانه توبة النبى
والمهاجرين والأنصار ، وتقبل كذلك توبة الثلاثة الذين تخلفوا عن هذه الغزوة
كسلا وحبا للراحة ، والذين سبق أن أرجأ الله حكمه فيهم بقوله ( وَآخَرُونَ
مُرْجَوْنَ لأَمْرِ الله إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ
وقوله : ( حتى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأرض بِمَا رَحُبَتْ ( . .
وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وظنوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ الله
إِلاَّ إِلَيْهِ ) كناية عن شدة تحيرهم ، وكثرهم حزنهم ، واستسلامهم لحكم
الله فيهم .أى : حتى إذا ضاقت عليهم الأرض على سعتها ، بسبب إعراض الناس
عنهم ، ومقاطعتهم لهم ، وضاقت عليهم أنفسهم ، بسبب الهم والغم الذى ملأها
واعتقدوا أنهم ملجأ ولا مهرب لهم من حكم الله وقضائه إلا إليه .حتى إذا كان
) : كذلك ، جاءهم فرج الله ، حيث قبل توبتهم ، وغفر خطاهم وعفا عنهم .وقوله
ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ليتوبوا إِنَّ الله هُوَ التواب الرحيم ) أى : بعد

هذا التأديب الشديد لهم ، تقبل - سبحانه - توبتهم ، ليتوبوا إليه توبة
- نصوحا ، لا تكاسل معها بعد ذلك عن طاعة الله وطاعة رسوله ، إن الله
تعالى - هو الكثير القبول لتوبة التائبين ، وهو الواسع الرحمة بعباده
، المحسنين .هذا ، والمقصود بهؤلاء الثلاثة الذين خلفوا : كعب بن مالك
وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع؛ وكلهم من الأنصار .وقد ذكرت قصتهم فى
الصحيحين وفى غيرهما من كتب السنة والسيرة ، وهناك خلاصة لها :قال الإمام
- ابن كثير : روى الإمام " أن كعب بن مالك قال ، لم أتخلف عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم - فى غزة غزاها قط إلا فى تبوك .وكان من خبري حين تخلفت
عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى غزوة تبوك . أنى لم أكن قط أقوى
ولا أيسر منى حين تخلفت عنه فى تلك الغزوة .وغزا رسول الله - صلى الله عليه
، وسلم - تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال ، وتجهز لها المؤمنون معه
فطفقت أغدو لكى أتجهز معهم . فأرجع ولم أقض من جهازى شيئاً . . فأقول لنفسى
، أنا قادر على ذلك إذا أردت . . . ولم يزل ذلك شأنى أسرعوا وتفارط الغزوة
فهممت أن أرتحل فألحقهم - وليتنى فعلت - ولكن لم يقدر لى ذلك .ولم يذكرنى
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى بلغ تبوك فقال : ما فعل كعب بن مالك؟
: فقال رجل من بنى سلمة : حبسه برداه والنظر فى عطفيه .فقال معاذ بن جبل
- بئسما قلت . والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرا فسكت رسول الله
صلى الله عليه وسلم - . قال كعب : فلما بلغنى أن رسول الله قد توجه قافلا
من تبوك ، حضرنى بثى ، وطفقت أتذكر الكذب وأقوال بماذا أخرج من سخط غدا؟
، وعندما عاد الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة جاءه المتخلفون.
فطفقوا يعتذرون إليه . . وجئت إليه فقال : تعالى . . ما خلفك؟! ألم تكن قد
اشتريت ظهرا؟فقلت يا رسول الله؛ إنى لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت
أن أخرج من سخطه بعذر . والله لقد علمت لئن حدثتك اليم بحديث كذاب ترضى به
عنى ، ليوشكن الله أن يسخطك على . ولئن حدثتك بصدق تغضب على فيه ، إنى
لأرجو عقبى ذلك من الله - تعالى - والله ما كان لى من عذر .قال - صلى الله
عليه وسلم - أما هذا فقد صدق . فقم حتى يقضى الله فيك . وكان هناك رجلان قد
قالا مثل ما قلت هما مرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية .قال : ونهى رسول
. . . الله - صلى الله عليه وسلم - كلامنا ، فاعتزلنا الناس وتغيروا لنا
: ولبثنا على ذلك خمسين ليلة . . . . ثم أمرنا أن نعتزل نساءنا ففعلنا .قال
ثم صليت صلاة الصبح صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتها فبينا أنا على
الحال التى ذكرها الله عنا ، قد ضاقت على نفسى . . سمعت صراخا يقول بأعلى
- صوته : أبشر يا كعب بن مالك .وذهبت إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم
- فقال : أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك . قال : وأنزل الله - تعالى
الآية .قال الإمام ابن كثير بعد أن" ( وَعَلَى الثلاثة الذين خُلِّفُوا )
ساق هذا الحديث بتمامه : هذا حديث صحيح ثابت متفق على صحته ، وقد تضمن
تفسير الآية بأحسن الوجوه وأبسطها .وبذلك نرى أن هاتين الآيتين قد ذكرتا
جانبا من فضل الله على عباده ، حيث قبل توبتهم ، وغسل حوبتهم . إنه بهم
. رءوف رحيم

يا ايها الذين امنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين

كما فسرها الوسيط ثم وجه - سبحانه - نداء إلى المؤمنين أمرهم فيه بأن يتقوا
- الله حق تقاته وأن يكونوا مع الصادقين ، وأوجب عليهم الغزة مع رسول الله
صلى الله عليه وسلم - ووعدهم عليه بجزيل الثواب ، وتوعد المتخلفين عنه
بشديد العقاب فقال - تعالى - : ( ياأيها الذين آمَنُواْ . . . مَا كَانُواْ
يَعْمَلُونَ ) .والمعنى : يا من آمنتم بالله واليوم الآخر . . اتقوا الله
حق تقاته ، بأن تفعلوا ما كلفكم به . وتتركوا ما نهاكم عنه ، ( وَكُونُواْ
مَعَ الصادقين ) فى دين الله نية وقولا وعملا وإخلاصا؛ فإن الصدق ما وجد فى
شئ إلا زانه ، وما وجد الكذب فى شئ إلا شأنه .قال القرطبى : حق من فهم عن
الله وعقل منه : أن يلازم الصدق فى الأقوال والإخلاص فى الأعمال ، والصفاء
فى الأحوال ، فمن كان كذلك لحق بالأبرار ووصل إلى ربنا الغفار .قال - صلى
الله عليه وسلم - " عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر وإن البر يهدى
" إلى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا
والكذب على الضد من ذلك . قال - صلى الله عليه وسلم - " إياكم والكذب فإن.
الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار ، وما يزال الرجل يكذب
ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا " .فالكذب عار ، وأهله مسلوبو
الشهادة ، وقد رد - صلى الله عليه وسلم - شهاد رجل من كذبه كذبها . وسئل
، شريك بن عبد الله فقيل له : يا أبا عبد الله ، رجل سمعته يكذب متعمدا
. أصلى خلفه؟ قال :لا

ما كان لاهل المدينة ومن حولهم من الاعراب ان يتخلفوا عن رسول الله ولا
يرغبوا بانفسهم عن نفسه ذلك بانهم لا يصيبهم ظما ولا نصب ولا مخمصة في سبيل
الله ولا يطئون موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا الا كتب لهم به
عمل صالح ان الله لا يضيع اجر المحسنين

كما فسرها الوسيط ثم أوجب - سبحانه - على المؤمنين مصاحبة رسولهم - صلى الله عليه وسلم - فى غزواته فقال : ( مَا كَانَ لأَهْلِ المدينة وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِّنَ الأعراب أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ الله . . ) والمراد بالنفى هنا النهى . أى : ليس لأهل المدينة أو لغيرهم من الأعراب. سكان البادية الذين يسكنون فى ضواحى المدينة ، كقبائل مزينة وجهينة وأشجع - وغفار .ليس لهؤلاء جميعا أن يتخلفوا عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم إذا ما خرج للجهاد ، كما فعل بعضهم فى غزوة تبوك ، لأن هذا التخلف فيتنافى مع الإيمان بالله ورسوله .وليس لهم كذلك ( وَلاَ يَرْغَبُواْ بِأَنْفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ) أى ليس لهم أن يؤثروا أنفسهم بالراحة على نفسه ، بأن يتركوه ويتعرض للآلام والأخطار . دون أن يشاركوه فى ذلك ، بل من الواجب عليهم أن يكونوا من حوله فى البأساء والضراء ، والعسر واليسر؛ والمنشط والمكره .ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال عند تفسيره لهذه الجملة الكريمة : أمروا بأن يصحبوه على البأساء والضراء ، وأن يكابدوا معه الأهوال برغبة ونشاط واغتباط ، وأن يلقوا أنفسهم من الشدائد ما تلقاه نفسه ، علما بأنها أعز نفس على الله وأكرمها ، فإذا تعرضت - مع كرامتها وعزتها - للخوض فى شدة وهول ، وجب على سائر الأنفس أن تتهافت - أى تتساقط - فيما تعرضت له ولا يكترث لها أصحابها ، ولا يقيمون له وزنا ، وتكون أخف شئ عليهم وأهونه ، فضلا عن أن يربأوا بأنفسهم عن متابعتها ومصاحبتها ويضنوا بها على ما سمع ، بنفسه عليه .وهذا نهى بليغ ، مع تقبيح لأمره ، وتوبيخ لهم عليه ، وتهييج لمتابعته بأنفة وحمية .واسم الإشارة فى قوله : ( ذلك بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ الله . . ) يعود على ما دل عليه الكلام من وجوب مصاحبته وعدم التخلف عنه .أى : ذلك الذى كلفانهم به من وجوب مصاحبته - صلى الله عليه وسلم - والنهى عن التخلف عنه ، سبب أنهم ( لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ ) أى عطش ( وَلاَ نَصَبٌ ) أى تعب ومشقة ( وَلاَ مَخْمَصَةٌ ) أى : مجاعة شديدة تجعل البطون خامصة ضامرة فى جهاد أعدائه وإعلاء كلمة الحق ( وَلاَ ( فِي سَبِيلِ الله ) أى : يَطَأُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الكفار ) أى : ولا يدوسون مكانا من أمكنة الكفار بأرجلهم أو بحوافر خيولهم من أجل إغاظتهم وإزعاجهم . . ( وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً ) أى : ولا يصيبون من عدو من أعدائهم إصابة كقتل أو أسر أو غنيمة .إنهم لا يفعلون شيئا ( إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ) أى : إلا كتب لهم بكل واحد مما ذكر عمل صالح ، ينالون بسببه الثواب الجزيل من الله ، لأنه - سبحانه - ( لاَ يُضِيعُ أَجْرَ المحسنين ) وإنما يكافئهم إلى إحسانهم بالأجر العظيم .

ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا الا كتب لهم ليجزيهم الله احسن ما كانوا يعملون

كما فسرها الوسيط وقوله : ( وَلاَ يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً ) معطوف على ما قبله .أى : وكذلك ولا يتصدقون بصدقة صغيرة ، كالتمرة ونحوها ، ولا كبيرة كما فعل عثمان - رضى الله عنه - فى هذه الغزوة فقد تصدق بالكثير .( وَلاَ يَقْطَعُونَ وَادِياً ) من الوديان فى مسيرهم ، إلى عدوهم ، أو رجوعهم عنه لا يفعلون شيئا من ذلك أيضا ( إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ ) أى : إلا كتب لهم ثوابه فى سجل حسناتهم .( لِيَجْزِيَهُمُ الله أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ) أى : أمرهم بمصاحبة نبيهم فى كل غزواته ، وكلفهم بتحمل مشاق الجهاد ومتاعبه ليجزيهم على ذلك أحسن الجزاء وأعظمه ، فأنت ترى أن الله - تعالى - قد حضر المؤمنين على الجهد فى هاتين الآيتين ، وبين لهم أن كل ما يلاقونه فى جهادهم من متاعب له ثوابه العظيم وما دام الأمر كذلك فعليهم أن يصاحبوا رسولهم - صلى الله عليه وسلم - فى جميع غزواته ، لأن التخلف عنه لا يليق بالمؤمنين الصادقين ، فضلا عن أن هذا التخلف - بدون عذر شرعى - سيؤدى إلى الخسران فى الدنيا والآخرة .

وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون

كما فسرها الوسيط وبعد أن حرض الله - تعالى - المؤمنين على الجهاد فى سبيله وحذرهم من التخلف عن الخروج مع رسوله - صلى الله عليه وسلم - أتبع ذلك ، - بالحديث عما يجب عليهم إذا لم تكن المصلحة تقتضى النفير العام ، فقال تعالى - : ( وَمَا كَانَ المؤمنون ) .قال الجمل : وسبب نزول هذه الآية أن ، النبى - صلى الله عليه وسلم - لما بالغ فى الكشف عن عيوب المنافقين وفضحهم فى تخلفهم عن غزوة تبوك . قال المسلمون : والله لا نتخلف عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولا عن سرية بعثها ، فلما قدم - صلى الله عله وسلم - المدينة من تبوك ، وبعث السرايا ، أراد المسلمون أن ينفروا جميعا للغزة وأن يتركوا النبى - صلى الله عليه وسلم - وحده فنزلت هذه الآية

والمعنى ، وما كان من شأن المؤمنين ، أن ينفروا جميعا فى كل سرية تخرج.
للجهاد ، ويتركوا الرسول - صلى الله عليه وسلم - وحده بالمدينة ، وإنما يجب
: عليهم النفير العام إذا ما دعاهم - صلى الله عليه وسلم - إلى ذلك .وقوله
معطوف على ( فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ )
كلام محذوف ، ولولا حرف تحضيض بمعنى هلا .أى : فحين لم يكن هناك موجب لنفير
الكافة ، فهلا نفر من كل فرقة من المؤمنين طائفة للجهاد ، وتبقى طائفة أخرى
- منهم ( لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدين ) أى : ليتعلموا أحكامه من رسولهم
صلى الله عليه وسلم - ( وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ ) أى : وليعلموهم
) ويخبروهم بما أمروا به أو نهوا عنه ( إِذَا رجعوا إِلَيْهِمْ ) من الغزو
لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ) أى : لعل هؤلاء الراجعين إليهم من الغزو يحذرون
ما نهوا عنه .أى : أن على المسلمين فى حالة عدم النفير العام ، أن يقسموا
أنفسهم إلى قسمين .قسم يبقى مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - ليتفقه فى
دينه ، وقسم آخر يخرج للجهاد فى سبيل الله ، فإذا ما عاد المجاهدون ، فعلى
الباقين مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يبلغوا العائدين ما حفظوه عن
الرسول - صلى الله عليه وسلم - من أحكام .وبذلك يجمع المسلمون بين
المصلحتين : مصلحة الدفاع عن الدين بالحجة والبرهان ، ومصلحة الدفاع عنه
بالسيف والسنان .وعلى هذا التفسير الذى سار عليه جمهور العلماء يكون الضمير
فى قوله ( لِّيَتَفَقَّهُواْ . . . وَلِيُنذِرُواْ ) يعود إلى الطائفة
) الباقية مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - .أما الضمير فى قوله
لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ) فيعود على الطائفة التى خرجت للجهاد ثم عادت
ومنهم من يرى أن الضمير فى قوله ( لِّيَتَفَقَّهُواْ . . . وَلِيُنذِرُواْ.
يعود على الطائفة التى خرجت للجهاد .وقد رجح هذا الاتجاه الإمام ابن (
جرير فقال : وأما قوله ( لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدين وَلِيُنذِرُواْ
قَوْمَهُمْ إِذَا رجعوا إِلَيْهِمْ ) فإن أولى الأقوال فى ذلك بالصواب قول
من قال : لتتفقه الطائفة النافرة بما تعاين من نصر الله لأهل دينه ولأصحابه
رسوله على أهل عداوته والكفر به ، فيفقه بذلك من معاينته حقيقة علم أمر
الإسلام ، وظهوره على الأديان ، من لم يكن فقه ، ( وَلِيُنذِرُواْ
قَوْمَهُمْ ) فيحذروهم أن ينزل بهم من بأس الله ، مثل الذى نزل بمن شاهدوا
) ممن ظفر بهم المسلمون من أهل الشرك ، إذا هم رجعوا إليهم من غزوهم ،
لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ) أى : لعل قومهم إذا هم حذروهم ما عاينوا من ذلك
يحذرون فيؤمنون بالله ورسوله ، حذرا من أن ينزل بهم ما انزل بالذين ،
أخبروا خبرهم ..وقد علق صاحب المنار على رأى ابن جرير هذا بقوله : وهذا
تأويل متكلف ينبو عنه النظم الكريم ، فإن اعتبار طائفة السرية بما قد يحصل
لها من النصر - وهو غير ممضون ولا مطرد -لا يسمى تفقها فى الدين ، وإن كان
يدخل فى عموم معنى الفقه ، فإن التفقه هو التعلم الذى يكون بالتكلف والتدرج
والمتبادر من الدين علمه ، ولا يصح هذا المعنى فى ذلك العهد إلا فى الذين ،
يبقون مع النبى - صلى الله عليه وسلم - فيزدادون فى كل يوم علما وفقها
بنزول القرآن . .هذا ، ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآية : وجوب
طلب العلم ، والتفقه فى دين الله وتعليم الناس إياه .قال القرطبى : هذه
الآية أصل فى وجوب طلب العلم؛ لأن المعنى : وما كان المؤمنون لينفروا كافة
" والنبى - صلى الله عليه وسلم - مقيم لا ينفر فيتركوه وحده" فلولا نفر
بعدما علموا أن النفير لا يسعه جميعهم ( مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ
طَآئِفَةٌ ) وتبقى بقيتها مع النبى - صلى الله عليه وسلم - ليتحملوا عنه
الدين ويتفقهوا ، فإذا رجع النافرون إليهم أخبرهم بما سمعوه وعلموه ، وفى
. . هذا إيجاب التفقه ، فى الكتاب والسنة ، وأنه على الكفاية دون الأعيان

يا ايها الذين امنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة
واعلموا ان الله مع المتقين

، كما فسرها الوسيط ثم ختمت السورة الكريمة حديثها عن الجهاد فى سبيل الله
) : - بدعوة المؤنمين إلى قتال أعدائهم بشدة وغلظة بشدة وغلظة فقال - تعالى
ياأيها الذين آمَنُوا قَاتِلُوا . . . ) .وقوله : ( يَلُونَكُمْ ) من
: الولى بمعنى القرب ، تقول جلست مما يلى فلان أى : يقاربه .قال ابن كثير
أمر الله المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أولا فأولا ، الأقرب فالأقرب ، إلى
حوزة الإسلام ، ولهذا بدأ الرسول - صلى الله عليه وسلم - بقتل المشركين فى
جزيرة العرب ، فلما فرغ منهم وفتح الله عليه مكة والمدينة واليمن . . وغير
، ذلك من أقاليم العرب ، دخل الناس من سائر احياء العرب فى دين الله أفواجا
شرع فى قتال أهل الكتاب ، فتجهز لغزو الروم الذين هم أقرب الناس إلى جزيرة
العرب ، وأولى الناس بالدعوة إلى الإسلام لأنهم أهل كتاب ، فبلغ تبوك ثم
، رجع لأجل جهد الناس ، وجدب البلاد ، وضيق الحال ، ذلك سنة تسع من الهجرة
ثم اشتغل فى السنة العاشرة بحجة الوداع ، ثم عاجلته المنية - صلوات الله
وسلامه عليه - بعد حجة الوداع بأحد وثمانين يوما وسار خلفاؤه الراشدون من
بعده على نهجه .وقوله ( وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلظَةً ) أى : وليجد
الكفار منكم غلظة عليهم فى قتالكم ، فإن المؤمن الكامل هو الذى يكون رفيقا

بأخيه المؤمن ، غليظا على عدوه الكافر . قال - تعالى - : ( مُّحَمَّدٌ
رَّسُولُ الله والذين مَعَهُ أَشِدَّآءُ عَلَى الكفار رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ
وفى الحديث أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : " أنا الضحوك
القتال " يعنى أنه ضحوك فى وجه وليه المؤمن ، قتال لهامة عدوه الكافر
وقوله : ( واعلموا أَنَّ الله مَعَ المتقين ) تذييل قصد به حض المؤمنين
: على التسلح بسلاح الإيمان والتقوى حتى ينالوا نصر الله وعونه .أى
واعلموا أن الله - تعالى - مع المتقين بنصره ومعونته ، فاحرصوا على هذه
- الصفة ليستمر معكم نصره - سبحانه - وعونه .وإنما أمر الله - تعالى
المؤمنين أن يبدأوا قتالهم مع الأقرب فالأقرب من ديارهم ، لأن القتال شرع
لتأمين الدعوة الإسلامية ، وقد كانت دعوة الإسلام موجهة إلى القرب
فالأقرب ، فكان من الحكمة أن يبدأوا قتالهم مع المجاورين لهم حتى يأمنوا
شرهم ، ولأنه من المعلوم أنه ليس فى طاقة المسلمين قتال جميع الكفار ، وغزو
جميع البلاد فى زمان واحد ، فكان من قرب أولى ممن بعد .

واذا ما انزلت سورة فمنهم من يقول ايكم زادته هذه ايمانا فاما الذين امنوا
فزادتهم ايمانا وهم يستبشرون

كما فسرها الوسيط ثم ختمت السورة - ايضاً - حديثها الطويل المتنوع عن
المنافقين ببيان موقفهم من نزول الآيات القرآنية على الرسول - صلى الله
عليه وسلم - .فقال - تعالى - : ( وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ
فَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ ) .والمعنى : إذا ما أنزلت سورة من سور القرآن
عليك يا محمد : تساءل المنافقون عنها فى حذر وريبة ( فَمِنْهُمْ مَّن
يَقُولُ ) لأشباهه فى الكفر والنفاق على سبيل الاستهزاء والتهوين من شأن
القرآن الكريم ( أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هذه إِيمَاناً ) أى : واحد منكم زادته
هذه السورة النازلة إيمانا؟وهنا يجئ الرد الحاسم الذى يخرس ألسنتهم ، من
جهته - تعالى - فيقول : ( فَأَمَّا الذين آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً
وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ) .أى : فأما الذين آمنوا فزادهم نزول السورة
، القرآنية ، إيمانا على إيمانهم ، وثباتا على ثباتهم ، ويقينا على يقينهم
وهم " فوق ذلك " يستبشرون " ويفرحون بنزولها لما فيها من المنافع الدينية "
والدنيوية .

واما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا الى رجسهم وماتوا وهم كافرون

كما فسرها الوسيط هذا شأن المؤمنين بالنسبة لنزول السورة القرآنية ، وأما
المنافقون ، فقد صور القرآن حالهم بقوله ( وَأَمَّا الذين فِي قُلُوبِهِم
مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إلى رِجْسِهِمْ ) .أى : وأما الذين فى
قلوبهم شك ونفاق وارتياب . فزادهم نزول السورة كفرا على كفرهم السابق
) : وسمى - سبحانه - الكفر رجسا ، لأنه أقبح الأشياء وأسوؤها .وقوله
وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ ) تذييل قصد به بيان سوء عقابتهم فى الآخرة
بعد بيان سوء أعمالهم فى الدنيا .أى : لقد قضى هؤلاء المنافقون حياتهم فى
الكفر والفسوق والعصان ، ثم لم يتوبوا عن ذلك ولم يرجعوا عنه ، بل ماتوا
على الكفر والنفاق .

اولا يرون انهم يفتنون في كل عام مرة او مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون

كما فسرها الوسيط وقوله : ( أَوَلاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي
، كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ) توبيخ لهم على قسوة قلوبهم
وانطماس بصيرتهم ، وغفلتهم عما يدعو إلى الاعتبار والاتعاظ .أى : أبلغ
الجهل والسفه وعمى البصيرة بهؤلاء ، أنهم صاروا لا يعتبرون ولا يتعظون بما
حاق من فتن واختبارات وابتلاءات ، تنزل بهم فى كل عام مرة أو مرتين؟ومن هذه
الفتن والامتحانات : كشف مكرهم عن طريق اطلاع رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - على ما يضمرونه من سوء ، وما يقولونه من منكر ، وما يفعلونه من
أفعال خبيثة ، وحلول المصائب والأمراض بهم ، ومشاهدتهم لانتصار المؤمنين
وخذلان الكافرين .قال الآلوسى : والمراد من المرة والمرتين - على ما صرح به
) : بعضهم - مجرد التكثير ، لا بيان الوقوع على حسب العدد المذكور .وقوله
ثُمَّ لاَ يَتُوبُونَ وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ ) بيان لرسوخهم فى الجهل
) والجحود .أى : ثم بعد كل هذه الفتن النازلة بهم ، لا يتوبون من نفاقهم
، وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ ) ويتعظون ، بل يصرون على مسالكهم الخبيثة
وأعمالهم القبيحة ، مع أن من شأن الفتن والمصائب والمحن ، أنها تحمل على
الاعتبار والاتعاظ ، والرجوع عن طريق الشر إلى طريق الخير .

واذا ما انزلت سورة نظر بعضهم الى بعض هل يراكم من احد ثم انصرفوا صرف الله
قلوبهم بانهم قوم لا يفقهون

كما فسرها الوسيط ثم تصور السورة الكريمة تصويرا معجزا ، مشهدهم عندما تنزل السورة القرآنية على الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهم حاضرون فى مجلسه - فتقول : ( وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ ) أو آيات منها ، على الرسول صلى الله عليه وسلم - وهم موجودون فى مجلسه ( نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ ) فى ريبة ومكر ، وتغامزوا بعيونهم وجوارحهم فى لؤم وخسة ثم تساءلوا أى : هل يراكم فى أحد من المسلمين إذا ( هَلْ يَرَاكُمْ مِّنْ أَحَدٍ ) : ما قمتم من هذا المجلس ، قبل أن يتلو الرسول - صلى الله عليه وسلم - هذه السورة أو الآيات التى قد تفضحكم وتكشف عما اسررتموه فيما بينكم .( ثُمَّ انصرفوا ) من مجلس الرسول - صلى الله عليه وسلم - متسللين فى حذر حتى لا يراهم أحد من المسلمين .وقوله : ( صَرَفَ الله قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ ) ذم لهم لإيثارهم الغى على الرشد ، والضلالة على الهداية .أى : صرف الله قلوبهم عن الهداية والرشاد ، بسبب أنهم قوم لا يفقهون ما فيه خيرهم ونفعهم . وإنما يفقهون ما فيه شقاؤهم وتعاستهم .هذا ، وإن الناظر فى هذه الآيات الكريمة يتدبر وإمعان ، ليراها قد صورت أحوال المنافقين وأخلاقهم وحركاتهم تصويرا دقيقا معجزا ، حتى إنه ليخيل إلى القارئ لهذه الآيات الكريمة أو السامع لها ، أنه يشهد المنافقين مشاهدة حسية وهم على تلك الحالة من التحرك المريب والنظرات الخبيثة ، والخروج من مجلس النبى - صلى الله عليه وسلم - فى حذر وريبة . .وهذا كله مما يشهد بأنه هذا القرآن إنما هو من عند الله العليم بخفايا الصدور ، وبطوايا النفوس .

لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه سورة التوبة ، بآيتين كريمتين ، اشتملتا على أسمى النعوت ، وأكرم الصفات للرسول - صلى الله عليه وسلم - فقال تعالى - : ( لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ . . . وَهُوَ رَبُّ العرش العظيم ) .وجمهور المفسرين على أن الخطاب فى قوله - سبحانه - : ) : للعرب : فهو كقوله ( لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ) هُوَ الذي بَعَثَ فِي الأميين رَسُولاً مِّنْهُمْ ) أى : لقد جاءكم - يا معشر العرب - رسول كريم " من أنفسكم " أى : جنسكم ، ومن نسبكم ، فهو عربى مثلكم ، فمن الواجب عليكم أن تؤمنوا به وتطيعوه .فالمقصود من هذه الجملة الكريمة ترغيب العرب فى الإيمان بالنبى - صلى الله عليه وسلم - وفى طاعته وتأييده ، فإن شرفهم قد تم بشرفه ، وعزهم بعزه ، وفخرهم بفخره ، وهم فى الوقت نفسه قد شهدوا له فى صباه بالصدق والأمانة والعفاف وطهارة النسب والأخلاق الحميدة .قال القرطبى : قوله ( مِّنْ أَنفُسِكُمْ ) يقتضى مدحا لنسب النبى - صلى الله عليه وسلم - وأنه من صميم العرب وخالصها ، وفى صحيح مسلم " عن وائلة بن الأسقع قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : " إن الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل ، واصطفى قريشا من كنانة ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم " وعنه - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : " إنى من نكاح ولست من سفاح " .وقال الزجاج إن الخطاب فى الآية الكريمة لجميع البشر ، لعموم بثعته - صلى الله عليه وسلم - ومعنى كونه - صلى الله عليه وسلم - " من أنفسكم " إنه من جنس البشر .ويبدو لنا أن الرأى الأول ارجح؛ لأن الآية الكريمة ليت مسوقة لإثبات رسالته - صلى الله عليه وسلم - وعمومها ، وإنما هى مسوقة لبيان منته وفضله - سبحانه - على العرب ، حيث أرسل خاتم أنبيائه منهم ، فمن الواجب عليهم أن يؤمنوا به ، لأنه ليس غريبا عنهم ، وإذا لم يؤمنوا به تكون الحجة عليهم ألزم ، والعقوبة لهم أعظم .وقوله : ( عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ) أى : شديد وشاق عليه عنتكم ومشقتكم ، لكونه بعضا منكم؛ فهو يخاف عليكم سوء العاقبة ، والوقوع فى العذاب .يقال : عزّ عليه الأمر أى صعب وشق عليه ، والعنت المشقة والتعب ومنه قولهم : أكمة عنوت ، إذا كانت شاقة مهلكة ، والفعل عنت بوزن فرح وقوله : ( حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ ) أى : حريص على إيمانهم وهدايتكم وعزتكم. وسعادتكم فى الدنيا والآخرة .والحرص على الشئ معناه : شدة الرغبة فى الحصول عليه وحفظه .قوله : ( بالمؤمنين رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ) أى : شديد الرأفة والرحمة بكم - أيها المؤمنون - والرأفة عبارة عن السعى فى إزالة الضرر . والرحمة عبارة عن السعى فى إيصال النفع ، فهو - صلى الله عليه وسلم - يسعى بشدة فى إيصال الخير والنفع للمؤمنين ، وفى إزالة كل مكروه عنهم .قال بعضهم - لم يجمع الله - تعالى - لأحد من الأنبياء اسمين من أسمائه إلا للنبى : صلى الله عليه وسلم - فإنه قال ( بالمؤمنين رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ) وقال عن - ذاته - سبحانه -( إِنَّ الله بالناس لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ) ثم انتقل ) : سبحانه - من خطاب المؤمنين إلى خطابه - صلى الله عليه وسلم - فقال ( . . فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ الله لا إله إِلاَّ هُوَ .

فان تولوا فقل حسبي الله لا اله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم

كما فسرها الوسيط ( فَإِن تَوَلّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ الله لا إله إِلاّ هُوَ . . )أى : فإن أعرضوا عن الإيمان بك ، وتركوا طاعتك ، فلا تبتئس ولا تيأس ، بل قل " حسبى الله " أى : هو كافينى ونصيرى (لا إله إِلاّ هُوَ - سبحانه - ( رَبُّ العرش العظيم ) الذى لا يعلم مقدار عظمته إلا الله - ( - عز وجل - .ففى هاتين الآيتين الكريمتين بيان للصفات التى منحها - سبحانه لرسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - ، ودعوة له - صلى الله عليه وسلم - إلى أن يفوض أمره إلى خالقه فهو - سبحانه - كافيه وناصره .وبعد فهذه سورة التوبة .السورة التى احتوت على بيان الأحكام النهائية فى العلاقات الدائمة بين المجتمع الإسلامى ، والمجتمعات الأخرى .السورة التى حرضت المؤمنين على الجهاد فى سبيل الله ، وساقت لهم من وسائل الترغيب فى ذلك ، ما يجعلهم يقدمون على قتال أعدائهم بصبر وثبات واستبشار .السورة التى اوجبت على المؤمنين أن تكون محبتهم لله ولرسوله ، ولإعلاء كلمة الحق ، فوق محبة الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال .السورة التى ذكرت . المؤمنين بنصر الله لهم فى مواطن كثيرة ، وحذرتهم من الغرور بأنفسهم ، والعجب بقوتهم ، وأمرتهم بنصرة رسوله فى السراء والضراء والعسر واليسر والمنشط والمكره .السورة التى أمرت المؤمنين بأن يخلصوا فى دفاعهم عن دين الله وعن حرماته وعن مقدساته . وبشرتهم بأنهم إذا فعلوا ذلك ، فسوف يغنيهم ، الله من فضله .السورة التى فضحت المنافقين ، وكشفت عن أساليبهم الخبيثة ومسالكهم القبيحة ، وأقوالهم المنكرة ، وأفعالهم الأثيمة ، وسجلت عليهم الخزى والعار وحذرت المؤمنين من شرورهم . .السورة التى رسمت أسس التكافل الاجتماعى بين أفراد الأمة الإسلامية ، عن طريق مشروعية الزكاة ، ووجوب أدائها لمستحقيها .السورة التى ساقت ألونا من فضل الله على عباده المؤمنين حيث تقبل سبحانه توبتهم ، وغسل حوبتهم ، وتجاوز عن خطئهم .السورة التى ، صنفت المجتمع الإسلامى فى أواخر اعهد النبوى تصنيفا دقيقا .فهناك السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان وهناك الذين خطلوا عملا صالحا وآخر سيئاً .وهناك المرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم .وهناك الأعراب المنافقون ، وهناك الذين مردوا على النفاق من أهل المدينة .وقد بينت السورة الكريمة ما يستحقه كل قسم من الأقسام من ثواب أو عقاب .السورة التى أوجبت على المؤمنين أن يقيموا علاقاتهم على أساس العقيدة الدينية لا على أساس القرابة الجسدية ، فنهتهم أن يستغفروا للمشكرين ولو كانوا أولى قربى .هذا جانب من المقاصد الإجمالية التى اشتملت عليها هذه السورة الكريمة ونسأل الله - تعالى - أن يجعل القرآن ربيع قلوبنا ، وأنس نفوسنا ، وان يرزقنا الإخلاص والتوفيق فى القول والعمل .وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الر تلك ايات الكتاب الحكيم

كما فسرها الوسيط سورة يونس من السور التى افتتحت ببعض حروف التهجي .وقد وردت هذه الفواتح تارة مفردة بحرف واحد ، وتارة مركبة من حرفين ، أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة .فالسور التى افتتحت بحرف واحد ثلاثة ، وهى سورة : ص ، ق ن .والسور التى افتتحت بحرفين تسعين ، وهي : طه ، طس ، يس ، وحم فى ست ، سور ، هي : غافر ، فصلت ، الزخرف ، الدخان ، الجاثية ، الأحقاف .والسور : التى بتدئت بثلاثة أحرف ، ثلاث عشرة سورة ، وهى : ألم فى ست سور هى البقرة ، آل عمران ، العنكبوت ، الروم ، لقمان ، السجدة ، والر فى خمس سور هى : يونس ، هود ، يوسف ، إبراهيم ، الحجر ، وطسم فى سورتين هما : الشعراء القصص .وهناك سورتان بدئتا بأربعة أحرف وهما : الأعراف ، الرعد ، وسورتان ، بدئتا بخمسة أحرف وهما : مريم ، والشورى .فيكون مجموع السور التى افتتحت بالحروف المقطعة تسعا وعشرين سورة .وهذا ، وقد وقع خلاف بين العلماء فى ، المعنى المقصود بتلك الحروف المقطعة التى افتتحت بها بعض السور القرآنية ويمكن إجمال خلافهم فى رأيين رئيسين :الرأي الأول يرى أصحابه : أن المعنى المقصود منها غير معروف ، فهي من المتشابه الذى استأثر الله بعلمه .وإلى ، هذا الرأي ذهب ابن عباس - فى إحدى الروايات عنه - كما ذهب إليه الشعبي وسفيان والثوري ، وغيرهم من العلماء . فقد أخرج ابن المنذر وغيره عن الشعبي أنه سئل عن فواتح السور فقال : إن لكل كتاب سرا ، وإن سر هذا القرآن فى فواتح السور .ويروى عن ابن عباس أنه قال : عجزت العلماء عن إدراكها . وعن علي - رضي الله عنه - قال : " إن لكل كتاب صفوة ، وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي " وفي رواية أخرى عن الشعبي أنه قال : " سر الله فلا تطلبوه " .ومن الاعتراضات التى وجهت إلى هذا الرأي ، أنه إذا كان الخطاب بهذه الفواتح غير مفهوم للناس ، لأنه من المتشابه ، فإنه يترتب على ذلك أنه كالخطاب بالمهمل أو مثل ذلك كمثل المتكلم بلغة أعجمية مع أناس عرب لا يفهمونها .وقد أجيب ، - عن ذلك ، بأن هذه الألفاظ لم ينتف الإفهام عنها عند كل الناس ، فالرسول ، صلى الله عليه وسلم - كان يفهم المراد منها ، وكذلك بعض أصحابه المقربين ولكن الذى ننفيه أن يكون الناس جميعا فاهمين لمعنى هذه الحروف المقطعة فى أوئل السور .أما الرأي الثاني فيرى أصحابه : أن المعنى المقصود منها معلوم

وأنها ليست من المتشابه الذى استأثر الله بعلمه .وأصحاب هذا الرأي قد ، اختلفوا فيما بينهم فى تعيين هذا المعنى المقصود على أقوال كثيرة من أهمها ما يأتي :1 - أن هذه الحروف أسماء للسور ، بدليل قول النبي - صلى الله عليه وسلم - " من قرأ حم السجدة حفظ إلى أن يصبح " وبدليل اشتهار بعض السور ، بالتسمية بها ، كسورة " ص " وسورة " يس " .ولا يخلو هذا القول من الضعف لأن كثيرا من السور قد افتتحت بلفظ واحد من هذه الفواتح ، والغرض من التسمية رفع الاشتباه .2 - وقيل : إن هذه الحروف قد جاءت هكذا فاصلة للدالة على انقضاء سورة . وابتداء أخرى .3 - وقيل : إنها حروف مقطعة ، بعضها من أسماء الله - تعالى - وبعضها من صفاته فمثلا " ألم " أصلها أنا الله أعلم وقيل : إنها اسم الله الأعظم ، إلى غير ذلك من الأقوال التى لا تخلوا - 4. من مقال . والتي أوصلها السيوطي فى كتابه " الإتقان " إلى أكثر من عشرين قولا .5 - ولعل أقرب الأقوال إلى الصواب أن يقال : إن هذه الحروف المقطعة قد وردت فى افتتاح بعض السور ، للإشعار بأن هذا القرآن الذى تحدى الله به المشركين هو من جنس الكلام المركب من هذه الحروف التى يعرفونها ، ويقدرون على تأليف الكلام منها . فإذا عجزوا عن الإتيان بسورة من مثله ، فذلك لبلوغه فى الفصاحة والحكمة مرتبة يقف فصحاؤهم وبلغاؤهم دونها بمراحل شاسعة وفضلا عن ذلك فإن تصدير بعض السور بمثل هذه الحروف المقطعة يجذب أنظار. المعرضين عن استماع القرآن حين يتلى عليهم إلى الإنصات والتدبر لأنه يطرق أسماعهم فى أول التلاوة ألفاظ غير مألوفة فى مجاري كلامهم ، وذلك مما يلفت أنظارهم ليتبينوا ما يراد منها ، فيترتب على ذلك أن يسمعوا حكما ، وهدايات قد تكون سببا فى إيمانهم . ولعل مما يشهد بصحة هذا الرأي : أن الآيات التى تلى هذه الحروف المقطعة ، تتحدث عن القرآن وعن كونه معجزة للرسول - صلى الله عليه وسلم - فى أغلب المواضع .ومن ذلك قوله - تعالى - : فى أول سورة البقرة ( الم . ذَلِكَ الكتاب لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ) وقوله سبحانه فى أول سورة هود : ( الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ) وقوله - سبحانه - فى أول سورة إبراهيم : ( الار كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ الناس مِنَ الظلمات إِلَى النور بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إلى صِرَاطِ العزيز الحميد ) وهكذا نرى أن كثيرا من السور التى افتتحت بالحروف المقطعة ، قد أعقبت هذا الافتتاح بالحديث الصريح أو الضمني عن القرآن الكريم ، وأن هذه السور إذا ، تأملتها من أولها إلى آخرها ترى من أهدافها الأساسية إثبات وحدانية الله وإثبات صحة الرسالة المحمدية ، وإثبات أن هذا القرآن الذى هو معجزة الرسول الخالدة - منزل من عند الله - تعالى - .هذه خلاصة لآراء العلماء فى المراد بالحروف المقطعة التى افتتحت بها بعض السور القرآنية . ومن أراد مزيدا لذلك " فليرجع - مثلا - إلى كتاب " الإتقان " للسيوطي ، وإلى كتاب " البرهان للزركشي ، وإلى تفسير الآلوسى .ثم قال - تعالى - ( تِلْكَ آيَاتُ الكتاب الحكيم ) .( تِلْكَ ) اسم إشارة والمشار إليه الآيات . والمراد بهما آيات القرآن الكريم . ويندرج فيها ـيات السورة التى معنا .والكتاب : مصدر كتب كالكتب ، وأصل الكتب : ضم أديم إلى أديم بالخياطة ، واستعمل عرفا فى ضم الحروف بعضها إلى بعض بالخط والمراد به القرآن الكريم على الصحيح .قال الآلوسى : " وأما حمل الكتاب على الكتب التى خلت قبل القرآن من التوراة " والإنجيل وغيرهما ، كما أخرجه ابن أبي حاتم عن قتادة فهو فى غاية البعد والحكيم - بزنة فعيل - مأخذو من الفعل حكم بمعنى منع . تقول حكمت الفرس أي. وضعت الحكمة فى فمها لمنعها من الجموح والنفور .والمقصود أن هذا الكتاب ممتنع عن الفساد ، ومبرأ من الخلل والتناقض والاختلاف .قال الإمام الرازي ما ملخصه : " وفي وصف الكتاب بكونه حكيما وجوه منها : أن الحكيم هو ذو - الحكمة ، بمعنى شاتماله على الحكمة - فيكون الوصف للنسبة كلابن وتامر ومنها أن الحكيم بمعنى الحاكم ، بدليل قوله - تعالى - : ( وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الكتاب بالحق لِيَحْكُمَ بَيْنَ الناس فِيمَا اختلفوا فِيهِ وَمَا اختلف فِيهِ ) ومنها أن الحكيم بمعنى المحكم والإحكام معناه المنع من الفساد ، فيكون المراد منه أنه لا تغيره الدهور أو المراد منه براءته من الكذب والتناقض .والمعنى : تلك الآيات السامية ، والمنزلة عليك يا محمد ، هى آيات الكتاب ، المشتمل على الحكمة والصواب المحفوظ من كل تحريف أو تبديل الناطق بكل ما يوصل إلى السعادة الدنيوية والأخروية .وصحت الإشارة إلى ، آيات الكتاب مع أنها لم تكن قد نزلت جميعها ، لأن الإشارة إلى جميعها حيث كانت بصدد الإنزال ، ولأن الله - تعالى - قد وعد رسوله - صلى الله عليه وسلم - بنزول القرآن عليه ، كما فى قوله : - تعالى - : ( إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ) ووعد الله - تعالى -لا يتخلف .

اكان للناس عجبا ان اوحينا الى رجل منهم ان انذر الناس وبشر الذين امنوا ان لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون ان هذا لساحر مبين

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - موقف المشركين من دعوته فقال أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَآ إلى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ

أَنذِرِ النـاس وَبَشِّرِ الذين آمنوا أَنّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ
رَبِّهِمْ ) . .روى الضحاك عن ابن عباس قال : لما بعث الله - تعالى - رسوله
محمدا - صلى الله عليه وسلم - أنكرت العرب ذلك ، أو من أنكر منهم ، وقالوا
) : - الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا مثل محمد ، فأنزل الله - تعالى
أَكَانَ لِلنّاسِ عَجَباً . . . الآية ) .والهمزة فى قوله " أكان " لإنكار
تعجبهم ، ولتعجب السامعين منه لوقوعه فى غير موضعه .وقوله ( لِلنَّاسِ )
جار ومجرور حالا من قوله ( عَجَباً ) والمراد بهم مشركوا مكة ومن لف لفهم
فى إنكار ما جاء به النبي - صلى الله عليه وسلم - .وقوله : ( عَجَباً ) خبر
كان ، والعجب والتعجيب - استعظام أمر خفي سببه .وقوله : ( أَنْ أَوْحَيْنَآ
، فى تأويل مصدر أي : إيحاؤنا ، وهو اسم كان . والوحي : الإعلام فى خفاء (
والمقصود به ما أوحاه الله - تعالى - إلى نبيه - صلى الله عليه وسلم - من
قرآن وغيره .وقوله : ( إلى رَجُلٍ مِّنْهُمْ ) أي إلى بشر من جنسهم يعرفهم
ويعرفونه .وقوله : ( أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ ) الإنذار إخبار معه تخويف فى مدة
، تتسع التحفظ من المخوف منه ، فإن لم تتسع له فهو إعلام وإشعار لا إنذار
وأكثر ما يستعمل فى القرآن فى التخويف من عذاب الله - تعالى - :والمراد
بالناس هنا : جميع الذين يمكنه - صلى الله عليه وسلم - أن يبلغهم دعوته
وقوله : ( وَبَشِّرِ الذين آمنوا ) البشارة : إخبار معه ما يسر فهو أخص من.
) : الخبر ، سمي بذلك لأن أثره يظهر على البشرة التي هي ظاهر الجلد .وقوله
أَنّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ) أي أن لهم سابقة ومنزلة
رفيعة عند ربهم .وأصل القدم العضو المخصوص . وأطلقت على السبق ، لكونها
سببه وآلته ، فسمى المسبب باسم السبب من باب المجاز المرسل ، كما سميت
النعمة يدا لأنها تعطي باليد .وأصل الصدق أن يكون فى الأقوال ، ويستعمل
أحيانا فى الأفعال فيقال : فلان صدق فى القتال ، إذا وفاه حقه ، فيعبر بصفة
الصدق عن كل فعل فاضل .وإضافة القدم إلى الصدق من إضافة الموصوف إلى الصفة
كقولهم : مسجد الجامع ، والأصل قدم صدق . أي محققة مقررة . وفيه مبالغة
لجعلها عين الصدق . ثم جعل الصدق كأنه صاحبها .ويجوز أن تكون إضافة القدم
إلى الصدق من باب إضافة المسبب إلى السبب ، وفي ذلك تنبيه إلى أن ما نالوه
من منازل رفيعة عند ربهم . إنما هو بسبب صدقهم فى أقوالهم وأفعالهم ونياتهم
) : قال الإمام ابن جرير ما ملخصه : واختلف أهل التأويل فى معنى قوله.
قَدَمَ صِدْقٍ ) فقال بعضهم معناه : أن لهم أجرا حسنا بسبب ما قدموه من عمل
صالح . .وقال آخرون معناه : أن لهم سابق صدق فى اللوح المحفوظ من السعادة
وقال آخرون : معنى ذلك أن محمدا - صلى الله عليه وسلم - شفيع لهم .ثم قال.
وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب قول من قال معناه : أن لهم أعمالا صالحة :
عند الله يستحقون بها منه الثواب ، وذلك أنه محكي عن العرب قولهم : هؤلاء
أهل القدم فى الإسلام . أي هؤلاء الذين قدموا فيه خيرا ، فكان لهم فيه
تقديم .ويقال : لفلان عندي قدم صدق وقدم سوء ، وذلك بسبب ما قدم إليه من
خير أو شر ، ومنه قول حسان بن ثابت - رضي الله عنه - :لنا القدم العليا
إليك وخلفنا ... لأولنا فى طاعة الله تابعومعنى الآية الكريمة : أبلغ الجهل
وسوء التفكير بمشركي مكة ومن على شاكلتهم ، أن كان إيحاؤنا إلى رجل منهم
يعرفهم ويعرفونه لكي يبلغهم الدين الحق ، أمرا عجبا ، يدعوهم إلى الدهشة
والاستهزاء بالموحى إليه - صلى الله عليه وسلم - حتى لكأن النبوة فى زعمهم
تتنافى مع البشرية .إن الذى يدعو إلى العجب حقا هو ما تعجبوا منه ، لأن
الله - تعالى - اقتضت حكمته أن يجعل رسله إلى الناس من البشر ، لأن كل جنس
يأنس لجنسه ، وينفر من غيره ، وهو - سبحانه - أعلم حيث يجعل رسالته .قال
صاحب الكشاف : " فإن قلت : فما معننى اللام فى قوله ( أَكَانَ لِلنّاسِ
عَجَباً ) وما الفرق بينه وبين قولك : كان عند الناس عجبا؟قلت : معناه أنهم
جعلوه لهم أعجوبة يتعجبون منها . ونصبوه علما لهم يوجهون نحوه استهزاءهم
وإنكارهم ، وليس فى " عند الناس " هذا المعنى .والذي تعجبوا منه أو يوحي
إلى بشر . وأن يكون رجلا من أفناء رجالهم دون عظيم من عظمائهم ، فقد كانوا
، يقولون : العجب أن الله لم يجد رسولا يرسله إلى الناس إلا يتيم أبي طالب
وأن يذكر لهم البعث . وينذر بالنار ويبشر بالجنة . وكل واحد من هذه الأمور
ليس بعجب ، لأن الرسل المبعوثين إلى الأمم لم يكونوا إلا بشر مثلهم .وقال
الله - تعالى - : ( قُل لَوْ كَانَ فى الأرض ملائكة يَمْشُونَ
( مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السمآء مَلَكاً رَّسُولاً
وإرسال الفقير أو اليتيم ليس بعجب - أيضاً - لأن الله - تعالى - إنما يختار
من استحق الاختيار لجمعه أسباب الاستقلال لما ختير له من النبوة . والغني
والتقدم فى الدنيا ليس من تلك الأسباب في شيء قال - تعالى - : ( وَمَا
( أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ بالتي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زلفى
والبعث للجزاء على الخير والشر . هو الحكمة العظمى فكيف يكون عجبا إنما
) العجب والمنكر فى العقول ، تعطيل الجزاء .وقدم - سبحانه - خبر كان وهو
عَجَباً ) على اسمها وهو ( أَنْ أَوْحَيْنَآ ) . لأن المقصود بالإنكار فى
- الآية إنما هو تعجبهم ودهشتهم من أن يكون الرسول بشراً .وقدم - سبحانه
الإنذار على التبشير ، لأن التخلية مقدمة على التحلية ، وإزالة مالا ينبغي
مقدم فى الرتبة على فعل ما ينبغي .ولم ذكر المنذر به ، لتهويله وتعميمه حتى

يزداد خوفهم وإقبالهم على الدين الحق ، الذى يؤدي اتباعه إلى النجاة من العذاب .وخص التبشير بالمؤمنين لأنهم وحدهم المستحقون له ، بخلاف الإنذار فإنه يشمل المؤمن والكافر . ولذا قال - سبحانه - ( أَنْ أَنذِرِ الناس ) أي جميع الناس .وذكر - سبحانه - فى جانب التبشير المبشر به - وهو حصولهم على المنزلة الرفيعة عند ربهم - لكي تقوى رغبتهم فى طاعته . ومحبتهم لعبادته ، وبذلك ينالون ما بشرهم به .ثم وضح - سبحانه - ما قاله الكافرون عند مجيء الرسول - صلى الله عليه وسلم - بدعوته فقال : ( قَالَ الكافرون إِنَّ هذا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ) .أي : قال الكافرون المتعجبون من أن يكون - صلى الله عليه وسلم - رسولا إليهم ، إن هذا الإنسان الذى يدعى النبوة لساحر بيِّن السحر واضح - حيث إنه استطاع بقوة تأثيره فى النفوس أن يفرق بين الابن وأبيه ، والأخ وأخيه .وعلى هذا القراءة التى وردت عن ابن كثير والكوفيين تكون الإشارة إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - .وقرأ الباقون : ( إِنَّ هذا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ) أي : إن هذا القرآن لسحر واضح ، لأنه خارق للعادة فى جذبه النفوس إلى الإيمان بما جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - .قال أبو حيان ما ملخصه : " ولما كان قولهم فيما لا يمكن أن يكون سحرا ظاهر الفساد ، لم يحتج إلى جواب ، لأنهم يعلمون نشأته معهم بمكة ، وخلطتهم له وأنه لا علم له بالسحر - وقد أتاهم بعد بعثته بكتاب إلهي مشتمل على - ، مصالح الدنيا والآخرة مع الفصاحة والبلاغة التى أعجزتهم . .وقولهم هذا؛ هو ) - دين الكفرة مع أنبيائهم . فقد قال فرعون وقومه فى موسى - عليه السلام ) إِنَّ هذا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ) وقال قوم عيسى فيه عندما جاءهم بالبينات هذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ) ودعوى السحر إنما هو على سبيل العناد والجحد وقال الآلوسى " وفي قولهم هذا اعتراف منهم بأن ما عاينوه خارج عن طوق. البشر . نازل من حضرة خلاق القوى والقدر ، ولكنهم يسمونه سحرا تماديا فى العناد ، كما هو شنشنة المكابر اللجوج ، وشنشنة المفحم المحجوج " .وجاءت ، الجملة الكريمة بدون حرف عطف ، لكونها استئنافا مبنيا على سؤال مقدر فكأنه قيل : فماذا قالوا بعد هذا التعجب؟ فكان الجواب : ( قَالَ الكافرون إِنَّ هذا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ) .ويرى الإمام ابن جرير أن الآية فيها كلام محذوف ، فقال قال : - رحمه الله - : " وفي الكلام حذف استغنى بدلالة ما ذكر عما ترك ذكره ، وتأويل الكلام : أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا لهم أن هلم قدم صدق عند ربهم ، فلما أتاهم بوحي الله وتلاه عليهم وبشرهم وأنذرهم قال المنكرون لتوحيد الله ورسالة رسوله إن هذا الذى جاءنا به محمد - صلى الله عليه وسلم - لسحر مبين " .وقد ، اشتملت جملة ( إِنَّ هذا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ) على جملة من المؤكدات - للإشارة إلى رسوخهم فى الكفر ، وإلى أنهم مع وضوح الأدلة على صدق الرسول ) : صلى الله عليه وسلم - لم يزدادوا إلا جحودا وعنادا ، وصدق الله إذ يقول ( فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ ولكن الظالمين بِآيَاتِ الله يَجْحَدُونَ ثم

ان ربكم الله الذي خلق السماوات والارض في ستة ايام ثم استوى على العرش يدبر الامر ما من شفيع الا من بعد اذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه افلا تذكرون

- كما فسرها الوسيط ساق - سبحانه - من مظاهر قدرته ، ما يبطل تعجبهم فقال تعالى - :( إِنَّ رَبَّكُمُ الله الذي خَلَقَ السماوات . . . )قال الإمام الرازي ما ملخصه : " اعلم أنه - تعالى - لما حكى عن الكفار أنهم تعجبوا من الوحي والبعثة والرسالة ثم إنه - تعالى - أزال ذلك التعجب بأنه لا يبعد البتة فى أن يبعث خالق الخلق إليهم رسولا يبشرهم وينذرهم . . كان هذا الجواب إنما يتم بإثبات أمرين :أحدهما : إثبات أن لهذا العالم إلها قاهرا قادرا ، نافذ الحكم بالأمر والنهي .والثاني : إثبات الحشر والنشر والبعث والقيامة ، حتى يحصل الثواب والعقاب اللذان أخبر الأنبياء عن حصولهما .فلا جرم أنه - سبحانه - ذكر فى هذا الموضع ما يدل على تحقيق هذين المطلوبين أما الأول : وهو إثبات الألوهية فبقوله - تعالى : ( إِنَّ رَبَّكُمُ الله. الذي خَلَقَ السماوات والأرض . . . ) .وأما الثاني : فهو إثبات المعاد والحشر والنشر بقوله : ( إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً . . . ) .فثبت أن هذا الترتيب فى غاية الحسن . ونهاية الكمال .والمعنى : إن ربكم ومالك أمركم - الذى عجبتم من أن يرسل إليكم رسولا منكم هو الذى الذي خلق السموات والأرض فى مقدار ستة أيام أى أوقات .فالمراد من اليوم معناه اللغوي وهو مطلق الوقت .وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن تلك الأيام من أيام الآخرة التى يوم منها كألف سنة مما تعدون .قال الآلوسى : " وقيل هى مقدار ستة أيام من أيام الدنيا وهو الأنسب بالمقام ، لما فيه من الدلالة على القدرة الباهرة بخلق هذه الأجرام العظيمة فى مثل تلك المدة اليسيرة ، ولأنه تعريف لنا بما نعرفه " .وقال بعض العلماء : " ولا ندخل فى تحديد هذه الأيام الستة فهي لم تذكر هنا لنتجه إلى تحديد مداها ونوعها ، وإنما ذكرت لبيان حكمة ، التدبير والتقدير فى الخلق حسب مقتضيات الغاية من هذا الخلق ، وتهيئته لبلوغ هذه الغاية .وعلى أية حال فالأيام الستة غيب من غيب الله ، الذى لا

مصرد لإدراكه إلا هذا المصدر ، فعلينا أن نقف عنده ولا نتعداه ، والمقصود بذكرها هو الإشارة إلى حكمة التقدير والتدبير والنظام الذى يسير مع الكون من بدئه إلى منتهاه " .وقال سعيد بن جبير : كان الله قادرا على أن يخلق السموات والأرض فى لمحة ولحظة .ولكنه - سبحانه - خلقهن فى ستة أيام ، لكي يعلم عباده التثبت والتأني فى الأمور .وقوله : ( ثُمَّ استوى عَلَى العرش ) معطوف على ما قبله ، لتأكيد مزيد قدرته وعظمته - سبحانه - .والاستواء من معانيه اللغوية الاستقرار ، ومنه قوله - تعالى - ( واستوت عَلَى الجودي ) أي : استقرت ، ومن معانيه - أيضا - الاستيلاء والقهر والسلطان ، ومنه قول الشاعر :قد استوى بشر على العراق أي : استولى عليه .وعرش الله - كما قال الراغب - مما لا يعلمه البشر على الحقيقة إلا بالاسم وليس كما تذهب إليه أوهام العامة ، فإنه لو كان كذلك لكان حاملا له - تعالى الله عن ذلك -لا محمولا " .وقد ذكر العرش في القرآن الكريم فى إحدى وعشرين آية . وذكر الاستواء على العرش فى سبع آيات .أما الاستواء على العرش فذهب سلف الأمة إلى أنه صفة الله - تعالى - بلا كيف ولا انحصار ولا تشبيه ولا تمثيل لاستحالة اتصافه - سبحانه - بصفات المحدثين ، ولوجوب تنزيهه عمالا يليق به فيجب الإيمان بها كام وردت وتفويض العلم بحقيقتها إلى الله - تعالى - .فعن أم سلمة - رضي الله عنها - أنها قالت فى تفسر قوله - تعالى ( الرحمن عَلَى العرش استوى ) الكيف غير معقول ، والاستواء مجهول ، والإقرار به من الإيمان ، والجحود به كفر .وقال الإمام مالك : الكيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .وقال محمد بن الحسن : اتفق الفقهاء جميعا على الإيمان بالصفات من غير تفسير ولا تشبيه وقال الإمام الرازي : " إن هذا المذهب هو الذى نقول به ونختاره ونعتمد عليه " .وذهب بعض علماء الخلف إلى وجوب صرف هذه الصفة وأمثالها عن الظاهر ، لاستحالة حملها على ما يفيده ظاهر اللفظ ، لأنه - سبحانه - مخالف للحوادث ووجوب حملها على ما يليق به - سبحانه - .وعليه فإن الاستواء هنا : كناية عن القهر والعظمة والغلبة والسلطان وقوله : ( يُدَبِّرُ الأمر ) استئناف مسوق : لتقرير عظمته - سبحانه - ولبيان حكمة استوائه على العرش .والتدبير معناه : النظر فى أدبار الأموار وعواقبها لتقع على الوجه المحمود .والمراد به هنا : ما يتعلق بأمور المخلوقات كلها من إنس وجن وغير ذلك من مخلوقاته التى لا تعد ولا تحصى .أى أنه سبحانه يدبر أمر مخلوقاته تدبيرا حكيما ، حسبما تقتضيه إرادته وعبر بالمضارع فى قوله : ( يدبر ) للإشارة إلى تجدد التدبير واستمراره ، إذ أنه - سبحانه -لا يهمل شئون خلقه .وقوله : ( مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ) استئناف آخر مسوق لبيان تفرده فى تدبيره وأحكامه .والشفيع مأخوذ من الشفيع وهو ضم الشيء إلى مثله ، وأكثر ما يستعمل فى انضمام من هو أعلى منزلة إلى من هو أدنى منه لإعانته على ما يريده .والاستثناء هنا مفرغ من أعم الأوقات والأحوال . أي : ما من شفيع - يستطيع أن يشفع لغيره فى جميع الأوقات والأحوال إلا بعد إذنه - سبحانه وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( مَن ذَا الذي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ) وقوله - سبحانه - : ( وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فى السماوات لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ الله لِمَن يَشَآءُ ويرضى ) واسم الإشارة فى قوله - سبحانه - ( ذلكم الله رَبُّكُمْ فاعبدوه ) يعود إلى ذات الله - تعالى - الموصوفة بتلك الصفات الجليلة .أى : ذلك الموصوف بالخلق والتدبير والتصرف فى شئون خلقه وفق مشيئته ، هو الله ربكم فأخلصوا له العبادة والطاعة ولا تشركوا معه أحدا في ذلك .ثم ختم - سبحانه - الآية بالأمر بالتذكر فقال : ( أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ) أي : أتعلمون أن الله - تعالى - هو خالقكم وهو القادر على : - كل شيء ، ومع ذلك تستبعدون أن يكون الرسول نبيكم - صلى الله عليه وسلم وإيثار ( تَذَكَّرُونَ ) على تفكرون للإيذان بظهور الأمر وأنه كالمعلوم الذى لا يفتقر إلى عمق فى التفكير والبحث والتأمل . إذ أن مظاهر قدرة الله وعظمته نراها واضحة جلية فى الأنفس والآفاق .وبذلك نرى الآية الكريمة قد ساقت ألوانا من مظاهر قدرة الله - تعالى - وبالغ حكمته ، ونفاذ أحكامه حتى يخلص له الناس العبادة والطاعة .

اليه مرجعكم جميعا وعد الله حقا انه يبدا الخلق ثم يعيده ليجزي الذين امنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب اليم بما كانوا يكفرون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن مرجع العباد جميعا إليه ، وأنه سجازي كل إنسان بما يستحق .فقال - تعالى - ( إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ الله حَقّاً ) .أى : إلى الله - تعالى - وحده مرجعكم جميعا بعد الموت ليحاسبكم على أعمالكم ، وقد وعد الله بذلك وعدا صدقا ، ولن يخلف الله وعده .قال أبو حيان : وانتصب ( وَعْدَ الله ) و ( حَقّاً ) على أنهما مصدران مؤكدان لمضمون الجملة ، والتقدير وعد الله وعداً ، فلما حذف الناصب " أضاف المصدر إلى الفاعل ، وذلك كقوله " صبغة الله " و " صنع الله

والتقدير في ( حقا ) : حق " ذلك حقا " .وقوله : ( إِنّهُ يَبْدَأُ الخِلق
ثُمّ يُعِيدُهُ ) كالتعليل لما أفاده قوله - سبحانه - ( إِلَيْهِ
مَرْجِعُكُمْ ) فإن غاية البدء والإعادة هو الجزاء المناسب على الأعمال
الدنيوية .أى : إن شأنه - سبحانه - أن يبدأ الخلق عند تكوينه ثم يعيده إلى
الحياة مرة أخرى بعد موته وفنائه .ثم بين - سبحانه - الحكمة من الإعادة
بعد الموت فقال : ( لِيَجْزِيَ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات
بالقسط والذين كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ
. بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ) .والقسط - كما يقول الراغب - النصب بالعدل
يقال : قسط الرجل إذا جار وظلم .ومنه قوله - تعالى - ( وَأَمّا القاسطون
- فَكَانُواْ لِجَهَنّمَ حَطَباً ) ويقال أقسط فلان إذا عدل ، ومنه قوله
تعالى - ( وأقسطوا إِنّ الله يُحِبّ المقسطين ) والحميم : الماء الذى بلغ
أقصى درجات الحرارة ، قال - تعالى - ( وَسُقُواْ مَآءً حَمِيماً فَقَطّعَ
أَمْعَآءَهُمْ ) أي : فعل ما فعل سبحانهن من بدء الخلق وإعادتهم ليجزي
الذين آمنوا وعملوا الصالحات بعدله الجزاء الطيب الذى أعده لهم ، وأما
الذين كفروا فيجزيهم - أيضاً - بعدله ما يستحقونه من شراب حميم يقطع
أمعاءهم ، ومن عذاب مؤلم لابدانهم ، وذلك بسبب كفرهم واستحبابهم العمى على
الهدى .وقوله : ( بالقسط ) حال من فاعل ( ليجزي ) ليجزيهم ملتبسا بالقسط
ويصح أن يكون المعنى : فعل ما فعل ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات.
الجزاء الحسن بسبب عدلهم وتمسكهم بتكاليف دينهم ، وأما الذين كفروا فلهم
- شراب من حميم وعذاب أليم بسبب كفرهم .قال الجمل ما ملخصه : وقال - سبحانه
بتغيير فى الأسلوب للمبالغة فى ( . . . والذين كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ )
استحقاقهم للعقاب . وللتنبيه على أن المقصود بالذات من الإبداء والإعادة
هو الإثابة . والعذاب وقع بالعرض . وأنه - تعالى - يتولى إثابة المؤمنين
بما يليق بلطفه وكرمه ، ولذلك لم يعينه ، وأما عقاب الكفرة فكأنه داء ساقه
. إليهم سوء اعتقادهم وسوء أفعالهم

هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين
والحساب ما خلق الله ذلك الا بالحق يفصل الايات لقوم يعلمون

كما فسرها الوسيط وبعد أن بين - سبحانه - جانبا من مظاهر قدرته فى خلق
السموات والأرض ، أتبع ذلك بذكر مظاهر أخرى لقدرته ، تتمثل فى خلق الشمس
والقمر والليل والنهار فقال - تعالى - :( هُوَ الذي جَعَلَ الشمس . . . )
- ففى هاتين الآيتين - كما يقول الآلوسى - تنبيه على الاستدلال على وجوده.
تعالى - ووجدته وعلمه وقدرته وحكمته . بآثار صنيعه فى النير بعد التنبيه
على الاستدلال بما مر وبيان لبعض أفراد التدبير الذى أشير إليه إشارة
إجمالية ، وإرشاد إلى أنه - سبحانه - حين دبر أمورهم المتعلقة بمعاشهم هذا
التدبير البديع . فلأن يدبر مصالحهم المتعلقة بمعادهم بإرسال الرسل وإنزال
الكتب أولى وأحرى .وقوله ( جعل ) يجوز أن يكون بمعنى أنشأ وأبدع ، فيكون
لفظ ( ضياء ) حال من المفعول ، ويجوز أن يكون بمعنى صير فيكون اللفظ
المذكور مفعولا ثانيا .وقوله ( ضياء ) جمع ضوء كسوط وسياط ، وحياض ، وقيل
هو مصدر ضاء يضوء ضياء كقام يقوم قياما ، وصام يصوم صياما ، وعلى كلا
الوجهين فالكلام على حذف مضاف .والمعنى : الله - تعالى - وحده هو الذى جعل
لكم الشمس ذات ضياء ، وجعل لكم القمر ذا نور ، لكي تنتفعوا بهما فى مختلف
شئونكم .قال الجمل : " وخص الشمس بالضياء لأنه أقوى وأكمل من النور ، وخص
القمر بالنور لأنه أضعف من الضياء ولأنهما إذا تساويا لم يعرف الليل من
النهار ، فدل ذلك على أن الضياء المختص بالشمس أكمل وأقوى من النور المختص
بالقمر " .هذا دليل ، ومما يدل على التفرقة بين الشمس والقمر فى نورهما
قوله - تعالى - : ( وَجَعَلَ القمر فِيهِنّ نُوراً وَجَعَلَ الشمس
سِرَاجاً ) وقوله - سبحانه - : ( تَبَارَكَ الذي جَعَلَ فى السمآء بُرُوجاً
وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مّنِيراً ) وقوله : ( وَقَدّرَهُ
مَنَازِلَ ) معطوف على ما قبله .والتقدير : جعل الشيء أو الأشياء على
مقادير مخصوصة فى الزمان أو المكان أو غيرهما قال - تعالى - : ( والله
- يُقَدّرُ الليل والنهار ) المنازل : جمع منزل ، وهى أماكن النزول ، وهى
: كما يقول بعضهم - ثمانية وعشرون منزلا ، وتنقسم إلى اثني عشر برجا وهى
، الحمل ، والثور ، والجوزاء ، والسرطان ، والأسد ، والسنبلة ، والميزان
والعقرب ، والقوس ، والجدي ، والدلو ، والحوت ، لكل برج منها منزلان وثلث
منزل ، وينزل القمر فى كل ليلة منزلا منها إلى انقضاء ثمانية وعشرين
ويستتر ليلتين إن كان الشهر ثلاثين يوما ، ويستتر ليلة واحدة إن كان الشهر.
تسعة وعشرين يوما .والضمير فى قوله : ( قدرناه ) يعود إلى القمر ، كما فى
قوله - تعالى - : ( والقمر قَدّرْنَاهُ مَنَازِلَ حتى عَادَ كالعرجون
القديم ) أي : والله - تعالى - هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا ، وقدر
للقمر منازل ينزل فيها فى كل ليلة على هيئة خاصة ، وطريقة بديعة تدل على
قدرة الله وحكمته .قالوا : وكانت عودة الضمير إلى القمر وحده ، لسرعة سيره
بالنسبة إلى الشمس : ولأن منازله معلومة محسوسة ، ولأنه العمدة فى تواريخ

العرب ، ولأن أحكام الشرع منوطة به فى الأغلب .وجوز بعضهم أن يكون الضمير للشمس والقمر معا ، أى : وقدر لهما منازل ، أو قدر لسيرهما منازل لا ) : - يجاوزانها فى السير ، ولا يتعدى أحدهما على الآخر كما قال - تعالى لاَ الشمس يَنبَغِي لَهَآ أَن تدْرِكَ القمر وَلاَ الليل سَابِقُ النهار - وَكُلٌّ فى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ) وإنما وحد الضمير للإيجاز كما فى قوله ) : تعالى - : ( والله وَرَسُولُهُ أَحَقٌّ أَن يُرْضُوهُ ) وقوله وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السنين والحساب ) بيان للحكمة من الخلق والتقدير أي : جعل - سبحانه - الشمس ضياء ، والقمر نورا ، وقدره منازل ، لتعلموا. عدد السنين التى يفيدكم علمها فى مصالحكم الدينية والدنيوية ولتعلموا الحساب بالأوقات من الأشهر والأيام لضبط عباداتكم ومعاملاتكم .قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : يخبر الله - تعالى - عما خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته ، وعظيم سلطانه ، أنه جعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياء ، وجعل شعاع القمر نورا ، هذا فن وهذا فن آخر ، ففاوت بينهما لئلا يشتبها ، وجعل سلطان الشمس بالنهار وسلطان القمر بالليل ، وقدر القمر منازل ، فأول ما يبدو القمر يكون صغيرا ثم يتزايد نوره وجرمه حتى يستوسق ويكمل إبداره ، ثم يشرع فى النقص حتى يرجع إلى حالته الأولى . فبالشمس تعرف الأيام ، ويسير القمر تعرف الشهور والأعوام .واسم الإشارة فى قوله ( مَا خَلَقَ الله ذلك إِلاَّ بالحق ) يعود إلى المذكور من جعل الشمس ضياء والقمر نورا وتقديره منازل .أي : ما خلق الله ذلك الذى ذكره لكم إلا خلقا ملتبسا ) : بالحق ، ومقترنا بالحكمة البالغة التى تقتضيها مصالحكم .وقوله يُفَصِّلُ الآيات لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ) استئناف مسوق لبيان المنتفعين - بهذه الدلائل الدالة على قدرة الله ووحدانيته ورحمته بعباده .أى : يفصل سبحانه - ويوضح البراهين الدالة على قدرته لقوم يعلمون الحق ، فيستجيبون له ويكثرون من طاعة الله وشكره على ما خلق وأنعم ، .

ان في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السماوات والارض لايات لقوم يتقون

: كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - لونا آخر من ألوان قدرته ورحمته فقال طولا وقصرا ، وحرا وبردا ، وتعاقبا ( إِنَّ فى اختلاف الليل والنهار ) دقيقا لا يسبق أحدهما معه الآخر ( وَمَا خَلَقَ الله فى السماوات والأرض ) من أنواع الإنس والجن والحيوان والنبات والنجوم وغير ذلك من المخلوقات التى لا تعد ولا تحصى . .إن فى كل ذلك الذى خلقه ( لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ أى : لدلائل عظيمة كثيرة دالة على قدرة الله ورحمته ووحدانيته ، لقوم ( - يتقون الله - تعالى - فيحذرون عقابه ، ويرجون رحمته .وخص - سبحانه المتقين بالذكر ، لأنهم هم المنتفعون بنتائج التدبر فى هذه الدلائل .وبذلك نرى أن القرآن الكريم قد سلك أنجع الوسائل فى مخاطبة الفطرة البشرية ، حيث لفت الأنظار إلى ما اشتمل عليه هذا الكون من مخلوقات شاهدة محسوسة ، تدل على وحدانية الله ، وقدرته النافذة ، ورحمته السابغة بعباده .

ان الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمانوا بها والذين هم عن اياتنا غافلون

، كما فسرها الوسيط ثم بينت السورة الكريمة ما أعده الله من عذاب للكافرين وما أعده من ثواب للطائعين ، فقال - تعالى - :( إِنَّ الذين لاَ يَرْجُونَ - لِقَآءَنَا وَرَضُواْ . . . ) .قال الإمام الرازي : " اعلم أنه - تعالى لما أقام الدلائل على صحة القول بإثبات الإله القادر الرحيم الحكيم ، وعلى صحة القول بالمعاد والحشر والنشر ، شرع بعده فى شرح أحوال من يكفر بها وفي شرح أحوال من يؤمن بها " .والمراد بلقائه - سبحانه - الرجوع إليه يوم القيامة للحساب والجزاء . والمعنى : إن الذين لا يرجون ولا يتوقعون لقاءنا يوم القيامة لحسابهم على أعمالهم فى الدنيا ( وَرَضُواْ بالحياة الدنيا ) ، رضاء جعلهم لا يفكرون إلا فى التشبع من زينتها ومتعها ، وأطمأنوا بها اطمئنانا صيرهم يفرحون بها ويسكنون إليها ( والذين هُمْ عَنْ آيَاتِنَا ) التنزيلية والكونية الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ( غافلون ) بحيث لا يخطر - على بالهم شيء مما يدل عليه هذه الآيات من عبر وعظات .فأنت ترى أن الله تعالى - قد وصف هؤلاء الأشقياء بأربع صفات ذميمة .وصفهم - أولا - بعدم ، الرجاء فى لقاء الله - بأن صاروا لا يطمعون فى ثواب ، ولا يخافون من عقاب لإنكار الدار الآخرة .ووصفهم - ثانيا - بأنهم رضوا بالحياة الدنيا ، بأن " : أصبح همهم محصورا فيها ، وفي لذائذها وشهواتها .قال الإمام الرازي واعلم أن الصفة الأولى إشارة إلى خلو قلبه عن اللذات الروحانية ، وفراغه عن طلب السعادات الحصالة بالمعارف الربانية ، وأما هخذه الصفة الثانية فهي ، إشارة إلى من استغرقه الله فى طلب اللذات الجسمانية واكتفائه بها ، واستغراقه فى طلبها " .ووصفهم - ثالثا - بأنهم اطمأنوا بهذه الحياة اطمئنان الشخص إلى الشيء الذى لا ملاذ له سواه ، فإذا كان السعداء يطمئنون

إلى ذكر الله ، فإن هؤلاء الأشقياء ماتت قلوبهم عن كل خير ، وصارت لا تطمئن إلا إلى زينة الحياة الدنيا .ووصفهم - رابعا - بالغفلة عن آيات الله التى توقظ القلب ، وتهدي العقل ، وتحفز النفس إلى التفكير والتدبير .وبالجملة فهذه الصفات الأربعة تدل دلالة واضحة على أن هؤلاء الأشقياء قد آثروا دنياهم على أخراهم ، واستحبوا الضلالة على الهدى ، واستبدلوا الذى هو أدنى بالذي هو خير .

اولئك ماواهم النار بما كانوا يكسبون

كما فسرها الوسيط فماذا كان مصيرهم كما بينه - سبحانه - فى قوله : ( أولئك مَأْوَاهُمُ النار بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ) .أى : أولئك المتصفون بتلك الصفات الخسيسة ، مقرهم وملجأهم إليه النار وبئس القرار ، بسبب ما اجترحوه من سيئات وما اقترفوه من منكرات .هذه هى صفات هؤلاء الأشقياء ، وذلك هو جزاؤهم العادل ، أما السعداء فقد بين الله - تعالى -

ان الذين امنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بايمانهم تجري من تحتهم الانهار في جنات النعيم

كما فسرها الوسيط بعد ذلك صفاتهم وثوابهم فقال - تعالى - : ( إِنَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ) .أى : آمنو بما يجب الإيمان به ، وعملوا فى دنياهم الأعمال الصالحة التى ترفع درجاتهم عند ربهم .( يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ) أي يرشدهم ربهم ويوصلهم بسبب إيمانهم وعملهم الصالح إلى غايتهم وهي الجنة .وإنما لم تذكر تعويلا على ظهورها وانسياق النفس إليها ، بعد أن عرف أن مأوى الكافرين النار وبئس القرار . .قال الإمام ابن كثير : يحتمل أن تكون الباء فى قوله ( بإيمانهم ) للسببية ، فيكون التقدير بسبب إيمانهم فى الدنيا يهديهم الله يوم القيامة إلى الصراط المستقيم حتى يجوزوه ويخلصوا إلى الجنة ، ويحتمل أن تكون للاستعانة كما قال مجاهد : ( يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ) : أى : يكون إيمانهم لهم نورا يمشون به وقال ابن جريج فى الآية : يمثل له عمله فى صورة حسنة وريح طيبة إذا قام من قبره يعارض صاحبه ويبشره بكل خير فيقول له من أنت؟ فيقول - أنا عملك ، فيجعل له نوره من بين يديه حتى يدخله الجنة ، فذلك قوله تعالى - ( يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ) . والكافر يمثل له عمله فى صورة سيئة . وريح منتنة فيلزم صاحبه حتى يقذفه فى النار . . .وقوله ) : ( تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأنهار فى جَنَّاتِ النعيم ) أى : تجري من تحت منازلهم أو مقاعدهم الأنهار ، وهم آمنون مطمئنون فى الجنات ، يتنعمون فيها بما لا عين رأت ولا أذن سمعت . ولا خطر على قلب بشر .

دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام واخر دعواهم ان الحمد لله رب العالمين

كما فسرها الوسيط وقوله : (دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللهم ) أى : دعاؤهم فى هذه الجنات يكون بقولهم : سبحانك اللهم . فالدعوى ها هنا بمعنى الدعاء . يقال : دعا يدعو دعاء ودعوى . كما يقال : شكا يشكو شكاية وشكوى ولفظ سبحان : اسم مصدر بمعنى التسبيح وهو منصوب بفعل مضمر لا يكاد يذكر. معه .ولفظ اللهم أصله يا الله ، فلما استعمل دون حرف النداء الذى هو " يا " جعلت هذه الميم المشددة فى آخره عوضا عن حرف النداء .قال الإمام الرازي : ومما يقوي أن المراد من الدعووى هنا الدعاء ، أنهم قالوا : اللهم .وهذا " نداء الله - تعالى - ومعنى قولهم : سبحانك اللهم . إنا نسبحك . كقول القانت فى دعاء القنوت " اللهم إياك نعبد " .ثم قال : ويجوز أن يراد بالدعاء العبادة . ونظيره قوله - تعالى - : ( وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ الله ) أى : وما تعبدون ، فيكون معنى الآية : أنه لا عبادة لأهل الجنة إلا أن يسبحوا الله ويحمدوه ، ويكون اشتغالهم بذلك الذكر لا على سبيل التكليف ، بل على سبيل الابتهاج بذكر الله - تعالى - .وقوله ) وَتَحِيّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ ) معطوف على ما قبله . والتحية : التكرمة بالحال الجليلة ، وأصلها أحياك الله حياة طيبة . والسلام : بمعنى السلامة من كل مكروه .أى : دعاؤهم فى الجنة أن يقولوا سبحانك اللهم . وتحيتهم التى يحيون بها هى السلامة من كل مكروه .وهذه التحية تكون من الله - تعالى - لهم كما فى قوله - سبحانه - ( تَحِيّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلاَمٌ ) وتكون من الملائكة كما فى قوله - تعالى - : ( وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِّن كُلِّ بَابٍ . سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عقبى الدار )وتكون منهم فيما بينهم كما يتبادر من قوله - تعالى - : وقوله ( . . . لاَّ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلاَّ سَلاَماً ) وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحمد للَّهِ رَبِّ العالمين ) أى : وختام دعائهم " : يكون بقولهم : الحمد لله رب العالمين .قال الإمام القرطبي ما ملخصه

" ويؤخذ من هذه الآية الكريمة أن التهليل والتسبيح والحمد قد يسمى دعاء
روى الشيخان عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - كان يقول عند
الكرب : " لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله رب العرش
العظيم ، لا إله إلا الله رب السموات والأرض ، ورب العرش الكريم " . قال
الطبري : كان السلف يدعون بهذا الدعاء ويسمونه دعاء الكرب .والذي يقطع
، النزاع ويثبت أن هذا يسمى دعاء ، وإن لم يكن فيه من معنى الدعاء شيء
وإنما هو تعظيم لله - تعالى - وثناء عليه ، ما رواه النسائي عن سعد بن أبي
وقاص قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " دعوة ذي النون إذ دعا
بها فى بطن الحوت لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، فإنه لن
يدعو بها مسلم فى شيء إلا استجيب له " .ويستحب للداعي أن يقول فى آخر دعائه
كما قال الله - تعالى - حكاية عن أهل الجنة : ( وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ
الحمد للَّهِ رَبِّ العالمين ) .

ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي اليهم اجلهم فنذر الذين لا
يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر لطفه ورحمته بالناس، وما
جبلوا عليه من صفات وطبائع فقال - تعالى - :( وَلَوْ يُعَجِّلُ الله
لِلنَّاسِ الشر . . . ) .قال صاحب المنار : " هاتان الآيتان فى بيان شأن من
شئون البشر وغرائزهم فيما يعرض لهم فى حياتهم الدنيا من خير وشر ، ونفع وضر
، وشعورهم بالحاجة إلى الله - تعالى - واللجوء إلى دعائه لأنفسهم وعليها ،
واستعجالهم الأمور قبل أوانها وهو تعريض بالمشركين ، وحجة على ما يأتون من
) : شرك وما ينكرون من أمر البعث ، متمم لما قبله ، ولذلك عطف عليه .وقوله
يعجل ) من التعجيل بمعنى طلب الشيء قبل وقته المحدد له والاستعجال : طلب
التعجيل بالشيء .والأجل : الوقت المحدد لانقضاء المدة . وأجل الإنسان هو
: - الوقت المضروب لانتهاء عمره .والمراد بالناس هنا - عند عدد من المفسرين
المشركون الذى وصفهم الله - تعالى - قبل ذلك بأنهم لا يرجون لقاءه ورضوا
بالحياة الدنيا واطمأنوا بها .ولقد حكى القرآن فى كثير من آياته ، أن
المشركين قد استعجلوا الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى نزول العذاب ، ومن
ذلك قوله - تعالى - ( وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب وَلَوْلاَ أَجَلٌ
مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ العذاب وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ
يَشْعُرُونَ . يَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ
بالكافرين ) وقوله - تعالى - : ( وَإِذْ قَالُواْ اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ
الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السمآء أَوِ ائتنا
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ) والمعنى : ولو يعجل الله - تعالى - لهؤلاء المشركين
العقوبة التى طلبوها ، تعجيلا مثل استعجالهم الحصول على الخير ( لَقُضِيَ
- إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ) أي : لأميتوا وأهلكوا جميعاً ، ولكن الله
تعالى - الرحيم بخلقه ، الحكيم فى أفعاله ، لا يعجل لهم العقوبة اليت
طلبوها كما يعجل لهم طلب الخير لحكمة هو يعلمها؛ فقد يكون من بين هؤلاء
المتعجلين للعقوبة من يدخل فى الإسلام ، ويتبع الرسول - صلى الله عليه
وسلم - .قال الإمام الرازي : " فقد بين - سبحانه - فى هذه الآية : أنهم لا
مصلحة لهم فى تعجيل إيصال الشر إليهم ، لأنه - تعالى - " لو أوصل ذلك
، العقاب إليهم لماتوا وهلكوا ، ولا صلاح فى إماتتهم ، فربما آمنوا بعد ذلك
وربما خرج من أصلابهم من كان مؤمناً ، وذلك يقتضي أن يعاجلهم بإيصال ذلك
الشر " .ومن العلماء من يرى أن المراد بالناس هنا ما يشمل المشركين وغيرهم
وأن الآية الكريمة تحكى لونا من ألوان لطف الله بعباده ورحمته بهم .ومن ،
المفسرين الذين اقتصروا على هذا الاتجاه فى تفسيرهم الإمام ابن كثير ، فقد
قال عند تفسيره لهذه الآية : يخبر - تعالى - عن حلمه ولطفه بعباده أنه لا
يستجيب لهم إذا دعوا على أنفسهم ، أو أموالهم أو أولادهم بالشر فى حال
ضجرهم وغضبهم ، وأنه يعلم منهم عدم القصد إلى إرادة ذلك ، فلهذا لا يستجيب
لهم والحالة هذه لطفا ورحمة ، كما يستجيب لهم إذا دعوا لأنفسهم أو لأموالهم
أو لأولادهم بالخير والبركة والسخاء ، ولهذا قال : ( وَلَوْ يُعَجِّلُ الله
لِلنَّاسِ الشر استعجالهم بالخير لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ .. . ) أي
لو استجاب لهم جميع ما دعوه به فى ذلك لأهلكهم .ثم قال : ولكن لا ينبغي
الإكثار من ذلك ، كما جاء فى الحديث الذى رواه الحافظ أبو بكر البزار فى
مسنده عن جابر قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : "لا تدعوا
على أنفسكم ، لا تدعوا على أولادكم ، لا تدعوا على أموالكم ، لا توافقوا من
الله ساعة فيها إجابة فيستجيب لكم " .وقال مجاهد فى تفسير هذه الآية : هو
، قول الإنسان لولده أو ماله إذا غضب عليه : اللهم لا تبارك فيه والعنة
فلو يعجل لهم الاستجابة فى ذلك كما يستجاب لهم فى الخير لأهلكهم .أما
: الإمام الآلوسى فقد حكى هذين الوجهين ، ورجح الأول منهما فقال : " قوله
وهم الذين لا يرجون لقاء ( . . . وَلَوْ يُعَجِّلُ الله لِلنَّاسِ الشر )
. . . الله - تعالى - المذكورون فى قوله ( الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَآءَنَا
. والمراد لو يعجل الله لهم الشر الذى كانوا يستعجلون به تكذيبا واستهزاء (

وأخرج ابن جرير عن قتادة : أنه قال : " هو دعاء الرجل على نفسه وماله " . .
، بما يكره ، أن يستجاب له ، وفيه حمل الناس على العموم ، والمختار الأول
ويؤيده ما قيل : من أن الآية نزلت فى النضر بن الحارث حين قال : ( اللهم
إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً
مِّنَ السمآء أَوِ ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ) والذى يبدو لنا أن كون لفظ
الناس للجنس أولى ، ويدخل فيه المشركون دخولا أوليا ، لأنه لا توجد قرينة
، تمنع من إرادة ذلك ، وحتى لو صح ما قيل أن الآية نزلت فى النضر بن الحارث
فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .وقوله ( استعجالهم بالخير ) منصوب
على المصدرية ، والأصل : ولو يعجل الله للناس الشر تعجيلا مثل استعجالهم
- بالخير ، فحذف تعجيلا وصفته المضافة ، وأقيم المضاف إليه مقامها .ثم بين
سبحانه - ما يشير إلى الحكمة فى عدم تعجيل العقوبة فقال : ( فَنَذَرُ الذين
لاَ يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ) .والطغيان
: مجاوزة الحد فى كل شيء ، ومنه طغى الماء إذا ارتفع وتجاوز حده .ويعمهون
من العمه ، يقال : عمه - كفرح ومنع - عمها ، إذا تحير وتردد فهو عمه وعامه
أي :لا نعجل للناس ما طلبوه من عقوبات ، وإنما نترك الذين لا يرجون.
لقاءنا إلى يوم القيامة ، على سبيل الإمهال والاستدراج فى الدنيا فى
طغيانهم يتحيرون ويترددون ، بحيث تلتبس عليهم الأمور فلا يعرفون الخير من
. الشر

واذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه او قاعدا او قائما فلما كشفنا عنه ضره مر
كان لم يدعنا الى ضر مسه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون

كما فسرها الوسيط ثم صور - سبحانه - طبيعة الإنسان فى حالتي العسر واليسر
فقال : ( وَإِذَا مَسَّ الإنسان الضر دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً
أَوْ قَآئِماً فَلَمّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرّهُ مَرّ كَأَن لَّمْ
يَدْعُنَآ إلى ضُرٍّ مّسّهُ .والمس : اتصال أحد الشيئين بآخر على وجه
الإحساس والإصابة .والضر : ما يصيب الإنسان من سوء الحال فى نفسه أو
بدنه أو غيرهما مما يحبه ويشتهيه .والمعنى : ( وَإِذَا مَسّ الإنسان الضر
عن طريق المرض أو الفقر أو غيرها ( دَعَانَا ) بإلحاح وتضرع لكي نكشفه (
عنه ، فهو تارة يدعونا وهو مضطجع على جنبه ، وتارة يدعونا وهو قاعد ، وتارة
يدعونا وهو قائم على قدميه .( فَلَمّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرّهُ ) وما
أصابه من سوء ( مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إلى ضُرٍّ مَّسَّهُ ) أي : مضى
واستمر فى غفلته الأولى حتى لكأنه لم تنزل به كروب ، ولم يسبق له أن دعانا
بإلحاح لكشفها .وخص - سبحانه - هذه الأحوال بالذكر ، لعدم خلو الإنسان
، عنها فى العادة .وقيل : يصح أن يراد بهذه الأحوال تعميم أصناف المضار
لأنها قد تكون خفيفة فيدعو الله وهو قائم ، وقد تكون متوسطة فيدعوه وهو
قاعد ، وقد تكون ثقيلة فيدعوه وهو نائم .ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال عند
تفسيره لهذه الآية : " فإن قلت : فما فائدة ذكر هذه الأحوال؟قلت : معناه أن
المضرور لا يزال داعيا لا يفتر عن الدعاء حتى يزول عنه الضر ، فهو يدعونا
فى حالاته كلها ، سواء أكان منبطحا عاجزاً عن النهوض ، أم كان قاعداً لا
يقدر على القيام ، أم كان قائما لا يطيق المشي .ويجوز أن يراد أن من
المضرورين من هو أشد حالا وهو صاحب الفراش ، ومنهم من هو أخف ، وهو القادر
على القعود ، ومنهم المستطيع للقيام ، وكلهم لا يستغنون عن الدعاء واستدفاع
البلاء ، لأن الإنسان للجنس . . .وفي التعبير بالمس إشارة إلى أن ما أصابه
من ضر حتى لو كان يسيراً فإنه لا يترك الدعاء والابتهال إلى الله بأن يكشفه
عنه .وقوله : ( لجنبه ) فى موضع الحال من فاعل ( دعانا ) و ( أو ) لتنويع
الأحوال ، أو لأصناف المضار .والتعبير بقوله - سبحانه ( مر ) يمثل أدق
، تصوير لطبيعة الإنسان الذى يدعو الله عند البلاء ، وينساه عند الرخاء
فهو فى حالة البلاء يدعو الله فى كل الأحوال ، فإذا ما انكشف عنه البلاء مر
واندفع فى تيار الحياة . يدون كابح ، ولا زاجر ، ولا مبالاة ، وبدون توقف
ليتدبر أو ليعتبر . .ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ( كذلك زُيّنَ
لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ) أى : كما زين لهذا الإنسان
الدعاء عند البلاء والإعراض عند الرخاء ، زين لهؤلاء المسرفين المتجاوزين
لحدود الله ، ما كانوا يعملونه من إعراض عن ذكره ، ومن غفلة عن حكمته وعن
سننه فى كونه .قال الآلوسى : " وفى الآية ذم لمن يترك الدعاء فى الرخاء
ويهرع إليه فى الشدة ، واللائق بحال العاقل التضرع إلى مولاه فى السراء
والضراء .فإن ذلك أرجى للإجابة . ففي الحديث الشريف : " تعرف إلى الله فى
الرخاء يعرفك فى الشدة " .وأخرج أبو الشيخ عن أبي الدرداء قال : ادع الله
يوم سرائك يستجيب لك يوم ضرائك .وفى حديث للترمذي عن أبى هريرة ورواه
الحاكم عن سلمان وقال صحيح الإسناد " من سره أن يستجيب الله له عند
الشدائد والكروب ، فليكثر من الدعاء عن الرخاء " .وقال الإمام ابن كثير
عند تفسيره لهذه الآية : " وقد ذم الله - تعالى - من هذه طريقته وصفته فى
الدعاء . أما من رزقه الله الهداية والسداد والتوفيق والرشاد فإنه مستثنى
" : من ذلك ، - لأنه يدعو الله فى الشدة والرخاء - ، وفي الحديث الشريف

عجباً لأمر المؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له : إن أصابته ضراء فصبر كان خيرا له ، وإن أصابته سراء فشكر كان خيراً له ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن " .

ولقد اهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزي القوم المجرمين

كما فسرها الوسيط وبعد أن بين - سبحانه - جانباً من شأنه مع الناس ومن شأنهم معه . أتبع ذلك ببيان مصير الأمم الظالمة ليكون فى ذلك عبرة وعظة . فقال - تعالى - :( وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا القرون مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالبينات وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كذلك نَجْزِي القوم المجرمين ) .والخطاب فى قوله : ( وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا . . ) لأهل مكة الذين كانوا معاصرين للنبي - صلى الله عليه وسلم - ومناوئين لدعوته ، ويدخل فيه غيرهم ممن يصلح للخطاب على سبيل التبع .والقرون جمع قرن . والقرن - كما يقول القرطبي - الأمة من الناس ، قال الشاعر :إذا ذهب القرن الذى كنت فيهم ... وخلفت فى قرن فأنت غريبفالقرن كل عالم فى عصره ، مأخذو من الاقتران ، أى : عالم مقترن بعضهم إلى بعض .وفي الحديث الشريف : " خير القرون قرني - يعني أصحابي - ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم " .فالقرن على هذا مدة من الزمان . قيل : ستون عاما ، وقيل سبعون ، وقيل ثمانون ، وقيل : مائة سنة ، وعليه أكثر أصحاب الحديث ، أن القرن مائة سنة ، واحتجوا بأن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال لعبد الله بن بسر : " تعيش قرنا " فعاش مائة سنة .و ( لما ) ظرف بمعنى حين ، وهو متعلق بقوله ( أَهْلَكْنَا ) .والمعنى : ولقد أهكلنا أهل القرون السابقة عليكم يا أهل مكة . حين استمروا فى ظلمهم وعنادهم ، وحين أصروا على كفرهم بعد أن جاءتهم رسلهم بالدلائل الدالة على وحدانية الله ، وعلى صدقهم فيها يبلغونه عن ربهم فعليكم - أيها الغافلون - أن تثوبوا إلى رشدكم ، وأن تتبعوا الحق الذى جاءكم به نبيكم كي لا يصيبكم ما أصاب الظالمين من قبلكم .وقوله : ( وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بالبينات ) يدل على إفراط أولئك المهلكين فى الظلم ، وبلوغهم فيه أقصى الغايات ، لأنهم مع وضوح الشواهد على صدق الرسل ، استمروا في جحودهم وظلمهم .وقوله : ( وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ ) معطوف على ( ظَلَمُواْ ) أى : أهلكنا أهل القرون السابقين عليكم حين استمروا على ظلمهم ، وحين علم الله - منهم الإصرار على الكفر ، فإهلاكهم كان بسبب مجموع هذين الأمرين .وقوله : ( كذلك نَجْزِي القوم المجرمين ) تذييل قصد به التهديد والوعيد .أي : مثل ذلك الجزاء الأليم وهو إهلاك الظالمين ، نجزي القوم المجرمين فى كل زمان ومكان .

ثم جعلناكم خلائف في الارض من بعدهم لننظر كيف تعملون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه : ( ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فى الأرض مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ) معطوف على قوله : أهلكنا ) .والخلائف جمع خليفة . وهو كل من يخلف غيره ويأتي من بعده .أي : ثم جعلناكم أيها المكلفون باتباع النبي - صلى الله عليه وسلم - خلفاء فى الأرض من بعد أولئك الأقوام المهلكين لنرى ونشاهد ونعلم أي عمل تعملون فى خلافتكم فنجازيكم على ذلك الجزاء المناسب الذى تقتضيه حكمتنا وإرادتنا ، و ( كيف ) مفعول مطلق ل ( تعملون )لا ( لننظر ) لأن الاستفهام له الصدارة ، فلا يعمل فيه ما قبله .قال الآلوسى : واستعمال النظر بمعنى العلم مجاز ، حيث شبه بنظر الناظر . وعيان المعاين فى تحققه . والمراد نعاملكم معاملة من يطلب العلم بأعمالكم ليجازيكم بحسبها ، كقوله - تعالى - ( لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ) قال قتادة : صدق الله ربنا ، ما جعلنا خلفاء إلا لينظر إلى أعمالنا ، فأروا الله من أعمالكم خيرا ، بالليل والنهار .

واذا تتلى عليهم اياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقران غير هذا او بدله قل ما يكون لي ان ابدله من تلقاء نفسي ان اتبع الا ما يوحى الي اني اخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - بعض المقترحات الفاسدة التى اقترحها - المشركون على النبي - صلى الله عليه وسلم - ورد عليها بما يبطلها فقال تعالى - :( وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا . . . ) .قال الآلوسى ما ملخصه : " عن مقاتل قال : إن الآية ( وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا . نزلت في جماعة من قريش قالوا للنبي - صلى الله عليه وسلم - إن كنت تريد ( أن نؤمن لك ، فأت بقرآن ليس فيه ترك عبادة اللات والعزى وليس فيه ما يعيبها وإن لم ينزل الله - تعالى - عليك ذلك فقل أنت هذا من نفسك ، أو بدله ، فاجعل مكان آية عذاب آية رحمة ، ومكان حرام حلال ، ومكان حلال حراما والمعنى : وإذا تتلى على أولئك المشركين آياتنا الواضحة المنزلة عليك - يا محمد - قالوا على سبل العناد والحسد : ائت بقرآن آخر سوى هذا القرآن الذى

تتلوه علينا ، أو بدله بأن تجعل مكان الآية التى فيها سب لآلهتنا ، آية
، أخرى فيها مدح لها .وفي الآية الكريمة التفات من الخطاب إلى الغيبة
إظهاراً للإعراض عنهم ، حتى لكأنهم غير حاضرين ، وغير أهل لتوجيه الخطاب
- إليهم .والمراد بالآيات : الآيات القرآنية الدالة على وحدانية الله
، تعالى - وعلى صدق الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيما يبلغه عن ربه
وأضافها - سبحانه - إليه على سبيل التشريف والتعظيم ، وأسند التلاوة إلى
، الآيات بصيغة المبني للمفعول ، للإشارة إلى أن هذه الآيات لوضوحها
ولمعرفتهم التامة لتاليها ، صارت بغير حاجة إلى تعيين تاليها - صلى الله
عليه وسلم - .قال صاحب الكشاف : " فإن قلت : فماذا كان غرضهم - وهم أدهى
الناس وأمكرهم - في هذا الاقتراح؟ "قلت : الكبد والمكر . أما اقتراح إبدال
قرآن بقرآن ففيه أنه من عندك وأنك قادر على مثله ، فأبدل مكانه آخر ، وأما
اقتراح التبديل فللطمع ولاختبار الحال ، وأنه إذا وجد منه تبديل ، فإما أن
يهلكه الله فينجوا هم منه أو لا يهلكه فيسخروا منه ، ويجعلوا التبديل حجة
عليه ، وتصحيحا لافترائه على الله .وقوله : ( قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ
أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَآءِ نفسي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يوحى إِلَيَّ
إِني أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ) هذا القول أمر
من الله - تعالى - لرسوله - صلى الله عليه وسلم - بأن يرد عليهم بما يزهق
باطلهم .وكلمة ( تلقاء ) مصدر من اللقاء كتبيان من البيان ، وكسر التاء
فيهما سماعي ، والقياس في هذا المصدر فتحها كالتكرار والتطواف والتجوال
والمعنى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - على سبيل التوبيخ :لا يصح لي
بحال من الأحوال ، أن أبدل هذا القرآن من عند نفسي ومن جهتها؛ وإنما أنا
أبلغكم ما أنزل الله على منه ، بدون زيادة أو نقصان ، أو تغيير أو تبديل
وقوله : ( إني أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ).
تعليل لمضمون ما قبله من امتناع الإتيان بغيره أو تبديله ، والاقتصار على
، اتباع الوحي .أي : إني أخاف إن عصيت ربي أية معصية ، عذاب يوم عظيم الهول
وإذا كان شأني أن أخشاه - سبحانه - من أية معصية ولو كانت صغيرة ، فكيف لا
أخشاه إن عصيت بتبديل كلامه استجابة لأهوائكم؟

قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا ادراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله
افلا تعقلون

كما فسرها الوسيط ثم لقن الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - رداص
آخر عليهم ، زيادة في تسفيه أفكارهم فقال - تعالى - : ( قُل لَّوْ شَآءَ
اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ
فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ) وقوله : ( وَلاَ
أَدْرَاكُمْ بِهِ ) بمعنى ولا أعلمكم وأخبركم به ، أى : بهذا القرآن . يقال
، دريت الشيء وأدراني الله به ، أي أعلمني وأخبرني به .وأدري فعل ماض :
وفاعله مستتر يعود على الله - عز وجل - والكاف مفعول به .والمعنى : قل
لهم - أيضا - أيها الرسول الكريم - لو شاء الله - تعالى - أن لا أتلو عليكم
، - هذا القرآن لفعل ، ولو شاء أن يجعلكم لا تدرون منه شيئا ، لفعل - أيضا
، فإن مرد الأمور كلها إليه ، ولكنه - سبحانه - شاء وأراد أن أتلوه عليكم
وأن يعلمكم به بواسطتي ، فأنا رسول مبلغ ما أمرني الله بتبليغه .قال
القرطبي : " وقرأ ابن كثير : ( أَدْرَاكُمْ بِهِ ) بغير ألف بين اللام
والهمزة .والمعنى : لو شاء الله لأعلمكم به من غير أن أتلوه عليكم فهي لام
، التأكيد دخلت على ألف أفعل .وجاءت الآية الكريمة بدون عطف على ما قبلها
إظهارا لكمال شأن المأمور به ، وإيذاناً باستقلاله ، فإن ما سبق كان للرد
على اقتراحهم تبديل القرآن . وهذه الآية للرد على اقتراحهم الإتيان بغيره
ومفعول المشيئة محذوف . لأن جزاء الشرط ينبئ عنه ، أي : لو شاء الله عدم.
تلاوته ما تلوته عليكم :وقوله : ( فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن
قَبْلِهِ ) تعليل للملازمة المستلزمة لكون عدم التلاوة وعدم العلم منوط
بمشيئة الله - تعالى - وقوله : ( عُمُراً ) منصوب على الظرفية وهو كناية عن
المدة الطويلة . أى : فأنتم تعلمون أني قد مكثت فيما بينكم ، مدة طويلة من
الزمان ، قبل أن أبلغكم هذا القرآن ، حفظتم خلالها أحوالي ، وأحطتم خبرا
بأقوالي وأفعالي ، وعرفتم أني لم أقرأ عليكم من آية أو سورة مما يشهد أن
هذا القرآن إنما هو من عند الله - تعالى - .والهمزة في قوله ( أَفَلاَ
تَعْقِلُونَ ) داخلة على محذوف . وهى للاستفهام التوبيخي .والتقدير
: أجهلتم هذا الأمر الجلي الواضح ، فصرتم لا تعقلون أن أمثال هذه الاقتراحات
المتعنتة التى اقترحتموها لا يملك تنفيذها أحد إلا الله - تعالى - .قال
- الإمام الرازي ما ملخصه : " أمر الله تعالى رسوله - صلى الله عليه وسلم
أن يرد عليهم بما جاء في هذه الآية وتقريره : أو أولئك الكفار كانوا قد
، شاهدوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من أول عمره إلى ذلك الوقت
وكانوا عالمين بأحواله .وأنه ما طالع كتابا ولا تتلمذ على أستاذ ولا تعلم
من أحد ، ثم بعد انقراض أربعين سنة على هذا الوجه ، جاءهم بهذا الكتاب
العظيم المشتمل على نفائس علم الأصول ودقائق علم الأحكام ، ولطائف علم

الأخلاق ، وأسرار قص الأولين ، وعجز عن معارضته العلماء والفصحاء والبلغاء
وكل من له عقل سليم فإنه يعرف أن مثل هذا لا يحصل إلا بالوحي والإلهام ،
من الله - تعالى - .

فمن اظلم ممن افترى على الله كذبا او كذب باياته انه لا يفلح المجرمون

، كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - الرد على هؤلاء الذين لا يرجون لقاءه
بالحكم عليهم بعدم الفلاح فقال - تعالى - ( فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى
عَلَى الله كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ المجرمون
والاستفهام في قوله : ( فَمَنْ أَظْلَمُ ) للإنكار والنفي .أي :لا أحد (
أشد ظلما عند الله ، وأجدر بعقابه وغضبه ، ممن افترى عليه الكذب ، بأن نسب
إليه - سبحانه - ما هو برئ منه ، أو كذب بآياته وحججه التى أنزلها لتأييد
رسله .وقوله : ( إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ المجرمون ) تذييل قصد به التهديد
والوعيد .أي : إن حال وشأن هؤلاء المجرمين ، أنهم لا يفلحون . ولا يصلون
إلى ما يبغون ويريدون .هذا ، وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه
الآيات بعض الشواهد الدالة على صدق النبي - صلى الله عليه وسلم - فيما بلغه
عن ربه عند تفسيره لهذه الآية : "لا أحد أشد ظلما ممن افترى على الله كذبا
وتقول على الله ، وزعم أن الله أرسله ولم يكن كذلك . . ومثل هذا لا يخفى ،
أمره على الأغبياء فكيف يشتبه حال هذا بالأنبياء . فإن من قال هذه المقالة
صادقا أو كاذبا . فلابد أن الله ينصب من الأدلة على بره أو فجوره ما هو
أظهر من الشمس . فإن الفرق بين محمد - صلى الله عليه وسلم وبين مسيلمة
الكذاب لمن شاهدهما أظهر من الفرق بين وقت الضحى وبين نصف الليل في حندس
الظلماء . فمن شيم كل منهما وأفعاله وكلامه يستدل من له بصيرة على صدق
محمد - صلى الله عليه وسلم - وكذب مسيلمة . . "

ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند
الله قل اتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الارض سبحانه وتعالى
عما يشركون

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - أقبح رذائلهم ، وهى عبادتهم لغير الله
ودعواهم أن أصنامهم ستشفع لهم فقال - تعالى - :( وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ،
الله مَا لاَ يَضُرُّهُمْ . . . )هذه الآية الكريمة معطوفة على قوله -
تعالى - قبل ذلك ( وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا . . . ) عطف القصة
على القصة .والعبادة : الطاعة البالغة حد النهاية فى الخضوع والتعظيم .أي :
، وهؤلاء الذين لا يرجون لقاؤنا ، ويطلبون قرآنا غير هذا القرآن أو تبديله
، بلغ من جهلهم وسفههم أنهم يعبدون من دون الله أصناما لا تضرهم ولا تنفعهم
لأنها جمادات لا قدرة لها على ذلك .والمقصود بوصفها بأنها لا تضر ولا تنفع
بطلان عبادتها ، لأن من شأن المعبود أن يملك الضر والنفع ، وأن يكون :
مثيبا على الطاعة ومعاقبا على المعصية .وقوله : ( مِن دُونِ الله ) جار
ومجرور متعلق بمحذوف حال من فاعل ( يعبدون ) أي : يعبدونها متجاوزين الله
وتاركين طاعته .و ( ما ) موصولة أو نكرة موصوفة . والمراد بها الأصنام التى
عبدوها من دون الله؟قال الجمل : " ونفي الضر والنفع هنا عن الأصنام باعتبار
الذات ، وإثباتها لها فى سورة الحج فى قوله ( يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ
أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ ) باعتبار السبب ، فلا يرد كيف نفي عن الأصنام الضر
والنفع ، وأثبتهما لهما فى سورة الحج " .وقوله : ( وَيَقُولُونَ هؤلاء
شُفَعَاؤُنَا عِندَ الله ) حكاية لأقوالهم السخيفة عندما يُدعَوْن إلى
عبادة الله وحده .والشفعاء : جمع شفيع ، وهو من يشفع لغيره فى دفع ضر أو
، جلب نفع .أي : أنهم يدينون بالعبادة لأصنام لا تضرهم إن تركوا عبادتها
ولا تنفعهم إن عبدوها ، فإذا ما طلب منهم أن يجعلوا عبادتهم لله وحده
وقالوا : إننا نعبد هذه الأصنام لتكون شفيعة لنا عند الله فى دنيانا ، بأن
نتوسل إليه بها في إصلاح معاشنا ، وفى آخرتنا إن كان هناك ثواب وعقاب يوم
القيامة .وهنا يأمر الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يرد
عليهم بما يخرس ألسنتهم فى قول : ( قُلْ أَتُنَبِّئُونَ الله بِمَا لاَ
يَعْلَمُ فى السماوات وَلاَ فى الأرض ) .أي : قل يا محمد لهؤلاء الجاهلين :
إن الله - تعالى -لا يخفى عليه شيء فى هذا الكون ولا يعلم أن هناك من يشفع
عنده مما تزعمون شفاعته . فهل تعملون أنتم ما لا يعلمه . وهل تخبرونه بما
لا يعلم له وجوداً فى السموات ولا فى الأرض؟!!فالمقصود بهذه الجملة الكريمة
التهكم بهم ، والسخرية بعقولهم وأفكارهم ، ونفي أن تكون الأوثان شفعاء عند
الله بأبلغ وجه .والعائد فى قوله ( بِمَا لاَ يَعْلَمُ ) محذوف . والتقدير
بما لا يعلمه .وقوله ( فِي السماوات وَلاَ فى الأرض ) حال من العائد
المحذوف ، وهو مؤكد للنفي ، لأن ما لا يوجد فى ها فهو منتف عادة .قال صاحب
الكشاف : " فإن قلت كيف : أنبأوا الله بذلك؟ قلت : هو تهكم بهم ، وبما
ادعوه من المحال الذى هو شفاعة الأصنام ، وإعلام بأن الذى أنبأوا به باطل
فكأنهم يخبرونه بشيء لا يتعلق علمه به ، كما يخبر الرجل بما لا يعلمه.

وقوله ( فِي السماوات وَلاَ فى الأرض ) تأكيد لتنفيه ، لأن ما لم يوجد فى.
هما فهو منتف معدوم .وقوله : ( سُبْحَانَهُ وتعالى ) عن كل شريك ، وعما
قاله هؤلاء الجاهلون من أن الأصنام شفعاء عنده .وبذلك تكون الآية الكريمة
قد وبخت المشركين على عبادتهم لغير الله وعلى جهالاتهم وتقولهم على الله
. بغير علم

وما كان الناس الا امة واحدة فاختلفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم
فيما فيه يختلفون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن عبادة الناس لغيره - تعالى - إنما
حدثت بعد أن اختلفوا واتبعوا الهوى . فقال :( وَمَا كَانَ الناس إِلاَّ
أُمَّةً وَاحِدَةً فاختلفوا . . . )المراد بالناس : الجنس البشرى كله فى
جملته ، فإنهم كانوا أمة واحدة . ثم كثروا وتفرقوا وصاروا شعوبا وقبائل
ويرى بعض المفسرين أن المراد بالناس هنا : العرب خاصة ، فإنهم كانوا حنفاء.
على ملة إبراهيم ، إلى أن ظهر فيهم عمرو بن لحى الذي ابتدع لهم عبادة
الأصنام .قال الألوسى : " قوله ( وَمَا كَانَ الناس إِلاَّ أُمَّةً
وَاحِدَةً فاختلفوا ) أى : وما كان الناس كافة من أول الأمر إلا متفقين على
. . الحق والتوحيد من غير اختلاف ، وروى هذا عن ابن عباس والسدى ومجاهد
وذلك من عهد آدم - عليه السلام - إلأى أن قتل قابيل هابيل . وقيل إلى زمن
إدريس - عليه السلام - وقيل إلى زمن نوح . وقيل كانا كذلك فى زمنه - عليه
السلام - بعد أن لم يبق على الأرض من الكافرين ديار إلى أن ظهر بينهم الكفر
وقيل : من لدن إبراهيم - عليه السلام - إلى أن أظهر عمرو بن لحي عبادة.
الأصنام ، وهو المروى عن عطاء . وعليه فالمراد من الناس العرب خاصة ، وهو
الأنسب بإيراد الآية الكريمة إثر حكاية ما حكى عنهم من رذائل ، وتنزيه ساحة
الكبرياء عن ذلك .وقوله : ( فاختلفوا ) أى ما بين ضال ومهتد ، فبعث الله
إليهم رسله ، ليبشروا المهتدين بجزيل الثواب ، ولينذروا الضالين بسوء
العقاب .والفاء للتعقيب ، وهى لا تنافي امتداد زمان اتفاقهم على الحق ، لأن
المراد بيان أن ووقع الاختلاف بينهم إنما حدث عقيب انتهاء مدة الاتفاق ، لا
عقيب حدوثه .والمراد بالكلمة فى قوله : ( وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن
رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ . . . ) ما قضاه الله - تعالى - وأراده من
تأخير الحكم بين المؤمنين وغيرهم إلى يوم القيامة .أى : ولولا كلمة سبقت من
- ربك بتأخير القضاء بين الطائعين والعاصين إلى يوم القيامة ، لقضي بينهم
سبحانه - فى هذه الدنيا . فيما كانوا يختلفون فيه وذلك بأن يعجل للكافرين
والعصاة العقوبة فى الدنيا قبل الآخرة ، ولكنه - سبحانه - اقتضت حكمته عدم
تعجيل العقوبة فى الدنيا ، وأن يجعل الدار الآخرة هي دار الجزاء والثواب
والعقاب .وقد تضمنت هذه الآية الكريمة الوعيد الشديد على الاختلاف المؤدي
- إلى التفرقة فى الدين ، وإلى الشقاق والنزاع ، كما تضمنت تسلية الرسول
صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من قومه : فكأنه - سبحانه - يقول إن
. الاختلاف من طبيعة البشر ، فلا تنتظر من الناس جميعا أن يكونوا مؤمنين

ويقولون لولا انزل عليه اية من ربه فقل انما الغيب لله فانتظروا اني معكم
من المنتظرين

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - لونا آخر من ألوان تعنت المشركين
وجهالاتهم فقال - تعالى - :( وَيَقُولُونَ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ
مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الغيب . . . ) .ومرادهم بالآية التى طلبوها
آية كونية سوى القرآن الكريم ، بأن تكون معه - صلى الله عليه وسلم - ناقة :
- كناقة صالح - عليه السلام - أو تكون معه عصا كعصا موسى - عليه السلام
وكأنهم لا يعتبرون القرآن آية كبرى ، ومعجزة عظمى على صدقة - صلى الله عليه
- وسلم - .ومرادهم بإنزالها عليه : ظهورها على يديه - صلى الله عليه وسلم
حتى يروا ذلك بأعينهم .أى : " ويقول هؤلاء المشركون لنبيهم - صلى الله عليه
وسلم - هلا أنزل الله عليك آية أخرى سوى القرآن الكريم تكون شاهدة لك
" بالنبوة ، كأن تعيد إلى الحياة آباءنا ، وكأن تتحول جبال مكة إلى بساتين
ومطالبهم هذه إنما طلبوها على سبيل العناد والتعنت لا على سبيل الاسترشاد.
والثبت ، قال - تعالى - : ( وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ
الملائكة وَكَلَّمَهُمُ الموتى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ
قُبُلاً مّا كَانُوا ليؤمنوا إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله . . . ) وقوله
( فَقُلْ إِنَّمَا الغيب للَّهِ فانتظروا إِنِّي مَعَكُمْ مِّنَ المنتظرين
أمر من الله - تعالى - لرسوله - صلى الله عليه وسلم - بأن يرد عليهم بما
يفحمهم .أى : قل لهم فى الجواب على هذه المطالب المتعنتة : إن هذه المطالب
- التى طلبتموها هى من علم الغيب الذى استأثر الله به ، فقد يجيبكم إليها
سبحانه - وقد لا يجيبكم ، فانتظروا فى ما يقضيه الله فى أمر تعنتكم فى
مطالبكم ، إني معكم من المنتظرين لقضائه وقدره ، ولما يفعله بي وبكم
فالجملة الكريمة تهديد لهم على تعنتهم وجهلهم ، وتهوينهم من شأن القرآن.

الكريم ، مع أنه أصدق معجزة للرسول - صلى الله عليه وسلم - وأعظمها .ولقد حكى القرآن - فى آيات أخرى كثيرة - المطالب المتعنته التى طلبها المشركون من النبي - صلى الله عليه وسلم - والتي تدل على عنادهم وجحودهم ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ( وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأرض يَنْبُوعاً . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأنهار خِلالَهَا تَفْجِيراً . أَوْ تُسْقِطَ السمآء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بالله والملائكة قَبِيلاً . أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ ترقى فى السمآء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً ) كما حكى أيضاً - سبحانه - أنه لو أجابهم إلى مطالبهم لما آمنوا ، لأنهم معاندون جاحدون فقال - تعالى - : ( إِنَّ الذين حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حتى يَرَوُاْ العذاب الأليم ) وقال - سبحانه - : ( وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الذين كَفَرُواْ إِنْ هاذآ إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ) وبعد أن ساقت السورة الكريمة جانبا من أقوال الذين لا يرجون لقاء الله ومن مقترحاتهم الباطلة ومن معتقداتهم الفاسدة ، أتبعت ذلك بتصوير بعض الطبائع البشرية تصويرا صادقا يكشف عن أحوال النفوس فى حالتي السراء والضراء فقال - تعالى - :( وَإِذَآ أَذَقْنَا الناس رَحْمَةً مِّن بَعْدِ . . . ) .

واذا اذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم اذا لهم مكر في اياتنا قل الله اسرع مكرا ان رسلنا يكتبون ما تمكرون

كما فسرها الوسيط قوله ( أَذَقْنَا ) من الذوق وحقيقته إدراك الطعام ونحوه بالذوق باللسان واستعمل هنا على سبيل المجاز فى إدراك ما يسر وما يؤلم من المعنويات كالرحمة والضراء .قال الآلوسى " والمراد بالناس كفار مكة على ما قيل ، لما روى من أن الله - تعالى - سلط عليهم القحط سبع سنين ، حتى كادوا يهلكون فطلبوا منه أن يدعو لهم بالخصب ، ووعدوه بالإيمان ، فلما دعا لهم ورحمهم الله - تعالى - بالمطر ، طفقوا يطعنون وفى آياته - تعالى - ويعاندون نبيه - صلى الله عليه وسلم - .وقيل : " إن الناس عام لجميع الكفار والضراء من الضر ، وهو ما يصيب الإنسان وفى نفسه من أمراض وأسقام .والمكر. هو التدبير الخفي الذي يفضي بالممكور به إلى ما لا يتوقعه من مضرة وكيد : والمعنى : وإذا أذقنا الناس منا رحمة كأن منحناهم الصحة والسعادة والغني. من بعد ضراء أصابتهم وفى أنفسهم أو فيمن يحبون ، ما كان منهم إلا بالمبادرة إلى الطعن وفى آياتنا الدالة على قدرتنا ، والاستهزاء بها والتهوين من شأنها .وأسند إذاقته الرحمة إلى ضمير الجلالة ، وأسند المساس إلى الضراء ، رعاية للأدب مع الله - تعالى - ، لأنه وإن كان كل شيء من عنده ، إلا أن الأدب معه - سبحانه - يقتضي إسناد الخير إليه والشر إلى غيره كما وفى الحديث " : قوله - تعالى - : ( وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ) وفى الحديث اللهم إن الخير بيديك والشر ليس إليك " .وإذا الأولى شرطية ، والثانية ، فجائية والجملة بعدها جواب الشرط .وجاء التعبير بإذا الفجائية فى الجواب للإشارة إلى توغلهم وفى الجحود والكنود فهم بمجرد أن حلت النعمة بهم محل النقمة ، عادوا إلى عنادهم وجهلهم ، ونسبوا كل خير إلى غيره - تعالى - .قال الرازي : " واعلم أنه - تعالى - ذكر هذا المعنى بعينه فيما تقدم من هذه السورة وفى قوله - تعالى - : ( وَإِذَا مَسَّ الإنسان الضر دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إلى ضُرٍّ مَّسَّهُ . . . ) إلا أنه - تعالى - زاد وفى هذه الآية التى نحن بصدد تفسيرها دقيقة أخرى ما ذكرها وفى تلك الآية ، وتلك الدقيقة هى أنهم يمكرون عند وجدان الرحمة .وفى الآية المتقدمة ما كانت هذه الدقيقة مذكورة فثبت بما ذكرنا أن عادة هؤلاء الأقوام اللجاج والعناد والمكر .وقوله : ( قُلِ الله أَسْرَعُ مَكْراً إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ) أمر من الله - تعالى - لرسوله - صلى الله عليه وسلم - بأن يرد عليهم بما يبطل مكرهم .أى : قل يا محمد لهؤلاء الجاحدين الذين يسرعون بالمكر وفى مقام الشكر ، إن الله - تعالى - أسرع مكراً منكم؛ لأنه لا يخفى عليه بشيء من مكركم ، ولأن الحفظة من الملائكة يسجلون عليكم أقوالكم وأفعالكم ، التي ستحاسبون عليها وفى يوم القيامة ) : حساباً عسيراً ، وسترون أن مكركم السيء لا يحيق إلا بكم .وقوله أَسْرَعُ ) أفعل تفضيل من الفعل الثلاثي سرع - كضخم وحسن - ، أو من الفعل الرباعي " أسرع " عند من يرى ذلك .والجملة الكريمة تحقيق للانتقام منهم . وتنبيه على أن مكرهم الخفي غير خاف الحفظة من الملائكة فضلا عن الخالق - عز - وجل - الذى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء .وسمى - سبحانه إنكارهم لآياته واستهزاءهم بها مكراً ، لأنهم كانوا كثيراً ما يتجمعون سراً ليتشاوروا وفى المؤامرات التي يعرقلون بها سير الدعوة الإسلامية ، وفى ،

. - الشبهات التي يوجهونها إلى النبي - صلى الله عليه وسلم

هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا انهم احيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن انجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - مشهدا حياً . تراه العيون ، وتهتز له القلوب ، ويجعل المشاعر تتجه إلى الله وحده بالدعاء فقال - تعالى - ( هُوَ الذي يُسَيِّرُكُمْ وفى البر والبحر . . . ) .والسير معناه : الانتقال من مكان إلى آخر . والتسيير معناه : جعل الإنسان أو الحيوان أو غيرهما يسير بذاته ، أو بواسطة دابة أو سفينة أو غيرهما ، مما سخره الله - تعالى - له بقدرته ورحمته .أى : هو - سبحانه - الذي يسيركم بقدرته ورحمته وفى البر والبحر ، بواسطة ما وهبكم من قدرة على السير ، أو ما سخر لكم من دواب وسفن وغيرهما مما تستعملونه وفى سفركم ، وكل ذلك من أجل مصلحتكم ومنفعتكم .ثم قال - تعالى - ( حتى إِذَا كُنتُمْ وفى الفلك وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا . . . ) .والفل : ما عظم من السفن . ويستعمل هذا اللفظ عند كثير من العلماء للواحد والجمع . والظاهر أن المراد به هنا : الجمع ، بدليل قوله ( وَجَرَيْنَ ) أى : السفن .والمراد بالريح الطيبة الريح المناسبة لسير السفن ، والموافقة لا تجاهها .أى : هو - سبحانه - وحدا الذي ينقلكم من مكان إلى آخر وفى البر والبحر ، حتى إذا كنتم فى إحدى مرات تسييركم راكبين فى السفن التي سخرها لكم ، وجرت هذه السفن بمن فيها بسبب الريح الطيبة إلى المكان الذى تقصدونه ، وأنتم وفى حالة فرح غامر ، وسرور شامل . . ( جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ الموج مِن كُلِّ مَكَانٍ وظنوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِم . . . ) .والريح العاصف : هى الريح الشديدة القوية . يقال : عصفت الريح وأعصفت فهي عاصف إذا اشتدت وفى سرعتها وهيجانها والموج : ما ارتفع من مياه البحار ، والظن هنا بمعنى اليقين أو الاعتقاد. . الراجح ، وقوله : ( أُحِيطَ بِهِمْ ) أى : أحاط بهم البلاء من كل ناحية يقال لمن وقع فى بلية : قد أحيط به وأصل هذا أن العدو إذا أحاط بعدوه جعله على حافة الهلاك .أي بعد أن جرت السفن بهلاء القوم وفى البحر وهم وفى فرح وحبور ، جاءت إليهم ريح عاصفة شديدة السرعة والتقلب ، وارتفع إليها الموج من كل مكان ، واعتقد ركابها - الذين كانوا منذ قليل فرحين مبتهجين - أنهم قد أحاط بهم الهلاك كما يحيط العدو بعدوه .وقوله : ( بهم ) فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة ، لأنه كان الظاهر أن يقال : حتى إذا كنتم وفى الفلك ، وجرين بكم لكن جاء الكلام على أسلوب الالتفات للمبالغة فى تقبيح أحوالهم وسوء صنيعهم .قال صاحب الكشاف " فإن قلت : ما فائدة صرف الكلام من الخطاب إلى الغيبة؟ قلت : المبالغة ، كأنه لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ، ويستدعي منهم الإنكار والتقبيح " .وقوله : ( دَعَوُاْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هذه لَنَكُونَنَّ مِنَ الشاكرين ) بيان لما قالوه بعد أن داهمتهم الرياح العاصفة ، والأمواج العالية وبعد أن أيقنوا ، أنهم على حافة الموت .أي وفى تلك الساعات العصيبة ، واللحظات الحرجة ، توجهوا إلى الله وحده قائلين : نقسم لك يا ربنا ، ويا من لا يعجزك شيء ، لئن أنجينا من تلك الأهوال التي نحن فيها ، لنكونن من الشاكرين لك المطيعين لأمرك ، المتبعين لشرعك .وهنا ، وبعد الدعاء العريض ، هدأت العاصفة ، وانخفضت الأمواج ، وسكنت النفوس بعض السكون ، ووصلت السفن إلى شاطئ الأمان فماذا كانت النتيجة؟كانت النتيجة كما صورها القرآن الكريم : ( . . فَلَمَّآ أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ وفى الأرض بِغَيْرِ الحق

فلما انجاهم اذا هم يبغون في الارض بغير الحق يا ايها الناس انما بغيكم على انفسكم متاع الحياة الدنيا ثم الينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون

كما فسرها الوسيط ( فَلَمَّآ أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ وفى الأرض بِغَيْرِ الحق . . )أى : فحين أنجاهم الله - تعالى - بفضله ورحمته من هذا الكرب العظيم الذي كانوا فيه ، إذا هم يسعون وفى الأرض فساداً . ويرتكبون ، البغي الفاضح الذي لا يخفى قبحه على أحد .وقيد البغى بكونه بغير الحق لأنه لا يكون إلا كذلك ، إذ البغي معناه : تجاوز الحق ، يقال : بغي الجرح إذا تجاوز حده وفى الفساد .فقوله : ( بِغَيْرِ الحق ) تأكيد لما يفيد البغى من التعدى والظلم ، فهو بغى ظاهر سافر لا يخفى قبحه على أحد .وقيل قيده ، بذلك يخرج البغي على الغير وفى مقابلة بغيه . فإنه يسمى بغيا فى الجملة لكنه بحق . وهو قول ضعيف ، لأن دفع البغي لا يسمى بغيا وإنما يسمى إنصافا من الظالم ، ولذا قال القرآن الكريم : ( وَلَمَنِ انتصر بَعْدَ ظُلْمِهِ ، فأولئك مَا عَلَيْهِمْ مِّن سَبِيلٍ ) وجاء التعبير بالفاء وإذا الفجائية للإشعار بأنهم قوم بلغ بهم اللؤم والجحود ، أنهم بمجرد أن وطئت أقدامهم بر الأمان ، نسوا ما كانوا فيه من أهوال ، وسارعوا إلى الفساد وفى الأرض ، دون أن يردعهم رادع ، أو يصدهم ترغيب أو ترهيب .والتعبير بقوله ( فِى الأرض )

للإشارة إلى أن بغيهم قد شمل أقطارها ، ولم يقتصر على جانب من جوانبها
وقوله - سبحانه - ( ياأيها الناس إِنَّمَا بَغْيُكُمْ على أَنفُسِكُمْ.
مّتَاعَ الحياة الدنيا ثُمّ إِلَينَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا
كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ) خطاب منه - سبحانه - لأولئك البغاة وفى كل زمان
ومكان ، قصد به التهديد والوعيد .أى : يأيها الناس الذين تضرعوا إلينا وفى
ساعات الشدة ، وهرولوا إلى البغي بعد زوال تلك الشدة ، اعلموا أن بغيكم هذا
مرجعه إليكم لا إلى غيركم فأنتم وحدكم الذين ستتحملون سوء عاقبته وفى
الدنيا والآخرة .واعلموا أن هذا البغي إنما تتمتعون به متاع الحياة الدنيا
التيلا بقاء لها ، وإنما هى إلى زوال وفناء .واعلموا كذلك أن مردكم إلينا
بعد هذا التمتع الفاني . فنخبركم يوم الدين بكل أعمالكم ، وسنجازيكم عليها
بالجزاء الذي تستحقونه .وقوله : ( إِنَّمَا بَغْيُكُمْ ) مبتدأ وخبره ( على
: أَنفُسِكُمْ ) أى هو عليكم وفى الحقيقة لا على الذين تبغون عليهم .وقوله
قرأ حفص عن عاصم ( متاع ) بفتح العين على أنه : ( مّتَاعَ الحياة الدنيا )
مصدر مؤكد لفعل مقدر . أى : تتمتعون به متاع الحياة الدنيا الزائلة الفانية
وقرأ الجمهور بالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف والتقدير : هو متاع الحياة.
الدنيا . وقوله : ( ثُمّ إِلَينَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا
كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ) تذييل قصد به تهديدهم على بغيهم ، ووعيدهم عليه بسوء
المصير حتى يرتدعوا وينزجروا .هذا ، ومن الأحكام والآداب التي أخذها
العلماء من هذه الآيات ما يأتى :1 - أن من الواجب على العاقل أن يكثر الله
وفى حالتى الشدة والرخاء ، وأن لا يكون ممن يدعون الله عند الضر وينسونه
عند العافية ، ففى الحديث الشريف : " تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى
الشدة " .2 - أن الناس جبلوا على الرجوع إلى الله وحده عند المصائب والمحن
وفى ذلك يقول الآلوسى : " روى أبو داود والنسائي وغيرهما عن سعد بن أبى ،
وقاص قال : لما كان يوم الفتح فر عكرمة بن أبى جهل فركب البحر فأصابتهم ريح
عاصف ، فقال أصحاب السفينة لركابها : أخلصوا فإن آلهتكم لا تغني عنكم شيئاً
فقال عكرمة : لئن لم ينجني وفى البحر إلا الإخلاص ، ما ينجيني وفى البر .
غيره . اللهم ن لك عهدا إن أنت عافيتنى مما أنا فيه أن آتى محمدا حتى أضع
يدي فى يده ، فلأجدنه عفوا كريما . قال : فجاء فأسلم .وفى رواية ابن سعد عن
- أبي مليكة : أن عكرمة لما ركب السفينة وأخذتهم الريح فجعلوا يدعون الله
- تعالى - ويوحدونه فقال : ما هذا؟ فقالوا : هذا مكان لا ينفع فيه إلا الله
تعالى - قال : " فهذا ما يدعونا إليه محمد - صلى الله عليه وسلم - فارجعوا
بنا " . فرجع وأسلم . . . " .وقال الفخر الرازي : " يحكي أن واحدا قال
لجعفر الصادق : اذكر لي دليلا على إثبات الصانع؟ فقال له : أخبرني عن حرفتك
: فقال : أنا رجل أتجر وفى البحر . فقال له : صف لي كيفية حالك . فقال :
ركبت البحر فانكسرت السفينة وبقيت على لوح واحد من ألواحها وجاءت الرياح
العاصفة .فقال جعفر : هل وجدت وفى قلبك تضرعا ودعاء . فقال : نعم .فقال
جعفر : فإلهك هو الذي تضرعت إليه وفى ذلك الوقت .وقد ساق صاحب المنار قصة
ملخصها " أن رجلا إنجليزيا قرأ ترجمة قوله - تعالى - ( هُوَ الذي
يُسَيِّرُكُمْ وفى البر والبحر ) فراعته بلاغة وصفها لطغيان البحر . . وكان
يعمل قائدا لإحدى السفن . . فسأل بعض المسلمين : أتعلمون أن نبيكم - صلى
الله عليه وسلم - قد سافر وفى البحار؟ فقالوا له :لا . . فأسلم الرجل لأنه
اعتقد أن القرآن ليس من كلام البشر وإنما هو كلام الله - تعالى .3 - دل
. قوله - تعالى - ( ياأيها الناس إِنّمَا بَغْيُكُمْ على أَنفُسِكُمْ )
وقوله - تعالى - ( ياأيها الناس إِنّمَا بَغْيُكُمْ على أَنفُسِكُمْ . . )
على أن البغى يجازي أصحابه عليه فى الدنيا والآخرة .فأما وفى الآخرة فهو ما
دل عليه إنذار أهله بأنه - سبحانه - سيجازيهم عليه أسوأ الجزاء .وأما فى
الدنيا فبدليل قوله - تعالى - ( ياأيها الناس إِنَّمَا بَغْيُكُمْ على
أَنفُسِكُمْ ) ويؤيده ما رواه البخاري وفى الأدب المفرد والترمذى وابن ماجه
والحاكم من حديث أبي بكر الصديق - رضى الله عنه - أن رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - قال : " ما من ذنب يعجل الله لصاحبه العقوبة وفى الدنيا مع ما
يدخر له فى الآخرة سوى البغى وقطيعة الرحم " .قال الآلوسى : وفى الآية من
الزجر عن البغى ما لا يخفى " فقد أخرج أبو نعيم والخطيب والديلمى وغيرهم عن
: أنس قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " ثلاث هن رواجع على أهلها
المكر والنكث والبغى " ثم تلا - صلى الله عليه وسلم - تعالى - ( ياأيها
الناس إِنّمَا بَغْيُكُمْ على أَنفُسِكُمْ ) . وقوله - تعالى - ( فَمَن
نّكَثَ فَإِنّمَا يَنكُثُ على نَفْسِهِ ) وقوله - تعالى - ( وَلاَ
يَحِيقُ المكر السيىء إِلاّ بِأَهْلِهِ ) وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس
وابن عمر قالا : قال رسول الله - صلى الله عليه والسلام - : " لو بغى جبل
على جبل لدك الباغى منهما " .وكأن المأمون يتمثل بهذين البيتين لأخيه : يا
صاحب البغى إن البغى مصرعه ... فارجع فخير فعال المرء أعدلهفلو بغى جبل
يوما على جبل ... لاندك منه أعاليه وأسفله

انما مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض مما
ياكل الناس والانعام حتى اذا اخذت الارض زخرفها وازينت وظن اهلها انهم

قادرون عليها اتاها امرنا ليلا او نهارا فجعلناها حصيدا كان لم تغن بالامس
كذلك نفصل الايات لقوم يتفكرون

، كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - مثلا لمتاع الحياة الدنيا والزائل
ولزخرفها الفانى ، فقال - تعالى - :( إِنَّمَا مَثَلُ الحياة الدنيا
كَمَآءٍ أَنزَلْنَاهُ . . . )قوله - سبحانه - ( إِنَّمَا مَثَلُ . . . )
المثَّل بمعنى المِثْل ، والمِثْل : النظير والشبيه ، ثم اطلق على القول
السائر بالمعروف لمماثلة مضربه - وهو الذى يضرب فيه - لمورده الذى ورد فيه
أولا ، ولا يكون إلا فيما فيه غرابة ، ثم استعير للصفة أو الحال أو القصة
إذاكان لها شأن عجيب وفيها غرابة ، وعلى هذا المعنى يحمل المثل في هذه
الآية وأشباهها .والأمثال إنما تضرب لتوضيح المعنى الخفي ، وتقريب الشيء
المعقول من الشيء المحسوس ، وعرض الأمر الغائب في صورة المشاهد ، فيكون
: المعنى الذي ضرب له المثل أوقع في القلوب ، وأثبت في النفوس .والمعنى
إنما صفة الحياة الدنيا وحالها في سرعة زوالها ، وانصرام نعيمها بعد إقباله
: كحال ماء ( أَنزَلْنَاهُ مِنَ السمآء فاختلط بِهِ نَبَاتُ الأرض ) أى .
فكثر بسببه نبات الأرض حتى التف وتشابك بعضه ببعض لازدهاره وتجاوزه ونمائه
وشبه - سبحانه - الحياة الدنيا بماء السماء دون ماء الأرض ، لأن ماء .
السماء وهو المطر لا تأثير لكسب العبد فيه بزيادة أو نقص - بخلاف ماء
الأرض - فكان تشبيه الحياة به أنسب .وقوله : ( مِمَّا يَأْكُلُ الناس
والأنعام ) معناه : وهذا النبات الذى نما وازدهر بسبب نزول المطر من السماء
بعضه مما يأكله الناس كالبقول والفواكه . وبعضه مما تأكله الأنعام ،
كالحشائش والأعشاب المختلفة .وجملة ( مِمَّا يَأْكُلُ الناس والأنعام ) حال
من النبات .وقوله : ( حتى إِذَآ أَخَذَتِ الأرض زُخْرُفَهَا وازينت . . )
تصوير بديع لما صارت عليه الأرض بعد نزول الماء عليها ، وبعد أن أنبتت من
كل زوج بهيج .ولفظ ( حتى ) غاية لمحذوف : أي نزل المطر من السماء فاهتزت
الأرض وربت وأنبتت النبات الذى ما زال ينمو ويزدهر حتى أخذت الأرض زخرفها
والزخرف : الذهب وكمال حسن الشيء . ومن القول أحسنه ، ومن الأرض ألوان.
نباتها .أى : حتى إذا استوفت الأرض حسنها وبهاءها وجمالها ، وازينت بمختلف
أنواع النباتات ذات المناظر البديعة ، والألوان المتعددة .قال صاحب الكشاف
وهو كلام فصيح . جعلت الأرض آخذة زخرفها وزينتها على التمثيل بالعروس " :
إذا أخذت الثياب الفاخرة من كل لون فاكتستها ، وتزينت بغيرها من ألوان
الزينة ، أصل ازينت تزينت " .وقوله : ( وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ
قَادِرُونَ عَلَيْهَآ ) أي : وظن أهل تلك الأرض الزاخرة بالنباتات النافعة
أنهم قادرون على قطف ثمارها ، ومتمكنون من التمتع بخيراتها ، ومن .
الانتفاع بغلاتها .وقوله : ( أَتَاهَآ أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً
فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً . . ) تصوير معجز لما أصاب زرعها من هلاك بعد
نضرته واستوائه و ( أو ) للتنويع أي : تارة يأتي ليلا وتارة يأتي نهارا
والجملة الكريمة جواب إذا في قوله ( حتى إِذَآ أَخَذَتِ الأرض زُخْرُفَهَا .
أى : بعد أن بلغت الأرض الذروة فى الجمال وفى تعلق الآمال بمنافع . ( . .
زروعها ، أتاها قضاؤنا النافذة ، وأمرنا المقدر لإهلاكها بالليل وأصحابها
، نائمون ، أو بالنهار وهم لا هون ، فجعلناها بما عليها كالأرض المحصودة
التي استؤصل زرعها .وقوله : ( كَأَن لَّمْ تَغْنَ بالأمس ) تأكيد لهلاكها
واستئصال ما عليها من نبات بصورة سريعة حاسمة .أي : جعلناها كالأرض
المحصودة التي قطع زرعها ، حتى لكأنها لم يكن بها منذ وقت قريب : الزرع
) : النضير ، والنبات البهيج ، الباسق ، والطلع النضيد .قال القرطبى قوله
كَأَن لّمْ تَغْنَ بالأمس ) أي : لم تكن عامرة . من غني بالمكان إذا أقام
فيه وعمره ، والمغانى في اللغة : المنازل التى يعمرها الناس .وقال ابن كثير
، قوله : ( كَأَن لَّمْ تَغْنَ بالأمس ) أي كأنها ما كانت حينا قبل ذلك :
" : وهكذا الأمور بعد زوالها كأنها لم تكن ولهذا جاء في الحديث الشريف
يؤتى بأنعم أهل الدنيا فيغمس فى النار غمسة فيقال له : هل رأيت خيرا قط؟ هل
مر بك نعيم قط؟ فيقول لا . ويؤتى بأشد الناس عذابا فى الدنيا فيغمس في
النعيم غمسة ثم يقال له : هل رأيت بؤسا قط فيقول لا " .والمراد بالأمس هنا
الوقت الماضى القريب :لا خصوص اليوم الذى قبل يومك .وقوله : ( كذلك :
نُفَصِّلُ الآيات لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ) تذييل قصد به الحض على التفكير
والاعتبار .أى : كهذا المثل في وضوحه وبيانه لحال الحياة الدنيا ، وقصر مدة
التمتع بها نفصل الآيات ونضرب الأمثال الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا لقوم
" : يحسنون التفكير والتدبر في ملكوت السموات والأرض .قال الجمل ما ملخصه
وهذه الآية مثل ضربه الله - تعالى - للمتشبث فى الدنيا الراغب في زهرتها
وحسنها . . ووجه التمثيل أن غاية هذه الدنيا التى ينتفع بها المرء ، كناية
عن هذا النبات الذى لما عظم الرجاء في الانتفاع به ، وقع اليأس منه ، ولأن
المتمسك بالدنيا إذا نال منها بغيته أتاه الموت بغتة فسلبه ما هو فيه من
. " نعيم الدنيا ولذتها

والله يدعو الى دار السلام ويهدي من يشاء الى صراط مستقيم

كما فسرها الوسيط وبعد أن بين - سبحانه - حال الحياة الدنيا ، وقصر مدة التمتع بها ، أتبع ذلك بدعوة الناس جميعا إلى العمل الصالح الذى يوصلهم إلى الجنة فقال - تعالى - :( والله يدعوا إلى دَارِ . . . )المقصود بدار السلام الجنة التي أعدها الله - تعالى - لعباده المؤمنين ، وسميت بذلك ، لأنها : الدار التي سلم أهلها من كل ألم وآفة . أو لأن تحيتهم فيها سلام ، أو لأن السلام من أسماء الله - تعالى - فأضيفت إليه تعظيما لشأنها ، وتشريفا لقدرها ، كما يقال للكعبة : بيت الله .وقوله : ( والله يدعوا إلى دَارِ السلام . . . ) معطوف على محذوف يدل عليه السياق .والتقدير : الشيطان يدعوكم إلى إيثار متاع الحياة الدنيا وزخرفها ، والله - تعالى - يدعو الناس جميعا إلى الإيمان الحق الذى يوصلهم إلى دار كرامته .وقوله : ( وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ) وهو المؤدى بصاحبه إلى رضوان الله ومغفرته .والمراد بالصراط المستقيم : الدين الحق الذى شرعه الله لعباده . - وبلغه لهم عن طريق نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم .

للذين احسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة اولئك اصحاب الجنة هم فيها خالدون

. كما فسرها الوسيط وقوله : ( لِّلّذِينَ أَحْسَنُواْ الحسنى وَزِيَادَةٌ بيان لحسن عاقبة الذين استجابوا لدعوته ، واتبعوا صراطه المستقيم .أى ( . . للمؤمنين الصادقين الذين قدموا فى دنياهم الأعمال الصالحة ، المنزلة : الحسني ، والمثوبة الحسنى وهى الجنة ، ولهم زيادة على ذلك التفضل من الله - تعالى - عليهم بالنظر إلى وجهه الكريم .وتفسير الزيادة بالنظر إلى وجهه الكريم ، مأثور عن جمع من الصحابة منهم أبو بكر ، وعلي بن أبي طالب ، وابن مسعود ، وأبو موسى الأشعري وغيرهم - رضي الله عنهم .ومستندهم فى ذلك الأحاديث النبوية التى وردت فى هذا الشأن والتى منها ما أخرجه مسلم فى صحيحه عن صهيب - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : تلا " : هذه الآية ( لِّلّذِينَ أَحْسَنُواْ الحسنى وَزِيَادَةٌ . . . ) .وقال إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، نادى مناد : يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعدا . يريد أن ينجزكموه فيقولون : ما هو؟ ألم يثقل موازيننا؟ ألم يبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويزحزحنا عن النار؟ قال : فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه ، فوالله ما أعطاهم الله شيئا أحب إليهم من النظر إليه ، ولا أقر لأعينهم " .وذكر بعضهم أن المراد بالزيادة هنا : " مضاعفة الحسنات بعشر أمثالها أو أكثر أو مغفرته - سبحانه - ما فرط منهم فى الدنيا ورضوانه عليهم فى الآخرة " .والحق أن التفسير الوادر عن الصحابة ، . والمؤيد بما جاء فى الأحاديث النبوية هو الواجب الاتباع ، ولا يصح العدول عنه . ولا مانع من أن يمن الله عليهم بما يمن من مضاعفة الحسنات ومن المغفرة والرضوان ، بعد نظرهم إلى وجهه الكريم ، أو قبل ذلك .ولذا قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : قوله : ( وزيادة ) هى تضعيف ثواب الأعمال . وأفضل من ذلك النظر إلى وجهه الكريم . فإنه زيادة أعظم من جميع ما يعطوه .. وقد روى تفسير الزيادة بالنظر إلى وجهة الكريم عن جمع من السلف والخلف ، وقد وردت أحاديث كثيرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - فى ذلك ، ومنها ما - رواه ابن جرير عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله يبعث يوم القيامة مناديا ينادي يا أهل الجنة - بصوت يسمعه أولهم وآخرهم - إن الله وعدكم الحسنى وزيادة . فالحسنى الجنة ، والزيادة النظر إلى وجه الرحمن عز وجل " .وعن أبي بن كعب أنه سأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن قول الله - تعالى - ( لِّلّذِينَ أَحْسَنُواْ الحسنى وَزِيَادَةٌ ) قال : " الحسنى الجنة والزيادة النظر إلى وجه الله - تعالى - والمقصود بقوله : ( وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلّةٌ ). " الإخبار عن خلوص نعيمهم من كل ما يكدر الصفو ، إثر بيان ما أعطاهم من رضوان .وقوله : ( يرهق ) من الرهق بمعى الغشيان والتغطية . يقال : رهقه يرهقه رهقا - من باب طرب - أي غشية وغطاه بسرعة .والقتر والقترة : الغبار والدخان الذى فيه سواد والذلة : الهوان والصغار . يقال : ذل فلان يذل ذل وذلا ، إذا أصابه الصغار والحقارة .أى : ولا يغطي وجوههم يوم القيامة شيء مما يغطي وجوه الكفار ، من السواد والهوان والصغار .وهذه الجملة بما اشتملت عليه من المعاني ، توحى بأن فى يوم القيامة من الزحام والأهوال والكروب . ما يجعل آثار الحزن أو الفرح ظاهرة على الوجوه والمشاعر ، فهناك وجوه ) عَلَيْهَا غَبَرَةٌ . تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ) وهناك وجوه ( نّاضِرَةٌ . إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ) وقوله : ( أولئك أَصْحَابُ الجنة هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ) تذييل قصد به تأكيد مدحهم ومسرتهم .أى : أولئك المتصفون بتلك الصفات الكريمة أهم أصحاب دار السلام ، وهم خالدون فيها خلودا أبديا ، لا خوف معه ولا زوال .

والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم

كانما اغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما اولئك اصحاب النار هم فيها خالدون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - مصير الظالمين ، بعد أن بين حسن عاقبة المحسنين ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حى عن بينة فقال - تعالى - : ( والذين كَسَبُواْ السيئات جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مّا لَهُمْ مِّنَ الله مِنْ عَاصِمٍ كَأَنّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِّنَ الليل مُظْلِماً ) .أى : إذا كان جزاء الذين أحسنوا الحسنى وزيادة ، فإن جزاء الذين اجترحوا السيئات ، واقترفوا الموبقات ، سيئات مثل السيئات التي ارتكبوها كما قال - تعالى - ( وَجَزَآءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ) والمقصود أنهم كما كسبوا السيئات فى الدنيا ، فإن الله - تعالى - يجازيهم عليها فى الآخرة بما يستحقون من عذاب ومصير سيئ .وقوله : ( وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ) أى : وتغشاهم وتغطيهم ذلة عظيمة ومهانة شديدة ، وفى إسناد الرهق إلى أنفسهم دون وجوههم ، إيذان بأنها محيطة بهم من كل جانب .وقوله : ( مَّا لَهُمْ مِّنَ الله مِنْ عَاصِمٍ ) أى : ليس لهم أحد يعصمهم أو يجيرهم أو يشفع لهم ، بحيث ينجون من عذاب الله - تعالى - .وقوله : ( كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِّنَ الليل مُظْلِماً ) تصوير بديع للظلام الحسي والمعنوى الذى يبدو على وجوه هؤلاء الظالمين .أى : كأنما ألبست وجوههم قطعا من الليل المظلم ، والسواد الحالك حتى سارت شديدة السود واضحة الكدرة والظلمة .وقوله : ( أولئك أَصْحَابُ النار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ) بيان لسوء عاقبتهم ، وتعاسة أحوالهم .أى : أولئك المتصفون بتلك الصفات الذميمة ، أصحاب النار هم فيها خالدون خلودا أبديا لا نهاية له .وهكذا نرى فى هذه الآيات الكريمة تصويرا بديعا لما عليه المؤمنون الصادقون من صفات حسنة ، ومن جزاء كريم ، يتجلى فى رفع درجاتهم ، وفى رضا الله - تعالى عنهم : كما نرى فيها - أيضا - وصفا معجزا لأحوال الخارجين عن طاعته؛ ووصفا للمصير المؤلم ، الذى ينتظرهم يوم القيامة ، ( يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً والأمر يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ )

ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين اشركوا مكانكم انتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم وقال شركاؤهم ما كنتم ايانا تعبدون

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - جانبا من الأقوال التى تدور بين المشركين وبين شركائهم يوم القيامة ، فقال - تعالى - :( وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمّ نَقُولُ لِلّذِينَ . . . ) .قوله ( نَحْشُرُهُمْ ) أي نجمعهم يوم القيامة للحساب ، يقال : حشر القائد جنده ، إذا جمعهم للحرب أو لأمر من الأمور .ويوم ظرف زمان منصوب بفعل مقدر والمعنى : واذكر أيها الرسول الكريم أو أيها الإنسان العاقل ، يوم نجمع الناس كافة ، لنحاسبهم على أعمالهم فى الدنيا .( ثُمّ نَقُولُ لِلّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُم ) أي : ثم نقول لمشركين منهم فى هذا اليوم العصيب ، الزموا مكانكم أنتم وشركاؤكم فلا تبرحوه حتى يقضى الله قضاؤه ، فيكم ، فقوله : ( مكانكم ) ظرف مكان منصوب بفعل مقدر ، وقوله ( أنتم ) معطوف على ضمير الفعل المقدر ، وقوله ( وَشُرَكَآؤُكُمْ ) تأكيد له . أى قفوا مكانكم أنتم وشركاؤكم .وجاء العطف بثم ، للإشارة إلى أن بين حشرهم وبين ما يقال لهم ، مواقف أخرى فيها من الأهوال ما فيها ، فثم هنا للتراخي النسبي .وقال - سبحانه - ( مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ) مع أن المشركين كانوا يعتبرون معبوداتهم شركاء الله - من باب التهكم بهم . وللإشارة إلى أن ما عبدوهنم لم يكونوا فى يوم من الأيام شركاء لله ، وإنما المشركون هم الذين وصفوهم بذلك افتراء وكذاب .وجاء وصفهم - بالشرك فى حيز الصلة ، للإيذان بأنه أكبر جناياتهم؛ وأن شركهم بالله - تعالى - هو الذى أدى بهم إلى هذا المصير المؤلم .وقوله : ( فَزَيّلْنَا بَيْنَهُمْ ) أى : ففرقنا بينهم ، وقطعنا ما بينهم من صلات ، وميزنا بعضهم عن بعض كما يميز بين الخصوم عند التقاضى والمساءلة .وزيلنا : من التزييل ، بمعنى التمييز والتفريق ، يقال : زيلت الشيء أزيله إذا نحيته وأبعدته ومنه قوله - تعالى - : ( لَوْ تَزَيّلُواْ لَعَذّبْنَا الذين كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ) أى : لو تميزوا وتفرقوا .وعبر بالفاء للدلالة على أن هذا التفريق والتمييز قد حدث عقب الخطاب من غير مهلة وجاء الأسلوب بصيغة الماضى مع أن هذا التذييل سيكون فى الآخرة ، للإيذان بتحقيق الوقوع وإلى زيادة التوبيخ والتحسير لهم .وقوله : ( وَقَالَ شُرَكَآؤُهُمْ مّا كُنتُمْ إِيّانَا تَعْبُدُونَ ) معطوف على ما قبله .والمراد بالشركاء؛ كل ما عبد من دون الله من إنس وجن وأوثان وغير ذلك .أى : وقال شركاؤهم الذين أشركوهم فى العبادة مع الله - تعالى - : إنكم إيها المشركون لم تكونوا لنا عابدين فى الدنيا ، وإنما كنتم تعبدون أشياء أخرى زينها الشيطان لكم؛ فانقذتم له بدون تدبر أو تعقل .والمقصود بقولهم هذا - التبري من المشركين ، وتوبيخهم على أفكارهم الفاسدة .

فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم ان كنا عن عبادتكم لغافلين

كما فسرها الوسيط وقوله : ( فكفى بالله شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ) تأكيد لهذا التبري والإنكار ورجوع إلى الشهادة الحق فى ذلك .و ( إن ) فى قوله ( إِن كُنَّا ) مخففة ، من الثقيلة . . أى : فكفى أن يكون الله - تعالى - شهيدا وحكما بيننا وبينكم فهو - سبحانه - يعلم حالنا وحالكم ، ويعلم أننا كنا فى غفلة عن عبادتكم ، لنا ، بحيث إننا ما فكرنا فيها ولا رضينا بها .

هنالك تبلو كل نفس ما اسلفت وردوا الى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات الكريمة ببيان أحوال الناس فى هذا اليوم العظيم فقال : ( هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وردوا إِلَى الله مَوْلاَهُمُ الحق وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ) .أى : هنالك فى ذلك الموقف الهائل الشديد ، تختبر كل نفس مؤمنة أو كافرة : ما سلف منها من أعمال ، فترى ما كان نافعاً أو ضاراً من هذه الأعمال ، وترى الجزاء المناسب عن كل عمل بعد أن عاد الجميع إلى الله مولاهم الحق ، ليقضي بينهم بقضائه العادل ، وقد غاب عن المشركني فى هذا الموقف ما كانوا يفترونه من أن هناك آلهة أخرى ستشفع لهم يوم القيامة .وهكذا نرى الآيات الكريمة تصور أحوال الناس يوم الدين تصويرا بليغا مؤثرا ، يتلجى فيه موقف الشركاء من عابديهم ، وموقف كل إنسان من عمله الذى أسلفه فى الدنيا .

قل من يرزقكم من السماء والارض امن يملك السمع والابصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الامر فسيقولون الله فقل افلا تتقون

كما فسرها الوسيط وبعد هذا الحديث المعجز عن الحشر وأهواله ، ساقت السورة الكريمة بضع آيات فيها الأدلة المقنعة على وحدانية الله وقدرته ، ولكن بأسلوب السؤال والجواب ، فقال - تعالى - :( قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السمآء . . . )المعنى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين : من الذى يرزقكم من السماء بالأمطار وما يتولد عنها ، ومن الأرض وما يخرج منها من نباتات وأشجار ، وغير ذلك مما تخرجه الأرض .وقوله : ( أَمَّن يَمْلِكُ السمع والأبصار ) أى : بل قل لهم - أيضا - من الذى يملك ما تتمتعون به من سمع وبصر ، ومن الذى يستطيع خلقهما وتسويتهما بالطريقة التي أوجدها - سبحانه - ، وخص هاتين الحاستين بالذكر ، لأن لهما أعظم الأثر فى حياة الإنسان. - ولأنهما قد اشتملتا فى تركيبهما على ما بهر العقول ، ويشهد بقدرته تعالى - وعجيب صنعه فى خلقه .و ( أم ) هنا منقطعة بمعنى بل ، وهى هنا للإضراب الانتالي لا الإبطالي ، وفى o تنبيه على كفاية هذا الاستفهام فى الدلالة على المقصود ، وهو إثبات قدرة الله - تعالى - ووجوب إخلاص العبادة له .وقوله : ( وَمَن يُخْرِجُ الحي مِنَ الميت وَيُخْرِجُ الميت مِنَ الحي - دليل ثالث على قدرة الله ووحدانيته .أى : وقيل لهم كذلك من سوى الله ( تعالى - يملك خراج النبات وهو كائن حي من الأرض الميتة ، وإخراج الإنسان : وهو كائن حى من النطفة وبالعكس ، وإخراج الطير من البيضة وبالعكس .وقوله ( وَمَن يُدَبِّرُ الأمر ) دليل رابع على قدرة الله ووحدانيته أى : وقل لهم - أيضاً - من الذى يتولى تدبير أمر هذا الكون من إحياء وأماتة ، وصحة ومرض ، وغني وفقر ، وليل ونهار ، وشمس وقمر ونجوم . . .هذه الجملة الكريمة ) : من باب التعميم بعد التخصيص ، لأن كل ما سبق من نعم يندرج فيها .وقوله ( فَسَيَقُولُونَ الله ) حكاية للجواب الذى لا يستطيعون إنكاره ، لأنهم مقرون معترفون بأن الله - تعالى - وهو الذى خلقهم ، وهو الذى يدبر أمرهم ، وإنما كانوا يتخذون الشركاء للزلفي ، كما حكى القرآن عنهم فى قوله : ( وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ الله . . ) وفي قوله - سبحانه - . . حكاية عنهم ( مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى الله زلفى . ولفظ الجلالة مبتدأ ، والخبر محذوف والتقدير : فسيقولون الله وحده هو ( . - الذى فعل كل ذلك .وقوله : ( فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ) أمر من الله تعالى - لرسوله - صلى الله عليه وسلم - بأن يرد عيلهم بهذا الرد .والهمزة لإنكار واقعهم الذميم ، وهى داخلة على كلام مقدر ، ومفعول تتقون محذوف .أى أتعلمون وتعترفون بأن الله - تعالى - هو الخالق لكل ما سبق ، ومع ذلك : تشركون معه آلهة فى العبادة ، دون أن تتقوا عذابه يوم القيامة؟إن مسلكك هذا إنما يدل على ضعف فى التفكير ، وانطماس فى العقول ، وجهالة ليس بعدها جهالة .

فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق الا الضلال فانى تصرفون

كما فسرها الوسيط ثم أرشدهم - سبحانه - إلى الطريق القويم لو كانوا يعقلون فقال : ( فَذَلِكُمُ الله رَبُّكُمُ الحق .. . )أى : فذلكم الذى فعل ما فعل من رزقكم ومن تدبير أمركم ، هو الله المربي لكم بنعمه ، وهو الذى لا تحق العبودية والألوهية إلا له وحده .إذا كان الأمر كذلك ( فَمَاذَا بَعْدَ الحق إلاَّ الضلال ) أي لا يوجد غير الحق شيء يتبع سوى الضلال ، فمن ترك الحق وهو عبادة الله وحده ، فقد وقع فى الباطل والضلال وهو عبادة غيره من الآلهة الأخرى .قال القرطبي : " ثبت عن عائشة - رضي الله عنها - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل قال : " اللهم لك الحمد " الحديث ، وفى ه : أنت الحق ، ووعدك الحق ، وقولك الحق ، ولقاؤك الحق ، والجنة حق والنار حق ، والنبيون حق ، ومحمد حق . . . " .فقوله : أنت الحق ، أي الواجب الوجود ، وأصله من حق الشيء إذا ثبت ووجب - وهذا الوصف لله - تعالى - بالحقيقة ، إذ وجوده بنفسه لم يسبقه عدم ولا يلحقه عدم ، وما عداه مما يقال عليه هذا الاسم مسبوق بعدم ، ويجوز عليه لحاق العدم ، ووجوده من موجده لا من نفسه .ومقابلة الحق بالضلال عرف لغة وشرعاً كما فى هذه الآية . . والضلال حقيقته الذهاب عن الحق مأخذو من ضلال الطريق ، وهو ) : العدول عن سمته ، يقال : " ضل الطريق وأضل الشيء إذا أضاعه . . "وقوله فأنى تُصْرَفُونَ ) أى : فكيف تصرفون وتتحولون عن الحق إلى الضلال ، بعد اعترافكم وإقراركم بأن خالقكم ورازقكم ومدبر أمركم هو الله - تعالى - وحده فأني هنا بمعنى كيف ، والاستفهام لإنكار واقعهم المخزي واستبعاده والتعجب. ، منه .ومن الأحكام التي تؤخذ من هذه الآية الكريمة : أن الحق والباطل والهدى والضلال ، نقيضان لا يجتمعان ، لأن النقيضين يمتنع أن يكونا حقين وأن يكونا باطلين فى وقت واحد متى ثبت أن أحدهما هو الحق ، وجب أن يكون الآخر هو الباطل .

كذلك حقت كلمت ربك على الذين فسقوا انهم لا يؤمنون

، كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - سنة من سننه التي لا تتخلف ولا تتبدل فقال - تعالى - :( كَذَلِكَ حَقّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الذين فسقوا أَنّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ) .والكاف للتشبيه بمعنى مثل . وحقت بمعنى وجبت وثبتت .والمراد بالكلمة هنا : حكمه وقضاؤه - سبحانه - .والمعنى : مثل ما ، ثبت أن الله - تعالى - هو الرب الحق ، وأنه ليس بعد الحق إلا الضلال ، ثبت - أيضا - الحكم والقضاء منه - سبحانه - على الذين فسقوا عن أمره وعموا وصموا عن الحق ، أنهم لا يؤمنون به ، لأنهم إن يروا سبيل الرشد لا : يتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا .فالمراد بالفسق هنا التمرد فى الكفر ، والسير فيه إلى أقصى حدوده .

قل هل من شركائكم من يبدا الخلق ثم يعيده قل الله يبدا الخلق ثم يعيده فانى تؤفكون

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - أنواعا أخرى من الأدلة على وحدانية الله - تعالى وقدرته . فقال :( قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُمْ مّن يَبْدَأُ أى : قل يا محمد لهؤلاء الغافلين عن الحق : هل من شركائكم الذين( . . . عبدتموهم من دون الله ، أو أشركتموهم مع الله ، من له القدرة على أن يبدأ ، خلق الإنسان من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة . . . ثم ينشئه خلقا آخر ثم يعيده إلى الحياة مرى أخرى بعد موته؟قل لهم يا محمد الله وحده هو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ، أما شركاؤكم فهم أعجز من أن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له . . .وإذا كان الأمر كذلك من الوضوح والظهور ( فأنى تُؤْفَكُونَ والإفك الصرف والقلب عن الشيء . يقال : أفكه عن الشيء يأفكه أفكا ، إذا ( ، قلبه عنه وصرفه .أي فكيف ساغ لكم أن تصرفوا عقولكم عن عبادة الإله الحق إلى عبادة أصنام لا تنفع ولا تضر؟!وجاءت جملة ( قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُمْ . . . ) بدون حرف العطف على ما قبلها للإيذان باستقلالها فى الحصول المطلوب ، وإثبات المقصود .وساق - سبحانه - الأدلة بأسلوب السؤال ، والاستفهام ، لأن الكلام إذا كان واضحا جليا ثم ذكر على سبيل الاستفهام - وتفويض الجواب إلى المسئول كان ذلك أبلغ وأوقع فى القلب .وجعل - سبحانه إعادة المخلوقات بعد موتها حجة عليهم فى التدليل على قدرته مع عدم اعترافهم بها ، للإيذان بسطوع أدلتها ، لأن القادر على البدء يكون أقدر على الإعادة كما قال - تعالى - ( وَهُوَ الذي يَبْدَأُ الخلق ثُمّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ . . ) فلما كان إنكارهم لهذه الحقيقة الواضحة من باب العناد أو المكابرة ، نزل إنكارهم لها منزلة العدم .وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : " فإن قلت : كيف قيل لهم هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهم غير معترفين بالإعادة؟قلت : قد وضعت إعادة الخلق لظهور برهانها موضع ما إن دفعه دافع كان مكابرا رادا الظاهر البين الذى لا مدخل للشبهة فيه ، ودلالة على أهم فى إنكارهم لها منكرون أمرا مسلما معترفا بصحته عند العقلاء . " وقال لنبيه - صلى الله عليه وسلم - ( قُلِ الله

يَبْدَأُ الخلق ثُمّ يُعِيدُهُ ) فأمره بأن ينوب عنهم فى الجواب . يعني
" . . أنه لا يدعهم لجاجهم ومكابرتهم أن ينطقوا بكلمة الحق فتكلم أنت عنهم

قل هل من شركائكم من يهدي الى الحق قل الله يهدي للحق افمن يهدي الى الحق
احق ان يتبع امن لا يهدي الا ان يهدى فما لكم كيف تحكمون

كما فسرها الوسيط وقوله : ( قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُمْ مَّن يهدي إِلَى
الحق قُلِ الله يَهْدِي لِلْحَقّ ) . حجة أخرى تدمغ جهلهم ، جيء بها لتكون
- دليلا على قدرة الله على الهداية والإضلال ، عقب إقامة الأدلة على قدرته
سبحانه - على بدء الخلق وإعادتهم .أى : قل لهم يا محمد - أيضا - على سبيل
، التهم من أفكارهم : هل من شركائكم من يستطيع أن يهدي غيره إلى الدين الحق
فينزل كتابا ، أو يرسل رسولا ، أو يشرع شريعة ، أو يضع نظاما دقيقا لهذا
. . . الكون .أو يحث العقول على التدبر والتفكر فى ملكوت السموات والأرض
؟قل لهم يا محمد : الله وحده هو الذى يعفل كل ذلك ، أما شركاؤكم فلا
يستطيعون أن يفعلوا شيئا من ذلك أو من غيره .وقوله : ( أَفَمَن يهدي إِلَى
الحق أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يهدي . . . ) توبيخ آخرلهم على
جهالاتهم وغفلتهم عن إدراك الأمور الواضحة .أى : قل لهم يا محمد : أفمن
يهدي غيره إلى الحق وهو الله - تعالى - . أحق أن يتبع فيما يأمر به وينهى
عنه ، أم من لا يستطيع أت يهتدي بنفسه إلا أن يهديه غيره أحق بالاتباع؟ لا
شك أن الذى يهدي غيره إلى الحق أحق بالاتباع من الذى هو فى حاجة إلى أن
يهديه غيره .وقوله : ( فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ) استفهام قصد به
، التعجيب من أحوالهم التي تدعو إلى الدهشة والغرابة .أى : ما الذى وقع لكم
وما الذى أصابكم فى عقولكم حتى صرتم تشركون فى العبادة مع الله الخالق
الهادي ، مخلوقات لا تهدي بنفسها وإنما هى فى حاجة إلى من يخلقها ويهديها
قال الإمام الرازي : " واعلم أن الاستدلال على وجود الصانع بالخلق أولا.
ثم بالهداية ثانيا ، عادة مطردة فى القرآن ، فقد حكى - سبحانه - عن إبراهيم
أنه ذكر ذلك فقال : ( الذي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ) وعن موسى أنه قال
وأمر محمدا - صلى ( رَبُّنَا الذي أعطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هدى ) :
الله عليه وسلم - بذلك فقال : ( سَبِّحِ اسم رَبِّكَ الأعلى . الذي خَلَقَ
فسوى . والذي قَدَّرَ فهدى ) وهو فى الحقيقة دليل شريف ، لأن الإنسان له
، جسد وله روح ، فالاستدلال على وجود الصانع بأحوال الجسد هو الخلق
والاستدلال بأحوال الروح هوالهداية ، فها هنا أيضا لما ذكر دليل الخلق فى
الآية الأولى وهو قوله : ( مّن يَبْدَأُ الخلق ثُمّ يُعِيدُهُ ) أتبعه
بدليل الهداية فى هذه الآية .وقوله : ( أَمَّن لاَّ يهدي ) ورد فيه ست
قراءات ، منها قراءة يعقوب وحفص بكسر الهاء وتشديد الدال ، ومنها قراءة
حمزة والكسائي بالتخفيف كيرمي ، ومنها قراءة ابن كثير وابن عامر وورش عن
) : نافع " يهدي " فتح الياء والهاء وتشديد الدال . .والاستثناء فى قوله
أَمَّن لاَّ يهدي إِلاَّ أن يهدى ) مفرغ من أعم الأحوال .والتقدير : أفمن
يهدي إلى الحق أحق بالاتباع ، أم من لا يستطعي الهداية إلا أن يهديه إليها
غيره أحق بالاتباع؟وجاء قوله - سبحانه - ( فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ
باستفهامين متواليين ، زيادة فى توبيخهم وتقريعهم ، ولفت أنظارهم إلى (
. الحق الواضح الذى لا يخفى على كل ذي عقل سليم

وما يتبع اكثرهم الا ظنا ان الظن لا يغني من الحق شيئا ان الله عليم بما
يفعلون

. كما فسرها الوسيط وقوله : ( وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنّاً
توبيخ آخر لهم على انقيادهم للأوهام والظنون ، وتسلية للرسول - صلى ( . .
الله عليه وسلم - عما أصابه منهم من إساءات .أى : إن هؤلاء الذين أعرضوا عن
دعوتك يا محمد ، لا يتبعون فى عقائدهم وعبادتهم لغير خالقهم سوى الظنون
والأوهام التي ورثها الأبناء عن الآباء .وخص أكثرهم بالذكر ، لأن هناك قلة
منهم يعرفون الحق كما يعرفون أبناءهم ، ولكنهم لا يتبعونه عنادا وجحودا
وحسدا ، كما قال - تعالى - ( فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ ولكن الظالمين
، بِآيَاتِ الله يَجْحَدُونَ ) ويجوز أن يكون - سبحانه - خص أكثرهم بالذكر
للإشارة إلى أن هناك قلة منهم تعرف الحق ، وستتبعه فى الوقت الذى يريده
الله - تعالى .والتنكير فى قوله ( ظنا ) للتنويع ، أي لا يتبع أكثرهم إلا
نوعا من الظن الواهي الذى لا يستند إلى دليل أو برهان .وقوله : ( إِنّ
الظن لاَ يُغْنِي مِنَ الحق شَيْئاً ) استئناف مسوق لبيان شأن الظن وبطلانه
والمراد بالظن هنا : ما يخالف العلم واليقين ، والمراد بالحق : العلم.
والاعتقاد الصحيح المطابق للواقع .أى : إن الظن الفاسد المبنى على الأوهام
لا يغني صاحبه شيئا من الإغناء ، عن الحق الثابت الذى لاريب فى ثبوته
وصحته .وقوله ( شيئا ) مفعول مطلق أى :لا يغني شيئا من الإغناء ، ويجوز
أن يكون مفعولا به على جعل يغني بمعنى يدفع .وقوله : ( إِنّ الله عَلِيمٌ
- بِمَا يَفْعَلُونَ ) تذييل قصد به التهديد والوعيد .أى : إن الله - تعالى

عليم بأقوالهم وأفعالهم ، وسيحاسبهم عليها يوم القيامة ، وسينالهون ما يستحقونه من عقاب بسبب أقوالهم الباطلة . وأفعالهم الفاسدة .قال صاحب المنار ما ملخصه : " استدل العلماء بهذه الآية على أن العلم اليقيني واجب فى الاعتقاديات ، ويدخل فى الاعتقاديات الإيمان بأركان الإسلام وغيرها من الفرائض والواجبات القطعية ، والإيمان بتحريم المحظورات القطعية كذلك . . أما ما دون العلم اليقيني مما لا يفيد إلا الظن فلا يؤخذ به فى الاعتقاد. ، وهو متروك للاجتهاد فى الأعمال ، كاجتهاد الأفراد فى الأعمال الشخصية واجتهاد أولى الأمر فى الإدارة والسياسة ، مع التقيد بالشورى وتحري العدل . وبعد أن ساقت السورة الكريمة ألوانا من البراهين الدالة على وحدانية الله - تعالى - ، وعلى صدق الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيما يبلغه عن ربه ، وعلى أن هذا القرآن من عند الله تعالى ، عادت السورة الكريمة إلى الحديث عن القرآن الكريم ، فتحدت أعداءه أن يأتوا بسورة مثله ، ووصفتهم بالجهالة وسفاهة الرأي ، وصورت أحوالهم ومواقفهم من دعوة الحق تصويرا بليغا .

وما كان هذا القران ان يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين

): كما فسرها الوسيط استمع إلي السورة الكريمة وهى تتحدث عن كل ذلك فتقول وَمَا كَانَ هذا القرآن أن . . . )قال الإمام ابن كثير " هذا بيان لإعجاز القرآن ، وأنه لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله ، ولا بعشر سور ولا بسورة من مثله؛ لأنه بفصاحته وبلاغته ووجازته وحلاوته واشتماله على المعاني الغزيرة النافعة فى الدنيا والآخرة ، لا يكون إلا من عند الله - تعالى - ، الذى لا يشبهه شيء فى ذاته ولا فى صفاته ، ولا فى أفعاله ولا فى أقواله فكلامه لا يشبه كلام المخلوقين ، ولهذا قال - تعالى - : ( وَمَا كَانَ هذا القرآن أَن يفترى مِن دُونِ الله ) .والنفي هنا للشأن الذى هو أبلغ فى النفى ، وأعمق فى الدلالة على أن هذا القرآن من عند الله ، من نفى الشيء فى ذاته مباشرة .أى : وليس من شأن هذا القرآن المعجز ، أن يخترعه أو يختلفه أحد من الإنس أو الجن أو غيرهما؛ لأن ما اشتمل عليه من إعجاز وبلاغه وتشريعات حكيمة ، وآداب قويمة ، وهدايات جامعة . . . يشهد بأنه من كلام خالق القوى والقدر .وقوله : ( ولكن تَصْدِيقَ الذي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الكتاب ) بيان لكمال هداية القرآن الكريم ، وهيمنته على الكتب السماوية السابقة .والمراد بالذي بين يديه : الكتب السابقة على القرآن كالتوراة والإنجيل والزبور .وقوله ( بَيْنَ يَدَيْهِ ) فيه نوع مجاز؛ لأن ما بين يدى الشيء يكون أمامه ، فوصف - سبحانه - ما مضى من الكتب بأنها بين يدى القرآن لشدة ظهورها واشتهارها ، ومعنى تصديق القرآن للكتب السابقة : تأييده لما اشتملت عليه من دعوة إلى وحدانية الله - تعالى - ، ومن أمر باتباع الرسول - صلى الله عليه وسلم - عند ظهوره .وأل فى ( الكتاب ) للجنس فالمراد به جنس الكتب السماوية التي أنزلها - سبحانه - على بعض أنبيائه ، والمعنى : ليس من شأن هذا الكتاب فى إعجازه وهدايته أن يكون من عند غير الله ، لأن غيره - سبحانه - لا يقدر على ذلك ، ولكن من شأنه أن يكون مؤيداً للكتب السماوية السابقة فيما دعت إليه من إخلاص العبودية لله - تعالى - ومن اتباع لرسله ، وأن يكون مفصلا وموضحا لما اشتملت عليه هذه الكتب من تشريعات وآداب وأحكام .وقوله ( تصديق ) منصوب على أنه معطوف على خبير كان ، أو على أنه خبر لكان المقدرة أى : ولكن كان تصديق .وقوله ( لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ العالمين ) بيان لمصدره .أى : هذا الكتاب لا ريب ولا شك فى كونه منزلا على رسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - من الله - تعالى - رب العالمين .وفصلت جملة ( لاَ رَيْبَ فِيهِ ) عما قبلها لأنها مؤكدة له ، ومقررة لمضمونه .ونفى - سبحانه - عن القرآن الريب على سبيل الاستغراق : مع وقوع الريب فيه من المشركين ، حيث وصفوه بأنه أساطير الأولين ، لأنه لروعة بيانه ، وسطوع حجته ، ووضوح دلائله ، لا يرتاب ذو عقل متدبر فى كونه وحيا سماوياً ، ومصدر هداية وإصلاح فجملة ( لاَ رَيْبَ فِيهِ ) تنفي الريب فى القرآن عمن شأنهم أن يتدبروه ، ويقبلوا على النظر فيه بروية ومن ارتاب فيه . فلأنه لم يقبل عليه بأذن واعية ، أو بصيرة نافذة أو قلب سليم

ام يقولون افتراه قل فاتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه ( أَمْ يَقُولُونَ افتراه ) انتقال من بيان كون القرآن من عند الله ، إلى بيان مزاعمهم فيه .وأم هنا منقطعة بمعنى بل والهمزة للاستفهام ، أى : بل أيقولون إن محمداً - صلى الله عليه وسلم - هو الذى أتى بهذا القرآن من عند نفسه لا من عند الله .وقوله ( قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وادعوا مَنِ استطعتم مِّن دُونِ الله ) أمر من الله - تعالى - لنبيه - صلى الله عليه وسلم - بأن يرد عليهم بما يكبتهم

ويخرس ألسنتهم .أى : قل لهم : يا محمد على سبيل التبكيت والتحدي : إن كان الأمر كما زعمتم من أنى أنا الذى اختلقت هذا القرآن ، فأتوا أنتم يا فصحاء العرب بسورة مثل سورة فى البلاغة والهداية وقوة التأثير ، وقد أبحت لكم مع ذلك أن تدعو لمعاونتكم ومساعدتكم فى بلوغ غايتكم كل من تستطيعون دعوته سوى الله - تعالى - وجاءت كلمة " سورة " منكرة ، للإشارة إلى أنه لا يطالبهم بسورة معينة ، وإنما أباح لهم أن يأتوا بأية سورة من مثل سور القرآن ، حتى ولو كانت كأصغر سورة منه .والضمير فى ( مثله ) يعود إلى القرآن الكريم ، والمراد بمثله هنا : ما يشابهه فى حسن النظم ، وجمال الأسلوب ، وسداد المعنى ، وقوة التأثير .وقوله : ( وادعوا ) من الدعاء ، والمراد به هنا : طلب حضور المدعو أي نادوهم .وكلمة ( من ) فى قوله ( مَنِ استطعتم ) تشمل آلهتهم وبلغاءهم وشعراءهم وكل من يتوسمون فيه العون والمساعَدة .وكلمة ( دون - هنا بمعنى غير أى : ادعوا لمساعدتكم كل من تستطيعون دعوته غير الله ( تعالى - فإنه وحده القادر على أن يأتي بمثله .وقوله : ( إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ) جملة شرطية ، وجوابها محذوف لدلالة الكلام السابق عليه ، أى : كنم صادقين فى دعواكم أني افتريت هذا القرآن ، فهاتوا سورة مثله مفتراة ، فإنكم مثلي في العربية والفصاحة .فأنت ترى أن الآية الكريمة قد تحدتهم وأثارت حماستهم ، وأرخت لهم الحبل ، وعرضت بعدم صدقهم ، حتى تتوافر دواعيهم على المعارضة التي زعموا أنهم أهل لها .قال الآلوسى : " هذه الآية الدالة على إعجاز القرآن ، لأنه - صلى الله عليه وسلم - تحدي مصاقع العرب بسورة ما منه ، فلم يأتوا بذلك ، وإلا فلو أتوا بذلك لنقل إلينا ، لتوفر الدواعي على نقله " .هذا وقد عقد صاحب الظلال فصلا طويلا للحديث عن إعجاز القرآن فقال : " وقد ثبت هذا التحدى ، وثبت العجز عنه ، وما يزال ثابتاً ولن يزال ، والذين يدركون بلاغة هذه اللغة ، ويتذوقون الجمال الفنى والتناسق فيها يدركون أن هذا النسق من القول لا يستطيعه إنسان وكذلك الذين يدرسون النظم الاجتماعية ، والأصول التشريعية ، ويدرسون النظام الذى جاء به هذا القرآن ، يدركون أن النظرة فيه إلى تنظيم الحاجة الإنسانية ومقتضيات حياتها من جميع جوانبها ، والفرص المدخرة فيه لمواجهة الأطوار والتقلبات فى يسر ومرونة كل أولئك أكبر من أن يحيط به عقل بشرى واحد ، أو مجموعة من العقول فى جيل واحد أو فى جميع الأجيال ، ومثلهم الذين يدرسون النفس الإنسانية ووسائل الوصول إلى التأثير فيها وتوجيهها ، ثم يدرسون وسائل القرآن وأساليبه .فليس هو إعجاز اللفظ والتعبير وأسلوب الأداء وحده ، ولكنه الإعجاز المطلق الذى يلمسه الخبراء فى هذا وفى النظم والتشريعات والتقسيمات وما إليها . . . "

بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما ياتهم تاويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين

، كما فسرها الوسيط ثم انتقلت السورة الكريمة من توبيخهم على كذبهم وجحودهم إلى توبيخهم على جهلهم وغباوتهم فقال - تعالى - : ( بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ . . . ) .أى : أن هؤلاء الأشقياء لم يكتفوا بما قالوه فى شأن القرآن الكريم من أقاويل فاسدة ، بل هرولوا إلى تكذيب ما فيه من هدايات سامية ، وآداب عالية ، وأخبار صادقة ، بدون فهم أن تدبر ، وبدون انتظار لتفسير معانيه وأخباره التي لم يهتدوا إلى معرفتها بعد .قال صاحب الكشاف قوله ( بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ) أى : بل سارعوا إلى التكذيب بالقرآن قبل أن يفقهوه ويعلموا كنه أمره ، وقبل أن يتدبروه ويقفوا على تأويله ومعانيه ، وذلك لفرط نفورهم عما يخالف دينهم وشرادهم عن مفارقة دين آبائهم كالناشئ على التقليد من الحشوية ، إذا أحسن بكلمة لا توافق ما نشأ عليه وألفه ، وإن كانت أضوأ من الشمس فى ظهور الصحة وبيان الاستقامة أنكرها فى أول وهلة ، واشمأز منها قبل أن يحسن إدراكها ، بحاسة سمعه من غير فكر فى صحة أو فساد ، لأنه لم يشعر قلبه إلا صحة مذهبه وفساد ما عداه من المذاهب . .فإن قلت : فما معنى التوقع فى قوله : ( وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ) قلت : معناه أنهم كذبوه به على البديهة ، قبل التدبر ومعرفة التأويل ، تقليدا للآباء ، وكذبوه بعد التدبر تمردا وعنادا فذمهم بالتسرع إلى التكذيب قبل العلم .ويجوز أن يكون معنى ( وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ) ولم يأتهم بعد تأويلما فيه من الإخبار بالغيوب ، يعني أنه كتاب معجز من جهتين : من جهة إعجاز نظمه ، ومن جهة ما فيه من الإخبار بالغيوب ، فتسرعوا إلى التكذيب به قبل أن ينظروا فى نظمه وبلوغه حد الإعجاز ، وقبل أن يخبروا إخباره بالمغيبات وصدقه وكذبه .وقال الآلوسى : وعبر - سبحانه - بقوله : ( بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ ) دون أن يقال . بل كذبوا به من غير أن يحيطوا بعلمه أو نحوه للإيذان بكمال جهلهم به ، وأنهم لم يعلموه إلا بعنون عدم العلم به وبأن تكذيبهم به إنما هو بسبب عدم إحاطتهم بعلمه ، لما أن تعليق الحكم ، بالموصول مشعر بعلية ما فى حيز الصلة له ، وأصل الكلام بما لم يحيطوا به علما ، إلا أنه عدل منه إلى ما فى النظم الكريم لأنه أبلغ .ونفى إتيان

التأويل بكلمة ( لما ) الدالة على توقع منفيها بعد نفي الإحاطة بعلمة ، بكلمة " لم " لتأكيد الذم ، وتشديد التشنيع ، فإن الشناعة فى تكذيب الشيء ) قبل علمه المتوقع إتيانه أفحش منها فى تكذيبه قبل عمله مطلقا .وقوله كَذَلِكَ كَذَّبَ الذين مِن قَبْلِهِمْ فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظالمين ) تهديد لهم ووعيد على التمادي فى العناد .أى : كما كذب المشركون نبيهم محمدا - صلى الله عليه وسلم - عن جهل وجحود : كذب الذين من قبلهم - أنبياءهم ، كقوم نوح وعاد وثمود ، فكانت نتيجة هذا التكذيب أن أخذهم الله تعالى - أخذ غزيز مقتدر .قال - تعالى - : ( فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصيحة وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأرض وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ الله لِيَظْلِمَهُمْ ولكن كانوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ) .

ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به وربك اعلم بالمفسدين

كما فسرها الوسيط ثم فصل - سبحانه - أحوالهم ومواقفهم من القرآن الكريم فقال : ( وَمِنهُمْ مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّن لاَّ يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بالمفسدين ) .أى : ومن هؤلاء الذين بعثت إليهم يا محمد من يؤمن بهذا القرآن ، ويتبعك وينتفع بها أرسلت به ، ومنهم من لا يؤمن به أبدا لاستحبابه العمى على الهدى .وعليه يكون المراد بمن يؤمن به ، أولئك الذين وفقهم الله لاتباع الحق عن يقين وإذعان .وقيل إن المعنى : ومن قومك يا ممد أناس مؤمنون فى قرارة نفوسهم بأن هذا القرآن من عند الله ، ولكنهم يكذبونك جحودا وعنادا ومنهم من لا يؤمن به أصلا لا نطماس بصيرته ، وإيثاره الغي على الرشد .وعلى هذا التفسير يكون المراد بمن يؤمن به : أولئك الذين يعرفون الحق كما يعرفون أبناءهم ، ولكن الغرور والجهل والحسد حال بينهم وبين اتباعه .وقوله : ( وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بالمفسدين ) أى : وربك أعلم بالمفسدين فى الأرض بالشرك والظلم والفجور ، وسيحاسبهم على ذلك يوم الدين حسابا عسيرا ، ويذيقهم العذاب الذى يستحقونه ، فالمراد بالعلم هنا لازمه وهو الحساب والعقاب .

وان كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم انتم بريئون مما اعمل وانا بريء مما تعملون

كما فسرها الوسيط وقوله : ( وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بريائون مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَاْ برياء مِّمَّا تَعْمَلُونَ ) إرشاد من الله - تعالى - لنبيه - صلى الله عليه وسلم - إذا ما لج أعداؤه فى طغيانهم .أى : وإن تمادى هؤلاء الأشرار فى طغيانهم وفى تكذيبهم لك يا محمد ، فقل لهم : أنا مسئول عن عملي أمام الله ، وأنتم مسئولون عن أعمالكم أمامه - سبحانه - وأنتم بريئون مما أعمله فلا تؤاخذوني عليه ، وأنا برئ كذلك من أعمالكم فلا يؤاخذني الله عليها .فالآية الكريمة تسلية للرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من قومه . وإعلام له بأن وظيفته البلاغ ، أما حسابهم على أعمالهم فعلى الله - تعالى - .

ومنهم من يستمعون اليك افانت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون

كما فسرها الوسيط ثم صور - سبحانه - ما عليه أولئك الجاحدون من جهالات مطبقة ، وغباء مستحكم فقال - تعالى - : ( وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصم وَلَوْ كَانُواْ لاَ يَعْقِلُونَ . وَمِنهُمْ مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي العمي وَلَوْ كَانُواْ لاَ يُبْصِرُونَ ) .أي : ومن هؤلاء المشركين - يا محمد - من يستمعون إليك وأنت تقرأ عليهم القرآن وترشدهم إلى ما ينفعهم ، ولكنهم يستمعون بلا تدبر أو فهم ، فهل أنت - يا محمد - فى إمكانك أن تسمع الصم ، ولو انضم إلى صممهم عدم تعقلهم ، لأن الأصم العاقل - كما يقول صاحب الكشاف - ربما تفرس واستدل إذا وقع فى صماخه دوي الصوت ، فإذا اجتمع سلب السمع والعقل جميعا فقد تم الأمر .ومنهم - أيضا - من ينظر إليك ، ويشاهد البراهين الدالى على صدقك ، فإن وجهك ليس بوجه كذاب ، ولكنه لا يتبع دعوتك جحودا وعنادا ، فهل أنت فى إمكانك أن تهدي العمى ولو انضم إلى فقدان بصرهم فقدان بصيرتهم فأنت ترى أن هاتين الآيتين قد نعتا على المشركين جهالاتهم ، وانطماس بصيرتهم ، بحيث صاروا لا ينتفعون بنعم الله التي أنعم بها عليهم .فقد وصمهم - سبحانه - بفقدان السمع والبصر والعقل ، مع أنهم يسمعون ويبصرون ويعقلو ، لأنهم لما لم يستعملوا نعم الله فيما خلقت له ، صارت هيا والعدم سواء .والاستفهام فى الآيتين للإنكار والاستبعاد .وجواب ( لو ) فى الآيتين محذوف لدلالة ما قبله عليه ، والجملة معطوفة على جملة مقدرة مقابلة لها . أى : أفأنت تسمع الصم لو كانوا يعقلون ولو كانوا لا يعقلون ، على معنى أفأنت تستطيع إسماعهم

. فى الحالتين؟ كلا لا تستطيع ذلك وإنما القادر على ذلك هو الله وحده

ومنهم من ينظر اليك افانت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون

`<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html} كما فسرها الوسيط

ثم صور - سبحانه - ما عليه أولئك الجاحدون من جهالات مطبقة ، وغباء مستحكم
فقال - تعالى - : ( وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ
تُسْمِعُ الصم وَلَوْ كَانُوا لاَ يَعْقِلُونَ . وَمِنهُمْ مَّن يَنظُرُ
إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي العمي وَلَوْ كَانُواْ لاَ يُبْصِرُونَ ) .أى
ومن هؤلاء المشركين - يا محمد - من يستمعون إليك وأنت تقرأ عليهم القرآن :
وترشدهم إلى ما ينفعهم ، ولكنهم يستمعون بلا تدبر أو فهم ، فهل أنت - يا
محمد - فى إمكانك أن تسمع الصم ، ولو انضم إلى صممهم عدم تعقلهم ، لأن
الأصم العاقل - كما يقول صاحب الكشاف - ربما تفرس واستدل إذا وقع فى صماخه
- دوى الصوت ، فإذا اجتمع سلب السمع والعقل جميعا فقد تم الأمر .ومنهم
أيضاً - من ينظر إليك ، ويشاهد البراهين الدالى على صدقك ، فإن وجهك ليس
بوجه كذاب ، ولكنه لا يتبع دعوتك جحودا وعنادا ، فهل أنت فى إمكانك أن تهدي
العمى ولو انضم إلى فقدان بصرهم فقدان بصيرتهم فأنت ترى أن هاتين الآيتين
قد نعتا على المشركين جهالاتهم ، وانطماس بصيرتهم ، بحيث صاروا لا ينتفعون
بنعم الله التي أنعم بها عليهم .فقد وصمهم - سبحانه - بفقدان السمع والبصر
والعقل ، مع أنهم يسمعون ويبصرون ويعقلو ، لأنهم لما لم يستعملوا نعم الله
فيما خلقت له ، صارت هيا والعدم سواء .والاستفهام فى الآيتين للإنكار
والاستبعاد .وجواب ( لو ) فى الآيتين محذوف لدلالة ما قبله عليه ، والجملة
معطوفة على جملة مقدرة مقابلة لها . أى : أفأنت تسمع الصم لو كانوا يعقلون
ولو كانوا لا يعقلون ، على معنى أفأنت تستطيع إسماعهم فى الحالتين؟ كلا لا
. تستطيع ذلك وإنما القادر على ذلك هو الله وحده

ان الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس انفسهم يظلمون

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - سنة من سننه التي لا تتخلف فقال
إِنَّ الله لاَ يَظْلِمُ الناس شَيْئاً ولكن الناس أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ
، أى : إن الله - تعالى - قد اقتضت سننه فى خلقه ، أن لا يظلمهم شيئاً. (
كأن يعذبهم - مثلا - مع إيمانهم وطاعتهم له ، أو كأن ينقصهم شيئا من
الأسباب التي يهتدون باستعمالها إلى ما فيه خيرهم . . ولكن الناس هم الذين
يظلمون أنفسهم ، بإيرادها موارد المهالك عن طريق اجتراح السيئات ، واقتراف
الموبقات ، الموجبة للعقوبات فى الدنيا والآخرة .وبذلك نرى أن هذه الآية
الكريمة ، قد نفت تصور أن يكون هذا القرآن من عند غير الله ، وتحدث
المشركين أن يأتوا بسورة مثله ، ووصمتهم بالتسرع فى الحكم على شيء لم
يحيطوا بعلمه ، وأمرت النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يثبت على دعوة الحق
سواء استجاب له الناس أم لم يتسجيبوا ، وأن الله - تعالى - قد اقتضت ،
حكمته ألا يعذب الناس إلا إذا فعلوا ما يوجب العقوبة ، وصدق الله إذ يقول :
مَّا يَفْعَلُ الله بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ )
الله شَاكِراً عَلِيماً ) وبعد أن بينت السورة الكريمة أحوال أولئك
المشركين فى الدنيا ، ومواقفهم من الدعوة الإسلامية ، أتبعت ذلك بالحديث
عن أحوالهم يوم الحشر ، ومن استعجالهم للعذاب ، وعن رد الرسول - صلى الله
عليه وسلم - عليهم ، فقال - تعالى - :( وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ
. ( . . . يلبثوا إِلاَّ سَاعَةً

ويوم يحشرهم كان لم يلبثوا الا ساعة من النهار يتعارفون بينهم قد خسر الذين
كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين

كما فسرها الوسيط قوله - سبحانه - : ( وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لّمْ
يلبثوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النهار يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ) بيان
لأحوالهم السيئة عند جمعهم لحساب يوم القيامة .إذ الحشر - كما يقول
الراغب - إخراج الجماعة عن مقرهم وإزعاجهم عنه إلى الحرب ونحوها .والمراد
به هنا : إخراج الناس من قبورهم وجمعهم فى الموقف لحسابهم على أعمالهم
الدنيوية .المقصود بالساعة هنا : المدة القليلة من الزمان ، فقد جرت العادة
أن يضرب بها المثل فى الوقت القصير .والمعنى : واذكر يا أيها الرسول الكريم
وذكرهؤلاء المشركين الذين عموا وصموا عن الحق ، يوم يجمعهم الله - فى ،
. . الآخرة للحساب والعقاب ، فيشتد كربهم ، وينسون تلك الملذات والشهوات
التي استمتعوا بها فى الدنيا ، حتى لكأنهم لم يلبثوا فيها وفى قبورهم ، إلا
ساعة من النهار أى : إلا مدة قصيرة من النهار ، يتعارفون بينهم ، أى :لا
تتسع تلك المدة إلا للتعارف فيما بينهم .وقوله : ( كَأَن لّمْ يلبثوا )
جملة حالية من ضمير الجمع فى يحشرهم .وخصت الساعة بكونها من النهار ، لأنها

أعرف لهم من ساعات الليل .والمقصود بالتشبيه : بيان أن هذه السنوات الطويلة التي قضاها هؤلاء المشركون فى الدنيا يتمتعون بلهوها ولعبها ، ويستبعدون معها أن هناك بعثا وحسابا . . قد زالت عن ذاكرتهم فى يوم القيامة ، حتى لكأنهم لم يمكثوا فيها سوا وقت قصير لا يتسع لأكثر من التعارف القليل مع الأقارب والجيران والأصدقاء ، حتى لكأن ذلك النعيم الذى تقلبوا فيه دهراً طويلا لم يروه من قبل . . .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - فى سورة الأحقاف : ( كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يلبثوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ) وقوله - سبحانه ، فى سورة الروم ( وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة يُقْسِمُ المجرمون مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ ) فإن قيل : إن هناك بعض الآيات ذكرت أنهم عندما يسألون يحسبون بأنهم لبثوا فى الدنيا يوما أو بعض يوم ، أو عشية أو ضحاها كما فى قوله - تعالى - : ( قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فى الأرض عَدَدَ سِنِينَ . قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ) وكما فى قوله - تعالى - ( كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يلبثوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ) فكيف نجمع بين هذه الآيات التي اختلفت إجابتهم فيها؟فالجواب : أن أهل الموقف يختلفون فى تقدير الزمن ، الذى لبثوه فى الدنيا على حسب اختلاف أحوالهم ، وعلى حسب أهوال كل موقف فإن فى يوم القيامة مواقف متعددة بعضها أشد من بعض .وقوله ( يَتَعَارَفُونَ " : بَيْنَهُمْ ) جملة حالية أيضا من ضمير الجمع فى يحشرهم .قال القرطبي وهذا التعارف توبيخ وافتضاح ، يقول بعضهم لبعض : أنت أضللتني وأغويتني وحملتني على الكفر ، وليس تعارف شفقة ورحمة وعطف . . . والصحيح أنه لا )- ينقطع هذا التعارف التوبيخي عند مشاهدة أهوال القيامة ، لقوله - تعالى وَلَوْ ترى إِذِ الظالمون مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ القول ) فأما قوله : ( وَلاَ يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً ) وأشباهه فمعناه :لا يسأله سؤال رحمة وشفقة . .وقوله : ( قَدْ خَسِرَ الذين كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ الله وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ) جملة مستأنفة مسوقة لبيان حكم الله عليهم فى آخرتهم بعد أن ضيعوا دنياهم والمراد بلقاء الله : مطلق الحساب والجزاء الكائن فى يوم القيامة .أى : أن. هؤلاء الأشقياء الذين أعرضوا عن الحق وأنكروا الحشر ، قد خسروا سعادتهم الأبدية ، وحق عليهم العذاب المهين ، بسبب كفرهم وطغيانهم ، وعدم اهتدائهم . إلى طريق النجاة

واما نرينك بعض الذي نعدهم او نتوفينك فالينا مرجعهم ثم الله شهيد على ما يفعلون

كما فسرها الوسيط وقوله : ( وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الذي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ) تأكيد لخسرانهم ، ولوقوع العذاب بهم ، وتسلية للرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه منهم و " إن شرطية . و " ما " مزيدة لتأكيد معنى الشرط ، وجملة ( فَإِلَيْنَا " مَرْجِعُهُمْ ) جواب للشرط وما عطف عليه .والمعنى : إن هؤلاء المشركين الذين ناصبوك العداوة أيها الرسول الكريم لا يخفى علينا أمرهم ونحن إما نرينك ببصرك بعض الذى نعدهم به من العذاب الدنيوي ، وإما نتوفينك ، قبل ذلك وفى كلتا الحالتين فإن مرجعهم إلينا وحدنا فى الآخرة ، فنعاقبهم العقوبة ، التي يستحقونها .وقال - سبحانه - ( بَعْضَ الذي نَعِدُهُمْ ) للإشارة إلى أن ما سينزل بهم من عذاب دنيوي ، هو جزء من العذاب المدخر لهم فى الآخرة وقد أنجز الله - تعالى - وعده لنبيه - صلى الله عليه وسلم - فسلط عليهم. القحط والمجاعة ، حتى كانوا لشدة جوعهم يرون كأن بينهم وبين السماء دخانا . - ونصر المسلمين عليهم فى غزوتي بدر والفتح ، وكل ذلك حدث فى حياة النبي صلى الله عليه وسلم .وقال - سبحانه - ( بَعْضَ الذي نَعِدُهُمْ ) ولم يقل بعض الذى وعدناهم ، لاستحضار صورة العذاب ، والدلالة على تجدده واستمراره أى : نعدهم وعدا متجددا على حسب ما تقتضيه حكمتنا ومشيئتنا ، من إنذار عقب. إنذار ، ومن وعيد بعد وعيد .والمراد من الشهادة فى قول ( ثُمَّ الله - شَهِيدٌ على مَا يَفْعَلُونَ ) لازمها وهو المعاقبة والمجازاة ، فكأنه سبحانه - يقول : ثم الله - تعالى - بعد ذلك معاقب لهم على ما فعلوه من سيئات ، وما يرتكبونه من منكرات .قال صاحب الكشاف : " فإن قلت : الله شهيد على ما يفعلون فى الدارين فما معنى ثم؟قلت : ذكرت الشهادة والمراد مقتضاها ونتيجتها وهو العقاب ، فكأنه قال : ثم الله معاقبهم على ما يفعلون . ويجوز أن يراد الله أن الله مؤد شهادته على أفعالهم يوم القيامة حين ينطق جلودهم وألسنتهم وأيديهم فتكون شاهدة عليهم " .هذا ، وفى معنى هذه الآية وردت آيات أخرى منها قوله - تعالى - : ( وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الذي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البلاغ وَعَلَيْنَا الحساب )وقوله - تعالى - ( فاصبر إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الذي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ).

ولكل امة رسول فاذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن من مظاهر رحمته بعباده ، أن جعل لكل
) : - أمة رسولا يهديها إلى الحق وإلى الطريق المستقيم فقال - تعالى
وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ
بالقسط وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ) .أى : أنه - سبحانه - اقتضت حكمته ورحمته
أن يجعل لكل جماعة من الناس ، رسولا يبلغهم ما أمره الله بتبليغه ، ويشهد
عليهم بذلك يوم القيامة ، فإذا جاء رسولهم وشهد بأنه قد بلغهم ما أمره الله
به ، قضى - سبحانه - بينه وبينهم بالعدل ، فحكم بنجاة المؤمن وبعقوبة
" الكافر ، ولا يظلم ربك أحدا .قال الإمام ابن كثير عند تفسير لهذه الآية
فكل أمة تعرض على الله - تعالى - بحضرة رسولها ، وكتاب أعمالها من خير أو
شر شاهد عليهم ، وحفظتهم من الملائكة شهود أيضا أمة بعد أمة ، وهذه الأمة
، الشريفة وإن كانت آخر الأمم فى الخلق ، إلا أنها أول الأمم يوم القيامة
- يفصل بينهم ويقضى لهم جاء فى الصحيحين عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم
، أنه قال : " نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، المقضى لهم قبل الخلائق
فأمته إنما حازت قصب السبق بشرف رسولها - صلوات الله وسلامه عليه دائماً
. " إلى يوم الدين

ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين

كما فسرها الوسيط وقوله : ( وَيَقُولُونَ متى هذا الوعد إِن كُنتُمْ
صَادِقِينَ ) حكاية لأقوالهم الدالى على طغيانهم وفجورهم .أى : أن هؤلاء لم
- يكتفوا بالإعراض عن دعوة الحق ، بل قالوا لرسولهم - صلى الله عليه وسلم
الذى حذرهم من عذاب الله إذا ما استمروا فى كفرهم : متى يقع علينا هذا
العذاب الأليم الذى تهددنا؟ إننا نتعجله فأت به إن كنت أنت وأصحابك من
الصادقين فى دعواكم أن هناك عذابا ينتظرنا .وهذا القول منهم يدل على توغلهم
فى الكفر والجحود ، وعدم اكتراثهم بما يخبرهم به الرسول - صلى الله عليه
. - وسلم

قل لا املك لنفسي ضرا ولا نفعا الا ما شاء الله لكل امة اجل اذا جاء اجلهم
فلا يستاخرون ساعة ولا يستقدمون

كما فسرها الوسيط ولذا أمر الله تعالى : رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن
يرد عليهم فقال : ( قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً
إِلاَّ مَا شَآءَ الله . . . ) .أى : قل يا محمد لهؤلاء الجاهلين
المتعاجلين للعذاب : إننى لا أملك لنفسي - فضلا عن غيرها - شيئامن الضر
فأدفعه عنها ، ولا شيئا من النفع فأجلبه لها ، لكن الذى يملك ذلك هو الله
، وحده ، فهو - سبحانه - الذى يملك أن ينزل العذاب بكم فى أى وقت يشاء
فلماذا تطلبون منى ما ليس فى قدرتي . وعلى هذا التفسير يكون الاستثناء
منقطعا .ويجوز أن يكون متصلا فيكون المعنى : قل لهم يا محمد إننى لا أملك
لنفسي شيئا من الضر أو النفع ، إلا ما شاء الله - تعالى - أن يجعلني قادرا
عليه منهما ، فإننى أملكه بمشيئته وإرادته .وقدم - سبحانه - الر على النفع
هنا ، لأن الآية مسوقة للرد على المشركين ، الذين تعجلوا نزول العذاب الذى
) - هو نوع من الضر .أما الآية التي في سورة الأعراف ، وهي قوله - تعالى
. قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً إِلاَّ مَا شَآءَ الله
فقد قدم النفع على الضر ، لأنها مسوقة لبيان الحقيقة فى ذاتها ، وهى أن ( .
الرسول - صلى الله عليه وسلم -لا يملك لنفسه شيئا من التصرف فى هذا الكون
) : وللإشعار بأن النفع هو المقصود بالذات من تصرفات الإنسان .وقوله ،
لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ
- سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ) تأكيد لما قبله ، وتقرير لقدرة الله
تعالى - النافذة .أى : لكل أمة من الأمم أجل قدره الله - تعالى - لانتهاء
حياتها ، فإذا حان وقت هذا الأجل هلكت فى الحال دون أن تتقدم على الوقت
. المحدد لموتها ساعة أو تتأخر أخرى

قل ارايتم ان اتاكم عذابه بياتا او نهارا ماذا يستعجل منه المجرمون

كما فسرها الوسيط ثم ساقت السورة الكريمة ألوانا أخرى من الأجوبة التي
لقنها الله - تعالى - لرسوله - صلى الله عليه وسلم - لكي يرد بها على
- المشركين الذين تعجلوا العذاب كما صورت أحوالهم عندما يرون العذاب ، فقال
تعالى - :( قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتاً أَوْ
نَهَاراً . . . )قوله " أرأيتم " بمعنى أخبروني . وكلمة أرأيت تستعمل فى
: القرآن للتنبيه والحث على الرؤية والتأمل ، فهو استفهام للتنبيه مؤداه
أرأيت كذا أو عرفته؟ إن لم تكن أبصرته أو عرفته فانظره وتأمله وأخبرني عنه
ولما كانت الرؤية للشيء سببا لمعرفته وللإخبار عنه ، أطلق السبب وأريد.

، المسبب فهو مجاز مرسل علاقته السببية والمسببية .وقوله : بياتا أى : ليلا
ومنه البيت لأنه يبات فيه . يقال : بات يبيت بيتا وبياتا .وقوع العذاب سواء
- أكان بالليل أم بالنهار لا يمكن دفعه ، ولا يمكن أن يتعجله عاقل ، لأنه
كما يقول صاحب الكشاف - : كل مكروه ، مر المذاق ، موجب للنفار منه ، فكيف
) - ساغ لكم أن تستعجلوا نزول شيء فيه هلاككم ومضرتكم؟!!وقال - سبحانه
بياتا ) ولم يقل ليلا ، للإشعار بمجئ العذاب فى وقت غفلتهم ونومهم بحيث لا
يشعرون به ، فهم قد يقضون جانبا من الليل فى اللهو واللعب ، ثم ينامون
فيأتيهم العذاب فى هذا الوقت الذى هجعوا فيه .فالآية الكريمة توبيخ لهم على
استعجالهم وقوع شيء من شأن العقلاء أنهم يرجون عدم وقوعه .ولذا قال القرطبي
قوله : ( مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ المجرمون ) استفهام معناه " :
التهويل والتعظيم . أى : ما أعظم ما يستعجلون به . كما يقال لمن يطلب أمرا
تستوخم عاقبته : ماذا تجني على نفسك " .وجواب الشرط لقوله : ( إِنْ
أَتَاكُمْ . . . ) محذوف والتقدير : إن أتاكم عذابه فى أحد هذين الوقتين
أفزعكم وأهلككم فلماذا تستعجلون وقوع شيء هذه نتائجه؟وقد ذكر صاحب الكشاف
وجها خر بعد أن ذكر هذا الوجه فقال : فإن قلت : فهلا قيل ماذا يستعجلون
منه؟ قلت : أريدت الدلالة على موجب ترك الاستعجال وهو الإجرام ، لأن من
- شأن المجرم أن يخاف التعذيب على إجرامه ، ويهلك فزعا من مجيئه ون أبطأ
فضلا عن أن يستعجله - ويجوز أن يكون ( مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ
المجرمون ) جوابا للشرط كقولك إن أتيتك ماذا تطعمني .

اثم اذا ما وقع امنتم به الان وقد كنتم به تستعجلون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ
بِهِ . . . ) زيادة فى تجهيلهم وتأنيبهم والهمزة داخلة على محذوف ، و ( ثم
حرف عطف يدل على الترتيب والتراخي وجيء به هنا للدلالة على زيادة (
الاستبعاد .والمعنى : إنكم أيها الجاهلون لستم بصادقين فيما تطلبون ، لأنكم
قبل وقوع العذاب تتعجلون وقوعه ، فإذا ما وقع وشاهدتم أهواله . وذقتم
مرارته . . آمنتم بأنه حق ، وتحول استهزاؤكم به إلى تصديق وإذعان وتحسر
وقوله : ( الآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ) قصد به زيادة.
إيلامهم وحسرتهم ولفظ ( الآنَ ) ظرف زمان يدل على الحال الحاضرة ، وهو فى
محل نصب على أنه ظرف لفعل مقدر .أى : قيل لهم عند إيمانهم بعد وقوع العذاب
الآن آمنتم بأنه حق؟ مع أنكم قبل ذلك كنتم به تستهزئون ، وتقوولن :
للرسول - صلى الله عليه وسلم - ولأتباعه :( متى هَذَا الوعد إِن كُنتُمْ
صَادِقِينَ ) ألا فلتعلموا : أن إيمانكم فى هذا الوقت غير مقبول ، لأنه جاء
فى غير أوانه ، وصدق الله إذ يقول : ( فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قالوا
آمَنَّا بِالله وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ .
فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا سُنَّتَ
الله التي قَدْ خَلَتْ فى عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الكافرون ).

ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد هل تجزون الا بما كنتم تكسبون

كما فسرها الوسيط وقوله : ( ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ
عَذَابَ الخلد هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ) تأكيد
" لتوبيخهم وتأنيبهم بعد أن نزل بهم العذاب ، وهو معطوف على لفظ " قيل
المقدر قبل لفظ ( الآن ) .أى : وقيل لهم : الآن آمنتم بأن العذاب حقيقة بعد
أن كنتم به تستعجلون؟ ثم قيل لهؤلاء الظالمين الذين أصروا على الكفر
واقتراف المنكرات : ذوقوا عذاب الخلد أي العذاب الباقي الدائم ، إذ الخلد
والخلود مصدر خلد الشيء إذا بقي على حالة واحدة لا يتغير ،والاستفهام فى
قوله : ( هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ) للنفي
والإنكار . أي لا تجزون إلابالجزاء المناسب لما كنتم تكسبونه فى الدنيا من
- كفر بالحق ، وإيذاء للدعاة إليه ، وتكذيب بوحي الله - تعالى .

ويستنبئونك احق هو قل اي وربي انه لحق وما انتم بمعجزين

كما فسرها الوسيط ثم قال - سبحانه - ( وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ )
النبأ : كما يقول الراغب . خبر ذو فائدة عظيمة ، يحصل به علم أو غلبة ظن
- والاستنباء : طلب الأخبار الهامة .أى : إن هؤلاء الضالين يطلبون منك.
أيها الرسول الكريم - على سبيل التهكم والاستهزاء ، أن تخبرهم عن هذا
العذاب الذى توعدتهم به ، أهو واقع بهم على سبيل الحقيقة ، أم هو غير واقع
ولكنك تحدثهم عنه على سبيل الإرهاب والتهديد؟وقوله : ( قُلْ إِي وربي
- إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ ) إرشاد من الله - تعالى
لنبيه - صلى الله عليه وسلم - إلى الجواب الذى يرد به عليهم .ولفظ ( أي )
بكسر الهمزة وسكون الياء - حرف جواب وتصديق بمعنى نعم ، إلا أنه لا يستعمل
إلا مع القسم .أى : قل لهم يا محمد : نعم وحق ربي إن العذاب الذى أخبرتكم

به لا محيص لكم عنه وما أنتم بمعجزي الله - تعالى - إذا أراد أن ينزله بكم
فى أي وقت يريده ، بل أنتم فى قبضته وتحت سلطانه وملكه ، فاتقوا الله ، بأن
تخلصوا به العبادة ، وتتبعوا رسوله - صلى الله عليه وسلم - فيما جاءكم به
، من عنده - سبحانه - .وقد أكد سبحانه - الجواب عليهم بأتم وجوه التأكيد
لأنهم كانوا قوما ينكرون أشد الإنكار أن يكون هناك عذاب وحساب وبعث وجنة
ونار .قال ابن كثير : " وهذه الآية ليس لها نظير فى القرآن إلا آيتان
، أخريان ، يأمر الله - تعالى - رسوله فيهما أن يقسم به على من أنكر المعاد
أما الآية الأولى فهي قوله - تعالى - :( وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لاَ
تَأْتِينَا الساعة قُلْ بلى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ . . ) وأما الآية
الثانية فهي قوله - تعالى - : ( زَعَمَ الذين كفروا أَن لَّن يُبْعَثُواْ
قُلْ بلى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ . . ) وجملة ( وَمَآ أَنتُمْ
بِمُعْجِزِينَ ) إما معطوفة على جواب القسم ، أو مستأنفة سبقت لبيان عجزهم
. عن الخلاص ، وتأكيد وقوع العذاب عليهم

ولو ان لكل نفس ظلمت ما في الارض لافتدت به واسروا الندامة لما راوا العذاب
وقضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أنهم لن يستطيعوا افتداء أنفسهم من
العذاب عند وقوعه فقال - تعالى - : ( وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ
مَا فى الأرض لاَفْتَدَتْ بِهِ ) .أى : ولو أن لكل نفس تلبست بالظلم بسبب
شركها وفسوقها ، جميع ما فى الأرض من مال ومتاع ، وأمكنها أن تقدمه كفداء
لها من العذاب يوم القيامة ، لقدمته سريعا دون أن تبقى منه شيئا حتى تفتدي
ذاتها من العذاب المهين .ومفعول ( افتدت ) محذوف . أي لافتدت نفسها به .ولو
هنا امتناعية ، أى : امتنع افتداء كل نفس ظالمة ، لامتناع ملكها لما تفدى
به ذاها وهو جميع ما فى الأرض من أموال ، ولامتناع قبول ذلك منها فيما لو
ملكته على سبيل الفرض .وقوله ( وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ اجهروا بِهِ
إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ) والندامة والندم : ما يجده الإنسان فى
: نفسه من آلام وحسرات على أقوال أو أفعال سيئة ، فات أوان تداركها .أى
وأخفى هؤلاء الظالمين الندامة حين رأوا بأبصارهم مقدمات العذاب ، وحين
" : أيقنوا أنهم لا نجاة لهم منه ، ولا مصرف لهم عنه .قال صاحب الكشاف
قوله - سبحانه - ( وَأَسَرُّواْ الندامة لَمَّا رَأَوُاْ العذاب ) لأنهم
بهتوا لرؤيتهم ما لم يحتسبوه ، ولم يخطر ببالهم ، وعاينوا من شدة الأمر
وتفاقمه ، ما سلبهم قواهم ، وبهرهم ، فلم يطيقوا عنده بكاء ولا صراخا ولا
ما يفعله الجازع ، سوى إسرار الندم والحسرة فى القلوب ، كما ترى القدم
للصلب يثخنه ما دهمه من فظاعة الخبط ويغلب ، حتى لا ينبس بكلمة ويبقى جامدا
مبهوتا .وقيل : أسر رؤساؤهم الندامة من سفلتهم الذين أضلوهم ، حياء منهم
وخوفا من توبيخهم . .وقيل أسروا الندامة : أظهروها من قولهم أسر الشيء إذا
أظهره وليس هناك تجلد " .وقوله : ( وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بالقسط وَهُمْ لاَ
يُظْلَمُونَ ) بيان لعدالة الله فى أحكامه بين عباده .أى : وقضى الله
- تعالى - بين هؤلاء الضالمين وبين غيرهم بالعدل دون أن يظلم أحدا .

الا ان لله ما في السماوات والارض الا ان وعد الله حق ولكن اكثرهم لا
يعلمون

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ما يدل على كمال قدرته ، وسعة
رحمته ، ، وعلى أنه وحده الذى يملك التحليل والتحريم ، ويعلم السر وأخفى
فقال - تعالى - :( ألا إِنَّ للَّهِ مَا فى السماوات . . . )أى : ألا إن
- لله وحده لا لغيره ، ملك ما فى السموات والأرض من مخلوقات ، وهو - سبحانه
يتصرف فيها وفق إرادته ومشيئته كما يتصرف المالك فيما يملكه ، فهو يعطي من
يشاء ويغفر لمن يشاء ، ويتوب على من يشاء ( لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ
وَهُمْ يُسْأَلُونَ ) وقوله : ( أَلاَ إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ ) أى : ألا
إن كل ما وعد الله به الناس من ثواب وعقاب وغيرهما ، ثابت ثبوتا لا ريب فيه
وواقع وقوعا لا محيص عنه .وصدرت الآية الكريمة بأداة الاستفتاح ( ألا ) ،
الدالة على التنبيه ، لحض الغافلين عن هذه الحقيقة على التذكر والاعتبار
والعودة إلى طريق الحق .وأعيد حرف التنبيه في جملة ( أَلاَ إِنَّ وَعْدَ
الله حَقٌّ ) لتمييزها بهذا التنبيه عن سابقتها ، لأنها مقصودة بذاتها : إذ
أن المشركين كانوا يظنون أن ما وعدهم به الرسول - صلى الله عليه وسلم - هو
- من باب الترغيب والترهيب وليس من باب الحقائق الثابتة .ثم ختم - سبحانه
الآية بقوله : ( ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ) أى ولكن أكثر هؤلاء
الناس الذين بعثت إليهم يا محمد ، لا يعلمون ما جئت به علما نافعا لسوء
استعدادهم ، وضعف عقولهم ، وخبث نفوسهم .وقال ( أَكْثَرَهُمْ ) : إنصافا
- للقلة المؤمنة التي علمت الحق فاتبعته وصدقته ، ووقتفت إلى جانب الرسول
. صلى الله عليه وسلم - تؤيده وتفتدي دعوته بالنفس والمال

هو يحيي ويميت واليه ترجعون

كما فسرها الوسيط وقوله : ( هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ
- بيان لكمال قدرته ، إثر بيان عظم ملكوته ، ونفاذ وعده .أى : هو ( سبحانه - الذي يحيى من يريد إحياءه ويميت من يريد إماتته وإليه وحده ترجعون جميعا ، فيحاسبكم على أعمالكم ، ويجازى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجازي الذين أحسنوا بالحسنى .

يا ايها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين

كما فسرها الوسيط ثم وجه - سبحانه - نداء إلى الناس ، أمرهم فيه بالانتفاع بما اشتمل عليه القرآن الكريم ، من خيرات وبركات فقال - تعالى - : ( ياأيها الناس قَدْ جَآءَتْكُمْ مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي الصدور وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ) .والموعظة معناها : التذكير بالتزام الحق والخير ، واجتناب الباطل والشر ، بأسلوب يلين القلوب ، ويرقق النفوس .والشفاء : هو الدواء الشافي من كل ما يؤذى ، ويجمع على أشفيه ، والهدى : هو الإرشاد والدلالة بلطف إلى ما يوصل إلى المقصد والبغية. والرحمة معناها الإحسان ، أن إرادة الإحسان .والمعنى : يا أيها الناس قد جاءكم من الله - تعالى - كتاب جامع لكل ما تحتاجون إليه من موعظة حسنة ترق لها القلوب ، وتخشع لها النفوس . وتصلح بها الأخلاق ومن شفاء لأمراض صدوركم ومن هداية لكل إلى طريق الحق والخير ، ومن رحمة للمؤمنين ترفعهم إلى أعلى . الدرجات وتكفر ما حدث منهم من سيئات .وجاء هذا الإرشاد والتوجيه عن طريق النداء ، استمالة لهم إلى الحق بألطف أسلوب ، وأكمل بيان ، حتى يثوبوا إلى رشدهم ، ويتنبهوا من غفلتهم .ووصفت الموعظة بأنها من ربكم ، لتذكيرهم بما يزيدهم تعظيما وقبولا ، لأنها لم تصدر عن مخلوق تحتمل توجيهاته الخطأ والصواب ، وإنما هي صادرة من خالق النفوس ومربيها ، العليم بما يصلحها ويشفيها .وقيد الرحمة بأنها للمؤمنين ، لأنهم هم المستحقون لها ، بسبب إيمانهم وتقواهم .قال الآلوسى ما ملخصه : " واستدل بالآية على أن القرآن يشفى من الأمراض البدنية كما يشفى من الأمراض القلبية ، فقد أخرج ابن مردوية عن أبى سعيد الخدرى قال : " جاء رجل إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال إنى اشتكى صدرى ، فقال - عليه الصلاة والسلام - : " اقرأ القرآن ، يقول الله - تعالى - شفاء لما فى الصدور " " .وأخرج البيهقي في الشعب عن وائلة بن الأسقع أن رجلا شكا إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - وجع حلقه ، فقال له : " عليك بقراءة القرآن " .وأنت تعلم أن الاستدلال بهذه الآية على ذلك مما لا يكاد يسلم ، والخبر الثانى لا يدل عليه ، إذ ليس فيه أكثر من أمره - صلى الله عليه وسلم - الشاكى بقراءة القرآن إرشادا له إلى ما ينفعه ويزول به وجعه .ونحن لا ننكر أن لقراءة بركة ، قد يذهب الله بسببها الأمراض والأوجاع ، وإنما ننكر الاستدلال بالآية على ذلك .والخبر - الأول وإن كان ظاهرا فى المقصود ، لكن ينبغى تأويله ، كأن يقال : لعله صلى الله عليه وسلم - اطعل على أن فى صدر الرجل مرضا معنويا قلبيا ، قد صار سببا للمرض الحسي والبدني ، فأمره - صلى الله عليه وسلم - بقراءة القرآن ليزول عنه الأول فيزول الثاني .والحسن البصري ينكر كون القرآن شفاء للأمراض فقد أخرج أبو الشيخ عنه أنه قال : " إن الله - تعالى - جعل القرآن شفاء ، لما فى الصدور ، ولم يجعله شفاء لأمراضكم ، والحق ما ذكرناه " .

قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون

كما فسرها الوسيط وقوله : ( قُلْ بِفَضْلِ الله وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ) حض للناس على اغتنام ما في تعاليم الإسلام من خيرات ، وإيثارها على ما فى الدنيا من شهوات .أى : قل يا محمد لمن يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة : اجعلوا فرحكم الأكبر ، وسروركم الأعظم ، بفضل الله الذى شرع لكم هذا الدين على لسان رسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - ، وبرحمته التي وسعت كل شيء وهي بالمؤمنين أوسع ، لا بما تجمعون فى هذه الدنيا من أموال زائلة ومتع فانية .وقد فسر بعضهم فضل الله ورحمته بالقرآن ، ومنهم من فسر فضل الله بالقرآن ، ورحمته بالإسلام . ومنهم من فسرهما بالجنة والنجاة من النار .ولعل تفسير هما بما يشمل كل ذلك أولى : لأنه لم يرد نص صحيح عن الصادق المصدوق - صلى الله عليه وسلم - يحدد المراد منهما ، وما دام الأمر كذلك فحملهما على ما يشمل الإسلام والقرآن والجنة أولى .قال ابن كثير: قوله - تعالى - ( قُلْ بِفَضْلِ الله وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ ) أى : بهذا الذي جاءهم من الله من الهدى ودين الحق فليفرحوا فإنه أولى مما يفرحون به من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية والذاهبة لا محالة .فعن أيفع بن عبد الكلاعي قال : لما قدم خراج العراق إلى عمر - رضي الله عنه - خرج عمر ومولى له ، فجعل يعد

الإبل ، فإذا هى أكثر من ذلك ، فجعل عمر يقول : الحمد لله - تعالى - ويقول
مولاه : هذا والله من فضل الله ورحمته . فقال عمر : كذبت ليس هذا هو الذي
يقول الله - تعالى - ( قُلْ بِفَضْلِ الله وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ
فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ) .أى : ليس هذا المال هو
- المعنى بهذه الآية ، وإنما فضل الله ورحمته يتمثل فيما جاءهم من الله
تعالى - من دين قويم ، ورسول كريم ، وقرآن مبين .ودخلت الباء على كل من
الفضل والرحمة ، للإشعار باستقلال كل منهما بالفرح به .والجار والمجرور فى
كل منهما متعلق بمحذوف ، وأصل الكلام : قل لهم يا محمد ليفرحوا بفضل الله
وبرحمته ، ثم قدم الجار والمجرور على الفعل لإفادة الاختصاص ، وأدخلت
الفاء لإفادة السببية ، فكأنه قيل : إن فرحوا بشيء فليكن بسبب ما أعطاهم
الله - تعالى - من فضل ورحمته ، لا بسبب ما يجمعون من زينة الحياة الدنيا
قال القرطبى : " والفرح لذة فى القلب بإدراك المحبوب . وقد ذم الله الفرح.
) فى مواضع ، كقوله - سبحانه - ( إِنّ الله لاَ يُحِبُّ الفرحين ) وكقوله
، إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ) ولكنه مطلق . فإذا قيد الفرح لم يكن ذما
- لقوله - تعالى ( فَرِحِينَ بِمَآ آتَاهُمُ الله مِن فَضْلِهِ ) وكقوله
سبحانه - هنا ( فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ ) أى بالقرآن والإسلام
. . . فليفرحوا " .

قل ارايتم ما انزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل الله اذن
لكم ام على الله تفترون

كما فسرها الوسيط ثم أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن
يرد أيضا على أولئك الذين أحلوا وحرموا على حسب أهوائهم دون أن يأذن الله
لهم بذلك فقال : ( قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَّآ أَنزَلَ الله لَكُمْ مِّن
رِّزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِّنْهُ حَرَاماً وَحَلاَلاً قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ
- لَكُمْ أَمْ عَلَى الله تَفْتَرُونَ ) أي : قل لهم يا محمد - أيضا
أخبروني أيها المبدلون لشرع اله على حسب أهوائكم : إن الله - تعالى - قد
، أفاض عليكم ألوانا من الرزق الحلال فجئتم أنتم ، وقسمتم هذا الرزق الحلال
فجعلتم منه حلالا وجعلتم منه حراما .وقد حكى الله - تعالى - فعلهم هذا فى
آيات متعددة ، منها قوله - تعالى - : ( وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هذه
الأنعام خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرّمٌ على أَزْوَاجِنَا )قال
الإمام ابن كثير : " قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وعبد الرحمن بن
زيد بن أسلم وغيرهم ، نزلت إنكارا على المشركين فيما كانوا يحلون ويحرمون
من البحائر والسوائب والوصائل كقوله - تعالى - : ( وَجَعَلُواْ للّهِ
مِمّا ذَرَأَ مِنَ الحرث والأنعام نَصِيباً . . . ) الآيات .وقال الإمام
أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شبعة عن أبي إسحاق ، سمعت أبا الأحوص
وهو عوف بن مالك بن نضلة يحدث عن أبيه قال : أتيت رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - وأنا رث الهيئة فقال : هل لك مال؟ قلت : نعم . قال : من أي
. المال؟ قال : قلت : من كل المال . . من الإبل والرقيق والخيل والغنم
، فقال : إذا آتاك الله مالا فلير عليك ثم قال : هَل تنتج إبلك صحاحا آذانها
فتعمد إلى موسى فتقطع آذانها فتقول : هذه بحر . وتشق جلودها وتقول؛ هذه صرم
وتحرمها عليك وعلى أهلك . قال : نعم . قال : فإن ما آتاك الله لك حل . ساعد
الله أشد من ساعدك . وموسى الله أحد من موساك " .وقوله : ( قُلْ ءَآللَّهُ
أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى الله تَفْتَرُونَ ) استفهام قصد به التوبيخ
والزجر أي : قل لهم يا محمد على سبيل التوبيخ والزجر : إن الله وحده هو
الذي يملك التحليل والتحريم ، فهل هو - سبحانه - أذن لكم في ذلك ، أو إنما
أنتم الذين حللتم وحرمتم على حسب أهوائكم . لأنه لو أذن لكم في ذلك لبينه
) : على لسان رسوله - صلى الله عليه وسلم - .قال صاحب الكشاف : " وقوله
ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ) متعلق بأرأيتم ، وقل . تكرير للتوكيد . والمعنى
أخبروني آلله أذن لكم في التحليل والتحريم ، فأنتم تفعلون ذلك بإذنه ، أم
تكذبون على الله في نسبة ذلك إليه . ويجوز أن تكون الهمزة للإنكار وأم
منقطعة ، بمعنى : بل أتفترون على الله ، تقريرا للافتراء .ثم قال : وكفى
بهذه الآية زاجرا بليغا عن التجوز فيما يسأل عنه من الأحكام ، وباعثة على
وجوب الاحتياط فيه ، وأن لا يقول أحد فى شيء جائز أو غير جائز إلا بعد
. " إيقان وإتقان ، ومن لم يوقن فليتق الله وليصمت وإلا فهو مفتر على الله

وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة ان الله لذو فضل على الناس
ولكن اكثرهم لا يشكرون

كما فسرها الوسيط ثم توعدهم - سبحانه - بسوء المصير على جرأتهم وكذبهم فقال
( . . . وَمَا ظَنُّ الذين يَفْتَرُونَ عَلَى الله الكذب يَوْمَ القيامة )
أى : هؤلاء الذين أحلوا وحرموا افتراء على الله ماذا يظنون أن الله سيفعل.
بهم يوم القيامة؟ أيظنون أن الله ستيركهم بدون عقاب؟ كلا إن عقابهم لشديد
، بسبب افترائهم عليه الكذب .وأبهم - سبحانه - هذا العقاب للتهويل والتعظيم

حيث أباحوا لأنفسهم ما لم يأذن به الله - تعالى - :وقال - سبحانه - ( وَمَا ظَنُّ . . . ) بصيغة الماضي لتحقيق الوقوع ، وأكثر أحوال القيامة يعبر عنها بهذه الصيغة لهذا الغرض .وقوله : ( إِنَّ اللَّه لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاس ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ ) تذييل قصد به حض الناس على شكر خالقهم واتباع شريعته فيما أحل وحرم .أى : إن الله لذو فضل عظيم على عباده ، حيث ، خلقهم ورزقهم ، وشرع لهم ما فيه مصلحتهم ومنفعتهم ، ولكن أكثرهم لا يشكرونه على هذه النعم ، لأنهم يستعملونها في غير ما خلقت له .

وما تكون في شان وما تتلو منه من قران ولا تعملون من عمل الا كنا عليكم شهودا اذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الارض ولا في السماء ولا اصغر من ذلك ولا اكبر الا في كتاب مبين

كما فسرها الوسيط وبعد أن ذكر - سبحانه - عباده بفضله ، وما يجب عليهم من شكره ، عطف على ذلك تذكيره إياهم بإحاطة علمه بكل صغير وكبير في هذا الكون فقال : ( وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْآنٍ ( . . . وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً أي : وما تكون - أيها الرسول الكريم - فى شأن من الشئون أو في حال من الأحوال .وما تتلو من أجل ذلك الشأن من قرآن يهدي إلى الرشد .ولا تعملون - أيها الناس - عملا ما صغيرا أو كبيرا ، إلا كنا عليكم مطلعين .ومن في قوله ( منه ) للتعليل ، والضمير يعود إلى الشأن ، إذ التلاوة أعظم شئونه - صلى الله عليه وسلم - هذا . ولذا خصت بالذكر . ويجوز أن يعود للقرآن الكريم ، ويكون الإضمار قبل الذكر لتفخيم شأنه ، وتعظيم أمره .ومن في قوله ( مِن قُرْآنٍ ) مزيدة لتأكيد النفي .وقال الآلوسى : " والخطاب الأول خاص برأس النوع الإنساني ، وسيد المخاطبين - صلى الله عليه وسلم - هذا . وقوله ( وَلاَ تَعْمَلُونَ . . . ) عام يشمل سائر العباد برهم وفاجرهم وقد روعى في كل من المقامين ما يليق به ، فعبر في مقام الخصوص فى الأول بالشأن ، لأن عمل العظيم عظيم ، وفى الثاني بالعمل العام للجليل والحقير . وقيل : الخطاب الأول عام للأمة أيضا كما في قوله - تعالى - ( ياأيها النبي إِذَا طَلَّقْتُمُ ) وقوله : ( إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً ) استثناء مفرغ من أعم أحوال المخاطبين بالأفعال الثلاثة . أي : وما تلابسون بشيء منها فى حال من الأحوال إلا حال كوننا رقباء مطلعين عليه ، حافظين له " .وقوله ( إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ) أي : تخوضون وتندفعون في ذلك العمل ، لأن الإفاضة في الشيء معناها الاندافع فيه بكثرة وقوة .وقوله : ( وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأرض وَلاَ فِي السمآء ) بيان لشمول علمه - سبحانه - لكل شيء .ويعزب : أى يبعد ويغيب ، وأصله من قولهم : عزب الرجل يعزب بإبله إذا أبعد بها وغاب فى طلب الكلأ والعشب . والكلام على حذف مضاف .أي : وما يغيب ويخفي عن علم ربك مثقال ذرة في الوجود علويه وسفلية ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، إلا وهو معلوم ومسجل عنده في كتاب عظيم الشأن ، تام البيان .وقوله : ( مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ ) تمثل لقلة الشيء ودقته ومن فيه لتأكيد النفي وقدمت الأرض على السماء هنا ، لأن الكلام في حال أهلها ، والمقصود إقامة البرهان على إحاطة علمه - سبحانه - بتفاصيلها فكأنه - سبحانه - يقول : إن من يكون هذا شأنه لا يخفى عليه شيء من أحوال أهل الأرض مع نبيهم - صلى الله عليه وسلم - .وقوله : ( وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذلك ولا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ) جملة مستقلة لسيت معطوفة على ما قبلها .و (لا ) نافية للجنس و ( أصغر ) اسمها منصوب لشبهه بالمضاف و ( أكبر ) معطوف عليه . و ( فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ) متعلق بمحذوف خبرها ، وقدم ذكر الأصغر على الأكبر ، لأنه هو الأهم في سياق العلم بما خفى من الأمور .وقرأ حمزة ويعقوب وخلف ( وَلاَ أَصْغَرَ ) بالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف . أى : ولا ما هو أصغر في ذلك .والمراد بالكتاب المبين : علم الله الذي وسع كل شىء ، أو اللوح المحفوظ الذى حفظ الله فيه كل شيء .وبذلك - نرى أن هذه الآيات الكريمة قد أقامت الأدلة على شمول قدرة الله - تعالى لكل شيء ، وعلى دعوة الناس إلى الانتفاع بما جاء به القرآن من خيرات وبركات وعلى وجوب التزامهم بما شرعه - سبحانه - وعلى إحاطة علمه بما ظهر وبطن من الأمور .وبعد أن وجه - سبحانه - نداء إلى الناس دعاهم فيه إلى الانتفاع بما جاء فى القرآن من خيرات ، وتوعد الذين شرعوا شرائع لم يأذن بها الله ، وأقام الأدلة على نفاذ قدرته ، وشمول علمه .

الا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون

كما فسرها الوسيط بعد كل ذلك ، بشر أولياءه بحسن العاقبة ، وأنذر أعداءه بسوء المصير ، ورد على الذين قالوا اتخذ الله ولداً بما يكبتهم ويخرس ألسنتهم فقال - تعالى - :( ألا إِنَّ أَوْلِيَآءَ . . . ) .الأولياء : جمع ولي مأخوذ من الولي بمعنى القرب والدنو ، يقال : تباعد فلان من عبد ولي أى ، بعد قرب .والمراد بهم : أولئك المؤمنون الصادقون الذى صلحت أعمالهم :

، وحسنت بالله - تعالى - صلتهم ، فصاروا يقولون ويفعلون كل ما يحبه ويجتنبون كل ما يكرهه .قال الفخر الرازي : " ظهر فى علم الاشتقاق أن تركيب الواو واللام والياء يدل على معنى القرب ، فولى كل شيء هو الذى يكون قريبا منه .والقرب من الله إنما يتم إذا كان القلب مستغرقاً فى نور معرفته ، فإن رأى رأى دلائل قدرته ، وإن سمع سمع آيات وحدانيته ، وإن نطق نطق بالثناء عليه ، وإن تحرك تحرك فى خدمته ، وإن اجتهد اجتهد فى طاعته ، فهنالك يكون فى غاية القرب من الله - تعالى - ويكون وليا له - سبحانه - .وإذا كان كذلك كان الله - وليا له - أيضاً - كما قال : ( الله وَلِيُّ الذين آمَنُواْ يُخْرِجُهُمْ مِّنَ الظلمات إِلَى النور ) وقد افتتحت الآية الكريمة بأداة الاستفتاح ( ألا ) وبحرف التوكيد ( إن ) لتنبيه الناس إلى وجوب الاقتداء بهم ، حتى ينالوا ما ناله أولئك الأولياء الصالحون من سعادة دنيوية وأخروية وقوله : ( لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ) تمييز لهم عن غيرهم ممن لم يبلغوا درجتهم .والخوف : حالة نفسية تجعل الإنسان مضطرب المشاعر لتوقعه حصلو ما يكرهه .والحزن اكتئاب نفسي يحدث للإنسان من أجل وقوع ما يكرهه .أى : أن الخوف يكون من أجل مكروه يتوقع حصوله ، بينما الحزن يكون من أجل مكروه قد وقع فعلاً .والمعنى : ألا إن أولياء الله الذين صدق إيمانهم ، وحسن عملهم ، لا خوف عليهم من أهوال الموقف وعذاب الآخرة ، ولا - هم يحزنون على ما تركوا وراءهم من الدنيا ، لأن مقصدهم الأسمى رضا الله سبحانه - فمتى فعلوا ما يؤدي إلى ذلك هان كل ما سواه .

الذين امنوا وكانوا يتقون

كما فسرها الوسيط وقوله : ( الذين آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ) استئناف مسوق لتوضيح حقيقتهم فكأن سائلا قال : ومن هم أولياء الله؟ فكان الجواب هم الذين توفر فيهم الإيمان الصادق ، والبعد التام عن كل ما نهى الله - تعالى - عنه .وعبر عن إيمانهم بالفعل الماضي ، للإشارة إلى أنه إيمان ثابت راسخ .لا تزلزله الشكوك ، ولا تؤثر فيه الشبهات .وعبر عن تقواهم بالفعل الدال على الحال والاستقبال للإيذان بأن اتقاءهم وابتعادهم عن كل ما يغضب الله من الأقوال والأفعال ، يتجدد ويستمر دون أن يصرفهم عن تقواهم وخوفهم منه - سبحانه - ترغيب وترهيب .

لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الاخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( لَهُمُ البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ) زيادة تكريم وتشريف لهم .والبشرى والبشارة : الخبر السار ، فهو أخص من الخبر ، وسمى بذلك لأن أثره يظهر على البشرة وهى ظاهر جلد الإنسان فيجعله متهلل الوجه ، منبسط الأسارير ، مبتهج النفس.أى : لهم ما يسرهم ، ويسعدهم فى الدنيا من حياة آمنة طيبة ، ولهم - أيضاً - فى الآخرة ما يسرهم من فوز برضوان الله ، ومن دخول جنته .قال الآلوسى ما ملخصه : " والثابت فى أكثر الروايات ، أن البشرى فى الحياة الدنيا ، هى الرؤيا الصالحة . . فقد أخرد الطيالسي وأحمد الدارمي والترمذي . . وغيرهم عن عبادة بن الصامت قال : سألت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن قوله - تعالى - ( لَهُمُ البشرى فى الحياة الدنيا ) فقال : " هي الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له " وقيل المراد بالبشرى : البشرى العاجلة نحو النصر والغنيمة والثناء الحسن ، والذكر الجميل ، ومحبة الناس ، وغير ذلك .ثم قال : وأنت تعلم أنه لا ينبغي العدول عما ورد عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى تفسير ذلك إذا صح . وحيث عدل من عدل لعدم وقوفه على ذلك فيما أظن ، فالأولى أن تحمل البشرى فى الدارين على البشارة بما يحقق نفي الخوف والحزن كائناً ما كان . . . "وقوله - أى :لا تغيير ولا خلف لأقوال الله ( لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ الله ) : تعالى - ولا لما وعد به عباده الصالحين من وعود حسنة ، على رأسها هذه - البشرى التي تسعدهم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة .واسم الإشارة فى قوله تعالى - ( ذلكَ هُوَ الفوز العظيم ) يعود إلى ما ذكر من البشرى فى الدارين أى : ذلك المذكور من أن لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، هو الفوز العظيم الذى لا فوز وراءه ، والذي لا يفوته نجاح أو فضل .هذا ، وقبد نقل الشيخ القاسمي - رحمه الله - كلاما حسنا من كتاب" الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان " فقال ما ملخصه :هذه الآيات أصل فى بيان أولياء الله ، وقد بين - سبحانه - فى كتابه ، وبين رسوله فى سنته أن الله أولياء من الناس ، كما أن للشيطان أولياء .وإذا عرف أن الناس فيهم أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، فيجب أن يفرق بين هؤلاء وهؤلاء ، كما فرق الله ورسوله بينهما ، فأولياء الله هم المؤمنون المتقون . كما فى هذه الآية ، وفى الحديث الصحيح : " من عادى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة ، أو فقد آذنته بالحرب . . . "والولاية ضد العداوة ، وأصل الولاية المحبة والقرب ، وأصل العداوة البغض والبعد ، وأفضل أولياء الله هم أنبياؤه ، وأفضل أنبيائه هم

المرسلون منهم ، وأفضلهم محمد - صلى الله عليه وسلم - خاتم النبيين . . فلا
. . يكون وليا إلا من آمن به واتبعه ، ومن خالفه كان من أولياء الشيطان
وإذا كان أولياء الله هم المؤمنون المتقون ، فبحسب إيمان العبد وتقواه.
تكون ولايته لله - تعالى - فمن كان أكمل إيماناً وتقوى ، كان أكمل ولاية
لله .فالناس متفاضلون فى ولاية الله - عز وجل - بحسب تفاضلهم فى الإيمان
والتقوى .ومن أظهر الولاية وهو لا يؤدي الفرائض ، ولا يجتنب المحارم ، كان
كاذباً فى دعواه ، أو كان مجنوناً .وليس لأولياء الله شيء يتميزون به عن
الناس فى الظاهر من الأمور المباحات ، فلا يتميزون بلباس دون لباس ، ولا
بحلق شعر أو تقصير . . بل يوجدون فى جميع طبقات الأمة . فيوجدون فى أهل
القرآن ، وأهل العلم ، وفى أهل الجهاد والسيف ، وفى التجار والزراع والصناع
وليس من شرط الولي أن يكون معصوماً لا يغلط ولا يخطئ ، بل يجوز أن. . .
. . . يخفى عليه بعض علم الشريعة ، ويجوز أن يشتبه عليه بعض أمور الدين

ولا يحزنك قولهم ان العزة لله جميعا هو السميع العليم

كما فسرها الوسيط وبعد أن بين - سبحانه - ما عليه أولياؤه من سعادة دنيوية
وأخروية ، أتبع ذلك بتسلية الرسول - صلى الله عليه وسلم - عما لقيه من
أعدائه من أذى فقال : ( وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنّ العزة للَّهِ
جَمِيعاً هُوَ السميع العليم ) .أى : ولا يحزنك يا محمد ما قاله أعداؤك فى
، شأنك ، من أنك ساحر أو مجنون ، لأن قولهم هذا إنما هو من باب حسدهم لك
- وجحودهم لدعوتك .والنهي عن الحزن - وهو أمر نفسي لا اختيار للإنسان فيه
، المراد به هنا النهي عن لوازمه ، كالإكثار من محاولة تجديد شأن المصائب
وتعظيم أمرها ، وبذلك تتجدد الآلام ، ويصعب نسيانها .وفي هذه الجملة
الكريمة تسلية له - صلى الله عليه وسلم - وتأنيس لقلبه ، وإرشاد له إلى ما
سيقع له من أعدائه من شرور ، حتى لا يتأثر بها عند وقوعها .وقوله : ( إِنّ
العزة للَّهِ جَمِيعاً هُوَ السميع العليم ) تعليل للنهي على طريقة
الاستئناف ، فكأنه - صلى الله عليه وسلم - قد قال : وما لي لا أحزن وهم قد
كذبوا دعوتي؟ فكان الجواب : إن الغلبة كلها ، والقوة كلها لله وحده لا
) لغيره ، فهو - سبحانه - القدير على أن يغلبهم ويقهرهم ويعصمك منهم ، وهو
السميع ) ، لأقوالهم الباطلة ، ( العليم ) بأفعالهم القبيحة ، وسيعاقبهم
على ذلك يوم القيامة عقاباً أليماً .ولا تعارض بين قوله - سبحانه - ( إِنّ
العزة للَّهِ جَمِيعاً ) وبين قوله فى آية أخرى ( وَلِلَّهِ العزة
وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ) لأن كل عزة لغيره - سبحانه - فهي مستمدة
- من عزته ، وكل قوة من تأييده وعونه ، والرسول - صلى الله عليه وسلم
والمؤمنون ، إنما صاروا أعزاء بفضل ركونهم إلى عزة اللَّهِ - تعالى - وإلى
الاعتماد عليه ، وقد أظهرها - سبحانه - على أيديهم تكريماً لهم .ولذا قال
القرطبي - رحمه الله - قوله : ( إِنّ العزة للَّهِ جَمِيعاً ) أى : القوة
الكاملة ، والغلبة الشاملة ، والقدرة التامة لله وحده ، فهو ناصرك ومعينك
ومانعك . و ( جميعاً ) نصب على الحال ، ولا يعارض هذا قوله :( وَلِلَّهِ
العزة وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ) فإن كل عزة بالله فهي كلها لله
، قال - سبحانه - ( سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العزة عَمَّا يَصِفُونَ ).

الا ان لله من في السماوات ومن في الارض وما يتبع الذين يدعون من دون الله
شركاء ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون

كما فسرها الوسيط ثم قال - تعالى - ( ألا إِنّ للَّهِ مَن فى السماوات
وَمَنْ فى الأرض ) أى : ألا إن لله وحده ملك جميع من فى السموات ومن فى
الأرض من إنس وجن وملائكة .وجاء التعبير القرآني هنا بلفظ ( من ) الشائع فى
العقلاء ، للإيذان بعدم الحاجة إلى التصريح بغيرهم ، لأنهم إذا كانوا مع
شرفهم وعلو منزلتهم مملوكين لله - تعالى - كان غيرهم ممن لا يعقل أولى بذلك
قال صاحب الكشاف قوله : ( ألا إِنَّ للَّهِ مَن فى السماوات وَمَنْ فى.
الأرض ) يعني العقلاء المميزين وهم الملائكة والثقلان ، وإنما خصهم بالذكر
- ليؤذن أن هؤلاء إذا كانوا له وفى ملكه ، فهم عبيد كلهم ، وهو - سبحانه
ربهم ، ولا يصلح أحد منهم للربوبية ، ولا أن يكون شريكاً له فيها ، فما
وراءهم مما لا يعقل أحق أن لا يكون له ندا وشريكاً ، وليدل على أن من اتخذ
غيره ربا من ملك أو إنس ، فضلاً عن صنم أو غير ذلك ، فهو مبطل تابع لما أدى
إليه التقليد وترك النظر .وقوله : ( وَمَا يَتّبِعُ الذين يَدْعُونَ مِن
دُونِ الله شُرَكَآءَ ) .أى : وما يتبع هؤلاء المشركون فى عبادتهم لغير
الله شركاء فى الحقيقة ، وإنما يتبعون أشياء أخرى سموها من عند أنفسهم
شركاء جهلا منهم ، لأن الله - تعالى - تنزه وتقدس عن أن يكون له شريك أو
شركاء فى ملكه أو فى عبادته .وعلى هذا التفسير تكون ( ما ) فى قوله ( وَمَا
يَتّبِعُ ) نافية ، وقوله ( شُرَكَآءَ ) مفعول يتبع ، ومفعول يدعون محذوف
لدلالة ما قبله عليه ، أى : وما يتبع الين يدعون من دون الله آلهة شركاء
) ويجوز أن تكون ( ما ) استفهامية منصوبة بقوله ( يتبع ) ، ويكون قوله.

شُرَكَآءَ ) منصوب بقوله ( يَدْعُونَ ) وعليه يكون المعنى .أي شيء يتبع
هؤلاء المشركون فى عبادتهم؟ إنهم يعبدون شركاء سموهم بهذا الاسم من عند
) : أنفسهم ، أما هم فى الحقيقة فلا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا .وقوله
إِن يَتَّبِعُونَ إِلاّ الظن وَإِنْ هُمْ إِلاّ يَخْرُصُونَ ) أى : ما
يتبعون فى عبادتهم لغير الله إلا الظن الذى لا يغني عن الحق شيئا ، وإلا
الخرص المبني على الوهم الكاذب ، والتقدير الباطل .وأصل الخرص : الحزر
والتقدير للشيء على سبيل الظن لا على سبيل الحقيقة .قال الراغب : وحقيقة
ذلك أن كل قول مقول عن ظن وتخمين يقال له خرص ، سواء أكان مطابقاً للشيء أو
مخالفاً له ، من حيث إن صاحبه لم يقله عن علم ولا غلبة ظن ولا سماع ، بل
اعتمد فيه على الظن والتخمين كفعل الخارص فى خرصه - أى : كفعل من يخرص
الثمرعلى الشجر - وكل من قال قولاً على هذا النحو قد يسمى كاذباً وإن كان
- قوله مطابقاً للمقول المخبر عنه .وقيل : الخرص : الكذب كما فى قوله
. تعالى - ( وَإِنْ هُمْ إِلاّ يَخْرُصُونَ ) أي يكذبون

هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا ان في ذلك لايات لقوم
يسمعون

- كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - جانباً من مظاهر نعمه على عباده فقال
تعالى - ( هُوَ الذي جَعَلَ لَكُمُ الليل لِتَسْكُنُواْ فِيهِ والنهار
مُبْصِراً . . . )أى الله وحده - سبحانه - هو الذى جعل لكم الليل مظلماً
لكي تستقروا فيه بعد طول الحركة فى نهاركم من أجل معاشكم ، وهو الذى جعل ،
لكم النهار مضيئا لكي تبصروا فيه مطالب حياتكم .والجملة الكريمة بيان
، لمظاهر رحمة الله - تعالى - بعباده ، بعد بيان سعة علمه ، ونفاذ قدرته
وشمولها لكل شيء فى هذا الكون .وقوله : ( إِنَّ فى ذلك لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ
يَسْمَعُونَ ) أى : إن فى ذلك الجعل المذكور لدلائل واضحات لقوم يسمعون ما
، يتلى عليهم سماع تدبر وتعقل ، يدل على سعة رحمة الله - تعالى - بعباده
. وتفضله عليهم بالنعم التي لا تحصى

قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه هو الغني له ما في السماوات وما في الارض ان
عندكم من سلطان بهذا اتقولون على الله ما لا تعلمون

كما فسرها الوسيط ثم شرع - سبحانه - فى بيان أقبح الرذائل التي تفوه بها
المشركون فقال : ( قَالُواْ اتخذ الله وَلَداً . . . )والمراد بهؤلاء
: القائلين : اليهود الذين قالوا : عزير ابن الله - والنصارى الذين قالوا
المسيح ابن الله ، وكفار العرب الذين قالوا : الملائكة بنات الله ، وغيرهم
من نحا نحوهم فى تلك الأقوال الشائنة .وقوله : ( سُبْحَانَهُ هُوَ الغني
لَهُ مَا فى السماوات وَمَا فى الأرض ) تنزيه له - عز وجل - عما قالوا ، فى
حقه من أقاويل باطلة .أى : تنزه وتقدس عن أن يكون له ولد ، لأنه هو الغني
، بذاته عن الولد وعن كل شيء ، وهو المالك لجميع الكائنات علويها وسفليها
وهو الذى لا يحتاج إلى غيره ، وغيره محتاج إليه ، وخاضع لسلطان قدراته
قال - تعالى - : ( وَقَالُواْ اتخذ الرحمن وَلَداً . وَمَا يَنبَغِي
للرحمن أن يَتَّخِذَ وَلَداً . إِن كُلُّ مَن فِي السماوات والأرض إِلاَّ
. آتِي الرحمن عَبْداً . لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً
وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ القيامة فَرْداً ) وقوله : ( إِنْ عِندَكُمْ
مِّن سُلْطَانٍ بهاذآ ) تجهيل لهم ورد عليهم . و ( إن ) هنا نافية ، و ( من
مؤكدة لهذا النفي ، ومفيدة للعموم ، والسلطان : الحجة والبرهان .أى : ما (
عندكم دليل ولا شبهة دليل على ما زعمتوه من أن لله ولدا ، وإنما قلتم ما
) - قلتم لانطماس بصيرتكم ، واستحواذ الشيطان على نفوسكم .وقوله - سبحانه
أَتقُولُونَ عَلَى الله مَا لاَ تَعْلَمُونَ ) توبيخ آخر لهم على جهلهم
وكذبهم .أى : أتقوولن على الله - تعالى - قولاً ، لا علم لكم به ، ولا
معرفة لكم بحقيقته؟ إن قولكم هذا لهو دليل على جهلكم وعلى تعمدكم الكذب
والبهتان .قال الآلوسى : " وفي الآية دليل على أن كل قول لا دليل عليه فهو
" جهالة . وأن العقائد لا بد لها من قاطع ، وأن التقليد بمعزل من الاهتداء
.

قل ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون

كما فسرها الوسيط وقوله : ( قُلْ إِنّ الذين يَفْتَرُونَ عَلَى الله الكذب
: لاَ يُفْلِحُونَ ) إنذار لهم بسوء العاقبة إذا ما استمروا على شركهم .أى
قل لهؤلاء المشركين على سبيل الإنذار والتهديد : إن الذين يفترون على الله
الكذب بنسبة الولد إليه ، والشريك له ، لا يفلحون ولا يفوزون بمطلوب أصلاً
.

متاع في الدنيا ثم الينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( مَتَاعٌ فى الدنيا ) بيان لتفاهة ما يحرصون عليه من شهوات الحياة الدنيا ، وهو خبر لمبتدأ محذوف .أى : أن ما يتمتعون به فى الدنيا من شهوات وملذات ، هو متاع قليل مهما كثر ، لأنه إلى فناء واندثار .ثم بين - سبحانه - سوء مصيرهم بعد أن غرتهم الدنيا بشهواتها فقال : ( ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ العذاب الشديد بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ).أى : ثم إلينا لا إلى غيرنا مرجعهم يوم القيامة ، ثم نحاسبهم حساباً عسيراً على أقوالهم الذميمة ، وأفعالهم القبيحة ، ثم نذيقهم العذاب الشديد بسبب كفرهم بآياتنا ، وتكذيبهم لنبينا - صلى الله عليه وسلم - .وبذلك رنى أن هذه الآيات الكريمة ، قد مدحت أولياء الله الصالحين ، وبشرتهم بالسعادة الدنيوية والأخروية ، وأقامت الأدلة على قدرة الله النافذة ورحمته الواسعة ، وردت على افتراءات المشركين بما يبطل أقوالهم ، ويفضح مزاعمهم .

واتل عليهم نبا نوح اذ قال لقومه يا قوم ان كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بايات الله فعلى الله توكلت فاجمعوا امركم وشركاءكم ثم لا يكن امركم عليكم غمة ثم اقضوا الي ولا تنظرون

كما فسرها الوسيط وبعد أن ساقت السورة الكريمة ما ساقت من الأدلة على وحدانية الله وعلى صدق رسوله - صلى الله عليه وسلم - وعلى حسن عاقبة المؤمنين وسوء عاقبة المكذبين . . بعد كل ذلك تحدثت عن بعض قصص الأنبياء مع أقوامهم ، فبدأت بجانب من قصة نوح - عليه السلام - مع قومه ، وكيف أن الله - تعالى - أغرقهم بعد أن تمادوا فى ضلالهم ، فقال - سبحانه - :( واتل عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ . . . ) .قال الإمام الرازي : " اعلم أنه - سبحانه - لما بالغ فى تقرير الدلائل والبينات وفى الجواب عن الشبه والسؤالات ، شرع بعد ذلك فى بيان بعض قصص الأنبياء - عليهم السلام - لوجوه :أحدها : أن الكلام إذا طال فى تقرير نوع من أنواع العلوم ، فربما حصل نوع من أنواع الملالة ، فإذا انتقل الإنسان من ذلك الفن من العلم إلى فن آخر ، انشرح صدره ، ووجد فى نفسه رغبة جديدة .وثانيها : ليكون للرسول - صلى الله عليه وسلم - ولأصحابه ، أسوة بمن سلف من الأنبياء ، فإن الرسول - صلى الله عليه وسلم - إذا سمع أن معاملة الكفار لأنبيائهم سيئة . خف ذلك على قلبه ، لأن المصيبة إذا عمت خفت .وثالثها : أن الكفار إذا سمعوا هذه القصص ، وعلموا أن العاقبة للمتقين كان ذلك سببا فى انكسار قلوبهم ، ووقوع الخوف والوجل فى نفوسهم . وحينئذ يقلوعون عن أنواع الإيذاء ، والسفاهة . . . " .ونوح - عليه السلام - : واحد من أولى العزم من الرسل وينتهي نسبة إلى شيث بن آدم - عليه السلام - وقد ذكر فى القرآن فى ثلاثة وأربعين موضعا .وكان قومه يعبدون الأصنام ، فأرسل الله إليهم نوحاً ليدلهم على طريق الرشاد .وقد تكررت قصته مع قومه فى سورة الأعراف ، وهود ، والمؤمنون ، ونوح . . بصورة أكثر تفضيلاً .أما هنا فى سورة يونس فقد جاءت بصورة مجملة ، لأن الغرض منها هنا ، إبراز جانب التحدي من نوع لقومه ، بعد أن مكث فيهم زمانا طويلاً ، يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، وترك عبادة غيره والمعنى : واتل - يا محمد - على مسامع هؤلاء المشركين الذين مردوا على افتراء الكذب ، نبأ نوح - عليه السلام - مع قومه المغترين بأموالهم وكثرتهم - ليتدبروا ما فى هذا النبأ من عظات وعبر . وليعلموا أن سنة الله - تعالى قد اقتضت أن يجعل العاقبة للمتقين .والمقصود من هذه التلاوة ، دعوة مشركي مكة وأمثالهم ، إلى التدبر فيما جرى للظالمين من قبلهم ، لعلهم بسبب هذا التدبر والتأمل يثوبون إلى رشدهم ويتبعون الدين الحق الذى جاءهم به نبيهم محمد - صلى الله عليه وسلم - .وقوله : ( ياقوم إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ الله فَعَلَى الله تَوَكَّلْتُ . . ) بيان لما قاله لهم بعد أن مكث فيهم زمنا طويلا ، ، وسمع منهم ما سمع من استهزاء بدعوته ، ، وتطاول على أتباعه .أى : قال نوح لقومه بعد أن دعاهم ليلا ونهارا : يا قوم إن كان ( كَبُرَ عَلَيْكُمْ ) .أى : شق وعظم عليكم ( مَّقَامِي ) فيكم ووجودي بين أظهركم عمرا طويلا ( وَتَذْكِيرِي ) إياكم بآيات الله الدالة على وحدانيته وقدرته ، ، والتي تستلزم منكم إخلاص العبادة له والشكر لنعمه .إن كان كبر عليكم ذلك فعلى الله وحده توكلت ، وإليه وحده فوضت أمري ولن يصرفني عن الاستمرار فى تبليغ ما أمرنى بتبليغه وإليه أو وعيد منكم .وخاطبهم - عليه السلام - بقوله : ( ياقوم ) استمالة لقلوبهم ، وإشعار لهم بأنهم أهله وأقرباؤه الذين يحب لهم الخير ، ويكره لهم الشر .وجملة ( فَعَلَى الله تَوَكَّلْتُ ) جواب الشرط . وقيل جواب الشرط محذوف والتقدير : إن كان كبر عليكم ذلك فافعلوا ما شئتم فإني على الله وحده توكلت فى تبليغ دعوته لكم .وقوله : ( فأجمعوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ) معطول على ما قبله .والفعل ( أجمعوا ) بقطع الهمزة مأخذو من أجمعت على الأمر إذا عزمت عليه عزما مؤكدا ووطنت نفسك على المضي فيه بدون تردد أو تقاعس .والمراد بالأمر هنا : المكر والكيد والعداوة وما يشبه بذلك .والمراد

بشركائهم : أصنامهم التي عبدوها من دون الله وظنوا فيها النفع والضرر والتمسوا فيها العون والنصرة .والمعنى : أن نوحا - عليه السلام - قد قال قولمه بصراحة ووضوح : يا قوم إن كان قد شق عليكم مقامي فيكم ، وتذكيري ، بآيات الله الدالة على وحدانيته فأجمعوا ما تريدون جمعه من مكر وكيد بي ، ثم ادعوا شركاءهم ليساعدوكم فى ذلك فإنى ماض فى طريقى الذى أمرنى الله به ) بدون مبالاة بمكركم وبدون اهتمام بكيدكم .قال الآلوسى : " وقوله وَشُرَكَآءَكُمْ ) منصوب على أنه مفعول معه لأن الشركاء عازمون لا معزوم عليهم . وقيل إنه منصوب بالعطف على قوله ( أَمْرَكُمْ ) بحذف المضاف أي فأجمعوا أمركم وأمر شركائكم .وقرأ نافع : فاجمعوا بوصل الهمزة وفتح الميم من جع وعطف الشركاء على الأمر فى هذه القراءة ظاهر بناء على أنه يقال : جمعت شركائي ، كما يقال جمعت أمرى . . . "وقوله : ( ثُمّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمّةً ) معطوف على ما قبله ، ومؤكد لمضمونه .وكلمة بمعنى الستر والخفاء . يقال : غم على فلان الأمر أى : خفى عليه ( غُمَّةً ) واستتر .ومنه الحديث الشريف :" صوموا لرؤيته - أى الهلال - وأفطروا لرؤيته فإن غم عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يوما " أي فإن استتر وخفى عليكم الهلال وحال دون رؤيتكم له حائل من غيم أو ضباب فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يوما .أى : أجمعوا ما تريدون جمعه لي من مكر وكيد واستعينوا على ذلك بشركائكم ثم لا يكن أمركم ، الذى أجمعتم على تنفيذه فيه شيء من الستر أو الخفاء أو الالتباس الذى يجعلكم مترددين فى المضي فيه أو متقاعسين عن مجاهرتي بما تريدون فعله معى .ومنهم من يرى أن كلمة (غُمَّةً ) هنا بمعى الغم كالكربة بمعنى الكرب أى : ثم لا يكن حالكم غما كائنا عليكم بسبب مقامى فيكم وتذكيري إياكم بآيات الله .وقد أشار صاحب الكشاف إلى هذين الوجهين فقال : " فإن قلت : ما معنى الأمرين : أمرهم الذى يجمعونه وأمرهم الذى لا يكون عليهم غمة؟قلت : أما الأمر الأول فالقصد إلى إهلاكه يعني : فاجمعوا ما تريدون من إهلاكى واحتشدوا فيه ، وابذلوا وسعكم فى كيدي .وإنما قال ذلك ، إظهارا لقلة مبالاته بهم وثقته بما وعده به ربه من كلاءته وعصمته إياه وأنهم لن يجدوا إليه سبيلا .وأما الثانى ففيه وجهان : أحدهما أن يراد مصاحبتهم له وما كانوا فيه معه من الحال الشديدة عليهم ، المكروهة عندهم . يعني : ثم أهلكوني لئلا يكون عيشكم بسببي غصة عليكم . وحالكم عليكم غمة أي : غما وهما . والغم والغمة كالكرب والكربة .وثانيهما : أن يراد به ما أريد بالأمر الأول . والغمة السترة من غمة إذا ستره ، وفى الحديث "لا غمة فى فرائض الله " أى لا تستر ولكن يجاهر بها .يعنى : ولا يكن قصدكم إلى إهلاكى مستورا عليكم . ولكن مكشوفا مشهورا تجاهرونني به " .وقوله : ( ثُمّ اقضوا إِلَيّ وَلاَ تُنظِرُونَ ) زيادة فى تحديهم وإثارتهم .والقضاء هنا بمعنى الأداء ، من قولهم : قضى المدين للدائن دينه ، إذا أداه إليه ، وقضى فلان الصلاة . أى أداها بعد مضي وقتها .أى : ثم أدوا إلى ذلك الامر الذى تريدون أداءه من إيذائى أو إهلاكى بدون إنظار أو إمهال .ويصح أن يكون القضاء هنا بمعنى الحكم ، أى : ثم احكموا على بما تريدون من أحكام ، ولا تتركوا لي مهلة فى تنفيذها ، بل نفذوها على فى الحال .فأنت ترى فى هذه الآية الكريمة كيف أن نوحا - عليه السلام - كان فى نهاية الشجاعة فى مخاطبته لقومه ، بعد أن مكث فيهم مكث وهو يدعوهم إلى عبادة الله - تعالى - وحده .فهو - أولا - يصارحهم بأنه ماض فى طريقه الذى أمره الله بالمضي فيه ، وهو تذكيرهم بالدلائل الدالة على وحدانية الله ، وعلى وجوب إخلاص العبادة له سواء أشق عليهم هذا التذكير أم لم يشق ، وأنه لا اعتماد له على أحد إلا على الله وحده .وهو - ثانيا - يتحداهم بأن يجمعوا أمرهم وأمر شركائهم وأن يأخذوا أهبتهم لكيده وحربه .وهو - ثالثا - يطالبهم بأن يتخذوا قراراتهم بدون تستر أو خفاء ، فإن الأمر لا يحتاج إلى غموض أو تردد ، لأن حاله معهم قد أصبح واضحا وصريحا .وهو - رابعا - يأمرهم بأن يبلغوه ما توصلوا إليه من قرارات وأحكام وأن ينفذوها عليه بدون تريث أو انتظار ، حتى لا يتركوا له فرصة للاستعداد للنجاة من مكرهم .وهكذا نرى نوحا - عليه السلام - يتحدى قومه تحديا صريحا مثيرا . حتى إنه ليغريهم بنفسه ، ويفتح لهم الطريق لإيذائه وإهلاكه - إن استطاعوا ذلك - .وما لجأ - عليه السلام - إلى هذا التحدي الواضح المثير إلا لأنه كان معتمدا على الله - تعالى - الذى تتضاءل أمام قوته كل قوة وتتهاوا إزاء سطوته كل سطوة ويتصاغر كل تدبير وتقدير أمام تدبيره وتقديره .وهكذا نرى القرآن الكريم يسوق للدعاة فى كل زمان تلك المواقف المشرفة لرسل الله - عليهم الصلاة والسلام - لكي يقتدوا بهم فى شجاعتهم ، وفى اعتمادهم على الله وحده ، وفى ثباتهم أمام الباطل مهما بلغت قوته ، واشتد جبروته .ومتى فعلوا ذلك ، كانت العاقبة لهم لأنه - سبحانه - تعهد أن ينصر من ينصره .

فان توليتم فما سالتكم من اجر ان اجري الا على الله وامرت ان اكون من المسلمين

كما فسرها الوسيط ولنمض مع القصة حتى النهاية لنرى الدليل على ذلك فقد

حكى - سبحانه - ما دار بين نوح وبين قومه بعد هذا التحدي السافر لهم فقال
أى : فإن أعرضتم - أيها الناس - عن قولي ، وعن ( فَإِن تَوَلَّيْتُمْ ):
تذكيري إياكم بآيات الله بعد وقوفكم على أمري وعلى حقيقة حالي . فما سألتكم
من أجر ، أى : فإني ما سألتكم فى مقابل تذكيري لكم ، أو دعوتى إياكم إلى
، الحق ، ومن أجر تؤدونه لي - ( إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ ) وحده
فهو الذى يثيبني على قولي وعملي وهو الذى يعطيني من الخير ما يغنيني عن
أجركم وعطائكم وهو - سبحانه - الذى أمرنى ( أَنْ أَكُونَ مِنَ المسلمين )
. أى : المنقادين لأمره . المتبعين لهديه ، المستسلمين لقضائه وقدره

فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف واغرقنا الذين كذبوا
باياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - العاقبة الطيبة التي آل إليها أمر نوح
) : عليه السلام والعاقبة السيئة التى انتهى إليها حال قومه فقال
فَكَذَّبُوهُ ) أى : فكذب قوم نوح نبيهم نوحا بعد أن دعاهم إلى الحق ليلا
ونهارا وسرا وعلانية .فماذا كانت نتيجة هذا التكذيب؟ كانت نتيجته كما حكته
السورة الكريمة ( فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فى الفلك ) أى : فنجينا
نوحا ومن معه من المؤمنين ، بأن أمرناهم أن يركبوا فى السفينة التي صنعوها
) : بأمر الله ، حتى لا يغرقهم الطوفان الذى أغرق المكذبين .وقوله
وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئِفَ ) أى : وجعلنا هؤلاء الناجين خلفاء فى الأرض
لأولئك المغرقين الذين كذبوا نبيهم نوحا - عليه السلام - وعموا وصموا عن
الحق الذى جاءهم به ودعاهم إليه .هذه هى عاقبة نوح والمؤمنين معه أما عاقبة
من كذبوه فقد بينها - سبحانه - فى قوله : ( وَأَغْرَقْنَا الذين كَذَّبُواْ
بِآيَاتِنَا ) أى : وأغرقنا بالطوفان الذين كذبوا بآياتنا الدالة على
وحدانيتنا وقدرتنا .( فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المنذرين ) أى : فانظر
وتأمل - أيها العاقل - كيف كانت نتيجة تكذيب هؤلاء المنذرين الذين لم تنفع
معهم النذر والآيات التي جاءهم بها نبيهم نوح - عليه السلام - .فالمراد
بالأمر بالنظر هنا : التأمل والاتعاظ والاعتبار لا مجرد النظر الخالي عن
ذلك .وهكذا نجد أن من العبر والعظات التي من أجلها ساق الله - تعالى - قصة
- نوح - عليه السلام - بهذه الصورة الموجزة هنا : إبراز ما كان عليه نوح
عليه السلام - من شجاعة وقوة وهو يبلغ رسالة الله إلى الناس ، واعتماده
التام على خالقه ، وتوكله عليه وحده وتحديه السافر للمكذبين الذين وضعوا
العراقيل والعقبات فى طريق دعوته ، وتحريضه لهم بمثيرات القول على مهاجمته
- إن كان في إمكانهم ذلك ومصارحته لهم بأنه فى غنى عن أموالهم لأن خالقه
سبحانه - قد أغناه عنهم ، وبيان أن سنة الله لا تتخلف ولا تتبدل وهذه السنة
تتمثل فى أنه - سبحانه - قد جعل حسن العاقبة للمؤمنين وسوء العاقبة
. للمكذبين

ثم بعثنا من بعده رسلا الى قومهم فجاءوهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما
كذبوا به من قبل كذلك نطبع على قلوب المعتدين

كما فسرها الوسيط ثم حكت السورة الكريمة أن الله - تعالى - قد أرسل رسلا
كثيرين بعد نوح - عليه السلام - فكان موقف أقوامهم منهم مشابها لموقف قوم
نوح منه ، فقال - تعالى - :( ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلاً إلى
قَوْمِهِمْ . . . ) .أى : ثم بعثنا من بعد نوح - عليه السلام - رسلا كثيرين
دوى قدر عظيم إلى أقوامهم ، ليخرجوهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان
فهود - عليه السلام - أرسلناه إلى قوم عاد ، وصالح - عليه السلام - أرسلناه
إلى ثمود ، وهذا أرسلنا رسلا كثيرين إلى أقوامهم .وقوله : ( فَجَآءُوهُمْ
بالبينات ) أى : فأتى كل رسول قومه بالمعجزات الواضحات ، وبالحجج الساطعات
الدالة على صدقه فيما يبلغه عن ربه .وقوله - ( فَمَا كَانُواْ
لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ ) بيان لموقف هؤلاء
الأقوام الجاحدين من رسلهم الذين جاءوا لهدايتهم وسعادتهم .وللمفسرين في
، معنى هذه الجملة الكريمة أقوال :فمنهم من يرى أن الضمائر فى " كانوا
ويؤمنوا ، وكذبوا " تعود على أقوام الرسل الذين جاءوا من بعد نوح - عليه
السلام - وأن المراد بقوله : ( من قبل ) أى : من قبل مجئ الرسل إليهم
والمعنى على هذا الرأى : ثم بعثنا من بعد نوح - عليه السلام - رسلا كثيرين.
إلى أقوامهم فجاءهم بالمعجزات الدالة على صدقهم ، إلا أن هؤلاءا لأقوام
الأشقياء . استمروا على كفرهم وعنادهم ، وامتنعوا عن الإيمان بما كذبوا به
من قبل مجئ الرسل إليهم وهو إفراد الله - تعالى بالعبادة والطاعة فكان
حالهم فى الإصرار على الكفر والجحود قبل مجئ الرسل إليهم ، كحالهم بعد أن
جاءهم بالهدى ودين الحق ، حتى لكأنهم لم يأتهم من بشير ولا نذير .ومن
) : المفسرين الذين قالوا بهذا الرأى الإمام البيضاوي فقد قال : " قوله
فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ ) أى : فما استقام لهم أن يؤمنوا لشدة
شكيمتهم في الكفر ، وخذلان الله إياهم . . بما كذبوا به من قبل ، أى بسبب

- تعودهم تكذيب الحق ، وتمرنهم عليه قبل بعثة الرسل - عليهم الصلاة والسلام
ومنهم من يرى - أيضا - أن الضمائر تعود على أقوام الرسل الذين جاءوا من. "
بعد نوح - عليه السلام - إلا أن المراد بقوله ( مِن قَبْلُ ) : أى : من قبل
- ابتداء دعوة الرسل لهؤلاء الأقوام .وعليه يكون المعنى : ثم بعثنا من نوح
عليه السلام - رسلا كثيرين إلى أقوامهم ، فجاءهم بالأدلة الواضحة الدالة
، على صدقهم ، إلا أن هؤلاء الأقوام قابلوا رسلهم بالتكذيب من أول يوم
واستمروا على ذلك حتى آخر أحوالهم معهم ، فكان تكذيبهم لهم فى آخر أحوالهم
معهم ، يشبه تكذيبهم لهم من قبل : أى : فى أول مجيئهم إليهم .ومن المفسرين
الذين قالوا بهذا الرأى : الإمام ابن كثير فقال قال : " قوله : ( فَمَا
كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ ) أى : فما كانت
الأمم لتؤمن بما جاءتهم به رسلهم ، بسبب تكذيبهم إياهم أول من أرسلوا إليهم
كما قال - تعالى -( وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا ،
: لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ) ومنهم من يرى أن الضمير فى قوله
كانوا ويؤمنوا " يعود على أقوام الرسل الذين جاءوا من بعد نوح - عليه
السلام - وأن الضمير فى قوله " كذبوا " يعود إلى قوم نوح ، وعلى هذا الرأى
، يكون المعنى :ثم بعثنا من بعد نوح - عليه السلام - رسلا إلى أقوامهم
فجاءوهم بالآيات البينات الدالة على صدقهم ، ولكن هؤلاء الأقوام استمروا فى
كفرهم وعنادهم ، وأبوا أن يؤمنوا بوحدانية الله التي كذب بها قوم نوح من
قبل .ومن المفسرين الذين قالوا بهذا الرأى الإمام ابن جرير فقد قال " قوله
يقول ( فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ ) :
فما كانوا ليصدقوا بما جاءتهم به رسلهم وبما كذب به قوم نوح ومن قبلهم " :
من الأمم الخالية . . "وعلى أية حال فهذه الأقوال الثلاثة ، تدل على أن
هؤلاء الأقوام عموا وصموا عن الحق ، واستمروا على ذلك دون أن تحولهم الآيات
البينات التى جاءهم بها الرسل عن عنادهم وضلالهم .وقوله : ( كَذَلِكَ
نَطْبَعُ على قُلوبِ المعتدين ) بيان لسنة الله - تعالى - فى خلقه التى لا
تتخلف ولا تتبدل . والطبع : الختم والاستيثاق بحيث لا يخرج من الشيء ما دخل
فيه ، ولا يدخل فيه ما خرج منه .أى : مثل ذلك الطبع المحكم نطبع على قلوب
المعتدين المتجاوزين للحدود فى الكفر والجحود ، وذلك بخذلانهم ، وتخليتهم
. وشأنهم ، لانهماكهم فى الغواية والضلال

ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون الى فرعون وملئه باياتنا فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين

- كما فسرها الوسيط ثم ساقت السورة الكريمة بعد ذلك ، جانبا من قصة موسى
عليه السلام - مع فرعون وملئه ، فبدأت بحكاية بعض المحاورات التى دارت بينه
وبينهم ، فقال - تعالى - :( ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِمْ موسى
وَهَارُونَ . . . ) .قوله - سبحانه - ( ثُمّ بَعَثْنَا . . ) معطوف على ما
. قبله وهو قوله : ( ثُمّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلاً إلى قَوْمِهِمْ
من باب عطف القصة على القصة ، وهو من قبيل عطف الخاص على العام ، لما ( . .
فى هذا الخاص من عبر وعظات .والمعنى : ثم بعثنا من بعد هؤلاء الرسل الكرام
الذين جاءوا لأقوامهم بالأدلة والبينات . ( موسى وَهَارُونَ ) عليهما
) السلام . . ( إلى فِرْعَوْنَ ) الذى قال لقومه " أنا ربكم الأعلى " وإلى
ملئه ) أى : خاصته وأشراف مملكته وأركان دولته ، ولذلك اقتصر عليهم ، لأن
، غيرهم كالتابع لهم .( بِآيَاتِنَا ) أى : بعثناهما إليهم مؤيدين بآياتنا
الدالة على قدرتنا ووحدانيتنا وعلى صدقهما فيما يبلغانه عنا من هدايات
وتوجيهات .ويرى كثير من المفسرين أن المراد بقوله ( بِآيَاتِنَا ) الآيات
التسع التى جاء ذكرها فى قوله تعالى فى سورة الإسراء ( وَلَقَدْ آتَيْنَا
موسى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ . . . ) قال الجمل : " وتقدم فى الأعراف
منها ثمانية ، ثنتان فى قوله - تعالى - ( فألقى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ
ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ) وقوله : ( وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ
لِلنَّاظِرِينَ ) وواحدة في قوله - تعالى - : ( وَلَقَدْ أَخَذْنَآ آلَ
( فِرْعَونَ بالسنين وَنَقْصٍ مِّن الثمرات لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ
وخمسة في قوله - تعالى - : ( فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطوفان والجراد
والقمل والضفادع والدم . . . ) والتاسعة فى هذه السورة - سورة يونس - فى
- قوله - تعالى - : ( رَبَّنَا اطمس على أَمْوَالِهِمْ ) ثم بين - سبحانه
موقف فرعون وملئه من دعوة موسى لهم فقال : ( فاستكبروا وَكَانُواْ قَوْماً
، مُّجْرِمِينَ ) .والاستكبار : ادعاء الكبر من غير استحقاق ، والفاء فصيحة
، والتقدير : ثم بعثنا من بعد أولئك الرسل موسى وهارون إلى فرعون وملئه
فأتياهم ليبلغاهم دعوة الله ، ويأمراهم بإخلاص العبادة له ، فاستكبروا عن
طاعتهما ، وأعجبوا بأنفسهم ، وكانوا قوما شأنهم وديدنهم الإجرام ، وهو
ارتكاب ما عظم من الذنوب ، وقبح من الأفعال .ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال
عند تفسيره لهذه الجملة : " فاستكبروا عن قبولها ، وهو أعظم الكبر أن
. " يتهاون العبيد برسالة ربهم بعد تبينها ، ويتعظموا عن تقبلها

فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا ان هذا لسحر مبين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما تفوهوا به من أباطيل عندما جاءهم
موسى بدعوته فقال : ( فَلَمَّا جَآءَهُمُ الحق مِنْ عِندِنَا قالوا إِنَّ
- هذا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ) .أى : فلما وصل إليهم الحق الذي جاءهم به موسى
عليه السلام - من عندنا لا من غيرنا ( قالوا ) على سبيل العناد والحقد
: والغرور ( إِنَّ هذا ) الذي جئت به يا موسى ( لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ) أى
لسحر واضح ظاهر لا يحتاج إلى تأمل أو تفكير .والتعبير بقوله ( جَآءَهُمُ )
يفيد أن الحق قد وصل إليهم بدون تعب منهم ، فكان من الواجب عليهم - لو
كانوا يعقلون - أن يتقبلوه بسرور واقتناع .وفى قوله ( مِنْ عِندِنَا )
تصوير لشناعة الجريمة التي ارتكبوها فى جانب الحق ، الذى جاءهم من عند
الله - تعالى -لا من عند غيره .والمراد بالحق هنا : الآيات والمعجزات التي
جاءم بها موسى - عليه السلام - لتكون دليلا على صدقه فيما يبلغه عن ربه
وقولهم - كما حكى القرآن عنهم - ( إِنَّ هذا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ) بالقسم.
المؤكد : يدل على تبجحهم الذميم ، وكذبهم الأثيم ، حيث وفوا الحق الذى لا
باطل معه بأنه سحر واضح ، وهكذا عندما تقسو القلوب وتفسق النفوس ، تتحول
الحقائق في زعمها إلى أكاذيب وأباطيل .

قال موسى اتقولون للحق لما جاءكم اسحر هذا ولا يفلح الساحرون

كما فسرها الوسيط ثم حكى القرآن الكريم رد موسى - عليه السلام - على
مفترياتهم فقال : ( قَالَ موسى أَتقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ
أَسِحْرٌ هذا وَلاَ يُفْلِحُ الساحرون ) .وفى الآية الكريمة كلام محذوف دل
عليه المقام ، والتقدير :قال موسى لفرعون وملئه منكرا عليهم غرورهم وكذبهم
الذى هو أبعد ما يكون عن السحر ، حين مشاهدتكم ( أَتقُولُونَ لِلْحَقِّ ) ،
له .يا سبحانن الله!! أفلا عقل لكم يحجزكم عن هذا القول الذي يدل على
الجهالة والغباء ، انظروا وتأملوا ( أَسِحْرٌ هذا ) الذي ترون حقيقته
بأعينكم ، وترتجف من عظمته قلوبكم ، والحال أنه ( وَلاَ يُفْلِحُ الساحرون
فى أى عمل من شأنه أن يهدى إلى الخير والحق .فقد حذفت جملة ( إِنَّ هذا (
: لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ) لدلالة قوله ( أَسِحْرٌ هذا ) عليه .قال صاحب الكشاف
فإن قلت : هم قطعوا بقولهم : إن هذا لسحر مبين ، على أنه سحر فكيف قيل "
لهم أتقولون : أسحر هذا؟قلت : فيه أوجه : أن يكون معنى قوله ( أَتقُولُونَ
، لِلْحَقِّ ) : أتعيبونه وتطعنون فيه ، وكان عليكم أن تذعنوا له وتعظموه
من قولهم : فلان يخاف القالة ، وبين الناس تقاول ، إذا قال بعضهم لبعض ما
يسوءه .وأن يحذف مفعول أتقولون وهو ما دل عليه قولهم : ( إِنَّ هذا
لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ) كأنه قيل : أتقولون ما تقولون : يعنى قولهم : إن هذا
لسحر مبين ، ثم قيل : أسحر هذا؟وأن يكون جملة قوله " أسحر هذا ولا يفلح
الساحرون " حكاية لكلامهم ، كأنهم قالوا أجئتما إلينا بالسحر تطلبان به
) - الفلاح (وَلاَ يُفْلِحُ الساحرون . . ) .وقال الجمل : " قوله - تعالى
) : قَالَ موسى أَتقُولُونَ . . ) أى : قال جملا ثلاثة : الأولى
أَتقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ) والثانية ( أَسِحْرٌ هذا )
، والثالثة ( وَلاَ يُفْلِحُ الساحرون ) .وقوله ( الحق ) أى فى شأنه ولأجله
وقوله ( لَمَّا جَآءَكُمْ ) أى : حين مجيئه إياكم من أول الأمر من غير تأمل
وتدبر ، وهذا مما ينافي القول المذكور .وقوله : ( قَالَ موسى أَتقُولُونَ
، لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ) هنا مقول القول محذوف لدلالة ما قبله عليه
) وإشارة إلى أنه لا ينبغي أن يتفوه به .وقوله - سبحانه - حكاية عن موسى
أَسِحْرٌ هذا ) مبتدأ وخبر ، وهو استفهام إنكار مستأنف من جهته - عليه
: السلام - تكذيبا لقولهم ، وتوبيخا إثر توبيخ ، وتجهيلا بعد تجهيل .وقوله
جملة حالية من ضمير المخاطبين ، وقد جئ بها ( وَلاَ يُفْلِحُ الساحرون )
تأكيدا للإنكار السابق ، وما فيه من معنى التوبيخ والتجهيل .أى : أتقولون
للحق إنه سحر ، والحال أنه لا يفلح فاعله ، أى :لا يظفر بمطلوب ، ولا ينجو
من مكروه ، وأنا قد أفلحت ، وفزت بالحجة ، ونجوت من الهلكة .ثم كشف القرآن
- الكريم عن حقيقة الدوافع التي جعلتهم يصفون الحق بأنه سحر مبين فقال
تعالى - : ( قالوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ
آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الكبريآء فِي الأرض وَمَا نَحْنُ لَكُمَا
بِمُؤْمِنِينَ ) .واللفت : الصرف واللى يقال : لفته يلفته لفتا ، أى : صرفه
عن وجهته إلى ذات اليمين أو الشمال .أى : قال فرعون وملؤه لموسى - عليه
) السلام - بعد أن جاءهم بالحق المبين : أجئتنا يا موسى بما جئتنا به
: أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ) أى
) لتصرفنا عن الدين الذي وجدنا عليه آباءنا ، وتكون لك ولأخيك هارون
الكبريآء فِي الأرض ) أى السيادة والرياسة والزعامة الدينية والدنيوية في
الأرض بصفة عامة ، وفى أرض مصر بصفة خاصة .ثم أكدوا إنكارهم لما جاءهم به
) - موسى - عليه السلام - من الدين الحق فقالوا - كما حكى القرآن عنهم
وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ) أى وما نحن لكما بمصدقين فيما جئتما

به ، لأن تصديقنا لكما يخرجنا عن الدين الذى وجدنا عليه آباءنا ، وينزع منا ملكنا الذي تتمتع بكبريائه خاصتنا ، وتعيش تحت سلطانه وقهره عامتنا .

قالوا اجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه اباءنا وتكون لكما الكبرياء في الارض وما نحن لكما بمؤمنين

) كما فسرها الوسيط وأفردوا موسى - عليه السلام - بالخطاب في قولهم أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا . . ) لأنه هو الذى كان يجابههم بالحجج التى تقطع دابر باطلهم ، ويرد على أكاذيبهم بما يفضحهم ويكشف عن غرورهم وغبائهم وجمعوا بين موسى وهارون - عليهما السلام - في قولهم ( وَتَكُونَ لَكُمَا الكبرياء فِي الأرض وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ) باعتبار شمول الكبرياء والرياسة والملك لهما ، وباعتبار أن الإيمان بأحدهما يستلزم الإيمان بالآخر .هذا ، والذى يتدبر هذه الآية الكريمة ، يرى أن التهمة التى وجهها فرعون وملؤه إلى موسى وهارون - عليهما السلام - هي تهمة قديمة جديدة فقوم نوح - مثلا - يمتنعون عن قبول دعوته ، لأنه في نظرهم جاء بما جاء به بقصد التفضل عليهم ، وفي هذا يقول القرآن الكريم : ( وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَقَالَ ياقوم اعبدوا الله مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ . فَقَالَ الملأ الذين كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ مَا هذا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ) أى : يريد أن تكون له السيادة والفضل عليكم ، فيكون زعيما وأنتم له تابعون .ولقد أفاض في شرح هذا المعنى صاحب الظلال - رحمه الله - عند تفسيره لهذه الآية الكريمة فقال ما ملخصه :وإذن فهو الخوف من تحطيم معتقداتهم الموروثة ، التى يقوم عليها نظامهم السياسي والاقتصادى ، وهو الخوف على السلطان فى الأرض ، هذا السلطان الذى يستمدونه من خرافات عقائدهم الموروثة .إنها العلة القديمة الجديدة التى تدفع بالطغاة إلى مقاومة دعوات الإصلاح ورمى الدعاة بأشنع التهم؛ والفجور فى مقاومة الدعوات والدعاة . . إنها هى " الكبرياء في الأرض " وما تقوم عليه من معتقدات باطلة ، يحرص المتجبرون على بقائها متحجرة في قلوب الجماهير ، بكل ما فيها من زيف وفساد وأوهام وخرافات ، لأن تفتح القلوب على العقيدة الصحيحة ، خطر على القيم ، الجاهلية الموروثة .وما كان رجال من أذكياء قريش - مثلا - ليخطئوا إدراك ما فى رسالة محمد - صلى الله عليه وسلم - من صدق وسمو ، وما فى عقيدة الشرك من تهافت وفساد ، ولكنهم كانوا يخشون على مكانتهم الموروثة ، القائمة على ما فى تلك العقيدة من خرافات وتقاليد ، كمى خشى الملأ من قوم فرعون على سلطانهم فى الأرض ، فقالوا متبجحين ( وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ) .

وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم

، كما فسرها الوسيط ثم حكت الآيات الكريمة بعد ذلك ما طلبه فرعون من ملئه - وما دار بين موسى - عليه السلام - وبين السحرة من محاورات فقال - تعالى أى : وقال فرعون لخاصته بعد أن رأى. ( . . . وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائتوني ): من موسى الإصرار على دعوته ودعوة قومه إلى عبادة الله وحده ، وبعد أن شاهد عصاه وقد تحولت إلى ثعبان مبين .قال فرعون لخاصته بعد أن رأى كل ذلك من موسى - عليه السلام - ( ائتوني ) أيها الملأ ( بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ) ، أى : بكل ساحر من أفراد مملكتي تكون عنده المهارة التامة فى فن السحر والخبرة الواسعة بطرقه وأساليبه .

فلما جاء السحرة قال لهم موسى القوا ما انتم ملقون

كما فسرها الوسيط وقوله : ( فَلَمَّا جَآءَ السحرة . . . ) معطوف على كلام محذوف يستدعيه المقام والتقدير ، فامتثال القوم أمر فرعون وأسرعوا في إحضار السحرة ، فلما جاءوا والتقوا بموسى - عليه السلام - وخيروه بقوله ( إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلقى ) ( قَالَ لَهُمْ موسى ) على سبيل التحدى ( أَلْقُواْ مَآ أَنتُمْ مُّلْقُونَ ) من ألوان سحركم ، ليرى الناس حقيقة فعلكم ، وليميزوا بين حقي وباطلكم .

فلما القوا قال موسى ما جئتم به السحر ان الله سيبطله ان الله لا يصلح عمل المفسدين

كما فسرها الوسيط ( فَلَمَّآ أَلْقُواْ ) أى : فلما ألقى السحرة حبالهم وعصيهم .( قَالَ ) لهم ( موسى ) على سبيل السخرية مما صنعوه .( مَا جِئْتُمْ بِهِ السحر إِنَّ الله سَيُبْطِلُهُ إِنَّ الله لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ المفسدين ) أى : قال لهم موسى : أيها السحرة ، إن الذي جئتم به هو السحر بعينه ، وليس الذي جئت به أنا مما وصفه فرعون وملؤه بأنه سحر مبين وإن الذى جئتم به سيمحقه الله ويزيل أثره من النفوس عن طريق ما أمرنى الله.

به - سبحانه - من إلقاء عصاى ، فقد جرت سنته - سبحانه - أنه لايصلح عمل الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون وصنيعكم هذا هو من نوع الإفساد وليس من نوع الإصلاح .

ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون

كما فسرها الوسيط وقوله : ( وَيُحِقُّ الله الحق بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ المجرمون ) تأكيد لسنة الله - تعالى - في تنازع الحق والباطل ، والصلاح والفساد .أى : نه جرت سنة الله تعالى - أن لا يصلح عمل المفسدين ) بل يمحقه ويبطله ، وأنه - سبحانه - يحق الحق أى يثبته ويقويه ويؤيده ) بِكَلِمَاتِهِ ) النافذة . وقضائه الذى لا يرد ، ووعده الذى لا يتخلف ، وَلَوْ كَرِهَ المجرمون ) ذلك لأن كراهيتهم لإحقاق الحق وإبطال الباطل لا تعطيل مشيئة الله ، ولا تحول بين تنفيذ آياته وكلماته وقد كان الأمر كذلك فقد أوحى الله إلى موسى ( أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ . فَوَقَعَ الحق وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ) ثم - انتقلت السورة الكريمة للحديث عن جانب مما دار بين موسى - عليه السلام وبين قومه بني إسرائيل ، إثر الحديث عن جابر مما دار بينه وبين فرعون وملئه وسحرته فقال - تعالى - :( فَمَآ آمَنَ لموسى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ . . . )

فما امن لموسى الا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم ان يفتنهم وان فرعون لعال في الارض وانه لمن المسرفين

كما فسرها الوسيط قال الجمل : " قوله - سبحانه - (فَمَآ آمَنَ لموسى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ . . . ) . لما ذكر الله - تعالى - ما أتى - به موسى - عليه السلام - من المعجزات العظيمة الباهرة ، أخبر - سبحانه أنه مع مشاهدة هذه المعجزات ، ما آمن لموسى إلا ذرية من قومه . وإنما ذكر الله هذا تسلية لنبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - لأنه كان كثير الاهتمام بإيمان قومه ، وكان يغتم بسبب إعراضهم عن الإيمان به ، واستمرارهم على الكفر والتكذيب ، فبين الله له أن له أسوة بالأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - . لأن ما جاء به موسى من المعجزات ، كان أمرا عظيما . ومع ذلك فما آمن له إلا ذرية من قومه .والآية الكريمة معطوفة على كلام محذوف يدل عليه السياق ، والتقدير : لقد أتى موسى - عليه السلام - بالمعزات التي تشهد بصدقه ، والتى على رأسها ، أن ألقى عصاه فإذا هي تتبلع ما فعله السحرة ، ومع كل تلك البراهين الدالى على صدقه ، فما آمن به إلا ذرية من قومه والمراد بالذرية هنا : العدد القليل من الشباب ، الذين آمنوا بموسى ، بعد أن تخلف عن الإيمان آباؤهم وأغنياؤهم .قال الآلوسى : قوله ( إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ ) أى : إلا أولاد بعض بنى إسرائيل حيث دعا - عليه السلام - الآباء فلم يجيبوه خوفا من فرعون ، وأجابته طائفة من شبابهم فالمراد من الذرية : الشبيان لا الأطفال .والضمير في قوله ( مِّن قَوْمِهِ يعود لموسى - عليه السلام - وعليه يكون المعنى :فما آمن لموسى - عليه ( السلام - فى دعوته إلى وحدانية الله ، إلا عدد قليل من شباب قومه بنى إسرائيل ، الذين كانوا يعيشون فى مصر ، والذين كان فرعون يسومهم سوء العذاب ، أما آباؤهم وأصحاب الجاه فيهم ، فقد انحازوا إلى فرعون طمعا فى عطائه ، وخوفا من بطشه بهم .ويرى بعض المفسرين أن الضمير فى قوله ( مِّن قَوْمِهِ ) يعود إلى فرعون لا إلى موسى .فيكون المعنى : فما آمن لموسى إلا عدد قليل من شباب قوم فرعون .قال ابن كثير ما ملخصه مرجحا هذا الرأى : " يخبر الله - تعالى - أنه لم يؤمن بموسى - عليه السلام - مع ما جاء به الآيات والحجج ، إلا قليل من قوم فرعون ، من الذرية - وهم الشباب - ، على وجل وخوف منه ومن ملئه .قال العوفى عن ابن عباس : " إن الذرية التي آمنت لموسى من قوم فرعون " : منهم : امرأته ، ومؤمن آل فرعون ، وخازنة ، وامرأة خازنه " .ثم قال واختار ابن جرير قول مجاهد فى الذرية ، أنها من بني إسرائيل ، لا من قوم فرعون . لعود الضمير على أقرب مذكور .وفي هذا نظر ، لأن من المعروف أن بنى إسرائيل كلهم آمنوا بموسى . واستبشروا به ، فقد كانوا يعرفون نعته وصفته والبشارة به .وإذا تقرر هذا فكيف يكون المراد إلا ذرية من قوم موسى وهم بنو - إسرائيل؟ .والذي نراه أن ما اختاره ابن جرير من عودة الضمير إلى موسى عليه السلام - أرجح ، لأن هناك نوع خفاء في إطلاق كلمة الذرية على من آمن من قوم فرعون ، ومنهم زوجته ، وامرأة خازنه .ولأنه لا دليل على أن بنى إسرائيل كلهم قد آمنوا بموسى ، بل الحق أن منهم من آمن به ومنهم من كفر به كقارون والسامرى وغيرهما .ولأن رجوع الضمير إلى موسى - هو الظاهر ، المتبادر من الآية ، لأنه أقرب مذكور ، وليس هناك ما يدعو إلى صرف الآية الكريمة عن هذا الظاهر .ورحم الله ابن جرير فقد قال في ترجيحه لما ذهب إليه من دعوة الضمير إلى موسى - عليه السلام - ما ملخصه :وأولى هذه الأقوال عندى ، بتأويل الآية ، القول الذي ذكرته عن مجاهد وهو أن الذرية فى هذا الموضع

أريد بها ذرية من أرسل إليه موسى من بنى إسرائيل ، وإنما قلت هذا القول أولى بالصواب ، لأنه لم يجر فى هذه الآية ذكر لغير موسى ، فلأن تكون الهاء فى قوله ( مِّن قَوْمِهِ ) من ذكر موسى لقربها من ذكره أولى من أن تكون من ذكر فرعون ، لبعد ذكره منها .ولأن فى قوله ( على خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ ) الدليل الواضح على أن الهاء في قوله ( إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ ) من ذكر موسى لقربها من ذكره أولى من أن تكون من ذكر فرعون لبعد ذكره منها .وقوله : ( على خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ ) ، الدليل الواضح على أن الهاء فى قوله ( إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ ) من ذكر موسى لا من ذكر فرعون ، لأنها لو كانت من ذكر فرعون لكان الكلام على خوف منه ، ولم يكن على خوف من فرعون . . "وقوله : ( على خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أن يَفْتِنَهُمْ . . ) حال من كلمة ( ذرية ) و على ) هنا بمعنى مع . والضمير في قوله ( وَمَلَئِهِمْ ) يعود إلى ملأ الذرية ، وهم كبار بني إسرائيل الذين لاذوا بفرعون طمعا في عطائه أو خوفا من عقابه ولم يتبعوا موسى - عليه السلام - .والمعنى : فما آمن لموسى إلا عدد قليل من شباب قومه ، والحال أن إيمانهم كان مع خوف من فرعون ومن أشراف قومهم أن يفتنوهم عن دينهم ، أى : يعذبوهم ليحملوهم على ترك اتباع موسى - عليه السلام .والضمير فى ( يفتنهم ) يعود إلى فرعون خاصة ، لأنه هو الآمر بالتعذيب ولأن الملأ إنما كنوا يأتمرون بأمره ، وينتهون عن نهيه ، فهم كالآلة فى يده يصرفها كيف يشاء .وجملة ( أن يَفْتِنَهُمْ ) فى تأويل مصدر بدل اشتمال من فرعون ، أى : على خوف من فرعون فتنته .وقوله : ( وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأرض وَإِنَّهُ لَمِنَ المسرفين ) اعتراض تذييلي مؤكد لمضمون ما قبله ، ومقرر لطغيان فرعون وعتوه .أى : وإن فرعون المتكبر متجبر فى أرض مصر كلها ، وإنه لمن المسرفين المتجاوزين لكل حد في الظلم والبغى وادعاء ما ليس له .

وقال موسى يا قوم ان كنتم امنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين

كما فسرها الوسيط والمتجبرون والمسرفون يحتاجون فى مقاومتهم إلى إيمان عميق واعتماد على الله وثيق ، وثبات يزيل المخاوف ويطمئن القلوب إلى حسن العاقبة ، ولذا قال موسى لأتباعه المؤمنين :( ياقوم إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بالله فَعَلَيْهِ توكلوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ) .أى : قال موسى لقومه تطمينا لقلوبهم ، وقد رأى الخوف من فرعون يعلو وجوه بعضهم : يا قوم ( إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بالله ) حق الإيمان ، وأسلمتم وجوهكم له حق الإسلام فعليه وحده اعتمدوا ، وبجنابه وحده تمسكوا ، فإن من توكل على الله واتجه إليه ، كان الله مه بنصره وتأييده .

فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين

كما فسرها الوسيط ثم حكى القرآن الكريم جوابهم الذي يدل على صدق يقينهم فقال : ( فَقَالُواْ ) أى مجيبين لنصيحة نبيهم ( على الله ) وحده لا على غيره ( تَوَكَّلْنَا ) واعتمدنا وفوضنا أمورنا إليه .( رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظالمين ) أى يا ربنا لا تجعلنا موضوع فتنة وعذاب للقوم الظالمين . بأن تمكنهم منا فيسوموننا سوء العذاب ، وعندئذ يعتقدون أنهم على الحق ونحن على الباطل ، لأننا لو كنا على الحق - فى زعمهم - لما تمكنوا منا ، ولما انتصروا علينا .

ونجنا برحمتك من القوم الكافرين

كما فسرها الوسيط ثم أضافوا إلى هذا دعاء آخر ، أكثر صراحة من سابقه فى المباعدة بينهم وبين الظالمين فقالوا ( وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ القوم الكافرين ) .أى : نحن لا نلتمس منك يا مولانا ألا تجعلنا فتنة لهم فقط ، بل نلتمس منك - أيضا - أن تنجينا من شرور القوم الكافرين ، وأن تخلصنا من سوء جوارهم ، وأن تفرق بيننا وبينهم كما فرقت بين أهل المشرق وأهل المغرب .قال الإمام الشوكانى : " وفي هذا الدعاء الذي تضرعوا به إلى الله - دليل على أنه كان لهم اهتمام بأمر الدين فوق اهتمامهم بسلامة أنفسهم " .

واوحينا الى موسى واخيه ان تبوا لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة واقيموا الصلاة وبشر المؤمنين

كما فسرها الوسيط وبعد هذا الدعاء المخلص ، وجه الله - تعالى - نبيه موسى وأخاه هارون - عليهما السلام - إلى ما يوصل إلى نصرهما ونصر أتباعهما فقال - تعالى - ( وَأَوْحَيْنَآ إلى موسى وَأَخِيهِ أن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً واجعلوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً . . )وقوله ( تبوءا ) من التبؤ وهو اتخاذ المباءة أى المنزل ، كالتوطن بمعنى اتخاذ

: الوطن .يقال بوأته وبوأت له منزلا إذا أنزلته فيه ، وهيأته له .والمعنى
وأوحينا إلى موسى وأخيه هارون بعد أن لج فرعون فى طغيانه وفى إنزال العذاب
بالمؤمنين - أن اتخذا لقومكما المؤمنين بيوتا خاصة بهم في مصر ، ينزلون بها
ويستقرون فيها ، ويعتزلون فرعون وجنده ، إلى أن يقضى الله أمرا كان ،
مفعولا .وقوله ( واجعلوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ) أى : واجعلوا هذه البيوت
التي حللتم بها مكانا لصلاتكم وعبادتكم ، بعد أن حال فرعون وجنده بينكم
وبين أداء عباداتكم في الأماكن المخصصة لذلك .قال القرطبي : " المراد صلوا
في بيوتكم سرا لتأمنوا ، وذلك حين أخافوا فرعون ، فأمروا بالصبر واتخاذ
المساجد فى البيوت ، والإقدام على الصلاة ، والدعاء ، إلى أن ينجز الله
وعده ، وهو المراد بقوله ( قَالَ موسى لِقَوْمِهِ استعينوا بالله واصبروا )
، وكان من دينهم أنهم لا يصلون إلا في البيع والكنائس ما داموا على أمن
): فإذا خافوا فقد أذن لهم أن يصلوا في بيوتهم . . . " .وقوله
وَأَقِيمُواْ الصلاة ) أى : داوموا عليها ، وأدوها فى أوقاتها بخشوع وإخلاص
فإن فى أدائها بهذه الصورة . وسيلة إلى تفريج الكروب ، وفى الحديث الشريف ،
) كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا حز به أمر صلى " .وقوله " :
وَبَشِّرِ المؤمنين ) تذييل قصد به بعث الأمل في نفوسهم متى أدوا ما كلفوا
به .أى : وبشر المؤمنين بالنصر والفلاح فى الدنيا ، وبالثواب الجزيل فى
الآخرة .قال صاحب الكشاف : " فإن قلت : كيف نوع الخطاب فثنى أولا ، ثم جمع
ثم وحد آخرا؟قلت : " خوطب موسى وهارون - عليه السلام - أن يتبوآ لقومهما ،
بيوتا ويختاراها للعبادة ، وذلك مما يفوض إلى الأنبياء . ثم سيق الخطاب
عاما لهما ولقومهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها ، لأن ذلك واجب على
، الجمهور . ثم خص موسى - عليه السلام - بالبشارة التى هى الغرض تعظيما لها
وللمبشر بها " .ولأن بشارة الأمة - كما يقول الآلوسى - وظيفة صاحب الشريعة
وهى من الأعظم أَسَرُّ وأوقع فى النفس .هذا ، ومن التوجيهات الحكيمة التى ،
، نأخذها من هذه الآية الكريمة ، أن مما يعين المؤمنين على النصر والفلاح
أن يعتزلوا أهل الكفر والفسوق والعصيان ، إذا لم تنفع معهم النصيحة ، وأن
يستعينوا على بلوغ غايتهم بالصبر والصلاة ، وأن يقيموا حياتهم فيما بينهم
على المحبة الصادقة ، وعلى الأخوة الخالصة ، وأن يجعلوا توكلهم على الله
وحده ( وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى الله فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ الله بَالِغُ
أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ الله لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً ).

وقال موسى ربنا انك اتيت فرعون وملاه زينة واموالا في الحياة الدنيا ربنا
ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على اموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى
يروا العذاب الاليم

كما فسرها الوسيط ثم حكى القرآن الكريم بعد ذلك ، ما تضرع به موسى - عليه
السلام - إلى الله - تعالى - من دعوات خاشعات ، بعد أن يئس من إيمان فرعون
وملئه فقال - سبحانه - :( وَقَالَ موسى رَبَّنَآ إِنَّكَ آتَيْتَ
فِرْعَوْنَ . . . )الزينة : اسم لما يتزينبه الإنسان من ألوان اللباس
وأوانى الطعام والشراب ، ووسائل الركوب . . وغير ذلك مما يستعمله الإنسان
في زينته ورفاهيته .والمال : يشمل أصناف الزينة ، ويشمل غير ذلك مما يتملكه
الإنسان .والمعنى : وقال موسى - عليه السلام - مخاطبا ربه ، بعد أن فقد
الأمل فى إصلاح فرعون وملئه : يا ربنا إنك أعطيت فرعون وأشراف قومه وأصحاب
الرياسات منهم ، الكثير من مظاهر الزينة والرفاهية والتنعم ، كما أعطيتهم
الكثير من الأموال فى هذه الحياة الدنيا .وهذا العطاء الجزيل لهم : قد يضعف
الإيمان فى بعض النفوس ، إما بالإغراء الذي يحدثه مظهر النعمة فى نفوس
الناظرين إليها ، وإما بالترهيب الذى يملكه هؤلاء المنعمون ، بحيث يصيرون
قادرين على إذلال غيرهم .واللام فى قوله ( رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن
سَبِيلِكَ ) لام العاقبة والصيرورة أى : أعطيتهم ما أعطيتهم من الزينة
، والمال ، ليخلصوا لك العبادة والطاعة ، وليقابلوا هذا العطاء بالشكر
ولكنهم لم يفعلوا بل قابلوا هذه النعم بالجحود والبطر ، فكانت عاقبة أمرهم
الخسران والضلال ، فأزال يا مولانا هذه النعم من بين أيديهم .قال القرطبي
: اختلف فى هذه اللام ، وأصح ما قيل فيها - وهو قول الخليل وسيبويه - أنها "
لام العاقبة والصيرورة ، وفى الخبر : " إن الله - تعالى - ملكا ينادى كل
، يوم : لدوا للموت وابنو للخراب " أى : لما كان عاقبة أمرهم إلى الضلال
صار كأنه أعطاهم ليضلوا " .وقال صاحب المنار : " قوله : ( رَبَّنَا
لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ ) أى : لتكون عاقبة هذا العطاء إضلال عبادك عن
سبيلك الموصلة إلى مرضاتك باتباع الحق والعدل والعمل الصالح ، ذلك لأن
الزينة سبب الكبر والخيلاء والطغيان على الناس ، وكثرة الأموال تمكنهم من
ذلك وتخضع رقاب الناس لهم ، كما قال - تعالى - ( إِنَّ الإنسان ليطغى . أن
رَّآهُ استغنى ) فاللام فى قوله ( لِيُضِلُّواْ ) تسمى لام العاقبة
والصيرورة ، وهى الدالى على أن ما بعدها أثر وغاية فعلية لمتعلقها ، يترتب
- عليه بالفعل لا بالسببية ، ولا بقصد فاعل الفعل الذي تتعلق به كقوله
. . تعالى - ( فالتقطه آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً

ومنهم من يرى أن هذه اللام للتعليل ، والفعل منصوب بها ، فيكون المعنى ( .
وقال موسى مخاطبا ربه : يا ربنا إنك قد أعطيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى:
الحياة الدنيا ، وإنك يا ربنا قد أعطيتهم ذلك على سبيل الاستدراج ليزدادوا
طغيانا على طغيانهم ، ثم تأخذهم أخذ عزيز مقتدر .وشبيه بهذه الجملة فى هذا
المعنى قوله - تعالى - : ( وَلاَ يَحْسَبَنَّ الذين كَفَرُواْ أَنَّمَا
نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ ليزدادوا
إِثْمَاً وَلَهْمُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ) وقد رجح هذا المعنى الإمام ابن جرير
فقال : " والصواب من القول فى ذلك عندى أنها لام كى ، ومعنى الكلام : ربنا
أعطيتهم ما أعطيتهم من زينة الحياة الدنيا والأموال لتفتنهم فيه ، ويضلوا
عن سبيلك عبادك عقوبة منك لهم ، وهذا كما قال جل ثناؤه( لأَسْقَيْنَاهُم
مَّآءً غَدَقاً . لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ) ومنهم من يرى أن هذه اللام هي
لام الدعاء ، وأنها للدعاء عليهم بالزيادة من الإضلال والغواية فيكون
المعنى :وقال موسى يا ربنا إنك أعطيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة
الدنيا؛ اللهم يا ربنا زدهم ضلالا على ضلالهم .وقد سار على هذا الرأى صاحب
الكشاف . فقد قال ما ملخصه : " فإن قلت : ما معنى قوله : ( لِيُضِلُّواْ
عَن سَبِيلِكَ ) ؟قلت : هو دعاء بلفظ الأمر كقوله : ربنا اطمس واشدد . وذلك
أنه لما عرض عليهم آيات الله وبيناته عرضا مكررا ، وردد عليهم النصائح
والمواعظ زمانا طويلا . وحذرهم من عذاب الله ومن انتقامه ، وأنذرهم سوء
عاقبة ما كانوا عليه من الكفر والضلال ، ورآهم لا يزيدون على عرض الآيات
إلا كفراً وعلى الإنذار إلا استكبارا ، وعن النصيحة إلا نبوا ، ولم يبق له
مطمع فيهم . وعلم بالتجربة وطول الصحبة أو بوحى من الله ، أنه لا يجئ منهم
، إلا الغى والضلال .لما رأى منهم كل ذلك : اشتد غضبه عليهم ، وكره حالهم
" : فدعا الله عليهم بما علم أنه لا يكون غيره وهو ضلالهم .فكأنه قال
ليثبتوا على ما هم عليه من الضلال . . " .وعلى أية حال فهذه الأقوال
- الثلاثة ، لكل واحد منها اتجاهه فى التعبير عن ضيق موسى - عليه السلام
، لإصرار فرعون وشيعته على الكفر ، ولما هم فيه من نعم لم يقابلوها بالشكر
بل قابلوها بالجحود والبطر .وإن كان الرأى الأول هو أظهرها فى الدلالة على
) ذلك ، وأقربها إلى سياق الآية الكريمة .قال الشوكانى : " وقرأ الكوفيون
لِيُضِلُّواْ ) بضم الياء . أى : ليوقعوا الإضلال على غيرهم . وقرأ
الباقون بالفتح أى يضلون فى أنفسهم " .وقوله : ( رَبَّنَا اطمس على
أَمْوَالِهِمْ واشدد على قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حتى يَرَوُاْ
العذاب الأليم ) دعا عليهم بما يستحقونه من عقوبات بسبب إصرارهم على الكفر
والضلال .والطمس : الإهلاك والإتلاف ومحو أثر الشيء يقال : طمس الشيء
ويطمس طموسا إذا زال بحيث لا يرى ولا يعرف لذهاب صورته .والشد : الربط
والطبع على الشئ ، بحيث لا يخرج منه ما هو بداخله ، ولا يدخل فيه ما هو
خارج منه .والمعنى : وقال موسى مخاطبا ربه : يا ربنا إنك آتيت فرعون وملأه
زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ، وقد أعطيتهم ذلك ليشكروك ، ولكنهم لم
يفعلوا ، بل قابلوا عطاءك بالجحود ، اللهم يا ربنا اطمس على أموالهم بأن
تهلكها وتزيلها وتمحقها من بين أيديهم ، حتى ترحم عبادك المؤمنين ، من سوء
استعمال الكافرين لنعمك فى الإفساد والأذى .( واشدد على قُلُوبِهِمْ ) بأن
تزيدها قسوة على قسوتها ، وعناداً على عنادها مع استمرارها على ذلك ، حتى
، يأتيهم العذاب الأليم الذى لا ينفع عند إتيانه إيمان ، ولا تقبل معه توبة
لأنهما حدثا فى غير وقتهما .قال الجمل : " وهذا الطمس هو أحد الآيات التسع
التى أوتيها موسى - عليه السلام - .وقال الإمام ابن كثير : " وهذه الدعوة
كانت من موسى - عليه السلام - غضبا لله - تعالى - ولدينه على فرعون وملئه
الذين تبين له أنه لا خير فيهم ، كما دعا نوح - عليه السلام - على قومه ،
فقال : ( رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأرض مِنَ الكافرين دَيَّاراً . . )
. . ولهذا استجاب الله - تعالى - لموسى - عليه السلام - هذه الدعوة فيهم
فقال : ( قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَّعْوَتُكُمَا فاستقيما وَلاَ"
تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الذين لاَ يَعْلَمُونَ ) .

قال قد اجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون

كما فسرها الوسيط ( قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَّعْوَتُكُمَا فاستقيما وَلاَ
- تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الذين لاَ يَعْلَمُونَ )أى : قال الله - تعالى
لموسى وهارون - عليهما السلام - : أبشرا فقد أجبت دعوتكما فى شأن فرعون
وملئه ( فاستقيما ) على أمرى ، وامضيا فى دعوتكما الناس إلى الحق ، واثبتا
على ما أنتما عليه من الإيمان بى والطاعة لأمرى .( وَلاَ تَتَّبِعَآنِّ
سَبِيلَ الذين لاَ يَعْلَمُونَ ) ما جرت به سنتى فى خلقى ، ولا يدركون طريق
الخير من طريق البشر .وكان الجواب من الله - تعالى - لموسى وهارون ، مع أن
الداعى موسى فقط كما صرحت الآيات السابقة ، لأن هارون كان يؤمن على دعاء
أخيه موسى والتأمين لون من الدعاء .هذا ، ومن الحكم والعظات التي نأخذها من
هاتين الآيتين الكريمتين : أن من علامات الإيمان الصادق . أن يكون
الإنسان غيورا على دين الله ، ومن مظاهر هذه الغيرة أن يتمنى زوال النعمة

من بين أيدى المصرين على جحودهم وفسوقهم وبطرهم لأن وجود النعم بين أيديهم
كثيرا ما يكون سببا فى إيذاء المؤمنين ، وإدخال القلق والحيرة على نفوس
بعضهم .وأن الداعى متى توجه إلى الله - تعالى - بقلب سليم ، ولسان صادق ،
كان دعاؤه مرجو القبول عنده - سبحانه - .

وجاوزنا ببني اسرائيل البحر فاتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا حتى اذا ادركه
الغرق قال امنت انه لا اله الا الذي امنت به بنو اسرائيل وانا من المسلمين

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون فى
هذه السورة الكريمة ببيان سنة من سننه التى لا تتخلف ، وهى حسن عاقبة
المؤمنين وسوء عاقبة المكذبين فقال - تعالى - :( وَجَاوَزْنَا ببني
إِسْرَائِيلَ البحر . . . )قوله سبحانه - ( وَجَاوَزْنَا ) هو من جاوز
المكان ، إذا قطعه وتخطاه وخلفه وراء ظهره وهو متعد بالباء إلى المفعول
الأول الذى كان فاعلا فى الأصل ، وإلى الثانى بنفسه .والمراد بالبحر هنا :
بحر القزم ، وهو المسمى الآن بالبحر الأحمر . وقوله ( بَغْياً وَعَدْواً )
أى ظلما واعتداء . يقال : بغى فلان على فلان بغيا ، إذا تطاول عليه وظلمه .
ويقال : عدا عليه عَدْواً إذا سلبه حقه .وهما مصدران منصوبان على الحالية
بتأويل اسم الفاعل . أى : باغين وعادين . أو على المفعولية لأجله أى : من
أجل البغى والعدوان .والمعنى : وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر ، وهم تحت
رعايتنا وقدرتنا ، حيث جعلناه لهم طريقا يبسا ، فساروا فيه حتى بلغوا
نهايته ، فأتبعهم فرعون وجنوده لا لطلب الهداية والإيمان ، ولكن لطلب
البغى والعدوان .قال الآلوسى : " وذلك أن الله - تعالى - لما أخبر موسى
وهارون - عليهما السلام - بإجابته دعوتهما ، أمرهما بإخراج بني إسرائيل من
مصر ليلا ، فخرجا بهم على حين غفلة من فرعون وملئه ، فلما أحس بذلك ، خرج
هو وجنوده على أثرهم مسرعين ، فالتفت القوم فإذا الطامة الكبرى ، وراءهم
، فقالوا يا موسى ، هذا فرعون وجنوده وراءنا . وهذا البحر أمامنا فكيف الخلاص
فأوحى الله - تعالى - إلى موسى ، أن اضرب بعصاك البحر ، فضربه فانفلق ،
فصار لكل سبط طريق فسلكوا ، ووصل اثنى عشر فرقا كل فرق كالطود العظيم ، وأمر
فرعون ومن معه إلى الساحل وبنو إسرائيل قد خرجوا من البحر ومسلهكم باق على
حاله ، فسلكه فرعون وجنوده ، فلما دخل آخرهم وهم أولهم بالخروج من البحر ،
انطبق عليهم وغشيهم من اليم ما غشيهم " .ثم حكى - سبحانه - ما قاله فرعون
عندما نزل به قضاء الله الذى لا يرد فقال - تعالى - : ( حتى إِذَا
أَدْرَكَهُ الغرق قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إله إِلاَّ الذي آمَنَتْ بِهِ
بنوا إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ المسلمين ) .أى : لقد اتبع فرعون وجنوده
بنى إسرائيل بغيا وعدوا ، فانطبق عليه البحر ، ولفه تحت أمواجه ولججه ، حتى
إذا أدركه الغرق وعاين الموت وأيقن أنه لا نجاة له منه ، قال آمنت وصدقت .
بأنه لا معبود بحق سوى الإله الذى آمنت به بنو إسرائيل ، وأنا من القوم
الذين أسلموا نفوسهم لله وحده وأخلصوها لطاعته .ولما كان هذا القول قد جاء
، في غير أوانه ، وأن هذا الإيمان لا ينفع لأنه جاء عند معاينة الموت

الان وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين

) - كما فسرها الوسيط فقد رد الله - تعالى - على فرعون بقوله - سبحانه
آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ المفسدين ) .أى : آلآن تدعى
الإيمان حين يئست من الحياة ، وأيقنت بالموت ، والحال أنك كنت قبل ذلك من
العصاة المفسدين فى الأرض ، المصرين على تكذيب الحق الذى جاءكم به رسولنا
موسى - عليه السلام - والظرف " آلآن " متعلق بمحذوف متأخر ، والاستفهام
للتقريع والتوبيخ والإنكار .وقوله : ( وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ ) جملة
حالية من فاعل الفعل المقدر ، أى : آلآن تدعى الإيمان والحال أنك عصيت قبل
وكنت من المفسدين .قال الإمام ابن كثير : " وهذا الذى حكاه الله - تعالى
- عن فرعون من قوله هذا فى حاله ذاك . من أسرار الغيب التى أعلم الله
تعالى - بها رسوله - صلى الله عليه وسلم - ،ولهذا قال الإمام أحمد بن
حنبل - رحمه الله .حدثنا سليما بن حرب ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن على بن
زيد ، عن يوسف بن مهران ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - " لما قال فرعون : آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل ،
قال جبريل لى يا محمد لو رأيتنى وقد أخذت حالا من حال البحر - أي طينا أسود
من طين البحر - فدسسته فى فمه مخافة أن تناله الرحمة " .ورواه الترمذى ،
وابن جرير ، وابن أبى حاتم فى تفاسيرهم ، من حديث ، حماد بن سلمة وقال
الترمذي : حديث حسن .ثم ساق ابن كثير بعد ذلك جملة من الأحاديث فى هذا
المعنى " .

فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك اية وان كثيرا من الناس عن اياتنا
لغافلون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( فاليوم نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً . . ) تهكم به ، وتخييب لآماله ، وقطع لدابر أطماعه ، والمعنى إن دعواك الإيمان الآن مرفوضة ، لأنها جاءت في غير وقتها ، وإننا اليوم بعد أن حل بك الموت ، نلقى بجسمك الذى خلا من الروح على مكان مرتفع من الأرض لتكون عبرة وعظة للأحياء الذين يعيشون من بعدك سواء أكانوا من بني إسرائيل أم من غيرهم ، حتى يعرف الجميع بالمشاهدة أو الإخبار ، سوء عاقبة المكذبين ، وأن الألوهية لا تكون إلا لله الواحد الأحد ، الفرد الصمد .قال الإمام الشوكانى : " قوله ( فاليوم نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ . . . ) قرئ ننجيك بالتخفيف ، والجمهور على التثقيل .أى : نلقيك ، على نجوة من الأرض . وذلك ان بني إسرائيل لم يصدقوا أن فرعون قد غرق وقالوا : هو أعظم شأنا من ذلك ، فألقاه الله على نجوة من الأرض أى مكان . مرتفع من الأرض حتى شاهدوه .ومعنى ( ببدنك ) بجسدك بعد سلب الروح منه وقيل معناه بدرعك والدرع يسمى بدنا ، ومنه قول كعب بن مالك :ترى الأبدان - فيها مسبغات ... على الأبطال والبلب الحصينا أراد بالأبدان الدروع وبالبلب - يفتح الياء واللام - الدروع اليمانية كانت تتخذ من الجلود .وقوله تذييل قصد ( وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ الناس عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ) : به دعوة الناس جميعا إلى التأمل والتدبر ، والاعتبار بآيات الله ، وبمظاهر قدرته .أى : وإن كثيرا من الناس لغافلون عن آياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا على إهلاك كل ظالم جبار .قال ابن كثير : " وكان هلاك فرعون يوم عاشوراء . كما قال البخارى : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا غندر ، حدثنا شعبة عن أبى بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : قدم النبى - صلى الله ، عليه وسلم - المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء فقالوا : هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون . فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - لأصحابه : أنتم أحق بموسى منهم فصوموه . "

ولقد بوانا بني اسرائيل مبوا صدق ورزقناهم من الطيبات فما اختلفوا حتى جاءهم العلم ان ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك بعض مظاهر نعمه على بني إسرائيل بعد أن أهلك عدوهم فرعون فقال - تعالى - : ( وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بني إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطيبات ).وقوله : أى : أنزلنا وأسكنا ، من التبوء ، وهو اتخاذ المباءة أى ( بَوَّأْنَا ) : المنزل والمسكن .وفى إضافة المبوأ إلى الصدق مدح له ، فقد جرت عادة العرب على أنهم إذا مدحوا شيئا أضافوه إلى الصدق فقالوا : رجل صدق إذا كان متحليا بمكارم الأخلاق .قال الآلوسى : " والمراد بهذا المبوأ ، كما رواه ابن المنذر وغيره عن الضحاك : الشام ومصر ، فإن بنى إسرائيل الذين كانوا في زمان موسى - عليه السلام - وهم المرادون هنا ، ملكوا ذلك حسبما ذهب إليه جمع من الفضلاء .وأخرج أبو الشيخ وغيره عن قتادة أن المراد به الشام وبيت المقدس ، واختاره بعضهم ، بناء على أن أولئك لم يعودوا إلى مصر بعد ذلك وينبغى أن يراد ببنى إسرائيل على القولين ، ما يشمل ذريتهم بناء على أنهم. ما دخلوا الشام في حياة موسى - عليه السلام - إنما دخلها أبناؤهم - بقيادة يوشع بن نون .وقيل المراد به أطراف المدينة إلى جهة الشام ، وببنى إسرائيل؛ الذين كانوا على عهد نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - .والمعنى : ولقد ، أنزلنا بنى إسرائيل بعد هلاك عدوهم فرعون منزلا صالحا مرضيا ، فيه الأمان والأطمئنان لهم ، وأعطيناهم فوق ذلك الكثير من ألوان المأكولات والمشروبات الطيبات التي أحللناها لهم .وقوله : ( فَمَا اختلفوا حتى جَآءَهُمُ العلم . توبيخ لهم على موقفهم الجحودى من هذه النعم التى أنعم الله بها عليهم ( . . أى : أنهم ما تفرقوا فى أمور دينهم ودنياهم على مذاهب شتى ، إلا من بعد ما. جاءهم العلم الحاسم لكل شبهة ، وهو ما بين أيديهم من الوحى الذى أمرهم الله - تعالى - أن يتلوه حق تلاوته ، وأن لا يستخدموه فى التأويلات الباطلة فالجملة الكريمة توبخهم على جعلهم العلم الذى كان من الواجب عليهم أن. يستعملوه - فى الحق والخير - وسيلة للاختلاف والابتعاد عن الطريق المستقيم وقوله : ( إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ القيامة فِيمَا. كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ) تذييل قصد به الزجر عن الاختلاف واتباع الباطل .أى : إن ربك يفصل بين هؤلاء المختلفين ، فيجازى أهل الحق بما يستحقونه من ثواب ، ويجازى أهل الباطل بما يستحقونه من عقاب .

فان كنت في شك مما انزلنا اليك فاسال الذين يقرءون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين

كما فسرها الوسيط وبعد هذا الحديث المتنوع عن قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون وملئه ، ومع قومه بنى إسرائيل ، وجه القرآن خطابا إلى النبى - صلى - الله عليه وسلم - تثبيتا لقلبه ، وتسلية له عما أصابه من أذى ، فقال تعالى - :( فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَاسْأَلِ

الذين . . . )المراد ( مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ) هنا : ما أوحاه
الله - تعالى - إلى نبيه - صلى الله عليه وسلم - من قصص حكم يتعلق بأنبياء
الله - تعالى - ورسله .قال الآلوسى : " وحضت القصص بالذكر ، لأن الأحكام
المنزلة عليه - صلى الله عليه وسلم - ناسخة لأحكامهم ، ومخالفة لها فلا
يتصور سؤالهم عنها " .والمراد بالكتاب : جنسه فيشمل التوراة والإنجيل
والمعنى : فإن كنت أيها الرسول الكريم - على سبيل الفرض والتقدير - فى شك.
مما أنزلنا إليك من قصص حكيم كقصة موسى ونوح وغيرهما ( فَاسْأَلِ الذين
يَقْرَءُونَ الكتاب مِن قَبْلِكَ ) وهم علماء أهل الكتاب ، فإن ما قصصناه
عليك ثابت فى كتبهم .فليس المراد من هذه الآية ثبوت الشك للرسول - صلى الله
عليه وسلم - وإنما المراد على سبيل الفرض والتقدير ، لا على سبيل الثبوت
قال ابن كثير : " قال قتادة بن دعامة : بلغنا أن رسول الله - صلى الله.
عليه وسلم - قال : "لا أشك ولا أسأل " .وكذا قال ابن عباس وسعيد بن جبير
والحسن البصري ، وهذا فيه تثبيت للأمة ، وإعلام لهم بأن صفة نبيهم - صلى
الله عليه وسلم - موجودة فى الكتب المتقدمة التى بأيدى أهل الكتاب ، كما
قال - تعالى - ( الذين يَتَّبِعُونَ الرسول النبي الأمي الذي يَجِدُونَهُ
مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التوراة والإنجيل . . . ) وشبيه بهذه الآية
قوله - تعالى - فى شأن عيسى - عليه السلام - : ( أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ
اتخذوني وَأُمِّيَ إلهين مِن دُونِ الله قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي
أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ
فعيسى - عليه السلام - يعلم علم اليقين أنه لم يقل ذلك ، وإنما ( . . .
: يفرض قوله فرضا . ليستدل عليه بأنه لو قاله لعلمه الله - تعالى - منه .أى
إن كنت قلته - على سبيل الفرض والتقدير - فقولى هذا لا يخفى عليك .قال صاحب
الكشاف ما ملخصه : فإن قلت : كيف قال الله - تعالى - لرسوله - صلى الله
عليه وسلم - ( فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ . . . )
- ؟قلت : هو على سبيل الفرض والتمثيل . كأنه قيل : فإن وقع لك شك - مثلا
وخيل لك الشيطان خيالا منه تقديرا ( فَاسْأَلِ الذين يَقْرَءُونَ الكتاب )
والمعنى : أن الله - عز وجل - قدم ذكر بنى إسرائيل ، وهم قراءة الكتاب.
- ووصفهم بأن العلم قد جاءهم ، لأن أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم
مكتوب عندهم فى التوراة والإنجيل ، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم فأراد
أن يؤكد علمهم بصحة القرآن ، وصحة نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - ويبالغ
في ذلك فقال : فإن قوع لك شك فرضا وتقديرا .فسل علماء أهل الكتاب يعنى أنهم
من الإحاطة بصحة ما أنزل إليك ، بحيث يصلحون لمراجعة مثلك ، فضلا عن غيرك
فالغرض وصف الأحبار بالرسوخ فى العلم بصحة ما أنزل إلى رسول الله - صلى.
الله عليه وسلم -لا صوفه بالشك فيه .ويجوز أن يكون على طريق التهييج
والإلهاب كقوله ( فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الممترين ) كلام مستأنف مؤكد
لاجتثاث إرادة الشك .والتقدير : أقسم لقد جاءك الحق الذى لا لبس فيه من ربك
. لا من غيره ، فلا تكونن من الشاكين المترددين فى صحة ذلك

ولا تكونن من الذين كذبوا بايات الله فتكون من الخاسرين

كما فسرها الوسيط وقوله : ( وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الذين كَذَّبُواْ
بِآيَاتِ الله فَتَكُونَ مِنَ الخاسرين ) تعريض بأولئك الشاكين والمكذبين
له - صلى الله عليه وسلم - من قومه . أى : ولا تكونن من القوم الذين كذبوا
بآيات الله الدالة على صدقك فيما تبلغه عنا ، فتكون بذلك من الخاسرين الذين
أضاعوا دنياهم وأخراهم .قال الآلوسى : " وفائدة النهى فى الموضعين التهييج
والإلهاب نظير ما مر . والمراد بذلك الإعلام بأن الامتراء والتكذيب قد
بلغا فى القبح والمحذورية إلى حيث ينبغى أن ينهى عنهما من لا يمكن أن يتصف
" . . بهما ، فكيف بمن يمكن اتصافه بذلك

ان الذين حقت عليهم كلمت ربك لا يؤمنون

كما فسرها الوسيط وقوله : ( إِنَّ الذين حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ
رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حتى يَرَوُاْ
العذاب الأليم ) توبيخ للكافرين على إصرارهم على الكفر ، وجحودهم للحق
والمراد بكلمة ربك : حكمه النافذ ، وقضاؤه الذى لا يرده ، وسنته التى لا.
تتغير ولا تتبدل فى الهداية والإضلال .والمراد بالآية : المعجزات
والبراهين الدالة على صدق الرسول - صلى الله عليه وسلم - .أى : إن الذين
- حكم الله - تعالى - عليهم بعدم الإيمان - لأنهم استحبوا العمى على الهدى
لا يؤمنون بالحق الذى جئت به - أيها الرسول الكريم . . مهما سقت لهم من
، معجزات وبراهين دالة على صدقك . .ولكنهم سيؤمنون بأن ما جئت به هو الحق
حين يرون العذاب الأليم وقد نزل بهم من كل جانب .وهنا سيكون إيمانهم كلا
إيمان ، لأنه جاء فى غير وقته ، وصدق الله إذ يقول : ( فَلَمْ يَكُ
يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا . . ) وسيكون حالهم
كحال فرعون ، الذى عندما أدركه الغرق قال آمنت .وبذك ترى الآيات الكريمة قد

نهت عن الشك والافتراء فى شأن الحق الذى جاء به الرسول - صلى الله عليه
وسلم - بأبلغ أسلوب ، وأقوى بيان ، كما بينت سنة من سنن الله فى خلقه ، وهى
، أن من لا يأخذ بأسباب الهدى لا يهتدى ، ومن لا يفتح بصيرته للنور لا يراه
فتكون نهايته إلى الضلال ، مهما تكن الآيات والبينات الدالة على طريق الحق
- ثم فتحت السورة الكريمة للمكذبين باب الأمل والنجاة ، فذكرتهم بقوم يونس.
عليه السلام - الذين نجوا من العذاب بسبب إيمانهم ، كما ذكرتهم بإرادة الله
التامة ، وقدتره النافذة ، ودعتهم إلى الاعتبار والاتعاظ بما اشتمل عليه
. هذا الكون

ولو جاءتهم كل اية حتى يروا العذاب الاليم

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html}

وقوله : ( إِنَّ الذين حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ
يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حتى يَرَوُاْ العذاب الأَليم
توبيخ للكافرين على إصرارهم على الكفر ، وجحودهم للحق .والمراد بكلمة ربك (
حكمه النافذ ، وقضاؤه الذي لا يرده ، وسنته التى لا تتغير ولا تتبدل فى :
الهداية والإضلال .والمراد بالآية : المعجزات والبراهين الدالة على صدق
الرسول - صلى الله عليه وسلم - .أى : إن الذين حكم الله - تعالى - عليهم
بعدم الإيمان - لأنهم استحبوا العمى على الهدى -لا يؤمنون بالحق الذى جئت
به - أيها الرسول الكريم . . مهما سقت لهم من معجزات وبراهين دالة على صدقك
ولكنهم سيؤمنون بأن ما جئت به هو الحق ، حين يرون العذاب الأليم وقد نزل. .
، بهم من كل جانب .وهنا سيكون إيمانهم كلا إيمان ، لأنه جاء فى غير وقته
وصدق الله إذ يقول : ( فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا
رَأَوْاْ بَأْسَنَا . . ) وسيكون حالهم كحال فرعون ، الذى عندما أدركه
الغرق قال آمنت .وبذك ترى الآيات الكريمة قد نهت عن الشك والافتراء فى شأن
الحق الذى جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم - بأبلغ أسلوب ، وأقوى بيان
كما بينت سنة من سنن الله فى خلقه ، وهى أن من لا يأخذ بأسباب الهدى لا ،
، يهتدى ، ومن لا يفتح بصيرته للنور لا يراه ، فتكون نهايته إلى الضلال
مهما تكن الآيات والبينات الدالة على طريق الحق .ثم فتحت السورة الكريمة
للمكذبين باب الأمل والنجاة ، فذكرتهم بقوم يونس - عليه السلام - الذين
نجوا من العذاب بسبب إيمانهم ، كما ذكرتهم بإرادة الله التامة ، وقدتره
. النافذة ، ودعتهم إلى الاعتبار والاتعاظ بما اشتمل عليه هذا الكون

فلولا كانت قرية امنت فنفعها ايمانها الا قوم يونس لما امنوا كشفنا عنهم
عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم الى حين

كما فسرها الوسيط استمع إلى السورة الكريمة وهى تسوق كل ذلك وغيره بأسلوبها
البليغ المؤثر فتقول :( فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَآ
إِيمَانُهَا . . . ) .قال القرطبي ما ملخصه : " روى فى قصة يونس - عليه
- السلام - عن جماعة من المفسرين ، أن قوم يونس كانوا بنينوى من أرض الموصل
بالعراق - وكانوا يعبدون الأنام ، فأرسل الله إليهم يونس يدعوهم إلى
الإسلام ، وترك ما هم عليه فأبوا ، فقيل : إنه أقام يدعوهم تسع سنين فيئس
: من إيمانهم . فقيل له : أخبرهم أن العذاب مصبحهم إلى ثلاث ففعل . وقالوا
هو رجل لا يكذب فارقبوه ، فإن أقام معكم وبين أظهركم فلا عليكم ، ون ارتحل
، عنكم ، فهو نزول العذاب لا شك . .فلما كان الليل تزود يونس وخرج عنهم
فأصبحوا فلم يجدوه ، فآمنوا وتابوا ، ودعوا الله ولبسوا المسوح ، وفرقاو
" : بين الأمهات والأولاد من الناس والبهائم ، وردوا المظالم . .قال الزواج
إنهم لم يقع بهم العذاب ، وإنما رأوا العلامة التي تدل على العذاب ، ولو
) - رأوا العذاب لما نفعهم الإيمان " .وكلمة ( لولا ) فى قوله - سبحانه
فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ . . . ) للحث والتحضيض ، فهى بمعنى هلا
والمقصود بالقرية أهلا وهم أقوام الأنبياء السابقين ، وهى اسم كان . وقوله.
خبرها . وقوله ( فَنَفَعَهَآ إِيمَانُهَا ) معطوف على ( آمنت ) ( آمنت )
والمعنى : فهلا عاد المكذبون إلى رشدهم وصوابهم ، فآمنوا بالحق الذى.
، جاءتهم به رسلهم ، فنجوا بذلك من عذاب الاستئصال الذى حل بهم فقطع دابرهم
كما نجا منه قوم يونس - عليه السلام - فإنهم عندما رأوا أمارت العذاب الذى
أنذرهم به نبيهم آمنوا وصدقوا ، فكشف الله عنهم هذا العذاب الذى كاد ينزل
بهم ، ومتعهم بالحياة المقدرة لهم ، إلى حين انقضاء آجالهم فى هذه الدنيا
قال الإمام الشوكانى : والاستثناء بقوله : ( إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ . . ).
منقطع ، وهو استثناء من القرية لأن المراد أهلها .والمعنى : فهلا قرية
واحدة من القرى التي أهلكناها آمنت إيمانا معتدا به - وذلك بأن يكون خالصا
لله - قبل معاينة العذاب ، ولم تؤخره كما أخره فرعون ، لكن قوم يونس " لما
آمنوا " إيمانا معتدا به قبل معاينة العذاب ، أو عند أول المعاينة قبل
حلوله بهم " كشفنا عنهم عذا الخزى " أى : الذل والهوان .وقيل يحوز أن يكون

متصلا ، والجملة فى معنى النفى ، كأنه قيل : " ما آمنت قرية من القرى الهالكة إلا قوم يونس . . . "وقال الشيخ القاسمى ما ملخصه :" وما يرويه بعض المفسرين هنا من أن العذاب نزل عليهم ، وجعل يدور على رءوسهم . . ونحو هذا ليس له أصل لا فى القرآن ولا فى السنة . . .وفى الآية إشارة إلى أنه لم ، توجد قرية آمنت بأجمعها بنبيها المرسل إليها من سائر القرى ، سوى قوم يونس والبقية دأبهم التكذيب ، كلهم أو أكثرهم ، كما قال - تعالى -( وَكَذَلِكَ. مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ آبَآءَنَا على أُمَّةٍ وَإِنَّا على آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ) وفي الحديث الصحيح : " عرض على الأنبياء ، فجعل ، النبى يمر ومعه الفئام من الناس - أى العدد القليل - والنبى معه الرجل - والنبى معه الرجلان ، والنبى ليس معه أحد " .وفي الآية الكريمة - أيضاً تسلية الرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من حزن بسبب إعراض قومه عن دعوته ، وفيها كذلك تعريض بأهل مكة ، وإنذارهم من سوء عاقبة الإصرار على الكفر والجحود ، وحض لهم على أن يكونوا كقوم يونس - عليه السلام - الذين آمنوا قبل نزول العذاب فنفعهم إيمانهم .

ولو شاء ربك لامن من في الارض كلهم جميعا افانت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين

كما فسرها الوسيط ثم أضاف - سبحانه - إلى هذه التسلية لرسوله - صلى الله عليه وسلم - تسلية أخرى فقال : ( وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأرض كُلُّهُمْ جَمِيعاً . . . ) ومفعول المشيئة محذوف والتقدير :ولو شاء ربك - يا محمد - إيمان أهل الأرض كلهم جميعا لآمنوا دون أن يتخلف منهم أحد ولكنه - سبحانه - لم يشأ ذلك ، لأنه مخالف للحكمة التي عليها أساس التكوين ، والتشريع ، والإثابة والمعاقبة ، فقد اقتضت حكمته - سبحانه - أن يخلق الكفر والإيمان ، وأن يحذر من الكفر ويحض على الإيمان ، ثم بعد ذلك من - كفر فعليه تقع عقوبة كفره ، ومن آمن فله ثواب إيمانه .والهمزة فى قوله سبحانه - ( أَفَأَنتَ تُكْرِهُ الناس حتى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ) للاستفهام الإنكارى ، والفاء للتفريع .والمراد بالناس : المصرين على كفرهم وعنادهم .والمعنى : تلك هى مشيئتنا لو أردنا إنقاذها لنفذناها ، ولكننا لم نشأ ذلك فهل أنت يا محمد فى وسعك أن تكهر الناس الذين لم يرد الله هدايتهم على الإيمان؟لا ، ليس ذلك فى وسعك ولا فى وسع الخلق جميعا ، بل الذى في وسعك هو التبليغ لما أمرناك بتبليغه .وفى هذه الجملة الكريمة تسلية أخرى للرسول - صلى الله عليه وسلم - ودفع لما يضيق به صدره ، من إعراض بعض الناس عن دعوته .

وما كان لنفس ان تؤمن الا باذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ الله . . . ) تأكيد لما اشتملت عليه الآية السابقة من قدرة نافذة لله - تعالى - أى : " وما صح وما استقام لنفس من الأنفس ، أن تؤمن فى حال من الأحوال ، إلا بإذن الله " أى : إلا بإرادته ومشيئته وتوفيقه وهدايته .وقوله : ( وَيَجْعَلُ الرجس عَلَى الذين لاَ يَعْقِلُونَ ) معطوف على محذوف يدل عليه الكلام السابق دلالة الضد على الضد ، والرجس : يطلق على ، الشيء القبيح المستقدر .والمعنى : وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله فيأذن لمن يشاء من تلك الأنفس بالإيمان ، ويجعل الرجس أى الكفر وما يترتب عليه من عذاب على القوم الذين لم يستعملوا عقولهم فيما يهدى إلى الحق والخير ، بل استعملوها فيما يوصل إلى الاباطيل والشرور .

قل انظروا ماذا في السماوات والارض وما تغني الايات والنذر عن قوم لا يؤمنون

كما فسرها الوسيط ولما كان التأمل فى ملكوت السموات والأرض ، يعين على التفكير السليم ، وعلى استعمال العقل فيما يهدى إلى الحق والخير ، أمر الله - تعالى - الناس بالنظر والاعتبار فقال - سبحانه - : ( قُلِ انظروا : مَاذَا فِي السماوات والأرض . . )أى : قل - أيها الرسول الكريم - لقومك انظروا وتأملوا وتفكروا فيما اشتملت عليه السموات من شموس وأقمار ، وكواكب ونجوم ، وسحاب وأمطار . .وفيما اشتملت عليه الأرض من زروع وأنهار ، ومن جبال وأشجار ، ومن حيوانات ودواب متنوعة .انظروا إلى كل ذلك وتفكروا ، فإن هذا التفكر يهدى أصحاب العقول السليمة إلى أن هذا الكون إلها واحدا عليما قديرا ، هو وحده المستحق للعبادة والطاعة .وقوله : ( وَمَا تُغْنِي الآيات والنذر عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ ) توبيخ للغافلين عن النظر السليم الذى - يؤدى إلى الهداية .و ( ما ) نافية ، والمراد بالآيات : ما أشار إليه سبحانه - قبل ذلك بقوله : ( مَاذَا فِي السماوات والأرض ) والنذر : جمع

نذير ، وهو من يخبر غيره بأمر مخوف حتى يحذره .والمعنى : انظرو وتفكروا واعتبروا بما فى السموات والأرض من آيات بينات دالة على وحدانية الخالق وقدرته .ومع ذلك فإن الآيات مهما اتضحت ، والنذر مهما تعددت ، لا تجدى شيئا بالنسبة لمن تركوا الإيمان ، وأصروا على الجحود والعناد .ويجوز أن تكون ، للاستفهام الإنكارى ، فيكون المعنى وأى شيء تجدى الآيات السماوية ( ما ) والأرضية ، والنذر بحججها وبراهينها ، أمام قوم جاحدين معاندين ، قد استحبوا الكفر على الإيمان؟

فهل ينتظرون الا مثل ايام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا اني معكم من المنتظرين

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - للمكذبين برسوله - صلى الله عليه وسلم - تهديدا يخلع قلوبهم فقال : ( فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الذين خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فانتظروا إِنِّي مَعَكُمْ مِّنَ المنتظرين ) .قال القرطبي : " الأيام هنا بمعنى الوقائع ، يقال فلان عالم بأيام العرب أى بوقائعهم قال قتادة : يعنى وقائع الله فى قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم ، والعرب تسمى العذاب أياما والنعم أياما ، كقوله - تعالى - " وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ الله ) وكل ما مضى لك من خير أو شر فهو أيام ) - والمعنى : إذا كان الأمر كما قصصنا عليك من إثابتنا للمؤمنين ، وجعل الرجس على الذين لا يعقلون ، فهل ينتظر هؤلاء المكذبين لدعوتك ، إلا العذاب الذي نزل بالمكذبين لدعوة الرسل من قبلك؟ فالاستفهام للتهكم والتقريع .وقوله ) : قُلْ فانتظروا إِنِّي مَعَكُمْ مِّنَ المنتظرين ) أمر من الله - تعالى - لنبيه - صلى الله عليه وسلم بأن يستمر فى تهديدهم ووعيدهم .أى : قل - يا محمد - لهؤلاء الجاحدين للحق الذى جئت به : إذا فانتظر العذاب الذى نزل بالسابقين من أمثالكم ، وإنى معكم من المنتظرين لوعد ربي لى ، ولوعيده لكم .

ثم ننجي رسلنا والذين امنوا كذلك حقا علينا ننج المؤمنين

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات الكريمة ببيان سنة من سننه التى لا تتخلف ولا تتبدل فقالك ( ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا والذين آمَنُواْ كَذَلِكَ حَقّاً عَلَيْنَا نُنجِ المؤمنين ) .والجملة الكريمة عطف على محذوف ، والتقدير : تلك سنتنا فى خلقنا نهلك الأمم المكذبة ( ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا ) الذين أرسلناهم لإخراج الناس من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، الكاف فى ( كذلك ) بمعنى : مثل ، وهى صفة لمصدر محذوف ، واسم الإشارة يعود على الإتجاه الذى تكفل الله به للرسل السابقين ولمن آمن بهم ولفظ ( حقا ) منصوب بفعل مقدر أى : حق ذلك علينا حقا أى : مثل ذلك الإتجاء الذى تكلفن به لرسلنا ولمن آمن بهم . ننج المؤمنين بك - أيها الرسول الكريم - ، ونعذب المصرين على تكذيبك ، وهذا وعد أخذناه على ذاتنا فضلا منا وكرما .( سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ) وبذلك ترى الآيات الكريمة قد حضت الضالين على الاقتداء بقوم يونس - عليه السلام - لكى ينجوا من العذاب ، وذكرتهم ، بنفاذ إرادة الله وقدتره ، ودعتهم إلى التفكر فى ملكوت السموات والأرض وأخبرتهم بأن سنة الله ماضية فى إنجاء المؤمنين ، وفى إهلاك المكذبين .وبعد هذا الحديث المتنوع الذى زخرت به سورة يونس - عليه السلام - عن وحدانية الله وقدرته ، وعن صدق الرسول - صلى الله عليه وسلم ، وعن النفس الإنسانية وأحوالها ، وعن يوم القيامة وأهوالها . .

قل يا ايها الناس ان كنتم في شك من ديني فلا اعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن اعبد الله الذي يتوفاكم وامرت ان اكون من المؤمنين

كما فسرها الوسيط بعد كل ذلك وجهت فى ختامها نداءين إلى الناس أمرتهم فيهما بإخلاص العبادة لله - تعالى - وبالاعتماد عليه وحده ، وبتزكية نفوسهم . استمع إلى السورة الكريمة فى ختامها وهي تقول :( قُلْ ياأيها الناس إِن كُنتُمْ . . . )المعنى : ( قُلْ ) أيها الرسول الكريم ، لجميع من ارتاب فى دينك .( ياأيها الناس إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي ) الذى جئتكم به من عند الله - تعالى - ، وترغبون فى تحويل عنه ، فاعلموا أنى برئ من شككم ومن أديانكم التى أنتم عليها .وما دام الأمر كذلك ، فأنا "لا أعبد الذين تعبدون من دون الله " من آلهة باطلة فى حال من الأحوال .( ولكن أَعْبُدُ الله ) - تعالى - الذى خلقكم و ( الذي يَتَوَفَّاكُمْ ) عند انقضاء آجالكم ويعاقبكم على كفركم .وقوله ( وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ المؤمنين ) ، تأكيد لإخلاص عبادته - صلى الله عليه وسلم - لله وحده .أى : وأمرت من قبل خالقي - عز وجل - بأن أكون من المؤمنين بأنه لا معبود بحق سواه .وأوثر ، الخطاب باسم الجنس " الناس " مع تصديره بحرف التنبيه ، تعميما للخطاب

وإظهارا لكمال العناية بشأن المبلغ إليهم .وعبر عن شكهم " بإن " المفيدة؛ لعدم اليقين ، مع أنهم قد شكوا فعلا فى صحة هذا الدين بدليل عدم إيمانهم به تنزيلا للمحقق منزلة المشكوك فيه ، وتنزيها لساحة هذا الدين عن أن يتحقق ، - الشك فيه من أى أحد ، وتوبيخا لهم على وضعهم الأمور فى غير مواضعها .وقدم سبحانه - ترك عبادة الغير على عبادته - عز وجل - ، إيذانا بمخالفتهم من أول الأمر ، ولتقديم التخلية على التحلية .وتخصيص التوفى بالذكر ، للتهديد والترهيب ، أى : ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم فيفعل بكم ما يفعل من العذاب الشديد ، ولأنه أشد الأحوال مهابة فى القلوب .

وان اقم وجهك للدين حنيفا ولا تكونن من المشركين

. . كما فسرها الوسيط وقوله : ( وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً معطوف على قوله : ( أَنْ أَكُونَ مِنَ المؤمنين ) .و ( حنيفا ) حال من ( . الدين أو من الوجه ، والحنيف : هو المائل عن كل دين من الأديان إلى دين - الإسلام .وخص الوجه بالذكر ، لأنه أشرف الأعضاء .والمعنى : أن الله سبحانه - أمره بالاستقامة فى الدين . والثبات عليه ، وعدم التزلزل عنه بحال من الأحوال .قال الآلوسى : " إقامة الوجه للدين ، كناية عن توجيه النفس بالكلية إلى عبادته - تعالى - ، والإعراض عما سواه ، فإن من أراد أن ينظر إلى شيء نظر استقصاء ، يقيم وجهه فى مقابلته ، بحيث لا يلتفت يمينا ولا شمالا ، إذ لو التفت بطلت المقابلة ، فلذا كنى به عن صرف العمل بالكلية إلى " . . . الدين ، فالمراد بالوجه الذات .أى : " اصرف ذاتك وكليتك للدين وقوله - تعالى - : ( وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ المشركين ) تأكيد للأمر بإخلاص العبادة لله - تعالى - وحده . وهو معطوف على ( أقم ) .أى : استقم على ما أنت عليه من إخلاص العبادة لله - تعالى - وحده واثبت على ذلك ، ولا تكونن من الذين أشركوا مع الله آلهة أخرى .

ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فان فعلت فانك اذا من الظالمين

كما فسرها الوسيط ثم أضاف - سبحانه - إلى ذلك تأكيدا آخر فقال : ( وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ الله مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ ) .أى : ولا تدع من دون الله فى أى وقت من الأوقات ( مَا لاَ يَنفَعُكَ ) إذا دعوته لدفع مكروه أو جلب محبوب ( وَلاَ يَضُرُّكَ ) إذا تركته وأهملته .( فَإِن فَعَلْتَ ) شيئا مما نهيناك عنه ( فَإِنَّكَ إِذاً ) تكون ( مِّنَ الظالمين - الذين ظلموا أنفسهم بإيرادها مورد المهالك ، لإشراكها مع الله - تعالى ( آلهة أخرى .

وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أنه وحده هو الضار والنافع فقال وَإِن يَمْسَسْكَ الله بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ يُصَيبُ بِهِ مَن يَشَآءُ مِنْ ، عِبَادِهِ وَهُوَ الغفور الرحيم ) ." ألمس " : أعم من اللمس فى الاستعمال : يقال : مسه السوء والكبر والعذاب والتعب ، أى : أصابه ذلك ونزل به .والضر اسم للألم والحزن وما يفضى إليهما أو إلى أحدهما ، كما أن النفع اسم للذة والسرور وما يفضى إليهما أو إلى أحدهما .والخير : اسم لكل ما كان فيه منفعة أو مصلحة حاضرة أو مستقبلة .والمعنى : ( وَإِن يَمْسَسْكَ الله بِضُرٍّ ) - كمرض وتعب وحزن ، فلا كاشف له ، أى : لهذا الضر ( إِلاَّ هُوَ ) - سبحانه كمنحة وغنى وقوة ( فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ ) ( وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ ). أى : فلا يستطيع أحد أن يرد هذا الخير عنك .وعبر - سبحانه - بالفضل مكان ) الخير للإرشاد إلى تفضله على عباده بأكثر مما يستحقون من خيرات .وقوله ) يُصَيبُ بِهِ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ ) أى : يصيب بذلك الفضل والخير : مَن يَشَآءُ ) إصابته ( مِنْ عِبَادِهِ ) .(وَهُوَ الغفور الرحيم ) أى وهو الكثير والمغفرة والرحمة لمن تاب إليه ، وتوكل عليه ، وأخلص له العبادة وفى معنى هذه الآية جاء قوله - تعالى - : ( مّا يَفْتَحِ الله لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ العزيز الحكيم ) وقال ابن كثير : " وروى ابن عاسكر عن أنس قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " اطلبوا الخير دهركم كله ، وتعرضوا لنفحات ربكم ، فإن لله نفحات من رحمته ، يصيب بها من يشاء من عباده ، واسألوه أن يستر عوراتكم ، ويؤمن روعاتكم " .

قل يا ايها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها وما انا عليكم بوكيل

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بنداء آخر - أمر رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يوجهه للناس فقال : ( قُلْ ياأيها الناس قَدْ جَآءَكُمُ الحق مِن رَّبِّكُمْ . . . ) .أى : قل - يا أيها الرسول الكريم - مخاطبا جميع الناس ، سواء منهم من سمع نداءك أو من سيبلغه هذا النداء من بعدك قل لهم جميعا : ( قَدْ جَآءَكُمُ الحق ) المتمثل فى كتاب الله وفى سنتى ( مِن رَّبِّكُمْ ) وليس من أحد سواه .( فَمَنُ اهتدى ) إلى هذا الحق ، وعمل بمقتضاه ( فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ) أى : فإنما تكون منفعة هدايته لنفسه لا لغيره .( وَمَن ضَلّ ) عن هذا الحق وأعرض عنه ). أى : فإنما يكون وبال ضلاله على نفسه ( فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ) وَمَآ أَنَاْ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ) أى بحفيظ يحفظ أموركم ، وإنما أنا بشير ونذير والله وحده هو الذى يتولى محاسبتكم على أعمالكم .

واتبع ما يوحى اليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين

كما فسرها الوسيط ثم أمره - سبحانه - باتباع ما أوحاه إليه فقال : ( واتبع مَا يوحى إِلَيْكَ واصبر حتى يَحْكُمَ الله وَهُوَ خَيْرُ الحاكمين ) .أى : أيها الرسول الكريم - فى جميع شئونك ( مَا يوحى إِلَيْكَ ) من - ( واتبع ) ربك من تشريعات حكيمة ، وآداب قويمة . .( واصبر ) على مشاق الدعوة وتكاليفها . . .( حتى يَحْكُمَ الله ) بينك وبين قومك ، ( وَهُوَ خَيْرُ الحاكمين ) . لنه هو العليم بالظواهر والبواطن ، وهو الذى لا معقب لحكمه وبعد : فهذه هى سورة يونس - عليه السلام - رأينا ونحن نفسرها كيف أقامت. الأدلة على وحدانية الله - عز وجل - وعلى كمال قدرته ، وشمول علمه ، ونفاذ إرادته ، وسعة رحمته ، وسمو عزته . .وكيف أنها أقامت الأدلة - أيضاً - على صدق الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيما يبلغه عن ربه ، وعلى أن هذا القرآن من عنده - سبحانه .وكيف أنها ساقت الأدلة على أن يوم القيامة حق ، وعلى أحوال الناس فيه ، مما يرقق القلوب القاسية ، ويبعث فى النفوس الخشية وحسن الاستعداد لهذا اليوم الهائل الشديد ، وكيف أنها ساقت جانبا من أحوال بعض الأنبياء مع أممهم ، وقررت سنة من سنن الله التي لا تتخلف ، وهى نجاة رسل الله والمؤمنين بهم ، وجعل الرجس على الذين لا يعقلون .وكيف أنها بينت أحوال الناس فى السراء والضراء . . . بيانا صادقا قويا مؤثراً ، من شأنه أن يحملهم على التحلى بالأخلاق الكريمة والتخلى عن الأخلاق الذميمة .

الر كتاب احكمت اياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير

كما فسرها الوسيط هود - عليه السلام - من السور التي افتتحت ببعض حروف التهجي ، وقد سبق أن تكلمنا بشيء من التفصيل عند تفسيرنا لسور : البقرة ، وآل عمران ، والأعراف ، ويونس ، عن آراء العلماء فى المراد بهذه الحروف المقطعة التى افتتحت بها بعض السور .ورجحنا أن هذه الحروف المقطعة ، قد وردت فى افتتاح بعض سور القرآن ، على سبيل الإيقاظ والتنبيه للذين تحداهم القرآن .فكأن الله - تعالى - يقول لأولئك المعارضين فى أن القرآن من عند الله - تعالى - : هاكم القرآن ترونه مؤلفا من كلام هو من جنس ما تؤلفون به كلامكم ، ومنظوا من حروف هى من جنس الحروف الهجائية التى تنظمون منها حروفكم ، فإن كنتم فى شك من كونه منزلا من عند الله فهاتوا مثله ، وادعوا من شئتم من الخلق لكى يعاونكم فى ذلك ، أو هاتوا عشر سور من مثله ، أو هاتوا سورة واحدة .فلما عجزوا - وهم أهل الفصاحة والبيان - ثبت أن غيرهم أعجز ، وأن هذا القرآن من عند الله ، ( وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ الله لَوَجَدُواْ فِيهِ اختلافا كَثِيراً ) .وقوله : ( أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ، من الإحكام - بكسر الهمزة - وهذه المادة تستعمل فى اللغة لمعان متعددة ( ترجع إلى شئ واحد هو المنع . يقال : أحكم الأمر . أى : أتقنه ومنعه من الفساد . أى : منع نفسه ومنع الناس عما لا يليق : ويقال أحكم الفرس ، إذا جعل له حكمة تمنعه من الجموح والاضطراب .وقوله : ( ثُمّ فُصِّلَتْ ) من التفصيل ، بمعنى التوضيح والشرح للحقائق والمسائل المراد بيانها ، بحيث لا يبقى فيها شتباه أو لبس .والمعنى : هذا الكتاب الذى أنزلناه إليك يا محمد ، هو كتاب عظيم الشأن ، جليل القدر ، فقد أحكم الله آياته إحكاما بديعا - وأتقنها إتقانا معجزا ، بحيث لا يتطرق إليها خلل فساد . ثم فصل - سبحانه هذه الآيات تفصيلا حكيما ، بأن أنزلها نجوما ، وجعلها سورا سورا ، مشتملة ، على ما يسعد الناس فى دنياهم وآخرتهم ، من شئون العقائد ، والعبادات والمعاملات ، والآداب ، والأحكام .قال صاحب الكشاف ما ملخصه : ( أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ) أى : نظمت نظما رصينا محكما ، بحيث لا يقع فيه نقض ولا خلل ، كالبناء المحكم المرصص . . وقيل : منعت من الفساد ، من قولهم : أحكمت الدابة ، إذا وضعت عليها الحكمة لتمنعها من الجماح ، قال جرير :أبنى حنيفة أحكموا سفاءكم ... إني أخاف عليكم أن أغضبا( ثُمّ فُصِّلَتْ ) كما تفصل القلائد بالفرائد ، ومن دلائل التوحيد والأحكام والمواعظ والقصص ، أو جعلت فصولا سورة سورة ، وآية آية ، أو فرقت فى التنزيل ولم تنزل جملة واحدة .و )

ثم ) فى قوله - سبحانه - " ثم فصلت " للتراخى فى الرتبة كما هو شأنها فى
عطف الجمل ، لما فى التفصيل من الاهتمام لدى النفوس ، لأن العقول ترتاح إلى
التفصيل بعد الإجمال ، والتوضيح بعد الإيجاز .وجملة ( مِن لَّدُنْ
حَكِيمٍ خَبِيرٍ ) صفة أخرى للكتاب ، وصف بها ، لإظهار شرفه من حيث مصدره
بعد أن وصف بإحكام آياته وتفصيلها الدالين على علو مرتبته من حيث الذات ،
أى : هذا الكتاب الذى أتقنت آياته إتقانا بديعا ، وفصلت تفصيلا رصينا ، ليس
هو من عند أحد من الخلق ، وإنما هو من عند الخلق الحكيم فى كل أقواله
وأفعاله ، الخبير بظواهر الأمر وبواطنها .قال الشوكانى : وفى قوله ( مِن
لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ) لف ونشر ، لأن المعنى : أحكمها حكيم ، وفصلها
خبير ، عالم بمواقع الأمور .

الا تعبدوا الا الله انني لكم منه نذير وبشير

كما فسرها الوسيط وقوله : ( أَلاَّ تعبدوا إِلاَّ الله ) جملة تعليلية ، أى
أنه - سبحانه - فعل ما فعل من إحكام الكتاب وتفصيله وتنزيله من لدن حكيم
خبير ، لكى تخلصوا له العبادة والطاعة ، وتتركوا عبادة غيره؛ لأن من أنزل
هذا الكتاب المعجز ، من حقه أن يفرد بالخضوع والاستعانة .وقوله : (
إِنَّنِي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ) بيان لوظيفة الرسول - صلى
الله عليه وسلم - .والضمير المجرور فى " منه " يعود على الله - تعالى - .أى
- عليكم - أيها الناس - أن تخلصوا لله - تعالى - العبادة والطاعة ، فإنه :
، سبحانه - قد أرسلني إليكم لكى أنذر الذين فسقوا عن أمره بسوء العاقبة
وأبشر الذين استجابوا لدعوته بحسن المثوبة .وقدم - سبحانه - الإنذار على
التبشير؛ لأن الخطاب موجه إلى الكافرين ، الذين أشركوا مع الله آلهة أخرى
قال بعضهم : " والجمع بين النذارة والبشارة ، لمقابلة ما تضمنته الجملة.
الأولى من طلب ترك عبادة غير الله . بطريق النهى ، وطلب عبادة الله بطريق
الاستثناء ، فالنذارة ترجع إلى الجزء الأول ، والبشارة ترجع إلى الجزء
الثاني " .

وان استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يمتعكم متاعا حسنا الى اجل مسمى ويؤت كل
ذي فضل فضله وان تولوا فاني اخاف عليكم عذاب يوم كبير

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما يترتب على طاعته من خيرات فقال
وَأَنِ استغفروا رَبَّكُمْ ثُمَّ توبوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَّتَاعاً
( . . حَسَناً إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ
والاستغفار طلب المغفرة والرحمة من الله - تعالى - .والتوبة : الإقلاع عن.
كل ما نهى الله ، مع التصميم على عدم العودة إلى ذلك فى المستقبل .ويمتعكم
من الإمتاع ، وأصل الإمتاع الإطالة ، ومنه : أمتعنا الله بك أى : أطال :
) " : لنا بقاءك .والآية الكريمة معطوفة على قوله - سبحانه - قبل ذلك
أَلاَّ تعبدوا إِلاَّ الله . . ) .والمعنى : وعليكم - أيها الناس - بعد أن
نبذتم كل عبادة لغير الله ، أن تديموا طلب مغفرته ورحمته ، وأن تتوبوا إليه
) - توبة نصوحا ، فإنكم إن فعلتم ذلك ( يُمَتِّعْكُمْ الله - تعالى
مَّتَاعاً حَسَناً ) بأن يبدل خوفكم أمنا ، وفقركم غنى ، وشقاؤكم سعادة
قوله : ( إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ) أى : إلى نهاية حياتكم التى قدرها الله.
: لكم فى هذه الدنيا .وقوله : ( وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ) أى
. ويعط كل صاحب عمل صالح جزاء عمله .فالمراد بالفضل الأول : العمل الصالح
، والمراد بالفضل الثاني الثواب الجزيل من الله - تعالى - .فالجملة الكريمة
وعد كريم عن الله - تعالى - لكل من آمن وعمل صالحا .وجملة ( ثُمَّ توبوا
إِلَيْهِ ) معطوفة على استغفروا . و ( ثم ) هنا على بابها من التراخى ، لأن
الإنسان يستغفر أولا ربه من الذنوب ، ثم يتوب إليه التوبة الصادقة النصوح
التى لا رجعة معها إلى ارتكاب الذنوب مرة أخرى .ووصف المتاع بالحسن ، ليدل
، على أنه عطاء ليس مشوبا بالمكدرات والمنغصات التى تقلق الإنسان فى دنياه
وإنما هو عطاء يجعل المؤمن يتمتع بنعم الله التى أسبغها عليه ، مع المداومة
على شكره - سبحانه - على هذه النعم .قال - تعالى - ( مَنْ عَمِلَ صَالِحاً
مِّن ذَكَرٍ أَوْ أنثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً
طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ
يَعْمَلُونَ ) ثم حذر - سبحانه - من الإعراض عن طاعته فقال : ( وَإِن
تَوَلَّوْاْ فإني أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ) .أى : ذكرهم
أيها الرسول الكريم بأن فى إخلاصهم العبادة لله ، وفى طاعتهم له ، سعادتهم
الدنيوية الأخروية ، وفى إعراضهم عن ذلك شقاؤهم وحلول العذاب بهم .أى : إن
تتولوا - أيها الناس - عن الحق الذى جئتكم به ، فإنى أخاف عليكم عذاب يوم
القيامة ، الذى هو عذاب كبير هوله ، عظيم وقعه ، كما أخاف عليكم عذاب
الدنيا .فتنكير ( يوم ) للتهويل والتعميم ، حتى يشمل عذاب الدنيا وعذاب
الآخرة ، حيث إنهم كانوا ينكرون البعث والحساب ، فتخويفهم بالعذابين أزجر
لنفوسهم القاسية ، وقلوبهم العاتية .وفى وصفه بالكبر ، زيادة - أيضا - فى

. تهويله وشدته ، حتى يثوبوا إلى رشدهم ، ويقلعوا عن غيهم وعنادهم

الى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ على
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ) تحذير آخر لهم ، إثر التحذير من الإعراض عما جاءهم
به نبيهم - صلى الله عليه وسلم - .والمرجع : مصدر ميمى بمعنى الرجوع الذى
لا انفكاك لهم منه ، ولا محيد لهم عنه .أى : إلى الله - تعالى - وحده
رجوعكم مهما طالت حياتكم ، ليحاسبكم على أعمالكم ، ويجازيكم عليها بما
تستحقونه من جزاء ، وهو - سبحانه - على كل شيء قدير ، لا يعجزه أمر ولا
يحول بينه وبين نفاذ إرادته حائل .وما دام الأمر كذلك ، فأخلصوا لله
. العبادة ، واستغفروا ثم توبوا إليه لتظفروا بالسعادة العاجلة والآجلة

الا انهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه الا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون
وما يعلنون انه عليم بذات الصدور

، كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - جانبا من جهالات المنحرفين عن الحق
ومن أوهامهم الباطلة فقال - تعالى - :( أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ
صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ
يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور
وقوله : ( يَثْنُونَ ) من الثنى بمعنى الطى والستر . يقال : ثنيت الثوب. (
إذا طويته على ما فيه من الأشياء المستورة .وثنى الصدور : إمالتها
وطأطأتهها وحنيها بحيث تكون القامة غير مستقيمة ، والاستخفاء : محاولة
الاختفاء عن الأعين ، ومنه قوله - تعالى -( يَسْتَخْفُونَ مِنَ الناس وَلاَ
يَسْتَخْفُونَ مِنَ الله وَهُوَ مَعَهُمْ . . ) وقوله : ( يَسْتَغْشُونَ
ثِيَابَهُمْ . . ) أى : يتدثرون ويتغطون بها ، مبالغة فى الاستخفاء عن
الأعين . فالسين والتاء فيه للتأكيد ، كما فى قوله - تعالى - ( واستغشوا
ثِيَابَهُمْ . . . ) أى : جعلوا كالغشاء عليهم .وقد ذكر بعض المفسرين فى
، سبب نزول هذه الآية روايات منها : أنه كان الرجل من الكفار يدخل بينه
ويرخى ستره ، ويحنى ظهره ، ويتغشى بثوبه ثم يقول : هل يعلم الله ما فى قلبى
- فنزلت هذه الآية .وقيل : نزلت فى المنافقين ، كان أحدهم إذا مر بالنبى
صلى الله عليه وسلم - ثنى صدره ، وتغشى بثوبه لئلا يراه .وقيل : " نزلت فى
الأخنس بن شريق ، وكان رجلا حلو المنطق ، حسن السياق للحديث ، يظهر لرسول
الله - صلى الله عليه وسلم - المحبة ، ويضمر فى قلبه ما يضادها . . "وعلى
أية الحال فإن الآية الكريمة تصور تصويرا بديعا جهالات بعض الضالين بعلم
الله - تعالى - المحيط بكل شيء ، كما تصور تصويرا دقيقا أوضاعهم الحسية حين
يأوون إلى فراشهم ، وحين يلتقون بالنبى - صلى الله عليه وسلم - .والضمير
المجررو فى قوله ( منه ) يعود إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - وعليه يكون
المعنى :ألا إن هؤلاء المشركين يعرضون عن لقاء النبى - صلى الله عليه
وسلم - ويطأطئون رءوسهم عند رؤيته ، ليستخفوا منه ، حتى لا يؤثر فيهم بسحر
بيانه .ومع أن كلا القولين له وجاهته وله من سبب النزول ما يؤيده ، إلا
) أننا نميل إلى كون الضمير يعود على الله - تعالى - لأن قوله - بعد ذلك
- يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ) يؤيد عودة الضمير إليه
سبحانه - إذ علم السر والعلن مرده إليه وحده .وافتتحت الآية الكريمة بحرف
التنبيه ( ألا ) وجئ به مرة أخرى فى قوله ( أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ
ثِيَابَهُمْ . . ) للاهتمام بمضمون الكلام ، وللفت أنظار السامعين إلى ما
بلغه هؤلاء الضالون من جهل وانطماس بصيرة .ثم بين - سبحانه - أنه لا يخفى
عليه شئ من أحوالهم فقال : ( أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ
يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور
أى : ألا يعلم هؤلاء الجاهلون أنهم حين يأوون إلى فراشهم ، ويتدثرون. (
بثيابهم ، يعلم الله - تعالى - ما يسرونه فى قلوبهم من أفكار ، وما يعلنونه
، بأفواههم من أقوال ، لأنه - سبحانه - محيط بهما تضمره النفوس من خفايا
وما يدور بها من أسرار .وجملة ( إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ) تعليلية
: لتأكيد ما قبلها من علمه - سبحانه - بالسر والعلن . والمراد بذات الصدور
الأسرار المستكنة فيها .هذا ، وقد ذكر ابن كثير رواية أخرى فى سبب نزول هذه
الآية فقال : قال ابن عباس :كانوا يكرهون أن يستقبلوا السماء بفروجهم وحال
وقاعهم ، فأنزل الله هذه الآية رواه البخاري من حديث ابن جريج .وفى لفظ آخر
له قال ابن عباس :" أناس كانوا يستحيون أن يتخلوا فيفضوا إلى السماء ، وأن
يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء ، فنزل ذلك فيهم . . . "وظاهر من هذا
الكلام المنقول عن ابن عباس أنها نزلت فى شأن جماعة من المسلمين هذا شأنهم
ولعل مراده أن الآية تنطبق على صنيعهم وليس فعلهم هو سبب نزولها ، لأن ،
الآية مسوقة للتوبيخ والذم ، والذين يستحقون ذلك هم أولئك المشركون
وأشباههم الذين أعرضوا عن الحق ، وجهلوا صفات الله - تعالى - .قال الجمل
بعد أن ذكر قول ابن عباس :" وتنزيل الآية على هذا القول بعيد جدا ، لأن

الاستحياء من الجماع وقضاء الحاجة فى حال كشف العورة إلى جهة السماء ، أمر مستحسن شرعا ، فكيف يلام عليه فاعله ويذم بمقتضى سياق الآية " .وإذا فالذى يستدعيه السياق ويقتضيه ربط الآيات ، كون الآية فى ذم المشركين ومن على شاكلتهم من المنحرفين عن الطريق المستقيم .

وما من دابة في الارض الا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين

، كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - ما يدل على كمال قدرته ، وسابغ فضله وشمول علمه فقال - تعالى - :( وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأرض . . . ) .قال ، الآلوسي ما ملخصه : الدابة اسم لكل حيوان ذى روح ، ذكرا كان أو أنثى عاقلا أو غيره ، مأخذو من الدبيب وهو فى الأصل المشى الخفيف . . واختصت فى العرف بذوات القوائم الأربع .والمراد بها هنا المعنى اللغوى باتفاق المفسرين . .قال - تعالى - ( والله خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي على بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي على رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ الله مَا يَشَآءُ إِنَّ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ) والمراد برزقها : طعامها وغذاؤها الذى به قوام حياتها .والمعنى : وما من حيوان يدب على الأرض ، إلا على الله - تعالى - غذاؤه ومعاشه ، فضلا منه - سبحانه - وكرما على مخلوقاته ) وقدم - سبحانه - الجار والمجرور ( عَلَى الله ) على متعلقة وهو. رِزْقُهَا ) لإفادة القصر . أى على الله وحده لا على غيره رزقها ومعاشها وكون رزقها ومعاشها على الله - تعالى - لا ينافى الأخذ بالأسباب ، والسعى. فى سبيل الحصول على وسائل العيش ، لأنه - سبحانه - وإن كان قد تكفل بأرزاق خلقه ، إلا أنه أمرهم بالاجتهاد فى استعمال كافة الوسائل المشروعة من أجل الحصول على ما يغنيهم ويسد حاجتهم .قال - تعالى - : ( هُوَ الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرض ذَلُولاً فامشوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النشور ) وجملة ( وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ) : بيان لشمول علمه - سبحانه - لكل شئ فى هذا الكون .والمستقر والمستودع ( اسما مكان لمحل الاستقرار والإيداع للدابة فى هذا الكون ، سواء أكان ذلك فى الأصلاب أم فى الأرحام أم فى القبور أم فى غيرها .قال الشوكانى : أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، عن ابن عباس : فى قوله ( وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا ) قال : حيث تأوى . ومستودعها قال حيث تموت .وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : مستقرها فى الأرحام ومستودعها حيث تموت .قال : ويؤيد هذا التفسير الذى ذهب إليه ابن مسعود ما أخرجه الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود عن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : " إذا كان أجل أحدكم بأرض ، أتيحت له إليها حاجة ، حتى إذا بلغ أقصى أثره منها فيقبض ، فتقول الأرض يوم القيامة : هذا ما استودعتنى " .وقوله : ( كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ) تذييل قصد به بيان دقة علمه - سبحانه - بعد بيان شمول هذا العلم وإحاطته بكل شئ .والتنوين فى هو تنوين العوض ، أى : كل ما يتعلق برزق هذه الدواب ومستقرها ( كل ) - ومستودعها مسجل فى كتاب مبين ، أى : فى كتاب واضح جلى ظاهر فى علم الله سبحانه - بحيث لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، وهذا الكتاب هو اللوح المحفوظ .

وهو الذي خلق السماوات والارض في ستة ايام وكان عرشه على الماء ليبلوكم ايكم احسن عملا ولئن قلت انكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين

: - كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - ما يشهد بعظيم قدرته فقال - تعالى ( . . . وَهُوَ الذي خَلَقَ السماوات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ) والأيام جمع يوم ، والمراد به هنا مطلق الوقت الذى لا يعلم مقداره إلا. الله - تعالى - .أى : وهو - سبحانه - الذي أنشأ السموات والأرض وما بينهما على غير مثال سابق ، فى ستة أيام من أيامه - تعالى - ، التى لا يعلم ، مقدار زمانها إلا هو .وقيل : أنشأهن فى مقدار ستة أيام من أيام الدنيا .قال سعيد بن جبير - رضى الله عنه - : كان الله قادرا على خلق السموات والأرض وما بينهما فى لمحة ولحظة ، فخلقهن فى ستة أيام ، تعليما لعباده التثبت والتأنى فى الأمور .وقد جاءت آيات تدل على أنه - سبحانه - خلق الأض فى يومين ، وخلق السموات فى يومين وخلق ما بينهما فى يومين ، وهذه الآيات هى قوله - تعالى - : ( قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بالذي خَلَقَ الأرض فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ العالمين . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ . ثُمَّ استوى إِلَى السمآء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائتيا

طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ
( . . . سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وأوحى فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا
وجملة ( وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المآء ) اعتراضية بين قوله ( خَلَق
السماوات والأرض ) وبين ( لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً )
- ويجوز أن تكون حالية من فاعل خلق وهو الله - تعالى - وعرش الله - تعالى
من الألفاظ التى لا يعلمها البشر إلا بالاسم . وقد جاء ذكر العرش فى القرآن
، الكريم إحدى وعشرين مرة .ونحن مكلفون بأن نؤمن بأن له - سبحانه - عرشا
أما كيفيته فنفوض علمها إليه - تعالى - .والمعنى : أن الله - تعالى - خلق
السموات والأرض فى ستة أيام ، وكان عرشه قبل خلقهما ليس تحته شئ سوى الماء
قالوا : وفى ذلك دليل على أن العرش والماء كانا موجودين قبل وجود السموات.
- والأرض .قال القرطبي : قوله : ( وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المآء ) بين
: سبحانه - أن خلق العرش والماء ، كان قبل خلق الأرض والسماء . . .ثم قال
- وروى البخارى عن عمران بين حصين قال كنت عند النبى - صلى الله عليه وسلم
: إذ جاءه قوم من بنى تميم فقال : " " اقبلوا البشرى يا بنى تميم " قالوا
، بشرتنا فأعطنا . فدخل ناس من أهل اليمن فقالوا : جئنا لنتفقه فى الدين
ولنسألك عن هذا الدين ونسألك عن أول هذا الأمر .قال : " إن الله ولم يكن شئ
غيره ، وكان عرشه على الماء . ثم خلق السموات والأرض ، وكتب فى الذكر كل شئ
وقال ابن كثير بعد هذا الحديث وغيره : وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن. " "
عمرو ابن العاص قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " إن الله قدر
مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على
الماء " .وروى الإمام أحمد عن لقيط بن عامر العقيلى قال : قلت يا رسول
، الله ، أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ قال : كان فى عماء ، ما تحته هواء
وما فوقه هواء ، ثم خلق العرش بعد ذلك .والعلماء : السحاب الرقيق ، أى فوق
سحاب مدبرا له ، وعاليا عليه ، والسحاب ليس تحته سوى الهواء ، وليس فوقه
- سوى الهواء . والمراد أنه ليس مع الله - تعالى - شئ آخر .وقوله - سبحانه
جملة تعليلية . ويبلوكم من ( لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً )
الابتلاء بمعنى الاختبار والامتحان .أى : خلق ما خلق من السموات والأرض وما
، فيهما من كائنات ، ورتب فيهما جميع ما تحتاجون إليه من أسباب معاشكم
ليعاملكم معاملة من يختبر غيره ، ليتميز المحسن من المسئ ، والمطيع من
العاصى ، فيجازى المحسنين والطائعين بما يستحقون من ثواب ، ويعاقب المسيئين
) : والعاصين بما هم أهله من عقاب .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف قيل
لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ) وأعمال المؤمنين هى التي
تتفاوت إلى حسن وأحسن ، فأما أعمال المؤمنين والكافرين فتفاوتها إلى حسن
وقبيح؟ قلت : الذين هم أحسن عملا هم المتقون وهم الذين استبقوا إلى تحصيل
ما هو مقصود الله - تعالى - من عباده ، فخصهم بالذكر ، واطرح ذكر من وراءهم
، تشريفا لهم ، وتنبيها على مكانهم منه ، وليكون ذلك لطفا للسامعين ،
وترغيبا فى حياة فضلهم .ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة ببيان موقف
الكافرين من البعث والحساب فقال : ( وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم
مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الموت لَيَقُولَنَّ الذين كفروا إِنْ هاذآ إِلاَّ
سِحْرٌ مُّبِينٌ ) .أى : ولئن قلت يا محمد لهؤلاء الكافرين الذين أرسلك
الله لإخراجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، لئن قلت لهم ( إِنَّكُمْ
مَّبْعُوثُونَ ) يوم القيامة ( مِن بَعْدِ الموت ) الذى سيدرككم فى هذه
الدنيا عند نهايكم آجالكم ( لَيَقُولَنَّ ) لك هؤلاء الكافرون على سبيل
الأنكار والتهكم ما هذا الذى تقوله يا محمد ( إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ) أى
) إلا سحر واضح جلى ظاهر لا لبس فيه ولا غموض .وقرأ حمزة والكسائى وخلف :
إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ) فتكون الإشارة بقوله ( هذا ) إلى الرسول - صلى
الله عليه وسلم - أى : أنه فى زعمهم يقول كلاما ليسحرهم به ، وليصرفهم عما
كان عليه آباؤهم وأجدادهم .

ولئن اخرنا عنهم العذاب الى امة معدودة ليقولن ما يحبسه الا يوم ياتيهم ليس
مصروفا عنهم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون

، كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك لونا من ألوان غرور المشركين
): - كما بين أحوال بعض الناس فى حالتى السراء والضراء فقال - تعالى
وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ العذاب . . . )قال القرطبي ما ملخصه : الأمة
- اسم مشترك يقال على ثمانية أوجه : فالأمة تكون الجماعة ، كقوله - تعالى :
والأمة : أيضا أتباع ( . . وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ الناس ) :
، الأنبياء عليهم السلام ، والأمة : الرجل الجامع للخير الذى يقتدى به
كقوله - تعالى - ( إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ
حَنِيفاً )والأمة : الدين والملة ، كقوله - تعالى - : ( إِنَّا وَجَدْنَآ
آبَآءَنَا على أُمَّةٍ ) والأمة : الحين والزمان كقوله - تعالى - : ( وادكر
بَعْدَ أُمَّةٍ ) والأمة : القامة وهو طول الإنسان وارتفاعه ، يقال من ذلك
فلان حسن الأمة ، أى القامة ، والأمة : الرجل المنفرد بدينه وحده ، لا :
يشركه فيه أحد . قال - صلى الله عليه وسلم - " يبعث زيد بن عمرو بن نفيل

" . . . أمة وحده " والأمة : الأم . يقال : " هذه أمة زيد ، أى أم زيد والمراد بالأمة هنا : الحين والزمان والمدة .والمعنى : ولئن أخرنا - بفضلنا وكرمنا - عن هؤلاء المشركين " العذاب " المقتضى لجحودهم لآياتنا ، وتكذيبهم لرسلنا " إلى أمة معدودة " أى : إلى وقت ومعين من الزمان على حساب إرادتنا وحكمتنا : " ليقولن " على سبيل التهكم والاستهزاء ، واستعجال العذاب ، " ما يحبسه " أى : ما الذى جعل هذا العذاب الذى حذرنا منه محمد - صلى لله عليه وسلم - محبوسا عنا ، وغير نازل بنا . .ولا شك أن قولهم هذا ، يدل على بلوغهم أقصى درجات الجهالة والطغيان ، حيث قابلوا رحمة الله - تعالى - بالاستهزاء والاستعجال ، ولذا رد الله - تعالى - المتمثلة هنا فى تأخير العذاب عنهم ، بالاستهزاء والاستعجال ولذا رد الله - تعالى - عليهم بقوله : ( أَلاَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ ، مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ) أى : ألا إن ذلك العذاب الذى استعجلوه واستخفوا به ، يوم ينزل بهم ، لن يصرفه عنهم صارف ، ولن يدفعه عنهم دافع ، بل سيحيط بهم من كل جانب ، بسبب استهزائهم به وإعراضهم عمن حذرهم منه .واللام فى قوله ( وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ العذاب ) موطئة للقسم ، وجواب القسم قوله " ليقولن ما يحبسه " .والأقرب إلى سياق الآية أن يكون المراد بالعذاب هنا : عذاب الاستئصال الدنيوى ، إذ هو الذى استعجلوا نزوله ، أما عذاب الآخرة فقد كانوا منكرين له أصلا ، كما حكى عنهم - سبحانه - فى الآية السابقة فى قوله وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُمْ مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الموت لَيَقُولَنَّ ) : الذين كفروا إِنْ هاذآ إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ) قال الآلوسى : والظاهر بأن المراد العذاب الشامل للكفرة ، ويؤيد ذلك ما أخرجه ابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة قال : لما نزل ( اقترب لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ) قال ناس : إن الساعة قد اقتربت فتناهوا ، فتناهى القوم قليلاً ، ثم عادوا إل أعمالهم السوء : فأنزل الله - تعالى -( أتى أَمْرُ الله فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ ) فقال أناس من أهل الضلالة : هذا أمر الله - تعالى - قد أتى ، فتناهى القوم - ثم عادوا إلى مكرهم مكر السوء ، فأنزل الله هذه الآية .وفى قوله - سبحانه - إيماء إلى أن تأخير العذاب عنهم ليس لمدة ( إلى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ ) ، طويلة ، لأن ما يحصره العد : جرت العادة فى أساليب العرب أن يكون قليلا ويؤيد ذلك أنه بعد فترة قليلة من الزمان نزل بهم فى غزوة بدر القتل الذى أهلك صناديهم ، والأسر الذى أذل كبرياءهم .وافتتحت جملة ( أَلاَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ ) بأداة الاستفتاح ( ألا ) للاهتمام بمضون الخبر ، وللإشارة إلى تحقيقه ، وإدخال الروع فى قلوبهم وعبر بالماضى ( حاق ) مع أنه لم ينزل بهم بعد ، للإشارة ، إلى أنه آت لا ريب فيه ، عندما يأذن الله - تعالى - بذلك .

ولئن اذقنا الانسان منا رحمة ثم نزعناها منه انه ليئوس كفور

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - جانبا من طبيعة بنى آدم إلا من عصم الله فقال - تعالى - ( وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإنسان مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ . . . )والمراد بالإنسان هنا الجنس على أرجح الأقوال ، فيشمل المسلم وغيره ، بدليل الاستثناء الآتى بعد ذلك فى قوله ( إِلاَّ الذين صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات )قال الفخر الرازى ما ملخصه : المراد بالإنسان هنا مطلق الإنسان يدل عليه وجوه الأول : أنه - تعالى - استثنى منه قوله ( إِلاَّ الذين صَبَرُواْ : وَعَمِلُواْ الصالحات ) والاستثناء يخرج من الكلام ما لولاه لدخل ، فثبت أن الإنسان المذكور فى هذه الآية داخل فيه المؤمن والكافر .الثانى : أن هذه الآية موافقة على هذا التقرير لقوله - سبحانه - : ( والعصر . إِنَّ الإنسان لَفِى خُسْرٍ . إِلاَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات . . . ) الثالث أن مزاج الإنسان مجبول على الضعف والعجز . قال ابن جريج فى تفسير هذه الآية : " يا بن آدم إذا نزلت بك نعمة من الله فأنت كفور ، فإذا نزعت منك فيؤوس قنوط " .وقيل المراد بالإنسان هنا جنس الكفار فقط ، لأن هذه الأوصاف تناسبهم وحدهم .والمراد بالرحمة هنا : رحمة الدنيا ، وأطلقت على أثرها وهو النعمة كالصحة والغنى والأمان وما يشبه ذلك من ألوان النعم .واليؤوس والكفور : صيغتا مبالغة للشخص الكثير اليأس ، والكفر ، والقنوط : الشديد الجحود لنعم الله - تعالى - يقال : يئس من الشئ ييأس ، إذا قنط منه والمعنى : ولئن منحنا الإنسان - بفضلنا وكرمنا - بعض نعمنا ، كالصحة. والغنى والسلطان والأمان ( ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ ) أى : ثم سلبناها منه ، لأن حكمتنا تقتضى ذلك .( إنه ) فى هذه الحالة ( لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ) أى : لشديد اليأس والقنومن من أن يرجع إليه ما سلب منه أو مثله ، ولكثير الكفران والجحود لما سبق أن تقلب فيه من نعم ومنن .قال الشوكانى : وفى التعبير بالذوق ما يدل على أنه يكون منه ذلك عند سلب أدنى نعمة ينعم الله بها عليه : " لأن الإذاعة والذوق أقل ما يوجد به الطعم " .وفى قوله : " ثم نزعناها منه " إشارة إلى شدة تعلقه بهذه النعم ، وحرصه على بقائها معه

، وجملة ( إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ) جواب القسم ، وأكدت بإن وباللام.
لقصد تحقيق مضمونها ، وأنه حقيقة ثابتة .وهى تصوير بليغ صادق لما يعترى نفس
هذا الإنسان عندما تسلب منه النعمة بعد أن ذاقها - فهو - لقلة إيمانه وضعف
ثقته بربه - قد فقد كل أمل فى عودة هذه النعمة إليه ، ولكأن هذه النعمة
التى سلبت منه لم يرها قبل ذلك .

ولئن اذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني انه لفرح فخور

، كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - حالة هذا الإنسان اليؤوس الكفور
عندما تأتيه السراء بعد الضراء فقال : ( وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَآءَ
بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السيئات عني إِنَّهُ
، لَفَرِحٌ فَخُورٌ ) .والنعماء : النعمة التى يظهر أثرها على صاحبها
واختبر لفظ النعماء لمقابلته للضراء .والضراء : ما يصيب الإنسان من مصائب
يظهر أثرها السئ عليه .والمراد بالسيئات : الأضرار التى لحقته كالفقر
والمرض .والمعنى : ولئن أذقنا هذا الإنسان اليؤوس الكفور ( نعماء ) بعد
). ضراء مسته كصحة بعد مرض ، وغنى بعد فقر ، وأمن بعد خوف ، ونجاح بعد فشل
لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السيئات عني ) أى : ليقولن فى هذه الحالة الجديدة ببطر
- وأشر ، وغرور وتكبر ، لقد ولت المصائب عنى الأدبار ، ولن تعود إلى .وعبر
سبحانه - فى جانب الضراء بالمس ، للإشارة إلى أن الإصابة بها أخف مما
تذوقه من نعماء ، وأن لطف الله شامل لعباده فى كل الأحوال .وجملة ( إِنَّهُ
: لَفَرِحٌ فَخُورٌ ) جواب القسم .أى : إنه لشديد الفرح والبطر بالنعمة
كثير التباهى والتفاخر بما أعطى منها ، مشغول بذلك عن القيام بما يجب عليه
نحو خالقه من شكر وثناء عليه - سبحانه - .وإنها - أيضا - لصورة صادقة لهذا
الإنسان العجول القاصر ، الذى يعيش فى لحظته الحاضرة ، فلا يتذكر فيما مضى
، ولا يتفكر فيما سكون عليه حاله بعد الموت ، ولا يعتبر بتقلبات الأيام ،
فهو يؤوس كفور إذا نزعت منه النعمة ، وهو بطر فخور إذا عادت إليه ، وهذا من
أسوأ ما تصاب به النفس الإنسانية من أخلاق مرذولة .

الا الذين صبروا وعملوا الصالحات اولئك لهم مغفرة واجر كبير

. كما فسرها الوسيط وقوله : ( إِلاَّ الذين صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات
استثناء من هؤلاء الناس الذين لا يصبرون عند الشدة ، ولا يشكرون عند ( .
الرخاء .أى : إلا الذين صبروا على النعمة كما صبروا على الشدة ، وعملوا فى
الحالتين الأعمال الصالحات التى ترضى الله - تعالى - .( أولئك ) الموصوفون
) بذلك ( لَهُمْ ) من الله - تعالى - ( مَّغْفِرَةٌ ) عظيمة تمسح ذنوبهم
وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ) منه - سبحانه - لهم . جزاء صبرهم الجميل ، وعملهم
الصالح .وفى الصحيحين أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : " والذى
نفسى بيده ، لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له ، إن أصابته سراء
شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له ، وليس ذلك لأحد غير
المؤمن " .

فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك وضائق به صدرك ان يقولوا لولا انزل عليه كنز
او جاء معه ملك انما انت نذير والله على كل شيء وكيل

- كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعض أقوال المشركين ، التى كان النبى
): - صلى الله عليه وسلم - يضيق بها صدره ، ويحزن منها نفسه ، فقال - تعالى
فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يوحى إِلَيْكَ وَضَآئِقٌ . . . ) .قال
الفخر الرازى - رحمه الله - : روى عن ابن عباس - رضى الله عنهما أن رؤساء
" : مكة قالوا يا محمد ، اجعل لنا جبال مكة ذهبا إن كنت رسولا . وقال آخرون
" ائتنا بالملائكة يشهدون بنبوتك . فقال :لا أقدر على ذلك فنزلت هذه الآية
ولفظ ( لعل ) - كما يقول الآلوسى - للترجى ، وهو يقتضى التوقع ، ولا يلزم.
من توقع الشئ وقوعه ولا ترجح وقوعه ، لجواز أن يوجد ما يمنع منه ، فلا يشكل
بأن توقع ترك التبليغ منه - صلى الله عليه وسلم - مما لا يليق بمقام النبوة
لأن المانع منه هنا ثبوت عصمته - صلى الله عليه وسلم - " عن كتم شئ أمر ،
- بتبليغه . . . والمقصود بهذا الأسلوب هنا تحريضه - صلى الله عليه وسلم
" وتهييج داعيته لأداء الرسالة ، ويقال نحو ذلك فى كل توقع نظير هذا التوقع
، و ( تارك ) اسم فاعل من الفعل ترك ، و ( ضائق ) اسم فاعل من الفعل ضاق.
- وهو معطوف على ( تارك ) .والمراد ببعض ما يوحى إليه - صلى الله عليه وسلم
فى قوله - سبحانه - ( فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يوحى إِلَيْكَ ) : ما
أنزل عليه : من قرآن فيه استهزاء بآلهتهم ، وتسفيه لعقولهم التى استساغت أن
- تشرك مع الله - تعالى - فى عبادتها آلهة أخرى .والضمير المجرور فى قوله
سبحانه - ( وَضَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ ) يعود إلى بعض الموحى به ، وقيل يعود
للتبليغ ، وقيل للتكذيب .وجملة ( أَن يَقُولُواْ ) فى محل نصب على أنها
مفعول لأجله ، أى : كراهة أو خشية أن يقولوا .والكنز : يطلق على المال

الكثير المجموع بعضه إلى بعض سواء أكان فى بطن الأرض أم فى ظهرها ، ومرادهم
بإنزاله هنا : أن ينزل على الرسول - صلى الله عليه وسلم - من السماء مال
كثير يغنيه هو وأصحابه ، ويجعلهم فى رغد من العيش ، بدل ما يبدو على بعضهم
من فقر وفاقة . .والمعنى : ليس خافيا علينا - أيها الرسول الكريم - ما
يفعله المشركون معك ، من تكذيب لدعوتك ، ومن جحود لرسالتك ، ومن مطالب
متعنته يطلبونها منك . . .ليس خافيا علينا شيئا من ذلك ، ولعلك إزاء
، مسالكهم القبيحة هذه ، تارك تبليغ بعض ما يوحى إليك ، وهو ما يثير غضبهم
، وضائق صدرك بهذا التبليغ ، كراهة تكذيبهم لوحى الله ، واستهزائهم بدعوتك
وقولهم لك على سبيل التعنت : هلا أنزل إليك من السماء مال كثير تستغنى به
وتغنى أتباعك ، وهلا كان معك ملك يصاحبك فى دعوتك ، ويشهد أمامنا بصدقك
ويؤيدك فى تحصيل مقصودك لا - أيها الرسول الكريم -لا تترك شيئا من تبليغ
، ما أمرك الله بتبليغه لهؤلاء المشركين ، ولا يضيق صدرك بأفعالهم الذميمة
وبأقوالهم الباطلة ، بل واصل دعوتك لهم إلى طريق الحق ، فما عليك إلا
الإنذار ، أما نحن فإلينا إيابهم ، وعلينا حسابهم .وعبر - سبحانه - عن
) تأثر الرسول - صلى الله عليه وسلم - من مواقفهم المتعنتة باسم الفاعل
، ضائق )لا بالصفة المشبهة " ضيق " لمراعاة المقابلة وهو قوله ( تارك )
، وللإشارة إلى أن هذا الضيق مما يعرض له - صلى الله عليه وسلم - أحيانا
وليس صفة ملازمة له ، لأن اسم الفاعل يقتضى الحدوث والانقطاع ، بخلاف الصفة
المشبهة فتقتضى الثبات والدوام .وأبرز - سبحانه - هنا صفة الإنذار
للرسول - صلى الله عليه وسلم - مع أن وظيفته الإنذار والتبشير ، لأن
المقام هنا يستوجب ذلك ، إذ أن هؤلاء المشركين قد تجاوزوا كل حد فى
الإشارة إليه - صلى الله عليه وسلم - .وقوله - سبحانه - ( والله على كُلِّ
شَيْءٍ وَكِيلٌ ) تذييل قصد به زيادة تثبيته وتحريضه على المضى فى تبليغ
دعوته .أى : سر فى طريقك - أيها الرسول الكريم - غير مبال بما يصدر عنهم من
مضايقات لك ، والله - تعالى - حافظ لأحوالك وأحوالهم ، وسيجازيهم بالجزاء
الذى يتناسب مع جرائمهم وكفرهم .والمتأمل فى هذه الآية الكريمة يراها تعبر
أكمل تعبير عن الفترة الحرجة التى نزلت فيها هذه السورة الكريمة ، فقد سبق
أن قلنا عند التعريف بها ، إنها نزلت فى الفترة التى أعقبت وفاة النصيرين
الكبيرين للرسول - صلى الله عليه وسلم - وهما أبو طالب وخديجة - رضى الله
- عنها - وكانت هذه الفترة من أشق الفترات على الرسول - صلى الله عليه وسلم
حيث تكاثر فيها إيذاء المشركين له ولأصحابه . . .فأنت ترى أن هذه الآية
الكريمة تحث النبى - صلى الله عليه وسلم - على الثبات والصبر ، وعلى تبليغ
ما يوحى إليه ، مع عدم المبالاة بما يضعه المشركون فى طرقه من عقبات . .هذا
وقد سبق أن بينا عند التعريف بهذه السورة - أيضا - أن من العلماء من يرى ،
أن هذه الآية مدنية ، ولعلك معى - أيها القارئ الكريم - فى أنه لا يوجد أى
دليل نقلى أو عقلى يؤيد ذلك ، بل الذى تؤيده الأدلة ويؤيده سبب النزول أن
الآية مكية كبقية السورة .وهناك أيات أخرى مكية تشبه هذه الآية فى أسلوبها
وموضوعها ، ومن هذه الآيات قوله - تعالى - : ( وَقَالُواْ مَالِ هذا الرسول
يَأْكُلُ الطعام وَيَمْشِي فِي الأسواق لولا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ
فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً . أَوْ يلقى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ
جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا . . . )

ام يقولون افتراه قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون
الله ان كنتم صادقين

، كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك زعما آخر من مزاعمهم الكثيرة
وهو دعواهم أن القرآن مفترى ، وتحداهم أن يأتوا بعشر سور من أمثال هذا
القرآن فى زعمهم ، فقال - تعالى - :( أَمْ يَقُولُونَ افتراه قُلْ
فَأْتُواْ . . . ) .( أَمْ ) هنا منقطعة بمعنى بل التى للإضراب وهو انتقال
المتكلم من غرض إلى آخر والافتراء : الكذب المتعمد الذى لا توجد أدنى شبهة
لقائله .والمعنى : إن هؤلاء المشركين لم يكتفوا بما طلبوه منك يا محمد ، بل
، تجاوزوا ذلك إلى ما هو أشد جرما ، وهو قولهم إنك افتريت القرآن الكريم
واخترعته من عند نفسك .وقوله : ( قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ
- مُفْتَرَيَاتٍ وادعوا مَنِ استطعتم مِّن دُونِ الله . . . ) أمر من الله
، تعالى - لنبيه - صلى الله عليه وسلم بأن يرد عليهم بما يخرس ألسنتهم
ويكبت نفوسهم .أى : قل لهم يا محمد على سبيل التحدى : إن كان الأمر كما
تزعمون من أنى قد افتريت هذا القرآن ، فأنا واحد منكم وبشر مثلكم فهاتوا
، أنتم عشر سور مختلقات من عند أنفسكم ، تشبه ما جئت به فى حسن النظم
وبراعة الأسلوب ، وحكمة المعنى ، وادعوا لمعاونتكم فى بلوغ هذا الأمر كل من
تتوسمون فيه المعاونة غير الله - تعالى - لأنه هو - سبحنه - القادر على أن
يأتى بمثله .وجواب الشرط فى قوله - سبحانه - ( إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ )
محذوف دل عليه ما تقدم . أى : إن كنتم صادقين فى زعمكم أنى افتريت هذا
القرآن ، فهاتوا أنتم عشر سور مثله مفتريات من عند أنفسكم .والمتأمل لآيات
القرآن الكريم ، يرى أن الله - تعالى - قد تحدى المشركين تارة بأن يأتوا

) - بمثله كما فى سورتى الإسراء والطور . ففى سورة الإسراء يقول - سبحانه
قُل لَّئِنِ اجتمعت الإنس والجن على أن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هذا القرآن لاَ
يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ) وفى
سورة الطور يقول - سبحانه - ( فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن
كَانُواْ صَادِقِينَ ) وتارة تحداهم بأن يأتوا بعشر سور من مثله كما فى هذه
السورة ، و تارة تحداهم بأن يأتوا بسورة واحدة من مثله كما فى سورتى البقرة
ويونس ، ففى سورة البقرة ( وَإِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا
على عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ . . . ) وفى سورة يونس
يقول - سبحانه - : ( أَمْ يَقُولُونَ افتراه قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ
( مِّثْلِهِ وادعوا مَنِ استطعتم مِّن دُونِ الله إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ
وقد عجزوا عن الإتيان بمثل أقصر سورة ، وهم من هم فى فصاحتهم ، فثبت أن
. - هذا القرآن من عند الله - تعالى

فالم يستجيبوا لكم فاعلموا انما انزل بعلم الله وان لا اله الا هو فهل انتم مسلمون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ
فاعلموا أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ الله وَأَن لاَّ إله إِلاَّ هُوَ فَهَلْ
أَنتُمْ مُّسْلِمُونَ ) إرشاد لهؤلاء المشركين إلى طريق الحق والسعادة لو
: كانوا يعقلون ، إذ الخطاب موجه إليهم لعلهم يثوبون إلى الرشد .والمعنى
قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الذين تحديتهم أن يأتوا بعشر سور من مثل
القرآن ، وأبحث لهم أن يستعينوا فى ذلك بمن شاءوا من البشر ، قل لهم : فإن
.. لم يستجب لدعوتكم من استعنتم بهم فى الإتيان بعشر سور من مثل القرآن
) وهم لن يستجيبوا لكم قطعا - ( فاعلموا ) أيها الناس أن هذا القرآن
أُنزِلَ بِعِلْمِ الله ) وحده ، وبقدرته وحدها . ولا يقدر على إنزاله بتلك
- الصورة أحد سواه .واعلموا - أيضا - أنه ( لاَّ إله إِلاَّ هُوَ )
، سبحانه - فهو الإله الحق ، الذى تعنوا له الوجوه ، وتخضع له القلوب
وتتجه إليه النفوس بالعبادة والطاعة .( فَهَلْ أَنتُمْ ) أيها المشركون بعد
كل تلك الأدلة الواضحة الدالة على وحدانية الله ، وعلى أن هذا القرآن من
عنده ( مُّسْلِمُونَ ) أى : داخلون فى الإسلام ، متبعون لما جاءكم به
الرسول - صلى الله عليه وسلم - .والمراد بالعلم فى قوله ( فاعلموا أَنَّمَآ
أُنزِلَ . . . ) : الاعتقاد الجازم البالغ نهاية اليقين ، أى فأيقنوا أن
هذا القرآن ما أنزل إلا ملابسا لعلم الله - تعالى - المحيط بكل شئ .والفاء
فى قوله ( فَهَلْ أَنتُمْ مُّسْلِمُونَ ) للتفريع ، والاستفهام هنا المقصود
به الحض على الفعل وعدم تأخيره .أى : فهل أنتم بعد كل هذه الأدلة على صدق
ما جاءكم به نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - تشكون فى أن الإسلام هو
الدين الحق؟ إن الشك فى ذلك لا يكون من عاقل ، فبادروا إلى الدخول فى
الإسلام إن كنتم من ذوى العقول التى تعقل ما يقال لها .ويرى بعض العلماء
، أن الخطاب فى هذه الآية موجه إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - والمسلمين
أو إليه وحده - صلى الله عليه وسلم - وعلى سبيل التعظيم وعليه يكون المعنى
، فإن لم يستجب لكم - أيها المؤمنون - هؤلاء الذين أعرضوا عن دعوة الحق ":
بعد أن ثبت عجزهم عن الإتيان بما تحديتموهم به ( فاعلموا ) أى فازدادوا
علما ويقينا وثباتا ، بأن هذا القرآن " إنما أنزل بعلم الله " الذى لا يعزب
عنه شئ ، وازدادوا علما بأنه لا إله إلا هو - سبحانه - مستحق للعبادة
، والطاعة ، فهل أنتم بعد كل ذلك ( مُّسْلِمُونَ ) أى ثابتون على الإسلام
وملتزمون بكل أوامره ونواهيه .ومع أننا نرى أن القولين صحيحان من حيث
المعنى ، إلا أننا نفضل الرأى الأول القائل بأن الخطاب للمشركين ، لأن سياق
. الآيات السابقة فى شأنهم فلان يكون الخطاب لهم هنا أولى

من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم اعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - سوء مصير الذين لا يريدون بأقوالهم
. . وأعمالهم وجه الله - تعالى - فقال :( مَن كَانَ يُرِيدُ الحياة الدنيا
، أى : من كان يريد بأقواله الحسنة وبأعماله الطيبة عَلَى حسب الظاهر( .
الحصول على ( الحياة الدنيا وزينتها ) من مال وجاه ومنصب وغير ذلك من المتع
) الدنيوية ، بدون التفات إلى ما يقربه من ثواب الآخرة .من كان يريدون ذلك
نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا ) أى : نوصل إليهم - بإرادتنا
) ومشيئتنا - ثمار جهودهم وأعمالهم فى هذه الدنيا .والتعبير بكان فى قوله
، مَن كَانَ يُرِيدُ . . . ) يفيد أنهم مستمرون على إرادة الدنيا بأعمالهم
، بدون تطلع إلى خير الآخرة .وعدى الفعل ( نوف ) بإلى ، مع أنه يتعدى بنفسه
لتضمينه معنى نوصل .وقوله - سبحانه - ( وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ )
تذييل قصد به تأكيد ما سبقه ، وتبيين مظهر من مظاهر عدل الله - تعالى - مع
عباده فى دنياهم .والبخس : نقص الحق ظلما . يقال : بخس فلان فلانا حقه إذا

ظلمه ونقصه .أى : وهم فى هذه الدنيا لا ينقصون شيئا من نتائج جهودهم
. وأعمالهم ، حتى ولو كانت جهودا لا إخلاص معها ولا إيمان

اولئك الذين ليس لهم في الاخرة الا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما
كانوا يعملون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - سوء مصيرهم فى الآخرة فقال : ( أولئك
الذين لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخرة إِلاَّ النار وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ
فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ) .أى : أولئك الذين أرادوا
، بأقوالهم وأعمالهم الحياة الدنيا وزينتها ، ليس لهم فى الآخرة إلا النار
لأنهم استوفوا ما تقتضيه صور أعمالهم الحسنة فى الدنيا وبقيت عليهم أوزار
نياتم السيئة فى الآخرة .( وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا ) أى : وفسد ما
- صنعوه فى الدنيا من أعمال الخير ، لأنهم لم يقصدوا بها وجه الله - تعالى
وإنما قصدوا بها الرياء ورضى الناس . . .وقوله ( وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ
يَعْمَلُونَ ) أى : وباطل فى نفسه ما كانوا يعملونه فى الدنيا من أعمال
ظاهرها البر والصلاح ، لأنه لا ثمرة له ولا ثواب فى الآخرة لأن الأعمال
بالنيات ، ونيات هؤلاء المرائين ، لم تكن تلتفت إلى ثواب الله ، وإنما كانت
متجهة اتجاها كليا إلى الحياة الدنيا وزينتها ، إلى رضاء المخلوق لا الخالق
وشبيهة بهاتين الآيتين قوله - تعالى - : ( مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ.
الآخرة نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدنيا
: - نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخرة مِن نَّصِيبٍ ) وقوله - تعالى
مّن كَانَ يُرِيدُ العاجلة عَجّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن )
نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً
وَمَنْ أَرَادَ الآخرة وسعى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأولئِكَ .
كَانَ سَعْيُهُم مّشْكُوراً . كُلاًّ نُّمِدُّ هؤلاء وهؤلاء مِنْ عَطَآءِ
رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبّكَ مَحْظُوراً . انظر كَيْفَ فَضّلْنَا
بَعْضَهُمْ على بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ
تَفْضِيلاً ) هذا ومن العلماء من يرى أن هاتين الآيتين مسوقتان فى شأن
الكفار ومن على شاكلتهم من الضالة كاليهود والنصارى والمنافقين . . لأن
. . . قوله - تعالى - ( أولئك الذين لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخرة إِلاَّ النار
لا يليق إلا بهم .والذى نراه أن هاتين الآيتين تتناولان الكفار ومن على (
شاكلتهم تناولا أوليا ، ولكن هذا لا يمنع من أنهما يندرج تحت وعيدهما كل من
قصد بأقواله وأعماله الحياة الدنيا وزينتها ، ونبذ كل معانى الإخلاص
والطاعة لله رب العالمين .ومما يشهد لذلك أن هناك أحاديث كثيرة ، حذرت من
الرياء ، وتوعدت مقترفة بأشد بأنواع العقوبات ومن هذه الأحاديث ما رواه أبو
داود عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " من تعلم
علما مما يبتغى به وجه الله ، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا لم
يجد عرف الجنة يوم القيامة " - أى رائحتها - .وصفوة القول : أن الآيتين
- الكريمتين تسوقان سنة من سنن الله مع عباده فى هذه الدنيا ، هى أن الله
تعالى -لا ينقص الناس شيئا من ثمار جهودهم وأعمالهم فى هذه الدنيا ، إلا
أن هذه الجهود وتلك الأعمال التى ظاهرها الصلاح ، إن كان المقصود بها
الحياة الدنيا وزينتها وجدوا نتائجها فى الدنيا فحسب .وإن كان المقصود بها
رضا الله - تعالى - وثواب الآخرة ، وجدوا ثمارها ونتائجها الحسنة يوم
القيامة ، بجانب تمتعهم بما أحله الله لهم فى الدنيا من طيبات .وذلك لأن
العمل للحياة الأخرى - فى شريعة الإسلام - لا يحول بين العمل النافع فى
الحياة الدنيا ، ولا ينقص شيئا من آثاره وثماره ، بل إنه يزكيه وينميه
ويباركه . . ورحم الله القائل : ليس أحد يعمل حسنة إلا وُفِّى ثوابها فإن
كان مسلما مخلصا وُفِّى ثوابها فى الدنيا والآخرة ، وإن كان كافرا وفى
. ثوابها فى الدنيا

افمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى اماما ورحمة
اولئك يؤمنون به ومن يكفر به من الاحزاب فالنار موعده فلا تك في مرية منه
انه الحق من ربك ولكن اكثر الناس لا يؤمنون

كما فسرها الوسيط وبعد أن بين - سبحانه - حال الذين يريدون الحياة الدنيا
وزينتها ، أتبع ذلك بيان حال الذين يريدون الحق والصواب فيما يفعلون
ويتركون فقال - تعالى - :( أَفَمَن كَانَ على بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ
وَيَتْلُوهُ . . . ) .قال صاحب المنار ما ملخصه : البينة ما تبين به الحق
من كل شئ بحسبه كالبرهان فى العقليات والنصوص فى النقليات ، والخوارق فى
الإلهيات ، والتجارب فى الحسيات ، والشهادات فى القضائيات ، والاستقراء فى
إثبات الكليات ، وقد نطق القرآن بأن الرسل قد جاءوا أقوامهم بالبينات وأن
كل نبى منهم كان يحتج على قومه بأنه على بينة من ربه وأنه جاءهم ببينة من
ربهم ، كما ترى فى قصصهم فى هذه السورة وفى غيرها . .وقوله : ( وَيَتْلُوهُ
من التلو بمعنى الاقتفاء والاتباع . يقال : تلا فلان فلانا إذا كان ( . . .

تابعا له ومقتفيا أثره . والمراد به هنا : التأييد والتقوية .وللمفسرين
أقوال متعددة فى المقصود بقوله - تعالى - ( أَفَمَن كَانَ على بَيِّنَةٍ
مِّن رَّبِّهِ ) وبقوله - سبحانه - ( وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ) .وفى
مرجع الضمائر في قوله " ربه - ويتلوه - ومنه " . . .وأقرب هذه الأقوال إلى
الصواب أن يكون المقصود بقوله - تعالى - ( أَفَمَن كَانَ على بَيِّنَةٍ
مِّن رَّبِّهِ ) الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأتباعه المؤمنون .وبقوله
- تعالى - ( وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ) القرآن الكريم الذى أنزله الله
تعالى - على نبيه - صلى الله عليه وسلم - ليكون معجزة له شاهدة بصدقه
) والضمير في قوله من ربه يعود إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - وفى قوله.
- وَيَتْلُوهُ ) يعود إلى القرآن الكريم ، وفى قوله ( منه ) يعود إلى الله
تعالى - .وعلى هذا القول يكون المعنى : أفمن كان على حجة واضحة من عند ربه
تهديه إلى الحق والصواب فى كل أقواله وأفعاله ، وهو هذا الرسول الكريم
وأتباعه ويؤيده ويقويه فى دعوته شاهد من ربه هو هذا القرآن الكريم المعجز
لسائر البشر . .أفمن كان هذا شأنه كمن ليس كذلك؟أو أفمن كان هذا شأنه كمن
استحوذ عليه الشيطان فجعله لا يريد إلا الحياة الدنيا وزينتها؟ كلا إنهما
لا يستويان .وشهادة القرآن الكريم بصدق الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى
دعوته ، تتجلى فى إعجازه ، فقد تحدى النبى - صلى الله عليه وسلم - أعداءه
أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا مع فصاحتهم وبلاغتهم ، فثبت بذلك أن هذا
القرآن من عند الله - تعالى - .وإنما جعلنا هذا القول أقرب الأقوال إلى
الصواب ، لأنه هو الذى يتسق مع ما يفيده ظاهر الآية الكريمة ، ولأننا عندما
نقرأ هذه السورة الكريمة وغيرها ، نجد الرسل الكرام كثيرا ما يؤكدون
- لأقوامهم - أنهم - أى الرسل على بينة من ربهم .فهذا نوح - عليه السلام
يقول لقومه : ( قَالَ ياقوم أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ على بَيِّنَةٍ مِّن رب
وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ
- أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ )وهذا صالح - عليه السلام
يقول لقومه : ( قَالَ ياقوم أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ على بَيِّنَةً مِّن
رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ الله إِنْ
عَصَيْتُهُ . . . ) وهذا شعيب - عليه السلام - يقول لقومه : ( قَالَ ياقوم
أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ على بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ
رِزْقاً حَسَناً . . . ) وهكذا نجد كل نبى يؤكد لقومه أنه جاءهم على بينة
من ربه وما دام الأمر كذلك فسيدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هو
- أفضل من جاء قومه على بينة من ربه ، والمؤمنون به - صلى الله عليه وسلم
يقتدرون به فى ذلك .ويرى بعضهم أن المراد بالبينة القرآن الكريم ، وبالشاهد
- إعجازه ، وبالموصول مؤمنوا أهل الكتاب ، وأن الضمير فى قوله " ويتلوه
: ومنه " يعودان إلى القرآن الكريم وإعجازه .وعلى هذا الرأى يكون المعنى
أفمن كان على برهان جلى من ربه يدل على حقية الإسلام وهو القرآن ، ويؤيده
ويقويه - أى القرآن - شاهد منه على كونه من عند الله وهذا الشاهد هو إعجازه
للبشر عن أن يأتوا بسورة من مثله .قال الآلوسى ما ملخصه : قوله : ( أَفَمَن
كَانَ على بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ ) : أصل البينة الدالة الواضحة عقلية
: كانت أو محسوسة ، وتطلق على الدليل مطلقا . . والتنوين فيها للتعظيم ، أى
بيئة عظيمة الشأن والمراد بها القرآن ، وباعتبار ذلك أو البرهان جاء الضمير
الراجع إليها فى قوله ( وَيَتْلُوهُ ) أى يتبعه ( شَاهِدٌ ) عظيم يشهد
بكونه من عند الله وهو إعجازه . .ومعنى كون ذلك الشاهد تابعا له : أنه وصف
له لا ينفك عنه . . وكذا الضمير فى " منه " - يعود إلى القرآن - وهو متعلق
بمحذوف وقع صفته لشاهد ومعنى كونه منه أنه غير خارج عنه . .ومن المفسرين من
يرى أن المراد بالبيئة القرآن الكريم - أيضا - ويرى أن المراد بالشاهد
جبريل - عليه السلام - وأن قوله - سبحانه - ( وَيَتْلُوهُ ) من التلاوة
: بمعنى القراءة لا من التُّلُوِ بمعنى الاتباع .وعلى هذا الرأى يكون المعنى
أفمن كان على برهان جلى من ربه يدل على حقية الإسلام وهو القرآن ويتلوا
هذا القرآن على الرسول - صلى الله عليه وسلم - شاهد من الله - تعالى - هو
جبريل - عليه السلام - .فالضمير فى ( وَيَتْلُوهُ ) على هذا الرأى يعود إلى
جبريل - عليه السلام - وفى " منه " يعود على الله تعالى - .وهناك أقوال
أخرى فى تفسير الآية الكريمة رأينا من الخير أن نضرب عنها صفحا لضعفها
وقوله ( وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ موسى إِمَاماً وَرَحْمَةً ) دليل آخر على.
صدق النبى - صلى الله عليه وسلم - فى دعوته . وهو معطوف على شاهد والضمير
في قوله ( وَمِن قَبْلِهِ .. . ) يعود على شاهد - أيضا - .وقوله ( إِمَاماً
وَرَحْمَةً ) منصوبان على الحالية من قوله ( كِتَابُ ) .والمعنى ومن قبل
هذا الشاهد على صدق الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهو القرآن الكريم أنزل
الله - تعالى - على موسى كتابه التوراة مشتملا على صفات الرسول - صلى الله
عليه وسلم - و ( إِمَاماً ) يؤتم به فى أمور الدين والدنيا ورحمة لبنى
إسرائيل من العذاب إذا ما آمنوا به واتبعوا تعاليمه .قال الشوكانى : وإنما
قدم الشاهد على كتاب موسى مع كونه متأخرا فى الوجود لكونه - أى الشاهد
بمعنى المعجز - وصفا لازما غير مفارق ، فكان أغرق فى الوصفية من كتاب موسى
- وهى شهادة كتاب موسى وهو التوراة أنه بشر بمحمد - صلى الله عليه وسلم.

وأخبر بأنه رسول من الله - تعالى - .واسم الإشارة فى قوله ( أولئك
- يُؤْمِنُونَ بِهِ ) يعود إلى الموصوفين بأنهم على بينة من ربهم وهم النبى
صلى الله عليه وسلم - وأتباعه المؤمنون الصادقون .أى : أولئك الموصوفون
بأنهم على بينة من ربهم يؤمنون بأن الإسلام هو الدين الحق ، وبأن رسول
- الله - صلى الله عليه وسلم - رسول صدق وبأن القرآن من عند الله - تعالى
وحده .فالضمير فى قوله ( به ) يعود على كل ما جاء به الرسول - صلى الله
) : عليه وسلم - من عند ربه ويدخل فى ذلك دخولا أوليا القرآن الكريم .وقوله
وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأحزاب فالنار مَوْعِدُهُ ) بيان لسوء عاقبة
الكافرين بما جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم - بعد بيان حسن عاقبة
المؤمنين به .والأحزاب جمع حزب وهم الذين تخربوا وتجمعو من أهل مكة وغيرهم
لمحاربة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ودعوته .أى : ومن يكفر بهذا القرآن
وبما جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم - من هدايات فإن نار جهنم هى
المكان الذى ينتظره وينتظر كل متحزب ضد دعوته - صلى الله عليه وسلم - .وفى
جعل النار موعدا لهذا الكافر بالقرآن إشعار بأن فيها ما لا يحيط به الوصف
- من ألوان العذاب الذى يجعله لا يموت فيها ولا يحيا .ثم ختم - سبحانه
الآية الكريمة بالحض على النظر الصحيح الذى يؤدى إلى اليقين بن ما جاء به
- الرسول - صلى الله عليه وسلم - هو الحق الذى لا يشو به باطل فقال - تعالى
فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الحق مِن رَّبِّكَ ولكن ) :
أَكْثَرَ الناس لاَ يُؤْمِنُونَ ) .أى : فلا تك - أيها العاقل - فى شك من
- أن هذا القرآن من عند الله ومن أن ما جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم
- هو الصدق ، بل عليك أن تعتقد اعتقادا جازما فى صحة ذلك ، لأن ما جاء به
صلى الله عليه وسلم - هو الحق الثابت من عند ربك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون
بذلك لا نطماس بصائرهم ، ولتقليدهم لآبائهم ، ولإيثارهم الغى على الرشد
وبذلك نرى الآية الكريمة قد ميزت بين من كان على الحق ومن كان على الباطل.
وساقت حشودا من الأدلة الدالة على صدق الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى
دعوته ، وعلى صحة ما عليه أتباعه ، وأمرتهم بالثبات على الحق الذى آمنوا به
، وتوعدت المتحزبين ضد دعوة الإسلام بنار جهنم التى هى بئس القرار .هذا ،
وهذه الآية الكريمة هى من الآيات التى قيل بأنها مدنية ، وبمراجعتنا
لتفسيرها لم نجد ما يؤيد بذلك ، بل الذى نراه أن السورة كلها مكية كما سبق
. أن أشرنا إلى ذلك فى المقدمة

ومن اظلم ممن افترى على الله كذبا اولئك يعرضون على ربهم ويقول الاشهاد
هؤلاء الذين كذبوا على ربهم الا لعنة الله على الظالمين

. كما فسرها الوسيط ثم وصف - سبحانه - الكافرين بالإسلام ببضعة عشر وصفا
وبين سوء مصيرهم كما بين حسن عاقبة المؤمنين وضرب مثلا لحال الفريقين
فقال - تعالى - :( وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى . . . ) .قال
الإمام الرازى : اعلم أن الكفار كانت لهم عادات كثيرة ، وطرق مختلفة فمنها
شدة حرصهم على الدنيا ، ورغبتهم في تحصيلها ، وقد أبطل الله - هذه الطريقة
بقوله : ( مَن كَانَ يُرِيدُ الحياة الدنيا وَزِينَتَهَا . . . ) إلى آخر
- الآية . ومنها أنهم كانوا ينكرون نبوة الرسول - صلى الله عليه وسلم
ويقدحرون فى معجزاته وقد أبطل الله - تعالى - ذلك بقوله ( أَفَمَن كَانَ
على بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ . . . ) ومنها أنهم كانوا يزعمون فى الأصنام
أنها شفعاؤهم عند الله ، وقد أبطل الله - تعالى - ذلك بهذه الآيات وذلك لأن
هذا الكلام افتراء على الله . . .وجملة ( وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى
عَلَى الله كَذِباً . . . ) معطوفة على قوله - تعالى - قبل ذلك ( وَمَن
يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأحزاب فالنار مَوْعِدُهُ ) والاستفهام للإنكار
- والنفى ، والتقدير : لا أحد أشد ظلما ممن تعمد الكذب على الله - تعالى
، بأن زعم بأن الأصنام تشفع لعابديها عنده ، أو زعم بأن الملائكة بنات الله
أو أن هذا القرآن ليس من عنده - سبحانه - .وقوله : ( أولئك يُعْرَضُونَ على
رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأشهاد هؤلاء الذين كَذَبُواْ على رَبِّهِمْ أَلاَ
لَعْنَةُ الله عَلَى الظالمين ) بيا لما يقال لهؤلاء الظالمين على سبيل
التشهير والتوبيخ يوم القيامة والأشهاد : جميع شهيد كشريف وأشراف . أو جمع
شاهد بمعنى حاضر كصاحب وأصحاب المراد بهم - على الراجح - جميع أهل الموقف
من الملائكة الذين كانوا يسجلون عليهم أقوالهم وأعمالهم ، ومن الأنبياء
- والمؤمنين .والمعنى : أولئك الموصوفون بافتراء الكذب على الله - تعالى
، يعرضون يوم الحساب ، على ربهم ومالك أمرهم ، كما يعرض المجرم للقصاص منه
ولفضيحته أمام الناس .( وَيَقُولُ الأشهاد ) الذين يشهدون عليهم بأنهم قد
افتروا الكذب على الله ( هؤلاء ) المجرمون هم ( الذين كَذَبُواْ على
رَبِّهِمْ ) بأن نسبوا إليه ما هو منزه عنه .( أَلاَ لَعْنَةُ الله عَلَى
الظالمين ) الذين وضعوا الأمور فى غير مواضعها ، فأوردوا أنفسهم المهالك
وجئ باسم الإشارة ( هؤلاء ) زيادة فى التشنيع عليهم ، وفى تميزهم عن.
غيرهم وصدرت جملة ( أَلاَ لَعْنَةُ الله عَلَى الظالمين ) بأداة الاستفتاح
- لتأكيد الدعاء عليهم بالطرد والإبعاد عن رحمة الله - تعالى ( ألاَ )

بسبب افترائهم الكذب .والظاهر أن هذه الجملة من كلام الأشهاد ويؤيد ذلك ما
أخرجه الشيخان عن صفوان بن محرز قال : " كنت آخذا بيد ابن عمر إذ عرض له
رجل فقال : كيف سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول فى النجوى يوم
القيامة؟ قال سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : " إن الله - عز
وجل - يدنى المؤمن فيضع عليه كتفه - أى ستره وعفوه - ويستره من الناس
ويقرره بذنوبه ويقول له : أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ حتى إذا قرره
بذنوبه ورأى فى نفسه أنه قد هلك قال : فإنى قد سترتها عليك فى الدنيا وإنى
أغفرها لك اليوم ثم يعطى كتاب حسناته ، وأما الكفار والمنافقون فيقول
الأشهاد ( هؤلاء الذين كَذَبُواْ على رَبِّهِمْ أَلاَ لَعْنَةُ الله عَلَى
الظالمين ) " .ويجوز أن تكون هذه الجملة من كلام الله - تعالى - على سبيل
الاستئناف بعد أن قال الأشهاد ( هؤلاء الذين كَذَبُواْ على رَبِّهِمْ ) .

الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالاخرة هم كافرون

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - جانبا آخر من أفعالهم الشنيعة فقال
) الذين يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً . . . )و
يَصُدُّونَ ) من صد بمعنى صرف الغير عن الشئ ومنعه منه . يقال صد يصد صدودا
وصدا .و ( سَبِيلِ الله ) طريقة الموصولة إلى رضائه ، والمراد بها ملة
الإسلام .( وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً ) أى يطلبون لها العوج ، يقال : بغيت
لفلان كذا إذا طلبته له .والعوج - بكسر العين - الميل والزيغ فى الدين
والقول والعمل . وكل ما خرج عن طريق الهدى إلى طريق الضلال فهو عوج
والعوج - بفتح العين - يكون فى المحسوسات كالميل فى الحائط والرمح وما
يشبههما . أى أن مكسور العين يكون فى المعانى ومفتوحها يكون فى المحس
والمعنى : ألا لعنة الله وخزيه على الظالمين الذين من صفاتهم أنهم لا
يكتفون بانصرافهم عن الحق بل يحاوولن صرف غيرهم عنه ويطلبون لملة الإسلام
العوج ويصفونها بذلك تنفيرا للناس منها ، وقوله عوجا مفعول ثان ليبغون ، أو
حال من سبيل الله .وقوله ( وَهُمْ بالآخرة هُمْ كَافِرُونَ ) بيان لعقيدتهم
الباطلة فى شأن البعث والحساب . أى : وهم بالآخرة وما فيها من حساب وثواب
وعقاب كافرون .وكرر الضمير ( هم ) لتأكيد كفرهم وللإشارة إلى أنهم بلغوا
فيه مبلغا لم يبلغه أحد سواهم حتى لكأن كفر غيرهم يسير بالنسبة لكفرهم .

اولئك لم يكونوا معجزين في الارض وما كان لهم من دون الله من اولياء يضاعف
لهم العذاب ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أنه كان قادرا على تعذيبهم فى الدنيا
قبل الآخرة ولكنه أخر عذابهم إملاء لهم فقال : ( أولئك لَمْ يَكُونُواْ
مُعْجِزِينَ فِي الأرض وَمَا كَانَ لَهُمْ مِّن دُونِ الله مِنْ
أَوْلِيَآءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ العذاب . . . ) .وقوله : معجزين من الإعجاز
بمعنى عدم المقدرة على الشئ .أى : أولئك الذين افتروا على الله الكذب لم
يكن - سبحانه - عاجزا عن إنزال العذاب الشديد بهم فى الدنيا . وما كان لهم
من غيره من نصراء ينصرونهم من بأسه لو أراد إهلاكهم .قال الإمام الرازى
: قال الواحدى : معنى الإعجاز المنع من تحصيل المراد ، يقال أعجزنى فلان
. أى : منعنى عن مرادى . .والمقصود أن قوله ( أولئك لَمْ يَكُونُواْ
) : مُعْجِزِينَ فِي الأرض ) دل على أنه لا قدرة لهم على الفرار .وقوله
وَمَا كَانَ لَهُمْ مِّن دُونِ الله مِنْ أَوْلِيَآءَ ) دل على أن أحدا لا
يقدر على تخليصهم من عذابه .فجمع - سبحانه - بين ما يرجع إليهم وبين ما
يرجع إلى غيرهم ، ووضح بذلك انقطاع حيلهم فى الخلاص من عذاب الدنيا والآخرة
وقوله : ( يُضَاعَفُ لَهُمُ العذاب ) جملة مستأنفة لبيان أن من حكمة تأخير
العذاب عنهم فى الدنيا مضاعفة العذاب لهم فى الآخرة .وقوله : ( مَا
كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السمع وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ) تصوير بليغ
لاستحواذ الشيطان عليهم .أى أن هؤلاء المجرمين بلغ بهم الجهل والعناد
والجحود أنهم ما كانوا يستطيعون السماع للحق الذى جاءهم من ربهم لثقله على
نفوسهم الفاسدة ، وما كانوا يبصرون المعجزات الدالة على صدق نبيهم - صلى
الله عليه وسلم - .فليس المراد نفى السماع والإبصار الحسيين عنهم وإنما
المراد أنهم لا نطماس بصائرهم صاروا كمن لا يسمع ولا يرى .

اولئك الذين خسروا انفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون

كما فسرها الوسيط ثم أكد - سبحانه - سوء مصيرهم فقال :( أولئك الذين خسروا
أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ )أى : أولئك
الذين استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله ، هم الذين خسروا أنفسهم
وأوردوها المهالك بسبب تعمدهم الكذاب على الله ، ( وَضَلَّ عَنْهُمْ ) أى
: وغاب عنهم ما كانوا يفترونه فى الدنيا من اعتقادات باطلة وادعاءات فاسدة .

لا جرم انهم في الاخرة هم الاخسرون

كما فسرها الوسيط وقوله ( لاَ جَرَمَ أَنّهُمْ فِي الآخرة هُمُ الأخسرون ) زيادة فى تأكيد خسرانهم .وكلمة ( لاَ جَرَمَ ) وردت فى القرآن الكريم فى خمسة مواضع . وفى كل موضع جاءت متلوة بأن واسمها .وجمهور النحاة على أن هذه الكلمة مركبة من "لا " و " جرم " تركيب خمسة عشر ومعناها بعد هذا التركيب معنى الفعل : حق أو ثبت ، والجملة بعدها هى الفاعل لهذا الفعل .أى : وثبت " كونهم فى الآخرة هم الأخسرون .ومن النحاة من يرى أن "لا " نافية للجنس و جرم " اسمها وما بعدها خبرها .والمعنى .لا محالة ولا شك فى أنهم فى الآخرة هم الأخسرون .

ان الذين امنوا وعملوا الصالحات واخبتوا الى ربهم اولئك اصحاب الجنة هم فيها خالدون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة بعد بيان سوء عاقبة الكافرين فقال - تعالى - : ( إِنَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات وأخبتوا إِلَى رَبِّهِمْ أولئك أَصْحَابُ الجنة هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ) .قال الجمل : والإِخبات فى اللغة هو الخشوع والخضوع وطمأنينة القلب . ولفظ الإِخبات يتعدى بإلى وباللام . فإذا قلت أخبت فلان إلى كذا فمعناه اطمأن إليه . وإذا قلت أخبت له فمعناه : خشع وخضع له . فقوله : ( إِنَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ) إشارة إلى جميع أعمال الجوارح . وقوله : ( وأخبتوا - إلى رَبِّهِمْ ) إشارة إلى أعمال القلوب وهنى الخشوع والخضوع لله - تعالى والمعنى : إن الذين آمنوا بالله - تعالى - إيمانا حقا وعملوا الأعمال الصالحات التى ترضيه - سبحانه - واطمأنوا إلى قضاء ربهم وخشعوا له أولئك الموصوفون بذلك هم أصحاب الجنة وهم الخالدون فيها خلودا أبديا وهم الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه .

مثل الفريقين كالاعمى والاصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا افلا تذكرون

كما فسرها الوسيط ثم ضرب - سبحانه - مثلا لفريق الكافرين ولفريق المؤمنين فقال : ( مَثَلُ الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ) .وقوله : ( مَثَلُ الفريقين أى : حالهم وصفتهم .وأصل المثل بمعنى والمثل : النظير والشبيه ثم ( . . . - أطلق على القول السائر المعروف لمماثلة مضربه - وهو الذى يضرب فيه لمورده - أى الذى ورد فيه أولا .ولا يكون إلا فيام فيه غرابة . ثم استعير للصفة أو الحال أو القصة إذا كان لها شأن عجيب وفيها غرابة .وإنما تضرب الأمثال لإيضاح المعنى الخفى ، وتقريب المعقول من المحسوس وعرض الغائب فى صورة الشاهد . فيكون المعنى الذى ضرب له المثل أوقع فى القلوب وأثبت فى النفوس .والمعنى : حال الفريقين المذكورين قبل ذلك وهما الكافرون والمؤمنون كحال الضدين المختلفين كل الاختلاف .أما الكافرون فحالهم وصفتهم كحال وصفة من جميع بين العمى والصمم . لأنهم مع كونهم يرون ويسمعون لكنهم لم ينتفعوا بذلك فصاروا كالفاقد لهما .وأما المؤمنون فحالهم وصفتهم كحال وصفة من جميع بين النصر السليم والسمع الواعى لأنهم انتفعوا بما رأوا من دلائل تدل على وحدانية الله وقدرته وبما سمعوا من توجيهات تدل على صحة تعاليم الإِسلام والمقصود من هذا التمثيل . تنبيه الكافرين إلى ما هم عليه من ضلال وجهالة. لعلهم بهذا التنبيه يتداركون أمرهم ، فيدخلون فى دين الإِسلام وتثبيت المؤمنين على ما هم عليه من حق ، وبذلك يزدادون إيمانا على إيمانهم والاستفهام فى قوله ( هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ) للانكار والنفى ، أى. هل يستوى فى الصفة والحال من كان ذا سمع وبصر بمن فقدهما؟ كلا إنهما لا : يستويان حتى عند أقل العقلاء عقلا .وقوله : ( أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ) حض على التذكر والتدبر والتفكر .أى : أتشكون فى عدم استواء الفريقين؟ لا إن الشك فى عدم استوائهما لا يليق بعاقل وإنما اللائق به هو اعتقاد تباين صفتيهما والدخول فى صفوف المؤمنين الذين عملوا الأعمال الصالحات وأخبتوا إلى ربهم .وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد بينت حال الكافرين وذكرت من أوصافهم أربعة عشر وصفا أولهما : افتراء الكذب . . . وآخرها : الخسران فى الآخرة . كما بينت حال المؤمنين وبشرتهم بالخلود فى الجنة : ثم ضربت مثلا لكل فريق وشبهت حاله بما يناسبه من صفات . .وفى ذلك ما فيه من الهداية إلى الطريق المستقيم ، لمن كان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد .وبعد هذا الحديث المتنوع عن مظاهر قدرة الله ووحدانيته وعن إعجاز القرآن الكريم وعن حسن عاقبة المؤمنين وسوء عاقبة المكذبين ساقت السورة الكريمة بترتيب حكيم قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم وقد استغرق هذا القصص معظم الآيات الباقية فيها فقد حدثتنا عن قصة نوح مع قومه وعن قصة هود مع قومه ، وعن قصة صالح مع قومه ، وعن قصة لوط مع قومه ، وعن قصة شعيب مع قومه ، كما تحدثت عن قصة إبراهيم مع رسل الله الذين جاءوا بالبشرى ، وعن جانب من قصة موسى مع فرعون

قال الإمام الرازى : إعلم أنه - تعالى - لما ذكر فى تقرير المبدأ والمعاد. دلائل ظاهرة ، وبينات قاهرة ، وبراهين باهرة ، أتبعها بذكر قصص الأنبياء وفيه فوائد :أحدها : التنبيه على أن إعراض الناس عن قبول هذه الدلائل والبينات ليس من خواص قوم النبى - صلى الله عليه وسلم - ، بل هذه العادة المذمومة كانت حاصلة فى جميع الأمم السالفة ، والمصيبة إذا عمت خفت . فكان ذكر قصصهم وحكاية إصرارهم وعنادهم يفيد تسلية النبى - صلى الله عليه وسلم - وتخفيف ذلك على قلبه .وثانيها : أنه - تعالى - يحكى فى هذه القصص أن عاقبة أمر أولئك المنكرين كان إلى اللعن فى الدنيا والخسارة فى الآخرة . وعاقبة أمر المحقين إلى الدولة فى الدنيا ، والسعادة فى الآخرة ، وذلك يقوى قلوب المحقين ، ويكسر قلوب المبطلين .وثالثها : التنبيه على أنه - تعالى - وإن كان يمهل هؤلاء المبطلين ، ولكنه لا يهملهم ، بل ينتقم منهم على أكمل الوجوه .ورابعها : بيان أن هذه القصص دالة على نبوة النبى - صلى الله عليه وسلم - لأنه كان أميا ، وما طالع كتابا ولا تتلمذ على أستاذ ، فإذا ذكر هذه القصص على هذا الوجه من غير تحريف ولا خطأ ، دل ذلك على أنه إنما عرفه بالوحى من الله - تعالى - .

ولقد ارسلنا نوحا الى قومه اني لكم نذير مبين

كما فسرها الوسيط وقد بدأت السورة الكريمة قصصها بقصة نوح مع قومه ، وقد وردت هذه القصة فى سور متعددة منها سورة الأعراف ، وسورة المؤمنون ، وسورة نوح . . . إلا أنها وردت هنا بصورة أكثر تفصيلا من غيرها .( وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إلى قَوْمِهِ . . . ) .قوله : ( وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إلى قَوْمِهِ . . . ) جواب لقسم محذوف . أى والله لقد أرسلنا نوحا إلى قومه . والدليل على هذا القسم وجود لامه فى بدء الجملة .وافتتحت القصة بصيغة القسم لأن المخاطبين بها لما لم يحذروا ما نزل بقوم نوح بسبب كفرهم نزلوا منزلة المنكر لرسالته .وينتهى نسب نوح - عليه السلام - إلى شيث بن آدم - عليه السلام - وقد ذكر نوح فى القرآن فى ثلاثة وأربعين موضعا .وقوم الرجل : هم أقرباؤه الذين يجتمعون معه فى جد واحد وقد يقيم الرجل بين الأجانب فيسميهم قومه مجازا للمجاورة .وكان قوم نوح يعبدون الأصنام : فأرسل الله إليهم نوحا ليدلهم على طريق الرشاد .قال ابن كثير : قال ابن عباس وغير واحد من علماء التفسير : " كان أول ما عبدت الأصنام أن قوما صالحين ماتوا . فبنى قومهم عليهم مساجد ، وصوروا صور أولئك الصالحين فيها ليتذكروا حالهم وعبادتهم فيتشبهوا بهم ، فلما طال الزمان جعلوا أجسادا على تلك الصور فلما تمادى الزمان عبدوا تلك الأصنام وسموها بأسماء أولئك الصالحين : ودا وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا فلما تفاقم الأمر بعث الله - تعالى - رسوله نوحا فأمرهم بعبادة الله وحده " .وقوله : ( إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ . أن لاَّ تعبدوا إِلاَّ الله . . . ) بيان للوظيفة التى من أجلها أرسل الله - تعالى - نوحا إلى قومه .قال الشوكانى : قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائى : بفتح الهمزة فى ( إنى ) على تقدير حرف الجر أى : أرسلناه بأنى . أى أرسلناه متلبسا بذلك الكلام وهو أنيلكم نذير مبين . وقرأ الباقون بالكسر على إرادة القول . أى : أرسلناه قائلا لهم ( إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ) .ونذير من الإنذار وهو إخبار معه تخويف . .ومبين : من الإبانة بمعنى التوضيح والإظهار . .أى : أرسلناه إلى قومه فقال لهم يا قوم : إنى لكم محذر تحذيرا واضحا من موجبات العذاب التى تتمثل فى عبادتكم لغير الله - تعالى - .واقتصر على الإنذار لأنهم لم يعملوا بما بشرهم به وهو الفوز برضا الله - تعالى - إذا ما أخلصوا له العبادة والطاعة .

ان لا تعبدوا الا الله اني اخاف عليكم عذاب يوم اليم

) كما فسرها الوسيط وجملة ( أَن لاَّ تعبدوا إِلاَّ الله ) بدل من قوله إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ) أى أرسلناه بأن لا تعبدوا إلا الله وقوله : ( إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ) جملة تعليلية. تبين حرص نوح الشديد على مصلحة قومه ومنفعتهم .أى إنى أحذركم من عبادة ، غير الله ، لأن هذه العبادة ستؤدى بكم إلى وقوع العذاب الأليم عليكم ، وما حملنى على هذا التحذير الواضح إلا خوفى عليكم ، وشفقتى بكم ، فأنا منكم وأنتم منى بمقتضى القرابة والنسب .ووصف اليوم بالأليم على سبيل المجاز العقلى ، وهو أبلغ من أن يوصف العذاب بالأليم ، لأن شدة العذاب لما بلغت الغاية والنهاية فى ذلك ، جعل الوقت الذى تقع فيه وقتا أليما أى مؤلما .

فقال الملا الذين كفروا من قومه ما نراك الا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك الا الذين هم اراذلنا بادي الراي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين

) : كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - ما رد به قوم نوح عليه فقال فَقَالَ الملأ الذين كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً

مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتبعك إِلاَّ الذين هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ
الرأي وَمَا نرى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ
والمراد بالملأ : أصحاب الجاه والغنى من قوم نوح . وهذا اللفظ اسم جميع. (
لا واحد له من لفظه كرهط وهو - كما يقول الآلوسى - : مأخوذ من قولهم فلان
ملئ بكذا : إذا كان قادرا عليه . . . أو لأنهم متمالئون أى متظاهرون
متعاونون ، أو لأنهم يملأون القلوب والعيون . . .ووصفهم بالكفر ، لتسجيل
ذلك عليهم من أول الأمر زيادة فى ذمهم .أى : بعد هذا النصح الحكيم الذى
وجهه نوح - عليه السلام - لقومه ، رد عليه أغنياؤهم وسادتهم بقولهم ( مَا
نَرَاكَ ) يا نوح إلا بشر مثلنا ، أى : إلا إنسانا مثلنا ، ليست فيك مزية
تجعلك مختصا بالنبوة دوننا . . .فهم - لجهلهم وغبائهم - توهموا أن النبوة
لا تجامع البشرية ، مع أن الحكمة تقتضى أن يكون الرسول بشرا من جنس المرسل
إليهم ، حتى تتم فائدة التفاهم معه ، والاقتداء به فى أخلاقه وسلوكه .وقد
حكى القرآن قولهم هذا فى أكثر من موضع ، ومن ذلك قوله - تعالى - ( وَقَالَ
الملأ مِن قَوْمِهِ الذين كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ الآخرة
وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الحياة الدنيا مَا هذا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ
. يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ
. وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ
ثم إنهم فى التعليل لعدم اتباع نبيهم لم يكتفوا بقولهم ما نراك إلا ( . .
بشر مثلنا : بل أضافوا إلى ذلك قولهم : ( وَمَا نَرَاكَ اتبعك إِلاَّ الذين
هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرأي ) ومرادهم بقولهم : ( أَرَاذِلُنَا ) أى
فقراؤنا ومن لا وزن لهم فينا .قال الجمل : ولفظ ( أَرَاذِلُنَا ) فيه وجهان
- أحدهما أنه جميع الجمع فهو جمع أرذل - بضم الذال - جمع رذل - بسكونها :
. نحو كلب وأكلب وأكالب . . .ثانيهما : أنه جمع مفرد وهو أرذل كأكبر وأكابر
والأرذل هو المغروب عنه لرداءته .ومرادهم بقولهم : ( بَادِيَ الرأي ) أى .
أوله من البدء . يقال : بدأ يبدأ إذا فعل الشئ أولا وعليه تكون الياء :
" مبدلة من الهمزة لانكسار ما قبلها ويؤيده قراءة أبى عمرو " بادئ الرأى
أى : وما نراك اتبعك يا نوح إلا الذين هم أقلنا شأنا وأحقرنا حالا من غير.
أن يثبتوا من حقيقة أمرك ، ولو تثبتوا وتفكروا ما اتبعوك ويصح أن يكون
) مرادهم بقولهم ( بَادِيَ الرأي ) أى اتبعوك ظاهرا لا باطنا ، ويكون لفظ
بادى ) من البدو بمعنى الظهور . يقال : بدا الشئ يبدو بدوا وبُدوءا وبداء
أى ظهور وعليه يكون المعنى : وما نراك اتبعك يا نوح إلا الذين هم أهوننا
أمرا ، ومع ذلك فإن اتباعهم لك إنما هو فى ظاهر أمرهم ، أما بواطنهم فهى
تدين بعقيدتنا .وشبيه بهذه الجملة قوله - تعالى - ( قالوا أَنُؤْمِنُ لَكَ
واتبعك الأرذلون ) قال صاحب الكشاف : وإنما استرذلوا المؤمنين لفقرهم
وتأخرهم فى الأسباب الدنيوية لأنهم أى الملأ من قوم نوح - كانوا جهالا ما
كانوا يعلمون إلا ظاهرا من الحياة الدنيا فكان الأشرف عندهم من له جاه ومال
كما ترى أكثر المتسمين بالإسلام ، يعقتدون ذلك ويبنون عليه إكرامهم
وإهانتهم ، ولقد زال عنهم أن التقدم فى الدنيا - مع ترك الآخرة -لا يقرب
أحدامن الله وإنما يبعده ، ولا يرفعه بل يضعه ، فضلا عن أن يجعله سببا فى
الاختيار للنبوة والتأهيل لها . . .ثم أضافوا إلى مزاعمهم السابقة زعما
جديدا فقالوا : ( وَمَا نرى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ
كَاذِبِينَ ) .والفضل : الزيادة فى الشرف والغنى وغيرهما مما يتميز به
الإنسان عن غيره .والمراد هنا : آثاره التي تدل عليه .أى : أنت يا نوح ليست
إلا بشرا مثلنا ، وأتباعك هم أحقرنا شأنا ، وما نرى لك ولمتبعيك شيئا من
الزيادة علينا لا فى العقل ولا فى غيره ، بل إننا لنعتقد أنكم كاذبون فى
دعواكم أنكم على الحق ، لأن الحق فى نظرنا هو فى عبادة هذه الأصنام التى
عبدها من قبلنا آباؤنا .وهكذا نرى أن الملأ من قوم نوح - عليه السلام - قد
عللوا كفرهم بما جاءهم به بثلاث علل ، أولها : أنه بشر مثلهم وثانيها : أن
أتباعه من فقرائهم وثالثها : أنه لا مزية له ولأتباعه عليهم . .وهى كلها
- علل باطلة ، تدل على جهلهم ، وانطماس بصيرتهم ، ويدل على ذلك ، رد نوح
عليه السلام - الذى حكاه القرآن فى قوله - تعالى - :( قَالَ ياقوم
. ( . . . أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ على بَيِّنَةٍ

قال يا قوم ارايتم ان كنت على بينة من ربي واتاني رحمة من عنده فعميت عليكم
انلزمكموها وانتم لها كارهون

كما فسرها الوسيط ( قَالَ ياقوم أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ على بَيِّنَةٍ مِّن
ربي . . . )أى : قال نوح - عليه السلام - فى رده على الملأ الذين كفروا من
قومه : ( قَالَ ياقوم ) أى : يا أهلى وعشيرتي الذين يسرنى ما يسرهم ويؤلمنى
: ما يؤلمهم .( أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ على بَيِّنَةٍ مِّن ربي ) أى
اخبرونى إن كنت على بصيرة من أمرى ، وحجة واضحة من ربى ، بها يتبين الحق من
الباطل .( وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ ) أى : ومنحنى بفضله وإحسانه
. النبوة التى هى طريق الرحمة لمن آمن بها ، واتبع من اختاره الله لها
فالمراد بالرحمة هنا النبوة ( فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ) أى : فأخفيت عليكم

هذه الرحمة ، وغاب عنكم الانتفاع بهداياتها ، لأنكم ممن استحب العمى على الهدى .يقال : عُمِّى على فلان الأمر : أى أخفى عليه حتى صار بالنسبة إليه كالأعمى قال صاحب المنار : قرأ الجمهور فعميت - بالتخفيف - كخفيت وزنا ومعنى . قال - تعالى - ( فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأنبآء يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لاَ يَتَسَآءَلُونَ ) وقرأ حمزة والكسائى وحفص بالتشديد والبناء للمفعول ( فَعُمِّيَتْ ) أى : فحجبها عنكم جهلكم وغروركم . .والتعبير بعميت مخففة ومشددة أبلغ من التعبير بخفيت وأخفيت ، لأنه مأخوذ من العمى المقتضى لأشد أنواع الخفاء .والاستفهام فى قوله : ( أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ) للإنكار والنفى .أى : إذا كانت الهداية إلى الخير التى جئتكم بها قد خفيت عليكم مع وضوحها وجلائها ، فهل استطيع أنا وأتباعى أن نجبركم إجبارا ، ونقسركم قسرا على الإيمان بى ، وعلى التصديق بنبوتى ، والحال أنكم كارهون لها نافرون منها .كلا إننا لا نستطيع ذلك لأن الإيمان الصادق يكون عن اقتناع واختيار لا عن إكراه وإجبار .قال صاحب الظلال ما ملخصه : واللفظ فى القرآن قد يرسم بجرسه صورة كاملة للتناسق الفنى بين الألفاظ ، . . ومن أمثله ذلك قوله - تعالى - فى قصة نوح مع قومه ( أَنُلْزِمُكُمُوهَا فأنت تحس أن كلمة انلزمكموها تصور جو الإكراه ، بإدماج كل هذه الضمائر ( . فى النطق ، وشد بعضها إلى بعض كما يدمج الكارهون مع ما يكرهون ، ويشدون إليه وهم نافرون ، وهكذا يبدولون من التناسق فى التعبير أعلى من البلاغة الظاهرية ، وأرفع من الفصاحة اللفظية .

ويا قوم لا اسالكم عليه مالا ان اجري الا على الله وما انا بطارد الذين امنوا انهم ملاقو ربهم ولكني اراكم قوما تجهلون

كما فسرها الوسيط ثم وجه نوح - عليه السلام - نداء ثانيا إلى قومه زيادة في التلطف معهم ، وطمعا فى إثارة وجدانهم نحو الحق فقال : ( ويا قوم لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً ) .أى :لا أطلب منكم شيئا من المال فى مقابل تبليغ ما أمرنى ربى بتبليغه إليكم : لأن طلبى هذا قد يجعلكم تتوهمون أنى محب للمال .( إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللّه ) - تعالى وحده ، فهو الذى يثيبنى على دعوتى إلى عبادتكم له ، وفى هذه الجملة إشارة إلى أنه لا يسأل الله - تعالى - مالا ، وإنما يسأله ثوابا ، إذ ثواب الله يسمى أجرا ، لأنه جزاء على العمل الصالح .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - فى سورة الشعراء : ( وَمَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ على رَبِّ العالمين ) وجملة ( وَمَآ أَنَا بِطَارِدِ الذين آمنوا ) معطوفة على جملة ( لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً ) لأن مضمونها كالنتيجة لمضمون المعطوف عليها ، إذ أن زهده فى مالهم يقتضى تمسكه بأتباعه المؤمنين .الطرد : الأمر بالبعد عن مكان الحضور تحقيرا أو زجرا .أى : وما أنا بطارد الذين آمنوا بدعوتى ، سواء أكانوا من الفقراء أم من الأغنياء ، لأن من استغنى عن مال الناس وعطائهم لا يقيسهم بمقياس الغنى والجاه والقوة . . . وإنما يقيسهم بمقياس الإيمان والتقوى .قال الآلوسى : والمروى عن ابن جريح أنهم قالوا له يا نوح إن أحببت أن نتبعك فاطرد هؤلاء الأراذل - وإلا فلن نرضى أن نكون " : نحن وهم فى الأمر سواء .وذلك كما قال زعماء قريش للنبى - صلى الله عليه وسلم - فى شأن فقراء الصحابة : اطرد هؤلاء عن مجلسك ونحن نتبعك فإنا نستحى أن نجلس معهم فى مجلسك . . . "وجملة ( إِنَّهُمْ مُّلاَقُو رَبِّهِمْ ) ، تعليل لنفى طردهم .أى : لن أطردهم عن مجلسى أبدا ، لأنهم قد آمنوا بى ، ولأن مصيرهم إلى الله - تعالى - ، فيحاسبهم على سرهم وعلنهم ، أما أنا فأكتفى منهم بظواهرهم التى تدل على صدق إيمانهم ، وشدة إخلاصهم .وجاءت هذه الجملة بصيغة التأكيد ، لأن الملأ الذين كفروا من قومه كانوا ينكرون البعث والحساب .وقوله : ( ولكني أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ ) استدراك مؤكد لمضمون ما قبله .أى : لن اطردهم ، لأن ذلك ليس من حقى بعد أن آمنوا ، وبعد أن تكفل الله بمحاسبتهم ولكنى مع هذا البيان المنطقى الواضح ، أراكم قوما تجهلون القيم الحقيقية التى يقدر بها الناس عند الله ، وتجهلون أن مرد الناس جميعا إليه وحده - سبحانه - ليحاسبهم على أعمالهم ، وتتطاولون على المؤمنين تطاولا يدل على طغيانكم وسفاهتكم .وحذف مفعول ( تَجْهَلُونَ ) للعلم به ، وللإشارة إلى شدة جهلهم .أى : تجهلون كل ما ينبغى ألا يجعله عاقل .

ويا قوم من ينصرني من الله ان طردتهم افلا تذكرون

كما فسرها الوسيط ثم وجه إليهم نداء ثالثا لعلهم يفيئون إلى رشدهم فقال ( ويا قوم مَن يَنصُرُنِي مِنَ الله إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ) أى : افترضوا يا قوم أنى طردت هؤلاء المؤمنين الفقراء من مجلسى ، فمن ذا الذى يحمينى ويجبرنى من عذاب الله ، لأنه - سبحانه - ميزانه فى تقييم الناس ليس كميزانكم ، إن أكرم الناس عنده هو أتقاكم وليس أغناهم ، وهؤلاء المؤمنون هم أكرم عنده - سبحانه - منكم ، فكيف أطردهم؟والاستفهام فى قوله :

: لتوبيخهم وزجرهم . والجملة معطوفة على مقدر .أى ( أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ) أتصرون على جهلكم؛ فلا تتذكرون أن لهم ربا ينصرهم إن طردتهم؟ إنكم إن بقيتم على هذا الإصرار سيكون أمركم فرطا ، وستتعرضون للعذاب الأليم الذى يهلككم .

ولا اقول لكم عندي خزائن الله ولا اعلم الغيب ولا اقول اني ملك ولا اقول للذين تزدري اعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله اعلم بما في انفسهم اني اذا لمن الظالمين

`<!-- TODO:MISSING -->`{=html} كما فسرها الوسيط

قالوا يا نوح قد جادلتنا فاكثرت جدالنا فاتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين

كما فسرها الوسيط وهكذا نجد نوحا - عليه السلام - يشرح لقومه بأسلوب مهذب حكيم حقيقة أمره ، ويرد على شبهاتهم بما يزهقها . . .وعندما وجدوا أنفسهم عاجزين عن الرد على نبيهم بأسلوب مقارعة الحجة بالحجة ، لجأوا - على عادة طبقتهم - إلى أسلوب التحدى وقد أخذتهم العزة بالإثم فقالوا - كما حكى القرآن عنهم :( قَالُواْ يانوح قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا ) . . . أى : قال قوم نوح - عليه السلام - له بعد أن غلبهم بحجته ، وعجزوا عن الدفاع عن أنفسهم : ( يانوح قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا ) . . . أى : خاصمتنا ونازعتنا فأكثرت فى ذلك حتى لم تترك لنا منفذا للرد عليك ، والجدال : هو المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة . وأصله - كما يقول الآلوسى - من جدلت الحبل إذا أحكمت فتله ، ومنه الجديل - أى الحبل المفتول - وجدلت البناء : أحكمته ، والأجدال : الصقر المحكم البنية ، والمجدل - كمنبر القصر المحكم البناء . . .وسميت المنازعة فى الرأى جدالا . - لأن كل واحد من المتجادلين كأنما ، يفتل الآخر عن رأيه - أى بصرفه عنه - وقيل : الأصل فى الجدال الصراع ، وإسقاط الإنسان صاحبه على الجدالة. . بفتح الجيم - أى : الأرض الصلبة .ثم أضافوا إلى هذا العجز عن مجابهة الحجة سفاهة فى القول فقالوا : ( فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ) .أى : لقد سئمنا مجادلتك لنا ومللناها ، فأتنا بالعذاب الذى تتوعدنا به ، إن كنت من الصادقين فى دعواك النبوة ، وفى وعيدك لنا بعقاب الله ، فإننا مصرون على عبادة آلهتنا ، وكارهون لما تدعونا إليه .وهذا شأن الجاهل المعاند ، إنه بشهر السيف إذا أعجزته الحجة ، ويعلن التحدى إذا يئس . . . عن مواجهة الحق

قال انما ياتيكم به الله ان شاء وما انتم بمعجزين

كما فسرها الوسيط ولكن نوحا - عليه السلام - لم يخرجه هذا التحدى عن سمته الكريم ، ولم يعقده عناد قومه عن مداومة النصح لهم ، وإرشادهم إلى الحقيقة التى ضلوا عنها ، فقد رد عليهم بقوله ( إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ الله إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ ) .أى : إنما يأتيكم بهذا العذاب الذى تستعجلونه الله - تعالى - وحده ، إن شاء ذلك ، لأنه هو الذى يملكه ( وَمَآ أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ ) أى : وما أنتم بمستطيعين الهروب من عذابه متى اقتضت مشيئته - سبحانه - إنزاله لكم ، لأنه - تعالى -لا يعجزه شئ .

ولا ينفعكم نصحي ان اردت ان انصح لكم ان كان الله يريد ان يغويكم هو ربكم واليه ترجعون

كما فسرها الوسيط ثم أضاف إلى هذا الاعتراف بقدرة الله - تعالى - إعترافا آخر بشمول إرادته فقال : ( وَلاَ يَنفَعُكُمْ نصحي إِنْ أَرَدْتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ ) .والنصح معناه : تحرى الصلاح والخير للمنصوح مع إخلاص النية من شوائب الرياء .يقال : نصحته ونصحت له . . . أى : أرشدته إلى ما فيه صلاحه .ويقال : رجل ناصح الجيب إذا كان نقى القلب طاهر السريرة ، والناصح الخالص من كل شئ .أى : إنى قد دعوتكم إلى طاعة الله ليلا ونهارا ، ولم أقصر معكم فى النصيحة ومع ذلك فإن نصحى الدائم لن يفيدكم شيئا ، ما دامت قلوبكم فى عمى عنه ، وأسماعكم فى صمم منه ، ونفوسكم على غير استعداد له .وجواب الشرط فى قوله ( إِنْ أَرَدْتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ ) محذوف لدلالة ما قبله عليه .وقوله : ( إِن كَانَ الله يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ) : زيادة تأكيد منه - عليه السلام - لعموم قدرة الله وإرادته .أى : إن كان الله - تعالى - يريد أن يضلكم عن طريق الحق ، ويصرفكم عن الدخول فيه ، بسبب إصراركم على الجحود والعناد ، فعل ذلك ، لأنه هو ربكم ومالك أمركم ، وإليه وحده ترجعون يوم القيامة ، ليجازيكم الجزاء الذى تستحقونه .وهكذا نجد نوحا - عليه السلام - قد سلك فى دعوته إلى الله ، أحكم السبل ، واستعمل أبلغ الأساليب ، وصبر على

سفاهة قومه صبرا جميلا .

ام يقولون افتراه قل ان افتريته فعلي اجرامي وانا بريء مما تجرمون

كما فسرها الوسيط وعند هذا الحد من قصة نوح مع قومه ، تنتقل السورة الكريمة انتقالا سريعا بقارئها إلى الحديث عن مشركى مكة ، الذين أنكروا أن يكون القرآن من عند الله ، ووقفوا من نبيهم - صلى الله عليه وسلم - موقفا يشبه موقف قوم نوح منه - عليه السلام - فترد عليهم بقوله - تعالى - :أَمْ يَقُولُونَ افتراه قُلْ . . . ) .وأم هنا منقطعة بمعنى بل التى للإضراب ، وهو انتقال المتكلم من غرض إلى آخر .والافتراء : الكذب المتعمد الذى لا توجد أدنى شبهة لقائله .والإجرام : اكتساب الجرم وهو الشئ القبيح الذي يستحق فاعله العقاب .يقال : أجرم فلان وجرم واجترم ، بمعنى اقتراف الذنب الموجب للعقوبة وللمفسرين فى معنى هذه الآية اتجاهان :الاتجاه الأول يرى أصحابه : أنها معترضة بين أجزاء قصة نوح مع قومه ، وأنها فى شأن مشركى مكة الذين أنكروا أن يكون القرآن من عند الله .وعليه يكون المعنى . لقد سقنا لك يا محمد من أخبار السابقين ما هو الحق الذى لا يحوم حوله باطل ، ولكن ، المشركين من قومك لم يعتبروا بذلك ، بل يقولون إنك قد افتريت هذا القرآن قل لهم : إن كنت قد افتريته - على سبيل الفرض - فعلى وحدى تقع عقوبة إجرامى وافترائى الكذب ، وأنا برئ من عقوبة إجرامكم وافترائكم الكذب .أما الاتجاه الثانى فيرى أصحابه أن الآية الكريمة ليست معترضة ، وإنما هى من قصة نوح عليه السلام - وعليه يكون المعنى : بل أيقول قوم نوح إن نوحا - عليه - السلام - قد افترى واختلق ما جاء به من عند نفسه ثم نسبه إلى الله تعالى - قل لهم إن كنت قد افتريته فعلى سوء عاقبة إجرامى وكذبى ، وأنا برئ مما تقترفونه من منكرات ، وما تكتسبونه من ذنوب .ويبدو لنا أن الاتجاه ، الأول أرجح ، لأن التعبير عن أفكارهم بيقولون ، وعن الرد عليهم بقل الدالين على الحال والاستقبال ، يقوى أن الآية الكريمة فى شأن مشركى مكة وقد اقتصر الإمام ابن جرير على الاتجاه الأول ، ولم يذكر شيئا عن الاتجاه. - الثانى مما يدل على ترجيحه للاتجاه الأول فقال ما ملخصه : يقول - تعالى ذكره : " أيقول يا محمد هؤلاء المشركون من قومك : افترى محمد هذا القرآن وهذا الخبر عن نوح ، قل لهم : إن افتريته فتخرصته واختلقته فعلى إثمى فى افترائى ما اقتربت على ربى دونكم . . وأنا برئ مما تذنبون وتأثمون فى حقى وحق ربكم . . . "وإلى هنا نرى الآيات الكريمة قد حكت لنا جانبا من مجادلة قوم نوح له ، ومن تطاولهم عليه ، ومن تحديهم لدعوته ، كما حكت لنا رده عليهم بأسلوب حكيم ، جعلهم يعجزون عن مجابهته فماذا كان من شأنه وشأنهم بعد ذلك؟

واوحي الى نوح انه لن يؤمن من قومك الا من قد امن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون

كما فسرها الوسيط لقد تابعت السورة الكريمة حديثها عن هذه القصة ، فبينت بعد ذلك قضاء الله العادل فى هؤلاء الظالمين ، حيث حكت لنا ما أوحاه الله - إلى نوح - عليه السلام - فى شأنهم ، وما أمره بصنعه . . . فقال - تعالى - : ( وَأُوحِيَ إلي نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ . . . ) : - قوله - سبحانه. ( وَأُوحِيَ إلى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ ) على قوله ( قَالُواْ يانوح قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا . . ) أى : بعد أن لج قوم من نوح فى طغيانهم ، وصموا آذانهم عن سماع دعوته . . أوحى الله - تعالى - إلى نوح بأن يكتفى بمن معه من المؤمنين فإنه لم يبق فى قومه من يتوقع إيمانه بعد الآن ، وبعد أن مكث زمنا طويلا ، يدعوهم إلى الدخول فى الدين الحق ، فلم يزدهم دعاؤه إلا فرارا . .وقوله ) : - فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ) تسلية له - عليه السلام ، عما أصابه منهم من أذى .والابتئاس : الحزن . يقال : ابتأس فلان بالأمر إذا بلغه ما يكرهه ويغمه ، والمبتئس : الكاره الحزين فى استكانة .أى : فلا تحزن بسبب إصرارهم على كفرهم ، وتماديهم فى سفاهاتهم وطغيانهم ، فقد أن الأوان للانتقام منهم .قال الإمام ابن كثير : يخبر الله - تعالى - فى هذه ، الآية ، أنه أوحى إلى نوح لما استعجل قومه نقمة الله بهم ، وعذابه لهم فدعا عليهم نوح دعوته وهى ( وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأرض مِنَ الكافرين دَيَّاراً ) فمنذ ذلك أوحى الله - تعالى - إليه ( أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ ) فلا تحزن عليهم ، ولا يهمنك أمرهم .

واصنع الفلك باعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون

كما فسرها الوسيط وقوله : ( واصنع الفلك بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا . . . ) ، معطوف على قوله . . ( فَلاَ تَبْتَئِسْ . . . )والفلك : ما عظم من السفن

ويستعمل هذا اللفظ للواحد والجمع ، والمراد به هنا سفينة واحدة عظيمة قام ، بصنعها نوح - عليه السلام - .والباء فى قوله ( بِأَعْيُنِنَا ) للملابسة ، والجار والمجرور فى موضع الحال من ضمير اصنع .أى : واصنع الفلك يا نوح حالة كونك بمرأى منا ، وتحت رعايتنا وتوجيهنا وإرشادنا عن طريق وحينا وقوله - سبحانه - ( وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الذين ظلموا إِنَّهُمْ. مُّغْرَقُونَ ) نهى له عن المراجعة بشأنهم .أى : ولا تخاطبنى يا نوح فى شأن هؤلاء الظالمين ، بأن ترجونى فى رحمتهم أو فى دفع العذاب عنهم ، فقد صدر قضائى بإغراقهم ولا راد لقضائى .وقوله - تعالى - ( واصنع الفلك ) بيان لامتثال نوح لأمر ربه .وجاء التعبير بالفعل المضارع مع أن الصنع كان فى الماضى : استحضارا لصورة الصنع ، حتى لكأن نوحا - عليه السلام - يشاهد الآن وهو يصنعها .

ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملا من قومه سخروا منه قال ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - موقف قومه منه وهو يصنعها وقال . . . وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ والسخرية : الاستهزاء . يقال : سخر فلان من فلان وسخر به ، إذا استخف به( وضحك منه .أى : امتثل نوح لأمر ربه ، فطفق يصنع الفلك ، فكان الكافرون من قومه كلما مروا به وهو يصنعها استهزأوا به ، وتعجبوا من حاله ، وقالوا له على سبيل التهكم به ، يا نوح صرت نجارا بعد أن كنت نبيا ، كما جاء فى بعض الآثار .وهنا يرد عليهم نوح بقوله : ( إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ) .أى قال نوح لهم : إن تسخروا منى ومن أتباعى اليوم لصنعنا السفينة ، وتستجهلوا منا هذا العمل ، فإنا سنسخر منكم فى الوقت القريب سخرية محققة فى مقابل سخريتكم الباطلة .قال الإمام الرازى وقوله ( إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا : تَسْخَرُونَ ) فيه وجوه :الأول : التقدير : إن تسخروا منا فى هذه الساعة فإنا نخسر منكم سخرية مثل سخريتكم إذا وقع عليكم الغرق فى الدنيا والخزى فى الآخرة .الثانى : إن حكمتم علينا بالجهل فيما نصنع فإنا نحكم عليكم بالجهل فيما أنتم عليه من الكفر والتعرض لسخط الله وعذابه ، فأنتم أولى بالسخرية منا .الثالث : إن تستجهلونا فإنا نستجهلكم ، واستجهالكم أقبح وأشد ، لأنكم لا تستجهلون إلأا لاجل الجهل بحقيقة الأمر ، والاغترار بظاهر الحال ، كما هو عادة الأطفال .

فسوف تعلمون من ياتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم

كما فسرها الوسيط ثم أضاف نوح - عليه السلام - إلى تهديدهم تهديدا آخر فقال : فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ) .أى : فسوف تعلمون عما قريب ، من منا الذى سينزل عليه العذاب المخزى المهين فى الدنيا ، ومن منا الذى سيحل عليه العذاب الدائم الخالد فى الآخرة .وبهذا نرى أن هذه الآيات الكريمة قد قررت حكم الله الفاضل فى شأن قوم نوح - عليه السلام - بعد أن لبث فيهم زمنا طويلا يدعوهم إلى الحق ، ولكنهم صموا آذانهم عنه فماذا كان من أمره وأمرهم بعد ذلك .كان من أمره وأمرهم بعد ذلك أن أمر الله - تعالى - نوحا - عليه السلام - أن يحمل فى السفينة بعد أن أتم صنعها من كل نوع من أنواع الحيوانات ذكرا وأنثى ، ثم نزل الطرفان ، وسارت السفينة بمن فيها ، وأغرق الله - تعالى - الظالمين ، وقد حكى - سبحانه - كل ذلك فقال - تعالى :( حتى إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا ) . . .

حتى اذا جاء امرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين واهلك الا من سبق عليه القول ومن امن وما امن معه الا قليل

كما فسرها الوسيط قوله - سبحانه - ( حتى إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التنور قُلْنَا احمل فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثنين . . . ) بيان لمرحلة جديدة من مراحل قصة نوح - عليه السلام - مع قومه .و ( حتى ) هنا حرف غاية لقوله - تعالى - قبل ذلك ( وَيَصْنَعُ الفلك . . . إلخ ) .والمراد بالأمر فى قوله - سبحانه - ( حتى إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا . . . ) حلول وقت . . نزول العذاب بهم ، فهو مفرد الأمور ، أى : حتى إذا حل بهم وقت عذابنا قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين .ويصح أن يكون المراد به الأمر بالشئ على ، أنه مفرد الأوامر ، فيكون المعنى : حتى إذا جاء أمرنا لنوح بركوب السفينة . . وللأرض بتفجير عيونها ، وللسماء بإنزال أمطارها . . قلنا احمل فيها وجملة ، وفار التنور ، معطوفة على ( جَآءَ أَمْرُنَا ) وكلمة ( فار ) من. الفور والفوران ، وهو شدة الغليان للماء وغيره .قال صاحب المنار ما ملخصه : والفور والفوران ضرب من الحركة والارتفاع والقوى ، يقال في الماء إذا غلا "

وارتفع . . . ويقال فى النار إذا هاجت قال - تعالى - ( إِذَآ أُلْقُواْ
فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ ) ومن المجاز : فَار الغضب
إذا اشتد . . .وللمفسرين فى المراد بلفظ ( التنور ) أقوال منها : أن ،
. . المراد به الشئ الذى يخبز فيه الخبز ، وهو ما يسمى بالموقد أو الكانون
ومنها أن المراد به وجه الأرض . . .ومنها : أن المراد به موضع اجتماع.
الماء في السفينة . . .ومنها : أن المراد به طلوع الفجر من قولهم : تنور
. الفجر . . .ومنها : أن المراد به أعالى الأرض والمواضع المرتفعة فيها
وقيل : إن الكلام على سبيل المجاز ، والمراد بقوله - سبحانه - ( وَفَارَ.
التنور ) التمثيل بحضور العذاب ، كقولهم ، حمى الوطيس ، إذا اشتد القتال
وأرجح هذه الأقوال أولها ، لأن التنور فى اللغة يطلق على الشئ الذى يخبز.
فيه ، وفورانه معناه : نبع الماء منه بشدة مع الارتفاع والغليان ، كما يفوز
الماء فى القدر عند الغليان ، ولعل ذلك كان علامة لنوح - عليه السلام - على
اقتراب وقت الطوفان .وقد رجح هذا القول المحققون من المفسرين ، فقد قال
الإمام ابن جرير بعد أن ذكر جملة من الأقوال فى معنى التنور : " وأولى
الأقوال عندنا بتأويل قوله ( التنور ) قول من قال : هو التنور الذى يخبز
فيه ، لأن هذا هو المعروف من كلام العرب ، وكلام الله لا يوجه إلا إلى
الأغلب الأشهر من معانيه عند العرب ، إلا أن تقوم حجة على شئ منه بخلاف ذلك
فيسلم لها .وذلك لأنه جل ثناؤه إنما خاطبهم بما خاطبهم به لإفهامهم معنى ،
ما خاطبهم به .أى : قلنا لنوح حين جاء عذابنا قومه . . . وفار التنور الذى
جعلنا فورانه بالماء آية مجئ عذابنا . . احمل فيها - أى السفينة من كل
زوجين اثنين ..وقال الإمام الرازى ما ملخصه : فإن قيل : فما الأصح من هذه
، الأقوال - فى معنى التنور . . . ؟قلنا : الأصل حمل الكلام على حقيقته
ولفظ التنور حقيقة فى الموضع الذى يخبز فيه ، فوجب حمل اللفظ عليه . . .ثم
قال : والذى روى من أن فور التنور كان علامة لهلاك القوم لا يمتنع لأن هذه
واقعة عظيمة ، وقد وعد الله - تعالى - المؤمنين النجاة فلابد أن يجعل لهم
علامة بها يعرفون الوقت المعين " فلا يبعد جعل هذه الحالة علامة لحدوث هذه
الواقعة " .وجملة ( قُلْنَا احمل فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثنين
وَأَهْلَكَ ) جواب إذا .ولفظ ( زوجين ) تثنية زوج ، والمراد به هنا الذكر
والأنثى من كل نوع .قراءة الجمهور ( مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثنين ) بدون
تنوين للفظ كل ، وإضافته إلى زوجين .وقرأ حفص : ( مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ
اثنين ) بتنوين لفظ كل وهو تنوين عوض عن مضاف إليه ، والتقدير : احمل فيها
من كل نوع من أنواع المخلوقات التى أنت فى حاجة إليها ذكرا وأنثى .ويكون
لفظ ( زوجين ) مفعولا لقوله ( احمل ) واثنين صفة له .والمراد بأهله : أهل
- بيته كزوجته وأولاده ، وأكثر ما يطلق لفظ الأهل على الزوجة ، كما فى قوله
فَلَمَّا قضى مُوسَى الأجل وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطور )
: نَاراً قَالَ لأَهْلِهِ امكثوا إني آنَسْتُ نَاراً . . . ) والمراد بأهله
من كان مؤمنا منهم .وجملة ( إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ القول ) استثناء من
الأهل .أى : احمل فيها أهلك إلا من سبق عليه قضاؤنا بكفره منهم فلا تحمله
والمراد بمن سبق عليه القول : زوجته التى جاء ذكرها فى سورة التحريم فى.
قوله - تعالى - ( ضَرَبَ الله مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ امرأت نُوحٍ
وامرأت لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ
فَخَانَتَاهُمَا . . ) وابنه الذى أبى أن يركب معه السفينة .قال الآلوسى
عند تفسيره لهذه الجملة : والمراد زوجة له أخرى تسمى ( واعلة ) بالعين
المهملة ، وفى رواية ( والقة ) وابنه منها واسمه ( كنعان ) . . وكانا
كافرينوجملة ( وَمَنْ آمَنَ ) معطوفة على قوله ( وَأَهْلَكَ ) أى : واحمل
معك من آمن بك من قومك .والمعنى للآية الكريمة : لقد امتثل نوح أمر ربه له
بصنع السفينة ، حتى إذا ما تم صنعها ، وحان وقت نزول العذاب بالكافرين من
قومه ، وتحققت العلامات الدالة على ذلك ، قال الله - تعالى - لنوح : احمل
، فيها من كل نوع من أنواع المخلوقات التى أنت فى حاجة إليها ذكر أو أنثى
واحمل فيها أيضا من آمن بك من أهل بيتك دون من لم يؤمن ، واحمل فيها كذلك
- جميع المؤمنين الذين اتبعوا دعوتك من غير أهل بيتك .وقد ختم - سبحانه
الآية الكريمة بما يدل على قلة عدد من آمن به فقال : ( وَمَآ آمَنَ مَعَهُ
إِلاَّ قَلِيلٌ ) .أى : وما آمن معه إلا عدد قليل من قومه بعد أن لبث فيهم
قرونا متطاولة يدعوهم إلى الدين الحق ليلا ونهارا ، وسرا وعلانية .قال
. : الآلوسى بعد أن ساق أقوالا فى عدد من آمن بنوح - عليه السلام - من قومه
والرواية الصحيحة أنهم كانوا تسعة وسبعين : زوجته ، وبنوه الثلاثة . .
. . . ونساؤهم ، واثنان وسبعون رجلا وامرأة من غيرهم

وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها ان ربي لغفور رحيم

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - ما قاله نوح للمؤمنين عند ركوبهم
السفينة فقال : ( وَقَالَ اركبوا فِيهَا بِسْمِ الله مجراها وَمُرْسَاهَا
إِنّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ) .ومجريها ومرساها ، قرأهما الجمهور بضم
الميمين فيهما ، وهما مصدران من جرى وأرسى . والباء فى ( بِسْمِ الله )

للملابسة ، والآية الكريمة معطوفة على جملة ، قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين .أى : قلنا له ذلك فامتثل أمرنا ، وقال لمن معه من المؤمنين : سلموا أمركم لمشيئة الله - تعالى - وقولوا عند ركوب السفينة : باسم الله جريها فى - هذا الطوفان العظيم ، وباسم الله إرساءها فى المكن الذى يريد الله تعالى - إرساءها فيه .قال الشيخ الفاضل ابن عاشور : وعدى فعل ( اركبوا ) بفى ، جريا على الأسلوب الفصيح ، فإنه يقال : ركب الدابة إذا علاها . وأما ركوب الفلك فيعدى بفى ، لأن إطلاق الركوب عليه مجاز ، وإنما هو جلوس واستقرار ، فلا يقال : ركب السفينة؛ فأرادوا التفرقة بين الركوب الحقيقي والركوب المشابه له ، وهى تفرقة حسنة .وجملة ( إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ) تعليل للأمر بالركوب المصاحب لذكر الله - تعالى - :أى : إن ربى لعظيم المغفرة ولعظيم الآية ما ملخصه : يقول الله - تعالى - إخبارا عن نوح أنه قال للذين أمر بحملهم معه فى السفينة ( اركبوا فِيهَا بِسْمِ الله مجراها وَمُرْسَاهَا . . )وقال - سبحانه - فى موضع آخر : ( فَإِذَا استويت أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الفلك فَقُلِ الحمد للَّهِ الذي نَجَّانَا مِنَ القوم الظالمين . وَقُل رَّبِّ أنزلني مُنزَلاً مُّبَارَكاً وَأَنتَ خَيْرُ المنزلين ) ولهذا تستحب التسمية فى ابتداء الأمور : عند الركوب فى السفينة وعلى الدابة .فقد روى الطبرانى عن ابن عباس عن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : " أمان أمتى من الغرق إذا ركبوا فى السفن أن يقولوا : " بسم الله الملك . . بسم الله مجريها ومرساها ، إن ربى لغفور رحيم .

وهي تجري بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - حال السفينة وهى تمخر بهم عباب الله فقال :( وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كالجبال ) .والموج : ما ارتفع من - ماء البحر عند اضطرابه . وأصله من ماج الشئ يموج إذا اضطرب ومنه قوله تعالى - ( وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ) قال صاحب الكشاف : فإن قلت . بم اتصل قوله - تعالى - ( وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ ) ؟قلت : اتصل بمحذوف دل عليه اركبوا فيها باسم الله ، كأنه قيل : فركبوا فيها وهم يقولون : باسم الله ، وهى تجرى بهم .أى تجرى بهم وهم فيها فى موج كالجبال ، يريد موج الطوفان ، شبه كل موجه بالجبل فى تراكمها واراتفاعها . وقوله - سبحانه - ( ونادى نُوحٌ ابنه وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يا بني اركب. مّعَنَا وَلاَ تَكُن مّعَ الكافرين ) تصوير لتلك اللحظة الرهيبة الحاسمة التى أبصر فيها نوح - عليه السلام - ابنه الكافر وهو منعزل عنه وعن جماعة المؤمنين .والمعزل : مكان العزلة ، أى : الانفراد .أى : وقبل أن يشتد الطوفان وترتفع أمواجه ، رأى نوح ابنه كنعان ، وكان هذا الابن فى مكان منعزل ، فقال له نوح بعاطفة الأبوة الناصحة الملهوفة يا بنى راكب معنا فى السفينة ، ولا تكن مع القوم الكافرين الذين سيلفهم الطوفان بين أمواجه عما قريب . ولكن هذه النصيحة الغالية من الأب الحزين على مصير ابنه . لم تجد أذنا واعية من هذا الابن العاق المغرور ، بل رد على أبيه : ( قَالَ سآوي إلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي . ( . . .

قال ساوي الى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من امر الله الا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين

: كما فسرها الوسيط ( قَالَ سآوي إلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي . . . )أى : قال سألتجئ إلى جبل من الجبال الشاهقة ، لكى أتحصن به من وصول الماء إلى .وهنا يرد عليه أبوه الرد الأخير فيقول - كما حكى القرآن عنه - : ( قَالَ لاَ عَاصِمَ اليوم مِنْ أَمْرِ الله إِلاَّ مَن رَّحِمَ . . )أى : قال نوح لابنه :لا معصوم اليوم من عذاب الله إلا من رحمه - سبحانه - بلطفه وإحسانه وأما الجبال وأما الحصون . . وأما غيرهما من وسائل النجاة ، فسيعلوها ، الطوفان ، ولن تغنى عن المحتمى بها شيئا .وعبر عن العذاب بأمر الله تهويلا لشأنه .وقوله : ( وَحَالَ بَيْنَهُمَا الموج فَكَانَ مِنَ المغرقين بيان للعاقبة السيئة التى آل إليها أمر الابن الكافر .أى : وحال وفصل ( الموج بهديره وسرعته بين الابن وأبيه .فكانت النتيجة أن صار الابن الكافر من بين الكافرين المغرقين .والتعبير بقوله : ( وَحَالَ . . . ) يشعر بسرعة فيضان الماء واشتداده ، حتى لكأن هذه السرعة لم تمهلهما ليكملا حديثهما ، والتعبير بقوله : ( فَكَانَ مِنَ المغرقين ) يشير إلى أنه لم يغرق وحده. وإنما غرقهو وغرق معه كل من كان على شاكلته فى الكفر .وهكذا تصور لنا هذه الآية الكريمة ما دار بين نوح وابنه من محاورات فى تلك اللحظات الحاسمة المؤثرة ، التى يبذل فيها كل أب ما يستطيع بذله من جهود لنجاة ابنه من هذا المصير المؤلم .

وقيل يا ارض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي وغيض الماء وقضي الامر واستوت على

الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين

، كما فسرها الوسيط وبعد أن غرق الكافرون ، ونجا نوح ومن معه من المؤمنين
وجه الله - تعالى - أمره إلى الأرض وإلى السماء . . فقال : ( وَقِيلَ يا أرض
ابلعي مَآءَكِ ويا سمآء أَقْلِعِي وَغِيضَ المآء وَقُضِيَ الأمر واستوت
عَلَى الجودي وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظالمين ) .أى : وبعد أن أدى
- الطوفان وظيفته فأغرق بأمر الله - تعالى - الكافرين ، قال الله - تعالى
للأرض : ( يا أرض ابلعي مَآءَكِ ) .أى : اشربى أيتها الأرض ما على وجهك من
ماء ، وابتعليه بسرعة فى باطنك كما يبتلع الإنسان طعامه فى بطنه بدون
استقرار فى الفم .وقال - سبحانه - للسماء ( ويا سمآء أَقْلِعِي ) أى : أمسكى
. عن إرسال المطر يقال : أقلع فلان عن فعله إقلاعا ، إذا كف عنه وترك فعله
- ويقال : أقلعت الحمى عن فلان ، إذا تركته .فامتثلتا - أى الأرض والسماء
لأمر الله - فى الحال ، فهو القائل وقوله الحق : ( إِنَّمَآ أَمْرُهُ إِذَآ
أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ) وقوله ( وَغِيضَ المآء )
: أى : نقص ونضب . يقال : غاض الماء يغيض ، إذا قل ونقص .والمراد به هنا
الملاء الذى نشأ عن الطوفان .وقوله : ( وَقُضِيَ الأمر ) أى : تم ونفذ ما
وعد الله - تعالى - به نبيه نوحا - عليه السلام - من إهلاكه للقوم الظالمين
والضمير فى قوله : ( واستوت عَلَى الجودي ) للسفينة ، والجودى ، جبل بشمال.
العراق بالقرب من مدينة الموصل . وقيل هو جبل بالشام .أى : واستقرت السفينة
التى تحمل نوحا والمؤمنين بدعوته ، على الجبل المعروف بهذا الاسم ، بعد أن
أهلك الله أعداءهم .قال ابن كثير ما ملخصه : وكان خروجهم من السفينة فى يوم
- عاشوراء من المحرم ، فقد روى الإمام أحمد عن أبى هريرة قال : " مر النبى
صلى الله عليه وسلم - بأناس من اليهود ، وقد صاموا يوم عاشوراء ، فقال لهم
ما هذا الصوم؟ قالوا ، هذا اليوم الذى نجى الله موسى وبنى إسرائيل من :
الغرق ، وغرق فيه فرعون . وهذا يوم استوت فيه السفينة على الجودى . فصامه
" - نوح وموسى - عليه السلام - شكرا لله .فقال النبى - صلى الله عليه وسلم
أنا أحق بموسى ، وأحق بصوم هذا اليوم " فصامه ، وقال لأصحابه : من كان أصبح
" منكم صائما فليتم صومه ، ومن كان قد أصاب من غذاء أهله ، فليتم بقية يومه
ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : وقيل بعدا القوم الظالمين .أى. "
هلاكا وسحقا وطردا من رحمة الله - تعالى - للقوم الذين ظلموا أنفسهم :
بإيثارهم الكفر على الإيمان ، والضلالة على الهداية .قال الجمل : ( وبعدا
- مصدر بعد - بكسر العين - يقال بعد بعدا - بضم فسكون - وبعداً - بفتحتين (
إذا بعد بعد بعيدا بحيث لا يرجى عوده ، ثم استعير للهلاك ، وخص بدعاء السوء
وهو منصوب على المصدر بفعل مقدر . أى : وقيل بعداً بعدا . . .هذا وقد ،
، تكلم بعض العلماء عن أوجه البلاغة والفصاحة فى هذه الآية كلاما طويلا
نكتفى بذكر جانب مما قاله فى ذلك الشيخ القاسمى فى تفسيره .قال - رحمه
الله - ما ملخصه : " هذه الآية بلغت من أسرار الإعجاز غايتها ، وحوت من
بدائع الفوائد نهايتها . وقد اهتم علماء البيان بإبراز ذلك ، ومن أوسعهم
" مجالا فى مضمار معارفها الإمام " السكاكى " فقد أطال وأطنب فى كتابه
المفتاح " فى الحديث عنها .فقد قال - عليه الرحمة - فى بحث البلاغة
والفصاحة :وإذ قد وفقت على البلاغة ، وعثرت على الفصاحة ، فأذكر لك على
، سبيل الأنموذج ، آية أكشف لك فيها من وجوههما ما عسى ن يكون مستورا عنك
وهذه الآية هى قوله - تعالى - ( وَقِيلَ يا أرض ابلعي مَآءَكِ ويا سمآء
أَقْلِعِي وَغِيضَ المآء وَقُضِيَ الأمر . . ) .والنظر فى هذه الآية من
أربع جهات : من جهة علم البيان ، ومن جهة علم المعانى ، ومن جهة الفصاحة
. . المعنوية ، ومن جهة الفصاحة اللفظية .أما النظر فيها من جهة علم البيان
فتقول : إنه - عز سلطانه - لما أراد أن يبين معنى هو : أردنا أن نرد ما
انفجر من الأرض إلى بطنها فارتد ، وأن نقطع طوفان السماء فانقطع ، وأن نغيض
الماء النازل من السماء فغاض لما أراد ذلك : بنى الكلام على التشبيه ، بأن
شبه الأرض والسماء بالمأمور الذى لا يتأتى منه أن يعصى أمره . . وكأنهما
عقلاء مميزون فقال : ( يا أرض ابلعي مَآءَكِ ويا سمآء أَقْلِعِي . . . ) .ثم
قال : ( ماءك ) بإضافة الماء إلى الأرض على سبيل المجاز ، تشبيها لاتصال
الماء بالأرض ، باتصال الملك بالمالك .ثم اختار لاحتباس المطر لفظ الإقلاع
الذى هو ترك الفاعل للفعل .وأما المنظر فيها من حيث علم المعانى . . فذلك
أنه اختير ( يا ) دون سائر أخواتها ، لكونها أكثر فى الاستعمال . . واختير
لفظ " ابلعى " على " ابتلعى " لكونه أخصر . ثم أطلق الظلم ليتناول كل نوع
منه ، حتى يدخل فيه ظلمهم لأنفسهم .وأما النظر فيها من جانب الفصاحة
المعنوية فهى كما ترى . نظم للمعانى لطيف ، وتأدية لها ملخصة مبينة ، لا
تعقيد الفكر فى طلب المراد ، ولا التواء يشيك الطريق إلى المرتاد ، بل إذا
جربت نفسك عند استماعها ، وجدت ألفاظها تسابق معانيها ، ومعانيها تسابق
ألفاظها ، فما من لفظة فى تركيب الآية ونظمها تسبق إلى أذنك ، إلا ومعناها
أسبق إلى قلبك .وأما النظر فيها من جانب الفصاحة اللفظية : فألفاظها على ما
ترى عربية ، مستعملة جارية على قوانين اللغة ، سليمة من التنافر ، بعدية عن
. البشاعة .ولا تظن الآية مقصورة على ما ذكرت ، فلعل ما تركت أكثر مما ذكرت

ونادى نوح ربه فقال رب ان ابني من اهلي وان وعدك الحق وانت احكم الحاكمين

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - قصة نوح مع قومه فى هذه السورة ، بتلك الضراعة التى تضرع بها نوح - عليه السلام - بشأن ولده ، وبذلك الرد الحكيم الذى رد به الخالق - عز وجل - على نوح - عليه السلام ، وبتعقيب على القصة - يدل على وحدانية الله - تعالى - ، وعلى صدق الرسول - صلى الله عليه وسلم فيما يبلغه عن ربه قال - تعالى - :( وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ ) : - إِنَّ ابني مِنْ أَهْلِي . . . )المراد بالنداء فى قوله - سبحانه - وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ . . . ) الدعاء والضراعة إلى الله - تعالى والجملة الكريمة معطوفة على ما قبلها .أى : وبعد أن تخلف ابن نوح عليه. السلام عن الركوب معه فى السفينة ، وقضى الأمر بهلاك الكافرين ونجاة المؤمنين . . تضرع نوح - عليه السلام - إلى ربه فقال فى استعطاف ورجاء : يا رب! إن ابنى " كنعان " ( مِنْ أَهْلِي ) فهو قطعة منى ، فأسألك أن ترحمه برحمتك ( وَإِنَّ وَعْدَكَ الحق ) أى : وإن كل وعد تعده لعبادك هو الوعد ، الحق وأنت - يا ربى - قد وعدتنى بنجاة أهلى إلا من سبق عليه القول منهم ) : لكننى فى هذا الموقف العصيب أطمع فى عفوك عن انبى وفى رحمتك له .وقوله وَأَنتَ أَحْكَمُ الحاكمين ) أى : وأنت يا إلهى -لا راد لما تحكم به ، ولا معقب لحكمك ، وحكمك هو الحق والعدل ، وهو المنزه عن الخطأ والمحاباة ، لأنه ) : صادر عن كمال العلم والحكمة .واكتفى نوح - عليه السلام - بأن يقول رَبِّ إِنَّ ابني مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الحق وَأَنتَ أَحْكَمُ - الحاكمين ) دون أن يصرح بمطلوبه وهو نجاة ابنه تأدباً مع الله - تعالى وحياء منه - سبحانه - واعتقاداً منه بأنه - سبحانه - عليم بما يريده وخبر بما يجول فى نفسه .وهذا لو من الأدب السامى ، سلكه الأنبياء ، عليهم الصلاة - والسلام - فى مخاطبتهم لربهم - عز وجل - ومن أولى منهم بذلك؟!!ولعل نوحا عليه السلام - عندما تضرع إلى ربه - سبحانه - بهذا الدعاء لم يكن يعلم أن - طلب الرحمة أو النجاة لابنه الكافر ممنوع ، فكان حاله فى ذلك كحال النبى صلى الله عليه وسلم - عندما قال لعمه أبى طالب : " لأستغفرن لك ما لم أنه عن ذلك " واستمر يستغفر له إلى أن نزل قوله - تعالى - ( مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ والذين آمنوا أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ : كانوا أُوْلِي قربى . . . ) وقال الشيخ القاسمى : وإنما قال نوح ذلك - أى ، رب إن أبنى من أهلى . . ألخ - لفهمه - من الأهل ذوى القرابة الصورية - والرحمة النسبية ، وغفل - لفرط التأسف على ابنه - عن استثنائه - تعالى بقوله : ( إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ القول ) ولم يتحقق أن ابنه هو الذى سبق عليه القول ، فاستعطف ربه بالاسترحام ، وعرض بقوله ( وَأَنتَ أَحْكَمُ . الحاكمين ) إلى أن العالم العادل الحكيم لا يخلف وعده

قال يا نوح انه ليس من اهلك انه عمل غير صالح فلا تسالن ما ليس لك به علم اني اعظك ان تكون من الجاهلين

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( قَالَ يانوح إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ . . ) رد من الله - تعالى - على نوح فيما طلبه منه .أى : قال الله - تعالى - مجيبا لنوح - عليه السلام - فيما أسأله إياه : يا نوح إن ابنك هذا ( لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ) لأن مدار الأهلية مبنى على القرابة الدينية ، وقد انقطعت بالكفر فلا علاقة بين مسلم وكافر .أو ليس من أهلك الذين وعدتك بنجاتهم ، بل هو ممن سبق عليه القول بسبب كفره .فالمراد نفى أن يكون من أهل دينه واعتقاده ، وليس المراد نفى أن يكون من صلبه ، لأن ظاهر الآية يدل على أنه ابنه من صلبه ، ومن قال بغير ذلك فقوله ساقط ولا يلتفت إليه ، لخلوه عن الدليل .قال ابن كثير : وقد نص غير واحد من الأئمة على تخطئة من ذهب فى تفسير هذا إلا أنه ليس بابنه ، وإنما كان ابن زنية .وقال ) ابن عباس وغير واحد من السلف : ما زنت امرأة نبى قط ، ثم قال : وقوله لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ) أى : الذين وعدتك بنجاتهم .وقول ابن عباس فى هذا هو الحق الذى لا محيد عنه؛ فإن الله - تعالى - أغير من أن يمكن امرأة نبى من الفاحشة .وجملة ( إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ) تعليل لنفى الأهلية .وقد قرأ الجمهور ( عمل ) بفتح الميم وتنوين اللام - على أنه مصدر مبالغة فى ذمة حتى لكأنه هو نفس العمل غير الصالح وأصل الكلام إنه ذو عمل غير صالح ، فحذف المضاف للمبالغة بجعله عين عمله الفاسد لمداومته عليه .وقرأ الكسائي ويعقوب بوزن فرح بصيغة الفعل الماضى - أى : إنه عمل غير صالح وهو الكفر ( عمل ) ) : والعصيان ، فحذف الموصوف وأقيمت صفته مقامه .قال صاحب الكشاف وقوله إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ) تعليل لانتفاء كونه من أهله وفيه إيذان بأن قرابة الدين غامرة لقرابة النسب ، وأن نسيبك فى دينك ومعتقدك من الأباعد فى المنصب وإن كان حبشيا وكنت قرشيا لصيفك وخصيصك ، ومن لم يكن على دينك وإن كان أمس أقاربك رحما فهو أبعد بعيد منك .وقال الفخر الرازى : هذه الآية يدل على أن العبرة بقرابة الدين لا بقرابة النسب ، فإن فى هذه الصورة

كانت قرابة النسب حاصلة من أقوى الوجوه ، ولكن لما انتفت قرابة الدين ، لا جرم نفاه الله - تعالى - بأبلغ الألفاظ وهو : قوله : ( إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ) .والفاء فى قوله : ( فَلاَ تَسْئَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ . . ) للتفريع .أى : ما دمت قد وقفت على حقيقة الحال ، فلا تلتمس منى ملتمسا لا تعلم على وجه اليقين ، أصواب هو أم غير صواب ، بل عليك أن تثبت من صحة ما تطلبه ، قبل أن تقدم على طلبه .وجملة ( إني أَعِظُكَ أن تَكُونَ مِنَ الجاهلين ) تأكيد لما قبلها ، ونهى له عن مثل هذا السؤال فى المستقبل ، بعد أن أعلمه بحقيقة حال ابنه .أى : إن أنهاك يا نوح عن أن تكون من القوم الجاهلين ، الذين يسألون عن أشياء لا يتحققون وجه الصواب فيها .

قال رب اني اعوذ بك ان اسالك ما ليس لي به علم والا تغفر لي وترحمني اكن من الخاسرين

كما فسرها الوسيط وهنا بين الله - تعالى - أن نوحا - عليه السلام - قد تنبيه إلى ما أرشده إليه ربه ، فبادر بطلب العفو والصفح منه - سبحانه - فقال ( قَالَ رَبِّ إني أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ . . . ) .أى : قال نوح - عليه السلام - ملتمسا الصفح من ربه : رب إن أستجير بك ، وأحتمى بجنابك من أن أسألك شيئا بعد الآن ، ليس عندى علم صحيح بأنه جائز ولائق ( وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي ) ما فرط منى من قول ، وما صدر عنى من فعل .( وترحمني ) برحمتك الواسعة التى وسعت كل شئ .( أَكُن مِّنَ الخاسرين ) الذين خسروا أنفسهم بالاحتجاب عن عملك وحكمتك .

قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى امم ممن معك وامم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب اليم

كما فسرها الوسيط ثم بشر - سبحانه - نبيه نوحا - عليه السلام - بقبول توبته فقال : ( قِيلَ يانوح اهبط بِسَلاَمٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وعلى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ . . )والسلام : التحية المقرونة بالأمان والاطمئنان وأصله السلامة ، والباء فيه للمصاحبة والبركات . جمع بركة وهى ثبوت الخير ، ونماؤه وزيادته ، واشتقاقها من البرك ، وهو صدر البعير . يقال : برك البعير إذا ألقى بركه أى صدره على الأرض وثبت . ومنه البركة لثبوت الماء فيها والأمم : جمع أمة ، وهى الجماعة الكثيرة من الناس ، يجمعها نسب واحد أو لغة واحدة ، أو موطن واحد .أى : قال الله - تعالى - مبشرا نوحا - عليه السلام - بقبول توبته : يا نوح اهبط من السفينة مصحوبا منا بالأمان مما تكره ، وبالخيرات والنعم الثابتة عليك ، وعلى أمم متشعبة ومتفرعة وناشئة من الأمم المؤمنة التى ستهبط معك ، بعد أن أنجاكم الله - تعالى - بفضله ورحمته من العذاب ، الذى حل بالكافرين من قومك .وكان مقتضى الظاهر أن يقال : قال يا نوح اهبط بسلام . . ولكن جاء التعبير بقيل ، مسايرة للتعبيرات السابقة . . . فى أجزاء القصة ، مثل قوله - سبحانه - ( وَقِيلَ ياأرض ابلعي مَآءَكِ وقوله : ( وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظالمين ) وقوله : ( اهبط ( بِسَلاَمٍ . . ) فيه إشارة إلى أنه كان قبل الهبوط فى ضيافة الله ورعايته وأنه لولا عناية الله به وبمن معه من المؤمنين ، لما نجت السفينة من ذلك الطوفان العظيم .والتعبير بقوله ( منا ) لزيادة التكريم ، وتأكيد السلام . أى : انزل بسلام ناشئ من عندنا ، وليس من عند غيرنا؛ لأن كل سلا من غيرنا لا قيمة له بجانب سلامنا .وقوله ( عَلَيْكَ وعلى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ) متعلق بسلام وبركات .وفى هذا الإشارة إلى أنه - سبحانه - سيجعل من ذرية نوح ومن ذرية من معه من المؤمنين ، أمما كثيرة ستكون محل كرامة الله وأمانة وبركاته .وقوله - سبحانه - ( وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ) كلام مستأنف مسوق للاحتراز والتحذير من سوء عاقبة المخالفة لأمر الله .أى : أن الأمم التى ستكون من نسلك ومن نسل أتباعك يا نوح على قسمين : قسم منه له منا السلام ، وعليه البركات بسبب إيمانه وعمله الصالح .وقسم آخر سمنتعه فى الدنيا وبالكثير من زينتها وخيراتها ، ثم يصيبه يوم القيامة عذاب أليم بسبب جحوده لنعمنا ، وعصيانه لرسلنا .فعلى كل عاقل أن يجتهد فى أن يكون من القسم الأول ، وأن يتجنب القسم الثانى .

تلك من انباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها انت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ان العاقبة للمتقين

كما فسرها الوسيط ثم اختتم الله - تعالى - قصة نوح - عليه السلام - مع قومه فى هذه السورة ، بقوله : ( تِلْكَ مِنْ أَنْبَآءِ الغيب نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هذا فاصبر إِنَّ العاقبة لِلْمُتَّقِينَ )واسم الإشارة ( تلك ) يعود إلى ما قصه الله - تعالى - من قصة نوح مع قومه فى هذه السورة .والأنباء : جمع نبأ وهو الخبر

الهام . والغيب : مصدر غاب ، وهو مالا تدركه الحواس ولا يعلم ببداهة العقل
أى : تلك القصة التى قصصناها عليك يا محمد بهذا الأسلوب الحكيم ، من أخبار.
) الغيب الماضية ، التى لا يعلم دقائقها وتفاصيلها أحد سوانا .ونحن
نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ) ونعرفك بها عن طريق وحينا الصادق الأمين .وهذه القصة
وأمثالها ( مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ ) أنت يا محمد ، وما كان يعلمها ( قومك )
). أيضا ، بهذه الصورة الصادقة الحكيمة ، الخالية من الأساطير والأكاذيب
) مِن قَبْلِ ) هذا الوقت الذى أوحيناها إليك فيه .وما دام الأمر كذلك
فاصبر ) صبرا جميلا على تبليغ رسالتك ، وعلى أذى قومك كما صبر أخوك نوع من
قبل .وجملة ( إِنَّ العاقبة لِلْمُتَّقِينَ ) تعليل للأمر بالصبر .والعاقبة
الحالة التي تعقب حالة قبلها ، وقد شاعت عند الإطلاق فى حالة الخير كما :
) فى قوله - تعالى - ( والعاقبة للتقوى ) وأل فيها للجنس ، واللام فى قوله
لِلْمُتَّقِينَ ) للاختصاص .أى : أن العاقبة الحسنة الطيبة فى الدنيا
- والآخرة ، للمتقين الذين صانوا أنفسهم عن كل مالا يرضى الله - تعالى
وليست لغيرهم ممن استحبوا العمى على الهدى .والآية الكريمة تعقيب حكيم على
- قصة نوح - عليه السلام - قصد به الامتنان على النبى - صلى الله عليه وسلم
والموعظة ، والتسلية .فالامتنان نراه فى قوله - تعالى - ( مَا كُنتَ
تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هذا ) .والموعظة نراها فى
قوله - سبحانه - ( فاصبر ) .والتسلية نراها فى قوله - عز وجل - ( إِنَّ
العاقبة لِلْمُتَّقِينَ ) .وبعد ، فهذه قصة نوح - عليه السلام - كما وردت
فى هذه السورة الكريمة ، ومن العبر والعظات والهدايات والحقائق التى نأخذها
منها ما يأتى :1 - الدلالة على صدق النبى - عليه السلام - فيما يبلغه عن
- ربه ، وعلى أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - ، فقد أخبرنا عن قصة نوح
، عليه السلام - مع قومه ، وعن غيرها من القصص ، التى هى من أنباء الغيب
- والتى لا يعلم حقيقتها وتفاصيلها أحد سوى الله - عز وجل - .2 - أن نوحا
، عليه السلام - قد سلك فى دعوته إلى الله - تعالى - أحسن الأساليب وأحكمها
فقد دعا قومه إلى عبادة الله - تعالى - وحده فى الليل وفى النهار ، وفى
السر وفى العلانية ، وأقام لهم ألوانا من الأدلة على صدقه ، ورغبهم فى
الإيمان بشتى ألوان الترغيب ، وحذرهم من الكفر بشتى أنواع التحذي ، وصبر
على آذاهم صبرا جميلا ، ورد على سفاهاتهم وأقوالهم بمنطق سليم ، أبطل بن
حججهم . . مما جعلهم يكفون عن مناقشته ، ويلجأون إلى التحدى والتعنت .وما
أحود الدعاة إلى الله - عز وجل - إلى التماس العبرة والعظة من قصة نوح مع
قومه .3 - أن النسب مهما شرف وعظم لن ينفع صاحبه عند الله ، إلا إذا كان
معه الإيمان والعمل الصالح ، وأن الإيمان والصلاح ليسا مرتبطين بالوراثة
والأنساب لأنه لو كان الأمر كذلك لكانت ذرية نوح ومن معه من المؤمنين الذين
نجوا معه فى السفينة . كلها من المؤمنين الصالحين ، مع أن المشاهد غير ذلك
- ورحم الله الإمام القرطبى فقد قال - ما ملخصه - عند تفسيره لقوله.
تعالى - ( قَالَ يانوح إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ . . ) " وفى هذه الآية
تسلية للآباء فى فساد أبنائهم وإن كان الآباء الصالحين " فقد روى أن ابنا
لمالك بن أنس ارتكب أمرا لا يليق بمسلم ، فعلم بذلك مالك فقال : " الأدب
أدب الله ، لا أدب الأباء والأمهات ، والخير خير الله ، لا خير الآباء
والأمهات . . "4 - أن سؤال نوح - عليه السلام - ما سأله لابنه لم يكن - كما
قال صاحب المنار معصية لله - تعالى - خالف فيها أمره أو نهيه ، وإنما كان
خطأ فى اجتهاده رأى بنية صالحة .وإنما عدها الله - تعالى - ذنبا له لأنها
، كانت دون مقام العلم الصحيح اللائق بمنزلته من ربه ، هبطت بضعفه البشرى
وما غرس فى الفطرة من الرحمة والرأفة بالأولاد إلى اتباع الظن ، ومثل هذا
الاجتهاد لم يعصم منه الأنبياء ، فيقعون فيه أحيانا ليشعروا بحاجتهم إلى
تأديب ربهم وتكميله إياهم آنا بعد آن ، بما يصعدون به فى معارج العرفان
إن القرآن فى إيراده للقصص والأخبار ، لا يهتم إلا بإبراز النافع - 5.
المفيد منها ، أما ما عدا ذلك مما لا فائدة من ذكره ، فيهمل القرآن الحديث
عنه .فمثلا فى قصة نوح - عليه السلام - هنا ، لم يتعرض القرآن لبيان المدة
، التى قضاها نوح فى صنع السفينة ، ولا لبيان طول السفينة وعرضها وارتفاعها
ولا لتفاصيل الأنواع التى حملها معه فى السفينة ، ولا لبيان الفترة التى
عاشها نوح ومن معه فيها .ولا لبيان المكان الذى هبط فيه نوح بعد أن استوت
السفينة على الجودى .. ولا لبيان الزمان الذى استغرقه الطوفان فوق الأرض
وما ورد فى ذلك من أقوال وأخبار ، أكثرها من الإسرائيليات التى لا يؤيدها.
، دليل من الشرع أو العقل .ومن المسائل التى تكلم عنها كثير من العلماء
وذهبوا بشأنها مذاهب شتى مسألة الطوفان .وقد أصدر الأستاذ الإمام الشيخ
محمد عبده - رحمه الله - فتوى فى هذا الشأن ، ملخصها كما يقول صاحب المنار
أن ظواهر القرآن الكريم والأحاديث أن الطوفان كن عاما شاملا لقوم نوح :
الذين لم يكن فى الأرض غيرهم فيجب اعتقاده ، ولكنه لا يقتضى أن يكون عاما
للأرض ، إذ لا دليل على أنهم كانوا يملأون الأرض .وهذه المسائل التاريخية
ليست من مقاصد القرآن ، ولذلك لم يبينها بنص قطعى ، فنحن نقول بما تقدم إنه
ظاهرا النصوص ، ولا نتخذه عقيدة دينية قطعية ، فإن أثبت العلم خلافه لا
يضرنا ، لأنه لا ينقض نصا قطعيا عندنا .6 - أن سنة الله - تعالى - فى خلقه

لا تتخلف ولا تتبدل وهى أن العاقبة للمتقين ، مهما طال الصراع بين الحق والباطل ، وبين الأخيار والأشرار .فلقد لبث نوح - عليه السلام - فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، وقد لقى خلال تلك المدة الطويلة ما لقى من الأذى . . . ولكن كانت النتيجة فى النهاية نجاته ومن معه من المؤمنين ، وإغراق أعدائه بالطوفان العظيم .ولقد أفاض صاحب الظلال - رحمه الله - وهو يتحدث عن هذا المعنى فقال ما ملخصه :" ثم نقف - الوقفة الأخيرة مع قصة نوح ، لنرى قيمة الحفنة المسلمة فى ميزان الله سبحانه - .إن حفنة من المسلمين من أتباع نوح - عليه السلام - تذكر بعض الروايات ، أنهم اثنا عشر ، هم كانوا حصيلة دعوة نوح فى ألف سنة إلا خمسين عاما .إن هذه الحفنة - وهى ثمرة ذلك العمر الطويل والجهد الطويل - ، قد استحقت أن يغير الله لها المألوف من ظواهر هذا الكون ، وأن يجرى لها ذلك الطوفان الذى يغمر كل شئ . . . وأن يجعل هذه الحفنة وحدها هى وارثة الأرض بعد ذلك ، وبذرة العمران فيها .وهذه هى عبرة الحادث الكونى العظيم .إنه لا ينبغى لأحد يواجه الجاهلية بالإسلام ، أن يظن أن الله تاركه للجاهلية وهو يدعو إلى إفراد الله - سبحانه - بالربوبية . كما أنه لا ينبغى له أن يقبس قوته الذاتية إلى قوى الجاهلية فيظن أن الله تاركه لهذه القوى ، وهو عبده الذى يستنصر به حين يغلب فيدعوه : ( أَنِّي مَغْلُوبٌ فانتصر ) إن القوى فى حقيقتها ليست متكافئة ولا متقاربة . . إن الجاهلية تملك قواها . . ولكن الداعى إلى اله يستند إلى قوة الله . والله يملك أن يسخر له بعض القوى الكونية - حينما يشاء وكيفما يشاء - وأيسر هذه القوى يدمر على الجاهلية من حيث لا تحتسب!! .والذين يسلكون السبيل إلى الله ليس عليهم أن يؤدوا واجبهم كاملا ، ثم يتركوا الأمور لله فى طمأنينة وثقة . وعندما يغلبون عليهم أن يلجأوا إلى الناصر المعين ، وأن يجأروا إليه وحده كما جأر عبده الصالح نوح ثم عليهم أن ينتظروا فرج ( فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فانتصر ) : الله القريب ، وانتظار الفرج من الله عبادة ، فهم على هذا الانتظار مأجورون . والعاقبة للمتقين . .

والى عاد اخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ان انتم الا مفترون

كما فسرها الوسيط ثم تابعت السورة الكريمة حديثها عن قصة هود - عليه السلام - مع قومه ، بعد حديثها عن قصة نوح - عليه السلام - مع قومه - فقال - تعالى - :( وإلى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً . . . ) .تلك هى قصة هود عليه السلام - مع قومه كما حكتها هذه السورة ، وقد وردت قصته معهم فى سور - أخرى منها : سورة الأعراف ، والشعراء ، والأحقاف .وينتهى نسب هود إلى نوح عليهما السلام - فهو - كما قال بعض المؤرخين - : هود بن عبد الله بن رباح - بن الخلود بن عاد بن عوض بن إرم بن سام بن نوح " .وقومه هم قبيلة عاد نسبة إلى أبيهم الذى كان يسمى بهذا الاسم - ، وكانت مساكنهم بالأحقاف - جمع حقف وهو الرمل الكثير المائل - ، وهذا المكان يسمى الآن بالربع الخالى جنوب الجزيرة العربية .وكان قوم هود - عليه السلام - يعبدون الأصنام ، فأرسله الله إليهم لهدايتهم .ويقال إن هودا - عليه السلام - قد أرسله الله إلى عاد - الأولى ، أما عاد الثانية فهم قوم صالح ، وبينهما زهاء مائة سنة .وقوله سبحانه - : ( وإلى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ ياقوم اعبدوا الله مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ . . ) معطوف على قصة نوح التى سبق الحديث عنها أى : وكما أرسلنا نوحا إلى قومه ليأمرهم بعبادة الله وحده ، أرسلنا إلى. قبيلة عاد أخاهم هوداً ، فقال لهم ما قاله كل نبى لقومه : ( ياقوم اعبدوا الله مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ . . ) معطوف على قصة نوح التى سبق ، الحديث عنها .أى : وكما أرسلنا نوحا إلى قومه ليأمرهم بعبادة الله وحده ) : أرسلنا إلى قبيلة عاد أخاهم هوداً ، فقال لهم ما قاله كل نبى لقومه ياقوم اعبدوا الله مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ ) ووصفه - سبحانه - بأنه لأنه من قبيلتهم فى النسب ، أو لأنه أخوهم فى الإنسانية وناداهم ( أخاهم ) بقوله : ( ياقوم ) زيادة في التلطف معهم ، استجلابا لقلوبهم ، وترضية لنفوسهم ، وجملة ( مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ ) فى معنى العلة لما قبله أى : أنا آمركم بعبادة الله وحده ، لأنه ليس هناك إله آخر يستحق العبادة. - سواء ، فهو الذى خلقكم ورزقكم ، وهو الذي يحييكم ويميتكم .ثم ختم : سبحانه - الآية بقوله : ( إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ ) .والافتراء الكذب المتعمد الذى لا شبهة لصاحبه فى النطق به .أى : ما أنتم إلا معتمدون - للكذب فى جعلكم الألوهية لغير الله - تعالى .

يا قوم لا اسالكم عليه اجرا ان اجري الا على الذي فطرني افلا تعقلون

كما فسرها الوسيط ثم بين لهم بعد ذلك أنه لا يريد منهم جزاء ولا شكورا فى مقابل دعوته إياهم إلى الحق فقال : ( ياقوم لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الذي فطرني . . . )وفطرنى : أى خلقنى

وأبدعنى على غير مثال سابق ، يقال : فطر الأمر . أى : ابتدأه وأنشأه . وفطر الله الخلق : أى خلقهم وأوجدهم . وأصل الفطر : الشق ، ثم استعمل فى الخلق والإنشاء مجازا .والمعنى : ويا قوم لا أريد منكم على ما أدعوكم إليه أجرا منكم ، وإنما أجرى تكفل به الله الذى خلقنى بقدرته ، فهو وحده الذى أطلب منه الأجر والعطاء .ومقصده من هذا القول ، إزالته ما عسى أن يكون قد حاك فى نفوسهم ، من أنه ما دعاهم إلى ما دعاهم إليه ، إلا أنه رجل يبتغى منهم الأجر الذى يجعله موسرا فيهم . .والهمزة فى قوله ( أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ) للاستفهام الإنكارى ، وهى داخله على محذوف .أى : أتجهلون ما هو واضح من الأمور ، فلا تعقلون أن أجر الناصحين المخلصين ، إنما هو من الله - تعالى - رب العالمين وارقهم .

ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة الى قوتكم ولا تتولوا مجرمين

كما فسرها الوسيط ثم أرشدهم إلى ما يؤدى إلى زيادة غناهم وقوتهم ، وحذرهم من سوء عاقبة البطر والأشر فقال : ( ويا قوم استغفروا رَبَّكُمْ ثُمَّ توبوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السمآء عَلَيْكُمْ مِّدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إلى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ) .والاستغفار : طلب المغفرة من الله - تعالى - وعدم المؤاخذة على الخطايا :والتوبة : العزم على الإقلاع عن الذنب ، مع الندم على ما حصل منه فى الماضى .أى : ويا قوم استغفروا ربكم مما فرط منكم من شرك وعصيان ، ثم عودوا إليه بالتوبة الصادقة النصوح .وثم هنا للترتيب الرتبى ، لأن الإقلاع عن الذنب مع المداومة على ذلك : مقدم على طلب المغفرة .وجملة ( يُرْسِلِ السمآء عَلَيْكُمْ مِّدْرَاراً ) جواب الأمر فى قوله ( استغفروا ) .والمراد بالسماء هنا : السحاب أو المطر ، تسمية للشئ باسم مصدره .ومدرارا : مأخوذ من الدر أى سيلان اللبن وكثرته . ثم استعير للمطر الغزير يقال : درت السماء بالمطر تدر وتدر درا . . . إذا كثر نزول المطر منها .وهو حال من السماء ، ولم يؤنث مع أنه حال من مؤنث ، باعتبار أن المراد بالسماء هنا المطر أو السحاب .والمعنى أن هودا - عليه السلام - قال لقومه يا قوم اعبدوا الله واستغفروه وتوبوا : إليه . . فإنكم إن فعلتم ذلك أرسل الله - تعالى - عليكم المطر غزيرا متتابعا فى أوقات حاجتكم إليه؛ لتشربوا منه وتسقوا به دوابكم وزروعكم وجملة ( وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إلى قُوَّتِكُمْ ) معطوفة على ما قبلها .أى. ، وأيضا إن فعلتم ذلك زادكم الله - تعالى - عزا إلى عزكم ، وزيادة القوة : لأنهم كانوا أصحاب زروع وبساتين وعمارات . وقيل : " حبس الله عنوهم المطر وأعقم أرحام نسائهم ثلاث سنين ، فوعدهم هود على الاستغفار والتوبة كثرة الأمطار ، ومضاعفة القوة بالتناسل . . " ثم حذرهم من مقابلة نعم الله بالكفر والجحود فقال : ( وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ) والتولى : هو الإعراض عن الشئ بإصرار وعناد .أى : ولا تتولوا عما دعوتكم إليه وأنتم مصرون على ما أنتم عليه من إجرام وجحود وعناد .وإلى هنا يكون هود - عليه السلام - قد وضح لقومه دعوته ، ورغبهم فى الاستجابة لها ، وحذرهم من الإعراض عنها ، وناداهم بلفظ - يا قوم - ثلاث مرات ، توددوا إليهم ، وتذكيرا لهم بآصرة القرابة التى تجمعهم وإياه .لعل ذلك يستثير مشاعرهم ، ويحقق اطمئنانهم إليه ، فإن الرائد لا يكذب أهله .

قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي الهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين

كما فسرها الوسيط ولكن قوم هود - عليه السلام - قابلوا كل ذلك بالتطاول عليه ، والسخرية منه فقالوا : ( قَالُواْ ياهود مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ والبينة : ما يتبين به الحق من الباطل . أى : قالوا له يا هود إنك. ( . . لم تجئنا بحجة تقنعنا بأنك على الحق فيما تدعو إليه ، وترضى نفوسنا وطباعنا وعاداتنا .ثم أضافوا إلى ذلك قولهم : ( وَمَا نَحْنُ بتاركي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ ) .أى : وما نحن بتاركى آلهتنا بسبب قولك لنا الخالى عن الدليل : ارتكوا عبادتها واجعلوا عبادتكم لله وحده .ثم أكدوا إصرارهم على كفرهم بقوله ( وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ) أى : بمستجيبين لك ومصدقين .

ان نقول الا اعتراك بعض الهتنا بسوء قال اني اشهد الله واشهدوا اني بريء مما تشركون

كما فسرها الوسيط ثم أضافوا إلى إصرارهم هذا استخفافا به وبما يدعو إليه فقالوا : " إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء . . "ومعنى اعتراك : أصابك ، ومسك . يقال عراه الأمر واعتراه أى أصابه ، وأصله من قولهم : عراه يعروه : أى : غشية وأصابه . ومنه قول الشاعر :وإنى لتعرونى لذكراك هزة . . ... أى تصيبنى .أى : ما نحن تباركى آلهتنا عن قولك ، وما نحن لك بمتبعين ، بل عليك

أن تيأس يأسا تاما من استجابتنا لك ، وحالتك التى نراها بأعيننا تجعلنا
نقول لك : إن سبك لآلهتنا جعل بعضها -لا كلها - يتسلط عليك ، ويوجه قدرته
نحوك ، فيصيبك بالجنون والهذيان والأمراض .ولم يقولوا :" اعتراك آلهتنا
بسوء " بل قالوا : ( بَعْضُ آلِهَتِنَا ) تهديدا له وإشارة إلى أنه لو تصدت
له جميع الآلهة لأهلكته إهلاكا .وهذا نراهم قد ردوا على نبيهم ومرشدهم
. . بأربعة ردود ، تدرجوا فيها من السئ إلى الأسوأ ، ومن القبيح إلى الأقبح
مما يدل على توغلهم فى الطغيان ، وبلوغهم النهاية فى العناد والكفر والجحود
قال صاحب الكشاف ما ملخصه : " أن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء . . "أى.
مسك بجنون لسبك إياها ، وصدك عنها ، وعداوتك لها ، مكافأة لك منها على :
سوء فعلك بسوء الجزاء ، فمن ثم صرت تتكلم بكلام المجانين وتهذى بهذيان
المبرسمين .ثم قال . وقد دلت ردودهم المتقدمة على أن القوم كانوا جفاة غلاظ
الأكباد ، لا يبالون بالبهت ، ولا يلتفتون إلى النصح ، ولا تلين شكيمتهم
للرشد .وهذا الأخير دال على جهل مفرط ، وبله متناه ، حيث اعتقدوا فى حجارة
أنها تنتصر وتنتقم . . .والآن بعد أن استمع هود - عليه السلام - إلى ردودهم
، القبيحة ماذا كان موقفه منهم؟لقد كان موقفه منهم : موقف المتبرئ من شركهم
، والمتحدى لطغيانهم والمعتمد على الله - تعالى - وحده فى الانتصار عليهم
ولقد حكى القرآن رده عليهم فقال :( قَالَ إني أُشْهِدُ الله واشهدوا أَنِّي
برياء مِّمَّا تُشْرِكُونَ . مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ
تُنظِرُونِ . إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى الله رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَّا مِن
دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي على صِرَاطٍ
مُّسْتَقِيمٍ .فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَّآ أُرْسِلْتُ
بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ
تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي على كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ )أى : قال
هود - عليه السلام - للطغاة من قومه بعزة وثقة ( قَالَ إني أُشْهِدُ الله )
) الذى لا رب سواه على براءتى من عبادتكم لغيره .( واشهدوا ) أنتم أيضا على
أَنِّي برياء مِّمَّا تُشْرِكُونَ ) .أى : على براءتى من كل عبادة تعبدونها
لغير الله - تعالى - لأنها عبادة باطلة . يحتقرها العقلاء ، ويتنزه عنها كل
، إنسان يحترم نفسه .فأنت تراه فى هذه الآية الكريمة يعلن احتقاره لآلهتهم
وبراءته من شركهم ، واستخفافه بأصنامهم التى زعموا أن بعضها قد أصابوا بسوء
. ويوثق هذه البراءة بإشهاد الله - تعالى - وإشهادهم ،

من دونه فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون

كما فسرها الوسيط وذلك كما يقول الرجل لخصمه إذا لم يبال به : أشهد الله
وأشهدك على أنى فعلت بك كذا وكذا ، وقلت فى حقك كذا وكذا . . فافعل أنت ما
) : بدا لك!! . ثم ينتقل من براءته من شركهم ، إلى تحديثهم واطمئنان فيقول
فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ ) .أى : لقد أعلنت أمامكم بكل
قوة ووضوح أنى برئ من شرككم ، وها أنذا فى مواجهتكم ، فانضموا إلى آلهتكم
وحاربونى بما شئتم من ألوان المحاربة والأذى بدون تريث أو إمهال ، فإنى لن
- أكف علن الجهر بدعوتى ، ولن تراجع عن احتقار الباطل الذى أنتم عليه .وهذا
كما يقول صاحب الكشاف - من أعظم الآيات ، أن يواجه بهذا الكلام رجل واحد
أمة عطاشا إلى إراقة دمه ، يرمونه عن قوس واحدة وذلك لثقته بربه ، وأنه
. يعصمه منهم ، فلا تنشب فيه مخالبهم

اني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة الا هو اخذ بناصيتها ان ربي على
صراط مستقيم

كما فسرها الوسيط ثم ينتقل بعد ذلك إلى بيان السبب الذى دعاه إلى البراءة
من شركهم ، وإلى عدم المبالاة بهم فقال - كما حكى القرآن عنه - ( إِنِّي
تَوَكَّلْتُ عَلَى الله رَبِّي وَرَبِّكُمْ . . ) .أى : إني فوضت أمرى إلى
الله الذى هو ربى وربكم ، ومالك أمرى وأمركم ، والذى لا يقع فى هذا الكون
شئ إلا بإرادته ومشيئته .وفى قوله : ( رَبِّي وَرَبِّكُمْ ) مواجهة
بالحقيقة التى ينكرونها ، لإفهامهم أن إنكارهم لا قيمة له ، وأنه إنكار عن
) جحود وعناد . . فهو - سبحانه - ربهم سواء أقبلوا ذلك أم رفضوه . وقوله
مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَآ ) تصوير بديع لشمول
قدرته - سبحانه - والأخذ : هو التناول للشئ عن طريق الغلبة والقهر
والناصية : منبت الشعر فى مقدم الرأس ، ويطلق على الشعر النابت نفسه .قال.
: الإمام الرازى : واعلم أن العرب إذا وصفوا إنسانا بالذلة والخضوع قالوا
ما ناصية فلان إلا بيد فلان . أى أنه مطيع له ، لأن كل من أخذت بناصيته فقد
قهرته . وكانوا إذا أسروا أسير وأرادوا إطلاقه جزوا ناصيته ليكون ذلك علامة
لقهره فخوطبوا فى القرآن بما يعرفون ..والمعنى : إنى اعتمدت على الله ربى
وربكم : ما من دابة تدب على وجه الأرض إلا والله - تعالى - مالكها وقاهر
لها ، وقادر عليها ، ومتصرف فيها كما يتصرف المالك فى ملكه .وفى هذا
التعبير الحكيم صورة حسية بديعة تناسب المقام ، كما تناسب غلظة قوم هود

وشدتهم . وصلابة أجسامم وبنيتهم ، وجفاف حسهم ومشاعرهم . . فكأنه - عليه السلام - يقول لهم : إنكم مهما بلغتم من القوة والبطش ، فما أنتم إلا دواب من تلك الدواب التى يأخذ ربى بناصيتها ، ويقهرها بقوته قهراً يهلكها - إذا شاء ذلك - فكيف أخشى دوابا مثلكم مع توكلى على الله ربى وربكم؟!ثم يتبع هذا الوصف الدال على شمول قدرة الله - تعالى - بوصف آخر يدل على عدالته وتنزه عن الظلم فيقول : ( إِنَّ رَبِّي على صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ) .أى : إن ربى قد اقتضت سنته أن يسلك فى أحكامه طريق الحق والعدل وما دام الأمر كذلك فلن يسلطكم على لأنه - حاشاه - أن يسلط من كان متمسكا بالباطل ، على من كان - متمسكا بالحق .واكتفى هنا بإضافة الرب إلى نفسه ، للإشارة إلى أن لطفه سبحانه - يشمل هودا وحده ولا يشملهم ، لأنهم أشركوا معه فى العبادة آلهة أخرى .

فان تولوا فقد ابلغتكم ما ارسلت به اليكم ويستخلف ربي قوما غيركم ولا تضرونه شيئا ان ربي على كل شيء حفيظ

كما فسرها الوسيط ثم ختم هود - عليه السلام - رده على قومه ، بتحذيرهم من سوء عاقبة إصرارهم على كفرهم فقال : ( فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ . . . )أى : فإن تتولوا عن دعوتى ، وتعرضوا عن الحق الذى جئتكم به من عند ربى ، فتكون عاقبتكم خسرا وأمركم فرطا .أما أنا فقد أديت واجبى ، وأبلغتكم ما أرسلت به إليكم من عند ربى بدون تكاسل أو تقصير . وقوله ( وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئاً ) وعيد لهم بإهلاكهم وإحلال غيرهم محلهم .أى : وهو - سبحانه - سهلككم بسبب إصراركم على كفركم فى الوقت الذى يشاؤه ، ويستخلف من بعدكم قوما آخرين سواكم ، يرثون دياركم وأموالكم ، ولن تضروا الله شيئا من الضرر بسبب إصراركم على كفركم ، وإنما أنتم الذين تضرون أنفسكم بتعريضها للدمار فى الدنيا ، وللعذاب الدائم فى الآخرة .وقوله ( : إِنَّ رَبِّي على كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ) أى : إن ربى قائم على كل شىء بالحفظ والرقابة والهيمنة ، وقد اقتضت سنته - سبحانه - أن يحفظ رسله وأولياءه ، وأن يخذل أعداءه .وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد ساقت لنا بأسلوب بليغ حكيم . جانبا من الحوار الذى دار بين هود وقومه وهو يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، فماذا كانت نتيجة هذا الحوار والجدال؟لقد كان نتيجته إنجاء هود والذين آمنوا معه ، وإهلاك أعدائهم .

ولما جاء امرنا نجينا هودا والذين امنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ

كما فسرها الوسيط قال - تعالى - ( وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً والذين آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ . وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ واتبعوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ .وَأُتْبِعُواْ في هذه الدنيا لَعْنَةً وَيَوْمَ القيامة ألا إِنَّ عَاداً كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ) - أَلاَ بُعْداً لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ )والمراد بالأمر فى قوله - سبحانه وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا ) الأمر بنزول العذاب بهم .أى : وحين جاء أمرنا ) بتحقيق وعيدنا فى قوم هود ، وبتنفيذ ما أردناه من إهلاكهم وتدميرهم نَجَّيْنَا هُوداً والذين آمَنُواْ مَعَهُ ) تنجية مصحوبة ( برحمة ) عظيمة ) كائنة ( منا ) بسبب إيمانهم وعملهم الصالح .( وَنَجَّيْنَاهُمْ ) كذلك مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ) أى : من عذاب ضخم شديد مضاعف ترك هؤلاء الطغاة وراءه صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية .ووصف العذاب بأنه غليظ ، بهذا التصوير المحسوس ، يتناسب كل التناسب مع جو هذه القصة ، ومع ما عرف عن قوم هود من ضخامة فى الأجسام ، ومن تفاخر بالقوة؟قال تعالى - ( فَأَمَّا عَادٌ فاستكبروا فِي الأرض بِغَيْرِ الحق وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً - وكان عذابهم كما جاء فى آيات أخرى بالريح العقيم ، ومن ذلك قوله ( . . . تعالى - ( وَأَمَا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى القوم فِيهَا صرعى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ) . . .

وتلك عاد جحدوا بايات ربهم وعصوا رسله واتبعوا امر كل جبار عنيد

. . . كما فسرها الوسيط واسم الإشارة فى قوله - سبحانه - ( وَتِلْكَ عَادٌ ) يعود إلى القبيلة أو إلى آثارهم التي خلفوها من بعدهم . أى : وتلك هى قصة ( قبيلة عاد مع نبيها هود - عليه السلام - وتلك هى عاقبتها وكانت الإشارة للبعيد تحقيرا لهم ، وتهوينا من شأنهم بعد أن انتهوا ، وبعدوا عن الأنظار والأفكار ، وقد كانوا يقولون : من أشد منا قوة .وقوله : ( جَحَدُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ واتبعوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ

: عَنِيدٍ . . ) بيان لجرائمهم التى استحقوا بسببها العذاب الغليظ .والجحد
الإنكار الشديد للحق الواضح .وآيات ربهم : الحجج والبراهين التى جاء بها
الأنبياء من ربهم للدلالة على صدقهم .والجبار : هو الشخص المتعالى المتعاظم
على الناس ، المترفع عن الاستجابة للحق .والعنيد : المعاند الطاغى الذى
يعرف الحق ولكنه لا يتبعه .أى : وتلك هى قصة قبيلة عاد مع نبيها ، كفروا
، بآيات ربهم الدالة على صدق أنبيائه ، وعصوا رسله الذين جاءوا لهدايتهم
واتبع سفلتهم وعوامهم أمر كل رئيس متجبر متكبر معاند منهم ، بدون تفكر أو
تدبر .وقال - سبحانه - ( وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ ) مع أنهم قد عصوا رسولا
واحده هو هود - عليه السلام - ، للإشارة إلأى أن معصيتهم لهذا الرسول
: كانها معصية للرسل جميعا ، لأنهم قد جاءوا برسالة واحدة فى جوهرها وهى
عبادة الله - تعالى - وحده ، والتقيد بأوامره ونواهيه .والإشارة أيضا إلى
- ضخامة جرائمهم ، وإبراز شناعتها حيث عصوا رسلا لا رسولاً .وقد وصفهم
: سبحانه - فى هذه الآية بثلاث صفات هى أعظم الصفات فى القبح والشناعة
أولها : جحودهم لآيات ربهم . وثانيها : عصيانهم لرسله . وثالثها : اتباعها
. أمر رؤسائهم الطغاة

واتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة الا ان عادا كفروا ربهم الا بعدا
لعاد قوم هود

: كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - قصتهم مع نبيهم فى هذه السورة بقوله
: والإتباع. ( وَأُتْبِعُواْ فِي هذِهِ الدنيا لَعْنَةً وَيَوْمَ القيامة )
اقتفاء أثر الشئ بحيث لا يفوته . يقال : أتبع فلان فلانا إذا اقتفى أثره
لكى يدركه أو يسير على نهجه .واللعنة : الطرد بإهانة وتحقير .أى : أنهم
هلكوا مشيعين ومتبوعين باللعن والطرد من رحمة الله فى الدنيا والآخرة
وقوله : ( ألا إِنَّ عَاداً كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ألاَ بُعْداً لِّعَادٍ.
قَوْمِ هُودٍ ) تسجيل لحقيقة حالهم ، ودعاء عليهم بدوام الهلاك ، وتأكيد
لسخط الله عليهم .أى : ألا إن يوم عاد كفروا بنعم ربهم عليهم ، ألا سحقا
، وبعدا لهم عن رحمة الله ، جزاء جحودهم للحق ، وإصرارهم على الكفر
واتسحبابهم العمى على الهدى .وتكرير حرف التنبيه " ألا " وإعادة لفظ " عاد
للمبالغة فى تهويل حالهم وللحض على الاعتبار والاتعاظ بمآلهم .هذا ، ومن "
العبر البارزة فى هذه القصة :1 - أن الداعى إلى الله ، عليه أن يذكر
المدعوين بما يستثير مشاعرهم ، ويحقق اطمئنانهم إليه ، ويرغبهم فى اتباع
الحق ، ببيان أن اتباعهم لهذا الحق سيؤدى إلى زيادة غناهم وقوتهم وأمنهم
وسعادتهم .وأن الانحراف عنه سيؤدى إلى فقرهم وضعفهم وهلاكهم .انظر إلى قول
هود - عليه السلام - : ( وياقوم استغفروا رَبَّكُمْ ثُمَّ توبوا إِلَيْهِ
يُرْسِلِ السمآء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إلى
- قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ )2 - وأن الداعى إلى الله
عندما يخلص لله دعوته ، ويعتمد عليه - سبحانه - فى تبليغ رسالته ، ويغار
عليها كما يغار على عرضه أو أشد .فإنه فى هذه الحالة سيقف فى وجه الطغاة
المناوئين للحق ، كالطود الأشم ، دون مبالاة بتهديدهم ووعيدهم . . لأنه قد
آوى إلى ركن شديد .وهذه العبرة من أبرز العبر فى قصة هود عليه السلام .ألا
، تراه وهو رجل فرد يواجه قوما غلاظا شدادا طغاة ، إذا بطشوا بطشوا جبارين
يدلون بقوتهم ويقولون فى زهو وغرور : من أشد منا قوة .ومع كل ذلك عندما
يتطاولن على عقيدته ، ويراهم قد أصروا على عصيانه .يواجههم بقوله : ( إني
أُشْهِدُ الله واشهدوا أَنِّي برياء مِّمَّا تُشْرِكُونَ . مِن دُونِهِ
فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ . . )أرأيت كيف واجه هود - عليه
السلام - هؤلاء الغلاظ الشداد بالحق الذى يؤمن به دون مبالاة بوعيدهم أو
تهديدهم . . ؟وهكذا الإيمان بالحق عندما يختلط بالقلب . . يجعل الإنسان
. - يجهر به دون أن يخشى أحداً إلا الله - تعالى

والى ثمود اخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره هو
انشاكم من الارض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا اليه ان ربي قريب مجيب

كما فسرها الوسيط ثم واصلت السورة الكريمة حديثها عن قصص بعض الأنبياء مع
)- أقوامهم فتحدثت عن قصة صالح - عليه السلام - مع قومه ، فقال - تعالى
وإلى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً . . . ) .هذه قصة صالح - عليه السلام - مع
قومه كما ذكرتها هذه السورة ، وقد وردت هذه القصة فى سور أخرى منها سورة
الأعراف ، والشعراء ، والنمل ، والقمر .وصالح - عليه السلام - ينتهى نسبه
إلى نوح - عليه السلام - فهو صالح بن عبيد بن آسف بن ماسح بن عبيد بن حاذر
بن ثمود . . بن نوح .وثمود : اسم للقبيلة التى منها صالح ، سميت باسم جدها
ثمود ، وقيل سميت بذلك لقلة مائها ، لأن الثمد هو الماء القليل .وكانت
مساكنهم بالحجر - بكسر الحاء وسكون الجيم - وهو مكان يقع بين الحجاز والشام
إلى وادى القرى ، وموقعه الآن - تقريبا - المنطقة التى بين الحجاز وشرق
الأردن ، وما زال المكان الذى كانوا يسكنونه بمدائن صالح حتى اليوم .وقبيلة

صالح من القبائل العربية ، وكانوا خلفاء لقوم هود - عليه السلام - فقد
قال - سبحانه - : ( واذكروا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِن بَعْدِ عَادٍ
وَبَوَّأَكُمْ فِي الأرض تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً
وَتَنْحِتُونَ الجبال بُيُوتاً . . . ) وكانوا يعبدون الأصنام ، فأرسل
الله - تعالى - إليهم صالحاً ليأمرهم بعبادة الله وحده .وقوله : ( وإلى
ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ ياقوم اعبدوا الله مَا لَكُمْ مِّنْ إله
: غَيْرُهُ . . )معطوف على ما قبله من قصتى نوح وهود - عليهما السلام - .أى
وأرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم فى النسب والموطن صالحا - عليه السلام فقال
لهم تكل الكلمة التى قالها كل نبى لقومه : يا قوم اعبدوا الله وحده ، فهو
الإله الذى خلقكم ورزقكم ، وليس هناك من إله سواه يفعل ذلك .ثم ذكرهم
بقدرة الله - تعالى - وبنعمه عليهم فقال : ( هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الأرض
واستعمركم فِيهَا )والإنشاء : الإيجاد والإحداث على غير مثال سابق
واستعمركم من الإعمار ضد الخراب فالسين والتاء للمبالغة . يقال : أعمر.
فلان فلانا فى المكان واستعمره ، أى جعله يعمره بأنواع البناء والغرس
والزرع .أى : اعبدوا الله - تعالى - وحده ، لأنه - سبحانه - هو الذى ابتدأ
خلقكم من هذه الأرض ، وأبوكم آدم ما خلق إلا منها وهو الذى جعلكم المعمرين
لها ، والساكنين فيها ( تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً
) . . وَتَنْحِتُونَ الجبال بُيُوتاً . . . ) قال - تعالى - فى شأنهم
. أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَآ آمِنِينَ . فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ
وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ . وَتَنْحِتُونَ مِنَ الجبال
- بُيُوتاً فَارِهِينَ . فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ ) فأنت ترى أن صالحا
عليه السلام - قد ذكرهم بجانب من مظاهر قدرة الله ومن أفضاله عليهم ، لكى
يستميلهم إلى التفكر والتدبر ، وإلى تصديقه فيما يدعوهم إليه .والفاء فى
قوله ( فاستغفروه ثُمَّ توبوا إِلَيْهِ ) للتفريع على ما تقدم .أى : إذا
كان الله - تعالى - هو الذى أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فعليكم أن
تخلصوا له العبادة ، وأن تطلبوا مغفرته عما سلف منكم من ذنوب .ثم تتوبوا
، إليه توبة صادقة : تجعلكم تندمون على ما كان منكم فى الماضى من شرك وكفر
وتعزمون على التمسك بكل ما يرضى الله - تعالى - فى المستقبل .ثم فتح أمامهم
باب الأمل فى رحمة الله - تعالى - فقال : ( إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ
، أى : إن ربى قريب الرحمة من المحسنين ، مجيب الدعاء الداعين المخلصين(
. فاقبلوا على عبادته وطاعته ، ولا تقنطوا من رحمة الله

قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا اتنهانا ان نعبد ما يعبد اباؤنا
واننا لفي شك مما تدعونا اليه مريب

كما فسرها الوسيط ثم حكى القرآن ما رد به قوم صالح عليه فقال : ( قَالُواْ
ياصالح قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هذا . . ) .أى : قال قوم صالح
له بعد أن دعاهم لما يسعدهم : يا صالح لقد كنت فينا رجلا فاضلا نرجوك
لمهمات الأمور فينا لعلمك وعقلك وصدقك . . قبل أن تقول ما قلته ، أما الآن
وبعد أن جئتنا بهذا الدين الجديد فقد خاب رجاؤنا فيك ، وصرت فى رأينا رجلا
مختل التفكير .فالإشارة فى قوله ( قَبْلَ هذا ) إلى الكلام الذى خاطبهم به
حين بعثه الله إليهم .والاستفهام فى قولهم ( أَتَنْهَانَآ أَن نَّعْبُدَ
مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ) للتعجيب والإنكار .أى : أجئتنا بدعوك الجديد
لتنهانا عن عبادة الآلهة التي كان يعبدها آباؤنا من قبلنا؟لا ، إننا لن
نستجيب لك ، وإنما نحن قد وجدنا آباءنا على دين وإننا على آثارهم نسير .ثم
ختموا ردهم عليه بقولهم : ( وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ
إِلَيْهِ مُرِيبٍ ) .ومريب : اسم فاعل من أراب . تقول : أربت فلانا فأنا
أريبه ، إذا فعلت به فعلا يوجب لديه الريبة أى : القلق والاضطراب .أى : لن
نترك عبادة الأصنام التى كان يعبدها آباؤنا ، وإننا لفى شك كبير ، وريب
. عظيم من صحة ما تدعونا إليه

قال يا قوم ارايتم ان كنت على بينة من ربي واتاني منه رحمة فمن ينصرني من
الله ان عصيته فما تزيدونني غير تخسير

كما فسرها الوسيط فانظر كيف قابل هؤلاء السفهاء الدعوة إلى الحق بالتصميم
على الباطل ، ولكن صالحا - عليه السلام - لم ييأس بل يرد عليهم بأسلوب حكيم
فيقول :( قَالَ ياقوم أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ على بَيِّنَةً مِّن رَّبِّي
وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ الله إِنْ عَصَيْتُهُ
- فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ) .أى قال صالح - عليه السلام
). لقومه : يا قوم أخبرونى إن كنت على حجة واضحة من ربى ومالك أمرى
وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً ) أى : وأعطانى من عنده لا من عند غيره رحمة
عظيمة حيث اختارنى لحمل رسالته . وتبليغ دعوته .وجملة ( فَمَن يَنصُرُنِي
مِنَ الله إِنْ عَصَيْتُهُ ) جواب الشرط وهو قوله ( إِن كُنتُ على
بَيِّنَةً ) .أى : إذا كان الله - تعالى - قد منحنى كل هذه النعم ، وأمرنى

بأن أبلغكم دعوته فمن ذا الذى يجيرنى ويعصمنى من غضبه ، إذا أنا خالفت أمره ، أو قصرت فى تبليغ دعوته ، احتفاظا برجائكم فى ، ومسايرة لكم فى باطلكم؟لا إننى سأستمر فى تبليغ ما أرسلت به إليكم ، ولن يمنعنى عن ذلك ترغيبكم أو ترهيبكم .وقوله ( فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ) تصريح منه بأن ما عليه هو الحق الذى لا يقبل الشك أو الريب ، وأن مخالفته توصل إلى الهلاك والخسران .والتخسير : مصدر خسر ، يقال خسر فلان فلانا إذا نسبه إلى الخسران أى : فما تزويدوننى بطاعتكم ومعصية ربى غير الوقوع فى الخسران ، وغير : التعرض لعذاب الله وسخطه وحاشاى أن أخالف أمر ربى إرضاء لكم .فالآية الكريمة تصور تصويرا بليغا ما كان عليه صالح - عليه السلام - من إيمان عميق بالله - تعالى - ومن ثبات على دعوته ومن حرص عليه طاعته - سبحانه - .

ويا قوم هذه ناقة الله لكم اية فذروها تاكل في ارض الله ولا تمسوها بسوء فياخذكم عذاب قريب

كما فسرها الوسيط ثم أرشد صالح - عليه السلام - إلى المعجزة الدالة على صدقه فيما يبلغه عن ربه فقال : ( وياقوم هذه نَاقَةُ الله لَكُمْ آيَةً . . أى : معجزة ، واضحة دالة على صدقى وفى إضافة كغيرها من النوق التى تستعمل ( فى الركوب والنحر وغيرهما . لأن الله - تعالى - قد جعلها معجزة لنبيه صالح - عليه السلام - ولم يجعلها كغيرها . وقد ذكر بعض المفسرين من صفات ، هذه الناقة وخصائصها . ما لا يؤيده نقل صحيح ، لذا أضربنا عن كل ذلك صفحا ونكتفى بأن نقول : بأنها كانت ناقة ذات صفات خاصة مميزة ، تجعل قوم صالح - يعلمون عن طريق هذا التمييز لها عن غيرها أنها معجزة دالة على صدق نبيهم عليه السلام - فيما يدعوهم إليه . وقوله : ( فَذَرُوهَا تَأْكُلْ في أَرْضِ الله وَلاَ تَمَسُّوهَا بسوء فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ) أمر لهم بعدم التعرض لها بسوء وتحذير لهم من نتائج مخالفة أمره . أى : اتركوا الناقة حرة طليقة تأكل فى أرض الله الواسعة ، ومن رزقه الذى تكفل به لكل دابة ، واحذروا أن تمسوها بشئ من السوء مهما كان قليلا ، فإنكم لو فعلتم ذلك عرضتم أنفسكم لعذاب الله العاجل القريب . والتعبير بقوله ( فَيَأْخُذَكُمْ ) بفاء التعقيب وبلفظ الأخذ ، يفيد سرعة الأخذ وشدته ، لأن أخذه - سبحانه - أليم شديد .

فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة ايام ذلك وعد غير مكذوب

، كما فسرها الوسيط ولكن قوم صالح - عليه السلام - لم يستمعوا إلى تحذيره ) بل قابلوه بالطغيان والعصيان ، ( فَعَقَرُوهَا ) أى : فعقروا الناقة وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَاصَالِحُ ائتنا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ المرسلين ) والفاء معطوفة على محذوف : أى فخالفوا ما نهاهم عنه نبيهم فعقروها أى نحروها وأصل العقر : قطع عرقوب البعير ، ثم استعمل فى النحر لأن ناحر البعير يعقله ثم ينحره فقال لهم صالح - عليه السلام - بعد عقرها ( تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذلك وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ) .والتمتع : الانتفاع بالمتاع ، وهو اسم لما يحتاج إليه الإنسان فى هذه الحياة من مأكل ومشرب وغيرهما .والمراد بدارهم : أماكن سكناهم التى يعيشون فيها .أى : قال لهم نبيهم بعد نحرهم للناقة : عيشوا فى بلدكم هذا ، متمتعين بما فيه من نعم لمدة ثلاثة أيام : فقط ، فهى آخر ما بقى لكم من متاع هذه الدنيا ، ومن أيام حياتكم .( ذلك ) الوعد بنزول العذاب بكم بعد هذه المدة القصيرة .( وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ) فيه لأنه صادر من الله - تعالى - الذى لا يخلف وعده .وعبر عن قرب نزول العذاب بهم بالوعد على سبيل التهكم بهم .قال الجمل : " ومكذوب " يجوز أن يكون مصدراً على وزن مفعول ، وقد جاء منه ألفاظ نحو : المجلود والمعقول والمنشور والمغبون ، ويجوز أن يكون اسم مفعول على بابه وفيه تأويلان : أحدهما : غير مكذوب فيه ، ثم حذف حرف الجر فاتصل الضمير مرفوعاً مستتراً فى الصفة ومثله ، يوم مشهود . والثانى : أنه جعل هو نفسه غير مكذوب ، لأنه قد وفى به : وإذا وفى به فقد صدق .

فلما جاء امرنا نجينا صالحا والذين امنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ ان ربك هو القوي العزيز

كما فسرها الوسيط ولقد تحقق ما توعدهم به نبيهم ، فقد حل بهم العذاب فى الوقت الذى حدده لهم ، قال - تعالى - ( فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا ) أى : فلما جاء أمرنا بإنزال العذاب بهم فى الوقت المحدد .( نَجَّيْنَا صَالِحاً والذين آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ) أى برحمة عظيمة كائنة منا ونجيناهم أيضا ( وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ) أى : من خزى وذل ذلك اليوم. - الهائل الشديد الذى نزل فيه العذاب بالظالمين من قوم صالح - عليه السلام - فأبادهم .فالتنوين فى قوله ( يومئذ ) عوض عن المضاف إليه المحذوف .وقوله

سبحانه - ( إِنّ رَبّكَ هُوَ القوي العزيز ) تسلية للرسول - صلى الله
عليه وسلم - وللمؤمنين عما أصابهم من أذى .أى : إن ربك - أيها الرسول
الكريم - هو القوى الذى لا يعدز شئ ، العزيز الذى لا يهون من يتولاه ويرعاه
فلا تبتئس عما أصابك من قومك ، فربك قادر على أن يفعل بهم ، ما فعله ،
بالظالمين السابقين من أمثالهم .

واخذ الذين ظلموا الصيحة فاصبحوا في ديارهم جاثمين

كما فسرها الوسيط ثم صور القرآن الكريم حال هؤلاء الظالمين تصويرا يدعو إلى
الاعتبار والاتعاظ فقال : ( وَأَخَذَ الذين ظَلَمُواْ الصيحة فَأَصْبَحُواْ
فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ . كَأَن لّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلاَ إِنّ
ثَمُودَ كَفرُواْ رَبّهُمْ أَلاَ بُعْداً لِّثَمُودَ )والصيحة : الصوت
المرتفع الشديد . يقال : صاح فلان إذا رفع صوته بقوة . وأصل ذلك تشقيق
الصوت ، من قولهم : انصاح الخشب والثوب ، إذا انشق قسمع له صوت .و ( جاثمين
من الجثوم وهو للناس وللطير بمنزلة البروك للإبل . يقال : جثم الطائر : (
يجثم جثما وجثوما فهو جاثم . . إذا وقع على صدره ، ولزم مكانه فلم يبرحه
ويغنوا فيها : أى يقيموا فيها . يقال : غنى فلان بالمكان يغنى إذا أقام به.
- وعاش فيه فى نعمة ورغد .أى : وأخذ الذين ظلموا من قوم صالح - عليه السلام
عن طريق الصحة الشديدة التى أصبحت بهم بأمر الله - تعالى - ( فَأَصْبَحُواْ
بسببها ( فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ) أى : هلكى صرعى ، ساقطين على (
. . . وجوههم ، بدون حركة

كان لم يغنوا فيها الا ان ثمود كفروا ربهم الا بعدا لثمود

كما فسرها الوسيط ( كَأَن لّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ ) أى : كأن هؤلاء القوم
الظالمين ، لم يقيموا فى ديارهم عمرا طويلا وهم فى رخاء من عيشهم .( أَلاَ
إِنّ ثَمُودَ كَفرُواْ رَبّهُمْ أَلاَ بُعْداً لِّثَمُودَ ) أى : ألا إن
هؤلاء الظالمين من قبيلة ثمود ، كفروا نعمة ربهم وجحودها؛ ألا بعداً وسحقاً
وهلاكاً لهؤلاء المجرمين من قبيلة ثمود .وفى تكرار حرف التنبيه ( ألا )
وتكرار لفظ ( ثمود ) تأكيد لطردهم من رحمة الله ، وتسجيل لما ارتكبوه من
منكرات .وبذلك انطوت صفحة أولئك الظالمين من قوم صالح - عليه السلام - كما
انطوت من قبلهم صحائف قوم نوح وهود - عليهما السلام - .ومن أبرز العبر
والعظات التى نأخذها من قصة صالح مع قومه كما وردت فى هذه السورة الكريمة :
أن النفوس إذا انطمست ، والعقول إذا انتكست ، تعجب مما لا عجب فيه؛ وتستنكر
ما هو حق وصدق ، وتسئ ظنها بالشخص الذى كان بالأمس القريب موضع رجائها
وثقتها ، لأنه أتاهم بما لم يألفوه . . . حتى ولو كان ما أتاهم به فيه
سعادتهم وهدايتهم . . .فصالح - عليه السلام - كان مرجوا فى قومه قبل أن
يكون نبياً ، فلما صار نبياً وبلغهم ما أرسله الله به ، خاب أملهم فيه ،
وساء ظنهم به ، وجاهروه بالعداوة والعصيان . . . مع أنه أتاهم بما يسعدهم .
وصدق الله إذ يقول : ( سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الذين يَتَكَبّرُونَ
فِي الأرض بِغَيْرِ الحق وَإِن يَرَوْاْ كُلّ آيَةٍ لاّ يُؤْمِنُواْ
بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرشد لاَ يَتّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن
يَرَوْاْ سَبِيلَ الغي يَتّخِذُوهُ سَبِيلاً ذلك بِأَنّهُمْ كَذّبُواْ
بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ ) هذا ، وقد وردت أحاديث تصرح
بأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد مر على ديار ثمود وهو فى طريقه إلى
غزوة تبوك .ومن هذه الأحاديث ما رواه الشيخان عن ابن عمر قال : " لما مر
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالحجر قال :لا تدخلوا على هؤلاء
المعذبين إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين ، فلا تدخلوا عليهم ،
لئلا يصيبكم ما أصابهم . ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى جاوزوا الوادى . "

ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث ان جاء بعجل
حنيذ

كما فسرها الوسيط ثم ساقت السورة الكريمة جانباً من قصة إبراهيم - عليه
السلام - مع الملائكة ، الذين جاءوه بالبشارة ، فقال - تعالى - :( وَلَقَدْ
جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَاهِيمَ . . . ) .هذه قصة إبراهيم - عليه السلام -
- مع الملائكة الذين جاءوا لبشارته بابنه إسحاق ، وبإخباره بإهلاك قوم لوط
- عليه السلام - .وقد ودرت هذه القصة فى سور أخرى منها سورة الحجر فى قوله
تعالى - : ( وَنَبّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ . إِذْ دَخَلُواْ
عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلاماً قَالَ إِنّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ . . . )
ومنها سورة الذاريات فى قوله - تعالى - ( هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ
إِبْرَاهِيمَ المكرمين . إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلاَماً
- قَالَ سَلاَمٌ قَوْمٌ مّنكَرُونَ . . . ) والمراد بالرسل فى قوله
تعالى - ( وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَاهِيمَ بالبشرى ) جماعة من

الملائكة الذين أرسلهم الله - تعالى - لتبشير إبراهيم بابنه إسحاق .وقد اختلفت الروايات فى عددهم فعن ابن عباس أنهم ثلاثة وهم : جبريل وميكائيل وإسرافيل ، وعن الضحاك أنهم كانوا تسعة ، وعن السدى أنهم كانوا أحد عشر ملكاً . .والحق أنه لم يرد فى عددهم نقل صحيح يعتمد عليه ، فلنفوض معرفة عددهم إلى الله - تعالى - .والبشرى : اسم للتبشير والبشارة وهى الخبر السار فهى أخص من الخبر ، وسميت بذلك لأن آثارها تظهر على بشرة الوجه أى : جلده ، وجاءت هذه الجملة الكريمة بصيغة التأكيد للاهتمام بمضمونها ، وللرد على. - مشركى قريش وغيرهم ممن كان ينكر هذه القصة وأمثالها .والباء فى قوله سبحانه - ( بالبشرى ) للمصاحبة والملابسة ، أى : جاءوا مصاحبين وملتبسين بالبشرى .وقوله : ( قَالُواْ سَلاَماً قَالَ سَلاَمٌ ) حكاية لتحيتهم له ). ولرده عليهم .( وسلاما ) منصوب بفعل محذوف . أى قالوا نسلم عليك سلاما وسلام ) مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف . أى قال أمرى سلام .وقرأ حمزة والكسائى : قال سلم وهو اسم للمسالمة .ثم بين - سبحانه - ما فعل إبراهيم مع هؤلاء الرسل من مظاهر الحفاوة والتكريم فقال : ( فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ) .و " ما " فى قوله ( فَمَا لَبِثَ ) نافية ، والفاء للتعقيب ، واللبث فى المكان معناه : عدم الانتقال عنه . والعجل : الصغير من البقر .أى : فما أبطأ وما تأخر إبراهيم - عليه السلام - عن إكرامهم ، بل . . بمجرد أن انتهى من رد التحية عليهم ، أسرع إلى أهله فجاءهم بعجل حنيذ وهذا الفعل منه - عليه السلام - يدل على سعة جوده ، وعظيم سخائه ، فإن من. ) آداب الضيافة ، تعجيل القرى للضيف .قال أبو حيان : والأقرب فى إعراب فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ . . . ) أن تكون ( ما ) نافية ، ولبث معناه تأخر وأبطأ و ( أَن جَآءَ ) فاعل لبث والتقدير؛ فما تأخر مجيئه . .ويجوز أن يكون فاعل لبث ضمير إبراهيم ، وأن جاء على إسقاط حرف الجر ، أى فما تأخر فى أن . . جاء بعجل حينذ

فلما راى ايديهم لا تصل اليه نكرهم واوجس منهم خيفة قالوا لا تخف انا ارسلنا الى قوم لوط

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - حال إبراهيم عندما رأى ضيوفه لا يأكلون من طعامه فقال : ( فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً .. . )ومعنى ( نَكِرَهُمْ ) : نفر منهم ، وكره تصرفهم . نقول فلان نكر حال فلان - كعلم - وأنكره نكراً ونكوراً . . . إذا وجده على غير ما يعهده فيه ، ويتوقعه منه .( وَأَوْجَسَ من الوجس وهو الصوت الخفى ، والمراد به هنا : الإحساس الخفى بالخوف ( والفزع الذى يقع فى النفس عند رؤية ما يقلقها ويخيفها .أى : فلما رأى ، إبراهيم - عليه السلام - ضيوفه لا تمتد أيديهم إلى الطعام الذى قدمه لهم نفر منهم ، وأحس فى نفسه من جهتهم خوفاً ورعباً؛ لأن امتناع الضيف عن الأكل . . . من طعام مضيفه - بدون سبب مقنع 0- يشعر بأن هذا الضيف ينوى شراً به والتقاليد فى كثير من البلاد إلى الآن تؤيد ذلك .ولذا قالت الملائكة لإبراهيم عندما لاحظوا ما يساور نفسه من الخوف : ( لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ )أى :لا تخف يا إبراهيم فإنا لسنا ضيوفا من البشر ، وإنما نحن رسل من الله - تعالى - أرسلنا إلى قوم لوط لإهلاكهم - وقد جاء فى بعض الآيات أنه صارحهم بالخوف منهم ، ففى سورة الحجر قال تعالى - : (وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ . إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلاَماً قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ . قَالُواْ لاَ تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ . . . ).

وامراته قائمة فضحكت فبشرناها باسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - ما حدث بعد ذلك فقال : ( وامرأته قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ) .والمراد بامرأته - كما يقول القرطبى - " سارة بنت هاران بن ناحور ، ابن شاروع ، بن أرغو ، ابن فالغ ، وهى بنت عم إبراهيم " .وقيامها كان لأجل قضاء مصالحها ، أو لأجل خدمة الضيوف . . . أو لغير ذلك من الأمور التى تحتاجها المرأة فى بيتها .والمراد بالضحك هنا حقيقته . أى : فضحكت سروراً وابتهاجاً بسبب زوال الخوف عن إبراهيم ، أو بسبب علمها بأن الضيوف قد أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط ، أو بهما معا . . .قال الشوكانى : والضحك هنا هو الضحك المعروف الذى يكون للتعجب والسرور كما قاله الجمهور .وقال مجاهد وعكرمة : إنه الحيض ، ومنه قول الشاعر :وإنى لآتى العرس عند طهورها وأهجرها يوماً إذا تك ضاحكاوقد أنكر بعض اللغويين أن يكون فى كلام ... . . العرب ضحكت بمعنى ضاحت .أى : وفى أعقاب قول الملائكة لإبراهيم لا تخف كانت امرأته قائمة لقضاء بعض حاجاتها ، فلما سمعت ذلك " ضَحِكَت " سروراً . وفرحاً لزوال خوفه ( فَبَشَّرْنَاهَا ) عقب ذلك بمولودها ( إسحاق ) كما بشرناها بأن إسحاق سيكون من نسله ( يعقوب ) ، فهى بشارة مضاعفة . إذ أنها

. . . تحمل فى طياتها أنها ستعيش حتى ترى ابن ابنها

قالت يا ويلتى االد وانا عجوز وهذا بعلي شيخا ان هذا لشيء عجيب

كما فسرها الوسيط ولا شك أن المرأة عندما تكون قد بلغت سن اليأس . ولم يكن لها ولد ، ثم تأتيها مثل هذه البشارة يهتز كيانها ، ويزداد عجبها ، ولذا قالت على سبيل الدهشة والاستغراب : ( ياويلتى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وهذا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ) .وكلمة ( ياويلتى ) : تستعمل فى التحسر والتألم والتفجع عند نزول مكروه .والمراد بها هنا التعجب لا الدعاء على نفسها بالويل والهلاك ، وهى كلمة كثيرة الدوران على أفواه النساء إذا طرأ عليهن ما يدهشن له ، ويتعجبن منه .أى : قالت بدهشة وعجب عندما سمعت بشارة الملائكة لها بالود وبولد الولد : يا للعجب أألد وأنا امرأة عجوز ، قد بلغت سن اليأس من الحمل منذ زمن طويل ، ( وهذا بَعْلِي ) أى : زوجى إبراهيم " شيخا " كبيراً متقدماً فى السن .قال الجمل : وهاتان الجملتان - ( وَأَنَاْ عَجُوزٌ وهذا بَعْلِي شَيْخاً ) - فى محل النصب على الحال من الضمير المستتر فى ( أألد ) وشيخاً حال من بعلى ، والعامل فيه اسم الإشارة لما فيه من معنى الفعل .وقوله - كما حكى القرآن عنها - ( إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ) - أى : إن هذا الذى بشرتمونى به من حصول الولد لى فى تلك السن المتقدمة ( لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ) فى مجرى العادة عند النساء .

قالوا اتعجبين من امر الله رحمت الله وبركاته عليكم اهل البيت انه حميد مجيد

كما فسرها الوسيط وقد رد عليها الملائكة بقولهم : ( قالوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ الله ) ؟!!أى : أتستبعدين على قدرة الله - تعالى - أن يرزقك الولد وأنت وزوجك فى هذه السن المتقدمة؟ لا إنه لا ينبغى لك أن تستبعدى ذلك لأن قدرة الله لا يعجزها شئ . فالاستفهام هنا المراد به إنكار تعجبها ، واستبعادها البشارة ، وإزالة أثر ذلك من نفسها إزالة تامة .وقوله : ( رَحْمَةُ الله وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ البيت ) حكاية لما قالته الملائكة لها ، زيادة فى سرورها وفى إدخال الطمأنينة على قلبها .أى رحمة الله الواسعة ، وبركاته وخيراته النامية عليكم أهل البيت الكريم وهو بيت إبراهيم - عليه السلام - .قال صاحب الكشاف : وإنما أنكرت عليها الملائكة تعجبها ، لأنها كانت فى بيت الآيات ، ومهبط المعجزات ، والأمور الخارقة للعادات ، فكان عليها أن تتوقر ، ولا يزدهيا ما يزدهى سائر النساء الناشئات فى غير بيت النبوة وأن تسبح الله وتمجده ، مكان التعجب .وإلى ذلك أشارت الملائكة فى قولهم ( رَحْمَةُ الله وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ البيت ) أرادوا أن هذه وأمثالها مما يكرمهم به رب العزة ، ويخصكم بالإنعام به. ( يا أهل بيت النبوة ، فليس بمكان عجب ، والكلام مستأنف علل به إنكارا التعجب كأنه قيل : " إياك والتعجب ، فإن أمثال هذه الرحمة والبركة متكاثرة من الله عليكم " .وقوله - سبحانه - ( إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ) تذييل بديع قصد به وجوب مداومتها على حمد الله وتمجيده على أن وهبها الولد بعد أن بلغت سن اليأس من الحمل .أى إنه - سبحانه - ( حَمِيدٌ ) أى : مستحق للحمد لكثرة نعمه على عباده ( مَّجِيدٌ ) أى : كريم واسع الإحسان ، فليس بعيداً منه أن يعطى الولد للآباء بعد الكبر .قال صاحب المنار ما ملخصه : وأصل المجد فى اللغة أن تقع الإبل فى أرض واسعة المرعى ، كثيرة الخصب ، يقال : مجدت الإبل تمد من باب نصر - مجداً ومجادة ، وأمجدها الراعى .والمجد فى البيوت والأنساب ما يعده الرجل من سعة كرم آبائه وكثرة نوالهم .ووصف الله كتابه بالمجيد ، كما وصف نفسه بذلك ، لسعة هداية كتابه ، وسعة كرمه وفضله على عباده . . .

فلما ذهب عن ابراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - ما كان من إبراهيم بعد أن سكن خوفه ، واطمأن إلى ضيوفه فقال : ( فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الروع ) أى : الخوف والفزع ، بسبب اطمئنانه إلى ضيوفه ، وعلمه أنهم ليسوا من البشر ). وَجَآءَتْهُ البشرى ) منهم بالولد ، واتصال النسل ، فازداد سرورا بهم .بعد كل ذلك ، أخذ إبراهيم ( يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ) أى : يجادل رسلنا ويحاورهم فى شأن قوم لوط ، وفى كيفية عقابهم ، بعد أن أخبروه بأنهم ذاهبون لإهلاكهم .وأضاف - سبحانه - المجادلة إلى نفسه مع أنها كانت مع الملائكة ، لأن نزولهم لإهلاك قوم لوط إنما كان بأمره - تعالى - ، فمجادلة إبراهيم لهم هى مجادلة فى تنفيذ أمره - تعالى - .وقال - سبحانه - ( يجادلنا ) مع أنها كانت فى الماضى ، لتصوير هذه الحالة فى الذهن تصويراص حاضراً ، حتى تزداد منه العبرة والعظة .وهذه المجادلة التى كانت بين إبراهيم وبين

الملائكة الذين أرسلوا لإهلاك قوم لوط ، قد حكاها - سبحانه - فى سورة العنكبوت فى قوله : ( وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَاهِيمَ بالبشرى ) قالوا إِنّا مهلكوا أَهْلِ هذه القرية ) أى القرية التى يسكنها قوم لوط إِنّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَالِمِينَ . قَالَ إِنّ فِيهَا لُوطاً قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاّ امرأته كَانَتْ مِنَ الغابرين ) الآيتان 31 - 32 .وهذا التفسير للمجادلة التى دارت بين إبراهيم والملائكة فى عقاب قوم لوط هو الصحيح لأن خير تفسر للقرآن هو ما كان بالقرآن .وما ورد من أقوال تخالف ذلك فلا يلتفت إليها ، لعدم استنادها إلى النقل الصحيح .

ان ابراهيم لحليم اواه منيب

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( إِنّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ) بيان للدواعى التى حملت إبراهيم - عليه السلام - على مجادلة الملائكة فى شأن إهلاك قوم لوط .والحليم : هو الصبور على الأذى ، الصفوح عن الجناية ، المقابل لها بالإحسان .والأواه : هو الذى يكثر التأوه من خشية الله .قال الآلوسى : وأصل التأوه قوله : آه ونحوه مما يقوله المتوجع الحزين . وهو عند جماعة كناية عن كمال الرأفة ورقة القلب . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهما عن عبد الله بن شداد قال رجل : يا الله ما الآواه؟ قال : " الخاشع المتضرع الكثير الدعاء "والمنيب : السريع الرجوع ، إلى الله - تعالى - بالتوبة والاستغفار .أى أن إبراهيم لصبور على الأذى صفوح عن الجناية ، كثير التضرع إلى الله ، سريع الرجوع إليه فى كل ما يحبه ويرضاه .

يا ابراهيم اعرض عن هذا انه قد جاء امر ربك وانهم اتيهم عذاب غير مردود

كما فسرها الوسيط ولكن حلم إبراهيم وإنابته . . . لم يرد قضاء الله العادل ) : - فى شأن قوم لوط ولذا قالت الملائكة له - كما حكى القرآن عنهم يا إبراهيم أَعْرِضْ عَنْ هاذآ إِنّهُ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبّكَ وَإِنّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ) .أى : قالت الملائكة لإبراهيم : ( ياإبراهيم أَعْرِضْ عَنْ هاذآ ) الجدال فى أمر قوم لوط ، وفى طلب إمهال عقوبتهم ( إِنّهُ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبّكَ ) بإهلاكهم ( وإنهم بسبب إصرارهم على ارتكاب الفواحش ( آتِيهِمْ ) من ربهم ( عَذَابٌ ) شديد ( غَيْرُ مَرْدُودٍ ) عنهم لا بسبب الجدال ولا بأى سبب سواه ، فإن قضاء الله لا يرد عن القوم المجرمين . هذا ، وقد ذكر الشيخ القاسمى بعض الفوائد والأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآيات فقال : قال بعض المفسرين : لهذه الآيات ثمرات وفوائد .منها : أن حصول الولد المخصص بالفضل نعمة ، وأن هلاك العاصى نعمة - أيضاً - لأن البشرى قد فسرت بولادة إسحاق لقوله ) فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ ) وفسرت بهلاك قوم لوط ، لقوله : ( قَالُواْ لاَ تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَا إلى قَوْمِ لُوطٍ ) .ومنها : استحباب نزول المبشر - بالكسر - على المبشر - بالفتح - لأن الملائكة أرسلهم الله - تعالى - لذلك .ومنها : أنه يستحب للمبشر أن يتلقى البشارة بالشكر لله - تعالى - على ما بشر به . فقد حكى عن الأصم أنه قال : جاؤوه فى أرض يعمل فيها ، فلما فرغ غرز مسحاته ، وصلى ركعتين .ومنها : أن السلام مشروع ، وأنه ينبغى أن يكون الرد أفضل لقول إبراهيم ( سلام ) بالرفع وهو أدل على الثبات والدوام .ومنها : مشروعية الضيافة ، والمبادرة إليها ، واستحباب مبادرة الضيف بالأكل منها .ومنها : استحباب خدمة الضيف ولو للمرأة ، لقول مجاهد : وامرأته قائمة؛ أى فى خدمة أضياف إبراهيم . . . وخدمة الضيفان من مكارم الأخلاق .ومنها : جواز مراجعة الأجانب فى القول ، وأن صوتها ليس بعورة ومنها : أن امرأة الرجل من أهل بيته - فيكون أزواجه - صلى الله عليه. وسلم - من أهل بيته .ومنها : - كما يقول الإمام ابن كثير - استدل على أن الذبيح هو إسماعيل لا إسحاق ، وأنه يمتنع أن يكون هو إسحاق ، لأنه وقعت البشارة به ، وأنه سيولد له يعقوب ، فكيف يؤمر إبراهيم بذبحه وهو طفل صغير ، ولم يولد له بعد يعقوب الموعود بوجوده ، ووعد الله حق لا خلف فيه ، ، فيمتنع أن يؤمر بذبح إسحاق والحالة هذه ، فتعين أن يكون الذبيح إسماعيل ، وهذا من أحسن الاستدلال وأصحه .

ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب

كما فسرها الوسيط ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عما درا بين لوط وبين الملائكة وبينه وبين قومه من حار وجدال فقال - تعالى - :( وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً . . . )- تلك هى قصة لوط مع الرسل الذين جاءوا لإهلاك قومه ومع قومه المجرمين ، كما حكتها سورة هود .- وقد وردت هذه ، القصة فى سور أخرى وبأساليب متنوعة ، ومنها سورة الأعراف ، والحجر

والشعراء ، والنمل ، والعنكبوت ، والصافات ، والذاريات ، والقمر . .قال
الإمام ابن كثير : ولوط ابن هاران بن أخى إبراهيم ، وكان قد آمن مع عمه
إبراهيم وهاجر معه إلى أرض الشام ، فبعثه الله إلى أهل بدلة سدوم وما حولها
يدعوهم إلى وحدانية الله - تعالى - ، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا
يرتكبونه من المآثم والمحارم والفواحش التى اخترعوها دون أن يسبقهم بها أحد
من بنى آدم ولا من غيرهم ، وهو إتيان الذكور دون الإناث ، وهذا شئ لم يكن
" - أحد من بنى آدم يعهده ولا يألفه ولا يخطر بباله ، حتى صنع ذلك أهل سدوم
وهم قرية بوادى الأردن عليهم لعائن الله "- وقد بدأ - سبحانه - القصة هنا
: بتصوير ما اعترى لوطا - عليه السلام - من ضيق وغم عندما جاءته الرسل فقال
أى : وحين جاء -( . . . وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سيآء بِهِمْ )
الملائكة إلى لوط - عليه السلام - بعد مفارقتهم لإبراهيم ، ساءه وأحزنه
مجيئهم ، لأنه كان لا يعرفهم ، ويعرف أن قومه قوم سوء ، فخشى أن يعتدى قومه
عليهم ، بعادتهم الشنيعة ، وهو عاجز عن الدفاع عنهم .قال ابن كثير ما ملخصه
- يخبر الله - تعالى - عن قدوم رسله من الملائكة إلى لوط - عليه السلام ":
بعد مفارقتهم لإبراهيم . . فأتوا لوطاً - عليه السلام - وهو على ما قيل فى
أرض له . وقيل فى منزله ، ووردوا عليه وهم فى أجمل صورة تكون ، على هيئة
شبان حسان الوجوه ، ابتلاء من الله ، وله الحكمة والحجة البالغة ، فساء
، شأنهم . .- وقوله : ( وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً ) تصوير بديع لنفاد حيلته
واغتمام نفسه وعجزه عن وجود حيلة للخروج من المكروه الذى حل بهم .قال
القرطبى : والذرع مصدر ذرع . وأصله : أن يذرع البعير بيديه فى سيره ذرعاً
. على قدر سعة خطوه فإذا حمل عليه أكثر من طاقته ضاق عن ذلك وضعف ومد عنقه
فضيق الذرع عبارة عن ضيق الوسع . وقيل هو من ذرعه القئ أى غلبه .أى : ضاق
عن حبسه المكروه فى نفسه .وإنما ضاق ذرعه بهم لما رأى من جمالهم ، وما
يعلمه من فسوق قومه . .- و ( ذرعا ) تمييز محول عن الفاعل . أى : ضاق
بأمرهم ذرعه .( وَقَالَ هذا يَوْمٌ عَصِيبٌ ) : أى وقال لوط - عليه
" السلام - فى ضجر وألم : هذا اليوم الذى جاءنى فيه هؤلاء الضيوف ، يوم
عصيت " أى : شديد هوله وكربه .وأصل العصب : الشد والضغط ، فكأن هذا اليوم
لشدة وقعه على نفسه قد عصب به الشر والبلاء ، أى : شد به .قال صاحب تفسير
التحرير والتنوير : ومن بديع ترتيب هذه الجمل أنها جاءت على ترتيب حصولها
فى الوجود ، فإن أول ما يسبق إلى نفس الكاره للأمر أن يساء به ويتطلب
المخلص منه ، فإذا علم أنه لا مخلص له منه ضاق به ذرعاً ، ثم يصدر تعبيراً
-. عن المعانى يريحبه نفسه

وجاءه قومه يهرعون اليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات قال يا قوم هؤلاء
بناتي هن اطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي اليس منكم رجل رشيد

- كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما كان من قوم لوط - عليه السلام
عندما علموا بوجود هؤلاء الضويف عنده فقال : ( وَجَآءَهُ قَوْمُهُ
-( . . . يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ السيئات
ويهرعون - بضم الياء وفتح الراء على صيغة المبنى للمفعول - أى : يدفع بعضهم
بعضاً بشدة ، كأن سائقاً يسوقهم إلى المكان الذى فيه لوط وضيوفه .يقال هُرع
الرجل وأهرع - بالبناء للمفعول فيهما - إذا أعجل وأسرع لدافع يدفعه إلى ذلك
- قال الآلوسى : والعامة على قراءة مبنياً للمفعول ، وقرأ جماعة يهرعون.
بفتح الياء مع البناء للفاعل - من هرع - بفتح الهاء والراء - وأصله من
الهرع وهو الدم الشديد السيلان ، كأن بعضه يدفع بعضاً .أى : وبعد أن علم
قوم لوط بوجود هؤلاء الضيوف عند نبيهم ، جاءوا إليه مسرعين يسوق بعضهم
بعضاً إلى بيته من شدة الفرح ، ومن قبل هذا المجئ ، كان هؤلاء القوم الفجرة
يرتكبون السيئات الكثيرة ، التى من أقبحها إتيانهم الرجال شهوة من دون ،
النساء .وقد طوى القرآن الكريم ذكر الغرض الذى جاءوا من أجله ، وأشار إليه
بقوله : ( وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ السيئات ) للإشعار بأن تلك
الفاحشة صارت عادة من العادات المتأصلة فى نفوسهم الشاذة ، فلا يسعون إلا
من أجل قضائها .ثم حكى القرآن بعد ذلك ما بادرهم به نبيهم بعد أن رأى
هياجهم وتدافعهم نحو داره فقال : ( ياقوم هؤلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ
، لَكُمْ . . . ) يرشدهم إلى نسائهم ، فإن النبى للأمة بمنزلة الولد
فأرشدهم إلأى ما هو أنفع لهم ، كما قال لهم فى آية أخرى : ( أَتَأْتُونَ
الذكران مِنَ العالمين . وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِّنْ
، أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ) قال مجاهد : لم يكن بناته
ولكن كن من أمته ، وكل نبى أبو أمته . . .وقال سعيد بن جبير : يعنى نساؤهم
هن بناته وهو أب لهم . . .ومنهم من يرى أن المراد ببيناته هنا : بناته من ،
صلبه ، وأنه عرض عليهم الزواج بهن . . .ويضعف هذا الرأى أن لوطا - عليه
السلام - كان له بنتان أو ثلاثة - كما جاء فى بعض الروايات - وعدد
المتدافعين من قومه إلى بيته كان كثيراً ، فكيف تكفيهم بنتان أو ثلاثة
للزواج . . . ؟ويبدو لنا أن الرأى الأول أقرب إلى الصواب ، وقد رجحه
الإمام الرازى بأن قال ما ملخصه : " وهذا لاقول عندى هو المختار ، ويدل

عليه وجوه .منها : أنه قال ( هؤلاء بَنَاتِي هُنّ أَطْهَرُ لَكُمْ )
وبناته اللاتى من صلبه لا تكفى للجمع العظيم ، أما نساء أمته ففيهن كفاية
، للكل . .ومنها : أنه صحت الرواية أنه كان له بنتان وهما : " زنتا وزعورا
. . . وإطلاق لفظ البنات على البنتين لا يجوز ، لما ثبت أن أقل الجمع ثلاثة
والمعنى : أن لوطا - عليه السلام - عندما رأى تدافعهم نحو بيته لارتكاب. "
) الفاحشة التى ما سبقهم بها من أحد من العالمين ، قال لهم : برجاء ورفق
ياقوم ) هؤلاء نساؤكم اللائى بمنزلة بناتى ارجعوا إليهن فاقضوا شهوتكم معهن
فهن أطهر لكم نفسياً وحسياً من التلوث برجس اللواط ، وأفعل التفضيل هنا وهو
ليس على بابه ، بل هو للمبالغة فى الطهر .قال القرطبى : وليس ألف ( أطهر )
أطهر للتفضيل ، حتى يتوهم أن فى نكاح الرجال طهارة ، بل هو كقولك الله
- أكبر - أى كبير - . . . ولم يكابر الله - تعالى - أحد حتى يكون الله
) : تعالى - أكبر منه . . ثم أضاف إلى هذا الإرشاد لهم إرشاداً آخر فقال
فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي . . . )قال الجمل : ولفظ
الضيف فى الأصل مصدر ، ثم أطلق على الطلاق ليلاً إلى المضيف ، ولذا يقع على
المفرد والمذكر وضديهما بلفظ واحد ، وقد يثنى فيقال : ضيفان ، ويجمع فيقال
: أضايف وضيوف . . . "وتخزون : من الخزى وهو الإهانة والمذلة . يقال " :
خزى الرجل يخزى خزياً . . . . إذا وقع فى بلية فذل بذلك .أى : بعد أن
. أرشدهم إلى نسائهم ، أمرهم بتقوى الله ومراقبته ، فقال لهم : فاتقوا الله
ولا تجعلونى مخزياً مفضوحاً أمام ضويفى بسبب اعتدائكم عليهم ، فإن الاعتداء
على الضيوف كأنه اعتداء على المضيف .ويبدو أن لوطاً - عليه السلام - قد قال
هذه الجملة ليلمس بها نخوتهم إن كان قد بقى فيهم بقية من نخوة ، ولكنه لما
رأى إصرارهم على فجورهم وبخهم بقوله :( أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ
، يهدى إلى الرشد والفضيلة . وينهى عن الباطل والرذيلة . فيقف إلى جانبى (
ويصرفكم عن ضيوفى؟ولكن هذا النصح الحكيم من لوط لهم لم يحرك قلوبهم الميتة
الآسنة . ولا فطرتهم الشاذة المنكوسة . بل ردوا عليه بقولهم :( قَالُواْ
لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ
. ( مَا نُرِيدُ

قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وانك لتعلم ما نريد

كما فسرها الوسيط ( قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ
حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ )أى : قال قوم لوط له بسفاهة
. ووقاحة : لقد علمت يا لوط علما لا شك معه ، أننا لا رغبة لنا فى النساء
لا عن طريق الزواج ولا عن أى طريق آخر ، فالمراد بالحق هنا : الرغبة
: والشهوة .قال الشوكانى : قوله ( مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ ) أى
ما لنا فيهن من شهوة ولا حاجة ، لأن من احتاج إلى شئ فكأنه حصل له فيه نوع
حق ، ومعنى ما نسبوه إليه من العلم أنه قد علم منهم المكالبة على إتيان
الذكور وشدة الشهوة إليهم ، فهم من هذه الحيثية كأنهم لا حاجة لهم إلى
) النساء .ويمكن أن يريدوا : أنه لا حق لنا فى نكاحهن . . .وقولهك
وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ) إشارة خبيثة منهم إلى العمل الخبيث
الذى ألفوه ، وهو إتيان الذكور دون النساء أى : وإنك لتعلم علماً يقينيا
، الشئ الذي نريده فلماذا ترجعنا؟!وقولهم هذا الذى حكته الآية الكريمة عنهم
يدل دلالة واضحة على أنهم قد بلغوا النهاية فى الخبث والوقاحة وتبلد الشعور
. . .

قال لو ان لي بكم قوة او اوي الى ركن شديد

كما فسرها الوسيط لد رد عليهم لوط - عليه السلام - رد اليائس من ارعوائهم
عن غيهم ، المتمنى لوجود قوة إلى جانبه تردعهم وتكف فجورهم . . . ( قَالَ
لَوْ أَنّ لِي بِكُمْ قُوّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ )والقوة : ما
يتقوى به الإنسان على غيره .وأوى : أى ألجأ وأنضوى تقول : أويت إلى فلان
فأنا آوى إليه أوِيّا أى : انضممت إليه .والركن فى الأصل : القطعة من
البيت أو الجبل ، والمراد به هنا الشخص القوى الذى يلجأ إلأيه غيره لينتصره
به . . .ولو شرطية وجوابها محذوف ، والتقدير : قال لوط - عليه السلام - بعد
أن رأى من قومه الاستمرار فى غيهم ، ولم يقدر على دفعهم - على سبيل التفجع
والتحسر : لو أن معى قوة أدفعكم بها لبطشت بكم .ويجوز أن تكون لو للتمنى
فلا تحتاج إلى جواب أى : ليت معى قوة أستطيع بمناصرتها لى دفع شركم .وقوله
معطوف على ما قبله ، أو ليتنى أستطيع أن ( أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ )
. . أجد شخصاً قوياً من ذوى المنعة والسلطان أحتمى به منكم ومن تهديكم لى
قالوا : وإنما قال لوط - عليه السلام - ذلك؛ لأنه كان غريبا عنهم ، ولم.
. يكن له نسب أو عشيرة فيهم

قالوا يا لوط انا رسل ربك لن يصلوا اليك فاسر باهلك بقطع من الليل ولا
يلتفت منكم احد الا امراتك انه مصيبها ما اصابهم ان موعدهم الصبح اليس

الصبح بقريب

كما فسرها الوسيط وهنا - وبعد أن بلغ الضيق بلوط ما بلغ - كشف له الملائكة
عن حقيقتهم ، وبشروه بما يدخل الطمأنينة على قلبه ( قَالُواْ يالوط إِنَّا
رُسُلُ رَبِّكَ لَن يصلوا إِلَيْكَ ) أى : إنا رسل ربك أرسلنا إليك لنخبرك
بهلاكهم ، فاطمئن فإنهم لن يصلوا إليك بسوء فى نفسك أو فينا .روى أن
الملائكة لما رأو ما لقيه لوط - عليه السلام - من الهم والكرب بسببهم قالوا
، له : يا لوط إن ركنك لشديد . . . ثم ضربهم جبريل بجناحه فطمس أعينهم
فارتدوا على أدبارهم يقولون النجاء ، وإليه الإشارة بقوله - تعالى - فى
سورة القمر : ( وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ
فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ) وقوله : ( فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ
مِّنَ الليل ) أى : فاخرج من هذه القرية مصحوبا بالمؤمنين من أهلك فى جزء
من الليل يكفى لابتعادك عن هؤلاء المجرمين .قال القرطبى : قرئ " فاسر وفأسر
بوصل الهمزة وقطعها لغتان فصيحتان . قال - تعالى - ( والليل إِذَا يَسْرِ )
وقال( سُبْحَانَ الذي أسرى بِعَبْدِهِ . . . ) وقيل " فأسر " بالقطع تقال
لمن سار من أول الليل . . . وسرى لمن سار فى آخره ، ولا يقال فى النهار إلا
سار . . .وقوله : ( وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امرأتك إِنَّهُ
) : مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ . . . ْ معطوف على ما قبله وهو قوله
فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ . . . ) .أى : فأسر بأهلك فى جزء من الليل ، ولا يلتفت
منكم أحد إلى ما وراءه ، اتقاء لرؤية العذاب ، ( إِلاَّ امرأتك ) يا لوط
فاتركها ولا تأخذها معك لأنها كافرة خائنة ، ولأنها سيصيبها العذاب الذى
سينزل بهؤلاء المجرمين . فيهلكها معهم .قال الإمام الرازى ما ملخصه : قوله
بالرفع ، وقرأ الباقون بالنصب .قال الواحدى : من نصب فقد ( إِلاَّ امرأتك )
جعلها مستثناة من الأهل ، على معنى : فأسر بأهلك إلا امرأتك أى فلا تأخذها
معك . . .وأما الذين رفعوا فالتقدير؛ ولا يلتفت منكم أحد لكن امرأتك تلتفت
فيصيبها ما أصابهم .روى عن قتادة أنه قال : إنها كنت مع لوط حين خرج من
" القرية ، " فلما سمعت العذاب التفتت وقالت واقوماه فأصابها حجر فأهلكها
وقوله - سبحانه - ( إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصبح أَلَيْسَ الصبح بِقَرِيبٍ ).
بشارة أخرى للوط - عليه السلام - الذى تمنى النصرة على قومه .أى : إن موعد
هلاك هؤلاء المجرمين يبتدئ من طولع الفجر وينتهى مع طلوع الشمس ، أليس
) : الصبح بقريب من هذا الوقت الذى نحدثك فيه؟قال - تعالى - فى سورة الحجر
فَأَخَذَتْهُمُ الصيحة مُشْرِقِينَ ) أى : وهم داخلون فى وقت الشروق . فكان
) ابتداء العذاب عند طلوع الصبح وانتهاؤه وقت الشروق .والجملة الكريمة
، إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصبح . . . ) كالتعليل للأمر بالإسراء بأهله بسرعة
أو جواب عما جاش بصدره من استعجالة العذاب لهؤلاء المجرمين .والاستفهام فى
قوله - سبحانه - ( أَلَيْسَ الصبح بِقَرِيبٍ ) للتقرير أى : بلى إنه لقريب
قال الآلوسى : روى أنه - عليه السلام - سأل الملائكة عن موعد هلاك قومه.
فقالوا له؛ موعدهم الصبح . فقال : أريد أسرع من ذلك . فقالوا له؛ أليس
الصبح بقريب . ولعله إنما جعل ميقات هلاكهم الصبح لأنه وقت الدعة والراحة
. فيكون حلول العذاب حينئذ أفظع ، ولأنه أنسب يكون ذلك عبرة للناظرين

فلما جاء امرنا جعلنا عاليها سافلها وامطرنا عليها حجارة من سجيل منضود

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - فى نهاية القصة ما حل بهؤلاء المجريمن
من عذاب فقال : ( فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا
. سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ
" : مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظالمين بِبَعِيدٍ ) .أى
فلما أمرنا " بإهلاك هؤلاء القوم المفسدين ( جَعَلْنَا عَالِيَهَا
سَافِلَهَا ) أى : جعلنا أعلى بيوتهم أسفلها ، بأن قلبناها عليهم ، وهى
عقوبة مناسبة لجريمتهم حيث قلبوا فطرتهم ، فأتوا الذكران من العالمين؛
وتركوا ما خلق لهم ربهم من أزواجهم . . .وقوله : ( وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا
حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ ) زيادة فى عقوبتهم ولعنهم .أى : جعلنا
أعلى قراهم أسفلها ، وأمطرنا عليها حجارة ( مِّن سِجِّيلٍ ) أى : من حجر
وطين مختلط ، قد تحجر وتصلب ( مَّنْضُودٍ ) أى : متتابع فى النزول بدون
. انقطاع موضوع بعد على بعض ، من النضد وهو وضع الأشياء بعضها إلى بعض

مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد

كما فسرها الوسيط ( مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ) أى : معلمة بعلامات من
). عند ربك لا يعلمها إلا هو ، ومعدة إعداداً خاصاً لإهلاك هؤلاء القوم
وَمَا هِيَ ) أى تلك القرى المهلكة ( مِنَ الظالمين بِبَعِيدٍ ) وهم مشركو
مكة ( بِبَعِيدٍ ) أى : ببعيدة عنهم ، بل هى قريبة منهم ، ويمرون عليها فى
أسفارهم إلى الشام .قال - تعالى - ( وَإِنَّكُمْ لَّتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ
مُّصْبِحِينَ . وبالليل أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ) أى : وإنكم يا أهل مكة

، لتمرون على هؤلاء القوم المهلكين من قوم لوط فى وقت الصباح أى النهار وتمرون عليهم بالليل أفلا تعقلون ذلك فتعتبروا وتتعظوا؟؟ويجوز أن يكون الضمير فى قوله ( وَمَا هِيَ ) يعود إلى الحجارة التى أهلك الله بها هؤلاء القوم .أى : وما هى تلك الحجارة الموصوفة بما ذكر من الظالمين ببعيد ، بل هى حاضرة مهيئة بقدرة الله - تعالى - لإهلاك الظالمين بها .والمراد بالظالمين ما يشمل قوم لوط ، ويشمل كل من عصى الله وتجاوز حدوده ، ولم يتبع ما جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم - .وهكذا كانت نهاية قوم لوط ، فقد انطوت صفحتهم كما انطوت من قبلهم صفحات قوم نوح وهود وصالح - عليهم الصلاة والسلام - .هذا ومن العبر والأحكام التى نأخذها من هذه الآيات الكريمة ، أنه لا بأس على المسلم من أن يستعين بغيره لنصرة الحق الذى يدعو إليه ولخذلان الباطل الذى ينهى عنه .فلوط - عليه السلام - عندما رأى من قومه الإصرار على غوايتهم ومفاسدهم تمنى لو كانت معه قوة تزجرهم وتردعهم وتمنعهم عن فسادهم .وقد علق الإمام ابن حزم على ما جاء فى الحديث الشريف بشأن لوط - عليه السلام - فقال ما ملخصه :وظن بعض الفرق أن ما جاء فى الحديث الصحيح من قوله - صلى الله عليه وسلم - " رحم الله لوطا لقد كان يأوى إلى ركن شديد " إنما هو من باب الإنكار على لوط - عليه السلام - فى قوله ( لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ) والحق أنه لا تخالف بين القولين ، بل كلاهما حق ، لأن لوطا - عليه السلام - إنما أراد منعة عاجلة يمنع بها قومه مما هم عليه من الفواحش . من قرابة أو عشيرة أو أتباع المؤمنين ، وما جهل قط لوط - عليه السلام - أنه يأوى من ربه - تعالى - إلى أمنع قوة ، وأشد ركن .ولا جناح على لوط - عليه السلام - فى طلب قوة من الناس - فقد قال الله - تعالى - ( وَلَوْلاَ دَفْعُ الله الناس بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأرض ) وقد طلب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الأنصار نصرته حتى يبلغ كلام ربه ، فكيف ينكر على لوط أمراً هو فعله؟!!تالله ما أنكر ذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، وإنما أخبر أن لوطا كان يأوى إلى ركن شديد ، يعنى من نصر الله له بالملائكة . .. ولم يكن لوط علم بأنه ملائكة ،

والى مدين اخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان اني اراكم بخير واني اخاف عليكم عذاب يوم محيط

كما فسرها الوسيط ثم انتقلت السورة الكريمة بعد ذلك فقصت علينا ما كان بين شعيب - عليه السلام - وقومه وكيف أنه دعاهم إلى عبادة الله - تعالى - وحده بأسلوب بليغ حكيم ، ولكنهم لم يستجيبوا له ، فكانت عاقبتهم الهلاك كالذين من قبلهم قال - تعالى - :( وإلى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً . . . )تلك هى قصة شعيب - عليه السلام - كما حكتها هذه السورة الكريمة ، وقد وردت هذه القصة فى سور أخرى منها : سورتى الأعراف والشعراء . .ومدين اسم للقبيلة التى تنتسب إلى مدين بن إبراهيم - عليه السلام - .وكانوا يسكنون فى المنطقة التى تسمى ( معان ) وتقع بين حدود الحجاز والشام .وأهل مدين يسمون أيضاً بأصحاب الأيكة .والأيكة : منطقة مليئة بالشجر كانت مجاورة لقرية ( معان ) ، وكان يسكنها بعض الناس فأرسل الله شعيباً إليهم جميعاً .وشعيب هو ابن ميكيل بن يشجر بن مدين بن إبراهيم ، فهو أخوهم فى النسب .وكان النبى - صلى الله عليه وسلم - إذا ذكر شعيب قال : " ذلك خطيب الأنبياء " لحسن مراجعته لقومه . . . وقوة حجته .وكان قومه يعبدون الأصنام . ويطففون فى الكيل والميزان ، فدعاهم إلى عبادة الله وحده ، ونهاهم عن الخيانة وسوء الأخلاق .ويرى بعض العلماء : أن شعيباً أرسل إلى أمتين : أهل مدين الذين أهلكوا بالصيحة؛ وأصحاب الأيكة الذين أخذهم الله بعذاب يوم الظلة ، وأن الله - تعالى - لم يبعث نبياً مرتين سوى شعيب - عليه السلام - .ولكن المحققين من العلماء اختاروا أنهما أمة واحدة ، فأهل مدين هم أصحاب الأيكة ، أخذتهم الرجفة والصيحة وعذاب يوم الظلة - أى السحابة - وأن كل عذاب كان كالمقدمة للآخر هذا ، وقوله - سبحانه - ( وإلى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً . . . ).
: معطوف على ما سبقه من قصة صالح - عليه السلام - عطف القصة على القصة .أى وكما أرسلنا صالحاً - عليه السلام - إلى ثمود ، فقد أرسلنا إلى أهل مدين أخاهم شعيباً - عليه السلام - فقال لهم مقالة كل نبى لقومه : يا قوم اعبدوا الله وحده ، فإنكم لا إله لكم على الحقيقة سواه ، فهو الذى خلقكم ، وهو الذى رزقكم ، وهو الذى إليه مرجعكم . . .ثم بعد أن أمرهم بإخلاص العبادة لله ، نهاهم عن التطفيف فى الكيل والميزان فقال : ( وَلاَ تَنقُصُواْ المكيال والميزان )والمكيال والميزان : اسمان للآلة التى يكال بها ويوزن ونقص الكيل والميزان يكون من وجهين : أحدهما أن يكون الاستنقاص من جهتهم. إذا باعوا لغيرهم .وثانيهما : أن يكون الاستنقاص من جهة غيرهم إذا اشتروا منه ، بأن يأخذوا منه أكثر من حقهم .فكأنه - عليه السلام - يقول لهم :لا تنقصوا المكيال والميزان لا عند الأخذ ولا عند الإعطاء ، فلا تعطوا غيركم أقل من حقه إذا بعتم ، ولا تأخذوا منه أكثر من حقكم إذا اشتريتم .وإلى هذين الأمرين أشار قوله - تعالى - ( وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ . الذين إِذَا

اكتالوا عَلَى الناس يَسْتَوْفُونَ . وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَّزَنُوهُمْ
: يُخْسِرُونَ . . . ) ثم بين لهم الأسباب التى دعته إلى أمرهم ونهيهم فقال
إني أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وإني أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ )
والخير : كلمة جامعة لكل ما يرضى الإنسان ويغنيه ويسره .ومحيط : أى. (
: شامل بحيث لا يستطيع أحد الإفلات منه . كما يحيط الظرف بالمظروف . . .أى
أخلصوا لله عبادتكم ، والتزموا العدل فى معاملاتكم ، فإنى أراكم تملكون
الوفير من المال ، وتعيشون فى رغد من العيش ، وفى بسطة من الرزق ، ومن كان
- كذلك فمن الواجب عليه أن يقابل هذه النعم بالشكر لواهبها وهو الله
- تعالى - وأن يستعملها استعمالاً يرضيه ، وأن يعطى كل ذى حق حقه .وإنى
أيضاً - أخاف عليكم إذا ما تماديتم فى مخالفة ما آمركم به وما أنهاكم عنه
. عذاب يوم أهواله وآلامه شاملة لكل ظالم ، بحيث لا يستطيع أن يهرب منها ،
قال الشوكانى : وصف - سبحانه - اليوم بالإحاطة ، والمراد العذاب لأن. .
العذاب واقع فى اليوم ، ومعنى إحاطة عذاب اليوم بهم ، أنهم لا يشذ منهم أحد
- عنه ، ولا يجدون منه ملجأ ولا مهربا .فأنت ترى أن شعيباً - عليه السلام
. . بعد أن أمرهم بما يصلح عقيدتهم ونهاهم عما يفسد معاملاتهم وأخلاقهم
ذكرهم بما هم فيه من نعمة وغنى قطعاً لعذرهم حتى لا يقولوا له نحن فى حاجة
إلى تطفيف المكيال والميزان لفقرنا ، ثم أخبرهم بأنه ما حمله على هذا النصح
. لهم إلا خوفه عليهم

ويا قوم اوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس اشياءهم ولا تعثوا
في الارض مفسدين

كما فسرها الوسيط ثم واصل شعيب - عليه السلام - نصحه لقومه ، فأمرهم
بالوفاء بعد أن نهاهم عن النقص على سبيل التأكيد ، وزيادة الترغيب فى دعوته
فقال : ( وياقوم أَوْفُواْ المكيال والميزان بالقسط ) . .أى : ويا قوم
أوفوا عند معاملاتكم أدوات كليكم وأدوات وزنكم ، ملتزمين فى كل أحوالكم
العدل والقسط .( وَلاَ تَبْخَسُوا الناس أَشْيَآءَهُمْ . . . ) أى : ولا
. تنقصوهم شيئاً من حقوقهم . يقال بخس فلان فلاناً حقه إذا ظلمه وانتقصه
وهو يشمل النقص والعيب فى كل شئ . .والجملة الكريمة تعميم بعد تخصيص ، لكى
تشمل غير المكيل والموزون كالمزروع والمعدود ، والجيد والردئ . . .قال
الجمل ما ملخصه : وقد كرر - سبحانه - نهيهم عن النقص والبخس وأمرهم بالوفاء
لأن القوم لما كانوا مصرين على ذلك العمل القبيح ، وهو تطفيف الكيل . .
والميزان ومنع الناس حقوقهم ، احتيج فى المنع منه إلى المبالغة فى التأكيد
، ولا شك أن التكرير يفيد شدة الاهتمام والعناية بالمأمور والمنهى عنه ،
فلهذا كرر ذلك ليقوى الزجر والمنع من ذلك الفعل . .وقوله : ( وَلاَ
تَعْثَوْاْ فِي الأرض مُفْسِدِينَ ) تحذير لهم من البطر والغرور واستعمال
. نعم الله فى غير ما خلقت له

بقيت الله خير لكم ان كنتم مؤمنين وما انا عليكم بحفيظ

كما فسرها الوسيط قال ابن جرير : " وأصل العثى شدة الإفساد ، بل هو أشد
الإفساد . يقال عثى فلان فى الأرض يعنى - كرضى يرضى - إذا تجاوز فى
الإفساد . . .أى : ولا تسعوا فى أرض الله بالفساد ، وتقابلوا نعمه
بالمعاصى ، فتسلب عنكم ثم أرشدهم إلى أن ما عند الله خير وأبقى مما يجمعونه
عن الطريق الحرام فقال : ( بَقِيَّةُ الله خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم
مُّؤْمِنِينَ وَمَآ أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ) .ولفظ ( بقية ) اسم مصدر
من الفعل : بقى ، ضد : فنى . وإضافتها إلى الله - تعالى - إضافة تشريف
، وتيمن .أى : ما يبقيه الله لكم من رزق حلال ، ومن حال صالح ، ومن ذكر حسن
ومن أمن وبركة فى حياتكم . . . بسبب التزامكم بالقسط فى معاملاتكم ، هو خير
لكم من المال الكثير الذى تجمعونه عن طريق بخس الناس أشياءهم .وجملة " إن
: كنتم مؤمنين " معترضة لبيان أن هذه الخيرية لا تتم إلا مع الإيمان .أى
ما يبقيه الله لكم من الحلال . . . هو خير لكم ، إن كنتم مصدقين بما أرسلت
به إليكم ، أما إذا لم تكونوا كذلك فلن تكون بقية الله خيرا لكم ، لأنها لا
" تكون إلا للمؤمنين ، فاستجيبوا لنصيحتى لتسعدوا فى دنياكم وآخرتكم .وجملة
وما أنا عليكم بحفيظ " تحذير لهم من مخالفته بعد أن أدى ما عليه من بلاغ
أى : وما أنا عليكم بحفيظ أحفظ لكم أعمالكم وأحاسبكم عليها ، وأجازيكم بها.
الجزاء الذى تستحقونه ، وإنما أنا ناصح ومبلغ ما أمرنى ربى بتبليغه ، وهو
وحده - سبحانه - الذى سيتولى مجازاتكم .وإلى هنا نجد شعيباً - عليه
السلام - قد أرشد قومه إلى ما يصلحهم فى عقائدهم ، وفى معاملاتهم ، وفى
صلاتهم بعضهم ببعض ، وفى سلوكهم الشخصى ، بأسلوب حكيم جامع لكل ما يسعد
. ويهدى للتى هى أقوم

قالوا يا شعيب اصلاتك تامرك ان نترك ما يعبد اباؤنا او ان نفعل في اموالنا
ما نشاء انك لانت الحليم الرشيد

كما فسرها الوسيط فماذا كان رد قومه عليه؟لقد كان ردهم عليه - كما حكاه القرآن الكريم - طافحا بالاستهزاء به ، والسخرية منه ، فقد قالوا له : ( ياشعيب أصلاوتك تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءابَاؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنتَ الحليم الرشيد ) .أى قال قوم شعيب له - على سبيل التهكم والاستهزاء - : يا شعيب أصلاتك - التى تزعم أن ربك كلفك بها والتى أنت تكثر منها - تأمرك أن نترك عبادة الأصنام التى وجدنا عليها آباءنا؟ والاستفهام للإنكار والتعجب من شأنه . .وأسندوا الأمر إلى الصلاة من بين سائر العبادات التى كان يفعلها ، لأنه - عليه السلام - كان كثير الصلاة ، وكانوا إذا رأوا يصلى سخروا منه .وجملة " أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء " إنكار منهم لترك ما تعودوه من نقص الكيل والميزان . . .إن كانت صلاتك تأمرك بذلك ، فهى فى نظرنا صلاة باطلة ، لا وزن لها عندنا ، بل نحن نراها لوناً من ألوان جنونك وهذيانك .وجملة " إنك لأنت الحليم الرشيد " زيادة منهم فى السخرية منه - عليه السلام - وفى التهكم عليه ، فكأنهم - قبحهم الله - يقولون له : كيف تأمرنا بترك عبادة الأصنام ، وبترك النقص فى الكيل والميزان ، مع علمك اليقينى بأن هذين الأمرين قد بنينا عليهما حياتنا ، ومع زعمك لنا بأنك الحليم الذى يتأنى ويتروى فى أحكامه ، الرشيد الذى يرشد غيره إلى ما ينفعه؟إن هذين الوصفين لا يليقان بك ، ما دمت تأمرنا بذلك ، وإنما اللائق بك أضدادهما ، أى الجهالة والسفه والعجلة فى الأحكام .قال صاحب الكشاف : وأردوا بقولهم : ( إِنَّكَ لأَنتَ الحليم الرشيد ) نسبته إلى غايت السفه والغى ، فعكسوا ليتهكموا به . كما يتهكم بالشحيح الذى لا يبض حجره ، فيقال له : لو أبصرك حاتم لسجد لك . وقيل معناه : إنك للمتواصف بالحلم والرشد فى قومك . يعنون أن ما تأمر به لا يطابق حالك وما اشتهرت به . . .هكذا رد قوم شعيب عليه ، وهو رد يحمل السخرية فى كل مقطع من مقاطعة ، ولكنها سخرية الشخص الذى انطمست بصيرته ، وقبحت سريرته!!

قال يا قوم ارايتم ان كنت على بينة من ربي ورزقني منه رزقا حسنا وما اريد ان اخالفكم الى ما انهاكم عنه ان اريد الا الاصلاح ما استطعت وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه انيب

كما فسرها الوسيط ومع كل هذه السفاهة : ترى شعيبا - عليه السلام - وهو خطيب الأنبياء - يتغاضى عن سفاهاتهم ، لأنه يحس بقصورهم وجهلهم ، كما يحس بقوة الحق الذى أتاهم به من عند ربه ، فيرد عليهم بقوله : ( قَالَ ياقوم أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ على بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي . . ) والبينة : ما يتبين به الحق من الباطل ، ويتميز به الهدى من الضلال .أى : قال شعيب لقومه بأسلوب مهذب حكيم : يا قوم أخبرونى إن كنت على حجة واضحة ، وبصيرة مستنيرة ) ، - منحنى إياها ربى ومالك أمرى .( وَرَزَقَنِي مِنْهُ ) - سبحانه رِزْقاً حَسَناً ) يتمثل فى النبوة التى كرمنى بها ، وفى المال الحلال الذى : بين يدى ، وفى الحياة الطيبة التى أحياها .وجواب الشرط محذوف والتقدير أخبرونى إن كنت كذلك ، هل يليق بى بعد ذلك أن أخالف أمره مسايرة لأهوائكم؟ كلا إنه لا يليق بى ذلك ، وإنما اللائق بى أن أبلغ جميع ما أمرنى بتبليغه دون خوف أو تقصر.ثم يكشف لهم عن أخلاقه وسلوكه معهم فيقول : ( وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إلى مَآ أَنْهَاكُمْ عَنْهُ . . . )أى : ما أريد بأمرى لكم بعبادة الله وحده ، وبنهيي إياكم عن التطفيف والبخس ، مجرد مخالفتكم ومنازعتكم ومعاكستكم ، أو أن آمركم بشئ ثم لا أفعله ، أو أنهاكم عنه ثم أفعله ، من أجل تحقيق منفعة دنيوية . .كلا ، كلا إنى لا أريد شيئا من ذلك وإنما أنا إنسان يطابق قولى فعلى ، وأختار لكم ما أختاره لنفسى .قال صاحب الكشاف ما ملخصه : قوله ( وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إلى مَآ أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ) يقال : خالفنى فلان إلى كذا : إذا ق صده وأنت مول عنه وخالفنى عنه : إذا ولى عنه وأنت تقصده .ويلقاك الرجل صادرا عن المال . فتسأله عن صاحبه فيقول : خالفنى إلى الماء ، يريد أنه ذهب إليه وارداً ، وهو ذهب عنه صادراً ، ومنه قوله - سبحانه - ( وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إلى مَآ أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ) يعنى : ما أريد أن أسبقكم إلى شهواتكم التى نهيتكم عنها لأستبد بها دونكم .وقال الإمام ابن كثير ، وعن مسروق أن امرأة جاءت إلى ابن مسعود - رضى الله عنه - فقالت له : أأنت الذى نتهى عن الواصلة - أى التى تصل شعرها بشعر آخر -؟ قال : نعم . فقالت : فلعله فى بعض نسائك ، فقال : ما حفظت إذاً وصية العبد الصالح ( وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إلى مَآ أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ) .ثم بين لهم أنه ما ريد لهم إلا الإصلاح فيقول : ( إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإصلاح مَا استطعت . . . )أى ، ما أريد بما أنصحكم به إلا إصلاحكم وسعادتكم ، وما دمت أستطيع ذلك : - وأقدر عليه ، فلن أقصر فى إسداء الهداية لكم .ثم يفوض الأمور إلى الله تعالى - فيقول : ( وَمَا توفيقي إِلاَّ بالله عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ) .أى : وما توفيقى فيما أدعوكم إليه من خير أو أنهاكم

عنه من شر إلا بتأييد الله وعونه ، فهو وحده الذى عليه أتوكل وأعتمد فى كل شئونى ، وهو وحده الذى إليه أرجع فى كل أمورى .

ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي ان يصيبكم مثل ما اصاب قوم نوح او قوم هود او قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد

كما فسرها الوسيط ثم يواصل شعيب - عليه السلام - نصحه لقومه ، فينتقل بهم إلى تذكيرهم بمصارع السابقين ، محذرا إياهم من أن يكون مصيرهم كمصير الظالمين من قبلهم فيقول : ( وياقوم لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شقاقي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ . . . )ومعنى ( لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ ) لا يحملنكم ، مأخوذ من جرمه على كذا ، إذا حمله عليه .أو بمعنى لا يكسبنكم من جرم بمعنى كسب ، غير أنه لا يكون إلا فى كسب مَا لاَ خير فيه ، ومنه الجريمة ، وهى اقتراف الجرم والذنب .وأصل الجرم : قطع الثمرة من الشجرة ، وأطلق على الكسب ، لأن الكاسب لشئ ينقطع له .وقوله ( شقاقي ) من الشقاق بمعنى الخلاف والعداوة ، كأن لك واحد من المتعاديين فى شق غير الشق الذى يكون فيه الآخر ، والشق : الجانب .والمعنى : ويا قوم لا تحملنكم عداوتكم لى ، على افتراء الكذب على وعلى التمادى فى عصيانى ومحاربتى . فإن ذلك سيؤدى بكم إلى أن يصيبكم العذاب الذى أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح .وقوله : ( وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ) : تذكير لهم بأقرب المهلكين إليهم .أى : إذا كنتم تتعظوا بما أصاب قوم نوح من غرق ، وبما أصاب قوم هود من ريح دمرتهم ، وبما أصاب قوم صالح من صحية أهلكتم ، فاتعظوا بما أصاب قوم لوط من عذاب جعل أعلى مساكنهم أسفلها ، وهم ليسوا بعيدين عنكم لا فى الزمان ولا فى المكان .

واستغفروا ربكم ثم توبوا اليه ان ربي رحيم ودود

كما فسرها الوسيط والمراد بالبعد - في قوله : ( واستغفروا رَبَّكُمْ ثُمَّ توبوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ) .أى : واستغفروا ربكم من كل ما فرط منكم من ذنبو ثم توبوا إليه توبة صادقة نصوحا :( إِنَّ رَبِّي ) : ومالك أمرى ( رَحِيمٌ ) أى : واسع الرحمة لمن تاب إليه ، ( وَدُودٌ ) أى كثير الود والمحبة لمن أطاعه .وهكذا نجد شعيبا - عليه السلام - وهو خطيب الأنبياء - يلون لقومه النصح ، وينوع لهم المواعظ ، ويطوف بهم فى مجالات الترغيب والترهيب . .

قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول وانا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما انت علينا بعزيز

كما فسرها الوسيط ولكن القوم كانوا قد بلغوا من الفساد نهايته ، ومن الجهل أقصاه . . . فقد ردوا على هذه النصائح الغالية بقولهم : ( قَالُواْ ياشعيب مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ . . . )أى : قال قوم شعيب له على سبيل التحدى والتكذيب : يا شعيب إننا لا نفهم الكثير من قولك ، لأنه قول لم نألفه ولم تتقبله نفوسنا ، ولقد أطلت فى دعوتنا إلى عبادة الله وترك النقص ، فى الكيل والميزان حتى مللنا دعوتك وسئمناها ، وصارت ثقيلة على مسامعنا ، وخافية على عقولنا . .فمرادهم بهذه الجملة الاستهانة ، به والصدود عنه كما يقول الرجل لمن لا يعبأ بحديثه :لا أدرى ما تقوله ، ولا أفهم ما تتفوه به من ألفاظ .قال أبو السعود ما ملخصه : والفقه : معرفة غرض المتكلم من كلامه ، أى : ما نفهم مرادك وإنما قالوا ذلك بعد أن سمعوا منه دلائل الحق البين على أسحن وجه وأبلغه ، وضاقت عليهم الحيل ، فلم يجدوا إلى محاورته سبيلا . . . كما هو ديدن المفحم المحجوج ، يقابل النصائح البينات بالسب والإبراق والإرعاد . . . إذ جعلوا كلامه المشتمل على الحكم من قبيل ما لا يفهم معناه . . .ثم قالوا له - ثانيا - ( وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً ) أى :لا قوة لك إلى جانب قوتنا ، ولا قدرة عندك على مقاومتنا إن أردنا قتلك أو طردك من قريتنا .ثم قالوا له . . ثانيا - ( وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ) ورهط الرجل : قومه وعشيرته الأقربون . ومنه الراهط لحجر اليربوع ، لأنه يحتمى فيه . . .ولفظ ( الرهط ) اسم جمع يطلق غالبا على العصابة دون العشرة من الرجال ليس فيهم أمرأة .أى : ولولا عشيرتك التى هى على ملتنا وشريعتنا لرجمناك بالحجارة حتى تموت ، ولكن مجاملتنا لعشيرتك التى كفرت بك هى التى جعلتنا نبقى عليك .ثم قالوا له - رابعا - ( وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ) أى : وما أنت علينا بمكرم أو محبوب أو قوى حتى نمتنع عن رجمك ، بل أنت فينا الضعيف المكروه . .

قال يا قوم ارهطي اعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا ان ربي بما تعملون محيط

كما فسرها الوسيط وهنا نجد شعيبا - عليه السلام - ينتقل فى أسلوب مخاطبته
- لهم من اللين إلى الشدة ، ومن التلطف إلى الإنكار ، دفاعا عن جلال ربه
. سبحانه - فيقول لهم : ( قَالَ ياقوم أَرهطي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ الله
أى : ارهطى وعشيرتى الأقربون ، الذين من أجلهم لم ترجمونى ، أعز وأكرم( . .
). عندكم من الله - تعالى- الذى هو خالقكم ورازقكم ومميتكم ومحييكم
واتخذتموه وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيّاً ) أى : وجعلتم أوامره ونواهيه التى جئتكم
بها من لدنه - سبحانه - كالشئ المنبوذ المهمل الملقى من وراء الظهر بسبب
كفركم وطغيانكم ( إِنّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ) أى : إن ربى قد
أحاط علمه بأقوالكم وأعمالكم السيئة ، وسجازيكم عليها بما تستحقون من عذاب
. مهين

ويا قوم اعملوا على مكانتكم اني عامل سوف تعلمون من ياتيه عذاب يخزيه ومن
هو كاذب وارتقبوا اني معكم رقيب

كما فسرها الوسيط ثم زاد فى توبيخهم وتهديدهم فقال ( وياقوم اعملوا على
مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ
( يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وارتقبوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ
والمكانة مصدر مكن ككرم ، يقال مكن فلان من الشئ مكانه ، إذا تمكن منه أبلغ
تمكن ، والأمر فى قوله ( اعملوا ) للتهديد والوعيد .أى : اعملوا كل ما فى
إمكانكم عمله معى ، وابذلوا فى تهديدى ووعيدى ما شئتم ، فإن ذلك لن يضيرنى
وكيف يضيرنى وأنا المتوكل على الله المعتمد على عونه ورعايته . . . ؟وإنى ،
سأقابل عملكم السئ هذا بعمل آخر حسن من جانبى ، وهو الدوة إلى وحدانية
الله -تعالى - وإلى مكارم الأخلاق .وقوله ( سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن
يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ . . . ) استئناف مؤكد
لتهديده لهم .أى : اعملوا ما شئتم وأنا سأعمل ما شئت فإنكم بعد ذلك سوف
تعلمون من منا الذى سينزل به عذاب يخزيه ويفضحه ويهينه ، ومن منا الذى هو
كاذب فى قوله وعمله .( وارتقبوا ) عاقلة تكذيبكم للحق ( إِنِّي مَعَكُمْ
رَقِيبٌ ) أى : إنى معكم منتظر ورماقب لما سيفعله الله - تعالى - بكم
وبذلك نرى شعيبا - عليه السلام - فى هاتين الآيتين ، قد استعمل مع قومه.
، أسلوبا آخر فى المخاطبة ، يمتاز بشدة عليهم والتهديد لهم ، لا غضبا لنفسه
. وإنما لأجل حرمات الله - تعالى - ، والدفاع عن دينه

ولما جاء امرنا نجينا شعيبا والذين امنوا معه برحمة منا واخذت الذين ظلموا
الصيحة فاصبحوا في ديارهم جاثمين

كما فسرها الوسيط ولم يطل انتظار شعيب - عليه السلام - ومراقبته لما يحدث
لقومه ، بل جاء عقاب الله - تعالى - لهم بسرعة وحسم ، بعد أن لجوا فى
طغيانهم ، وقد حكى - سبحانه - ذلك فقال :( وَلَمّا جَآءَ أَمْرُنَا
: نَجَّيْنَا شُعَيْباً والذين آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مّنَّا . . )أى
وحين جاء أمرنا بعذابهم ، وحل أوان هذا العذاب ، نجينا نبينا شعيبا ونجينا
الذين آمنوا به وصدقوه ، حالة كونهم مصحوبين برحمة عظيمة كائنة منا لا من
غيرنا .( وَأَخَذَتِ الذين ظَلَمُواْ ) من قومه ( الصَّيْحَةُ ) التى
زلزلتهم وأهلكتهم ( فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ ) التى كانوا يسكنونها
. أى : هامدين ميتين لا تحس لهم حركة ، ولا تسمع لهم ركزا ( جَاثِمِينَ ).
من الجثوم وهو للناس والطير بمنزلة البروك للإبل ، يقال ، جثم الطائر.
. يجثم جثما وجثوما فهو جاثم إذا وقع على صدره ولزم مكانه فلم يبرحه

كان لم يغنوا فيها الا بعدا لمدين كما بعدت ثمود

كما فسرها الوسيط ( كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ ) أى : كأن هؤلاء الهلكى
من قوم شعيب ، لم يعيشوا فى ديارهم قبل ذلك عيشة ملؤها الرغد والرخاء
والأمان . . .يقال : غنى فلان بالمكان ، إذا أقام به وعاش فيه فى نعمة ورغد
أى : ألا هلاكا ( أَلاَ بُعْداً لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ). . .
مصحوبا بالخزى واللعنة والطرد من رحمة الله لقبيلة مدين ، كما هلكت من
. . قبلهم قبيلة ثمود .وهكذا طويت صفحة أخرى من صفات الظالمين وهم قوم شعيب
عليهم السلام - كما طويت من قبلهم صفحات قوم نوح وهود وصالح ولوط - عليه
السلام- .هذا ، ومن أهم العبر والعظات التى تتجلى واضحة فى قصة شعيب مع
قومه كما جاءت فى هذه السورة الكريمة :أن الداعى إلى الله لكى ينجح فى
دعوته ، عليه أن ينوع خطابه للمدعوين ، بحيث يشتمل توجيهه على الترغيب
والترهيب ، وعلى الأسباب وما تؤدى إليه من نتائج ، وعلى ما يقنع العقل
ويقنع العاطفة . . .ففى هذه القصة نجد شعيبا - عليه السلام - يبدأ دعوته
بأمر قومه بعبادة الله - تعالى - ، ثم ينهاهم عن أبرز الرذائل التى كانت
منتشرة وهى نقص المكيال والميزان ، ثم يبين لهم الأسباب التى حملته على ذلك
إني أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وإني أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ ) :

مُّحِيطٍ ) .ثم ينهاهم نهيا عاما عن الإفساد فى الأرض ( وَلاَ تَعْثَوْاْ
فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ) .ثم يرشدهم إلى أن الرزق الحلال مع الإيمان
والاستقامة ، خير لهم من التشبع بزينة الحياة الدنيا بدون تمييز بين ما هو
صالح وما هو طالح : وبقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين . .ثم يذكرهم بأنه
لا يأمرهم إلا بما يأمر به نفسه ، ولا ينهاهم إلا عما ينهاها عنه وأنه ليس
ممن يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ( وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ
إِلَى مَآ أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصلاح مَا استطعت . . .
ثم يذكرهم بمصارع السابقين ، ويحذرهم من أن يسلكوا مسلكهم ، لأنهم لو ( فعلوا ذلك لهلكوا كما هلك الذين من قبلهم : ( ويا قوم لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ
شقاقي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ
أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ . . . ) .ثم يفتح لهم باب الأمل فى عفو الله عنهم متى
استغفروه وتابوا إليه : ( واستغفروا رَبَّكُمْ ثُمَّ توبوا إِلَيْهِ إِنَّ
رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ )ثم تراه يثور عليهم عندما يراهم يتجاوزون حدودهم
بالنسبة لله - تعالى - وللحق الذى جاءهم به من عنده - سبحانه - : ( أرهطي
أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ الله واتخذتموه وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيّاً إِنَّ
رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ . ويا قوم اعملوا على مَكَانَتِكُمْ
إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ . . . ) .وهكذا نجد شعيبا - عليه
السلام - وهو خطيب الأنبياء كما وصفه الرسول - صلى الله عليه وسلم - يرشد
، قومه إلى ما يصلحهم ويسعدهم بأسلوب حكيم ، جامع لكل ألوان التأثير
والتوجيه السديد .وليت الدعاة إلى الله فى كل زمان ومكان يتعلمون من قصة
شعيب . . عليه السلام - مع قومه أسلوب الدعوة إلى الله - تعالى .

ولقد ارسلنا موسى باياتنا وسلطان مبين

كما فسرها الوسيط ثم ختمت السورة الكريمة حديثها عن قصص الأنبياء مع
- أقوامهم ، بالإشارة إلى قصة موسى -عليه السلام - مع فرعون وملته ، فقال
تعالى - :( وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا موسى بِآيَاتِنَا . . . )موسى - عليه
السلام - هو ابن عمران ، من نسل " لاوى " بن يعقوب .ويرى بعض المؤرخين أو
ولادة موسى كانت فى حوالى القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، وأن بعثته كانت
فى عهد منفتاح بن رمسيس الثانى .والمراد بالآيات : الآيات التسع المشار
إليه فى قوله - تعالى - " ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات . . . "وهى :
، العصا ، واليد والبيضاء ، والسنون ، والعجاف ، ونقص الثمرات ، والطوفان
، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم .والسلطان المبين : الحجة الواضحة
والبرهان الظاهر على صدقه ، وسمى ذلك سلطانا لأن صاحب الحجة والبرهان على
ما يدعى ، يقهر ويغلب من لا حجة ولا برهان معه ، كما يقهر السلطان غيره
والمعنى : ولقد أرسلنا نبينا موسى - عليه السلام - بمعجزاتنا الدالة على.
صدقه ، وبحجته القوية الواضحة ، الشاهدة على أنه رسول من عندنا ، إلى فرعون
وملئه الذين هم خاصته ، وسادات قومه وكبراؤهم . . .

الى فرعون وملئه فاتبعوا امر فرعون وما امر فرعون برشيد

كما فسرها الوسيط وخصهم بالذكر مع فرعون ، لأنهم هم الذين كانوا ينفذون
أوامره ، ويعاونونه على فساده والضمير فى قوله ( فاتبعوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ
يعود إلى الملأ .أى : فاتبعوا أمره فى كل ما قرره من كفر ، وفى كل ما (
أشار به من فساد .وفى هذه الجملة الكريمة - كما يقول الزمخشرى - تجهيل لهم
حيث شايعوه على أمره ، وهو ضلال مبين لا يخفى على من فيه أدنى مسكة من ،
العقل ، وذلك أنه ادعى الألوهية وهو بشر مثلهم ، وجاهر بالعسف والظلم والشر
الذى لا يأتى إلا من شيطان ما رد ، فاتبعوه وسلموا له دعواه ، وتتابعوا على
طاعته .وقال - سبحانه - ( فاتبعوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ) ولم يقل فاتبعوا
) - أمره ، للتشهير به ، والإعلان عن ذمة الذى صرح به فى قوله - سبحانه
وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ) .والرشيد بزنة - فعيل - رشد من باب
نصر وفتح : هو الشخص المتصف بإصابة الرأى ، وجودة التفكير ، وأضيف الرشد
إلى الأمر على سبيل المجاز ، مبالغة فى اشتمال أمر فرعون على ما يناقض
الرشد والسداد ، ويطابق الغى والفساد .أى : ما شأن فرعون وأمره بذى رشد
وهدى ، بل هو محض الغى والضلال ، فكان من الواجب على ملئه أن ينبذوه
ويهملوه ، بدل أن يطيعوه ويتبعوه . . .

يقدم قومه يوم القيامة فاوردهم النار وبئس الورد المورود

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - سوء مصيره ومصير أتباعه فقال
يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ القيامة فَأَوْرَدَهُمُ النار وَبِئْسَ الورد
- المورود )ويقدم - كينصر - بمعنى يتقدم مأخوذ من الفعل قدم - بفتح الدال
تقول : قدم الرجل يقدم قدماً وقدوما بمعى : تقدم ، ومنه قادمة الرحل بمعنى
مقدمته .وقوله (فَأَوْرَدَهُمُ ) من الإيراد وهو جعل الشئ واردا إلى

المكان - وداخلا فيه .والورد - بكسر الواو - يطلق على الماء الذى يرد إليه
الإنسان والحيوان للشرب .والمعنى : يتقدم فرعون قومه يوم القيامة إلى جهنم
كما كان يتقدمهم فى الكفر فى لدنيا ، فأوردهم النار ، أى : فدخلها ،
وأدخلهم معه فيها .وعبر بالماضى مع أن ذلك سيكون يوم القيامة لتقحيق الوقوع
وتأكده ، وقد صرح القرآن بأنهم سيدخلون النار بمجرد موتهم فقال - تعالى - :
النار يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ )
الساعة أدخلوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العذاب ) وقوله وبئس الورد المورود ،
أى : وبئس الورد الذى يردونه النار ، لأن الورد - الذى هو النصيب المقدر
للإنسان من الماء - إنما يذهب إليه قاصده لتسكين عطشه ، وإرواء ظمته ،
وهؤلاء إنما يذهبون إلى النار التى هى ضد من ذلك .

واتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود

كما فسرها الوسيط ثم صرح - سبحانه - بلعنهم فى الدارين فقالك ) وَأُتْبِعُواْ فِي هذه لَعْنَةً وَيَوْمَ القيامة ) . .أى : إن اللعنة
والفضيحة لحقت بهم ، واتبعتهم فى الدنيا وفى الأخرى ، كما قال - تعالى - فى
آية أخرى : ( وَأَتْبَعْنَاهُم فِي هَذِهِ الدنيا لَعْنَةً وَيَوْمَ
القِيَامَةِ هُمْ مِّنَ المقبوحين ) وجملة ( بِئْسَ الرفد المرفود )
مستأنفة لإنشاء ذم اللعنة ، والمخصوص بالذم محذوف دل عليه ذكر اللعنة ، أى
بئس الرفد هى .الرفد العطاء والعون يقال رفد فلان فلانا يرفده رفدا أى
أعطاه وأعانه على قضاء مصالحه ، أى : بئس العطاء المعطى لهم تلك اللعنة
المضاعفة التى لابستهم فى الدنيا والآخرة .وسميت اللعنة رفدا على سبيل
التهكم بهم ، كما فى قول القائل : تحية بينهم ضرب وجيع . فكأنه - سبحانه -
يقول : هذه اللعنة هى العطاء المعى من فرعون لأتباعه الذين كانوا من خلفه
كقطيع الأغنام الذى يسير خلف قائده بدون تفكر أو تدبر . . .وبئس العطاء
عطاؤه لهم . . .وإلى هنا تكون هذه السورة الكريمة قد حدثتنا عن قصة نوح مع
قومه ، وعن قصة هود مع قومه ، وعن قصة صالح مع قومه ، وعن قصة إبراهيم مع
الملائكة ، وعن قصة لوط مع قومه ومع الملائكة ، وعن قصة شعيب مع قومه ، وعن
قصة موسى مع فرعون وملئه .ويلاحظ أن السورة الكريمة قد ساقت لنا تلك القصص
حسب ترتيبها التاريخى والزمنى ، لأهداف من أهمها :1 - إبراز وحدة العقيدة
فى دعوة الأنبياء جميعا ، فكل نبى قد قال لقومه : اعبدوا اله مالكم من إله
غيره . . . ثم يسوق لهم الأدلة على صدقه فيما بلغه عن ربه .2 - إبراز أن
الناس فى كل زمان ومكان فيهم الأخيار الذين يتبعون الرسل ، وفيهم الأشرار
الذين يحاربون الحق . . .3 - بيان العاقبة الحسنة التى انتهى إليها
المؤمنون بسبب إيمانهم وصدقهم وعملهم الصالح . . . والعاقبة السيئة التى
انتهى إليها الكافرون بسبب كفرهم وإعراضهم عن الحق . . . قال - تعالى - )
فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ
حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصيحة وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا
بِهِ الأرض وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ الله لِيَظْلِمَهُمْ
ولكن كانوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ) ثم ساقت السورة بعد ذلك حتى نهايتها
آيات كريمة اشتملت على تعليقات وتعقيبات متنوعة ، وهذه التعليقات
والتعقيبات قوية الصلة بما سبقها من آيات . . .

ذلك من انباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد

كما فسرها الوسيط وكان التعقيب الأول يهدف إلى بيان أن هذه القرى المهلكة
، التى منها ما هو قائم ومنها ما هو حصيد ، ما ظلم الله - تعالى - أهلها
، ولكن هم الذين ظلموا أنفسهم بعصيانهم الرسل ، وإصرارهم على الكفر والعناد
قال - تعالى - :( ذَلِكَ مِنْ أَنْبَآءِ القرى نَقُصُّهُ . . . ) .أى : ذلك
الذى قصصناه عليك - أيها الرسول الكريم - فى هذه السورة الكريمة ، وهو جزء
المهلكة .ونحن نقصه عليك ، فى هذا القرآن عن طريق ( مِنْ أَنْبَآءِ القرى )
وحينا الصادق ، ليعتبر به الناس ، وليعلموا أن هذا القرآن المشتمل على هذا
القصص الذى لا علم لهم به من عند الله .وافتتح - سبحانه - الكلام باسم
الإشارة المفيد للبعد ، للتنويه بشأن هذه الأنباء التى سبق الحديث عنها ،
وللإشعار بأنها أنباء هامة فيها الكثير من العظات والعبر لقوم يعقلون
، والضمير فى قوله : منها قائم وحصيد ، يعود إلى تلك القرى المهلكة.
والجملة مستأنفة للتحريض على النظر والاعتبار ، فكأن سائلا سأل ما حال هذه
القرى الباقية آثارها أم عفى عليها الزمن؟ فكان الجواب : منها قائم وحصيد
أى : من هذه القرى المهلكة ما آثارها قائمة يراها الناظر إليها ، كآثار
قوم ثمود .ومنها ما أثارها عفت وزالت وانطمست وصارت كالزرع المحصود الذى
استؤصل بقطعه ، فلم تبق منه باقية ، كديار قوم نوح .ففى هذه الجملة الكريمة
تشبيه بليغ ، حيث شبه - سبحانه - القرى التى بعض آثاهار مازال باقيا بالزرع
القائم على ساقه ، وشبه مازال منها واندثر بالزرع المحصود .وحصيد مبتدأ
محذوف الخبر لدلالة ما قبله عليه ، أى منها قائم ومنها حصيد .

وما ظلمناهم ولكن ظلموا انفسهم فما اغنت عنهم الهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء امر ربك وما زادوهم غير تتبيب

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ولكن ظلموا أَنفُسَهُمْ . . ) بيان لمظاهر عدله فى قضائه وأحكامه .والضمير المنصوب فى يعود إلى أهل هذه القرى ، لأنهم هم المقصودون بالحديث ( ظَلَمْنَاهُمْ ) أى : وما ظلمنا أهل هذه القرى بإهلاكنا إياهم ، ولكنهم هم الذين ظلموا. أنفسهم ، بسبب إصرارهم على الكفر ، وجحودهم للحق ، واستهزائهم بالرسل الذين ) جاءوا لهدايتهم . . .ثم بين - سبحانه - موقف آلهتهم المخزى منهم فقال فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ التي يَدْعُونَ مِن دُونِ الله مِن شَيْءٍ لّمّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ . . ) .أى : أن هؤلاء المهلكين عندما نزل بهم العذاب ، لم تنفعهم أصنامهم التى كانوا يعبدونها من دون الله شيئا من النفع . . . بل هى لم تنفع نفسها فقد اندثرت معهم كما اندثروا .والفاء فى قوله - سبحانه - ( فَمَا أَغْنَتْ ) للتفريع على ظلمهم لأنفسهم ، لأن اعتمادهم على شفاعة الأصنام ، وعلى دفاعها عنهم . . . من مظاهر جهلهم وغبائهم وظلمهم لأنفسهم .و ( من ) فى قوله : ( مِن شَيْءٍ ) لتأكيد انتفاء النفع والإغناء : أى : لم تغن عنهم شيئا ولو قليلا من الإغناء؛ ولم تنفعهم لا فى قليل ولا كثير . . .وجملة ( وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ) تأكيد لنفى النفع ، وإثبات للضر والخسران .والتتبيب : مصدر تب ) - بمعنى خسر ، فلان فلانا إذا وقعه فى الخسران .ومنه قوله - تعالى تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبّ ) أى : هلكتا وخسرتا كما قد هلك وخسر هو .أى : وما زادتهم أصنامهم التى كانوا يعتمدون عليها فى دفع الضر سوى الخسران والهلاك .قال الإمام الرازى : والمعنى : " أن الكفار كانوا - يعتقدون فى الأصنام أنها تعين على تحصيل المنافع ودفع المضار ، ثم إنه تعالى - أخبر أنهم عند مساس الحاجة إلى المعين ، ما وجدوا منها شيئا لا جلب نفع ولا دفع ضر ، ثم كما لم يجدوا ذلك فقد وجدوا ضده ، وهو أن ذلك الاعتقاد زالت عنهم به منافع الدنيا والآخرة ، وجلب لهم مضارهما ، فكان ذلك من أعظم موجبات الخسران . "

وكذلك اخذ ربك اذا اخذ القرى وهي ظالمة ان اخذه اليم شديد

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - سنته فى عقاب الظالمين فى كل زمان ومكان فقال : ( وكذلك أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ القرى وَهِيَ ظَالِمَةٌ والكاف فى ( وكذلك ) بمعنى مثل ، والمراد بالقرى : أهلها الظالمون( . . . والأخذ : هو العقاب المباغت السريع : يقال أخذ فلان الموت ، إذا نزل به. بسرعة وقوة ، .أى : ومثل ذلك الأخذ والإهلاك للظالمين السابقين ، يكون أخذ ربك وعقابه لكل ظالم يأتى بعدهم وينهج نهجهم .وجملة ، وهى ظالمة ، فى موضع ، الحال من القرى ، وفائدة هذه الحال الإشعار بأن عقابهم كان بسبب ظلمهم وفى ذلك ما فيه من التحذير لكل ظالم لا يبادر بالإقلاع عن ظلمه قبل فوت الآوان .والمراد بالظلم ما يشمل الكفر وغيره من الجرائم والمعاصى التى نهى ) : الله عنها ، كالكذب وشهادة الزور ، وأكل أموال الناس بالباطل .وقوله إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ) زيادة فى التحذير من الوقوع فى الظلم .أى ، إن أخذه - سبحانه - للظالمين عظيم إيلامه ، شديد وقعه ، لا هوادة فيه : ولا مخلص منه .روى الشيخان عن أبى موسى الأشعرى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : " إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، ثم قرأ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ( وكذلك أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ القرى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ) " .

ان في ذلك لاية لمن خاف عذاب الاخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن ما ساقه فى هذه القرآن عن أحوال السابقين فيه العبرة لمن اعتبر ، وفيه العظة لمن خاف عذاب الآخرة الذي ينقسم الناس فيه إلي شقى وسعيد ، فقال - تعالى - :( إِنَّ فِي ذلك لآيَةً لِّمَنْ خَافَ . . . )أى ( إِنّ فِي ذلك ) القصص الذى قصصناه عليك - يا ). محمد - والمشتمل على بيان سنة الله التى لا تتخلف فى إهلاك الظالمين لآية ) أى : لعبرة عظيمة ، وعظة بليغة ، وحجة واضحة .( لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخرة ) لأنه هو المنتفع بالعبر والعظات لصدق إيمانه ، وصفاء نفسه وإيقانه بأن هناك فى الآخرة ثوابا وعقابا ، وحسابا على الأعمال الدنيوية ، أما الذى ينكر الآخرة وما فيها من ثواب وعقاب ، فإنه لا يعتبر بما أصاب. . الظالمين من عذاب دنيوى دمرهم تدميرا ، بل ينسب ذلك إلى طبيعة أو فلكية أو غيرهما ، لا علاقة لها بكفرهم وظلمهم وطغيانهم . . ." لأن الخائف من عذاب الآخرة ، عندما يرى ما حل بالمجرمين فى الدنيا من عقاب ، يزداد إيمانا على إيمانه ، وتصديقا على تصديقه ، بأن الله - تعالى - قادر على أن يعذبهم فى

الآخرة عذابا أشد وأبقى من عذاب الدنيا . . . "ثم بين - سبحانه - أن يوم
القيامة آت لا ريب فيه فقال : ( ذلك يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ
وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ )واسم الإشارة فى الموضعين ، يعود إلى يوم
- القيامة المدلول عليه بذكر عذاب الآخرة قبل ذلك ، واللام فى قوله
سبحانه - ( مَّجْمُوعٌ لَّهُ ) لام العلة .أى : ذلك اليوم وهو يوم القيامة
يوم يجمع الناس فيه لأجل محاسبتهم ومجازاتهم على أعمالهم ، ويشهده جميع ،
) الخلائق الذين يؤمرون بشهوده ، دون أن يغيب منهم أحد قال صاحب الكشاف : و
الناس ) رفع باسم المفعول الذى هو ( مجموع ) كما يرفع بفعله إذا قلت يجمع
له الناس .فإن قلت : لأى فائدة أوثر اسم المفعول على فعله؟قلت : لما فى اسم
المفعول من دلالة على ثبات معنى الجمع لليوم ، وأنه يوم لابد من أن يكون
- ميعادا مضروبا لجمع الناس له ، وأنه الموصوف بذلك صفة لازمة ، وهو أثبت
: أيضا - لإسناد الجمع إلى الناس وأنهم لا ينفكون منه .ونظيره قول المهدد
إنك لمنهوب مالك ، محروب قومك ، فيه من تمكن الوصف وثباته ما ليس فى الفعل
والمراد بالمشهود : الذى كثر شاهدوه ، ومنه قولهم : لفلان مجلس مشهود. . .
وطعام محضور . . . والغرض من ذلك ، وصف هذا اليوم بالهول والعظم وتميزه ،
من بين الأيام ، بأنه اليوم الذى يشهد فيه الخلائق الموقف لا يغيب عنه أحد
. . .

وما نؤخره الا لاجل معدود

كما فسرها الوسيط ثم قال - تعالى - ( وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ
مَّعْدُودٍ )والأجل فى اللغة : الوقت المضروب لانتهاء مدة معينة ، فأجل
، الإنسان : هو الوقت المحدد لانقضاء عمره .والمعدود : أصله المحسوب
والمراد هنا : المحدد بمدة معينة لا يزيد عليها ولا يتأخر عنها .أى : أننا
، لا نؤخر هذا اليوم إلا لوقت محدد معلوم لنا ، فإذا ما جاء موعد هذا الوقت
حل هذا اليوم الهائل الشديد وهو يوم القيامة ، الذى اقتضت حكمتنا عدم إطلاع
أحد على موعده .

يوم يات لا تكلم نفس الا باذنه فمنهم شقي وسعيد

كما فسرها الوسيط ثم ذكر - سبحانه - جانبا من أهوال هذا اليوم ، ومن أحوال
الناس فيه فقال : ( يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ
فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ )والشقى : صفة مشبهة من الفعل شقى ، وهو
الشخص المتلبس بالشقاوة ، والشقاء :أى سوء الحال - بسبب إيثاره الضلالة على
، الهداية ، والباطل على الحق . . .والسعيد : هو الشخص المتلبس بالسعادة
وبالأحوال الحسنة بسبب إيمانه وعمله الصالح .والمعنى : حين يأتى هذا اليوم؛
- وهو يوم القيامة ، لا تتكلم فيه نفس بأى كلام إلا بإذن الله - تعالى
، ويكون الناس فيه منقسمين إلى قسمين : قسم شقى معذب بسبب كفره ، وسوء عمله
. . وتفريطه فى حقوق الله . . .وقسم سعيد منعم بسبب إيمانه : وعمله الصالح
فإن قيل : كيف نجمع بين هذه الآية التى تنفى الكلام عن كل نفس إلا بإذن
الله وبين قوله - تعالى - ( يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن
نَّفْسِهَا . . . ) فالجواب : أن فى يوم القيامة مواقف متعددة ، ففى بعضها
يجادل الناس عن أنفسهم ، وفى بعضها يكفون عن الكلام إلا بإذن الله ، وفى
بعضها يختم على أفواههم ، وتتكلم أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون
وفى هذه الآية الكريمة إبطال لما زعمها لمشركون من أن أصنامهم ستدافع عنهم.
وستشفع لهم يوم القيامة .قال الإمام ابن كثير : قوله - تعالى - ( يَوْمَ ،
يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ . . . ) أى : يوم يأتى هذا
- اليوم وهو يوم القيامة ، لا يتكلم أحد إلا بإذن الله - تعالى - كما قال
سبحانه - ( يَوْمَ يَقُومُ الروح والملائكة صَفّاً لاَّ يَتَكَلَّمُونَ
) - إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحمن وَقَالَ صَوَاباً ) وقال - سبحانه
وَخَشَعَتِ الأصوات للرحمن فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً ) - فى الصحيحين
عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى حديث الشفاعة الطويل : - " ولا
. " يتكلم يومئذ إلا الرسل ، ودعوة الرسل يومئذ : اللهم سلم سلم

فاما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق

) : كما فسرها الوسيط ثم فصل - سبحانه - أحوال الأشقياء والسعداء فقال
( فَأَمَّا الذين شَقُواْ فَفِي النار لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ
قال الآلوسى : قال الراغب : الزفير ترديد النفس حتى تنتفخ الضلوع منه.
مأخوذ من زفر فلان إذا حمل حملا بمشقة فتردد فيه نفسه ، ومنه قيل للإماء
الحاملاتِ الماءَ : زوافر .والشهيق : رد النفس إلى الصدر بصعوبة وعناء
والمراد بهما : الدلالة على شدة كربهم وغمهم ، وتشبيه حالهم بحال من.
: استولت على قلبه الحرارة ، واستبد به الضيق حتى صار فى كرب شديد .والمعنى
فأما الذين كان نصيبهم الشقاء فى الآخرة ، بسبب كفرهم واقترافهم للمعاصى فى

الدنيا ، فمصيرهم إلى الاستقرار فى النار ، لهم فيها من ضيق الأنفاس . وحرج الصدور ، وشدة الكروب ما يجعلهم يفضلون الموت على ما هم فيه من هم وغم وخص - سبحانه - من بين أحوالهم الأليمة حالة الزفير والشهيق؛ تنفيرا من. الأسباب التى توصل إلى النار ، وتبشيعا لتلك الحالة التى فيها ما فيها من . . . سوء المنظر ، وتعاسة الحال

خالدين فيها ما دامت السماوات والارض الا ما شاء ربك ان ربك فعال لما يريد

كما فسرها الوسيط ثم أكد - سبحانه - خلودهم فى النار فقال : ( خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السماوات والأرض . . . )أى أن الأشقياء لهم فى النار العذاب الأليم ، وهم ماكثون فيها مكث بقاء وخلود لا يبرحونها مدة دوام ) - السموات التى تظلهم ، والأرض التى تقلهم فهو فى معنى قوله - تعالى خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَداً ) قال الآلوسى ما ملخصه : والمقصود من هذا التعبير : التأبيد ونفى الانقطاع على منهاج قول العرب لا أفعل كذا ، مالاح كوكب ، وما أضاء الفجر ، وما اختلف الليل والنهار . . . إلى غير ذلك من كلمات التأبيد عندهم . . .وليس المقصود منه تعليق قرارهم فيها بدوام هذه السموات والأرض ، فإن النصوص القاطعة دالة على تأبيد قرارهم فيها .وجوز أن ، يحمل ذلك على التعليق ، ويراد بالسموات والأرض ، سماوت الآخرة وأرضها وهما دائمتان أبدا . . . )أما قوله - سبحانه - ( إِلاَّ مَا شَآءَ رَبُّكَ فقد ذكر العلماء فى المقصود به أقوالا متعددة أوصلها بعضهم إلى ثلاثة عشر ( قولا من أشهرها :أن هذا الأستثناء فى معنى الشرط فكأنه - سبحانه - يقول خالدين فيها خلودا أبديا إن شاء ربك ذلك إذ كل شئ خاضع لمشيئة ربك - 1: وإرادته . . وعليه يكون المقصود من هذا الاستثناء وأمثاله إرشاد العباد إلى وجوب تفويض الأمور إليه - سبحانه - وإعلامهم بأن كل شئ خاضع لإرادته ومشيئته فهو الفاعل المختار الذى لا يجب عليه شئ ولا حق لأحد عليه ( إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ) .وليس المقصود من هذا الاستثناء وأمثاله نفى خلودهم فى النار لأنه لا يلزم من الاستثناء المعلق على المشيئة وقوع المشيئة ولأنه قد أخبرنا - سبحانه - فى كتابه بخلود الكافرين خلودا أبديا فى النار .قال - تعالى - ( إِنَّ الذين كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ الله لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً . إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَداً وَكَانَ ذلكَ عَلَى الله يَسِيراً ) وشبيه بهذا الاستثناء ما حكاه - سبحانه - عن نبيه شعيب - عليه السلام - فى قوله : ( قَالَ الملأ الذين استكبروا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ ياشعيب والذين آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ . قَدِ افترينا عَلَى الله كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا الله مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً . . . ) فشعيب - عليه السلام - مع ثقته المطلقة فى أنه لن عود هو وأتباعه على ملة الكفر ، نراه يفوض الأمر إلى مشيئة الله تأدبا معه - سبحانه . .فيقول : وما يكون لنا أن نعود فيها - أى ملة الكفر - إلا أن يشاء ربنا شيئا غير ذلك وهذا من الأدب العالى فى مخاطبة الأنبياء لخالقهم - عز وجل .وقد ذكر كثير من المفسرين هذا القول ضمن الأقوال فى معنى الآية ، وبعضهم إقتصر عليه ولم يذكر سواه ، ومن هذا البعض ) صاحب المنار ، وصاحب محاسن التأويل . . .أما صاحب المنار فقد قال : قوله إِلاَّ مَا شَآءَ رَبُّكَ ) أى : أن هذا الخلود الدائم هو والمعد لهم فى الآخرة . . . إلا ما شاء ربك من تغيير فى هذا النظام فى طور آخر ، فهو إنما وضع بمشيئته ، وسيبقى فى قبضة مشيئته ، وقد عهد مثل هذا الاستثناء فى سياق ، الأحكام القطعية للدلالة على تقييد تأبيدها بمشيئة الله - تعالى . . فقط : لا لإفادة عدم عمومها . . .وأما صاحب محاسن التأويل فقد قال : فإن قلت ما معنى الاستثناء بالمشيئة ، وقد ثبت خلودا أهل الدارين فيهما من غير ، استثناء؟فالجواب : أن الاستثناء بالمشيئة قد استعمل فى أسلوب القرآن للدلالة على الثبوت والاستمرار .والنكتة فى الاستثناء بيان أن هذه الأمور الثابتة الدائمة ، إنما كانت كذلك بمشيئة الله - تعالى - لا بطبيعتها فى نفسها ، ولو شاء - تعالى - أن يغيرها لفعل .وابن كثير قد أشار إلى ذلك بقوله : " يعنى أن دوامهم فيها ليس أمرا واجبا بذاته ، بل هو موكول إلى مشيئته - تعالى - "2 - أن الاستثناء هنا خاص بالعصاة من المؤمنين .ومن العلماء الذين رجحوا هذا القول الإمامان : ابن جرير وابن كثير ." وأولى الأقوال فى تأويل هذه الآية بالصواب ، القول الذى ذكرناه عن الضحاك وقتادة من أن ذلك استثناء فى أهل التوحيد من أهل الكبائر ، أنه يدخلهم النار خالدين فيها أبدا ، إلا ما شاء تركهم فيها أقل من ذلك ، ثم يخرجهم فيدخلهم ، الجنة - أى العصاة من المؤمنين . . . "وأما ابن كثير فقد وضح ما اختاره ابن جرير ورجحه فقال ما ملخصه :وقد اختلف المفسرون فى المراد من هذا الاستثناء على أقوال كثيرة . . . نقل كثيرا منها الإمام ابن جرير ، واختار أن الاستثناء عائد على العصاة من أهل التوحيد ، ممن يخرجهم الله من النار :

بشفاعة الشافعين ، من الملائكة والنبيين والمؤمنين ، حين يشفعون فى أصحاب الكبائر ، ثم تأتى رحمة أرحم الراحمين ، فتخرج من النار من لم يعمل خيرا قط وقال يوما من الدهر :لا إله إلا الله ، كما وردت بذلك الأخبار الصحيحة ، المستفيضة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، ولا يبقى بعد ذلك فى النار إلا من وجب عليه الخلود فيها ، ولا محيد له عنها ، وهذا الذى عليه كثير من العلماء قديما وحديثا فى تفسير هذه الآية الكريمة .وقد ذكر الشيخ الشوكانى هذا القول ضمن أحد عشر قولا فقال ما ملخصه :وقوله ( إِلاَّ مَا شَآءَ رَبُّكَ ) : قد اختلف أهل العلم فى هذا الاستثناء على أقوال منها ( أ ) أنه من قوله ( فَفِي النار ) كأنه قال : إلا ما شاء ربك من تأخير قوم عن ذلك .. .( ب ) أن الاستثناء إنما هو للعصاة من الموحدين وإنهم يخرجون بعد مدة من النار ، وعلى هذا يكون قوله (فَأَمَّا الذين شَقُواْ ) عاما فى الكفرة والعصاة ، ويكون الاستثناء من خالدين ، وتكون ( ما ) بمعنى ( من ) ، وقد ثبت بالأحاديث المتواترة تواترا يفيد العلم الضرورى بأنه يرخج من النار أهل التوحيد ، فكان ذلك مخصصا لكل عموم .( ج ) أن الاستثناء من الزفير والشهيق ، أى لهم فيها زفير وشهيق ( إِلاَّ مَا شَآءَ رَبُّكَ ) من أنواع العذاب غير الزفير والشهيق . . .ويبدو لن أن الرأى الأول أرجح الآراء ، ويشهد لهذا قوله - تعالى - بعد ذلك : ( إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ) أى فهو إن شاء غير ذلك فعله ، وإن شاء ذلك فعله ، ما شاء من الأفعال كان وما لم يشاء لم يكن .وجاء - سبحانه - بصيغة المبالغة ( فعال ) للإشارة إلى أنه - سبحانه -لا يتعاصى عليه فعل من الأفعال بأى وجه من الوجوه .ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة السعداء فقال : ( وَأَمَّا الذين سُعِدُواْ ) أى فى الآخرة بسبب إيمانهم وتقواهم فى الدنيا ، ( فَفِي الجنة خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السماوات والأرض إِلاَّ مَا شَآءَ رَبُّكَ ، عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ) أى : عطاء منه - سبحانه - لهم غير مقطوع عنهم - يقال : جذ الشئ يجذه جذا ، أى : كسره وقطعه ، ومنه الجذاذ - بضم الجيم لما تكسر من الشئ كما فى قوله - تعالى - حكاية عما فعله إبراهيم - عليه السلام - بالأصنام ( فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلاَّ كَبِيراً لَّهُمْ ) وبذلك نرى أن هذه الآيات قد فصلت أحوال السعداء والأشقياء ، تفصيلا يدعو العقلاء إلى أن يسلكوا طريق السعداء ، وأن يتجنبوا طريق الأشقياء .

واما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والارض الا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك من الآيات ما فيه تسلية للنبى - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من قومه من أذى ، وما فيه تثبيت لقلوب المؤمنين ، وما فيه إرشاد لهم إلى ما يقربهم من الخير ، ويبعدهم عن الشر فقال - تعالى :( وَأَمَّا الذين سُعِدُواْ فَفِي . . . ) .قال الفخر الرازى : إعلم أنه - تعالى - لما شرح أقاصيص عبدة الأوثان ثم أتبعه بأحوال الأشقياء وأحوال السعداء شرح للرسول صلى الله عليه وسلم - أحوال الكفار من قومه فقال : ( فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ . . )

فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء ما يعبدون الا كما يعبد اباؤهم من قبل وانا لموفوهم نصيبهم غير منقوص

كما فسرها الوسيط ( فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ . . )والمعنى : فلا تكن ، إلا أنه حذف النون لكثرة الاستعمال ، ولأن حرف النون إذا وقع على طرف الكلام ، لم يبق عند التلفظ به إلا مجرد الغنة ، فلا جرم أسقطوه . .والمرية بكسر الميم - الشك المتفرع عن محاجة ومجادلة بين المتخاصمين .والمعنى : لقد قصصنا عليك أيها الرسول الكريم الكثير من أخبار السابقين وبينا لك مصير السعداء والأشقياء . . . وما دام الأمر كذلك ، فلا تك فى شك من أن عبادة هؤلاء المشركين لأصنامهم إنما هى تقليد لما كان يعبده آباؤهم من قبل ، وهذه العبادة لغير الله - تعالى - ستؤدى بالجميع إلى سوء العاقبة وإلى العذاب الأليم .والخطاب وإن كان للرسول - صلى الله عليه وسلم - على سبيل التسلية والتثبيت ، إلا أن التحذير فيه يندرج تحته كل من يصلح للخطاب .وهذا الأسلوب كثير ما يكون أوقع فى النفس ، وأشد تأثيراً فى القلب ، لأنه يشعر المخاطب بأن ما بينه الله - تعالى - لرسوله - صلى الله عليه وسلم - إنما هو من قبيل القضايا الموضوعية التى لا تحتاج إلى جدال مع أحد ، ومن جادل فيها فإنما يجادل فى الحق الوضاح بدافع الحسد والعناد ، لأن الواقع يشهد بصحة ما بينه الله - تعالى - لرسوله - صلى الله عليه وسلم - .وجملة ( مَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ ) مستأنفة ، لبيان أن الخلف قد ساروا فى الجهالة والجحود على طريقة السلف .وعبر عن عبادة الآباء بالمضارع ، مع أنها كانت فى الماضى بقرينة ( مِّن قَبْلُ ) . للدلالة على استمرارهم على هذه العبادة الباطلة حتى موتهم ، وأن أبناءهم لم ينقطعوا عنها ، بل واصلوا السير على طريق آبائهم الضالين بدون تفكر أو تدبر

والمضاف إليه فى قوله ( مِّن قَبْلُ ) محذوف ، والتقدير : من قبلهم .وقوله.
تذييل قصد به ( وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ )
تأكيد العقاب الذى سينزل بهم فى الآخرة بسبب عبادتهم لغير الله .وموفوهم من
التوفية ، وهى إعطاء الشئ كاملا بدون نقص.والمراد بالنصيب هنا : المقدار
المعد لهم من العذاب ، وسماه نصيبا على سبيل التهكم بهم .أى : وإنا لمعطو
هؤلاء الذين نهجوا منهج آبائهم فىعبادة غير الله ، نصيبهم وحظهم من عذاب
الآخرة كاملا بدون إنقاص شئ منه ، كما ساروا هم على طريقة سلفهم فى الضلال
دون أن يغيروا شيئا منها . . .ومنهم من جعل المراد بالنصيب هنا : ما يشمل
الجزاء على الأعمال الدنوية والأخروية ، .قال صاحب المنار : " أى ، وإنا
لمعطوهم نصيبهم من جزاء أعمالهم فى الدنيا والآخرة وافيا تاما لا ينقص منه
شئ ، كما وفينا آباءهم الأولين من قبل ، فإنه ما من خير يعمله أحد منهم
كبِرِّ الوالدين وصلة الأرحام .. . إلا ويوفيهم الله جزاءهم عليه فى الدنيا
. . بسعة الرزق ، وكشف الضر جزاء تاما ، لا ينقصه شئ يجزون عليه فى الآخرة
ويبدو لنا أن الرأى الأول أقرب إلى الصواب ، لأن سياق الآية الكريمة. " .
، يؤيده إذا الكلام فيها فى شأن جزاء الذين ساروا على نهج آبائهم فى الضلال
. وليس فى بيان الجزاء العام فى الدنيا والآخرة

ولقد اتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم
وانهم لفي شك منه مريب

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن اختلاف الناس فى الحق موجود قبل
بعثة النبى - صلى الله عليه وسلم - فقال : ( وَلَقَدْ آتَيْنَا موسى الكتاب
فاختلف فِيهِ . . ) .أى : كما اختلف قومك - أيها الرسول الكريم - فى شأن
القرآن الكريم فمنهم من وصفه بأنه أساطير الأولين ، فقد اختلف قوم موسى من
قبلك فى شأن التوراة التى أنزلها الله على نبيهم موسى لهدايتهم ، إذ منهم
من آمن بها ومنهم من كفر . . .وما دام الأمر كذلك ، فلا تحزن - أيها الرسول
الكريم - لاختلاف قومك فى شأن القرآن الكريم ، فإن هذا الاختلاف شأن الناس
- فى كل زمان ومكان والمصيبة إذا عمت خفت .فالجملة الكريمة تسلية للرسول
صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من مشركى قومه .وجاء الفعل ( اختلف ) بصيغة
المبنى للمجهول ، لأن ذكر فاعل الاختلاف لا يتلعق به غرض ، وإنما الذى
- يتعلق به الغرض هو ما نجم عن هذا الاختلاف من كفر وضلال .ثم بين - سبحانه
جانبا من مظاهر فضله ورحمته بخلقه فقال : ( وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ
: مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ . . . ) .والمراد بالكلمة التى سبقت
تأخير العذاب عنهم إلى يوم القيامة ، وعدم إهلاكهم بعذاب الاستئصال فى
الدنيا .قال الشوكانى : قوله - سبحانه - ( وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن
رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ . . . ) أى : لولا أن الله - تعالى - قد حكم
بتأخير عذابهم إلى يوم القيامة لما علم فى ذلك من الصلاح ، لقضى بينهم ، أى
بين قومك ، أو بين قوم موسى ، فيما كانوا فيه مختلفين فأثيب المحق وعذب :
المبطل ، أو الكلمة؛ هى أن رحمته سبحانه سبقت غضبه ، فأمهلهم ولم يعاجلهم
لذلك .وقيل إن الكلمة هى أنهم لا يعذبون بعذاب الاستئصال ، وهذا من جملة
التسلية له - صلى الله عليه وسلم- .ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله
. وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ .والمريب اسم فاعل من أراب ) :
: يقال أربته فأنا أريبه إذا فعلت به فعلا يوجب لديه الريبة والحيرة .أى
وإن هؤلاء المختلفين فى شأن الكتاب لفى شك منه ، وهذا الشك قد أوقعهم فى
الريبة والتخبط والاضطراب .وهذا شأن المعرضين عن الحق ، لا يجدون مجالا
لنقده وإنكاره ، فيحملهم عنادهم وجحودهم على التشكيك فيه ، وتأويله تأويلا
) سقيما يدعو إلى الريبة والقلق .وبعض المفسرين يرى عودة الضمير فى قوله
وإنهم ) إلى قوم موسى ، وفى قوله ( منه ) إلى كتابهم التوراة .وبعضهم يرى
عودة الضمير الأول إلى قوم النبى - صلى الله عليه وسلم - والثانى إلى
القرآن الكريم .والذى يبدو لنا أن الرأى الأول أظهر فى معنى الآية ، لأن
الكلام فى موسى - عليه السلام - وقومه الذين اختلفوا فى شأن كتابهم التوراة
اختلافا كبيرا ، وعود الضمير إلى المتكلم عنه أولى بالقبول .وهذا لا يمنع
، أن بعض المكذبين للرسول - صلى الله عليه وسلم - كانوا فى شك من القرآن
أوقعهم هذا الشك فى الريبة والحيرة .فتكون الجملة الكريمة من باب التسلية
للرسول - صلى الله عليه وسلم - عما قاله بعض المشركين فى شأن القرآن الكريم
.

وان كلا لما ليوفينهم ربك اعمالهم انه بما يعملون خبير

، كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن هؤلاء المختلفين فى شأن الكتاب
الشاكين فى صدقه ، سوف يجمعهم الله - تعالى - مع غيرهم يوم القيامة للجزاء
والحساب على أعمالهم فقال - تعالى - ( وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا
لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ
خَبِيرٌ ) .وقد وردت فى هذه الآية الكريمة عدة قراءات متوارتة منها : قراءة

ابن عامر وحمزة وحفص عن عاصم بتشديد ، إن ولما ، وقد قيل فى تخريجها : إن
) ، لفظ ( كلا ) اسم ( إن ) والتنوين فيه عوض عن المضاف إليه ، واللام فى
لما ) هى الداخلة فى خبر ( إن ) وما بعد اللام هو حرف " من " الذى هو من
حروف الجر ، و " ما " موصولة أو نكرة موصوفة والمراد بها من يعقل ، فيحكون
تقدير الكلام : وإن كلا " لمن ما " فقلبت النون ميما للإدغام فاجتمع ثلاث
" ميمات ، فحذفت واحدة منها للتخفيف ، فصارت " لما " والجار والمجرور خبر
إن " ، واللام فى ( ليوفينهم ) ، جواب قسم مضمر ، والجملة صلة أو صفة ( لما
والتقدير : وإن كلا من أولئك المختلفين وغيرهم لمن خلق الله الذين هم. (
- بحق ربك ليوفينهم - سبحانه - جزاء أعمالهم بدون أن يلفت منهم أحد ، إنه
سبحانه -لا يخفى عليه شئ منها .وفى الآية الكريمة توكيدات متنوعة ، حتى لا
يشك فى نزول العذاب بالظالمين مهما تأجل ، وحتى لا يشك أحد - أيضا - فى أن
ما عليه المشركون هو الباطل الذى لا يعرفه الحق ، وأنه الكفر الذى تلقاه
الخلف عن السلف .وكان مقتضى حال الدعوة الإسلامية فى تلكالفترة التى نزلت
- فيها هذه السورة - وهى فترة ما بعد حادث الإسراء والمعراج وقبل الهجرة
يستلزم هذه التأكيدات تثبيتا لقلوب المؤمنين ، وتوهينا للشرك والمشركين
قال الإمام الفخر الرازى عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : سمعت بعض
الأفاضل قال : إنه - تعالى - لما أخبر عن توفية الأجيزة على المستحقين فى
هذه الآية ، ذكر فيها سبعة أنواع من التأكيدات :أولها : كلمة " إن " وهى
للتأكيد ، وثانيها كلمة " كل " وهى أيضا للتأكيد ، وثالثها : اللام الداخلة
على خبر " إن " وهى تفيد التأكيد - أيضا - ، ورابعها حرف " ما " إذا جعلناه
على قول الفراء موصولا ، وخامسها : القسم المضمر فإن تقدير الكلام : وإن
، جميعهم والله ليوفينهم : وسادسها : اللام الثانية الداخلة على جواب القسم
وسابعها : النون المؤكدة فى قوله " ليوفينهم " .فجميع هذه المؤكدات السبعة
. . . تدل على أن أمر القيامة والحساب والجزاء حق

فاستقم كما امرت ومن تاب معك ولا تطغوا انه بما تعملون بصير

- كما فسرها الوسيط ثم أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم
وأتباعه بالتزام الصراط المستقيم فقال - سبحانه - : ( فاستقم كَمَآ
أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطغَوْاْ إِنّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
- بَصِيرٌ ) .والفاء للتفريع على ما تقدم من الأوامر والنواهى .والاستقامة
كما يقول القرطبى - هي الاستمرار فى جهة واحدة من غير أخذ فى جهة اليمين
والشمال . . .والطغيان : مجاوزة الحد . ومنه طغى الماء ، أى ارتفع وتجاوز
الحدود المناسبة .والمعنى : لقد علمت - أيها الرسول الكريم - حال السعداء
وحال الأشقياء ، وعرفت أن كل مكلف سيوفى جزاء أعماله .وما دام الأمر كذلك
فالزم أنت ومن معك من المؤمنين طريق الاستقامة على الحق ، وداوموا على ذلك
كما أمركم الله ، بدون إفراط أو تفريط ، واحذروا أن تتجاوزوا حدود الاعتدال
فى كل أقوالكم وأعمالكم .وما دام الأمر كذلك فالزم أنت ومن معك من المؤمنين
طريق الاستقامة على الحق ، وداوموا على ذلك كما أمركم الله ، بدون إفراط أو
- تفريط ، واحذروا أن تتجاوزوا حدود الاعتدال فى كل أقوالكم وأعمالكم .ووجه
سبحانه - الأمر بالاستقامة إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - تنويها بشأنه
وليبنى عليه قوله - ( كَمَآ أُمِرْتَ ) ، فيشي بذلك إلى أنه - عليه ،
الصلاة والسلام - هو وحده المتلقى للأوامر الشرعية من الله - تعالى - .وقد
جمع قوله - تعالى - ( فاستقم كَمَآ أُمِرْتَ ) أصول الإصلاح الدينى وفروعه
، كما جمع قوله - تعالى - " ولا تطغوا " أصول النهى عن المفاسد وفروعه ،
فكانت الآية الكريمة بذلك جامعة لإقامة المصالح ولدرء المفاسد .قال
الإمام ابن كثير ما ملخصه : يأمر الله - تعالى - رسوله وعباده المؤمنين فى
هذه الآية بالثبات والدوام على الاستقامة ، لأن ذلك من العون على النصر على
الأعداء ، وينهاهم عن الطغيان وهو البغى ، لأنه مصرعه حتى ولو كان على مشرك
وقال الآلوسى : والاستقامة كلمة جامعة لكل ما يتعلق بالعلم والعمل وسائر.
الأخلاق .أخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الحسن أنه قال ، لما نزلت هذه
الآية قال - صلى الله عليه وسلم -" شمروا شمروا ، وما رؤى بعد ضاحكا " .وعن
ابن عباس قال : ما نزلت على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " آية أشد من
" : هذه الآية ولا أشق " .وفى صحيح مسلم عن سفيان عن عبد الله الثقفى قال
: قلت يا رسول الله ، قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك . قال
قل آمنت بالله ثم استقم " " .وجملة ( إِنّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ "
، تعليل للأمر بالاستقامة وللنهى عن الطغيان .أى : الزموا المنهج القويم (
، وابتعدوا عن الطغيان ، لأنه - سبحانه - مطلع على أعمالكم اطلاع المبصر
العليم بظواهرها وبواطنها ، وسيجازيكم يوم القيامة عليها بما تستحقون من
. ثواب وعقاب

ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من اولياء ثم
لا تنصرون

) كما فسرها الوسيط ثم نهى - سبحانه - بعد ذلك عن الميل إلى الظالمين فقال
وَلاَ تركنوا إِلَى الذين ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النار وَمَا لَكُمْ مِّن
دُونِ الله مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ ) .والركون إلى الشئ
الميل إليه . يقال ركن فلان إلى فلان ، إذا مال إليه بقلبه ، واعتمد عليه
فى قضاء مصالحه .والمراد بالذين ظلموا هنا : ما يتناول المشركين وغيرهم من
الظالمين الذين يعتدون على حقوق الغير ، ويستحلون من محارم الله .والمعنى :
واحذروا - أيها المؤمنون - أن تميلوا إلى الظالمين ، أو تسكنوا إليهم؛ لأن
ذلك يؤدى إلى تقوية جانبهم . وإضعاف جانب الحق والعدل .قال بعض العلماء :
ويستثنى من ذلك للضرورة صحبة الظالم على التقية مع حرمة الميل القلبى إليه
، وقوله ( فَتَمَسَّكُمُ النار ) أى فتصيبكم النار بسبب ميلكم إليهم.
والاعتماد عليهم ، والرضا بأفعالهم .وقوله ( وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ الله
مِنْ أَوْلِيَآءَ ) فى موضع الحال من ضمير ( تمسكم ) .أى : والحال أنه ليس
لكم من غير الله من نصراء ينصرونكم من العذاب النازل بكم ، بسبب ركونكم إلى
الذين ظلموا ومجالستهم وزيارتهم ومداهنتهم .وثم فى قوله ( ثُمَّ لاَ
تُنصَرُونَ ) للتراخى الرتبى . أى ثم لا تجدون بعد ذلك من ينصركم بأى حال
من الأحوال ، لأن الظالمين ما لهم من أنصار .قال بعض العلماء : الآية أبلغ
ما يتصور فى النهى عن الظلم ، والتهديد عليه ، لأن هذا الوعيد الشديد إذا
كان فيمن يركن إلى الذين ظلموا فكيف يكون حال من ينغمس فى حمأته؟!! ثم قال :
وقد وسع العلماء فى ذلك وشددوا ، والحق أن الحالات تختلف ، والأعمال
بالنيات ، والتفصيل أولى .فإن كانت المخالطة لدفع منكر ، أو للاستعانة على
إحقاق الحق ، أو الخير . فلا حرج فى ذلك . وإن كانت لإيناسهم وإقرارهم على
ظلمهم فلا . . .

واقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل ان الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى
للذاكرين

كما فسرها الوسيط ثم أرشد - سبحانه - عباده المؤمنين إلى ما يعينهم إلى ما
يعينهم على الاستقامة وعلى عدم الركون إلى الظالمين ، فقال : ( وَأَقِمِ
الصلاة طَرَفَيِ النهار وَزُلَفاً مِّنَ الليل إِنَّ الحسنات يُذْهِبْنَ
السيئات ذلك ذكرى لِلذَّاكِرِينَ ) .والمراد بإقامتها الإتيان بها فى
أوقاتها كاملة الأركان والخشوع والإخلاص لله رب العالمين .والمراد بالصلاة
هنا : الصلاة المفروضة .قال القرطبى : لم يختلف أحد من أهل التأويل فى أن
الصلاة فى هذه الآية ، المراد بها الصلوات المفروضة . وخصها بالذكر لأنها
ثانية أركان الإسلام ، وإليها يفزع فى النوائب ، وكان النبى - صلى الله
عليه وسلم - " إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة " .وطرفى النهار : أى أول
النهار وآخره ، لأن طرف الشئ منتهاه من أوله أو من آخره .والنهار : يتناول
ما بين مطلع الفجر إلى غروب الشمس . سمى بذلك لأن الضياء ينهر فيه أى يبرز
كما يبرز النهر .والصلاة التى تكون فى هذين الوقتين ، تشمل صلاة الغداة وهى
صلاة الصبح ، وصلاة العشى وهى صلاة الظهر والعصر ، لأن لفظ العشى يكون من
الزوال إلى الغروب .وقيل الصلاة التى تكون فى هذين الوقتين هى صلاة الصبح
والمغرب .وقوله ( وَزُلَفاً مِّنَ الليل ) معطوف على طرفى النهار .والزلف
جمع زلفه كغرف وغرفة - والمراد بها الساعات القريبة من آخر النهار ، إذا
الإزلاف معناه القرب ومنه قوله - تعالى - ( وَأَزْلِفَتِ الجنة
لِلْمُتَّقِينَ . . . ) أى : قربت منهم . وتقول أزلفنى فلان منه : أى قربنى
فمعنى ( وَزُلَفاً مِّنَ الليل ) يعنى صلاة المغرب والعشاء . قال رسول.
الله - صلى الله عليه وسلم - " هما زلفتا الليل : المغرب والعشاء " .ويحتمل
أن تكون هذه الآية نزلت قبل فرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء ، فإنه إنما
كان يجب من الصلاة صلاتان : صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها ، وفى
أثناء الليل قيام عليه وعلى الأمة ، ثم نسخ فى حق الأمة ، وثبت وجوبه عليه
ثم نسخ عنه أيضا فى قول .وجملة ( إِنَّ الحسنات يُذْهِبْنَ السيئات ) ،
مسوقة مساق التعليل للأمر بإقامة الصلاة ، وأكدت بحرف ( إن ) للاهتمام
وتحقيق الخبر ، والحسنات صفة لموصوف محذوف ، وكذلك السيئات .والمعنى : إن
الأعمال الحسنة - كالصلاة والزكاة والصيام والحج ، والاستغفار . . يذهبن
الأعمال السيئات ، أى يذهبن المؤاخذة عليها ، ويذهبن الاتجاه إليها ببركة
المواظبة على الأعمال الحسنة .والمراد بالسيئات هنا صغار الذنوب ، لقوله -
تعالى - ( إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ
عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُّدْخَلاً كَرِيماً ) ولقوله -
تعالى - ( الذين يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإثم والفواحش إِلاَّ اللمم
إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ المغفرة . . . ) ولأن كبائر الذنوب لا تكفرها إلا
التوبة الصادقة .وقوله ( ذلك ذكرى لِلذَّاكِرِينَ ) أى : ذلك الذى أمرناك
به من وجوب إقامة الصلاة ، ومن الاستقامة على أمر الله . . فيه التذكرة
النافعة ، لمن كان شأنه التذكر والاعتبار ، لا الإعراض والعناد .وهذه
الآية الكريمة من الآيات التى قال عنها بعض المفسرين بأنها مدنية ، وقد
ذكرنا فى التمهيد بين يدى السورة ، أن سورة هود ترجح أنها كلها مكية ، وليس

فيها آيات مدنية .ومما يؤيد أن هذه الآية مكية أنها مسوقة مع ما سبقها من آيات لتسلية النبى - صلى الله عليه وسلم - ولإرشاده وأتباعه إلى ما يعينهم على الاستقامة ، وعدم الركون إلى الظالمين .ولأن بعض الروايات التى وردت فى شأنها لم تذكر أنها نزلت فى المدينة ، بل ذكرت أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - تلاها على السائل ، ومن هذه الروايات ما رواه الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن جرير - وهذا لفظه - عن ابن مسعود قال : " جاء رجل إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا رسول الله إنى وجدت امرأة فى بستان ، ففعلت بها كل شئ غير أنى لم أجامعها ، فافعل بى ما شئت ، فلم يقل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - شيئا ، فذهب الرجل ، فقال عمر : لقد ستر الله عليه لو ستر على نفسه ، فأتبعه الرسول - صلى الله عليه وسلم - بصره ثم قال : ردوه على فرده عليه فقرأ عليه : ( وَأَقِمِ الصلاة طرَفَيِ النهار وَزُلَفاً مِّنَ الليل . . ) الآية ، فقال معاذ - وفى رواية عمر - يا رسول الله ، ألهذا وحده أم للناس كافة؟ فقال : بل للناس كافة " والروايات التى ورد فيها فأنزل عليه هذه الآية ، فى الإمكان أن تؤول أن المراد أنزل عليه شمول عموم الحسنات والسيئات لقضية السائل ، لجميع ما يماثلها من إصابة الذنوب سوى الكبائر .

واصبر فان الله لا يضيع اجر المحسنين

) كما فسرها الوسيط هذا ، ثم ختم - سبحانه - هذه التوجيهات الحكيمة بقوله واصبر فَإِنّ الله لاَ يُضِيعُ أَجْرَ المحسنين ) .أى : واصبر أيها الرسول - الكريم أنت ومن معك من المؤمنين على مشاق التكاليف التى كلفكم الله تعالى - بها ، فإنه - سبحانه - لا يضيع أجر من أحسن عملا ، بل موفى الصابرين أجرهم بغير حساب .قال الآلوسى : ومن البلاغة القرآنية أن الأوامر بأفعال الخير أفردت للنبى - صلى الله عليه وسلم - وإن كانت عامة فى المعنى والمناهى جمعت للأمة ، للدلالة على عظم منزلة الرسول - صلى الله عليه وسلم - عند ربه .

فلولا كان من القرون من قبلكم اولو بقية ينهون عن الفساد في الارض الا قليلا ممن انجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما اترفوا فيه وكانوا مجرمين

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بهذه الآيات الدالة على سنن الله - تعالى - فى خلقه ، وعلى الحكم التى من أجلها ساق الله - تعالى - تلك القصص فى كتابه فقال - تعالى - :( فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ القرون مِن قَبْلِكُمْ . . . ) .قوله - تعالى - ( فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ القرون مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الفساد فِي الأرض إِلاَّ قَلِيلاً مِّمّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ . . . ) إرشاد إلى أن الأمم إذا خلت من الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ، حلت بها المصائب والنكبات . ولولا : حرف تحضيض بمعنى هلا . والمقصود بالتحضيض هنا تحذير المعاصرين للنبى - صلى الله عليه وسلم - ومن سيأتى بعدهم من الوقوع فيما وقع فيه أهل القرون الماضية من ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، حتى لا يصيب اللاحقين ما أصاب السابقين .والقرون : جمع قرن ، والمراد به الأمة من الناس الذين يجمعهم زمان واحد ، والراجح أن القرن مائة عام .و ( أُوْلُواْ بَقِيّةٍ ) أى : أصحاب مناقب حميدة ، وخصال كريمة ، وعقول راجحة . . .وأصل البقية : ما يصطفيه الإنسان لنفسه من أشياء نفيسة يدخرها لينتفع بها ، ومنه قولهم : فلان من بقية القوم ، أى : من خيارهم وأهل الفضل فيهم ، قال الشاعر :إن تذنبوا ثم تأتينى بقيتكم ... فما على بذنب منكم فوتوفى الأمثال فى الزوايا خبايا ، وفى الرجال بقايا .والفساد فى الأرض : يشمل ما يكون فيها من المعاصى واختلال الأحوال وارتكاب المنكرات والبعد عن الصراط المستقيم .والمعنى : فلا وجد من أولئك الأقوام الذين كانوا من قبلكم ، رجال أصحاب خصال كريمة ، وعقول سليمة ، تجعلهم هذه الخصال وتلك العقول ينهون أنفسهم وغيرهم عن الإفساد فى الأرض ، وعن انتهاك الحرمات؟كلا إنهم لم يكن فيهم هؤلاء الرجال الذين ينهون عن الفساد فى الأرض ، إلا عددا قليلا منهم أنجيناهم بسبب إيمانهم عن الفساد فى الأرض .وفى هذا من التوبيخ لأهل مكة - ولكل من تقاعس عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ما فيه ، لأن الله تعالى - بين أن عذاب الاستئصال الذى حل بالظالمين السابقين ، كان من أسبابه عدم نهيهم عن الفساد فى الأرض .قال الشوكانى : والاستثناء فى قوله ( إِلاَّ قَلِيلاً . . . ) منقطع ، أى : لكن قليلا ممن أنجينا منهم كانوا ينهون عن الفساد فى الأرض ، وقيل : هو متصل ، لأن فى حرف التحضيض معى النفى ، فكأنه قال : ما كان فى القرون أولو بقية ينهون عن الفساد فى الأرض ، إلا قليلا من أنجينا منهم ، ومن فى قوله ( مِّمّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ) بيانية ، لأنه لم ينج إلا الناهون .وقال ابن كثير : ولهذا أمر الله - تعالى - هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وأولئك هم المفلحون وفى الحديث : " إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه ، أوشك الله أن ،

يعمهم بعقاب من عنده " ولهذا قال : ( فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ القرون مِن
قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الفساد فِي الأرض . . . )
وقوله : ( واتبع الذين ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ .. . ) إشارة إلى
أن هؤلاء القاعدين عن النهى عن الإفساد فى الأرض ، قد استمروا على فجورهم
وفسقهم دون أن يلتفتوا إلى خصال الخير ، وإلى سبيل الصلاح .وأترفوا من
الترف ومعناه التقلب فى نعم الله - تعالى - مع ترك شكره - سبحانه - عليها
، والمترف : هو الشخص الذى أبطرته النعمة ، فانغمس فى الشهوات والمعاصى.
وأعرض عن الأعمال الصالحة . .والجملة الكريمة معطوفة على كلام مقدر يقتضيه
الكلام ، والمعنى : أن هؤلاء الذين لم يكن فيهم أولو بقية ينهون عن الفساد
فى الأرض إلا من استثنى ، قد استمروا فى طغيانهم واتبعوا ما أنعموا فيه من
الثروة والعيش الهنئ والشهوت العاجلة ، فكفروا النعمة ، واستكبروا وفسقوا
عن أمر ربهم ، وكانوا قوما مجرمين ، أى مصرين على ارتكاب الجرائم والمنكرات
. فحق عليهم العقاب الذى يستحقونه بسبب هذه السيئات ،

وما كان ربك ليهلك القرى بظلم واهلها مصلحون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن رحمته بعباده تقتضى عدم ظلمه لهم
فقال : ( وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا
مُصْلِحُونَ ) .والمراد بالظلم هنا ما يشمل الإشراك بالله - تعالى - وغيره
من الوقوع فى المعاصى والمنكرات .والباء فى ( بظلم ) للملابسة ، والتنوين
فيه للإشعار بأن إهلاك المصلحين ظلم عظيم يتنزه الله - تعالى - عنه على
أبلغ وجه ، وإن كانت أفعله - عز وجل -لا ظلم فيها أيا كانت هذه الأفعال
والمعنى : وما كان من شأن ربك - أيها الرسول الكريم - أن يهلك أهل قرية من
القرى إهلاكاً متلبساً بظلم منه لها ، والحال أن أهلها قوم مصلحون ، لأن
ذلك الإهلاك مع تلك الحال يتنافى مع كتبه على نفسه من الرحمة والعدل
- قال - تعالى - ( كَتَبَ رَبُّكُمْ على نَفْسِهِ الرحمة . . . ) وقال
تعالى - ( وَلاَ يَظِلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ) وقال - تعالى - ( وَمَا كُنَّا
مُهْلِكِي القرى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ) ومنهم من فسر الظلم هنا
بالشرك ، وجعل الباء للسببية ، فيكون المعنى : ليس من شأن ربك أن يهلك أهل
، قرية من القرى بسبب كفرهم وحده ، مع صلاحهم فى تعاطى الحقوق فيما بينهم
وإنما يهلكهم عندما يضمون إلى الكفر الإفساد فى الأرض كما أهلك قوم شعيب
لشركهم وإنقاصهم المكيال والميزان .وقد ساق ابن جرير - رحمه الله - القولين
دون أن يرجح بينهما فقال : القول فى تأويل قوله - تعالى - ( وَمَا كَانَ
- رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ )يقول
تعالى - ذكره : وما كان ربك يا محمد ليهلك القرى التى أهلكها والتى قص عليك
نبأها ظلماً وأهلها مصلحون فى أعمالهم غير مسيئين ، فيكون إهلاكه إياهم مع
إصلاحهم فى أعمالهم وطاعتهم ربهم ظلماً ، ولكنه أهلكها بكفر أهلها بالله؛
: وتماديهم فى غيهم . .وقد قيل معنى ذلك : لم يكن ليهلكهم بشركهم بالله
وذلك قوله بظلم يعنى بشرك ، وأهلها مصلحون فيما بينهم لا يتظالمون ، ولكنهم
يتعاطون الحق بينهم وإن كانوا مشركين ، وإنما يهلكهم إذا تظالموا .والذى
نراه أن القول الأول أقرب إلى الصواب ، لأن حمل الظلم هنا على الشرك تخصيص
بدون مخصص ، حيث لم يرد عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حديث صحيح
. يخصصه بذلك ، فوجب حمل الظلم على معناه الحقيقى الذى يتناول الشرك وغيره

ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة ولا يزالون مختلفين

) : كما فسرها الوسيط ثم أخبر - سبحانه - بأن قدرته لا يعجزها شئ فقال
وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ الناس أُمَّةً وَاحِدَةً ) .والأمة : القوم
المجتمعون على أمر واحد؛ يقتدى فيه بعضهم ببعض ، وهذا اللفظ مأخوذ من " أم
بمعنى قصد ، لأن كل واحد من أفراد القوم يؤم المجموع ويقصده فى مختلف "
شئونه .ولو شرطية امتناعية ، ومفعول فعل المشيئة محذوف والتقدير :ولو شاء
ربك - أيها الرسول الكريم الحريص على إيمان قومه - أن يجعل الناس جميعاً
، أمة واحدة مجتمعة على الذين الحق لجعلهم ، ولكنه - سبحانه - لم يشأ ذلك
ليتميز الخبيث من الطيب ، وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - ( وَلَوْ شَآءَ
- رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأرض كُلُّهُمْ جَمِيعاً . . . ) وقوله - سبحانه
وقوله ( وَلاَ ( . . . وَلَوْ شَآءَ الله لَجَمَعَهُمْ عَلَى الهدى )
يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ . إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ) تأكيد لما اقتضته
سنته من اختلاف الناس .أى : ولا يزالون ما بقيت الدنيا مختلفين فى شأن
الدين الحق ، فمنهم من دخل فيه وآمن به ، ومنهم من أعرض عنه ، إلا الذين
رحمهم ربك منهم بهدايتهم إلى الصراط المستقيم من أول الأمر ، فإنهم لم
يختلفوا ، بل اتفقوا على الإيمان بالدين الحق فعصمهم الله - تعالى - من
. الاختلاف المذموم

الا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لاملان جهنم من الجنة والناس

اجمعين

كما فسرها الوسيط قال الإمام ابن كثير : وقوله ( إِلاَّ مَن رَّحِمَ
رَبُّكَ ) أى : إلا المرحومين من أتباع الرسل ، الذين تمسكوا بما أمروا به
من الدين الذى أخبرتهم به رسل الله إليهم ، ولم يزل ذلك دأبهم ، حتى كان
النبى - صلى الله عليه وسلم - الأمى خاتم الرسل والأنبياء ، فاتبعوه وصدقوه
ونصروه ، ففازوا بسعادة الدنيا والآخرة؛ لأنهم الفرقة الناجية ، كما جاء فى
الحديث المروى فى المسانيد والسنن ، من طرق يشد بعضها بعضا : " إن اليهود
افترقت على إحدى وسبعين فرقة ، وإن النصارى افترقوا على ثنتين وسبعين فرقة
. وستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها فى النار إلا فرقة واحدة ،
قالوا : ومن هم يا رسول الله ، قال : " ما أنا عليه وأصحابى " واسم
الإشارة فى قوله ( ولذلك خَلَقَهُمْ ) يعود على المصدر المفهوم من مختلفين
قال الآلوسى : فكأنه قيل : وللاختلاف خلق الناس ، على معنى لثمرة الاختلاف
من كون فريق فى الجنة وفريق فى السعير خلقهم .واللام لام العاقبة والصيرورة
لأن حكمة خلقهم ليس هذا ، لقوله - سبحانه - ( وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس ،
إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ) ولأنهم لو خلقهم له - أى للاختلاف - لم يعذبهم على
، ارتكاب الباطل .. .ومنهم من جعل الإشارة إلى الرحمة لأنها أقرب مذكور
فيكون التقدير : إلا من رحم ربك ولرحمته - سبحانه - خلق الناس .وصح تذكير
اسم الإشارة مع عودته إلى الرحمة لكون تأنيثها غير حقيقى .ومنهم من جهل
الإشارة إلى مجموع الاختلاف والرحمة ، لأنه ما مانع من الإشارة بها إلى
شيئين كما فى قوله ( عَوَانٌ بَيْنَ ذلك ) أى بين الفارض والبكر .فيكون
المعنى : " وللاختلاف والرحمة خلقهم " أى أنه - سبحانه - خلق أهل الرحمة
: للرحمة وأهل الاختلاف للاختلاف .وقد رجح الإمام القرطبى هذا الوجه فقال
قوله " ولذلك خلقهم " قال الحسن ومقاتل وعطاء :الإشارة إلى الاختلاف ، أى
وللاختلاف خلقهم . وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك .الإشارة إلى :
الرحمة : أى : ولرحمته خلقهم .وقيل : الإشارة إلى الاختلاف والرحمة ، وقد
يشار بذلك إلى شيئين متضادين ،كما فى قوله - تعالى - ( والذين إِذَآ
أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ
قَوَاماً ) وهذا أحسن الأقوال - إن شاء الله - لأنه يعم . أى : ولما ذكر
خلقهم . . أى : خلقهم ليكون فريق فى الجنة وفريق فى السعير . أى خلق أهل
- الاختلاف للاختلاف وأهل الرحمة للرحمة . .والمراد بكلمة ربك فى قوله
سبحانه - ( لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجنة والناس أَجْمَعِينَ ) فاللازم
. . دخول جميع تابعيه فى جهنم ، والقرآن يفسر بعضه بعضا

وكلا نقص عليك من انباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة
وذكرى للمؤمنين

- كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أهم الفوائد التى تعود على الرسول
صلى الله عليه وسلم - من وراء إخباره بأحوال الأنبياء السابقين مع أقوامهم
فقال : ( وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرسل مَا نُثَبِّتُ
. بِهِ فُؤَادَكَ . . . ) .والتنوين فى قوله ( وكلا ) للعوض عن المضاف إليه
والأنباء جمع نبأ وهو الخبر الهام :أى : وكل نبأ من أنباء الرسل الكرام
السابقين نقصه عليك - أيها الرسول الكريم - ونخبرك عنه . فالمقصود به تثبيت
قلبك ، وتقوية يقينك ، وتسلية نفسك ونفوس أصحابك عما لحقكم من أذى فى سبيل
تبليغ دعوة الحق إلى الناس .وقوله - سبحانه - ( وَجَآءَكَ فِي هذه الحق
وَمَوْعِظَةٌ وذكرى لِلْمُؤْمِنِينَ ) بيان لما اشتملت هذه السورة الكريمة
من أخبار صادقة ، وعظات بليغة .أى وجاءك - أيها الرسول الكريم - فى هذه
السورة الكريمة وغيرها من سور القرآن الكريم : الحق الثابت المطابق للواقع
والعظات الحكيمة ، والذكرى النافعة للمؤمنين بما جئت به .وأما الذين فى ،
قلوبهم مرض فقد زادتهم هذه السورة وأمثالها رجسا إلى رجسهم ، وماتوا وهم
. كافرون

وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم انا عاملون

- كما فسرها الوسيط ثم أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم
بالسير فى طريق الحق بدون مبالاة بتهديد أعدائه فقال : ( وَقُل لِّلَّذِينَ
لاَ يُؤْمِنُونَ اعملوا على مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ . وانتظروا
: إِنَّا مُنتَظِرُونَ ) والأمر فى هذه الآية الكريمة للتهديد .ومكانتكم
- مصدر مكن - بزنة كرم - مكانة ، إذا تمكن من الأمر أبلغ التمكن .أى : و قل
، أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المشركين الذين يضعون العقبات فى طريق دعوتك
قل لهم اعملوا ما تستطيعون عمله من الكيد لى ولدعوتى ، فإنى وأصحابى
مستمرون على السير فى طريق الحق الذى هدانا الله إليه ، بدون التفات إلى
كيدكم وقل لهم - أيضا - : انتظروا ما يأتى به الله من عقاب ، فإنا منتظرون
. معكم ذلك

وانتظروا انا منتظرون

`<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html} كما فسرها الوسيط

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - بالسير فى طريق الحق بدون مبالاة بتهديد أعدائه فقال : ( وَقُل لِّلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ اعملوا على مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ . وانتظروا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ) والأمر فى هذه الآية الكريمة للتهديد .ومكانتكم : مصدر مكن - بزنة كرم - مكانة ، إذا تمكن من الأمر أبلغ التمكن .أى : و قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المشركين الذين يضعون العقبات فى طريق دعوتك ، قل لهم اعملوا ما تستطيعون عمله من الكيد لى ولدعوتى ، فإنى وأصحابى مستمرون على السير فى طريق الحق الذى هدانا الله إليه ، بدون التفات إلى كيدكم وقل لهم - أيضا - : انتظروا ما يأتى به الله من عقاب ، فإنا منتظرون معكم ذلك .

ولله غيب السماوات والارض واليه يرجع الامر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بهذه الآية الجامعة فقال : ( وَلِلَّهِ غَيْبُ السماوات والأرض وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأمر كُلُّهُ فاعبده وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ) .أى : والله - تعالى - وحده علم جميع ما غاب عن الحواس فى السموات والأرض ، وإليه وحده يرجع الأمر كله من إحياء وإماتة ، وهداية وضلال ، وصحة ومرض ، ونصر وهزيمة .وما دام الأمر كذلك ( فاعبده وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ) أى : فأخلص له العبادة ، واجعل توكلك عليه وحده .( وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ) بل هو مطلع وبصير بأعمال عباده ، جميعا ، لا يعزب عنه مثقال ذرة منها ، وسيجازى الذين أساءوا بما عملوا ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

الر تلك ايات الكتاب المبين

كما فسرها الوسيط افتتحت سورة يوسف - عليه السلام - ببعض الحروف المقطعة . وقد سبق أن تكلمنا عن آراء العلماء فى هذه الحروف فى سورة البقرة ، وآل عمران ، والأعراف ، ويونس ، وهود .وقلنا ما ملخصه : لعل أقرب الأقوال إلى الصواب ، أن هذه الحروف المقطعة ، قد وردت فى افتتاح بعض السور على سبيل الايقاظ والتنبيه إلى إعجاز القرآن الكريم .فكأن الله - تعالى - يقول لأولئك المعارضين فى أن القرآن من عند الله - تعالى - : هاكم ترونه مؤلفا من كلام هو من جنس ما تؤلفون منه كلامكم ، ومنظوما من حروف هى من جنس الحروف الجهائية التى تنظمون منها حروفكم . . فإن كنتم فى شك من كونه منزلا من عند الله فهاتوا مثله ، وادعوا من شئتم من الخلق لكى يعاونكم فى ذلك ومما يشهد لصحة هذا الرأى : أن الآيات التى تلى هذه الحروف المقطعة تراها . تتحدث - صراحة أو ضمنا - عن القرآن الكريم وعن كونه من عند الله - تعالى - وعن كونه معجزة للرسول - صلى الله عليه وسلم - ففى مطلع سورة البقرة ( الاما . ذَلِكَ الكتاب لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ . . . ) وفى مطلع سورة آل عمران : ( الاما . الله لا إله إِلاَّ هُوَ الحي القيوم نَزَّلَ عَلَيْكَ الكتاب بالحق مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التوراة والإنجيل . . ) وفى أول سورة يونس : ( الار تِلْكَ آيَاتُ الكتاب الحكيم . أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أنذِرِ الناس وَبَشِّرِ الذين آمنوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ . . . ) وفى أول سورة هود : ( الار كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ) . . . وهكذا نجد أن معظم الآيات التى تلى الحروف المقطعة ، منها ما يتحدث عن أن هذا الكتاب من عند الله - سبحانه - ومنها ما يتحدث عن وحدانية الله - تعالى - ، ومنها ما يتحدث عن صدق الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى دعوته . وهذا كله لتنبيه الغافلين إلى أن هذا القرآن من عند الله ، وأنه المعجزة الخالدة للرسول - صلى الله عليه وسلم - .ثم قال - تعالى - : ( تِلْكَ آيَاتُ الكتاب المبين )و " تلك " اسم إشارة ، المشار إليه الآيات ، والمراد : بها آيات القرآن الكريم ويندرج فيها آيات السورة التى معنا .والكتاب مصدر كتب كالكتب . وأصل الكتب ضم أديم إلى آخر بالخياطة . واستعمل عرفا فى ضم الحروف بعضها إلى بعض بالخط ، والمراد به القرآن الكريم .والمبين : أى الواضح الظاهر من أبان بمعنى بان أى ظهر .والمعنى : تلك الآيات التى نتلوها عليك - أيها الرسول الكريم - فى هذه السورة اوفى غيرها ، هى آيات الكتاب الظاهر أمره ، الواضح إعجازه ، بحيث لا تشتبه على العقلاء حقائقه ، ولا تلتبس عليهم هداياته .وصحت الإشارة إلى آيات الكتاب الكريم ، مع أنها لم

تكن قد نزلت جميعها ، لأن الإشارة إلى بعضها كالإشارة إلى جميعها ، حيث كانت بصدد الإنزال ، ولأن الله - تعالى - قد وعد رسوله - صلى الله عليه وسلم - بنزول القرآن عليه ، كما فى قوله ( إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ) ووعد الله - تعالى -لا يتخلف .

انا انزلناه قرانا عربيا لعلكم تعقلون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - الحكمة من إنزاله بلسان عربى مبين فقال : ( إِنَّآ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ) - أى : إنا أنزلنا هذا الكتاب الكريم على نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم. ، بلسان عربى مبين ، لعلكم أيها المكلفون بالإيمان به ، تعقلون معانيه ، وتفهمون ألفاظه ، وتنتفعون بهداياته ، وتدركون أنه ليس من كلام البشر " وإنما هو كلام خالق القوى والقدر وهو الله - عز وجل - .فالضمير فى أنزلناه " يعود إلى الكتاب ، وقرآنا حال من هذا الضمير أو بدلا منه والتأكيد بحرف إن متوجه إلى خبرها وهو أنزلناه ، للرد على أولئك المشركين. الذين أنكروا أن يكون هذا القرآن من عند الله .وجملة ( لَّعَلَّكُمْ " تَعْقِلُونَ ) بيان لحكمة إنزاله بلغة العرب وحذف مفعول " تعقلون للإشارة إلى أن نزلوه بهذه الطريقة ، يترتب عليه حصول تعقل أشياء كثيرة لا يحصيها العد .قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : قوله : ( إِنَّآ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ) وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات ، وأبينها وأوسعها ، وأكثرها تأدية للمعانى التى ، تقوم بالنفوس ، فلهذا أنزل أشرف الكتب ، بأشرف اللغات ، على أشرف الرسل بسفارة أشرف الملائكة ، وكان ذلك فى أشرف بقاع الأرض ، وفى أشرف شهور السنة فكمل له الشرف من كل الوجوه .وقال الجمل : " واختلف العلماء هل يمكن أن ، يقال : فى القرآن شئ غير عربى " .قال أبو عبيدة : من قال بأن فى القرآن شئ غير عربى فقد أعظم على الله القول . واحتج بهذه الآية .وروى عن ابن عباس ، ومجاهد وعكرمة بأن فيه من غير العربى مثل : سجيل ، والمشكاة ، واليم وإستبرق ونحو ذلك .وهذا هو الصحيح المختار ، لأن هؤلاء أعلم من أبى عبيدة بلسان العرب . وكلا القولين صواب - إن شاء الله - .ووجه الجمع بينهما أن ، هذه الألفاظ لما تكلمت بها العرب ، ودارت على ألسنتهم صارت عربية فصيحة وإن كانت غير عربية فى الأصل ، لكنهم لما تكلموا بها نسبت إليهم ، وصارت لهم لغة ، فظهر بهذا البيان صحة القولين ، وأمكن الجمع بينهما .

نحن نقص عليك احسن القصص بما اوحينا اليك هذا القران وان كنت من قبله لمن الغافلين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن هذا القرآن مشتمل على أحسن القصص وأحكمها وأصدقها فقال - تعالى - ( نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القصص بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هذا القرآن وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الغافلين ) .قال الفخر الرازى ما ملخصه : " القصص : إتباع الخبر بعضه بعضا . وأصله فى اللغة المتابعة قال - تعالى - ( وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ ، أى اتبعى أثره . وقال - تعالى - ( فارتدا على آثَارِهِمَا قَصَصاً ) أى ( . اتباعاً ، وإنما سميت الحكاية قصصا ، لأن الذى يقص الحديث يذكر تلك القصة : شيئا فشيئا ، كما يقال : " تلا فلان القرآن ، أى قرأه آية فآية " .والمعنى نحن نقص عليك - أيها الرسول الكريم " أحسن القصص " أى : أحسن أنواع : البيان ، وأوفاه بالغرض الذى سبق من أجله .وإنما كان قصص القرآن أحسن القصص لاشتماله على أصدق الأخبار ، وأبلغ الأساليب ، وأجمعها للحكم والعبر ، والعظات .والباء فى قوله ( بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هذا القرآن ) للسببية متعلقة بنقص ، و ( ما ) مصدرية .أى : نقص عليك أحسن القصص ، بسبب ، إيحائنا إليك هذا القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه والذى هو فى الذورة العليا فى بلاغته وتأثيره فى النفوس .وجملة ( وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الغافلين ) فى موضع الحال من كاف الخطاب فى ) إليك ) و " إن " مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن محذوف .والضمير فى قوله ( مِن قَبْلِهِ ) يعود إلى الإيحاء المفهوم من قوله ( أَوْحَيْنَآ ) . والمعنى : نحن نقص عليك أحسن القصص بسبب ما أوحيناه إليك من هذا القرآن. والحال أنك كنت قبل إيحائنا إليك بهذا القرآن ، من الغافلين عن تفاصيل هذا القصص ، وعن دقائق أخباره وأحداثه ، شأنك فى ذلك شأن قومك الأميين .قال تعالى : ( تِلْكَ مِنْ أَنْبَآءِ الغيب نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هذا فاصبر إِنَّ العاقبة لِلْمُتَّقِينَ ) .

اذ قال يوسف لابيه يا ابت اني رايت احد عشر كوكبا والشمس والقمر رايتهم لي ساجدين

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - قصة يوسف - عليه السلام - كمثال لأحسن القصص فقال - تعالى - ( إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ ياأبت إِنِّي رَأَيْتُ ) أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً والشمس والقمر رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ) .و إذ ) ظرف متعلق بمحذوف تقديره اذكر .ويوسف : اسم أعجمى ، مشتق - كما يقول الآلوسى - من الأسف ، وسمى به لأسف أبيه عليه . وأبوه : هو يعقب بن إسحاق بن إبراهيم . وفى الحديث الصحيح عن ابن عمر - رضى الله عنهما - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : " الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم " .وقوله : ( ياأبت ) أصله يا أبى ، فحذفت الياء وعوض عنها تاء التأنيث ، ونقلت إليها كسرة الباء ، ثم فتحت الباء لمناسبة تاء التأنيث .والمعنى : اذكر - أيها الرسول الكريم أو أيها المخاطب - وقت أن قال يوسف لأبيه ، يا أبت إنى رأيت فى منامى ( أَحَدَ ) عَشَرَ كَوْكَباً ) تسجد لى : ورأيت كذلك ( والشمس والقمر ) لى سَاجِدِينَ ) .ولم يدرج الشمس والقمر فى الكواكب مع أنهما منها ، لإظهار مزيتهما ورفعا لشأنهما ، وجملة ( رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ) مستأنفة لبيان الحالة التى رآهم عليها .وأجريت هذه الكواكب مجرى العقلاء فى الضمير المختص بها ، لوصفها بوصفهم حيث إن السجود من صفات العقلاء ، والعرب تجمع ما لا يعقلجمع من يعقل إذا أنزلوه منزلته .قال ابن كثير : " وقد تكلم ، المفسرون على تبعير هذا المنام : أن الأحد عشر كوكبا عبارة عن إخوته وكانوا أحد عشر رجلا ، والشمس والقمر عبارة عن أبيه وأمه .روى هذا عن ابن عباس ، والضحاك ، وقتادة وسفيان الثورى ، وعبد الرحمن بن زيد ، وقد وقع تفسيرها بعد أربعين سنة ، وقيل بعد ثمانين سنة ، وذلك حين رفع أبويه على العرش ، وهو سريره . وإخوته بين يديه . . وخروا له سجدوا وقال : يا أبت هذا . " . . . تأويل رؤياى من قبل ، قد جعلها ربى حقا

قال يا بني لا تقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك كيدا ان الشيطان للانسان عدو مبين

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما قاله يعقوب لابنه يوسف بعد أن قص عليه رؤياه فقالك (قَالَ يابني لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ على إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشيطان لِلإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ) .وقوله ( يابني ) تصغير ابن . والتصغير هنا سببه صغر سنه مع الشفقة عليه ، والتلطيف معه .وقوله ( رُؤْيَاكَ ) من الرؤيا التى هى مصدر رأى العلمية الدالة على ما وقع للإنسان فى نومه ، أما رأى البصرية فيقال فى مصدرها الرؤية .وقوله " فيكيدوا لك . . " من الكيد وهو الاحتيال الخفى بقصد الإضرار والفعل كاد يتعدى بنفسه ، فيقال : كاده يكيده كيدا ، إذا احتال لإهلاكه . ولتضمنه معنى احتال عدى باللام .والمعنى : قال يعقوب لابنه يوسف - عليهما السلام - بشفقة ورحمة ، بعد أن سمع منه ما رآه فى منامه : " يا بنى "لا تخبر إخوتك بما رأيته فى منامك فإنك إن أخبرتهم بذلك احتالوا لإهلاكك احتيالا خفيا ، لا قدرة لك على مقاومته أو دفعه . .وإنما قال له ذلك ، لأن هذه الرؤيا تدل على أن الله - تعالى - سيعطى يوسف من فضله عطاء عظيما . ويهبه منصبا جليلا ، ومن شأن صاحب النعمة أن يكون محسودا من ، كثير من الناس ، فخاف يعقوب من حسد إخوة يوسف له ، إذا ما قص عليهم رؤياه ومن عدوانهم عليه .والتنوين فى قوله " كيدا " للتعظيم والتهويل ، زيادة فى تحذيره من قص الرؤيا عليهم .وجملة " إن الشيطان للإنسان عدو مبين " واقعة موقع التعليل للنهى عن قص الرؤيا على إخوته ، وفيها إشارة إلى أن الشيطان هو الذى يغريهم بالكيد له إذا ما قص عليهم ما رآه ، وهو بذلك لا يثير فى نفسه الكراهة لإخوته .أى :لا تخبر إخوتك بما رأيته فى منامك ، فيحتالوا ، للإضرار بك حسدا منهم لك ، وهذا الحسد يغرسه الشيطان فى نفوس الناس لتتولد بينهم العداوة والبغضاء ، فيفرح هو بذلك ، إذ كل قبيح يقوله أو يفعله الناس يفرح له الشيطان .هذا ، وقد أخذ العلماء من هذه الآية أحكاما منها :أنه يجوز للإنسان فى بعض الأوقات أن يخفى بعض النعم التى أنعم الله بها عليه ، خشية حسد الحاسدين ، أو عدوان المعتدين .وأن الرؤيا الصادقة حالة يكرم الله بها بعض عباده الذين زكت نفوسهم فيكشف لهم عما يريد أن يطلعهم عليه قبل وقوعه . ومن الأحاديث التى وردت فى فضل الرؤيا الصالحة ما رواه البخارى عن عائشة - رضى الله عنها - أنها قالت : " أول ما بدئ به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الوحى الرؤيا الصادقة ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . . " .وفى حديث آخر : " الرؤيا الصالحة من الرجل الصالح ، جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة " .وفى حديث ثالث : " لم يبق من النبوة إلا المبشرات ، وهى الرؤيا الصالحة للرجل الصالح ، يراها أو ترى له " .كذلك أخذ جمهور العلماء من هذه الآية أن إخوة يوسف لم يكونوا أنبياء قال الآلوسى عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : " والظاهر أن القوم - أى. إخوة يوسف - كانوا بحيث يمكن أن يكون للشيطان عليهم سبيل ، ويؤيد هذا أنهم لم يكونوا أنبياء .وهذا ما عليه الأكثرون سلفا وخلفا . أما السلف فإنه لم ينقل عن أحد من الصحابة أو التابعين أنه قال بنبوتهم .وأما الخلف فكثير

منهم نفى عنهم أن يكونوا أنبياء ، وعلى رأى من قال بذلك الإمام ابن تيمية فى مؤلف له خاص بهذه المسألة ، وقد قال فيه :الذى يدل عليه القرآن واللغة ، والاعتبار ، أن إخوة يوسف ليسوا بأنبياء ، وليس فى القرآن ولا فى السنة ما يشير إلى أنهم كانوا أنبياء . . .

وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تاويل الاحاديث ويتم نعمته عليك وعلى ال يعقوب كما اتمها على ابويك من قبل ابراهيم واسحاق ان ربك عليم حكيم

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - ما توقعه يعقوب لابنه يوسف من خير وبركة فقال :( وكذلك يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأحاديث وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وعلى آلِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَآ على أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ )والكاف فى قوله ( وكذلك ) حرف تشبيه بمعنى مثل ، وهى داخله على كلام محذوف .وقوله ( يَجْتَبِيكَ ) من الاجتباء بمعنى الاصطفاء والاختيار ، مأخوذ من جبيت الشئ إذا اخترته لما فيه من النفع والخير .و ( تَأْوِيلِ الأحاديث ) معناه تفسيرها صحيحا ، إذا التأويل مأخوذ من الأَوْل بمعنى الرجوع ، وهو رد الشئ إلى الغاية المرادة منه .والأحاديث جمع تكسير مفرده حديث ، وسميت الرؤى أحاديث باعتبار حكايتها والتحدث بها - والمعنى : وكما اجتباك ربك واختارك لهذه الرؤيا الحسنة ، فإنه - سبحانه. ، يجتبيك ويختارك لأمور عظام فى مستقبل الأيام ، حيث يهبك من صدق الحسّ ونفاذ البصيرة ، ما يجعلك تدرك الأحاديث إدراكا سليما ، وتعبر الرؤى تعبيرا " صحيحا صادقا ." ويتم نعمته عليك " بالنبوة والرسالة والملك والرياسة ). وعلى آل يعقوب "وهم إخوته وذريتهم ، بأن يسبغ عليهم الكثير من نعمه كَمَآ أَتَمَّهَآ على أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ ) أى : من قبل هذه الرؤيا أو من قبل هذا الوقت .وقوله " إبراهيم وإسحاق " بيان لأبويه .أى : يتم نعمته عليك إتماما كائنا كإتمام نعمته على أبويك من قبل ، وهما إبراهيم وإسحاق ، بأن وهبهما - سبحانه - النبوة والرسالة .وعبر عنهما بأنهما أبوان ليوسف مع أن إبراهيم جد أبيه ، وإسحاق جده ، للإشعار بكمال ارتباطه بالأنبياء عليهم السلام - وللمبالغة فى إدخال السرور على قلبه ، ولأن هذا الاستعمال - مألوف فى لغة العرب ، فقد كان أهل مكة يقولون للنبى - صلى الله عليه وسلم يا ابن عبد المطلب ، وأثر عنه - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : " أنا النبى لا كذب - أنا ابن عبد المطلب " وجملة ( إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ) مستأنفة لتأكيد ما سبقها من كلام .أى : إن ربك عليم بمن يصطفيه لحمل رسالته ، وبمن هو أهل لنعمه وكرامته ، حكيم فى صنعه وتصرفاته .وبذلك نرى الآيات الكريمة قد نوهت بشأن القرآن الكريم ، وساقت بأسلوب حكيم ما قاله يعقوب لابنه يوسف - عليهما السلام - بعد أن قص ما رآه فى المنام .

لقد كان في يوسف واخوته ايات للسائلين

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك حالة إخوة يوسف وهم يتآمرون عليه ، وحالتهم وهم يجادلون أباهم فى شأنه . وحالتهم وهم ينفذون مؤامراتهم - المنكرة وحالتهم بعد أن نفذوهاوعادوا إلى أبيهم ليلا يتباكون فقال - تعالى - :( لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ . . . ) .قوله سبحانه - ( لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ) شروع فى حكاية قصة يوسف مع إخوته ، بعد أن بين - سبحانه - صفة القرآن الكريم ، وبعد أن أخبر عما رآه يوسف فى منامه ، وما قاله أبوه له .وإخوة يوسف هم : رأو بين ، وشمعون ، ولاوى ، ويهوذا ، ويساكر ، وزبولون ، ودان ، ونفتالى ، وجاد ، وأشير ، وبينامين .والآيات : جمع آية والمراد بها هنا العبر والعظات والدلائل الدالة على قدرة الله - تعالى - ووجوب إخلاص العبادة له .والمعنى : لقد كان فى قصة يوسف مع إخوته عبر وعظات وعظيمة ، ودلائل تدل على قدرة الله القاهرة ، وحكمته الباهرة ، وعلى ما للصبر وحسن الطوية من عواقب الخير والنصر ، وعلى ما للحسد والبغى من شرور وخذلان وقوله : " للسائلين " أى : لمن يتوقع منهم السؤال ، بقصد الانتفاع بما. ساقه القرآن الكريم من مواعظ وأحكام .أى : لقد كان فيما حدث بين يوسف وإخوته ، آيات عظيمة ، لكل من سأل عن قصتهم ، وفتح قلبه للانتفاع بما فيها من حكم وأحكام ، تشهد بصدق النبى - صلى الله عليه وسلم - فيما يبلغه عن ربه وهذا الافتتاح لتلك القصة ، كفيل بتحريك الانتباه لما سيلقى بعد ذلك منها. ومن تفصيل لأحداثها ، وبيان لما جرى فيها ، .

اذ قالوا ليوسف واخوه احب الى ابينا منا ونحن عصبة ان ابانا لفي ضلال مبين

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إلى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ . . ) .بيان لما قاله إخوة يوسف فيما بينهم ، قبل أن ينفذوا جريمتهم .و " إذ " ظرف متعلق بالفعل " كان

فى قوله - سبحانه - قبل ذلك : ( لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ "
، واللام فى قوله ( ليوسف ) لتأكيد أن زيادة محبة أبيهم ليوسف وأخيه. ( . .
أمر ثابت ، لا يقبل التردد أو التشكك .والمراد بأخيه : أخوه من أبيه وأمه
وهو " بنيامين " وكان أصغر من يوسف - عليه السلام - أما بقيتهم فكانوا إخوة
له من أبيه فقط .ولم يذكروه باسمه ، للاشعار بأن محبة يعقوب له ، من
" أسبابها كونه شقيقا ليوسف ، ولذا كان حسدهم ليوسف أشد .وجملة " نحن عصبة
حالية . والعصبة كلمة تطلق على ما بين العشرة إلى الأربعين من الرجال ، وهى
مأخوذة من العصب بمعنى الشد ، لأن كلا من أفرادها يشد الآخر ويقويه ويعضده
أو لأن الأمور تعصب بهم . أى تشتد وتقوى .أى : قال إخوة يوسف وهم ،
، يتشاورون فى المكر به : ليوسف وأخوه " بنيامين " أحب إلى قلب أبينا منا
مع أننا نحن جماعة من الرجال الأقوياء الذين عندهم القدرة على خدمته
) : - ومنفعته والدفاع عنه دون يوسف وأخيه .وقولهم - كما حكى القرآن عنهم
إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ) تذييل قصدوا به درء الخطأ عن
- أنفسهم فيما سيفعلونه بيوسف وإلقائه على أبيه الذى فرق بينهم - فى زعمهم
فى المعاملة .والمراد بالضلال هنا : عدم وضع الأمور المتعلقة بالأبناء فى
موضعها الصحيح ، وليس المراد به الضلال فى العقيدة والدين .أى : إن أبانا
لفى خطأ ظاهر ، حيث فضل فى المحبة صبيين صغيرين على مجموعة من الرجال
) الأشداء النافعين له القادرين على خدمته .قال القرطبى : لم يريدوا بقولهم
إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ) الضلال فى الدين إذلو أرادواه
لكانوا كفارا ، بل أرادوا : إن أبانا لفى ذهاب عن وجه التدبير فى إيثاره
اثنين على عشرة ، مع استوائهم فى الانتساب إليه .وهذا الحكم منهم على أبيهم
ليس فى محله ، لأن يعقوب - عليه السلام - كان عنده من أسباب التفضيل ليوسف
- عليهم ما ليس عندهم .قال الآلوسى ما ملخصه : يروى أن يعقوب - عليه السلام
كان يوسف أحب إليه لما يرى فيه من المناقب الحميدة ، فلام رأى الرؤيا
تضاعفت له المحبة .وقال بعضهم : إن زيادة حبه ليوسف وأخيه ، صغرهما ، وموت
أمهما ، وقد قيل لإحدى الأمهات : أى بنيك أحب إليك؟ قالت : الصغير حتى
يكبر ، والغائب حتى يقدم ، والمريض حتى يشفى .ولا لوم على الوالد فى تفضيله
بعض ولده على بعض فى المحبة لمثل ذلك وقد صرح غير واحد أن المحبة ليست مما
. . يدخل تحت وسع البشر

اقتلوا يوسف او اطرحوه ارضا يخل لكم وجه ابيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين

- كما فسرها الوسيط ثم أخبر - سبحانه - عما اقترحوه للقضاء على يوسف فقال
تعالى - : ( اقتلوا يُوسُفَ أَوِ اطرحوه أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ
أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ ) .ولفظ " اطرحوه
مأخوذ من الطرح ، ومعناه رمى الشئ وإلقاؤه بعيداً ، ولفظ " أرضاً " منصوب
على نزع الخافض ، والتنوين فيه للإبهام . أى : أرضا مجهولة .والمعنى : لقد
بالغ أبونا فى تفضيل يوسف وأخيه علينا ، مع أننا أولى بذلك منهما؛ وما دام
هو مصراً على ذلك ، فالحل أن تقتلوا يوسف ، أو أن تلقوا به فى أرض بعيدة
مجهولة حتى يموت فيها غريبا .قال الآلوسى : " وحاصل المعنى : اقتلوه أو
غربوه ، فإن التغريب كالقتل فى حصول المقصود ، ولعمرى لقد ذكروا أمرين مرين
فإن الغربة كربة اية كبرة ، ولله - تعالى - در القائل :حسنوا القول ،
وقالوا غربة ... إنما الغربة للأحرار ذبحوالخلو : معناه الفراغ . يقال خلا
المكان يخلو خلوا وخلاء ، إذا لم يكن به أحد .والمعنى : اقتلوا يوسف أو
اقذفوا به فى أرض بعيدة مجهولة حتى يموت ، فإنكم إن فعلتم ذلك ، خلصت لكم
محبة أبيكم دون أن يشارككم فيها أحد ، فيقبل عليكم بكليته ، ويكن كل توجهه
إليكم وحدكم ، بعد أن كان كل توجهه إلى يوسف .قال صاحب الكشاف : ( يَخْلُ
لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ) أى : يقبل عليكم إقبالة واحدة ، لا يلتفت عنكم
، إلى غيركم والمراد سلامة محبته لهم ممن يشاركهم فيها ، وينازعهم إياها
فكان ذكر الوجه لتصوير معنى إقباله عليهم ، لأن الرجل إذا أقبل على الشئ
أقبل عليه بوجهه .. ."وقوله ( وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْماً
صَالِحِينَ ) معطوف على جواب الأمر .أى : وتكونوا من بعد الفراغ من أمر
يوسف بسبب قتله أو طرحه فى أرض بعيدة ، قوما صالحين فى دينكم ، بأن تتوبوا
إلى الله بعد ذلك فيقبل الله توبتكم ، وصالحين فى دنياكم بعد أن خلت من
المنغصات التى كان يثيرها وجود يوسف بينكم .وهكذا النفوس عندما تسيطر علها
الأحقاد ، وتقوى فيها رذيلة الحسد ، تفقد تقديرها الصحيح للأمور ، وتحاول
، التخلص ممن يزاحمها بالقضاء عليه ، وتصور الصغائر فى صورة الكبائر
والكبائر فى صورة الصغائر .فإخوة يوسف هنا ، يرون أن محبة أبيهم لأخيهم جرم
عظيم ، يستحق إزهاق روح الأخ . وفى الوقت نفسه يرون أن هذا الإزهاق للروح
، البريئة شئ هين ، فى الإمكان أن يعودوا بعده قوما صالحين أمام خالقهم
. وأمام أبيهم ، وأمام أنفسهم

قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف والقوه في غيابت الجب يلتقطه بعض السيارة ان
كنتم فاعلين

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الجب يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السيارة إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ) بيان للرأى الذى اقترحه أحدهم ، واستقر عليه أمرهم .قال القرطبى ما ملخصه : قوله ( وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الجب قرأ أهل مكة وأهل البصرة وأهل الكوفة " فى غيابة الجب " بالإفراد - وقرأ ( أهل المدينة " فى غيابات الجب " - بالجمع- .وكل شئ غيب عنك شيئا فهو غيابة ... ومنه قيل للقبر غيابة - قال الشاعر :فإن أنا يوما غيبتنى غيابتى ، - فسيروا بسيرى فى العشيرة والاهلوالجب : الركية - أى الحفرة - التى لم تطو أى لم بتن بالحجارة - فإذا طويت فهى بئر . وسميت جبا لأنها قطعت فى الأرض قطعا . وجمع الجب جببه وجباب وأجباب .وجمع بين الغيابة والجبن ، لأنه أراد ألقوه فى موضع مظلم الجب حتى لا يلحقه نظر الناظرين . . .والسيارة : جمع سيار ، والمراد بهم جماعة المسافرين الذين يبالغون فى السير ليصلوا إلى مقصودهم .والمعنى : قال قائل من إخوة يوسف أفرزعه ما هم مقدمون علهي بشأن أخيهم الصغير :لا تقتلوا يوسف ، لأن قتله جرم عظيم ، وبدلا من ذلك ، ألقوه فى قعر الجب حيث يغيب خبره ، إلى أن يلتقطه من الجب بعض المسافرين ، فيذهب به إلى ناحية بعيدة عنكم ، وبذلك تستريحون منه ويخل لكم وجه أبيكم .ولم يذكر القرآن اسم هذا القائل أو وصفه ، لأنه لا يتعلق بذكر ذلك غرض ، وقد رجح بعض المفسرين أن المراد بهذا القائل " يهوذا "والفائدة فى وصفه بأنه منهم ، الإخبار بأنهم لم يجمعوا على قتله أو طرحه فى أرض بعيدة حتى يدركه ، الموت .وأتى باسم يوسف دون ضميره ، لاستدرار عطفهم عليه ، وشفقتهم به واستعظام أمر قتله .وجواب الشرط فى قوله ( إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ) محذوف لدلالة" وألقوه " عليه .والمعنى : إن كنتم فاعلين ما هو خير وصواب ، فألقوه فى غيابة الجب ، ولا تقتلوه ولا تطرحوه أرضا .وفى هذه الجملة من هذا القائل محاولة منه لتثبيطهم عما اقترحوه من القتل أو التغريب بأسلوب بليغ ، حيث ، فوض الأمر إليهم ، تعظيما لهم ، وحذرا من سوء ظنهم به ، فكان أمثلهم رأيا وأقربهم إلى التقوى .قالوا : وفى هذا الرأى عبرة فى الاقتصاد عند الانتقام والاكتفاء بما حصل به الغرض دون إفراط ، لأن غرضهم إنما هو إبعاد يوسف عن ، أبيهم . وهذا الإبعاد يتم عن طريق إلقائه فى غيابة الجب .

قالوا يا ابانا ما لك لا تامنا على يوسف وانا له لناصحون

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - محاولاتهم مع أبيهم ، ليأذن لهم بخروج يوسف معهم فقال : ( قَالُواْ ياأبانا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا على يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ . أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ - وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ) .أى : قال إخوة يوسف لأبيهم محاولين استرضاءه لاستصحاب يوسف معهم - يا أبانا ( مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا ، على يُوسُفَ ) أى : أى شئ جعلك لا تأمنا على أخينا يوسف فى خروجه معنا ، والحال أننا له لناصحون ، فهو أخونا ونحن لا نريد له إلا الخير الخالص ، والود الصادق .وفى ندائهم له بلفظ " يا أبانا " استمالة لقلبه ، وتحريك لعطفه ، حتى يعدل عن تصميمه على عدم خروج يوسف معهم .والاستفهام فى قولهم : للتعجيب من عدم ائتمانهم عليه مع أنهم ( . . . مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا ) إخوته ، وهو يوحى بأنهم بذلوا محاولات قبل ذلك فى اصطحابه معم ولكنها جميعا باءت بالفشل .

ارسله معنا غدا يرتع ويلعب وانا له لحافظون

كما فسرها الوسيط ثم أضافوا إلى ذلك قولهم ( أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ . . . ) .والرتع والرتوع هو الاتساع فى الملاذ والتنعم فى العيش ، يقال : رتع الإنسان فى النعمة إذا أكل ما يطيب له ورتعت الدابة إذا أكلت حتى شبعت ، وفعله كمنع والمراد باللعب هنا الاستجمام ورفع السآمة : كالتسابق عن طريق العدو ، وما يشبه ذلك من ألوان الرياضة المباحة .أى ، أرسله معنا غدا ليتسع فى أكل الفواكه ونحوها وليدفع السآمة عن نفسه عن طريق القفز والجرى والتسابق معنا .( وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ) كل الحفظ من ) أن يصيبه مكروه ، أو يمسه سوء .وقد أكدو هذه الجملة والتى قبلها وهى قوله وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ) بألوان من المؤكدات ، لكى يستطيعوا الحصول على مقصودهم فى اصطحاب يوسف معهم .وهو أسلوب يبدوا فيه التحايل الشديد على أبيهم ، لإقناعة بما يريدون تنفيذه وتحقيقه من مآرب سيئة .

قال اني ليحزنني ان تذهبوا به واخاف ان ياكله الذئب وانتم عنه غافلون

كما فسرها الوسيط ثم أخبر - سبحانه - عما رد به عليهم أبوهم فقال : ( قَالَ إِنِّي ليحزنني أَن تَذْهَبُواْ بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذئب وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ) .والحزن : الغم الحاصل لوقوع مكروه أو فقد

محبوب .والخوف : فزع النفس من مكروه يتوقع حصوله .والذئب : حيوان معروف
بعدوانه على الضعاف من الإنسان ومن الحيوان ، وال فيه للجنس ، والمراد به
أى فرد من أفراد الذئاب .أى : قال يعقوب لأبنائه ردا على إلحاحهم فى طلب
، يوسف للذهاب معهم يا أبنائى إننى ليحزننى حزناً شديداً فراق يوسف لى
، وفضلا عن ذلك فإننى أخشى إذا أخذتموه معكم فى رحلتكم أن يأكله الذئب
وأنتم عنه غافلون ، بسبب اشتغالكم بشئون أنفسكم ، وقلة اهتمامكم برعايته
وحفظه .قالوا : وخص الذائب بالذكر من بين سائر الحيوانات ، ليشعرهم بأن
خوفه عليه مما هو أعظم من الذئب توحشا وافتراسا أشد وأولى .أو خصه بالذكر
. لأن الأرض التى عرفوا بالنزول فيها كانت كثيرة الذئاب

قالوا لئن اكله الذئب ونحن عصبة انا اذا لخاسرون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ الذئب
وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذاً لَّخَاسِرُونَ ) رد مؤكد من إخوة يوسف على
تخوف أبيهم وتردده فى إرساله معهم . إذ اللام فى قوله : " لئن " موطئة
للقسم ، وجواب القسم قوله : ( إِنَّآ إِذاً لَّخَاسِرُونَ ) .أى : قال
إخوة يوسف لأبيهم محاولين إدخال الطمأنينة على قلبه ، وإزالة الحزن والخوف
عن نفسه : يا أبانا والله لئن أكل الذئب يوسف وهو معنا ، ونحن عصابة من
الرجال الأقوياء الحريصين على سلامته ، إنا إذا فى هذه الحالة لخاسرون
، خسارة عظيمة ، نستحق بسببها عدم الصلاح لأى شئ نافع .وأخيراً استسلم الأب
لإلحاح أبنائه الكبار ، ليتحقق قدر الله الذى قدره على يوسف . ولتسير قصة
. حياته فى الطريق الذى شاء الله تعالى - له أن تسير فيه

فلما ذهبوا به واجمعوا ان يجعلوه في غيابت الجب واوحينا اليه لتنبئنهم
بامرهم هذا وهم لا يشعرون

كما فسرها الوسيط وقد حكى القرآن ذلك بأسلوبه البليغ فقال : ( فَلَمَّا
ذَهَبُواْ بِهِ وأجمعوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غيابت الجب وَأَوْحَيْنَآ
( إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هذا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ
أى : فلما أقنعوا أباهم بإرسال يوسف معهم ، وذهبوا به فى الغد إلى حيث.
يريدون ، وأجمعوا أمرهم على أن يلقوا به فى قعر الجب ، فعلوا به ما فعلوا
من الأذى ، ونفذوا ما يريدون تنفيذه بدون رحمة أو شفقة .فالفاء فى قوله
. فلما : للتفريع على كلام مقدر ، وجواب " لما " محذوف ، دل عليه السياق
، وفعل " أجمع " يتعدى إلى المفعول بنفسه ، ومعناه العزم والتصميم على الشئ
تقول : أجمعت المسير أى : عزمت عزما قويا عليه .وقوله " أن يجعلوه " مفعول
أجمعوا .قال الآلوسى : " والروايات فى كيفية إلقائه فى الجب ، وما قاله
لإخوته عند إلقائه وما قالوه له كثيرة ، وقد تضمنت ما يلين له الصخر ، لكن
ليس فها ماله سند يعول عليه " .والضمير فى قوله ، وأوحينا إليه يعود على
يوسف - عليه السلام - .أى : وأوحينا إليه عند إلقائه فى الجب عن طريق
الإلهام القلبى ، أو عن طريق جبريل - عليه السلام - أو عن طريق الرؤيا
الصالحة . ( لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هذا ) أى : لتخبرنهم فى الوقت
الذى يشاؤه الله - تعالى - فى مستقبل الأيام ، بما فعلوه معك فى صغرك من
إلقائك فى الجب ، ومن إنجاء الله - لك ، فالمراد بأمرهم هذا : إيذاؤهم له
وإلقاؤهم إياه فى قعر الجب ، ولم يصرح - سبحانه - به ، لشدة شناعته .وجملة
حالية ، أى : والحال أنهم لا يحسون ولا يشعرون ( وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ )
فى ذلك الوقت الذى تخبرهم فيه بأمرهم هذا ، بأنك أنت يوسف . لاعتقادهم أنك
قد هلكت ولطول المدة التى حصل فيها الفراق بينك وبينهم ، ولتباين حالك
وحالهم فى ذلك الوقت ، فأنت ستكون الأمين على خزائن الأرض ، وهم سيقدمون
عليك فقراء يطلبون عونك ورفدك .وقد تحقق كل ذلك - كما سيأتى - عند تفسير
قوله تعالى - : ( فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ ياأيها العزيز
مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضر . . . ) وكان هذ الإيحاء - على الراجح - قبل أن
يبلغ سن الحلم ، وقبل أن يكون نبيا .وكان المقصود منه ، إدخال الطمأنينة
على قلبه ، وتبشيره بما سيصير إليه أمره من عز وغنى وسلطان .قالوا : وكان
هذا الجب الذى ألقى فيه يوسف على بعد ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب - عليه
. السلام - بفلسطين

وجاءوا اباهم عشاء يبكون

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - أقوالهم لأبيهم بعد أن فعلوا فعلتهم
: وعادوا إليه ليلا يبكون فقال :( وجآءوا أَبَاهُمْ عِشَآءً . . . ) قوله
والعشاء : وقت غيبوبة الشفق. ( وجآءوا أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ )
: الباقى من بقايا شعاع الشمس ، وبدء حلول الظلام والمراد بالبكاء هنا
البكاء المصطنع للتمويه والخداع لأبيهم ، حتى يقنعوه - فى زعمهم - أنهم لم
، يقصروا فى حق أخيهم .أى : وجاءوا أباهم بعد ان أقبل الليل بظلامه يتباكون

متظاهرين بالحزن والأسى لما حدث ليوسف ، وفى الأمثال : " دموع الفاجر بيديه " .

قالوا يا ابانا انا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فاكله الذئب وما انت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين

كما فسرها الوسيط ( قَالُواْ ياأباناآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ ) أى : نتسابق عن طريق الرمى بالسهام ، أو على الخيل ، أو على الأقدام . يقال : فلان وفلان استبقا أى : تسابقا حتى ينظر أيها يسبق الآخر .( وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا ) أى : عند الأشياء التى نتمتع بها وننتفع فى رحلتنا ، كالثياب والأطعمة ، وما يشبه ذلك .( فَأَكَلَهُ الذئب ) فى تلك الفترة التى تركناه فيها عند متاعنا .والمراد : قتله الذئب ، ثم أكله دون أن يبقى منه شيئا ندفنه .( وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ) أى : وما أنت بمصدق لنا فيما أخبرناك به من أن يوسف قد أكله الذئب ، حتى ولو كنا صادقين فى ذلك ، لسوء ظنك بنا ، وشدة محبتك له .وهذه الجملة الكريمة توحى بكذبهم على أبيهم ، وبمخادعتهم له ، ويكاد المريب أن يقول خذونى - كما يقولون - .

وجاءوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم انفسكم امرا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون

كما فسرها الوسيط ولكنهم لم يكتفوا بهذا التباكى وبهذا القول ، بل أضافوا إلى ذلك تمويها آخر حكاه القرآن فى قوله : ( وَجَآءُوا على قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ . . . ) أى : بدم ذى كذب ، فهو مصدر بتقدير مضافه ، أو وصف الدم بالمصدر مبالغة ، حتى لكأنه الكذب بعينه ، والمصدر هنا بمعنى المفعول كالخلق بمعنى المخلوق ، أى : بدم مكذوب .والمعنى : وبعد أن ألقوا بيوسف ، فى الجب ، واحتفظوا بقميصه معهم ، ووضعوا على هذا القميص دما مصطنعا ليس من جسم يوسف ، وإنما من جسم شئ آخر قد يكون ظبيا وقد يكون خلافه .وقال سبحانه - ( على قَمِيصِهِ ) للإشعار بأنه دم موضوع على ظاهر القميص وضعا متكلفا مصطنعا ، ولو كان من أثر افتراس الذئب لصاحبه ، لظهر التمزق والتخريق فى القميص ، ولتغلغل الدم فى قطعة منه .ولقد أدرك يعقوب - عليه السلام - من قسمات وجوههم ، ومن دلائل حالهم ، ومن نداء قلبه المفجوع أن يوسف لم يأكله الذئب ، وأن هؤلاء المتباكين هم الذين دبروا له مكيدة ما ، وأنهم قد اصطنعوا هذه الحيلة المكشوفة مخادعة له ، ولذا جابههم بقوله ) : قَالَ بَلْ سَوّلَتْ لَكُمْ أنفُسُكُمْ أَمْراً . . . ) .والتسويل : التسهيل والتزيين . يقال : سولت لفلان نفسه هذا الفعل أى زينته وحسنته له ، وصورته له فى صورة الشئ الحسن مع أنه قبيح .أى : قال يعقوب لأبنائه بأسى ولوعة بعد أن فعلوا ما عفلوا وقالوا ما قالوا : قال لهم ليس الأمر كما زعمتم من أن يوسف قد أكله الذئب ، وإنما الحق أن نفوسكم الحاقدة عليه هى التى زينت لكم أن تفعلوا معه فعلا سيئا قبيحا ، ستكشف الأيام عنه بإذن ربى ومشيئته .ونكر الأمر فى قوله : ( بَلْ سَوّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً ) لاحتماله عدة أشياء مما يمكن أن يؤذوا به يوسف ، كالقتل ، أو التغريب ، أو البيع فى الأسواق لأنه لم يكن يعلم على سبيل اليقين ما فعلوه به .وفى هذا التنكير والإبهام - أيضا - ما فيه من تهويل والتشنيع لما اقترفوه فى حق أخيهم .وقوله ( فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ) أى : فصبرى صبر جميل ، وهو الذى لا شكوى فيه لأحد سوى الله - تعالى - ولا رجاء معه إلا منه - سبحانه - .ثم أضاف إلى ذلك وقوله : ( والله المستعان على مَا تَصِفُونَ ) أى : والله - تعالى - هو الذى أستعين به على احتمال ما تصفون من أن ابنيوسف قد أكله الذئب .أو المعنى : والله - تعالى - وحده هو المطلوب عونه ، على إظهار حقيقة ما تصفون ، وإثبات كونه كذبا ، وأن يوسف مازال حيا وأنه - سبحانه - سيجمعنى به فى الوقت الذى يشاؤه .قال الآلوسى : " أخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة : أن إخوة يوسف - بعد أن ألقوا به فى الجب - أخذوا ظبيا فذبحوه ، ولطخوا بدمه قميصه ، ولما جاءوا به إلى أبيهم جعل يقلبه ويقول : تا الله ما رأيت كاليوم ئبا أحلم من هذا الذئب!! أكل ابنى ولم يمزق عليه قميصه . . " .وقال القرطبى : " استدل الفقهاء بهذه الآية فى إعمال الأمارات فى مسائل الفقه كالقسامة وغيرها ، وأجمعوا على أن يعقوب - عليه السلام - قد استدل على كذب أبنائه بصحة القميص ، وهكذا يجب على الحاكم أن يلحظ الأمارات والعلامات . . . " .وقال الشيخ القاسمى ما ملخصه : " وفى الآية من الفوائد : أن الحسد يدعو إلى المكر بالمحسود وبمن يراعيه . . . وأن الحاسد إذا ادعى النصح والحفظ والمحبة ، لم يصدق ، وأن من طلب مراده بمعصية الله - تعالى - فصحه الله - عز وجل - ، وأن القدر كائن ، وأن الحذر لا ينجى منه . . . " .وإلى هنا نجد الآيات الكريمة قد حكت لنا بأسلوبها البليغ ، وتصويرها المؤثر ، ما تآمر به إخوة يوسف عليه ، وما اقترحوه لتنفيذ مكرهم ، وما قاله لهم أوسطهم عقلا ورأيا ، وما تحايلوا به على أبيهم

لكى يصلوا إلى مآربهم ، وما رد به عليهم أبوهم ، وما قالوه له بعد أن نفذوا جريمتهم فى أخيهم . بأن ألقوا به فى الجب . .

وجاءت سيارة فارسلوا واردهم فادلى دلوه قال يا بشرى هذا غلام واسروه بضاعة والله عليم بما يعملون

كما فسرها الوسيط ثم انتقلت السورة الكريمة بعد ذلك ، لتقص علينا مرحلة أخرى من مراحل حياة يوسف - عليه السلام - حيث حدثتنا عن انتشاله من الجب ، وعن بيعه بثمن بخس وعن وصية الذى اشتراه لامرأته ، وعن مظاهر رعاية الله - تعالى - له فقال - سبحانه -( وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فأدلى دَلْوَهُ . . . )قوله - سبحانه - : ( وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فأدلى دَلْوَهُ . . . ) شروع فى الحديث عما جرى ليوسف من أحداث بعد أن ألقى به إخوته فى الجب .والسيارة : جماعة المسافرين ، وكانوا - كما قيل - متجهين من بلاد الشام إلى مصر والوارد : هو الذى يرد الماء ليستقى للناس الذين معه . ويقع هذا اللفظ على الفرد والجماعة ، فيقال لكل من يرد الماء وارد ، كما يقال للماء مورود وقوله ( فأدلى ) من الإدلاء بمعنى إرسال الدول فى البئر لأخذ الماء. والدلو : إناء معروف يوضع فيه الماء .وفى الآية الكريمة كلام محذوف دل عليه المقام ، والتقدير :وبعد أن ألقى إخوة يوسف به فى الجب وتركوه وانصرفوا لشأنهم ، جاءت إلى ذلك المكان قافلة من المسافرين ، فأرسلوا واردهم ليبحث لهم عن ماء ليستقوا ، فوجد جبا ، فأدلى دلوه فيه ، فتعلق به يوسف ، فلما خرج ورآه فرح به وقال : يا بشرى هذا غلام .وأوقع النداء على البشرى ، للتعبير عن انتهاجه وسروره ، حتى لكأنها شخص عاقل يستحق النداء ، أى : يا بشارتى أقبلى فهذا أوان إقبالك .وقيل المنادى محذوف والتقدير : يا رفاقى فى السفر أبشروا فهذا غلام ، وقد خرج من الجب .وقرأ أهل المدينة ومكة يا بشراى هذا غلام . بإضافة البشرى إلى ياء المتكلم . والضمير المنصوب : وهو الهاء فى قوله : ( وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ) يعود إلى يوسف .أما الضمير المرفوع فيعود إلى السيارة ، وأسر من الإسرار الذى هو ضد الإعلان والبضاعة : عرضو التجاة ومتاعها . وهذا اللفظ مأخذو من البضع بمعنى القطع. ) وأصله جملة من اللحم تبضع أى : تقطع . وهو حال من الضمير المنصوب فى ، وأسروه ) .والمعنى : وأخفى جماعة المسافرين خبر التقاط يوسف من الجب مخافة أن يطلبه أحد من السكان المجاورين للجب ، واعتبره بضاعة سرية لهم ، وعزموا على بيعه على أنه من العبيد الأرقاء .ولعل يوسف - عليه السلام - قد أخبرهم بقصته بعد إخراجه من الجب .ولكنهم لم يلتفتوا إلى ما أخبرهم به طمعا فى ) بيعه والانتفاع بثمنه .ومن المفسرين من يرى أن الضمير المرفوع فى قوله وأسروه ) يعود على الوارد ورفاقه ، فيكون المعنى :وأسر الوارد ومن معه أمر ، يوسف عن بقية أفراد القافلة ، مخافة أن يشاركهوهم فى ثمنه إذا علموا خبره وزعموا أن أهل هذا المكان الذى به الجب دفعوه إليهم ليبيعوه لهم فى مصر على أنه بضاعة لهم .ومنهم من يرى أن الضمير السابق يعود إلى إخوة يوسف .قال ، الشوكانى ما ملخصه : وذلك أن يهوذا كان يأتى إلى يوسف كل يوم بالطعام فأتاه يوم خروجه من الجب فلم يجده ، فأخبر إخوته بذلك ، فأتوا إلى السيارة وقالوا لهم : " إن الغلام الذى معكم عبد لنا قد أبق ، فاشتروه منهم بثمن بخس ، وسكت يوسف مخافة أن يأخذه إخوته فيقتلوه " .وعلى هذا الرأى يكون معنى أخفى إخوة يوسف كونه أخا لهم ، واعتبروه عرضا : ( وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ) من عروض التجارة القابلة للبيع والشراء .ويكون المراد بقوله - تعالى - بعد ذلك ( وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ ) الشراء الحقيقى ، بمعنى أن السيارة اشتروا يوسف من إخوته بثمن بخس .والحق أن الرأى الأول هو الذى تطمئن إليه النفس ، لأنه هو الظاهر من معنى الآية ، ولأنهبعيد عن التكلف الذى يرى واضحا فى القولين الثانى والثالث .وقوله : ( والله عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ) أى :لا يخفى عليه شئ من إسرارهم . ومن عملهم السئ فى حق يوسف . حيث إنهم استرقوه وباعوه بثمن بخس ، وهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، كما جاء فى الحديث الشريف .

وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين

كما فسرها الوسيط وقوله : - سبحانه - ( وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزاهدين ) بيان لما فعله السايرة بيوسف بعد أن أسروه بضاعة .وقوله ( شروه ) هنا بمعنى باعوه .والبخس النقص ، يقال بخس فلا فلانا حقه ، إذا نقصه وعابه . وهو هنا بمعنى : المبخوس .و ( دراهم ) جمع درهم ، وهى بدل من ( ثمن ) .و ( معدود ) صفة لدراهم ، وهى كناية عن كونها قليلة ، لأن الشئ القليل يسهل عده ، بخلاف الشئ الكثير ، فإنه فى الغالب يوزن وزنا .والمعنى : أن هؤلاء المسافرين بعد أن أخذوا يوسف ليجعلوه عرضا من عروض تجارتهم ، باعوه فى الأسواق بثمن قليل تافه ، وهو عبارة عن دراهم معدودة ، ذكر بعضهم أنها لا تزيد على عشرين

درهما .وقوله : ( وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزاهدين ) بيان لعدم حرصهم على
، بقائه معهم ، إذ أصل الزهد قلة الرغبة فى الشئ ، تقول زهدت فى هذا الشئ
إذا كنت كارها له غير مقبل عليه .أى : وكان هؤلاء الذين باعوه من الزاهدين
فى بقائه معهم ، الراغبين فى التخلص منه بأقل ثمن قبل أن يظهر من يطالبهم
، به .قال الآلوسى ما ملخصه : " وزهدهم فيه سببه أنهم التقطوه من الجب
والملتقط للشئ متهاون به لا يبالى أن يبيعه بأى ثمن خوفا من أن يعرض له
" . . مستحق ينزعه منه

وقال الذي اشتراه من مصر لامراته اكرمي مثواه عسى ان ينفعنا او نتخذه ولدا
وكذلك مكنا ليوسف في الارض ولنعلمه من تاويل الاحاديث والله غالب على امره
ولكن اكثر الناس لا يعلمون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَقَالَ الذي اشتراه مِن مِّصْرَ
لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عسى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ
وَلَداً . . . ) بيان لبعض مظاهر رعاية الله - تعالى - ليوسف - عليه
السلام - .والذى اشتراه ، قالوا إنه كان رئيس الشرطة لملك مصر فى ذلك الوقت
ولقبه القرآن بالعزيز كما سيأتى فى قوله - تعالى - : ( قَالَتِ امرأت
العزيز الآن حَصْحَصَ الحق . . . ) و ( مِن مِّصْرَ ) صفة لقوله ( الذي
اشتراه ) .وامرأته : المراد بها زوجته ، واسمها كما قيل زليخا أو راعيل
ومثواه من المثوى وهو مكان الإقامة والاستقرار . يقال : ثوى فلان بمكان
كذا ، إذا أطال الإقامة به . ومنه قوله - تعالى -( وَمَا كُنتَ ثَاوِياً
فِي أَهْلِ مَدْيَنَ . . . ) أى مقيما معهم .أى : وقال الرجل المصرى الذى
اشترى يوسف لامرأته : اجعلى محل إقامته كريما ، وأنزليه منزلا حسنا مرضيا
وهذا كناية عن وصيته لها بإكرامه على أبلغ وجه ، لأن من أكرم المحل.
) بتنظيفه وتهيئته تهيئة حسنة فقد أكرم صاحبه .قال صاحب الكشاف : قوله
أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ) أى : اجعلى منزله ومقامه عندنا كريما : أى حسنا
مرضيا بدليل قوله بعد ذلك ( إِنَّهُ ربي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ) والمراد
، تفقديه بالإحسان ، وتعهديه بحسن الملكة ، حتى تكون نفسه طيبة فى صحبتنا
ساكنة فى كنفنا ، ويقال للرجال : كيف أبو مثواك وأم مثواك؟ لمن ينزل به من
رجل أو امرأة ، يراد هلى تطيب نفسك بثوائك عنده وهل يراعى حق نزولك به؟
واللام فى ( لامرأته ) متعلق بقال . . .وقوله : ( عسى أَن يَنْفَعَنَا أَوْ
نَتَّخِذَهُ وَلَداً . . . ) بيان لسبب أمره لها بإكرام مثواه .أى : عسى
هذا الغلام أن ينفعنا فى قضاء مصالحنا ، وفى مختلف شئوننا ، أو نتبناه
فيكون منا بمنزلة الولد ، فإنى أرى فيه علامات الرشد والنجابة ، وأمارات
الأدب وحسن الخلق .قالوا وهذه الجملة ( أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً ) توحى
بأنهما لم يكن عندهما أولاد . والكاف فى قوله - سبحانه - ( وكذلك مَكَّنَّا
لِيُوسُفَ فِي الأرض ) فى محل نصب ، على أنه نعت لمصدر محذوف والإشارة إلى
" ما تقدم من إنجائه من إخوته ، وانتشاله من الجب ، ومحبة العزيز له . . و
مكنا " من التمكين بمعنى التثبيت ، والمراد بالأرض : أرض مصر التى نزل فيها
أى : ومثل ذلك التمكين البديع الدال على رعايتنا له ، مكنا ليوسف فى أرض.
مصر ، حتى صار أهلا للأمر والنهى فيها .وقوله - سبحانه - ( وَلِنُعَلِّمَهُ
مِن تَأْوِيلِ الأحاديث ) علة لمعلل محذوف ، فكأنه قيل : وفعلنا ذلك
، التمكين له ، لنعلمه من تأويل الأحاديث ، بأن نهيه من صدق اليقين
واستنارة العقل ، ما يجعله يدرك معنى الكلام إدراكا سليما ، ويفسر الرؤى
تفسيرا صحيحا صادقا .وقوله : ( والله غَالِبٌ على أَمْرِهِ ولكن أَكْثَرَ
الناس لاَ يَعْلَمُونَ ) تذييل قصد به بيان قدرة الله - تعالى - ونفاذ
مشيئته .فأمر الله هنا : هو ما قدره وأراده .أى : والله - تعالى - متمم ما
قدره وأراده ، لا يمنعه من ذلك مانع ، ولا ينازعه منازع ، ولكن أكثر الناس
لا يعلمون ذلك حق العلم ، فيما يأتون ويذرون من أقوال وأفعال .والتعبير
بقوله : ( ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ) احتراس لإنصاف ومدح
القلة من الناس الذين يعطيهم الله - تعالى - من فضله ما يجعلهم لا يندرجون
فى الكثرة التى لا تعلم ، بل هو - سبحانه - يعطيهم من فضله ما يجعلهم
. يعلمون مالا يعلمه غيرهم

ولما بلغ اشده اتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - مظهرا آخر من مظاهر إنعامه على يوسف
فقال : ( وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وكذلك
، نَجْزِي المحسنين ) .والأشد : قوة الإنسان ، وبلوغه النهاية فى ذلك
مأخوذ من الشدة بمعنى القوة والارتفاع ، يقال : شد النهار إذا ارتفع .ويرى
بعضهم أنه مفرد جاء بصيغة الجمع ويرى آخرون أنه جمع لا واحد له من لفظه
- وقيل هو جمع شدة كأنعم ونعمة .والمعنى : وحين بلغ يوسف - عليه السلام
منتهى شدته وقوته ، وهى السن التى كان فيها - على ما قيل - ما بين الثلاثين
، والأربعين .( آتيناه ) أى : أعطيناه بفضلنا وإحساننا .( حكما ) أى : حكمة

، وهى الإصابة فى القول والعمل أو هى النبوة .و ( علما ) أى فقها فى الدين
) : وفهما سليما لتفسير الرؤى ، وإدراكا واسعا لشئون الدين والدنيا .وقوله
، وكذلك نَجْزِي المحسنين ) أى : ومثل هذا الجزاء الحسن والعطاء الكريم
نعطى ونجازى الذين يحسنون أداء ما كلفهم الله - تعالى - به ، فكل من أحسن
فى أقواله وأعماله أحسن الله - تعالى - جزاءه .ثم انتقلت السورة الكريمة
بعد ذلك ، لتحدثنا عن مرحلة من أدق المراحل وأخطرها ، فى حياة يوسف - عليه
السلام - وهى مرحلة التعرض للفتن والمؤامرات بعد أن أبلغ أشده ، وآتاه
الله - تعالى - حكما وعلما ، وقد واجه يوسف - عليه السلام - هذه الفتن بقلب
. سليم ، وخلق قويم ، فنجاه الله - تعالى - منها

وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الابواب وقالت هيت لك قال معاذ
الله انه ربي احسن مثواي انه لا يفلح الظالمون

كما فسرها الوسيط استمع إلى السورةالكريمة وهى تحكى بأسلوبها البليغ ما
): فعلتهه معه امرأة العزيز من ترغيب وترهيب ، وإغراء وتهديد . . . فتقول
. . . وَرَاوَدَتْهُ التي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نّفْسِهِ وَغَلّقَتِ
. قوله - سبحانه - ( وَرَاوَدَتْهُ التي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نّفْسِهِ(
رجوع إلى شرح ما جرى ليوسف فى منزل العزيز بعد أن أمر امرأته بإكرام ( . .
، مثواه ، وما كان من حال تلك المرأة مع يوسف ، وكيف أنها نظرت إليه بعين
- تخالف العين التى نظر بها إليه زوجها .والمراودة - كما يقول صاحب الكشاف
: مفاعلة من راد يرود إذا جاء وذهب ، كأن المعنى : خادعته عن نفسه ، أى
، فعلت معه ما يفعله المخادع لصاحبه عن الشئ الذى لا يريد أن يخرجه من يده
يحتال أن يغلبه عليه ويأخذه منه ، وهو عبارة عن التحايل لمواقعته إياها
والتعبير عن حالها معه بالمراودة المقتضية لتكرار المحاولة ، للإشعار.
بأنها كان منها الطلب المستمر ، المصحوب بالإغراء والترفق والتحايل على ما
تشتهيه منه بشتى الوسائل والحيل . وكان منه - عليه السلام - الإباء
والامتناع عما تريده خوفا من الله - تعالى . .وقال - سبحانه - ( التي هُوَ
، فِي بَيْتِهَا ) دون ذكر لاسمها ، سترا لها ، وابتعادا عن التشهير بها
وهذا من الأدب السامى الذى التزمه القرآن فى تعبيراته وأساليبه ، حتى يتأسى
، أتباعه بهذا اللون من الأدب فى التعبير .والمراد ببيتها : يبت سكناها
والإخبار عن المراودة بأنها كانت فى بيتها . أدعى لإظهار كما نزاهته عليه
، السلام - فإن كونه فى بيتها يغرى بالاستجابة لها ، ومع ذلك فقد أعرض عنها
ولم يطاوعها فى مرادها .وعدى فعل المراودة بعن ، لتضمنه معنى المخادعة .قال
بعض العلماء : و " عن " هنا للمجاوزة ، أى : راودته مباعدة له عن نفسه ، أى
، بأن يجعل نفسه لها ، والظاهر أن هذا التركيب من مبتكرات القرآن الكريم :
فالنفس هنا كناية عن غرض المواقعة ، قاله ابن عطية ، أى : فالنفس أريد به
عفافه وتمكينها منه لما تريد ، فكأنها تراوده عن أن يسلم إليها إرادته
وحكمه فى نفسه .وقوله (وَغَلَّقَتِ الأبواب ) أى : أبواب بيت سكناها الذى
تبيت فيه بابا فبابا ، قيل : كانت الأبواب سبعة .والمراد أنها أغلقت جميع
الأبواب الموصلة إلى المكان الذى راودته فيه إغلاقا شديدا محكما ، كما يشعر
بذلك التضعيف فى " غلّقت " زيادة فى حمله على الاستجابة لها .ثم أضافت إلى
كل تلك المغريات أنها قالت له : هيت لك ، أى : هأنذا مهيئة لك فأسرع فى
الإقبال على . . .وهذه الدعوة السافرة منها له ، تدل على أنه تلك المرأة
كانت قد بلغت النهاية فى الكشف عن رغبتها ، وأنها قد خرجت من المألوف من
بنات جنسها ، فقد جرت العادة أن تكون المرأة مطلوبة لا طالبة . . .و " هيت
" اسم فعل أمر بمعنى أقبل وأسرع ، فهى كلمة حض وحث على الفعل ، واللام فى "
لك " لزيادة بيان المقصود بالخطاب ، كما فى قولهم : سقيا لك وشكرا لك .وهى
متعلقة بمحذوف فكأنما تقول : إرادتى كائنة لك .قال الجمل ما ملخصه : " ورد
، هذه الكلمة قراءات : " هَيتِ " كليت ، و " هِيتَ " كفيل و " هَيتُ " كحيث
و " هِيئتُ " بكسر الهاء وضم التاء ، و " هِئتَ " بكسر الهاء وفتح التاء
ثم قال : فالقراءات السبعية خمسة ، وهذه كلها لغات فى هذه الكلمة ، وهى فى.
كلها اسم فعل بمعنى هلم أى أقبل وتعال .وقوله - سبحانه - ( قَالَ مَعَاذَ
الله إِنّهُ ربي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنّهُ لاَ يُفْلِحُ الظالمون )بيان
لما ردّ به يوس عليها ، بعد أن تجاوزت فى إثارته كل حد .و " معاذ " مصدر
أضيف إلى لفظ الجلالة ، وهو منصوب بفعل محذوف أى : قال يوسف فى الرد عليها
أعوذ بالله معاذا مما تطلبينه منى ، وأعتصم به اعتصاما مما تحاولينه معى :
فإن ما تطلبينه وتلحين فى طلبه يتنافى مع الدين والمروءة والشرف . . ولا ،
يفعله إلا من خبث منبته ، وساء طبعه ، وأظلم قلبه .وقوله : ( إِنّهُ ربي
أَحْسَنَ مَثْوَايَ ) تعليل لنفوره مما دعته إليه ، واستعاذ بالله منه
والضمير فى " إنه " يصح أن يعود إلى الله - تعالى - فيكون لفظ ربى بمعنى.
خالقى . والتقدير : قال يوسف فى الرد عليها : معاذ الله أن أفعل الفحشاء
، والمنكر ، بعد أن أكرمنى الله - تعالى - بما أكرمنى به من النجاة من الجب
ومن تهيئة الأسباب التى جعلتنى أعيش معززا مكرما ، وإذا كان - سبحانه - قد
" حبانى كل هذه النعم فيكف ارتكب ما يغضبه؟وجوز بعضهم عودة الضمير فى " إنه

إلى زوجها ، فيكون لفظ ربى بمعنى سيدى ومالكى ، والتقدير : معاذ الله أن
أقابل من اشترانى بماله ، وأحسن منزلى ، وأمرك بإكرامى - بالخيانة له فى
- عرضه .وفى هذه الجملة الكريمة تذكير لها بألطف أسلوب بحقوق الله - تعالى
، وبحقوق زوجها ، وتنبيه لها إلى وجوب الإقلاع عما تريده منه من مواقعتها
لأنه يؤدى إلى غضب الله وغضب زوجها عليها .وجملة ( إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ
الظالمون ) تعليل آخر لصدها عما تريده منه .والفلاح : الظفر وإدراك المأمول
أى : إن كل من ارتكب ما نهى الله - تعالى - عنه ، تكون عاقبته الخيبة.
والخسران وعدم الفلاح فى الدنيا والآخرة فكيف تريدين منى أن أكون كذلك؟هذا
والمتأمل فى هذه الآية الكريمة يرى أن القرآن الكريم قد قابل دواعى ،
، الغواية الثلاث التى جاهرت بها امرأة العزيز والمتمثلة فى المراودة
وتغليق الأبواب ، وقولها ، هيت لك : بدواعى العفاف الثلاث التى رد بها
عليها يوسف ، والمتمثلة فى قوله - كما حكى القرآن عنه - ( مَعَاذَ الله
. ( إِنَّهُ ربي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظالمون

ولقد همت به وهم بها لولا ان راى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء
انه من عبادنا المخلصين

كما فسرها الوسيط وذلك ليثبت أن الاعتصام بالعفاف والشرف والأمانة ، كان
سلاح - يوسف - عليه السلام - فى تلك المعركة العنيفة بين نداء العقل ونداء
، الشهوة . . .ولكن نداء العقل ونداء الشهوة الجامحة لم ينته عند هذا الحد
) : بل نرى القرآن الكريم يحكى لنا بعد ذلك صداما آخر بينهما فيقول
. وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمّ بِهَا لولا أن رّأى بُرْهَانَ رَبِّهِ
وهذه الآية الكريمة من الآيات التى خلط المفسرون فيها بن الأقوال. ( . .
الصحيحة والأقوال السقيمة .وسنبين أولا الرأى الذى نختاره فى تفسيرها ثم
، نتبعه بعد ذلك بغيره فنقول : ألهّم : المقاربة من الفعل من غير دخول فيه
: تقول هممت على فعل هذا الشئ ، إذا أقبلت نفسك عليه دون أن تفعله .وقال
بعض العلماء : الهم نوعان : هم ثابت معه عزم وعقد ورضا ، وهو مذموم مؤاخذ
به صاحبه ، وهَمٌّ بمعنى خاطر وحديث نفس ، من غير تصميم وهو غير مؤاخذ به
صاحبه ، لأن خطور المناهى فى الصدور ، وتصورها فى الأذهان ، لا مؤاخذة بها
- ما لم توجد فى الأعيان .روى الشيخان وأهل السنن عن أبى هريرة ، عن النبى
صلى الله عليه وسلم - أنه قال : " إن الله تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها
ما لم تتكلم به ، أو تعمل به " .وقد أجمع العلماء على أن همّ امرأة ،
العزيز بيوسف كان هما بمعصية ، وكان مقرونا بالعزم والجزم والقصد ، بدليل
- المراودة وتغليق الأبواب ، وقولها " هيْت لك " .كما أجمعوا على أن يوسف
عليه السلام - لم يأت بفاحشة ، وأن همه كان مجرد خاطرة قلب بمقتضى الطبيعة
، البشرية : من غير جزم وعزم . . .وهذا اللون من الهم لا يدخل تحت التكليف
ولا يخل بمقام النبوّة ، كالصائم يرى الماء البارد فى اليوم الشديد الحرراة
فتميل نفسه إليه ، ولكن دينه يمنعه من الشرب منه ، فلا يؤاخذ بهذا الميل ،
والمراد ببرهان ربه هو : ما غرسه الله - تعالى - فى قلبه من العلم المصحوب.
بالعمل ، بأن هذا الفعل الذى دعته إليه امرأة العزيز قبيح ، ولا يليق به
. أو هو - كما يقول ابن جرير - رؤيته من آيات الله ما زجره عما كان همّ به.
والمعنى : ولقد همت به ، أى : ولقد قصدت امرأة العزيز مواقعة يوسف - عليه.
). . . السلام - قصداً جازما ، بعد أن أغرته بشتى الوسائل فلم يستجب لها
وَهَمّ بِهَا لولا أن رّأى بُرْهَانَ رَبِّهِ ) أى : ومال إلى مطاوعتها
بمقتضى طبيعته البشرية وبمقتضى توفر كل الدواعى لهذا الميل . . .ولكن
- مشاهدته للأدلة على شناعة المعصية ، وخوفه لمقام ربه ، وعون الله - تعالى
له على مقاومة شهوته . . . كل ذلك حال بينه وبين تنفيذ هذا الميل ، وصرفه
عنه صرفا كليا ، وجعله يفر هاربا طالبا النجاة مما تريده منه تلك المرأة
هذا هو الرأى الذى نختاره فى تفسير هذه الآية الكريمة ، وقد استخلصناه من.
أقوال المفسرين القدامى والمحدثين .فمن المفسرين القدامى الذن ذكروا هذا
الرأى صاحب الكشاف ، فقد قال ما ملخصه .وقوله - تعالى - ( وَلَقَدْ هَمَّتْ
بِهِ ) معناه : ولقد همت بمخالطته" وهم بها " أى : وهم بمخالطتها ( لولا
أن رّأى بُرْهَانَ رَبِّهِ ) جوابه محذوف تقديره؛ لولا أن رأى برهان ربه
لخالطها ، فحذف لأن قوله وهم بها يدل عليه ، كقولك : هممت بقتله لولا أنى
خفت الله . معناه : لولا أنى خفت الله لقتلته .فإن قلت : كيف جاز على نبى
، الله أن يكون منه هم بالمعصية؟قلت : " المراد أن نفسه مالت إلى المخالطة
ونازعت إليها عن شهوة الشباب ، ميلا يشبه الهم به ، وكما تقتضيه تلك الحال
التى تكاد تذهب بالعقول والعزائم ، وهو يكسر ما به ، ويرده بالنظر فى برهان
الله المأخوذ على المكلفين بوجوب اجتناب المحارم ، ولو لم يكن ذلك الميل
الشديؤد المسمى هما لشدته ، لما كان صاحبه ممدوحا عند الله بالامتناع ، لأن
استعظام الصبر على الابتلاء ، على حسب عظم الابتلاء وشدته ، ولو كان همه
كهمها عن عزيمة لما مدحه بأنه من عباده المخلصين "ومن المفسرين المحدثين
) : الذين ذكروا هذا الرأى الإمام الآلوسى ، فقد قال ما ملخصه : قوله
وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ) أى : بمخالطته . . والمعنى : أنها قصدت المخالطة

. . وعزمت عليها عزما جازما ، لا يلويها عنها صارف بعدما باشرت مباديها والتأكيد - باللام وقد - لدفع ما يتوهم من احتمال إقلاعها عما كانت عليه.
. . . أى : مال إلى مخالطتها بمقتضى الطبيعة البشرية ( وَهَمّ بِهَا ).
ومثل ذلك لا يكاد يدخل تحتل التكليف ، وليس المراد أنه قصدها قصدا اختياريا لأن ذلك أمر مذموم تنادى الآيات بعدم اتصافه به ، وإنما عبر عنه بالهم ، ) . . . لمجرد وقوعه فى صحبة همها فى الذكر على سبيل المشاكلة لا لشبهه به لولا أن رّأى بُرْهَانَ رَبِّهِ ) أى محبته الباهرة الدالة على كمال قبح الزنا ، وسوء سبيله .والمراد برؤيته له : كمال إيقانه به ، ومشاهدته له مشاهدة وصلت إلى مرتبة عين اليقين . . .ومن المفسرين من يرى أن المراد بهما به : الهم بضربه نتيجة عصيانه لأمرها .وان المراد بهمه بها : الدفاع عن نفسه برد الاعتداء ، ولكنه آثر الهرب .وقد قرر هذا الرأى ودافع عنه وأنكر : سواه صاحب المنار ، فقد قال ما ملخصه :(وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ) أى وتالله لقد قهمت المرأة بالبطش به لعصيانه لأمرها ، وهى فى نظرها سيدته وهو عبدها ، وقد أذلت نفسها له بدعوته الصريحة إلى نفسها ، بعد الاحتيال عليه بمراودته عن نفسه . . . فخرجت بذلك عن طبع أنوثتها فى التمنع . . مما جعلها تحاول البطش به بعد أن أذل كرامتها ، وهو انتقام معهود من مثلها ، وممن - دونها فى كل زمان ومكان ..وكاد يرد صيالها ويدفعه بمثله ، وهو قوله تعالى - ( وَهَمّ بِهَا لولا أن رّأى بُرْهَانَ رَبِّهِ ) ولكنه رأى من برهان ربه فى سريرة نفسه ، ما هو مصداق قوله - تعالى - ( واللّه غَالِبٌ على أَمْرِهِ ) وهو إما النبوة . . . وإما معجزتها . . وإما مقدمتها من مقام الصديقية العليا ، وهى مراقبته لله - تعالى - ورؤيته ربه متجليا له ، ناظرا إليه .وما ذهب إليه صاحب المنار من تفسير الهم منها بالبطش بيوسف ، وتفسير الهم منه برد الاعتداء الذى وقع عليه منها . . . اقول : ما ذهب إليه صاحب المنار من تفسير الهم بذلك ، لا أرى دليلا عليه من الآية ، لا عن طريق الإشارة ، ولا عن طريق العبارة . . .ولعل صاحب المنار - رحمه الله - أراد بهذا التفسير أن يبعد يوسف - عليه السلام - عن أن يكون قدهم بها هم ميل بمقتضى الطبيعة البشرية ، ونحن لا نرى مقتضيا لهذا الإبعاد ، لأن خطور - المناهى فى الأذهان ، لا مؤاخذة عليها ، ما دامت لم يصاحبها عزم أو قصد كما سبق أن أشرنا إلى ذلك من قبل .هذا وهناك أقوال أخرى لبعض المفسرين فى معنى الآية الكيرمة ، رأينا أن نضرب عنها صفحا؛ لأنه لا دليل عليها لا من العقل ولا من النقل ولا من اللغة . . . وإنما هى من الأوهام الإسرائيلية التى تتنافى كل التنافى مع أخلاق عباد الله المخلصين ، الذين على رأسهم يوسف - عليه السلام .قوله - سبحانه - ( كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السواء والفحشآء إِنّهُ مِنْ عِبَادِنَا المخلصين ) بيان لمظهر من مظاهر رحمة الله - تعالى - به ، ورعايته له .والكاف : نعت لمصدر محذوف والإشارة بذلك إلى الإراءة المدلول عليها بقوله ( لولا أن رّأى بُرْهَانَ رَبِّهِ ) أو إلى التثبيت المفهوم من ذلك .والصرف : نقل الشئ من مكان إلى مكان والمراد به هنا : الحفظ من الوقوع فيما نهى الله عنه ، أى : أريناه مثل هذه الإراءة أو ثبتناه تثبيتا مثل هذا التثبيت لنعصمه ونحفظه ونصونه عن الوقوع فى السوء - أى فى المنكر والفجور والمكروه - والفحشاء - أى كل ما فحش وقبح من الأفعال كالزن ونحوه .( إِنّهُ مِنْ عِبَادِنَا المخلصين ) - بفتح اللام - أى : إنه من عبادنا الذين أخلصناهم لطاعتنا وعصمناهم من كل ما يغضبنا .وقرأ ابن عامر وابن كثير وأبو عمر" المخلصين " - بكسر اللام - أى : إنه من عبادنا الذين أخلصوا دينهم لنا .والجملة الكريمة على القراءتين تعليل لحكمة صرفه - عليه السلام - عن السوء والفحشاء .

واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر والفيا سيدها لدى الباب قالت ما جزاء من اراد باهلك سوءا الا ان يسجن او عذاب اليم

- كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( واستبقا الباب . . . ) متصل بقوله سبحانه - قبل ذلك ( وَلَقَدْ هَمّتْ بِهِ . . . ) وقوله ( كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السواء والفحشآء . . . ) اعتراض جئ به بين المتعاطفين تقريرا لنزاهته .وقوله ( واستبقا . . ) من الاستباق وهو افتعال من السبق بمعنى أن كل واحد منهما يحالو أن يكون هو السابق إلى الباب .ووجه تسابقهما أن يوسف - عليه السلام - أسرع بالفرار من أمامها إلى الباب هروبا من : الفاحشة التى طلبتها منه . وهى أسرعت خلفه لتمنعه من الوصول إلى الباب ومن الخروج منه .وأفرد - سبحانه - الباب هنا ، وجمعه فيما تقدم ، لأن المراد به هنا الباب الخارجى ، الذى يخلص منه يوسف إلى خارج الدار ، وهو منصوب هنا على نزع الخافض أى : واستبقا إلى الباب .وجملة ( وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ ) حالية ، والقد : القطع والشق ، وأكثر استعماله فى الشق والقطع الذى يكون طولا ، وهو المراد هن ، لأن الغالب أنها جذبته من الخلف وهو يجرى أمامها فانخرق القميص إلى أسفله .وقوله : ( وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الباب ) أى : وصادفا ووجدا زوجها عند الباب الذى تسابقا للوصول إليه .قالوا والتعبير عن الزوج بالسيد ، كان عادة من عادات القوم فى ذلك الوقت ، فعبر :

- عنه القرآن بذلك حكاية لدقائق ما كان متبعا فى التاريخ القديم .وقال
- سبحانه - ( وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا ) لأن ملك العزيز ليوسف - عليه السلام
لم يكن ملكا صحيحا ، فيوسف ليس رقيقا يباع ويشترى ، وإنما هو الكريم ابن
الكريم ابن الكريم ، وبيع السيارة له ، إنما كان على سبيل التخلص منه بعد
أن التقطوه من الجب .وقوله - سبحانه - ( قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ
بِأَهْلِكَ سواءا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ) حكاية لما
قالته لزوجها عندما فوجئت به عند الباب وهى تسرع وراء يوسف .أى قالت تلك
- المرأة لزوجها عندما فوجئت به لدى الباب : ليس من جزاء لمن أراد بأهلك
تعنى نفسها - سوءا ، أى ما يسوءك ويؤلمك ، إلا أن يسجن ، عقوبة له ، أو أن
يعذب عذابا أليما عن طريق الضرب أو الجلد ، لتجاوزه الحدود ، واعتدائه على
أهلك .وهذه الجملة الكريمة التى حكاها القرآن الكريم عنها ، تدل على أن تلك
المرأة كانت فى نهاية المكر والدهاء والتحكم فى إرادة زوجها . . .ورحم الله
" : الآلوسى فقد علق على قولها ها الذى حكاه القرآن عنها بقوله ما ملخصه
ولقد آتت - تلك المرأة - فى هذه الحالة التى يدهش فيها الفطن اللوذعى - حيث
شاهدها زوجها على تلك الحالة المريبة - بحيلة جمعت فيها غرضيها ، وهما
تبرئة ساحتها مما يلوح من ظاهر حالها ، واستنزال يوسف عن رأيه فى استعصائه
عليها ، وعدم طاعته لها ، بإلقاء الرعب فى قلبه . . .ولم تصرح بالاسم ، بل
، أتت بلفظ عام ( مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سواءا . . . ) تهويلا للأمر
ومبالغة فى التخويف ، كأن ذلك قانون مطرد فى حق كل من أراد بأهله سوءاً
وذكرت نفسها بعنوان أهلية العزيز ، إعظاما للخطب . . .ثم إن حبها الشديد
ليوسف - عليه السلام - حملها على أن تبدأ بذكرالسجن ، وتؤخر ذكر العذاب لأن
. .. المحب لا يسعى فى إيلام المحبوب ، لا سيما أن قولها : " إلا أن يسجن
قد يكون المراد منه السجن لمدة يوم أو يومين . . . " .والحق أن هذه الجملة
التى حكاها القرآن عنها ، تدل على اكتمال قدرتها على المكر والدهاء - كما
سبق أن أشرنا - ومن مظاهر ذلك ، محاولتها إيهام زوجها بأن يوسف قد اعتدى
عليها بما يسؤوها ويسوؤه ، ولكن بدون تصريح بهذا العدوان - شأن العاشق مع
معشوقه - حتى لا يسعى زوجها فى التخلص منه ببيعه - مثلا - .وفى الوقت نفسه
إفهام يوسف عن طريق مباشر ، بأن أمره بيدها لا بيد زوجها ، وأنها هى الآمرة
الناهية ، فعليه أن يخضع لما تريده منه ، وإلا فالسجن أو العذاب الأليم هو
. مصيره المحتوم

قال هي راودتني عن نفسي وشهد شاهد من اهلها ان كان قميصه قد من قبل فصدقت
وهو من الكاذبين

كما فسرها الوسيط وهنا نجد يوسف - عليه السلام - لا يجد مفرا من الرد على
هذا الاتهام الباطل ، فيقول - كما حكى القرآن عنه - : ( قَالَ هِيَ
رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي . . . ) .أى : قال يوسف مدافعا عن نفسه : إنى ما
أردت بها سوءا كما تزعم وإنما هى التى بالغت فى ترغيبى وإغرائى بارتكاب ما
لا يليق معها . .ثم قال - تعالى - : ( وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ
إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ
وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن .
الصَّادِقِينَ ) .وهذا الشاهد ذهب بعضهم إلى أنه كان ابن خال لها ، وقيل
ابن عم لها . .قال صاحب المنار : " ولكن الرواية عن ابن عباس وسعيد بن جبير
والضحاك ، أنه كان صبيا فى المهد ، ويؤيدها ما رواه أحمد وابن جرير
" : والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس عن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال
تكلم فى المهد أربعة وهم : صفار ابن ماشطة ابنة فرعون . وشاهد يوسف وصاحب
جريج وعيسى بن مريم " .وروى ابن جرير عن أبى هريرة قال : " عيسى ابن مريم
وصاحب يوسف وصاحب جريج تكلموا فى المهد " وهذا موقوف ، والمرفوع ضعيف ، وقد
اختاره ابن جرير ، وحكاه ابن كثير بدون تأييد ولا تضعيف . . "وعلى أية حال
فالذى يهمنا أن الله - تعالى - قد سخر فى تلك اللحظة الحرجة ، من يدلى
بشهادته لتثبت براءة يوسف أمام العزيز .وألقى الله - تعالى - هذه الشهادة
، على لسان من هو من أهلها ، لتكون أوجب للحجة عليها ، وأوثق لبراءة يوسف
) - وأنفى للتهمة عنه .وقد قال هذا الشاهد فى شهادته - كما حكى القرآن عنه
إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ ) أى : من أمام" فَصَدَقَتْ " فى أنه
أراد بها سوءا ، لأن ذلك يدل على أنها دافعته من الأمام وهو يريد الاعتداء
عليها .( وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ ) فى قوله ( هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن
. ( نَّفْسِي

وان كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين

) كما فسرها الوسيط ( وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ ) أى من خلف
فَكَذَبَتْ ) فى دعواها على أنه أراد بها سوءا ، لأن ذلك يدل على أنه حاول
الهرب منها ، فتعقبته حتى الباب ، وأمسكت به من الخلف ( وَهُوَ مِن
الصَّادِقِينَ ) فى دعواه أنها راودته عن نفسه .وسمى القرآن الكريم ذلك

الحكم بينهما شهادة ، لأن قوله هذا يساعد على الوصول إلى الحق فى قضية التبس فيها الأمر على العزيز .وقدم الشاهد فى شهادته الغرض الأول وهو - إن كان قميصه قد من قبل - لأنه إن صح يقتضى صدقها ، وقد يكون هو حريصا على ذلك بمقتضى قرابته لها ، إلا أن الله - تعالى - أظهر ما هو الحق ، تكريما ، ليوسف - عليه السلام - أو يكون قد قدم ذلك باعتبارها سيدة ، ويوسف فتى فمن باب اللياقة أن يذكر الفرض الأول رحمة بها .وزيادة جملة ( وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ ) بعد " فصدقت " وزيادة جملة ( وَهُوَ مِن الصّادِقِينَ ) بعد " فكذبت " تأكيد لزيادة تقرير الحق كما هو الشأن فى إصدار الأحكام .

فلما راى قميصه قد من دبر قال انه من كيدكن ان كيدكن عظيم

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( فَلَمّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنّهُ مِن كَيْدِكُنّ إِنّ كَيْدَكُنّ عَظِيمٌ ) . . . بيان لما قاله زوجها بعد أن انكشفت له الحقيقة انكشافا تاما .أى : فلما رأى العزيز قميص يوسف قد قطع من الخلف . وجه كلامه إلى زوجته معاتبا إياها " بقوله : إن محاولتك اتهام ليوسف بما هو برئ منه ، هو نوع من " كيدكن ومكركهن وحيلكن ( إِنّ كَيْدَكُنّ عَظِيمٌ ) فى بابه ، لأن كثيرا من الرجال لا يفطنون إلى مراميه .وهكذا واجه ذلك الرجل خيانة زوجه له بهذا الأسلوب الناعم الهادئ ، بأن نسب كيدها ومكرهها لا إليها وحدها بل الجنس كله ( إِنّهُ مِن كَيْدِكُنّ ) .

يوسف اعرض عن هذا واستغفري لذنبك انك كنت من الخاطئين

كما فسرها الوسيط ثم وجه كلامه إلى يوسف فقال له ( يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هذا ) أى : يا يوسف أعرض عن هذا الأمر الذى دار بينك وبينها فاكتمه . ولا تتحدث به خوفا من الفضيحة ، وحفاظا على كرامتى وكرامتها .وقوله ( : واستغفري لِذَنبِكِ إِنّكِ كُنتِ مِنَ الخاطئين ) خطاب منه لزوجته التى ثبتت عليها الجريمة ثبوتا تاما .أى : واستغفرى الله من ذنبك الذى وقع منك ، بإساءتك فعل السوء مع يوسف ، ثم اتهامك له بما هو برئ منه .وجملة ( : إِنّكِ كُنتِ مِنَ الخاطئين ) تعليل لطلب الاستغفار . أى توبى إلى الله مما حدث منك ، لأن ما حدث منك مع يوسف جعلك من جملة القوم المتعمدين لارتكاب الذنوب ، وجعلها من جملة الخاطئين للتخفيف عليها فى المؤاخذة وهكذا نجد هذا الرجل - صاحب المنصب الكبير - يعالج الجريمة التى تثور لها . الدماء فى العروق ، وتستلزم حسما وجزما فى الأحكام ، بهذا الأسلوب الهادئ البارد ، شأن المترفين فى كل زمان ومكان ، الذين يهمهم ظواهر الأمور دون حقائقها وأشكالها دون جواهرها ، فهو يلوم امرأته لوما خفيفا يشبه المدح ، ثم يطلب من يوسف كتمان الأمر ، ثم يطلب منها التوبة من ذنوبها المتعمدة .. ثم تستمر الأمور بعد ذلك على ما هى عليه من بقاء يوسف معها فى بيتها ، بعد أن كان منها معه ما يستلزم عدم اجتماعهما .هذا ومن العبر والعظات والأحكام التى نأخذها من هذه الآيات الكريمة :1 - أن اختلاط الرجال بالنساء . كثيرا ما يؤدى إلى الوقوع فى الفاحشة وذلك لأن ميل الرجل إلى المرأة وميل المرأة إلى الرجل أمر طبيعى ، وما بالذات لا يتغير .ووجود يوسف - عليه السلام - مع ارمأة العزيز تحت سقف واحد فى سن كانت هى فيه مكتملة الأنوثة ، وكان هو فيها فتى شابا جميلا . . أدى إلى فتنتها به ، وإلى أن تقول له فى نهاية الأمر بعد إغراءات شتى له منها : ( هَيْتَ لَكَ ) .ولا شك أن من الأسباب الأساسية التى جعلتها تقول هذا القول العجيب وجودهما لفترة طويلة تحت سقف واحد .لذا حرم الإسلام تحريما قاطعا الخلوة بالأجنبية ، سدا لباب الوقوع فى الفتن ، ومنعا من تهيئة الوسائل للوقوع فى الفاحشة .ومن الأحاديث التى وردت فى ذلك ما رواه الشيخان عن عقبة بن عامر ، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : " إياكم والدخول على النساء ، فقال رجل من الأنصار ، أفرأيت الحمو يا رسول الله؟ قال : الحمو الموت " والحمو هو قريب الزوج كأخيه وابن عمه .وسئلت امرأة انحرفت عن طريق العفاف ، لماذا كان منك ذلك فقالت : قرب الوساد ، وطول السواد .أى : حملنى على ذلك قربى ممن أحبه وكثرة محادثتى له!2 - أن هم الإنسان لفعل ، ثم رجوعه عنه قبل الدخول فى مرحلة التصميم والتنفيذ لا مؤاخذة فيه .قال القرطبى ما ملخصه : " الهم الذى هم به يوسف ، من نوع ما يخطر فى النفس ، ولا يثبت فى الصدر ، وهو الذى رفع الله فيه المؤاخذة عن الخلق ، إذ لا قدرة للمكلف على دفعه " .وفى صحيح مسلم عن " - أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم قالت الملائكة يا ربنا ذلك عبدك يريد أن يعمل السيئة - وهو أبصر به - فقال ارقبوه فإن عملها فاكتبوها له بمثلها وإن تركها فاكتبوها له حسنة إنما : تركها من أجلى " .وفى الصحيح : " إن الله تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم به " .3 - أن من الواجب على المؤمن إذا ما دعى إلى معصية أن يستعيذ بالله من ذلك ، وأن يذكِّر الداعى له بضررها ، وبسوء عاقبة المرتكب لها . . كما قال يوسف - عليه السلام - ( مَعَاذَ الله

إِنّهُ ربي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنّهُ لاَ يُفْلِحُ الظالمون ) .4 - أن
يوسف - عليه السلام - قد خرج من هذه المحنة مشهودا له بالبراءة ونقاء العرض
من الله - تعالى - ومن خلقه الذين سخرهم لهذه الشهادة .قال الإمام ،
الرازى ما ملخصه : واعلم أن الذين لهم تعلق بهذه الواقعة ، يوسف - عليه
السلام - وتلك المرأة وزوجها ، ورب العالمين . . والكل شهد ببراءة يوسف عن
المعصية ، أما يوسف - عليه السلام - فقد قال ( قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن
نّفْسِي ) وقال : ( قَالَ رَبِّ السجن أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يدعونني
إِلَيْهِ ) . .وأما امرأة العزيز فقد قالت : ( أَنَا رَاوَدْتُّهُ عَن
نَّفْسِهِ وَإِنّهُ لَمِنَ الصادقين ) وأما زوجها فقد قال : ( إِنّهُ مِن
كَيْدِكُنّ إِنّ كَيْدَكُنّ عَظِيمٌ . . )أما شهادة رب العالمين ببراءته
ففى قوله - تعالى - : ( كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السواء والفحشآء
إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المخلصين ) .فقد شهد الله - تعالى - على طهارته فى
" هذه الآية أربع مرات ، أولها : " لنصرف عنه السوء " وثانيها " الفحشاء
وثالثها " إنه من عبادنا " ورابعها " المخلصين " .5 - أن موقف العزيز من
امرأته كان موقفا ضعيفا متراخيا . . وهذا الموقف هو الذى جعل تلك المرأة
) : المتحكمة فى زمام زوجها ، تقول بعد ذلك بكل تبجح وتكشف واستهتار
وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نّفْسِهِ فاستعصم وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ
آمُرُهُ لَيُسْجَنَنّ وَلَيَكُونا مِّن الصاغرين ) 6 - أن القرآن الكريم
صور تلك المحنة فى حياة يوسف وامرأة العزيز ، تصويرا واقعيا صادقا ، ولكن
" : بأسلوب حكيم ، بعيد عما يخدش الحياء أو يجرح الشعور .قال بعض العلماء
والذى خطر لى أن قوله - تعالى - ( وَلَقَدْ هَمّتْ بِهِ وَهَمّ بِهَا
، لولا أَن رّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ) هو نهاية موقف طويل من الإغراء
بعدما أبى يوسف فى أول الأمر واستعصم ، وهو تصوير واقعى صادق لحالة النفس
البشرية الصالحة فى المقاومة والضعف ، ثم الاعتصام بالله فى النهاية
والنجاة ، ولكن السياق القرآنى لم يفصل فى تلك المشاعر البشرية المتداخلة
المتعارضة المتغالبة ، لأنه المنهج القرآنى لا يريد أن يجعل من هذه اللحظة
معرضا يستغرق أكثر من مساحته المناسبة فى محيط القصة وفى محيط الحياة
البشرية المكتملة كذلك فذكر طرفى الموقف بين الاعتصام فى أوله والاعتصام فى
نهايته ، مع الإلمام بلحظة الضعف بينهما ، ليكتمل الصدق والواقعية والجو
" . . النظيف جميعا

وقال نسوة في المدينة امرات العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا انا
لنراها في ضلال مبين

كما فسرها الوسيط ثم حكت السورة الكريمة بعد ذلك ما قالته بعض النساء ، بعد
ان شاع خبر امرأة العزيز مع فتاها ، وما فعلته معهن من أفعال تدل على شدة
مكرها ودهائها ، وما قاله يوسف - عليه السلام - بعد أن سمع من تهديدهن
وإغرائهن . . قال - تعالى - :( وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي المدينة امرأة العزيز
قوله - سبحانه - ( وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي المدينة امرأة العزيز. ( . . .
تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نّفْسِهِ . . ) حكاية لما تناقلته الألسنة عن
امرأة العزيز ، فقد جرت العادة بين النساء ، أن يتحدثن عن أمثال هذه الأمور
فى مجالسهن ، ولا يكتمنها خصوصا إذا كانت صاحبة الحادثة من نساء الطبقة
، المرموقة . . كامرأة العزيز .والنسوة : اسم جمع لا واحد له من لفظه
ومفرده حيث المعنى : امرأة .والمراد بالمدينة : مدينة مصر التى كان يعيش
فيها العزيز زوجته والجار والمجرور متعلق بمحذوف صفة لنسوة .أى : وقال نسوة
، من نساء مدينة مصر - على سبيل النقد والتشهير والتعجب - إن امرأة العزيز
صاحبة المكانة العالية ، والمنزلة الرفيعة ، بلغ بها الحال فى انقيادها
: لهواها ، وفى خروجها عن طريق العفة . . أنها تراود فتاها عن نفسه ، أى
تطلب منه مواقعتها ، وتتخذ لبلوغ غرضها شتى الوسائل والحيل .ولم يبين لنا
القرآن الكريم عدد هؤلاء النسوة ولا صفاتهم ، لأنه لا يتعلق بذلك غرض نافع
ولأن الذى يهدف إليه القرآن الكريم هو بيان ما حدث بين يوسف وامرأة ،
العزيز ، قد شاع أمره بين عدد من النساء فى مدينة كبيرة كمصر وفى وصفها
، بأنها ( امرأة العزيز ) زيادة فى التشهير بها . فقد جرت العادة بين الناس
، بأن ما يتعلق بأصحاب المناصب الرفيعة من أحداث ، يكون أكثر انتشارا بينهم
وأشد فى النقد والتجريح .والتعبير بالمضارع فى قوله - سبحانه - ( تُرَاوِدُ
يشعر بأنها كانت مستمرة على ذلك ، دون أن يمنعها منه افتضاح أمرها ، وقول (
زوجها لها ( واستغفري لِذَنبِكِ إِنّكِ كُنتِ مِنَ الخاطئين )والمراد
بفتاها يوسف - عليه السلام - ووصفْتَه بذلك لأنه كان فى خدمتها ، والمبالغة
فى رميها بسوء السلوك ، حيث بلغ بها الحال فى احتقار نفسها ، أن تكون
مراودة لشخص هو خادم لها . .وجملة ( قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً ) بيان لحالها
معه ، وهى فى محل نصل حال من فاعل تراود أو من مفعوله والمقصود بها تكرير
- لومها ، وتأكيد انقيادها لشهواتها .وشغف مأخوذ من الشغاف - بكسر الشين
، وهو غلاف القلب ، أو سويداؤه أو حجابه ، يقال : شغف الهوىو قلب فلان شغفا
أى بلغ شغافه .والمراد أن حبها إياه قد شق شغاف قلبها . وتمكن منه تمكنا لا

مزيد عليه و " حبا " تمييز محول عن الفاعل ، والأصل : شغفها حبها إياه
وجملة ( إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ) مقررة لمضمون ما قبلها.
من لوم امرأة العزيز ، وتحقير سلوكها ، والمراد بالضلال : مخالفة طريق
الصواب .أى : إنا لنرى هذه المرأة بعين بصيرتنا ، وصادق علمنا . فى خطأ
عظيم واضح بحيث لا يخفى على أحد من العقلاء ، لأنها - وهى المرأة المرموقة
" . . وزوجة الرجل الكبير - تراود خادمها عن نفسه .والتعبير " بإنا لنراها
، للإشعار بأن حكمهن عليها بالضلال ليس عن جهل ، وإنما هو عن علم وروية
مع التلويح بأنهن يتنزهن عن مثل هذا الضلال المبين الصادر عنها .قال صاحب
المنار : " وهن ما قلن هذا إنكارا للمنكر ، وكرها للرذيلة ، ولا حبا فى
المعروف ، ونصرا للفضيلة ، وإنما قلنه مكرا وحيلة ، ليصل إليها قولهن
فيحملها على دعوتهن ، وإراءتهن بأعين أبصارهن ، ما يبطل ما يدعين رؤيته
بأعين بصائرهن ، فيعذرنها فيما عذلنها عليه فهو مكر لا رأى " .

فلما سمعت بمكرهن ارسلت اليهن واعتدت لهن متكا واتت كل واحدة منهن سكينا
وقالت اخرج عليهن فلما راينه اكبرنه وقطعن ايديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا
ان هذا الا ملك كريم

كما فسرها الوسيط وهنا تحكى السورة الكريمة كيف قابلت تلك المرأة الداهية
الجريئة ، مكر بنات جنسها وطبقتها بمكر أشد من مكرهن بها فقال - تعالى ):
فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ ) أى : فاغتيابهن لها . وسوء مقالتهن فيها
وسمى ذلك مكرا لشبهه به فى الإخفاء والخداع .أو قصدن بما قلنه - كما سبق ،
أن أشرنا - إثارتها ، لكى تطلعهن على فتاها الذى راودته عن نفسه ، ليعرفن
السر فى هذه المراودة ، وعلى هذا يكون المكر على حقيقته . ومثل هذا المكر
ليس غريبا على النساء فى مثل هذه الأحوال .وقوله : ( أَرْسَلَتْ
إِلَيْهِنَّ . . ) الخ بيان لما فعلته معهن .أى : أرسلت إلى النسوة اللائى
وصفنها بأنها فى ضلال مبين ، ودعتهن إلى الحضور إليها فى دراها لتناول
الطعام .( وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَئاً ) أى : وهيأت لهن فى مجلس
طعامها ، ما يتكئن عليه من الوسائد والنمارق وما يشبه ذلك .فالمتكأ : اسم
مفعول من الإتكاء ، وهو الميل إلى أحد الجانبين فى الجلوس كما جرت بذلك
عادة المترفين عند تناول الطعام ، وعندما يريدون إطالة المكث مع انتصاب
قليل فى النصف الأعلى من الجسم والاستراحة بعد الأكل .أخرج ابن شيبة عن
جابر عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه نهى أن يأكل الرجل بشماله ، وأن
يأكل متكئا .( وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّيناً ) أى : وأعطت
كل واحدة من هؤلاء النسوة سكينا ليقطعن به ما يأكلن من لحم وفاكهة .ويؤخذ
من هذه الآية الكريمة أن الحضارة المادية فى مصر فى ذلك الوقت كانت قد بلغت
شأوا بعيدا ، وأن الترف فى القصور كان عظيما ، فإن استعمال السكاكين فى
الأكل قبل هذه الآلاف من السنين له قيمته فى تصوير الترف والحضارة المادية
وهنا نجد المرأة الجريئة الماكرة ، تقول ليوسف - عليه السلام - كما حكى.
القرآن عنها : ( اخرج عَلَيْهِنَّ ) أى ابرز لهن ، وادخل عليهن ، وهن على
تلك الحالة من الأكل والأتكاء وتقطيع ما يحتاج إلى تقطيع الطعام . .وهى
ترمى من وراء خروجه عليهن إلى إطلاعهن عليه حتى يعذرنها فى حبها له وقد كان
لهذه المفاجأة من يوسف لهن وهن مشغولات بما يقطعنه ويأكلنه ، أثرها الشديد
فى نفوسهن ، وهذا ما حكاه القرآن الكريم فى قوله : ( فَلَمَّا رَأَيْنَهُ
أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هذا
بَشَراً إِنْ هاذآ إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ) .والجملة الكريمة معطوفة على
كلام محذوف دل عليه السياق ، والتقدير : قالت امرأة العزيز ليوسف اخرج
، عليهن ، فخرج عليهن وهن على تلك الحالة فلما رأينه أكبرنه ، أى : أعظمنه
ودهشن لهيئته ، وجمال طلعته وحسن شمائله .( وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ) أى
جرحن أيديهن وخدشنها بالسكاكين التى فى أيديهن دون أن يشعرن بذلك ، لشدة
دهشتهن المفاجئة بهيئة يوسف . .(وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هذا بَشَراً )
وحاش فعل ماض ، واللام فى " لله " للتعليل ، والمراد بهذه الجملة الكريمة
التعبير عن عجيب صنع الله فى خلقه أى : وقلن عندما فوجئن بخروج يوسف عليهن
تنزه الله - تعالى - تنزيها كبيرا عن صفات العجز ، ونتعجب تعجبا شديدا من :
قدرته - سبحانه - على خلق هذا الجمال البديع ، وما هذا الذى نراه أمامنا
بشرا كسائر البشر ، لتفرقه فى الحسن عنهم ، وإنما هو ملك كريم من الملائكة
المقربين تمثل فى هذه الصورة البديعة التى تخلب الألباب .ووصفوه بذلك بناء
على ما ركز فى الطباع من تشبيه ما هو مفرط فى الجمال والعفة بالملك وتشبيه
ما هو شديد القبح والسوء بالشيطان .

قالت فذلكن الذي لمتنني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما
امره ليسجنن وليكونا من الصاغرين

كما فسرها الوسيط وهنا شعرت امرأة العزيز بانتصارها على بنات جنسها ، الائى
عذلنها فى حبها ليوسف ، فقالت لهن على سبيل التفاخر والتشفى ، وبدون

استحياء أو تلميح : ( قَالَتْ فذلكن الذي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ) .والفاء هنا فصيحة ، والخطاب للنسوة اللائى قطعن أيديهن دهشا من جمال يوسف ، والإشارة إليه - عليه السلام - .أى : قالت لهن على سبيل التشفى والتباهى والاعتذار عما صدر منها معه : إن كان الأمر كما قلتن ، فذلك هو الملك الكريم الذى لمتننى فى حبى له ، وقلتن ما قلتن فى شأنى لافتتانى به ، فالآن بعد رؤيتكن له ، وتقطيع أيديكن ذهولا لطلعته ، قد علمتن أنى معذورة فيما حدث منى معه . ثم جاهرت أمامهن بأنها أغرته بمواقعتها فلم يستجيب فقالت :( وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فاستعصم . . ) أى : والله لقد حاولت معه بشتى المغريات أن يطوع نفسه ، فأبى وامتنع امتناع بليغا ، وتحفظ تحفظا شديدا والتعبير بقوله " فاستعصم " للمبالغة فى عصمته لنفسه من الزلل ، فالسين والتاء للمبالغة ، وهو من العصمة بمعنى المنع . يقال : عصمه الطعام أى : منعه من الجوع ، وعصم القربة أى : شدها بالعصام ليمنع نزول الماء منها .وفى الآية - كما يقول الآلوسى - دليل على أنه - عليه السلام - لم يصدر منه ما سوَّد به القصَّاص وجوه الطروس - أى الأوراق .ثم قالت أمامهن بعد ذلك فى تبجح واستهتار وتهديد : ( وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ آمُرُهُ لَيُسْجَنَنّ وَلَيَكُوناً مِّن الصاغرين )أى : والله لقد راودته عن نفسه فاستعصم ، ولله لئن لم يفعل ما آمر به ، - وأنا سيدته الآمرة الناهية لا غيرى - ليسجنن عقوبة له ، وليكونا من الصاغرين ، أى : من الأذلاء المهانين المقهورين ، من الصغار .يقال : صغر فلان - كفرح - يصغر صغارا ، إذا ذل وهان قالوا : وأكدت السجن بالنون الثقيلة وبالقسم لتحققه فى نظرها ، وأكدت الصغار بالنون الخفيفة لأنه غير متحقق فيه ، ولأنه من توابع السجن ولوازمه وفى هذا التهديد ما فيه من الدلالة على ثقتها من سلطانها على زوجها ، وأنه لا يستطيع أن يعصى لها أمرا ، مع أنه عزيز مصر . .

قال رب السجن احب الي مما يدعونني اليه والا تصرف عني كيدهن اصب اليهن واكن من الجاهلين

كما فسرها الوسيط ويترامى على مسامع يوسف - عليه السلام - هذا التهديد السافر . . فيلجأ إلى ربه مستجيرا به ، ومحتميا بحماه ويقول : ( قَالَ رَبِّ السجن أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يدعونني إِلَيْهِ . . . )أى : قال يوسف - عليه السلام - متضرعا إلى ربه - تعالى - يا رب السجن الذى هددتنى به تلك المرأة ومن معها ، أحب إلى ، وآثر عندي مما يدعوننى إليه من ارتكاب الفواحش .وقال أحب إلى مما يدعوننى إليه ، ولم يقل مما تدعونى إليه امرأة العزيز ، لأنهن جميعا كن مشتركات فى دعوته إلى الفاحشة سواء بطريق مباشر أو غير مباشر ، بعد أن شاهدن هيئته وحسنه ، وبعد أن سمعن ما قالته فى شأنه ربة الدار . .قال الآلوسى : " وإسناد الدعوة إليهن ، لأنهن خوفنه من مخالفتها ، وزين له مطاوعتها .فقد روى أنهن قلن له أطع مولاتك ، واقض حاجتها ، لتأمن عقوبتها . . وروى أن كل واحدة منهن طلبت الخلوة به لنصيحته ، فلما خلت به دعته إلى نفسها . .وقوله : ( وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنّ أَصْبُ إِلَيْهِنّ وَأَكُن مِّنَ الجاهلين ) واعتراف منه - عليه السلام - بضعفه البشرى الذى لا قدرة له على الصمود أمام الإغراء ، إذا لم يكن معه عون الله - تعالى - وعنايته ورعايته .و ( أصب ) من الصبوة وهى الميل إلى الهوى يقال : صبا فلان يصبو صبوا وصبوة ، إذا مال إلى شهوات نفسه واتبع طريق الشر ، ومنه ريح الصبا ، وهى التى تميل إليها النفوس لطيب نسيمها واعتدال هوائها .والمعنى : وإلا تدفع عنى يا إلهى كيد هؤلاء النسوة ، ومحاولاتهن إيقاعى فى حبائلهن ، أمل إليهن . وأطاوعهن على ما يردنه منى ، وأكن بذلك من الجاهلين السفهاء الذين يخضعون لأهوائهم وشهواتهم ، فيقعون فى القبائح والمنكرات .

فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن انه هو السميع العليم

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( فاستجاب لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السميع العليم ) بيان لتقبل الله - تعالى - لدعائه بفضله ورحمته .أى : فاستجاب الله - تعالى - ليوسف دعاءه وضراعته ، فدفع عنه بلطفه وقدرته كيد هؤلاء النسوة ومكرهن ، بأن أدخل اليأس فى نفوسهن من الطمع فى استجابته لهن ، وبأن زاده ثباتا على ثباته ، وقوة على قوته فلم ينخدع بمكرهن ، ولم تلن له قناة أمام ترغيبهن أو ترهيبهن .وقال - سبحانه - ( فاستجاب ) بفاء التعقيب للإشارة إلى أنه - سبحانه - بفضله وكرمه ، قد أجاب دعاء عبده يوسف - عليه السلام - بدون تأخير أو إبطاء .قال الإمام ابن كثير : وقوله - سبحانه - ( فاستجاب لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنّ . . . ) .وذلك لأن يوسف - عليه السلام - عصمه الله عصمة عظيمة ، وحماه فامتنع منها أشد الامتناع ، واختار السجن على ذلك ، وهذا فى غاية مقامات الكمال ، أنه مع شبابه وجماله وكماله ، تدعوه سيدته ، وهى امرأة عزيز مصر ، وهى مع هذا فى غاية الجمال والمال والرياسة ، فيمتنع من

ذلك ويختار السجن خوفا من الله ، ورجاء فى ثوابه .ولهذا ثبت فى الصحيحين أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : " سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله " .ثم ساقت لنا السورة الكريمة بعد ذلك قصة دخول يوسف - عليه السلام - السجن ، مع ثبوت براءته ، مما نسب إليه ، وكيف أنه وهو فى السجن لم ينس الدعوة إلى عبادة الله - تعالى - وحده ، وترك عبادة ما سواه ، وكيف أنه أقام الأدلة على صحة ما يدعو إليه ، وفسر لصاحبيه فى السجن رؤياهما تفسيرا صادقا صحيحا . .

ثم بدا لهم من بعد ما راوا الايات ليسجننه حتى حين

كما فسرها الوسيط استمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى كل ذلك بأسلوبه البليغ المؤثر فيقول :( ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيات لَيَسْجُنُنَّهُ . . . ) .قوله - سبحانه - ( ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيات لَيَسْجُنُنَّهُ حتى حِينٍ ) بيان لما فعله العزيز وحاشيته مع يوسف - عليه السلام - بعد أن ثبتت براءته .وبدا هنا من البداء - بالفتح - وهو - كما يقول الإمام الرازى - عبارة عن تغير الرأى عما كان عليه فى السابق .والضمير فى " لهم " يعود إلى العزيز وأهل مشورته ، والمراد بالآيات : الحجج والبراهين الدالة على براءة يوسف ونزاهته. ، كانشقاق قميصه من دبر ، وقول امرأة العزيز ولقد راودته عن نفسه فاستعصم وشهادة الشاهد بأن يوسف هو الصادق وهى الكاذبة . . . والحين : الزمن غير المحدد بمدة معينة .والمعنى : ثم ظهر للعزيز وحاشيته ، من بعد ما راوا وعاينوا البراهين المتعددة الدالة على صدق يوسف - عليه السلام - وطهارة عرضه . . بدا لهم بعد كل ذلك أن يغيروا رأيهم فى شأنه ، وأن يسجنوه فى " المكان المعد لذلك ، إلى مدة غير معلومة من الزمان .واللام فى قوله ليسجننه " جواب القسم محذوف على تقدير القول أى : ظهر لهم من بعد ما رأوا الآيات قائلين ، والله ليسجننه حتى حين .ولا شك أن الأمر بسجن يوسف - عليه السلام - كان بتأثير من امرأة العزيز ، تنفيذا لتهديدها بعد أن صمم يوسف - عليه السلام - على عصيانها فيما تدعوه إليه ، فقد سبق أن حكى القرآن عنها قولها ( وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِّن الصاغرين ) ولا شك - أيضا - أن هذا القرار بسجن يوسف يدل على أن المرأة العزيز كانت مالكة لقياد زوجها صاحب المنصب الكبير ، فهى تقوده حيث تريد كما يقود الرجل دابته .ولقد عبر عن هذا المعنى صاحب الكشاف فقال ما ملخصه : قوله ( ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيات . . . ) وهى الشواهد على براءته ، وما كان ذلك إلا باستنزال المرأة لزوجها ، وفتلها منه فى الذروة والغارب ، وكان مطواعا لها ، وجملا ذلولا زمامه فى يدها ، حتى أنساه ذلك ما عاين من الآيات ، وعمل برأيها فى سجنه ، لإلحاق الصغار به كما أوعدته ، وذلك لما أيست من طاعته لها ، وطمعت فى أن يذله السجن ويسخره لها .

ودخل معه السجن فتيان قال احدهما اني اراني اعصر خمرا وقال الاخر اني اراني احمل فوق راسي خبزا تاكل الطير منه نبئنا بتاويله انا نراك من المحسنين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - جانبا من أحواله بعد أن دخل السجن فقال ( وَدَخَلَ مَعَهُ السجن فَتَيَانِ . . )والفتيان : تثنية فتى ، وهو : من جاوز الحلم ودخل فى سن الشباب .قالوا : وهذان الفتيان كان أحدهما خبازا للملك وصاحب طعامه وكان الثانى : ساقيا للملك ، وصاحب شرابه .وقد أدخلهما الملك السجن غضبا عليهما ، لأنهما اتهما بخيانته .والجملة الكريمة عطف على كلام محذوف يفهم من السياق ، والتقدير بعد أن بدا للعزيز وحاشيته سجن يوسف .نفذا ما بدا لهم فسجنوه ، ودخل معه فى السجن فتيان من خدم الملك قال أحدهما " وهو ساقى الملك ليوسف - عليه السلام - :( إني أراني " أَعْصِرُ خَمْراً ) أى : إنى رأيت فيما يرى النائم . إنى عصرا عنبا ليصير خمرا . سماه بما يؤول إليه .( وَقَالَ الآخر إِنِّي أراني أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطير مِنْهُ ) أى : وقال الثانى وهو خباز الملك إنى رأيت فى المنام أنى أحمل فوق رأسى سلالا بها خبز ، وهذا الخبز تأكل الطير منه وهو فوق رأسى .والضمير المجرور فى قوله : ( نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ المحسنين ) يعود إلى المرئى فى المنام أى : أخبرنا بتفسير ما رأيناه فى منامنا ، إذ نراك ونعتقدك من القوم الذين يحسنون تأويل الرؤى ، كما أننا نتوسم فيك الخير والصلاح ، لإحسانك إلى غيرك ، من السجناء الذين أنت واحد منهم .وقبل أن يبدأ يوسف - عليه السلام - فى تأويل رؤياهما ، أخذ يمهد لذلك بأن يعرفهما بنفسه ، وبعقيدته ، ويدعوهما

إلى عبادة الله وحده ويقيم لهما الأدلة على ذلك . .وهذا شأن المصلحين
العقلاء المخلصين لعقيدتهم الغيورين على نشرها بين الناس ، إنهم يسوقون
، لغيرهم من الكلام الحكيم ما يجعل هذا الغير يثق بهم ، ويقبل عليهم
. . ويستجيب لهم

قال لا ياتيكما طعام ترزقانه الا نباتكما بتاويله قبل ان ياتيكما ذلكما مما
علمني ربي اني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالاخرة هم كافرون

كما فسرها الوسيط وهذا ما كان من يوسف - عليه السلام - فقد بدأ فى رده
عليهما بقوله : ( قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ
نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيكُمَا . . ) .أى : قال
يوسف لرفيقيه فى السجن اللذين سألاه أن يفسر لهما رؤياهما : " لاَ
يَأْتِيكُمَا " أيها الرفيقان ( طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ ) فى سجنكما ، فى
حال من الأحوال ، إلا وأخبرتكما بما هيته وكيفيته وسائر أحواله قبل أن يصل
إليكما .وإنما قال لهما ذلك ليبرهن على صدقه فيما يقول ، فيستجيبا لدعوته
لهما إلى وحدانية الله بعد ذلك .وقوله ( ذلكما مِمَّا عَلَّمَنِي ربي ) نفى
لما قد يتبادر إلى ذهنهما من أن علمه مأخوذ عن الكهانة أو التنجيم أو غير
ذلك مما لا يقره الدين .أى : ذلك التفسير الصحيح للرؤيا ، والأخبار عن
المغيبات ، كأخباركما عن أحوال طعامكما قبل أن يصل إليكما . .ذلك كله إنما
هو العلم الذى علمنى إياه ربى وخالقى ومالك أمرى ، وليس عن طريق الكهانة أو
التنجيم كما يفعل غيرى .وقوله : ( مِمَّا عَلَّمَنِي ربي ) فيه إشعار بأن
- ما أخبرهما به من مغيبات هو جزء من علوم كثيرة علمها إياه ربه - عز وجل
فضلا منه - سبحانه - وكرما .ثم أضاف إلى ذلك قوله : ( إِنِّي تَرَكْتُ
مِلَّةَ قَوْمٍ ) أى دين قوم ( لاَّ يُؤْمِنُونَ بالله ) أى لا يدينون
بالعبودية لله - تعالى - وحده الذى خلقهم ورزقهم ، وإنما يدينون بالعبودية
) لآلهة أخرى لا تنفع ولا تضر .( وَهُمْ بالآخرة ) وما فيها من ثواب وعقاب
هُمْ كَافِرُونَ ) جاحدون لما يجب الإيمان به .وفى هذه الجملة الكريمة
تعريض بما كان عليه العزيز وقومه ، من إشراك وكفر ، ولم يواجه الفتيان
بأنهما على دين قومهما ، وإنما ساق كلامه على سبيل العموم ، لكى يزيد فى
استمالتهما إليه ، وإقبالهما عليه . .وهذا شأن الدعاة العقلاء ، يلتزمون فى
. دعوتهم إلى الله الحكمة والموعظة الحسنة ، بدون إحراج أو تنفير

واتبعت ملة ابائي ابراهيم واسحاق ويعقوب ما كان لنا ان نشرك بالله من شيء
ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن اكثر الناس لا يشكرون

كما فسرها الوسيط ولما كان تركه لملة هؤلاء القوم ، يقتضى دخلو فى ملة قوم
آخرين ، تراهيصرح بالملة التى اتبعها فيقولك ( واتبعت مِلَّةَ آبآئي )
). الكرام المؤمنين بوحدانية الله وبالآخرة وما فيها من حساب وجزاء
إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ) وسماهم آباء جميعا ، لأن الأجداد
آباء ، وقدم الجد الأعلى ثم الجد الأقرب ثم الأب ، لكون إبراهيم هو أصل تلك
- الملة التى اتبعها ، ثم تلقاها عنه إسحاق ، ثم تلقاها عن إسحاق يعقوب
- عليهم السلام - .وفى هذه الجملة الكريمة ، بيان منه - عليه السلام
لرفيقيه فى السجن ، بأنه من سلسلة كريمة ، كلها أنبياء ، فحصل له بذلك
الشرف الذى ليس بعده شرف ، وقوله ( مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بالله
مِن شَيْءٍ ) تنزه عن الشرك بأبلغ وجه .أى : ما صح وما استقام لنا أن نشرك
بالله - تعالى - أى شئ من الإشراك ، فنحن أهل بيت النبوة الذين عصمهم
. الله - تعالى - عن ذلك .و " من " فى قوله " من شئ " لتأكيد النفى وتعميمه
، أى : ما كان لنا أهل هذا البيت الكريم أن نشرك بالله شيئا من الإشراك
قليلا ذلك الشئ أو حقيرا .وقوله ( ذلك مِن فَضْلِ الله عَلَيْنَا وَعَلَى
الناس . . . ) اعتراف منه - عليه السلام - برعاية الله - تعالى - له
ولآبائه .واسم الإشارة . يعود إلى الإيمان بالله - تعالى - المدلول عليه
- بنفى الشرك .أى : ذلك الإخلاص لله - تعالى - فى العبادة ، كائن من فضله
سبحانه - علينا معاشر هذا البيت ، وعلى غيرنا من الناس ، الذين هداهم إلى
الإيمان الحق .وقوله : ( ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَشْكُرُونَ ) إنصاف
- للقلة الشاكرة لله - تعالى - .أى : ولكن أكثر الناس لا يشكرون الله
. تعالى - على نعمه الجزيلة وآلائه التى لا تحصى

يا صاحبي السجن ارباب متفرقون خير ام الله الواحد القهار

كما فسرها الوسيط وبعد أن عرف يوسف صاحبيه فى السجن وبنفسه وبملته وبآبائه
شرع يقيم لهم الأدلة على صحة عقيدته ، وعلى فساد عقيدتهما فقال - كما حكى
. القرآن عنه : ( ياصاحبي السجن أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ
، الله الواحد القهار ) .أى : يا صاحبى ورفيقى فى السجن أخبرانى بربكما
" أعبادة عدد من الأرباب المتفرقة فى ذواتها وصفاتها " خير " لكما " أم

عبادة الله - تعالى - " الواحد " فى ذاته وصفاته " القهار " لكل من غالبه أو نازعه؟وكرر نداءهما بالصحبة ليتحبب إليهما بهذه الصفة التى فيها إيناس للقلوب ، وليسترعى انتباههما إلى ما سيقوله لهما .قال صاحب المنار ما ملخصه وقوله : ( أَأَرْبَابٌ مُّتَّفَرِّقُونَ خَيْرٌ . . . ) هذا استفهام " : تقرير بعد تخيير ، ومقدمة لأظهر برهان على التوحيد ، وكان المصريون المخاطبون به ، يعبدون كغيرهم من الأمم أربابا متفرقين فى ذواتهم وفى صفاتهم وفى الأعمال التى يسندونها إليهم بزعمهم ، فهو يقول لصاحبيه أأرباب متفرقون ، أى عديدون هذا شأنهم فى التفرق والانقسام " خير " لكما ولغيركما ولا شك أن الجواب الذى لا يختلف فيه عاقلان( . . أم الله الواحد القهار ) أن عبادة الله - تعالى - الواحد القهار ، هى العبادة الصحيحة التى توافق ، الفطرة السليمة والعقول القويمة .

ما تعبدون من دونه الا اسماء سميتموها انتم واباؤكم ما انزل الله بها من سلطان ان الحكم الا لله امر الا تعبدوا الا اياه ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون

كما فسرها الوسيط ثم انتقل يوسف - عليه السلام - إلى تفنيد العقائد الباطلة - والأوهام الكاذبة فقال : ( مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ ) أى من دون الله تعالى - المستحق للعبادة .( إِلاَّ أَسْمَآءً ) أى ألفاظا فارغة لا قيمة لها .( سَمَّيْتُمُوهَآ ) آلهة بزعمكم ( أَنتُمْ وَآبَآؤُكُمْ ) أما هى ، فليس لها من هذا الاسم المزعوم ظل من الحقيقة ، لأنها مخلوقة وليست خالقة ومرزوقة وليست رازقة ، وزائلة وليست باقية ، وما كان كذلك لا يستحق أن يكون إلها .ومفعول ( سَمَّيْتُمُوهَآ ) الثانى محذوف . والتقدير سميتموها آلهة وقوله ( وَآبَآؤُكُمْ ) لقطع عذرهم ، حتى لا يقولوا : إنا وجدنا آباءنا. كذلك يفعلون ، فكأنه - تعالى - يقول لهم : إن آباءكم كانوا أشد من كم جهلا ) - وضلالا ، فلا يصح لكم أن تقتدوا بهم .والمراد بالسلطان فى قوله - تعالى مَّآ أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ) الحجة والبرهان .أى : ما أنزل الله - تعالى - بتسميتها أربابا - كما سميتموها بزعمكم - من برهان أو دليل ) : يشعر بتسميتها بذلك ، وإنما أنتم الذين خلعتم عليها هذه الأسماء .وقوله : إِنِ الحكم إِلاَّ للَّهِ ) إبطال لجميع التصرفات المزعومة لآلهتهم . .أى ما الحكم فى شأن العقائد والعبادات والمعاملات وفى صحتها أو عدم صحتها إلا ) الله - تعالى - وحده ، لأنه الخالق لكل شئ ، والعليم بكل شئ .وقوله أَمَرَ أَلاَّ تعبدوا إِلاَّ إِيَّاهُ ) انتقال من الأدلة الدالة على - وحدانيته - سبحانه - إلى الأمر بإخلاص العبادة له وحده .أى : أمر سبحانه - عباده أن لا يجعلوا عبادتهم إلا له وحده ، لأنه هو خالقهم ورازقهم وهو يحييهم ويميتهم .ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ( ذلك ، الدين القيم ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ) .أى : ذلك الذى أمرناكم به من وجوب إخلاص العبادة لله - تعالى - وحده ، هو الدين القيم .أى : الحق المستقيم الثابت ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك حق العلم ، لاستيلاء الشهوات والمطامع على نفوسهم .وبعد أن عرف يوسف صاحبيه فى السجن بنفسه ، وأقام لهما الأدلة على أن عبادة الله - تعالى - وحده هى الدين الحق ودعاهما إلى الدخول فيه ..

يا صاحبي السجن اما احدكما فيسقي ربه خمرا واما الاخر فيصلب فتاكل الطير من راسه قضي الامر الذي فيه تستفتيان

) : كما فسرها الوسيط بعد كل ذلك شرع فى تفسير رؤياهما ثقة فى قوله ، فقال ياصاحبي السجن أَمَّآ أَحَدُكُمَا ) وهو ساقى الملك ، فيخرج من السجن برئيا ويسقى " ربه " أى : سيده الملك " خمرا " .( وَأَمَّا الآخر ) وهو خباز الملك وصاحب طعامه " فيصلب " أى : فيقتل ثم يصلب ( فَتَأْكُلُ الطير مِن رَّأْسِهِ ) بعد موته .ولم يعين يوسف - عليه السلام - من هو الذى سيسقى ربه خمرا ، ومن هو الذى سيصلب ، وإنما اكتفى بقوله " أما أحدكما . . . وأما الآخر " تلطفا معهما ، وتحرجا من مواجهة صاحب المصير السئ بمصيره ، وإن كان فى تعبيره ما يشير إلى مصير كل منهما بطريق غير مباشر .ثم أكد لهما الأمر واثقا من صدق العلم الذى علمه الله إياه ، فقال : ( قُضِيَ الأمر الذي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ) .والاستفتاء : مصدر استفتى إذا طلب الفتوى من غيره فى أمر خفى عليه فهمه أى : ثم التفسير الصحيح لرؤييكما اللتين سألتمانى عن تأويلهما .

وقال للذي ظن انه ناج منهما اذكرني عند ربك فانساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين

، كما فسرها الوسيط ثم ختم يوسف - عليه السلام - حديثه مع صاحبيه فى السجن بأن أوصى الذى سينجوا منهما بوصية حكاها القرآن فى قوله : ( وَقَالَ

لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذكرني عِندَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ
الشيطان ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السجن بِضْعَ سِنِينَ ) .أى : " وقال
، يوسف - عليه السلام - للفتى الذى اعتقد أنه سينجو منهما وهو ساقى الملك "
أيها الساقى بعد أن تخرج من السجن وتعود إلى عملك عند سيدك الملك ، اذكر
حقيقة حالى عنده ، وأنى سجين مظلوم .ولكن الساقى بعد أن عاد إلى عمله عند
الملك ، لم ينفذ الوصية ، لأن الشيطان أنساه ما قاله له يوسف ، فكانت
- النتيجة أن لبث يوسف - عليه السلام - فى السجن مظلوما بعض سنين .والبضع
بالكسر - من ثلاث إلى تسع ، وهو مأخوذ من البضع - بالفتح - بمعنى القطع
والشق . يقال : بضعت الشئ أى : قطعته .وقد اختلفوا فى المدة الى قضاها يوسف
فى السجن على أقوال من أشهرها أنه لبث فيه سبع سنين .وعلى هذا التفسير يكون
الضمير فى " فأنساه " يعود إلى ساقى الملك ، ويكون المراد بربه أى : سيده
ملك مصر .وهناك من يرى أن الضمير فى قوله " فأنساه " يعود إلى يوسف - عليه
السلام - وأن المراد بالرب عننا : الخالق - عز وجل - ، وعليه يكون المعنى
وقال يوسف - عليه السلام - للفتى الذى اعتقد نجاته وهو ساقى الملك : اذكر.
. مظلمتى عند سيدك الملك عندما تعود إليه . واذكر له إحسانى لتفسير الرؤى
وقوله ( فَأَنْسَاهُ الشيطان ذِكْرَ رَبِّهِ ) أى : فأنسى الشيطان يوسف أن.
يذكر حاجته لله وحد ، ولا يذركها للساقى ليبلغها إلى الملك .فكانت النتيجة
أن لبث يوسف فى السجن بضع سنين بسبب هذا الاعتماد على المخلوق؟والذى يبدو
لنا أن التفسير الأول أقرب إلى الصواب ، لأنه هو الظاهر من معنى الآية
الكريمة ، ولأن قوله - تعالى - بعد ذلك( وَقَالَ الذي نَجَا مِنْهُمَا
.. وادكر بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ
يدل دلالة واضحة على أن الضمير فى قوله " فأنساه " يعود إلى ساقى الملك ( .
وأن المراد بربه أى سيده .وقد علق الإمام الرازى على هذه الآية تعليقا ،
يشعر بترجيحه للرأى الثانى فقال ما ملخصه : " واعلم أن الاستعانة بالناس فى
دفع الظلم جائزة فى الشريعة ، إلا أن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، فهذا
وإن كان جائزا لعامة الخلق ، إلا أن الأولى بالصديقين أن يقطعوا نظرهم عن
الأسباب بالكلية ، وألا يشتغلوا إلا بمسبب الأسباب . .ثم قال والذى جربته
، من أول عمري إلى آخره أ الإنسان كلما عول فى أمر من الأمور على غير الله
صار ذلك سببا إلى البلاء وإلى المحنة . . وإذا عول العبد على الله ولم يرجع
إلى أحد من الخلق حصل ذلك المطلوب على أحسن الوجوه ، فهذه التجربة قد
استمرت لى من أول عمرى إلى هذا الوقت الذى بعث فيه السابعة والخمسين من
) : عمرى .ثم قال : واعلم أن الحق هو قول من قال إن الضمير فى قوله
فَأَنْسَاهُ الشيطان ذِكْرَ رَبِّهِ ) راجع إلى يوسف . . والمعنى : أن
الشيطان أنسى يوسف أن يذكر به وخالقه . .ونحن مع احترامنا لرأى الفخر
الرازى ، إلا أننا ما زلنا نرى أن عودة الضمير فى قوله " فأنساه " إلى
الساقى الذى ظن يوسف أنه هو الناجى من العقوبة ، أولى لما سبق أن ذكرناه
قال ابن كثير : وقوله ( اذكرني عِندَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشيطان ذِكْرَ.
رَبِّهِ . . . )أى : " قال يوسف اذكر قصتى عند ربك وهو الملك ، فنسى ذلك
الموصى أن يذكر مولاه بذلك ، وكان نسيانه من جملة مكايد الشيطان . . هذا هو
الصواب أن الضمير فى قوله : " فأنساه " . . عائد على الناجى كما قال مجاهد
ومحمد بن إسحاق وغير واحد . .وإلى هنا تكون الآيات الكريمة قد قصت علينا
بأسلوبها المشوق الحكيم جانبا من حياة يوسف - عليه السلام - فى السجن فماذا
كان بعد ذلك؟

وقال الملك اني ارى سبع بقرات سمان ياكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر واخر
يابسات يا ايها الملا افتوني في رؤياي ان كنتم للرؤيا تعبرون

كما فسرها الوسيط لقد كان بعد ذلك أن أراد الله - تعالى - فتح باب الفرج
ليوسف - عليه السلام - ، وكان من أسباب ذلك أن رأى الملك فى منامه رؤيا
- أفزعته ، ولم يستطع أحد تأويلها تأويلا صحيحا سوى يوسف - عليه السلام
. . . استمع إلى القرآن وهو يقص ذلك فيقول :( وَقَالَ الملك إني أرى سَبْعَ
قوله - سبحانه - : ( وَقَالَ الملك إني أرى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ. (
يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ) شروع فى حكاية الرؤيا التى رآها ملك مصر فى
- ذلك الوقت . .قال ابن كثير : " هذه الرؤيا من ملك مصر ، مما قدر الله
، تعالى - أنها كانت سببا لخروج يوسف - عليه السلام - من السجن معززا مكرما
وذلك أن الملك رأى هذه الرؤيا ، فهالته وتعجب من أمرها ، وما يكون تفسيرها
فجمع الكهنة وكبراء دولته وأمراءها ، وقص عليهم ما رأى ، وسألهم عن تأويلها
فلم يعرفوا ذلك . .وقوله " عجاف " جمع عجفاء والعجف - بفتح العين ،
والجيم - ذهاب السمن ، يقال : هذا رجل أعجف وامرأة عجفاء ، إذا ظهر ضعفهما
وهزالهما . .أى : وقال ملك مصر فى ذلك الوقت لكبار رجال مملكته : إنى رأيت
فيما يرى النائم " سبع بقرات " قد امتلأن شحما وحلما ( يَأْكُلُهُنَّ
سَبْعٌ عِجَافٌ ) أى : يأكل هذه البقرات السبع السمان ، سبع بقرات أخرى
عجاف أى : مهازيل ضعاف .ورأيت - أيضا - فيما يرى النائم ( وَسَبْعَ
) سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ ) قد امتلأت حبا ، ورأيت إلى جانبها سبع سنبلات

وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ) قد ذهبت نضارتها وخضرتها ، ومع هذا فقد التوت اليابسات على الخضر على غلبتها .( يا أيها الملأ ) أى : الأشراف والعلماء من قومى ( أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ ) أى : فسروا لى رؤياى هذه وبينوا لى ما تدل عليه .( إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ) أى : إن كنتم تعرفون تفسيرها وتأويلها معرفة سليمة ، وتعلمون تعبيرها علما مستمرا .و " تعبرون " من العبر ، وهو اجتياز الطريق أو النهر من جهة إلى أخرى وسمى المفسر للرؤيا عابرا ، لأنه يتأمل فيها وينتقل من كل طرف فيها إلى الطرف الآخر ، كما ينتقل عابر النهر أو الطريق من جهة إلى أخرى .قال بعض العلماء : والتعريف فى " الملك " للعهد ، أى ملك مصر ، وسماه القرآن هنا ملكا ولم يسمه فرعون ، لأن هذا الملك لم يكن من الفراعنة ملوك مصر القبط ، وإنما كان ملكا لمصر أيام أن حكمها " الهكسوس " وهم العمالقة الذين ملكوا مصر من 1900 قبل الميلاد إلى سنة 1525 ق . م .فالتعبير عنه بالملك هنا ، دون التعبير عنه بفرعون مع أنه عبر عن مالك مصر فى زمن موسى بفرعون ، يعتبر من دقائق إعجاز القرآن العلمى .وقال " إنى أرى " بصيغة المضارع مع أنه قد رأى بالفعل ، استحضارا لصورة الرؤيا حتى لكأنها ماثلة أمامه .وقال ( وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ) بدون إعادة لفظ سبع كما فى البقرات ، للاكتفاء بدلالة المقابل فى البقرات عليه .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : هل فى الآية دليل على أن السنبلات اليابسة كانت سبعا كالخضر؟قلت : الكلام مبنى على انصبابه إلى هذا العدد فى البقرات السمان والعجاف والسنابل الخضر ، فوجب أن يتناول معنى الأخر السبع ويكون قوله ( وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ) بمعنى : وسبعا أخر يابسات .وفى نداء ، الملك لقومه قوله ( يَاأَيهَا الملأ أَفْتُونِي . . . ) تشريف لهم ، وحض على " استعمال عقولهم وعلومهم فى تفسير هذه الرؤيا التى أزعجته .واللام فى قوله للرؤيا " لتقوية الفعل " تعبرون " حيث تأخر عن معموله .ويدبو أن القوم فى ذلك الزمان ، كان بعضهم يشتغل بتفسر الرؤى ، وكان لهذا التفسير مكانته الهامة فيهم . . .فقد مرت بنا رؤيا يوسف ، ورؤيا رفيقيه فى السجن ، ثم جاءت رؤيا الملك هنا ، وهذا يشعر بأن انفراد يوسف - عليه السلام - بتأويل رؤيا الملك ، فى زمن كثر فيه البارعون فى تأويل الرؤى ، كان بمثابة معجزة أو ما يشبه المعجزة من الله - تعالى - ليوسف - عليه السلام - حتى تزداد مكانته عند الملك وحاشيته .

قالوا اضغاث احلام وما نحن بتاويل الاحلام بعالمين

كما فسوها الوسيط وقوله - سبحانه - ( قالوا أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأحلام بِعَالِمِينَ ) حكاية لما ردبه الكهان والأشراف على ما طلبه الملك منهم .والأضغاث : جمع ضغث - بكسر الضاد - وهو ما جمع فى حزمة واحدة من مختلف النبات وأعواد الشجر ، فصار خليطا غير متجانس والأحلام : جمع حلْم وحلُم - بإسكان اللام وضمها تبعا للحاء - وهو ما يراه النائم فى منامه ، وتطلق كثيرا على ما ليس بحسن ، ففى الحديث الصحيح " : الرؤيا من الله والحلم الشيطان " .أى : قال الملأ للملك : ما رأيته أيها الملك فى نومك ما هو إلا تخاليط أحلام ومنامات باطلة ، فلا تهتم بها .فهم قد شبهوا ما رآه بالأضغاث فى اختلاطه ، وعدم التجانس بين أطرافها .ثم أضافوا إلى ذلك قولهم : ( وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأحلام بِعَالِمِينَ ) أى : إننا لسنا من أهل العلم بتفسير تخاليط الأحلام ، وإنما نحن من أهل العلم بتفسير المنامات المعقولة المفهومة .وقولهم هذا إنما هو اعتذار عن جهلهم ، بمعرفة تفسير رؤيا الملك ، ويبدو أن الملك كان يتوقع منهم هذا الجهل ، كما يشعر به قوله - تعالى - ( إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ فقد أتى بإن المفيدة للشك .قال صاحب الكشاف : " فإن قلت : ما هو إلا حلم ( واحد فلماذا قالوا أضغاث أحلام فجمعوا!؟قلت : هو كما تقول فلان يركب الخيل ، ويلبس عمائم الخز ، لمن لا يركب إلا فرسا واحدا وماله إلا عمامه فردة ، تزيدا فى الوصف ، فهؤلاء أيضا تزيدوا فى وصف الحلم بالبطلان فجعلوه أضغاث أحلام - ويجوز أن يكون قد قص عليهم مع هذه الرؤيا سواها .

وقال الذي نجا منهما وادكر بعد امة انا انبئكم بتاويله فارسلون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما حدث بعد أن عجز الملأ من قوم الملك عن تأويل رؤياه فقال : ( وَقَالَ الذي نَجَا مِنْهُمَا ) أى : وقال أحد الرجلين اللذين كانا مع يوسف فى السجن ثم خرج منه بريئا وهو ساقى الملك ).وادكر بَعْدَ أُمَّةٍ ) : وتذكر بعد حين طويل من الزمان كيف فسر له يوسف رؤياه تفسيرا صادقا أيام أن كان معه فى السجن .واصل " ادكر " اذتكر بوزن افتعل ، مأخوذ من الذكر - بتشديد الذال وضمها - قلبت تاء الافتعال دالا ، لثقلها ولتقارب مخرجيهما ، ثم قلبت الذال دالا ليتأتى إدغامها فى الدال لأنها أخف من الذال .والأمة : الجماعة التى تؤم وتقصد لأمر ما ، والمراد بها هنا : المدة المتطاولة من الزمان وكان هذا الساقى قد نسى ما أوصاه به يوسف من قوله ( اذكرني عِندَ رَبِّكَ ) فلما قال الملك ما قاله بشأن رؤياه

تذكر هاذا الساقى حال يوسف .قالوا : وكان ذلك بعد سنتين من خروجه من ، السجن .وقوله ( أَنَاْ أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ) أى : قال الساقى للمك وحاشيته : أنا أخبركم بتأويله : بتفسير رؤيا الملك التى خفى تفسيرها على الملأ من قومه . فأرسلون ، أى : فابعثونى إلى من عنده العلم الصحيح الصادق بتفسيرها .ولم يذكر لهم اسم المرسل إليه ، وهو يوسف - عليه السلام - لأنه أراد أن يفاجئهم بخبره بعد حصول تأويله للرؤيا ، فيكون ذلك أوقع فى قلوبهم ، وأسمى لشأن يوسف - عليه السلام - .وقال ) فَأَرْسِلُونِ ) ليشعرهم أن هذا التأويل ليس من عند نفسه ، وإنما هو من عند من سيرسلونه إليه وهو يوسف - عليه السلام .

يوسف ايها الصديق افتنا في سبع بقرات سمان ياكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر واخر يابسات لعلي ارجع الى الناس لعلهم يعلمون

كما فسرها الوسيط وقوله ( يُوسُفُ أَيُّهَا الصديق أَفْتِنَا . . . ) من بديع الإيجاز بالحذف فى القرآن الكريم ، لأن المحذوف لا يتعلق بذكره غرض ، والتقدير : قال لهم أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون إلى من عند العلم بذلك. : فأرسلوه فجاء إلى يوسف فى السجن فقال له : يا يوسف يأيها الصديق .والصديق هو الإنسان الذى صار الصدق دأبه وشيمته فى كل أحواله ، ووصفه بذلك لأنه جرب منه الصدق التام أيام أن كان معه فى السجن .وقوله " أفتنا " أى فسر لنا تلك الرؤيا التى رآها الملك ، والتى عجز الناس عن تفسيرها . وهى أن الملك رأى فى منامه ( سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ) .وقوله ( لعلي أَرْجِعُ إِلَى الناس لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ) تعليل لطلب الفتوى ، وبيان لأهميتها بالنسبة له وليوسف - عليه السلام .أى : فسر لنا هذه الرؤيا ( لعلي أَرْجِعُ - إِلَى الناس ) تعليل لطلب الفتوى ، وبيان لأهميتها بالنسبة له وليوسف عليه السلام .

قال تزرعون سبع سنين دابا فما حصدتم فذروه في سنبله الا قليلا مما تاكلون

كما فسرها الوسيط أى : فسر لنا هذه الرؤيا تأويلا مجردا بل يؤولها تأويلا ، صادقا صحيحا ، ومعه النصح والإرشاد إلى ما يجب عمله فى مثل هذه الأحوال فقال : - كما حكى القرآن عنه - : ( قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعُ سِنِينَ " دَأَباً . . . )وتزرعون ها هنا : خبر فى معنى الأمر ، بدليل قوله بعد ذلك ، فذروه " .وعبر عن الأمر بالمضارع مبالغة فى التعبير عن استجابتهم لنصيحته فكأنهم قد امتثلوا أمره ، وهو يخبر عن هذا الامتثال .و ( دأبا ) مصدر دأب على الشئ إذا استمر عليه ولازمه يقال : دأب فلان على فعل هذا الشئ يدأب دأبا ودأبا إذا داوم عليه ، وهو حال من ضمير " تزرعون " أى قال يوسف للساقى : فارجع إلى قومك فقل لهم إن يوسف يأمركم أن تزرعوا أرضكم سبع سنين ، زراعة مستمرة على حسب عادتكم .( فَمَا حَصَدتُّمْ ) من زرعكم فى كل سنة فذروه فى سنبله ، أى : فاتركوا الحب فى سنبله ولا تخرجوه منها حتى لا يتعرض للتلف بسبب السوس أو ما يشبهه : إلا قليلا مما تأكلون ، أى : اتركوا الحب فى سنبله فلا تخرجوه منها ، إلا شيئا قليلا منه فأخرجوه من السنابل لحاجتكم إليه فى مأكلكم .وفى هذه الجملة إرشاد لهم إلى أن من الواجب عليهم أن يقتصدوا فى مأكولاتهم إلى أقصى حد ممكن لأن المصلحة تقتضى ذلك .قال القرطبى هذه الآية أصل فى القول بالمصالح الشرعية التى هي حفظ الأديان والنفوس : والعقول والأنساب والأموال ، فكل ما تضمن تحصيل شيئ من هذه الأمور فهو مصلحة ، وكلما يفوت شيئا منها فهو مفسدة ودفعه مصلحة ولا خلاف ، فإن مقصود الشرائع إرشاد الناس إلى مصالحهم الدنيوية ليحصل لهم التمكن من معرفة الله - تعالى - وعبادته الموصلتين إلى السعادة الأخروية ، ومراعاة ذلك فضل من الله - عز وجل - ورحمة رحم بها عباده . . .

ثم ياتي من بعد ذلك سبع شداد ياكلن ما قدمتم لهن الا قليلا مما تحصنون

كما فسرها الوسيط وقوله ( ثُمّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذلك ) أى : من بعد ذلك السنين السبع المذكورات التى تزرعونها على عادتكم المستمرة فى الزراعة ). سَبْعٌ شِدَادٌ ) أى : سبع سنين صعاب على الناس ، لما فيهن من الجدب والقحط يأكلن ما قدمتم لهن ، أى : يأكل أهل تلك السنين الشداد ، كل ما ادخروه فى السنوات السبع المتقدمة من حبوب فى سنابلها .وأسند الأكل إلى السنين على سبيل المجاز العقلى ، من إسناد الشئ إلى زمانه .وقوله : ( إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ ) أى : أن تلك السنين المجدبة ستأكلون فيها ما ادخرتموه فى السنوات السابقة ، إلا شيئا قليلا منه يبقى محرزا ، لتنتفعوا به فى زراعتكم لأرضكم .فقوله ( تُحْصِنُونَ ) من الإحصان بمعنى الإحراز والادخار ، يقال أحصن فلان الشئ ، إذا جعله فى الحصن ، وهو الموضع الحصين الذى لا يوصل إليه إلا بصعوبة .وحاصل تفسير يوسف - عليه السلام - لتلك

الرؤيا : أنه فسر البقرات السمان والسنبلات الخضر ، بالسنين السبع المخصبة
وفسر البقرات العجاف والسنبلات اليابسات بالسنين السبع المجدبة التى ،
ستأتي فى أعقاب السنين المخصبة وفسر ابتلاع البقرات العجاف للبقرات السمان
بأكلهم ما جمع فى السنين المخصبة ، فى السنين المجدبة .ولقد كان هذا ،
التأويل لرؤيا الملك تأويلا صحيحا صادقا من يوسف - عليه السلام - بسببه
. أنقذ الله - تعالى - مصر من مجاعة سبع سنين

ثم ياتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون

كما فسرها الوسيط وقوله ( ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذلك عَامٌ فِيهِ
يُغَاثُ الناس وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ) تبشير لهم بأن الخير سيأتيهم ، بعد
تلك السنوات الشداد ، فقد جرت سنة الله - تعالى - أن يعقب العسر باليسر
ولفظ ( يغاث ) من الغوث بمعنى إزالة الهم والكرب عن طريق الأمطار التى.
يسوقها الله - تعالى - لهم بعد تلك السنوات الشداد التى قل فيها المطر
يقال : غاث الله - تعالى - البلاد غيثا ، إذا ساق لها المطر بعد أن يئسوا.
من نزوله ، ويعصرون من العصر وهو الضغط على ما من شأنه أن يعصر ، لإخراج
ما فيه من مائع سواء كان هذا المائع زيتاً أم ماء أم غيرهما .أى : ثم يأتى
من بعد تلك السنين السبع الشداد ، عام فيه تزول الهموم والكروب ونقص
الأموال عن الناس ، بسبب إرسال الله - تعالى - المطر عليهم ، فتخضر الأرض
وتنبتمن كل زوج بهيج ، وفيه يعصرون من ثمار مزروعاتهم ما من شأنه أن يعصر
كالزيتون وما يشبهه .وهذا كناية عن بدء حلول الرخاء بهم ، بعد تلك السنوات
الشداد ، وما قاله يوسف - عليه السلام - عن هذا العام الذى يأتى فى أعقاب
، السنوات السبع الشداد ، لا مقابل له فى رؤيا الملك ، بل هو خارج عنها
وذلك لزيادة التبشير لملك والناس ، ولإفهامهم أن هذا العلم إنما بوحى من
الله - تعالى - الذى يجب أن يخلص له الجميع العبادة والطاعة .وإلى هنا نرى
أن يوسف - عليه السلام - قد فسر رؤيا الملك تفسيرا سليما حكيما ، من نتائجه
الخير للملك وقومه . . .فماذا فعل الملك مع يوسف - عليه السلام - بعد ذلك؟

وقال الملك ائتوني به فلما جاءه الرسول قال ارجع الى ربك فاساله ما بال
النسوة اللاتي قطعن ايديهن ان ربي بكيدهن عليم

كما فسرها الوسيط لقد قص علينا القرآن الكريم ما طلبه الملك من حاشيته وما
رد به يوسف - عليه السلام - على رسول الملك ، وما قالته النسوة وامرأة
العزيز فى شأن يوسف وما طلبه - عليه السلام - من الملك ، استمع إلى القرآن
الكريم وهو يحكى كل ذلك بأسلوبه الخاص فيقول :( وَقَالَ الملك ائتوني بِهِ
فَلَمَّا جَآءَهُ الرسول . . . ) .قوله - سبحانه - ( وَقَالَ الملك ائتوني
- بِهِ . . . ) حكاية لما طلبه الملك فى ذلك الوقت من معاونيه فى شأن يوسف
عليه السلام - ، وفى الكلام حذف يفهم من المقام ، والتقدير :وقال الملك بعد
أن سمع من ساقيه ما قاله يوسف فى تفسير الرؤيا أحضروا إلى يوسف هذا لأراه
وأسمع منه ، وأستفيد من علمه .وهذا يدل - كما يقول الإمام الرازى - على
فضيلة العلم ، فإنه - سبحانه - جعل ما علمه ليوسف سببا لخلاصه من المحنة
- الدنيوية ، فكيف لا يكون العلم سببا للخلاص من المحن الأخروية .وقوله
سبحانه - ( فَلَمَّا جَآءَهُ الرسول قَالَ ارجع إلى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ
مَا بَالُ النسوة اللاتي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي
. بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ) بيان لما قاله يوسف - عليه السلام - لرسول الملك
أى : فلما جاء رسول الملك إلى يوسف بأناة وإباء : اجرع إلى ربك ، أى إلى. .
سيدك الملك " فاسأله " قبل خروجى من السجن وذهابى إليه ( مَا بَالُ النسوة
، اللاتي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ) أى : ما حالهن ، وما حقيقة أمرهن معى
لأن الجميع أننى برئ ، وأننى نقى العرض طاهر الذيل .والمراد بالسؤال فى
قوله ( ارجع إلى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ ) الحث والتحريض على معرفة حقيقة أمر
النسوة اللائى قطعن أيديهن . . .ولم يكشف له يوسف عن حقيقة أمرهن معه
- لزيادة تهييجه على البحث والتقصى إذ من شأن الإنسان - خصوصا إذا كان
حاكما - أن يأنف من أن يسأل عن شئ مهم ، ثم لا يهتم بالإجابة عنه .وقد آثر
يوسف - عليه السلام - أن يكون هذا السؤال وهو فى السجن لتظهر الحقيقة خالصة
ناصعة ، دون تدخل منه فى شأنها .وجعل السؤال عن النسوة اللائى قطعن أيديهن
دون امرأة العزيز ، وفاء لحق زوجها ، واحترازا من مكرها ، ولأنهن كن شواهد
) على إقرارها بأنها قد راودته عن نفسه ، فقد قالت أمامهن بكل تبجح وتكشف
فذلكن الذي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فاستعصم
وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ آمُرُهُ لَيُسْجَنَنّ وَلَيَكُونا مِّن
الصاغرين ) واكتفى بالسؤال عن تقطيع أيديهن ، دون التعرض لكيدهن له ، سترا
لهن ، وتنزها منه - عليه السلام - عن ذكرهن بما يسؤوهن .ولذا فقد اكتفى
) : بالإشارة الإجمالية إلى كيدهن ، وفوض أمرهن إلى الله - تعالى - فقال
إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ) .أى إن ربى وحده هو العليم بمكرهن بى
وكيدهن لى ، وهو - سبحانه - هو الذى يتولى حسابهن على ذلك .ولا شك فى ،

امتناع يوسف - عليه السلام - عن الذهاب إلى الملك إلا بعد التحقيق فى قضيته
يدل دلالة واضحة على صبره ، وسمو نفسه ، وعلو همته . . .ولقد أجاد صاحب ،
الكشاف فى تعليله لامتناع يوسف عن الخروج من السجن للقاء الملك إلا بعد أن
تثبت براءته فقال :" إنما تأنى وتثبت يوسف فى إجابة الملك ، وقدم سؤال
النسوة ، ليظهر براءة ساحته عما قذف به وسجن فيه ، لئلا يتسلق به الحاسدون
: إلى تقبيح أمره عنده ، ويجعلوه سلما إلى حط منزلته لديه ، ولئلا يقولوا
ما خلد فى السجن إلا لأمر عظيم ، وجرم كبير ، حق به أن يسجن ويعذب ، ويستكف
شره .وفيه دليل على أن الاجتهاد فى نفى التهم ، واجب وجوب اتقاء الوقوف فى
مواقفها "وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية بعض الأحاديث فى
- فضل يوسف - عليه السلام - فقال ما ملخصه :وقد وردت السنة بمدحه على ذلك
أى على امتناعه من الخروج من السجن حتى يتحقق الملك ورعيته من براءة ساحته
ونزاهة عرضه - ففى الصحيحين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - :" نحن أحق بالشك من إبراهيم ، إذ قال : رب أرنى كيف تحيى
، الموتى؟ قال : أو لم تؤمن؟ قال بلى ولكن ليطمئن قلبى ، ويرحم الله لوطا
لقد كان يأوى إلى ركن شديد ، ولو لبثت فى السجن ما لبثت يوسف لأجبت الداعى
وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة فى قوله - تعالى - ( فَاسْأَلْهُ مَا. "
بَالُ النسوة اللاتي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ . . . ) أن رسول الله صلى
" الله عليه وسلم - قال : " لو كنت أنا لأسرعت الإجابة ، وما ابتغيت العذر
" : - وروى عبد الرزاق عن عكرمة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم.
لقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه؛ والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف
والسمان ، ولو كنت مكانه ما أجبتهم حتى اشترط أن يخرجونى .ولقد عجبت من
يوسف وصبره وكرمه والله يغفر له ، حين أتاه الرسول ، ولو كنت مكانه
. " لبادرتهم إلى الباب ، ولكنه أراد أن يكون له العذر

قال ما خطبكن اذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء
قالت امرات العزيز الان حصحص الحق انا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين

كما فسرها الوسيط هذا ، وقوله - سبحانه - ( قَالَ مَا خَطْبُكُنّ إِذْ
رَاوَدتُّنّ يُوسُفَ عَن نّفْسِهِ ) حكاية لما فعله الملك بعد أن بلغه
: الرسول بما طلبه يوسف منه .وفى الكلام حذف يفهم من السياق ، والتقدير
وبعد أن رجع رسول الملك إليه وأخبره بما قاله يوسف ، استجاب الملك لما طلبه
يوسف منه ، فأحضر النسوة وقال لهن : ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه
والخطب : مصدر خطب يخطب ، ويطلق - غالبا - على الأمر المهم الذى يجعل.
الناس يتحدثون فيه كثيراً ، وجمعه خطوب .والمعنى : بعد أن جمع الملك النسوة
قال لهن : ما الأمر الهام الذى حملكن فى الماضى على أن تراودن يوسف عن
نفسه؟ وهل وجدتن فيه ميلا إلى الاستجابة لكنّ . . "قال صاحب الظلال ما
ملخصه :" والخطب الأمر الجلل .. . فكأن الملك كان قد استقصى فعلم أمرهن قبل
أن يواجههن ، وهو المعتاد فى مثل هذه الأحوال ، ليكون الملك على بينة من
الأمر وظروفه قبل الخوض فيه ، فهو يواجههن مقررا الاتهام ، ومشيرا إلى أمر
، لهن جلل . .ون هذا نعلم شيئاً بما دار فى حفل الاستقبال فى بيت الوزير
وما قالته النسوة ليوسف ، وما لمحن به وأشرن إليه ، من الإغراء الذى بلغ
حد المراودة .ومن هذا نتخيل صورة لهذه الأوساط ونسائها حتى فى ذلك العهد
الموغل فى التاريخ ، فالجاهلية هى الجاهلية دائماً ، وأنه حيثما كان الترف
وكانت القصور والحاشية ، كان التحلل والتميع والفجور الناعم الذى يرتدى ،
ثياب الأرستقراطية " .وأمام هذه المواجهة التى واجههن بها الملك ، لم يملكن
الإنكار ، بل قلن بلسان واحد : ( حَاشَ لِلّهِ ) أى : معاذ الله .( مَا
عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سواء ) قط ، وإنما الذى علمناه منه هو الاستعصام عن
كل سوء .وهنا ( قَالَتِ امرأت العزيز ) ويبدو أنها كانت حاضرة ، معهم عند
الملك .( الآن حَصْحَصَ الحق ) أى : الآن ظهر الحق وانكشف انكشافا تاما بعد
أن كان خافيا والفعل حصحص أصله حص ، كما قيل : كبكب فى كب ، وهو مأخوذ من
الحص بمعنى الاستئصال والإزالة ، تقول : فلان حص شعره إذا استأصله وأزاله
فظهر ما كان خافيا من تحته . . .ثم أضافت إلى ذلك قولها ( أَنَا
رَاوَدْتُّهُ عَن نّفْسِهِ ) أى : أنا التى طلبت منه ما طلبت ( وَإِنّهُ
لَمِنَ الصادقين ) فى قوله ( هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نّفْسِي ) وهكذا يشاء
الله - تعالى - أن تثبت براءة يوسف على رءوس الأشهاد ، بتلك الطريقة التى
يراها الملك ، وتنطق بها امرأة العزيز ، والنسوة اللائى قطعن أيديهن .قال
صاحب الكشاف : " ولا مزيد على شهادتهن له بالبراءة والنزاهة ، واعترافهن
على أنفسهن بأنه لم يتعلق بشئ مما قذفته به لأنهن خصومة ، وإذا اعترف الخصم
بأن صاحبه على الحق وهو على الباطل لم يبق لأحد مقال " - إذ الفضل ما شهدت
. - به الأعداء

ذلك ليعلم اني لم اخنه بالغيب وان الله لا يهدي كيد الخائنين

كما فسرها الوسيط ثم وصلت امرأة العزيز حديثها فقال : ( ذلك لِيَعْلَمَ

( أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بالغيب وَأَنَّ الله لاَ يَهْدِي كَيْدَ الخائنين
أى : ذلك الذى قلته واعترفت به على نفسى من أنى راودته عن نفسه ، إنما .
قلته ليلعم يوسف أنى لم أخنه فى غيبته ، ولم أقل فيه شيئاً يسؤوه بعد أن
فارقنى ، ولبث بعيدا عنى فى السجن بضع سنين ، وإنما أنا أقرر أمام الملك
وحاشيته بأنه من الصادقين . . .وإنما قررت ذلك لأن الله - تعالى - لا يهدى
كيد الخائنين ، أى :لا ينفذ كيدهم ولا يسدده ، بل يفضحه ويزهقه ولو بعد
حين من الزمان .لذا فأنا التزمت الأمانة فى الحديث عنه ، وابتعدت عن
الخيانة ، لأن الله - تعالى -لا يرضاها ولا يقبلها .فأنت ترى أن هذه
المرأة التى شهدت على نفسها شهادة لا تبالى بما يترتب عليها بشأنها ، قد
عللت شهادتها هذه بعلتين :إحداهما : كراهتها أن تخونه فى غيبته بعد أن فقد
الدفاع عن نفسه وهو فى السجن ..وثانيتهما : علمها بأن الله - تعالى -لا
. . . يهدى كيد الخائنين ولا يسدده ، وإنما يبطله ويزهقه

وما ابرئ نفسي ان النفس لامارة بالسوء الا ما رحم ربي ان ربي غفور رحيم

كما فسرها الوسيط ثم أضافت إلى كل ذلك قولها : ( وَمَآ أُبَرِّىءُ نفسي
إِنَّ النفس لأَمَّارَةٌ بالسواء إِلاَّ مَا رَحِمَ ربي إِنَّ رَبِّي
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ) .أى : ومع أنى أعترف بأنه من الصادقين ، وأعترف بأنى لم
أخنه بالغيب ، إلا أنى مع كل ذلك لا أبرئ نفسى ولا أنزهها عن الميل إلى
الهوى ، وعن محاولة وصفه بما هو برئ منه ، فنا التى قلت لزوجى فى حالة
دهشتى وانفعالى الشديد ، ( مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سواءا
إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ) وما حملنى على هذا القول إلا
هواى وشهواتى ، ونفسى؛ إن النفس البشرية لكثيرة الأمر لصاحبها بالسوء إلا
- نفسا رحمها الله وعصمها من الزلل والانحراف ، كنفس يوسف - عليه السلام
وجملة ( إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ) تعليل لما قبلها ، أى : إن ربى.
كثير الغفران وكثير الرحمة ، لمن يشاء أن يغفر له ويرحمه من عباده .والذى
يتأمل هذا الكلام الذى حكاه القرآن عن امرأة العزيز ، يراه زاخرا بالصراحة
التى ليس بعدها صراحة ، وبالمشاعر والانفعالات الدالة على احترامها ليوسف
الذى خاخف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، رغم الإغراءات المصحوبة
بالترغيب والترهيب ، ويبدو لنا - والله أعلم - أن هذا الكلام ما قالته
امرأة العزيز ، إلا بعد أن استقرت عقيدة الإيمان التى آمن بها يوسف فى
قلبها ، وبعد أن رأت فيه إنسانا يختلف فى استعصامه بالله وفى سمو نفسه ، عن
غيره من الناس الذين رأتهم .هذا ، ويرى كثير من المفسرين أن كلام امرأة
العزيز قد انتهى عند قوله - تعالى - ( وَإِنَّهُ لَمِنَ الصادقين ) وأن
. . قوله - تعالى - بعد ذلك ( ذلك لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بالغيب
إلى قوله - تعالى - ( إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ) هو من كلام ( .
يوسف - عليه السلام - ، فيكون المعنى :وذلك ليعلم " أى العزيز " أنى لم
أخنه ، فى أهله ( بالغيب ) أى في غيبته ( وَأَنَّ الله لاَ يَهْدِي كَيْدَ
الخائنين ) من النساء والرجال ، بل يبطل هذا الكيد ويفضحه .( وَمَآ
- أُبَرِّىءُ نفسي ) أى : ولا أنزهها عن السوء ، وهذا من باب التواضع منه
عليه السلام - ( إِنَّ النفس لأَمَّارَةٌ بالسواء ) أى : إن هذا الجنس من
الأنفس البشرية ، شأنه الأمر بالسوء والميل إلى الشهوات .( إِلاَّ مَا
رَحِمَ ربي ) من النفوس فعصمها عن أن تكون أمارة بالسوء .( إِنَّ رَبِّي
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ) لمن شاء أن يغفر له ويرحمه من خلقه .والذى نراه أن
الرأى الأول الذى سرنا عليه هو الجدير بالقبول ، لأنه هو المناسب لسياق
، الآيات من غير تكلف ، ولأنه لا يؤدى إلى تفكك الكلام وانقطاع بعضه عن بعض
بخلاف الرأى الثانى الذى يرى أصحابه أن كلام امرأة العزيز قد انتهى عند
، قوله - تعالى - ( وَإِنَّهُ لَمِنَ الصادقين ) فإنه يؤدى إلى تفكك الكلام
- وعدم ارتباط بعضه ببعض ، فضلا عن أن وقائع التاريخ لا يؤيده ، لأن يوسف
عليه السلام - كان فى السجن عندما أحضر الملك النسوة وقال لهن : ( مَا
خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ .. . ) وعندما قالت
- امرأة العزيز أمام الملك وأمامهن : ( الآن حَصْحَصَ الحق . . ) إلى قوله
تعالى - ( إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ) .ومن المفسرين الذين أيدوا
الرأى الأول الإمام ابن كثير فقد قال ما ملخصه : ( ذلك لِيَعْلَمَ أَنِّي
لَمْ أَخُنْهُ بالغيب . . ) نقول : إنما اعترفت بهذا على نفسى ، بأنى راودت
هذا الشاب فامتنع ، ( وَمَآ أُبَرِّىءُ نفسي . . . ) تقول المرأة : ولست
). أبرئ نفسى ، فإن النفس تتحدث وتتمنى ، ولهذا راودته لأنها أمارة بالسوء
إِلاَّ مَا رَحِمَ ربي ) أى : من عصمه الله - تعالى - . . .ثم قال : " وهذا
القول هو الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصه ومعانى الكلام . لأن سياق
الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك ، ولم يكن يوسف - عليه
السلام - عندهم ، بل بعد ذلك أحضره الملك " .وإلى هنا تكون السورة الكريمة
قد حدثتنا عن القسم الأول من حياة يوسف - عليه السلام - القسم الذى تعرض
خلاله لألوان من المحن والآلام ، بعضها من إخوته ، وبعضها من امرأة العزيز
وبعضها من السجن ومراراته . . .ثم بدأت بعد ذلك فى الحديث عن الجانب ،

الثانى من حياته عليه السلام .

وقال الملك ائتوني به استخلصه لنفسي فلما كلمه قال انك اليوم لدينا مكين امين

- كما فسرها الوسيط وهو جانب الرخاء والعز والتمكين فى حياته ، فقال
. . . تعالى - : ( وَقَالَ الملك ائتوني بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي
- وفى الكلام إيجاز بالحذف ، والتقدير : وبعد أن انكشفت للملك براءة يوسف(
عليه السلام - انكشافا تاما ، بسبب ما سمعه عنه من النسوة ومن امرأة العزيز
وبعد أن سمع تفسيره للرؤيا وأعجب به ، كما أعجب بسمو نفسه وإبائه . .بعد ،
كل ذلك قال الملك لخاصته : ائتونى بيوسف هذا ، ليكون خالصا لنفسى ، وخاصا
بى فى تصويف أمورى ، وكتمان أسرارى ، وتسيير دفة الحكم فى مملكتى .والسين
والتاء فى قوله " أستخلصه " للمبالغة فى الخلوص له ، فهما للطلب كما فى
استجاب ، والاستخلاص طلب خلوص الشئ من شوائب الشركة .فكأن الملك قد شبه
يوسف - عليه السلام - بالشئ النفيس النادر ، الذى يجب أن يستأثر به الملك
دون أن يشاركه فيه أحد سواه .والفاء فى قوله ( فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ
إِنَّكَ اليوم لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ) معطوفة على محذوف يفهم من
- السياق .والضمير المنصوب فى " كلمه " يعود على الملك - على الراجح
والمراد باليوم : الذى حدث فيه التخاطب بين الملك ويوسف .و ( مكين ) صفة.
مشبهة من الفعل مكن - بضم الكاف - ، بمعنى صاحب مكانة ومرتبة عظيمة ، يقال
مكن فلان مكانة إذا ارتفعت منزلته ، ويقال : مكنت فلانا من هذا الشئ إذا :
جعلت له عليه سلطانا وقدرة .( أمين ) بزنة فعيل بمعنى مفعول ، أى : مأمون
على ما نكلفك به ، ومحل ثقتنا .والمعنى : وقال الملك لجنده ائتونى بيوسف
هذا أستخلصه لنفسى فأتوه به إلى مجلسه .فازداد حب الملك له وتقديره إياه
، وقال له : إنك منذ اليوم عندنا صاحب الكلمة النافذة ، والمنزلة الرفيعة
التى تجعلنا نأتمنك على كل شئ فى هذه المملكة ، وتلك المقالة من الملك
، ليوسف ، هى أولى بشائر عاقبة الصبر؛ وعزة النفس ، وطهارة القلب
. . . والاستعصام بحبل الله المتين

قال اجعلني على خزائن الارض اني حفيظ عليم

كما فسرها الوسيط وهنا طلب يوسف - عليه السلام - من الملك بعزة وإباء أن
يجعله فى الوظيفة التى يحسن القيام بأعبائها ( قَالَ اجعلني على خَزَآئِنِ
الأرض إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ) والخزائن جمع خزانة - بكسر الخاء وهى اسم
- للمكان الذى يخزن فيه الشئ ، والمراد بالأرض : أرض مصر .أى : قال يوسف
عليه السلام - للملك : اجعلنى - أيها الملك - المتصرف الأول فى خزائن أرض
مملكتك ، المشتملة على ما يحتاج إليه الناس من أموال وأطعمة ، لأنى شديد
الحفظ لما فيها ، عليم بوجوه تصريفها فيما يفيد وينفع . . .فأنت ترى أن
يوسف - عليه السلام - لم يسأل الملك شيئا لنفسه من أعراض الدنيا ، وإنما
، طلب منه أن يعينه فى منصب يتمكن بواسطته من القيام برعاية مصالح الأمة
وتدبير شئونها . . . لأنها مقبلة على سنوات عجاف ، تحتاج إلى خبرة يوسف
وأمانته وكفاءته وعلمه . . .قال صاحب الكشاف : " وصف يوسف نفسه بالأمانة
والكفاية اللتين هما طلبة الملوك ممن يولونه ، وإنما قال ذلك ليتوصل إلى
إمضاء أحكام الله تعالى - وإقامة الحق ، وبسط العدل ، والتمكن مما لأجله
، تبعث الأنبياء إلى العباد ، ولعلمه أن أحدا غيره لا يقوم مقامه فى ذلك
فطلب التولية ابتغاء وجه الله -لا لحب الملك والدنيا "وقال القرطبى ما
ملخصه :" ودلت الآية - أيضاً - على جواز أن يطلب الإنسان عملاً يكون له
أهلاً .فإن قيل : فإن ذلك يعارضه ما جاء عن رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - فى الأحاديث الصحيحة من نهيه عن طلب الإمارة . . .فالجواب : أولاً
أن يوسف - عليه السلام - إنما طلب الولاية لأنه علم أنه لا أحد يقوم :
مقامه فى العدل والإصلاح وتوصيل الفقراء إلى حقوقهم ، فرأى أن ذلك فرض
متعين عليه ، فإنه لم يكن هناك غيره . . .الثانى : أنه لم يقل اجعلنى على
. . . خزائن الأرض لأنى حسيب كريم ، وإن كان كذلك ، ولم يقل إنى جميل مليح
وإنما قال ( إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ) فسألها بالحفظ والعلم لا بالنسب
والجمال .الثالث : إنما قال ذلك عند من لا يعرفه فأراد تعريف نفسه ، وصار
ذلك مستثنى من قوله - تعالى - ( فَلاَ تزكوا أَنفُسَكُمْ . . ) والخلاصة أن
يوسف - عليه السلام - إنما قال ما قال للملك ، ، وطلب ما طلب منه ، لأنه
علم أن هذا المنصب لا يصلح له أحد سواه فى ذلك الوقت وفى تلك الظروف ، فهو
يريد من ورائه خدمة الأمة لأجر منفعة شخصية لنفسه . . .وما قاله إنما هو من
باب التحدث بنعمة الله - تعالى - الذى أعطاه هذه الصفات الكريمة ، والمناقب
. العالية ، وليس من باب تزكية النفس المحظورة

وكذلك مكنا ليوسف في الارض يتبوا منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع اجر المحسنين

كما فسرها الوسيط هذا ، وقوله - سبحانه - ( وكذلك مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأرض . . . ) بيان لسنة الله - تعالى - فى خلقه ، من كونه - سبحانه - لا يضيع أجر الصابرين المحسنين أى : ومثل هذا التمكين العظيم . مكنا ليوسف فى أرض مصر ، بعد أن مكث فى سجنها بضع سنين ، لا لذنب اقترفه ، وإنما لاستعصامه بأمر الله .وقوله ( يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ) تفصيل للتمكين الذى منحه الله - تعالى - ليوسف فى أرض مصر ، والتبوأ اتخاذ المكان للنزول به . يقال : بوأ فلان فلانا منزلا . أى مكنه منه وأنزله به أى : ومثل هذا التمكين العظيم ، مكنا ليوسف فى أرض مصر ، حيث هيأنا له أن يتنقل فى أماكنها ومنازلها حيث يشاء له التنقل ، دون أن يمنعه مانع من الحلول فى أى مكان فيها .فالجملة الكريمة كناية عن قدرته على التصرف والتنقل فى جميع أرض مصر ، كما يتصرف ويتنقل الرجل فى منزله الخاص .وقوله : ( نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَشَآءُ . . . ) بيان لكمال قدرته ونفذا إرادته - سبحانه - أى نصيب برحمتنا وفضلنا وعطائنا من نشاء عطاءه من عبادنا بمقتضى حكمتنا ومشيئتنا .( وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ المحسنين ) الذين يتقنون أداء ما كلفهم الله بأدائه ، بل نوفيهم أجورهم على إحسانهم فى الدنيا قبل الآخرة إذا شئنا ذلك .

ولاجر الاخرة خير للذين امنوا وكانوا يتقون

كما فسرها الوسيط ( وَلأَجْرُ الآخرة خَيْرٌ ) وأبقى ( لِّلَّذِينَ آمَنُواْ ) بالله - إيماناً حقاً ( وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ) خالقهم - عز وجل - فى لك ما يأتون وما يذرون ، بأن يصونوا أنفسهم عن كل ما يغضبه .وهكذا كافأ الله - تعالى - يوسف على صبره وتقواه وإحسانه ، بما يستحقه من خير وسعادة فى الدنيا والآخرة .ثم تطوى السورة بعد ذلك أحداثاً تكل معرفتها إلى فهم القارئ وفطنته ، فهى لم تحدثنا - مثلاً - عن الطريقة التى اتبعها يوسف فى إدراته لخزائن أرض مصر ، اكتفاء بقوله ( إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ) للدلالة على كفايته وأمانته .كذلك لم تحدثنا عن أحوال الناس فى السنوات السعب العجاف ، وفى السنوات الخضر لأن هذا مقرر ومعروف فى دنيا الناس .كذلك لم تحدثنا عن صلة الملك وحاشيته بيوسف ، بعد أن صار أميناً على خزائن الأرض بل أفسحت المجال كله للحديث عن يوسف ، إنزالاً للناس منازلهم ، إذ هو ، صاحب التفسير الصحيح لرؤيا الملك ، وصاحب الأفكار الحكيمة التى أنقذت الأمة من فقر سبع سنوات شداد ، وصابح الدعوة إلى وحدانية الله - تعالى - وإخلاص العبادة له ، بين قوم يشركون مع الله فى العبادة آلهة أخرى .

وجاء اخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون

كما فسرها الوسيط لم تحدثنا السورة الكريمة عن كل ذلك ، فى أعقاب حديثها عن تمكين الله - تعالى - ليوسف فى الأرض ، وإنما انتقلت بنا بعد ذلك مباشرة إلى الحديث عن لقاء يوسف بإخوته ، وعما دار بينه وبينهم من محاورات ، وعن إكرامه لهم . . . .قال تعالى :( وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ) وقد جاءوا إليه جميعاً - ما عدا " بنيامين " وهو الشقيق الأصغر ليوسف ليحصلوا منه على أكبر كمية من الطعام على حسب عددهم ، وليكون عندهم القدرة عل صد العدوان إذا ا تعرض لهم قطاع الطرق الذين يكثرون فى أوقات الجدب والجوع .وعبر عن معرفة يوسف لهم بالجملة الفعلية ، وعن جهلهم له بالجملة الإسمية للإشعار بأن معرفته لهم حصلت بمجرد رؤيته لهم ، أما هم فعدم معرفتهم له كان أمرا ثابتاً متمكناً منهم .قال صاحب الكشاف : " لم يعرفوه لطول العهد ، ومفارقته إياهم فى سن الحداثة ولاعتقادهم أنه قد هلك ، ولذهابه عن أوهامهم لقلة فكرهم فيه ، واهتمامهم بشأنه ، ولبعد حاله التى بلغها من الملك والسلطان عن حاله التى فارقوه عليها طريحاً فى البئر ، حتى لو تخيلوا أنه هو لكذبوا أنفسهم وظنونهم ، ولأن الملك مما يبدل الزى ، ويلبس صاحبه من التهيب والاستعظام ما ينكر له المعروف . . . "ويؤخذ من هذه الآية الكريمة أن - المجاعة التى حدثت فى السبع السنين الشداد شملت مصر وما جاورها من البلاد كما سبق أن أشرنا - .كما يؤخذ منها أن مصر كانت محط أنظار المعسرين من مختلف البلاد بفضل حسن تدبير يوسف - عليه السلام - وأخذه الأمور بالعدالة والرحمة وسهره على مصالح الناس ، ومراقبته لشئون بيع الطعام ، وعدم

الاعتماد على غيره حتى إن إخوته قد دخلوا عليه وحده ، دون غيره من المسئولين فى مصر .

ولما جهزهم بجهازهم قال ائتوني باخ لكم من ابيكم الا ترون اني اوفي الكيل وانا خير المنزلين

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائتوني بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ . . . ) بيان لما فعله يوسف - معهم بعد ان عرفهم دون أن يعرفوه .وأصل الجهاز - بفتح الجيم وكسرها قليل ما يحتاج إليه المسافر من زاد ومتاع ، يقال : جهزت المسافر ، أى هيأت له : جهازه الذى يحتاج إليه فى سفره ، ومنه جهاز العروس وهو ما تزف به إلى زوجها وجهاز الميت وهو ما يحتاج إليه فى دفنه . . .والمراد : أن يوسف بعد ان ، دخل عليه إخوته وعرفهم ، أكرم وفادتهم .وعاملهم معاملة طيبة جعلتهم يأنسون إليه ، وهيأ لهم ما هم فى حاجة إلأيه من الطعام وغيره ، ثم استدرجهم بعد ذلك فى الكلام حتى عرف منهم على وجه التفصيل أحوالهم .وذلك لأن قوله لهم ( ائتوني بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ ) يستلزم أن حديثا متنوعا نشأ بينه وبينهم ، عرف منه يوسف ، أن لهم أخا من أبيهم لم يحضر معهم وإلا فلو كان هذا الطلب منه لهم بعد معرفت لهم مباشرة ، لشعروا بأنه يعرفهم وهو لا يريد ذلك .ومن هنا قال المفسرون : إن قوله ( ائتوني بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ ) يقتضى كلاما دار بينه وبينهم نشأ عنه هذا الطلب ، ومما قالوه فى توضيح هذا الكلام : ما روى من أنهم بعد أن دخلوا عليهم قال لهم : من أنتم وما شأنكم؟ فقالوا : نحن قوم من أهل الشام ، جئنا نمتار ، ولنا أب شيخ صديق نبى من الأنبياء اسمه يعقوب ، فقال لهم : كم عددكم قالوا عشرة ، وقد كنا اثنى عشر ، فذهب أخ لنا إلى البرية فهلك ، وكان أحبنا إلى أبينا ، وقد سكن بعده إلى أخ له أصغر منه ، هو باق لديه يتسلى به ، فقال لهم حينئذ؛ ( ائتوني بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ ) .ويروى أنه قال لهم ذلك بعد أن طلبوا منه شيئا زائداً عن عددهم ، لأن لهم أخاً لم يحضر معهم ، فأعطاهم ما طلبوه ، واشترط عليهم إحضار أخيهم هذا معهم ، ليتأكد من صدقهم .والمعنى : وبعد أن أعطى يوسف إخوته ما هم فى حاجة إليه ، وعرف منهم أن لهم أخاً من أبيهم قد تركوه فى منازلهم ولم يحضر معهم ، قال لهم : أنا أريدكم فى الزيارة القادمة لى ، أن تحضروه معكم لأراه . . .وقوله ( مِّنْ أَبِيكُمْ ) حال من قوله ( بِأَخٍ لَّكُمْ ) أى : أخ لكم حاله كونه من أبيكم ، وليس شقيقاً لكم ، فإن هذا هو الذى أريده ولا أريد غيره .وهذا من باب المبالغة فى عدم الكشف لهم عن نفسه ، حتى لكأنه لا معرفة له بهم ولا به إلا من ذكرهم إياه له .وقوله : ( أَلاَ تَرَوْنَ أني أوفي الكيل وَأَنَا خَيْرُ المنزلين ) تحريض لهم على الإتيان به ، وترغيب لهم فى ذلك حتى ينشطوا فى إحضاره معهم .أى : ألا ترون أنى أكرمت وفادتكم ، وأعطيتكم فوق ما تريدون من الطعام ، وأنزلتكم ببلدى منزلاً كريماً . . . وما دام أمرى معكم كذلك ، فلابد من أن تأتونى معكم بأخيكم من أبيكم فى المرة القادمة ، لكى أزيد فى إكرامكم وعطائكم .والمراد بإيفاء الكيل : إتمامه بدون تطفيف أو تنقيص .وعبر بصيغة الاستقبال ( أَلاَ تَرَوْنَ . . . ) مع كونه قد قال هذا القول بعد تجهيزه لهم . للدالة على أن إيفاءه هذا عادة مستمرة له معهم كلما أتوه : وجملة ( وَأَنَاْ خَيْرُ المنزلين ) حالية ، والمنزل : المضيف لغيره .أى. والحال أنى خير المضيفين لمن نزل فى ضيافتى ، وقد شاهدتم ذلك بأنفسكم .

فان لم تاتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون

كما فسرها الوسيط ثم أتبع هذا الترغيب والترهيب فقال : ( فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلاَ تَقْرَبُونِ ) .أى : لقد رأيتم منى كل خير فى لقائكم معى هذا ، وقد طلبت منكم أن تصحبوا معكم أخاكم من أبيكم فى لقائكم القادم معى ، فإن لم تأتونى به معكم عند عودتكم إلى فإنى لن أبيعكم شيئاً مما تريدونه من الأطعمة وغيرها ، وفضلاً عن ذلك فإنى أحذركم من أن تقربوا بلادى فضلاً عن دخولها .هذا التحذير منه - عليه السلام - لهم ، يشعر بأن إخوته قد ذكروا له بأنهم سيعودون إليه مرة أخرى ، لأن ما معهم من طعام لا يكفيهم إلا لوقت محدود من الزمان .

قالوا سنراود عنه اباه وانا لفاعلون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( قَالُواْ سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنّا لَفَاعِلُونَ ) حكاية لما رد به إخوة يوسف عليه .أى قال إخوة يوسف له بعد أن أكد لهم وجوب إحضار أخيهم لأبيهم معهم : ( سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ ) أى : سنطلب حضوره معنا من أبيه برفق ولين ومخادعة ومحايلة هذه المراودة باجتهاد لا كلل ولا ملل معه وفاء ( وَإِنّا لَفَاعِلُونَ ) لحقك علينا .وقولهم هذا يدل دلالة واضحة على أنهم كانوا يشعرون بأن إحضار

أخيهم لأبيهم معهم - وهو " بنيامين " الشقيق الأصغر ليوسف - ، ليس أمراً سهلاً أو ميسوراً ، وإنما يحتاج إلى جهد كبير مع أبيهم حتى يقنعوه بإرساله معهم .

وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها اذا انقلبوا الى اهلهم لعلهم يرجعون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما فعله يوسف مع إخوته وهم على وشك الرحيل فقال ( وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجعلوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا انقلبوا إلى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ) .والفتيان : جمع فتى والمراد بهم هنا من يقومون بخدمته ومساعدته فى عمله .والبضاعة فى الأصل : القطعة الوفيرة من الأموال التى تققنى للتجارة ، مأخوذة من البضع بمعنى القطع .والمراد بها هنا : أثمان الطعام الذى أعطاه لهم يوسف - عليه السلام - .والرحال : جمع رحل ، وهو ما يوضع على البعير من متاع الراكب .والمعنى : وقال يوسف - عليه السلام - لفتيانه الذين يقومون بتلبية مطالبه : أعيدوا إلى رحال هؤلاء القوم - وهم إخوته - الأثمان التى دفعوها لنا فى مقابل ما أخذوه منا من طعام ، وافعلوا ذلك دون أن يشعروا بكم ، لعل هؤلاء القوم عندما يعودون إلى بلادهم ، ويفتحون أمتعتهم ، فيجدون فيها الأثمان التى دفعوها لنا فى مقابل ما أخذوه من طعام غيره .لعلهم حينئذ يرجعون إلينا مرة أخرى ، ليدفعوها لنا فى مقابل ما أخذوه .وكأن يوسف - عليه السلام - أراد بفعله هذا حملهم على الرجوع إليه ومعهم " بنيامين " لأن من شأن النفوس الكبيرة أن تقابل الإحسان بالإحسان وأن تأنف من أخذ المبيع دون أن تدفع لصاحبه ثمنه .وقوله ( لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا انقلبوا إلى أَهْلِهِمْ ) تعليل لأمره فتيانه يجعل البضاعة فى رحال إخوته .إذ أن معرفتهم بأن بضاعتهم قد ردت إليهم لا يتم إلا بعد انقلابهم - أى رجوعهم - إلى أهلهم ، وبعد تفريغها عندهم .وقوله ( لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ) جواب للأمر . أى : اجعلوها كذلك لعلهم بعد اكتشافهم أنهم ما دفعوا لنا ثمن ما أخذوه ، يرجعون إلينا ، ليدفعوا لنا حقنا .وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد حدثتنا عما دار بين يوسف وإخوته بعد أن دخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون ، وبعد أن طلب منهم بقوة أن يعودوا إليه ومعهم أخوهم لأبيهم . . . فماذا كان بعد ذلك؟

فلما رجعوا الى ابيهم قالوا يا ابانا منع منا الكيل فارسل معنا اخانا نكتل وانا له لحافظون

كما فسرها الوسيط لقد حكت لنا السورة الكريمة ما دار بين إخوة يوسف وبين أبيهم من محاورات طلبوا خلالها منه أن يأذن لهم فى اصطحاب " بنيامين " معهم فى رحلتهم القادمة إلى مصر ، كما حكت ما رد به أبوهم عليهم . قال - تعالى - : - قوله - سبحانه( . . . فَلَمَّا رَجَعُوا إلى أَبِيهِمْ قَالُواْ ): فَلَمَّا رَجَعُوا إلى أَبِيهِمْ قَالُواْ ياأبانا مُنِعَ مِنَّا الكيل فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ . . . ) حكاية لما قاله إخوة يوسف لأبيهم قور التقائهم به .والمراد بالكيل : الطعام المطيل الذى هم فى حاجة إليه .والمراد بمنعه : الحيلولة بينهم وبينه فى المستقبل ، لأن رجوعهم بالطعام قرينة على ذلك .والآية الكريمة معطوفة على كلام محذوف ، يدرك من السياق والتقدير : ترك إخوة يوسف مصر ، وعادوا إلى بلادهم ، بعد أن وعدوه بتنفيذ ما طلبه منهم ، فلما وصلوا إلى بلادهم ، ودخلوا على أبيهم قالوا له بدون تمهل .( ياأبانا ) لقد حكم عزيز مصر بعدم بيع أى طعام لنا بعد هذه المرة إذا لم نأخذ معنا أخانا " بنيامين " ليراه عند عودتنا إليه؛ فقد قال لنا مهدداً عند مغادرتنا له : ( فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلاَ تَقْرَبُونِ ) .وأنت تعلم أننا لا بد من عودتنا إليه لجلب احتياجاتنا من الطعام وغيره ، فنرجوك أن توافقنا على اصطحاب " بنيامين " معنا ( وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ) حفظاً تاماً من أن يصيبه مكروه " والآية الكريمة واضحة لدلالة على أن قولهم هذا لأبيهم ، كان بمجرد رجوعهم إليه ، وكان قبل أن يفتحوا متاعهم ليعرفوا ما بداخله . . .وكأنهم فعلوا ذلك ليشعروه بأن إرسال بنيامين معهم عند سفرهم إلى مصر ، أمر على أكبر جانب من الأهمية ، وأن عدم إرساله سيترتب عليه منع الطعام عنهم .وقرأ حمزة والكسائى بالياء - أى : فأرسله معنا ليأخذ نصيبه من - ( فأرسل معنا أخانا يكتل ) : الطعام المكال ، لأن عزيز مصر طعاماً لمن كان غائباً .وعلى كلا القراءتين فالفعل مجزوم فى جواب الطلب .وقالوا له ( وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ) بالجملة الإسمية ، لتأكيد حفظهم له : وأن ذلك أمر ثابت عندهم ثبوتاً لا مناص منه .

قال هل امنكم عليه الا كما امنتكم على اخيه من قبل فالله خير حافظا وهو ارحم الراحمين

كما فسرها الوسيط ولكن يبدو أن قولهم هذا قد حرك كوامن الأحزان والآلام في نفس يعقوب ، فهم الذين سبق أن قالوا له فى شأن يوسف - أيضاً - ( أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ) لذا نجده يرد عليهم فى استنكار وألم بقوله : ( قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَآ أَمِنتُكُمْ على أَخِيهِ مِن قَبْلُ . . . ) .أى : قال يعقوب لأولاده : بعد أن طلبوا منه بإلحاح إرسال أخيهم معهم ، وبعد أن تعهدوا بحفظه أتريدون أن أأتمنكم على ابنى " بنيامين " كما أئتمنتكم على شقيقه يوسف من قبل هذا الوقت ، فكانت النتيجة التى تعرفونها جمعاً ، وهى فراق يوسف لى فراقاً لا يعلم مداه إلا الله - تعالى -؟ !!لا ، إننى لا أثق بوعودكم بعد . . الذى حدث منكم معى فى شأن يوسف . فالاستفهام فى قوله ( هَلْ آمَنُكُمْ للإنكار والنفى .وقوله ( فالله خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ ( . الراحمين ) تفريع على استنكاره لطلبهم إرسال " بنيامين " معهم ، وتصريح منه لهم بأن حفظ الله - تعالى - خير من حفظهم .أى : إننى لا أثق بوعودكم لى بعد - الذى حدث منكم بالنسبة ليوسف ، وإنما أثق بحفظ الله ورعايته ( فالله ) تعالى - ( خَيْرٌ حَافِظاً ) لمن يشاء حفظه ، فمن حفظه سلم ، ومن لم يحفظه - " لم يسلم ، كما لم يسلم أخوه يوسف من قبل حين ائتمنتكم عليه " وهو سبحانه - ( أَرْحَمُ الراحمين ) لخلقه ، فأرجو أن يشملنى برحمته ، ولا يفجعنى فى " بنيامين " ، كما فجعت فى شقيقه يوسف من قبل .ويبدو أن الأبناء قد اقتنعوا برد أبيهم عليهم ، واشتموا من هذا الرد إمكان إرساله معهم ، لذا - لم يراجعوه مرة أخرى .قال الآلوسى ما ملخصه : " وهذا - أى رد يعقوب عليهم ، ميل منه - عليه السلام - إلى الإذن والإرسال لما رأى فيه من المصلحة - وفيه أيضاً من التوكل على الله - تعالى ما لا يخفى ، ولذا روى أن الله تعالى - قال : " وعزتى وجلالى لأردهما عليك إذ توكلت على . . . " وقرأ أكثر . . . السبعة ( فالله خير حفظا . . . ) وقرأ حمزة والكسائى وحفص (حَافِظاً " . . . وعلى القراءتين فهو منصوب على أنه تمييز (

ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت اليهم قالوا يا ابانا ما نبغي هذه بضاعتنا ردت الينا ونمير اهلنا ونحفظ اخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير

كما فسرها الوسيط ثم اتجه الأبناء بعد هذه المحاورة مع أبيهم إلى أمتعتهم ليفتحوها ويخرجوا ما بها من زاد حضروا به من مصر ، فكانت المفاجأة التى حكاها القرآن فى قوله :( وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ . . . )أى : وحين فتحوا أوعيتهم التى بداخلها الطعام الذى اشتروهن من عزيز مصر . فوجئوا بوجود أثمان هذا الطعام قد رد إليهم معه ، ولم يأخذها عزيز مصر ، بل دسها داخل أوعيتهم دون أن يشعروا ، فدهشوا وقالوا لأبيهم متعجبين :( ياأبانا مَا نَبْغِي هذه بِضَاعَتُنَا رُدّتْ إِلَيْنَا ) أى : يا أبانا ماذا نطلب من الإحسان والكرم أكثر من هذا الذى فعله معنا عزيز مصر؟ لقد أعطانا الطعام الذى نريده ثم رد إلينا ثمنه الذى دفعناه له دون أن يخبرنا بذلك .فما فى قوله ( مَا ، نَبْغِي ) استفهامية ، والاستفهام للتعجب من كرم عزيز مصر ، وهى مفعول نبغى ونبغى من البُغَاء - بضم الباء - وهو الطلب .والمراد ببضاعتهم : الثمن ، الذى دفعوه للعزيز فى مقابل ما أخذوه منه من زاد .وجملة ( هذه بِضَاعَتُنَا رُدّتْ إِلَيْنَا ) مستأنفة لتوضيح ما دل عليه الاستفهام من التعجب ، بسبب ما فعله معهم عزيز مصر من مروءة وسخاء .فكأنهم قالوا لأبيهم : كيف لا نعجب وندهش ، وهذه بضاعتنا ردت إلينا من حيث لا ندرى ومعها الأحمال التى اشتريناها من عزيز مصر لم ينقص منها شئ؟وقوله ( وَنَمِيرُ أَهْلَنَا ) معطوف على مقدر يفهم من الكلام ، أى : ( هذه بِضَاعَتُنَا رُدّتْ - إِلَيْنَا ) فننتفع بها فى معاشنا ، ونمير أهلنا ، أى : نجلب لهم الميرة ). بكسر الميم وسكون الياء - وهى الزاد الذى يؤتى به من مكان إلى آخر وَنَحْفَظُ أَخَانَا ) عند سفره معنا من أى مكروه .( وَنَزْدَادُ ) بوجوده معنا عند الدخول على عزيز مصر .( كَيْلَ بَعِيرٍ ) أى : ويعطينا العزيز حمل بعير من الزاد ، زيادة على هذه المرة نظراً لوجود أخينا معنا .ولعل قولهم ، هذا كان سببه أن يوسف - عليه السلام - كان يعطى من الطعام على عدد الرءوس حتى يستطيع أن يوفر القوت للجميع فى تلك السنوات الشداد .واسم الإشارة فى قوله - سبحانه - ( ذلك كَيْلٌ يَسِيرٌ ) يعود إلى الزاد الذى أحضروه من مصر أى : ذلك الطعام الذى أعطانا إياه عزيز مصر طعام يسير ، لا يكفينا إلا لمدة قليلة من الزمان ، ويجب أن نعود إلى مصر لنأتى بطعام آخر .وفى هذه الجمل المتعددة التى حكاها القرآن عنهم ، تحريض واضح منهم لأبيهم على أن يسمح لهم باصطحاب " بنيامين " معهم فى رحلتهم القادمة إلى مصرومن مظاهر هذا التحريض مدحهم لعزيز مصر الذى رد لهم أثمان مشترياتهم ، وحاجتهم الملحة إلى : استجلاب طعام جديد ، وتعهدهم بحفظ أخيهم وازدياد الأطعمة بسبب وجودهم معهم .

قال لن ارسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله لتاتنني به الا ان يحاط بكم فلما اتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل

كما فسرها الوسيط ولكن يعقوب - عليه السلام - مع كل هذا التحريض والإلحاح لم يستجب لهم إلا على كره منه ، واشترط لهذه الاستجابة ما حكاه القرآن فى قوله :( لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حتى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِّنَ الله لَتَأْتُنِّنِي بِهِ إِلاَّ أن يُحَاطَ بِكُمْ ) .والموثق : العهد الموثق باليمين ، وجمعه مواثيق .أى : قال يعقوب - عليه السلام - لهم : والله لن أرسل معكم " بنيامين " إلى مصر ، حتى تحلفوا لى بالله ، بأن تقولوا : والله لنأتينك به عند عودتنا ، ولن نتخلى عن ذلك ، ( إِلاَّ أن يُحَاطَ بِكُمْ ) : أى : إلا أن نهلك جميعاً ، أو أن نغلب عليه بما هو فوق طاقتنا .يقولون ، أحيط بفلان إذا هلك أو قارب الهلاك ، وأصله من إحاطة العدو بالشخص - واستعمل فى الهلاك ، لأن من أحاط به العدو يهلك غالباً .وسمى الحلف بالله - تعالى - موثقاً ، لأنه مما تؤكد به العهود وتقوى وقد أذن الله - تعالى بذلك عند وجود ما يقتضى الحلف به - سبحانه - .وقوله : ( لَتَأْتُنِّنِي بِهِ ) جواب لقسم محذوف والاستثناء فى قوله ( إِلاَّ أن يُحَاطَ بِكُمْ ) مفرغ من أعم الأحوال ، والتقدير : لن أرسله معكم حتى تحلفوا بالله وتقولوا والله لنأتينك به معنا عند عودتنا ، فى جميع الأحوال والظروف إلا فى حال : هلاككم أو فى حال عجزكم التام عن مدافعة أمر حال بينكم وبين الإتيان به معكم .وقوله ( فَلَمَّآ آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ ) أى : فلما أعطى الأبناء أباهم العهد الموثق باليمين بأن أقسموا له بأن يأتوا بأخيهم معهم عند عودتهم من مصر ." قال " لهم على سبيل التأكيد والحض على وجوب الوفاء : الله - تعالى - على ما نقول أنا وأنتم وكيل ، أى : مطلع ورقيب ، وسيجازى الأوفياء خيراً ، وسيجازى الناقضين لعهودهم بما يستحقو من عقاب .قال ابن كثير : " وإنما فعل ذلك ، لأنه لم يجد بداً من بعثهم لأجل الميرة التى لا غنى لهم عنها فبعثه معهم " .

وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من ابواب متفرقة وما اغني عنكم من الله من شيء ان الحكم الا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما وصى به يعقوب أبناءه عند سفرهم فقال ( وَقَالَ يابني لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وادخلوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ . . . ) .أى : وقال يعقوب - الأب العطوف - لأبنائه وهو يودعهم : يا بنى إذا وصلتم إلى مصر ، فلا تدخلوا كلكم من باب واحد ، وأنتم أحد عشر رجلاً بل ادخلوا من أبوابها المتفرقة ، بحيث يدخل كل اثنين أو ثلاثة من باب .قالوا : وكانت أبواب مصر فى ذلك الوقت أربعة أبواب وقد ذكر المفسرون أسباباً متعددة لوصية يعقوب هذه لأبنائه ، وأحسن هذه الأسباب ما ذكره الآلوسى فى قوله : نهاهم عن الدخول من باب واحد ، حذراً من إصابة العين ، أى من الحسد ، فإنهم كانوا ذوى جمال وشارة حسنة . . فكانوا مظنة لأن يعانوا - أى لأن يحسدوا - إذا ما - دخلوا كوكبة واحدة . . .ثم قال والعين حق ، كما صح عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وصح أيضاً : بزيادة " ولو كان شئ يسبق القدر سبقته العين " .وقد ورد أيضاً : " إن العين لتدخل الرجل القبر ، والجمل القدر " .وقيل : إن السبب فى وصية يعقوب لأبنائه بهذه الوصية ، خوفه عليهم من أن يسترعى عددهم حراس مدينة مصر إذا ، ما دخلوا من باب واحد ، فيترامى فى أذهانهم أنهم جواسيس أو ما شابه ذلك . . - فربما سجنوهم ، أو حالوا بينهم وبين الوصول إلى يوسف - عليه السلام وقوله ( وَمَآ أُغْنِي عَنكُمْ مِّنَ الله مِن شَيْءٍ ) اعتراف منه - عليه - السلام - بأن دخولهم من الأبواب المتفرقة ، لن يحول بينهم وبين ما قدره تعالى - وأراده لهم ، وإنما هو أمرهم بذلك من باب الأخذ بالأسباب المشروعة أى : وإنى بقولى هذا لكم ، لا أدفع عنكم شيئا قدره الله عليكم ، ولو كان هذا الشئ قليلا .( إِنِ الحكم إِلاَّ للَّهِ ) أى : ما الحكم فى كل شئ إلى الله - تعالى - وحده لا ينازعه فى ذلك منازع . ولا يدافعه مدافع .( وعليه ) وحده ( توكلت ) فى كل أمورى .( وعليه ) وحده ( فَلْيَتَوَكَّلِ المتوكلون ) أى المريدون للتوكل الحق ، والاعتماد الصدق الذى لا يتعارض مع الأخذ بالأسباب التى شرعها الله وأمر بها .إذ أن كلا من التوكل والأخذ بالأسباب مطلوب من العبد ، إلا أن العاقل عندما يأخذ فى الأسباب يجزم بأن الحكم لله - وحده فى كل الأمور ، وأن الأسباب ما هى إلا أمور عادية ، يوجد الله تعالى - معها ما يريد إيجاده ، ويمنع ما يريد منعه ، فهو الفعال لما يريد ويعقوب - عليه السلام - عندما أوصى أبناءه بهذه الوصية ، أرادبها تعليمهم الاعتماد على توفيق الله ولطفه ، مع الأخذ بالأسباب المعتادة الظاهرة . . . تأدباً مع الله - تعالى - واضع الأسباب ومشرعها

ولما دخلوا من حيث امرهم ابوهم ما كان يغني عنهم من الله من شيء الا حاجة في نفس يعقوب قضاها وانه لذو علم لما علمناه ولكن اكثر الناس لا يعلمون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن الأبناء قد امتثلوا أمر أبيهم لهم فقال : ( وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ) .والمراد بالحاجة هنا : نصيحته لأبنائه بأن يدخلوا من أبواب متفرقة ، خوفاً عليهم من الحسد . ومعنى ( قضاها ) أظهرها ولم يستطع كتمانها يقال : قضى فلان حاجة لنفسه إذا أظهر ما أضمره فيها .أى : وحين دخل أبناء يعقوب من الأبواب المتفرقة التى أمرهم أبوهم بالدخول منها ، ( ما كان هذا الدخول ( يُغْنِي عَنْهُمْ ) أى يدفع عنهم من قدر ( اللَّهِ مِن شَيْءٍ ( قدره عليهم ، ولكن الذى حمل يعقوب على أمرهم بذلك ، حاجة أى رغبة خطرت فى نفسه ( قضاها ) أى : أظهرها ووصاهم بها ولم يستطع إخفاءها لشدة حبه لهم مع اعتقاده بأن كل شئ بقضاء الله وقدره .وقوله - سبحانه - ( وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ ) ثناء من الله - تعالى - على يعقوب بالعلم وحسن التدبير .أى : وإن يعقوب - عليه السلام - لذو علم عظيم ، للشئ الذى علمناه إياه عن طريق وحينا ، فهو لا ينسى منه شيئاً إلا ما شاء الله .وقوله - أى :لا يعلمون ما يعلمه يعقوب ( ولكن أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ) - عليه السلام - من أن الأخذ بالأسباب لا يتنافى مع التوكل على الله تعالى - أو : ولكن أكثر الناس لا يعلمون ما أعطاه الله - تعالى - لأنبيائه وأصفيائه من العلم والمعرفة وحسن التأتى للأمور .وإلى هنا تكون الآيات الكريمة قد فصلت الحديث عما دار بين إخوة يوسف وبين أبيهم فى شأن سفر أخيهم معهم . . . فماذا كان بعد ذلك؟

ولما دخلوا على يوسف اوى اليه اخاه قال اني انا اخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون

" كما فسرها الوسيط لقد كان بعد ذلك أن سافر إخوة يوسف إلى مصر ، ومعهم بنيامين " الشقيق الأصغر ليوسف ، والتقوا هناك بيوسف ، وتكشف هذا اللقاء عن أحداث مثيرة ، زاخرة بالانفعالات والمفاجآت والمحاورات . . . التى حكاها القرآن فى قوله - تعالى - :( وَلَمَّا دَخَلُواْ على يُوسُفَ . . ) . قوله - سبحانه - ( وَلَمَّا دَخَلُواْ على يُوسُفَ آوى إِلَيْهِ أَخَاهُ. " شروع فى بيان ما داربين يوسف - عليه السلام - وبين شقيقه " بنيامين ( . . بعد أن حضر مع إخوته .وقوله ( آوى ) من الإيواء بمعنى الضم . يقال : آوى فلان فلانا إذا ضمه إلى نفسه ، ويقال : تأوت الطير وتآوت ، إذا تضامت وتجمعت .وقوله ( فَلاَ تَبْتَئِسْ ) : افتعال من البؤس وهو الشدة والضر . يقال يَئِس - كسَمِع - فلان بؤساً وبئوساً ، إذا اشتد حزنه وهمه .والمعنى : وحين دخل إخوة يوسف عليه ، ما كان منه إلا أن ضم إليه شقيقه وقال له مطمئنا ومواسيا : إنى أنا أخوك الشقيق . فلا تحزن بسبب ما فعله إخوتنا معنا من الحسد والأذى ، فإن الله - تعالى - قد عوض صبرنا خيراً ، وأعطانا الكثير من خيره وإحسانه .قال الإمام ابن كثير : يخبر الله - تعالى - عن إخوة يوسف لما قدموا على يوسف ومعهم أخوه " بنيامين " وأدخلهم دار كرامته ومنزل ضيافته وأفاض عليهم الصلاة والإحسان ، واختلى بأخيه فأطلعه على شأنه ، وما جرى له وقال : (فَلاَ تَبْتَئِسْ ) أى : لا تأسف على ما صنعوا بى ، وأمره بتمان هذا عنهم ، وأن لا يطلعهم على ما أطلعه عليه من أنه أخوه وتواطأ معه أنه سيحتال على أن يبقيه عنده معززاً مكرماً معظماً .

فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل اخيه ثم اذن مؤذن ايتها العير انكم لسارقون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما فعله يوسف - عليه السلام - مع إخوته لكى يبقى أخاه معه فلا يسافر معهم عند رحيلهم فقال : ( فَلَمَّا ، ( . . . جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السقاية فِي رَحْلِ أَخِيهِ والجهاز كما سبق أن بينا : ما يحتاج إليه المسافر من زاد ومتاع . .والسقاية - إناء كان الملك يشرب فيه ، وعادة ما يكون من معدن نفيس ولقد كان يوسف : عليه السلام - يكتال به فى ذلك الوقت نظراً لقلة الطعام وندرته .وهذه السقاية هى التى أطلق عليها القرآن بعد ذلك لفظ الصواع أى :وحين أعطى يوسف إخوته ما هم فى حاجة إليه من زاد وطعام ، أوعز إلى بعض فتيانه أن يدسوا الصواع فى متاع أخيه " بنيامين " دون أن يشعر بهم أحد . .وقوله ( ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا العير إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ) بينا لما قاله بعض أعوان يوسف لإخوته عندما تهيئوا للسفر ، وأوشكوا على الرحيل والمراد بالمؤذن هنا : المنادى بصوت مرتفع ليعلم الناس ما يريد إعلامهم به. والمراد بالعير هنا : أصحابها . والأصل فيها أنها اسم للإبل التى تحمل . الطعام وقيل العير تطلق فى الأصل على قافلة الحمير ، ثم تجوز فيها فأطلقت على كل قافلة تحمل الزاد وألوان التجارة .أى : ثم نادى مناد على إخوة يوسف - عليه السلام - وهم يتجهزون للسفر ، أو وهم منطلقون إلى بلادهم بقوله

يا أصحاب هذه القافلة حتى يفصل فى شأنكم فأنتم متهمون بالسرقة .قال :
الآلوسى ما ملخصه : " والذى يظهر أن ما فعله يوسف ، من جعله السقاية فى رحل
- أخيه . ومن اتهامه لإخواته بالسرقة . . إنما كان بوحى من الله - تعالى
. لما علم - سبحانه - فى ذلك من الصلاح ، ولما أراد من امتحانهم بذلك
. ويؤيده قوله - تعالى - : ( كذلك كِدْنَا لِيُوسُفَ )

قالوا واقبلوا عليهم ماذا تفقدون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما قاله إخوة يوسف بعد أن سمعوا المؤذن
يستوقفهم ويتهمهم بالسرقة فقال - تعالى - ( وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِمْ
مّاذَا تَفْقِدُونَ ) .ثم بين - سبحانه - ما قاله إخوة يوسف بعد ان سمعوا
المؤذن يستوقفهم ويتهمهم بالسرقة فقال - تعالى - ( وَأَقْبَلُواْ
عَلَيْهِمْ مّاذَا تَفْقِدُونَ ) .وتفقدون : من الفقد ، وهوغيبة الشئ عن
الحس بحيث لا يعرف مكانه .أى : قال إخوة يوسف بدهشة وفزع لمن ناداهم
وأخبرهم بأنهم سارقون ، قالوا لهم : ماذا تفقدون - أيها الناس - من أشياء
!!!حتى اتهمونا بأننا سارقون؟

قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وانا به زعيم

كما فسرها الوسيط وهنا رد عليهم المؤذن ومن معه من حراس : ( قَالُواْ
نَفْقِدُ صُوَاعَ الملك ) أى : صاعه الذى يشرب فيه ، ويكتال به للممتارين
أى بهذا الصاع ، أو دل على سارقه .( حِمْلُ ( وَلِمَن جَآءَ بِهِ ).
بَعِيرٍ ) من الطعام زيادة على حقه كمكافأة له .( وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ )
أى : وأنا بهذا الحمل كفيل بأن أدفعه لمن جاءنا بصواع الملك .ويبدو أن
- القائل لهذا القول هو المؤذن السابق ، ولعله قد قال ذلك بتوجيه من يوسف
. - عليه السلام

قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الارض وما كنا سارقين

كما فسرها الوسيط وهنا نجدة إخوة يوسف يردون علهيم رداً يدل على استنكارهم
لهذه التهمة وعلى تأكدهم من براءتهم فيقولون : ( قَالُواْ تالله لَقَدْ
( عَلِمْتُمْ مّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأرض وَمَا كُنّا سَارِقِينَ
أى : قال إخوة يوسف للمنادى ومن معه الذين اتهموهم بالسرقة : تالله يا قوم.
لقد علمتم من حالنا وسلوكنا وأخلاقنا ، أننا ما جئنا إلى بلادكم ، لكى ،
نفسد فيها أو نرتكب ما لا يليق ، وما كنا فى يوم من الأيام ونحن فى أرضكم
لنرتكب هذه الجريمة ، لأنها تضرنا ولا تنفعنا ، حيث إننا فى حاجة إلى
التردد على بلادكم لجلب الطعام ، والسرقة تحول بيننا وبين ذلك ، لأنكم
. بسببها ستمنعوننا من دخول أرضكم ، وهذه خسارة عظيمة بالنسبة لنا

قالوا فما جزاؤه ان كنتم كاذبين

كما فسرها الوسيط وهنا يرد عليهم المنادى وأعوانه بقولهم : ( قَالُواْ
فَمَا جَزَآؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ) .أى : قال المنادى وأعوانه
لإخوة يوسف الذين نفوا عن أنفسهم تهمة السرقة نفياً تاماً .إذاً فما جزاء
وعقاب هذا السارق لصواع الملك فى شريعتكم ، إن وجدنا هذا الصواع فى حوزتكم
. وكنتم كاذبين فى دعواكم أنكم ما كنتم سارقين ،

قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين

كما فسرها الوسيط فرد عليهم إخوة يوسف ببيان حكم هذا السارق فى شريعتهم
بقولهم : ( قَالُواْ جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ
كذلك نَجْزِي الظالمين ) .والمراد بالجزاء : العقاب الذى يعاقب به السارق
فى شريعتهم ، والضمير فى قوله ( جزاءه ) يعود إلى السارق .أى : قال إخوة
يوسف : جزاء السارق الذى يوجد صواع المكل فى رحله ومتاعه أن يسترق لمدة سنة
هذا هو جزاؤه فى شريعتنا .قال الشوكانى ما ملخصه : وقوله : ( جزاؤه ) ،
مبتدأ ، وقوله ( مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ ) خبر المبتدأ .والتقدير : جزاء
) السرقة للصواع أخذ من وجد فى رحله - أى استرقاقه لمدة سنة - وتكون جملة
) فَهُوَ جَزَاؤُهُ ) لتأكيد الجملة الأولى وتقريرها . قال الزجاج وقوله
فَهُوَ جَزَاؤُهُ ) زيادة فى البيان . " أى : جزاؤه أخذ السارق فهو جزاؤه
لا غيره " .وقالوا ( جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ ) ولم يقولوا جزاء
السارق أو جزاء سرقته ، للإشارة إلى كمال نزاهتهم ، وبراءة ساحتهم من
السرقة ، حتى لكأن ألسنتهم لا تطاوعهم بأن ينطقو بها فى هذا المقام .وقوله
، مؤكد لما قبله ، أى مثل هذا الجزاء العادل ( كذلك نَجْزِي الظالمين ) :
. وهو الاسترقاق لمدة سنة ، نجازى الظالمين الذين يعتدون على أموال غيرهم

فبدا باوعيتهم قبل وعاء اخيه ثم استخرجها من وعاء اخيه كذلك كدنا ليوسف ما كان لياخذ اخاه في دين الملك الا ان يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ استخرجها مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ) معطوف على كلام محذوف يفهم من المقام .والتقدير : وبعد هذه المحاورة التى دارت بين إخوة يوسف وبين الذين اتهموهم بالسرقة أخبر الإخوة بتفتيش أمتعتهم للبحث عن " الصواع بداخلها ." فبدأ " المؤذن بتفتيش أوعيتهم ، قبل أن يفتش وعاء " بنيامين " فلم يجد شيئاً بداخل أوعيتهم .فلما وصل إلى وعاء " بنيامين وقام بتفتيشه وجد السقاية بداخله ، فاستخرجها منه على مشهد منهم جميعاً - ويبدو أن هذا الحوار من أوله كان بمشهد ومرأى من يوسف - عليه السلام. وكان أيضاً بتدبير وتوجيه منه للمؤذن ومن معه ، فهو الذى أمر المؤذن بأن ينادى ( أَيَّتُهَا العير إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ) وهو الذى أشار عليه بأن يسألهم عن حكم السارق فى شريعتهم ، وهو الذى أمره بأن يبدأ بتفتيش أوعيتهم قبل أن يفتش وعاء شقيقه " بنيامين " فدعا للتهمة ، ونفيا للشبهة . . .روى أنه لما بلغت النوبة إلى وعاء " بنيامين " لتفتيشه قال يوسف - عليه السلام - : ما أظن هذا أخذ شيئاً؟ فقالوا : " والله لا تتركه حتى تنظر فى رحله ، فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا " .ويطوى القرآن ما اعترى إخوة يوسف من دهشه وخزى ، بعد أن وجدت السقاية فى رحل " بنيامين " وبعد أن أقسموا بالله على براءتهم من تهمة السرقة . . يطوى القرآن كل ذلك ، ليترك للعقول أن تتصوره . . .ثم يعقب على ما حدث ببيان الحكمة التى من أجلها ألهم الله - تعالى - يوسف أن يفعل ما فعل من دس السقاية فى رحل أخيه ، ومن سؤال إخوته عن جزاء السارق فى شريعتهم فيقول ( كذلك كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الملك إِلاَّ أن يَشَآءَ الله .. . )و " كدنا " من الكيد وأصله الاحتيال والمكر ، وهوصرف غيرك عما يريده بحيله ، وهو مذموم إن تحرى به الفاعل الشر والقبيح ، ومحمود إن تحرى به الفاعل " الخير والجميل .والمراد به هنا : النوع المحمود ، واللام فى " ليوسف للتعليل .والمراد بدين الملك : شريعته التى يسير عليها فى الحكم بين الناس والمعنى : مثل هذا التدبير الحكيم دبرنا من أجل يوسف ما يوصله إلى غرضه. ومقصده ، وهو احتجاز أخيه بنيامين معه ، بأن ألهمناه بأن يضع السقاية فى رحل أخيه ، وبأن يسأل إخوته عن حكم السارق فى شريعتهم . . وما كان يوسف ليستطيع أن يحتجز أخاه معه ، لو نفذ شريعة ملك مصر ، لأن شريعته لا تجيز استرقاق السارق سنة كما هو الحال فى شريعة يعقوب ، وإنما تعاقب السارق بضربه وتغريمه قيمة ما سرقه .وما كان يوسف ليفعل كل ذلك التدبير الحكيم فى - حال من الأحوال ، إلا فى حال مشيئة الله ومعونته وإذنه بذلك ، فهو سبحانه - الذى ألهمه أن دس السقاية فى رحل أخيه ، وهو - سبحانه - الذى ألهمه أن يسأل إخوته عن عقوبة السارق فى شريعتهم حتى يطبقها على من يوجد - صواع الملك فى رحله منهم .والجملة الكريمة بيان لمظهر من مظاهر فضل الله تعالى - على يوسف حيث ألهمه ما يوصله إلى مقصوده بأحكم أسلوب .قال الآلوسى ما ملخصه : قوله : ( كذلك كِدْنَا لِيُوسُفَ ) أى : مثل ذلك الكيد العجيب وهو إرشاد الإخوة إلى الإفتاء المذكور . . . دبرنا وصنفنا من أجل يوسف ما يحصل به غرضه . . .وقوله ( مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الملك ) أى فى حكمه وقضائه والكلام استئناف وتعليل لذلك الكيد ، كأنه قيل : لماذا فعل؟ فقيل : لأنه لم يكن ليأخذ أخاه جزاء وجود الصواع عنده فى دين الملك فى أمر السارق إلا بذلك الكيد ، لأن جزاء السارق فى دينه أن يضاعف عليه الغرم دون أن يسترق كما هو الحال فى شريعة يعقوب .وقوله ( إِلاَّ أن . . . يَشَآءَ الله ) أى : لم يكن يوسف ليتمكن من أخذ أخيه فى حال نم الأحوال . . إلا فى حال مشيئته - تعالى - التى هى عبارة عن ذلك الكيد المذكور قالوا : وفى الآية دليل على جواز التوصل إلى الأغراض الصحيحة بما صورته. ) - صورة الحيلة والمكيدة إذا لم يخالف ذلك شرعاً ثابتاً .وقوله -سبحانه ( نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ) استئناف لبيان قدرة الله - تعالى - وسعة رحمته وعطائه .أى : نرفع من نشاء - رفعه من عبادنا إلى درجات عالية من العلوم والمعارف والعطايا قدرة الله تعالى - وسعة رحمته وعطائه .أى : نرفع من نشاء رفعه من عبادنا إلى درجات - عالية من العلوم والمعارف والعطايا والمواهب .. كما رفعنا درجات يوسف عليه السلام - .( وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ ) من أولئك المرفوعين ( عليم ) يزيد عنهم فى علمهم وفى مكانتهم عند الله - تعالى - فهو - سبحانه - العليم ) - بأحوال عباده ، وبمنازلهم عنده ، وبأعلاهم درجة ومكانة .وقال - سبحانه نرفع ) بصيغة الاستقبال وللأشعار بأن ذلك سنة من سننه الإلهية التى لا تتخلف ولا تتبدل ، وأن عطاءه - سبحانه - لاينالـه إلا الذين تشملهم إرادته ومشيئته كما تقتضيه حكمته .وجاءت كلمة ( درجات ) بالتنكير ، للإشارة إلى عظمها وكثرتها .

قالوا ان يسرق فقد سرق اخ له من قبل فاسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم قال انتم شر مكانا والله اعلم بما تصفون

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - ما قاله إخوة يوسف فى أعقاب ثبوت تهمة السرقة على أخيه " بنيامين " فقال - تعالى - ( قالوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ . . . )أى : قال إخوة يوسف - عليه السلام - بعد هذا الموقف المحرج لهم . إن يسرق بنيامين هذا الصواع الخاص بالملك فقد سرق أخ له من قبل - وهو يوسف - ما يشبه ذلك .وقولهم هذا يدل على أن صنيعهم بيوسف وأخيه ما زال متمكنا من نفوسهم .وقد ذكر المفسرون هنا روايات متعددة فى مرادهم بقولهم هذا ، ومن بين هذه الروايات ما أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس - رضى الله عنهما - عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه قال فى الآية : " سرق يوسف - عليه السلام - صنماً لجده وكان هذا الصنم من ذهب وفضه ، فكسره وألقاه فى الطريق ، فعير إخوته بذلك " .وقوله ( فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَّكَاناً واللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ) بيان لموقفه من مقالتهم ، والضمير فى ( فأسرها ) يعود إلى تلك المقالة التى قالوها .أى : سمع يوسف - عليه السلام - ما قاله إخوته فى حقه وفى حق شقيقه فساءه ذلك ، ولكنه كظم غيظه ، ولم يظهر لهم تأثره مما قالوه وإنما رد عليهم بقوله : ( قَالَ أَنْتُمْ ) أيها الإخوة ( شَرٌّ مَّكَاناً ) أى : موضعاً ومنزلاً ممن نسبتموه إلى السرقة وهو برئ ، لأنكم أنتم الذين كذبتم على أبيكم وخدعتموه ، وقلتم له بعد أن ألقيتم أخاكم فى الجب ، لقد أكله الذئب .( والله ) - تعالى - ( أَعْلَمُ ) منى ومنكم ( بِمَا تَصِفُونَ ) به غيركم من الأوصاف التى يخالفها الحق ، ولا يؤيدها الواقع .

قالوا يا ايها العزيز ان له ابا شيخا كبيرا فخذ احدنا مكانه انا نراك من المحسنين

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - ما قالوا ليوسف على سبيل الرجاء والاستعطاف لكى يطلق لهم أخاهم حتى يعود معهم إلى أبيهم فقالوا ( قَالُواْ ياأيها العزيز إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ المحسنين ) .أى : قال إخوة يوسف له على سبيل الاستعطاف : ( ياأيها العزيز ) الذى أكرمنا وأحسن إلينا ( إن ) أخانا الذى أخذته على سبيل الاسترقاق لمدة سنة ، قد ترك من خلفه فى بلادنا ( أَباً شَيْخاً كَبِيراً ) متقدماً فى السن ، وهذا الأب يحب هذا الابن حباً جماً ) فإذا كان ولابد من أن تأخذ واحدا على سبيل الاسترقاق بسبب هذه السرقة ( فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ) حتى لا نفجع أبانا فيه .وإننا ما طلبنا منك ، هذا الطلب ، إلا لأننا ( نَرَاكَ مِنَ المحسنين ) إلينا ، المكرمين لنا فسر على طريق هذا الإحسان والإكرام ، وأطلق سراح أخينا " بنيامين " ليسافر معنا .

قال معاذ الله ان ناخذ الا من وجدنا متاعنا عنده انا اذا لظالمون

كما فسرها الوسيط ولكن هذا الرجاء والتلطف والاستعطاف منهم يوسف ، لم ينفعهم شيئاً ، فقد رد عليهم فى حزم وحسم بقوله : ( قَالَ مَعَاذَ اللهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ . . ) و ( معاذ ) منصوب بفعل محذوف .أى : قال يوسف لهم : نعوذ بالله - تعالى - معاذا ، من أن نأخذ فى جريمة السرقة إلا الشخص الذى وجدنا صواع الملك عنده وهو " بنيامين " ، وأنتم الذين أفتيتم بأن السارق فى شريعتكم عقوبته استرقاقه لمدة سنة" فنحن نسير فى هذا الحكم تبعاً لشريعتكم .( إِنَّآ إِذاً لَّظَالِمُونَ ) إذا أخذنا شخصاً آخر سوى الذى وجدنا متاعنا عنده ، والظلم تأباه شريعتنا كما تأباه شريعتكم ، فاتركوا الجدال فى هذا الأمر الذى لا ينفع معه الجدال لأننا لا نريد أن نكون ظالمين .وبهذا الرد الحاسم قطع يوسف حبال آمال ، إخوته فى العفو عن بنيامين أو فى أخذ أحدهم مكانه ، فانسحبوا من أمامه تعلوهم الكآبة ، وطفقوا يفكرون فى مصيرهم وفى موقفهم من أبيهم عند العودة إليه .

فلما استياسوا منه خلصوا نجيا قال كبيرهم الم تعلموا ان اباكم قد اخذ عليكم موثقا من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف فلن ابرح الارض حتى ياذن لي ابي او يحكم الله لي وهو خير الحاكمين

كما فسرها الوسيط وقد حكى القرآن ذلك بأسلوبه البليغ فقال : ( فَلَمَّا استيأسوا مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيّاً قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تعلموا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَّوْثِقاً مِّنَ الله وَمِن قَبْلُ مَا

فَرَّطتُّمْ فِي يُوسُفَ . . . ) .وقوله ( استيأسوا ) يئسوا يأساً تاماً
فالسين والتاء للمبالغة .و ( خلصوا ) من الخلوص بمعنى الانفراد .و ( نجيا )
حال من فاعل خلصوا . وهو مصدر أطلق على المتناجين فى السر على سبيل
المبالغة .والفاء فى قوله ( فَلَمَّا استيأسوا مِنْهُ . . . ) معطوفة على
محذوف يفهم من الكلام .والتقدير : لقد بذل إخوة يوسف أقصى جهودهم معه ليطلق
، لهم سراح أخيهم بنيامين ، فلما يئسوا يأساً تاماً من الوصول إلى مطلوبهم
انفردوا عن الناس ليتشاوروا فيما يفعلونه ، وفيما سيقولونه لأبيهم عندما
- يعودون إليه ولا يجد معهم " بنيامين " .هذه الجملة الكريمة وهى قوله
تعالى - ( فَلَمَّا استيأسوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيّاً ) من أبلغ الجمل
التى اشتمل عليها القرآن الكريم ، ومن العلماء الذين أشاروا إلى ذلك
الإمام الثعالبى فى كتاب " الإيجاز والإعجاز " فقد قال : من أراد أن يعرف
جوامع الكلم ، ويتنبه لفضل الاختصار ويحيط ببلاغة الإيجاز ، ويفطن لكفاية
الإيجاز ، فليتدبر القرآن وليتأمل علوه على سائر الكلام .ثم قال : فمن ذلك
قوله - تعالى - فى إخوة يوسف ( فَلَمَّا استيأسوا مِنْهُ خَلَصُواْ
، نَجِيّاً ) وهذه صفة اعتزالهم جميع الناس ، وتقليبهم الآراء ظهراً لبطن
وأخذهم فى تزوير ما يلقون به أباهم عند عودتهم إليه ، وما يوردون عليه من
) : ذكر الحادث .فتضمنت تلك الكلمات القصيرة ، معانى القصة الطويلة .وقوله
قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تعلموا أَنَّ أَبَاكُمْ . . . ) إلخ بيان لما
قاله لهم أحدهم خلال تناجيهم مع بعضهم فى عزلة عن الناس .ولم يذكر القرآن
اسم كبيرهم ، لأنه لا يتعلق بذكره غرض منهم ، وقد ذكر بعض المفسرين أن
المراد به " روبيل " لأنه أسنهم ، وذكر بعضهم أنه " يهوذا " لأنه كبيرهم فى
العقل . .أى : وحين اختلى إخوة يوسف بعضهم مع بعض لينظروا فى أمرهم بعد أن
احتجز عزيز مصر أخاهم بنيامين ، قال لهم كبيرهم :( أَلَمْ تعلموا ) وأنتم
تريدون الرجوع إلى أبيكم وليس معكم " بنيامين " .( أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ
أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَّوْثِقاً مِّنَ الله ) عندما أرسله معكم ، بأن تحفظوا
عليه ، وأن لا تعودوا إليه بدونه إلا أن يحاط بكم .وألم تعلموا كذلك أنكم
فى الماضى قد فرطتم وقصرتم فى شأن يوسف ، حيث عاهدتم أباكم على حفظه ، ثم
ألقيتم به فى الجب .والاستفهام فى قوله : ( أَلَمْ تعلموا . . . ) للتقرير
أى : لقد علمتم علما يقينا بعهد أبيكم عليكم بشأن بنيامين ، وعلمت علما ،
يقينا بخيانتكم لعهد أبيكم فى شأن يوسف ، فبأى وجه ستعودون إلى أبيكم وليس
معكم أخوكم بنيامين؟قال الشوكانى : قوله : ( أَلَمْ تعلموا أَنَّ أَبَاكُمْ
- قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَّوْثِقاً مِّنَ الله ) أى عهدا من الله - تعالى
بحفظ ابنه ورده إليه . ومعنى كونه من الله : أنه بإذنه .وقوله ( وَمِن
قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ ) معطوف على ما قبله . والتقدير : ألم
تعلموا أن أباكم . . . وتعلموا تفريطكم فى يوسف ، فقوله ( وَمِن قَبْلُ )
متعلق بتعلموا .أى : تعلموا تفريطكم فى يوسف من قبل . على أن ما مصدرية
وقوله ( فَلَنْ أَبْرَحَ الأرض حتى يَأْذَنَ لي . . . ) حكاية للقرار الذى.
اتخذه كبيرهم بالنسبة لنفسه .أى : قال كبير إخوة يوسف لهم : لقد علمتم ما
سبق أن قلته لكم ، فانظروا فى أمركم ، أما أنا ( فَلَنْ أَبْرَحَ الأرض )
أى : فلن أفارق أرض مصر ( حتى يَأْذَنَ لي ) بمفارقتها ، لأنه قد أخذ علينا
العهد الذى تعلمونه بشأن أخى بنيامين ( أَوْ يَحْكُمَ الله لِي . . ) حكاية
: للقرار الذى اتخذه كبيرهم بالنسبة لنفسه .أى : قال كبير إخوة يوسف لهم
لقد علمتم ما سبق أن قلته لكم ، فانظروا فى أمركم ، أما أنا ( فَلَنْ
، أَبْرَحَ الأرض ) أى : فلن أفارق مصر ( حتى يَأْذَنَ لي أبي ) بمفارقتها
لأنه قد أخذ علينا العهد الذى تعلمونه بشأن أخى بنيامين . ( أَوْ يَحْكُمَ
الله لِي ) بالخروج منها وبمفارقتها على وجه لا يؤدى إلى نقض الميقا مع أبى
. سبحانه - ( خَيْرُ الحاكمين ) لأنه لا يحكم إلا بالحق والعدل - ( وهو )

ارجعوا الى ابيكم فقولوا يا ابانا ان ابنك سرق وما شهدنا الا بما علمنا وما
كنا للغيب حافظين

) كما فسرها الوسيط ثم واصل كبيرهم حديثه معهم فقال : ( ارجعوا ) يا إخوتى
إلى أَبِيكُمْ ) يعقوب ( فَقُولُواْ ) له برفق وتلطف .( ياأبانا إِنَّ ابنك
بنيامين ( سرق ) صواع الملك ، ووجد الصواع فى رحله وقولا له أيضاً : إننا (
أى : وما شهدنا على أخينا بهذه ( وَمَا شَهِدْنَآ إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا )
الشهادة إلا على حسب علمنا ويقيننا بأنه سرق .( وَمَا كُنَّا لِلغَيْبِ
حَافِظِينَ ) أى : وما كنا نعلم الغيب بأنه سيسرق صواع الملك ، عندما
. أعطيناك عهودنا ومواثيقنا بأن نأتيك به معنا إلا أن يحاط بنا

واسال القرية التي كنا فيها والعير التي اقبلنا فيها وانا لصادقون

كما فسرها الوسيط وقولوا كذلك على سبيل زيادة التأكيد ، إن كنت فى شك من
قولنا هذا فاسأل ( القرية التي كُنَّا فِيهَا ) والمراد بالقرية أهلها .أى
فأرسل من تريد إرساله إلى أهل القرية التى حصلت فيها حادثة السرقة فإنهم :

سيذكرون لك تفاصيلها .قالوا : ومرادهم بالقرية مدينة مصر التى حدث فيها ما
حدث ، وعبروا عنها بالقرية لأنهم يقصدون مكانا معيناً منها ، وهو الذى حصل
) : فيه التفتيش لرحالهم ، والمراجعة بينهم وبين عزيز مصر ومعاونيه .وقوله
والعير التي أَقْبَلْنَا فِيهَا ) معطوف على ما قبله .أى : اسأل أهل القرية
التى كنا فيها ، واسأل ( العير ) أى : قوافل التجارة التى كنا فيها عند
" ذهابنا وإيابنا فإن أصحاب هذه القوافل يعلمون ما حدث من ابنك " بنيامين
. وقوله ( وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ) أى : وإنا لصادقون فى كل ما أخبرناك به.
فكن واثقاً من صدقنا .وقد ختم كبيرهم كلامه بهذه الجملة ، زيادة فى تأكيد
صدقهم ، لأن ماضيهم معه يبعث على الريبة والشك ، فهم الذين قالوا له قبل
ذلك فى شأن يوسف : ( أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ
وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ) ثم ألقوا به الجب ، ( وجاءوا أَبَاهُمْ
عِشَآءً يَبْكُونَ ) وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد صورت بأسلوب حافل
بالإثارة والمحاورة ، والأخذ والرد ، والترغيب والترهيب . . ما دار بين
" يوسف وإخوته عندما قدموا إليه للمرة الثانية ومعهم شقيقة " بنيامين
فماذا كان بعد ذلك؟ لقد كان بعد ذلك أن عاد الإخوة إلى أبيهم وتركوا بمصر.
كبيرهم وأخاهم بنيامين ، ويطوى القرآن الحكيم - على عادته فى هذه السورة
، الكريمة - أثر ذلك على قلب أبيهم المفجوع ، إلا أنه يسوق لنا رده عليهم
): الذى يدل على كمال إيمانه ، وسعة آماله فى رحمة الله - تعالى - فيقول
( . . . قَالَ بَلْ سَوّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ

قال بل سولت لكم انفسكم امرا فصبر جميل عسى الله ان ياتيني بهم جميعا انه
هو العليم الحكيم

، كما فسرها الوسيط أى : ( قال ) يعقوب لبنيه ، الذين حضروا إليه من رحلتهم
فأخبروه بما هيج أحزانه . . .قال لهم : ( بَلْ سَوّلَتْ لَكُمْ
أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ) أى : ليس الأمر كما تدعون ، ولكن
أنفسكم هى التى زينت لكم أمراً أنتم أردتموه ، فصبرى على ما قلتم صبر جميل
أى لا جزع معه ، ولا شكوى إلا الله - تعالى - .قال ابن كثير : قال لهم ،
كما قال لهم حين جاءوا على قميص يوسف بدم كذب ( بَلْ سَوّلَتْ لَكُمْ
أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ) .قال محمد بن إسحاق : لما جاءوا
يعقوب وأخبروه بما جرى ، اتهمهم ، وظن أن ما فعلوه ببنيامين يشبه ما فعلوه
بيوسف فقال : ( بَلْ سَوّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً . . . )وقال بعض
، الناس : لما كان صنيعهم هذا مرتبا على فعلهم الأول ، سحب حكم الأول عليه
وصح قوله ( بَلْ سَوّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً . . . )والخلاصة أن
الذى حمل يعقوب - عليه السلام - على هذا القول لهم ، المفيد لتشككه فى صدق
ما أثبتوه لأنفسهم من البراءة ، هو ماضيهم معه ، فإنهم قد سبق لهم أن فجعوه
فى يوسف بعد أن عاهدوه على المحافظة عليه .ولكن يعقوب هنا أضاف إلى هذه
الجملة جملة أخرى تدل على قوة أمله فى رحمة الله ، وفى رجائه الذى لا يخيب
فى أن يجمع شمله بأبنائه جميعاً فقال - عليه السلام - ( عَسَى الله أَن
يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ العليم الحكيم ) .أى : عسى
الله - تعالى - أن يجمعنى بأولادى جميعاً - يوسف وبنيامين وروبيل الذى تخلف
عنهم فى مصر - إنه - سبحانه - هو العليم بحالى ، الحكيم فى كل ما يفعله
ويقضى به .وهذا القول من يعقوب - عليه السلام - يدل دلالة واضحة على كمال
- إيمانه ، وحسن صلته بالله - تعالى - وقوة رجائه فى كرمه وعطفه ولطفه
سبحانه - .وكأنه بهذا القول يرى بنور الله الذى غرسه فى قلبه ، ما يراه
غيره بحواسه وجوارحه .

وتولى عنهم وقال يا اسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم

، كما فسرها الوسيط ثم يصور - سبحانه - ما اعترى يعقوب من أحزانه على يوسف
جددها فراق بنيامين له فقال - تعالى - ( وتولى عَنْهُمْ وَقَالَ ياأسفى
) عَلَى يُوسُفَ وابيضت عَيْنَاهُ مِنَ الحزن فَهُوَ كَظِيمٌ ) .وقوله
ياأسفى ) من الأسف وهو أشد الحزن والتحسر على ما فات من أحداث . يقال : أسف
فلان على كذا يأسف أسفا ، إذا حزن حزناً شديداً .وألفه بدل من ياء المتكلم
للتخفيف والأصل يا أسفى .وكظيم بمعنى مكظوم ، وهو الممتلئ بالحزن ولكنه
يخفيه من الناس ولا يبديه لهم .ومنه قوله - تعالى - ( والكاظمين الغيظ ) أى
المخففين له ، مأخوذ من كظم فلان السقاء : إذا سده على ما بداخله :
.. والمعنى : وبعد أن استمع يعقوب إلى ما قاله له أبناؤه ، ورد عليهم.
انتابته الأحزان والهموم ، وتجددت فى قلبه الشجون . . فتركهم واعتزل مجلسهم
وقال :( ياأسفى عَلَى يُوسُفَ ) أى : يا حزنى الشديد على يوسف أقبل فهذا
أوان إقبالك .( وابيضت ) عينا يعقوب من شدة الحزن على يوسف وأخيه حتى ضعف
بصره ، حيث انقلب سواد عينيه بياضاً من كثرة البكاء .( فَهُوَ كَظِيمٌ ) أى
ممتلئ زنا على فراق يوسف له ، إلا أنه كاتم لهذا الحزن لا يبوح به لغيره :
من الناس .قالوا : وإنما تأسف على يوسف دون أخويه - بنيامين وروبيل - مع أن

الرزء الأحدث أشد على النفس . . . لأن الرزء فى يوسف كان قاعدة مصيباته
التى ترتبت عليها الرزايا والخطوب ولأن حبه ليوسف كان حباً خاصاً لا يؤثر
فيه مرور الأعوام . . . ولأن من شأن المصيبة الجديدة أن تذكر بالمصيبة
السابقة عليها ، وتهيج أحزانها ، وقد عبر عن هذا المعنى متمم ابن نويرة فى
رثائه لأخيه مالك فقال :لقد لامنى عند القبور على البكا ... رفيقى لتذراف
الدموع السوافكفقال أتبكى كل قبر رأيته ... لقبر ثوى بين اللوى والد
كادكفقلت له : إن الشجى يبعث الشجى ... فدعنى ، فهذا كله قبر مالكوقال صاحب
الكشاف : " فإن قلت : كيف جاز لنبى الله يعقوب أن يبلغ به الجزع ذلك
المبلغ؟ "قلت : الإنسان مجبول على أن لا يملك نفسه عند الشدائد من الحزن
ولقد بكى النبى - صلى الله عليه وسلم - على ولده إبراهيم وقال : إن العين.
تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا ، وإنا بفراقك يا إبراهيم
لمحزونون .وإنما الجز المذموم ما يقع من الجهلة من الصياح والنياحة ، ولطم
الصدور والوجوه وتمزيق الثياب .وعن الحسن أنه بكى على ولده له ، فقيل له فى
" ذلك؟ فقال :" ما رأيت الله جعل الحزن عارا على يعقوب

قالوا تالله تفتا تذكر يوسف حتى تكون حرضا او تكون من الهالكين

كما فسرها الوسيط ثم يحكى القرآن ما قاله أبناء يعقوب له ، وقد رأوه على
هذه الصورة من الهم والحزن فيقول : ( قَالُواْ تَالله تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ
: يُوسُفَ حتى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الهالكين ) .قال الشوكانى
: قوله ( تفتأ ) أى : لا تفتأ ، فحذف حرف النفى لأمن اللبس . قال الكسائى
" فتأت وفَيِئْتُ أفعل كذا : أى مازلت أفعل كذا .وقال الفراء : إن "لا
... مضمرة ، أى لا تفتأ . . ومنه قول الشاعر :فقلت يمين الله أبرح قاعدا
ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالىأى : " لا أبرح قاعدا . . . "و ( حَرَضاً )
مصدر حرض . كتعب - والحرض : الإشراف على الهلاك من شدة الحزن أو المرض أو
غيرهما .والمعنى : قال أبناء يعقوب له بعد أن سمعوه وهو يتحسر على فراق
، يوسف له : تالله - يا أبانا - ما تزال تذكر يوسف بهذا الحنين الجارف
والحزن المضنى ، ( حتى تَكُونَ حَرَضاً ) أى : مشرفا على الموت لطول مرضك
. المفارقين لهذه الدنيا ( أَوْ تَكُونَ مِنَ الهالكين ).

قال انما اشكو بثي وحزني الى الله واعلم من الله ما لا تعلمون

كما فسرها الوسيط وهنا يرد عليهم الأب الذى يشعر بغير ما يشعرون به من ألم
وأمل . . . ( قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى الله
وَأَعْلَمُ مِنَ الله مَا لاَ تَعْلَمُونَ )و ( البث ) ما ينزل بالإنسان
، من مصائب يعظم حزن صاحبها بسببها . حتى أنه لا يستطيع إخفاء هذا الحزن
وأصله التفريق وإثارة الشئ ومنه قولهم : بثت الريح التراب إذا فرقته .قالوا
والإنسان إذا قدر على كتم ما نزل به من المصائب كان حزناً ، وإذا لم :
يقدر على كتمه كان بثاً . . .والمعنى : قال يعقوب لأولاده الذن لاموه على
) شدة حزنه على يوسف : إنما أشكو ، ( بثى ) أى : همى الذى انطوى عليه صدريى
إلى الله ) - تعالى - وحده ، لا إلى غيره ، فهو العليم بحالى ، وهو القادر
على تفريج كربى ، فاتركونى وشأنى مع ربى وخالقى . فإنى ( وَأَعْلَمُ مِنَ
الله ) أى : من لطفه وإحسانه وثوابه على الصبر على المصيبة ( مَا لاَ
تَعْلَمُونَ ) أنتم ، وإنى لأرجو أن يرحمنى وأن يلطف بى ، وأن يجمع شملى
: بمن فارقنى من أولادى ، فإن حسن ظنى به - سبحانه - عظيم .قال صاحب الظلال
وفى هذه الكلمات - التى حكاها القرآن عن يعقوب - عليه السلام - يتجلى "
الشعور بحقيقة الألوهية فى هذا القلب الموصول ، كما تتجلى هذه الحقيقة
ذاتها بجلالها الغامر ، ولألائها الباهر .إن هذا الواقع الظاهر الميئس من
يوسف ، وهذا المدى الطويل الذى يقطع الرجاء من حياته فضلاً عن عودته إلى
أبيه . . . إن هذا كله لا يؤثر شيئاً فى شعور الرجل الصالح بربه ، فهو يعلم
. . من حقيقة ربه ومن شأنه ما لا يعلمه هؤلاء المحجوبون عن تلك الحقيقة
وهذه قيمة الإيمان بالله . . .إن هذه الكلمات ( وَأَعْلَمُ مِنَ الله مَا.
، لاَ تَعْلَمُونَ ) تجلو هذه الحقيقة بما لا تملك كلماتنا نحن أن تجلوها
وتعرض مذاقا يعرفه من ذاق مثله ، فيدرك ماذا تعنى هذه الكلمات فى نفس العبد
- الصالح يعقوب . . . والقلب الذى ذاق هذا المذاق ، لا تبليغ الشدائد منه
" . . . مهما - بلغت إلا أن يتعمق اللمس والمشاهدة والمذاق

يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف واخيه ولا تياسوا من روح الله انه لا ييأس
من روح الله الا القوم الكافرون

كما فسرها الوسيط ثم يمضى يعقوب - عليه السلام - فى رده على أولاده فيأمرهم
) : أن يواصلوا بحثهم عن يوسف وأخيه ، وأن لا يقنطوا من رحمة الله فيقول
يابني اذهبوا فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن
رَّوْحِ الله إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ الله إِلاَّ القوم الكافرون

: والتحسس : هو طلب الشئ بطريق الحواس بدقة وحكمة وصبر على البحث .أى. (
قال يعقوب لأبنائه : يا بنى ( اذهبوا ) إلى أرض مصر وإلى أى مكان تتوقعون
فيه وجود يوسف وأخيه ( فتحسسوا ) أمرهما . وتخبروا خبرهما ، وتعرفوا نبأهما
بدون كلل أو ملل .وفى التعبير بقوله ( فَتَحَسَّسُواْ ) إشارة إلى أمره لهم
: بالبحث الجاد الحكيم المتأنى ( وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ ) أى
ولا تقنطوا من فرج الله وسعة رحمته ، وأصل معنى الروح التنفس .يقال : أراح
- الإنسان إذا تنفس ، ثم استعير لحلول الفرج .وكلمة ( روح ) - بفتح الراء
أدل على هذا المعنى ، لما فيها من ظل الاسترواح من الكرب الخالق بما تتنسمه
الأرواح من رحمة الله .وقوله ( إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ الله
إِلاَّ القوم الكافرون ) تعليل لحضهم على التحسس أى :لا تقصروا فى البحث
عن يوسف وأخيه ، ولا تقنطوا من رحمة الله ، فإنه لا يقنط من رحمة الله إلا
، القوم الكافرون ، لعدم علمهم بالله - تعالى - وبصفاته وبعظيم قدرته
وبواسع رحمته . . .أما المؤمنون فإنهم لا ييأسوا من فرج الله أبداً ، حتى
. ولو أحاطت بهم الكروب ، واشتدت عيهم المصائب

فلما دخلوا عليه قالوا يا ايها العزيز مسنا واهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة
فاوف لنا الكيل وتصدق علينا ان الله يجزي المتصدقين

كما فسرها الوسيط واستجاب الأبناء لنصيحة أبيهم ، فأعدوا عدتهم للرحيل إلى
مصر للمرة الثالثة ، ثم ساروا فى طريقهم حتى دخلوها ، والتقوا بعزيز مصر
الذى احتجز أخاهم بنيامين ، وتحكى السورة الكريمة ما دار بينهم وبينه فتقول
- قوله. ( . . . فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ ياأيها العزيز ):
تعالى - ( فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ ياأيها العزيز مَسَّنَا
وَأَهْلَنَا الضر وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الكيل
وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ . . . ) حكاية لما قاله إخوة يوسف له ، بعد أن
امتثلوا أمر أبيهم ، فخجوا إلى مصر للمرة الثالثة ، ليتحسسوا من يوسف وأخيه
وليشتروا من عزيزها ما هم فى حاجة إليه من طعام .والبضاعة : هى القطعة من ،
المال ، يقصد بها شراء شئ .والمزجاة : هى القليلة الرديئة التى ينصرف عنها
التجار إهمالاً لها .وقالوا : وكانت بضاعتهمدراهم زيوفا لا تؤخذ إلا
بوضيعة - أى : بأقل قيمة - وقيل غير ذلك .وأصل الإزجاء : السوق والدفع
قليلاً قليلاً ، ومنه قوله - تعالى - ( أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يُزْجِي
سَحَاباً . . . ) أى : يرسله رويدا رويدا . . .وسميت البضاعة الرديئة
القلية مزجاة ، لأنها ترد وتدفع ولا يقبلها التجار إلى بأبخس الأثمان
والمعنى : وقال إخوة يوسف له بأدب واستعطاف ، بعد أن دخلوا عليه للمرة.
الثالثة ( ياأيها العزيز ) أى : الملك صاحب الجاه والسلطان والسعة فى الرزق
أى : أصابنا وأصاب أهلنا معنا الفقر ( مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضر ) ،
: والجدب والهزل من شدة الجوع .( وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ ) أى
وجئنا معنا من بلادنا ببضاعة قليلة رديئة يردها وينصرف عنها كل من يراها من
التجار ، إهمالاً لها ، واحتقارا لشأنها .وإنما قالوا له ذلك : استدراراً
لعطفه ، وتحريكاً لمروءته وسخائه ، قبل أن يخبروه بمطلبهم الذى حكاه القرآن
فى قوله :( فَأَوْفِ لَنَا الكيل وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ . . . ) أى : هذا
، هو حالنا شرحناه لك ، وهو يدعو إلى الشفقة والرحمة ، ما دام أمرنا كذلك
فأتمم لنا كيلنا ولا تنقص منه شيئا ، وتصدق علينا فوق حقنا بما أنت أهل له
من كرم ورحمة ( إِنَّ الله يَجْزِي المتصدقين ) على غيرهم جزاء كريما حسنا
.

قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف واخيه اذ انتم جاهلون

كما فسرها الوسيط ويبدو أن يوسف - عليه السلام - قد تأثر بما أصابهم من ضر
، وضيق حال ، تأثراً جعله لا يستطيع أن يخفى حقيقته عنهم أكثر من ذلك
فبادرهم بقوله : ( قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ
- وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ) .أى : قال لهم يوسف - عليه السلام
على سبيل التعريض بهم ، والتذكير بأخطائهم : هل علمتم ما فعلتموه بيوسف
وأخيه من أذى وعدوان عليهما ، وقت أن كنتم تجهلون سوء عاقبة هذا الأذى
والعدوان .قالوا : وقوله هذا يدل على سمو أخلاقه حتى لكأنه يلتمس لهم العذر
لأن ما فعلوه معه ومع أخيه كان فى وقت جهلهم وقصور عقولهم ، وعدم علمهم ،
بقبح ما أقدموا عليه . . .وقيل : نفى عنهم العلم وأثبت لهم الجهل ، لأنهم
لم يعملوا بمقتضى علمهم .والأول أولى وأقرب إلى ما يدل عليه سياق الآيات
. بعد ذلك ، من عفوه عنهم ، وطلب المغفرة لهم

قالوا انك لانت يوسف قال انا يوسف وهذا اخي قد من الله علينا انه من يتق
ويصبر فان الله لا يضيع اجر المحسنين

كما فسرها الوسيط وهنا عود إلى الإخوة صوابهم ، وتلوح لهم سمات أخيهم يوسف

وفيقولون له فى دهشة وتعجب ( قالوا أَإِنّكَ لأَنتَ يُوسُفُ ) ؟فرد ، عليهم بقوله ( قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ ) الذى تتحدثون عنه .والذى فعلتم معه ما فعلتم . . . ( وهذا أَخِي ) بنيامين الذى ألهمنى الله الفعل الذى عن طريقه احتجزته عندى ، ولم أرسله معكم . . .( قَدْ مَنَّ اللّه ) - تعالى - علينا ) حيث جمعنا بعد فراق طويل ، وبدل أحوالنا من عسر إلى يسر ومن ضيق إلى فرج . . . ثم علل ذلك بما حكاه القرآن عنه فى قوله ( إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنّ الله لاَ يُضِيعُ أَجْرَ المحسنين ) .أى : إن من شأن الإنسان الذى يتقى الله - تعالى - ويصون نفسه عن كل ما لا يرضاه ، ويصبر على قضائه وقدره ، فإنه - تعالى - يرحمه برحمته ، ويكرمه بكرمه لأنه - سبحانه -لا يضيع أجر من أحسن عملا ، وتلك سنته - سبحانه - التى لا تتخلف . . .

قالوا تالله لقد اثرك الله علينا وان كنا لخاطئين

كما فسرها الوسيط وهنا يجسد فى أذهان إخوة يوسف ما فعلوه معه فى الماضى ، فقالوا له فينتابهم الخزى والخجل ، حيث قابل إساءتهم إليه بالإحسان عليهم ، وفى استعطاف وتذلل : ( قَالُواْ تالله لَقَدْ آثَرَكَ الله عَلَيْنَا وَإِن كُنّا لَخَاطِئِينَ ) أى : نقسم بالله - تعالى - لقد اختارك الله - تعالى - لرسالته ، وفضلك علينا بالتقوى وبالصبر وبكل الصفات الكريمة .أما نحن فقد كنا خاطئين فيما فعلناه معك ، ومتعمدين لما ارتكبناه فى حقك من جرائم ، ولذلك أعزك الله - تعالى - وأذلنا ، وأغناك وأفقرنا ، ونرجو منك الصفح والعفو .

قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو ارحم الراحمين

كما فسرها الوسيط فرد عليهم يوسف - عليه السلام - بقوله : ( قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ اليوم يَغْفِرُ الله لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الراحمين ) .( والتثريب : التعيير والتوبيخ والتأنيب . وأصله كما يقول الآلوسى : من الثرب ، وهو الشحم الرقيق فى الجوف وعلى الكرش . . . فاستعير للتأنيب الذى يمزق الأعراض ويذهب بهاء الوجه ، لأنه بإزالة الشحم يبدو الهزال ، كما أنه بالتأنيب واللوم تظهر العيوب ، فالجامع بينهما طريان النقص بعد الكمال .أى : قال يوسف لإخوته على سبيل الصفح والعفو يا إخوتى :لا لوم ولا تأنيب ولا تعيير عليكم اليوم ، فقد عقوت عما صدر منكم فى حقى وفى حق أخى من أخطاء وآثام وأرجو الله - تعالى - أن يغفر لكم ما فرط منكم من ذنوب وهو سبحانه - أرحم الراحمين بعباده .وقوله ( لاَ تَثْرِيبَ ) اسم لا النافية للجنس ، و ( عَلَيْكُمُ ) متعلق بمحذوف خبر لا ، و ( اليوم ) متعلق بذلك الخبر المحذوف .أى :لا تقريع ولا تأنيب ثابت أو مستقر عليكم اليوم .وليس التقييد باليوم لإفادة أن التقريع ثابت فى غيره ، بل المراد نفيه عنهممفى كل ما مضى من الزمان ، لأن الإنسان إذا لم يوبخ صاحبه فى أول لقاء معه على أخطائه فلأن يترك ذلك بعد أول لقاء أولى .

اذهبوا بقميصي هذا فالقوه على وجه ابي يات بصيرا واتوني باهلكم اجمعين

كما فسرها الوسيط ثم انتقل يوسف - عليه السلام - من الحديث عن الصفح عنهم إلى الحديث عن الصفح عنهم إلى الحديث عن أبيه الذى ابيضت عيناه عليه من الحزن فقال :( اذهبوا بِقَمِيصِي هذا فَأَلْقُوهُ على وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ) .أى : اذهبوا يا إخوتى بقميصى هذا ( فَأَلْقُوهُ على وَجْهِ أَبِي ) الذى طال حزنه بسبب فراقى له ). أى يرتد إيله كامل بصره ، بعد أن ضعف من شدة الحزن ( يَأْتِ بَصِيراً ) وأتونى ) معه إلى هنا ومعكم أهلكم جميعاً من رجال ونساء وأطفال .وقول يوسف هذا إنا هو بوحى من الله - تعالى - فهو - سبحانه الذى ألهمه أن إلقاء قميصه على وجه أبيه يؤدى إلى ارتداد بصره إليه كاملا ، وهذا من باب خرق العادة بالنسبة لهذين النبيين الكريمين .

ولما فصلت العير قال ابوهم اني لاجد ريح يوسف لولا ان تفندون

كما فسرها الوسيط واستجاب الإخوة لتوجيه يوسف ، فأخذوا قميصه وعادوا إلى أوطانهم ويصور القرآن ما حدث فيقول : ( وَلَمّا فَصَلَتِ العير قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ ) .و ( فَصَلَتِ العير ) أى خرجت من مكان إلى مكان آخر . يقال : فصل فلان من بلده كذا فصولاً ، إذا جاوز حدودها إلى حدود بلدة أخرى .و ( تفندون ) من الفند وهو ضعف العقل بسبب المرض والتقدم فى السن .والمعنى : وحين غادرت الإبل التى تحمل إخوة يوسف حدود مصر ، وأخذت طريقها إلى الأرض التى يسكنها يعقوب ، وبنوه ، قال يعقوب - عليه السلام - لمن كان جالساً معه من أهله وأقاربه

استمعوا إلى ( إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ) .أى : رائحته التى تدل عليه وتشير إلى قرب لقائى به .و ( لولا ) أن تنسبونى إلى الفند وضعف العقل ، لصدقتمونى فيما قلت ، أو لولا أن تنسبونى إلى ذلك لقلت لكم إنى أشعر أن لقائى بيوسف قد اقترب وقته وحان زمانه .فجواب لولا محذوف لدلالة الكلام عليه .وقد أشم الله - تعالى - يعقوب - عليه السلام - ما عبق من القميص من رائحة يوسف من مسيرة أيام ، وهى معجزة ظاهرة له - عليه السلام - .وقال الإمام مالك - رحمه الله - أوصل الله - ريح قميص يوسف ليعقوب ، كما أوصل عرش بلقيس إلى سليمان قبل أن يرتد إلى سليمان طرفه .

قالوا تالله انك لفي ضلالك القديم

كما فسرها الوسيط ولكن المحيطين بيعقوب الذين قال لهم هذا القول ،لم يشموا ما شمه ، ولم يجدوا ما وجده ، فردوا عليه بقولهم : ( قَالُواْ تالله إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ القديم ) .قالوا له على سبيل التسلية : إنك يا يعقوب مازلت غارقاً فى خطئك القديم الذى لا تريد أن يفارقك . وهو حبك ليوسف وأملك فى لقائه والإكثار من ذكره .

فلما ان جاء البشير القاه على وجهه فارتد بصيرا قال الم اقل لكم اني اعلم من الله ما لا تعلمون

كما فسرها الوسيط وتحقق ما وجده يعقوب من رائحة يوسف . . وحل أوان المفاجأة التى حكاها القرآن فى قوله ( فَلَمَّآ أَن جَآءَ البشير أَلْقَاهُ على وَجْهِهِ فارتد بَصِيراً قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إني أَعْلَمُ مِنَ الله مَا لاَ تَعْلَمُونَ ) .أى : وحين أقترب أبناء يعقوب من دار أبيهم ، تقدم البشير الذى يحمل قميص يوسف إلى يعقوب ، فألقى القميص على وجهه فعاد إلى يعقوب بصره كأن لم يكن به ضعف أو مرض من قبل ذلك .وهذه معجزة أكرم الله - تعالى - بها نبيه يعقوب - عليه السلام - حيث رد إليه بصره بسبب إلقاء قميص يوسف على وجهه .وهنا قال يعقوب لأبنائه ولمن أنكر عليه قوله ( إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ) ( أَلَمْ أَقُلْ ) قبل ذلك ( إني أَعْلَمُ مِنَ الله ) أى : من رحمته وفضله وإحسانه ( مَا لاَ تَعْلَمُونَ ) أنتم .

قالوا يا ابانا استغفر لنا ذنوبنا انا كنا خاطئين

كما فسرها الوسيط وهنا قال الأبناء لأبيهم فى تذلل واستعطاف : ( ياأبانا استغفر لَنَا ذُنُوبَنَآ ) .أى : تضرع إلى الله - تعالى - أن يغفر لنا ما فرط منا من ذنوب فى حقك وفى حق أخوينا يوسف وبنيامين .( إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ) فى حقك وفى حق أخوينا ، ومن شأن الكريم أن يصفح ويعفو عمن اعترف له بالخطأ .

قال سوف استغفر لكم ربي انه هو الغفور الرحيم

كما فسرها الوسيط فكان رد أبيهم عليهم أن قال لهم : ( سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ ربي ) أى : سوف أتضرع إلى ربى لكى يغفر لكم ذنوبكم .( إِنَّهُ ) - سبحانه - ( هُوَ الغفور ) أى الكثير المغفرة ( الرحيم ) أى : الكثير الرحمة لمن شاء أن يغفر له ويرحمه من عباده .وهكذا صورت لنا السورة الكريمة ما دار بين يوسف وإخوته ، وبين يعقوب وبنيه فى هذا اللقاء المثير الحافل بالمفاجآت والبشارات .

فلما دخلوا على يوسف اوى اليه ابويه وقال ادخلوا مصر ان شاء الله امنين

كما فسرها الوسيط ولكن الأمر لم ينته عند هذا الحد ، فقد كانت هناك مفاجآت وبشارات أخرى تحققت معها رؤيا يوسف وهو صغير ، كما تحقق معها تأويل يعقوب لها فقد هاجر يعقوب ببنيه وأهله إلى مصر للقاء ابنه يوسف ، وهناك اجتمع شملهم واستمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى ذلك فى نهاية القصة فيقول ): ( فَلَمَّا دَخَلُواْ على يُوسُفَ . . . ) .وقوله - سبحانه - ( فَلَمَّا دَخَلُواْ على يُوسُفَ آوى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ . . . ) معطوف على كلام محذوف والتقدير :استجاب إخوة يوسف لقوله لهم: ( اذهبوا بِقَمِيصِي هذا فَأَلْقُوهُ على وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ) فأتوا بأهلهم أجمعين ، حيث رحلوا جميعاً من بلادهم إلى مصر ومعهم أبوهم ، فلما وصلوا إليها ودخلوا على يوسف، ضم إليه أبويه وعانقهما عناقاً حاراً .وقال للجميع ( دَخَلُواْ ) بلاد ( مِصْرَ إِن شَآءَ الله آمِنِينَ ) من الجوع والخوف .وقد ذكر المفسرون هنا كلاماً يدل على أن يوسف - عليه السلام - وحاشيته ووجهاء مصر ، عندما بلغهم قدوم يعقوب بأسرته إلى مصر ، خرجوا جميعاً لاستقبالهم كما ذكروا أن المراد بأبويه : أبوه

وخالته ، لأن أمه ماتت وهو صغير .إلا أن ابن كثير قال : " قال محمد بن
، إسحاق وابن جرير : كان أبوه وأمه يعيشان ، وأنه لم يقم دليل على موت أمه
وظاهر القرآن يدل على حياتها " .ثم قال : " وهذا الذى ذكره ابن جرير ، هو
الذى يدل عليه السياق " .والمراد بدخول مصر : الاستقرار بها ، والسكن فى
ربوعها .قالوا : وكان عدد أفراد أسرة يعقوب الذين حضروا معه ليقيموا فى مصر
ما بين الثمانين والتسعين .

ورفع ابويه على العرش وخروا له سجدا وقال يا ابت هذا تاويل رؤياي من قبل قد
جعلها ربي حقا وقد احسن بي اذ اخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد ان
نزغ الشيطان بيني وبين اخوتي ان ربي لطيف لما يشاء انه هو العليم الحكيم

كما فسرها الوسيط والمراد بالعرش فى قوله ( وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى
العرش ) السرير الذى يجلس عليه .أى : وأجلس يوسف أبويه معه على السرير الذى
يجلس عليه ، تكريماً لهما ، وإعلاء من شأنهما .( وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا
أى : وخر يعقوب وأسرته ساجدين من أجل يوسف ، وكان ذلك جائزا فى شريعتهم (
على أنه لون من التحية ، وليس المقصود به السجود الشرعى لأنه لا يكون إلا
الله - تعالى - .( وَقَالَ ) يوسف متحدثاً بنعمة الله ( ياأبت هذا
: تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً . . . )أى
وقال يوسف لأبيه : هذا السجود الذى سجدتموه لى الآن ، هو تفسير رؤياى التى
رأيتها فى صغرى ، فقد جعل ربى هذه الرؤيا حقاً ، وأرانى تأويلها وتفسيرها
بعد أن مضى عليها الزمن الطويل .قالوا : وكان بين الرؤيا وبين ظهور تأويلها
أربعون سنة .والمراد بهذه الرؤيا ما أشار إليه القرآن فى مطلع هذه السورة
فى قوله ( ياأبت إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً والشمس والقمر
رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ) ثم قال يوسف لأبيه أيضاً : ( وَقَدْ
أَحْسَنَ بي ) ربى - عز وجل - ( إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السجن ) بعد أن مكثت
بين جدرانه بضع سنين .وعدى فعل الإحسان بالباء مع أن الأصل فيه أن يتعدى
بإلى ، لتضمنه معنى اللطف ولم يذكر نعمة إخراجه من الجب ، حتى لا يجرح شعور
إخوته الذين سبق أن قال لهم : ( لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ اليوم يَغْفِرُ
الله لَكُمْ ) وقوله ( وَجَآءَ بِكُمْ مِّنَ البدو ) معطوف على ما قبله
، تعدادا لنعم الله - تعالى - .أى : وقد أحسن بى ربى حيث أخرجنى من السجن
وأحسن بى أيضاً حيث يسر لكم أموركم ، وجمعنى بكم فى مصر ، بعد أن كنتم
مقيمين فى البادية فى أرض كنعان بفلسطين .وقوله ( مِن بَعْدِ أَن نّزغَ
الشيطان بَيْنِي وَبَيْنَ إخوتي ) أى جمعنى بكم من بعد أن أفسد الشيطان
بينى وبين إخوتى ، حيث حملهم على أن يلقوا بى فى الجب .وأصل ( نّزغَ ) من
النزغ بمعنى النخس والدفع . يقال : نزغ الراكب دابته إذا نخسها ودفعها
لتسرع فى سيرها .وأسند النزغ إلى الشيطان ، لأنه هو الموسوس به ، والدافع
إليه ، ولأن فى ذلك ستراً على إخوته وتأدباً معهم .وقوله ( إِنّ رَبِّي
لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنّهُ هُوَ العليم الحكيم ) تذييل قصد به الثناء
على الله - تعالى - بما هو أهله .أى : إن ربى وخالقى ، لطيف التدبير لما
يشاء تدبيره من أمور عباده ، رفيق بهم فى جميع شئونهم من حيث لا يعلمون
إنه - سبحانه - هو العليم بأحوال خلقه علماً تاماً ، الحكيم في جميع
أقواله وأفعاله .

رب قد اتيتني من الملك وعلمتني من تاويل الاحاديث فاطر السماوات والارض انت
وليي في الدنيا والاخرة توفني مسلما والحقني بالصالحين

- كما فسرها الوسيط ثم ختم يوسف - عليه السلام - ثناءه على الله - تعالى
بهذا الدعاء الذى حكاه القرآن عنه فى قوله : ( رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ
الملك ) أى : يا رب قد أعطيتنى شيئاً عظيماً من الملك والسلطان بفضلك وكرمك
أيضاً - شيئاً كثيراً ( مِن تَأْوِيلِ الأحاديث ) أى - ( وَعَلَّمْتَنِي ).
من تفسيرها وتعبيرها تعبيراً صادقاً بتوفيقك وإحسانك .( فَاطِرَ السماوات
والأرض ) أى : خالقهما على غير مثال سابق ، وهو منصوب على النداء بحرف مقدر
أى : يا فاطر السموات والأرض .( أَنتَ وَلِيِّي ) وناصرى ومعينى ( فِي
الدنيا والآخرة ) .( تَوَفَّنِي ) عندما يدركنى أجلى على الإسلام ، وأبقنى
) مدة حياتى .( وَأَلْحِقْنِي ) فى قبرى ويوم الحساب ( مُسْلِماً )
بالصالحين ) من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً
وبهذا الدعاء الجامع الذى توجه به يوسف إلى ربه - تعالى - يختتم القرآن
الكريم قصة يوسف مع أبيه ومع إخوته ومع غيرهم ممن عاشرهم والتقى بهم وهو
دعاء يدل على أن يوسف - عليه السلام - لم يشغله الجاه والسلطان ولم يشغله
لقاؤه عن طاعة ربه ، وعن تذكر الآخرة وما فيها من حساب . .وهذا هو شأن
المصطفين الأخيار الذين نسأل الله - تعالى - أن يحشرنا معهم ، ويحلقنا بهم
ويوفقنا للسير على نهجهم . . .ثم يختتم الله - تعالى - هذه السورة ،
الكريمة بما يدل على أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - وبما يدخل
التسلية على قلب الرسول - صلى الله عليه وسلم - وبما يفتح له باب الأمل فى

. . النصر على أعدائه . . . فيقول :( وَمَآ أَكْثَرُ الناس وَلَوْ حَرَصْتَ
. )

ذلك من انباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم اذ اجمعوا امرهم وهم يمكرون

كما فسرها الوسيط اسم الإشارة فى قوله - سبحانه - ( ذَلِكَ مِنْ أَنْبَآءِ
الغيب نُوحِيهِ إِلَيْكَ . . . ) يعود على ما ذكره الله - تعالى - فى هذه
السورة من قصص يتعلق بيوسف وإخوته وأبيه وغيرهم ، أى : ذلك الذى قصصناه
) عليك - أيها الرسول الكريم - فى هذه السورة ، وما قصصناه عليك فى غيرها
مِنْ أَنْبَآءِ الغيب ) أى : من الأخبار الغيبية التى لا يعلمها علماً تاما
شاملاً إلا الله - تعالى - وحده .ونحن ( نُوحِيهِ إِلَيْكَ ) ونعلمك به لما
فيه من العبر والعظات .وقوله : ( وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجمعوا
أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ) مسوق للتدليل على أن هذا القصص من أنباء
الغيب الموحاة إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - .أى : ومما يشهد بأن هذا
الذى قصصناه عليك فى هذه السورة من أنباء الغيب ، أنك - أيها الرسول
الكريم - ما كنت حاضرا مع إخوة يوسف ، وقت أن أجمعوا أمرهم للمكر به ، ثم
استقر رأيهم على إلقائه فى الجب ، وما كنت حاضراً أيضاً وقت أن مكرت امرأة
العزيز بيوسف ، وما كنت مشاهداً لتلك الأحداث المتنوعة التى اشتملت عليها
هذه السورة الكريمة ، ولكنا أخبرناك بكل ذلك لتقرأه على الناس ، ولينتفعوا
بما فيه من حكم وأحكام ، وعبر وعظات .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - فى
خلال قصة نوح - عليه السلام - :( تِلْكَ مِنْ أَنْبَآءِ الغيب نُوحِيهَا
إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هذا فاصبر
إِنَّ العاقبة لِلْمُتَّقِينَ ) وقوله - تعالى - فى خلال قصة موسى - عليه
السلام - ( وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الغربي إِذْ قَضَيْنَآ إلى مُوسَى الأمر
وَمَا كنتَ مِنَ الشاهدين ) وقوله - تعالى - فى خلال حديثه عن مريم ( ذلك
مِنْ أَنبَآءِ الغيب نُوحِيهِ إِلَيكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ
يُلْقُون أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ
لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ) إلى غير ذلك من الآيات التى تدل على أن
هذا القرآن من عند الله - تعالى - لأن النبى - صلى الله عليه وسلم - لم يكن
معاصرا لمن جاء القرآن بقصصهم ، ولم يطلع على كتاب فيه خبرهم ، فلم يبق
لعلمه - صلى الله عليه وسلم - بذلك طريق إلا طريق الوحى .

وما اكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - ما يبعث التسلية والتعزية فى قلب
النبى - صلى الله عليه وسلم - فقال : ( وَمَآ أَكْثَرُ الناس وَلَوْ
حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ) .أى : لقد جئت - أيها الرسول - للناس بدين الفطرة
الذى ترتاح له النفوس وتتقبله القلوب بسرور وانشراح . ولكن أكثر الناس قد ،
استحوذ عليهم الشيطان ، فمسخ نفوسهم وقلوبهم ، ، فصاروا مع حرصك على
إيمانهم ، ومع حرصك على دعوتهم إلى الحق على بصيرة ، لا يؤمنون بك ، ولا
يستجيبون لدعوتك ، لاستيلاء المطامع والشهوات والأحقاد على نفوسهم .وفى
التعبير بقوله - سبحانه - ( وَمَآ أَكْثَرُ الناس . . . ) إشعار بأن هناك
، - قلة من الناس قد استجابت بدون تردد لدعوة النبى - صلى الله عليه وسلم
فدخلت فى الدين الحق ، عن طواعيه واختيار .وقوله ( وَلَوْ حَرَصْتَ ) جملة
، معترضة لبيان أنه مهما بالغ النبى - صلى الله عليه وسلم - فى كشف الحق
فإنهم سادرون ، فى ضلالهم وكفرهم ، إذ الحرص طلب الشئ باجتهاد .قال الآلوسى
ما ملخصه : " سألت قريش واليهود رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن قصة
يوسف ، فنزلت مشروحة شرحاً وافياً ، فأمل النبى - صلى الله عليه وسلم - أن
- يكون ذلك سبباً فى إسلامهم ، فلما لم يفعلوا حزن - صلى الله عليه وسلم
. " فعزاه الله - تعالى - بذلك

وما تسالهم عليه من اجر ان هو الا ذكر للعالمين

كما فسرها الوسيط وقوله ( وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ
هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ) زيادة فى تسلية الرسول - صلى الله
عليه وسلم - وفى إعلاء شأنه .أى أنك - أيها الرسول الكريم - ما تسألهم على
هذا القرآن الذى تتلوه عليهم لهدايتهم وسعادتهم من أجر ولو كان زهيداً
ضئيلاً . كما يفعل غيرك من الكهان والأحبار والرهبان . . .وإنما تفعل
ابتغاء رضا الله - تعالى - ونشر دينه .وقوله ( إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ
لِّلْعَالَمِينَ ) أى : ما هذا القرآن الذى تقرؤه عليهم إلا تذكير وعظة
: وهداية للعالمين كافة لا يختص به قوم دون قوم ، ولا جنس دون جنس .قالوا
وهذه الجملة كالتعليل لما قبلها ، لأن التذكير العام لكل الناس ، يتنافى مع
أخذ الأجرة من العبض دون البعض ، وإنما تتأتى الأجرة ، إذا كانت الدعوة
. خاصة وليست عامة

وكاين من اية في السماوات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن هؤلاء المشركين تطالعهم الدلائل والبراهين الدالة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، ولكنهم فى عمى عنها فقال : ( وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السماوات والأرض يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ) .و ( كَأَيِّن ) كلمة مركبة من كاف التشبيه وأى الاستفهامية المنونة ، ثم تنوسى معنى جزيئيتها وصارت كلمة واحدة بمعننى كم الخبرية المفيدة للتكثير .والمراد بالآية هنا : العبرة والعظمة الدالة على وحدانية الله وقدرته يمر بها هؤلاء المشركون فلا يلتفتون إليها ، ولا يتفكرون فيها ، ولا يعتبرون بها ، لأن بصائرهم قد انطمست بسبب استحواذ الأهواء والشهوات والعناد عليها .قال ابن كثير ما ملخصه : يخبر - تعالى - فى هذه الآية عن غفلة أكثر الناس عن التفكير فى آيات الله ودلائل توحيده ، وما خلقه - سبحانه - فى السموات من كواكب زاهرات ، وسيارات وأفلاك . . . . وفى الأرض من حدائق وجنات ، وجبال راسيات ، وبحار زاخرات ، وحيوانات ونبات فسبحان الواحد الأحد ، خالق أنواع المخلوقات ، المنفرد بالدوام . . . والبقاء والصمدية . ..

وما يؤمن اكثرهم بالله الا وهم مشركون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أنهم بجانب غفلتهم وجهالتهم ، لا يؤمنون إيماناً صحيحاً فقال - تعالى - ( وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بالله إِلاَّ وَهُمْ مُّشْرِكُونَ ) .أى : وما يؤمن أكثر هؤلاء الضالين بالله فى إثقرارهم بوجوده ، وفى اعترافهم بأنه هو الخالق ، إلا وهم مشركون به فى عقيدتهم وفى عبادتهم وفى تصرفاتهم ، فإنهم مع اعترافهم بأن خالقهم وخالق السموات والأرض هو الله لكنهم مع ذلك كانوا يتقربون إلى أصنامهم بالعبادة ويقولون ( مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى اللهِ زلفى ) والآية تشمل كل شرك سواء أكان ظاهراً أم خفياً ، كبيراً أم صغيراً . وقد ساق ابن كثير هنا جملة من الأحاديث فى هذا المعنى ، كلها تنهى عن الشرك أياً كان لونه ، منها قوله صلى الله عليه وسلم : " عندما سئل أى الذنب أعظم؟ قال : " أن تجعل لله نداً وهو خلقك " ومنها قوله؛ " إن الرقى والتمائم والتولة شرك " " .ومنها قوله صلى الله عليه وسلم : " إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ، قالوا : ما الشرك الأصغر؟ قال : الرياء " .ومنها قوله صلى الله عليه وسلم : فيما يرويه عن ربه - عز وجل - يقول الله - تعالى - " أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه " .فالآية الكريمة تنهى عن كل شرك ، وتدعو إلى إخلاص العبادة والطاعة لله رب العالمين .

افامنوا ان تاتيهم غاشية من عذاب الله او تاتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون

- كما فسرها الوسيط ثم هددهم - سبحانه - بحلول قارعة تدمرهم تدميراً فقال تعالى - : ( أفأمنوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ الله أَوْ تَأْتِيَهُمُ الساعة بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ) .والغاشية : كل ما يغطى الشئ ويستره ، والمراد بها : ما يغشاهم ويغمرهم من العذاب . والاستفهام للتوبيخ والتقريع .والمعنى : أفأمن هؤلاء الضالون ، أن يأتيهم عذاب من الله - تعالى - يغشاهم ويغمرهم ويشمل كل أجزائهم ، وأمنوا أن تأتيهم الساعة فجأة دون أن يسبقها ما يدل عليها ، بحيث لا يشعرون بإتيانها إلا عند قيامها .

قل هذه سبيلي ادعو الى الله على بصيرة انا ومن اتبعني وسبحان الله وما انا من المشركين

كما فسرها الوسيط إن كانوا قد أمنوا كل ذلك ، فهم فى غمرة ساهون ، وفى الكفر والطغيان غارقون ، فإنه ( فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ الله إِلاَّ القوم الخاسرون ) ثم أمر الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم : إن يسير فى طريقه الذى رسمه له ، وأن يدعو الناس إليه فقال : ( قُلْ هذه سبيلي أَدْعُو إلى الله على بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتبعني . . . ) والبصيرة : المعرفة التى يتميز بها الحق من الباطل .أى : قل - أيها الرسول الكريم - للناس هذه طريقى وسبيلى واحدة مستقيمة لا عوج فيها ولا شبهة ، وهى أنى أدعو إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - وحده ، ببصيرة مستنيرة ، وحجة واضحة ، وكذلك أتباعى يفعلون ذلك . . . ولن نكفّ عن دعوتنا هذه مهما اعترضنا العقبات .واسم الإشارة ( هذه ) مبتدأ ، و ( سبيلى ) خبر ، وجملة ( أَدْعُو إلى الله على بَصِيرَةٍ .. . ) حالية ، وقد جئ بها على سبيل التفسير للطريقة التى انتهجها الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى دعوته .وقوله ( وَسُبْحَانَ الله

وَمَآ أَنَاْ مِنَ المشركين ) تنزيه لله - تعالى - عن كل ما لا يليق به على
، أبلغ وجه .أى : وأنزه الله - تعالى - تنزيهاً كاملاً عن الشرك والشركاء
. وما أنا من المشركين ببه فى عبادته أو طاعته فى أى وقت من الأوقات

وما ارسلنا من قبلك الا رجالا نوحي اليهم من اهل القرى افلم يسيروا في
الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الاخرة خير للذين اتقوا
افلا تعقلون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن رسالته - صلى الله عليه وسلم - ليست
بدعا من بين الرسالات السماوية ، وإنما قد سبقه إلى ذلك رجال يشبهونه فى
الدعوة إلى الله ، فقال - تعالى - ( وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ
رِجَالاً نوحي إِلَيْهِمْ مِّنْ أَهْلِ القرى . . . )أى : وما أرسلنا من
قبلك - أيها الرسول الكريم - لتبليغ أوامرنا ونواهينا إلى الناس ، إلا
رجالاً مثلك ، وهؤلاء الرجال اختصصناهم بوحينا ليبلغوه إلى من أرسلوا إليهم
واصطفيناهم من بين أهل القرى والمدائن ، لكونهم أصفى عقولاً وأكثر حلما
وإنما جعلنا الرسل من الرجال ولم نجعلهم من الملائكة أو من الجن أو من.
غيرهم ، لأن الجنس إلى جنسه أميل ، وأكثرهم تفهما وإدراكاً لما يلقى عليه
من أبناء جنسه .ثم نعى - سبحانه - على هؤلاء المشركين غفلتهم وجهالتهم فقال
: ( أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأرض فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الذين مِن قَبْلِهِمْ . . . )أى : أوصلت الجهالة والغفلة بهؤلاء المشركين ،
أنهم لم يتعظوا بما أصاب الجاحدين من قبلهم من عذاب دمرهم تدميراً ، وهؤلاء
- الجاحدين الذين دمروا ما زالت آثار بعضهم باقية وظاهرة فى الأرض . وقومك
يا محمد - يمرون عليهم فى الصباح وفى المساء وهم فى طريقهم إلى بلاد الشام
كقوم صالح وقوم لوط - عليهما السلام - .فالجملة توبيخ شديد لأهل مكة على ،
عدم اعتبارهم بسوء مصير من كان على شاكلتهم فى الشرك والجحود .وقوله ( )
وَلَدَارُ الآخرة ) وما فيها من نعيم دائم ( خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتقوا )
الله - تعالى - وصانوا أنفسهم عن كل ما لا يرضيه .( أَفَلاَ تَعْقِلُونَ )
أيها المشركون ما خاطبناكم به فيحملكم هذا التعقل والتدبر إلى الدخول فى
. الإيمان ، ونبذ الكفر والطغيان

حتى اذا استياس الرسل وظنوا انهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ولا
يرد باسنا عن القوم المجرمين

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - سنة من سننه التى لا تتخلف ولا تتبدل
فقال : ( حتى إِذَا استيأس الرسل وظنوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ
نَصْرُنَا . . . )وفى قوله ( قَدْ كُذِبُواْ ) وردت قراءتان سبعيتان
- إحداهما بتشديد الذال والثانية بالتخفيف .وعلى القراءتين فالغاية فى قوله
تعالى - ( حتى إِذَا استيأس الرسل ) غاية لكلام محذوف دل عليه السياق
، والمعنى على القراءة التى بالتشديد . لقد أرسلنا رسلنا لهداية الناس.
فأعرض الكثيرون منهم عن دعوتهم ، ووقفوا منهم موقف المنكر والمعاند
والمحارب لهدايتهم ، وضاق الرسل ذرعاً بموقف هؤلاء الجاحدين ، حتى إذا
استيأس الرسل الكرام من إيمان هؤلاء الجاحدين ، وظنوا - أى الرسل - أن
، أقوامهم الجاحدين قد كذبوهم فى كل ما جاءوهم به لكثرة إعراضهم عنهم
وإيذائهم لهم .. . أى : حتى إذا ما وصل الرسل إلى هذا الحد من ضيقهم
بأقوامهم الجاحدين جاءهم نصرنا الذى لا يتخلف .والمعنى على القراءة الثانية
التى هى بالتخفيف : حتى إذا يئس الرسل من إيمان أقوامهم يأساً شديداً ، وظن
هؤلاء الأقوام أن الرسل قد كذبوا عليهم فيما جاءوهم به ، وفيما هددوهم به من
عذاب إذا ما استمروا على كفرهم . .حتى إذا ما وصل الأمر بالرسل وبالأقوام
إلى هذا الحد ، جاء نصرنا الذى لا يتخلف إلى هؤلاء الرسل ، فضلاً منا
وكرماً . . .فالضمير فى قوله ( كُذِّبواْ ) بالتشديد يعود على الرسل ، أما
على قراءة التخفيف ( كُذِبوا ) فيعود إلى الأقوام الجاحدين .ومنهم من جعل
الضمير - أيضاً - على قراءة ( كذبوا ) بالتخفيف يعود على الرسل ، فيكون
المعنى : حتى إذا استيأس الرسل من إيمان قومهم ، وظنوا - أى الرسل - أن
نفوسهم قد كذبت عليهم فى تحديد موعد انتصارهم على أعدائهم لأن البلاء قد
طال . والنصر قد تأخر . . جاءهم - أى الرسل - نصرنا الذى لا يتخلف .قال
الشيخ القاسمى فى بيان هذا المعنى : قال الحكيم الترمذى : ووجهه - أى هذا
القول السابق - أن الرسل كانت تخاف بعد أن وعدهم الله النصر ، أن يتخلف
النصر ، لا عن تهمة بوعد الله ، بل عن تهمة لنفوسهم أن تكون قد أحدثت حدثاً
ينقض ذلك الشرط ، فكان النصر إذا طال انتظارهم واشتد البلاء عليهم ، دخلهم
الظن من هذه الجهة .وهذا يدل على شدة محاسبة الرسل - عليهم الصلاة
) - والسلام - لنفوسهم ، وحسن صلتهم بخالقهم - عز وجل - .وقوله - سبحانه
( فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ القوم المجرمين
معطوف على ما قبله ، ومتفرع عليه .أى : جاءهمنصرنا الذى وعدناهم به ، بأن
، أنزلنا العذاب على أعدائهم ، فنجا من نشاء إنجاءه وهم المؤمنون بالرسل

. ولا يرد بأسنا وعذابنا عن القوم المجرمين عند نزوله بهم

لقد كان في قصصهم عبرة لاولي الالباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - هذه السورة الكريمة بقوله : ( لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الألباب ) أى : لقد كان فى قصص أولئك الأنبياء الكرام وما جرى لهم من أقوامهم ، عبرة وعظة لأصحاب العقول السليمة ، والأفكار القويمة ، بسبب ما اشتمل عليه هذا القصص من حكم وأحكام وآداب وهدايات .و ( مَا كَانَ ) هذا المقصوص فى كتاب الله - تعالى ، ) - حَدِيثاً يفترى ) أى يختلق .( ولكن ) كان ( تَصْدِيقَ الذي بَيْنَ يَدَيْهِ ) من الكتب السابقة عليه ، كالتوراة والإنجيل والزبور ، فهو المهيمن على هذه الكتب ، والمؤيد لما فيها من أخبار صحيحة ، والمبين لما وقع فيها من تحريف وتغيير ، والحاكم عليها بالنسخ أو بالتقرير .( وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ) أى : وكان فى هذا الكتاب - أيضا - تفصيل وتوضيح كل شئ من الشرائع المجملة التى تحتاج إلى ذلك .( وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ) أى : وكان هداية تامة ، ورحمة شاملة ، لقوم يؤمنون به ، ويعملون بما فيه من أمر ونهى ، وينتفعون بما اشتمل عليه من وجوه العبر والعظات .وبعد : فهذا ، تفسير لسورة يوسف - عليه السلام - تلك السورة الزاخرة بالحكم والأحكام وبالآداب والأخلاق ، وبالمحاورات والمجادلات ، وبأحوال النفوس البشرية فى حبها وبغضها ، وعسرها ويسرها ، وخيرها وشرها . وعطائها ومنعها وسرها وعلانيتها ، ورضاها وغضبها ، وحزنها وسرورها .

المر تلك ايات الكتاب والذي انزل اليك من ربك الحق ولكن اكثر الناس لا يؤمنون

كما فسرها الوسيط لقد افتتحت سورة الرعد ببعض الحروف المقطعة ، وقد سبق أن ، تكلمنا عن آراء العلماء فى هذه الحروف فى سور : البقرة ، وآل عمران والأعراف ، ويونس ، وهود ، ويوسف .وقلنا ما ملخصه : إن أقرب الأقوال إلى الصواب ، أن هذه الحروف المقطعة ، قد وردت فى افتتاح بعض السور على سبيل الإيقاظ والتنبيه إلى إعجاز القرآن .فكأن الله - تعالى - يقول لأولئك المعارضين فى أن القرآن من عند الله : هاكم القرآن ترونه مؤلفاً من كلام هو من جنس ما تؤلفون من كلامكم ، ومنظوماً من حروف هى من جنس الحروف الجهائية التى تنظمون منها كلماتكم .فإن كنتم فى شك من كونه منزلاً من عند الله فهاتوا مثله ، وادعوا من شئتم من الخلق لكى يعاونكم فى ذلك ، فإن لم تستطيعوا أن تأتوا بمثله فهاتوا عشر سور من مثله ، فإن لم تستطيعوا فهاتوا سورة واحدة من مثله . .ومع كل هذا التساهل معهم فى التحدى ، فقد عجزوا وانقلبوا خاسرين ، فثبت بذلك أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - .( تلك ) ، اسم إشارة ، والمشار إليه الآيات ، والمراد بها آيات القرآن الكريم ويدخل فيها آيات السورة التى معنا .والمراد بالكتاب : القرآن الكريم الذى أنزله - سبحانه - على نبيه - صلى الله عليه وسلم - لإخراج الناس من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام .وقوله ( والذي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الحق ) تنويه بشأن القرآن الكريم ، ورد على المشركين الذين زعموا أنه أساطير الأولين .أى : تلك الآيات التى نقرؤها عليك - يا محمد - فى هذه السورة هى آيات الكتاب الكريم ، وما أنزله الله - تعالى - عليك فى هذا الكتاب ، هو الحق الخالص الذى لا يلتبس به باطل ، ولا يحوم حول صحته شك أو التباس .وفى قوله - سبحانه - ( مِن رَّبِّكَ ) مزيد من التلطف فى الخطاب معه - صلى الله عليه وسلم - فكأنه - سبحانه - يقول له : إن ما نزل عليك من قرآن هو من عند ربك الذى تعهدك بالرعاية والتربية حتى بلغت درجة الكمال . . واسم الموصول ( الذي ) مبتدأ ، والجملة بعد صلة ، والحق هو الخبر. وقوله ( ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يُؤْمِنُونَ ) استدراك لبيان موقف أكثر. : الناس من هذا القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .أى لقد أنزلنا عليك يا محمد هذا القرآن بالحق ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون به ، لانطماس بصائرهم ، واستيلاء العناد على نفوسهم . . .وفى هذا الاستدراك مدح لتلك القلة المؤمنة من الناس ، وهم أولئك الذين فتحوا قلوبهم للحق منذ أن وصل إليهم ، فآمنوا به ، واعتصموا بحبله ، ودافعوا عنه بأموالهم وأنفسهم وعلى رأس هذه القلة التى آمنت بالحق منذ أن بلغها : أبو بكر الصديق وغيره من السابقين إلى الإسلام .

الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لاجل مسمى يدبر الامر يفصل الايات لعلكم بلقاء ربكم توقنون

- كما فسرها الوسيط ثم أقام - سبحانه - الأدلة المتنوعة ، عن طريق المشاهدة على كمال قدرته ، وعلى وجوب إخلاص العبادة له فقال - تعالى - ( الله الذي

رَفَعَ السماوات بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ) .والعمد : جمع عماد ، وهو
ما تقام عليه القبة أو البيت .وجملة ( ترونها ) فى محل نصب حال من السموات
أى الله - سبحانه - هو الذى رفع هذه السموات الهائلة فى صنعها وفى.
ضخامتها ، بغير مستند يسندها ، وبغير أعمدة تعتمد عليها ، وأنتم ترون ذلك
، بأعينكم بجلاء ووضوح .والمراد بقوله ( رفع ) أى خلقها مرتفعة منذ البداية
وليس المراد أنه - سبحانه - رفعها بعد أن كانت منخفضة .ولا شك أن خلق
السموات على هذه الصورة من أكبر الأدلة على أن لهذا الكون خالقاً قادراً
حكيماً ، هو المستحق للعبادة والطاعة .وقوله - سبحانه - ( ثُمَّ استوى
- عَلَى العرش ) معطوف على ما قبله ، وهو دليل آخر على قدرة الله - تعالى
عن طريق الغائب الهائل الذى تتقاصر دونه المدارك بعد أن أقام الأدلة على
ذلك عن طريق الحاضر المشاهد .وعرش الله - تعالى - مما لا يعلمه البشر إلا
بالاسم - كما يقول الراغب - .وقد ذكر لفظ العرش فى إحدى وعشرين آية ، كما
ذكر الاستواء على العرش فى سبع آيات من القرآن الكريم .والمعنى : ثم استوى
على العرش استواء يليق بذاته - تعالى - بلا كيف ولا انحصار ولا تشبيه ولا
- تمثيل ، لاستحالة اتصافه - سبحانه - بصفات المحدثين .قال الإمام مالك
رحمه الله - : " الكيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ، والإيمان به
واجب ، والسؤال عنه بدعة " .ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر نعمه على عباده
. فقال : ( وَسَخَّرَ الشمس والقمر كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى )
والتسخير : التذليل والخضوع .أى : أن من مظاهر فضله أنه - سبحانه - سخر ذلك
وأخضع لقدرته الشمس والقمر ، بأن جعلهما طائعين لما أراده منهما من السير
فى منازل معينة ، ولأجل معين محدد لا يتجاوزانه ولا يتعديانه . بل يقفان
) - عند نهاية المدة التى حددها - سبحانه - لوقوفهما وأفولهما .قال - تعالى
لاَ الشمس يَنبَغِي لَهَآ أن تدْرِكَ القمر وَلاَ الليل سَابِقُ النهار
: وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ) ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله
يُدَبِّرُ الأمر يُفَصِّلُ الآيات لَعَلَّكُمْ بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ )
تُوقِنُونَ ) وتدبير الأمرك تصريفه على أحسن الوجوه وأحكمها وأكملها
، والآيات : جمع آية . والمراد بها هنا : ما يشمل الآيات القرآنية.
- والبراهين الكونية الداغلة على وحدانيته وقدرته - سبحانه - .أى : أنه
- سبحانه - يقضى ويقدر ويتصرف فى أمر خلقه على أكمل الوجوه وأنه - سبحانه
ينزل آياته القرآنية واضحة مفصلة ، ويسوق الأدلة الدالة على وحدانيته
وقدرته بطرق متعددة ، وبوجوه متنوعة .وقد فعل - سبحانه - ما فعل - من رفعه
السماء بلا عمد ، ومن تسخيره للشمس والقمر ، ومن تدبيره لأمور خلقه ، ومن
، تفصيله للآيات لعكلم عن طريق التأمل والتفكير فيما خلق ، توقنون بلقائه
وتعتقدون أن من قدر على إيجاد هذه المخلوقات العظيمة ، لا يعجزه أن يعيدكم
إلى الحياة بعد موتكم ، لكى يحاسبكم على أعمالكم .وقال - سبحانه - ( يدبر )
) و ( يفصل ) بصيغة المضارع . وقال قبل ذلك ( رَفَعَ السماوات ) و
وَسَخّرَ الشمس والقمر ) بصيغة الماضى . لأن التدبير للأمور ، والتفصيل
للآيات ، يتجددان بتجدد تعلق قدرته - سبحانه - بالمقدورات .وأما رفع
. السماوات ، وتسخير الشمس والقمر ، فهى أمور قد تمت واستقرت دفعة واحدة

وهو الذي مد الارض وجعل فيها رواسي وانهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين
اثنين يغشي الليل النهار ان في ذلك لايات لقوم يتفكرون

كما فسرها الوسيط وبعد أن ذكر - سبحانه - بعض مظاهر قدرته فى عالم السماوات
أتبعه بذكر بعض هذه المظاهر فى عالم الأرض فقال - تعالى - ( وَهُوَ الذي ،
مَدّ الأرض وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِن كُلِّ الثمرات
جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثنين ) والمد : البسط والسعة . ومنه ظل مديد أى
متسع .والرواسى : الجبال مأخوذ من الرسو ، وهو ثبات الأجسام الثقيلة ، يقال
رسا الشئ يرسو رسْوا ورسُوّا ، إذا ثبت واستقر ، وأرسيت الوتد فى الأرض :
إذا أثبته فيها .ولفظ رواسى : صفة لموصوف محذوف . وهو من الصفات التى تغنى
عن ذكر موصوفها .والأنهار : جمع نهر ، وهو مجرى الماء الفائض ، ويطلق على
الماء السائل على الأرض .والمراد بالثمرات : ما يشملها هى وأشجارها ، وإنما
: ذكرت الثمرات وحدها ، لأنها هى موضع المنة والعبرة .والمراد بالزوجين
الذكر والأنثى ، وقيل المراد بهما الصنفان فى اللون أو فى الطعم أو فى
القدر وما أشبه ذلك .والمعنى : - وهو - سبحانه - الذى بسط الأرض طولاً
وعرضاً إلى المدجى الذى لا يدركه البصر ، ليتيسر الاستقرار عليها .ولا
تنافى بين مدها وبسطها ، وبين كونها كروية ، لأن مدها وبسطها على حسب رؤية
، العين ، وكرويتها حسب الحقيقة .وجعل فى هذه الأرض جبالاً ثوابت راسخات
لتمسكها من الاضطراب ، وجعل فيها - أيضاً - أنهاراً ، لينفع الناس والحيوان
وغيرها بمياه هذه الأنهار .وجعل فيها كذلك من كل نوع من أنواع الثمرات ذكرا
وأنثى .قال صاحب الكشاف : " أى خلق فيها من جميع أنواع الثمرات زوجين زوجين
حين مدها ، ثم تكاثرت بعد ذلك وتنوعت .وقيل : أراد بالزوجين ، الأسود
والأبيض ، والحلو والحامض ، والصغير والكبير ، وما أشبه ذلك من الأوصاف
المختلفة .وقال صاحب الظلال : " وهذه الجملة تتضمن حقيقة لم تعرف للبشر من

طريق علمهم وبحثهم إلا قريباً ، وهى أن كل الأحياء وأولها النبات تتألف من ذكر وأنثى ، حتى النباتات التى كان مظنوناً أنه ليس لها من جنسها ذكور ، تبين أنها تحمل فى ذاتها الزوج الآخر ، فتضم أعضاء التذكير وأعضاء التأنيث مجتمعة في زهرة ، أو متفرقة فى العود .. . "وقوله ( يُغْشِي اللَّيل النهار ) بيان لمظهر آخر من مظاهر قدرته - سبحانه - ورحمته بعباده .ولفظ ( يغشى ) من التغشية بمعنى التغطية والستر .والمعنى : أن من مظاهر قدرته - سبحانه - أنه يجعل الليل غاشيا للنهار مغطياً له فيذهب بنوره وضيائه ، فيصير الكون مظلماً بعد أن كل مضيئاً . ويجعل النهار غاشياً لليل ، فيصير الكون مضيئاً بعد أن كان مظلماً ، وفى مكان من منافع الناس ما فيه ، إذ بذلك يجمع الناس بين العمل والراحة ، وبين السعى والسكون .ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ( إِنَّ فِي ذلك لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ) .أى : إن فى ذلك الذى فعله الله - تعالى - من بسط الأرض طولاً وعرضاً ومن تثبيتها بالرواسى ، ومن شقها بالأنهار . . . لآيات باهرة ، ودلائل ظاهرة على قدرة الله - تعالى - ورحمته بعباده ، لقوم يحسنون التفكر ، ويطيلون التأمل فى ملكوت السموات والأرض .

وفي الارض قطع متجاورات وجنات من اعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الاكل ان في ذلك لايات لقوم يعقلون

) : - كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - مظاهر أخرى لقدرته فقال - تعالى - وَفِي الأرض قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ ) .والقطع : جمع قطعة - بكسر القاف : وهى الجزء من الشئ ، تشبيهاً لها ، بما يقتطع من الشئ .ومتجاورات : أى متلاقيات ومتقاربات .وليس هذا الوصف مقصوداً لذاته ، بل المقصود أنها من تجاورها وتقاربها مختلفة فى أوصافها مما يشهد بقدرة الله - تعالى - العظيمة ولذا قال ابن كثير ما ملخصه : ( وَفِي الأرض قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ ) أى. أرض يجاوزر بعضها بعضاً ، مع أن هذه طيبة تنبت ما ينتفع به الناس ، وهذه : . . . سبخة مالحة لا تنبت شيئاً ، وهذه تربتها حمراء ، وتلك تربتها سوداء وهذه محجرة وتلك سهلة . . . والكل متجاورات ، فهذا كله مما يدل على الفاعل المختار ، لا إله إلا هو ولا رب سواه .وقال - سبحانه - ( وَفِي الأرض قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ ) بإعادة اسم الأرض الظاهر ، ولم يقل وفيها قطع ، متجاورات كما قال : ( جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثنين ) فى الآية السابقة ) وذلك ليكون كاملاً مستقلا ، وليتجدد الأسلوب فيزداد حلاوة وبلاغة . وقوله وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يسقى بِمَآءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا على بَعْضٍ فِي الأكل . . . ) بيان لمظهر آخر من مظاهر قدرته - سبحانه - ورحمته بعباده والجنات : جمع جنة ، والمراد بها البستان ذو الشجر المتكاثف ، الملتف. الأغصان الذى يظلل ما تحته ويستره .والأعناب : جمع عنب وهو شجر الكرم والمراد بالزرع : أنواع الحبوب على اختلاف ألوانها وطعومها وصفاتها وقوله. صفة لنخيل ، وهو جمع صنو .والصنو : بمعنى المثل ومنه قيل لعم ( صنوان ) الرجل : صنو أبيه ، أى : مثله ، فأطلق على كل غصن صنو لمماثلته للآخر فى التفرع من أصل واحد ( والأكل ) اسم لما يؤكل من الثمار والحب .والمعنى : أن من مظاهر قدرت الله - أيضا - ومن الأدلة على وحدانيته - سبحانه - أنه جعل فى الأرض بقاعا كثيرة متجاورة ومع ذلك فهى مختلفة فى أوصافها وفى طبيعتها وفيها أيضا بساتين كثيرة من أعناب ومن كل نوع من أنواع الحبوب .وفيها .. كذلك نخيل يجمعها أصل واحد فهى صنوان ، ونخيل أخرى لا يجمعها أصل واحد فهى غير صنوان .والكل من الأعناب والزرع والنخيل وغيرها ( يسقى بِمَآءٍ وَاحِدٍ ) لا اختلاف فى ذاته سواء أكان السقى من ماء الأمطار أم من ماء الأنهار ومع وجود أسباب التشابه ، فإننا لعظيم قدرتنا وإحساننا ( وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا على بَعْضٍ ) آخر منها ( فِي الأكل ) أى : فى اختلاف الطعوم .قال الإمام الرازى : " قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص عن عاصم ( وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ ) كلها بالرفع عطفا على قوله ( وجنات ) وقرأ الباقون بالجر عطفاً على الأعناب . . . "وخص - سبحانه - النخيل بوصفه ) بصنوان ، لأن العبرة به أقوى ، إذ المشاهدة له أكثر من غيره .ووجه زيادة وَغَيْرُ صِنْوَانٍ ) تحدير العبرة باختلاف الأحوال ، واقتصر - سبحانه - فى التفاضل على الأكل ، لأنه أعظم المنافع .وقوله - سبحانه - ( إِنَّ فِي ذلك لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ) تذييل قصد به الحض على التعقل والتدبر .أى إن فى ذلك الذى فصل الله - تعالى - أحواله من اختلاف أجناس الثمرات : والزروع فى أشكالها وألوانها وطعومها وأوراقها . . . مع أنها تسقى بماء واحد . وتنبت فى أرض متجاورة ، إن فى ذلك كله لدلائل باهرة ، على قدرة الله - تعالى - واختصاصه بالعبادة ، لقوم يستعملون عقولهم فى التفكير السليم ، والتأمل النافع .أما الذني يستعملون عقولهم فيما لا ينفع ، فإنهم يمرون بالعبر والعظات وهم عنها معرضون .وبذلك نرى أن الله - تعالى - قد ساق فى هذه الآيات أدلة متعددة ومتنوعة من العالم العلوى والسفلى ، وكلها تدل على عظيم قدرته ، وجليل حكمته .وهذه الأدلة منها :1 - خلقه السموات مرتفعة

بغير عمد .2 - تسخيره الشمس والقمر لمنافع الناس .3 - خلقه الأرض بتلك الصورة الصالحة للاستقرار عليها .4 - خلقه الجبال فيها لتثبيتها .5 - خلقه الأنهار فيها لمنفعة الإنسان والحيوان والنبات .6 - خلقه زوجين اثنين من كل نوع من أنواع الثمار .7 - معاقبته بين الليل والنهار .8 - خلقه بقاعا فى الأرض متجاورة مع اختلافها فى الطبيعة والخواص .9 - خلقه أنواعاً من الزروع ، المختلفة فى ثمارها وأشكالها .10 - خلقه النخيل صنوانا وغير صنوان وجميعها تسقى بماء واحد .ومع كل ذلك فضل - سبحانه - بعضها على بعض فى الأكل .

وان تعجب فعجب قولهم ااذا كنا ترابا اانا لفي خلق جديد اولئك الذين كفروا بربهم واولئك الاغلال في اعناقهم واولئك اصحاب النار هم فيها خالدون

، كما فسرها الوسيط وهذه الأدلة يشاهدها الناس بأبصارهم ، ويحسونها بحواسهم تبصرة وذكرى لكل عبد منيب .وعبد هذا الحديث المتنوع عن مظاهر قدرة الله فى خلقه ، ساق - سبحانه - بعض أقوال المشركين الفاسدة ، ورد عليها بما يدحضها فقال - تعالى - :( وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً أَإِنَّا لَفِي . . . ) .قال القرطبى : قوله - تعالى - : ( وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ) أى : إن تعجب يا محمد من تكذيبهم لك بعدما كنت عندهم الصادق الأمين . فأعجب منه تكذيبهم بالبعث - لأن من شاهد ما عدد - سبحانه - من الآيات الدالة على قدرته . أيقن بأن من قدر على إنشائها كانت الإعادة أهون شئ عليه وأيسره ، والله - تعالى -لا يتعجب ، ولا ، يجوز عليه التعجب ، لأنه - أى التعجب - تغير النفس بما تخفى أسبابه ، وذلك فى حقه - تعالى - محال ، وإنما ذكر ذلك ليتعجب منه نبيه والمؤمنون .وجوز بعضهم أن يكون الخطاب لكل من يصلح له ، أى : وإن تعجب أيها العاقل لشئ بعد أن شاهدت من مظاهر قدرة الله فى هذا الكون ما شاهدت فازدد تعجبا ممن ينكر ) بعد كل هذا قدرته - سبحانه - على إحياء الموتى .قال الجمل : وقوله فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ) فيه وجهان : أحدهما أنه خبر مقدم وقولهم مبتدأ مؤخر ولا بد من حذف صفة لتتم الفائدة ، أى : فعجب أى عجب قولهم . أو فعجب ، غريب قولهم . والثانى أنه مبتدأ ، وسوغ الابتداء ما ذكرته من الوصف المقدر ولا يضر حينئذ كون معرفة .والتنكير فى قوله ( فعجب ) للتهويل والتعظيم ، وجملة ( أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ) فى محل. نصب مقول القول .أى : وإن تعجب من شئ - أيها الرسول الكريم - فأعجب من قول أولئك المشركين : أئذا صرنا ترابا وعظاما نخرة بعد موتنا أئنا بعد ذلك لنعاد إلى الحياة مرة أخرى من جديد .والاستفهام للإنكار ، لاستبعادهم الشديد إعادتهم إلى الحياة مرة أخرى لمحاسبتهم على أعمالهم ، كما حكى القرآن عنهم قولهم فى آية أخرى : ( أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ) وكرر همزة الاستفهام فى ( أئذا ) ، ( وأئنا ) لتأكيد هذا الإنكار .ثم بين - سبحانه - بعد ذلك جزاءهم على هذا القول الباطل فقال - تعالى - ( أولئك الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ . . . )أى ) أولئك المنكرون لقدرة الله - تعالى - على البعث ، هم الذين كفروا بربهم : وَأُوْلَـئِكَ الأغلال في أَعْنَاقِهِمْ ) والأغلال : جمع غل . وهو قيد من حديد تشد به اليد إلى العنق ، وهو أشد أنواع القيود .أى : وأولئك هم الذين توضع الأغلال والقيود فى أيديهم وأعناقهم يوم القيامة ، عندما يساقون إلى النار بذلة وقهر ، بسبب إنكارهم لقدرة الله على إعادتهم إلى الحياة ، وبسبب جحودهم لنعم خالقهم ورازقهم .قال - تعالى - : ( إِذِ الأغلال في أَعْنَاقِهِمْ والسلاسل يُسْحَبُونَ . فِي الحميم ثُمَّ فِي النار - يُسْجَرُونَ ) وقيل إن الجملة الكريمة تمثيل لحالهم فى الدنيا ، حيث شبه سبحانه - امتناعهم عن الإيمان ، وعدم التفاتهم إلى الحق ، بحال قوم فى أعناقهم قيود لا يستطيعون معها التفاتا أو تحركا .والأول أولى لأن حمل ، الكلام على الحقيقة واجب ، ما دام لا يوجد مانع يمنع منه ، وهنا لا مانع بل صريح القرآن يشهد له .وقوله : ( وأولئك أَصْحَابُ النار هُمْ فِيهَا خَالِدونَ ) أى : وأولئك الموصوفون بما ذكر ، هم أصحاب النار التى لا ينفكون عنها . ولا يخرجون منها .وكرر - سبحانه - اسم الإشارة ، للتنبيه على أنهم أحرياء بما سيرد بعده من عقوبات .وجاء به للبعيد ، للإشارة إلى بعد منزلتهم فى الجحود والضلال .

ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وان ربك لشديد العقاب

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - لوناً آخر من طغيانهم واستهزائهم برسولهم - صلى الله عليه وسلم - فقال : ( وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالسيئة قَبْلَ الحسنة وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ المثلات . . . ) .والمراد بالسيئة : الحالة السيئة كالعقوبات والمصائب التى تسوء من تنزل به .والمراد بالحسنة : الحالة الحسنة كالعافية والسلامة .والمثلات : جمع مثلة - بفتح

الميم وضم الثاء كسمرة ، وهى العقوبة الشديدة الفاضحة التى تنزل بالإنسان فتجعله مثالاً لغيره فى الزجر والردع .والاستعجال : طلب حصول الشئ قبل حلول وقته .أى أن هؤلاء المشركين بلغ بهم الحال فى الطغيان ، أنهم كانوا إذا هددهم الرسول . - صلى الله عليه وسلم - بعقاب الله إذا ما استمروا فى كفرهم سخروا منه ، وتهكموا به وقالوا له على سبيل الاستهزاء : ائتنا بما تعدنا ، به من عذاب إن كنت من الصادقين .وشبيه بهذا قوله - تعالى - : ( وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالعذاب وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ العذاب وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ . ( يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالعذاب وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بالكافرين ) وقوله - تعالى - ( وَإِذْ قَالُواْ اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السمآء أَوِ ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ) والجملة الكريمة تحكى لوناً عجيباً من ألوان توغلهم فى الجحود والضلال ، حيثي طلبوا من الرسول - صلى الله عليه وسلم - تعجيل العقوبة التى توعدهم بها ، بدل أن يطلبوا منه الدعاء لهم بالسلامة والأمان والخير والعافية .وجملة ( وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ المثلات ) فى موضع الحال ، لزيادة التعجب من جهلهم وطغيانهم ، لأن آثار الأقوام المهلكين بسبب كفرهم ما زالت ماثلة أمام أبصارهم ، وهم يرمون عليها فى أسفارهم ، فكان من الواجب عليهم - لو كانوا يعقلون - أن يعتبروا بها .وقوله - سبحانه - ( وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ على ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ العقاب ) بيان لرحمة الله - تعالى - بعباده ، ولشدة عقابه للمصرين على الكفر منهم أى : وإن ربك - أيها الرسول الكريم - لذو مغفرة عظيمة للناس مع ظلمهم لأنفسهم ، حيث أطاعوا فى ارتكاب الذنوب والمعاصى .ومن مظاهر هذه المغفرة أنه - سبحانه - لم يعاجلهم بالعقوبة . بل صبر عليهم ، وأمهلهم ، لعلهم يتوبون إليه ويستغفرونه ، ويقلعون عن ذنوبهم .قال - تعالى - : ( وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ الناس بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ على ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ . . . )وإن ربك - أيها الرسول الكريم - لشديد العقاب للمصرين على كفرهم وضلالهم ومعاصيهم .وقدم - سبحانه - مغفرته على عقوبته ، فى مقابل تعجل هؤلاء الكافرين للعذاب ، ليظهر الفارق الضخم بين الخر الذى تريده - سبحانه - لهم ، وبين الشر الذى يريدونه لأنفسهم بسبب انطماس بصائرهم . . .قال ابن كثير ما ملخصه : قوله - سبحانه - ( وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ على ظُلْمِهِمْ ) .أى : إنه ذو عفو وصفح وستر للناس مع أنهم يظلمون ويخطئون بالليل والنهار . ثم قرن هذا الحكم بأنه شديد العقاب ، ليعتدل الرجاء والخوف . كما قال - تعالى - ( فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ القوم المجرمين ) وقال - تعالى - ( نَبِّىءْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الغفور الرحيم . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ العذاب الأليم ) وعن سعيد بن المسيب قال : لما هذه الآية ( وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ على ظُلْمِهِمْ . . . ) قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " لولا عفو الله وتجاوزه ما هنأ أحداً العيش . ولولا وعيده وعقابه لاتكل كل أحد .

ويقول الذين كفروا لولا انزل عليه اية من ربه انما انت منذر ولكل قوم هاد

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - لوناً آخر من رذائلهم ، وهو عدم اعتدادهم بالقرآن الكريم ، الذى هو أعظم الآيات والمعجزات فقال - تعالى - : ( وَيَقُولُ الذين كَفَرُواْ لولا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ) . و ( لولا ) هنا حرف تحضيض بمعنى هلا .ومرادهم بالآية : معجزة كونية( . . كالتى جاء بها موسى من إلقائه العصى فإذا هى حية تسعى ، أو كالتى جاء بها عيسى من إبرائه الأكمه والأبرص وإحيائه الموتى بإذن الله ، أو كما يقترحون هم من جعل جبل الصفا ذهباً . . .لأن القرآن - فى زعمهم - ليس كافياً لكونه معجزة دالة على صدقه - صلى الله عليه وسلم - .أى : ويقول هؤلاء الكافرون الذين عموا وصموا على الحق واستعجلوا العذاب . هلا أنزل على محمد - صلى الله عليه وسلم - آية أخرى غير القرآن الكريم تدل على صدقه .ولقد حكى القرآن مطالبهم المتعنتة فى آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - : ( وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأرض يَنْبُوعاً . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأنهار خِلاَلَهَا تَفْجِيراً . . . ) وقد رد الله - تعالى - عليهم ببيان وظيفة النبى - صلى الله عليه وسلم - فقال ( إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ . . . ) .أى : أن وظيفتك - أيها الرسول الكريم - هى إنذار هؤلاء الجاحدين بسوء المصير ، إذا ما لجوا فى طغيانهم ، وأصروا على كفرهم وعنادهم وليس من وظيفتك الإتيان بالخوارق التى طلبوها منك .وإنما قصر - سبحانه - هنا وظيفة النبى - صلى الله عليه وسلم - على الإنذار ، لأنه هو المناسب لأحوال المشركين الذين أنكروا كون القرآن معجزة .وقوله ( وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ) أى : ولكل قوم نبى يهديهم إلى الحق والرشاد بالوسلة التى يراها مناسبة لأحوالهم ، وأنا - أيها الرسول الكريم - قد جئتهم بهذا القرآن الكريم

الهادى للتى هى أقوم . والذى هو خير وسيلة لإرشاد الناس إلى ما يسعدهم فى دينهم ودنياهم وآخرتهم .قال الشيخ القاسمى : " أو المعنى : ولكل قوم هاد عظيم الشأن ، قادر على هدايتهم . هو الله - تعالى - فما عليك إلا إنذارهم لا هدايتهم كما قال - تعالى - ( لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ولكن الله يَهْدِي مَن يَشَآءُ . . . ) أو المعنى : ( وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ) أى : قائد يهديهم إلى الرشد ، وهو الكتاب المنزل عليهم ، الداعى بعنوان الهداية إلى ما فيه صلاحهم .يعنى : أن سر الإرسال وآيته الفريدة إنما هو الدعاء إلى الهدى ، وتبصير سبله ، والإنذار من الاسترسال فى مساقط الردى . وقد أنزل عليك من الهدى أحسنه ، فكفى بهدايته آية كبرى وخارقة عظمى . وأما الآيات المقترحة فأمرها إلى الله وحده . . .

الله يعلم ما تحمل كل انثى وما تغيض الارحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار

كما فسرها الوسيط ثم صور - سبحانه - سبعة علمه تصويراً عميقاً ، تقشعر منه الجلود ، وترتجف له المشاعر ، وساق سنة من سننه التى لا تتغيير ولا تتبدل - فقال - تعالى - :( لِّيَسْأَلَ الصادقين عَن صِدْقِهِمْ . . . ) .قوله سبحانه - ( الله يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أنثى وَمَا تَغِيضُ الأرحام وَمَا تَزْدَادُ ) كلام مستأنف مسوق لبيان كمال علمه وقدرته - سبحانه - ).وتغيض ) من الغيض النقص . يقال : غاض الماء إذا نقص .و ( ما ) موصولة والعائد محذوف . أى : الله وحده هو الذى يعلم ما تحمله كل أنثى فى بطنها من علقة أو مضغة ومن ذكر أو أنثى . . . وهو وحده - سبحانه - الذى يعلم ما يكون فى داخل الأرحام من نقص فى الخلقة أو زيادة فيها ، ومن نقص فى مدة الحمل أو زيادة فيها ، ومن نقص فى العدد أو زيادة فيه . . .قال ابن كثير : " قوله ) وَمَا تَغِيضُ الأرحام وَمَا تَزْدَادُ ) قال البخاري : حدثنا إبراهيم بن المنذر . حدثنا معن ، حدثنا مالك عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : " مفاتيح الغيب خمس لا يعملها إلا الله :لا يعلم ما فى غد إلا الله ، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله ، ولا يعلم متى يأتى المطر إلا الله ، ولا تدري نفس بأى أرض تموت ، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله " .وقال العوفى عن ابن عباس ( وَمَا تَغِيضُ الأرحام ) يعنى السقط ( وَمَا تَزْدَادُ ) .يقول : ما زادت الرحم فى الحمل على ما غاضت حتى ولدته تماما . وذلك أن من النساء من تحمل عشرة أشهر ، ومنهم من تزيد فى الحمل ومنهن من تنقص . فذلك ومنهن من تحمل تسعة أشهر ، والزيادة التى ذكر الله - تعالى - وكل ذلك بعلمه - سبحانه- .وقوله : الغيض أى : وكل شئ عنده - سبحانه - بقدر ( وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ) وحد لا يجاوزه ولا ينقص عنه ، كما قال - تعالى - ( إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ) وكما قال - تعالى - ( وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ) فهو - سبحانه - يعلم كمية كل شئ وكيفيته وزمانه ومكانه وسائر أحواله .

عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال

كما فسرها الوسيط وقوله ( عَالِمُ الغيب والشهادة الكبير المتعال ) تأكيد لعموم عليه - سبحانه - ودقته .والغيب : مصدر غاب يغيب ، وكثيرا ما يستعمل بمعنى الغائب ، وهو : ما لا تدركه الحواس ولا يعلم ببداهة العقل .والشهادة مصدر شهد يشهد ، وهى هنا بمعنى الأشياء المشهودة .والمتعال : المستعلى : على كل شئ فى ذاته وفى صفاته وفى أفعاله - سبحانه - .أى : أنه - سبحانه - هو وحده الذى يعلم أحوال الأشياء الغائبة عن الحواس كما يعلم أحوال المشاهدة منها ، وهو العظيم الشأن ، المستعلى على كل شئ .

سواء منكم من اسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه ( سَوَآءٌ مِّنْكُمْ مَّنْ أَسَرَّ القول وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بالليل وَسَارِبٌ بالنهار ) تأكيد آخر لشمول - علمه - سبحانه - لأحوال عباده .وسواء : اسم مصدر بمعنى الاستواء ، والمراد به هنا اسم الفاعل . أى : مستو .قال الجمل : " وفيه وجهان : أحدهما أنه خبر مقدم ، ومن أسر ومن جهر هو المبتدأ ، وإنما لم يثن الخبر لأنه فى الأصل مصدر ، وهو هنا بمعنى مستو .والثانى أنه مبتدأ ، وجاز الابتداء به لوصفه بقوله ( منكم ) .و ( وَسَارِبٌ بالنهار ) أى : ظاهر بالنهار . يقال : سرب فى الأرض يسرب سربا وسروبا .أى : ذهب فى سربه - بسكون الراء وكسر السين وفتحها - أى طريقة .والمعنى : أنه - تعالى - مستوٍ فى علمه من أسر منكم القول ، ومن جهر به بأن أعلنه لغيره .ومستوٍ فى علمه - أيضا - من هو مستتر فى الظلمة الكائنة فى الليل ، ومن هو ذاهب فى سربه وطريقه بالنهار بحيث يبصره غيره .وذكر - سبحانه - الاستخفاء مع الليل لكونه أشد خفاء ، وذكر السروب مع لنهار لكونه أشد ظهورا .

له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من امر الله ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم واذا اراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال

- كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر رعايته لعباده فقال تعالى - ( لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ الله إِنّ اللَّهَ . . . ) .والضمير فى ( له ) يعود إلى ( من ) فى قوله ( مّنْ أَسَرّ القول وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بالليل ) باعتبار تأويله بالمذكور .و " معقبات " صفة لموصوف محذوف أى : ملائكة معقبات .قال الشوكانى : " والمعقبات المتناوبات التى يخلف كل واحد منها صاحبه ويكون بدلا منه . وهم الحفظة من الملائكة فى قول عامة المفسرين . قال الزجاج : المعقبات ملائكة يأتى بعضهم بعقب بعض ، وإنما قال " معقبات " مع كون الملائكة ذكوراً؛ لأن الجماعة من الملائكة يقال لها معقبة ، ثم جمع معقبة على معقبات .قال الجوهرى : والتعقيب العود بعد البدء قال الله - تعالى - ( ولى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ ) يقال : عقب الفرس فى عدوه ، أى : جرى بعد جريه . وعقبه تعقيباً . أى : جاء عقبة و " من " فى قوله ( مِنْ أَمْرِ الله ) بمعنى باء السببية .والمعنى : لكل واحد من هؤلاء المذكورين ممن يسرون القول أو يجهرون به ، ملائكة يتعاقبون عليه بالليل والنهار ويحيطون به من جميع جوانبه لحفظه ورعايته ، ولكتابة أقواله وأعماله ، وهذا التعقيب والحفظ ، إنما هو بسبب أمر الله - تعالى - لهم بذلك قال ابن كثير : وفى الحديث الصحيح : " يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل. وملائكة بالنهار ، ويجتمعون فى صلاة الصبح وصلاة العصر ، فيصعد الذين باتوا فيكم فيسألهم - سبحانه - وهو أعلم بهم : كيف تركتم عبادى؟ فيقولون : أتيناهم وهم يصلون ، وتركناهم وهم يصلون " .وفى الحديث الآخر : " إن معكم من لا يفارقكم إلا عند الخلاء وعند الجماع ، فاستحيوهم وأكرموهم " أى : فاستحيوا منهم وأكرموهم بالتستر وغيره .وقال عكرمة عن ابن عباس " يحفظونه من أمر الله ، قال ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه ، فإذا جاء قدر الله خلوا عنه " .ثم ساق - سبحانه - سنة من سننه التى لا تتخلف فقال : ( إِنّ اللَّهَ لاَ يُغَيّرُ مَا بِقَوْمٍ حتى يُغَيّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سواءا فَلاَ مَرَدّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مّن دُونِهِ مِن وَالٍ ) .أى : إن الله - تعالى - قد اقتضت سنته ، أنه - سبحانه - لا يغير ما بقوم من نعمة وعافية وخير بضده ، حتى يغيروا ما بأنفسهم من طاعة إلى معصية؛ ومن جميل إلى قبيح ، ومن صلاح إلى فساد .وإذا أراد - سبحانه - بقوم سوءا من عذاب أو هلاك ما يشبهها بسبب إيثارهم الغى على الرشد ، فلا راد لقضائه ، ولا دافع لعذابه .وما لهم من دونه - سبحانه - من وال أى من ناصر ينصرهم منه - سبحانه - ويرفع عنهم عقابه ويلى أمورهم ويلتجئون إليه عند الشدائد .فالجملة الكريمة بيان لمظهر من مظاهر عدل الله فى شئون عباده ، وتحذير شديد لهم من الإصرار على الشرك والمعاصى وجحود النعمة ، فإنه - سبحانه - لا يعصم الناس من عذابه عاصم . ولا يدفعه دافع .قال الإمام ابن كثير : " قال ابن أبى حاتم : أوحى الله إلى نبى من أنبياء بنى إسرائيل أن قل لقومك إنه ليس من أهل قرية ، ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله ، فيتحولون منها إلى معصية الله ، إلا تحول الله لهم مما يحبون إلى ما يكرهون .ثم قال : إن مصداق ذلك فى كتاب الله ( إِنّ اللَّهَ لاَ يُغَيّرُ مَا بِقَوْمٍ حتى يُغَيّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ ) .وعن عمير بن عبد الملك قال : خطبنا على بن أبى طالب على منبر الكوفة فقال : كنت إذا سكت عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ابتدأنى ، وإذا سألته عن الخبر أنبأنى ، وإنه حدثنى عن ربه - عز وجل - قال : قال الرب : وعزتى وجلالى وارتفاعى فوق عرشى ، ما من أهل قرية ولا أهل بيت كانوا على ما كرهت من معصيتى ، ثم تحولوا عنها إلى ما أحببت من طاعتى ، إلا تحولت لهم عما يكرهون من عذابى إلى ما يحبون من رحمتى " .

هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا وينشئ السحاب الثقال

كما فسرها الوسيط ثم لفت - سبحانه - أنظار عباده إلى أنواع متعددة من الظواهر الكونية الدالة على قدرته ووحدانيته ، وبين أن هذه الظواهر قد تكون نعما ، وقد تكون نقما ، وأنها وغيرها تسبح بحمد الله ، وتخضع لسلطانه فقال - تعالى - :( هُوَ الذي يُرِيكُمُ البرق خَوْفاً . . . ) .البرق : ما يراه الرائى من نور لامع يظهر من خلال السحاب ، وخوفا وطمعا : حالان من - الكاف فى يريكم ، أو هما فى محل المفعول لأجله .والمعنى : هو الله تعالى - وحده الذى يريكم بقدرته البرق ، فيترتب على ذلك أن بعضكم يخاف ما ينجم عنه من صواعق ، أو سيل مدمر ، وبعضكم يطمع فى الخير من ورائه ، فقد يعقبه المطر النافع ، والغيث المدرار .فمن مظاهر حكمة الله - تعالى - فى خلقه ، أنه جعل البرق علامة إنذار وتبشير معا ، لأنه بالإنذار والتبشير

تعود النفوس إلى الحق ، وتفئ إلى الرشد .وجملة ( وَيُنْشِئُ السحاب الثقال
بيان لمظهر آخر من مظاهر قدرته - سبحانه - وإنشاء السحاب : تكوينه من (
، العدم .والسحاب : الغيم المنسحب فى الهواء ، وهو اسم جنس واحد سحابة
فلذلك وصف بالجمع وهو ( الثقال ) جمع ثقيلة .أى : وهو - سبحانه - الذى ينشئ
السحاب المثقل بالماء ، فيرسله من مكان إلى مكان على حسب حكمته ومشيئته
قال - تعالى - ( وَهُوَ الذي يُرْسِلُ الرياح بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ.
رَحْمَتِهِ حتى إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ
مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الماء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثمرات
) - كذلك نُخْرِجُ الموتى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ) وقوله - سبحانه
. وَيُسَبِّحُ الرعد بِحَمْدِهِ ) بيان لمظهر ثالث من مظاهر قدرته

ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم
يجادلون في الله وهو شديد المحال

كما فسرها الوسيط ( وَيُسَبِّحُ الرعد بِحَمْدِهِ )والرعد : اسم للصوت
- الهائل الذى يسمع إثر تفجير شحنة كهربية فى طبقات الجو .وعطف - سبحانه
الرعد على البرق والسحاب ، لأنه مقارن لهما فى كثير من الأحوال . والتسبيح
مشتق من السبح وهو المرور السريع فى الماء أو فى الهواء وسمى الذاكر :
الله - تعالى - مسبحا ، لأنه مسرع فى تنزيهه سبحانه عن كل نقص .وتسبيح
الرعد - وهو هذا الصوت الهائل - بحمد الله ، يجب أن نؤمن به ، ونفوض كيفيته
إلى الله - تعالى - لأنه من الغيب الذى لا يعلمه إلا هو - سبحانه - وقد بين
لنا - سبحانه - فى كتابه أن كل شئ يسبح بحمده فقال : ( تُسَبِّحُ لَهُ
السماوات السبع والأرض وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ
بِحَمْدِهِ ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً
غَفُوراً ) وقد فصل القول فى معنى هذه الجملة الكريمة الإمام الآلوسى
فقال - رحمه الله - ما ملخصه :وقوله : ( وَيُسَبِّحُ الرعد ) قيل هو اسم
- للصوت المعلوم ، والكلام على حذف مضاف أى : ويسبح سامعو الرعد بحمده
سبحانه - رجاء للمطر .ثم قال : والذى اختاره أكثر المحدثين كون الإسناد
حقيقيا بناء على أن الرعد اسم للملك الذى يسوق السحاب ، فقد أخرج أحمد
- والترمذى وصححه والنسائى وآخرون عن ابن عباس أن اليهود سألوا رسول الله
صلى الله عليه وسلم - فقالوا : أخبرنا ما هذا الرعد؟ فقال : " ملك من
ملائكة الله - تعالى - موكّل بالسحاب ، بيديه مخراق من نار يزجر به السحاب
- يسوقه حيث أمره الله - تعالى - قالوا .فما هذا الصوت الذى نسمع؟ قال صوته
، قالوا : صدقت " .ثم قال : واستشكل بأنه لو كان علما للملك لما ساغ تنكيره
وقد نكر فى سورة البقرة فى قوله - تعالى - ( أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السمآء
فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ) وأجيب بأن له إطلاقين : ثانيهما
إطلاقه على نفس الصوت ، والتنكير على هذا الإطلاق . . .والذى نراه أن تسبيح
الرعد بحمد الله يجب الإيمان به ، سواء أكان الرعد اسما لذلك الصوت
المخصوص؛ أم اسما لملك من الملائكة ، أما كيفية هذا التسبيح فمردها إلى
الله .قال الإمام الشوكانى : ( وَيُسَبِّحُ الرعد بِحَمْدِهِ ) أى يسبح
الرعد نفسه بحمد الله . أى متلبسا بحمده ، وليس هذا بمستبعد ، ولا مانع من
أن ينطقه الله بذلك .وأما على تفسير الرعد بملك من الملائكة فلا استبعاد فى
. ذلك ، ويكون ذكره على الإفراد مع ذكر الملائكة بعده لمزيد خصوصية له
وعناية بهوقال الإمام ابن كثير : قال الإمام أحمد : حدثنا عفان . . عن
سالم عن أبيه قال : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا سمع الرعد
والصواعق قال : " اللهم لا تقتلنا بغضبك ، ولا تهلكنا بعذابك ، وعافنا قبل
ذلك " .وقال أبو جعفر بن جرير : حدثنا أحمد بن إسحاق . . عن أبى هريرة : أن
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان إذا سمع صوت الرعد قال : " سبحان من
يسبح الرعد بحمده " .وقوله - سبحانه - ( والملائكة مِنْ خِيفَتِهِ ) نوع
رابع من الأدلة الدالة على وحدانية الله وقدرته . أى ويسبح الرعد بحمد الله
ويسبح الملائكة - أيضا - بحمد الله ، خوفا منه - تعالى - وإجلالا لمقامه ،
وذاته .و ( من ) فى قوله - تعالى ( مِنْ خِيفَتِهِ ) للتعليل ، أى : يسبحون
لأجل الخوف منه . وقوله ( وَيُرْسِلُ الصواعق فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ
) نوع خامس من الظواهر الكونية الدالة على كما قدرته - سبحانه - .والصواعق (
، جمع صاعقة ، وهى - كما يقول ابن جرير - كل أمر هائل رآه الرائى أو أصابه
حتى يصير من هوله وعظيم شأنه إلى هلاك وعطب وذهاب عقل . . .والمراد بها هنا
النار النازلة من السماء .أى ويرسل - سبحانه - الصواعق المهلكة فيصيب بها :
من يشاء إصابته من خلقه .وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات
منها : أنها نزلت فى رجل من طواغيت العرب ، بعث النبى - صلى الله عليه
، وسلم - نفرا يدعونه إلى الإسلام ، فقال لهم : أخبرونى عن رب محمد ما هو
أمن فضه أم من حديد؟فبينا النفر ينازعونه ويدعونه إذا ارتفعت سحابة فكانت
فوق رءوسهم فرعدت وأبرقت ورمت بصاعقة فأهلكت الكافر وهم جلوس .رجعوا إلى
النبى - صلى الله عليه وسلم - فاستقبلهم بعض الصحابة فقالوا لهم : احترق
صاحبكم؟ فقالوا : من أين علمتم؟ قالوا : أوحى الله إلى النبى - صلى الله

عليه وسلم - ( وَيُرْسِلُ الصواعق فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ )وضمير
الجماعة فى قوله ( وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي الله وَهُوَ شَدِيدُ المحال )
، يعود إلى أولئك الكافرين الذين سبق أن ساق القرآن بعض أقوالهم الباطلة
والتى منها قولهم : ( أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ
جَدِيدٍ ) والمجادلة : المخاصمة والمراجعة بالقول .والمراد بمجادلتهم فى
الله : تكذيبهم للنبى - صلى الله عليه وسلم - فيما أمرهم به من وجوب إخلاص
عبادتهم لله - تعالى - وإيمانهم بيوم القيامة وما فيه من ثواب وعقاب
والمحال : الكيد والمكر ، والتدبير والقوة ، والعقاب . . يقال : محل فلان.
بفلان - بتثليث الحاء - محلا ومحالا ، إذا كاده وعرضه للهلاك .قال القرطبى
قال ابن الأعرابى : المحال المكر وهو من الله - تعالى - التدبير بالحق أو :
إيصال المكروه إلى من يستحقه من حيث لا يشعر .وقال الأزهرى : المحال : أى
القوة والشدة .وقال أبو عبيد : المحال : العقوبة والمكروه .أى : أن هؤلاء
، الكافرين يجادلونك - أيها الرسول فى ذات الله وفى صفاته ، وفى وحدانيته
) - وفى شأن البعث ، وينكرون ما جئتهم به من بينات والحال أن الله - تعالى
وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ . فانظر
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ
أَجْمَعِينَ ) ثم

له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء الا كباسط كفيه
الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين الا في ضلال

كما فسرها الوسيط بين - سبحانه - أن دعوته هى الدعوة الحق ، وما عداها فهو
باطل ضائع فقال : ( لَهُ دَعْوَةُ الحق ) أى : له وحده - سبحانه - الدعوة
الحق المطابقة للواقع ، لأنه هو الذى يجيب المضطر إذا دعاه ، وهو الحقيق
، بالعبادة والالتجاء .فإضافة الدعوة إلى الحق من إضافة الموصوف إلى صفته
وفى هذه الإضافة إيذان بملابستها للحق ، واختصاصها به ، وأنها بمعزل عن
: الباطل .ومعنى كونها له : أنه - سبحانه - شرعها وأمر بها .قال الشوكانى
: قوله : ( لَهُ دَعْوَةُ الحق ) إضافة الدعوة إلى الحق للملابسة . أى
الدعوة الملابسة للحق ، المختصة به التى لا مدخل للباطل فيها بوجه من
الوجوه .وقيل : الحق هو الله - تعالى - والمعنى : أنه لله - تعالى - دعوة
المدعو الحق وهو الذى يسمع فيجيب .وقيل : المراد بدعوة الحق ها هنا كلمة
التوحيد والإخلاص والمعنى : لله من خلقه أن يوحدوه ويخلصوا له العبادة
وقيل : دعوة الحق ، دعاؤه - سبحانه - عند الخوف ، فإنه لا يدعوى فيه سواه.
كما قال - تعالى - ( وَإِذَا مَسَّكُمُ الضر فِي البحر ضَلَّ مَن ،
تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ ) وقيل : الدعوة الحق ، أى العبادة الحق فإن
) : عبادة الله هى الحق والصدق .ثم بين - سبحانه - حال - من يعبد غيره فقال
والذين يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ
كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الماء لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ
والمراد بالموصول ( والذين ) الأصنام التى يعبدها المشركون من دون الله. (
والضمير فى يدعون ، للمشركين ، ورابط الصلة ضمير نصب محذوف أى : يدعونهم.
والمعنى : لله - تعالى - العبادة الحق ، والتضرع الحق النافع ، أما.
الأصنام التى يعبدها هؤلاء المشركون من غير الله . فإنها لا تجيبهم إلى شئ
يطلبونه منها ، إلا كإجابة الماء لشخص بسط كفيه إليه من بعيد ، طالبا منه
أن يبلغ فمه وما الماء ببالغ فم هذا الشخص الأحمق ، لأن الماء لا يحس ولا
يسمع نداء من يناديه .والمقصود من الجملة الكريمة نفى استجابة الأصنام لما
يطلبه المشركون منها نفيا قاطعا ، حيث شبه - سبحانه - حال هذه الآلهة
الباطلة عندما يطلب المشركون منها ما هم فى حاجة إليه ، بحال إنسان عطشان
ولكنه غبى أحمق لأنه يمد يده إلى الماء طالبا منه أن يصل إلى فمه دون أن
يتحرك هو إليه . فلا يصل إليه شئ من الماء لأن الماء لا يسمع نداء من
يناديه .ففى هذه الجملة الكريمة تصوير بليغ لخيبة وجهالة من يتوجه بالعبادة
والدعاء لغير الله - تعالى - .وأجرى - سبحانه - على الأصنام ضمير العقلاء
، فى قوله ( لاَ يَسْتَجِيبُونَ ) مجاراة للاستعمال الشائع عند المشركين
لأنهم يعاملون الأصنام معاملة العقلاء .ونكر شيئا فى قوله ( لاَ
يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ ) للتحقير . والمراد أنهم لا يستجيبون لهم
أية استجابة حتى ولو كانت شيئا تافها .والاستثناء فى قوله ( إِلاَّ
كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى المآء . . . ) من أعم الأحوال .أى :لا يستجيب
الأصنام لمن طلب منها شيئا ، إلا استجابة كاستجابة الماء لملهوف بسط كفيه
إليه يطلب منه أن يدخل فمه ، والماء لا يشعر ببسط كفيه ولا بعطشه ولا يقدر
أن يجيب طلبه ولو مكث على ذلك طوال حياته .والضمير " هو " فى قوله ( وَمَا
هُوَ بِبَالِغِهِ ) للماء ، والهاء فى " ببالغه " للفم : أى : وما الماء
ببالغ فم هذا الباسط لكفيه .وقيل الضمير " هو " للباسط ، والهاء للماء ، أى
وما الباسط لكفيه ببالغ الماء فمه .قال القرطبى : " وفى معنى هذا المثل :
ثلاثة أوجه :أحدها : أن الذى يدعو إلها من دون الله كالظمآن الذى يدعو
الماء إلى فيه من بعيد يريد تناوله ولا يقدر عليه بلسانه ، ويشير إليه بيده

فلا يأتيه أبدا لأن الماء لا يستجيب ، وما الماء ببالغ إليه ، قاله مجاهد الثانى : أنه كالظمآن الذى يرى خياله فى الماء وقد بسط كفه فيه ليبلغ فاه. وما هو ببالغه ، لكذب ظنه وفساد توهمه . قاله ابن عباس .الثالث : أنه كباسط كفيه إلى الماء ليقبض عليه ، فلا يجد فى كفه شيئا منه .وقد ضربت العرب مثلا لمن سعى فيما لا يدركه ، بالقبض على الماء كما قال الشاعر :ومن يأمن الدنيا يكن مثل قابض... على الماء ، خانته فروج الأصابعوقوله - سبحانه - ( وَمَا دُعَآءُ الكافرين إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ ) أى : وما عبادة الكافرين للأصنام ، والتجاؤهم إليها فى طلب الحاجات ، إلا فى ضياع وخسران لأن هذه الآلهة الباطلة لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا ، فضلا عن أن تملك ذلك لغيرها .

ولله يسجد من في السماوات والارض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والاصال

- كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن هذا الكون كله خاضع له - عز وجل فقال : (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السماوات والأرض طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُم بالغدو والآصال ) .والمراد بالسجود له - سبحانه - : الانقياد والخضوع لعظمته .وظلالهم : جمع ظل وهو صورة الجسم المنعكس إليه نور .والغدو جمع غدوة وهو ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس .والآصال : جمع أصيل وهو ما : بين العصروغروب الشمس .والمعنى : ولله - تعالى - وحده يخضع وينقاد جميع من فى السموات والأرض من الملائكة والإنس والجن وغيرهم .وقوله ( طَوْعاً وَكَرْهاً ) منصوبان على الحال من " من " ، أى : أن جميعهم يسجدون لله ، وينقادون لعظمته ، حال كونهم طائعين وراضين بهذا السجود والانقياد ، وحال كونهم كارهين وغير راضين به ، لأنهم لا يستطيعون الخروج على حكمه لا فى الإيجاد ولا فى الإعدام ولا فى الصحة ولا فى الأرض ، ولا فى الغنى ولا فى الفقر . . فهم خاضعون لأمره شاءوا أم أبوا .وسيتوى فى هذا الخضوع المؤمن - والكافر ، إلا أن المؤمن خاضع عن طواعية بذاته وبظاهره وبباطنه لله تعالى - .أما الكافر فهو خاضع لله - تعالى - بذاته ، ومتمرد وجاحد وفاسق عن أمر ربه بظاهره ، والضمير فى قوله - سبحانه - ( وَظِلالُهُم ) يعود على ) مَن فِي السماوات والأرض ) .أى : والله - تعالى - يخضع من فى السموات والأرض طوعا وكرها ويخضع له - أيضا - بالغدو والآصال ظلال من له ظل منهم ، لأن هذه الظلال لا زمة لأصحابها والكل تحت قهره ومشيئته فى الامتداد والتقلص والحركة والسكون .قال - تعالى - ( أَوَلَمْ يَرَوْاْ إلى مَا خَلَقَ الله مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلاَلُهُ عَنِ اليمين والشمآئل سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ) وقال تعالى : ( أَفَغَيْرَ دِينِ الله يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السماوات والأرض طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ) ثم وجه - سبحانه - عن طريق نبيه - صلى الله عليه - وسلم - أسئلة تهكمية إلى هؤلاء المشركين المجادلين فى ذات الله - تعالى وفى صفاته ، وساق لهم أمثلة للحق والباطل ، وبين لهم حسن عاقبة المستجيبين لدعوة الحق ، وسوء عاقبة المعرضين عنها فقال - تعالى - :( قُلْ مَن رَّبُّ السماوات . . . ) .

قل من رب السماوات والارض قل الله قل افاتخذتم من دونه اولياء لا يملكون لانفسهم نفعا ولا ضرا قل هل يستوي الاعمى والبصير ام هل تستوي الظلمات والنور ام جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار

كما فسرها الوسيط قال الفخر الرازى : " اعلم أنه - تعالى - لما بين أن كل من فى السموات والأرض ساجد له ، عاد إلى الرد على عبدة الأصنام فقال ) : قُلْ مَن رَّبُّ السماوات والأرض قُلِ الله ) .ولما كانهذا الجواب جوابا يقر به المسئول ويعترف به ولا ينكره ، أمر - سبحانه - نبيه - صلى الله عليه . وسلم - أن يكون هو الذاكر لهذا الجواب تنبيهها على أنهم لا ينكرونه البتة أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المشركين ، من رب هذه. " . . ، الأجرام العظيمة العلوية والسفلية؟فإذا ما أبوا الرد عليك عنادا وصلفا فجابههم بالحقيقة التى لا يستطيعون إنكارها ، وهى أن الله وحده هو رب هذه ) - الأجرام ، لأنه هو خالقها وموجدها على غير مثال سابق .وقوله - سبحانه قُلْ أفاتخذتم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ لاَ يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً ) أمر ثالث منه - تعالى - لنبيه - صلى الله عليه وسلم لإفحامهم وتبكيتهم .فالهمزة للاستفهام التوبيخى ، والفاء للعطف على مقدر بعد الهمزة .والمعنى : أعلمتم حق العلم أن الله - تعالى - هو الخالق للسموات والأرض ، فتركتم عبادته - سبحانه - واتخذتم من دونه " أولياء " أى نصراء عاجزين ، لا يملكون لأنفسهم - فضلا عن أن يملكوا لغيرهم - نفعا يجلبونه لها ، ولا ضرا يدفعون عنها .وجملة ( لاَ يَمْلِكُونَ ) صفة لأولياء والمقصود بها تنبيه السامعين للنظر فى تلك الصفة ، فإنهم إن أحسنوا ، التفكير فى هؤلاء الأولياء ، أيقنوا أنهم أحقر من أن يلتفت إليهم ، فضلا عن أن يطلبوا منهم شيئا .ثم أمره - سبحانه - للمرة الرابعة أن يبرهن لهم على

بطلان معتقداتهم عن طريق ما هو مشاهد بالحواس فقال : ( قُلْ هَلْ يَسْتَوِي
- الأعمى والبصير أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظلمات والنور ) .أى : قل لهم
أيضا - أيها الرسول الكريم : كما أنه لا يستوى فى عرف كل عاقل الأعمى
والبصير ، والظلمات والنور ، فكذلك لا يستوى الكفر والإيمان ، فإن الكفر
انطماس فى البصيرة ، وظلمات فى القلب ، أما الإيمان فهو نور فى القلب
وإشراق فى النفس .فالمراد بالأعمى الكافر وبالبصير المؤمن ، كما ان المراد
بالظلمات الكفر وبالنور الإيمان .وعبر القرآن الكريم فى جانب الظلمات
بصيغة الجمع ، وفى جانب النور بصيغة الإفراد ، لأن النور واحد ومن نتائجه
الشكف والظهور . وتعدد أسبابه لا يغير حقيقته .أما الظلمة فإنها متنوعة
بتنوع أسبابها ، فهناك ظلمة الليل ، وهناك ظلمة السجون ، وهناك ظلمة القبور
وهناك ظلمة العقول التى كان من نتائجها تعدد أنواع الكفر والضلال ، كما ،
هو الحال فى شأن اليهود والنصارى والمجوس وغيرهم من الذين انحرفوا عن طريق
الحق .ثم انتقل - سبحانه - إلى التهكم بهم عن طريق الالتفات من الخطاب إلى
الغيبة إعراضا عنهم ، وإهمالا لشأنهم فقال - تعالى - : ( أَمْ جَعَلُوا
( .. لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الخلق عَلَيْهِمْ
- وأم هنا بمعنى بل ، والاستفهام للإنكار .أى : إنهم ما اتخذوا لله
تعالى - شركاء يخلقون مثل خلق الله - تعالى - حتى نقول إن ما خلقوه تشابه
- مع خلقه - تعالى - فنلتمس لهم شيئا من العذر ، ولكنهم اتخذوا معه
سبحانه - آلهة أخرى : لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب
شيئا لا يستنقذوه منه . . . " .فالجملة الكريمة تنعى عليهم جهلهم . حيث
عبدوا من دون الله مخلوقا مثلهم ، وتنفى أى عذر يعتذرون به يوم يغشاهم
العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم .وقوله : ( كخلقه ) فى معنى المفعول المطلق
أى : خلقوا خلقا شبيها بما خلقه الله - تعالى - . وجملة ( فتشابه ) .
- معطوفة على جملة ( خلقوا )ثم أمر - سبحانه - نبيه - صلى الله عليه وسلم
للمرة الخامسة بأن يقذفهم بالحق الذى يدفع باطلهم فقال - تعالى - ( قُلِ
الله خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الواحد القهار ) .أى : قل لهم - أيها
- الرسول الكريم - : الله - تعالى - هو الخالق لكل شئ فى هذا الكون ، وهو
سبحانه - الواحد الأحد الفرد الصمد ، القهار لكل ما سواه ، والغالب لكل من
غالبه .

انزل من السماء ماء فسالت اودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما
يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية او متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق
والباطل فاما الزبد فيذهب جفاء واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض كذلك
يضرب الله الامثال

كما فسرها الوسيط ثم ضرب - سبحانه - مثلين للحق هما الماء الصافى والجوهر
النقى للذين ينتفع بهما ، ومثلين للباطل هما زبد الماء وزبد الجوهر اللذان
لا نفع فيهما فقال - تعالى - ( أَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَسَالَتْ
أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فاحتمل السيل زَبَداً رَّابِياً ) .والأودية : جمع
، واد وهو الموضع المتسع الممتد من الأرض الذى يسيل فيه الماء بكثرة
والسيل : الماء الجارى فى تلك الأودية .والزبد : هو الغثاء الذى يعلو على.
وجه الماء عند اشتداد حركته واضطرابه أو ما يعلو القدر عند الغليان ويسمى
بالرغوة والوضر والخبث لعدم فائدته ، ورابيا : من الربو بمعنى العلو
والارتفاع .والمعنى : أنزل الله - تعالى - من السماء ماء كثيرا . ومطرا
مدارا ، فسالت أودية بقدرها ، أى : فسالت المياه فى الأدوية بسبب هذا
الإنزال ، بمقدارها الذى حدده الله - تعالى - واقتضته حكمته فى نفع الناس
) أو بمقدارها قلة وكثرة ، بحسب صغر الأودية وكبرها ، واتساعها وضيقها.
فاحتمل السيل زَبَداً رَّابِياً ) أى فحمل الماء السائل فى الأدوية بكثرة
وقوة ، غثاء عاليا مرتفعا فوق الماء طافيا عليه ، لا نفع فيه ولا فائدة منه
وإلى هنا يكون قد انتهى المثل الأول ، حيث شبه - سبحانه - الحق وأهله فى.
الثبات والنفع بالماء الصافى الذى ينزل من السماء فتمتلئ به الأودية ويبقى
محل انتفاع الناس به إلى الوقت المحدد فى علم الله - تعالى - .وشبه الباطل
وشيعته فى الاضمحلال وعدم النفع ، بزبد السيل المنتفخ المرتفع فوق سطح
الماء ، فإنه مهما علا وارتفع فإنه سرعان ما يضمحل ويفنى وينسلخ عن المنفعة
والفائدة .ثم ابتدأ - سبحانه - فى ضرب المثل الثانى فقال : ( وَمِمَّا
يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النار ابتغآء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ
، مِّثْلُهُ ) .و ( من ) فى قوله ( وَمِمَّا يُوقِدُونَ )لابتداء الغاية
وما موصولة ، ويوقدون من الإيقاد وهو جعل الحطب وما يشبهه فى النار ليزيد
اشتعالها .والجملة فى محل رفع خبر مقدم ، وقوله " زبد " مبتدأ مؤخر
والحلية : ما يتحلى به الإنسان من الذهب والفضة وغيرهما .والمتاع : ما.
يتمتع به فى حياته من الأوانى والآلات المتخذة من الحديد والرصاص وأشباههما
والضمير فى قوله ( مثله ) يعود إلى الزبد فى قوله - تعالى - ( زَبَداً.
رَّابِياً ) .وقد قرأ حمزة والكسائى وحفص ( يوقدون ) وقرأ الباقون توقدون
بالتاء .والضمير للناس ، واضمر مع عدم سبق ذكره لظهوره .والمعنى : وشبيه

بالمثل السابق فى خروج الزبد والخبث وطرحه بعيدا عن الأشياء النافعة ، ما توقدون عليه النار من والمعادن والجواهر ، لكى تستخرجوا منها ما ينفعكم من الحلى والأمتعة المتنوعة ، فإنكم فى مثل هذه الحالة ، تبقون على النقى النافع منها ، وتطرحون الزبد والخبث الذى يلفظه الكير ، والذى هو مثل زبد السيل فى عدم النفع .فقد شبه - سبحانه - فى هذا المثل الثانى الحق وأهله فى البقاء والنفع بالمعادن النافعة الباقية ، وشبه الباطل وحزبه فى الفناء - وعدم النفع بخبث الحديد الذى يطرحه كير الحداد ، ويهمله الناس .ثم بين سبحانه - المقصود من ضرب هذه الأمثال فقال : ( كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الحق والباطل ) .أي : مثل ذلك البيان البديع ، يضرب الله الأمثلة للحق وللباطل إذا اجتمعنا بأن يبين بأنه لاثبات للباطل - مهما علا وانتفخ - مع وجود الحق كما انه لاثبات للزبد مع الماء الصافى ، ولا مع المعادن النقية .والكلام ، على حذف مضاف والتقدير : يضرب الله مثل الحق ومثل الباطل .وسر الحذف : الإنباء عن كمال التماثل بين الممثل والممثل به ، حتى لكأن المثل المضروب هو عين وعين الباطل .ثم شرع - سبحانه - فى تقسيم المثل فقال : ( فَأَمَّا الزبد فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ الناس فَيَمْكُثُ فِي الأرض ) أى : فأما الزبد الذى لفظه السيل والحديد فيذهب ( جفاء ) مرميا به( ، مطروحا بعيدا ، لأنه لا نفع فيه .يقال : جفأ الماء بالزبد ، إذا قذفه ورمى به ، وجفأت الريح الغيم ، إذا مزقته وفرقته ، والجفاء بمعنى الغثاء .وأما ) ما ينفع الناس من الماء الصافى ، والمعدن النقى الخالى من الخبث - فَيَمْكُثُ فِي الأرض ) أى فيبقى فيها لينتفع الناس به .وبدأ - سبحانه بالزبد فى البيان فقال (فَأَمَّا الزبد فَيَذْهَبُ ) مع أنه متأخر فى الكلام السابق لأن الزبد هو الظاهر المنظور أولا لأعين الناس ، أما الجوهر فهو مستتر خلفه لأنه هو الباقى النافع .أو لأنه جرت العادة فى التقسيم أن يبدأ بالمتأخر كما فى قوله - تعالى - ( يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الذين اسودت وُجُوهُهُمْ ) وقوله ( كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأمثال ) تفخيم لشأن هذا التمثيل الذى اشتملت عليه الآية الكريمة .أى : مثل ذلك البيان البديع الذى اشتملت عليه الآية الكريمة يضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتفكرون ، فيحملهم هذا التفكير على الإيمان الحق وحسن التمييز بين الخير والشر ، والمعروف والمنكر ، والحق والباطل .قال ، الإمام الشوكانى : " هذان مثلان ضربهما الله - تعالى - فى هذه الآية للحق وللباطل يقول : إن الباطل وإن ظهر على الحق فى بعض الأحوال وعلاه ، فإن الله - تعالى - سيمحقه ويبطله ويجعل العاقبة للحق وأهله .كالزبد الذى يعلو الماء فيلقيه الماء ، وكخبث هذه الأجسام ، فإنه وإن علا عليها فإن الكير يقذفه ويدفعه ، فهذا مثل الباطل .وأما الماء الذى ينفع الناس وينبت المراعى فيمكث فى الأرض ، وكذلك الصافى من هذه الأجسام فإنه يبقى خالصا لا شوب فيه وهو مثل الحق .وقال الزجاج : فمثل المؤمن واعتقاده ونفع الإيمان كمثل ، هذا الماء المنتفع به فى نبات الأرض وحياة كل شئ ، وكمثل نفع الفضة والذهب وسائر الجواهر لأنها كلها تبقى منتفعا لها .ومثل الكافر وكفره كمثل الزبد الذى يذهب جفاء ، وكمثل خبث الحديد وما تخرجه النار من وسخ الفضة والذهب الذى لا ينفع به "

للذين استجابوا لربهم الحسنى والذين لم يستجيبوا له لو ان لهم ما في الارض جميعا ومثله معه لافتدوا به اولئك لهم سوء الحساب وماواهم جهنم وبئس المهاد

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك عاقبة أهل الحق ، وعاقبة أهل الباطل فقال - تعالى - ( لِلَّذِينَ استجابوا لِرَبِّهِمُ الحسنى والذين لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَّا فِي الأرض جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْاْ بِهِ . . )أى : للمؤمنين الصادقين ، الذين أطاعوا ربهم فى كل ما أمرهم به أو نهاهم عنه ، المثوبة الحسنى ، وهى الجنة ، فالحسنى يصح أن تكون صفة لموصوف محذوف ، ويصح أن تكون مبتدأ مؤخراً وخبره ( لِلَّذِينَ استجابوا لِرَبِّهِمُ ) .( والذين لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُ ) - سبحانه - ولم ينقادوا لأمره أو نهيه وهم الكفار ( لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَّا فِي الأرض جَمِيعاً ) من أصناف الأموال ، ولهم أيضا ( مِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْاْ بِهِ ) أى لهان عليهم - مع نفاسته وكثرته - أن يقدموه فداء لأنفسهم من عذاب يوم القيامة .فالضمير فى قوله ( وَمِثْلَهُ مَعَهُ ) يعود إلى ما فى الأرض جميعا من أصناف الأموال وفى ذلك ما فيه من تهويل ما سيلقونه من عذاب أليم جزاء كفرهم وجحودهم .ثم بين - سبحانه - سوء مصيرهم فقال : ( أولئك لَهُمْ سواء الحساب ) أى : اولئك الذين لم يستجيبوا لربهم لهم الحساب السيئ الذى لا رحمة معه ، ولا تساهل فيه .( وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ) أى : ومرجعهم الذى يرجعون إليه جهنم . ( وَبِئْسَ المهاد ) أى وبئس المستقر الذى يستقرون فيه .والمخصوص بالذم محذوف أى : مهادهم أو : جهنم .وبذلك نرى الآيات الكريمة قد أقامت أوضح الأدلة وأحكمها على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، وبينت حسن عاقبة المؤمنين ، وسوء عاقبة المكذبين .

افمن يعلم انما انزل اليك من ربك الحق كمن هو اعمى انما يتذكر اولو الالباب

، كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أنه لا يستوى الأعمى والبصير
، ومدح أولى الألباب بما هم أهله من مدح ، وذم أضدادهم بما يستحقون من ذم
فقال - تعالى - :( أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ
قال الإمام الرازى : " قوله - تعالى - ( أَفَمَن يَعْلَمُ. ( . . .
( . . . أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الحق كَمَنْ هُوَ أعمى
إشارة إلى المثل المتقدم ذكره - فى قوله - تعالى - ( أَنْزَلَ مِنَ السماء
مَآءً ) وهو أن العالم بالشئ كالبصير ، والجاهل به كالأعمى ، وليس أحدهما
. . كالآخر ، لأن الأعمى إذا أخذ يمشى من غير قائد ، فربما يقع فى المهالك
: أما البصير فإنه يكون آمنا من الهلاك والإهلاك .والمراد بالأعمى هنا
الكافر الذى انطمست بصيرته ، فأصبح لا يفرق بين الحق والباطل .والاستفهام
للانكار والاستبعاد .المعنى : أفمن يعلم أن ما أنزل إليك - أيها الرسول
: الكريم - من وحى هو الحق الذى يهدى للتى هى أقوم ، كمن هو أعمى القلب
مطموس البصيرة؟؟فالآية الكريمة تنفى بأبلغ أسلوب ، مساواة الذين علموا الحق
) فاتبعوه ، بمن جهلوه وأعرضوا عنه ، وصموا آذانهم عن سماعه .وقوله
، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الألباب ) مدح لأصحاب العقول السليمة
، الذين ذكروا بالحق فتذكروه ، وآمنوا به ، وتعليل لإعراض الكافرين عنه
ببيان أن سبب إعراضهم ، أنهم ليسوا أهلا للتذكر ، لأن التذكر إنما هو من
شأن أولى الألباب .والألباب : جمع لب وهو الخالص من كل شئ .أى : إنما يتذكر
. وينتفع بالتذكير ، أصحاب العقول السليمة وهم المؤمنون الصادقون

الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق

كما فسرها الوسيط ثم مدح - سبحانه - أصحاب هذه العقول السليمة ، بجملة من
الخصال الكريمة فقال : ( الذين يُوفُونَ بِعَهْدِ الله وَلاَ يَنقُضُونَ
الميثاق ) .وعهد الله : فرائضه وأوامره ونواهيه . والوفاء بها : يتأتى
، باتباع ما أمر به - سبحانه - باجتناب ما نهى عنه .وينقضون : من النقض
بمعنى الفسخ والحل لما كان مركبا أو موصولا .والميثاق : العهد الموثق
باليمين ، للتقوية والتأكيد .أى : إنما يتذكر أولوا الألباب ، الذين من
، صفاتهم أنهم يوقنون بعهد الله - تعالى - ، بأن يؤدوا كل ما كلفهم بأدائه
ويجتنبوا كل ما أمرهم باجتنابه ولا ينقضون شيئا من العهود والمواثيق التى
التزموا بها . وصدر - سبحانه - صفات أولى الألباب ، بصفة الوفاء بعهد الله
وعدم النقض للمواثيق ، لأن هذه الصفة تدل على كمال الإيمان ، وصدق ،
العزيمة ، وصفاء النفس .وأضاف - سبحانه - العهد إلى ذاته ، للتشريف
وللتحريض على الوفاء به .وجملة ( وَلاَ يَنقُضُونَ الميثاق ) تعميم بعد
. تخصيص ، لتشمل عهودهم مع الله - تعالى - ومع غيره من عباده

والذين يصلون ما امر الله به ان يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - صفات أخرى لهم فقال : ( والذين
يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ الله بِهِ أَن يُوصَلَ ) .أى : أن من صفات أولى
الألباب - أيضا - أنهم يصلون كل ما أمر الله - تعالى - بوصله كصلة الأرحام
) وإفشاء السلام ، وإعانة المحتاج ، والإحسان إلى الجار .وقوله ،
). وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ) خشية تحملهم على امتثال أمره واجتناب نهيه
وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ ) أى : ويخافون أهوال يوم القيامة ، وما فيه
من حساب دقيق ، فيحملهم ذلك على أن يحاسبوا أنفسهم قبل أن يحاسبوا .قال
الآلوسى ما ملخصه : " وهذا من قبيل ذكر الخاص بعد العام للاهتمام ، والخشية
، والخوف قيل : بمعنى .وفرق الراغب بينهما فقال : الخشية خوف يشوبه تعظيم
وأكثر ما يكون ذلك من علم .وقال بعضهم : الخشية أشد الخوف ، لأنها مأخوذة
من قولهم : شجرة خشية ، أى : يابسة .ثم قال الآلوسى : والحق أن مثل هذه
. . . الفروق أغلبى لا كلى

والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم واقاموا الصلاة وانفقوا مما رزقناهم سرا
وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة اولئك لهم عقبى الدار

كما فسرها الوسيط ثم أضاف - سبحانه - إلى الصفات السابقة لأولى الألباب
صفات أخرى حميدة فقال : ( وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابتغاء وَجْهِ رَبِّهِمْ )
أى : أن من صفاتهم أنهم صبروا على طاعة الله ، وصبروا عن معصيته ، وصبروا
على المصائب وآلامها ، صبرا غايته رضا ربهم وخالقهم ، لا رضا أحد سواه .أى
أن صبرهم فى كل مجال يحمد فيه الصبر لم يكن من أجل الرياء أو المباهاة أو :
المجاملة أو غير ذلك ، وإنما كان صبرهم من أجل رضا الله - تعالى - وطلب
ثوابه .وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : ( وَالَّذِينَ صَبَرُواْ
فيما يصبر عليه من المصائب فى النفوس والأموال ومشاق التكليف ( ابتغاء (

وَجْهِ رَبِّهِمْ )لا ليقال ما أصبره وأحمله للنوازل ، وأوقره عند الزلازل
ولا لئلا يعاب بالجزع ، ولئلا يشمت به الاعداء ، كقوله :وتجلدى للشامتين ،
أريهم ... أنى لريب الدهر لا أتزعزعولا لأنه لا طائل تحت الهلع ، ولا مرد
فيه للفائت .وكل عمل له وجوه يعمل عليها ، فعلى المؤمن أن ينوى منها ما به
). كان حسنا عند الله - تعالى - وإلا لم يستحق به ثوابا؛ وكان فعلا كلا فعل
وَأَقَامُواْ الصلاة ) أى : أدوها فى أوقاتها كاملة الأركان والسنن
والأذكار ، بخشوع وإخلاص . ( وَأَنْفَقُواْ ) بسخاء وطيب نفس ( مِمَّا
رَزَقْنَاهُمْ ) أى : مما أعطيناهم من عطائنا الواسع العميم . ( سِرّاً
وَعَلاَنِيَةً ) أى : ينفقون مما رزقناهم سرا . حيث يحسن السر ، كإعطاء من
لم يتعود الأخذ من غيره ، وينفقون ( علانية ) حيث تحسن العلانية ، كأن
ينفقوا بسخاء فى مجال التنافس فى الخير ، ليقتدى بهم غيرهم ( وَيَدْرَءُونَ
بالحسنة السيئة ) والدرء : الدفع والطرد . يقال : درأه درءاً ، إذا دفعه
أى : أن من صفات أولى الألباب - أيضا - أنهم يدفعون بالعمل الصالح العمل.
" السئ ، كما فى قوله - صلى الله عليه وسلم - " وأتبع السيئة الحسنة تمحها
أو أنهم يدعفون سيئة من أساء إليهم بالإحسان إليه ، أو بالعفو عنه ، متى
: كان هذا الإحسان أو العفو لا يؤدى إلى مفسدة .قال صاحب الظلال ما ملخصه
وفى الآية إشارة خفية إلى مقابلة السيئة بالحسنة ، عندما يكون فى هذا درء "
، السيئة ودفعها لا إطماعها واستعلاؤها ، فأما حين تحتاج السيئة إلى القمع
ويحتاج الشر إلى الدفع ، فلا مكان لمقابلتهما بالحسنة ، لئلا ينتفش الشر
ويتجرأ ويستعلى .ودرء السيئة بالحسنة يكون غالبا فى المعاملة الشخصية بين
المتماثلين فأما فى دين الله فلا .إن المستعملى الغاشم لا يجدى معه إلى
، الدفع الصارم ، والمفسدون فى الأرض لا يجدى معهم إلا الأخذ الحاسم
والتوجيهات القرآنية متروكة لتدبر المواقف ، واستشارة الألباب ، والتصرف
بما يرجح أنه الخير والصواب . "وجملة ( أولئك لَهُمْ عقبى الدار ) بيان
الجزاء الحسن ، الذى أعده الله - تعالى - لهؤلاء الأخيار .والعقبى : مصدر
. كالعاقبة ، وهى الشئ الذى يقع عقب شئ آخر .والمراد بالدار : الدنيا
وعقباها الجنة . وقيل المراد بالدار : الدار الآخرة . وعقباها الجنة
، للطائعين ، والنار للعاصين .أى : أولئك الموصوفون بتلك الصفات الكريمة
لهم العاقبة الحسنة وهى الجنة . والجملة الكريمة خبر عن ( الذين يُوفُونَ
. بِعَهْدِ الله . . . ) وما عطف عليها

جنات عدن يدخلونها ومن صلح من ابائهم وازواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون
عليهم من كل باب

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا
وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ) تفصيل
للمنزلة العالية التى أعدها - سبحانه - لهم .أى : أولئك الذين قدموا ما
) قدموا فى دنياهم من العمل الصالح ، لهم جنات دائمة باقية ، يدخلونها هم
وَمَنْ صَلَحَ ) أى : ومن كان صالحا لدخولها ( مِنْ آبَائِهِمْ
وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ) .أى : من أصولهم وفروعهم وأزواجهم على
سبيل التكريم والزيادة فى فرحهم ومسيرتهم .وفى قوله - سبحانه - ( وَمَنْ
صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ . . . ) دليل على أن هؤلاء الأقارب لا يستحقون دخول
الجنة ، إلا إذا كانت أعمالهم صالحة ، إما إذا كانت غير ذلك فإن قرابتهم
وحدها لا تنفعهم فى هذا اليوم الذى لا ينفع فيه مال ولا بنون ( إِلاَّ مَنْ
أَتَى الله بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ) قال الإمام ابن كثير : وقوله ( وَمَنْ
صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ) أى : يجمع
بينهم وبين أحبابهم فيها من الآباء والأهلين والأبناء ، ممن هو صالح لدخول
الجنة من المؤمنين ، لتقر أعينهم بهم ، حتى إنه ترفع درجة الأدنى إلى درجة
الأعلى ، من غير تنقيص لذلك الأعلى عن درجته ، بل امتنانا من الله وإحسانا
كما قال - تعالى - ( والذين آمَنُواْ واتبعتهم ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ ،
أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَاهُمْ مِّنْ عَمَلِهِم
) - مِّن شَيْءٍ كُلُّ امرىء بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ) وقوله - سبحانه
وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِّن كُلِّ بَابٍ سَلاَمٌ
: عَلَيْكُم . . . ) زيادة فى تكريمهم ، وحكاية لما تحييهم به الملائكة .أى
والملائكة يدخلون على هؤلاء الأفياء الصابرين . . من كل باب من أبواب
منازلهم فى الجنة ، قائلين لهم : ( سَلاَمٌ عَلَيْكُم )

سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار

كما فسرها الوسيط ( سَلاَمٌ عَلَيْكُم ) أى : أمان دائم عليكم ( بِمَا
صَبَرْتُمْ ) أى : بسبب صبركم على كل ما يرضى الله - تعالى - .( فَنِعْمَ
عقبى الدار ) أى : فنعم العاقبة عاقبة دنياكم ، والمخصوص بالمدح محذوف
لدلالة المقام عليه ، أى : الجنة .وفى قوله - سبحانه - ( يَدْخُلُونَ
عَلَيْهِمْ مِّن كُلِّ بَابٍ ) إشارة إلى كثرة قدوم الملائكة عليهم ، وإلى

كثرة أبواب بيوتهم ، تكريما وتشريفا وتأنيسا لهم .وجملة ( سَلاَمٌ عَلَيْكُم ) مقول لقول محذوف ، وهو حال من فاعل يدخلون وهم الملائكة وهى بشارة لهم بدوام السلامة .وفى قوله ( بِمَا صَبَرْتُمْ ) إشارة إلى أن صبرهم على مشاق التكاليف ، وعلى الأذى ، وعلى كل ما يحمد فيه الصبر ، كان على رأس الأسباب التى أوصلتهم إلى تلك المنازل العالية .هذا ومن الأحاديث التى ذكرها الإمام ابن كثير هنا ، ما رواه الإمام أحمد - بسنده - عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : " هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله؟ قالوا : الله ورسوله أعلم : قال ، أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء المهاجرون ، الذين تسد بهم الثغور ، وتتقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء فيقول الله لمن يشاء من ملائكته : ائتوهم فحيوهم ، فتقول الملائكة : نحن : سكان سمائك وخيرتك من خلقك ، أفتأمرنا أن نأتى هؤلاء فنسلم عليهم؟قال إنهم كانوا عبادا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ، وتسد بهم الثغور ، وتتقى : بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجته فى صدره ، فلا يستطيع لها قضاء . قال فتأتيهم الملائكة عند ذلك ، فيدخلون عليهم من كل باب ( سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ) " .

والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما امر الله به ان يوصل ويفسدون في الارض اولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار

كما فسرها الوسيط وبعد أن ذكر - سبحانه صفات هؤلاء الأوفياء ، وما أعد لهم من ثواب جزيل ، أتبع ذلك ببيان سوء عاقبة الناقضين لعهودهم ، القاطعين لما امر الله بوصله . المفسدين فى الأرض فقال - تعالى - ( والذين يَنقُضُونَ عَهْدَ الله مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ ) .ونقض العهد : إبطاله وعدم الوفاء به وقوله : ( مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ ) زيادة فى تشنيع النقض : أى : ينقضون. عهد الله تعالى ولا يوفون به . من بعد أن أكدوا التزامهم به وقبولهم لهم وقوله : ( وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ الله بِهِ أن يُوصَلَ ) أى : ويقطعون. كل ما أوجب الله - تعالى - وصله ، ويدخل فيه وصل الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالاتباع والموالاة ، ووصل المؤمنين بالمعاونة ، والمحبة ، ووصل أولى الأرحام بالمودة والتعاطف ، فالجملة الكريمة بيان لحال هؤلاء الأشقياء بأنهم كانوا على الضد من أولئك الأوفياء الأخيار الذين كانوا يصلون ما أمر الله به أن يوصل .وقوله : ( وَيُفْسِدُونَ فِي الأرض ) بيان لصفة ثالثة من صفاتهم القبيحة .أى : أنهم كانوا يفسدون فى الأرض عن طريق حربهم لدعوة الحق واعتدائهم على المؤمنين ، وغير ذلك من الأمور التى كانوا يقترفونها مع أن ، الله - تعالى - قد حرمها ونهى عنها .وقوله - تعالى - : ( أولئك لَهُمُ اللعنة وَلَهُمْ سواء الدار ) إخبار عن العذاب الشديد الذى سيلقونه فى - آخرتهم . أى : أولئك الموصوفون بتلك الصفات الذميمة ( لهم ) من الله تعالى - ( اللعنة ) والطرد من رحمته .( ولهم ) فوق ذلك ، الدار السيئة وهى . جهنم التى ليس فيها إلا ما يسوء الصائر إليها

الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا في الاخرة الا متاع

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد أن ذلك أن الغنى والفقر بيده ، وأن العطاء والمنع بأمره فقال - تعالى - : ( الله يَبْسُطُ الرزق لِمَنْ يَشَآءُ وَيَقْدِرُ .. ) وبسط الرزق كناية عن سعته ووفرته وكثرته . ومعنى : يقدر " يضيق ويقلل .قال الإمام الشوكانى : " لما ذكر - سبحانه - عاقبة " المشركين بقوله ( أولئك لَهُمُ اللعنة وَلَهُمْ سواء الدار ) كان لقائل أن - يقول : قد نرى كثيرا منهم قد وفر الله له فى الرزق وبسط له فيه . فأجاب سبحانه - عن ذلك : ( الله يَبْسُطُ الرزق لِمَنْ يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ) فقد يبسط الرزق لمن كان كافرا ، ويقتره على من كن مؤمنا ابتلاء وامتحانا ، ولا - يدل البسط على الكرامة ، ولا القبض على الإهانة . . "أى الله - تعالى وحده هو الذى يبسط الرزق لمن يشاء من خلقه ، وهو وحده - أيضا - الذى يضيقه على من يشاء منهم لحكم هو يعملها ، ولا تعلق لذلك بالكفر أو الإيمان ، فقد يوسع على الكافر استدارجا له ، وقد يضيق على المؤمن امتحانا له ، أو زيادة فى أجره .والضمير فى قوله ( وَفَرِحُواْ بالحياة الدنيا ) يعود إلى مشركى مكة ، وإلى كل من كان على شاكلتهم فى الكفر والطغيان . والمراد بالفرح هنا الأشر والبطر وجحود النعم .أى : وفرح هؤلاء الكافرون بربهم ، الناقضون : لعهودهم ، بما أوتوا من بسطة فى الرزق فى دنياهم ، فرح بطر وأشر ونسيان للآخرة لافرح سرور بنعم الله ، وشكر له - سبحانه - عليها ، وتذكر للآخرة وما فيها من ثواب وعقاب . .وقوله - سبحانه - ( وَمَا الحياة الدنيا فِي الآخرة إِلاَّ مَتَاعٌ ) بيان لقلة نعيم الدنيا بالنسبة لنعيم الآخرة والمتاع : ما يتمتع به الإنسان فى دنياه من مال وغيره لمدة محددة ثم ينقضى. ، أى : إن هؤلاء الفرحين بنعم الله عليهم فى الدنيا ، فرح بطر وأشر وجحود.

لن يتمتعوا بها طويلا ، لأن نعيم الدنيا ليس إلا شيئا قليلا بالنسبة لنعيم الآخرة .وتنكير ( متاع ) للتقليل ، كقوله - تعالى - فى آية أخرى : ( لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الذين كَفَرُواْ فِي البلاد . مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المهاد ) قال الآلوسى ما ملخصه : قوله ( وَمَا الحياة الدنيا فِي الآخرة ) أى : كائنة فى جنب نعيم الآخرة ، فالجار والمجرور فى موضع الحال ، و" فى " هذه معناها المقايسة وهى كثيرة فى الكلام ، كما يقال : ذنوب العبد فى رحمة الله - تعالى - كقطرة فى بحر ، وهى الداخلة بين مفضول سابق ، وفاضل لاحق . . .والمراد بقوله ( إِلاَّ مَتَاعٌ أى : إلا شيئا يسيرا يتمتع به كزاد الراعى .والمعنى : أنهم رضوا بحظ ( الدنيا معرضين عن نعيم الآخرة ، والحال أن ما فرحوا به فى جنب ما أعرضوا عنه قليل النفع ، سريع النفاد .أخرج الترمذى وصححه عن عبد الله بن مسعود قال : " نام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على حصير ، فقام وقد أثر فى : - جنبه ، فقلنا يا رسول الله : لو اتخذنا لك؟ فقال - صلى الله عليه وسلم . مالى وللدنيا ، ما أنا فى الدنيا إلا كراكب استظل بشجرة ثم راح وتركها " ، وبذلك نرى الآيات الكريمة قد بينت صفات المؤمنين وحسن عاقبتهم. " " . . وصفات الكافرين وسوء مصيرهم كما وضحت أن الأرزاق بيد الله - تعالى - يعطيها . . بسعة لمن يشاء من عباده ، ويعيطها بقلة لغيرهم

ويقول الذين كفروا لولا انزل عليه اية من ربه قل ان الله يضل من يشاء ويهدي اليه من اناب

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك بعض المطالب المعنتة التى ، طلبها الكافرون من النبى - صلى الله عليه وسلم - ورد عليها بما يبطلها ومدح المؤمنين لاطمئنان قلوبهم إلى سلامة دينهم من كل نقص ، وأيأسهم من ): - إيمان أعدائهم لاستيلاء العناد والجحود على قلوبهم ، فقال - تعالى وَيَقُولُ الذين كَفَرُواْ لَوْلاَ . . . ) .قوله - سبحانه - ( وَيَقُولُ الذين كَفَرُوا لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ) حكاية لما طلبه مشركو مكة من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على سبيل التعنت والطغيان . ومرادهم بالآية : آية كونية كإحياء الموتى وإزاحة الجبال من أماكنها " لولا " هنا : حرف تحضيض بمعنى هلا .أى : ويقول الكافرون على سبيل العناد والجحود ، هلا أنزل على هذا الرسول آية كونية تدل على صدقه ، كأن يحيى لنا موتانا ، أو أن يحول لنا جبل الصفا ذهبا . .وكأنهم يرون أن القرآن الذى نزل عليه - صلى الله عليه وسلم -لا يكفى - فى زعمهم - أن يكون آية ومعجزة شاهدة على صدقه .وقد أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يرد عليهم بقوله : ( قُلْ إِنَّ الله يُضِلُّ مَن يَشَآءُ ويهدي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ) .أى : قل لهم أيها الرسول الكريم على سبيل التعجب من أحوالهم ومن شدة ضلالهم : إن الله - تعالى - يضل عن طريق الحق من يريد ، إضلاله ، لاستحباب هذا الضال العمى على الهدى ، ويهدى إلى صراطه المستقيم من أناب إليه - سبحانه - ورجع إلى الحق الذى جاء به رسوله - صلى الله عليه وسلم - بقلب سليم ، وعقل متفتح لمعرفة الصواب والرشاد .فالجملة الكريمة تعجيب من أقوالهم الباطلة ، ومن غفلتهم عن الآيات الباهرة التى أعطاها الله - تعالى - لرسوله - صلى الله عليه وسلم - وعلى رأسها القرآن الكريم الذى هو آية الآيات ، وحض لهم على الإقلاع عما هم عليه من العنو والعناد والإنابة : الرجوع إلى الشئ بعد تردد ، فقد جرت عادة كثيرة من النفوس. البشرية أن يعرض عليها الحق فتتردد فى قبوله فى أول الأمر ، ثم تعود إلى قبوله واعتناقه بعد قيام الدلائل على صحته وسلامته من الفساد .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف طابق قولهم ( لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ) قوله ( قُلْ إِنَّ الله يُضِلُّ مَن يَشَآءُ . . . ) ؟قلت : هو كلام يجرى مجرى التعجب من قولهم ، وذلك أن الآيات الباهرة والمتكاثرة التى أوتيها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لم يؤتها نبى قبله ، وكفى بالقرآن وحده آية وراء كل آية ، فإذا جحدوها ولم يهتدوا بها وجعلوه كأن آية لم تنزل عليه قط ، كان موضعاً للتعجب والاستنكار ، فكأنه قيل لهم : ما أعظم عنادكم وما أشد تصميمكم على كفركم ، إن الله يضل من يشاء ممن كان على صفتكم من ) التصميم وشدة الشكيمة فى الكفر ، فلا سبيل إلى اهتدائهم وإن أنزلت كل آية ويهدي إِلَيْهِ مَنْ ) كان على خلاف صفتكم ( أَنَابَ ) أقبل إلى الحق وحقيقته دخل فى نوبة الخير .

الذين امنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله الا بذكر الله تطمئن القلوب

كما فسرها الوسيط ثم رسم القرآن سورة مشرقة للقلوب المؤمنة ، وللجزاء الحسن ) ، الذى أعده الله لها فقال - تعالى - ( الذين آمَنُواْ ) حق الإيمان وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ الله ) أى : تستقر قلوبهم وتسكن ، بسبب تدبرهم لكلامه المعجز وهو القرآن الكريم وما فيه من هدايات .وإطلاق الذكر على القرآن الكريم ورد فى آيات منها قوله - تعالى - ( وهذا ذِكْرٌ

) - مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ) وقوله - تعالى
) : إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ) وقوله
أَلاَ بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ القلوب ) أى : ألا بذكره وحده دون غيره من
شهوات الحياة تسكن القلوب أنسا به ، ومحبة له .ويصح أن يراد بذكر الله هنا
ما يشمل القرآن الكريم ، ويشمل ذكر الخالق - عز وجل - باللسان ، فإن إجراءه
- على اللسان ينبه القلوب على مراقبته - سبحانه - كما يصح أن يراد به خشيته
سبحانه - ومراقبته بالوقوف عند أمره ونهيه .إلا أن الأظهر هنا أن يراد به
القرآن الكريم ، لأنه الأنسب للرد على المشركين الذين لم يكتفوا به كمعجزة
دالة على صدقه - صلى الله عليه وسلم - وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه
، واختيرالفعل المضارع فى قوله - سبحانه - ( تطمئن ) مرتين فى آية واحدة.
للإشارة إلى تجدد الاطمئنان واستمراره ، وأنه لا يتخلله شك ولا تردد
وافتتحت جملة ( أَلاَ بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ القلوب ) بأداة الاستفتاح.
المفيدة للتنبيه ، للاهتمام بمضمونها ، وللإغراء بالإكثار من ذكره - عز
وجل - ، ولإثارة الكافرين إلى الاتسام بسمة المؤمنين لتطمئن قلوبهم .ولا
تنافى بيه قوله - تعالى - هنا ( أَلاَ بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ القلوب )
وبين قوله فى سورة الأنفال ( إِنَّمَا المؤمنون الذين إِذَا ذُكِرَ الله
وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ . . . ) أى : خافت .لأن وجلهم إنما هو عند ذكر الوعيد
- والعقاب والطمأنينة عند ذكر الوعد والثواب . أو وجلت من هيبته وخشيته
. سبحانه - وهو لا ينافى اطمئنان الاعتماد والرجاء

الذين امنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن ماب

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - ( الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات
- طوبى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ) بيان للثواب الجزيل الذى أعده - سبحانه
، للمؤمنين الصادقين .وطوبى : مصدر كبشرى وزلفى من الطيب ، وأصله طُيْبَى
فقلبت الباء واوا لوقوعها ساكنة إثر ضمة ، كما قلبت فى موقن وموسر وهو من
: اليقين واليسر .وقيل : طوبى ، اسم شجرة فى الجنة .قال ابن كثير ما ملخصه
: قوله ( طوبى لَهُمْ ) قال ابن عباس : أى فرح وقرة عين لهم .وقال الضحاك
أى غبطة لهم . وقال إبراهيم النخعى : أى خير لهم .وقال قتادة : طوبى ، كلمة
عربية . يقول الرجل لغيره : طوبى لك أى : أصبت خيرا .وقال سعيد بن جبير بن
ابن عباس ( طوبى لَهُمْ ) قال : هى أرض الجنة بالحبشية .وقال سعيد بن مشجوج
اسم الجنة بالهندية .وروى ابن جرير عن شهر بن حوشب قال : ( طوبى ) ( طوبى )
شجرة فى الجنة كل شجر الجنة منها .. .وهكذا روى عن ابن عباس وأبى هريرة :
وغير واحد من السلف ، " أن طوبى شجرة فى الجنة ، فى كل دار فى الجنة غصن
منها " .والمآب : المرجع والمنقلب من الأوب وهو الرجوع . يقال : آب يئوب
أوبا وإبابا ومآبا إذا رجع .والمعنى : الذين آمنوا وعملوا الأعمال الصالحات
لهم فى آخرتهم ، عيش طيب . وخير كامل ، ومرجع حسن يرجعون به إلى ربهم
. وخالقهم

كذلك ارسلناك في امة قد خلت من قبلها امم لتتلو عليهم الذي اوحينا اليك وهم
يكفرون بالرحمن قل هو ربي لا اله الا هو عليه توكلت واليه متاب

- كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن إرسال محمد - صلى الله عليه وسلم
) : - إلى الناس ليس بدعا ، فقد سبقه رسل كثيرون إلى أقوامهم فقال - تعالى
كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ
) لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ الذي أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ) .فالكاف فى قوله
كَذَلِكَ ) للتشبيه حيث شبه - سبحانه - إرساله - صلى الله عليه وسلم - إلى
الناس ، بإرسال الرسل السابقين إلى أقوامهم .واسم الإشارة يعود إلى
الإرسال المأخوذ من فعل ( أَرْسَلْنَاكَ ) .والمراد بالأمة هنا : أمة
الدعوة التى أرسل إليها الرسول - صلى الله عليه وسلم - فآمن من آمن من
أفرادها ، وكفر من كفر .أى : كما أرسلنا رسلا سابقين إلى أقوامهم ، أرسلناك
يا محمد إلى قومك الذين قد سبقهم أقوام ورسل كثيرون لكى تقرأ على مسامعهم
هذا القرآن العظيم الذى أوحيناه إليك من لدنا ، ولتبين لهم ما اشتمل عليه
- من هدايات وتشريعات ، كما بين الرسل الذين سبقوك لأقوامهم ما أمرهم الله
تعالى - ببيانه .وفى قوله - تعالى - ( قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ )
تعريض بمشركى مكة ، وأنهم إذا ما استمروا فى طغيانهم ، فسيصيبهم ما أصاب
الأمم الخالية .وقوله ( لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ الذي أَوْحَيْنَآ
إِلَيْكَ ) المقصود منه تفخيم شأن القرآن الكريم ، وأنه هو المعجزة الكبرى
- للرسول - صلى الله عليه وسلم - وأن وظيفة الرسول - صلى الله عليه وسلم
) قراءته عليهم قراءة تدبر واستجابة لما يدعوهم إليه .وأن قول المشركين
لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ) إنما هو قول يدل على
عنادهم وغبائهم وجحودهم للحق بعد أن تبين .وجملة ( وَهُمْ يَكْفُرُونَ
، بالرحمن ) حالية .أى : أرسلناك أيها الرسول الكريم إلى هؤلاء الضالين
لتتلو عليهم ما ينقذهم من الضلال ، ولكنهم عموا وصموا عن سماعه ، والحال

أنهم يكفرون بالرحمن أى العظيم الرحمة ، الذى وسعت رحمته كل شئ .وأوثر
اختيار اسم الرحمن من بين أسمائه - تعالى - للإشارة إلى أن إرساله - صلى
الله عليه وسلم - مبعثه الرحمة كما قال - تعالى - : ( وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ
- إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ) وللرد عليهم فى إنكارهم أن يكون الله
تعالى - رحمانا ، فقد حكى القرآن عنهم ذلك فى قوله ( وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ
اسجدوا للرحمن قَالُوا وَمَا الرحمن )وقد ثبت فى الحديث الصحيح أنهم لم
يرضوا بكتابة هذا الاسم الكريم فى صلح الحديبية ، فعندما قال - صلى الله
عليه وسلم - لعلىّ : اكتب ( بسم الله الرحمن الرَّحِيمِ ) قال أحد زعمائهم
ما ندرى ما الرحمن الرحيم . .وقد أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله .
عليه وسلم - أن يرد عليهم بما يبطل كفرهم فقال : ( قُلْ هُوَ رَبِّي لا إله
إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ )أى : قل لهم أيها
الرسول الكريم : الرحمن الذى تتجافون النطق بأسم الكريم هو وحده ربى وخالقى
، لا إله مستحق للعبادة سواه ، عليه لا على أحد سواه توكلت فى جميع أمورى ،
وإليه لا إلى غيره مرجعى وتوبتى وإنابتى .فهذه الجملة الكريمة اشتملت على
- أبلغ رد على أولئك المشركين الذين أنكروا أن يكون الإله - جل وعلا
. رحمانا ، وأنه - سبحانه - هو المستحق للعبادة

ولو ان قرانا سيرت به الجبال او قطعت به الارض او كلم به الموتى بل لله
الامر جميعا افلم ييأس الذين امنوا ان لو يشاء الله لهدى الناس جميعا ولا
يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة او تحل قريبا من دارهم حتى ياتي
وعد الله ان الله لا يخلف الميعاد

كما فسرها الوسيط ثم أشار - سبحانه - إلى عظمة هذا القرآن الذى أوحاه إلى
نبيه - صلى الله عليه وسلم - فقال : ( وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ
( . . . بِهِ الجبال أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأرض أَوْ كُلِّمَ بِهِ الموتى
والمراد بالقرآن هنا : معناه اللغوى ، أى الكلام المقروء .وجواب لو محذوف.
) ، لدلالة المقام عليه .والمعنى : ولو أن كتابا مقروءا من الكتب السماوية
سُيِّرَتْ بِهِ الجبال ) أى : تحركت من أماكنها ، ( أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ
الأرض ) أى شققت وصارت قطعا ، ( أَوْ كُلِّمَ بِهِ الموتى ) بأن يعودوا إلى
الحياة بعد قراءته عليهم .ولو أن كتابا مقروءا كان من وظيفته أن يفعل ذلك
لكان هذا القرآن ، لكونه الغاية القصوى فى الهداية والتذكير ، والنهاية
العظمى فى الترغيب والترهيب .وعلى هذا المعنى يكون الغرض من الآية الكريمة
- بيان عظم شأن القرآن الكريم ، وإبطال رأى الكافرين الذين طلبوا من الرسول
صلى الله عليه وسلم - آية كونية سواه .ويصح أن يكون المعنى : ولو أن كتابا
مقروءا من الكتب السماوية نزل عليك يا محمد فسيرت به الجبال أو قطعت به
) : - الأرض أو كلم به الموتى ، لما آمن هؤلاء المعاندون .قال - تعالى
وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ الملائكة وَكَلَّمَهُمُ الموتى
وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيؤمنوا إِلاَّ
، أَن يَشَآءَ الله . . . ) وعلى هذا المعنى يكون المقصود من الآية الكريمة
بيان غلوهم فى العناد والطغيان ، وتماديهم فى الكفر والضلال ، وأن سبب عدم
إيمانهم ليس مرده إلى عدم ظهور الدلائل الدالة على صدقه - صلى الله عليه
وسلم - وإنما سببه الحسد والعناد والمكابرة .ووجه تخصيص هذه الأشياء
الثلاثة من بين الخوارق التى طلبوها منه - صلى الله عليه وسلم - ما ذكره
الإمام ابن كثير من أن المشركين قالوا للنبى - صلى الله عليه وسلم - : يا
محمد ، لو سيرت لنا جبال مكة حتى تتسع فنحرث فيها ، أو قطعت لنا الأرض كما
كان سليمان يقطع لقومه بالريح ، أو أحييت لنا الموتى كما كان عيسى يحيى
الموتى لقومه ، فأنزل الله - تعالى - هذه الآية .وقوله - سبحانه - ( بَل
للَّهِ الأمر جَمِيعاً ) إضراب عن مطالبهم المتعنتة إلى بيان أن الأمور
- كلها بيد الله ، وأن قدرته - سبحانه -لا يعجزها شئ .أى : إن الله
- تعالى -لا يعجزه أن يأتى بالمقترحات التى اقترحوها ، ولكن إرادته
سبحانه - لم تتعلق بما اقترحوه ، لعلمه - سبحانه - بعتوهم ونفورهم عن الحق
مهما أوتوا من آيات .وقوله - سبحانه - : ( أَفَلَمْ يَيْأَسِ الذين آمنوا
أَن لَّوْ يَشَآءُ الله لَهَدَى الناس جَمِيعاً ) تيئيس للمؤمنين من
استجابة أولئك الجاحدين للحق ، إلا أن شاء الله لهم الهداية ، والاستفهام
للإنكار ، وأصل اليأسك قطع الطمع فى الشئ والقنوط من حصوله .وللعلماء فى
تفسير هذه الجملة الكريمة اتجاهان :أحدهما يرى أصحابه أن الفعل ييأس على
معناه الحقيقى وهو قطع الطمع فى الشئ ، وعليه يكون المعنى : أفلم ييأس على
معناه الحقيقى وهو قطع فى الشئ ، وعليه يكون المعنى : أفلم ييأس الذين
آمنوا من إيمان كفار قريش ، ويعلموا أن الله - تعالى - لو يشاء هداية الناس
جميعا لاهتدوا ، ولكنه لم يشأ ذلك ، ليتميزا الخبيث من الطيب .وعلى هذا
) الاتجاه سار الإمام ابن كثير فقد قال - رحمه الله - : وقوله - تعالى
أَفَلَمْ يَيْأَسِ الذين آمنوا ) أى : من إيمان جميع الخلق ويعلموا أن
يتبينوا ( أَن لَّوْ يَشَآءُ الله لَهَدَى الناس جَمِيعاً ) فإنه ليس هناك
حجة ولا معجزة أبلغ ولا أنجع فى النفوس والعقول من هذا القرآن ، الذى لو

أنزله الله على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله .وثبت فى الصحيح أن
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : " ما من نبى إلا وقد أوتى ما آمن
على مثله البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلى ، فأرجوا أن
أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة " .ويؤيد هذا الاتجاه ما ذكره السيوطى فى
تفسيره من أن بعض الصحابة قالوا للرسول - صلى الله عليه وسلم يا رسول الله
اطلب لهم - أى للمشركين ، ما اقترحوه عسى أن يؤمنوا .أما الاتجاه فيرى ،
أصحابه أن الفعل ييأس بمعنى يعلم ، وعليه يكون المعنى : أفلم يعلم المؤمنون
أنه - سبحانه - لو شاء هداية الناس جميعا لآمنوا .وهذا الاتجاه صدر به
الآلوسى تفسيره فقال ما ملخصه :ومعنى قوله - سبحانه - : ( أَفَلَمْ
يَيْأَسِ الذين آمنوا ) أفلم يعلموا ، وهى كما قال القاسم بن معن لغة هوازن
وقال الكلبى هى لغة حى من النخع ، وأنشدوا على ذلك قول سيحم بن وئيل ،
الرباحى :أقول لهم بالشعب إذ يأسرونني ... ألم ييأسوا أنى ابن فارس
زهدموقول رباح بن عدى :ألم ييأس الأقوام أنى أنا ابنه ... وإن كنت عن أرض
العشيرة نائياوالظاهر أن استعمال اليأس فى ذلك حقيقه .وقيل مجاز لأنه متضمن
للعلم فإن الآيس عن الشئ عالم بأنه لا يكون . .والفاء للعطف على مقدر . أى
أغفلوا عن كون الأمر جميعه لله - تعالى - فلم يعلموا أن لو يشاء الله :
، لهدى الناس جميعا . .ثم حذر - سبحانه - الكافرين من التمادى فى كفرهم
وبشر المؤمنين بحسن العاقبة فقال - تعالى - : ( وَلاَ يَزَالُ الذين
كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً
مِّن دَارِهِمْ حتى يَأْتِيَ وَعْدُ الله إِنَّ الله لاَ يُخْلِفُ الميعاد
والقارعة : من القرع ، وهو ضرب الئ بشئ آخر بقوة وجمعها قوارع .والمراد. (
بها : الرزية والمصيبة والكارثة .أى : ولا يزال الذين كفروا من أهل مكة
وغيرهم تصيبهم بسبب ما صنعوه من الكفر والضلال " قارعة " أى مصيبة تفجؤهم
، وتزعجهم أو تحل تلك المصيبة فى مكان قريب من دارهم ، فيتطاير شرها إليهم
- حتى يأتى وعد الله بهلاكهم وهزيمتهم ونصر المؤمنين عليهم ، إن الله
- تعالى -لا يخلف الميعاد ، أى : موعوده لرسله ولعباده المؤمنين .وأبهم
سبحانه - ما يصيب الكافرين من قوارع ، لتهويله وبيان شدته .والتعبير بقوله
يشير إلى أن ما أصابهم من قوارع كان موجودا قبل نزول هذه ( ولا يزال ) :
الآية ، واستمرت إصابته لهم بعد نزولها ، لأن الفعل (لا يزال ) يدل علما
للإخبار باستمرار شئ واقع .ولعل هذه الآية الكريمة كان نزولها فى خلال سنى
الجدب التى حلت بقريش والتي أشار إليها القرآن بقوله : ( فارتقب يَوْمَ
. تَأْتِي السماء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ . يَغْشَى الناس هذا عَذَابٌ أَلِيمٌ
وعبر - سبحانه - عما أصابهم من بلاء بالقارعة ، للمبالغة فى شدته ( . .
وقوته ، حتى إنه ليقرع قلوبهم فجأة فيبتهتهم ويزعجهم ، ولذلك سميت القيامة
بالقارعة ، لأنها تقرع القلوب بأهوالها .وقال - سبحانه - : ( أَوْ تَحُلُّ
قَرِيباً مِّن دَارِهِمْ ) لبيان أنهم بين أمرين أحلاهما مُرّ لأن القارعة
إما أن تصيبهم بما يكرهونه ويتألمون له ، وإما أن تنزل قريبا منهم فتفزعهم
وتقلق أمنهم ، وهم مستمرون على ذلك حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا .ولقد ،
قضى الله - تعالى - أمره ، بهزيمتهم فى بدر وفى غيرهم ، وأتم نصره على
. المؤمنين بفتح مكة . وبدخول الناس فى دين الله أفواجا

ولقد استهزئ برسل من قبلك فامليت للذين كفروا ثم اخذتهم فكيف كان عقاب

كما فسرها الوسيط ثم أخذت السورة الكريمة بعد ذلك فى تسلية الرسول صلى الله
، عليه وسلم وفى إقامة الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وعلى بطلان الشرك
وفى بيان ما أعده للكافرين من عقاب ، وما أعده للمتقين من ثواب فقال تعالى
قوله - سبحانه - ( وَلَقَدِ استهزئ. ( . . . وَلَقَدِ استهزئ بِرُسُلٍ ):
بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ . . . . ) تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم - عما
أصابه من حزن بسبب تعنت المشركين معه . ومطالبتهم له بالمطالب السخيفة التى
لا صلة لها بدعوته ، كطلبهم منه تسيير الجبال وتقطيع الأرض ، وتكليم الموتى
: والاستهزاء : المبالغة فى السخرية والتهكم من المستهزأ به . والإملاء.
الإمهال والترك لمدة من الزمان .والتنكير فى قوله ( برسل ) للتكثير ، فقد
استهزأ قوم نوح به ، وكانوا كلما مروا عليه وهو يصنع السفينة سخروا منه
واستهزأ قوم شعيب به وقالوا له : ( فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِّنَ.
السمآء إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ) واستهزأ قوم هود به وقالوا له :( إِنَّا
لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ . . . ) واستهزأ فرعون بموسى فقال : ( أَمْ أَنَآ
: خَيْرٌ مِّنْ هذا الذي هُوَ مَهِينٌ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ ) والمعنى
) - ولقد استهزأ الطغاة والجاحدون برسل كثيرين من قبلك -أيها الرسول الكريم
فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ) أى : فأمهلتهم وتركتهم مدة من الزمان
فى أمن ودعة .( ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ) أخذ عزيز مقتدر ( فَكَيْفَ كَانَ
عِقَابِ ) فانظر كيف كان عقابى إياهم ، لقد كان عقابا رادعا دمرهم تدميرا
فالاستفهام للتعجيب مما حل بهم ، والتهويل من شدته وفظاعته وشبيه بهذه.
الآية قوله - تعالى - : ( وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا
وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ المصير ) قال ابن كثير : وفى

الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " وإن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، ثم قرأ صلى الله عليه وسلم ( وكذلك أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ القرى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ) " .

افمن هو قائم على كل نفس بما كسبت وجعلوا لله شركاء قل سموهم ام تنبئونه بما لا يعلم في الارض ام بظاهر من القول بل زين للذين كفروا مكرهم وصدوا عن السبيل ومن يضلل الله فما له من هاد

كما فسرها الوسيط ثم أقام - سبحانه - الأدلة الساطعة على وحدانيته وعلى وجوب إخلاص العبادة له - تعالى - فقال : ( أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ على كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ . . . ) .والمراد بالقيام هنا : الحفظ والهيمنة على جميع شئون الخلق والاستفهام للإنكار ، والخبر محذوف والتقدير : ( أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ ) أى : رقيب ومهيمن ( على كُلِّ نَفْسٍ ) كائنة ما كانت عالم بما تعمله من خير أو شر فمجازيها به كن ليس كذلك؟وحذف الخبر هنا وهو ) : - قولنا - كمن ليس كذلك - لدلالة السياق عليه ، كما فى قوله - تعالى أَفَمَن شَرَحَ الله صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ ) أى : كمن قسا قلبه .وحسن حذف ) : - الخبر هنا لأنه مقابل للمبتدأ هو ( من ) ولأن قوله - تعالى وَجَعَلُواْ للَّهِ شُرَكَآءَ ) حالية ، والتقدير :أفمن هذه صفاته ، وهو الله - تعالى - كمن ليس كذلك ، والحال أن هؤلاء الأغبياء قد جعلوا له شركاء ، فى العبادة وغيرها .فالمقصود من هذه الجملة الكريمة ، زيادة توبيخهم وتسفيه أفكارهم وعقولهم .وقوله - سبحانه - ( قُلْ سَمُّوهُمْ ) تبكيت لهم إثر تبكيت .أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - سموهم شركاء إن شئتم ، فإن هذه التسمية لا وجود لها فى الحقيقة والواقع ، ولا تخرجهم عن كونهم لا يملكون لأنفسهم - فضلا عن غيرهم - نفعا ولا ضرا ، لأن الله - تعالى - واحد لا شريك له .وهذه التسمية إنما هى من عند أنفسكم ما أنزل الله بها من سلطن كما قال تعالى : ( إِنْ هِيَ إِلاّ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ ، ) وَآبَآؤُكُم مّآ أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ) فالأمر فى قوله سموهم ) مستعمل فى الإباحة الممحوبة بالتهديد ، للإشارة إلى عدم الاكتراث بهم وبآلهتهم التى سموها شركاء وسموهم بهذا الأسم : قل لهم على سبيل الإنكار والتوبيخ : أتخبرون الله بشركاء لا وجود لهم فى الأرض ، لأنهم لو كان لهم وجود لعلمهم ، لأنه - سبحانه - لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء .أم أنكم سميتموهم شركاء بظاهر من القول أى : بظن من القول لا حقيقة له فى الواقع ونفس الأمر .قال الآلوسى ما ملخصه : وقوله ( أَمْ تُنَبِّئُونَهُ ) أى : بل أتخبرون الله - تعالى - ( بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي الأرض ) أى بشركاء مستحقين للعبادة لا يعلمهم - سبحانه - والمراد : نفيها بنفى لازمها على طريق الكناية ، لأنه - سبحانه - إذا كان لا يعلمها - وهو ، الذى لا يعزرب عن علمه شئ - فهى لا حقيقة لها أصلا .وتخصيص الأرض بالذكر لأن المشركين زعموا أنه - سبحانه - له شركاء فيها .وقوله ( أم بِظَاهِرٍ مِّنَ القول ) أى : بل أتسمونهم شركاء بظاهر من القول من غير معنى متحقق فى نفس الأمر ، كتسمية الزنجى كافوراً .وروى عن الضحاك وقتادة ، أن الظاهر من القول : الباطل منه ، كما فى قول القائل :أعيرتنا ألبانها ولحومها ... وذلك عار يا بن ربطة ظاهرأى : باطل زائد . . . .وقوله - سبحانه - : ( بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ السبيل وَمَن يُضْلِلِ الله فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ) إضراب عن حجاجهم ، وإهمال لشأنهم و " زين " من التزيين وهو تصيير الشئ زيناً أى : حسنا .والمكر : صرف الغير عما يريده بحيلة ، والمراد به هنا : كفرهم ومسالكهم الخبيثة ضد الإسلام والمسلمين .والمعنى : دع عنك أيها الرسول الكريم - مجادلتهم ، لأنه لا فائدة من ورائها ، فإن هؤلاء الكافرين قد زين لهم الشيطان ورؤساؤهم فى الفكر مكرهم وكيدهم للإسلام وأتباعه ، وصدوهم عن السبيل الحق ، وعن الصراط المستقيم ، ومن يضلله الله - تعالى - بأن يخلق فيه الضلال لسوء استعداده فما له من هاد يهديه ويرشده إلى ما فيه نجاته .هذا ، وقد اشتملت هذه الآية على ألوان من الحجج الساطعة التى تثبت وجوب إخلاص العبادة لله ، وتبطل الشركة والشركاء أشار إليها بعض المفسرين فقال :قال الطيبى : فى هذه الآية الكريمة احتجاج بليغ مبنى على فنون من علم البيان :أولها : ( أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ على كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ) كمن ليس كذلك ، احتجاج عليهم ) : وتوبيخ لهم على القياس الفاسد لفقد الجهة الجامعة لهما .ثانيها وَجَعَلُواْ للَّهِ شُرَكَآءَ ) من وضع المظهر موضع المضمر ، للتنبيه على ) : أنهم جعلوا شركاء لمن هو فرد واحد لا يشاركه أحد فى أسمائه .ثالثها قُلْ سَمُّوهُمْ ) أى عينوا أسماءهم فقولوا فلان وفلان ، فهو إنكار لوجودها على وجه برهانى . .رابعها : ( أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لاَ يَعْلَمُ ) احتجاج من باب نفى الشئ أعنى العلم بنفى لازمه وهو المعلوم وهو كناية خامسها : ( أم بِظَاهِرٍ مِّنَ القول ) احتجاج من باب الاستدراج لبعثهم. على الفكر .أى : أتقولون بأفواهكم من غير روية ، وأنتم ألباء ، فتفكروا فيه ، لتقفوا على بطلانه .سادسها : التدرج فى كل من الإضرابات على ألطف وجه

وحيث كانت الآية مشتملة على هذه الأساليب البديعة مع اختصارها ، كان الاحتجاج المذكور مناديا على نفسه بالإعجاز وأنه ليس كلام البشر " .

لهم عذاب في الحياة الدنيا ولعذاب الاخرة اشق وما لهم من الله من واق

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - سوء مصير هؤلاء الكافرين فقال : ( لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الحياة الدنيا ) أى : لهم عذاب شديد فى الحياة الدنيا ينزله الله - تعالى - بهم تارة عن طريق القوارع والمصائب التى يرسلها ، وتارة عن طريق الهزائم التى يوقعها بهم المؤمنون ، هذا فى الدنيا ( وَلَعَذَابُ الآخرة أَشَقُّ ) من عذاب الدنيا لشدته ودوامه ( وَمَا لَهُم مِّنَ الله ) - تعالى - ومن عذاب الآخرة ( مِن وَاقٍ ) أى : من حائل يحول بينهم وبين عذابه - سبحانه - .

مثل الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الانهار اكلها دائم وظلها تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار

كما فسرها الوسيط ثم أعقب ذلك ببيان حسن عاقبة المؤمنين فقال : ( مَّثَلُ الجنة التي وُعِدَ المتقون تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار أُكُلُهَا دَآئِمٌ وِظِلُّهَا . . . ) .والمراد بالمثل هنا : الصفة العجيبة ، أى : صفة الجنة التى وعد الله إياها من اتقاه وصان نفسه عن كل مالا يرضيه ، أنها تجرى من تحت أشجارها ومساكنها الأنهار ، وأنها أكلها دائم ، أى : ما يؤكل فيها لا انقطاع لأنواعه " وظلها " كذلك دائم .قال بعضهم : وجملة ( تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ) خبر عن " مثل " باعتبار أنها من أحوال المضاف إليه فهى من أحوال المضاف لشدة الملابسة بين المتضايفين ، كما يقال : صفة زيد ، أسمر . وجملة " أكلها دائم " خبر ثان .واسم الإشارة فى قوله : ( تِلْكَ عقبى الذين اتقوا ) يعود على الجنة التى أعدها الله - تعالى - للمتقين .أى تلك الجنة المنعوتة بما ذكر هي مآل المتقين الذين استقاموا على الطريق الحق ، وهى منتهى أمرهم .أما مآل الكافرين ومنتهى أمرهم فهى النار ، وبئس القرار .هذا ، وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ، جملة من الأحاديث فى صفة الجنة فقال : وفى الصحيحين من حديث ابن عباس فى صلاة الكسوف ، وفيه : " قالوا يا رسول الله رأيناك تناولت شيئا من مقامك هذا ثم رأيناك تكعكعت - أى توقفت وأحجمت؟ فقال : " إنى رأيت الجنة - أو أريت " " الجنة - فتناولت منها عنقودا ، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا وروى الطبرانى عن ثوبان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن. الرجل إذا نزع ثمرة من الجنة عادت مكانها أخرى " .وبذلك ترى الآيات الكريمة قد ساقت من التوجيهات ما فيه التسلية للرسول صلى الله عليه وسلم عما أصابه - من قومه ، وما فيه أوضح الدلائل والبراهين وأبلغها عن وحدانية الله تعالى - ووجوب إفراده بالعبادة ، وما فيه البشارة للمؤمنين ، والتهديد للكافرين .

والذين اتيناهم الكتاب يفرحون بما انزل اليك ومن الاحزاب من ينكر بعضه قل انما امرت ان اعبد الله ولا اشرك به اليه ادعو واليه ماب

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ، ببيان موقف أهل الكتاب من القرآن الكريم ، وبأمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يعلن منهجه بصراحة وثبات ، دون التفات إلى أهواء معارضية ، وبالرد على الشبهات التى أثارها أعداؤه حوله وحول دعوته ، وبتهديد هؤلاء الأعداء وبسوء العاقبة إذا ما استمروا فى طغيانهم فقال - تعالى - :( والذين آتَيْنَاهُمُ الكتاب يَفْرَحُونَ بِمَآ أُ . . . )قوله - سبحانه - : ( والذين آتَيْنَاهُمُ الكتاب يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ) ثناء منه - سبحانه - على الذين عرفوا الحق من أهل الكتاب فاتبعوه .والمراد بالكتاب هنا : التوراة والإنجيل والمعنى : والذين أعطيناهم التوراة والإنجيل ، فآمنوا بما فيهما من. بشارات تتعلق بك - أيها الرسول الكريم - ، ثم آمنوا بك عند إرسالك رحمة للعالمين .هؤلاء الذين تلك صفاتهم ، يفرحون بما أنزل إليك من قرآن ، لأن ما فيه من هدايات وبراهين على صدقك ، يزيدهم إيمانا على إيمانهم ، ويقينا على يقينهم .وقيل : المراد بالكتاب القرآن الكريم ، وبالموصول أتباع النبى صلى الله عليه وسلم من المسلمين .فيكون المعنى : والذين آتيناهم الكتاب - وهو القرآن - فآمنوا بك وصدقوك يفرحون بكل ما ينزل عليك منه ، لأنه يزيدهم هداية على هدايتهم .ويبدو لنا أن الرأى الأول أرجح ، لأن الآية الكريمة سيقت بعد الحديث عن عاقبة الذين اتقوا وهم المؤمنون الصادقون ، وعاقبة الكافرين . ولأن فرح المؤمنين بنزول القرآن أمر مسلم به فلا يحتاج إلى الحديث عنه .ومن المفسرين الذين اقتصروا فى تفسيرهم للآية على الرأى الأول الإمام ابن كثير فقد قال : فقد الله - تعالى - : ( والذين آتَيْنَاهُمُ الكتاب ) وهم قائمون بمقتضاه ( يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ) أى :

من القرآن ، لما فى كتبهم من الشواهد على صدقه صلى الله عليه وسلم والبشارة
به ، كما قال تعالى : ( الذين آتَيْنَاهُمُ الكتاب يَتْلُونَهُ حَقَّ
تِلاَوَتِهِ أولئك يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمن يَكْفُرْ بِهِ فأولئك هُمُ
الخاسرون ) وقوله : ( وَمِنَ الأحزاب مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ ) بيان لمن بقى
على كفره من أهل الكتاب وغيرهم ، والأحزاب : جمع حزب ويطلق على مجموعة من
الناس اجتمعوا من أجل غاية معينة أى : ومن أحزاب الكفر والضلال من ينكر بعض
ما أنزل إليك لأنه يخالف أهواءهم وأطماعهم وشهواتهم . . ولم يذكر القرآن
هذا البعض الذى ينكرونه ، إهمالا لشأنهم ، ولأنه لا يتعلق بذكره غرض
وقوله - سبحانه - : ( قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ الله ولا
أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ ) أمر منه - تعالى
- لنبيه صلى الله عليه وسلم بأن يصدع بما يأمره دون تردد أو وجل . أى : قل
أيها الرسول الكريم - لكل من خالفك فيما تدعو إليه ( إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ
" أَعْبُدَ الله ) وحده ( ولا أُشْرِكَ بِهِ ) بوجه من الوجوه إليه وحده
أدعو " الناس لكى يخلصوا له العبادة والطاعة ( وَإِلَيْهِ مَآبِ ) أى وإليه
وحده إيابى ومرجعى لا إلى أحد غيره ، فالآية تضمنت المدح لمن عرف الحق ففرح
بوجوده . والذم لمن أنكره جحوداً وعناداً ، والأمر للنبى صلى الله عليه
وسلم بالسير فى طريقه بدون خشية من أحد .

وكذلك انزلناه حكما عربيا ولئن اتبعت اهواءهم بعدما جاءك من العلم ما لك من
الله من ولي ولا واق

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك بعض الفضائل التى امتاز بها
القرآن الكريم فقال - تعالى - : ( وكذلك أَنزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيّاً
) والكاف للتشبيه ، واسم الإشارة يعود إلى الإنزال المأخوذ من ( . . .
أنزلناه ) وضمير الغائب فى أنزلناه يعود إلى ( بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ) فى
قوله فى الآية السابقة ( يَفْرَحُونَ بِمَآ أنزل إِلَيْكَ . . . ) وقوله
حالان من ضمير الغائب . والمعنى : ومثل ذلك الإنزال ( حُكْماً عَرَبِيّاً )
) البديع الجامع لألوان الهداية والإعجاز ، أنزلنا عليك القرآن يا محمد
حكما ) أى : حاكما بين الناس ( عربيا ) أى : بلسان عربى مبين هو لسانك
ولسان قومك . ومنهم من يرى أن اسم الإشارة يعود إلى الكتب السماوية السابقة
فيكون المعنى : وكما أنزلنا الكتب السماوية على بعض رسلنا بلغاتهم وبلغات ،
أقوامهم أنزلنا عليك القرآن حاكما بين الناس بلغتك وبلغة قومك ، وهى اللغة
العربية ليسهل عليهم فهمه وحفظه . وعلى كلا القولين فأنت ترى أن هذه الجملة
الكريمة قد اشتملت على فضيلتين للقرآن الكريم : فضيلة من جهة معانية
ومقاصده وهداياته وحكمه وأحكامه وتشريعاته ، وهو المعبر عنها بكونه " حكما
" وفضيلة من جهة ألفاظه ومفرداته وتراكيبه ، وهى المعبر عنها بكونه . "
عربيا " . أى : نزل بلغة العرب التى هى أفصح اللغات وأغناها وأجملها . ثم فى
كونه " عربيا " امتنان على العرب المخاطبين به ابتداء ، حيث إنه نزل بلغتهم
فكان من الواجب عليهم أن يقابلوه بالفرح والتسليم لأوامره ونواهيه ، فهو ،
الكتاب الذى فيه شرفهم وعزهم ، قال - تعالى - : ( لَقَدْ أَنزَلْنَآ
إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ ) أى : فيه بقاء شرفكم ( أَفَلاَ
تَعْقِلُونَ ) وقال - تعالى - : ( وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ
وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ) وفى ذلك تعريض بغباء مشركى العرب ، حيث لم يشكروا
الله - تعالى - على هذه النعمة ، بل قابلوا من أنزل عليه هذا القرآن
بالعناد والعصيان . ثم ساق - سبحانه - تحذيرا للأمة كلها فى شخص نبيها صلى
الله عليه وسلم من اتباع أهواء كل كافر أو فاسق : فقال - تعالى
) : - وَلَئِنِ اتبعت أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ العلم مَا لَكَ مِنَ
الله مِن وَلِيٍّ وَلاَ وَاقٍ ) . واللام فى قوله ( ولئن ) موطئة للقسيم
، لتأكيد ما تضمنته من عقاب شديد لمتبع أهواء الكافرين . والأهواء : جمع هوى
والمراد بها آراؤهم المنحرفة عن الحق ، ومطالبهم المتعنتة ، والمراد بما
جاءه من العلم : ما بلغه وعلمه من الدين عن طريق الوحى الصادق . والولى
: الناصر والمعين والقريب والحليف . والواقى : المدافع عن غيره . والمعنى
" ولئن اتبعت " - يا محمد - على سبيل الفرض والتقدير أهواء هؤلاء الكافرين
فيما يطلبونه منك ، " من بعد ما جاءك من العلم " اليقينى بأن الإسلام هو
" الدين الحق ، " مالك من الله " أى من عقباه " من ولى " يلى أمرك وينصرك
ولا واق " يقيك من حسابه . وسيق هذا التحذير فى صورة الخطاب للرسول صلى الله
عليه وسلم للتأكيد من مضمونه . فكأنه - سبحانه يقول : لو اتبع أهواءهم - على
سبيل الفرض - أكرم الناس عندى لعاقبته ، وأحق بهذا العقاب من كان دونه فى
الفضل والمنزلة ، وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( وَلَقَدْ أُوْحِيَ
إِلَيْكَ وَإِلَى الذين مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ
عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الخاسرين ) .

ولقد ارسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم ازواجا وذرية وما كان لرسول ان ياتي
باية الا باذن الله لكل اجل كتاب

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن اعتراض المشركين على بشرية الرسول صلى الله عليه وسلم ليس إلا من قبيل التعنت والجحود ، لأن الرسل جميعا كانوا من البشر ، فقال - تعالى - : ( وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً . . . )أى : " ولقد أرسلنا رسلا " كثيرين " من قبلك " يا محمد " وجعلنا لهم " أى لهؤلاء الرسل أزواجا " يسكنون إليهن " وذرية " أى : وأولادا تقرّ بهم أعينهم .قال " الشوكانى : " وفى هذا الرد على من كان ينكر على رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوجه بالنساء .أى : هذا شأن رسل الله المرسلين قبل هذا الرسول فما بالكم تنكرون عليه ما كانوا عليه " .وقوله - سبحانه - : ( وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ الله . . . ) رد على ما طلبوه منه صلى الله عليه وسلم من معجزات .أى : وما صح وما استقام لرسول من الرسل أن يأتى لمن أرسل إليهم بمعجزة كائنة ما كانت إلا بإذن الله وإرادته المبنية على الحكم والمصالح التى عليها يدور أمر الكائنات .وقوله - سبحانه - ( لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ) تهديد للمشركين الذين كانوا يتعجلون حصول المقترحات التى طلبوها منه صلى الله عليه وسلم .أى : لكل وقت من الأوقات " كتاب " أى : حكم معين يكتب على الناس حسبما تقتضيه مشيئته - سبحانه - .

يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده ام الكتاب

، كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك مظهرا من مظاهر شمول قدرته وسعة علمه ، وعظيم حكمته فقال : ( يَمْحُواْ الله مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الكتاب ) .وقوله : ( يمحوا ) من المحو وهو إذهاب أثر الشئ بعد وجوده .وقوله : ( ويثبت ) من المحو وهو إذهاب أثر الشئ بعد وجوده وقوله : ( ويثبت ) من الإثبات وهو جعل الشئ ثابتا قارا فى مكان ما .وأم الكتاب : أصل الكتاب والمراد بأم الكتاب : اللوح المحفوظ ، أو علمه سبحانه - المحيط بكل شئ .قال الفخر الرازى : " والعرب تسمى كل ما يجرى مجرى الأصل للشئ أمّا له ومنه أمّ الرأس للدماغ ، وأم القرى لمكة ، وكل مدينة فهى أم لما حولها من القرى فكذلك أم الكتاب هو الذى يكون أصلا لجميع الكتب والمعنى : يمحو الله - تعالى - ما يشاء محوه ، ويثبت ما تريد إثباته من الخير أو الشر ومن السعادة أو الشقاوة ، ومن الصحة أو المرض ، ومن الغنى أو الفقر ، ومن غير ذلك مما يتعلق بأحوال خلقه .وعنده - سبحانه - الأصل الجامع لكل ما يتعلق بأحوال هذا الكون .قال - تعالى - : ( مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأرض وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى الله يَسِيرٌ . . . ) وقال - تعالى - : ( أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ الله يَعْلَمُ مَا فِي السمآء والأرض إِنَّ ذلك فِي كِتَابٍ إِنَّ ذلك عَلَى الله يَسِيرٌ ) وللمفسرين فى معنى هذه الآية كلام طويل ، لخصه الإمام الشوكانى تلخيصا حسنا فقال :قوله - سبحانه - : ( يَمْحُواْ الله مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ) أى يمحو من ذلك الكتاب ويثبت ما يشاء منه ، وظاهر النظم القرآنى العموم فى كل شئ مما فى الكتاب ، فيمحو ما يشاء محوه من شقاوة أو سعادة أو رزق أو عمر . . ويبدل هذا بهذا ، ويجعل هذا مكان هذا .لا يسأل عما يفعل وهم يسألون .وإلى هذا ذهب عمر بن الخطاب وابن مسعود وابن عباس وقتادة وغيرهم .وقيل الآية خاصة بالسعادة والشقاوة . وقيل يمحو ما يشاء من ديوان الحفظة ، وهو ما ليس فيه ثواب ولا عقاب ، ويثبت ما فيه الثواب والعقاب .وقيل " يمحو ما يشاء من الشرائع فينسخه ، ويثبت ما لا يشاء فلا ينسخه . . والأول أولى كما تفيده " ما " فى قوله " ما يشاء " من العموم مع تقدم ذكر الكتاب فى قوله " لكل أجل كتاب " ومع قوله " وعنده أم الكتاب " أى أصله وهو اللوح المحفوظ .فالمراد من الآية أنه يمحو ما يشاء مما فى اللوح المحفوظ فيكون كالعدم ، ويثبت ما يشاء مما فيه فيجرى فيه قضاؤه وقدره على حسب ما تقتضيه مشيئته .وهذا لا ينافى ما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم من قوله " جفّ القلم " وذلك لأن المحو والإثبات هو من جملة ما قضاه - سحبانه - .وقيل : إن أم الكتاب هو علم الله - تعالى - : بما خلق وبما هو خالق .

وان ما نرينك بعض الذي نعدهم او نتوفينك فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( وَإِن مّا نُرِيَنّكَ بَعْضَ الذي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفّيَنّكَ فَإِنّمَا عَلَيْكَ البلاغ وَعَلَيْنَا الحساب ) حض له صلى الله عليه وسلم على المضى فى دعوته بدون تسويف أو تأجيل و " ما " فى قوله " وإما نرنيك " مزيدة لتأكيد معنى الشرط ، والأصل : وإن نرك ، والإراءة هنا بصرية ، والكاف مفعول أول ، وبعض الذى نعدهم : مفعول ثان ، وجاب الشرط ، محذوف .والمعنى : وإما نرينك - يا محمد - بعض الذى توعدنا به أعداءك من العذاب الدنيوى ، فذاك شفاء لصدرك وصدور أتباعك .وقوله

أو نتوفينك " شرط آخر لعطفه على الشرط السابق ، وجوابه - أيضا - محذوف " ) : والتقدير : أو نتوفينك قبل ذلك فلا تهتم ، واترك الأمر لنا .وقوله فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البلاغ ) تعليل لهذا الجواب المحذوف ، أى : سواء أرأيت ). عذابهم أم لم تره ، فإنما عليك فقط تبليغ ما أمرناك بتبليغه للناس وعلينا ) وحدنا ( الحساب ) أى : محاسبتهم ومجازاتهم على أعمالهم السيئة وقوله - سبحانه - : ( بَعْضَ الذي نَعِدُهُمْ ) للإشارة إلى أن ما يصيبهم. من عذاب دنيوى هو بعض العذاب المعد لهم ، أما البعض الآخر وهو عذاب الآخرة فهو أشد وأبقى .ولقد صدق الله - تعالى - وعده لنبيه صلى الله عليه وسلم ، فأراه قبل أن يفارق هذه الدنيا ، جانبا من العذاب الذى أنزله بأعدائه فسلط على مشركى مكة الجدب والقحط الذى جعلهم يأكلون العظام والميتة والجلود .

اولم يروا انا ناتي الارض ننقصها من اطرافها والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب

كما فسرها الوسيط كما سلط عليهم المؤمنين فهزموهم فى غزوة بدر وفى غزوة الفتح وفى غيرهما . ثم وبخ - سبحانه - المشركين لعدم تفكرهم وتدبرهم واتعاظهم بآثار من قبلهم ، فقال - تعالى - : ( أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي الأَرض نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا . . . )والهمزة للاستفهام الإنكارى ، والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام .والخطاب لمشركى مكة ومن كان على شاكلتهم فى الكفر والضلال .والمراد بالأرض هنا : أرض الكفرة والظالمين .والأطراف جمع طرف وهو جانب الشئ .والمعنى : أعمى هؤلاء الكافرين عن التفكير والاعتبار ، ولم يروا كيف أن قدرة الله القاهرة ، قد أتت على الأمم القوية الغنية - حين كفرت بنعمه - سبحانه - ، فصيرت قوتها ضعفا وغناها فقرا ، وعزها ذلا ، وأمنها خوفا . . وحصرتها فى رقعة ضيقة من الأرض بعد أن كانت تملك الأراضى الفسيحة ، والأماكن المترامية الأطراف .فالآية ، - الكريمة بشارة للمؤمنين ، وإنذار للكافرين .وشبيه بهذه الآية قوله تعالى - : ( أَفَلاَ يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرض نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ أَفَهُمُ الغالبون ) قال الآلوسى ما ملخصه : " وروى عن ابن . عباس أن المراد بانتقاص الأرض : موت أشرافها وكبرائها وذهاب العلماء منها وعليه يكون المراد بالأرض جنسها وبالأطراف الأشراف والعلماء ، وشاهده قول الفرزدق :واسأل بنا وبكم ، إذا وردت منى ... أطراف كل قبيلة ، من يتبع؟يريد أشراف كل قبيلة .وتقرير الآية عليه : أو لم يروا أنا نحدث فى الدنيا من الاختلافات خرابا بعد عمارة ، وموتا بعد حياة ، وذلا بعد عز . . فما الذى يؤمنهم أن يقلب الله - تعالى - الأمر عليهم فيجعلهم أذلة بعد أن كانوا أعزة . ثم قال : وهو كما ترى :والأول - وهو أن يكون المراد بالأرض : أرض الكفر. وبالأطراف الجوانب - أوفق بالمقام ، ولا يخفى ما فى التعبير بالإتيان ، المؤذن بعظيم الاستيلاء من الفخامة ، وجملة " ننقصها " فى موضع الحال من فاعل نأتى . . " .وقوله - سبحانه - : ( والله يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ) بيان لعلو شأن حكمه - تعالى - ونفاذ أمره .والمعقب : هو الذى يتعقب فعل غيره ، أو قوله فيبطله أو يصححه .أى : والله - تعالى - يحكم ما يشاء أن يحكم به فى خلقه ، لاراد لحكمه ، ولا دافع لقضائه ، ولا يتعقب أحد ما حكم به بتغيير أو تبديل ، وقد حكم - سبحانه - بعزة الإسلام ، وعلو شأنه وشأن أتباعه على سائر الأمم والأديان . .وقوله ( وَهُوَ سَرِيعُ الحساب ) أى : وهو - سبحانه - سريع المحاسبة والمجازاة ، لأنه لا يحتاج إلى ما يحتاج إليه غيره من الإحصاء والعد ، إذ هو - سبحانه - محيط بكل شئ ، فلا تستبطئ . عقابهم - أيها الرسول الكريم - فإن ما وعدناك به واقع لا محالة .

وقد مكر الذين من قبلهم فلله المكر جميعا يعلم ما تكسب كل نفس وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار

كما فسرها الوسيط ثم زاد - سبحانه - فى تسلية رسوله صلى الله عليه وسلم وفى تثبيت فؤاده فقال : ( وَقَدْ مَكَرَ الذين مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ المكر جَمِيعاً . . . ) .والمكر : صرف الغير عما يريده بحيلة ، أو إيصال المكروه للممكور به خفية ، والمراد بمكر الذين من قبلهم : إضمارهم السوء لرسلهم والمراد بمكر الله - تعالى - هنا : علمه - سبحانه - بما بيتوه ، وإحباطه. لمكرهم ، وإنجاؤه لرسله - عليهم الصلاة والسلام - .أى : وقد مكر الكفار الذين سبقوا قومك - يا محمد - برسلهم وحاولوا إيقاع المكروه بهم ، ولكن ربك - سبحانه - نصر رسله لأنه - عز وجل - له المكر جميعا ، ولا اعتداد بمكر غيره لأنه معلوم له .وقال الجمل ما ملخصه : " وقوله ( فَلِلَّهِ المكر جَمِيعاً ) تعليل المحذوف تقديره فلا عبرة بمكرهم ، ولا تأثير له ، فحذف هذا اكتفاء بدلالة القصر المستفاد من تعليله بقوله ( فَلِلَّهِ المكر جَمِيعاً ) أى :لا تأثير لمكرهم أصلا لأنه معلوم لله - تعالى -وتحت قدرته وجملة " يعلم ما تكسب كل نفس " بمنزلة التعليل لجملة ( فَلِلَّهِ المكر. .

جَمِيعاً ) .أى : هو - سبحانه - له المكر جميعا ، لأنه لا تخفى عليه خافية
) : من أحوال كل نفس ، وسيجازيها بما تستحقه من خير أو شر .وقوله
وَسَيَعْلَمُ الكفار لِمَنْ عُقْبَى الدار ) تهديد للكافرين بالحق الذى
جاءهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم .أى : وسيعلم الكافرون عندما ينزل
بهم العذاب ، لمن تكون العاقبة الحميدة أهى لهم - كما يزعمون - أم
للمؤمنين؟ لا شك أنها للمؤمنين .فالجملة الكريمة تحذير للكافرين من التمادى
فى كفرهم ، وتبشير للمؤمنين بأن العاقبة لهم .وفى قراءة سبعية " وسيعلم
. الكافر " . فيكون المراد به جنس الكافر

ويقول الذين كفروا لست مرسلا قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بالشهادة للرسول صلى
الله عليه وسلم بأنه صادق فى رسالته فقال : ( وَيَقُولُ الذين كَفَرُوا
- لَسْتَ مُرْسَلاً ) .أى : لست مرسلا من عند الله - تعالى - ، وقد حكى
سبحانه - قولهم الباطل هذا بصيغة الفعل المضارع ، للإشارة إلى تكرار هذا
القول منهم ، ولاستحضار أحوالهم العجيبة الدالة على إصرارهم على العناد
والجحود .وقوله : ( قُلْ كفى بالله شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ
عِندَهُ عِلْمُ الكتاب ) أمر من الله - تعالى - لرسوله بأن يرد عليهم بما
يخرس ألسنتهم .والباء الداخلة على اسم الجلالة الذى هو فاعل ( كفى ) فى
المعنى ، مزيدة للتأكيد ، وقوله ( وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الكتاب ) معطوف
- على اسم الجلالة ، والمراد بالموصول وبالكتاب الجنس .والمعنى : قل لهم
، أيها الرسول الكريم - تكفى شهادة الله بينى وبينكم ، فهو يعلم صدق دعوتى
ويعلم كذبكم ، ويعلم ذلك - أيضا - كل من كان على علم بالكتب السماوية
السابقة فإنها قد بشرت برسالتى ، وجاءت أوصافى فيها . . .وممن شهد لى
بالنبوة ورقة بن نوفل ، فأنتم تعلمون أنه قال لى عندما أخبرته بما حدث لى
. " فى غار حراء : " هذا هو الناموس - أى الوحى - الذى أنزله الله على موسى
، وقيل المراد بمن عنده علم الكتاب : المسلمون ، وبالكتاب : القرآن. .
والأول أرجح لشموله لكل من كان عنده بالكتب السماوية السابقة ، إذ هذا
الشمول أكثر دلالة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يبلغه عن ربه
. . وبعد : فهذه هى سورة الرعد . وهذا تفسير وسيط لآياتها.

الر كتاب انزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد

كما فسرها الوسيط سورة إبراهيم - عليه السلام - من السور القرآنية التى
افتتحت بحرف من الحروف المقطعة وهو قوله - تعالى - : ( الار ) .وقد سبق أن
ذكرنا آراء العلماء فى هذه الحروف عند تفسيرنا لسور : آل عمران ، والأعراف
ويونس ، وهود ، ويوسف ، والرعد .وقلنا ما خلاصته : لعل أقرب الأقوال إلى ،
الصواب ، أن هذه الحروف المقطعة ، قد وردت فى افتتاح بعض سور القرآن ، على
سبيل الإيقاظ والتنبيه للذين تحداهم القرآن .فكأن الله - تعالى - يقول
لأولئك المعاندين والمعارضين فى أن القرآن من عند الله . هاكم القرآن ترونه
مؤلفا من كلام هو من جنس ما تؤلفون منه كلامكم ، ومنظوما من حروف هى من جنس
الحروف الهجائية التى تنظمون منها حروفكم ، فإن كنتم فى شك من كونه منزلا
، من عند الله فهاتوا مثله ، وادعوا من شئتم من الخلق لكى يعاونكم فى ذلك
فإن لم تستطيعوا فهاتوا عشر سور من مثله ، فإن عجزتم فهاتوا سورة واحدة من
مثله .قال - تعالى - : ( وَإِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا على
عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وادعوا شُهَدَآءَكُم مِّن
دُونِ الله إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ) وقوله ( كِتَابٌ أنزَلْنَاهُ
إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ الناس مِنَ الظلمات إِلَى النور بِإِذْنِ رَبِّهِمْ
إلى صِرَاطِ العزيز الحميد ) تنويه بشأن القرآن الكريم ، وبيان للغرض
السامى الذى أنزله الله - تعالى - من أجله .والظلمات : جمع ظلمة ، والمراد
) بها : الكفر والضلال ، والمراد بالنور : الإيمان والهداية .والباء فى
بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ) للسببية ، والجار والمجرور متعلق بقوله ( لِتُخْرِجَ
والصراط : الجادة والطريق ، من سرط الشئ إذا ابتلعه ، وسمى الطريق بذلك. (
لأنه يبتلع المارين فيه ، وأبدلت سينه صادا على لغة قريش .والمعنى : هذا ،
كتاب جليل الشأن ، عظيم القدر ، أنزلناه إليك يا محمد ، لكى تخرج الناس من
ظلمات الكفر والجهالة والضلال ، إلى نور الإيمان والعلم والهداية وهذا
الإخراج إنما هو بإذن ربهم ومشيئته وإرادته وأمره .وقوله ( إلى صِرَاطِ
العزيز الحميد ) بدل من قوله ( إِلَى النور ) .أى لتخرج الناس من ظلمات
) الكفر والضلال إلى طريق الله ( العزيز ) أى : الذى يَغلب ولا يُغلب
الحميد ) أى : المحمود بكل لسان .وأسند - سبحانه - الإخراج إلى النبى صلى
الله عليه وسلم باعتباره المبلغ لهذا الكتاب المشتمل على الهداية التى تنقل
الناس من الكفر إلى الإيمان ، ومن الجهالة إلى الهداية وشبه الكفر

بالظلمات - كما يقول الإمام الرازى - ، لأنه ما يتحير الرجل فيه عن طريق
" الهداية ، وشبه الإيمان بالنور ، لأنه ناية ما ينجلى به طريق هدايته
، وفى جمع " الظلمات " وإفراد " النور " إشارة إلى أن للكفر طرقا كثيرة.
وأما الإيمان فطريق واحد .وقوله - سبحانه - : ( بِإِذْنِ رَبِّهِمْ )
- احتراس لبيان أن نقل الناس من حال إلى حال إنما هو بإرادة الله - تعالى
. ومشيئته ، وأن الرسول ما هو إلا مبلغ فقط ، أما الهداية فمن الله وحده

الله الذي له ما في السماوات وما في الارض وويل للكافرين من عذاب شديد

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر قدرته فقال : ( الله الذي
لَهُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض . . )أى : الله - تعالى - وحده هو
الذى له ما فى السموات وما فى الأرض مِلكا ومُلكا وخلقا لا يشاركه فى ذلك
مشارك ، ولا ينازعه منازع .ولفظ الجلالة قرأه الجمهور بالجر على أنه بدل أو
عطف بيان من العزيز الحميد .وقرأه نافع وابن عامر بالرفع على أنه خبر
لمبتدأ محذوف أى : هو الذى له ما فى السموات وما فى الأرض .وجملة " وويل
للكافرين من عذاب شديد " تهديد ووعيد لمن كفر بالحق وأعرض عنه .ولفظ " ويل
مصدرلا يعرف له فعل من لفظه مثل " ويح " وجاء مرفوعا للدلالة على الثبات "
والدوام ، ومعناه الهلاك أو الفضيحة أو الحسرة ، أى : الله - تعالى - هو
- الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، وويل للكافرين بما أنزلناه إليك
أيها الرسول الكريم - من عذاب شديد سينزل بهم ، فيجعلهم يستغيثون دون أن
. يجدوا من يغيثهم

الذين يستحبون الحياة الدنيا على الاخرة ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا
اولئك في ضلال بعيد

كما فسرها الوسيط ثم وصف - سبحانه - هؤلاء الكافرين بجملة من الصفات
الذميمة ، التى أردتهم وأهلكتهم فقال - تعالى - : ( الذين يَسْتَحِبُّونَ
الحياة الدنيا عَلَى الآخرة وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله وَيَبْغُونَهَا
: عِوَجاً . . . )ويستحبون : بمعنى يحبون ، فالسين والتاء للتأكيد ، أى
، يختارون ويؤثرون ولذا عداه بعلى . أى : يختارون شهوت الحياة الدنيا
". . ويؤثرون لذائذها ومتعها على الدار الآخرة وما فيها من نعيم وخيرات
ويصدون " من الصد ، وهو صرف الغير عن الشئ ومنعه منه يقال : صد فلان فلانا
عن فعل الشئ ، إذا منعه من فعله .وسبيل الله : طريقه الموصلة إليه وهو ملة
الإسلام .ويبغون من البغاء - بضم الباء - بمعنى الطلب . يقال : بغيت لفلان
كذا ، إذا طلبته له ، وبغيت الشئ أبغيه بغاء وبغى وبغية إذا طلبته
والعوج - بكسر العين وفتحها - مصدر عوج - كتعب . إلا أن بعضهم يرى أن.
مكسور العين يكون فيما ليس بمرئى كالآراء والأقوال والعقائد ، وأن مفتوحها
يكون فى المرئيات كالأجساد والمحسوسات .أى : أن هؤلاء الكافرين يؤثرون
شهوات الدنيا على الآخرة ونعيمها ، ولا يكتفون بذلك بل يضعون العراقيل فى
طريق دعوة الحق حتى يبتعد الناس عنها ، ويطلبون لها العوج والميل تبعا لزيغ
" نفوسهم ، مع أنها أقوم طريق ، وأعدل سبيل ، والضمير المنصوب فى قوله
يبغونها " يعود إلى سبيل الله ، أى يبغون لها العوج ، فحذف الجار وأوصل
الفعل إلى الضمير ، كما فى قوله ( وَإِذَا كَالُوهُمْ . . . ) أى : كالوا
، لهم .وبعضهم جعل الضمير المنصوب فى " يبغونها " وهو الهاء هو المفعول
وجعل " عوجا " حال من سبيل الله أى : ويريدونها أن تكون فى حال اعوجاج
واضطراب .وقوله : ( أولئك فِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ ) بيان الحكم العادل الذى
أصدره - سبحانه - عليهم .أى : أولئك الموصوفون بما ذكر فى ضلال بعيد عن
الحق .والإشارة بأولئك الدالة على البعد ، للتنبيه على أنهم أحرياء بما
وصفوا به بسبب تلبسهم بأقبح الخصال ، وأبشع الرذائل .وعبر بفى الظرفية
للدلالة على تمكن الضلال منهم ، وأنه محيط بهم كما يحيط الظرف بالمظروف
قال الآلوسى : وفى الآية من المبالغة فى ضلالهم منهم ، وأنه محيط بهم كما.
يحيط الظرف بالمظروف .قال الآلوسى : وفى الآية من المبالغة فى ضلالهم ما لا
يخفى ، حيث أسند فيها إلى المصدر ما هو لصاحبه مجازا كجد جده . . .ويجوز أن
يقال : إنه أسند فيها ما للشخص إلى سبب اتصافه بما وصف به ، بناء على أن
، البعد فى الحقيقة صفة له باعتبار بعد مكانه عن مقصده ، وسبب بعده ضلاله
لأنه لو لم يضل لم يبعد عنه ، فيكون كقولك : قتل فلانا عصيانه ، والإسناد
. مجازى وفيه المبالغة المذكورة أيضا

وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من
يشاء وهو العزيز الحكيم

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - منه أخرى من مننه على عباده فقال
وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ
لَهُمْ . . . ) .قال الإمام الرازى ما ملخصه : " اعلم أنه - تعالى - لما

ذكر فى أول السورة ( كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ الناس مِنَ الظلمات إِلَى النور . . . ) كان هذا إنعاما على الرسول ، من حيث إنه فوض إليه هذا المنصب العظيم ، وإنعاما على الخلق من حيث إنه أرسل إليهم من خلصهم من ظلمات الكفر . . .ثم ذكر فى هذه الآية ما يجرى مجرى تكميل النعمة والإحسان فى الوجهين :أما بالنسبة إلى الرسول ، فلأن بعثته كانت إلى الناس عامة . .وأما بالنسبة لعامة الخلق ، فلأنه - سبحانه - ما بعث رسولا إلى قوم إلا بلسانهم . . . " .والباء فى قوله " بلسان " للملابسة ، والمراد باللسان - اللغة التى يتخاطب بها الرسول مع قومه . .قال ابن كثير : " هذا من لطفه : ، تعالى - بخلقه : أنه يرسل إليهم رسلا منهم بلغتهم ليفهموا عنهم ما يريدون وما أرسلوا به إليهم كما قال الإمام أحمد .حدثنا وكيع ، عن عمر بن أبى ذر " : قال : قال مجاهد : عن أبى ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبعث الله - عز وجل - نبيا إلا بلغة قومه " .وقال صاحب الكشاف : " فإن قلت : لم يبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى العرب وحدهم ، وإنما بعث إلى الناس جميعا ، وهم على ألسنة مختلفة . فإن لم تكن للعرب حجة ، فلغيرهم - الحجة . وإن لم تكن لغيرهم حجة ، فلو نزل بالعجمية لم تكن للعرب حجة أيضا - قلت :لا يخلو إما أن ينزل لجميع الألسنة أو بواحد منها ، فلا حاجة إلى نزوله بجميع الألسنة لأن الترجمة تنوب عن ذلك وتكفى التطويل ، فبقى أن ينزل بلسان واحد .فكان أول الألسنة لسان قوم الرسول صلى الله عليه وسلم لأنهم أقرب إليه .فإذا فهموا عنه وتبينوه وتنوقل عنهم وانتشر ، قامت التراجم ببيانه وتفهيمه ، كما ترى الحال وتشاهدها من نيابة التراجم فى كل أمة من أمم العجم ، مع ما فى ذلك من اتفاق أهل البلاد المتباعدة ، والأجيال المتفاوتة على كتاب واحد ، واجتهادهم فى تعلم لفظه وتعلم معانيه ، وما يتشعب من ذلك من جلائل الفوائد ، ولأنه أبعد من التحريف والتبديل ، وأسلم من التنازع والاختلاف . . . " وقال الشوكانى : ما ملخصه : " وقد قيل فى هذه ، الآية إشكال ، لأن النبى - صلى الله عليه وسلم أرسل إلى الناس جمعيا ولغاتهم متباينة . . .وأجيب : بأنه - صلى الله عليه وسلم - وإن كان مرسلا إلى الثقلين ، لكن لما كان قومه العرب ، وكانوا أخص به وأقرب إليه ، كان إرساله بلسانهم أولى من إرساله بلسان غيرهم ، وهم يبينونه لمن كان على غير لسانهم .ولو نزل القرآن بجميع لغات من أرسل إليهم ، وبينه الرسول لكل قوم بلسانهم ، لكان ذلك مظنة للاختلاف ، وفتحا لباب التنازع ، لأن كل أمة قد تدعى من المعانى فى لسانها ما لا عرفه غيرها .وربما كان ذلك - أيضا - مفضيا " إلى التحريف والتصحيف ، بسبب الدعاوى الباطلة التى يقع فيها المتعصبون وجملة ( فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ ) مستأنفة .أى. فيضل الله من يشاء إضلاله ، أى يخلق فيه الضلال لوجود أسبابه المؤدية : " إليه فيه .ويهدى من يشاء هدايته ، لاراد لمشيئته ، ولا معقب لحكمه ." وهو سبحانه " العزيز " الذى لا يغلبه غالب " الحكيم " فى كل أفعاله وتصرفاته . . . قال صاحب تفسير التحرير والتنوير : وتفريع قوله " فيضل الله من يشاء. إلخ " على مجموع جملة ( وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ ، قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ) ، ولذلك جاء فعل " يضل " مرفوعا غير منصوب إذ ليس عطفا على فعل " ليبين " لأن الإضلال لا يكون معلولا للتبين ولكنه مفرع على الإرسال المعلل بالتبيين .والمعنى : أن الإرسال بلسان قومه لعلة التبيين . وقد يحصل أثر التبيين بمعرفة الاهتداء ، وقد لا يحصل أثره بسبب ، ضلال المبين لهم .وبذلك نرى الآيات الكريمة قد بينت وظيفة القرآن الكريم ووظيفة الرسول - صلى الله عليه وسلم - كما توعدت الكافرين بسوء المصير إذا ما استمروا فى كفرهم وغيهم ، كما وضحت بعض مظاهر قدرة الله - تعالى - ولطفه بعباده ، وفضله عليهم .

ولقد ارسلنا موسى باياتنا ان اخرج قومك من الظلمات الى النور وذكرهم بايام الله ان في ذلك لايات لكل صبار شكور

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ، أن رسالة موسى - عليه السلام - كانت أيضا لإخراج قومه من الظلمات إلى النور ، ولتذكيرهم بنعم خالقهم عليهم ، وبغناه عنهم ، فقال تعالى :( وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا موسى - بِآيَاتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ . . . . ) .قال الإمام الرازى : " اعلم أنه تعالى - لما بين أنه أرسل محمدا - صلى الله عليه وسلم - إلى الناس ليخرجهم من الظلمات إلى النور وذكر كمال إنعامه عليه وعلى قومه فى ذلك الإرسال وفى تلك البعثة ، أتبع ذلك بشرح بعثه سائر الأنبياء إلى أقوامهم ، وكيفية ، معاملة أقوامهم معهم . تصبيرا له - صلى الله عليه وسلم - على أذى قومه وبدأ - سبحانه - بقصة موسى فقال : ( وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا موسى بِآيَاتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظلمات إِلَى النور . . . ) .وموسى - عليه السلام - هو ابن عمران ، ابن يصهر ، ابن ماهيث . . . وينتهى نسبه إلى لاوى بن يعقوب عليه السلام .وكانت ولادة موسى - عليه السلام - فى حوالى القرن الرابع عشر قبل الميلاد .والمراد بالآيات فى قوله : ( بِآيَاتِنَآ ) الآيات التسع التى أيده الله تعالى بها قال تعالى : (وَلَقَدْ آتَيْنَا موسى

، تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ . . . ) وهى : العصا ، واليد ، والطوفان
والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، والجدب - أى فى بواديهم ، والنقص من
الثمرات - أى فى مزارعهم .قال - تعالى - ( فَأَلقى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ
ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ . وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ
لِلنَّاظِرِينَ ) وقال - تعالى - : ( وَلَقَدْ أَخَذْنَآ آلَ فِرْعَونَ
بالسنين وَنَقْصٍ مِّن الثمرات ) وقال - تعالى - : ( فَأَرْسَلْنَا
عَلَيْهِمُ الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيَاتٍ مُّفَصَّلآتٍ
فاستكبروا وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ ) ومنهم من يرى أنه يصح أن يراد
بالآيات هنا آيات التوراة التى أعطاها الله - تعالى - لموسى - عليه
السلام - .قال الآلوسى ما ملخصه : " قوله : ( وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا موسى
بِآيَاتِنَآ ) أى : ملتبسا بها . وهى كما أخرج ابن جرير وغيره ، عن مجاهد
وعطاء وعبيد بن عمير ، الآيات التسع التى أجراها الله على يده - عليه
السلام - وقيل : يجوز أن يراد بها آيات التوراة " .ويبدو لنا أنه لا مانع
من حمل الآيات هنا على ما يشمل الآيات التسع ، وآيات التوراة ، فالكل كان
لتأييد موسى - عليه السلام - فى دعوته .و " أن " فى قوله ( أَنْ أَخْرِجْ
قَوْمَكَ ) تفسيرية بمعنى أى : لأن فى الإرسال معنى القول دون حروفه
والمراد بقومه : من أرسل لهدايتهم وإخراجهم من ظلمات الكفر إلى نور.
الإيمان ، وهم : بنو إسرائيل وفرعون وأتباعه .وقيل : المراد بقومه : بنو
إسرائيل خاصة ، ولا نرى وجها لهذا التخصيص ، لأن رسالة موسى - عليه
السلام - كانت لهم ولفرعون وقومه .والمعنى : وكما أرسلناك يا محمد لتخرج
الناس من الظلمات إلى النور ، أرسلنا من قبلك أخاك موسى إلى قومه لكى
يخرجهم - أيضا - من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان . فالغاية التى من أجلها
أرسلت - أيها الرسول الكريم - هى الغاية التى من أجلها أرسل كل نبى قبلك ،
وهى دعوة الناس إلى إخلاصا العبادة لله - تعالى - وخص - سبحانه - موسى
بالذكر من بين سائر الرسل .لأن أمته أكثر الأمم المتقدمة على هذه الأمة
الإسلامية .وأكد - سبحانه - الإخبار عن إرسال موسى بلام القسم وحرف التحقيق
قد ، لتنزيل المنكرين لرسالة النبى - صلى الله عليه وسلم - منزلة من ينكر
رسالة موسى - عليه السلام - وقوله - تعالى - : ( وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ
الله ) معطوف على قوله ( أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ ) .والتذكير : إزالة نسيان
الشئ ، وعدى بالباء لتضمينه معنى الإنذار والوعظ : أى ذكرهم تذكير عظة
بأيام الله .ومن المفسرين من يرى أن المراد بأيام الله : نعمه وآلاؤه .قال
ابن كثير : قوله : ( وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ الله ) أى : بأدياية ونعمه
عليهم ، فى إخراجه إياهم من أسر فرعون وقهره وظمله وغشمه ، وإنجائه إياهم
من عدوهم ، وفلقه لهم البحر ، وتظليله إياهم الغمام ، وإنزاله عليهم المن
والسلوى .ومنهم من يرى أن المراد بها ، نقمه وبأساؤه .قال صاحب الكشاف :
قوله : ( وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ الله ) أى : وأنذرهم بوقائعه التى وقعت
على الأمم قبلهم ، كما وقع على قوم نوح وعاد وثمود ، ومنه أيام العرب
لحروبها وملاحمها ، كيوم ذى قار ، ويوم الفجار ، وهو الظاهر "ومنهم من يرى
أن المراد بها ما يشمل أيام النعمة ، وأيام النقمة .قال الإمام الرازى ما
ملخصه :" أما قوله ( وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ الله ) فاعلم أنه - تعالى -
أمر موسى فى هذا المقام بشيئين ، أحدهما : أن يخرجهم من الظلمات إلى النور
والثانى : أن يذكرهم بأيام الله .ويعبر عن الأيام بالوقائع العظيمة التى .
وقعت فيها . . ( وَتِلْكَ الأيام نُدَاوِلُهَا بَيْنَ الناس ) فالمعنى :
عظهم بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد ، فالترغيب والوعد ، أن يذكرهم بنعم
الله عليهم وعلى من قبلهم ممن آمن بالرسل . . . والترهيب والوعيد . أن
يذكرهم بأس الله وعذابه وانتقامه ، ممن كذب الرسل من الأمم السالفة . .ثم
قال : " واعلم أن أيام الله فى حق موسى - عليه السلام - منها ما كان أيام
، المحنة والبلاء ، وهى الأيام التى كانت بنو إسرائيل فيها تحت قهر فرعون
ومنها ما كان أيام الراحة والنعماء مثل إنزال المن والسلوى عليهم " .وما
ذهب إليه الإمامان الرازى والآلوسى ، هو الذى تسكن إليه النفس ، لأن
الأيام كلها وإن كانت لله ، إلا أن المراد بها هنا أيام معينة ، وهى التى
برزت فيها السراء أو الضراء بروزا ظاهرا ، كانت له آثاره على الناس الذين
عاشوا فى تلك الأيام .وبنو إسرائيل - على سبيل المثال - مرت عليهم فى
تاريخهم الطويل ، أيام غمروا فيها بالنعم ، وأيام أصيبوا فيها بالنقم
فالمعنى : ذكر يا موسى قومك بنعم الله لمن آمن وشكر ، وبنقمه على من جحد.
وكفر ، لعل هذا التذكير يجعلهم يثوبون إلى رشدهم ، ويتبعونك فيما تدعوهم
إليه .واسم الإشارة فى قوله : ( إِنَّ فِي ذلك لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ
شَكُورٍ ) يعود على التذكير بأيام الله .والصبار : الكثير الصبر على البلاء
والصبر حبس النفس على ما يقتضيه الشرع فعلا أو تركا . يقال : صبره عن كذا .
يصبره إذا حبسه .والشكور : الكثير الشكر لله - تعالى - على نعمه ، والشكر :
عرفان الإحسان ونشره والتحدث به ، وأصله من شكرت الناقة - كفرح - إذا
امتلأ ضرعها باللبن ، ومنه أشكر الضرع إذا امتلأ باللبن .أى : إن فى ذلك
- التذكير بنعم الله ونقمه ، لآيات واضحات ، ودلائل بينات على وحدانية الله
تعالى - وقدرته وعلمه ، وحكمته ، لكل إنسان كثير الصبر على البلاء ، وكثير

الشكر على النعماء .وتخصيص الآيات بالصبار والشكور لأهما هما المنتفعان بها
وبما تدل عليه من دلائل على وحدانية الله وقدرته ، لا لأنها خافية على
، غيرهما ، فإن الدلائل على ذلك واضحة لجميع الناس .وجمع - سبحانه - بينهما
للإشارة إلى ان المؤمن الصادق لا يخلو حاله عن هذين الأمرين ففى الحديث
الصحيح عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : " إن أمر المؤمن كله
عجب ، لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيرا له ، إن أصابته ضراء صبر فكان
خيرا له . وإن أصابته سراء شكر فكان خيرا له " .وقدم - سبحانه - صفة الصبر
على صفة الشكر ، لما أن الصبر مفتاح الفرج المقتضى للشكر ، أو لأن الصبر من
قبيل الترك ، والتخلية مقدمة على التحلية .

واذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم اذ انجاكم من ال فرعون يسومونكم
سوء العذاب ويذبحون ابناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك موسى - عليه السلام - قد امتثل
أمر ربه فقال : ( وَإِذْ قَالَ موسى لِقَوْمِهِ اذكروا نِعْمَةَ الله
عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سواء
العذاب وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ . . . )و
إذ " ظرف لما مضى من الزمان ، وهو متعلق بمحذوف تقديره اذكر .والمراد "
بقوله : ( اذكروا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ ) : تنبهوا بعقولكم وقلوبكم
لتلك المنن التى امتن الله بها عليكم ، وقوموا بحقوقها ، وأكثروا من الحديث
" عنها بألسنتكم . فإن التحدث بنعم الله فيه إغراء بشكرها ." آل فرعون
حاشيته وخاصته من قومه . وفرعون : لقب الملك مصر فى ذلك الوقت ، كما يقال
لملك الروم قيصر . . .ويسومونكم من السوم وهو مطلق الذهاب أو الذهاب فى
ابتغاء الشئ ، يقال : سامت الإبل فهى سائمة . أى : ذهبت فى المرعى ، وسام
السلعة : إذا طلبها وابتغاها .وسامه خسفا ، إذا أذله واحتقره وكلفه فوق
طاقته .و ( سواء العذاب ) أشده . والسوء - بالضم - ، كل ما يدخل الحزن
والغم على نفس الإنسان ، وهو فى الأصل مصدر ، ويؤنث بالألف فيقال السوأى
، وقوله ( وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ) من الاستحياء بمعنى الاستبقاء.
يقال : استحيا فلان فلانا أى : استبقاه وأصله طلب له الحياة والبقاء
- والمعنى : واذكر - أيها الرسول الكريم - أو أيها المخاطبوقت أن قال موسى.
) عليه السلام - لقومه على سبيل الإرشاد والتوجيه إلى الخير : يا قوم
اذكروا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ ) أى : داوموا على شكر الله ، فقد أسبغ
عليكم نعما كثيرة من أبرزها أنه - سبحانه - أنجاكم من آل فرعون الذين كانوا
يصبون عليكم أشد العذاب وأفظعه ، وكانوا يذبحون أبناءكم الصغار ، ويستبقون
نساءكم . .وجعل - سبحانه - النجاة هنا من آل فرعون ولم تجعل منه ، مع أنه
الآمر بتعذيب بنى إسرائيل للتنبيه على أن حاشيته وبطانته كانت عونا فى
إذاقتهم سوء العذاب .وجعلت الآية الكريمة استحياء النساء عقوبة لبنى
، إسرائيل ، لأن هذا الإبقاء عليهم كان المقصود منه الاعتداء عليهن
، واستعمالهم فى الخدمة بالاسترقاق ، فبقاؤهن بعد فقد الذكور بقاء ذليل
) : وعذاب أليم ، تأباه النفوس الكريمة .قال الآلوسى : قوله
وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ) أى : ويبقونهن فى الحياة مع الذل . ولذلك عد
من جملة البلاء ، أو لأن إبقاؤهن دون النبين رزية فى ذاته كما قيل :ومن
أعظم الرزء فيما أرى ... بقاء البنات وموت البنيناوقد رجح كثير من المفسرين
أن المراد بالأبناء هنا : الأطفال الصغار ، لأن اللفظ من حيث وضعه يفيد ذلك
ولأن قتل جميع الرجال لا يفيدهم حيث إن فرعون وآله ، كانوا يستعملونهم فى ،
الأعمال الشاقة والحقيرة ، ولأنه لو كان المقصود بالذبح الرجال ، لما قامت
- أم موسى بإلقائه فى البحر وهو طفل صغير لتنجيه من الذبح .وقال - سبحانه
هنا ( يَسُومُونَكُمْ سواء العذاب وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ ) لأن
) المقصود هنا تعداد المحن التى حلت ببنى إسرائيل ، فكان المراد بجملة
) يَسُومُونَكُمْ سواء العذاب ) نوعا منه ، وكان المراد بجملة
وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ ) نوعا آخر منه ، لذا وجب العطف ، لأن الجملة
الثانية ليست مفسرة للأولى ، وإنما هى تمثل نوعا آخر من العذاب الذى حل
ببنى إسرائيل .بخلاف قوله - تعالى - فى سورة البقرة ( يَسُومُونَكُمْ سواء
العذاب يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ ) بدون واو العطف ، لأن الجملة الثانية
بيان وتفسير للجملة الأولى ، فيكون المراد من سوء العذاب فى سورة البقرة
تذبيح الأبناء واستحياء النساء .واسم الإشارة فى قوله ( وَفِي ذلكم بلاء
: مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ) يعود إلى المذكور من النعم والنقم ، والبلاء
الامتحان والاختبار ، ويكون فى الخير والشر . قال - تعالى - ( وَنَبْلُوكُم
بالشر والخير فِتْنَةً ) أى : وفى ذلكم العذاب وفى النجاة منه امتحان عظيم
لكم من ربكم بالسراء لتشكروا وبالضراء لتصبروا ، ولتقلعوا عن السيئات التى
تؤدى بكم إلى الشقاء والهوان .

واذ تاذن ربكم لئن شكرتم لازيدنكم ولئن كفرتم ان عذابي لشديد

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - أن موسى - عليه السلام - قد أرشد قومه
إلى سنة من سنن الله التي لا تتخلف فقال : ( وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ
لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي
لَشَدِيدٌ ) . .وقوله : ( تأذن ) بمعنى آذن أى أعلم ، يقال : أذن الأمر
بالأمر أى : أعلمه ، إلا أن صيغة التفعل تفيد المبالغة فى الإعلام ، فيكون
معنى " تأذن " : أعلم إعلاما واضحا بليغا لا التباس معه ولا شبهة .واللام
فى قوله : ( لَئِن شَكَرْتُمْ ) موطئة للقسم . وحقيقة الشكر : الاعتراف
بنعم الله - تعالى - واستعمالها فى مواضعها التى أرشدت الشريعة إليها
وقوله : ( لأَزِيدَنَّكُمْ ) ساد مسد جوابى القسم والشرط .والمراد بالكفر
فى قوله : ( وَلَئِن كَفَرْتُمْ ) كفر النعمة وجحودها ، وعدم نسبتها إلى
واهبها الحقيقى وهو الله - تعالى - كما قال قارون ( إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ
على عِلْمٍ عِندِي ) وعدم استعمالها يما خلقت له ، إلى غير ذلك من وجوه
الانحراف بها عن الحق .وجملة : ( إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ) دليل على
الجواب المحذوف لقوله ( وَلَئِن كَفَرْتُمْ ) إذ التقدير : ولئن كفرتم
لأعذبنكم ، إن عذابى لشديد .قال الجمل : " وإنما حذف هنا وصرح به فى جانب
الوعد ، لأن عادة أكرم الأكرمين أن يصرح بالوعد ويعرض بالوعيد " .والمعنى :
واذكر أيها المخاطب وقت أن قال موسى لقومه : يا قوم إن ربكم قد أعلمكم
إعلاما واضحا بليغا مؤكدا بأنكم إن شكرتموه على نعمه ، زادكم من عطائه
، وخيره ومننه ، وإن جحدتم نعمه وغمطتموها واستعملتموها فى غير ما يرضيه
، محقها من بين أيديكم ، فإنه - سبحانه - عذابه شديد ، وعقابه أليم .هذا
وقد ساق الإمام ابن كثير هنا جملة من الأحاديث الموجبة للشكر ، والمحذرة
من الجحود فقال :وقد جاء فى الحديث الشريف : " إن العبد ليحرم الرزق بالذنب
- يصيبه " .وروى الإمام أحمد عن أنس قال : أتى النبى - صلى الله عليه وسلم
سائل فأمر له بتمرة فلم يأخذها - و وحش بها أى : رماها - قال : وأتاه آخر
فأمر له بتمرة فقال السائل : سبحانه الله!! ترمة من رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - فقال للجارية : إذهبى إلى أم سلمة فأعطيه الأربعين درهما التى
عندها .

وقال موسى ان تكفروا انتم ومن في الارض جميعا فان الله لغني حميد

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن موسى قد أخبر قومه أن ضرر كفرهم
) : - إنما يعود عليهم ، لأن الله - تعالى - غنى عن العالمين فقال - تعالى
وَقَالَ موسى إِن تكفروا أَنتُمْ وَمَن فِي الأرض جَمِيعاً فَإِنَّ الله
لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ) .أى : وقال موسى - عليه السلام - لقومه : إن تجحدوا
، نعم الله أنتم ومن فى الأرض جميعا من الخلائق ، فلن تضروا الله شيئا
- وإنما ضرر ذلك يعود على الجاحد لنعمه ، والمنحرف عن طريقه ، فإن الله
تعالى - لغنى عن شكركم وشكرهم ، مستحق للحمد من جميع المخلوقين طوعا وكرها
ويبدو من سياق الآية الكريمة أن موسى - عليه السلام - إنما قال لقومه ذلك
بعد أن شاهد منهم علامات الإصرار على الكفر والفساد ، وترجح لديه أنهم ،
قوم لا ينفعهم الترغيب ولا لتعريض بالترهيب ، ولمس منهم أنهم يمنون عليه أو
على الله - تعالى - بطاعاتهم فأراد بهذا القول أن يزجرهم عن الإدلال
بإيمانهم ، والمن بطاعتهم .فالغرض الذى سبقت له الآية إنما هو بيان أن
، منفعة الطاعة والشكر والإيمان إنما تعود على الطائعين الشاكرين المؤمنين
- وأن مضرة الجحود والكفران إنما تعود على الجاحدين الكافرين . أما الله
تعالى - فلن تنفعه طاعة المطيع ، ولن تضره معصية العاصى .ففى الحديث القدسى
الذى رواه الإمام مسلم فى صحيحه عن أبى ذر الغفارى ، عن رسول الله - صلى
الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه - عز وجل - أنه قال : " يا عبادى لو أن
أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى
ملكى شيئا .يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب
رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا .يا عبادى لو أن أولكم وآخركم
وإنسكم وجنكم قاموا على صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته ، ما نقص
ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر " .وبذلك نرى الآيات
- الكريمة قد زخرت بالتوجيهات القرآنية الحكيمة ، التى ساقها الله - تعالى
على لسان موسى - عليه السلام - وهو يعظ قومه ، ويذكرهم بأيام الله ، وبسننه
. . . فى خلقه ، وبغناه عنهم

الم ياتكم نبا الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا
يعلمهم الا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا ايديهم في افواههم وقالوا انا
كفرنا بما ارسلتم به وانا لفي شك مما تدعوننا اليه مريب

، كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - جانبا من أحوال بعض الرسل مع أقوامهم
): - ومن المحاورات التى دارت بين الرسل وبين من أرسلوا إليهم فقال - تعالى
- أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الذين مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ . . . )قوله
سبحانه - : ( أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الذين مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ

وَعَادٍ وَثَمُودَ . . . ) يرى بعض المفسرين أنه من تتمة كلام موسى - عليه
- السلام - فيكون المعنى : أن موسى - عليه السلام - بعد أن ذكر بأيام الله
تعالى - ، وبنعمه عليهم ، وبسننه - سبحانه - فى خلقه . . . بعد كل ذلك شرع
فى تذكيرهم وتخويفهم عن طريق ما حل بالمكذبين من قبلهم ، فقال لهم - كما
. . حكى القرآن عنه - : ( أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الذين مِن قَبْلِكُمْ
- ومنهم من يرى أن الآية الكريمة كلام مستأنف ، والخطاب فيه لأمة الرسول(
صلى الله عليه وسلم - فيكون المعنى : أن الله - تعالى - بعد أن بين للناس
أنه قد أنزل كتابه على رسوله - صلى الله عليه وسلم - لإخراجهم من الظلمات
إلى النور ، وبين - سبحانه - أن له ما فى السموات وما فى الأرض وهدد
- الكافرين بالعذاب الشديد ، وحكى ما قاله موسى لقومه . بعد كل ذلك وجه
سبحانه - الخطاب إلى مشركى مكة وإلى كل من كان على شاكلتهم فقال : ( أَلَمْ
يَأْتِكُمْ نَبَأُ الذين مِن قَبْلِكُمْ . . . ) . قال الفخر الرازى ما
- ملخصه : " يحتمل أن يكون هذا خطابا من موسى لقومه ، والمقصود منه أنه
عليه السلام - كان يخوفهم بمثل هلاك من تقدم . ويجوز أن يكون مخاطبة من
الله - تعالى - على لسان موسى لقومه ، يذكرهم أمر القرون الأولى . والمقصود
، إنما هو حصول العبرة بأحوال المتقدمين ، وهذا المقصود حاصل على التقديرين
إلا أن الأكثرين ذهبوا إلى أنه ابتداء مخاطبة لقوم الرسول - صلى الله عليه
وسلم - . ومع أننا نؤيد الإمام الرازى فى أن المقصود إنما حصول العبرة
بأحوال المتقدمين إلا أننا نميل مع الأكثرين إلى الرأى الثانى ، لأن قوم
، رسول - صلى الله عليه وسلم - هم المقصودون قصدا أوليا بالخطاب القرآنى
، ولأن الإمام ابن كثير - يرى أنه لم يرد ذكر فى التوراة لقوم عاد وثمود
فقد قال : قال ابن جرير : " هذا من تمام قول موسى لقومه . . . وفيما قال ابن
جرير نظر والظاهر أنه خبر مستأنف من الله - تعالى - لهذه الأمة ، فإنه قد
قيل إن قصة عاد وثمود ليست فى التوراة ، فلو كان هذا من كلام موسى لقومه
وقصه عليهم ، فلا شك حينئذ أن تكون هاتان القصتان فى التوراة . والاستفهام
، فى قوله ( أَلَمْ يَأْتِكُمْ . . . ) للتقرير لأنهم قد بلغتهم أخبارهم
فقوم نوح بلغتهم أخبارهم بسبب خبر الطوفان الذى كان مشهورا بينهم ، وقوم
عاد وثمود بلغتهم أخبارهم لأنهم من العرب ، ومساكنهم فى بلادهم ، وهم يمرون
على ديار قوم صالح فى أسفارهم إلى بلاد الشام للتجارة . والمراد بالذين من
بعدهم : أولئك الأقوام الذين جاءوا من بعد قوم نوح وعاد وثمود ، كقوم
: إبراهيم وقوم لوط وغيرهم . وقوله : ( لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ الله ) أى
لا يعلم عدد الأقوام الذين جاءوا بعد قوم نوح وعاد وثمود ولا يعلم ذواتهم
) وأحوالهم إلا الله تعالى . وقوله ( والذين مِن بَعْدِهِمْ ) مبتدأ ، وقوله
لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاّ الله ) خبره ، والجملة اعتراض بين المفسر - بفتح
السين - وهو ( نَبَأُ الذين مِن قَبْلِكُمْ ) وتفسيره وهو ( جَآءَتْهُمْ
رُسُلُهُمْ بالبينات ) . والمعنى : لقد علمتم يا أهل مكة ما حل بقوم نوحو
، عاد وثمود ، كما علمتم ما حل بالمكذبين من بعدهم كقوم لوط وقوم شعيب
وكغيرهم ممن لا يعلم أحوالهم وعددهم إلا الله - تعالى - وما دام الأمر كذلك
فاعتبروا واتعظوا واتبعوا هذا الرسول الكريم الذى جاء لسعادتكم ، لكى تنجوا
من العذاب الأليم الذى حل بالمظالمين من قبلكم . وجملة ( جَآءَتْهُمْ
رُسُلُهُمْ بالبينات ) مستأنفة فى جواب سؤال مقدر ، كأنه قيل ما قصة هؤلاء
، الأقوام وما خبرهم؟ فكان الجواب : جاء كل رسول إلى قومه بالحجج الواضحات
وبالمعجزات الظاهرات ، الدالة على صدقه فيما يبلغه عن ربه . وقوله ( فردوا
أَيْدِيَهُمْ في أَفْوَاهِهِمْ وقالوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُمْ
بِهِ . . . ) بيان لموقف الأقوام المكذبين من رسلهم الذين أرسلهم الله
لهدايتهم . والضمائر فى " ردوا " و " أيديهم " و " أفواههم " تعود على
الأقوام الذين جاءتهم رسلهم بالبينات ، وهذه الجملة الكريمة ذكر المفسرون
فى معناها وجوها متعددة أوصلها بعضهم إلى عشرة أقوال : منها : أن الكفار
وضعوا أنامهم فى أفواههم فعضوها غيضا وبغضا مما جاء به الرسل ، وقالوا لهم
بغضب وضجر : إنا كفرنا بما أرسلتم به وبما جئتمونا به من معجزات ، فاغربوا
عن وجوهنا ، واتركونا وشأننا . ومن المفسرين الذين رجحوا هذا الوجه الإمام
. . ابن جرير ، فقد قال : " وقوله : ( فردوا أَيْدِيَهُمْ في أَفْوَاهِهِمْ
اختلف أهل التأويل فى تأويل ذلك ، فقال بعضهم : معنى ذلك ، فعضوا على ( .
أصابعهم تغيظا عليهم فى دعائهم إياهم إلى ما دعوهم إليه . . روى ذلك عن ابن
مسعود وغيره . ثم قال بعد أن ساق عددا من الأقوال الأخرى : وأشبه هذه
الأقوال عندى الصواب فى تأويل هذه الآية ، القول الذى ذكرناه عن عبد الله
بن مسعود أنهم ردوا أيديهم فى أفواههم ، فعضوا عليها غيظا على الرسل ، كما
وصف الله عز وجل به إخوانهم من المنافقين فقال : ( وَإِذَا خَلَوْاْ
، عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأنامل مِنَ الغيظ ) فهذا هو الكلام المعروف
والمعنى المفهوم من رد الأيدى إلى الأفواه . ومنها : أن الكفار وضعوا أيديهم
على أفواههم إشارة منهم إلى أنفسهم وإلى ما يصدر عنها ، وقالوا للرسل على
: سبيل التحدى والتكذيب . ( إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُمْ بِهِ ) أى
لا جواب لكم عندنا سوى ما قلناه لكم بألسنتنا هذه . ومن المفسرين الذين
رجحوا هذا القول الإمام الآلوسى ، فقد صدر الأقوال التى ذكرها به ، فقال

ما ملخصه : قوله ( فردوا أَيْدِيَهُمْ في أَفْوَاهِهِمْ ) أى : أشاروا بأيديهم إلى ألسنتهم وما نطقت به ، وقالوا لهم ( إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُمْ بِهِ ) أى : على زعمكم ، وهى البينات التى أظهرها حجة على صحة رسالتهم ، ومرادهم بالكفر بها : الكفر بدلالتها على صحة رسالتهم . . . ثم قال بعد أن ساق عددا من الأقوال : والذى يطابق المقام ، وتشهد له البلاغة هو الوجه الأول ، ونص غير واحد على أنه الوجه القوى ، لأنهم حالوا الإنكار على الرسل كل الإنكار ، حيث جمعوا على الإنكارين : الفعل والقول ، ولذا أتى بالفاء تنبيها على أنهم لم يتمهلوا ، بل عقدوا دعوتهم بالتكذيب . . . " ومنها : أن الكفار لما سمعوا أقوال الرسل لهم ، وضعوا أيديهم على أفواههم. استهزاء وتعجبا .وقد رجح هذا الوجه الشيخ محمد الطاهر بن عاشور فقال : " وهذا التركيب لا أعهد مثله فى كلام العرب فلعله من مبتكرات القرآن : ومعنى ( فردوا أَيْدِيَهُمْ في أَفْوَاهِهِمْ ) يحتمل عد وجو أنها فى الكشاف إلى. سبعة ، وفى بعضها بعد ، وأولاها بالاستخلاص أن يكون المعنى : أنهم وضعوا أيديهم على أفواههم إخفاء لشدة الضحك من كلام الرسل ، كراهية أن تظهر دواخل أفواههم ، وذلك تمثيل لحالة الاستهزاء بالرسل .ومنها : أن الكفار لما سمعوا أقوال الرسل لهم ، لم يردوا عليهم ، بل تركوهم إهمالا لشأنهم .وقد رجح الشوكانى هذا الاتجاه فقال ما ملخصه : " وقال أبو عبيدة - ونعم ما قال - هو ضرب مثل . أى : لم يؤمنوا ولم يجيبوا . والعرب تقول الرجل إذا أمسك عن الجواب وسكت : قد رد يده فى فيه . وهذكا قال الأخفش ، واعترض على ذلك القتيبى فقال : لم يسمع أحد من العرب يقول : رد يده فى فيه ، إذا ترك ما أمر به وإنما المعنى عضوا على الأيدي حنفا وغيظا . .فإن صح ما ذكره أبو عبيدة والأخفش فتفسير الآية به أقرب . . .وهذه الأقوال جميعها وإن كانت تتفق فى أن الآية الكريمة ، قد أخبرت بأبلغ عبارة عما قابل به الأقوام المكذبين رسلهم من سوء أدب .إلا أننا نميل إلى ما ذهب إليه الإمام ابن جرير ، لأنه أظهر الأقوال فى معناها ، وقد استشهد له بعضهم بأشعار العرب - ومنها قول الشاعر :ترون فى فيه غش الحسو ... د حتى يعض على الأكفاوقوله سبحانه - ( وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ) معطوف على قوله ( إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُمْ بِهِ ) .ومريب : اسم فاعل من أراب . تقول : أربت فلانا فأنا أريبه ، إذا فعلت به فعلا يوجب لديه الريبة ، فمعنى مريب : موقع فى الريبة أى : فى القلق والاضطراب .أى : قال المكذبون لرسلهم إنا كفرنا بما جئتم به من المعجزات والبينات .وإنا لفى شك كبير موقع فى الريبة مما تدعوننا إليه من الإيمان بوحدانية الله ، وبإخلاص العبادة له ..قال الجمل ما ملخصه : " فإن قيل : إنهم أكدوا كفرهم بما أرسل به الرسل .ثم ذكروا بعد ذلك أنهم شاكون مرتابون فى صحة قولهم فكيف ذلك فالجواب : كأنهم قالوا أنا كفرنا بما أرسلتم به أيها الرسل فإنه لم نكن. كذلك ، فال أقل من أن نكون شاكين مرتابين فى صحة نبوتكم .أو يقال : المراد بقولهم ( إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُمْ بِهِ ) أى بالمعجزات والبينات ، وبقولهم : ( وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ) وهو الإيمان والتوحيد .أو يقال : إنهم كانوا فرقتين . . . إحداهما جزمت بالكفر ، والأخرى شكت

قالت رسلهم افي الله شك فاطر السماوات والارض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم الى اجل مسمى قالوا ان انتم الا بشر مثلنا تريدون ان تصدونا عما كان يعبد اباؤنا فاتونا بسلطان مبين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما رد به الرسل على المكذبين من أقوامهم فقال : ( قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّه شَكٌّ فَاطِرِ السماوات والأرض يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى . . )والاستفهام فى قوله ( أَفِي اللَّه شَكٌّ ) للتوبيخ والإنكار ، ومحل الانكار هو وقوع الشك فى وجود الله - تعالى - وفى وحدانيته .وقوله ( فَاطِرِ السماوات والأرض ) من الفطر بمعنى الخلق والإبداع من غير سبق مثال وأصله : الشق وفصل شئ عن شئ ، ومنه فطر ناب البعير أى : طلع وظهر ، واستعمل فى الإيجاد والإبداع والخلق لاقتضائه التركيب الذى سبيله الشق والتأليف ، أو لما فيه من الإخراج من العدم إلى الوجود .والمعنى : قال الرسل لأقوامهم على سبيل الإنكار والتعجب من ، أقوالهم الباطلة : أفى وجود الله - تعالى - وفى وجوب إخلاص العبادة له شك مع أنه - سبحانه - هو ( فَاطِرِ السماوات والأرض ) أى خالقهما ومبدعهما - ومبدع ما فيهما على أحكم نظام ، وعلى غير مثال سابق . . وهو - سبحانه ) فضلا منه وكرما " يدعوكم " إلى الإيمان بما جئناكم به من لدنه ( لِيَغْفِرَ لَكُمْ ) سبب هذا الإيمان ( مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ فى هذه الدنيا ( إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ) أى : إلى وقت معلوم عنده تنتهى ( بانتهائه أعماركم ، دون أن يعاجلكم خلال حياتكم بعذاب الاستئصال " رحمة بكم وأملا فى هدايتكم .فأنت ترى أن الرسل الكرام قد أنكروا على أقوامهم أن " يصل بهم انطماس البصيرة إلى الدرجة التى تجعلهم ينكرون وجود الله مع أن

، الفطرة شاهدة بوجوده ، وينكرون وحدانيته مع أنه وحده الخالق لكل شئ
ويشركون معه فى العبادة آلهة أخرى ، مع أن هذه الآية لا تضر ولا تنفع
- وجملة ( فَاطِرِ السماوات والأرض ) جئ بها كدليل على نفى الشك فى وجوده.
سبحانه - وفى وجوب إخلاص العبادة له ، لأن وجودهما على هذا النسق البديع
يدل دلالة قاطعة على أن لهما خالقا قادرا حكيما ، لاستحالة صدور تلك
، المخلوقات من غير فاعل مختار .وجملة ( يدعوكم . . . ) حال من اسم الجلالة
واللام فى قوله ( لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ ) متعلقة بالدعاء .أى
" يدعوكم إلى الإيمان بنا لكى يغفر لكم .قال الشوكانى ما ملخصه : " ومن :
- فى قوله ( من ذنوبكم ) قال أبو عبيدة : إنها زائدة ، ووجه ذلك قوله
تعالى - فى موضع آخر : ( إِنَّ الله يَغْفِرُ الذنوب جَمِيعاً ) وقال
سيبويه : هى للتبعيض ، ويجوز أن يذكر البعض ويراد منه الجميع ، وقيل
التبعيض على حقيقته ولا يلزم ن غفران الذنوب لأمة محمد - صلى الله عليه
وسلم - غفران جميعها لغيرهم . .وقيل هى للبدل ، أى : لتكون المغفرة بدلا من
الذنب . . .وقال الجمل : " ويحتمل أن يضمن " ويغفر " معنى يخلص أى : يخلصكم
من ذنوبكم ويكون مقتضاه غفران جميع الذنوب ، وهو أولى من دعوى زيادتها
وقوله - سبحانه - ( قالوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا .
تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَآؤُنَا فَأْتُونَا
بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ) حكاية لرد آخر من الردود السيئة التى قابل بها
المكذبون رسلهم .أى : قَالَ الظالمون لرسلهم الذين جاءوا لهدايتهم ، ما أنتم
إلا بشر مثلنا فى الهيئة والصورة والمأكل والمشرب ، تريدون بما جئتمونا به
أن تصرفونا وتمنعونا عن عبادة الآلهة التى ورثنا عبادتها عن آبائنا . . فإن
كنتم صادقين فى دعواكم هذه ( فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ) أى بحجة
ظاهرة تدل على صدقكم وتتسلط هذه الحجة بقوتها على نفوسنا وتجذبها إلى
اليقين ، من السلاطة وهى التمكن من القهر .وكأن هؤلاء الظالمين بقولهم هذا
يرون أن الرل لا يصح أن يكونوا من البشر ، وإنما يكونون من الملائكة ،
وكأن ما أتاهم به الرسل من حجج باهرة تدل على صدقهم ، ليس كافيا فى زعم.
هؤلاء المكذبين للإيمان بهم ، بل عليهم أن يأتوهم بحجج باهرة تدل على
صدقهم ، ليس كافيا فى زعم هؤلاء المكذبين للإيمان بهم ، بل عليهم أن
يأتوهم بحجج محسوسة أخرى ، وهكذا الجحود العقلى ، والانطماس النفسى يحمل
. أصحابه على قلب الحقائق ، وإيثار طريق الضلالة على طريق الهداية

قالت لهم رسلهم ان نحن الا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده
وما كان لنا ان ناتيكم بسلطان الا باذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون

كما فسرها الوسيط وهنا يحكى القرآن أن الرسل - عليهم السلام - قد قابلوا
هذه السفه من أقوالهم بالمنطق الحكيم ، وبالأسلوب المهذب فيقول : ( قَالَتْ
لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ولكن الله
يَمُنُّ على مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ . . ) .أى : قال الرسل لمكذبيهم
على سبيل الإرشاد والتنبيه : نحن نوافقكم كل الموافقة على أننا بشر مثلكم
كما قلتم ، ولكن هذه المماثلة بيننا وبينكم فى البشرية ، لا تمنع من أن
يتفضل الله على من يشاء التفضل عليه من عباده ، بأن يمنحه النبوة أو غيرها
من نعمه التى لا تحصى .فأنت ترى أن الرسل - عليهم السلام - قد سلموا
للمكذبين دعواهم المماثلة فى البشرية ، فى أول الأمر ، ثم بعد ذلك بينوا
لهم جهلهم وسوء تفكيرهم ، بأن أفهومهم بطريق الاستدراك ، أن المشاركة فى
الجنس لا تمنع التفاضل ، فالبشر كلهم عباد الله ، ولكنه - سبحانه - يمن على
، بعضهم بنعم لم يعطها لسواهم .فالمقصود بالاستدارك دفع ما توهمه المكذبون
: من كون المماثلة فى البشرية تمنع اختصاص بعض البشر بالنبوة .قال الآلوسى
قوله - تعالى - : ( قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ ) مجاراة لأول مقالتهم ( إِن
، نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ) كما تقولون ، وهذا كالقول بالموجب
لأن فيه إطماعا فى الموافقة ، ثم كروا على قولهم بالإبطال فقالوا : ( ولكن
- الله يَمُنُّ على مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ ) .أى : إنما ختصنا الله
تعالى - بالرسالة بفضل منه وامتنان ، والبشرية غير ما نعة لمشيئته - جل
وعلا - . وفيه دليل على أن الرسالة عطائية ، وأن ترجيح بعض الجائز على بعض
بمشيئته - تعالى - ولا يخفى ما فى العدول عن ( ولكن الله يَمُنُّ على مَن
- يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ ) ، إلى ما فى النظم الجليل منهم ، عليهم السلام
وقوله - سبحانه - : ( وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ.
إِلاَّ بِإِذْنِ الله ) حكاية لرد الرسل على قول المكذبين ( فَأْتُونَا
: - بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ) .أى : وقال الرسل للمكذبين من أقوامهم - أيضاً
وما صح وما استقام لنا نحل الرسل أن نأتيكم - أيها الضالون - بحجة من الحجج
أو بخارق من الخوارق التى تقترحونها علينا ، إلا بإذن الله وإرادته وأمره ،
لنا بالإتيان بما اقترحتم ، فنحن عباده ولا نتصرف إلا بإذنه .ثم أكد الرسل
تمسكهم بالمضى فى دعوتهم فقالوا - كما حكى القرآن عنهم - ( وَعَلَى الله
، فَلْيَتَوَكَّلِ المتوكلون ) .والتوكل على الله معناه : الاعتماد عليه
وتفويض الأمور إليه ، مع مباشرة الأسباب التى أمر - سبحانه - بمباشرتها .أى

وعلى الله وحده دون أحد سواه ، فيتوكل المؤمنون ، الصادقون ، دون أن : يعبأوا بعنادكم ولجاجكم ، ونحن الرسل على رأس هؤلاء المؤمنين الصادقين .

وما لنا الا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما اذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون

كما فسرها الوسيط فالجملة الكريمة أمر من الرسل لمن آمن من قومهم بالتوكل على الله وحده ، وقد قصدوا بهذا الأمر أنفسهم قصدا أوليا ، بدليل قولهم بعد ذلك - كما حكى القرآن عنهم - ( وَمَا لَنَآ أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى الله - وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ) .أى : وما عذرنا إن تركنا التوكل على الله تعالى - والحال أنه - عز وجل - قد فعل بنا ما يوجب توكلنا عليه ، فقد هدانا لأقوم الطريق وأوضحها وأبينها ، وهى طريق إخلاص العبادة له والاعتماد عليه وحده فى كل شئوننا .فالجملة الكريمة تدل على اطئمنانهم إلى سلامة مواقفهم فى تفويض أمورهم إلى الله ، وإلى رعاية الله - تعالى - حيث هداهم إلى طريق النجاة والسعادة .ثم أضافوا إلى ذلك تيئيس أعدائهم من التأثر بأذاهم ، فقالوا ( وَلَنَصْبِرَنَّ على مَآ آذَيْتُمُونَا ) .أى : والله لنصبرن صبرا جميلا فى حاضرنا ومستقبلنا - كما صبرنا فى ماضينا - على إيذائكم لنا . والذى من مظاهره : عصيانكم لأقوالنا ، ونفوركم من نصحنا ، واستهزاؤكم بنا ، ومحاربتكم لنا ..ثم ختموا أقوالهم بتأكيد تصميمهم على الثبات فى وجه الباطل فقالوا ( وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ المتوكلون ) .أى : وعلى الله وحده دون أحد سواه ، فليثبت المتوكلون على توكلهم ، وليفوضوا أمورهم إلى خالقهم فهو القاهر فوق عباده ، وهو الذى لا يعجزه شئ .وتقديم الجار والمجرور فى ، الجملة الكريمة وفيما يشبهها مؤذن بالحصر ، وأن هؤلاء الرسل الكرام لا يرجون نصرا من غير الله - تعالى - .وبهذا نرى أن الآيات الكريمة ، قد حكت لنا بأسلوب مؤثر حكيم ، جانبا من المحاورات التى دارت بين الرسل وبين مكذبيهم ، وبينت لنا كيف دافع الرسل عن عقيدتهم ، وكيف ردوا على الأقوال السيئة ، والأفعال القبيحة ، التى وجههم بها المكذبون ، وكيف أعلنوا فى قوة وعزم وإصرار ثباتهم في وجوه أعدائهم ، ومقابلتهم الأذى بالصبر الذى لا جزع معه ، مهما صنع الأعداء فى طريقهم من عقبات ، ومهما أثاروا من أباطيل وشبهات .

وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من ارضنا او لتعودن في ملتنا فاوحى اليهم ربهم لنهلكن الظالمين

كما فسرها الوسيط ثم حكت السورة بعد ذلك جانبا آخر من تلك المحاورات التى دارت بين الرسل وبين أعدائهم ، وجانبا مما وعد الله به رسله - عليهم السلام - وجانبا من العذاب الذى أعده للظالمين فقال - تعالى - :( وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ . . . )قوله - سبحانه - : وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا . . . ) حكاية لما هدد به رءوس الكفر رسلهم ، بعد أن أفحمهم الرسل بالحجة البالغة ، وبالمنطق الحكيم .واللام فى هى الموطئة للقسم . و " أو " للتخيير بين الأمرين .أى : وقال ( لنخرجكم ) ، الذين عتوا فى الكفر - على سبيل التهديد - لرسلهم ، الذين جاءوا لهدايتهم والله لنخرجنكم - أيها الرسل - من أرضنا ، أو لتعودن فى ديننا وملتنا .قال الإمام الرازى : " اعلم أنه - تعالى - لما حكى عن الأنبياء - عليهم السلام - أنهم قد اكتفوا فى دفع شرور أعدائهم بالتوكل عليه ، والاعتماد على حفظه وحياطته ، حكى عن الكفار أنهم بالغوا فى السفاهة وقالوا للأنبياء ولنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا " .والمعنى : ليكونن أحد الأمرين لا محالة ، إما إخراجكم وإما عودكم إلى ملتنا .والسبب فيه أن أهل الحق فى كل زمان يكونون قليلين . وأهل الباطل يكونون كثيرين والظلمة والفسقة يكونون - متعارضدين ، فلهذا الأسباب قدروا على هذه السفاهة .والتعبير بقوله سبحانه - ( أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ) يفيد بظاهرة أن الرسل كانوا على ملة الكافرين ثم تركوها ، فإن العود معناه : الرجوع إلى الشئ بعد مفارقته . وهذا محال ، فإن الأنبياء معصومون - حتى قبل النبوة - عن ارتكاب الكبائر ، فضلاً عن الشرك .وقد أجيب عن ذلك بإجابات منها :أن الخطاب وإن كان فى الظاهر مع الرسل ، إلا أن المقصود به أتباعهم المؤمنون ، الذين كانوا قبل الإيمن بالرسل على دين أقوامهم ، فكأنهم يقولون لهؤلاء الاتباع لقد كنتم على ملتنا ثم تركتموها ، فإما أن تعودوا إليها وإما أن تخرجوا : من ديارنا ، إلا أن رءوس الكفر وجهوا الخطاب إلى الرسل من باب التغليب ومنها : أن العود هنا بمعنى الصيرورة ، إذ كثيراً ما يرد " عاد " بمعنى. صار ، فيعمل عمل كان ، ولا يستدعى الرجوع إلى حالة سابقة ، لنخرجنكم من أرضنا أو لتصيرن كفاراً مثلنا .ومنها : أن هذا القول من الكفار جار على توهمهم وظنهم ، أن الرسل كانت قبل دعوى النبوة على ملتهم ، لسكوتهم قبل البعثة عن الإنكار عليهم ، فلهذا التوهم قالوا ما قالوا ، وهم كاذبون فيما

) قالوه .وشبيه بهذه الآية قول قوم شعيب - عليه السلام - له
لَنُخْرِجَنَّكَ ياشعيب والذين آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ
لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا . . . ) وقول قوم لوط له ( أخرجوا آل لُوطٍ
) - مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ) وقوله - سبحانه
لَنُهْلِكَنَّ الظالمين ) الذين هددوكم بالإخراج من الديار ، أو بالعودة
) إلى ملتهم ، ( وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ) - أيها الرسل ( الأرض ) أى أرضهم
مِن بَعْدِهِمْ ) أى من بعد إهلاكهم واستئصال شأفتهم .قال الآلوسى ما ملخصه
) وأوحى هنا يحتمل أن يكون بمعنى فعل الإيحاء فلا مفعول له " .وقوله " :
لنهلكن ) على إضمار القول ، أى : قائلاً لنلهكن ، ويحتمل أن يكون جارياً
- مجرى القول لكونه ضرباً منه ، وقوله ( لنهلكن ) مفعوله . . .وخص - سبحانه
الظالمين من الذين كفروا ، لأنه من الجائز أن يؤمن من الكفرة الذين قالوا
- تلك المقالة أناس معينون ، فالتوعد لإهلاك من خلص للظلم " .وأكد
. . سبحانه - إهلاك الظالمين وإسكان الرسل أرضهم ، بلا القسم ونون التوكيد
زيادة فى إدخال السرور على نفوس الرسل ، وفى تثبيت قلوبهم على الحق ، ورداً
على أولئك الظالمين الذين أقسموا بأن يخرجوا الرسل من ديارهم ، أو يعودوا
. إلى ملتهم

ولنسكننكم الارض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد

) كما فسرها الوسيط قال صاحب الكشاف : " والمراد بالأرض فى قوله
وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأرض مِن بَعْدِهِمْ ) أرض الظالمين وديارهم ، ونحوه
وعن النبى - صلى الله عليه ( وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ ) :
وسلم - " من آذى جاره ورثه الله داره " .ثم قال : ولقد عاينت هذا فى مدة
قريبة ، كان لى خال يظلمه عظيم القرية التى أنا منها ويؤذينى فيه ، فمات
، ذلك العظيم وملكنى الله ضيعته ، فنظرت يوماً إلى أبناء خالى يترددون فيها
ويدخلون فى دورها ويخرجون ويأمرون وينهون ، فذكرت قول رسول الله - صلى الله
- عليه وسلم - " وحدثتهم به ، وسجدنا شكراً لله " .واسم الإشارة فى قوله
سبحانه - ( ذلك لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ) يعود إلى ما قضى
الله به من إهلاك الظالمين ، وتمكين الرسل وأتباعهم من أرضهم .أى : ذلك
الذى قضيت به كائن لمن خاف قيامى عليه ، ومراقبتى له ، ومكان وقوفه بين يدى
للحساب ، وخاف وعيدى بالعذاب لمن عصانى .قال الجمل : " ومقامى فيه ثلاثة
أوجه : أحدها : أنه مقحم - وهو بعيد إذ الأسماء لا تقحم ، أى ذلك لمن
خافنى - الثانى : أنه مصدر مضاف للفاعل .قال الفراء : مقامى مصدر مضاف
: لفاعله ، أى قيامى عليه بالحفظ . الثالث : أنه اسم مكان ، قال الزجاج
. " مكان وقوفه بين يدى الحساب

واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( واستفتحوا ) من الاستفتاح بمعنى
الاستنصار ، أى : طلب النصر من الله - تعالى - على الأعداء . والسين والتاء
للطلب .ومنه قوله - تعالى - ( إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ الفتح
وقوله - تعالى - (وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ( . . .
الذين كَفَرُواْ . . . ) أو يكون ( واستفتحوا ) من الفتاحة بمعنى الحكم
والقضاء ، أى : واستحكوا الله - تعالى - وطلبوا منه القضاء والحكم ، ومنه
قوله - تعالى - ( رَبَّنَا افتح بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالحق
وَأَنتَ خَيْرُ الفاتحين ) والجملة الكريمة معطوفة على ( فأوحى إِلَيْهِمْ
- رَبُّهُمْ ) ، والضمير يعود إلى الرسل .والمعنى : والتمس الرسل من خالقهم
عز وجل - أن ينصرهم على أعدائه وأعدائهم ، وأن يحكم بحكمه العادل بينهم
وبين هؤلاء المكذبين .قالوا : ومما يؤيد ذلك قراءة ابن عباس ومجاهد وابن
محيصن ( واستفتحوا ) - بكسر التاء - أمراً للرسل .ومنهم من يرى أن الضمير
يعود للفريقين : الرسل ومكذبيهم . أى : أن كل فريق دعا الله أن ينصره على
الفريق الآخر .وقوله ( وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ) بيان لنتيجة
، الاستفتاح . والجبار : الإنسان المتكبر المغرور المتعالى على غيره
- المدعى لمنزلة أى لشئ ليس من حقه .والعنيد : مأخوذ من العند - بفتح النون
بمعنى الميل . يقال : عند فلان عن الطريق - كنصر وضرب وكرم - عنودا ، إذا
مال عنها . وعند فلان عن الحق ، إذا خالفه .والجملة الكريمة معطوفة على
محذوف ، والتقدير : واستفتحوا فنصر الله - تعالى - رسله على أعدائهم ، وخاب
وخسر ، كل متكبر متجبر معاند للحق .قال ابن كثير : قوله : ( وَخَابَ كُلُّ
) - جَبَّارٍ عَنِيدٍ ) أى : متجبر فى نفسه معاند للحق ، كما قال - تعالى
أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ . مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ
مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ . الذي جَعَلَ مَعَ الله إِلَهاً آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي
العذاب الشديد ) وفى الحديث : " يؤتى بجنهم يوم القيامة ، فتنادى الخلائق
فتقول : إنى وكلت بكل جبار عنيد . . . " .وقال - سبحانه - ( وَخَابَ كُلُّ
جَبَّارٍ عَنِيدٍ ) ولم يقل وخاب الذين كفروا كما هو مقتضى الظاهر من

السياق ، للتنبيه على أن الذين كفروا كانوا جبابرة معاندين للحق ، وأن كل من كان كذلك فلابد من أن تكون عاقبته الخيبة والخسران .

من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد

كما فسرها الوسيط وقوله ( مِّن وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ ) صفة لجبار عنيد والمراد بقوله : ( مِّن وَرَآئِهِ ) أى : من أمامه ، أو من بعد هلاكه .أى. من أمام خيبة هذا الجبار العنيد جهنم ، تنتظر ليحل بها ، بسبب كفرة وظلمه : قال صاحب أضواء البيان : قوله ( مِّن وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ . . . ) الوراء. هنا بمعنى الأمام كما هو ظاهر ، ومنه قوله - تعالى - ( وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً ) أى : وكان أمامهم ملك . . ومنه قول الشاعر :أترجو بنو مروان سمعى وطاعتى ... وقومى تميم والفلاة ورائياأى ، والفلاة أماميا .وقال بعضهم : قوله ( مِّن وَرَآئِهِ ) أى من بعد هلاكه : ومنه قول النابغة :حلفت فلم أترك لنفسك ريبة ... وليس وراء الله للمرء مذهبأى : وليس بعد الله للمرء مذهب ، والأول هو الظاهر هو الحق .وعلى أية حال فإن الجملة الكريمة تدل على أن جنهم تنتظر هذا الجبار العنيد ، وتترصد له ، وتتبعه حيث كان ، بحيث لا يستطيع الفرار منها ، أو الهرب عنها .وجملة ( ويسقى مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ) معطوفة على مقدر ، أى : من ورائه جهنم يلقى فيها مذءوما مدحوراً ، ويسقى من ماء مخصوص ليس كالمياه المعهودة ، هو الصديد ، أى ما يسيل من أجساد هذا النار من دم مختلط بقيح ، واشتقاقه من الصد ، لأنه يصد الناظرين عن رؤيته . وهو بدل أو عطف بيان من ماء .

يتجرعه ولا يكاد يسيغه وياتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ

كما فسرها الوسيط وقوله ( يَتَجَرَّعُهُ وَلاَ يَكَادُ يُسِيغُهُ . . ) بيان لحالة هذا الجبار العنيد عند تعاطيه الصديد .والتجرع : تكلف الجرع وهو بلع الماء ، وفعله - كسمع ومنع - .ويسيغه : من السوغ وهو انحدار الشراب فى الحلق بسهولة وقبول . يقال : ساغ الشراب سوغا وسواغا ، إذا كان سهل المدخل أى : يتكلف بلع هذا الصديد مرة بعد أخرى لمرارته وقبحه ، ولا يقارب أن. يسيغه فضلاً عن الإساغة . بل يغص به فيشربه بعد عناء ومشقة جرعة عقب جرعة وقوله ( وَيَأْتِيهِ الموت مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن. وَرَآئِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ) معطوف على قوله ( يتجرعه ) لبيان حالة أخرى من أحوال شقائه وعذابه .أى : وتأتيه الأسباب المؤدية للموت والهلاك من كل جهة من الجهات ، ومن كل موضع من مواضع بدنه ، وما هو بميت فيستريح من هذا الشقاء والعذاب ، ومن وراء كل ذلك عذاب غليظ أى : شاق شديد لا يقل فى ألمه عما هو فيه من نكال .وشبيه بهذه الجملة قوله - تعالى - ( والذين كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لاَ يقضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلاَ يُخَفَّفُ - عَنْهُمْ مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ) وقوله تعالى - ( وَيَتَجَنَّبُهَا الأشقى . الذى يَصْلَى النار الكبرى . ثُمَّ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَا ) وبذلك نرى الآيات الكريمة قد صورت لنا سوء عاقبة المكذبين للحق تصويراً مؤثراً ، تهتز له النفس ، وتوجل منه القلوب .

مثل الذين كفروا بربهم اعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد

كما فسرها الوسيط ثم ضرب - سبحانه - مثلاً لأعمال الكافرين فى حبوطها وذهابها يوم القيامة ، وساق الأدلة الدالة على قدرته القاهرة ، وصور أحوال الكافرين يوم يقوم الناس لرب العالمين ، وحكى ما يقوله الضعفاء للمستكبرين وما يقوله الشيطان لأتباعه فى هذا اليوم العصيب ، وما أعده الله للمؤمنين الصادقين فى هذا اليوم فقال - تعالى - :( مَّثَلُ الذين كَفَرُواْ - بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ . . . ) .قال الإمام الرازى : " اعلم أنه تعالى - لما ذكر أنواع عذابهم فى الآية المتقدمة ، بين فى هذه الآية وهى قوله - تعالى - ( مَّثَلُ الذين كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ . . . ) أن أعمالهم ، بأسرها ضائعة باطلة ، لا ينتفعون بشئ منها . وعند هذا يظهر كمال خسرانهم لأنهم لا يجدون فى القيامة إلا العقاب الشديد وكل ما عملوه فى الدنيا وجدوه ضائعاً باطلاً " .والمثل : النظير والشبيه . ثم أطلق على القول السائر المعروف ، لمماثلة مضربه بمورده ، ولا يكون إلا فيما فيه غرابة ، ثم استعير للصفة ، أو الحال ، أو القصة إذا كان لها شأن عجيب ، وفيها غرابة .والمراد بأعمال الذين كفروا فى الآية الكريمة : ما كانوا يقومون به فى الدنيا من أعمال حسنة كإطعام الطعام ، ومساعدة المحتاجين ، وإكرام الضيف ، إلى غير ذلك من الأعمال الطيبة .والرماد : ما يتبقى من الشئ بعد احتراق أصله ، كالمتبقى من الخشب أو الحطب بعد احتراقهما .والعاصف : من العصف وهو اشتداد

. . الريح ، وقوة هبوبها .قال الجمل : " وقوله : ( مَّثَلُ الذين كَفَرُواْ
فيه أوجه للإعراب : أحدها وهو مذهب سيبويه : أنه مبتدأ محذوف الخبر ( .
) تقديره : فيما يتلى عليكم مثل الذين كفروا ، وتكون الجملة من قوله
أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ . . . ) مستأنفة جواب لسؤال مقدر ، كأنه قيل : كيف
مثلهم . . ؟ فقيل : كيت وكيت .والثانى : أن يكون " مثل " مبتدأ و " أعمالهم
مبتدأ ثان ، و " كرماد " خبر المبتدأ الثانى ، والمبتدأ الثانى وخبره خبر "
المبتدأ الأول . . . "والمعنى : حال أعمال الذين كفروا فى حبوطها وذهابها
وعدم انتفاعهم بشئ منها فى الآخرة ، كحال الرماد المكدس الذي أتت عليه
الرياح العاصفة ، فمحقته وبددته ، ومزقته تمزيقاً لا يجرى معه اجتماع
فالآية الكريمة تشبيه بليغ لما يعمله الكافرون فى الدنيا من أعمال البر.
والخير .ووجه الشبه : الضياع والتفرق وعدم الانتفاع فى كل ، فكما أن الريح
العاصف تجعل الرماد هباء منثورا ، فكذلك أعمال الكافرين فى الآخرة تصير
هباء منثوراً ، لأنها أعمال بنيت على غير أساس من الإيمان وإخلاص العبادة
- لله - تعالى - .ووصف - سبحانه - اليوم بأنه عاصف - مع أن العصف شدة الريح
للمبالغة فى وصف زمانها - وهو اليوم - بذلك : ما يقال : يوم حار ويوم بارد
مع أن الحر والبرد فيهما وليس منهما .وقوله - سبحانه - ( لاَّ ،
يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ على شَيْءٍ ) بيان للمقصود من التشبيه ، وهو
أن هؤلاء الكافرين ، لا يقدرون يوم القيامة ، على الانتفاع بشئ مما فعلوه
فى الدنيا من أفعال البر والخير ، لأن كفرهم أحبطها فذهب سدى دون أن
يستفيدوا منها ثواباً ، أو تخفف عنهم عذاباً .قال الآلوسى :" وفى الصحيح عن
عائشة - رضى الله عنها - أنها قالت :" يا رسول الله . إن ابن جدعان فى
الجاهلية كان يصل الرحم ، ويطعم المسكين ، هل ذلك نافعة؟ قال : "لا ينفعه؛
لأنه لم يقل رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين " " .وقال الإمام ابن كثير ما
ملخصه : " هذا مثل ضربة الله - تعالى - لأعمال الكفار الذين عبدوا مع الله
غيره ، وكذبوا رسله ، وبنوا أعمالهم على غير أساس صحيح ، فانهارت وعدموها
وهم أحوج ما كانوا إليها . . .كما قال - تعالى - ( وَقَدِمْنَآ إلى مَا
عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مّنثُوراً ) وكما قال
تعالى - ( مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هذه الحياة الدنيا كَمَثَلِ رِيحٍ
( فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظلموا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ
واسم الإشارة فى قوله ( ذلك هُوَ الضلال البعيد ) يعود إلى ما دل عليه
التمثيل من بطلان أعمالهم ، وذهاب أثرها .أى : ذلك الحبوط لأعمالهم ، وعدم
انتفاعهم بشئ منها ، هو الضلال البعيد .أى : البالغ أقصى نهايته ، والذى
، ينتهى بصاحبه إلى الهلاك والعذاب المهين .ووصف - سبحانه - الضلال بالبعد
- لأنه يؤدى إلى خسران لا يمكن تداركه ، ولا يرجى الخلاص منه .ثم بين
) : - سبحانه - بعد ذلك ، بعض مظاهر قدرته التى لا يعجزها شئ فقال - تعالى
مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هذه الحياة الدنيا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ
أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظلموا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ) .واسم
الإشارة فى قوله ( ذلك هُوَ الضلال البعيد ) يعود إلى ما دل عليه التمثيل
من بطلان أعمالهم ، وذهاب أثرها .أى : ذلك الحبوط لأعمالهم ، وعدم انتفاعهم
بشئ منها ، هو الضلال البعيد .أى : البالغ أقصى نهايته ، والذى ينتهى
بصاحبه إلى الهلاك والعذاب المهين .ووصف - سبحانه - الضلال البعيد ، لأنه
. يؤدى إلى خسران لا يمكن تداركه ، ولا يرجى الخلاص منه

الم تر ان الله خلق السماوات والارض بالحق ان يشا يذهبكم ويات بخلق جديد

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ، بعض مظاهر قدرته التى لا
يعجزها شئ فقال - تعالى - : ( أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله خَلَقَ السماوات
والأرض بالحق إن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ . وَمَا
ذلك عَلَى الله بِعَزِيزٍ ) .والخطاب فى قوله ( أَلَمْ تَرَ . . . ) لكل من
يصلح له بدون تعيين . والاستفهام للتقرير .والرؤية مستعملة فى العلم الناشئ
عن النظر والتفكير والتأمل فى ملكوت السموات والأرض .قال الآلوسى ما ملخصه
قوله - تعالى - ( أَلَمْ تَرَ . . . ) هذا التعبير قد يذكر لمن تقدم عمله :
فيكون للتعجب ، وقد يذكر لمن لا يكون كذلك ، فيكون لتعريفه وتعجيبه ، وقد
اشتهر فى ذلك حتى أجرى مجرى المثل فى هذا الباب ، بأن شبه من لم ير الشئ
بحال من رآه فى أنه لا ينبغى أن يخفى عليه ، وأنه ينبغى أن يتعجب منه ، ثم
أجرى الكلام معه ، كما يجرى مع من رأى ، قصداً إلى المبالغة فى شهرته
- وعراقته فى التعجب .. .والمعنى: ألم تعلم - أيها العاقل - أن الله
تعالى - ( خَلَقَ السماوات والأرض بالحق ) أى : خلقهما بالحكمة البالغة
) - المنزهة عن العبث ، وما لوجه الصحيح الذى تقتضيه إرادته ، وهو -سبحانه
إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ) أى - يهلككم أيها الناس - ( وَيَأْتِ بِخَلْقٍ
جَدِيد ) سواكم ، لأن القادر على خلق السموات والأرض وما فيهما من أجرام
عظيمة ، يكون على خلق غيرهما أقدر ، كما قال - تعالى - ( لَخَلْقُ السماوات
. ( . . . والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس ولكن أَكْثَرَ الناس

وما ذلك على الله بعزيز

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( وَمَا ذلك عَلَى الله بِعَزِيزٍ ) معطوف على ما قبله ، ومؤكد لمضمونه . أى : إن يشأ - سبحانه - يهلككم - أيها الناس - ويأت بمخلوقين آخرين غيركم ، وما ذلك الإذهاب بكم ، والإتيان بغيركم بمتعذر على الله ، أو بمتعاص عليه ، لأنه - سبحانه - لا يعجزه شئ ، ولا يحول دون نفاذ قدرته حائل .وشبيه بهذا قوله - تعالى - ( ياأيها الناس أَنتُمُ الفقرآء إِلَى الله وَالله هُوَ الغني الحميد . إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ . وَمَا ذَلِكَ عَلَى الله بِعَزِيزٍ ) وقوله - تعالى - : ( وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يكونوا أَمْثَالَكُم ) وقوله - تعالى - : ( إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا الناس وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ الله على ذلك قَدِيراً ).

وبرزوا لله جميعا فقال الضعفاء للذين استكبروا انا كنا لكم تبعا فهل انتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا اجزعنا ام صبرنا ما لنا من محيص

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك جانباً من الحوار الذى يدور - يوم القيامة بين الضعفاء والمستكبرين ، بين الأتباع والمتبوعين . . فقال تعالى - : ( وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعاً فَقَالَ الضعفاء لِلَّذِينَ استكبروا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُمْ مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ الله مِن شَيْءٍ . . . )وقوله ( وبرزوا ) من البروز بمعنى الظهور ، مأخوذ من البراز وهو الفضاء الواسع ، الذى يظهر فيه الناس بدون استتار . أى : وخرج الكافرون جميعاً من قبورهم يوم القيامة وظهوراً ظهوراً - لا خفاء معه ، لكى يحاسبهم - سبحانه - على أعمالهم فى الدنيا .وقال ، سبحانه - ( وبرزوا ) بلفظ الفعل الماضى مع أن الحديث عن يوم القيامة - للتنبيه على تحقق وقوع هذا الخروج ، وأنه كائن لا محالة .وعبر - سبحانه بهذا التعبير ، مع أنهم لا يخفون عليه سواء أبرزوا أم لم يبرزوا ، لأنهم كانوا فى الدنيا يستترون عن العيون عند اجتراحهم السيئات ويظنون أن ذلك يخفى على الله - عز وجل - .ثم بين - سبحانه - ما سيقوله الضعفاء للمستكبرين فى هذا الموقف العصيب فقال :( فَقَالَ الضعفاء ) وهم العوام والأتباع الذين فقدوا نعمة التفكير ، ونعمة حرية الإرادة ، فهانوا وذلوا . .قال هؤلاء الضعفاء ( لِلَّذِينَ استكبروا ) وهم السادة المتبوعون الذين كانوا يقودون - أتباعهم إلى طريق الغى والضلال .( إِنَّا كُنَّا لَكُمْ ) - أيها السادة ، جمع تابع كخادم وخدم .أى : إنا كنا فى الدنيا تابعين لكم ( تبعا ) ومنقادين لأمركم ، فى تكذيب الرسل ، وفى كل ما تريدونه منا .والاستفهام فى قوله - سبحانه - ( فَهَلْ أَنتُمْ مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ الله مِن شَيْءٍ ) للتقريع والتفجع .ومغنون من الإغناء بمعنى الدفاع والنصرة .قال الشوكانى : " يقال : أغنى عنه إذا دفع عنه الأذى ، وأغناه إذا أوصل إليه النفع " .أى : فهل أنتم - أيها المستكبرون - دافعون عنا شيئا من عذاب الله النازل لنا ، حتى ولو كان هذا الشئ المدفوع قليلا؟ إن كان فى إمكانكم ذلك فاظهروه لنا ، فقد كنتم فى الدنيا سادتنا وكبراءنا ، وكنتم تزعمون أنكم أصحاب الحظوة يوم القيامة .قال صاحب الكشاف : " فإن قلت : أى فرق بين " من فى ( مِنْ عَذَابِ الله ) وبينه فى ( مِن شَيْءٍ ) ؟قلت : الأولى للتنبيه " والثانية للتبعيض ، كأنه قيل : هل أنتم مغنون عنا بعض الشئ الذى هو عذاب ، الله؟ ويجوز أن يكون للتبعيض معا بمعنى : هل أنتم مغنون عنا بعض شئ ، هو بعض عذاب الله؟ أى : بعض بعض عذاب الله " .ثم حكى - سبحانه - رد المستكبرين على المستضعفين فقال : ( قَالُواْ لَوْ هَدَانَا الله لَهَدَيْنَاكُمْ . . أى : قال المستكبرون - بضيق وتحسر - فى ردهم على المستضعفين : لو هدانا( . الله - تعالى - إلى الإيمن الموصل إلى النجاة من هذا العذاب الأليم لهديناكم ) إليه ، ولكن ضللنا عنه وأضللناكم معنا ، واخترنا لكم ما اخترناه لأنفسنا ، ولو كنا نستطيع النفع لنفعنا أنفسنا .ثم أضافوا إلى ذلك قولهم : ( سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ) والجزع : حزن يصرف الإنسان عما هو بصدده لشدة اضطرابه وذهوله .يقال : جزع. فلان يجزع جزعا وجزوعا ، إذا ضعف عن حمل ما نزل به ولم يجد صبرا .والمحيص : المهرب والمنجى من العذاب . يقال : حاص فلان عن الشئ يحيص حيصا ومحيصا ، إذا عدل عنه على وجه الهرب والفرار .أى : مستو عندنا الجزع مما نحن فيه من عذاب ، أو الصبر على ذلك ، وليس لنا من مهرب أو منجى من هذا المصير الأليم فالآية الكريمة تحكى أقوال الضعفاء يوم القيامة ، وهى أقوال يبدو فيها. طابع الذلة والمهانة كما هو شأنهم فى الدنيا ، كما تحكى رد المستكبرين عليهم ، وهو رد يبدو فيه التبرم والتفجع والتأنيب من طرف خفى لهؤلاء الضعفاء ، والتسليم بالواقع الأليم الذى لا محيص لهم عنه .قال الإمام ابن كثير : " قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : إن أهل النار قال بعضهم لبعض :

- تعالوا ، فإنما إدراك أهل الجنة الجنة ببكائهم وتضرعهم إلى الله - تعالى
تعالوا نبك ونتضرع إلى الله ، فبكوا وتضرعوا ، فلما رأوا ذلك لا ينفعهم ،
، قالوا : تعالوا ، فإنما أدرك أهل الجنة الجنة بالصبر ، تعالوا حتى نصبر
فصبروا صبرا لم ير مثله ، فلم ينفعهم ذلك . فعند ذلك قالوا : ( سَوَآءٌ
عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ) .

وقال الشيطان لما قضي الامر ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فاخلفتكم وما
كان لي عليكم من سلطان الا ان دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا
انفسكم ما انا بمصرخكم وما انتم بمصرخي اني كفرت بما اشركتمون من قبل ان
الظالمين لهم عذاب اليم

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما يقوله الشيطان لأتباعه يوم
القيامة ، فقال - تعالى - : ( وَقَالَ الشيطان لَمَّا قُضِيَ الأمر إِنَّ
الله وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحق وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ) . .
والمراد بالشيطان هنا : إبليس - لعنه الله - .قال الفخر الرازى : " وأما
الشيطان فالمراد به إبليس لأن لفظ الشيطان مفرد فيتناول الواحد ، وإبليس
رأس الشياطين ورئيسهم ، فحمل اللفظ عليه أولى . ولا سيما وقد قال رسول
الله - صلى الله عليه وسلم - : " إذا جمع الله الخلق وقضى بينهم ، يقول
، الكافر : قد وجد المسلمون من يشفع لهم فمن يشفع لنا ، ما هو إلا إبليس
" . . . فهو الذى أضلنا ، فيأتونه ويسألونه فعند ذلك يقول هذا القول
والمراد بقوله - سبحانه - ( قُضِيَ الأمر ) أى : حين تم الحساب ، وعرف أهل
الجنة ثوابهم ، وعرف أهل النار مصيرهم ، كل فريق فى المكان الذى أعده الله
. تعالى له .والمقصود من حكاية ما يقوله الشيطان للكافرين فى هذا اليوم
تحذير المؤمنين من وسوسته وإغوائه ، حتى ينجوا من العذاب الذى سيحل بأتباعه
يوم القيامة .والمراد بالحق فى قوله ( إِنَّ الله وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحق )
) الصدق والوفاء بما وعدكم به على ألسنه رسله .والمراد بالإخلاف فى قوله :
وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ) الكذب والغدر وعدم الوفاء بما مناهم به
من أمانى باطلة ، قال - تعالى - : ( يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا ،
يَعِدُهُمُ الشيطان إِلاَّ غُرُوراً ) وإضافة الوعد إلى الحق من إضافة
، الموصوف إلى الصفة أى إن الله - تعالى - وعدكم الوعد الحق الذى لا نقض له
وهو أن الجزاء حق ، والبعث حق ، والنار حق ، ووعدتكم وعدا باطلا بأنه لا
بعث ولا حساب . . فأخلفتكم ما وعدتكم به ، وظهر كذبى فيما قلته لكم . ثم
أضاف إلى ذلك قوله - كما حكى القرآن عنه - : ( وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ
مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فاستجبتم لِي ) . . .والسلطان
اسم مصدر بمعنى التسلط والقهر والغلبة .أى : وما كان لى فيما وعدتكم به من
تسلط عليكم ، أو إجبار لكم ، لكنى دعوتكم إلى ما دعوتكم إليه من باطل
وغواية ، فانقدتم لدعوتى واستجبتم لوسوستى عن طواعية واختيار .فالاستثناء
فى قوله ( إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ ) استثناء منقطع ، لأن ما بعد حرف
: الاستثناء ليس من جنس ما قبله ، وبعضهم يرى أن الاستثناء متصل .قال الجمل
وفى هذا الاستثناء وجهان : أظهرهما : أنه استثناء منقطع ، لأن دعاءه ليس "
من جنس السلطان وهو الحجة البينة ، والثانى : أنه متصل لأن القدرة على حمل
الإنسان على الشئ تارة تكون بالقهر ، وتارة تكون بتقوية الداعية فى قلبه
بإلقاء الوساوس إليه . فهو نوع من التسليط "وقوله ( فَلاَ تَلُومُونِي
: ولوموا أَنفُسَكُمْ ) زيادة فى تأنيبهم وفى حسراتهم على انقيادهم له .أى
فلا تلومونى بسبب وعودى إياكم . ولوموا أنفسكم ، لأنكم تقبلتم هذه الوعود
الكاذبة بدون تفكر أو تأمل ، وأعرضتم عن الحق الواضح الذى جاءكم من عند
ربكم ، ومالك أمركم .ثم ينفض يده منهم ، ويخلى بينهم وبين مصيرهم السئ
: فيقول : ( مَّآ أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ ) أى
ما أنا بمغيثكم ومنقذكم مما أنتم فيه من عذاب ، وما أنتم بمغيثى مما أنا
فيه من عذاب - أيضا - فقد انقطعت بيننا الأواصر والصلات . . .قال القرطبى ما
ملخصه :" والصارخ والمستصرخ هو الذى يطلب النصرة والمعاونة ، والمصرخ هو
... المغيث لغيره . . قال أمية بن أبى الصلت :ولا تجزعا إنى لكم غير مصرخ
وليس لكم عندى غناء ولا نصرويقال : صرخ فلان أى استغاث يصرخ صرخا وصراخا
) وصرخة . .ومنه : استصرخنى فلان فأصرخته ، أى استغاث بى فأغثته . .وجملة
إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ . . ) مستأنفة ، لإظهار
) المزيد من التنصل والتبرى من كل علاقة بينه وبينهم .و " ما " فى قوله
" : بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ ) الظاهر أنها مصدرية . .قال الآلوسى ما ملخصه
وأراد بقوله ( إِنِّي كَفَرْتُ ) أى : إنى كفرت اليوم ( بِمَآ
" أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ) .أى : من قبل هذا اليوم ، يعنى فى الدنيا و
ما " مصدرية و " من قبل " متعلق بأشركتمون .والمعنى : إنى كفرت بإشراككم
إياى الله - تعالى - فى الطاعة ، لأنهم كانوا يطيعون الشيطان فيما يزينه
لهم من عبادة غير الله - تعالى - ، ومن أفعال الشر . .ومراد اللعين : أنه
. . إن كان إشراككم لى فى الله - تعالى - ، هو الذى أطعمكم فى نصرتى لكم
فإنى متبرئ من هذا الشرك ، لم يبق بينى وبينكم علاقة . . فالكلام محمول على

" إنشاء التبرى منهم يوم القيامة .ثم قال : وجوز غير واحد أن تكون " ما موصولة بمعنى من ، والعائد محذوف ، و " من قبل " متعلق بكفرت . أى : إنى كفرت من قبل - حين أبيت السجود لآدم - بالذى أشركتمونيه . أى : جعلتمونى شريكا له فى الطاعة وهو الله - عز وجل - .والكلام على هذا إقرار من اللعين بقدم كفره ، وبسبق خطيئته فلا يمكنه لهم عونا أو نصرا . . .وجملة ( إِنَّ الظالمين لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ) فى موقع التعليل لما تقدم ، والظاهر أنها ابتداء كلام من جهته - تعالى - : لبيان سوء عاقبة الظالمين .ويجوز أن تكون من تتمة كلام إبليس - الذى حكاه القرآن عنه - ، ويكون الغرض منها قطع أطماعهم فى الإغاثة أو النصر ، وتنبيه المؤمنين فى كل زمان ومكان إلى عداوة الشيطان لهم وتحذيرهم من اتباع خطواته .قال الشيخ الشوكانى - رحمه الله - ما ملخصه : " لقد قام الشيطان للكافرين فى هذا اليوم مقاما يقصهم ظهورهم ، ويقطع قلوبهم ، فأوضح لهم أولا : أن مواعيده التى كان يعدهم بها فى الدنيا باطلة معارضة لوعد الحق من الله - تعالى - وأنه أخلفهم ما وعدهم به ..ثم أوضح لهم ثانيا : بأنهم قبلوا قوله بما لا يتفق مع العقل ، لعدم الحجة الى لا بد للعاقل منها فى قبول قول غيره .ثم أوضح لهم ثانيا : بأنهم قبلوا قوله بما لا يتفق مع العقل ، لعدم الحاجة التى لا بد للعاقل منها فى قبول قول غيره .ثم أوضح لهم ثالثا : بأنه لم يكن منه إلا مجرد الدعوة العاطلة عن البرهان ، الخالية عن أيسر شئ مما يتمسك به العقلاء .ثم نعى ، عليهم رابعا : ما وقعوا فيه ، ودفع لومهم له ، وأمرهم بأن يلوموا أنفسهم لأنهم هم الذين قبلوا الباطل البحت الذى لا يلتبس بطلانه على من له أدنى عقل .ثم أوضح لهم خامسا : بأنه لا نصر عنده ولا إغاثة . . بل هو مثلهم فى الوقوع فى البلية . .ثم صرح لهم سادسا : بأنه قد كفر بما عتقدوه فيه وأثبتوه له ، وهو إشراكه مع الله - تعالى - تضاعفت عليهم الحسرات ، وتوالت عليهم المصائب .وإذا كانت جملة ( إِنَّ الظالمين لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ) من تتمة كلامه - كما ذهب إليه البعض - فهو نوع سابع من كلامه الذى خاطبهم به ، فيكون قد أثبت لهم الظلم ، وذكر لهم جزاءه .

وادخل الذين امنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها باذن ربهم تحيتهم فيها سلام

كما فسرها الوسيط وبعد هذا الحديث عن سوء عاقبة الكافرين . . بين - سبحانه - ما أعده للمؤمنين من ثواب جزيل ، وأجر عظيم فقال - تعالى - :( وَأُدْخِلَ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ) .أى : وأدخل الله - تعالى - فى هذا اليوم ، وهو يوم القيامة ، الذين آمنوا بكل ما يجب الإيمان به ، وعملوا الأعمال الصالحة ، أدخلهم - سبحانه - جنات تجرى من تحت ثمارها وأشجارها الأنهار ، حالة كونهم خالدين فيها خلودا أبديا لاموت معه ، ولا تعب .وجاء التعبير بصيغة الماضى لتحقيق الوقوع ، وتعجيل البشارة وقوله ، ( بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ) أى : بإرادته - سبحانه - وتوفيقه وهدايته لهم .وقوله ( تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ ) أى : تحيتهم فى الجنة سلام - لهم من خالقهم - عز وجل - ومن الملائكة ، ومن بعضهم لبعض .كما قال - تعالى - : - وكما قال - تعالى ( تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلاَمٌ ) : وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِّن كُلِّ بَابٍ . سَلاَمٌ عَلَيْكُم . . . ) وكما قال - سبحانه - : ( وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاَماً ) وبذلك نرى الآيات الكريمة قد بينت بأبلغ أسلوب بوار أعمال الذين كفروا ، وسوء أحوالهم يوم القيامة ، كما بينت حسن عاقبة المؤمنين ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة .

الم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة اصلها ثابت وفرعها في السماء

كما فسرها الوسيط وبعد أن بين - سبحانه - حال السعداء والأشقياء يوم القيامة ، أتبع ذلك بضرب مثل لهما زيادة فى التوضيح والتقرير فقال - تعالى - :( أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً . . . ) والخطاب فى قوله ( أَلَمْ تَرَ . . . ) للرسول - صلى الله عليه وسلم - أو لكل من يصلح للخطاب ، والاستفهام للتقرير ، والرؤية مستعملة فى العلم الناشئ عن التأمل والتفكر فى ملكوت السموات والأرض .قال الآلوسى ما ملخصه : قوله - تعالى - : ( أَلَمْ تَرَ . . . ) هذا التعبير قد يذكر لمن تقدم علمه فيكون للتعجب ، وقد يذكر لمن ليس كذلك ، فيكون لتعريفه وتعجيبه ، وقد اشتهر فى ذلك حتى أجرى مجرى المثل فى ذلك ، بأن شبه من لم ير الشئ بحال من رآه فى أنه لا ينبغى أن يخفى عليه ، ثم أجرى الكلام معه كما يجرى مع من رأى ، قصدا إلى المبالغة فى شهرته وعراقته فى التعجب .والمثل : يطلق على القول السائر المعروف للماثلة مضربه لمورده .وقوله ( مثلا ) انتصب على أنه مفعول به لضرب وقوله ( كلمة ) بدل منه أو عطف بيان .والمراد بالكلمة الطيبة : كلمة ،

الإسلام ، وما يترتب عليها من عمل صالح ، وقول طيب .قال الآلوسى ما ملخصه
والمراد بالشجرة الطيبة - المشبه بها - النخلة عند الأكثرين وروى ذلك " :
عن ابن عباس وابن مسعود ومجاهد وعكرمة والضحاك وابن زيد . .وأخرج عبد
الرازاق والترمذى وغيرهما عن شيعب بن الحجاب قال : كنا عند أنس ، فأتينا
بطيق عليه رطب ، فقال أنس لأبى العالية : كل يا أبا العالية ، فإن هذا من
الشجرة التى ذكرها الله - تعالى - فى كتابه ( أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ
الله مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ . . . )وأخرج
الترمذى - أيضا - والنسائى وابن حبان والحاكم وصححه عن أنس قال : " أتى
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بقناع من بسر - أى بطبق من تمر لم ينضج
بعد فقال : " مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة . . قال : هى النخلة " " .وأخرج ابن
مردويه عن ابن عباس أنها شجرة جوز الهند .وأخرج ابن حرير وابن أبى حاتم
أنها شجرة فى الجنة ، وقيل كل شجرة مثمرة كالنخلة ، وكشجرة التين والعنب
والرمان وغير ذلك ثم قال :" وأنت تعلم أنه إذا صح الحديث ولم يتأت حمل ما
فيه على التمثيل لا ينبغى العدول عنه " .وكأن الإمام الآلوسى بهذا القول
يريد أن يرجح أن المراد بالشجرة الطيبة النخلة ، لتصريح الآثار بذلك .وقد
رجح ابن جرير - أيضا - أن المراد بها النخلة فقال ما ملخصه : " واختلفوا فى
المراد بالشجرة الطيبة ، فقال بعضهم : هى النخلة . . وقال آخرون : هى شجرة
فى الجنة . .وأولى القولين بالصواب فى ذلك قول من قال هى النخلة ، لصحة
الخبر عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى ذلك . . . "والمعنى : ألم
تر - أيها المخاطب - كيف اختار الله - تعالى - مثلا ، وضعه فى موضعه اللائق
به ، والمناسب له ، وهذا المثل لكلمتى الإيمان والكفر ، حيث شبه - سبحانه
الكلمة الطيبة وهى كلمة الإسلام ، بالشجرة الطيبة ، أى النافعة فى جميع
) : أحوالها ، وهى النخلة .ثم وصف - سبحانه - هذه الشجرة بصفات حسنة فقال
أَصْلُهَا ثَابِتٌ ) .أى : ضارب بعروقه فى باطن الأرض فصارت بذلك راسخة
الأركان ثابتة البنيان .( وَفَرْعُهَا ) أى : أعلاها وما امتد منها من
أغصان ، مشتق من الاقتراع بمعنى الاعتلاء ( فِي السمآء ) أى : فى جهة
. السماء من حيث العلو والارتفاع ، وهذا ما يزيد الشجرة جمالا وحسن منظر

تؤتي اكلها كل حين باذن ربها ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون

كما فسرها الوسيط والمراد بالأكل فى قوله - تعالى - ( تؤتي أُكُلَهَا كُلَّ
حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا . . ) المأكول ، وهو الثمر الناتج عنها .والمراد
بالحين : الوقت الذى حدده الله - تعالى - للانتفاع بثمارها من غير تعيين
بزمن معين من صباح أو مساء .قال الشوكانى ما ملخصه : " قوله ( تؤتي
" أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ ) كل وقت ( بِإِذْنِ رَبِّهَا ) بإرادته ومشيئته
وقيل : المراد بكونها تؤتى أكلها كل حين : أى كل ساعة من الساعات من ليل.
أو نهار فى جميع الأوقات من غير فرق بين شتاء وصيف . وقيل المراد فى أوقات
مختلفة من غير تعيين .وقيل : كل غدوة وعشية ، وقيل : كل شهر . . .وهذه
الأقوال متقاربة . لأن الحين عند جمهور أهل اللغة بمعنى الوقت يقع لقليل
الزمان وكثيره .وبهذا نرى أن الله - تعالى - قد وصف هذه الشجرة بأربع صفات
أولها : أنها طيبة ، وثانيها : أن أصلها ثابت ، وثالثها : أن فرعها فى ،
السماء ، ورابعها : أنها تؤتى ثمارها كل حين بإذن ربها .وهذه الأوصاف تدل
على فخامة شأنها ، وجمال منظرها ، وطيب ثمرها ، ودوان نفعها كما تدل على أن
المشبه وهو الكلمة الطيبة ، مطابق فى هذه الأوصاف للمشبه به وهو الشجرة
الطيبة .وقوله - سبحانه - ( وَيَضْرِبُ الله الأمثال لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ
يَتَذَكَّرُونَ ) بيان للحكمة التى من أجلها سيقت الأمثال ، وهى التذكر
والتفكير والاعتبار . أى : ويضرب الله - تعالى - الأمثال للناس رجاء أن
يعتبروا ويتعظوا ويتذكروا ما أمرهم - سبحانه - بتذكره إذ ضرب الأمثال تقريب
. للبعيد ، وتقرير للقريب ، وتصوير للمعانى المعقولة بالصور المحسوسة

ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض ما لها من قرار

كما فسرها الوسيط وبعد أن بين - سبحانه - مثال كلمة الإيمان ، أتبعه بمثال
). كلمة الكفر فقال : ( وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ ) وهى كلمة الكفر
كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ) أى قبيحة لا نفع فيها ، ولا خبر يرجى منها .( اجتثت
مِن فَوْقِ الأرض ) أى : اقتلعت جثتها وهيئتها من فوق الأرض ، لقرب عروقها
، وجذورها من سطحها .يقال : اجتثثت الشئ اجتثاثا ، إذا اقتلعته واستأصلته
وهو افتعال من لفظ الجثة وهى ذات الشئ .وقوله : ( مَا لَهَا مِن قَرَارٍ )
: تأكيد لمعنى الاجتثاث لأن اجتثاث الشئ بسهولة ، سببه عدم وجود أصل له .أى
ليس لها استقرار وثبات على الأرض ، وكذلك الكفر لا أصل له ولا فرع ، ولا
يصعد للكافر عمل ، ولا يتقبل منه شئ .والمراد بهذه الشجرة الخبيثة : شجرة
الحنظل فعن أنس بن مالك أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : " ومثل كلمة
خبيثة كشجرة خبيثة هى الحنظلة . . . " .وقيل : شجرة الثوم ، وقيل : شجرة
الشوك . . . وقيل كل شجر لا يطيب له ثمر ، وفى رواية عن ابن عباس أنها شجرة

لم تخلق على الأرض . .وقال : ابن عطية : الظاهر أن التشبيه وقع بشجرة غير معينة جامعة لتلك الأوصاف التى وصفها الله بها .

يثبت الله الذين امنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الاخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء

كما فسرها الوسيط وقوله سبحانه - ( يُثَبِّتُ الله الذين آمَنُواْ بالقول الثابت فِي الحياة الدنيا وَفِي الآخرة ) بيان لفضل الله - تعالى - على هؤلاء المؤمنين ، ولحسن عاقبتهم . .والمراد بالحياة الدنيا : مدة حياتهم فى هذه الدنيا .والمراد بالآخرة : ما يشمل سؤالهم فى القبر وسؤالهم فى مواقف القيامة .والمعنى : يثبت الله - تعالى - الذين آمنوا بالقول الثابت أى : الصادق الذى لا شك فيه ، فى الحياة الدنيا ، بأن يجعلهم متمسكين بالحق ، ثابتين عليه دون أن يصرفهم عن ذلك ترغيب أو ترهيب .ويثبتهم أيضاً بعد مماتهم ، بأن يوفقهم إلى الجواب السديد عند سؤالهم فى القبر وعند سؤالهم فى مواقف يوم القيامة .قال الآلوسى ما ملخصه : " قوله - تعالى - ( يُثَبِّتُ الله الذين آمَنُواْ بالقول الثابت ) أى : الذى ثبت عندهم وتمكن فى قلوبهم وهو الكلمة الطيبة التى ذكرت صفتها العجيبة . . . ( فِي الحياة الدنيا ) ، أى يثبتهم بالبقاء على ذلك مدة حياتهم ، فلا يزالون عند الفتنة . . ( وَفِي الآخرة ) أى بعد الموت وذلك فى القبر الذى هو أول منزل من منازل الآخرة ، وفى مواقف القيامة ، فلا يتلعثمون إذا سئلوا عن معتقدهم هناك ، ولا تدهشهم الأهوال . . . " .وقوله : ( وَيُضِلُّ الله الظالمين ) بيان لسوء عاقبة أصحاب المثل الثانى وهم الكافرون .أى : ويخلق فيهم الضلال عن الحق بسبب إيثارهم الكفر على الإيمان .( وَيَفْعَلُ الله مَا يَشَآءُ ) فعله ، عن تثبيت من يريد تثبيته ، وإضلال من يريد إضلاله ، حسبما تقتضيه إرادته وحكمته ، لاراد لأمره ، ولا معقب لحكمه .

الم تر الى الذين بدلوا نعمت الله كفرا واحلوا قومهم دار البوار

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك مصير الجاحدين الذين قابلوا نعم الله بالكنود والجحود ، وأمر المؤمنين بأداء ما كلفهم به - سبحانه - من عبادات وقربات ، وساق لهم ألوانا من الآلاء التى تفضل بها على عباده ، فقال - تعالى - :( أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين بَدّلُواْ . . . ) .قوله - سبحانه - ( أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين بَدَّلُواْ نِعْمَةَ الله كُفْراً . . الخطاب فيه للنبى - صلى الله عليه وسلم - أو لكل من يصلح للخطاب ( والاستفهام للتعجيب من أحوالهم الذميمة .وبدلوا من التبديل بمعنى التغيير. والتحويل ، والمراد به : وضع الشئ فى غير وضعه ومقابلة نعم الله بالجحود وعدم الشكر .ونعمة الله التى بدلوها ، تشمل كفرهم بالرسول - صلى الله عليه وسلم - الذى أرسله الله - تعالى - لإخراجهم من الظلمات إلى النور ، كما تشمل إكرام الله لهم - أى لهم مكة - بأن جعلهم فى حرم آمن ، وجعلهم سدنة بينة . . ولكنهم لم يشكروا الله على هذه النعم ، بل أشركوا معه فى العبادة آلهة أخرى .قال صاحب الكشاف ما ملخصه : " قوله : ( بَدّلُواْ نِعْمَةَ الله ) لأن شكرها الذى وجب عليهم وضعوا مكانه كفرا ، فكأنهم غيروا الشكر إلى الكفر وبدلوه تبديلا .وهم أهل مكة أسكنهم الله حرمه ، وجعلهم قوام بيته وأكرمهم بمحمد - صلى الله عليه وسلم - فكفروا نعمة الله بدل ما لزمهم من الشكر العظيم ، أو أصابهم الله بالنعمة فى الرخاء والسعة لإيلافهم الرحلتين ، فكفروا نعمته ، فضربهم بالقحط سبع سنين ، فحصل لهم الكفر بدل النعمة ، وكذلك حين أسروا وقتلوا يوم بدر ، قد ذهبت النعمة عنهم ، وبقى الكفر طوقا فى أعناقهم . . "وقال الإمام ابن كثير ما ملخصه :" قال البخارى قوله : ( أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين بَدَّلُواْ نِعْمَةَ الله كُفْراً . . ) حدثنا على بن عبدالله حدثنا سفيان ، عن عمرو ، عن عطاء ، سمع ابن عباس قال هم كفار أهل مكة .ثم قال ابن كثير : وهذا هو الصحيح ، وإن كان المعنى يعم : جميع الكفار ، فإن الله - تعالى - " بعث محمدا - صلى الله عليه وسلم - رحمة للعالمين ، ونعمة للناس؛ فمن قبلها وقام بشكرها دخل الجنة ، ومن ردها وكفرها دخل النار . . " .وما ذهب إليه صاحب الكشاف وابن كثير - رحمهما الله - هو الذى تطمئن إليه النفس ، لأن مشركى مكة ومن سار على شاكلتهم تنطبق عليهم هذه الآية الكريمة .وقد أورد بعض المفسرين هنا روايات فى أن المراد بهؤلاء الذين بدلوا نعمة الله كفراً ، بنو أمية وبنو مخزوم . . ولكن ) هذه الروايات بعيدة عن الصواب ، ولا سند لها من النقل الصحيح .وقوله وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ البوار ) معطوف على ( بدلوا ) لبيان رذيلة أخرى من رذائلهم المتعددة والمراد بقومهم : أتباعهم وشركاؤهم فى الكفر والعناد حتى ماتوا على ذلك .والبوار : الهلاك والخسران ، ويطلق أيضا على الكساد . يقال : بار المتاع بوارا ، إذا كسد ، إذ الكاسد فى حكم الهالك والمعنى : ألم تر - أيها العاقل - إلى حال هؤلاء المشركين ، الذين قابلوا نعم الله عليهم بالكفر والجحود ، وكانوا سببا فى إنزال قومهم دار الهلاك

والخسران .

جهنم يصلونها وبئس القرار

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ القرار ) بيان لدار بوارهم وهلاكهم أى : جهنم يصلون حرها وسعيرها ، وبئس القرار قرارهم فيها .فقوله ( جهنم ) عطف بيان لدار البوار ، وقوله ( يصلونها ) فى محل نصب حال من ( جهنم ) يقال : صلى فلان النار - من باب تعب - إذا ذاق حرها ، وتقول : صليت اللحم أصليه - من باب رمى - إذا شويته والمخصوص بالذم محذوف . أى : بئس القرار هى أى : جهنم .وفيه إشارة إلى أن حلولهم فيها كائن على وجه الدوام والاستمرار .

وجعلوا لله اندادا ليضلوا عن سبيله قل تمتعوا فان مصيركم الى النار

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - لونا ثالثا من ألوان أعمالهم القبيحة ، وعقائدهم الباطلة فقال ( وَجَعَلُواْ للَّهِ أَندَاداً لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِ . . ) .والأنداد : جمع ند وهو مثل الشئ الذى يضاده وينافره ويتباعد عنه .وأصله من ند البعير يند - بكسر النون - ندا - بالفتح - إذا نفر وذهب على وجهه شاردا .وقوله ( ليضلوا ) قرأ الجمهور - بضم الياء - من أضل غيره إذا جعله ضلالا .أى : أن هؤلاء الخاسرين لم يكتفوا بمقابلة نعمة الله بالجحود ، وإحلال قومهم دار البوار ، بل أضافوا إلى ذلك أنهم جعلوا لله - تعالى - أمثالا ونظراء ، ليصرفوا غيرهم عن الطريق الحق ، والصراط المستقيم ، الذى هو إخلاص العبادة لله - تعالى - وحده .وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ( ليضلوا ) - بفتح الياء - أى : ليستمروا فى ضلالهم ، فإنهم حين جعلهم الأنداد لله - تعالى - كانوا ضالين ، وجهلوا ذلك فاستمروا فى ضلالهم توهما منهم أنهم على صواب .قال صاحب الكشاف : قرئ ( ليضلوا ) بفتح الياء وضمها . فإن قلت : الضلال لم يكن غرضهم فى اتخاذ الأنداد فما معنى اللام؟قلت : لما كان الضلال والإضلال نتيجة اتخاذا الأنداد ، كما كان الإكرام فى قولك ، جئتك لتكرمنى نتيجة المجئ ، دخلته اللام ، وإن لم يكن غرضا ، على طريق التشبيه والتقريب .وقوله - سبحانه - ( قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النار ) أمر منه - عز وجل - لنبيه - صلى الله عليه وسلم - بأن يهددهم بهذا المصير الأليم .والتمتع بالشئ : الانتفاع به مع التلذذ والميل إليه .أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الخاسرين ، تمتعوا بما شئتم التمتع به من شهوات ولذائذ ، فإن مصيركم إلى النار لا محالة .قال صاحب فتح القدير ما ملخصه : قوله ( قُلْ تَمَتَّعُواْ ) بما أنتم فيه من الشهوات ، وبما زينته لكم أنفسكم من كفران للنعم ( فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النار ) أى : مرجعكم إليها ليس إلا .ولما كان هذا حالهم وقد صاروا لفرط تهالكهم عليه لا يقلعون عنه . جعل - سبحانه - الأمر ، بمباشرته مكان النهى عن قربانه . إيضاحا لما تكون عليه عاقبتهم ، وأنهم لا محالة صائرون إلى النار .فجعله ( فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النار ) تعليل للأمر بالتمتع ، وفيه من التهديد ما لا يقادر قدره .ويجوز أن تكون هذه الجملة جوابا لمحذوف دل عليه السياق كأنه قيل : قل تمتعوا فإن دمتم على ذلك فإن مصيركم إلى النار .والأول أولى والنظم القرآنى عليه أدل ، وذلك كما يقال لمن يسعى فى مخالفة السلطان : " اصنع ما شئت من المخالفة فإن مصيرك إلى السيف " .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النار ) وقوله - تعالى - : ( نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إلى عَذَابٍ غَلِيظٍ ) وقوله - تعالى - : ( لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الذين كَفَرُواْ فِي البلاد مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المهاد ) وبعد هذا الأمر من الله - تعالى - لنبيه - صلى الله عليه وسلم - بتهديد الكافرين .

قل لعبادي الذين امنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية من قبل ان ياتي يوم لا بيع فيه ولا خلال

كما فسرها الوسيط وجه - سبحانه - أمرا آخر له - صلى الله عليه وسلم - طلب منه فيه ، مواصلة دعوة المؤمنين إلى الاستمرار فى التزود من العمل الصالح فقال - تعالى - : ( قُل لِّعِبَادِيَ الذين آمَنُواْ يُقِيمُواْ الصلاة وَيُنْفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خِلاَلٌ ) .قال الجمل : " قوله قُل لِّعِبَادِيَ . . . إلخ ) مفعول قل محذوف يدل عليه جوابه ، أى : قل لهم أقيموا الصلاة وأنفقوا - وقوله - يقيموا وينفقوا مجزومان فى جواب الأمر ، أى : إن قلت لهم أقيموا الصلاة وأنفقوا . . يقيموا وينفقوا .ويجوز أن يكون قوله " يقيموا وينفقوا " مجزومين بلام الأمر المقدرة .أى : ليقيموا الصلاة ولينفقوا . . . .والمراد بإقامة الصلاة : المواظبة على أدائها فى أوقاتها

المحددة لها ، مع استيفائها لأركانها وسننها وآدابها وخشوعها ، ومع إخلاص
النية عند أدائها الله - تعالى - .والمراد بالإنفاق : ما يشمل جميع وجوه
الإنفاق الواجبة والمستحبة .والمراد بقوله ( سِرّاً وَعَلانِيَةً ) ما
يتنول عموم الأحوال فى الحرص على بذل المال فى وجوهه المشروعة .والمعنى :
قل - أيها الرسول الكريم - لعبادى المخلصين ، الذين آمنوا إيمانا حقا ، قل
لهم : ليستزيدوا من المواظبة على أداء الصلاة ، وعلى الإنفاق مما رزقناهم
فى جميع الأحوال ، بأن يجعلوا نفقتهم فى السر إذا كانت آداب الدين وتعاليمه
تقتضى ذلك ، وأن يجعلوها فى العلن إذا كانت المنفعة فى ذلك .والإضافة فى
قوله ( لعبادى ) للتشريف والتكريم لهؤلاء العباد المخلصين .ولم تعطف هذه
الآية الكريمة على ما قبلها وهو قوله ( قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ
مَصِيرَكُمْ إِلَى النار ) للإيذان بتباين حال الفريقين ، واختلاف شأنهما
- ومفعول ( ينفقوا ) محذوف والتقدير ينفقوا شيئا مما رزقناهم .وعبر.
سبحانه - بمن المفيدة للتبعيض فى قوله ( مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ) للاشعار
- بأنهم قوم عقلاء يبتعدون فى إنفاقهم عن الإسراف والتبذير ، عملا بقوله
تعالى -: ( والذين إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ
وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً )وهذا التعبير - أيضا - يشعر بأن هذا المال
الذى بين أيدى عباده - سبحانه - ما هو إلا رزق رزقهم الله إياه ، ونعمة
أنعم بها عليهم ، فعليهم أن يقابلوا أن يقابلوا هذه النعمة بالشكر ، بأن
ينفقوا جزءا منها فى وجوه الخير .وقوله ( سِرّاً وَعَلانِيَةً ) منصوبان
على الحال أى : مسرين ومعلنين ، أو على المصدر أى : إنفاق سر وإنفاق علانية
وقدم - سبحانه - إنفاق السر على العلانية للتنبيه على أنه أولى الأمرين فى.
- معظم الأحوال لبعده عن خواطر الرياء ، ولأنه استره للمتصدق عليه .وقوله
سبحانه - ( مِّن قَبْلِ أن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ
خِلاَلٌ ) مؤكد لمضمون ما قبله من الأمر بإقامة الصلاة وبالإنفاق فى وجوه
الخير بدون تردد أو إبطاء .ولفظ " خلال " مصدر خاللت بمعنى صاحبت وصادقت
، أو جمع خليل بمعنى صديق ، أو جمع خلة بمعنى الصداقة كقلة وقلال .أى : قل
لهم - أيها الرسول الكريم - بأن من الواجب عليهم أن يكثروا ويداوموا على
إقامة الصلاة وعلى الإنفاق مما رزقهم - سبحانه - ، من قبل أن يفاجئهم يوم
القيامة ، ذلك اليوم الذى لا تقبل فيه المعاوضات ، ولا تنفع فيه شفاعة
الصديق لصديقه ، وإنما الذى يقبل وينفع فى هذا اليوم هو العمل الصالح الذى
قدمه المسلم فى دنياه .فالجملة الكريمة تفيد حضا آخر على إقامة الصلاة وعلى
الإنفاق عن طريق التذكير للناس بهذا اليوم الذى تنتهى فيه الأعمال ، ولا
يمكن فيه استدراك ما فاتهم ، ولا تعويض ما فقدوه من طاعات .كما تفيد أن
المواظبة على أداء هاتين الشعيرتين ، من أعظم القربات التى يتقرب بها
المسلم إلى خالقه - سبحانه - والتى تكون سببا فى رفع الدرجات يوم القيامة
وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - ( ياأيها الذين آمنوا أَنْفِقُواْ مِمَّا
رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ
خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ والكافرون هُمُ الظالمون ).

الله الذي خلق السماوات والارض وانزل من السماء ماء فاخرج به من الثمرات
رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بامره وسخر لكم الانهار

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ألوانا من نعمه التى تستوجب
شكره وطاعته وإخلاص العبادة له والتى تدل على كمال قدرته وعلمه ووحدانيته
- فقال - تعالى - ( الله الذي خَلَقَ السماوات والأرض . . ) .أى : الله
تعالى - وحده هو الذى أوجد السموات والأرض وما فيهما من أجرام علوية وسفلية
بدون مثال سابق .وافتتحت الآية الكريمة بلفظ الجلالة ، لما فى ذلك من تربية
المهابة ، ومن لفت أنظار المشركين إلى ما هم فيه من ضلال حتى يقلعوا عنه
- وجاء الخبر بصيغة الموصول ، لأن الصلة معلومة الثبوت له - سبحانه.
والمشركون لا ينازعون فى ذلك ، كما قال - تعالى - ( وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ
مَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض لَيَقُولُنَّ الله ) وقوله ( وَأَنزَلَ مِنَ
السمآء مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثمرات رِزْقاً لَّكُمْ .. ) بيان للون
آخر من ألوان نعمه على خلقه .والمراد بالسماء هنا : السحاب ، أو جهة العلو
) ، أى : وأنزل - سبحانه - من المزن أو السحاب ( ماء ) كثيرا هو المطر.
فَأَخْرَجَ بِهِ ) أى بذلك الماء ( مِنَ الثمرات ) المتعددة الأنواع
والأصناف ( رِزْقاً لَّكُمْ ) تنتفعون به ، وتتمتعون بجمال منظره وطيب
مطعمه .ثم حكى - سبحانه - ألوانا أخرى من نعمه فقال : ( وَسَخَّرَ لَكُمُ
الفلك لِتَجْرِيَ فِي البحر بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأنهار
. وَسَخَّر لَكُمُ الشمس والقمر دَآئِبَينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الليل والنهار
وقوله " سخر " من التسخير بمعنى التذليل والتطويع والقدرة على التصرف فى(
الشئ والانتفاع به .والفلك : ما عظم من السفن . ويستعمل لفظه فى الواحد
والجمع ، والظاهر أن المراد به هنا الجمع لقوله - سبحانه - " لتجرى " بتاء
التأنيث .أى : ( وَسَخَّرَ لَكُمُ ) - سبحانه - السفن الضخمة العظيمة ، بأن
ألهمكم صنعها ، وأقدركم على استعمالها ( لِتَجْرِيَ فِي البحر ) إلى حيث

- تريدون " بأمره " وإذنه ومشيئته ، لا بإذنكم ومشيئتكم ، إذ لو شاء سبحانه - لقلبها بكم .

وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار

كما فسرها الوسيط ( وَسَخَّرَ لَكُمُ الشمس والقمر دَآئِبَينَ ) أى : دائمين فى إصلاح ما يصلحان من الأبدان والنبات وغيرهما أو دائمين فى مدارهما المقدر لهما بدون اضطراب أو اختلال . ولا يفتران عن ذلك ما دامت الدنيا وأصل الدأب : الدوام والعادة المستمرة على حالة واحدة . يقال : دأب فلان. على كذا يدأب دأبا ، إذا داوم عليه وجد فيه .و ( وَسَخَّرَ لَكُمُ الليل والنهار ) بأن جعلهما متعاقبين ، يأتى أحدهما فى أعقاب الآخر ، فتنتفعون . . بكل منهما بما يصلح أحوالكم .فالليل تنتفعون به فى راحتكم ومناهكم والنهار تنتفعون به فى معاشكم وطلب رزقكم قال - تعالى - ( وَجَعَلنَا الليل لِبَاساً . وَجَعَلْنَا النهار مَعَاشاً ) .

واتاكم من كل ما سالتموه وان تعدوا نعمت الله لا تحصوها ان الانسان لظلوم كفار

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - هذه النعم بقوله ( وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ . . )أى : وأعطاكم - فضلا عما تقدم من النعم - بعضا من جميع ما سألتموه إياه من نعم ، على حسب ما تقتضيه إرادته وحكمته التى لا تعلمونها كما قال - تعالى - ( وَلَوْ بَسَطَ الله الرزق لِعِبَادِهِ لَبَغَوْاْ فِي الأرض ولكن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مّا يَشَآءُ ) إِنّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ) قال الجمل ما ملخصه " قوله وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ) أى : كل نوع أو كل صنف سألتموه " أى : شأنكم أن تسألوه لاحتياجكم إليه ، وإن لم تسألوه بالفعل .وفى " من قولان : أحدهما أنها زائدة فى المفعول الثانى ، أى : آتاكم كل ما سألتموه والثانى أن تكون تبعيضية أى : وآتاكم بعض جميع ما سألتموه وعلى هذا. فالمفعول محذوف تقديره : وآتاكم شيئا من كل ما سألتموه ، وهو رأى سيبويه . وجملة ( وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ الله لاَ تُحْصُوهَا ) مؤكدة لمضمون" . ما قبلها .أى : وإن تحاولوا عد نعم الله عليكم ، وتحاولوا تحديد هذا العدد لن تستطيعوا ذلك لكثرة هذه النعم ، وخفاء بعضه عليكم .والإحصاء : ضبط ، العدد وتحديده ، مأخوذ من الحصا وهو صغار الحجارة لأن العرب كانوا يعدون الأعداد الكثيرة بالحصى تجنبا للخطأ .قال ابن كثير :" يخبر - سبحانه - عن - عجز العباد من تعداد نعمه فضلا عن القيام بشكرها ، كما قال طلق بن حبيب رحمه الله - : إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد وإن نعم الله أكثر من يحصيها العباد ولكن أصبحوا توابين وأمسوا توابين " .وفى صحيح البخاري أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يقول : " لك الحمد غير مكفى - أى لم يكفه غيره بل هو - سبحانه - يكفى غيره - ولا مودع - أى متروك حمده - ، ولا مستغنى عنه ربنا - أى هو الذى يحتاج إليه الخلق . . " .والمراد بالإنسان فى قوله ( إِنّ الإنسان لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ) نوع معين منه وهو الكافر كما فى قوله - تعالى - ( وَيَقُولُ الإنسان أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً ) أى : إن الإنسان الكافر لشديد الظلم لنفسه بعبادته لغير : الله - تعالى - ، ولشديد الجحود والكفران لنعمه - عز وجل .قال الشوكانى قوله - سبحانه : ( إِنّ الإنسان لَظَلُومٌ ) أى لنفسه بإغفاله لشكر نعم الله عليه ، وظاهره شمول كل إنسان ، وقال الزجاج : إن الإنسان هنا اسم جنس يقصد به الكافر خاصة ، كما فى قوله - تعالى - ( والعصر إِنَّ الإنسان لَفِى خُسْرٍ ) " كفار " أى : شديد كفران نعم الله عليه ، جاحد لها ، غير شاكر لله عليها كما ينبغى ويجب عليه .وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد ابتدأت ببيان سوء عاقبة الذين بدلوا نعمة الله كفرا ، وثنت بأمر النبى - صلى الله عليه وسلم - بأن يحض المؤمنين الصادقين على الاستزادة من إقامة الصلاة ومن - الانفاق فى سبيل الله .ثم ساقت عشر نعم تدل دلالة واضحة على وحدانية الله تعالى - وعلمه وقدرته ، وهذه النعم هى خلق السموات والأرض ، وإنزال المطر من السماء ، وإخراج الثمرات به ، وتسخير الفلك فى البحار ، وتسخير الأنهار - وتسخير الليل والنهار .ثم ختمت ببيان أنه - سبحانه - قد أعطى الناس ، فضلا عن كل ذلك - جميع ما يحتاجون إليه فى مصالحهم على حسب حكمته ومشيئته ولكن الناس - إلا من عصم الله -لا يقابلون نعمه - سبحانه - بما تستحقه من شكر ، لشدة ظلمهم وكثرة جحودهم .

واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد امنا واجنبني وبني ان نعبد الاصنام

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك بعض الدعوات التى تضرع بها إبراهيم - عليه السلام - إلى ربه ، وهى دعوات تدل على شكره لخالقه ، وحسن صلته به ، ورجائه فى فضله . . فقال - تعالى - :( وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ

رَبِّ اجعل . . . ) .هذه بعض الدعوات التى ابتهل بها إبراهيم - عليه السلام - إلى ربه ، وقد تقبلها الله - تعالى - منه قبولا حسنا .وفى هذه الدعوات تنبيه لمشركى مكة الذين بدلوا نعمة الله كفرا ، والذين جحدوا نعم الله عليهم ، بأن من الواجب عليهم أن يثوبوا إلى رشدهم ، وأن يستجيبوا لدعوة الحق ، وأن يقتدوا بإبراهيم - عليه السلام - فى إيمانه وشكره لخالقه - سبحانه - .و " إذ " ظرف لما مضى من الزمان ، وهو منصوب على المفعولية لفعل محذوف .و " رب " منادى بحرف نداء محذوف أى : يا رب .والمراد بالبلد : مكة المكرمة شرفها الله - تعالى - .والمعنى : إبراهيم - عليه السلام - فى دعائه نعمة الأمن على غيرها - لأنها أعظم أنواع النعم ، ولأنها إذا فقدها الإنسان ، اضطرب فكره ، وصعب عليه أن يتفرغ لأمور الدين أو الدنيا بنفس مطمئنة ، وبقلب خال من المنغصات المزعجات .قال الإمام الرازى سئل بعض العلماء : الأمن أفضل أم الصحة؟ فقال الأمن أفضل ، والدليل " : عليه أن شاة لو انكسرت رجلها فإنها تصح بعد زمان ، ولا يمنعها هذا الكسر من الإقبال على الرعى والأكل والشرب .ولو أنها ربطت - وهى سليمة - فى موضع ، وربط بالقرب منها ذئب ، فإنها تمسك عن الأكل والشرب ، وقد تستمر على ذلك إلى أن تموت .وذلك يدل على أن الضرر الحاصل من الخوف ، أشد من الضرر الحاصل من ألم الجسد .وقال الإمام ابن كثير ما ملخصه : " يذكر الله - تعالى - فى هذا المقام - محتجا على مشركى مكة الذين كانوا يزعمون أنهم على ملة إبراهيم قد تبرأ ممن عبد غير الله ، وأنه دعا لمكة بالأمن وقد استجاب الله له فقال - تعالى - : ( أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ الناس مِنْ حَوْلِهِمْ . . ) وقال - تعالى - : ( إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ . فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً . . ) وقال صاحب الكشاف : " فإن قلت : أى فرق بين قوله - تعالى - فى سورة البقرة ( رَبِّ اجعل هذا بَلَداً آمِناً . . ) وبين قوله هنا ( رَبِّ اجعل هذا البلد آمِناً . . . ) .قلت : قد سأل فى الأول أن يجعله من جملة البلاد التى يأمن أهلها ولا يخافون ، وسأل فى الثانى أن يخرجه من صفة كان عليها من الخوف إلى ضدها من الأمن ، كأنه قال : هو بلد مخوف فاجعله آمنا . . "وقوله - سبحانه - ( واجنبني وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأصنام ) حكاية لدعوة أخرى من الدعوات التى تضرع بها إبراهيم - عليه السلام - إلى خالقه - سبحانه - .وقوله ( واجنبنى ) بمعنى وأبعدنى مأخوذ من قولك جنبت فلانا عن كذا ، إذا أبعدته عنه ، وجعلته فى جانب آخر ، وفعله جنب من باب نصر .والمراد ببنيه : أولاده من صلبه ، أوهم من تناسل معهم والأصنام جمع صنم ، وهو التمثال الذى كان مشركوا العرب يصنعونه من الحجر. الحجر ونحوه لكى يعبدوه من دون الله .والمعنى : أسألك يا ربى أن تجعل مكة ، بلدا آمنا ، كما أسألك أن تعصمنى وتعصم ذريتى من بعدى من عبادة الأصنام ، وأن تجعل عبادتنا خالصة لوجهك الكريم .وقد بين - سبحانه - فى آيات أخرى أنه قد أجابه فى بعض ذريته دون بعض .ومن ذلك قوله - تعالى - ( سَلاَمٌ على إِبْرَاهِيمَ . كَذَلِكَ نَجْزِي المحسنين . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المؤمنين . وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِّنَ الصالحين . وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وعلى إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ . )

رب انهن اضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فانه مني ومن عصاني فانك غفور رحيم

كما فسرها الوسيط وقوله : ( رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ الناس . . ) تعليل لسؤال إبراهيم ربه أن يجنبه وذريته عبادة الأصنام .أى : يا رب لقد تضرعت إليك بأن تعصمنى وبنىّ عن عبادة الأصنام ، لأنها كانت سببا فى إضلال كثير من الناس عن اتباع الحق ، وعن الهداية إلى الصراط المستقيم وأسند الإضلال إليها مع أنها جمادات لا تعقل ، لأنها كانت سببا فى إضلال. كثير من الناس ، فكأنها أضلتهم ، فنسبة الإضلال إليها مجازية من باب نسبة الشئ إلى سببه ، كما يقال : فلان فتنته الدنيا وأضلته ، وهو إنما فتن وضل بسببها .وقوله - سبحانه - ( فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ) بيان لموقفه - عليه السلام - من المهتدين والضالين .أى : فمن تبعنى من الناس فى ديني وعقيدتى ، فإنه يصير بهذا الاتباع من أهل دينى وهو دين الإسلام ، ومن عصانى ولم يقبل الدخول فى الدين الحق ، فإنى أفوض أمره إليك ، فأنت - سبحانك -لا تسأل عما تفعل وغيرك يسأل .فالجملة الكريمة تدل على الأدب السامى ، والخلق العالى ، الذى كان يتحلى به إبراهيم - عليه السلام - فى مخاطبته لربه - عز وجل - حيث فوض الأمور إليه دون أن يقطع فيه برأى ، كما تدل على رقة قلبه وشفقته على العصاة من الوقوع فى العذاب الأليم .وشبيه بهذه الآية ما حكاه - سبحانه - عن عيسى - عليه السلام - فى قوله : ( إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ العزيز الحكيم ) هذا ، ولا نرى وجها لما ذهب إليه بعض المفسرين ، من أن قول إبراهيم - عليه

السلام - ( وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ) كان قبل أن يعلم
بأن الله لا يغفر الشرك ، أو أن المراد بالمعصية هنا ما دون الشرك ، أون
المغفرة مقيدة بالتوبة من الشرك . . "نقول :لا نرى وجها لكل ذلك ، لأن
الجملة الكريمة ليس المقصود بها الدعاء بالمغفرة لمن عصى ، وإنا المقصود
بها تفويض أمر العصاة إلى الله - تعالى - إن شاء غفر لهم ورحمهم ، وإن شاء
عذبهم .

ربنا اني اسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا
الصلاة فاجعل افئدة من الناس تهوي اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - دعاء آخر من تلك الأدعية التى تضرع بها
إبراهيم إليه - تعالى - فقال : ( رَّبَّنَآ إني أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي
بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ المحرم رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ
الصلاة . . )و " من " فى قوله ( مِنْ ذُرِّيَّتِي ) للتبعيض .والوادى : هو
المكان المنخفض بين مرتفعات ، والمقصود به وادى مكة المكرمة .والمعنى : يا
ربنا إنى أسكنت بعض ذريتى وهو ابنى إسماعيل ومن سيولد له ، بواد غير ذى زرع
، قريبا من بيتك المحرم ، أى : الذى حرمت التعرض له بسوء توقيرا وتعظيما
) والذى جعلته مثابة للناس وأمنا ، وفضلته على غيره من الأماكن .وقوله
رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصلاة ) بيان للباعث الذى دفعه لإسكان بعض ذريته
فى هذا المكان الطيب .أى : يا ربنا إنى أسكنتهم ، هذا المكان ليتفرغوا
&;لإقامة الصلاة فى جوار بيتك ، وليعمروه بذكرك وطاعتك . رضي الله عن
فاللام فى قوله ( ليقيموا ) للتعليل وهى متعلقة بأسكنت .وخصت الصلاة بالذكر
من بين سائر العبادات ، لمزيد فضلها ، ولكمال العناية بشأنها .قال القرطبى
) تضمنت هذه الآية أن الصلاة بمكة أفضل من الصلاة بغيرها ، لأن معنى " :
رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصلاة ) أى : أسكنتهم عند بيتك المحرم ليقيموا
الصلاة فيه .وقد اختلف العلماء هل الصلاة بمكة أفضل أو فى مسجد النبى - صلى
الله عليه وسلم -؟فذهب عامة أهل الأثر إلى أن الصلاة فى المسجد الحرام أفضل
من الصلاة فى مسجد الرسول - صلى الله عليه وسلم - بمائة صلاة ، واحتجوا
" : - بحديث عبد الله بن الزبير قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم
صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد ، إلا المسجد
" الحرام ، وصلاة فى المسجد الحرام أفضل من صلاة فى مسجدى هذا بمائة صلاة
وقد روى عن ابن عمر عن النبى - صلى الله عليه وسلم - حديث ابن الزبير.
وقوله ( فاجعل أَفْئِدَةً مِّنَ الناس تهوي إِلَيْهِمْ وارزقهم مِّنَ"
الثمرات لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ) دعاء جامع لمطالب الدين والدنيا ، لأن
الناس يذهبون إلى البيت الحرام للتقرب إلى الله - تعالى - ، وليتبادلوا
المنافع عن طريق التجارة وغيرها مع السكان المجاورين لهذا البيت المعمور
والأفئدة : جمع فؤاد ، والمراد بها القلوب والنفوس .والمراد بالناس فى.
قوله ( مِّنَ الناس ) المؤمنون منهم ، لأنهم هم الذين يذهبون إلى البيت
الحرام ، ليشهدوا منافع لهم ، وليتقربوا إليه - سبحانه - بحج بيته .وتهوى
إليهم : أى تسرع إليهم ، يقال : هوى - بفتح الواو - يهوى - بكسرها - إذا
أسرع فى السير ، ومنه قولهم : هوت الناقة تهوى هويا ، إذا عدت عدوا شديدا
: والأصل فيه أن يتعدى باللام ، وعدى هنا بإلى لتضمنه معنى تميل وتسرع .أى.
يا ربنا إنى تركت بعض ذريتى فى جوار بتيك ، فأسألك يا إلهى أن تجعل نفوس
الناس وقلوبهم تحن إلى هذا المكان ، وتطير فرحا إليه ، وارزق من تركتهم
وديعة فى جوار بيتك من الثمرات المختلفة ما يغنيهم لعلهم بهذا العطاء
) - الجزيل يزدادون شكرا لك ، ومسارعة فى طاعتك وعبادتك .وقال - سبحانه
فاجعل أَفْئِدَةً مِّنَ الناس تهوي إِلَيْهِمْ ) ولم يقل فاجعل الناس تهوى
إليهم ، للإشارة إلى أن سعى الناس إليهم يكون عن شوق ومحبة حتى لكأن
المسرع إلى هذا الجوار الطيب هو القلب والروح وليس الجسد وحده .قال صاحب
- الكشاف ما ملخصه :" وقد أجاب الله - تعالى - دعوة إبراهيم - عليه السلام
فجعل البيت الحرام حرما آمنا تجبى إليه ثمرات كل شئ رزقا من لدنه ، ثم فضله
، ثم وجود أصناف الثمار فيه على كل ريف وعلى أخصب البلاد وأكثرها ثمارا
وفى أى بلد من الشرق والغرب ، ترى الأعجوبة التى يريكها الله بواد غير ذى
زرع - وهى اجتماع البواكير والفواكه المختلفة والأزمان من الربيعية
والصيفية والخريفية فى يوم واحد ، وليس ذلك من آياته عجيب ، معنا الله
بسكنى حرمه ، ووفقنا لشكر نعمه وأدام لنا التشرف بالدخول تحت دعوة إبراهيم
وزرقنا طرفا من سلامة ذلك القلب السليم " .هذا ، وقد ساق الإمام الآلوسى ،
عند تفسيره لهذه الآية قصة إسكان إبراهيم لبعض ذريته فى هذا المكان فقال ما
ملخصه : " وهذا الإسكان إنما كان بعد أن حدث ما حدث بين إبراهيم وبين زوجه
- سارة ، وذلك أن هاجر أم إسماعيل كانت أمة من القبط لسارة فوهبتها
لإبراهيم عليه السلام - فتزوجها فولدت له إسماعيل . فدبت الغيرة فى قلب
سارة ولم تصبر على بقائها معها فأخرج إبراهيم - عليه السلام - هاجر وابنها
، إلى أرض مكة ، فوضعهما عند البيت ، عند دوحه فوق زمزم فى أعلى المسجد
وليس يومئذ أحد ، وليس بها ماء ، ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء

ثم قفى منطلقا فتبعته هاجر ، فقالت له : يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا ، بهذا الوادى الذى ليس فيه أنيس .قالت له ذلك مرارا وهو لا يلتفت إليها ، فقال له : آلله أمرك بهذا؟ قال : نعم . قالت : إذا لا يضيعنا ، ثم رجعت ، وانطلق إبراهيم - عليه السلام - حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه. استقبل بوجهه البيت - وكان إذ ذاك مرتفعا من الأرض كالرابية - ثم دعا بهذه الدعوات ، ورفع يديه فقال : ( رَّبَّنَآ إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ . . . ) الآية .ثم إنها جعلت ترضع ابنها وتشرب مما فى السقاء حتى إذا نفد ما فى السقاء ، عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه ، بتلبط - أى يتلوى ويتمرغ - من شدة العطش ، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفا أقرب جبل فى الأرض يليها ، فقامت عليه ، ثم استقبلت الوادى ، تنظر هل ترى أحدا .فلم تر أحدا ، فهبطت من الصفا ، حتى إذا بلغت الوادى رفعت طرف درعها ، ثم سعت سعى الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادى ، ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحدا ، فلم تر أحدا ، ففعلت ذلك سبع مرات : ولذلك سعى الناس بينهما سبعا .فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت ، صه! تريد نفسها ثم تسمعت فسمعت أيضا صوتا فقالت : قد أسمعت إن كان عندك غواث ، فإذا هى بالملك عند موضع زمزم ، فبحث بعقبه حتى ظهر الماء ، فجعلت تحوضه وتغرف منه فى سقائها وهو يفور ، فشربت وأرضعت ولدها ، وقال لها الملك لا تخافى الضيعة ، فإن هاهنا بيت الله - تعالى - يبنيه هذا الغلام وأبوه : وإن الله - تعالى - لن يضيع أهله .ثم إنه مرت بهما رفقة من جرهم ، فرأوا ، طائراً عائفا - أى يتردد على الماء ولا يمضى - فقالوا : لا طير إلا على الماء ، فبعثوا رسولهم فنظر فإذا بالماء ، فأتاهم فقصدوه وأم إسماعيل عنده فقالوا : أشركينا فى مائك نشركك فى ألباننا ، ففعلت ، فلما أدرك ، إسماعيل - عليه السلام - زوجوه امرأة منهم . "

ربنا انك تعلم ما نخفي وما نعلن وما يخفى على الله من شيء في الارض ولا في السماء

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - دعاء آخر من تلك الدعوات الخاشعة التى تضرع بها إبراهيم إلى ربه فقال : ( رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يخفى عَلَى الله مِن شَيْءٍ فِي الأرض وَلاَ فِي السمآء ) .أى : يا ربنا إنك وحدك العليم بما تخفيه نفوسنا من أسرار؛ وما تعلنه وتظهره من أقوال ، لأن الظاهر والمضمر بالنسبة إليك سواء ، فأنت يا إلهى لا يخفى عليك شئ من الأشياء ، سواء أكان هذا الشئ فى الأرض أم فى السماء أم فى غيرهما .وإنما ذكر السماء والأرض لأنهما المشاهدتان للناس ، وإلا فعلمه - سبحانه - محيط بكل ما فى هذا الكون .

الحمد لله الذي وهب لي على الكبر اسماعيل واسحاق ان ربي لسميع الدعاء

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - ما قاله إبراهيم - عليه السلام - فى مقام شكره لله على نعمه فقال - تعالى - : ( الحمد للَّهِ الذي وَهَبَ لِي عَلَى الكبر إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدعآء ) والحمد هو الثناء باللسان على من صدرت منه النعمة ، وأل فيه للاستغراق أى: جميع أجناس الحمد ثابتة لله رب العالمين ، لأن كل ما يستحق أن يقابل بالثناء والحمد فهو صادر عنه - سبحانه - إذ هو الخالق لكل شئ .وعلى فى قوله ( عَلَى الكبر ) للاستعلاء المجازى وهى بمعنى مع . أى : وهب لى مع الكبر ، الذى لا تحصل معه فى الغالب ولادة .وإسماعيل هو الابن الأكبر لإبراهيم وقد رزقه الله به من زوجه هاجر كما سبق أن أشرنا - ، أما إسحاق فكان أصغر من إسماعيلل ، وقد رزقه الله به من زوجه ساره .قال الفخر الرازى : " اعلم أن القرآن يدل على أنه - تعالى - إنما أعطى إبراهيم - عليه السلام - هذين الولدين على الكبر والشيخوخة ، فأما مقدار ذلك السن فغير معلوم من القرآن . وإنما يرجع فيه الروايات فقيل لما ولد إسماعيل كان سن إبراهيم تسعا وتسعين سنة ، ولما ولد إسحاق كان سنه مائة واثنتى عشرة سنة .وإنما ذكر قوله ( إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدعآء ) تعليل لجملة ( وَهَبَ لِي عَلَى الكبر ) ، أى : وهب لى على الكبر هذين الولدين ، لأنه - سبحانه - سمع دعائى وتقبله وأجاب طلبى دون أن يخيبنى .فالسميع هنا مستعمل على سبيل المجاز فى إجابة المطلوب ، ومنه قول القائل : سمع الملك كلام فلان ، إذا اعتد به وقبله وعمل بمقتضاه ، وهو من إضافة الصفة المتضمنة للمبالغة إلى المفعول . أى : إن ربى يسمع دعائى ويجيبه .

رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء

كما فسرها الوسيط ثم ختم إبراهيم - عليه السلام - تلك الدعوات الطيبات التى تضرع بها إلى ربه ، بما حكاه الله عنه فى قوله ( رَبِّ اجعلني مُقِيمَ الصلاة وَمِن ذُرِّيَتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ . رَبَّنَا اغفر لِي

وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الحساب )أى : يا رب
اجعلنى من عبادك الذين يؤدون الصلاة فى أوقاتها بإخلاص وخشوع ، واجعل من
ذريتى من يقتدى بى فى ذلك ، كما أسألك يا رب أن تتقبل دعائى ولا تخيبنى فى
مطلوب أسألك إياه .

ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب

كما فسرها الوسيط كما أسألك - يا إلهى - أن تغفر لى ذنوبى ، وأن تغفر
لوالدى وللمؤمنين ، يوم يقوم الناس للحساب ، فتجازى كل إنسان بما يستحقه من
ثواب أو عقاب .وإنما طلب إبراهيم لوالديه المغفرة ، قبل أن يتبين له أن
والده عدو لله . فلما تبين له ذلك تبرأ منه . قال - تعالى - ( وَمَا كَانَ
استغفار إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ
فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ) أما
أمه فقال بعضهم : إنها كانت مؤمنة ، وقال آخرون : لعلها توفيت قبل نبوته
وبعد أن حكى - سبحانه - تلك الدعوات الطيبات التى تضرع بها إبراهيم إلى.
ربه ، والتى تضمنت أمهات الفضائل ، كسلامة القلب ، وطهارة النفس ، ورقة
العاطفة ، وحسن المراقبة ، وحب الخير لغيره .

ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الابصار

، كما فسرها الوسيط بعد كل ذلك حكى - سبحانه - أحوال الظالمين يوم القيامة
وأقوالهم فى ذلك اليوم الشديد ، ورده - تعالى - عليهم ، والأسباب التى أدت
إلى خسرانهم . . . فقال - تعالى - :(وَلاَ تَحْسَبَنَّ الله غَافِلاً
قال الإمام القرطبى : " قوله - تعالى - ( وَلاَ تَحْسَبَنَّ الله. (
غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظالمون . . . ) هذا تسلية للنبى - صلى الله
عليه وسلم - بعد أن عجبه من أفعال المشركين ، ومخالفتهم دين إبراهيم ، أى
: اصبر كما صبر إبراهيم ، وأعلم المشركين أن تأخير العذاب ليس للرضا بأفعالهم
بل سنة الله إمهال العصاة مدة . قال ميمون بن مهران : هذا وعيد للظالم ،
وتعزية للمظلوم " .والخطاب ( وَلاَ تَحْسَبَنَّ ) ، يجوز أن يكون للنبى -
صلى الله عليه وسلم - لقصد زيادة تثبيته على الحق ، ودوامه على ذلك ، ويجوز
أن يكون لكل من يصلح للخطاب .والغفلة : سهو يعترى الإنسان بسبب قلة تيقظه
وانتباهه ، ولا شك أن ذلك محال فى حق الله - تعالى - ، لذا وجب حمل المعنى
على أن المراد بالغفلة هنا : ترك عقاب المجرمين .والمراد بالظالمين : كل من
انحرفوا عن طريق الحق ، واتبعوا طريق الباطل ، ويدخل فيهم دخولا أوليا
مشركو مكة ، الذين أبوا الدخول فى الإسلام الذى جاءهم به النبى - صلى الله
عليه وسلم - .وقوله ( إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ
الأبصار ) استئناف وقع تعليلا للنهى السابق .وقوله ( تشخيص ) من الشخوص
، بمعنى رفع البصر بدون تحرك يقال شخص بصر فلان - من باب خضع - فهو شاخص
إذا فتح عينيه وجعل لا يطرف من شدة الخوف والفزع .والمعنى : الذين كذبوك فى
، دعوتك ، كلا لن يترك الله - تعالى - عقابهم ، وإنما يؤخره ليوم هائل شديد
هو يوم القيامة الذى ترتفع فيه أبصارا أهل الموقف ، فلا تطرف أجفانهم من
هول ما يرونه .

مهطعين مقنعي رءوسهم لا يرتد اليهم طرفهم وافئدتهم هواء

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعض أحوال هؤلاء الظالمين فى هذا اليوم
العظيم فقال - تعالى - : ( مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لاَ
يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَآءٌ ) .والإهطاع
السير السريع . يقال : أهطع فلان فى مشيه فهو يهطع إهطاعا إذا أسرع فى سيره
بذلة واضطراب .و ( مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ ) أى رافعيها ، يقال : أهطع فلان
رأسه ، إذا نصبه ورفعه دنون أن يلتفت يمينا أو شمالا . وقيل ، إقناع الرءوس
طأطأتها وانتكاسها .الأفئدة : جمع فؤاد ، والمراد بها القلوب .والمعنى : أن
هؤلاء الظالمين يخرجون من قبورهم فى هذا اليوم مسرعين إلى الداعى بذلة
واستكانة ، كإسراع الأسير الخائف ، رافعى رءوسهم إلى السماء مع إدامة النظر
بأبصارهم إلى ما بين أيديهم من غير التفات إلى شئ .( لاَ يَرْتَدُّ
إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ) أى :لا تتحرك أجفان عيونهم ، بل تبقى مفتوحة بدون
حراك لهول ما يشاهدونه فى هذا اليوم العصيب .( وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَآءٌ )
أى : وقلوبهم فارغة خالية عن الفهم ، بحيث لا تعى شيئا من شدة الفزع
والدهشة ، ومنه قولهم فى شأن الأحمق والجبان قلبهما هواء ، أى لا رأى فيه
ولا قوة .وأفرد هواء وإن كان خبرا عن جمع لأنه فى معنى فارغة أو خالية
قال - تعالى - ( وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ موسى فَارِغاً . . . ) أى خاليا.
من كل شئ إلا من التفكير فى شأن مصير ابنها موسى - عليه السلام - .فأنت ترى
أن الله - تعالى - قد وصف هؤلاء الظالمين فى هاتين الآيتين بجملة من الصفات
الدالة على فزعهم وحيرتهم .وصفهم أولا بشخوص الأبصار ، ووصفهم ثانيا

بالإسراع إلى الداعى فى ذلة وانكسار ، ووصفهم ثالثا برفع رءوسهم فى حيرة ، واضطراب ، ووصفهم رابعا : بانفتاح عيونهم دون أن تطرف من شدة الوجل ووصفهم خامسا بخلو قلوبهم من إدراك أى شئ بسبب ما اعتراهم من دهشة ورعب وقوله - سبحانه - : ( وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَآءٌ ) من باب التشبيه البليغ. الذى حذفت فيه الأداة ، والتقدير : وقلوبهم كالهواء فى الخلو من الإدراك من شدة الهول .

وانذر الناس يوم ياتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا اخرنا الى اجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل اولم تكونوا اقسمتم من قبل ما لكم من زوال

كما فسرها الوسيط ثم أمر الله تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يحذر الناس من أهوال هذا اليوم ، وأن يقدموا العمل الصالح الذى ينفعهم فقال - تعالى - ( وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ العذاب فَيَقُولُ الذين ظلموا رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إلى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرسل . . )والإنذار : التخويف من ارتكاب شئ تسوء عاقبته والمراد بالناس : جميعهم ، وقيل المراد بهم الكفار . ويبدوا أن الأول أرجح. لأن الإنذار يكون للمؤمن كما يكون للكافر ، إلا أن المؤمن يستجيب للنصح - فينجو من العقاب ، والكافر لا يستجيب فيحل عليه العذاب .والمعنى : وخوف أيها الرسول الكريم - الناس من أهوال يوم القيامة ، ومرهم بأن يستعدوا له : بالإيمان والعمل الصالح ، من قبل أن يحل عذابه بالظالمين منهم فيقولون ، يا ربنا أعدنا إلى الحياة مرة أخرى ، وأخر أعمارنا وحسابنا إلى وقت قريب حتى نستطيع فيه أن نستجيب لدعوتك التى تأمرنا بإخلاص العبادة لك ، وأن نتبع رسلك فى كل ما أمرونا به ونتدارك ما فرطنا فيه من أعمال الدنيا .قال الجمل وقوله : ( يَوْمَ يَأْتِيهِمُ العذاب . . . ) مفعول ثان لأنذر على حذف " المضاف ، أى : أنذرهم أهواله وعظائمه ، فهو مفعول به لا مفعول فيه ، إذ لا - إنذار فى ذلك اليوم ، وإنما الإنذار يقع فى الدنيا . . "وإنما اقتصر - سبحانه - على ذكر إتيان العذاب فى هذا اليوم . مع كون الثواب يحصل فيه أيضا - لأن المقام مقام تهديد وزجر ، فكان من المناسب ذكر أهواله وشدائده وجمع لفظ الرسل فقال : ( نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرسل ) للإشارة. إلى أن الرسل جميعا قد جاءوا برسالة واحدة فى جوهرها وأصولها ، وهى إخلاص العبادة لله - تعالى - ، والدعوة إلى مكارم الأخلاق .وفى معنى هذه الآية الكريمة جاءت آيات كثيرة ومنها قوله - تعالى - ( حتى إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ الموت قَالَ رَبِّ ارجعون . لعلي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِمْ بَرْزَخٌ إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ )وقوله - تعالى - : ( وَلَوْ ترى إِذِ المجرمون نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فارجعنا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ ) وجملة ( أَوَلَمْ تكونوا أَقْسَمْتُمْ مِّن قَبْلُ مَا لَكُمْ مِّن زَوَالٍ ) مقول لقول محذوف .والزوال : الانتقال من مكان إلى آخر ، أو من حال إلى حال ، والمراد به هنا : انتقالهم من قبورهم إلى الحساب يوم القيامة .والمعنى : أن هؤلاء الظالمين عندما يقولون يا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل .يقال لهم من قبل الله والملائكة على سبيل التوبيخ والتبكيت : أو لم تكونوا - أيها الظالمون - تقسمون بالأيمان المغلظة فى الدنيا ، بأنكم بعد موتكم ستبقون فى قبوركم إلى أن تبلى أجسادكم ، وأنه ليس بعد ذلك من بعث ولا حساب ، ولا ثواب ولا عقاب .قال - تعالى - ( وَأَقْسَمُواْ بالله جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ الله مَن يَمُوتُ . . . ) فالجملة الكريمة تحكى رفض مطالبهم بأبلغ أسلوب ، حتى يزدادوا حزنا على حزنهم ، وحسرة على حسرتهم . وجملة ( مَا لَكُمْ مِّن زَوَالٍ ) جواب القسم.

وسكنتم في مساكن الذين ظلموا انفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الامثال

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَسَكَنتُمْ فِي مساكن الذين ظلموا أَنفُسَهُمْ . . . ) معطوف على ( أقسمتم . . ) .والمراد بالسكنى : الحلول فى أماكن الظالمين لوقت يكفى للاتعاظ والاعتبار وكفار قريش كانوا يمرون قوم ثمود فى رحلتهم إلى الشام ، وكانوا يحطون رحالهم هناك ، كما كانوا يمرون على ديار قوم عاد فى رحلتهم إلى اليمن .والمعنى : لقد أقسمتم - أيها الضالون - بأنكم مالكم من انتقال من دار الدنيا إلى دار الآخرة ، وحللتم فى مساكن القوم الظالمين .( وتبين لكم ) عن طريق المشاهدة وتواتر الأخبار ). كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ) من الإهلاك والتدمير بسبب كفرهم وفسوقهم وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأمثال ) بما فعلوه وبما فعلناه بهم ، عن طريق كتابنا وعلى لسان رسولنا محمد - صلى الله عليه وسلم - .وكان من الواجب عليكم بعد ، كل ذلك أن تعتبروا وتتعظوا وتثوبوا إلى رشدكم ، وتدخلوا فى الإسلام ، ولكنكم كنتم قوما فاسقين ، سائرين على نهج هؤلاء المهلكين فى الكفر والفجور

فاليوم ذوقوا العذا بسبب جحودكم للحق فى الدنيا .قال الإمام ابن كثير ، عند تفسيره لهذه الآية : أى : قد رأيتم وبلغكم ما أحللنا بالأمم المكذبة قبلكم ، ومع هذا لم يكن لكم فيهم معتبر ، ولم يكن فيما أوقعنا بهم مزدجر لكم .قال - تعالى - ( حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النذر ).

وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وان كان مكرهم لتزول منه الجبال

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك لونا آخر من ألوان عراقتهم فى الكفر والجحود فقال : ( وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ الله مَكْرُهُمْ ) .والمكر : تبييت فعل السوء بالغير وإضماره ، مع إظهار ما يخالف ذلك . وانتصب ( مكرهم ) الأول على أنه مفعول مطلق لمكروا ، لبيان النوع ، والإضافة فيه من إضافة المصدر لفاعله .أى : أن هؤلاء الظالمين جاءتهم العبر فلم يعتبروا ، بل أضافوا إلى ذلك أنهم مكروا بالرسول - صلى الله عليه وسلم - مكرهم العظيم الذى استفرغوا فيه جهدهم لإبطال الحق ، وإحقاق الباطل ، والذى كان من مظاهره محاولتهم قتل الرسول - صلى الله عليه وسلم - .وقوله ( وَعِندَ الله مَكْرُهُمْ ) أى : وفى علم الله - تعالى - الذى لا يغيب عنه شئ مكرهم ، وسيجازيهم عليه بما يستحقونه من عذاب مهين .وقوله - تعالى ( وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الجبال ) قرأ الجمهور ( لتزول ) بكسر اللام على أنها لام الجحود والفعل منصوب بعدها بأن مضمره وجوبا ، و " إن " فى قوله ( وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ ) نافية بمعنى ما .والمعنى : ولقد مكر هؤلاء الكافرون مكرهم الشديد الذى اشتهروا به وفى علم الله - تعالى - مكرهم ، وما كان مكرهم - مهما عظم واشتد - لتنتقل ، منه الجبال من أماكنها ، لأنه لم يتجاوز أمثالهم ممن دمرناهم تدميرا .وعلى هذه القاءة يكون المقصود بهذه الجملة الكريمة ، الاستخفاف بهم وبمكرهم وبيان أن ما يضمرونه من سوء ليس خافيا على الله - تعالى - ولن يزلزل المؤمنين فى عقيدتهم ، لأن إيمانهم كالجبال الرواسى فى ثباته ورسوخه .وقرأ السكائى " ( لِتَزُولَ ) - بفتح اللام على أنها لام الابتداء ، ورفع " الفعل بعدها - و " إن " مخففة من الثقيلة .فيكون المعنى : وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم ، وإن مكرهم من الشدة بحيث تزول منه الجبال وتنقلع من ، أماكنها ، لو كان لها أن تزول أو تنقلع .وعلى هذه القراءة يكون المراد بهذه الجملة الكريمة التعظيم والتهويل من شأن مكرهم ، وأنه أمر شنيع أو شديد فى بابه ، كما فى قوله - تعالى - : ( وَقَالُواْ اتخذ الرحمن وَلَداً . لّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً . تَكَادُ السماوات يَتَفَطّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأرض وَتَخِرُّ الجبال هَدّاً . . . ) .

فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله ان الله عزيز ذو انتقام

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( فَلاَ تَحْسَبَنّ الله مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ . . . ) تفريع على ما تقدم من قوله - تعالى - ( وَلاَ تَحْسَبَنّ الله غَافِلاً عَمّا يَعْمَلُ الظالمون . . ) وتأكيد لتسلية الرسول - صلى الله عليه وسلم - ولتثبيت يقينه .وقوله ( مخلف ) اسم فاعل من الإخلاف ، بمعنى عدم الوفاء بالوعد وهو مفعول ثان لتحسب والمراد بالوعد هنا ما وعد الله - تعالى - به أنبياءه ورسله من نصره إياهم ، ومن جعل العاقبة لهم .قال - تعالى - ( إِنّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا والذين آمَنُواْ فِي الحياة الدنيا وَيَوْمَ يَقُومُ الأشهاد ) وقال - تعالى - ( كَتَبَ الله لأَغْلِبَنّ أَنَا ورسلي إِنّ الله قَوِيٌّ عَزِيزٌ ) والمعنى : لقد وعدناك - أيها الرسول الكريم - بعذاب الظالمين ، وأخبرناك بجانب من العذاب الذى سيحل بهم يوم القيامة ، وما دام الأمر كذلك فاثبت على الحق أنت وأتباعك ، وثق بأن الله - تعالى - لن يخلف ما وعدك به من نصر على أعدائك .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : هلا قيل : مخلف رسله وعده ، ولم قدم المفعول الثانى لمخلف - وهو : وعده - على المفعول الأول - وهو رسله -؟قلت : قدم الوعد ليعلم أنه - سبحانه -لا يخلف الوعد أصلا ، كقوله - تعالى - ( إِنّ الله لاَ يُخْلِفُ الميعاد ) ثم قال ( رسله ) ليؤذن أنه إذا لم يخلف وعده أحدا ، وليس من شأنه إخلا المواعيد ، فكيف يخلفه مع رسله الذين هم خيرته وصفوته من خلقه . .ويرى صاحب الانتصاف أن تقدم المعفول الثانى هنا ، إنما هو للإيذان بالعناية به ، لأن الآية فى سياق الإنذار والتهديد للظالمين بما توعدهم الله - تعالى - به على ألسنة رسله ، فكان المهم فى هذه الحال تقديم ذكر الوعيد على غيره .وقوله - سبحانه - ( إِنّ الله عَزِيزٌ ذُو انتقام ) تعليل للنهى عن الحسبان المذكور .والعزيز : الغالب على كل شئ .أى إن الله - تعالى - غالب على كل شئ ، وذو انتقام شديد من أعدائه لأنهم تحت قدرته ، وما دام الأمر كذلك فإخاف الوعد منتف فى حقه - تعالى - .

يوم تبدل الارض غير الارض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك بعض العلامات التى تدل على قرب قيام الساعة فقال - تعالى - : ( يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرض غَيْرَ الأرض والسماوات وَبَرَزُواْ للَّهِ الواحد الْقَهَّارِ ) .والظرف ( يوم ) متعلق بمحذوف تقديره اذكر .وقوله ( تبدل ) من التبديل بمعنى التغيير ، وهذا التغيير والتبديل لهما قد يكون فى ذواتهما كما فى قوله - تعالى - ( إِنَّ الذين كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ العذاب ) . . وقد يكون فى صفاتهما كقولك " بدلت الحلقة خاتما " وقد يكون فيهما معا وقد ذكر الإمام ابن كثير جملة من الأحاديث عند تفسيره لهذه الآية الكريمة فقال وقال الإمام أحمد ، حدثنا محمد بن عدى ، عن داود ، عن الشعبى ، عن " : مسروق ، عن عائشة أنها قالت : " أنا أول الناس سأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن هذه الآية ( يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرض . . ) قالت : قلت : أين الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال : على الصراط " .وفى رواية أنه - صلى الله عليه وسلم - قال لها : " لقد سألتنى عن شئ ما سألنى عنه أحد من أمتى ، ذاك ، أن الناس - يومئذ يكونون - على جسر جهنم " .والمعنى : اذكر - أيها العاقل لتتعظ وتعتبر يوم يتغير هذا العالم المعهود بعالم آخر جديد ، يأتى به الله - تعالى - على حسب إرادته ومشيئته ويوم يخرج الخلائق جيمعا من قبورهم ليستوفوا جزاءهم ، وليجازوا على أعمالهم . من الله - تعالى - الواحد الأحد الذى قهر كل شئ وغلبه ، ودانت له الرقاب ، وخضعت له الألباب .وختمت الآية ، الكريمة بهذين الوصفين لله - تعالى - للرد على المشركين الذين جعلوا مع الله آلهة أخرى يشركونها معه فى العبادة ، ويتوهمون أن هذه الآية سوف تدافع عنهم يوم القيامة .

وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الاصفاد

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما سيحل بالمجرمين يوم القيامة من عذاب عنيف مهين يناسب إجرامهم وكفرهم فقال : ( وَتَرَى المجرمين يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الأصفاد . سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وتغشى وُجُوهَهُمْ النار )وقوله ( مقرنين ) جمع مقرن ، وهو من جمع فى قرن ووثاق واحد يربطان به .والأصفاد : جمع صفد - بفتح الفاء - وهو القيد الذى يوضع فى الرجل ، أو الغل - بضم الغين - الذى تضم به اليد والرجل إلى العنق .

سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار

كما فسرها الوسيط والسرابيل : جمع سربال وهو القميص .والقطران : مادة حارة نتنة شديدة الاشتعال تصلى بها جولد الإبل الجربى ، ليزول الجرب منها . أى ) وترى - أيها العاقل - المجرمين فى هذا اليوم العسير عليهم : مُّقَرَّنِينَ فِي الأصفاد ) أى : قد قرن بعضهم مع بعض ، وضم كل قرين إلى من يشبهه فى الكفر وفى الفسوق وفى العصيان ، وقد قيدوا جميعا بالأصفاد واليقود والأغلال .قال - تعالى - ( احشروا الذين ظَلَمُواْ وَأَزْوَاجَهُمْ . . أى : وأمثالهم من العصاة ، فعابد الصنم يكون مع عابد الصنم ، وشارب الخمر مع شارب الخمر . ويصح أن يكون اقترانهم مع الشياطين كما قال - تعالى - ( فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ والشياطين ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيّاً ) هذا عن مشهد المجرمين وهم مقرنون فى الأصفاد ، وهو مشهد مهين مذل ولكنه ليس كافيا .فى عقابهم ، بل يضاف إليه أن ملابسهم من قطران ، ليجتمع لهم لذعته ، وقبح لونه ، ونتن ريحه وسرعة اشتعاله ، وفوق كل ذلك فإن وجوههم تعلوها وتحيط بها النار التى ، تستعر بأجسادهم المسربلة بالقطران .وخص - سبحانه الوجوه بغشيان النار لهاه لكونها أعز موضع فى البدن وأشرفه ، .

ليجزي الله كل نفس ما كسبت ان الله سريع الحساب

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( لِيَجْزِيَ الله كُلَّ نَفْسٍ مّا كَسَبَتْ . . ) متعلق بمحذوف ، والتقدير : فعل ما فعل - سبحانه - من إثابة ، المؤمنين ، ومعاقبة المجرمين ، ليجازى كل نفس بما تستحقه من خير أو شر - دون أن يظلم ربك أحدا .وقوله ( إِنَّ الله سَرِيعُ الحساب ) أى : إنه سبحانه - سريع المحاسبة لعباده ، لأنه لا يشغله شأن عن شأن ، بل جميع الخلق بالنسبة لقدرته كالنفس الواحدة .قال - تعالى - ( مّا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ . . . ) .

هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا انما هو اله واحد وليذكر اولو الالباب

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بقوله - تعالى - ( هذا

بَلاَغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِ وليعلموا أَنَّمَا هُوَ إله
وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ) .وأسم الإشارة " هذا " يعود
إلى ما أنزله الله - تعالى - من قرآن فى هذه السورة وفى غيرها . و ( بلاغ )
مصدر بمعنى التبليغ .والإنذار : التخويف من سوء عاقبة ارتكاب الشرور
والآثام .والألباب : جمع لب وهو الخالص من كل شئ ، والمراد بها العقول .أى
هذا القرآن الكريم الذى أنزلناه عليك يا محمد ، فيه التبليغ الكافى :
لهداية الناس ، وفيه ما يخوفهم من سوء عاقبة الكفر والفسوق والعصيان ، وفيه
- ما يجعلهم يعلمون عن طريق توجيهاته وهداياته ودلائله ، أن الله - تعالى
، واحد لا شريك له ، وفيه ما يجعل أصحاب العقول السليمة يتعظون ويعتبرون
فيترتب على ذلك سعادتهم فى الدنيا والآخرة .وخص - سبحانه - بالتذكر أولى
الألباب ، لأنهم هم الذين ينتفعون بهداية القرآن الكريم ، أما غيرهم فهم
كالأنعام بل هم أضل .وقد رتب - سبحانه - فى هذه الآية ، وسائل الدعوة إلى
الحق ترتيبا عقليا حكيما ، فبدأ بالصفة العامة وهى التبليغ ، ثم ثنى بما
يعقب ذلك من إنذار وتخويف ، ثم ثلث بما ينشأ عنهما من العلم بوحدانية
الله - تعالى - ثم ختم الثناء على أصحاب العقول السليمة الذين ينتفعون بما
يسمعون وبما يبصرون .قال الإمام الرازى : " هذه الآية دالة على أنه لا
فضيلة للإنسان ، ولا منقبة له ، إلا بسبب عقله ، لأنه - تعالى - بين أنه
. " . . إنما أنزل هذه الكتب ، وإنما بعث الرسل ، لتذكير أولى الألباب .

الر تلك ايات الكتاب وقران مبين

كما فسرها الوسيط سورة الحجر من السور التى افتتحت ببعض حروف التهجى ( الر
، وقد بينا - بشئ من التفصيل - عند تفسيرنا لسورة : البقرة ، وآل عمران. (
والأعراف . . .آراء العلماء فى هذه الحروف التى افتتحت بها بعض سور القرآن
الكريم .وقلنا ما خلاصته : من العلماء من يرى أن المعنى المقصود منها غير
معروف لأنها من المتشابه الذى استأثر الله بعلمه . . .ومنهم من يرى أن
المعنى المقصود منها معلوم ، وأنها ليست من المتشابه ، بل هى أسماء للسور
التى افتتحت بها . . . أو هى حروف مقطعة بعضها من أسماء الله ، وبعضها من
صفاته . . .ثم قلنا : ولعل أقرب الآراء إلى الصواب أن يقال : إن هذه الحروف
المقطعة ، قد وردت فى افتتاح بعض السور؛ للإشعار بأن هذا القرآن الذى تحدى
، الله به المشركين ، هو من جنس الكلام المركب من هذه الحروف التى يعرفونها
، ويقدرون على تأليف الكلام منها ، فإذا عجزوا عن الإتيان بسورة من مثله
فذلك لبلوغه فى الفصاحة والحكمة مرتبة يقف فصحاؤهم وبلغاؤهم دونها بمراحل
وفضلاً عن ذلك فإن تصدير بعض السور بمثل هذه الحروف المقطعة ، يجذب أنظار.
المعرضين عن استماع القرآن حين يتلى عليهم إلى الإنصات والتدبر ، لأنه
يطرق أسماعهم فى أول التلاوة ألفاظ غير مألوفة فى مجارى كلامهم وذلك مما
يلفت أنظارهم ليتبينوا ما يراد منها ، فيسمعوا حكماً وهدايات قد تكون سبباً
فى استجابتهم للحق ، كما استجاب صالحو الجن الذين حكى الله - تعالى - عنهم
أنهم عندما استمعوا إلى القرآن قالوا : ( إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً
عَجَباً يهدي إِلَى الرشد فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشرِكَ بِرَبِّنَآ
أَحَداً . . . . ) واسم الإشارة ( تلك ) يعود إلى الآيات التى تضمنتها هذه
السورة ، أو إلى جميع الآيات القرآنية التى نزلت قبل ذلك .والمراد بالكتاب
- القرآن الكريم ، ولا يقدح فى هذا ، ذكر لفظ القرآن بعده ، لأنه :
سبحانه - جمع له بين الاسمين تفخيماً لشأنه ، وتعظيماً لقدره .و ( مبين )
اسم فاعل من أبان الذى هو بمعنى بان ، مبالغة فى الوضوح والظهور .قال صاحب
الصحاح : يقال : " بان الشئ يبين بيانا ، أى اتضح ، فهو بين وكذا أبان الشئ
فهو مبين . . . " .والمعنى : تلك - أيها الناس - آيات بينات من الكتاب
، الكامل فى جنسه ، ومن القرآن العظيم الشأن ، الواضح فى حكمه وأحكامه
، المبين فى هدايته وإعجازه فأقبلوا عليها بالحفظ لها ، وبالعمل بتوجيهاتها
لتنالوا السعادة فى دنياكم وآخرتكم .قال الآلوسى : " وفى جمع وصفى الكتابية
والقرآنية من تفخيم شأن القرآن ما فيه ، حيث أشير بالأول إلى اشتماله على
صفات كمال جنس الكتب الإلهية فكأنه كلها ، وبالثانى إلى كونه ممتازاً عن
غيره ، نسيجا وحده ، بديعاً فى بابه ، خارجاً عن دائرة البيان ، قرآناً غير
ذى عوج .. " .

ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن الكافرين سيندمون بسبب كفرهم فى وقت
لا ينفع فيه الندم ، فقال - تعالى - : ( رُّبَمَا يَوَدُّ الذين كَفَرُواْ
لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ) قال الشوكانى ما ملخصه : قرأ نافع وعاصم
بتخفيف الباء من ( ربما ) ، وقرأ الباقون بتشديدها . . وأصلها أن تستعمل فى
القليل وقد تستعمل فى الكثير .قال الكوفيون : أى يود الكفار فى أوقات كثيرة
لو كانوا مسلمين .وقيل : " هى هنا للتقليل ، لأنهم ودوا ذلك فى بعض المواضع
لا فى كلها لشغلهم بالعذاب . . . . " .وقد حاول بعض المفسرين الجمع بين

القولين فقال : من قال بأن ( ربما ) هنا للتكثير نظر إلى كثرة تمنيهم أن لو كانوا مؤمنين ، ومن قال بأنها للتقليل نظر إلى قلة زمان إفاقتهم من العذاب بالنسبة إلى زمان دهشتهم منه ، وهذا لا ينافى أن التمنى يقع كثيراً منهم فى زمن إفاقتهم القليل ، فلا تخالف بين القولين .والمعنى : ود الذين كفروا عندما تنكشف لهم الحقائق ، فيعرفون أنهم على الباطل ، وأن المؤمنين على الحق ، أن لو كانوا مسلمين ، حتى ينجوا من الخزى والعقاب .ودخلت ( رب ) هنا ، على الفعل المضارع ( يود ) مع اختصاصها بالدخول على الفعل الماضى للإشارة إلى أن أخبار الله - تعالى - بمنزلة الواقع المحقق سواء أكانت للمستقبل أم لغيره .قال صاحب الكشاف : " فإن قلت : لم دخلت على المضارع وقد أبوا دخولها إلا على الماضى؟ قلت : لأن المترقب فى أخبار الله - تعالى - بمنزلة الماضى المقطوع به فى تحققه ، فكأنه قيل : " ربما ود الذين كفروا . " " . ، و ( لو ) فى قوله ( لو كانوا مسلمين ) يصح أن تكون امتناعية وجوابها محذوف ، والتقدير : ود الذين كفروا كونهم مسلمين لسروا بذلك .ويصح أن تكون مصدرية ، والتقدير : ود الذين كفروا كونهم مسلمين .وعلى كلا المعنيين فهى مستعملة فى التمنى الذى هو طلب حصول الأمر الممتنع الحصول .وقال - سبحانه - بفعل الكون الماضى ، للإشعار بأنهم يودون الدخول فى ( . . . لو كانوا ) الإسلام ، بعد مضى وقت التمكن من الدخول فيه .وعبر - سبحانه - عن متمناهم بالغيبة ( كانوا ) ، نظراً لأن الكلام مسوق بصدد الإخبار عنهم ، وليس بصدد الصدور منهم ، ولو كان كذلك لقيل : لو كنا مسلمين .هذا ، وللمفسرين أقوال فى الوقت الذى ود فيه الكافرون أن لو كانوا مسلمين ، فمنهم من يرى أن ودادتهم هذه تكون فى الدنيا ، ومنهم من يرى أنها تكون عند الموت ، ومنهم من يرى أنها تكون عند الحساب ، وعند عفو الله عن عصاة المؤمنين .والحق أن هذه الودادة تكون فى كل موطن يعرف فيه الكافرون بطلان كفرهم ، وفى كل وقت ينكشف لهم فيه أن الإسلام هو الدين الحق .فهم تمنوا أن لو كانوا مسلمين فى الدنيا ، عندما رأوا نصر الله لعباده المؤمنين ، فى غزوة بدر وفى غزوة الفتح وفى غيرهما ، فعن ابن مسعود - رضى الله عنه - : " ود كفار قريش ذلك يوم بدر حين رأوا نصر الله للمسلمين " .وهم تمنوا ذلك عند الموت كما حكى عنهم - سبحانه - ذلك فى آيات كثيرة منها قوله - تعالى - : ( حتى إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ الموت قَالَ رَبِّ ارجعون لعلي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ . . . ) وهم يتمنون ذلك عندما يعرضون على النار يوم القيامة . قال - تعالى - ( وَلَوْ ترى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النار فَقَالُواْ ياليتنا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ المؤمنين ) وهم يتمنون ذلك عندما يرون عصاة المؤمنين ، وقد أخرجهم الله - تعالى برحمته من النار .وقد ذكر الإمام ابن كثير هنا جملة من الأحاديث الدالة على ذلك منها ما أخرجه الطبرانى عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن ناساً من أهل "لا إله إلا الله " يدخلون النار بذنوبهم ، فيقول لهم أهل اللات والعزى : ما أغنى عنكم قولكم "لا إله إلا الله " وأنتم معنا فى النار؟ قال فيغضب الله لهم ، فيخرجهم ، فيلقيهم فى نهر الحياة فيبرأون من حرقهم كما يبرأ القمر من خسوفه ، فيدخلون الجنة . ويسمون فيها الجهنميين " .فقال رجل : يا أنس ، أنت سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال أنس : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار " نعم ، أنا سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول هذا .قال بعض العلماء : وأقوال العلماء فى هذا الآية راجعة إلى شئ واحد ، لأن من يقول : إن الكافر إذا احتضر تمنى أن لو كان مسلماً ، ومن يقول : إنه إذا عاين النار تمنى أن لو كان مسلماً . . كل ذلك راجع إلى أن الكفار إذا عاينوا الحقيقية ندموا على الكفر وتمنوا أنهم لو كانوا مسلمين ، وفى هذه الآية ما فيها من تثبيت المؤمنين ، ومن تبشيرهم بأنه على الحق. ومن حض للكافرين على الدخول فى الإسلام قبل فوات الأوان ، ومن تحذير لهم من سوء عاقبة الكفر والطغيان .

ذرهم ياكلوا ويتمتعوا ويلههم الامل فسوف يعلمون

كما فسرها الوسيط ثم أمر - سبحانه - الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يذرهم - فى طغيانهم يعمهون ، بعد أن ثبت أنهم قوم لا ينفع فيهم إنذار فقال تعالى - : ( ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأمل فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ) .وذر فعل أمر بمعنى اترك ، ومضارعه يذر ، ولا يستعمل له ماض إلا فى النادر ، ومن هذا النادر ما جاء فى الحديث الشريف " : ذروا الحبشة ما وذرتكم " .و ( يتمتعوا ) من المتاع بمعنى الانتفاع بالشئ بتلذذ وعدم نظر إلى العواقب .( ويلههم ) : من الانشغال عن الشئ ونسيانه ، يقال : فلان ألهاه كذا عن أداء واجبه ، أى : شغله .والأمل : الرغبة فى الحصول على الشئ ، وأكثر ما يستعمل فيما يستبعد حصوله .والمعنى : اترك - أيها الرسول الكريم - هؤلاء الكافرين ، وخلهم وشأنهم ، ليأكلوا كما تأكل الأنعام ، وليتمتعوا بدنياهم كما يشاءون ، وليشغلهم أملهم الكاذب عن اتباعك فسوف يعلمون سوء عاقبة صنيعهم فى العاجل أو الآجل .قال صاحب الكشاف : ،

، وقوله ( ذرهم ) يعنى اقطع طمعك من ارعوائهم ، ودعهم من النهى عما هم عليه
، والصد عنه بالتذكرة والنصيحة ، واتركهم ( يأكلوا ويتمتعوا ) بدنياهم
وتنفيذ شهواتهم ويشغلهم أملهم وتوقعهم لطول الأعمال واستقامة الأحوال وألا
- يلقوا فى العاقبة إلا خيرا فسوف يعلمون سوء صنيعهم .وإنما أمره - سبحانه
بذلك ، لعدم الرجاء فى صلاحهم ، بعد أن مكث فيهم الرسول صلى الله عليه وسلم
زمناً طويلاً ، يدعوهم إلى الحق ، بأساليب حكيمة .وفى تقديم الأكل على غيره
- إيذان بأن تمتعهم إنما هو من قبيل تمتع البهائم بالمآكل والمشارب ، قال
تعالى - : ( . . . والذين كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا
تَأْكُلُ الأنعام والنار مَثْوًى لَّهُمْ ) كما أن فيه تعييرا لهم بما
تعارفوا عليه من أن الاقتصار فى الحياة على إشباع اللذات الجسدية ، دون
. التفات إلى غيرها من مكارم الأخلاق ، يدل على سقوط الهمة ، وبلادة الطبع
قال الخطيئة يهجو الزبرقان بن عمرو :دع المكارم لا ترحل لبغيتها ... واقعد
فإنك أنت الطاعم الكاسى : واقعد عن طلب المكارم والمعالى فإنك أنت
المطعوم المكسو من جهة غيرك .والفعل ( يأكلوا ) وما عطف عليه مجزوم فى جواب
الأمر ( ذرهم ) ، وبعضهم يجعله مجزوم بلام الأمر المحذوفة ، الدالة على
التوعد والتهديد ، ولا يستحسن جعله مجزوما فى جواب الأمر ، لأنهم يأكلون
ويتمتعون سواء أترك الرسول صلى الله عليه وسلم دعوتهم أم دعاهم .والفاء فى
. قوله - سبحانه - ( فسوف يعلمون ) للتفريع الدال على الزجر والإنذار
، والاستجابة للحق قبل فوات الأوان .أى : ذرهم فيما هم فيه من حياة حيوانية
، لا تفكر فيها ولا تدبر ، ومن آمال خادعة براقة شغلتهم عن حقائق الأمور
فسوف يعلمون سوء عاقبة ذلك وسوف يرون ما يحزنهم ويشقيهم ويبكيهم طويلاً بعد
أن ضحكوا قليلاً . . .وفى ذلك إشارة إلى أن لإمهالهم أجلا معينا ينقضى
عنده ، ثم يأتيهم العذاب الأليم .قال الآلوسى - رحمه الله - : وفى هذه
الآية إشارة إلى أن التلذذ والتنعم ، وعدم الاستعداد للآخرة ، والتأهب لها
ليس من أخلاق من يطلب النجاة .وجاء عن الحسن : ما أطال عبد الأمل إلا ،
أساء العمل .وأخرج أحمد فى الزهد ، والطبرانى فى الأوسط ، والبيهقى فى شعب
" : الإيمان عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده -لا أعلمه إلا رفعه - قال
صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين ، ويهلك آخرها بالبخل وطول الأمل " .وفى
بعض الآثار عن علي - كرم الله وجهه - : " إنما أخشى عليكم اثنين : طول
الأمل ، واتباع الهوى ، فإن طول الأمل ينسى الآخرة ، واتباع الهوى يصد عن
الحق " .هذا ، وشبيهه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ
- وَيَلْعَبُواْ حتى يُلاَقُواْ يَوْمَهُمُ الذي يُوعَدُونَ ) وقوله
تعالى - : ( فَذَرْهُمْ حتى يُلاَقُواْ يَوْمَهُمُ الذي فِيهِ يُصْعَقُونَ
وقوله - تعالى - : ( قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النار (
).

وما اهلكنا من قرية الا ولها كتاب معلوم

كما فسرها الوسيط ثم قرر - سبحانه - أن هلاك الأمم الظالمة ، موقوف بوقت
محدد فى علمه ، وأن سنته فى ذلك ماضية لا تتخلف ، فقال - تعالى - ( وَمَآ
أَهْلَكْنَا مِن قَوْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ مَّا تَسْبِقُ
مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ) .و ( من ) فى قوله ( من
قرية ) و ( من أمة ) للتأكيد . والمراد بالقرية أهلها .والمراد بالكتاب
المعلوم : الوقت المحدد فى علم الله - تعالى - لهلاكها ، شبه بالكتاب لكونه
لا يقبل الزيادة أو النقص . والأجل : مدة الشئ .أى : وما أهلكنا من قرية من
، القرى الظالم أهلها ، إلا ولهلاكها وقت محدد فى علمنا المحيط بكل شئ
- ومحال أن تسبق أمة من الأمم أجلها المقدر لها أو تتأخر عنه .قال ابن جرير
- رحمه الله - عند تفسيره لهاتين الآيتين ما ملخصه : " يقول - تعالى - ذكره
يا محمد ( أهل قرية ) من القرى التى أهلكنا أهلها فيما مضى ( وما أهلكنا )
أى : أجل مؤقت ومدة معروفة ، لا ( إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ) :
نهلكهم حتى يبلغوها ، فإذا بلغوها أهلكناهم عند ذلك . . دون أن يتقدم
هلاكهم عن ذلك أو يتأخر " .وجملة ( إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ) فى
محل نصب على الحال من قرية ، وصح ذلك لأن كلمة قرية وإن كانت نكرة ، إلا أن
وقوعها فى سياق النفى سوغ مجىء الحال منها .أى : ما أهلكناها فى حال من
الأحوال ، إلا فى حال بلوغها نهاية المدة المقدرة لبقائها دون تقديم أو
تأخير .قال - تعالى - ( وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ
لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ).

ما تسبق من امة اجلها وما يستاخرون

كما فسرها الوسيط وجملة ( مّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا
يَسْتَأْخِرُونَ ) بيان لجملة ( إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ )
، لتأكيد التحديد ، فى بدئه وفى نهايته .وحذف متعلق ( يستأخرون ) للعلم به
أى : وما يستأخرون عنه .والآيتان الكريمتان تدلان بوضوح ، على أن إمهال

الظالمين ليس معناه ترك عقابهم ، وإنما هو رحمة من الله بهم لعلهم أن ، يثوبوا إلى رشدهم ، ويسلكوا الطريق القويم . . .فإذا ما لجوا فى طغيانهم حل بهم عقاب الله - تعالى - فى الوقت المحدد فى علمه - سبحانه - .قال صاحب الظلال : ولقد يقال : إن أمما لا تؤمن ولا تحسن ولا تصلح ولا تعدل . وهى مع ذلك قوية ثرية باقية ، وهذا وهم .فلا بد من بقية من خير فى هذه الأمم ، ولو كان هو خير العمارة للأرض ، وخير العدل فى حدوده الضيقة بين أبنائها ، وخير الإصلاح المادى والإحسان المحدود بحدودها .فعلى هذه البقية من الخير تعيش حتى تستنفدها ، فلا تبقى فيها من الخير بقية ثم تنتهى حتما إلى المصير . المعلوم . إن سنة الله لا تتخلف . ولكل أمة أجل معلوم

وقالوا يا ايها الذي نزل عليه الذكر انك لمجنون

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - سوء أدب هؤلاء الكافرين مع رسولهم صلى الله عليه وسلم فقال - تعالى - ( وَقَالُواْ ياأيها الذي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذكر إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بالملائكة إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ) والقائلون هم بعض مشركى قريش . قال مقاتل : نزلت الآيتان فى عبد الله بن أمية ، والنضر بن الحارث ، ونوفل بن خويلد ، والوليد بن المغيرة والمراد بالذكر: القرآن الكريم . قال - تعالى - ( وهذا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ. أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ) و ( مجنون ) : اسم مفعول من الجنون ، وهو فساد العقل .

لو ما تاتينا بالملائكة ان كنت من الصادقين

كما فسرها الوسيط و ( لوما ) : حرف تحضيض مركب من لو المفيدة للتمنى ، ومن ما الزائدة فأفاد المجموع الحث على الفعل .والمعنى : وقال الكافرون لرسولهم صلى الله عليه وسلم على سبيل الاستهزاء والتهكم : ( يأيها ) المدعى بأن الوحى ينزل عليك بهذا القرآن الذى تتلوه علينا ، ( إنك لمجنون ) بسبب هذه الدعوى التى تدعيها . وبسبب طلبك منا اتباعك وتركنا ما وجدنا عليه آباءنا . هلا إن كنت صادقاً فى دعواك ، أن تحضر معك الملائكة ، ليخبرونا بأنك على. . حق فيما تدعيه ، وبأنك من الصادقين فى تبليغك عن الله - تعالى - ما أمرك بتبليغه؟وأكدوا الحكم على الجنون بإن واللام ، لقصدهم تحقيق ذلك فى نفوس السامعين ممن هم على شاكلتهم فى الكفر والضلال ، حتى ينصرفوا عن الاستماع إليه صلى الله عليه وسلم .قال الآلوسى : يعنون يا من يدعى مثل هذا الأمر العظيم ، الخارق للعادة إنك بسبب تلك الدعوى تحقق جنونك على أتم وجه . وهذا كما يقول الرجل لمن يسمع منه كلاما يستبعده ، أنت مجنون .فأنت ترى أن الآيتين الكريمتين قد حكتا ألواناً من سوء أدبهم ، منها : مخاطبتهم له صلى الله عليه وسلم بهذا الأسلوب الدال على التهكم والاستخفاف ، حيث قالوا ( : ياأيها الذي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذكر ) ، مع أنهم لا يقرون بنزول شئ عليه ووصفهم له بالجنون ، وهو صلى الله عليه وسلم أرجح الناس عقلاً ، وأفضلهم. فكراً . . وشكهم فى صدقه ، حيث طلبوا منه - على سبيل التعنت - أن يحضر معه - الملائكة ليعاضدوه فى دعواه كما قال تعالى فى آيات أخرى منها قوله تعالى - ( وَقَالَ الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلاَ أُنْزِلَ . . . ) - عَلَيْنَا الملائكة أَوْ نرى رَبَّنَا . . . ) وقوله - تعالى ( لولا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً).

ما ننزل الملائكة الا بالحق وما كانوا اذا منظرين

كما فسرها الوسيط وقد رد الله - تعالى - عليهم بما يكبتهم ويخرس ألسنتهم فقال : ( مَا نُنَزِّلُ الملائكة إِلاَّ بالحق وَمَا كَانُواْ إِذاً مُّنظَرِينَ ) .وقرأ الجمهور ( ما تنزل ) - بفتح التاء والزاى على أن أصله - تتنزل - ورفع الملائكة على الفاعلية .وقرأ أبو بكر عن عاصم ( ما تنزل ) بضم التاء وفتح الزاى على البناء للمجهول - ورفع الملائكة على أنه نائب - فاعل .وقرأ الكسائى وحفص عن عاصم ( ما ننزل ) - بنون فى أوله وكسر الزاى : ونصب الملائكة على المفعولية والباء فى قوله ( إلا بالحق ) للملابسة .أى ما ننزل الملائكة إلا تنزيلاً ملتبساً بالحق ، أى : بالوجه الذى تقتضيه حكمتنا وجرت به سنتنا ، كأن ننزلهم لإهلاك الظالمين ، أو لتبليغ وحينا إلى رسلنا ، أو لغير ذلك من التكاليف التى نريدها ونقدرها ، والتى ليس منها ما اقترحه المشركون على رسولنا صلى الله عليه وسلم من قولهم ( لَّوْ مَا تَأْتِينَا بالملائكة إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ) ، ولذا اقتضت حكمتنا ورحمتنا عدم إجابة مقترحاتهم .وقوله ( وَمَا كَانُواْ إِذاً مُّنظَرِينَ ) بيان لما سيحل بهم فيما لو أجاب الله - تعالى - مقترحاتهم .و ( إذا ) حرف جواب وجزاء .و ( منظرين ) من الإنظار بمعنى التأخير والتأجيل .وهذه الجملة - جواب لجملة شرطية محذوفة ، تفهم من سياق الكلام ، والتقدير : ولو أنزل سبحانه - الملائكة مع الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبقى هؤلاء المشركون على

شركهم مع ذلك ، لعوجلوا بالعقوبة المدمرة لهم ، وما كانوا إذا ممهلين أو مؤخرين ، بل يأخذهم العذاب بغتة .قال الإمام الشوكانى : " قوله ( وَمَا كَانُواْ إِذاً مُّنظَرِينَ ) فى الكلام حذف . والتقدير : ولو أنزلنا الملائكة لعوجلوا بالعقوبة ، وما كانوا إذا منظرين . فالجملة المذكورة جزاء للجملة الشرطية المحذوفة " .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - ( وَقَالُواْ لولا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أنزَلْنَا مَلَكاً لَّقُضِيَ الأمر ثُمّ لاَ يُنظَرُونَ ).

انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أنه قد تكفل بحفظ هذا القرآن الذى سبق للكافرين أن استهزءوا به ، وبمن نزل عليه فقال - تعالى - : ( إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ) .أى : إنا نحن بقدرتنا وعظم شأننا نزلنا هذا القرآن الذى أنكرتموه؛ على قلب نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ( وإنا ) لهذا القرآن ( لحافظون ) من كل ما يقدح فيه ، كالتحريف والتبديل ، والزيادة والنقصان والتناقض والاختلاف ، ولحافظون له بالإعجاز فلا يقدر أحد على معارضته أو على الإتيان بسورة من مثله ، ولحافظون له ، بقيام طائفة من أبناء هذه الأمة الإسلامية باستظهاره وحفظه والذب عنه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .قال صاحب الكشاف : " قوله ( إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر ) رد لانكارهم واستهزائهم فى قولهم ( ياأيها الذي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذكر إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ) ، ولذلك قال : إنا نحن ، فأكد عليهم أنه هو المنزل على القطع والبتات ، وأنه هو الذى بعث به جبريل إلى محمد صلى الله عليه وسلم ومن بين يديه ومن خلفه رصد حتى نزل وبلغ محفوظاً من الشياطين ، وهو حافظه فى كل وقت من كل زيادة ونقصان .. . " .وقال الآلوسى : ما ملخصه : " ولا يخفى ما فى سبك الجملتين - ( إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ) من الدلالة على كمال الكبرياء والجلالة وعلى فخامة شأن التنزيل ، وقد اشتملتا على عدة من وجوه التأكيد . و ( نحن ، ليس ضمير فصل لأنه لم يقع بين اسمين ، وإنما هو إما مبتدأ أو توكيد لاسم ( إن . والضمير فى ( له ) للقرآن كما هو الظاهر ، وقيل هو للنبى صلى الله عليه وسلم . . . " .هذا ونحن ننظر فى هذه الآية الكريمة ، من وراء القرون الطويلة منذ نزولها فنرى أن الله - تعالى - قد حقق وعده فى حفظ كتابه ، ومن مظاهر ذلك :1- أن ما أصاب المسلمين من ضعف ومن فتن ، ومن هزائم ، وعجزوا معها عن حفظ أنفسهم وأموالهم وأعراضهم . . هذا الذى أصابهم فى مختلف الأزمنة والأمكنة ، لم يكن له أى اثر على قداسة القرآن الكريم ، وعلى صيانته من أى تحريف .ومن أسباب هذه الصيانة أن الله - تعالى - قيض له فى كل زمان ومكان ، من أبناء هذه الأمة ، من حفظه عن ظهر قلب ، فاستقر بين الأمة بمسمع من النبى صلى الله عليه وسلم ، وصار حفاظه بالغين عدد التواتر فى كل مصر وفى كل عصر .قال الفخر الرازى : فإن قيل : فلماذا اشتغل الصحابة بجمع القرآن فى المصحف ، وقد وعد الله بحفظه ، وما حفظه الله فلا خوف عليه؟فالجواب : أن جمعهم للقرآن كان من أسباب حفظ الله - تعالى - إياه ، - فإنه - سبحانه - لما أن حفظه قيضهم لذلك . . . . .2- أن أعداء هذا الدين سواء أكانوا من الفرق الضالة المنتسبة للإسلام أم من غيرهم - امتدت أيديهم . . الأثيمة إلى أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم فأدخلوا فيها ما ليس منها وبذل العلماء العدول الضابطون ما بذلوا من جهود لتنقية السنة النبوية مما . فعله هؤلاء الأعداء . .ولكن هؤلاء الأعداء ، لم يقدروا على شئ واحد ، وهو إحداث شئ فى هذا القرآن ، مع أنهم وأشباههم فى الضلال ، قد أحدثوا ما أحدثوا فى الكتب السماوية السابقة . .قال بعض العلماء . سئل القاضى إسماعيل البصرى عن السر فى تَطَرُّق التغيير للكتب السالفة ، وسلامة القرآن من ذلك فأجاب بقوله : إن الله أوكل للأحبار حفظ كتبهم فقال : ( بِمَا استحفظوا من كِتَابِ الله ) وتولى - سبحانه - حفظ القرآن بذاته فقال : ( إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ) .وقد ذكر الإمام القرطبى ما يشبه ذلك نقلاً عن سفيان بن عيينه فى قصة طويلة .والخلاصة ، أن سلامة القرآن من أى تحريف - رغم حرص الأعداء على تحريفه ورغم ما أصاب المسلمين من أحداث جسام ، ورغم تطاول القرون والدهور - دليل ساطع على أن هناك قوة خارقة - خارجة عن قوة البشر - قد تولت حفظ هذا القرآن ، وهذه القوة هى قوة الله - عز وجل - ولا يمارى فى ذلك إلا الجاحد الجهول . ..

ولقد ارسلنا من قبلك في شيع الاولين

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك من الآيات ما فيه تعزية وتسلية للرسول صلى الله عليه وسلم عما أصابه من سفهاء قومه ، فأخبره بأن ما أصابه منهم يشبه ما فعله المكذبون السابقون مع رسلهم ، فقال - تعالى - : ( وَلَقَدْ أَرْسَلنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأولين وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي

( قُلُوبِ المجرمين لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنّةُ الأولين
قال الجمل : " لما أساءوا فى الأدب ، وخاطبوه صلى الله عليه وسلم خطاب.
السفاهة ، حيث قالوا له : ( إنك لمجنون ) ، سلاّه الله فقال له : إن عادة
. الجهال مع جميع الأنبياء كانت هكذا ، وكانوا يصبرون على أذى الجهال
ويستمرون على الدعوة والإنذار ، فاقتد أنت بهم فى ذلك . . . " .والشيع جمع
شيعة وهى الطائفة من الناس المتفقة على طريقة ومذهب واحد ، من شاعه إذا
تبعه ، وأصله - كما يقول القرطبى - مأخوذ من الشياع وهو الحطب الصغار توقد
به الكبار .والمعنى : ولقد أرسلنا من قبلك - أيها الرسول الكريم - رسلاً
كثيرين ، فى طوائف الأمم الأولين ، فدعا الرسل أقوامهم إلى ما دعوت إليه
أنت قومك من وجوب إخلاص العبادة لله - تعالى - ، فما كان من أولئك المدعوين
السابقين إلا إن قابلت كل فرقة منهم رسولها بالسخرية والاستهزاء ، كما
قابلك سفهاء قومك .وذلك لأن المكذبين فى كل زمان ومكان يتشابهون فى الطباع
الذميمة ، وفى الأخلاق القبيحة : كما قال - تعالى - ( كَذَلِكَ مَآ أَتَى
الذين مِن قَبْلِهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ
مَجْنُونٌ أَتَوَاصَوْاْ بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ) والجار والمجرور
: متعلق بأرسلنا ، أو بمحذوف وقع نعتا لمفعوله المحذوف . أى ( من قبلك )
ولقد أرسلنا رسلاً كائنة من قبلك .وإضافة الشيع إلى الأولين من إضافة
الموصوف إلى صفته عند بعض النحاة ، أو من حذف الموصوف عند البعض الآخر، أى
شيع الأمم الأولين .وعبر بقوله - سبحانه - ( إِلاَّ كَانُواْ بِهِ
يَسْتَهْزِئُونَ ) للإشعار بأن الاستهزاء بالرسل كان طبيعة فيهم - كما
يومئ إليه لفظ كان ، وأنه متكرر منهم - كما يفيده التعبير بالفعل المضارع
--

وما ياتيهم من رسول الا كانوا به يستهزئون

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك من الآيات ما فيه تعزية وتسلية
للرسول صلى الله عليه وسلم عما أصابه من سفهاء قومه ، فأخبره بأن ما أصابه
منهم يشبه ما فعله المكذبون السابقون مع رسلهم ، فقال - تعالى - ( وَلَقَدْ
أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأولين وَمَا يَأْتِيهِم مِّن
رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي
( قُلُوبِ المجرمين لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنّةُ الأولين
قال الجمل : " لما أساءوا فى الأدب ، وخاطبوه صلى الله عليه وسلم خطاب.
السفاهة ، حيث قالوا له : ( إنك لمجنون ) ، سلاّه الله فقال له : إن عادة
. الجهال مع جميع الأنبياء كانت هكذا ، وكانوا يصبرون على أذى الجهال
ويستمرون على الدعوة والإنذار ، فاقتد أنت بهم فى ذلك . . . " .والشيع جمع
شيعة وهى الطائفة من الناس المتفقة على طريقة ومذهب واحد ، من شاعه إذا
تبعه ، وأصله - كما يقول القرطبى - مأخوذ من الشياع وهو الحطب الصغار توقد
به الكبار .والمعنى : ولقد أرسلنا من قبلك - أيها الرسول الكريم - رسلاً
كثيرين ، فى طوائف الأمم الأولين ، فدعا الرسل أقوامهم إلى ما دعوت إليه
أنت قومك من وجوب إخلاص العبادة لله - تعالى - ، فما كان من أولئك المدعوين
السابقين إلا إن قابلت كل فرقة منهم رسولها بالسخرية والاستهزاء ، كما
قابلك سفهاء قومك .وذلك لأن المكذبين فى كل زمان ومكان يتشابهون فى الطباع
الذميمة ، وفى الأخلاق القبيحة : كما قال - تعالى - ( كَذَلِكَ مَآ أَتَى
الذين مِن قَبْلِهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ
مَجْنُونٌ أَتَوَاصَوْاْ بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ) والجار والمجرور
: متعلق بأرسلنا ، أو بمحذوف وقع نعتا لمفعوله المحذوف . أى ( من قبلك )
ولقد أرسلنا رسلاً كائنة من قبلك .وإضافة الشيع إلى الأولين من إضافة
الموصوف إلى صفته عند بعض النحاة ، أو من حذف الموصوف عند البعض الآخر، أى
شيع الأمم الأولين .وعبر بقوله - سبحانه - ( إِلاَّ كَانُواْ بِهِ
يَسْتَهْزِئُونَ ) للإشعار بأن الاستهزاء بالرسل كان طبيعة فيهم - كما
- يومئ إليه لفظ كان ، وأنه متكرر منهم - كما يفيده التعبير بالفعل المضارع

كذلك نسلكه في قلوب المجرمين

كما فسرها الوسيط والكاف فى قوله ( كذلك نسلكه . . ) للتشبيه ، واسم
الإشارة ( ذلك ) يعود إلى السلك المأخوذ من نسلكه .والسلك مصدر سلك - من
باب نصر - وهو إدخال الشئ فى الشئ ، كإدخال الخيط فى المخيط .والضمير
المنصوب فى ( نسلكه ) يعود إلى القرآن الكريم الذى سبق الحديث عنه .والمراد
بالمجرمين فى قوله ( فِي قُلُوبِ المجرمين ) مشركو قريش ومن لف لفهم
والمعنى : كما سلكنا كتب الرسل السابقين فى قلوب أولئك المستهزئين نسلك.
القرآن فى قلوب هؤلاء المجرمين من قومك يا محمد ، بأن نجعلهم يسمعونه
ويفهمونه ويدركون خصائصه دون أن يستقر فى قلوبهم استقرار تصديق وإذعان
لاستيلاء الجحود والعناد والحسد عليهم .وقوله ( لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ )
بيان للسلك المشبه به ، أو حال من المجرمين .أى : أدخلنا القرآن فى قلوبهم

ففهموه ، ولكنهم لا يؤمنون به عناداً وجحوداً .وعلى هذا التفسير يكون الضمير فى ( نسلكه ) وفى ( به ) يعودان إلى القرآن الكريم ، الذى سبق الحديث عنه فى قوله - تعالى - ( إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ) .ومن المفسرين الذين ذكروا هذا الوجه ولم يذكروا سواه صاحب الكشاف ، فقد قال : " والضمير فى قوله ( نسلكه ) ، للذكر : أى : مثل ذلك السلك ونحوه نسلك الذكر ( فِي قُلُوبِ المجرمين ) على معنى أن يلقيه فى قلوبهم مكذباً مستهزئاً به غير مقبول ، كما لو أنزلت بلئيم حاجة فلم يجبك إليها : فقلت : كذلك أنزلها باللئام : تعنى مثل هذا الإنزال أنزلها بهم ، مردودة غير مقضية .ومحل قوله ( لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ) النصب على الحال أى : غير مؤمن به . أو هو بيان لقوله ( كذلك نسلكه . . ) .وقد زكى هذا الوجه صاحب الانتصاف فقال : والمراد - والله أعلم - إقامة الحجة على المكذبين ، بأن الله - تعالى - سلك القرآن فى قلوبهم ، وأدخله فى سويدائها كما سلك ذلك فى قلوب المؤمنين المصدقين ، فكذب به هؤلاء ، وصدق به هؤلاء ، كل على علم وفهم ( لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ ويحيى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ . . . ) ولئلا يكون للكفار حجة بأنهم ما فهموا وجوه الإعجاز كما فهمها من آمن . . . " .ويرى بعض المفسرين - كالإمام ابن جرير - أن الضمير فى نسلكه يعود إلى الكفر الذى سلكه الله فى قلوب المكذبين السابقين ، أما الضمير فى ( به ) فيعود إلى القرآن الكريم ، فقد قال : قوله - تعالى - ( كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ المجرمين لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ . . . )يعنى : كما سلكنا الكفر فى قلوب شيع الأولين بالاستهزاء بالرسل ، كذلك نفعل ذلك فى قلوب مشركى قومك الذين أجرموا بسبب الكفر بالله .( لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ) يقول :لا يصدقون بالذكر الذى أنزل إليك .ومع أن هذا التفسير الذى ارتضاه شيخ المفسرين ابن جرير له وجاهته ، إلا أننا نميل إلى التفسير الأول الذى ارتضاه صاحب الكشاف ، لأنه هو المتبادر من معنى الآية ، ومن المفسرين الذين رجحوا ذلك الفخر الرازى ، فقد قال - رحمه الله - خلال كلام طويل ما ملخصه : " التأويل الصحيح أن الضمير فى قوله - تعالى - ( كذلك نسلكه ) عائد إلى الذكر ، الذى هو القرآن ، فإنه - تعالى - قال قبل هذه الآية ( إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر ) وقال بعده ( كذلك نسلكه ) أى : هكذا نسلك القرآن فى قلوب المجرمين .والمراد من هذا السلك ، هو أنه - تعالى - يسمعهم هذا القرآن ، ويخلق فى قلوبهم حفظه والعلم بمعانيه . إلا أنهم مع هذه الأحوال لا يؤمنون به عناداً وجهلاً . .

لا يؤمنون به وقد خلت سنة الاولين

كما فسرها الوسيط ويدل على صحة هذا التأويل ، أن الضمير فى قوله ( لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ) عائد على القرآن بالإجماع ، فوجب أن يكون الضمير فى نسلكه ) عائداً إليه - أيضاً - لأنهما ضميران متعاقبان فيجب عودهما إلى شئ واحد . . . .وقوله - سبحانه - ( وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأولين ) تهديد لهؤلاء المكذبين من كفار مكة ومن سار على شاكلتهم ، وتكملة للتسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم .أى : وقد مضت سنة الله التى لا تتخلف وطريقته المألوفة بأن ينزل عذابه بالمجرمين ، كما أنزله بالأمم الماضية ، بسبب تكذيبها لرسلها ، واستهزائها بهم فلا تحزن - أيها الرسول الكريم - لما أصابك من سفهاء قومك فسننصرك عليهم .وأضاف - سبحانه - السنة إلى الأولين ، باعتبار تعلقها بهم ، وإنما هى سنة الله فيهم لأنها المقصود هنا ، والإضافة لأدنى ملابسة .

ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات الكريمة برسم صورة عجيبة لعناد هؤلاء المكذبين ولجحودهم للحق بعدما تبين فقال : ( وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السماء فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ) وقوله - سبحانه - ( وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السماء . . ) معطوف على قوله ( لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ . . ) لإبطال معاذيرهم ، ولبيان أن سبب عدم إيمانهم هو الجحود والعناد ، وليس نقصان الدليل والبرهان على صحة ما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم .قال الإمام الرازى . وقوله - تعالى - ( فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ) يقال : ظل فلان نهاره يفعل كذا ، إذا فعله بالنهار ، ولا تقول العرب ظل يظل إلا لكل عمل بالنهار ، كما لا يقولون بات يبيت إلا بالليل ، والمصدر الظلول .ويعرجون : من العروج ، وهو الذهاب فى صعود ، وفعله من باب دخل ، يقال عرج فلان إلى الجبل يعرج إذا صعد ، ومنه المعراج والمعارج أى المصاعد .

لقالوا انما سكرت ابصارنا بل نحن قوم مسحورون

كما فسرها الوسيط وقوله ( سكرت ) من السّكْر - بفتح السين المشددة وسكون الكاف - بمعنى السد والحبس والمنع ، يقال سكرت الباب أسْكرُه سَكْراً ، إذا سددته ، والتشديد فى ( سكرت ) للمبالغة ، وهو قراءة الجمهور . وقرأ ابن كثير ( سكرت ) ، بكسر الكاف بدون تشديد .وقوله ( مسحورون ) اسم مفعول من السحر ، بمعنى الخداع والتخييل والصرف عن الشئ إلى غيره .والمعنى : أن هؤلاء المشركين بلغ بهم الغلو فى الكفر والعناد ، أننا لو فتحنا لهم بابا من أبواب السماء ، ومكناهم من الصعود إليه ، فظلوا فى ذلك الباب يصعدون ، ويطلعون على ملكوت السموات وما فيها من الملائكة والعجائب لقالوا بعد هذا التمكين والاطلاع - لفرط عنادهم وجحودهم - إنما أبصارنا منعت من الإبصار ، وما نراه ما هو إلا لون من الخداع والتخييل والصرف عن إدراك الحقائق بسبب سحر محمد صلى الله عليه وسلم لنا وعلى هذا التفسير الذى سار عليه جمهور المفسرين ، يكون الضمير فى قوله ( فظلوا ) يعود إلى هؤلاء المشركين المعاندين .

ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين

كما فسرها الوسيط قال الإمام القرطبي ما ملخصه : لما ذكر - سبحانه - كفر الكافرين ، وعجز أصنامهم ، ذكر كمال قدرته ليستدل بها على وحدانيته والبروج : القصور والمنازل . قال ابن عباس . أى جعلنا فى السماء بروج. الشمس والقمر ، أى : منازلهما . وأسماء هذه البروج : الحمل والثور والجوزاء ، والسرطان ، والأسد ، والسنبلة ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجدى والدلو ، والحوت .والعرب تعد المعرفة لمواقع النجوم وأبوابها من أجل العلوم ويستدلون بها على الطرقات والأوقات والخصب والجدب . . .وقال الحسن وقتادة ، : البروج : النجوم ، وسميت بذلك لظهورها وارتفاعها . . . وقيل البروج : ، الكواكب العظام . . . .قال بعض العلماء ومرجع الأقوال كلها إلى شئ واحد ، لأن أصل البروج فى اللغة الظهور ، ومنه تبرج المرأة ، بإظهار زينتها فالكواكب ظاهرة ، والقصور ظاهرة ، ومنازل الشمس والقمر كالقصور بجامع أن الكل محل ينزل فيه . . .و ( جعلنا ) أى خلقنا وأبدعنا ، فيكون قوله ( فى السماء ) متعلقاً به ، وجوز أن يكون بمعنى التصيير ، فيكون قوله . فى السماء . متعلقاً بمحذوف على أنه مفعول ثان له و ( بروجاً ) هو المفعول الأول .أى : ولقد خلقنا وأبدعنا منازل وطرقا فى السماء ، تسير فيها الكواكب بقدراتنا ، وإرادتنا ، وحكمتنا ، دون خلل أو اضطراب .وفى ذلك الخلق ما فيه من منافع لكم ، حيث تستعملون هذه البروج فى ضبط المواقيت وفى تحديد الجهات وفى غير ذلك من المنافع ، كما قال - تعالى - ( هُوَ الذي جَعَلَ الشمس ، ضِيَآءً والقمر نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السنين والحساب مَا خَلَقَ الله ذلك إلاَّ بالحق يُفَصِّلُ الآيات لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ) وافتتح - سبحانه - الآية الكريمة بلام القسم وقد ، تنزيلاً للمخاطبين الذاهلين عن الالتفات إلى مظاهر قدرة الله - تعالى - منزلة ) المنكرين ، فأكد لهم الكلام بمؤكدين لينتبهوا ويعتبروا .والضمير فى قوله وزيناها . . . ) يعود إلى السماء . أى : وزينا السماء بتلك البروج المختلفة الأشكال والأضواء ، لتكون جميلة فى عيون الناظرين إليها ، وآية للمتفكرين فى دلائل قدرة الله - تعالى - وبديع صنعه .وهذه الجملة الكريمة ، تلفت الأنظار إلى أن الجمال غاية مقصودة فى خلق هذا الكون ، كما تشعر المؤمنين بأن من الواجب عليهم أن يجعلوا حياتهم مبنية على الجمال فى الظاهر وفى الباطن ، تأسيا بسنة الله - تعالى - فى خلق هذا الكون .

وحفظناها من كل شيطان رجيم

كما فسرها الوسيط ثم وضح - سبحانه - بأن هذا التزيين للسماء ، مقرون بالحفظ والصيانة والطهارة من كل رجس فقال - تعالى - ( وَحَفِظنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ) .والمراد بالشيطان هنا : المتمرد من الجن ، مشتق من شطن بمعنى بعد ، إذ الشيطان بعيد بطبعه عن كل خير .والرجيم ، أى المرجوم المحقر ، مأخوذ من الرجم ، لأن العرب كانوا إذا احتقروا أحداً رجموه بالقطع من الحجارة ، وقد كان العرب يرجمون قبر أبى رغال الثقفى ، الذى أرشد جيش الحبشة إلى مكة لهدم الكعبة .قال جرير :إذا مات الفرزدق فارجموه ... كما ترمون قبر أبى رغالوالمعنى : ولقد جعلنا فى السماء منازل وطرقا للكواكب ، وزيناها - أى السماء - للناظرين إليها ، وحفظناها من كل شيطان محقر مطرود من رحمتنا بأن منعناه من الاستقرار فيها ، ومن أن ينفث فيها شروره ومفاسده لأنها موطن الأخيار الأطهار .قال - تعالى - : ( إِنَّا زَيَّنَّا السمآء ، الدنيا بِزِينَةٍ الكواكب وَحِفْظاً مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ) وقال - تعالى - : ( وَلَقَدْ زَيَّنَّا السمآء الدنيا بِمَصَابِيحَ . . . . وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِّلشَّيَاطِينِ ) .

الا من استرق السمع فاتبعه شهاب مبين

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( إِلاَّ مَنِ استرق السمع
: فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ) فى محل نصب على الاستثناء واستراق السمع
اختلاسه وسرقته ، والمراد به : الاستماع إلى المتحدث خفية ، حتى لكأن
المستمع يسرق من المتكلم كلامه الذى يخفيه عنه ، فالسمع هنا بمعنى المسموع
من الكلام .والشهاب : هو الشعلة الساطعة من النار ، المنفصلة من الكواكب
. . التى ترى فى السماء ليلاً ، كأنها كوكب ينقض بأقصى سرعة . وجمعه شهب
أصله من الشهبة ، وهى بياض مختلط بسواد .و ( مبين ) أى ظاهر واضح للمبصرين
والاستثناء منقطع ، فيكون المعنى : وحفظنا السماء من كل شيطان رجيم لكن من.
اختلس السمع من الشياطين ، بأن حاول الاقتراب منها ، فإنه يتبعه شهاب واضح
- للناظرين فيحرقه ، أو يحول بينه وبين استراق السمع .قال القرطبى : قوله
. تعالى - : ( إِلاَّ مَنِ استرق السمع فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ) أى
لكن من استرق السمع ، أى الخطفة اليسيرة ، فهو استثناء منقطع .وقيل : هو
متصل ، أى : إلا ممن استرق السمع . أى : حفظنا السماء من الشياطين أن تسمع
شيئاً من الوحى وغيره ، إلا من استرق السمع فإنا لم نحفظها منه أن تسمع
- الخبر من أخبار السماء سوى الوحى ، فأما الوحى فلا تسمع منه شيئاً لقوله
تعالى - ( إِنَّهُمْ عَنِ السمع لَمَعْزُولُونَ ) وإذا استمع الشياطين إلى
شئ ليس بوحى ، فإنهم يقذفونه إلى الكهنة فى أسرع من طرفة عين ، ثم تتبعهم
الشهب فتقتلهم أو تخبلهم . . .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - ( إِنَّا
زَيَّنَّا السمآء الدنيا بِزِينَةٍ الكواكب وَحِفْظاً مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ
مَّارِدٍ لاَّ يَسَّمَّعُونَ إِلَى الملإِ الأعلى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ
جَانِبٍ دُحُوراً وَلَهُمْ عَذابٌ وَاصِبٌ إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الخطفة
فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ) قال بعض العلماء ما ملخصه : والمقصود منع
الشياطين من الاطلاع على ما أراد الله عدم اطلاعهم عليه . . وربما استدرج
الله - تعالى - الشياطين وأولياءهم ، فلم يمنع الشياطين من استراق شئ قليل
. يلقونه إلى الكهان؛ فلما أراد - سبحانه - عصمة الوحى منعهم من ذلك بتاتا
وفى سورة الجن دلالة على أن المنع الشديد من استراق السمع كان بعد البعثة.
النبوية ، وبعد نزول القرآن ، إحكاماً لحفظ الوحى من أن يلتبس على الناس
بالكهانة ..قال - تعالى - : ( وَأَنَّا لَمَسْنَا السمآء فَوَجَدْنَاهَا
مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا
مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآن يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً
وعلى ذلك يكون ما جاء فى بعض الأحاديث من استراق الجن السمع - وصفا (
للكهانة السابقة ، ويكون قوله صلى الله عليه وسلم " ليسوا بشئ . . . " وصفا
لآخر أمرهم . ." ففى صحيح البخارى عن عائشة : أن ناسا سألوا رسول الله صلى
الله عليه وسلم عن الكهانة ، فقال : " ليسوا بشئ " . - أى لا وجود لما
. يزعمونه - فقيل - يارسول الله ، فإنهم يحدثون أحياناً بالشئ فيكون حقاً
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنى
فَيقرُّها فى أذن وليه قَرَّ الدجاجة - أى فيلقيها بصوت خافت كالدجاجة
. " " عندما تخفى صوتها - فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة

والارض مددناها والقينا فيها رواسي وانبتنا فيها من كل شيء موزون

كما فسرها الوسيط وبعد أن بين - سبحانه - بعض الدلائل السماوية الدالة على
) : - قدرته ووحدانيته ، أتبع ذلك ببيان بعض الدلائل الأرضية فقال - تعالى
والأرض مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا
مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ) . وقوله : ( رواسى ) من الرسو وهو ثبات
- الأجسام الثقيلة . يقال رسا الشئ يرسو أى ثبت .أى : ومن الأدلة - أيضاً
على وحدانيتنا وقدرتنا ، أننا مددنا الأرض وفرشناها وبسطناها ، لتتيسر لكم
الحياة عليها قال - تعالى - ( والأرض فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الماهدون )
وأننا - أيضاً وضعنا فيها جبالاً ثوابت راسخات تمسكها عن الاضطراب وعن أن
تميد بكم . قال - تعالى - : ( خَلَقَ السماوات بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا
- وألقى فِي الأرض رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ . . . ) وأننا - أيضًا
أنبتنا فى الأرض من كل شئ ( موزون ) أى : مقدر بمقدار معين وموزون بميزان
. الحكمة ، بحيث تتوفر فيه كل معانى الجمال والتناسق

وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين

كما فسرها الوسيط قال - تعالى - : ( إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ
بِقَدَرٍ ) وأننا - كذلك - ( جَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ . . . )
والمعايش : جمع معيشة ، وهى فى الأصل مصدر عاش يعيش عَيْشا وعَيْشة
، ومعاشًا ، ومعيشة ، إذا صار ذا حياة . ثم استعمل هذا اللفظ فيما يعاش به
أو فيما يتوصل به إلى العيش .أى : وجعلنا لكم فى الأرض ما تعيشون به من
المطاعم والمشارب والملابس وغيرها ، مما تقتضيه ضرورات الحياة التى تحيونها
وجملة ( وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ) معطوفة على ( معايش ).

والمراد بمن لستم له برازقين : ما يشمل الأطفال والعجزة والأنعام وغير ذلك.
من مخلوقات الله التى تحتاج إلى العون والمساعدة .أى : وجعلنا لكم فى الأرض
ما تعيشون به أو ما تتوصلون به إلى ذلك من المكاسب والتجارات ، وجعلنا لكم
فيها - أيضًا - من لستم له برازقين من العيال والخدم والدواب . . . وإنما
الرازق لهم هو الله - تعالى - رب العالمين ، إذ ما من دابة فى الأرض إلا
على الله وحده رزقها .وما يزعمه الجاهلون من أنهم هم الرازقون لغيرهم ، هو
لون من الغرور والافتراء ، لأن الرازق للجميع هو الله رب العالمين .وعبر
بمن فى قوله ( ومن لستم ) تغليباً للعقلاء على غيرهم .قال الإمام ابن كثير
والمقصود - من هذه الجملة - أنه - تعالى - يمتن عليهم بما يسر لهم من " :
أسباب المكاسب ووجوه الأسباب ، وصنوف المعاشات وبما سخر لهم من الدواب التى
، يركبونها والأنعام التى يأكلونها ، والعبيد والإماء التى يستخدمونها
- ورزقهم على خالقهم لا عليهم ، فلهم هم المنفعة ، والرزق على الله - تعالى
" .

وان من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أن كل شئ فى هذا الكون ، خاضع
لإرادته وقدرته ، وتصرفه . . فقال - تعالى - ( وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ
" عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ) .و
، إن " نافية بمعنى ما ، و " من " مزيدة للتأكيد . و ( خزائنه ) جمع خزانة
وهى فى الأصل تطلق على المكان الذى توضع فيه نفائس الأموال للمحافظة عليها
والمعنى : وما من شئ من الأشياء الموجودة فى هذا الكون ، والتى يتطلع.
الناس إلى الانتفاع بها . إلا ونحن قادرون على إيجادها وإيجاد أضعافها بلا
تكلف أو إبطاء ، كما قال - تعالى - : ( إِنَّمَآ أَمْرُهُ إِذَآ أَرَادَ
شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ) فقد شبه - سبحانه - اقتداره على
إيجاد كل شئ ، بالخزائن المودعة فيها الأشياء ، والمعدة لإخراج ما يشاء
إخراجه منها بدون كلفة أو إبطاء ،والمراد بالإنزال فى قوله ( وَمَا
نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ) . الإيجاد والإخراج إلى هذه
الدنيا ، مع تمكين الناس من الحصول عليه .أى : وما نخرج هذا الشىء إلى حيز
الوجود بحيث يتمكن الناس من الانتفاع به إلا ملتبسًا بمقدار معين ، وفى وقت
محدد ، تقتضيه حكمتنا ، وتستدعيه مشيئتنا ، ويتناسب مع حاجات العباد
وأحوالهم ، كما قال - تعالى - ( وَلَوْ بَسَطَ الله الرزق لِعِبَادِهِ
لَبَغَوْاْ فِي الأرض ولكن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مّا يَشَآءُ إِنَّهُ
بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ).

وارسلنا الرياح لواقح فانزلنا من السماء ماء فاسقيناكموه وما انتم له بخازنين

كما فسرها الوسيط ثم انتقل - سبحانه - من الاستدلال على وحدانيته وقدرته
بظواهر السماء وبظواهر الأرض ، إلى الاستدلال على ذلك بظواهر الرياح
والأمطار فقال - تعالى - : ( وَأَرْسَلْنَا الرياح لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا
مِنَ السمآء مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ
والآية الكريمة معطوفة على قوله - تعالى - قبل ذلك : ( وَجَعَلْنَا (
لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ) وما بينهما اعتراض لتحقيق ما سبق ذكره من النعم
- والمراد بإرسال الرياح هنا : نقلها من مكان إلى آخر بقدرة الله - تعالى.
وحكمته .وقوله ( لواقح ) يصح أن يكون جمع لاقح . وأصل اللاقح : الناقة التى
قبلت اللقاح فحملت الجنين فى بطنها . .ووصف - سبحانه - الرياح بكونها لواقح
لأنها حوامل تحمل ما يكون سببا فى نزول الأمطار كما تحمل النوق الأجنة فى .
بطونها .أى : وأرسلنا بقدرتنا ورحمتنا الرياح حاملة للسحاب وللأمطار
) ولغيرهما ، مما يعود على الناس بالنفع والخير والبركة .ويصح أن يكون لفظ
لواقح ) جمع ملقح - اسم فاعل - وهو الذى يلقح غيره ، فتكون الرياح ملقحة
) لغيرها كما يلقح الذكر الأنثى .قال الإمام ابن كثير : قوله
وَأَرْسَلْنَا الرياح لَوَاقِحَ ) أى : تلقح السحب فتدر ماء ، وتلقح
الأشجار فتتفتح عن أوراقها وأكمامها .وقال بعض العلماء : ومعنى الإلقاح أن
الرياح تلقح السحاب بالماء بتوجيه عمل الحرارة والبرودة متعاقبين ، فينشأ
عن ذلك البخار الذى يصير ماء فى الجو ، ثم ينزل مطرًا على الأرض ، وأنها
تلقح الشجر ذا الثمرة ، بأن تنقل إلى نوره غبرة دقيقة من نوْر الشجر الذكر
فتصلح ثمرته أو تثبت . .وهذا هو الإبار . وبعضه لا يحصل إلا بتعليق الطلع ،
الذكر على الشجرة المثمرة . وبعضه يكتفى منه بغرس شجرة ذكر فى خلال شجر
الثمرومن بلاغة الآية الكريمة ، إيراد هذا الوصف - لواقح - لإفادة كلا
العملين اللذين تعملهما الرياح - وهما الحمل للسحاب والمطر وغيرهما ، أو
التلقيح لغيرها - .وقوله ( فَأَنزَلْنَا مِنَ السمآء مَاءً
فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ . . ) تفريع على ما تقدم .أى : وأرسلنا الرياح
بقدرتنا من مكان إلى آخر ، حالة كونها حاملة للسحاب وغيره ، فأنزلنا - بسبب

هذا الحمل - من جهة السماء ، ماء كثيرًا هو المطر ، لتنتفعوا به فى شرابكم
وفى معاشكم ، وفى غير ذلك من ضرورات حياتكم .قال - تعالى - : ( هُوَ الذي ،
أَنْزَلَ مِنَ السماء مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ
تُسِيمُونَ يُنبِتُ لَكُمْ بِهِ الزرع والزيتون والنخيل والأعناب وَمِن
كُلِّ الثمرات . . . ) وقوله ( وَمَآ أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ) تتميم
. لنعمة إنزال الماء .أى : أنزلنا المطر من السماء ، وليست خزائنه عندكم
وإنما نحن الخازنون له ، ونحن الذين ننزله متى شئنا ، ونحن الذين نمنعه متى
شئنا ، كما قال - تعالى - قبل ذلك : ( وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا
خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ) .ويصح أن يكون
المعنى : أنزلنا المطر من السماء فجعلناه لسقياكم ، وأنتم لستم بقادرين على
- خزنه وحفظه فى الآبار والعيون وغيرها ، وإنما نحن القادرون على ذلك . قال
تعالى - ( وَأَنزَلْنَا مِنَ السمآء مَآءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي
الأرض وَإِنَّا على ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ).

وانا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون

، كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن الإحياء والإماتة بيده وحده
فقال - تعالى - : ( وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الوارثون
أى : وإنا وحدنا القادرون على إيجاد الحياة فى المخلوقات ، والقادرون ( .
على سلبها عنها ، ونحن الوارثون لهذا الكون بعد فنائه ، الباقون بعد زواله
قال - تعالى - ( إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا المصير ).
وقال - تعالى - ( إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأرض وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا
يُرْجَعُونَ ) وشبه - سبحانه - بقاءه بعد زوال كل شئ سواه بالوارث ، لأن
. الوارث هو الذى يرث غيره بعد موته

ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستاخرين

`<!-- TODO:MISSING -->`{=html} كما فسرها الوسيط

وان ربك هو يحشرهم انه حكيم عليم

`<!-- TODO:MISSING -->`{=html} كما فسرها الوسيط

ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حما مسنون

كما فسرها الوسيط والمراد بالإنسان فى قوله - سبحانه - ( وَلَقَدْ
خَلَقْنَا الإنسان مِن صَلْصَالٍ ) آدم - عليه السلام - لأنه أصل النوع
الإنسانى ، وأول فرد من أفراده .والصلصال : الطين اليابس الذى يصلصل ، أى
) - يحدث صوتاً إذا حرك أو نقر عليه ، كما يحدث الفخار قال - تعالى :
، خَلَقَ الإنسان مِن صَلْصَالٍ كالفخار ) وقيل : الصلصال : الطين المنتن
: مأخوذ من قولهم : صَلَّ اللحم وأصلّ ، إذا أنتن . .قال الإمام ابن جرير
والذى هو أولى بتأويل الآية ، أن يكون الصلصال فى هذا الموضع ، الطين "
اليابس الذى لم تصبه النار ، فإذا نقرته صل فسمعت له صلصلة - وذلك أن
الله - تعالى - وصفه فى موضع آخر فقال : ( خَلَقَ الإنسان مِن صَلْصَالٍ
كالفخار ) فشبهه - تعالى ذكره - بأنه كالفخار في يُبسِه ، ولو كان معناه فى
ذلك المنتن لم يشبهه بالفخار ، لأن الفخار ليس بمنتن فيشبه به فى النتن
غيره " .والحمأ : الطين إذا اشتد سواه وتغيرت رائحته .والمسنون : المصور من
سن الشئ إذا صوره .قال الآلوسى ما ملخصه : ( من حمأ ) أى : من طين تغير
) واسود من مجاورة الماء ، ويقال للواحدة حمأة - بسكون الميم - . . .وقوله
مسنون ) أى : مصوّر من سُنّة الوجه وهى صورته . وأنشد لذلك ابن عباس قول
... عمه حمزة يمدح النبى صلى الله عليه وسلم :أغرٌّ كأن البدرَ سنّةُ وجهه
جلا الغيم عنه ضوؤه فتبدداوقيل مسنون : " أى مصبوب ، من سنَّ الماء بمعنى
. . . صبه . ويقال شَنّ - بالشين أيضاً - : أى : مفرغ على هيئة الإنسان
- وقيل : المسنون : المنتن . . . " .والذى يتدبر القرآن الكريم يرى أن الله
تعالى - قد وضح في آيات متعددة أطوار خلق آدم - عليه السلام - ، فقد بين فى
بعض الآيات أنه خلقه من تراب ، كما فى قوله - تعالى - ( إِنَّ مَثَلَ عِيسَى
عِندَ الله كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن
فَيَكُونُ . . . ) وبين فى آيات أخرى أنه - سبحانه - خلقه من طين ، كما فى
قوله - تعالى - ( الذي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ
الإنسان مِن طِينٍ ) وبين هنا أنه - سبحانه - خلقه ( مِن صَلْصَالٍ مِّنْ
، حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ) .قال الجمل : " وهذا الطور آخر أطوار آدم الطينية
وأول ابتدائه أنه كان ترابا متفرق الأجزاء ، ثم بُلّ - أى التراب - فصار
طينا ، ثم ترك حتى أنتن وأسود فصار حمأ مسنونا .أى : متغيرا ، ثم يبس فصار
صلصالاً ، وعلى هذه الأحوال والأطوار تتخرج الآيات الواردة فى أطواره

الطينية ، كآية خلقه من تراب ، وآية ( بَشَراً مِّن طِينٍ ) وهذه الآية
التى نحن فيها " .والمقصود من هذه الآيات الكريمة ، التنبيه على عجيب صنع
الله - تعالى - وعظيم قدرته ، حيث أخرج - سبحانه - الجملة الكريمة بلام
القسم وقد ، لزيادة التحقيق ، وللإرشاد إلى أهمية هذا الخلق ، وأنه بهذه
الصفة .و ( من ) فى قوله ( من صلصال ) للابتداء الغاية أو للتبعيض ، وفى
قوله ( من حمأ ) ابتدائية .والجار والمجرور صفة لصلصال أى : من صلصال كائن
من حمأ ، ومسنون صفة لحمأ .

والجان خلقناه من قبل من نار السموم

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك المادة التى خلق منها الجان
فقال - سبحانه - : ( والجآن خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السموم )
والمراد بالجان هنا : أبو الجن عند جمهور المفسرين . وقيل هو إبليس . وقيل
هو اسم لجنس الجن . وسمى جانا لتواريه عن الأعين ، واستتاره عن بنى آدم .أى
والجان خلقناه ( من قبل ) أى : من قبل خلق آدم ( مِن نَّارِ السموم ) أى :
من الريح الحارة التى تقتل . وسميت سموماً ، لأنها لشدة حرارتها ، وقوة :
" : تأثيرها تنفذ فى مسام البدن .قال ابن كثير : وقد ورد فى الحديث الصحيح
خُلِقت الملائكة من نور ، وخُلِقت الجان من مارج من نار ، وخُلق بنو آدم
مما وصف لكم " .

واذ قال ربك للملائكة اني خالق بشرا من صلصال من حما مسنون

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - ما أمر به ملائكته عندما توجهت
إرادته - سبحانه - لخلق آدم ، فقال - تعالى - : ( وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ
لِلْمَلآئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ
مَّسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ
لَهُ سَاجِدِينَ ) .أى : واذكر - أيها العاقل - وقت أن قال ربك - سبحانه -
للملائكة - الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون - ( إنى خالق )
بقدرتى ( بشرا ) أى : إنسانا ، وعبر عنه بذلك اعتبارا بظهور بشرته وهى ظاهر
الجلد ( مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ) .

فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين

، كما فسرها الوسيط ( فإذا سويته ) أى : سويت خلق هذا البشر ، وكملت أجزاءه
وجعلته فى أحسن تقويم . . .( وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ) أى : وضعت فيه
ما به حياته وحركته وهو الروح ، الذى لا يعلم حقيقته أحد سواى .قال القرطبى
. قوله : ( وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ) النفخ إجراء الريح فى الشئ :
والروح جسم لطيف ، أجرى الله العادة بأن يخلق الحياة فى البدن مع ذلك الجسم
وحقيقته إضافة خلق إلى خالق ، فالروح خلق من خلقه أضافه - سبحانه - إلى .
نفسه تشريفا وتكريما ، كقوله ، أرضى وسمائى وبيتى وناقة الله وشهر الله .
وقوله ( فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ ) أمر منه - سبحانه - للملائكة. . .
بالسجود لآدم .أى : فإذا سويت خلقه ، وأفضت عليه ما به حياته ، فاسقطوا
وخروا له ساجدين ، سجود تحية وتكريم ، لا سجود عبادة ، فإن سجود العبادة لى
وحدى .وقال - سبحانه - ( فقعوا . . ) بفاء التعقيب ، للإشعار بأن سجودهم له
واجب عليهم عقب التسوية والنفخ من غير إبطاء أو تأخير .وهذا نوع من تكريم
الله - تعالى - لعبده آدم - عليه السلام - ، وله - سبحانه - أن يكرم بعض
عباده بما يشاء ، وكيف شاء .. ( لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ
يُسْأَلُونَ ) .

فسجد الملائكة كلهم اجمعون

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما كان من الملائكة بعد ذلك فقال
فَسَجَدَ الملائكة كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ) أى : امتثل الملائكة لأمر الله
بعد أن خلق - سبحانه - آدم وسواه ونفخ فيه من روحه ، فسجدوا له كلهم أجمعون
دون أن يتخلف منهم أحد .وجمع - سبحانه - بين لفظى التوكيد ( كلهم أجمعون )
للمبالغة فى ذلك ، ولإزالة أى التباس بأن أحداً شذ عن طاعة الله - تعالى -
.

الا ابليس ابى ان يكون مع الساجدين

كما فسرها الوسيط وقوله ( إِلاَّ إِبْلِيسَ أبى أَن يَكُونَ مَعَ الساجدين
بيان لموقف إبليس من أمر الله - تعالى - . وإبليس : اسم مشتق من الإبلاس (
، وهو الحزن الناشئ عن شدة اليأس ، وفعله أبلس ، والراجح أنه اسم أعجمى ،
ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة . وهو كائن حى ، وقد أخطأ من حمله على معنى

داعى الشر الذى يخطر فى النفوس ، لأنه ليس من المعقول أن يكون الأمر كذلك مع أن القرآن أخبرنا بأنه يرى الناس ولا يرونه .قال - تعالى - ( إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ . . . ) وقوله - تعالى - : ( وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجن فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ . . ) فهو أصل الجن ، كما أن آدم أصل الإنس ، ولأنه خلق من نار ، والملائكة خلقوا من نور ولأن له ذرية ، والملائكة لا ذرية لهم . .وعلى هذا الرأى الذى اختاره ، الحسن وقتادة وغيرهما يكون الاستثناء منقطعًا .قال الشيخ القاسمى : " وقد حاول الإمام ابن القيم - رحمه الله - أن يجمع بين الرأيين فقال : والصواب التفصيل فى هذه المسألة ، وأن القولين فى الحقيقة قول واحد . فإن إبليس كان مع الملائكة بصورته وليس منهم بمادته وأصله فإن أصله من نار وأصل الملائكة من نور ، فالنافى كونه من الملائكة والمثبت كونه منهم لم يتواردا على محل واحد " .والذى نميل إليه فى هذه المسألة أن إبليس لم يكن من الملائكة ، بدليل الحديث الصحيح الذى يقول فيه النبى صلى الله عليه وسلم : " خلقت الملائكة من نور . وخلقت الجان من مارج من نار ، وخلق بنو آدم مما وصف لكم والآية الكريمة - وهى قوله - تعالى - ( إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجن " صريحة فى أنه كان من الجن ولم يكن من الملائكة .ومع هذا فإن الأمر ( بالسجود يشمله ، بدليل قوله - تعالى - ( قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ . . . ) فهذه الآية تدل دلالة صريحة على أن الله - تعالى - قد أمر إبليس بالسجود لآدم . . .ووجود إبليس مع الملائكة لا ، يستلزم أن يكون منهم ، ومثل ذلك كمثل أن تقول : حضر بنو فلان إلا محمدا ومحمد ليس من بنى فلان هؤلاء ، وإنما هو معهم بالمجاورة أو المصاحبة أو غير ذلك .هذا ما نختاره ونميل إليه ، استنادًا إلى ظاهر الآيات وظاهر الأحاديث والله - تعالى - أعلم ، .

قال يا ابليس ما لك الا تكون مع الساجدين

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( قَالَ يا إبليس مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ الساجدين قَالَ لَمْ أَكُن لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ) بيان لما وبخ الله - تعالى - به إبليس - ولرد إبليس - لعنه الله - على خالقه - عز وجل - .أى : قال الله - تعالى ، لإبليس على سبيل التوبيخ والزجر : أى سبب حملك على مخالفة أمرى ، وجعلك تمتنع عن السجود لمن أمرتك بالسجود له؟

قال لم اكن لاسجد لبشر خلقته من صلصال من حما مسنون

كما فسرها الوسيط فكان رد إبليس : ما كان ليليق بشأنى ومنزلتى أن أسجد مع الساجدين لبشر خلقته - أيها الخالق العظيم - من صلصال من حمأ مسنون .ومقصود إبليس بهذا الرد إثبات أنه خير من آدم .كما حكى عنه - سبحانه - ذلك فى قوله - تعالى - ( قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ) وهذا الرد منه يدل على عصيانه لأمر ربه ، وعدم الرضا بحكمه ، وسوء أدبه مع خالقه - سبحانه - .قال الآلوسى : وقد أخطأ اللعين حيث ظن أن الفضل كله باعتبار المادة ، وما درى أنه يكون باعتبار الفاعل ، وباعتبار الصورة ، وباعتبار الغاية ، بل إن ملاك الفضل والكمال هو التخلى عن الملكات الردية ، والتحلى بالمعارف الربانية .فشمال والكأس فيها يمين ... ويمين لا كأس فيها شمال

قال فاخرج منها فانك رجيم

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( قَالَ فاخرج مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللعنة إلى يَوْمِ الدين ) بيان للحكم العادل الذى أصدره الله - تعالى - على إبليس .والضمير فى قوله : ( منها ) يعود إلى السماء لأنها مسكن الطائعين الأخيار ، أو إلى الجنة لأنها لا يسكنها إلا من أطاع الله - تعالى - ، أو إلى المنزلة التى كان فيها قبل طرده من رحمة الله

أى : قال الله - تعالى - لإبليس على سبيل الزجر والتحقير : فاخرج من .. جنتى ومن سمائى فإنك ( رجيم ) مطرود من كل خير وكرامة .

وان عليك اللعنة الى يوم الدين

كما فسرها الوسيط وإن عليك اللعنة والإبعاد من رحمتى إلى يوم الدين ، وهو يوم الحساب والجزاء .وليس المراد أن تنقطع عنه اللعنة يوم الدين ، بل المراد أن هذه اللعنة مستمرة عليه إلى يوم الدين ، فإذا ما جاء هذا اليوم استمرت هذه اللعنة ، وأضيف إليها العذاب الدائم المستمر الباقى ، بسبب عصيانه لأمر ربه ، فذكر يوم الدين ، إنما هو للمبالغة فى طول مدة هذه ) اللعنة ودوامها ما دامت الحياة الدنيا .وعبر - سبحانه - بعلى فى قوله وَإِنَّ عَلَيْكَ اللعنة ) للإشعار بتمكنها منه ، واستعلائها عليه ، حتى لكأن اللعنة فوقه يحملها دون أن تفارقه فى لحظة من اللحظات .

قال رب فانظرني الى يوم يبعثون

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - ما طلبه إبليس من ربه ، ومارد الله به عليه ، فقال - تعالى - ( قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ المنظرين إلى يَوْمِ الوقت المعلوم ) .والفاء فى قوله : للتفريع وهى متعلقة بمحذوف يدل عليه سياق الكلام .والإنظار ( فأنظرنى ) التأخير والإمهال ومنه قوله - تعالى - ( وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إلى مَيْسَرَةٍ ) أى : قال إبليس لربه . عز وجل : ما دمت قد أخرجتنى من جنتك ومن سمائك ، وجعلتنى مرجوما ملعونا إلى يوم الدين ، فأخر موتى إلى يوم يبعث آدم وذريته للحساب وخاطب الله - تعالى - بصفة الربوبية تخضعا وتذللا لكى يجاب طلبه .

قال فانك من المنظرين

كما فسرها الوسيط وقد أجاب الله - تعالى - له طلبه فقال : ( فإنك ) يا إبليس من جملة ( المنظرين ) أي الذين أخرت موتهم ( إلى يَوْمِ الوقت المعلوم ) وهو يوم القيامة الذى استأثرت بعلم وقته ، والذى وصفت أحواله للناس ، كى يستعدوا له بالإيمان والعمل الصالح .ويصح أن يكون المراد بالوقت المعلوم : وقت النفخة الأولى حين يموت كل الخلائق ويموت هو معهم .

الى يوم الوقت المعلوم

كما فسرها الوسيط قال ابن كثير : أجابه الله - تعالى - إلى ما سأل ، لما له فى ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة التى لا تخالف . ولا تمانع ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب .وقال بعض العلماء : وهذا الإنظار رمز إلهى على أن ناموس الشر لا ينقضى من عالم الحياة الدنيا ، وأن نظامها قائم على التصارع بين الخير والشر ، وبين الأخيار والأشرار .قال - تعالى - : ( بَلْ نَقْذِفُ بالحق عَلَى الباطل فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ . . . ) ولذلك لم يستغن نظام العالم عن إقامة قوانين العدل والصلاح ، وإيداعها إلى الكفاة لتنفيذها والذود عنها .

قال رب بما اغويتني لازينن لهم في الارض ولاغوينهم اجمعين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - الأسباب التى حملت إبليس على طلب تأخير موته إلى يوم القيامة ، والتى من أهمها الانتقام من آدم وذريته فقال - تعالى - : ( قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأرض وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين والباء فى قوله ( بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ .. ) . ( للسببية أو للقسم .قال الإمام الرازى ما ملخصه : الباء ههنا بمعنى السبب ، أى : بسبب كونى غاويا لأزينن لهم كقول القائل : أقسم فلان بمعصيته ليدخلن النار ، وبطاعته ليدخلن الجنة .أو للقسم وما مصدرية وجواب القسم لأزينن لهم والمعنى أقسم بإغوائك لى لأزينن لهم . ونظيره قوله - تعالى - ( قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ) وقوله ( أغويتنى ) من - الإغواء ، وهو خلق الغى فى القلوب . وأصل الغى الفساد ، ومنه غوى الفصيل ، كرضى - إذا بشم من اللبن ففسدت معدته . أو منع من الرضاع فهزل وكاد يهلك ثم استعمل فى الضلال . يقال : غوى فلان يغوى غيا وغواية فهو غاو إذا ضل عن الطريق المستقيم . وأغواه غيره وغواه : أضله .وقوله ( لأزينن لهم ) من التزيين بمعنى التحسين والتجميل ، وهو تصيير الشى زينًا ، أى : حسنًا حتى ترغب النفوس فيه وتقبل عليه .والضمير فى ( لهم ) يعود على ذرية آدم ، وهو - مفهوم من السياق وإن لم يجر لهم ذكر ، وقد جاء ذلك صريحًا فى قوله

تعالى - فى آية أخرى : ( قَالَ أَرَأَيْتَكَ هذا الذي كَرَّمْتَ عَلَيَّ
لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إلى يَوْمِ القيامة لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ
قَلِيلاً ) وحذف مفعول ( لأزينن ) لدلالة المقام عليه .أى : لأزينن لهم
المعاصى والسيئات ، بأن أحسن لهم القبيح . وأزين لهم المنكر . وأحبب
. . الشهوات إلى نفوسهم حتى يتبعوها ، وأبذل نهاية جهدى فى صرفهم عن طاعتك
وقال - سبحانه - ( فى الأرض ) لتحديد مكان إغوائه ، إذ هى المكان الذى .
) : صار مستقرًا له ولآدم وذريته ، كما قال - تعالى - فى آية أخرى
- فَأَزَلَّهُمَا الشيطان عَنْهَا ) - أى الجنة - فأخرجهما - أى آدم وحواء
مما كانا فيه ، ( وَقُلْنَا اهبطوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ
فِي الأرض مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إلى حِينٍ ) وقوله ( ولأغوينهم أجمعين )
، مؤكدًا لما قبله .أى : والله لأغوينَّهم جميعًا مادمت قادرًا على ذلك
) : ولأعملن على إضلالهم بدون فتور أو يأس ، كما قال - تعالى - فى آية أخرى
ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ
( أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ
قال القرطبى : وروى ابن لهيعة عبد الله عن دراج أبى السمح ، عن أبى الهيثم
عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن إبليس ،
، قال يارب وعزتك وجلالك لا أزال أغوى بنى آدم ما دامت أرواحهم فى أجسامهم
فقال الرب : وعزتى وجلالى لا أزال أغفر لهم ما استغفرونى " .

الا عبادك منهم المخلصين

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين )
، اعتراف من إبليس بأن من عباد الله - تعالى - قومًا لا يستطيع أن يغويهم
ولا يقدر على إضلالهم .وكلمة ( المخلصين ) قرأها نافع وحمزة وعاصم
والكسائى - بفتح اللام - ، فيكون المعنى : لأغوينهم أجمعين إلا عبادك الذين
استخلصتهم لطاعتك ، وصنتهم عن اقتراف ما نهيتهم عنه .وقرأها ابن كثير وابن
عامر وأبو عمرو - بكسر اللام - ، فيكون المعنى : لأضلنهم جميعًا ، إلا
عبادك الذين أخلصوا لك العمل ، وابتعدوا عن الرياء فى أقوالهم وأفعالهم
وهذا الاستثناء الذى اعترف به إبليس بعد أن أدرك أنه لا محيص له عنه - هو.
، سنة الله - تعالى - فى خلقه ، فقد جرت سنته التى لا تغيير ولا تبديل لها
بأن يستخلص لذاته من يخلص له قلبه ، وأن يرعى من يرعى حدوده ، ويحفظ من
. يحفظ تكاليفه

قال هذا صراط علي مستقيم

- كما فسرها الوسيط ولذا كان جوابه - سبحانه - على إبليس ، هو قوله - تعالى
قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ )
) عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتبعك مِنَ الغاوين ) .واسم الإشارة
هذا ) يعود إلى الاستثناء السابق وهو قوله ( إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ
- المخلصين ) .وقد اختار هذا الرأى الإمام الآلوسى فقال : قال الله
تعالى - ( هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ ) أى : حق لابد أن أراعيه ( مستقيم )لا
انحراف فيه فلا يعدل عنه إلى غيره .والإشارة إلى ما تضمنه الاستثناء وهو
تخليص المخلصين من إغوائه وكلمة على تستعمل فى الوجوب . والمعتزلة يقولون
به حقيقة لقولهم بوجوب الأصلح عليه - تعالى - .وقال أهل السنة ، إن ذلك وإن
كان تفضلاً منه - سبحانه - إلا أنه شبه بالحق الواجب لتأكد ثبوته وتحقق
وقوعه ، بمقتضى وعده - عز وجل - ، فجئ بعلىّ لذلك .ثم قال : وقرأ الضحاك
ومجاهد ويعقوب . . ( هذا صراط عَلِيٌّ ) - بكسر اللام وضم الياء المشددة
وتنوينها - أى : عال لارتفاع شأنه .وقد اختار صاحب الكشاف عودة اسم
الإشارة إلى ما بعده فقال : قال الله - تعالى - ( هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ
مُسْتَقِيمٌ ) أى هذا طريق حق على أن أراعيه ، وهو أن لا يكون لك سلطان على
عبادى ، إلا من اختار اتباعك منهم لغوايته .ويرى ابن جرير أن على هنا بمعنى
إلى ، فقد قال - رحمه الله - قوله - تعالى - ( هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ
مُسْتَقِيمٌ ) بمعنى هذا طريق إلى مستقيم .فكان معنى الكلام : هذا طريق
مرجعه إلى ، فأجازى كلا بأعمالهم ، كما قال - تعالى - ( إِنَّ رَبَّكَ
لبالمرصاد ) وذلك نظير قول القائل لمن يتوعده ويتهدده : طريقك على وأنا على
. . طريقك ، فكذلك قوله ( هذا صراط ) معناه : هذا طريق علىّ وهذا طريق إلى
ويبدوا لنا أن الآية الكريمة مسوقة لبيان المنهاج القويم الذى كتبه. .
- الله - تعالى - على نفسه فضلاً منه وكرمًا ، والميزان العادل الذى وضعه
سبحانه - لتمييز الخبيث من الطيب .فكأنه - سبحانه - يقول فى الرد على إبليس
الذى اعترف بعجزه عن إغواء المخلصين من عباد الله : يا إبليس ، إن عدم
قدرتك على إغواء عبادى المخلصين منهج قويم من مناهجى التى اقتضتها حكمتى
. وعدالتى ورحمتى ، وسنة من سننى التى آليت على نفسى أن ألتزم بها مع خلقى

ان عبادي ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين

، كما فسرها الوسيط إن عبادى المخلصين لا قوة ولا قدرة لك على إغوائهم لأنهم حتى إذا مسهم طائف منك . أسرعوا بالتوبة الصادقة إلى ، فقبلتها منهم وغفرت لهم زلتهم . . . ولكنك تستطيع إغواء أتباعك الذين استحوذت عليهم؛ . فانقادوا لك . . .وفى هاتين الآيتين ما فيهما من التنويه بشأن عباد الله المخلصين ، ومن المديح لهم بقوة الإيمان ، وعلو المنزلة ، وصدق العزيمة؛ وضبط النفس . . .قال - تعالى - : ( إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وكفى بِرَبِّكَ وَكِيلاً ) قال الآلوسى وقوله : ( إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ . . . ) أى تصرف وتسلط ، والمراد بالعباد؛ المشار إليهم بالمخلصين ، فالإضافة للعهد والاستثناء على هذا فى . . . قوله ( إِلاَّ مَنِ اتبعك مِنَ الغاوين ) منقطع .واختار هذا غير واحد وجوز أن يكون بالعباد العموم والاستثناء متصل ، والكلام كالتقرير لقوله إلا عبادك منهم المخلصين ، ولذا لم يعطف على ما قبله ، وتغيير الوضع لتعظيم المخلصين ، بجعلهم هم الباقين بعد الاستثناء . . . .

وان جهنم لموعدهم اجمعين

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة المتبعين لإبليس فقال وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ) .والضمير فى قوله ( لموعدهم ) يعود إلى الغاوين ، أو إلى ( من اتبعك ) والموعد : مكان الوعد .والمراد به ، هنا المكان الذى سينتهون إليه حتمًا بعد أن كانوا غافلين عنها فى الدنيا وهو جهنم أى وإن جهنم لمكان محتوم لهؤلاء الذين أغواهم إبليس دون أن يفلت . أحد من سعيرها

لها سبعة ابواب لكل باب منهم جزء مقسوم

كما فسرها الوسيط وجملة ( لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ ) مستأنفة لوصف حال جهنم وأبوابها .وجملة ( لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ) صفة لأبواب ، وضمير ( منهم ) يعود إلى الغاوين أتباع إبليس .والمقسوم : من القَسْمِ وهو إفراز النصيب عن غيره تقول : قسمت كذا قسماً وقسمة إذا ميزت كل قسم عن سواه .والمعنى : إن لجهنم سبعة أبواب ، لكل باب منها ، فريق معين من الغاوين يدخلون منه ، على حسب تفاوتهم فى الغواية وفى متابعة إبليس ويرى كثير من المفسرين أن المراد بالأبواب هنا الأطباق والدركات .أى لجهنم سبعة أطباق أو دركات بعضها فوق بعض ، ينزلها الغاوون ، بحسب أصنافهم وتفاوت مراتبهم فى الغى والضلال .قال الإمام ابن كثير : قوله - تعالى ( لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ) أى : قد كتب لكل باب منها جزء من أتباع إبليس ، يدخلونه لا محيد لهم عنه - أجارنا الله منها - وكل يدخل من باب بحسب عمله ، ويستقر فى درك بقدر فعله . . . . ثم قال : وعن عمرة بن جندب - رضى الله عنه - عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله ( لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ) قال : " إن من أهل النار من تأخذه النار إلى كعبيه ، وإن منهم من تأخذه النار إلى حجزته ، ومنهم من تأخذه النار إلى تراقيه . . . " .

ان المتقين في جنات وعيون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( إن المتقين . . . ) كلام مستأنف لإظهار حسن عاقبة المتقين ، بعد بيان سوء عاقبة الغاوين .والمتقون : جمع ، متق اسم فاعل من اتقى . وأصله اوتقى - بزنة افتعل - من وقى الشىء وقاية أى : صانه وحفظه مما يضره ويؤذيه .والجنات : جمع جنة ، وهى كل بستان ذى شجر متكاثف ، ملتف الأغصان ، يظلل ما تحته ويستره . من الجن وهو ستر الشىء عن الحاسة . .والمراد بها هنا الدار التى أعدها الله - تعالى - لتكريم عباده المؤمنين فى الآخرة .والعيون جمع عين . والمقصود بها هنا المياه المنتشرة فى الجنات .والمعنى : ( إن المتقين ) الذين صانوا أنفسهم عن الشرك . وقالوا ربنا الله ثم استقاموا ( فى جنات ) عالية ، فيها ما تشتهيه الأنفس ، وفيها منابع للماء تلذ لها الأعين .

ادخلوها بسلام امنين

. كما فسرها الوسيط وجملة ( ادخلوها بِسَلامٍ آمِنِينَ ) معمولة لقول محذوف والباء فى قوله ( بسلام ) للمصاحبة .أى : وتقول لهم الملائكة - على سبيل التكريم - والتحية - لهؤلاء المتقين عند دخولهم الجنات واستقرارهم فيها : ادخلوها - أيها المتقون - تصاحبكم السلامة من الآفات ، والنجاة من المخافات .

ونزعنا ما في صدورهم من غل اخوانا على سرر متقابلين

، كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما هم عليه فى الجنة من صفاء نفسى
ونقاء قلبى فقال : ( وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ
إِخْوَاناً على سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ) .والنزع : القلع يقال : نزع فلان
هذا الشىء من مكانه إذا قلعه منه ، وفعله من باب ضرب والغل : الحقد
والضغينة ، وأصله من الغلالة ، وهى ما يلبس بين الثوبين : الشعار والدثار
- أو من الغلل وهو الماء المتخلل بين الأشجار . ويقال : غل صدر فلان يغل.
بالكسر - غلا إذا كان ذا غش ، أو ضغن ، أو حقد .والسرر : جمع سرير وهو
المكان المهيأ لراحة الجالس عليه وإدخال السرور على قلبه .أى : وقلعنا ما
، فى صدور هؤلاء المتقين من ضغائن وعداوات كانت موجودة فيها فى الدنيا
وجعلناهم يدخلون الجنة إخوانًا متحابين متصافين ، ويجلسون متقابلين ، على
) : سرر مهيأة لراحتهم ورفاهيتهم وإدخال السرور على نفوسهم .وقوله
إِخْوَاناً على سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ) حال عن فاعل ( ادخلوها ) .وعبر
بقوله ( متقابلين ) لأن مقابلة الوجه للوجه أدخل فى الإيناس ، وأجمع
للقلوب .والآية الكريمة تشعر بأنهم فى الجنة ينشئهم الله - تعالى - نشأة
أخرى جديدة وتكون قلوبهم فيها خالية من كل ما كان يخالطهم فى الدنيا من
ضغائن وعداوات وأحقاد وأطماع وغير ذلك من الصفات الذميمة ، ويصلون بسبب هذه
النشأة الجديدة إلى منتهى الرقى البشرى . . .وقد ساق الإمام ابن كثير عند
تفسيره لهذه الآية عددا من الأحاديث والآثار منها ما رواه القاسم عن أبى
أمامة قال : يدخل أهل الجنة على ما فى صدورهم فى الدنيا من الشحناء
والضغائن ، حتى إذا توافوا وتقابلوا نزع الله ما فى صدورهم فى الدنيا من غل
. ثم قرأ : ( وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ،

لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين

`<!-- TODO:MISSING -->`{=html} كما فسرها الوسيط

نبئ عبادي اني انا الغفور الرحيم

كما فسرها الوسيط والخطاب فى قوله - تعالى - : ( نبئ عبادى . . ) للرسول
صلى الله عليه وسلم والنبأ : الخبر العظيم . والمراد ( بعبادى ) : المؤمنون
منهم ، والإضافة للتشريف .أى : أخبر - أيها الرسول الكريم - عبادى
المؤمنين أنى أنا الله - تعالى - الكثير المغفرة لذنوبهم ، الواسع الرحمة
. لمسيئهم

وان عذابي هو العذاب الاليم

، كما فسرها الوسيط وأخبرهم - أيضًا - أن عذابى هو العذاب الشديد الإيلام
فعليهم أن يقدموا القول الطيب ، والعمل الصالح ، لكى يظفروا بمغفرتى ورحمتى
وينجو من عذابى ونقمتى .فأنت ترى أن الله - تعالى - قد جمع فى هاتين ،
الآيتين بين المغفرة والعذاب ، وبين الرحمة والانتقام ، وبين الوعد والوعيد
لبيان سنته - سبحانه - فى خلقه ، ولكى يعيش المؤمن حياته بين الخوف ،
والرجاء ، فلا يقنط من رحمة الله ، ولا يقصر فى أداء ما كلفه - سبحانه - به
وقدم - سبحانه - نبأ الغفران والرحمة ، على نبأ العذاب والانتقام ، جريا.
على الأصل الذى ارتضته مشيئته ، وهو أن رحمته سبقت غضبه ، ومغفرته سبقت
انتقامه .والضمير " أنا " و " هو " فى الآيتين الكريمتين ، للفصل؛ لإفادة
: تأكيد الخبر .قال الإمام الرازى ما ملخصه : وفى الآيتين لطائف :إحداها
أنه أضاف - سبحانه - العباد إلى نفسه بقوله ( عبادى ) وهذا تشريف عظيم لهم
وثانيها . أنه لما ذكر الرحمة والمغفرة بالغ فى التأكيد بألفاظ ثلاثة. . .
أولها : قوله ( أنى ) وثانيها قوله ( أنا ) ، وثالثها . إدخال حرف الألف :
واللام على قوله ( الغفور الرحيم ) ، ولما ذكر العذاب لم يقل : إنى أنا
المعذب ، بل قال ( وَأَنّ عَذَابِي هُوَ العذاب الأليم ) .وثالثها : أنه
أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يبلغ إليهم هذا المعنى ، فكأنه أشهده على
نفسه فى التزام المغفرة والرحمة .ورابعها : أنه لما قال ( نبئ عبادى ) كان
. معناه نبئ كل من كان معترفًا بعبوديتى ، وهذا كما يدخل فيه المؤمن المطيع
فكذلك يدخل فيه المؤمن العاصى ، وكل ذلك يدل على تغليب جانب الرحمة من
الله - تعالى - .وقال الآلوسى : وأخرج الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة أن
رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله - تعالى - خلق الرحمة يوم
خلقها مائة رحمة ، فأمسك عنده تسعة وتسعين رحمة ، وأرسل فى خلقه كلهم رحمة
واحدة فلو يعلم الكافر كل الذى عنده من رحمة لم ييأس من الرحمة ، ولو يعلم
المؤمن بكل الذى عند الله - تعالى - من العذاب ، لم يأمن من النار " .وأخرج
عبد بن حميد وجماعة عن قتادة أنه قال فى الآية : بلغنا أن رسول الله صلى

الله عليه وسلم قال : " لو يعلم العبد قدر عفو الله - تعالى - لما تورع من حرام ، ولو يعلم قدر عذابه لبخع نفسه " .

ونبئهم عن ضيف ابراهيم

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ . . . ) معطوف على قوله قبل ذلك ( نبئ عبادى . . . ) . قال الجمل : وأصل الضيف : الميل ، يقال أضفت إلى كذا إذا ملت إليه . والضيف من مال إليك نزولاً بك ، وصارت الضيافة فى القرى وأصل الضيف مصدر ، ولذلك استوى فيه الواحد والجمع فى غالب كلامهم . وقد يجمع فيقال أضياف وضيوف . . والمراد بضيف إبراهيم هنا : الملائكة الذين نزلوا عنده ضيوفًا فى صورة بشرية ، وبشروه بغلام عليم ، ثم أخبروه بأنهم أرسلو إلى قوم لوط لإهلاكهم . . .

اذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال انا منكم وجلون

كما فسرها الوسيط ثم فصل - سبحانه - ما دار بين إبراهيم وضيوفه فقال : ( إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلاماً . . . ) . والظرف " إذ " منصوب على أنه مفعول به لفعل مقدر . أى : ونبئهم - أيضًا - أيها الرسول الكريم - عن ضيف إبراهيم ، وقت أن دخلوا عليه ، فقالوا له على سبيل الدعاء أو التحية أى : سلمت سلاما . أو سلمنا سلاما . فلفظ ( سلاما ) منصوب بفعل ( سلاما ) محذوف . وقوله - سبحانه - ( قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ) بيان لما رد به إبراهيم - عليه السلام - على الملائكة . و ( وجلون ) جمع وجل ، والوجل : اضطراب يعترى النفس لتوقع حدوث مكروه . يقال : وجل الرجل وجلا فهو وجل إذا خاف . أى : قال لهم إبراهيم بعد أن دخلوا عليه وبادروه بالتحية إنا منكم خائفون . وقال ( إنا منكم . . . ) بصيغة الجمع ، لأنه قصد أن الخوف منهم قد اعتراه هو ، واعترى أهله معه . وكان من أسباب خوفه منهم ، أنهم دخلوا عليه بدون إذن ، وفى غير وقت الزيارة وبدون معرفة سابقة لهم ، وأنهم لم يأكلوا من الطعام الذى قدمه إليهم . هذا ، وقد ذكر - سبحانه فى سورة الذاريات أنه رد عليهم السلام فقال - تعالى - ( هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ المكرمين إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلاَماً قَالَ سَلاَمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ) كما بين - سبحانه - فى سورة هود أن من أسباب خوفه منهم ، عدم أكلهم من طعامه . قال - تعالى - : ( فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً . . . ) أى خاف إبراهيم لما رأى أيدى الضيف لا تصل إلى طعامه .

قالوا لا توجل انا نبشرك بغلام عليم

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - ما قالته الملائكة لإدخال الطمأنينة على قلب إبراهيم فقال - تعالى - : ( قَالُواْ لاَ تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ ) . أى : قالت الملائكة لإبراهيم على سبيل البشارة وإدخال السرور على قلبه : لا تخف منا يا إبراهيم ، إنا جئنا إليك لنبشرك بغلام ذى علم كثير بشريعة الله - تعالى - وبأوامره ونواهيه ، وهو إسحق - عليه السلام - . وجملة ( إنا نبشرك . . ) مستأنفة لتعليل النهى عن الوجل . وقد حكى - سبحانه - هنا أن البشارة كانت له ، وفى سورة هود أن البشارة كانت لامرأته ، ومعنى ذلك أنها كانت لهما معًا ، إما فى وقت واحد ، وإما فى وقتين متقاربين بأن بشروه هو أولاً ، ثم جاءت امرأته بعد ذلك فبشروها أيضًا ، ويشهد لذلك قوله - تعالى - ( وامرأته قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ . . . ) .

قال ابشرتموني على ان مسني الكبر فبم تبشرون

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - ما قاله إبراهيم للملائكة بعد أن بشروه بهذا الغلام العليم ، فقال - تعالى - ( قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي على أن مَّسَّنِيَ الكبر فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ) . والاستفهام للتعجب . كأنه عجب من أن يرزقه الله - تعالى - بغلام عليم بعد أن مسه الكبر ، وبلغ سن الشيخوخة و ( على ) بمعنى مع ، والمس : اتصال شئ بآخر على وجه الإحساس والإصابة . أى : قال إبراهيم للملائكة ، بعد أن بشروه بالولد ، أبشرتمونى بذلك مع أن الكبر قد أصابنى ، والشيخوخة قد اعترتنى فبأى شىء عجيب قد بشرتمونى . وتعجب إبراهيم إنما هو من كمال قدرة الله - تعالى - ونفاذ أمره ، حيث وهبه هذا الغلام فى تلك السن المتقدمة بالنسبة له ولامرأته ، والتى جرت العادة أن لا يكون معها إنجاب الأولاد . وقد حكى القرآن هذا التعجب على لسان امرأة إبراهيم فى قوله - تعالى - ( قَالَتْ ياويلتى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وهذا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ . . ) قال الإمام الرازى

ما ملخصه : والسبب فى هذا الاستفهام أن العادة جارية بأنه لا يحصل الولد حال الشيخوخة التامة . . .وهناك جواب آخر ، وهو أن الإنسان إذا كان عظيم الرغبة فى شىء ، وفاته الوقت الذى يغلب على ظنه حصول ذلك المراد فيه ، فإذا بشر بعد ذلك بحصوله ازداد فرحه وسروره ، ويصير ذلك الفرح القوى كالمدهش له وربما يجعله هذا الفرح يعيد السؤال ليسمع تلك البشارة مرة أخرى ، طلبا للالتذاذ بسماعها . . . .

قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( قَالُواْ بَشَّرْنَاكَ بالحق فَلاَ تَكُن مِّنَ القانطين ) .أى : قال الملائكة لإبراهيم لزيادة اطمئنانه ، ولتأكيد بشارته بالغلام العليم :يا إبراهيم إنا بشرناك بالأمر المحقق الوقوع ، وباليقين الذى لا خلف معه ، وهو أن الله - تعالى - سيهبك الولد مع تقدم سنك وسن زوجك ، فلا تكن من الآيسين من رحمة الله - تعالى - فإن قدرته - عز وجل -لا يعجزها شىء .

قال ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون

كما فسرها الوسيط وهنا دفع إبراهيم - عليه السلام - عن نفسه رذيلة اليأس من رحمة الله . فقال على سبيل الإنكار والنفى ( وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضآلون ) أى : أنا ليس بى قنوط أو يأس من رحمة الله ، لأنه ، لا ييأس من رحمة الله - تعالى - إلا القوم الضالون عن طريق الحق والصواب الذين لا يعرفون سعة رحمته - تعالى - ونفاذ قدرته ، ولكن هذه البشارة - العظيمة - مع تقدم سنى وسن زوجى - هى التى جعلتنى - من شدة الفرح والسرور أعجب من كمال قدرة الله - تعالى - ، ومن جزيل عطائه ، ومن سابغ مننه ، حيث رزقنى الولد فى هذه السن التى جرت العادة بأن لا يكون معها إنجاب أو ولادة .

قال فما خطبكم ايها المرسلون

، كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما قاله إبراهيم للملائكة بعد أن اطمأن إليهم ، فقال : ( قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا المرسلون ) والخطب : مصدر خطب يخطب ، ومنه قولهم : هذا خطب يسير ، وخطب جلل ، وجمعه. خطوب ، وخصه بعضهم بما له خطر من الأمور . وأصله الأمر العظيم الذي يكثر فيه التخاطب ويخطب له .أى : قال إبراهيم - عليه السلام - للملائكة على سبيل الاستيضاح بالتفصيل عن سبب مجيئهم : فما شأنكم الخطير الذى من أجله جئتم ، إلينا سوى هذه البشارة . وكأنه قد فهم أن مجيئهم إليه ليس لمجرد البشارة . بل من وراء البشارة أمر آخر جاءوا من أجله

قالوا انا ارسلنا الى قوم مجرمين

) - كما فسرها الوسيط وهنا بادره الملائكة بقولهم - كما حكى القرآن عنهم قَالُواْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إلى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ) . أى : قالوا له إنا أرسلنا - بأمر الله - تعالى - إلى قوم شأنهم الإجرام ، ودأبهم الفجور ،

الا ال لوط انا لمنجوهم اجمعين

كما فسرها الوسيط والمراد بهم قوم لوط - عليه السلام - وكانوا يسكنون مدينة سدوم " بمنطقة وادى الأردن وقوله ( إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ) استثناء من القوم المجرمين الذين أرسل الملائكة لإهلاكهم .والمراد بآل لوط : أتباعه الذين آمنوا به وصدقوه . ولم ، يشاركوا قومهم فى كفرهم وشذوذهم .أى : إنا أرسلنا إلى قوم لوط لإهلاكهم إلا من آمن منهم فإنا لمنجوهم أجمعين .وقد وضح هذا المعنى صاحب الكشاف فقال فإن قلت : قوله - تعالى - ( إِلاَّ آلَ لُوطٍ ) استثناء متصل أم : منقطع؟قلت :لا يخلو من أن يكون استثناء من قوم فيكون منقطعا ، لأن القوم ) موصوفون بالإجرام فاختلف لذلك الجنسان ، وأن يكون استثناء من الضمير فى مجرمين ) فيكون متصلاً ، كأنه قيل : قد أرسلنا إلى قوم قد أجرموا كلهم إلا آل لوط وحدهم ، كما قال : ( فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ، المسلمين ) فإن قلت : فهل يختلف المعنى لاختلاف الاستثناءين؟ قلت : نعم وذلك أن آل لوط مخرجون فى المنقطع من حكم الإرسال ، وعلى أنهم أرسلوا إلى القوم المجرمين خاصة ، ولم يرسلوا إلى آل لوط أصلاً . . . كأنه قيل : إنا أهلكنا قوما مجرمين ، ولكن آل لوط أنجيناهم .وأما فى المتصل ، فهم داخلون ، فى حكم الإرسال ، وعلى أن الملائكة أرسلوا إليهم جميعًا ليهلكوا هؤلاء

وينجو هؤلاء ، فلا يكون الإرسال مخلصًا بمعنى الإهلاك والتعذيب كما فى الوجه الأول . . .

الا امراته قدرنا انها لمن الغابرين

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( إِلاَّ امرأته قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ الغابرين ) استثناء من الضمير فى ( لمنجوهم ) ، إخراجا لها من التنجية . أى : إلا امرأة لوط - عليه السلام - فليست ممن سننجيه ، بل هى ممن سنهلكه مع القوم المجرمين .ومعنى ( قدرنا ) : قضينا وحكمنا .

فلما جاء ال لوط المرسلون

كما فسرها الوسيط قال الآلوسى : وقوله - تعالى - ( فَلَمَّا جَآءَ آلَ لُوطٍ المرسلون ) شروع فى بيان إهلاك المجرمين ، وتنجية آل لوط . ووضع الظاهر موضع الضمير ، للإيذان بأن مجيئهم لتحقيق ما أرسلوا به من ذلك .

قال انكم قوم منكرون

، كما فسرها الوسيط والآية الكريمة معطوفة على كلام محذوف يفهم من السياق والتقدير : وخرج الملائكة من عند إبراهيم - بعد أن بشروه بغلامه ، وبعد أن أخبروه بوجهتهم - فاتجهوا إلى المدينة التى يسكنها لوط - عليه السلام - وقومه . فلما دخلوا عليه قال لهم : ( إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ) .أى : إنكم قوم غير معروفين لى ، لأنى لم يسبق لى أن رأيتكم ، ولا أدرى من أى الأقوام أنتم ، ولا أعرف الغرض الذى من أجله أتيتم ، وإن نفسى ليساورها الخوف والقلق من وجودكم عندى . . .ويبدو أن لوطا - عليه السلام - قد قال لهم هذا الكلام بضيق نفس ، لأنه يعرف شذوذ المجرمين من قومه ، ويخشى أن يعلموا بوجود هؤلاء الضيوف أصحاب الوجوه الجميلة عنده ، فيعتدوا عليهم دون أن يملك الدفاع عنهم . . .وقد صرح القرآن الكريم بهذا الضيق النفسى ، الذى اعترى لوطا بسبب وجود هؤلاء الضيوف عنده ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ( وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سياء بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالَ هذا يَوْمٌ عَصِيبٌ ) وقال - سبحانه - : ( فَلَمَّا جَآءَ آلَ لُوطٍ المرسلون ) مع أن المجئ كان للوط - عليه السلام - والخطاب كان معه ، تشريفًا وتكريمًا للمؤمنين من قوم لوط ، فكأنهم كانوا حاضرين ومشاهدين لوجود الملائكة بينهم ، ولما دار بينهم وبين لوط - عليه السلام - .

قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( قَالُواْ بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ وَآتَيْنَاكَ بالحق وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ) حكاية لما رد به الملائكة على لوط ، لكى يزيلوا ضيقه بهم ، وكراهيته لوجودهم عنده .وقوله ( يمترون ) من الامتراء ، وهو الشك الذى يدفع الإنسان إلى المجادلة المبنية على الأوهام لا على الحقائق .وهو - كما يقول الإمام الفخر الرازى - مأخوذ من قول العرب : " مريت الناقة والشاة إذا أردت حلبها فكأن الشاك يجتذب بشكه مراء ، كاللبن الذى يجتذب عند الحلب . يقال : قد ، مارى فلان فلانا ، إذا جادله كأنه يستخرج غضبه " .أى : قال الملائكة للوط ، لإدخال الطمأنينة على نفسه : يا لوط نحن ما جئنا لإزعاجك أو إساءتك وإنما جئناك بأمر كان المجرمون من قومك ، يشكون فى وقوعه ، وهو العذاب الذى كنت تحذرهم منه إذا ما استمروا فى كفرهم وفجورهم . . .وإنا ما أتيناك إلا بالأمر الثابت المحقق الذى لا مرية فيه ولا تردد ، وهو إهلاك هؤلاء المجرمين من قومك ، وإنا لصادقون فى كل ما قلناه لك ، وأخبرناك به ، فكن آمنًا مطمئنًا .فالإضراب فى قوله ( قَالُواْ بَلْ جِئْنَاكَ .. . ) إنما هو لإزالة ما وقر فى قلب لوط - عليه السلام - تجاه الملائكة من وساوس وهواجس فكأنهم قالوا له : نحن ما جئناك بشئ تكرهه أو تخافه . . وإنما جئناك بما يسرك ويشفى غليلك من هؤلاء القوم المنكوسين .وعبر عن العذاب بقوله ( بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ) زيادة فى إدخال الأنس على نفسه وتحقيقًا لوقوع العذاب بهم .

واتيناك بالحق وانا لصادقون

كما فسرها الوسيط وقوله ( وَأَتَيْنَاكَ بالحق وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ) تأكيد على تأكيد .وهذه التأكيدات المتعددة والمتنوعة تشعر بأن لوطا - عليه السلام - كان فى غاية الهم والكرب لمجئ الملائكة إليه بهذه الصورة التى تغرى المجرمين بهم دون أن يملك حمايتهم أو الدفاع عنهم .

فاسر باهلك بقطع من الليل واتبع ادبارهم ولا يلتفت منكم احد وامضوا حيث تؤمرون

كما فسرها الوسيط لذا كانت هذه التأكيدات من الملائكة له فى أسمى درجات البلاغة ، حتى يزول خوفه ، ويزداد اطمئنانه إليهم ، قبل أن يخبروه بما أمرهم الله - تعالى - بإخباره به ، وهو قوله - تعالى - ( فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيلِ واتبع أَدْبَارَهُمْ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وامضوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ) . قال القرطبى : قوله ( فأسر - قرئ فاسر وقرئ فأسر ، بوصل الهمزة وقطعها لغتان فصيحتان . قال ( . تعالى - ( والليل إِذَا يَسْرِ . . ) وقال : ( سُبْحَانَ الذي أسرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً . . ) وقيل : فأسر تقال لمن سار من أول الليل . . وسرى لمن سار فى آخره ، ولا يقال فى النهار إلا سار . وقوله ( بِقِطْعٍ مِّنَ الليل . . ) أى : بجزء من الليل . والمراد به الجزء الأخير منه . أى : قال الملائكة للوط - عليه السلام - بعد أن أزالوا خوفه منه : يا لوط إنا نأمرك - بإذن الله تعالى - أن تخرج من هذه المدينة التى تسكنها مع قومك وأن يخرج معك أتباعك المؤمنون ، وليكن خروجكم فى الجزء الأخير من الليل . وقوله أى : وكن وراءهم لتطلع عليهم وعلى أحوالهم . قال الإمام ( واتبع أدبارهم ) ابن كثير : يذكر الله - تعالى - عن الملائكة أنهم أمروا لوطا أن يسرى بأهله بعد مضى جانب من الليل ، وأن يكون لوط - عليه السلام - يمشى وراءهم ليكون أحفظ لهم . وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشى فى الغزاة يزجى الضعيف ، ويحمل المنقطع . وقوله ( وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ) أى : ولا يلتفت منكم أحد أيها المؤمنون - خلفه ، حتى لا يرى العذاب المروع النازل بالمجرمين . وإنما أمرهم - سبحانه - بعدم الالتفات إلى الخلف ، لأن من عادة التارك لوطنه ، أن يلتفت إليه عند مغادرته ، كأنه يودعه . قال صاحب الكشاف : فإن قلت ما معنى أمره باتباع أدبارهم ونهيهم عن الالتفات؟ قلت : قد بعث الله الهلاك على قوم لوط ، ونجاه وأهله إجابة لدعوته عليهم وخرج مهاجرا ، فلم يكن له بد من الاجتهاد فى شكر الله ، وإدامة ذكره وتفريغ باله لذلك فأمر بأن يقدّمهم لئلا يشتغل بمن خلفه قلبه ، وليكون مطلعًا عليهم وعلى أحوالهم ، فلا تفرط منهم التفاتة احتشاما منه ولا غيرها من الهفوات فى تلك ، الحال المهولة المحذورة ، ولئلا يتخلف منهم أحد لغرض له فيصيبه العذاب وليكون مسيره مسير الهارب الذى يقدم سربه ويفوت به . ونهوا عن الالتفات لئلا ، يروا ما ينزل بقومهم من العذاب فيرقوا له ، وليوطنوا نفوسهم على المهاجرة . ويمضوا قدما غير ملتفتين إلى ما وراءهم ، كالذى يتحسر على مفارقة وطنه أو جعل النهى عن الالتفات ، كناية عن مواصلة السير ، وترك التوانى والتوقف . لأن من يتلفت لابد له فى ذلك من أدنى وقفة . وقوله ( وامضوا حَيْثُ ، تُؤْمَرُونَ ) إرشاد من الملائكة للوط - عليه السلام - إلى الجهة التى أمره الله - تعالى - بالتوجه إليها . أى : وامضوا فى سيركم إلى الجهة التى أمركم الله - تعالى - بالسير إليها ، مبتعدين عن ديار القوم المجرمين ، تصحبكم رعاية الله وحمايته . قيل : أمروا بالتوجه إلى بلاد الشام ، وقيل إلى الأردن ، وقيل إلى مصر . ولم يرد حديث صحيح يحدد الجهة التى أمروا بالتوجه إليها ، ولكن الذى نعتقده أنهم ذهبوا بأمر الله - تعالى - إلى مكان آخر ، أهله لم يعملوا ما كان يعمله العادون من قوم لوط - عليه السلام - .

وقضينا اليه ذلك الامر ان دابر هؤلاء مقطوع مصبحين

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَلِكَ الأمر أَنَّ دَابِرَ هَؤُلآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ) بيان لجانب آخر من جوانب الرعاية والتكريم للوط - عليه السلام - . وعدى ( قضينا ) بإلى ، لتضمنه معنى - أوحينا . والمراد بذلك الأمر : إهلاك الكافرين من قوم لوط - عليه السلام وجملة ( أَنَّ دَابِرَ هَؤُلآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ) مفسرة ومبينة . لذلك الأمر . وعبر عن عذابهم وإهلاكهم بالإبهام أولاً . ثم بالتفسير والتوضيح ثانيًا ، للإشعار بأنه عذاب هائل شديد . ودابرهم : أى آخرهم الذى . يدبرهم . يقال : فلان دبر القوم يدبرهم دبورا إذا كان آخرهم فى المجئ والمراد أنهم استؤصلوا بالعذاب استئصالا . وقوله ( مصبحين ) أى : داخلين فى الصباح ، مأخوذ من أصبح التامة ، وصيغة أفعل تأتى للدخول فى الشئ ، نحو أنجد وأتهم ، أى دخل فى بلاد نجد وفى بلاد تهامة ، وهو حال من اسم الإشارة ، هؤلاء ، والعامل فيه معنى الإضافة . والمعنى : وقضينا الأمر بإبادتهم وأوحينا إلى نبينا لوط - عليه السلام - أن آخر هؤلاء المجرمين مقطوع ومستأصل ومهلك مع دخول وقت الصباح . وفى هذا التعبير ما فيه من الدلالة على أن العذاب سيمحقهم جميعًا ، بحيث لا يبقى منهم أحدًا ، لا من كبيرهم ولا من صغيرهم ، ولا من أولهم ولا من آخرهم .

وجاء اهل المدينة يستبشرون

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - ما حدث من القوم المجرمين ، بعد أن - تسامعوا بأن فى بيت لوط - عليه السلام - شبانًا فيهم جمال ووضاءة فقال تعالى - ( وَجَآءَ أَهْلُ المدينة يَسْتَبْشِرُونَ ) .والمراد بأهل المدينة أهل مدينة سدوم التى كان يسكنها لوط وقومه .ويستبشرون : أى يبشر بعضهم : بعضًا بأن هناك شبانًا فى بيت لوط - عليه السلام - ، من الاستبشار وهو إظهار الفرح والسرور .وهذا التعبير الذى صورته الآية الكريمة ، يدل دلالة واضحة على أن القوم قد وصلوا إلى الدرك الأسفل من الانتكاس والشذوذ وانعدام الحياء . . .إنهم لا يأتون لارتكاب المنكر فردًا أو أفرادا ، وإنما يأتون جميعًا - أهل المدينة - وفى فرح وسرور ، وفى الجهر والعلانية ، لا فى السر والخفاء . . .ولأى غرض يأتون؟ إنهم يأتون لارتكاب الفاحشة التى لم يسبقهم إليها أحد من العالمين .وهكذا النفوس عندما ترتكس وتنتكس ، تصل فى مجاهرتها . . . بإتيان الفواحش ، إلى ما لم تصل إليه بعض الحيوانات

قال ان هؤلاء ضيفي فلا تفضحون

، كما فسرها الوسيط ويقف لوط - عليه السلام - أمام شذوذ قومه مغيظا مكروبًا يحاول أن يدفع عن ضيفه شرورهم ، كما يحاول أن يحرك فيهم ذرة من الآدمية فيقول لهم : ( إِنّ هَؤُلآءِ ضَيْفِي فَلاَ تَفْضَحُونِ ) .وتفضحون : من الفضح والفضيحة . يقال فضح فلان فلانا فضحا وفضيحة ، إذا أظهر من أمره ما يلزمه العار بسببه .أى : قال لوط - عليه السلام - لمن جاءوا يهرعون إليه من قومه لارتكاب الفاحشة مع ضيوفه : يا قوم إن هؤلاء الموجودين عندى ضيوفى الذين يلزمنى حمايتهم ، فابتعدوا عن دارى وعودوا إلى دياركم ، ولا تفضحون عندهم بتعرضكم لهم بالفاحشة فأهون فى نظرهم ، لعجزى عن حمايتهم ، وأنتم - تعلمون أن كرامة الضيف جزء من كرامة مضيفه . . .وعبر لوط - عليه السلام عن الملائكة بالضيف لأنه لم يكن قد علم أنهم ملائكة ولأنهم قد جاءوا إليه فى هيئة الآدميين .

واتقوا الله ولا تخزون

، كما فسرها الوسيط ثم أضاف لوط - عليه السلام - إلى رجاء قومه رجاء آخر حيث ذكرهم بتقوى الله فقال : ( واتقوا الله وَلاَ تُخْزُونِ ) .أى : واتقوا الله وصونوا أنفسكم عن عذابه وغضبه ، ولا تخزون مع ضيفى ، وتذلونى وتهينونى أمامهم .يقال : خَزِىَ الرجل يخزَى وخَزى ، إذا وقع فى مصيبة فذل لذلك .

قالوا اولم ننهك عن العالمين

، كما فسرها الوسيط ولكن هذه النصائح الحكيمة من لوط - عليه السلام - لقومه لم تجد أذنا صاغية ، بل قابلوها بسوء الأدب معه ، وبالتطاول عليه ، شأن الطغاة الفجرة ( قَالُواْ أَوَ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ العالمين ) .والاستفهام للإنكار . والواو للعطف على محذوف ، والعالمين : جمع عالم ، وهو كل موجود سوى الله - تعالى - والمراد بالعالمين هنا : الرجال الذين كانوا يأتون معهم الفاحشة من دون النساء .أى : قال قوم لوط له بوقاحة وسوء أدب . أو لم يسبق لنا يا لوط أننا نهيناك عن أن تحول بيننا وبين من نريد ارتكاب الفاحشة معه من الرجال ، وإذا كان الأمر كذلك فكيف ساغ لك بعد هذا النهى أن تمنعنا عما نريده من ضيوفك وأنت تعلم ما نريده منهم؟

قال هؤلاء بناتي ان كنتم فاعلين

كما فسرها الوسيط ولكن لوطا - عليه السلام - مع شناعة قولهم هذا ، لم ييأس من محاولة منعهم عما يريدونه من ضيوفه ، فأخذ يرشدهم إلى ما تدعو إليه الفطرة السليمة فقال : ( هَؤُلآءِ بَنَاتِي إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ) والمراد ببناته هنا : زوجاتهم ونساؤهم اللائى يصلحن للزواج . وأضافهن إلى نفسه لأن كل نبى أب لأمته من حيث الشفقة والرعاية وحسن التربية .قال ابن كثير ما ملخصه : يرشد لوطا - عليه السلام - قومه إلى نسائهم فإن النبى للأمة بمنزلة الوالد ، فأرشدهم إلى ما هو أنفع لهم ، كما قال - تعالى - فى آية أخرى : ( أَتَأْتُونَ الذكران مِنَ العالمين وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ) وقيل المراد ببناته هنا : بناته من صلبه ، وأنه عرض عليهم الزواج بهن .ويضعف هذا الرأى أن لوطا - عليه السلام - كان له بنتان أو ثلاثة كما جاء فى بعض الروايات ، وعدد المتدافعين من قومه إلى بيته كان كثيرًا ، كما يرشد إليه قوله - تعالى - ( وَجَآءَ أَهْلُ المدينة يَسْتَبْشِرُونَ ) فكيف تكفيهم بنتان أو ثلاثة للزواج بهن؟قال الإمام الرازى فى ترجيح الرأى الأول ما ملخصه : " وهذا القول عندى هو المختار ، ويدل عليه وجوه منها : أنه قال هؤلاء بناتى . . وبناته اللاتى من صلبه لا تكفى هذا الجمع العظيم ، أما

نساء أمته ففيهم كفاية للكل ، ومنها : أنه صحت الرواية أنه كان له بنتان
وهما : " زنتا وزاعورا " وإطلاق لفظ البنات على البنتين لا يجوز ، لما ثبت
أن أقل الجمع ثلاثة " .والمعنى : أن لوطا - عليه السلام - لما رأى هيجان
قومه ، وإصرارهم على ارتكاب الفاحشة مع ضيوفه ، قال لهم على سبيل الإرشاد
إلى ما يشبع الفطرة السليمة : يا قوم هؤلاء نساؤكم اللاتى هن بمنزلة بناتى
فاقضوا معهن شهوتكم إن كنتم فاعلين لما أرشدكم إليه من توجيهات وآداب ،
وعبر بإن فى قوله ( إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ) لشكه فى استجابتهم لما.
يدعوهم إليه فكأنه يقول لهم : إن كنتم فاعلين لما أطلبه منكم ، وما أظنكم
تفعلونه لانتكاس فطرتكم ، وانقلاب أمزجتكم . .وجواب الشرط محذوف ، أى : إن
كنتم فاعلين ما أرشدكم إليه فهو خير لكم .

لعمرك انهم لفي سكرتهم يعمهون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي
سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ) يرى جمهور المفسرين أنه كلام معترض بين أجزاء
قصة لوط - عليه السلام - مع قومه ، لبيان أن الموعظة لا تجدى مع القوم
الغاوين ، ولتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم عما أصابه من سفهاء قومه
، فالخطاب فيه للنبى صلى الله عليه وسلم واللام فى ( لعمرك ) لام القسم.
- والمقسم به حياته صلى الله عليه وسلم والعمر - بفتح العين - لغة فى العمر
بضمها ، ومعناهما : مدة حياة الإنسان وبقائه فى هذه الدنيا ، إلا أنهم
ألزموا مفتوح العين فى القسم ، وهو مبتدأ وخبره محذوف وجوبا والتقدير لعمرك
قسمى أو يمينى .

فاخذتهم الصيحة مشرقين

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

فجعلنا عاليها سافلها وامطرنا عليهم حجارة من سجيل

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

ان في ذلك لايات للمتوسمين

كما فسرها الوسيط فاسم الإشارة فى قوله - سبحانه - ( إِنَّ فِي ذَلِكَ
لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ) يعود إلى ما تضمنته القصة السابقة من عبر
وعظات .والآيات جمع آية ، والمراد بها هنا الأدلة والعلامات الدالة على ما
يوصل إلى الحق والهداية . والمتوسمون : جمع المتوسم ، وهو المتأمل فى
: الأسباب وعواقبها ، وفى المقدمات ونتائجها . .قال القرطبى ما ملخصه
التوسم تفعل من الوسم ، وهى العلامة التى يستدل بها على مطلوب غيره . يقال
توسمت فى فلان الخير ، إذا رأيت ميسم ذلك فيه ، ومنه قول عبد الله ابن :
رواحة للنبى صلى الله عليه وسلم .إنى توسمت فيك الخير أعرفه ... والله يعلم
أنى ثابت البصروأصل التوسم : التثبت والتفكر ، مأخوذ من الوسم وهو التأثير
، بحديدة فى جلد البعير وغيره . . وذلك يكون بجودة القريحة ، وحدة الخاطر
" : وصفاء الفكر ، وتطهير القلب من أدناس المعاصى .والمراد بالمتوسمين
المتفرسين ، أو المتفكرين ، أو المعتبرين ، أو المتبصرين . . والمعنى
- متقارب . . " .والمعنى : إن فى ذلك الذى سقناه فى قصتى إبراهيم ولوط
، عليهما السلام - لأدلة واضحة على حسن عاقبة المؤمنين وسوء عاقبة الغاوين
لمن كان ذا فكر سليم ، وبصيرة نافذة تتأمل فى حقائق الأشياء ، وتتعرف على
ما يوصلها إلى الهداية والطريق القويم .قال بعض العلماء عند تفسيره لهذه
الآية : هذه الآية أصل فى الفراسة . أخرج الترمذى من حديث أبى سعد مرفوعًا
اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله " ثم قرأ صلى الله عليه وسلم " :
" هذه الآية . . .وقد أجاد الكلام فى الفراسة ، الراغب الأصفهانى فى كتابه
الذريعة " حيث قال فى الباب السابع : وأما الفراسة فالاستدلال بهيئة
الإنسان وأشكاله وألوانه وأقواله ، على أخلاقه وفضائله ورذائله . . .وقد
نبه - سبحانه - على صدقها بقوله ( إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ
لِلْمُتَوَسِّمِينَ ) وبقوله ( تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ
النَّاسَ إِلْحَافاً ) وبقوله ( وَلَوْ نَشَآءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ
فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ القول ) .
ولفظها مأخوذ من قولهم " فرس السبع الشاه " فكأن الفراسة اختلاف المعارف
وفى هذه الآية الكريمة تعريض لمن تمر عليهم العبر والعظات . والأدلة.
الدالة على وحدانية الله - تعالى - ، وكمال قدرته . . . فلا يعتبرون ولا
يتعظون ولا يتفكرون فيها ، لانطماس بصيرتهم ، واستيلاء الأهواء والشهوات
على نفوسهم ، كما قال - تعالى - ( وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السماوات
والأرض يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ وَمَا يُؤْمِنُ

( أَكْثَرُهُمْ بالله إِلاّ وَهُمْ مُّشْرِكُونَ

وانها لبسبيل مقيم

كما فسرها الوسيط والضمير فى قوله - سبحانه - ( وَإِنّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ) يعود إلى المدينة أو القرى التى كان يسكنها قوم لوط - عليه السلام - .أى : وإن هذه المساكن التى كان يسكنها هؤلاء المجرمون ، لبطريق ثابت واضح يسلكه الناس ، ويراه كل مجتاز له وهو فى سفره من الحجاز إلى الشام ، كما قال - تعالى -( وَإِنّكُمْ لّتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ وبالليل أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ) والمقصود تذكير كفار قريش وغيرهم بعاقبة الظالمين ، حتى يقلعوا عن كفرهم وجحودهم ، وحتى يعتبروا ) : - ويتعظوا ، ويدخلوا مع الداخلين فى دين الإسلام .وقوله - سبحانه إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ) تذييل قصد به التعميم بعد التخصيص ، لأن اسم الإشارة هنا يعود إلى جميع ما تقدم من قصتى إبراهيم ولوط - عليهما السلام - وإلى ما انضم إليهما من التذكير بآثار الأقوام المهلكين .أى : إن فيما ذكرناه فيما سبق من أدلة واضحة على حسن عاقبة المتقين ، وسوء نهاية الظالمين ، لعبرة واضحة ، وحكمة بالغة ، للمؤمنين الصادقين .وخصهم بالذكر لأنهم هم المنتفعون بالأدلة والعظات ، وللتنبيه على أن التفرس فى الأمور لمعرفة أسبابها ونتائجها من صفاتهم وحدهم .

ان في ذلك لاية للمؤمنين

كما فسرها الوسيط وجمع الآيات قبل ذلك فى قوله ( إِنّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسّمِينَ ) وأفردها هنا فقال : ( إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ) للأشعار بأن المؤمنين الصادقين تكفى لهدايتهم ، ولزيادة إيمانهم ، آية واحدة من الآيات . الدالة على أن دين الإسلام هو الدين الحق وفى ذلك ما فيه من الثناء عليهم ، والمدح لهم ، بصدق الإيمان ، وسلامة اليقين . . .

وان كان اصحاب الايكة لظالمين

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك جانبًا من قصة أصحاب الأيكة لزيادة العظات والعبر ، فقال - تعالى - : ( وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الأيكة لَظَالِمِينَ فانتقمنا مِنْهُمْ وَإِنّهُمَا لَبِإِمَامٍ مّبِينٍ ) و ، إن ) هى المخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن المحذوف .وأصحاب الأيكة - هم قوم شعيب - عليه السلام - ، والأيك الشجر الكثير الملتف واحدته أيكة كتمر وتمره - .والمراد بها البقعة الكثيرة الأشجار التى كانت فيها مساكنهم قرب مدين قرية شعيب - عليه السلام - .وجمهور العلماء على أن أهل مدين ، - وأصحاب الأيكة قبيلة واحدة ، وأرسل الله - تعالى - إليهم جميعًا شعيبًا عليه السلام - لأمرهم بإخلاص العبادة لله - تعالى - ، ونهيهم عن تطفيف الكيل والميزان ، وعن قطع الطريق . . .وكانوا جميعًا يسكنون فى المنطقة التى تسمى بمعّان ، على حدود الحجاز والشام ، أو أن بعضهم كان يسكن الحاضرة وهم أهل مدين ، والبعض الآخر كان يسكن فى البوادى المجاورة لها والمليئة بالأشجار .وقيل : إن شعيبًا - عليه السلام - أرسل إلى أمتين : أهل مدين ، وأصحاب الأيكة ، وهذه خصوصية له - عليه السلام - .وعلى أية حال فالعلماء متفقون على أن أصحاب الأيكة هم قوم شعيب - عليه السلام - .والإمام : الطريق الواضح المعالم . وسمى الطريق إماما لأن المسافر يأتم به ، ويهتدى بمسالكه ، حتى يصل إلى الموضع الذى يريده .والمعنى : وإن الشأن والحال أن أصحاب الأيكة كانوا ظالمين متجاوزين لكل حد ، فاقتضت عدالتنا أن ننتقم منهم بسبب كفرهم وفجورهم .( وإنهما ) أى مساكن قوم لوط ، ومساكن قوم شعيب ، ) لبإمام مبين ) أى : لبطريق واضح يأتم به أهل مكة فى سفرهم من بلادهم إلى بلاد الشام .قال ابن كثير : وقد كانوا - أى أصحاب الأيكة - قريبًا من قوم لوط ، بعدهم فى الزمان ، ومسامتين لهم فى المكان ، ولهذا لما أنذر شعيب قومه قال فى إنذاره لهم ( وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مّنكُم بِبَعِيدٍ ) ثم ختمت - السورة الكريمة حديثها عن قصص الأنبياء مع أقوامهم بجانب من قصة صالح عليه السلام - مع قومه .

فانتقمنا منهم وانهما لبامام مبين

كما فسرها الوسيط فقال - تعالى - ( وَلَقَدْ كَذّبَ أَصْحَابُ الحجر المرسلين ) . . .وأصحاب الحجر : هم ثمود قوم صالح - عليه السلام - .والحجر واد بين الشام والمدينة المنورة ، كان قوم صالح يسكنونه . والحجر فى : الأصل : كل مكان أحاطت به الحجارة ، أو كل مكان محجور أى ممنوع من الناس بسبب اختصاص بعضهم به .وما زال هذا المكان يعرف إلى الآن باسم مدائن صالح

على الطريق من خيبر إلى تبوك ، كما أشرنا إلى ذلك عند التعريف بالسورة الكريمة .

ولقد كذب اصحاب الحجر المرسلين

كما فسرها الوسيط وقال - سبحانه - : ( وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الحجر المرسلين ) مع أنهم لم يكذبوا إلا رسولهم - عليه السلام - ، لأن تكذيب رسول واحد ، تكذيب لجميع الرسل ، حيث إن رسالتهم واحدة ، وهى الأمر بإخلاص العبادة لله - تعالى - وحده ، والدعوة إلى مكارم الأخلاق ، والنهى عن الرذائل والمفاسد .

واتيناهم اياتنا فكانوا عنها معرضين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - مظاهر هذا التكذيب لرسولهم - عليه السلام - فقال : ( وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ) .أى : وأعطينا قوم صالح - عليه السلام - آياتنا الدالة على صدقه وعلى أنه رسول من عندنا ، والتى من بينها الناقة التى أخرجها الله - تعالى - لهم ببركة دعاء نبيهم ( فكانوا عنها ) أى عن هذه الآيات الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ( معرضين )لا يلتفتون إليها ، ولا يفكرون فيها ، ولهذا عقروا الناقة ( وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَاصَالِحُ ائتنا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ المرسلين ) .

وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا امنين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر حضارتهم وتحصنهم فى بيوتهم المنحوتة فى الجبال فقال - تعالى - ( وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ الجبال بُيُوتاً آمِنِينَ ) .وينحتون : من النحت وهو برى الحجر من وسطه أو جوانبه لإعداده للبناء أو للسكن أى : وكانوا لقوتهم وغناهم يتخذون لأنفسهم ، بيوتا فى بطون الجبال وهم آمنون مطمئنون ، أو يقطعون الصخر منها ليتخذوه بيوتا لهم .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - ( وَتَنْحِتُونَ مِنَ الجبال بُيُوتاً فَارِهِينَ ) أى : حاذقين فى نحتها . وقوله - تعالى - ( واذكروا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأرض تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الجبال بُيُوتاً ) قال ابن كثير : ذكر - تعالى - أنهم ( كَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ الجبال بُيُوتاً آمِنِينَ ) أى : من غير خوف ولا احتياج إليها ، بل بطرا وعبثا " ، كما هو المشاهد من صنيعهم فى بيوتهم بوادي الحجر ، الذى مر به رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ذاهب إلى تبوك فقنع رأسه - أى غطاها بثوبه - وأسرع دابته ، وقال لأصحابه : "لا تدخلوا بيوت القوم المعذبين ، إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تبكوا فتباكوا خشية أن يصيبكم ما أصابهم " .

فاخذتهم الصيحة مصبحين

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

فما اغنى عنهم ما كانوا يكسبون

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

وما خلقنا السماوات والارض وما بينهما الا بالحق وان الساعة لاتية فاصفح الصفح الجميل

كما فسرها الوسيط فقوله - سبحانه - ( وَمَا خَلَقْنَا السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلاَّ بالحق ) توجيه للناس إلى التأمل فى مظاهر قدرة الله - تعالى - ، وإلى الحق الأكبر الذى قام عليه هذا الوجود ، بعد أن بين - سبحانه - قبل ذلك ، سنته التى لا تتخلف ، وهى أن حسن العاقبة للمتقين - وسوء المصير للمكذبين .والحق : هو الأمر الثابت الذى تقتضيه عدالة الله ، تعالى - وحكمته .والباء فيه للملابسة .أى : وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما من كائنات لا يعلمها إلا الله ، إلا خلقًا ملتبسًا بالحق الذى لا يحوم حوله باطل ، وبالعدل الذى لا يخالطه جور وبالحكمة التى تتنزه عن العبث وتأبى استمرار الفساد ، واستبقاء ضعف الحق أمام الباطل .والمراد بالساعة ، فى قوله - تعالى - : ( وَإِنَّ الساعة لآتِيَةٌ ) ساعة البعث والحساب والثواب والعقاب فى الآخرة .أى : وإن ساعة إعطاء كل ذى حق حقه ، ومعاقبة كل ذى باطل على باطله ، لآتية لا ريب فيها ، فمن فاته أخذ حقه فى الدنيا فسيأخذه وافيا غير منقوص فى الآخرة ، ومن أفلت من عقوبة الدنيا فسينال ما

هو أشد وأخزى منها فى يوم الحساب .فالجملة الكريمة انتقال من تهديد المجرمين بعذاب الدنيا ، إلى تهديدهم بعذاب الآخرة ، والمقصود من ذلك - تسليته صلى الله عليه وسلم عما أصابه من المكذبين من أذى .وأكد - سبحانه هذه الجملة بإن وبلام التوكيد ، ليدل على أن الساعة آتية لا محالة ، وليخرس ألسنة الذين ينكرون وقوعها وحدوثها . . .وجملة ( فاصفح الصفح الجميل ) تفريع على ما قبلها .والصفح الجميل : ترك المؤاخذة على الذنب ، وإغضاء الطرف عن مرتكبه بدون معاتبة .أى : ما دام الأمر كما ذكرنا لك أيها الرسول الكريم - من أن هذا الكون قد خلقناه بالحق ، ومن أن الساعة آتية لا ريب فيها . . . فاصفح عن هؤلاء المكذبين لك صفحًا جميلاً ، لا عتاب معه ولا حزن ولا غضب . . . حتى يحكم الله بينك وبينهم .وهذا التعبير فيه ما فيه من تسليته صلى الله عليه وسلم وتكريمه ، لأنه - سبحانه - أمره بالصفح الجميل - عن أعدائه ، ومن شأن الذى يصفح عن غيره ، أن يكون أقوى وأعز من هذا الغير فكأنه - سبحانه - يقول له : اصفح عنهم فعما قريب ستكون لك الكلمة العليا عليهم .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - ( فاصفح عَنْهُمْ وَقُلْ سَلاَمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ) وقوله - سبحانه - : ( . . . فاعفوا واصفحوا حتى يَأْتِيَ الله بِأَمْرِهِ إِنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ).

ان ربك هو الخلاق العليم

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الخلاق العليم ) تعليل للأمر بالصفح الجميل عنهم .والخلاق والعليم : صيغتا مبالغة من الخلق والعلم ، للدلالة على كثرة خلقه ، وشمول علمه .أى : ( إن ربك ) أيها الرسول - الكريم ، الذى رباك برعايته وعنايته ، واختارك لحمل رسالته ( هو ) سبحانه - ( الخلاق ) لك ولهم ولكل شئ فى هذا الوجود .( العليم ) بأحوالك وبأحوالهم ، وبما يصلح لك ولهم ولكل الكائنات .وقد علم - سبحانه - أن الصفح - عنهم فى هذا الوقت فيه المنفعة لك ولهم ، فحقيق بك - أيها الرسول الكريم أن تطيعه - سبحانه - ، وأن تكل الأمور إليه .ولقد تحقق الخير من وراء هذا التوجيه السديد من الله - تعالى - لنبيه صلى الله عليه وسلم فقد نرتب على هذا الصفح : النصر للنبى صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ، والهداية لبعض الكافرين وهم الذين دخلوا فى الإسلام بعد نزول هذه الآية ، وصاروا قوة للدعوة الإسلامية بعد أن كانوا حربًا عليها ، وتحقق - أيضًا - قوله صلى " - الله عليه وسلم : " لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله - عز وجل .

ولقد اتيناك سبعا من المثاني والقران العظيم

كما فسرها الوسيط ثم أتبع - سبحانه - هذه التسلية والبشارة للرسول صلى الله عليه وسلم ، بمنة ونعمة أجل وأعظم من كل ما سواها ، ليزيده اطمئنانًا وثقة بوعد الله - تعالى - فقال : ( وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ المثاني والقرآن العظيم ) .والمراد بالسبع المثانى : صورة الفاتحة . وسميت بذلك ، لأنها سبع آيات ، ولأنها تثنى أى تكرر فى كل ركعة من ركعات الصلاة .قال صاحب الكشاف : " والمثاني من التثنية وهى التكرير للشئ ، لأن الفاتحة تكرر - قراءتها فى الصلاة . أو من الثناء ، لاشتمالها على ما هو ثناء على الله تعالى - . . . " .والمعنى : ولقد أعطيناك - أيها الرسول الكريم - سورة الفاتحة التى هى سبع آيات ، والتى تعاد قراءتها فى كل ركعة من ركعات الصلاة وأعطيناك - أيضًا - القرآن العظيم الذى يهدى للطريق التى هى أقوم .وأوثر ، فعل ( آتيناك ) بمعنى أعطيناك على أوحينا إليك ، أو أنزلنا عليك؛ لأن الإعطاء أظهر فى الإكرام والإنعام .وقوله ( والقرآن العظيم ) معطوف على - من باب عطف الكل على الجزء ، اعتناء بهذا الجزء .ووصف - سبحانه ( سبعًا ) القرآن بأنه عظيم ، تنويهًا بشأنه ، وإعلاء لقدره .ومما يدل على أن المراد بالسبع المثانى سورة الفاتحة ما أخرجه البخارى بسنده عن أبى سعيد بن المعلى قال : " مر بى النبى صلى الله عليه وسلم وأنا أصلى ، فدعانى فلم آته حتى صليت ، ثم أتيته فقال : ما منعك أن تأتينى؟ فقلت : كنت أصلى .فقال : ألم يقل الله : ( ياأيها الذين آمَنُواْ استجيبوا للَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم ) .ثم قال : ألا أعلمك أعظم سورة فى القرآن قبل أن أخرج من المسجد؟ ثم ذهب النبى صلى الله عليه وسلم ليخرج ، فذكرته فقال : ( الحمد " للَّهِ رَبِّ العالمين ) هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته وروى البخارى - أيضًا - عن أبى هريرة قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم. أم القرآن هى : السبع المثانى والقرآن العظيم " .هذا ، وهناك أقوال " : أخرى فى المقصود بالسبع المثانى ، ذكرها بعض المفسرين فقال : اختلف العلماء ، فى السبع المثانى : فقيل الفاتحة . قاله على بن أبى طالب ، وأبو هريرة والربيع بن أنس ، وأبو العالية ، والحسن وغيرهم . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم من وجوه ثابتة من حديث أبى بن كعب وأبى سعيد بن المعلى . . .وقال ، ابن عباس : هى السبع الطوال : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة

والأنعام ، والأعراف ، والأنفال والتوبة معًا . . .وأنكر قوم هذا وقالوا : أنزلت هذه الآية بمكة ، ولم ينزل من السبع الطوال شئ إذ ذاك .وقيل : المثانى القرآن كله ، قال الله - تعالى - ( كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ ) هذا قول الضحاك وطاووس ، وقاله ابن عباس . وقيل له : مثانى لأن الأنباء والقصص ثنيت فيه . . .وقيل : المراد بالسبع المثانى أقسام القرآن من الأمر والنهى والتبشير والإنذار . .ثم قال : والصحيح الأول لأنه نص . وقد قدمنا فى الفاتحة أنه ليس فى تسميتها بالمثانى ما يمنع من تسمية غيرها بذلك ، إلا أنه إذا ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم وثبت عنه نص فى شئ لا يحتمل التأويل ، كان الوقوف عنده .والذى نراه ، أن المقصود بالسبع المثانى هنا : سورة الفاتحة ، لثبوت النص الصحيح بذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومتى ثبت النص الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم فى شئ فلا كلام لأحد معه أو بعده صلى الله عليه وسلم .

لا تمدن عينيك الى ما متعنا به ازواجا منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين

كما فسرها الوسيط ثم نهى الله - تعالى - المسلمين فى شخص نبيهم صلى الله عليه وسلم عن التطلع إلى زينة الحياة الدنيا ، فقال - تعالى - : ( لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إلى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ . . ) - قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف وصل هذا بما قبله؟قلت : يقول الله. تعالى - لرسوله صلى الله عليه وسلم : قد أوتيت النعمة العظمى التى كل نعمة وإن عظمت فهى إليها حقيرة ضئيلة ، وهى القرآن العظيم ، فعليك أن تستغنى به ولا تمدن عينيك إلى متاع الدنيا . . .قال أبو بكر الصديق؛ من أوتى القرآن ، فرأى أن أحدًا أوتى من الدنيا أفضل مما أوتى ، فقد صغر عظيمًا ، وعظم ، صغيرًا .وقال ابن كثير : وقال ابن أبى حاتم : ذكر عن وكيع بن الجراح ، قال حدثنا موسى بن عبيدة ، عن يزيد بن عبد الله بن قسيط ، عن أبى رافع صاحب : النبى صلى الله عليه وسلم قال : " أضاف النبى صلى الله عليه وسلم ضيفا ، ولم يكن عنده صلى الله عليه وسلم شئ يصلحه ، فأرسل إلى رجل من اليهود : يقول لك محمد رسول الله : أسلفنى دقيقا إلى هلال رجب . قال اليهودى :لا إلا برهن . فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم فأخبرته ، فقال : أما والله إنى لأمين من فى السماء ، وأمين من فى الأرض ، ولئن أسلفنى أو باعنى لأؤدين إليه . فلما خرجت من عنده نزلت هذه الآية . ( لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ) ، كأنه - سبحانه - يعزيه عن الدنيا " .وقوله - سبحانه - ( تمدن ) من المد . وأصله الزيادة . واستعير هنا للتطلع إلى ما عند الغير برغبة وتمن وإعجاب يقال : مد فلان عينه إلى مال فلان ، إذا اشتهاه وتمناه وأراده .والمراد بالأزواج : الأصناف من الكفار الذين متعهم الله بالكثير من زخارف الدنيا والمعنى : لا تحفل - أيها الرسول الكريم - ولا تطمح ببصرك طموح الراغب فى. ذلك المتاع الزائل ، الذى متع الله - تعالى - به أصنافًا من المشركين فإن ما بين أيديهم منه شئ سينتهى عما قريب ، وقد آتاهم الله - تعالى - إياه على سبيل الاستدراج والإملاء ، وأعطاك ما هو خير منه وأبقى ، وهو القرآن . العظيم .قال صاحب الظلال : والعين لا تمتد . إنما يمتد البصر أى : يتوجه ولكن التعبير التصويرى يرسم صورة العين ذاتها ممدودة إلى المتاع . وهى صورة طريفة حين يتخيلها المتخيل . .والمعنى وراء ذلك ، ألا يحفل الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك المتاع الذى آتاه الله - تعالى - لبعض الناس . . . ولا يلقى ) إليه نظرة اهتمام ، أو نظرة استجمال ، أو نظرة تمن .وقال - سبحانه - هنا لا تمدن . . . ) بدون واو العطف ، وقال فى سورة طه ( ولا تمدن . . . ) بواو العطف ، لأن الجملة هنا مستأنفة استئنافًا بيانيًا ، جوابًا لما يختلج فى نفوس بعض المؤمنين من تساؤل عن أسباب الإملاء والعطاء الدنيوى لبعض الكافرين . ولأن الجملة السابقة عليها وهى قوله ( وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ المثاني . . . ) كانت بمنزلة التمهيد لها ، والإجمال لمضمونها .أما فى سورة طه ، فجملة ( ولا تمدن . . . ) معطوفة على ما سبقها من طلب وهو قوله - تعالى - ( فاصبر على مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشمس وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَآءِ الليل فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النهار لَعَلَّكَ ترضى وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إلى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً . . . ) وقوله - سبحانه - ( وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ) نهى له صلى الله عليه وسلم عن الاهتمام بالمصير السيئ الذى ينتظر أعداءه .أى : ولا تحزن - أيها الرسول الكريم - لكفر من كفر من قومك ، أو لموتهم على ذلك ، أو لأعراضهم عن الحق الذى جئتهم به ، فإن القلوب بأيدينا نصرفها كيف نشاء ، أما أنت فعليك البلاغ .وقوله - سبحانه - ( واخفض جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ) بيان لما يجب عليه نحو أتباعه ، بعد بيان ما يجب عليه نحو أعدائه .وخفض الجناح كناية عن اللين والمودة والعطف .أى : وكن متواضعًا مع أتباعك المؤمنين ، رءوفًا بهم ، عطوفًا عليهم .قال الشوكانى : وخفض الجناح كناية عن التواضع ولين الجانب . وأصله أن الطائر إذا ضم فرخه إليه بسط جناحه ثم قبض على الفرخ ، فجعل . .

. ذلك وصفا لتواضع الإنسان لأتباعه . . . والجناحان من ابن آدم : جانباه

وقل اني انا النذير المبين

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَقُلْ إني أَنَا النذير المبين ) معطوف على ما قبله .أى :لا تحزن - أيها الرسول الكريم - على مصير الكافرين : وتواضع لأتباعك المؤمنين ، وقل للناس جميعًا ما قاله كل نبى قبلك لقومه ، إنى أنا المنذر لكم من عذاب الله إذا ما بقيتم على كفركم ، الموضح لكم كل ما يخفى عليكم .فالنذير هنا بمعنى المنذر ، والمبين بمعنى الكاشف والموضح " : وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال. إنما مثلى ومثل ما بعثنى الله به ، كمثل رجل أتى قومه فقال : يا قوم ، إنى رأيت الجيش بعينى ، وإنى أنا النذير العريان ، فالنجاء النجاء ، فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا ، وانطلقوا على مهلهم فنجوا . وكذبه طائفة منهم فأصبحوا مكانهم ، فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم ، فذلك مثل من أطاعنى واتبع ما جئت به ، ومثل من عصانى وكذب ما جئت به من الحق . "

كما انزلنا على المقتسمين

كما فسرها الوسيط ثم هدد - سبحانه - الذين يحاربون دعوة الحق ، ويصفون القرآن بأوصاف لا تليق به فقال - تعالى - : ( كَمَآ أَنْزَلْنَا عَلَى المقتسمين الذين جَعَلُواْ القرآن عِضِينَ ) . .والكاف فى قوله ( كما ) للتشبيه ، و ( ما ) موصوله أو مصدرية وهى المشبه به أما المشبه فهو الإيتاء المأخوذ من قوله - تعالى - ( وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ المثاني ) . ولفظ ( المقتسمين ) افتعال من القسم بمعنى تجزئة الشئ وجعله أقسامًا. والمراد بهم بعض طوائف أهل الكتاب ، الذين آمنوا ببعضه وكفروا بالبعض الآخر .أو المراد بهم - كما قال ابن كثير : " ( المقتسمين ) أى المتحالفين ) أى الذين تحالفوا على مخالفة الأنبياء وتكذيبهم وأذاهم . . . " .ولفظ ، عضين ) جمع عضة - بزنة عزة - ، وهى الجزء والقطعة من الشئ . تقول : عضيت : الشئ تعضية ، أى : فرقته وجعلته أجزاء كل فرقة عضة .قال القرطبى ما ملخصه وواحد العضين عضة ، من عضيت الشئ تعضية أى فرقته ، وكل فرقة عضة . قال الشاعر : وليس دين الله بالمعضى . أى : بالمفرق .والعضة والعضين فى لغة " : قريش السحر . وهم يقولون للساحر عاضه ، وللساحرة عاضهة . . .وفى الحديث لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم العاضهة والمستعضهة أى الساحرة . . والمستسحرة " . وقيل : هو من العضة ، وهى التميمة . والعضيهة : البهتان يقال : أعضهت يا فلان أى : جئت بالبهتان .والمعنى : ولقد آتيناك - أيها الرسول الكريم - السبع المثانى والقرآن العظيم ، مثل ما أنزلنا على طوائف أهل الكتاب المقتسمين ، أى الذين قسموا كتابهم أقسامًا ، فأظهروا قسمًا ، وأخفوا آخر ، والذين جعلوا - أيضًا - القرآن أقسامًا ، فآمنوا ببعضه وكفروا بالبعض الآخر .. فجعله ( الذين جَعَلُواْ القرآن عِضِينَ ) بيان وتوضيح للمقتسمين .ومنهم من يرى أن قوله - تعالى - ( كَمَآ أَنْزَلْنَا عَلَى المقتسمين . . . ) متعلق بقوله - تعالى - قبل ذلك ، ( وَقُلْ إني أَنَا النذير المبين ) ، فيكون المشبه الإنذار بالعقاب المفهوم من الآية الكريمة . وأن المراد بالمقتسمين : جماعة من مشركى قريش ، قسموا أنفسهم أقسامًا لصرف الناس عن الإيمان بالنبى صلى الله عليه وسلم .والمعنى : وقل - أيها الرسول الكريم - إنى أنا النذير المبين لكم من عذاب مثل عذاب المقتسمين . . .وقد فصل الإمام الآلوسى القول عند تفسيره لهاتين الآيتين . . . فقال ما ملخصه : قوله - تعالى - ( كَمَآ أَنْزَلْنَا عَلَى المقتسمين متعلق بقوله - تعالى - ( وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً . . . ) على أن ( يكون فى موضع نصب نعتا لمصدر من آتينا محذوف أى : آتيناك سبعا من المثانى إيتاء كما أنزلنا ، وهو فى معنى : أنزلنا عليك ذلك إنزالاً كإنزالنا على أهل الكتاب ( الذين جَعَلُواْ القرآن عِضِينَ ) أى قسموه إلى حق وباطل . وقيل : هو متعلق بقوله - تعالى - : ( وَقُلْ إني أَنَا النذير المبين ). وجوز أن يراد بالمقتسمين جماعة من قريش . . . أرسلهم الوليد بن المغيرة ، أيام موسم الحج ، ليقفوا على مداخل طرق مكة ، لينفروا الناس عن الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم فانقسموا على هاتيك المداخل ، يقول بعضهم لا تغتروا بالخارج فإنه ساحر . .أى : وقل إنى أنا النذير عذابا مثل العذاب الذى أنزلناه على المقتسمين .وقيل المراد بالمقتسمين ، الرهط الذين تقاسموا على أن يبيتوا صالحًا - أى يقتلوه ليلاً - فأهلكهم الله . . .ثم قال - رحمه الله - : والأقرب من الأقوال المذكورة أن قوله ( كما أنزلنا . . ) متعلق بقوله - تعالى - ( وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً . . . ) وأن المراد بالمقتسمين أهل الكتابين ، وأن الموصول مع صلته ، صفة مبينة لكيفية اقتسامهم . . .والمعنى : لقد آتيناك سبعًا من المثانى والقرآن العظيم ، إيتاء مماثلاً لإنزال الكتابين على أهلهما . . . .ويبدو لنا أن من الأفضل أن يكون المراد بالمقتسمين ، ما يشمل أهل الكتابين وغيرهم من المشركين

المتحالفين على مخالفة الأنبياء وتكذيبهم وأذاهم - كما قال ابن كثير - وقد
ذهب إلى ذلك الإمام ابن جرير ، فقد قال - رحمه الله - بعد سرده للأقوال فى
- ذلك ما ملخصه : " والصواب من القول فى ذلك عندى أن يقال : إن الله
تعالى - أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يعلم قومه الذين عضوا القرآن
ففرقوه ، أنه نذير لهم من سخط الله وعقوبته ، أن يحل بهم ما حل بالمقتسمين
.. من قبلهم ومنهم " . . .وجائز أن يكون عنى بالمقتسمين : أهل الكتابين
وجائز أن يكون عنى بذلك : المشركين من قريش ، لأنهم اقتسموا القرآن ، فسماه
. . . بعضهم شعرا ، وسماه بعضهم كهانة . . .وجائز أن يكون عنى به الفريقين
وممكن أن يكون عنى به المقتسمين على صالح من قومه . لأنه ليس فى التنزيل
ولا فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا فى فطرة العقل ، ما يدل على
أنه عنى به أحد الفرق الثلاثة دون الآخرين ، وإذا فكل من اقتسم كتابًا لله
. . . . بتكذيب بعض وتصديق بعض ، كان داخلاً فى هذا التهديد والوعيد

الذين جعلوا القران عضين

`<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html} كما فسرها الوسيط

ثم هدد - سبحانه - الذين يحاربون دعوة الحق ، ويصفون القرآن بأوصاف لا تليق
به فقال - تعالى - : ( كَمَآ أَنْزَلْنَا عَلَى المقتسمين الذين جَعَلُواْ
القرآن عِضِينَ ) . .والكاف فى قوله ( كما ) للتشبيه ، و ( ما ) موصوله أو
) - مصدرية وهى المشبه به أما المشبه فهو الإيتاء المأخوذ من قوله - تعالى
وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ المثاني ) .ولفظ ( المقتسمين ) افتعال
من القسم بمعنى تجزئة الشئ وجعله أقسامًا . .والمراد بهم بعض طوائف أهل
الكتاب ، الذين آمنوا ببعضه وكفروا بالبعض الآخر .أو المراد بهم - كما قال
ابن كثير : " ( المقتسمين ) أى المتحالفين ، أى الذين تحالفوا على مخالفة
، - الأنبياء وتكذيبهم وأذاهم . . . " .ولفظ ( عضين ) جمع عضة - بزنة عزة
وهى الجزء والقطعة من الشئ . تقول : عضيت الشئ تعضية ، أى : فرقته وجعلته
أجزاء كل فرقة عضة .قال القرطبى ما ملخصه : وواحد العضين عضة ، من عضيت
الشئ تعضية أى فرقته ، وكل فرقة عضة . قال الشاعر : وليس دين الله بالمعضى
أى : بالمفرق .والعضة والعضين فى لغة قريش السحر . وهم يقولون للساحر .
عاضه ، وللساحرة عاضهة . . .وفى الحديث : " لعن رسول الله صلى الله عليه
، وسلم العاضهة والمستعضهة أى الساحرة والمستسحرة " . وقيل : هو من العضة
وهى التميمة . والعضيهة : البهتان . . . يقال : أعضهت يا فلان أى : جئت
بالبهتان .والمعنى : ولقد آتيناك - أيها الرسول الكريم - السبع المثانى
والقرآن العظيم ، مثل ما أنزلنا على طوائف أهل الكتاب المقتسمين ، أى الذين
- قسموا كتابهم أقسامًا ، فأظهروا قسمًا وأخفوا آخر ، والذين جعلوا - أيضًا
القرآن أقسامًا ، فآمنوا ببعضه ، وكفروا بالبعض الآخر .. فجعله ( الذين
- جَعَلُواْ القرآن عِضِينَ ) بيان وتوضيح للمقتسمين .ومنهم من يرى أن قوله
- تعالى - ( كَمَآ أَنْزَلْنَا عَلَى المقتسمين . . . ) متعلق بقوله
تعالى - قبل ذلك ، ( وَقُلْ إني أَنَا النذير المبين ) ، فيكون المشبه
: الإنذار بالعقاب المفهوم من الآية الكريمة . وأن المراد بالمقتسمين
جماعة من مشركى قريش ، قسموا أنفسهم أقسامًا لصرف الناس عن الإيمان بالنبى
صلى الله عليه وسلم .والمعنى : وقل - أيها الرسول الكريم - إنى أنا النذير
المبين لكم من عذاب مثل عذاب المقتسمين . . .وقد فصل الإمام الآلوسى القول
عند تفسيره لهاتين الآيتين فقال ما ملخصه : قوله - تعالى - ( كَمَآ
أَنْزَلْنَا عَلَى المقتسمين . . . ) متعلق بقوله - تعالى - ( وَلَقَدْ
آتَيْنَاكَ سَبْعاً . . . ) على أن يكون فى موضع نصب نعتا لمصدر من آتينا
: محذوف أى : آتيناك سبعا من المثانى إيتاء كما أنزلنا ، وهو فى معنى
أنزلنا عليك ذلك إنزالاً كإنزالنا على أهل الكتاب ( الذين جَعَلُواْ القرآن
) : - عِضِينَ ) أى قسموه إلى حق وباطل . .وقيل : هو متعلق بقوله - تعالى
وَقُلْ إني أَنَا النذير المبين ) . . وجوز أن يراد بالمقتسمين جماعة من
قريش . . . أرسلهم الوليد بن المغيرة ، أيام موسم الحج ، ليقفوا على مداخل
طرق مكة ، لينفروا الناس عن الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم
. فانقسموا على هاتيك المداخل ، يقول بعضهم لا تغتروا بالخارج فإنه ساحر
أى : وقل إنى أنا النذير عذابا مثل العذاب الذى أنزلناه على المقتسمين.
وقيل المراد بالمقتسمين ، الرهط الذين تقاسموا على أن يبيتوا صالحًا - أى.
يقتلوه ليلاً - فأهلكهم الله . . .ثم قال - رحمه الله - : والأقرب من
) - الأقوال المذكورة أن قوله ( كما أنزلنا . . ) متعلق بقوله - تعالى
، وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً . . . ) وأن المراد بالمقتسمين أهل الكتابين
وأن الموصول مع صلته ، صفة مبينة لكيفية اقتسامهم . . .والمعنى : لقد
آتيناك سبعًا من المثانى والقرآن العظيم ، إيتاء مماثلاً لإنزال الكتابين
على أهلهما . . . .ويبدو لنا أن من الأفضل أن يكون المراد بالمقتسمين ، ما
يشمل أهل الكتابين وغيرهم من المشركين المتحالفين على مخالفة الأنبياء
، وتكذيبهم وأذاهم - كما قال ابن كثير - وقد ذهب إلى ذلك الإمام ابن جرير

فقد قال - رحمه الله - بعد سرده للأقوال فى ذلك ما ملخصه : " والصواب من القول فى ذلك عندى أن يقال : إن الله - تعالى - أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يعلم قومه الذين عضوا القرآن ففرقوه ، أنه نذير لهم من سخط الله وعقوبته ، أن يحل بهم ما حل بالمقتسمين من قبلهم ومنهم " . . .وجائز أن يكون عنى بالمقتسمين : أهل الكتابين .. وجائز أن يكون عنى بذلك : المشركين من قريش ، لأنهم اقتسموا القرآن ، فسماه بعضهم شعرا ، وسماه بعضهم كهانة . وجائز أن يكون عنى به الفريقين . . . وممكن أن يكون عنى به المقتسمين. . على صالح من قومه . لأنه ليس فى التنزيل ولا فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا فى فطرة العقل ، ما يدل على أنه عنى به أحد الفرق الثلاثة دون الآخرين ، وإذا فكل من اقتسم كتابًا لله بتكذيب بعض وتصديق بعض ، كان داخلاً فى هذا التهديد والوعيد . . . .

فوربك لنسالنهم اجمعين

) : كما فسرها الوسيط ثم أكد - سبحانه - هذا التهديد والوعيد فقال ( فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ . والفاء هنا متفرعة على ما سبق تأكيده فى قوله ( وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ. إذ فى هذا اليوم يكون سؤالهم .والواو للقسم ، أى : فوحق ربك - أيها ( . . ، الرسول الكريم - الذى خلقك فسواك فعدلك ، لنسألن هؤلاء المكذبين جميعًا سؤال توبيخ وتقريع وتبكيت .

عما كانوا يعملون

كما فسرها الوسيط عما كانوا يعملونه فى الدنيا من أعمال قبيحة : وعما كانوا يقولونه من أقوال فاسدة ، ثم لننزلن بهم جميعًا العقوبة المناسبة لهم فالمقصود من هذه الآية الكريمة زيادة التسلية للرسول صلى الله عليه وسلم. وتأكيد التهديد للمشركين .

فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين

كما فسرها الوسيط ثم أمر - سبحانه - رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يمضى فى طريقه ، وأن يجهر بدعوته وأن يعرض عن المشركين ، فقد كفاه - سبحانه - شرهم فقال - تعالى - : ( فاصدع بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ المشركين إِنَّا كَفَيْنَاكَ المستهزئين الذين يَجْعَلُونَ مَعَ الله إلها آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ) .وقوله ( فاصدع . . ) من الصدع بمعنى الإظهار والإعلان . ومنه قولهم : انصدع الصبح ، إذا ظهر بعد ظلام الليل والصديع الفجر لانصداعه - أى ظهوره . ويقال : صدع فلان بحجته ، إذا تكلم بها جهارًا .أى : فاجهر أيها الرسول الكريم - بدعوتك ، وبلغ ما أمرناك بتبليغه علانية ، وأعرض عن سفاهات المشركين وسوء أدبهم .قال عبد الله بن مسعود : ما زال النبى صلى الله عليه وسلم مستخفيا بدعوته حتى نزلت هذه الآية .

انا كفيناك المستهزئين

كما فسرها الوسيط فخرج هو وأصحابه ، وقوله ( إِنَّا كَفَيْنَاكَ المستهزئين تعليل للأمر بالجهر بالدعوة ، بعد أن مكث صلى الله عليه وسلم يدعو الناس ( إلى الاسلام سرًا ثلاث سنين أو أكثر .وقوله ( كفيناك . . ) من الكفاية . تقول : كفيت فلانًا المؤنة إذا توليتها عنه ، ولم تحوجه إليها . وتقول : كفيتك عدوك أى : كفيتك بأسه وشره .والمراد بالمستهزئين : أكابر المشركين فى الكفر والعداوة والاستهزاء بالرسول صلى الله عليه وسلم .أى : إنا كفينا الانتقام من المستهزئين بك وبدعوتك ، وأرحناك منهم ، بإهلاكهم . وذكر بعضهم أن المراد بهم خمسة من كبرائهم ، وهم : الوليد بن المغيرة ، والأسود بن عبد يغوث ، والأسود بن المطلب ، والحارث بن عيطل ، والعاص بن وائل : وقد أهلكهم الله جميعًا بمكة ، وكان هلاكهم العجيب من أهم الصوارف لأتباعهم عن الاستهزاء بالنبى صلى الله عليه وسلم .قال الإمام الرازى : واعلم أن المفسرين قد اختلفوا فى عدد هؤلاء المستهزئين ، وفى أسمائهم ، وفى كيفية طريق استهزائهم ، ولا حاجة إلى شئ منها .والقدر المعلوم أنهم طبقة لهم قوة ، وشوكة ورياسة ، لأن أمثالهم هم الذين يقدرون على إظهار مثل هذه السفاهة مع مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى علو قدره ، وعظم منصبه ، ودل القرآن على أن الله - تعالى - أفناهم وأبادهم وأزال كيدهم .

الذين يجعلون مع الله الها اخر فسوف يعلمون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن هؤلاء المستهزئين قد أضافوا إلى ذلك الشرك والكفر فقال : ( الذين يَجْعَلُونَ مَعَ الله إلها آخَرَ ) فى

عباداتهم وفى عقيدتهم .( فسوف يعلمون ) ما يترتب على ذلك فى الآخرة من عذاب شديد لهم ، بعد أن أهلكناهم فى الدنيا وقطعنا دابرهم .

ولقد نعلم انك يضيق صدرك بما يقولون

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بتسلية أخرى له صلى الله عليه وسلم ، وبإرشاده إلى ما يزيل همه . ويشرح صدره ، فقال - تعالى - : ( وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِّنَ السَّاجِدِينَ واعبد رَبَّكَ حتى يَأْتِيَكَ اليقين ) .وضيق الصدر : كناية عن كدر النفس ، وتعرضها للهموم والأحزان .أى : ولقد نعلم - أيها الرسول الكريم - أن أقوال المشركين الباطلة فيك وفيما جئت به من عندنا ، تحزن نفسك ، وتكدر خاطرك .وقال - سبحانه - ( ولقد نعلم . . ) بلام القسم وحرف التحقيق ، لتأكيد الخبر ، وإظهار مزيد من الاهتمام والعناية بالمخبر عنه صلى الله عليه وسلم فى الحال والاستقبال .

فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين

كما فسرها الوسيط والفاء فى قوله ( فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ . . . ) واقعة فى جواب شرط .والتسبيح لله - تعالى - معناه : تنزيهه - عز وجل - عن كل ما لا يليق به .والتحميد له - تعالى - معناه : الثناء عليه بما هو أهله من صفات الكمال والجلال .أى : إن ضاق صدرك - أيها الرسول الكريم - بسبب أقوال المشركين القبيحة ، فافزع إلينا بالتسبيح والتحميد ، بأن تكثر من قول سبحان الله ، والحمد لله .قال بعض العلماء : فهذه الجملة الكريمة قد اشتملت على الثناء على الله بكل كمال؛ لأن الكمال يكون بأمرين :أحدهما : التخلى عن الرذائل ، والتنزه عما لا يليق ، هذا معنى التسبيح .والثانى : التحلى بالفضائل ، والاتصاف بصفات الكمال ، وهذا معنى الحمد .فتم الثناء بكل كمال " : ولأجل هذا المعنى ثبت فى الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال . : كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن - سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم . . . " .والمراد بالسجود فى قوله تعالى - ( وَكُنْ مِّنَ السَّاجِدِينَ ) الصلاة . وعبر عنها بذلك من باب التعبير - بالجزء عن الكل ، لأهمية هذا الجزء وفضله ، ففى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :" أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء " .ويؤخذ من هذه الآية الكريمة ، أن ترتيب الأمر بالتسبيح والتحميد والصلاة على ضيق الصدر؛ دليل على أن هذه العبادات بسببها يزول المكروه بإذنه - تعالى - ، وتنقشع الهموم . . . ولذا كان صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر لجأ إلى الصلاة .وروى الإمام أحمد وأبو داود والنسائى من حديث نعيم بن عمار - رضى الله عنه - أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول : قال الله - تعالى - : " يا بن آدم لا تعجز عن أربع ركعات من أول النهار ، أكفك آخره " .فينبغى للمسلم إذا أصابه مكروه أن يفزع إلى الله - تعالى - بأنواع الطاعات من صلاة وتسبيح وتحميد وغير ذلك من ألوان العبادات .

واعبد ربك حتى ياتيك اليقين

كما فسرها الوسيط والمراد بالأمر بالعبادة فى قوله تعالى ( واعبد رَبَّكَ حتى يَأْتِيَكَ اليقين ) المداومة عليها وعدم التقصير فيها .والمراد - باليقين : الموت ، سمى بذلك لأنه أمر متيقن لحوقه بكل مخلوق .أى : ودم أيها الرسول الكريم - على عبادة ربك وطاعته ما دمت حيا ، حتى يأتيك الموت الذى لا مفر من مجيئه فى الوقت الذى يريده الله - تعالى - .ومما يدل على أن المراد باليقين هنا الموت قوله - تعالى - حكاية عن المجرمين : ( قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ المصلين وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ المسكين وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الخآئضين وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدين حتى أَتَانَا اليقين ) أى الموت .ويدل على ذلك أيضًا ما رواه البخارى عن أم العلاء " أن رسول الله : صلى الله عليه وسلم لما دخل على عثمان بن مظعون وقد مات ، قالت : قلت : رحمة الله عليك أبا السائب ، فشهادتى عليك لقد أكرمك الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " وما يدريك أن الله قد أكرمه . . . أما هو فقد جاءه اليقين - أى الموت - وإنى لأرجو له الخير " " .قال الإمام ابن كثير : ويستدل بهذه الآية الكريمة ، على أن العبادة كالصلاة ونحوها ، واجبة على الإنسان ما دام عقله ثابتًا ، فيصلى بحسب حاله ، كما ثبت فى صحيح البخارى عن عمران بن حصين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " صل قائمًا ، فإن لم تستطع فقاعدا ، فإن لم تستطع فعلى جنب " .ويستدل بها أيضًا على تخطئة من ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين المعرفة ، فمتى وصل أحدهم إلى المعرفة ، سقط عنه التكليف عندهم . وهذا كفر وضلال وجهل . . . .

اتى امر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون

كما فسرها الوسيط افتتحت السورة الكريمة ، بتهديد الكافرين الذين كانوا
- ينكرون البعث ، وما يترتب عليه من ثواب أو عقاب ، ويستبعدون نصر الله
تعالى - لأوليائه ، فقال - تعالى - : ( أتى أَمْرُ الله فَلاَ
تَسْتَعْجِلُوهُ ) والفعل ( أتى ) هنا ، بمعنى قرب ودنا بدليل ( فلا
تستعجلوه ) ، لأن المنهى عن الاستعجال يقتضى أن الأمر الذى استعجل حصوله لم
يحدث بعد .والمراد بأمر الله : ما اقتضته سنته وحكمته - سبحانه - من إثابة
المؤمنين ونصرهم ، وتعذيب الكافرين ودحرهم .والفاء فى قوله ( فلا تستعجلوه
) للتفريع . والاستعجال : طلب حصول الشئ قبل وقته . والضمير المنصوب فى (
تستعجلوه ) يعود على ( أمر الله ) ، لأنه هو المتحدث عنه ، أو على ( الله
تعالى - ، فلا تستعجلوا الله فيما قضاه وقدره .والمعنى : قرب ودنا مجئ - (
أمر الله - تعالى - وهو إكرام المؤمنين بالنصر والثواب ، وإهانة الكافرين
بالخسران والعقاب ، فلا تستعجلوا - أيها المشركون - هذا الأمر ، فإنه آت لا
ريب فيه ، ولكن فى الوقت الذى يحدده الله تعالى - ويشاؤه .وعبر عن قرب
إتيان أمر الله - تعالى - بالفعل الماضى ( أتى ) للإشعار بتحقق هذا
الإتيان ، وللتنويه بصدق المخبر به ، حتى لكأن ما هو واقع عن قريب ، قد
، صار فى حكم الواقع فعلا . وفى إبهام أمر الله ، إشارة إلى تهويله وتعظيمه
لإضافته إلى من لا يعجزه شئ فى الأرض ولا فى السماء .قوله ( فلا تستعجلوه
زيادة فى الإنذار والتهديد ، أى : فلا جدوى من استعجالكم ، فإنه نازل (
بكم سواء استعجلتم أم لم تستعجلوا .والظاهر أن الخطاب هنا للمشركين ، لأنهم
هم الذين كانوا يستعجلون قيام الساعة ، ويستعجلون نزول العذاب بهم ، وقد
حكى القرآن عنهم ذلك فى آيات :منها قوله - تعالى - : ( يَسْتَعْجِلُ بِهَا
الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بِهَا والذين آمَنُواْ مُشْفِقُونَ مِنْهَا
وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الحق أَلاَ إِنَّ الذين يُمَارُونَ فِي الساعة
لَفِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ ) ومنها قوله - سبحانه - : ( وَيَسْتَعْجِلُونَكَ
بِالعذاب وَلَن يُخْلِفَ الله وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ
كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ) وقال بعض العلماء : و " يجوز أن يكون
الخطاب هنا شاملا للمؤمنين ، لأن عذاب الله - تعالى - وإن كان الكافرون
يستعجلونه ، تهكما به ، لظنهم أنه غير آت ، فإن المؤمنين يضمرون فى نفوسهم
استبطاءه ، ويحبون تعجيله للكافرين " .وقوله : ( سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا
يُشْرِكُونَ ) جملة مستأنفة ، قصد بها إبطال إشراكهم ، وزيادة توبيخهم
وتهديدهم .أى : تنزه الله - تعالى - وتعاظم بذاته وصفاته ، عن إشراك
المشركين ، المؤدى بهم إلى الأقوال الفاسدة ، والأفعال السيئة ، والعاقبة
الوخيمة ، والعذاب المهين . وقوله : ( يشركون ) : قراءة الجمهور ، وفيها
التفات من الخطاب فى قوله ( فلا تستعجلوه ) إلى الغيبة ، تحقيرا لشأن
المشركين ، وحطا من درجتهم عن رتبة الخطاب ، وحكاية لشنائعهم التى يتبرأ
منها العقلاء .وقرأ حمزة والكسائى ( تشركون ) تبعا لقوله - تعالى - ( فلا
تستعجلوه ) وعلى قراءتهما لا التفات فى الآية .

ينزل الملائكة بالروح من امره على من يشاء من عباده ان انذروا انه لا اله
الا انا فاتقون

، كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - لونا من ألوان قدرته ، ورحمته بعباده
حيث أرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين ، فقال تعالى - : ( يُنَزِّلُ
الملائكة بالروح مِنْ أَمْرِهِ على مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ ) . . .
والمراد بالملائكة هنا : جبريل - عليه السلام - ومن معه من حفظة الوحى.
أو المراد بهم جبريل خاصة ، ولا مانع من ذلك ، لأن الواحد قد يسمى باسم
الجمع إذا كان رئيسا عظيما .والمراد بالروح : كلام الله - تعالى - ووحيه
الذى ينزل به جبريل ، ليبلغه إلى من أمره الله بتبليغه إياه .وقد جاء ذكر
الروح بمعنى الوحى فى آيات منها قوله - تعالى - : ( وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَآ
إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكتاب وَلاَ
الإيمان ولكن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَآءُ مِنْ
عِبَادِنَا . . . ) والمعنى : ينزل - سبحانه - الملائكة بكلامه ووحيه ، على
من يشاء إنزالهم إليه من عباده المصطفين الأخيار .وأطلق - سبحانه - على
وحيه اسم الروح ، على سبيل التشبيه ، ووجه الشبه : أن بسببهما تكون الحياة
الحقة .فكما أن بالروح تحيا الأبدان والأجساد ، فكذلك بالوحى تحيا القلوب
والنفوس وتؤدى رسالتها فى هذه الحياة .وفى قوله - سبحانه - : ( من أمره )
، إشارة إلى أن نزول الملائكة بالوحى ، لا يكون إلا بسبب أمر الله لهم بذلك
كما قال - تعالى - حكاية عنهم : ( وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ
رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذلكَ
وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً ) وقوله : ( على مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ
- رد على مطالب المشركين المتعنتة ، والتى من بينها ما حكاه الله تعالى (

عنهم فى قوله : ( وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ
القريتين عَظِيمٍ . . . ) فالآية الكريمة تبين أن نزول الملائكة بالوحى ،
إنما هو على من يختاره الله - تعالى - لنزول الوحى عليه ، لا على من
يختارونه هم ، وأن النبوة هبة من الله - تعالى - لمن يصطفيه من عباده .
) : قال - تعالى - : ( الله أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ) وقوله
أَنْ أنذروا أَنَّهُ لاَ إله إِلاَّ أَنَاْ فاتقون ) بيان للمقصود من نزول
الملائكة بالوحى على الأنبياء .أى : أنزل - سبحانه - ملائكته بوحيه على
أنبيائه ، لكى ينذر هؤلاء الأنبياء الناس ، ويخوفوهم من سوء عاقبة الإشراك
بالله ، ويدعوهم إلى أن يخلصوا العبادة لله - تعالى - وحده ، ويبينوا لهم
: أن الألوهية لا يصح أن تكون لغيره - سبحانه - .قال الآلوسى ما ملخصه
وقوله : ( أن أنذروا ) بدل من ( الروح ) على أن " أن " هى التى من شأنها أن
تنصب المضارع ، وصلت بالأمر كما وصلت به فى قولهم : كتبت إليه بأن قم .وجوز
" بعضهم كون " أن " هنا مفسرة ، فلا موضع لها من الإعراب ، وذلك لما فى
ينزل الملائكة بالوحى ، من معنى القول ، كأنه قيل : يقول - سبحانه - بواسطة
الملائكة لمن يشاء من عباده أن أنذروا . . . " .واقتصر هنا على الإنذار
، الذى هو بمعنى التخويف ، لأن الحديث مع المشركين ، الذين استعجلوا العذاب
: واتخذوا مع الله - تعالى - آلهة أخرى .والفاء فى قوله ( فاتقون ) فصيحة
أى ، إذا كان الأمر كذلك ، من أن الألوهية لا تكون لغير الله ، فعليكم أن
تتقوا عقوبتى لمن خالف أمرى ، وعبد غيرى .قال الجمل : " وفى قوله ( فاتقون
) ، تنبيه على الأحكام الفرعية بعد التنبيه على الأحكام العلمية بقوله (
أَنَّهُ لاَ إله إِلاَّ أَنَا ) ، فقد جمعت الآية بين الأحكام الأصلية
والفرعية " .وبعد أن بين - سبحانه - أنه منزه عن أن يكون له شريك ، وأنه قد
أنزل الملائكة بوحيه على من يشاء من عباده ، وأنه لا إله يستحق العبادة
، سواه .بعد كل ذلك ، بين الأدلة الدالة على قدرته ووحدانيته ، بأسلوب بديع
جمع فيه بين دلالة المخلوق على الخالق ، ودلالة النعمة على منعمها ، ووبخ
، المشركين على شركهم ، تارة عن طريق خلقه وحده - سبحانه - للسموات والأرض
وتارة عن طريق خلقه للإنسان ، وتارة عن طريق خلقه للحيوان وللنبات ، ولغير
ذلك من المخلوقات التى لا تحصى .

خلق السماوات والارض بالحق تعالى عما يشركون

كما فسرها الوسيط قال - تعالى - : ( خَلَقَ السماوات والأرض بالحق تعالى
عَمَّا يُشْرِكُونَ ) .والباء فى قوله ( بالحق ) للملابسة . والحق : ضد
الباطل ، وهو هنا بمعنى الحكمة والجد الذى لا هزل فيه ولا عبث معه ، كما
قال - تعالى - : ( وَمَا خَلَقْنَا السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا
- لاَعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَآ إِلاَّ بالحق . . . ) أى : خلق - سبحانه
بقدرته النافذة السموات وما أظلت ، والأرض وما أقلت ، خلقا ملتبسا بالحكمة
الحكيمة ، وبالجدية التى لا يحوم حولها لهو أو عبث .وقوله : ( تعالى عَمَّا
يُشْرِكُونَ ) تنزيه وتقدير لذاته وصفاته ، عما قاله المشركون فى شأنه - عز
وجل - من أن له ولدا أو شريكا .قال - تعالى - : ( مَا اتخذ الله مِن وَلَدٍ
وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إله بِمَا خَلَقَ
وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ سُبْحَانَ الله عَمَّا يَصِفُونَ ) وقد
صدر - سبحانه - هذه الأدلة الدالة على وحدانيته وقدرته ، بخلق السموات
والأرض ، لأن خلقهما أعظم من خلق غيرهما ، ولأنهما حاويتان لما لا يحصى من
مخلوقاته - سبحانه - .قال - تعالى - : ( لَخَلْقُ السماوات والأرض أَكْبَرُ
مِنْ خَلْقِ الناس ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ )

خلق الانسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - دليلا آخر على انفراده بالألوهية عن
طريق خلق الإنسان فقال : ( خَلَقَ الإنسان مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ
: خَصِيمٌ مُّبِينٌ ) .والمراد بالإنسان هنا جنس الإنسان .وأصل النطفة
: الماء الصافى .أو الماء القليل الذى يبقى فى الدلو أو القربة ، وجمعها
نطف ونطاف . يقال : نطفت القربة إذا قطرت ، أى سال منها الماء وتقاطر
والمراد بالنطفة هنا : المنى الذى هو مادة التلقيح من الرجل للمرأة.
والخصيم : الكثير الخصام لغيره ، فهو صيغة مبالغة . يقال : خصم الرجل.
يخصم - من باب تعب - إذا أحكم الخصومة ، فهو خصم وخصيم .والمبين . المظهر
- للحجة ، المفصح عما يريده بألوان من طريق البيان .أى : خلق - سبحانه
الإنسان . من مَنِيٍّ يُمنى ، أو من ماء مهين خلقا عجيبا فى أطوال مختلفة
لا يجهلها عاقل ، ثم أخرجه بقدرته من بطن أمه إلى ضياء الدنيا ، ثم رعاه ،
برعايته ولطفه إلى أن استقل وعقل .حتى إذا ما وصل هذا الإنسان إلى تلك
المرحلة التى يجب معها الشكر لله - تعالى - الذى رباه ورعاه ، إذا به ينسى
خالقه ، ويجحد نعمه ، وينكر شريعته ، ويكذب رسله ويخاصم ويجادل بلسان فصيح
: - من بعثه الله - تعالى - لهدايته وإرشاده ، ويقول - كما حكى القرآن عنه

) - وإذا فى قوله - سبحانه ( . . مَن يُحيِي العظام وَهِيَ رَمِيمٌ )
فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ) . هى التى تسمى بإذا الفجائية التى يؤتى
بها لمعنى ترتب الشئ ، على غير ما يظن أن يترتب عليه .وجئ بها هنا لزيادة
- التعجيب من حال الإنسان ، لأنه كان المنتظر منه بعد أن خلقه الله
تعالى - بقدرته ، ورباه برحمته ورعايته ، أن يشكر خالقه على ذلك ، وأن يخلص
العبادة له ، لكنه لم يفعل ما كان منتظرا منه ، بل فعل ما يناقض ذلك من
- الإشراك والمجادلة فى أمر البعث وغيره .وشبيه بهذه الآية الكريمة قوله
تعالى - : ( وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هذا القرآن لِلنَّاسِ مِن كُلِّ
) : - مَثَلٍ وَكَانَ الإنسان أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً ) وقوله - تعالى
وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله مَا لاَ يَنفَعُهُمْ وَلاَ يَضُرُّهُمْ
). وَكَانَ الكافر على رَبِّهِ ظَهِيراً

والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تاكلون

كما فسرها الوسيط وبعد أن بين - سبحانه - ما يدل على وحدانيته وقدرته عن
طريق خلقه للسموات والأرض وللإنسان ، أتبع ذلك ببيان أدلة وحدانيته وقدرته
عن طريق خلق الحيوان فقال - تعالى - :( والأنعام خَلَقَهَا ، لَكُمْ
فِيهَا دِفْءٌ ، وَمَنَافِعُ ، وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ) .والأنعام : جمع
نعم ، وهى الإبل والبقر والغنم ، وقد تطلق على الإبل خاصة .وانتصب
الأنعام عطفا على الانسان فى قوله : ( خَلَقَ الإنسان مِن نُّطْفَةٍ ) ، أو
هو منصوب بفعل مقدر يفسره المذكور بعده . أى : وخلق الأنعام خلقها .والدفء
السخونة . ويقابله شدة البرد ، يقال : دَفِئَ الرجل - من باب طرب - فهو :
دَفِأٌ - كتعب - ودفآن ، إذا لبس ما يدفئه ، ويبعد عنه البرد .والمراد
بالدفء هنا : ما يتخذ من أصواف الأنعام وأوبارها وأشعارها لهذا الغرض .وعطف
على ( دفء ) من باب عطف العام على الخاص ، إذ المنافع تشمل ما ( منافع )
يستدفأ به منها وغيره .وخص الدفء بالذكر من عموم المنافع ، للعناية به
- وللتنويه بأهميته فى حياة الناس .أى : ومن مظاهر نعم الله - تعالى
عليكم - أيها الناس - ، أن الله - تعالى - خلق الأنعام ، وجعل لكم فيها ما
تستدفئون به ، من الثياب المأخوذة من أصوافها وأوبارها وأشعارها ، فتقيكم
برودة الجو وجعل لكم فيها منافع متعددة ، حيث تتخذون من ألبانها شرابا
- سائغا للشاربين ، ومن لحومها أكلا نافعا للآكلين .وشبيه بهذه الآية قوله
تعالى - ( وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأنعام لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُمْ مِّمَّا فِي
). بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ

ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ
تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ) بيان لنوع آخر من أنواع منافع الحيوان
للانسان .قال أبو حيان فى البحر؛ والجمال مصدر جمل - بضم الميم - ، يقال
رجل جميل وامرأة جميلة وجملاء ، قال الشاعر :فهى جملاء كبدر طالع ... بذت
الخلق جميعا بالجمالوالجمال يكون فى الصورة بحسن التركيب ، بحيث يدركه
البصر فتتعلق به النفس .ويكون فى الأخلاق ، باشتمالها على الصفات المحمودة
، كالعلم والعفة والحلم .ويكون فى الأفعال ، بوجودها ملائمة لمصالح الخلق ،
وجلب المنفعة لهم وصرف الشر عنهم . . .وجمال الأنعام من النوع الأول ، ومن
جمالها - أيضا - كثرتها ودلالتها على أن صاحبها من أهل السعة واليسار
وقوله ( تريحون ) من الإراحة ، يقال : أراح فلان ماشيته إراحة ، إذا ردها.
إلى المراح ، وهو منزلها الذى تأوى إليه ، وتبيت فيه .و ( تسرحون ) من
: السروح ، وهو الخروج بها غدوة من حظائرها إلى مسارحها ومراعيها .يقال
سَرَحْت الماشية أسرحها سرحا وسروحا ، إذا أخرجتها إلى المرعى .ومفعول
- الفعلين " تريحون وتسرحون " محذوف للعلم به .والمعنى : ولكم - أيها الناس
فى هذه الأنعام جمال وزينة ، حين تردونها بالعشى من مسارحها إلى معاطنها
التى تأوى إليها ، وحين تخرجونها بالغداة من معاطنها إلى مسارحها ومراعيها
وخص - سبحانه - هذين الوقتين بالذكر ، لأنهما الوقتان اللذان تتراءى.
الأنعام فيهما ، وتتجاوب أصواتها ذهابا وجيئة ، ويعظم أصحابها فى أعين
الناظرين إليها .وقدم - سبحانه - الإراحة على التسريح ، لأن الجمال عند
الإراحة أقوى وأبهج ، حيث تقبل من مسارحها وقد امتلأت بطونها ، وحفلت
ضروعها ، وازدانت مشيتها .وقال - سبحانه - : ( حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ
تَسْرَحُونَ ) . بالفعل المضارع ، لإفادة التجديد والتكرار ، وفى ذلك ما
يزيد السرور بها ، ويحمل على شكر الله - تعالى - على وافر نعمه .قال صاحب
الكشاف : " منّ الله بالتجمل بها ، كما منّ بالانتفاع بها لأنه من أغراض
، أصحاب المواشى . بل هو من معاظمها؛ لأن الرعيان إذا روحوها بالعشى
وسرحوها بالغداة فزينت إراحتها وتسريحها الأفنية وتجاوب فيها الثغاء
، والرغاء ، آنست أهلها ، وفرحت أربابها . وأجلتهم فى عيون الناظرين إليها
وأكسبتهم الجاه والحرمة عند الناس .فإن قلت : لم قدمت الإراحة على

التسريح - مع تأخر الإراحة فى الوجود؟ .قلت : لأن الجمال فى الإراحة أظهر
إذا أقبلت ملأى البطون ، حافلة الضروع ، ثم أوت إلى الحظائر حاضرة لأهلها ،
" .

وتحمل اثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس ان ربكم لرءوف رحيم

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - منفعة ثالثة من منافع الأنعام ، التى
سخرها الله - تعالى - للإنسان فقال : ( وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى
بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ
، لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ) .والضمير فى قوله ( وتحمل ) يعود إلى الإبل خاصة
لأنها هى التى يحمل عليها .والأثقال : جمع ثقل . وهو ما يُثقل الإنسانَ
حملُه من متاع وغيره .والمراد بالبلد جنسه ولأن الارتحال قد يكون إلى الشام
، أو إلى اليمن أو إلى غيرهما .والشق - بالكسر - المشقة : ومن كل شئ نصفه
والباء للملابسة . أى : إلا بمشقة شديدة ، كأن نفوسكم قد ذهب نصفها خلال
: تلك الرحلة الطويلة الشاقة التى لم تستخدموا فيها الأنعام .قال القرطبى
وشق الأنفس : مشقتها وغاية جهدها . وقراءة العامة بكسر الشين .قال المهدوى
وكسر الشين وفتحها فى " شق " متقاربان . وهما بمعنى المشقة .وقرأ أبو :
- جعفر ( إلا بشق الأنفس ) - بفتح الشين - وهما لغتان مثل رق ورق .والشق
أيضاً - بالكسر - النصف . وقد يكون المراد من الآية هذا المعنى . أى : لم
تكونوا بالغيه إلا بنقص من القوة وذهاب شق منها . . . .والمعنى : ومن فوائد
هذه الأنعام - أيضا - أنها تحمل أمتعتكم وأثقالكم من بلد إلى بلد آخر بعيد
هذا البلد الآخر البعيد . لم تكونوا واصلين إليه بدونها ، إلا بعد تعب ،
شديد ، وجهد مضن ، وكلفة يذهب معها نصف قوتكم .والتنكير فى ( بلد ) لإفادة
معنى البعد ، لأن بلوغ المسافر إليه بمشقة ، هو من شأن البلد البعيد ، الذى
يصعب الوصول إليه بدون راحلة .وجملة ( لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ
بِشِقِّ الأَنفُسِ ) التى هى صفة لبلد ، تشير إلى هذا المعنى .وشبيه بهذه
الآية قوله تعالى - : ( اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَنعَامَ لِتَرْكَبُواْ
مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُواْ
عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ
وقوله - سبحانه - : ( أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا
عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ) وجملة ( إِنَّ
رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ) تعليل لخلقه - سبحانه - الأنعام لخدمة
الإنسان .أى : خلق لكم هذه الأنعام؛ لأنه رءوف رحيم بكم ، حيث لم يترككم
تحملون أثقالكم بأنفسكم ، وتقطعون المسافات الطويلة على أرجلكم ، بل أوجد
. هذه الأنعام لمنافعكم ومصالحكم

والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون

، كما فسرها الوسيط ثم ذكر - سبحانه - أنواعا أخرى من الحيوان المنتفع به
، فقال - تعالى - : ( والخيل والبغال والحمير لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً
وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ) .قال الجمل : " الخيل اسم جنس لا واحد له
من لفظه ، بل من معناه وهو فرس ، وسميت خيلا لاختيالها فى مشيها .والبغال
جمع بغل : وهو المتولد بين الخيل والحمير . . . " .واللام فى قوله ( لتركبوها
للتعليل .ولفظ ( وزينة ) مفعول لأجله ، معطوف على محل ( لتركبوها ) (
والزينة : اسم لما يتزين به الإنسان .قال القرطبى : " هذا الجمال.
، والتزيين وإن كان من متاع الدنيا ، إلا أن الله تعالى - أذن به لعباده
ففى الحديث الشريف : " الإبل عز لأهلها ، والغنم بركة ، والخيل فى نواصيها
الخير " خرجه البرقانى وابن ماجة فى السنن ، . . . " .والمعنى : ومن مظاهر
فضله عليكم ، ورحمته بكم ، أنه خلق لمنفعتكم - أيضا - الخيل والبغال
والحمير ، لتركبوها فى غزوكم وتنقلاتكم ، ولتكون زينة لكم فى أفراحكم
ومسراتكم .وأتى - سبحانه - باللام فى ( لتركبوها ) دون ما بعدها ، للإشارة
إلى أن الركوب هو المقصود الأصلى بالنسبة لهذه الدواب ، أما التزيين بها
فهو أمر تابع للركوب ومتفرع منه .قال صاحب الظلال : وفى الخيل والبغال
والحمير ، تلبية للضرورة فى الركوب ، وتلبية لحاسة الجمال فى الزينة .وهذه
- اللفتة لها قيمتها فى بيان نظرة القرآن ونظرة الإسلام للحياة ، فالجمال
المتمثل فى الزينة - عنصر له قيمة فى هذه النظرة ، وليست النعمة هى مجرد
تلبية الضرورات من طعام وشراب وركوب ، بل تلبية الأشواق الزائدة عن
الضرورات . تلبية حاسة الجمال ووجدان الفرح والشعور الإنسانى المرتفع على
، ميل الحيوان ، وحاجة الحيوان .وقال بعض العلماء : وقد استدل بهذه الآية
القائلون بتحريم لحوم الخيل قائلين بأن التعليل بالركوب والزينة يدل على
أنها مخلوقة لهذه المصلحة دون غيرها .وأجاب المجوزون لأكلها ، بأن ذكر ما هو
الأغلب من منافعها - وهو الركوب والزينة -لا ينافى غيره .وقد ورد فى حل
أكل لحوم الخيل أحاديث منها ما فى الصحيحين وغيرهما ، من حديث أسماء قالت
- نحرنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرسا فأكلناه .وثبت - أيضا

فى الصحيحين من حديث جابر قال : " نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن
لحوم الحمر الأهلية ، وأذن فى الخيل " .وقد بسط الإمام القرطبى القول فى
هذه المسألة ، ورجح حل أكل لحوم الخيل ، وساق الأدلة والأحاديث فى ذلك ثم
قال : " وكل تأويل من غير ترجيح فى مقابلة النص ، فإنما هو دعوى ، لا يلتفت
إليه ، ولا يعرج عليه " .ويعجبنى فى هذا المقام قول الإمام البغوى : ليس
المراد من الآية بيان التحليل والتحريم ، بل المراد منها تعريف الله عباده
نعمه ، وتنبيههم على كمال قدرته وحكمته ، والدليل الصحيح المعتمد عليه فى
إباحة لحوم الخيل أن السنة مبينة للكتاب .ولما كان نص الآية يقتضى أن الخيل
والبغال والحمير مخلوقة للركوب والزينة ، وكان الأكل مسكوتا عنه ، ودار
الأمر فيه على الإباحة والتحريم ، وردت السنة النبوية بإباحة لحوم الخيل ،
وبتحريم لحوم البغال والحمير فوجب الأخذ بما جاء فى السنة التى هى بيان
للكتاب .هذا وقد ختم - سبحانه - الآية الكريمة بما يدل على عظيم قدرته ،
- وسعة علمه ، فقال : ( وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ) .أى : ويخلق
سبحانه - فى الحال والاستقبال ، مالا تعلمونه - أيها الناس - من أنواع
المخلوقات المختلفة سوى هذه الدواب ، كالسفن التى تمخر عباب الماء ،
والطائرات التى تشق أجواز الفضاء ، والسيارات التى تنهب الأرض نهبا لسرعتها
وغير ذلك من أنواع المخلوقات التى لا يعلمها سواه - سبحانه - والتى ،
أوجدها لمنفعتكم ومصلحتكم .وهذه الجملة الكريمة تدل على أن القرآن من عند
الله - تعالى - فقد أوجد - سبحانه - العقول البشرية ، التى ألهمها صنع
الكثير من المخترعات النافعة فى البر وفى البحر وفى الجو ، والتى لم يكن
للناس معرفة بها عند نزول القرآن الكريم .وتشير - أيضا - إلى مزيد فضل
الله - تعالى - على الناس ، حيث أخبرهم بأنه سيخلق لهم فى مستقبل الأيام من
وسائل الركوب وغيرها ، ما فيه منفعة لهم ، سوى هذه الدواب التى ذكرها
فعليهم أن يستعملوا هذه الوسائل فى طاعة الله - تعالى -لا فى معصيته.
وعليهم أن يتقبلوا هذه الوسائل ، وأن يفتحوا عقولهم لكل ما هو نافع .ورحم
- الله صاحب الظلال ، فقد قال عند تفسيره الآية ما ملخصه : يعقب الله
تعالى - على خلق الأنعام والخيل والبغال والحمير بقوله ( وَيَخْلُقُ مَا
لاَ تَعْلَمُونَ ) ليظل المجال مفتوحا فى التصور البشرى ، لتقبل أنماط
جديدة من أدوات الحمل والركوب والزينة .وحتى لا يقول بعض الناس : إنما
استخدم آباؤنا الأنعام والخيل والبغال والحمير ، فلا نستخدم سواها ، وإنما
نص القرآن على هذه الأصناف فلا نستخدم ماعداها .ولقد جدت وسائل للحمل
والنقل والركوب والزينة ، لم يكن يعلمها أهل ذلك الزمان ، وستجد وسائل أخرى
لا يعلمها أهل هذا الزمان : والقرآن يهيئ لها القلوب والأذهان ، بلا جمود
ولا تحجر ، ( وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ) .

وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم اجمعين

كما فسرها الوسيط وبعد أن بين - سبحانه - دلائل وحدانيته وقدرته ، عن طريق
- خلق السموات والأرض والإنسان والدواب . . أتبع ذلك ببيان أنه - عز وجل
كفيل بالإرشاد إلى الطريق المستقيم لمن يتجه إليه فقال - تعالى - : ( وعلى
الله قَصْدُ السبيل ، وَمِنْهَا جَآئِرٌ ، وَلَوْ شَآءَ لَهَدَاكُمْ
أَجْمَعِينَ ) .والقصد : الاستقامة . والسبيل : الطريق والقصد منه : هو
المستقيم الذى لا اعوجاج فيه . يقال : سبيل قصد وقاصد ، أى : مستقيم ، قال
الشاعر :ومن الطريقة جائر وهدى ... قصد السبيل ، ومنه ذو دخلقال الجمل ما
ملخصه : " ( وعلى الله ) أى : تفضلا ( قصد السبيل ) على تقدير مضاف ، أى :
وعلى الله بيان قصد السبيل . وهو بيان طريق الهدى من الضلالة ، وهو من
إضافة الصفة إلى الموصوف ، والقصد مصدر يوصف به . يقال : سبيل قصد وقاصد أى
مستقيم ، كأنه يقصد الوجه الذى يؤمه السالك لا يعدل عنه : .

هو الذي انزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون

كما فسرها الوسيط والمراد بالسماء : السحاب المرتفع فى طبقات الجو ، حيث
ينزل منه الماء بقدرة الله - تعالى - والشراب : اسم للمشروب الذى يشربه
الإنسان والحيوان وغيرهما .والشجر : يطلق على النبات ذى الساق الصلبة على
سبيل الحقيقة ، ويطلق على العشب والكلأ على سبيل المجاز ، وهو المراد هنا ،
لأنه هو الذى ترعاه الأنعام .والضمير فى قوله - سبحانه - ( ومنه شجر ) يعود
- على الماء ، باعتباره السبب فى وجود الشجر .قال الآلوسى : قوله - سبحانه
أى : نبات مطلقا سواء أكان له ساق أم لا ، كما نقل عن الزجاج ( ومنه شجر )
وهو حقيقة فى الأول ، ومن استعماله فى الثانى قول الراجز :نعلفها اللحم ،
إذا عز الشجر ... والخيل فى إطعامها اللحم ضررفإنه قيل : الشجر فيه بمعنى
الكلأ ، لأنه الذى يعلف . . .وقوله : ( تسيمون ) من الإسامة ، بمعنى إطلاق
الإبل وغيرها للسوم ، أى الرعى . يقال : أسام فلان إبله للرعى إسامة ، إذا
أخرجها إلى المرعى . وسامت هى تسوم سوما ، إذا رعت حيث شاءت وأصل السوم :
الإبعاد فى المرعى .والمعنى : هو - سبحانه - وحده وليس غيره : الذى غمركم

بنعمه ، حيث أنزل لكم من السحاب ماء كثيرا ، هذا الماء الكثير المنزل بقدر
معلوم ، منه تأخذون ما تشربونه وما تنتفعون فى حوائجكم الأخرى ، وبسببه
تخرج المراعى التى ترعون فيها دوابكم .فالآية الكريمة دليل آخر من الأدلة
- على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، وبديع خلقه ، حيث أنزل - سبحانه
- المطر من السماء ، ولو شاء لأمسكه ، أو لأنزله غير صالح للشراب ، قال
تعالى - : ( أَفَرَأَيْتُمُ المآء الذي تَشْرَبُونَ أَأَنتُمْ
أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ المزن أَمْ نَحْنُ المنزلون لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَاهُ
أُجَاجاً فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ ) وأتى - سبحانه - بلفظ " فى " المفيدة
للظرفية ، فى قوله - تعالى - ( فيه تسيمون ) ؛ للإشارة إلى أن الرعى فى
هذا الشجر ، قد يكون عن طريق أكل الدواب منه ، وقد يكون عن طريق أكل ما
تحته من الأعشاب .

ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات ان في ذلك
لاية لقوم يتفكرون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( يُنبِتُ لَكُمْ بِهِ الزرع والزيتون
والنخيل والأعناب وَمِن كُلِّ الثمرات . . ) تفصيل لأهم منافع الماء .أى :
يخرج لكم من الأرض ، بسبب الماء الذى أنزله عليها من السماء ( الزرع ) الذى
هو أصل أغذيتكم ، وعماد معاشكم ، كالقمح والشعير وغيرهما ( والزيتون ) الذى
تستعملونه إداما فى أغذيتكم ( والنخيل والأعناب ) اللذين فيهما الكثير من
الفوائد ، ومن التلذذ عند أكل ثمارها .وأخرج لكم - أيضا - بسبب هذا الماء
( مِن كُلِّ الثمرات ) التى تشتهونها وتنتفعون بها ، والتى تختلف فى أنواعها
وفى مذاقها ، وفى روائحها ، وفى ألوانها ، مع أن الماء الذى سقيت به واحد ،
والأرض التى نبتت فيها متجاورة .ولا شك أن فى هذا الانبات بتلك الطريقة ،
- أكبر دليل على قدرة الله - تعالى - ، لأنه لا يقدر على ذلك سواه - سبحانه
.

وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بامره ان في ذلك
لايات لقوم يعقلون

كما فسرها الوسيط وقوله ( سخر ) من التسخير بمعنى التذليل والتكليف ، يقال
: سخر فلان فلانا تسخيرا ، إذا كلفه عملا بلا أجرة ، والمراد به هنا .
الإعداد والتهيئة لما يراد الانتفاع به أى : ومن آياته سبحانه الدالة على
وحدانيته وقدرته ، أنه ( سَخَّرَ لَكُمُ الليل والنهار ) يتعاقبان فيكم
) لتسكنوا فى الليل ، ولتبتغوا الرزق بالنهار .وأنه - سبحانه - سخر لكم
الشمس والقمر ) يدأبان فى سيرهما بدون كلل أو اضطراب ، بل يسيران من أجل
منفعتكم ومصلحتكم بنظام ثابت ، كما قال - تعالى - : ( لاَ الشمس يَنبَغِي
لَهَآ أَن تدْرِكَ القمر وَلاَ الليل سَابِقُ النهار وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ
يَسْبَحُونَ ) وأنه - سبحانه - أوجد النجوم مسخرات بأمره وإذنه ، لكى
تهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر .هذا وقد قرأ جمهور القراء هذه الأسماء :
الليل والنهار . . . إلخ بالنصب على المفعولية لفعل ( سخر ) كما قرأ
الجمهور . أيضا . ( مسخرات ) بالنصب على الحالية .وقرأ ابن عامر ) :
- والشمس والقمر والنجوم ) بالرفع على الابتداء ، وقرأ - أيضا قوله ) -
مسخرات ) ، بالرفع على أنه خبر عنها .وقرأ حفص برفع النجوم ومسخرات ، على
أنهما مبتدأ وخبر : أما بقية الأسماء السابقة فقرأها بالنصب .وقوله ( بأمره
متعلق بمسخرات . والمراد بأمره : إرادته ومشيئته وتدبيره ، الجارى على )
هذا الكون وفق حكمته وإذنه .ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ( إِنَّ فِي
ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ) .أى : إن فى ذلك المذكور من تسخير
الليل والنهار وغيرهما لمنفعتكم ومصلحتكم - يا بنى آدم - لآيات بينات ،
ودلائل واضحات ، على وجوب العبادة لله - تعالى - وحده ، لقوم يعقلون نعم
الله - تعالى - ، ويستدلون بها على وحدانيته - سبحانه - وقدرته .وشبيه بهذه
الآية قوله - تعالى - ( إِنَّ رَبَّكُمُ الله الذي خَلَقَ السماوات والأرض
فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ استوى عَلَى العرش يُغْشِي الليل النهار
يَطْلُبُهُ حَثِيثاً والشمس والقمر والنجوم مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ألاَ
لَهُ الخلق والأمر تَبَارَكَ الله رَبُّ العالمين ).

وما ذرا لكم في الارض مختلفا الوانه ان في ذلك لاية لقوم يذكرون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأرض
مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ) . . معطوف على ما قبله من النعم وأصل الذرأ :
الخلق بالتناسل والتوالد عن طريق الحمل والتفريخ .قال القرطبى : ذرأ الله
الخلق يذرؤهم ذرءا ، أى خلقهم ، ومنه الذرية وهى نسل الثقلين ، والجمع
- الذرارى ، ويقال : أنمى الله ذرأك وذروك أى : ذريتك .والمعنى : وسخر لكم
أيضا - ما أوجده فى الأرض من أجل منفعتكم من عجائب الأمور ، ومختلف

الأشياء ، من حيوان ونبات ، ومعادن مختلفة الألوان والأجناس والخواص .ولا شك أن فى اختلاف الألوان والمناظر والهيئات وغير ذلك ، فيه الدلالة الواضحة على قدرة الله - تعالى - وعلى أنه الخالق لكل شئ .قال - تعالى - ( وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السماوات والأرض واختلاف أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ . . إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً ( ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ) أى : إن فى ذلك الذى بيناه لكم ، لآية واضحة على قدرة الله - تعالى - لقوم يعتبرون ، ويتذكرون آلاء الله ونعمه ، فيشكرونه عليها ، ويخلصون له العبادة .وبعد أن ذكر - سبحانه - جملة من نعمه التى أوجدها لعباده فى البر ، أتبع ذلك ببيان جانب من نعمه عليهم عن طريق خلقه للبحر ، فقال - تعالى - :( وَهُوَ الذي سَخَّرَ البحر لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الفلك مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُون )

وهو الذي سخر البحر لتاكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون

كما فسرها الوسيط ففى هذه الآية الكريمة بين - سبحانه - أربع نعم على عباده فى تسخير البحر لهم .أما النعمة الأولى فتتجلى فى قوله - تعالى - ( وَهُوَ الذي سَخَّرَ البحر لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً ) .والطرى : ضد - اليابس ، والمصدر الطراوة ، وفعله طَرُوَ بوزن خشن وقرب .أى : وهو سبحانه - وحده الذى ذلل لكم البحر ، بحيث مكنكم من الانتفاع به ، وأقدركم على الركوب عليه ، وعلى الغوص فيه ، وعلى الصيد منه ، لتأكلوا من أسماكه لحما . طريا غضا شهيا .ووصف - سبحانه - لحم أسماكه بالطراوة ، لأن أكله فى هذه الحالة أكثر فائدة ، وألذ مذاقا ، فالمنة بأكله على هذه الحالة أتم وأكمل .وقال بعض العلماء : وفى وصفه بالطراوة ، تنبيه إلى أنه ينبغى المسارعة إلى أكله ، لأنه يسرع إليه الفساد والتغير ، وقد أثبت الطب أن تناوله بعد ذهاب طراوته من أضر الأشياء ، فسبحان الخبير بخلقه ، ومعرفته ما يضر استعماله وما ينفع ، وفيه أيضا إيماء إلى كمال قدرته - تعالى - فى خلقه الحلو الطرى فى الماء المر الذى لا يشرب .وقد كره العلماء أكل الطافى منه على وجه الماء ، وهو الذى يموت حتف أنفه فى الماء فيطفو على وجهه ، لحديث جابر - رضى الله عنه - عن النبى صلى الله عليه وسلم : " ما نضب عنه الماء فكلوا ، وما لفظه فكلوا ، وما طفا فلا تأكلوا " .فالمراد من ميتة البحر فى الحديث : " هو الطهور ماؤه الحل ميتته " مالفظه البحر لا ماءات فيه من غير آفة .وقوله ( وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ) نعمة - ثانية من نعم الله - تعالى - للإنسان فى تسخير البحر له .والحلية - بالكسر - اسم لما يتحلى به الناس . وجمعها حِلى وحُلى - بضم الحاء وكسرها يقال : تحلت المرأة إذا لبست الحلى ، أى : ومن فوائد تسخير البحر لكم أنه سبحانه أقدركم على الغوص فيه ، لتستخرجوا منه ما يتحلى به نساؤكم كاللؤلؤ والمرجان وما يشبههما .قال - تعالى - ( مَرَجَ البحرين يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تِكَذِّبَانِ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالمَرْجَانُ ) والتعبير بقوله - سبحانه - ( تستخرجو . . ) يشير إلى كثرة الإخراج فالسين والتاء للتأكيد ، مثل استجاب بمعنى أجاب . كما يشير إلى أن من الواجب على المسلمين أن يباشروا بأنفسهم استخراج ما فى البحر من كنوز وألا يتركوا ذلك لأعدائهم وأسند - سبحانه - لباس الحلية إلى ضمير جمع الذكور فقال : ( تلبسونها ). على سبيل التغليب ، وإلا فإن هذه الحلية يلبسها النساء فى معظم الأحيان قال الآلوسى ما ملخصه : وقوله ( تلبسونها ) أى : تلبسها نساؤكم ، وأسند. الفعل إلى ضمير الرجال ، لاختلاطهم بهم ، وكونهم متبوعين ، أو لأنهم سبب . لتزينهن ، فإنهن يتزين ليحسن فى أعين الرجال ، فكأن ذلك زينتهم ولباسهم

والقى في الارض رواسي ان تميد بكم وانهارا وسبلا لعلكم تهتدون

كما فسرها الوسيط ولفظ : ( رواسى ) جمع راس من الرسو - بفتح الراء وسكون . السين - بمعنى الثبات والتمكن فى المكان ، يقال رسا الشئ يرسو إذا ثبت . وهو صفة لموصوف محذوف . أى : جبالا رواسى .و ( تميد ) أى تضطرب وتميل : يقال : ماد الشئ يميد ميدا ، إذا تحرك ، ومادت الأغصان إذا تمايلت أى ) وألقى - سبحانه - فى الأرض جبالا ثوابت لكى تقر وتثبت ولا تضطرب .فقوله أَن تَمِيدَ بِكُمْ ) تعليل لإلقاء الجبال فى الأرض .قال القرطبى : وروى الترمذى بسنده عن أنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " لما خلق الله الأرض جعلت تميد وتضطرب ، فخلق الجبال عليها فاستقرت ، فعجبت الملائكة من شدة الجبال . قالوا يارب هل من خلقك شئ أشد من الجبال؟ قال نعم ، الحديد قالوا يارب فهل من خلقك شئ أشد من الحديد؟ قال نعم النار . قالوا يارب . فهل من خلقك شئ أشد من النار؟ قال نعم الماء ، قالوا يارب فهل من خلقك شئ

أشد من الماء؟ قال نعم الريح . قالوا يارب : فهل من خلقك شئ أشد من الريح؟
قال نعم ، ابن آدم إذا تصدق بصدقة بيمينه يخفيها عن شماله " .هذا ، ومن
الآيات التى تشبه هذه الآية قوله - تعالى - : ( خَلَقَ السماوات بِغَيْرِ
( . . عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وألقى فِي الأرض رَوَاسِيَ أن تَمِيدَ بِكُمْ
وقوله - تعالى - : ( أَلَمْ نَجْعَلِ الأرض مِهَاداً والجبال أَوْتَاداً )
ثم بين - سبحانه - نعما أخرى لما ألقاه فى الأرض فقال : ( وَأَنْهَاراً
وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ) . أى : وجعل فى الأرض ( أنهارا )
تجرى من مكان إلى آخر ، فهى تنبع فى مواضع . وتصب فى مواضع أخرى ، وفيها
نفع عظيم للجميع ، إذ منها يشرب الناس والدواب والأنعام والنبات .وجعل فيها
كذلك طرقا ممهدة ، يسير فيها السائرون من مكان إلى آخر . ( لعلكم تهتدون )
بتلك السبل إلى المكان الذى تريدون الوصول إليه . بدون تحير أو ضلال .وقد
كرر القرآن الكريم هذا المعنى فى آيات كثيرة ، منها قوله تعالى - : ( والله
جَعَلَ لَكُمُ الأرض بِسَاطاً لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً ).

وعلامات وبالنجم هم يهتدون

كما فسرها الوسيط والمراد بالعلامات فى قوله - تعالى - : ( وَعَلامَاتٍ
وبالنجم هُمْ يَهْتَدُونَ ) الأمارات والمعالم التى يضعها الناس على الطرق
بإلهام من الله - تعالى - للاهتداء بها عند السفر .والمراد بالنجم : الجنس
- فيشمل كل نجم يهتدى به المسافر .أى ومن مظاهر نعمه - أيضا - ، أنه ،
سبحانه - جعل فى الأرض معالم وأمارات من جبال كبار ، وآكام صغار ، وغير ذلك
، ليهتدى بها المسافرون فى سفرهم ، وتكون عونا لهم على الوصول إلى غايتهم ،
وبمواقع النجوم هم يهتدون فى ظلمات البر والبحر ، إلى الأماكن التى يبغون
الوصول إليها .والضمير " هم " فى قوله ( وبالنجم هُمْ يَهْتَدُونَ ) يشمل
كل سالك فى ظلمات البر والبحر ، ويدخل فيه دخولا أوليا أهل مكة ، لأنهم
كانوا كثيرى الأسفار للتجارة ، كما كانوا معروفين بالاهتداء فى سيرهم
بمواقع النجوم .

افمن يخلق كمن لا يخلق افلا تذكرون

كما فسرها الوسيط والاستفهام فى قوله - سبحانه - : ( أَفَمَن يَخْلُقُ
كَمَن لاَّ يَخْلُقُ . . ) للإنكار والتوبيخ لأولئك المشركين الذين عبدوا
غير الله - تعالى -أى : أفمن يخلق هذه الأشياء العجيبة ، والمخلوقات
البديعة ، التى بينا لكم بعضها ، وهو الله - عز وجل - كمن لا يخلق شيئا على
سبيل الإطلاق ، بل هو مخلوق ، كتلك الأصنام والأوثان وغيرها ، التى
أشركتموها فى العبادة مع الله - تعالى -؟إن فعلكم هذا لدليل واضح على
جهلكم - أيها المشركون - وعلى انطماس بصيرتكم ، وقبح تفكيركم .قال صاحب
الكشاف : فإن قلت من لا يخلق أريد به الأصنام ، فلماذا جئ بمن الذى هو
لأولى العلم؟ .قلت : فيه أوجه : أحدها أنهم سموها آلهة وعبدوها فأجروها
مجرى أولى العلم .الثانى : المشاكلة بينه وبين من يخلق .الثالث : أن يكون
المعنى : أن من يخلق ليس كمن لا يخلق من أولى العلم ، فكيف بما لا علم عنده
كقوله - تعالى - ( أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ . . ) يعنى أن .
الآلهة - التى عبدوها - حالهم منحطة عن حال من لهم أرجل وأيد وآذان وقلوب
لأن هؤلاء أحياء وهم أموات ، فكيف تصح لهم العبادة ، لا أنها لو صحت لهم
هذه الأعضاء لصح أن يعبدوا .فإن قلت الآية إلزام للذين عبدوا الأوثان
وسموها آلهة تشبيها بالله - تعالى - : فكان من حق الإلزام أن يقال : أفمن
لا يخلق كمن يخلق؟قلت حين جعلوا غير الله مثل الله فى تسميته باسمه
، والعبادة له ، وسووا بينه ، فقد جعلوا الله من جنس المخلوقات وشبهها بها
فأنكر عليهم ذلك بقوله : ( أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ . . )
وقوله - سبحانه - : ( أفلا تذكرون ) زيادة فى توبيخهم وفى التهكم بهم .أى.
، أبلغ بكم السفه والجهل أنكم سويتم فى العبادة بين من يخلق ومن لا يخلق :
والحال أن هذه التسوية لا يقول بها عاقل ، لأن من تفكر أدنى تفكر ، وتأمل
، أقل تأمل ، عرف وتيقن أنه لا يصح التسوية فى العبادة بين الخالق والمخلوق
فهلا فكرتم قليلا فى أمركم ، لكى تفيئوا إلى رشدكم ، فتخلصوا العبادة لله
الخلاق العليم .

وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الله لغفور رحيم

كما فسرها الوسيط ثم ذكرهم - سبحانه - بنعمه على سبيل الإجمال ، بعد أن
فصل جانبا منها فى الآيات السابقة فقال - تعالى - : ( وَإِن تَعُدُّواْ
نِعْمَةَ الله لاَ تُحْصُوهَآ ) .والمراد بالنعمة هنا جنسها ، الذى يشمل كل
نعمه ، لأن لفظ العدد والإحصاء قرينة على ذلك ، وعلماء البيان يعدون
استعمال المفرد فى معنى الجمع اعتمادا على القرينة - من أبلغ الأساليب
الكلامية .أى : وإن تعدوا نعمة الله - تعالى - التى أنعمها عليكم ، فى

أنفسكم ، وفيما سخره لكم لا تستطيعون حصر هذه النعم لكثرتها ولتنوعها .وما دام الأمر كذلك فاشكروه عليها ما استطعتم ، وأخلصوا له العبادة والطاعة
وقوله : ( إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ) استئناف قصد به فتح باب الأمل.
: أمامهم لكى يتداركوا ما فرط منهم من جحود وتقصير فى حقه - سبحانه - .أى
إن الله - تعالى - لغفور لعباده على ما فرط منهم متى تابوا إليه توبة نصوحا
- رحيم بهم ، حيث لم يؤاخذهم بذنوبهم . بل منحهم نعمه مع تقصيرهم فى شكره ،
تعالى .قال ابن كثير - رحمه الله - قوله : " ( إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ
رَّحِيمٌ ) أي يتجاوز عنكم ، ولو طالبكم بشكر جميع نعمه لعجزتم عن القيام
، بذلك ، ولو أمركم به لضعفتم وتركتم ، ولو عذبكم لعذبكم وهو غير ظالم لكم
. " ولكنه غفور رحيم ، يغفر الكثير ، ويجازى على اليسير

والله يعلم ما تسرون وما تعلنون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( والله يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ
وَمَا تُعْلِنُونَ ) بيان لكمال علمه - تعالى - وتحذير من الوقوع فيما نهى
، عنه ، لأنه - تعالى -لا تخفى عليه خافية .أى : والله - تعالى - وحده
، يعلم ما تسرونه من أقوال وأفعال ، وما تظهرونه منها ، وهو محص عليكم ذلك
. وسيجازى كل إنسان بما يستحقه من خير أو شر

والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون

كما فسرها الوسيط ثم وصف - سبحانه - الأوثان التى يعبدها المشركون من دونه
، بثلاثة أوصاف . تجعلها بمعزل عن النفع ، فضلا عن استحقاقها للعبادة ،
فقال - تعالى - ( والذين يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئاً
وَهُمْ يُخْلَقُونَ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ
يُبْعَثُونَ ) .فوصفها - أولا - بالعجز التام ، فقال - تعالى - : ( والذين
يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئاً . . ) .أى : وهذه الآلهة
التى تعبدونها من دون الله - تعالى -لا تخلق شيئا من المخلوقات مهما صغرت
- بل هم يخلقون بأيديكم ، فأنتم الذين تنحتون الأصنام . كما قال - سبحانه ،
) : حكاية عن إبراهيم - عليه السلام - الذى قال لقومه على سبيل التهكم بهم
( قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ واللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ
وإذا كان الأمر كذلك فكيف تعبدون شيئا أنتم تصنعونه بأيديكم ، أو هو مفتقر
إلى من يوجده؟!وهذه الآية الكريمة أصرح فى إثبات العجز للمعبودات الباطلة
من سابقتها التى تقول : ( أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ . . ) لأن
الآية السابقة نفت عن المعبودات الباطلة أنها تخلق شيئا ، أما هذه الآية
- التى معنا فنفت عنهم ذلك ، وأثبتت أنهم مخلوقون لغيرهم وهو الله - عز وجل
، أو أن الناس يصنعونهم عن طريق النحت والتصوير ، فهم أعجز من عبدتهم ،
- وعليه فلا تكرار بين الآيتين .وأما الصفة الثانية لتلك الأصنام فهى قوله
تعالى - ( أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ) .أى : هؤلاء المعبودون من دون
الله - تعالى - ، هم أموات لا أثر للحياة فيهم ، فهم لا يسمعون ، ولا
يبصرون ، ولا يغنون عن عابديهم شيئا ، فقد دلت هذه الصفة على فقدانهم
للحياة فقدانا تاما .وجملة ( غير أحياء ) جئ بها لتأكيد موتهم ، وللدلالة
على عراقة وصفهم بالموت ، حيث إنه لا توجد شائبة للحياة فيهم ، ولم يكونوا
أحياء - كعابديهم - ثم ماتوا ، بل هم أموات أصلا . أو جئ بها على سبيل
التأسيس ، لأن بعض مالا حياة فيه من المخلوقات ، قد تدركه الحياة فيما بعد
كالنطفة التى يخلق الله - تعالى - منها حياة ، أما هذه الأصنام فلا يعقب ،
موتها حياة ، وهذا أتم فى نقصها ، وفى جهالة عابديها .وأما الصفة الثالثة
لتلك الأصنام فهى قوله - تعالى - : ( وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ
يُبْعَثُونَ ) .ولفظ ( أيان ) ظرف زمان متضمن معنى متى .وهذه الصفة تدل على
، جهلهم المطبق ، وعدم إحساسهم بشئ .أى : أن من صفات هذه المعبودات الباطلة
أنها لا تدرى متى يبعثها الله - تعالى - لتكون وقودا للنار .وبعضهم يجعل
الضمير فى ( يشعرون ) يعود على الأصنام ، وفى ( يبعثون ) يعود على العابدين
- لها ، فيكون المعنى : وما تدرى هذه الأصنام التى تعبد من دون الله
تعالى - متى تبعث عبدتها للحساب يوم القيامة .قال صاحب فتح القدير ما ملخصه
قوله : ( وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ) الضمير فى ( يشعرون ) :
للآلهة وفى ( يبعثون ) للكفار الذين يعبدون الأصنام .والمعنى : وما تشعر
هذه الجمادات من الأصنام أيان يبعث عبدتهم من الكفار ، ويكون هذا على طريقة
التهكم بهم ، لأن شعور الجماد مستحيل بما هو من الأمور الظاهرة . فضلا عن
الأمور التى لا يعلمها إلا الله - سبحانه - .ويجوز أن يكون الضمير فى
الفعلين للآلهة . أى : وما تشعر هذه الأصنام أيان تبعث . ويدل على ذلك قوله
تعالى - : ( إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ
. . ).

اموات غير احياء وما يشعرون ايان يبعثون

`<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html} كما فسرها الوسيط

. ثم وصف - سبحانه - الأوثان التى يعبدها المشركون من دونه ، بثلاثة أوصاف
) - تجعلها بمعزل عن النفع ، فضلا عن استحقاقها للعبادة ، فقال - تعالى
والذين يَدْعُونَ مِن دُونِ الله لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ
يُخْلَقُونَ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ
يُبْعَثُونَ ) .فوصفها - أولا - بالعجز التام ، فقال - تعالى - : ( والذين
يَدْعُونَ مِن دُونِ الله لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئاً . . ) .أى : وهذه الآلهة
التى تعبدونها من دون الله - تعالى -لا تخلق شيئا من المخلوقات مهما صغرت
- بل هم يخلقون بأيديكم ، فأنتم الذين تنحتون الأصنام . كما قال - سبحانه ،
) : حكاية عن إبراهيم - عليه السلام - الذى قال لقومه على سبيل التهكم بهم
( قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ والله خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ
وإذا كان الأمر كذلك فكيف تعبدون شيئا أنتم تصنعونه بأيديكم ، أو هو مفتقر
إلى من يوجده؟!وهذه الآية الكريمة أصرح فى إثبات العجز للمعبودات الباطلة
من سابقتها التى تقول : ( أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ . . ) لأن
الآية السابقة نفت عن المعبودات الباطلة أنها تخلق شيئا ، أما هذه الآية
- التى معنا فنفت عنهم ذلك ، وأثبتت أنهم مخلوقون لغيرهم وهو الله - عز وجل
، أو أن الناس يصنعونهم عن طريق النحت والتصوير ، فهم أعجز من عبدتهم ،
- وعليه فلا تكرار بين الآيتين .وأما الصفة الثانية لتلك الأصنام فهى قوله
تعالى - ( أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ) .أى : هؤلاء المعبودون من دون
الله - تعالى - ، هم أموات لا أثر للحياة فيهم ، فهم لا يسمعون ، ولا
يبصرون ، ولا يغنون عن عابديهم شيئا ، فقد دلت هذه الصفة على فقدانهم
للحياة فقدانا تاما .وجملة ( غير أحياء ) جئ بها لتأكيد موتهم ، وللدلالة
على عراقة وصفهم بالموت ، حيث إنه لا توجد شائبة للحياة فيهم ، ولم يكونوا
أحياء - كعابديهم - ثم ماتوا ، بل هم أموات أصلا . أو جئ بها على سبيل
التأسيس ، لأن بعض مالا حياة فيه من المخلوقات ، قد تدركه الحياة فيما بعد
كالنطفة التى يخلق الله - تعالى - منها حياة ، أما هذه الأصنام فلا يعقب ،
موتها حياة ، وهذا أتم فى نقصها ، وفى جهالة عابديها .وأما الصفة الثالثة
لتلك الأصنام فهى قوله - تعالى - : ( وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ
يُبْعَثُونَ ) .ولفظ ( أيان ) ظرف زمان متضمن معنى متى .وهذه الصفة تدل على
، جهلهم المطبق ، وعدم إحساسهم بشئ .أى : أن من صفات هذه المعبودات الباطلة
أنها لا تدرى متى يبعثها الله - تعالى - لتكون وقودا للنار .وبعضهم يجعل
الضمير فى ( يشعرون ) يعود على الأصنام ، وفى ( يبعثون ) يعود على العابدين
- لها ، فيكون المعنى : وما تدرى هذه الأصنام التى تعبد من دون الله
تعالى - متى تبعث عبدتها للحساب يوم القيامة .قال صاحب فتح القدير ما ملخصه
قوله : ( وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ) الضمير فى ( يشعرون ) :
للآلهة وفى ( يبعثون ) للكفار الذين يعبدون الأصنام .والمعنى : وما تشعر
هذه الجمادات من الأصنام أيان يبعث عبدتهم من الكفار ، ويكون هذا على طريقة
التهكم بهم ، لأن شعور الجماد مستحيل بما هو من الأمور الظاهرة . فضلا عن
الأمور التى لا يعلمها إلا الله - سبحانه - .ويجوز أن يكون الضمير فى
الفعلين للآلهة . أى : وما تشعر هذه الأصنام أيان تبعث . ويدل على ذلك قوله
تعالى - : ( إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله حَصَبُ جَهَنَّمَ
. . ).

الهكم اله واحد فالذين لا يؤمنون بالاخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون

كما فسرها الوسيط وبعد أن أبطل - سبحانه - عبادة غيره بهذا الأسلوب المنطقى
الحكيم ، صرح بأنه لا معبود بحق سواه ، فقال : ( إلهكم إله وَاحِدٌ ) .أى
إلهكم المستحق للعبادة والطاعة هو إله واحد لا شريك له ، لا فى ذاته ولا فى
- صفاته : فأخلصوا له العبادة ، ولا تجعلوا له شركاء .ثم بين - سبحانه
، الأسباب التى جعلت المشركين يصرون على كفرهم ويستحبون العمى على الهدى
فقال - تعالى - : ( فالذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ
وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ) .أى : فالكافرون الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وما
فيها من ثواب وعقاب قلوبهم منكرة للحق ، جاحدة لنعم الله ، منصرفة عن
وحدانية الله - تعالى - وعن الأدلة الدالة عليها ، وحالهم فوق ذلك أنهم
مستكبرون مغرورون ، لا يستمعون إلى موعظة واعظ ، ولا إلى إرشاد مرشد . ومتى
استولت على إنسان هاتان الصفتان - الجحود والاستكبار - ، حالفه البوار
والخسران ، وآثر سبيل الغى على سبيل الرشد .والتعبير عن المشركين بالموصول
وصلته ( فالذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة .

لا جرم ان الله يعلم ما يسرون وما يعلنون انه لا يحب المستكبرين

`<!-- TODO:MISSING -->`{=html} كما فسرها الوسيط

واذا قيل لهم ماذا انزل ربكم قالوا اساطير الاولين

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مّاذَآ
أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ أَسَاطِيرُ الأولين ) حكاية لبعض ما كان يدور
بين أولئك المستكبرين ، وبين غيرهم من أسئلة واستفسارات حول القرآن الكريم
والأساطير : جمع أسطورة ، كأعاجيب وأعجوبة ، وأحاديث وأحدوثة .والمراد بها .
الأكاذيب والترهات التى لا أصل لها ، والتى كانت مبثوثة فى كتب الأولين :
والمعنى : وإذا قال قائل لهؤلاء الكافرين المستكبرين ، أى شئ أنزل ربكم.
على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم .قالوا له على سبيل الجحود للحق : لم
ينزل عليه شئ ، وإنما هذا القرآن الذين يتلوه محمد صلى الله عليه وسلم على
أتباعه ، هو من أساطير الكهنة الأولين ، نقله من كتبهم ثم قرأه على من
يستمع إليه .روى ابن أبى حاتم عن السدى قال : " اجتمعت قريش فقالوا : إن
، محمدا صلى الله عليه وسلم رجل حلو اللسان إذا كلمه الرجل ذهب بعقله
فانظرو أناسا من أشرافكم المعدودين المعروفة أنسابهم ، فابعثوهم فى كل طريق
من طرق مكة على رأس ليلة أو ليلتين ، فمن جاءه يريده ردوه عنه .فخرج ناس فى
كل طريق ، فكان إذا أقبل الرجل وافدا لقومه ينظر ما يقول محمد صلى الله
عليه وسلم ووصل إليهم ، قال أحدهم : أنا فلان بن فلان ، فيعرفه بنسبه ، ثم
يقول للوافد : أنا أخبرك عن محمد صلى الله عليه وسلم إنه رجل كذاب لم يتبعه
على أمره إلا السفهاء والعبيد ومن لا خير فيهم ، وأما شيوخ قومه وخيارهم
فمفارقون له ، فيرجع الوافد . فذلك قوله - تعالى - ( وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ
مّاذَآ أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ أَسَاطِيرُ الأولين ) .فإن كان الوافد
، ممن عزم الله له الرشاد ، فقالوا له مثل ذلك قال : بئس الوافد لقوم أنا
إن كنت جئت حتى إذا بلغت مسيرة يوم - من مكة - رجعت قبل أن ألقى هذا الرجل
وأنظر ما يقول ، وآتى قومى ببيان أمره . فيدخل مكة ، فيلقى المؤمنين ،
- فيسألهم : ماذا يقول محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فيقولون خيرا . . " .وعبر
سبحانه - بالفعل ( قيل ) المبنى للمجهول ، للإشارة إلى أن هذا القول الذى
، تفوه به عتاة الكافرين ، كانوا يقولونه لكل من يسألهم عن القرآن الكريم
لكى يصدوه عن الدخول فى الإسلام . وجملة ( مّاذَآ أَنْزَلَ رَبُّكُمْ )
نائب فاعل لقيل .وقولهم - كما حكى القرآن عنهم - ( أساطير الأولين ) خبر
لمبتدأ محذوف .أى : قالوا هو أساطير الأولين أو المسئول عنه : أساطير
الأولين .ولقد حكى القرآن قولهم الباطل هذا ، ورد عليه بما يدحضه فى آيات
كثيرة ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ( وقالوا أَسَاطِيرُ الأولين اكتتبها
فَهِيَ تملى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً قُلْ أَنزَلَهُ الذي يَعْلَمُ
( السر فِي السماوات والأرض إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً

ليحملوا اوزارهم كاملة يوم القيامة ومن اوزار الذين يضلونهم بغير علم الا
ساء ما يزرون

- كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - عاقبة كفرهم ، ونطقهم بالباطل ، فقال
تعالى - : ( لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ القيامة . . . )
واللام فى قوله - ( ليحملوا ) هى التى تسمى بلام العاقبة ، وذلك لأنهم لما.
وصفوا القرآن بأنه أساطير الأولين ، كانت عاقبتهم تلك العاقبة السيئة
والأوزار جمع وزر - بكسر الواو وسكون الزاى - بمعنى الشئ الثقيل .المراد.
- بها الذنوب والآثام التى يقل حملها على صاحبها يوم القيامة ، كما قال
تعالى - : ( وَلَيَحْمِلَنّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مّعَ
أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنّ يَوْمَ القيامة عَمّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ
والمعنى : قالوا ذلك فى القرآن الكريم ، لتكون عاقبتهم أن يحملوا أوزارهم (
كاملة غير منقوصة يوم القيامة .قال الآلوسى ما ملخصه : وقوله ( ليحملوا )
متعلق - بقالوا - كما هو الظاهر . . واللام للعاقبة ، لأن الحمل مترتب على
قولهم وليس باعثا ولا غرضا لهم .وعن ابن عطية : أنها تحتمل أن تكون لام
. . التعليل ومتعلقة بفعل مقدر لا بقالوا ، أى : قدر صدور ذلك منهم ليحملوا
وقال - سبحانه - ( كاملة ) لتأكيد أنه لا يرفع عنهم شئ من ذنوبهم ، بل.
سيعاقبون عليها جميعها دون أن ينقص منها شئ .قال الفخر الرازى : وهذا يدل
على أن الله - تعالى - قد يسقط بعض العقاب على المؤمنين ، إذ لو كان هذا
. المعنى حاصلا في حق الكل ، لم يكن لتخصيص هؤلاء الكفار بهذا التكميل معنى
- وقال بعض العلماء : " ويصور التعبير هذه الذنوب بكونها أحمالا ذات ثقل. .
وساءت أحمالا وأثقالا - ، فهى توقر النفوس كما توقر الأحمال الظهور ، وهى
تثقل القلوب ، كما تثقل الأحمال العواتق ، وهى تتعب وتشقى كما تتعب الأثقال
حاملها ، بل هى أدهى وأنكى " .وأخرج ابن جرير عن زيد بن أسلم أنه بلغه أنه
يتمثل للكافر عمله فى صورة أقبح ما خلق الله وجها ، وأنتنه ريحا ، فيجلس
إلى جنبه كلما أفزعه شئ زاده فزعا ، وكلما تخوف من شئ زاده خوفا . فيقول له
بئس الصاحب أنت ومن أنت؟ فيقول له وما تعرفنى؟ فيقول :لا . فيقول : أنا
عملك كان قبيحا فلذلك ترانى قبيحا ، وكان منتنا فلذلك ترانى منتنا . طأطئ

) - إلى أركبك ، فطالما ركبتنى فى الدنيا ، فيركبه ، وهو قوله - تعالى
) : لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ . . ) .وقوله
وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ) بيان لأثقال أخرى
يحملونها فوق أثقالهم .أى : أن أولئك المستكبرين ، قالوا فى القرآن إنه
أساطير الأولين ، فكانت عاقبة قولهم الباطل أن حملوا آثامهم الخاصة ، وأن
حملوا فوقها جانبا من آثام من كانوا سببا فى ضلالهم .قال ابن كثير : أى
يصير عليهم خطيئة ضلالهم فى أنفسهم ، وخطيئة إغوائهم لغيرهم ، واقتداء
أولئك بهم ، كما جاء فى الحديث : " من دعا إلى هدى ، كان له من الأجر مثل
أجور من اتبعه ، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه
من الإثم مثل آثام من اتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا " .كما قال -
تعالى - : ( وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ
أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ
فهذه الآية وأمثالها ، لا تعارض بينها وبين قوله - تعالى - ( وَلاَ
تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ
أخرى ) لأن هؤلاء المستكبرين لم يكتفوا بضلالهم فى أنفسهم ، بل تسببوا فى
إضلال غيرهم ، فعوقبوا على هذا التسبب السيئ ، الذى هو فعل من أفعالهم
) القبيحة .وقوله ( بغير علم ) فى موضع الحال من الضمير المنصوب فى قوله
يضلونهم ) .أى : يضلون ناسا لا علم عندهم ، فهم كالأنعام بل هم أضل ، وفى
ذلك ما فيه من مدح أهل العلم والتفكير ، لأن الآية الكريمة قد بينت أن أئمة
الكفر ، يستطيعون إضلال من لا علم عنده ، أما أصحاب العقول السليمة فلن
، يستطيعوا إضلالهم .قالوا : واستدل بالآية على أن المقلد يجب عليه أن يبحث
وأن يميز بين الحق والباطل ، ولا يعذر بسبب جهله .وقيل : إن قوله ( بغير
علم ) فى موضع الحال من الضمير المرفوع فى قوله ( يضلونهم ) .أى : هم يضلون
غيرهم حالة كونهم غير عالمين بما يترتب على ذلك من آثام وعقاب ، إذ لو
علموا ذلك لما أقدموا على هذا الإضلال لغيرهم .ثم ختم - سبحانه - الآية
الكريمة بقوله : ( أَلاَ سَآءَ مَا يَزِرُونَ ) . قال الجمل : و ( ساء )
فعل ماض لإنشاء الذم بمعنى بئس ، و " ما " تمييز بمعنى شيئا ، أو فاعل
) بساء و ( يزرون ) صفة لما والعائد محذوف ، أو " ما " اسم موصول ، وقوله
يزرون ) صلة الموصول ، والعائد محذوف أى : يزرونه ، والمخصوص بالذم محذوف
والتقدير : بئس شيئا يزرونه ويحملونه نتيجة كفرهم وكذبهم وإضلالهم لغيرهم .
وافتتحت الجملة الكريمة بأداة الاستفتاح " ألا " للاهتمام بما تضمنه
التحذير ، حتى يقلعوا عن كفرهم ، ويثوبوا إلى رشدهم ، ويحترسوا عن الوقوع
. فى الباطل من القول

قد مكر الذين من قبلهم فاتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من
فوقهم واتاهم العذاب من حيث لا يشعرون

كما فسرها الوسيط ثم سلى الله - تعالى - نبيه والمؤمنين ، فبين لهم أن
هؤلاء المستكبرين الذين قالوا فى القرآن : إنه أساطير الأولين ، سيحيق بهم
مكرهم السيئ ، كما حاق بالذين من قبلهم ، فقال - تعالى : ( قَدْ مَكَرَ
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ
عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ
، يَشْعُرُونَ ) .وقوله - سبحانه - ( مكر ) من المكر ، وهو التدبير المحكم
أو صرف الغير عما يريده بحيلته ، وهو مذموم إن تحرى به الماكر الشر والباطل
ومحمود إن تحرى به الخير والحق .والمراد به هنا النوع الأول .والمراد ،
بالذين من قبلهم : الكفار الذين كانوا قبل كفار مكة ، كقوم نوح وهود وصالح
- وقوله : ( فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ . . ) أى : أهلكهم ، كما فى قوله .
تعالى -( . . . فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ . . )
ويقال : أتى فلان من مأمنه أى : نزل به الهلاك من جهة أمنه . وأتى عليه
الدهر . أى : أهلكه وأفناه . ومنه الأتوّ . وهو الموت والبلاء .يقال : أتى
على فلان أتوّ ، أى موت أو بلاء يصيبه .والقواعد : جمع قاعدة . وهى أساس
البناء ، وبها يكون ثباته واستقراره .والمعنى :لا تهتم - أيها الرسول
الكريم - بما يقوله المستكبرون من قومك فى شأن القرآن الكريم لكى يصرفوا
الناس عن الدخول فى الإسلام ، فقد مكر الذين من قبلهم بأنبيائهم ، فكانت
عاقبة مكرهم أن أتى الله بنيانهم من القواعد ، بأن اجتث هذا البنيان من
: أصله؛ واقتلعه من أساسه ( فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السقف مِن فَوْقِهِمْ ) أى
فسقط عليهم سقف بنيانهم فأهلكهم ( وأتاهم العذاب ) المبير المدمر ( مِنْ
حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ ) ولا يحتسبون بأنه سيأتيهم من هذه الجهة ، بل
كانوا يتوقعون أن ما شيدوه سيحميهم من المهالك .فالآية الكريمة تصور بأسلوب
بديع معجز ، كيف أن هؤلاء الماكرين ، قد حصنوا أنفسهم بالبناء المحكم
المتين ، ليتقوا ما يؤذيهم ، إلا أن جميع هذه التحصينات قد هوت وتساقطت على
رءوسهم ، أمام قوة الله - تعالى - التى لا ترد ، فإذا بالبناء الذى بنوه
ليحتموا به ، قد صار مقبرة لهم .وصدق الله إذ يقول : ( وَمَكَرُواْ مَكْراً
وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

مَكْرِهِمْ أَنّا دَمّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ فَتِلْكَ
بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظلموا إِنّ فِي ذلك لآيَةً لِّقَوْمٍ
يَعْلَمُونَ ) وقال - سبحانه - : ( فَخَرّ عَلَيْهِمُ السقف مِن
فَوْقِهِمْ ) مع أن السقف لا يكون إلا من فوق ، لتأكيد الكلام وتقويته
، وقال القرطبى : قال ابن الأعرابى : وكد ليعلمك أنهم كانوا حالين تحته.
والعرب تقول خر علينا سقف ، ووقع علينا حائط ، إذا كان يملكه وإن لم يكن
، وقع عليه . فجاء بقوله : ( من فوقهم ) ليخرج هذا الشك الذى فى كلام العرب
. . فقال : ( من فوقهم ) أى : عليهم وقع وكانوا تحته فهلكوا وما أفلتوا
هذا ومن المفسرين الذين رجحوا أن الآية مسوقة على سبيل التمثيل ، الفخر.
الرازى فقد قال : وفى قوله - سبحانه - ( فَأَتَى الله بُنْيَانَهُمْ مِّنَ
القواعد ) قولان :الأول : أن هذا محض التمثيل .والمعنى أنهم رتبوا حيلا
، ليمكروا بها على أنبياء الله ، فجعل الله - تعالى - حالهم فى تلك الحيل
مثل حال قوم بنوا بنيانا وعموده بالأساطين ، فانهدم ذلك البناء ، وضعفت تلك
الأساطين ، فسقط السقف عليهم ، ونظيره قولهم : من حفر بئرا لأخيه أوقعه
الله فيه .- ووجه الشبه أن ما عدوه سبب بقائهم ، صار سبب استئصالهم وفنائهم
الثانى : أن المراد منه مادل عليه الظاهر ، وهو أن الله - تعالى - أسقط.
عليهم السقف وأماتهم تحته .والأول أقرب إلى المعنى .ومن المفسرين الذين
رجحوا أن الكلام على حقيقته ، الإمام ابن جرير فقد قال - بعد أن سرد بعض
الأقوال - : وأولى الأقوال بتأويل الآية قول من قال : معنى ذلك ، تساقطت
عليهم سقوف بيوتهم ، إذ أتى على أصولها وقواعدها أمر الله ، فانكفأت بهم
منازلهم ، لأن ذلك هو الكلام المعروف من قواعد البنيان وخرّ السقف .وتوجيه
معانى كلام الله إلى الأشهر الأعرف منها ، أولى من توجيهها إلى غير ذلك ما
وجد إليه سبيل .ويبدو لنا أن ما ذهب إليه ابن جرير - رحمه الله - أولى
بالقبول ، لأنه مادام اللفظ صالحا للحمل على الحقيقة ، فلا داعى لصرفه عن
- ذلك .وقد حكى لنا القرآن الكريم صنوفا من العذاب الذى أنزله الله - تعالى
بالظالمين ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ( فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ
فَمِنْهُم مّن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مّنْ أَخَذَتْهُ
الصيحة وَمِنْهُمْ مّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأرض وَمِنْهُمْ مّنْ
أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ الله لِيَظْلِمَهُمْ ولكن كانوا أَنفُسَهُمْ
يَظْلِمُونَ )

ثم يوم القيامة يخزيهم ويقول اين شركائي الذين كنتم تشاقون فيهم قال الذين
اوتوا العلم ان الخزي اليوم والسوء على الكافرين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - مصيرهم فى الآخرة ، بعد أن بين عاقبة
مكرهم فى الدنيا فقال - تعالى - : ( ثُمّ يَوْمَ القيامة يُخْزِيهِمْ
( . . وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآئِيَ الذين كُنْتُمْ تُشَاقّونَ فِيهِمْ
أى : هذا هو مصير هؤلاء المستكبرين فى الدنيا ، أما مصيرهم فى الآخرة فإن.
الله - تعالى - يذلهم ويهينهم ويفضحهم على رؤوس الأشهاد ، ويقول لهم على
سبيل التقريع والتوبيخ : أين شركائى فى العبادة والطاعة ، الذين كنتم
تعادون وتخاصمون المؤمنين فى شأنهم ، قائلين لهم : إنكم لا بد لكم من
إشراكهم معى فى العبادة .وجئ بثم المفيدة للترتيب النسبى ، للإشارة إلى ما
بين الجزاءين من تفاوت فإن خزى الآخرة أشد وأعظم مما نزل بهم من دمار فى
الدنيا .والاستفهام فى قوله ( أين شركائى . . ) للتهكم بهم وبمعبوداتهم
الباطلة التى كانوا يعبدونها فى الدنيا ، فانهم كانوا يقولون للمؤمنين إن
صح ما تقولونه من العذاب فى الآخرة ، فان الأصنام ستشفع لنا .أى : أين
- هؤلاء الشركاء ليدفعوا عنكم ما نزل بكم من خزى وذلة وعذاب مهين؟! وأضاف
، سبحانه - الشركاء إليه ، لزيادة توبيخهم ، لأنهم فى هذا اليوم العظيم
- يعلمون علم اليقين أنه لا شركاء له - سبحانه - وشبيه بهذه الآية قوله
تعالى - : ( وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآئِيَ الذين
كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ) قال الجمل ما ملخصه : وقوله ( تشاقون ) من المشاقة
) وهى عبارة عن كون كل واحد من الخصمين فى شق غير شق صاحبه .وقرأ نافع
تشاقون ) بكسر النون خفيفه ، وقرأ الباقون بفتح النون ، ومفعوله محذوف . أى
تشاقون المؤمنين ، أو تشاقون الله ، بدليل القراءة الأولى . . . .ثم :
- حكى - سبحانه - ما يقوله أولو العلم فى هذا الموقف الهائل الشديد فقال
تعالى - : (قَالَ الذين أُوتُواْ العلم إِنَّ الخزي اليوم والسواء عَلَى
الكافرين ) .والمراد بالذين أوتوا العلم ، كل من اهتدى إلى الحق فى الدنيا؛
- وأخلص لله - تعالى - العبادة والطاعة .أى : قال الذين هداهم الله - تعالى
إلى صراطه المستقيم ، فى هذا اليوم العصيب ، إن الخزى الكامل ، فى هذا
اليوم ، والسوء الذى ليس بعده سوء ، على هؤلاء الكافرين ، أصحاب القلوب
) المنكرة للحق ، والنفوس الجاحدة لليوم الآخر وما فيه من حساب .وجئ بجمله
قَالَ الذين أُوتُواْ العلم . . ) غير معطوفة على ما قبلها ، لأنها واقعة
موقع الجواب لقوله - سبحانه - ( أين شركائى . . . ) وللتنبيه على أن الذين
أوتوا العلم سارعوا بالجواب بعد أن وجم المستكبرون ، وعجزوا عن الإجابة

وقولهم هذا يدل على شماتتهم بأعداء الله - تعالى - ، وتوبيخهم لهم على كفرهم ، واستكبارهم عن الإستماع إلى كلمة الحق .وقال - سبحانه - : ( قَالَ الذين أُوتُواْ العلم . . . ) بلفظ الماضى ، مع أن هذا القول سيكون فى الآخرة ، للإشارة إلى تحقق وقوعه ، وأنه كائن لا محالة .

الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي انفسهم فالقوا السلم ما كنا نعمل من سوء بلى ان الله عليم بما كنتم تعملون

كما فسرها الوسيط ثم صور - سبحانه - أحوال هؤلاء الكافرين ساعة انتزاع أرواحهم من أجسادهم وساعة وقوفهم للحساب ، فقال - تعالى - ، ( الذين تَتَوَفَّاهُمُ الملائكة ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُاْ السلم مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سواء . . . . . ) .قال الآلوسى : " وفى الموصول أوجه الإعراب الثلاثة : الجر على أنه صفة للكافرين ، أو بدل منه ، أو بيان له ، والنصب والرفع على القطع للذم . وجوز بعضهم كونه مرتفعا بالابتداء ، وجملة خبره . . " .والمراد بالملائكة : عزرائيل ومن معه من الملائكة ( فألقوا ) والمراد بظلمهم لأنفسهم : إشراكهم مع الله - تعالى - آلهة أخرى فى العبادة. أى : إن أشد أنواع الخزى والعذاب يوم القيامة على الكافرين ، الذين تنتزع الملائكة أرواحهم من أجسادهم وهم ما زالوا باقين على الكفر والشرك دون أن يتوبوا منهما ، أو يقلعوا عنهما . وقوله : ( ظالمى أنفسهم ) حال من مفعول تتوفاهم .وفى وصف هؤلاء الكافرين بكونهم ( ظالمى أنفسهم ) إشعار إلى أن - الملائكة تنتزع أرواحهم من جنوبهم بغلظة وقسوة ، ويشهد لذلك قوله - تعالى : ( وَلَوْ ترى إِذْ يَتَوَفَّى الذين كَفَرُواْ الملائكة يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ . . . ) وقوله ( فألقوا السلم ) بيان لما صار إليه هؤلاء المستكبرون من ذل وخضوع فى الآخرة ، بعد أن كانوا مغترين متجبرين فى الدنيا .وأصل الإلقاء يكون فى الأجسام والمحسات فاستعير هنا ، لإظهار كمال الخضوع والطاعة ، حيث شبهوا بمن ألقى سلاحه أمام الأقوى منه : بدون أية مقاومة أو حركة .والمراد بالسلم : الاستسلام والاستكانة . أى : أنهم عندما عاينوا الموت ، وتجلت لهم الحقائق يوم القيامة ، خضعوا واستكانوا واستسلموا وانقادوا ، وقالوا : ما كنا فى الدنيا نعمل عملا سيئا توهما منهم أن هذا القول ينفعهم ، .

فادخلوا ابواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين

كما فسرها الوسيط وقد حكى الله - تعالى - عنهم فى آيات أخرى ما يشبه هذا القول ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ( ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ والله رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ )

وقيل للذين اتقوا ماذا انزل ربكم قالوا خيرا للذين احسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الاخرة خير ولنعم دار المتقين

كما فسرها الوسيط فقوله - سبحانه - : ( وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتقوا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْراً . . ) بيان لما رد به المؤمنون الصادقون ، على من سألهم عما أنزله الله - تعالى - على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم .وهو معطوف على ما قبله ، للمقابلة بين ما قاله المتقون ، وما قاله المستكبرون .ووصفهم بالتقوى ، للاشعار بأن صيانتهم لأنفسهم عن ارتكاب ما نهى الله - تعالى - عنه ، وخوفهم منه - سبحانه - ومراقبتهم له ، كل ذلك حملهم على أن يقولوا هذا القول السديد . وكلمة ( خيرا ) مفعول لفعل محذوف أى : أنزل خيرا . أى : رحمة وبركة ونورا وهداية ، إذ لفظ ( خيرا ) من الألفاظ الجامعة لكل فضيلة .قال صاحب الكشاف : فان قلت لم نصب هذا ورفع الأول؟ .قلت : فَصْلاً بين جواب المقر وجواب الجاحد ، يعنى أن هؤلاء لما سئلوا لم يتلعثموا وأطبقوا الجواب على السؤال بينا مكشوفا مفعولا للإنزال : فقالوا خيرا . أى أنزل خيرا . وأولئك عدلوا بالجواب عن السؤال فقالوا ، ) : - هو أساطير الأولين وليس من الإنزال فى شئ .وقوله - سبحانه - : ( لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هذه الدنيا حَسَنَةٌ ) جملة مستأنفة لبيان ماوعدهم به - تعالى - على أعمالهم الصالحة من أجر وثواب .أى : هذه سنتنا فى خلقنا أننا نجازى الذين يعملون الصالحات بالجزاء الحسن الكريم ، دون أن نضيع من أعمالهم شيئا .وقوله ( حسنة ) صفة لموصوف محذوف أى : مجازاة حسنة بسبب أعمالهم الصالحة .كما قال - تعالى - فى آية أخرى : ( مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أنثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ) ثم بين - سبحانه - جزاءهم فى الآخرة فقال : ( وَلَدَارُ الآخرة خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ المتقين ) . والمراد بدار المتقين : الجنة ونعيمها .و ( خير ) صيغة تفضيل ، حذفت همزتها لكثرة الاستعمال على سبيل التخفيف ، كما قال ابن مالك :وغالبا أغناهم خير وشر ... عن قولهم أخير منه

وأشرونعم : فعل ماض لإنشاء المدح ، وهو ضد بئس .والمعنى : ولدار الآخرة ، ومافيها من عطاء غير مقطوع ، خير لهؤلاء المتقين مما أعطيناهم فى الدنيا ولنعم دارهم هذه الدار . قال - تعالى - : ( بَلْ تُؤْثِرُونَ الحياة الدنيا ، والآخرة خَيْرٌ وأبقى ) ووصفها - سبحانه - بالآخرة ، لأنها آخر المنازل فلا انتقال عنها إلى دار أخرى ، كما قال - تعالى - : ( خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ) والمخصوص بالمدح محذوف لتقدم ما يدل عليه والتقدير : ولنعم دار المتقين ، دار الآخرة .

جنات عدن يدخلونها تجري من تحتها الانهار لهم فيها ما يشاءون كذلك يجزي الله المتقين

كما فسرها الوسيط ثم وصف - سبحانه - ما أعده لهم من نعيم فقال : ( جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ) .والعدن : الإقامة الدائمة : يقال : عدن فلان ببلد كذا ، إذا توطن فيه وأقام دون أن يبرحه أى لهؤلاء المتقين : جنات دائمة باقية ، يدخلونها بسرور وحبور ، تجرى من تحتها بساتينها وأشجارها الأنهار .

الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون

`<!-- TODO:MISSING -->`{=html} كما فسرها الوسيط

هل ينظرون الا ان تاتيهم الملائكة او ياتي امر ربك كذلك فعل الذين من قبلهم وما ظلمهم الله ولكن كانوا انفسهم يظلمون

كما فسرها الوسيط والاستفهام فى قوله - سبحانه - ( هل ينظرون . . ) إنكارى فى معنى النفى .( ينظرون ) هنا بمعنى ينتظرون ، من الإنظار بمعنى الإمهال والضمير المرفوع يعود إلى أولئك المتكبرين الذين وصفوا القرآن بأنه ، أساطير الأولين ، والذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ، كما جاء فى الآيات السابقة .أى : ما ينتظر أولئك المتكبرون الذين لا يؤمنون بالآخرة ، إلا أن تأتيهم الملائكة لنزع أرواحهم من أجسادهم ، أو يأتى أمر ربك - أيها الرسول الكريم - بإهلاكهم ، أو بإنزال العذاب بهم من حيث لا يشعرون .وليس المراد من الجملة الكريمة ، أنهم ينتظرون ذلك على سبيل الحقيقة ، لأن إصرارهم على الكفر جعلهم يستهينون بهذا التهديد وإنما المراد أنهم حين أصروا على الكفر مع ظهور البراهين على بطلانه ، صار حالهم كحال المترقب لنزول أحد الأمرين : قبض الملائكة لأرواحهم ، أو نزول العذاب بهم .فالجملة الكريمة تهديد لهم فى تماديهم فى الكفر ، وتحريض لهم على الإيمان قبل فوات الأوان .قال الجمل : " و " أو " فى قوله ( أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ) مانعة خلو ، فإن كلا من الموت والعذاب يأتيهم وإن اختلف الوقت ، وإنما عبر " . . . بأو دون الواو ، للاشارة إلى كفاية كل واحد من الأمرين فى تعذيبهم وقوله - سبحانه - : ( كَذَلِكَ فَعَلَ الذين مِن قَبْلِهِمْ ) . تسلية. للرسول صلى الله عليه وسلم عما أصابه منهم من أذى .أى : مثل هذا الفعل الشنيع الذى صدر عن الكافرين من قومك - يا محمد - فعل الذين من قبلهم من أقوام الرسل السابقين ، كقوم نوح وقوم هود ، وقوم صالح ، فإنهم قد آذوا رسلهم . كما آذاك قومك .وقد أنزلنا بهم ما يستحقون من عقاب دنيوى ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى .وقوله - سبحانه - ( وَمَا ظَلَمَهُمُ الله ولكن كَانُواْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ) . بيان لعدالة الله - تعالى - وأنه - سبحانه - لا يظلم الناس شيئا .أى : وما ظلمهم الله حين أنزل بهم عقابه : ولكن هم الذين ظلموا أنفسهم بترديهم فى الكفر ، وإصرارهم عليه ، ومحاربتهم لمن جاء لإخراجهم من الظلمات إلى النور .

فاصابهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ) معطوف على : قوله ( كَذَلِكَ فَعَلَ الذين مِن قَبْلِهِمْ ) وما بينهما اعتراض .وحاق بمعنى أحاط ، من الحيق بمعنى الإحاطة ، وبابه باع ، يقال : حاق يحيق ، وخص فى الاستعمال بإحاطة الشر ، ومنه قوله - تعالى - : ( وَلاَ يَحِيقُ المكر السيىء إلاَّ بِأَهْلِهِ ) أى : هكذا تمادى أسلافهم فى الكفر والجحود ، فأصابهم جزاء سيئات أعمالهم ، وأحاط بهم العذاب من كل جانب ، بسبب كفرهم وسخريتهم بالرسل وبما أخبروهم به من حساب وثواب وعقاب فى الآخرة ، وسيقال لهؤلاء المجرمين يوم القيامة وهم يردون النار : ( هذه النار التي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ) وبذلك نرى أن هاتين الآيتين ، قد هددتا الكافرين ودعتهما إلى الدخول فى الحق ، وحذرتاهم من انتهاج نهج الظالمين من قبلهم .

وقال الذين اشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا اباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل الا البلاغ المبين

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - بعض أقاويلهم الباطلة ، ومعاذيرهم الفاسدة ، ورد عليهم بما يدحضها ويدمغها ، فقال - تعالى - : ( وَقَالَ الذين أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ الله مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نّحْنُ ولا آبَاؤُنَا وَلاَ حَرّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كذلك فَعَلَ الذين مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرسل إِلاَّ البلاغ المبين )إن هذه الآيات الكريمة ، تعالج شبهة من الشبهات القديمة الحديثة .قديمة ، لأن ، كثيرا من مجادلى الرسل - عليهم الصلاة والسلام - جادلوا بها .وحديثة لأنها كثيرا ما تراود الذين يتمسكون بالأوهام ، إرضاء لنزواتهم وشهواتهم إنهم جميعا يقولون عند ارتكابهم للقبائح والمنكرات : هذا أمر الله وهذا. قضاؤه ، وتلك مشيئته وإرادته ، ولو شاء الله عدم فعلنا لهذه الأشياء لما فعلناها ومادام الله - تعالى - قد قضى علينا بها فما ذنبنا؟ ولماذا يعاقبنا عليها مادام قد شاءها لنا؟استمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى هذه الشبهة بأسلوبه الخاص فيقول : ( وَقَالَ الذين أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ الله مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نّحْنُ ولا آبَاؤُنَا وَلاَ حَرّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ . . . ) .أى : وقال الذين أشركوا ، مع الله - تعالى - آلهة أخرى فى العبادة ، لنبيهم صلى الله عليه وسلم : لو شاء الله تعالى - لنا عبادته وحده لعبدناه نحن وآباؤنا الذين هم قدوتنا .ولو شاء لنا ولآبائنا - أيضا - ألا نحرم شيئا مما حرمناه من البحائر والسوائب وغيرهما - لتمت مشيئته ، ولما حرمنا شيئا لم يأذن به - سبحانه - .ولكنه - عز وجل ، لم يشأ ذلك ، بل شاء لنا أن نشرك معه فى العبادة هذه الأصنام ، وأن نحرم بعض الأنعام ، وقد رضى لنا ذلك ، فلماذا تطالبنا يا محمد صلى الله عليه وسلم بتغيير مشيئة الله ، وتدعونا إلى الدخول فى دين الإسلام والذى لم يشأ لنا الله - تعالى - الدخول فيه؟هذه حجتهم ، ولاشك أنها حجة داحضة ، لأنهم يحيلون شركهم وفسوقهم على مشيئة الله - تعالى - مع أن مشيئته - تعالى - لم يطلع عليها أحد من خلقه حتى يقولوا ما قالوا .وإنما الذى أطلعنا عليه - سبحانه - أنه أرسل رسوله صلى الله عليه وسلم لهدايتنا ، ومنحنا العقول التى نميز بها بين الحق والباطل ، فمن أطاع الرسول صلى الله عليه وسلم سعد وفاز ومن أعرض عن هدايته خسر وخاب ، قال - تعالى - : ( إِنَّا خَلَقْنَا الإنسان مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً إِنَّا هَدَيْنَاهُ السبيل إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً )
وقال - سبحانه : ( وَقُلِ الحق مِن رّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ . . ) ولقد حكى - سبحانه - شبهة المشركين هذه فى آيات أخرى ورد عليها ، ومن ذلك قوله - تعالى - ( وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ الرحمن مَا عَبَدْنَاهُمْ مّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاّ يَخْرُصُونَ ) وقوله - سبحانه - : ( سَيَقُولُ الذين أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ الله مَآ أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرّمْنَا مِن شَيْءٍ كذلك كَذّبَ الذين مِن قَبْلِهِم حتى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتّبِعُونَ إِلاّ الظن وَإِنْ أَنتُمْ إِلاّ تَخْرُصُونَ قُلْ فَلِلّهِ الحجة البالغة فَلَوْ شَآءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ . . )هذا ، وقد قلنا عند تفسيرنا لهذه الآيات ما ملخصه : ونريد أن نزيد هذه الشبهة القديمة الحديثة تمحيصا وكشفا ودفعا ، فنقول لأولئك الذين يبررون ارتكابهم للموبقات بأنها واقعة بمشيئة الله .نقول لهم : " نحن معكم فى أنه لا يقع فى ملكه - سبحانه - إلا ما يشاؤه . فالطائع تحت المشيئة ، والعاصى تحت المشيئة ، ولكن هذه المشيئة لم تجبر أحدا على طاعة أو معصية ، وقضاء الله هو علمه بكل ما هو كائن قبل أن يكون وليس العلم صفة تأثير وجبر .ولقد شاء - سبحانه - أن يجعل فى طبيعة البشر الاستعداد للخير والشر ، ووهبهم العقل ليهتدوا به ، وأرسل إليهم الرسل لينموا فيهم استعدادهم ، وسن لهم شريعة لتكون مقياسا ثابتا لما يأخذون وما يدعون ، كى لا يتركهم لعقولهم وحدها .وإذا فمشيئة الله متحققة ، حسب سنته التى ارتضاها ، سواء اتخذ العبد طريقه إلى الهدى أم إلى الضلال وهو مؤاخذ إن ضل ، ومأجور إذا اهتدى ، غير أن سنة الله اقتضت أن من يفتح عينيه يبصر النور ، ومن يغمضهما لا يراه .كذلك من يفتح قلبه لإدراك دلائل الإيمان يهتدى ، ومن يحجب قلبه عنها يضل . سنة الله ولن تجد لسنته تبديلا وإذا فزعم الزاعمين بأن الله شاء هذا ، على معنى أنه أجبرهم عليه ، فهم. لا يستطيعون عنه فكاكا ، إنما هو زعم باطل لاسند له من العلم والتفكير الصحيح . . " .وقوله - سبحانه - : ( كذلك فَعَلَ الذين مِن قَبْلِهِمْ ) تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما قاله هؤلاء المشركون من كذب ، وما نطقوا به من باطل .واسم الإشارة ( كذلك ) يعود إلى إشراكهم وتحريمهم لما أحله الله - تعالى - أى : مثل ذلك الفعل الشنيع الذى فعله قومك معك يا محمد

فعل أشباههم السابقون مع أنبيائهم الذين أرسلهم الله - تعالى - لهدايتهم ، فلا تبتئس - أيها الرسول الكريم - مما فعله معك مشركو قومك . فإننا لولا ، وجودك فيهم ، لأنزلنا بهم ما أنزلنا على سابقيهم من عذاب .والاستفهام فى قوله - تعالى - : ( فَهَلْ عَلَى الرسل إِلاَّ البلاغ المبين ) . إنكارى فى معنى النفى . والبلاغ : اسم مصدر بمعنى الإبلاغ . والمبين : الواضح الصريح أى : ما على الرسل الكرام الذين أرسلهم الله - تعالى - لإرشاد أقوامهم. إلى الصراط المستقيم إلا الإبلاغ الواضح ، المظهر لأحكام الله ، المميز بين - الحق والباطل ، أما إجبار الناس على الدخول فى الحق فليس من وظيفتهم .قال تعالى - : ( وَإِن مّا نُرِيَنّكَ بَعْضَ الذي نَعِدُهُمْ أَوْ - نَتَوَفّيَنّكَ فَإِنّمَا عَلَيْكَ البلاغ وَعَلَيْنَا الحساب ) وقال تعالى - : ( لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ولكن الله يَهْدِي مَن يَشَآءُ . . )

ولقد بعثنا في كل امة رسولا ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن من رحمته بعباده ، أن أرسل إليهم - الرسل مبشرين ومنذرين؛ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، فقال تعالى - : ( وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلّ أُمّةٍ رّسُولاً أَنِ اعبدوا - الله واجتنبوا الطاغوت . . ) .والطاغوت : اسم لكل معبود من دون الله تعالى - ، كالأصنام والأوثان وغير ذلك من المعبودات الباطلة ، مأخوذ من طغا يطغى طغوا . . إذا جاوز الحد فى الضلال .أى : ولقد اقتضت حكمتنا ورحمتنا أن نبعث فى كل أمة ، من الأمم السالفة ( رسولا ) من رسلنا الكرام ، ليرشدوا ) ، الناس إلى الحق والخير ، وليقولوا ( أن اعبدوا الله ) - تعالى - وحده واجتنبوا ) عبادة ( الطاغوت ) الذى يضل ولا يهدي .وأكد - سبحانه - الجملة باللام وقد ، للرد على ما زعمه المشركون من أن الله - تعالى - لم ينكر عليهم عبادتهم لغيره ، وأنه - سبحانه - راض لتحريمهم لما أحله . حيث بين لهم - عز وجل - أنه قد أرسل الرسل للدعوة إلى عبادته وحده ، ولتجنب عبادة أحد سواه . و " أن " فى قوله ( أن اعبدوا . . ) تفسيرية ، لأن البعث يتضمن معنى القول ، إذ هو بعث للتبليغ .ثم بين - سبحانه - موقف هؤلاء الأقوام من رسلهم فقال - تعالى - : ( فَمِنْهُم مّنْ هَدَى الله وَمِنْهُمْ مّنْ حَقّتْ عَلَيْهِ الضلالة . . ) .أى : بعثنا فى كل أمة من الأمم السابقة رسولا لهداية أبنائها فمن هؤلاء الأبناء من هداهم الله - تعالى - إلى الحق وإلى الصراط المستقيم . بأن وفقهم إليه ، لانشراح صدورهم له ، ومنهم من - ثبتت وحقت عليه الضلالة ، لاستحبابه العمى على الهدى .وأسند - سبحانه - هداية بعض أفراد هذه الأمم إليه ، مع أنه أمر جميعهم - على ألسنة رسله بالدخول فى طريق الهدى ، للرد على المشركين الذين أحالوا شركهم وفسوقهم على مشيئة الله ، إذ أن الله - تعالى - قد بين للناس جميعا طرق الخير وطرق الشر فمنهم من استجاب للأولى ، ومنهم من انحدر إلى الثانية ، وكلاهما لم يقسره ، الله - تعالى - قسرا على الهدى أو الضلال .فاهتداء المهتدين إنما هو بسبب اختيارهم لذلك ، واتباعهم الرسل ، وضلال الضالين إنما هو بسبب استحواذ الشيطان عليهم .وعبر - سبحانه - فى جانب الضالين بقوله : ( وَمِنْهُمْ مّنْ حَقّتْ عَلَيْهِ الضلالة ) للإشارة إلى أنهم لم يتسجيبوا لما أرشدهم - سبحانه - إليه ، بل ظلوا ثابتين مصممين على البقاء فى طريق الضلالة ، ( فَلَمّا زاغوا أَزَاغَ الله قُلُوبَهُمْ والله لاَ يَهْدِي القوم الفاسقين ) وقوله - سبحانه - : ( فَسِيرُواْ فِي الأرض فانظروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المكذبين ) . تحريض لهم على التأمل فى آثار المكذبين ، لعلهم عن طريق هذا التأمل والتدبر يثوبون إلى رشدهم ، ويعودون إلى صوابهم ، ويدركون سنة من سنن الله فى خلقه ، وهى أن العاقبة الطيبة للمتقين ، والعاقبة السيئة للكافرين .

ان تحرص على هداهم فان الله لا يهدي من يضل وما لهم من ناصرين

`<!-- TODO:MISSING -->`{=html} كما فسرها الوسيط

واقسموا بالله جهد ايمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعدا عليه حقا ولكن اكثر الناس لا يعلمون

كما فسرها الوسيط قوله - سبحانه - : ( وَأَقْسَمُواْ بِالله جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ . . . ) معطوف على قوله - تعالى - قبل ذلك : ( وَقَالَ الذين أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ الله مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نّحْنُ ولا آبَاؤُنَا ) للإيذان بأنهم قد جمعوا بين إنكار التوحيد وإنكار البعث بعد الموت .والقسم : الحلف : وسمى الحلف قسما ، لأنه يكون عند انقسام الناس

إلى مصدق ومكذب والجهد - بفتح الجيم - المشقة . يقال جهد فلان دابته وأجهدها ، إذا حمل عليها فوق طاقتها . وجهد الرجل فى كذا ، إذا جد فيه وبالغ ، وبابه قطع .والمراد بقوله : ( جهد أيمانهم ) أنهم أكدوا الأيمان ، ووثقوها بكل ألفاظ التأكيد والتوثيق ، على أنه لا بعث ولا حساب بعد الموت ، لأنهم يزعمون أن إعادة الميت إلى الحياة بعد أن صار ترابا وعظاما نخرة أمر مستحيل .وقد أكدوا زعمهم هذا بالقسم ، للتدليل على أنهم متثبتون مما يقولونه ، ومتيقنون من صحة ما يدعونه ، من أنه لا يبعث الله من يموت .قال القرطبي . قوله - تعالى - ( وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ . . هذا تعجيب من صنعهم ، إذ أقسموا بالله وبالغوا فى تغليظ اليمين بأن الله ( لا يبعث من يموت .ووجه العجب أنهم يظهرون تعظيم الله فيقسمون به ثم يعجزونه عن بعث الأموات .وقال أبو العالية : كان لرجل من المسلمين على مشرك دين فتقاضاه ، وكان فى بعض كلامه : والذى أرجوه بعد الموت إنه لكذا ، فأقسم المشرك بالله : لا يبعث الله من يموت ، فنزلت الآية .وفى البخارى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم " قال الله - تعالى - كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمنى ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياى فقوله : لن يعيدنى كما بدأنى ، وأما شتمه إياى فقوله : اتخذ الله ولدا ، وأنا الأحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد " .وقوله - سبحانه - : ( بلى وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ) تكذيب لهم فيما زعموه من أن الله - تعالى -لا يبعث من يموت ، ورد عليهم فيما قالوه بغير علم . و ( بلى ) حرف يؤتى به لإبطال النفى فى الخبر والاستفهام .أى : بلى سيبعث الله - تعالى - الأموات يوم القيامة ، وقد وعد بذلك وعدا صدقا لا خلف فيه ولا تبديل ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون هذه الحقيقة لجهلهم بكمال قدرة الله - تعالى - وعموم علمه ، ونفاذ إرادته ، وسمو حكمته .قال الجمل " : وقوله : ( وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً ) هذان المصدران منصوبان على المصدر المؤكد ، أى : وعد ذلك وعدا ، وحق حقا . وقيل : حقا نعتا لوعدا ، والتقدير بلى يبعثهم وعد بذلك وعد حقا " .وجئ بقوله ( عليه ) لتأكيد هذا الوعد ، تفضلا منه - سبحانه - وكرما .والمراد بالحق هنا : الصدق الذى لا يتخلف والثابت الذى لا يتبدل .أى : وعدا صادقا ثابتا لا يقبل الخلف ، لأن البعث من مقتضيات حكمته - سبحانه - .والمراد بأكثر الناس : المشركون ومن كان على شاكلتهم فى إنكار البعث والحساب والثواب والعقاب يوم القيامة .وفى التنصيص على أكثر الناس ، مدح للأقلية منهم ، الذين آمنوا بالبعث وبالآخرة وما فيها من حساب ، وهم المؤمنون الصادقون .هذا ، وقد حكى - سبحانه - مزاعم المشركين ورد عليها فى آيات كثيرة ومن ذلك قوله - تعالى - : ( زَعَمَ الذين كفروا أَن لَّن يُبْعَثُواْ قُلْ بلى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ . ) وقوله - تعالى - : ( وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحيي العظام وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الذي أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ . . ).

ليبين لهم الذي يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا انهم كانوا كاذبين

، كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - الحكمة من بعث الناس يوم القيامة فقال - تعالى - : ( لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الذي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الذين كَفَرُواْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَاذِبِينَ ) .واللام فى ) قوله ( ليبين لهم . . ) وفى قوله ( وليعلم . . ) متعلقة بما دل عليه حرف بلى ) وهو يبعثهم . أى : بلى يبعث الله - تعالى - الموتى ، ليظهر لهم وجه الحق فيما اختلفوا فيه فى شأن البعث وغيره ، وليعلم الذين كفروا علم مشاهدة ، ومعاينة ، أنهم كانوا كاذبين فى قسمهم أن الله - تعالى -لا يبعث من يموت وفى غير ذلك من أقوالهم الباطلة .وفى إظهار الحق ، وفى بيان كذبهم يوم البعث ، حسرة وندامة لهم ، حيث ظهر لهم ما أنكروه فى الدنيا ، وما كانوا يستهزئون به ، عندما كان الرسل - عليهم الصلاة والسلام - يدعونهم إلى نبذ الشرك ، وإلى إخلاص العبادة لله - تعالى - وحده .فالآية الكريمة قد بينت حكمتين لبعث الناس للحساب يوم القيامة ، الأولى إظهار ما اختلفوا فيه فى شأن البعث وغيره مما جاءتهم به الرسل . والثانية : إظهار كذب الكافرين الذين أنكروا البعث واستهزأوا بمن دعاهم إلى الإيمان به .

انما قولنا لشيء اذا اردناه ان نقول له كن فيكون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ) استئناف لتأكيد قدرة الله - تعالى - النافذة ، وشمولها لكل شئ من بعث وغيره ، وذلك لأن الكفار لما أقسموا بالله جهد أيمانهم بأنه - سبحانه -لا يبعث الموتى ، ورد عليهم بما يبطل مزاعمهم ، أتبع ذلك ببيان أن قدرته - تعالى -لا يتعاصى عليها شئ ولا يحول دون نفاذها حائل .قال الإمام ابن كثير : " أخبر - سبحانه - عن قدرته على ما يشاء ، وأنه لا يعجزه شئ فى الأرض ولا فى السماء ، وإنما أمره

، إذا أراد شيئا أن يقول له ( كن فيكون ) . والمراد من ذلك إذا أراد كونه . فإنما يأمر به مرة واحدة فيكون كما يشاء

والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم في الدنيا حسنة ولاجر الاخرة اكبر لو كانوا يعلمون

كما فسرها الوسيط أخرج ابن جرير عن قتادة قال : قوله - تعالى - : ( والذين هَاجَرُواْ فِي اللّه مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ . . ) هؤلاء أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم . ظلمهم أهل مكة فأخرجوهم من ديارهم ، حتى لحق طائفة منهم بالحبشة ، ثم بوأهم الله - تعالى - المدينة فجعلها لهم دار هجرة ، وجعل لهم أنصارا من المؤمنين . وعن ابن عباس : هم قوم هاجروا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل مكة ، بعد أن ظلمهم المشركون ، .والذى نراه أن الآية الكريمة تشمل هؤلاء ، وتشمل غيرهم ممن هاجر من بلده إلى غيرها ، رجاء ثواب الله ، وخدمة لدينه .والمهاجرة فى الأصل تطلق على المفارقة والمتاركة للديار وغيرها ، واستعملت شرعا فى المهاجرة من دار الكفر إلى دار الإيمان أو من دار الكفر إلى غيرها لنشر دعوة الإسلام .وقوله ( لنبوئنهم ) من ، التبوؤ بمعنى الإحلال والإسكان والإنزال يقال بوأ فلان فلانا منزلا ، إذا أسكنه فيه ، وهيأه له .( وحسنة ) صفة لموصوف محذوف أى : لنبوئنهم تبوئة حسنة ، أو دارا حسنة .والمراد بهذه الحسنة ما يشمل نزولهم فى المدينة ، ونصرهم على أعدائهم ، وإبدال خوفهم أمنا .قال القرطبى فى المراد بالحسنة هنا ستة أقوال : " نزول المدينة، قاله ابن عباس والحسن . . الثانى : الرزق : الحسن . قاله مجاهد . الثالث : النصر على عدوهم ، قاله الضحاك ، الرابع لسان صدق ، حكاه ابن جريج . الخامس : ما استولوا عليه من البلاد . . السادس ما بقى لهم فى الدنيا من ثناء ، وما صار فيها لأولادهم من الشرف .ثم قال : وكل ذلك قد اجتمع لهم بفضل الله - تعالى - " .والمعنى : والذين هاجروا فى سبيل الله ، وفارقوا قومهم وأوطانهم وأموالهم وأولادهم . . من أجل إعلاء كلمته ، بعد أن تحملوا الكثير من أذى المشركين وظلمهم وطغيانهم .هؤلاء الذين فعلوا ذلك من أجل نصرة ديننا ، لنسكننهم فى الدنيا مساكن حسنة يرضونها ، ولنعطينهم عطاء حسنا يسعدهم ، ولننصرنهم على أعدائهم نصرا مؤزرا " وقوله ( فى الله ) أى : فى سبيله ، ومن أجل نصرة دينه . فحرف " فى. مستعمل للتعليل ، كما فى قوله صلى الله عليه وسلم : " دخلت امرأة النار فى هرة حبستها . . . " .والمقصود أن هذا الأجر الجزيل إنما هو للمهاجرين من أجل إعلاء كلمة الله ، ومن أجل نصرة الحق ، وليس لمن هاجر لنشر الظلم أو الفساد فى الأرض .وأسند فعل ( ظلموا ) إلى المجهول ، لظهور الفاعل من السياق وهو المشركون .وفى ذلك إشارة إلى أن هؤلاء المهاجرين لم يفارقوا ديارهم ، إلا بعد أن أصابهم ظلم أعدائهم لهم ، كتعذيبهم إياهم ، وتضييقهم عليهم ، إلى غير ذلك من صنوف الأذى .

الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون

كما فسرها الوسيط وأكد - سبحانه - الجزاء الحسن اذى وعدهم به باللام وبنون التوكيد ( لنبوئنهم .

وما ارسلنا من قبلك الا رجالا نوحي اليهم فاسالوا اهل الذكر ان كنتم لا تعلمون

: - كما فسرها الوسيط قال الإمام ابن كثير : عن ابن عباس - رضى الله عنهما لما بعث الله - تعالى - محمدًا صلى الله عليه وسلم رسولا ، أنكرت العرب ذلك أو من أنكر منهم ، وقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا ، فأنزل الله : ( أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ وقال : ( وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نوحي إِلَيْهِمْ . . ) .أى : وما أرسلنا من قبلك - أيها الرسول الكريم - لهداية الناس وإرشادهم إلى الحق إلا رجالا مثلك ، وقد أوحينا إليهم بما يبلغونه إلى أقوامهم ، من نصائح وتوجيهات وعبادات وتشريعات ، وقد لقى هؤلاء الرسل من أقوامهم ، مثل مالقيت من قومك من أذى وتكذيب وتعنت فى الأسئلة .فالمقصود من الآية الكريمة تسلية النبى صلى الله عليه وسلم والرد على المشركين فيما أثاروه حوله صلى الله عليه وسلم من شبهات .وقد حكى القرآن فى مواطن عدة - إنكار المشركين لبشرية الرسل ورد عليهم بما يخرسهم ، ومن ذلك قوله تعالى - : ( وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نوحي إِلَيْهِمْ مِّنْ أَهْلِ القرى . . ) وقوله - تعالى - : ( وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يؤمنوا إِذْ جَآءَهُمُ الهدى إلاّ أن قالوا أَبَعَثَ الله بَشَراً رَّسُولاً ) وقوله - تعالى - ( ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بالبينات فقالوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ واستغنى الله والله غَنِيٌّ حَمِيدٌ ) والمراد بأهل الذكر فى

قوله ( فاسألوا أَهْلَ الذكر إِن كُنْتُم لاَ تَعْلَمُونَ ) علماء أهل
، الكتاب أى : لقد اقتضت حكمتنا أن يكون الرسول من البشر فى كل زمان ومكان
فإن كنتم فى شك من ذلك - أيها المكذبون - فاسألوا علماء أهل الكتب السابقة
من اليهود والنصارى ، فسيبينون لكم أن الرسل جميعا كانوا من البشر ولم
يكونوا من الملائكة .وهذه الجملة الكريمة معترضة بين قوله - تعالى - ( وما
أرسلنا . . ) وبين قوله بعد ذلك : ( بالبينات والزبر . . ) للمبادرة إلى
توبيخ المشركين وإبطال شبهتهم ، لأنه قد احتج عليهم ، بمن كانوا يذهبون
إليهم لسؤالهم عن الرسول صلى الله عليه وسلم .وفى قوله - تعالى - ( إِن
كُنْتُم لاَ تَعْلَمُونَ ) إيماء إلى أنهم كانوا يعلمون أن الرسل لا يكونون
إلا من البشر ، ولكنهم قصدوا بإنكار ذلك الجحود والمكابرة ، والتمويه
لتضليل الجهلاء ، ولذا جئ فى الشرط بحرف " إن " المفيد للشك .وجواب الشرط
لهذه الجملة محذوف ، دل عليه ما قبله . أى : إن كنتم لا تعلمون ، فأسألوا
أهل الذكر . وقيل المراد بأهل الذكر هنا : المسلمون مطلقا ، لأن الذكر هو
القرآن ، وأهله هم المسلمون .ونحن لا ننكر أن الذكر يطلق على القرآن الكريم
كما فى قوله - تعالى - ( إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ ،
لَحَافِظُونَ )إلا أن المراد بأهل الذكر هنا : علماء أهل الكتاب ، لأن
المشركين كانوا يستفسرون منهم عن أحوال النبى صلى الله عليه وسلم ، أكثر من
استفسارهم من المسلمين .قال الآلوسى ماملخصه قوله - تعالى - : ( فاسألوا
أَهْلَ الذكر . . ) أى : أهل الكتاب من اليهود والنصارى . قاله : ابن عباس
والحسن والسدى وغيرهم .وقال أبو حيان فى البحر : " والمراد من لم يسلم من
أهل الكتاب ، لأنهم الذين لا يتهمون عند المشركين فى إخبارهم بأن الرسل
، كانوا رجالا ، فإخبارهم بذلك حجة عليهم . والمراد كسر حجتهم وإلزامهم
وإلا فالحق واضح فى نفسه لا يحتاج إلى إخبار هؤلاء . . " .قالوا : وفى
الآية دليل على وجوب الرجوع إلى أهل العلم فيما لا يعلم ، وعلى أن الرسل
. جميعا كانوا من الرجال ولم يكن من بينهم امرأة قط

بالبينات والزبر وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون

. . . . كما فسرها الوسيط والجار والمجرور فى قوله : ( بالبينات والزبر )
متعلق بقوله ( وما أرسلنا . . ) وداخل تحت حكم الاستثناء مع ( رجالا )
والمراد بالبينات : الحجج والمعجزات الدالة على صدق الرسل .والزبر : جمع.
زبور بمعنى مزبور أى مكتوب . يقال : زبرت الكتاب . . من باب نصر وضرب - أى
كتبته كتابة عظيمة .أى : وما أرسلنا من قبلك - أيها الرسول الكريم - إلا :
رجال مؤيدين بالمعجزات الواضحات ، وبالكتب العظيمة المشتملة على التشريعات
الحكيمة والآداب الحميدة ، والعقائد السليمة ، التى تسعد الناس فى دينهم
وفى دنياهم .وقوله - سبحانه - : ( وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذكر
لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ
يَتَفَكَّرُونَ ) . بيان للحكم التى من أجلها أنزل الله - تعالى - القرآن
- على النبى صلى الله عليه وسلم .أى : وأنزلنا إليك - أيها الرسول الكريم
القرآن ، لتعرف الناس بحقائق وأسرار ما أنزل لهدايتهم فى هذا القرآن من
تشريعات وآداب وأحكام ومواعظ ولعلهم بهذا التعريف والتبيين يتفكرون فيما
أرشدتهم إليه ، ويعملون بهديك ويقتدون بك فى أقوالك وأفعالك ، وبذلك يفوزون
ويسعدون .فأنت ترى أن الجملة الكريمة قد اشتملت على حكمتين من الحكم التى
أنزل الله - تعالى - من أجلها القرآن على النبى صلى الله عليه وسلم .أما
الحكمة الأولى : فهى تفسير ما اشتمل عليه هذا القرآن من آيات خفى معناها
على أتباعه ، بأن يوضح لهم صلى الله عليه وسلم ما أجمله القرآن الكريم من
أحكام أو يؤكد لهم صلى الله عليه وسلم هذه الأحكام .ففى الحديث الشريف عن
" : المقدام بن معد يكرب ، عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال
: ألا وإنى أوتيت الكتاب ومثله معه ، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول
عليكم بهذا القرآن ، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام
، فحرموه . . . " .وأما الحكمة الثانية : فهى التفكر فى آيات هذا القرآن
والاتعاظ بها ، والعمل بمقتضاها ، قال - تعالى - : ( أَفَأَمِنَ الذين
مَكَرُواْ السيئات .... )

افامن الذين مكروا السيئات ان يخسف الله بهم الارض او ياتيهم العذاب من حيث لا يشعرون

كما فسرها الوسيط قال الآلوسى ما ملخص : قوله - تعالى - ( أَفَأَمِنَ الذين
مَكَرُواْ السيئات ) هم عند أكثر المفسرين ، مشركو مكة ، الذين مكروا برسول
الله صلى الله عليه وسلم ، وراموا صد أصحابه عن الإيمان .وقيل : هم الذين
، احتالوا لهلاك الأنبياء . . . والمعول عليه ما عليه أكثر المفسرين
والاستفهام فى الآية الكريمة للتعجيب والتوبيخ .والفاء للعطف على مقدر دل.
عليه المقام .قال بعضهم ما ملخصه : " كل ما جاء فى القرآن الكريم ، من همزة

استفهام بعدها واو العطف أو فاؤه . فالأظهر فيه ، أن الفاء والواو كلتاهما عاطفة ما بعدها على محذوف دل عليه المقام . والتقدير هنا : أجهل الذين مكروا السيئات وعيد الله لهم بالعقاب ، فأمنوا مكره " .والمراد بمكرهم هنا سعيهم بالفساد بين المؤمنين ، على سبيل الإخفاء والخداع .والسيئات : صفة : لمصدر محذوف ، أى : مكروا المكرات السيئات . والمكرات - بفتح الكاف - جمع مكرة - بسكونها - وهى المرة من المكر .ويجوز أن تكون كلمة السيئات مفعولا به بتضمين ( مكروا ) معنى : فعلوا .والخسف : التغييب فى الأرض ، بحيث يصير المخسوف به فى باطنها .يقال : خسف الله بفلان الأرض ، إذا أهلكه بتغييبه فيها . . . .ومنه قوله - تعالى - : ( فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأرض والمعنى : أجهل الذين اجترحوا السيئات وعيدنا ، فأمنوا عقابنا وتوهموا ( أنهم لن يصيبهم شئ من عذابنا ، الذى من مظاهره خسف الأرض بهم كما خسفناها بقارون من قبلهم؟!!! .إن جهلهم هذا لدليل على انطماس بصيرتهم ، واستحواذ الشيطان عليهم .وقوله ( أَوْ يَأْتِيَهُمُ العذاب مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ ) بيان للون آخر من ألوان تهديدهم .أى : فى قدرتنا أن نخسف بهم الأرض ، وفى قدرتنا أيضا أن نرسل عليهم العذاب فجأة فيأتيهم من جهة لا يتوقعون مجيئه منها ، ولا يترقبون الشر من ناحيتها .وفى الجملة الكريمة إشارة إى أن هذا العذاب الذى يأتيهم من حيث لا يشعرون . عذاب لا يمكن دفعه أو الهرب منه ، لأنه أتاهم بغتة ، ومن جهة لا يترقبون الشر منها .وشبيه بهذا قوله - سبحانه - ( فَأَتَاهُمُ الله مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ . . ) .

او ياخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه -؛ ( أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ) بيان لنوع ثالث من أنواع التهديدات التى هددهم الله - تعالى - بها .والأخذ فى الأصل : حوز الشئ وتحصيله ، والمراد به هنا القهر والإهلاك والتدمير ومنه قوله - تعالى - :(فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ) وقوله - تعالى - : ( كَذَّبُواْ بِئَايَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ) والتقلب : الحركة السريعة إقبالا وإدبارا ، من أجل السعى فى شئون الحياة من متاجرة ومعاملة وسفر وغير ذلك .ومنه قوله - تعالى - : ( لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الذين كَفَرُواْ فِي البلاد ) أى : فى قدرتنا أن نخسف بهم الأرض ، وأن نرسل عليهم العذاب من حيث لا يشعرون ، وفى قدرتنا كذلك أن نهلكهم وهم يتحركون فى مناكب الأرض خلال سفرهم أو إقامتهم ، فإنهم فى جميع الأحوال لايعجزنا أخذهم ، ولامهرب لهم مما نريده بهم .

او ياخذهم على تخوف فان ربكم لرءوف رحيم

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

اولم يروا الى ما خلق الله من شيء يتفيا ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون

كما فسرها الوسيط قرأ جمهور القراء ( أَوَلَمْ يَرَوْاْ . . ) وقرأ حمزة والكسائى : ( أو لم تروا ) بالتاء ، على الخطاب ، على طريقة الالتفات وقوله ( من شئ ) بيان للإبهام الذى فى " ما " الموصولة فى قوله ( إلى مَا خَلَقَ الله ) .وقوله ( يتفيؤ ) من التفيؤ ، بمعنى الرجوع . يقال : فاء فلان يفئ إذا رجع وفاء الظل فيئا ، إذا عاد بعد إزالة ضوء الشمس له . وتفيؤ الظلال : تنقلها من جهة إلى أخرى بعد شروق الشمس ، وبعد زوالها .والظلال : جمع ظل ، وهو صورة الجسم المنعكس إليه نور .و ( داخرون ) من الدخور بمعنى الانقياد والخضوع ، يقال : دخر فلان يدخر دخورا ، ودخر - بزنة فرح - يدخر دخرا ، إذا انقاد لغيره وذل له .والمعنى : أعمى هؤلاء المشركون الذين مكروا السيئات ، ولم يروا ما خلق الله - تعالى - من الأشياء ذوات الظلال كالجبال والأشجار وغيرها - وهى تتنقل ظلالها . من جانب إلى جانب ، ومن جهة إلى جهة ، باختلاف الأوقات وهى فى كل الأحوال والأوقات منقادة لأمر الله تعالى - جارية على ما أراده لها من امتداد وتقلص وغير ذلك ، خاضعة كل الخضوع لما سخرت له .قال ابن كثير - رحمه الله - : يخبر - تعالى - عن عظمته وجلاله ، الذى خضع له كل شئ ودانت له الأشياء والمخلوقات بأسرها ، جمادها وحيواناتها ومكلفوها من الإنس والجن والملائكة ، فأخبر أن كل ماله ظل يتفيأ ذات اليمين وذات الشمال - أى بكرة وعشيا - ، فإنه ساجد بظله لله تعالى - .والاستفهام فى قوله - تعالى - ( أَوَلَمْ يَرَوْاْ . . ) للإنكار والتوبيخ ، والرؤية بصرية .أى : قد رأوا كل ذلك ، ولكنهم لم ينتفعوا بما رأوا ، ولم يتعظوا بما شاهدوا .والمراد بقوله : ( عَنِ اليمين والشمآئل ) جهتهما ، وليس المراد التقييد بذلك ، إذ أن الظل أحيانا يكون أمام الإنسان

وأحيانا يكون خلفه . وإنما ذكر اليمين والشمائل اختصارا للكلام .وأفرد
، اليمين ، لأن المراد به جنس الجهة ، كما يقال : المشرق ، أى جهة المشرق
وجمع ( الشمائل ) - مفرده شمال - ، لأن المقصود تعدد هذه الجهة باعتبار
تعدد أصحابها .قال الشوكانى : قال الفراء : وحد اليمين ، لأنه أراد واحدا
من ذوات الأظلال ، وجمع الشمائل ، لأنه أراد كلها .وقال الواحدى : وحد
اليمين والمراد به الجميع إيجازا فى اللفظ ، كقوله ( ويولون الدبر ) ودلت
الشمائل على أن المراد به الجمع . وقيل : إن العرب إذا ذكرت صيغتى جمع عبرت
عن إحداهما بلفظ الواحد ، كما فى قوله - تعالى - ( وَجَعَلَ الظلمات والنور
وقوله - سبحانه - : ( سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ) . حال ( . . .
من ( ظلاله ) أى : حال كون هذه الأشياء وظلالها سجدا لله - تعالى - ، وحال
- كون الجميع لا يمتنع عن أمر الله - تعالى - ، بل الكل خاضع له - سبحانه
. كل الخضوع

ولله يسجد ما في السماوات وما في الارض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون

`<!-- TODO:MISSING -->`{=html} كما فسرها الوسيط

يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون

`<!-- TODO:MISSING -->`{=html} كما فسرها الوسيط

وقال الله لا تتخذوا الهين اثنين انما هو اله واحد فاياي فارهبون

كما فسرها الوسيط قال الإمام الرازى : اعلم أنه - سبحانه - لما بين فى
الآيات الأولى ، أن ما سوى الله - تعالى - سواء أكان من عالم الأرواح أم من
عالم الأجسام ، منقاد وخاضع لجلاله - تعالى - وكبريائه - أتبعه فى هذه
، الآية بالنهى عن الشرك ، وببيان أن كل ما سواه واقع فى ملكه وتحت تصرفه
وأنه غنى عن الكل ، فقال - تعالى - : ( وَقَالَ الله لاَ تَتَّخِذُواْ
إلهين اثنين . . . ) .أى : وقال الله - تعالى - لعباده عن طريق رسله عليهم
الصلاة والسلام - لا تتخذوا شركاء معى فى العبادة والطاعة ، بل اجعلوهما لى
وحدى ، فأنا الخالق لكل شئ والقادر على كل شئ .قال الآلوسى :وقوله ( وقال
الله . . ) معطوف على قوله - سبحانه - ( وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي
السماوات وَمَا فِي الأرض . . ) وإظهار الفاعل ، وتخصيص لفظ الجلالة بالذكر
للإيذان بأنه - تعالى - متعين الألوهية والمنهى عنه هو الاشراك به ، لا ،
أن المنهى عنه هو مطلق اتخاذ إلهين . . .( اثنين ) صفة للفظ إلهين أو مؤكد
له . وخص هذا العدد بالذكر ، لأنه الأقل ، فيعلم انتفاء اتخاذ ما فوقه
بالطريق الأولى .وقوله - سبحانه - ( إِنَّمَا هُوَ إله وَاحِدٌ ) بيان
وتوكيد لما قبله ، وهو مقول لقوله - سبحانه - ( وقال الله ) .أى : وقال
الله لا تتخذوا معى فى العبادة إلها آخر ، وقال - أيضا - إنما المستحق
، للعبادة إله واحد ، والقصر فى الجملة الكريمة من قصر الموصوف على الصفة
أى الله وحده هو المختص بصفة الوحدانية .وقد نهى - سبحانه - عن الشرك فى
. . . ) - آيات كثيرة ، وأقام الأدلة على بطلانه ومن ذلك قوله - تعالى
وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ الله إِلهاً آخَرَ فتلقى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً
مَّدْحُوراً ) وقوله - سبحانه - ( لَوْ كَانَ فِيهِمَآ آلِهَةٌ إِلاَّ الله
لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ الله رَبِّ العرش عَمَّا يَصِفُونَ ) والفاء فى
قوله ( فإياى فارهبون ) واقعة فى جواب شرط مقدر و ( إياى ) مفعول به لفعل
محذوف يقدر مؤخرا ، يدل عليه قوله ( فارهبون ) .والرهبة : الخوف الممحوب
بالتحرز ، وفعله رهب بزنة طرب .والمعنى : إن رهبتم شيئا فإياى فارهبوا دون
غيرى ، لأنى أنا الذى لا يعجزنى شئ .وفى الجملة الكريمة التفات من الغيبة
إلى الخطاب ، للمبالغة فى التخويف ، إذ تخويف الحاضر أبلغ من تخويف الغائب
لاسيما بعد أن وصف - سبحانه - ذاته بما وصف من صفات القهر والغلبة ،
، والكبرياء .وقدم المفعول وهو إياى لإفادة الحصر ، وحذف متعلق الرهبة
للعموم .أى : ارهبونى فى جميع ما تأتون وما تذرون .والمتأمل فى هذه الآية
الكريمة يراها قد اشتملت على ألوان من المؤكدات للنهى عن الشرك ، والأمر
.. بإخلاص العبادة لله - تعالى - وحده ، تارة عن طريق التقرير ( وقال الله
وتارة عن طريق النهى الصريح ، وتارة عن طريق القصر وتارة عن طريق التخصيص (
وذلك لكى يقلع الناس عن هذه الرذيلة النكراء ، ويؤمنوا بالله الواحد.
. القهار

وله ما في السماوات والارض وله الدين واصبا افغير الله تتقون

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ما يدل على كمال قدرته ، ونفاذ
إرادته ، فقال - تعالى - : ( وَلَهُ مَا فِي السماوات والأرض وَلَهُ الدين
وَاصِباً . . ) .والمراد بالدين هنا : الطاعة والخضوع بامتثال أمره واجتناب

نهيه ، وقد أتى الدين بمعنى الطاعة فى كثير من كلام العرب ، ومن ذلك قول
عمرو بن كلثوم فى معلقته :وأياما لنا غرا كراما ... عصينا الملك فيها أن
ندينا أى : عصيناه وامتنعنا عن طاعته وعن الخضوع له .قوله ( واصبا ) من
، الوصوب بمعنى الدوام والثبات ، يقال : وصب الشئ يصب - بكسر الصاد - وصوبا
إذا دام وثبت . ومنه قوله - تعالى - ( دُحُوراً وَلَهُمْ عَذابٌ وَاصِبٌ )
أى : دائم .أى : ولله - تعالى - وحده ما فى السموات وما فى الأرض ملكا
- وخلقا ، لا شريك له فى ذلك ، ولا منازع له فى أمره أو نهيه . . وله
أيضا - الطاعة الدائمة ، والخضوع الباقى الثابت الذى لا يحول ولا يزول
والآية الكريمة معطوفة على قوله ( إِنَّمَا هُوَ إله وَاحِدٌ ).
، والاستفهام فى قوله ( أَفَغَيْرَ الله تَتَّقُونَ ) للإنكار والتعجيب.
والفاء للتعقيب ، وهى معطوفة على محذوف ، والتقدير ، أفبعد أن علمتم أن
الله - تعالى - له ما فى السموات والأرض ، وله الطاعة الدائمة . . تتقون
غيره ، أو ترهبون سواه؟إن من يفعل ذلك لا يكون من جملة العقلاء ، وإنما
. يكون من الضالين الجاهلين

وما بكم من نعمة فمن الله ثم اذا مسكم الضر فاليه تجارون

- كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن كل نعمة فى هذا الكون ، هو
سبحانه - مصدرها وموجدها ، فقال : ( وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ
، الله . . ) .أى : وكل نعمة عندكم كعافية فى أبدانكم ، ونماء فى مالكم
وكثرة فى أولادكم ، وصلاح فى بالكم . . فهى من الله - تعالى - وحده
، فالمراد بالنعمة هنا النعم الكثيرة التى أنعم بها - سبحانه - على الناس.
لأنه لم يقم دليل على أن المراد بها نعمة معينة ، وعلماء البيان يعدون
استعمال المفرد فى معنى الجمع - اعتمادا على القرينة - من أبلغ الأساليب
الكلامية ، و " ما " موصولة مبتدأ ، متضمنة معنى الشرط . وقوله ( فمن الله
- خبرها .وقوله ( من نعمة ) بيان لما اشتملت عليه " ما " من إبهام .وقوله (
سبحانه - ( ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضر فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ثُمَّ إِذَا
( كَشَفَ الضر عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ
بيان لطبيعة الإنسان ، ولموقفه من خالقه - عز وجل - والضر : يشمل المرض
والبلاء والفقر وكل ما يتضرر منه الإنسان .وقوله ( تجأرون ) من الجؤار
بمعنى - رفع الصوت بالاستغاثة وطلب العون ، يقال : جأر فلان يجأر جأرا
. وجؤارا ، إذا رفع صوته بالدعاء وتضرع واستغاث وأصله : صياح الوحش

ثم اذا كشف الضر عنكم اذا فريق منكم بربهم يشركون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضر
فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضر عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ
مِّنْكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ) بيان لطبيعة الإنسان ، ولموقفه من
خالقه - عز وجل - والضر : يشمل المرض والبلاء والفقر وكل ما يتضرر منه
الإنسان .وقوله ( تجأرون ) من الجؤار بمعنى - رفع الصوت بالاستغاثة وطلب
العون ، يقال : جأر فلان يجأر جأرا وجؤارا ، إذا رفع صوته بالدعاء وتضرع
. واستغاث وأصله : صياح الوحش

ليكفروا بما اتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون

`<!-- TODO:MISSING -->`{=html} كما فسرها الوسيط

ويجعلون لما لا يعلمون نصيبا مما رزقناهم تالله لتسالن عما كنتم تفترون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ
يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ . . . ) . معطوف على ما سبقه
) بحسب المعنى ، لتسجيل رذائلهم ، وتعداد جناياتهم .وضمير الجمع فى قوله
لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ ) يصح أن يعود إلى الكفار ، كالذى قبله فى ( ويجعلون
- فيكون المعنى : إن هؤلاء المشركين يفعلون ما يفعلون من إشراكهم بالله. (
تعالى - ومن التضرع إليه عند الضر ونسيانه عند الرخاء . . ولا يكتفون بذلك
بل ويجعلون للأصنام التى لا يعلمون منها ضرا ولا نفعا ، نصيبا مما ،
) رزقناهم من الحرث والأنعام وغيرهما .ويصح أن يعود ضمير الجمع فى قوله
لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ ) للأصنام ، فيكون المعنى : ويجعلون للأصنام التى لا
تعلم شيئا لأنها جماد لا يعقل ولا يسمع ولا يبصر . . يجعلون لها نصيبا مما
رزقناهم .قال الآلوسى : " قوله : ( لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ ) أى لآلهتهم
، التى لا يعلمون أحوالها وأنها لا تضر ولا تنفع ، على أن " ما " موصولة
والعائد محذوف؛ وضمير الجمع للكفار ، أو لآلهتهم التى لا علم لها بشئ لأنها
جماد . على أن " ما " موصوله - أيضا - عبارة عن الآلهة ، وضمير ( يعلمون )
عائد عليها ومفعول ( يعلمون ) متروك لقصد العموم ، وصيغة جمع العقلاء

، لوصفهم الآلهة بصفاتهم . . " .وقال - سبحانه - ( نصيبا ) بالتنكير
- للايماء بأنه نصيب كبير وضعوه فى غير موضعه ووصفه بأنه مما رزقهم
سبحانه - لتهويل جهلهم وظلمهم ، حيث تركوا التقرب إلى الرازق الحقيقى - جل
وعلا - ، وتقربوا بجانب كبير مما رزقهم به - سبحانه - إلى جمادات لا تغنى
عنهم شيئا .وما أجملته هذه الآية الكريمة عن جهالتهم ، فصلته آيات أخرى
منها قوله - تعالى - فى سورة الأنعام :( وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ
مِنَ الحرث والأنعام نَصِيباً فَقَالُواْ هذا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وهذا
لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى الله وَمَا
كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ )
وقوله - سبحانه - ( تالله لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ )
تهديد ووعيد لهم على سوء أفعالهم . أى : أقسم بذاتى لتسألن - أيها
المشركون - سؤال توبيخ وتأنيب فى الآخرة ، عما كنتم تفترونه من أكاذيب فى
الدنيا ، ولأعاقبنكم العقاب الذى تستحقونه بسبب افترائكم وكفركم . وصدرت
الجملة الكريمة بالقسم ، لتأكيد الوعيد ، ولبيان أن العقاب أمر محقق
، بالنسبة لهم وجاءت الجملة الكريمة بأسلوب الالتفات من الغيبة إلى الخطاب
. لأن توبيخ الحاضر أشد من توبيخ الغائب

ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ البنات
سُبْحَانَهُ ) بيان لرذيلة أخرى من رذائلهم الكثيرة ، وهو معطوف على ما قبله
وسؤالهم يوم القيامة عما اجترحوه - مع أنه سؤال تقريع وتأنيب - إلا أنه.
يدل على عدل الله - تعالى - مع هؤلاء الظالمين ، لأنه لم يعاقبهم إلا بعد
أن سألهم ، وبعد أن ثبت إجرامهم وفى ذلك ما فيه من تعليم العباد أن يكونوا
منصفين فى أحكامهم .وهذه الآية الكريمة تحكى ما كان شائعا فى بعض قبائل
العرب ، من أنهم كانوا يزعمون أن الملائكة بنات الله . قالوا : وكانت قبيلة
خزاعة ، وقبيلة كنانة تقولان بذلك فى الجاهلية .أى : أن هؤلاء المشركين لم
، يكتفوا بجعل نصيب مما رزقناهم لآلهتهم ، بل أضافوا إلى ذلك رذيلة أخرى
وهى أنهم زعموا أن الملائكة بنات الله - تعالى - ، وأشركوها معه فى العبادة
، قوله ( سبحانه ) مصدر نائب عن الفعل ، وهو منصوب على المفعولية المطلقة.
وهو فى محل جملة معترضة ، وقعت جوابا عن مقالتهم السيئة ، التى حكاها
الله - تعالى - عنهم ، وهى ( وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ البنات ) .أى : تنزه
، وتقدس الله - عز وجل - عن أن يكون له بنات أو بنين ، فهو الواحد الأحد
الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد .والمراد بما
يشتهونه فى قوله - عز وجل - : ( وَلَهُمْ مَّا يَشْتَهُونَ ) الذكور من
، الأولاد .أى : أن هؤلاء المشركين يجعلون لأصنامهم نصيبا مما رزقناهم
، ويجعلون لله - تعالى - البنات ، أما هم فيجعلون لأنفسهم الذكور
: - ويختارونهم ليكونوا خلفاء لهم .وشبيه بهذه الآية الكريمة قوله - تعالى
وَجَعَلُواْ الملائكة الذين هُمْ عِبَادُ الرحمن إِنَاثاً أَشَهِدُواْ )
خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ
الرحمن مَا عَبَدْنَاهُمْ مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ
إِلاَّ يَخْرُصُونَ ).

واذا بشر احدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم

، كما فسرها الوسيط ثم صور - سبحانه - حالتهم عندما يبشرون بولادة الأنثى
وحكى عاداتهم الجاهلية المنكرة فقال - تعالى - : ( وَإِذَا بُشِّرَ
أَحَدُهُمْ بالأنثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ يتوارى مِنَ
القوم مِن سواء مَا بُشِّرَ بِهِ . . ) .قال الآلوسى : " قوله ( وَإِذَا
بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بالأنثى . . ) أى : أخبر بولادتها . وأصل البشارة
الإخبار بما يسر . لكن لما كانت ولادة الأنثى تسوءهم حملت على مطلق
الإخبار . وجوز أن يكون ذلك بشارة باعتبار الولادة ، بقطع النظر عن كونها
، أنثى . . " .وقوله ( كظيم ) من الكظم بمعنى الحبس . يقال : كظم فلان غيظه
إذا حبسه وهو ممتلئ به وفعله من باب ضر .والمعنى : وإذا أخبر أحد هؤلاء
الذين يجعلون لله البنات ، بولادة الأنثى دون الذكر ، صار وجهه مسودا كئيبا
كأن عليه غبرة ، ترهقه قترة - أى تعلوه ظلمه وسواد - ، وصار جسده ممتلئا
. بالحزن المكتوم ، والغيظ المحبوس

يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ايمسكه على هون ام يدسه في التراب الا
ساء ما يحكمون

كما فسرها الوسيط وأصبح يتوارى ويتخفى عن أعين الناس خجلا وحياء ، من أجل
أن زوجته ولدت له أنثى ولم تلد له ذكرا .وقوله - سبحانه - : ( أَيُمْسِكُهُ
على هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التراب ) تصوير بليغ لموقف ذلك المشرك مما

بشر به وهو ولادة الأنثى .فالضمير المنصوب فى قوله " أيمسكه ، ويدسه " يعود
على المبشر به وهو الأنثى .والهون بمعنى الهوان والذل .ويدسه من الدس بمعنى
، الإخفاء للشئ فى غيره . والمراد به . دفن الأنثى حية فى التراب حتى تموت
وهو المشار إليه فى قوله - تعالى - : ( وَإِذَا الموءودة سُئِلَتْ بِأَيِّ
ذَنبٍ قُتِلَتْ ) أى : أن هذا المشرك بعد أن يبشر بولادة الأنثى ، يدور
بذهنه أحد أمرين : إما أن يمسكها ويبقيها على هوان وذل ، وإما أن يدسها
ويخفيها فى التراب ، بأن يدفنها فيه وهى حية حتى تموت .والجار والمجرور فى
قوله ( على هون ) يصح أن يكون حالا من الفاعل وهو المشرك : أى أيمسك المبشر
به مع رضاه - أى المشرك - بهوان نفسه وذلتها بسبب هذا الإمساك .ويصح أن
يكون حالا من المفعول وهو الضمير المنصوب . أى أيمسك هذه الأنثى ويبقيها
بقاء ذلة وهوان لها ، بحيث لا يورثها شيئا من ماله ، ولا يعاملها معاملة
حسنة .ومن بلاغة القرآن أنه عبر بقوله ( أَيُمْسِكُهُ على هُونٍ ) ليشمل
حالة المشرك وحالة المبشر به وهو الأنثى .وقوله - تعالى - : ( أَلاَ سَآءَ
: مَا يَحْكُمُونَ ) . ذم لهم على صنيعهم السيئ ، وعلى جهلهم الفاضح .أى
- بئس الحكم حكمهم ، وبئس الفعل فعلهم ، حيث نسبوا البنات إلى الله - تعالى
وظلموهن ظلما شنيعا ، حيث كرهوا وجودهن ، وأقدموا على قتلهن بدون ذنب أو ،
" ما يشبه الذنب .وصدر - سبحانه - هذا الحكم العادل عليهم بحرف " ألا
الاستفتاحية : لتأكيد هذا الحكم ، ولتحقيق أن ما أقدموا عليه ، إنما هو جور
- عظيم ، قد تمالئوا عليه بسبب جهلهم الفاضح ، وتفكيرهم السيئ .أسند
سبحانه - الحكم إلى جميعهم ، مع أن من فعل ذلك كان بعضا منهم ، لأن ترك هذا
البعض يفعل ذلك الفعل القبيح ، هذا الترك هو فى ذاته جريمة يستحق عليها
جميع العقوبة ، لأن سكوتهم على هذا الفعل مع قدرتهم على منعه يعتبر رضا به
.

للذين لا يؤمنون بالاخرة مثل السوء ولله المثل الاعلى وهو العزيز الحكيم

كما فسرها الوسيط ثم أتبع - سبحانه -هذا الذم لهم بذم آخر على سبيل التأكيد
فقال - تعالى - : ( لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة مَثَلُ السوء
وَلِلَّهِ المثل الأعلى وَهُوَ العزيز الحكيم ) .والمثل : الحال والصفة
العجيبة فى الحسن والقبح .والسوء : مصدر ساءه يسوءه سوءا ، إذا عمل معه ما
يكره ، وإضافة المثل إلى السوء للبيان .والمراد بمثل السوء : أفعال
المشركين القبيحة التى سبق الحديث عنها .والمعنى للذين لا يؤمنون بالآخرة
، وما فيها من حساب وثواب وعقاب . . صفة السوء ، التى هى كالمثل فى القبح
: وهى وأدهم البنات ، وجعلهم لآلهتهم . نصيبا مما رزقناهم ، وقولهم
الملائكة بنات الله ، وفرحهم بولادة الذكور للاستظهار بهم .فهذه الصفات تدل
: على غبائهم وجهلهم وقبح تفكيرهم .أما الله - عز وجل - فله المثل الأعلى
: أى الصفة العليا ، وهى أنه الواحد الأحد ، المنزه عن الوالد والولد
والمبرأ من مشابهة الحوادث ، والمستحق لكل صفات الكمال والجلال فى
. الوحدانية ، والقدرة والعلم

ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم الى اجل
مسمى فاذا جاء اجلهم لا يستاخرون ساعة ولا يستقدمون

كما فسرها الوسيط و " لو " فى قوله - تعالى - : ( وَلَوْ يُؤَاخِذُ الله
الناس بِظُلْمِهِمْ . . ) حرف امتناع لامتناع . أى : حرف شرط يدل على
، امتناع وقوع جوابه ، لأجل امتناع وقوع شرطه ، وقد امتنع هنا إهلاك الناس
لامتناع إرادة الله - تعالى - ذلك .وقوله ( يؤاخذ ) مفاعلة من المؤاخذة
- بمعنى العقوبة ، فالمفالعة فيه بمعنى الفعل المجرد . فمعنى آخذ الله
تعالى - الناس يؤاخذهم : أخذهم وعاقبهم بسبب ذنوبهم .والأخذ بمعنى العقاب
قد جاء فى القرآن الكريم فى آيات كثيرة : ومن ذلك قوله - تعالى - ( وكذلك
أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ القرى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ
أَلِيمٌ شَدِيدٌ ) والباء فى ( بظلمهم ) للسببية ، والظلم : مجاوزة الحدود
- التى شرعها الله - تعالى - وأعظمه الإشراك بالله - تعالى - كما قال
تعالى - ( إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ) والمراد من المؤاخذة بسبب ظلمهم
تعجيل العقوبة لهم فى الدنيا .والضمير فى قوله - سبحانه - ( عليها ) يعود :
على الأرض . وصح عود الضمير عليها مع أنه لم يسبق ذكر لها ، لأن قوله ( من
دابة ) يدل على ذلك لأنه من المعلوم ، أن الدواب تدب على الأرض .ونظيره
قوله - تعالى - فى آية أخرى ( مَا تَرَكَ على ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ )
وقوله ( حتى تَوَارَتْ بالحجاب ) أى : الشمس . فإنه وإن كان لم يجر لها ذكر
إلا أن المقام يدل عليها .ورجوع الضمير إلى غير مذكور فى الكلام إلا أن
المقام يدل عليه كثير فى كلام العرب ، ومنه قول حاتم الطائى :أماوىّ ما
يغنى الثراء عن الفتى ... إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدرفقوله : حشرجت وضاق
بها ، المقصود به الروح أو النفس ، ولم يجر لها ذكر ، إلا أن قوله : وضاق
بها الصدر ، يعين أن المراد بها النفس .والمراد بالساعة فى ( لا

: يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ) مطلق الوقت الذى هو غاية فى القلة .والمعنى
، ولو عاجل الله - تعالى - الناس بالعقوبة ، بسبب ما اجترحوه من ظلم وآثام
- لأهلكهم جميعا ، وما ترك على ظهر الأرض من دابة تدب عليها ، ولكنه
) سبحانه - فضلا منه وكرما ، لا يعاجلهم بالعقوبة التى تستأصلهم بل يؤخرهم
إلى أَجَلٍ مسمى ) أى : إلى وقت معين محدد تنتهى عنده حياتهم ، وهذا الوقت
: المحدد لا يعلمه إلا هو - سبحانه - ( فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ ) . أى
فإذا حان الوقت المحدد لهلاكهم ، فارقوا هذه الدنيا بدون أدنى تقديم أو
: تأخير عن هذا الوقت .هذا ، ومن العلماء من ذهب إلى أن المراد بالناس هنا
الكفار خاصة ، لأنهم هم الذين أشركوا مع الله آلهة أخرى .ويبدو لنا أن
المراد بالناس هنا : العموم ، لأن قوله ( من دابة ) يشمل كل ما يطلق عليه
اسم الدابة ، ولأن النكرة فى سياق النفى إذا زيدت قبلها لفظة " من " تكون
: نصا صريحا فى العموم .وإلى العموم أشار ابن كثير عند تفسيره للآية بقوله
يخبر الله - تعالى - عن حلمه بخلقه مع ظلمهم ، وأنه لو يؤاخذهم بما كسبوا "
ما ترك على ظهر الأرض من دابة ، أى : لأهلك جميع دواب الأرض تبعا لإهلاك
: بنى آدم . ولكن الرب - جل وعلا - يحلم ويستر ويُنظر . . " .وقال القرطبى
فإن قيل : فكيف يعم بالهلاك مع أن فيهم مؤمنا ليس بظالم؟فالجواب : يجعل
هلاك الظالم انتقاما وجزاء ، وهلاك المؤمن معوضا بثواب الآخرة ، وفى صحيح
" : مسلم عن عبد الله بن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول
إذا أراد الله - تعالى - بقوم عذابا أصاب العذاب من كان فيهم ثم بعثوا على
) : - نياتهم - وأعمالهم - "وشبيه بهذه الآية الكريمة قوله - تعالى
وَرَبُّكَ الغفور ذُو الرحمة لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ
لَهُمُ العذاب بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِ مَوْئِلاً
وقوله - تعالى - : ( وَلاَ تَحْسَبَنَّ الله غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ (
( الظالمون إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأبصار
وقوله - تعالى - : ( إِنَّ أَجَلَ الله إِذَا جَآءَ لاَ يُؤَخَّرُ لَوْ
كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ).

ويجعلون لله ما يكرهون وتصف السنتهم الكذب ان لهم الحسنى لا جرم ان لهم
النار وانهم مفرطون

- كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - رذيلة أخرى من رذائل المشركين فقال
تعالى - ( وَيَجْعَلُونَ لِلّهِ مَا يَكْرَهُونَ . . . ) .أى : أن هؤلاء
المشركين لا يكتفون بإنكارهم البعث وبجحود نعم الله - تعالى - بل أضافوا
إلى ذلك أنهم يثبتون له - سبحانه وينسبون إليه كذبا وزورا - ما يكرهونه
لأنفسهم ، فهم يكرهون أن يشاركهم أحد فى أموالهم أو فى مناصبهم؛ ومع ذلك
، يشركون مع الله - تعالى - فى العبادة آلهة أخرى ، ويكرهون أراذل الأموال
، ومع ذلك يجعلون لله - تعالى - أراذل أموالهم . ويجعلون لأصنامهم أكرمها
ويكرهون البنات ، ومع ذلك ينسبونهن إليه - سبحانه - . فالجملة الكريمة تنعى
) - عليهم أنانيتهم ، وسوء أدبهم مع خالقهم - عز وجل - وقوله - سبحانه
وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الكذب أَنَّ لَهُمُ الحسنى . . . ) تصوير بليغ لما
جبلوا عليه من كذب صريح ، وبهتان واضح .ومعنى : ( تصف ) تقول وتذكر بشرح
وبيان وتفصيل ، حتى لكأنها تذكر أوصاف الشئ ، وجملة ( أَنَّ لَهُمُ الحسنى
بدل من ( الكذب ) .والحسنى : تأنيث الأحسن ، والمراد بها زعمهم أنه إن (
كانت الآخرة حقا ، فسيكون لهم فيها أحسن نصيب وأعظمه ، كما كان لهم فى
الدنيا ذلك ، فقد روى أنهم قالوا : إن كان محمد صلى الله عليه وسلم صادقا
فيما يخبر عنه من أمر البعث ، فلنا الجنة . . .والمعنى : أن هؤلاء المشركين
يجعلون لله - تعالى - ما يكرهونه من الأولاد والأموال والشركاء ، وتنطق
ألسنتهم بالكذب نطقا واضحا صريحا إذ زعموا أنه إن كانت الآخرة حقا ، فسيكون
لهم فيها أحسن نصيب ..وهذا الزعم قد حكاه القرآن عنهم فى آيات متعددة منها
قوله - تعالى - (وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً
وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ) وقوله - تعالى - : ( أَفَرَأَيْتَ الذي
كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً . . . ) قال صاحب
الكشاف : فإن قلت ما معنى وصف ألسنتهم الكذب؟ قلت : هو من فصيح الكلام
وبليغه . جعل قولهم كأنه عين الكذب ومحضه ، فإذا نطقت به ألسنتهم فقد حلت
الكذب بحليته ، وصورته بصورته . كقولهم : وجهها يصف الجمال ، وعينها تصف
السحر .وقال بعض العلماء : والتعبير القرآنى فى قوله ( وَتَصِفُ
أَلْسِنَتُهُمُ الكذب ) يجعل ألسنتهم ذاتها كأنها الكذب ذاته ، أو كأنها
صورة له ، تحكيه وتصفه بذاتها ، كما تقول : فلان قوامه يصف الرشاقة . . لأن
) - ذلك القوام بذاته تعبير عن الرشاقة ، مفصح عنها .كذلك قال - سبحانه
وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الكذب . . . ) فهى بذاتها تعبير عن الكذب ، لطول
ما قالت الكذب ، ولكثرة ما عبرت عنه ، حتى صارت رمزا عليه ، ودلالة له
وقوله - سبحانه - : ( لاَ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النار وَأَنَّهُمْ.
مُّفْرَطُونَ ) تكذيب لهم فيما زعموه من أن لهم الحسنى ، ووعيد لهم
بإلقائهم فى النار .وكلمة (لا جرم ) وردت فى القرآن الكريم فى خمسة مواضع

متلوة بأن واسمها وليس بعدها فعل . وجمهور النحاة على أنها مركبة من "لا ، و ( جرم ) تركيب خمسة عشر . ومعناها بعد التركيب معنى حق وثبت . والجملة " - بعدها فاعل ، أى : حق وثبت كونهم لهم النار وأنهم مفرطون فيها .وقوله سبحانه - : ( مفرطون ) قرأها الجمهور - بسكون الفاء وفتح الراء - بصيغة اسم المفعول من أفرطه بمعنى قدمه . يقال : أفرطته إلى كذا . أى : قدمته إليه قال القرطبى : والفارط الذى يتقدم غيره إلى الماء . ومنه قول النبى صلى. الله عليه وسلم : " أنا فرطكم على الحوض " أى : متقدمكم . . . .أو من أفرط : إذا نسيه وتركه . تقول : أفرطت فلانا خلفى ، إذا تركته ونسيته .والمعنى أن هؤلاء الذين يزعمون أن لهم الحسنى فى الآخرة كذبوا فى زعمهم ، وفجروا فى إفكهم ، فإنهم ليس لهم شئ من ذلك ، وإنما الأمر الثابت الذى لا شك فيه ، أن ، لهم فى الآخرة النار ، وأنهم مفرطون فيها ، مقدمون إليها بدون إمهال - ومتروكون فيها بدون اكتراث بهم ، كما يترك الشئ الذى لا قيمة له . قال تعالى - : ( فاليوم نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هذا ) . وقرأ نافع ( وأنهم مفرطون ) - بسكون الفاء وكسر الراء - بصيغة اسم الفاعل من أفرط اللازم بمعنى أسرف وتجاوز الحد . يقال : أفرط فلان فى كذا ، إذا تجاوز الحدود المشروعة .فيكون المعنى :لا جرم أن لهم النار ، وأنهم مفرطون ومسرفون فى الأقوال والأعمال التى جعلتهم حطبا لها ، ووقودا لنيرانها كما قال - تعالى - :( وَأَنّ المسرفين هُمْ أَصْحَابُ النار ).

تالله لقد ارسلنا الى امم من قبلك فزين لهم الشيطان اعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب اليم

كما فسرها الوسيط ثم وجه - سبحانه - خطابا لنبيه صلى الله عليه وسلم على سبيل التسلية والتثبيت ، حيث بين له أنه ما أصابه من مشركى قومه ، قد فعل ما يشبهه المشركون السابقون مع أنبيائهم ، فقال - تعالى - : ( تالله لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إلى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيّنَ لَهُمُ الشيطان أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ اليوم وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ) .وقوله من التزيين وهو تصيير الشئ زينا ، أى : حسنا والزينة : هى ما فى ( فزين ) - الشئ من محاسن ترغب الناس فيه .والمعنى : أقسم لك - أيها الرسول الكريم بذاتى ، لقد أرسلنا رسلا كثيرين إلى أمم كثيرة من قبلك ، فكانت النتيجة أن استحوذ الشيطان على نفوس عامة هؤلاء المرسل اليهم ، حيث زين لهم الأفعال القبيحة ، وقبح لهم الأعمال الحسنة ، وجعلهم يقفون من رسلهم موقف المكذب ) : - لأقوالهم ، المعرض عن إرشاداتهم ، المحارب لدعوتهم .وقوله - سبحانه فَهُوَ وَلِيُّهُمُ اليوم وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ) بيان لسوء عاقبة هؤلاء الذين زين لهم الشيطان سوء أعمالهم فرأوه حسنا .قال الإمام الشوكانى ما ملخصه : " والمراد باليوم فى قوله - تعالى - : ( فَهُوَ وَلِيُّهُمُ اليوم ) يحتمل أن يكون المراد به زمان الدنيا - أى مدة أيام الدنيا - فيكون المعنى : فهو قرينهم فى الدنيا . ويحتمل أن يكون اليوم عبارة عن يوم القيامة وما بعده . فيكون للحال الآتية . ويكون الولى بمعنى الناصر . والمراد نفى الناصر عنهم بأبلغ الوجوه ، لأن الشيطان لا يتصور منه النصرة أصلا فى الآخرة .ويحتمل أن يكون المراد باليوم بعض زمان الدنيا ، وهو على وجهين : الأول أن يراد البعض الذى مضى ، وهو الذى وقع فيه التزيين للأمم الماضية من الشيطان ، فيكون على طريق الحكاية للحال الماضية . . الثانى : أن يراد البعض الحاضر ، وهو وقت نزول الآية . والمراد تزيين الشيطان لكفار قريش أعمالهم ، فيكون الضمير فى ( وليهم ) لكفار قريش . فيكون المعنى : فهو ولى هؤلاء المشركين اليوم أى : معينهم على الكفر والمعاصى لهم ولأمثالهم عذاب أليم فى الآخرة " .

وما انزلنا عليك الكتاب الا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أهم الوظائف التى من أجلها أنزل كتابه على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم فقال : ( وَمَآ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكتاب إلاَّ لِتُبَيّنَ لَهُمُ الذي اختلفوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ) .أى : وما أنزلنا عليك - أيها الرسول الكريم - هذا القرآن ، إلا من أجل أن تبين لمن أرسلت اليهم وجه الصواب فيما اختلفوا فيه من أمور العقائد والعبادات والمعاملات والحلال والحرام . . . وبذلك يعرفون الحق من الباطل ، والخير من الشر .وسيقت هذه المعانى بأسلوب القصر ، لقصد الإحاطة بأهم الغايات التى من أجلها أنزل الله - تعالى - كتابه على نبيه الكريم ، ولترغيب السامعين فى تقبل إرشادات هذا الكتاب بنفس منشرحة ، وقلب متفتح .

والله انزل من السماء ماء فاحيا به الارض بعد موتها ان في ذلك لاية لقوم يسمعون

كما فسرها الوسيط والمراد بالسماء فى قوله - تعالى - : ( والله أَنْزَلَ
مِنَ السمآء مَآءً ) : جهة العلو أو السحاب المنتشر فى طبقات الجو العليا
، والذى تنزل منه الأمطار .والمراد بإحياء الأرض : تحرك القوى النامية فيها
وإظهار ما أودعه الله - تعالى - فيها من نبات وأزهار ، وثمرات ، وغير ذلك
مما تنبته الأرض .والمراد بموتها : خلوها من ذلك ، بسبب استيلاء القحط
والجدب عليها .قال - تعالى - : ( وَتَرَى الأرض هَامِدَةً فَإِذَآ
أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المآء اهتزت وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ
بَهِيجٍ ) أى : وكما أنزل الله - تعالى - كتابه ليكون هداية ورحمة لقوم
يؤمنون ، أنزل - سبحانه - أيضا الماء من السماء على الأرض ، فتحولت بسبب
نزول هذا الماء المبارك الكثير عليها ، من أرض جدباء خامدة ، إلى أرض خضراء
) : - رابية .ثم حرض - سبحانه - عباده على التدبر والشكر فقال - تعالى
إِنّ فِي ذلك لآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ) .أى : إن فى ذلك الذى فعلناه
، بقدرتنا وحدها ء من إنزل الماء من السماء ، وإحياء الأرض به من بعد موتها
لآية عظيمة ، وعبرة جليلة ، ودلالة واضحة تدل على وحدانيتنا وقدرتنا
وحكمتنا ، ( لقوم يسمعون ) ما يتلى عليهم من كلام الله - تعالى - سماع تدبر
واعتبار ، فيعملون بما اشتمل عليه من توجيهات حكيمة وإرشادات سديدة
فالمراد بالسمع : سمع القلوب والعقول ، لا سمع الآذان فقط ، إذ سمع الآذان.
بدون وعى واستجابة للحق ، لاقيمة له ، ولا فائدة ترجى من ورائه .

وان لكم في الانعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا
سائغا للشاربين

، كما فسرها الوسيط ثم أرشد - سبحانه - إلى مظهر آخر من مظاهر وحدانيته
وعظيم قدرته وعجيب صنعه ، وسعة رحمته ، حيث خلق للناس الأنعام ، وسقاهم من
. . . ألبانها ، فقال - تعالى - : ( وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأنعام لَعِبْرَةً
والأنعام : تطلق على الإبل والبقر والغنم من الحيوان ، ويدخل فى الغنم. (
، المعز .والعبرة : مصدر بمعنى العبور ، أى : التجاوز من محل إلى آخر
والمراد بها هنا : العظة والاعتبار والانتقال من الجهل إلى العلم ، ومن
الغفلة إلى اليقظة .أى : وإن لكم - أيها الناس - فى خلق الأنعام ، وفيما
يخرج منها من ألبان لعبرة عظيمة ، وعظة بليغة ، ومنفعة جليلة توجب عليكم
إخلاص العبادة لله - تعالى - وحده ، ومداومة الشكر له على نعمه . فالتنكير
فى قوله ( لعبرة ) للتفخيم والتهويل .وقوله - تعالى - : ( نُّسْقِيكُمْ
مِّمَّا فِي بُطُونِهِ ) استئناف بيانى ، كأنه قيل : وما وجه العبرة فى
) الأنعام؟ فكان الجواب : نسقيكم مما فى بطونه .قال الآلوسى : " والضمير فى
بطونه ) يعود للأنعام ، وهو اسم جمع ، واسم الجمع يجوز تذكيره وإفراده
باعتبار معناه . . . " .وقوله - سبحانه - : ( مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ
لَّبَناً خَالِصاً سَآئِغاً لِلشَّارِبِينَ ) بيان لموطن العبرة ومحل
النعمة ، ومظهر الدلالة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ورحمته .والفرث
الطعام المتبقى فى أمعاء الحيوان بعد هضمه . وأصل الفرث : التفتيت . يقال :
فرثت كبده . أى : فتتتها .قال الجمل ما ملخصه : " والفرث : الأشياء
المأكولة المنهضمة بعض الانهضام فى الكرش - بفتح الكاف وكسر الراء - فإذا
خرجت من الكرش لا تسمى فرثا بل تسمى روثا . وقوله ( لبنا ) مفعول ثان
لنسقيكم ، والأول هو الكاف " .والخالص : النقى الصافى الخالى من الشوائب
والأكدار . يقال خلص الشئ من التلف خلوصا - من باب قعد - إذا سلم منه
والسائغ : اللذيذ الطعم ، السهل المدخل إلى الحلق . يقال : ساغ الشراب.
يسوغ سوغا ، من باب قال - إذا سهل مدخله فى الحلق .أى : نسقيكم من بين
) الفرث والدم الذى اشتملت عليه بطون الأنعام ، ( لبنا ) نافعا لأبدانكم
خالصا ) من رائحة الفرث ، ومن لون الدم ، مع أنه موجود بينهما ( سائغا
للشاربين ) بحيث يمر فى الحلوق بسهولة ويسر ، ويشعر شاربه بلذة وارتياح
، وقدم - سبحانه - قوله : ( مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ ) على قوله ( لبنا ).
لأن خروج اللبن من بينهما هو موطن العبرة ، وموضع الدليل الأسمى على قدرة
الله - تعالى - ووحدانيته .قال صاحب الكشاف : قوله - تعالى - : ( مِن
بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ ) أى : يخلق الله اللبن وسيطا بين الفرث والدم
يكتنفانه ، وبينه وبينهما برزخ من قدرة الله - تعالى - ، بحيث لا يبغى
أحدهما عليه بلون ولا طعم ولا رائحة ، بل هو خالص من ذلك كله . . . فسبحان
الله ما أعظم قدرته ، وألطف حكمته ، لمن تفكر وتأمل . وسئل " شقيق " عن
الإخلاص فقال : تمييز العمل من العيوب كتمييز اللبن من بين فرث ودم .ثم
: قال - رحمه الله - : فإن قلت : أى فرق بين " من " الأولى والثانية؟ .قلت
الأولى للتبعيض ، لأن اللبن بعض ما فى بطونها . . . والثانية لابتداء
الغاية ، لأن بين الفرث والدم مكان الإسقاء الذى منه يبتدأ . . .وإنما قدم
قوله : ( مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ ) لأنه موضع العبرة ، فهو قمن بالتقديم
- وقال الآلوسى عند تفسيره لهذه الآية : " ومن تدبر فى بدائع صنع الله.
تعالى - فيما ذكر من الأخلاط والألبان وإعداد مقارها ومجاريها ، والأسباب

المولدة لها ، وتسخير القوى المتصرفة فيها . . . اضطر إلى الاعتراف بكمال علمه - سبحانه - وقدرته ، وحكمته ، وتناهى رأفته ورحمته :حكم حارت البرية فيها ... وحقيق بأنها تحتاروالحق ، أن هذه الآية الكريمة من أكبر الأدلة - على وحدانية الله تعالى ونفاذ قدرته ، وعجيب صنعته ، حيث استخرج - سبحانه من بين فرث ودم فى بطون الأنعام ، لبنا خالصا سائغا للشاربين .وهذا الاستخراج قد تكلم العلماء المتخصصون عن كيفيته وعن مراحله . . كلاما يقوى إيمان المؤمنين ، ويدفع باطل الملحدين .هذا ، وفى الآية الكريمة إشارة إلى أن اللبن نعمة جزيلة من نعم الله - تعالى - على خلقه .قال القرطبى ما ملخصه روى أبو داود وغيره عن ابن عباس قال : أتى رسول الله صلى الله عليه " : وسلم بلبن فشرب ، ثم قال : " إذا أكل أحدكم طعاما فليقل ، اللهم بارك لنا فيه وأطعمنا خيرا منه ، وإذا سقى لبنا فليقل : اللهم بارك لنا فيه ، وزدنا منه ، فإنه ليس شئ يجزئ عن الطعام والشراب إلا اللبن " " .ثم قال الإمام القرطبى : قال علماؤنا : فكيف لا يكون كذلك ، وهو أول ما يغتذي به الإنسان - وتنمو به الأبدان ، فهو قوت به قوام الأجسام ، وقد جعله الله - تعالى ، علامة لجبريل على هداية هذه الأمة ، ففى الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " فجاءنى جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن ، فاخترت اللبن . فقال لى جبريل : اخترت الفطرة . " . . .

ومن ثمرات النخيل والاعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا ان في ذلك لاية لقوم يعقلون

كما فسرها الوسيط ثم انتقلت السورة الكريمة الى الحديث عن نعمة أخرى من نعم الله التى لا تحصى ، وهى نعمة ثمرات النخيل والأعناب ، فقال - تعالى - : ( وَمِن ثَمَرَاتِ النخيل والأعناب تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً . . . ) .قال الجمل ما ملخصه : قوله - سبحانه - : ( وَمِن ثَمَرَاتِ النخيل والأعناب . . ) خبر مقدم ، ومن تبعيضية ، والمبتدأ محذوف تقديره ثمر ، وقوله ( تتخذون ) نعت لهذا المبتدأ المحذوف ، أى : ومن ثمرات النخيل والأعناب ثمر تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا .ويجوز أن يكون الجار ، والمجرور متعلقا بمحذوف ، والتقدير : ونسقيكم من ثمرات النخيل والأعناب أى : من عصيرهما ، وحذف لدلالة نسقيكم قبله عليه ، وقوله ( تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً ) بيان وكشف عن كيفية الإسقاء .والضمير فى قوله ( منه ) يعود على المضاف المحذوف الذى هو العصير ، أو على المبتدأ ، المحذوف وهو الثمر .والسكر - بفتح السين والكاف - اسم من أسماء الخمر يقال : سكر فلان - بوزن فرح - يسكر سكرا ، إذا غاب عقله وإدراكه فهو سكران وسكر - بفتح السين وكسر الكاف - .وأما الرزق الحسن ، فالمراد به ما كان - حلالا من ثمرات النخيل والأعناب كالتمر والزبيب وغير ذلك مما أحله الله تعالى - من ثمارها .وعلى هذا المعنى سار جمهور العلماء من السلف والخلف قال الآلوسى ما ملخصه : والسكر : الخمر . قال الأخطل : .بئس الصَّحاة وبئس الشَّرب شَربُهم ... إذا جرى فيهم المزّاءُ والسَّكَروالمزاء : نوع من الأشربة . والسكر ما يسكر وهو الخمر .وفسروا الرزق الحسن . بالخل والتمر والزبيب وغير ذلك .ثم قال : وتفسير " السّكَر " بالخمر ، هو المروى عن ابن مسعود ، وابن عمر ، وابى رزين ، والحسن ، ومجاهد ، والشعبى . . والنخعى . . مع خلق آخرين . . .وعلى هذا التفسير الذى قاله جمهور العلماء يكون السكر غير الرزق الحسن ، ويكون العطف للتغاير ومن العلماء من فسر السكر بأنه اسم للخل ، أو للعصير غير المسكر ، أو لما لا يسكر من الأنبذة ، وقد بسط الإمام القرطبى القول فى هذه المسألة فقال ما ملخصه : قوله - تعالى - ( سكرا ) السكر ما يسكر ، هذا هو المشهور فى اللغة .

واوحى ربك الى النحل ان اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وأوحى ) من الوحى ، وهو هنا بمعنى الإلهام ، وهو - كما يقول القرطبى - ما يخلقه الله - تعالى - فى القلب ابتداء من غير سبب ظاهر . ومنه قوله - تعالى - : ( وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ) ومن ذلك إلهام البهائم لفعل ما ينفعها ، وترك ما يضرها ، وتدبير معاشها . . .وقال صاحب الكشاف : والإيحاء إلى النحل : إلهامها والقذف فى قلوبها على وجه هو أعلم به ، لا سبيل لأحد إلى الوقوف عليه ، وإلا فتأنقها فى صنعتها ولطفها فى تدبير أمرها وإصابتها فيما يصلحها دلائل شاهدة على أن الله - تعالى - أودعها علما ، بذلك وفطنها ، كما أودع أولى العقول عقولهم . . .والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم ويشمل كل من يصلح للخطاب من الأمة الإسلامية .والنحل : اسم جنس يفرق بينه وبين واحده بالتاء ، ويطلق على الذكر والأنثى ، وسمى بذلك لأن الله - تعالى - نحله أى منحه العسل الذى يخرج منه .وقوله - سبحانه - : ( أَنِ اتخذي مِنَ الجبال بُيُوتاً وَمِنَ الشجر وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ) بيان لما ألهمه الله النحل من أوامر . ولما كلفها به من أعمال .و " أن " مفسرة

، لأن الإيحاء فيه معنى القول دون حروفه وما بعدها لا محل له من الإعراب
: ويجوز بأن تكون مصدرية فيكون ما بعدها فى محل نصب على تقدير الجار . أى
بأن اتخذى .والمعنى : وألهم ربك النحل وأرشدها وهداها إلى أن تتخذ من فجوات
الجبال بيوتا تسكن فيها ، وكذلك من تجاويف الأشجار ومما يرفعه الناس
- ويعرشونه من السقوف وغيرها .يقال : عرش الشئ يعرشه - بكسر الراء وضمها
إذا رفعه عن الأرض ، ومنه العريش الذى صنع لرسول الله صلى الله عليه وسلم
يوم بدر لمشاهدة سير المعركة .قال صاحب الكشاف : فإن قلت ما معنى " من " فى
قوله ( أَنِ اتخذي مِنَ الجبال بُيُوتاً وَمِنَ الشجر وَمِمَّا يَعْرِشُونَ
؟ وهلا قيل فى الجبال وفى الشجر؟ .قلت : أريد معنى البعضية ، وأن لاتبنى (
. بيوتها فى كل جبل ، وكل شجر ، وكل ما يعرش ، ولا فى كل مكان منها

ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف
الوانه فيه شفاء للناس ان في ذلك لاية لقوم يتفكرون

" : كما فسرها الوسيط وقد علق الشيخ ابن المنير على هذا الكلام بقوله
ويتزين هذا المعنى الذى نبه عليه الزمخشرى فى تبعيض " من " المتعلقة باتخاذ
البيوت بإطلاق الأكل ، كأنه - تعالى - وكل الأكل إلى شهوتها واختيارها فلم
يحجر عليها فيه ، وإن حجر عليها فى البيوت ، وأمرت باتخاذها فى بعض المواضع
دون بعض لأن مصلحة الأكل على الإطلاق باستمرار مشتهاها منه ، وأما البيوت
. . فلا تحصل مصلحتها فى كل موضع . ولهذا المعنى دخلت ثم فى قوله ( ثم كلى
لتفاوت الأمر بين الحجر عليها فى اتخاذ البيوت ، والإطلاق لها فى ( .
تناول الثمرات ، كما تقول : راع الحلال فيما تأكله ثم كل أى شئ شئت .فتوسط
ثم لتفاوت . الحجر والإطلاق فسبحان اللطيف الخبير " .وقوله : ( ثُمَّ
كُلِي مِن كُلِّ الثمرات فاسلكي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً . . ) بيان للون
. آخر من الإلهامات التى ألهمها الله - تعالى - إياها .والسبل : جمع سبيل
والمراد بها الطرق التى تسلكها النحلة فى خروجها من بيتها وفى رجوعها إليه
وأضاف - سبحانه - السبل إليه ، لأنه هو خالقها وموجدها .وذللا : جمع ذلول
وهو الشئ الممهد المنقاد ، وهو حال من السبل ، أى : فاسلكى سبل ربك حال
كونها ممهدة لك ، لا عسر فى سلوكها عليك ، وإن كانت صعبة بالنسبة لغيرك
قالوا : ربما أجدب عليها ما حولها ، فتنتجع الأماكن البعيدة للمرعى ، ثم.
تعود إلى بيوتها دون أن تضل عنها .وقيل إن ( ذللا ) حال من النحلة أى : ثم
، كلى من كل الثمرات ، فاسلكى سبل ربك ، حالة كونك منقادة لما يراد منك
- مطيعة لما سخرك الله له من أمور تدل على قدرته وحكمته - سبحانه - .وقوله
تعالى - : ( يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ
فِيهِ شِفَآءٌ لِلنَّاسِ ) كلام مستأنف ، عدل به من خطاب النحلة الى خطاب
الناس ، تعديدا للنعم ، وتعجيبا لكل سامع ، وتنبيها على مواطن العظات
: والعبر الدالة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته وعجيب صنعه فى خلقه .أى
يخرج من بطون النحل - بعد أكلها من كل الثمرات وبعد اتخاذها بيوتها - شراب
هو العسل ، مختلف ألوانه ما بين أبيض وأصفر وغير ذلك من ألوان العسل ، على
- حسب اختلاف مراعيها ومآكلها وسنها ، وغير ذلك بما اقتضته حكمته - سبحانه
والضمير فى قوله - تعالى - : ( فِيهِ شِفَآءٌ لِلنَّاسِ ) يعود على الشراب.
المستخرج من بطونها وهو العسل .أى : فى العسل شفاء عظيم للناس من أمراض
كثيرة تعرض لهم .وقيل : الضمير يعود إلى القرآن الكريم ، والتقدير : فيما
قصصنا عليكم فى هذا القرآن الشفاء للناس .وهذا القيل وإن كان صحيحا فى ذاته
إلا أن السياق لا يدل عليه ، لأن الآية تتحدث عما يخرج من بطون النحل وهو ،
العسل ، ولا وجه للعدول عن الظاهر ، ومخالفة المرجع الواضح .قال الإمام
ابن كثير : والدليل على أن المراد بقوله ( فِيهِ شِفَآءٌ لِلنَّاسِ ) هو
- العسل ، الحديث الذى رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن أبى سعيد الخدرى
رضى الله عنه - ، " أن رجلا جاء إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال
إن أخى استطلق بطنه فقال : " اسقه عسلا " ، فذهب فسقاه عسلا ثم جاء فقال :
يا رسول الله ، سقيته عسلا فما زاده إلا استطلاقا . قال : " اذهب فاسقه :
عسلا " . فذهب فسقاه عسلا ثم جاء فقال يا رسول الله ، سقيته عسلا فما زاده
إلا استطلاقا . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " صدق الله وكذب بطن
أخيك . اذهب فاسقه عسلا " فذهب فسقاه عسلا فبرئ " .ثم ساق الإمام ابن كثير
بعد ذلك جملة من الأحاديث فى هذا المعنى منها ما رواه البخارى عن ابن عباس
قال : " الشفاء فى ثلاثة : فى شرطة محجم أو شربة عسل أوكية بنار ، وأنهى
أمتى عن الكى " .وروى البخارى - أيضا - عن جابر بن عبد الله قال : " سمعت
رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن كان فى شئ من أدويتكم - أو يكون
، فى شئ من أدويتكم - خير : ففى شرطة محجم ، أو شربة عسل ، أو لذعة بنار
توافق الداء ، وما أحب أن أكتوى " .وقال صاحب فتح البيان : وقد اختلف أهل
العلم هل هذا الشفاء الذى جعله الله فى العسل عام لكل داء ، أو خاص ببعض
: الأمراض .فقال طائفة : هو على العموم فى كل حال ولكل أحد .وقالت طائفة
أخرى : إن ذلك خاص ببعض الأمراض ، ولا يقتضى العموم فى كل علة وفى كل إنسان
وليس هذا بأول لفظ خصص فى القرآن فالقرآن مملوء منه ، ولغة العربى يأتى ،

فيها العام كثيرا بمعنى الخاص ، والخاص بمعنى العام .ومما يدل على هذا ، أن العسل نكرة فى سياق الإثبات فلا يكون عاما باتفاق أهل اللسان . ومحققى أهل الأصول . وتنكيره إن أريد به التعظيم لا يدل إلا على أن فيه شفاء عظيما لمرض ، أو أمراض ، لا لكل مرض ، فإن تنكير التعظيم لا يفيد العموم .ثم قال قلت : وحديث البخارى : أن أخى استطلق بطنه . . أوضح دليل على ما ذهبت : إليه طائفة من تعميم الشفاء ، لأن قوله صلى الله عليه وسلم " صدق الله " أى أنه شفاء فلو كان لبعض دون بعض لم يكرر الأمر بالسقيا .والذى نراه ، أن : ، من الواجب علينا أن نؤمن إيمانا جازما بأن العسل المذكور فيه شفاء للناس كما صرح بذلك القرآن الكريم ، وكما أرشد إلى ذلك النبى صلى الله عليه وسلم - وعلينا بعد ذلك أن نفوض أمر هذا الشفاء وعموميته وخصوصيته لعلم الله. تعالى - وقدرته وحكمته ويكفينا يقينا فى هذا المجال ، إصرار النبى صلى الله عليه وسلم على أن يقول للرجل الذى استطلق بطن أخيه أكثر من مرة ، " اذهب فاسقه عسلا " .وقد تولى كثير من الأطباء شرح هذه الآية الكريمة شرحا علميا : - وافيا ، وبينوا ما اشتمل عليه عسل النحل من فوائد .ثم ختم - سبحانه الآية الكريمة بقوله : ( إِنَّ فِي ذلك لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ) أى : إن فى ذلك الذى ذكرناه لكم من أمر النحل؛ من إلهامها اتخاذ البيوت. العجيبة ، ومن إدارتها لشئون حياتها بدقة متناهية ، ومن سلوكها الطرق التى جعلها الله مذللة فى ذهابها وإيابها للحصول على قوام حياتها ، ومن خروج العسل من بطونها .

والله خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يرد الى ارذل العمر لكي لا يعلم بعد علم شيئا ان الله عليم قدير

- كما فسرها الوسيط قال الإمام الرازى - رحمه الله - : " لما ذكر - سبحانه بعض عجائب أحوال الحيوانات ، ذكر بعده بعض عجائب أحوال الناس ، ومنها ما هو مذكور فى هذه الآية : ( والله خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إلى أَرْذَلِ العمر ) - وهو إشارة إلى مراتب عمر الإنسان . والعقلاء ضبطوها فى أربع مراتب : أولها : سن النشوء والنماء ، وثانيها : سن الوقوف وهو سن الشباب ، من ثلاث وثلاثين سنة إلى أربعين سنة - ، وثالثها : سن الانحطاط القليل وهو سن الكهولة - وهو من الأربعين إلى الستين - ورابعها : سن الانحطاط الكبير - وهو سن الشيخوخة - وهو من الستين إلى نهاية العمر - والمعنى : ( والله ) - تعالى - هو الذى ( خلقكم ) بقدرته ، ولم تكونوا. " قبل ذلك شيئا مذكورا ." ثم " هو وحده الذى ( يتوفاكم ) وينهى حياتكم من هذه الدنيا عند انقضاء آجالكم .وقوله ( وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إلى أَرْذَلِ العمر . . ) معطوف على مقدر . أى : والله - تعالى - هو الذى خلقكم ، فمنكم من يبقى محتفظا بقوة جسده وعقله حتى يموت ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر والمراد بأرذل العمر : أضعفه وأوهاه وهو وقت الهرم والشيخوخة ، الذى تنقص. فيه القوى ، وتعجز فيه الحواس عن أداء وظائفها .يقال : رَذُلَ الشئ ) : يَرْذُل - بضم الذال فيهما - رذالة . . إذا ذهب جيده وبقى رديئه .وقوله لِكَيْ لاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً ) تعليل للرد إلى أرذل العمر أى : فعلنا ما فعلنا من إبقاء بعض الناس فى هذه الحياة إلى سن الشيخوخة. لكى يصير إلى حالة شبيهة بحالة طفولته فى عدم إدراك الأمور إدراكا تاما وسليما .ويجوز أن تكون اللام للصيرورة والعاقبة . أى : ليصير أمره بعد العلم بالأشياء ، إلى أن لا يعلم شيئا منها علما كاملا .ولقد استعاذ النبى صلى الله عليه وسلم من أن يصل عمره إلى هذه السن ، لأنها سن تتكاثر فيها الآلام والمتاعب . وقد يصير الإنسان فيها عالة على غيره . وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( الله الذي خَلَقَكُمْ مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ العليم القدير ) قال الإمام ابن كثير : روى البخارى عند تفسير هذه الآية ، عن أنس بن مالك ، أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم كان يدعو فيقول : " اللهم إنى أعوذ بك من البخل والكسل ، والهرم ، وأرذل العمر ، وعذاب القبر ، وفتنة الدجال ، وفتنة المحيا والممات " .وقال زهير بن أبى سلمى فى معلقته المشهورة :سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ... ثمانين حولا لا أبا لك يسأمرأيت المنايا خبط عشواء من تصب ... تمته ، ومن تخطئ يعمر فيهرمثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بما يدل على كمال علمه ، وتمام قدرته ، فقال - تعالى - : ( إِنَّ الله عَلِيمٌ قَدِيرٌ ) أى : إن الله - تعالى - عليم بأحوال مخلوقاته ، لايخفى عليه شئ من تصرفاتهم ( قدير ) على تبديل الأمور كما تقتضى حكمته وإرادته .ويؤخذ من هذه الآية الكريمة إمكان البعث وأنه حق ، لأن الله - تعالى - القادر على خلق الإنسان وعلى نقله من حال إلى حال . . قادر - أيضا - على إحيائه بعد موته .

والله فضل بعضكم على بعض في الرزق فما الذين فضلوا برادي رزقهم على ما ملكت ايمانهم فهم فيه سواء افبنعمة الله يجحدون

، كما فسرها الوسيط ثم انتقلت السورة الكريمة من الحديث عن خلق الإنسان
، وتقلبه فى أطوار عمره ، إلى الحديث عن التفاوت بين الناس فى أرزاقهم
فقال - تعالى - : ( والله فَضَّلَ بَعْضَكُمْ على بَعْضٍ فِي الرزق . . . )
فجعل منكم الغنى والفقير ، والمالك والمملوك ، والقوى والضعيف ، وغير ذلك
- من ألوان التفاوت بين الناس ، لحكمة هو يعلمها - سبحانه - .ثم بين
سبحانه - موقف المفضلين فى الرزق من غيرهم فقال : ( فَمَا الذين فُضِّلُواْ
بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ على مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ
أى : فليس الذين فضلهم الله - تعالى - فى الرزق على غيرهم ( برادى ). ( . . .
أى : بمانحى وباذلى ( رزقهم ) الذى رزقهم الله إياه على مماليكهم أو خدمهم
الذين هم إخوة لهم فى الإنسانية ( فهم ) أى الأغنياء الذين فضلوا فى الرزق
ومماليكهم وخدمهم ( فيه ) أى : فى هذا الرزق ( سواء ) من حيث إنى أنا
الرازق للجميع .فالجملة الكريمة يجوز أن تكون دعوة من الله - تعالى - للذين
فضلوا على غيرهم فى الرزق ، بأن ينفقوا على مماليكهم وخدمهم ، لأن ما
ينفقونه عليهم هو رزق أجراه الله للفقراء على أيدى الأغنياء .وإلى هذا
المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله عند تفسير الآية : أى : جعلكم متفاوتين فى
الرزق ، فرزقكم أفضل مما رزق مماليككم وهم بشر مثلكم ، وإخوانكم ، فكان
" ، ينبغى أن تردوا فضل ما رزقتموه عليهم ، حتى تتساووا فى الملبس والمطعم
كما يحكى عن أبى ذر أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول : " إنما هم
إخوانكم ، فاكسوهم مما تلبسون ، وأطعموهم مما تطعمون " فما رؤى عبده بعد
ذلك إلا ورداؤه رداؤه ، وإزاره إزاره من غير تفاوت ".ويجوز أن تكون الآية
. الكريمة توبيخا للذين يشركون مع الله - تعالى - آلهة أخرى فى العبادة
فيكون المعنى : لقد فضل الله - تعالى - بعضكم على بعض فى الرزق - أيها
الناس - ، ومع ذلك فالمشاهد الغالب بينهم ، أن الاغنياء لا يردون أموالهم
، على خدمهم وعبيدهم بحيث يتساوون معهم فى الرزق ، وإذا ردوا عليهم شيئا
فإنما هو شئ قليل يسير يدل على بخلهم وحرصهم . . مع أنى أنا الرازق للجميع
- وإلى هذا المعنى أشار ابن كثير بقوله عند تفسيره للآية : " يبين - تعالى.
للمشركين جهلهم وكفرهم فيما زعموه لله من شركاء وهم يعترفون بأنهم عبيد له
كما كانوا يقولون فى تلبيتهم فى حجهم : لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك ،
تملكه وما ملك ، فقال - تعالى - منكرا عليهم : أنتم لاترضون أن تساووا
عبيدكم فيما رزقناكم ، فكيف يرضى هو تعالى - بمساواة عبيد له فى الإلهية
والتعظيم ، كما قال - تعالى - فى آية أخرى( ضَرَبَ لَكُمْ مَّثَلاً مِّنْ
أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّن شُرَكَآءَ
فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ
كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ . . ) وقال العوفى عن ابن عباس فى هذه الآية
يقول : لم يكونوا ليشركوا عبيدهم فى أموالهم ونسائهم ، فكيف يشركون معى
عبيدى فى سلطانى . . " .وهذا المعنى الثانى هو الأقرب إلى سياق آيات السورة
الكريمة ، لأن السورة الكريمة مكية ، ومن أهدافها الأساسية دعوة الناس إلى
إخلاص العبادة لله - عز وجل - ، ونبذ الإشراك والمشركين ، وإقامة الأدلة
المتنوعة على بطلان كل عبادة لغير الله - تعالى - .ثم ختم - سبحانه - الآية
الكريمة بقوله : ( أَفَبِنِعْمَةِ الله يَجْحَدُونَ ) .والاستفهام هنا
- للتوبيخ والتقريع ، والفاء معطوفة على مقدر أى : أيشركون به - سبحانه
فيجحدون نعمه ، وينكرونها ، ويغمطونها حقها ، مع أنه - تعالى - هو الذى
. !!وهبهم هذه النعم ، وهو الذى منحهم ما منحهم من أرزاق؟

والله جعل لكم من انفسكم ازواجا وجعل لكم من ازواجكم بنين وحفدة ورزقكم من
الطيبات افبالباطل يؤمنون وبنعمت الله هم يكفرون

- كما فسرها الوسيط ثم ذكرت السورة الكريمة بعد ذلك نعمة أخرى من نعم الله
تعالى - على الناس ، فقال - تعالى - : ( والله جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ
) أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً ) .أى : والله - تعالى - هو وحده الذى جعل لكم
من أنفسكم ) أى : من جنسكم ونوعكم ( أزواجا ) لتسكنوا إليها ، وتستأنسوا
بها ، فإن الجنس إلى الجنس آنس وأسكن .قال - تعالى - : ( وَمِنْ آيَاتِهِ
أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُواْ إِلَيْهَا
: وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً . . . ) قال الإمام ابن كثير
يذكر - تعالى - نعمه على عبيده ، بأن جعل لهم من أنفسهم أزواجا ، أى : من "
جنسهم وشكلهم ، ولو جعل الأزواج من نوع آخر ما حصل الائتلاف والمودة
والرحمة ، ولكن من رحمته أنه خلق من بنى آدم ذكورا وإناثا ، وجعل الإناث
أزواجا للذكور . . . " .وقوله - سبحانه - : ( وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ
- أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ) بيان لنعمة أخرى من نعمه - تعالى
والحفدة ، جمع حافد يقال ، حفد فلان يحفد حفدا من باب ضرب إذا أسرع فى خدمة
غيره وطاعته . ومن دعاء القنوت : " وإليك نسعى ونحفد " أى : نسرع فى طاعتك
: ياربنا . والمراد بالحفدة : أبناء الأبناء . روى عن ابن عباس إنه قال
الحفيد ولد الابن والبنت ، ذكرا كان أو أنثى . وقيل المراد بهم : الخدم

والأعوان ، وقيل المراد بهم : الأَختان والأصهار أى : أزواج البنات وأقارب الزوجة .

ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا من السماوات والارض شيئا ولا يستطيعون

. كما فسرها الوسيط والمراد بقوله سبحانه : ( وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله كل معبود سوى الله - تعالى - من صنم أو وثن أو غير ذلك من ( . . . . المعبودات الباطلة .والجملة الكريمة داخلة تحت مضمون الاستفهام الانكارى ، ومعطوفة عليه : وهو قوله - تعالى - : ( أفبالباطل يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ الله هُمْ يَكْفُرُونَ ) أى أن هؤلاء الجاحدين لنعم الله - تعالى - ، بلغ من جهالتهم وسفاهاتهم أنهم يؤمنون بالباطل ، ويكفرون بالحق ، ويعبدون من دون الله - تعالى - أصناما وأوثانا لا تملك لعابدها أى شئ من الرزق فهى لا تنزل مطرا من السماء ولا تخرج نباتا من الأرض ، ولا تستطيع أن تنفع أو تضر و " ما " فى قوله - تعالى - ( مَا لاَ يَمْلِكُ . . ) كناية عن. . - معبوداتهم الباطلة فهى مفردة لفظا ، مجموعة معنى .والتنكير فى قوله سبحانه - ( رزقا ) للاشعار بقلته وتفاهته ، وأن معبوداتهم لا تملك لهم أى شئ من الرزق ، حتى ولو كان تافها حقيرا .وقوله : ( شيئا ) منصوب على المصدر أى : ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم ملكا ، أى : شيئا من الملك ، والضمير فى قوله ( ولا يستطيعون ) يعود إلى ( ما ) وجمع بصيغة العقلاء. بناء على زعمهم الفاسد ، من أن هذه الأصنام فى إمكانها النفع والضر .وجاءت جملة ( ولا يستطيعون ) بعد قوله - تعالى - ( مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِّنَ السماوات والأرض . . ) لتأكيد عجز هذه المعبودات عن فعل أى شئ فهى لا تملك شيئا ، وليس فى استطاعتها أن تملك لأنها ليست أهلا لذلك .

فلا تضربوا لله الامثال ان الله يعلم وانتم لا تعلمون

. كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلّهِ الأمثال نهى منه - سبحانه - عن أن يشبه فى ذاته أو صفاته بغيره ، وقد جاء هذا ( . ، النهى فى صورة الالتفات من الغائب إلى المخاطب للاهتمام بشأن هذا النهى والفاء لترتيب النهى على ما عدد من النعم التى وردت فى هذه السورة والتى لم ينته الحديث عنها بعد .والأمثال : جمع مثل ، وهو النظير والشبيه لغيره ، ثم ، - أطلق على القول السائر المعروف ، لمماثلة مضربه - وهو الذي يضرب فيه ، لمورده - وهو الذى ورد فيه أولا .وتضرب الأمثال : لتوضيح الشئ الغريب وتقريب المعنى المعقول من المعنى المحسوس ، وعرض ما هو غائب فى صورة ما هو مشاهد ، فيكون المعنى الذى ضرب له المثل أوقع فى القلوب ، وأثبت فى النفوس وقوله - تعالى - ( إِنَّ الله يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ). ، تعليل لهذا النهى عن ضرب الأمثال لله - عز وجل - .أى : فلا تتجاسروا وتتطاولوا ، وتضربوا لله - تعالى - الأمثال ، كما يضرب بعضكم لبعض ، فإن الله - تعالى - هو الذى يعلم كيف تضرب الأمثال وأنتم لا تعلمون ذلك .قال الزجاج : ورد أن المشركين كانوا يقولون : إن إله العالم أجل من أن يعبده الواحد منا ، فكانوا يتوسلون إلى الأصنام والكواكب ، كما أن أصاغر الناس يخدمون أكابر حضرة الملك ، وأولئك الأكابر يخدمون الملك ، فنهوا عن ذلك .

ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا هل يستوون الحمد لله بل اكثرهم لا يعلمون

كما فسرها الوسيط ثم وضح لهم - سبحانه - كيف تضرب الأمثال ، فساق مثلين حكيمين يدلان على وحدانية الله - تعالى - وقدرته . .أما المثل الأول فيتجلى فى قوله - عز وجل - : ( ضَرَبَ الله مَثَلاً عَبْداً مَّمْلُوكاً لاَّ يَقْدِرُ على شَيْءٍ . . ) . أى : ذكر الله - تعالى - وبين ووضح لكم مثلا ، تستدلون به على وحدانيته - سبحانه - وهو أن هناك عبدا رقيقا مملوكا لغيره - وهذا العبد لا يقدر على شئ من التصرفات حتى ولو كانت قليلة .وقوله - سبحانه - : ( عبدا ) بدل من ( مثلا ) و ( مملوكا ) صفة للعبد . ووصف سبحانه - العبد بأنه مملوك ، ليحصل الامتياز بينه وبين الحر ، لأن كليهما يشترك فى كونه عبدا لله - تعالى - .ووصفه أيضا - بأنه لا يقدر على شئ للتمييز بينه وبين المكاتب والعبد المأذون له فى التصرف ، لأنهما يقدران على بعض التصرفات .هذا هو الجانب الأول من المثل ، أما الجانب الثانى فيتجلى فى قوله - تعالى - : ( وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً . . . ) .قال الآلوسى : " و " من - فى قوله ( ومن رزقناه ) نكرة موصوفة ، ليطابق عبدا فإنه نكرة موصوفة " أيضا - ، وقيل : إنها موصولة ، والأول اختيار الأكثرين أى : حرا رزقناه بطريق الملك ، والالتفات إلى التكلم - فى ( رزقناه ) للإشعار باختلاف حال ، ضرب المثل والرزق . . . " .أى : ذكر الله - تعالى - لكم لتتعظوا وتتفكروا

حال رجلين : أحدهما عبد مملوك لا يقدر على شئ . والثانى حر مالك رزقه
الله - تعالى - رزقا واسعا حلالا حسنا ، ( فهو ) أى هذا الحر ينفق على غيره
) من هذا الرزق الحسن ( سرا وجهرا ) واختار - سبحانه - ضمير العظمة فى قوله
- رزقناه ) للإشعار بكثره هذا الرزق وعظمته ، ويزيده كثرة وعظمة قوله
- تعالى - بعد ذلك ( مِنَّا ) أى؛ من عندنا وحدنا وليس من عند غيرنا .ووصف
سبحانه - الرزق بالحسن ، للإشارة إلى أنه مع كثرته فهو حلال طيب مستحسن فى
، الشرع وفى نظر الناس .وقال - سبحانه - ( فهو ينفق ) بصيغة الجملة الاسمية
للدلالة على ثبوت هذا الإنفاق ودوامه .وقوله ( سرا وجهرا ) منصوبان على
المصدر ، أى إنفاق سر وجهر ، أو على الحالية ، أى فهو ينفق منه فى حالتى
السر والجهر .والمراد أنه إنسان كريم ، لا يبخل بشئ مما رزقه الله ، بل
ينفق منه فى عموم الأحوال ، وعلى من تحسن معه النفقة سرا ، وعلى من تحسن
معه النفقة جهرا .هذان هما الجانبان المتقابلان فى هذا المثل ، والفرق
بينهما واضح وعظيم عند كل ذى قلب سليم ، ولذا جاء بعدهما بالاستفهام
الإنكارى التوبيخى فقال :( هل يستوون ) ؟ أى : هل يستوى فى عرفكم أو فى
عرف أى عاقل ، هذا العبد المملوك العاجز الذى لا يقدر على شئ . . مع هذا
الإنسان الحر . المالك الذى رزقه الله - سبحانه - رزقا واسعا حلالا ، فشكر
الله عليه ، واستعمله فى وجوه الخير .إن مما لا شك فيه أنهما لا يستويان
حتى فى نظر من عنده أدنى شئ من عقل .ومادام الأمر كذلك ، فكيف سويتم - أيها
المشركون الجهلاء - فى العبادة ، بين الخالق الرازق الذى يملك كل شئ ، وبين
غيره من المعبودات الباطلة التى لا تسمع ولا تبصر ، ولا تعقل ، ولا تملك
شيئا .وقال - سبحانه - ( هل يستوون ) مع أن المتقدم اثنان ، لأن المراد جنس
العبيد والأحرار ، المدلول عليهما بقوله ( عبدا ) وبقوله ( ومن رزقناه )
فالمقصود بالمثل كل من اتصف بهذه الأوصاف المذكورة من الجنسين المذكورين.
لافردان معينان .وقوله : ( الحمد لله ) ثناء منه - سبحانه - على ذاته ، حيث
- ساق - سبحانه - هذه الأمثال الواضحة للتمييز بين الحق والباطل .أى : قل
أيها الانسان المؤمن العاقل - ( الحمد ) كله ( لله ) - تعالى - على إرشاده
لعباده المؤمنين ، وتعليمهم كيف يقذفون بحقهم على باطل أعدائهم فإذا هو
زاهق .ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله ( بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ
يَعْلَمُونَ ) أى : بل أكثر هؤلاء الكافرين الضالين ، لا يعلمون كيف يميزون
بين الحق والباطل لانطماس بصائرهم ، واستيلاء الجحود والحسد والعناد على
قلوبهم .وقال - سبحانه - ( بل أكثرهم . . ) للإشعار بأن من هؤلاء الكافرين
من يعلم الحق ويعرفه كما يعرف أبناءه ، ولكن الهوى والغرور والتقليد الباطل
- حال بينه وبين اتباع الحق .هذا هو المثال الأول الذى ذكره الله . .
تعالى - للاستدلال على بطلان التسوية بين عبادة الله - تعالى - الخالق لكل
شئ والمالك لكل شئ . . وبين عبادة غيره من الأصنام والجمادات التى لا تخلق
. شيئا ، ولا تملك شيئا ، ولا تضر ولا تنفع

وضرب الله مثلا رجلين احدهما ابكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه اينما
يوجهه لا يات بخير هل يستوي هو ومن يامر بالعدل وهو على صراط مستقيم

كما فسرها الوسيط أما المثال الثانى فهو أشد وضوحا من سابقه على وحدانية
، الله - تعالى - ورحمتئه بعباده ، وعلى الفرق الشاسع بين المؤمن والكافر
ويتجلى هذا المثال فى قوله - عز وجل - : ( وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً
رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ على شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ
على مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ . . ) .أى : وذكر
الله - تعالى - مثلا آخر لرجلين ، ( أحدهما أبكم ) أى :لا يستطيع النطق أو
الكلام ، ضعيف الفهم والتفهيم لغيره .( لاَ يَقْدِرُ على شَيْءٍ ) أى :لا
يقدر على فعل شئ من الأشياء المتعلقة بنفسه و بغيره .( وهو ) أى هذا الرجل
أى : حمل ثقيل ، وهم كبير على مولاه الذى يتولى ( كَلٌّ على مَوْلاهُ )
شئونه من طعام وشراب وكساء وغير ذلك . وهذا بيان لعدم قدرته على القيام
بمصالح نفسه ، بعد بيان عدم قدرته على القيام بفعل أى شئ على الإطلاق .قال
، القرطبى : قوله ( وَهُوَ كَلٌّ على مَوْلاهُ ) أى ثقل على وليه وقرابته
ووبال على صاحبه وابن عمه ، وقد يسمى اليتيم كلا لثقله على من يكفله ،ومنه
قول الشاعر :أكول لمال الكَلِّ قبل شبابه ... إذا كان عظم الكلِّ غير
شديدفالكل هو الإنسان العاجز الضعيف الذى يكون محتاجا إلى من يرعى شئونه
وقوله ( أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ ) أى : أن هذا الرجل.
حيثما يوجهه مولاه وكافله لقضاء أمر من الأمور يعود خائبا ، لعجزه ، وضعف
حيلته ، وقلة إدراكه . .فأنت ترى أن الله - تعالى - قد وصف هذا الرجل بأربع
صفات ، تدل على سوء فهمه ، وقلة حيلته ، وثقله على ولى أمره ، وانسداد طرق
الخير فى وجهه . .هذا هو الجانب الأول من المثل ، أما الجانب الثانى فيتجلى
فى قوله - تعالى - : ( هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بالعدل وَهُوَ
على صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ . . ) .أى : ( هَلْ يَسْتَوِي هُوَ ) أى هذا
الرجل الأبكم العاجز . . مع رجل آخر ( يأمر ) غيره بالعدل " وهو " أى هذا
الرجل الآخر فى نفسه ( وَهُوَ على صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ) أى : على دين

قويم ، وخلق كريم فقد جمع بذلك بين فضيلتين جليلتين : نفعه لغيره ، وصلاحه فى ذاته لا شك أن هذين الرجلين لا يستويان فى عقل أى عاقل ، إذ أن أولهما أبكم عاجز خائب . . وثانيهما منطيق ، ناصح لغيره ، جامع لخصال الخير فى نفسه .ومادام الامر كذلك فكيف سويتم - أيها المشركون الضالون المكذبون - فى العبادة بين الله - تعالى - وهو الخالق لكل شئ ، وبين تلك الأصنام التى لا تسمع ولا تبصر ولا تغنى عن عابديها شيئا .أو كيف سويتم بين المؤمن الجامع لكل مكرمة ، وبين الكافر الغبى الأبله الذى آثر الغى على الرشد ، فتكون - الآية الكريمة مسوقة لبيان الفرق الشاسع بين المؤمن والكافر .وقد قابل سبحانه - الأوصاف الأربعة للرجل الأول ، بهذين الوصفين للرجل الثانى ، لأن حاصل أوصاف الأول أنه غير مستحق لشئ ، وحاصل وصفى الثانى أنه مستحق لكل فضل وخير .وقوله ( وَمَن يَأْمُرُ بالعدل . . . ) معطوف على الضمير المستتر فى قوله ( هل يستوى . . . ) .وجملة ( وَهُوَ على صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ) فى محل نصب على الحال .وبذلك نرى أن الآيتين الكريمتين قد ساقتا مثلين واضحين لبيان الفرق الشاسع بين ذات الله - تعالى - الخلاق العليم ، الرزاق ، الكريم . . وبين تلك المعبودات الباطلة التى أشركها الضالون فى العبادة مع الله - عز وجل - .

ولله غيب السماوات والارض وما امر الساعة الا كلمح البصر او هو اقرب ان الله على كل شيء قدير

كما فسرها الوسيط والمراد بالغيب فى قوله - سبحانه - ( وَلِلّهِ غَيْبُ السماوات والأرض . . . ) ما لا تدركه الحواس ، ولا تحيط بكنهه العقول لأنه غائب عن مدارك الخلائق .والكلام على حذف مضاف ، والتقدير : لله - تعالى - وحده ، علم جميع الأمور الغائبة عن مدارك المخلوقين ، والتى لا سبيل لهم إلى معرفتها لا عن طريق الحس ، ولا عن طريق العقل .ومن كانت هذه صفته ، كان مستحقا للعبادة والطاعة ، لا تلك المعبودات الباطلة التى لا تعلم من أمرها أو من أمر غيرها شيئا .وقوله - سبحانه - : ( وَمَآ أَمْرُ الساعة إِلاَّ كَلَمْحِ البصر أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ) بيان لسرعة نفاذ أمره بدون مهلة والساعة فى الأصل : اسم لمقدار قليل من الزمان غير معين . والمراد بها هنا . يوم القيامة وما يحدث فيه من أهوال .وسمى يوم القيامة بالساعة : لوقوعه - بغتة ، أو لسرعة ما يقع فيه من حساب أو لأنه على طوله زمنه يسير عند الله تعالى - .واللمح : النظر الذى هو فى غاية السرعة . يقال لمحه لمحا ولمحانا إذا رآه بسرعة فائقة ، ولمح البصر : التحرك السريع لطرف العين من جهة الى - جهة ، أو من أعلى إلى أسفل .و " أو " هنا للتخيير بالنسبة لقدرة الله تعالى - أو للاضراب .أى : ولله - سبحانه - وحده علم جميع ما غاب فى السموات والأرض من أشياء ، وما أمر قيام الساعة فى سرعته وسهولته ، وما يترتب عليه من إماتة وإحياء ، وحساب ، وثواب وعقاب . . . ما أمر ذلك كله إلا كتحرك طرف العين من جهة إلى جهة ، أو هو - أى أمر قيامها - أقرب من ذلك وأسرع ، بحيث يكون فى نصف هذا الزمان أو أقل من ذلك ، لأن قدرته لا يعجزها شئ ، قال - تعالى - : ( إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ) . والمقصود من هذه الجملة الكريمة : بيان - سرعة تأثير قدرة الله - عز وجل - متى توجهت إلى شئ من الأشياء .ثم ختم سبحانه - الآية الكريمة بما يؤكد شمول قدرته فقال - تعالى - : ( إِنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ) أى : إن الله - تعالى -لا يعجز قدرته شئ سواء أكان هذا الشئ يتعلق بأمر قيام الساعة فى أسرع من لمح البصر . . أم بغير ذلك من الأشياء .

والله اخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون

كما فسرها الوسيط ثم ساق - تعالى - بعد ذلك أنواعا من نعمه على عباده فقال : ( والله أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً ) . أى : والله - تعالى - وحده هو الذى أخرجكم - أيها الناس - من بطون أمهاتكم إلى هذه الدنيا ، وأنتم لا تعلمون شيئا لا من العلم الدنيوى ولا من العلم الدينى ، ولا تعرفون ما يضركم أو ينفعكم ، والجملة الكريمة معطوفة على قوله - تعالى - قبل ذلك :( والله جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً . . ) وجملة ( لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً ) حال من الكاف فى ( أخرجكم ) .وقوله - سبحانه - ( وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار والأفئدة لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ) نعمة ثانية من نعمة الله - سبحانه - التى لا تحصى .أى : أن من نعمة الله - تعالى - أنه أخرجكم من بطون أمهاتكم - بعد أن مكثتم فيها شهورا تحت كلاءته ورعايته - وأنتم لا تعرفون شيئا ، وركب فيكم بقدرته النافذة ، وحكمته البالغة ، ( السمع ) الذى تسمعون به ، والبصر الذى بواسطته تبصرون ، ( والأفئدة ) التى عن طريقها تعقلون ، وتفقهون ، لعلكم بسبب كل هذه النعم التى أنعمها عليكم ، تشكرونه حق الشكر

بأن تخلصوا له العبادة والطاعة ، وتستعملوا نعمه فى مواضعها التى وجدت من أجلها .قال الجمل : وجملة : ( وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار . . . ) ابتدائية ، أو معطوفة على ماقبلها ، والواو لا تقتضى ترتيبا ، فلا ينافى أن هذا الجعل قبل الإخراج من البطون . ونكتة تأخيره - أى الجعل - أن السمع ونحوه من آلات الادراك ، إنما يعتد به إذا أحس الإنسان وأدرك وذلك لا يكون إلا بعد الإخراج . وقدم السمع على البصر ، لأنه طريق تلقى الوحى ، أو لأن إدراكه أقدم ، من إدراك البصر . وإفراده - أى السمع - باعتبار كونه مصدرا فى الأصل . . . .وقال الإمام ابن كثير : " وهذه القوى والحواس تحصل للإنسان على التدريج قليلا قليلاً حتى يبلغ أشده . وإنما جعل - تعالى - هذه الحواس فى الإنسان ليتمكن بها من عبادة ربه ، فيستعين بكل جارحة وعضو وقوة على طاعة مولاه كما جاء فى صحيح البخارى عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : يقول تعالى - " من عادى لى وليا فقد بارزنى بالحرب . وما تقرب إلى عبدى بشئ أفضل مما افترضت عليه ، ولايزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، ولئن سألنى لأعطينه ولئن دعانى لأجيبنه ولئن استعاذ بى لأعيذنه ، وما ترددت فى شئ أنا فاعله ، ترددى فى قبض نفس عبدى المؤمن ، يكره الموت ، وأكره مساءته ، ولابد له منه فمعنى الحديث أن العبد إذا أخلص الطاعة ، صارت أفعاله كلها لله ، فلا. " يسمع إلا لله ، ولا يبصر إلا لله أى : لما شرعه الله له . . .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - ( قُلْ هُوَ الذي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار والأفئدة قَلِيلاً مّا تَشْكُرُونَ ).

الم يروا الى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن الا الله ان في ذلك لايات لقوم يؤمنون

- كما فسرها الوسيط ثم حض - سبحانه - عباده على التفكر فى مظاهر قدرته فقال تعالى - : ( أَلَمْ يَرَوْاْ إلى الطير مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السمآء مَا يُمْسِكُهُنّ إِلاّ الله .. ) .والطير : جمع طائر كركب وراكب . و مسخرات ) من التسخير بمعنى التذليل والانقياد أى : ألم ينظر هؤلاء الذين أشركوا مع الله آلهة أخرى فى العبادة ، إلى الطيور وهن يسبحن فى الهواء المتباعد بين الأرض والسماء ، ما يمسكهن فى حال قبضهن وبسطهن لأجنحتهن إلا الله - تعالى - ، بقدرته الباهرة ، وبنواميسه التى أودعها فى فطرة الطير إنهم لو نظروا نظر تأمل وتعقل ، لعلموا أن المسخر لهن هو الله الذى لا معبود بحق سواه وفى قوله - تعالى - ( مسخرات ) إشارة إلى أن طيرانها فى الجو ليس بمقتضى طبعها ، وإنما هو بتسخير الله تعالى لها وبسبب ما أوجد لها من حواس ساعدتها على ذلك ، كالأجنحة وغيرها . وأضاف - سبحانه - الجو إلى - السماء لارتفاعه عن الأرض ، ولإظهار كمال قدرته - سبحانه - .ثم ختم سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ( إِنّ فِي ذلك لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ) .أى : إن فى ذلك التسخير والتذليل للطير على هذه الصفة ) لآيات ) بينات على قدرة الله - تعالى - ووحدانيته ، ( لقوم يؤمنون ) بالحق ويفتحون قلوبهم له ويسمون بأنفسهم عن التقليد الباطل ، .

والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم اقامتكم ومن اصوافها واوبارها واشعارها اثاثا ومتاعا الى حين

كما فسرها الوسيط ثم ساقت السورة الكريمة ألوانا من النعم ، منها ما يتعلق بنعمة المسكن فقال - تعالى - : ( والله جَعَلَ لَكُمْ مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَناً . . . ) .قال القرطبى : قوله - تعالى - : ( جعل لكم ) معناه صير ، وكل ما علاك فأظلك فهو سقف وسماء ، وكل ما أقلك فهو أرض ، وكل ما سترك من جهاتك الأربع فهو جدار ، فإذا انتظمت واتصلت فهو بيت ، وهذه الآية فيها تعديد نعم الله تعالى على الناس فى البيوت وقوله : ( سكنا ) أى : تسكنون فيها وتهدأ جوارحكم من الحركة . . . .والحق أن نعمة السكن فى البيوت والاستقرار فيها ، والشعور بداخلها بالأمان والاطمئنان ، هذه النعمة لا يقدرها حق قدرها ، إلا أولئك الذين فقدوها ، وصاروا يعيشون بلا مأوى يأويهم أو منزل يجمع شتاتهم .والتعبير بقوله عز وجل ( سكنا ) فيه ما فيه من ، السمو بمكانة البيوت التى يسكنها الناس . فالبيت مكان السكينة النفسية ، والراحة الجسدية ، هكذا يريده الإسلام ، ولا يريده مكانا للشقاق والخصام ، لأن الشقاق والخصام ينافى كونه ( سكنا ) .والبيت له حرمته التى جعل الإسلام من مظاهرها ، عدم اقتحامه بدون استئذان ، وعدم التطلع إلى ما بداخله ، وعدم التجسس على من بداخله .وصيانة حرمة البيت - كما أمر الاسلام - تجعله ( سكنا - آمنا ، يجد فيه أصحابه كل مايريدون من الراحة النفسية والشعورية .وقوله ( تعالى - : ( وَجَعَلَ لَكُمْ مِّن جُلُودِ الأنعام بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ) بيان لنعمة

أخرى تتمثل فى البيوت الخفيفة المتنقلة ، بعد الحديث عن البيوت الثابتة المستقرة .والأنعام : جمع نعم . وتشمل الإبل والبقر والغنم ، ويدخل فى الغنم المعز .والظعن بسكون العين وفتحها : التحول والانتقال والرحيل من : مكان إلى آخر طلبا للكلأ ، أو لمساقط الغيث ، أو لغير ذلك من الأغراض .أى : ومن نعمه أيضا أنه أوجد لكم من جلود الأنعام بيوتا ( تستخفونها ) أى ) تجدونها خفيفة ( يوم ظعنكم ) أى : يوم سفركم ورحيلكم من موضع إلى آخر ، ويوم إقامتكم ) فى مكان معين بحيث يمكنكم أن تنصبوها لترتاحوا بداخلها بأيسر السبل ، وذلك كالقباب والخيام والأخبية ، وغير ذلك من البيوت التى يخف حملها .ثم ختم - سبحانه - الآية بإبراز نعمة ثالثة ، تتمثل فيما يأخذونه من الأنعام فقال - تعالى - : ( وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَاثاً وَمَتَاعاً إلى حِينٍ ) .والأثاث : متاع البيت الكثير ، وأصله من أث الشئ - بفتح الهمزة وتشديد الثاء مع الفتح - إذا كثر وتكاتف ، ومنه قول الشاعر .وفرع يزين المتن أسودَ فاحمٍ ... أثيثٍ كقنو النخلة المتعثكلويشمل جميع أصناف المال كالفرش وغيرها .والمتاع : ما يتمتع به من حوائج البيت الخاصة كأدوات الطعام والشراب ، فيكون عطف المتاع على الأثاث من عطف الخاص على العام .وقيل : هما بمعنى واحد . والعطف لتنزيل ، تغاير اللفظ بمنزله تغاير المعنى .أى : ومن أصواف الغنم ، وأوبار الإبل وأشعار المعز ، تتخذون لأنفسكم ( أثاثا ) كثيرا تستعملونه فى مصالحكم المتنوعة ، كما تتخذون من ذلك ما تتمتعون به فى بيوتكم وفى معاشكم ( إلى حين ) أى : إلى وقت معين قدره الله - تعالى - لكم فى تمتعكم بهذه الأصواف والأوبار والأشعار .

والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال اكنانا وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم باسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون

كما فسرها الوسيط وبعد الحديث عن نعمة البيوت والأنعام جاء الحديث عن نعمة الظلال والجبال واللباس ، فقال - تعالى - : ( والله جَعَلَ لَكُمْ مِّمَّا خَلَقَ ظِلاَلاً . . . ) .والظلال : جمع ظل ، وهو ما يستظل به الإنسان .أى : والله - تعالى - بفضله وكرمه جعل لكم ما تستظلون به من شدة الحر والبرد : - كالأبنية والأشجار ، وغير ذلك من الأشياء التى تستظلون بها .وقوله تعالى - ( وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الجبال أَكْنَاناً . . . ) نعمة ثانية والأكنان جمع كِن - بكسر الكاف - وأصله السِّتْرَةُ ، والجمع : أكنان. وأَكِنَّة ، ومنه قوله - تعالى - : ( وَقَالُواْ قُلُوبُنَا في أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ . . . ) أى فى أستار وأغطية فلا يصل إليها قولك والمراد بالأكنان هنا : المغارات والأسراب والكهوف المنحوتة فى بطون. . . الجبال .أى : وجعل لكم - سبحانه - من الجبال مواضع تستترون فيها من الحر أو - البرد أو المطر ، أو غير ذلك من وجوه انتفاعكم بتلك الأكنان .وقوله سبحانه - ( وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحر وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ) نعمة ثالثة . والسرابيل : جمع سربال وهى كل ما يتسربل به : أى يلبسها الناس للتستر والوقاية كالقمصان والثياب والدروع وغيرها . أى : وجعل لكم من فضله وكرمه ملابس تتقون بها ضرر الحر وضرر البرد وملابس أخرى هى الدروع وما يشبهها - تتقون بها الضربات والطعنات التى ، تسدد إليكم فى حالة الحرب .وقال - سبحانه - ( تقيكم الحر ) مع أنها تقى من الحر والبرد ، اكتفاء بذكر أحد الضدين عن الآخر ، أو اكتفى بذكر الحر لأنه الأهم عندهم ، إذ من المعروف أن بلاد العرب يغلب عليها الحر لا البرد .قال صاحب الكشاف : لم يذكر البرد ، لأن الوقاية من الحر أهم عندهم ، وقلما ، يهمهم البرد لكونه يسيرا محتملا ، وقيل : ما بقى من الحر يقى من البرد : - فدل ذكر الحر على البرد .وقال القرطبى : قال العلماء : فى قوله - تعالى دليل على اتخاذ الناس عدة الجهاد ( وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ) ليستعينوا بها على قتال الأعداء . وقد لبسها النبى صلى الله عليه وسلم فى حروبه . . .ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ( كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ) أى : كذلك الإتمام السابغ للنعم التى أنعم بها - سبحانه - على عباده يتم نعمته عليكم المتمثلة فى نعم الدين والدنيا ، لعلكم بذلك تسلمون وجوهكم لله - عز وجل - ، وتدخلون فى دين الإسلام عن اختيار واقتناع ، فإن من شاهد كل هذه النعم ، لم يسعه إلا الدخول فى الدين الحق .

فان تولوا فانما عليك البلاغ المبين

كما فسرها الوسيط ثم سلى الله - تعالى - نبيه صلى الله عليه وسلم عما أصابه من أعدائه فقال : ( فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البلاغ المبين ) وجواب الشرط محذوف ، والتقدير : فإن استمر هؤلاء المشركون فى إعراضهم عن. دعوتك بعد هذا البيان والامتنان ، فلا لوم عليك ، فأنت عليك البلاغ الواضح ونحن علينا محاسبتهم ، ومعاقبتهم بما يستحقون من عقاب .

يعرفون نعمت الله ثم ينكرونها واكثرهم الكافرون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ الله ثُمّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الكافرون ) استئناف مسوق لبيان الموقف الجحودى الذى وقفه المشركون من نعم الله - تعالى - .والمراد بالكفر فى ، قوله - تعالى - : ( وأكثرهم الكافرون ) الستر لنعم الله عن معرفة لها وغمطها عن تعمد وإصرار .أى : إن هؤلاء المشركين ، يعرفون نعم الله التى عددها فى هذه السورة ، كما أنهم يعترفون بأن خالقهم وخالق السموات والأرض ، هو الله ، ولكنهم ينكرون هذه النعم بأفعالهم القبيحة ، وأقوالهم الباطلة كقولهم هذه النعم من الله ولكنها بشفاعة آلهتنا الأصنام ، أو كقولهم : هذه النعم ورثناها عن آبائنا .وجاء التعبير بثم لاستبعاد الإنكار بعد المعرفة بالنعم ، فإن من شأن العالم بالنعمة أن يؤدى الشكر لمسديها ، وأن يستعملها فيما خلقت له .وقوله ( وأكثرهم الكافرون ) أى : وأكثر هؤلاء الضالين . جاحدون لنعم الله عن علم بها لا عن جهل ، وعن تذكر لا عن نسيان .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( وَجَحَدُواْ بِهَا واستيقنتها أنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً . . ) قال صاحب فتح البيان : وعبر هنا بالأكثر فى قوله - تعالى - : ( وأكثرهم الكافرون ) والمراد الكل ، لأنه قد يذكر الأكثر ويراد به الجميع ، أو أراد بالاكثر العقلاء دون الأطفال ونحوهم ، أو أراد كفر الجحود ، ولم يكن كفر كلهم كذلك ، بل كان كفر أقلهم عن جهل ، وكفر أكثرهم بسبب تكذيبهم للرسول صلى الله عليه وسلم عنادا أو حسدا .

ويوم نبعث من كل امة شهيدا ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون

كما فسرها الوسيط قال الإمام الرازى : اعلم أنه - تعالى - لما بين حال القوم ، أنهم عرفوا نعمة الله ثم أنكروها ، وذكر أيضا من حالهم أن أكثرهم الكافرون أتبعه بالوعيد ، فذكر حال يوم القيامة فقال : ( وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمّةٍ شَهِيداً . . . ) وذلك يدل على أن أولئك الشهداء يشهدون ، عليهم بذلك الإنكار ، وبذلك الكفر ، والمراد بهؤلاء الشهداء : الأنبياء كما قال - تعالى - : ( فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ على هؤلاء شَهِيداً ) والمعنى : واذكر - أيها العاقل لتعتبر ) ، وتتعظ - ( يَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمّةٍ ) أى : جماعة من الناس : شهيدا ) يشهد للمؤمن بالإيمان ويشهد على الكافر بالكفر .قال ابن عباس شهيد كل أمة نبيها يشهد لهم بالإيمان والتصديق ، وعليهم بالكفر والتكذيب وقوله : ( ثُمّ لاَ يُؤْذَنُ لِلّذِينَ كَفَرُواْ ) بيان للمصير السيئ. الذى ينتظر هؤلاء الكافرين يوم القيامة .أى : ثم لا يؤذن للذين كفروا يوم القيامة فى الاعتذار ، عما كانوا عليه فى الدنيا من عقائد زائفة ، وأقوال باطلة ، وأفعال قبيحة ، كما قال - تعالى - فى سورة أخرى : ( هذا يَوْمُ لاَ يَنطِقُونَ وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ) أو المعنى : ثم لا يؤذن لهم فى الرجوع إلى الدنيا ليتداركوا ما فاتهم من عقائد سليمة وأعمال صالحة ، لأنهم قد تركوها ولا عودة لهم إليها . أى : ثم لا يؤذن لهم فى الكلام ، بعد أن ثبت بطلانه ، وقامت عليهم الحجة والتعبير بثم للاشعار بأن مصيبتهم بسبب عدم قبول أعذارهم ، أشد من مصيبتهم بسبب شهادة الأنبياء عليهم قال صاحب الكشاف : فإن قلت ما معنى " ثم " هذه؟ .قلت : معناها أنهم يبتلون. بعد شهادة الأنبياء بما هو أطم منها ، وهو أنهم يمنعون الكلام ، فلا يؤذن لهم فى إلقاء معذرة ولا إدلاء بحجة .وقوله - سبحانه - : ( وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ) تيئيس آخر لهم فى الحصول على شئ من رحمة الله - تعالى - : أى : لا يؤذن لهم فى الاعتذار ، ولا يقبل منهم أن يزيلوا عتب ربهم ، أى . ، غضبه وسخطه عليهم ، لأن العتاب إنما يطلب لأجل معاودة الرضا من العاتب وهؤلاء قد انسد عليهم هذا الطريق ، لأن الله - تعالى - قد سخط عليهم سخطا لا مجال لإزالته ، بعد أن أصروا على كفرهم فى الدنيا وماتوا على ذلك .قال القرطبى : قوله ( وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ) أى لا يكلفون أن يرضوا ربهم لأن الآخرة ليست بدار تكليف ، ولا يتركون إلى رجوع الدنيا فيتوبون .وأصل الكلمة من العَتْب - بفتح العين وسكون التاء - وهى الموجدة . يقال : عَتَب عليه يُعتِب ، إذا وجد عليه ، فإذا فاوضه فيما عتب عليه فيه ، قيل : عاتبه فإذا رجع الى مسرتك فقد أعتب ، والاسم العتبى ، وهو رجوع المعتوب عليه ، إلى ما يرضى العاتب .قال النابغة :فإن كنتُ مظلوما فعبدا ظلمتَه ... وإن كنتَ ذا عُتْبَى فمثلك يُعتِبُوبذلك ترى الآية الكريمة قد نفت عن الذين كفروا قبول أعذارهم ، وقبول محاولتهم إرضاء ربهم عما كانوا عليه من كفر وزيغ فى الدنيا .

واذا راى الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون

كما فسرها الوسيط ثم نفى - سبحانه - عنهم - أيضا - تخفيف العذاب أو تأخيره

فقال : ( وَإِذَا رَأى الذين ظَلَمُواْ العذاب فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ
وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ ) .أى : وإذا أبصر الذين ظلموا العذاب الذى أعد لهم
فى الآخرة بسبب ظلمهم وكفرهم فى الدنيا ، فزعوا وخافوا ، ولكن خوفهم وفزعهم
لن يغير من الأمر شيئا ، إذ لا يخفف عنهم العذاب بسبب خوفهم أو فزعهم : ولا
هم يمهلون أو يؤخرون عنه .وعلق - سبحانه - الرؤية بالعذاب ، للإشعار بأن
فجيعتهم الكبرى كانت عند إبصاره ومشاهدته .

واذا راى الذين اشركوا شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من
دونك فالقوا اليهم القول انكم لكاذبون

كما فسرها الوسيط ثم حكى سبحانه بعض ما يدور بينهم وبين معبوداتهم الباطلة
يوم القيامة ، فقال - تعالى - : ( وَإِذَا رَأى الذين أَشْرَكُواْ
شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبّنَا هؤلاءأ شُرَكَآؤُنَا الذين كُنَّا
نَدْعُوْا مِن دُونِكَ . . . ) . قال القرطبى : " قوله - تعالى - : ( وَإِذَا
رَأى الذين أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ ) أى : أصنامهم وأوثانهم التى عبدوها
وذلك أن الله يبعث معبوديهم فيتبعونهم حتى يوردوهم النار . وفى صحيح مسلم ،
" : من كان يعبد شيئا فليتبعه " فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ، ويتبع من
كان يعبد القمر القمر ، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت . . . " .وقال
الآلوسى : " والمراد بشركائهم : كل من اتخذوه شريكا له - عز وجل - من صنم ، 
ووثن ، وشيطان ، وآدمى ، وملك . . وإضافتهم إلى ضمير المشركين لهذا
الاتخاذ - أى لاتخاذهم إياهم شركاء لله فى العبادة - أو لأنهم جعلوا لهم
نصيبا من أموالهم وأنعامهم " .أى : وإذا أبصر المشركون يوم القيامة شركاءهم
الذين أشركوهم مع الله - تعالى - فى العبادة ، ( قالوا ) أى المشركون على
سبيل التحسر والتفجع ياربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا فى الدنيا نعبدهم من
دونك ، ونتقرب بهم إليك ، فلا تجعل ياربنا العذاب علينا وحدنا بل خففه أو
ارفعه عنا فهؤلاء الشركاء هم الذين أضلونا .قال أبو مسلم : ومقصود المشركين
بهذا القول إحالة الذنب على تلك الأصنام تعللا بذلك واسترواحا ، مع كونهم
يعلمون أن العذاب واقع بهم لا محالة ، ولكن الغريق يتعلق بكل ما تقع يده
عليه .وقوله - تعالى - : ( فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ القول إِنَّكُمْ
لَكَاذِبُونَ ) حكاية لما رد به الشركاء على المشركين . أى : فرد أولئك
الشركاء من الأصنام وغيرها على المشركين بقولهم : إنكم لكاذبون - أيها
المشركون - فى إحالتكم الذنب علينا ، فإننا ما دعوناكم لعبادتنا ، ولا
أجبرناكم على الإشراك بالله - تعالى - ، ولكنكم أنتم الذين اخترتم هذا
الطريق المعوج ، تقليدا لآبائكم واستجابة لأهوائكم وشهواتكم ، وإيثارا
للباطل على الحق وما رد به الشركاء على المشركين هنا ، قد جاء ما يشبهه فى
آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - :( واتخذوا مِن دُونِ الله آلِهَةً
لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزّاً كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ
وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً ) وقوله - تعالى - : ( وَقَالَ الشيطان
لَمَّا قُضِيَ الأمر إِنَّ الله وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحق وَوَعَدتُّكُمْ
فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن
دَعَوْتُكُمْ فاستجبتم لِي فَلاَ تَلُومُونِي ولوموا أَنفُسَكُمْ . . ) قال
القرطبى : وقوله - تعالى - : ( فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ القول . . . ) أى :
ألقت إليهم الآلهة القول ، أى : نطقت بتكذيب من عبدها . بأنها لم تكن آلهة
ولا أمرتهم بعبادتها ، فينطق الله الأصنام حتى تظهر عند ذلك فضيحة الكفار ،
- وقال الجمل : فإن قلت : كيف أثبت للأصنام نطقا هنا ، ونفاه عنها فى قوله.
تعالى - فى سورة الكهف : ( وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآئِيَ الذين
زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ . . ) فالجواب : أن
المثبت لهم هنا النطق بتكذيب المشركين فى دعوى عبادتهم لها ، والمنفى عنهم
فى الكهف النطق بالإجابة إلى الشفاعة لهم ودفع العذاب عنهم فلا تنافى
والتعبير بقوله - تعالى - : ( فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ القول . . . ) يشعر.
- بأن الشركاء قد ردوا على المشركين قولهم بسرعة وبدون إبطاء حيث أتى
سبحانه - بالفاء فى قوله ( فألقوا ) واشتملت جملة ( إنكم لكاذبون ) على
جملة من المؤكدات ، لإفحام المشركين ، وتكذيبهم فى قولهم تكذيبا قاطعا لا
يحتمل التأويل .

والقوا الى الله يومئذ السلم وضل عنهم ما كانوا يفترون

كما فسرها الوسيط ولذا وجدنا المشركين يعجزون عن الرد على شركائهم ، بدليل
قوله - تعالى - بعد ذلك : ( وَأَلْقَوْاْ إلى الله يَوْمَئِذٍ السلم
وَضَلَّ عَنْهُم مّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ) .أى : وألقى المشركون يوم
- القيامة ( السلم ) أى : الاستسلام والخضوع والانقياد ، لقضاء الله
تعالى - العادل فيهم ، وغاب وذهب عنهم ما كانوا يفترونه ويزعمونه فى الدنيا
من أن آلهتهم ستشفع لهم ، أو ستنفعهم يوم القيامة .وقيل : إن الضمير فى
قوله - تعالى - ( وألقوا ) يعود على المشركين وشركائهم . أى . استسلم

. العابدون والمعبدون وانقادوا لحكم الله الواحد القهار فيهم

الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - مصير الذين لم يكتفوا بالكفر ، بل ضموا
إليه رذائل أخرى فقال - تعالى - : ( الذين كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن
سَبِيلِ الله زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ العذاب بِمَا كَانُواْ
) يُفْسِدُونَ ) أى : الذين لم يكتفوا بكفرهم ، بل أضافوا إلى ذلك أنهم
، صدوا ) غيرهم ومنعوه ( عَن سَبِيلِ الله ) أى : عن اتباع الصراط المستقيم
) : والطريق القويم وهو طريق الإسلام . . هؤلاء الأشقياء الذين فعلوا ذلك
زدناهم عذابا ) شديدا ( فوق العذاب ) الذى يستحقونه ( بِمَا كَانُواْ
يُفْسِدُونَ ) أى : بسبب فسادهم فى الأرض وكفرهم بالحق ، وصدهم الناس عن
. اتباعه .وهذه الزيادة فى عذابهم ، وردت آثار عن بعض الصحابة فى بيانها
ومن ذلك ما روى عن ابن مسعود - رضى الله عنه - أنه قال : " زيدوا عقارب لها
أنياب كالنخل الطوال ينهشونهم فى جهنم " .قال ابن كثير : وهذا دليل على
تفاوت الكفار فى عذابهم ، كما يتفاوت المؤمنون فى منازلهم فى الجنة
. ودرجاتهم

ويوم نبعث في كل امة شهيدا عليهم من انفسهم وجئنا بك شهيدا على هؤلاء
ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين

، كما فسرها الوسيط ثم أكد - سبحانه - أمر البعث ، وأنه آت لا ريب فيه
فقال - تعالى - : ( وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً
عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنْفُسِهِمْ ) .والمراد بالشهيد هنا : كل نبى بعثه
، الله - تعالى - لأمة من الأمم السابقة كنوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى
وغيرهم من الأنبياء السابقين - عليهم الصلاة والسلام - .والظرف ( يوم )
- متعلق بمحذوف تقديره : اذكر .والمعنى : واذكر - أيها العاقل لتتعظ وتعتبر
يوم القيامة - يوم نبعث فى كل أمة من الأمم السابقة ، نبيها الذى أرسل
إليها فى الدنيا ، ليشهد عليها الشهادة الحق ، بأن يشهد لمؤمنها بالإيمان
ولكافرها بالكفر .وقوله - سبحانه - : ( من أنفسهم ) أى : من جنسهم ،
وبيئتهم ، ليكون أتم للحجة ، وأقطع للمعذرة ، وأدعى إلى العدالة والإنصاف
قال الآلوسى : ولا يرد لوط - عليه السلام - فإنه لما تأهل فيهم وسكن معهم.
عد منهم - أيضا - .وقال ابن عطية : يجوز أن يبعث الله شهداء من الصالحين مع
الأنبياء - عليهم السلام - .وقد قال بعض الصحابة : إذا رأيت أحدا على معصية
) : - فانهه فإن أطاعك وإلا كنت شهيدا عليه يوم القيامة .وقوله - سبحانه
وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً على هؤلاءآء ) خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم على
سبيل التشريف والتكريم . أى : وجئنا بك - أيها الرسول الكريم - يوم القيامة
شهيدا على هؤلاء الذين أرسلك الله - تعالى - لإخراجهم من الظلمات إلى
النور .وإيثار لفظ المجئ على البعث ، لكمال العناية بشأنه صلى الله عليه
وسلم .قال ابن كثير قوله : ( وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً على هؤلاءآء ) يعنى
، أمتك . أى اذكر ذلك اليوم وهوله ، وما منحك الله فيه من الشرف العظيم
والمقام الرفيع . " وهذه الآية شبيهة بالآية التى انتهى إليها عبد الله بن
مسعود حين قرأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم صدر سورة النساء ، فلما وصل
إلى قوله - تعالى - ( فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ
وَجِئْنَا بِكَ على هؤلاء شَهِيداً ) فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم
حسبك " . فقال ابن مسعود : فالتفت فإذا عيناه صلى الله عليه وسلم تذرفان "
: أى بالدموع . . . " .والمراد بشهادته على أمته صلى الله عليه وسلم .
تصريحه بأنه قد بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ونصح لأمته ، وتزكيته لأعمال
الصالحين منها ، ورجاؤه من الله - تعالى - فى هذا اليوم العصيب أن يغفر
للعصاة من هذه الأمة .ويرى بعضهم أن المراد بهؤلاء فى قوله : ( وَجِئْنَا
بِكَ شَهِيداً على هؤلاءآء ) أى : على الأنبياء السابقين وأممهم .ويبدو لنا
، أن الرأى الأول أقرب إلى الصواب ، لأنه هو الظاهر من معنى الجملة الكريمة
ولأن آية سورة النساء

ان الله يامر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر
والبغي يعظكم لعلكم تذكرون

كما فسرها الوسيط قال القرطبى ما ملخصه : قوله - تعالى - : ( إِنَّ الله
يَأْمُرُ بالعدل والإحسان ) اختلف العلماء فى تأويل العدل والإحسان ، فقال
: ابن عباس : العدل :لا إله إلا الله ، والإحسان : أداء الفرائض . وقيل
: العدل الفرض . والإحسان : النافلة ، وقال على بن أبى طالب : العدل
: الإنصاف . والإحسان : التفضل .وقال ابن العربى : العدل بين العبد وربه
إيثار حقه - تعالى - على حظ نفسه ، وتقديم رضاه على هواه ، والاجتناب
للزواجر والامتثال للأوامر . وأما العدل بينه وبين نفسه فمنعه ما فيه

هلاكها . . وأما العدل بينه وبين غيره فبذل النصيحة ، وترك الخيانة فيما قل أو كثر ، والإنصاف من نفسك لهم بكل وجه .وأما الإحسان فهو مصدر أحسن يحسن إحسانا . ويقال على معنيين : أحدهما : متعد بنفسه ، كقولك : أحسنت كذا ، أى حسنته وأتقنته وكملته ، وهو منقول بالهمزة من حسن الشئ . وثانيهما : متعد : بحرف جر ، كقولك : أحسنت إلى فلان ، أى : أوصلت إليه ما ينتفع به . وهو فى هذه الآية مراد بالمعنيين معا . . .ومن هذا الكلام الذى نقلناه بشئ من التلخيص عن الإمام القرطبى ، يتبين لنا أن العدل هو أن يلتزم الإنسان جانب الحق والقسط فى كل أقواله وأعماله ، وأن الإحسان يشمل إحسان الشئ فى ذاته سواء أكان هذا الشئ يتعلق بالعقائد أم بالعبادات أم بغيرهما ، كما يشمل إحسان المسلم إلى غيره .فالإحسان أوسع مدلولا من العدل : لأنه إذا كان العدل معناه : أن تعطى كل ذى حق حقه ، بدون إفراط أو تفريط ، فإن الإحسان يندرج تحته أن تضيف إلى ذلك : العفو عمن أساء إليك ، والصلة لمن قطعك ، والعطاء لمن حرمك .وإيثار صيغة المضارع فى قوله : ( إِنّ الله يَأْمُرُ . . . ) لإفادة التجدد والاستمرار . ولم يذكر - سبحانه - متعلقات العدل والإحسان ليعم الأمر جميع ما يعدل فيه ، وجميع ما يجب إحسانه وإتقانه من أقوال وأعمال ، وجميع ما ينبغى أن تحسن إليه من إنسان أو حيوان أو غيرهما .وقوله - تعالى - : ( وَإِيتَآءِ ذِي القربى ) فضيله ثالثة معطوفة على ما قبلها من عطف الخاص على العام ، إذ هى مندرجة فى العدل ، والإحسان .وخصها - سبحانه - بالذكر اهتماما بأمرها ، وتنويها بشأنها وتعظيما لقدرها .والإِيتاء : مصدر بمعنى الإعطاء ، وهو هنا مصدر مضاف لمفعوله .والمعنى : إن الله - يأمركم - أيها المسلمون - أمرا دائما وواجبا أن تلتزموا الحق والإنصاف فى كل أقوالكم وأفعالكم وأحكامكم ، وأن ، تلتزموا التسامح والعفو والمراقبة لله - تعالى - فى كل أحوالكم .كما يأمركم أن تقدموا لأقاربكم على سبيل المعاونة والمساعدة ، ما تستطعيون تقديمه لهم من خير وبر . .لأن هذا الفضائل متى سرت بينكم ، نلتم السعادة فى دينكم ودنياكم ، إذ بالعدل ينال كل صاحب حق حقه ، وبالإحسان يكون التحاب والتواد - والتراحم ، وبصلة الأقارب يكون التكافل والتعاون .. .وبعد أن أمر سبحانه - بأمهات الفضائل ، نهى عن رءوس الرذائل فقال - تعالى - : ( وينهى عَنِ الفحشاء والمنكر والبغي . . ) .والفحشاء : كل ما اشتد قبحه من قول أو فعل . وخصها بعضهم بالزنا .والمنكر : كل ما أنكر الشرع بالنهى عنه ، فيعم جميع المعاصى والرذائل والدناءات على اختلاف أنواعها .والبغى : هو تجاوز الحد فى كل شئ يقال : بغى فلان على غيره ، إذا ظلمه وتطاول عليه .وأصله من بغى الجرح إذا ترامى إليه الفساد . . .أى : كما أمركم - سبحانه - بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، فإنه - تعالى - ينهاكم عن كل قبيح وعن كل منكر ، وعن كل تجاوز لما شرعه الله - عز وجل - .وذلك لأن هذه الرذائل ما شاعت فى أمة إلا وكانت عاقبتها خسرا ، وأمرها فرطا ، والفطرة البشرية النقية تأبى الوقوع أو الاقتراب من هذه الرذائل ، لأنها تتنافى مع العقول السليمة ، ومع الطباع القويمة .ومهما روج الذين لم ينبتوا نباتا حسنا لتلك الرذائل ، فإن النفوس الطاهرة ، تلفظها بعيدا عنها ، كما يلفظ الجسم الأشياء الغريبة التي تصل إليه .ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله ) : يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ) أى : ينبهكم - سبحانه - أكمل تنبيه وأحكمه إلى ما يصلحكم عن طريق اتباع ما أمركم به وما نهاكم عنه ، لعلكم ، بذلك تحسنون التذكر لما ينفعكم ، وتعملون بمقتضى ما علمكم - سبحانه .هذا وقد ذكر المفسرون فى فضل هذه الآية كثيرا من الآثار والأقوال ، ومن ذلك ما أخرجه الحافظ أبو يعلى فى كتاب معرفة الصحابة . . قال : " بلغ أكثم بن صيفى مخرج النبى صلى الله عليه وسلم فأراد أن يأتيه ، فأبى قومه أن يدعوه وقالوا له : أنت كبيرنا لم تكن لتخف إليه . قال : فليأته من يبلغه عنى ويبلغنى عنه فانتدب رجلان فأتيا النبى صلى الله عليه وسلم فقال له : نحن رسل أكثم بن صيفى وهو يسألك من أنت وما أنت؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : " أما أنا فمحمد ابن عبدالله ، وأما ما أنا ، فأنا عبد الله ورسوله " .ثم تلا عليهم : هذه الآية : ( إِنّ الله يَأْمُرُ بالعدل والإحسان . . ) الآية .فقالوا ردد علينا هذا القول ، فردده عليهم حتى حفظوه ، فأتيا أكثم فقالا له : أبى أن يرفع نسبه فسألنا عن نسبه فوجدناه زاكى النسب . . وقد رمى إلينا بكلمات قد سمعناها فلما سمعهن أكثم قال : إنى أراه يأمر بمكارم الأخلاق وينهى عن ملائمها ، فكونوا فى هذا الامر رءوسا ، ولا تكونوا فيه أذنابا " .وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : أعظم آية فى كتاب الله : ( الله لاَ إله إلاَّ هُوَ الحي القيوم . . ) وأجمع آية فى كتاب الله للخير والشر ) : إِنَّ الله يَأْمُرُ بالعدل والإحسان ) وأكثر آية فى كتاب الله تفويضا وَمَن يَتّقِ الله يَجْعَل لّهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ . . ) وأشد آية فى كتاب الله رجاء : ( قُلْ ياعبادي الذين أَسْرَفُواْ على أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُواْ مِن رّحْمَةِ الله إِنَّ الله يَغْفِرُ الذنوب جَمِيعاً . . ).

واوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم

الله عليكم كفيلا ان الله يعلم ما تفعلون

) : كما فسرها الوسيط ثم أمرهم - سبحانه - بالوفاء بالعهود فقال
وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ الله إِذَا عَاهَدتُّمْ . . ) .والعهد : ما من شأنه
أن يراعى ويحفظ ، كاليمين والوصية وما يشبههما .وعهد الله : أوامره ونواهيه
: - وتكاليفه الشرعية التى كلف الناس بها ، والوفاء بعهد الله - تعالى
- يتأتى بتنفيذ أوامره وتكاليفه ، واجتناب ما نهى عنه .قال القرطبى : قوله
تعالى - : ( وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ الله إِذَا عَاهَدتُّمْ . . . ) لفظ عام
لجميع ما يعقد باللسان ، ويلتزمه الإنسان من بيع أوصلة ، أو مواثقة فى أمر
موافق للديانة .وهذه الآية مضمن قوله - تعالى - : ( إِنَّ الله يَأْمُرُ
بالعدل والإحسان ) لأن المعنى فيها : افعلوا كذا ، وانتهوا عن كذا ، فعطف
على ذلك التقدير .وقد قيل إنها نزلت فى بيعة النبى صلى الله عليه وسلم على
الإسلام . وقيل : نزلت فى التزام الحلف الذى كان فى الجاهلية ، وجاء
. . . الإسلام بالوفاء به - كحلف الفضول - .والعموم يتناول كل ذلك
والمعنى : إن الله يأمركم - أيها المسلمون - بالعدل والإحسان وإيتاء ذى.
- القربى ، ويأمركم - أيضا - بالوفاء بالعهود التى التزمتم بها مع الله
تعالى - أو مع الناس .والآيات التى وردت فى وجوب الوفاء بالعهود كثيرة ومن
ذلك قوله - تعالى - : ( وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ العهد كَانَ
مَسْؤُولاً ) وخص - سبحانه - الأمر بالوفاء بالعهد بالذكر - مع أنه داخل فى
المأمورات التى اشتملت عليها الآية السابقة كما أشار إلى ذلك القرطبى فى
كلامه السابق - لأن الوفاء بالعهود من آكد الحقوق وأوجبها على الإنسان
وقوله تعالى : ( وَأَوْفُواْ بعهدي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فارهبون.
ومن الأحاديث التى وردت فى ذلك ما رواه الشيخان عن أبى هريرة أن رسول (
الله صلى الله عليه وسلم قال : " آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا
وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان " .وقوله - سبحانه - : ( وَلاَ تَنقُضُواْ
الأيمان بَعْدَ تَوْكِيدِهَا . . . ) تأكيد للأمر بالوفاء ، وتحذير من
الخيانة والغدر .والنقض فى اللغة : حقيقة فى فسخ ماركب بفعل يعاكس الفعل
الذى كان به التركيب . واستعمل هنا على سبيل المجاز فى إبطال العهد
والأيمان : جمع يمين . وتطلق بمعنى الحلف والقسم . وأصل ذلك أن العرب.
كانوا إذا أرادوا توثيق عهودهم بالقسم يقسمونه ، ووضع كل واحد من
المتعاهدين يمينه فى يمين صاحبه .أى : كونوا أوفياء بعهودكم ، ولا تنقضوا
الأيمان بعد توكيدها ، أى : بعد توثيقها وتغليظها عن طريق تكرارها بمرة
ومرتين ، أو عن طريق الإتيان فيها ببعض أسماء الله - تعالى - وصفاته
وقوله - تعالى - : ( بعد توكيدها ) للإشعار بأن نقض الأيمان وإن كان.
قبيحا فى كل حالة ، فهو فى حالة توكيد الأيمان وتغليظها أشد قبحا .ولذا قال
بعض العلماء : " وهذا القيد لموافقة الواقع ، حيث كانوا يؤكدون أيمانهم فى
، المعاهدة ، وحينئذ فلا مفهوم له ، فلا يختص النهى عن النقض بحالة التوكيد
بل نقض اليمين منهى عنه مطلقا . أو يراد بالتوكيد القصد ، ويكون احترازا عن
لغو اليمين . وهى الصادرة عن غير قصد للحلف " .وقال الإمام ابن كثير ما
ملخصه : " ولا تعارض بين هذه الآية وبين قوله صلى الله عليه وسلم فيما ثبت
عنه فى الصحيحين أنه قال : " إنى والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى
غيرها خيرا منها ، إلا أتيت الذى هو خير وتحللتها " وفى رواية " وكفرت عن
يمينى " لأن هذه الأيمان المراد بها فى الآية : الداخلة فى العهود
والمواثيق ، لا الأيمان التى هى واردة فى حث أو منع . . . " .والخلاصة ، أن
الآية الكريمة تنهى المؤمن عن نقض الأيمان نهيا عاما ، إلا أن السنة
النبوية الصحيحة قد خصصت هذا التعميم بإباحة نقض اليمين إذا كانت مانعة من
فعل الخير ، ويؤيد هذا التخصيص قوله - تعالى - : ( وَلاَ تَجْعَلُواْ الله
عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ
الناس . . ) وجملة ( وَقَدْ جَعَلْتُمُ الله عَلَيْكُمْ كَفِيلاً . . ) حال
من فاعل ( تنقضوا ) ، وهى مؤكدة لمضمون ما قبلها من وجوب الوفاء بالعهود
والنهى عن نقضها .والكفيل : من يكفل غيره ، أى : يضمنه فى أداء ما عليه .أى
- ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، والحال أنكم قد جعلتم الله - تعالى :
ضامنا لكم فيما التزمتم به من عهود ، وشاهدا ورقيبا على أقوالكم وأعمالكم
- فالجملة الكريمة تحذر المتعاهدين من النقض بعد أن جعلوا الله - تعالى.
- كفيلا عليهم .ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بهذا التهديد الخفى فقال
- تعالى - : ( إِنَّ الله يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ) . أى : إن الله
تعالى - يعلم ما تفعلون من الوفاء أو النقض ، وسيجازيكم بما تستحقون من خير
. أو شر ، فالمراد من العلم لازمه ، وهو المجازاة على الأعمال

ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة انكاثا تتخذون ايمانكم دخلا بينكم
ان تكون امة هي اربى من امة انما يبلوكم الله به وليبينن لكم يوم القيامة
ما كنتم فيه تختلفون

- كما فسرها الوسيط ثم ضرب - سبحانه - مثلا لتقبيح نقض العهد ، فقال

تعالى - : ( وَلاَ تَكُونُواْ كالتي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ
. أَنكَاثاً ) .وقوله : ( غزلها ) أى : مغزولها ، فهو مصدر بمعنى المفعول
والفعل منه غزل يغزل - بكسر الزاى .. من باب ضرب . يقال غزلت المرأة الصوف
أو القطن غزلا .والجار والمجرور فى قوله ( مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ) متعلق
بالفعل ( نقضت ) أى : نقضته وأفسدته من بعد إبرامه وإحكامه .و ( أنكاثا )
حال مؤكدة من ( غزلها ) ، ويجوز أن يكون مفعولا ثانيا ، بتضمين الفعل نقضت
معنى صيرت أو جعلت .والأنكاث : جمع نكث - بكسر النون - ، بمعنى منكوث أى
منقوض ، وهو ما نقض وحل فتله ليغزل ثانيا ، والجمع أنكاث كحمل وأحمال .يقال
- نكث الرجل العهد نكثا - من باب قتل - إذا نقضه ونبذه ، ومنه قوله :
: تعالى - ( فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ على نَفْسِهِ ) قال ابن كثير
هذه امرأة خرقاء كانت بمكة ، كلما غزلت شيئا نقضته بعد إبرامه .وقال مجاهد
وقتادة وابن زيد : هذا مثل لمن نقض عهده بعد توكيده . وهذا أرجح وأظهر سواء
- أكان بمكة امرأة تنقض غزلها أم لا .والمعنى : كونوا - أيها المسلمون
أوفياء بعهودكم ، ولا تنقضوها بعد إبرامها ، فإنكم إن نقضتموها كان مثلكم
كمثل تلك المرأة الحمقاء ، التى كانت تفتل غزلها فتلا محكما ، ثم تنقضه بعد
ذلك ، وتتركه مرة أخرى قطعا منكوثة محلولة . .فالجملة الكريمة تحقر فى كل
جزئية من جزئياتها ، حال من ينقض العهد ، وتشبهه على سبيل التنفير والتقبيح
) : - بحال امرأة ملتاثه فى عقلها ، مضطربة فى تصرفاتها .وقوله - سبحانه
تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ
أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ ) .إبطال للأسباب التى كان يتخذها بعض الناس ذرائع
. ومبررات لنقض العهود .والدَّخَل - بفتح الخاء - : المكر والغش والخديعة
وهو فى الأصل اسم للشئ الذى يدخل فى غيره وليس منه .قال الراغب : والدخل
. . كناية عن الفساد والعداوة المستبطنة ، كالدَّغَل ، وعن الدعوة فى النسب
) ومنه قيل : شجرة مدخولة - أى ليست من جنس الأشجار التى حولها .وقوله .
أَن تَكُونَ أُمَّةٌ . . . ) متعلق بقوله ( تتخذون ) .وقوله ( أربى ) مأخوذ
من الربو بمعنى الزيادة والكثرة . يقال : رَبَا الشئ يربوا إذا زاد وكثر
والمعنى : ولا تكونوا مشبهين لامرأة هذا شأنها ، حالة كونكم متخذين.
أيمانكم وأقسامكم وسيلة للغدر والخيانة ، من أجل أن هناك جماعة أوفر عددا
وأكثر مالا من جماعة أخرى .قال القرطبى : قال المفسرون : نزلت هذه الآية فى
العرب الذين كانت القبيلة منهم إذا حالفت أخرى ، ثم جاءت إحداهما قبيلة
أخرى كبيرة قوية فداخلتها غدرت بالأولى ونقضت عهدها ، ورجعت إلى هذه الكبرى
فنهاهم الله - تعالى- : أن ينقضوا العهود من أجل أن طائفة أكثر من طائفة ،
أخرى ، أو أكثر أموالا . . .وقال الفراء : المعنى :لا تغدروا بقوم لقلتهم
وكثرتكم ، أو لقلتكم وكثرتهم وقد عززتموهم بالأيمان .وقال ابن كثير : قال
مجاهد : كانوا يحالفون الحلفاء ، فيجدون أكثر منهم وأعز ، فينقضون حلف
. هؤلاء ويحالفون أولئك الذين هم أكثر وأعز ، فنهوا عن ذلك

ولو شاء الله لجعلكم امة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء ولتسالن عما كنتم تعملون

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

ولا تتخذوا ايمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم

كما فسرها الوسيط فقوله - سبحانه - ( وَلاَ تتخذوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً
بَيْنَكُمْ ) تصريح بالنهى عن اتخاذ الإيمان من أجل الغش والخديعة ، بعد
النهى عن نقض العهود بصفة عامة . أى : ولا تتخذوا - أيها المؤمنون - الحلف
بالله - تعالى - ذريعة إلى غش الناس وخداعهم واستلاب حقوقهم ، فقد جرت عادة
الناس أن يطمئنوا إلى صدق من يقسم بالله - تعالى - ، فلا تجعلوا هذا
- الاطمئنان وسيلة للكذب عليهم ، ولإفساد ما بينكم وبينهم من مودة .ثم رتب
سبحانه - على هذا النهى ما من شأنه أن يردع النفوس عن اتخاذ الأيمان دخلا
فقال : ( فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ) وأصل الزلل الخروج عن
الطريق السليم . يقال : زل فلان يزل زللا وزلولا ، إذا دحضت قدمه ولم تصب
، موضعها الصحيح أى :لا تتخذوا أيمانكم وسيلة للخديعة والإفساد بين الناس
: فتزل أقدامكم عن طريق الإسلام بعد ثبوتها عليها ، ورسوخها فيها ، قالوا
والجملة الكريمة مثل يُضْرَب لكل من وقع فى بلية ومحنة ، بعد أن كان فى
عافية ونعمة .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم وحدت القدم ونكرت؟ قلت
لاستعظام أن تزل قدم واحدة عن طريق الحق. بعد أن ثبتت عليه ، فكيف بأقدام
كثيرة؟ .وقوله ( وَتَذُوقُواْ السواء بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ الله )
: بيان لما يصيبهم من عذاب دنيوى بسبب اتخاذ أيمانهم دخلا بينهم . أى
وتذوقوا السوء وهو العذاب الدنيوى من المصائب والخوف والجوع ، بسبب صدودكم
وإعراضكم عن أوامر الله ونواهيه ، أو بسبب صدكم لغيركم عن الدخول فى دين
الله ، حيث رأى منكم ما يجعله ينفر منكم ومن دينكم .والتعبير بتذوقوا فيه

إشارة إلى أن العذاب الدنيوى الذى سينزل بهم بسبب اتخاذهم أيمانهم دخلا بينهم ، سيكون عذابا شديدا يحسون آلامه إحساسا واضحا ، كما يحس الشارب للشئ المر مرارته ، ويتذوق آلامه .قال ابن كثير : حذر الله - تعالى - عباده عن اتخاذ الأيمان دخلا ، أى : خديعة ومكرا ، لئلا تزل قدم بعد ثبوتها، مثل لمن ، كان على الاستقامة وحاد عنها ، وزل عن طريق الهدى بسبب الأيمان الحانثة المشتملة على الصد عن سبيل الله ، لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن قد عاهده ثم غدر به ، لم يبق له وثوق بالدين ، فانصد بسببه عن الدخول فى الإسلام وقوله : ( وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ )لا يعلم مقدار شدته وهوله إلا. الله - عز وجل - فأنت ترى أن الآية الكريمة قد رتبت على اتخاذ الأيمان دخلا انقلاب حالة الإنسان من الخير إلى الشر ، ونزول العذاب الدنيوى والأخروى ، به .

ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا انما عند الله هو خير لكم ان كنتم تعلمون

- كما فسرها الوسيط ثم نهاهم - سبحانه - عن أن يبيعوا دينهم بدنياهم فقال تعالى - : ( وَلاَ تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ اللّه ثَمَناً قَلِيلاً ) والاشتراء هنا : استعارة للاستبدال ، والذى استبدل به الثمن القليل هو. الوفاء بعهد الله .والمراد بعهد الله - تعالى - : أوامره ونواهيه التى كلفنا بالتزامها والعمل بمقتضاها .والمراد بالثمن القليل : حظوظ الدنيا - وشهواتها وزينتها من الأموال وغيرها .والمعنى : ولا تستبدلوا بأوامر الله تعالى - ونواهيه ، عرضا قليلا من أعراض الدنيا الزائلة ، بأن تنقضوا عهودكم فى مقابل منفعة دنيوية زائلة .وليس وصف الثمن بالقلة فى قوله : ( ثمنا قليلا ) من الأوصاف المخصصة للنكرات ، بل هو من الأوصاف اللازمة للثمن المحصل فى مقابل عدم الوفاء بالعهد ، إذ لا يكون إلا قليلا وإن بلغ ما بلغ ، من أعراض الدنيا بجانب رضا الله - تعالى - .ورحم الله الإمام ابن كثير فقد قال عند تفسيره لهذه الآية الكريمة : ( وَلاَ تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ الله ثَمَناً قَلِيلاً ) أى :لا تعتاضوا عن الأيمان بالله عرض الحياة الدنيا وزينتها ، فإنها قليلة ، ولو حيزت لابن آدم الدنيا بحذافيرها لكان ما عند الله هو خير له .ثم رغبهم - سبحانه - فيما عنده فقال : ( إِنَّمَا عِنْدَ الله هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ) .أى : إن ما ادخره الله - تعالى - لكم من ثواب عظيم ، وأجر جزيل ، وحياة طيبة ، هو خير لكم من ذلك الثمن القليل الذى تتطلعون إليه ، وتنقضون العهود من أجله ، إن كنتم من أهل العلم والفطنة ، الذين يؤثرون الباقى على الفانى .قال الآلوسى قوله ( إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ) أى : إن كنتم من أهل العلم والتمييز : . فالفعل منزل منزلة اللازم . وقيل : متعد ، والمفعول محذوف ، وهو فضل ما بين العوضين ، والأول أبلغ ومستغن عن التقدير .

ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا اجرهم باحسن ما كانوا يعملون

كما فسرها الوسيط ثم أضاف - سبحانه - إلى ترغيبهم فى العمل بما يرضيه ترغيبا آخر فقال : ( مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللّه بَاقٍ ) .أى : - ما عندكم من متاع الدنيا وزهرتها يفنى وينقضى ويزول ، وما عند الله تعالى - فى الآخرة من عطاء باق لا يفنى ولا يزول ، فآثروا ما يبقى على ماينفد . يقال : نفد الشئ بكسر الفاء - ينفد - بفتحها - نفادا ونفودا ، إذا ذهب وفنى .ثم بشر - سبحانه - الصابرين على طاعته بأعظم البشارات فقال : ( وَلَنَجْزِيَنَّ الذين صبروا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ) .أى : ولنجزين الذين صبروا على طاعتنا ، واجتنبوا معصيتنا ، ووفوا بعهودنا ، بجزاء أفضل وأكرم مما كانوا يعملونه فى الدنيا من خيرات وطاعات .وأكد - سبحانه - هذه البشارة بلام القسم ، ونون التوكيد ، لترغيبهم فى الثبات على فضيلة الصبر ، وعلى الوفاء بالعهد .قال الجمل ما ملخصه : وقوله ( أجرهم ) مفعول ثان لنجزى . وقوله ( بأحسن ) نعت لمحذوف ، أى : بجزاء أحسن من عملهم الذى كانوا يعملونه فى الدنيا ، والباء بمعنى على .

من عمل صالحا من ذكر او انثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم اجرهم باحسن ما كانوا يعملون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة المؤمنين الذين يحرصون على العمل الصالح فقال - تعالى - : ( مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أنثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ) .أى : من عمل عملا صالحا ، بأن يكون خالصا لوجه الله - تعالى - وموافقا لما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم سواء أكان هذا العامل المؤمن ذكرا أم أنثى ، - فلنحيينه حياة طيبة ، يظفر معها بصلاح البال ، وسعادة الحال .وقال

سبحانه - : ( مِّن ذَكَرٍ أَوْ أنثى ) مع أن لفظ " مَنْ " فى قوله : ( من
، عمل ) يتناول الذكور والإناث؛ للتنصيص على النوعين ، حتى يكون أغبط لهما
ولدفع ما قد يتوهم من أن الخطاب للذكور وحدهم .ولذا قال صاحب الكشاف : فإن
قلت " مَن " متناول فى نفسه للذكر والأنثى فما معنى تبيينه بهما؟ قل : هو
مبهم صالح على الإطلاق للنوعين ، إلا أنه إذا ذكر كان الظاهر تناوله
للذكور ، فقيل ( مِّن ذَكَرٍ أَوْ أنثى ) على التبيين ليعم الوعد النوعين
جميعا .وقيد - سبحانه - العامل بكونه مؤمنا فقال : ( وهو مؤمن ) لبيان أن
العمل لا يكون مقبولا عند الله - تعالى - إلا إذا كان مبنيا على العقيدة
الصحيحة ، وكان صاحبه يدين بدين الإسلام ، وقد أوضح القرآن هذا المعنى فى
آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - : ( وَقَدِمْنَآ إلى مَا عَمِلُواْ مِنْ
عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَّنثُوراً ) والمراد بالحياة الطيبة فى
قوله - تعالى - : ( فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ) الحياة الدنيوية
التى يحياها المؤمن إلى أن ينقضى أجله .قال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية
ما ملخصه : هذا وعد من الله - تعالى - لمن عمل صالحا من ذكر أوأنثى ، بأن
يحييه الله حياة طيبة فى الدنيا . . والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أى
جهة كانت . وقد روى عن ابن عباس وجماعة أنهم فسروها بالرزق الحلال ، وعن
على بن أبى طالب أنه فسرها بالقناعة .والصحيح أن الحياة الطيبة تشمل هذا
كله ، كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن ابن عمر أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال : " قد أفلح من أسلم ورزق كفافا وقنعه الله بما
آتاه " .وقيل المراد بالحياة الطيبة هنا : الحياة الأخروية ، وقد صدر الشيخ
) - الآلوسى تفسيره بهذا الرأى فقال ما ملخصه : قوله - تعالى
فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ) والمراد بالحياة الطيبة التى تكون
فى الجنة ، إذ هناك حياة بلا موت ، وغنى بلا فقر ، وصحة بلا سقم ، وسعادة
: بلا شقاوة . . فعن الحسن :لا تطيب الحياة لأحد إلا فى الجنة .وقال شريك
هى حياة تكون فى البرزخ . . وقال غير واحد هى فى الدنيا .ويبدو لنا أن
تفسير الحياة الطيبة هنا بأنها الحياة الدنيوية أرجح ، لأن الحياة الأخروية
جاء التصريح بها بعد ذلك فى قوله - تعالى - : ( وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ
. ( أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ

فاذا قرات القران فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم

. . كما فسرها الوسيط والمراد بقوله - تعالى - : ( فَإِذَا قَرَأْتَ القرآن
أى فإذا أردت قراءته . فالكلام على حذف الإرادة ، وذلك لأن المعنى الذى (
- طلبت من أجله الاستعاذة وهو دفع وسوسة الشيطان يقتضى أن يبدأ القارئ بها
أى بالاستعاذة - قبل القراءة لا بعدها وشبيه بهذه الآية فى حذف الإرادة
لدلالة المقام عليها قوله - تعالى - : ( يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ إِذَا
. قُمْتُمْ إِلَى الصلاة فاغسلوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى المرافق
أى : إذا أردتم القيام إلى الصلاة فاغسلوا .وقوله - تعالى - : ( وَكَم ( .
مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ
قَآئِلُونَ ) أى : أردنا إهلاكها فجاءها بأسنا .والمعنى : فإذا أردت - أيها
المسلم - قراءة القرآن ( فاستعذ بالله ) أى : فاستجر بالله ، والتجئ إلى
، حماه ( مِنَ الشيطان الرجيم ) .قال ابن كثير : " والشيطان فى لغة العرب
، كل متمرد من الجن والإنس والدواب وكل شئ ، وهو مشتق من شطن بمعنى بعد
فهو بعيد بطبعه عن طباع البشر ، وبعيد بفسقه عن كل خير . . . " .والرجيم
- بزنة فعيل بمعنى مفعول . أى : أنه مرجوم ومطرود من رحمة الله - تعالى
قال بعض العلماء : وإنما خصت القراءة بطلب الاستعاذة ، مع أنه قد أمر بها.
على وجه العموم فى جميع الشئون ، لأن القرآن مصدر هداية ، والشيطان مصدر
ضلال ، فهو يقف للإنسان بالمرصاد فى هذا الشأن على وجه خاص ، فيثير أمامه
ألوانا من الشكوك فيما يفيد من قراءته ، وفيما يقصد بها ، فيفوت عليه
الانتفاع بهدى الله وآياته . فعلمنا الله - تعالى - أن نتقى ذلك كله بهذه
الاستعاذة التى هى فى الواقع عنوان صادق ، وتعبير حق ، عن امتلاء قلب
، المؤمن بمعنى اللجوء إلى الله . وقوة عزيمته فى طرد الشيطان ووساوسه
واستقبال هدايته بقلب طاهر ، وعقل واع وإيمان ثابت .وكيفية الاستعاذة أن
يقول القارئ عند إرادة قراءته للقرآن ، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، فقد
تضافرت الروايات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه الصيغة .قال الآلوسى
وروى الثعلبى والواحدى أن ابن مسعود قرأ عن النبى صلى الله عليه وسلم " .
فقال : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، فقال له النبى صلى
، الله عليه وسلم : " يابن أم عبد ، قل : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم
- هكذا أقرأنى جبريل . . " " .وقال صاحب تفسير آيات الأحكام : والأمر بها
أى بالاستعاذة - للندب عند الجمهور .وعن الثورى أنها واجبة . وظاهر الآية
يؤيده ، إذ الأمر للوجوب . والجمهور يقولون : إنه صرفها عن الوجوب ما ورد
من أنه صلى الله عليه وسلم لم يعلمها للأعرابى - أى الذى سأله عن كيفية
. الصلاة - وأيضا فقد روى أنه كان صلى الله عليه وسلم يتركها

انه ليس له سلطان على الذين امنوا وعلى ربهم يتوكلون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أن وسوسة الشيطان لا أثر لها على المؤمنين الصادقين فقال - تعالى -: { إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَىٰ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } أى: إن الشيطان مهما تمرد وعتا فإنه { لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ } أى: ليس له تسلط - واستيلاء واستحواذ بالقهر والغلبة، على نفوس الذين آمنوا بالله - تعالى حق الإيمان والذين هم عليه - تعالى - وحده يتوكلون ويعتمدون لا على غيره.وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى -:{ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ }وقوله - تعالى -:{ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً }

انما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون

كما فسرها الوسيط وبعد أن نفى - سبحانه - أن يكون للشيطان سلطان على نفوس المؤمنين الصادقين أثبت - سبحانه - أن تسلط الشيطان إنما هو على نفوس الضالين، فقال - تعالى -: { إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَىٰ ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ }.أى: إنما تسلط الشيطان وتأثيره على الضالين الفاسقين الذين { يتولونه } أى: يتقربون منه، ويجعلونه واليا عليهم، فيحبونه ويطيعونه ويتبعون خطواته.فقوله { يتولونه } من { :الوَلْى - بفتح الواو وسكون اللام - بمعنى القرب والنصرة وقوله وَٱلَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ } أى: والذين هم بسبب الشيطان وإغوائه " لهم، مشركون مع الله - تعالى - آلهة أخرى فى العبادة.فالضمير فى " به " يعود على الشيطان، والباء للسببية.ويرى بعضهم أن الضمير فى " به " يعود على الله - تعالى، وأن الباء للتعدية، فيكون المعنى: إنما سلطان الشيطان على الذين يطيعونه، والذين هم بالله - تعالى - مشركون.قالوا: والأول أرجح لاتحاد الضمائر فيه، ولأنه هو المتبادر إلى الذهن.وبذلك نرى الآيات الكريمة، تأمر المؤمنين بأن يستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم، عند قراءتهم للقرآن الكريم، كما نراها تبشرهم بأنه لا سلطان للشيطان عليهم ما داموا معتصمين بحبل الله - تعالى - ومنفذين لأوامره، ومعتمدين عليه.

واذا بدلنا اية مكان اية والله اعلم بما ينزل قالوا انما انت مفتر بل اكثرهم لا يعلمون

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( وَإِذَا بَدَّلْنَآ آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ . . . ) التبديل رفع الشئ مع وضع غيره مكانه . فتبديل الآية رفعها بآية أخرى .وجمهور المفسرين على أن المراد بالآية هنا : الآية القرآنية . وعلى أن المراد بتبديلها نسخها .قال صاحب الكشاف : تبديل الآية مكان الآية هو النسخ ، والله - تعالى - ينسخ الشرائع بالشرائع لأنها مصالح ، وما كان مصلحة بالأمس يجوز أن يكون مفسدة اليوم وخلافه مصلحة . والله - تعالى - عالم بالمصالح والمفاسد ، فيثبت ما يشاء ، وينسخ ما يشاء بحكمته . . .وقال الجمل : قوله - تعالى - ( وَإِذَا بَدَّلْنَآ آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ . . . ) وذلك أن المشركين من أهل مكة قالوا : إن محمدا صلى الله عليه وسلم يسخر بأصحابه ، يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غدا ، ما هذا إلا مفترى يتقوله من تلقاء نفسه ، فأنزل الله - تعالى - : ( وَإِذَا بَدَّلْنَآ آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ . . . ) والمعنى : وإذا نسخنا حكم آية فأبدلنا مكانه حكما آخر .وقال الآلوسى : قوله - تعالى - : ( وَإِذَا بَدَّلْنَآ آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ ) أى : وإذا نزلنا آية من القرآن مكان آية منه . وجعلناها بدلا منها بأن نسخناها بها . . .ومنهم من يرى أن المراد بالآية هنا " الآية الكونية " أى المعجزة التى أتى بها كل نبى لقومه وأن المراد بتبديلها : الإتيان بمعجزة أخرى سواها .قال الشيخ القاسمى عند تفسيره لهذه الآية : وذهب قوم إلى أن المعنى تبديل آية من آيات الأنبياء المتقدمين . كآية موسى وعيسى وغيرهما من الآيات الكونية الآفاقية ، بآية أخرى نفسية علمية ، وهى كون المنزل هدى ورحمة وبشارة يدركها العقل .فبدلت تلك - وهى الآيات الكونية - بآية هو كتاب العلم والهدى من نبى أمى صلى الله عليه وسلم .

قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين امنوا وهدى وبشرى للمسلمين

- كما فسرها الوسيط ويبدو لنا أن الرأى الأول أقرب إلى الصواب ، لأن قوله تعالى - بعد ذلك : ( قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القدس مِن رَّبِّكَ . . . ) يدل ) : - دلالة واضحة على أن المراد بالآية ، الآية القرآنية .وقوله - سبحانه والله أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ) جملة معترضة بين الشرط وجوابه للمسارعة إلى توبيخ المشركين وتجهيلهم .أى : والله - تعالى - أعلم من كل مخلوق بما

هو أصلح لعباده ، وبما ينزله من آيات ، وبما يغير ويبدل من أحكام ، فكل من
الناسخ والمنسوخ منزل حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة ، ( لاَ يُسْأَلُ
عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ) وقوله - تعالى - : ( قالوا إِنَّمَآ
: أَنتَ مُفْتَرٍ ) جواب الشرط ، وهو حكاية لما تفوهوا به من باطل وبهتان
وقوله ( مُفْتَرٍ ) من الافتراء وهو أشنع أنواع الكذب .أى : قال المشركون للنبى
صلى الله عليه وسلم عند تبديل آية مكان آية : إنما أنت يا محمد تختلق هذا
) : - القرآن من عند نفسك ، وتفتريه من إنشائك واختراعك ..وقوله - تعالى
بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ) تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم عما
أصابه منهم .أى :لا تهتم - أيها الرسول الكريم - بما قاله هؤلاء المشركون
فى شأنك وفى شأن القرآن الكريم ، فإن أكثرهم جهلاء أغبياء ، لا يعلمون ما
- فى تبديلنا للآيات من حكمة ، ولا يفقهون من أمر الدين الحق شيئا .وقال
سبحانه - ( بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ) للإشارة إلى أن هناك قلة
منهم تعرف الحق وتدركه ، ولكنها تنكره عنادا وجحودا وحسدا لرسول الله صلى
الله عليه وسلم على ما آتاه الله من فضله .ثم لقن الله - تعالى - رسوله صلى
الله عليه وسلم الرد الذى يقذفه على باطلهم فيزهقه فقال :( قُلْ نَزَّلَهُ
رُوحُ القدس مِن رَّبِّكَ بالحق لِيُثَبِّتَ الذين آمَنُواْ وَهُدًى وبشرى
لِلْمُسْلِمِينَ ) وروح القدس : هو جبريل - عليه السلام - ، والإضافة فيه
إضافة الموصوف إلى الصفة . أى : الروح المقدس . ووصف بالقدس لطهارته وبركته
، وسمى روحا لمشابهته الروح الحقيقى فى أن كلا منهما مادة الحياة للبشر .
فجبريل من حيث ما يحمل من الرسالة الإلهية تحيا به القلوب ، والروح تحيا
به الأجسام .والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الجاهلين ، إن هذا
القرآن الذى تزعمون أننى افتريته ، قد نزل به الروح الأمين على قلبى من عند
ربى ، نزولا ملتبسا بالحق الذى لا يحوم حوله باطل ، ليزيد المؤمنين ثباتا
فى إيمانهم ، وليكون هداية وبشارة لكل من أسلم وجهه لله رب العالمين .وفى
- قوله ( من ربك ) تكريم وتشريف للرسول صلى الله عليه وسلم حيث اختص
، سبحانه - هذا النبى الكريم بإنزال القرآن عليه ، بعد أن رباه برعايته
وتولاه بعنايته .وقوله ( بالحق ) فى موضع الحال ، أى : نزله إنزالا ملتبسا
بالحكمة المقتضية له ، بحيث لا يفارقها ولا تفارقه .وقوله : ( لِيُثَبِّتَ
الذين آمَنُواْ وَهُدًى وبشرى لِلْمُسْلِمِينَ ) بيان للوظيفة التى من
أجلها نزل القرآن الكريم ، وهى وظيفة تسعد المؤمنين وحدهم ، أما الكافرون
فهم بعيدون عنها .

ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون اليه اعجمي وهذا
لسان عربي مبين

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك مقولة أخرى من مقولات المشركين
فقال - تعالى - : ( وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا
يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ . . . ) .قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية
ما ملخصه : يقول - تعالى - مخبرا عن المشركين ما كانوا يقولونه من الكذب
والافتراء : إن محمد صلى الله عليه وسلم إنما يعلمه هذا الذى يتلوه علينا
من القرآن بشر ، ويشيرون إلى رجل أعجمى كان بياعا يبيع عند الصفا ، وربما
كان النبى صلى الله عليه وسلم يجلس إليه ويكلمه بعض الشئ ، وذاك كان أعجمى
اللسان لا يعرف إلا اليسير من العربية .وعن عكرمة وقتادة كان اسم ذلك الرجل
يعيش " ، وعن ابن عباس كان اسمه " بلعام " ، وكان أعجمى اللسان ، وكان "
، المشركون يرون رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل عليه ويخرج من عنده
- فقالوا : إنما يعلمه بلعام ، فأنزل الله هذه الآية .والمعنى : ولقد نعلم
أيها الرسول الكريم - علما مستمرا لايعزب عنه شئ مما يقوله المشركون فى
شأنك ، من أنك تتعلم القرآن من واحد من البشر .قال الآلوسى : وإنما لم يصرح
القرآن باسم من زعموا أنه يعلمه - عليه الصلاة والسلام - مع أنه أدخل فى
ظهور كذبهم ، للإيذان بأن مدار خطئهم ، ليس بنسبته صلى الله عليه وسلم إلى
التعلم من شخص معين ، بل من البشر كائنا من كان ، مع كونه صلى الله عليه
وسلم معدنا لعلوم الأولين والآخرين .وقوله - تعالى - : ( لِّسَانُ الذي
يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وهذا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ) رد
عليهم فيما زعموه وافتروه .والمراد باللسان هنا : الكلام الذى يتكلم به
الشخص ، واللغة التى ينطق بها .وقوله : ( يلحدون ) من الإلحاد بمعنى الميل
يقال لحد وألحد ، إذا مال عن القصد ، وسمى الملحد بذلك ، لأنه أمال مذهبه .
عن الأديان كلها .والأعجمى : نسبة إلى الأعجم : وهو الذى لا يفصح فى كلامه
سواء أكان من العرب أم من العجم . وزيدت فيه ياء النسب على سبيل التوكيد
والمعنى : لقد كذبتم - أيها المشركون - كذبا شنيعا صريحا ، حيث زعمتم أن.
رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمه القرآن بشر ، مع أن لغة هذا الإنسان
الذى زعمتم أنه يعلم الرسول صلى الله عليه وسلم لغة أعجمية ، ولغة هذا
القرآن لغة عربية فى أعلى درجات البلاغة والفصاحة ، فقد أعجزكم بفصاحته
وبلاغته ، وتحداكم وأنتم أهل اللسن والبيان أن تأتوا بسورة من مثله
فخبرونى بربكم ، من أين للأعجمى أن يذوق بلاغة هذا التنزيل وما حواه من.

العلوم ، فضلا عن أن ينطق به ، فضلا عن أن يكون معلما له !! .

ان الذين لا يؤمنون بايات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب اليم

كما فسرها الوسيط ثم هدد - سبحانه - المعرضين عن آياته بقوله : ( إِنَّ
الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ الله ) الدالة على وحدانيته - سبحانه -
وعلى صدق نبيه صلى الله عليه وسلم فيما يبلغه عنه .( لاَ يَهْدِيهِمُ الله
إلى طريق الحق فى الدنيا ، بسبب زيغهم وعنادهم وإيثارهم الغى على الرشد ( .
فى الآخرة عذاب أليم جزاء إصرارهم على الباطل ، وإعراضهم عن ( ولهم )
الآيات التى لو تأملوها واستجابوا لها لاهتدوا إلى الصراط المستقيم .

انما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بايات الله واولئك هم الكاذبون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن افتراء الكذب لا يصدر عن المؤمنين
) : - فضلا عن الرسول الأمين ، وإنما يصدر عن الكافرين فقال - تعالى
إِنَّمَا يَفْتَرِي الكذب ) أى : يختلقه ويخترعه ( الذين لاَ يُؤْمِنُونَ
بِآيَاتِ الله ) الدالة على وحدانيته وعلى وجوب إخلاص العبادة له ، وعلى
صدق رسله ، وعلى صحة البعث يوم القيامة ، لأن عدم إيمانهم بذلك يجعلهم لا
يخافون عقابا ، ولا يرجون ثوابا .

من كفر بالله من بعد ايمانه الا من اكره وقلبه مطمئن بالايمان ولكن من شرح
بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم

كما فسرها الوسيط ذكر المفسرون فى سبب نزول قوله - تعالى - : ( مَن كَفَرَ
بالله مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ . . . ) روايات منها قول الآلوسى : " روى أن
قريشا أكرهوا عمارا وأبويه : ياسرا ، وسمية ، على الارتداد فأبوا ، فربطوا
سمية بين بعيرين . . . ثم قتلوها وقتلوا ياسرا ، وهما أول شهيدين فى
الإسلام . وأما عمار فأعطاهم بلسانه ما أكرهوه عليه ، فقيل يارسول الله :
إن عمارا قد كفر . فقال صلى الله عليه وسلم : " كلا ، إن عمارا ملئ إيمانا
من قرنه إلى قدمه ، واختلط الإيمان بلحمه ودمه " .فأتى عمار رسول الله صلى
الله عليه وسلم وهو يبكى ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح عينيه
" : وقال له : " مالك ، إن عادوا فعد لهم بما قلت " . وفى رواية أنه قال له
" كيف تجد قلبك؟ قال مطمئن بالإيمان قال صلى الله عليه وسلم إن عادوا فعد
فنزلت هذه الآية " .ثم قال الآلوسى : والآية دليل على جواز التكلم بكلمة .
الكفر عند الإكراه ، وإن كان الأفضل أن يتجنب عن ذلك إعزازا للدين ولو
، تيقن القتل ، كما فعل ياسر وسمية ، وليس ذلك من إلقاء النفس إلى التهلكة
بل هو كالقتل فى الغزو كما صرحوا به .و " من " فى قوله ( مَن كَفَرَ بالله
مبتدأ أو شرطية ، والخبر أو جواب الشرط محذوف والتقدير : فعليه غضب من (
الله ، أو فله عذاب شديد ، ويدل عليهما قوله - تعالى - بعد ذلك : ( ولكن
مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً ) .والمعنى : من كفر بالله - تعالى - من
بعد إيمانه بوحدانيته - سبحانه - وبصدق رسوله صلى الله عليه وسلم فإنه بسبب
: هذا الكفر يكون قد ضل ضلالا بعيدا ، يستحق من أجله العذاب المهين .وقوله
استثناء متصل من ( إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بالإيمان )
الجملة السابقة أى : إلا من أكره على النطق بكلمة الكفر ، والحال أن قلبه
مطمئن بالإيمان ، ثابت عليه ، متمكن منه . . فإنه فى هذه الحالة لا يكون
ممن يستحقون عقوبة المرتد .قال بعض العلماء : وأما قوله : ( إِلاَّ مَنْ
" أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بالإيمان ) فهو استثناء متصل من " مَنْ
. لأن الكفر أعم من أن يكون اعتقادا فقط ، أو قولا فقط ، أو اعتقادا وقولا
وأصل الاطمئنان سكون بعد انزعاج ، والمراد به هنا : السكون والثبات على . .
الإيمان بعد الانزعاج الحاصل بسبب الإكراه . . .وقوله : ( ولكن مَّن
شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ الله وَلَهُمْ
عَذَابٌ عَظِيمٌ ) بيان لسوء مصير من استحب الكفر على الإيمان باختياره
ورضاه .و " من " فى قوله ( من شرح ) شرطية ، وجوابها ( فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ
، مِّنَ الله ) .أى : حكم من تلفظ بكلمة الكفر مكرها أنه لا يعتبر مرتدا
، ولكن حكم من طابت نفوسهم بالكفر ، وانشرحت له صدورهم ، واعتقدوا صحته
أنهم عليهم من الله - تعالى - غضب شديد لا يعلم مقداره إلا هو ، ولهم يوم
القيامة عذاب عظيم الهول ، يتناسب مع عظيم جرمهم .هذا ، وقد ذكر الإمام
ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية جملة من الأخبار التى حكت ما تعرض له
المسلمون الأولون من فتن وآلام . فقال ما ملخصه : ولهذا اتفق العلماء على
أن المكره على الكفر يجوز له أن يوالى إبقاء لمهجته ، ويجوز له أن يأبى كما
كان بلال - رضى الله عنه - يأبى عليهم ذلك ، وهم يفعلون به الأفاعيل ، حتى
، إنهم ليضعون الصخرة العظيمة على صدره فى شدة الحر ويأمرونه بالشرك بالله
فيأبى عليهم وهو يقول : أحد ، أحد ، ويقول : والله لو أعلم كلمة هى أغيظ
لكم منها لقلتها .

ذلك بانهم استحبوا الحياة الدنيا على الاخرة وان الله لا يهدي القوم الكافرين

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( ذلك بِأَنَّهُمُ استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ) بيان للأسباب التى جعلتهم محل غضب الله ونقمته .واسم الإشارة " ذلك " يعود إلى كفرهم بعد إيمانهم ، أو إلى ما توعدهم الله - تعالى - به من غضب عليهم ، وعذاب عظيم لهم .أى : ذلك الذى جعلهم يرتدون عن دينهم ، ويكونون محل غضب الله ونقمته ، من أسبابه أنهم آثروا الحياة الدنيا وشهواتها على الآخرة وما فيها من ثواب .( وأن الله ) - تعالى - ( لاَ يَهْدِي القوم الكافرين ) إلى الصراط المستقيم ، لأنهم حين زاغوا عن الحق أزاغ الله قلوبهم .

اولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وابصارهم واولئك هم الغافلون

) : كما فسرها الوسيط ثم أضاف - سبحانه - إلى رذائلهم رذيلة أخرى فقال أولئك الذين طَبَعَ الله على قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وأولئك هُمُ الغافلون ) .والطبع : الختم والوسم بطابع ونحوه على الشئ ، لكى لا يخرج منه ما هو بداخله ، ولا يدخل فيه ما هو خارج عنه . أى : أولئك الذين شرحوا صدورهم بالكفر ، وطابوا به نفسا ، قد طبع الله تعالى على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم ، فصارت ممنوعة من وصول الحق إليها ، وعاجزة عن الانتفاع به ، وأولئك هم الكاملون فى الغفلة والبلاهة ، إذ لاغفلة أشد من غفلة المعرض عن عاقبة أمره ، ولا بلاهة أفدح من بلاهة من آثر الفانية على الباقية .

لا جرم انهم في الاخرة هم الخاسرون

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - الآيات الكريمة بالحكم العادل عليهم فقال : ( لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخرة هُمُ الخاسرون ) .أى : لاشك ولا محالة فى أن هؤلاء الذين اختاروا الكفر على الإيمان سيكونون يوم القيامة من القوم الخاسرين؛ لأنهم لم يقدموا فى دنياهم ما ينفعهم فى أخراهم .وكلمة ( لا جرم ) قد وردت فى القرآن فى خمسة مواضع ، متلوة فى كل موضع بأن واسمها " وليس بعدها فعل . وجمهور النحاة على أن هذه الكلمة مركبة من "لا " و " جرم " تركيب خمسة عشر ، ومعناها بعد التركيب معنى الفعل : حق ، أو ثبت ، أو ما يشبه ذلك ، أى : حق وثبت كونهم فى الآخرة من الخاسرين .

ثم ان ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا ان ربك من بعدها لغفور رحيم

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ) أى : عذبوا وأوذوا من أجل أن يرتدوا إلى الكفر .وأصل الفتن : إدخال الذهب فى النار لتظهر جودته من رداءته ، ثم استعمل فى الاختبار والامتحان بالمحن والشدائد ، وبالمنح واللطائف ، لما فيه من إظهار الحال والحقيقة ، وأكثر ما تستعمل الفتنة فى الامتحان والمحن وعليه يحمل بعضهم تفسير الفتنة بالمحنة والمراد بهؤلاء الذين هاجروا من بعد ما فتنوا - كما يقول ابن كثير - جماعة. كانوا مستضعفين بمكة ، مهانين فى قومهم ، فوافقوهم على الفتنة ، ثم إنهم أمكنهم الخلاص بالهجرة ، فتركوا بلادهم وأهليهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله وغفرانه ، وانتظموا فى سلك المؤمنين ، وجاهدوا معهم الكافرين ، وصبروا . والمعنى : ( ثُمّ إِنّ رَبّكَ ) - أيها الرسول الكريم - تكفل بالولاية. والمغفرة لهؤلاء الذين هاجروا من دار الكفر إلى دار الإسلام ، من بعد أن عذبهم المشركون لكى يرتدوا عن دينهم .قال الآلوسى : وقرأ ابن عامر ( مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ) بالبناء للفاعل ، وهو ضمير المشركين عند غير واحد ، أى : عذبوا المؤمنين ، كالحضرمى ، أكره مولاه " جبرا "حتى ارتد ، ثم أسلما وهاجرا . . .وقوله - تعالى - : ( ثُمّ جَاهَدُواْ وَصَبَرُواْ ) أى جاهدوا المشركين حتى تكون كلمة الله هى العليا ، وصبروا على البلاء والأذى طلبا لرضا الله - تعالى - .والضمير فى قوله : ( من بعدها ) يعود إلى ما سبق ذكره من الهجرة والفتنة والجهاد والصبر . أى : إن ربك - أيها الرسول الكريم - من بعد هذه الأفعال لكثير المغفرة والرحمة لهم ، جزاء هجرتهم وجهادهم وصبرهم على الأذى .

يوم تاتي كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نّفْسِهَا . . . ) منصوب على الظرفية بقوله ( رحيم ) أو

منصوب على المفعولية بفعل محذوف تقديره اذكر . والمراد باليوم : يوم القيامة .والمجادلة هنا بمعنى : المحاجة والمدافعة ، والسعى فى الخلاص من أهوال ذلك اليوم الشديد .والمعنى : إن ربك - أيها الرسول الكريم - من بعد تلك المذكورات من الهجرة والفتنة والجهاد والصبر ، لغفور رحيم ، يوم تأتى ، كل نفس مشغولة بأمرها ، مهتمة بالدفاع عن ذاتها ، بدون التفات إلى غيرها ، ساعية فى الخلاص من عذاب ذلك اليوم .والمتأمل فى هذه الجملة الكريمة يراها تشير بأسلوب مؤثر بليغ إلى ما يعترى الناس يوم القيامة من خوف وفزع يجعلهم لا يفكرون إلا فى ذواتهم ولا يهمهم شأن آبائهم أو أبنائهم .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما معنى النفس المضافة إلى النفس؟ .قلت : يقال لعين الشئ وذاته نفسُه ، وفى نقيضه غيره ، والنفس الجملة كما هى ، فالنفس الأولى هى الجملة ، والثانية عينها وذاتها ، فكأنه قيل : يوم يأتى كل إنسان يجادل عن ذاته ، لا يهمه شأن غيره ، كل يقول : نفسى نفسى .

وضرب الله مثلا قرية كانت امنة مطمئنة ياتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بانعم الله فاذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون

كما فسرها الوسيط والفعل ضرب فى قوله - تعالى - : ( وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً . . . ) متضمن معنى جعل ، ولذا عدى إلى مفعولين .والمثل - بفتح الثاء - بمعنى المثل - بسكونها - أى : النظير والشبيه . ويطلق على القول السائر المعروف ، لمماثلة مضربه - وهو الذى يضرب فيه لمورده الذى ورد فيه ، ثم استعير للصفة والحال كما فى الآية التى معنا .والمراد بالقرية : أهلها فالكلام على تقدير مضاف .وللمفسرين اتجاهان فى تفسير هذه الآية . فمنهم من يرى أن هذه القرية غير معينة ، وإنما هى مثل لكل قوم قابلوا نعم الله - بالجحود والكفران .وإلى هذا المعنى اتجه صاحب الكشاف حيث قال : قوله تعالى - : ( وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً . . . ) أى : جعل القرية التى ، هذه حالها مثلا لكل قوم أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة . فكفروا وتولوا فأنزل الله بهم نقمته ، فيجوز أن تراد قرية مقدرة على هذه الصفة ، وأن تكون فى قرى الأولين قرية كانت هذه حالها ، فضرب بها الله مثلا لمكة إنذارا من مثل عاقبتها .ومنهم من يرى أن المقصود بهذه القرية مكة ، وعلى هذا الاتجاه سار الامام ابن كثير حيث قال ما ملخصه : هذا مثل أريد به أهل مكة ، فإنها . . كانت آمنة مطمئنة مستقرة ، يتخطف الناس من حولها ، ومن دخلها كان آمنا فجحدت آلاء الله عليها ، وأعظمها بعثة محمد صلى الله عليه وسلم فأذاقها . الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون .ويبدو لنا أن الاتجاه الأول أقرب إلى الصواب ، لتنكير لفظ قرية ، ولشموله الاتجاه الثانى ، لأنه يتناول كل قرية بدلت نعمة الله كفرا ، ويدخل فى ذلك كفار مكة دخولا أوليا .فيكون المعنى : وجعل الله قرية موصوفة بهذه الصفات مثلا لكل قوم أنعم الله عليهم بهذه النعم ، فلم يشكروا الله - تعالى - عليها ، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر وقوله : ( كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً ) أى : كانت تعيش فى أمان لا. ) : يشوبه خوف ، وفى سكون واطمئنان لا يخالطهما فزع أو انزعاج : .وقوله : يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ ) بيان لسعة عيشها ، أى : يأتيها ما يحتاج إليه أهلها واسعا لينا سهلا من كل مكان من الأمكنة .يقال : رَغُد - بضم الغين - عيش القوم ، أى : اتسع وطاب فهو رغد ورغيد . . . وأرغد القوم ، أى : أخصبوا وصاروا فى رزق واسع .فالآية الكريمة قد تضمنت أمهات النعم : الأمان والاطمئنان ورغد العيش . قال بعضهم : ثلاثة ليس لها نهاية الأمن والصحة والكفايةوقوله - تعالى - : ( فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ ... بيان لموقفها الجحودى من نعم الله - تعالى - أى : فكان موقف أهل هذه ( القرية من تلك النعم الجليلة ، أنهم جحدوا هذه النعم ، ولم يقابلوها بالشكر : وإنما قابلوها بالإشراك بالله - تعالى - مُسدى هذه النعم .قال القرطبى ، والأنْعُم : جمع النِّعمة . كالأشُد جمع الشِّدة ، وقيل : جمع نعمى ، مثل " بُؤسى وأبؤس ".وقوله - سبحانه - : ( فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الجوع والخوف بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ) بيان للعقوبة الأليمة التى حلت بأهلها بسبب كفرهم وبطرهم .أى : فأذاق - سبحانه - أهلها لباس الجوع والخوف ، بسبب ما كانوا يصنعونه من الكفر والجحود والعتو عن أمر الله ورسله .وذلك بأن أظهر أثرهما عليهم بصورة واضحة ، تجعل الناظر إليهم لا يخفى عليه ما هم فيه من فقر مدقع ، وفزع شديد .ففى الجملة الكريمة تصوير بديع لما أصابهم من جوع وخوف ، حتى لكأن ما هم فيه من هزال وسوء حال ، يبدو كاللباس الذى يلبسه الإنسان ، ويجعلهم يذوقون هذا اللباس ذوقا يحسون أثره إحساسا عميقا .ورحم الله صاحب الكشاف فقد أجاد فى تصوير هذا المعنى فقال : " فإن قلت : الإذاقة واللباس استعارتان فما وجه صحتهما؟ والإذاقة المستعارة موقعة على اللباس المستعار ، فما وجه صحة إيقاعها عليه؟ .قلت : أما الإذاقة فقد جرت عندهم مجرى الحقيقة لشيوعها فى البلايا والشدائد وما يمس الناس منها . فيقولون : ذاق فلان البؤس والضر ، وأذاقه العذاب . شبه مايدرك من أثر الضرر والألم بما يدرك من الطعم المر البشع .وأما اللباس فقد شبه به لاشتماله على اللابس ، ما غشى الإنسان والتبس به من بعض الحوادث .وأما إيقاع الإذاقة

، على لباس الجوع والخوف ، فلأنه لما وقع عبارة عما يغشى منهما ويلابس
. . . فكأنه قيل : فأذاقهم ماغشيهم من الجوع والخوف

ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فاخذهم العذاب وهم ظالمون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - رذيلة أخرى من رذائل أهل هذه القرية
الكافرة بأنعم الله فقال : ( وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ
فَكَذَّبُوهُ ) .أى : ولقد جاء إلى أهل هذه القرية رسول من جنسهم ، يعرفونه
كما يعرفون أبناءهم ، فأمرهم بطاعة الله وشكره ، ولكنهم كذبوه وأعرضوا عنه
والتعبير بقوله ( جاءهم ) يدل على أن هذا الرسول وصل إليهم وبلغهم رسالة.
ربه ، دون أن يكلفهم الذهاب إليه ، أو البحث عنه .والتعبير بالفاء فى قوله
يشعر بأنهم لم يتمهلوا ولم يتدبروا دعوة هذا الرسول ، وإنما ( فكذبوه ) :
قابلوها بالتكذيب السريع بدون روية ، مما يدل على غباوتهم وانطماس بصيرتهم
وقوله - تعالى - ( فَأَخَذَهُمُ العذاب وَهُمْ ظَالِمُونَ ) بيان للعاقبة.
السيئة التى حاقت بهم .أى : فكانت نتيجة تكذيبهم السريع لنبيهم أن أخذهم
العذاب العاجل الذى استأصل شأفتهم ، والحال أنهم هم الظالمون لأنفسهم ، لأن
، هذا العذاب ما نزل بهم إلا بعد أن كفروا بأنعم الله ، وكذبوا رسوله .هذا
والذى يتأمل هاتين الآيتين الكريمتين يراهما وإن كانتا تشملان حال كل قوم
بدلوا نعمة الله كفرا . . إلا أنهما ينطبقان تمام الانطباق على كفار مكة
وقد بين ذلك الإمام الآلوسى - رحمه الله - فقال ما ملخصه : وحال أهل.
مكة - سواء أضرب المثل لهم خاصة ، أم لهم ولمن سار سيرتهم كافة - أشبه بحال
أهل تلك القرية من الغراب بالغراب ، فقد كانوا فى حرم آمن ويتخطف الناس من
حولهم ، وكانت تجبى إليهم ثمرات كل شئ رزقا ، ولقد جاءهم رسول منهم تحار فى
، سمو مرتبته العقول صلى الله عليه وسلم فأنذرهم وحذرهم فكفروا بأنعم الله
وكذبوه صلى الله عليه وسلم فأذاقهم الله لباس الجوع والخوف ، حيث أصابهم
: بدعائه صلى الله عليه وسلم

فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واشكروا نعمت الله ان كنتم اياه تعبدون

كما فسرها الوسيط والفاء فى قوله : ( فكلوا . . . ) للتفريع على ما تقدم من
التمثيل بالقرية التى كفرت بأنعم الله ، والتى أصابها ما أصابها بسبب ذلك
أى : لقد ظهر لكم حال الذين بدلوا نعمة الله كفرا ، ورأيتم كيف أذاقهم:
الله لباس الجوع والخوف ، فاحذروا أن تسيروا على شاكلتهم ، وكلوا من الحلال
الطيب الذى رزقكم الله - تعالى - إياه .واشكروا نعمة الله التى أنعم بها
عليكم ، بأن تستعملوها فيما خلقت له ، وبأن تقابلوها بأسمى ألوان الطاعة
لمسديها - عز وجل - .( إِن كُنْتُمْ إِيَّاهُ ) سبحانه - تعبدونه حق
. العبادة ، وتطيعونه حق الطاعة

انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما اهل لغير الله به فمن اضطر
غير باغ ولا عاد فان الله غفور رحيم

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما حرمه على عباده رعاية لمصالحهم فقال
: إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الميتة والدم وَلَحْمَ الخنزير وَمَآ
أُهِلَّ لِغَيْرِ الله بِهِ . . ) .والميتة فى عرف الشرع : ما مات حتف أنفه
أو قتل على هيئة غير مشروعة ، فيدخل فيها المنخنقة والموقوذة والمتردية ،
والنطيحة ، وما عدا عليها السبع .وكان الأكل من الميتة محرما ، لفساد جسمها
بسبب ذبول أجزائه وتعفنها ، ولأنها أصبحت بحالة تعافها الطباع السليمة
لقذارتها وضررها .والدم المحرم : هو ما يسيل من الحيوان الحى كثيرا كان أم
قليلا وكذلك يحرم من دم الحيوان ماجرى منه بعد ذبحه ، وهو الذى عبر عنه
القرآن بالمسفوح . .والحكمة فى تحريم الدم المسفوح ، أنه تستقذره النفوس
الكريمة ، ويفضى شربه أو أكله إلى الإضرار بالنفس .وحرمة الخنزير شاملة
للحمه ودمه وشحمه وجلده . وإنما خص لحمه بالذكر لأنه المقصود بالأكل ، ولأن
سائر أجزائه كالتابعة للحمه . . .ومن الحكم فى تحريم لحم الخنزير : قذارته
) : واشتماله على دودة تضر بآكله ، كما أثبت ذلك العلم الحديث .وقوله ،
وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ الله بِهِ ) معطوف على ما قبله من المحرمات .والفعل
مأخوذ من الإهلال بمعنى رفع الصوت ، وكانوا فى الجاهلية إذا ( أهل )
أرادوا ذبح ما قربوه إلى آلهتهم ، سموا عليها أسماءها فيقولون : باسم اللات
أو باسم العزى ، رافعين بذلك أصواتهم .فأنت ترى أن تحريم الميتة والدم ولحم
، الخنزير كان لعله ذاتية فى تلك الأشياء ، أما تحريم ما أهل لغير الله به
بسبب التوجه بالمذبوح إلى غير الله - عز وجل - .وقوله - تعالى - : ( فَمَنِ
اضطر غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ) بيان
: لحالات الضرورة التى يباح للإنسان فيها أن يأكل من تلك المحرمات .واضطر
من الاضطرار وهو الاحتياج إلى الشئ بشدة .والمعنى : فمن ألجأته الضرورة إلى
أكل شئ من هذه المحرمات ، حالة كونه ( غير باغ ) ، أى : غير طالب للمحرم

وهو يجد غيره ، أو غير طالب له على جهة الاستئثار به على مضطر آخر ، ( ولا
- عاد ) أى : ولا متجاوز فى أكله ما يسد الجوع ويحفظ الحياة ( فإن الله )
- تعالى - ( غفور ) واسع المغفرة لعبادة ( رحيم ) كثير الرحمة بهم .ثم نهى
، سبحانه - عن القول على الله - تعالى - بغير علم اتباعا للظن والأوهام
فقال : ( وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الكذب هذا حَلاَلٌ
وهذا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ على الله الكذب إِنَّ الذين يَفْتَرُونَ على
( . . . الله الكذب لاَ يُفْلِحُونَ

ولا تقولوا لما تصف السنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله
الكذب ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون

كما فسرها الوسيط قال الآلوسى ما ملخصه : قوله : ( وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا
: تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الكذب . . ) " ما " موصولة ، والعائد محذوف ، أى
ولا تقولوا - فى شأن الذى تصفه ألسنتكم من البهائم بالحل والحرمة - هذا
حلال وهذا حرام ، من غير ترتب ذلك الوصف على ملاحظة وفكر ، فضلا عن استناده
إلى وحى أو قياس مبنى عليه ، بل مجرد قول باللسان .ولفظ " الكذب " منتصب
على أنه مفعول به ل ( تقولوا ) وقوله - سبحانه - : ( هذا حَلاَلٌ وهذا
حَرَامٌ ) بدل منه . . .والمعنى : ولا تقولوا - أيها الجاهلون - للشئ الكذب
الذى تصفه ألسنتكم ، وتحكيه وتنطق به بدون بينة أو برهان . هذا الشئ حلال
، وهذا الشئ حرام .وقد حكى الله - تعالى - عن هؤلاء الجاهلين فى آيات كثيرة
) : - أنهم حللوا وحرموا أشياء من عند أنفسهم ومن ذلك قوله - تعالى
وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هذه الأنعام خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا
وَمُحَرَّمٌ على أَزْوَاجِنَا . . ) وقوله - سبحانه - : ( قُلْ
أَرَأَيْتُمْ مَّآ أَنزَلَ الله لَكُمْ مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِّنْهُ
حَرَاماً وَحَلاَلاً قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى الله
تَفْتَرُونَ ) قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما معنى وصف ألسنتهم الكذب؟ قلت
هو من فصيح الكلام وبليغه ، جعل قولهم كأنه عين الكذب ومحضه . فإذا نطقت :
به ألسنتهم فقد حلت الكذب بحليته ، وصورته بصورته ، كقولهم : وجهها يصف
الجمال ، وعينها تصف السحر . . .وقال بعض العلماء ما ملخصه : ويصح أن يكون
لفظ الكذب مفعولا لتصف ، وأن يكون قوله : ( هذا حَلاَلٌ وهذا حَرَامٌ )
مفعولا لتقولوا .وعلى هذا الوجه يكون فى وصف ألسنتهم الكذب ، مبالغة فى وصف
كلامهم بالكذب ، حتى لكأن ماهية الكذب كانت مجهولة ، فكشفت عنها ألسنتهم
ووضحتها ووصفتها ونعتتها بالنعوت التى جلتها . . ومنه قول الشاعر :أضحت
يمينُك من جُودٍ مصوَّرةً ... لا ، بل يمينك منها صُوِّرَ الجودُواللام فى
قوله : ( لِّتَفْتَرُواْ على الله الكذب ) هى لام الصيرورة والعاقبة ، أو
هى - كما يقول صاحب الكشاف - من التعليل الذى لا يتضمن معنى الغرض ، لأن ما
صدر عنهم من تحليل وتحريم دون أن يأذن به الله ، ليس الغرض منه افتراء
الكذب فحسب ، بل هناك أغراض أخرى ، كظهورهم بمظهر أولى العلم ، وكحبهم
للتباهى والتفاخر . .وقوله : ( تفتروا ) من الافتراء وهو أشنع أنواع الكذب
لأنه اختلاق للكذب الذى لايستند إلى شئ من الواقع .أى : ولا تقولوا لما ،
تحكيه ألسنتكم من أقوال وأحكام لا صحة لها ، هذا حلال وهذا حرام ، لتنسبوا
ذلك إلى الله - تعالى - كذبا وزورا .قال الإمام ابن كثير : ويدخل فى الآية
كل من ابتدع بدعة ، ليس له فيها مستند شرعى ، أو حلل شيئا مما حرم الله أو
حرم شيئا مما أباح الله ، بمجرد رأيه وتشهيه .

متاع قليل ولهم عذاب اليم

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل وما ظلمناهم ولكن كانوا
انفسهم يظلمون

كما فسرها الوسيط قال ابن كثير - رحمه الله - : لما ذكر - تعالى - أنه إنما
حرم علينا الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ، وإنما أرخص
فيه عند الضرورة وفى ذلك توسعة لهذه الأمة التى يريد الله بها اليسر ولا
يريد بها العسر - ، ذكر - سبحانه - بعد ذلك ما كان حرمه على اليهود فى
شريعتهم قبل أن ينسخها ، وما كانوا فيه من الآصار والتضييق والأغلال والحرج
فقال : ( وعلى الذين هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن
قَبْلُ . . ) .أى : فى سورة الأنعام فى قوله : ( وَعَلَى الذين هَادُواْ
حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ البقر والغنم حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ
شُحُومَهُمَآ إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الحواياآ أَوْ مَا
( اختلط بِعَظْمٍ ذلك جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وِإِنَّا لَصَادِقُونَ
والمعنى : وعلى اليهود بصفة خاصة ، دون غيرهم من الأمم ، حرمنا بعض الطيبات
التى سبق أن بيناها لك فى هذا القرآن الكريم ، وما كان تحريمنا إياها عليهم

إلا بسبب بغيهم وظلمهم .وفى الآية الكريمة إبطال لمزاعمهم ، حيث كانوا
يقولون : لسنا أول من حرمت عليه هذه الطيبات ، وإنما كانت محرمة على نوح
وإبراهيم وغيرهما ممن جاء بعدهما .وقوله : ( من قبل ) متعلق بحرمنا ، أو
، بقصصنا .وبذلك يتبين أن ما حرمه الله - تعالى - على الأمة الإسلامية
كالميتة والدم ولحم الخنزير . . كان من باب الرحمة بها ، والحرص على
مصلحتها . . أما ما حرمه - سبحانه - على اليهود ، فقد كان بسبب بغيهم
وظلمهم .وقوله - تعالى - : ( وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ولكن كانوا أَنْفُسَهُمْ
يَظْلِمُونَ ) بيان لمظهر من مظاهر عدل الله - تعالى - فى معاملته لعباده
أى : وما ظلمنا هؤلاء اليهود بتحريم بعض الطيبات عليهم ، ولكن هم الذين
ظلموا أنفسهم ، حيث تركوها تسير فى طريق الشيطان ، ولم يوقفوها عند حدود
الله - تعالى - ، فاستحقوا بسبب ذلك ما استحقوا من عقوبات .وصدق الله إذ
يقول : ( إِنَّ الله لاَ يَظْلِمُ الناس شَيْئاً ولكن الناس أَنفُسَهُمْ
يَظْلِمُونَ ).

ثم ان ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك واصلحوا ان ربك من
بعدها لغفور رحيم

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ
عَمِلُواْ السواء بِجَهَالَةٍ . . ) بيان لسعة رحمته - سبحانه - بعباده ،
ورأفته بهم .والمراد بالجهالة : الجهل والسفه اللذان يحملان صاحبهما على
ارتكاب ما لا يليق بالعقلاء ، وليس المراد بها عدم العلم .قال مجاهد : كل
من عصى الله - تعالى - عمدا أو خطأ فهو جاهل حتى ينزع عن معصيته .وقال ابن
عطيه : الجهالة هنا بمعنى تعدى الطور ، وركوب الرأس :لا ضد العلم .ومنه ما
جاء فى الخبر : " اللهم إنى أعوذ بك من أن أجهل ، أو يجهل على " .ومنه قول
الشاعر :ألا لا يجهلن أحد علينا ... فنجهل فوق جهل الجاهلين

ان ابراهيم كان امة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين

كما فسرها الوسيط فأنت ترى أن الله - تعالى - قد وصف خليله ابراهيم - عليه
السلام - بجملة من الصفات الفاضلة . والمناقب الحميدة .وصفه أولا - بأنه
كان أمة ) .ولفظ ( أمة ) يطلق فى اللغة بإطلاقات متعددة ، منها : الجماعة ،
كما فى قوله - تعالى - : ( وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ
أُمَّةً مِّنَ الناس يَسْقُونَ ) أى : جماعة من الناس . . ومنها : الدين
والملة ، كما فى قوله - تعالى - ( إِنَّا وَجَدْنَآ آبَآءَنَا على أُمَّةٍ
: - أى : على دين وملة .ومنها : الحين والزمان كما فى قوله - سبحانه ( . .
: أى ( وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ العذاب إلى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ )
إلى زمان معين .والمراد بقوله - سبحانه - : ( إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ
أُمَّةً . . ) أى : كان عنده من الخير ما كان عند أمة ، أى جماعة كثيرة من
- الناس ، وهذا التفسير مروى عن ابن عباس .وقال مجاهد : سمى - عليه السلام
أمة لانفراده بالإيمان فى وقته مدة ما .وفى صحيح البخارى أنه قال لزوجته
- سارة : ليس على الأرض اليوم مؤمن غيرى وغيرك .ويصح أن يكون المراد بقوله
تعالى - : ( إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً . . ) أى : كان إماما يقتدى
به فى وجوه الطاعات . وفى ألوان الخيرات ، وفى الأعمال الصالحات ، وفى
إرشاد الناس إلى أنواع البر ، قال - تعالى - : ( وَإِذِ ابتلى إِبْرَاهِيمَ
رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ
إِمَاماً . . ) ووصفه ثانيا - بأنه كان ( قَانِتاً لله ) أى مطيعا لله ، خاضعاً
لأوامره ونواهيه ، من القنوت وهو الطاعة مع الخضوع .ووصفه - ثالثا - بأنه
كان ، حنيفا ، أى : مائلا عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق . من الحنف
بمعنى الميل والاعوجاج ، يقال : فلان برجله حنف أى اعوجاج وميل .ومنه قول
أم الأحنف بن قيس وهى تداعبه :والله لولا حنف برجله ... ما كان فى فتيانكم
) : من مثلهووصفه - رابعا - بأنه منزه عن الإشراك بالله - تعالى - فقال
وَلَمْ يَكُ مِنَ المشركين ) .أى : ولم يكن ابراهيم - عليه السلام - من
الذين أشركوا مع الله - تعالى - آلهة أخرى فى العبادة أو الطاعة ، أو فى أى
من الأمور ، بل أخلص عبادته لخالقه - عز وجل - .وقال - كما حكى القرآن
عنه - : ( إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السماوات والأرض
: - حَنِيفاً وَمَآ أَنَا مِنَ المشركين ) ووصفه - خامسا - بقوله - سبحانه
شاكرا لأنعمه ( ).

شاكرا لانعمه اجتباه وهداه الى صراط مستقيم

، كما فسرها الوسيط ( شاكرا لأنعمه )أى : معترفا بفضل الله - تعالى - عليه
) : - ومستعملا نعمه فيما خلقت له ، ومؤديا حقوق خالقه فيها . قال - تعالى
وَإِبْرَاهِيمَ الذي وفى ) أى : قام بأداء جميع ما كلفه الله به .وبعد أن
مدح - سبحانه - إبراهيم بتلك الصفات الجامعة لمجامع الخير ، أتبع ذلك ببيان

فضله - تعالى - عليه فقال : ( اجتباه ) أى اختاره واصطفاه للنبوة .من
: الاجتباء بمعنى الاصطفاء والاختيار .واجتباء الله - تعالى - لعبده معناه
اختصاص ذلك العبد بخصائص ومزايا يحصل له عن طريقها أنواع من النعم بدون كسب
منه .( وَهَدَاهُ إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ) أى : وأرشده إلى الطريق
) : القويم ، الذى دعا الصالحون ربهم أن يرشدهم إليه ، حيث قالوا فى تضرعهم
. اهدنا الصراط المستقيم ) وهو طريق الإسلام

واتيناه في الدنيا حسنة وانه في الاخرة لمن الصالحين

كما فسرها الوسيط ( وَآتَيْنَاهُ فِي الدنيا حَسَنَةً ) أى : وجمعنا له خير
الدنيا من كل ما يحتاج المؤمن إليه ليحيا حياة طيبة ، كهدايته إلى الدين
، الحق ، ومنحه نعمة النبوة ، وإعطائه الذرية الصالحة ، والسيرة الحسنة
والمال الوفير .وقد أشار القرآن الكريم إلى جانب من هذه النعم ، كما فى
قوله - تعالى - : ( واجعل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخرين ) وكما فى
قوله - تعالى - : ( فَلَمَّا اعتزلهم وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله
) ( . . وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيّاً
وَإِنَّهُ فِي الآخرة لَمِنَ الصالحين ) أى : وإنه فى الدار الآخرة لمندرج
فى عباد الله الصالحين ، الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه ، والذين كانت لهم
. جنات الفردوس نزلا

ثم اوحينا اليك ان اتبع ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين

، كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - هذه النعم التى منحها لخليله إبراهيم
- بأمر نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أن يتبع ملة إبراهيم - عليه السلام
فقال - تعالى - : ( ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ اتبع مِلَّةَ
إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ المشركين ) .والمراد بملة إبراهيم
، شريعته التى أمره الله - تعالى - باتباعها فى عقيدته وعبادته ومعاملاته :
- وهى شريعة الإسلام ، التى عبر عنها آنفا بالصراط المستقيم فى قوله
تعالى - : ( اجتباه وَهَدَاهُ إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ) .والمراد باتباع
الرسول صلى الله عليه وسلم له فى ذلك : الاقتداء به فى التوحيد وفى أصول
الدين ، الثابتة فى كل الشرائع ، لا الفروع الشرعية التى تختلف من شريعة
إلى أخرى ، بحسب المصالح التى يريدها الله - تعالى - لعباده .أى : ثم
أوحينا إليك - أيها الرسول الكريم - بأن تتبع فى عقيدتك وشريعتك ( مِلَّةَ
إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ) أى : شريعته التى هى شريعة الإسلام .قال صاحب
" الكشاف : قوله - تعالى - : ( ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ . . ) : فى " ثم
، هذه ما فيها من تعظيم منزلة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإجلال محله
والإيذان بأن أشرف ما أوتى خليل الله إبراهيم من الكرامة ، وأجل ما أوتى
من النعمة ، اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم لملته ، من جهة أنها دلت
على تباعد هذا النعت فى المرتبة ، من بين سائر النعوت التى أثنى الله عليه
بها .وقال القرطبى : وفى هذه الآية دليل على جواز اتباع الأفضل للمفضول
فيما يؤدى إلى الصواب ، ولا درك على الفاضل فى هذا ، فإن النبى صلى الله
عليه وسلم أفضل الأنبياء ، وقد أمر بالاقتداء بهم ، قال - تعالى - :( أولئك
الذين هَدَى الله فَبِهُدَاهُمُ اقتده . . ) وقال - سبحانه - هنا : ( ثُمَّ
( . . أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ اتبع مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً
وقوله : ( حنيفا ) حال من إبراهيم ، أى : من المضاف إليه ، وصح ذلك لأن.
المضاف هنا وهو ( ملة ) كالجزء من المضاف إليه وهو إبراهيم من حيث صحة
. الاستغناء بالثانى عن الأول ، لأن قولك : أن اتبع إبراهيم حنيفا كلام تام
وقد أشار ابن مالك - رحمه الله - إلى هذا المعنى بقوله :ولا تجز حالا من.
المضاف له ... إلا إذا اقتضى المضاف عملهأو كان جزء ماله أضيفا ... أو مثل
جزئه فلا تحيفاوقوله - سبحانه - : ( وَمَا كَانَ مِنَ المشركين ) تنزيه
- لإبراهيم - عليه السلام - عن أى لون من ألوان الإشراك بالله - تعالى
أى : وما كان إبراهيم - عليه السلام - من المشركين مع الله - تعالى - آلهة.
أخرى لا فى عقيدته ولا فى عبادته ولا فى أى شأن من شئونه .وفى ذلك رد على
المشركين الذين زعموا أنهم على ملة ابراهيم ، ورد - أيضا - على اليهود
- والنصارى الذين زعموا أن إبراهيم - عليه السلام - كان على ملتهم .قال
تعالى - : ( مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً
وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ المشركين ) وبعد أن
، بين - سبحانه - حقيقة عقيدة إبراهيم ، ومدحه بجملة من الصفات الجليلة
وبين جانبا من مظاهر فضله - سبحانه - عليه ، أتبع ذلك ببيان أن تحريم العمل
فى يوم السبت أمر خاص باليهود ، ولا علاقة له بشريعة إبراهيم أو بشريعة
محمد صلى الله عليه وسلم فقال - تعالى - : ( إِنَّمَا جُعِلَ السبت على
. ( . . . الذين اختلفوا فِيهِ

انما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه وان ربك ليحكم بينهم يوم القيامة

فيما كانوا فيه يختلفون

. . . كما فسرها الوسيط ( إِنَّمَا جُعِلَ السبت على الذين اختلفوا فِيهِ
- والمراد بالسبت : اليوم المسمى بهذا الاسم ، وأصله - كما يقول ابن جرير(
الهدوء والسكوت فى راحة ودعة ، ولذلك قيل للنائم المسبوت لهدوئه وسكون جسده
واستراحته ، كما قال - جل ثناؤه - : ( وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً )
أى : راحة لأبدانكم . . .والكلام على حذف مضاف ، والمعنى : إنما جعل تعظيم
يوم السبت ، والتخلى فيه للعبادة ، ( على الذين اختلفوا فِيهِ ) وهم اليهود
حيث أمرهم نبيهم موسى - عليه السلام - بتعظيم يوم الجمعة ، فخالفوه ،
واختاروا السبت .قال الجمل ما ملخصه : قوله - سبحانه - : ( على الذين
اختلفوا فِيهِ ) أى : خالفوا نبيهم ، حيث أمرهم : أن يعظموا يوم الجمعة
بالتفرغ للعبادة فيه ، وشدد عليهم بتحريم الاصطياد فيه ، فليس المراد
- بالاختلاف أن بعضهم رضى ، وبعضهم لم يرض ، بل المراد به امتناع الجميع
حيث قالوا لا نريد يوم الجمعة ، واختاروا السبت .ثم قال : وفى معنى الآية
قول آخر . قال قتادة : إن الذين اختلفوا فيه هم اليهود ، حيث استحله بعضهم
. وحرمه بعضهم ، فعلى هذا القول يكون معنى قوله ( إِنَّمَا جُعِلَ السبت

ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن ان ربك هو
اعلم بمن ضل عن سبيله وهو اعلم بالمهتدين

كما فسرها الوسيط والخطاب فى قوله - تعالى - ( ادع إلى سَبِيلِ رَبِّكَ
بالحكمة ) للرسول صلى الله عليه وسلم ويدخل فيه كل مسلم يصلح للدعوة إلى
: الله - عز وجل - .أى : ادع - أيها الرسول الكريم - الناس إلى سبيل ربك أى
إلى دين ربك وشريعته التى هى شريعة الإسلام ( بالحكمة ) أى : بالقول
المحكم الصحيح الموضح للحق ، المزيل للباطل ، الواقع فى النفس أجمل موقع
وحذف - سبحانه - مفعول الفعل ( ادع ) للدلالة على التعميم ، أى ، ادع كل.
من هو أهل للدعوة إلى سبيل ربك .وأضاف - سبحانه - السبيل إليه . للإشارة
إلى أنه الطريق الحق ، الذى من سار فيه سعد وفاز ، ومن انحرف عنه شقى وخسر
- وقوله - تعالى - : ( والموعظة الحسنة ) وسيلة ثانية للدعوة إلى الله.
تعالى - أى : وادعهم - أيضا - إلى سبيل ربك بالأقوال المشتملة على العظات
، والعبر التى ترقق القلوب ، وتهذب النفوس ، وتقنعهم بصحة ما تدعوهم إليه
- وترغبهم فى الطاعة لله - تعالى - وترهبهم من معصيته - عز وجل - وقوله
تعالى - : ( وَجَادِلْهُم بالتي هِيَ أَحْسَنُ ) بيان لوسيلة ثالثة من
وسائل الدعوة السليمة .أى : وجادل المعاند منهم بالطريقة التى هى أحسن
الطرق وأجملها ، بأن تكون مجادلتك لهم مبنية على حسن الإقناع ، وعلى الرفق
واللين وسعة الصدر فإن ذلك أبلغ فى إطفاء نار غضبهم ، وفى التقليل من
عنادهم ، وفى إصلاح شأن أنفسهم ، وفى إيمانهم بأنك إنما تريد من وراء
مجادلتهم ، الوصول إلى الحق دون أى شئ سواه .وبذلك نرى الآية الكريمة قد
رسمت أقوم طرق الدعوة إلى الله - تعالى - وعينت أحكم وسائلها ، وأنجعها فى
هداية النفوس .إنها تأمر الدعاة فى كل زمان ومكان أن تكون دعوتهم إلى سبيل
- الله لا إلى سبيل غيره : إلى طريق الحق لا طريق الباطل ، وإنها تأمرهم
أيضا - أن يراعوا فى دعوتهم أحوال الناس ، وطباعهم ، وسعة مداركهم ، وظروف
، حياتهم ، وتفاوت ثقافاتهم .وأن يخاطبوا كل طائفة بالقدر الذى تسعه عقولهم
وبالأسلوب الذى يؤثر فى نفوسهم ، وبالطريقة التى ترضى قلوبهم وعواطفهم .فمن
لم يقنعه القول المحكم ، قد تقنعه الموعظة الحسنة ، ومن لم تقنعه الموعظة
الحسنة . قد يقنعه الجدال بالتى هى أحسن .ولذلك كان من الواجب على الدعاة
إلى الحق ، أن يتزودوا بجانب ثقافتهم الدينية الأصيلة الواسعة - بالكثير من
ألوان العلوم الأخرى كعلوم النفس والاجتماع والتاريخ ، وطبائع الأفراد
، والأمم . . فإنه ليس شئ أنجع فى الدعوة من معرفة طبائع الناس وميولهم
وتغذية هذه الطبائع والميول بما يشبعها من الزاد النافع ، وبما يجعلها تقبل
على فعل الخير ، وتدبر عن فعل الشر .وكما أن أمراض الأجسام مختلة ، ووسائل
علاجها مختلفة - أيضا - ، فكذلك أمراض النفوس متنوعة ، ووسائل علاجها
متباينة .فمن الناس من يكون علاجه بالمقالة المحكمة : ومنهم من يكون علاجه
بالعبارة الرقيقة الرفيقة التى تهز المشاعر ، وتثير الوجدان ، ومنهم من
يكون علاجه بالمحاورة والمناقشة والمناظرة والمجادلة بالتى هى أحسن ، لأن
النفس الإنسانية لها كبرياؤها وعنادها ، وقلما تتراجع عن الرأى الذى آمنت
- به . إلا بالمجادلة بالتى هى أحسن . والحق : أن الدعاة إلى الله - تعالى
- إذا فقهوا هذه الحقائق فتسلحوا بسلاح الإيمان والعلم ، وأخلصوا لله
، تعالى - القول والعمل ، وفطنوا إلى أنجع الأساليب فى الدعوة إلى الله
وخاطبوا الناس على قدر عقولهم واستعدادهم . . نجحوا فى دعوتهم ، وذلك فضل
الله يؤتيه من يشاء .قال الآلوسى : وإنما تفاوتت طرق دعوته صلى الله عليه
وسلم لتفاوت مراتب الناس ، فمنهم خواص ، وهم أصحاب نفوس مشرقة ، قوية
، الاستعداد لإدراك المعانى ، مائلة إلى تحصيل اليقين على اختلاف مراتبه
، وهؤلاء يدعون بالحكمة .ومنهم عوام ، أصحاب نفوس كدرة ضعيفة الاستعداد

شديدة الإلف بالمحسوسات ، قوية التعلق بالرسوم والعادات ، قاصرة عن درجة
البرهان ، لكن لا عناد عندهم ، وهؤلاء يدعون بالموعظة الحسنة .ومنهم من
، يعاند ويجادل بالباطل ليدحض به الحق ، لما غلب عليه من تقليد الأسلاف
ورسخ فيه من العقائد الباطلة ، فصار بحيث لا تنفعه المواعظ والعبر ، بل
، لابد من إلقامه الحجر بأحسن طرق الجدال ، لتلين عريكته ، وتزول شكيمته
- وهؤلاء الذين أمر صلى الله عليه وسلم بجدالهم بالتى هى أحسن .وقوله
سبحانه - : ( إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ
وَهُوَ أَعْلَمُ بالمهتدين ) بيان لكمال علم الله - تعالى - وإحاطته بكل شئ
وإرشاد للدعاة فى شخص نبيهم صلى الله عليه وسلم إلى أن عليهم أن يدعوا ،
- الناس بالطريقة التى بينها - سبحانه - لهم ، ثم يتركوا النتائج له
تعالى - يسيرها كيف يشاء .والظاهر أن صيغة التفضيل ( أعلم ) فى هذه الآية
- وأمثالها ، المراد بها مطلق الوصف لا المفاضلة ، لأن الله - تعالى
لايشاركه أحد فى علم أحوال خلقه ، من شقاوة وسعادة ، وهداية وضلال .والمعنى
إن ربك - أيها الرسول الكريم - هو وحده العليم بمن ضل من خلقه عن صراطه :
المستقيم ، وهو وحده العليم بالمهتدين منهم إلى السبيل الحق وسيجازى كل
فريق منهم بما يستحقه من ثواب أو عقاب .وما دام الأمر كذلك ، فعليك - أيها
، الرسول الكريم - أن تسلك فى دعوتك إلى سبيل ربك ، الطرق التى أرشدك إليها
- من الحكمة والموعظة الحسنة ، والمجادلة بالتى هى أحسن ، ومن كان فيه خير
كما يقول صاحب الكشاف - كفاه الوعظ القليل ، والنصيحة اليسيرة ، ومن لا خير
. فيه عجزت عنه الحيل ، وكأنك تضرب منه فى حديد بارد

وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين

كما فسرها الوسيط وبعد أن بين - سبحانه - أنجع أساليب الدعوة إلى سبيله فى
حالة المسالمة والمجادلة بالحجة والبرهان ، أتبع ذلك ببيان ما ينبغى على
) : - المسلم أن يفعله فى حالة الاعتداء عليه أو على دعوته فقال - تعالى
( . . . وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ
، أى : وإن أردتم معاقبة من ظلمكم واعتدى عليك ، فعاقبوه بمثل ما فعله بكم.
- ولا تزيدوا على ذلك ، فإن الزيادة حيف يبغضه الله - تعالى - .ثم أرشدهم
سبحانه - إلى ما هو أسمى من مقابلة الشر بمثله فقال : ( وَلَئِن صَبَرْتُمْ
لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ) .والضمير فى قوله ( لهو ) يعود إلى المصدر
فى قوله ( صبرتم ) ، والمصدر إما أن يراد به الجنس فيكون المعنى : ولئن
صبرتم فالصبر خير للصابرين ، وأنتم منهم .وإما أن يراد به صبرهم الخاص
- فيكون المعنى : ولئن صبرتم عن المعاقبة بالمثل ، لصبركم خير لكم ، فوضع
سبحانه - الصابرين موضع لكم على سبيل المدح لهم ، والثناء عليهم بصفة الصبر
هذا ، وقد ذكر جمع من المفسرين أن هذه الآية الكريمة نزلت فى أعقاب غزوة.
أحد ، بعد أن مثل المشركون بحمزة - رضى الله عنه - .قال الإمام ابن كثير
ما ملخصه : " روى الحافظ البزار عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول
الله صلى الله عليه وسلم وقف على حمزة بن عبد المطلب حين استشهد . فنظر الى
منظر لم ينظر أوجع للقلب منه .وقد مثل المشركون به . فقال صلى الله عليه
وسلم : رحمة الله عليك ، لقد كنت وصولا للرحم ، فعولا للخيرات . والله لولا
حزن من بعدك عليك لسرنى أن أتركك حتى يحشرك الله من بطون السباع . أما
والله لأمثلن بسبعين منهم مكانك . فنزلت هذه الآية . فكفر رسول الله صلى
الله عليه وسلم عن يمينه " .ثم قال ابن كثير بعد روايته لهذا الحديث : وهذا
. إسناد فيه ضعف لأن أحد رواته وهو " صالح بن بشير المرى " ضعيف عند الأئمة
وقال البخارى هو منكر الحديث .ثم قال ابن كثير - رحمه الله - : " وروى عبد
الله بن الإمام أحمد فى مسند أبيه عن أبى بن كعب ، قال : لما كان يوم أحد
قتل من الأنصار ستون رجلا ، ومن المهاجرين ستة ، فقال أصحاب رسول الله صلى
، الله عليه وسلم : لئن كان لنا يوم مثل هذا اليوم من المشركين لنمثلن بهم
فلما كان يوم الفتح قال رجل :لا تعرف قريش بعد اليوم . فنادى مناد أن رسول
الله صلى الله عليه وسلم قد أمن الأبيض والأسود إلا فلانا وفلانا - ناسا
سماهم - ، فنزلت الآية .فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " نصبر ولا
- نعاقب " " .والذى نراه أن الآية الكريمة - حتى ولو كان سبب نزولها ما ذكر
إلا أن التوجيهات التى اشتملت عليها صالحة لكل زمان ومكان ، لأن العبرة
بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وعلى رأس هذه التوجيهات السامية التى اشتملت
عليها : دعوة المسلمين الى التزام العدالة فى أحكامهم ، وحضهم على الصبر
والصفح ما دام ذلك لا يضر بمصلحتهم ومصلحة الدعوة الإسلامية .وشبيه بهذه
الآية الكريمة قوله - تعالى - : ( وَجَزَآءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ
مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى الله . . . ).

واصبر وما صبرك الا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون

كما فسرها الوسيط ثم أمر - سبحانه - بالصبر أمرا صريحا ، بعد أن بين حسن
: : عاقبته فقال : ( واصبر وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بالله . . . ) .أى

واصبر - أيها الرسول الكريم - على أذى قومك ، وما صبرك فى حال من الأحوال ، بمؤن ثماره المرجوة منه إلا بتوفيق الله - تعالى - لك ، وبتثبيته إياك ، وما دام الأمر كذلك فالجأ إليه وحده ، واستعن به - سبحانه - فى كل أمورك فالاستثناء مفرغ من أعم الأحوال .ثم نهاه - سبحانه - عن الحزن بسبب كفر ) : - الكافرين ، فإن الهداية والإضلال بقدرة الله وحده فقال - تعالى ( وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ، أى ولا تحزن بسبب كفر الكافرين ، وإصرارهم على ذلك ، وإعراضهم عن دعوتك. ولا يضق صدرك بمكرهم ، فإن الله - تعالى - ناصرك عليهم ، ومنجيك من شرورهم .

ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( إِنَّ الله مَعَ الذين اتقوا والذين هُم مُّحْسِنُونَ ) تعليل لم سبق من أمره بالصبر ، ومن نهيه عن الحزن وضيق الصدر .أى : إن الله - تعالى - بمعونته وتأييده مع الذين اتقوه فى كل أحوالهم ، وصانوا أنفسهم عن كل ما لا يرضاه . ومع الذين يحسنون القول - والعلم ، بأن يؤدوهما بالطريقة التى أمر الإسلام بها ، ومن كان الله : تعالى - معه ، سعد فى دنياه وفى أخراه .وقد قيل لبعض الصالحين وهو يحتضر أوص . فقال : إنما الوصية من المال . ولا مال لى ، ولكنى أوصيكم بالعمل بخواتيم سورة النحل .

سبحان الذي اسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذي باركنا حوله لنريه من اياتنا انه هو السميع البصير

كما فسرها الوسيط افتتحت سورة الإسراء بتنزيه الله - تعالى - عن كل ما لا ، يليق بجلاله ، كما يدل على ذلك لفظ " سبحان " الذى من أحسن وجوه إعرابه أنه اسم مصدر منصوب - على أنه مفعول مطلق - بفعل محذوف ، والتقدير : سبحت الله - تعالى - سبحانا أى تسبيحا ، بمعنى نزهته تنزيها عن كل سوء .قال القرطبى : " وقد روى طلحة بن عبيد الله الفياض أحد العشرة - أى المبشرين " : بالجنة - أنه قال للنبى صلى الله عليه وسلم : ما معنى سبحان الله؟ فقال تنزيه الله من كل سوء " " .وقوله ( أسرى ) من الإسراء ، وهو السير بالليل ، خاصة .قال الجمل : يقال أسرى وسرى ، بمعنى سار فى الليل ، وهما لازمان لكن مصدر الأول الإسراء ومصدر الثانى السرى - بضم السين كالهدى - فالهمزة ليست للتعدية إلى المفعول ، وإنما جاءت التعدية هنا من الباء . ومعنى أسرى به ، صيره ساريا فى الليل .والمراد ( بعبده ) خاتم أنبيائه محمد صلى الله ، عليه وسلم ، والإضافة للتشريف والتكريم .وأوثر التعبير بلفظ العبد للدلالة على أن مقام العبودية لله - تعالى - هو أشرف صفات المخلوقين ، وأعظمها وأجلها ، إذ لو كان هناك وصف أعظم منه فى هذا المقام لعبر به وللإشارة - أيضا - إلى تقرير هذه العبودية لله - تعالى - وتأكيدها ، حتى ، لا يلتبس مقام العبودية بمقام الألوهية ، كما التبسا فى العقائد المسيحية حيث ألهوا عيسى - عليه السلام - ، وألهوا أمه مريم ، مع أنهما بريئان من ذلك . . .قال الشيخ القاسمى نقلا عن الإمام ابن القيم فى كتاب " طريق الهجرتين " : أكمل الخلق أكملهم عبودية لله - تعالى - ، ولهذا كان النبى ، صلى الله عليه وسلم أقرب الخلق إلى الله - تعالى - وأعظمهم عنده جاها وأرفعهم عنده منزلة ، لكماله فى مقام العبودية . وكان صلى الله عليه وسلم يقول : " أيها الناس ما أحب أن ترفعونى فوق منزلتى . إنما أنا عبد " وكان يقول : "لا تطرونى كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم ، إنما أنا عبد فقولوا : عبد الله ورسوله " .وذكره - سبحانه - بسمة العبودية فى أشرف مقاماته : فى مقام الإسراء حيث قال : ( سُبْحَانَ الذي أَسرى بِعَبْدِهِ ) وفى مقام الدعوة حيث قال : ( وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ الله. يَدْعُوهُ ) وفى مقام التحدى حيث قال : ( وَإِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا على عَبْدِنَا ) وقوله : ( ليلا ) ظرف زمان لأسرى .قال صاحب الكشاف : " فإن قلت : الإسراء لا يكون إلا بالليل فما معنى ذكر الليل؟ .قلت : أراد بقوله ليلا بلفظ التنكير ، تقليل مدة الإسراء ، وأنه أسرى به بعض الليل من مكة إلى الشام مسيرة أربعين ليلة ، وذلك أن التنكير فيه قد دل على معنى البعضية .. . " .وقوله : ( ثُمَّ المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ) بيان لابتداء الإسراء وانتهائه .أى : جل شأن الله - عز وجل - وتنزه عن كل نقص ، حيث أسرى بعبده محمد صلى الله عليه وسلم فى جزء من الليل ، من المسجد الحرام الذى بمكة إلى المسجد الأقصى الذى بفلسطين .ووصف مسجد مكة بالحرام ، لأنه لا يحل انتهاكه بقتال فيه ، ولا بصيد صيده ، ولا بقطع شجره .ووصف مسجد فلسطين بالأقصى ، لبعده عن المسجد الحرام ، إذ المسافة بينهما كان يقطعها الراكب للإبل فى مدة شهر أو أكثر .قال الآلوسى : ووصفه بالأقصى - أى الأبعد - بالنسبة إلى من بالحجاز . وقال غير واحد : إنه سمى به لأنه أبعد المساجد التى تزار من المسجد الحرام وبينهما زهاء

أربعين ليلة . وقيل - وصف بذلك - : لأنه ليس وراءه موضع عبادة فهو أبعد
مواضعها . . .وظاهر الآية يفيد أن الإسراء كان من المسجد الحرام ، فقد
أخرج الشيخان والترمذى والنسائى من حديث أنس بن مالك - رضى الله عنه - " أن
رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " بينا أنا فى الحجر - وفى رواية - فى
، الحطيم ، بين النائم واليقظان ، إذ أتانى آت فشق ما بين هذه إلى هذه
فاستخرج قلبى فغسله ثم أعيد ، ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض
يقال له البراق فحملت عليه " " .وقيل أسرى به من بيت أم هانئ بنت أبى
طالب ، فيكون المراد بالمسجد الحرام : الحرم لإحاطته بالمسجد والتباسه به
فعن ابن عباس - رضى الله عنهما - : الحرم كله مسجد .ويمكن الجمع بين هذه .
الروايات ، بأن الرسول صلى الله عليه وسلم بقى فى بيت أم هانئ لفترة من
الليل ، ثم ترك فراشه عندها وذهب إلى المسجد ، فلما كان فى الحِجْر أو فى
الحطيم بين النائم واليقظان ، أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى
ثم عرج به إلى السموات العلا . ثم عاد إلى فراشه قبل أن يبرد - كما جاء ،
فى بعض الروايات .وبذلك يترجح لدينا أن وجود الرسول صلى الله عليه وسلم فى
، تلك الليلة فى بيت أم هانئ ، لا ينفى أن الإسراء بدأ من المسجد الحرام
كما تقرر الآية الكريمة .وقوله ( الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ) صفة مدح
للمسجد الأقصى .أى : جل شأن الله الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام
إلى المسجد الأقصى ، الذى أحطنا جوانبه بالبركات الدينية والدنيوية .أما
- البركات الدينية فمن مظاهرها : أن هذه الأرض التى حوله ، جعلها الله
تَعالى - مقرا لكثير من الأنبياء ، كإبراهيم وإسحاق ويعقوب ، وداود وسليمان
وزكريا ويحيى وعيسى .قال - تعالى - : (وَلِسُلَيْمَانَ الريح عَاصِفَةً ،
- تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأرض التي بَارَكْنَا فِيهَا . . ) وقال
سبحانه - فى شأن إبراهيم : ( وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الأرض التي
، بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ) والمقصود بهذه الأرض : أرض الشام
التى منها فلسطين .وأما البركات الدنيوية فمن مظاهرها : كثرة الأنهار
والأشجار والثمار والزروع فى تلك الأماكن .قال بعض العلماء : وقد قيل فى
، خصائص المسجد الأقصى : أنه متعبد الأنبياء السابقين ، ومسرى خاتم النبيين
ومعراجه إلى السموات العلا . . وأولى القبلتين وثاني المسجدين ، وثالث
) : - الحرمين ، لا تشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه .وقوله - سبحانه
- لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَآ ) إشارة الى الحكمة التى من أجلها أسرى الله
" تعالى - بنبيه صلى الله عليه وسلم فقوله ( لنريه ) متعلق بأسرى .و " من
للتبعيض لأن ما رآه النبى صلى الله عليه وسلم وإن كان عظيما إلا أنه مع
: عظمته بعض آيات الله بالنسبة لما اشتمل عليه هذا الكون من عجائب .أى
أسرينا بعبدنا محمد ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا
حوله ، ثم عرجنا به إلى السموات العلا ، لنطلعه على آياتنا ، وعلى عجائب
قدرتنا ، والتى من بينها : مشاهدته لأنبيائنا الكرام ، ورؤيته لما نريد أن
يراه من عجائب وغرائب هذا الكون .ولقد وردت أحاديث متعددة فى بيان ما أراه
الله - تعالى - لنبيه صلى الله عليه وسلم فى تلك الليلة المباركة ، ومن ذلك
. " : ما رواه البخارى عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال
ووجدت فى السماء الدنيا آدم فقال لى جبريل : هذا أبوك آدم فسلم عليه . .
فسلمت عليه ورد على آدم السلام فقال : مرحبا وأهلا بابنى ، فنعم الابن أنت
وفى رواية للإمام أحمد عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه. " . .
وسلم : " لما عرج بى ربى - عز وجل - مررت بقوم لهم أظفار من نحاس ، يخمشون
وجوههم وصدورهم ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم
الناس ، ويقعون فى أعراضهم . . " .ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بما يدل
على سعة علمه ، ومزيد فضله فقال - تعالى - : ( إِنَّهُ هُوَ السميع البصير
أى : إنه - سبحانه - هو السميع لأقوال عباده : مؤمنهم وكافرهم ، مصدقهم. (
ومكذبهم . بصير بما يسرونه ويعلنونه ، وسيجازى كل إنسان بما يستحقه من ثواب
أو عقاب ، بدون ظلم أو محاباة .هذا وقد ذكر المفسرون عند تفسيرهم لهذه
الآية جملة من المسائل منها :1- أن هذه الآية دلت على ثبوت الإسراء للنبى
صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وأما العروج به
صلى الله عليه وسلم إلى السموات العلا فقد استدل عليه بعضهم بآيات سورة
النجم ، وهى قوله - تعالى - :( والنجم إِذَا هوى مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ
وَمَا غوى وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهوى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يوحى
عَلَّمَهُ شَدِيدُ القوى ذُو مِرَّةٍ فَاستوى وَهُوَ بالأفق الأعلى ثُمَّ
دَنَا فتدلى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أدنى فأوحى إلى عَبْدِهِ مَا
أوحى مَا كَذَبَ الفؤاد مَا رأى أَفَتُمَارُونَهُ على مَا يرى ) وقد ساق
، الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية أحاديث كثيرة بأسانيدها ومتونها
وقال فى أعقاب ذكر بعضها :قال البيهقى : وفى هذا السياق دليل على أن
، المعراج كان ليلة أسرى به - عليه الصلاة والسلام - من مكة إلى بيت المقدس
وهذا الذى قاله هو الحق الذى لاشك فيه ولا مرية .وقال القرطبى : ثبت
، الإسراء فى جميع مصنفات الحديث ، وروى عن الصحابة فى كل أقطار الإسلام
فهو من المتواتر بهذا الوجه ، وذكر النقاش ممن رواه عشرين صحابيا .2- قال
، بعض العلماء ما ملخصه : ذهب الاكثرون إلى أن الإسراء كان بعد المبعث

، وأنه قبل الهجرة بسنة . قاله الزهرى وابن سعد وغيرهما . وبه جزم النووى
وبالغ ابن حزم فنقل الإجماع فيه . وقال : كان فى رجب سنة اثنتى عشرة من
النبوة .وإختار الحافظ المقدسى أنه كان فى ليلة السابع والعشرين من شهر رجب
والذى تطمئن إليه النفس أن حادث الإسراء والمعراج ، كان بعد وفاة أبى.
طالب والسيدة خديجة - رضى الله عنها - .ووفاتهما كانت قبل الهجرة بسنتين أو
ثلاثة . وفى هذه الفترات التى أعقبت وفاتهما اشتد أذى المشركين بالنبى صلى
الله عليه وسلم فكان هذا الحادث لتسليته صلى الله عليه وسلم عما أصابه منهم
ولتشريفه وتكريمه . .3- من المسائل التى ثار الجدل حولها ، مسألة : أكان ،
الإسراء والمعراج فى اليقظة أم فى المنام؟ وبالروح والجسد أم بالروح فقط؟
وقد لخص بعض المفسرين أقوال اللعماء فى هذه المسألة فقال : اعلم أن هذا.
الإسراء به صلى الله عليه وسلم المذكور فى هذه الآية الكريمة زعم بعض أهل
العلم أنه بروحه دون جسده ، زاعما أنه فى المنام لا فى اليقظة ، لأن رؤيا
الأنبياء وحى .وزعم بعضهم أن الإسراء بالجسد ، والمعراج بالروح دون الجسد
ولكن ظاهر القرآن يدل على أنه بروحه وجسده صلى الله عليه وسلم يقظة لا.
) : مناما ، لأنه قال : ( بعبده ) والعبد مجموع الروح والجسد .ولأنه قال
سبحان ) والتسبيح إنما يكون عند الأمور العظام ، فلو كان مناما لم يكن له
كبير شأن حتى يتعجب منه .ولأنه لو كان رؤيا منام لما كان فتنة ، ولا سببا
لتكذيب قريش له صلى الله عليه وسلم لأن رؤيا المنام ليست محل إنكار لأن
المنام قد يرى فيه ما لا يصح .ولأنه - سبحانه - قال ( لِنُرِيَهُ مِنْ
آيَاتِنَآ ) والظاهر أن ما أراه الله - تعالى - لنبيه صلى الله عليه وسلم
إنما كان رؤيا عن طريق العين ويؤيده قوله - تعالى - : ( مَا زَاغَ البصر
وَمَا طغى لَقَدْ رأى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الكبرى ) ولأنه ثبت فى الأحاديث
، الصحيحة أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد استعمل فى رحلته البراق
واستعماله البراق يدل على أن هذا الحادث كان بالروح والجسد وفى اليقظة لا
. فى المنام

واتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني اسرائيل الا تتخذوا من دوني وكيلا

كما فسرها الوسيط والواو فى قوله - تعالى - : ( وَآتَيْنَآ مُوسَى الكتاب )
استئنافية ، أو عاطفة على قوله : ( سُبْحَانَ الذي أسرى . . ) والمراد ،
بالكتاب : التوراة التى أنزلها الله - تعالى - على نبيه موسى - عليه
) السلام - والضمير المنصوب فى قوله : ( وجعلناه ) يعود إلى الكتاب .وقوله
لبنى إسرائيل ) متعلق بهدى .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( وَلَقَدْ
آتَيْنَا مُوسَى الكتابَ فَلاَ تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِ
وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لبني إِسْرَائِيلَ ) و ( أن ) فى قوله ( أَلاَّ
تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلاً ) يصح أن تكون زائدة وتكون الجملة مقولة
لقول محذوف ، والمعنى :وآتينا موسى الكتاب من أجل أن يكون هداية لبنى
- إسرائيل إلى الصراط المستقيم .وقلنا لهم : لا تتخذوا غير الله - تعالى
- وكيلا ، أى : معبودا ، تفوضون إليه أموركم ، وتكلون إليه شئونكم ، فهو
سبحانه - : ( رَّبُّ المشرق والمغرب لاَ إله إِلاَّ هُوَ فاتخذه وَكِيلاً )
قال الإمام الرازى ما ملخصه : قرأ أبو عمرو ( ألا يتخذوا ) بالياء خبرا عن
. بنى إسرائيل : وقرأ الباقون بالتاء على الخطاب ، أى : قلنا لهم لا تتخذوا
. ويصح أن تكون ( أن ) ناصبة للفعل فيكون المعنى : وجعلناه هدى لئلا تتخذوا
وأن تكون ( أن ) بمعنى أى التى للتفسير - أى هى مفسرة لما تضمنه الكتاب . .
. - من النهى عن اتخاذ وكيل سوى الله - تعالى

ذرية من حملنا مع نوح انه كان عبدا شكورا

كما فسرها الوسيط وقوله : ( ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ . . . )
منصوب على الاختصاص ، أو على النداء والمقصود بهذه الجملة الكريمة إثارة
عزائمهم نحو الإيمان والعمل الصالح ، وتنبيههم إلى نعمه - سبحانه - عليهم
- حيث جعلهم من ذرية أولئك الصالحين الذين آمنوا بنوح - عليه السلام ،
وحضهم على السير على منهاجهم فى الإيمان والعمل الصالح ، فإن شأن الأبناء
أن يقتدوا بالآباء فى التقوى والصلاح .والمعنى :لا تتخذوا يا بنى إسرائيل
معبودا غير الله - تعالى - ، فأنتم أبناء أولئك القوم الصالحين ، الذين
آمنوا بنوح - عليه السلام - فأنجاهم الله - تعالى - مع نبيهم من الغرق .قال
الآلوسى : وفى التعبير بما ذكر إيماء إلى علة النهى من أوجه : أحدها
تذكيرهم بالنعمة فى إنجاء آبائهم . والثانى : تذكيرهم بضعفهم وحالهم المحوج
إلى الحمل والثالث : أنهم أضعف منهم - أى من آبائهم - لأنهم متولدون عنهم
وفى إيثار لفظ الذرية الواقعة على الأطفال والنساء فى العرف الغالب مناسبة
تامة لما ذكر .وقوله : ( إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً ) تذييل قصد به
الثناء على نوح - عليه السلام - أى : إن نوحا - عليه السلام - كان من
عبادنا الشاكرين لنعمنا ، المستعملين لها فيما خلقت له ، المتوجهين إلينا
) : بالتضرع والدعاء فى السراء والضراء .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : قوله

. إِنّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً ) ما وجه ملاءمته لما قبله؟

وقضينا الى بني اسرائيل في الكتاب لتفسدن في الارض مرتين ولتعلن علوا كبيرا

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَقَضَيْنَآ إلى بَنِي إِسْرَائِيلَ
- فِي الكتاب لَتُفْسِدُنّ فِي الأرض مَرّتَيْنِ . . . ) إخبار من الله
تعالى - لهم ، بما سيكون منهم ، حسب ما وقع فى علمه المحيط بكل شئ ، والذى
ليس فيه إجبار أو قسر ، وإنما هو صفة انكشافية ، تنبئ عن مآلهم وأحوالهم
: - قال أبو حيان : والفعل ( قضى ) يتعدى بنفسه إلى مفعول ، كقوله - تعالى.
ولما ضُمّن هنا معنى الإيحاء أو ( . . فَلَمّا قضى مُوسَى الأجل )
الإنفاذ تعدى بإلى أى : وأوحينا أو أنفذنا إلى بنى إسرائيل فى القضاء
المحتوم المثبوت وعن ابن عباس : وأعلمناهم . . .والمراد بالكتاب : التوراة
وقيل اللوح المحفوظ .واللام فى قوله ( لتفسدن . . . ) جواب قسم محذوف ،
. تقديره : والله لتفسدن .ويجوز أن تكون جوابا لقوله - تعالى - : ( وقضينا
، لأنه مضمن معنى القسم ، كما يقول القائل : قضى الله لأفعلن كذا ( . .
فيجرى القضاء والقدر مجرى القسم . . .والمقصود بالأرض : عمومها أو أرض
الشام .و ( مرتين ) منصوب على أنه مفعول مطلق لقوله : ( لتفسدن ) من غير
لفظه ، والمراد لتفسدن إفسادتين وقوله - عز وجل - : ( ولتعلن . . ) من
العلو وهو ضد السفل ، والمراد به هنا : التكبر والتجبر والبغى والعدوان
والمعنى : وأخبرنا بنى إسرائيل فى كتابهم التوراة خبراً مؤكدا : وأوحينا.
إليهم بواسطة رسلنا ، بأن قلنا لهم : لتفسدن فى الأرض مرتين ، ولتستكبرون
على الناس بغير حق ، استكبارا كبيرا ، يؤدى بكم إلى الخسران والدمار
والتعبير عما يكون منهم من إفساد بالقضاء وأنه فى الكتاب ، يدل على ثبوته.
إذ أصل القضاء - كما يقول القرطبى - الإحكام للشئ والفراغ منه .وأكد ،
إفسادهم واستعلاءهم بلام القسم ، للإشعار بأنه مع ثبوته ووجوده فهو مصحوب
: بالتجبر والتكبر والبغى والعدوان .وكان من مظاهر إفسادهم فى الأرض
تحريفهم للتوراة ، وتركهم العمل بما فيها من أحكام ، وقتلهم الأنبياء
. والمصلحين

فاذا جاء وعد اولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا اولي باس شديد فجاسوا خلال
الديار وكان وعدا مفعولا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أنه يسلط عليهم بعد إفسادهم الأول فى
) : - الأرض ، من يقهرهم ويستبيح حرماتهم ، ويدمرهم تدميرا ، فقال - تعالى
فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لّنَآ
أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الديار وَكَانَ وَعْداً
مَّفْعُولاً ) .والمراد بالوعد : الموعد المحدد لعقابهم بسبب إفسادهم فى
الأرض ، فالكلام على حذف مضاف ، والضمير فى ( أولاهما ) يعود على المرتين
) المعبر عنهما بقول : ( لَتُفْسِدُنّ فِي الأرض مَرّتَيْنِ ) .وقوله
فجاسوا ) ممعطوف على ( بعثنا ) وأصل الجوس : طلب الشئ باستقصاء واهتمام
لتنفيذ ما من أجله كان الطلب .والمعنى : فإذا حان وقت عقابكم - يابنى
إسرائيل - على أولى مرتى إفسادكم بعثنا عليكم ووجهنا إليكم ( عِبَاداً
، لّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ) أى أصحاب بطش شديد فى الحروب والقتال
فأذلوكم وقهروكم ، وفتشوا عنكم بين المساكن والديار ، لقتل من بقى منكم على
، قيد الحياة ، وكان البعث المذكور وما ترتب عليه من قتلكم وسلب أموالكم
وهتك أعراضكم ، وتخريب دياركم .. . وعدا نافذا لا مرد له ، ولا مفر لكم منه
قال الآلوسى : واختلف فى تعيين هؤلاء العباد - الذين بعثهم الله لمعاقبة.
، بنى إسرائيل بعد إفسادهم الأول - فعن ابن عباس وقتادة : هم جالوت وجنوده
وقال ابن جبير وابن إسحاق : هم سنحاريب ملك بابل وجنوده . وقيل : هم
العمالقة ، وقيل : بختنصر .وسنبين رأينا فيمن سلطه الله - تعالى - عليهم فى
المرتين ، بعد تفسيرنا لهذه الآيات الكريمة .فإن قال قائل : وما فائدة أن
. يخبر الله - تعالى - بنى إسرائيل فى التوراة أنهم يفسدون فى الأرض مرتين
وأنه يعاقبهم على ما كان منهم من استعلاء وطغيان ، بأن يسلط عليهم من يذلهم
- ويقهرهم ويقضى عليهم؟ .فالجواب : أن إخبارهم بذلك يفيد أن الله - عز وجل
لا يظلم الناس شيئا ، وإنما يعاقبهم على ما يكون منهم من إفساد ويعفو عن
كثير ، وأن رحمته مفتوحة للعصاة متى تابوا وأنابوا وأصلحوا من شأن أنفسهم
وهناك فائدة أخرى لهذا الإخبار ، وهو تنبيه العقلاء فى جميع الأمم أن.
يحذروا من مواقعة المعاصى التى تؤدى إلى الهلاك ، وأن يحذروا أممهم من ذلك
ويبصروهم بسوء عاقبة السير فى طريق الغى ، حتى لا يعرضوا أنفسهم لعقاب ،
الله - عز وجل - .ومن فوائد إيراد هذا الخبر فى القرآن الكريم ، تنبيه
اليهود المعاصرين للنبى صلى الله عليه وسلم ومن على شاكلتهم فى الفسوق
والعصيان من المشركين ، إلى سنة من سنن الله فى خلقه ، وهى أن الإفساد
عاقبته الخسران .فعلى اليهود وغيرهم من الناس أن يتبعوا الرسول صلي الله
عليه وسلم الذى ثبتت نبوته ثبوتا لاشك فيه ، لكى يسعدوا فى دنياهم وآخرتهم

ثم أشار - سبحانه - إلى الفائدة الثالثة من هذا الإخبار ، وهى أن الأمم.
المغلوبة على أمرها .

ثم رددنا لكم الكرة عليهم وامددناكم باموال وبنين وجعلناكم اكثر نفيرا

كما فسرها الوسيط تستطيع أن تسترد مجدها ، متى أصلحت من شأن أنفسها ، ومتى
استقامت على أمر الله - تعالى - فقال - سبحانه - :( ثُمَّ رَدَدْنَا
لَكُمُ الكرة عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ
وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً ) .ففى هذه الآية الكريمة تذكير لبنى
إسرائيل بجملة من نعم الله عليهم ، بعد أن أصابهم ما أصابهم من أعدائهم
أما النعمة الأولى فقد عبر عنها - سبحانه - بقوله : ( ثُمَّ رَدَدْنَا.
لَكُمُ الكرة عَلَيْهِمْ ) .والكَرّة : المرة من الشئ : وأصلها من الكَرّ
وهو الرجوع ، مصدر كريكر - من باب قتل - ، يقال : كرّ الفارس كَرًّا ، إذا
فر للجولان ثم عاد للقتال .والمراد بالكرة هنا : الدولة والغلبة على سبيل
المجاز .أى : ثم أعدنا لكم - يابنى إسرائيل - الدولة والغلبة علىأعدائكم
- الذين قهروكم وأذلوكم ، بعد أن أحسنتم العمل ، ورجعتم إلى الله - تعالى
واتبعتم ماجاءكم به رسلكم .والتعبير بثم لإفادة الفرق الشاسع بين ما كانوا
فيه من ذل وهوان ، وما أفاءه الله عليهم بعد ذلك من نصر وظفر .قال أبو حيان
- وجعل - سبحانه - ( رددنا ) موضع نرد - إذ وقت إخبارهم لم يقع الأمر بعد :
لأنه لما كان وعد الله فى غاية الثقة فى كونه سيقع ، عبر عن المستقبل
) : بالماضى .وأما النعمة الثانية فقد عبر عنها - سبحانه - بقوله
وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ ) .أى : لم نكتف بأن جعلنا النصر
لكم على أعدائكم ، بل فضلا عن ذلك ، أمددناكم بالكثير من الأموال والأولاد
بعد أن نهب أعداؤكم أموالكم ، وقتلوا الكثيرين من أبنائكم .وأما النعمة ،
الثالثة فتتجلى فى قوله - تعالى - : ( وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً )
والنفير : من ينفر مع الرجل من قومه لنصرته ومؤازرته ، وهو منصوب على.
التمييز . والمفضل عليه محذوف ، والتقدير : وجعلناكم أكثر عددا وقوة من
أعدائكم الذين جاسوا خلال دياركم . .فمن الواجب عليكم أن تقدروا هذه النعم
وأن تحسنوا الاستفادة منها ، بأن تشكروا الله - تعالى - وتخلصوا له ،
العبادة والطاعة ، فقد نصركم بعد هزيمتكم ، وأغناكم بعد فقركم ، وكثّركم
. بعد قتلكم

ان احسنتم احسنتم لانفسكم وان اساتم فلها فاذا جاء وعد الاخرة ليسوءوا
وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه اول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا

، كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك سنة من سننه التى لا تتخلف
وهى أن الإحسان عاقبته الفلاح ، والعصيان عاقبته الخسران ، وأن كل إنسان
مسئول عن عمله ، ونتائج هذا العمل - سواء أكانت خيرا أم شرا -لا تعود إلا
عليه ، فقال - تعالى - : ( إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ
وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ) .أى : إن أحسنتم - أيها الناس - أعمالكم ، بأن
أديتموها بالطريقة التى ترضى الله - تعالى - أفلحتم وسعدتم ، وجنيتم الثمار
الطيبة التى تترتب على هذا الإحسان للعمل ، وإن أسأتم أعمالكم ، بأن آثرتم
الأعمال السيئة على الأعمال الحسنة ، خسرتم وشقيتم وتحملتم وحدكم النتائج
الوخيمة التى تترتب على إتيان الأعمال التى لا ترضى الله - تعالى - .وقد
رأيتم كيف أن الإفساد كانت عاقبته أن ( بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً
لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الديار ) .وكيف أن
) الإحسان كانت عاقبته أن ( رَدَدْنَا لَكُمُ الكرة ) على أعدائكم
وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً
قال صاحب البحر ما ملخصه : وجواب ( وإن أسأتم ) قوله ( فلها ) وهو خبر. (
لمبتدأ محذوف أى : فالإساءة لها . قال الكرمانى : قال - سبحانه - : ( فلها
باللام ازدواجا .أى : أنه قابل ( لأنفسكم ) بقوله ( فلها ) . وقال الطبرى (
: اللام بمعنى إلى أى : فإليها ترجع الإساءة .وقيل : اللام بمعنى على . أى
- فعليها ، كما فى قول الشاعر : فخر صريعاً لليدين وللفم .ثم بين - سبحانه
) : - ما يحل بهم من دمار ، بعد إفسادهم للمرة الثانية ، فقال - تعالى
فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الآخرة لِيَسُوءُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ
المسجد كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ
تَتْبِيراً ) .والكلام أيضا هنا على حذف مضاف ، وجواب إذا محذوف دل عليه ما
تقدم وهو قوله ( بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَآ ) فإذا جاء وقت
عقوبتكم يا بنى إسرائيل على إفسادكم الثانى فى الأرض ، بعثنا عليكم أعداءكم
ليسوءوا وجوهكم أى : ليجعلوا آثار المساءة والحزن بادية على وجوهكم ، من
شدة ما تلقونه منهم من إيذاء وقتل .قال الجمل ما ملخصه : وقوله ( ليسوءوا )
، الواو للعباد أولى البأس الشديد .وفى عود الواو على العباد نوع استخدام
إذ المراد بهم أولا جالوت وجنوده ، والمراد بهم هنا يختنصر وجنوده .وقرأ
ابن عامر وحمزة بالياء المفتوحة والهمزة المفتوحة آخر الفعل ( ليسوء )

- والفاعل إما الله - تعالى - وإما الوعد ، وإما البعث .وقرأ الكسائى لنسوء
، بنون العظمة . أى : لنسوء نحن وهو موافق لما قبله ، من قوله : بعثنا
. ورددنا ، وأمددنا ، ولما بعده من قوله : عدنا ، وجعلنا ، وقرأ الباقون
ليسوءوا ، مسندا إلى ضمير الجمع العائد على العباد ، وهو موافق لما بعده من
قوله : ( وليدخلوا المسجد ) ( وليتبروا ) .وقال الإمام الرازى : ويقال
ساءه يسوءه إذا أحزنه ، وإنما عزا - سبحانه - الإساءة إلى الوجوه ، لأن
آثار الأعراض النفسية الحاصلة فى القلب إنما تظهر على الوجه ، فإن حصل
الفرح فى القلب ظهر الإشراق فى الوجه ، وإن حصل الحزن والخوف فى القلب
ظهر الكلوح فى الوجه .وقوله - سبحانه - : ( وَلِيَدْخُلُوا المسجد كَمَا
دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ ) - معطوف على ما قبله وهو قوله - سبحانه -
) ليسوءوا وجوهكم ، والمراد بالمسجد : المسجد الأقصى الذى ببيت المقدس
وقوله ( كما دخلوه ) صفة لمصدر محذوف .والمعنى : وليدخلوا المسجد دخولا
كائنا كدخولهم إياه أول مرة .قال أبو حيان : ومعنى ( كَمَا دَخَلُوهُ
أَوَّلَ مَرَّةٍ ) أى بالسيف والقهر والغلبة والإذلال .أى : أن المراد من
التشبيه ، بيان أن الأعداء فى كل مرة أذلوا بنى إسرائيل وقتلوهم وقهروهم
وقوله - تعالى - : ( وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً ) يشعر.
بشدة العقوبة التى أنزلها أولئك العباد ببنى إسرائيل ، إذ التتبير معناه
الإهلاك والتدمير والتخريب لكل ما تقع عليه . ومنه قول الشاعر :وما الناس
" إلا عاملان فعامل ... يتبر ما يبنى وآخر رافعأى : يخرب ويهد ما يبنى .و
ما " فى قوله ( ما علوا ) اسم موصول مفعول يتبروا : وهو عبارة عن البلاد
والأماكن التى هدموها ، والعائد محذوف ، وتتبيرا مفعول مطلق مؤكد لعامله
أى : وليدمرا ويخربوا البلاد والأماكن التى علوا عليها ، وصارت فى حوزتهم.
- تدميرا تاما لا مزيد عليه .وبذلك نرى أن العباد الذين سلطهم الله ،
تعالى - على بنى إسرائيل ، عقب إفسادهم الثانى فى الأرض ، لم يكتفوا بجوس
الديار ، بل أضافوا إلى ذلك إلقاء الحزن والرعب فى قلوبهم ، ودخول المسجد
الأقصى فاتحين ومخربين ، وتدمير كل ما وقعت عليه أيديهم تدميرا فظيعا لا
يوصف .ثم ختم - سبحانه - الآيات الكريمة ببيان أن هذا الدمار الذى حل ببنى
إسرائيل بسبب إفسادهم فى الأرض مرتين ، قد يكون طريقا لرحمتهم ، وسببا فى
، توبتهم وإنابتهم ، إن فتحوا قلوبهم للحق ، واعتبروا بالأحداث الماضية
وفهموا عن الله - تعالى - سنته التى لا تتخلف ، وهى أن الإحسان يؤدى إلى
. الفلاح والظفر ، والإفساد يؤدى إلى الخسران والهلاك

عسى ربكم ان يرحمكم وان عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا

كما فسرها الوسيط وقد عبر القرآن الكريم عن هذه المعانى أبلغ تعبير وأحكمه
فقال - تعالى - : ( عسى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ .
عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً ) .أى : عسى ربكم
، أن يرحمكم : ويعفو عنكم يا بنى إسرائيل متى أخلصتم له العبادة والطاعة
وأصلحتم أقوالكم وأعمالكم ، فقد علمتم أنه - سبحانه -لا ينزل بلاء إلا
بذنب ، ولا يرفعه إلا بتوبة .قال : أبو حيان : وهذه الترجية ليست لرجوع
دولة ، وإنما هى من باب ترحم المطيع منهم ، وكان من الطاعة أن يتبعوا عيسى
ومحمدا - عليهما السلام - ولكنهم لم يفعلوا .وقوله - سبحانه - : ( وَإِنْ
عُدتُّمْ عُدْنَا ) إنذار لهم بإنزال العقوبات عليهم ، إن عادوا إلى فسادهم
وإفسادهم .أى : وإن عدتم إلى المعاصى ومخالفة أمرى ، وانتهاك حرماتى ، بعد
أن تداركتكم رحمتى ، عدنا عليكم بالقتل والتعذيب وخراب الديار .ولقد عادوا
إلى الكفر والفسوق والعصيان ، حيث أعرضوا عن دعوة الحق التى جاءهم بها
الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولم يكتفوا بهذا الإعراض بل هموا بقتله صلى
الله عليه وسلم وأيدوا كل متربص بالإسلام والمسلمين ، فكانت نتيجة ذلك أن
عاقبهم النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه بما يستحقون من إجلاء وتشريد وقتل
" قال ابن عباس - رضى الله عنهما - : " عادوا فسلط الله عليهم المؤمنين. .
ثم بين - سبحانه - عقوبتهم فى الآخرة فقال : ( وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ.
لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً ) أى : إن عدتم إلى معصيتنا فى الدنيا عدنا عليكم
بالعقوبة الرادعة ، أما فى الآخرة فقد جعلنا جهنم للكافرين منكم ومن غيركم
، أى : سجنا : حاصرا لكم لا تستطيعون الهروب منه ، أو الفكاك عنه ( حصيرا )
أو فراشا تفترشونه ، كما قال - تعالى - : ( لَهُمْ مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ
" : وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وكذلك نَجْزِي الظالمين ) قال بعض العلماء
قوله ( حصيرا ) فيه وجهان : الأول : أن الحصير المحبس والسجن . من الحصر
وهو الحبس : يقال حصره يحصره حصرا ، إذا ضيق عليه وأحاط به .والثانى أن
الحصير : البساط والفراش ، من الحصير الذى يفرش ، لأن العرب تسمى البساط
- الصغير حصيرا . . " .وبذلك نرى الآيات الكريمة ، قد حكت لنا قضاء الله
- تعالى - فى بنى إسرائيل ، وساقت لنا لكى نعتبر ونتعظ ألوانا من سنن الله
تعالى - التى لا تتخلف ، والتى من أبرزها أن الإيمان والصلاح عاقبتهما
الفلاح ، وأن الكفر والفساد عاقبتهما الشقاء ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى
- هذا ، والذى يراجع ما قاله المفسرون فى بيان العباد الذين سلطهم الله.

تعالى - على بنى إسرائيل بعد إفسادهم الأول والثانى فى الأرض ، يرى أقوالا
متعددة يبدو على كثير منها الاضطراب والضعف .ومن ذلك ما أخرجه ابن جرير عن
ابن عباس وابن مسعود - رضى الله عنهما - أن الله - تعالى - عهد إلى بنى
إسرائيل فى التوراة ( لَتُفْسِدُنَّ فِي الأرض مَرَّتَيْنِ ) فكان أول
" الفسادين قتل زكريا ، فبعث الله عليهم ملك النبط ، وكان يدعى " صحابين
" فبعث الجنود ، وكانوا من أهل فارس . . فتحصنت بنو إسرائيل . . ودخل فيهم
بختنصر " - أحد جنود صحابين - وسمع أقوالهم . . الخ .وهذا الأثر من وجوه
ضعفه ، أن غزو النبط ومعهم بختنصر لبنى إسرائيل سابق على زمان زكريا - عليه
السلام - بحوالى ستة قرون .لأن الثابت تاريخيا أن بختنصر غزا بنى إسرائيل
. وانتصر عليهم ثلاث مرات : الأولى فى سنة 606 ق . م والثانية فى سنة 599 ق
، م ، والثالثة فى سنة 588 ق . م .وفى هذه المرة الثالثة أكثر القتل فيهم
وساق الأحياء منهم أسارى إلى أرض بابل .أما زكريا - عليه السلام - فمن
المعروف أنه كان معاصرا لعيسى - عليه السلام - أو مقاربا لعصره : فقد
أخبرنا القرآن الكريم أن زكريا هو الذى تولى كفالة مريم أم عيسى .وإذاً
فالقول بأن إفسادهم الأول كان لقتلهم زكريا ، وأن المسلط عليهم ملك النبط
ومع " بختنصر " يتنافى مع الحقائق التاريخية .وفضلا عن ذلك ، فإن هذا الأثر
" اضطرابه ظاهر ، لأن " صحابين " ملك النبط ، هو الذى يسميه المؤرخون
سنحاريب " وكان ملكا للأشوريين ، وهو الذى غزا مملكة يهوذا سنة 713 ق . م
أى قبل غزو بختنصر لها بأكثر من مائة سنة ، أى : أن بختنصر لم يكن معاصرا
له .والرأى الذى نختاره : هو أن العباد الذين سلطهم الله على بنى إسرائيل
بعد إفسادهم الأول ، هم جالوت وجنوده . ونستند فى اختيارنا لهذا الرأى إلى
أمور من أهمها ما يلي :1- ذكر القرآن الكريم فى سورة البقرة ، عند عرضه
لقصة القتال الذى دار بين طالوت قائد بنى إسرائيل ، وبين " جالوت " قائد
أعدائهم ، ما يدل على أن بنى اسرائيل كانوا قبل ذلك مقهورين مهزومين من
أعدائهم .ويتجلى هذا المعنى فى قوله - تعالى - : ( أَلَمْ تَرَ إِلَى الملإ
مِن بني إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ موسى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ
ابعث لَنَا مَلِكاً نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ الله قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن
كُتِبَ عَلَيْكُمُ القتال أَلاَّ تُقَاتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلاَّ
نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ الله وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا
وَأَبْنَآئِنَا . . ) فقولهم - كما حكى القرآن عنهم - ( وَمَا لَنَآ أَلاَّ
نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ الله وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا
وَأَبْنَآئِنَا .. ) يدل دلالة قوية ، على أنهم كانوا قبل قتالهم لجالوت
-مهزومين هزيمة اضطرتهم إلى الخروج عن ديارهم ، وإلى مفارقة أبنائهم .2
قوله - تعالى - : ( ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الكرة عَلَيْهِمْ ) صريح فى أن
الله - تعالى - نصر بنى إسرائيل - بعد أن تابوا وأنابوا - على أعدائهم
وهذا المعنى ينطبق على ماقصه القرآن علينا ، من أن بنى إسرائيل بقيادة
طالوت قد انتصروا على جالوت وجنوده .قال - تعالى - : ( وَلَمَّا بَرَزُواْ
لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً
وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصرنا عَلَى القوم الكافرين فَهَزَمُوهُمْ
بِإِذْنِ الله وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ الله الملك والحكمة
وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَآءُ . . ) ولقد كان هذا النصر نعمة كبرى لبنى
إسرائيل ، فقد جاءهم بعد أن أخرجوا من ديارهم وأبنائهم ، وبعد أن اعترضوا
. على اختيار طالوت ملكا عليهم ، وبعد أن قاتل مع طالوت عدد قليل منهم
ولاشك أن النصر فى هذه الحالة ، أدعى لطاعة الله - تعالى - وشكره على آلائه
قوله - تعالى - : ( وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ -3.
وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً ) أكثر ما يكون انطباقا على عهد حكم
، طالوت ، وداود ، وسليمان لهم .ففى هذا العهد الذى دام زهاء ثمانين سنة
، ازدهرت مملكتهم ، وعز سلطانهم وأمدهم الله خلاله بالأموال الوفيرة
، وبالبنين الكثيرة ، وجعلهم أكثر من أعدائهم عددا وقوة .أما بعد هذا العهد
بل وقبل هذا العهد ، فقد كانت حياتهم سلسلة من المآسى والنكبات .فبعد موت
: سليمان - عليه السلام - سنة 975 ق . م تقريبا ، انقسمت مملكتهم إلى قسمين
مملكة يهوذا فى الجنوب ، ومملكة إسرائيل فى الشمال ، واستمرتا فى صراع
ونزاع حتى قضى الأشوريون سنة 721 ق . م على مملكة إسرائيل ، وقضى " بختنصر
على مملكة يهوذا سنة 588 ق . م .4- ذكر بعض المفسرين أن العباد الذين "
سلطهم الله عليهم بعد إفسادهم الأول هم جالوت وجنوده .أخرج ابن جرير وابن
أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ( فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولاهُمَا
بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ) قال : بعث
الله عليهم فى الأولى جالوت ، فجاس خلال ديارهم ، فسألوا الله - تعالى - أن
يبعث لهم ملكا ، فبعث لهم طالوت ، فقاتلوا جالوت ، وانتصروا عليه ، وقتل
داود جالوت ، ورجع إلى بنى اسرائيل ملكهم . فلما أفسدوا بعث الله عليهم فى
المرة الآخرة " بختنصر " فخرب المساجد ، وتبر ما علوا تتبيرا . . .هذه بعض
الأدلة التى تجعلنا نرجح أن المراد بالعباد الذين سلطهم الله - تعالى - على
بنى إسرائيل بعد إفسادهم الأول فى الأرض ، هم جالوت وجنوده .أما العباد
" الذين سلطهم الله عليهم بعد إفسادهم الثانى ، فيرى كثير من المفسرين أنهم

بختنصر " وجنوده .وهذا الرأى ليس ببعيد عن الصواب ، لما ذكرنا قبل ذلك من تنكيله بهم ، وسوقهم أسارى إلى بابل سنة 588 ق . م .إلا أننا نؤثر على هذا الرأى ، أن يكون المسلط عليهم بعد إفسادهم الثانى ، هم الرومان بقيادة زعيمهم ، تيطس سنة 70 م . لأمور من أهمها : .1- أن الذى يتتبع التاريخ يرى أن رذائل بنى إسرائيل فى الفترة التى سبقت تنكيل " تيطس " بهم ، أشد وأكبر من الرذائل التى سبقت إذلال " بختنصر " لهم . فهم - على سبيل المثال - قبيل بطش الرومان بهم ، كانوا قد قتلوا من أنبياء الله زكريا ويحيى - عليهما السلام - ، وكانوا قد حاولوا قتل عيسى - عليه السلام - ولكن الله - تعالى - نجاه من شرورهم .2- ضربات الرومان - فى ذاتها - كانت أشد وأقسى على بنى اسرائيل . من ضربات " بختنصر " لهم .فمثلا عدد القتلى من اليهود على يد الرومان بقيادة " تيطس " بلغ مليون قتيل ، وبلغ عدد الأسرى نحو مائة ألف أسير .بينما عدد القتلى والأسرى منهم على يد " بختنصر " كان أقل من هذا العدد بكثير .ولقد وصف المؤرخون النكبة التى أوقعها الرومان بهم ، بأوصاف تفوق بكثير ما أوقعه البابليون بقيادة بختنصر بهم .يقول أحد الكتاب واصفا ما حل باليهود على يد " تيطس " الرومانى : كان " تيطس " فى الثلاثين من عمره ، حين وقف سنة 70 م أمام أسوار أورشليم على رأس جيشه ، بعد أن بدأت ، المدينة تعانى من أهوال الحصار .وبعد أن اقتحم " تيطس " وجنوده المدينة أصدر أمره إليهم : أن احرقوا وانهبوا واقتلوا ، فأموال اليهود وأعراضهم - حلال لكم ، وقد أحرق الرومان معبد اليهود ودمروه ، وتحققت نبوءة المسيح عليه السلام - حين قال : ستلقى هذه الأرض بؤسا وعنتا ، وسيحل الغضب على أهلها ، وسيسقطون صرعى على حد السيف ، ويسيرون عبيدا إلى كل مصر ، وستطأ - أورشليم الأقدام .3- النكبة التى أنزلها الرومان بهم - من حيث آثارها أشنع بكثير من النكبة التى أنزلها بختنصر بهم . لأنهم بعد تنكيل بختنصر بهم وأخذهم أسرى إلى بلاده وبقائهم فى الأسر زهاء خمسين سنة عادوا إلى ديارهم مرة أخرى ، بمساعدة " قورش " ملك الفرس ، الذى انتصر على " بختنصر " سنة 538 ق . م تقريبا ، وبدأوا يتكاثرون من جديد .أما بعد تنكيل " تيطس " بهم فلم تقم لهم قائمة ، ومزقوا فى الأرض شر ممزق ، وانقطع دابرهم كأمة .وقد صرح بهذا المعنى صاحب تاريخ الإسرائيليين فقال بعد وصفه لما أوقعه " تيطس " بهم من ضربات : إلى هنا ينتهى تاريخ الإسرائيليين كأمة ، فإنهم بعد خراب " أورشليم على يد " تيطس " تفرقوا فى جميع بلاد الله ، وتاريخهم بعد ذلك ملحق بتاريخ الممالك التى توطنوها أو نزلوا فيها .

ان هذا القران يهدي للتي هي اقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم اجرا كبيرا

كما فسرها الوسيط قال الفخر الرازى : اعلم أنه - تعالى - لما شرح ما فعله ، فى حق عباده المخلصين ، وهو الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم وإيتاء الكتاب لموسى - عليه السلام - ، وما فعله فى حق العصاة والمتمردين وهو تسليط أنواع البلايا عليهم ، كان ذلك تنبيها على أن طاعة الله توجب كل خير وكرامة ، ومعصيته توجب كل بلية وغرامة ، لا جرم أثنى - سبحانه - على القرآن فقال : ( إِنَّ هذا القرآن يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ) والفعل ( يهدى ) مأخوذ من الهداية ، ومعناها : الإرشاد والدلالة بلطف إلى. - ما يوصل إلى البغية . والمفعول محذوف . أى : يهدى الناس .وقوله - سبحانه صفة لموصوف محذوف ، أى يهدى الناس إلى الطريقة ( لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ) : أو الملة التى هى أقوم .قال صاحب الكشاف : ( لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ) أى للحالة التى هى أقوم الحالات وأسدها ، أو للملة أو للطريقة . وأينما قدرت لم تجد مع الإثبات ذوق البلاغة الذى تجده مع الحذف ، لما فى إيهام الموصوف بحذفه من فخامة تفقد مع إيضاحه .والمعنى : إن هذا القرآن الكريم ، الذى أنزله الله - تعالى - عليك يا محمد صلى الله عليه وسلم ، يرشد الناس ويدلهم ويهديهم - فى جميع شئونهم الدينية والدنيوية - إلى الملة التى هى أقوم الملل وأعدلها ، وهى ملة الإسلام . فمنهم من يستجيب لهذه الهداية فيظفر بالسعادة ، ومنهم من يعرض عنها فيبوء بالشقاء .قال صاحب الظلال ما ملخصه : إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم فى عالم الضمير والشعور ، بالعقيدة الواضحة التى لا تعقيد فيها ولا غموض ، والتى تطلق الروح من أثقال الوهم والخرافة ، وتطلق الطاقات البشرية الصالحة للعمل والبناء ، وتربط بين نواميس الكون الطبيعية ، ونواميس الفطرة البشرية فى تناسق واتساق .ويهدى للتى هى أقوم ، فى التنسيق بين ظاهر الإنسان وباطنه ، وبين مشاعره وسلوكه وبين عقيدته وعمله .ويهدى للتى هى أقوم فى عالم العبادة ، بالموازنة بين التكاليف والطاقة ، فلا تشق التكاليف على النفس حتى تمل ، ولا تسهل حتى تشيع فى النفس الرخاوة والاستهتار ، ولا تتجاوز القصد والاعتدال وحدود الاحتمال .ويهدى للتى هى أقوم ، فى علاقات الناس بعضهم ببعض : أفرادا وأزواجا وحكومات وشعوبا ، ودولا وأجناسا .ويهدى للتى هى أقوم فى نظام الحكم ونظام المال ، ونظام الاجتماع ، ونظام التعامل . .وقوله - سبحانه ، ) : - وَيُبَشِّرُ المؤمنين الذين يَعْمَلُونَ الصالحات أَنَّ لَهُمْ أَجْراً

كَبِيراً ) صفة ثانية من صفات القرآن الكريم .أى : أن هذا القرآن بجانب هدايته للتى هى أقوم ، فهو - أيضا - يبشر المؤمنين الذين يعملون الأعمال الصالحات بأن لهم أجرا كبيرا من خالقهم - عز وجل - : أجرا كبيرا لا يعلم مقداره إلا مسديه ومانحه ، وهو الله رب العالمين .

وان الذين لا يؤمنون بالاخرة اعتدنا لهم عذابا اليما

`<!-- TODO:MISSING -->`{=html} كما فسرها الوسيط

ويدع الانسان بالشر دعاءه بالخير وكان الانسان عجولا

كما فسرها الوسيط والمراد بالإنسان هنا : الجنس وليس واحدا معينا .قال الآلوسى : وقوله : ( دعاءه بالخير ) أى : دعاء كدعائه بالخير ، فحذف الموصوف وحرف التشبيه وانتصب المجرور على المصدرية .والمعنى : ويدعو الإنسان حال غضبه وضجره ، على نفسه ، أو على غيره ، ( بالشر ) كأن يقول : اللهم أهلكنى ، أو أهلك فلانا . . " .( دعاءه بالخير ) أى : يدعو بالشر " على نفسه أو على غيره ، كدعائه بالخير ، كأن يقول : اللهم اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين .قال ابن كثير : يخبر - تعالى - عن عجلة الإنسان ، ودعائه فى بعض الأحيان على نفسه أو ولده ، أو ماله ، ( بالشر ) أى : بالموت أو الهلاك - والدمار واللعنة ونحو ذلك ، فلو استجاب له ربه لهلك بدعائه ، كما قال تعالى - : .( وَلَوْ يُعَجِّلُ الله لِلنَّاسِ الشر استعجالهم بالخير لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ . . ) وفى الحديث : "لا تدعوا على أنفسكم ولا على أموالكم ، أن توافقوا من الله ساعة إجابة يستجيب فيها " .وقيل المراد بالإنسان هنا : الكافر ، أو الفاسق الذى يدعو الله - تعالى - بالشر كأن يسأله بأن ييسر له أمرا محرما كالقتل والسرقة والزنا وما يشبه ذلك ، ، وقد أشار القرطبى إلى هذا الوجه بقوله : " وقيل نزلت فى النضر بن الحارث. كان يدعو ويقول - كما حكى القرآن عنه - : ( اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السمآء أَوِ ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ) وقيل : هو أن يدعو فى طلب المحظور ، كما يدعو فى طلب المباح . كما فى قول الشاعر :أطوف بالبيت فيمن يطوف ... وأرفع من مئزرى المُسْبَلِواسجل بالليل حتى الصباح ... وأتلوا من المحكمِ المنزلِعسى فارج الهم عن يوسف ... يُسخر لى ربة المَحْمَلِويبدو لنا أن الرأى الأول أقرب إلى الصواب ، لأنه المأثور عن بعض الصحابة والتابعين وهم أدرى بتفسير كتاب الله من غيرهم .قال ابن جرير - رحمه الله - عند تفسيره لهذه الآية : عن ابن عباس قال فى قوله - تعالى - : ( وَيَدْعُ الإنسان بالشر دُعَآءَهُ بالخير . يعنى قول الإنسان اللهم العنه واغضب عليه ، فلو يعجل له الله ذلك كما ( . يعجل له الخير لهلك . . .وقال قتادة : يدعو على ماله فيلعن ماله ، ويدعو على ولده ، ولو استجاب الله له لأهلكه .وقال مجاهد : ذلك دعاء الإنسان بالشر على ولده وعلى امرأته ولا يحب أن يجاب .وقوله - تعالى - : ( وَكَانَ الإنسان عَجُولاً ) بيان للسبب الذى حمل الإنسان على أن يدعو بالشر كما يدعو بالخير .والعجول من العجل - بفتح العين والجيم - وهو الإسراع فى طلب الشئ قبل وقته .يقال : عجل - بزنة تعب - يعجل فهو عجلان ، إذا أسرع .أى : وكان الإنسان متسرعا فى طلب كل ما يقع فى قلبه ، ويخطر بباله ، لا يتأنى فيه تأنى المتبصر ، ولا يتأمل تأمل المتدبر .وشبيه بهذه الجملة قوله - تعالى - : ( خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ آيَاتِي فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ ) ثم

وجعلنا الليل والنهار ايتين فمحونا اية الليل وجعلنا اية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا

كما فسرها الوسيط ساق - سبحانه - ما يدل على كمال قدرته ، وسعة رحمته ) : - بعباده ، ومجازاتهم على أعمالهم يوم القيامة فقال - تعالى وَجَعَلْنَا الليل والنهار آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ آيَةَ الليل وَجَعَلْنَآ آيَةَ النهار مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السنين والحساب وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً )قال أبو حيان : قوله - تعالى - ( وَجَعَلْنَا الليل والنهار آيَتَيْنِ . . ) لما ذكر - سبحانه - القرآن وأنه هاد إلى الطريقة المستقيمة ذكر ما أنعم به مما لم يمكن الانتفاع إلا به ، وما دل على توحيده من ، عجائب العالم العلوى . وأيضا لما ذكر عجلة الإنسان ، وانتقاله من حال إلى حال ذكر أن كل هذا العالم كذلك فى الانتقال لا يثبت على حال ، فنور عقب ظلمة وبالعكس ، وازدياد نور وانتقاص آخر .والمراد بالآيتين هنا : العلامتان الواضحتان ، الدالتان على قدرة الله - تعالى - ووحدانيته .وقوله : ( فمحونا من المحو بمعنى إزالة أثر الشئ ، يقال : محا فلان الشئ محوا - من باب ( قتل - إذا أزال أثره .وللعلماء فى تفسير هذه الآية اتجاهات : أما الاتجاه

الأول فيرى أصحابه ، أن المراد بالآيتين : نفس الليل والنهار ، وأن الكلام ، ليس فيه حذف .فيكون المعنى : وجعلنا الليل والنهار - بهيئاتهما الثابتة ، وتعاقبهما الدائم ، واختلافهما طولا وقصرا - آيتين كونيتين كبيرتين - دالتين على أن لهما صانعا قادرا ، حكيما ، هو الله رب العالمين .وقوله - سبحانه - ( فَمَحَوْنَآ آيَةَ الليل ) أى : فجعلنا الآية التى هى الليل ممحوة الضوء ، مظلمة الهيئة ، مختفية فيها الأشياء ، ساكنة فيها الحركات . وقوله - تعالى - : ( وَجَعَلْنَآ آيَةَ النهار مُبْصِرَةً ) أى : وجعلنا الآية التى هى النهار مضيئة ، تبصر فيها الأشياء وترى بوضوح وجلاء .وعلى هذا الاتجاه ، تكون إضافة الآية إلى الليل والنهار من إضافة الشئ إلى نفسه مع اختلاف اللفظ ، تنزيلا لاختلاف اللفظ منزلة الاختلاف فى المعنى ، كما ، فى قوله - تعالى - ( شهر رمضان ) فرمضان هو نفس الشهر .وأما الاتجاه الثانى فيرى أصحابه أن الكلام على حذف مضاف ، وأن المراد بالآيتين : الشمس والقمر فيكون المعنى : وجعلنا نيرى الليل والنهار - وهما الشمس والقمر - آيتين ، دالتين على قدرة الله - تعالى - ووحدانيته ، فمحونا آية الليل - وهى القمر - ، بأن أزلنا عنه شعاعه وضياءه ، ولم نجعله كالشمس فى ذلك ، وجعلنا آية النهار - وهى الشمس - مبصرة ، أى : ذات شعاع وضياء يبصر فى ضوئها الشئ على حقيقته .وقد ذكر صاحب الكشاف هذين الوجهين دون أن يرجح بينهما فقال : قوله - تعالى - : ( وَجَعَلْنَا الليل والنهار آيَتَيْنِ . . ) فيه وجهان أحدهما : أن يراد أن الليل والنهار آيتان فى أنفسهما ، فتكون الإضافة فى آية الليل وآية النهار للتبيين ، كإضافة العدد إلى المعدود ، أى : فمحونا الآية التى هى الليل ، وجعلنا الآية التى هى النهار مبصرة .والثانى : أن يراد : وجعلنا نيرى الليل والنار آيتين ، يريد الشمس والقمر . . .أى : فمحونا آية الليل التى هى القمر ، حيث لم نخلق له شعاعا كشعاع الشمس تبصر به الأشياء ، وجعلنا الشمس ذات شعاع يبصر فى ضوئها كل شئ .والذى نراه : أن الاتجاه الأول أقرب إلى الصواب ، لأنه هو الظاهر من معنى الآية الكريمة ، ولأنه لا يحتاج إلى تقدير ، وما كان كذلك أولى مما يحتاج إلى تقدير ، ولأن - الليل والنهار هما بذاتهما من أظهر العلامات والأدلة على قدرة الله تعالى - ووحدانيته .وهناك عشرات الآيات القرآنية فى هذا المعنى ، ومن ذلك قوله - تعالى - ( وَآيَةٌ لَّهُمُ الليل نَسْلَخُ مِنْهُ النهار فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ) وقوله - تعالى - : ( وَمِنْ آيَاتِهِ الليل والنهار والشمس والقمر . . . ) وقال - تعالى - : ( إِنَّ فِي خَلْقِ السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيَاتٍ لأُوْلِي الألباب ) إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التى أوردها الله - تعالى - فى هذا المعنى .وقوله - سبحانه - : ( لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ ) بيان لمظهر من مظاهر حكمته - تعالى - ورحمته بعباده .والجملة الكريمة متعلقة بما قبلها ، وهو قوله - سبحانه - : ( وَجَعَلْنَآ آيَةَ النهار مُبْصِرَةً ) أى : جعلنا النهار مضيئا ، لتطلبوا فيه ما تحتاجونه من أمور معاشكم ، ومن الأرزاق التى ، قسمها الله بينكم .قال الآلوسى ما ملخصه : وفى التعبير عن الرزق بالفضل وعن الكسب بالابتغاء : دلالة على أنه ليس للعبد فى تحصيل الرزق تأثير سوى الطلب ، وإنما الإعطاء من الله - تعالى - بطريق التفضل . . .وشبيه بهذه الجملة الكريمة قوله - تعالى - : ( وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الليل والنهار لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ) فقوله - تعالى - : ( لتسكنوا فيه ) يعود إلى الليل . وقوله - تعالى - : ( وَلِتَبتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ) يعود على النهار .ثم بين - سبحانه - حكمة أخرى ونعمة أخرى لجعله الليل والنهار على هذه الهيئة فقال : أى : وجعلنا الليل والنهار على ( وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السنين والحساب ) هذه الصفة من التعاقب والاختلاف فى الطول والقصر لتعرفوا عن طريق ذلك عدد ، الأيام والشهور والأعوام ، التى لا تستغنون عن معرفتها فى شئون حياتكم ، ولتعرفوا - أيضا - الحساب المتعلق بها فى معاملاتكم ، وبيعكم وشرائكم وأخذكم وعطائكم ، وصلاتكم ، وصيامكم ، وزكاتكم ، وحجكم ، وأعيادكم . . وغير ذلك مما تتوقف معرفته على تقلب الليل والنهار . وولوج أحدهما فى الآخر .ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ( وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً ) .والتفصيل : من الفصل بمعنى القطع . والمراد به هنا : الإبانة التامة للشئ بحيث يظهر ظهورا لا خفاء معه ولا التباس .ولفظ ( كل ) منصوب على الاشتغال بفعل يفسره ما بعده .أى : وفصلنا كل شئ تحتاجون إليه فى أمور دينكم ودنياكم ، تفصيلا ، واضحا جليا ، لا خفاء معه ولا التباس ، فقد أقمنا هذا الكون على التدبير المحكم ، وعلى الصنع المتقن ، وليس على المصادفات التى لا تخضع لنظام أو ترتيب .

وكل انسان الزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - صورة من صور هذا التفصيل المحكم فى كل شئ فقال - تعالى - : ( وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ ) .والمراد بطائره : عمله الصادر عنه باختياره وكسبه ، حسبما قدره

الله - تعالى - عليه من خير وشر .أى : وألزمنا كل إنسان مكلف عمله الناتج
- عنه ، إلزاما لا فكاك له منه ، ولا قدرة له على مفارقته .وعبر - سبحانه
عن عمل الإنسان بطائره ، لأن العرب كانوا - كما يقول الآلوسى - يتفاءلون
بالطير ، فإذا سافروا ومر بهم الطير زجروه ، فإن مر بهم سانحا - أى من جهة
الشمال إلى اليمين - تيمنوا وتفاءلوا ، وإن مر بارحا ، أى : من جهة اليمين
الى الشمال تشاءموا ، فلما نسبوا الخير والشر إلى الطائر ، استعير استعارة
تصريحية ، لما يشبههما من قدر الله - تعالى - وعمل العبد ، لأنه سبب للخير
والشر .وقوله - سبحانه - : ( فى عنقه ) تصوير لشدة اللزوم وكمال الارتباط
، بين الإنسان وعمله .وخص - سبحانه - العنق بالذكر من بين سائر الأعضاء
لأن اللزوم فيه أشد ، ولأنه العضو الذى تارة يكون عليه ما يزينه كالقلادة
وما يشبهها ، وتارة يكون فيه ما يشينه كالغل والقيد وما يشبههما .قال
الامام ابن كثير : وطائره : هو ما طار عنه من عمله كما قال ابن عباس ومجاهد
) : - وغير واحد - من خير أو شر ، يلزم به ويجازى عليه : كما قال - تعالى ،
فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ
ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ) وكما قال - تعالى - : ( إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا
كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ) والمقصود أن عمل ابن آدم محفوظ عليه ، قليله وكثيره
ويكتب عليه ليلا ونهارا ، صباحا ومساء .وقوله - سبحانه - : ( وَنُخْرِجُ :
لَهُ يَوْمَ القيامة كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً ) بيان لحاله فى الآخرة
بعد بيان حاله فى الدنيا .والمراد بالكتاب هنا صحائف أعماله التى سجلت عليه
فى الدنيا .أى : ألزمنا كل إنسان مكلف عمله الصادر عنه فى الدنيا ، وجعلناه
مسئولا عنه دون غيره . أما فى الآخرة فسنخرج له ما عمله من خير أو شر " في
كتاب يلقاه منشورا " أى : مفتوحا بحيث يستطيع قراءته ، ومكشوفا بحيث لا
يملك إخفاء شئ منه ، أو تجاهله ، أو المغالطة فيه .كتاب ظهرت فيه الخبايا
والأسرار ظهورا يغنى عن الشهود والجدال .كتاب مشتمل على كل صغيرة وكبيرة من
أعمال الإنسان ، كما قال - تعالى - : ( وَنَضَعُ الموازين القسط لِيَوْمِ
القيامة فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ
مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وكفى بِنَا حَاسِبِينَ ).

اقرا كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما يخاطب به الإنسان بعد أن فتح كتابه
أمامه ، فقال - تعالى - ( اقرأ كتابكَ كفى بِنَفْسِكَ اليوم عَلَيْكَ
حَسِيباً ) .أى : ويقال له بعد أن وجد كتابه منشورا أمامه ، اقرأ كتابك هذا
وما اشتمل عليه من أعمال صدرت عنك فى الدنيا ، كفى بنفسك اليوم عليك ،
حسيبا .أى : محاسبا ، كجليس بمعنى مجالس ، أو حاسبا وعادًّا كصريم بمعنى
، صارم يقال حسب فلان على فلان قوله ، إذا عده عليه .ولفظ ( كفى ) هنا لازم
ويطرد فى هذه الحالة جر فاعله بالباء المزيدة لتوكيد الكفاية و ( حسيبا )
- تمييز ، وعليك متعلق به .وتارة يأتى لفظ ( كفى ) متعديا ، كما فى قوله
تعالى - : ( وَكَفَى الله المؤمنين القتال ).

من اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر اخرى
وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - قاعدة كلية ، لتحمل كل إنسان نتيجة
عمله ، فقال - تعالى - : ( مّنِ اهتدى فَإِنَّمَا يَهْتَدي لِنَفْسِهِ
وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ
أخرى ) .والفعل ( تزر ) من الوزر بمعنى الإثم والحمل والثقل . يقال : وزر
يزر وزرا ، أى : أثم ، أو حمل حملا ثقيلاً ، ومنه سمى الوزير ، لأنه يحمل
أعباء تدبير شئون الدولة .أى : من اهتدى إلى الطريق المستقيم ، وقدم فى
حياته العمل الصالح فثمرة هدايته راجعة إلى نفسه ، ومن ضل عن الطريق القويم
وفسق عن أمر ربه فوبال ضلاله راجع إليه وحده ، ولا تحمل نفس آثمة ، إثم ،
نفس أخرى ، وإنما تسأل كل نفس عن آثامها فحسب .وقد تكرر هذا المعنى فى كثير
من آيات القرآن الكريم ومن ذلك قوله - تعالى - : ( وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ
- نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى ) وقوله
تعالى - : ( وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ
إلى حِمْلِهَا لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قربى . . ) ولا
يتنافى هذا مع قوله - تعالى - : ( وَلَيَحْمِلُنّ أَثْقَالَهُمْ
وَأَثْقَالاً مّعَ أَثْقَالِهِمْ . . ) وقوله - تعالى - : ( لِيَحْمِلُواْ
أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ القيامة وَمِنْ أَوْزَارِ الذين
يُضِلّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ . . ) لأن المقصود فى هاتين الآيتين
، وأشباههما ، أن دعاة الكفر والفسوق والعصيان ، يحملون ذنوبهم يوم القيامة
ويحملون فوق ذلك جانبا من ذنوب من كانوا هم سببا فى ضلالهم ، لأن من سن سنة
سيئة فعليه وزرها ، ووزر من عمل بها - كما جاء فى الحديث الصحيح - فهم
يحملون آثام أنفسهم ، والآثام التى كانوا سببا فى ارتكاب غيرهم لها .كذلك

لا يتنافى قوله - تعالى - : ( وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى ) مع ما
ثبت فى الحديث الصحيح عن ابن عمر رضى الله عنهما من " أن الميت يعذب ببكاء
أهله عليه . . " .لأن العلماء حملوا الحديث على أن يكون الميت قد أوصى بذلك
قبل موته ، أو أن يهمل نهيهم عن النوح عليه قبل موته ، مع أنه يعلم أنهم
، سينوحون عليه ويشقون الجيوب ، ويلطمون الخدود . . فتعذيبه بسبب تفريطه
وعدم تنفيذه لقوله - تعالى - : ( ياأيها الذين آمَنُواْ قوا أنفُسَكُمْ
) : - وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا الناس والحجارة . . ) وقوله - تعالى
وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً ) بيان لمظهر من مظاهر
. رحمة الله - تعالى - بعباده - ورأفته بهم ، وكرمه معهم

واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول
فدمرناها تدميرا

كما فسرها الوسيط قال أبو حيان - رحمه الله - : لما ذكر - تعالى - فى الآية
السابقة ، أنه لا يعذب أحدا حتى يبعث إليه رسولا ، بين بعد ذلك علة إهلاكهم
وهى مخالفة أمر الرسول صلى الله عليه وسلم ، والتمادى على الفساد - فقال ،
سبحانه - : ( وَإِذَآ أَرَدْنَآ أن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا ،
مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا . . ) .وقوله - سبحانه - : ( أمرنا ) من
الأمر الذى هو ضد النهى ، والمأمور به هو الإيمان والعمل الصالح ، والشكر
، لله رب العالمين ، وحذف لظهوره والعلم به .وقوله ( مترفيها ) جمع مترف
وهو المتنعم الذى لا يمنع من تنعمه ، بل يترك يفعل ما يشاء . يقال : ترف
فلان - كفرح - أى : تنعم ، وفلان أترفته النعمة ، أى : أطغته وأبطرته لأنه
لم يستعملها فى وجوهها المشروعة .والمراد بهم ، أصحاب الجاه والغنى
والسلطان ، الذين أحاطت بهم النعم من كل جانب ، ولكنهم استعملوها فى الفسوق
والعصيان ، لا فى الخير والإحسان .والمعنى : وإذا قرب وقت إرادتنا إهلاك
أهل قرية ، أمرنا مترفيها ، وأهل الغنى والسلطان فيها بالإيمان والعمل
الصالح ، والمداومة على طاعتنا وشكرنا ، فلم يستجيبوا لأمرنا ، بل فسقوا
فيها ، وعاثوا فى الأرض فسادا .وهذا الأمر إنما هو على لسان الرسول المبعوث
إلى أهل تلك القرية ، وعلى ألسنة المصلحين المتبعين لهذا الرسول والآمرين
بالمعروف والناهين عن المنكر .وقال - سبحانه - : ( وَإِذَآ أَرَدْنَآ أن
نُّهْلِكَ قَرْيَةً . . . ) مع أن الهلاك لأهلها ، للإشارة إلى أن هذا
الهلاك لن يصيب أهلها فقط ، بل سيصيبهم ويصيب معهم مساكنهم وأموالهم وكل ما
احتوته تلك القرية ، بحيث تصير هى وسكانها أثرا بعد عين .وخص مترفيها
بالذكر مع أن الأمر بالطاعة للجميع ، لأن هؤلاء المترفين هم الأئمة والقادة
فإذا ما استجابوا للأمر استجاب غيرهم تبعا لهم فى معظم الأحيان ، ولأنهم ،
فى أعم الأحوال هم الأسرع إلى ارتكاب ما نهى الله عنه ، وإلى الانغماس فى
المتع والشهوات .والحكمة من هذا الأمر ، هو الإعذار والإنذار ، والتخويف
والوعيد .كما قال - تعالى - : ( رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ
لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى الله حُجَّةٌ بَعْدَ الرسل . . ) وهذا
التفسير للآية الكريمة ، سار عليه جمهور المفسرين .ولصاحب الكشاف رأى يخالف
ذلك ، فهو يرى أن الأمر فى الآية الكريمة مجاز عن إمدادهم بالنعم الكثيرة
التى أبطرتهم .قال - رحمه الله - : قوله - تعالى - : ( وإذا أردنا ) وإذا
دنا وقت إهلاك قوم ، ولم يبق من زمان إمهالهم إلا قليل أمرناهم ( ففسقوا )
أى : أمرناهم بالفسق ففعلوا .والأمر مجاز لأن حقيقة أمرهم بالفسق أن يقول
لهم : افسقوا ، وهذا لا يكون ، فبقى أن يكون مجازا ، ووجه المجاز أنه صب
عليهم النعمة صبا ، فجعلوها ذريعة إلى المعاصى واتباع الشهوات ، فكأنهم
مأمورون بذلك لتسبب إيلاء النعمة فيه ، وإنما خولهم إياها ليشكروا ويعملوا
، فيها الخير ، ويتمكنوا من الإحسان والبر ، كما خلقهم أصحاء أقوياء
وأقدرهم على الخير والشر ، وطلب منهم إيثار الطاعة ، على المعصية ، فآثروا
الفسوق ، فلما فسقوا حق عليهم القول وهو كلمة العذاب فدمرهم .. .ومن
المفسرين من يرى أن قوله - تعالى - : ( أمرنا ) بمعنى كثّرنا - بتشديد
الثاء - وقرئ ( أمّرنا ) بتشديد الميم ، أى : كثرنا مترفيها وجعلناهم أمراء
، مسلطين . .ولكن هذه القراءة . وقراءة ( آمرنا ) بمعنى " كثرنا " أيضا
ليستا من القراءات السبعة أو العشرة ، وإنما هما من القراءات الشاذة .قال
) الإمام ابن جرير : وأولى القراءات فى ذلك عندى بالصواب ، قراءة من قرأ
أمرنا ) بقصر الألف وتخفيف الميم - لإجماع الحجة من القراء بتصويبها دون
غيرها وإذا كان ذلك هو الأولى بالصواب بالقراءة ، فأولى التأويلات به من
تأوله : أمرنا أهلها بالطاعة ففسقوا فيها . فحق عليهم القول ، لأن
الأغلب من معنى ( أمرنا ) الأمر الذى هو خلاف النهى دون غيره .وتوجيه معانى
كلام الله - جل ثناؤه - إلى الأشهر الأعرف من معانيه ، أولى ما وجد إليه
سبيل من غيره . . .ويبدو لنا أن الرأى الأول الذى سار عليه جمهور المفسرين
وعلى رأسهم الإمام ابن جرير ، أولى بالقبول ، لأسباب منها :ان القرآن ،
الكريم يؤيده فى كثير من آياته ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ( وَإِذَا
فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ آبَاءَنَا والله

- أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ الله لاَ يَأْمُرُ بالفحشآء . . ) فقوله
تعالى - : ( قُلْ إِنَّ الله لاَ يَأْمُرُ بالفحشآء ) دليل واضح على أن
قوله - سبحانه - : ( أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا . . )
- معناه : أمرناهم بالطاعة ففسقوا ، وليس معناه أمرناهم بالفسق ففسقوا لأنه
سبحانه - لا يأمر لا بالفسق ولا بالفحشاء .ومنها : أن الأسلوب العربى
السليم يؤيده لأنك إذا قلت : أمرته فعصانى كان المعنى المتبادر والظاهر من
هذه الجملة ، أمرته بالطاعة فعصانى ، وليس معناه . أمرته بالعصيان فعصانى
ومنها : أن حمل الكلام على الحقيقة - كما سار جمهور المفسرين - أولى من
حمله على المجاز - كما ذهب صاحب الكشاف - .وقوله - سبحانه - : ( فَحَقَّ
عَلَيْهَا القول فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً ) بيان لما نزل بهذه القرية
، وأهلها من عذاب محاها من الوجود ، إذ التدمير هو الإهلاك مع طمس الأثر
وهدم البناء .أى : أمرنا مترفيها بطاعتنا وشكرنا ، فعصوا أمرنا وفسقوا فيها
فثبت وتحقق عليها عذابنا ، فأهلكناها إهلاكا استأصل شأفتها ، وأزال ،
آثارها .وأكد - سبحانه - فعل التدمير بمصدره ، للمبالغة فى إبراز شدة
الهلاك الواقع على تلك القرية الظالم أهلها .قال الآلوسى ما ملخصه : والآية
تدل على إهلاك أهل القرية على أتم وجه ، وإهلاك جميعهم ، لصدور الفسق منهم
جميعا ، فإن غير المترف يتبع المترف عادة .. .وقيل : هلاك الجميع لا يتوقف
على التبعية فقد قال - تعالى - : ( واتقوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الذين
ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً . . . ) " وقد صح عن أم المؤمنين زينب بنت جحش
أنها قالت : قلت ، يا رسول الله ، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال : نعم ، إذا
كثر الخبث " .

وكم اهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن هذه القرية لم تكن بدعا فى نزول
العذاب بها ، بل هناك قرى كثيرة عتت عن أمر ربها فأخذها - سبحانه - أخذ
عزيز مقتدر ، فقال - تعالى - : ( وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ القرون مِن
بَعْدِ نُوحٍ . . . ) .و ( كم ) هنا خبرية أى : أن معناها الإخبار عن عدد
- كثير ، وهى فى محل نصب مفعول به لجملة ( أهلكنا ) و " من " فى قوله
تعالى - : ( من القرون ) بيان للفظ ( كم ) وتمييز له كما يميز العدد بالجنس
وأما " من " فى قوله - تعالى - : ( مِن بَعْدِ نُوحٍ ) فهى لابتداء .
. الغاية .والقرون : جمع قرن ، ويطلق على القوم المقترنين فى زمان واحد
، والمشهور أن مدته مائة سنة .أى : أن هذه القرية المدمرة بسبب فسوق أهلها
وعصيانهم لأمرنا ، ليست هى القرية الوحيدة التى نزل بها عذابنا ، بل إننا
قد أهلكنا كثيرا من القرى من بعد زمن نوح - عليه السلام - كقوم عاد وثمود
وغيرهم ممن استحبوا العمى على الهدى ، وآثروا الكفر على الإيمان والغى على
الرشد .وخص نوح - عليه السلام - بالذكر ، لأنه أول رسول كذبه قومه وآذوه
وسخروا منه . . فأهلكهم الله - تعالى - بالطوفان .قال ابن كثير : ودل هذا
: على أن القرون التى كانت بين آدم ونوح على الإسلام ، كما قاله ابن عباس
كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام .ثم ختم - سبحانه - الآية
الكريمة بالتهديد الشديد لمن يخالف أمره فقال - تعالى - : ( وكفى بِرَبِّكَ
بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرَاً بَصِيراً ) .أى : وكفى بربك - أيها الرسول
- الكريم - إحاطة واطلاعا وعلما بما يقدمه الناس من خير أو شر ، فإنه
سبحانه - يعلم السر وأخفى .والآية الكريمة بجانب أنها تسلية للرسول صلى
الله عليه وسلم فهى - أيضا - تهديد للمشركين ، وإنذار لهم بأنهم إذا ما
استمروا على كفرهم ، ومعاداتهم للحق ، وتطاولهم على من جاء به وهو الرسول
صلى الله عليه وسلم فسيكونون محلا لغضب الله - تعالى - وسخطه ، ولنزول
عذابه الذى أهلك به أمثالهم فى الشرك والكفر والجحود .وشبيه بهذه الآية
قوله - تعالى - : ( أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأرض فَيَنظُرُواْ كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الذين مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ الله عَلَيْهِمْ
وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ) وقوله - تعالى - : ( وَلَقَدْ خَلَقْنَا
الإنسان وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ
إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوريد )

من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم
يصلاها مذموما مدحورا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك مصير الذين يؤثرون العاجلة على
الآجلة ، فقال - تعالى - : ( مَّن كَانَ يُرِيدُ العاجلة عَجَّلْنَا لَهُ
فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ) .والمراد بالعاجلة : دار الدنيا ، وهى
صفة لموصوف محذوف أى : الدار العاجلة التى ينتهى كل شئ فيها بسرعة وعجلة
، أى : من كان يريد بقوله وعمله وسعيه ، زينة الدار العاجلة وشهواتها فحسب.
دون التفات إلى ثواب الدار الآخرة ، ( عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا ) أى : عجلنا
. لذلك الإنسان فى هذه الدنيا ، ( ما نشاء ) تعجيله له من زينتها ومتعها

وهذا العطاء العاجل المقيد بمشيئتنا ليس لكل الناس ، وإنما هو ( لمن نريد. عطاءه منهم ، بمقتضى حكمتنا وإرادتنا .فأنت ترى أنه - سبحانه - قد قيد ( العطاء لمن يريد العاجلة بمشيئته وإرادته .ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال عند تفسيره لهذه الآية : " من كانت العاجلة همه ، ولم يرد غيرها كالكفرة وأكثر الفسقة ، تفضلنا عليه من منافعها بما نشاء لمن نريد . فقيد الأمر تقييدين : أحدهما : تقييد المعجل بمشيئته ، والثانى : تقييد المعجل له بإرادته .وهكذا الحال ، ترى كثيرا من هؤلاء يتمنون ما يتمنون ولا يعطون إلا بعضا منه ، وكثيرا منهم يتمنون ذلك البعض وقد حرموا فاجتمع عليهم فقر الدنيا وفقر الآخرة وأما المؤمن التقى فقد اختار مراده ، وهو غنى الآخرة فما يبالى أوتى حظا من الدنيا أو لم يؤت . فإن أوتى فيها شكر ، وإن لم يؤت صبر ، فربما كان الفقر خيرا له ، وأعون على مراده .وقوله ( لمن نريد ) بدل من ( له ) وهو بدل البعض من الكل ، لأن الضمير يرجع إلى ( من ) وهو فى معنى الكثرة ومفعول نريد محذوف . أى : لمن نريد عطاءه .وقوله : ( ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً ) بيان لسوء مصير هذا المريد للعاجلة فى الآخرة .و ( يصلاها ) أى : يلقى فيها ويذوق حرها وسعيرها : يقال : صليت الشاة : شويتها وصَلِىَ فلان بالنار - من باب تعب - إذا وجد حرها .و ( مذموما ) من الذم الذى هو ضد المدح .و ( مدحورا ) من الدحور بمعنى الطرد واللعن . يقال : دحره دحرا ودحورا ، إذا طرده وأبعده ، أى : من كان يريد بسعيه الدنيا وزينتها أعطيناه منها مانشاء إعطاءه له. أما فى الآخرة فقد جعلنا له جهنم يدخلها ، ويصلى حرها ولهيبها ، حالة كونه أى مبغوضا بسبب سوء صنيعه ، ( مدحورا ) أى : مطرودا ومبعدا من ( مذموما ) رحمة الله - تعالى - .قال الإمام الرازى ما ملخصه : وفى لفظ هذه الآية فوائد : منها : أن العقاب عبارة عن مضرة مقرونة بالإهانة والذم ، بشرط أن تكون دائمة وخالية عن شوب المنفعة فقوله : ( ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا ) إشارة إلى المضرة العظيمة . وقوله ( مذموما ) إشارة إلى الإهانة والذم . وقوله ( مدحورا ) إشارة إلى البعد والطرد عن رحمة الله - تعالى - .وهى تفيد كون تلك المضرة خالية عن شوب النفع والرحمة ، . .. وتفيد كونها دائمة وخالية عن التبدل بالراحة والخلاص

ومن اراد الاخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فاولئك كان سعيهم مشكورا

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وسعى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَـئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً ) بيان لحسن عاقبة المؤمنين الصادقين بعد بيان سوء عاقبة المؤثرين لمتع الدنيا وشهواتها .أى : ومن أراد بقوله وعمله ثواب الدار الآخرة ، وما فيها من عطاء - غير مقطوع ، وسعى لهذه الدار سعيها الذى يوصله إلى مرضاة الله - تعالى حالة كونه مؤمنا بالله - تعالى - وبكل ما يجب الإيمان به ، ( فأولئك ) - الذى فعلوا ذلك ، ( كان سعيهم ) للدار الآخرة سعيا ( مشكورا ) : من الله تعالى - ، حيث يقبله - سبحانه - منهم ، ويكافئهم عليه بما يستحقون من ثواب لا يعلم مقداره إلا هو - سبحانه - وعبر - عز وجل - بالسعى عن أعمالهم الصالحة ، للإشعار بجدهم وحرصهم على أداء ما يرضيه - تعالى - بدون إبطاء - أو تأخير ، إذ السعى يطلق على المشى الذى تصاحبه السرعة . وأشار - سبحانه إليهم بأولئك ، للإشعار بعلو درجاتهم وسمو مراتبهم .قال بعض العلماء ما ملخصه : وفى الآية الدليل الواضح على أن الأعمال الصالحة لا تنفع إلا مع - الإيمان بالله - تعالى - لأن الكفر سيئة لا تنفع معها حسنة .ولذا قال سبحانه - : ( وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وسعى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ) : - وقد أوضح - سبحانه - هذا فى آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى. ( . . مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أنثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ) ومفهوم هذه الآية وأمثالها ، أن غير المؤمن إذا قدم عملا صالحا فى الدنيا لا ينفعه فى الآخرة لفقد شرط الإيمان قال - تعالى - : ( وَقَدِمْنَآ إلى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ ، فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مّنثُوراً ) " وروى الإمام مسلم فى صحيحه عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الله لا يظلم مؤمنا حسنة يعطى بها فى الدنيا ، ويجزى بها فى الآخرة . وأما الكافر فيطعم بحسناته ما عمل بها لله فى الدنيا ، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزى بها " .

كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ما يدل على كمال قدرته ، وسعة عطائه فقال : ( كُلاًّ نُّمِدُّ هؤلاء وهؤلاء مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً ) ولفظ " كلا " هنا مفعول به للفعل نمد؛ والتنوين عوض عن المضاف إليه . أى : نمد كل واحد من الفريقين .وقوله ( نمد من الإمداد بمعنى الزيادة . يقال : أمد القائد الجيش بالجند ، إذا زاده (

، وقواه .والمراد باسم الإشارة الأول ( هؤلاء ) : المؤثرون للعاجلة
والمراد بالثانى الراغبون فى ثواب الآخرة .والمعنى : كلا من الفريقين نمده
من فضلنا وإحساننا فنعطى ما نريد إعطاءه لمن يريد العاجلة ولمن يريد الآجلة
دون أن ينقص مما عندنا شئ ، ودون أن يخرج عن مشيئتنا شئ .( وَمَا كَانَ
عَطَآءُ رَبِّكَ ) أيها الرسول الكريم ( محظورا ) أى : ممنوعا لا عن المؤمن
ولا عن الكافر ، ولا فى الدنيا ولا فى الآخرة .من الحظر بمعنى المنع يقال :
حظره يحظره - من باب قتل - فهو محظور ، أى : ممنوع .

انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللاخرة اكبر درجات واكبر تفضيلا

، كما فسرها الوسيط ثم أمر - سبحانه - عباده بالنظر والتأمل فى أحوال خلقه
ليزدادوا عظة وعبرة ، فقال : ( انظر كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ على
بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ) .أى :
انظر - أيها العاقل - نظر تأمل وتدبر واعتبار فى أحوال الناس ، لترى عن
طريق المشاهدة كيف فضل الله - تعالى - بعض الناس على بعض فى هذه الحياة ،
فهذا غنى وذاك فقير ، وهذا قوى وذاك ضعيف ، وهذا ذكى وذاك خامل ، وهذا مالك
وذاك مملوك .إلى غير ذلك من الأحوال التى تدل على تفاوت الناس فى هذه
الدنيا ، على حسب ما تقتضيه إرادة الله - تعالى - وحكمته ، ومشيئته .أما فى
الآخرة فالناس فيها أكبر تفاضلا وتفاوتا فى الدرجات والمنازل ، مما كانوا
عليه فى الدنيا .قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه :
وقوله : ( وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ) أى :
ولتفاوتهم فى الدار الآخرة أكبر من الدنيا ، فإن منهم من يكون فى الدركات
فى جهنم وسلاسلها وأغلالها ، ومنهم من يكون فى الدرجات العلا ونعيمها
وسرورها . ثم أهل الدركات يتفاوتون فيما هم فيه ، كما أن أهل الدرجات
يتفاوتون ، فإن فى الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض
وفى الصحيحين : " إن أهل الدرجات العلا ليرون أهل عليين ، كما ترون
الكوكب الغابر فى أفق السماء " .وبذلك نرى الآيات الكريمة قد ساقت لنا سنة
من سنن الله - تعالى - فى إهلاك الأمم ، وأنه - تعالى - ما أهلكها إلا بعد
أن عتت عن أمره ، وعصت رسله ، كما أنها بينت لنا سوء عاقبة الذين يؤثرون
متع الدنيا على طاعة الله - تعالى - ، وحسن عاقبة الذين يريدون الآخرة وما
فيها من ثواب جزيل ، وأن الفريقين لا ينالون مما يطلبونه إلا ما قدره
الله - تعالى - لهم ، وأن عطاءه للناس جميعا لا ينقص مما عنده شيئا ، وأن
حكمته - سبحانه - قد اقتضت تفضيل بعض الناس على بعض فى الدنيا والآخرة ،
وصدق - عز وجل - حيث يقول : ( انظر كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ على
بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ) .قال
الإمام الرازى ما ملخصه : بعد أن بين - سبحانه - أن الناس فريقان : فريق
يريد بعمله الدنيا فقط ، وفريق يريد بعمله طاعة الله ، ثم شرط ذلك بشرائط
ثلاثة : أولها : إرادة الآخرة ، وثانيها : أن يسعى سعيا موافقا لطلب الآخرة
وثالثها : أن يكون مؤمنا .وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا
إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ
الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا
تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (23) وَاخْفِضْ لَهُمَا
جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا
رَبَّيَانِي صَغِيرًا (24) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ
تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا (25)وبعد
أن ذكر - سبحانه - الأساس فى قبول الأعمال ، وهو إخلاص العبادة له - عزّ
وجل - وحده ، أتبع ذلك بتأكيد هذا الأساس بما هو من شرائط الإيمان الحق
وشعائره فقال - تعالى - : ( وقضى رَبُّكَ أَلاَّ تعبدوا إِلاَّ إِيَّاهُ
وبالوالدين إِحْسَاناً . . ) .قال القرطبى ما ملخصه : ( قضى ) أى : أمر
وألزم وأوجب . . .والقضاء يستعمل فى اللغة على وجوه ، فالقضاء بمعنى الأمر
كما فى هذه الآية والقضاء بمعنى الخلق كقوله ( فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ
سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ) يعنى خلقهن ، والقضاء بمعنى الفراغ من الشئ ،
كقوله ( قُضِيَ الأمر الذي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ) أى فرغ منه .والقضاء
بمعنى الارادة . كقوله - تعالى - : ( إِذَا قضى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ
لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . . ) والمعنى : لقد نهى ربك عن الاشراك به نهيا قاطعا
وأمر أمرا محكما لا يحتمل النسخ ، بأن لا تعبدوا أحدا سواه ، إذ هو ،
الخالق لكل شئ ، والقادر على كل شئ ، وغيره مخلوق وعاجز عن فعل شئ إلا
بإذنه - سبحانه - .

لا تجعل مع الله الها اخر فتقعد مذموما مخذولا

كما فسرها الوسيط فالجملة الكريمة أمر لازم لإخلاص العبادة لله ، بعد
النهى عن الإشراك به فى قوله - تعالى - : ( لاَّ تَجْعَل مَعَ الله إلها
آخَرَ . . ) وقد جاء هذا الأمر بلفظ ( قضى ) زيادة فى التأكيد ، لأن هذا

اللفظ هنا يفيد الوجوب القطعى الذى لا رجعة فيه ، كما أن اشتمال الجملة الكريمة على النفى والاستثناء - وهما أعلا مراتب القصر - يزيد هذا الأمر تأكيدا وتوثيقا .

وقضى ربك الا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا اما يبلغن عندك الكبر احدهما او كلاهما فلا تقل لهما اف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما

كما فسرها الوسيط ثم أتبع - سبحانه - الأمر بوحدانيته ، بالأمر بالإحسان إلى الوالدين فقال : ( وبالوالدين إحسانا ) .أى : وقضى - أيضا - بأن تحسنوا - أيها المخاطبون - إلى الوالدين إحسانا كاملا لا يشوبه سوء أو مكروه .وقد جاء الأمر بالاحسان إلى الوالدين عقب الأمر بوجوب إخلاص العبادة لله ، فى آيات كثيرة . منها قوله - تعالى - : ( قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وبالوالدين إِحْسَاناً . . ) وقوله - تعالى - : ( وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بني إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ الله وبالوالدين إِحْسَاناً . . ) ولعل السر فى ذلك هو الإشعار للمخاطبين بأهمية هذا الأمر المقتضى لوجوب الإحسان إلى الوالدين ، حيث إنهما هما السبب المباشر لوجود الإنسان فى هذه الحياة ، وهما اللذان لقيا ما لقيا من متاعب من أجل راحة أولادهما ، فيجب أن يقابل ما فعلاه بالشكر والاعتراف بالجميل .قال بعض العلماء : وقد جاءت هذه الوصية بأسلوب الأمر بالواجب المطلوب ، وهو الإحسان إلى الوالدين ، ولم تذكر بأسلوب النهى سموا بالإنسان عن أن تظن به الإساءة إلى الوالدين ، وكأن الاساءة إليهما ، ليس من شأنها أن تقع منه حتى يحتاج إلى النهى عنها . . .ثم فصل - سبحانه - مظاهر هذا الإحسان فقال : ( إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الكبر أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً

و ( إما ) حرف مركب من " إن " الشرطية ، ومن " ما " المزيدة عليها. ( .. للتأكيد ، وقوله : ( أحدهما ) فاعل يبلغن . وقرأ حمزة والكسائى ( إما ) يبلغان ) فيكون قوله ( أحدهما ) بدل من ألف الاثنين فى ( يبلغان ) .وقوله ( فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ) جواب الشرط .قال الآلوسى : و ( أف ) اسم صوت ينبئ عن التضجر ، أو اسم فعل مضارع هو أتضجر . .وفيه نحو من أربعين لغة . والوارد من ذلك فى القراءات سبع ثلاث متواترة ، وأربعة شاذة .فقرأ نافع وحفص بالكسر والتنوين ، وهو للتنكير : فالمعنى : فلا تقل أتضجر تضجرًا ما وقرأ ابن كثير وابن عامر بالفتح دون تنوين ، والباقون بالكسر بدون تنوين. . وقوله ( ولا تنهرهما ) من النهر بمعنى الزجر ، يقال نهر فلان فلانا إذا . . زجره بغلظة .والمعنى : كن - أيها المخاطب - محسنا إحسانا تاما بأبويك .فإذا ما بلغ ( عندك ) أى : فى رعايتك وكفالتك ( أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا ) سن الكبر والضعف ( فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ) أى : قولا يدل على التضجر منهما والاستثقال لأى تصرف من تصرفاتهما .قال البيضاوى : والنهى عن ذلك يدل على المنع من سائر أنواع الايذاء قياسا بطريق الأولى ، وقيل عرفا كقولك : فلان لا يملك النقير والقطمير - فإن هذا القول يدل على أنه لايملك شيئا قليلا أو كثيرا .وقوله ( ولا تنهرهما ) أى : ولا تزجرهما عما يتعاطيانه من الأفعال التى لا تعجبك .فالمراد من النهى الأول : المنع من إظهار التضجر منهما مطلقا .والمراد من النهى الثانى : المنع من إظهار المخالفة لهما على سبيل الرد والتكذيب والتغليظ فى القول .والتعبير بقوله : ( عندك ) يشير إلى أن الوالدين قد صارا فى كنف الابن وتحت رعايته ، بعد أن بلغ أشده واستوى ، وبعد أن أصبح مسئولا عنهما ، بعد أن كانا هما مسئولين عنه .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما معنى ( عندك ) قلت هو أن يكبرا ويعجزا ، وكانا كلاًّ على ولدهما لا كافل لهما غيره ، فهما عنده فى بيته وكنفه ، وذلك أشق عليه وأشد احتمالا وصبرا ، وربما تولى منهما ما كانا يتوليانه منه فى حالة الطفولة ، فهو مأمور بأن يستعمل معهما وطاءة الخلق ، ولين الجانب ، حتى لا يقول لهما فهو أضجره ما يستقذر منهما ، أو يستثقل من مؤنهما : أف ، فضلا عما يزيد إذا عليه .والتقييد بحالة الكبر فى قوله - تعالى - : ( إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الكبر ) جرى مجرى الغالب ، إذ أنهما يحتاجان إلى الرعاية فى حالة الكبر ، أكثر من احتياجهما إلى ذلك فى حالة قوتهما وشبابهما ، وإلا فالإحسان إليهما ، والعناية بشأنهما . واجب على الأبناء سواء كان الآباء فى سن الكبر أم فى سن الشباب أم فى غيرهما .وقوله - سبحانه - : ( وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً ) أمر بالكلام الطيب معهما . بعد النهى عن الكلام الذى يدل على الضجر والقلق من فعلهما .أى : وقل لهما بدل التأفيف والزجر ، قولا كريما حسنا ، يقتضيه حسن الأدب معهما ، والاحترام لهما والعطف عليهما .

واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا

كما فسرها الوسيط وقوله : ( واخفض لَهُمَا جَنَاحَ الذل مِنَ الرحمة . . )

زيادة فى تبجيلهما والتلطف معهما فى القول والفعل والمعاملة على اختلاف
ألوانها .أى : وبجانب القول الكريم الذى يجب أن تقوله لهما ، عليك أن تكون
متواضعا معهما ، متلطفا فى معاشرتهما ، لا ترفع فيهما عينا ، ولا ترفض لهما
قولا ، مع الرحمة التامة بهما ، والشفقة التى لا نهاية لها عليهما .قال
الإمام الرازى ما ملخصه : وقوله : ( واخفض لَهُمَا جَنَاحَ الذل مِنَ
الرحمة ) المقصود منه المبالغة فى التواضع .وذكر القفال فى تقريره وجهين
: الأول : أن الطائر إذا أراد ضم فرخه إليه للتربية خفض له جناحه ، ولهذا
السبب صار خفض الجناح كناية عن حسن التربية . فكأنه قال للولد : اكفل
والديك بأن تضمهما إلى نفسك كما فعلا ذلك بك فى حال صغرك .والثانى : أن
الطائر إذا أراد الطيران والارتفاع نشر جناحه ، وإذا أراد ترك الطيران وترك
الارتفاع خفض جناحه . فصار خفض الجناح كناية عن التواضع .وإضافة الجناح إلى
الذل إضافة بيانية ، أى : اخفض لهما جناحك الذليل و ( من ) فى قوله ( من
الرحمة ) ابتدائية . أى تواضع لهما تواضعا ناشئا من فرط رحمتك عليهما .قال
الآلوسى : وإنما احتاجا إلى ذلك ، لافتقارهما إلى من كان أفقر الخلق إليهما
واحتياج المرء إلى من كان محتاجا إليه أدعى إلى الرحمة ، كما قال الشاعر ،
يامن أتى يسألنى عن فاقتى ... ما حال من يسأل من سائله؟ماذلة السلطان إلا:
إذا ... أصبح محتاجا إلى عاملهوقوله : ( وَقُل رّبِّ ارحمهما كَمَا
رَبَّيَانِي صَغِيراً ) تذكير للإنسان بحال ضعفه وطفولته ، وحاجته إلى
الرعاية والحنان .أى : وقل فى الدعاء لهما : يارب ارحمهما برحمتك الواسعة ،
واشملهما بمغفرتك الغامرة ، جزاء ما بذلا من رعاية لى فى صغرى ، فأنت
القادر على مثوبتهما ومكافأتهما .قال الجمل : والكاف فى قوله ( كما ربيانى
فيها قولان : أحدهما أنها نعت لمصدر محذوف .أى : ارحمهما رحمة مثل ( . .
رحمتهما لى ، والثانى أنها للتعليل . أى : ارحمهما لأجل تربيتهما لى ، كما
فى قوله ( واذكروه كَمَا هَدَاكُمْ ).

ربكم اعلم بما في نفوسكم ان تكونوا صالحين فانه كان للاوابين غفورا

، كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات التى سمت بمنزلة الوالدين
) : - بما يدل على كمال علمه ، وعلى التحذير من عقابه ، فقال - تعالى
رّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُواْ صَالِحِينَ
فَإِنّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً ) .والأوابون : جمع أواب . وهو
الكثير الأوبة والتوبة والرجوع إلى الله - تعالى - يقال : آب فلان يئوب إذا
رجع .قال ابن جرير بعد أن ساق الأقوال فى ذلك : وأولى الأقوال فى ذلك
بالصواب ، قول من قال : الأواب هو التائب من الذنب ، الراجع عن معصية الله
إلى طاعته ، ومما يكرهه إلى ما يرضاه ، لأن الأواب إنما هو فعال من قول
القائل : آب فلان من سفره إلى منزله ، كما قال الشاعر :وكل ذى غيبة يئوب
، وغائب الموت لا يؤوبأى : ربكم - أيها الناس - أعلم بما فى نفوسكم ...
وضمائركم ، سواء أكان خيرا أو شرا ، وسواء أكنتم تضمرون البر بآبائكم أم
تخفون الإساءة إليهما ، ومع ذلك فإنكم إن تكونوا صالحين - أى : قاصدين
- الصلاح والبر بهما ، والرجوع عما فرط منكم فى حقهما أو فى حق غيرهما
- فالله - تعالى - يقبل توبتكم ، فإنه - سبحانه - بفضله وكرمه كان للأوابين
أى الرجاعين إليه بالتوبة مما فرط منهم - غفورا لذنوبهم .فالآية الكريمة
وعيد لمن تهاون فى حقوق أبويه ، وفى كل حق أوجبه الله عليه ، ووعد لمن رجع
إليه - سبحانه - بالتوبة الصادقة .وبذلك نرى الآيات الكريمة قد أمرت
بالإحسان إلى الوالدين ، بأسلوب يستجيش عواطف البر والرحمة فى قلوب
الأبناء ، ويبعثهم على احترامهما ورعايتهما والتواضع لهما ، وتحذيرهم من
الإساءة إليهما ، ويفتح باب التوبة أمام من قصر فى حقهما أو حق غيرهما
وقد كرر القرآن هذا الأمر للأبناء بالإحسان إلى الآباء ، ولم يفعل ذلك مع.
الآباء .وذلك لأن الحياة - كما يقول بعض العلماء - وهى مندفعة فى طريقها
بالأحياء ، توجه اهتمامهم القوى إلى الأمام . إلى الذرية . إلى الناشئة
الجديدة ، إلى الجيل المقبل . وقلما توجه اهتمامهم إلى الوراء . إلى الأبوة
إلى الحياة المولية إلى الجيل الذاهب .ومن ثم تحتاج البنوة إلى استجاشة ،
وجدانها بقوة لتنعطف إلى الخلف ، وتتلفت إلى الآباء والأمهات .إن الوالدين
يندفعان بالفطرة إلى رعاية الأولاد . إلى التضحية بكل شئ حتى بالذات ، وكما
تمتص النابتة الخضراء كل غذاء فى الحبة فإذا هى فتات ، ويمتص الفرخ كل غذاء
فى البيضة فإذا هى قشر ، كذلك يمتص الأولاد ، كل رحيق ، وكل عافية ، وكل
جهد ، وكل اهتمام من الوالدين ، فإذا هما شيخوخة فانية - إن أمهلهما
الأجل - وهما مع ذلك سعيدان .فأما الاولاد فسرعان ما ينسون هذا كله
ويندفعون بدورهم إلى الأمام . إلى الزوجات والذرية . . . وهكذا تندفع
الحياة .ومن ثم لا يحتاج الآباء إلى توصية بالأبناء . إنما يحتاج هؤلاء إلى
استجاشة وجدانهم بقوة ، ليذكروا واجب الجيل الذى أنفق رحيقه كله حتى أدركه
الجفاف .وهنا يجئ الأمر بالإحسان إلى الوالدين ، فى صورة قضاء من الله
يحمل معنى الأمر المؤكد ، بعد الأمر المؤكد بعبادة الله .هذا ، وقد ساق
المفسرون عند تفسيرهم لهذه الآيات ، كثيرا من الأحاديث والآثار التى توجه

، الأبناء إلى رعاية الآباء ، واحترامهم ، والعطف عليهم ، والرحمة بهم والاهتمام بشئونهم .قال الإمام ابن كثير : وقد جاء فى بر الوالدين أحاديث كثيرة ، منها الحديث المروى من طرق عن أنس وغيره : " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما صعد المنبر قال : آمين . آمين . آمين .فقالوا : يا رسول الله علام آمنت؟ قال : " أتانى جبريل فقال : يا محمد ، رغم أنف امرئ ذكرت عنده ، فلم يصل عليك ، فقل : آمين فقلت آمين . ثم قال : رغم أنف امرئ دخل عليه شهر رمضان ثم خرج ولم يغفر له ، قل : آمين . فقلت آمين . ثم قال : رغم أنف امرئ أدرك أبويه أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة . قل : آمين ، فقلت : آمين " " .وعن مالك بن ربيعة الساعدى قال : " بينما أنا جالس عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذ جاءه رجل من الأنصار فقال : يا رسول الله ، هل بقى على من بر أبوى شئ بعد موتهما أبرهما به؟ قال : " نعم : خصال أربع . الصلاة عليهما والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما ، وإكرام صديقهما ، وصلة الرحم التى لا رحم لك إلا من قِبَلهما ، فهو الذى بقى عليك بعد موتهما من برهما " " .وقال القرطبى : أمر الله - سبحانه - بعبادته وتوحيده ، وجعل بر الوالدين مقرونا بذلك . كما قرن شكرهما بشكره ، فقال : ( وقضى رَبُّكَ أَلاَّ تعبدوا إِلاَّ إِيَّاهُ وبالوالدين إِحْسَاناً ) .وقال : ( أَنِ اشكر لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ المصير ) وفى صحيح البخارى عن عبدالله قال : " سألت النبى صلى الله عليه وسلم : أى الأعمال أحب إلى الله - تعالى -؟ . قال : " الصلاة على " : وقتها " . قلت : ثم أى؟ قال : " بر الوالدين " ، قلت ثم أى : قال الجهاد فى سبيل الله " " .ثم قال القرطبى - رحمه الله - : ومن عقوق الوالدين مخالفتهما فى أغراضهما الجائزة لهما ، كما أن من برهما موافقتهما على أغراضهما . وعلى هذا إذا أمرا أو أحدهما ولدهما بأمر وجبت طاعتهما فيه ما لم يكن ذلك الأمر معصية ، ولا يختص برهما بأن يكونا مسلمين ، بل إن كانا كافرين يبرهما ويحسن إليهما .ففى صحيح البخارى عن أسماء قالت : " قدمت أمى وهى مشركة فاستفتيت النبى صلى الله عليه وسلم فقلت : إن أمى قدمت وهى راغبة أفأصلها؟ - أى وهى راغبة فى برى وصلتى ، أو وهى راغبة عن الإسلام كارهة له - قال : " نعم صلى أمك " " .ثم قال القرطبى : ومن الإحسان إليهما والبر بهما ، إذا لم يتعين الجهاد ألا يجاهد إلا بإذنهما . فعن عبد الله بن عمرو قال : " جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم يستأذنه فى الجهاد فقال : " أحى والداك؟ قال : نعم ، قال : ففيهما فجاهد " " .

وات ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا

كما فسرها الوسيط قال أبو حيان فى البحر : " لما أمر الله - تعالى - ببر الوالدين ، أمر بصلة القرابة . قال الحسن : نزلت فى قرابة النبى صلى الله عليه وسلم . والظاهر أنه خطاب لمن خوطب بقوله : ( إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الكبر . . . ) وألحق هنا ما يتعين له من صلة الرحم ، وسد الخلة والمواساة عند الحاجة بالمال والمعونة بكل وجه . قال نحوه : ابن عباس وعكرمة والحسن وغيرهم " .والمراد بذوى القربى : من تربطك بهم صلة القرابة ، سواء أكانوا من المحارم أم لا .والمسكين : هو من لا يملك شيئا من المال أو يملك ما لا يسد حاجته ، وهذا النوع من الناس فى حاجة إلى العناية والرعاية ، لأنهم فى الغالب يفضلون الاكتفاء بالقليل ، على إراقة ماء وجوههم بالسؤال .وفى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ليس المسكين الذى يطوف على الناس فترده اللقمة واللقمتان ، والتمرة والتمرتان ، قالوا : فما المسكين يا رسول الله؟ قال الذى لا يجد غنى يغنيه ، ولا يفطن له فيتصدق عليه ، ولا يسأل الناس شيئا " .وابن السبيل هو المسافر المنقطع عن ماله سمى بذلك - كما يقول الآلوسى - لملازمته : السبيل - أى : الطريق - فى السفر . أو لأن الطريق تبرزه فكأنها ولدته .وهذا النوع من الناس - أيضا - فى حاجة إلى المساعدة والمعاونة ، حتى يستطيع الوصول إلى بلده .وفى هذا الامر تنبيه إلى أن المسلمين وإن اختلفت أوطانهم ينبغى أن يكونوا فى التعاطف والتعاون على متاعب الحياة كالأسرة الواحدة ، والمعنى : وأعط - أيها العاقل - ذوى قرباك حقوقهم الثابتة لهم من البر. وصلة الرحم ، والمعاونة ، والزيارة ، وحسن المعاشرة ، والوقوف إلى جانبهم - فى السراء والضراء ، ونحو ذلك مما توجبه تعاليم دينك الحنيف .وأعط - كذلك المسكين وابن السبيل حقوقهما التى شرعها الله - تعالى - لهما ، من الإحسان إليهما ، ومعاونتهما على ما يسد حاجتهما .وقدم - سبحانه - الأقارب على غيرهم ، لأنهم أولى بالمعروف ، ولأن إعطاءهم إحسان وصلة رحم .روى الإمام أحمد والترمذى والنسائى وغيرهم ، عن سليمان بن عامر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الصدقة على المسكين صدقة . وعلى ذى الرحم اثنتان صدقة وصلة " .وقوله - سبحانه - : ( وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً ) نهى عن : وضع المال فى غير موضعه الذى شرعه الله - تعالى - مأخوذ من تفريق البذر وإلقائه فى الأرض كيفما كان من غير تعهد لمواقعه ، ثم استعير لتضييع المال فى غير وجوهه .قال صاحب الكشاف : التبذير تفريق المال فيما لا ينبغى ، وإنفاقه على وجه الإسراف ، وكانت الجاهلية تنحر إبلها وتتياسر عليها ،

- وتبذر أموالها فى الفخر والسمعة ، وتذكر ذلك فى أشعارها ، فأمر الله تعالى - بالنفقة فى وجوهها ، مما يقرب منه ويزلف .. .وقال ابن كثير : وقوله ، لما أمر بالإنفاق نهى عن الإسراف فيه : ( وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً ) بل يكون وسطا ، كما قال - تعالى - : ( والذين إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً ) وقال ابن مسعود : التبذير : الإنفاق فى غير حق . وكذا قال ابن عباس .وقال مجاهد : لو أنفق إنسان ماله كله فى الحق لم يكن مبذرا . ولو أنفق مُدا فى غير حقه كان تبذيرا .

ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا

كما فسرها الوسيط وقوله : ( إِنَّ المبذرين كانوا إِخْوَانَ الشياطين وَكَانَ الشيطان لِرَبِّهِ كَفُوراً ) تعليل للنهى عن التبذير ، وتنفير منه ، بأبلغ أسلوب .والمراد بأخوة الشياطين : المماثلة لهم فى الصفات السيئة والسلوك القبيح .قال الإمام الرازى : والمراد من هذه الأخوة ، التشبه بهم فى هذا الفعل القبيح ، وذلك لأن العرب يسمون الملازم للشئ أخا له ، فيقولون فلان أخو الكرم والجود . وأخو السفر ، إذا كان مواظبا على هذه الأعمال : أى : كن - أيها العاقل - متوسطا فى نفقتك ، ولا تبذر تبذيرا . لأن. المبذرين يماثلون ويشابهون الشياطين فى صفاتهم القبيحة ، وكان الشيطان فى كل وقت وفى كل حال جحودا لنعم ربه ، لا يشكره عليها ، بل يضعها فى غير ما خلقت له هذه النعم .وفى تشبيه المبذر بالشيطان فى سلوكه السيئ ، وفى عصيانه لربه ، إشعار بأن صفة التبذير من أقبح الصفات التى يجب على العاقل أن يبتعد عنها ، حتى لا يكون مماثلا للشيطان الجاحد لنعم ربه .

واما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما يجب على المؤمن فعله فى حال عدم قدرته على تقديم العون للأقارب والمحتاجين ، فقال - تعالى - : ( وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابتغاء رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً ) .ولفظ ( إما ) مركب من " إن " الشرطية ، ومن " ما " المزيدة . أى : إن تعرض عنهم .وقوله ( تعرضن ) من الإعراض ، بمعنى صرف الوجه عن السائل حياء منه وبسبب عدم القدرة على تلبية طلبه وقوله : ( ابتغاء ) مفعول لأجله منصوب بتعرضن ، وهو من باب وضع المسبب. موضع السبب . لأن الأصل : وإما تعرضن عنهم لإعسارك .والمراد بالرحمة : انتظار الحصول على الرزق ، وحلول الفرج بعد الضيق .والميسور : اسم مفعول من يسر الأمر - بالبناء للمفعول - مثل سعد الرجل ، ومعناه : السهل اللين والمعنى : وإما تعرضن - أيها المخاطب - عن ذى قرابتك وعن المسكين وابن السبيل ، بسبب إعسارك وانتظارك لرزق يأتيك من الله - عز وجل - فقل لهم فى هذه الحالة قولا لينا رفيقا يدل على اهتمامك بشأنهم ، ويدخل السرور على نفوسهم ، كأن تقول لهم مثلا - : ليس عندى اليوم ما أقدمه لكم ، وإن يرزقنى الله بشئ فسأجعل لكم نصيبا منه .قال القرطبى ما ملخصه : وهو تأديب عجيب ، وقول لطيف بديع ، أى لا تعرض عنهم إعراض مستهين عن ظهر غنى وقدرة فتحرمهم وإنما يجوز أن تعرض عنهم عند عجز يعرض ، وعائق يعوق ، وأنت عند ذلك ترجو من الله - تعالى - فتح باب الخير ، لتتوصل به إلى مواساة السائل ، فإن قعد بك الحال ( فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً ) أى لينا لطيفا . . ولقد أحسن من قال :إلاَّ تكن وَرِقٌ يوماً أجود بها ... للسائلين فإنى لينُ العودلا يعدم السائلون الخير من خلقى ... إما نوالى وإما حسنُ مردود

ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا

كما فسرها الوسيط ثم أرشد - سبحانه - عباده إلى أفضل الطرق لإنفاق أموالهم والتصرف فيها ، فقال - تعالى - : ( وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ البسط فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً ) وقوله ( مغلولة ) من الغل - بضم الغين - وأصله الطوق الذى يجعل فى العنق. وتربط به اليد ، كما يربط المذنب والأسير : وهو كناية عن البخل والتقتير قال صاحب الكشاف ما ملخصه : غل اليد وبسطها مجاز عن البخل والجود ولا يقصد. من يتكلم به إثبات يد ولا غل ولا بسط . ولا فرق عنده بين هذا الكلام وبين ما وقع مجازا عنه ، لأنهما كلامان معتقبان على حقيقة واحدة . حتى أنه يستعمله فى ملك لا يعطى عطاء قط ، ولا يمنعه إلا بإشارته من غير استعمال يد وقبضها وبسطها . ولو أعطى الأقطع إلى المنكب عطاء جزيلا لقالوا : ما أبسط يده بالنوال . لأن بسط اليد وقبضها عبارتان معاقبتان للبخل والجود . وقوله : ( محسورا ) من الحسور بمعنى الانقطاع عن الشئ ، والعجز عن الحصول. عليه .يقال : فلان حسره السير ، إذا أثر فيه أثرا بليغا جعله يعجز عن اللحاق برفقائه .ويقال : بعير محسور . أى : ذهبت قوته وأصابه الكلل

والإعياء . فصار لا يستطيع النهوض بما يوضع عليه من أحمال .والمقصود من
الآية الكريمة : الأمر بالتوسط والاعتدال فى الإنفاق والنهى عن البخل
والإسراف .فقد شبه - سبحانه - مال البخيل ، بحال من يده مربوطة إلى عنقه
ربطا محكما بالقيود والسلاسل ، فصار لا يستطيع تحريكها أو التصرف بها .وشبه
حال المسرف والمبذر ، بحال من مد يده وبسطها بسطا كبيرا ، بحيث أصبحت لا
تمسك شيئا يوضع فيها سواء أكان قليلا أم كثيرا .والمعنى : كن - أيها
الإنسان - متوسطا فى كل أمورك ، ومعتدلا فى إنفاق أموالك بحيث لا تكون
: بخيلا ولا مسرفا ، فان الإسراف والبخل يؤديان بك إلى أن تصير ملوما . أى
مذموما من الخلق والخالق ، محسورا ، أى : مغموما منقطعا عن الوصول إلى
مبتغاك بسبب ضياع مالك ، واحتياجك إلى غيرك .قال الآلوسى ما ملخصه : فالآية
. الكريمة تحض على التوسط ، وذلك هو الجود الممدوح ، فخير الأمور أوساطها
: وأخرجه أحمد وغيره عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

ان ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر انه كان بعباده خبيرا بصيرا

`<!-- TODO:MISSING -->`{=html} كما فسرها الوسيط

ولا تقتلوا اولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم ان قتلهم كان خطئا كبيرا

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَلاَ تقتلوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ
- إِمْلاقٍ . . . ) نهى عن قتل الأولاد بعد بيان أن الأرزاق بيده - سبحانه
يبسطها لمن يشاء ، ويضيقها على من يشاء .والإملاق : الفقر . يقال : أملق ،
الرجل إذا افتقر قال الشاعر : .وإنى على الإملاق يا قوم ماجد ... أعد
لأضيافى الشواء المصهبا قال الآلوسى : وظاهر اللفظ النهى عن جميع أنواع قتل
الأولاد ، ذكورا أو إناثا مخافة الفقر والفاقة .لكن روى أن من أهل الجاهلية
، من كان يئد البنات مخافة العجز عن النفقة عليهن ، فنهى فى الآية عن ذلك
فيكون المراد بالأولاد البنات ، وبالقتل الوأد . . .أى : ولا تقتلوا - أيها
الآباء - أولادكم خشية فقر متوقع ، فنحن قد تكفلنا برزقهم ورزقكم ، وأرزاق
غيركم من مخلوقاتنا التى لا تحصى .قال - تعالى - : ( وَمَا مِن دَآبَّةٍ
فِي الأرض إِلاَّ عَلَى الله رِزْقُهَا . . ) ولا شك أن الحياة حق لهؤلاء
الصغار كما أنها حق لكم ، فمن الظلم البين الاعتداء على حقوقهم ، والتخلص
منهم خوفا من الفقر المتوقع فى المستقبل ، مع أن الله - تعالى - هو الرازق
لهم ولكم فى كل زمان ومكان .وقد ورد النهى عن قتل الاولاد هنا بهذه الصيغة
وورد فى سورة الأنعام بصيغة أخرى ، هى قوله - تعالى - : ( وَلاَ تقتلوا ،
أَوْلاَدَكُمْ مِّنْ إِمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ) وليست
- أحدهما تكرارا للأخرى وإنما كل واحدة منهما تعالج حالة معينة .فهنا يقول
سبحانه - : ( وَلاَ تقتلوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ
نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم ) لأن النهى موجه بالأصالة إلى الموسرين الذين
يقتلون أولادهم لا من أجل فقر كائن فيهم ، وإنما من أجل فقر هم يتوهمون
حصوله فى المستقبل بسبب الأولاد ، لذا قال - سبحانه - ( نَّحْنُ
نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم ) فقدم رزق الأولاد لأنهم سبب توقع الفقر ، فى
زعم آبائهم - لكى يمتنع الآباء عن هذا التوقع ولكى يضمن للأولاد رزقهم
ابتداء مستقلا عن رزق الآباء .وقال - سبحانه - هناك ( من إملاق ) لأن النهى
متوجه أصالة إلى الآباء المعسرين : أى لا تقتلوهم بسبب الفقر الموجود
- فيكم - أيها الآباء - ، فقد يجعل الله بعد عسر يسرا ، ولذا قال - سبحانه
فجعل الرزق للآباء ابتداء . لكى ( نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم ) :
يطمئنهم - سبحانه - على أنه هو الكفيل برزقهم وبرزق أولادهم .وفى كلتا
الحالتين ، القرآن الكريم ينهى عن قتل الأولاد ، ويغرس فى نفوس الآباء
الثقة بالله - تعالى - والاعتماد عليه .وجملة ( نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ
وَإِيَّاكُم ) تعليل للنهى عن قتل الأولاد ، بإبطال موجبه - فى زعمهم - وهو
الفقر .أى : نحن نرزقهم لا أنتم ، ونرزقكم أنتم معهم ، وما دام الأمر كذلك
، فلا تقدموا على تلك الجريمة النكراء : وهى قتل الأولاد ، لأن الأولاد
قطعة من أبيهم ، والشأن - حتى فى الحيوان الأعجم - أنه يضحى من أجل أولاده
ويحميهم ، ويتحمل الصعاب فى سبيلهم .وقوله ( إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً
كَبِيراً ) تعليل آخر للنهى عن قتل الأولاد جئ به على سبيل التأكيد
والخِطء : هو الإثم - وزنا ومعنى - ، مصدر خَطِئَ خِطْئًا كأثم إثما من.
، باب علم .أى : أن قتل الأولاد كان عند الله - تعالى - إثما كبيرا فاحشا
يؤدى إلى التعاسة والشقاء فى الدنيا والآخرة :والحق أن المجتمع الذى يبيح
قتل الأولاد ، خوفا من الفقر أو العار ، لا يمكن أن يصلح شأنه ، لأنه مجتمع
نفعى تسوده الأثرة والأنانية والتشاؤم والأوهام ، لأن أفراده يظنون أن الله
يخلق خلقا لا يدبر لهم رزقهم ، ويعتدون على روح بريئة طاهرة ، تخوفا من فقر
أو عار مترقب ، وذلك هو الضلال المبين .ورحم الله الإمام الرازى فقد قال
عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : إن قتل الأولاد إن كان لخوف الفقر ، فهو
. سوء ظن بالله . وإن كان لأجل الغيرة على البنات فهو سعى فى تخريب العالم

، فالأول : ضد التعظيم لأمر الله - تعالى - والثانى : ضد الشفقة على خلقه
وكلاهما مذموم .ولقد أمر النبى صلى الله عليه وسلم برعاية الأبناء ، وحذر
من الاعتداء عليهم فى أحاديث كثيرة ، ومن ذلك ما جاء فى الصحيحين عن
عبدالله بن مسعود قال : " قلت يا رسول الله ، أى الذنب أعظم؟ قال : أن تجعل
. لله ندا وهو خلقك . قلت : ثم أى؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك
. " قلت : ثم أى؟ قال : أن تزنى بحليلة جارك

ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا

كما فسرها الوسيط وبعد أن نهى - سبحانه - عن قتل الأولاد المؤدى إلى إفناء
: النسل ، أتبع ذلك بالنهى عن فاحشة الزنا المؤدية إلى اختلاط الأنساب
فقال - تعالى - : ( وَلاَ تَقْرَبُواْ الزنى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً
وَسَآءَ سَبِيلاً ) والزنا : وطء المرأة بدون عقد شرعي يجيز للرجل وطأها
، والفاحشة : ما عظم قبحه من الأقوال والأفعال . يقال فحش الشئ ، فحشا .
كقبح قبحا - وزنا ومعنى - ، ويقال أفحش الرجل ، إذا أتى الفحش بضم الفاء
وسكون الحاء - ، وهو القبيح من القول أو الفعل . وأكثر ما تكون الفاحشة
إطلاقا على الزنا .وتعليق النهى بقربانها ، للمبالغة فى الزجر عنها ، لأن
قربانها قد يؤدى إلى الوقوع فيها ، فمن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه
وهذا لون حكيم من ألوان إصلاح النفوس ، لأنه إذا حصل النهى عن القرب من.
- الشئ ، فلأن ينهى عن فعله من باب أولى .فكأنه - سبحانه - يقول : كونوا
أيها المسلمون بعيدين عن كل المقدمات التى تفضى إلى فاحشة الزنا كمخالطة
النساء ، والخلوة بهن ، والنظر إليهن .. . فإن ذلك يفتح الطريق إلى الوقوع
فيها .قال بعض العلماء : وكثيرا ما يتعلق النهى فى القرآن بالقربان من الشئ
وضابطه بالاستقراء :أن كل منهى عنه من شأنه أن تميل النفوس إليه ، وتدفع ،
إليه الأهواء ، جاء النهى فيه عن القربان ، ويكون القصد التحذير من أن يأخذ
- ذلك الميل فى النفس مكانة تصل بها إلى اقتراف المحرم ، ومن ذلك قوله
. تعالى - : ( وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ اليتيم إِلاَّ بالتي هِيَ أَحْسَنُ
وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حتى ) ( . . . وَلاَ تَقْرَبُواْ الزنى ) ( . .
يَطْهُرْنَ . . ) أما المحرمات التى لم يؤلف ميل النفوس إليها ، ولا اقتضاء
الشهوات لها ، فإن الغالب فيها ، أن يتعلق النهى عنها بنفس الفعل لا
. بالقربان منه

ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه
سلطانا فلا يسرف في القتل انه كان منصورا

كما فسرها الوسيط ومن ذلك قوله - تعالى - : ( وَلاَ تقتلوا أَوْلادَكُمْ
خَشْيَةَ إِمْلاقٍ . . . ) وقوله - تعالى - : ( وَلاَ تَقْتُلُواْ النفس
التي حَرَّمَ الله إِلاَّ بالحق . . ) .فهذه وإن كانت فواحش ، إلا أنها
ليست ذات دوافع نفسية ، يميل إليها الإنسان بشهوته . بل هى فى نظر العقل
على المقابل من ذلك ، يجد الإنسان فى نفسه مرارة ارتكابها ، ولا يقدم
عليها إلا وهو كاره لها ، أو فى حكم الكاره . . .وقوله : ( إِنَّهُ كَانَ
فَاحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلاً ) تعليل للنهى عن الاقتراب منه ، أى : ابتعدوا
عن مقدمات الزنا فضلا عن الوقوع فيه ذاته ، لأنه كان - وما زال - فى شرع
، الله ، وفى نظر كل عقل سليم فعلة فاحشة ظاهرة القبح وبئس الطريق طريقه
فإنها طريق تؤدى إلى غضب الله - تعالى - وسخطه .ومما لا شك فيه أن فاحشة
الزنا من أقبح الفواحش التى تؤدى إلى شيوع الفساد والأمراض الخبيثة فى
الأفراد والمجتمعات ، وما وجدت فى أمة إلا وكانت عاقبتها خسرا .ولقد تحدث
الإمام الرازى عن تلك المفاسد التى تترتب على الزنا فقال ما ملخصه :الزنا
اشتمل على أنواع من المفاسد ، أولها : اختلاط الأنساب واشتباهها ، فلا يعرف
: الإنسان أن الولد الذى أتت به الزانية ، أهو منه أو من غيره . . .وثانيا
أنه إذا لم يوجد سبب شرعى لأجله يكون هذا الرجل لتلك المرأة ، لم يبق فى
حصول ذلك الاختصاص إلا التواثب والتقاتل .وثالثها : أن المرأة إذا باشرت
الزنا ، استقذرها كل طبع سليم ، وحينئذ لا تحل الألفة والمحبة ، ولا يتم
السكن والازدواج . .ورابعها : أنه إذا فتح باب الزنا ، فحينئذ لا يبقى لرجل
اختصاص بامرأة وحينئذ لا يبقى بين نوع الإنسان ، وبين سائر البهائم فرق فى
هذا الباب .وخامسها : أنه ليس المقصود من المرأة قضاء الشهوة ، بل أن تصير
شريكة للرجل فى ترتيب المنزل وإعداد مهماته . . وهذه المهمات لا تتم إلا
إذا كانت مقصورة الهمة على هذا الرجل الواحد ، منقطعة الطمع عن سائر الرجال
وذلك لا يحصل إلا بتحريم الزنا .. . فثبت بما ذكرنا أن العقول السليمة ،
تقضى على الزنا بالقبح .ولقد سد الإسلام جميع المنافذ التى تؤدى إلى
ارتكاب هذه الفاحشة ، وسلك لذلك وسائل من أهمها :1- تحريم الخلوة بالمرأة
الأجنبية ، ومنع الاختلاط بين الرجال والنساء إلا فى حدود الضرورة الشرعية
ومن الأحاديث التى وردت فى هذا المعنى ، ما رواه الشيخان عن ابن عباس أن ،
رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا يخلون أحدكم بامرأة إلا مع ذى

محرم " ." وروى الشيخان - أيضا - عن عقبة بن عامر أن رسول الله صلى الله
: عليه وسلم قال : " إياكم والدخول على النساء " . فقال رجل من الأنصار
أفرأيت الحمو - بفتح الحاء وسكون الميم - وهو قريب الزوج كأخيه وابن عمه
فقال صلى الله عليه وسلم : " الحمو الموت " " أى : دخوله قد يؤدى إلى الموت
) : - تحريم النظر إلى المرأة الأجنبية . ووجوب غض البصر . قال - تعالى -2
قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُواْ
فُرُوجَهُمْ . . ) وقال - سبحانه - : ( وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ
مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ . . ) وروى الشيخان عن أبى
هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " كتب على ابن آدم نصيبه من
الزنى مدرك ذلك لا محالة : العينان زناهما النظر ، والأذنان زناهما
الاستماع ، واللسان زناه الكلام . . . والقلب يهوى ويتمنى ، ويصدق ذلك
الفرج أو يكذبه " .3- وجوب التستر والاحتشام للمرأة؛ فإن التبرج والسفور
) : - يغرى الرجال بالنساء ، ويحرك الغريزة الجنسية بينهما .قال - تعالى
ياأيها النبي قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ المؤمنين يُدْنِينَ
عَلَيْهِنَّ مِن جَلاَبِيبِهِنَّ ذلك أدنى أن يُعْرَفْنَ فَلاَ يُؤْذَيْنَ
، الحض على الزواج ، وتيسير وسائله ، والبعد عن التغالى فى نفقاته -4 ( . .
وتخفيف مؤنه وتكاليفه . . فإن الزواج من شأنه أن يحصن الإنسان ، ويجعله
يقضى شهوته فى الحلال . .فإذا لم يستطع الشاب الزواج ، فعليه بالصوم فإنه
له وقاية - كما جاء فى الحديث الشريف - .5- إقامة حدود الله بحزم وشدة على
) : - الزناة سواء أكانوا من الرجال أم من النساء ، كما قال - تعالى
الزانية والزاني فاجلدوا كُلّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلاَ
تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ
( بالله واليوم الآخر وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ المؤمنين
وهذا الجلد إنما هو بالنسبة للبكر ذكرا كان أو أنثى ، أما بالنسبة للمحصن
وهو المتزوج أو الذى سبق له الزواج ، فعقوبته الرجم ذكرا كان أو أنثى ، وقد
ثبت ذلك بالأحاديث الصحيحة ." ففى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه
وسلم قضى فى زان لم يتزوج وزانية متزوجة ، بقوله لوالد الرجل : " على ابنك
مائة جلدة وتغريب عام " ثم قال صلى الله عليه وسلم لأحد أصحابه واسمه أنيس
اغد يا أنيس إلى امرأة هذا ، فإن اعترفت فارجمها " فغدا عليها فاعترفت " :
، فرجمها " .ومما لا شك أنه لو تم تنفيذ حدود الله - تعالى - على الزناة
- لمحقت هذه الفاحشة محقا ، لأن الشخص إن لم يتركها خوفا من ربه - عز وجل
لتركها خوفا من تلك العقوبة الرادعة ، ومن فضيحته على رءوس الأشهاد .هذه
بعض وسائل الوقاية من تلك الفاحشة القبيحة ، ولو اتبعها المسلمون ، لطهرت
أمتهم من رجسها ، ولحفظت فى دينها ودنياها .ثم نهى - سبحانه - عن قتل النفس
المعصومة الدم ، بعد نهيه عن قتل الأولاد ، وعن الاقتراب من فاحشة الزنا
فقال - تعالى - : ( وَلاَ تَقْتُلُواْ النفس التي حَرَّمَ الله إِلاَّ
بالحق ) .أى : ولا تقتلوا النفس التى حرم الله قتلها ، إلا بالحق الذى يبيح
: قتلها شرعا ، كردة ، أو قصاص ، أو زنا يوجب الرجم .قال الإمام ابن كثير
- يقول - تعالى - ناهيا عن قتل النفس بغير حق شرعى ، كما ثبت فى الصحيحين
عن عبد الله بن مسعود - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا يحل دم
: امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله إلا بإحدى ثلاث
النفس بالنفس ، والزانى المحصن ، والتارك لدينه المفارق للجماعة " .وفى
السنن : " لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل مسلم " .وقوله : ( إلا بالحق
متعلق بلا تقتلوا ، والباء للسببية ، والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال أى (
لا تقتلوها في حال من الأحوال ، إلا فى حال ارتكابها لما يوجب قتلها :
- وذلك : لأن الإسلام ينظر إلى وجود الإنسان على أنه بناء بناه الله.
تعالى - فلا يحل لأحد أن يهدمه إلا بحق .وبهذا يقرر الإسلام عصمة الدم
الإنسانى ، ويعتبر من يعتدى على نفس واحدة ، فكأنما قد اعتدى على الناس
جميعا . قال - تعالى - : ( مِنْ أَجْلِ ذلك كَتَبْنَا على بني إِسْرَائِيلَ
أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأرض
فَكَأَنَّمَا قَتَلَ الناس جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا
أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً . . ) وقوله - سبحانه - : ( وَمَن قُتِلَ
مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلاَ يُسْرِف فِّي
القتل إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً ) إرشاد لولى المقتول إلى سلوك طريق العدل
عند المطالبة بحقه .والمراد بوليه : من يلى أمر المقتول ، كأبيه وابنه
وأخيه وغيرهم من أقاربه الذين لهم الحق فى المطالبة بدمه . فإن لم يكن
للمقتول ولى ، فالحاكم وليه .والمراد بالسلطان : القوة التى منحتها شريعة
الله - تعالى - لولى المقتول على القاتل ، حيث جعلت من حق هذا الولى
المطالبة بالقصاص من القاتل ، أو أخذ الدية منه ، أو العفو عنه ، ولا
يستطيع أحد أن ينازعه فى هذا الحق ، أو أن يجبره على التنازل عنه .والمعنى
ومن قتل مظلوما ، أى : بدون سبب يوجب قتله ، فإن دمه لم يذهب هدرا ، فقد :
شرعنا ( لوليه سلطانا ) على القاتل ، لأنه - أى الولى - إن شاء طالب
بالقصاص منه ، وإن شاء أخذ الدية ، وإن شاء عفا عنه . وبذلك يصير الولى هو
صاحب الكلمة الأولى فى التصرف فى القاتل ، حتى لكأنه مملوك له .وما دامت

شريعة الله - تعالى - قد أعطت الولى هذا السلطان على القاتل ، فعليه أن لا
يسرف فى القتل ، وأن لا يتجاوز ما شرعه الله - تعالى - .ومن مظاهر هذا
التجاوز : أن يقتل اثنين - مثلا - فى مقابل قتيل واحد أو أن يقتل غير
القاتل ، أو أن يمثل بالقاتل بعد قتله .قال الآلوسى ما ملخصه : كان من
عادتهم فى الجاهلية ، أنهم إذا قتل منهم واحدا ، قتلوا قاتله ، وقتلوا معه
غيره . . .وأخرج البيهقى فى سننه عن زيد بن أسلم أنه قال : إن الناس فى
الجاهلية كانوا إذا قتل من ليس شريفا شريفا ، لم يقتلوه به ، وقتلوا شريفا
من قومه ، فنهوا عن ذلك ، كما نهوا عن المثلة بالقاتل .وقرأ حمزة والكسائى
بالخطاب للولى على سبيل الالتفات .وقوله : ( إِنَّهُ كَانَ ( فلا تسرف ) :
مَنْصُوراً ) تذييل المقصود به تعليل النهى عن الإسراف فى القتل . والضمير
- يعود إلى الولى - أيضا - .أى : فلا يسرف هذا الولى فى القتل ، لأن الله
تعالى - قد نصره عن طريق ما شرعه له من سلطان عظيم ، من مظاهره : المطالبة
بالقصاص من القاتل ، أو بأخذ الدية ، ومن مظاهره - أيضا - وقوف الحاكم
وغيره إلى جانبه حتى يستوفى حقه من القاتل ، دون أن ينازعه منازع فى هذا
الحق .ومنهم من يرى أن الضمير فى قوله ( إنه ) يعود إلى المقتول ظلما ، على
معنى : أن الله - تعالى - قد نصره فى الدنيا بمشروعية القصاص والدية حتى لا
يضيع دمه ، ونصره فى الآخرة بالثواب الذى يستحقه ، وما دام الأمر كذلك فعلى
. وليه أن لا يسرف فى القتل .ويبدو لنا أن الرأى الأول أقرب إلى الصواب
لأنه هو الظاهر من معنى الآية الكريمة .قال ابن جرير بعد أن ساق الأقوال فى
- ذلك : وأشبه ذلك بالصواب عندى ، قول من قال : عنى بها - أى بالهاء فى إنه
الولى ، وعليه عادت ، لأنه هو المظلوم ووليه المقتول ، وهى إلى ذكره أقرب
من ذكر المقتول ، وهو المنصور - أيضا - لأن الله - جل ثناؤه - قضى فى كتابه
، المنزل ، أن سلطه على قاتل وليه ، وحكمه فيه ، بأن جعل إليه قتله إن شاء
واستبقاءه على الدية إن أحب ، والعفو عنه إن رأى . وكفى بذلك نصرة له من
الله - تعالى - ، فلذلك هو المعنى بالهاء التى فى قوله ( إِنَّهُ كَانَ
مَنْصُوراً ) .والمتأمل فى هذه الآية الكريمة التى هى أول آية نزلت فى شأن
القتل كما قال الضحاك : يراها قد عالجت هذه الجريمة علاجا حكيما .فهى أولا
- تنهى عن القتل ، لأنه من أكبر الكبائر التى تؤدى إلى غضب الله - تعالى :
وسخطه ، قال - تعالى - : ( وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً
فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ الله عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ
وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً ) .وجاء النهى عنه فى بعض الآيات بعد
النهى عن الإشراك بالله - عز وجل - . قال - سبحانه - : ( والذين لاَ
يَدْعُونَ مَعَ الله إلها آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النفس التي حَرَّمَ الله
إِلاَّ بالحق . . ) كما جاء النهى عنه فى كثير من الأحاديث النبوية ، ومن
ذلك ما جاء فى الصحيحين عن ابن مسعود - رضى الله عنه - أن رسول الله صلى
" الله عليه وسلم قال : " أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة فى الدماء
وفى حديث آخر يقول صلى الله عليه وسلم : " الآدمى بنيان الرب ، ملعون من.
هدم بنيان الرب " .وفى حديث ثالث : " لو اجتمع أهل السموات والأرض على قتل
رجل مسلم ، لأكبهم الله فى النار " .وهذا النهى الشديد عن قتل النفس من
أسبابه ، أنه يؤدى إلى شيوع الغل والبغض والتقاتل . . . بين الأفراد
والجماعات؛ إذ النفس البشرية فى كل زمان ومكان ، يؤلمها ، ويثير غضبها
وانتقامها ، أن ترى قاتل عزيز لديها يمشى على الأرض . .وهى ثانيا : تسوق
لولى المقتول من التوجيهات الحكيمة ، ما يهدئ نفسه ، ويقلل من غضبه ، ويطفئ
من نار ثورته المشتعلة .وقد أجاد صاحب الظلال - رحمه الله - فى توضيح هذا
المعنى فقال :" وفى تولية صاحب الدم على القصاص من القاتل ، وتجنيد سلطان
الشرع وتجنيد الحاكم لنصرته ، تلبية للفطرة البشرية ، وتهدئة للغليان الذى
تستشعره نفس الولى ، الغليان الذى قد يجرفه ويدفعه غلى الضرب يمينا وشمالا
فى حمى الغضب والانفعال على غير هدى . فأما حين يحس أن الله قد ولاه على ،
دم القاتل . وأن الحاكم مجند لنصرته على القصاص ، فإن ثائرته تهدأ ، ونفسه
تسكن ، ويقف عند حد القصاص العادل الهادئ " .والإنسان إنسان ، فلا يطالب
بغير ما ركب فى فطرته من الرغبة العميقة فى القصاص . لذلك يعترف الإسلام
بهذه الفطرة ويلبيها فى الحدود المأمونة ، ولا يتجاهلها فيفرض التسامح فرضا
إنما هو يدعو إلى التسامح ويؤثره ، ويحبب فيه ، ويأجر عليه ، ولكن بعد أن .
يعطى الحق . فلولى الدم أن يقتص أو يصفح .وشعور ولى الدم بأنه قادر على
كليهما ، قد يجنح به إلى الصفح والتسامح ، أما شعوره بأنه مرغم على الصفح
فقد يهيج نفسه ، ويدفع به إلى الغلو والجموح .هذا ، والذى نعتقده وندين
الله - تعالى - عليه ، أنه لا علاج لجريمة القتل - وغيرها - إلا بتطبيق
: شريعة الله - تعالى - التى جمعت بين الرحمة والعدل .وبالرحمة والعدل
تتلاقى القلوب بعد التفرق ، وتلتئم بعد التصدع ، وتتسامى عن الانتقام إلى
. ما هو أعلى منه وهو العفو

ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي احسن حتى يبلغ اشده واوفوا بالعهد ان
العهد كان مسئولا

كما فسرها الوسيط وبعد أن نهى - سبحانه - عن إتلاف النفوس عن طريق القتل
- والزنا ، أتبع ذلك بالنهى عن إتلاف الأموال التى هى قوام الحياة ، وبدأ
سبحانه - بالنهى عن الاقتراب من مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن ، ثم ثنى
بالأمر بإيفاء الكيل والميزان عند التعامل ، فقال - تعالى - :( وَلاَ
تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حتى يَبْلُغَ
أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ العهد كَانَ مَسْؤُولاً
وَأَوْفُوا الكيل إذا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بالقسطاس المستقيم ذلك خَيْرٌ
وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ) .واليتيم : هو الصغير الذى مات أبوه مأخوذ من
اليتم بمعنى الانفراد ، ومنه الدرة اليتيمة .والخطاب فى قوله : ( ولا
تقربوا . . . ) لأولياء اليتيم ، والأوصياء على ماله .والأشد : قوة
الإنسان ، واشتعال حرارته ، ومن الشدة بمعنى القوة . يقال : شد النهار إذا
ارتفع واكتمل ، وهو مفرد جاء بصيغة الجمع . أو هو جمع لا واحد له من لفظه
، أو جمع شدة كأنعم ونعمة .أى : ولا تقربوا - أيها الأولياء على اليتيم
- ماله الذى منحه الله إياه عن طريق الميراث أو غيره ، إلا بالطريقة التى هى
أحسن الطرق ، والتى من شأنها أن تنفعه ، كالمحافظة عليه ، واستثماره له
، وإنفاقه فى الوجوه المشروعة .واعلموا أن كل تصرف مع اليتيم أو فى ماله لا
يقع فى تلك الدائرة - دائرة الأنفع والأحسن - فهو تصرف محظور ومنهى عنه
، وسيحاسبكم الله - تعالى - عليه .وتعليق النهى بالقربان ، للمبالغة فى الزجر
عن التصرف فى مال اليتيم ، إلا بالطريقة التى هى أحسن .وقوله : ( حتى
يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ) ليس غاية للنهى ، إذ ليس المعنى : فإذا بلغ أشده
فاقربوه ، لأن هذا المعنى يقتضى إباحة أكل الولى لمال اليتيم بعد بلوغه
، وإنما هو غاية لما يفهم من النهى ، فيكون المعنى :لا تقربوا مال اليتيم
إلا بالطريقة التى هى أحسن ، واستمروا على ذلك حتى يبلغ أشده ، أى : حتى
يصير بالغا عاقلا رشيدا ، فإذا ما صار كذلك ، فسلموا إليه ماله بأمانة
واستعفاف عن التطلع إلى شئ منه .هذا ، وقد أمرت شريعة الإسلام ، بحسن
رعاية اليتيم ، وبالمحافظة على حقوقه ، ونهت عن الإساءة إليه ، بأى لون من
ألوان الإساءة .قال - تعالى - : ( وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ اليتامى قُلْ
إِصْلاَحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ . . . )
وقال - سبحانه - :( إِنَّ الذين يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ اليتامى ظُلْماً
إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً )
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الذى رواه الإمام البخارى عن
سهل بن سعد رضى الله عنه :" أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا " وأشار
بالسبابة والوسطى ." وروى الشيخان عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى
صلى الله عليه وسلم أنه قال : " اجتنبوا السبع الموبقات . قالوا : يا رسول
الله وما هن؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا
بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات
المؤمنات الغافلات " " .ومن الحكم التى من أجلها أمر الاسلام بالعطف على
اليتيم ونهى عن ظلمه ، أنه إنسان ضعيف فقد الأب الحانى ، والعائل والنصير
، منذ صغره . .فإذا نشأ فى بيئة ترعاه وتكرمه . . شب محبا لمن حوله
وللمجتمع الذى يعيش فيه .وإذا نشأ فى بيئة تقهره وتذله وتظلمه . . نظر إلى
من حوله ، وإلى المجتمع الذى يعيش فيه ، نظرة العدو إلى عدوه . .وكأنه يقول
لنفسه : إذا كان الناس لم يحسنوا إلى فى صغرى وفى حالة ضعفى ، فلماذا أحسن
إليهم فى حال كبرى وقوتى!! وإذا كانوا قد حرمونى حقى الذى منحه الله لى
فلماذا أعطيهم شيئا من خيرى وبرى!! .هذه بعض الأسباب التى من أجلها أمر
الإسلام أتباعه برعاية اليتيم وإكرامه ، وصيانة حقوقه من أى اعتداء أو ظلم
، وبعد أن نهى - سبحانه - عن الاقتراب من مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن.
أمر بالوفاء بالعهود فقال : ( وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ العهد كَانَ
. مَسْؤُولاً ) .والعهد : ما من شأنه أن يراعى ويحفظ ، كالوصية واليمين
وعهد الله : أوامره ونواهيه وعهد الناس : ما يتعاهدون عليه من معاملات
وعقود وغير ذلك مما تقتضيه شئون حياتهم .أى : وأوفوا بالعهود التى بينكم
وبين الله - تعالى - ، والتى بينكم وبين الناس ، بأن تؤدوها كاملة غير
منقوصة ، وأن تقوموا بما تقتضيه من حقوق شرعية . وقوله ( إِنَّ العهد كَانَ
مَسْؤُولاً ) تعليل لجواب الوفاء بالعهد .أى : كونوا أوفياء بعهودكم لأن
صاحب العهد كان مسئولا عنه ، أمام الله - تعالى - وأمام الناس ، فالكلام
على حذف مضاف كما فى قوله - سبحانه - ( واسأل القرية ) .وقال - سبحانه
- : بالإظهار دون الإضمار ( . . . وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ العهد )
للإشعار بكمال العناية بشأن الوفاء بالعهود .ويجوز أن يكون المعنى :
وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا ، أى : كان مطلوبا بالوفاء به وقد مدح
الله - تعالى - الذين يوفون بعهودهم فى آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى
- : إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الألباب الذين يُوفُونَ بِعَهْدِ الله )
وَلاَ يَنقُضُونَ الميثاق ) وقوله - تعالى - : ( والموفون بِعَهْدِهِمْ
إِذَا عَاهَدُواْ والصابرين فِي البأسآء والضراء وَحِينَ البأس أولئك الذين
صَدَقُواْ وأولئك هُمُ المتقون )

واوفوا الكيل اذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير واحسن تاويلا

كما فسرها الوسيط وبعد أن أمر - سبحانه - بالوفاء بصفة عامة ، أتبع ذلك بالوفاء فى شئون البيع والشراء ، فقال - تعالى - : ( وَأَوْفُوا الكيل إِذا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بالقسطاس المستقيم ذلك خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ) والقسطاس : الميزان الذى يوزن به فى حالتى البيع والشراء .قال صاحب الكشاف. قرئ ( بالقسطاس ) بكسر القاف وضمها . . قيل : كل ميزان صغر أو كبر من : موازين الدراهم وغيرها .وقال الآلوسى ما ملخصه : وهذا اللفظ رومى معرب . . وقيل : عربى . . وعلى القول بأنه رومى معرب - وهو الصحيح -لا يقدح استعماله فى القرآن فى عربيته المذكورة فى قوله - تعالى - : ( إِنَّآ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً ) لأنه بعد التعريب والسماع فى فصيح الكلام ، يصير عربيا ، فلا حاجة إلى إنكار تعريبه . . .وقوله : ( تأويلا ) من الأول - بفتح الهمزة وسكون الواو - بمعنى الرجوع . يقال : آل هذا الأمر إلى كذا ، إذا رجع إليه .والمعنى : وأتموا أيها المؤمنون الكيل إذا كلتم لغيرم عند بيعكم لهم ما تريدون بيعه ، وزنوا لهم كذلك بالميزان المستقيم العادل ما تريدون وزنه لهم .وقيد - سبحانه - الأمر بوجوب إتمام الكيل ، والميزان فى حالة البيع ، لأنها الحالة التى يكون فيها التطفيف فى العادة إذ أن البائع هو الذى غالبا ما يطفف للمشترى فى المكيال والميزان ولا يعطيه حقه كاملا .قال - تعالى - : ( وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ الذين إِذَا اكتالوا عَلَى الناس يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ) أى : ذلك الذى أمرناكم به . من وجوب إتمام المكيال والميزان عند التعامل ، خير لكم فى الدنيا ، لأنه يرغب الناس فى التعامل معكم ، أما فى الآخرة فهو أحسن عاقبة ومآلا ، لما يترتب عليه من الثواب الجزيل لكم من الله - عز وجل - .

ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسئولا

، كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - تلك التوجيهات السامية السديدة بالنهى عن تتبع ما لا علم للإنسان به ، وعن الفخر والتكبر والخيلاء . . فقال - تعالى - :( وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السمع والبصر والفؤاد كُلُّ أولئك كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً وَلاَ تَمْشِ فِي الأرض مَرَحاً إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأرض وَلَن تَبْلُغَ الجبال طُولاً كُلُّ ذلك كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً ذَلِكَ مِمَّآ أوحى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الحكمة وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ الله إلها آخَرَ فتلقى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَّدْحُوراً ) .قال القرطبى - رحمه الله - ما ملخصه قوله - تعالى - : ( وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ) أى : ولا : تتبع ما لا تعلم ولا يعنيك - من قول أو فعل - قال قتادة :لا تقل رأيت وأنت لم تر ، وسمعت وأنت لم تسمع ، وعلمت وأنت لم تعلم . .ثم قال : وأصل القَفْو البُهْت ، والقذف بالباطل . ومنه قوله - عليه الصلاة والسلام - : " نحن بنو النضر بن كنانة لا نقفوا أمّنا ، ولا ننتفى من أبينا " أى :لا نسُبّ أمنا .وقال : قفوته أقفوه . . . إذا اتبعت أثره . وقافية كل شئ آخره ، ومنه اسم النبى صلى الله عليه وسلم : المُقَفّى ، لأنه آخر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام - ، ومنه القائف ، وهو الذى يتبع الأثر .. .وقال صاحب الكشاف - رحمه الله - : قوله : ( وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ) يعنى ، ولا تكن فى اتباعك ما لا علم لك به من قول أو فعل ، كمن يتبع : مسلكا لا يدرى أنه يوصله إلى مقصده فهو ضال . والمراد : النهى عن أن يقول الرجل ما لا يعلم ، وأن يعمل بما لا يعلم . ويدخل فيه النهى عن التقليد الأعمى دخولا ظاهرا لأنه اتباع لا لما لا يعلم صحته من فساده . . .وقوله : تحذير ( إِنَّ السمع والبصر والفؤاد كُلُّ أولئك كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ) ، شديد من أن يقول الإنسان قولا لا علم له به ، أو أن يفعل فعلا بدون تحقق أو أن يحكم حكما بلا بينة أو دليل .أى : إن السمع الذى تسمع به - أيها المكلف - ، والبصر الذى تبصر به ، والفؤاد - أى القلب - الذى تحيا به ، كل أولئك الأعضاء ستكون مسئولا عن أفعالها يوم القيامة ، وسيقال لك بتأنيب وتوبيخ : لماذا سمعت ما لا يحل لك سماعه ، ونظرت إلى ما لا يجوز لك النظر إليه ، وسعيت إلى ما لا يصح لك أن تسعى إليه!! .وعلى هذا التفسير يكون السؤال فى قوله - تعالى - : ( كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ) للإنسان الذى تتبع - ما ليس له به علم من قول أو فعل .ومن الآيات التى تشهد لهذا التفسير قوله تعالى - : ( فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ) ومنهم من يرى أن السؤال موجه إلى تلك الأعضاء ، لتنطق بما اجترحه صاحبها ، ولتكون شاهدة عليه ، فيكون المعنى : .إن السمع والبصر والفؤاد ، كل واحد من أولئك الأعضاء ، كان مسئولا عن فعله ، بأن يقال له : هل استعملك صاحبك فيما خلقت من أجله أوْ لا؟ .ويكون هذا السؤال للأعضاء من باب التوبيخ لأصحابها ، كما قال - تعالى - : ( اليوم نَخْتِمُ على أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا

كَانُواْ يَكْسِبُونَ ) وكما قال - سبحانه - : ( وَيَوْمَ يُحْشَرُ
أَعْدَآءُ اللهِ إِلَى النارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ حتى إِذَا مَا جَآءُوهَا
شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ
يَعْمَلُونَ ) واسم الإشارة ( أولئك ) على التفسير يعود إلى السمع والبصر
والفؤاد ، إما لأن هذا الاسم يشار به إلى العقلاء ويشار به إلى غير العقلاء
كما في قول الشاعر :ذُمّ المنازل بعد منزلة اللوى ... والعيش بعد أولئك ،
الأياموإما لأن هذه الأعضاء أخذت حكم العقلاء ، لأنها جزء منهم ، وشاهدة
عليهم .وعلى كلا التفسيرين أيضا ، يتمثل التحذير الشديد للإنسان عن أن
يتبع ما ليس له به علم .قال الجمل : وقوله - تعالى - : ( كل أولئك ) مبتدأ
" خبره جملة ( كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ) ، والضمير فى " كان " وفى " عنه ،
وفى ( مسئولا ) يعود على كل .أى : كان كل واحد منها مسئولا عن نفسه ، يعنى
عما فعل به صاحبه : ويجوز أن يكون الضمير فى : " عنه " لصاحب السمع والبصر
. والفؤاد . . .وشبيه بهذه الآية فى النهى عن اتباع ما لا علم للإنسان به
قوله - تعالى - : ( قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الفواحش مَا ظَهَرَ
مِنْهَا وَمَا بَطَنَ والاثم والبغي بِغَيْرِ الحق وَأَن تُشْرِكُواْ بالله
مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى الله مَا لاَ
تَعْلَمُونَ ) وقوله - سبحانه - : ( ياأيها الناس كُلُواْ مِمَّا فِي الأرض
حَلاَلاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشيطان إِنَّهُ لَكُمْ
عَدُوٌّ مُّبِينٌ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بالسواء والفحشآء وَأَن تَقُولُواْ
عَلَى الله مَا لاَ تَعْلَمُونَ ) قال الإمام ابن كثير : ومضمون ما
ذكروه - فى معنى قوله - تعالى - : ( وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ
- عِلْمٌ . . ) أن الله - تعالى - نهى عن القول بلا علم ، كما قال - سبحانه
وفى ( . . اجتنبوا كَثِيراً مِّنَ الظن إِنَّ بَعْضَ الظن إِثْمٌ ) :
" : الحديث : " إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث . . . " وفى سنن أبى داود
بئس مطية الرجل زعموا " وفى الحديث الآخر : " إن أفْرَى الفِرَى - أى أكذب
الكذب - أن يُرِىَ الرجل عينيه ما لم تريا " .وقال بعض العلماء : وهذه
الكلمات القليلة - التى اشتملت عليها الآية - تقيم منهجا كاملا للقلب
والعقل ، يشمل المنهج العلمى الذى عرفته البشرية حديثا جدا ، ويضيف إليه
!استقامة القلب ، ومراقبة الله ، ميزة الإسلام على المناهج العقلية الجافة
فالتثبت من كل خبر ، ومن كل ظاهرة ، ومن كل حركة ، قبل الحكم عليها ، هو.
دعوة القرآن الكريم ، ومنهج الإسلام الدقيق . .فلا يقول اللسان كلمة ، ولا
ينقل رواية ، ولا يروى حادثة ، ولا يحكم العقل حكما ، ولا يبرم الإنسان
أمرا . إلا وقد تثبت من كل جزئية ، ومن كل ملابسة ومن كل نتيجة ، فلم يبق
. . . هنالك شك ولا شبهة فى صحتها

ولا تمش في الارض مرحا انك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبال طولا

كما فسرها الوسيط ثم ينتقل القرآن الكريم من النهى عن أن يتبع الإنسان ما
) : لا علم له به ، إلى النهى عن التفاخر والتكبر والإعجاب فى النفس فيقول
، وَلاَ تَمْشِ فِي الأرض مَرَحاً . . . ) .والمرح فى الأصل : شدة الفرح
- والتوسع فيه ، مع الخيلاء والتعالى على الناس ، يقال : مرح - بزنة فرح
يمرح مرحا ، إذا اشتد فرحه ومشى مشية المتكبرين . وهو مصدر وقع موقع الحال
أى : ولا تمش - أيها الانسان - فى الأرض مشية الفخور المتكبر المختال بل.
كن متواضعا متأدبا بأدب الإسلام فى سلوكك .وتقييد النهى بقوله ( فى الأرض
للتذكير بالمبدأ والمعاد ، المانعين من الكبر والخيلاء ، إذ من الأرض خلق (
- وإليها يعود ، ومن كان كذلك كان جديرا به أن يتواضع لا أن يتكبر .قال
تعالى - : ( مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا
نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أخرى ) وقوله - سبحانه - : ( إِنَّكَ لن تَخْرِقَ
الأرض وَلَن تَبْلُغَ الجبال طُولاً ) تعليل للنهى عن التفاخر مع السخرية
والتهكم من المتفاخر المغرور .أى : إنك - أيها الماشى فى الأرض مرحا - لن
- تخرق الأرض بوطئك عليها ، أو بمشيك فوقها ، ولن تبلغ - مهما ارتفعت قامتك
الجبال فى الطول والعلو . وما دام شأنك كذلك ، فكن متواضعا ، فمن تواضع
لله - تعالى - رفعه .وقوله ( طولا ) تمييز محول عن الفاعل . أى : لن يبلغ
- طولك الجبال .وشبيه بهذه الآية فى النهى عن التعالى والتطاول ، قوله
تعالى - : ( وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأرض
مَرَحاً إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ) وقد أمر النبى
صلى الله عليه وسلم بالتواضع ، ونهى عن التكبر والغرور ، وبين سوء عاقبة
: ذلك فى أحاديث كثيرة ، منها ما رواه مسلم فى صحيحه عن عياض بن حمار قال
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله - تعالى - أوحى إلى أن
تواضعوا ، حتى لا يفخر أحد على أحد ، ولا يبغى أحد على أحد " .وروى الشيخان
عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا ينظر الله يوم
القيامة إلى من جر إزاره بطرا " .وروى الترمذى عن سلمة بن الأكوع قال : قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا يزال الرجل يذهب بنفسه - أى يرتفع
ويتكبر - حتى يكتب فى الجبارين - فيصيبه ما أصابهم " .ورحم الله القائل

ولا تمش فوق الأرض إلا تواضعا ... فكم تحتها قوم همو منك أرفعوإن كنت فى: عز وحِرْزٍ ومَنْعَة ... فكم مات من قوم همو منك أمنع

كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - تلك التكاليف التى يغلب عليها طابع النهى عن الرذائل بقوله : ( كُلُّ ذلك كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً ) .واسم الإشارة ( ذلك ) يعود إلى ما تقدم ذكره من التكاليف والأوامر والنواهى . التى لا يتطرق إليها النسخ ، والتى تبلغ خمسة وعشرين تكليفا ، تبدأ بقوله - تعالى - : ( لاَ تَجْعَلْ مَعَ الله إلها آخَرَ ) ثم يأتى بعد ذلك النهى عن عقوق الوالدين ، والأمر بصلة الأرحام ، وبالعطف على المسكين وابن السبيل ، ثم النهى عن البخل ، والإسراف ، وقتل الأولاد ، والاقتراب من الزنا ، وقتل النفس إلا بالحق ، والاعتداء على مال اليتيم . . الخ .والضمير فى ( سيئه ) يعود إلى ما نهى الله عنه من أفعال ، كالشرك وعقوق الوالدين ، والزنا . أى : كل ذلك الذى بيناه لك فيما سبق ، كان الفعل السيئ منه ، عند ربك مكروها ، أى : مبغوضا عنده - سبحانه - وأما الفعل الحسن كالوفاء بالعهد ، وإعطاء ذى القربى حقه ، فهو محمود عند ربك - عز وجل - .

ذلك مما اوحى اليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله الها اخر فتلقى في جهنم ملوما مدحورا

كما فسرها الوسيط والخطاب فى قوله - تعالى - : ( أفأصفاكم . . ) للكافرين الذين قالوا ، الملائكة بنات الله .والإصفاء بالشئ : جعله خالصا . يقال : أصفى فلان فلانا بالشئ ، إذا آثره به . ويقال للأشياء التى يختص السلطان بها نفسه : الصوافى . وفعله : صفا يصفو ، وتضمن هنا معنى التخصيص والاستفهام للإنكار والتوبيخ والتهكم .والمعنى - كما يقال صاحب الكشاف - أفخصكم ربكم على وجه الخلوص والصفاء بأفضل الأولاد ، وهم الذكور ، ولم يجعل فيهم نصيبا لنفسه ، واتخذ أدونهم ، وهن البنات ، وأنتم لا ترضونهن لأنفسكم بل تئدوهن وتقتلونهن!! فهذا خلاف الحكمة وما عليه معقولكم وعادتكم . فإن ، العبيد لا يُؤْثَرون بأجود الأشياء وأصفاها من الشوب ، ويكون أردؤها وأدونها للسادات .والمقصود من الجملة الكريمة نفى ما زعموه من أن الملائكة بنات الله بأبلغ وجه ، أى : لم يخصكم ربكم بالبنين ، ولم يتخذ من الملائكة إناثا ، لأنه - سبحانه - تنزه عن الشريك والولد والوالد والشبيه .قال - تعالى - : ( لَّوْ أَرَادَ الله أن يَتَّخِذَ وَلَداً لاصطفى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ سُبْحَانَهُ هُوَ الله الواحد القهار ) وقال - تعالى - : ( أَلَكُمُ الذكر وَلَهُ الأنثى تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضيزى ) وقوله - سبحانه - : ( إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً ) تسفيه لأقوالهم الباطلة وأفكارهم الفاسدة وعقولهم السقيمة .أى : إنكم بنسبتكم البنات إلى الله - تعالى - ، لتقولون قولا عظيما فى قبحه وشناعته ، وفى استهجان العقول السليمة له ، وفيما يترتب عليه من عقوبات أليمة من الله - تعالى - لكم .قال - تعالى - : ( وَقَالُواْ اتخذ الرحمن وَلَداً لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً تَكَادُ السماوات يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأرض وَتَخِرُّ الجبال هَدّاً أن دَعَوْا للرحمن وَلَداً وَمَا يَنبَغِي للرحمن أن يَتَّخِذَ وَلَداً إِن كُلُّ مَن فِي السماوات والأرض إِلاَّ آتِي الرحمن عَبْداً لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ القيامة فَرْداً )

افاصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة اناثا انكم لتقولون قولا عظيما

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن هذا القرآن الذى أنزله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم قد اشتمل على ألوان متعددة من الهدايات والآداب والأحكام ، فقال - تعالى - : ( وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هذا القرآن لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُوراً ) .وقوله - تعالى - : ( صرفنا ) من التصريف وهو فى الأصل صرف الشئ من حالة إلى أخرى ، ومن جهة إلى أخرى .والمراد به هنا : بينا ، وكررنا ، ومفعوله محذوف للعلم به .والمعنى : ولقد بينا وكررنا فى هذا القرآن أنواعا من الوعد والوعيد ، والقصص والأمثال ، والمواعظ والأخبار ، والآداب والتشريعات ، ليتذكر هؤلاء الضالون ويتعظوا ويعتبروا ، ويوقنوا بأنه من عند الله - تعالى - فيهديهم ذلك إلى اتباع الحق ، والسير فى الطريق القويم .وقوله - تعالى - : ( وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُوراً ) تصوير بديع لإصرارهم على كفرهم وعنادهم وإيثارهم الغى على الرشد .والنفور : التباعد والإعراض عن الشئ . يقال : نفرت الدابة تنفر - بكسر الفاء وضمها - نفورا ، إذا جزعت وتباعدت وشردت .أى وما يزيدهم هذا البيان والتكرار الذى اشتمل عليه القرآن الكريم ، إلا :

تباعدا عن الحق ، وإعراضا عنه ، وعكوفا على باطلهم ، بسبب جحودهم وعنادهم وحسدهم للرسول صلى الله عليه وسلم على ما آتاه الله من فضله .وكان بعض الصالحين إذا قرأ هذه الآية قال : زادنى لك خضوعا ، ما زاد أعداءك نفورا .

ولقد صرفنا في هذا القران ليذكروا وما يزيدهم الا نفورا

كما فسرها الوسيط ثم أمر الله - تعالى - رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوبخهم على شركهم ، وأن يسوق لهم الدليل الواضح على فساد عقولهم ، فقال - تعالى - : ( قُلْ لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاّبْتَغَوْاْ إلى ذِي العرش سَبِيلاً ) .وقد قرأ جمهور القراء ( كما تقولون ) وقرأ ابن كثير وحفص عن عاصم ( كما يقولون ) .وللمفسرين فى تفسير هذه الآية اتجاهان ، أما الاتجاه الأول فيرى أصحابه أن المعنى .قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المشركين ، لو كان مع الله - تعالى - آلهة أخرى كما يزعمون - إذا لطلبوا إلى ذى العرش - وهو الله عز وجل - طريقا وسبيلا لتوصلهم إليه ، لكى ينازعوه فى ملكه ، ويقاسموه إياه ، كما هى عادة الشركاء وكما هو ديدن الرؤساء والملوك فيما بينهم .قال - تعالى - : ( مَا اتخذ الله مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لّذَهَبَ كُلُّ إله بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ سُبْحَانَ الله عَمّا يَصِفُونَ ) وقال سبحانه - : ( لَوْ كَانَ فِيهِمَآ آلِهَةٌ إِلاّ الله لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ الله رَبّ العرش عَمّا يَصِفُونَ ) وهذا الاتجاه قد صدر به صاحب الكشاف كلامه فقال ما ملخصه : قوله ( إِذاً لاّبْتَغَوْاْ إلى ذِي العرش سَبِيلاً ) جواب عن مقالة المشركين وجزاء للو . أى : إذا لطلبوا إلى من له الملك والربوبية سبيلا بالمغالبة ، كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض . . .وأما الاتجاه الثانى فيرى أصحابه أن المعنى : قل أيها الرسول ، - لهؤلاء المشركين ، لو كان مع الله - تعالى - آلهة أخرى - كما يزعمون إذا لابتغوا - أى الآلهة المزعومة - إلى ذى العرش سبيلا وطريقا ليقتربوا إليه ، ويعترفوا بفضله ، ويخلصوا له العبادة ، كما قال - تعالى - : ( أولئك الذين يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إلى رَبّهِمُ الوسيلة أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنّ عَذَابَ رَبّكَ كَانَ مَحْذُوراً ) وقد اقتصر ابن كثير على هذا الوجه فى تفسيره للآية فقال يقول - تعالى - : قل يا محمد لهؤلاء المشركين الزاعمين أن لله شريكا من : خلقه ، لو كان الأمر كما تقولون ، من أن معه آلهة تعبد . . لكان أولئك المعبودون يعبدونه ويتقربون إليه يبتغون إليه الوسيلة والقربة .ومع وجاهة الرأيين ، إلا أن الرأى الأول أظهر ، لأن فى الآية فرض المحال ، وهو وجود الآلهة مع الله - تعالى - ، وافتراض وجودها المحال لا يظهر منه أنها تتقرب إليه - سبحانه - ، بل الذى يظهر منه أنها تنازعه لو كانت موجودة ، ولأن هذا الرأي يناسبه - أيضا - قوله - تعالى - بعد ذلك : ( سُبْحَانَهُ وتعالى عَمّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً ) .أى : تنزه الله - تعالى - عما يقوله المشركون فى شأنه وتباعد ، وعلا علوا كبيرا ، فإنه - جل شأنه -لا ولد له ، فلا شريك له . . .قال - تعالى - : ( قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ الله الصمد لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لّهُ كُفُواً أَحَدٌ ) والتعبير بقوله - سبحانه - : ( إِذاً لاّبْتَغَوْاْ إلى ذِي العرش سَبِيلاً ) يشير إلى الارتفاع والتسامى على تلك الآلهة المزعومة ، وأنها . . دون عرشه - تعالى - وتحته ، وليست معه

قل لو كان معه الهة كما يقولون اذا لابتغوا الى ذي العرش سبيلا

- كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن جميع الكائنات تسبح بحمده فقال تعالى - : ( تُسَبّحُ لَهُ السماوات السبع والأرض وَمَن فِيهِنّ وَإِن مّن شَيْءٍ إِلاّ يُسَبّحُ بِحَمْدِهِ ولكن لاّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ) .والتسبيح : مأخوذ من السبح ، وهو المر السريع فى الماء أو فى الهواء ، فالمسبح مسرع فى تنزيه الله وتبرئته من السوء ، ومن كل ما لا يليق به - سبحانه - .أى تنزه الله - تعالى - وتمجده السموات السبع ، والأرض ومن فيهن من الإنس والجن والملائكة وغير ذلك ، وما من شئ من مخلوقاته ، التى لا تحصى إلا ويسبح بحمد خالقه - تعالى - ، ولكن أنتم يا بنى آدم ( ولكن لاّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ) لأن تسبيحهم بخلاف لغتكم ، وفوق - مستوى فهمكم ، وإنما الذى يعلم تسبيحهم هو خالقهم عز وجل ، وصدق - سبحانه إذ يقول : ( أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللطيف الخبير ) والمتدبر - فى هذه الآية الكريمة ، يراها تبعث فى النفوس الخشية والرهبة من الخالق ، عز وجل - ، لأنها تصرح تصريحا بليغا بأن كل جماد ، وكل حيوان ، وكل طير وكل حشرة . . بل كل كائن فى هذا الوجود يسبح بحمده - تعالى - .وهذا التصريح . . يحمل كل إنسان عاقل على طاعة الله ، وإخلاص العبادة له ، ومداومة ذكره - حتى لا يكون - وهو الذى كرمه ربه وفضله - أقل من غيره طاعة لله - تعالى وقوله : ( إِنّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ) تذييل قصد به بيان فضل.

الله - تعالى - ورحمته بعباده مع تقصيرهم فى تسبيحه وذكره .أى : ( إِنَّهُ
كَانَ حَلِيماً )لا يعاجل المقصر بالعقوبة ، بل يمهله لعله يرعوى وينزجر
عن تقصيره ومعصيته ، ( غفورا ) لمن تاب وآمن وعمل صالحا واهتدى إلى صراطه
المستقيم .هذا ، ومن العلماء من يرى أن تسبيح هذه الكائنات بلسان الحال
قال بعض العلماء تسبيح هذه الكائنات لله - تعالى - هو دلالتها - بإمكانها.
، وحدوثها ، وتغير شئونها ، وبديع صنعها - على وجود مبدعها ، ووحدته وقدرته
. وتنزهه عن لوازم الإمكان والحدوث ، كما يدل الأثر على المؤثر

سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا

. كما فسرها الوسيط والخطاب فى قوله - تعالى - : ( وَإِذَا قَرَأْتَ القرآن
للرسول صلى الله عليه وسلم وقوله ( حجابا ) من الحجب بمعنى المنع ( . .
: قال صاحب المصباح : حجبه حجبا - من باب قتل - : منعه . ومنه قيل للستر.
. حجاب؛ لأنه يمنع المشاهدة . وقيل للبواب : حاجب ، لأنه يمنع من الدخول
: والأصل فى الحجاب : جسم حائل بين جسدين ، وقد استعمل فى المعانى فقيل
العجز حاجب ، أى : بين الإنسان ومراده . . .وقوله ( مستورا ) ساترا ، فهو
من إطلاق اسم المفعول وإرادة اسم الفاعل . كميمون بمعنى يامن . ومشئوم
بمعنى شائم .واختار بعضهم أن مستورا على معناه الظاهر ، من كونه اسم مفعول
لأن ذلك الحجاب مستور عن أعين الناس فلا يرونه ، أو مستورا به القارئ فلا ،
يراه غيره ، ويجوز أن يكون مستورا ، أى : ذا ستر فهو للنسب كمكان مهول : ذو
هول . .وللمفسرين فى تفسير هذه الآية أقوال ، أشهرها قولان :أولهما يرى
أصحابه ، أن المراد بالحجاب المستور : ما حجب الله به قلوب هؤلاء الكافرين
. عن الانتفاع بهدى القرآن الكريم ، بسبب جحودهم وجهلهم وإصرارهم على كفرهم
، فهو حجاب معنوى خفى ، حال بينهم وبين الانتفاع بالقرآن .فهم يستمعون إليه
ولكنهم يجاهدون قلوبهم ألا ترق له ، ويمانعون فطرتهم عن التأثر به ، فكان
استماعهم له كعدمه ، وعاقبهم الله على ذلك بأن طمس بصائرهم عن فقهه
والمعنى : وإذا قرأت - أيها الرسول الكريم - القرآن الهادى إلى الطريق.
التى هى أقوم ، جعلنا - بقدرتنا ، ومشيئتنا - ، بينك وبين الذين لا يؤمنون
بالآخرة ، حجابا يحجبهم ويمنعهم عن إدراك أسراره وهداياته ، وساترا بينك
وبينهم ، بحيث لا يصل القرآن إلى قلوبهم وصول انتفاع وهداية .ويشهد لهذا
المعنى قوله - تعالى - : ( وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا
تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ
حِجَابٌ فاعمل إِنَّنَا عَامِلُونَ ) ومن المفسرين الذين اكتفوا بهذا القول
فلم يذكروا غيره ، الإمام البيضاوى ، فقد قال - رحمه الله : قوله : وإذا ،
قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا يحجبهم عن فهم
ما تقرؤه عليهم ( مستورا ) ذا ستر : كقوله - تعالى - : ( إِنَّهُ كَانَ
وَعْدُهُ مَأْتِيّاً ) أى مستورا عن الحس . . .أما القول الثانى فيرى
أصحابه : أن المراد بالحجاب المستور ، أن الله - تعالى - يحجب نبيه صلى
الله عليه وسلم عن أعين المشركين ، بحيث لا يرونه فى أوقات معينة ، لحكم
منها : النجاة من شرورهم .فيكون المعنى : وإذا قرأت القرآن - أيها الرسول
الكريم - جعلنا بينك وبين هؤلاء الكافرين ، حجابا ساترا لك عنهم بحيث لا
يرونك ، عندما تكون المصلحة فى ذلك .وقد استشهد أصحاب هذا القول بما أخرجه
الحافظ أبو يعلى عن أسماء بنت أبى بكر قالت :" لما نزلت سورة ( تَبَّتْ
يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ) جاءت العوراء أم جميل ولها ولولة ، وفى يدها
فِهْر - أى حجر - وهى تقول : مُذَّمما أتينا ، وأمَره عصينا ، ودينه
قَلَيْنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس ، وأبو بكر إلى جنبه .فقال أبو
بكر : يا رسول الله ، لقد أقبلت هذه وأخاف أن تراك ، فقال صلى الله عليه
) : - وسلم : " إنها لن ترانى " وقرأ قرآنا اعتصم به منها ، ومما قرأه
وَإِذَا قَرَأْتَ القرآن جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الذين لاَ
، يُؤْمِنُونَ بالآخرة حِجَاباً مَّسْتُوراً ) .فجاءت حتى قامت على أبى بكر
فلم تر النبى صلى الله عليه وسلم ، فقالت : يا أبا بكر ، بلغنى أن صاحبك
هجانى : فقال أبو بكر :لا ورب هذا البيت ما هجاك .فانصرفت وهى تقول : لقد
، علمت قريش أنى بنت سيدها " .ومن المفسرين الذين استظهروا هذا القول
الإمام القرطبى ، فقد قال بعد أن ذكر ما روى عن أسماء بنت أبى بكر - رضى
الله عنها - : وقال سعيد بن جبير : " لما نزلت سورة ( تَبَّتْ يَدَآ أَبِي
لَهَبٍ وَتَبَّ ) جاءت امرأة أبى لهب إلى النبى صلى الله عليه وسلم ومعه
أبو بكر ، فقال أبو بكر لو تنحيت عنها لئلا تسمعك ما يؤذيك فإنها امرأة
. بَذِيّة .فقال صلى الله عليه وسلم : " إنه سيحال بيني وبينها " فلم تره
فقالت لأبى بكر : يا أبا بكر هجانا صاحبك .فقال أبو بكر : والله ما ينطق
بالشعر ولا يقوله . فاندفعت راجعة . فقال أبو بكر : يا رسول الله ، أما
رأتك؟ .قال :لا . ما زال ملك بينى وبينها يسترنى حتى ذهبت " .ثم قال
: القرطبى : وقيل : الحجاب المستور ، طَبْعُ الله على قلوبهم حتى لا يفقهوه
ولا يدركوا ما فيه من الحكمة . قاله قتادة . وقال الحسن : أى أنهم
لإعراضهم عن قراءتك ، وتغافلهم عنك كمن بينك وبينه حجاب فى عدم رؤيتهم لك

حتى كأن على قلوبهم أغطية . . .ثم قال : والقول الأول أظهر فى الآية ، ويبدو لنا أن كلا القولين صحيح فى ذاته ، وأن كل واحد منهما يحكى حالات. معينة ، ويشهد لذلك ما نقله الجمل فى حاشيته على الجلالين عن شيخه فقد قال - رحمه الله - . قوله : ( حجابا مستورا ) ، أى : ساترا لك عنهم فلا يرونك وهذا بالنسبة لبعضهم ، كان يحجب بصره عن رؤية النبى صلى الله عليه وسلم إذا أراده بمكروه وهو يقرأ القرآن : وبعضهم كان يحجب قلبه عن إدراك معانى القرآن . . وبعضهم كان ينفر عند قراءة القرآن . . .

تسبح له السماوات السبع والارض ومن فيهن وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم انه كان حليما غفورا

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( وَجَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وفي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي القرآن وَحْدَهُ وَلَّوْاْ على أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً ) يؤكد أن المشركين كانوا طوائف متعددة بالنسبة لموقفهم من القرآن الكريم ، ومن النبى صلى الله عليه وسلم .أى : وجعلنا على قلوب هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة ( أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ ) أى : أغطية تسترها وتمنعها من فقه القرآن الكريم ، وفهمه فهما سليما .وجعلنا - أيضا - : ( وفي آذَانِهِمْ - : وَقْراً ) أى : صمما وثقلا عظيما يمنعهم من سماعه سماعا ينفعهم .وقوله سبحانه - : ( وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي القرآن وَحْدَهُ وَلَّوْاْ على أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً ) بيان لرذيلة أخرى من رذائلهم المتعددة .أى : وإذا ذكرت أيها الرسول الكريم - ربك فى القرآن وحده ، دون أن تذكر معه آلهتهم المزعومة انفضوا من حولك ورجعوا على أعقابهم نافرين شاردين ( كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ) وبذلك ترى أن هاتين الآيتين قد صورتا قبائح المشركين المتنوعة أبلغ تصوير ، لتزيد فى فضيحتهم وجهلهم ، ولتجعل المؤمنين يزدادون إيمانا على إيمانهم .

واذا قرات القران جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالاخرة حجابا مستورا

- كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - ما يدل على كمال علمه . وأنه - تعالى سيجازى هؤلاء الكافرين بما يستحقون من عقاب ، فقال - عز وجل - : ( نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نجوى إِذْ يَقُولُ الظالمون إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً ) .والباء فى قوله - سبحانه - : ( بما يستمعون ) متعلقة بأعلم ) : ومفعول ( يستمعون ) محذوف ، تقديره ، القرآن .قال الآلوسى : قوله ، ( نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ ) أى : ملتبسين به من اللغو والاستخفاف ، والاستهزاء بك وبالقرآن . يروى أنه صلى الله عليه وسلم كان يقوم عن يمينه رجلان من بنى عبد الدار ، وعن يساره رجلان منهم ، فيصفقون ويصفرون ويخلطون عليه بالأشعار - إذا قرأ القرآن - .ويجوز أن تكون الباء للسببية أو بمعنى اللام . أى : نحن أعلم بما يستمعون بسببه أو لأجله من الهزء ، وهم متعلقة بيستمعون . . وأفعل التفضيل فى العلم والجهل يتعدى بالباء ، وفى سوى ذلك يتعدى باللام ، فيقال : هو أكسى للفقراء ، والمراد من كونه - سبحانه - أعلم بذلك : الوعيد لهم . . .وإذ فى قوله ( إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نجوى ) ظرف لأعلم .ولفظ ( نجوى ) مصدر بمعنى التناجى والمسارة فى الحديث . وقد جعلوا عين النجوى على سبيل المبالغة ، كما فى قولهم : قوم عدل .ويجوز أن يكون جمع نَجِيّ ، كقتلى جمع - قتيل أى : وإذ هم متناجون فى أمرك .والمعنى : نحن - أيها الرسول الكريم على علم تام بأحوال المشركين عند استماعهم للقرآن الكريم . حين تتلوه عليهم وبالطريقة التى يستمعون بها وبالغرض الذى من أجله يستمعون إليك . وعلى ، علم تام بأحوالهم حين يستمعون إليك فرادى : وحين يستمعون إليك ثم يتناجون فيما بينهم بالإثم والعدوان ، والتواصى بمعصيتك .فالجملة الكريمة وعيد شديد للمشركين على استماعهم المصحوب بالاستهزاء والسخرية من الرسول صلى الله عليه وسلم ومن القرآن . وتسلية له صلى الله عليه وسلم عما أصابه منهم - وبيان لشمول علم الله - تعالى - لكل أحوالهم الظاهرة والخفية .وقوله ، تعالى - : ( إِذْ يَقُولُ الظالمون إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً ) بدل من قوله - تعالى - : ( وَإِذْ هُمْ نجوى ) .والمسحور . هو الذى سحر فاختلط عقله ، وزالت عنه الهيئة السوية .أى : ونحن أعلم بهؤلاء الأشقياء - أيضا - عندما يقول بعضهم لبعض :لا تتبعوا محمدا صلى الله عليه وسلم فيما يدعوا إليه ، فإنكم إن اتبعتموه تكونون قد اتبعتم رجلا مسحورا ، أصابه السحر فأخرجه عن وعيه وعقله .وقال - سبحانه - : ( إِذْ يَقُولُ الظالمون ) بالإظهار دون الإضمار ، لتسجيل الظلم عليهم فيما تفوهوا به ، وأنهم سيستحقون عقوبة الظالم .

وجعلنا على قلوبهم اكنة ان يفقهوه وفي اذانهم وقرا واذا ذكرت ربك في القران

وحده ولوا على ادبارهم نفورا

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( انظر كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الأمثال فَضَلُّواْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ) تسلية عظيمة للرسول صلى الله - عليه وسلم ، وتثبيت له وللمؤمنين على الطريق الحق الذى هداهم الله تعالى - إليه .أى : انظر وتأمل - أيها الرسول الكريم - كيف أن هؤلاء المشركين . قد بلغ بهم الجحود والفجور ، أنهم مثلوا لك الأمثال ، فوصفوك تارة بأنك مسحور ، وتارة بأنك شاعر .وهم فى وصفهم هذا ، قد ضلوا عن الحق ضلالا بعيدا ، وصاروا كالحيران الذى التبست عليه الطرق ، فأمسى لا يعرف السبيل الذى يسلكه .هذا ، وقد ذكر الإمام ابن كثير رحمة الله - عند تفسيره لهذه الآيات ، ما يدل على أن المشركين كانوا يستمعون إلى الرسول صلى الله عليه وسلم عند قراءته للقرآن .فقال : قال محمد بن إسحاق فى السيرة : حدثنى محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى ، أنه حُدِّث أن أبا سفيان بن حرب ، وأبا جهل بن هشام ، والأخنس بن شريق . . خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى بالليل فى بيته ، فأخذ كل واحد منهم مجلسا يستمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا . حتى إذا جمعتهم الطريق ، تلاوموا ، وقال بعضهم لبعض :لا تعودوا ، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئا ، ثم انصرفوا .حتى إذا كانت الليلة التالية ، عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا . حتى إذا جمعتهم الطريق ، قال بعضهم لبعض مثل ما قال أول مرة . ثم انصرفوا .حتى إذا كانت الليلة الثالثة ، أخذ كل رجل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا .فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب فى بيته ، فقال : أخبرنى يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فقال أبو سفيان : يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها .

نحن اعلم بما يستمعون به اذ يستمعون اليك واذ هم نجوى اذ يقول الظالمون ان تتبعون الا رجلا مسحورا

كما فسرها الوسيط قال الإمام الرازى : اعلم أنه تعالى لما تكلم أولا فى الإلهيات ، ثم أتبعه بذكر شبهاتهم فى النبوات ، ذكر فى هذه الآيات شبهات القوم فى إنكار المعاد والبعث والقيامة . . .والرفات : ما تكسر وبَلِىَ من كل شئ كالفتات . يقال : رفت فلان الشئ يرفته - بكسر الفاء وضمها - ، إذا كسره وجعله يشبه التراب .والاستفهام فى قوله - تعالى - : ( أئذا كنا . . . ) للاستبعاد والإنكار .أى : وقال الكافرون ( أئنا لمبعوثون . . ) وفى قوله - تعالى - ، ولنبوة النبى صلى الله عليه وسلم ، المنكرون لوحدانية الله - تعالى - ، وللبعث والحساب ، قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم على سبيل الإنكار والاستبعاد ، أئذا كنا يا محمد ، عظاما بالية ، ورفاتا يشبه التراب فى تفتته ودقته ، أئنا لمعادون إلى الحياة مرة أخرى ، بحيث تعود إلينا أرواحنا وتدب الحياة فينا ثانية ، ونبعث على هيئة خلق جديد ، غير الذى كنا عليه ، فى الدنيا؟ .وقولهم هذا ، يدل على جهلهم المطبق ، بقدرة الله - تعالى - التى لا يعجزها شئ ، وكرر - سبحانه - الاستفهام فى الآية الكريمة ، للإشعار بإغالهم فى الجحود والإنكار .والعامل فى ( إذا ) محذوف ، والتقدير : أنبعث أو أنحشر إذا كنا عظاما ورفاتا ، وقد دل على هذا المحذوف قوله - تعالى - : ( أئنا لمبعوثون ) .

انظر كيف ضربوا لك الامثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً أَوْ خَلْقاً مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ) أمر من الله - تعالى - لرسوله صلى الله عليه وسلم بالرد عليهم فيما استبعدوه وأنكروه من إعادتهم إلى الحياة بعد موتهم .أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - على سبيل الرد على استبعادهم ، والتحقير من شأنهم ، والتعجيز لهم : ( كونوا ) - إن استطعتم - ( حجارة ) كالتى تعبدونها من دون الله ، ( أو حديدا ) كالذى تستعملونه فى شئون حياتكم .

وقالوا ااذا كنا عظاما ورفاتا اانا لمبعوثون خلقا جديدا

) كما فسرها الوسيط ( أو ) كونوا ( خلقا ) أى : مخلوقا سوى الحجارة والحديد مما يكبر ) أى : يعظم ويستبعد - ( فى صدوركم ) المظلمة - قبوله للحياة ، قل لهم : كونوا أى شئ من ذلك أو غيره إن استطعتم ، فإن الله - تعالى - لا يعجزه أن يعيدكم إلى الحياة مرة أخرى ، لكى يحاسبكم على أعمالكم ، ويجازيكم

عليها بما تستحقون من عقاب .فالمقصود من الجملة الكريمة ، بيان أن قدرة
الله - تعالى -لا يعجزها شئ . .قال الجمل : أجابهم الله - تعالى - بما
، معناه : تحولوا بعد الموت إلى أى صفة تزعمون أنها أشد منافاة للحياة
، وأبعد عن قبولها ، كصفة الحجرية والحديدية ونحوهما . فليس المراد الأمر
بل المراد أنكم لو كنتم كذلك لما أعجزتم الله - تعالى - عن الإعادة
- وقوله - تعالى - : ( فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ) أى : فسيقولون لك.
أيها الرسول الكريم - من يعيدنا إلى الحياة مرة أخرى بعد أن نكون حجارة أو
حديدا أو غيرهما؟ .وقوله - سبحانه - : ( قُلِ الذي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ
- مَرَّةٍ ) رد على جهالاتهم وإنكارهم للبعث والحساب .أى : قل لهم : الله
تعالى - الذى فطركم وخلقكم ، أول مرة ، على غير مثال سابق ، قادر على أن
يعيدكم الى الحياة مرة أخرى . كما قال - تعالى - : ( وَهُوَ الذي يَبْدَأُ
الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ المثل الأعلى فِي
السماوات والأرض وَهُوَ العزيز الحكيم ) ثم بين - سبحانه - ما يكون منهم من
استهزاء وسوء أدب عندما يسمعون من الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الإجابات
السديدة ، فقال : ( فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ متى
هُوَ . . . ) .أى : فسيحركون إليك رءوسهم عندما يسمعون ردك عليهم ، ويقولون
على سبيل الاستهزاء والسخرية والتكذيب : متى هو؟ أى ما ذكرته من الإعادة
بعد الموت ، أو متى هو ذلك اليوم الذى سنعود فيه إلى الحياة بعد أن نصير
عظاما ورفاتا .فالجملة الكريمة تصور تصويرا بليغا ما جبلوا عليه من تكذيب
بيوم القيامة ومن استهزاء بمن يذكرهم بأحوال ذلك اليوم العصيب . ومن
) : استبعاد لحصوله كما قال - تعالى - : حكاية عنهم فى آية أخرى
) : - وَيَقُولُونَ متى هذا الوعد إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ) وقوله - تعالى
: قُلْ عسى أَن يَكُونَ قَرِيباً ) تذييل قصد به التهديد والوعيد لهم .أى
قل لهم - أيها الرسول الكريم - على سبيل التأنيب والوعيد : عسى هذا اليوم
الذى تستبعدون حصوله ، يكون قريبا جدا وقوعه .ولا شك فى أنه قريب ، لأن عسى
فى كلام الله - تعالى - لما هو محقق الوقوع ، وكل ما هو محقق الوقوع فهو
قريب ، ولأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : " بعثت أنا والساعة كهاتين
. وأشار بالسبابة والوسطى - "

قل كونوا حجارة او حديدا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أحوالهم عندما يُدْعَوْن فى هذا اليوم
. الهائل الشديد فقال : ( يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ
والظرف ( يوم ) منصوب بفعل مضمر أى : اذكروا يوم يدعوكم . . ويجوز. ( . .
- " أن يكون منصوبا على البدلية من ( قريبا ) .والداعى لهم هو " إسرافيل
- عليه السلام - عندما يأذن الله - تعالى - له بالنفخ فى الصور ، كما قال
تعالى - : ( وَنُفِخَ فِي الصور فَصَعِقَ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض
إِلاَّ مَن شَآءَ الله ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أخرى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ
يَنظُرُونَ ) وكما قال - سبحانه - : ( فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ
الداع إِلَى شَيْءٍ نُّكُرٍ خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأجداث
كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ مُّهْطِعِينَ إِلَى الداع يَقُولُ الكافرون
، هذا يَوْمٌ عَسِرٌ ) وقوله ( بحمده ) حال من ضمير المخاطبين وهم الكفار
والباء للملابسة .أى : اذكروا - أيها المكذبون - يوم يدعوكم الداعى إلى
- البعث والنشور فتلبون نداءه بسرعة وانقياد ، حال كونكم حامدين الله
تعالى - على كمال قدرته ، وناسين ما كنتم تزعمون فى الدنيا من أنه لا بعث
. ولا حساب

او خلقا مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم اول مرة
فسينغضون اليك رءوسهم ويقولون متى هو قل عسى ان يكون قريبا

كما فسرها الوسيط قال القرطبى : قوله - تعالى - : ( وَقُل لِّعِبَادِي
يَقُولُواْ التي هِيَ أَحْسَنُ . . . ) الآية نزلت فى عمر بن الخطاب . وذلك
أن رجلا من العرب شتمه ، وسبه عمر وهَمّ بقتله ، فكادت تثير فتنة ، فأنزل
" : الله فيه : ( وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ التي هِيَ أَحْسَنُ ) .وقيل
نزلت لما قال المسلمون : ائذن لنا يا رسول الله فى قتال المشركين ، فقد طال
إيذاؤهم لنا فقال : " لم أومر بعد بالقتال " " .والمعنى : قل - أيها الرسول
الكريم - لعبادى المؤمنين ، أن يقولوا عند محاورتهم لغيرهم ، الكلمة التى
هى أحسن ، والعبارة التى هى أرق وألطف .وذلك لأن الكلمة الطيبة ، تزيد فى
المودة التى بين المؤمنين ، وتكسر حدة العداوة التى بينهم وبين أعدائهم
قال - تعالى - : ( وَلاَ تَسْتَوِي الحسنة وَلاَ السيئة ادفع بالتي هِيَ
أَحْسَنُ فَإِذَا الذي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ
حَمِيمٌ ) قال الآلوسى : ومقول فعل الأمر محذوف ، أى : قل لهم قولوا التى
هى أحسن يقولوا ذلك . فجزم يقولوا لأنه جواب الأمر . وإلى هذا ذهب الأخفش
، وقال الزجاج : إن قوله ( يقولوا ) هو المقول ، وجزمه بلام الأمر محذوفة.

أى : قل لهم ليقولوا . . . .وقوله - سبحانه - : ( إِنَّ الشيطان يَنزَغُ
بَيْنَهُمْ ) تعليل للأمر السابق .أى : إن الشيطان يتربص بكم ، ويتلمس
السقطات التى تقع من أفواهكم ، والعثرات التى تنطق بها ألسنتكم ، لكى يشيع
الشر بينكم ، ويبذر بذور الشر والبغضاء فى صفوفكم ، ويهيج أعداءكم عليكم
، وينزغ بمعنى يفسد . يقال : نزغه - كنفعه - ينزغه ، إذا طعن فيه واغتابه.
وقوله : ( إِنَّ الشيطان كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوّاً مُّبِيناً ) تعليل
لحرص الشيطان على الإفساد بينهم .أى إن الشيطان حريص على الإفساد بين
الناس ، لأنه ظاهر العداوة لهم منذ القدم ولقد حذرنا الله - سبحانه - من
) : - الشيطان وكيده فى كثير من آيات القرآن الكريم ، ومن ذلك قوله - تعالى
إِنَّ الشيطان لَكُمْ عَدُوٌّ فاتخذوه عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُواْ
حِزْبَهُ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَابِ السعير ) وقوله - تعالى - : ( يابني
ءَادَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشيطان كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِّنَ
الجنة يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا
إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا
جَعَلْنَا الشياطين أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ ) قال الإمام
ابن كثير ما ملخصه : يأمر الله - تبارك وتعالى - عبده ورسوله صلى الله عليه
وسلم أن يأمر عباد الله المؤمنين ، أن يقولوا فى مخاطباتهم ومحاوراتهم
الكلام الأحسن ، والكلمة الطيبة ، فإنهم إن لم يفعلوا ذلك نزغ الشيطان
بينهم ، وأخرج الكلام إلى الفعال ، ووقع الشر والمخاصمة والمقاتلة ، فإنه
عدو لآدم وذريته . . وعداوته ظاهرة بينة ، ولهذا نهى أن يشير الرجل إلى
أخيه المسلم بحديدة ، فإن الشيطان ينزغ فى يده .أى : فربما أصابه بها .روى
الإمام أحمد عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا
يشيرن أحدكم إلى أخيه بالسلاح ، فإنه لا يدرى أحدكم ، لعل الشيطان أن ينزغ
فى يده ، فيقع فى حفرة من النار " .

يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون ان لبثتم الا قليلا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن مصير جميع الخلائق إليه ، وأنه محيط
بأحوالهم فقال . ( رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ
أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ) . . .أى : ربكم - أيها الناس - أعلم بكم
من أنفسكم ، وهو - سبحانه - إن يشأ بفضله يرحمكم ، بأن يوفقكم لطاعته
- وتقواه ، وإن يشأ بعدله يعذبكم ، بسبب معاصيكم وفسوقكم عن أمره ، لا يسأل
عز وجل - عما يفعل ، ( أَلاَ لَهُ الخلق والأمر تَبَارَكَ الله رَبُّ
العالمين ) وقوله - تعالى - : ( وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً )
بيان لوظيفة الرسول صلى الله عليه وسلم .أى : وما أرسلناك - أيها الرسول
الكريم - إلى الناس ، لتكون حفيظا ورقيبا . وموكولا إليك أمرهم فى إجبارهم
وإكراههم على الدخول فى الإسلام ، وإنما أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا .
وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا .

وقل لعبادي يقولوا التي هي احسن ان الشيطان ينزغ بينهم ان الشيطان كان
للانسان عدوا مبينا

، كما فسرها الوسيط ثم انتقل - سبحانه - من بيان كمال علمه بأحوال الناس
) : - إلى بيان كمال علمه بجميع من فى السموات والأرض ، فقال - تعالى
وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السماوات والأرض ) .أى : وربك - أيها الرسول
، الكريم - أعلم بأحوال من فى السموات والأرض من إنس وجن وملك ، وغير ذلك
ولا يخفى عليه شئ من ظواهرهم أو بواطنهم ، ولا يعزب عن علمه - تعالى - شئ
من طاعتهم أو معصيتهم ، ولا يعلم أحد سواه من هو أهل منهم للتشرف بحمل
رسالته ، وتبليغ وحيه كما قال : - تعالى - : ( الله الله أَعْلَمُ حَيْثُ
يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ) وقوله - سبحانه - : ( وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ
النبيين على بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً ) بيان لمظهر من مظاهر
علمه المطلق ، وفضله العميم : وعطائه الواسع .والزبور : هو الكتاب الذى
أنزله الله - تعالى - على داود - عليه السلام .أى : ولقد فضلنا - على علم
وحكمة منا - بعض النبيين على بعض ، بأن جعلنا منهم من كلم الله ، ومنهم من
اتخذناه خليلا لنا ، ومنهم من آتيناه البينات وأيدناه بروح القدس ، ومنهم
من آتيناه الزبور وهو داود - عليه السلام - .قال الإمام ابن كثير :
وقوله - تعالى - : ( وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النبيين على بَعْضٍ )
. . . وقوله - تعالى - : ( تِلْكَ الرسل فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ على بَعْضٍ
لا ينافى ما ثبت من الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا
تفضلوا بين الأنبياء " فإن المراد من ذلك هو التفضيل بمجرد التشهى والعصبية
لا بمقتضى الدليل ، فإذا دل الدليل على شئ وجب اتباعه ، ولا خلاف أن ،
الرسل أفضل عن بقية الأنبياء ، وأن أولى العزم منهم أفضلهم ، وهم الخمسة
المذكورون نصا فى قوله - تعالى - : ( قُلِ ادعوا الذين زَعَمْتُم مِّن
دُونِهِ . . . ) .

ربكم اعلم بكم ان يشا يرحمكم او ان يشا يعذبكم وما ارسلناك عليهم وكيلا

كما فسرها الوسيط أورد المفسرون فى سبب نزول هاتين الآيتين روايات منها
قال ابن كثير : قال العوفى عن ابن عباس فى قوله : ( قُلِ ادعوا الذين:
زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ . . . ) .قال : كان أهل الشرك يقولون نعبد الملائكة
والمسيح وعزيرا .وروى البخارى وغيره عن ابن مسعود فى قوله : ( أولئك الذين
يَدْعُونَ ) قال : كان ناس من الإنس يعبدون ناسا من الجن ، فأسلم الجن
وتمسك هؤلاء - أى الإنس - بدينهم . . فنزلت هذه الآية .وقال القرطبى : لما
ابتليت قريش بالقَحْط ، وشكَوْا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنزل
الله هذه الآية : ( قُلِ ادعوا الذين زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ . . . )
والمراد بالزعم هنا : الظن الكاذب الذى لا أساس له من الحقيقة والواقع.
قال الآلوسى ما ملخصه : والزعم قريب من الظن ، ويقال إنه القول المشكوك.
فيه ، ويستعمل بمعنى الكذب ، حتى قال ابن عباس : كل ما ورد فى القرآن زعم
فهو كذب .وقد يطلق على القول المحقق ، والصدق الذى لا شك فيه . . . فقد ورد
عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : " زعم جبريل كذا . . . " .وهو مما
يتعدى إلى مفعولين ، وقد حذفا هنا ، أى : زعمتموهم آلهة . . والظاهر أن
: المراد من الموصول - الذين - كل من عبد من دون الله من العقلاء .والمعنى
- قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الكافرين الذين أشركوا مع الله - تعالى
آلهة أخرى فى العبادة . قل لهم على سبيل الإرشاد والتحدى : هذه الآلهة
التى تعبدونها ، اطلبوا منها أن تدفع عنكم ما نزل بكم من ضر كمرض أو فقر أو
قحط؛ أو أن تحوله منكم إلى غيركم . . .فإذا لم تستطع ذلك - وهى بكل تأكيد
لا تستطيع ولن تستطيع - فاتركوا عبادتها ، وأخلصوا العبادة والطاعة لمن هو
، على كل شئ قدير ، وهو الله - عز وجل - .واكتفى - سبحانه - بذكر كشف الضر
لأنه هو الذى تتطلع إليه النفوس عند نزول المصائب ، أكثر من تطلعها إلى جلب
. النفع ، إذ عند نزول الضر ، لا تشتغل الألسنة والقلوب إلا برجاء كشفه

وربك اعلم بمن في السماوات والارض ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض واتينا
داوود زبورا

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا

- كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن كل معبود - سوى الله - عز وجل
، يفتقر إلى عونه - سبحانه - ، وإلى رجاء الثواب منه ، وإلى دفع العذاب عنه
فقال - تعالى - ( أُولَئِكَ الذين يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إلى رَبِّهِمُ الوسيلة
( . . أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ
، واسم الإشارة ( أولئك ) يعود على المعبودين من دون الله ، وهو مبتدأ
وخبره . قوله : ( يبتغون ) وما عطف عليه من قوله : ( وَيَرْجُونَ
رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ) .والضمير فى ( يدعون ) يعود إلى
المشركين ، وفى يبتغون يعود إلى المعبودين و ( أيهم ) بدل من واو الفاعل فى
يبتغون ، و ( أقرب ) خبر لمبتدأ محذوف ، تقديره : هو ، أى : يبتغيها الذى
. هو أقرب ، والجملة صلة أى

اولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة ايهم اقرب ويرجون رحمته ويخافون
عذابه ان عذاب ربك كان محذورا

كما فسرها الوسيط والمقصود بالقرية فى قوله - تعالى - : ( وَإِن مِّن
قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ القيامة أَوْ
مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً ) : قرى الكفار والظالمين ، كما ذهب إلى
ذلك بعض المفسرين ، فيكون المعنى :وما من قرية من قرى الظالمين ، إلا نحن
، مهلكوها قبل يوم القيامة بالموت أو الخراب ، أو معذبوها عذابًا شديدًا
يستأصل شأفتها ، ويقطع دابرها ، كما فعلنا مع قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم
ومن المفسرين الذين ساروا على ذلك ، الإمام ابن كثير ، فقد قال عند.
، تفسيره لهذه الآية : هذا إخبار من الله - عز وجل - ، بأنه قد حتم وقضى
بما كتب عنده فى اللوح المحفوظ ، أنه ما من قرية إلا سيهلكها؛ بأن يبيد
، أهلها جميعهم ، أو يعذبهم عذابًا شديدًا ، إما بقتل أو ابتلاء بما يشاء
وإنما يكون ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم ، كما قال - تعالى - عن الأمم الماضية
وكذلك أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ القرى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ ) :
أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ) ويرى آخرون ، أن المقصود بالقرية هنا : القرى
كلها سواء أكانت للمؤمنين أم للكافرين .ومن المفسرين الذين ذهبوا إلى ذلك
الآلوسى - رحمه الله - فقد قال : قوله - تعالى - : " ( وَإِن مِّن قَرْيَةٍ
الظاهر العموم ، لأن ( إن ) نافية ، و ( من ) زائدة لاستغراق الجنس . أى (

وما من قرية من القرى . ( إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ : القيامة ) بإماتة أهلها حتف أنوفهم ( أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً بالقتل وأنواع البلاء . . وروى عن مقاتل أنه قال : الهلاك للصالحة ( والعذاب للطالحة . . . " .ويبدو لنا أن الرأى الأول أقرب إلى الصواب ، لأن هناك آيات كثيرة تؤيده ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ( وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي القرى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ) وقوله - سبحانه - : ( ذلك أَن لَّمْ يَكُنْ رَّبُّكَ مُهْلِكَ القرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ وقوله - عز وجل - : ( وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القرى بِظُلْمٍ ( وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ) ولأن الله - تعالى - قيد الإهلاك بكونه قبل يوم القيامة ، وكونه كذلك يقتضى أنه للقرى الظالمة . إذ الإهلاك يوم القيامة يشمل جميع القرى ، سواء أكان أهلها مؤمنين أم كافرين ، بسبب انقضاء عمر الدنيا .وقوله - سبحانه - : ( كَانَ ذلك فِي الكتاب مَسْطُوراً ) تأكيد ، لقضاء الله النافذ ، وحكمه الثابت .أى : ( كان ذلك ) الإهلاك والتعذيب فى الكتاب ، وهو اللوح المحفوظ ( مسطورًا ) أى : مكتوبًا وثابتًا .قال القرطبى : " ( مسطورًا ) أى : مكتوبًا . والسطر : الخط والكتابة ، وهو فى الأصل مصدر . والسطر - بالتحريك - مثله ، وجمعه أسطار ، مثل سبب وأسباب ، وجمع السطر - بسكون الطاء - أسطر وسطور مثل أفلس وفلوس . والكتاب هنا يراد به اللوح المحفوظ " .

وان من قرية الا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة او معذبوها عذابا شديدا كان ذلك في الكتاب مسطورا

، كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر فضله على الأمة الإسلامية ورحمته بها ، فقال - تعالى - : ( وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِالآيات إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأولون .. . ) .وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية آثارًا منها ما أخرجه الإمام أحمد عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : " سأل أهل مكة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم الصفا ذهبًا ، وأن ينحى الجبال عنهم فيزرعوا . فقيل له : إن شئت أن تستأنى بهم ، وإن شئت أن يأتيهم الذى سألوا . فإن كفروا ، هلكوا كما أهلكتُ من كان قبلهم من الأمم .فقال صلى الله عليه وسلم : "لا . . بل استأنى بهم ، " وأنزل الله قوله : ( وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بالآيات إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأولون . . . ) " .قال الآلوسى : والمنع لغة : كف الغير وقسره عن فعل يريد أن يفعله ، ولاستحالة ذلك فى حقه - تعالى - لاستلزامه العجز المحال المنافى للربوبية قالوا : إنه مستعار هنا للصرف والترك . . . ، وقوله : ( أن نرسل ) فى محل نصب لأنه مفعول ثان لمنعنا ، أو فى محل جر. على حذف الجار ، أى : من أن نرسل ، وقوله : ( إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا ) فى محل رفع لأنه فاعل منعنا ، والتقدير : وما منعنا من إرسال الآيات إلا تكذيب الأولين .والمراد بالآيات : ما اقترحه المشركون على النبى صلى الله عليه وسلم من قلب الصفا ذهبا ، ومن إزاحة الجبال عن مكة ليزرعوا مكانها . . والمعنى : وما كان سبب تركنا لإجابة المقترحات التى طلبها المشركون منك. - أيها الرسول الكريم - إلا علمنا بأنهم سيكذبون بها إذا جاءتهم ، كما كذب بأمثالها أشباههم الأولون ، وفى هذه الحالة فإنهم سيستحقون مثلهم عذاب الاستئصال كما جرت بذلك سنتنا .وقد اقتضت حكمتنا ورحمتنا - بأمتك أيها الرسول الكريم - ، ألا نعذبهم عذاب الاستئصال والمحو ، بل نؤخر عذاب الضالين منهم إلى يوم القيامة .قالوا : ومن الحكم فى هذا التأخير : الإظهار لمزيد شرف النبى صلى الله عليه وسل ، كما قال - تعالى - : ( وَمَا كَانَ الله لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ) والرعاية لشأن من سيولد من بعضهم من المؤمنين ، ولمن سيؤمن من هؤلاء المقترحين ، إلى غير ذلك من الحكم التى لا يعلمها إلا هو - سبحانه - .قال صاحب الكشاف : استعير المنع لترك إرسال الآيات من أجل صارف الحكمة . . . والمراد : الآيات التى اقترحتها قريش من قلب الصفا ذهبا ، ومن إحياء الموتى ، وغير ذلك .وعادة الله فى الأمم ، أن من اقترح منهم آية فأجيب إليها . ثم لم يؤمن ، أن يعاجل بعذاب الاستئصال . فالمعنى : وما صرفنا عن إرسال ما يقترحونه من الآيات إلا أن كذب بها الذين هم أمثالهم من المطبوع على قلوبهم ، كعاد وثمود ، وأنها لو أرسلت لكذبوا بها تكذيب أولئك ، وقالوا : هذا سحر مبين ، كما يقولون فى غيرها .واستوجبوا العذاب المستأصل . وقد عزمنا أن نؤخر أمر من بعثت إليهم إلى يوم القيامة .ثم ساق - سبحانه - مثالاً للسابقين الذين أجيبوا إلى ما اقترحوه ، ولكنهم لم يؤمنوا ، فأخذهم عذاب الاستئصال ، فقال - تعالى - : ( وَآتَيْنَا ثَمُودَ الناقة مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا ) .وثمود : هم قوم صالح - عليه السلام - ، وخصهم بالذكر ، لأنهم معروفون لأهل مكة أكثر من غيرهم ، لمرورهم على ديارهم عند أسفارهم إلى بلاد الشام .والناقة المراد بها : ناقة صالح - عليه السلام - التى طلبها قومه منه ، فأخرجها الله - تعالى - لهم لتكون معجزة له ، ولكنهم لم يؤمنوا به ، بل عقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم ، فأهلكهم الله - تعالى - بالصيحة التى جعلتهم فى دارهم جاثمين

وقوله ( مبصرة ) أى : معجزة واضحة ، يراها الناس بأعينهم بدون خفاء أو لبس.
قال الجمل : " ( مبصرة ) بكسر الصاد - باتفاق السبعة ، والإسناد مجازى. .
أى : يبصرونها خارجة من الصخرة . وقرئ شاذا بفتح الصاد . ثم قال : وفى .
السمين : مبصرة حال . وهو إسناد مجازى ، إذ المراد إبصار أهلها ، ولكنها
لما كانت سببا فى الإبصار نسب إليها ، والظاهر أن المراد الإبصار المعنوى
وهو الاهتداء بها ، والتوصل بها ، إلى تصديق نبيهم ، وعلى هذا تظهر ،
: السببية ، فإن وجودها سبب فى هذا المعنى . . . " .وقال الآلوسى : " وقوله
على صيغة اسم الفاعل حال من الناقة ، والمراد : ذات إبصار ، أو ( مبصرة )
: ذات بصيرة يبصرها الغير ويتبصر بها ، فالصيغة للنسب . . . . " .والمعنى
لقد تركنا إجابة المطالب التى اقترحها قومك - يا محمد - ، رحمة بهم ، لأننا
لو أعطيناهم إياهم ثم استمروا فى تكذيبهم لك لأهلكناهم كما أهلكنا السابقين
فقد أجبنا قوم صالح - عليه السلام - إلى ما طلبوه من نبيهم ، بأن أخرجنا .
لهم الناقة ، وجعلناها معجزة واضحة نيرة فى الدلالة على صدقه ، فقابلوها
- بالتكذيب والجحود ، وظلموا أنفسهم وعرضوها للهلاك بسبب عقرها .قال
تعالى - : ( فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ
وَقَالُواْ يَاصَالِحُ ائتنا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ المرسلين
- فَأَخَذَتْهُمُ الرجفة فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ) وقال
سبحانه - : ( كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَآ إِذِ انبعث أَشْقَاهَا
فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ الله نَاقَةَ الله وَسُقْيَاهَا فَكَذَّبُوهُ
فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا
وَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا ) وقوله - سبحانه - : ( وَمَا نُرْسِلُ بالآيات
إِلاَّ تَخْوِيفاً ) تذييل قصد به الزجر عن تكذيب ما يأتى به الأنبياء من
، هدايات ومعجزات تدل على صدقهم .والباء فى قوله ( بالآيات ) للملابسة
" : ومفعول ، نرسل ، محذوف ، و ( تخويفًا ) مفعول لأجله .قال القرطبى قوله
: فيه خمسة أقوال : الأول ( وَمَا نُرْسِلُ بالآيات إِلاَّ تَخْوِيفاً )
العبر والمعجزات التى جعلها الله على أيدى الرسل ، من دلائل الإنذار
تخويفًا للمكذبين . الثانى : أنها آيات الانتقام تخويفاً من المعاصى
، الثالث : أنها تقلب الأحوال من صغر إلى شباب ثم إلى تكهل ثم إلى مشيب.
لتعتبر بتقلب أحوالك فتخاف عاقبة أمرك . الرابع : القرآن ، الخامس : الموت
الذريع " .والمعنى : وما نرسل رسلنا ملتبسين بالآيات والمعجزات الدالة على
صدقهم ، إلا تخويفًا لأقوامهم من سوء تكذيبهم لها . فإنهم إن كذبوها يصيبهم
. من العذاب ما يصيبهم

وما منعنا ان نرسل بالايات الا ان كذب بها الاولون واتينا ثمود الناقة
مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالايات الا تخويفا

كما فسرها الوسيط ثم ذكر - سبحانه - ما يزيد النبى صلى الله عليه وسلم
- ثباتًا على ثباته ، ويقينًا على يقينه ، وما يدل على شمول علمه - تعالى
ونفاذ قدرته ، وبليغ حكمته فقال : ( وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ
أَحَاطَ بالناس . . . ) .أى : واذكر - أيها الرسول الكريم - وقت أن قلنا لك
على لسان وحينا . إن ربك - عز وجل - قد أحاط بالناس علمًا وقدرة . فهم فى
، قبضته ، وتحت تصرفه ، وقد عصمك منهم ، فامض فى طريقك . وبلغ رسالة ربك
- دون أن تخشى من كفار مكة أو من غيرهم ، عدوانًا على حياتك ، فقد عصمك
سبحانه - منهم .وفى هذه الجملة ما فيها من التسلية للنبى صلى الله عليه
وسلم ، ومن التبشير له ولأصحابه ، بأن العاقبة ستكون لهم ، ومن الحض لهم
على المضى فى طريقهم دون أن يخشوا أحدًا إلا الله .والمراد بالرؤيا فى
قوله - تعالى - : ( وَمَا جَعَلْنَا الرؤيا التي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ
فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ) : ما رآه النبى صلى الله عليه وسلم وعاينه بعينيه من
عجائب ، ليلة الإسراء والمعراج .أى : وما جعلنا ما رأيته وعاينته ليلة
، إسرائنا بك من غرائب ، إلا فتنة للناس . ليتميز قوى الإيمان من ضعيفه
وسليم القلب من مريضه .وأطلق - سبحانه - على ما أراه لنبيه ليلة الإسراء
، لفظ الرؤيا مع أنه كان يقظة " لأن هذا اللفظ يطلق حقيقة على رؤيا المنام
وعلى رؤية اليقظة ليلاً فإنه قد يقال لرؤية العين رؤيا ، كما فى قول الشاعر
يصف صائدا : وكبر للرؤيا وهش فؤاده . . أى : وسر لرؤيته للصيد الذى سيصيده
أو أطلق عليه لفظ الرؤيا على سبيل التشبيه بالرؤيا المنامية ، نظرًا لما .
رآه فى تلك الليلة من عجائب سماوية وأرضية ، أو أطلق عليه ذلك بسبب أن ما
رآه قد كان ليلاً . وقد كان فى سرعته كأنه رؤيا منامية .وكان ما رآه صلى
، الله عليه وسلم فى تلك الليلة فتنة للناس ، لأنه لما قص عليهم ما رآه
ارتد بعضهم عن الإسلام ، وتردد البعض الآخر فى قبوله ، وضاقت عقولهم عن
تصديقه ، زاعمة أنه لا يمكن أن يذهب صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام
إلى المسجد الأقصى ، ثم يعرج إلى السموات العلا . . ثم يعود إلى مكة ، كل
ذلك فى ليلة واحدة .وبعضهم يرى أن المراد بالرؤيا هنا : ما رآه النبى صلى
الله عليه وسلم من أنه سيدخل مكة هو وأصحابه ..وبعضهم يرى أن المراد بها
هنا : ما أراه الله - تعالى - لنبيه فى منامه ، من مصارع المشركين قبل غزوة

بدر؛ فقد قال صلى الله عليه وسلم قبل بدء المعركة : والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم . ثم أومأ إلى الأرض وقال : هذا مصرع فلان . وهذا مصرع فلان ، والذى نرجحه هو الرأى الأول ، لأنه هو الظاهر من معنى الآية الكريمة. ولأنه على الرأيين الثانى والثالث يترجح أن الآية مدنية ، لأن غزوة بدر وفتح مكة كانا بعد الهجرة ، والتحقيق أن هذه الآية مكية .قال القرطبى ما ملخصه : قوله - تعالى - : ( وَمَا جَعَلْنَا الرؤيا التي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ . . ) لما بين أن إنزال آيات القرآن تتضمن التخويف ، ضم إليه ذكر آية الإسراء ، وهى المذكورة فى صدر السورة . وفى البخارى والترمذى عن إبن عباس فى قوله - تعالى - : ( وَمَا جَعَلْنَا الرؤيا التي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ) قال : هى رؤيا عين أريها النبى صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به إلى بيت المقدس . . .وكانت الفتنة ارتداد قوم كانوا أسلموا حين أخبرهم النبى صلى الله عليه وسلم أنه أسرى به .وقيل : كانت رؤيا نوم . وهذه الآية تقض بفساده ، وذلك أن رؤيا المنام لا فتنة فيها ، وما كان أحد لينكرها .وعن ابن عباس قال : الرؤيا التى فى هذه الآية ، رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يدخل مكة فى سنة الحديبية - فرده المشركون عن دخولها فى تلك السنة - ، فافتتن بعض المسلمين لذلك ، فنزلت هذه الآية . . وفى هذا التأويل ضعف . لأن السورة مكية ، وتلك الرؤيا كانت بالمدينة . . . " .وقوله - سبحانه - : ( والشجرة الملعونة فِي القرآن ) معطوف على الرؤيا .أى : وما جعلنا الرؤيا التى أريناك والشجرة الملعونة فى القرآن إلا فتنة للناس .والمراد بالشجرة الملعونة هنا : شجرة الزقوم ، المذكورة فى قوله - تعالى - : ( أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزقوم إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ في أَصْلِ الجحيم طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشياطين ) والمراد بلعنها : لعن الآكلين منها وهم المشركون ، أو هى ملعونة لأنها تخرج فى أصل الجحيم . أو هى ملعونة لأن طعامها مؤذ وضار ، والعرب تقول لكل طعام ضار : إنه ملعون .قال الآلوسى : وروى فى جعلها فتنة لهم : أنه لما نزل فى شأنها فى سورة الصافات وغيرها ما نزل ، قال أبو جهل وغيره : هذا محمد يتوعدكم بنار تحرق الحجارة ، ثم يقول ينبت فيها الشجر . وما نعرف الزقوم إلا بالتمر والزبد ، ثم أمر جارية له فأحضرت تمرًا وزبدًا ، وقال لأصحابه : تزقموا .وافتتن بهذه الآية أيضًا بعض الضعفاء ، ولقد ضلوا فى ذلك ضلالا بعيدًا . . . .وقوله - تعالى - : ( وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَاناً كَبِيراً ) تذييل قصد به بيان ما جبل عليه هؤلاء المشركون من جحود ، وقسوة قلب .

واذ قلنا لك ان ربك احاط بالناس وما جعلنا الرؤيا التي اريناك الا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القران ونخوفهم فما يزيدهم الا طغيانا كبيرا

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَإِذْ قُلْنَا للملائكة اسجدوا لأَدَمَ . . . ) تذكير لبنى آدم بما جرى بين أبيهم وبين إبليس ، ليعتبروا ويتعظوا ، ويستمروا على عداوتهم لإبليس وجنده .أى : واذكروا - يا بنى آدم - وقت أن قلنا للملائكة ( اسجدوا لآدم ) سجود تحية وتكريم ، فسجدوا امتثالاً لأمر الله - تعالى - ، بدون تردد أو تلعثم ، ( إلا إبليس ) فإنه أبى السجود لآدم - عليه السلام - ( وقال ) بتكبر وعصيان لأمر ربه - عز وجل - : ( أأسجد ) وأنا المخلوق من نار ( لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً ) أى : أأسجد لمن خلقته من طين ، مع أننى أفضل منه .والتعبير بقوله ( فسجدوا ) - بفاء التعقيب ، يفيد أن سجودهم - عليهم السلام - كان فى أعقاب أمر الله تعالى - لهم مباشرة ، بدون تأخير أو تسويف .وقوله - تعالى - : ( قال أأسجد . . . ) استئناف بيانى ، فكأنه قيل : فماذا كان موقف إبليس من هذا الأمر؟ فكان الجواب أن إبليس فسق عن أمر ربه وقال ما قال .والاستفهام فى ( أأسجد ) للإنكار والتعجب ، لأن يرى - لعنه الله - أنه أفضل من آدم .وقوله : ( طينا ) منصوب بنزع الخافض أى : من طين .وقد جاء التصريح بإباء إبليس عن السجود لآدم ، بأساليب متنوعة ، وفى آيات متعددة ، منها قوله - تعالى - : ( وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسجدوا لأَدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى واستكبر وَكَانَ مِنَ الكافرين ) وقوله - تعالى - : ( فَسَجَدَ الملائكة كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلاَّ إِبْلِيسَ أبى أَن يَكُونَ مَعَ الساجدين ).

واذ قلنا للملائكة اسجدوا لادم فسجدوا الا ابليس قال ااسجد لمن خلقت طينا

كما فسرها الوسيط ثم فصل - سبحانه - ما قاله إبليس فى اعتراضه على السجود لآدم فقال : ( قَالَ أَرَأَيْتَكَ هذا الذى كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إلى يَوْمِ القيامة لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً ) .ورأى هنا علمية فتتعدى إلى مفعولين ، أولهما ( هذا ) والثانى محذوف لدلالة الصلة عليه ، والكاف حرف خطاب مؤكد لمعنى التاء قبله ، والاسم الموصول ( الذى ) بدل من ( هذا ) أو صفة له ، والمراد من التكريم فى قوله )

: - كرمت على ) : التفضيل .والمعنى : قال إبليس فى الرد على خالقه - عز وجل
أخبرنى عن هذا الإنسان المخلوق من الطين ، والذى فضلته على ، لماذا فضلته
على وأمرتنى بالسجود له مع أننى أفضل منه ، لأنه مخلوق من طين ، وأنا مخلوق
من نار!!وجملة هذا الذى كرمت على ، واقعة موقع المفعول الثانى .ومقصود
إبليس من هذا الاستفهام ، التهوين من شأن آدم - عليه السلام - والتقليل من
، منزلته . ولم يجبه - سبحانه - على سؤاله ، تحقيرًا له . وإهمالاً لشخصه
) : بسبب اعتراضه على أمر خالقه - عز وجل - .ثم أكد إبليس كلامه فقال
لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ
قَلِيلاً ) . إذ أن اللام فى قوله ( لئن .. . ) موطئة للقسم ، وجوابه
: لأحتنكن .وأصل الاحتناك : الاستيلاء على الشئ؛ أو الاستئصال له . يقال
حنك فلان الدابة يحتنكها - بكسر النون ورفعها - إذا وضع فى حنكها - أى فى
ذقنها - الرسن ليقودها به . ويقال : احتنك الجراد الأرض ، إذا أكل نباتها
وأتى عليه .والمعنى : قال إبليس - متوعدًا ومهددًا - : لئن أخرتن - يا
إلهى - إلى يوم القيامة ، لأستولين على ذرية آدم ، ولأقودنهم إلى ما أشاء
من المعاصى والشهوات ، إلا عددا قليلاً منهم فإنى لا أستطيع ذلك بالنسبة
لهم ، لقوة إيمانهم ، وشدة إخلاصهم .وهذا الذى ذكره - سبحانه - عن إبليس فى
هذه الآية من قوله : ( لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً ) شبيه
به قوله - تعالى - : ( ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ
خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ
أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ) وقوله - تعالى - ( قَالَ فَبِعِزَّتِكَ
لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين ) قال
بعض العلماء : وقول إبليس فى هذه الآية : ( لأحتنكن ذريته . . . ) قاله ظنا
- منه أنه سيقع . وقد تحقق له هذا الظن - فى كثير من بنى آدم - كما قال
تعالى ( وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فاتبعوه إِلاَّ
فَرِيقاً مِّنَ المؤمنين ) .

قال ارايتك هذا الذي كرمت علي لئن اخرتن الى يوم القيامة لاحتنكن ذريته الا
قليلا

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - ( قَالَ اذهب فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ
- فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُوراً ) بيان لما توعد الله
. سبحانه - به إبليس وأتباعه .والأمر فى قوله ( اذهب ) للإهانة والتحقير
أى : قال الله - تعالى - لإبليس ( اذهب ) مطرودًا ملعونًا ، وقد أخرناك
إلى يوم القيامة ، فافعل ما بدا لك مع بنى آدم ، فمن أطاعك منهم ، فإن جهنم
جزاؤك وجزاؤهم ، جزاء مكملا متمما لا نقص فيه .وقال - سبحانه - ( فَإِنَّ
جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ ) مع أنه قد تقدم غائب ومخاطب فى قوله ( فَمَن
تَبِعَكَ مِنْهُمْ ) ، تغليبًا لجانب المخاطب - وهو إبليس - على جانب
الغائب وهم أتباعه . لأنه هو السبب فى إغواء هؤلاء الأتباع .وقوله : ( جزاء
مفعول مطلق ، منصوب بالمصدر قبله .وقوله ( موفورا ) اسم مفعول ، من قولهم ( 
وفر الشئ فهو وافر وموفور أى : مكمل متمم . وهو صفة لقوله : ( جزاء ) .وهذا
الوعيد الذى توعد الله - تعالى - به إبليس وأتباعه ، جاء ما يشبهه فى آيات
كثيرة ، منها قوله - سبحانه - : ( قَالَ فالحق والحق أَقُولُ لأَمْلأَنَّ
جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ).

قال اذهب فمن تبعك منهم فان جهنم جزاؤكم جزاء موفورا

كما فسرها الوسيط ثم أضاف - سبحانه - إلى إهانته وتحقيره لإبليس أوامر
أخرى ، فقال - تعالى - : ( واستفزز مَنِ استطعت مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ
وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأموال
والأولاد وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشيطان إِلاَّ غُرُوراً ) .قال
الجمل : أمر الله - تعالى - إبليس بأوامر خمسة ، القصد بها : التهديد
والاستدراج ، لا التكليف ، لأنها كلها معاص ، والله لا يأمر بها .وهذه
الأوامر الخمسة هى : اذهب ، واستفزز . . . وأجلب . . . وشاركهم .. . وعدهم
: وقوله : واستفزز ، من الاستفزاز ، بمعنى الاستخفاف والإزعاج ، يقال.
: استفز فلان فلانا إذا استخف به ، وخدعه ، وأوقعه فيما أراده منه . ويقال
فلان استفزه الخوف ، إذا أزعجه .وقوله : ( وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ
وَرَجِلِكَ ) أصل الإجلاب : الصياح بصوت مسموع . يقال : أجلب فلان على
" : فرسه وجلب عليه ، إذا صاح به ليستحثه على السرعة فى المشى .قال الآلوسى
قوله ( وأجلب عليهم ) أى : صح عليهم من الجلبة وهى الصياح . قاله الفراء
وأبو عبيدة . وقال الزجاج : أجلب على العدو : جمع عليه الخيل . وقال ابن
السكيت : جلب عليه : أعان عليه . وقال ابن الأعرابى : أجلب على الرجل ، إذا
توعده الشر ، وجمع عليه الجمع .والخيل : يطلق على الأفراس حقيقة ولا واحد
له من لفظه ، وعلى الفرسان مجازا ، وهو المراد هنا .ومنه قول الرسول صلى
- الله عليه وسلم فى بعض غزواته لأصحابه : " يا خيل الله اركبى " والرجل

بكسر الجيم - بمعنى راجل - كحذر بمعنى حاذر - هو الذى يمشى رجلاً ، أى غير راكب . . . " .والمعنى . قال الله - تعالى - لإبليس : اذهب أيها اللعين ، مذءوما مدحورًا . فإن جهنم هى الجزاء المعد لك ولأتباعك من ذرية آدم وافعل ما شئت معهم من الاستفزاز والخداع والإزعاج ولهو الحديث وأجلب عليهم ما تستطيع جلبه من مكايد ، وما تقدر عليه من وسائل ، كأن تناديهم بصوتك ووسوستك إلى المعاصى ، وكأن تحشد جنودك على اختلاف أنواعهم لحربهم وإغوائهم وصدهم عن الطريق المستقيم .قال صاحب الكشاف : " فإن قلت : ما معنى استفزاز إبليس بصوته ، وإجلابه بخيله ورجله؟قلت : هو كلام وارد مورد التمثيل شبهت حاله فى تسلطه على من يغويه ، بمغوار أوقع على قوم ، فصوت بهم صوتًا يستفزهم من أماكنهم ، ويقلقهم عن مراكزهم ، وأجلب عليهم بجنده ، من خيالة ، ورجالة حتى استأصلهم ، وقيل : بصوته ، أى : بدعائه إلى الشر ، وبخيله ورجله : أى كل راكب وماش من أهل العبث . وقيل : يجوز أن يكون لإبليس خيل ورجال " .وعلى أية حال ، فالجملة الكريمة تصوير بديع ، لعداوة إبليس لآدم وذريته ، وأنه معهم فى معركة دائمة ، يستعمل فيها كل وسائل شروره ، ليشغلهم عن طاعة ربهم ، وليصرفهم عن الصراط المستقيم ، ولكنه لن يستطيع أن يصل إلى شئ من أغراضه الفاسدة ، ما داموا معتصمين بدين ربهم - عز وجل - .وقوله - سبحانه - : ( وَشَارِكْهُمْ فِي الأموال والأولاد وَعِدْهُمْ ) ، معطوف على ما قبله .أى : وشاركهم فى الأموال ، بأن تحضهم على جمعها من الطرق الحرام وعلى إنفاقها فى غير الوجوه التى شرعها الله ، كأن يستعملوها فى الربا والرشوة وغير ذلك من المعاملات المحرمة .وشاركهم فى الأولاد : بأن تحثهم على أن ينشئوهم تنشئة تخالف تعاليم دينهم الحنيف وبأن تيسر لهم الوقوع فى الزنا الذى يترتب عليه ضياع الأنساب ، وبأن تظاهرهم على أن يسموا أولادهم بأسماء يبغضها الله - عز وجل - ، إلى غير ذلك من وساوسك التى تغرى الآباء بأن يربوا أبناءهم تربية يألفون معها الشرور والآثام ، والفسوق والعصيان قال الإمام ابن جرير بعد أن ساق عددًا من الأقوال فى ذلك : " وأولى الأقوال بالصواب أن يقال : كل مولود ولدته أنثى ، عصى الله فيه ، بتسميته بما يكرهه الله ، أو بإدخاله فى غير الدين الذى ارتضاه الله ، أو بالزنا بأمه ، أو بقتله أو وأده ، أو غير ذلك من الأمور التى يعصى الله بفعله به أو فيه ، فقد دخل فى مشاركة إبليس فيه ، من ولد ذلك الولد له أو منه ، لأن الله لم يخصص بقوله : ( وَشَارِكْهُمْ فِي الأموال والأولاد ) معنى الشركة فيه ، بمعنى دون معنى ، فكل ما عصى الله فيه أو به ، أو أطيع الشيطان فيه أو به فهو مشاركة . . . " .وقد علق الإمام ابن كثير على كلام ابن جرير بقوله : وهذا الذى قاله - ابن جرير - متجه ، فقد ثبت فى صحيح مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " يقول الله - عز وجل - إنى خلقت عبادى حنفاء ، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم " وفى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتى أهله قال : باسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا ، فإنه إن يقدر بينهما ولد فى ذلك لم يضره الشيطان أبدًا " .وقوله : وعدهم بما شئت من المواعيد الباطلة الكاذبة . كأن تعدهم بأن ( وعدهم ) أى الدنيا هى منتهى آمالهم . فعليهم أن يتمتعوا بها كيف شاءوا بدون تقيد بشرع أو دين أو خلق . وكأن تعدهم بأنه ليس بعد الموت حساب أو ثواب أو عقاب ، أو جنة أو نار . . .وقوله سبحانه ( وَمَا يَعِدُهُمُ الشيطان إِلاَّ غُرُوراً ) تحذير من الله تعالى لعباده من اتباع الشيطان ، ومن السير وراء خطواته وأصل الغرور تزين الباطل بما يوهم أنه حق . يقال : غر فلان فلانا فهو ، يغُره غرورًا إذا خدعه ، وأصله من الغُرِّ ، وهو الأثر الظاهر من الشئ ومنه غرة الفرس لأنها أبرز ما فيه . ولفظ ( غرورا ) صفة لموصوف محذوف والتقدير : وعدهم - أيها الشيطان - بما شئت من الوعود الكاذبة ، وما يعد الشيطان بنى آدم إلا وعدا غرورا .ويجوز أن يكون مفعولاً لأجله فيكون المعنى وما يعدهم الشيطان إلا من أجل الغرور والمخادعة .وفى الجملة الكريمة : التفات من الخطاب إلى الغيبة ، إهمالاً لشأن الشيطان ، وبيانًا لحاله مع بنى آدم؛ حتى يحترسوا منه ويحذروه .

واستفزز من استطعت منهم بصوتك واجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الاموال والاولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان الا غرورا

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - الآيات بغرس الطمأنينة فى قلوب المؤمنين الصادقين ، فقال - تعالى - : ( إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وكفى بِرَبِّكَ وَكِيلاً ) .

ان عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( رَّبُّكُمُ الذي يُزْجِي لَكُمُ الفلك فِي البحر لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ . . . ) بيان لمظهر من مظاهر رحمة الله - تعالى - بعباده ، وفضله عليهم .و ( يزجى ) من الإزجاء ، وهو

السوق شيئًا فشيئًا . يقال أزجى فلان الإبل ، إذا ساقها برفق ، وأزجت
الريح السحاب ، أى : ساقته سوقًا رفيقًا ، ومنه قوله - تعالى - : ( أَلَمْ
. تَرَ أَنَّ الله يُزْجِي سَحَاباً . . . ) و ( الفلك ) ما عظم من السفن
. قال الجمل ما ملخصه : ويستعمل لفظ الفلك للواحد والجمع ، ويذكر ويؤنث
قال - تعالى - : ( وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي
الفلك المشحون ) فأفرد وذكر . وقال - سبحانه - : ( والفلك التي تَجْرِي فِي
البحر ) فأنث ، ويحتمل الإفراد والجمع . قال - تعالى - : ( حتى إِذَا
كُنتُمْ فِي الفلك وَجَرَيْنَ بِهِم . . . ) فجمع . . . .و ( البحر ) يطلق
على الماء الكثير عذبًا كان أو ملحًا . وأكثر ما يكون إطلاقًا على الماء
الملح .أى : اذكروا - أيها الناس - لتعتبروا وتشكروا ربكم الذى من مظاهر
نعمته عليكم ، أنه يسوق لكم - بلطفه وقدرته - السفن التى تركبونها فى البحر
لكي تطلبوا من وراء ركوبها الرزق الذى يصلح معاشكم ، والذى هو لون من ألوان
فضل الله عليكم .وقوله : لتبتغوا من فضله ، تعليل لإزجاء الفلك ، وتصريح
بوجوه النفع التى تفضل الله - تعالى - بها عليهم .وقوله : ( إِنَّهُ كَانَ
بِكُمْ رَحِيماً ) تعليل ثان لهذا الإزجاء .أى : يزجى لكم الفلك فى البحر
لتطلبوا من وراء ذلك ما ينفعكم ، ولأنه - سبحانه - كان أزلا وأبدا ، بكم ،
. دائم الرحمة والرأفة

ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله انه كان بكم رحيما

كما فسرها الوسيط ثم انتقل - سبحانه - من الحديث عن مظاهر نعمه عليهم ، فى
حال سوق السفن ودفعها بهم فى البحر برفق وأناة ، إلى بيان رعايته لهم فى
- حال اضطرابها وتعرضها للغرق ، بسبب هيجان البحر وارتفاع أمواجه ، فقال
تعالى - : ( وَإِذَا مَسَّكُمُ الضر فِي البحر ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ
إِيَّاهُ . . . ) .والمس : اتصال أحد الشيئين بآخر على وجه الإحساس
والإصابة ، والمراد به هنا : ما يعتريهم من خوف وفزع ، وهم يرون سفينتهم
، توشك على الغرق .والمراد بالضر هنا : اضطراب الفلك ، وارتفاع الأمواج
واشتداد العواصف ، وتعرضهم للموت من كل مكان .المعنى : وإذا أحاطت بكم
الأمواج من كل جانب وأنتم على ظهور سفنكم وأوشكتم على الغرق . . ذهب وغاب
عن خواطركم وأذهانكم ، كل معبود سوى الله - عز وجل - لكى ينقذكم مما أنتم
فيه من بلاء ، بل إياه وحده - سبحانه - تدعون ليكشف عنكم ما نزل بكم من سوء
فالجملة الكريمة تصوير مؤثر بديع لبيان أن الإنسان عند الشدائد والمحن لا.
يتجه بدعائه وضراعته إلا إلى الله - تعالى - وحده .قال القرطبى : " ( ضل )
معناه؛ تَلِف وفُقد وهى عبارة عن تحقير لمن يدعى إلهًا من دون الله
، والمعنى فى هذه الآية : أن الكفار إنما يعتقدون فى أصنامهم أنها شافعة.
وأن لها فضلاً ، وكل واحد منهم بالفطرة يعلم علمًا لا يقدر على مدافعته أن
الأصنام لا فعل لها فى الشدائد ، فوقّفهم الله من ذلك على حالة البحر حيث
تنقطع الحيل " .وقال الإمام ابن كثير : " يخبر تبارك وتعالى أن الناس إذا
) : - مسهم ضر دعوه منيبين إليه مخلصين له الدين ، ولهذا قال - تعالى
( وَإِذَا مَسَّكُمُ الضر فِي البحر ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ
أى : ذهب عن قلوبكم كل ما تعبدون غير الله - تعالى - كما اتفق لعكرمة بن
، أبى جهل ، لما ذهب فارا من رسول الله صلى الله عليه وسلم حين فتح مكة
فذهب هاربًا فركب فى البحر ليدخل الحبشة ، فجاءتهم ريح عاصف ، فقال القوم
بعضهم لبعض : إنه لا يغنى عنكم إلا أن تدعو الله وحده .فقال عكرمة فى نفسه
والله إن كان لا ينفع فى البحر غيره ، فإنه لا ينفع فى البر غيره ، اللهم :
لك على عهد لئن أخرجتنى منه ، لأذهبن فلأضعن يدى فى يد محمد صلى الله عليه
وسلم فلأجدنه رءوفًا رحيمًا . فخرجوا من البحر ، فرجع إلى الرسول صلى الله
) : - عليه وسلم فأسلم وحسن إسلامه - رضى الله عنه " .وقوله - تعالى
( فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى البر أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإنسان كَفُوراً
- بيان لطبيعة الإنسان إلا من عصم الله .أى : فلما نجاكم الله - تعالى
، بلطفه وإحسانه : من الغرق ، وأوصلكم سالمين إلى البر ، أعرضتم عن طاعته
وتركتم دعاءه والضراعة إليه ، وكان الإنسان الفاسق عن أمر ربه ، ( كفورا )
" : أى : كثير الكفران والجحود لنعم ربه - عز وجل - .قال الألوسى ما ملخصه
وقوله : ( وَكَانَ الإنسان كَفُوراً ) كالتعليل للإعراض ، ويعلم منه حكم
، أولئك المخاطبين ، وفيه لطافة حيث أعرض - سبحانه - عن خطابهم بخصوصهم
- وذكر أن جنس الإنسان مجبول على الكفران ، فلما أعرضوا أعرض الله - تعالى
) - عنهم " .وفى معنى هذه الآية جاءت آيات كثيرة . منها قوله - تعالى
فَإِذَا رَكِبُواْ فِي الفلك دَعَوُاْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين
- فَلَمّا نَجَّاهُمْ إِلَى البر إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ) وقوله - سبحانه
وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَّوْجٌ كَالظلل دَعَوُاْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ ) :
الدين فَلَمّا نَجّاهُمْ إِلَى البر فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمَا
. ( يَجْحَدُ بِآيَاتِنَآ إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ

واذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون الا اياه فلما نجاكم الى البر اعرضتم

وكان الانسان كفورا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن قدرته لا يعجزها شئ ، لا فى البحر ولا فى البر ولا فى غيرهما فقال : ( أَفَأَمِنْتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ البر أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلاً ) والهمزة فى قوله ( أفأمنتم ) للاستفهام الإنكارى ، والفاء عاطفة على محذوف ، والتقدير : أنجوتم فأمنتم .وقوله ( يخسف ) من الخسف وهو انهيار الأرض بالشئ ، وتغييبه فى باطنها و ( جانب البر ) ناحية أرض ، وسماه - سبحانه - جانبا ، لأن البحر يمثل جانبا من الأرض ، والبر يمثل جانبًا آخر .والحاصب : الريح الشديدة ، التى ترمى بالحصباء ، وهى : الحجارة الصغيرة . يقال . حصب فلان فلانا ، إذا رماه بالحصباء .والمعنى - أنجوتم من الغرق - أيها الناس - ففرحتم وأمنتم ونسيتم أن الله - تعالى - إذا كان قد أنجاكم من الغرق ، فهو قادر على أن يخسف بكم جانب الأرض ، وقادر كذلك على أن يرسل عليكم ريحًا شديدة ترميكم بالحصباء التى تهلككم؛ ثم لا تجدوا لكم وكيلاً تكلون إليه أموركم ، ونصيرًا ينصركم ويحفظكم من عذاب الله - تعالى - .إن كنتم قد أمنتم عذاب الله بعد نجاتكم من الغرق ، فأنتم جاهلون ، لأن قدرة الله - تعالى -لا يعجزها أن تأخذكم أخذ عزيز مقتدر سواء أكنتم فى البحر أم فى البر أم فى غيرهما ، إذ جميع جوانب هذا الكون فى قبضة الله - تعالى - وتحت سيطرته .قال صاحب الكشاف : " فإن قلت فما معنى ذكر الجانب؟ قلت : معناه ، أن الجوانب والجهات كلها فى قدرته سواء ، وله فى كل جانب برا كان أو بحرا سبب مرصد من أسباب الهلكة ، ليس جانب البحر وحده مختصا بذلك ، بل إن كان الغرق فى جانب البحر ، ففى جانب البر ما هو مثله وهو الخسف ، لأنه تغييب تحت التراب ، كما أن الغرق تغييب تحت الماء فالبر والبحر عنده سيان ، يقدر فى البر على نحو ما يقدر عليه فى البحر ، فعلى العاقل أن يستوى خوفه من الله فى جميع الجوانب وحيث كان . "

افامنتم ان يخسف بكم جانب البر او يرسل عليكم حاصبا ثم لا تجدوا لكم وكيلا

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - مثالاً آخر للدلالة على شمول قدرته ، فقال - تعالى - : ( أَمْ أَمِنْتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِّنَ الريح فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً ) .و ( أم هنا يجوز أن تكون متصلة؛ بمعنى : أى الأمرين حاصل . ويجوز أن تكون منقطعة ( بمعنى : بل .والقاصف من الريح : هو الريح العاتية الشديدة التى تقصف وتحطم كل ما مرت به من أشجار وغيرها . يقال : قصف فلان الشئ ، إذا كسره .والتبيع فعيل بمعنى فاعل ، وهو المطالب غيره بحق سواء أكان هذا الحق دينا أم : ثأرًا أم غيرهما ، مع مداومته على هذا الطلب .والمعنى : بل أأمنتم - أيها الناس - ( أن يعيدكم ) الله - تعالى - ( فيه ) أى : فى البحر ، لسبب من - الأسباب التى تحملكم على العودة إليه مرة أخرى ( فيرسل عليكم ) - سبحانه - وأنتم فى البحر ( قَاصِفاً مِّنَ الريح ) العاتية الشديدة التى تحطم سفنكم بسبب كفركم وجحودكم لنعمه ، ( أَمْ أَمِنْتُمْ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ ( فيغرقكم ) عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً ) أى : إننا من السهل علينا أن نفعل معكم ذلك وأكثر منه ، ثم لا تجدوا لكم أحدًا ينصركم علينا ، أو يطالبنا بحق لكم علينا ، فنحن لا نسأل عما نفعل ، وأنتم المسئولون .

ام امنتم ان يعيدكم فيه تارة اخرى فيرسل عليكم قاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا

كما فسرها الوسيط قال الآلوسى : " قوله : ( وَلَقَدْ كَرّمْنَا بَنِي ءَادَمَ . . . ) أى : جعلناهم قاطبة برهم وفاجرهم ، ذوى كرم ، أى : شرف - ومحاسن جمة لا يحيط بها نطاق الحصر . . " .ومن مظاهر تكريم الله - تعالى - لبنى آدم ، أنه خلقهم فى أحسن تقويم ، كما قال - تعالى - : ( لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان في أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ) وأنه ميزهم بالعقل والنطق - والاستعدادات المتعددة ، التى جعلتهم أهلاً لحمل الأمانة ، كما قال سبحانه - : ( إِنّا عَرَضْنَا الأمانة عَلَى السماوات والأرض والجبال . . فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسان ) : - وأنه سخر الكثير من مخلوقاته لمنفعتهم ومصلحتهم ، قال - تعالى ( . الله الذي خَلَقَ السماوات والأرض وَأَنزَلَ مِنَ السماء مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثمرات رِزْقاً لَّكُمْ وَسَخّرَ لَكُمُ الفلك لِتَجْرِيَ فِي البحر بِأَمْرِهِ وَسَخّرَ لَكُمُ الأنهار وَسَخّر لَكُمُ الشمس والقمر دَآئِبَينَ وَسَخّرَ لَكُمُ الليل والنهار وَآتَاكُم مّن كُلّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدّواْ نِعْمَتَ الله لاَ تُحْصُوهَآ إِنّ الإنسان لَظَلُومٌ كَفّارٌ ) وأنه سجل هذا التكريم فى القرآن الكريم ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وكفاهم بذلك شرفا وفخرا

وقوله - تعالى - ( وَحَمَلْنَاهُمْ فِي البر والبحر ) بيان لنوع من أنواع.
هذا التكريم . أى : وحملناهم بقدرتنا ورعايتنا فى البر على الدواب وغير ذلك
من وسائل الانتقال كالقطارات والسيارات وغيرها ، وحملناهم فى البحر على
) : السفن وعابرات البحار التى تنقلهم من مكان إلى آخر .وقوله
: وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطيبات ) بيان لنوع آخر من أنواع التكريم . أى
ورزقناهم بفضلنا وإحساننا من طيبات المطاعم والمشارب والملابس ، التى
يستلذونها ، ولا يستغنون عنها فى حياتهم .وقوله : (وَفَضَّلْنَاهُمْ على
كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ) بيان لنوع ثالث من أنواع التكريم
، أى : وبسبب هذا التكريم فضلناهم على كثير من مخلوقاتنا التى لا تحصى ،
تفضيلاً عظيمًا .وعلى هذا التفسير يكون التفضيل لونًا من ألوان التكريم
الذى منحه الله - تعالى - لبنى آدم .وبعضهم يرى أن هناك فرقًا بين التكريم
والتفضيل ، ومن هذا البعض الإمام الفخر الرازى ، فقد قال - رحمه الله - ما
ملخصه : " لقد قال الله - تعالى - فى أول الآية ( وَلَقَدْ كَرَّمْنَا
بَنِي ءَادَمَ ) وقال فى آخرها ( وَفَضَّلْنَاهُمْ على كَثِيرٍ مِّمَّنْ
خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ) . ولا بد من الفرق بين هذا التكريم والتفضيل وإلا
لزم التكرار .والأقرب أن يقال : إنه - تعالى - فضل الإنسان على سائر
الحيوانات بأمور خِلقية طبيعية ذاتية ، مثل : العقل ، والنطق ، والصورة
، الحسنة . . ثم إنه - تعالى - عرضه بواسطة ذلك لاكتساب العقائد الحقة
والأخلاق الفاضلة فالأول : هو التكريم ، والثانى : هو التفضيل " .وكأن
الفخر الرازى يرى أن التكريم يرجع إلى الصفات الخلقية التى امتاز بها بنو
آدم ، أما التفضيل فيرجع إلى ما اكتسبوه من عقائد سليمة ، وأخلاق قويمة
) : - هذا ، وقد أخذ صاحب الكشاف من هذه الجملة وهى قوله - تعالى.
وَفَضَّلْنَاهُمْ على كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ) أن الملائكة
أفضل من البشر ، لأنهم - أى الملائكة - هم المقصودون بالقليل الذى لم يفضل
عليه بنو آدم .قال - رحمه الله - : " قوله : (وَفَضَّلْنَاهُمْ على
كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا . . . ) هو ما سوى الملائكة وحسب بنى آدم
تفضيلاً ، أن ترفع عليهم الملائكة - وهم هم - ، ومنزلتهم عند الله منزلتهم
، ويرى كثير من المفسرين أن المراد بالتفضيل هنا : تفضيل الجنس. " . . .
) " : ولا يلزم منه تفضيل كل فرد على كل فرد .قال الجمل ما ملخصه
وَفَضَّلْنَاهُمْ على كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ) المراد
تفضيل جنس البشر على أجناس غيره كالملائكة ، ولا يلزم من تفضيل جنس البشر
على جنس الملك تفضيل الأفراد ، إذ الملائكة فى جملتهم أفضل من البشر غير
الأنبياء . وصلحاء البشر - كالصديق - أفضل من عوام الملائكة ، أى : غير
الرؤساء منهم ، على المعتمد من طريقة التفضيل " .والذى تطمئن إليه النفس فى
هذه المسألة - والله أعلم - : أن الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - أفضل
من الملائكة جميعًا ، لأن الله - تعالى - قد أمر الملائكة بالسجود لآدم
الذى جعله خليفة له فى أرضه ، دون غيره من الملائكة . . .وأن الرسل من
الملائكة - كجبريل وإسرافيل وعزرائيل وميكائيل - أفضل من عموم البشر - سوى
الأنبياء - ، لأن هؤلاء الرسل قد اصطفاهم الله - تعالى - واختارهم لوظائف
معينة ، قال - تعالى - ( الله يَصْطَفِي مِنَ الملائكة رُسُلاً وَمِنَ
الناس ) وأن صلحاء البشر - كالعشرة المبشرين بالجنة - أفضل من عامة
الملائكة ، لأن الملائكة ليست فيهم شهوة تدفعهم إلى مخالفة ما أمر الله به
أما بنو آدم فقد ركب الله - تعالى - فيهم شهوة داعية إلى ارتكاب . . .
المعصية ، ومقاومة هذه الشهوات جهاد يؤدى إلى رفع الدرجات . . .ومن العلماء
الذين بسطوا القول فى هذه المسألة الإمام الفخر الرازى ، فليرجع إليه من
شاء .

ولقد كرمنا بني ادم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم
على كثير ممن خلقنا تفضيلا

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ
بِإِمَامِهِمْ ) شروع فى بيان تفاوت أحوال بنى آدم فى الآخرة ، بعد بيان
حالهم فى الدنيا .ولفظ ( يوم ) منصوب بفعل محذوف ، أى : واذكر يوم ندعو كل
أناس بإمامهم . والمراد بإمامهم هنا : كتاب أعمالهم .وقد اختار هذا القول
الإمام ابن كثير ورجحه فقال : يخبر الله - تعالى - عن يوم القيامة ، أنه
: يحاسب كل أمة بإمامهم ، وقد اختلفوا فى ذلك . فقال مجاهد وقتادة أى
بنبيهم ، وهذا كقوله - تعالى - : ( وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا
جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بالقسط )وقال ابن زيد : بإمامهم أى
بكتابهم الذى أنزل على نبيهم من التشريع ، واختاره ابن جرير . .وروى
العوفى عن ابن عباس فى قوله : ( يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ
- بِإِمَامِهِمْ ) أى : بكتاب أعمالهم . . .وهذا القول هو الأرجح لقوله
- تعالى - : ( وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ في إِمَامٍ مُّبِينٍ ) وقال
تعالى - : ( وَوُضِعَ الكتاب فَتَرَى المجرمين مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ )
ويحتمل أن المراد بإمامهم : أن كل قوم بمن يأتمون به ، فأهل الإيمان

. ائتموا بالأنبياء - عليهم السلام - ، وأهل الكفر ائتموا بأئمتهم فى الكفر
وفى الصحيحين : " لتتبع كل أمة ما كانت تعبد ، فيتبع من كان يعبد . .
الطواغيت الطواغيت . . . " الحديث . . . ثم قال - رحمه الله - ولكن المراد
ههنا بالإمام ، هو كتاب الأعمال .والمعنى : واذكر - أيها العاقل لتعتبر
وتتعظ - يوم ندعو كل أناس من بنى آدم الذين كرمناهم وفضلناهم على كثير من
- خلقنا ، بكتاب أعمالهم الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .ثم بين
سبحانه - حسن عاقبة الذين أخلصوا دينهم لله فقال - تعالى - : ( فَمَنْ
أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فأولئك يَقْرَؤونَ كِتَابَهُمْ وَلاَ
يُظْلَمُونَ فَتِيلاً ) .أى : فمن أوتى من بنى آدم يوم القيامة ، كتابه
بيمينه ، بأن ثقلت موازين حسناته على سيئاته ، فأولئك السعداء يقرءون
كتابهم بسرور وابتهاج ، ولا ينقصون من أجورهم قدر فتيل ، وهو الخيط
) المستطيل فى شق النواة ، وبه يضرب المثل فى الشئ القليل و ( من ) فى قوله
فمن أوتى ) يجوز أن تكون شرطية ، وأن تكون موصولة ، ودخلت الفاء فى الخبر
وهو ( فأولئك ) لشبهه بالشرط .وجاء التعبير فى قوله ( أُوتِيَ كِتَابَهُ
) بِيَمِينِهِ ) بالإفراد ، حملا على لفظ من ، وجاء التعبير بالجمع فى
أولئك ) حملا على معناها .وفى قوله - سبحانه - ( بيمينه ) تشريف وتبشير
) : - لصاحب هذا الكتاب الملئ بالإيمان والعمل الصالح وقال - سبحانه
فأولئك يَقْرَؤونَ كِتَابَهُمْ ) بالإظهار ، ولم يقل : يقرءونه ، لمزيد
. العناية بهؤلاء السعداء ، ولبيان أن هذا الكتاب تبتهج النفوس بتكرار اسمه

يوم ندعو كل اناس بامامهم فمن اوتي كتابه بيمينه فاولئك يقرءون كتابهم ولا
يظلمون فتيلا

: كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة من أوتى كتابه بشماله فقال
( وَمَن كَانَ فِي هذه أعمى فَهُوَ فِي الآخرة أعمى وَأَضَلُّ سَبِيلاً )
) : - والمراد بالعمى هنا : عمى القلب لا عمى العين ، بدليل قوله - تعالى.
( فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي فِي الصدور
، والمعنى : ومن كان من بنى آدم فى هذه الدنيا أعمى القلب ، مطموس البصيرة
بسبب إيثاره الكفر على الإيمان ، فهو فى الدار الآخرة أشد عمى وأضل سبيلاً
منه فى الدنيا ، لأنه فى الدنيا كان فى إمكانه أن يتدارك ما فاته أما فى
الآخرة فلا تدارك لما فاته .وعبر - سبحانه - عن الذى أوتى كتابه بشماله
بقوله - ( وَمَن كَانَ فِي هذه أعمى ) للإرشاد إلى العلة التى بسببها
أصابه الشقاء فى الآخرة ، وهى - فقدانه النظر السليم ، وإيثاره الغى على
. الرشد ، والباطل على الحق

ومن كان في هذه اعمى فهو في الاخرة اعمى واضل سبيلا

كما فسرها الوسيط ذكر المفسرون فى سبب نزول الآية الأولى من هذه الآيات
روايات منها ما جاء عن سعيد بن جبير أنه قال : كان النبى صلى الله عليه
وسلم يستلم الحجر الأسود فى طوافه ، فمنعته قريش وقالوا :لا ندعك تستلم
حتى تُلم بآلهتنا . . . فأبى الله - تعالى - ذلك ، وأنزل عليه هذه الآية
وروى عطاء عن ابن عباس قال : نزلت فى وفد ثقيف ، أتوا النبى صلى الله عليه.
. وسلم فسألوه شططا : وقالوا : متعنا بآلهتنا سنة حتى نأخذ ما يُهدى لها
وحرم وادينا كما حرمت مكة ، حتى تعرف العرب فضلنا عليهم . . . فنزلت هذه
. الآية

وان كادوا ليفتنونك عن الذي اوحينا اليك لتفتري علينا غيره واذا لاتخذوك
خليلا

. . . كما فسرها الوسيط و ( إن ) فى قوله ( وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ
مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن .و ( كاد ) من أفعال المقاوبة . و (
من الفتنة ، وأصلها الاختبار والامتحان . يقال : فتن الصائغ ( يفتنونك )
، الذهب ، أى : اختبره ليعرف جيده من خبيثه ، ويقال : فتنت الرجل عن رأيه
إذا أزلته عما كان عليه ، وهو المراد هنا .والمعنى؛ وإن شأن هؤلاء المشركين
أنهم قاربوا فى ظنهم الباطل ، وزعمهم الكاذب ، أن يخدعوك ويفتنوك - أيها ،
الرسول الكريم - عما أوحينا إليك من هذا القرآن ، لكى تفترى علينا غيره
وتتقول علينا أقوالاً ما أنزل الله بها من سلطان .وقوله : ( وَإِذاً
لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً ) بيان لحالهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم لو
أنه أطاعهم فيما اقترحوه عليه .قال الجمل ما ملخصه : " وإذًا حرف جواب
: وجزاء يقدر بلو الشرطية . وقوله : ( لاتخذوك ) جواب قسم محذوف تقديره
والله لاتخذوك ، وهو مستقبل فى المعنى ، لأن إذًا تقتضى الاستقبال ، إذ
معناها المجازاة ، وهذا كقوله - تعالى - : ( وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحاً
فَرَأَوْهُ مُصْفَرّاً لَّظَلُّواْ مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ) أى : ليظلوا
والمعنى : لو أنك - أيها الرسول الكريم - وافقتهم على مقترحاتهم الفاسدة.

لأحبوا ذلك منك ، ولصاروا أصدقاء لك فى مستقبل أيامك .وقد بين القرآن الكريم فى كثير من آياته ، أن الرسول صلى الله عليه وسلم أعرض عن مقرحاتهم ورفضها ، ولم يلتفت إليها ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ( وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ائت بِقُرْآنٍ غَيْرِ هاذآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَآءِ نفسي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يوحى إِلَيَّ إني أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قُل لَّوْ شَآءَ الله مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ).

ولولا ان ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر فضله على نبيه صلى الله عليه وسلم فقال : ( وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً ) .أى : ولولا تثبيتنا إياك - أيها الرسول الكريم - على ما أنت عليه من الحق والصدق ، بأن عصمناك من كيدهم لقاربت أن تميل ميلاً قليلاً ، بسبب شدة احتيالهم وخداعهم .قال بعض العلماء : وهذه الآية أوضحت غاية الإيضاح ، براءة نبينا صلى الله عليه وسلم من مقاربة ، الركون إلى الكفار ، فضلاً عن نفس الركون؛ لأن ( لولا ) حرف امتناع لوجود - فمقاربة الركون منعتها ( لولا ) الامتناعية لوجود التثبيت من الله تعالى - لأكرم خلقه صلى الله عليه وسلم فاتضح يقينًا انتفاء مقاربة ، الركون - أى الميل - ، فضلاً عن الركون نفسه .وهذه الآية تبين ما قبلها ) : وأنه صلى الله عليه وسلم لم يقارب الركون إليهم مطلقاً . لأن قوله لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً ) أى : قاربت تركن إليهم ، هو عين الممنوع بلولا الامتناعية .ومما يشهد بأن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يقارب الركون من مقترحات الكافرين ، قول ابن عباس - رضى الله عنهما - كان رسول الله صلى الله عليه وسلم معصومًا ، ولكن هذا تعريف للأمة لئلا يركن أحد منهم إلى المشركين فى شئ من أحكام الله - تعالى - وشرائعه ، وعن قتادة أنه قال : " لما نزلت هذه الآية ، قال النبى صلى الله عليه وسلم. " اللهم لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين " .

اذا لاذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما كان سيترتب على الركون إليهم - على سبيل الفرض من عقاب فقال - تعالى - : ( إِذاً لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الحياة وَضِعْفَ الممات ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً ) .والضعف : عبارة عن أن يضم إلى شئ مثله .أى : لو قاربت - أيها الرسول الكريم - أن تركن إليهم أقل ركون ، أو تميل إليهم أدنى ميل ، لأنزلنا بك عذابًا مضاعفًا فى الدنيا وعذابًا مضاعفًا فى الآخرة ، ثم لا تجد لك بعد ذلك نصيرا ينصرك ) : - علينا ، أو ظهيرًا يدفع عنك عذابنا ، أو يحميك منه ، كما قال - تعالى - : وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأقاويل لأَخَذْنَا مِنْهُ باليمين ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوتين ) والسبب فى تضعيف العذاب ، أن الخطأ يعظم بمقدار عظم صاحبه ، ويصغر بمقدار صغره ، ورحم الله القائل :وكبائر الرجل الصغير صغائر ... وصغائر الرجل الكبير كبائروالرسول صلى الله عليه وسلم هو أعظم الخلق على الإطلاق ، لذا توعده الله - تعالى - بمضاعفة العذاب ، لو ركن إلى المشركين أدنى ركون .وقريب من هذا المعنى قوله - تعالى - ( يانسآء النبي مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا العذاب ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى الله يَسِيراً ) قال صاحب الكشاف : وفى ذكر الكيدودة وتقليلها ، مع إتباعها الوعيد الشديد بالعذاب المضاعف فى الدارين ، دليل بين على أن القبيح يعظم قبحه بمقدار عظم شأن فاعله وارتفاع منزلته ، وفيه دليل على أن أدنى مداهنه للغواة ، مضادة لله وخروج عن ولايته وسبب موجب لغضبه ونكاله . فعلى المؤمن إذا تلا هذه الآيات أن يجثو عندها ويتدبرها فهى جديرة بالتدبر وبأن يستشعر الناظر فيها الخشية وازدياد التصلب فى دين الله .

وان كادوا ليستفزونك من الارض ليخرجوك منها واذا لا يلبثون خلافك الا قليلا

كما فسرها الوسيط قال الإمام الرازى ما ملخصه : وفى نظم هذه الآيات مع ما قبلها وجوه ، الأول : أنه - تعالى - لما قرر الإلهيات والمعاد والنبوات ، أردفها بذكر الأمر بالطاعات . وأشرف الطاعات . بعد الإيمان الصلاة؛ فلهذا أمر بها .الثانى : أنه - تعالى - لما قال : ( وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأرض لِيُخْرِجوكَ مِنْهَا ) أمره - تعالى - بالإقبال على عبادته لكى ينصره عليهم . . كما قال - تعالى - : ( وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ

. . . رَبِّكَ وَكُنْ مِّنَ الساجدين واعبد رَبّكَ حتى يَأْتِيَكَ اليقين
)

سنة من قد ارسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا

`<!-- TODO:MISSING -->`{=html} كما فسرها الوسيط

اقم الصلاة لدلوك الشمس الى غسق الليل وقران الفجر ان قران الفجر كان مشهودا

: كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( أَقِمِ الصلاة لِدُلُوكِ الشمس ) أى
داوم - أيها الرسول الكريم - على إقامة الصلاة ، من وقت زوالها وميلها عن
وسط السماء لجهة الغرب . يقال : دلكت الشمس تدلك - بضم اللام - إذا مالت
وانتقلت من وسط السماء إلى ما يليه . ومادة ( دلك ) تدل على التحول
والانتقال .ولذلك سمى الدلاك بهذا الاسم . لأن يده لا تكاد تستقر على مكان
، معين من الجسم .وتفسير دلوك الشمس هذا بمعنى ميلها وزوالها عن كبد السماء
، مروى عن جمع من الصحابة والتابعين منهم عمر بن الخطاب ، وابنه عبد الله
. وأنس ، وابن عباس ، والحسن ، ومجاهد .وقيل المراد بدلوك الشمس هنا غروبها
وقد روى ذلك عن على ، وابن مسعود ، وابن زيد .قال بعض العلماء : والقول
، الأول عليه الجمهور ، وقالوا : الصلاة التى أمر بها ابتداء من هذا الوقت
هى صلاة الظهر ، وقد أيدوا هذا القول بوجوه منها : ما روى عن جابر أنه قال
طعم عندى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه . ثم خرجوا حين زالت " :
- الشمس ، فقال صلى الله عليه وسلم هذا حين دلكت الشمس " .ومن الوجوه
: أيضًا - النقل عن أهل اللغة ، فقد قالوا : إن الدلوك فى كلام العرب
الزوال ، ولذا قيل للشمس إذا زالت . دالكة .وقوله : ( إلى غَسَقِ الليل )
أى : إلى شدة ظلمته .قال القرطبى : يقال : غسق الليل غُسوقًا . وأصل الكلمة
: من السيلان . يقال : غَسقت العين إذ سالت تغسق . وغسَق الجرح غسقانا ، أى
سال منه ماء أصفر . . . وغسق الليل : اجتماع الليل وظلمته .وقال : أبو
عبيدة : الغسق : سواد الليل . . . .والمراد من الصلاة التى تقام من بعد
- دلوك الشمس إلى غسق الليل : صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء .وقوله
تعالى - : ( وقرآن الفجر ) معطوف على مفعول ( أقم ) وهو الصلاة .والمراد
، بقرآن الفجر : صلاة الفجر . وسميت قرآنًا ، لأن القراءة ركن من أركانها
) من تسمية الشئ باسم جزئه ، كتسمية الصلاة ركوعًا وسجودًا وقنوتًا .وقوله
إِنَّ قُرْآنَ الفجر كَانَ مَشْهُوداً ) تنويه بشأن صلاة الفجر ، وإعلاء من
شأنها .أى : داوم - أيها الرسول الكريم - على أداء صلاة الظهر والعصر
والمغرب والعشاء ، وداوم على صلاة الفجر - أيضًا - فإن صلاتها مشهودة من
الملائكة ومن الصالحين من عباد الله - عز وجل - .قال الإمام ابن كثير ما
ملخصه : وقد ثبتت السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تواترا من أفعاله
وأقواله بتفاصيل هذه الأوقات على ما عليه أهل الإسلام اليوم ، مما تلقوه
خلفًا عن سلف ، وقرنا بعد قرن .روى البخارى عن أبى هريرة أن النبى صلى الله
، عليه وسلم قال : " فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد ، خمس وعشرون درجة
: وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار فى صلاة الفجر " .يقول أبو هريرة
اقرأوا إن شئتم : ( وَقُرْآنَ الفجر إِنَّ قُرْآنَ الفجر كَانَ مَشْهُوداً
وقال الإمام الفخر الرازى : " وفى الآية احتمال ، وهو أن يكون. ( . . .
المراد من قوله - تعالى - : ( إِنَّ قُرْآنَ الفجر كَانَ مَشْهُوداً )
الترغيب فى أن تؤدى هذه الصلاة بالجماعة . ويكون المعنى : إن صلاة الفجر
. " مشهودة بالجماعة الكثيرة

ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى ان يبعثك ربك مقاما محمودا

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( وَمِنَ الليل فَتَهَجَّدْ بِهِ
، نَافِلَةً لَكَ ) إرشاد إلى عبادة أخرى من العبادات التى تطهر القلب
وتسمو بالنفس إلى مراقى الفلاح ، وتعينها على التغلب على الهموم والآلام
والجار والمجرور ( ومن الليل ) متعلق بقوله ( فتهجد ) أى . تهجد بالقرآن.
بعض الليل . أو متعلق بمحذوف تقديره : وقم قومة من الليل فتهجد ، و ( من )
للتبعيض .قال الجمل : " والمعروف فى كلام العرب أن الهجوة عبارة عن النوم
بالليل . يقال : هجد فلان ، إذا نام بالليل .ثم لما رأينا فى عرف الشرع أنه
: يقال لمن انتبه بالليل من نومه وقام إلى الصلاة أنه متهجد ، وجب أن يقال
. . سمى ذلك متهجدا من حيث أنه ألقى الهجود . فالتهجد ترك الهجود وهو النوم
- والضمير فى ( به ) يعود إلى القرآن الكريم ، المذكور فى قوله. " .
، تعالى - ( وقرآن الفجر ) ، إلا أنه ذكر فى الآية السابقة بمعنى الصلاة
وذكر هنا بمعناه المشهور ، ففى الكلام ما يسمى فى البلاغة بالاستخدام
والنافلة : الزيادة على الفريضة ، والجمع نوافل . يقال : تنفل فلان على.
أصحابه ، إذا أخذ زيادة عنهم .أى : واجعل - أيها الرسول الكريم - جانبًا من

- الليل ، تقوم فيه ، لتصلى صلاة زائدة على الصلوات الخمس التى فرضها الله
تعالى - عليك وعلى أمتك .قال - تعالى - : ( ياأيها المزمل قُمِ اللَّيل
إِلاَّ قَلِيلاً نِّصْفَهُ أَوِ انقص مِنْهُ قَلِيلاً أَوْ زِدْ عَلَيْهِ
وَرَتِّلِ القرآن تَرْتِيلاً ) قالوا : وقيام الليل كان واجبًا فى حقه صلى
الله عليه وسلم بصفة خاصة ، زيادة على الصلاة المفروضة .أخرج البيهقي فى
، سننه عن عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " ثلاث هن على فرائض
وهن لكم سنة : الوتر ، والسلوك ، وقيام الليل " .ومن العلماء من يرى أن
، قيام الليل كان مندوبًا فى حقه صلى الله عليه وسلم كما هو الشأن فى أمته
ومعنى ( نافلة لك ) أى : زيادة فى رفع درجاتك ، فإن الله قد غفر لك ما تقدم
من ذنبك وما تأخر ، أما غيرك فقد شرعنا له النافلة تكفيرًا لخطاياه
وقوله - عز وجل - : ( عسى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً ).
بيان لما يترتب على أدائه للصلوات بخشوع وخضوع ، من سمو فى المكانة ، ورفعة
- فى الدرجة .وكلمة عسى فى كلام العرب تفيد التوقع ، أما فى كلام الله
) تعالى - فتفيد الوجوب والقطع .قال الجمل : " اتفق المفسرون على أن كلمة
عسى ) من الله - تعالى - تدخل فيما هو قطعى الوقوع ، لأن لفظ عسى يفيد
- الإطماع ، ومن أطمع إنسانا فى شئ ، ثم حرمه ، كان عارا عليه والله
تعالى - أكرم من أن يطمع أحدًا ثم لا يعطيه ما أطمعه فيه " .أى : داوم أيها
الرسول الكريم على عبادة الله وطاعته لنبعثك يوم القيامة ونقيمك مقامًا
محمودًا ، ومكانًا عاليًا ، يحمدك فيه الخلائق كلهم .والمراد بالمقام
المحمود هنا ، هو مقام الشفاعة العظمى يوم القيامة . ليريح الناس من الكرب
الشديد ، فى موقف الحساب .وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية
جملة من الأحاديث فى هذا منها : ما أخرجه البخارى عن ابن عمر قال : إن
الناس يصيرون يوم القيامة جُثًا - جمع جثوة كخطوة وخطا - أى جماعات - كل
أمة تتبع نبيها ، يقولون : يا فلان اشفع ، يا فلان اشفع ، حتى تنتهى
الشفاعة إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، فذلك يوم يبعثه الله مقاما محمودًا
وروى الإمام أحمد والترمذي عن أبى بن كعب عن النبى صلى الله عليه وسلم. "
قال : " إذا كان يوم القيامة ، كنت إمام الأنبياء وخطيبهم . وصاحب شفاعتهم
غير فخر " ." وروى ابن جرير عن أبى هريرة أن الرسول صلى الله عليه وسلم سئل
عن قوله - تعالى - : ( عسى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً )
فقال : " هو المقام الذى أشفع لأمتى فيه " " .وقال الآلوسى : والمراد بذلك
المقام ، مقام الشفاعة العظمى فى فصل القضاء حيث لا أحد إلا وهو تحت لوائه
صلى الله عليه وسلم ، فقد أخرج البخارى وغيره عن ابن عمر قال : " سمعت رسول
، الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الشمس لتدنو حتى يبلغ العرق نصف الأذن
فبينما هم كذلك ، استغاثوا بآدم ، فيقول : لست بصاحب ذلك ، ثم موسى فيقول
كذلك . ثم محمد فيشفع فيقضى الله - تعالى - بين الخلق ، فيمشى صلى الله
عليه وسلم حتى يأخذ بحلقة باب الجنة ، فيومئذ يبعثه الله - تعالى - مقامًا
محمودًا ، يحمده أهل الجمع كلهم " .

وقل رب ادخلني مدخل صدق واخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا

كما فسرها الوسيط ثم أمر الله - تعالى - رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يكثر
من اللجوء إليه عن طريق الدعاء ، بعد أن أمره بذلك عن طريق المداومة على
الصلاة ، فقال - تعالى - : ( وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ
وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ واجعل لِّي مِن لَّدُنْكَ سُلْطَاناً
نَّصِيراً ) .والمدخل والمخرج - يضم الميم فيهما - مصدران بمعنى الإدخال
والإخراج ، فهما كالمجرى والمرسى وإضافتهما إلى الصدق من إضافة الموصوف
لصفته .قال الآلوسى : واختلف فى تعيين المراد من ذلك ، فأخرج الزبير بن
بكار عن زيد بن أسلم ، أن المراد : بالإدخال : دخول المدينة ، وبالإخراج
، الخروج من مكة ، ويدل عليه ما أخرجه أحمد ، والطبرانى ، والترمذى وحسنه :
والحاكم وصححه ، وجماعة ، عن ابن عباس قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم
بمكة ، ثم أمر بالهجرة ، فأنزل الله - تعالى - عليه هذه الآية . وبدأ
بالإدخال لأنه الأهم . . .ثم قال : والأظهر أن المراد إدخاله - عليه
الصلاة والسلام - إدخالاً مرضيًا فى كل ما يدخل فيه ويلابسه من مكان أو أمر
وإخراجه - من كل ما يخرج منه خروجًا مرضيًا - كذلك - ، فتكون الآية عامة ،
فى جميع الموارد والمصادر . . .ويبدو لنا أن المعنى الذى أشار إليه
الآلوسى - رحمه الله - بأنه الأظهر ، هو الذى تسكن إليه النفس ، ويدخل فيه
غيره دخولاً أوليا ، ويكون المعنى :وقل - أيها الرسول الكريم - متضرعًا إلى
ربك : يا رب أدخلنى إدخالاً مرضيًا صادقًا فى كل ما أدخل فيه من أمر أو
مكان ، وأخرجنى كذلك إخراجًا طيبًا صادقًا من كل أمر أو مكان .والمراد
بالسلطان فى قوله - تعالى - : ( واجعل لِّي مِن لَّدُنْكَ سُلْطَاناً
نَّصِيراً ) الحجة البينة الواضحة التى تقنع العقول ، والقوة الغالبة التى
ترهب المبطلين .أى : واجعل لى - يا إلهى - من عندك حجة تنصرنى بها على من
خالفنى ، وقوة تعيننى بها على إقامة دينك ، وإزالة الشرك والكفر .وقد وضح
صاحب الكشاف هذا المعنى فقال : قوله : ( واجعل لِّي مِن لَّدُنْكَ

سُلْطَاناً نّصِيراً ) أى : حجة تنصرنى على من خالفنى ، أو ملكًا وعزًا
): قويًا ناصرًا للإسلام على الكفر ، مظهرًا له عليه ، فأجيبت دعوته بقوله
) والله يَعْصِمُكَ مِنَ الناس ) ( فَإِنّ حِزْبَ الله هُمُ الغالبون )
لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدين كُلِّهِ ) ( لَيَسْتَخْلِفَنّهُمْ فِي الأرض )
ووعده لينزعن ملك فارس والروم فيجعله له ." وعنه صلى الله عليه وسلم أنه
استعمل " عتاب بن أسيد " على أهل مكة وقال : انطلق فقد استعملتك على أهل
الله ، فكان شديدًا على المريب . لينًا على المؤمن ، وقال :لا والله لا
أعلم متخلفا يتخلف عن الصلاة فى جماعة إلا ضربت عنقه ، فإنه لا يتخلف عن
الصلاة إلا منافق . فقال أهل مكة : يا رسول الله لقد استعملت على أهل الله
عتاب بن أسيد " أعرابيًا جافيًا .فقال صلى الله عليه وسلم : " إنى رأيت "
فيما يرى النائم كأن عتاب بن أسيد أتى باب الجنة ، فأخذ بحلقة الباب
فقلقلها قلقالاً شديدًا ، حتى فتح له فدخلها ، فأعز الله به الإسلام
لنصرته المسلمين على من يريد ظلمهم ، فذلك السلطان النصير " " .وقال ابن
كثير - بعد أن ساق بعض الأقوال فى معنى الآية الكريمة - قوله : ( واجعل
: لِّي مِن لَّدُنْكَ سُلْطَاناً نّصِيراً ) قال الحسن البصرى فى تفسيرها
وعده ربه لينزعن ملك فارس والروم وليجعلنه له .وقال قتادة فيها : إن نبى
الله علم أن لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان . فسأل سلطانًا نصيرًا لكتاب
الله . ولحدود الله ، ولفرائض الله ، ولإقامة دين الله ، فإن السلطان رحمة
من الله جعله بين أظهر عباده ، ولولا ذلك لأغار بعضهم على بعض فأكل شديدهم
ضعيفهم . . .ثم قال ابن كثير : واختار ابن جرير قول الحسن وقتادة ، وهو
- الأرجح ، لأنه لا بد مع الحق من قهر لمن عاداه وناوأه ، ولهذا يقول
تعالى - : ( لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالبينات وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ
الكتاب والميزان لِيَقُومَ الناس بالقسط وَأَنزَلْنَا الحديد فِيهِ بَأْسٌ
شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنّاسِ . . . ) وفى الحديث : " إن الله ليزع
بالسلطان ما لا يزع بالقرآن " أى : ليمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش
والآثام ، ما لا يمتنع كثير من الناس عن ارتكابه بالقرآن وما فيه من الوعيد
الأكيد ، والتهديد الشديد ، وهذا هو الواقع .وفى قوله - تعالى - : ( واجعل
- لّي مِن لَّدُنْكَ ) تصوير بديع لشدة القرب والاتصال بالله - تعالى
واستمداد العون منه - سبحانه - مباشرة ، واللجوء إلى حماه بدون وساطة من
أحد .

وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا

- كما فسرها الوسيط ثم بشره - سبحانه - بأن النصر له آت لا ريب فيه فقال
تعالى - ( وَقُلْ جَآءَ الحق وَزَهَقَ الباطل إِنَّ الباطل كَانَ زَهُوقاً
والحق فى لغة العرب : الشئ الثابت الذى ليس بزائل ولا مضمحل . والباطل. (
على النقيض منه .والمراد بالحق هنا : حقائق الإسلام وتعاليمه التى جاء بها
النبى صلى الله عليه وسلم من عند ربه - عز وجل - .والمراد بالباطل : الشرك
والمعاصى التى ما أنزل الله بها من سلطان ، والمراد بزهوقه : ذهابه وزواله
يقال : فلان زهقت روحه ، إذا خرجت من جسده وفارق الحياة .أى : وقل - أيها .
الرسول الكريم - على سبيل الشكر لربك ، والاعتراف له بالنعمة ، والاستبشار
بنصره ، قل : جاء الحق الذى أرسلنى به الله - تعالى - وظهر على كل ما
يخالفه من شرك وكفر ، وزهق الباطل ، واضمحل وجوده وزالت دولته ، إن الباطل
- كان زهوقاً ، أى : كان غير مستقر وغير ثابت فى كل وقت . كما قال - تعالى
قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بالحق عَلاَّمُ الغيوب قُلْ جَآءَ الحق ) :
( وَمَا يُبْدِىءُ الباطل وَمَا يُعِيدُ

وننزل من القران ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خسارا

كما فسرها الوسيط قال الفخر الرازى - رحمه الله - : اعلم أنه - تعالى - لما
أطنب فى شرح الإلهيات والنبوات ، والحشر والمعاد والبعث ، وإثبات القضاء
والقدر ، ثم أتبعه بالأمر بالصلاة ، ونبه على ما فيها من الأسرار ، وإنما
- ذكر كل ذلك فى القرآن ، أتبعه ببيان كون القرآن شفاء ورحمة . فقال
تعالى - : ( وَنُنَزّلُ مِنَ القرآن مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ
لّلْمُؤْمِنِينَ . . ) .ثم قال : ولفظة ( مِن ) ههنا ليست للتبعيض ، بل هى
للجنس كقوله : ( فاجتنبوا الرجس مِنَ الأوثان ) والمعنى : وننزل من هذا
الجنس الذى هو قرآن ما هو شفاء ، فجميع القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين .ومما
لا شك فيه ، أن قراءة القرآن ، والعمل بأحكامه وآدابه وتوجيهاته . . شفاء
، للنفوس من الوسوسة ، والقلق ، والحيرة ، والنفاق ، والرذائل المختلفة
ورحمة للمؤمنين من العذاب الذى يحزنهم ويشقيهم .إنه شفاء ورحمة لمن خالطت
قلوبهم بشاشة الإيمان ، فأشرقت بنور ربها ، وتفتحت لتلقى ما فى القرآن من
هدايات وإرشادات .إنه شفاء للنفوس من الأمراض القلبية كالحسد والطمع
والانحراف عن طريق الحق ، وشفاء لها من الأمراض الجسمانية .قال القرطبى عند
تفسيره لهذه الآية : اختلف العلماء فى كونه - أى القرآن - شفاء على قولين

أحدهما : أنه شفاء للقلوب بزوال الجهل عنها وإزالة الريب ، ولكشف غطاء:
القلب من مرض الجهل .الثانى : أنه شفاء من الأمراض الظاهرة بالرقى والتعوذ
" : ونحوه ، وقد روى الأئمة - واللفظ للدار قطنى - عن أبى سعيد الخُدرى قال
بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سرية ثلاثين راكبًا . قال : فنزلنا
، على قوم من العرب فسألناهم أن يضيفونا فأبوا . قال : فلدغ سيد الحى
فأتونا فقالوا : أفيكم أحد يَرْقى من العقرب؟ قال : قلت : أنا نعم ، ولكن
) لا أفعل حتى تعطونا فقالوا : فإنا نعطيكم ثلاثين شاة . قال : فقرأت عليه
الحمد للَّهِ رَبِّ العالمين ) سبع مرات فبرئ . فبعثوا إلينا بالنُّزل
وبعثوا إلينا بالشاء . فأكلنا الطعام أنا وأصحابى ، وأبوا أن يأكلوا من
الغنم ، حتى أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته الخبر ، فقال " ما
يدريك أنها رقية "؟ قلت : يا رسول الله ، شئ ألقى فى روعى . قال :" كلوا
، وأطعمونا من الغنم " " .والذى تطمئن إليه النفس أن قراءة القرآن الكريم
والعمل بما فيه من هدايات وإرشادات وتشريعات . . كل ذلك يؤدى - بإذن الله
: تعالى - إلى الشفاء من أمراض القلوب ومن أمراض الأجسام .قال بعض العلماء
وقوله - تعالى - فى هذه الآية ( مَا هُوَ شِفَآءٌ ) يشمل كونه شفاء للقلب "
من أمراضه ، كالشك والنفاق وغير ذلك . وكونه شفاء للأجسام إذا رقى عليه به
" كما تدل له قصة الذى رقى الرجل اللديغ بالفاتحة ، وهى صحيحة مشهورة ،
وبعد أن بين - سبحانه - أثر القرآن بالنسبة للمؤمنين ، أتبع ذلك ببيان.
أثره بالنسبة للظالمين ، فقال : (وَلاَ يَزِيدُ الظالمين إَلاَّ خَسَاراً
أى : ولا يزيد ما ننزله من قرآن الظالمين إلا خساراً وهلاكًا ، بسبب. (
عنادهم وجحودهم للحق بعد إذ تبين .قال الآلوسى : وإسناد الزيادة المذكورة
، إلى القرآن . مع أنهم المزدادون فى ذلك لسوء صنيعهم ، باعتباره سببا لذلك
وفيه تعجيب من أمره من حيث كونه مدارًا للشفاء والشقاء .كماء صار فى
: - الأصداف درا ... وفى ثغر الأفاعى صار سماوشبيه بهذه الآية قوله - تعالى
وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ )
زَادَتْهُ هذه إِيمَاناً فَأَمَّا الذين آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً
وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الذين فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ
( فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إلى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ
وقوله - تعالى - ( قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ والذين
لاَ يُؤْمِنُونَ في آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أولئك
يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ).

واذا انعمنا على الانسان اعرض ونأى بجانبه واذا مسه الشر كان يئوسا

كما فسرها الوسيط ثم صور - سبحانه - حال الإنسان عند اليسر والعسر ، وعند
الرخاء والشدة فقال - تعالى - : ( وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الإنسان
: أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشر كَانَ يَئُوساً ) .أى
بنعمة الصحة والغنى وما يشبههما مما ( وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الإنسان )
، يسره ويبهجه ( أعرض ) عن طاعتنا وشكرنا ( ونأى بجانبه ) أى : وابتعد عنا
وولانا ظهره والنأى : البعد ، يقال : مكان ناء ، أى بعيد ، ونأى فلان عن
الشئ نأيا : إذا ابتعد عنه .وقوله - تعالى - : ( نأى بجانبه ) تأكيد
للإعراض ، لأن الإعراض عن الشئ أن يوليه عرض وجهه ، والنأى بالجانب : أن
- يلوى عنه عطفه ، ويوليه ظهره ، ويظهر الاستكبار والغرور . وقوله - تعالى
أى : وإذا مس الشر هذا الإنسان ( وَإِذَا مَسَّهُ الشر كَانَ يَئُوساً ) :
من فقر أو مرض ، كان يئوسا وقنوطا من رحمه الله - تعالى - .فهو فى حالة
الصحة والغنى يبطر ويتكبر ويطغى . وفى حالة الفقر والمرض ييئس ويقنط
ويستولى عليه الحزن والهم .والمراد بالإنسان هنا جنسه ، إذ ليس جميع الناس
- على هذه الحالة ، وإنما منهم المؤمنون الصادقون الذين يشكرون الله
: - تعالى - على نعمه ، ويذكرونه ويطيعونه فى السراء والضراء .قال - تعالى
وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإنسان مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ )
إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ
مَّسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السيئات عني إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ
إِلاَّ الذين صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات أولئك لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ
وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ) فأنت ترى أن الله - تعالى - قد استثنى الذين صبروا
وعملوا الصالحات ، من رذيلة الجحود عند اليسر ، واليأس عند العسر .قال
الآلوسى ما ملخصه : والمراد بالإنسان فى قوله - تعالى - ( وَإِذَآ
أَنْعَمْنَا عَلَى الإنسان أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ . . . ) جنسه ، إذ
يكفى فى صحة الحكم وجوده فى بعض الأفراد ، ولا يضر وجود نقيض فى البعض
. الآخر ، وقيل : المراد به الوليد بن المغيرة

قل كل يعمل على شاكلته فربكم اعلم بمن هو اهدى سبيلا

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

ويسالونك عن الروح قل الروح من امر ربي وما اوتيتم من العلم الا قليلا

) : - كما فسرها الوسيط ذكر المفسرون فى سبب نزول قوله - تعالى
وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الروح ) روايات منها : ما أخرجه الشيخان عن عبد الله
بن مسعود قال : " بينما أنا أمشى مع النبى صلى الله عليه وسلم فى حرث وهو
متوكئ على عسيب - أى على عصا - إذ مر اليهود ، فقال بعضهم لبعض : سلوه عن
الروح ، فقالوا : يا محمد ما لروح فأمسك النبى صلى الله عليه وسلم فلم يرد
) : عليهم شيئًا ، فعلمت أنه يوحى إليه ، فقمت مقامى ، فلما نزل الوحى قال
وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الروح قُلِ الروح مِنْ أَمْرِ رَبِّي . . . ) .قال
الإمام ابن كثير بعد أن ذكر هذه الرواية وغيرها : وهذا السياق يقتضى فيما
يظهر بادى الرأى ، أن هذه الآية مدنية ، وأنها نزلت حين سأله اليهود عن ذلك
بالمدينة ، مع أن السورة كلها مكية .وقد يجاب عن هذا بأنه قد تكون نزلت
عليه بالمدينة مرة ثانية ، كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك . أو أنه نزل عليه
الوحى بأنه يجيبهم عما سألوه بالآية المتقدم إنزالها عليه ، وهى هذه الآية
ومما يدل على نزول هذه الآية. " ( . . . وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الروح ) :
بمكة ما أخرجه الإمام أحمد عن ابن عباس قال : " قالت قريش ليهود . أعطونا
: شيئًا نسأل عنه هذا الرجل؟ فقالوا : سلوه عن الروح ، فسألوه فنزلت
ويسألونك عن الروح . . الآية " .وكلمة الروح تطلق فى القرآن الكريم على
أمور منها :الوحى ، كما فى قوله - تعالى - : ( يُلْقِي الروح مِنْ أَمْرِهِ
على مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ . . . ) ومنها : القوة والثبات كما فى
قوله - تعالى - : ( أولئك كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإيمان وَأَيَّدَهُمْ
بِرُوحٍ مِّنْهُ . . . ) ومنها : جبريل ، كما فى قوله - تعالى - : ( نَزَلَ
: بِهِ الروح الأمين على قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المنذرين . . . ) ومنها
القرآن كما فى قوله - سبحانه - : ( وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحاً
: - مِّنْ أَمْرِنَا . . . ) ومنها : عيسى ابن مريم ، كما فى قوله - تعالى
إِنَّمَا المسيح عِيسَى ابن مَرْيَمَ رَسُولُ الله وَكَلِمَتُهُ )
أَلْقَاهَا إلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ . . . ) وجمهور العلماء على أن
المراد بالروح فى قوله - تعالى - : ( وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الروح . . . )
ما يحيا به بدن الإنسان ، وبه تكون حياته ، وبمفارقته للجسد يموت الإنسان
وأن السؤال إنما هو عن حقيقة الروح ، إذ معرفة حقيقة الشئ . تسبق معرفة ،
: أحواله .وقيل المراد بالروح هنا : القرآن الكريم ، وقيل : جبريل ، وقيل
عيسى إلى غير ذلك من الأقوال التى أوصلها بعضهم إلى أكثر من عشرة أقوال
- ويبدو لنا أن ما ذهب إليه جمهور المفسرين ، أولى بالاتباع ، لأن قوله.
تعالى - بعد ذلك : ( قُلِ الروح مِنْ أَمْرِ رَبِّي ) يؤيد هذا الاتجاه
قال الآلوسى : " الظاهر عند المنصف ، أن السؤال كان عن حقيقة الروح الذى.
هو مدار البدن الإنسانى ، ومبدأ حياته ، لأن ذلك من أدق الأمور التى لا
يسع أحدًا إنكارها ، ويشرئب الجميع إلى معرفتها ، وتتوافر دواعى العقلاء
إليها ، وَتَكِلُّ الأذهان عنها ، ولا تكاد تعلم إلا بوحى . . " .و ( من )
فى قوله : ( قُلِ الروح مِنْ أَمْرِ رَبِّي ) بيانية . والمراد بالأمر هنا
الشأن .والمعنى : ويسألك بعض الناس - أيها الرسول - عن حقيقة الروح ، قل .
لهم على سبيل الإرشاد والزجر : الروح شئ من جنس الأشياء التى استأثر
الله - تعالى - وحده بعلم حقيقتها وجوهرها .وقال - سبحانه - : ( قل الروح )
بالإظهار ، لكمال العناية بشأن المسئول عنه .وإضافة كلمة ( أمر ) إلى لفظ
الرب - عز وجل - ، من باب الاختصاص العلمى ، إذ الرب وحده هو العليم بشأنها
- وليس من باب الاختصاص الوجودى ، لأن الروح وغيرها من مخلوقات الله ،
تعالى - .وفى هذه الإضافة ما فيها من تشريف المضاف ، حيث أضيف هذا الأمر
إلى الله - تعالى - وحده .قال القرطبى : وقوله - تعالى - ( قُلِ الروح مِنْ
أَمْرِ رَبِّي ) دليل على خلق الروح ، أى : هو أمر عظيم ، وشأن كبير من أمر
الله - تعالى - ، مبهمًا له وتاركًا تفصيله ، ليعرف الإنسان على القطع
عجزه عن علم حقيقة نفسه مع العلم بوجودها . وإذا كان الإنسان فى معرفة
نفسه هكذا ، كان عجزه عن إدراك حقيقة الحق أولى . وحكمة ذلك تعجيز العقل عن
: إدراك معرفة مخلوق مجاور له ، دلالة على أنه عن إدراك خالقه أعجز .وقوله
من جملة الجواب الذى أمر ( وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ العلم إِلاَّ قَلِيلاً )
الله - تعالى - رسوله صلى الله عليه وسلم أن يرد به على السائلين عن حقيقة
الروح .أى : وما أوتيتم - أيها السائلون عن الروح - من العلم إلا علمًا
قليلاً ، بالنسبة إلى علمه - تعالى - الذى وسع كل شئ ، ولا يخفى عليه شئ
وإن علمكم مهما كثر فإنه لا يمكنه أن يتعلق بحقيقة الروح وأحوالها ، لأن.
ذلك شئ استأثر الله - تعالى - به وحده ، واقتضت حكمته - عز وجل - أن يجعله
فوق مستوى عقولكم .قال صاحب الظلال عند تفسيره لهذه الآية : والمنهج الذى
سار عليه القرآن - وهو المنهج الأقوم - أن يجيب الناس عما هم فى حاجة إليه
وما يستطيع إدراكهم البشرى بلوغه ومعرفته ، فلا يبدد الطاقة العقلية التى ،
، وهبها الله لهم فيما لا ينتج ولا يثمر ، وفى غير مجالها الذى تملك وسائله
وبعضهم عندما سأل النبى صلى الله عليه وسلم عن الروح ، أمره الله أن يجيبهم
بأن الروح من أمره- سبحانه - . . .وليس فى هذا حجر على العقل البشرى أن

يعمل ، ولكن فيه توجيهًا لهذا العقل أن يعمل فى حدوده ، وفى مجاله الذى يدركه .والروح غيب من غيب الله لا يدركه سواه . . ولقد أبدع الإنسان فى هذه الأرض ما أبدع ، ولكنه وقف حسيرا أمام ذلك السر اللطيف - الروح -لا يدرى ما هو؟ ولا كيف جاء؟ ولا كيف يذهب؟ ولا أين كان ولا أين يكون ، إلا ما يخبر به العليم الخبير فى التنزيل " .وقال بعض العلماء : وفى هذه الآية ما ، يزجر الخائضين فى شأن الروح ، المتكلفين لبيان ماهيته ، وإيضاح حقيقته أبلغ زجر ، ويردعهم أعظم ردع ، وقد أطالوا المقال فى هذا البحث ، بما لا يتسع له المقام ، وغالبه ، بل كله من الفضول الذى لا يأتى بنفع فى دين أو ، دنيا . .فقد استأثر الله - تعالى - بعلم الروح ، ولم يطلع عليه أنبياءه ولم يأذن لهم بالسؤال عنه ، ولا البحث عن حقيقته ، فضلاً عن أممهم المقتدين . . . . بهم

ولئن شئنا لنذهبن بالذي اوحينا اليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - مظهرًا من مظاهر قدرته ، بعد أن بين أن الروح من أمره ، فقال - تعالى - : ( وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً ) واللام فى قوله ( ولئن شئنا . . . ) موطئة لقسم محذوف ، جوابه ( لنذهبن ). أى : والله لئن شئنا لنذهبن بهذا القرآن الذى أوحيناه إليك - أيها الرسول. الكريم - ، بحيث نزيله عن صدرك ، ومن صدور أتباعك ، ونمحوه من الصحف حتى لا . يبقى له أثر إذ أن قدرتنا لا يعجزها ، ولا يحول دون تنفيذ ما نريده حائل ثم لا تجد لك بعد ذلك من يكون وكيلاً عنا فى رد القرآن إليك بعد ذهابه. ومحوه ، ومن يتعهد بإعادته بعد رفعه وإزالته .قال الآلوسى : " وعبر عن ، القرآن بالموصول فى قوله ( بالذي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ) ، تفخيمًا لشأنه ووصفا له بما فى حيز الصلة ابتداء ، إعلامًا بحاله من أول الأمر ، وبأنه . " . . . ليس من قبيل كلام المخلوق

الا رحمة من ربك ان فضله كان عليك كبيرا

كما فسرها الوسيط وقوله : ( لاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ) استثناء واستدراك على قوله : ( لَنَذْهَبَنَّ بالذي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ . . ) .أى والله إن شئنا إذهاب القرآن من صدرك لأذهبناه ، دون أن تجد أحدًا يرده : عليك ، لكننا لم نشأ ذلك بل أبقيناه فى صدرك رحمة من ربك .قال الجمل : وفى هذا الاستثناء قولان : أحدهما : أنه استثناء متصل : لأن الرحمة تندرج فى قوله ( وكيلا ) .أى : إلا رحمة منا فإنها إن نالتك فلعلها تسترده عليك والثانى : أنه منقطع ، فيتقدر بلكن أو ببل ، و ( من ربك ) يجوز أن يتعلق بمحذوف صفة لرحمة - أى لكن رحمة ربك تركته غير مذهوب به .وقوله ( إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً ) بيان لما امتن الله به على نبيه صلى ، الله عليه وسلم .أى : إن فضله كان عليك كبيرًا ، حيث أنزل القرآن عليك ، وأبقاه فى صدرك دون أن يزيله منه ، وجعلك سيد ولد آدم ، وخاتم رسله وأعطاك المقام المحمود يوم القيامة .قال صاحب الكشاف : " وهذا امتنان عظيم من الله - تعالى - ببقاء القرآن محفوظًا ، بعد المنة العظيمة فى تنزيله . وتحفيظه . فعلى كل ذى علم أن لا يغفل عن هاتين المنتين والقيام بشكرهما . وهما منة الله عليه بحفظه العلم ، ورسوخه فى صدره ، ومنته عليه فى بقاء المحفوظ " .

قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان ياتوا بمثل هذا القران لا ياتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا

كما فسرها الوسيط ثم أمر الله - تعالى - نبيه أن يتحدى المشركين بهذا القرآن فقال - تعالى - : ( قُل لَّئِنِ اجتمعت الإنس والجن عِلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هذا القرآن لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ) .أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المشركين الذين قالوا - كما حكى الله عنهم - ( لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هذا ) قل لهم على سبيل التحدى والتعجيز : والله لئن اجتمعت الإنس - والجن ، واتفقوا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، الذى أنزله الله - تعالى من عنده على قلبى . .لا يستطيعون ذلك . ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا ومعينًا ) - ومناصرًا ، فى تحقيق ما يتمنونه من الإتيان بمثله .وخص - سبحانه الإنس والجن ) بالذكر لأن المنكر كون القرآن من عند الله ، من جنسهما لا من جنس غيرهما كالملائكة - مثلاً - ، فإنهم عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، ولأن التحدى إنما هو للإنس والجن الذين أرسل - الرسول صلى الله عليه وسلم إليهم ، لهدايتهم إلى الصراط المستقيم .وقال سبحانه - : ( لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ) فأظهر فى مقام الإضمار ، ولم يكتف بأن يقول : لا يأتون به ، لدفع توهم أن يتبادر إلى الذهن أن له مثلاً

، معينًا ، وللإشعار بأن المقصود نفى المثل على أى صفة كانت هذه المثلية
سواء أكانت فى بلاغته ، أم فى حسن نظمه ، أم فى إخباره عن المغيبات ، أم فى
غير ذلك من وجوه إعجازه .وقوله : ( وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ
ظَهِيراً ) معطوف على مقدر ، أى :لا يستطيعون الإتيان بمثله لو لم يكن
بعضهم ظهيرا ونصيرا لبعض ، ولو كان بعضهم ظهيرا ونصيرا لبعض لما استطاعوا
أيضًا .والمقصود أنهم لا يستطيعون الإتيان بمثله على أية حال من الأحوال؛
وبأية صورة من الصور ، لأنه متى انتفى إتيانهم بمثله مع المظاهرة والمعاونة
انتفى من باب الأولى الإتيان بمثله مع عدمهما . وقوله : ( لبعض ) متعلق ،
بقوله ( ظهيرا ) .ولقد بين - سبحانه - فى آيات أخرى أنهم لن يستطيعوا
) : - الإتيان بعشر سور من مثله ، بل بسورة واحدة من مثله .قال - تعالى
أَمْ يَقُولُونَ افتراه قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ
مُفْتَرَيَاتٍ وادعوا مَنِ استطعتم مِّن دُونِ الله إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ
وقال - سبحانه - : ( وَإِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا على
عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وادعوا شُهَدَآءَكُم مِّن
دُونِ الله إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ )

ولقد صرفنا للناس في هذا القران من كل مثل فابى اكثر الناس الا كفورا

`<!-- TODO:MISSING -->`{=html} كما فسرها الوسيط

وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا

كما فسرها الوسيط ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات رواية طويلة ملخصها
أن نفرا من زعماء قريش اجتمعوا عند الكعبة ، وطلبوا رسول الله صلى الله " :
، عليه وسلم فجاءهم ، فقالوا له يا محمد : إنا قد بعثنا إليك لنعذر فيك
وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك!! لقد
شتمت الآباء ، وعبت الدين . وسفهت الأحلام ، وشتمت الآلهة . . .فإن كنت جئت
بهذا الحديث تطلب مالاً ، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن
. . كنت تطلب شرفا فينا ، سودناك علينا ، وإن كنت تريد ملكًا ملكناك علينا
فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بى شئ مما تقولون ، ولكن الله.
، بعثنى إليكم رسولاً ، وأنزل على كتابًا ، وأمرنى أن أكون بشيرًا ونذيرًا
فبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ، فإن تقبلوا منى فهو حظكم من الدنيا والآخرة
وإن تردوه على أصبر لأمر الله - تعالى - حتى يحكم بينى وبينكم .فقالوا له ،
يا محمد : فإن كنت صادقًا فيما تقول ، فسل لنا ربك الذى بعثك ، فليسير عنا
، هذا الجبل الذى قد ضيق علينا ، وليبسط لنا بلادنا ، ويفجر فيها الأنهار
ويبعث من مضى من آبائنا ، فنسألهم عما تقول أحق هو أم باطل . .وسله أن يبعث
. معك ملكا يصدقك ، واسأله أن يجعل لك جنانا وقصورًا أو كنوزًا من ذهب وفضة
تعينك على معاشك .فقال صلى الله عليه وسلم ما بعثت بهذا . فقالوا : فأسقط
السماء - كما زعمت - علينا كسفا . . .وقال أحدهم : لا أومن بك أبدًا ، حتى
تتخذ لك سلمًا إلى السماء ترقى فيه ، ونحن ننظر إليك . .فانصرف صلى الله
عليه وسلم عنهم حزينًا ، لما رأى من تباعدهم عن الهدى ، فأنزل الله عليه
هذه الآيات تسلية له . . . " .والمعنى : وقال المشركون الذين لا يرون
لقاءنا لرسولنا صلى الله عليه وسلم يا محمد : ( لَن نُّؤْمِنَ لَكَ )
ونتبعك فيما تدعونا إليه .( حتى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأرض يَنْبُوعاً ) أى
حتى تخرج لنا من أرض مكة القليلة المياه ، ( ينبوعًا ) أى : عينا لا ينضب :
- ماؤها ولا يغور .يقال : نبع الماء من العين ينبع - بتثليث الباء فيهما
إذا خرج وظهر وكثر .وقرأ بعض السبعة ( تفجر ) بالتخفيف - من باب نصر - وقرأ
البعض الآخر ( تفجر ) بتشديد الجيم ، من فجر بالتشديد ، والتضعيف للتكثير
) والتعريف فى لفظ ( الأرض ) للعهد ، لأن المراد بها أرض مكة .وعبر بكلمة.
ينبوعًا ) للإشعار بأنهم لا يريدون من الماء ما يكفيهم فحسب ، وإنما هم
، يريدون ماء كثيرًا لا ينقص فى وقت من الأوقات ، إذ الياء زائدة للمبالغة

او تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيرا

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن
نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأنهار خِلالَهَا تَفْجِيراً ) بيان
لاقتراح آخر من مقترحاتهم السخيفة .والمعنى : أو تكون لك بصفة خاصة يا محمد
أى : حديقة ملتفة الأغصان ، مشتملة على الكثير من أشجار النخيل ( جنة ) ،
والأعناب : تجرى الأنهار فى وسطها جريا عظيمًا هائلاً . .وخصوا النخيل
والأعناب بالذكر - كما حكى القرآن عنهم - ، لأن هذين الصنفين يعتبران من
أهم الثمار عندهم ، ولأنهما على رأس الزروع المنتشرة فى أراضيهم ، والتى
لها الكثير من الفوائد .وقوله : ( خلالها ) منصوب على الظرفية ، لأنه بمعنى
وسطها وبمعنى ثناياها .والتنوين فى قوله ( تفجيرا ) للتكثير ، أى : تفجيرا
كثيرا زاخرا ، بحيث تكون تلك الجنة الخاصة بك ، غنية بالمياه التى تنفعها

. وترويها

او تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا او تاتي بالله والملائكة قبيلا

كما فسرها الوسيط وقوله - عز وجل - : ( أَوْ تُسْقِطَ السمآء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً . . . ) اقتراح ثالث من مقترحاتهم الفاسدة
: ولفظ ( كسفا ) أى : قطعًا جمع كسفة - بكسر الكاف وسكون الشين ، يقال. كسفت الثوب أى : قطعته وهو حال من السماء ، والكاف فى قوله : ( كما ) صفة لموصوف محذوف .والمعنى : أو تسقط أنت علينا السماء إسقاطا مماثلاً لما هددتنا به ، من أن فى قدرة ربك - عز وجل - أن ينزل علينا عذابًا متقطعًا من السماء .ولعلهم يعنون بذلك قوله - تعالى - : ( أَفَلَمْ يَرَوْاْ إلى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السمآء والأرض إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الارض أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِّنَ السمآء . . .
وقيل : يعنون بذلك ، أنك وعدتنا أن يوم القيامة تنشق فيه السماء ، فعجل ( . - لنا ذلك فى الدنيا ، وأسقطها علينا ، كما حكى عنهم القرآن ذلك فى قوله تعالى - ( وَإِذْ قَالُواْ اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السمآء أوِ ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ
فهم يتعجلون العذاب ، والرسول صلى الله عليه وسلم ، يرجو لهم من ( . . . الله - تعالى - الرحمة والهداية وتأخير العذاب عنهم ، لعله - سبحانه - أن يخرج من أصلابهم من يخلص له العبادة والطاعة .وقوله - تعالى - ( أَوْ تَأْتِيَ بالله والملائكة قَبِيلاً ) تسجيل لمطلب رابع من مطالبهم القبيحة
قال الآلوسى : ( قبيلا ) أى : مقابلاً ، كالعشير والمعاشر ، وأرادوا - كما جاء عن ابن عباس - عِيانًا .وهذا كقولهم : ( لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْنَا الملائكة أَوْ نرى رَبّنَا ) وفى رواية أخرى عنه وعن الضحاك تفسير القبيل بالكفيل ، أى : كفيلا بما تدعيه . يعنون شاهدا يشهد لك بصحة ما قلته .وهو على الوجهين حال من لفظ الجلالة . . وعن مجاهد : القبيل الجماعة كالقبيلة ، فيكون حالاً من الملائكة - أى : أو تأتى بالله وبالملائكة قبيلة قبيلة .

او يكون لك بيت من زخرف او ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت الا بشرا رسولا

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - بقية مطالبهم التى لا يقرها عقل سليم فقال : ( أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ ) .أى : من ذهب ، والزخرف يطلق فى الأصل على الزينة ، وأطلق هنا على الذهب لأن الذهب أثمن ما يتزين به فى العادة .

وما منع الناس ان يؤمنوا اذ جاءهم الهدى الا ان قالوا ابعث الله بشرا رسولا

كما فسرها الوسيط قال الفخر الرازى : اعلم أنه - تعالى - لما حكى شبهة القوم فى اقتراح المعجزات الزائدة ، وأجاب عنها ، حكى عنهم شبهة أخرى ، وهى أن القوم استبعدوا أن يبعث الله إلى الخلق رسولاً من البشر ، بل اعتقدوا أن الله - تعالى - لو أرسل رسولاً إلى الخلق ، لوجب أن يكون ذلك الرسول من الملائكة ، فأجاب الله - تعالى - عن هذه الشبهة فقال : ( وَمَا مَنَعَ الناس أَن يؤمنوا إِذْ جَآءَهُمُ الهدى إِلاَّ أن قالوا . . . ) .والمراد بالناس هنا : المشركون منهم ، الذين استبعدوا واعتقدوا أن الرسول لا يكون من البشر ، ويدخل فيهم دخولاً أوليًا كفار مكة .وجملة ( أن يؤمنوا ) فى محل " نصب ، لأنها مفعول ثان لمنع .وقوله : ( إِلاَّ أن قالوا ) هو الفاعل ، و إذ " ظرف للفعل منع ، أو لقوله : ( أن يؤمنوا ) .والمعنى : وما صرف المشركين عن الإيمان بالدين الحق وقت أن جاءتهم به الرسل ، إلا اعتقاد هؤلاء المشركين أن الله - تعالى - لا يبعث إليهم رجلاً من البشر لكى يبلغهم وحيه ، وإنما يبعث إليهم ملكًا من الملائكة لكى يبلغهم ذلك .وعبر عن اعتقادهم الباطل هذا بالقول فقال : ( إِلاَّ أن قالوا . . ) للإشعار بأنه مجرد قول لاكته ألسنتهم ، دون أن يكون معهم أى مستند يستندون إليه لإثبات ، قبوله عند العقلاء .وجاء التعبير عن اعتقادهم الباطل هذا بصيغة الحصر لبيان أنه مع بطلانه - هو من أهم الموانع والصوارف ، التى منعتهم وصرفتهم - عن الدخول فى الدين الحق ، الذى جاءتهم به الرسل - عليهم الصلاة والسلام وهذا لا يمنع أن هناك صوارف أخرى حالت بينهم وبين الإيمان كالحسد ، ، والعناد .قال صاحب الكشاف : " والمعنى . وما منعهم من الإيمان بالقرآن وبنبوة النبى صلى الله عليه وسلم إلا شبهة تلجلجت فى صدورهم ، وهى إنكارهم أن يرسل الله البشر . والهمزة فى ( أبعث الله ) للإنكار ، وما أنكروه فخلافه هو المنكر عند الله - تعالى - لأن قضية حكمته ، أن لا يرسل ملك ، الوحى إلا إلى أمثاله ، أو إلى الأنبياء " .والمتدبر فى القرآن الكريم يرى أن هذه الشبهة - وهى إنكار المشركين كون الرسول بشرًا - قد حكاها فى آيات كثيرة منها قوله - تعالى - : ( أَكَانَ لِلنّاسِ عَجَباً أَنْ

أَوْحَيْنَآ إلى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ الناس وَبَشِّرِ الذين
آمنوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ . . . ) وقوله - تعالى -
ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بالبينات فقالوا ) :
أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ واستغنى الله والله
غَنِيٌّ حَمِيدٌ ) ومما لا شك فيه أن هذه الشبهة تدل ، على أن هؤلاء
الكافرين ، لم يدركوا قيمة بشريتهم وكرامتها عند الله - تعالى - ، وذلك
بسبب انطماس بصائرهم ، وكثرة جهلهم ، وعكوفهم على موروثاتهم الفاسدة .

قل لو كان في الارض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا
رسولا

كما فسرها الوسيط ولذا أمر الله - تعالى - بأن يرد عليهم بما يزهق هذه
الشبهة فقال - سبحانه - ( قُل لَّوْ كَانَ فِي الأرض ملائكة يَمْشُونَ
مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السمآء مَلَكاً رَّسُولاً )
والمعنى : قل - يا محمد - لهؤلاء الجاهلين : لو ثبت ووجد ملائكة فى الأرض.
يمشون على أقدامهم كما يمشى الإنس ، ويعيشون فوقها ( مطمئنين ) أى :
مستقرين فيها مقيمين بها .لو ثبت ذلك ، لاقتضت حكمتنا أن نرسل إليهم من
السماء ملكًا رسولاً ، يكون من جنسهم ، ويتكلم بلسانهم ، وبذلك يتمكنون من
مخاطبته ، ومن الأخذ عنه ، ومن التفاهم معه لأن الجنس إلى الجنس أميل ،
والرسول يجب أن يكون من جنس المرسل إليهم ، فلو كان المرسل إليهم ملائكة
لكان الرسول إليهم ملكًا مثلهم ، ولو كان المرسل إليهم من البشر ، لكان
الرسول إليهم بشرًا مثلهم .فكيف تطلبون أيها الجاهلون - أن يكون الرسول
إليكم ملكًا ، وتستبعدون أن يكون بشرًا مع أنكم من البشر؟!"قال الآلوسى :
قوله : ( لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السمآء مَلَكاً رَّسُولاً ) أى :
يعلمهم ما لا تستقل عقولهم بعلمه ، وليسهل عليهم الاجتماع به ، والتلقى منه
. . . وأما عامة البشر فلا يسهل عليهم ذلك ، لبعد ما بين الملك وبينهم ،"
وهذا المعنى الذى وضحته الآية الكريمة - وهو أن الرسول يجب أن يكون من جنس
المرسل إليهم - قد جاء ما يشبهه ويؤكده فى آيات كثيرة منها قوله - تعالى -
وَقَالُواْ لولا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكاً ) :
لَّقُضِيَ الأمر ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً
( لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ
وقوله - سبحانه - : ( وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نوحي
إِلَيْهِمْ فاسألوا أَهْلَ الذكر إِن كُنْتُم لاَ تَعْلَمُونَ ) وقوله - عز
وجل : ( وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ
لِيُبَيِّنَ لَهُمْ . . . )

قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم انه كان بعباده خبيرا بصيرا

كما فسرها الوسيط ثم أمر الله - تعالى - نبيه صلى الله عليه وسلم للمرة
الثانية ، أن يحسم الجدال معهم ، بتفويض أمره وأمرهم إلى الله - عز وجل -
فهو خير الحاكمين فقال : ( قُلْ كفى بالله شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ
إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً ) .أى : قل لهم فى هذه المرة
من جهتك ، بعد أن قلت لهم فى المرة السابقة من جهتنا : قل لهم - أيها
الرسول الكريم - يكفينى ويرضينى ويسعدنى ، أن يكون الله - تعالى - هو
الشهيد والحاكم بينى وبينكم يوم نلقاه جميعًا فهو - سبحانه - يعلم أنى قد
بلغتكم ما أرسلت به إليكم ، إنه - تعالى - كان وما زال خبيرًا بصيرًا . أى
محيطًا إحاطة تامة بظواهرهم وبواطنهم ، لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى
السماء .وفى هذه الآية الكريمة تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم عما أصابه
منهم من أذى ، وتهديد لهم بسوء المصير ، حيث آذوا نبيهم الذى جاء لهدايتهم
وسعادتهم .

ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم اولياء من دونه ونحشرهم يوم
القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما ماواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَمَن يَهْدِ الله فَهُوَ المهتد
وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِ ) كلام مستأنف
منه - تعالى - لبيان نفاذ قدرته ومشيئته .أى : ومن يهده الله - تعالى - إلى
طريق الحق ، فهو الفائز بالسعادة ، المهدى إلى كل مطلوب حسن ، ( ومن يضلل )
أى : ومن يرد الله - تعالى - إضلاله ( فَلَن تَجِدَ لَهُمْ ) أيها الرسول
الكريم ( أولياء ) أى : نصراء ينصرونهم ويهدونهم إلى طريق الحق ( من دونه )
عز وجل ، إذ أن الله - تعالى - وحده هو الخالق للهداية والضلالة ، على حسب
ما تقتضيه حكمته ومشيئته .وجاء قوله - تعالى - ( فهو المهتد ) بصيغة
الإفراد حملا على لفظ ( من ) فى قوله ( وَمَن يَهْدِ الله ) وجاء قوله :
فَلَن تَجِدَ لَهُمْ ) بصيغة الجمع حملا على معناها فى قوله : ( ومن يضلل )

قالوا : ووجه المناسبة فى ذلك - والله أعلم - أنه لما كان الهدى شيئًا واحدًا غير متشعب السبل ، ناسبه الإفراد ، ولما كان الضلال له طرق متشعبة كما فى قوله - تعالى - : ( وَلاَ تَتَّبِعُواْ السبل فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ) ناسبه الجمع .ثم بين - سبحانه - الصورة الشنيعة التى يحشر عليها الضالون يوم القيامة فقال : ( وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القيامة على وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً . . ) .والحشر : الجمع . يقال : حشرت الجند حشرًا . أى جمعتهم . وقوله : ( على وجوههم ) حال من الضمير المنصوب فى نحشرهم . وقوله : ( عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً ) أحوال من الضمير المستكن فى قوله ( على وجوههم ) . أى : نجمع هؤلاء الضالين يوم القيامة ، حين يقومون من قبورهم ، ونجعلهم - بقدرتنا - يمشون على وجوههم ، أو يسحبون عليها ، إهانة لهم وتعذيبًا ، ويكونون فى هذه الحالة عميا لا يبصرون ، وبكما لا ينطقون ، وصما لا يسمعون .قال الآلوسى ما ملخصه : قوله - تعالى - : ( نَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القيامة على وُجُوهِهِمْ ) إما مشيا ، بأن يزحفوا منكبين عليها . ويشهد له ما أخرجه الشيخان وغيرهما عن أنس قال : " قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف يحشر الناس على وجوههم؟ فقال : " الذى أمشاهم على أرجلهم ، قادر على أن يمشيهم على وجوههم " .وإما سحبا بأن تجرهم الملائكة منكبين عليها ، كقوله - تعالى - : ( يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النار على وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ) ويشهد له ما أخرجه أحمد والنسائي والحاكم - وصححه - " عن أبى ذر ، أنه تلا هذه الآية ) . وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القيامة على وُجُوهِهِمْ ) فقال : حدثنى الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم أن الناس يحشرون يوم القيامة على ثلاثة أفواج فوج طاعمين كاسين راكبين ، وفوج يمشون ويسعون ، وفوج تسحبهم الملائكة على وجوههم " .وجائز أن يكون الأمران فى حالين : الأول : عند جمعهم وقبل دخولهم النار ، والثانى عند دخولهم فيها .. .ثم قال : وزعم بعضهم أن الكلام على المجاز ، وذلك كما يقال للمنصرف عن أمر وهو خائب مهموم : انصرف على وجهه . وإياك أن تلتفت إلى - هذا الزعم - أو إلى تأويل نطقت السنة النبوية . بخلافه ، ولا تعبأ بقوم يفعلون ذلك .فإن قيل : كيف نوفق بين هذه الآية التى تثبت لهؤلاء الضالين يوم حشرهم العمى والبكم والصمم ، وبين آيات أخرى تثبت لهم فى هذا اليوم الرؤية والكلام والسمع ، كما فى قوله - تعالى - : ( وَرَأَى المجرمون النار . . ) وكما فى قوله - سبحانه - : ( دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُوراً ) وكما فى قوله - عز وجل - : ( سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً ) فالجواب : أن المراد فى الآية هنا أنهم يحشرون عميا لا يرون ما يسرهم ، وبكما لا ينطقون بحجة تنفعهم ، وصمًا لا يسمعون ما يرضيهم . .أو أنهم يحشرون كذلك ، ثم تعاد لهم حواسهم بعد ذلك عند الحساب وعند دخولهم النار .أو أنهم عندما يحشرون يوم القيامة ، ويرون ما يرون من أهوال ، تكون أحوالهم كأحوال العمى الصم البكم ، لعظم حيرتهم ، وشدة خوفهم وفرط ذهولهم .ثم بين - سبحانه - مآلهم بعد الحشر والحساب فقال ، ) : ( مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً ) .ومعنى ) خبت ) هدأت وسكن لهيبها . يقال : خبت النار تخبو إذا هدأ لهيبها .أى : أن هؤلاء المجرمين مأواهم ومسكنهم ومقرهم جهنم ، كلما سكن لهيب جهنم وهدأ ، بأن أكلت جلودهم ولحومهم ، زدناهم توقدا ، بأن تبدل جلودهم ولحومهم بجلود ولحوم أخرى ، فتعود النار كحالتها الأولى ملتهبة مستعرة .وخبو النار وسكونها لا ينقص شيئًا من عذابهم ، وعلى ذلك فلا تعارض بين هذه الآية وبين قوله - عز وجل - ( خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العذاب وَلاَ هُمْ يُنْظَرُونَ ) وفى هذه الآية ما فيها من عذاب للكافرين تقشعر من هوله الأبدان ، وترتجف من تصويره النفوس والقلوب ، نسأل الله - تعالى - بفضله ورحمته أن يجنبنا هذا المصير المؤلم .

ذلك جزاؤهم بانهم كفروا باياتنا وقالوا ااذا كنا عظاما ورفاتا اانا لمبعوثون خلقا جديدا

كما فسرها الوسيط وقوله - عز وجل - : ( ذَلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا وَقَالُواْ أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً ) بيان للأسباب التى أفضت بهم إلى تلك العاقبة السيئة .أى : ذلك الذى نزل بهم من العذاب الشديد ، المتمثل فى حشرهم على وجوههم وفى اشتعال النار بهم ، سببه أنهم كفروا بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا وقالوا بإنكار وجهالة : أئذا كنا عظامًا نخرة ورفاتا أى وصارت أجسادنا تشبه التراب فى تفتتها وتكسرها ، أئنا بعد ذلك لمعادون إلى الحياة ومبعوثون على هيئة خلق جديد .فالآية الكريمة تحكى تصميمهم على الكفر ، وإنكارهم للبعث والحساب إنكارًا لا مزيد عليه ، لذا كانت عقوبتهم شنيعة ، وعذابهم أليمًا . فقد سلط الله - تعالى - عليهم النار تأكل أجزاءهم ، وكلما سكن لهيبها ، أعادها الله - تعالى - ملتهبة مشتعلة على جلود أخرى لهم ، كما قال - تعالى -( إِنَّ الذين كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ

جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ العذاب . . . ).

اولم يروا ان الله الذي خلق السماوات والارض قادر على ان يخلق مثلهم وجعل لهم اجلا لا ريب فيه فابى الظالمون الا كفورا

كما فسرها الوسيط ثم رد - سبحانه - على ما استنكروه من شأن البعث ردًا يقنع كل ذى عقل سليم ، فقال - تعالى - ( أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنّ الله الذي خَلَقَ السماوات والأرض قَادِرٌ على أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ) . . . والهمزة للاستفهام التوبيخى ، وهى داخلة على محذوف ، والمراد بمثلهم إياهم. - فيكون المعنى : أعموا عن الحق ، ولم يعلموا كما يعلم العقلاء ، أن الله ، تعالى - الذى خلق السموات والأرض بقدرته ، وهما أعظم من خلق الناس ، قادر على إعادتهم إلى الحياة مرة أخرى بعد موتهم ، لكى يحاسبهم على أعمالهم فى الدنيا .إن عدم علمهم بذلك ، وإنكارهم له ، لمن أكبر الأدلة على جهلهم وانطماس بصيرتهم ، لأن من قدر على خلق ما هو أعظم وأكبر - وهو السموات والأرض فهو على إعادة ما هو دونه - وهو الناس - أقدر .قال الشيخ الجمل ما ملخصه : قوله : ( أَوَلَمْ يَرَوْاْ . . ) هذا رد لإنكارهم البعث ، ولما استبعدوه من شأنه ، يعنى أن من خلق السموات والأرض ، كيف يستبعد منه أن يقدر على إعادتهم بأعيانهم . . وأراد - سبحانه - . . بمثلهم : إياهم ، فعبر عن خلقهم بلفظ المثل كقول المتكلمين : إن الإعادة مثل الابتداء ، وذلك أن مثل الشئ مساو له فى حاله ، فجاز أن يعبر به عن الشئ نفسه يقال : مثلك لا يفعل كذا ، أى : أنت لا تفعله .ويجوز أن يكون المعنى أنه - سبحانه - قادر على أن يخلق عبيدًا غيرهم يوحدونه ويقرون بكمال حكمته ، ويتركون هذه الشبهات الفاسدة ، كما فى قوله - تعالى - ( وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يكونوا أَمْثَالَكُم ) والأول أشبه بما قبله .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنّ الله الذي خَلَقَ السماوات والأرض وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنّ ( بِقَادِرٍ على أَن يُحْيِيَ الموتى بلى إِنّهُ على كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وقوله - سبحانه - : ( أَوَلَيْسَ الذي خَلَقَ السماوات والأرض بِقَادِرٍ على أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بلى وَهُوَ الخلاق العليم . . . ) وبعد أن أقام - سبحانه - الدليل الواضح على أن البعث حق ، وعلى أن إعادة الناس إلى الحياة بعد موتهم أمر ممكن ، أتبع ذلك ببيان أن لهذه الإعادة وقتًا معلومًا يجريه حسب حكمته - تعالى - فقال : ( وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاّ رَيْبَ فِيهِ ) .أى : وجعل لهم ميقاتًا محددا لا شك فى حصوله ، وعند حلول ) : - هذا الميقات يخرجون من قبورهم للحساب والجزاء ، كما قال - تعالى وَمَا نُؤَخّرُهُ إِلاّ لأَجَلٍ مّعْدُودٍ يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلّمُ نَفْسٌ إِلاّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ) والجملة الكريمة وهى قوله : ( وجعل لهم . . . ) معطوفة على قوله ( أَوَلَمْ يَرَوْاْ . . ) لأنه فى قوة قولك قد رأوا وعلموا .قال صاحب الكشاف : فإن قلت؛ علام عطف قوله : ( وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً ) ؟قلت : على قوله : ( أَوَلَمْ يَرَوْاْ ، لأن المعنى : قد علموا بدليل العقل ، أن من قدر على خلق السموات والأرض ( فهو قادر على خلق أمثالهم من الإنس لأنهم ليسوا بأشد خلقًا منهن ، كما قال وقوله - سبحانه - : ( فأبى ( أَأَنتُمْ أَشَدّ خَلْقاً أَمِ السمآء ) : الظالمون إِلاّ كُفُوراً ) بيان لإصرارهم على جحود الحق مع علمهم بأنه حق أى : فأبى هؤلاء الظالمون المنكرون للبعث ، إلا جحودًا له وعنادًا لمن. دعاهم إلى الإيمان به ، شأن الجاهلين المغرورين الذين استحبوا العمى على الهدى .

قل لو انتم تملكون خزائن رحمة ربي اذا لامسكتم خشية الانفاق وكان الانسان قتورا

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - الآيات الكريمة بأمر النبى صلى الله عليه وسلم بأن يجابه هؤلاء الظالمين بما جبلوا عليه من بخل وشح ، بعد أن طلبوا منه ما طلبوا من مقترحات متعنتة ، فقال - تعالى - : ( قُل لّوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبّي إِذاً لأَمْسَكْتُمْ : خَشْيَةَ الإنفاق وَكَانَ الإنسان قَتُوراً ) .والمراد بخزائن رحمة ربى أرزاقه التى وزعها على عباده ، ونعمه التى أنعم بها عليهم .و ( قتورًا ) من التقتير بمعنى البخل . يقال : قتر فلان يقتر - بضم التاء وكسرها - إذا بالغ فى الإمساك والشح .أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الظالمين الذين أعرضوا عن دعوتك ، وطالبوك بما ليس فى وسعك من تفجير الأرض بالأنهار ، ومن غير ذلك من مقترحاتهم الفاسدة ، قل لهم على سبيل التقريع والتبكيت : لو أنكم تملكون - أيها الناس - التصرف فى خزائن الأرزاق التى وزعها الله على خلقه ، إذًا لبخلتم وأمسكتم فى توزيعها عليهم ، مخافة أن يصيبكم الفقر لو أنكم توسعتم فى العطاء ، مع أن خزائن الله لا تنفد أبدًا ، ولكن لأن البخل من طبيعتكم فعلتم ذلك .قال بعضهم : قوله : ( لّوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ )

فيه وجهان : أحدهما : أن المسألة من باب الاشتغال . فأنتم مرفوع بفعل مقدر يفسره هذا الظاهر ، لأن لو لا يليها إلا الفعل ظاهرًا أو مضمرا . فهى كإن فى قوله - تعالى - : ( وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ المشركين استجارك فَأَجِرْهُ ) والأصل : لو تملكون ، فحذف الفعل لدلالة ما بعده عليه - والثانى : أنه . . . مرفوع بكان ، وقد كثر حذفها بعد لو ، والتقدير : لو كنتم تملكون والمقصود بالإمساك هنا : إمساكهم عن العطاء فى الدنيا ، وهذا لا ينافى. قوله - تعالى - : ( وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي الأرض جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْاْ بِهِ . . . ) لأن ذلك حكاية عن أحوالهم فى الآخرة عندما يرون العذاب ، ويتمنون أن يفتدوا أنفسهم منه بأى شئ .وقوله ( إذًا ) ظرف لتملكون . وقوله ( لأمسكتم ) جواب لو ، وقوله ( خشية الإنفاق ) علة للإمساك والبخل .وقوله : (وَكَانَ الإنسان قَتُوراً ) - أى : مبالغًا فى البخل والإمساك .قال الإمام ابن كثير : والله ( تعالى - يصف الإنسان من حيث هو ، إلا من وفقه الله وهداه ، فإن البخل والجزع والهلع صفة له ، كما قال - تعالى - :

ولقد اتينا موسى تسع ايات بينات فاسال بني اسرائيل اذ جاءهم فقال له فرعون اني لاظنك يا موسى مسحورا

كما فسرها الوسيط والمراد بالآيات التسع فى قوله - تعالى - : ( وَلَقَدْ آتَيْنَا موسى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ . . . ) : العصا ، واليد ، والسنون والبحر ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع؛ والدم . قال ذلك ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم .وقد جاء الحديث عن هذه الآيات فى مواضع أخرى من القرآن الكريم ، منها قوله - تعالى - : ( فألقى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّاظِرِينَ ) وقوله - تعالى - : ( وَلَقَدْ أَخَذْنَآ آلَ فِرْعَونَ بالسنين وَنَقْصٍ مِّن الثمرات . . . ) وقوله - سبحانه - : ( فَأَوْحَيْنَآ إلى موسى أَنِ اضرب بِّعَصَاكَ البحر فانفلق فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كالطود العظيم ) وقوله - عز وجل - : ( فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيَاتٍ مُّفَصَّلاَتٍ فاستكبروا وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ ) والمعنى :لا تظن - أيها الرسول الكريم - أن إيمان هؤلاء المشركين من قومك ، متوقف على إجابة ما طلبوه منك . وما اقترحوه عليك من أن تفجر لهم من الأرض ينبوعًا ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب . . . الخ .لا تظن ، ذلك :فإن الخوارق مهما عظمت لا تنشئ الإيمان فى القلوب الجاحدة الحاقدة بدليل أننا قد أعطينا أخاك موسى تسع معجزات ، واضحات الدلالة على صدقه فى نبوته ، ولكن هذه المعجزات لم تزد المعاندين من قومه إلا كفرًا على كفرهم ورجسًا على رجسهم . فاصبر - أيها الرسول - على تعنت قومك وأذاهم ، كما صبر أولو العزم من الرسل قبلك .وتحديد الآيات بالتسع ، لا ينفى أن هناك معجزات أخرى أعطاها الله - تعالى - لموسى - عليه السلام - إذ من المعروف عند علماء الأصول ، أن تحديد العدد بالذكر ، لا يدل على نفى الزائد عنه .قال الإمام - ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : وهذا القول - المروى عن ابن عباس وغيره ظاهر جلى حسن قوى . . فهذه الآيات التسع ، التى ذكرها هؤلاء الأئمة ، هى : المرادة هنا . . .وقد أوتى موسى - عليه السلام - آيات أخرى كثيرة منها ضربه الحجر بالعصا ، وخروج الماء منه . . وغير ذلك مما أوتوه بنوا إسرائيل بعد خروجهم من مصر ، ولكن ذكر هنا هذه الآيات التسع التى شاهدها فرعون وقومه من أهل مصر وكانت حجة عليهم فخالفوها وعاندوها كفرا وجحودا .ثم قال : " وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، حدثنا شعبة عن عمرو بن مرة ، قال سمعت عبد الله بن سلمة يحدث عن صفوان بن عسال المرادى قال : قال يهودى لصاحبه : اذهب بنا إلى هذا النبى حتى نسأله عن هذه الآية : ( وَلَقَدْ آتَيْنَا موسى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ . . . ) فسألاه : فقال النبى صلى الله عليه وسلم : "لا تشركوا بالله شيئًا ، ولا تسرقوا ولا تزنوا ، ولاتقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ولا تسحروا ، ولا تأكلوا الربا ولا تمشوا ببرئ إلى ذى سلطان ليقتله ، ولا تقذفوا محصنة ، ولا تفروا من الزحف " . . فقبّلا يديه ورجليه " .ثم قال : " أما هذا الحديث فهو حديث مشكل . وعبد الله بن سلمة فى حفظه شئ ، وتكلموا فيه ، ولعله اشتبه عليه التسع الآيات ، بالعشر الكلمات ، فإنها وصايا فى التوراة ، لا تعلق لها بقيام الحجة على فرعون . . . " .

قال لقد علمت ما انزل هؤلاء الا رب السماوات والارض بصائر واني لاظنك يا فرعون مثبورا

كما فسرها الوسيط والحق أن ما رجحه الإمام ابن كثير من أن المراد بالآيات التسع هنا : ما آتاه الله - تعالى - لنبيه موسى - عليه السلام - من العصا ، واليد . . . هو الذى تسكن إليه النفس ، لأن قوله - تعالى - بعد ذلك ( قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هؤلاء إِلاَّ رَبُّ السماوات والأرض بَصَآئِرَ

يؤيد أن المراد بها ما تقدم من العصا ، واليد ، والسنين . ولأنها ( . . .
هى التى فيها الحجج ، والبراهين والمعجزات الدالة على صدق موسى - عليه
السلام - . أما تلك الوصايا التى وردت فى الحديث فلا علاقة لها بقيام الحجة
: - على فرعون - كما قال الإمام ابن كثير .هذا ، والخطاب فى قوله - تعالى
يرى بعضهم أنه للنبى صلى ( فَسْئَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ )
الله عليه وسلم والمسئولون هم المؤمنون من بنى إسرائيل كعبد الله بن سلام
وأصحابه .وعلى هذا التفسير يكون قوله : ( إِذ جاءهم ) ظرف لقوله ( آتينا )
وجملة ( فَسْئَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ) معترضة بين العامل والمعمول
- والمعنى : ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ، وقت أن أرسله الله - تعالى.
إلى فرعون وقومه ، فاسأل - أيها الرسول الكريم - المؤمنين من بنى إسرائيل
عن ذلك ، ستجد منهم الجواب عما جرى بين موسى وأعدائه عن طريق ما طالعوه فى
التوراة .والمقصود بسؤالهم : الاستشهاد بهم حتى يزداد المؤمنون إيمانًا على
إيمانهم ، لأن من شأن الأدلة إذا تضافرت وتعددت ، أن تكون أقوى وأثبت فى
تأييد المدعى .قال الآلوسى : " والمعنى : فاسأل يا محمد مؤمنى أهل الكتاب
عن ذلك ، إما لأن تظاهر الأدلة أقوى - فى التثبيت - ، وإما من باب التهييج
والإلهاب ، وإما للدلالة على أنه أمر محقق عندهم ثابت فى كتابهم . وليس
المقصود حقيقة السؤال . بل كونهم - أعنى المسئولين - من أهل علمه ، ولهذا
يؤمر مثلك بسؤالهم " .ويرى آخرون أن الخطاب لموسى - عليه السلام - ، وعليه
يكون السؤال إما بمعناه المشهور أو بمعنى الطلب ، ويكون قوله ( إِذ جاءهم )
ظرفًا لفعل مقدر .والمعنى : ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ، فقلنا له حين
مجيئه إلى بنى إسرائيل : اسألهم عن أحوالهم مع فرعون ، أو اطلب منهم أن
: يؤمنوا بك ويصدقوك ، ويخرجوا معك حين تطلب من فرعون ذلك .والفاء فى قوله
هى ( فَقَالَ لَهُ فِرْعَونُ إِنِّي لأَظُنُّكَ ياموسى مَسْحُوراً )
، الفصيحة .إذ المعنى : فامتثل موسى أمرنا ، وسأل بنى إسرائيل عن أحوالهم
وطلب من فرعون أن يرسلهم معه ، بعد أن أظهر له من المعجزات ما يدل على صدقه
: - فقال فرعون لموسى على سبيل التعالى والتهوين من شأنه - عليه السلام ،
يا موسى إنى لأظنك مسحورًا .أى : سُحرت فخولط عقلك واختل ، وصرت تتصرف
تصرفًا يتنافى مع العقل السليم ، وتدعى دعاوى لا تدل على تفكير قويم .فقوله
، اسم مفعول . يقال : سحر فلان فلانًا يسحره سحرًا فهو مسحور ( مسحورا )
إذا اختلط عقله .ويجوز أن يكون قوله ( مسحورًا ) بمعنى ساحر ، فيكون المعنى
إنى لأظنك يا موسى ساحرًا ، عليمًا بفنون السحر فقد أتيت بأشياء عجيبة :
يشير بذلك إلى انقلاب العصا حية بعد أن ألقاها - عليه السلام - .وهذا شأن
الطغاة فى كل زمان ومكان ، عندما يرون الحق قد أخذ يحاصرهم ، ويكشف عن
ضلالهم وكذبهم . . . يرمون أهله - زورا وبهتانًا - بكل نقيصة .وعندما يحكى
القرآن الكريم ما رد به موسى على فرعون فيقول : ( قَال لَقَدْ عَلِمْتَ
مَآ أنزَلَ هؤلاء إِلاَّ رَبُّ السماوات والأرض بَصَآئِرَ ) .أى : قال
موسى لفرعون ردًا على كذبه وافترائه : لقد علمت يا فرعون أنه ما أوجد هذه
- الآيات التسع إلا الله - تعالى - خالق السموات والأرض ، وقد أوجدها
سبحانه - بصورة واضحة جلية ، حتى لكأنها البصائر فى كشفها للحقائق وتجليتها
فقوله ( بصائر ) حال من ( هؤلاء ) أى : أنزل هذه الآيات حال كونها بينات.
واضحات تدلك على صدقى .وفى هذا الرد توبيخ لفرعون على تجاهله الحقائق ، حيث
كان يعلم علم اليقين أن موسى - عليه السلام - ليس مسحورًا ولا ساحرًا ، وأن
: - الآيات التى جاء بها إنما هى من عند الله - تعالى - ، كما قال - سبحانه
مخاطبًا موسى : ( وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ
غَيْرِ سواء فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ
كَانُواْ قَوْماً فَاسِقِينَ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً
قَالُواْ هذا سِحْرٌ مُّبِينٌ وَجَحَدُواْ بِهَا واستيقنتها أَنفُسُهُمْ
ظُلْماً وَعُلُوّاً فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المفسدين ) وقوله
وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يافرعون مَثْبُوراً ) توبيخ آخر لفرعون ، وتهديد له
لأنه وصف نبيًا من أنبياء الله - تعالى - بأنه مسحور .ومثبورًا بمعنى مهلك
مدمر . يقال : ثبر الله - تعالى - الظالم يثبره ثبورًا ، إذا أهلكه .أو
بمعنى مصروفًا عن الخير . مطبوعًا على الشر من قولهم : ما ثبرك يا فلان عن
هذا الأمر؟ أى : ما الذى صرفك ومنعك عنه .والظن هنا بمعنى اليقين ، والمعنى
وإنى لأعتقد يا فرعون أن مصيرك إلى الهلاك والتدمير ، بسبب إصرارك على :
الكفر والطغيان ، من بعد إتيانى بالمعجزات الدالة على صدقى فيما أبلغه عن
ربى الذى خلقنى وخلقك وخلق كل شئ .

فاراد ان يستفزهم من الارض فاغرقناه ومن معه جميعا

`<!-- TODO:MISSING -->`{=html} كما فسرها الوسيط

وقلنا من بعده لبني اسرائيل اسكنوا الارض فاذا جاء وعد الاخرة جئنا بكم
لفيفا

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

وبالحق انزلناه وبالحق نزل وما ارسلناك الا مبشرا ونذيرا

كما فسرها الوسيط قال الآلوسى : " قوله - تعالى - : ( وبالحق أَنْزَلْنَاهُ ) : وبالحق نَزَلَ . . ) عود إلى شرح حال القرآن الكريم ، فهو مرتبط بقوله لَّئِنِ اجتمعت الإنس والجن على أن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هذا القرآن لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ . . ) وهكذا طريقة العرب فى كلامها ، تأخذ فى شئ وتستطرد منه إلى آخر ، ثم إلى آخر ، ثم إلى آخر ، ثم تعود إلى ما ذكرته أولاً ، والحديث شجون . . . " .والمراد بالحق الأول : الحكمة الإلهية التى اقتضت إنزاله ، والمراد بالحق الثانى : ما اشتمل عليه هذا القرآن من عقائد وعبادات وآداب وأحكام ومعاملات . . .والباء فى الموضعين للملابسة ، والجار والمجرور فى موضع الحال من ضمير القرآن الذى دل الكلام على أن الحديث عنه والمعنى : وإن هذا القرآن ما أنزلناه إلا ملتبسًا بالحق الذى تقتضيه. حكمتنا ، وما أنزلناه إلا وهو مشتمل على كل ما هو حق من العقائد والعبادات وغيرهما . فالحق سداه ولحمته ، والحق مادته وغايته .قال بعض العلماء : بين - جل وعلا - فى هذه الآية الكريمة ، أنه أنزل هذا القرآن بالحق ، أى : ملتبسًا به متضمنًا له ، فكل ما فيه حق ، فأخباره صدق . وأحكامه عدل ، كما قال - تعالى - : ( وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ . . . ) وكيف لا ، وقد أنزله - سبحانه - بعلمه كما قال - تعالى - ( لكن الله يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ والملائكة يَشْهَدُونَ وكفى بالله شَهِيداً ) وقوله ( بالحق نزل يدل على أنه لم يقع فيه تغيير ولا تبديل فى طريق إنزاله ، لأن الرسول ( المؤتمن على إنزاله قوى لا يغلب عليه ، حتى يغير فيه ، أمين لا يغير ولا يبدل ، كما أشار إلى هذا - سبحانه - بقوله : ( إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي العرش مَكِينٍ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ) وقوله - سبحانه - : ( وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً ) ثناء على الرسول صلى الله عليه وسلم الذى نزل عليه القرآن ، بعد الثناء على القرآن فى ذاته .أى : وما أرسلناك - أيها الرسول الكريم - إلا مبشرًا لمن أطاعنا بالثواب ، وإلا منذرًا لمن عصانا بالعقاب . ولم نرسلك لتخلق الهداية فى القلوب ، فإن ذلك من شأن الله تعالى .

وقرانا فرقناه لتقراه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - الحكم التى من أجلها أنزل القرآن مفصلاً ومنجمًا ، فقال : ( وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى الناس على مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً ) .ولفظ : ( قرآنا ) منصوب بفعل مضمر أى : وآتيناك قرآنا .وقوله : ( فرقناه ) أى : فصلناه . أو فرقنا فيه بين الحق والباطل . أو أنزلناه منجمًا مفرقًا .قال الجمل : وقراءة العامة ( فرقناه ) بالتخفيف . أى : بينا حلاله وحرامه . . .وقرأ على وجماعة من الصحابة وغيرهم بالتشديد وفيه وجهان : أحدهما : أن التضعيف للتكثير . أى : فرقنا آياته بين أمر ونهى وحكم وأحكام .ومواعظ وأمثال وقصص وأخبار . والثانى : أنه دال على التفريق والتنجيم .وقوله ( على مكث ) أى : على تؤدة وتمهل وحسن ترتيل ، إذ المكث التلبث فى المكان ، والإقامة فيه انتظارًا لأمر من الأمور .والمعنى : " ولقد أنزلنا إليك - أيها الرسول - هذا القرآن مفصلاً فى أوامره ونواهيه ، وفى أحكامه وأمثاله . . . ومنجما فى نزوله ، لكى تقرأه على الناس على تؤدة وتأن وحسن ترتيل ، حتى يتيسر لهم حفظه بسهولة وحتى يتمكنوا من تطبيق تشريعاته وتوجيهاته تطبيقًا عمليًا دقيقًا .وهكذا ، فعل الصحابة - رضى الله عنهم - : فإنهم لم يكن القرآن بالنسبة لهم متعة عقلية ونفسية فحسب ، وإنما كان القرآن بجانب حبهم الصادق لقراءته وللاستماع إليه منهجًا لحياتهم ، يطبقون أحكامه وأوامره ونواهيه وآدابه . . . فى جميع أحوالهم الدينية والدنيوية .قال أبو عبد الرحمن السلمى : حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن ، أنهم كانوا يستقرئون عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يتركوها حتى يعملوا بما فيها " فتعلمنا القرآن والعمل جميعًا " .وقوله - سبحانه - : ( ونزلناه تنزيلاً ) أى : ونزلناه تنزيلاً مفرقًا منجمًا عليك يا محمد فى مدة تصل إلى ثلاث وعشرين سنة ، على حسب ما تقتضيه حكمتنا ، وعلى حسب الحوادث والمصالح ، وليس من أجل تيسير حفظه فحسب .

قل امنوا به او لا تؤمنوا ان الذين اوتوا العلم من قبله اذا يتلى عليهم يخرون للاذقان سجدا

كما فسرها الوسيط ثم أمر الله - تعالى - نبيه صلى الله عليه وسلم أن يخاطب المشركين بما يدل على هوان شأنهم . وعلى عدم المبالاة بهم ، فقال - تعالى -

قُلْ آمِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تؤمنوا إِنّ الذين أُوتُواْ العلم مِن ) :
( . . . قَبْلِهِ إِذَا يتلى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً
أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الجاهلين . الذين طلبوا منك ما هو
: خارج عن رسالتك ، والذين وصفوا القرآن بأنه أساطير الأولين : قل لهم
، آمنوا بهذا القرآن أو لا تؤمنوا به ، لأن إيمانكم به ، لا يزيده كمالاً
وعدم إيمانكم به لا ينقص من شأنه شيئًا ، فإن علماء أهل الكتاب الذين آتاهم
الله العلم قبل نزول هذا القرآن ، وميزوا بين الحق والباطل ، كانوا إذا تلى
عليهم هذا القرآن ، - كأمثال عبد الله بن سلام وأصحابه ( يَخِرُّونَ
- لِلأَذْقَانِ سُجَّداً ) أى : يسقطون على وجوههم ساجدين لله - تعالى
شكرًا له على إنجاز وعده ، بإرسالك - أيها الرسول الكريم - وبإنزال القرآن
) : عليك ، كما وعد بذلك - سبحانه - فى كتبه السابقة .فالجملة الكريمة
إِنّ الذين أُوتُواْ العلم . . ) تعليل لعدم المبالاة بهؤلاء المشركين
: الجاهلين ، والضمير فى قوله : ( من قبله ) يعود إلى القرآن الكريم .وقوله
يدل على قوة إيمانهم ، وعلى سرعة ( يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً )
تأثرهم بهذا القرآن ، فهم بمجرد تلاوته عليهم ، يسقطون على وجوههم ساجدين
لله - تعالى - .وخصت الأذقان بالذكر ، لأن الذقن أول جزء من الوجه يقرب من
الأرض عند السجود ، ولأن ذلك يدل على نهاية خضوعهم لله - تعالى - وتأثرهم
: بسماع القرآن الكريم

ويقولون سبحان ربنا ان كان وعد ربنا لمفعولا

) : كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - ما يقولونه فى سجودهم فقال
( وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً
.

ويخرون للاذقان يبكون ويزيدهم خشوعا

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

قل ادعوا الله او ادعوا الرحمن ايا ما تدعوا فله الاسماء الحسنى ولا تجهر
بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا

كما فسرها الوسيط ذكر المفسرون فى سبب نزول قوله - تعالى - : ( قُلِ ادعوا
( . . اللّه أَوِ ادعوا الرحمن أَيّاً مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأسمآء الحسنى
" : ذكروا روايات منها : ما أخرجه ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس قال
وصلّى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ذات يوم فدعا الله - تعالى - فقال
يا الله ، يا رحمن ، فقال المشركون : انظروا إلى هذا الصابئ ينهانا أن :
ندعو إلهين وهو يدعو إلهين فنزلت " .ومعنى : ادعوا ، سموا ، و ( أو )
للتخيير . و ( أيا ) اسم شرط جازم منصوب على المفعولية بقوله : ( ادعوا )
والمضاف إليه محذوف ، أى : أى الاسمين . ( وتدعو ) مجزوم على أنه فعل الشرط
لأيًّا ، وجملة ( فَلَهُ الأسمآء الحسنى ) واقعة موقع جواب الشرط ، و ( ما )
مزيدة للتأكيد . والحسنى : مؤنث الأحسن الذى هو أفعل تفضيل .والمعنى : قل (
يا محمد للناس : سموا المعبود بحق بلفظ الله أو بلفظ الرحمن بأى واحد منهما
، سميتموه فقد أصبتم ، فإنه - تعالى - له الأسماء الأحسن من كل ما سواه
- وقال - سبحانه - : ( فَلَهُ الأسمآء الحسنى ) للمبالغة فى كمال أسمائه
تعالى - وللدلالة على أنه ما دامت أسماؤه كلها حسنة ، فلفظ الله ولفظ
الرحمن كذلك ، كل واحد منهما حسن .وقد ذكر الجلالان عند تفسيرهما لهذه
) : - الآية ، أسماء الله الحسنى ، فارجع إليها إن شئت .وقوله - سبحانه
وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وابتغ بَيْنَ ذلك
سَبِيلاً ) تعليم من الله - تعالى - لنبيه كيفية أفضل طرق القراءة فى
الصلاة .فالمراد بالصلاة هنا : القراءة فيها . والجهر بها : رفع الصوت
أثناءها ، والمخافتة بها : خفضه بحيث لا يسمع . يقال : خفت الرجل بصوته إذا
لم يرفعه ، والكلام على حذف مضاف .والمعنى : ولا تجهر يا محمد فى قراءتك
خلال الصلاة ، حتى لا يسمعها المشركون فيسبوا القرآن ، ولا تخافت بها ، حتى
لا يسمعها من يكون خلفك ، بل أسلك فى ذلك طريقا وسطا بين الجهر والمخافتة
ومما يدل على أن المراد بالصلاة هنا : القراءة فيها ، ما رواه الشيخان.
وغيرهما عن ابن عباس .قال : نزلت ورسول الله صلى الله عليه وسلم مختف بمكة
فكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن ، فإذا سمع ذلك المشركون ، سبوا ،
القرآن ، ومن أنزله ومن جاء به ، فأمره الله بالتوسط .وقيل : المراد
. بالصلاة هنا : الدعاء . أى :لا ترفع صوتك وأنت تدعو الله ، ولا تخافت به
وقد روى ذلك عن عائشة ، فقد أخرج الشيخان عنها أنها نزلت فى الدعاء .ويبدو
لنا أن التوجيهات التى بالآية الكريمة تتسع للقولين ، أى : أن على المسلم
أن يكون متوسطًا فى رفع صوته بالقراءة فى الصلاة ، وفى رفع صوته حال دعائه
.

وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيرا

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بهذه الآية : ( وَقُلِ الحمد لِلَّهِ الذي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً .. . ) .أى : وقل - أيها الرسول الكريم - : الحمد الكامل ، والثناء الجميل ، لله - تعالى - وحده ، الذى لم يتخذ ولدًا ؛ لأنه هو الغنى ، كما قال - تعالى - : ( قَالُوا اتخذ الله وَلَداً سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السماوات والأرض . . ) ولم يكن له سبحانه - ( شَرِيكٌ فِي الملك ) بل هو المالك لكل شىء ليس له فى هذا - ، ) : - الكون من يزاحمه أو يشاركه فى ملكه أو فى عبادته . كما قال - تعالى قُلْ لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إلى ذِي العرش سَبِيلاً سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً ) وكما قال - عز وجل - : ( مَا اتخذ الله مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إله بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ سُبْحَانَ الله عَمَّا يَصِفُونَ ) ( وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذل ) أى : ولم يكن له - سبحانه - ناصر ينصره من ذل ، أصابه أو نزل به ، لأنه - عز وجل - هو أقوى الأقوياء ، وقاهر الجبابرة ومذل الطغاة ، ( وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذل وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً ) ( وكبره تكبيرا ) أى : وعظمه تعظيمًا تامًا كاملاً ، يليق بجلاله عز وجل .قال الإمام ابن كثير : عن قتادة أنه قال : ذكر لنا أن ) . النبى صلى الله عليه وسلم كان يعلم أهله كبيرهم وصغيرهم هذه الآية الحمد لِلَّهِ الذي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً . . . ) .ثم قال ابن كثير : وقد جاء فى حديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سماها آية العز .

الحمد لله الذي انزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا

كما فسرها الوسيط سورة الكهف هى إحدى السور الخمس ، التى افتتحت بتقرير ، الحقيقة الأولى فى كل دين ، وهى أن المستحق للحمد المطلق ، والثناء التام : - هو الله رب العالمين .والسور الأربع الأخرى التى افتتحت بقوله - تعالى هى : الفاتحة ، والأنعام ، وسبأ ، وفاطر .وقد بينا عند ( الحمد لله ) تفسيرنا لسورة الأنعام ، أن هذه السورة وإن كانت قد اشتركت فى هذا الافتتاح ، إلا أن لكل سورة طريقتها فى بيان الأسباب التى من شأنها أن تقنع الناس ، بأن المستحق للحمد المطلق هو الله - تعالى - وحده .وإنما كان الحمد مقصورا فى الحقيقة على الله - تعالى - ، لأن كل ما يستحق أن يقابل بالثناء فهو صادر عنه ، ومرجعه إليه ؛ إذ هو الخالق لكل شئ ، وما يقدم إلى بعض الناس من حمد جزاء إحسانهم ، فهو فى الحقيقة حمد لله ، لأنه - سبحانه - هو الذى وفقهم لذلك ، وأعانهم عليه .وقد بين بعض المفسرين الحكمة فى افتتاح بعض السور بلفظ الحمد دون المدح أو الشكر فقال ما ملخصه : أعلم أن المدح أعم من الحمد ، وأن الحمد أعم من الشكر ، أما بيان أن المدح أعم من الحمد ، فلأن المدح يحصل للعاقل ولغير العاقل ، فقد يمدح الرجل لعقله ، ويمدح اللؤلؤ لحسن شكله .وأما الحمد فإنه لا يحصل إلا للفاعل المختار ، على ما يصدر منه من الإنعام ، فثبت أن المدح أعم من الحمد .وأما بيان أن الحمد أعم من ، الشكر ، فلأن الحمد عبارة عن تعظيم الفاعل لأجل ما صدر عنه من الإنعام سواء أكان ذلك الإنعام واصلا إليك أم إلى غيرك ، وأما الشكر فهو عبارة عن تعظيمه لأجل إنعام وصل إليك وحدك ، فثبت أن الحمد أعم من الشكر .وكان قوله تصريحا بأن المؤثر فى وجود العالم هو الفاعل المختار ، الذى ( الحمد لله ) وصلت نعمه إلى جميع خلقه ، لا إلى بعضهم . . ، .وقوله : ( الذي أَنْزَلَ على عَبْدِهِ الكتاب وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا قَيِّماً . . ) بيان للأسباب التى توجب على الناس أن يجعلوا حمدهم وعبادتهم لله - تعالى - وحده إذ الوصف بالموصول ، يشعر بعلية ما فى حيز الصلة لما قبله .والعوج - بكسر ، ، العين - أكثر ما يكون استعمالا فى المعانى ، تقول ، هذا كلام لا عوج فيه أى : لا ميل فيه .أما العوج - بفتح العين - فأكثر ما يكون استعمالا فى الأعيان تقول : هذا حائط فيه عوج .وقوله : ( قيما ) أى : مستقيما معتدلا لا ميل فيه ولا زيغ وهما - أى : عوجا وقيما - حالان من الكتاب ويصح أن يكون ، قوله ( قيما ) منصوبا بفعل محذوف أى : جعله قيما .والمعنى : الحمد الكامل والثناء الدائم ، لله - تعالى - وحده ، الذى أنزل على عبده محمد صلى الله عليه وسلم القرآن الكريم ، ولم يجعل فيه شيئا من العوج أو الاختلاف أو التناقض ، لا فى لفظه ، ولا فى معناه ، وإنما جعله فى أسمى درجات الاستقامة والإحكام .وإنما أمر الله - تعالى - الناس بأن يحمدوه لإنزال الكتاب على عبده محمد صلى الله عليه وسلم لأن فى هذا الكتاب من الهدايات ما يخرجهم من الظلمات إلى النور ، وما يسعدهم فى دينهم ودنياهم وآخرتهم .وفى التعبير عن الرسول صلى الله عليه وسلم بالعبد ، مضافا إلى ضميره - تعالى - ، تعظيم " وتشريف له صلى الله عليه وسلم وإشعار بأنه مهما سمت منزلته ، وعلت مكانته

فهو عبد الله - تعالى - ، وأن الذين يعدوا أو أشركوا مع الله - تعالى - بعض
، مخلوقاته ، قد ضلوا ضلالا بعيدا " .والتعبير عن القرآن الكريم بالكتاب
إشارة إلى كماله وشهرته ، أى : أنزل - سبحانه - على عبده محمد صلى الله
عليه وسلم الكتاب الكامل فى بابه ، الغنى عن التعريف ، الحقيق باختصاص هذا
الاسم به ، المعروف بهذا الاسم من بين سائر الكتب .والمراد به إما جميع
القرآن الكريم سواء منه ما نزل فعلا وما هو مترقب النزول ، وإما ما نزل منه
فقط حتى نزول هذه الآية فيكون من باب التعبير عن البعض بالكل تحقيقا للنزول
للجميع .وجاء لفظ ( عوجا ) بصيغة التنكير ، ليشمل النهى جميع أنواع الميل
والعوج ، إذ النكرة فى سياق النفى تعم ، أى : لم يجعل له - سبحانه - أى شئ
من العوج .

قيما لينذر باسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان
لهم اجرا حسنا

) : - كما فسرها الوسيط وقوله : ( قيما ) تأكيد فى المعنى لقوله - سبحانه
وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا ) لأنه قد يكون الشئ مستقيما فى الظاهر ، إلا
أنه لا يخلو عن اعوجاج فى حقيقة الأمر ، ولذا جمع - سبحانه - بين نفى العوج
وإثبات الاستقامة .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما فائدة الجمع بين نفى
، العوج وإثبات الاستقامة ، وفى أحدهما غنى عن الآخر؟قلت : فائدته التأكيد
فرب مستقيم مشهود له بالاستقامة ، ولا يخلو من أدنى عوج عند السبر والتصفح
وقيل : قيما على سائر الكتب ، مصدقا لها ، شاهدا بصحتها ، وقيل : قيما ،
بمصالح العباد وما لا بد لهم منه من الشرائع .وشبيه بهذه الآية فى مدح
القرآن الكريم قوله - تعالى - : ( كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ
لِتُخْرِجَ الناس مِنَ الظلمات إِلَى النور بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إلى صِرَاطِ
العزيز الحميد ) وقوله - سبحانه - . ( إِنَّ هذا القرآن يَهْدِي لِلَّتِي
هِيَ أَقْوَمُ . . ) وقوله - عز وجل : ( وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي
هذا القرآن مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ قُرْآناً
: - عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ) وقوله - تعالى
أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القرآن وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ الله )
لَوَجَدُواْ فِيهِ اختلافا كَثِيراً ) ثم شرع - سبحانه - فى بيان وظيفة
القرآن الكريم، بعد أن وصفه بالاستقامة والإحكام ، فقال : ( لِّيُنْذِرَ
بَأْساً شَدِيداً مِّن لَّدُنْهُ .. . ) .والإنذار : الإعلام المقترن
) بتخويف وتهديد ، فكل إنذار إعلام ، وليس كل إعلام إنذارا .واللام فى قوله
، لينذر ) متعلقة بأنزل ، والبأس : العذاب ، وهو المفعول الثانى للفعل ينذر
ومفعوله الأول محذوف .والمعنى : أنزل - سبحانه - على عبده الكتاب حالة كونه
لم يجعل له عوجا بل جعله مستقيما ، لينذر الذين كفروا عذابا شديدا ، صادرا
من عنده - تعالى - .والتعبير بقوله ( من لدنه ) يشعر بأنه عذاب ليس له دافع
لأنه من عند الله تعالى - القاهر فوق عباده .أما وظيفة القرآن بالنسبة ،
للمؤمنين ، فقد بينها - سبحانه - بعد ذلك فى قوله : ( وَيُبَشِّرَ المؤمنين
الذين يَعْمَلُونَ الصالحات أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً مَّاكِثِينَ
فِيهِ أَبَداً ) .أى : أنزل الله هذا القرآن ، ليخوف به الكافرين من عذابه
- وليبشر به المؤمنين الذين يعملون الأعمال الصالحات ، أن لهم من خالقهم ،
عز وجل - أجراً حسنا هو الجنة ونعيمها .

ماكثين فيه ابدا

كما فسرها الوسيط ( مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً ) أى : مقيمين فيه إقامة
باقية دائمة لا انتهاء لها ، فالضمير فى قوله ( فيه ) يعود إلى الأجر الذى
يراد به الجنة .قال - تعالى - : ( فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ
لِتُبَشِّرَ بِهِ المتقين وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدّاً ).

وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا

كما فسرها الوسيط ثم خص - سبحانه - بالإنذار فرقة من الكافرين ، نسبوا إلى
الله - تعالى - ما هو منزه عنه ، فقال : ( وَيُنْذِرَ الذين قَالُواْ اتخذ
الله وَلَداً مَّا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلاَ لآبَائِهِمْ كَبُرَتْ
( كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً
. فقوله - سبحانه - هنا : ( وَيُنْذِرَ الذين قَالُواْ اتخذ الله وَلَداً.
معطوف على قوله قبل ذلك ( لِّيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِّن لَّدُنْهُ ( .
من باب عطف الخاص على العام لأن الانذار فى الآية الأولى يشمل جميع (
الكافرين ومن بينهم الذين نسبوا إلى الله - تعالى - الولد .والمراد بهم
اليهود والنصارى ، وبعض مشركى العرب ، قال - تعالى - ( وَقَالَتِ اليهود
: - عُزَيْرٌ ابن الله وَقَالَتْ النصارى المسيح ابن الله ) وقال - سبحانه
( وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ البنات سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مّا يَشْتَهُونَ )

قال الألوسى : وترك - سبحانه - إجراء الموصول على الموصوف هنا ، حيث لم يقل وينذر الكافرين الذين قالوا . . كما قال فى شأن المؤمنين : ويبشر المؤمنين . الذين . . للإيذان بكفاية ما فى حيز الصلة فى الكفر على أقبح الوجوه وإيثار صيغة الماضى فى الصلة ، للدلالة ، على تحقيق صدور تلك الكلمة القبيحة عنهم فيما سبق .وقوله - تعالى - : ( مّا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلاَ لآبَائِهِمْ ) توبيخ لهم على تفوههم بكلام يدل على إيغالهم فى الجهل والبهتان .أى : ما نسبوه إلى الله - تعالى - من الولد ، ليس لهم بهذه النسبة علم ، وكذلك ليس لآبائهم بهذه النسبة علم ، لأن ذلك مستحيل له - تعالى - ، كما قال - عز وجل - : ( وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ الجن وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمّا يَصِفُونَ بَدِيعُ السماوات والأرض أنى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلّ شَيْءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ).

ما لهم به من علم ولا لابائهم كبرت كلمة تخرج من افواههم ان يقولون الا كذبا

كما فسرها الوسيط و " من " فى قوله : ( مّا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ) مزيدة لتأكيد النفى ، والجملة مستأنفة ، و " لهم " خبر مقدم ، و ( من علم ) مبتدأ مؤخر ، وقوله ( ولا لآبائهم ) معطوف على الخبر .أى : ما لهم بذلك شئ من العلم أصلا ، وكذلك الحال بالنسبة لآبائهم ، فالجملة الكريمة تنفى ما زعموه نفيا يشملهم ويشمل الذين سبقوهم وقالوا قولهم .قال الكرخى : فإن قيل اتخاذ الولد محال فى نفسه ، فكيف قال : ( مّا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ؟ : فالجواب أن انتفاء العلم بالشئ قد يكون للجهل بالطريق الموصل إليه ، وقد ( ) : - يكون لأنه فى نفسه محال لا يمكن تعلق العلم به ، ونظيره قوله - تعالى - وَمَن يَدْعُ مَعَ الله إِلَهَا آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ ) وقوله - تعالى - : ( كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاّ كَذِباً ) ذم شديد لهم على ما نطقوا به من كلام يدل على فرط جهلهم ، وعظم كذبهم .وكبر : فعل ماض لإنشاء الذم ، فهو من باب نعم وبئس ، وفاعله ضمير محذوف ، مفسّر بالنكرة بعده وهى قوله ( كلمة ) المنصوبة على أنها تمييز ، والمخصوص بالذم محذوف .والتقدير : كبرت هى كلمة خارجة من أفواههم تلك المقالة الشنعاء التى تفوهوا بها ، وهى قولهم : اتخذ الله ولدا فإنهم ما يقولون إلا قولا كاذبا محالا على الله - تعالى - ومخالفا للواقع؛ ومنافيا للحق والصواب .وفى هذا التعبير ما فيه من استعظام قبح ما نطقوا به حيث وصفه - سبحانه - بأنه مجرد كلام لاكته ألسنتهم ، ولا دليل عليه سوى ، كذبهم وافترائهم .قال صاحب الكشاف : قوله ( كبرت كلمة ) قرئ ، كبرت كلمة بالرفع على الفاعلية ، وبالنصب على التمييز ، والنصب أقوى وأبلغ ، وفيه معنى التعجب كأنه قيل : ما أكبرها كلمة .وقوله ( تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ) صفة للكلمة تفيد استعظاما لاجترائهم على النطق به ، وإخراجها من أفواههم ، فإن كثيرا مما يوسوسه الشيطان فى قلوب الناس ويحدثون أنفسهم به من المنكرات ، لا يتمالكون أن يتفوهوا به ، ويطلقوا به ألسنتهم ، بل يكظمون عليه تشوّرًا من إظهاره؛ فكيف بهذا المنكر؟فإن قلت : إلام يرجع الضمير فى ( كبرت ) ؟ قلت : إلى قولهم اتخذ الله ولدا . وسميت كلمة كما يسمون القصيدة بها .وشبيه بهذه الآية فى استعظام ما نطقوا به من قبح قوله - تعالى - : ( وَقَالُواْ اتخذ الرحمن وَلَداً لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً تَكَادُ السماوات يَتَفَطّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقّ الأرض وَتَخِرّ الجبال هَدّاً أَن دَعَوْا للرحمن وَلَداً وَمَا يَنبَغِي للرحمن أَن يَتّخِذَ وَلَداً )

فلعلك باخع نفسك على اثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث اسفا

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - ما يسلى الرسول صلى الله عليه وسلم عما أصابه من حزن بسبب إعراض المشركين عن دعوة الحق ، فقال - تعالى - : ( فَلَعَلّكَ بَاخِعٌ نّفْسَكَ على آثَارِهِمْ إِن لّمْ يُؤْمِنُواْ بهذا الحديث أَسَفاً ) .قال بعض العلماء ما ملخصه : اعلم - أولا - أن لفظة ( لعل ) تكون للترجى فى المحبوب ، وللإشفاق فى المحذور . واستظهر أبو حيان أن ( لعل ) هنا للإشفاق عليه صلى الله عليه وسلم أن يبخع نفسه لعدم إيمانهم وقال بعضهم إن ( لعل ) هنا للنهى . أى لا تبخع نفسك لعدم إيمانهم . . وهو الأظهر ، لكثرة ورود النهى صريحا عن ذلك ، قال - تعالى - : ( فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ . . ) وقوله ( باخع ) من البخع ، وأصله أن تبلغ بالذبح البخاع - بكسر الباء - وهو عرق يجرى فى الرقبة . وذلك أقصى حد الذبح . يقال : بخع فلان نفسه بخعا وبخوعا . أى : قتلها من شدة الغيظ والحزن ، وقوله : ( على آثارهم ) أى : على أثر توليهم وإعراضهم عنك ، وقوله ( أسفا ) أى : هما وغما مع المبالغة فى ذلك ، وهو مفعول لأجله

والمعنى :لا تهلك نفسك - أيها الرسول الكريم - هما وغما ، بسبب عدم إيمان هؤلاء المشركين . وبسبب إعراضهم عن دعوتك ( فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البلاغ وَعَلَيْنَا الحساب ) و ( إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ولكن الله يَهْدِي مَن يَشَآءُ ) قال الزمخشرى : شبهه - سبحانه - وإياهم حين تولوا عنه ولم يؤمنوا به ، وما داخله من الوجد والأسف على توليهم ، برجل فارقته أحبته وأعزته فهو يتساقط حسرات على آثارهم ويبخع نفسه وجدا عليهم ، وتلهفا على فراقهم .

انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم ايهم احسن عملا

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأرض زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُم أَحْسَنُ عَمَلاً وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً ) تعليل للنهى المقصود من الترجى فى قوله : ( فلعلك باخع . . . ) وزيادة فى تسليته صلى الله عليه وسلم عما أصابه من غم وحزن بسبب إصرار الكافرين على كفرهم .أى : إنا بمقتضى حكمتنا - أيها الرسول الكريم - قد جعلنا ما على الأرض من حيوان ونبات وأنهار وبنيان . . زينة لها ولأهلها ( لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُم أَحْسَنُ عَمَلاً ) أى : لنختبرهم عن طريق ما جعلنا زينة للأرض ولأهلها : أيهم أتبع لأمرنا ونهينا ، وأسرع فى الاستجابة لطاعتنا ، وأبعد عن الاغترار بشهواتها ومتعها .

وانا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا

كما فسرها الوسيط وإنا - أيضا - بمقتضى حكمتنا ، لجاعلون ما عليهم من هذه الزينة فى الوقت الذى نريده لنهاية هذه الدنيا ، ( صعيدا ) ، أى : ترابا ) أى :لا نبات فيه ، يقال أرض جرز ، أى :لا تنبت ، أو كان بها نبات جرزا ثم زال .ويقال : جُرِزَت الأرض : إذا ذهب نباتها بسبب القحط ، أو الجراد الذى أتى على نباتها قال تعالى : ( أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ المآء إِلَى الأرض الجرز فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلاَ يُبْصِرُونَ ) والمقصود من الآيتين : الزيادة فى تثبيت قلب النبى - صلى الله عليه وسلم - وفى تسليته عما لحقه من حزن بسبب إصرار الكافرين على كفرهم .

ام حسبت ان اصحاب الكهف والرقيم كانوا من اياتنا عجبا

كما فسرها الوسيط قال الإمام الرازى : " اعلم أن القوم تعجبوا من قصة أصحاب الكهف ، وسألوا عنها الرسول صلى الله عليه وسلم على سبيل الامتحان ، فقال - تعالى - : ( أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الكهف والرقيم كَانُواْ مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً ) ؟ لا تحسبن ذلك فإن آياتنا كلها عجب فإن من كان قادرا على خلق السموات والأرض ، وعلى تزيين الأرض بما عليها من نبات وحيوان ومعادن ، ثم يجعلها بعد ذلك صعيدا جرزا خالية من الكل ، كيف يستبعد من قدرته وحفظه ورحمته حفظ طائفة من الناس مدة ثلاثمائة سنة وأكثر فى النوم . وعلى ذلك يكون المقصود بهذه الآيات الكريمة ، بيان أن قصة أصحاب الكهف. " . ليست شيئا عجبا بالنسبة لقدرة الله - تعالى - .وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول قصة أصحاب الكهف روايات ملخصها : أن قريشا بعثت النضر بن الحارث ، وعقبة بن أبى معيط ، إلى أحبار اليهود بالمدينة ، فقالوا لهم : سلوهم عن محمد صلى الله عليه وسلم ، وصفوا لهم صفته ، وأخبروهم بقوله ، فإنهم أهل الكتاب الأول . وعندهم من العلم ما ليس عندنا من علم الأنبياء .فخرجا حتى قدما المدينة ، فسألا أحبار اليهود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ووصفوا لهم أمره صلى الله عليه وسلم فقالوا لهما سلوه عن ثلاث نأمركم بهن . فإن أخبركم بهن ، فهو نبى مرسل وإن لم يفعل فالرجل متقول .سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ماذا كان من خبرهم . فإنهم قد كان لهم حديث عجيب .وسلوه عن رجل طواف طاف المشارق والمغارب ماذا كان من خبره؟ وسلوه عن الروح ، ما هو؟ . فإن أخبركم بذلك فهو نبى فاتبعوه .فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش فقالا : يا معشر قريش ، قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد ، قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور .ثم جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا محمد أخبرنا ، ثم سألوه عما قالته لهم يهود .فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سأجيبكم غدا بما سألتم عنه ولم يستثن - : أى . ولم يقل إن شاء الله - فانصرفوا عنه .ومكث رسول الله صلى الله عليه وسلم خمس عشرة - ليلة .لا يحدث الله إليه فى ذلك وحيا ، ولا يأتيه جبريل - عليه السلام حتى أرجف أهل مكة وقالوا : وعدنا محمد غدا ، واليوم خمسة عشر قد أصبحنا فيها ، لا يخبرنا بشئ عما سألناه عنه . وحتى أحْزَن رسول الله صلى الله عليه وسلم مُكْثُ الوحى عنه ، وشق عليه ما تكلم به أهل مكة ، ثم جاءه جبريل ، من عند الله بسورة أصحاب أصحاب الكهف ، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم

)- وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية والرجل الطواف ، وقول الله - تعالى
وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الروح قُلِ الروح مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم
. . . مِّنَ العلم إِلاَّ قَلِيلاً ) والخطاب فى قوله - تعالى - ( أم حسبت
للرسول صلى الله عليه وسلم ويدخل فيه غيره من المكلفين .و " أم " فى هذه (
، الآية هى المنقطعة ، وتفسر عند الجمهور بمعنى بل والهمزة ، أى : بل أحسبت
: وعند بعض العلماء تفسر بمعنى بل ، فتكون للانتقال من كلام إلى آخر ، أى
: بل حسبت . ويرى بعضهم أنها هنا بمعنى الهمزة التى للاستفهام الإنكارى أى
أحسبت أن أصحاب الكهف والرقيم .والكهف : هو النقب المتسع فى الجبل ، فإن لم
يكن فيه سعة فهو غار ، وجمعه كهوف .والمراد به هنا : ذلك الكهف الذى اتخذه
هؤلاء الفتية مستقرا لهم .وأما الرقيم فقد ذكروا فى المراد به أقوالا
متعددة منها : أنه اسم كلبهم ، ومنها أنه اسم الجبل أو الوادى الذى كان فيه
الكهف ، ومنها أنه اسم القرية التى خرج منها هؤلاء الفتية .ولعل أقرب
الأقوال إلى الصواب أن المراد به اللوح الذى كتبت فيه أسماؤهم وأنسابهم
وقصتهم ، فيكون الرقيم بمعنى المرقوم - فهو فعيل بمعنى مفعول - ومأخوذ من
رقمت الكتاب إذا كتبته .ومنه قوله - تعالى - ( كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ
الأبرار لَفِي عِلِّيِّينَ وَمَآ أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ كِتَابٌ
مَّرْقُومٌ ) أى مكتوب .قال بعض العلماء : " والظاهر أن أصحاب الكهف
والرقيم : طائفة واحدة أضيفت إلى شيئين : أحدهما : معطوف على الآخر ، خلافا
لمن قال أن أصحاب الكهف طائفة ، وأصحاب الرقيم طائفة أخرى ، وأن الله قص
على نبيه فى هذه السورة الكريمة قصة أصحاب الكهف ، ولم يذكر له شيئا عن
أصحاب الرقيم . وخلافا لمن زعم أن أصحاب الكهف هم الثلاثة الذين سقطت عليهم
صخرة فسدّت عليهم باب الكهف فدعوا الله بصالح أعمالهم فانفرجت ، وهم البار
بوالديه ، والعفيف ، والمستأجر ، وقصتهم مشهورة ثابتة فى الصحيح ، إلا أن
تفسير الآية بأنهم هم المراد بعيد كما ترى " .والمعنى : أظننت - أيها
الرسول الكريم - أن ما قصصناه عليك من شأن هؤلاء الفتية ، كان من بين
آياتنا الدالة على قدرتنا شيئا عجبا؟ لا ، لا تظن ذلك فإن قدرتنا لا يعجزها
. شئ

اذ اوى الفتية الى الكهف فقالوا ربنا اتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من امرنا
رشدا

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - ما قالوه عندما حطوا رحالهم فى الكهف
فقال : إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا : ( رَبَّنَآ آتِنَا مِن لَّدُنكَ
رَحْمَةً وَهَيِّىءْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً ) .و " إذ " هنا ظرف
منصوب بفعل تقديره : اذكر .و ( أوى ) فعل ماض - من باب ضرب - تقول : أوى
فلان إلى مسكنه يأوى ، إذا نزله بنفسه . واستقر فيه .و ( الفتية ) : جمع
) : قلة لفتى . وهو وصف للإنسان عندما يكون فى مطلع شبابه .وقوله
وَهَيِّىءْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا ) : من التهيئة بمعنى : تيسير الأمر
وتقريبه وتسهيله حتى لا يخالطه عسر أو مشقة .والمراد بالأمر هنا : ما كانوا
عليه من تركهم لأهليهم ومساكنهم ، ومن مفارقتهم لما كان عليه أعداؤهم من
عقائد فاسدة .والرشد : الاهتداء إلى الطريق المستقيم مع البقاء عليه . وهو
- ضد الغى . يقال : رشد فلان يرشد رشدا ورشادا ، إذا أصاب الحق .أى : واذكر
أيها الرسول الكريم - للناس ليعتبروا ، وقت أن خرج هؤلاء الفتية من مساكنهم
تاركين كل شئ خلفهم من أجل سلامة عقيدتهم فالتجأوا إلى الكهف ، واتخذوه ،
مأوى لهم ، وتضرعوا إلى خالقهم قائلين : يا ربنا آتنا من لدنك رحمة ، تهدى
بها قلوبنا ، وتصلح بها شأننا ، وتردّ بها الفتن عنا ، كما نسألك يا ربنا
أن تهيئ لنا من أمرنا الذى نحن عليه - وهو : فرارنا بديننا . وثباتنا على
إيماننا - ما يزيدنا سدادا وتوفيقا لطاعتك .وقال - سبحانه - : ( إِذْ أَوَى
الفتية . . ) بالإظهار - مع أنه قد سبق الحديث عنهم بأنهم أصحاب الكهف
لتحقيق ما كانوا عليه من فتوة ، وللتنصيص على وصفهم الدال على قلتهم ، وعلى
أنهم شباب فى مقتبل أعمارهم ، ومع ذلك ضحوا بكل شئ فى سبيل عقيدتهم
والتعبير بالفعل ( أوى ) يشعر بأنهم بمجرد عثورهم على الكهف . ألقوا.
رحالهم فيه واستقروا به استقرار من عثر على ضالته ، وآثروه على مساكنهم
- المريحة ، لأنه واراهم عن أعين القوم الظالمين .والتعبير بالفاء فى قوله
سبحانه - ( فَقَالُواْ رَبَّنَآ آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً . . ) يدل
على أنهم بمجرد استقرارهم فى الكهف ابتهلوا إلى الله - تعالى - بهذا الدعاء
: الجامع لكل خير .والتنوين فى قوله : ( رحمة ) : للتهويل والتنويع . أى
آتنا يا ربنا من عندك وحدك لا من غيرك . رحمة عظيمة شاملة لجميع أحوالنا
وشئوننا . فهى تشمل الأمان فى المنزل ، والسعة فى الرزق؛ والمغفرة للذنب
قال القرطبى ما ملخصه : هذه الآية صريحة فى الفرار بالدين وهجرة الأهل.
والأوطان . . خوف الفتنة ، ورجاء السلامة بالدين والنجاة من فتنة الكافرين
. . .

فضربنا على اذانهم في الكهف سنين عددا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما حدث لهؤلاء الفتية بعد أن لجأوا إلى
) : الكهف ، وبعد أن دعوا الله بهذا الدعاء الشامل لكل خير . فقال
فَضَرَبْنَا على آذَانِهِمْ فِي الكهف سِنِينَ عَدَداً ) .وأصل الضرب فى
: كلام العرب يرجع إلى معنى التقاء ظاهر جسم ، بظاهر جسم آخر بشدة .يقال
ضرب فلان بيده الأرض إذا ألصقها بها بشدة ، وتفرعت عن هذا المعنى معان أخرى
- ترجع إلى شدة اللصوق .والمراد بالضرب هنا النوم الطويل الذى غشاهم الله
تعالى - به فصاروا لا يحسون شيئا مما حولهم ، ومفعول ضربنا محذوف .والمعنى
بعد أن استقر هؤلاء الفتية فى الكهف ، وتضرعوا إلينا بهذا الدعاء العظيم :
ضربنا على آذانهم وهم فى الكهف حجابا ثقيلا مانعا من السماع ، فصاروا لا ،
يسمعون شيئا يوقظهم ، واستمروا فى نومهم العميق هذا ( سِنِينَ ) ذات عدد كثير
بينها - سبحانه - بعد ذلك فى قوله : ( وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ ،
مِئَةٍ سِنِينَ وازدادوا تِسْعاً ) .وخص - سبحانه - الآذان بالضرب ، مع أن
. مشاعرهم كلها كانت محجوبة عن اليقظة ، لأن الآذان هى الطريق الأول للتيقظ
ولأنه لا يثقل النوم إلا عندما تتعطل وظيفة السمع ." وقد ورد أن النبى صلى
الله عليه وسلم عندما علم أن رجلا لا يستيقظ مبكرا أن قال فى شأنه : " ذلك
رجل قد بال الشيطان فى أذنه " " أى : فمنعها من التبكير واليقظة قبل طلوع
، الشمس .والتعبير بالضرب - كما سبق أن أشرنا - للدلالة على قوة المباشرة
وشدة اللصوق واللزوم ، ومنه قوله تعالى - ( وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذلة
. والمسكنة ) أى : التصقتا بهم التصاقا لا فكاك لهم منه ، ولا مهرب لهم عنه

ثم بعثناهم لنعلم اي الحزبين احصى لما لبثوا امدا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما حدث لهم بعد هذا النوم الطويل فقال
ثُمّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الحِزْبَيْنِ أحصى لِمَا ) :
لَبِثُواْ أَمَداً ) .وأصل البعث فى اللغة : إثارة الشئ من محله وتحريكه
، بعد سكون . ومنه قولهم : بعث فلان الناقة - إذا أثارها من مبركها للسير
: ويستعمل بمعنى الإيقاظ وهو المقصود هنا من قوله : ( بعثناهم ) أى
أيقظناهم بعد رقادهم الطويل .وقوله ( لِنَعْلَمَ أَيُّ الحِزْبَيْنِ ) بيان
للحكمة التى من أجلها أيقظهم الله من نومهم .وكثير من المفسرين على أن
الحزبين أحدهما : أصحاب الكهف والثانى : أهل المدينة الذين أيقظ الله أهل
الكهف من رقادهم فى عهدهم ، وكان عندهم معرفة بشأنهم .وقيل : هما حزبان من
أهل المدينة الذين بعث هؤلاء الفتية فى زمانهم ، إلا أن أهل هذه المدينة
كان منهم حزب مؤمن وآخر كافر .وقيل : هما حزبان من المؤمنين كانوا موجودين
فى زمن بعث هؤلاء الفتية ، وهذان الحزبان اختلفوا فيما بينهم فى المدة التى
مكثها هؤلاء الفتية رقوداً .والذى تطمئن إليه النفس أن الحزبين كليهما من
أصحاب الكهف ، لأن الله - تعالى - قد قال بعد ذلك - ( وكذلك بعثناهم ) أى
الفتية ( قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَم لَبِثْتُمْ قَالُواْ لَبِثْنَا
يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ
) قال الآلوسى : ( ثم بعثناهم ) أى : أيقظناهم وأثرناهم من نومهم. ( . .
لِنَعْلَمَ أَيُّ الحِزْبَيْنِ ) أى : منهم ، وهم القائلون ( لَبِثْنَا
يَوْماً أَوْ بَعْضَ ) والقائلون ( رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ )
وقيل : أحد الحزبين الفتية الذين ظنوا قلة زمان لبثهم ، والثانى أهل.
المدينة الذين بعث الفتية على عهدهم وكان عندهم تاريخ غيبتهم . . والظاهر
) الأول لأن اللام للعهد ، ولا عهد لغير من سمعت .والمراد بالعلم فى قوله
لنعلم . . ) إظهار المعلوم ، أى ثم بعثناهم لنعلم ذلك علما يظهر الحقيقة
: التى لا حقيقة سواها للناس .ويجوز أن يكون العلم هنا بمعنى التمييز ، أى
. ثم بعثناهم لنميز أى الحزبين أحصى لما لبثوا أبدا

نحن نقص عليك نباهم بالحق انهم فتية امنوا بربهم وزدناهم هدى

كما فسرها الوسيط أى : " نحن " وحدنا يا محمد ، نقص عليك وعلى أمتك خبر
هؤلاء الفتية قصصا لحمته وسداه والحق والصدق ، لأنه قصص من ربك الذى لا
يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء .وقوله : ( إِنّهُمْ فِتْيَةٌ
آمَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ) كلام مستأنف جواب عن سؤال
تقديره ما قصتهم وما شأنهم بالتفصيل؟أى : إنهم فتية أخلصوا العبادة لخالقهم
وأسلموا وجوههم لبارئهم ، وآمنوا بربوبيته - سبحانه - إيمانا عمقياً ،
ثابتاً ، فزادهم الله ببركة هذا الإخلاص والثبات على الحق ، هداية على
هدايتهم ، وإيمانا على إيمانهم .وقوله - سبحانه - ( نَحْنُ نَقُصُّ
عَلَيْكَ نبَأَهُم بالحق ) إيماء إلى أن قصة هؤلاء الفتية كانت معروفة لبعض
الناس ، إلا أن معرفتهم بها كانت مشوبة بالخرافات والأباطيل .قال ابن كثير
ما ملخصه : ذكر الله - تعالى - أنهم كانوا فتية - أى شبابا - ، وهم أقبل :
للحق من الشيوخ ، الذين عتوا فى دين الباطل ، ولهذا كان اكثر المستجيبين
لله ولرسوله شبابا ، وأما المشايخ من قريش ، فعامتهم بقوا على دينهم ، ولم

) يسلم منهم إلا القليل .واستدل غير واحد من الأئمة كالبخارى وغيره بقوله
. . . وزدناهم هدى ) إلى أن الإيمان يزيد وينقص

وربطنا على قلوبهم اذ قاموا فقالوا ربنا رب السماوات والارض لن ندعو من
دونه الها لقد قلنا اذا شططا

) : كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - جانبا من مظاهر هدايته لهم فقال
، وَرَبَطْنَا على قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ ) .وأصل الربط : الشد ، يقال
ربطت الدابة ، أى : شددتها برباط ، والمراد به هنا : ما غرسه الله فى
: قلوبهم من قوة ، وثبات على الحق ، وصبر على فراق أهليهم ، ومنه قولهم
: فلان رابط الجأش ، إذا كان لا يفزع عند الشدائد والكروب .والمراد بقيامهم
عقدهم العزم على مفارقة ما عليه قومهم من باطل ، وتصميمهم على ذلك تصميما
لا تزحزحه الخطوب مهما كانت جسيمة .ويصح أن يكون المراد بقيامهم : وقوفهم
فى وجه ملكهم الجبار بثبات وقوة ، دون أن يبالوا به عندما أمرهم بعبادة ما
يعبده قومهم ، وإعلانهم دين التوحيد ، ونبذهم لكل ما سواه من شرك وضلال
. قال القرطبى ما ملخصه : قوله - تعالى - ( إذ قاموا ) يحتمل ثلاثة معان.
أحدها : أن يكون هذا وصف مقامهم بين يدى الملك الكافر ، وهو مقام يحتاج إلى
الربط على القلب حيث خالفوا دينه ، ورفضوا ما دعاهم إليه .والمعنى الثانى
فيما قيل : إنهم أولاد عظماء تلك المدينة فخرجوا واجتمعوا وراءها من غير
ميعاد ، وتعاهدوا على عبادة الله وحده .والمعنى الثالث : أن يعبر بالقيام
عن انبعاثهم بالعزم إلى الهروب إلى الله - تعالى - ومنابذة الناس ، كما
تقول : قام فلان إلى أمر كذا ، إذا عزم عليه بغاية الجد .وعلى أية حال
فالجملة الكريمة تفيد أن هؤلاء الفتية كانت قلوبهم ثابتة راسخة ، مطمئنة
إلى الحق الذى اهتدت إليه ، معتزة بالإيمان الذى أشربته ، مستبشرة
بالإخاء الذى جمع بينها على غير ميعاد ، وصدق رسول الله صلى الله عليه
وسلم إذ يقول :" الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها
اختلف " .ثم حكى - سبحانه - ما قالوه بعد أن استقر الإيمان فى نفوسهم فقال
فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ السماوات والأرض لَن نَّدْعُوَاْ مِن ) :
- دُونِهِ إلها . . ) .أى : أعلنوا براءتهم من كل خضوع لغير الله - عز وجل
حين قاموا فى وجه أعدائهم ، وقالوا بكل شجاعة وجرأة : ربنا - سبحانه - هو
رب السموات والأرض ، وهو خالقهما وخالق كل شئ ، ولن نعبد سواه أى معبود آخر
ونفوا عبادتهم لغيره - سبحانه - بحرف - " لن " للإشعار بتصميمهم على ذلك.
فى كل زمان وفى كل مكان ، إذ النفى بلن أبلغ من النفى بغيرها .قال الآلوسى
- وقد يقال؛ إنهم أشاروا بالجملة الأولى - وهى : ربنا رب السموات والأرض :
- إلى توحيد الربوبية ، وأشاروا بالجملة الثانية - لن ندعو من دونه إلها
إلى توحيد الألوهية ، وهما أمران متغايران ، وعبدة الأوثان لا يقولون بهذا
ويقولون بالأول : ( وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض ،
لَيَقُولُنَّ الله ) وحكى - سبحانه - عنهم أنهم يقولون : ( مَا
نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى الله زلفى ) وصح أنهم كانوا
- يقولون : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك .وقوله
سبحانه - ( لَّقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً ) تأكيد لبراءتهم من كل عبادة
: لغير الله - تعالى - .والشطط : مصدر معناه مجاوزة الحد فى كل شئ ، ومنه
: أشط فلان فى السّومْ إذا جاوز الحد ، وأشط فى الحكم إذا جاوز حدود العدل
وهو صفة لموصوف محذوف ، وفى الكلام قسم مقدر ، واللام فى " لقد " واقعة فى
جوابه ، و " إذا " حرف جواب وجزاء فتدل على شرط مقدر .أى : ربنا رب السموات
والأرض ، لن ندعو من دون إلها . ولو فرض أننا دعونا وعبدنا من دونه إلها
آخر ، والله لنكونن فى هذه الحالة قد قلنا إذا قولا شططا ، أى : بعيدا بعدا
واضحا عن دائرة الحق والصواب .والآية الكريمة تدل على قوة إيمان هؤلاء
الفتية ، وعلى أن من كان كذلك ثبت الله - تعالى - قلبه ، وقواه على تحمل
الشدائد ، كما تدل على أن من أشرك مع الله - تعالى - إلها آخر ، يكون بسبب
هذا الإشراك ، قد جاء بأمر شطط بعيد كل البعد عن الحق والصواب وصدق الله
إذ يقول : ( وَمَن يُشْرِكْ بالله فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السمآء
فَتَخْطَفُهُ الطير أَوْ تَهْوِي بِهِ الريح فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ) ثم

هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه الهة لولا ياتون عليهم بسلطان بين فمن اظلم ممن
افترى على الله كذبا

كما فسرها الوسيط حكى - سبحانه - عن هؤلاء الفتية أنهم لم يكتفوا بإعلان
إيمانهم الصادق ، بل أضافوا إلى ذلك استنكارهم لما عليه قومهم من شرك فقال
هؤلاء قَوْمُنَا اتخذوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلاَ يَأْتُونَ ) :
عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ .. ) .و ( هؤلاء ) مبتدأ ، و ( قومنا ) عطف
بيان ، وجملة ( اتخذوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ) هى الخبر .و " لولا " للتحضيض
وهو الطلب بشدة والمقصود بالتحضيض هنا : الإنكار والتعجيز ، إذ من ،
المعلوم أن قومهم لن يستطيعوا أن يقيموا الدليل على صحة ما هم عليه من شرك

والمراد بالسلطان البين : الحجة الواضحة .أى : أن أولئك الفتية بعد أن اجتمعوا ، وتعاهدوا على عبادة الله - تعالى - وحده ، ونبذ الشرك والشركاء قالوا على سبيل الإنكار والاحتقار لما عليه قومهم : هؤلاء قومنا بلغ بهم السفه والجهل ، أنهم اتخذوا مع الله - تعالى - أصناما يشركونها معه فى العبادة ، هلا أتى هؤلاء السفهاء بحجة ظاهرة تؤيد دعواهم بأن هذه الأصنام تصلح آلهة لا شك أنهم لن يستطيعوا ذلك .قال صاحب الكشاف وقوله : ( لَّوْلاَ يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ) تبكيت لأن الإتيان بالسلطان على صحة عبادة الأوثان محال ، وهو دليل على فساد التقليد ، وأنه لا بد فى الدين من حجة حتى يصح ويثبت .وشبيه بهذه الآية فى تعجيز المشركين وتجهيلهم قوله تعالى : ( قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ ) وقوله - سبحانه - : ( قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَّآ تَدْعُونَ مِن دُونِ الله أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ الأرض أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السماوات ائتونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هاذآ أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ) ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بما يدل على تكذيبهم لقومهم ووصفهم إياهم بالظلم فقال : ( فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله ، كَذِباً ) .أى :لا أحد أشد ظلما من قوم افتروا على الله - تعالى- الكذب ، حيث زعموا أن له شريكا فى العبادة والطاعة ، مع انه - جل وعلا - منزه عن الشريك والشركاء : ( ألاَ لَهُ الخلق والأمر تَبَارَكَ الله رَبُّ العالمين ).

واذ اعتزلتموهم وما يعبدون الا الله فاووا الى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من امركم مرفقا

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما تناجوا به فيما بينهم ، بعد أن وضح موقفهم وضوحا صريحا حاسما ، وبعد أن أعلنوا كلمة التوحيد بصدق وقوة فقال - تعالى - : ( وَإِذِ اعتزلتموهم وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ الله . . فَأْوُواْ إِلَى الكهف يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِّنْ أَمْرِكُمْ مِّرْفَقاً ) .و " إذ " يبدو أنها هنا . للتعليل . والاعتزال : تجنب الشئ سواء أكان هذا التجنب بالبدن أم بالقلب و " ما " فى قوله ( وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ الله ) اسم موصول فى محل نصب معطوف على الضمير فى قوله ( اعتزلتموهم ) وقوله : ( إلا الله ) استثناء متصل ، بناء على أن القوم كانوا يعبدون الله - تعالى - ويشركون معه فى العبادة الأصنام . و " من " قالوا إنها بمعنى البدلية .وقوله : ( مرفقاً ) من الارتفاق : بمعنى الانتفاع ، وقرأ نافع وابن عامر مرفقا - بفتح الميم وكسر الفاء .

وترى الشمس اذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين واذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه ذلك من ايات الله من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا

كما فسرها الوسيط قال الآلوسى : " قوله : ( وترى الشمس . . ) بيان لحالهم بعد ما أووا إلى الكهف . . والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد ممن يصلح ، وهو للمبالغة فى الظهور ، وليس المراد الإخبار بوقوع الرؤية ، بل المراد الإخبار بكون الكهف لو رأيته ترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين . . . " .وقوله ( تزاور ) من الزور بمعنى الميل . ومنه قولهم : زار فلان صديقه ، أى : مال إليه . ومنه شهادة الزور ، لأنها ميل عن الحق إلى الباطل . ويقال : فلان أزور ، إذا كان مائل الصدر ، ويقال : تزاور فلان عن الشئ ، إذا انحرف عنه .وفى هذا اللفظ ثلاث قراءات سبعية . فقد قرأ ( ابن عامر ( تزور ) بزنة تحمر . وقرأ الكوفيون - عاصم وحمزة والكسائى - ) تزاور ) بفتح الزاى - وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ( تزّاور ) بتشديد الزاى - . وأصله تتزاور فحذفت إحدى التاءين تخفيفا .ومعنى : ( تقرضهم ) تقطعهم وتتجاوزهم وتتركهم ، من القرض بمعنى القطع والصرم ، يقال : قرض المكان ، أى : عدل عنه وتركه .والمعنى : إنك - أيها المخاطب - لو رأيت أهل الكهف ، لرأيتهم على هذه الصورة ، وهى أن الشمس إذا طلعت من مشرقها ، مالت ، عن كهفهم جهة اليمين ، وإذا غربت ، تراها عند غروبها ، تميل عنهم كذلك فهى فى الحالتين لا تصل إليهم ، حماية من الله - تعالى - لهم ، حتى لا تؤذيهم بحرها ، بأن تغير ألوانهم ، وتبلى ثيابهم .وقوله : ( وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ) جملة حالية . أى : والحال أنهم فى مكان متسع من الكهف وهو وسطه ، والفجوة : هى المكان المتسع ، مأخوذة من الفجا ، وهو تباعد ما بين الفخذين ، ومنه قولهم : رجل أفجى ، وامرأة فَجْوَاء .وللمفسرين فى تأويل هذه الآية اتجاهان لخصهما الإمام الرازى فقال : " للمفسرين هنا قولان : أولهما : أن باب ذلك الكهف كان مفتوحا إلى جانب الشمال ، فإذا طلعت الشمس كانت على يمين الكهف ، وإذا غربت كانت على شماله ، فضوء الشمس ما كان

: يصل إلى داخل الكهف ، وكان الهواء الطيب والنسيم الموافق يصل .والثانى
يرى أصحابه أنه ليس المراد ذلك ، وإنما المراد أن الشمس إذا طلعت منع
الله - تعالى - ضوءها من الوقوع عليهم ، وكذا القول فى حال غروبها ، وكان
ذلك فعلا خارقا للعادة ، وكرامة عظيمة خص الله بها أصحاب الكهف . . " .ومن
هذين الرأيين يتبين لنا أن أصحاب الرأى الأول ، يرجعون عدم وصول حر الشمس
إلى هؤلاء الفتية إلى أسباب طبيعية حماهم الله - تعالى - بها ومن بينها أن
الكهف كان مفتوحا إلى جهة الشمال .أما أصحاب الرأى الثانى فيردون عدم وصول
أشعة الشمس إليهم إلى أسباب غير طبيعية ، بمعنى أن الفتية كانوا فى متسع من
الكهف ، أى : فى مكان تصيبه الشمس ، إلا أن الله - تعالى - بقدرته التى لا
يعجزها شئ ، منع ضوء الشمس وحرها من الوصول إليهم ، خرقا للعادة على سبيل
التكريم لهم .ومع وجاهة الرأيين ، إلا أن النفس أميل إلى الرأى الثانى ،
لأن قوله - تعالى - ( وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ) يشير إلى أنهم مع
اتساع المكان الذى ينامون فيه - وهو الفجوة -لا تصيبهم الشمس لا عند
الطلوع ولا عند الغروب ، وهذا أمر خارق للعادة ، ويدل على عجيب حالهم ، كما
أن قوله - تعالى - بعد ذلك ( ذِلِكَ مِنْ آيَاتِ الله ) يشعر بأن أمر هؤلاء
الفتية فيه غرابة ، وليس أمراً عاديا مألوفا .قال الآلوسى : " وأكثر
المفسرين على أنهم لم تصبهم الشمس أصلا ، وإن اختلفوا فى منشأ ذلك واختار
، جمع منهم ، أنه لمحض حجب الله - تعالى - الشمس على خلاف ما جرت به العادة
والإشارة تؤيد ذلك أتم تأييد ، والاستبعاد مما لا يلتفت إليه ، لا سيما
فيما نحن فيه ، فإن شأن أصحاب الكهف كله على خلاف العادة . . " .وعلى هذا
الرأى الثانى يكون اسم الإشارة فى قوله : ( ذلك مِنْ آيَاتِ الله ) إلى ما
فعله الله - تعالى - معهم ، من حجب ضوء الشمس عنهم مع أنهم فى متسع من
، الكهف .أى : ذلك الذى فعلناه معهم من آياتنا الدالة على قدرتنا الباهرة
وإرادتنا التى لا يعجزها شئ .وأما على الرأى الأول فيكون اسم الاشارة مرجعه
إلى ما سبق من الحديث عنهم ، كهدايتهم إلى التوحيد ، وإخراجهم من بين عبدة
الأوثان ، ولجوئهم إلى الكهف ، وجعل باب الكهف على تلك الكيفية ، إلى غير
ذلك مما ذكر - سبحانه - عنهم .أى : ذلك الذى ذكرناه لك عنهم - أيها الرسول
- الكريم - هو من آيات الله الدالة على وحدانيته وقدرته .ثم ختم - سبحانه
الآية بقوله : ( مَن يَهْدِ الله فَهُوَ المهتد وَمَن يُضْلِلْ فَلَن
، تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً ) .أى : من يهده الله إلى طريق الحق
، ويوفقه إلى الصواب ، فهو المهتد ، أى فهو الفائز بالحظ الأوفر فى الدارين
- ومن يضلله الله - تعالى - عن الطريق المستقيم ، فلن تجد له - يا محمد
نصيرا ينصره ، ومرشدا يرشده إلى طريق الحق .كما قال تعالى : - ( مَن يَهْدِ
- الله فَهُوَ المهتدي وَمَن يُضْلِلْ فأولئك هُمُ الخاسرون ) وكما قال
سبحانه - : ( وَمَن يَهْدِ الله فَهُوَ المهتد وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ
لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِ . . . ).

وتحسبهم ايقاظا وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط
ذراعيه بالوصيد لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا

كما فسرها الوسيط ثم صور - سبحانه - بعد ذلك مشهدا عجيبا من أحوال هؤلاء
الفتية فقال : ( وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ . . . )
والحسبان بمعنى الظن ، والأيقاظ جمع يقظ وهو ضد النائم ، والرقود : جمع.
راقد والمراد به هنا : النائم .أى : وتظنهم - أيها المخاطب لو قدر لك أن
تراهم - أيقاظا منتبهين ، والحال أنهم رقود أى : نيام .وقالوا : وسبب هذا
الظن والحسبان ، أن عيونه كانت مفتوحة ، وأنهم كانوا يتقلبون من جهة إلى
جهة ، كما قال - تعالى - بعد ذلك : ( وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ اليمين وَذَاتَ
الشمال ) .أى : ونحركهم وهم رقود إلى الجهة التى تلى أيمانهم ، وإلى الجهة
التى تلى شمائلهم ، رعاية منا لأجسامهم حتى لا تأكل الأرض شيئا منها بسبب
طول رقادهم عليهم .وعدد مرات هذا التقليب لا يعلمه إلا الله - تعالى - وما
أورده المفسرون فى ذلك لم يثبت عن طريق النقل الصحيح ، لذا ضربنا صفحا عنه
ثم بين - سبحانه - حالة - كلبهم فقال : ( وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ.
ذِرَاعَيْهِ بالوصيد ) .والمراد بالوصيد - على الصحيح - فناء الكهف قريبا
من الباب ، أو هو من الباب نفسه ، ومنه قول الشاعر : بأرض فضاء لا يسد
وصيدها . أى :لا يسد بابها .أى : وكلبهم الذى كان معهم فى رحلتهم ماد
ذراعيه بباب الكهف حتى لكأنه يحرسهم ويمنع من الوصول إليهم .وما ذكره بعض
- المفسرين هنا عن اسم الكلب وصفاته ، لم نهتم بذكره لعدم فائدته .ثم ختم
سبحانه - الآية بقوله : ( لَوِ اطلعت عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ
- فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً ) .أى . لو عاينتهم وشاهدتهم
أيها المخاطب - لأعرضت بوجهك عنهم من هول ما رأيت ، ولملئ قلبك خوفا ورعبا
من منظرهم .وقد أخذ العلماء من هذه الآية أحكاماً منها : أن صحبة الأخيار
لها من الفوائد ما لها .قال ابن كثير - رحمه الله - ربض كلبهم على الباب
كما جرت به عادة الكلاب وهذا من سجيته وطبيعته حيث يربض ببابهم كأنه يحرسهم
وكان جلوسه خارج الباب . لأن الملائكة لا تدخل بيتا فيه كلب - كما ورد فى ،

الصحيح . . وشملت كلبهم بركتهم ، فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال
وهذا فائدة صحبة الأخيار ، فإنه صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن .وقال ،
القرطبى - رحمه الله - ما ملخصه : قال ابن عطية : وحدثنى أبى قال : سمعت
أبا الفضل الجوهرى فى جامع مصر يقول على منبر وعظه سنة تسع وستين وأربعمائة
إن من أحب أهل الخير نال من بركتهم ، كلب أحب أهل فضل وصحبهم فذكره الله :
فى محكم تنزيله .قلت - أى القرطبى - : إذا كان بعض الكلام نال هذه الدرجة
العليا بصحبة ومخالطة الصلحاء والأولياء حتى أخبر الله بذلك فى كتابه ، فما
ظنك بالمؤمنين المخالطين المحبين للأولياء . والصالحين!! بل فى هذا تسلية
وأنس للمؤمنين المقصرين عن درجات الكلمات : المحبين للنبى صلى الله عليه
وسلم وآله خير آله .روى فى الصحيح عن أنس قال : " بينا أنا ورسول الله صلى
الله عليه وسلم خارجان من المسجد ، فلقينا رجل عند سدة المسجد ، فقال : يا
رسول الله . متى الساعة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما
أعَدَدْتَ لها؟ " قال : فكأن الرجل استكان ، ثم قال : يا رسول الله ، ما
أعددت لها كثير صلاة ولا صيام ولا صدقة ، ولكنى أحببت الله ورسوله : قال
" " صلى الله عليه وسلم : " فأنت مع من أحببت

وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوما او
بعض يوم قالوا ربكم اعلم بما لبثتم فابعثوا احدكم بورقكم هذه الى المدينة
فلينظر ايها ازكى طعاما فلياتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرن بكم احدا

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وكذلك بَعَثْنَاهُمْ
لِيَتَسَآءَلُوا بَيْنَهُمْ ) ، بيان للعلة التى من أجلها بعث أصحاب الكهف
من نومهم الطويل .أى : وكما أنمناهم تلك المدة الطويلة ، بعثناهم من نومهم
بعدها ، ليسأل بعضهم بعضا ، وكأنهم قد أحسوا بأن نومهم قد طال .والاقتصار
على التساؤل الذى حصل الإيقاظ من أجله ، لا ينفى أن يكون هناك أسباب أخرى
غيره حصل من أجلها إيقاظهم ، وإنما أفرده - سبحانه - بالذكر لاستتباعه
لسائر الآثار الأخرى .ثم حكى - سبحانه - بعض تساؤلهم فقال : ( قَالَ
قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ) أى : كم مكثتم مستغرقين فى النوم فى
، هذا الكهف .فأجابه بعضهم بقوله : ( لبثنا يوما ) لظنهم أن الشمس قد غربت
فلما رأوها لم تغرب بعد قالوا : ( أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ) أى : مكثنا نائمين
بعض ساعات اليوم .ويصح أن تكون أو للشك . أى قال بعضهم فى الرد على سؤال
السائل كم لبثتم ، لبثنا فى النوم يوما أو بعض يوم ، لأننا لا ندرى على
الحقيقة كم مكثنا نائمين .ثم حكى القرآن أن بعضهم رد عِلْمَ مقدار مدة
نومهم على جهة اليقين إلى الله - تعالى - فقال : ( قَالُوا رَبُّكُمْ
أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ) أى : ربكم وحده هو العليم بمقدار الزمن الذى
، قضيتموه نائمين فى هذا الكهف .قال الآلوسى : وهذا رد منهم على الأولين
على أحسن ما يكون من مراعاة حسن الأدب ، وبه كما قيل يتحقق التحزب إلى
الحزبين المعهودين فيما سبق فى قوله - تعالى - ( لِنَعْلَمَ أَيُّ
الحِزْبَيْنِ ) وقال بعضهم : وقد استدل ابن عباس على أن عدد الفتية سبعة
بهذه الآية ، لأنه قد قال فى الآية : قال قائل منهم ، وهذا واحد ، وقالوا
فى جوابه : لبثنا يوما ، أو بعض يوم وهو جمع وأقله ثلاثة ، ثم قالوا : ربكم
أعلم بما لبثتم ، وهذا قول جمع آخرين فصاروا سبعة .ثم بين - سبحانه - ما
قالوه بعد أن تركوا الحديث فى مسألة الزمن الذى قضوه نائمين فى الكهف
فقال - تعالى - : ( فابعثوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هذه إلى المدينة
فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَآ أزكى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ
وَلْيَتَلَطَّفْ وَلاَ يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً ) .أى : كفوا عن الحديث
فى مسألة المدة التى نمتموها ، فعلمها عند الله ، وابعثوا أحدكم ( بورقكم )
أى : بدراهمكم المضروبة من الفضة ، ( إلى المدينة ) التى يوجد بها الطعام .
الذى نحن فى حاجة إليه ، والتى هى أقرب مكان إلى الكهف .قالوا : والمراد
). بها مدينتهم التى كانوا يسكنونها قبل أن يلجأوا إلى الكهف فراراً بدينهم
، فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَآ أزكى طَعَاماً ) أى : ومتى وصل إلى المدينة
). فليتفقد أسواقها ، وليتخير أى أطعمتها أحل وأطهر وأجود وأكثر بركة
فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ ) أى : فليأتكم بما يسد
. جوعكم من ذلك الأزكى طعاماً ، فيكون الضمير فى " منه " للطعام الأزكى

انهم ان يظهروا عليكم يرجموكم او يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا اذا ابدا

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

وكذلك اعثرنا عليهم ليعلموا ان وعد الله حق وان الساعة لا ريب فيها اذ
يتنازعون بينهم امرهم فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم اعلم بهم قال الذين
غلبوا على امرهم لنتخذن عليهم مسجدا

كما فسرها الوسيط فقوله - سبحانه - : ( وكذلك أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ

ليعلموا ) بيان للحكمة التى من أجلها أطلع الله - تعالى - الناس على هؤلاء الفتية .قال الآلوسى ما ملخصه : وأصل العثور السقوط للوجه ، يقال : عثُر عثورا وعِثارا إذا سقط لوجهه ، ومنه قولهم فى المثل : الجواد لا يكاد يعثر ثم تجوز به فى الاطلاع على أمر من غير طلبه .وقال بعضهم : لما كان كل عاثر ينظر إلى موضع عثرته ، ورد العثور بمعنى الاطلاع والعرفان ، فهو فى ذلك مجاز مشهور بعلاقة السببية .ومفعول ( أعثرنا ) محذوف لقصد العموم ، أى ، وكذلك أطلعنا الناس عليهم ، .والمعنى : وكما أنمناهم تلك المدة الطويلة : وبعثناهم هذا البعث الخاص ، أطلعنا الناس عليهم ليعلم هؤلاء الناس عن طريق المعاينة والمشاهدة ، ( أَنَّ وَعْدَ الله ) بالبعث ( حق ) وصدق وليعلموا كذلك أن الساعة ، أى القيامة ، آتية لا ريب فيها ، ولا شك فى حصولها ، فإن من شاهد أهل الكهف ، وعرف أحوالهم ، أيقن بأن من كان قادراً على إنامتهم تلك المدة الطويلة ثم على بعثهم بعد ذلك . فهو قادر على إعادة الحياة إلى الموتى ، وعلى بعث الناس يوم القيامة للحساب والجزاء .وقد ذكروا فى كيفية إطلاع الناس عليهم روايات ملخصها : " أن زميلهم الذى أرسلوه بالدراهم إلى السوق ليشترى لهم طعاما عندما وصل إلى سوق المدينة ، عمد إلى رجل ممن يبيع الطعام ، فدفع إليه ما معه من نقود لكى يأخذ فى مقابلها طعاما ، فلما رأى البائع النقود أنكرها - لأنها مصنوعة منذ زمن بعيد - وأخذ يطلع عليها بقية التجار ، فقالوا له : أين وجدت هذه الدراهم؟ فقال لهم : بعت بها أمس شيئا من التمر ، وأنا من أهل هذه المدينة ، وقد خرجت أنا وملائى إلى الكهف خوفا من إيذاء المشركين لنا ، فأخذوه إلى ملكهم وقصوا عليه قصته . فسر الملك به وذهب معه إلى الكهف ليرى بقية زملائه فلما رآهم سلم عليهم . . ثم أماتهم ، الله - تعالى - " .ثم بين - سبحانه - ما كان من أمرهم بعد وفاتهم وإختلاف الناس فى شأنهم ، فقال : ( إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ( فَقَالُواْ ابنوا عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ والظرف " إذ " متعلق بمحذوف تقديره : اذكر ، و ( يتنازعون ) من التنازع. بمعنى التخاصم والاختلاف ، والضمير فى ( أمرهم ) يعود إلى الفتنة .والمعنى لقد قصصنا عليك - أيها الرسول الكريم - قصة هؤلاء الفتية . وبينا لك : أحوالهم عند رقادهم ، وبعد بعثهم من نومهم ، وبعد الإعثار عليهم ، وكيف أن الذين عثروا عليهم صاروا يتنازعون فى شأنهم . فمنهم من يقول إنهم وجدوا فى زمن كذا ، ومنهم من يقول إنهم مكثوا فى كهفهم كذا سنة ، ومنهم من يقول نبنى حولهم بنيانا صفته كذا .

سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم الا قليل فلا تمار فيهم الا مراء ظاهرا ولا تستفت فيهم منهم احدا

كما فسرها الوسيط أى : سيختلف - الناس فى عدة أصحاب الكهف - أيها الرسول الكريم - فمن الناس من سيقول إن عدتهم ثلاثة رابعهم كلبهم ، ومنهم من يقول إنهم خمسة سادسهم كلبهم .فالضمير فى قوله ( سيقولون ) وفى الفعلين بعده : . يعود لأولئك الخائضين فى قصة أصحاب الكهف وفى عددهم ، على عهد النبى صلى الله عليه وسلم .قال الجمل : قيل إنما أتى بالسين فى هذا لأن فى الكلام طيا وإدماجا تقديره : فإذا أجبتهم عن سؤالهم عن قصة أهل الكهف ، فسلهم عن عددهم فإنهم سيقولون ثلاثة .ولم يأت بها فى بقية الأفعال ، لأنها معطوفة على ما فيه السين فأعطيت حكمه من الاستقبال .وقال صاحب الكشاف ، فإن قلت : لماذا جاء بسين الاستقبال فى الأول دون الآخرين؟ .قلت : فيه وجهان : أن تدخل الآخرين فى حكم السين ، كما تقول : قد أكرم وأنعم .تريد معنى التوقع فى ، الفعلين جميعا ، وأن تريد بيفعل معنى الاستقبال الذى هو صالح له .وقوله ثلاثة . خبر لمبتدأ محذوف ، أى : هم ثلاثة .وقوله - تعالى - : ( رجما بالغيب ) رد على القائلين بأنهم ثلاثة رابعهم كلبهم ، وعلى القائلين بأنهم خمسة سادسهم كلبهم .وأصل الرجم : الرمى بالحجارة ، والمراد به هنا : القول ) " : بالظن والحدس والتخمين بدون دليل أو برهان .قال صاحب الكشاف قوله ) رجما بالغيب ) ، أى : رميا بالخبر الخفى وإتيانا به . كقوله وَيَقْذِفُونَ بالغيب مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ) أى : يأتون به . أو وضع الرجم ، موضع الظن فكأنه قيل ظنا بالغيب . لأنهم أكثروا أن يقولوا : رجم بالظن ، مكان قولهم : ظن . حتى لم يبق عندهم فرق بين العبارتين . ألا ترى إلى قول زهير : وما هو عنها بالحديث المرجم . . أى : المظنون " .وقوله : ( رجما ) منصوب بفعل مقدر . والباء فى ( بالغيب ) للتعدية .أى : يرمون رميا بالخبر الغائب عنهم ، والذى لا اطلاع لهم على حقيقته ، شأنهم فى ذلك شأن من يرمى بالحجارة التى لا تصيب المرمى المقصود .ثم حكى - سبحانه - القول الذى هو أقرب الأقوال إلى الصواب فقال : ( وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ) .أى : وبعض الناس - وهم المؤمنون - يقولون إن عدد أصحاب الكهف سبعة أفراد وثامنهم كلبهم .قال ابن كثير : - يقول - تعالى - مخبرا عن اختلاف الناس فى عدة أصحاب الكهف . فحكى ثلاثة أقوال ، فدل على أنه لا قائل برابع . ولما ضعف القولين الأولين بقوله : ( رجما بالغيب ) .أى : قول بلا

علم ، كمن يرمى إلى مكان لا يعرفه ، فإنه لا يكاد يصيب . وإذا أصاب فبلا قصد ، ثم حكى الثالث وسكت عليه أو قرره بقوله : ( وثامنهم كلبهم ) دل على صحته ، وأنه هو الواقع فى نفس الأمر .وقال الآلوسى ما ملخصه : والجملة الواقعة بعد العدد فى قوله - تعالى - : ( وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ) فى موضع الصفة له ، والواو الداخلة على الجملة الواقعة صفة للنكرة ، كما تدخل فى الواقعة حالا عن المعرفة فى قولك : جاءنى : - رجل ومعه آخر ، ومررت بزيد وفى يده سيف ، ومنه قوله - تعالى

ولا تقولن لشيء اني فاعل ذلك غدا

كما فسرها الوسيط قال القرطبى : قال العلماء : عاتب الله - تعالى - نبيه صلى الله عليه وسلم على قوله للكفار حين سألوه عن الروح والفتية وذى القرنين : غدا أخبركم بجواب أسئلتكم ، ولم يستثن فى ذلك .فاحتبس الوحى عنه خمسة عشر يوما حتى شق ذلك عليه ، وأرجف الكفار به ، فنزلت عليه هذه السورة مفرّجة . وأمِر فى هذه الآية ألا يقول فى أمر من الأمور إنى أفعل غدا كذا وكذا ، إلا أن يعلق ذلك بمشيئة الله - عز وجل - حتى لا يكون محققا لحكم ، الخبر ، فإنه إذا قال : لأفعلن ذلك ولم يفعل : كان كاذبا ، وإذا قال لأفعلن ذلك - إن شاء الله - خرج عن أن يكون محققا للمخبر عنه .والمراد بالغد : ما يستقبل من الزمان ، ويدخل فيه اليوم الذى يلى اليوم الذى أنت فيه دخولا أوليا . وعبر عما يستقبل من الزمان بالغد للتأكيد .أى : ولا تقولن - أيها الرسول الكريم - لأجل شئ تعزم على فعله فى المستقبل : إنى ، فاعل ذلك الشئ غدا ، إلا وأنت مقرن قولك هذا بمشيئة الله - تعالى - وإذنه بأن تقول : سأفعل هذا الشئ غدا بإذن الله ومشيئته ، فإن كل حركة من حركاتك - ومن حركات غيرك - مرهونة بمشيئة الله - وإرادته ، وما يتعلق بمستقبلك ومستقبل غيرك من شئون ، هو فى علم الله - تعالى - وحده .وليس المقصود من الآية الكريمة نهى الإنسان عن التفكير فى أمر مستقبله ، وإنما المقصود نهيه عن الجزم بما سيقع فى المستقبل ، لأن ما سيقع علمه عند الله - تعالى - وحده .والعاقل من الناس هو الذى يباشر الأسباب التى شرعها الله - تعالى - سواء أكانت هذه الأسباب تتعلق بالماضى أم بالحاضر أم بالمستقبل ، ثم يقرن كل ذلك بمشيئة الله - تعالى - وإرادته . فلا يقول : سأفعل غدا كذا وكذا لأننى أعددت العدة لذلك ، وإنما يقول : سأفعل غدا كذا وكذا إذا شاء الله - تعالى - ذلك وأراد ، وأن يوقن بأن إرادة الله فوق إرادته ، وتدبيره - سبحانه - فوق كل تدبير .

الا ان يشاء الله واذكر ربك اذا نسيت وقل عسى ان يهدين ربي لاقرب من هذا رشدا

كما فسرها الوسيط وكم من أمور أعد الإنسان لها أسبابها التى تؤدى إلى قضائها . . ثم جاءت إرادة الله - تعالى - فغيرت ما أعده ذلك الإنسان ، لأنه لم يستشعر عند إعداده للأسباب أن . إرادة الله - تعالى - فوق إرادته ، وأنه - سبحانه - القادر على خرق هذه الأسباب ، وخرق ما تؤدى إليه ، ولأنه لم يقل عندما يريد فعله فى المستقبل ، إن شاء الله .وقوله : ( واذكر رّبّكَ إِذَا نَسِيتَ ) تأكيد لما قبله أى :لا تقولن أفعل غدا إلا ملتبسا بقول : إن شاءَ الله ، واذكر ربك - سبحانه - إذا نسيت تعليق القول بالمشيئة ، أى : عند تذكرك بأنك لم تقرن قولك بمشيئة الله ، فأت بها .

ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا

كما فسرها الوسيط أى : أن أصحاب الكهف مكثوا فى كهفهم راقدين ثلاثمائة سنين وازدادوا فوق ذلك تسع سنين .فالآية الكريمة إخبار منه - سبحانه - عن ، المدة التى لبثها هؤلاء الفتية مضروبا على آذانهم .

قل الله اعلم بما لبثوا له غيب السماوات والارض ابصر به واسمع ما لهم من دونه من ولي ولا يشرك في حكمه احدا

كما فسرها الوسيط وقوله : ( قُلِ الله أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ ) تقرير - وتأكيد لكون المدة التى لبثوها هى ما سبق بيانه فى الآية السابقة .فكأنه ، سبحانه - يقول : هذا هو فصل الخطاب فى المدة التى لبثوها راقدين فى كهفهم وقد أعلمك الله - تعالى - بذلك - أيها الرسول الكريم - ، وما أعلمك به فهو الحق الصحيح الذى لا يحوم حوله شك ، فلا تلتفت إلى غيره من أقوال الخائضين فى أمر هؤلاء الفتية ، فإن الله - تعالى - هو الأعلم بحقيقة ذلك .ويرى بعضهم أن قوله - تعالى - : ( وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ) حكاية لكلام أهل الكتاب فى المدة التى لبثها أهل الكهف نياما فى كهفهم ، وأن قوله ( قُلِ الله أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ ) للرد عليهم .وقد حكى الإمام ابن كثير

القولين . ورجح الأول منهما فقال : هذا خبر من الله - تعالى - لرسوله صلى الله عليه وسلم بمقدار ما لبث أصحاب الكهف فى كهفهم ، منذ أن أرقدهم الله إلى أن بعثهم وأعثر عليهم أهل ذلك الزمان . كان مقداره ثلاثمائة سنين وتسع سنين بالهلالية وهى ثلاثمائة سنة بالشمسية ، فإن تفاوت ما بين كل مائة سنة بالقمرية إلى الشمسية ثلاث سنين ، فلهذا قال بعد الثلاثمائة ( وازدادوا تسعا ) .وقال قتادة فى قوله : ( وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ . . ) وهذا قول أهل الكتاب وقد رده الله - تعالى - بقوله : ( قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ ) .وفى هذا الذى قاله قتادة نظر ، فإن الذى بأيدى أهل الكتاب أنهم لبثوا ثلاثمائة سنة من غير تسع ولو كان الله - تعالى - قد حكى قولهم لما قال : ( وازدادوا تسعا ) ، وظاهر الآية أنه خبر عن الله لا حكاية عنهم - وقوله - تعالى - : ( لَهُ غَيْبُ السماوات والأرض ) تأكيد لاختصاصه. . . عز وجل - بعلم المدة التى لبثوها ، أى : له - سبحانه - وحده علم ما خفى ) : - وغاب من أحوال السموات والأرض ، وأحوال أهلهما ، كما قال - تعالى - إِنَّ اللهَ لاَ يخفى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأرض وَلاَ فِي السمآء ) وقوله - سبحانه - : ( أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ) صيغتا تعجب : أى : ما أبصره وما أسمعه - تعالى - والمراد أنه - سبحانه -لا يغيب عن بصره وسمعه شئ .وجاءت هذه الجملة الكريمة بصيغة التعجب للدلالة على أن أمره - تعالى - فى الإدراك خارج عما عليه إدراك المبصرين والسامعين . إذ لا يحجبه شئ ، ولا يتفاوت عنده لطيف وكثيف ، وصغير وكبير ، وجلى وخفى .ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ( مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً ) .أى : ليس لأهل السموات ولا لأهل الأرض ولا لغيرهما غير الله - تعالى - نصير ينصرهم ، أو ولى يلى أمرهم . ولا يشرك - سبحانه - فى حكمه أو قضائه أحدا كائنا من كان من خلقه . كما قال - تعالى - ( أَلاَ لَهُ الخلق والأمر تَبَارَكَ الله رَبُّ العالمين ) هذا ، وقد ذكر المفسرون عند تفسيرهم لهذه الآيات مسائل منها .( أ ) مكان الكهف الذى لجأ إليه هؤلاء الفتية ، والزمن الذى ظهروا فيه ، أما مكان الكهف فللعلماء فيه أقوال : من أشهرها أنه كان بالقرب من مدينة تسمى " أفسوس " وهى من مدن تركيا الآن ، قالوا إنها تبعد عن مدينة " أزمير " بحوالى أربعين ميلا ، وتعرف الآن باسم : " أيازبوك " .وقيل : إنه كان ببلدة تدعى " أبسس " بفتح الهمزة وسكون الباء وضم السين - وهذه البلدة من ثغور " طرسوس - " بين مدينة حلب بسوريا ، وبلاد أرمينية وأنطاكية .وقيل : إنه كان ببلدة تسمى " بتراء " بين خليج العقبة وفلسطين . . إلى غير ذلك من الأقوال الكثيرة ، التى لا نرى داعيا لذكرها ، لقلة فائدتها .وأما الزمن الذى ظهروا فيه فيرى كثير من المفسرين أنه كان فى القرن الثالث الميلادى فى عهد الإمبراطور الرومانى " دقيانوس " الذى كان يحمل الناس حملا على عبادة الأصنام ، ويعذب من يخالف ذلك .( ب ) العبر والعظات والأحكام التى تؤخذ من هذه القصة - ومن أهمها :1- إثبات صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يبلغه عن ربه ، حيث أخبر - عن طريق ما أوحاه الله إليه من قرآن - عن قصة هؤلاء الفتية ، وبين وجه الحق فى شأنهم ورد على ما خاضه الخائضون فى أمرهم ، وصدق الله إذ يقول : ( نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نبَأَهُم بالحق . . . ) 2- الكشف عن جانب من بلاغة القرآن الكريم فى قصصه ، حيث ساق هذه القصة مجملة فى الآيات الأربع الأولى منها ، ثم ساقها مفصلة بعد ذلك تفصيلا حكيما . وفى ذلك ما فيه من تمكن أحداثها وهداياتها فى القلوب .والمرشد العاقل هو الذى ينتفع بهذا الأسلوب القرآنى فى وعظه وإرشاده .3- بيان أن الإيمان متى استقر فى القلوب ، هان كل شئ فى سبيله . فهؤلاء الفتية آثروا الفرار بدينهم - على البقاء فى أوطانهم ، لكى تسلم لهم عقيدتهم . . فهم كما قال ، سبحانه - فى شأنهم : ( إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُواْ بِرَبِّهِمْ - وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ) 4- بيان أن على المؤمن أن يلجأ إلى الله بالدعاء ، لا سيما عند الشدائد والكروب ، وأنه متى اتقى الله - تعالى - وأطاعه ، جعل له - سبحانه - من كل ضيق فرجا ، ومن كل هم مخرجا ، ورزقه من حيث لا يحتسب ، وصانه من السوء .

واتل ما اوحي اليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا

كما فسرها الوسيط قال الإمام الرازى ما ملخصه : قوله - تعالى - : ( واتل مَآ أُوْحِيَ إِلَيْكَ . . ) اعلم أن من هذه الآية إلى قصة موسى - عليه السلام - والخضر ، كلام واحد فى قصة واحدة وذلك أن أكابر كفار قريش احتجبوا وقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أردت أن نؤمن بك فاطرد هؤلاء - الفقراء . . فنهاه الله عن طردهم لأنه مطلوب فاسد . . ثم إنه - سبحانه ، أمره بالمواظبة على تلاوة كتابه ، وأن لا يلتفت إلى اقتراح المقترحين وتعنت المتعنتين .قوله - سبحانه - : ( واتل ) . . . فعل أمر من التلاوة بمعنى القراءة .أى : وعليك أيها الرسول الكريم - أن تواظب وتداوم على قراءة ما أوحيناه إليك من هذا القرآن الكريم ، وأن تتبع إرشاداته وتوجيهاته ، فإن - فى ذلك ما يهديك إلى الطريق الحق ، وما يغنيك عن السؤال والاستفتاء ، قال

تعالى - : ( إِنَّ الذين يَتْلُونَ كِتَابَ الله وَأَقَامُواْ الصلاة
وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً يَرْجُونَ
تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ) وصيغة الأمر فى قوله - سبحانه - : ( واتل . . )
لإبقاء الفعل لا لإيجاده ، كما فى قوله - تعالى - : ( اهدنا الصراط
) : المستقيم ) و " من " فى قوله ( مِن كِتَابِ رَبِّكَ ) بيانية .وقوله
لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ) أى ليس فى هذا الكون أحد فى إمكانه أن يغير
أو يبدل شيئا من الكلمات التى أوحاها الله - تعالى - إليك - أيها الرسول
- الكريم - ، لأننا قد تكفلنا بحفظ هذا الكتاب الذى أوحيناه إليك .قال
تعالى - : ( وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ
لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السميع العليم ) وقال - سبحانه - ( إِنَّا نَحْنُ
- نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ) فالجملة الكريمة وهى قوله
سبحانه - ( لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ) نفت قدرة أحد على تبديل كلمات
الله ، لأن أخبارها صدق ، وأحكامها عدل ، وإنما الذى يقدر على التغيير
- والتبديل هو الله - تعالى - وحده .والضمير فى ( كلماته ) يعود على الله
تعالى - ، أو على الكتاب .ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ( وَلَن
تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً ) .وأصل الملتحد : مكان الالتحاد وهو
. افتعال من اللحد بمعنى الميل . ومنه اللحد فى القبر ،لأنه ميل فى الحفر
ومنه قوله - تعالى - : ( إِنَّ الذين يُلْحِدُونَ في آيَاتِنَا لاَ
: يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ . . ) أى : يميلون فى آياتنا .فالمراد بالملتحد
المكان الذى يميل فيه إلى ملجأ للنجاة .والمعنى : وداوم أيها الرسول الكريم
على تلاوة ما أوحيناه إليك من كتابنا الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا
من خلفه ، واعلم أنك إن خالفت ذلك لن تجد غير الله - تعالى - ملجأ تلجأ
إليه ، أو مأوى تأوى إليه ، لكى تنجو مما يريده بك .فالجملة الكريمة تذييل
قصد به التحذير الشديد - فى شخص الرسول صلى الله عليه وسلم لكل من يقصر فى
. تلاوة كتاب الله ، أو يحاول التبديل فى ألفاظه ومعانيه

واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك
عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه
وكان امره فرطا

كما فسرها الوسيط ثم ساقت السورة الكريمة لونا من الأدب السامى ، والتوجيه
العالى ، حيث بينت أن أولى الناس بالرعاية والمجالسة هم المؤمنون الصادقون
) : - وأمرت النبى صلى الله عليه وسلم بأن يصبر نفسه معهم ، فقال - تعالى ،
واصبر نَفْسَكَ مَعَ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُم بالغداة والعشي يُرِيدُونَ
. وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الحياة الدنيا
وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها : أنها نزلت فى ( .
، أشراف قريش ، حين طلبوا من النبى صلى الله عليه وسلم أن يجلس معهم وحده
ولا يجالسهم مع ضعفاء أصحابه كبلال وعمار وابن مسعود . وليفرد أولئك بمجلس
على حدة ، فنهاه الله - تعالى - عن ذلك . . وأمره أن يصبر نفسه فى الجلوس
مع هؤلاء الفقراء فقال : ( واصبر نَفْسَكَ مَعَ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُم
بالغداة والعشي يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ) .وصبر النفس معناه : حبسها وتثبيتها
: على الشئ ، يقال : صبرَت فُلانا أَصْبِره صَبْراً ، أى : حبسته .والغداة
أول النهار . والعشى . آخره .والمعنى : عليك - أيها الرسول الكريم - أن
: تحبس نفسك وتعودها على مجالسة أصحابك ( الذين يَدْعُونَ رَبَّهُم ) أى
يعبدونه ويتقربون إليه بشتى أنواع القربات ، فى الصباح والمساء ، ويداومون
- على ذلك ، دون أن يريدوا شيئا من وراء هذه العبادة ، سوى رضا الله
تعالى - عنهم ورحمته بهم .وفى تخصيص الغداة والعشى بالذكر : إشعار بفضل
العبادة فيهما : لأنهما محل الغفلة والاشتغال بالأمور الدنيوية غالبا .ويصح
أن يكون ذكر هذين الوقتين المقصود به مداومة العبادة . وإلى هذا المعنى
: أشار الآلوسى بقوله : قوله : ( يَدْعُونَ رَبَّهُم بالغداة والعشي ) أى
: يعبدونه دائما . وشاع استعمال مثل هذه العبارة للدوام . وهى نظير قولهم
ضرب زيد الظهر والبطن . يريدون به ضرب جميع البدن . وأبقى غير واحد اللفظين
على ظاهرهما أى : يعبدونه فى طرفى النهار .وقوله : ( يريدون وجهه ) مدح لهم
- بالإخلاص والبعد عن الرياء والمباهاة . . فهم لا يتقربون إلى الله
تعالى - بالطاعات من أجل دينا يصيبونها . أو من أجل إرضاء الناس .وإنما هم
يبتغون بعبادتهم رضا الله - تعالى - وحده ، لا شيئا آخر من حظوظ الدنيا
وقوله - سبحانه - ( وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ.
الحياة الدنيا . . ) نهى له صلى الله عليه وسلم - عن الغفلة عنهم ، بعد
أمره بحبس نفسه عليهم .والفعل ( تَعْدُ ) بمعنى تصرف . يقال عداه عن الأمر
عدوا إذا صرفه عنه وشغله .أى : احبس نفسك مع هؤلاء المؤمنين الصادقين الذين
يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه - سبحانه - ولا تصرف عيناك النظر
عنهم ، وتتجاوزهم إلى غيرهم من الأغنياء ، طمعا فى إسلامهم .فالمراد بإرادة
) الحياة الدنيا الحرص على مجالسة أهل الغنى والجاه حبا فى إيمانهم .وجملة
تُرِيدُ زِينَةَ الحياة الدنيا ) فى موضع الحال من الضمير المضاف إليه فى

قوله ( عيناك ) ، وإنما ساغ ذلك لأن المضاف هنا جزء من المضاف إليه
وقوله - تعالى - ( وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا .
واتبع هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً ) نهى آخر مؤكد لما قبله من حبس
نفسه صلى الله عليه وسلم على هؤلاء المؤمنين الفقراء ، وعدم صرف نظره عنهم
إلى غيرهم من المتغطرسين الأغنياء .والفرط - بضم الفاء والراء - : مجاوزة
الحد ، ونبذ الحق والصواب ، واتباع الباطل والضلال . أى : ولا تطع - أيها
الرسول الكريم - فى تنحية المؤمنين الفقراء عن مجلسك أقوال أولئك الغافلين
عن طاعتنا وعبادتنا لاستحواذ الشيطان عليها ، والذين اتبعوا أهواءهم فآثروا
الغى على الرشد . والذين كان أمرهم . فرطا أى : مخالفا للحق ، ومجاوزا
للصواب ، ومؤديا للضياع والخسران .قال ابن جرير - " بعد أن ذكر جملة من
الأقوال فى معنى قوله - تعالى - : ( فرطا ) : وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب
قول من قال معناه : ضياعا وهلاكا . من قولهم : أفرط فلان فى هذا الأمر
إفراطاً ، إذا أسرف فيه . وتجاوز قدره . وكذلك قوله : ( وَكَانَ أَمْرُهُ
فُرُطاً ) . معناه : وكان أمر هذا الذى أغفلنا قلبه عن ذكرنا فى الرياء
" والكبر واحتقار أهل الإيمان سرفا قد تجاوز حده ، فضيع بذلك الحق وهلك
فالآية الكريمة تسوق للناس توجيها حكيما فى بيان القيم الحقيقية للناس؛
وهى أنها تتمثل فى الإيمان والتقوى ، لا فى الغنى والجاه .فالمؤمن الصادق
فى إيمانه ، الكريم فى أخلاقه . . هو الذى يحرص على مخالطة أهل الإيمان
، والتقوى . ولا يمنعه فقرهم من مجالستهم ومصاحبتهم ومؤانستهم والتواضع لهم
والتقدم إليهم بما يسرهم ويشرح صدورهم .ولقد ربى النبى صلى الله عليه وسلم
" : أصحابه على هذا الخلق الكريم ، روى الشيخان عن سهل بن سعد الساعدى قال
مر رجل على النبى صلى الله عليه وسلم فقال لرجل عنده جالس : " ما رأيك فى
هذا؟ " فقال : رجل من أشرف الناس ، هذا والله حرىٌّ إن خطب أن يزوج ، وإن
شفع أن يشفع . فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم مرّ رجل آخر : فقال له
صلى الله عليه وسلم : " ما رأيك فى هذا "؟ فقال : يا رسول الله ، هذا رجل
، من فقراء المسلمين هذا والله حرى إن خطب أن لا يزوج ، وإن شفع ألا يشفع
وإن قال أن لا يسمع لقوله . فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم :" هذا
خير من ملء الأرض مثل هذا " " .

وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر انا اعتدنا للظالمين نارا
احاط بهم سرادقها وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب
وساءت مرتفقا

كما فسرها الوسيط ثم أمر الله - تعالى - رسوله صلى الله عليه وسلم أن يجهر
بكلمة الحق فى وجوه المستكبرين ، فقال .( وَقُلِ الحق مِن رَّبِّكُمْ فَمَن
شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ . . ) .أى : وقل : أيها
الرسول - لهؤلاء الذين أغفلنا قلوبهم عن ذكرنا ، واتبعوا أهواءهم ، وكان
أمرهم فرطا ، قل لهم : هذا الذى جئتكم به من قرآن هو الحق من ربكم وخالقكم
فقوله : ( الحق مِن رَّبِّكُمْ ) خبر لمبتدأ محذوف .أو أن لفظ ( الحق ) . .
مبتدأ ، والجار والمجرور خبره . أى : الحق الذى جئتكم به فى هذا القرآن
) العظيم ، كائن مبدؤه من ربكم ، وليس من أحد سواه .وليس المراد من قوله
فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ) التخيير بين الإيمان
) والكفر ، بل المراد به التهديد والتخويف ، بدليل قوله - تعالى - بعد ذلك
إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً ) . . إلخ .أى : قل لهم جئتكم من
ربكم بالحق الذى يجب اتباعه ، فمن شاء أن يؤمن به فليفعل فإن عاقبته الخير
والثواب ، ومن شاء أن يكفر به فليكفر فإن عاقبته الخسران والعقاب ، كما
بين - سبحانه - ذلك فى قوله : ( إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً
أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ) .والسرادق : كل ما أحاط بغيره ، كالحائط أو
السور الذى يحيط بالبناء ، فيمنع من الوصول إلى ما بداخله .أى : إنا هيأنا
وأعددنا للكافرين بهذا الحق نارا مهولة عظيمة ، أحاط بهم سياجها إحاطة
تامة؛ بحيث لا يستطيعون الخروج منه ، وإنما هم محصورون بداخله . كما ينحصر
الشئ بداخل ما يحدق به من كل جانب .وقوله : ( وَإِن يَسْتَغِيثُواْ
يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كالمهل يَشْوِي الوجوه بِئْسَ الشراب وَسَآءَتْ
مُرْتَفَقاً ) بيان لما ينزل بهم من عذاب عندما يطلبون الغوث مما هم فيه من
، كروب .والمهل فى اللغة : يطلق على ما أذيب من جواهر الأرض . كالحديد
والرصاص ، والنحاس ، ونحو ذلك كما يطلق - أيضا - على الماء الغليظ كدردى
: الزيت أى : ما تعكر منه . وقيل . هو نوع من القطران أو السم .والمرتفق
، المتكأ ، من الارتفاق وهو الاتكاء على مرفق اليد .أى : إن هؤلاء الكافرين
إن يطلبوا الغوث عما هم فيه من كرب وعطش ، يغاثوا بماء كالمهل فى شدة
حرارته ونتنه وسواده ، هذا الماء ( يشوى الوجوه ) أى : يحرقها .( بئس
، الشراب ) ذلك الماء الذى يغاثون به ( وساءت ) النار منزلا ينزلون به
، ومتكأ يتكئون عليه .فالآية الكريمة تصور ما ينزل بهؤلاء الظالمين من عذاب
تصويرا ترتجف من هوله الأبدان ، ويدخل الرعب والفزع على النفوس .قال بعضهم
فإن قيل ، أى إغاثة لهم فى ماء كالمهل مع أنه من أشد العذاب ، وكيف " :

قال - سبحانه - ، ( يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كالمهل ) ؟فالجواب : إن هذا من أساليب اللغة العربية التى نزل بها القرآن ونظيره من كلام العرب قول عمرو بن معد يكرب .وخيل قد دلفت لها بخيل ... تحية بينهم ضرب وجيعأى :لا تحية لهم إلا الضرب الوجيع ، وإذا كان هؤلاء الظالمون لا يغاثون إلا بماء كالمهل علم من ذلك أنهم لا إغاثة لهم مطلقا ، " .

ان الذين امنوا وعملوا الصالحات انا لا نضيع اجر من احسن عملا

`<!-- TODO:MISSING -->`{=html} كما فسرها الوسيط

اولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الانهار يحلون فيها من اساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضرا من سندس واستبرق متكئين فيها على الارائك نعم الثواب وحسنت مرتفقا

`<!-- TODO:MISSING -->`{=html} كما فسرها الوسيط

واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لاحدهما جنتين من اعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا

كما فسرها الوسيط والمثل فى اللغة : الشبيه والنظير ، وهو فى عرف القرآن ، الكريم : الكلام البليغ المشتمل على تشبيه بديع .وضرب المثل : إيراده : وعبر عن إيراده بالضرب ، لشدة ما يحدث عنه من التأثير فى نفس السامع .أى واضرب - أيها الرسول الكريم - مثلا للمؤمنين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، وللكافرين الذين غرتهم الحياة الدنيا ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حى عن بينة .قال الآلوسى : " والمراد بالرجلين ، إما رجلان مقدران على ما قيل ، وضرب المثل لا يقتضى وجودهما . وإما رجلان . موجودان وهو المعول عليه . فقيل هما رجلان من بنى إسرائيل أحدهما : كافر والآخر : مؤمن .ثم قال : والمراد ضربهما مثلا للفريقين المؤمنين . والكافرين ، لا من حيث أحوالهما المستفادة مما ذكر آنفا ، بل من أن للمؤمنين فى الآخرة كذا ، وللكافرين فيها كذا ، من حيث عصيان الكفرة مع تقلبهم فى نعم الله ، وطاعة المؤمنين مع مكابدتهم مشاق الفقر " .أى : واضرب ) : لهم مثلا من حيثية العصيان مع النعمة ، والطاعة مع الفقر ، حال رجلين - جعلنا لأحدهما ) وهو الكافر ( جنتين ) أى : بستانين ، ولم يعين - سبحانه مكانهما ، لأنه لم يتعلق بهذا التعيين غرض .ثم بين ما اشتملت عليه هاتان . الجنتان من خيرات فقال : ( من أعناب ) جمع عِنَب ، والعنبة الحبة منه والمراد : من كروم متنوعة .وقوله : ( وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً ) بيان لما أضيف إلى الجنتين من مناظر ، تزيدهما بهجة وفائدة .والحف بالشئ : الإحاطة به . يقال : فلان حفه القوم أى : أحاطوا به ، ومنه قوله - تعالى - : ( وَتَرَى الملائكة حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ العرش . . . ) أى : جعلنا لأحد الرجلين ، وهو الكافر منهما جنتين من أعناب ، وأحطناهما بنخل ليكون كالحماية النافعة لهما ، وجعلنا فى وسطهما زرعا وبذلك تكون الجنتان جامعتين للأقوات والفواكه ، مشتملتين على ما من شأنه أن يشرح الصدر ، ويفيد الناس .

كلتا الجنتين اتت اكلها ولم تظلم منه شيئا وفجرنا خلالهما نهرا

كما فسرها الوسيط ثم ذكر - سبحانه - ما يزيد من جودة الجنتين ، ومن غزارة خيرهما فقال : ( كِلْتَا الجنتين آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَراً ) وكلتا : اسم مفرد اللفظ مثنى المعنى عند البصريين ، وهو المذهب المشهور ، ومثنى لفظا ومعنى عند غيرهم أى : أن كل واحدة من الجنتين ( آتت أكلها ) أى : أعطت ثمارها التى يأكلها . الناس من العنب والتمر وغيرهما من صنوف الزرع ( وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئاً ) أى ولم تنتقص من هذا المأكول شيئا فى سائر السنين ، بل كان أكل كل واحدة منهما وافيا كثيرا فى كل سنة ، على خلاف ما جرت به عادة البساتين فإنها فى الغالب تكثر ثمارها فى أحد الأعوام وتقل فى عام آخر .وفى ، التعبير بكلمة ( تظلم ) بمعنى تنقص وتمنع ، مقابلة بديعة لحال صاحبهما الذى ) ظلم نفسه بجحوده لنعم الله - تعالى - واستكباره فى الأرض .وقوله وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَراً ) أى : وشققنا فى وسطهما نهرا ليمدهما بما يحتاجان إليه من ماء بدون عناء وتعب .فأنت ترى أن الله - تعالى - قد وصف هاتين الجنتين بما يدل على جمال منظرهما ، وغزارة عطائهما ، وكثرة خيراتهما ، واشتمالهما على ما يزيدهما بهجة ومنفعة .

وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره انا اكثر منك مالا واعز نفرا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن صاحب هاتين الجنتين كانت له أموال
) " : أخرى غيرهما فقال : ( وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ ) .قال الآلوسى ما ملخصه
وكان له ) أى : للأحد المذكور وهو صاحب الجنتين ( ثمر ) أى أنواع من المال
وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى . . ( ثُمُر ) بضم الثاء والميم ، وهو . .
جمع ثمار - بكسر الثاء - . . أى : أموال كثيرة من الذهب والفضة والحيوان
: - وغير ذلك ، وبذلك فسره ابن عباس وقتادة وغيرهما . . " .وقوله - سبحانه
قَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً )
وَأَعَزُّ نَفَراً ) حكاية لما تفوه به هذا الكافر من ألفاظ تدل على غروره
وبطره .والمحاورة : المراجعة للكلام من جانبين أو أكثر . يقال : تحاور
القوم ، إذا ترجعوا الكلام فيما بينهم . ويقال : كلمته فما أحار إلى جوابا
أى : ما رد جوابا .والنفر : من ينفر - بضم الفاء - مع الرجل من قومه ،
وعشيرته لقتال عدوه .أى : فقال صاحب الجنتين لصاحبه المؤمن الشاكر : أنا
أكثر منك مالا وأعز منك عشيرة وحشما وأعوانا .وهذا شأن المطموسين المغرورين
تزيدهم شهوات الدنيا وزينتها . . بطرا وفسادا فى الأرض .وما أصدق قول ،
قتادة - رضى الله عنه - : " تلك - والله - أمنية الفاجر : كثرة المال وعزة
. " النفر

ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما اظن ان تبيد هذه ابدا

كما فسرها الوسيط ثم انتقل صاحب الجنتين من غروره هذا إلى غرور أشد . حكاه
القرآن فى قوله : ( وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ
مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هذه أَبَداً وَمَآ أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً
( وَلَئِن رُّدِدتُّ إلى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنْقَلَباً
أى : أن هذا الكافر لم يكتف بتطاوله على صاحبه المؤمن ، بل سار به نحو.
: جنته حتى دخلها وهو ظالم لنفسه بسبب كفره وجحوده وغروره .قال صاحب الكشاف
، فإن قلت : فلم أفرد الجنة بعد التثنية؟ قلتُ : معناه ودخل ما هو جنته
، ماله جنة غيرها : يعنى أنه لا نصيب له فى الجنة التى وعدها الله للمؤمنين
فما ملكه فى الدنيا هو جنته لا غير ، ولم يقصد الجنتين ولا واحدة منهما
، وقوله ( وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ) أى : وهو معجب بما أوتى مفتخر به.
: كافر لنعمة ربه ، معرض بذلك نفسه لسخط الله ، وهو أفحش الظلم . . .وقوله
أى : قال هذا الكافر لصاحبه ( قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هذه أَبَداً )
ما أظن أن هذه الجنة تفنى أو تهلك أبدا .يقال : باد الشئ يبيدُ بَيْدا :
. وبُيُودًا : إذا هلك وفنى

وما اظن الساعة قائمة ولئن رددت الى ربي لاجدن خيرا منها منقلبا

`<!-- TODO:MISSING -->`{=html} كما فسرها الوسيط

قال له صاحبه وهو يحاوره اكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا

كما فسرها الوسيط أى : قال الرجل الفقير المؤمن ، فى رده على صاحبه الجاحد
) المغرور ، منكرا عليه كفره قال له على سبيل المحاورة والمجاوبة : يا هذا
أكفرت ) بالله الذى ( خلقك ) بقدرته ( من تراب ) . أى : خلق أباك الأول من
تراب ، كما قال : سبحانه ( إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ
خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ) ( ثُمَّ مِن
نُّطْفَةٍ ) أى : خلق أباك آدم من تراب ، ثم أوجدك أنت من نطفة عن طريق
التناسل والمباشرة بين الذكر والأنثى .( ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً ) أى : ثم
) : - صيرك إنسانا كاملا ، ذا صورة جميلة ، وهيئة حسنة . كما قال - سبحانه
) : لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان في أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ) والاستفهام فى قوله
أكفرت . . ) للإنكار والاستبعاد ، لأن خلق الله - تعالى - له من تراب ثم
، نطفة ، ثم تسويته إياه رجلا ، يقتضى منه الإيمان بهذا الخالق العظيم
وإخلاص العبادة له ، وشكره على نعمائه .قالوا : ولا يستلزم قول صاحب
الجنتين قبل ذلك : ( وَلَئِن رُّدِدتُّ إلى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً
مِّنْهَا مُنْقَلَباً ) أنه كان مؤمنا ، لأنه قال ذلك على سبيل الفرض
والتقدير ، لا على سبيل الاعتقاد واليقين ، بدليل تردده فى إمكان قيام
، الساعة ، ولأن اعترافه بوجود الله - تعالى -لا يستلزم الإيمان الحق
فالكفار كانوا يعترفون بأن الله - تعالى - هو الخالق للسموات والأرض ، ومع
، هذا يشركون معه فى العبادة آلهة أخرى .وجاء التعبير بحرف " ثم " فى الآية
للاشارة إلى أطوار خلق الإنسان التى فصلها - سبحانه - فى آيات أخرى ، منها
قوله - تعالى - : ( وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِن سُلاَلَةٍ مِّن طِينٍ
ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النطفة
عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العلقة مُضْغَةً فَخَلَقْنَا المضغة عِظَاماً
فَكَسَوْنَا العظام لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ
الله أَحْسَنُ الخالقين ).

لكنا هو الله ربي ولا اشرك بربي احدا

كما فسرها الوسيط ثم يعلن الرجل الصالح موقفه بشجاعة ووضوح , فيقول لصاحبه صاحب الجنتين : ( لكنا هُوَ اللّه رَبِّي وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً )
أى : إن كنت أنت يا هذا قد كفرت بالله الذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم. سواك رجلا ، فإنى لست بكافر ، ولكنى أنا مؤمن ، أعترف له بالعبادة والطاعة
وأقول : هو اللّه - تعالى - وحده ربى ، ولا أشرك معه أحدا من خلقه لا فى - الربوبية ، ولا فى الألوهية ، ولا فى الذات ولا فى الصفات .وقوله
سبحانه - فى هذه الآية ( لكنا . . . ) أصله : " لكن أنا " أى : لكن أنا أقول هو الله ربى . فحذفت همزة " أنا " وأدغمت نون " لكن " فى نون أنا بعد حذف الهمزة .وجمهور القراء يقرءون فى الوصل " لكن " بدون ألف بعد النون المشددة وقرأ أبو عامر فى الوصل " لكنا " بالألف - أما فى حالة الوقف فقد اتفق الجميع على إثبات الألف .قال صاحب الكشاف : قوله : ( لكنا هُوَ الله
، رَبِّي ) أصله : لكن أنا فحذفت الهمزة ، وألقيت حركتها على نون لكن فتلاقت النونان فكان الإدغام ، ونحوه قول القائل :وترميننى بالطَّرف أى
" أنت مذنب ... وتقلينَنى ، لَكنّ إياك لا أقْلِىأى : لكن أنا لا أقليك .و
هو " ضمير الشأن : أى : والشأن أن الله ربى : والجملة خبر أنا . والراجع . منها إليه ياء الضمير .فإن قلت : هو استدراك لأى شئ؟ قلت : لقوله ( أكفرت
قال لأخيه أنت كافر بالله ، لكنى مؤمن موحد ، كما تقول : زيد غائب لكن ( . عمرا حاضر .

ولولا اذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة الا بالله ان ترن انا اقل منك مالا وولدا

كما فسرها الوسيط ثم أرشده إلى ما كان يجب عليه أن يقوله عند دخوله جنته فقال : ( ولولا إِذْ دَخَلْتَ جَنّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ الله لاَ قُوّةَ
: إلاَّ بالله . . . ) .قال الإمام ابن كثير : هذا تحضيض وحث على ذلك . أى هلا إذ أعجبتك جنتك حين دخلتها ونظرت إليها ، حمدت الله على ما أنعم به عليك وأعطاك من المال والولد ما لم يعط غيرك وقلت ( مَا شَآءَ الله لاَ
قُوّةَ إلاَّ بالله ) ، ولهذا قال بعض السلف : من أعجبه شئ من حاله أو ولده أو ماله ، فليقل : ما شاء الله لا قوة إلا بالله . . وهذا مأخوذ من - هذه الآية الكريمة . وقد روى فيه حديث مرفوع . . فعن أنس - رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما أنعم الله على عبد نعمة من أهل أو مال أو ولد فيقول : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، فيرى فيه آفة دون الموت " .وقال الآلوسى : وقوله : " ما شاء الله ، أى : الأمر ما شاء الله ، أو ما شاء الله - تعالى - كائن ، على أن " ما " موصولة مرفوعة المحل إما على أنها خبر مبتدأ محذوف . أو على أنها مبتدأ محذوف الخبر . . وأيما . - كان فالمراد تحضيضه على الاعتراف بأن جنته وما فيها بمشيئة الله - تعالى . " إن شاء أبقاها وإن شاء أبادها

فعسى ربي ان يؤتين خيرا من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا

كما فسرها الوسيط وبعد أن حضه على الشكر لله - تعالى - رد على إفتخاره وغرروه بقوله - كما حكى القرآن عنه - : ( إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ
مَالاً وَوَلَداً فعسى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِّن جَنَّتِكَ ) .أى
إن ترن - أيها المغرور - أنا أقل منك فى المال والولد فإنى أرجو الله : ).الذى لا يعجزه شئ ، أن يرزقنى ما هو خير من جنتك فى الدنيا والآخرة
وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِّنَ السمآء ) أى : عذابا من جهة السماء كالصواعق والسموم وغيرها مما يشاء الله - تعالى - إرساله عليها من المهلكات التى تذرها قاعا صفصفا .قال صاحب الكشاف : والحسبان مصدر كالغفران والبطلان بمعنى الحساب .

او يصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

واحيط بثمره فاصبح يقلب كفيه على ما انفق فيها وهي خاوية على عروشها ويقول يا ليتني لم اشرك بربي احدا

كما فسرها الوسيط أى : وكانت نتيجة جحود صاحب الجنتين لنعم ربه ، أن أهلكت أمواله وأبيدت كلها . فصار يقلب كفيه ظهراً لبطن أسفا وندما ، على ما أنفق فى عمارتها وتزيينها من أموال كثيرة ضاعت هباء ، ومن جهد كبير ذهب سدى

وقوله - سبحانه - : ( وأحيط بثمره ) معطوف على مقدر محذوف لدلالة السباق.
والسياق عليه .وأصل الإحاطة مأخوذة من إحاطة العدو بعدوه من جميع جوانبه
لإهلاكه واستئصاله .والمعنى : فحدث ما توقعه الرجل الصالح من إرسال
الحسبان على بستان صاحبه الجاحد المغرور ( وأحيط بثمره ) بأن هلكت أمواله
وثماره كلها .وجاء الفعل ( أحيط ) مبنيا للمجهول ، للإشعار بأن فاعله
متيقن وهو العذاب الذى أرسله الله - تعالى - أى : وأحاط العذاب بجنته
وقوله : ( فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَآ أَنْفَقَ فِيهَا ).
تصوير بديع لما اعتراه من غم وهم وحسرة وندامة . وتقليب اليدين عبارة عن
، ضرب إحداهما على الأخرى ، أو أن يبدى ظهرهما ثم بطنهما ويفعل ذلك مرارا
وأيَّامًا كان ففعله هذا كناية عن الحسرة الشديدة ، والندم العظيم ." وهى
: أى الجنة التى أنفق فيها ما أنفق (خَاوِيَةٌ على عُرُوشِهَا ) أى "
ساقطة ومتهدمة على دعائمها وعلى سقوفها .وأصل الخواء السقوط والتهدم . يقال
خوى البيت إذا سقط . كما يطلق على الخلاء من الشئ . يقال : خوى بطن فلان :
، من الطعام أى : خلا منه ، وخوت الدار إذا خلت من سكانها .والعروش جمع عرش
وهو سقف البيت .والمقصود أن الجنة بجميع ما إشتملت عليه ، صارت حطاما
وهشيما تذروه الرياح .وجملة : ( وَيَقُولُ ياليتني لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي
أَحَداً ) معطوفة على جملة ( يقلب كفيه . . ) .أى : صار يقلب كفيه حسرة
وندامة لهلاك جنته ، ويقول زيادة فى الحسرة والندامة : يا ليتنى اتبعت
نصيحة صاحبى فلم أشرك مع ربى - سبحانه - أحدا فى العبادة أو الطاعة .وهكذا
حال أكثر الناس ، يذكرون الله - تعالى - عند الشدائد والمحن ، وينسونه عند
السراء والعافية .والمتدبر لهذه الآية الكريمة يراها قد صورت فجيعة الرجل
الجاحد فى جنته تصويرا واقعيا بديعا .فقد جرت عادة الإنسان أنه إذا نزل به
ما يدهشه ويؤلمه . أن يعجز عن النطق فى أول وهلة . فإذا ما أفاق من دهشته
بدأ فى النطق والكلام .وهذا ما حدث ما ذلك الرجل - كما صوره القرآن
الكريم - فإنه عند ما رأى جنته وقد تحطمت أخذ يقلب كفيه حسرة وندامة دون أن
ينطق ، ثم بعد أن أفاق من صدمته جعل يقول : يا ليتنى لم أشرك بربى أحدا
. - فيا له من تصوير بديع . يدل على أن هذا القرآن من عند الله - تعالى.

ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - هذه القصة ببيان عظيم قدرته ونفاذ
إرادته فقال .( وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ الله
وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً هُنَالِكَ الولاية لِلَّهِ الحق هُوَ خَيْرٌ
ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً ) .أى : ولم تكن لهذا الجاحد المغرور بعد أن خوت
، جنته على عروشها ، عشيرة ، أو أعوان ينصرونه ، أو يدفعون عنه ما حل به
وإنما القادر على ذلك هو الله - تعالى - وحده ، وما كان هذا الرجل الذى جحد
، نعم ربه منتصرا لأنه - سبحانه - قد حجب عنه كل وسيلة تؤدى إلى نصره وعونه
بسبب إيثاره الغى على الرشد ، والكفر على الإيمان .فالآية الكريمة تبين
بجلاء ووضوح ، عجز كل قوة عن نصرة ذلك الرجل المخذول سوى قوة الله - عز
- وجل - ، وعجز ذلك الرجل فى نفسه عن رد انتقام الله - تعالى - منه .وقوله
سبحانه - : ( هُنَالِكَ الولاية لِلَّهِ الحق . . ) تقرير وتأكيد للآية
السابقة . ولفظ هنالك ظرف مكان .وكلمة ( الولاية ) قرأها الجمهور بفتح
الواو ، بمعنى الموالاة والصلة والنصرة كما قرأ الجمهور كلمة ( الحق )
بالجر على أنها نعت للفظ الجلالة .فيكون المعنى : فى ذلك المقام وتلك الحال
تكون الولاية - أى الموالاة والصلة - من كل الناس ، لله - تعالى - وحده إذ
- الكافر عندما يرى العذاب يعترف بوحدانية الله - تعالى - كما قال - سبحانه
فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قالوا آمَنَّا بالله وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا )
بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ
لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ) ويجوز أن يكون المعنى : فى ذلك المقام وتلك
الحال تكون الولاية أى الموالاة لله - تعالى - وحده . فيوالى المؤمنين
برحمته ومغفرته وينصرهم على أعدائهم . كما قال - سبحانه - ( ذَلِكَ بِأَنَّ
الله مَوْلَى الذين آمَنُواْ وَأَنَّ الكافرين لاَ مولى لَهُمْ ) وقرأ حمزة
والكسائى : ( الولاية ) بكسر الواو ، بمعنى الملك والسلطان كما قرأ أبو
عمرو والكسائى لفظ ( الحق ) بالرفع على أنه نعت للولاية .فيكون المعنى : فى
ذلك المقام تكون الولاية الحق ، والسلطان الحق ، لله رب العالمين ، كما
قال - سبحانه - : ( الملك يَوْمَئِذٍ الحق للرحمن وَكَانَ يَوْماً عَلَى
الكافرين عَسِيراً ) قال بعض العلماء : وقوله ( هنالك ) يرى بعضهم أنه
متعلق بما بعده ، والوقف تام على قوله ( وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً ) .ويرى
آخرون أنه متعلق بما قبله .

هنالك الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخير عقبا

كما فسرها الوسيط فعلى القول الأول يكون الظرف ( هنالك ) عامله ما بعده أى
الولاية كائنة لله هنالك .وعلى القول الثانى فالعامل فى الظرف اسم الفاعل :

: - الذى هو ( منتصرا ) . أى : لم يكن انتصاره واقعا هنالك .وقوله - سبحانه
أى : هو - عز وجل - خير إثابة ( وَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً )
وإعطاء لأوليائه ، وخير عاقبة لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى .وعاقبة
الأمر : آخره وما يصير إليه منتهاه . و ( ثوابا ) و ( عقبا ) منصوبان على
التمييز ، بعد صيغة التفضيل ( خير ) التى حذفت منها الهمزة تخفيفا لكثرة
: - الاستعمال كما قال ابن مالك - رحمه الله

واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض
فاصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا

كما فسرها الوسيط قال الإمام الرازى : " اعلم أن المقصود : اضرب لهم مثلا
آخر يدل على حقارة الدنيا ، وقلة بقائها . والكلام متصل بما تقدم من قصة
المشركين المتكبرين على فقراء المؤمنين . . " .والمعنى . واذكر لهم - أيها
الرسول الكريم - ما يشبه هذه الحياة الدنيا فى حسنها ونضارتها ، ثم فى سرعة
، زوال هذا الحسن والنضارة ، لكى لا يركنوا إليها ، ولا يجعلوها أكبر همهم
ومنتهى آمالهم .وقوله : ( كَمَآءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السماء . . ) بيان
للمثل الذى شبه الله - تعالى - به الحياة الدنيا أى : مثلها فى ازدهارها ثم
فى زوال هذا الازدهار ، كهيئة أو كصفة ماء أنزلناه بقدرتنا من السماء ، فى
الوقت الذى نريد إنزاله فيه .( فاختلط بِهِ نَبَاتُ الأرض ) والاختلاط
، والخلط : امتزاج شيئين فأكثر بعضهما ببعض .أى : كماء أنزلناه من السماء
فاختلط وامتزج بهذا الماء نبات الأرض ، فارتوى منه وصار قويا بهيجا يعجب
الناظرين إليه .وفى التعبير بقوله : ( فاختلط بِهِ نَبَاتُ الأرض ) دون
قوله : فاختلط بنبات الأرض إشارة إلى كثرة الماء النازل من السماء ، وإلى
) : أنه السبب الأساسى فى ظهور هذا النبات ، وفى بلوغه قوته ونضارته .وقوله
فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرياح ) بيان لما صار إليه هذا النبات من
يبوسته وتفتته ، بعد اخضراره وشدته وحسنه .قال القرطبى ما ملخصه : ( هشيما
أى متكسرا متفتتا ، يعنى بانقطاع الماء عنه ، فحذف ذلك إيجازا لدلالة (
الكلام عليه ، والهشم ، كسر الشئ اليابس . والهشيم من النبات : اليابس
. المتكسر . . ورجل هشيم : ضعيف البدن .و ( تذروه الرياح ) أى تفرقه وتنفسه
يقال : ذرت الريح الشئ تذروه ذروا ، إذا طارت به وأذهبته .أى : فأصبح .
النبات بعد اخضراره ، يابسا متفتتا ، تفرقه الرياح وتنسفه وتذهب به حيث
شاءت وكيف شاءت .فأنت ترى أن الآية الكريمة قد شبهت حال الدنيا فى حسنها
وجمال رونقها ، ثم فى سرعة زوالها وفنائها بعد ذلك ، بحال النبات الذى نزل
عليه الماء فاخضر واستوى على سوقه ، ثم صار بعد ذلك يابسا متفتتا تذهب به
. . الرياح حيث شاءت .والتعبير بالفاء فى قوله - سبحانه - فاختلط . فأصبح
يزيد الأسلوب القرآنى جمالا وبلاغة ، لأن فاء التعقيب هنا تدل على قصر
المدة التى استمر فيها النبات نضرا جميلا ، ثم صار هشيما تذروه الرياح
وهكذا الحياة تبدو للمتشبثين بها ، جميلة عزيزة ، ولكنها سرعان ما تفارقهم.
- ويفارقونها ، حيث ينزل بهم الموت فيجعل آمالهم تحت التراب .ثم ختم
سبحانه - الآية بقوله ، ( وَكَانَ الله على كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِراً ) أى
وكان الله - تعالى - وما زال - على كل شئ من الأشياء التى من جملتها :
الإنشاء والإفناء؛ كامل القدرة ، لا يعجزه شئ فى الأرض ولا فى السماء
- وقد ذكر - سبحانه - ما يشبه هذه الآية فى سور كثيرة ، ومن ذلك قوله.
تعالى - : ( إِنَّمَا مَثَلُ الحياة الدنيا كَمَآءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ
السمآء فاختلط بِهِ نَبَاتُ الأرض مِمَّا يَأْكُلُ الناس والأنعام حتى
إِذَآ أَخَذَتِ الأرض زُخْرُفَهَا وازينت وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ
قَادِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَاهَآ أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً
فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بالأمس كذلك نُفَصِّلُ الآيات
لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ).

المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا
وخير املا

: كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - القيمة الحقيقية للمال وللبنين فقال
والمال : اسم لكل ما يتموله. ( المال والبنون زِينَةُ الحياة الدنيا )
الإنسان ويتملكه من النقود والعقار والحرث والأنعام . . إلخ والبنون : جمع
ابن .والزينة : مصدر . والمراد بها هنا ، ما فى الشئ من محاسن ترغب الإنسان
، فى حبه .أى : المال والبنون زينة يتزين بها الإنسان فى هذه الحياة الدنيا
ويتباهى بها على غيره .وإنما كانا كذلك ، لأن فى المال - كما يقول
القرطبى - جمالا ونفعا ، وفى البنين قوة ودفعا .قال الآلوسى : " وتقديم
المال على البنين - مع كونهم أعز منه عند أكثر الناس لعراقته فيما نيط به
من الزينة والإمداد وغير ذلك . . ولأنه زينة بدونهم من غير عكس فإن من له
، بنون بغير مال فهو فى أضيق حال . . " .وفى التعبير بقوله - سبحانه - زينة
بيان بديع . وتعبير دقيق لحقيقتهما ، فهما زينة وليسا قيمة ، فلا يصح أن

، توزن بهما أقدار الناس ، وإنما توزن أقدار الناس بالإيمان والعمل الصالح
كما قال - تعالى - ( إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عَندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ) ولذا جاء
التعقيب منه - سبحانه - بقوله : ( والباقيات الصالحات خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ
ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً ) .أى : المال والبنون زينة يتزين ويتفاخر بها
كثير من الناس فى هذه الحياة الدنيا ، وإذا كان الأمر كذلك فى عرف كثير
، منهم . فإن الأقوال الطيبة ، والأعمال الحسنة ، هى الباقيات الصالحات
التى تبقى ثمارها للإنسان ، وتكون عند الله - تعالى - ( خير ) من الأموال
والأولاد ، ثوابا وجزاء وأجرا ( وخير أملا ) حيث ينال بها صاحبها فى الآخرة
ما كان يؤمله ويرجوه فى الدنيا من فوز بنعيم الجنة ، أما المال والبنون
فكثيرا ما يكونان فتنة .وقد ساق الإمام ابن كثير جملة من الآثار فى تعيين
المراد بالباقيات الصالحات فقال : قال ابن عباس وسعيد بن جبير وغير واحد من
السلف : والباقيات الصالحات : الصلوات الخمس .وقال عطاء بن أبى رياح وسعيد
، بن جبير عن ابن عباس : ( والباقيات الصالحات ) : سبحان الله والحمد لله
) : - ولا إله إلا الله ، والله أكبر . . .ويبدو لنا أن قوله - تعالى
- والباقيات الصالحات ) لفظ عام ، يشمل كل قول ، أو عمل يرضى الله - عز وجل
ويدخل فى ذلك دخولا أوليا : الصلوات الخمس وغيرها مما ذكره المفسرون من
أقوال .وسمى - سبحانه - ما يرضيه .

ويوم نسير الجبال وترى الارض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم احدا

كما فسرها الوسيط والظرف فى قوله : - تعالى - ( وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الجبال
منصوب بفعل محذوف تقديره : " اذكر " .والمراد بتسيير الجبال : اقتلاعها (
من أماكنها ، وصيرورتها كالعهن المنفوش .أى : واذكر - أيها العاقل - لتعتبر
وتتعظ ، أهوال يوم القيامة ، يوم نقتلع الجبال من أماكنها ، ونذهب بها حيث
شئنا ، ونجعلها فى الجو كالسحاب ، كما قال - سبحانه - : ( وَتَرَى الجبال
- تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرّ السحاب ) وكما قال - عز وجل
وقوله : ( وَتَرَى الأرض ( وَسُيِّرَتِ الجبال فَكَانَتْ سَرَاباً ) :
بَارِزَةً . . ) بيان لحالة ثانية من أهوال يوم القيامة .أى : وترى - أيها
المخاطب - الأرض ظاهرة للأعين دون أن يسترها شئ من جبل ، أو شجر ، أو بنيان
يقال : برز الشئ برزوا ، أى : خرج إلى البراز - بفتح الباء - أى : الفضاء.
وظهر بعد الخفاء .قال - تعالى - : ( فَإِذَا نُفِخَ فِي الصور نَفْخَةٌ
وَاحِدَةٌ وَحُمِلَتِ الأرض والجبال فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً
فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الواقعة ) ثم بين - سبحانه - حالة ثالثة من أهوال
يوم القيامة فقال : ( وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً )
أى : وحشرنا الخلائق جميعا ، بأن جمعناهم فى المكان المحدد لجمعهم ، دون.
أن نترك منهم أحدا ، بل أخرجناهم جميعا من قبورهم لنحاسبهم على أعمالهم
والفعل ( نغادر ) من المغادرة بمعنى الترك ، ومنه الغدر لأنه ترك الوفاء.
والأمانة وسمى الغدير من الماء غديرا ، لأن السيل ذهب وتركه .

وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم اول مرة بل زعمتم الن نجعل لكم موعدا

كما فسرها الوسيط ثم تذكر السورة الكريمة حالة رابعة من أهوال يوم القيامة
هى حالة العرض بعد حالة الجمع فتقول : (وَعُرِضُواْ على رَبِّكَ صَفّاً ،
، أى : وأحضروا جميعا إلى ربك مصفوفين فى صف واحد أو فى صفوف متعددة. (
ليقضى فيهم - سبحانه - بقضائه العادل .قال الآلوسى : أخرج ابن منده فى
- التوحيد عن معاذ بن جبل ، أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله
تعالى - ينادى يوم القيامة ، يا عبادى : أنا الله لا إله إلا أنا أرحم
الراحمين . وأحكم الحاكمين ، وأسرع الحاسبين . أحضروا حجتكم ويسروا جوابكم
فإنكم مسئولون محاسبون . يا ملائكتى أقيموا عبادى صفوفا على أطراف أنامل .
أقدامهم للحساب " .وفى الحديث الصحيح : " يجمع الله - تعالى - الأولين
- والآخرين فى صعيد واحد صفوفا يسمعهم الداعي وينفذهم البصر . . " .وقوله
سبحانه - : ( وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فرادى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوّلَ
مَرّةٍ . . ) مقول لقول محذوف ، وجملة ( كما خلقناكم ) نعت لمصدر محذوف
والمعنى : ونقول لمنكرى البعث والحساب بعد عرضهم علينا على سبيل التوبيخ.
والتأنيب : لقد جئتمونا - أيها المكذبون - مجيئا كائنا كمجيئكم عند خلقنا
- إياكم أول مرة . أى حفاة عراة لا مال معكم ولا ولد .وعبر - سبحانه
بالماضى فى قوله : ( لقد جئتمونا . . ) لتحقق الوقوع وتنزيله منزلة الواقع
بالفعل .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فرادى
كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أوّل مَرّةٍ وَتَرَكْتُمْ مّا خَوّلْنَاكُمْ
وَرَاءَ ظُهُوركُمْ وَمَا نرى مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ الذين زَعَمْتُمْ
أَنّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَآءُ لَقَد تّقَطّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلّ عَنكُم
مّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ) ثم ختم - سبحانه - الآية بالانتقال من توبيخهم
هذا إلى توبيخ أشد وأقسى فقال : ( بَلْ زَعَمْتُمْ أَلّن نّجْعَلَ لَكُمْ

مّوْعِداً ) .أى : بل زعمتم أيها المكذبون بالبعث - أن لن نجعل لكم زمانا
أو مكانا نجازيكم فيه على أعمالكم ، وأنكرتم إنكاراً مصحوبا بقسم أننا لا
نبعث من يموت .قال - تعالى - : ( وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ
لاَ يَبْعَثُ اللّهُ مَن يَمُوتُ بلى وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً ولكن أَكْثَرَ
النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ).

ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا
الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا
يظلم ربك احدا

كما فسرها الوسيط ثم صور - سبحانه - أحوال المجرمين عندما يرون مصيرهم
السيئ فقال - تعالى - : ( وَوُضِعَ الكتاب فَتَرَى المجرمين مُشْفِقِينَ
مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ ياويلتنا مَالِ هذا الكتاب لاَ يُغَادِرُ
صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا ) .والمراد بالكتاب : جنسه
، فيشمل جميع الصحف التى كتبت فيها أعمال المكلفين فى دار الدنيا .أى
: وأحضرت صحائف أعمال العباد ، ووضعت فى ميزانهم ( فترى ) - أيها المخاطب
- المجرمين ) كافة ، مشفقين ، خائفين ، مما فيه من جرائم وذنوب ( ويقولون )
على سبيل التفجع والتحسر عند معاينتهم لثقل ميزان سيئاتهم ، وخفة ميزان
حسناتهم .( يا ويلتنا ) . والويلة : الهلاك وحلول الشر والقبح والحسرة
، وهو - أى لفظ الويلة - : مصدر لا فعل له من لفظه .وهذا النداء على التشبيه
بشخص يطلب إقباله .أى : ويقولون بأسف وندامة وحسرة : يا هلاكنا أقبل فهذا
أوان إقبالك .ثم يقولون على سبيل التعجب والدهشة من دقة ما اشتمل عليه هذا
الكتاب : ( مَالِ هذا الكتاب لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً
إِلاَّ أَحْصَاهَا ) ؟أى : أى شئ ثبت لهذا الكتاب ، حيث نراه لا يترك معصية
صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها علينا ، وسجلها فى صحف أعمالنا .ثم ختم
- سبحانه - الآية الكريمة بما يدل على شمول علمه . ونفاذ قدرته وكمال عدله
، فقال : ( وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِراً وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ
أَحَداً ) .أى : ووجدوا ما عملوه فى الدنيا حاضرا ومسطورا فى صحائف أعمالهم
ولا يظلم ربك أحدا من العباد ، وإنما يجازى كل إنسان على حسب ما يستحقه ،
من ثواب أو عقاب كما قال - سبحانه - : ( وَنَضَعُ الموازين القسط لِيَوْمِ
القيامة فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ
مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وكفى بِنَا حَاسِبِينَ ) وكما قال - عز
وجل - : ( إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً
يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً ) قال الإمام ابن
كثير وقوله : ( وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ) أى : فيحكم بين عباده فى
أعمالهم جميعها ، ولا يظلم أحدا من خلقه ، بل يغفر ويصفح ويرحم ، ويعذب من
يشاء ، بقدرته وحكمته وعدله .

واذ قلنا للملائكة اسجدوا لادم فسجدوا الا ابليس كان من الجن ففسق عن امر
ربه افتتخذونه وذريته اولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا

كما فسرها الوسيط فقوله - سبحانه - : ( وَإِذْ قُلْنَا للملائكة اسجدوا
لأَدَمَ فسجدوا إِلاَّ إِبْلِيسَ ) تذكير لبنى آدم بالعداوة القديمة بين
أبيهم آدم وبين إبليس وذريته .والمقصود بهذا التذكير تحذيرهم من وساوسه
، وحضهم على مخالفته ، كما قال - تعالى - : ( إِنَّ الشيطان لَكُمْ عَدُوٌّ
فاتخذوه عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَابِ
السعير ) والملائكة : جمع ملك ، وهم - كما وصفهم الله تعالى - : ( لاَّ
يَعْصُونَ الله مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ) وآدم : اسم
لأبى البشر ، قيل : إنه اسم عبرانى مشتق من أدمه بمعنى التراب .والسجود لغة
التذلل والخضوع . وخص فى الشرع بوضع الجبهة على الأرض بقصد العبادة :
وإبليس اسم مشتق من الإبلاس ، وهو الحزن الناشئ عن شدة اليأس وفعله أبلس.
- والراجح أنه اسم أعجمى . ومنعه من الصرف للعلمية والعجمة .والمعنى ،
، واذكر - أيها العاقل - لتعتبر وتتعظ ، وقت أن قلنا للملائكة اسجدوا لآدم
سجود تحية واحترام وتوقير ، لا سجود عبادة وطاعة لأن ذلك لا يكون إلا لله
) : - رب العالمين . فامتثلوا أمرنا وسجدوا جميعاً ، كما قال - تعالى
فَسَجَدَ الملائكة كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ) وجاء العطف فى قوله ( فسجدوا )
بالفاء المفيدة للتعقيب ، للإشارة إلى أن الملائكة قد بادروا بالامتثال
بدون تردد ، استجابة لأمر خالقهم - عز وجل .وقوله - تعالى - ( إِلاَّ
إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجن فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ) بيان لموقف
. إبليس من أمر الله تعالى ، وهو أنه أبى واستكبر وامتنع عن السجود لآدم
وظاهر الآية يفيد أن سبب فسقه عن أمر ربه : كونه من الجن لا من الملائكة إذ
من المقرر فى علم الأصول؛ أن الفاء من الحروف الدالة على التعليل ، كما فى
قولهم ، سرق فقطعت يده .والمعنى : امتثل الملائكة جميعاً أمرنا فسجدوا لآدم
إلا إبليس فإنه أبى واستكبر ولم يسجد؛ لأنه كان من الجن ولم يكن من ،

، الملائكة ( فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ) أى . فخرج بذلك عن طاعتنا
واستحق لعنتنا وغضبنا .وأصل الفسق : الخروج عن الطاعة مأخوذ من قولهم : فسق
، الرطب فسوقا إذا خرج عن قشره وهو أعم من الكفر ، فيقال للعاصى فاسق
وللكافر فاسق .قال بعض العلماء ما ملخصه : والخلاف فى كون إبليس من
: الملائكة أولا مشهور عند أهل العلم .وحجة من قال إنه ليس منهم أمران
أحدهما : عصمة الملائكة من ارتكاب الكفر الذى ارتكبه إبليس ، فهم - كما قال
الله عنهم : ( لاَ يَسْبِقُونَهُ بالقول وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ )
، والثانى : أن الله - تعالى - صرح فى هذه الآية الكريمة بأنه كَانَ من الجن
والجن غير الملائكة . قالوا : وهو نص قرآنى فى محل النزاع .واحتج من قال
بأنه منهم ، بما تكرر فى الآيات القرآنية من قوله : ( فَسَجَدَ الملائكة
كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلاَّ إِبْلِيسَ )قالوا : فإخراجه بالاستثناء من
لفظ الملائكة دليل على أنه منهم ، والظواهر إذا كثرت صارت بمنزلة النص ومن
المعلوم أن الأصل فى الاستثناء الاتصال لا الانقطاع .قالوا : ولا حجة لمن
خالفنا فى قوله - تعالى - ( كَانَ مِنَ الجن ) ، لأن الجن قبيلة من
. الملائكة ، خلقوا من بين الملائكة من نار السموم .وأظهر الحجج فى المسألة
حجة من قال : إنه ليس من الملائكة ، لأن قوله - تعالى - ( إِلاَّ إِبْلِيسَ
كَانَ مِنَ الجن ) هو أظهر شئ فى الموضوع من نصوص الوحى ، والعلم عند
الله - تعالى - .ومن المفسرين الذين يدل كلامهم على أن إبليس لم يكن من
الملائكة . الإمام ابن كثير ، فقد قال - رحمه الله - قوله : ( فسجدوا
إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجن ) أى : خانه أصله ، فإنه خلق من مارج من
نار ، وأصل خلق الملائكة من نور ، كما ثبت فى صحيح مسلم ، عن عائشة عن رسول
الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " خلقت الملائكة من نور ، وخلق إبليس من
، مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم " فعند الحاجة نضح كل إناء بما فيه
، وخانه الطبع عند الحاجة ، وذلك أنه قد توسم بأفعال الملائكة ، وتشبه بهم
وتعبد وتنسك فلهذا دخل فى خطابهم ، وعصى بالمخالفة .ونبه - تعالى - هاهنا
على أنه ( من الجن ) أى : " أنه خلق من نار . . " .ثم ختم - سبحانه - الآية
) : الكريمة بالإنكار والتوبيخ والتعجيب ممن يتبع خطوات إبليس وذريته فقال
أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ
عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ) .أى : أفبعد أن ظهر لكم - يا بنى
آدم - ما ظهر من فسوق إبليس عن أمر ربه ، تتخذونه وذريته الذين نهجوا نهجه
أولياء ، وأصفياء من دونى ، فتطيعونهم بدل أن تطيعونى ، والحال أن إبليس ،
وذريته لكم عدو؟لا شك أن من يفعل ذلك منكم يكون قد استبدل الذى هو أدنى
بالذى هو خير ، وآثر الغى على الرشد ، والضلالة على الهداية ، والفسوق على
، الإيمان!! .فالجملة الكريمة تستبعد من كل عاقل ، أن يطيع إبليس وذريته
بعد أن تبين له عداوتهم إياه ، وحرصهم على إيقاعه فى موارد الهلكة والسوء
وقوله : ( وذريته ) يدل على أن لإبليس ذرية ، إلا أن الطريقة التى.
بواسطتها كانت له الذرية ، لم يرد بها نص صحيح يعتمد عليه ، لذا وجب تفويض
علمها إلى - الله تعالى - .قال الآلوسى عند تفسيره لهذه الآية : والظاهر أن
المراد من الذرية الأولاد فتكون الآية دالة على أن له أولادا ، وبذلك قال
جماعة . . وعن قتادة أنه قال : إنه ينكح وينسل كما ينسل بنو آدم .ثم قال
الآلوسى : ولا يلزمنا أن نعلم كيفية ولادته ، فكثير من الأشياء مجهول
الكيفية عندنا ، ونقول به .وقوله - تعالى - : ( بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ
بَدَلاً ) حكم منه - سبحانه - بسوء التفكير والمصير على المتخذين إبليس
وذريته أولياء من دونه - تعالى - وبئس فعل يفيد الذم ، والبدل : العوض عن
الشئ .أى بئس للظالمين ، الواضعين الشئ فى غير موضعه ، ما فعلوه من تركهم
طاعة الله - تعالى - وأخذهم فى مقابل ذلك طاعة إبليس وذريته .والمخصوص
- بالذم محذوف دل عليه المقام والتقدير : بئس البدل والعوض عن طاعة الله
. تعالى - طاعة إبليس وذريته

ما اشهدتهم خلق السماوات والارض ولا خلق انفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - ما يدل على كمال علمه وقدرته ، وعلى
عجز وجهالة المعبودين من دونه ، فقال - تعالى - : ( مّآ أَشْهَدتُّهُمْ
خَلْقَ السماوات والأرض وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ ) .والضمير فى قوله ( ما
أشهدتهم ) يعود إلى إبليس وذريته ، والإشهاد : بمعنى الإحضار والإعلام
أى : ما أشهدت إبليس وذريته خلق السموات والأرض ، لأنى خلقتهما دون أن.
أستعين فى خلقهما بأحد ، أو لأنى خلقتهما قبل خلقهم ، ( وَلاَ خَلْقَ
أَنْفُسِهِمْ ) أى : ولا أشهدت بعضهم خلق بعض ، لأنى لا أستعين بأحد حين
أخلق ما أشاء ، ولا أستشير أحدا حين أقدر ما أشاء .وما دام الأمر كذلك فكيف
تتخذونهم أولياء وشركاء من دونى وأنا الخالق لكل شئ والقاهر فوق كل شئ؟
فالجملة الكريمة استئناف مسوق لبيان كمال علمه وقدرته - سبحانه - ، ولبيان.
عدم استحقاق إبليس وذريته للاتخاذ المذكور فى أنفسهم ، بعد بيان المواقع
والصوارف التى تمنع وتصرف عن اتخاذهم أولياء ، من خباثة أصلهم ، وفسوقهم عن
- أمر ربهم .وهذا المعنى الذى صرحت به الآية الكريمة من تفرد الله - تعالى

بالخلق والقدرة . قد جاء فى آيات أخرى منها قوله - تعالى - ( هذا خَلْقُ
الله فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الذين مِن دُونِهِ بَلِ الظالمون فِي
ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ) وقوله - سبحانه - ( وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ المضلين
عَضُداً ) مؤكد لما قبله من تفرده - سبحانه - بالخلق والقدرة والعلم
والعضد - بفتح العين وضم الضاد - فى الأصل ، يطلق على العضد المعروف ما
بين المرفق إلى الكتف ، ويستعار للمعين والناصر فيقال : فلان عضدى ، أى
نصيرى .ومنه قوله - تعالى - لنبيه موسى - عليه السلام - ( سَنَشُدُّ
عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ) أى : سنقويك ونعينك بأخيك هارون وذلك لأن اليد قوامها
العضد ، فإذا فقدته أصابها العجز .أى : وما كنت متخذ المضلين عن سبيلى
أعوانا وأنصاراً فى شأن من شئونى ، وخص - سبحانه - المضلين بالذكر ، زيادة
فى ذمهم وتوبيخهم ، وتقريعا لأمثالهم ، لأنه - عز وجل - ليس له أعوان ولا
أنصار فيما يفعله لا من المضلين ولا من المهتدين .ولم يقل - سبحانه - وما
كنت متخذهم . . بالإضمار ، كما قال : ( ما أشهدتهم ) بل أظهر فى مقام
الإضمار ، لتسجيل الضلال عليهم ، حتى ينصرف عنهم كل عاقل ، وللتنبيه على
أن الضالين المضلين لا تصح الاستعانة بهم .ولقد حكى الله - تعالى - عن نبيه
موسى - عليه السلام - براءته من المجرمين فقال : ( قَالَ رَبِّ بِمَآ
أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ ) والظهير
: الناصر والمعين لغيره .

ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقا

كما فسرها الوسيط ثم ساقت السورة الكريمة مشهدا من مشاهد القيامة - يكشف عن
سوء المصير الذى ينتظر الشركاء وينتظر المجرمين . فقال - تعالى - : ( -
وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآئِيَ الذين زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ
فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ . . . ) .أى : واذكر - أيها العاقل - يوم
يقول الله - تعالى - للمجرمين والكافرين على سبيل التوبيخ والتقريع : أيها
الكافرون ، نادوا شركائى الذين زعمتم أنهم ينفعونكم ويشفعون لكم فى هذا
الموقف العصيب ( فدعوهم ) أى : فأطاعوا أمر خالقهم ، ودعوا شركاءهم لكى
يستغيثوا بهم ( فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ ) أى : فلم يجدوا منهم أدنى
استجابة فضلا عن النفع أو العون .وقوله : ( وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم
مّوْبِقاً ) أى : وجعلنا بين الداعين والمدعوين مهلكا يشتركون فيه جميعا
وهو جهنم .فالموبق : اسم مكان من وبق وبوقا - كوثب وثوبا - أو وبق وبقا
- كفرح فرحا - إذا هلك . ويقال فلان أوبقته ذنوبه : أى أهلكته . ومنه قوله
تعالى - : ( أَوْ يُوبِقْهُنّ بِمَا كَسَبُواْ ) أى يهلكهن . ومنه الحديث
الشريف : " كل يغدو فموبق نفسه " - أى ملهكها - ومنه أيضا قوله صلى الله
عليه وسلم : " اجتنبوا السبع الموبقات " أى : المهلكات .وقيل : الموبق اسم
واد فى جهنم فرق الله به بينهم ، أى بين الداعين والمدعوين .وقيل : كل حاجز
بين شيئين فهو موبق .قال ابن جرير - رحمه الله - بعد أن ذكر جملة من
الأقوال فى ذلك : " وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب ، القول الذى ذكرناه من
أن الموبق بمعنى المهلك وذلك أن العرب تقول فى كلامها : قد أوبقت فلانا إذا
أهلكته . . " .ثم بين - سبحانه - حالة المجرمين عندما يبصرون النار فقال
: ( وَرَأَى المجرمون النار فظنوا أَنّهُمْ مّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ
عَنْهَا مَصْرِفاً ) .ورأى هنا بصرية . والظن بمعنى اليقين والعلم ، لأنهم
أبصروا الحقائق ، وشاهدوا واقعهم الأليم مشاهدة لا لبس فيها ولا خفاء .أى
: وشاهد المجرمون بأعينهم النار ، فأيقنوا أنهم مخالطوها وواقعون فيها . بسبب
سوء أعمالهم ، وانكشاف الحقائق أمامهم ، ولم يجدوا عنها مصرفا أى مكانا
ينصرفون إليه ، ويعتصمون به ليتخذوه ملجأ لهم منها .فالمصرف : اسم مكان
للجهة التى ينصرف إليها الإنسان للنجاة من ضر أحاط به .وعبر - سبحانه - عن
رؤيتهم للنار بالفعل الماضى ، لتحقق الوقوع .

وراى المجرمون النار فظنوا انهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا

كما فسرها الوسيط وقال - سبحانه - ( ورأى المجرمون ) فوضع المظهر موضع
المضمر ، لتسجيل الإجرام عليهم ، ولزيادة الذم لهم .وقد ذكر - سبحانه
- هنا أن المجرمين يرون النار ، وذكر فى آية أخرى أنها تراهم - أيضا - قال
تعالى - : ( إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا
تَغَيُّظاً وَزَفِيراً )

ولقد صرفنا في هذا القران للناس من كل مثل وكان الانسان اكثر شيء جدلا

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( صرفنا ) من التصريف بمعنى التنويع
والتكرير .والمثل : هو القول الغريب السائر فى الآفاق الذى يشبه مضربه
مورده .وقد أكثر القرآن من ضرب الأمثال لإيضاح المعنى الخفى وتقريب الأمر

: المعقول من الأمر المحسوس ، وعرض الأمر الغائب فى صورة الحاضر .والمعنى
ولقد كررنا ورددنا ونوعنا فى هذا القرآن من أجل هداية الناس ، ورعاية
مصلحتهم ومنفعتهم ، من كل مثل من الأمثال التى تهدى النفوس ، وتشفى القلوب
لعلهم بذلك يسلكون طريق الحق ، ويتركون طريق الباطل .فالمقصود بهذه ،
- الجملة الكريمة ، الشهادة من الله - تعالى - بأن هذا القرآن الذى أنزله
سبحانه - على نبيه صلى الله عليه وسلم فيه من الأمثال الكثيرة المتنوعة
. النافعة ، ما يرشد الناس إلى طريق الحق والخير ، متى فتحوا قلوبهم له
وأعملوا عقولهم لتدبره وفهمه .ومفعول ( صرفنا ) محذوف ، و " من " لابتداء
الغاية ، أى : ولقد صرفنا البينات والعبر والحكم فى هذا القرآن ، من أنواع
ضرب المثل لمنفعة الناس ليهتدوا ويذكروا .ثم بين - سبحانه - موقف الإنسان
من هذه الأمثال فقال : ( وَكَانَ الإنسان أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً )
والمراد بالإنسان : الجنس ، ويدخل فيه الكافر والفاسق دخولا أوليا .والجدل.
الخصومة والمنازعة مع الغير فى مسألة من المسائل .أى : وكان الإنسان أكثر :
شئ مجادلة ومنازعة لغيره ، أى : أن جدله أكثر من جدل كل مجادل .قال الإمام
ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : ولقد بينا للناس فى هذا القرآن ، ووضحنا
لهم الأمور ، وفصلناها ، كيلا يضلوا عن الحق . . ومع هذا البيان ، فالإنسان
كثير المجادلة والمعارضة للحق بالباطل ، إلا من هدى الله وبصره لطريق
النجاة .قال الإمام أحمد : " حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب . عن الزهرى
قال : أخبرنى على بن الحسني ، أن الحسين بن على أخبره ، أن على بن أبى طالب
" : أخبره . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طرق عليا وفاطمة ليلة فقال
ألا تصليان؟ " فقلت : يا رسول الله ، إنما أنفسنا بيد الله . . فإذا شاء أن
يبعثنا بعثنا . فانصرف حين قلت ذلك ولم يرفع إلى بشئ ثم سمعته وهو مول يضرب
فخذه ويقول : " وكان الإنسان أكثر شئ جدلا " .وفى التعبير عن الإنسان فى
هذه الجملة بأنه ( شئ ) وأنه ( أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً ) إشعار لهذا
الإنسان بأن من الواجب عليه أن يقلل من غروره وكبريائه . وأن يشعر بأنه
. خلق من مخلوقات الله الكثيرة ، وأن ينتفع بأمثال القرآن ومواعظه وهداياته
لا أن يجادل فيها بالباطل .ومنهم من يرى أن المراد بالإنسان هنا : الكافر .
أو شخص معين ، قيل : هو النضر بن الحارث ، وقيل : أبى بن خلف .لكن الظاهر ،
. أن المراد به العموم - كما أشرنا - ويدخل فيه هؤلاء دخولا أوليا

وما منع الناس ان يؤمنوا اذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم الا ان تاتيهم سنة الاولين او ياتيهم العذاب قبلا

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - الأسباب التى منعت بعض الناس من
الإيمان فقال : ( وَمَا مَنَعَ الناس أَن يؤمنوا إِذْ جَآءَهُمُ الهدى
وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبّهُمْ إِلاّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنّةُ الأولين أَوْ
يَأْتِيَهُمُ العذاب قُبُلاً ) .والمراد بالناس : كفار مكة ومن حذا حذوهم
فى الشرك والضلال والمراد بسنة الأولين : ما أنزله - سبحانه - بالأمم
السابقة من عذاب بسبب إصرارها على الكفر والجحود .والمعنى : وما منع الكفار
من الإيمان وقت أن جاءهم الهدى عن طريق نبيهم صلى الله عليه وسلم ومن أن
يستغفروا ربهم من ذنوبهم ، إلا ما سبق فى علمنا ، من أنهم لا يؤمنون ، بل
يستمرون على كفرهم حتى تأتيهم سنة الأولين ، أى : سنتنا فى إهلاكهم بعذاب
الاستئصال بسبب إصرارهم على كفرهم .ويجوز أن يكون الكلام على حذف مضاف ، و
أن " وما بعدها فى قوله ( إِلاّ أَن تَأْتِيَهُمْ ) فى تأويل فاعل الفعل "
والمعنى : وما منع الناس من الإيمان والاستغفار وقت مجئ الهدى ( منع )
- إليهم ، إلا طلب إتيان سنة الأولين ، كأن يقولوا - كما حكى الله - تعالى
عن بعضهم : ( فَأَسْقِط عَلَيْنَا كِسَفاً مِّنَ السماء إِن كُنتَ مِنَ
الصادقين ) فسنة الأولين أنهم طلبوا من أنبيائهم تعجيل العذاب ، فأخذهم
الله أخذ عزيز مقتدر .وقوله : ( أَوْ يَأْتِيَهُمُ العذاب قُبُلاً ) بيان
لعذاب آخر ينتظرونه .وكلمة ( قُبُلا ) قرأها عاصم والكسائى وحمزة - بضم
القاف والباء - على أنها جمع قبيل وهو النوع فيكون المعنى : أو يأتيهم
العذاب على صنوف وأنواع مختلفة ، ومن جهات متعددة يتلو بعضها بعضا .وقرأها
الباقون : ( قِبَلا ) - بكسر القاف وفتح الباء - بمعنى عيانا ومواجهة
والمعنى : أو يأتيهم العذاب عيانا وجهارا ، وأصله من المقابلة ، لأن.
المتقابلين يعاين ويشاهد كل منهما الآخر .وهى على القراءتين منصوبة على
الحالية من العذاب .فحاصل معنى الآية الكريمة أن هؤلاء الجاحدين لا يؤمنون
- ولا يستغفرون إلا حين نزول العذاب الدنيوى بهم وهو ما اقتضته سنة الله
. تعالى - فى أمثالهم ، أو حين نزول أصناف العذاب بهم فى الآخرة

وما نرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا اياتي وما انذروا هزوا

كما فسرها الوسيط ثم بين - تعالى - وظيفة الرسل فقال : ( وَمَا نُرْسِلُ
المرسلين إِلاّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ) .أى : تلك هى وظيفة الرسل

الكرام الذين نرسلهم لهداية الناس وإخراجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان .فهم يبشرون المؤمنين بحسن العاقبة وجزيل الثواب ، وينذرون الفاسقين والكافرين بسوء العاقبة ، وشديد العقاب .وقوله - تعالى - : ( وَيُجَادِلُ الذين كَفَرُواْ بالباطل لِيُدْحِضُواْ بِهِ الحق ) بيان لموقف الكافرين من الرسل - عليهم الصلاة والسلام - .ويجادل من المجادلة بمعنى المخاصمة والمنازعة . ومفعول محذوف .والباطل : هو الشئ الزائل المضمحل الذى - هو ضد الحق والعدل . والحق هو الشئ الثابت القويم الذى تؤيده شريعة الله - عز وجل - .والدحض : الطين الذى لا تستقر عليه الأقدام . فمعنى يدحضوا : يزيلوا ويبطلوا تقول العرب : دحضت رجل فلان ، إذا زلت وزلقت . . ومنه قوله - تعالى - : ( حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ ) والمعنى : ويجادل الذين كفروا رسلهم بالجدال الباطل ، ليزيلوا به الحق الذى جاء به هؤلاء الرسل ويدحضوه ويبطلوه ، والله - تعالى - متم نوره ولو كره الكافرون ) - فإن الباطل مهما طال فإن مصيره إلى الاضمحلال والزوال .وقوله - تعالى - : ( واتخذوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُواْ هُزُواً ) معطوف على ما قبله لبيان رذيلة أخرى من رذائل هؤلاء الكافرين .والمراد بآيات الله : تلك المعجزات التى أيد الله - تعالى - بها رسله سواء أكانت قولا أم فعلا ، ويدخل فيها القرآن دخولا أوليا .أى : أن هؤلاء الكافرين لم يكتفوا بجدال رسلهم بالباطل بل أضافوا إلى ذلك أنهم اتخذوا الآيات التى جاء بها الرسل كدليل على صدقهم ، واتخذوا ما أنذروهم به من قوارع إذا ما استمروا على كفرهم . اتخذوا كل ذلك ( هزوا ) أى : اتخذوها محل سخريتهم ولعبهم ولهوهم واستخفافهم ، كما قال - سبحانه - : ( وَقَالَ الرسول يارب إِنَّ قَوْمِي اتخذوا هذا القرآن مَهْجُوراً ).

ومن اظلم ممن ذكر بايات ربه فاعرض عنها ونسي ما قدمت يداه انا جعلنا على قلوبهم اكنة ان يفقهوه وفي اذانهم وقرا وان تدعهم الى الهدى فلن يهتدوا اذا ابدا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة المعرضين عن التذكير وعن آيات الله فقال : ( وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بآيات رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ) .والاستفهام هنا للنفى والإنكار والمراد بالآيات آيات القرآن الكريم . لقوله - تعالى - بعد ذلك : ( أن يفقهوه ) .والمراد بالنسيان : الترك والإهمال وعدم التفكر والتدبر فى العواقب .أى : ولا أحد أشد ظلما وبغيا . من إنسان ذكره مذكر ووعظه بآيات الله التى أنزلها على رسوله صلى الله عليه وسلم فأعرض عنها دون أن يقبلها أو يتأملها . بل نبذها وراء ظهره ، ونسى ما قدمت يداه من السيئات والمعاصى ، نسيان ترك وإهمال واستخفاف .ثم بين - سبحانه - علة هذا الإعراض والنسيان فقال : ( إِنَّا جَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن تَدْعُهُمْ إلى الهدى فَلَنْ يهتدوا إِذاً أَبَداً ) .والأكنة : جمع كنان بمعنى غطاء والوقر الثقل والصمم . يقال فلان وقرت أذنه ، أى : ثقل سمعها وأصيبت بالصمم .أى : إنا جعلنا على قلوب هؤلاء الظالمين المعرضين عن الحق ، أغطية تمنع قلوبهم عن وصول النور إليها ، وتحجبها عن فقه آياته - سبحانه - وجعلنا - أيضا - فى آذانهم صمما وثقلا عن سماع ما ينفعهم وذلك بسبب استحبابهم العمى على الهدى وإيثارهم الكفر على الإيمان .( وإن تدعهم ) أيها الرسول الكريم ( إلى ، الهدى ) والرشد فلن ، يستجيبوا لك ، ولن ( يهتدوا إذاً أبداً ) إلى الحق وإلى الصراط المستقيم ، بسبب زيغ قلوبهم ، واستيلاء الكفر والجحود والعناد عليها .والضمير فى قوله ( أن يفقهوه ) يعود إلى الآيات ، وتذكيره وإفراده باعتبار المعنى ، إذ المراد منها القرآن الكريم .وجات الضمائر فى أول الآية بالإفراد ، كما فى قوله ، ( ذُكر ) و ( فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ) باعتبار لفظ " من " فى قوله ( ومن أظلم ) وجاءت بعد ذلك بالجمع كما فى قوله سبحانه - : ( إِنَّا جَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً .. ) باعتبار المعنى .وهذا الأسلوب كثير فى القرآن الكريم ، ومنه قوله - تعالى - : ( وَمَن يُؤْمِن بالله وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ الله لَهُ رِزْقاً ) فالضمير فى قوله : " يؤمن ويعمل ويدخله " جاء بصيغة الإفراد باعتبار لفظ " من " ، وفى قوله : ( خالدين فيها ) جاء بصيغة الجمع باعتبار معنى " من " .

وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ما يدل على سعة رحمته ، وعظيم فضله فقال : ( وَرَبُّكَ الغفور ذُو الرحمة لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ العذاب بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ

مِن دُونِهِ مَوْئِلاً ) .أى : وربك - أيها الرسول الكريم - هو صاحب
المغفرة الكثيرة ، وصاحب الرحمة التى وسعت كل شئ . لو يؤاخذ الناس بما
كسبوا من الذنوب والمعاصى ، لعجل لهم العذاب بسبب ما يرتكبونه من كفر وآثام
ولكنه - سبحانه - لم يعجل لهم العذاب رحمة منه وحلما .وجملة ( بَل لَّهُم .
- مّوْعِدٌ . . ) معطوفة على مقدر ، فكأنه - سبحانه - قال : لكنه - سبحانه
لم يؤاخذهم ، بل جعل وقتا معينا لعذابهم ، لن يجدوا من دون هذا العذاب
. موئلا .أى ملجأ يلتجئون إليه ، أو مكانا يعتصمون به .فالموئل : اسم مكان
يقال : وَأَلَ فلان إلى مكان كذا يَئِل وَألاً . . إذا لجأ إليه ليعتصم به
من ضر متوقع .فالآية الكريمة تبين أن الله - تعالى - بفضله وكرمه لا يعاجل
الناس . بالعقاب ، ولكنه - عز وجل - ليس غافلا عن أعمالهم ، بل يؤخرهم إلى
الوقت الذى تقتضيه حكمته ، لكى يعاقبهم على ما ارتكبوه من ذنوب وآثام .وفى
معنى هذه الآية وردت آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - : ( وَلَوْ
يُؤَاخِذُ اللهُ الناس بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ على ظَهْرِهَا من
دَآبّةٍ ولكن يُؤَخِّرُهُمْ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ
أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً ) وقوله - تعالى
) : - وَإِنّ رَبّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ على ظُلْمِهِمْ وَإِنّ
رَبَّكَ لَشَدِيدُ العقاب ).

وتلك القرى اهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - سننه فى الأمم الماضية فقال
وَتِلْكَ القرى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا
لِمَهْلِكِهِم مّوْعِداً ) .واسم الاشارة " تلك " تعود إلى القرى المهلكة
بسبب كفرها وفسوقها عن أمر ربها ، كقرى قوم نوح وهود وصالح - عليهم
السلام - .والقرى : جمع قرية والمراد بها أهلها الذين ظلموا أنفسهم بالكفر
والجحود .أى : وتلك القرى الماضية التى أصر أهلها على الكفر والفسوق
، والعصيان أهلكناهم بعذاب الاستئصال فى الدنيا ، بسبب هذا الكفر والظلم
. وجعلنا لوقت هلاكهم موعدا لا يتأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون

واذ قال موسى لفتاه لا ابرح حتى ابلغ مجمع البحرين او امضي حقبا

كما فسرها الوسيط قال الإمام الرازى ما ملخصه : اعلم أن هذا ابتداء قصة
- ثالثة ذكرها الله - تعالى - فى هذه السورة ، وهى أن موسى - عليه السلام
ذهب إلى الخضر ليتعلم منه ، وهذا وإن كان كلاما مستقلا فى نفسه إلا أنه
يعين على ما هو المقصود فى القصتين السابقتين : أما نفع هذه القصة فى الرد
على الكفار الذين افتخروا على فقراء المسلمين ، فهو أن موسى مع كثرة علمه
وعمله . . ذهب إلى الخضر لطلب العلم وتواضع له .وأما نفع هذه القصة فى قصة
أصحاب الكهف ، فهو أن اليهود قالوا لكفار مكة : " إن أخبركم محمد صلى الله
عليه وسلم عن هذه القصة فهو نبى وإلا فلا؛ وهذا ليس بشئ . لأنه لا يلزم من
كونه نبيا أن يكون عالما بجميع القصص كما أن كون موسى نبيا لم يمنعه من
الذهاب ليتعلم منه " .وموسى - عليه السلام - هو ابن عمران ، وهو أحد أولى
العزم من الرسل ، وينتهى نسبه إلى يعقوب - عليه السلام - .وفتاه : هو يوشع
بن نون ، وسمى بذلك لأنه كان ملازما لموسى - عليه السلام - ويأخذ عنه العلم
وقوله : (لا أبرح ) أى :لا أزال سائرا . ومنه قوله - تعالى - ( لَن.
نّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ ) من برح الناقص .قال الجمل : " واسمها
مستتر وجوبا ، وخبرها محذوف ، تقديره :لا أبرح سائرا ، وقوله ( حتى أبلغ )
غاية لهذا المقدر . ويحتمل أنها تامة فلا تستدعى خبرا ، بمعنى :لا . .
أزول عما أنا عليه من السير والطلب ولا أفارقه حتى أبلغ . . " .و ( مجمع
البحرين ) : المكان الذى فيه يلتقى البحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط
قال الآلوسى : " والمجمع : الملتقى ، وهو اسم مكان . . والبحران : بحر.
فارس والروم ، كما روى عن مجاهد وقتادة وغيرهما وملتقاهما : مما يلى المشرق
ولعل المراد مكان يقرب فيه التقاؤهما . . وقيل البحران : بحر الأردن وبحر
القلزم . . " .وقال بعض العلماء : " والأرجح - والله أعلم - أن مجمع
. البحرين : بحر الروم وبحر القلزم .أى : البحر الأبيض والبحر الأحمر
ومجمعهما مكان التقائهما فى منطقة البحيرات المرة وبحيرة التمساح . أو أنه
مجمع خليجى العقبة والسويس فى البحر الأحمر . فهذه المنطقة كانت مسرح تاريخ
بنى إسرائيل بعد خروجهم من مصر ، وعلى أية حال فقد تركها القرآن مجملة
فنكتفى بهذه الإشارة " .والمعنى : واذكر - أيها الرسول الكريم - لقومك لكى
، يعتبروا ويتعظوا وقت أن قال أخوك موسى - عليه السلام - لفتاه يوشع بن نون
، اصحبنى فى رحلتى هذه فإنى لا أزال سائرا حتى أصل إلى مكان التقاء البحرين
، فأجد فيه بغيتى ومقصدى ، ( أو أمضى ) فى سيرى ( حقبا ) أى : زمنا طويلا
إن لم أجد ما أبتغيه هناك .والحقب - بضم الحاء والقاف - جمعه أحقاب ، وفى
معناه : الحقبة - بكسر الحاء - وجمعها حقب - كسدرة وسدر - والحقبة - بضم
. الحاء - وجمعها : حقب كغرفة وغرف - قيل : مدتها ثمانون عاما . وقيل سبعون

، وقيل : زمان من الدهر مبهم غير محدد .والآية الكريمة تدل بأسلوبها البليغ
على أن موسى - عليه السلام - كان مصمما على بلوغ مجمع البحرين مهما تكن
المشقة فى سبيل ذلك ، ومهما يكن الزمن الذى يقطعه فى سبيل الوصول إلى غايته
وهو يعبر عن هذا التصميم بما حكاه عنه القرآن بقوله : ( أَوْ أَمْضِيَ
حُقُباً ) .وقد أشار الآلوسى - رحمه الله - إلى سبب تصميم موسى على هذه
الرحلة فقال : وكأن منشأ عزيمة موسى - عليه السلام - على ما ذكره ما رواه
الشيخان وغيرهما من حديث ابن عباس عن أبى بن كعب ، أنه سمع رسول الله صلى
الله عليه وسلم يقول : " إن موسى - عليه السلام - قام خطيبا فى بنى إسرائيل
فسئل : أى الناس أعلم؟ فقال : أنا . فعاتبه الله - تعالى - عليه ، إذ لم
يرد العلم إليه - سبحانه - فأوحى الله - تعالى - إليه : إن لى عبدا بمجمع
البحرين هو أعلم منك " .وفى رواية أخرى عنه عن أبى - أيضا - عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم " أن موسى - عليه السلام - سأل ربه فقال : أى رب إن كان
فى عبادك أحد هو أعلم منى فدلنى عليه فقال له : " نعم فى عبادى من هو أعلم
منك ، ثم نعت له مكانه وأذن له فى لقائه " " .

فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سربا

كما فسرها الوسيط ثم تقص علينا السورة الكريمة ما حدث بعد ذلك فتقول : ( فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فاتخذ سَبِيلَهُ
فِي البحر سَرَباً ) .والفاء فى قوله : ( فلما بلغا ) وفى قوله ( فَاتخذ
سبيله . . ) هى الفصيحة .والسرب : النفق الذى يكون تحت الأرض . أو القناة
التى يدخل منها الماء إلى البستان لسقى الزرع .والمعنى : وبعد أن قال موسى
لفتاه ما قال ، أخذا فى السير إلى مجمع البحرين ، فلما بلغا هذا المكان
( نسيا حوتهما ) أى : نسيا خبر حوتهما ونسيا تفقد أمره ، فحيى الحوت ، وسقط
فى البحر ، واتخذ ( سبيله ) أى طريقه ( فِي البحر سَرَباً ) .أى : واتخذ
الحوت طريقه فى البحر ، فكان هذا الطريق مثل السرب أى النفق فى الأرض بحيث
يسير الحوت فيه ، وأثره واضح .قال الإمام ابن كثير : قوله ( فَلَمَّا
بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا ) وذلك أنه كان قد أمر
بحمل حوت مملوح - أى مشوى - معه وقيل له : متى فقدت الحوت ، فهو ثمة - أى
الرجل الصالح الذى هو أعلم منك يا موسى فى هذا المكان - فسارا حتى بلغا
مجمع البحرين .وهناك عين يقال لها عين الحياة ، فناما هناك ، وأصاب الحوت
من رشاش ذلك الماء فاضطرب ، وكان فى مكتل مع يوشع ، وطفر من المكتل إلى
البحر ، فاستيقظ يوشع ، وسقط الحوت فى البحر ، وجعل يسير فيه ، والماء له
: مثل الطاق - أى مثل البناء المقوس كالقنطرة -لا يلتئم بعده ، ولهذا قال
أى : مثل السرب فى الأرض .وقال ( فاتخذ سَبِيلَهُ فِي البحر سَرَباً )
الإمام البيضاوى : قوله ( نسيا حوتهما ) أى : نسى موسى أن يطلبه ويتعرف
حاله ، ونسى يوشع أن يذكر له ما رأى من حياته ووقوعه فى البحر .

فلما جاوزا قال لفتاه اتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما كان منهما بعد ذلك فقال : ( فلما
جاوزا ) أى : المكان الذى فيه مجمع البحرين .( قال ) موسى - عليه السلام -
لفتاه يوشع بن نون ( آتنا غداءنا ) أى : أحضر لنا ما نأكله من هذا الحوت
) : المشوى الذى معنا : ثم علل موسى - عليه السلام - هذا الطلب بقوله
لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هذا نَصَباً ) أى : تعبا وإعياء .واسم
الإشارة " هذا " مشار به إلى سفرهما المتلبسين به .قالوا : ولكن باعتبار
بعض أجزائه ، فقد صح أنه صلى الله عليه وسلم قال : " لم يجد موسى شيئا من
التعب حتى جاوز المكان الذى أمر به " .

قال ارايت اذ اوينا الى الصخرة فاني نسيت الحوت وما انسانيه الا الشيطان ان
اذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ
إِلَى الصخرة فَإِنِّي نَسِيتُ الحوت ) حكاية لما رد به يوشع على موسى
- عليه السلام - عندما طلب منه الغداء .والاستفهام فى قوله ( أرأيت ) للتعجب
مما حدث أمامه من شأن الحوت حيث عادت إليه الحياة ، وقفز فى البحر ، ومع
ذلك نسى يوشع أن يخبر موسى عن هذا الأمر العجيب .أى : قال يوشع لموسى
- عليه السلام - : تذكر وانتبه واستمع إلى ما سألقيه عليك من خبر هذا الحوت
، أرأيت ما دهانى فى وقت أن أوينا ولجأنا إلى الصخرة التى عند مجمع البحرين
، فإنى هناك نسيت أن أذكر لك ما شاهدته منه من أمور عجيبة ، فقد عادت إليه
الحياة ، ثم قفز فى البحر .وقال ( إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى الصخرة ) دون أن
يذكر مجمع البحرين ، زيادة فى تحديد المكان وتعيينه . وأوقع النسيان على
الحوت دون الغداء الذى طلبه منه موسى ، للإشعار بأن الغداء الذى طلبه موسى
منه ، هو ذلك الحوت الذى فقداه .وقوله ( وَمَآ أَنْسَانِيهُ إِلاَّ الشيطان

أَنْ أَذْكُرَهُ ) جملة معترضة جئ بها لبيان ما يجرى مجرى السبب فى وقوع
: النسيان منه .وقوله ( أن أذكره ) بدل اشتمال من الهاء فى ( أنسانيه ) .أى
، وما أنسانى تذكيرك بما حدث من الحوت إلا الشيطان الذى يوسوس للإنسان
بوساوس متعددة ، تجعله يذهل وينسى بعض الأمور الهامة .وقوله ( واتخذ
سَبِيلَهُ فِي البحر عَجَباً ) معطوف على قوله ( فَإِنِّي نَسِيتُ الحوت )
، أى : نسيت أن أخبرك بأن الحوت عندما أوينا إلى الصخرة عادت إليه الحياة.
واتخذ طريقه فى البحر اتخاذا عجيبا ، حيث صار يسير فيه وله أثر ظاهر فى
الماء ، والماء من حوله كالقنطرة التى تنفذ منها الأشياء .وعلى هذا تكون
جملة ، ( واتخذ سَبِيلَهُ فِي البحر عَجَباً ) ، من بقية كلام يوشع للتعجب
مما حدث من الحوت ، حيث عادت إليه الحياة بقدرة الله - تعالى - ، واتخذ
- طريقه فى البحر بتلك الصورة العجيبة .وقيل : إن هذه الجملة من كلام الله
تعالى - لبيان طرف آخر من أمر هذا الحوت العجيب ، بعد بيان أمره قبل ذلك
بأنه اتخذ سبيله فى البحر سربا .ويبدو لنا أن الرأي الأول أرجح ، لأن سياق
الآية يدل عليه ، لذا اكتفى به بعض المفسرين دون أن يشير إلى غيره .قال
الامام الرازى : قوله ( واتخذ سَبِيلَهُ فِي البحر عَجَباً ) فيه وجوه
الأول : أن قوله ( عجبا ) صفة لمصدر محذوف ، كأنه قيل : واتخذ سبيله فى:
البحر اتخاذا عجبا ، ووجه كونه عجبا ، انقلابه من المكتل وصيرورته حيا
- وإلقاء نفسه فى البحر .الثانى : أن يكون المراد منه ما ذكرنا من أنه
تعالى - جعل الماء عليه كالطاق وكالسراب .الثالث : قيل إنه تم الكلام عند
قوله ( واتخذ سَبِيلَهُ فِي البحر ) ثم قال بعده : ( عجباً ) والمقصود منه
. . . تعجب يوشع من تلك الحالة العجيبة التى رآها ، ثم من نسيانه لها

قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على اثارهما قصصا

كما فسرها الوسيط وهنا يحكى القرآن ما يدل على أن موسى - عليه السلام - قد
أدرك أنه تجاوز المكان الذى حدده له ربه - تعالى - للقاء العبد الصالح فقال
أى. ( قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فارتدا على آثَارِهِمَا قَصَصاً ) :
قال موسى لفتاه : ذلك الذى ذكرته لى من أمر نسيانك لخبر الحوت هو الذى كنا
نبغيه ونطلبه ، فإن العبد الصالح الذى نريد لقاءه موجود فى ذلك المكان الذى
فقدنا فيه الحوت .( فارتدا على آثَارِهِمَا قَصَصاً ) أى : فرجعا من
طريقهما الذى أتيا منه ، يتتبعان آثارهما لئلا يضلا عنه ، حتى انتهيا
عائدين مرة أخرى إلى موضع الصخرة التى فقد الحوت عندها .وقصصا : من القص
. بمعنى اتباع الأثر . يقال : قص فلان أثر فلان قصا وقصصا إذا تتبعه

فوجدا عبدا من عبادنا اتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما

كما فسرها الوسيط ثم حكى القرآن ما تم لهما بعد أن عادا إلى مكانهما الأول
فقال : ( فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَآ آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ
عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً ) .أى : وبعد أن عادا إلى
مكان الصخرة عند مجمع البحرين مرة أخرى وجدا ( عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَآ )
الصالحين . والتنكير فى ( عبدا ) للتفخيم ، والإضافة فى ( عبادنا )
للتشريف والتكريم .( آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ) أى : هذا العبد
: الصالح منحناه وأعطيناه رحمة عظيمة من عندنا وحدنا لا من عند غيرنا
. واختصصناه بها دون غيره

قال له موسى هل اتبعك على ان تعلمن مما علمت رشدا

) كما فسرها الوسيط أى : قال موسى للخضر - عليهما السلام - بعد أن التقيا
هل أتبعك ) أى : هل تأذن لى فى مصاحبتك واتباعك . بشرط أن تعلمنى من العلم
الذى علمك الله إياه : شيئا أسترشد به فى حياتى ، وأصيب به الخير فى دينى
فأنت ترى أن موسى - عليه السلام - قد راعى فى مخاطبته للخضر أسمى ألوان.
الأدب اللائق بالأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - حيث خاطبه بصيغة
الاستفهام الدالة على التلطف ، وحيث أنزل نفسه منه منزلة المتعلم من المعلم
وحيث استأذنه فى أن يكون تابعا له ، ليتعلم منه الرشد والخير .قال بعض ،
العلماء : فى هذه الآية دليل على أن المتعلم تبع للعالم ، وإن تفاوتت
المراتب ، ولا يظن أن فى تعلم موسى من الخضر ما يدل على أن الخضر كان أفضل
من موسى ، فقد يأخذ الفاضل عن الفاضل ، وقد يأخذ الفاضل عن المفضول ، إذا
اختص الله - تعالى - أحدهما بعلم لا يعلمه الآخر ، فقد كان علم موسى يتعلق
بالأحكام الشرعية والقضاء بظاهرها ، وكان علم الخضر يتعلق ببعض الغيب
. . . ومعرفة البواطن

قال انك لن تستطيع معي صبرا

) : كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - ما رد به الخضر على موسى فقال

قَالَ إِنّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ) .أى : قال الخضر لموسى إنك يا موسى إذا اتبعتنى ورافقتنى ، فلن تستطيع معى صبرا ، بأى وجه من الوجوه
قال ابن كثير : " أى : إنك لا تقدر يا موسى أن تصاحبنى ، لما ترى من. الأفعال التى تخالف شريعتك ، لأنى على علم من علم الله - تعالى - ما علمك إياه ، وأنت على علم من علم الله - تعالى - ما علمنى إياه ، فكل منا مكلف بأمور من الله دون صاحبه ، وأنت لا تقدر على صحبتى . "

وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا

كما فسرها الوسيط وقوله : ( وَكَيْفَ تَصْبِرُ على مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً ) تعليل لعدم استطاعة الصبر معه .أى : وكيف تصبر يا موسى على أمور ستراها منى . هذه الأمور ظاهرها أنها منكرات لا يصح السكوت عليها ، وباطنها لا تعلمه لأن الله لم يطلعك عليه؟فالخبر بمعنى العلم . يقال : خبر فلان ، الأمر يخبره : أى : علمه . والاسم الخبر ، وهو العلم بالشئ ، ومنه الخبير أى : العالم .وكأن الخضر يريد بهذه الجملة الكريمة أن يقول لموسى : إنى ، واثق من أنك لن تستطيع معى صبرا ، لأن ما سأفعله سيصطدم بالأحكام الظاهرة وبالمنطق العقلى ، وبغيرتك المعهودة فيك ، وأنا مكلف أن أفعل ما أفعل ، لأن المصلحة الباطنة ، فى ذلك ، وهى تخفى عليك .

قال ستجدني ان شاء الله صابرا ولا اعصي لك امرا

كما فسرها الوسيط ولكن موسى - عليه السلام - الحريص على تعلم العلم النافع يصر على مصاحبة الرجل الصالح ، فيقول له فى لطف وأدب ، مع تقديم مشيئة ، الله - تعالى - : ( ستجدني إِن شَآءَ الله صَابِراً وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْراً ) .

قال فان اتبعتني فلا تسالني عن شيء حتى احدث لك منه ذكرا

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

فانطلقا حتى اذا ركبا في السفينة خرقها قال اخرقتها لتغرق اهلها لقد جئت شيئا امرا

كما فسرها الوسيط وقوله : ( فانطلقا ) بيان لما حدث منهما بعد أن استمع كل واحد منهما إلى ما قاله صاحبه .أى؛ فانطلق موسى والخضر - عليهما السلام - على ساحل البحر ، ومعهما يوشع بن نون ، ولم يذكر فى الآية لأنه تابع لموسى ويرى بعضهم أن موسى - عليه السلام - صرف فتاه بعد أن التقى بالخضر .أخرج. الشيخان عن ابن عباس : أنهما انطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت بهما سفينة فكلموهم أن يحملوهم ، فعرفوا الخضر فحملوهما بغير نَوْلٍ : أى أجر ، .وقوله بيان لما فعله الخضر ( حتى إِذَا رَكِبَا فِي السفينة خَرَقَهَا ) : بالسفينة .أى : فانطلقا يبحثان عن سفينة ، فلما وجداها واستقرا فيها ، ما كان من الخضر إلا أن خرقها . قيل : بأن قلع لوحا من ألواحها .وهنا ما كان من موسى إلا أن قال له على سبيل الاستنكار والتعجب مما فعله ) : أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا . . ) . أى : أفعلت ما فعلت لتكون عاقبة الراكبين فيها الغرق والموت بهذه الصورة المؤلمة؟( لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً ) ، والإِمْر : الداهية . وأصله كل شئ شديد كبير ، ومنه قولهم : إن القوم قد أَمِرُوا . أى : كثُروا واشتد شأنهم . ويقال : هذا : أَمْرُ إِمْرُ ، أى : منكر غريب .أى : قال موسى للخضر بعد خرقه للسفينة لقد جئت شيئا عظيما ، وارتكبت أمرا بالغا فى الشناعة . حيث عرضت ركاب السفينة لخطر الغرق .

قال الم اقل انك لن تستطيع معي صبرا

كما فسرها الوسيط وهنا أجابه الخضر بقوله : ( أَلَمْ أَقُلْ لّكَ إِنّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ) أى : ألم أقل لك سابقا إنك لن تستطيع مصاحبتى ، ولا قدرة لك على السكوت على تصرفاتى التى لا تعرف الحكمة من ورائها؟

قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من امري عسرا

كما فسرها الوسيط ولكن موسى - عليه السلام - رد معتذرا لما فرط منه وقال : أيها العبد الصالح ، بما نسيت ، أى : بسبب نسيانى لوصيتك فى ( لا تؤاخذنى ) ترك السؤال والاعتراض حتى يكون لى منك البيان . ( وَلاَ تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً ) أى : ولا تكلفنى من أمرى مشقة فى صحبتى إياك .يقال :

: أرهق فلان فلانا . إذا أتعبه وأثقل عليه وحمله ما لا يطيقه .والمراد التمس لى عذرا بسبب النسيان ، ولا تضيق على الأمر ، فإن فى هذا التضييق ما يحول بيني وبين الانتفاع بعلمك .وكأن موسى - عليه السلام - الذى اعتزم الصبر وقدم المشيئة ، ورضى بشروط الخضر فى المصاحبة . . كأنه قد نسى كل ذلك أمام المشاهدة العملية ، وأمام التصرف الغريب الذى صدر من الخضر دون أن يعرف له سببا .وهكذا الطبيعة البشرية تلتقى فى أنها تجد للتجربة العملية - وقعا وطعما ، يختلف عن الوقع والطعم الذى تجده عند التصور النظرى .فموسى عليه السلام - وعد الخضر بأنه سيصبر . . . إلا أنه بعد أن شاهد ما لا يرضيه ، اندفع مستنكرا .أما الحادث الثانى الذى لم يستطع موسى أن يقف أمامه صامتا فقد حكاه القرآن فى قوله : ( فانطلقا حتى إِذَا لَقِيَا غُلاَماً فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُّكْراً . . . )

فانطلقا حتى اذا لقيا غلاما فقتله قال اقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا

كما فسرها الوسيط أى : فانطلق موسى والخضر للمرة الثانية بعد خروجهما من السفينة ، وبعد أن قبل الخضر اعتذار موسى .( حتى إِذَا لَقِيَا غُلاَماً فَقَتَلَهُ ) فى طريقهما ، ما كان من الخضر إلا أن أخذه ( فقتله ) .وهنا لم يستطع موسى - عليه السلام - أن يصبر على ما رأى ، أو أن يكظم غيظه ، فقال باستنكار وغضب : ( أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً ) أى : طاهرة بريئة من الذنوب ( بغير نفس ) .أى : بغير أن ترتكب ما يوجب قتلها ، لأنها لم تقتل غيرها حتى تقتص منها . أى : أن قتلك لهذا الغلام كان بغير حق .( لقد جئت ) أيها الرجل ( شيئا نكرا ) أى : منكرا عظيما . يقال . نكر الأمر ، أى : صعب واشتد . والمقصود : لقد جئت شيئا أشد من الأول فى فظاعته واستنكار العقول له .

قال الم اقل لك انك لن تستطيع معي صبرا

كما فسرها الوسيط ومرة أخرى يذكره الخضر بالشرط الذى اشترطه عليه ، وبالوعد الذى قطعه على نفسه ، فيقول له : ( أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ) .وفى هذه المرة لا يكتفى الخضر بقوله ( أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ . . ) بل يضيف لفظ لك ، زيادة فى التحديد والتعيين والتذكير .أى : ألم أقل لك أنت يا موسى لا لغيرك على سبيل التأكيد والتوثيق : إنك لن تستطيع معى صبرا ، لأنك لم تحط علما بما أفعله .

قال ان سالتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا

كما فسرها الوسيط ويراجع موسى نفسه . فيجد أنه قد خالف ما اتفق عليه مع الرجل الصالح مرتين ، فيبادر بإخبار صاحبه أن يترك له فرصة أخيرة فيقول : ( إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا ) أى : بعد هذه المرة الثانية ( فلا تصاحبنى ) أى : فلا تجعلنى صاحبا أو رفيقا لك ، فإنك ( قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْراً ) أى : فإنك قد بلغت الغاية التى تكون معذورا بعدها فى فراقى ، لأنى أكون قد خالفتك مراراً .وهذا الكلام من موسى - عليه السلام - يدلك على اعتذاره الشديد للخضر ، وعلى شدة ندمه على ما فرط منه ، وعلى الاعتراف له بخطئه .قال القرطبى : " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دعا لأحد بدأ بنفسه فقال يوما : " رحمة الله علينا وعلى موسى ، لو صبر على صاحبه لرأى العجب ، ولكنه قال : ( إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلاَ تُصَاحِبْنِي . . ) " .

فانطلقا حتى اذا اتيا اهل قرية استطعما اهلها فابوا ان يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد ان ينقض فاقامه قال لو شئت لاتخذت عليه اجرا

كما فسرها الوسيط ثم تسوق لنا السورة الكريمة الحادث الثالث والأخير فى تلك القصة الزاخرة بالمفاجآت والعجائب فتقول : ( فانطلقا حتى إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ استطعما أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً . . . )أى : فانطلق موسى والخضر عليهما السلام - يتابعان سيرهما . حتى إذا أتيا أهل قرية قيل هى " أنطاكية " وقيل : هى قرية بأرض الروم .( استطعما أهلها ) والاستطعام : سؤال ، الطعام . والمراد به هنا سؤال الضيافة لأنه هو المناسب لمقام موسى والخضر عليهما السلام - ولأن قوله - تعالى - بعد ذلك : ( فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا ) يشهد له .أى : فأبى وامتنع أهل تلك القرية عن قبول ضيافتهما بخلا منهم وشحا .وقوله - تعالى - ( فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً

يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ) معطوف على ( أتيا ) أى : وبعد أن امتنع
أهل القرية عن استضافتهما ، تجولا فيها ( فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً ) أى :
بناء مرتفعا ( يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ) أى : ينهدم ويسقط ( فأقامه ) أى
الخضر بأن سواه وأعاد إليه اعتداله ، أو بأن نقضه وأخذ فى بنائه من جديد
وهنا لم يتمالك موسى - عليه السلام - مشاعره ، لأنه وجد نفسه أمام حالة
متناقضة ، قوم بخلاء أشحاء لا يستحقون العون . . ورجل يتعب نفسه فى إقامة
حائط مائل لهم . . هلا طلب منهم أجرا على هذا العمل الشاق ، خصوصا وهما
جائعان لا يجدان مأوى لهما فى تلك القرية!لذا بادر موسى - عليه السلام
ليقول للخضر : ( لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً ) .أى : هلا
طلبت أجرا من هؤلاء البخلاء على هذا العمل ، حتى تنتفع به . وأنت تعلم أننا
جائعان وهم لم يقدموا لنا حق الضيافة .فالجملة الكريمة تحريض من موسى للخضر
على أخذ الأجر على عمله ، ولوم له على ترك هذا الأجر مع أنهما فى أشد
الحاجة إليه .

قال هذا فراق بيني وبينك سانبئك بتاويل ما لم تستطع عليه صبرا

كما فسرها الوسيط وكان هذا التحريض من موسى للخضر - عليهما السلام - هو
نهاية المرافقة والمصاحبة بينهما ، ولذا قال الخضر لموسى : ( هذا فِرَاقُ
بَيْنِي وَبَيْنِكَ ) أى : هذا الذى قلته لى ، يجعلنا نفترق ، لأنك قد قلت
لى قبل ذلك : ( إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلاَ تُصَاحِبْنِي )
وها أنت تسألنى وتحرضنى على أخذ الأجر .ومع ذلك فانتظر : سأنبئك ، قبل
مفارقتى لك ( بتأويل ) أى : بتفسير وبيان ما خفى عليك من الأمور الثلاثة
التى لم تستطع عليها صبرا ، لأنك لم يكن عندك ما عندى من العلم بأسرارها
الباطنة التى أطلعنى الله - تعالى - عليها .

اما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فاردت ان اعيبها وكان وراءهم
ملك ياخذ كل سفينة غصبا

كما فسرها الوسيط ثم حكى القرآن الكريم ما قاله الخضر لموسى عليهما
السلام - فى هذا الشأن فقال - تعالى - : ( أَمَّا السفينة فَكَانَتْ
لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي البحر فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ
وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً )أى قال الخضر لموسى
التى خرقتها ولم ترض عنه ، ( فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ ( أما السفينة ) :
يَعْمَلُونَ فِي البحر ) أى : لضعفاء من الناس لا يستطيعون دفع الظلم عنهم
ولم يكن لهم مال يتعيشون منه سواها ، فكان الناس يركبون فيها ويدفعون ،
لهؤلاء المساكين الأجر الذين ينتفعون به .( فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا )
أى : أن أجعلها ذات عيب بالخرق الذى خرقتها فيه ، ولم أرد أن أغرق أهلها
، كما ظننت يا موسى ، والسبب فى ذلك : أنه ( كَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ )
ظالم ، من دأبه أن يتعقب السفن الصالحة الصحيحة ، ويستولى عليها ، ويأخذها
اغتصابا وقسرا من أصحابها .فهذا العيب الذى أحدثته فى السفينة . كان سببا
فى نجاتها من يد الملك الظالم ، وكان سببا فى بقائها فى أيدى أصحابها
المساكين .فالضرر الكبير الذى أحدثته بها ، كان دفعا لضرر أكبر كان ينتظر
أصحابها المساكين لو بقيت سليمة .ويرى بعضهم أن المراد بالوراء الأمام .
ويرى آخرون أن المراد به الخلف . وقال الزجاج : وراء : يكون للخلف والأمام
ومعناه : ما توارى عنك واستتر .وظاهر قوله - تعالى - : ( يَأْخُذُ كُلَّ .
سَفِينَةٍ غَصْباً ) ، يفيد أن هذا الملك كان يأخذ كل سفينة سواء أكانت
صحيحة أم معيبة ، ولكن هذا الظاهر غير مراد . وإنما المراد : يأخذ كل سفينة
سليمة . بدليل : فأردت أن أعيبها ، أى : لكى لا يأخذها ، ومن هنا قالوا :
إن لفظ ( سفينة ) هنا موصوف لصفة محذوفة . أى : يأخذ كل سفينة صحيحة .و
( غصبا ) ، منصوب على أنه مصدر مبين لنوع الأخذ . والغصب - من باب ضرب
: - أخذ الشئ ظلما وقهرا .

واما الغلام فكان ابواه مؤمنين فخشينا ان يرهقهما طغيانا وكفرا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما رد به الخضر على موسى فى اعتراضه
على الحادثة الثانية فقال - تعالى - : ( وَأَمَّا الغلام فَكَانَ أَبَوَاهُ
مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً . . . )أى
: الذى سبق لى أن قتلته ، واعترضت على فى قتله يا موسى ( وأما الغلام ) :
- فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ ) ولم يكن هو كذلك فقد أعلمنى الله
تعالى - أنه طبع كافرا .( فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً
وَكُفْراً ) ، والخشية : الخوف الذى يشوبه تعظيم ، وأكثر ما يكون عن علم
بما يخشى منه .و ( يرهقهما ) من الإرهاق وهو أن يُحمّل الإنسان ما لا
يطيقه .أى : فخشينا لو بقى حيا هذا الغلام أن يوقع أبويه فى الطغيان والكفر
لشدة محبتهما له ، وحرصهما على إرضائه .

فاردنا ان يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة واقرب رحما

كما فسرها الوسيط ( فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً
) مِّنْهُ ) والإبدال : رفع شئ . وإحلال آخر محله .أى : ( فأردنا ) بقتله
فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا ) بدل هذا الغلام الكافر الطاغى
) ولدا آخر ( خيرا منه ) أى من هذا الغلام ، زكاة " أى " طهارة وصلاحا ،
. وأقرب رحما ) أى : وأقرب فى الرحمة بهما . والعطف عليهما ، والطاعة لهما

واما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان
ابوهما صالحا فاراد ربك ان يبلغا اشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما
فعلته عن امري ذلك تاويل ما لم تسطع عليه صبرا

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - القصة ، ببيان ما قاله الخضر لموسى فى
تأويل الحادثة الثالثة فقال - تعالى - : ( وَأَمَّا الجدار فَكَانَ
لِغُلاَمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي المدينة وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا
وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا
وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ
أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً )أى : ( وأما
الجدار ) الذى أتعبت نفسى فى إقامته ، ولم يعجبك هذا منى .( فَكَانَ
لِغُلاَمَيْنِ يَتِيمَيْنِ ) مات أبوهما وهما صغيران ، وهذان الغلامان
) : يسكنان فى تلك المدينة ، التى عبر عنها القرآن بالقرية سابقا فى قوله
فانطلقا حتى إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ) قالوا : ولعل التعبير عنها
، بالمدينة هنا ، لإظهار نوع اعتداد بها ، باعتداد ما فيها من اليتيمين
وما هو من أهلها وهو أبوهما الصالح ، .وكان تحته أى تحت هذا الجدار : ( كنز
). لهما ) أى : مال مدفون من ذهب وفضة . . ولعل أباهما هو الذى دفنه لهما
وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً ) أى : رجلا من أصحاب الصلاح والتقوى ، فكان
ذلك منه سببا فى رعاية ولديه ، وحفظ مالهما .( فأراد ربك ) ومالك أمرك؛
ومدبر شئونك ، والذى يجب عليك أن تستسلم وتنقاد لإرادته .( أن يَبْلُغَآ
أَشُدَّهُمَا ) أى : كمال رشدهما ، وتمام نموهما وقوتهما .ويستخرجا كنزهما
من تحت هذا الجدار وهما قادران على حمايته ، ولولا أنى أقمته لانقض وخرج
الكنز من تحته قبل اقتدارهما على حفظه وعلى حسن التصرف فيه .( رَحْمَةً
مِّن رَّبِّكَ ) أى : وما أراده ربك - يا موسى - بهذين الغلامين ، هو
الرحمة التى ليس بعدها رحمة ، والحكمة التى ليس بعدها حكمة .فقوله ( رحمة )
) : مفعول لأجله .ثم ينفض الخضر يده من أن يكون قد تصرف بغير أمر ربه فيقول
وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع
عَّلَيْهِ صَبْراً ) .أى : وما فعلت ما فعلته عن اجتهاد منى ، أو عن رأيى
الشخصى ، وإنما فعلت ما فعلت بأمر ربى ومالك أمرى ، وذلك الذى ذكرته لك من
، تأويل تلك الأحداث هو الذى لم تستطع عليه صبرا ، ولم تطق السكوت عليه
لأنك لم يطلعك الله - تعالى - على خفايا تلك الأمور وبواطنها . . كما
أطلعنى .وحذفت التاء من ( تسطع ) تخفيفا . يقال : استطاع فلان هذا الشئ
- واستطاعه بمعنى أطاقه وقدر عليه .وبذلك انكشف المستور لموسى عليه السلام
وظهر ما كان خافيا عليه .هذا ، وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لآيات
تلك القصة جملة من الأحاديث ، منها ما رواه الشيخان ، ومنها ما رواه غيرهما
ونكتفى هنا بذكر حديث واحد .قال - رحمه الله - قال البخارى : حدثنا ،
. الحميدى ، حدثنا سفيان ، حدثنا عمرو بن دينار ، أخبرنى سعيد بن جبير قال
قلت لابن عباس : إن نوفا البكالى يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى نبى
بنى إسرائيل .قال ابن عباس : كذب عدو الله ، حدثنا أبى بن كعب أنه سمع رسول
الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن موسى قام خطيبا فى بنى إسرائيل ، فسئل
أى الناس أعلم؟ فقال : أنا . فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه . فأوحى
الله إليه : إن عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك . فقال موسى : يا رب ، وكيف
" لى به؟قال : تأخذ معك حوتا ، تجعله بمكتل ، فحيثما فقدت الحوت فهو ثم
فأخذ حوتا ، فجعله فى مكتل ، ثم انطلق وانطلق معه بفتاه يوشع بن نون . حتى.
إذا أتيا الصخرة وضعا رءوسهما فناما ، واضطرب الحوت فى المكتل ، فخرج منه
فسقط فى البحر ، واتخذ سبيله فى البحر سربا ، وأمسك الله عن الحوت جِرْبَةَ
الماء ، فصار عليه مثل الطاق .فلما استيقظ نسى صاحبه أن يخبره بالحوت
فانطلقا بقية يومهما وليلتهما ، فلما كان الغد قال موسى لفتاه : ( آتِنَا.
غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هذا نَصَباً ) ولم يجد موسى
النصب حتى جاوز المكان الذى أمره الله به .قال له فتاه : ( قَالَ
أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى الصخرة فَإِنِّي نَسِيتُ الحوت وَمَآ
أَنْسَانِيهُ إِلاَّ الشيطان أَنْ أَذْكُرَهُ واتخذ سَبِيلَهُ فِي البحر
عَجَباً ) قال : فكان للحوت سربا ولموسى وفتاه عجبا .فقال موسى : ( قَالَ
ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فارتدا على آثَارِهِمَا قَصَصاً ) قال : فرجعا
يقصان أثرهما ، حتى انتهيا إلى الصخرة ، فإذا رجل مسجى - أى مغطى - بثوب

: فسلم عليه موسى ، فقال الخضر : وأنى بأرضك السلام .قال : أنا موسى - ،
: قال : موسى نبى إسرائيل قال : نعم ، أتيتك لتعلمنى مما علمت رشدا ، قال
إنك لن تستطيع معى صبرا .يا موسى : إنى على علم من علم الله علمنيه ، لا
: تعلمه أنت ، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه .قال موسى
ستجدنى إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا . قال الخضر فإن اتبعتنى فلا
تسألنى عن شئ حتى أحدث لك منه ذكرا .فانطلقا يمشيان ، فمرت سفينة فكلمهم أن
يحملوه ، فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول - أى بغير أجر - فلما ركبا فى
السفينة ، لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحا من ألواح السفينة بالقدوم .فقال
، له موسى : قد حملونا بغير نول ، فعمدت إلى سفينتهم فخرقتها ، لتغرق أهلها
لقد جئت شيئاً إمرا .قال له الخضر : ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرا . قال
لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا .قال : وقال رسول الله صلى :
الله عليه وسلم ، " كانت الأولى من موسى نسيانا " ، قال : وجاء عصفور فوقع
على حرف السفينة . فنقر فى البحر نقرة . فقال له الخضر : ما علمى وعلمك فى
، علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من البحر .ثم خرجا من السفينة
، فبينما هما يمشيان على الساحل ، إذ أبصر الخضر غلاما يلعب مع الغلمان
فأخذ الخضر رأسه فاقتلعه بيده فقتله - فقال له موسى : ( أَقَتَلْتَ نَفْساً
زَكِيّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لّقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نّكْراً ) قال : ألم
أقل لك إنك لن تستطيع معى صبرا .وقال : وهذ أشد من الأولى . قال : ( قَالَ
إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلاَ تُصَاحِبْنِي )فقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : " وددنا أن موسى كان قد صبر حتى يقص الله علينا من
خبرهما " .وقد أخذ العلماء من هذه القصة أحكاما وآدابا من أهمها ما يأتى
أن الإنسان مهما أوتى من العلم ، فعليه أن يطلب المزيد ، وأن لا يعجب -1:
بعلمه ، فالله - تعالى - يقول : ( وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ العلم إِلاَّ
قَلِيلاً ) وطلب من نبيه صلى الله عليه وسلم أن يتضرع إليه بطلب الزيادة من
العلم فقال : (وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً ) 2- أن الرحلة فى طلب العلم
، من صفات العقلاء . فموسى - عليه السلام - وهو من أولى العزم من الرسل
تجشم المشاق والمتاعب لكى يلتقى بالرجل الصالح؛ لينتفع بعلمه ، وصمم على
ذلك مهما كانت العقبات بدليل قوله - تعالى - حكاية عنه : ( لاَ أَبْرَحُ حتى
أَبْلُغَ مَجْمَعَ البحرين أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً ) قال القرطبى عند تفسيره
، لهذه الآية : فى هذا من الفقه رحلة العالم فى طلب الازدياد من العلم
والاستعانة على ذلك بالخادم والصاحب واغتنام لقاء الفضلاء والعلماء وإن
بعدت أقطارهم . وذلك كان دأب السلف الصالح ، وبسبب ذلك وصل المرتحلون لطلب
العلم إلى الحظ الراجح : وحصلوا على السعى الناجح ، فرسخت لهم فى العلوم
أقدام . وصح لهم من الذكر والأجر والفضل أفضل الأقسام .قال البخارى : ورحل
جابر بن عبد الله مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس فى طلب حديث .3- جواز
إخبار الإنسان عما هو من مقتضى الطبيعة البشرية ، كالجوع والعطش والتعب
والنسيان فقد قال موسى لفتاه : ( آتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن
سَفَرِنَا هذا نَصَباً ) ورد عليه فتاه بقوله : ( أَرَأَيْتَ إِذْ
أَوَيْنَآ إِلَى الصخرة فَإِنِّي نَسِيتُ الحوت وَمَآ أَنْسَانِيهُ إِلاَّ
، الشيطان أَنْ أَذْكُرَهُ . . ) وفى هذا الرد - أيضا - من الأدب ما فيه
- فقد نسب سبب النسيان إلى الشيطان ، وإن كان الكل بقضاء الله - تعالى
وقدره .4- أن العلم على قسمين : علم مكتسب يدركه الإنسان باجتهاده وتحصيله
بعد عون الله تعالى - له . وعلم لدنى يهبه الله - سبحانه - لمن يشاء من . .
عباده فقد قال - تعالى - فى شأن الخضر ( وَعَلَّمْنَاهُ مِن لّدُنّا
عِلْماً ) أى : علما خاصا أطلعه الله عليه يشمل بعض الأمور الغيبية .5- أن
، على المتعلم أن يخفض جناحه للمعلم ، وأن يخاطبه بأرق العبارات وألطفها
: حتى يحصل على ما عنده من علم بسرور وارتياح .قال بعض العلماء ما ملخصه
وتأمل ما حكاه الله عن موسى فى قوله للخضر : ( هَلْ أَتّبِعُكَ على أن
تُعَلِّمَنِ مِمّا عُلِّمْتَ رُشْداً )فقد أخرج الكلام بصورة الملاطفة
والمشاورة ، فكأنه يقول له : هل تأذن لى فى ذلك أو لا ، مع إقراره بأنه
يتعلم منه ، بخلاف ما عليه أهل الجفاء أو الكبر ، الذى لا يظهر للمعلم
افتقاره إلى علمه . . .6- أنه لا بأس على العالم ، إذا اعتذر للمتعلم عن
تعليمه ، لأن المتعلم لا يطيق ذلك ، لجهله بالأسباب التى حملت العالم على
فعل تلك الأمور التى ظاهرها يخالف الحق والعدل والمنطق العقلى ، وأن معرفة
الأسباب تعين على الصبر .فقد قال الخضر لموسى : ( إِنّكَ لَن تَسْتَطِيعَ
مَعِيَ صَبْراً وَكَيْفَ تَصْبِرُ على مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً ) فقد
جعل الموجب لعدم صبره عدم إحاطته خبراً بالأمر .7- إن من علامات الإيمان
القوى ، أن يقدم الإنسان المشيئة عند الإقدام على الأعمال ، وأن العزم
على فعل الشئ ليس بمنزلة فعله ، فقد قال موسى للخضر : ( ستجدني إِن شَآءَ
الله صَابِراً وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْراً ) ومع ذلك فعندما رأى منه أفعالا
يخالف ظاهرها الحق والصلاح ، لم يصبر .وأنه لا بأس على العالم أن يشترط على
المتعلم أمورا معينة قبل أن يبدأ فى تعليمه .فقد قال الخضر لموسى : ( إِنِ
اتبعتني فَلاَ تَسْأَلْني عَن شَيْءٍ حتى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً ) 8-
أنه يجوز دفع الضرر الأكبر بارتكاب الضرر الأصغر ، فإن خرق السفينة فيه ضرر

ولكنه أقل من أخذ الملك لها غصبا ، وإن قتل الغلام شر ، ولكنه أقل من الشر
الذى سيترتب على بقائه . وهو إرهاقه لأبويه ، وحملهما على الكفر .كما يجوز
للإنسان أن يعمل عملا فى ملك غيره بدون إذنه بشرط أن يكون هذا العمل فيه
. مصلحة لذلك الغير كأن يرى حريقا فى دار إنسان فيقدم على إطفائه بدون إذنه
ويدفع ضرر الحريق بضرر أقل منه ، فقد خرق الخضر السفينة ، لكى تبقى
لأصحابها المساكين .9- أن التأنى فى الأحكام . والتثبت من الأمور ، ومحاولة
معرفة العلل والأسباب . . . كل ذلك يؤدى إلى صحة الحكم ، وإلى سلامة القول
والعمل .وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول : " رحمة الله علينا
وعلى موسى ، لو صبر على صاحبه لرأى العجب " .10- أن من دأب العقلاء
الصالحين . استعمال الأدب مع الله - تعالى - فى التعبير ، فالخضر قد أضاف
خرقه للسفينة إلى نفسه فقال : ( فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا . . ) وأضاف
الخير الذى فعله من أجل الغلامين اليتيمين إلى الله فقال : ( فَأَرَادَ
رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً
مِّن رَّبِّكَ ) وشبيه بهذا ما حكاه الله - تعالى - عن صالحى الجن فى قولهم
وَأَنَّا لاَ ندري أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأرض أَمْ أَرَادَ ) :
بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً ) 11- قال القرطبى : قوله - تعالى - ( يُرِيدُ
أَن يَنقَضَّ ) أى : قرب أن يسقط . وهذا مجاز وتوسع .وقد فسره فى الحديث
بقوله " مائل " فكان فيه دليل على وجود المجاز فى القرآن ، وهو مذهب
الجمهور .وجميع الأفعال التى حقها أن تكون للحى الناطق إذا أسندت إلى جماد
أو بهيمة ، فإنما هى استعارة .أى : لو كان مكانها إنسان لكان ممتثلا لذلك
الفعل ، وهذا فى كلام العرب وأشعارهم كثير ، كقول الأعشى :أتنهون ولا
يَنْهَى ذوى شطط ... كالطّعن يذهب فيه الزيتُ والفُتُلوالشطط : الجور
والظلم ، يقول :لا ينهى الظالم عن ظلمه إلا الطعن العميق الذى يغيب فيه
الفتل - فأضاف النهى إلى الطعن .وذهب قوم إلى منع المجاز فى القرآن فإن
كلام الله عز وجل - وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم حمله على الحقيقة أولى
. . بذى الفضل والدين ، لأنه يقص الحق كما أخبر الله - تعالى - فى كتابه
- وقد صرح صاحب أضواء البيان أنه لا مجاز فى القرآن فقال ما ملخصه : قوله.
تعالى - : ( فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ )
هذه الآية من أكبر الأدلة التى يستدل بها القائلون : بأن المجاز فى القرآن
زاعمين أن إرادة الجدار الانقضاض لا يمكن أن تكون حقيقة وإنما هى مجاز ،
وقد دلت آيات من كتاب الله على أنه لا مانع من أن تكون إرادة الجدار حقيقة.
لأن الله - تعالى - يعلم للجمادات إرادات وأفعالا وأقوالا لا يدركها ،
- الخلق ، كما صرح - تعالى - بأنه يعلم من ذلك ما لا يعلمه خلقه فى قوله
سبحانه - ( وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ولكن لاَّ
تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ . . ) فصرح بأننا لا نفقه تسبيحهم ، وتسبيحهم
واقع عن إرادة لهم يعلمها - سبحانه - ونحن لا نعلمها .ومن الأحاديث الدالة
على ذلك ما ثبت فى صحيح مسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " إنى
لأعرف حجرا كان يسلم على بمكة " وما ثبت فى صحيح البخارى من حنين الجذع
، الذى كان يخطب عليه صلى الله عليه وسلم حزنا لفراقه .فتسليم ذلك الحجر
-وحنين ذلك الجزع ، كلاهما بإرادة وإدراك يعلمه الله ونحن لا نعلمه . . .12
أن صلاح الأباء ينفع الأبناء . بدليل قوله - تعالى - : ( وَكَانَ
أَبُوهُمَا صَالِحاً ) .قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : فيه
دليل على أن الرجل الصالح يحفظ فى ذريته وتشمل بركة عبادته ما ينفعهم فى
الدنيا والآخرة ، بشفاعته فيهم ، ورفع درجتهم إلى أعلى درجة فى الجنة لتقر
عينه بهم ، كما جاء فى القرآن ووردت السنة به .قال سعيد بن جبير عن ابن
عباس : حفظا بصلاح أبيهما .13- أن على الصاحب أن لا يفارق صاحبه حتى يتبين
له الأسباب التى حملته على ذلك ، فأنت ترى أن الخضر قد قال لموسى : ( هذا
فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع
عَّلَيْهِ صَبْراً ) أى : قبل مفارقتى لك سأخبرك عن الأسباب التى حملتنى
. على فعل ما فعلت مما لم تستطع معه صبرا

ويسالونك عن ذي القرنين قل ساتلو عليكم منه ذكرا

. كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي القرنين
معطوف على قصة موسى والخضر - عليهما السلام - عطف القصة على القصة .قال ( .
البقاعى : كانت قصة موسى مع الخضر مشتملة على الرحلات من أجل العلم ، وكانت
قصة ذى القرنين مشتملة على الرحلات من أجل الجهاد فى سبيل الله ، ولما كان
. . العلم أساس الجهاد تقدمت قصة موسى والخضر على قصة ذى القرنين
والسائلون هم كفار قريش بتلقين من اليهود ، فقد سبق أن ذكرنا عند تفسيرنا.
لقصة أصحاب الكهف . أن اليهود قالوا لوفد قريش : سلوه - أى الرسول صلى الله
عليه وسلم عن ثلاث نأمركم بهن . . سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ماذا
كان من أمرهم . . وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها . . وسلوه عن
- الروح .وجاء التعبير بصيغة المضارع - مع أن الآيات نزلت بعد سؤالهم
لاستحضار الصورة الماضية ، أو للدلالة على أنهم استمروا فى لجاجهم إلى أن

نزلت الآيات التى ترد عليهم .أما ذو القرنين ، فقد اختلفت فى شأنه أقوال المفسرين اختلافا كبيرا ، لعل أقربها إلى الصواب ما أشار إليه الآلوسى بقوله : وذكر أبو الريحان البيرونى فى كتابه المسمى " بالآثار الباقية عن القرون الخالية " ، أن ذا القرنين هو أبو كريب الحميرى ، وهو الذى : افتخر به تبع اليمنى حيث قال :قد كان ذو القرنين جدى مسلما ... ملكا علا فى الأرض غير مفندبلغ المغارب والمشارق يبتغى ... أسباب ملك من حكيم مرشدثم قال أبو الريجان : ويشبه أن يكون هذا القول أقرب ، لأن ملوك اليمن كانوا يلقبون بكلمة ذى . كذى نواس ، وذى يزن . إلخ . .ومن المقطوع به أن ذا القرنين هذا ليس هو الإسكندر المقدونى الملقب بذى القرنين . تلميذ أرسطو ، فإن : الإسكندر هذا كان وثنيا . . بخلاف ذى القرنين الذى تحدث عنه القرآن ، فإنه كان مؤمنا بالله - تعالى - ومعتقدا بصحة البعث والحساب .والرأى الراجح أنه كان عبدا صالحا ، ولم يكن نبيا .ويرى بعضهم أنه كان بعد موسى - عليه السلام - ، ويرى آخرون غير ذلك ومن المعروف أن القرآن الكريم يهتم فى قصصه ببيان العبر والعظات المستفادة من القصة ، لا ببيان الزمان أو المكان للأشخاص .وسمى بذى القرنين - على الراجح - لبلوغه فى فتوحاته قرنى الشمس من أقصى المشرق والمغرب .والمعنى : ويسألك قومك - يا محمد - عن خبر ذى القرنين وشأنه .( قل ) لهم - على سبيل التعليم والرد على تحديهم لك . ( سَأَتْلُواْ " عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْراً ) .والضمير فى " منه " يعود على ذى القرنين و من " للتبعيض .أى : قل لهم : سأتلو عليكم من خبره - وسأقص عليكم من أنبائه عن طريق هذا القرآن الذى أوحاه الله إلى ما يفيدكم ويكون فيه ذكرى وعبرة لكم إن كنتم تعقلون .

انا مكنا له في الارض واتيناه من كل شيء سببا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما أعطاه الله لذى القرنين من نعم فقال : إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأرض وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ ) سَبَباً فَأَتْبَعَ سَبَباً ) .وقوله : ( مكنا ) من التمكين بمعنى إعطائه الوسائل التى جعلته صاحب نفوذ وسلطان فى أقطار الأرض المختلفة . والمفعول محذوف ، أى : إنا مكنا له أمره من التصرف فيها كيف يشاء . بأن أعطيناه سلطانا وطيد الدعائم ، وآتيناه من كل شئ أراده فى دنياه لتقوية ملكه ( سببا أى سبيلا وطريقا يوصله إلى مقصوده ، كآلات السير ، وكثرة الجند ، ووسائل ( البناء والعمران .وهذه الأسباب التى أعطاها الله إياه ، لم يرد حديث صحيح بتفصيلها ، فعلينا أن نؤمن بأن الله - تعالى - قد أعطاه وسائل عظيمة لتدعيم ملكه ، دون أن نلتفت إلى ما ذكره هنا بعض المفسرين من إسرائيليات لا قيمة لها .

فاتبع سببا

كما فسرها الوسيط والفاء فى قوله ( فأتبع سببا ) فصيحة . أى : فأراد أن يزيد فى تدعيم ملكه ، فسلك طريقا لكى يوصله إلى المكان الذى تغرب فيه الشمس .

حتى اذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة ووجد عندها قوما قلنا يا ذا القرنين اما ان تعذب واما ان تتخذ فيهم حسنا

كما فسرها الوسيط ( حتى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشمس ) أى حتى إذا وصل إلى منتهى الأرض المعمورة فى زمنه من جهة المغرب .( وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ) أى : رآها فى نظره عند غروبها ، كأنها تغرب فى عين مظلمة وإن لم تكن هى فى الحقيقة كذلك .وهذا هو المعتاد لمن كان بينه وبين أفق الشمس ماء فإنه يراها كأنها تشرق منه وتغرب فيه ، كما أن الذى يكون فى أرض ملساء واسعة ، يراها كأنها تطلع من الأرض وتغيب فيها .وحمئة : أى : ذات حمأة وهى الطين الأسود . يقال : حمأت البئر تَحمأ حَمأً ، إذا صارت فيها الحمأة وهى الطينة السوداء .وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائى : ( وجدها ). تغرب في عين حامية ) أى : حارة . اسم فاعل من حَمِى يَحْمَى حَمْياً وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْماً ) أى : ووجد عند تلك العين على ساحل البحر قوما الظاهر أن هؤلاء القوم كانوا من أهل الفترة ، فدعاهم ذو القرنين إلى عبادة. - الله - تعالى - وحده ، فيهم من آمن وفيهم من كفر ، فخيره الله - تعالى فيهم فقال : ( قُلْنَا ياذا القرنين إِمَّآ أن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً ) .أى : قال الله - تعالى - له عن طريق الالهام أو على لسان ملك أخبره بذلك : يا ذا القرنين إما أن تعذب هؤلاء القوم ، الكافرين أو الفاسقين بالقتل أو غيره ، وإما أن تتخذ فيهم أمراً ذا حسن ، أو أمرا حسنا ، تقتضيه المصلحة والسياسة الشرعية .

قال اما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد الى ربه فيعذبه عذابا نكرا

كما فسرها الوسيط ثم حكى الله - تعالى - عنه فى الجواب ما يدل على سلامة تفكيره ، فقال : ( قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ .. ) أى : قال ذو القرنين فى الرد على تخيير ربه له فى شأن هؤلاء القوم ، يا رب : أما من ظلم نفسه بالإصرار على الكفر والفسوق والعصيان ( فسوف نعذبه ) فى هذه الدنيا بالقتل وما يشبهه . ثم يرد هذا الظالم نفسه إلى ربه - سبحانه - فيعذبه فى الآخرة عذابا ( نكرا ) أى : عذابا فظيعا عظيما منكرا وهو عذاب جهنم .

واما من امن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من امرنا يسرا

كما فسرها الوسيط ( وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ) يقتضيه إيمانه فى الدارين ( جزاء الحسنى ) أى : فله المثوبة الحسنى ، أو الفعلة ( فله الحسنى وهى الجنة .( وسنقول له ) أى لمن آمن وعمل صالحا ( من أمرنا ) أى مما نأمره به قولا ( يسرا )لا صعوبة فيه ولا مشقة ولا عسر .فأنت ترى أن ذا القرنين قد رد بما يدل على أنه قد اتبع فى حكمه الطريق القويم ، والأسلوب الحكيم ، الذى يدل على قوة الإيمان ، وصدق اليقين ، وطهارة النفس .إنه بالنسبة للظالمين ، يعذب ، ويقتص ، ويرهب النفوس المنحرفة ، حتى تعود إلى رشدها ، وتقف عند حدودها .وبالنسبة للمؤمنين الصالحين ، يقابل إحسانهم بإحسان وصلاحهم بصلاح واستقامتهم بالتكريم والقول الطيب ، والجزاء الحسن وهكذا الحاكم الصالح فى كل زمان ومكان : الظالمون والمعتدون . . يجدون منه. كل شدة تردعهم وتزجرهم وتوقفهم عند حدودهم .والمؤمنون والمصلحون يجدون منه كل تكريم وإحسان واحترام وقول طيب .

ثم اتبع سببا

كما فسرها الوسيط وقوله : ( ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً ) بيان لما فعله بعد أن بلغ مغرب الشمس .أى : وبعد أن بلغ مغرب الشمس ، ونال مقصده ، كر راجعا من جهة غروب الشمس إلى جهة شروقها .

حتى اذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا

كما فسرها الوسيط ( حتى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشمس ) أى : حتى إذا كر راجعا وبلغ منتهى الأرض المعمورة فى زمنه من جهة المشرق .( وجدها ) أى الشمس ( تَطْلُعُ على قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُمْ مِّن دُونِهَا سِتْراً أى : لم نجعل لهم من دون الشمس ما يستترون به من البناء أو اللباس ، فهم ( : قوم عراة يسكنون الأسراب والكهوف فى نهاية المعمورة من جهة المشرق .وقوله خبر لمبتدأ محذوف ، أى : أمر ذى القرنين كذلك من حيث إنه آتاه ( كذلك ) الله من كل شئ سببا ، فبلغ ملك مشارق الأرض ومغاربها .

كذلك وقد احطنا بما لديه خبرا

كما فسرها الوسيط وقوله ( وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً ) بيان لشمول علم الله - تعالى - بأحوال ذى القرنين الظاهرة والباطنة ، ولأحوال غيره .أى : كذلك كان شأن ذى القرنين . وقد أحطنا إحاطة تامة وعلمنا علما لا يعزب عنه شئ ، بما كان لدى ذى القرنين من جنود وقوة وآلات . . . وغير ذلك من أسباب الملك والسلطان .

ثم اتبع سببا

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً ) بيان لما فعله بعد أن بلغ مغرب الشمس ومشرقها .

حتى اذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا

كما فسرها الوسيط أى : ثم بعد أن بلغ مغرب الشمس ومشرقها . . . سار فى طريق ثالث معترض بين المشرق والمغرب ، آخذا فيه ( حتى إِذَا بَلَغَ ) فى مسيره ذلك ( بين السدين ) أى : الجبلين ، وسمى الجبل سدا ، لأنه سد فجا من الأرض قالوا : والسدان هما جبلان من جهة أرمينية وأذربيجان ، وقيل هما فى نهاية أرض الترك مما يلى المشرق :( وَجَدَ مِن دُونِهِمَا ) أى : من دون السدين ومن ورائهما ( قوما ) أى : أمة من الناس لغتهم لا تكاد تعرف لبعدهم عن بقية الناس ، ولذا قال - سبحانه - .( لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً ) أى لا يكاد هؤلاء القوم يفهمون أو يقرءون ما يقوله الناس لهم ، لغرابة لغتهم : وقلة فطنتهم ، ولا يعرف الناس - أيضا - ما يقوله هؤلاء القوم لهم ، لشدة عجمتهم .

قالوا يا ذا القرنين ان ياجوج وماجوج مفسدون في الارض فهل نجعل لك خرجا على ان تجعل بيننا وبينهم سدا

كما فسرها الوسيط ( قالوا ) أى: هؤلاء القوم لذى القرنين : ( ياذا القرنين إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأرض ) .ويأجوج ومأجوج اسمان أعجميان ، قيل : مأخوذان من الأوجة وهى الاختلاط أو شدة الحر : وقيل : من الأوج وهو سرعة الجرى .واختلف فى نسبهم ، فقيل : هم من ولد يافث بن نوح والترك منهم . وقيل : يأجوج من الترك ، ومأجوج من الديلم .أى : قال هؤلاء القوم - الذين لا يكادون يفقهون قولا - لذى القرنين ، بعد أن توسموا فيه القوة والصلاح . . يا ذا القرنين إن قبيلة يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض بشتى أنواع الفساد والنهب والسلب .وفى الصحيحين من حديث زينب بنت جحش - رضى الله عنها - قالت : " استيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم من نومه وهو محمر وجهه وهو يقول : "لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه " ، وحلق - بين أصابعه - قلت : يا رسول - الله ، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال : " نعم إذا كثر الخبث " .وقوله تعالى - ( فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً على أن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً ) حكاية لما عرضه هؤلاء القوم على ذى القرنين من عروض تدل على ثقتهم فيه وحسن أدبهم معه ، حيث خاطبوه بصيغة الاستفهام الدالة على أنهم يفوضون الأمر إليه .والخَرْج : اسم لما يخرجه الإنسان من ماله لغيره . وقرأ حمزة والكسائى خراجا : وهما بمعنى واحد ، وقيل الخرجة : الجزية . والخراج : اسم لما يخرجه عن الأرض .أى : فهل نجعل لك مقدارا كبيرا من أموالنا على سبيل الأجر ، لكى تقيم بيننا وبين قبيلة يأجوج ومأجوج سدا يمنعهم من الوصول إلينا . ويحول بيننا وبينهم؟

قال ما مكني فيه ربي خير فاعينوني بقوة اجعل بينكم وبينهم ردما

كما فسرها الوسيط وهنا يرد عليهم ذو القرنين - كما حكى القرآن عنه بما يدل على قوة إيمانه وحرصه على إحقاق الحق وإبطال الباطل . فيقول ( قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ . . . ) .أى : قال ذو القرنين لهؤلاء القوم الذين لا يكادون يفقهون قولا : إن ما بسطه الله - تعالى - لى من الرزق والمال والقوة . . خير من خرجكم ومالكم الذى تريدون أن تجعلوه لى فى إقامة السد بينكم وبين يأجوج ومأجوج ، فوفروا عليكم أموالكم ، وقفوا إلى جانبى ) فأعينونى ) بسواعدكم وبآلات البناء ( بقوة ) أى : بكل ما أتقوى به على المقصود وهو بناء السد ، لكى ( أجعل بينكم ) وبين يأجوج ومأجوج ( ردما ) أى : حاجزاً حصينا . وجدارا متينا ، يحول بينكم وبينهم .والردم : الشئ الذى يوضع بعضه فوق بعض حتى يتصل ويتلاصق . يقال : ثوب مردم ، أى : فيه رقاع فوق رقاع . وسحاب مردم ، أى : متكاتف بعضه فوق بعض . ويقال : ردمت الحفرة ، إذا وضعت فيها من الحجارة والتراب وغيرهما ما يسويها بالأرض .قال ابن عباس : الردم أشد الحجاب .وجملة ( أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً ) جواب الأمر فى قوله : ( فأعينونى بقوة ) .

اتوني زبر الحديد حتى اذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى اذا جعله نارا قال اتوني افرغ عليه قطرا

كما فسرها الوسيط ثم شرع فى تنفيذ ما راموه منه من عون فقال : ( آتُونِي زُبَرَ الحديد . . ) .والزبرَ - كالغُرَف - جمع زُبره - كغرفة - وهى القطعة الكبيرة من الحديد وأصل الزبر . الاجتماع ومنه زبرة الأسد لما اجتمع من الشعر على كاهله . ويقال : زبرت الكتاب أى كتبته وجمعت حروفه .أى : أحضروا لى الكثير من قطع الحديد الكبيرة ، فأحضروا له ما أراد ( حتى إِذَا ساوى بَيْنَ الصدفين ) أى بين جانبى الجبلين . وسمى كل واحد من الجانبين صدفا : لكونه مصادفا ومقابلا ومحاذيا للآخر ، مأخوذ من قولهم صادفت الرجل : أى قابلته ولاقيته ، ولذا لا يقال للمفرد صدف حتى يصادفه الآخر ، فهو من الأسماء المتضايفة كالشفع والزوج .وقوله : ( قالوا انفخوا ) أى النار على هذه القطع الكبيرة من الحديد الموضوع بين الصدفين .وقوله : ( حتى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً ) أى : حتى إذا صارت قطع الحديد الكبيرة كالنار فى : احمرارها وشدة توهجها (قَالَ آتوني أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً ) أى نحاسا أو رصاصا مذابا ، وسمى بذلك لأنه إذا أذيب صار يقطر كما يقطر الماء أى : قال لهم أحضروا لى قطع الحديد الكبيرة ، فلما أحضروها له ، أخذ يبنى شيئا فشيئا حتى إذا ساوى بين جانبى الجبلين بقطع الحديد ، قال لهم : أوقدوا النار وانفخوا فيها بالكيران وما يشبهها لتسخين هذه القطع من الحديد وتليينها ، ففعلوا ما أمرهم به ، حتى صارت تلك القطع تشبه النار فى حرارتها وهيئتها ، قال أحضروا لى نحاسا مذابا ، لكى أفرغه على تلك القطع من الحديد لتزداد صلابة ومتانة وقوة .وبذلك يكون ذو القرنين قد لبى دعوة أولئك القوم

فى بناء السد . وبناه لهم بطريقة محكمة سليمة ، اهتدى بها العقلاء فى تقوية الحديد والمبانى فى العصر الحديث .وكان الداعى له لهذا العمل الضخم ، الحيلولة بين هؤلاء القوم ، وبين يأجوج ومأجوج الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون .

فما اسطاعوا ان يظهروه وما استطاعوا له نقبا

كما فسرها الوسيط ولقد أخبر القرآن الكريم بأن ذا القرنين بهذا العمل جعل يأجوج ومأجوج يقفون عاجزين أمام هذا السد الضخم المحكم فقال : ( فَمَا اسطاعوا أن يَظْهَرُوهُ وَمَا استطاعوا لَهُ نَقْباً ) .أى : فما استطاع قوم يأجوج ومأجوج أن يرتفعوا على ظهر السد ، أو يرقوا فوقه لملاسته وارتفاعه ، وما استطاعوا - أيضا - أن يحدثوا فيه نقبا أو خرقا لصلابته ومتانته وثخانته .

قال هذا رحمة من ربي فاذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقا

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ونفخ في الصور فجمعناهم جمعا

كما فسرها الوسيط وقوله : ( وتركنا ) بمعنى جعلنا وصيرنا ، والضمير المضاف فى قوله ( بعضهم ) يعود إلى يأجوج ومأجوج ، والمراد ( بيومئذ ) : يوم تمام بناء السد الذى بناه ذو القرنين .وقوله - سبحانه - ( يموج ) من الموج بمعنى الاضطراب والاختلاط يقال : ماج البحر إذا اضطرب موجه وهاج واختلط . ويقال : ماج القوم إذا اختلط بعضهم ببعض وتزاحموا حائرين فزعين .والمعنى وجعلنا وصيرنا بمقتضى حكمتنا وإرادتنا وقدرتنا ، قبائل يأجوج ومأجوج يموج بعضهم فى بعض . أى : يتزاحمون ويضطربون من شدة الحيرة لأنهم بعد بناء السد ، صاروا لا يجدون مكانا ينفذون منه إلى ما يريدون النفاذ إليه ، فهم خلفه فى اضطراب وهرج .ويجوز أن يكون المراد بيومئذ : يوم مجئ الوعد بخروجهم وانتشارهم فى الأرض ، وهذا الوعد قد صرحت به الآية السابقة فى قوله - تعالى - ( فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً ) فيكون المعنى : وتركنا قبائل يأجوج ومأجوج ، يوم جاء وعد الله بجعل السد مدكوكا ومتساويا مع الأرض ، يموج بعضهم فى بعض ، بعد أن خرجوا منتشرين فى الأرض ، وقد تزاحموا وتكاثروا واختلط بعضهم ببعض .قال الفخر الرازى " : اعلم أن الضمير فى قوله ( بعضهم ) يعود إلى يأجوج ومأجوج . وقوله : ( يومئذ ) فيه وجوه :الأول : أن يوم السد ماج بعضهم فى بعض خلفه لما منعوا من الخروج .الثانى : أنه عند الخروج يموج بعضهم فى بعض . قيل : إنهم حين يخرجون من وراء السد يموجون مزدحمين فى البلاد .الثالث : أن المراد من قوله ( يومئذ ) : يوم القيامة .وكل ذلك محتمل ، إلا أن الأقرب أن المراد به الوقت الذى جعل الله فيه السد دكا فعنده ماج بعضهم ونفخ فى الصور ، وصار ذلك من آيات القيامة " .وقال القرطبى : قوله - تعالى - : ( وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ) الضمير فى ( تركنا ) لله - تعالى - أى : تركنا الجن والإنس يوم القيامة يموج بعضهم فى بعض .وقيل : تركنا يأجوج ومأجوج ( يومئذ ) أى : يوم كمال السد يموج بعضهم فى بعض ، واستعارة الموج لهم عبارة عن الحيرة وتردد بعضهم فى بعض .وقيل : تركنا يأجوج ومأجوج يوم انفتاح السدِّ يموجون فى الدنيا مختلطين لكثرتهم . فهذه أقوال ثلاثة : أظهرها أوسطها وأبعدها آخرها . وحسن الأول ، لأنه تقدم ذكر القيامة فى تأويل قوله - تعالى - ( فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي ) .وقوله - سبحانه - ( وَنُفِخَ فِي الصور فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً ) بيان لعلامة من علامات قيام الساعة .والنفخ لغة : إخراج النفس من الفم لإحداث صوت معين . والصور : القرن الذى ينفخ فيه إسرافيل - عليه السلام - نفخة الصعق والموت ، ونفخة البعث والنشور ، كما قال - تعالى - : ( وَنُفِخَ فِي الصور فَصَعِقَ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض إِلاَّ مَن شَآءَ الله ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أخرى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ )والمعنى : وتركنا يأجوج ومأجوج يموج بعضهم فى بعض . وأمرنا إسرافيل بالنفخ فى الصور ، فجمعناهم وجميع الخلائق جمعا تاما ، دون أن نترك أحدا من الخلائق بدون إعادة إلى الحياة ، بل الكل مجموعون ليوم عظيم هو يوم البعث والحساب .والمراد بالنفخ هنا : النفخة الثانية التى يقوم الناس بعدها من قبورهم للحساب ، كما أشارت إلى ذلك آية سورة الزمر السابقة .وفى التعبير بقوله : ( فجمعناهم جمعا ) . أى : جمعناهم جمعا تاما كاملا لا يشذ عنه أحد ، ولا يفلت منه مخلوق ، كما قال - سبحانه - : ( قُلْ إِنَّ الأولين والآخرين لَمَجْمُوعُونَ إلى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ) هذا ، وهنا مسألة تكلم عنها العلماء ، وهى ، وقت خروج يأجوج ومأجوج .فمنهم من يرى أنه لا مانع من أن يكونوا قد خرجوا بدليل ما جاء فى الحديث الصحيح من أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال " :

ويل للعرب من شر قد اقترب . فتح اليوم من سد يأجوج ومأجوج مثل هذا ، وحلق أى بين أصابعه " .ولأن الآيات الكريمة تقول : ( فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّآءَ . . ) ووعد الله لا مانع من أن يكون قد أتى .قال الشيخ القاسمى : " والغالب أن المراد بخروجهم هذا خروج المغول التتار . وهم من نسل يأجوج ومأجوج - وهو الغزو الذى حصل منهم للأمم فى القرن السابع الهجرى . وناهيك بما فعلوه إذ ذاك فى الأرض من فساد . . " .وقال الشيخ المراغى عند تفسير قوله - تعالى - : ( وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً ) وقد جاء وعده - تعالى - بخروج جنكيز خان وسلائله فعاثوا فى الأرض فساداً . . وأزالوا معالم الخلافة من بغداد . . .وقال صاحب الظلال : وبعد ، فمن يأجوج ومأجوج؟ وأين هم الآن؟ وماذا كان من أمرهم وماذا سيكون؟كل هذه أسئلة تصعب الإجابة عليها على وجه التحقيق ، فنحن لا نعرف عنهم إلا ما ورد فى القرآن وفى بعض الأثر الصحيح .والقرآن يذكر فى هذا الموضع ما حكاه من قول ذى القرنين : ( فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً ) وهذا النص لا يحدد زمانا ووعد الله بمعنى وعده بدك السد ، ربما يكون قد جاء منذ أن هجم التتار وانساحوا فى الأرض . ودمروا الممالك تدميرا .وفى موضع آخر من سورة الأنبياء : ( حتى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ واقترب الوعد الحق ) وهذا النص - أيضاً - لا يحدد زماناً معيناً لخروجهم ، فاقتراب الوعد الحق ، بمعنى اقتراب الساعة قد وقع منذ زمن الرسول صلى الله عليه وسلم فقد جاء فى القرآن والزمان فى الحساب الإلهى غيره فى حساب البشر ، فقد تمر بين اقتراب الساعة ووقوعها ملايين السنين أو القرون .وإذا ( اقتربت الساعة ) : فمن الجائز أن يكون السد قد فتح ما بين : ( اقتربت الساعة ) ، ويومنا هذا . وتكون غارات المغول والتتار التى اجتاحت الشرق ، هى انسياح يأجوج ومأجوج. وكل ما نقوله ترجيح لا يقين .هذه بعض حجج القائلين بأنه لا مانع من أن يكون يأجوج ومأجوج قد خرجوا .وهناك فريق آخر من العلماء ، يرون أن يأجوج ومأجوج لم يخرجوا بعد ، وأن خروجهم إنما يكون قرب قيام الساعة .ومن العلماء الذين أيدوا ذلك صاحب أضواء البيان ، فقد قال - رحمه الله - ما ملخصه :اعلم أن هذه الآية : ( فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّآءَ ) وآية الأنبياء : ( حتى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ) قد دلتا فى الجملة على أن السد الذى بناه ذو القرنين ، دون يأجوج ومأجوج ، إنما يجعله الله دكا عند مجئ الوقت الموعود بذلك فيه . وقد دلتا على أنه بقرب يوم القيامة . . لأن المراد بيومئذ فى قوله ( وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ) أنه يوم مجئ وعد ربى بخروجهم وانتشارهم فى الأرض .وآية الأنبياء تدل فى الجملة على ما ذكرنا هنا . وذلك يدل على بطلان قول من قال : إنهم " روسيا " وأن السد فتح منذ زمن طويل .والاقتراب الذى جاء فى قوله - تعالى - ( اقتربت الساعة ) وفى الحديث : " ويل للعرب من شر قد اقترب "لا يستلزم اقترانه من دك السد ، بل يصح اقترابه مع مهلة .وهذه الآيات لا يتم الاستدلال بها على أن يأجوج ومأجوج لم يخرجوا بعد - إلا بضميمة الأحاديث النبوية لها .ومن ذلك ما رواه الإمام مسلم فى صحيحه فى ذلك ، وفيه : خروج الدجال وبعث عيسى ، وقتله للدجال . . ثم يبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون .فينحاز عيسى ومن معه من المؤمنين إلى الطور . ثم يرسل الله على يأجوج ومأجوج النغف فى رقابهم فيموتون .وهذا الحديث . الصحيح قد رأيت فيه تصريح النبى صلى الله عليه وسلم بأن الله يوحى إلى عيسى ابن مريم بخروج يأجوج ومأجوج بعد قتله الدجال فمن يدعى أنهم " روسيا " وأن السد قد اندك منذ زمان ، فهو مخالف لما أخبر به النبى صلى الله عليه وسلم مخالفة صريحة لا وجه لها ، ولا شك أن كل خبر يخالف الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم فهو باطل ، لأن نقيض الخبر الصادق . كاذب ضرورة كما هو معلوم ولم يثبت فى كتاب الله ولا فى سنة نبيه صلى الله عليه وسلم شئ يعارض هذا. الحديث الذى رأيت صحة سنده ، ووضوح دلالته على المقصود . . .والذى يبدو لنا أن ما ذهب إليه صاحب أضواء البيان ، أقرب إلى الحق والصواب للأسباب التى ذكرها ، ولقرينة تذييل الآيات التى تحدثت عن يأجوج ومأجوج عن أهوال يوم القيامة .ففى سورة الكهف يقول الله - تعالى - فى أعقاب الحديث عنهم ( وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصور فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً ) .وفى سورة الأنبياء يقول الله - تعالى - : ( حتى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ واقترب الوعد الحق . . ) وفضلا عن كل ذلك فإن الحديث الذى رواه الإمام مسلم عنهم ، صريح فى أن خروجهم سيكون من علامات الساعة ، والله - تعالى - أعلم .

وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما أعده للكافرين من عذاب يوم القيامة فقال : ( وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضاً الذين كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُواْ لا

يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً ) وقوله : ( وعرضنا ) . . أي : أظهرنا وأبرزنا يقال
عرض القائد جنده إذا أظهرهم ليشاهدهم الناس .أى : جمعنا الخلائق يوم :
البعث والنشور جمعا تاما كاملا . وأبرزنا وأظهرنا جهنم فى هذا اليوم
، للكافرين إبرازا هائلا فظيعا ، حيث يرونها ويشاهدونها بدون لبس أو خفاء
فيصيبهم ما يصيبهم من رعب وفزع عند مشاهدتها .وتخصيص العرب بهم ، مع أن
غيرهم - أيضا - يراها ، لأنها ما عرضت إلا من أجلهم ، ومن أجل أمثالهم ممن
فسقوا عن أمر ربهم .ويرى بعضهم أن اللام فى ( للكافرين ) بمعنى على ، لأن
العرض يتعدى بها ، قال - تعالى - : ( وَيَوْمَ يُعْرَضُ الذين كَفَرُواْ
عَلَى النار . . ) وقال - سبحانه - : ( النار يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا
غُدُوّاً وَعَشِيّاً . . . ).

الذين كانت اعينهم في غطاء عن ذكري وكانوا لا يستطيعون سمعا

كما فسرها الوسيط ثم وصفهم - سبحانه - بما يدل على استحقاقهم دخول النار
فقال : ( الذين كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي ) .أى : أبرز
جهنم فى هذا اليوم العصيب للكافرين الذين كانت أعينهم فى الدنيا فى ( غطاء
كثيف وغشاوة غليظة ، ( عن ذكرى ) أى : عن الانتفاع بالآيات التى تذكرهم (
بالحق ، وتهديهم إلى الرشاد ، بسبب استحواذ الشيطان عليهم .وفى التعبير
، بقوله : ( غطاء ) إشعار بأن الحائل والساتر الذى حجب أعينهم عن الإبصار
كان حائلا شديدا ، إذ الغطاء هو ما يغطى الشئ ويستره من جميع جوانبه
والمراد بالذكر : القرآن الكريم ، أو ما يشمله ويشمل كل ما فى الكون من
آيات يؤدى التفكر فيها إلى الإيمان بالله - تعالى - .وقوله : ( وَكَانُواْ
لاَ يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً ) صفة أخرى من صفاتهم الذميمة ، أى : وكانوا فى
الدنيا - أيضا -لا يستطيعون سمعا للحق أو الهدى ، بسبب إصرارهم على الباطل
وإيغالهم فى الضلال والعناد ، بخلاف الأصم فإنه قد يستطيع السماع إذا صيح ،
به .قال الآلوسى : فالجملة الكريمة نفى لسماعهم على أتم وجه ، ولذا عدل عن
وكانوا صما مع أنه أخصر ، لأن المراد أنهم مع ذلك كفاقدى السمع بالكلية :
وهو مبالغة فى تصوير إعراضهم عن سماع ما يرشدهم إلى ما ينفعهم بعد تصوير
تعاميهم عن الآيات المشاهدة بالأبصار . . .

افحسب الذين كفروا ان يتخذوا عبادي من دوني اولياء انا اعتدنا جهنم للكافرين نزلا

، كما فسرها الوسيط ثم يعقب - سبحانه - على هذا الوعيد الشديد للكافرين
بالتهكم اللاذع لهم فيقول : ( أَفَحَسِبَ الذين كفروا أَن يَتَّخِذُواْ
عِبَادِي مِن دوني أَوْلِيَآءَ ) .

قل هل ننبئكم بالاخسرين اعمالا

كما فسرها الوسيط أى : قل - أيها الرسول الكريم لهؤلاء الكافرين الذين
أعجبتهم أعمالهم وتصرفاتهم الباطلة .قل لهم : ألا تريدون أن أخبركم خبرا
هاما ، كله الصدق والحق ، وأعرفكم عن طريقه من هم الأخسرون أعمالا فى
الدنيا والآخرة؟وجاء هذا الإخبار فى صورة الاستفهام لزيادة التهكم بهم
، وللفت أنظارهم إلى ما سيلقى عليهم .والأخسرون : جمع أخسر ، صيغة تفضيل من
الخسران ، وأصله نقص مال التاجر .والمراد به هنا : خسران أعمالهم وضياعها
بسبب إصرارهم على كفرهم .وجمع الأعمال ، للإشعار بتنوعها ، وشمول الخسران
لجميع أنواعها .

الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( الذين ضَلّ سَعْيُهُمْ فِي الحياة
الدنيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ) جواب عن
. . السؤال الذى اشتملت عليه الآية السابقة وهى : ( قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم
فكأنه قيل : نبئنا عن هؤلاء الأخسرين أعمالا؟فكان الجواب : هم ( الذين. (
ضَلّ سَعْيُهُمْ ) أى بطل وضاع بالكلية سعيهم وعملهم فى هذه الحياة الدنيا
بسبب إصرارهم على كفرهم وشركهم ، فالجملة الكريمة خبر لمبتدأ محذوف .وقوله
( وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ) أى : والحال أنهم
يظنون أنهم يقدمون الأعمال الحسنة التى تنفعهم .فالجملة الكريمة حال من
- فاعل ( ضل ) أى : ضل وبطل سعيهم ، والحال أنهم يظنون العكس . كما قال
تعالى - : ( أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سواء عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً ) وهذا هو
الجهل المركب بعينه ، لأن الذى يعمل السوء ويعلم أنه سوء قد ترجى استقامته
أما الذى يعمل السوء ويظنه عملا حسنا فهذا هو الضلال المبين .والتحقيق أن .
المراد بالأخسرين أعمالا هنا : ما يشمل المشركين واليهود والنصارى ، وغيرهم
ممن يعتقدون أن كفرهم وضلالهم صواب وحق .

اولئك الذين كفروا بايات ربهم ولقائه فحبطت اعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( أولئك الذين كَفَرُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ) .كلام مستأنف لزيادة التعريف بهؤلاء الأخسرين أعمالا ، ولبيان سوء مصيرهم .أى : أولئك الذين كفروا بآيات ربهم الدالة على وحدانيته وقدرته وكفروا بالبعث والحشر والحساب وما يتبع ذلك من ثواب وعقاب ، فكانت نتيجة هذا الكفر أن ( حبطت أعمالهم ) أى : فسدت وبطلت .وأصل الحبوط : انتفاخ بطن الدابة بسبب امتلائها بالغذاء الفاسد الذى يؤدى إلى هلاكها .والتعبير بالحبوط هنا فى أعلى درجات البلاغة لأن هؤلاء الكافرين ملأوا صحائف أعمالهم بالأقوال والأفعال القبيحة التى ، ظنوها حسنة ، فترتب على ذلك هلاكهم وسوء مصيرهم .وقوله : ( فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ القيامة وَزْناً ) تصريح بهوانهم والاستخفاف بهم ، واحتقار شأنهم .أى : فلا نلتفت إليهم يوم القيامة ، ولا نعبأ بهم احتقارا لهم ، بل نزدريهم ولا نقيم لهم ولا لأعمالهم وزنا ، لأنهم لا توجد لهم أعمال صالحة توضع فى ميزانهم ، كما قال تعالى - : ( وَقَدِمْنَآ إلى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مّنثُوراً ) وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إنه ليأتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة "

ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا اياتي ورسلي هزوا

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

ان الذين امنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا

كما فسرها الوسيط وجنات الفردوس : هى أفضل الجنات وأعلاها . ولفظ الفردوس : لفظ عربى ويجمع على فراديس ، ومنه قولهم صدر مفردس ، أى : واسع .قال الآلوسى ما ملخصه : عن مجاهد أن الفردوس هو البستان بالرومية ، وعن عكرمة أن الفردوس هو الجنة بالحبشية .ونص الفراء على أن هذا اللفظ عربى ومعناه البستان الذى فيه كرم .وقال المبرد : هى - أى كلمة الفردوس - فيما سمعت من العرب : الشجر الملتف والأغلب عليه العنب .وأخرج الشيخان عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا سألتم الله - تعالى - فأسألوه الفردوس ، فإنه وسط الجنة وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن . ومنه تفجر أنهار الجنة " .والمعنى : إن الذين آمنوا بالله - تعالى - وبكل ما يجب الإيمان به ، وعملوا الأعمال الصالحات بإخلاص واتباع لما جاء به الصادق ، المصدوق صلى الله عليه وسلم كانت لهم عند الله - تعالى - جنات الفردوس التى هى أفضل الجنات وأرفعها درجة ( نزلا ) أى : هدية تقدم لهم منه يوم القيامة ، ومكانا ينزلون به تكريما وتشريفا لهم .

خالدين فيها لا يبغون عنها حولا

كما فسرها الوسيط ( خالدين فيها ) خلودا أبديا ، حالة كونهم ( لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ) أى : لا يطلبون تحولا أو انتقالا منها إلى مكان آخر ، لكونها أطيب المنازل وأعلاها .وفى قوله - تعالى - : ( لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ) لفتة دقيقة عميقة للإجابة على ما يعترى النفس البشرية من حب للانتقال والتحول من مكان إلى مكان ، ومن حال إلى حال فكأنه - سبحانه - يقول : إن ما جبلت عليه النفوس فى الدنيا من حب للتحول. والتنقل . قد زال وانتهى بحلولها فى الآخرة فى الجنة ، فالنفس الإنسانية عندما تستقر فى الجنة - ولا سيما جنة الفردوس -لا تريد تحولا أو انتقالا عنها ، لأنها المكان الذى لا تشتاق النفوس إلى سواه ، لأنها تجد فيه ما تشتهيه وما تبتغيه ، نسأل الله - تعالى - أن يرزقنا جميعا جنات الفردوس .

قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا

كما فسرها الوسيط وكما افتتح - سبحانه - السورة الكريمة بالثناء على ذاته ، ختمها - أيضا - بالثناء والحمد ، فقد أثبت - عز وجل - أن علمه شامل لكل شئ وأن قدرته نافذة على كل شئ ، وأنه - تعالى - هو المستحق للعبادة والطاعة . فقال : ( قُل لَّوْ كَانَ البحر مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ ، البحر قَبْلَ أن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً . . . )والمراد بالبحر : جنسه ، والمداد فى الأصل : اسم لكل ما يُمَد به الشئ ، واختص فى العرف لما تمد به الدواة من الحبر .والمراد

بكلمات ربى : علمه وحكمته وكلماته التى يصرف بها هذا الكون .وقوله : ( لنفد البحر ) : أى لفنى وفرغ وانتهى . يقال : نفد الشئ ينفد نفادا ، إذا فنى - وذهب ، ومنه قولهم : أنفد فلان الشئ واستنفده ، أى : أفناه .والمعنى : قل أيها الرسول الكريم - للناس : لو كان ماء البحر مدادا للأقلام التى تكتب بها كلمات ربى ومعلوماته وأحكامه . . لنفد ماء البحر ولم يبق منه شئ - مع سعته وغزارته - قبل أن تنفد كلمات ربى ، وذلك لأن ماء البحر ينقص وينتهى أما كلمات الله - تعالى - فلا تنقص ولا تنتهى .وقوله - سبحانه - : ( وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ) زيادة فى المبالغة وفى التأكيد لما قبله من شمول علم الله - تعالى - لكل شئ ، وعدم تناهيه .أى : وبعد نفاد ماء البحر السابق ، لو جئنا بماء بحر آخر مثله فى السعة والغزارة ، وكتبنا به كلمات الله - تعالى - لنفد - أيضاً - ماء البحر الثانى دون أن تنفد كلمات ربى فالآية الكريمة تصور شمول علم الله - تعالى - لكل شئ ، وعدم تناهى كلماته. - تصويراً بديعاً ، يقرب إلى العقل البشرى بصورة محسوسة كمال علم الله ، تعالى - وعدم تناهيه .قال الآلوسى : وقوله : ( وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ ، مَدَداً ) : هذا كلام من جهته - تعالى شأنه - غير داخل فى الكلام الملقن جئ به لتحقيق مضمونه ، وتصديق مدلوله على أتم وجه . والواو لعطف الجملة على نظيرتها المستأنفة المقابلة لها المحذوفة لدلالة ما ذكر عليها دلالة واضحة ، أى : لنفد البحر قبل أن تنفد كلماته - تعالى - لو لم نجئ بمثله مدداً: ولو جئنا بمثله مددا - لنفد أيضا - .وقال بعض العلماء : وهذا من باب تقريب المعنى إلى الأذهان ، لأن هذه الأشياء مخلوقة ، وجميع المخلوقات منقضية منتهية ، وأما كلام الله - تعالى - فهو من جملة صفاته ، وصفاته غير مخلوقة - ولا لها حد ولا منتهى ، فأى سعة وعظمة تصورتها القلوب ، فالله - تعالى فوق ذلك ، وهكذا سائر صفات الله - سبحانه - كعلمه وحكمته وقدرته ورحمته وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأرض مِن شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ والبحر يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ الله إِنَّ الله عَزِيزٌ حَكِيمٌ ) .

قل انما انا بشر مثلكم يوحى الي انما الهكم اله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه احدا

- كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بأمر آخر منه - تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم فقال : ( قُلْ إِنَّمَآ أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يوحى إِلَيَّ أَنَّمَآ إلهكم إله وَاحِدٌ ) .أى : قل - أيها الرسول الكريم - للناس ، مبيناً لهم حقيقة أمرك ، بعد أن بينت لهم عدم - تناهى كلمات ربك .قل لهم : إنما أنا بشر مثلكم أوجدنى الله - تعالى بقدرته من أب وأم كما أوجدكم . وينتهى نسبى ونسبكم إلى آدم الذى خلقه الله - تعالى - من تراب .ولكن الله - عز وجل - اختصنى بوحيه وبرسالته - وهو أعلم حيث يجعل رسالته - وأمرنى أن أبلغكم أن إلهكم وخالقكم ورازقكم ومميتكم هو إله واحد لا شريك له لا فى ذاته ، ولا فى أسمائه ، ولا فى صفاته ، فعليكم أن تخلصوا له العبادة والطاعة ، وأن تستجيبوا لما آمركم به ، ولما. أنهاكم عنه ، فإنى مبلغ عنه ما كلفنى به .فالآية الكريمة وإن كانت تثبت للرسول صلى الله عليه وسلم صفة البشرية وتنفى عنه أن يكون ملكاً أو غير بشر إلا أنها تثبت له - أيضا - أن الله - تعالى - قد فضله على غيره من . . البشر بالوحى إليه ، وبتكليفه بتبليغ ما أمره الله - تعالى - بتبليغه للعالمين . كما قال - سبحانه - ( وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ) وكما قال - عز وجل - : ( قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ الله ولا أَعْلَمُ الغيب ولا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يوحى إِلَيَّ ) ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بتلك الجملة الجامعة لكل خير فقال : ( فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَاً ) .أى : قل - أيها الرسول الكريم - للناس : إنما أنا واحد مثلكم ، فى البشرية إلا أن الله - تعالى - قد خصنى واصطفانى عليكم برسالته ووحيه - وأمرنى أن أبلغكم أن إلهكم إله واحد . فمن كان منكم يرجو لقاء الله تعالى - ويأمل فى ثوابه ورؤية وجهه الكريم ، والظفر بجنته ورضاه ، فليعمل عملا صالحا ، بأن يكون هذا العمل خالصاً لوجه الله - تعالى - ومطابقاً لما جئت به من عنده - عز وجل - ولا يشرك بعبادة ربه أحدا من خلقه سواء أكان هذا المخلوق نبياً أم ملكا أم غير ذلك من خلقه - تعالى - .وقد حمل بعض العلماء الشرك هنا على الرياء فى العمل ، فيكون المعنى : " فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ، ولا يرائى الناس فى عمله ، لأن العمل الذى يصاحبه الرياء هو نوع من أنواع الشرك بالله تعالى " .والذى يبدو لنا أن حمل الشرك - هنا على ظاهره أولى ، بحيث يشمل الإشراك الجلى كعبادة غير الله - تعالى والإشراك الخفى كالرياء وما يشبهه .أى : ولا يعبد ربه رياء وسمعة ، ولا يصرف شيئا من حقوق خالقه لأحد من خلقه ، لأنه - سبحانه - يقول : ( إِنَّ الله لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن

يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بالله فَقَدِ افترى إِثْماً عَظِيماً )وقد ساق
الإمام ابن كثير جملة من الأحاديث عند تفسيره لقوله - تعالى - ( فَمَن
كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ
يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَاً ) .ومن هذه الأحاديث ما رواه ابن
أبى حاتم ، من حديث معمر ، عن عبد الكريم الجزرى ، عن طاووس قال : قال رجل
يا رسول الله ، إنى أقف المواقف أريد وجه الله ، وأحب أن يرى موطنى ، فلم
يرد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا حتى نزلت هذه الآية : ( فَمَن
كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ
يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَاً ) .

كهيعص

كما فسرها الوسيط سورة ( مريم ) من السور القرآنية التى افتتحت ببعض حروف
التهجى .وقد سبق أن تكلمنا بشىء من التفصيل ، عن آراء العلماء فى المراد
، بهذه الحروف التى افتتحت بها بعض السور ، وذلك عند تفسيرنا لسور : البقرة
وآل عمران ، والأعراف ، ويونس . . .ورجحنا أن هذه الحروف المقطعة ، قد وردت
فى افتتاح بعض سور القرآن ، على سبيل الإيقاظ والتنبيه للذين تحداهم القرآن
- فكأن الله - تعالى - يقول لأولئك المعارضين فى أن القرآن من عند الله.
، تعالى - ، هاكم القرآن ترونه مؤلفا من كلامهو من جنس ما تؤلفون به كلامكم
ومنظوماً من حروف هى من جنس الحروف الهجائية التى تنظمون منها حروفكم ، فإن
، كنتم فى شك من كونه منزلاً من عند الله فهاتوا مثله . أو عشر سور من مثله
. . بل بسورة واحدة من مثله ، وادعوا من شئتم من الخلق لكى يعاونكم فى ذلك
فلما عجزوا - وهم أهل الفصاحة والبيان - ثبت أن غيرهم أعجز ، وأن هذا
القرآن من عند الله ( وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ الله لَوَجَدُواْ
فِيهِ اختلافا كَثِيراً ).

ذكر رحمت ربك عبده زكريا

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ
زَكَرِيّآ ) خبر لمبتدأ محذوف . أى : المتلو عليك ذكر رحمة ربك عبده زكريا
ولفظ ( ذِكْرُ ) مصدر مضاف لمفعوله . ولفظ ( رَحْمَةِ ) مصدر مضاف لفاعله.
وهو ربك ، و ( عَبْدَهُ ) مفعول به للمصدر الذى هو رحمة .و ( زَكَرِيّآ )
هو واحد من أنبياء الله الكرام ، وينتهى نسبه إلى يعقوب بن إسحاق بن
إبراهيم - عليه السلام - .والمعنى : هذا الذى نذكره لك يا محمد ، هو جانب
من قصة عبدنا زكريا ، وطرف من مظاهر الرحمة التى اختصصناه بها ، ومنحناه
. إياها

اذ نادى ربه نداء خفيا

كما فسرها الوسيط قوله : ( إِذْ نادى رَبَّهُ نِدَآءً خَفِيّاً ) ظرف لرحمة
ربك . والمراد بالنداء : الدعاء الذى تضرع به زكريا إلى ربه - عز وجل - .أى
هذا الذى قرأناه عليك يا محمد فى أول هذه السورة ، وذكرنا لك ، هو جانب :
من رحمتنا لعبدنا زكريا . وقت أن نادانا وتضرع إلينا فى خفاء وستر ، ملتمسا
منا الذرية الصالحة .وإنما أخفى زكريا دعاءه ، لأن هذا الإخفاء فيه بعد عن
الرياء ، وقرب من الإخلاص ، وقد أمر الله - تعالى - به فى قوله : ( ادعوا
رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المعتدين ) ويبدو أن
هذا الدعاء قد تضرع به زكريا إلى ربه فى أقوات تردده على مريم ، واطلاعه
) : - على ما أعطاها الله - تعالى - من رزق وفير .ويشهد لذلك قوله - تعالى
فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً
وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا المحراب
وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يامريم أنى لَكِ هذا قَالَتْ هُوَ مِنْ
عِندِ الله إِنَّ الله يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ هُنَالِكَ
دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً
( طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدعاء

قال رب اني وهن العظم مني واشتعل الراس شيبا ولم اكن بدعائك رب شقيا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما نادى به زكريا ربه فقال : ( قَالَ
رَبِّ إِنّي وَهَنَ العظم مِنِّي . . . ) والوهن : الضعف . يقال : وهن
، الجسم يهن - من باب وعد - إذا ضعف .وخص العظم بالذكر ، لأنه دعامة البدن
وعماد الجسم ، وبه قوامه ، فإذ ضعف كان غيره من أجزاء الجسم أضعف . وإفراد
لفظ العظم لإرادة الجنس .( واشتعل الرأس شَيْباً ) والمراد باشتعال الرأس
شيبا : انتشار بياض الشيب فيه . والألف واللام فى لفظ ( الرأس ) قاما مقام
المضاف إليه .والمراد : واشتعل رأسى شيباً ، وهذا يدل على تقدم السن ، كما

- يشهد له قوله - تعالى - ( وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الكبر عِتِيّاً ) وقوله
عز وجل - : ( وَقَدْ بَلَغَنِي الكبر . . ) قال صاحب الكشاف : " شبه الشيب
بشواظ النار فى بياضه وإنارته وانتشاره فى الشعر . . . باشتعال النار ، ثم
، أخرجه مخرج الاستعارة ، ثم أسند الاشتعال إلى مكان الشعر ومبيته وهو الرأس
، وأخرج الشيب مميزا ولم يضف إلى الرأس اكتفاء بعلم المخاطب أنه رأس زكريا
فمن ثم فصحت هذه الجملة وشهد لها بالبلاغة . . . " .وقوله : ( وَلَمْ
أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّاً ) أى : ولم أكن فيما مضى من عمرى مخيب
الدعاء وإنما تعودت منك يا إلهى إجابة دعائى ، وما دام الأمر كذلك فأجب
دعائى فى الزمان الآتى من عمرى ، كما أجبته فى الزمان الماضى منه .فأنت ترى
، أن زكريا - عليه السلام - قد أظهر فى دعائه أسمى ألوان الأدب مع خالقه
حيث توسل إليه - سبحانه - بضعف بدنه ، وبتقدم سنه ، وبما عوده إياه من
. إجابة دعائه فى الماضى

واني خفت الموالي من ورائي وكانت امراتي عاقرا فهب لي من لدنك وليا

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - بعض الأسباب الأخرى لإلحاح زكريا فى
الدعاء فقال : ( وَإِنِّي خِفْتُ الموالي مِن وَرَآئِي وَكَانَتِ امرأتي
عَاقِراً فَهَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ وَلِيّاً يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ
يَعْقُوبَ . . ) .والموالى : جمع مولى ، والمراد بهم هنا : عصبته وأبناء
عمومته الذين يلون أمره بعد موته ، وكان لا يثق فيهم لسوء سلوكهم .والعاقر
، العقيم الذى لا يلد ، ويطلق على الرجل والمرأة ، يقال : أمراة عاقر :
ورجل عاقر .أى : وإنى - يا إلهى - قد خفت ما يفعله أقاربى ( مِن وَرَآئِي )
) أى : من بعد موتى ، من تضييع لأمور الدين ، ومن عدم القيام بحقه
) ، وَكَانَتِ امرأتي عَاقِراً )لا تلد قط فى شبابها ولا فى غير شبابها
، فَهَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ) أى : من عندك ( وَلِيّاً ) أى : ولداً من صلبى
هذا الولد ( يَرِثُنِي ) فى العلم والنبوة ( وَيَرِثُ ) أيضاً ( مِنْ آلِ
يَعْقُوبَ ) ابن إسحاق بن إبراهيم العلم والنبوة والصفات الحميدة ( واجعله
يا رب ( رَضِيّاً ) أى : مرضيا عندك فى أقواله وأفعاله وسائر تصرفاته (
ففى هاتين الآيتين نرى زكريا يجتهد فى الدعاء بأن يرزقه الله الولد ، لا.
من أجل شهوة دنيوية ، وإنما من أجل مصلحة الدين والخوف من تضييعه وتبديله
والحرص على من ريثه فى علمه ونبوته ، ويكون مرضياً عنده - عز وجل - .قال
، الآلوسى ما ملخصه : " وقوله ( مِن وَرَآئِي ) المراد به من بعد موتى
والجار والمجرور متعلق بمحذوف ينساق إليه الذهن أى : خفت فعل الموالى من
ورائي أو جور الموالى . وهم عصبة الرجل . . . وكانوا على سائر الأقوال شرار
بنى إسرائيل ، فخاف أن لا يحسنوا خلافته فى أمته " .وفى قوله ( فَهَبْ لِي
مِن لَّدُنْكَ وَلِيّاً ) اعتراف عميق بقدرة الله - تعالى - لأن مثل هذا
العطاء لا يرجى إلا منه - عز وجل - ، بعد أن تقدمت بزكريا السن ، وبعد أن
عهد من زوجه العقم وعدم الولادة .وقد أشار - سبحانه - فى آية أخرى إلى أنه
أزال عنها العقم وأصلحها للولادة فقال : ( وَزَكَرِيَّآ إِذْ نادى رَبَّهُ
رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنتَ خَيْرُ الوارثين فَاستجبنا لَهُ
وَوَهَبْنَا لَهُ يحيى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ . . . ) أى : وجعلناها
صالحة للولادة بعد أن كانت عقيماً من حين شبابها إلى شيبها . . .والمراد
بالوراثة فى قوله ( يَرِثُنِي ) وراثة العلم والنبوة والصفات الحميدة .قال
الإمام ابن كثير ما ملخصه : " وقوله : ( وَإِنِّي خِفْتُ الموالي مِن
وَرَآئِي ) قرأ الأكثرون بنصب الياء من الموالى على أنه مفعول ، وعن
الكسائى أنه سكن الياء . . .ووجه خوفه أنه خشى أن يتصرفوا من بعده فى الناس
تصرفاً سيئاً . فسأل الله ولداً يكون نبيا من بعده ليسوسهم بنبوته . . .لا
أنه خشى من وراثتهم له ماله . فإن النبى أعظم منزلة وأجل قدراً من أن يشفق
على ماله إلى هذا الحد ، وأن يأنف من وراثة عصبته له ، ويسأل أن يكون له
. ولد ليحوز ميراثه دونهم

يرثني ويرث من ال يعقوب واجعله رب رضيا

كما فسرها الوسيط وقد ثبت فى الصحيحين من غير وجه أن رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - قال : "لا نورث ما تركنا صدقة " وفى رواية عند الترمذى بإسناد
صحيح : " نحن معاشر الأنبياء لا نورث " .وعلى هذا فتعين حمل قوله ( فَهَبْ
) : لِي مِن لَّدُنْكَ وَلِيّاً يَرِثُنِي ) على ميراث النبوة ولهذا قال
وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ) كقوله : ( وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ )
أى : فى النبوة ، إذ لو كان فى المال لما خصه من بين إخوته بذلك ، ولما كان
فى الإخبار بذلك كبير فائدة ، إذ من المعلوم المستقر فى جميع الشرائع
والملل ، أن الولد يرث أباه ، فلولا أنها وراثة خاصة لما أخبر بها ، وكل
هذا يقرره ويثبته ما صح فى الحديث : " نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما
: تركنا فهو صدقة " .وقال بعض العلماء ما ملخصه : ومعنى ( يَرِثُنِي ) أى
إرث علم ونبوة ، ودعوة إلى الله والقيام بدينه ، لا إرث مال ، ويدل لذلك

أمران :أحدهما قوله : ( وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ) ومعلوم أن آل يعقوب انقرضوا من زمان ، فلا يورث عنهم إلا العلم والنبوة والدين .والأمر الثانى ما جاء من الأدلة أن الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم -لا يورث عنهم المال ، وإنما يورث عنهم العلم والدين ، فمن ذلك ما أخرجه الشيخان عن أبى بكر الصديق أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : "لا نورث ما تركنا صدقة " .

يا زكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا

كما فسرها الوسيط ثم بين القرآن الكرم أن الله - تعالى - قد أجاب بفضله وكرمه دعاء عبده زكريا . كما بين ما قاله زكريا عندما بشره ربه بغلام اسمه يحيى فقال - تعالى - : ( يازكريآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلاَمٍ . . . . ) قال القرطبى : قوله - تعالى - ( يازكرياآ ) فى الكلام حذف ، أى : فاستجاب. الله دعاءه فقال : ( يازكريآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلاَمٍ اسمه يحيى ) فتضمنت هذه البشارة ثلاثة أشياء : أحدها : إجابة دعائه وهى كرامة . الثانى - إعطاؤه الولد وهو قوة . الثالث : أن يفرد بتسميته . . . " .وقد بين : سبحانه - فى آيات أخرى أن الذى بشر زكريا هو بعض الملائكة ، وأن ذلك كان وهو قائم يصلى فى المحراب ، قال - تعالى - : ( فَنَادَتْهُ الملائكة وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي المحراب أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بيحيى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِّنَ الله وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِّنَ الصالحين ) - وقوله - سبحانه - : ( اسمه يحيى ) يدل على أن هذه التسمية قد سماها الله تعالى - ليحيى ، ولم يكل تسميته لزكريا أو لغيره ، وهذا لون من التشريف والتكريم .وقوله - تعالى - : ( لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيّاً ) أى لم نجعل أحداً من قبل مشاركاً له فى هذا الاسم ، بل هو أول من تسمى بهذا الاسم الجميل .قال بعض العلماء : " وقول من قال : إن معناه : لم نجعل له من قبل سميا ، أى : نظيرا يساويه فى السمو والرفعة غير صواب ، لأنه ليس بأفضل ، من إبراهيم ونوح وموسى فالقول الأول هو الصواب ، وممن قال به : ابن عباس وقتادة ، والسدى ، وابن أسلم وغيرهم . . . . " .

قال رب انى يكون لي غلام وكانت امراتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما قاله زكريا بعد هذه البشارة السارة . فقال - تعالى - : ( قَالَ رَبِّ أنى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَكَانَتِ امرأتي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الكبر عِتِيّاً ) .فالجملة الكريمة استئناف مبنى على سؤال تقديره : فماذا قال زكريا عندما بشره الله تعالى - بيحيى؟ولفظ ( أنى ) بمعنى : كيف . أو بمعنى : من أين .أى : قال زكريا مخاطباً ربه بعد أن بشره بابنه يحيى : يا رب كيف يكون لى غلاما وحال امرأتى أنها كانت عاقراً فى شبابها وفى شيخوختها ، وحالى أنا أننى قد بلغت من الكبر عتيا ، أى : قد تقدمت فى السن تقدماً كبيراً يقال : عتى الشيخ يعتو عتيا - بكسر العين وضمها - إذا بلغ النهاية فى الكبر .قال ابن جرير : قوله : ( وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الكبر عِتِيّاً ) يقول : وقد عتوت من " الكبر فصرت نحيل العظام يابسها ، يقال منه للعود اليابس : عات وعاس . وقد عتا يعتو عتوا وعتيا . . . وكل متناه فى كبر أو فساد أو كفر فهو عات . . . فإن قيل : " ما المراد باستفهام زكريا - عليه السلام - مع علمه بقدرة. " الله - تعالى - على كل شىء؟فالجواب أن استفهامه إنما هو على سبيل الاستعلام والاستخبار ، لأنه لم يكن يعلم أن الله - تعالى - سيرزقه بيحيى عن طريق زوجته العاقر ، أو عن طريق الزواج بامرأة أخرى ، فاستفهم عن الحقيقة ليعرفها .ويصح أن يكون المقصود بالاستفهام التعجب والسرور بهذا الأمر العجيب حيث رزقه الله الولد مع تقدم سنه وسن زوجته .ويجوز أن يكون المقصود بالاستفهام الاستبعاد لما جرت به العادة من أن يأتى الغلام مع تقدم سنه وسن زوجته . وليس المقصود به استحالة ذلك على قدرة الله - تعالى - لأنه - سبحانه -لا يعجزه شىء .

قال كذلك قال ربك هو علي هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا

) : كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - ما رد به على استفهام زكريا فقال قَالَ كذلك قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً ) .وقوله : ( كذلك ) خبر لمبتدأ محذوف ، أى : الأمر كذلك .قال الآلوسى : وذلك إشارة إلى قول زكريا - عليه السلام - وجملة ( قَالَ ) الثانى وجملة " الأمر كذلك " مع ( هُوَ عَلَيّ هَيِّنٌ ) مفعول ( قَالَ ) الأول . . . " .والمعنى : قال جملة ( قَالَ رَبُّكَ ) إلخ مفعول ( قَالَ ) الله - تعالى - مجيباً على استفهام زكريا ، الأمر كما ذكرت يا زكريا من كون امرأتك عاقرا ، وأنت قد بلغت من الكبر عتيا ، ولكن ذلك لا يحول بيننا وبين تنفيذ إرادتنا فى منحك هذا الغلام ، فإن قدرتنا لا يعجزها شىء ، ولا تخضع

لما جرت به العادات .وهذا الأمر وهو إيجاد الولد منك ومن زوجتك هذه لا من غيرها ( هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ) أى : يسير سهل .ثم ذكر له - سبحانه - ما هو أعجب مما سأل عنه فقال : ( وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً ) .أى :لا تعجب يا زكريا من أن يأتيك غلام وأنت وزوجك بتلك الحالة فإنى أنا الله الذى أوجدتك من العدم ، ومن أوجدك من العدم ، فهو قادر على ، أن يرزقك بهذا الغلام المذكور .فالآية الكريمة قد ساقت بطريق منطقى برهانى - ما يدل على كمال قدرة الله - تعالى - وما يزيد فى اطمئنان قلب زكريا ، - عليه السلام .

قال رب اجعل لي اية قال ايتك الا تكلم الناس ثلاث ليال سويا

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما التمسه زكريا - عليه السلام - من خالقه فقال : ( قَالَ رَبِّ اجعل لي آيَةً . . . ) .أى : اجعل لى علامة أستدل بها على وقوع ما بشرتنى به ، لأزداد سروراً واطمئناناً . ولأعرف الوقت الذى تحمل فيه امرأتى بهذا الغلام فأكثر من شكرك وذكرك فأجابه الله - تعالى - بقوله : ( قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ الناس. ثَلاَثَ لَيَالٍ سَوِيّاً ) .أى : قال الله - تعالى - لعبده زكريا : يا زكريا . علامة وقوع ما بشرتك به ، أنك تجد نفسك عاجزاً عن أن تكلم الناس بلسانك ، لمدة ثلاث ليال بأيامهن حال كونك سوى الخلق ، سليم الحواس ليس بك من خرس ، أو بكم ولكنك ممنوع من الكلام بأمرنا وقدرتنا على سبيل خرق العادة فقوله : ( سَوِيّاً ) حال من فاعل " تكلم " وهو زكريا أى : حال كونك يا زكريا سوى الخلق ، سليم الجوارح ، لا علة تمنعك من ذلك سوى قدرتنا .

فخرج على قومه من المحراب فاوحى اليهم ان سبحوا بكرة وعشيا

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما كان من زكريا بعد ذلك فقال : ( فَخَرَجَ على قَوْمِهِ مِنَ المحراب فأوحى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيّاً ) .والمحراب : المصلى ، أو الغرفة التى كان يجلس فيها فى بيت المقدس ، أو هو المسجد ، فقد كانت مساجدهم تسمى المحاريب . لأنها الأماكن التى تحارب فيها الشياطين .أى : فخرج زكريا - عليه السلام - على قومه من المكان الذى كان يصلى فيه ، ( فأوحى إِلَيْهِمْ ) أى : فأشار إليهم أو كتب لهم دون أن ينطق بلسانه ( أَنسَبِّحُواْ ) الله - تعالى - وقدسوه - بُكْرَةً ) أى : فى أوائل النهار ( وَعَشِيّاً ) أى : فى أواخره .وقد ذكر - سبحانه - فى آية أخرى ، ما يشير إلى أن هذا المحراب الذى خرج منه زكريا عليه السلام - على قومه . هو ذلك المكان الذى بشره الله - تعالى - فيه بيحيى .قال - تعالى - : ( فَنَادَتْهُ الملائكة وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي المحراب أَنَّ إِللَّهَ يُبَشِّرُكَ بيحيى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِّنَ الله وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِّنَ الصالحين ) وبذلك نرى الآيات الكريمة قد حكت لنا بأسلوبها البليغ جانباً من رحمة الله - تعالى - بعبده زكريا ، ومن الدعوات التى تضرع بها إلى خالقه - عز وجل - ، وأن الله - تعالى - قد أجاب له دعاءه ، وبشره بيحيى ، وعرفه بالعلامة التى بها يعرف وقوع ما بشره به ، زيادة فى اطمئنانه وسروره .

يا يحيى خذ الكتاب بقوة واتيناه الحكم صبيا

كما فسرها الوسيط ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن يحيى ، فبينت ما أمره الله - تعالى به ، وما منحه من صفات فاضلة . فقال - تعالى - : ( يايحيى خُذِ الكتاب بِقُوَّةٍ ) مقول . . . ) .وقوله - سبحانه - : ( يايحيى لقول محذوف ، والسر فى حذفه المسارعة إلى الإخبار بإنجاز الوعد الكريم والتقدير : وبعد أن ولد يحيى ، ونما وترعرع قلنا له عن طريق وحينا : ( يايحيى خُذِ الكتاب ) الذى هو التوراة ( بِقُوَّةٍ ) أى : بجد واجتهاد ، وتفهم لمعناه على الوجه الصحيح ، وتطبيق ما اشتمل عليه من أحكام وآداب فإن بركة العلم فى العمل به .والجار والمجرور ( بِقُوَّةٍ ) حال من فاعل خذ وهو يحيى ، والباء للملابسة أي : خذه حالة كونك ملتبساً بحفظه وتنفيذ أحكامه بشدة وثبات .وقوله : ( وَآتَيْنَاهُ الحكم صَبِيّاً ) أى : وأعطيناه بقدرتنا وفضلنا ( الحكم ) أى : فهم الكتاب والعمل بأحكامه ، وهو فى سن الصبا .قيل : كان سنه ثلاث سنين ، وقيل سبع سنين .قال الآلوسى : " أخرج أبو نعيم ، وابن مردويه ، والديلمى ، عن ابن عباس ، عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه قال فى ذلك : " أعطى الفهم والعبادة وهو ابن سبع سنين " .وقال الجمل فى حاشيته : " فإن قلت : كيف يصح حصول العقل والفطنة والنبوة حال الصبا؟ .قلت : لأن أصل النبوة مبنى على خرق العادات . إذا ثبت هذا . فلا تمنع صيروة الصبى نبيا . وقيل : أراد بالحكم فهم الكتاب فقرأ التوراة وهو صغير . . .والذى تطمئن إليه النفس وعليه جمهور المفسرين أن المراد بالحكم هنا : العلم النافع مع العمل به ، وذلك عن طريق حفظ التوراة وفهمها وتطبيق

أحكامها .قال ابن كثير : ( وَآتَيْنَاهُ الحكم صَبِيّاً ) أى : الفهم والعلم والجد والعزم ، والإقبال على الخير ، والإكباب عليه ، والاجتهاد فيه وهو صغير حدث .قال عبد الله بن المبارك : قال معمر : قال الصبيان ليحيى ، بن زكريا : اذهب بنا نلعب ، فقال : ما للعب خلقنا . قال : فلهذا أنزل الله : ( وَآتَيْنَاهُ الحكم صَبِيّاً ) .

وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( وَحَنَاناً مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً ، وَكَانَ تَقِيّاً ) معطوف على ( الحكم ) .أى : وأعطيناه الحكم صبياً وأعطيناه حنانا . . .قال القرطبى ما ملخصه : " الحنان ، الشفقة والرحمة والمحبة ، وهو فعل من أفعال النفس . . .وأصله : من حنان الناقة على ولدها . قال طرفة :أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا ... حنانيك بعض الشر أهون من . . بعضوالمعنى : منحنا ( يايحيى ) الحكم صبيا ، ومنحناه من عندنا وحدنا رحمة : عظيمة عليه ، ورحمة فى قلبه جعلته يعطف على غيره ، وأعطيناه كذلك زكاة أى طهارة فى النفس ، أبعدته عن ارتكاب ما نهى الله عنه ، وجعلته سباقاً لفعل الخير ( وَكَانَ تَقِيّاً ) أى مطيعاً لنا فى كل ما نأمره به ، أو ننهاه عنه .

وبرا بوالديه ولم يكن جبارا عصيا

كما فسرها الوسيط ثم أضاف - سبحانه - إلى تلك الصفات الكريمة ليحيى صفات أخرى فقال : ( وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ ) أى : وجعلناه كثير البر بوالديه ، والإحسان إليهما .( وَلَمْ يَكُن جَبَّاراً ) أى : مستكبرا متعاليا مغرورا . أى : ولم يكن ذا معصية ومخالفة لأمر ربه ( عَصِيّاً )

وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - هذه الصفات ببيان العاقبة الحسنة التى ادخرها ليحيى - عليه السلام - فقال : ( وَسَلاَمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ ) أى : وتحية وأمان له منا يوم ولادته ( وَيَوْمَ يَمُوتُ ) ويفارق هذه - الدنيا ( وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَياً ) للحساب يوم القيامة .وخص - سبحانه هذه الأوقات الثلاثة بالذكر ، لأنها أحوج إلى الرعاية من غيرها .قال سفيان بن عيينة : أحوج ما يكون المرء فى ثلاثة مواطن : يوم يولد فيرى نفسه خارجاً مما كان فيه . ويوم يموت فيرى قوماً لم يكن عاينهم . ويوم يبعث فيرى نفسه . فى محشر عظيم

واذكر في الكتاب مريم اذ انتبذت من اهلها مكانا شرقيا

كما فسرها الوسيط وبعد هذا الحديث عن جانب من قصة زكريا ويحيى - عليهما السلام - ، انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن قصة أخرى أعجب من قصة - ميلاد يحيى ، ألا وهى قصة مريم وميلادها لابنها عيسى - عليه السلام فقال - تعالى - : ( واذكر فِي الكتاب . . . ) .قال ابن كثير : " لما ذكر الله تعالى - قصة زكريا - عليه السلام - وأنه أوجد منه فى حال كبره وعقم زوجته ولدا زكياً طاهراً مباركاً ، وعطف بذكر قصة مريم ، فى إيجاده ولدها عيسى - عليه السلام - منها من غير أب .وهى مريم ابنة عمران - من سلالة داود - عليه السلام - وكانت من بيت طاهر فى بنى إسرائيل . . . ونشأت نشأة عظيمة ، فكانت إحدى العابدات الناسكات . . .وكانت فى كفالة زوج أختها " . . . زكريا - عليه السلام - ورأى لها من الكرامات الهائلة ما بهره والمعنى : ( واذكر ) - أيها الرسول الكريم - ( فِي الكتاب ) أى فى هذه. السورة الكريمة ، أو فى القرآن الكريم ، خبر مريم وقصتها ( إِذِ انتبذت مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِياً ) أى : وقت أن تنحت عنهم واعتزلتهم فى مكان يلى الناحية الشرقية من بيت المقدس ، أو من بيتها الذى كانت تسكنه وفى التعبير بقوله - تعالى - ( إِذِ انتبذت مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً. شَرْقِياً ) أى : وقت أن تنحت عنهم واعتزلتهم فى مكان يلى الناحية الشرقية - من بيت المقدس ، أو من بيتها الذى كانت تسكنه .وفى التعبير بقوله - تعالى إشارة إلى شدة عزلتها عن أهلها إذ النبذ ( إِذِ انتبذت مِنْ أَهْلِهَا ) معناه الطرح والرمى ، فكأنها ألقت بنفسها فى هذا المكان لتتخلى للعبادة والطاعة ، والتقرب إلى الله - تعالى - بصالح الأعمال .قال القرطبى : واختلف : الناس لم انتبذت؟ فقال السدى : انتبذت لتطهر من حيض أو نفاس . وقال غيره لتعبد الله وهذا حسن . وذلك أن مريم كانت وقفا على سدانة المعبد وخدمته والعبادة فيه ، فتنحت من الناس لذلك ، ودخلت فى المسجد إلى جانب المحراب فى شرقيه لتخلو للعبادة . . .فقوله ( مَكَاناً شَرْقِياً ) أى : مكاناً من . جانب الشرق . والشرق - بسكون الراء - المكان الذى تشرق فيه الشمس

والشرق - بفتح الراء - الشمس . .وإنما خص المكان بالشرق ، لأنهم كانوا
يعظمون جهة المشرق ، حيث تطلع الأنوار . . . " .

فاتخذت من دونهم حجابا فارسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا

كما فسرها الوسيط وقوله : ( فاتخذت مِن دُونِهِم حِجَاباً ) تأكيد
لانتباذها من أهلها ، واعتزالها إياهم .أى : اذكر وقت أن اعتزلت أهلها . فى
مكان يلى شرق بيت المقدس ، فاتخذت بينها وبينهم حجابا وساتراً للتفرغ
لعبادة ربها .ثم بين - سبحانه - ما أكرمها به فى حال خلوتها فقال : (
فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَآ رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً )
أى : فأرسلنا إليها روحنا وهو جبريل - عليه السلام - فتشبه لها فى صورة
بشر سوى معتدل الهيئة ، كامل البنية ، كأحسن ما يكون الإنسان .يقال : رجل
سوى ، إذا كان تام الخلقة عظيم الخلق ، لا يعيبه فى شأن من شئونه إفراد أو
تفريط .والإضافة فى قوله ( رُوحَنَا ) للتشريف والتكريم ، وسمى جبريل -
عليه السلام - روحاً لمشابهة الروح الحقيقية فى أن كلا منهما مادة الحياة
للبشر .فجبريل من حيث ما يحمل من الرسالة الإلهية تحيا به القلوب ، والروح
تحيا به الأجسام .وإنما تمثل لها جبريل - عليه السلام - فى صورة بشرى سوى ،
لتستأنس بكلامه ، وتتلقى منه ما يلقى إليها من كلماته ، ولو بدا لها فى
صورته التى خلقه الله - تعالى - عليها . لنفرت منه ، ولم تستطع مكالمته
وقوله : ( بَشَراً سَوِيّاً ) حالان من ضمير الفاعل فى قوله ( فَتَمَثَّلَ
لَهَا ) .

قالت اني اعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما دار بين مريم وبين جبريل من
حوار ونقاش فقال : (قَالَتْ إِنِي أَعُوذُ بِالرحمن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّاً
أى " قالت لجبريل - عليه السلام - الذى تمثل لها فى صورة بشر سوى : إنى ) .
أعوذ وألتجىء إلى الرحمن منك ، إن كنت ممن يتقى الله ويخشاه .وخصت الرحمن
بالذكر ، لتثير مشاعر التقوى فى نفسه ، إذ من شأن الإنسان التقى أن ينتفض
وجدانه عند ذمر الرحمن ، وأن يرجع عن كل سوء يخطر بباله .وجواب هذا الشرط
محذوف ، وأن يرجع عن كل سوء يخطر بباله .وجواب هذا الشرط محذوف ، أى إن كنت
تقيا ، فابتعد عنى واتركنى فى خلوتى لأتفرغ لعبادة الله - تعالى - .وبهذا
القول الذى حكاه القرآن عن مريم . تكون قد جمعت بين الاعتصام بربها ، وبين
تخويف من تخاطبه وترهيبه من عذاب الله . إن سولت له نفسه إرادتها بسوء .
كما أن قولها هذا ، يدل على أنها قد بلغت أسمى درجات العفة والطهر والبعد
عن الريبة ، فهى تقول له هذا القول ، وهى تراه بشراً سوياً ، وفى مكان
بمعزل عن الناس . . .

قال انما انا رسول ربك لاهب لك غلاما زكيا

كما فسرها الوسيط وهنا يجيبها جبريل - كما حكى القرآن عنه - بقوله : (
قَالَ إِنَّمَآ أَنَاْ رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلاَماً زَكِيّاً )
أى : قال لها جبريل ليدخل السكون والاطمئنان على قلبها : إنما أنا يا مريم
رسول ربك الذى استعذت به ، والتجأت إليه ، فلا تخافى ولا تجزعى وقد
أرسلنى - سبحانه - إليك ، لأهب لك بإذنه وقدرته غلاماً زكياً ، أى : ولداً
طاهراً من الذنوب والمعاصى ، كثير الخير والبركات .ونسب الهبة لنفسه ،
لكونه سبباً فيها . وقرأ نافع وأبو عمرو : ( ليهب لك ) بالياء المفتوحة بعد
اللام أى : ليهب لك ربك غلاماً زكيا .

قالت انى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم اك بغيا

كما فسرها الوسيط وهنا تزداد حيرة مريم ، ويشتد عجبها فتقول : ( أنى
يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً ) .أى
قالت على سبيل التعجب مما سمعته : كيف يكون لى غلام ، والحال أنى لم
يمسنى بشر من الرجال عن طريق الزواج الذى أحله الله - تعالى - ، ولم أك فى
يوم من الأيام بغياً ، أى : فاجرة تبغى الرجال . أو يبغونها للزنا بها .
يقال : بغت المرأة تبغى إذا فجرت وتجاوزت حدود الشرف والعفاف .قال صاحب
الكشاف : جعل المس عبارة عن النكاح الحلال ، لأنه كناية عنه . كقوله
تعالى - ( مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنّ ) والزنا ليس كذلك ، إنما يقال فيه
فجر بها وخبث بها وما أشبه ذلك ، وليس بقمن أن تراعى فيه الكنايات :
والآداب . والبَغِى : الفاجرة التى تبغى الرجال . . . " .وعلى هذا الرأى
الذى ذهب إليه صاحب الكشاف ، يكون ما حكاه القرآن عن مريم من قولها : (
وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ . . . ) المقصود به النكاح الحلال .ويرى آخرون
أن المقصود به ما يشمل الحلال والحرام ، أى : ولم يمسسنى بشر كائناً من كان

لا بنكاح ولا بزنى ، ويكون قوله : ( وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً ) من باب التخصيص
بعد التعميم ، ويؤيد هذا الرأى قوله - تعالى - : ( قَالَتْ رَبِّ أنى
يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ الله
يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قضى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ
فَيَكُونُ ) ويؤيده أيضاً أن لفظ ( بَشَرٌ ) نكرة فى سياق النفى فيعم كل
بشر سواء أكان زوجاً أم غير زوج .قال القرطبى : قوله : ( وَلَمْ أَكُ
بَغِيّاً ) أى : زانية . وذكرت هذا تأكيداً لأن قولها ( وَلَمْ يَمْسَسْنِي
بَشَرٌ ) يشمل الحلا والحرام . . .وقال الجمل فى حاشيته ما ملخصه : وإنما
تعجبت مما بشرها به جبريل لأنها عرفت بالعادة أن الولادة لا تكون إلا بعد
- الاتصال برجل . فليس فى قولها هذا دلالة على أنها لم تعلم أنه - تعالى
- قادر على خلق الولد ابتداء . كيف وقد عرفت أن أبا البشر قد خلقه الله
. " . . . تعالى - من غير اب أو أم

قال كذلك قال ربك هو علي هين ولنجعله اية للناس ورحمة منا وكان امرا مقضيا

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( قَالَ كذلك قَالَ رَبُّكَ هُوَ
عَلَيّ هَيِّنٌ . . . ) رد من جبريل عليها .أى : قال الأمر كذلك أى : كما
ذكرت من أن بشراً لم يمسسك ومن أنك لم تكونى فى يوم من الأيام بغيا . أو
الأمر كذلك من أنى أرسلنى ربك لأهب لك غلاماً زكيا من غير أن يكون له أب
وقوله ( قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيّ هَيِّنٌ ) بيان لمظهر من مظاهر قدرة.
الله - تعالى - التى لا يعجزها شىء ، أى : ( قَالَ رَبُّكَ هُوَ ) أى : خلق
ولدك من غير أب ( عَلَيّ هَيِّنٌ ) أى : سهل يسير لأن قدرتنا لا يعجزها
شىء .وقوله - سبحانه - ( وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلْنَّاسِ ) تعليل لمعلل
، محذوف ، أى : ولنجعل وجود الغلام منك من غير أن يمسك بشر ( آيَةً ) عظيمة
وأمراً عجيباً يدل دلالة واضحة على قدرتنا ، أمام الناس جميعاً ، فإن
قدرتنا لا يعجزها ذلك ، كما لا يعجزها أن توجد بشراً من غير أب وأم كما
فعلنا مع آدم . أو من غير أم كما فعلنا مع حواء ، أو من اب وأم كما فعلنا
: مع سائر البشر .وقوله : (وَرَحْمَةً مِّنَّا ) معطوف على ما قبله ، أى
، ولنجعل هذا الغلام الذى وهبناه لك من غير أب رحمة عظيمة منا لمن آمن به
واتبع دعوته .(وَكَانَ ) وجود هذا الغلام منك على هذه الكيفية ( أَمْراً
مّقْضِيّاً ) أى : مقدراً فى الأزل مسطوراً فى اللوح المحفوظ ، ولا بد من
وقوعه بدون تغيير أو تبديل .وبذلك تكون هذه الآيات الكريمة ، قد حكت لنا
- جانباً من حالة مريم ومن الحوار الذى جرى بينها وبين جبريل - عليه السلام
الذى تمثل لها فى صورة بشر سوى .ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن
، مشهد آخر من مشاهد تلك القصة العجيبة ، حكت فيها حالتها عند حملها بعيسى
. وعندما جاءها المخاض . فقال - تعالى - : ( فَحَمَلَتْهُ فانتبذت . . . )

فحملته فانتبذت به مكانا قصيا

كما فسرها الوسيط قال ابن كثير رحمه الله : يقول - تعالى - مخبراً عن مريم
أنها لما قال لها جبريل عن الله - تعالى - ما قال : أنها استسلمت ،
- لقضائه - تعالى - ، فذكر غير واحد من علماء السلف ، أن املك وهو جبريل
عليه السلام - عند ذلك نفخ فى جيب درعها ، فنزلت النفخة حتى ولجت فى الفرج
فحملت بالولد بإذن الله - تعالى - . . .والمشهور عن الجمهور أنها حملت به ،
تسعة أشهر . قال عكرمة : ثمانية أشهر . وعن ابن عباس أنه قال : لم يكن إلا
) : - أن حملت فوضعت ، وهذا غريب ، وكأنه مأخوذ من ظاهر قوله - تعالى
فَحَمَلَتْهُ فانتبذت بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً فَأَجَآءَهَا المخاض إلى
جِذْعِ النخلة ) . فالفاء وإن كانت للتعقيب ، لكن تعقيب كل شىء بحسبه
فالمشهور الظاهر - والله على كل شىء قدير - أنها حملت به كما تحمل النساء.
بأولادهن . . . " .والفاء فى قوله - تعالى - : ( فَحَمَلَتْهُ . . ) هى
الفصيحة؛ أى : وبعد أن قال جبريل لمريم إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً
زكيا . . . نفخ فيها فحملته ، أى : عيسى ، فانتبذت به ، أى : فتنحت به وهو
فى بطنها ( مَكَاناً قَصِيّاً ) أى : إلى مكان بعيد عن المكان الذى يسكنه
أهلها .يقال : قَصِى فلان عن فلان قَصْواً وقُصُوّا ، إذا بعد عنه . ويقال
، فلان بمكان قصى ، أى : بعيد .وجمهور العلماء علىأن هذا المكان القصى :
، كان بيت لحم بفلسطين .قال ابن عباس : أقصى الوادى ، وهو وادى بيت لحم
. " فراراً من قومها أن يعيروها بولادتها من غير زوج

فاجاءها المخاض الى جذع النخلة قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - ما اعتراها من حزن عندما أحست بقرب
الولادة فقال : ( فَأَجَآءَهَا المخاض إلى جِذْعِ النخلة قَالَتْ ياليتني
مِتُّ قَبْلَ هذا وَكُنتُ نَسْياً مّنسِيّاً ) .وقوله : ( فَأَجَآءَهَا )
. أى : فألجأها ، يقال : أجأته إلى كذا ، بمعنى : ألجأته واضطرته إليه

ويقال : جاء فلان . وأجاءه غيره ، إذا حمله على المجىء ، ومنه قول الشاعر
" : وجارٍ سارَ معتمداً علينا ... أجاءته المخافة والرجاء قال صاحب الكشاف:
أجاء : منقول من جاء ، إلا أن استعماله قد تغير بعد النقل إلى معنى الإلجاء
. ألا تراك تقول : جئت المكان وأجاءنيه زيد ، كما تقول : بلغته وأبلغنيه .
- والمخاض : وجع الولادة . يقال : مخضت المرأة - بكسر الخاء - تمخض. " .
بفتحها - إذا دنا وقت ولادتها مأخوذ من المخض ، وهو الحركة الشديدة ، وسمى
بذلك لشدة تحرك الجنين فى بطن الأم عند قرب خروجه .وجذع النخلة : ساقها
الذى تقوم عليه .أى : وبعد أن حملت مريم بعيسى ، وابتعدت به - وهو محمول فى
بطنها - عن قومها ، وحان وقت ولادتها . ألجأها المخاض إلى جذع النخلة
لتتكىء عليه عند الولادة . . .فاعتراها فى تلك الساعة ما اعتراها من هم
) وحزن وقالت : ( ياليتني مِتُّ قَبْلَ هذا ) الحمل والمخاض الذى حل بى
وَكُنتُ نَسْياً مّنسِيّاً ) أى : وكنت شيئاً منسياً متروكاً ، لا يهتم به
" : أحد ، وكل شىء نُسى وترك ولم يطلب فهو نَسْىٌ ونَسِيٌّ .قال القرطبى
والنِّسْىُ فى كلام العرب : الشىء الحقير الذى من شأنه أن ينسى ولا يتألم
لفقده كالوتد ، والحبل للمسافر ، وقرىء : ( نَسْياً ) بكسر النون وهما
لغتان مثل : الوِتر والوَتر . . . " .قال الآلوسى ما ملخصه : " وإنما قالت
ذلك مع أنها كانت تعلم ما جرى بينها وبين جبريل من الوعد الكريم ، استحياء
من الناس ، وخوفاً من لائمتهم ، أو حذرا من وقوع الناس فى المعصية بسبب
كلامهم فى شأنها .وتمنى الموت لمثل ذلك لا كراهة فيه - لأنه يتعلق بأمر
دينى - نعم يكره أن يتمنى المرء الموت لأمر دنيوى كمرض أو فقر . . . ففى
صحيح مسلم ، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : "لا يتمنين أحدكم
الموت لضرر نزل به ، فإن كان لا بد متمنياً فليقل : الله أحينى ما كانت
الحياة خيراً لى ، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى " .ومن ظن أن تمنى مريم
. الموت كان لشدة الوجع فقد اساء الظن

فناداها من تحتها الا تحزني قد جعل ربك تحتك سريا

كما فسرها الوسيط ثم ذكر - سبحانه - جابناً من إكرامه لمريم فى تلك الساعات
العصيبة من حياتها فقال : ( فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَآ أَلاّ تَحْزَنِي
قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً وهزِي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النخلة
. . تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً فَكُلِي واشربي وَقَرِّي عَيْناً
والذى ناداها يرى بعضهم أنه جبريل - عليه السلام - . وقوله ( مِن. (
تَحْتِهَآ ) فيه قراءتان سبعيتان : إحداهما : بكسر الميم فى لفظ ( مِن )
على أنه حرف جر ، وخفض تاء ( تَحْتِهَآ ) على أنه مجرور بحرف الجر والفاعل
محذوف أى : فناداها جبريل من مكان تحتها ، أى أسفل منها . . .والثانية بفتح
فى لفظ ( مَن ) على أنه اسم موصول ، فاعل نادى وبفتح التاء فى ( تَحْتَهَآ
- على الظرفية ، أى : فنادها الذى هو تحتها ، وهو جبريل - عليه السلام (
قال القرطبى : قوله - تعالى - ( فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَآ ) .قال ابن.
. . عباس : المراد بمن تحتها جبريل ، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها
- ففى هذا لها آية وأمارة أن هذا من الأمور الخارقة للعادة ، التى الله
تعالى - فيها مراد عظيم " .ويرى بعض المفسرين أن المنادى هو عيسى - عليه
السلام - فيكون المعنى : فناداها ابنها عيسى الذى كان عندما وضعته موجوداً
تحتها .وقد رجح الإمام ابن جرير هذا الرأى فقال : " وأولى القولين فى ذلك
عندنا قول من قال : الذى ناداها ابنها عيسى ، وذلك أنه من كناية - أى
ضمير - ذكره أقرب منه من ذكر جبريل ، فرده على الذى هو أقرب إليه أولى من
) - رده على الذى هو أبعد منه ، ألا ترى أنه فى سياق قوله - تعالى
فَحَمَلَتْهُ فانتبذت بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً ...) ثم قيل : فناداها نسقا
على ذلك ، ولعلة أخرى وهى قوله : ( فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ . . ) ولم تشر
إليه - إن شاء الله - إلا وقد علمت أنه ناطق فى حاله تلك . . . " .ويبدو
لنا أن ما ذهب إليه ابن جرير من كون الذى نادى مريم هو ابنها عيسى ، أقرب
إلى الصواب ، لأن هذا النداء منه لها فى تلك الساعة ، فيه ما فيه من إدخال
الطمأنينة والسكينة على قلبها .أى : فناداها ابنها عيسى الذى كان أسفل منها
عندما وضعته . مطمئناً إياها بعد أن قالت : يا ليتنى مت قبل هذا الذى حدث
لى . . . ناداها بقوله : ( ألاّ تَحْزَنِي ) يا أماه ( قَدْ جَعَلَ
رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً ) أى جدولاً صغيراً من الماء ، لتأخذى منه ما
أنت فى حاجة إليه ، وسمى النهر الصغير من الماء سريا ، لأن الماء يسرى فيه
وقيل : المراد بالسرى : عيسى - عليه السلام - مأخوذ من السَّرْو بمعنى.
الرفعة والشرف .يقال : سَرُوَ الرجل يسرو - كشرف يشرف - فهو سَرِىّ ، إذا
... علا قدره وعظم أمره ومنه قول الشاعر لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم
ولا سراة إلا جهالهم سادوا أى : قد جعل ربك تحتك يا مريم إنسانا رفيع القدر
وهو ابنك عيسى ، والجلمة الكريمة تعليل لانتفاء الحزن المفهوم من النهى ،
بقوله : ( ألاّ تَحْزَنِي ) قال بعض العلماء ما ملخصه : " وأظهر القولين
، عندى أن السرى فى الآية النهر الصغير لأمرين :أحدهما : القرينة من القرآن
لأن قوله بعد ذلك ( فَكُلِي واشربي ) قرينة على أن ذلك المأكول والمشروب هو

ما تقدم الامتنان به فى قوله : ( قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً )
الثانى : ما جاء عن ابن عمر من أنه سمع النبى - صلى الله عليه وسلم - يقول.
إن السرى الذى قال الله لمريم : ( قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ " :
سَرِيّاً ) نهر أخرجه الله لها لتشرب منه " .فهذا الحديث - وإن كانت طرقه
لا يخلو شىء منها من ضعف - أقرب إلى الصواب من دعوى أن السرى عيسى بغير
. " دليل يجب الرجوع إليه

وهزي اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا

. كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وهزى إِلَيْكِ بِجِذْعِ النخلة )
معطوف على ما قاله عيسى لأمه مريم . والباء فى قوله ( بِجِذْعِ ) مزيدة
للتوكيد ، لأن فعل الهز يتعدى بنفسه .أي : وحركى نحوك أو جهة اليمين أو
الشمال جذع النخلة ( تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً ) وهو ما نضج واستوى من
الثمر ( جَنِيّاً ) أى : صالحاً للأخذ والاجتناء ( فَكُلِي ) من ذلك الرطب
من ذلك السرى ، (وَقَرِّي عَيْناً ) أى : طيبى نفسا بوجودى ( واشربي )
تحتك ، واطردى عنك الأحزان .يقال : قرت عين فلان ، إذا رأت ما كانت متشوقة
إلى رؤيته . مأخوذ من القرار بمعنى الاستقرار والسكون ، لأن العين إذا رأت
ما تحبه سكنت إليه ، ولم تنظر إلى غيره .وقد أخذ العلماء من هذه الآية
الكريمة ، أن مباشرة الأسباب فى طلب الرزق أمر واجب وأن ذلك لا ينافى
التوكل على الله ، لأن المؤمن يتعاطى الأسباب امتثالاً لأمر ربه مع علمه
ويقينه أنه لا يقع فى ملكه - سبحانه - إلا ما يشاؤه ويريده .وهنا قد أمر
الله - تعالى - مريم - على لسان مولودها - بأن تهز النخلة ليتساقط لها
، الرطب ، مع قدرته - سبحانه - على إنزال الرطب إليها من غير هز أو تحريك
ورحم الله القائل :ألم تر أن الله قال لمريم ... وهزى إليك الجذع يساقط
الرطبولو شاء أن تجنيه من غير هزه ... جنته ، ولكن كل شىء له سببكما أخذوا
منها أن خير ما تأكله المرأة بعد ولادتها الرطب ، قالوا : لأنه لو كان شىء
. أحسن للنفساء من الرطب لأطعمه الله - تعالى لمريم

فكلي واشربي وقري عينا فاما ترين من البشر احدا فقولي اني نذرت للرحمن صوما
فلن اكلم اليوم انسيا

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ البشر
أَحَداً فقولي إِنِّي نَذَرْتُ للرحمن صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ اليوم
إِنسِيّاً ) حكاية منه - تعالى - لبقية كلام عيسى لأمه .ولفظ ( إِمَّا )
مركب من ( إن ) الشرطية ، و ( ما ) المزيدة لتوكيد الشرط و ( تَرَيِنَّ )
فعل الشرط ، وجوابه ( فقولي ) وبين هذا الجواب وشرطه كلام محذوف يرشد إليه
السياق .والمعنى : أن عيسى - عليه السلام - قال لأمه :لا تحزنى يا أماه
بسبب وجودى بدون أب ، وقرى عينا ، وطيبى نفسا لذلك ، فإما ترين من البشر
أحداً كائناً من كان فسألك عن أمرى وشأنى فقولى له( إِنِّي نَذَرْتُ
للرحمن صَوْماً ) أى : صمتا عن الكلام ( فَلَنْ أُكَلِّمَ اليوم إِنسِيّاً
لا فى شأن هذا المولود ولا فى شأن غيره ، وإنما سأترك الكلام لابنى ليشرح (
لكم حقيقة أمره .قالوا : إنما منعت من الكلام لأمرين : أحدهما : ان يكون
عيسى هو المتكلم عنها ليكون أقوى لحجتها فى إزالة التهمة عنها ، وفى هذا
، دلالة على تفويض الكلام إلى الأفضل .والثانى : " كراهة مجادلة السفهاء
" وفيه أن السكوت عن السفيه واجب ، ومن أذل الناس سفيه لم يجد مسافها
وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد حكت لنا بأسلوبها البليغ الحكيم ما.
فعلته مريم عندما شعرت بالحمل وما قالته عندما أحست بقرب الولادة ، وما
. قاله لها مولودها عيسى من كلام جميل طيب ، لإدخال الطمأنينة على قلبها

فاتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا

كما فسرها الوسيط ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن مشهد آخر من
مشاهد تلك القصة العجيبة؛ مشهد مريم عندما جاءت بوليدها إلى قومها ، وما
قالوه لها ، وما قاله وليدها لهم . .استمع إلى القرآن الكريم وهو يحكى ذلك
فيقول : ( فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا . . . ) .وقوله - سبحانه - : ( فَأَتَتْ
بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ . . . ) معطوف على كلام محذوف يفهم من سياق
القصة .والتقدير : وبعد أن استمعت مريم إلى ما قاله ابنها عيسى - عليه
السلام - اطمأنت نفسها ، وقرت عينها ، فأتت به أى بمولودها عيسى إلى قومها
وهى تحمله معها من المكان القصى الذى اعتزلت فيه قومها .قال الآلوسى : أى .
) جاءتهم مع ولدها حاملة إياه ، على أن الباء للمصاحبة ، وجملة :
تَحْمِلُهُ ) فى موضع الحال من ضمير مريم . . . وكان هذا المجىء على ما
أخرج سعيد بن منصور ، وابن عساكر عن ابن عباس بعد أربعين يوما حين طهرت من
" . . نفاسها . . .وظاهر الآية والأخبار " أنها جاءتهم به من غير طلب منهم
) : ثم حكى - سبحانه - ما قاله قومها عندما رأوها ومعها وليدها فقال.

يامريم لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً ) .أى : قالوا لها على سبيل الإنكار
يا مريم لقد جئت أى فعلت شيئاً منكراً عجيباً فى بابه ، حيث أتيت بولد من
غير زوج نعرفه لك .والفَرِى : مأخوذ من فريت الجلد إذا قطعته ، أى : شيئاً
قاطعاً وخارقاً للعادة ، ومرادهم : أنها أتت بولدها عن طريق غير شرعى ، كما
قال - تعالى - فى آية أخرى : ( وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ على مَرْيَمَ
بُهْتَاناً عَظِيماً ) ويدل على أن مرادهم هذا ، قولهم بعد ذلك : ( ياأخت
هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امرأ سَوْءٍ ) .

يا اخت هارون ما كان ابوك امرا سوء وما كانت امك بغيا

كما فسرها الوسيط ( ياأخت هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امرأ سَوْءٍ )أى : ما
كان أبوك رجلاً زانياً أو معروفاً بالفحش ( وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً
أى : تتعاطى الزنا . يقال : بغت المرأة ، إذا فجرت وابتعدت عن طريق الطهر (
والعفاف .وليس المراد بهارون : هارون بن عمران أخا موسى ، وإنما المراد به
رجل من قومها معروف بالصلاح والتقوى ، فشبهت به ، أى : يا أخت هارون فى
الصلاح والتقوى .أو المراد به أخ لها كان يسمى بهذا الاسم .قال الآلوسى ما
ملخصه : " وقوله : ( ياأخت هَارُونَ ) استئناف لتجديد التعيير ، وتأكيد
التوبيخ ، وليس المراد بهارون أخا موسى بن عمران - عليهما السلام - لما
أخرج أحمد ، ومسلم ، والترمذى ، والنسائى ، والطبرانى ، وابن حبان ، وغيرهم
عن المغيرة بن شعبة قال : بعثنى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى أهل
نجران فقالوا : أرأيت ما تقرأون : ( ياأخت هَارُونَ ) وموسى قبل عيسى بكذا
وكذا . قال : فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : "
ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم " .وعن قتادة قال
هو رجل صالح فى بنى إسرائيل ، والأخت على هذا بمعنى المشابهة ، وشبهوها " :
به تهكماً ، أو لما رأوا قبل من صلاحها . . " .وعلى أية حال فإن مرادهم
بقولهم هذا ، هو اتهام مريم بما هى بريئة منه ، والتعجب من حالها ، حيث
انحدرت من أصول صالحة طاهرة ، ومع ذلك لم تنهج نهجهم .

فاشارت اليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا

كما فسرها الوسيط وهنا نجد مريم تبدأ فى الدفاع عن نفسها ، عن طريق وليدها
أى : فأشارت إلى ابنها عيسى ، ولسان حالها يقول. ( فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ )
لهم : وجهوا كلامكم إليه فإنه سيخبركم بحقيقة الأمر .ولكنهم لم يقتنعوا
بإشارتها بل قالوا لها : ( كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي المهد صَبِيّاً
والمهد : اسم للمضطجع الذى يهيأ للصبى فى رضاعه . وهو فى الأصل مصدر. (
مهده يمهده إذا بسطه وسواه .أى : كيف نكلم طفلاً صغيراً ما زال فى مهده وفى
حال رضاعه .والفعل الماضى وهو ( كَانَ ) ها هنا بمعنى الفعل المضارع
المقترن بالحال ، كما يدل عليه سياق القصة .

قال اني عبد الله اتاني الكتاب وجعلني نبيا

كما فسرها الوسيط ولكن عيسى - عليه السلام - أنطقه الله - تعالى - بما يدل
على صدق مريم وطهارتها فقال : ( قَالَ إِنِّي عَبْدُ الله . . ) أى : قال
عيسى فى رده على المنكرين على أمه إتيانها به : إنى عبد الله ، خلقنى
بقدرته ، فأنا عبده وأنتم - أيضاً - عبيده ، وهذا الخالق العظيم ( آتَانِيَ
الكتاب ) أى : سبق فى قضائه إيتائى الكتاب أى : الإنجيل أو التوراة أو
مجموعهما .وعبر فى هذه الجملة وفيما بعدها بالفعل الماضى عما سيقع فى
المستقبل ، تنزيلاً لتحقق الوقوع منزلة الوقوع الفعلى .وهذا التعبير له
نظائر كثيرة فى القرآن الكريم ، منها قوله - تعالى - : ( أتى أَمْرُ الله
فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ ) وقوله - سبحانه - ( وَنُفِخَ فِي الصور فَصَعِقَ
مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض إِلاَّ مَن شَآءَ الله ثُمَّ نُفِخَ
فِيهِ أخرى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ) وقوله : ( وَجَعَلَنِي
نَبِيّاً ) أدعو الناس إلى عبادته وحده .

وجعلني مباركا اين ما كنت واوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا

كما فسرها الوسيط ( وَجَعَلَنِي ) أيضاً بجانب نبوتى ( مُبَارَكاً ) أى :
كثير الخير والبركة ( أَيْنَ مَا كُنتُ ) أى : حينما حللت جعلنى مباركاً ،
فأينما شرطية وجوابها محذوف لدلالة ما قبله عليه ( وَأَوْصَانِي بالصلاة
والزكاة ) أى : بالمحافظة على أدائهما ( مَا دُمْتُ حَيّاً ) فى هذه الدنيا
.

وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا

كما فسرها الوسيط وقوله : ( وَبَرّاً بِوَالِدَتِي ) ، أى : وجعلنى كذلك
مطيعاً والدتى ، وبارا بها ، ومحسنا إليها ، ( وَلَمْ يَجْعَلْنِي )
سبحانه - فضلاً منه وكرماً ( جَبّاراً شَقِيّاً ) أى : ولم يجعلنى مغرروا
متكبراً مرتكباً للمعاصى والموبقات .

والسلام علي يوم ولدت ويوم اموت ويوم ابعث حيا

كما فسرها الوسيط ( والسلام ) والأمان منه - تعالى - ( عَلَيّ يَوْمَ
وُلِدْتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ ) مفارقا هذه الدنيا ( وَيَوْمَ أُبْعَثُ
حَيّاً ) للحساب والجزاء يوم القيامة .فأنت ترى أن عيسى - عليه السلام - قد
وصف نفسه بمجموعة من الصفات الفاضلة ، افتتحها بصفة العبودية لله رب
العالمين ، لإرشاد الناس إلى تلك الحقيقة التى لا حق سواها . ولتحذير
أعدائه من وصفه بأنه هو الله ، أو هو ابن الله ، أو هو مشارك له فى العبادة
. واختتمها برجاء الأمان له من الله - تعالى - فى كل أطوار حياته. . .

ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - هذه القصة ببيان وجه الحق فيها ، وأنذر
: - الذين وصفوا عيسى وأمه بما هما بريئان منه بسوء المصير . فقال - تعالى
اسم الإشارة ( ذلك ) فى قوله : ( ذلك عِيسَى ابن. ( . . . ذلك عِيسَى )
مَرْيَمَ ) إشارة إلى ما ذكره الله - تعالى - قبل ذلك لعيسى من صفات حميدة
) : ومن أخبار صادقة وهو مبتدأ ، وعيسى خبره ، وابن مريم صفته .ولفظ ،
قَوْلَ ) فيه قراءتان سبعيتان إحداهما قراءة الجمهور بضم اللام ، والثانية
قراءة ابن عامر وعاصم ، بفتحها .وعلى القراءة بالرفع يكون ( قَوْلُ الحق )
خبر لمبتدأ محذوف . فيكون المعنى : ذلك الذى أخبرناك عنه بشأن عيسى وأمه هو
. قول الحق - عز وجل - وهو قول لا يحوم حوله باطل ، ولا يخالطه ريب أو شك
فلفظ ( الحق ) يصح أن يراد به الله - سبحانه - لأنه من أسمائه ، ويصح أن
) يراد به ما هو ضد الباطل ، وهو الصدق والثبوت .وعلى قراءة النصب يكون لفظ
قَوْلَ ) مصدراً مؤكداً لمضمون الجملة ، أى : ذلك الذى قصصناه عليك - أيها
الرسول الكريم - من شأن عيسى ابن مريم ، هو القول الثابت الصادق . الذى
أقول فيه قول الحق .والإضافة من باب إضافة الموصوف إلى صفته أى : القول
الحق ، كقوله - تعالى - ( وَعْدَ الصدق ) أى : الوعد الصدق .وقوله : ( الذي
فِيهِ يَمْتَرُونَ ) بيان لموقف الكافرين من هذا القول الحق الذى ذكره
) الله - تعالى - عن عيسى وأمه . و ( الذي ) صفة للقول . أو للحق . و
يَمْتَرُونَ ) يشكون من المرية بمعنى الشك والجدل . . .أى : ذلك الذى
ذكرناه لك من خبر عيسى هو القول الحق ، الذى شك فى صدقه الكافرون ، وتنازع
. فيه الضالون ، فلا تلتفت إلى شكهم وكفرهم بل ذرهم فى طغيانهم يعمهون

ما كان لله ان يتخذ من ولد سبحانه اذا قضى امرا فانما يقول له كن فيكون

كما فسرها الوسيط ثم نزه - سبحانه - ذاته عن أن يكون له ولد فقال : ( مَا
كَانَ لِلّهِ أن يَتّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ . . ) أى : ما يصح
، وما يستقيم وما يتصور فى حقه - تعالى - أن يتخذ ولداً ، لأنه منزه عن ذلك
- لأن الولد إنما يتخذه الفانون للامتداد ، ويتخذه الضعفاء للنصرة ، والله
) تعالى - هو الباقى بقاء أبديا ، وهو القوى القادر الذى لا يعجزه شىء .و
مِن ) فى قوله ( مِن وَلَدٍ ) لتأكيد هذا النفى وتعميمه .وفى معنى هذه
الآيات جاءت آيات كثيرة منها قوله - تعالى - فى هذه السورة : ( وَقَالُواْ
اتخذ الرحمن وَلَداً لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً تَكَادُ السماوات
يَتَفَطّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأرض وَتَخِرُّ الجبال هَدّاً أن
دَعَوْا للرحمن وَلَداً وَمَا يَنبَغِي للرحمن أن يَتّخِذَ وَلَداً ) ثم
) : بين - سبحانه - ما يدل على غناه عن الولد والوالد والصاحب والشريك فقال
إِذَا قضى أَمْراً فَإِنّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ) أى :لا يتصور
: فى حقه - سبحانه - اتخاذ الولد ، لأنه إذا أراد قضاء أمر ، فإنما يقول له
. كن ، فيكون فى الحال ، بدون تأخير أو تردد

وان الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( وَإِنّ الله رَبّي وَرَبّكُمْ
فاعبدوه . . . ) قرأه ابن عامر والكوفيون بكسر همزة ( إِنَّ ) على
الاستئناف ، أى : وإن عيسى - عليه السلام - قد قال لقومه - أيضا - وإن
الله - تعالى - هو ربى وهو ربكم فأخلصوا له العبادة والطاعة ، وهذا الذى
) أمرتكم به هو الصراط المستقيم الذى لا يضل سالكه .وقرأ الباقون بفتح همزة
أَنّ ) بتقدير حذف حرف الجر أى : وقال عيسى لقومه : ولأن الله ربى وربكم
فاعبدوه . . . كما فى قوله - تعالى - : ( وَأَنّ المساجد لِلّهِ فَلاَ

. . . تَدْعُواْ مَعَ الله أَحَداً ) أى : ولأن المساجد لله

فاختلف الاحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - موقف أهل الكتاب من عيسى - عليه السلام - فقال : ( فاختلف الأحزاب مِن بَيْنِهِمْ فَوْيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ) .والأحزاب جمع حزب والمراد بهم فرق اليهود والنصارى الذين اختلفوا فى شأنه - عليه السلام - فمنهم من اتهم أمه بما هى بريئة منه ، وهم اليهود كما فى قوله : ( وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ على مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً ) ومنهم من قال هو ابن الله أو هو الله ، أو إله مع الله ، أو هو ثالث ثلاثة . . . إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة التى حكاها القرآن عن الضالين وهم النصارى .ولفظ ( وَيْلٌ مصدر لا فعل له من لفظه ، وهو كلمة عذاب ووعيد .و ( مّشْهَدِ ) يصح أن يكون مصدراً ميما بمعنى الشهود والحضور .والمعنى : هكذا قال عيسى - عليه السلام - لقومه : ( اعبدوا الله رَبِّي وَرَبّكُمْ ) ولكن الفرق الضالة من اليهود والنصارى اختلفوا فيما بينهم فى شأنه اختلافاً كبيراً ، وضلوا ضلالا بعيداً ، حيث وصفوه بما هو برىء منه ، فويل لهؤلاء الكافرين من شهود ذلك اليوم العظيم وهو يوم القيامة ، حيث سيلقون عذاباً شديداً من الله بسبب ما نطقوا به من زور وبهتان .وعبر عنهم بالموصول فى قوله ( لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ) إيذاناً بكفرهم جميعاً ، وإشعاراً بعلة الحكم .قال أبو حيان : ( مِن بَيْنِهِمْ ) أى الاختلاف لم يخرج عنهم ، بل كانوا هم " ومعنى : المختلفين دون غيرهم " .وجاء التعبير فى قوله ( مِن مّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ) بالتنكير ، للتهويل من شأن هذا المشهد ، ومن شأن هذا اليوم وهو يوم القيامة ، الذى يشهده الثقلان وغيرهما من مخلوقات الله - تعالى - .

اسمع بهم وابصر يوم ياتوننا لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ) تهكم بهم ، وتوعد لهم بالعذاب الشديد ، فهو تأكيد لما قبله ، و ( أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ ) صيغتا تعجب ، لفظهما لفظ الأمر. ومعناهما التعجيب ، أى حمل المخاطب على التعجيب ، وفاعلهما الضمير المجرور بالباء ، وهى زائدة فيهما لزوما ، والمعنى : ما أسمع هؤلاء الكافرين وما أبصرهم فى ذلك اليوم ، لما يخلع قلوبهم ، ويسود وجوههم ، مع أنهم كانوا فى الدنيا صماً وعمياناً عن الحق الذ جاءتهم به رسلهم .فالمراد باليوم فى قوله ( لكن الظالمون اليوم فِي ضَلَالٍ مّبِينٍ ) هو ما كانوا فيه فى الدنيا من ضلال وغفلة عن الحق .أى : أن هؤلاء القوم ما أعجب حالهم إنهم لا يسمعون ولا يبصرون فى الدنيا حين يكون السمع والبصر وسيلة للهدى والنجاة . وهم أسمع ما يكون السمع وأبصر ما يكون البصر ، عندما يكون السمع والبصر وسيلة للخزى والعذاب فى الآخرة .

وانذرهم يوم الحسرة اذ قضي الامر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون

- كما فسرها الوسيط تم أمر الله - تعالى - نبيه محمدا - صلى الله عليه وسلم - بأن يخوف المشركين من أهوال يوم القيامة ، فقال : ( وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الحسرة إِذْ قُضِيَ الأمر وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ) والإنذار : الإعلام بالمخوف منه على وجه الترهيب والتحذير ، وأشد ما يخوف به يوم القيامة .والحسرة : أشد الندم على الأمر الذى فات وانقضى ولا يمكن تداركه .أى : وأنذر - أيها الرسول الكريم - المشركين ، وخوفهم من أهوال يوم القيامة ، يوم يتحسر الظالمون على تفريطهم فى طاعة الله ، ولكن هذا التحسر لن ينفعهم ، لأن حكم الله قد نفذ فيهم وقضى الأمر بنجاة المؤمنين ، وبعذاب الفاسقين ، وذهب أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار .وقوله : ( وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ) حال من الضمير المنصوب فى ( أَنْذِرْهُمْ ) .أى : أنذرهم لأنهم فى حالة يحتاجون فيها إلى الإنذار وهى الغفلة وعدم الإيمان .هذا ، وقد جاء فى الحديث الصحيح ما يدل على أن المراد بقوله - تعالى - ( إِذْ قُضِيَ الأمر ) .أى : ذبح الموت . فقد روى البخارى عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح فينادى مناد : يا أهل الجنة فيشرئبون وينظرون ، فيقول : هل تعرفون هذا؟ فيقولون نعم . هذا الموت وكلهم قد رآه . ثم ينادى يا أهل النار ، فيشرئبون وينظرون فيقول : هل تعرفون هذا؟ فيقولون نعم . هذا الموت وكلهم قد رآه . فيذبح . ثم يقول : يا أهل الجنة خلود بلا موت ، ويا أهل النار خلود بلا موت . ثم قرأ - صلى الله عليه وسلم - ( وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الحسرة إِذْ قُضِيَ الأمر وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ) " .

انا نحن نرث الارض ومن عليها والينا يرجعون

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - ما يدل على كمال قدرته ، وشمول ملكه
فقال : ( إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرضَ وَمَنْ عَلَيْهَا . . . ) أى : إنا
نحن وحدنا الذين نميت جميع الخلائق الساكنين بالأرض ، فلا يبقى لأحد غيرنا
) من سلطان عليهم أو عليها ، وهؤلاء الخلائق جميعاً ( وَإِلَيْنَا ) وحدنا
يُرْجَعُونَ ) يوم القيامة ، فنحاسبهم على أعمالهم .وشبيه بهذه الآية
قوله - تعالى - ( وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الوارثون )
وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد حدثتنا عن جانب من قصة زكريا ويحيى ، وعن
قصة مريم وعيسى ، حديثاً يهدى إلى الرشد ، ويزيد المؤمنين إيماناً على
. إيمانهم ، ويقذف بحقه على باطل المبطلين فيدمغه فإذا هو زاهق

واذكر في الكتاب ابراهيم انه كان صديقا نبيا

- كما فسرها الوسيط ثم أوردت السورة الكريمة القصة الثالثة وهى قصة إبراهيم
. عليه السلام - وما دار بينه وبين أبيه من حوار . قال - تعالى - : ( واذكر
، قال الإمام الرازى ما ملخصه : " اعلم أن الغرض من هذه السورة. ( . . .
بيان التوحيد والنبوة والحشر ، والمنكرون للتوحيد فريقان : فريق أثبت
معبوداً غير الله حيا عاقلاً وهم النصارى ومن على شاكلتهم ، وفريق أثبت
معبودا من الجماد ليس بحى ولا عاقل ، وهم عبدة الأوثان . والفريقان وإن
- اشتركا فى الضلال إلا أن ضلال الفريق الثانى أعظم . ولما بين - سبحانه
ضلال الفريق الأول - وهم النصارى - ، أتبعه بذكر الفريق الثانى ، وهم عبدة
الأوثان قوم إبراهيم - عليه السلام - " .وإبراهيم - عليه السلام - هو من
أولى العزم من الرسل ، وهو الذى جعل الله فى ذريته النبوة والكتاب ، وهو
: - الذى وصفه الله - تعالى - بجملة من الصفات الكريمة ، منها قوله - تعالى
أى : واذكر - أيها ( إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ )
، - الرسول الكريم - للناس فى هذا القرآن قصة أبيهم إبراهيم - عليه السلام
لكى يعتبروا ويتعظوا ويقتدوا بهذا النبى الكريم فى قوة إيمانه ، وصفاء
يقينه وجميل أخلاقه .وقوله : ( إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً )
استئناف مسوق لتعليل موجب الأمر فى قوله : ( واذكر ) .والصديق : صيغة
مبالغة من الصدق ، أى : إنه كان ملازماً للصدق فى كل أقواله وأفعاله
وأحواله ، كما كان نبياً من أولى العزم ، الذين فضلهم الله على غيرهم من
. الرسل الكرام

اذ قال لابيه يا ابت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا

: كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - مظاهر صدقه وإخلاصه لدعوة الحق فقال
إِذْ قَالَ لأَبِيهِ ياأبت لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ )
) يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً ) .والظرف ( إِذْ ) بدل اشتمال من
إِبْرَاهِيمَ ) وجملة ( إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً ) معترضة بين
البدل والمبدل منه لتعظيم شأنه - عليه السلام - .والتاء فى قوله ( ياأبت )
عوض عن ياء المتكلم ، إذ الأصل يا أبى ، وناداه بهذا الوصف دون أن يذكر
اسمه : زيادة فى احترامه واستمالة قلبه للحق .أى : واذكر خبر إبراهيم وقت
أن قال لأبيه آزر مستعطفاً إياه : يا أبت لماذا تعبد شيئاً لا يسمع من
يناديه . ولا يبصر من يقف أمامه ، ولا يغنى عنك شيئاً من الإغناء ، لأنه لا
. يملك لنفسه - فضلاً عن غيره - نفعاً ولا ضراً

يا ابت اني قد جاءني من العلم ما لم ياتك فاتبعني اهدك صراطا سويا

كما فسرها الوسيط ثم دعاه إلى اتباع الحق بألطف أسلوب فقال : ( ياأبت
إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ العلم ) النافع الذى علمنى الله - تعالى - إياه
أنت ، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء ، ( فاتبعني ) ( مَا لَمْ يَأْتِكَ )
فيما أدعوك إليه ( أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً ) أى : أهدك إلى الطريق
. المستقيم الذى لا عوج فيه ولا اضطراب

يا ابت لا تعبد الشيطان ان الشيطان كان للرحمن عصيا

كما فسرها الوسيط ثم نهاه عن عبادة الشيطان ، لأنها جهل وانحطاط فى التفكير
فقال : ( ياأبت لاَ تَعْبُدِ الشيطان ) فإن عبادتك لهذه الاصنام هى عبادة
وطاعة للشيطان الذى هو عدو الإنسان .ثم علل له هذا النهى بقوله : ( إِنَّ
الشيطان كَانَ للرحمن عَصِيّاً ) أى : إن الشيطان الذى أغراك بعبادة هذه
الاصنام كان للرحمن عصيا ، أى : كثير العصيان ، لا يهدى الناس إلى طاعة
. الله ، وإنما يهديهم إلى مخالفته ومعصيته وموجبات غضبه

يا ابت اني اخاف ان يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا

: كما فسرها الوسيط ثم ختم هذا النداء بما يدل على حبه ، وشفقته عليه فقال
( ياأبت إني أَخَافُ أن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرحمن فَتَكُونَ
لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً ) .أى : يا أبت إنى أشفق عليك من أن ينزل بك عذاب
من الرحمن بسبب إصرارك على عبادة غيره ، وبذلك تصبح قريناً للشيطان فى
العذاب بالنار ، لأنك انقدت له ، وخالفت طريق الحق .بهذا الأسلوب الحكيم
- الهادىء الرقيق . . . خاطب إبراهيم أباه ، وهو يدعوه إلى عبادته - تعالى
وحده .ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال ما ملخصه : انظر كيف رتب إبراهيم
الكلام مع أبيه فى أحسن اتساق ، وساقه أرشق مساق ، مع استعماله المجاملة
- واللطف والرفق واليين والأدب الجميل والخلق الحسن .وذلك أنه طلب منه
. . . أولاً - العلة فى خطئه . طلب منبه على تماديه ، موقظ لإفراطه وتناهيه
حيث بعد ما ليس به حس ولا شعور .ثم ثنى بدعوته إلى الحق مترفقاً به متلطفاً
فلم يصف اباه بالجهل المفرط ، ولا نفسه بالعلم الفائق . ولكنه قال : إن ،
معى طائفة من العلم وشيئاً منه ليس معك . . . ثم ثلث بتثبيطه ونهيه عما كان
، عليه ، بتصويره بصورة يستنكرها كل عاقل . . . ثم ربع بتخويفه سوء العاقبة
وما يجره ما هم فيه من الوبال .ولم يخل ذلك من حسن الأدب ، حيث لم يصرح بأن
العقاب لا حق له ، وأن العذاب لاصق به ، وكلنه قال : ( إني أَخَافُ أن
يَمَسَّكَ . . . ) .وصدر كل نصيحة من النصائح الأربع بقوله : ( ياأبت )
. . . توسلا واستعطافاً

قال اراغب انت عن الهتي يا ابراهيم لئن لم تنته لارجمنك واهجرني مليا

كما فسرها الوسيط ولكن هذه النصيحة الحكيمة الغالية من إبراهيم لأبيه ، لم
تصادف أذناً واعية ولم تحظ من أبيه بالقبول بل قوبلت بالاستنكار والتهديد
فقد قال الب لكافر لابنه المؤمن : ( أَرَاغِبٌ أنتَ عَنْ آلِهَتِي
( ياإبراهيم لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ واهجرني مَلِيّاً
: والاستفهام فى قوله ( أَرَاغِبٌ ) للإنكار والتهديد والرغبة عن الشىء .
تركه عمداً زهدا فيه لعدم الحاجة إليه .ولفظ ( أَرَاغِبٌ ) مبتدأ ، ( أنتَ
فاعل سد مسد الخبر ، و ( مَلِيّاً ) أى : زمنا طويلا ، مأخوذ من الملاوة (
وهى الفترة الطويلة من الزمان ، ويقال الليل والنهار : الملوان .والمعنى ،
قال والد إبراهيم له على سبيل التهديد والوعيد ، أتارك أنت يا إبراهيم :
عبادة آلهتى ، وكاره لتقرب الناس إليها ، ومنفرهم منها لئن لم تنته عن هذا
المسلك ، ( لأَرْجُمَنَّكَ ) بالحجارة وبالكلام القبيح ( واهجرني مَلِيّاً
بأن تغرب عن وجهى زمنا طويلا لا أحب أن أراك فيه .وهكذا قابل الأب الكافر (
أدب ابنه المؤمن ، بالفظاظة والغلظة والتهديد والعناد والجهالة . . . شأن
. القلب الذى أفسده الكفر

قال سلام عليك ساستغفر لك ربي انه كان بي حفيا

كما فسرها الوسيط ولكن إبراهيم - عليه السلام - لم يقابل فظاظة أبيه
وتهديده بالغضب والضيق ، بل قابل ذلك بسعة الصدر .وجميل المنطق ، حيث قال
له : ( سَلاَمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ ربي إِنَّهُ كَانَ بِي
، حَفِيّاً ) .أى : لك منى - يا أبت - السلام الذى لا يخالطه جدال أو أذى
) والوداع الذى أقابل فيه إساءتك إلى بالإحسان إليك . وفضلاً عن ذلك فإنى
، سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ ربي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً ) أى : بارًّا بى
، كثير الإحسان إلى .يقال : فلان حفى بفلان حفاوة ، إذا بالغ فى إكرامه
واهتم بشأنه .وقد وفى إبارهيم بوعده ، حيث استمر على استغفاره لأبيه إلى أن
تبين له أنه عدو لله - تعالى - فتبرأ منه كما قال - تعالى - : ( وَمَا
كَانَ استغفار إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ
إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ
إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ).

واعتزلكم وما تدعون من دون الله وادعو ربي عسى الا اكون بدعاء ربي شقيا

- كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك أن إبراهيم - عليه السلام
عندما رأى تصميم أبيه وقومه على الكفر والضلال ، قرر اعتزالهم والابتعاد
عنهم فقال - تعالى - : ( وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ الله
: وَأَدْعُو رَبِّي عسى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّاً ) .أى
وقال إبراهيم - أيضاً - لأبيه : إنى بجانب استغفارى لك ، ودعوتى لك
بالهداية ، فإنى سأعتزلك وأعتزل قومك ، وأعتزل عبادة أصنامكم التى تعبدونها
من دون الله وأرتحل عنكم جميعاً إلى أرض الله الواسعة ، وأخص ربى وخالقى
بالعبادة والطاعة والدعاء ، فقد عودنى - سبحانه - أن لا يخيب دعائى وتضرعى
إليه .وفى تصدير كلامه بلفظ ( عسى ) دليل على تواضعه ، وعلى أدبه مع

خالقه - تعالى - .

فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له اسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما ترتب على اعتزال إبراهيم للشرك والمشركين فقال : ( فَلَمّا اعتزلهم وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيّاً وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِّن رّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً ) .أى : فحين اعتزل إبراهيم - عليه السلام - أباه وقومه وآلهتهم الباطلة . لم نضيعه ، وإنما أكرمنا وتفضلنا عليه بأن وهبنا له إسحاق ويعقوب ليأنس بهما بعد أن فارق أباه وقومه من أجل إعلاء كلمتنا ( وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيّاً ) أى : وكل واحد منهما جعلناه نبياً .

ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا

كما فسرها الوسيط ( وَوَهَبْنَا لَهُمْ ) أى : لإبراهيم وإسحاق ويعقوب ) مِّن رّحْمَتِنَا ) بأن جعلناهم أنبياء ومنحناهم الكثير من فضلنا وإحسانا ورزقنا .وجعلنا لهم لسان صدق عليا ، بأن صيرنا الناس يثنون عليهم ويمدحونهم ويذكرونهم بالذكر الجميل ، لخصالهم الحميدة ، وأخلاقهم الكريمة .وهكذا نرى أن اعتزال الشرك والمشركين ، والفسق والفاسقين ، يؤدى إلى السعادة الدينية والدنيوية ، وما أصدق قوله - تعالى - : ( فَلَمّا اعتزلهم وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيّاً ) .وخص - سبحانه - هنا اسحق ويعقوب بالذكر دون إسماعيل لأن إسماعيل سيذكر فضله بعد قليل .

واذكر في الكتاب موسى انه كان مخلصا وكان رسولا نبيا

كما فسرها الوسيط ثم مدح الله - تعالى - موسى - عليه السلام - وهو واحد من أولى العزم من الرسل ، وينتهى نسبه إلى إبراهيم - عليه السلام - فقال - تعالى - : ( واذكر . . . ) .لفظ ( مُخْلِصاً ) فيه قراءتان سبعيتان ، إحداهما بفتح اللام - بصيغة اسم المفعول - أى : أخلصه الله - تعالى - لذاته واصطفاه ، كما قال - تعالى - : (قَالَ ياموسى إِنِّي اصطفيتك عَلَى الناس بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي . . . ) والثانية بكسر اللام - بصيغة اسم الفاعل - أى : كان مخلصاً لنا فى عبادته وطاعته .والمعنى : واذكر - أيها الرسول الكريم - للناس خبر أخيك موسى - عليه السلام - إنه كان من الذين أخلصناهم واصطفيناهم لحمل رسالتنا ، وكان من الذين أخلصوا لنا وحدنا العبادة والطاعة ، وكان - أيضاً - ( رَسُولاً ) من جهتنا لتبليغ ما أمرناه ، بتبليغه ، وكان كذلك ( نّبِيّاً ) رفيع القدر ، عالى المكانة والمنزلة فقد جمع الله - تعالى - له بين هاتين الصفتين الساميتين صفة الرسالة وصفة النبوة .

وناديناه من جانب الطور الايمن وقربناه نجيا

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطور الأيمن وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً ) بيان لفضائل أخرى منحها الله - تعالى - لموسى - عليه السلام - .والطور : جبل بين مصر وقرى مدين ، الأيمن : أى الذى يلى يمين موسى .قال الآلوسى : " والأيمن " صفة لجانب ، لقوله - تعالى - فى آية أخرى : ( جَانِبِ الطور الأيمن ) بالنصب . أى : نادنياه من ناحيته اليمنى ، من اليمين المقابل لليسار . والمراد به يمين موسى ، أى : الناحية التى تلى يمينه " إذ الجبل نفسه لا ميمنة له ولا ميسرة" .ويجوز أن يكون الأيمن من اليمن وهو البركة ، وهو صفة لجانب - أيضاً - أى : من جانبه الميمون المبارك . . .والمراد من ندائه من ذلك الجانب : ظهور كلامه - تعالى - من تلك الجهة ، والظاهر أنه - عليه السلام - إنما سمع الكلام اللفظى . . . " .وقوله ( وَقَرّبْنَاهُ نَجِيّاً ) أى : وقربناه تقريب تشريف وتكريم حالة مناجاته لنا ، حيث أسمعناه كلامنا ، واصطفيناه لحمل رسالتنا إلى الناس .فقوله ( نَجِيّاً ) من المناجاة وهى المسارة بالكلام ، وهو حال من مفعول وقربناه ، أى : وقربنا موسى منا حال كونه مناجيا لنا .

ووهبنا له من رحمتنا اخاه هارون نبيا

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيّاً ) بيان لمظهر آخر من مظاهر فضله الله - تعالى - على عبده موسى .أى : ووهبنا لموسى من أجل رحمتنا له . وعطفنا عليه . أخاه

هارون ليكون عونا له فى أداء رسالته كما قال - تعالى - حكاية عنه ( واجعل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشدد بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ في أَمْرِي . . ) وقوله : ( نَبِيّاً ) حال من هارون ، أى حال كونه نبيا من أنبياء الله - عز وجل - .هذا ، وما ذكره الله - تعالى - هنا مجملا عن ندائه لموسى من جانب الطور الأيمن ، قد جاء مفصلاً فى مواطن أخرى منها قوله - تعالى - : ( فَلَمَّا قضى مُوسَى الأجل وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطور نَاراً قَالَ لأَهْلِهِ امكثوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لعلي آتِيكُمْ مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النار لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ فَلَمَّآ أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِىءِ الوادي الأيمن فِي البقعة المباركة مِنَ الشجرة أَن ياموسى إِنِّي أَنَا الله رَبُّ العالمين . . ).

واذكر في الكتاب اسماعيل انه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - جانباً من فضائل إسماعيل - عليه السلام - وهو الفرع الثانى من ذرية إبراهيم ، فقال - تعالى - : ( واذكر فِي الكتاب . . . ) .أى : واذكر فى هذا الكتاب لقومك - أيها الرسول الكريم - خبر جدك إسماعيل بن إبراهيم - عليهما السلام - لكى يتأسوا به فى صفاته الجليل ، ( إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الوعد ) ويكفى للدلالة على صدق وعده ، وشدة وفائه ، أنه وعد أباه بصبر على ذبحه فعل يخلف وعده . بل قال - كما حكى القرآن عنه - ( ياأبت افعل مَا تُؤمَرُ ستجدني إِن شَآءَ الله مِنَ الصابرين ) ووصف بصدق الوعد وإن كان غيره من النبيين كذلك تشريفاً وتكريماً له ، ولأن هذا الوصف من الأوصاف التى اكتملت شهرتها فيه .وقد مدح الله - تعالى - الأوفياء بعهودهم فى آيات كثيرة منها قوله - تعالى - ( والموفون بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ والصابرين فِي البأسآء والضراء وَحِينَ البأس أُولَئِكَ الذين صَدَقُواْ وأولئك هُمُ المتقون ) وروى الإمام الطبرانى عن ابن مسعود قال : لا يعد أحدكم صبيه ثم لا ينجز له فإن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : " العدة دين " .وقال القرطبى : " والعرب تمتدح بالوفاء ، وتذم بالخلف والغدر ، وكذلك سائر الأمم ، ولقد أحسن القائل :متى ما يقل حر لصاحب حاجة نعم ، يقضها ، والحر للوعد ضامن ) : - .وقوله - تعالى - وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً ) أى : وكان من رسلنا الذين أرسلناهم لتبليغ شريعتنا ، ومن أنبيائنا الذين رفعنا منزلتهم وأعلينا قدرهم .قالوا : وكانت رسالته بشريعة أبيه إلى قبيلة جرهم من عرب اليمن ، الذين نزلوا على أمه هاجر بوادى مكة حين خلفها إبراهيم وهى وابنها بذلك الوادى ، فسكنوا هناك حتى كبر إسماعيل وزوجوه منهم ، وأرسله الله - تعالى - إليهم . "

وكان يامر اهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا

كما فسرها الوسيط ثم وصفه الله - تعالى - بصفة كريمة ثالثة فقال : ( وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بالصلاة والزكاة . . . ) .أى : وكان بجانب حرصه على أداء هاتين الفريضتين ، يأمر أهله وأقرب الناس إليه بالحرص على أدائهما حتى يكون هو وأهله قدوة لغيرهم فى العمل الصالح .وكان النبى - صلى الله - عليه وسلم - يفعل ذلك الذى أثنى الله به على نبيه إسماعيل استجابة لقوله - تعالى - : ( وَأْمُرْ أَهْلَكَ بالصلاة واصطبر عَلَيْهَا . . . ) قال الإمام ابن كثير : " وقد جاء فى الحديث عن أبى هريرة قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته ، فإن أبت نضح فى وجهها الماء رحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها فإن أبى نضحت فى وجهه الماء " .وعن أبى سعيد عن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : " إذا استيقظ الرجل من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين كتبا من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات " .ثم ختم - سبحانه - هذه الصفات الجميلة التى مدح بها نبيه إسماعيل فقال : ( وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً ) .أى : وكان إسماعيل عند ربه مرضى الخصال ، لاستقامته فى أقواله وأفعاله ، وللصدق فى وعده ، ولأمره أهله بالصلاة والزكاة ، ولا شك أن من جمع هذه المناقب كان ممن رضى الله عنهم ورضوا عنه .

واذكر في الكتاب ادريس انه كان صديقا نبيا

كما فسرها الوسيط ثم ختم الله هذا الحديث عن بعض الأنبياء ، بذكر جانب من قصة إدريس - عليه السلام - فقال : ( واذكر فِي الكتاب إِدْرِيسَ . . . ) قال الآلوسى : ما ملخصه : " وإدريس هو نبى قبل نوح وبينهما ألف سنة وهو أخنوخ ابن يرد . . . بن شيث بن آدم . وهو أول من نظر فى النجوم والحساب ، وأول رسول بعد آدم . . . " .أى : واذكر - أيضاً - فى الكتاب خبر إدريس - عليه السلام - . إنه كان ملازماً للصدق ، وكان ممن شرفناهم بالنبوة .

ورفعناه مكانا عليا

كما فسرها الوسيط وقوله : ( وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً ) قالوا : هو
: شرف النبوة والزلفة عند الله - تعالى - أو المراد برفعه إلى المكان العلى
إسكانه فى الجنة ، إذ لا شرف أعلى من ذلك . وروى أن النابغة الجعدى لما
أنشد قوله :بلغتا السماء مجدنا وسناؤنا ... وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا قال له
الرسول - صلى الله عليه وسلم - : " إلى أين المظهر يا أبا ليلى؟ قال : إلى
الجنة . قال : أجل إن شاء الله - تعالى - " .وإلى هنا تكون السورة الكريمة
قد حدثتنا عن طرف من قصص زكريا ويحيى وعيسى وإبراهيم وموسى وإسماعيل
، وإدريس - عليهم الصلاة والسلام - وقد وصفتهم بما هم أهله من صفات كريمة
. ليتأسى الناس بهم فى ذلك

اولئك الذين انعم الله عليهم من النبيين من ذرية ادم وممن حملنا مع نوح ومن
ذرية ابراهيم واسرائيل وممن هدينا واجتبينا اذا تتلى عليهم ايات الرحمن
خروا سجدا وبكيا

كما فسرها الوسيط ثم تسوق السورة الكريمة بعد ذلك موازنة بين هؤلاء الأخيار
، وبين من جاءوا بعدهم من أقوامهم الذين اضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ،
- وتفتح السورة باب التوبة ليدخله بصدق وإخلاص المخطئون ، حتى يكفر الله
تعالى - عنهم ما فرط منهم ، قال - تعالى - : ( أولئك الذين . . . ) .اسم
الإشارة فى قوله : ( أولئك الذين أَنْعَمَ الله عَلَيْهِم . . ) يعود إلى
الأنبياء المذكورين فى هذه السورة . وهم عشرة أولهم فى الذكر زكريا وآخرهم
إدريس .قال القرطبى : " قوله - تعالى - ( أولئك الذين أَنْعَمَ الله
) عَلَيْهِم مِّنَ النبيين مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ ) يريد إدريس وحده
وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ) يريد إبراهيم وحده ( وَمِن ذُرِّيَّةِ
إِبْرَاهِيمَ ) يريد إسماعيل وإسحاق ويعقوب ( وَ ) من ذرية ( إِسْرَائِيلَ
يريد موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى فكان لإدريس ونوح شرف القرب من آدم (
ولإبراهيم شرف القرب من نوح ، ولإسماعيل وإسحاق ويعقوب ، شرف القرب من ،
إبراهيم " .وقوله : ( وَمِمَّنْ هَدَيْنَا واجتبينا ) معطوف على قوله ( مِن
، ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ ) ومن للتبعيض .أى : ومن جملة من أنعم الله عليهم
أولئك الذين هديناهم إلى طريق الحق واجتبيناهم واخترناهم لحمل رسالتنا
ووحينا .فأنت ترى أن الله - تعالى - قد جمع لهؤلاء المنعم عليهم جملة من
، المزايا منها : أعمالهم الصالحة ، ومناقبهم الحميدة التى سبق الحديث عنها
ومنها : كونهم من تسل هؤلاء المصطفين الأخيار ، ومنها أنهم ممن هداهم
الله - تعالى - واصطفاهم لحمل رسالته .وقد بين - سبحانه - فى سورة النساء
من أنعم عليهم بصورة أكثر شمولاً فقال : ( وَمَن يُطِعِ الله والرسول
فأولئك مَعَ الذين أَنْعَمَ الله عَلَيْهِم مِّنَ النبيين والصديقين
والشهدآء والصالحين وَحَسُنَ أولئك رَفِيقاً ) وقوله - تعالى - : ( إِذَا
تتلى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرحمن خَرُّواْ سُجَّداً وَبُكِيّاً ) بيان لرقة
مشاعرهم ، وشدة تأثرهم عند سماع آيات الله - تعالى - .فالجملة الكريمة
) استئناف مسوق لبيان عظم خشيتهم من الله - تعالى - أو هى خبر لاسم الإشارة
أولئك ) و ( سُجّداً وَبُكِيّاً ) جمع ساجد وباك .أى : أولئك الذين أنعم
، الله - تعالى - عليهم ، من صفاتهم أنهم إذا تتلى عليهم آيات الرحمن
. المتضمنة لتمجيده وتعظيمته وحججه . . . خروا على جباههم ساجدين وباكين
وسقطوا خاضعين خاشعين خوفاً ورجاء ، وتعظيماً وتمجيداً لله رب العالمين
وجمع - سبحانه - بين السجود والبكاء بالنسبة لهم ، للإشعار بأنهم مع.
تعظيمهم الشديد لمقام ربهم ، فهم أصحاب قلوب رقيقة ، وعواطف جياشة بالخوف
من الله - تعالى - .وفى معنى هذه الجملة الكريمة وردت آيات كثيرة ، منه
قوله - تعالى - : ( قُلْ آمِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تؤمنوا إِنَّ الذين
أُوتُواْ العلم مِن قَبْلِهِ إِذَا يتلى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ
لِلأَذْقَانِ سُجَّداً وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ
رَبِّنَا لَمَفْعُولاً وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ
خُشُوعاً ) وقوله - سبحانه - : ( وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى
الرسول ترى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدمع مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الحق
يَقُولُونَ رَبَّنَآ آمَنَّا فاكتبنا مَعَ الشاهدين ) فهذه الآيات الكريمة
تدل على أن من صفات المؤمنين الصادقين ، أنهم يتأثرون تأثراً عظيماً عند
سماعهم لكلام الله - تعالى - ، تأثراً يجعلهم يبكون ويسجدون وتقشعر جلودهم
- وتوجل قلوبهم ، وتلين نفوسهم .قال ابن كثير - رحمه الله - : " قوله ،
تعالى - : ( إِذَا تتلى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرحمن خَرُّواْ سُجَّداً
وَبُكِيّاً ) أى : إذا سمعوا كلام الله المتضمن حججه ودلائله وبراهينه
سجدوا لربهم خضوعاً واستكانة وشكراً على ما هم فيه من نعم . . . فلهذا أجمع
العلماء على شرعية السجود ههنا اقتداء بهم ، واتباعاً لمنوالهم وقرأ عمر بن
. " الخطاب - رضى الله عنه - هذه الآية فسجد وقال : هذا السجود فأين البكار

فخلف من بعدهم خلف اضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما حدث من الذين جاءوا بعد هؤلاء المنعم عليهم فقال : ( فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ الصلاة واتبعوا الشهوات فَسَوْفَ يَلْقُونَ غَيّاً ) .ولفظ ( الخلف ) بسكون اللام - الأولاد ، والواحد والجمع فيه سواء ، وأكثر ما يطلق على الأشرار والطالحين ، ومنه المثل السائر : " سكت ألفا ونطق خلفا " وقوله الشاعر :ذهب الذين نعيش فى أكنافهم ... وبقيت فى خلف كجلد الأجربوالمراد بهذا اللفظ فى الآية : اليهود والنصارى وغيرهم من المشركين الذين جاءوا بعد أنبيائهم ، ولكنهم خالفوا شريعتهم ، وأهملوا ما أمروهم به وما نهوهم عنه .أما لفظ " الخلف " بفتح اللام - فيطلق على البدل ولدا كان أو غير ولد وأكثر استعمالاته فى المدح ، ومنه قوله - صلى الله عليه وسلم - : " يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله . . " .والمعنى : فخلف من بعد أولئك الأخيار الذين ) أنعم الله عليهم ، خلف سوء وشر ، ومن الأدلة على سوئهم وفجورهم أنهم ) أَضَاعُواْ الصلاة ) بأن تركوها ، أو لم يؤدوها على وجهها المشروع واتبعوا الشهوات ) التى جعلتهم ينهمكون فى المعاصى ، ويسارعون فى اقتراف المنكرات .وقوله ( فَسَوْفَ يَلْقُونَ غَيّاً ) بيان لسوء عاقبتهم ، أى : فسوف يلقى هؤلاء المضيعون للصلاة ، المتبعون للشهوات ، خسراناً وشراً فى دنياهم وآخرتهم ، بسبب ضلالهم وتنكيهم الصراط المستقيم .فالمراد بالغىّ : الخسران والضلال . يقال : غوى فلان يغوى إذ ضل . والاسم الغواية .وقيل المراد بالغى هنا : وادى فى جهنم تستعيذ من حره أوديتها . وقيل : هو نهر فى أسفل جهنم يسيل فيه صديد أهلها .

الا من تاب وامن وعمل صالحا فاولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئا

كما فسرها الوسيط ثم فتح - سبحانه - للتائبين باب الرحمة فقال : ( إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً . . . ) .أى : هذا العقاب الشديد للمضيعين للصلاة ، وللمتبعين للشهوات ، لكن من تاب منهم توبة نصوحاً ، وآمن بالله - تعالى - حق الإيمان ، وعمل فى دنياه الأعمال الصالحة .( فأولئك ) - المنعوتون بالتوبة والإيمان والعمل الصالح ( يَدْخُلُونَ الجنة ) بفضله تعالى - ورحمته ( وَلاَ يُظْلَمُونَ شَيْئاً ) أى : ولا ينقصون من أجور أعمالهم شيئاً .

جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب انه كان وعده ماتيا

كما فسرها الوسيط وقوله ( جَنَّاتِ عَدْنٍ التي وَعَدَ الرحمن عِبَادَهُ بالغيب ) . بدل من الجنة فى قوله ( فأولئك يَدْخُلُونَ الجنة ) .أى : هؤلاء التائبون المؤمنون العاملون للصالحات يدخلهم الله - تعالى - جنات عدن ، أى الجنات الدائمة التى وعدهم الرحمن بدخولها ، وكان هذا الوعد فى الدنيا : ) قبل أن يشاهدوها أو يروها .فقوله : ( بالغيب ) حال من المفعول وهو عِبَادَهُ ) أى : وعدهم بها حالة كونهم غائبين عنها ، لا يرونها ، وإنما آمنوا بوجودها بمجرد إخباره - سبحانه - لهم بذلك .وقد أكد - سبحانه - هذا الوعد لهم بوجودها بمجرد إخباره - سبحانه - لهم بذلك .وقد أكد - سبحانه هذا الوعد لهم فى الدنيا بقوله : ( إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً ) أى إنه - تعالى - كان وما زال ما وعد به عباده وهو الجنة ( مَأْتِيّاً ) أى : يأتيه ويصل إليه من وعده الله - تعالى - به ، لأنه - سبحانه -لا يخلف : وعده .فقوله : ( مَأْتِيّاً ) اسم مفعول من أتاه الشىء بمعنى جاءه ، وقيل : هو اسم مفعول بمعنى فاعل ، أى : إن وعده - سبحانه - لعباده كان آتياً لا ريب فيه .

لا يسمعون فيها لغوا الا سلاما ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا

كما فسرها الوسيط ثم وصف - سبحانه - الجنات وأهلها بما يحمل العقلاء على العمل الصالح الذى يوصلهم إليها بفضله - تعالى - وكرمه فقال : ( لاَّ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلاَّ سَلاَماً . . . ) .واللغو : هو فضول الكلام ، وما لا قيمة له منه ، ويدخل فيه الكلام الباطل .وقوله ( إِلاَّ سَلاَماً ) الظاهر فيه أنه استثناء منقطع ، لأن المستثنى ليس من جنس المستثنى منه .أى : لا يسمعون فيها كلاماً لغوا ، لكنهم يسمعون فيها سلاماً أى : تسليماً من الملائكة عليهم ، كما قال - تعالى - : ( جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِّن كُلِّ بَابٍ سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ . . ) أو يسمعون فيها تسليماً وتحية من بعضهم على بعض ، كما قال - تعالى - : ( تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ ) قال الآلوسى : قوله إلا سلاما ، استثناء منقطع ، والسلام إما

بمعناه المعروف .أى : لكن يسمعون تسليم الملائكة عليهم ، أو تسليم بعضهم
على بعض ، أو بمعنى الكلام السالم من العيب والنقص ، أى : لكن يسمعون
كلاماً سالماً من العيب والنقص .وجوز أن يكون استثناء متصلاً ، وهو من
... تأكيد المدح بما يشبه الدم ، كما فة قوله :ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم
بهن فلول من قراع الكتائبوهو يفيد نفى سماع اللغو بالطريق البرهانى الأقوى
والاتصال على هذا على طريق الفرض والتقدير ، ولولا ذلك لم يقع موقعه من .
الحسن والمبالغة " .وقوله - تعالى - : ( وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا
بُكْرَةً وَعَشِيّاً ) بيان لدوام رزقهم فيها بدون انقطاع ، إذ ليس فى
) الجنة نهار ولا ليل ، ولا بكرة ولا عشى . . .قال القرطبى ما ملخصه قوله
وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً ) أى : لهم ما يشتهون من
- المطاعم والمشارب بكرة وعشيا ، أى : فى قدر هذين الوقتين ، إذ لا بكرة ثم
أى هناك - ولا عشيا . . . وقيل : رزقهم فيها غير منقطع ..وخرج الحكيم
الترمذى فى نوادر الأصول من حديث أبان عن الحسن وأبى قلابة قالا : " قال
" : - رجل يا رسول الله ، هل فى الجنة من ليل؟ قال - صلى الله عليه وسلم
) : وما هيجك على هذا "؟ قال : سمعت الله - تعالى - يذكر فى الكتاب
وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً ) فقلت : الليل بين البكرة
والعشى . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :" ليس هناك ليل وإنما هو
ضوء ونور ، يرد الغدو على الرواح ، والرواح على الغدو ، وتأتيهم طرف
الهدايا من الله لمواقيت الصلاة التى كانوا يصلون فيها فى الدنيا ، وتسلم
عليهم الملائكة " " .ثم قال الإمام القرطبى : " وهذا فى غاية البيان لمعنى
. " . . . الآية

تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقيا

كما فسرها الوسيط ثم أضاف - سبحانه - إلى تعظيمه لشأن الجنة تعظيماً آخر
فقال : ( تِلْكَ الجنة التي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّاً )
فاسم الإشارة ( تِلْكَ ) يعود إلى ما تقدم من قوله : ( فأولئك يَدْخُلُونَ.
الجنة . . ) وقوله ( جَنَّاتِ عَدْنٍ التي وَعَدَ الرحمن عِبَادَهُ بالغيب
أى : تلك هى الجنة العظيمة الشأن ، العالية القدر ، التى نجعلها. ( . . .
) : - ميراثاً للمؤمنين الصادقين المتقين من عبادنا ، كما قال - تعالى
( أولئك هُمُ الوارثون الذين يَرِثُونَ الفردوس هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ
وكما قال - سبحانه - : ( وَتِلْكَ الجنة التي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا
كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ) قال صاحب الكشاف : قوله ( نُورِثُ ) . . . أى : نبقى
عليه الجنة كما نبقى على الوارث مال المورث ، ولأن الأتقياء يلقون ربهم يوم
- القيامة وقد انقضت أعمالهم وثمرتها باقية وهى الجنة ، فإذا أدخلهم
. سبحانه - الجنة ، فقد أورثهم من تقواهم كما يورث الوارث المال من المتوفى
. " .

وما نتنزل الا بامر ربك له ما بين ايدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان
ربك نسيا

، كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - ما يدل على كمال قدرته ، وشمول علمه
. فقال - تعالى - : ( وَمَا نَتَنَزَّلُ . . . ) .التنزل : النزول على مهل
فإنه مطاوع نزل - بالتشديد - ، يقال : نزلته فتنزل ، إذا حدث النزول على
مهل وتدرج . وقد يطلق التنزيل بمعنى النزول مطلقاً ، إلا أن المناسب هنا هو
المعنى الأول .والآية الكريمة حكاية لما قاله جبريل للنبى - صلى الله عليه
وسلم - ، فقد ذكر كثير من المفسرين أن الوحى احتبس عن الرسول - صلى الله
عليه وسلم - لفترة من الوقت بعد أن سأله المشركون أسئلة تتعلق بأصحاب الكهف
وبذى القرنين وبالروح ، حتى قال المشركون : إن رب محمد - صلى الله عليه .
وسلم - قد قلاه - أى : أبغضه وكرهه - فلما نزل جبريل على النبى - صلى الله
عليه وسلم - بعد فترة من غياب - قيل خمسة عشر يوماً وقيل أكثر قال له : يا
جبريل احتبست عنى حتى ساء ظنى واشتقت إليك فقال له جبريل : إنى كنت أشوق
- ولكنى عبد مأمور ، إذا بعثت جئت ، وإذا حبست احتبست ، وأنزل الله - تعالى
هذه الآية وسورة الضحى " .وقال الآلوسى : " ولا يأبى ما تقدم فى سبب النزول
ما أخرجه أحمد ، والبخارى والترمذى ، والنسائى ، وجماعة ، فى سببه عن ابن
عباس قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لجبريل : ما يمنعك أن
تزورنا أكثر مما تزورنا؟ فنزلت : ( وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ
رَبِّكَ . . ) لجواز أن يكون - صلى الله عليه وسلم - قال ذلك فى محاورته
. . . السابقة - أيضاً - ، واقتصر فى كل رواية على شىء مما وقع فى المحاورة
والمعنى : قال جبريل للرسول - صلى الله عليه وسلم - عندما سأله عن سبب. "
، احتباسه عنه لفترة من الوقت : يا محمد إنى ما أتنزل عليك وقتاً بعد وقت
- إلا بأمر ربك وإرادته ، فأنا عبده الذى لا يعصى له أمراً . . .( لَهُ )
: سبحانه - ( مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذلك ) أى
له وحده جميع الجهات والأماكن ، وجميع الأزمان الحاضرة والماضية

والمستقبلية ، وما بين ذلك ، فلا نقدر أن ننتقل من جهة إلى جهة ، أو من وقت
- إلى وقت إلا بأمر ربك ومشيئته .فالجملة الكريمة مسوقة لبيان ملكية الله
) : - تعالى - لكل شيء ، وقدرته على كل شيء وعلمه بكل شيء .وقوله - تعالى
- وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً ) مؤكد لما قبله من إثبات قدرة الله
تعالى - وعلمه .أى : وما كان ربك - أيها الرسول الكريم - ناسيا أو تاركاً
لك أو مهملاً لشأنك ، ولكنه - سبحانه - محيط بأحوالك وبأحوال جميع
المخلوقات ( لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السماوات وَلاَ فِي
الأرض وَلاَ أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ
. . . مُّبِينٍ )قال ابن كثير : " قال ابن أبى حاتم : حدثنا يزيد بن محمد
عن أبى الدرداء يرفعه قال : " ما أحل الله فى كتابه فهو حلال ، وما حرمه هو
حرام ، وما سكت عنه فهو عافية ، فاقبلوا من الله عافيته ، فإن الله لم يكن
لينسى شيئاً " ثم تلا هذه الآية : ( وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً ) .

رب السماوات والارض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا

كما فسرها الوسيط ثم قال - تعالى - : ( رَّبُّ السماوات والأرض وَمَا
بَيْنَهُمَا ) أى : هو رب السموات والأرض ورب ما بينهما ، وهو خالقهما
وخالق كل شىء ، ومالكهما ومالك كل شىء .وما دام الأمر كذلك : ( فاعبده
واصطبر لِعِبَادَتِهِ ) أى : فأخلص له العبادة ووطن نفسك على أداء هذه
العبادة بصبر وجلد وقوة احتمال ، فإن المداومة على طاعة الله تحتاج إلى
عزيمة صادقة ، ومجاهدة للنفس الأمارة بالسوء .والاستفهام فى قوله : ( هَلْ
تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً ) للإنكار والنفى . والسمى بمعنى المسامى والمضاهى
والنظير والشبيه .أى : هل تعلم له نظيرا أو شبيهاً يستحق معه المشاركة فى
العبادة أو الطاعة؟ كلا ، إنك لا تعلم ذلك ، لأنه - سبحانه - هو وحده
المستحق للعبادة والطاعة ، إذ هو الخالق لكل شىء والعليم بكل شىء ، والقادر
على كل شىء ، وما سواه إنما هو مخلوق له ، وساجد له طوعاً أو كرها ، ولا
شبهة فى صفة من صفاته ، فهو - سبحانه - ( لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ
السميع البصير ) ثم ساقت السورة الكريمة بعد ذلك موقف المشركين من عقيدة
البعث . فحكت أقوالهم الباطلة ، وردت عليهم بما يكبتهم وبينت أن يوم
القيامة آت لا ريب فيه ، وأن النجاة فى هذا اليوم للمتقين ، والعذاب
والخسران للكافرين قال - تعالى - : ( وَيَقُولُ الإنسان . . . ) .

ويقول الانسان اذا ما مت لسوف اخرج حيا

كما فسرها الوسيط ذكر كثير من المفسرين أن قوله - تعالى - : ( وَيَقُولُ
" الإنسان . . . ) نزل فى أشخاص معينين .فمنهم من يرى أن هذه الآية نزلت فى
أبى بن خلف " فإنه أخذ عظما باليا ، فجعل يفتته بيده ، ويذريه فى الريح
ويقول : زعم محمد - صلى الله عليه وسلم - أننا نبعث بعد أن نموت ونصير مثل
هذا العظم البالى ومنهم من يرى أنها نزلت فى الوليد بن المغيرة ، أو فى
العاصى بن وائل ، أو فى أبى جهل .وعلى كل واحد من هذه الأقوال تكون ( أل )
فى الإنسان للعهد ، والمراد بها أحد هؤلاء الأشخاص ، ويكون لفظ الإنسان من
قبيل العام الذى أريد به الخصوص .ومن الأساليب العربية المعروفة ، إسناد
الفعل إلى المجموع ، مع أن فاعله بعضهم لا جميعهم كما يقال : بنو فلان
فلاناً مع أن القاتل واحد منهم ، ومن هذا القبيل قول الفرزدق :فسيوف بنو
عبس وقد ضربوا به ... نَبَت بيدَىْ ورقاء من رأس خالدفقد أسند الضرب إلى
: بنى عبس ، مع أنه صرح بأن الضارب هو ورقاء الذى كان السيف بيده .وقيل
: المراد بالإنسان هنا : جماعة معينون وهم الكفرة المنكرون للبعث أو المراد
جنس الكافر المنكر للبعث .و " إذا " فى قوله : ( أَإِذَا مَا مِتُّ ) منصوب
بفعل مضمر دل عليه جزاء الشرط .والمعنى : ويقول هذا الإنسان الجاهل الجحود
المنكر للبعث والنشور ، أأعود للحياة مرة أخرى بعد موتى ، وبعد أن أكون ،
) كالعظام النخرة .والاستفهام للإنكار والنفى ، وعبر - سبحانه - بالمضارع
يَقُولُ ) لاستحضار تلك الصورة الغريبة ، وتلك الأقوال المنكرة التى صدرت
عن هذا الكافر ، أو لإفادة أن هذا القول موجود ومستمر عند كثير من الكافرين
وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - حكاية عن هؤلاء الجاحدين : ( أَإِذَا
) : - مِتْنَا وَكُنّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ) وقوله - عز وجل
يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الحافرة أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً
نَّخِرَةً قَالُواْ تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ) .

اولا يذكر الانسان انا خلقناه من قبل ولم يك شيئا

كما فسرها الوسيط وقد رد الله - تعالى - عليهم بما يبطل قولهم ، ويخرس
ألسنتهم فقال : ( أَوَلاَ يَذْكُرُ الإنسان أَنّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ
وَلَمْ يَكُ شَيْئاً ) .والاستفهام للتوبيخ والتقريع ، والواو للعطف على
مقدر .والمعنى : أيقول هذا الإنسان ذلك القول الباطل ، ولا يتذكر أننا

أوجدناه بقدرتنا من العدم ولم يكن شيئاً مذكوراً ، ومن المعروف عند العقلاء
أن إعادة الإنسان إلى الحياة بعد وجوده ، أيسر من إيجاده من العدم ،
فالآية الكريمة ترد على كل جاحد للبعث بدليل منطقى برهانى ، يهدى القلوب.
إل الحق ، ويقنع العقول بأن البعث حق وصدق .وفى معنى هذه الآية الكريمة
جاءت آيات أخرى كثيرة منها قوله - تعالى - ( وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً
وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحيِي العِظام وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا
. . الذي أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ
وقوله - سبحانه - : ( وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النشأة الأولى فَلَوْلاَ (
تَذَكَّرُونَ ) قال الإمام ابن كثير : " وفى الحديث الصحيح - الذى يرويه
النبى - صلى الله عليه وسلم - عن ربه : " يقول الله - تعالى - كذبنى ابن
آدم ولم يكن له أن يكذبنى ، وآذانى ابن آدم ولم يكن له أن يؤذينى . أما
تكذيبه لى فقوله : لن يعيدنى كما بدأنى ، وليس أول الخلق أهون على من آخره
وأما أذاه إياى فقوله : " إن لى ولداً وأنا الأحد الصمد الذى لم يلد ولم.
يولد ولم يكن له كفواً احد " " .

فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا

كما فسرها الوسيط ثم عقب - سبحانه - على هذا التوبيخ والتقريع لهذا الإنسان
الجاحد ، بقسم منه - سبحانه - على وقوع البعث والنشور ، فقال : (
فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ والشياطين ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ
جَهَنَّمَ جِثِيّاً ) .والحشر : الجمع . يقال : حشر القائد جنده ، إذا
جمعهم .والمراد بالشياطين : أولئك الأشرار الذين كانوا فى الدنيا يوسوسون
لهم بإنكار البعث .أى : أقسم لك بذاتى - أيها الرسول الكريم - أن هؤلاء
المنكرين للبعث لنجمعنهم جميعاً يوم القيامة للحساب والجزاء ، ولنجمعن معهم
الشياطين الذين كانوا يظلونهم فى الدنيا .قالوا : وفائدة القسم أمران :
أحدهما : أن العادة جارية بتأكيد الخبر باليمين ، والثانى : أن فى إقسام
الله - تعالى - باسمه ، مضافا إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - رفعا منه
لشأنه ، كما رفع من شأن السموات والأرض فى قوله - تعالى - : ( فَوَرَبِّ
السمآء والأرض إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ) وقوله :
تصوير حسى بليغ ( ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيّاً )
. لسوء مصيرهم ، ونكد حالهم .و ( جِثِيّاً ) جمع جاث وهو الجالس على ركبتيه
يقال : جثا فلان يجثو ويجثى جثوا وجثيا فهو جاث إذا جلس على ركبتيه ، أو
، قام على أطراف أصابعه . والعادة عند العرب أنهم إذا كانوا فى موقف شديد
وأمر ضنك جثوا على ركبهم .أى : فوربك لنحضرنهم يوم القيامة للحساب ومعهم
شياطينهم ، ثم لنحضرنهم جميعاً حول جهنم ، حالة كونهم باركين على الركب
، عجزاً منهم عن القيام ، بسبب ما يصيبهم من هول يوم القيام وشدته .قال
- تعالى - : ( وترى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تدعى إلى
كِتَابِهَا اليوم تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ هذا كِتَابُنَا
يَنطِقُ عَلَيْكُم بالحق إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ).

ثم لننزعن من كل شيعة ايهم اشد على الرحمن عتيا

كما فسرها الوسيط ثم يخص - سبحانه - بالذكر المصير المفزع للمتكبرين من
هؤلاء الكافرين فيقول : ( ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ
أَشَدُّ عَلَى الرحمن عِتِيّاً ) .والنزع : العزل والإخراج . يقال : نزع
السلطان عامله ، إذا عزله وأخرجه من عمله ، والشيعة فى الأصل : الجماعة من
الناس يتعاونون فيما بينهم على أمر من الأمور ، يقال : تشايع القوم ، إذا
تعاونوا فيما بينهم .و ( عِتِيّاً ) أى : خروجا عن الطاعة والاستجابة للأمر
يقال : عتا فلان يعتو عتوا - من باب قعد - فهو عات إذا استكبر وجاوز ،
حدوده فى العصيان والطغيان .والمعنى : ثم لنستخرجن من كل طائفة تشايعت
وتعاهدت على الكفر بالبعث ، والجحود للحق ، الذين هم أشد خروجاً عن طاعتنا
وامتثال أمرنا فنبدأ بتعذيبهم أولاً ، لأنهم أشد من غيرهم فى العتو والعناد
والجحود والضلال .قال الجمل ما ملخصه : " وأظهر الأعاريب فى قوله : (
- أَيُّهُمْ أَشَدُّ ) أن " أى " موصولة بمعنى الذى . وأن حركتها حركة بناء
أى هى مبنية على الضم - ، وأشد خبر مبتدأ مضمر . والجملة صلة لأى . وأيهم
وصلتها فى محل نصب مفعولا به لننزعن . وعتيا تمييز محول عن المبتدأ المحذوف
. " الذى هو أشد ، أى : جراءته على الرحمن أشد من جراءة غيره

ثم لنحن اعلم بالذين هم اولى بها صليا

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بالذين هُمْ
أولى بِهَا صِلِيّاً ) بيان لشمول علمه - تعالى - بأحوال هؤلاء الجاحدين ،
وبأحوال غيرهم .و ( صِلِيّاً ) مصدر صلى النار - كرضى - يصلاها صليا - بكسر

الصاد وضمها - إذا ذاق حرها ، واكتوى بها .أى : ثم لنحن أعلم من كل أحد
سوانا ، بالذين هم أحق بجهنم ، وباصطلاء نارها ، وبالاكتواء بحرها وسعيرها
لأننا لا يخفى علينا شىء من أحوال خلقنا وسنجازى المتقين بما يستحقون من ،
خير وثواب ، وسنجازى الجاحدين بما يستحقون من إهانة وعذاب .

وان منكم الا واردها كان على ربك حتما مقضيا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن الجميع سيرد جهنم ، فقال : ( وَإِن
مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ على رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً )
وللعلماء أقوال متعددة فى المراد بقوله - تعالى ( وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ
وَارِدُهَا ) .فمنهم من يرى أن المراد بورودها : دخولها فجميع الناس مؤمنهم
وكافرهم يدخلونها ، إلا أن النار تكون برداً وسلاماً على المؤمنين عند
دخولهم إياها ، وتكون لهيباً وسعيراً على غيرهم .ومنهم من يرى أن المراد
- بورودها : رؤيتها والقرب منها والإشراف عليها دون دخولها . كما فى قوله
تعالى - ( وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ ) أى : أشرف عليه وقاربه .ومنهم
من يرى أن المراد بورودها : خصوص الكافرين ، أى : أنهم وحدهم هم الذين
يردون عليها ويدخلونها . أما المؤمنون فلا يردون عليها ولا يدخلونها .ويبدو
لنا أن المراد بالورود هنا : الدخول ، أى : دخول النار بالنسبة للناس
جميعاً إلا أنها تكون برداً وسلاماً على المؤمنين ، وهناك أدلة على ذلك
منها .أن هناك آيات قرآنية جاء فيها الورود ، بمعنى الدخول ، ومن هذه
الآيات قوله - تعالى - : ( وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا موسى بِآيَاتِنَا
وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ إلى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فاتبعوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ
وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ القيامة
فَأَوْرَدَهُمُ النار وَبِئْسَ الورد المورود ) ومعنى فأوردهم : فأدخلهم
يضاف إلى ذلك أن قوله - تعالى - بعد هذه الآية : ( ثُمَّ نُنَجِّي الذين
اتقوا وَّنَذَرُ الظالمين فِيهَا جِثِيّاً ) قرينة قوية على أن المراد
بقوله ( وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا .. . ) أى : داخلها سواء أكان
مؤمناً أم كافراً ، إلا أنه - سبحانه - بفضله وكرمه ينجى الذين اتقوا من
حرها ، ويترك الظالمين يصطلون بسعيرها .كذلك مما يشهد بأن الورود بمعنى
، الدخول ، ما أخرجه الإمام أحمد وعبد بن حميد؛ والترمذى ، وابن المنذر
وابن أبى حاتم ، والحاكم . . . عن أبى سمية قال : إختلفنا فى الورود فقال
بعضنا لا يدخلها مؤمن ، وقال آخرون يدخلونها جميعاً ، ثم ينجى الله الذين
اتقوا .قال : فلقيت جابر بن عبد الله - رضى الله عنهما - فذكرت له ذلك
فقال - وأهوى بإصبعه على أذنيه - صمّتا إن لم أكن سمعت رسول الله - صلى
الله عليه وسلم - يقول : " لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها ، فتكون على
المؤمنين برداً وسلاماً ، كما كانت على إبراهيم؛ حتى إن للنار ضجيجاً من
بردهم ، ثم ينجى الله الذين اتقوا ، ويذر الظالمين فيها جثيا " .ولا يمنع
من كون الورود بمعنى الدخول قوله - تعالى - ( إِنَّ الذين سَبَقَتْ لَهُمْ
. . مِّنَّا الحسنى أولئك عَنْهَا مُبْعَدُونَ لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا
لأن دخول المؤمنين فيها لا يجعلهم يشعرون بحرها أو حسيسها ، وإنما هى ( .
تكون برداً وسلاماً عليهم ، كما جاء فى الحديث الشريف .قال الإمام القرطبى
بعد أن توسع فى ذكر هذه الأقوال : " وظاهر الورود الدخول . . . إلا أنها
تكون برداً وسلاماً على المؤمنين ، وينجون منها سالمين . قال خالد بن معدان
إذا دخل أهل الجنة الجنة قالوا : ألم يقل ربنا : إنا نرد النار فيقال لهم :
، لقد وردتموها فألفيتموها رماداً .قلت : وهذا القول يجمع شتات الأقوال :
فإن من وردها ولم تؤذه بلهبها وحرها ، فقد أبعد عنها ونجى منها ، نجانا
الله - تعالى - منها بفضله وكرمه ، وجعلنا ممن وردها فدخلها سالماً ، وخرج
، منها غانماً .فإن قيل : فهل يدخل الأنبياء النار؟ قلنا :لا نطلق هذا
ولكن نقول : إن الخلق جميعاً يردونها - كما دل عليه حديث جابر - فالعصاة
. . يدخلونها بجرائمهم ، والأولياء والسعداء لشفاعتهم ، فبين الدخولين بون
والمعنى : وما منكم - أيها الناس - أحد إلا وهو داخل النار ، سواء . " .
أكان مسلماً أم كافراً ، إلا أنها تكون برداً وسلاماً على المؤمنين . وهذا
، الدخول فيها كان على ربك أمراً واجباً ومحتوماً ، بمقتضى حكمته الإلهية
. لا بإيجاب أحد عليه

ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا

كما فسرها الوسيط ( ثُمَّ نُنَجِّي الذين اتقوا ) أى : ثم بعد دخول الناس
) جميعاً النار ، ننجى الذين اتقوا ، فنخرجهم منها دون أن يذوقوا حرها
وَّنَذَرُ الظالمين فِيهَا جِثِيّاً ) أى : ونترك الظالمين فى النار مخلدين
فيها . جاثين على ركبهم ، عاجزين عن الحركة ، من شدة ما يصيبهم من هولها
وسعيرها .وبذلك نرى الآيات الكريمة قد حكت لنا أقوال الجاحدين فى شأن البعث
والحساب ، وردت عليهم رداً يبطل اقوالهم ، كما أثبتت أن البعث حق ، وأن
- الحساب حق ، وأن الظالمين سيدخلون النار ، وأن المؤمنين سينجيهم الله

تعالى - بفضله منها .

واذا تتلى عليهم اياتنا بينات قال الذين كفروا للذين امنوا اي الفريقين خير مقاما واحسن نديا

كما فسرها الوسيط ثم تسوق السورة بعد ذلك موقف الكافرين عند سماعهم لآيات الله - تعالى - كما تسوق ما قالوه للمؤمنين على سبيل التفاخر عليهم ، وما رد به القرآن على هؤلاء المترفين المتعالين ، قال - تعالى - : ( وَإِذَا تتلى . . . ) .قوله - سبحانه - : ( وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بينات . . ) حكاية لما قاله الكافرون للمؤمنين على سبيل التباهى والتفاخر أى : وإذا تتلى على هؤلاء المشركين المنكرين للبعث آياتنا البينات. الواضحات ، الدالة على صحة وقوع البعث والحساب يوم القيامة ( قَالَ الذين كَفَرُواْ ) على سبيل العناد والتعالى ( لِلَّذِينَ آمنوا ) بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، قالوا لهم انظروا ( أَيُّ الفريقين خَيْرٌ مَّقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً ) .والمقام - بفتح الميم - : مكان القيام والمراد به مساكنهم ومنازلهم التى يسكنونها وينزلون بها .والندى والنادى والمنتدى : مجلس القوم ومكان تجمعهم .يقال : ندوت القوم أندوهم ندوا ، إذا جمعتهم فى مجلس للانتداء . ومنه : دار الندوة للمكان الذى كانت تجتمع فيه قريش للتشاور فى أمورها .أى : وإذا تتلى على هؤلاء الكافرين آياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا وعلى أن البعث حق . قالوا للمؤمنين على سبيل الاحتقار لهم : نحن وأنتم أينا خير من الآخر مكانا ، وأحسن مجلسا ومجتمعا فهم يتفاخرون على المؤمنين بمساكنهم الفارهة ، ومجالسهم التى يجتمع فيها أغنياؤهم ووجهاؤهم .قال الجمل فى حاشيته : " أى قالوا للمؤمنين : انظروا إلى منازلنا فتروها أحسن من منازلكم وانظروا إلى مجلسنا عند التحدث ومجلسكم فترونا نجلس فى صدر المجلس ، وأنتم جالسون فى طرفه الحقير . فإذا كنا ، بهذه المثابة وأنتم بتلك فنحن عند الله خير منكم ، ولو كنتم على حق لأكرمكم الله بهذه الأمور كما أكرمنا بها " .وما حكاه الله - تعالى - عن هؤلاء - الكافرين فى هذه الآية ، قد جاء ما يشبهه فى آيات أخرى ، ومن ذلك قوله تعالى - : ( وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ) .

وكم اهلكنا قبلهم من قرن هم احسن اثاثا ورئيا

كما فسرها الوسيط وقد رد الله - تعالى - على هؤلاء الجاهلين المغرورين بقوله : ( وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِءْياً ) .و ( وَكَمْ ) هنا خبرية ، ومعناها الإخبار عن العدد الكثير وهى فى محل نصب على المفعول به لجملة ( أَهْلَكْنَا ) و ( مِّن قَرْنٍ ) تمييز لها . والقرن : اسم لأهل كل أمة تتقدم فى الوجود على غيرها : مأخوذ من قرن الدابة لتقدمه فيها .و ( أَثَاثاً ) المتاع للبيت . وقيل ، : هو الجديد من الفراش ، وقد يطلق على المال بصفة عامة .و (وَرِءْياً ) أى : منظرا وهيئة ومرأى فى العين مأخوذ من الرؤية التى تراها العين .والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الكافرين المتباهين بمساكنهم ومجالسهم : ، لا تفتخروا ولا يغرنكم ما أنتم فيه من نعيم ، فإنما هو نوع من الاستدراج فإن الله - تعالى - قد أهلك كثيرا من الأمم السابقة عليكم ، كانوا أحسن منكم متاعا وزينة ، وكانوا أجمل منكم منظرا وهيئة فلم ينفعهم أثاثهم ورياشهم ومظهرهم الحسن ، عندما أراد الله - تعالى - إهلاكهم بسبب كفرهم وجحودهم .فالآية الكريمة تهديد للكافرين المعاصرين للنبى - صلى الله عليه وسلم - ورد على أقوالهم الباطلة ، وعنجهيتهم الذميمة إذا لو كانت المظاهر والأمتعة والهيئات الحسنة تنفع أصحابها ، لنفعت أولئك المهلكين من الأمم السابقة .وشبيه بهذه الآية فى الرد على هؤلاء الكافرين قوله - تعالى - : ( وَمَآ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ بالتي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زلفى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فأولئك لَهُمْ جَزَآءُ الضعف بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِي الغرفات آمِنُونَ ) وقوله - سبحانه - : ( فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بهذا الحديث سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ) .

قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا حتى اذا راوا ما يوعدون اما العذاب واما الساعة فسيعلمون من هو شر مكانا واضعف جندا

كما فسرها الوسيط ثم أمر الله - تعالى - رسوله صلى الله عليه وسلم أن يضيف إلى تهديدهم السابق تهديدا آخر فقال : ( قُلْ مَن كَانَ فِي الضلالة فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرحمن مَدّاً . . ) .أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الكافرين المتفاخرين بمساكنهم ومظاهرهم . . . قل لهم : من كان منغمسا فى الضلالة والشقاوة والغفلة . . . فقد اقتضت حكمة الله - تعالى -

أن يمد له العطاء كأن يطيل عمره ويوسع رزقه ، على سبيل الاستدراج والإمهال
، فصيغة الطلب وهى قوله - تعالى - : ( فَلْيَمْدُدْ ) على هذا التفسير . .
المراد بها : الإخبار عن سنة من سنن الله - تعالى - فى خلقه ، وهى أن
، سننه - تعالى - قد اقتضت أن يمهل الضالين ، وأن يزيدهم من العطاء الدنيوى
ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر .قال - تعالى - : ( فَلَمَّا نَسُواْ مَا
ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حتى إِذَا
فَرِحُواْ بِمَآ أوتوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُّبْلِسُونَ
( فَقُطِعَ دَابِرُ القوم الذين ظَلَمُواْ والحمد لِلَّهِ رَبِّ العالمين
وقال - سبحانه - : ( وَلاَ يَحْسَبَنَّ الذين كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي
لَهُمْ خَيْرٌ لأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ ليزدادوا إِثْماً
وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ) وقد صدر الآلوسى تفسيره للآية بهذا التفسير
- فقال ما ملخصه : قوله ( قُلْ مَن كَانَ فِي الضلالة . . . ) أمر منه
تعالى - لرسوله صلى الله عليه وسلم بأن يجيب على هؤلاء المتفاخرين بما لهم
: من الحظوظ الدنيوية . . .وقوله : ( فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرحمن مَدّاً ) أى
يمد - سبحانه - له ويمهله بطول العمر ، وإعطاء المال ، والتمكن من التصرفات
فالطلب فى معنى الخبر واختير للإيذان بأن ذلك مما ينبغى أن يفعل بموجب ،
الحطمة لقطع المعاذير فيكون حاصل المعنى : من كان فى الضلالة فلا عذر له
: فقد أمهله الرحمن ومد له مدا وجوز أن يكون ذلك للاستدراج .وحاصل المعنى
من كان فى الضلالة فعادة الله أن يمد له ويستدرجه .ومن المفسرين من يرى أن
صيغة الطلب وهى ( فَلْيَمْدُدْ ) على بابها ، ويكون المقصود بالآية الدعاء
على الضال من الفريقين بالازدياد من الضلال .وعليه يكون المعنى : قل - أيها
، الرسول الكريم لهؤلاء المتفاخرين ، من كان منا أو منكم على الضلالة
فليزده الله من ذلك ، وكأن الآية الكريمة تأمر الرسول - صلى الله عليه
وسلم - بمباهلة المشركين كما أمره الله - تعالى - فى آية أخرى بمباهلة
اليهود فى قوله :( قُلْ ياأيها الذين هادوا إن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ
أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ الناس فَتَمَنَّوُاْ الموت إِن كُنتُمْ
) - صَادِقِينَ . . . ) وكما أمر الله بمباهلة النصارى فى قوله - سبحانه
فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ العلم فَقُلْ
تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا
وَنِسَآءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل
لَّعْنَتَ الله عَلَى الكذبين ) ومن المفسرين الذين ساروا على هذا التفسير
الإمامان ابن جرير وابن كثير ، فقد قال ابن كثير : يقول - تعالى - ( قُلْ )
) يا محمد لهؤلاء المشركين بربهم المدعين أنهم على الحق وأنكم على الباطل
مَن كَانَ فِي الضلالة ) أى منا ومنكم ( فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرحمن مَدّاً )
فليدعه الله فى طغيانه هكذا ، قرر ذلك أبو جعفر بن جرير ، وهذه مباهلة
للمشركين الذين يزعمون أنهم على هدى فيما هم فيه كما ذكر - تعالى - مباهلة
اليهود والنصارى .ومع وجاهة التفسيرين لمعنى ( فَلْيَمْدُدْ لَهُ . . . )
إلا أنا نميل إلى الرأى الأول وهو أن صيغة الطلب يراد بها الإخبار عن سنة
الله - تعالى - فى الضالين ، لأنه هو المتبادر من معنى الآية الكريمة ولأن
قوله - تعالى - بعد ذلك ( وَيَزِيدُ الله الذين اهتدوا هُدًى ) يؤيد هذا
الرأى .وقوله - سبحانه - : ( حتى إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ . . . )
، متعلق بما قبله .أى : فليمدد له الرحمن مدا على سبيل الاستدراج والإمهال
حتى إذا رأى هؤلاء الكافرون ما توعدهم الله - تعالى - به ، علموا وأيقنوا
- أن الأمر بخلاف ما كانوا يظنون وما كانوا يقولون لأنهم سينزل الله
تعالى - بهم ( إِمَّا العذاب ) الدنيوى على أيدى المؤمنين ( وَإِمَّا
) الساعة ) أى : وإما عذاب الآخرة وهو أشد وأبقى .وحينئذ يعلمون ويوقنون
( مَنْ هُوَ ) من الفريقين ( شَرٌّ مَّكَاناً ) أى : أسوأ منزلا ومسكنا
وَأَضْعَفُ جُنداً ) وأضعف أعوانا وأنصارا .وهذه الجملة الكريمة رد على قول
المشركين قبل ذلك : ( أَيُّ الفريقين خَيْرٌ مَّقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً
) .

ويزيد الله الذين اهتدوا هدى والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير
مردا

. كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( وَيَزِيدُ الله الذين اهتدوا هُدًى
كلام مستأنف مسوق لبيان سنة الله - تعالى - التى لا تتخلف فى المهتدين ( .
بعد بيان سنته فى الضالين .أى : ويزيد الله - تعالى - المهتدين إلى طريق ،
الحق هداية على هدايتهم ، بأن يثبتهم عليه ، كما قال - سبحانه - : ( والذين
) : - اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ) وكما قال - عز وجل
هُوَ الذي أَنزَلَ السكينة فِي قُلُوبِ المؤمنين ليزدادوا إِيمَاناً مَّعَ
إِيمَانِهِمْ . . ) وقوله - تعالى - : ( والباقيات الصالحات خَيْرٌ عِندَ
رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَّرَدّاً ) أى : والأعمال الباقيات الصالحات
كالصلاة والزكاة والصيام والحج وغيرها من أعمال البر ، خير عند ربك ثوابا
: وجزاء مما تمتع به الكفار فى دنياهم من شهوات ( وَخَيْرٌ مَّرَدّاً ) أى

، مرجعا وعاقبة .وقال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف قيل : خير عند ربك ثوابا
: كأن لمفاخراتهم ثوابا ، حتى يعل ثواب الصالحات خيرا منه؟قلت : كأنه قيل
ثوابهم النار على طريقة قوله : تحية بينهم ضرب وجيع ، ثم ينى عليه خير
ثوابا ، وفيه ضرب من التهكم الذى هو أغيظ للمتهدد من أن يقال له : عقابك
النار . .والخلاصة أنه لا ثواب لهؤلاء الكافرين سوى النار ، أما المؤمنون
فثوابهم جنات تجرى من تحتها الأنهار .وقال بعض العلماء : " ويظهر لى فى
الآية جواب آخر أقرب من هذا ، وهو أن الكافر يجازى بعمله الصالح فى الدنيا
. فإذا بر والديه ، ونفس عن المكروب . . . فإن الله يثيبه فى الدنيا ،
فثوابه هذا الراجع إليه من عمله فى الدنيا ، هو الذى فضل عليه ثواب
المؤمنين ، وهذا واضح لا إشكال فيه " .وبذلك نرى الآيات الكريمة ، قد حكت
. جانبا من تباهى الكافرين بديناهم ، وردت عليهم بما يخرس ألسنتهم

افرايت الذي كفر باياتنا وقال لاوتين مالا وولدا

كما فسرها الوسيط ثم ساقت السورة الكريمة بعد ذلك لونا آخر من ألوان تبجحهم
) : - وأقوالهم الباطلة ، وردت عليها بأسلوب منطقي حكيم فقال - تعالى ،
أَفَرَأَيْتَ الذي . . . ) .ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات روايات
منها ما أخرجه البخارى ومسلم عن خباب بن الأرت قال : جئت العاص بن وائل
السهمى أتقاضاه حقا لى عنده ، فقال لى : لا أعطيك حتى تكفر بمحمد - صلى
الله عليه وسلم - فقلت له :لا ، والله لا أكفر بمحمد - صلى الله عليه
وسلم - حيا ولا ميتاولا إذا بعثت ، فقال العاص : فإذا بعثت جئتنى ولى هناك
مال وولد فأعطيك حقك ، فأنزل الله - تعالى - هذه الآيات .وفى رواية أن
رجالا من أصحاب النبى - صلى الله عليه وسلم - أتوا العاص يتقاضون دينا لهم
عليه فقال : ألستم تزعمون أن فى الجنة ذهبا وفضة وحريرا ومن كل الثمرات؟
" قالوا : بلى . قال : " موعدكم الآخرة والله لأوتين مالا وولدا
والاستفهام فى قوله - سبحانه - ( أَفَرَأَيْتَ . . ) للتعجيب من شأن هذا.
الكافر الجهول والفاء للعطف على مقدر يستدعيه المقام ، والتقدير : أنظرت
أيها العاقل فرأيت هذا الجاحد الجهول الذى كفر بآياتنا الدالة على
وحدانيتنا ، وعلى أن البعث حق ، وعلى أن ما جاء به رسولنا - صلى الله عليه
وسلم - حق وصدق . . . .ولم يكتف بهذا الكفر ، بل قال بكل تبجح ، وإصرار على
الباطل ، واستهزاء بالدين الحق : والله ( لأُوتَيَنَّ ) فى الآخرة ( مَالاً
، وَوَلَداً ) كما هو حالى فى الدنيا .فأنت ترى أن هذالكفار لم يكتف بكفره
بل أضاف إليه القول الباطل المصحوب بالقسم الكاذب ، وبالتهكم بالدين الحق
وقرأ حمزة والكسائى : ( لأُوتَيَنّ مَالاً وَوُلْداً ) - بضم الواو.
الثانية وسكون اللام - ، وقرأ الباقون بفتحهما . قالوا : والقراءتان بمعنى
واحد كالعرب والعرُب . ويرى بعضهم الولد بالفتح للمفرد ، والولد - بضم
. الواو وسكون اللام - للجمع

اطلع الغيب ام اتخذ عند الرحمن عهدا

كما فسرها الوسيط وقد رد الله - تعالى - على هذا المتبجح المغرور رداً
حكيما ملزما فقال : ( أَطَّلَعَ الغيب أَمِ اتخذ عِندَ الرحمن عَهْداً
كَلاَّ . . ) .والاستفهام للإنكار والنفى ، والصل : أاطلع فحذفت همزة الوصل
للتخفيف .والمعنى : إن قول هذا الجاهل إما أن يكون مستندا إلى إطلاعه على
الغيب وعلمه بأن الله سيؤتيه فى الآخرة مالا وولدا ، وإما أن يكون مستندا
إلى عهد أعطاه الله - تعالى - له بذلك .ومما لا شك فيه أن كلا الأمرين لم
، يتحققا بالنسبة له ، فهو لم يطلع على الغيب ، ولم يتخذ عند الله عهدا
فثبت كذبه وافتراؤه ، ولذا كذبه الله - تعالى - بقوله ( كَلاَّ ) وهو قول
يفيد الزجر والردع والنفى .أى : كلا لم يطلع على الغيب ، ولم يتخذ عند
. الرحمن عهدا . بل قال ذلك افتراء على الله

كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مدا

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ
( لَهُ مِنَ العذاب مَدّاً وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْداً
بيان للمصير السيىء الذى سيصير إليه هذا الشقى وأمثاله ، و ( وَنَمُدُّ )
، من المد وأكثر ما يستعمل فى المكروه .أى : سنسجل على هذا الكافر ما قاله
ونحاسبه عليه حسابا عسيرا ، ونزيده عذابا فوق العذاب المعد له ، بأن نضاعفه
. له؛ ونطيله عليه ( وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ )

ونرثه ما يقول وياتينا فردا

كما فسرها الوسيط ( وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ )أى : ما يقول إنه يؤتاه يوم
القيامة من المال والولد ، بأن نسلبه منه ، ونجعله يخرج من هذه الدنيا خالى

: الوفاض منهما ، وليس معه فى قبره سوى كفنه ، ( وَيَأْتِينَا فَرْداً ) أى
ويأتينا يوم القيامة بعد مبعثه منفردا بدون مال أو ولد أو خدم أو غير ذلك
مما كان يتفاخر به فى الدنيا هو وأشباهه من المغرورين الجاحدين .قال صاحب
الكشاف : فإن قلت : كيف قيل : سنتكب بسين التسويف وهو كما قاله كتبه من غير
تأخير قال - تعالى : ( مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ
عَتِيدٌ ) قلت : فيه وجهان : أحدهما : سنظهر له ونعلمه أنا كتبنا قوله على
طريقة قول الشاعر :إذا ما انتسبنا لم تلدنى لئيمة ... ولم تجدى من أن تقرى
بها بدا أى : تبين وعلم بالانتساب أنى لم تلدنى لئيمة .والثانى : أن المتوعد
يقول للجانى : سوف أنتقم منك ، يعنى أنه لا يخل بالانتصار وإن تطاول به
الزمان واستأخر ، فجرد ها هنا لمعنى الوعيد . . .

واتخذوا من دون الله الهة ليكونوا لهم عزا

كما فسرها الوسيط ثم تسوق السورة الكريمة بعد ذلك ألوانا أخرى من رذائل
المشركين ، فتحكى اعتزازهم بأوثانهم ، ونثبت عداوة هذه الأوثان لهم يوم
القيامة ، وتبشر المؤمنين برضا الله - تعالى - عنهم . وتنذر الكافرين
بالسوق إلى جهنم . . . قال - تعالى - : ( واتخذوا . . ) .الضمير فى قوله :
يعود إلى أولئك الكافرين الذين ذكر القرآن فيما سبق بعض ( واتخذوا )
رذائلهم ودعاواهم الكاذبة ، ولما تنته بعد .أى : واتخذ هؤلاء الجاهلون آلهة
باطلة يعبدونها من دون الله - تعالى - لتكون لهم تلك الآلهة ( عِزّاً )
أى - لينالوا بها العزة والشفاعة والنصرة والنجاة من عذاب يوم القيامة .فقد
حكى القرآن أنهم كانوا إذا سئلوا عن سبب عبادتهم لهذه الأصنام التى لا تنفع
ولا تضر قالوا : ( مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى الله
زلفى ) وقالوا : ( هؤلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ الله . . . ).

كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا

كما فسرها الوسيط وقد رد الله - تعالى - عليهم بما يردعهم عن هذا الظن لو
كانوا يعقلون فقال : ( كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ
عَلَيْهِمْ ضِدّاً ) .و ( كَلاَّ ) لفظ جىء به لزجرهم وردعهم عن هذا
الاتخاذ الفاسد الباطل . أى : ليس الأمر كما توهم الجاهلون من أن أصنامهم
ستكون لهم عزا ، بل الحق أن هذه المعبودات الباطلة ستكون عدوة لهم .
وقرينتهم فى النار .وشبيه بهذه الآية قوله - تعال - : ( وَمَنْ أَضَلُّ
مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ اللهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ
القيامة وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَافِلُونَ وَإِذَا حُشِرَ الناس كَانُواْ
لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ) وقوله
- سبحانه - : ( إِن تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ
سَمِعُواْ مَا استجابوا لَكُمْ وَيَوْمَ القيامة يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ
وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ) وأفرد - سبحانه - ( عزا وضدا ) مع أن
المراد بهما الجمع . لأنهما مصدران .

الم تر انا ارسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم ازا

كما فسرها الوسيط ثم بين - عز وجل - أن هؤلاء الكافرين قد استحوذت عليهم
الشياطين فزادتهم كفرا على كفرهم ، فقال - تعالى - : ( أَلَمْ تَرَ أَنَّا
أَرْسَلْنَا الشياطين عَلَى الكافرين تَؤُزُّهُمْ أَزّاً فَلاَ تَعْجَلْ
عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً ) .والاستفهام للتقرير والتأكد
و ( تَؤُزُّهُمْ ) تحركهم تحريكا قويا . وتهزهم هزا شديداً ، وتحرضهم على
ارتكاب المعاصى والموبقات حتى يقعوا فيها .يقال : أز فلان الشىء يئزه ويؤزه
بكسر الهمزة وضمها أزا ، إذا حركه بشدة ، وأز فلان فلانا ، إذا أغراه . . .
وهيجه وحثه على فعل شىء معين ، وأصله من أزت القدر تؤز أزيزا ، إذا اشتد
غليان الماء فيها .والمعنى : لقد علمت أنت وأتباعك أيها الرسول الكريم ، لكى
أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين ، وسلطناهم عليهم ، وقيضناهم لهم ،
يحضوهم على ارتكاب السيئات ، ويحركوهم تحريكا شديداً نحو الموبقات حتى
يقترفوها وينغمسوا فيها . . .وما دام الأمر كذلك . فذرهم فى طغيانهم يعمهون
- ولا تتعجل وقوع العذاب بهم . فإن الله - تعالى - قد حدد - بمقتضى حكمته ،
وقتا عينا لنزول العذاب بهم .

فلا تعجل عليهم انما نعد لهم عدا

كما فسرها الوسيط وقوله : ( إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً ) يعنى الأيام
والليالى والشهور والسنين إلى انتهاء أجل العذاب . . . وقال الضحاك : نعد
أنفسهم وقال قطرب : نعد أعمالهم عدا .روى أن المأمون قرأ هذه السورة فمر
بهذه الآية وعنده جماعة من الفقهاء فأشار برأسه إلى ابن السماك أن يعظه ،

، فقال : إذا كانت الأنفاس بالعدد ، ولم يكن له مدد ، فما أسرع ما تنفد
وقيل فى هذا المعنى :حياتك أنفاس تعد فكلما ... مضى نفس منك انتقصت به
جزءايميتك ما يحييك فى كل ليلة ... ويحدوك حاد ما يريد به الهزءاوكان ابن
عباس - رضى الله عنهما - إذا قرأ هذه الآية بكى وقال : آخر العدد : خروج
. نفسك . آخر العدد : فراق أهلك آخر العدد : دخول قبرك

يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - عاقبة المتقين ، وعاقبة المجرمين يوم
القيامة فقال : ( يَوْمَ نَحْشُرُ المتقين إِلَى الرحمن وَفْداً وَنَسُوقُ
المجرمين إلى جَهَنَّمَ وِرْداً لاَّ يَمْلِكُونَ الشفاعة إِلاَّ مَنِ اتخذ
عِندَ الرحمن عَهْداً ) و ( يَوْمَ ) ظرف منصوب بقوله : ( لاَّ يَمْلِكُونَ
أى :لا يملكون الشفاعة يوم نحشر المتقين . . . . ويجوز أن يكون ( . . .
منصوبا بفعل محذوف تقديره : اذكر أو احذر . . .وقوله : ( وَفْداً ) جمع
وافد . يقال : وفد فلان على فلان يفد وفدا ووفودا ، إذا أقدم عليه ، وفعله
من باب وعد .ويطلق الوفد على الجمع من الرجال الذين يفدون على غيرهم لأمر
من الأمور الهامة ، وهم راكبون على دوابهم . وهذا الإطلاق هو المراد باللفظ
هنا .والمعنى : واذكر - أيها العاقل - يوم القيامة ، يوم نحشر المتقين إلى
جنة الرحمن ، ودار كرامته راكبين على مراكب تنشرح لها النفوس وتسر لها
- القلوب .قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : يخبر الله
تعالى - عن أوليائه المتقين ، الذين خافوه فى الدار الدنيا ، واتبعوا رسله
وصدقوهم ، أنه يحشرهم يوم القيامة وفدا إليه . والوفد هم القادمون ركبانا
ومنه الوفود ، وركوبهم على نجائب من نور من مراكب الدار الآخرة . وهم
: قادمون على خير موفود إليه ، إلى دار كرامته ورضوانه .وقال ابن أبى حاتم
حدثنا أبو سعيد الأشج . . . عن ابن مرزوق قال : يستقبل المؤمن عند خروجه من
قبره أحسن صورة رآها ، أطيبها ريحا ، فيقول : نم أنت؟ فيقول : أما تعرفنى؟
فيقول :لا ، إلا أن الله - تعالى - طيب ريحك وحسن وجهك . فيقول : أنا عملك
الصالح . . . فهلم فاركبنى فذلك قوله : ( يَوْمَ نَحْشُرُ المتقين إِلَى
. ( الرحمن وَفْداً

ونسوق المجرمين الى جهنم وردا

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( وَنَسُوقُ المجرمين إلى جَهَنَّمَ
وِرْداً ) بيان لسوء عاقبة المجرمين بعد بيان ما أعده الله للمتقين من نعيم
و ( وِرْداً ) أى : عطاشا . وأصل الورد الإتيان إلى الماء بقصد الارتواء.
منه بعد العطش الشديد .أى : ونسوق المجرمين الذين ارتكبوا الجرائم فى
، دنياهم ، نسوقهم سوقا إلى جهنم كما تساق البهائم . حالة كونهم عطاشا
يبحثون عن الماء فلا يجدونه .والضمير فى قوله - تعالى - : ( لاَّ
) يَمْلِكُونَ الشفاعة . . . ) يرى بعضهم أنه يعود إلى المجرمين فى قوله
وَنَسُوقُ المجرمين . . . ) .أى : نسوق المجرمين إلى جهنم عطاشا ، حالة
كونهم لا يملكون الشفاعة لغيرهم ، ولا يستحقون أن يشفع لهم غيرهم ، لكن من
- اتخذ عند الرحمن عهدا وهم المؤمنون الصادقون فإنهم يملكون بتمليك الله
تعالى - لهم إياهان وإذنه لهم فيها ، كما قال - تعالى - :( مَن ذَا الذي
يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ . . ) وكما قال - سبحانه - : ( وَكَمْ
مِّن مَّلَكٍ فِي السماوات لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلاَّ مِن
بَعْدِ أَن يَأْذَنَ الله لِمَن يَشَآءُ ويرضى ) وعلى هذا التفسير يكون
. الاستثناء منقطعا

لا يملكون الشفاعة الا من اتخذ عند الرحمن عهدا

كما فسرها الوسيط قال القرطبى : " قوله - تعالى - : ( لاَّ يَمْلِكُونَ
الشفاعة ) أى : هؤلاء الكفار لا يملكون الشفاعة لأحد ( إِلاَّ مَنِ اتخذ
عِندَ الرحمن عَهْداً ) وهم المسلمون فيملكونها ، فهو استثناء الشىء من غير
جنسه . أى : لكن من اتخذ عند الرحمن عهداً يشفع ، فمن فى موضع نصب على هذا
ويرى آخرون أن الضمير فى قوله : ( لاَّ يَمْلِكُونَ . . . ) يعود إلى . . .
فريقى المتقين والمجرمين .أى :لا يملك أحد من الفريقين يوم القيامة
) الشفاعة لأحد ، ولا يملك غيرهم الشفاعة لهم ، ( إِلاَّ مَنِ اتخذ ) منهم
عِندَ الرحمن عَهْداً ) وهم المؤمنون فإنهم يملكون بإذن الله لهم .والمراد
بالعهد الأمر والإذن ، يقال : عهد الأمير إلى فلان بكذا ، إذا أمره به . أو
أذن له فى فعله .وعلى هذا يكون الاستثناء متصلاً ، ويكون لفظ ( مَنِ ) بدل
من الواو فى ( يَمْلِكُونَ ) .قال الآلوسى ما ملخصه : " قوله ( لاَّ
يَمْلِكُونَ الشفاعة ) ضمير الجمع يعم المتقين والمجرمين ، أى : العباد
مطلقاً . . . . وقوله ( إِلاَّ مَنِ اتخذ عِندَ الرحمن عَهْداً ) استثناء
متصل . . . . والمعنى :لا يملك العباد أن يشفعوا لغيرهم ، إلا من اتصف

منهم بما يستأهل معه أن يشفع وهو المراد بالعهد . . . " .ويبدو لنا أن هذا القول أولى ، لشموله وعمومه إذ الكلام السابق فى الفريقين جميعاً ، فريق المتقين وفريق المجرمين .

وقالوا اتخذ الرحمن ولدا

كما فسرها الوسيط ثم يستطرد السياق القرآنى ، إلى حكاية أقوال أخرى ، من - أقوال الكافرين الباطلة ، وهى زعمهم أن لله - تعالى - ولدًا ، فقال ) : - سبحانه - : (وَقَالُواْ اتخذ . . . ) .الضمير فى قوله - تعالى وَقَالُواْ ) يشمل كل من تفوه بهذا القول الباطل سواء أكان من اليهود أم من النصارى أم من المشركين .

لقد جئتم شيئا ادا

كما فسرها الوسيط وقوله : ( لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً ) توبيخ وتقريع من الله - تعالى - لهم على هذا القول المنكر .أى : لقد جئتم بقولكم هذا أيها الضالون شيئاً فظيعاً عجيباً منكراً تقشعر لهوله الأبدان .والإد والإدة - بكسر الهمزة - الأمر الفظيع والداهية الكبيرة . يقال : فلان أدته الداهية فهى تئده وتؤده ، إذا نزلت به وحطمت كيانه .

تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( تَكَادُ السماوات يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ . . ) فى موضع الصفة لقوله ( إِدّاً ) .أى : لقد جئتم بقولكم هذا أمراً منكراً فظيعاً ، تكاد السموات ( يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ) أى : يتشققن - من هوله ، من التفطير بمعنى التشقيق ، يقال : فلان فطر هذا الشىء يفطره بكسر الطاء وضمها - إذا شقه . وقرأ حمزة وابن عامر ( يَنْفَطِّرْنَ ) من الانفطار وهو الانشقاق - أيضاً - .( وَتَنشَقُّ الأرض ) أى : وتتصدع الأرض من عظمه ، وتنخسف بهؤلاء القائلين ذلك القول الفاسد ، ( وَتَخِرُّ الجبال : هَدّاً ) أى : وتسقط الجبال مهدودة - أيضاً - من فظاعة هذا القول . يقال : هذا الجدار يهده - بضم الهاء - هداً : إذا هدمه .

ان دعوا للرحمن ولدا

كما فسرها الوسيط وقوله : ( أَن دَعَوْا للرحمن وَلَداً وَمَا يَنبَغِي للرحمن أَن يَتَّخِذَ وَلَداً ) بمنزلة التعليل لما قبله مع تقدير لام التعليل المحذوفة .أى : تكاد السموات يتفطرن والأرض تتشقق ، والجبال تنهد ، لأن هؤلاء الضالين قد زعموا أن الله - تعالى - ولدا ، والحال أنه ما يصح أن يتخذ الرحمن ولدا ، لأنه - سبحانه - غنى عن العالمين .قال صاحب الكشاف ما ملخصه : " إن قلت : ما معنى هذا التأثر من أجل هذه الكلمة؟قلتك فيه وجهان : أحدهما أن الله - سبحانه - يقول : كدت أفعل هذا بالسموات والأرض والجبال عند وجود هذه الكلمة غضبا منى على من تفوه بها . . . لولا أنى لا أعجل بالعقوبة . . . .والثانى : أن يكون استعظاماً للكلمة ، وتهويلاً من فظاعتها وتصويراً لأثرها فى الدين ، وهدمها لأركانه وقواعده ، وأن مثال ذلك الأثر فى المحسوسات : أن يصيب هذه الأجرام العظيمة التى هى قوام العالم : ما . . . تنفطر منه وتنشق وتخر . " .

وما ينبغي للرحمن ان يتخذ ولدا

- كما فسرها الوسيط وقال الإمام القرطبى : " نفى عن نفسه - سبحانه وتعالى الولد ، لأن الولد يقتضى الجنسية والحدوث . . . ولا يليق به ذلك ، ولا يوصف به ، ولا يجوز فى حقه . . .وروى البخارى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : يقول الله - تبارك وتعالى - كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمنى ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياى فقوله : لن يعيدنى كما بدأنى . وليس أول الخلق بأهون على من إعادته .وأما شتمه إياى قوله : اتخذ الله ولداً وأنا الأحد الصمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد " .

ان كل من في السماوات والارض الا اتي الرحمن عبدا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن جميع المخلوقات خاضعة لقدرته وإرادته وعلمه فقال : ( إِن كُلُّ مَن فِي السماوات والأرض إِلاَّ آتِي الرحمن عَبْداً . . . ) .و ( إِن ) نافية بمعنى ما ، أى : ما من أحد من أهل السموات والأرض إلا وهو يأتى يوم القيامة مقراً له - سبحانه - بالعبودية ،

خاضعاً لقدرته ، معترفاً بطاعته . مقراً بأنه بعد من مخلوقاته . ومن كان كذلك فكيف يكون له ولد؟وصدق الله إذ يقول : ( بَدِيعُ السماوات والأرض أنى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ).

لقد احصاهم وعدهم عدا

كما فسرها الوسيط ثم أكد - سبحانه - أنه هو المالك لكل شىء ، والعليم بكل شىء فقال : ( لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ ) .أى : حصرهم وأحاط بهم ، بحيث لا يخرج أحد من مخلوقاته عن علمه وطاعته ( وَعَدَّهُمْ عَدّاً ) أى : وعد أشخاصهم وذواتهم وحركاتهم وسكناتهم . . . بحيث لا يهربون من قبضته ، ولا يخفى عليه أحد منهم . .

وكلهم اتيه يوم القيامة فردا

كما فسرها الوسيط ( وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ القيامة فَرْداً ) أى : وكل واحد يأتيه - سبحانه - يوم القيامة منفرداً ، بدون أهل أو مال أو جاه أو غير ذلك مما كانوا يتفاخرون به فى الدنيا .وبذلك تكون الآيات الكريمة قد ردت أبلغ رد وأحكمه . على أولئك الضالين الذين زعموا أن لله ولداً .

ان الذين امنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ببيان ما أعده لعباده المؤمنين وببيان بعض الخصائص التى جعلها لكتابه الكريم . . . فقال - تعالى - : ( إِنَّ الذين آمَنُواْ . . . ) .أى : إن الذين امنوا بالله تعالى - حق الإيمان ، وعملوا الأعمال الصالحات ( سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرحمن ، فى دنياهم وفى آخرتهم ( وُدّاً ) أى : سيجعل لهم محبة ومودة فى القلوب ( لإيمانهم وعملهم الصالح ، يقال : ود فلان فلانا ، إذا أحبه وأخلص له المودة وروى الإمام مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " إن الله - تعالى - إذا أحب عبدا دعا جبريل فقال : يا جبريل إنى أحب فلاناً فأحبه . قال : فيحبه جبريل . ثم ينادى فى أهل السماء : إن الله يحب فلاناً فأحبوه . قال : فيحبه أهل السماء . ثم يوضع له القبول فى الأرض ، وإن الله إذا أبغض عبداً دعا جبريل فقال : يا جبريل إنى أبغض فلاناً فأبغضه . قال : فيبغضه جبريل ثم ينادى فى أهل السماء إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه .قال : فيبغضه أهل السماء ، ثم توضع له البغضاء فى الأرض " .

فانما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - الحكمة التى من أجلها جعل القرآن ميسرا فى حفظه وفهمه فقال : ( فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ المتقين وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدّاً ) .أى : إننا أنزلنا هذا القرآن على قلبك - أيها الرسول الكريم - وجعلناه بلسانك العربى المبين ، وسهلنا حفظه وفهمه على الناس ، ( لِتُبَشِّرَ بِهِ المتقين ) الذين امتثلوا أمرنا واجتنبوا نهينا ( وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدّاً ) أى : ذوى لدد وشدة فى الخصومة بالباطل ، وهم مشركو قريش فقوله ( لُّدّاً ) جمع ألد ومنه قوله - تعالى - : ( وَمِنَ الناس مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الحياة الدنيا وَيُشْهِدُ الله على مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الخصام ) أى : - أشد الناس خصومة وجدلاً .وشبيه بهذه الآية الكريمة قوله - تعالى - : ( وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرآن لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ) وقوله - سبحانه - : ( فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ) .

وكم اهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من احد او تسمع لهم ركزا

`<!-- TODO:MISSING -->`{=html} كما فسرها الوسيط

طه

كما فسرها الوسيط افتتحت السورة الكريمة بلفظ ( طه ) ، وهذا اللفظ أظهر الأقوال فيه أنه من الحروف المقطعة التى افتتحت بها بعض سور القرآن الكريم ، وقد بينا بشىء من التفصيل عند تفسيرنا لسور : البقرة ، وآل عمران. والأعراف ، ويونس . . . آراء العلماء فى المقصود بهذه الحروف .وقلنا ما خلاصته : لعل أقرب الأقوال إلى الصواب ، أن هذه الحروف المقطعة قد وردت فى

افتتاح بعض سور القرآن الكريم ، على سبيل الإيقاظ والتنبيه والتعجيز لمن
- عارضوا فى كون القرآن من عند الله - تعالى - ، أو فى كونه معجزة للنبى
صلى الله عليه وسلم - دالة على صدقه فيما يبلغه عن ربه .وقيل : إن هذا
اللفظ بمعنى يا رجل فى لغة بعض قبائل العرب . .وقيل : إنه اسم للرسول - صلى
الله عليه وسلم - أو للسورة . . . إلى غير ذلك من الأقوال التى رأينا أن
نضرب عنها صفحا لضعفها .

ما انزلنا عليك القران لتشقى

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ القرآن
لتشقى إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يخشى ) .استئناف مسوق لتسلية الرسول - صلى
الله عليه وسلم - عما أصابه من المشركين ، والشقاء يأتى فى اللغة بمعنى
التعب والعناء ، ومنه المثل القائل " أشقى من رائض مهر " أى : أتعب . ومنه
قول ابى الطيب المتنبى :ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله ... وأخو الجهالة فى
الشقاوة ينعمأى : ما أنزلنا عليك القرآن - أيها الرسول الكريم - لكى تتعب
) : - وتجهد نفسك هما وغما بسبب إعراض المشركين عن دعوتك ، كما قال - تعالى
فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ على آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بهذا
الحديث أَسَفاً ) وإنما أنزلناه إليك لتسعد بنزوله ، ولتبلغ آياته ، ثم بعد
ذلك من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، فأنت عليك البلاغ ونحن علينا الحساب
ومنهم من يرى أن المقصود بالآية النهى عن المغالاة فى العبادة ، فقد أثر.
: عنه - صلى الله عليه وسلم - أنه قام الليل حتى تورمت قدماه فيكون المعنى
ما أنزلنا عليك القرآن لكى تهلك نفسك بالعبادة ، وتذيقها ألوان المشقة
والتعب ، فإن الله - تعالى - يريد بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ، وما جعل
، عليكم فى الدين من حرج .ومنهم من يرى أن الآية مسوقة للرد على المشركين
الذين قالوا : ما أنزل هذا القرآن على محمد - صلى الله عليه وسلم - إلا
" : ليشقى ، فيكون المراد بالشقاء ما هو ضد السعادة .قال القرطبى ما ملخصه
، وأصل الشقاء فى اللغة العناء والتعب ، أى : ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب
بسبب فرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم . . . أى : ما عليك إلا أن تبلغ وتنذر
وروى أن أبا جهل والنضر بن الحارث قالا للنبى - صلى الله عليه وسلم - إنك.
لتشقى لأنك تركت دين آبائك ، فأريد الرد على ذلك بأن دين الإسلام ، وهذا
القرآن هو السلم إلى نيل كل فوز ، والسبب فى درك كل سعادة ، وما فيه الكفرة
هو الشقاوة بعينها .وروى أنه - عليه الصلاة والسلام - صلى بالليل حتى
اسمندّت قدماه - أى : تورمت - فقال له جبريل : أبق على نفسك فإن لها عليك
حقا ، أى : ما أنزلنا عليك القرآن لتنهك نفسك فى العبادة ، وتذيقها المشقة
الفادحة ، وما بعثت إلا بالحنيفية السمحة . .ويبدو لنا أن الآية الكريمة
، وإن كانت تتسع لهذه المعانى الثلاثة ، إلا أن المعنى الأول أظهرها
. وأقربها إلى سياق الآيات الكريمة

الا تذكرة لمن يخشى

كما فسرها الوسيط فإن قوله - تعالى - بعد ذلك : ( إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن
يخشى ) بيان للحكمة التى من أجلها أنزل الله - تعالى - هذا القرآن .أى : ما
، أنزلنا عليك يا محمد هذا القرآن لتتعب من فرط تأسفك على كفر الكافرين
وإنما أنزلناه من أجل أن يكون ( تَذْكِرَةً ) أى موعظة تلين لها قلوب من
يخشى عقابنا ، ويخاف عذابنا ، ويرجو ثوابنا .وما دام الأمر كذلك فامض فى
، طريقك ، وبلغ رسالة ربكظ ، ثم بعد ذلك لا تتعب نفسك بسبب كفر الكافرين
فإنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء .وخص - سبحانه - التذكرة بمن
يخشى دون غيره ، لأن الخائف من عذاب الله - تعالى - هو وحده الذى ينتفع
بهدايات القرآن الكريم وآدابه وتوجيهاته وأحكامه ووعده ووعيده . . كما
- قال - تعالى - : ( فَذَكِّرْ بالقرآن مَن يَخَافُ وَعِيدِ ) وكما قال
. سبحانه - : ( إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ) أى : الساعة

تنزيلا ممن خلق الارض والسماوات العلى

- كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - مصدر القرآن الذي أنزله - تعالى
للسعادة لا للشقاء فقال : ( تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأرض والسماوات
العلى ) .وقوله ( تَنزِيلاً ) منصوب بفعل مضمر دل عليه قوله ( مَآ
أَنزَلْنَا . . ) . أى : نزل هذا القرآن تنزيلا ممن خلق الأرض التى تعيشون
، عليها ، وممن خلق السموات العلى ، أى : المرتفعة . جمع العليا ككبرى وكبر
. وصغرى وصغر

الرحمن على العرش استوى

كما فسرها الوسيط ثم مدح - سبحانه - ذاته بقوله : ( الرحمن عَلَى العرش

استوى ) أى : الرحمن - عز وجل - استوى على عرش ملكه استواء يليق بذاته بلا كيف أو تشبيه ، أو تمثيل .قال الإمام مالك : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .وقد ذكر لفظ العرش فى إحدى وعشرين ية من آيات القرآن الكريم .قال بعض العلماء : " أما الاستواء على العرش فذهب سلف الأمة - ومنهم الأئمة الأربعة - إلى أنه صفة لله - بلا كيف ولا انحصار ولا تشبيه ولا تمثيل؟ لاستحالة اتصافه - تعالى - بصفات المحدثين ، ولوجوب تنزيهه - تعلاى - عما لا يليق به : ( لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السميع البصير ) وأنه يجب الإيمان بها كما وردت ، وتفويض العلم بحقيقتها إليه - تعالى - .

له ما في السماوات وما في الارض وما بينهما وما تحت الثرى

كما فسرها الوسيط ثم أكد - سبحانه - شمول ملكه وقدرته فقال : ( لَهُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض ) من كائنات وموجودات ملكا وتصرفا وإيحاء وإماتة ، وله ( مَا بَيْنَهُمَا ) من مخلوقات لا يعلمها إلا هو وله ( مَا تَحْتَ الثرى ) والثرى : هو التراب الندى . يقال : ثريت الأرض - كرضيت - إذا نديت ولانت بعد أن كانت جدباء يابسة .والمقصود : وله - سبحانه - بجانب ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما ، ما وراء الثرى وهو تخوم الأرض وطبقاتها إلى نهايتها .وخص - سبحانه - ما تحت الثرى بالذكر ، مع أنه داخل فى قوله : ( وَمَا فِي الأرض ) لزيادة التقرير ، ولتأكيد شمول ملكيته - سبحانه - لكل شىء .

وان تجهر بالقول فانه يعلم السر واخفى

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَإِن تَجْهَرْ بالقول فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السر وَأَخْفَى ) بيان لشمول علمه بكل شىء ، بعد بيان شمول قدرته والجهر بالقول : رفع الصوت به . والسر : ما حدث به الإنسان غيره بصورة. - خفية . وأخفى أفعل تفضيل وتنكيره للمبالغة فى الخفاء .والمعنى : وإن تجهر أيها الرسول - بالقول فى دعائك أو فى مخاطبتك لربك ، فربك - عز وجل - غنى عن ذلك ، فإنه يعلم ما يحدث به الإنسان غيره سرا ، ويعلم أيضا ما هو أخفى - من ذلك وهو ما يحدث به الإنسان نفسه دون أن يطلع عليه أحد من الخلق .قال تعالى - : ( وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أو اجهروا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللطيف الخبير ) وقال - سبحانه - : ( وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوريد ) ومنهم من يرى أن لفظ ( أَخْفَى ) فعل ماض . فيكون المعنى : وإن تجهر بالقول فى ذكر أو دعاء فلا تجهد نفسكبذلك فإنه - تعالى - يعلم السر لاذى يكون بين اثنين ، ويعلم ما أخفاه - سبحانه - عن عباده من غيوب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما سيفعله الإنسان من أعمال فى المستقبل ، قبل أن يعلم هذا الإنسان أنه سيفعلها .قال الجمل : وقوله : ( أَخْفَى ) جوزوا فيه وجهين : أحدهما : أنه أفعل تفضيل أى : وأخفى من السر . والثانى : أنه فعل ماض . أى : وأخفى الله من عباده غيبه ، كقوله : ( وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً ).

الله لا اله الا هو له الاسماء الحسنى

كما فسرها الوسيط ثم أثنى - سبحانه - على ذاته بما هو أهل له فقال : ( الله لا إله إِلاَّ هُوَ لَهُ الأسمآء الحسنى ) .أى : هو الله - تعالى - وحده الذى يجب أن يخلص الخلق له العبادة والطاعة ولا أحد غيره يستحق ذلك ، وهو صاحب الأسماء ( الحسنى ) أى : الفضلى والعظمى ، لدلالتها على معانى التقديس والتمجيد والتعظيم والنهاية فى السمو والكمال .وفى الحديث الصحيح عن النبى - صلى الله عليه وسلم - :" إن لله تسعة وتسعين اسما ، من أحصاها دخل الجنة " .قال - تعالى - : ( وَلِلَّهِ الأسمآء الحسنى فادعوه بِهَا وَذَرُواْ الذين يُلْحِدُونَ في أَسْمَآئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ) وقال - سبحانه - ( قُلِ ادعوا الله أَوِ ادعوا الرحمن أَيّاً مّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأسمآء الحسنى . . ) ثم ساقت السورة الكريمة بشىء من التفصيل جانبا من قصة موسى ، التى تعتبر أكثر قصص الأنبياء ورودا فى القرآن الكريم ، حيث جاء الحديث عنها فى سور : البقرة ، والمائدة ، والأعراف ، ويونس ، والإسراء ، والكهف ، والشعراء ، والقصص .

وهل اتاك حديث موسى

- كما فسرها الوسيط وقد بدأت السورة حديثها عن قصة موسى ببيان اختيار الله تعالى - له لحمل رسالته ، وتبليغ دعوته قال - تعالى - : ( وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ . . . ) .قال ابن كثير - رحمه الله - : " من ها هنا شرع - تبارك

، وتعالى - فى ذكر قصة موسى ، وكيف كان ابتداء الوحى إليه وتكليمه إياه وذلك بعد ما قضى موسى الأجل الذى كان بينه وبين صهره فى رعاية الغنم وسار بأهله ، قاصدا بلاد مصر بعد ما طالت الغيبة عنها أكثر من عشر سنين ، ومعه زوجته فاضل الطريق ، وكانت ليلة شاتية ، ونزل منزلا بين شعاب وجبال ، فى برد وشتاء ، وسحاب وظلال وضباب ، وجعل يقدح بزند معه ليُورِى نارا ، كما جرت العادة به ، فجعل لا يقدح شيئا ، ولا يخرج منه شرر ولا شىء ، فبينما هو كذلك ، إذ آنس من جانب الطور نارا .

اذ راى نارا فقال لاهله امكثوا اني انست نارا لعلي اتيكم منها بقبس او اجد على النار هدى

، كما فسرها الوسيط أى : ظهرت له نار من جانب الجبل الذى هناك عن يمينه فقال لأهله يبشرهم : ( . . امكثوا إني آنَسْتُ نَاراً لعلي آتِيكُمْ : - مِّنْهَا بِقَبَسٍ ) أى : شهاب من نار . والاستفهام فى قوله - سبحانه لتقرير الخبر وتثبيته ، وهذا أبلغ عن مجيئه بصورة ( . . . وَهَلْ أَتَاكَ ) الخبر المجرد . لأن فى الاستفهام التقريرى تطلع واشتياق لمعرفة الخبر - والجملة الكريمة مستأنفة لتأكيد ما سبق الحديث عنه من وحدانية الله. تعالى - ولتسلية الرسول - صلى الله عليه وسلم - عما اصابه من قومه . ببيان جانب من جهاد أخيه موسى - عليه السلام - .والمعنى : لقد أتاك - أيها الرسول ) الكريم - خبر أخيك موسى ، وقت أن رآى نارا وهو عائد ليلا من مدين إلى مصر فَقَالَ لأَهْلِهِ ) أى لامرأته ومن معها ( امكثوا ) أى : أقيموا فى مكانكم ولا تبرحوه حتى أعود إليكم .وجملة ( إني آنَسْتُ نَاراً ) تعليل الأمر بالمكوث ، وآنست من الإيناس بمعنى الإبصار الواضح الجلى . أى : إنى أبصرت إبصارا بينا لا شبهة فيه نارا على مقربة منى ، فامكثوا فى أماكنكم ( لعلي آتِيكُمْ مِّنْهَا بِقَبَسٍ ) .والقبس : الشعلى التى تؤخذ من النار فى طرف عود أو نحوه . ووزنه فعل - بفتح العين - بمعنى مفعول أى : لعلى آتيكم من هذه النار بشعلة مقتبسة منها ، ومأخوذة عنها .وقوله : ( أَوْ أَجِدُ عَلَى النار هُدًى ) معطوف على ما قبله .أى : امكثوا فى مكانكم حتى أذهب إلى النار التى شاهدتها ، لعلى آتيكم منها بشعلة ، أو أجد عندها هاديا يهدينى إلى الطريق الذى أسلكه لكى أصل إلى المكان الذى أريده .فقوله ( هُدًى ) مصدر بمعنى اسم الفاعل أى : هاديا .وقد دلت آية أخرى على أن موسى قد ذهب - إلى النار ليأتى منها بما يدفىء أهله من البرد .وهذه الآية هي قوله تعالى - : ( فَلَمَّا قضى مُوسَى الأجل وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطور نَاراً قَالَ لأَهْلِهِ امكثوا إني آنَسْتُ نَاراً لعلي آتِيكُمْ مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النار لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ )

فلما اتاها نودي يا موسى

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما حدث لموسى بعد أن اقترب من النار فقال : ( فَلَمَّآ أَتَاهَا نُودِيَ ياموسى إني أَنَا رَبُّكَ فاخلع نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بالواد المقدس طُوًى ) .أى : فلما أتى موسى - عليه السلام - إلى النار ، واقترب منها . . . ( نُودِيَ ) من قبل الله - عز وجل - ( ياموسى إني أَنَا رَبُّكَ ) الذى خلقك فسواك فعدلك . . . ( فاخلع نَعْلَيْكَ ) تعظيما لأمرنا . وتأدبا فى حضرتنا .وقوله ( إِنَّكَ بالواد المقدس طُوًى ) تعليل للأمر بخلع النعل ، أى : أزل نعليك من رجليك لأنك الآن موجود بالوادى ( المقدس ) أى : المظهر المبارك ، المسمى طوى : فهو عطف بيان من الوادى .

اني انا ربك فاخلع نعليك انك بالواد المقدس طوى

`<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html} كما فسرها الوسيط

ثم بين - سبحانه - ما حدث لموسى بعد أن اقترب من النار فقال : ( فَلَمَّآ أَتَاهَا نُودِيَ ياموسى إني أَنَا رَبُّكَ فاخلع نَعْلَيْكَ إِنَّكَ ، بالواد المقدس طُوًى ) .أى : فلما أتى موسى - عليه السلام - إلى النار واقترب منها . . . ( نُودِيَ ) من قبل الله - عز وجل - ( ياموسى إني أَنَا رَبُّكَ ) الذى خلقك فسواك فعدلك . . . ( فاخلع نَعْلَيْكَ ) تعظيما لأمرنا وتأدبا فى حضرتنا .وقوله ( إِنَّكَ بالواد المقدس طُوًى ) تعليل للأمر . بخلع النعل ، أى : أزل نعليك من رجليك لأنك الآن موجود بالوادى ( المقدس ) أى : المظهر المبارك ، المسمى طوى : فهو عطف بيان من الوادى .

وانا اخترتك فاستمع لما يوحى

كما فسرها الوسيط ( وَأَنَا اخترتك ) أى : اصطفيتك من بين أفراد قومك لحمل رسالتى ، وتبليغ دعوتى ( فاستمع لِمَا يوحى ) إليك منى ، ونفذ ما آمرك به .

انني انا الله لا اله الا انا فاعبدني واقم الصلاة لذكري

كما فسرها الوسيط ( إننى أَنَا الله لا إله إلا أَنَاْ ) مستحق للعبادة والطاعة والخضوع ( فاعبدني ) عبادة خالصة لوجهى .( وَأَقِمِ الصلاة ) التى هى من أشرف العبادات ، وأفضل الطاعات ( لذكري ) أى : وأدم إقامة الصلاة بخشوع وإخلاص ، ليشتد تذكرك لى ، واتصالك بى ، وذلك لأن الصلاة مشتملة على الكثير من الأذكار التى فيها الثناء على ذاتى وصفاتى .أو المعنى : وأدم الصلاة لذكرى خاصة ، بحيث تكون خالصة لوجهى ، ولا رياء فيها لأحد .قال الآلوسى ما ملخصه : قوله : ( لذكري ) الظاهر أنه متعلق بأقم ، أى : أقم الصلاة لذكرى فيها لاشتمالها على الأذكار . وقيل : المراد أقم الصلاة لذكرى خاصة لا ترائى بها ولا تشوبها بذكر غيرى . . . أو لكى أذكرك بالثناء وأثيبك بها . أو لذكرى إياها فى الكتب السماوية وأمرى بها . أو لأوقات ذكرى وهى مواقيت الصلاة . فاللام وقتية بمعنى عند؛ مثلها فى قوله - تعالى - ( يَقُولُ ياليتني قَدّمْتُ لِحَيَاتِي ) ومن الناس من حمل الذكر على ذكر الصلاة بعد نسيانها . والمراد : أقم الصلاة عند تذكرها .ففى الحديث الصحيح : " من نام عن صلاة أو نسيها . فكفارتها أن يصليها إذا ذكرها ، لا كفارة لها إلا ذلك . . . " .وخص - سبحانه - الصلاة بالذكر مع أنها داخلة فى العبادة المأمور بها فى قوله ( فاعبدني ) على سبيل التشريف والتكريم ، إذ الصلاة أكمل وسيلة توصل الإنسان إلى مداومة ذكر الله - تعالى - وخشيته ، لاشتمالها على ألوان متعددة من صور العبادة والطاعة ، إذ فيها قراءة للقرآن الكريم ، وفيها الصلاة على النبى - صلى الله عليه وسلم - وفيها تسبيح الله وتمجيده .

ان الساعة اتية اكاد اخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن الساعة آتية لا ريب فيها فقال : إِنَّ الساعة آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لتجزى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تسعى ( فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لاَّ يُؤْمِنُ بِهَا واتبع هَوَاهُ فتردى : أى : إن الساعة التى هى وقت البعث والحساب والثواب والعقاب ، آتية أى. كائنة وحاصلة لا شك فيها .وقوله ( أَكَادُ أُخْفِيهَا ) أى : أقرب أن أخفى وقتها ولا أظهره لا إجمالا ولا تفصيلا ، ولولا أن فى إطلاع أصفيائى على بعض علاماتها فائدة ، لما تحدثت عنها .قالوا : " والحكمة فى إخفاء الساعة ، وإخفاء وقت الموت ، أن الله - تعالى - وعد بعدم قبول التوبة عند قربهما فلو عرف وقت الموت لاشتغل بالمعصية إلى قرب ذلك الوقت ثم يتوب ، فيتخلص من عقاب المعصية فتعريف الموت كالإغراء بفعل المعصية ، وهو لا يجوز .قال الآلوسى ما ملخصه : وقوله : ( أَكَادُ أُخْفِيهَا ) أقرب أن أخفى الساعة ولا أظهرها ، بأن أقول إنها آتية . . . أو أريد إخفاء وقتها المعين وعدم إظهاره . . . فكاد بمعنى أراد ، وإلى هذا ذهب الأخفش وغيره . . . وروى عن ابن عباس أن المعنى : أكاد أخفيها من نفسى ، فكيف أظهركم عليها . . وهذا محمول على ما جرت به عادة العرب من أن أحدهم إذا أراد المبالغة فى كتمان الشىء قال : كدت أخفيه عن نفسى .وقال أبو على : المعنى أكاد أظهرها بأن أوقعها ، وهذا بناء على أن أخفيها من ألفاظ السلب بمعنى أزيل خفاءها . . ويبدو لنا أن الإخفاء هنا على حقيقته ، وأن المقصود من الآية الكريمة. إخفاء وقت مجىء الساعة من الناس ، حتى يكونوا على استعداد لمجيئها عن طريق العمل الصالح الذى ينفعهم يوم القيامة .فحكمة الله - تعالى - اقتضت إخفاء وقت الساعة ، وعدم إطلاع أحد عليها إلا بالمقدار الذى يأذن الله - تعالى - به لرسله .قال الإمام ابن جرير ما ملخصه : " والذى هو أولى بتأويل الآية من القول : قول من قال معناه : أكاد أخفيها من نفسى . . . لأن المعروف من معنى الإخفاء فى كلام العرب : التسر . يقال : قد أخفيت الشىء إذا سترته . . . وإنما اخترنا هذا القول على غيره لموافقته أقوال أهل العلم من الصحابة والتابعين .وقوله : ( لتجزى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تسعى ) متعلق بآتية ، وجملة ( أَكَادُ أُخْفِيهَا ) ، معترضة بينهما .أى : إن الساعة آتية لا ريب فيها لكى تجزى كل نفس على حسب سعيها وعملها فى الدنيا .قال - تعالى - : ( وَمَنْ أَرَادَ الآخرة وسعى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مّشْكُوراً ) وقال - سبحانه - : ( فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ شَرّاً يَرَهُ ) .

فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى

كما فسرها الوسيط ثم حذر - سبحانه - من عدم الاستعداد للساعة . ومن الشك فى

إتيانها فقال : ( فَلاَ يَصُدّنّكَ عَنْهَا ) أى : فلا يصرفنك عن الإيمان
بها ، وعن العمل الصالح الذى ينفعك عند مجيئها ( مَن لاَّ يُؤْمِنُ بِهَا )
من الكافرين والفاسقين ( واتبع هَوَاهُ ) فى إنكارها وفى تكذيب ما يكون
فيها من ثواب أو عقاب ( فتردى ) أى : فتهلك ، إن أنت أطعت هذا الذى لا يؤمن
بها . يقال : ردى فلان - كرضى - إذا هلك ، وأرداه غيره إذا أهلكه .فالآية
الكريمة تحذير شديد من اتباع المنكرين لقيام الساعة والمعرضين عن الاستعداد
لها ، بعد أن أكد - سبحانه - فى آيات كثيرة أن الساعة آية لا ريب فيها
قال - تعالى - : ( ذلك بِأَنَّ الله هُوَ الحق وَأَنَّهُ يُحْيِي الموتى.
وَأَنّهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنّ الساعة آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ
فِيهَا وَأَنّ الله يَبْعَثُ مَن فِي القبور ) وبذلك نرى هذه الآيات
الكريمة قد أثبتت وحدانية الله - تعالى - كما فى قوله : ( إنني أنَا الله
لا إله إلا أَنَاْ ) كما أثبتت وجوب التوجه إليه وحده بالعبادة كما فى
قوله - سبحانه - : ( فاعبدني وَأَقِمِ الصلاة لذكري ) . كما أثبتت أن يوم
- القيامة لا شك فى إتيانه فى الوقت الذى يريده الله - تعالى - . كما قال
. عز وجل - : ( إِنّ الساعة آتِيَةٌ . . . )

وما تلك بيمينك يا موسى

- كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعض التوجيهات والأوامر التى وجهها
- عز وجل - إلى نبيه موسى - عليه السلام - كما حكى ما التمسه موسى من خالقه
- تعالى - فقال : ( وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ . . . ) .الاستفهام فى قوله
- تعالى - : ( وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ ياموسى ) للتقرير ، لأن الله
تعالى - عالم بما فى يمين موسى ، فالمقصود من هذا السؤال اعتراف موسى
- وإقراره بأن ما في يده إنما هى عصا فيزداد بعد ذلك يقينه بقدرة الله
تعالى - عندما يرى العصا التى بيمينه قد انقلبت حية تسعى .قال صاحب الكشاف
إنما سأله - سبحانه - ليريه عظم ما يخترعه - عز وعلا - فى الخشبة اليابسة :
من قلبها حية نضاضة - أى تحرك لسانه فى فمها - ، وليقرر فى نفسه المباينة
. البعيدة بين المقلوب عنه ، والمقلوب إليه ، وينبهه على قدرته الباهرة
ونظيره أن يريك الزراد زبرة من حديد - أي قطعة من حديد - ويقول لك : ما هى؟
فتقول : زبرة حديد . ثم يريك بعد أيام لبوسا مسردا فيقول لك : هى تلك
الزبرة صيرتها إلى ما ترى من عجيب الصنعة ، وأنيق السرد . . .والآية
الكريمة : شروع فى بيان ما كلف الله - تعالى - به عبده موسى - عليه
السلام - من الأمور المتعلقة بالخلق ، إثر حكاية ما أمر - سبحانه - به موسى
. من إخلاص العبادة له ، والإيمان بالساعة وما فيها من حساب وثواب وعقاب

قال هي عصاي اتوكا عليها واهش بها على غنمي ولي فيها مارب اخرى

كما فسرها الوسيط والمعنى : وأى شىء بيدك اليمنى يا موسى؟ فأجاب موسى
بقوله - كما حكى القرآن عنه ( قَالَ هِيَ عَصَايَ ) أى : الشىء الذى بيمينى
هو عصاى . . . ونسبها إلى نفسه لزيادة التحقق والتثبت من أنها خاصة به
: وكائنة بيده اليمنى .ثم بين وظيفتها فقال : ( أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا ) أى
: أعتمد عليها لتساعدنى فى حال السير ( وَأَهُشُّ بِهَا على غَنَمِي ) أى
وأضرب بها الشجر اليابس ليسقط ، ورقة فترعاه أغنامى . يقال هش فلان الشجرة
بالعصا - من باب رد - فهو يهشها هشا ، إذا ضربها بعصاه أو بما يشبهها
ليتساقط ورقها . ومفعول أهش محذوف . أي : وأهش بها الشجر والورق .( وَلِيَ
. فِيهَا مَآرِبُ أخرى ) والمآرب : جمع مأربة - بتثليث الراء - بمعنى حاجة
تقول :لا آرَب لى في هذا الشىء ، أى :لا حاجة لى فيه .أى : ولى فى هذه
العصا حاجات أخرى ، ومنافع غير التى ذكرتها .وقد كان يكفى موسى - عليه
السلام - فى الجواب أن يقول : هى عصاى ، ولكنه أضاف إلى ذلك أتوكأ عليها
وأهش بها على غنمى . . . لأن المقام يستدعى البسط والإطالة فى الكلام ، إذ
هو مقام حديث العبد مع خالقه ، والحبيب مع حبيبه .وأجمل فى قوله : ( وَلِيَ
، فِيهَا مَآرِبُ أخرى ) إما حياء من الله - تعالى - لطول الكلام فى الجواب
وإما رجاء أن يسأل عن هذه المآرب المجملة ، فيجيب عنها بالتفصيل تلذذا فى
، الخطاب .قال القرطبى : وفى هذه الآية دليل على جواب السؤال بأكثر مما سئل
: لأنه لما قال : ( وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ ياموسى ) ذكر معانى أربعة وهى
إضافة العصا إليه ، وكان حقه أن يقول عصا ، والتوكؤ ، والهش ، والمآرب
المطلقة .فذكر موسى من منافع عصاه معظمها .وفى الحديث : سئل النبى - صلى
" الله عليه وسلم - عن ماء البحر فقال : " هو الطهور ماؤه الحل ميتته
وسألته امرأة عن الصغير حين رفعته إليه فقالت : " ألهذا حج؟ قال : " نعم
ولك أجر " " .وقال الإمام ابن كثير عند تفسيره لقوله ( وَلِيَ فِيهَا
: مَآرِبُ أخرى ) وقد تكلف بعضهم لذكر شىء من تلك المآرب التى أبهمت ، فقيل
كانت تضىء له بالليل ، وتحرس له الغنم إذا نام ، ويغرسها فتصير شجرة تظلله
وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة .والظاهر أنها لم تكن كذلك ، ولو كانت ،
كذلك لما استنكر موسى صيرورتها ثعبانا ، ولما فر منها هاربا ، ولكن كل ذلك

من الأخبار الإسرائيلية .

قال القها يا موسى

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( قَالَ أَلْقِهَا ياموسى ) جملة مستأنفة جواب عن سؤال مقدر ، كأنه قيل : فماذا قال الله - تعالى - لموسى بعد ذلك؟فكان الجواب : قال - سبحانه - لموسى : اطرح يا موسى هذه العصا التى بيمينك لترى ما يكون بعد ذلك . ( فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تسعى ) .

فالقاها فاذا هي حية تسعى

كما فسرها الوسيط ( فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تسعى )أى : فامتثل موسى أمر ربه ، فألقاها على الأرض ، ونظر إليها فإذا هى قد تحولت بقدرة الله - تعالى - إلى " حية " - أى ثعبان عظيم - " تسعى " ، أى : تمشى على الأرض بسرعة وخفة حركة ووصفها - سبحانه - هنا بأنها ( حَيَّةٌ تسعى ) ، ووصفها فى سورة الشعراء بأنها ( ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ) ووصفها فى سورة النمل بأنها ( تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ ) ولا تنافى بين هذه الأوصاف ، لأن الحية اسم جنس يطلق على الصغير والكبير ، والذكر والأنثى ، والثعبان : هو العظيم منها ، والجان : هو الحية الصغيرة الجسم ، السريعة الحركة .

قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الاولى

كما فسرها الوسيط وقد صرحت بعض الآيات أن موسى - عليه السلام - عندما رأى عصاه قد تحولت إلى ذلك ، ولى مدبرا ولم يعقب . قال - تعالى : ( وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ ولى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ . . . ) ولكن الله - تعالى - ثبت فؤاده ، وطمأن نفسه : ( قَالَ خُذْهَا وَلاَ تَخَفْ ) أى : خذ هذه الحية التى تحولت عصاك إليها ولا تخف منها ، كما هو شأن فى الطبائع البشرية ، فإنا ( سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأولى ) أى : سنعيد هذه الحية إلى هيئتها الأولى التى كانت عليها قبل أن تصير حية تسعى ، وهى أن نعيدها بقدرتنا التى لا يعجزها شىء إلى عصا كما كانت من قبل .فالجملة الكريمة مسوقة لتعليل وجوب الامتثال للأمر وعدم الخوف أى : خذها ولا تخف منها ، فإن هذه الحية سنرجعها عصا كما كانت من قبل ، وقوله - تعالى - ( سِيَرتَهَا ) فِعلة من السّير ، وهى الحالة والهيئة. التى يكون عليها الإنسان ، وهو منصوب بنزع الخافض .أى : سنعيدها إلى هيئتها وحالتها الأولى .قالوا : ومن الحكم التى من أجلها حول الله - تعالى - العصا إلى حية تسعى : توطين قلب موسى - عليه السلام - على ذلك ، حتى لا يضطرب إذا ما تحولت إلى ثعبان عظيم عندما يلقيها أمام فرعون وقومه .فقد جرت عادة الإنسان أن يقل اضطرابه من الشىء العجيب الغريب بعد رؤيته له لأول مرة .

واضمم يدك الى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء اية اخرى

كما فسرها الوسيط ثم وجه - سبحانه - أمرا آخر إلى عبده موسى فقال : ( واضمم يَدَكَ إلى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سواء آيَةً أخرى ) والضم : الجمع . يقال : ضم فلان أصابعه إذا جمعها . والجناح ، يطلق على. العضد وعلى الجنب ، وعلى الإبط . واصله جناح الطائر وسمى بذلك لأنه يجنحه ، أى : يميله عند الطيران ، ثم توسع فيه فأطلق على العضد وغيره .والمراد باليد هنا : كف يده اليمنى .والسوء : الردىء والقبيح من كل شىء ، وكنى به هنا عن البرص لشدة قبحه .والمعنى : واضمم - يا موسى - يدك اليمنى إلى عضد يدك اليسرى بأن تجعلها تحته عند الإبط . ثم أخرجها فإنها تخرج ( بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سواء ) أى : تخرج منيرة مشرقة واضحة البياض دون أن يعلق بها أى - سوء من برص أو مرض أو غيرهما ، وإنما يكون بياضها بياضا مشرقا بقدرة الله تعالى وإرادته .قال الحسن البصرى : أخرجها - والله - كأنها مصباح ، فعلم موسى أنه قد لقى ربه - تعالى - .وقوله : ( تَخْرُجْ بَيْضَآءَ . . ) جواب الأمر وهو قوله : ( واضمم يَدَكَ ) .وقوله : ( مِنْ غَيْرِ سواء ) احتراس ) : لدفع توهم أن يكون بياضها بسبب مرض أو أذى ، وهو متعلق بتخرج .وقوله آيَةً أخرى ) أى : معجزة أخرى غير معجزة العصا التى سبق أن منحناها لك .كما قال - تعالى - : ( واضمم إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرهب فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رّبِّكَ إلى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فَاسِقِينَ ) .

لنريك من اياتنا الكبرى

كما فسرها الوسيط وقوله : ( لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الكبرى ) ، تعليل

لمحذوف ، أى : فعلنا ما فعلنا من إعطائك معجزة العصا ومعجزة اليد ، لنريك ، بهاتين المعجزتين بعض معجزاتنا الكبرىظت الدالة على عظيم قدرتنا وانفرادنا بالربوبية والأولهية .

اذهب الى فرعون انه طغى

كما فسرها الوسيط ثم صرح - سبحانه - بالمقصود من إعطاء موسى هاتين المعجزتين العظيمتين فقال : ( اذهب إلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طغى ) أى : اذهب يا موسى ومعك هاتان المعجزتان ، فادعه إلى عبادتى وحدى ، ومره فليحسن إلى بنى إسرائيل ولا يعذبهم ، وانهه عن التجبر والظلم ، فإنه قد طغى وبغى وتجاوز حدود الحق والعدل ، وزعم الناس أنه ربهم الأعلى .

قال رب اشرح لي صدري

كما فسرها الوسيط وهنا التمس موسى - عليه السلام - العون من خالقه ، لكى يتسنى له أداء ما كلفه به فقال : ( رَبِّ اشرح لِي صَدْرِي ) أى : أسألك يا إلهى أن توسع صدرى بنور الإيمان والنبوة ، وأن تجعله يتقبل تكاليفك بسرور وارتياح .

ويسر لي امري

، كما فسرها الوسيط ( وَيَسِّرْ لي أَمْرِي ) أى : وسهل لى ما أمرتنى به فإنك إن لم تحطنى بهذا التيسير ، فلا طاقة لى بحمل أعباء هذه الرسالة .قال صاحب الكشاف : " لما امره بالذهاب إلى فرعون الطاغى - لعنه الله - عرف أنه كلف أمرا عظيما ، وخطبا جسيما يحتاج معه إلى احتمال مالا يحتمله إلا ذو جأش رابط ، وصدر فسيح ، فاستوهب ربه أن يشرح صدره ، ويفسح قلبه ، ويجعله حليما حمولا يستقبل ما عسى يرد عليه من الشدائد التى يذهب معها صبر الصابر . . وأن يسهل عليه فى الجملة أمره الذى هو خلافة الله فى أرضه ، وما يصحبها من مزاولة معاظم الشئون ، ومقاساة جلائل الخطوب .

واحلل عقدة من لساني

كما فسرها الوسيط وقوله : ( واحلل عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي يَفْقَهُواْ قَوْلِي ) دعاء ثالث تضرع به إلى خالقه - تعالى - أى : وأسألك يا رب أن تحل عقدة من لسانى حتى يفهم الناس قولى لهم ، وحديثى معهم ، فهما يتأتى منه المقصود ، فمن للتبعيض ، أى : واحلل عقده كائنة من عقده .وقد روى أنه كان بلسانه حبسة ، والأرجح أن هذا هو الذى عناه ، ويؤيده قوله - تعالى - فى آية أخرى : ( وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إني أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ) قال ابن كثير : " ذلك لما كان أصابه من اللثغ ، حين عرض عليه - فرعون - التمرة والجمرة ، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه . . . وما سأل أن يزول ذلك بالكلية ، بل حيث يزول العى ، ويحصل لهم فَهْم ما يريد منه وهو قدر الحاجة ولو سأل الجميع لزال ، ولكن الأنبياء لا يسألون إلا بقدر الحاجة ، ولهذا بقيت بقية .قال الحسن البصرى : سأل موسى ربه أن يحل عقدة واحدة من لسانه ، ولو سأل أكثر من ذلك لأعطى .

يفقهوا قولي

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html}

وقوله : ( واحلل عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي يَفْقَهُواْ قَوْلِي ) دعاء ثالث تضرع به إلى خالقه - تعالى - أى : وأسألك يا رب أن تحل عقدة من لسانى حتى يفهم الناس قولى لهم ، وحديثى معهم ، فهما يتأتى منه المقصود ، فمن للتبعيض أى : واحلل عقده كائنة من عقده .وقد روى أنه كان بلسانه حبسة ، والأرجح ، أن هذا هو الذى عناه ، ويؤيده قوله - تعالى - فى آية أخرى : ( وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إني أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ) قال ابن كثير : " ذلك لما كان أصابه من اللثغ ، حين عرض عليه - فرعون - التمرة والجمرة ، فأخذ الجمرة ، فوضعها على لسانه . . . وما سأل أن يزول ذلك بالكلية ، بل حيث يزول العى ، ويحصل لهم فَهْم ما يريد منه وهو قدر الحاجة ولو سأل الجميع لزال ، ولكن الأنبياء لا يسألون إلا بقدر الحاجة ، ولهذا بقيت بقية .قال الحسن البصرى : سأل موسى ربه أن يحل عقدة واحدة من لسانه ، ولو سأل أكثر من ذلك لأعطى .

واجعل لي وزيرا من اهلي

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( واجعل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشدد بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ) دعاء آخر تضرع به إلى ربه فى أمر خارجى عنه ، بعد أن دعاه فى أمر يتعلق بصدره ولسانه وقوله : ( وَزِيراً ) من الموازرة وهى المعاونة . يقال : وازرت فلانا موازرة ، إذا أعنته على أمره ، أو من الوزر - بفتح الواو والزاى - وهو الملجأ الذى يعتصم به الإنسان لينجو من الهلاك .أى : وأسالك - يا إلهى - أن تجعل لى " وزيرا " أى : معينا وظهيرا من أهلى فى إبلاغ رسالتك ، وهذا الوزير المعين هو أخى هارون ، الذى أسألك أن تقوى به ظهرى ، وأن تجعله شريكا لى فى تبليغ رسالتك ، حتى نؤديها على الوجه الأكمل .

هارون اخي

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

اشدد به ازري

كما فسرها الوسيط وكأن موسى - عليه السلام - قد علم من نفسه حدة الطبع ، وسرعة الانفعال ، فالتجأ إلى ربه لكى يعينه بأخيه هارون ، ليقويه ويتشاور معه فى الأمر الجليل الذى هو مقدم عليه ، وهو تبليغ رسالة الله إلى فرعون الذى طغى وبغى وقال لقومه أنا ربكم الأعلى .قال ابن عباس : نبىء هارون ساعتئذ حين بنىء موسى .

واشركه في امري

كما فسرها الوسيط وقوله : ( كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً ) تعليل للدعوات الصالحات التى تضرع بها موسى إلى ربه - تعالى - .أى : أجب - يا إلهى - دعائى بأن تشرح صدرى . . وتشد بأخى هارون أزرى ، كى نسبحك تسبيحا كثيرا ، ونذكرك ذكرا كثيرا . إنك - سبحانك - كنت وما زلت بنا بصيرا ، لا يخفى عليك شىء من أمرنا أو من أمر خلقك ، فأنت المطلع على حالنا وعلى ضعفنا ، وأنت العليم بحاجتنا إليك وإلى عونك ورعايتك .بهذه الدعوات الخاشعات ابتهل موسى إلى ربه ، وأطال الابتهال فى بسط حاجته ، وكشف ضعفه.

كي نسبحك كثيرا

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html}

وقوله : ( كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً ) تعليل للدعوات الصالحات التى تضرع بها موسى إلى ربه - تعالى - .أى : أجب - يا إلهى - دعائى بأن تشرح صدرى . . . وتشد بأخى هارون أزرى ، كى نسبحك تسبيحا كثيرا ، ونذكرك ذكرا كثيرا ، إنك - سبحانك - كنت وما زلت بنا بصيرا ، لا يخفى عليك شىء من أمرنا أو من أمر خلقك ، فأنت المطلع على حالنا وعلى ضعفنا ، وأنت العليم بحاجتنا إليك وإلى عونك ورعايتك بهذه الدعوات الخاشعات ابتهل موسى إلى ربه ، وأطال الابتهال فى بسط حاجته ، وكشف ضعفه.

ونذكرك كثيرا

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html}

وقوله : ( كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً ) تعليل للدعوات الصالحات التى تضرع بها موسى إلى ربه - تعالى - .أى : أجب - يا إلهى - دعائى بأن تشرح صدرى . . . وتشد بأخى هارون أزرى ، كى نسبحك تسبيحا كثيرا ، ونذكرك ذكرا كثيرا ، إنك - سبحانك - كنت وما زلت بنا بصيرا ، لا يخفى عليك شىء من أمرنا أو من أمر خلقك ، فأنت المطلع على حالنا وعلى ضعفنا ، وأنت العليم بحاجتنا إليك وإلى عونك ورعايتك بهذه الدعوات الخاشعات ابتهل موسى إلى ربه ، وأطال الابتهال فى بسط حاجته ، وكشف ضعفه.

انك كنت بنا بصيرا

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

قال قد اوتيت سؤلك يا موسى

كما فسرها الوسيط فماذا كانت النتيجة؟لقد كانت النتيجة أن أجاب الله له دعاءه ، وحقق له مطالبه ، وذكره ببعض مننه عليه فقال - تعالى - : ( قَالَ قَدْ أوتِيتَ . . . ) .قوله - سبحانك - : ( قَالَ قَدْ أوتِيتَ سُؤْلَكَ - ياموسى ) حكاية لما رد الله - تعالى - به على نبيه موسى - عليه السلام ، بعد أن تضرع إليه بتلك الدعوات النافعات .والسؤال هنا بمعنى المسئول - كالأكل بمعنى المأكول .قال الآلوسى : " والإيتاء : عبارة عن تعلق إرادته - تعالى - بوقوع تلك المطالب وحصولها له - عليه السلام - ألبتة ، وتقديره تعالى - إياها حتما ، فكلها حاصلة له - عليه السلام - وإن كان وقوع بعضها - بالفعل مرتبا بعد ، كتيسير الأمر ، وشد الأزر . .أى : قال الله - تعالى ، لموسى بعد أن ابتهل إليه - سبحانه - بما ابتهل : لقد أجبنا دعاءك يا موسى . وأعطيناك ما سألتنا إياه ، فطل نفسا وقر عينا

ولقد مننا عليك مرة اخرى

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً ، أخرى ) تذكير منه - سبحانه - لموسى ، بجانب من النعم التى أنعم بها عليه : حتى يزداد ثباتا وثقة بوعد الله - تعالى - ولذا صدرت الجملة بالقسم .أى ، وبعزتى وجلالى لقد مننا عليك ، وأحسنا إليك ( مَرّةً أخرى ) قبل ذلك . ومنحناك من رعايتنا قبل أن تلتمس منا أن نشرح لك صدرك ، وأن نيسر لك أمرك .

اذ اوحينا الى امك ما يوحى

كما فسرها الوسيط ثم فصل - سبحانه - هذه المنن التى امتن بها على عبده موسى فذكر ثمانية منها : أما أول هذه المنن فتتمثل فى قوله - تعالى - : ( إِذْ ، أَوْحَيْنَآ إِلى أُمِّكَ مَا يوحى ) .و ( إِذْ ) ظرف لقوله ( مَنَنَّا ) والإيحاء : الإعلام فى خفاء . . . وإيحاء الله - تعالى - إلى أم موسى كان عن طريق الإلهام أو المنام أو غيرهما .قال صاحب الكشاف : " الوحى إلى أم موسى : إما أن يكون على لسان نبى فى وقتها ، كقوله - تعالى : ( وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الحواريين ) أو يبعث إليها ملكا لا على وجه النبوة كما - بعث إلى مريم . أو يريها ذلك فى المنام فتتنبه عليه أو يلهمها كقوله تعالى - : ( وأوحى رَبُّكَ إلى النحل ) أى : أوحينا إليها أمرا لا سبيل إلى التوصل إليه ، ولا إلى العلم به ، إلا بالوحى .والمعنى : ولقد مننا عليك يا ، موسى مرة أخرى ، وقت أن أوحينا إلى أمك بما أوحينا من أمر عظيم الشأن يتعلق بنجاتك من بطش فرعون .فالتعبير بالموصول فى قوله : ( مَا يوحى ) للتعظيم والتهويل ، كما فى قوله - تعالى - ( فأوحى إلى عَبْدِهِ مَآ أوحى ).

ان اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل ياخذه عدو لي وعدو له والقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني

كما فسرها الوسيط ثم وضح - سبحانه - ما أوحاه إلى أم موسى فقال : ( أَنِ اقذفيه فِي التابوت فاقذفيه فِي اليم فَلْيُلْقِهِ اليم بالساحل يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لّهُ . . . ) .و ( أَنِ ) فى قوله ( أَنِ اقذفيه ) مفسرة ، لأن الإيحاء فيه معنى القول دون حروفه .والمراد بالقذف هنا : الوضع والمراد به فى قوله ( فاقذفيه فِي اليم ) الإلقاء فى البحر وهو نيل مصر ، والتابوت : الصندوق الذى يوضع فيه الشىء .والمعنى : لقد كان من رعايتنا لك. يا موسى أن أوحينا إلى أمك عندما خافت عليك القتل : أن ضعى ابنك فى التابوت ثم بعد ذلك اقذفيه بالتابوت فى البحر ، وبأمرنا وقدرتنا يلقى اليم ، ، بالتابوت على شاطىء البحر وساحله ، وفى هذه الحالة يأخذه عدو لى وعدو له وهو فرعون الذى طغى وقال لقومه أنا ربكم الأعلى .والضمائر كلها تعود إلى موسى - عليه السلام - وقيل إن الضمير فى قوله ( فاقذفيه فِي اليم ) .وفى قوله ( فَلْيُلْقِهِ ) يعود إلى التابوت ، والأول أرجح ، لأن تفريق الضمائر هنا لا داعى له ، بل الذى يقتضيه بلاغة القرآن الكريم ، عودة الضمائر إلى ) موسى - عليه السلام - .قال بعض العلماء : وصيغة الأمر فى قوله فَلْيُلْقِهِ اليم بالساحل ) فيها وجهان معروفان عند العلماء :أحدهما : أن صيغة الأمر معناها الخبر : قال أبو حيان فى البحر : وقوله ( فَلْيُلْقِهِ ) أمر معناه الخبر ، وجاء بصيغة الأمر مبالغة ، إذ الأمر أقطع الأفعال وأوجبها .الثانى : أن صيغة الأمر فى قوله ( فَلْيُلْقِهِ ) أريد بها الأمر الكونى القدرى كقوله : ( إِنّمَآ أَمْرُهُ إِذَآ أَرَادَ شَيْئاً أن - يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ) فالبحر لا بد أن يلقيه بالساحل ، لأن الله تعالى - أمره بذلك كونا وقدرا . . .وقوله ( يَأْخُذْهُ ) مجزوم فى جواب

الطلب وهو قوله ( فَلْيُلْقِهِ . . ) إذ أنه على الوجه الأول يكون الطلب باعتبار لفظه وصيغته .وقوله - سبحانه - ( وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ) بيان للمنة الثانية .قال الآلوسى : وكلمة " منى " متعلقة بمحذوف وقع صفة لمحذوف ، مؤكدة لما فى تتنكيرها من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية . أى : وألقيت عليك محبة عظيمة كائنة منى -لا من غيرى - قد زرعتها فى القلوب ، فكل من رآك أحبك .ولقد كان من آثار هذه المحبة : عطف امرأة فرعون عليه ، وطلبها منه عدم قتله ، وطلبها منه كذلك أن يتخذه ولدا وكان من آثار هذه المحبة أن يعيش موسى فى صغره معززا مكرما فى بيت فرعون. مع أنه فى المستقبل سيكون عدوا له .وهكذا رعاية الله - تعالى - ومحبته لموسى جعلته يعيش بين قوة الشر والطغيان آمنا مطمئنا .قال ابن عباس : أحب الله - تعالى - موسى ، وحببه إلى خلقه .وقوله - تعالى - : ( وَلِتُصْنَعَ على عيني ) بيان للمنة الثالثة . .أى : أوحيت إلى أمك بما أوحيت من أجل مصلحتك ومنفعتك وألقيت عليك محبة منى ، ليحبك الناس ، ولتصنع على عينى . أى ولتربى وأنت محاط بالحنو والشفقة تحت رعايتى وعنايتى وعينى ، كما يراعى : الإنسان بعينه من يحبه ويهتم بأمره .وهذا ما حدث لموسى فعلا ، فقد عاش فى طفولته تحت عين فرعون ، وهو عدو الله - تعالى - ومع ذلك لم تستطع عين فرعون أن تمتد بسوء إلى موسى ، لأن عين الله - تعالى - كانت ترعاه وتحميه من بطش فرعون وشيعته .فالجملة الكريمة فيها من الرفق بموسى - عليه السلام - ومن الرعاية له ، ما يعجز القلم عن وصفه .وكيف يستطيع القلم وصف حال إنسان قال الله فى شأنه : ( وَلِتُصْنَعَ على عيني ) .قال صاحب الكشاف : أى : ولتربى ويحسن إليك وأنا مراعيك ومراقبك كما يراعى الرجل الشىء بعينه إذا اعتنى به وتقول للصانع؛ اصنع هذا على عينى إنى أنظر إليك لئلا تخالف به عن مرادى ، . وبغيتى .وقوله : ( وَلِتُصْنَعَ ) معطوف على علة مضمرة مثل : ليتعطف عليك . أو حذف معلله أى : ولتصنع على عينى فعلت ذلك . .

اذ تمشي اختك فتقول هل ادلكم على من يكفله فرجعناك الى امك كي تقر عينها ولا تحزن وقتلت نفسا فنجيناك من الغم وفتناك فتونا فلبثت سنين في اهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - المنة الرابعة على موسى فقال : ( إِذْ تمشي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ على مَن يَكْفُلُهُ ( . . . فَرَجَعْنَاكَ إلى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَلاَ تَحْزَنَ وكان ذلك بعد أن التقط آل فرعون موسى من فوق الشاطىء ، وبعد أن امتنع عن. ، الرضاعة من أى امرأة سوى أمه .أى : وكان من مظاهر إلقاء محبتى عليك ورعايتى لك ، أن أختك بعد أن أمرتها أمك بمعرفة خبرك ، سارت فى طرقات مصر فأبصرتك فى بيت فرعون وأنت تمتنع عن الرضاعة من أى امرأة ، فقالت أختك لفرعون وامرأته ( هَلْ أَدُلُّكُمْ على مَن يَكْفُلُهُ ) .أى : ألا تريدون أن أرشدكم إلى امرأة يقبل هذا الطفل الرضاعة منها ، وتحفظه وترعاه ، والفاء فى قوله : ( فَرَجَعْنَاكَ إلى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَلاَ تَحْزَنَ ) هى الفصيحة . أى : التى تفصح عن كلام مقدر .والمعنى : بعد أن : قالت أختك لفرعون وامرأته : هل أدلكم على من يكفله . أجابوها بقولهم دلينا عليها ، فجاءت بأمك فرجعناك إليها كى تسر برجوعك ، ويمتلىء قلبها فرحا بلقائها بك بعد أن ألقتك فى اليم ، ولا تحزن بسبب فراقك عنها .ثم حكى - سبحانه - المنة الخامسة فقال : ( وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ : مِنَ الغم ) وكان ذلك عندما استنصر به رجل من قومه على رجل من أعدائه .أى وقتلت نفسا هى نفس القبطى ، عندما استعان بك عليه الإسرائيلي فنجيناك من الغم الذى نزل بك بسبب هذا القتل .قال الآلوسى : وقد حل له هذا الغم من وجهين : خوف عقاب الله - تعالى - حيث لم يقع القتل بأمره - سبحانه - وخوف القصاص ، وقد نجاه الله من ذلك بالمغفرة حين قال : ( رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ : نَفْسِي فاغفر لِي فَغَفَرَ لَهُ ) وبالمهاجرة إلى مدين .والغم فى الأصل ستر الشىء ، ومنه الغمام لستره ضوء الشمس . ويقال : لما يغم القلب بسبب خوف أو فوات مقصود . .وقوله - عز وجل - : ( وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً ) بيان للمنة : السادسة التى امتن الله - تعالى - بها على موسى - عليه السلام - .والفتون جمع فَتْن كالظنون جمع ظن . والفتن : الاختبار والابتلاء تقول : فتنت الذهب بالنار ، أى : أدخلته فيها لتعلم جودته من رداءته .والمعنى : واختبرناك وابتليناك - يا موسى - بألوان من الفتن والمحن .ونظم - سبحانه - هذا الفتن والاختبار فى سلك المنن ، باعتبار أن الله - تعالى - ابتلاه بالفتن ثم نجاه منها ، ونجاه من شرورها .وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية حديثا طويلا سماه بحديث الفتون ، ذكر فيه قصة مولد موسى ، وإلقائه فى اليم وتربيته فى بيت فرعون ، وقتله القبطى ، وهروبه إلى مدين ، وعودته منها ، إلى مصر . وتكليف الله - تعالى - له بالذهاب إلى فرعون ، ودعوته إلى عبادة الله وحده . . . الخ .وقوله - تعالى - : ( فَلَبِثْتَ سِنِينَ في أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ على قَدَرٍ ياموسى ) أى : فلبثت عشر سنين فى قرية أهل مدين ، تعمل كأجير عند الرجل الصالح . ثم جئت بعد ذلك إلى المكان الذى

ناديتك فيه ( على قَدَرٍ ) أى على وفق الوقت الذى قدرناه لمجيئك ، وحددناه لتكليمك واستنبائك ، دون أن تتقدم أو تتأخر ، لأن كل شىء عندنا محدد ومقدر بوقت لا يتخلف عنه .قال - تعالى - : ( إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ) وقال - سبحانه - : ( وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ) وقال - عز وجل - : ( وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَّقْدُوراً ).

واصطنعتك لنفسي

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - المنة الثامنة : فقال : ( واصطنعتك لِنَفْسِي ) أى : وجعلتك محل صنيعتى وإحسانى ، حيث اخترتك واصطفيتك لحمل رسالتى وتبليغها إلى فرعون وقومه ، وإلى قومك بنى إسرائيل .فالآية الكريمة تكريم عظيم لموسى - عليه السلام - اختاره الله - تعالى - واجتباه من بين خلقه لحمل رسالته إلى فرعون وبنى إسرائيل .هذه ثمانى منن ساقها الله - تعالى - هنا مجملة ، وقد ساقها - سبحانه - فى سورة القصص بصورة أكثر تفصيلا ومن ذلك قوله - تعالى - : ( وَأَوْحَيْنَآ إلى أُمِّ موسى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي اليم وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تحزني إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ المرسلين فالتقطه آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَاطِئِينَ وَقَالَتِ امرأة فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لاَ تَقْتُلُوهُ عسى أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ).

اذهب انت واخوك باياتي ولا تنيا في ذكري

كما فسرها الوسيط وبعد أن ذكر - سبحانه - بعض المنن التى امتن بها على نبيه موسى - عليه السلام - أتبع ذلك بذكر بعض التوجيهات التى أمره بفعلها ، حيث كلفه بتبليغ الدعوة إلى فرعون ، فقال - تعالى - : ( اذهب أَنتَ وَأَخُوكَ . وقوله - سبحانه - ( وَلاَ تَنِيَا ) فعل مضارع مصدره الونى - بفتح . ( . . الواو وسكون النون - بمعنى الضعف والفتور والتراخى فى الأمر .يقال : ونى : فلان فى الأمر ينى ونيا - كوعد يعد وعدا - إذا ضعف وتراخى فى فعله .وقوله : فاعل لفعل محذوف . أى : وليذهب معك أخوك .والمراد بالآيات ( أَخُوكَ ) المعجزات الدالة على صدق موسى - عليه السلام - ، ولعى رأسها عصاه التى ألقاها فإذا هى حية تسعى ، ويده التى ضمها إلى جناحه فخرجت بيضاء من غير سوء .والمعنى : اذهب يا موسى أنت وأخوك إلى حيث آمركما متسلحين بآياتى ومعجزاتى ، ولا تضعفا أو تتراخيا فى ذكرى وتسبيحى وتقديسى بما يليق بذاتى وصفاتى من العبادات والقربات . فإن ذكركما لى هو عدتكما وسلاحكما وسندكما فى كل أمر تقدمان عليه .فالآية الكريمة تدعو موسى وهارون ، كما تدعو كل مسلم فى كل زمان ومكان إلى المداومة على ذكر الله - تعالى - فى كل موطن ، بقوة لا ضعف معها وبعزيمة صادقة لا فتور فيها ولا كلال .وقد مدح - سبحانه - المداومين على تسبيحه وتحميده وتقديسه فى كل أحوالهم فقال : ( إِنَّ فِي خَلْقِ السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيَاتٍ لأُوْلِي الألباب الذين يَذْكُرُونَ الله قِيَاماً وَقُعُوداً وعلى جُنُوبِهِمْ ) قال صاحب الكشاف : قوله ( وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي ) أنهما لا يفتران فى ذكر الله ، بل يذكران الله فى حال مواجهة فرعون ، ليكون ذكر الله عونا لهما عليه ، وقوة لهما . وسلطانا كاسرا له ، كما جاء فى الحديث " إن عبدى كل عبدى الذى يذكرنى وهو مناجز قرنه " .

اذهبا الى فرعون انه طغى

كما فسرها الوسيط ثم أرشدهما - سبحانه - إلى الوجهة التى يتوجهان إليها فقال : ( اذهبآ إلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طغى ) .أى : اذهبا إلى فرعون لتبلغاه دعوتى ، ولتأمراه بعبادتى ، فإنه قد طغى وتجاوز حدوده ، وأفسد فى الأرض ، وقال لقومه : أنا ربكم الأعلى . وقال لهم - أيضا - ما علمت لكم من إله غيرى .قال الجمل : وقوله : ( اذهبآ إلى فِرْعَوْنَ ) جمعهما فى صيغة أمر الحاضر مع أن هارون لم يكن حاضرا محل المناجاة بل كان فى ذلك الوقت بمصر - للتغليب فغلب الحاضر على غيره ، وكذا الحال فى صيغة النهى . أى : قوله ( وَلاَ تَنِيَا ) روى أنه - تعالى - أوحى إلى هارون وهو بمصر أن يتلقى موسى - عليه السلام - وقيل : سمع بإقباله فتلقاه . .

فقولا له قولا لينا لعله يتذكر او يخشى

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يخشى ) إرشاد منه - سبحانه - إلى الطريقة التى ينبغى لهما أن يسلكاها فى مخاطبة فرعون .أى : اذهبا إليه ، وادعواه إلى ترك

ما هو فيه من كفر وطغيان ، وخاطباه بالقول اللين ، وبالكلام الرقيق .فإن
، الكلام السهل اللطيف من شأنه أن يكسر حدة الغضب ، وأن يوقظ القلب للتذكر
وأن يحمله على الخشية من سوء عاقبة الكفر والطغيان .وهذا القول اللين الذى
- أمرهما الله - تعالى - به هنا قد جاء ما يفسره فى آيات أخرى ،وهى قوله
تعالى - : ( اذهب إلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طغى فَقُلْ هَل لَّكَ إلى أن
تزكى وَأَهْدِيَكَ إلى رَبِّكَ فتخشى . . ) فأنت ترى أن هذه الآيات الكريمة
قد اشتملت على ألطف أساليب المخاطبة وأرقها وألينها وأحكمها .قال ابن كثير
قوله ( فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً . . ) هذه الآية فيها عبرة عظيمة :
وهى أن فرعون كان فى غاية العتو والاستكبار ، وموسى كان صفوة الله من ،
خلقه إذ ذاك ، ومع هذا أمر أن لا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين كما قال
يزيد الوقاشى عند قراءته لهذه الآية : يا من يتحبب إلى من يعاديه ، فكيف
، بمن يتولاه ويناديه؟والحاصل أن دعوتهما له تكون بكلام رقيق لين قريب سهل
ليكون أوقع فى النفوس وأبلغ وأنجع ، كما قال - تعالى - : ( ادع إلى سَبِيلِ
( . . رَبِّكَ بالحكمة والموعظة الحسنة وَجَادِلْهُم بالتي هِيَ أَحْسَنُ
والترجى فى قوله - تعالى - : ( لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يخشى ) على
، بابه إلا أنه يعود إلى موسى وهارون .أى : اذهبا إليه ، وألينا له القول
وباشرا الأمر معه مباشرة من يرجو ويطمع فى نجاح سعيه ، وحسن نتيجة قوله
وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : والترجى لهما أى : اذهبا على.
رجائكما وطمعكما وباشرا الأمر مباشرة من يرجو أن يثمر عليه فهو يجتهد بطوقه
ويحتشد - أى - يستعد ويتأهب - بأقصى وسعه ، وجدوى إرسالهما إليه مع العلم ،
أنه لن يؤمن ، إلزام الحجة ، وقطع المعذرة ، كما قال - تعالى - : ( وَلَوْ
أَنَّآ أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَولاَ
أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أن
نَّذِلَّ ونخزى ) ويرى بعضهم أن الترجى هنا للتعليل . أى : فقولا له قولا
لينا لأجل أن يتذكر أو يخشى .قال الآلوسى : قال الفراء : " لعل " هنا بمعنى
كى التعليلية . . . وعن الواقدى : أن جميع ما فى القرآن من " لعل " فإنها
للتعليل ، إلا قوله - تعالى - ( وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ
. تَخْلُدُونَ ) فإنها للتشبيه أى : كأنكم تخلدون

قالا ربنا اننا نخاف ان يفرط علينا او ان يطغى

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - ما قاله موسى وهارون عندما أمرهما - جل
جلاله - بذلك فقال : ( قَالاَ رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أن يَفْرُطَ
عَلَيْنَآ أَوْ أَن يطغى ) .أى : قال موسى وهارون بعد أن أمرهما ربهما
بالذهاب إلى فرعون لتبليغه دعوة الحق : يا ربنا إننا نخاف ( أن يَفْرُطَ
عَلَيْنَآ ) أى يعاجلنا بالعقوبة قبل أن ننتهى من الحديث معه فى الأمر
يقال : فرط فلان على فلان يفرط إذا عاجله بالعقوبة وأذاه بدون تمهل ، ومنه.
قولهم : فرس فارط ، أى سابق لغيره من الخيل .( أَوْ أَن يطغى ) أى يزداد
طغيانه ، فيقول فى حقك يا ربنا مالا نريد أن نسمعه ، ويقول فى حقنا ما نحن
برءاء منه ، ويفعل معنا ما يؤذينا .وقد جمع - سبحانه - بين القولين اللذين
حكاهما عنهما ، لأن الطغيان اشمل من الإفراط ، إذ الجملة الأولى تدل على
الإسراع بالأذى لأول وهلة ، أما الثانية فتشمل الإسراع بالأذى ، وتشمل غيره
. من ألوان الاعتداء سواء أكان فى الحال أم فى الاستقبال

قال لا تخافا انني معكما اسمع وارى

، كما فسرها الوسيط وهنا يجيبهما الخالق - جل وعلا - بما يثبت فؤادهما
ويزيل خوفهما فقال : ( لاَ تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وأرى )
أى : قال الله - تعالى - لهما لا تخافا من بطش فرعون ، إننى معكما بقوتى.
وقدرتى ورعايتى ، وإننى أسمع كلامكما وكلامه ، وأرى فعلكما وفعله . لا يخفى
على شىء من حالكما وحاله ، فاطمئنا أننى معكما بحفظى ونصرى وتأييدى ، وأن
. . . هذا الطاغية ناصيته بيدى ، ولا يستطيع أن يتحرك أو يتنفس إلا بإذنى

فاتياه فقولا انا رسولا ربك فارسل معنا بني اسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك
باية من ربك والسلام على من اتبع الهدى

كما فسرها الوسيط ثم رسم لهما - سبحانه - طريق الدعوة فقال : ( فَأْتِيَاهُ
فقولا إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ . . . ) .أى : فأتيا فرعون ، وادخلا عليه
داره أو مكان سلطانه ، وقولا له بلا خوف أو وجل ( إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ
، الذى خلقك فسواك فعدلك .وكان البدء بهذه الجملة لتوضيح أساس رسالتهما (
ولإحقاق الحق من أول الأمر ، ولإشعاره منذ اللحظة الأولى بأنهما قد أرسلهما
ربه وربهما ورب العالمين ، لدعوته إلى الدين الحق ، وإلى إخلاص العبادة لله
الواحد القهار ، وإلى التخلى عن الكفر والطغيان . وأنهما لم يأتياه بدافع
شخصى منهما وإنما أتياه بتكليف من ربه ورب العالمين .أما الجملة الثانية

التى أمرهما الله - تعالى - أن يقولاها لفرعون فقد حكاها - سبحانه - بقوله
أى : فأطلق ( فَأَرْسِلْ مَعَنَا بني إِسْرَائِيلَ وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ ) :
سراح بنى إسرائيل ، ودعهم يعيشون أحرارا فى دولتك ولا تعذبهم باستعبادهم
وقهرهم ، وقتل أبنائهم ، واستحياء نسائهم .قال - تعالى - : ( وَإِذْ
نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سواء العذاب
يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ
بلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ) قال الآلوسى : والمراد بالإرسال : إطلاقهم
من الأسر ، وإخراجهم من تحت يده العادية ، لا تكليفهم أن يذهبوا معهما إلى
: الشام ، كما ينبىء عنه قوله - سبحانه - (وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ ) أى
، بإبقائهم على ما كانوا عليه من العذاب ، فإنهم كانوا تحت سيطرة القبط
يستخدمونهم فى الأشغال الشاقة كالحفر والبناء .وقوله - تعالى - : ( قَدْ
جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ ) جملة ثالثة تدل على صدقهما فى رسالتهما
والمراد بالآية هنا : جنسها ، فتشمل العصا واليد وغيرهما من المعجزات التى.
أعطاها الله - تعالى - لنبيه موسى - عليه السلام - .أى : قد جئناك بمعجزة
- من ربك تثبت صدقنا ، وتؤيد مدعانا ، وتشهد بأنا قد أرسلنا الله - تعالى
إليك لهدايتك ودعوتك أنت وقومك إلى الدخول فى الدين الحق .فالجملة الكريمة
تقرير لما تضمنه الكلام السابق من كونهما رسولين من رب العالمين ، وتعليل
لوجوب إطلاق بنى إسرائيل ، وكف الأذى عنهم .أما الجملة الرابعة التى أمرهما
الله - تعالى - بأن يقولاها لفرعون فهى قوله - سبحانه - : ( والسلام على
مَنِ اتبع الهدى ) .أى : وقولا له - أيضا - السلامة من العذاب فى الدارين
لمن اتبع الهدى بأن آمن بالله - تعالى - وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر
فالسلام مصدر بمعنى السلامة ، وعلى بمعنى اللام . ويفهم من الآية. . .
الكريمة أن من لم يتبع الهدى ، لا سلامة له ، ولا أمان عليه .وفى هذه
الجملة من الترغيب فى الدخول فى الدين الحق ما فيها ، ولذا استعملها
النبى - صلى الله عليه وسلم - فى كثير من كتبه ، ومن ذلك قوله - صلى الله
عليه وسلم - فى رسالته إلى هرقل ملك الروم : بسم الله الرحمن الرحيم من
. . . محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى

انا قد اوحي الينا ان العذاب على من كذب وتولى

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - الجملة الخامسة التى أمر موسى وهارون
أن يخاطبا بها فرعون فقال : ( إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ العذاب
على مَن كَذَّبَ وتولى ) .أى : وقولا له ( إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ )
من عند ربنا وخالقنا ( أَنَّ العذاب ) فى الدنيا والآخرة ( على مَن كَذَّبَ
بآياته وحججه - سبحانه - ( وتولى ) عنها . وأعرض عن الاستجابة لها .وبذلك (
نرى فى هذه الآيات الكريمة أسمى ألوان الدعوة إلى الحق وأحكمها ، فهى قد
بدأت بالأساس الذى تقوم عليه كل رسالة سماوية ( إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ )
وثنت ببيان أهم ما أرسل موسى وهارون من أجله ، ( فَأَرْسِلْ مَعَنَا بني
إِسْرَائِيلَ وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ ) وثلثت بإقامة الأدلة على صدقهما ( قَدْ
جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ ) وربعت بالترغيب والاستمالة ( والسلام
على مَنِ اتبع الهدى ) .ثم ختمت بالتحذير والترهيب من المخالفة ( إِنَّا
( قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ العذاب على مَن كَذَّبَ وتولى .

قال فمن ربكما يا موسى

كما فسرها الوسيط وبعد أن غرس - سبحانه - الطمأنينة فى قلب موسى وهارون
وزودهما بأحكم الوسائل وأنجعها فى الدعوة إلى الحق . . . أتبع ذلك بحكاية
جانب من الحوار الذى دار بينهما وبين فرعون بعد أن التقوا جميعها وجها لوجه
) : - فقال - تعالى - : (قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا . . . ) .فقوله - تعالى
- قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا ياموسى ) حكاية لما قاله فرعون لموسى وهارون
- عليهما السلام - بعد أن ذهبا إليه ليبلغاه دعوة الحق كما أمرهما ربهما
سبحانه - .ولم تذكر السورة الكريمة كيف وصلا إليه . . لأن القرآن لا يهتم
بجزئيات الأحداث التى لا تتوقف عليها العبر والعظات ، وإنما يهتم بذكر
الجوهر واللباب من الأحداث .والمعنى : قال فرعون لموسى وهارون بعد أن دخلا
عليه . وأبلغاه ما أمرهما ربهما بتبليغه : من ربكما يا موسى الذى ارسلكما
إلى؟وكأنه - لطغيانه وفجوره -لا يريد أن يعترف بأن رب موسى وهارون هو ربه
وخالقه . كما قالا له قبل ذلك ( إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ ) وخص موسى
بالنداء مع أنه وده الخطاب إليهما لظنه أن موسى - عليه السلام - هو الصل فى
، حمل رسالة الحق غليه ، وأن هارون هو وزيره ومعاونه أو أنه لخبثه ومكره
تجنب مخاطبة هارون لعلمه أنه أفصح لسانا من موسى - عليهما السلام - .قال
، صاحب الكشاف : خاطب فرعون الاثنين ، ووجه النداء إلى أحدهما وهو موسى
لأنه الأصل فى النبوة ، وهارون وزيره وتابعه ، ويحتمل أن يحمله خبثه
ودعارته - أى فسقه - على استدعاء كلام موسى دون كلام أخيه ، لما عرف من
فصاحة هارون والرّتة فى لسان موسى ، ويدل عليه قوله : ( أَمْ أَنَا خَيْرٌ

مِّنْ هذا الذي هُوَ مَهِينٌ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ ) ولا شك أن ما حكاه
الله - تعالى - عن فرعون من قوله ( مَن رّبُّكُمَا ياموسى ) يدل على نهاية
) : الغرور والفجور والجحود ، وشبيه بذلك قوله : - سبحانه - حكاية عنه
. وَقَالَ فِرْعَوْنُ ياأيها الملأ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرِي
وقوله - تعالى - : ( فَحَشَرَ فنادى فَقَالَ أَنَاْ رَبُّكُمُ الأعلى ( .
).

قال ربنا الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك أن موسى قد رد على فرعون ردا
يخرسه ويكبته فقال : ( قَالَ رَبُّنَا الذي أعطى كُلّ شَيْءٍ خَلْقَهُ
ثُمّ هدى ) .وقوله ( خَلْقَهُ ) مصدر بمعنى اسم المفعول ، وهو المفعول
الثانى لقوله ( أعطى ) والمفعول الأول قوله : ( كُلَّ شَيْءٍ ) .وللعلماء فى
تفسير هذه الآية الكريمة اتجاهات يؤيد بعضها بعضا ، منها ما يراه بعضهم من
أن معنى الآية الكريمة :1 - قال موسى فى رده على فرعون : يا فرعون ربنا
، وربك هو الله الواحد الأحد الفرد الصمد ، الذى أعطى كل مخلوق من مخلوقاته
وكل شىء من الأشياء ، الصورة التى تلائمه ، والهيئة التى تتحقق معها منفعته
ومصلحته ، ثم هداه إلى وظيفته التى خلقه من أجلها ، وأمده بالوسائل
والملكات التى تحقق هذه الوظيفة .وثم فى قوله ( ثُمَّ هدى ) للتراخى فى
الرتبة ، إذ اهتداء المخلوق إلى وظيفته مرتبة تعلو كثيرا عن خلقه دون أن
يفقه شيئا .وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : " أعطى كل شىء صورته
وشكله الذى يطابق المنفعة المنوطة به ، كما أعطى العين الهيئة التى تطابق
الإبصار ، والذن الشكل الذى يطابق المنفعة المنوط به ، كما أعطى العين
الهيئة التى تطابق الإبصار ، والأذن الشكل الذى يوافق الاستماع ، وكذلك
الأنف واليد والرجل واللسان ، كل واحد منها مطابق لما علق به من المنفعة
غير ناب عنه .( ثُمّ هدى ) أى : عرفه كيف يرتفق بما أعطى ، وكيف يتوصل
، إليه ولله در هذا الجواب ، وما أخصره وما أجمعه وما أبينه لمن ألقى الذهن
ونظر بعين الإنصاف وكان طالبا للحق .2 - ومنهم من يرى أن المعنى : قال موسى
لفرعون : ربنا الذى أعطى كل شىء نظير خلقه فى الصورة والهيئة ، كالذكور من
بنى آدم ، أعطاهم نظير خلقهم من الإناث أزواجا ، وكالذكور من البهائم
. . أعطاها نظير خلقها فى صورتها وهيئها فى صورتها وهيئها من الإناث أزواجا
ثم هدى الجميع لسائر منافعهم من المطاعم والمشارب ووسائل التناسل .وقد صدر
الإمام ابن جرير تفسيره للآية بهذا المعنى فقال ما ملخصه : وقوله : ( قَالَ
رَبُّنَا الذي أعطى كُلّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ) يعنى نظير خلقه فى الصورة
والهيئة . . ثم هداهم للمأتى الذى منه النسل والنماء كيف يأتيه ، ولسائر
منافعه من المطاعم والمشارب وغير ذلك .3 - ويرى بعضهم أن : المعنى أعطى كل
شىء صلاحه ثم هداه إلى ما يصلحه .4 - ومنهم من يرى أن قوله ( خَلْقَهُ ) هو
المفعول الأول لأعطى ، وأن قوله ( كُلَّ شَيْءٍ ) هو المفعول الثانى فيكون
، المعنى : قال موسى لفرعون : ربنا الذى أعطى الخلائق كل شىء يحتاجون إليه
ثم هداهم إلى طريق استعماله والانتفاع به .ويبدو لنا أن الآية الكريمة تتسع
لهذه المعانى جميعها لأنه - سبحانه - هو الذى أعطى خلقه كل شىء يحتاجون
إليه فى معاشهم ، ثم هداهم إلى طرق الانتفاع بما أعطاهم كما أعطى كل نوع من
أنواع خلقه الصورة التى تناسبه ، والشكل الذى يتناسب مع جنسه ( صُنْعَ الله
( . . . الذي أَتْقَنَ كُلّ شَيْءٍ

قال فما بال القرون الاولى

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما قاله فرعون لموسى : ( قَالَ
فَمَا بَالُ القرون الأولى ) .والبال فى الأصل : الفكر . تقول : خطر ببالى
كذا ، أى : بفكرى وعقلى ، ثم أطلق على الحال التى يهتم بشأنها ، وهذا
الإطلاق هو المراد هنا .أى : قال فرعون بعد أن رد عليه موسى هذا الرد
الحكيم : يا موسى فما حال القرون الأولى ، كقوم نوح وعاد وثمود . . . الذين
كذبوا أنبياءهم ، وعبدوا غير الله - تعالى - الذى تدعونى لعبادته؟وسؤاله
هذا يدل على خبثه ومكره ، لأنه لما سمع من موسى الجواب المفحم له على سؤاله
السابق ( مَن رّبُّكُمَا ياموسى ) أراد أن يصرف الحديث إلى منحى آخر يتعلق
، بأمور لا صلة لها برسالة موسى إليه وهى دعوته لعبادة الله - تعالى - وحده
. وإطلاق سراح بنى إسرائيل من الأسر

قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى

، كما فسرها الوسيط ولذا رد عليه موسى - عليه السلام - بما يخرس لسانه
ويبطل كيده ، فقال - كما حكى القرآن عنه - ( عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي
كِتَابٍ لاّ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنسَى ) .أى : علم حال هذه القرون
الأولى محفوظ عند ربى وحده فى كتاب هو اللوح المحفوظ ، وهو - سبحانه -لا

: يخفى عليه شىء من حالهم ، وسيجازيهم بما يستحقون من ثواب أو عقاب .وقوله
مؤكد لما قبله . أى : لا يخطىء ربى ( لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنسَى )
فى علمه ، ولا ينسى شيئا مما علمه لأنه منزه عن ذلك ، فالضلال هنا بمعنى
الخطأ وقلة الإدراك .وجمع - سبحانه - بين نفى الضلال والنسيان ، لإفادة
تنزهه عن أن يغيب شىء من أحوال هذا الكون عن علمه الشامل لكل شىء ، ولبيان
أن علمه باق بقاء أبديا لا نسيان معه ، ولا زوال له .

الذي جعل لكم الارض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وانزل من السماء ماء فاخرجنا
به ازواجا من نبات شتى

كما فسرها الوسيط ثم بين له آثار علم الله - تعالى - وقدرته فقال : ( الذي
جَعَلَ لَكُمُ الأرض مَهْداً . . ) .أى : هو - سبحانه - الذى جعل لكم الأرض
، ممهدة كالفراش ، ليتسنى لكم الانتفاع بخيراتها ، وقرأ الأكثرون من السبعة
). أى : فراشا . والمهاد فى الأصل ما يمهد للصبى لينام عليه ( مَهْاداً )
وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً ) والسلك : الإدخال . أى : وجعل لكم فى
داخلها طرقا تنتقلون فيها من مكان إلى مكان ، ومن بلدة إلى أخرى ، لقضاء
مصالحكم .( وَأَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً
مِّن نّبَاتٍ شتى ) والأزواج : الأصناف .أى : وأنزل - سبحانه - بقدرته من
السماء ماء نافعا كثيرا فأخرجنا بسبب هذا الماء من الأرض أصنافا شتى - أى
متفرقة - من النبات ، وهذه الأصناف مختلفة المنافع والألوان والطعوم
) والروائح ، مما يدل على كمال قدرتنا ، ونفاذ إرادتنا .وفى قوله
فَأَخْرَجْنَا ) التفات من الغيبة إلى التكلم بصيغة التعظيم ، للتنبيه على
عظم شأن هذا الإخراج ، وأثره الكبير فى حياة الناس .فأنت ترى أن هذه الآية
الكريمة قد اشتملت على أربع منن قد امتن الله بها على عباده ، وهى : تمهيد
الأرض ، وجعل الطرق فيها ، وإنزال المطر من السماء ، وإخراج النبات المتنوع
من الأرض .وهذه المنن وإن كانت ظاهرة وواضحة فى جميع فجاج الأرض ، إلا أنها
أظهر ما تكون وأوضح ما تكون فى أرض مصر التى كان يعيش فيها فرعون حيث تبدو
الأرض فيها منبسطة ممهدة على جانبى النيل الممتد امتدادا كبيرا .وكان
الأجدر بفرعون - لو كان يعقل - أن يخلص العبادة لواهب هذه المنن ، ومسدى
هذه النعم ، وهو الله رب العالمين .

كلوا وارعوا انعامكم ان في ذلك لايات لاولي النهى

كما فسرها الوسيط والأمر فى قوله - سبحانه - ( كُلُواْ وارعوا
أَنْعَامَكُمْ ) للإباحة .أى : هذه الأرض وما اشتملت عليه من طرق ومن نبات
شتى هى لمنفعتكم ومصلحتكم ، فكلوا - أيها الناس - من هذه الثمار المتنوعة
التى انشقت عنها الأرض ، وارعوا أنعامكم من إبل وبقر وغنم فى المكان الصالح
للرعى من هذه الأرض ، واشكروا الله - تعالى - على هذه النعم لكى يزيدكم
منها .واسم الإشارة فى قوله ( إِنَّ فِي ذلك لآيَاتٍ لأُوْلِي النهى ) يعود
إلى المذكور من تلك النعم السابقة .و ( النهى ) جمع نهية - بضم النون
وإسكان الهاء - وهى العقل . سمى بذلك لأنه ينهى صاحبه عما لا يليق . تقول
العرب : نهو الرجل - ككرم - إذا كملت نهيته ، أى عقله .والمعنى : إن فى ذلك
الذى ذكرناه لكم من نعمة تمهيد الأرض ، وجعل الطرق فيها : وإنزال المطر
عليها ، وإخراج النبات منها . . . إن فى كل ذلك لآيات وعظات وعبر ، لأصحاب
العقول السليمة ، والأفكار القويمة .

منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة اخرى

، كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن هذه الأرض منها خلق الإنسان
وإليها يعود ، ومنها يبعث للحساب يوم القيامة ، فقال - تعالى - : ( مِنْهَا
( خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أخرى
- والضمير فى " منها ، وفيها " يعود إلى الأرض المذكورة قبل ذلك فى قوله.
تعالى - : ( الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرض مَهْداً . . . ) والتارة : بمعنى
المرة .أى : من هذه الأرض خلقنا أباكم آدم ، وأنتم تبع له ، وفرع عنه ، كما
قال - تعالى - : ( إِنَّ مَثَلَ عيسى عِندَ الله كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ
مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ) وقوله : ( وَفِيهَا
نُعِيدُكُمْ ) أى : وفى الأرض نعيدكم عند موتكم ، حيث تكون محل دفنكم
: واستقرار أجسادكم .وقوله : ( وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أخرى ) أى
- ومن الأرض نخرجكم مرة أخرى أحياء يوم القيامة ، للحساب والجزاء .قال
تعالى - : ( فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حتى يُلاَقُواْ
يَوْمَهُمُ الذي يُوعَدُونَ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأجداث سِرَاعاً
كَأَنّهُمْ إلى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ) وقال - سبحانه - : ( وَنُفِخَ فِي
الصور فَإِذَا هُم مِّنَ الأجداث إلى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ قَالُواْ
ياويلنا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرحمن وَصَدَقَ

المرسلون ) قال ابن كثير : وهذه الآية كقوله - تعالى - : ( قَالَ فِيهَا
تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ) وفى الحديث الذى
فى السنن " أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حضر جنازة فلما دفن الميت
أخذ قبضة من التراب فألقاها فى القبر ثم قال : " منها خلقناكم " ثم أخذ
" " أخرى وقال : " وفيها نعيدكم " ثم أخرى وقال : " ومنها نخرجكم تارة أخرى
.

ولقد اريناه اياتنا كلها فكذب وابى

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا
كُلّهَا فَكَذّبَ وأبى ) بيان للموقف الجحودى الذى وقفه فرعون من الحجج
والمعجزات التى طرحها أمامه موسى - عليه السلام - .وارياناه : من الرؤية
البصرية المتعدية إلى مفعول واحد فلما دخلت عليها الهمزة تعدت إلى اثنين
أولهما الهاء والثانى آياتنا .والإضافة فى ( آيَاتِنَا ) قائمة مقام
التعريف العهدى . أى : آياتنا المعهودة لموسى ، والتى على رأسها اليد
والعصا .والمعنى : ولقد أرينا فرعون بعينيه آياتنا كلها الدالة على
وحدانيتنا وقدرتنا وصدق نبينا موسى ، فكانت نتيجة ذلك أن كذب بها ، وأبى أن
يستجيب للحق . .كما قال - تعالى - : ( وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ
مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ) وكما
قال - سبحانه - : ( فَلَمَّا جَآءَهُم بِآيَاتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا
، يَضْحَكُونَ ) والآية الكريمة تؤكد جحود فرعون وطغيانه بجملة من المؤكدات
وهى لام القسم ، وقد ، والرؤية البصرية ، ولفظ " كل " الدال على الشمول
والإحاطة .والفاء فى قوله ( فَكَذّبَ ) للتعقيب ، أى : فكذب بدون تريث أو
تمهل .والمفعول محذوف . أى : فكذب الآيات أو فكذب موسى بدون تردد أو تأخير
والتعبير بقوله ( فَكَذّبَ وأبى ) لزيادة ذمه وتحقير شأنه . لأنه لم يكتف.
، بالتكذيب بل أضاف إلى ذلك الامتناع عن قبول الآيات ، والجحود لها
والتعالى على من جاء بها كما ينبىء عنه قوله : - تعالى - بعد ذلك : ( قَالَ
( أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ ياموسى

قال اجئتنا لتخرجنا من ارضنا بسحرك يا موسى

كما فسرها الوسيط ( قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا
بِسِحْرِكَ ياموسى )أى : قال فرعون لموسى على سبيل التهديد والوعيد : يا
، موسى أجئتنا من المكان الذى هربت إليه ، ومعك هذه الآيات التى رأيناها
لكى تخرجنا من أرضنا التى عشنا فيها وهى أرض مصر بسبب ما أظهرته أمامنا من
، سحر وفخة يد .وسمى اللعين ما جاء به موسى - عليه السلام - من معجزات سحرا
ليزيل من أذهان قومه أثر هذه المعجزات الباهرة .وقال : ( لِتُخْرِجَنَا
مِنْ أَرْضِنَا ) ليحمل أتباعه على الوقوف فى وجه موسى بإبراز أن موسى جاء
ليحتل أرضهم ، ويحوز أموالهم ، ويجعل السلطان لغيرهم .وقد تكرر هذا المعنى
فى آيات كثيرة منه قوله - تعالى - : ( قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ إِنّ هذا
لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُمْ مّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ
فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ) وقوله - سبحانه - : ( قالوا أَجِئْتَنَا
لِتَلْفِتَنَا عَمّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا
الكبرياء فِي الأرض وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ).

فلناتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا انت مكانا
سوى

) : كما فسرها الوسيط ثم أضاف فرعون إلى تهديده لموسى تهديدا آخر فقال
فَلَنَأْتِيَنّكَ بِسِحْرٍ مّثْلِهِ فاجعل بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ
) : مَوْعِداً لاّ نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلاَ أَنتَ مَكَاناً سُوًى ) .وقوله
فَلَنَأْتِيَنّكَ . . . ) جواب لقسم محذوف . أى : والله لنأتينك بسحر مثله
قال الجمل : وقوله : ( مَوْعِداً ) يجوز أن يكون زمانا ، ويرجحه قوله. . .
: ويجوز أن يكون مكانا ، والمعنى ( قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزينة ) :
) : بين لنا مكانا معلوما نعرفه نحن وأنت فنأتيه ، وهذا يؤيده قوله
مَكَاناً سُوًى ) .ويجوز أن يكون مصدرا ، ويؤيد هذا قوله ( لاّ نُخْلِفُهُ
نَحْنُ وَلاَ أَنتَ ) لأن المواعدة توصف بالخلف وعدمه .وقوله : ( لاّ
نُخْلِفُهُ ) من الإخلاف بمعنى عدم إنجاز الوعد .وقوله : ( سُوًى ) قرأه
ابن عامر وعاصم وحمزة بضم السين ، وقرأه الباقون بالكسر ومعنى القراءتين
واحد .وأصله من الاستواء . يقال : مكان سوى وسواء .أى : عدل ووسط ، بحيث
: يستوى طرفاه بالنسبة للفريقين .أى : قال فرعون لموسى مهددا ومتوعدا
، أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى ، والله لنأتينك بسحر مثل سحرك
فاجعل بيننا وبينك موعدا للمباراة والمنازلة ، لا نخلف نحن ولا أنت هذا
الموعد ، وأن يكون مكان منازلتنا لك فى مكان يتوسط المدينة ، بحيث يستطيع

جميع سكانها أن يحضروا إليه .والمتأمل فى الآية الكريمة يرى أن فرعون قد
: قال ما قال لموسى وهو كأنه قد جمع أطراف النصر بين يديه .ويشهد لذلك
تصديره كلامه بالقسم ( فَلَنَأْتِيَنَّكَ . . ) وتركه لموسى اختيار الموعد
الذى يناسبه ( فاجعل بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً ) واشتراطه عدم الخلف
فى الموعد ( لاَّ نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلاَ أنتَ ) واقتراحه أن يكون مكان
المبارزة فى وسط المدينة ، حتى يراها جميع الناس ( مَكَاناً سُوًى ) .

قال موعدكم يوم الزينة وان يحشر الناس ضحى

كما فسرها الوسيط ولقد حكى القرآن أن موسى - عليه السلام - قد قيل تحدى
فرعون ، ورد عليه يقول : ( قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزينة وَأَن
يُحْشَرَ الناس ضُحًى ) .والمراد بيوم الزينة : يوم كانوا يتزينون فيه ،
ويجتمعون فيه ، لأنه يوم عيد لهم .قيل إنه كان يوم عاشوراء ، وقيل يوم
النيروز . . .أى : قال موسى لفرعون : موعد المنازلة بينى وبينكم هو يوم
زينتكم وعيدكم ، وفى هذا اليوم أطلب منكم أن يجمع الناس جميعا فى وقت الضحى
عند ارتفاع الشمس ، لكى يشهدوا ما سيكون بينى وبين سحرتك يا فرعون .وبذلك
، نرى أن موسى - عليه السلام - قد قابل تهديد فرعون له ، بتهديد أشد وأعظم
فقد طلب منه أن يكون موعد المبارزة يوم العيد ، كما طلب منه - أيضا - أن
يجمع الناس فى وقت الضحى لكى يشاهدوا تلك المبارة .قال صاحب الكشاف : وإنما
، واعدهم موسى ذلك اليوم ، ليكون علو كلمة الله ، وظهور دينه ، وكبت الكافر
وزهوق الباطل على رءوس الأشهاد وفى المجمع الغاص لتقوى رغبة من رغب فى
اتباع الحق ، ويكل حد المبطلين واشياعهم ، ويكثر الحديث بذلك فى كل بدو
وحضر ، ويشيع فى جميع أهل الوبر والمدر .

فتولى فرعون فجمع كيده ثم اتى

كما فسرها الوسيط ثم حكى القرآن ما كان من فرعون بعد أن حدد موسى - عليه
السلام - موعد المبارزة فقال : ( فتولى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ
أتى ) .أى : فجمع كبار سحرته من أطراف مملكته ( ثُمَّ أتى ) بهم فى الموعد
المحدد ، ليتحدى موسى - عليه السلام - .وإلى هنا نرى الآيات الكريمة قد حكت
، لنا بأسلوبها البليغ جانبا من المحاورات التى دارت بين موسى وفرعون
، وأرتنا كيف واجه موسى طغيان فرعون وغروره ، برباطة جأش ، وقوة إرادة
. . . ومضاء عزيمة

قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من
افترى

كما فسرها الوسيط ثم انتقلت السورة بعد ذلك إلى الحديث عما دار بين موسى
والسحرة من محاورات . انتهت بإيمانهم واعترافهم بالحق الذى جاء به موسى من
: - عند ربه ، قال - تعالى - : (قَالَ لَهُمْ موسى . . . ) .قوله - تعالى
قَالَ لَهُمْ موسى وَيْلَكُمْ لاَ تَفْتَرُواْ عَلَى الله كَذِباً )
فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ . . . ) حكاية لما وجهه موسى - عليه السلام - من
نصح وإنذار . قيل : كان عددهم اثنين وسبعين ، وقيل : أكثر من ذلك .قال
الجمل : قوله ( فَيُسْحِتَكُم ) قرأ الأخوان وحفص عن عاصم فيسحتكم - بضم
الياء وكسر الحاء - . وقرأ الباقون بفتحهما . فقراءة الأخوين من أسحت
الرباعى ، وهى لغة نجد وتميم ، وقراءة الباقين من سحت الثلاثى - وبابه
، قطع - وهى لغة الحجازيين .وأصل هذه المادة . الدلالة على الاستقصاء
، والنفاد ، ومنه سحت الحالق الشعر ، أى : استقصاء فلم يترك منه شيئا
ويستعمل فى الإهلاك والإذهاب ، ونصبه بإضمار أن فى جواب النهى .أى : قال
موسى - عليه السلام - للسحرة الذين التقى بهم وجها لوجه بعد أن حشدهم فرعون
أمامه ، فقال لهم : الويل والهلاك لكم ، لا تفتروا على الله - تعالى - كذبا
بأن تقفوا فى وجهى ، وتزعموا أن معجزاتى هى نوع من السحر . فإنكم لو ،
) فعلتم ذلك أهلككم الله - تعالى - وأبادكم بعذاب عظيم من عنده .وجملة
وَقَدْ خَابَ مَنِ افترى ) معترضة لتقرير وتأكيد ما قبلها .أى : وقد خاب
وخسر كل من قال على الله - تعالى - قولا باطلا لا حقيقة له ، وفرعون أول
المبطلين المفترين الخاسرين ، فاحذروا أن تسيروا فى ركابه ، أو أن تطيعوا
له أمرا .

فتنازعوا امرهم بينهم واسروا النجوى

كما فسرها الوسيط ويبدو أن هذه النصيحة الصادقة المخلصة كان لها أثرها
الطيب فى نفوس بعض السحرة ، بدليل قوله - تعالى - بعد ذلك ( فتنازعوا
أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّواْ النجوى ) والنجوى : المسارة فى الحديث
أى : وبعد أن سمع السحرة من موسى نصيحته لهم وتهديده إياهم بالاستئصال.

والهلاك . إذا ما استمروا فى ضلالهم ، اختلفوا فيما بينهم ، ( وَأَسَرُّواْ النجوى ) أى : وبالغوا فى إخفاء ما يسارون به عن موسى وأخيه - عليهما السلام - .فمنهم من قال - كما روى عن قتادة - : إن كان ما جاءنا به موسى سحرا فسنغلبه ، وإن كان من عند الله فسيكون له أمر .ومنهم من قال بعد أن سمع كلام موسى : ما هذا بقول ساحر .ومنهم من أخذ فى حض زملائه المترددين على منازلة موسى - عليه السلام - ، لأنه جاء هو وأخوه لتغيير عقائد الناس ولاكتساب الجاه والسلطان ، ولسلب المنافع التى تأتى لهم أى للسحرة عن طريق السحر . .

قالوا ان هذان لساحران يريدان ان يخرجاكم من ارضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى

كما فسرها الوسيط ويبدو أن هذا الفريق الأخير هو الذى استطاع أن ينتصر على غيره من السحرة فى النهاية ، بدليل قوله - تعالى - بعد ذلك : ( قالوا إِنْ هذان لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ المثلى فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائتوا صَفّاً وَقَدْ أَفْلَحَ اليوم مَنِ استعلى ) فهاتان الآيتان تشيران إلى خوف السحرة من موسى وهارون ، وإلى أنهم بذلوا - أقصى جهدهم فى تجميع صفوفهم ، وفى تشجيع بعضهم لبعض ، حتى لا يستلب موسى عليه السلام - منهم جاههم وسلطانهم ومنافعهم . .أى : قال السحرة بعضهم لبعض بطريق التناجى والإسرار ، ما استقر عليه رأيهم ، من أن موسى وهارون ساحران يريدان أن يخرجا السحرة من أرضهم مصر : ليستوليا ( يُرِيدَانِ ) عن طريق سحرهما عما وأتباعهما عليهمازويريدان كذلك أن يذهبا بطريقتكم المثلى . أى بمذهبكم ودينكم الذى هو أمثل المذاهب وأفضلها ، ويملككم الذى أنتم فيه ، وبعيشكم الذى تنعمون به .فالمثلى : مؤنث أمثل بمعنى أشرف وأفضل . وإنما أنث باعتبار التعبير بالطريقة . هذا ، وهناك قراءات فى قوله تعالى : ( إِنْ هذان ) : - لَسَاحِرَانِ ) ذكرها الإمام القرطبى .فقال ما ملخصه : قوله - تعالى - ( إِنْ هذان لَسَاحِرَانِ ) قرأ أبو عمرو : ( إِنْ هاذين لَسَاحِرَانِ ) ورويت - هذه القراءة - عن عثمان وعائشة وغيرهما من الصحابة . . .وقرأ الزهرى والخليل بن أحمد وعاصم فى رواية حفص عنه ( إِنْ هذان لَسَاحِرَانِ ) بتخفيف ( إِنْ ) . . . وهذه القراءة سلمت من مخالفة المصحف ومن فساد الإعراف ، ويكون معناها : ما هذان إلا ساحران .وقرأ المدنيون والكوفيون ) : إِنَّ هذان ) بتشديد إن ( لَسَاحِرَانِ ) فوافقوا المصحف وخالفوا الإعراب فهذه ثلاث قراءات قد رواها الجماعة من الأئمة .والعلماء فى قراءة أهل المدينة والكوفة ستة أقوال : الأول أنها لغة بنى الحارث بن كعب وزبيد وخثعم يجعلون رفع المثنى ونصبه وخفضه بالألف . . . وهذا القول من أحسن ما ، . . . حملت عليه الآية .

فاجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا وقد افلح اليوم من استعلى

. . كما فسرها الوسيط والفاء فى قوله - تعالى : ( فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ فصيحة ، أى : إذا كان الأمر كذلك من أن موسى وهارون قد حضرا ليخرجاكم ( . من أرضكم بسحرهما . . . ( فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ) أى : فأحكموا سحركم واعزموا عليه ولا تجعلوه متفرقا .يقال : أجمع فلان رأيه وأزمعه ، إذا عزم عليه وأحكمه واستعد لتنفيذه وقوله ( ثُمَّ ائتوا صَفّاً ) أى : ثم ائتوا جميعا مصطفين ، حتى يكون أمركم أكثر هيبة فى النفوس ، وأعظم وقعا على القلوب ، وأدعى إلى الترابط والثبات وقوله ( وَقَدْ أَفْلَحَ اليوم مَنِ استعلى ) تذييل مؤكد لما قبله .أى : وقد أفلح وفاز بالمطلوب فى يوم النزال من طلب العلو ، وسعى من أجله ، واستطاع أن يتغلب على خصمه ، لأننا إذا تغلبنا على موسى كانت لنا الجوائز العظمى ، وإذا تغلب علينا خسرنا خسارة ليس هناك ما هو أشد منها .

قالوا يا موسى اما ان تلقي واما ان نكون اول من القى

- كما فسرها الوسيط وحانت ساعة المبارزة والمنازلة . فتقدم السحرة نحو موسى عليه السلام - وقالوا له - كما حكى القرآن عنهم - : ( . . . ياموسى إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ ألقى ) .والإلقاء فى الأصل : طرح الشىء ، ومفعول " تلقى " محذوف للعلم به ، والمراد به العصا أى؛ قال السحرة لموسى على سبيل التخيير الذى يبدو فيه التحدى والتلويح. بالقوة : يا موسى إما أن تلقى أنت عصاك قبلنا ، وإما أن نتركنا لنلقى حبالنا وعصينا قبلك .قال الآلوسى : خيروه - عليه السلام - وقدموه على أنفسهم إظهارا للثقة بأمرهم . وقيل . مراعاة للأدب معه - عليه السلام - . و أن " مع ما فى حيزها منصوب بفعل مضمر . أى ، إما تختار إلقاءك أو تختار " كوننا أول من ألقى . أو مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف .أى : " الأمر إما

. " . . . إلقاؤك أو كوننا أول من ألقى

قال بل القوا فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم انها تسعى

كما فسرها الوسيط ثم حكى القرآن بعد ذلك أن موسى - عليه السلام - ترك فرصة البدء لهم ، واستبقى لنفسه الجولة الأخيرة ، فقال - تعالى - : ( قَالَ بَلْ أَلْقُواْ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تسعى ) . والتخيل : هو إبداء أمر لا حقيقة له ، ومنه الخيال ، وهو الطيف الطارق في النوم .أى : قال موسى - عليه السلام - للسحرة فى الرد على تخييرهم له ، ابدأوا أنتم بإلقاء ما معكم من حبال وعصى .والفاء فى قوله : ( فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ . . . ) فصيحة وهى معطوفة على كلام محذوف ، وإذا هى الفجائية .أى : قال لهم موسى بل ألقوا أنتم أولا فامتثلوا أمره وألقوا ما معهم ، فإذا حبالهم وعصيهم التى طرحوها ، جعلت ، موسى - لشدة اهتزازها واضطرابها - يخيل إليه من شدة سحرهم ، أن هذه الحبال والعصى حيات تسعى على بطونها .قال ابن كثير : وذلك أنهم أودعوها من الزئبق ما كانت تتحرك بسببه وتضطرب وتميد ، بحيث يخيل للناظر أنها تسعى باختيارها وإنما كانت حيلة ، وكانوا جمًّا غفيرا ، وجمعا كبيرا - أى السحرة - فألقى ، كل منهم عصا وحبلا حتى صار الوادى ملآن حيات ، يركب بعضها بعضا . . .

فاوجس في نفسه خيفة موسى

كما فسرها الوسيط ويبدو أن فعل السحرة هذا ، قد أثر فى موسى - عليه السلام - بدليل قوله - تعالى - : ( فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً موسى ) والإيجاس : الإخفاء والإضمار ، والخيفة : الخوف . أى : فأخفى موسى - عليه السلام - فى نفسه شيئا من الخوف ، حين رأى حبال السحرة وعصيهم كأنها حيات تسعى على بطونها ، وخوفه هذا حدث له بمقتضى الطبيعة البشرية عندما رأى هذا الأمر الهائل من السحر ، وبمقتضى أن يؤثر هذا السحر فى نفوس الناس فيصرفهم عما سيفعله .

قلنا لا تخف انك انت الاعلى

- كما فسرها الوسيط وهنا ثبته الله - تعالى - وقواه ، وأوحى إليه - سبحانه بقوله : ( قُلْنَا لاَ تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأعلى ) .أى : قلنا له عندما أوجس فى نفسه خيفة من فعل السحرة :لا تخف يا موسى مما فعلوه ، إنك أنت الأعلى عليهم بالغلبة والظفر . أنت الأعلى لأن معك الحق ومعهم الباطل .وقد أكد الله - تعالى - هذه البشارة لموسى بجملة من المؤكدات أحدها : إن المؤكدة ، وثانيها : تكرير الضمير وثالثها : التعبير بالعلو المفيد للاستعلاء عليهم .

والق ما في يمينك تلقف ما صنعوا انما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث اتى

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صنعوا . . . ) زيادة فى تشجيعه وتثبيته .وتلقف من اللقف بمعنى الأخذ للشىء بسرعة وخفى ، يقال : لقف فلان يلقَفُه لقْفا ولقَفَانا ، إذا تناوله بسرعة وحذق باليد أو الفم .وفى هذه الكلمات ثلاث قراءات سبعية ، أحدها : " تَلَقَّفْ " بتاء مفتوحة مخففة ، بعدها لام مفتوحة ، ثم قاف مشددة وفاء ساكنة ، وأصل الفعل تلقف ، فحذفت إحداهما تخفيفا ، وهو مجزوم فى جواب المر وهو ( وَأَلْقِ ) .وثانيها : ( تَلَقَّفُ ) كالقراءة السابقة مع ضم الفاء ، على أن الفعل خبر لمبتدأ محذوف . أى : وألق ما فى يمينك فهى تلقف ما صنعوا .وثالثها : ( تَلْقَفْ ) بفتح التاء وسكون اللام وفتح القاف المخففة وجزم الفعل كالقراءة الأولى .والمراد فما في يمينه عصاه ، كما جاء ذلك صريحا فى آيات أخرى منها قوله - تعالى - : ( فألقى موسى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ) وعبر عنها بقوله : ( مَا فِي يَمِينِكَ ) على سبيل التهويل من شأنها ، أو لتذكيره بما شاهده منها بعد أن قال الله - تعالى - له قبل ذلك ( وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ ياموسى . . . . قَالَ أَلْقِهَا ياموسى فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تسعى ) والمعنى وألق يا موسى ما فى يمينك تبتلع كل ما صنعه السحرة من تمويه وتزوير : وتخييل ، جعل الناس يتوهمون أن حبالهم وعصيهم تسعى .قال ابن كثير : وذلك أنها صارت تنينا هائلا - أى حية عظيمة - ذا عيون وقوائم وعنق ورأس وأضراس ، فجعلت تتبع تلك الحبال والعصى حتى لم تبق منها شيئا إلا تلقفته وابتعلته ، والسحرة والناس ينظرون إلى ذلك عيانا جهارا نهارا . . . فقامت المعجزة واتضح البرهان ، وبطل ما كانوا يعملون .وقوله : ( إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَاحِرٍ ) تعليل لقوله ( تَلْقَفْ مَا صنعوا ) و ( مَا ) موصولة وهى

اسم إن ، و ( كَيْدُ ) خبرها ، والعائد محذوف .والتقدير : وألق يا موسى
عصاك تلقف ما صنعوه ، فإن الذى صنعوه إنما هو كيد من جنس كيد السحرة وصنعهم
) وتمويههم .( وَلاَ يُفْلِحُ الساحر ) أى ولا يفوز هذا الجنس من الناس
حَيْثُ أتى ) أى : حيث كان فحيث ظرف مكان أريد به التعميم .أى : أن الساحر
لا يفلح ولا يفوز أينما كان ، وحيثما أقبل ، وأنّى اتجه ، لأنه يصنع للناس
التخييل والتمويه والتزوير والتزييف للحقائق .قال صاحب الكشاف : " فإن قلت
، لم وحد ساحر ولم يجمع؟ قلت : لأن القصد فى هذا الكلام إلى معنى الجنسية :
. لا إلى معنى العدد ، فلو جمع لخيل أن المقصود هو العدد

فالقي السحرة سجدا قالوا امنا برب هارون وموسى

كما فسرها الوسيط ثم كانت بعد ذلك المفاجأة الكبرى فقد آمن السحرة حين رأوا
ما رأوا بعد أن ألقى موسى ما فى يمينه ، قال - تعالى - : ( فَأُلْقِيَ
" : السحرة سُجَّداً قالوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وموسى ) .قال الآلوسى
" والفاء فى قوله ( فَأُلْقِيَ . . . ) فصيحة معربة عن جمل غنية عن التصريح
أى : فزال الخوف ، وألقى موسى ما في يمينه ، وصارت حية ، وتلقفت حبالهم.
وعصيهم ، وعلم السحرة أن ذلك معجزة ، فخروا سجدا لله على وجوههم قائلين
آمنا برب هارون وموسى .. .والحق أن التعبير بقوله - تعالى - : ( فَأُلْقِيَ
السحرة سُجَّداً . . . ) يدل على قوة البرهان الذى عاينوه ، حتى لكأنهم
- أمسكهم إنسان وألقاهم ساجدين بالقوة لعظم المعجزة التى عاينوها ، وأطلق
سبحانه - عليهم اسم السحرة فى حال سجودهم له - تعالى - وإيمانهم به ، نظرا
إلى حالهم الماضية .وهكذا النفوس النقية عندما يتبين لها الحق ، لا تلبث أن
تفىء إليه ، وتستجيب لأهله . قال الكرخى : خروا ساجدين لله لأنهم كانوا فى
أعلى طبقات السحر ، فلما رأوا ما فعله موسى خارجا عن صناعتهم ، عرفوا أنه
ليس من السحر البتة .وقال صاحب الكشاف : " ما أعجب أمرهم ، قد ألقوا حبالهم
وعصيهم للكفر والجحود . ثم ألقوا رءوسهم بعد ساعة للشكر والسجود . فما أعظم
. " الفرق بين الإلقاءين

قال امنتم له قبل ان اذن لكم انه لكبيركم الذي علمكم السحر فلاقطعن ايديكم
وارجلكم من خلاف ولاصلبنكم في جذوع النخل ولتعلمن اينا اشد عذابا وابقى

، كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما توعد فرعون به السحرة
وموقفهم من هذا الوعيد فقال - تعالى - : ( قَالَ آمَنتُمْ لَهُ . . . . )
) : أى : قال فرعون للسحرة بعد أن شاهدهم وقد خروا لله - تعالى - ساجدين.
آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ) أى : هل آمنتم لموسى وصدقتموه
فى دعوته وانقدتم له ، قبل أن أعطيكم الإذن بذلك . فالاستفهام للتقريع
والتهديد .( إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الذي عَلَّمَكُمُ السحر ) أى : أن موسى
الذى انقدتم له لهو كبيركم وشيخكم الذى علمكم فنون السحر ، فأنتم تواطأتم
معه . وآمنتم به لأنكم من أتباعه .وغرضه من هذا القول صرف الناس عن التأسى
بهم ، وعن الإيمان بالحق الذى آمن به السحرة والظهور أمام قومه بمظهر
الثبات والتماسك بعد أن استبد به وبهم الخوف والهلع ، من هول ما رأوه .ثم
أضاف إلى قوله هذا تهديدا أشد فقال : ( فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ
وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلاَفٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النخل ) .أى
فوالله لأقطعن أيديكم اليمنى - مثلا - مع أرجلكم اليسرى ، ولأصلبنكم على :
جذوع النخل ، لتكونوا عبرة لغيركم ممن تسول له نفسه أن يفعل فعلكم .فالمراد
من قوله " من خلاف " أى : من الجهة المخالفة أو من الجانب بأن يقطع اليد
اليمنى ومعها الرجل اليسرى ، لأن ذلك أشد على الإنسان من قطعهما من جهة
واحدة إذ قطعهما من جهة واحدة يبقى عنده شىء كامل صحيح ، بخلاف قطعهما من
جهتين مختلفتين فإنه إفساد للجانبين .واختار أن يصلبهم فى جذوع النخل ، لأن
هذه الجذوع أخشن من غيرها والتصليب عليها أشق من التصليب على غيرها ، وأظهر
للرائى لعلوها عن سواها . فهو لطغيانه وفجوره اختار أقسى ألوان العذاب
ليصبها على هؤلاء المؤمنين .قال الجمل : قوله : ( وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي
جُذُوعِ النخل ) يحتمل أن يكون حقيقة . وفى التفسير أنه نقر جذوع النخل حتى
: جوفها ووضعهم فيها فماتوا جوعا وعطشا .ويحتمل أن يكون مجازا وله وجهان
أحدهما : أنه وضع حرفا مكان آخر ، والأصل على جذوع النخل ، والثانى : أنه
" شبه تمكنهم بتمكن من حواه الجذع واشتمل عليه .وقال الكرخى " فى " بمعنى
على " مجازا ، من حيث إنه شبه تمكن المصلوب بالجذع ، بتمكن المظروف في
الظرف وهذا هو المشهور .وقوله : ( وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ
عَذَاباً وأبقى ) تهديد فوق تهديد ، ووعيد إثر وعيد .أى : والله لتعلمن
أيها السحرة أينا أشد تعذيبا لكم ، وأبقى فى إنزال الهلاك بكم ، أنا أم
، موسى وربه .وكأنه بهذا التهديد يريد أن يهون من كل عذاب سوى عذابه لهم
، ومن كل عقاب غير عقابه إياهم .وهذا التهديد التى حكاه الله - تعالى - هنا
قد جاء ما يشبهه فى آيات أخرى منها قوله - تعالى - : ( قَالَ فِرْعَوْنُ
آمَنتُمْ بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هذا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ

فِي المدينة لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ
لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلاَفٍ ثُمَّ
( لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ

قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما انت قاض انما تقضي هذه الحياة الدنيا

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - أن السحرة بعد أن استقر الإيمان فى
) : قلوبهم ، قد قابلوا تهديد فرعون لهم بالاستخفاف وعدم الاكتراث فقال
قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ على مَا جَآءَنَا مِنَ البينات والذي فَطَرَنَا
فاقض مَآ أَنتَ قَاضٍ . . . ) .أى : قال السحرة فى ردهم على تهديد فرعون
لهم : لن نختارك يا فرعون ولن نرضى بأن نكون من حزبك ، ولن نقدم سلامتنا من
عذابك . . . على ما ظهر لنا من المعجزات التى جاءنا بها موسى ، والتى على
رأسها عصاه التى ألقاها فإذا هى تبتلع حبالنا وعصينا .وجملة " والذى فطرنا
الواو فيها للعطف على " ما " فى قوله ( مَا جَآءَنَا ) .أى : لن نختارك "
يا فرعون على الذى جاءنا من البينات على يد موسى ، ولا على الذى فطرنا أى؛
خلقنا وأوجدنا فى هذه الحياة .ويصح أن تكون هذه الواو للقسم ، والموصول
مقسم به ، وجواب القسم محذوف دل عليه ما قبله ، والمعنى : وحق الذى فطرنما
لن نؤثرك يا فرعون على ما جاءنا من البينات .وقوله : ( فاقض مَآ أَنتَ
: قَاضٍ ) تصريح منهم بأن تهديده لهم لا وزن له عندهم ، ورد منهم على قوله
أى : لن. ( لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلاَفٍ )
، نقدم طاعتك على طاعة خالقنا بعد أن ظهر لنا الحق ، فافعل ما أنت فاعله
ونفذ ما تريد تنفيذه فى جوارحنا ، فهى وحدها التى تملكها ، أما قلوبنا فقد
استقر الإيمان فيها ، ولا تملك شيئا من صرفها عما آمنت به .قال بعض العلماء
واعلم أن العلماء اختلفوا : هل فعل بهم فرعون ما توعدهم به ، أو لم يفعله :
بهم؟فقال قوم : قتلهم وصلبهم ، وقوم أنكروا ذلك ، وأظهرهما عندى : أنه لم
يقتلهم ، وأن الله عصمهم منه لأجل إيمانهم الراسخ بالله - تعالى - لأن الله
قال لموسى وهارون : ( أَنتُمَا وَمَنِ اتبعكما الغالبون )

انا امنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما اكرهتنا عليه من السحر والله خير وابقى

كما فسرها الوسيط وقوله : ( إِنَّمَا تَقْضِي هذه الحياة الدنياآ إِنَّآ
آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا ) تعليل لعدم مبالاتهم
بتهديده لهم .أى : افعل يا فرعون ما أنت فاعله بأجسامنا ، فإن فعلك هذا
إنما يتعلق بحياتنا فى هذه الحياة الدنيا ، وهى سريعة الزوال ، وعذابها
) أهون من عذاب الآخرة .( إِنَّآ آمَنَّا بِرَبِّنَا ) وخالقنا ومالك أمرنا
لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا ) السالفة ، التى اقترفناها بسبب الكفر
والإشراك به - سبحانه - .( وَ ) ليغفر لنا ( مَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ
مِنَ السحر ) لكى نعارض به موسى - عليه السلام - معارضة من هو على الباطل
لمن هو على الحق ، وقد كنا لا نملك أن نعصيك .وخصوا السحر بالذكر مع دخوله
فى خطاياهم ، للإشعار بشدة نفورهم منه ، وبكثرة كراهيتهم له بعد أن هداهم
الله إلى الإيمان .وقوله : ( والله خَيْرٌ وأبقى ) تذييل قصدوا به الرد على
قول فرعون لهم : ( وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَاباً وأبقى ) .أى
والله - تعالى - خير ثوابا منك يا فرعون ، وأبقى جزاء وعطاء ، فإن :
ثوابه - سبحانه -لا نقص معه ، وعطاءه أبقى من كل عطاء .

انه من يات ربه مجرما فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى

كما فسرها الوسيط وقوله - عز وجل - : ( إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ
مُجْرِماً . . ) يصح أن يكون كلاما مستأنفا ساقه الله - تعالى - لبيان سوء
عاقبة المجرمين ، وحسن عاقبة المؤمنين .ويصح أن يكون من بقية كلام السحرة
فى ردهم على فرعون .والمعنى : ( إِنَّهُ ) أى الحال والشأن ( مَن يَأْتِ
رَبَّهُ ) يوم القيامة فى حال كونه ( مُجْرِماً ) .أى : مرتكبا لجريمة
) الكفر والشرك بالله - تعالى - ( فَإِنَّ لَهُ ) أى : لهذا المجرم
جَهَنَّمَ ) يعذب فيها عذابا شديدا من مظاهره أنه ( لاَ يَمُوتُ فِيهَا )
فيستريح ( وَلاَ يحيى ) حياة فيها راحة .كما قال - تعالى - : ( والذين
كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لاَ يقضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلاَ
( يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ .

ومن ياته مؤمنا قد عمل الصالحات فاولئك لهم الدرجات العلى

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة المؤمنين فقال : ( وَمَن
) يَأْتِهِ مُؤْمِناً ) به إيمانا حقا ، و ( قَدْ عَمِلَ ) الأعمال

الصالحات ) بجانب إيمانه . ( فأولئك ) الموصوفون بتلك الصفات ( لَهُمُ ) ، بسبب إيمانهم وعملهم الصالح ( الدرجات العلى ) أى : المنازل الرفيعة والمكانة السامية .

جنات عدن تجري من تحتها الانهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى

كما فسرها الوسيط وقوله : ( جَنّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ) يدل على الدرجات العلى .أى : لهم جنات باقية دائمة تجرى من تحت أشجارها وثمارها الأنهار ( خَالِدِينَ فِيهَا ) خلودا أبديا .( وذلك ) العطاء الجزيل الباقى جزاء من تزكى ، أى من تطهر وتجرد من دنس الكفر والمعاصى وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد صورت لنا بأسلوبها البليغ المؤثر ، تلك المحاورات الطويلة التى دارت بين موسى وفرعون والسحرة . . والتى انتهت بانتصار الحق واندحار الباطل .

ولقد اوحينا الى موسى ان اسر بعبادي فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - جانبا من النعم التى أنعم بها على بنى إسرائيل ، وحذرهم من جحودها ، فقال - تعالى - : (وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إلى قال الآلوسى ما ملخصه : وقوله - سبحانه - : ( وَلَقَدْ. ( . . . أَوْحَيْنَآ إلى موسى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي . . ) حكاية إجمالية لما انتهى إليه أمر فرعون وقومه ، وقد طوى - سبحانه - ذكر ما جرى عليهم بعد أن - تغلب موسى على السحرة . . . وبعد أن مكث موسى يبلغهم دعوة الله - تعالى مدة طويلة ويطلب منهم إرسالى بنى إسرائيل معه " .وصدرت الاية الكريمة : باللام الموطئة للقسم وبقد تأكيدا لهذا الإيحاء ، وتقريرا له . . .أى والله لقد أوحينا إلى عبدنا موسى - عليه السلام - وقلنا له : سر بعبادى من بنى إسرائيل فى أول الليل متجها بهم من مصر إلى البحر الأحمر فإذا ما وصلت إليه ، ( فاضرب لَهُمْ طَرِيقاً فِي البحر يَبَساً ) .أى : فاجعل لهم طريقا فى البحر يابسا ، فالضرب هنا بمعنى الجعل كما فى قولهم : ضرب لهم فى ماله سهما . إذا جعل له سهما .والمراد بالطريق جنسه فإن الطرق التى حدثت بعد أن ضرب موسى بعصاه البحر . كانت اثنى عشر طريقا بعدد أسباط بنى إسرائيل وعبر - سبحانه - عن بنى إسرائيل الذين خرجوا مع موسى بعنوان العبودية. لله - تعالى - للإشعار بعطفه - عز وجل - عليهم ورحمته بهم ، وللتنبيه على طغيان فرعون حيث استعبد واستذل عبادا للخالق - سبحانه - وجعلهم عبيدا له قال الجمل : " وقوله ( يَبَساً ) صفة لقوله ( طَرِيقاً ) وصف به لما يؤول. إليه ، لأنه لم يكن يبسا بعد . وإنما مرت عليه الصبا فجففته . وقيل : هو فى الأصل مصدر وصف به للمبالغة ، أو على حذف مضاف ، أو جميع يابس كخادم وخدم وصف به الواحد مبالغة " .وقوله - سبحانه - : ( لاَّ تَخَافُ دَرَكاً وَلاَ تخشى ) تذييل قصد به تثبيت فؤاد موسى - عليه السلام - وإدخال الطمأنينة على قلبه .والدرك : اسم مصدر بمعنى الإدراك . والجملة فى محل نصب على الحال من فاعل " اضرب " .أى : اضرب لهم كطريقا فى البحر يابسا ، حالة كونك غير خائف من أن يدركك فرعون وجنوده من الخلف ، وغير وجل من أن يغرقكم البحر من أمامكم .فالآية الكريمة قد اشتملت على كل ما من شأنه أن يغرس الأمان والاطمئنان فى قلب موسى ومن معه .

فاتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - موقف فرعون بعد أن علم بأن موسى قد خرج بقومه من مصر فقال - تعالى - : ( فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِّنَ اليم مَا غَشِيَهُمْ ) .أى : وبعد أن علم فرعون بخروج موسى وبنى إسرائيل من مصر ، جمع جنوده وأسرع فى طلب موسى ومن معه ، فكانت نتيجة ذلك ، أن أغرق الله - تعالى - فرعون وجنوده فى البحر .وأهلكهم عن آخرهم . . .والتعبير بالاسم المبهم الذى هو الموصول فى قوله ( فَغَشِيَهُمْ مِّنَ اليم مَا غَشِيَهُمْ ) يدل على تعظيم ما غشيهم وتهويله ، أى : فعلاهم وغمرهم من ماء البحر ما لا يعلم كنهه إلا الله - تعالى - بحيث صاروا جميعا فى طيات أمواجه .ونظيره قوله - تعالى - : ( إِذْ يغشى السدرة مَا يغشى ) - وقوله : ( فأوحى إلى عَبْدِهِ مَآ أوحى ) قال صاحب الكشاف : قوله - تعالى من باب الاختصار ومن جوامع الكلم التى تستقل مع قلتها ( مَا غَشِيَهُمْ ) : بالمعانى الكثيرة . أى : غشيهم مالا يعلم كنهه إلا الله - تعالى - وقرىء . . . فغشاهم من اليم ما غشاهم ، والتغشية : التغطية

واضل فرعون قومه وما هدى

كما فسرها الوسيط قوله - سبحانه - : ( وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا

هدى ) بيان لحال فرعون قبل أن يهلكه الله - تعالى - بالغرق .أى : وأضل فرعون فى حياته قومه عن طريق الحق ، وما هداهم إليها وإنما هداهم إلى طريق الغى والباطل ، فكانت عاقبتهم جميعا الاستئصال والدمار .وما اشتملت عليه الآيتان من إجمال بالنسبة لتلك الأحداث ، قد جاء مفصلا فى آيات أخرى ومن ذلك قوله - تعالى - فى سورة الشعراء : ( وَأَوْحَيْنَآ إلى موسى أَنْ أَسْرِ بعبادي إِنَّكُم مُّتَّبِعُونَ فَأَرْسَلَ فِرْعَونُ فِي المدآئن حَاشِرِينَ إِنَّ هؤلاء لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بني إِسْرَآئِيلَ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ فَلَمَّا تَرَاءَى الجمعان قَالَ أَصْحَابُ موسى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ فَأَوْحَيْنَآ إلى موسى أَنِ اضرب بِّعَصَاكَ البحر فَانفلق فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كالطود العظيم وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخرين وَأَنجَيْنَا موسى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخرين ).

يا بني اسرائيل قد انجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الايمن ونزلنا عليكم المن والسلوى

) : كما فسرها الوسيط ثم ذكر - سبحانه - بنى إسرائيل بنعمه عليهم فقال ، يابني إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُمْ مِّنْ عَدُوِّكُمْ ) فرعون وجنده بأن أغرقناهم أمام أعينكم وأنتم تنظرون إليهم ، بعد أن كانوا يسومونكم سوء العذاب .( وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطور الأيمن ) أى : وواعدنا نبيكم موسى فى هذا المكان لإعطائه التوراة لهدايتكم وإصلاح شأنكم ، وهذا الوعد هو المشار إليه بقوله - تعالى - : ( وَوَاعَدْنَا موسى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً
قال صاحب الكشاف : ذكرهم النعمة فى نجاتهم وهلاك عدوهم ، وفيما واعد موسى ( من المناجاة بجانب الطور ، وكتب التوراة فى الألواح . وإنما عدى المواعدة إليهم لأنها لابستهم واتصلت بهم حيث كانت لنبيهم ونقبائهم ، وإليهم رجعت منافعها التى قام بها دينهم وشرعهم وفيما أفاض عليهم من سائر نعمه وأرزاقه
وقال القرطبى ما ملخصه : وقوله : (جَانِبَ ) نصب على المفعول الثانى. لقوله واعدنا . .و ( الطور الأيمن ) نصب لأنه نعت للجانب ، إذ ليس للجبل . يمين ولا شمال .وتقدير الآية : وواعدناكم إتيان جانب الطور ثم حذف المضاف أى : أمرنا موسى أن يأمركم بالخروج معه ليكلمه بحضرتكم فتسمعوا الكلام وقيل ، وعد موسى بعد إغراق فرعون أن يأتى جانب الطور الأيمن فيؤتيه التوراة : ) : فالوعد كان لموسى ، ولكن خوطبوا به لأن الوعد كان لأجلهم ..وقوله - وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ المن والسلوى ) نعمة ثالثة من نعمه - سبحانه عليهم .والمن : مادة حلوة لزجة تشبه العسل كانت تسقط على الشجر من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس .والسلوى : طائر لذيذ الطعم ، يشبه الطائر الذى يسمى السمانى ، كانوا يأخذونه ويتلذذون بأكله .وقيل : هما كناية عما أنعم الله - تعالى - به عليهم ، وهما شىء واحد ، سمى أحدهما " منا " لامتنان الله عليهم ، وسمى الثانى " سلوى " لتسليتهم به .أى : ونزلنا عليكم بفضلنا ورحمتنا وأنتم فى التيه تلك المنافع والخيرات التى تأخذونها من غير كد أو تعب .

كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى

كما فسرها الوسيط والأمر فى قوله - سبحانه - ( كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ) للإباحة ، والجملة مقول لقول محذوف . أى : وقلنا لهم كلوا من طيبات ما رزقناكم من المن والسلوى ، ومن غيرهما من اللذائذ التى أحلها الله لكم .وقوله - تعالى - : ( وَلاَ تَطْغَوْاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هوى ) تحذير لهم من تجاوز الحدود التى شرعها الله - تعالى - لهم ، إذ الطغيان مجاوزة الحد فى كل شىء .والضمير فى قوله ( فِيهِ ) يعود إلى الموصول الذى هو ( مَا : فى قوله : ( مَا رَزَقْنَاكُمْ ) ويحل - بكسر الحاء - بمعنى يجب . يقال ( حل أمر الله على فلان يحل حلالا بمعنى وجب .وقرأ الكسائى ( فَيَحُلَّ ) بضم الحاء بمعنى ينزل يقال : حل فلان بالمكان يحل - بالضم حلولا ، إذا نزل به والمعنى : كلوا يا بنى إسرائيل من الطيبات التى رزقكم الله إياها واشكروه. عليها ، ولا تتجاوزوا فيما رزقناكم الحدود التى شرعناها لكم ، فإنكم إذا فعلتم ذلك حق عليكم غضبى ، ونزل بكم عقابى ، ومن حق عليه غضبى ونزل به عقابى ( فَقَدْ هوى ) أى : إلى النار .وأصله السقوط من مكان مرتفع كجبل ونحوه . يقال : هوى فلان - بفتح الواو - يهوى - بكسرها - إذا سقط إلى أسفل . ثم استعمل فى الهلاك للزومه له ،

واني لغفار لمن تاب وامن وعمل صالحا ثم اهتدى

كما فسرها الوسيط ثم فتح - سبحانه - باب الأمل لعباده فقال : ( وَإِنِّي
) لَغَفَّارٌ ) أى : لكثير المغفرة ( لِّمَن تَابَ ) من الشرك والمعاصى
وَآمَنَ ) بكل ما يجب الإيمان به ( وَعَمِلَ صَالِحَاً ) أى : وعمل عملا
، مستقيما يرضى الله - تعالى - . ( ثُمَّ اهتدى ) أى : ثم واظب على ذلك
وداوم على استقامته وصلاحه إلى أن لقى الله - تعالى - .وثم فى قوله ( ثُمَّ
- اهتدى ) للتراخى النسبى ، إذ أن هناك فرقا كبيرا بين من يتوب إلى الله
- تعالى - ويقدم العمل الصالح ، ويستمر على ذلك إلى أن يلقى الله - تعالى
. وبين من لا يداوم على ذلك

وما اعجلك عن قومك يا موسى

- كما فسرها الوسيط ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن فتنة قوم موسى
. عليه السلام - بعد أن ذهب لمناجاة ربه ، وكيف انقادوا لخديعة السامرى لهم
فقال - تعالى - : ( وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَومِكَ . . . ) .هذه الآيات . .
- الكريمة تحكى قصة ملخصها : أن موسى عليه السلام بعد أن أهلك الله - تعالى
فرعون وجنوده ، سار ببنى إسرائيل متجها ناحية جبل الطور ، ثم تركهم مستخلفا
عليهم أخاه هارون ، وذهب لمناجاة ربه ومعه سبعون من وجهائهم ، ثم عجل من
. بينهم شوقا للقاء ربه ، فأخبره - سبحانه - بما أحدثه قومه فى غيبته عنهم
وجملة ( قَومِكَ ياموسى ) مقول لقول محذوف .والمعنى : وقلنا لموسى : أى شىء
جعلك تتعجل المجىء إلى هذا المكان قبل قومك وتخلفهم وراءك ، مع أنه ينبغى
لرئيس القوم أن يتأخر عنهم فى حالة السفر ، ليكون نظره محيطا بهم ونافذا
عليهم؟

قال هم اولاء على اثري وعجلت اليك رب لترضى

كما فسرها الوسيط فأجاب معتذار لربه - تعالى - بقوله : ( هُمْ أولاء على
أَثَرِي ) أى : على مقربة منى ، وسيلحقون بى بعد زمن قليل ( وَعَجِلْتُ
إِلَيْكَ رَبِّ لترضى ) أى : وقد حملنى على أن أحضر قلبهم ، شوقى إلى
مكالمتك - يا إلهى - وطمعى فى زيادة رضاك عنى .فموسى - عليه السلام - قد
علل تقدمه على قومه فى الحضور بعلتين ، الأولى : أنهم كانوا على مقربة منه
) : والثانية : حرصه على استدامة رضى ربه عنه .قال صاحب الكشاف : فأن قلت .
مَآ أَعْجَلَكَ ) سؤال عن سبب العجلة ، فكان الذى ينطبق عليه من الجواب أن
يقال : طلب زيادة رضاك أو الشوق فى كلامك . وقوله : ( هُمْ أولاء على
أَثَرِي ) كما ترى غير منطبق عليه؟قلت : قد تضمن ما واجهه به رب العزة
شيئين : أحدهما : إنكار العجلة فى نفسها ، والثانى : السؤال عن سببها
الحامل عليها ، فكان أهم الأمرين إلى موسى بسط العذر ، وتمهيد العلة فى نفس
ما أنكر عليه ، فاعتل بأنه لم يوجد منى إلا تقدم يسير ، مثله لا يعتد به فى
العادة ، ولا يحتفل به ، وليس بينى وبين من سبقته إلى مسافة قريبة ، يتقدم
) : بمثلها الوفْدَ رئيسُهم ومقدمُهم . ثم عقبه بجواب السؤال عن السبب فقال
. ( وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لترضى

قال فانا قد فتنا قومك من بعدك واضلهم السامري

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا
قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السامري ) إخبار منه - سبحانه - بما
فعله قومه بعد مفارقته لهم .( فَتَنَّا ) من الفَتْن ومعناه لغة : وضع
الذهب فى النار ليتبين أهو خالص أز زائف .والفتنة تطلق فى القرآن بإطلاقات
متعددة منها : الدخول فى النار كما فى قوله - تعالى - : ( يَوْمَ هُمْ
عَلَى النار يُفْتَنُونَ ) ومنها الحجة كما فى قوله - تعالى - : ( ثُمَّ
لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أن قَالُواْ والله رَبِّنَا مَا كُنَّا
) : - مُشْرِكِينَ ) ومنها : الإختبار والامتحان ، كما فى قوله - سبحانه
أَنَّمَآ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ ) ومنها الإضلال والاشراك
كما فى قوله - تعالى - : ( وَقَاتِلُوهُمْ حتى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ ) ،
وقوله - سبحانه - :( وَمَن يُرِدِ الله فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ
مِنَ الله شَيْئاً . . ) ويبدو أن المراد بالفتنة هذا المعنى الأخير وهو
الإضلال والشرك ، لأن فتنتهم كانت بسبب عبادتهم للعجل فى غيبه موسى - عليه
السلام - .ويدل على هذا قوله - تعالى - : ( واتخذ قَوْمُ موسى مِن بَعْدِهِ
مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ . . ) والسامرى : اسم
للشخص الذى كان سببا فى ضلال بنى إسرائيل ، قيل : كان من زعماء بنى إسرائيل
وينسب إلى قبيلة تعرف بالسامرة .وقيل : إنه كان من قوم يعبدون البقر ، وقيل
غير ذلك من أقوال مظنونة غير محققة .أى : قال الله - تعالى - لموسى : فإنا

قد أضللنا قومك من بعد مفارقتك لهم ، وكان السبب فى ضلالهم السامرى ، حيث دعاهم إلى عبادة العجل فانقادوا له وأطاعوه .

فرجع موسى الى قومه غضبان اسفا قال يا قوم الم يعدكم ربكم وعدا حسنا افطال عليكم العهد ام اردتم ان يحل عليكم غضب من ربكم فاخلفتم موعدي

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( فَرَجَعَ موسى إلى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً ) بيان لما كان منه - عليه السلام - بعد أن علم بضلال قومه .وكان رجوع موسى إليهم بعد أن ناجى ربه ، وتلقى منه التوراة .قال الآلوسى ما ملخصه : ( فَرَجَعَ موسى إلى قَوْمِهِ ) عند رجوعه المعهود أى بعد ما استوفى الأربعين " ذا القعدة وعشر ذى الحجة " وأخذ التوراة لا عقيب الإخبار المذكور ، فسببية ما قبل الفاء لما بعدها إنما هى باعتبار قيد الرجوع المستفاد منه قوله ( غَضْبَانَ أَسِفاً )لا باعتبار نفسه ، وإن كانت داخلة عليه حقيقة ، فإن كون الرجوع بعد تمام الأربعين أمر مقرر مشهور لا يذهب الوهم إلى كونه عند الإخبار المذكور . . . " .والمعنى فرجع موسى إلى قومه - بعد مناجاته لربه وبعد تلقيه التوراة حالة كونه ( غَضْبَانَ أَسِفاً ) أى : غضبان شديد الغضب .فالمراد بالأسف شدة الغضب ، وقيل المراد به الحزن والجزع .ثم بين - سبحانه - ما قاله موسى لقومه بعد رجوعه إليهم فقال : ( قَالَ ياقوم أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً . . ) أى : قال لهم على سبيل الزجر والتوبيخ يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا لا سبيل لكم إلى إنكاره ، ومن هذا الوعد الحسن : إنزال التوراة لهدايتكم وسعادتكم ، وإهلاك عدوكم أمام أعينكم . فلماذا أعرضتم عن عبادته وطاعته مع أنكم تعيشون فى خيره ورزقه . . . ؟ثم زاد فى تأنيبهم وفى الإنكار عليهم فقال : ( أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ العهد أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَّوْعِدِي ) فالاستفهام فى قوله ( أَفَطَالَ . . . ) للنفى والإنكار و ( أَمْ ) منقطعة بمعنى بل .والمعنى : أفطال عليكم الزمان الذى فارقتكم فيه؟ لا إنه لم يطل ، حتى تنسوا ما أمرتكم به ، بل إنكم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم - فأخلفتم موعدى الذى وعدتمونى إياه وهو أن تثبتوا على إخلاص العبادة لله تعالى - .ومعنى إرادتهم حلول الغضب عليهم ، أنهم فعلوا ما يستوجب ذلك وهو : طاعتهم للسامرى فى عبادتهم للعجل .قال ابن جرير : كان إخلافهم موعده عكوفهم على عبادة العجل ، وتركهم السير على أثر موسى للموعد الذى كان الله وعدهم ، وقولهم لهارون إذ نهاهم عن عبادة العجل ودعاهم إلى السير معه فى أثر موسى : ( لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حتى يَرْجِعَ إِلَيْنَا موسى ) .

قالوا ما اخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حملنا اوزارا من زينة القوم فقذفناها فكذلك القى السامري

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - معاذيرهم الواهية التى تدل على بلادة عقولهم ، وانتكاس أفكارهم ، وتفاهة شخصيتهم فقال - تعالى - : ( قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا . . . ) .وقوله ( بِمَلْكِنَا ) قرأه نافع وعاصم - بفتح الميم وسكون اللام - أى : بأمرنا . وقرأه حمزة والكسائي ( بِمِلْكِنَا ) بكسر الميم وسكون اللام - أى : بطاقتنا : وقرأه الباقون - بضم الميم وسكون اللام - أى : بسلطاننا ، وهو مصدر مضاف لفاعله ومفعوله محذوف ، أى : بملكنا أمرنا .أي : قال بنو إسرائيل لنبيهم موسى على سبيل الاعتذار الذى هو أقبح من ذنب : ما أخلفنا موعدك فعبدنا العجل بأمرنا وطاقتنا واختيارنا ، فقد كان الحال أكبر من أن يدخل تحت سلطاننا ، ولو خلينا بيننا وبين أنفسنا ولم يسول لنا السامرى ما سول لبقينا على العهد الذى عاهدناك عليه ، وهو أن نعبد الله - تعالى - وحده .وقوله : ( ولكنا حُمِّلْنَآ أَوْزَاراً مِّن زِينَةِ القوم فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السامري ) حكاية لبقية ما قالوه من أعذار قبيحة .ولفظ : " حملنا قرأه ابن كثير وابن عامر وحفص عن عاصم - بضم الحاء وتشديد الميم - على أنه فعل ونائب فاعل ، وقرأه الباقون - بفتح الحاء والميم - على أنه فعل وفاعل قال الآلوسى ما ملخصه : والمراد بالقوم : القبط ، والأوزار : الأحمال. وتسمى بها الآثام ، وقصدوا بذلك ما استعاروه من القبط من الحلى فى عيد لهم قبل الخروج من مصر ، وقيل : استعاروه باسم العرس . وقيل : هى ما ألقاه البحر على الساحل مما كان على الذين غرقوا وهم فرعون وجنوده فأخذ بنو إسرائيل ذلك على أنه غنيمة مع أنها لم تكن حلالا لهم .أي : قال بنو إسرائيل لموسى : ما أخلفنا عهدك بأمرنا ولكنا حملنا أثقالا وأحمالا من زينة القبط التى أخذناها منهم بدون حق ( فَقَذَفْنَاهَا ) فى النار بتوجيه من السامرى أى : فكما ألقينا ما معنا ( أَلْقَى السامري ) ما معه من ( فَكَذَلِكَ ) ، تلك الزينة .قال ابن كثير : وحاصل ما اعتذر به هؤلاء الجهلة أنهم تورعوا عن زينة القبط ، فألقوها عنهم ، فعبدوا العجل ، فتورعوا عن الحقير ، وفعلوا

الأمر الكبير .

فاخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا الهكم واله موسى فنسي

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما صنعه لهم السامرى من تلك الحلى فقال
فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُواْ هاذآ ) :
إلهكم وإله موسى فَنَسِيَ ) .والخوار : الصوت المسموع .أى : فكانت نتيجة ما
قذفوه من الحلى فى النار ، أن أخرج السامرى لهم من ذلك ( عِجْلاً جَسَداً
لّهُ خُوَارٌ ) أى : صوت كصوت البقر .قيل : إن الله - تعالى - خلق الحياة
، فى ذلك العجل على سبيل الاختبار والامتحان لهم .وقيل : لم تكن به حياة
ولكن السامرى صنعه لهم بدقة ، وجعل فيه منافذ إذا دخلت فيها الريح أخرجت
منه صوتا كصوت خوار البقر .فقال بنو إسرائيل عندما رأوا العجل الذى صنعه
لهم السامرى : هذا إلهكم وإله موسى فاعبدوه ، لأن موسى نسى إلهه هنا ، وذهب
ليبحث عنه فى مكان آخر ، فالضمير فى قوله ( فَنَسِيَ ) يعود لموسى .وقولهم
، هذا يدل على بلادتهم وسوء أدبهم مع نبيهم ، فهم لم يكتفوا بعبادة العجل
بل زعموا أن نبيهم الداعى لهم إلى توحيد الله ، قد كان يعبد العجل وأنه قد
نسى مكانه فذهب يبحث عنه .وقيل : إن الذى حدث منه النسيان هو السامرى ، وأن
، النسيان بمعنى الترك ، أى : فترك السامرى ما كان عليه من الإيمان الظاهرى
ونبذ الدين الذى بعث الله - تعالى - به موسى ، وحض الناء على عبادة العجل
الذى صنعه لهم .والقول الأول هو أرجح ، لأنه هو الظاهر من معنى الآية
الكريمة ، ولأنه هو المأثور عن السلف .قال ابن جرير : " وأولى الأقوال
، بالصواب عندنا أن يكون ( فَنَسِيَ ) خبرا من الله - تعالى - عن السامرى
وأنه وصف موسى بأنه نسى ربه ، وأن ربه الذى ذهب يريده هو العجل الذى أخرجه
السامرى ، لإجماع الحجة من أهل التأويل عليه ، ولأنه عقيب ذكر موسى ، وهو
أن يكون خبرا من السامرى عنه بذلك أشبه من غيره " .

افلا يرون الا يرجع اليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( أَفَلاَ يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ
إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلاَ يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً ) تقريع
، لهم على جهلهم وغبائهم وسوء أدبهم .والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام
أى : ابلغ عمى البصيرة عند هؤلاء السفهاء أنهم لم يفطنوا إلى أن هذا العجل
الذى اتخذوه إلها ، لا يستطيع أن يجيبهم إذا سألوه أو خاطبوه ، ولا يرد
عليهم قولا يقولونه له ، ولا يملك لهم شيئا لا من الضر ولا من النفع .وشبيه
بهذه الآية قوله - تعالى - : ( واتخذ قَوْمُ موسى مِن بَعْدِهِ مِنْ
حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لاَ
يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتخذوه وَكَانُواْ ظَالِمِينَ ).

ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم انما فتنتم به وان ربكم الرحمن فاتبعوني
واطيعوا امري

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - موقف هارون - عليه السلام - من هؤلاء
الجاهلين الذين عبدوا العجل ، فقال - تعالى - : ( وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ
. . هَارُونُ . . . ) .جملة : ( وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ
قسمية مؤكدة لما قبلها .أى : والله لقد نصح هارون - عليه السلام - عبدة ( .
العجل من قومه ، قبل رجوع موسى إليهم ، فقال لهم مستعطفا : ( . . . ياقوم
إِنَّمَا فُتِنتُمْ بِهِ . . . ) أى : يا قوم إن ضلالكم وكفركم إنما هو
بسبب عبادتكم العجل ، فالمضير فى ( بِهِ ) يعود إلى العجل .( وَإِنَّ
رَبَّكُمُ الرحمن ) هو وحده المستحق للعبادة والطاعة .وجمع - سبحانه - بين
لفظى الرب والرحمن ، لجذبهم نحو الحق ، واستمالتهم نحوه ، وللتنبيه على
أنهم متى تابوا قبل الله توبتهم ، لأنه - سبحانه - هو الرحمن الرحيم
والفاء فى قوله : ( فاتبعوني وأطيعوا أَمْرِي ) لترتيب ما بعدها على ما .
قبلها .أى : وما دام الأمر كذلك فاتبعونى وأطيعوا أمرى ، فى الثبات على
الحق ، وفى نبذ عبادة العجل ، وفى المحافظة على ما عاهدكم عليه موسى - عليه
. - السلام

قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينا موسى

كما فسرها الوسيط ولكن هذه النصيحة الحكيمة من هارون لهم لم تجد أذنا صاغية
بل قابلوا نصيحته لهم بالاستخفاف والتصميم على ما هم فيه من ضلال ، إذ .
قالوا فى الرد عليه : ( لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ ) أى : سنستمر
على عبادة العجل ، وسنواظب على هذه العبادة مواظبة تامة ( حتى يَرْجِعَ
، إِلَيْنَا موسى ) فنرى ماذا سيكون منه .فهم لجهالاتهم وانطماس بصائرهم
وسوء أدبهم ، يرون أن هارون - عليه السلام - ليس أهلا للنصيحة والطاعة ، مع

- أنه قد خاطبهم بأحكم أسلوب ، وألطف منطق .قال الرازى : واعلم أن هارون
- عليه السلام - سلك فى هذا الوعظ أحسن الوجوه لأنه زجرهم عن الباطل - أولا
- بقوله : ( ياقوم إِنَّمَا فُتِنتُمْ بِهِ ) ثم دعاهم إلى معرفة الله
ثانيا - بقوله : ( وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرحمن ) ثم دعاهم - ثالثا - إلى
: معرفة النبوة بقوله : ( فاتبعوني ) ثم دعاهم - رابعا - إلى الشرائع بقوله
وهذا هو الترتيب الجيد ، لأنه لا بد قبل كل شىء من. ( وأطيعوا أَمْرِي )
إماطه الأذى عن الطريق وهو إزالة الشبهات ، ثم معرفة الله - تعالى - هى
، الأصل ، ثم النبوة ، ثم الشريعة : فثبت أن هذا الترتيب على أحسن الوجوه
ولكنهم لجهلهم وعنادهم قابلوا هذا الترتيب الحسن فى الاستدلال ، بالتقليد
والجمود فقالوا : ( لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حتى يَرْجِعَ
. ( إِلَيْنَا موسى

قال يا هارون ما منعك اذ رايتهم ضلوا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما قاله موسى لأخيه هارون بعد أن رأى
: ما عليه قومهما من ضلال ، فقال - تعالى - : ( قَالَ ياهرون . . . ) .أى
قال موسى لأخيه هارون على سبيل اللوم والمعاتبة : يا هارون أى شىء منعك من
مقاومتهم وقت أن رأيتهم ضلوا بسبب عبادتهم للعجل.

الا تتبعن افعصيت امري

كما فسرها الوسيط و "لا " فى قوله : ( أَلاَّ تَتَّبِعَنِ ) مزيدة للتأكيد
والاستفهام فى قوله : ( أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ) للإنكار .أى : ما الذى .
منعك من أن تتبعنى فى الغضب عليهم لدين الله حين رأيتهم عاكفين على عبادة
العجل ، أفعصيت أمرى فيما قدمت إليك من قولى : ( اخلفني فِي قَوْمِي
وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ المفسدين ) وفيما أمرتك به من الصلابة
فى الدين ، لأن وجودك فيهم وقد عبدوا غير الله - تعالى - يعتبر تهاونا معهم
فيما لا يصح التهاون فيه .وكان موسى - عليه السلام - كان يريد من أخيه
هارون - عليه السلام - موقفا يتسم بالحزم الشدة مع هؤلاء الجاهلين ، حتى
. . . ولو أدى الأمر لمقاتلتهم

قال يا ابن ام لا تاخذ بلحيتي ولا براسي اني خشيت ان تقول فرقت بين بني
اسرائيل ولم ترقب قولي

كما فسرها الوسيط وهنا يرد هارون على أخيه موسى ردا يبدو فيه الرفق
والاستعطاف فيقول : ( يَبْنَؤُمَّ لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ
بِرَأْسِي ) .أى : قال هارون لموسى محاولا أن يهدىء من غضبه ، بتحريك عاطفة
: الرحم فى قلبه : يابن أمى لا تمسك بلحيتى ولا برأسي على سبيل التأنيب لى
فإنى لست عاصيا لأمرك ، ولا معرضا عن اتباعك .قال الآلوسى ما ملخصه : خص
، الأم بالإضافة استعطافا وترقيقا لقلبه ، لا لما قيل من أنه كان أخاه لأمه
فإن الجمهور على أنهما كانا شقيقين .وقوله : ( لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي
، وَلاَ بِرَأْسِي ) . . . روى أنه أخذ شعر رأسه بيمينه ، ولحيته بشماله
وكان موسى - عليه السلام - حديدا متصلبا غضوبا لله - تعالى - ، وغلب على
ظنه أن هارون قد قصر معهم . . .وقوله : ( إِنِّي خَشِيتُ أن تَقُول
فَرَّقْتَ بَيْنَ بني إِسْرَآئِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ) استئناف
: لتعليل موجب النهى ، بتحقيق أنه غير عاص لأمره ، وغير معرض عن اتباعه .أى
يابن أمى لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى ، فإنى ما حملنى على البقاء معهم وعلى
ترك مقاتلتهم بعد أن عبدوا العجل ، إلا خوفى من أن تقول لى - لو قاتلتهم أو
فارقتهم بمن معى من المؤمنين - إنك بعملك هذا قد جعلت بنى إسرائيل فرقتين
) : متنازعتين ( وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ) أي : ولم تتبع وتطع قولى لك
اخلفني فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ المفسدين ) ولذلك
، لم أقدم على مقاتلتهم بمن معى من المؤمنين ، ولم أقدم كذلك على مفارقتهم
، بل بقيت معهم ناصحا واعظا ، حتى تعود أنت إليهم ، فتتدارك الأمر بنفسك
وتعالجه برأيك .قال بعض العلماء ما ملخصه : وهذه الآية الكريمة . . . تدل
على لزوم إعفاء اللحية وعدم حلقها ، لأنه لو كان هارون حالقا لحيته لما أخذ
بها موسى - إذ من المشهور أن اللحية تطلق على الشعر النابت فى العضو
المخصوص وهو الذقن - وبذلك يتبين لك أن إعفاء اللحية سمت الرسل الكرام
الذين أمرنا الله - تعالى - بالاقتداء بهم .فقد قال - تعالى - : بعد أن ذكر
عددا من الأنبياء منهم هارون : ( أولئك الذين هَدَى الله فَبِهُدَاهُمُ
اقتده . . . ) والعجب من الذين مسخت ضمائرهم . . . حتى صاروا ينفرون من
صفات الذكورية ، وشرف الرجوله إلى خنوثه الأنوثة . . .هذا ، وبعد أن انتهى
موسى من سماع اعتذار أخيه هارون ، اتجه بغضبه إلى السامرى - رأس الفتنة
. ومدبرها - فأخذ فى زجره وتوبيخه

قال فما خطبك يا سامري

كما فسرها الوسيط وقد حكى - سبحانه - ذلك فى قوله - تعالى - : ( قَالَ فَمَا خَطْبُكَ ياسامري . . . ) .أى : قال موسى - عليه السلام - للسامرى : ما شأنك ، وما الأمر العظيم الذى جعلك تفعل ما فعلت؟ ( مَا خَطْبُكَ ) أى : مصدر خطب يخطب - كقعد يقعد - ومنه قولهم : هذا خطب يسير أو جلل ، وجمعه خطوب . وخصه بعضهم بما له خطر من الأمور ، وأصله : الأمر العظيم الذى يكثر فيه التخاطب والتشاور ، ويخطب الخطيب الناس من أجله .

قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من اثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي

كما فسرها الوسيط وقد رد السامرى على موسى بقوله : ( بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِ ) أى : علمت ما لم يعلمه القوم ، وفطنت لما لم يفطنوا له - ورأيت ما لم يروه .قال الزجاج : يقال : بصر بالشىء يبصر - ككرم وفرح ، إذا علمه ، وأبصره إذا نظر إليه .وقيل : هما بمعنى واحد .( فَقَبَضْتُ - قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرسول فَنَبَذْتُهَا ) روى أن السامرى رأى جبريل عليه السلام - حين جاء إلى موسى ليذهب به إلى الميقات لأخذ التوراة عن الله - عز وجل - ولم ير جبريل أحد غير السامرى من قوم موسى ، ورأى الفرس كلما وضعت حافرها على شىء اخضرت ، فعلم أن للتراب الذى تضع عليه الفرس حافرها شأنا ، فأخذ منه حفنة وألقاها فى الحلى المذاب فصار عجلا له خوار والمعنى قال السامرى لموسى : علمت ما لم يعلمه غيرى فأخذت حفنة من تراب. أثر حافر فرس الرسول وهو جبريل - عليه السلام - فألقيت هذه الحفنة فى الحلى المذاب ، فصار عجلا جسدا له خوار .( وكَذلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ) أى : ومثل هذا الفعل سولته لى نفسى ، أى زينته وحسنته لى نفسى ، لأجعل بنى إسرائيل يتركون عبادة إلهك يا موسى ، ويعبدون العجل الذى صنعته لهم .وعلى هذا التفسير الذى سار عليه كثير من المفسرين ، يكون المراد بالرسول : جبريل - عليه السلام - ويكون المراد بأثره : التراب الذى أخذه من موضع حافر فرسه .هذا ، وقد نقل الفخر الرازى عن أبى مسلم الأصفهانى رأيا آخر فى تفسير الآية فقال ما ملخصه : ليس فى القرآن ما يدل على ما ذكره المفسرون ، فهنا وجه آخر ، وهو أن يكون المراد بالرسول : موسى - عليه السلام - وبأثره : سنته ورسمه الذى أمر به ، وهو أن يكون المراد بالرسول : موسى - عليه السلام - وبأثره : سنته ورسمه الذى أمر به ، فقد يقول الرجل : فلان يقص أثر فلان ويقتص أثره إذا كان يمتثل رسمه ، والتقدير : أن موسى لما أقبل على السامرى بالتوبيخ وبسؤاله عن الأمر الذى دعاه إلى إضلال القوم بعبادة العجل رد عليه بقوله : بصرت بما لم يبصروا به ، أى : عرفت أن الذى أنتم عليه ، ليس بحق ، وقد كنت قبضت قبضة من أثرك أيها الرسول ، أى : أخذت شيئا من علمك ودينك فنبذته ، أى : طرحته .. .وعلى هذا التفسير الذى ذهب إليه أبو مسلم يكون المراد بالرسول : موسى - عليه السلام - ويكون المراد بأثره : دينه وسنته وعلمه .ويكون المعنى الإجمالى للآية : أن السامرى قال لموسى - عليه السلام - كنت قد أخذت جانبا من دينك وعلمك ، ثم تبين لى أنك على ضلال فنبذت ما أخذته عنك وسولت لى نفسى أن أصنع للناس عجلا لكى يعبدوه لأن عبادته أراها هى الحق .وقد رجح الإمام الرازى فى تفسيره ما ذهب إليه أبو مسلم فقال : واعلم أن هذا القول الذى قاله أبو مسلم ليس فيه إلا مخالفة للمفسرين ، ولكنه أقرب إلى التحقيق لوجوه .1 - أن جبريل ليس مشهورا باسم الرسول ، ولم يجر له فيما تقدم ذكر حتى تجعل لام التعريف إشارة إليه .2 - أنه لا بد فيه من الإضمار ، وهو قبضته من أثر حافر فرس الرسول ، والإضمار خلاف الأصل .3 - أنه لا بد من التعسف فى بيان أن السامرى كيف اختص من بين جميع الناس برؤية جبريل ومعرفته؟ ثم كيف عرف أن لتراب حافر فرسه هذا الأثر؟ والذى ذكروه أن جبريل هو الذى رباه بعيد . . .وقد رد الإمام الآلوسى على الإمام الفخر الرازى - رحمهما الله - فقال ما ملخصه :1 - عهد فى القرآن الكريم إطلاق الرسول على جبريل ، كما فى قوله - تعالى - : ( إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ) وعدم جريان ذكره فيما تقدم لا يمنع أن يكون معهودا ، ويجوز أن يكون إطلاق الرسول عليه كان شائعا فى بنى إسرائيل .2 - تقدير المضاف فى الكلام أكثر من أن يحصى ، وقد عهد ذلك فى كتاب الله غير مرة .3 - رؤية السامرى دون غيره لجبريل ، كان ابتلاء من الله - تعالى - ليقضى الله أمرا كان مفعولا ، ومعرفته تأثير ذلك الأثر دون غيره كانت بسبب ما ألقى فى روعه - من أنه لا يلقيه على شىء فيقول له كن كذا إلا كان - كما فى خبر ابن عباس أو كانت لما شاهد من خروج النبات بالوطء - كما فى بعض الآثار - .ويبدو لنا أن ما ذهب إليه أبو مسلم ، أقرب إلى ما يفيده ظاهر القرآن الكريم ، إذا ما استبعدنا تلك الروايات التى ذكرها المفسرون فى شأن السامرى وفى شأن رؤيته لجبريل .ولا نرى حرجا فى استبعادها ، لأنها عارية عن السند الصحيح إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - أو إلى أصحابه ، ويغلب على ظننا أنها من الإسرائيليات التى نرد العلم فيها إلى الله - تعالى - .

قال فاذهب فان لك في الحياة ان تقول لا مساس وان لك موعدا لن تخلفه وانظر
الى الهك الذي ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفا

كما فسرها الوسيط و قوله - سبحانه - : ( قَالَ فاذهب فَإِنَّ لَكَ فِي
- الحياة أَن تَقُولَ لاَ مِسَاسَ ) حكاية لما قاله موسى - عليه السلام
للسامرى .والمساس : مصدر ماسّ - بالتشديد - كقتال من قاتل ، وهو منفى بلا
، التى لنفى الجنس .والمعنى : قال موسى للسامرى : ما دمت قد فعلت ذلك فاذهب
فإن لك فى مدة حياتك ، أن تعاقب بالنبذ من الناس ، وأن تقول لهم إذا ما
اقترب أحد منك : ( لاَ مِسَاسَ ) أى لا أَمَسَّ أحدا ولا يَمسَّنى أحد ، ولا
أخالط أحداً ولا يخالطنى أحد .قال صاحب الكشاف : عوقب فى الدنيا بعقوبة لا
شىء أطم منها وأوحش وذلك أنه مُنِع من مخالطة الناس منعا كليا ، وحرم عليهم
. ملاقاته ومكالمه ومبايعته ومواجهته ، وكل ما يعايش به الناس بعضهم بعضا
وإذا اتفق أن يماس أحدا - رجلا أو امرأة - حم الماس والممسوس - أى أصيبا
بمرض الحمى - فتحامى الناس وتحاموه ، وكان يصيح :لا مساس . وعادى فى الناس
أوحش من القاتل اللاجىء إلى الحرم ، ومن الوحش النافر فى البرية . . .وقال
الآلوسى ما ملخصه : والسر فى عقوبته على جنايته بما ذكر . أنه ضد ما قصده
من إظهار ذلك ليجتمع عليه الناس ويعززوه ، فكان ما فعله سببا لبعدهم عنه
، وتحقيره . وقيل : عوقب بذلك ليكون الجزاء من جنس العمل ، حيث نبذ فنبذ
فإن ذلك التحامى عنه أشبه شىء بالنبذ . . .قالوا : وهذه الآية الكريمة أصلى
- فى نفى أهل البدع والمعاصى وهجرانهم وعدم مخالطتهم .ثم بين - سبحانه
عقوبة السامرى فى الآخرة ، بعد بيان عقوبته فى الدنيا فقال : ( وَإِنَّ
لَكَ مَوْعِداً لَّن تُخْلَفَهُ ) .وقوله : ( تُخْلَفَهُ ) قرأها الجمهور
- بضم التاء وفتح اللام . أى : وإن لك موعدا فى الآخرة لن يخلفك الله
تعالى - إياه . بل سينجزه لك ، فيعاقبك يومئذ العقاب الأليم الذى تستحقه
بسبب ضلالك وإضلالك ، كما عاقبك فى الدنيا بعقوبة الطرد والنفور من الناس
: وقرأ ابن كثير وأبو عمر ( لَّن تُخِلَفَهُ ) بضم التاء وكسر اللام أى.
وإن لك موعدا فى الآخرة لن تستطيع التخلف عنه ، أو المهرب منه ، بل ستأتيه
وأنت صاغر . . .ثم بين - سبحانه - أيضا - للسامرى : وانظر إلى معبودك العجل
الذى أقمت على عبادته أنت وأتباعك فى غيبتى عنكم .( لَّنُحَرِّقَنَّهُ )
) بالنار أمام أعينكم ، والجملة جواب لقسم محذوف ، أى : والله لنحرقنه
ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً ) أى : لم لَنُذرِيّنه فى البحر
تذرية ، بحيث لا يبقى منه عين ولا أثر .يقال : نسف الطعام ينسفه نسفا ، إذا
فرقه وذراه بحيث لا يبقى منه شىء .وقد نفذ موسى - عليه السلام - ذلك حتى
يظهر للأغبياء الجاهلين الذين عبدوا العجل ، أنه لا يستحق ذلك . وإنما
يستحق الذبح والتذرية ، وأن عبادتهم له إنما هى دليل واضح على انطماس
. بصائرهم ، وشدة جهلهم

انما الهكم الله الذي لا اله الا هو وسع كل شيء علما

كما فسرها الوسيط وقوله - تعلاى -: ( إِنَّمَآ إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ
إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً ) . استئناف مسوق لإحقاق الحق
- وإبطال الباطل : أى : إنما المستحق للعبادة والتعظيم هو الله - تعالى
وحده ، الذى وسع علمه كل شىء .ولا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء
وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد قصت علينا بأسلوب بليغ حكيم ، جوانب من.
رعاية الله - تعالى - لنبيه موسى - عليه السلام - ورحمته به ، كما قصت
علينا تلك المحاورات التى تمت بين موسى وفرعون ، وبين موسى والسحرة كما
، حدثتنا عن جانب من النعم التى أنعم الله - تعالى - بها على بنى إسرائيل
. - وكيف أنهم قابلوها بالجحود والكنود وبإيذاء نبيهم موسى - عليه السلام

كذلك نقص عليك من انباء ما قد سبق وقد اتيناك من لدنا ذكرا

، كما فسرها الوسيط ثم أشار - سبحانه - بعد ذلك إلى العبرة من قصص الأولين
، وإلى التنويه بشأن القرآن الكريم ، وإلى أن يوم القيامة آت لا ريب فيه
) : - فقال - تعالى - : ( كَذَلِكَ نَقُصُّ . . . ) .الكاف فى قوله - تعالى
- كذلك ) فى محل نصب نعت لمصدر محذوف ، أى : نقص عليك - أيها الرسول الكريم
من أنباء ما قد سبق من أحوال الأمم الماضية ، قصصا مثل ما قصصناه عليك عن
موسى وهارون . وما دار بينهما وبين فرعون وبين بنى إسرائيل .و ( مِنْ ) فى
قوله ( مِنْ أَنْبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ) للتبعيض ، ويشهد لذلك أن القرآن
قد صرح فى كثير من آياته ، أن الله - تعالى - لم يقص على الرسول - صلى الله
) : - عليه وسلم - جميع أحوال الأمم السابقة ، ومن ذلك قوله - تعالى
وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ
نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ) ومن فوائد ما قصه الله - تعالى - عليه من أنباء
السابقين : زيادة علمه - صلى الله عليه وسلم - ، وتكثير معجزاته ، وتثبيت

فؤاده ، وتسليته عما أصابه من سفهاء قومه ، وتذكير المؤمنين بأحوال تلك الأمم السابقة ليعتبروا ويتعظوا .وقوله - سبحانه - : ( وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْراً ) تنويه وتعظيم لشأن القرآن الكريم .أى : وقد أعطيناك ومنحناك من عندنا وحدنا ( ذِكْراً ) عظيما . وهو القرآن الكريم ، كما قال - تعالى - : ( وهذا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ) قال الفخر الرازى : وفى تسمية القرآن بالذكر وجوه :أحدها أنه كتاب فيه ذكر ما يحتاج إليه الناس من أمر دينهم ودنياهم .وثانيها : أنه يذكر أنواع آلاء الله ونعمائه على الناس ، ففيه التذكير والوعظ .وثالثها : أنه فيه الذكر والشرف لك ولقومك ، كما قال - سبحانه - : ( وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ).

من اعرض عنه فانه يحمل يوم القيامة وزرا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة من يعرض عن هداية هذا القرآن فقال : ( مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ القيامة وِزْراً خَالِدِينَ فِيهِ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ القيامة حِمْلاً ) .والوزر فى الأصل يطلق على الحمل الثقيل ، وعلى الإثم والذنب ، والمراد به هنا العقوبة الثقيلة الأليمة المترتبة على تلك الأثقال والآثام .قال صاحب الكشاف : والمراد بالوزر : العقوبة الثقيلة الباهظة ، سماها وزرا تشبيها فى ثقلها على المعاقب ، وصعوبة احتمالها ، بالحمل الذى يفدح الحامل ، وينقض ظهره ، أو لأنها جزاء الوزر وهو الإثم .وقد أخبرنا القرآن فى كثير من آياته ، أن الكافرين يأتون يوم القيامة وهم يحملون أوزارهم ، أى : أثقال ذنوبهم على ظهورهم ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ( لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ القيامة وَمِنْ أَوْزَارِ الذين يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَآءَ مَا يَزِرُونَ ) أى : من أعرض عن هذا الذكر وهو القرآن الكريم فإنه بسبب هذا الإعراض والترك ، يحمل يوم القيامة على ظهره آثاما كثيرة : تؤدى إلى العقوبة المهينة من الله - تعالى - .

خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حملا

كما فسرها الوسيط وقوله : ( خَالِدِينَ فِيهِ ) أى : فى العذاب المترتب على هذا الوزر .( وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ القيامة حِمْلاً ) أى : وبئس ما حملوا على أنفسهم من الإثم بسبب إعراضهم عن هداية القرآن الكريم .قال الآلوسى : " قوله : ( وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ القيامة حِمْلاً ) إنشاء الذم ، على أن " ساء " فعل ذم بمعنى بئس . . . وفاعله على هذا هنا مستتر يعود على " حملا " الواقع تمييزا . . . والمخصوص بالذم محذوف ، والتقدير : ساء حملهم حملا وزرهم .

يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أحوال المجرمين عند الحشر فقال : ( يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصور وَنَحْشُرُ المجرمين يَوْمِئِذٍ زُرْقاً ) .أى : اذكر - أيها العاقل - يوم ينفخ إسرافيل فى الصور النفخة الثانية ، ونحشر المجرمين يومئذ ونجمعهم للحساب حالة كونهم زرق العيون من شدة الهول ، أو حالة كونهم " زرقا " أى : عميا ، لأن العين إذا ذهب ضوؤها أزرق ناظرها . أو " زرقا " معناه : عطاشا ، لأن العطش الشديد يغير سواد العين فيجعله كالأزرق قال - تعالى - : ( وَنُفِخَ فِي الصور فَصَعِقَ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض إِلاَّ مَن شَآءَ الله ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أخرى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ).

يتخافتون بينهم ان لبثتم الا عشرا

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْراً ) استئناف لبيان ما يقوله بعضهم لبعض على سبيل الهمس وخفض الصوت .أى : إن هؤلاء المجرمين يتهامسون فيما بينهم فى هذا اليوم العصيب ، قائلين ما لبثتم فى قبوركم إلا عشرا من الليالى أو الأيام ومقصدهم من هذا القول : استقصار المدة ، وسرعة انقضائها ، والندم على ما كانوا يزعمونه من أنه لا بعث ولا حساب ، بعد أن تبين لهم أن البعث حق ، وأن الحساب حق ، وأن الأمر على عكس ما كانوا يتوهمون .

نحن اعلم بما يقولون اذ يقول امثلهم طريقة ان لبثتم الا يوما

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ . بيان لشمول علمه - سبحانه - .أى : نحن وحدنا أعلم بما يقولون فيما ( .

بينهم ، لا يخفى علينا شىء مما يتخافتون به من شأن مدة لبثهم فى قبورهم أو ، فى الدنيا .( إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً ) أى : أعد لهم رأيا وأرجحهم عقلا ( إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْماً ) واحدا وقيل المراد باليومك مطلق الوقت ، وتنكيره للتقليل والتحقير . أى : ما لبثتم فى قبوركم إلا زمنا قليلا .ونسبة هذا القول إلى أمثلهم لا لكونه أقرب إلى الصدق ، بل لكونه أدلى على شدة الهول .قال - تعالى - : ( كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا ) أى الساعة ( لَمْ يلبثوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ).

ويسالونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أحوال الجبال وأحوال الناس يوم القيامة فقال - تعالى - : ( وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ . . . ) .السائلون عن أحوال الجبال يوم القيامة كفار مكة ، روى أنهم قالوا للرسول - صلى الله عليه وسلم - على سبيل الاستهزاء ، يا محمد إنك تدعى أن هذه الدنيا تفنى ، وأننا نبعث بعد الموت ، فأين تكون هذه الجبال ، فنزل قوله - تعالى - : ( وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الجبال فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً ) .وقيل السائلون هم المؤمنون على سبيل طلب المعرفة والفهم .وقوله : ( يَنسِفُهَا ) من النسف بمعنى القلع . يقال : نسفت الريح التراب نسفا - من باب ضرب - إذا اقتلعته وفرقته .أى : ويسألك - أيها الرسول الكريم - بعض الناس عن أحوال الجبال يوم القيامة ، فقل لهم : ينسفها ربى نسفا ، بأن يقلعها من أصولها ، ثم يجعلها كالرمل المتناثر ، أو كالصوف المنفوش الذى تفرقه الرياح .والفاء فى قوله : ( فَقُلْ ) للمسارعة إلى إزالة ما فى ذهن السائل من توهم أن الجبال قد تبقى يوم القيامة .

فيذرها قاعا صفصفا

كما فسرها الوسيط والضمير فى قوله ( فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً ) يعود إلى الجبال باعتبار أجزائها السفلى الباقية بعد النسف ، ويصح أن يعود إلى الرض المدلول عليها بقرينة الحال ، لأنها هى الباقية بعد قلع الجبال . والقاع : هو المنكشف من الأرض دون أن يكون عليه نبات أو بناء .والصفصف : الأرض المستوية الملساء حتى لكأن أجزاءها صف واحد من كل جهة .اى : فيتركها بعد النسف أرضا منكشفة متساوية ملساء ، لا نبات فيها ولا بناء . . .

لا ترى فيها عوجا ولا امتا

كما فسرها الوسيط ( لاَّ ترى فِيهَا عِوَجاً ولا أَمْتاً ) أى : لا ترى فى الأرض بعد اقتلاع الجبال منها ، مكانا منخضا ، كما لا ترى فيها ( أَمْتاً ) أى : مكانا مرتفعا ، بل تراها كلها مستوية ملساء كالصف الواحد .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : قد فرقوا بين العِوج والعَوج ، فقالوا : العِوج بالكسر فى المعانى : والعوج بالفتح فى الأعيان ، والأرض عين ، فكيف صح فيها المكسور العين؟ .قلت : اختيار هذا اللفظ له موقع حسن بديع فى وصف الأرض بالاستواء والملاسة ونفى الاعوجاج عنها على أبلغ ما يكون ، وذلك أنك لو عمدت إلى قطعة أرض فسويتها ، وبالغت فى التسوية على عينك وعيون البصراء ، واتفقتم على أنه لم يبق فيها اعوجاج قط ، ثم استطلعت رأى المهندس فيها وأمرته أن يعرض استواءها على المقاييس الهندسية ، لعثر فيها على عوج فى غير موضع ، لا يدرك ذلك بحاسة البصر ولكن بالقياس الهندسى ، فنفى الله ذلك العوج الذى دق ولطف عن الإدراك ، الله إلا بالقياس الذى يعرفه صاحب التقدير والهندسة ، وذلك الاعوجاج لما لم يدرك إلا بالقياس دون الإحساس لحق بالمعانى ، فقيل فيه ، عوج بالكسر والأمت : النتوء اليسير ، يقال : مد حبله حتى ما فيه أمت . . .

يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له وخشعت الاصوات للرحمن فلا تسمع الا همسا

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أحوال الناس يوم القيامة فقال : يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الداعي لاَ عِوَجَ لَهُ .. . ) .والمراد بالداعى الملك الذى يدعوهم إلى المثول للحساب .قيل : يناديهم بقوله : أيتها العظام البالية ، والجلود المتمزقة واللحوم المتفرقة . . . قومى إلى ربك للحساب والجزاء ، فيسمعون الصوت ويتبعونه .والمعنى : فى هذا اليوم الذى تنسف فيه الجبال ، وتصير الأرض قاعا صفصفا يقوم الناس من قبورهم ، ويتبعون من يناديهم للحساب والجزاء دون أن يحيدوا عن هذا المنادى ، أو أن يملكوا مخالفته أو عصيانه ، بل الجميع يسمع دعاءه ويستجيب لأمره .كما قال - تعالى - : ( فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الداع إِلَى شَيْءٍ نُّكُرٍ خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأجداث كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ مُّهْطِعِينَ إِلَى الداع يَقُولُ الكافرون هذا يَوْمٌ عَسِرٌ )

وقوله : ( وَخَشَعَتِ الأصوات للرحمن فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً ) أى : وخفتت وسكنت الأصوات كلها هيبة وخوفا من الرحمن - عز وجل - فلا تسمع - أيها المخاطب - فى هذا اليوم الهائل الشديد ( إِلاَّ هَمْساً ) أى : إلا صوتا خفيا خافتا . يقال : همس الكلام يهمسه همسا ، إذا أخفاه ، ويقال للأسد : الهموس ، لخفاء وطئه .

يومئذ لا تنفع الشفاعة الا من اذن له الرحمن ورضي له قولا

كما فسرها الوسيط ( يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشفاعة إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحمن وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً ) أى : فى هذا اليوم الذى تخشع فيه الأصوات لا تنفع الشفاعة أحدا كائنا من كان ، إلا شفاعة من أذن له الرحمن فى ذلك ( وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً ) أى : ورضى - سبحانه - قول الشافع فيمن يشفع له .قال الإمام ابن كثير : وهذه الآية كقوله - تعالى - : ( مَن ذَا الذي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ) وكقوله : ( وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السماوات لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ الله لِمَن يَشَآءُ ويرضى ) وكقوله : ( وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارتضى ) وفى الصحيحين من غير وجه ، عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : " أتى تحت العرش ، وأخر لله ساجدا ، ويفتح على بمحامد لا أحصيها الآن ، ثم يقول - سبحانه - : " يا محمد ، ارفع رأسك ، وقل ، يسمع قولك ، واشفع تشفع . قال - صلى الله عليه وسلم - : فيحد لى حدا فأدخلهم الجنة ، ثم أعود ، فذكر أربع مرات " - صلى الله عليه وسلم - وعلى سائر الأنبياء . . .وفى الحديث : يقول - تعالى - : " أخرجوا من النار من : - كان قلبه مثقال حبة من إيمان فيخرجون خلقا كثيرا ، ثم يقول - سبحانه أخرجوا من النار من كان فى قلبه نصف مثقال من إيمان ، أخرجوا من النار من كان فى قلبه ما يزن ذرة ، من كان فى قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان " .

يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - :( يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً ) - بيان لشمول علمه سبحانه - لكل شىء .أى : الله - تعالى - وحده هو الذى يعلم جميع أحوال خلقه سواء ما كان منها يتعلق بما بين أيديهم من أمور الآخرة وأهوال الموقف ، أم ما كان منها يتعلق بما خلفهم من أمور الدنيا ، أما هم فإنهم لا يحيط علمهم إلا بذاته - تعالى - ولا بصفاته ، ولا بمعلوماته .فالضمير فى قوله ( مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ) يعود على المتبعين للداعى وهم الخلق جميعا . . .وقيل : يعود للشافعين ، وقيل للملائكة ، والأول أولى لعمومه .

وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلما

. كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَعَنَتِ الوجوه لِلْحَيِّ القيوم مؤكد ومقرر لما قبله من خشوع الأصوات يوم القيامة للرحمن ، ومن عدم ( . . الشفاعة لأحد إلا بإذنه - عز وجل - .والفعل ( وَعَنَتِ ) بمعنى ذلت يقال : عنضا فلان يعنو عُنوا - من باب سما - إذا ذل لغيره وخضع وخشع ، ومنه قيل للأسير عانٍ لذله وخضوعه لمن أسره .أى : وذلت وجوه الناس وخضعت فى هذا اليوم لله - تعالى - وحده ( الحى ) أى : الباقى الذى له الحياة الدائمة التى لا فناء معها ( القيوم ) أى : الدائم القيام بتدبير أمر خلقه وإحيائهم وإماتتهم ورزقهم . . . وسائر شئونهم .وهذا اللفظ مبالغة فى القيام . وأصله قيووم بوزن فيعول . . . من قام بالأمر . إذا حفظه ودبره .وخصت الوجوه بالذكر لأنها أشرف الأعضاء ، وآثار الذل أكثر ما تكون ظهورا عليها .وظاهر القرآن يفيد أن المراد بالوجوه جميعها ، سواء أكانت للمؤمنين أم لغيرهم ، فالكل يوم القيامة خاضع لله - تعالى - ومستسلم لقضائه ، فالألف واللام للاستغراق .قال ابن كثير : قوله - تعالى - : ( وَعَنَتِ الوجوه لِلْحَيِّ القيوم ) قال ابن عباس وغير واحد - من السلف - خضعة وذلت واستسلمت الخلائق لخالقها وجبارها الحى الذى لا يموت . . .ويرى بعضهم أن المراد بالوجوه التى ذلت وخشعت فى هذا اليوم ، وجوه الكفار والفاسقين ، وإلى هذا المعنى اتجه صاحب الكشاف فقال : المراد بالوجوه وجوه العصاة ، وأنهم إذا عاينوا - يوم القيامة - الخيبة والشقوة وسوء الحساب وصارت وجوههم عانية ، أى : ذليلة خاشعة ، مثل وجوه العناة وهم الأسارى ، ونحوه قوله - تعالى - : ( فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الذين كَفَرُواْ ) ويبدو لنا أن القول الأول أقرب إلى الصواب ، لأن جميع الوجوه يوم القيامة تكون خاضعة لحكم الله - تعالى - ومستسلمة لقضائه .وقوله : ( وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً ) جملة حالية ، أى : ذلت جميع الوجوه لله - تعالى - يوم القيامة ، والحال أنه قد خاب وخسر من حمل فى دنياه ظلما ، أى : شركا بالله - تعالى -

أو فسوقا عن أمره - سبحانه - ولم يقدم العمل الصالح الذى ينفعه فى ذلك اليوم العسير .

ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما

كما فسرها الوسيط ثم بسر - سبحانه - المؤمنين بما يشرح صدورهم فقال : ( وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصالحات وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ يَخَافُ ظُلْماً وَلاَ هَضْماً ) .أى : ومن يعمل فى دنياه الأعمال الصالحات ، وهو مع ذلك مؤمن بكل ما يجب الإيمان به .فإنه فى هذه الحالة ( لاَ يَخَافُ ظُلْماً ) ينزل به ، ولا يخاف ( هَضْماً ) لشىء من حقوقه أو ثوابه .يقال : هضم فلان حق غيره إذا انتقصه حقه ولم يوفه إياه .قالوا : والفرق بين الظلم والهضم : أن الظلم قد يكون بمنع الحق كله ، أما الهضم فهو منع لبعض الحق . فكل هضم ظلم ، وليس كل ظلم هضما .فالآية الكريمة قد بشرت المؤمنين ، بأن الله - تعالى - بفضله ، وكرمه سيوفيهم أجورهم يوم القيامة ، بدون أدنى ظلم أو نقص من ثوابهم . فالتنكير فى قوله ( ظُلْماً وَلاَ هَضْماً ) للتقليل .

وكذلك انزلناه قرانا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون او يحدث لهم ذكرا

كما فسرها الوسيط ثم نوه - سبحانه - بشأن القرآن الكريم الذى أنزله على نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - أن يسأله المزيد من العلم فقال - تعالى - : ( وكذلك أَنزَلْنَاهُ . . . ) . ( . . . وكذلك ) وقوله - سبحانه - : ( كذلك نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ) معطوف على قوله : ( وكذلك أَنزَلْنَاهُ ) أى : أنزلناه قرآنا عربيا وكررنا ونوعنا فيه ألوانا من الوعيد على سبيل التخويف والتهديد .( لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ) أى : لعل الناس يتقون - بسبب ذلك - الوقوع فى الكفر والفسوق والعصيان ، ويجتنبون الآثام والسيئات ، ويصونون أنفسهم عن الموبقات فمعمول ( يَتَّقُونَ ) محذوف .والكاف للتشبيه ، واسم الإشارة يعود على إنزال ما سبق من آيات .أى ( . . . ) ومثل ما أنزلنا الآيات السابقة المشتملة على الآداب والأحكام والقصص : أنزلنا عليك يا محمد القرآن كله ، فما نزل منه متأخرا يشبه فى هدايته وإعجازه ما نزل منه متقدما .وقد اقتضت حكمتنا أن نجعله ( قُرْآناً عَرَبِيّاً ) أى : بلغة العرب ، لكى يفهموه ويقعوا على ما فيه من هدايات وإرشادات وإعجاز للبشر .وقوله : ( وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الوعيد ) معطوف على ( أَنزَلْنَاهُ ) أى : أنزلناه قرآنا عربيا وكررنا ونوعنا فيه ألوانا من الوعيد على سبيل التخويف والتهديد .( لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ) أى : لعل الناس يتقون - بسبب ذلك - الوقوع فى الكفر والفسوق والعصيان ، ويجتنبون الآثام والسيئات ، ويصونون أنفسهم عن الموبقات فمعمول ( يَتَّقُونَ ) محذوف .وقوله - سبحانه - : ( أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً ) بيان لحكمة أخرى من الحكم التى من أجلها أنزل الله القرآن الكريم .أى : أنزلناه بهذه الصفة ، وجعلناه مشتملا على ضروب من الوعيد ، لعل قومك - أيها الرسول الكريم - يتقون الكفر والمعاصى ، أو لعل القرآن يحدث فى نفوسهم ( ذِكْراً ) .أى : اتعاظا واعتبارا يصرفهم عن التردى فيما تردت فيه الأمم السابقة من آثام وموبقات أدت إلى هلاكها .وقال - سبحانه - : ( أَنزَلْنَاهُ ) بالإضمار مع أن القرآن لم يسبق له ذكر فى الآيات السابقة ، للإيذان بنباهة شأنهن وعلو قدره ، وكونه مركوزا فى العقول ، حاضرا فى الأذهان والقلوب .

فتعالى الله الملك الحق ولا تعجل بالقران من قبل ان يقضى اليك وحيه وقل رب زدني علما

كما فسرها الوسيط ثم أثنى - سبحانه - على ذاته بما يستحقه من صفات كريمة فقال : ( فتعالى الله الملك الحق ) .أى : فجعل وعظم شأن الله - سبحانه - عن إلحاد الملحدين ، وإشراك المشركين فإنه هو وحده ( الملك ) المتصرف فى شئون خلقه ، وهو وحده الإله ( الحق ) وكل ما سواه فهو باطل .ثم أرشد الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - إلى كيفية تلقى القرآن من جبريل - عليه السلام - فقال : (وَلاَ تَعْجَلْ بالقرآن مِن قَبْلِ أَن يقضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ . . . ) .أى : ولا تتعجل بقراءة القرآن من قبل أن ينتهى جبريل من إبلاغه إليك ، قالوا : وكان النبى - صلى الله - عليه وسلم كلما قرأ عليه جبريل آية قرأها معه ، وذلك لشدة حرصه على حفظ القرآن ، ولشدة شوقه إلى سماعه ، فأرشده الله - تعالى - فى هذه الآية إلى كيفية تلقى القرآن عن جبريل ، ونهاه عن التعجل فى القراءة .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فاتبع قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ) ثم أمر - سبحانه - نبيه - صلى الله عليه وسلم - : أن يسأله المزيد من العلم فقال : ( وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً ) .أى : وقل - أيها الرسول الكريم - مخاطبا ربك ومتوسلا إليه ، يا رب زدنى من علمك النافع .قال الآلوسى : واستدلوا بالآية على فضل العلم حيث أمر - صلى الله عليه وسلم - بطلب الزيادة منه ، وذكر بعضهم أنه - صلى الله عليه وسلم - ما أمر بطلب الزيادة من شىء سوى العلم . وكان - صلى الله عليه وسلم - يقول " :

" : اللهم انفعنى بما علمتنى ، وعلمنى بما ينفعنى ، وزدنى علما " وكان يقول
. " الله زدنى إيمانا وفقها ويقينا وعلما

ولقد عهدنا الى ادم من قبل فنسي ولم نجد له عزما

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - جانبا من قصة آدم - عليه السلام - فذكر
لنا كيف أنه نسى عهد ربه له ، فأكل من الشجرة التى نهاه الله - تعالى - عن
- الأكل منها ، ومع ذلك فقد قبل - سبحانه - توبته ، وغسل حوبته . . . قال
) : - تعالى - : ( وَلَقَدْ عَهِدْنَآ . . . ) .اللام فى قوله - تعالى
وَلَقَدْ عَهِدْنَآ . . . ) هى الموطئة للقسم ، والمعهود محذوف ، وهو النهى
) : - عن الأكل من شجرة معينة ، كما وضحه فى آيات أخرى منها قوله - تعالى
وَلاَ تَقْرَبَا هذه الشجرة فَتَكُونَا مِنَ الظالمين ) أى : والله لقد
عهدنا إلى آدم - عليه السلام - وأوصيناه ألا يقرب تلك الشجرة ( من قَبْلُ
أن يخالف أمرنا فيقربها ويأكل منها ، أو من قبل أن نخبرك بذلك - أيها (
. الرسول الكريم - .والفاء فى قوله ( فَنَسِيَ ) للتعقيب ، والمفعول محذوف
أى : فنسى العهد الذى أخذناه عليه بعدم الأكل منها .والنسيان هنا يرى بعضهم
أنه بمعنى الترك ، وقد ورد النسيان بمعنى الترك فى كثير من آيات القرآن
الكريم . ومن ذلك قوله - تعالى - : ( وَقِيلَ اليوم نَنسَاكُمْ كَمَا
نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هذا ) أى : نترككم كما تركتم لقاء يومكم هذا
وهو يوم القيامة .وعليه يكون المعنى : ولقد عهدنا إلى آدم من قبل بعدم
الأكل من الشجرة فترك الوفاء بعهدنا وخالف ما أمرناه به .وعلى هذا التفسير
فلا إشكال فى وصف الله - تعالى - له بقوله : ( ءَادَمُ رَبّهُ فغوى ) لأن
آدم بمخالفته لما نهاه الله - تعالى - عنه وهو الأكل من الشجرة - صار عاصيا
لأمر ربه .ومن العلماء من يرى أن النسيان هنا على حقيقته ، أى : أنه ضد
، التذكر فيكون المعنى : ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ما عاهدناه عليه
وغاب عن ذهنه ما نهيناه عنه ، وهو الأكل من الشجرة .فإن قيل : إن الناسى
معذور . فكيف قال الله - تعالى - فى حقه : ( وعصى ءَادَمُ رَبَّهُ فغوى )
فالجواب : أن آدم - عليه السلام - لم يكن معذورا بالنسيان ، لأن الذر بسبب
- الخطأ والنسيان والإكراه . من خصائص هذه الأمة الإسلامية ، بدليل قوله
صلى الله عليه وسلم - : " إن الله تجاوز لى عن أمتى الخطأ والنسيان وما
استكرهوا عليه " .قال القرطبى ما ملخصه : قوله - تعالى - : ( وَلَقَدْ
: عَهِدْنَآ إلى ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ . . ) . للنسيان معنيان
، أحدهما : الترك ، أى ترك الأمر والعهد ، وهذا قول مجاهد وأكثر المفسرين
ومنه ( نَسُواْ الله فَنَسِيَهُمْ ) وثانيهما : قال ابن عباس : " نسى " هنا
من السهو والنسيان ، وإنما أخذ الإنسان من أنه عهد إليه فنسى . . . وعلى
هذا القول يحتمل أن يكون آدم فى ذلك الوقت مؤاخذا بالنسيان ، وإن كان
النسيان عنا اليوم مرفوعا .والمراد تسلية النبى - صلى الله عليه وسلم - أى
أن طاعة بنى آدم للشيطان أمر قديم أى : إن نقض هؤلاء - المشركون - العهد :
فإن آدم - أيضا - عهدنا إليه فنسى . . . " .وقوله : ( وَلَمْ نَجِدْ لَهُ ،
عَزْماً ) مقرر لما قبله من غفلة آدم عن الوفاء بالعهد .قال الجمل : وقوله
" يحتمل أنه من الوجدان بمعنى العلم ، فينصب مفعولين ، وهما ( نَجِدْ ) :
) له " و " عزما " ويحتمل أنه من الوجود الذى هو ضد العدم فينصب مفعولا وهو
، عَزْماً ) والجار والمجرور متعلق بنجد .والعزم : توطين النفس على الفعل
والتصميم عليه ، والمضى فى التنفيذ للشىء . .أى : فنسى آدم عهدنا ، ولم نجد
له ثبات قدم فى الأمور ، يجعله يصبر على عدم الأكل من الشجرة بل لانت
عريكته وفترت همته بسبب خديعة الشيطان له .

واذ قلنا للملائكة اسجدوا لادم فسجدوا الا ابليس ابى

كما فسرها الوسيط ثم ذكر - سبحانه - بعد ذلك بشىء من التفصيل ، الأسباب
التى أدت إلى نسيان آدم وضعف عزيمته فقال : ( وَإِذْ قُلْنَا
: لِلْمَلاَئِكَةِ اسجدوا لأَدَمَ فسجدوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أبى ) .أى
وأذكر - أيها المخاطب - وقت أن قلنا للملائكة اسجدوا لآدم سجود تكريم لا
سجود عبادة ، فامتثلوا لأمرنا ، إلا إبليس فإنه أبى السجود لآدم تكبرا
وغرورا وحسدا له على هذا التكريم .

فقلنا يا ادم ان هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - ما قاله لآدم بعد إباء إبليس عن السجود
له فقال : ( يآءَادَمُ إِنّ هذا ) أى : إبليس ( عَدُوٌّ لَّكَ
وَلِزَوْجِكَ ) بسبب حسده لكما وحقده عليكما ( فَلاَ يُخْرِجَنّكُمَا مِنَ
الجنة فتشقى ) أى : فاحذرا أن تطيعاه ، فإن طاعتكما له ستؤدى بكما إلى
الخروج من الجنة ، فيترتب على ذلك شقاؤك ، أى : تعبك فى الحصول على مطالب
حياتك .وأسند سبحانه إلى إبليس الإخراج لهما من الجنة ، لأنه هو المتسبب فى

ذلك ، عن طريق الوسوسة لهما ، وطاعتهما له فيما حرضهما عليه وهو الأكل من الشجرة ، وعبر عن التعب فى طلب المعيشة بالشقاء ، لأنه بعد خروجه من الجنة سيقوم بحراثة الأرض وفلاحتها وزرعها وريها . . . ثم حصدها . . . ثم إعداد نتاجها للأكل ، وفى كل ذلك ما فيه من شقاء وكد وتعب .وقال - سبحانه - : ( فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا ) لأن الكلام من أول القصة مع آدم وحده : فتشقى ) ولم يقل فتشقيا كما قال أو لأن شقاء الرجل يدخل فيه شقاء أهله ، كما أن سعادته سعادتهم ، أو لأنه هو الذى يعود عليه التعب إذ هو المكلف بأن يقدم لها ما تحتاجه من مطالب الحياة . كالمسكن والملبس والمطعم والمشرب .قال القرطبى ما ملخصه : قوله ( فتشقى ) يعنى أنت وزوجك لأنهما فى استواء العلة واحد ، ولم يقل : فتشقيا لأن المعنى معروف ، وآدم - عليه السلام - هو المخاطب ، وهو المقصود . وأيضا لما كان هو الكاد عليها والكاسب لها كان بالشقاء أخص .وفى ذلك تعليم لنا أن نفقة الزوجة على الزوج . فمن يومئذ جرت نفقة النساء على الأزواج ، فلما كانت نفقة حواء على آدم ، كانت كذلك نفقات بناتها على بنى آدم بحق الزوجية . .

ان لك الا تجوع فيها ولا تعرى

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تعرى وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تضحى ) تعليل لما يوجبه النهى عن طاعة إبليس التى ستؤدى بهما إلى الإخراج من الجنة وإلى الشقاء فى الدنيا .والجوع : ضد الشبع . وقوله ( تعرى ) من العرى الذى هو خلاف الملبس . يقال : عرى فلان من ثيابه يعرى عريا ، إذا تجرد منها.

وانك لا تظما فيها ولا تضحى

كما فسرها الوسيط وقوله ( تضحى ) أى :لا يصيبك حر الشمس فى الضحى . يقال : ضحا فلان يضحى ضحوا - كسعى - إذا كان بارزا لحر الشمس فى الضحى .أى : احذر يا آدم أن تطيع إبليس فيحل لك الشقاء ، وتخرج من الجنة التى لا يصيبك فيها شىء من الجوع ، ولا شىء من العرى أو الظمأ ، ولا شىء من حر الشمس فى الضحى وإنما أنت فيها متمتع بكل مطالب الحياة الهنيئة الناعمة الدائمة .قال . . . صاحب الكشاف : الشبع والرى والكسوة والسكن - هذه الأربعة - هى الأقطاب التى يدور فيها كفاح الإنسان ، فذكرّه استجماعها له فى الجنة وأنه مكفى لا يحتاج إلى كفاية كاف ، ولا إلى كسب كاسب كما يحتاج إلى ذلك أهل الدنيا .وذكرها بلفظ النفى لنقائضها التى هى الجوع والعرى والظمأ والضحو ، ليطرق سمعه بأسامى أصناف الشقوة التى حذره منها ، حتى يتحامى السبب الموقع فيها كراهة لها .

فوسوس اليه الشيطان قال يا ادم هل ادلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن آدم - عليه السلام - مع هذه النصائح والتحذيرات لم يستطيع أن يستمر على الاستجابة لنهى ربه إياه عن الأكل من الشجرة ، بل تغلب عليه ضعفه فاستمع إلى مكر الشيطان ، قال - تعالى - : ( فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشيطان قَالَ يا آدم هَلْ أَدُلُّكَ على شَجَرَةِ الخلد وَمُلْكٍ لاَّ يبلى ) .والوسوسة : الخطرة الرديئة ، وأصلها من - الوسواس ، وهو صوت الحلى ، والهمس الخفى . والوسواس - بكسر الواو الأولى مصدر وبفتحها الاسم وهو من أسماء الشيطان ، كما قال - تعالى - : ( قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الناس مَلِكِ الناس إله الناس مِن شَرِّ الوسواس الخناس الذي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ الناس مِنَ الجنة والناس ) ويقال : وسوس فلان إلى فلان ، أى : أوصلها إليه ، ووسوس له ، أى : من أجله . أى فأوصل الشيطان وسوسته إلى آدم ، وأنهاها إليه ، بأن قال له : يا آدم ، هل أدلك على الشجرة التى من أكل منها عاش مخلدا لا يدركه الموت وصار صاحب ملك لا يفنى ، ولا يصبح باليا ابدا .وناداه باسمه ، ليكون أكثر إقبالا عليه ، وأمكن فى الاستماع إليه .وعرض عليه ما عرض فى صورة الاستفهام الذى بمعنى الحث والحض ليشعره بأنه ناصح له وحريص على مصلحته ومنفعته .ثم أكد كل هذا التحريض ، بالقسم كما فى قوله - تعالى - : ( وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ الناصحين ) فكانت نتيجة مكره بآدم وخداعه له ، أن أطاعه فى الأكل من الشجرة كما قال - تعالى - : ( فَأَكَلاَ مِنْهَا ).

فاكلا منها فبدت لهما سواتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى ادم ربه فغوى

كما فسرها الوسيط ( فَأَكَلاَ مِنْهَا )أى : فأكل آدم وزوجه من الشجرة التى نهاه ربه عن الأكل منها .( فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا ) أى : عوراتهما ، وسميت العورة سوءة ، لأن انكشافها يسوء صاحبها وبحزنه ، ويجعل

. . الناس تنفر منه .( وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الجنة
أى : وشرعا وأخذا يلزقان على أجسادهما من ورق الجنة ليستراً عوراتهما ( وكثير من المفسرين يقولون : إن ورق الجنة الذى أخذ آدم وحواء فى لزقه على. أجسادهما هو ورق شجر التين لكبر حجمه .وقد أخذ العلماء من ذلك وجوب ستر العورة ، لأن قوله - تعالى - : ( وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الجنة ) يدل على قبح انكشافها ، وأنه يجب بذل أقصى الجهد فى سترها وقوله ( وعصى ءَادَمُ رَبَّهُ فغوى ) أى : وخالف آدم أمر ربه فى اجتناب. الأكل من الشجرة ( فغوى ) أى : فأخطأ طريق الصواب ، بسبب عدم طاعته ربه قالوا : ولكن آدم فى عصيانه لربه كان متأولا ، لأنه اعتقد أن النهى عن. شجرة معينة لا عن النوع كله ، وقالوا : وتسمية ذلك عصيانا لعلو منصبه ، وقد قيل : حسنات الأبرار سيئات المقربين .كما قالوا : إن الأسباب التى حملت آدم - على الأكل من الشجرة ، أن إبليس أقسم له بالله إنه له ناصح ، فصدقه آدم عليه السلام - لاعتقاده أنه لا يمكن لأحد أن يقسم بالله كاذبا ، والمؤمن غر . كريم ، والفاجر خب لئيم كما جاء فى الحديث الشريف

ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( ثُمّ اجتباه رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وهدى ) بيان لفضل الله - تعالى - على آدم ، حيث قبل توبته ، ورزقه المداومة عليها .والاجتباء : الاصطفاء والاختيار ، أى : ثم بعد أن أكل آدم من الشجرة ، وندم على ما فعل هو وزوجه ، اجتباه ربه أى : اصطفاه وقربه واختاره ( فَتَابَ عَلَيْهِ ) أى : قبل توبته ( وهدى ) أى : وهداه الى الثبات عليها ، وإلى المداومة على طاعة الله - تعالى - فقد اعترف هو وزوجه بخطئهما ، كما فى قوله - تعالى - : ( قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخاسرين ) - وقد أوحى الله - تعالى - إليه بكلمات كانت السبب فى قبول توبته ، كما قال سبحانه - : ( فتلقى ءَادَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التواب الرحيم ).

قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فاما ياتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات ببيان ما آل إليه أمر آدم فقال - تعالى - ( قَالَ اهبطا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ . . . ) : .فالضمير فيها يعود إلى آدم وزوجته وذريتهما .وقوله ( بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ) أى : بعض ذريتكما لبعض عدو ، بسبب التخاصم والتنازع والتدافع على حطام هذه الدنيا .( فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى ) يا بنى آدم عن طريق إرسال الرسل وإنزال الكتب فعليكم أن تتبعوا رسلى ، وتعملوا بما اشتملت عليه كتبى .( فَمَنِ اتبع هُدَايَ ) بأن آمن برسلى وصدق بكتبى .( فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يشقى ) لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، بسبب استمساكه بالعروة الوثقى التى لا انفصام لها .وشبيه هذه الآية قوله - تعالى - : ( قُلْنَا اهبطوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ).

ومن اعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة اعمى

كما فسرها الوسيط وبعد أن بين - سبحانه - حسن عاقبة من اتبع هداه ، أتبع ذلك ببيان سوء عاقبة من أعرض عن ذكره وطاعته فقال - تعالى - : ( وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي . . . ) .قوله : ( ضَنكاً ) أى : شديدة الضيق . وكل شىء ضاق فهو ضنك .وهو مصدر يستوى فيه المذكر والمؤنث ، والواحد والجمع يقال ضنك - ككرم - عيش فلان ضنكا وضناكة إذا ضاق .والمعنى أن من اتبع هداى : الذى جاءت به رسلى فلن يضل ولن يشقى ، أما من أعرض عن ( ذِكْرِي ) أى : عن هداى الذى جاءت به رسلى ، واشتملت عليه كتبى ( فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً ) .أى : فإن لهذا المعرض معيشة ضيقة مليئة بالهم والغم والأحزان وسوء العاقبة ، حتى ولو ملك المال الوفير ، والحطام الكثير . . . فإن المعيشة الطيبة لا تكون إلا مع طاعة الله ، وامتثال أمره ، واجتناب نهيه قال - تعالى - : ( مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أنثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ) قال الإمام ابن كثير : قوله - تعالى - : ( فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً ) أى : فى الدنيا فلا طمأنينة له ، ولا انشراح لصدره ، بل صدره ضيق لضلاله ، وإن تنعم ظاهره ولبس ما شاء ، وأكل ما شاء ، وسكن حيث شاء ، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى . فهو فى قلق وحيرة وشك ، فلا يزال فى ريبة يتردد فهذا من ضنك المعيشة . . .وقال سفيان بن عيينة ، عن أبى حازم ، عن أبى سلمة ، عن ابى

سعيد فى قوله ( مَعِيشَةً ضَنكاً ) قال : يضيق عليه قبره . حتى تختلف
أضلاعه .والمراد بالعمى فى قوله - سبحانه - : ( وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ
القيامة أعمى ) : عمى البصر ، بدليل قوله - تعالى - بعد ذلك : ( قَالَ
رَبِّ لِمَ حشرتني أعمى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً ) .وقوله - سبحانه - فى آية
أخرى : ( وَمَن يَهْدِ الله فَهُوَ المهتدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ
لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القيامة على
وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً ) وقيل : المراد بالعمى : هنا أنه
لا حجة له يدافع بها عن نفسه ، وقيل : المراد به : العمى عن كل شىء سوى
جهنم .والذى يبدو لنا أن الرأى الأول أقرب إلى الحق ، لأنه هو الظاهر من
الآية الكريمة ، ولا قرينة تمنع من إرادة هذا الظاهر .ويجمع بين هذه الآية
وما يشبهها وبين الآيات الأخرى التى تدل على أن الكفار يبصرون ويسمعون
ويتكلمون يوم القيامة ، والتى منها قوله - تعالى - : ( أَسْمِعْ بِهِمْ
وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا . . ) أقول : يجمع بين هذه الآية وما
، يشبهها ، وبين الآيات الأخرى بوجوه منها : أن عماهم وصممهم فى أول حشرهم
، ثم يرد الله - تعالى - عليهم بعد ذلك أبصارهم وسمعهم ، فيرون النار
، ويسمعون ما يحزنهم .قال الجمل : قوله : ( أعمى ) حال من الهاء فى نحشره
والمراد عمى البصر وذلك فى المحشر ، فإذا دخل النار زال عنه عماه ليرى محله
وحاله ، فهو أعمى فى حال وبصير فى حال أخرى .ومنها : تنزيل سمعهم وبصرهم
وكلامهم منزلة العدم لعدم انتفاعهم بذلك فقد قال - تعالى - فى شأن
المنافقين : ( صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ ) بتنزيل سماعهم وكلامهم وإبصارهم منزلة
العدم ، حيث إنهم لم ينتفعوا بهذه الحواس .

قال رب لم حشرتني اعمى وقد كنت بصيرا

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( قَالَ رَبِّ لِمَ حشرتني أعمى
وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً ) استئناف مسوق لبيان ما يقوله ذلك المعرض عن طاعة
الله يوم القيامة .أى : قال ذلك الكافر الذى حشره الله - تعالى - يوم
القيامة أعمى : يا رب لماذا حشرتنى على هذه الحال مع أنى كنت فى الدنيا
بصيرا؟

قال كذلك اتتك اياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى

- كما فسرها الوسيط وهنا يأتيه الجواب الذى يخرسه ، والذى حكاه الله
: تعالى - فى قوله : ( قَالَ كذلك ) أى : قال الله - تعالى - فى الرد عليه
) الأمر كذلك ، فإنك ( أَتَتْكَ آيَاتُنَا ) الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا
فَنَسِيتَهَا ) أى : فتركتها وأعرضت عنها ( وكذلك اليوم تنسى ) أى : كما
تركت آياتنا فى الدنيا وأعرضت عنها ، نتركك اليوم فى النار وفى العمى جزاء
وفاقا .

وكذلك نجزي من اسرف ولم يؤمن بايات ربه ولعذاب الاخرة اشد وابقى

) : كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - سنة من سننه التى لا تختلف فقال
وكذلك نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ
الآخرة أَشَدُّ وأبقى ) .أى : ومثل ذلك الجزاء الأليم الذى أنزلناه بهؤلاء
المعرضين عن ذكرنا نجازى كل من أسرف فى ارتكاب السيئات والموبقات ، وكل من
لم يؤمن بآيات ربه بل كذب بها وأعرض عنها ، لعذاب الآخرة اشد من عذاب
الدنيا ، و ( وأبقى ) منه أى : وأكثر بقاء ، وأطول زمانا من عذاب الدنيا .

افلم يهد لهم كم اهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم ان في ذلك لايات
لاولي النهى

: كما فسرها الوسيط ثم وبخ - سبحانه - أولئك الذين لم ينتفعوا بآياته فقال
أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ القرون )
يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ . . . ) .والهمزة للاستفهام الإنكارى التوبيخى
والفاء للعطف على مقدر . . .والمعنى : أبلغت الغفلة والجهالة بهؤلاء ،
المشركين ، أنهم لم يتبين لهم ، أننا أهلكنا كثيرا من أهل القرون الماضية
الذين كانوا يمشون آمنين لاهين فى مساكنهم . . .وكان إهلا كنا لهم بسبب
إيثارهم الكفر على الإيمان ، والغى على الرشد ، والعمى على الهدى . .
فالآية الكريمة تقريع وتوبيخ لكفار مكة الذين لم يعتبروا بما أصاب أمثالهم.
) : من الأمم السابقة ، كقوم نوح وعاد وثمود . . .قال الآلوسى : وقوله
) يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ) حال من ( القرون ) أو من مفعول
أَهْلَكْنَا ) أى : أهلكناهم وهم فى حال آمن وتقلب فى ديارهم . واختار
) بعضهم كونه حالا من الضمير فى ( لَهُمْ ) مؤكدا للإنكار والعامل فيه
يَهْدِ ) . أى : أفلم يهد للمشركين حال كونهم ماشين فى مساكنهم من أهلكنا

من القرون السالفة من أصحاب الحجر ، وثمود ، وقوم لوط ، مشاهدين لآثار هلاكهم إذا سافروا إلى بلاد الشام وغيرها .وقوله - سبحانه - : ( إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي النهى ) تذييل قصد به تعليل الإنكار ، أى : إن فى ذلك الذى أخبرناهم به ، وأطلعناهم عليه من إهلاك المكذبين السابقين ) ، لآيَاتٍ ) عظيمة ، وعبر كثيرة ، ودلائل واضحة لأصحاب العقول السليمة ، التى تنهى أصحابها عن القبائح والآثام .والنهى : جمع نُهية - بضم النون وإسكان الهاء - سمى العقل بها لنهيه عن القبائح .

ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما واجل مسمى

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر فضله على هؤلاء المشركين الذين أرسل الرسول - صلى الله عليه وسلم - لإنقاذهم من الكفر والضلالة فقال - تعالى - : ( وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ) .والمراد بالكلمة السابقة ، ما تفضل الله - تعالى - به من تأخير عذاب الاستئصال عن هذه الأمة التى بعث فيها الرسول صلى الله عليه وسلم - تكريما له كما قال - تعالى - ( وَمَا كَانَ الله لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ . . ) أو لأن من نسلهم من يؤمن بالله حق الإيمان ، أو لحكم أخرى يعلمها - سبحانه - ولزاما : مصدر بمعنى اسم الفاعل وفعله لازم كقاتل .وقوله : ( وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ) معطوف على ( كَلِمَةٌ ، والمعنى : ولولا الوعد السابق منا بتأخير العذاب عن هؤلاء المشركين إلى ( يوم القيامة . ولولا الأجل المسمى المحدد فى علمنا لانتهاء أعمارهم ، لما تأخر عذابهم أصلا ، بل لكان العذاب لازما لهم فى الدنيا ، ونازلا بهم كما نزل بالسابقين من أمثالهم فى الكفر والضلال .

فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن اناء الليل فسبح واطراف النهار لعلك ترضى

- كما فسرها الوسيط ثم أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم بالمداومة على الصبر ، وعلى الإكثار من ذكره - تعالى - ونهاه عن التطلع إلى زينة الحياة الدنيا .فقال - تعالى - : ( فاصبر . . . . ) .الفاء فى قوله - تعالى - : ( فاصبر على مَا يَقُولُونَ . . . ) فصيحة ، أى : إذا كان الأمر كان ذكرنا لك - أيها الرسول الكريم - من أن تأخير عذاب أعدائك للإمهال وليس للإهمال . . . فاصبر على ما يقولونه فى شأنك من أنك ساحر أو مجنون . . . وسر فى طريقك دون أن تلتفت إلى إيذائهم أو مكرهم واستهزائهم .ثم أرشده - سبحانه - إلى ما يشرح صدره ، ويجلو همه فقال : ( وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشمس وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَآءِ الليل فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النهار لَعَلَّكَ ترضى ) .أى : وعليك - أيها الرسول الكريم - أن تكثر من تشبيح ربك وتحميده وتنزيهه قبل طلوع الشمس وقبل غروبها وفى ساعات الليل وفى " أطراف النهار " .أى : فى الوقت الذى يجمع الطرفين ، وهو وقت الزوال ، إذ هو نهاية النصف الأول من النهار ، وبداية النصف الثانى منه ، إذا فى هذا التسبيح والتحميد والتنزيه لله - تعالى - والثناء عليه بما هو أهله ، جلاء للصدور ، وتفريج للكروب وأنس للنفوس ، واطمئنان للقلوب .ويرى كثير من المفسرين ، أن المراد بالتسبيح هنا ، إقامة الصلاة والمداومة عليها .قال ابن كثير : قوله ( وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشمس ) يعنى صلاة الفجر ( وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ) يعنى صلاة العصر كما جاء فى الصحيحين عن جرير بن عبد الله البجلى قال : كنا جلوسا عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال : " إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر ، لا تضامون فى رؤيته - أى :لا ينالكم ضيم فى رؤيته بأن يراه بعضكم دون بعض - فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل ) : طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا " ثم قرأ هذه الآية . . . .وقوله ( وَمِنْ آنَآءِ الليل فَسَبِّحْ ) أى : من ساعاته فتهجد به ، وحمله بعضهم ) على المغرب والعشاء . ( وَأَطْرَافَ النهار ) فى مقابلة آناء الليل ) لَعَلَّكَ ترضى ) كما قال - سبحانه - : ( وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فترضى ).

ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به ازواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وابقى

كما فسرها الوسيط وبعد هذا الأمر بالتسبيح ، جاء النهى عن الإعجاب بالدنيا وزينتها فقال - تعالى - : ( وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إلى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الحياة الدنيا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ . . . ) .أى : أكثر - أيها الرسول الكريم - من الاتجاه إلى ربك ، ومن تسبيحه وتنزيهه ومن المداومة على الصلاة ولا تطل نظر عينيك بقصد الرغبة والميل ( إلى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ

أى : إلى ما متعنا به أصنافا من هؤلاء المشركين ، بأن منحناهم الجاه. ( والمال والولد .وما جعلناه لهم فى هذه الدنيا بمثابة الزهرة التى سرعان ما تلمع ثم تذبل وتزول .قال الآلوسى : ما ملخصه : ( أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ ) أى أصنافا من الكفرة ، وهو مفعول ( مَتَّعْنَا ) قدم عليه الجار والمجرور : ، للاعتناء به .. . وقيل الخطاب له - صلى الله عليه وسلم - والمراد أمته ، لأنه كان أبعد الناس عن إطالة النظر إليه ، وهو القائل : " الدنيا ملعونة ملعون ما فيها ، إلا ما أريد به وجه الله - تعالى - " وكان - صلى الله عليه وسلم - شديد النهى عن الاغترار بها .ويؤخذ من الآية أن النظر غير الممدود ، معفو منه ، وكأن المنهى عنه فى الحقيقة هو الإعجاب بذلك ، والرغبة فيه . والميل إليه .وقوله : ( زَهْرَةَ الحياة الدنيا ) أى : زينتها وبهجتها وهو منصوب بمحذوف يدل عليه ( مَتَّعْنَا ) .أى : جعلنا لهم زهرة ، أو على أنه مفعول ثان ، بتضمين متعنا معنى أعطينا ، فأزواجا مفعول أول ، وزهرة هو المفعول الثانى . . .وقوله : ( لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ) بيان للحكمة من هذا التمتيع والعطاء أى متعنا هؤلاء الكافرين بالأموال والأولاد . . . لنعاملهم معاملة من يبتليهم ويختبرهم بهذا المتاع ، فإذا آمنوا وشكروا زدناهم من خيرنا ، وإذا استمروا فى طغيانهم وجحودهم وكفرهم ، أخذناهم أخذ عزيز مقتدر ، فالجملة الكريمة تنفر العقلاء من التطلع إلى ما بين أيدى الكفار من متاع. - لأن هذا المتاع سىء العاقبة ، إذا لم يستعمل فى طاعة الله - تعالى وقوله - سبحانه - : ( وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وأبقى ) تذييل قصد به. الترغيب فيما عند الله - تعالى - من طيبات .أى : وما رزقك الله إياه - أيها الرسول الكريم - فى هذه الدنيا من طيبات . وما ادخره لك فى الآخرة من حسنات - خير وأبقى مما متع به هؤلاء الكافرين من متاع زائل سيحاسبهم الله ، تعالى - عليه يوم القيامة حسابا عسيرا ، لأنهم لم يقابلوا نعم الله عليهم بالشكر ، بل قابلوهم بالجحود والكفران .والمتأمل فى هذه الآية الكريمة ، يراها قد رسمت للمؤمن أفضل الطرق وأحكمها ، لكى يحيا حياة فاضلة طيبة حياة يعتز فيها صاحبها بالمعانى الشريفة الباقية ، ويعرض عن المظاهر والزخارف الزائلة .

وامر اهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسالك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى

كما فسرها الوسيط ثم كلف الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يأمر أهل بيته بالمداومة على إقامة الصلاة فقال : ( وَأْمُرْ أَهْلَكَ - بالصلاة واصطبر عَلَيْهَا ) .والمراد بأهل بيته - صلى الله عليه وسلم . أزواجه وبناته : وقيل : ما يشملهم ويشمل معهم جميع المؤمنين من بنى هاشم - وقيل المراد بهم : جميع أتباعه من أمته .أى : وأمر - أيها الرسول الكريم أهل بيتك بالمداومة على إقامة الصلاة بخشوع وإخلاص واطمئنان ، واصطبر على تكاليفها ومشاقها ، وعلى إقامتها كاملة غير منقوصة ، وعلى تحقيق آثارها الطيبة فى نفسك .وقد ساق بعض المفسرين عن تفسيره لهذه الآية أحاديث منها ما - أخرجه البيهقى عن عبد الله بن سلام قال : كان النبى - صلى الله عليه وسلم إذا نزلت بأهله شدة أو ضيق أمرهم بالصلاة ، وتلا هذه الآية : ( وَأْمُرْ أَهْلَكَ بالصلاة ) .وأخرج مالك والبيهقى عن أسلم قال : كان عمر بن الخطاب يصلى من الليل ما شاء الله - تعالى - أن يصلى حتى إذا كان آخر الليل أيقظ - أهله للصلاة ويقول لهم : الصلاة ، الصلاة ويتلو هذه الآية . . .وقوله سبحانه - ( لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَّحْنُ نَرْزُقُكَ والعاقبة للتقوى ) تشجيع وتحريض للمؤمنين على إقامة الصلاة ، ودفع لما يتوهمه البعض من أن : المداومة على إقامة الصلاة قد تشغل الإنسان عن السعى فى طلب المعاش .أى مر - أيها الرسول الكريم - أهلك بالمداومة على الصلاة ، واصطبر على تكاليفها ، فهذه الصلاة هى من أركان العبادات التى خلقك الله وخلق عباده من ، أجلها ، ولا يصح أن يشغلكم عنها أى شاغل من سعى فى طلب الرزق أو غيره فنحن لا نكلفكم أن ترزقوا أنفسكم أو غيركم ، وإنما نحن الذين نرزقكم ونرزق الخلق جميعا قال - تعالى - : ( وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأرض إِلاَّ عَلَى الله رِزْقُهَا . . . ) وقال - سبحانه - : ( وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا الله يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السميع العليم ) وقوله ( والعاقبة للتقوى ) أى : والعاقبة الحميدة لأهل التقوى والخشية من الله - تعالى - الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة روى الترمذى وابن ماجه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه. وسلم - : " يقول الله - تعالى : " يا بان آدم . تفرغ لعبادتى ، املأ صدرك غنى ، وأسد فقرك ، وإن لم تفعل ملأت صدرك شغلا ، ولم أسد فقرك " " .وروى ابن ماجه عن زيد بن ثابت قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول من كانت الدنيا همه ، فرق الله عليه أمره ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم " : يأته من الدنيا إلا ما كتب له . ومن كان الآخرة نيته ، جمع له أمره ، وجعل غناه فى قلبه ، وأتته الدنيا وهى راغمة . "

وقالوا لولا ياتينا باية من ربه اولم تاتهم بينة ما في الصحف الاولى

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بإيراد بعض الشبهات
التى أثراها المشركون حول النبى - صلى الله عليه وسلم - ورد عليها بما
يبطلها فقال - تعالى - : ( وَقَالُواْ لَوْلاَ . . . ) .مرادهم بالآية فى
قوله - سبحانه - : ( وَقَالُواْ لَوْلاَ يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ
معجزة حية من المعجزات التى اقترحوها عليه - صلى الله عليه وسلم - كتفجير (
الأنهار حول مكة ، وكرقيه إلى السماء ، وكنزول الملائكة معه . .أى : وقال
الكافرون على سبيل التعنت والعناد للرسول - صلى الله عليه وسلم - هلا أتيت
لنا يا محمد بآية من الآيات التى طلبناها منك ، أو بآية من الآيات التى أتى
بها الأنبياء من قبلك ، كالعصا بالنسبة لموسى ، والناقة بالنسبة لصالح
فهم - كما يقول الآلوسى - : " بلغوا من المكابرة والعناد إلى حيث لم يعدوا.
ما شاهدوا من المعجزات التى تخر لها صم الجبال ، من قبيل الآيات ، حتى
اجترأوا على التفوه بهذه العظيمة الشنعاء .وقوله - سبحانه - : ( أَوَلَمْ
تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصحف الأولى ) رد على جهالاتهم وجحودهم
والمراد بالبينة القرآن الكريم الذى هو أم الآيات ، ورأس المعجزات.
والمراد بالصحف الأولى : الكتب السماوية السابقة كالتوراة والإنجيل.
والزبور .والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام ، والاستفهام لتقرير الإتيان
وثوبته .والمعنى : أجهلوا ولم يكفهم اشتمال القرآن الذى جئت به - أيها
الرسول الكريم - على يان ما فى الصحف الأولى التى أنزلناها على الرسل
السابقين ، ولم يكفهم ذلك فى كونه معجزة حتى طلبوا غيرها؟ .قال صاحب الكشاف
اقترحوا على عادتهم فى التعنت آية على النبوة ، فقيل لهم : أو لم تأتكم :
أية من أم الآيات وأعظمها فى باب الإعجاز ، يعنى القرآن ، من جهة أن القرآن
برهان ما فى سائر الكتب المنزلة ، ودليل صحته لأن معجزة ، وتلك ليست
بمعجزات ، فهى مفتقرة إلى شهادته على صحة ما فيها ، افتقار المحتج عليه إلى
شهادة الحجة .وقال ابن كثير : قوله : ( أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا
- فِي الصحف الأولى ) يعنى : القرآن العظيم ، الذى أنزله الله - تعالى
عليه - صلى الله عليه وسلم - وقد جاء فيه أخبار الأولين بما كان منهم فى
سالف الدهور ، بما يوافقه عليه الكتب المتقدمة الصحيحة منها ، فإن القرآن
مهيمن عليها . . .وهذه الآية كقوله - تعالى - : ( وَقَالُواْ لَوْلاَ
أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيات عِندَ الله
وَإِنَّمَآ أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا
عَلَيْكَ الكتاب يتلى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذلك لَرَحْمَةً وذكرى لِقَوْمٍ
" : يُؤْمِنُونَ ) وفى الصحيح عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال
ما من نبى إلا وقد أوتى من الآيات ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذى
" أوتيته وحيا أوحاه الله إلى ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة
: ومنهم من يرى أن المراد بالبينة : الكتب السماوية السابقة .فيكون المعنى.
أو لم يكف هؤلاء الجاهلين أن الكتب السماوية السابقة كالتوراة والإنجيل قد
بشرت بك وبينت نعوتك وصفاتك ، وهم معترفون بصدقها، فكيف لا يقرون بنبوتك
قال القرطبى : وقوله : ( أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصحف.
الأولى ) يريد التوراة والإنجيل والكتب المتقدمة ، وذلك أعظم آية إذ أخبر
بها فيها . وقيل : أو لم تأتهم الآية الدالة على نبوته بما وجدوه فى الكتب
المتقدمة من البشارة . . .وعلى كلا التفسيرين فالآية الكريمة شهادة من
الله - تعالى - بصدق النبى - صلى الله عليه وسلم - فيما بلغه عنه ، ورد
مبطل لشبهات الكافرين ولأقوالهم الباطلة ، وإن كان تفسير البينة هنا
. بالقرآن أظهر وأوضح

ولو انا اهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا ارسلت الينا رسولا فنتبع
اياتك من قبل ان نذل ونخزى

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَاهُمْ
بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُواْ رَبَّنَا لولا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا
رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أن نَّذِلَّ ونخزى ) كلام
مستأنف لتقرير ما قبله من أن القرآن الكريم هو معجزة المعجزات ، وآية
الآيات وأرفعها وأنفعها .أى : ولو أنه أهلكنا هؤلاء الكافرين بعذاب
الاستئصال ، من قبل مجىء الرسول - صلى الله عليه وسلم - إليهم ومعه هذا
القرآن الكريم معجزة له ، لقالوا على سبيل الاعتذار يوم القيامة : يا ربنا
هلا أرسلت إلينا فى الدنيا رسولا من عندك ومعه المعجزات التى تدل على صدقه
فكنا فى هذه الحالة اتبعنا آياتك التى جاءنا بها وصدقناه وآمنا به ، من ،
قبل أن يحصل لنا الذل والهوان والخزى والافتضاح فى اللآخرة .والمقصود من
الآية الكريمة قطع أعذارهم ، أى : لو أنا أهلكناهم قبل ذلك ، لقالوا ما
، قالوا ، ولكنا لم نهلكهم بل أرسلنا إليهم رسلونا ، فبلغهم ما أرسلناه به
فانقطع عذرهم ، وبطلت حجتهم .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( ولولا
أن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ
رَبَّنَا لولا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ

وَنَكُونَ مِنَ المؤمنين ).

قل كل متربص فتربصوا فستعلمون من اصحاب الصراط السوي ومن اهتدى

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بهذه الآية التى أمر فيها رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يهددهم بسوء العاقبة ، إذا ما استمروا فى طغيانهم يعمهون ، فقال - تعالى - : ( قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصراط السوي وَمَنِ اهتدى
أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الكافرين : كل واحد منا ومنكم. ( ) متربص بالآخر ، ومنتظر لما يؤول إليه أمر صاحبه .وما دام الأمر كذلك فَتَرَبَّصُواْ ) وانتظروا ما يؤول إليه حالنا وحالكم ( فَسَتَعْلَمُونَ ) بعد زمن قريب . ( مَنْ ) هم ( أَصْحَابُ الصراط السوي ) أى : الطريق الواضح المستقيم الذى لا اعوجاج فيه ( وَمَنِ ) هم الذين تجنبوا الضلالة ، واهتدوا إلى ما يسعدهم فى دينهم وفى دنياهم وفى آخرتهم .وقريب من هذه الآية فى المعنى قوله - تعالى - : ( سَيَعْلَمُونَ غَداً مَّنِ الكذاب الأشر ) وقوله - سبحانه - : ( وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ العذاب مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً ) وبعد فهذه سورة طه ، وهذا تفسر تحليلى لها ، وكما أنها قد افتتحت بنفى إرادة الشقاء للنبى - صلى الله عليه وسلم - فقد اختتمت بهذه البشارة له - صلى الله عليه وسلم - ولأتباعه وبهذا التهديد لأعدائهم . . نسأل الله - تعالى - أن يجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا ، وأنس نفوسنا . وبهجة صدورنا ، وشفيعنا يوم الدين ( يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ إِلاَّ مَنْ أَتَى الله بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ) وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . . .

اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون

كما فسرها الوسيط قوله - سبحانه - : ( اقترب ) من القرب الذى هو ضد البعد والمعنى : قرب الزمن الذى يحاسب فيه الناس على أعمالهم فى الدنيا ، والحال. أن الكافرين منهم فى غفلة تامة عن هذا الحساب ، وفى إعراض مستمر عن الاستعداد له بالإيمان والعمل الصالح .قال الإمام ابن كثير : هذا تنبيه من الله - عز وجل - على اقتراب الساعة ودنوها ، وأن الناس فى غفلة عنها ، أى لا يعملون لها ، ولا يستعدون من أجلها .قال - تعالى - : ( أتى أَمْرُ الله فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ . . . ) وقال : ( اقتربت الساعة وانشق القمر وَإِن يَرَوْاْ آيَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ) وعبر سبحانه - بالقرب مع أنه قد مضى على نزول هذه الآية وأمثالها أكثر من أربعة عشر قرنا ، لأن كل آت وإن طالت أوقات استقباله وترقبه ، قريب الوقوع ، ولأن ذلك الوقت وإن كان كبيرا فى عرف الناس ، إلا أنه عند الله - تعالى - قليل كما قال - سبحانه - : ( وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب وَلَن يُخْلِفَ الله وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَالْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ) وقال - تعالى - : ( إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَنَرَاهُ قَرِيباً ) وقال - تعالى - : ( اقترب لِلنَّاسِ . . . ) بلفظ العموم ، مع أن ما بعده من ألفاظ الغفلة والإعراض يشعر بأن المراد بهم الكافرون ، للتنبيه على أن الحساب سيشمل الجميع ، إلا أنه بالنسبة للكافرين سيكون حسابا عسيرا .قال صاحب الكشاف : وصفهم بالغفلة مع الإعراض ، على معنى : أنهم غافلون عن حسابهم ساهون لا يتفكرون فى عاقبتهم ، ولا يتفطنون لما ترجع إليه خاتمة أمرهم ، مع اقتضاء عقولهم أنه لا بد من جزاء للمحسن والمسىء . وإذا قرعت لهم العصا ، ونبهوا عن سنة الغفلة ، وفطنوا لذلك بما يتلى عليهم من الآيات والنذر ، أعرضوا وسدوا أسماعهم ونفروا .وفى التعبير عن اقتراب يوم القيامة باقتراب الحساب ، زيادة فى الترهيب والتخويف ، وفىالحض على الاستعداد لهذاليوم ، لأنه يوم يحاسب فيه الناس على أعمالهم فى الدنيا حسابا دقيقا ، ولن تملك فيه نفس لنفس شيئا ، وإ ، ما يجازى فيه كل إنسان بحسب عمله .

ما ياتيهم من ذكر من ربهم محدث الا استمعوه وهم يلعبون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحْدَثٍ إِلاَّ استمعوه وَهُمْ يَلْعَبُونَ ) بيان لمواقف هؤلاء الغافلين اللاهين ممن يذكرهم بأهوال ذلك اليوم .والمراد بالذكر : ما ينزل من آيات القرآن على النبى - صلى الله عليه وسلم - .والمراد بالمحدث : الحديث العهد بالنزول على النبى - صلى الله عليه وسلم - وهو صفة لذكر .أى : أن هؤلاء الغافلين المعرضين عن الاستعداد ليوم الحساب ، لا يصل إلى أسماعهم شىء من القرآن الكريم ، الذى أنزله الله - تعالى - على قلب نبيه - صلى الله عليه وسلم - آية فآية ، أو سورة بعد سورة فى أوقات متقاربة ، إلا استمعوا إلى هذا القرآن المحدث تنزيله على الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهم

، يلعبون ، دون أن يحرك منهم عاطفة نحو الإيمان به ، فهم لانطماس بصيرتهم وقسوة قلوبهم ، وجحود نفوسهم للحق ، لا يتعظون ولا يعتبرون .وقوله : ( مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ . . . ) يشعر بأن ما نزل من قرآن قد وصل إليهم دون أن يتعبوا أنفسهم فى الحصول عليه ، بل أتاهم وهم فى أماكنهم بدون سعى إليه وقوله ( ذِكْرٍ ) فاعل و ( مِّن ) مزيدة للتأكيد .وقوله ( مِّن رَّبِّهِمْ. متعلق بمحذوف صفة لذكر ، و ( مِّن ) لابتداء الغاية أى : ما يأتيهم من ( ذكر كائن من ربهم وخالقهم ورازقهم ، فى حال من الأحوال ، إلا استمعوه وهم هازلون مستهترون .

لاهية قلوبهم واسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا الا بشر مثلكم افتاتون السحر وانتم تبصرون

كما فسرها الوسيط وقوله : ( لاَهِيَةً قُلُوبُهُمْ ) حال أخرى من أحوالهم الغريبة التى تدل على نهاية طغيانهم وفجورهم ، لأنهم بجانب استماعهم إلى ما ينزل من القرآن بلعب وغفلة ، تستقبله قلوبهم - التى هى محل التدبر والتفكر - بلهو واستخفاف .ثم حكى - سبحانه - لونا من ألوان مكرهم وخبثهم فقال : ( وَأَسَرُّواْ النجوى الذين ظَلَمُواْ ) والنجوى : المسارة بالحديث وإخفاؤه عن الناس .أى : بعد أن استمعوا إلى القرآن بإعراض ولهو واستهتار ، اختلى بعضهم ببعض ، وبالغوا فى إخفاء ما يضمرونه من سوء نحو النبى - صلى الله عليه وسلم - ونحو ما جاء به من عند الله - تعالى - ، وحاولوا أن يظهروا ذلك فيما بينهم فحسب ، مبالغة منهم فى المرك السيىء الذى حاق بهم وقوله - سبحانه - : ( هَلْ هاذآ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ. السحر وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ) بيان لما قالوه فى تناجيهم من سوء والاستفهام للنفى والإنكار .أى : أنهم قالوا فى تناجيهم : ما هذا الذى. يدعى النبوة ، وهو محمد - صلى الله عليه وسلم - إلا بشر مثلكم ، ولا يمكن ، أن يكون رسولا ، وما جاءنا به إنما هو السحر بعينه ، فكيف تذهبون إليه وتقبلون منه ما يدعيه ، والحال أنكم تعاينون بأبصاركم سحره .وما حملهم على هذا القول الباطل إلا توهمهم أن الرسول لا يكون من البشر ، وأن كل ما يظهر على يد مدعى النبوة من البشر من خوارق ، إنما هو من قبيل السحر .قال الآلوسى : وأرادوا بقولهم : " ما هذا إلا بشر مثلكم " أى : من جنسكم ، وما أتى به سحر ، تعلمون ذلك فتأتونه وتحضرونه على وجه الإذعان والقبول وأنتم تعاينون أنه سحر . قالوا ذلك بناء على ما ارتكز فى اعتقادهم الزائع أن الرسول لا يكون إلا ملكا ، وأن كل ما يظهر على يد البشر من الخوارق من قبيل السحر . وعنوا بالسحر . هنا القرآن الكريم ، ففى ذلك إنكار لحقيته على أبلغ وجه ، قاتلهم الله - تعالى - : أنّى يؤفكون . وإنما أسروا ذلك ، لأنه كان على طريق توثيق العهد ، وترتيب مبادئ الشر والفساد وتمهيد مقدمات المكر والكيد فى هدم أمر النبوة .وإطفاء نور الدين ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون .هذا ، ودعوى المشركين أن الرسول لا يكون بشرا ، قد حكاها القرآن فى كثير من آياته ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ( وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نوحي إِلَيْهِمْ مِّنْ أَهْلِ القرى ( . . . ثم

قال ربي يعلم القول في السماء والارض وهو السميع العليم

كما فسرها الوسيط حكى - سبحانه - بعد ذلك ما لقنه لنبيه - صلى الله عليه وسلم - من الرد عليهم ، فقال : ( قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ القول فِي السماء والأرض وَهُوَ السميع العليم ) .أى : قال الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى الرد على ما تناجوا به سرا : ربى الذى أرسلنى لإخراجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان . يعلم ما تقولونه سواء كان سرا أم جهرا ، وسواء أكان القائل موجودا فى السماء أم فى الأرض ، وهو وحده السميع لجميع ما يسمع ، العليم بكل شىء فى هذا الكون .وما دام المر كذلك فأنا سأمضى فى طريقى مبلغا رسالته - سبحانه - ، أما أنتم فسترون سوء عاقبتكم إذا ما سرتم فى طريق الكفر والعناد .وفى قراءة سبعية بلفظ ( قل ) على الأمر للنبى - صلى الله عليه وسلم - .أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - ربى يعلم القول فى السماء والأرض وهو السميع العليم .

بل قالوا اضغاث احلام بل افتراه بل هو شاعر فلياتنا باية كما ارسل الاولون

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( بَلْ قالوا أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ بَلِ افتراه بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ) إضراب من جهته - تعالى - ، وانتقال من حكاية قولهم السابق ( هَلْ هاذآ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ . . . ) إلى حكاية أقوال أخرى باطلة قالوها فى شأنه - صلى الله عليه وسلم - وفى شأن ما جاء به أى : أن هؤلاء الكافرين لم يكتفوا بما قالوه قبل ذلك فى شأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - من أنه بشر وما وجاء به سحر ، بل أضافوا إلى ذلك أن

القرآن أضغاث أحلام . أى : أخلاط كأخلاط الأحلام ، وأنه أباطيل لا حقيقة لها .والأضغاث : جمع ضغث . واصله ما جمع من أنواع شتى من النبات ثم حزم فى حزمة واحدة .والأحلام : جمع حلم - بضم الحاء وسكون اللام - وهو ما يراه النائم مما ليس بحسن .وقد استعير هذا التركيب لما يراه النائم من وساوس وأحلام خلال نومه ( بَلِ افتراه ) أى : اختلق هذا القرآن من عند نفسه ). بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ) أى : أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - شاعر - فى زعمهم - وما أتى به هو نوع من الشعر التخييلى الذى لا حقيقة له .ثم أضافوا إلى هذا التخبط واضطراب قولهم : ( فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ الأولون ) .ومرادهم بالآية هنا : آية كونية ، والجملة جواب لشرط محذوف يفصح عنه السياق ، والتقدير : إن لم يكن كما قلنا فى شأنه من أنه شارع بل كان رسولا حقا فليأتنا بخارق يدل على صدقه كناقة صالح ، وعصا موسى ، وإحياء عيسى للأموات .. . . فإن المرسلين السابقين فعلوا ذلك .وكأنهم - لانطماس بصائرهم وشدة جهالاتهم -لا يعتبرون القرآن الذى هو آية الآيات -لا يعتبرونه آية ومعجزة تدل على صدقه - صلى الله عليه وسلم - .فأنت ترى أن هذه الآية الكريمة قد صورت تخبط هؤلاء المشركين تصويراً حكيما ، شأنهم فى ذلك شأن الحائر المضطرب الذى لا يستطيع الثبات على قرار ، بل هو لتمحله وتعلله - ينتقل من دعوى باطلة إلى أخرى أشد منها بطلانا .وقد نفى القرآن عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - كل هذه الدعاوى الباطلة ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ( وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ العالمين ) وقوله - سبحانه - ( وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشعر وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ القول عَلَى الكافرين ).

ما امنت قبلهم من قرية اهلكناها افهم يؤمنون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - جانبا من مظاهر فضله ورحمته بهؤلاء الذين ارسل إليهم رسوله محمدا - صلى الله عليه وسلم - فقال : ( مَآ آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ) .أى : أن هؤلاء الجاهلين من قومك - أيها الرسول الكريم - قد طلبوا منك آية كونية كالتى جاء بها موسى وعيسى وصالح . . . وهذه الخوارق عندما جاء بها هؤلاء الرسل ولم يؤمن بها أقوامهم أهلكنا هؤلاء الأقوام ، وفقا لسنتنا التى لا تتخلف فى إهلاك من يكذبون بآياتنا ، ولو أنا أعطيناك هذه الخوارق ولم يؤمن بها قومك لأهلكناهم كما أهلكنا السابقين ، لذا اقتضت حكمتنا ورحمتنا أن نمنع عنهم ما طلبوه ، لأنهم بشر كالسابقين . وما دام السابقون لم يؤمنوا بهذه الخوارق فهؤلاء ايضا لن يؤمنوا بها .فالاستفهام فى قوله : ( أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ) للإنكار : أى : أن هؤلاء الكافرين من أمتك - أيها الرسول الكريم - لن يؤمنوا بهذه الخوارق التى طلبوها متى جاءتهم لأنهم لا يقلون عتوا وعنادا عن السابقين الذين لم يؤمنوا بها فأهلكهم الله .وصدق الله إذ يقول : ( إِنَّ الذين حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حتى يَرَوُاْ العذاب الأليم ).

وما ارسلنا قبلك الا رجالا نوحي اليهم فاسالوا اهل الذكر ان كنتم لا تعلمون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن حكمته قد اقتضت أن يكون جميع الرسل من البشر وأن يعيشوا الحياة التى تقتضيها الطبيعة البشرية ، وأن يؤيدهم الله - تعالى - بالمعجزات الدالة على صدقهم ، فقال - تعالى - : ( وَمَآ أَرْسَلْنَا . . . . ) .أى : وما أرسلنا قبلك - أيها الرسول الكريم - إلى الأمم السابقة إلا رسلا من البشر ، ليعيشوا حياة البشر ، ويتمكنوا من التعامل والتخاطب والتفاهم مع من هم من جنسهم ، ولو كان الرسل من غير البشر لما كانت هناك وشيجة ورابطة بينهم وبين أقوامهم .وهذه الجملة رد مفحم على المشركين الجاهلين الذين استبعدوا أن يكون الرسول بشرا وقالوا قبل ذلك : ( هَلْ هاذآ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ) وقوله - تعالى - : ( نوحي إِلَيْهِمْ ) استئناف مبين لكيفية الإرسال .أى : اقتضت حكمتنا أن يكون الرسل من الرجال ، وأن نبلغهم ما نكلفهم به عن طريق الوحى المنزل إليهم من جهتنا .وقوله - سبحانه - : ( فاسئلوا أَهْلَ الذكر إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ) توبيخ لهم وتجهيل ، لأنهم قالوا ما قالوا بدون تعقل أو تدبر والمراد بأهل الذكر : علماء أهل الكتاب الذين كان المشركون يرجعون إليهم. فى أمور دينهم .والفاء فى قوله : ( فاسئلوا . . . ) لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، وجواب الشرط محذوف لدلالة الكلام عليه .أى : ما دامت قد بلغت بكم الجهالة أن تستبعدوا أن يكون الرسول بشرا فاسألوا أهل العلم فى ذلكن - فسيبينون لكم أن الرسل السابقين لم يكونوا إلا رجالا .قال القرطبى : قوله تعالى - : ( فاسئلوا أَهْلَ الذكر إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ) يريد أهل التوراة والإنجيل الذين آمنوا بالنبى - صلى الله عليه وسلم - وسماهم أهل

الذكر ، لأنهم كانوا يذكرون خبر الأنبياء ، مما لم تعرفه العرب ، وكان كفار قريش يراجعون أهل الكتاب فى أمر النبى - صلى الله عليه وسلم - .وقال ابن زيد : أراد بالذكر : القرآن . أى : فاسألوا المؤمنين العالمين من أهل القرآن . . . .

وما جعلناهم جسدا لا ياكلون الطعام وما كانوا خالدين

كما فسرها الوسيط ثم أكد - سبحانه - هذه الحقيقة وهى كون الرسل من البشر فقال : ( وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لاَّ يَأْكُلُونَ الطعام وَمَا كَانُواْ خَالِدِينَ ) .والضمير فى ( جَعَلْنَاهُمْ ) يعود إلى الرسل ، والجسد مصدر جَسِد الدم يَجْسَدُ - من باب فرح - إذا التصق بغيره ، وأطلق على الجسم جسد ، لالتصاق أجزاءه بعضها ببعض ، ويطلق هذا اللفظ على الواحد المذكر وغيره ولذلك أفرد . أو هو أفرد لإرادة الجنس .أى : وما جعلنا الرسل السابقين عليك يا محمد أجسادا لا تأكل ولا تشرب كالملائكة ، وإنما جعلناهم مثلك يأكلون و يشربون ويتزوجون ويتناسلون ويعتريهم ما يعترى البشر من سرور - و حزن ، ويقظة و نوم . . . وغير ذلك مما يحسه البشر .وما جعلناهم - أيضا خالدين فى هذه الحياة بدون موت ، وإنما جعلنا لأعمارهم أجلا محددا تنتهى حياتهم عنده بدون تأخير أو تقديم .قال - تعالى - : ( إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَّيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القيامة عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ).

ثم صدقناهم الوعد فانجيناهم ومن نشاء واهلكنا المسرفين

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الوعد. . ) : بيان لسنة الله - تعالى - الجارية مع رسله - عليهم الصلاة والسلام - .أى. ثم صدقنا هؤلاء الرسل ما وعدناهم به من جعل العاقبة لهم ( فَأَنجَيْنَاهُمْ من العذاب الذى أنزلناه بأعدائهم . وأنجينا معهم ( مَن نَّشَآءُ ) ( إنجاءهم من المؤمنين بهم .( وَأَهْلَكْنَا المسرفين ) الذين تجاوزوا الحدود فى كفرهم وتطاولهم على الرسل الكرام ، وإعراضهم عن دعوتهم .وإلى هنا نرى الآيات الكريمة من أول السورة إلى هنا ، قد أنذرت الناس باقتراب يوم الحساب وحذرتهم من الغفلة عنه ، ومن الإعراض عن الاستعداد له بالإيمان والعمل ، الصالح ، وحكت ما قاله المشركون من تهم باطلة تتعلق بالرسول - صلى الله ، عليه وسلم - وبما جاء به من عند ربه - تعالى - وردت عليها بما يزهقها . ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون

لقد انزلنا اليكم كتابا فيه ذكركم افلا تعقلون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن ما أنزله على نبيه - صلى الله عليه ، وسلم - هو خير الآيات وأخلدها وأشرفها ، وأنه يشرف الأمة التى تنتسب إليه - وأن الأمم السابقة التى كذبت بالخوارق والمعجزات التى جاء بها الرسل ) : - عليهم السلام - أهلكها الله - تعالى - هلاك استئصال - فقال - تعالى - لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَاباً . . . ) .قال الآلوسى : " قوله تعالى - : ( لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَاباً . . . ) كلام مستأنف لتحقيق حقية القرآن العظيم ، الذى ذكر فى صدر السورة إعراض الناس عما ، يأتيهم من آياته ، واستهزاؤهم به ، واضطرابهم فى أمره ، وبيان علو مرتبته ، إثر تحقيق رسالته - صلى الله عليه وسلم - ، ببيان أنه كسائر الرسل الكرام وقد صدر الكلام بالتوكيد القسمى ، إظهاراً لمزيد الاعتناء بمضمونه وإيذانا بأن المخاطبين فى أقصى مراتب النكير ، والخطاب لقريش ، وجوز أن يكون ، لجميع العرب . " .والمعنى : لقد أنزلنا إليكم ما معشر العرب عن طريق رسولنا محمد - صلى الله عليه وسلم - كتابا عظيم الشأن ، نير البرهان ، مشتملا على ما يسعدكم ، وهذا الكتاب ( فِيهِ ذِكْرُكُمْ ) أى : فيه شرفكم ، وعلو منزلتكم ، وحسن موعظتكم ، وشفاء صدوركم .( أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ) ذلك ، مع أن هذا الأمر واضح ، ولا يحتاج إلى جدال أو مناقشة .فالاستفهام لإنكار عدم تدبرهم فى شأن هذا الكتاب الذى أنزله الله - تعالى - ليظفروا بسببه بالذكر الجميل ، وبالموعظة الحسنة ، كما قال - تعالى - ( وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ) وإن من مظاهر كون القرآن الكريم فيه ذكر العرب وشرفهم ، أنه نزل بلغتهم ، وأنه المعجزة الباقية الخالدة بخلاف غيره من المعجزات التى أيد الله - تعالى - بها الرسل السابقين ، وأنه ، الكتاب الذى قادوا به البشرية قرونا طويلة . عندما حملوه إلى الناس فقرأوه عليهم ، وشرحوا لهم أحكامه وآدابه وتشريعاته . . . . وما أصيب العرب فى دينهم ودنياهم إلا يوم أن تخلوا عن العمل بهدايات هذا الكتاب ، وقصروا فى تبليغه إلى الناس .

وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وانشانا بعدها قوما اخرين

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما أنزله بالقوم الظالمين فقال
وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا
قَوْماً آخَرِينَ ) .و " كم " هنا خبرية مفيدة للتكثير ، وهى فى محل نصب
على أنها مفعول مقدم " لقصمنا " .وأصل القصم : كسر الشىء حتى ينقطع وينفصل
عن غيره ، يقال : قصم فلان ظهر فلان ، إذا كسره حتى النهاية ، بخلاف الفصم
فهو صدع الشىء من غير قطع وانفصال .قال القرطبى : " والقصم : الكسر ، يقال
. قصمت ظهر فلان ، وانقصمت سنه ، إذا انكسرت .والمعنى ها هنا به الإهلاك :
وأما الفصم - بالفاء - فهو الصدع فى الشىء من غير بينونة " .أى : وكثيرا من
، القرى الظالمة التى تجاوز أهلها حدود الحق ، ومردوا على الكفر والضلال
أبدناها مع أهلها ، وعذبناها عذابا نكرا ، بسبب ظلمهم وبغيهم ، وأنشأنا من
، بعدهم قوما آخرين ليسوا مثلهم .وأوقع - سبحانه - فعل القصم على القرى
- للإشعار بأن الهلاك قد أصابها وأصاب أهلها معها . فالكل قد دمره - سبحانه
تدميراً .أما عند الإنشاء فقد أوقع الفعل على القوم فقال : ( وَأَنشَأْنَا
بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ ) للإيماء إلى أن هؤلاء القوم الآخرين ، الذين
لم يكونوا أمثال السابقين ، هم الذين ينشئون القرى ويعمرونها .وشبيه بهذه
الآية قوله - تعالى - : ( وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ القرون مِن بَعْدِ نُوحٍ
. ( وكفى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرَاً بَصِيراً

فلما احسوا باسنا اذا هم منها يركضون

كما فسرها الوسيط ثم صور - سبحانه - حال هؤلاء الظالمين عندما أحسوا
بالعذاب وهو نازل بهم فقال : ( فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُمْ
مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ) .وقوله : ( أَحَسُّواْ ) من الإحساس . وهو إدراك
، الشىء بالحاسة . يقال : أحس فلان الشىء ، إذا علمه بالحس ، وأحس بالشىء
، إذا شعر به بحاسته .وقوله : ( يَرْكُضُونَ ) من الركض وهو السير السريع
. وأصله : أن يضرب الرجل دابته برجله ليحثها على الجرى والسرعة فى المشى
والمقصود به هنا : الهرب بسرعة .أى : فلما أحس هؤلاء الظالمون عذابنا
المدمر ، وأيقنوا نزوله بهم ، وعلموا ذلك علما مؤكدا ، إذا هم يخرجون من
قريتهم ( يَرْكُضُونَ ) أى : يهربون بسرعة وذعر ، حتى لكأنهم من اضطرابهم
وخوفهم يظنون أن ذلك سينجيهم .وإذا هنا فجائية ، والجملة بعدها جواب " لما
" .

لا تركضوا وارجعوا الى ما اترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسالون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( لاَ تَرْكُضُواْ وارجعوا إلى مَآ
أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ ) حكاية لما تقوله لهم الملائكة - وهم
يركضون هربا - على سبيل التهكم والاستهزاء .أى : يقال لهم من جهة الملائكة
أو من جهة المؤمنين لا تركضوا هاربين ( وارجعوا إلى ) قريتكم وإلى ( مَآ
أُتْرِفْتُمْ فِيهِ ) أى : وإلى ما نعمتم فيه من العيش الهنىء ، والخير
الوفير ، الذى أبطركم وجعلكم تجحدون النعم ، ولم تستعملوها فيما خلقت له
فقوله : ( أُتْرِفْتُمْ ) من الترفه - بالتاء المشددة مع الضم - وهى.
النعمة والطعام الطيب . يقال : ترف فلان - كفرح - إذا تنعم . وفلان أترفته
النعمة ، إذا أطغته أو نعمته .وقوله : ( وَمَسَاكِنِكُمْ ) معطوف على ( مَآ
أى : لا تهربوا وارجعوا إلى ما نعمتم فيه من العيش الهنىء ، وإلى. (
مساكنكم التى كنتم تسكنونها ، وتتفاخرون بها .( لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ )
أى يقصدكم غيركم لسؤالكم عما نزل بكم ، فتجيبوا عن علم ومشاهدة .قال صاحب
: الكشاف : " قوله ( لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ) تهكم بهم وتوبيخ ، أى
ارجعوا إلى نعيمكم ومساكنكم لعلكم تسألون غدا عما جرى عليكم ونزل بأموالكم
ومساكنكم . فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة .أو ارجعوا واجلسوا كما كنتم فى
مجالسكم ، وترتبوا فى مراتبكم حتى يسألكم حشمكم وعبيدكم ، ومن تملكون أمره
وينفذ فيه أمركم ونهيكم ، ويقول لكم : بم تأمرون؟ وبماذا ترسمون؟وكيف .
. . . نأتى ونذر كعادة المنعمين المخدّمين .أو يسألكم الناس فى أنديتكم
، ويستشيرونكم فى المهمات . ويستضيئون بآرائكم .أو يسألكم الوافدون عليكم
ويستمطرون سحائب أكفكم . . . قيل لهم ذلك تهكما إلى تهكم ، وتوبيخا إلى
توبيخ " .وهنا أدرك هؤلاء الظالمون ، أن الأمر جد لا هزل ، وأن العذاب نازل
. بهم لا محالة ، وأن القائلين لهم لا تركضوا ، إنما يتهكمون بهم

قالوا يا ويلنا انا كنا ظالمين

كما فسرها الوسيط فأخذ أولئك الضالمون يتفجعون ويتحسرون قائلين : ( ياويلنآ
إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ) .والويل : الفضيحة والبلية والمصيبة التى
يعقبها الهلاك . وهى كلمة جزع وتحسر .وتستعمل عندما تحيط بالإنسان داهية
عظيمة ، وكأن المتحسر لنزول مصيبة به ، ينادى ويليته ويطلب حضورها بعد

: تنزيلها منزلة من يُنَادَى .أى : قالوا عندما تيقنوا أن الهلاك نازل بهم
يا هلاكنا إنا كنا ظالمين لأنفسنا ، مستوجبين للعذاب . بسبب إعراضنا عن
. الحق ، وتكذيبنا لمن جاء به

فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا خامدين

كما فسرها الوسيط واسم الإشارة فى قوله - تعالى - : ( مَا زَالَت تِلْكَ
دَعْوَاهُمْ ) يعود إلى الكلمات التى قالوها على سبيل التحسر عندما يئسوا
من الخلاص والهرب ، وتأكدوا من الهلاك ، وهى قولهم : ( ياويلنآ إِنَّا
كُنَّا ظالِمِينَ ) .أى : فما زالوا يرددون تلك الكلمات بتفجع وتحسر
: واستعطاف .وسميت هذه الكلمات دعوى ، لأن المولول كأنه يدعو الويل قائلا
أيها الويل هذا أوانك فأقبل نحوى .وقوله : ( حتى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً
خَامِدِينَ ) بيان لما آل إليه حالهم .وخامدين : من الخمود بمعنى الهمود
والانطفاء والانتهاء . يقال : حمدت النار تخمد خمدا وخمودا ، إذا سكن
لهيبها ، وانطفأ شررها .أى : فما زالت تلك كلماتهم حتى جعلناهم فى الهمود
والهلاك كالنبات المحصود بالمناجل ، وكالنار الخامدة بعد اشتعالها .وهكذا
. تكون عاقبة الظالمين . وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون

وما خلقنا السماء والارض وما بينهما لاعبين

، كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ما يدل على قدرته ووحدانيته
وعلى أن من فى السموات والأرض لا يستكبرون عن عبادته - تعالى - ، فقال - عز
وجل - : ( وَمَا خَلَقْنَا . . . ) .المعنى : إننا لم نخلق السموات والأرض
وما بينهما من مخلوقات لا يعلمها إلا الله ، لم نخلق ذلك عبثا ، وإنما
خلقنا هذه المخلوقات بحكمتنا السامية ، وقدرتنا النافذة ، ومشيئتنا التى لا
. يقف فى وجهها شىء

لو اردنا ان نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا ان كنا فاعلين

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ
لَهْواً لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ) استئناف
، مقرر لمضمون ما قبله ، من أن خلق السموات والأرض وما بينهما لم يكن عبثا
وإنما لحكم بالغة ، مستتبعة لغايات جليلة ، ومنافع عظيمة .و " لو " هنا حرف
امتناع لامتناع . أى : امتناع وقوع فعل الجواب لامتناع وقوع فعل الشرط
، واللهو : الترويح عن النفس بما لا تقتضيه الحكمة ، ولا يتناسب مع الجد.
وهو قريب من العبث الباطل تقول : لهوت بهذا الشىء ألهوا لهوا ، إذا تشاغلت
به عن الجد ، ويطلقه بعضهم على الولد والزوجة والمرأة .أى : لو أردنا - على
سبيل الفرض والتقدير - أن نتخذ ما نتلهى به ، لاتخذناه من عندنا ومن جهتنا
دون أن يمنعنا أحد مما نريده ولكنا لم نرد ذلك لأنه مستحيل علينا استحالة
ذاتية ، فيستحيل علينا أن نريده .فالآية الكريمة من باب تعليق المحال على
المحال ، لأن كلا الأمرين يتنافى مع حكمة الله - تعالى - ومع ذاته الجليلة
وقوله : ( إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ) تأكيد لامتناع إرادة اللهو ، و ( أن ).
. نافية ، أى : ما كنا فاعلين ذلك ، لأن اتخاذ اللهو يستحيل علينا

بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( بَلْ نَقْذِفُ بالحق عَلَى الباطل
فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ) إضراب عن إرادة اتخاذ اللهو ، وإثبات
لما تقتضيه ذاته - تعالى - مما يخالف ذلك .والقذف : الرمى بسرعة . والاسم
القذاف - ككتاب - ، وهو سرعة السير ، ومنه قولهم : ناقة قذاف - بكسر
، القاف - إذا كانت متقدمة على غيرها فى السير .ويدمغه : أى ، يمحقه ويزيله
قال القرطبى : وأصل الدمغ شج الرأس حتى يبلغ الدماغ .أى : ليس من شأننا أن
نتخذ لهوا ، وإنما الذى من شأننا وحكمتنا ، أن نلقى بالحق الذى أرسلنا به
رسلنا ، على الباطل الذى تشبث به الفاسقون ( فَيَدْمَغُهُ ) أى : فيقهره
ويهلكه ويزيله إزالة تامة .والتعبير القرآنى البليغ ، يرسم هذه السنة
الإلهية فى صورة حسية متحركة حتى لكأنما الحق قذيفة تنطلق بسرعة فتهوى على
الباطل فتشق أم رأسه ، فإذا هو زاهق زائل .قال الآلوسى : وفى إذا الفجائية
والجملة الإسمية ، من الدلالة على كمال المسارعة فى الذهاب وإلبطلان مالا ،
يخفى ، فكأنه زاهق من الأصل .وقوله - تعالى - : ( وَلَكُمُ الويل مِمَّا
- تَصِفُونَ ) وعيد شديد لأولئك الكافرين الذين نسبوا إلى الله - تعالى
مالا يليق به ، ووصفوه بأن له صاحبة وولدا ( سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا
يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً ) أى : ولكم - أيها الضالون المكذبون - الويل
. والهلاك ، من أجل وصفكم له - تعالى - بما لا يليق بشأنه الجليل

وله من في السماوات والارض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( وَلَهُ مَن فِي السماوات والأرض ) : استئناف مؤكد لما قبله من أن جميع الخلوقات خاضعة لقدرته - تعالى - .أى ، وله وحده - سبحانه - جميع من فى السموات والأرض ، خلقا ، وملكا ، وتدبيرا وتصرفا وإحياء ، وإماتة ، لا يخرج منهم أحد عن علمه وقدرته - عز وجل - .ثم بين - سبحانه - نماذج من عباده الطائعين له ، بعد أن حكى أقوال أولئك الضالين ، فقال : ( نْ عِنْدَهُ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ الليل والنهار لاَ يَفْتُرُونَ ) - والاستحسار : الكلل والتعب . يقال : حسر البصر يحسُر حسورا - من باب قعد. إذا تعب من طول النظر ، ومنه قوله - تعالى - : ( ثُمَّ ارجِعِ البَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ البَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ ) أى : كليل متعب .أى : ومن عنده من مخلوقاته وعلى رأسهم الملائكة المقربون ، لا يستكبرون عن عبادته - سبحانه - بل يخضعون له خضوعا تاما ( وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ ) أى : ولا يكلون ولا يتعبون .

يسبحون الليل والنهار لا يفترون

كما فسرها الوسيط /بل هم ( يُسَبِّحُونَ ) الله - تعالى - ويحمدونه ويكبرونه . طول الليل والنهار بدون فتور أو تراخ أو تقصير . يقال : فتَر فلان عن الشىء يفتُر فتورا ، إذا سكن بعد حدة ، ولان بعد شدة ، ويقال : فتر الماء - من باب قعد - إذا سكن حره فهو فاتر .قالوا : وذلك لأن تسبيح الملائكة لله - تعالى - يجرى منهم مجرى التنفس منا ، فهو سجية وطبيعة فيهم وكما أن اشتغالنا لا يمنعنا من الكلام ، فكذلك اشتغالهم بالتسبيح لا يمنعهم من سار الأعمال .

ام اتخذوا الهة من الارض هم ينشرون

كما فسرها الوسيط وبعد أن بين - سبحانه - أن من مخلوقاته من يقوم بتسبيحه وعبادته بدون انقطاع أو فتور ، أتبع ذلك بتوبيخ المشركين وبإقامة الأدلة - على وحدانيته ، واستحالة أن يكون هناك من يشاركه فى ألوهيته فقال - تعالى : ( أَمِ اتخذوا آلِهَةً . . . ) .اعلم أن الكلام من قال الإمام الرازى : ، أول السورة إلى هنا كان فى النبوات وما يتصل بها من الكلام سؤالا وجوابا " . . . وأما هذه الآيات فإنها فى بيان التوحيد ونفى الأضداد والأنداد ) : والاستفهام فى قوله ( أَمِ اتخذوا ) . . . للإنكار والتوبيخ . وقوله. - يُنشِرُونَ ) من النشر بمعنى الإحياء والبعث . يقال : أنشر الله - تعالى الموتى : إذا بعثهم بعد موتهم .والمعنى : إن هؤلاء الضالين قد أشركوا مع الله - تعالى - آلهة أخرى فى العبادة ، فهل هذه الآلهة التى اتخذوها تستطيع ، أن تعيد الحياة إلى الأموات؟كلا إنها لا تستطيع ذلك بإقرارهم ومشاهدتهم وما دام الأمر كذلك فكيف أباحوا لأنفسهم أن يتخذوا آلهة لا تستيطع أن تفعل شيئا من ذلك أو من غيره؟إن اتخاذهم هذا لمن أكبر الأدلة وأوضحها على : جهالاتهم وسفاهاتهم وسوء تفكيرهم .قال صاحب الكشاف ما ملخصه : فإن قلت كيف أنكر عليهم اتخاذ آلهة تنشر . وما كانوا يدّعون ذلك لآلهتهم ، لأنهم كانوا ينكرون البعث أصلا ويقولون : من يحيى العظام وهى رميم؟ قلت : الأمر ، كما ذكرت ولكنهم بادعائهم لها الإلهية ، يلزمهم أن يدعوا لها الإنشار لأنه لا يستحق هذا الاسم إلا القادر على كل مقدور ، والإنشار من جملة المقدورات . وفيه باب من التهكم بهم ، والتوبيخ والتجهيل ، وإشعار بأن ما استبعدوه من الله - تعالى -لا يصح استبعاده ، لأن الإلهية لما صحت صح معها الاقتدار على الإبداء والإعادة .وقوله - سبحانه - ( مِّنَ الأرض ) متعلق باتخذوا ، و " من " ابتدائية ، أى : اتخذوها من أجزاء الأرض كالحجارة وما يشبهها ، ويجوز أن يكون الجار والمجرور متعلق بمحذوف صفة للآلهة ، أى : اتخذوا آلهة كائنة من الأرض . . . وعلى كلا التقديرين فالمراد بهذا التعبير التحقير والتجهيل .

لو كان فيهما الهة الا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - دليلا عقليا مستمدا من واقع هذا الكون فقال : ( لَوْ كَانَ فِيهِمَآ آلِهَةٌ إِلاَّ الله لَفَسَدَتَا ) .أى : لو ، كان فى السموات والأرض آلهة أخرى سوى الله - تعالى - ، تدبر أمرهما لفسدتا ولخرجتا عن نظامهما البديع ، الذى لا خلل فيه ولا اضطراب .وذلك لأن ، تعدد الآلهة يلزمه التنازع والتغالب بينهم . . . فيختل النظام لهذا الكون ويضطرب الأمر ، ويعم الفساد فى هذا العالم .ولما كان المشاهد غير ذلك إذ كل ، شىء فى هذا الكون يسير بنظام محكم دقيق دل الأمر على أن لهذا الكون كله إلها واحداً قادرا حكيما لا شريك له .قال صاحب الكشاف : " والمعنى لو كان

يتولاهما ويدبر أمرهما آلهة شتى غير الواحد الذى هو فاطرهما لفسدتا .وفيه
: دلالة على أمرين : أحدهما : وجوب أن لا يكون مدبرهما إلا واحداً .الثانى
: أن لا يكون ذلك الواحد إلا إياه وحده ، لقوله ( إِلاَّ اللَّه ) .فإن قلت
لم وجب الأمران؟ قلت : لعلمنا أن الرعية تفسد بتدبير الملكين لما يحدث
بينهما من التغالب والتناكر والاختلاف .قال عبد الملك بن موران حين قتل
عمرو بن سعيد الأشدق : كان والله أعز على من دم ناظرى . ولكن لا يجتمع
) : - فحلان فى شَوْل - أى : فى عدد مع النياق - .وقوله - تعالى
فَسُبْحَانَ اللَّه رَبِّ العرش عَمَّا يَصِفُونَ ) تنزيه لله - تعالى - عما
قاله الجاهلون فى شأنه - عز وجل - .أى : فتنزيها لله وتقديسا وتبرئة لذاته
. عن أن يكون له شريك فى ألوهيته ، وجل عما وصفه به الجاهلون

لا يسال عما يفعل وهم يسالون

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى : ( لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ
- يُسْأَلُونَ ) تأكيد لوحدانيته وقدرته - سبحانه - أى :لا يسأله سائل
، سبحانه - عما يفعله بعباده من إعزاز وإذلال . وهداية وإضلال ، وغنى وفقر
وصحة ومرض ، وإسعاد وإشقاء . . . لأنه هو الرب المالك المتصرف فى شئون خلقه
وهم يسألون يوم القيامة عن أعمالهم وأقوالهم لأنهم عبيده ، وقد أرسل ،
إليهم الرسل مبشرين ومنذرين ، فمنهم من اتبع الرسل فسعد وفاز ، ومنهم من
. استحب العمى قال الهدى فشقى وهلك

ام اتخذوا من دونه الهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معي وذكر من قبلي بل
اكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون

كما فسرها الوسيط وبعد أن ساق - سبحانه - دليلا عقليا على وحدانيته ، أتبعه
بدليل آخر نقلى ، فقال - تعالى - : ( أَمِ اتخذوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ
. . . هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هذا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي
قال الآلوسى ما ملخصه : هذا إضراب وانتقال من إظهار بطلان كون ما اتخذوه. (
آلهة ، لخلوها من خصائصها التى من جملتها الإنشار ، إلى تبكيتهم ومطالبتهم
بالبرهان على دعواهم الباطلة ، وتحقيق أن جميع الكتب السماوية ناطقة بحقية
- التوحيد ، وبطلان الإشراك .أى : إن هؤلاء الكافرين قد أشركوا مع الله
تعالى - آلهة أخرى فى العبادة ، بسبب جهلهم وعنادهم وجحودهم للحق . . . قل
لهم - أيها الرسول الكريم - على سبيل التبكيت والتوبيخ ( هَاتُواْ
بُرْهَانَكُمْ ) على أن مع الله - تعالى - آلهة أخرى تستحق مشاركته فى
) : - العبادة والطاعة؟ ولا شك أنهم لا برهان لهم على ذلك .وقوله - تعالى
هذا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي ) زيادة فى تبكيتهم وفى إظهار
عجزهم ، أى : هذا الوحى الإلهى الناطق بتوحيد الله - تعالى - موجود فى
القرآن الكريم المشتمل على ذكر بالمعاصرين لى من أتباعى ، وموجود فى كتب
الأنبياء السابقين ، كالتوراة التى أنزلها الله على موسى ، والإنجيل الذى
أنزله على عيسى ، فمن أين أتيتم أنتم بهؤلاء الشركاء ، وكيف اتخذتموهم آلهة
) مع أنهم لا برهان عليهم لا من جهة العقل ولا من جهة النقل؟فاسم الإشارة
هذا ) فى قوله : ( هذا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ ) مبتدأ ، مشار به إلى الوحى
" : - الإلهى ، وقد أخبر عنه - سبحانه - بخبرين - كما يقول الشيخ الجمل
بالنظر للخبر الأول يراد به القرآن ، وبالنظر للخبر الثانى يراد به ما عداه
من الكتب السماوية " .وقوله - تعالى - : ( بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ
يَعْلَمُونَ الحق فَهُمْ مُّعْرِضُونَ ) إضراب من جهته - تعالى - عن
مناقشتهم ومطالبتهم بالبرهان ، وانتقال من الأمر بتبكيتهم إلى الأمر
بإهمالهم استصغارا لشأنهم .أى : دعهم - أيها الرسول الكريم - فى باطلهم
يعمهون فإنهم قوم أكثرهم يجهلون الحق ، ولا يستطيعون التمييز بينه وبين
الباطل . فهم لأجل ذلك منصرفون عن الهدى ، ومتجهون إلى الضلال ، ومن جهل
. شيئا عاداه

وما ارسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه انه لا اله الا انا فاعبدون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن جميع الرسل - عليهم الصلاة
، والسلام - قد أمروا أقوامهم بإخلاص العبادة لله ، ونبذ الشرك والشركاء
فقال - تعالى - : ( وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ
نوحي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إله إِلاَّ أَنَا فاعبدون ) .أى : وما أرسلنا من
قبلك من رسول يا محمد إلا وأفهمناه عن طريق وحينا أنه لا إله يستحق العبادة
والطاعة إلا أنا ، فعليه أن يأمر قومه بطاعتى وعبادتى والخوضع لى وحدى .هذا
والمتدبر لهذه الآيات الكريمة ، يراها قد أقامت أحكم الأدلة العقلية ،
والنقلية على وجوب إخلاص العبادة لله الواحد القهار ، وعلى أن الذين يتخذون
معه آلهة أخرى سفهاء جاهلون .ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك شبهة من الشبهات
: - الباطلة التى تفوه بها المشركون ، ورد عليهم ردا مفحما ، فقال - تعالى

( وَقَالُواْ اتخذ . . . ) .

وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون

كما فسرها الوسيط قال الآلوسى ما ملخصه : " قوله - تعالى - ( وَقَالُواْ اتخذ الرحمن وَلَداً ) ، حكاية لجناية فريق من المشركين لإظهار بطلانها ، وبيان تنزهه - سبحانه - عن ذلك ، إثر بيان تنزهه - جل وعلا - عن الشركاء على الإطلاق ، وهم حى من خزاعة قالوا : الملائكة بنات الله ، ونقل الواحدى - أن قريشا وبعض العرب قالوا ذلك .والآية مشنعة على كل من نسب إلى الله تعالى - ذلك كاليهود والنصارى . . . " .أى : وقال المشركون الذين انطمست بصائرهم عن معرفة الحق " اتخذ الرحمن ولداً سبحانه " .أى : تنزه وتقدس الله - تعالى - عن ذلك جل وعلا عما يقولونه علوا كبيرا .وقوله : ( بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ) إضراب عما قالوه ، وإبطال له ، وثناء على ملائكته الذين زعم فريق من المشركين أنهم بنات الله .وعبا : جمع عبد . والعبودية لله - تعالى - معناها : إظهار التذلل له - سبحانه - ، والخضوع لذاته .ومكرم اسم مفعول من أكرم ، وأكرام الله - تعالى - لعبده معناه : إحسانه إليه : وإنعامه عليه .أى : لقد كذب هؤلاء المشركون فى زعمهم أن الملائكة بنات الله والحق أن الملائكة هم عباد مخلوقون له - تعالى - ومقربون إليه ومكرمون ، عنده .

لا يسبقونه بالقول وهم بامره يعملون

كما فسرها الوسيط وقوله : ( لاَ يَسْبِقُونَهُ بالقول ) أى :لا يتكلمون إلا بما يأمرهم به ، ولا يقولون شيئا بدون إذنه ، كما هو شأن العبيد الطائعين لسيدهم .وأصل الكلام :لا يسبق قولهم قوله - عز وجل - إلا أنه - سبحانه - أنسد السبق إليهم ، تنزيلا لسبق قولهم لقوله ، منزلة سبقهم إياه ، وقوله - تعالى - .وقوله : للإشعار بمزيد طاعتهم وتنزيههم عن كل قول بغير إذنه ) : ( وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ) بيان لتبعيتهم له - تعالى - فى الأعمال إثر بيان تبعيتهم له - سبحانه - فى الأقوال .أى : وهم بأمره وحده يعملون لا بأمر أحد سواه ، ولا بأمر أنفسهم ، كما قال - تعالى - فى آية أخرى ) : ( ياأيها الذين آمَنُواْ قوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا الناس والحجارة عَلَيْهَا مَلاَئِكَةٌ غِلاَظٌ شِدَادٌ لاَّ يَعْصُونَ الله مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ).

يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - مظهرا من مظاهر علمه الشامل ، وحكمه النافذ ، فقال ( يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ . . . ) ، أى : يعلم - سبحانه - أحوالهم كلها صغيرها وكبيرها ، متقدمها ومتأخرها ( وَلاَ يَشْفَعُونَ ) لأحد من خلقه إلا لمن ارتضى الله - تعالى - شفاعتهم له أى : وهم لخوفهم من الله ومن ( وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ). عقابه حذرون وجلون .فأنت ترى أن الله - تعالى - قد وصف الملائكة فى هذه - الآيات بجملة من الصفات الكريمة التى تدل على طاعتهم المطلقة لله - تعالى وعلى إكرامه - سبحانه - لهم .

ومن يقل منهم اني اله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين

- كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أنهم مع كرامتهم عند الله تعالى - لو ادعى أحد منهم - على سبيل الفرض - أنه إله ، لعاقبه الله عقاباً شديدا ، فقال - تعالى - : ( وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إني إله مِّن دُونِهِ فذلك نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظالمين ) .أى : ومن يقل من الملائكة - على سبيل الفرض والتقدير - ( إني إله مِّن دُونِهِ ) أى : من " دون الله - عز وجل - " فذلك " الذى ادعى هذا الادعاء الكاذب " نجزيه جهنم أى : نجعل جزاءه الإلقاء فى جهنم كسائر المجرمين الكاذبين ، ولا يغنى عنه ما سبق له من طاعة وتكريم ( كَذَلِكَ نَجْزِي الظالمين ) أى : مثل هذا الجزاء الرادع الفظيع نجزى كل ظالم يضع الأمور فى غير موضعها ، إذ أن حقوق الله - تعالى -لا يجوز لأحد - كائنا من كان - أن ينسبها لنفسه ، سواء أكان ملكا مقربا ، أم نبيا مرسلا .

اولم ير الذين كفروا ان السماوات والارض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي افلا يؤمنون

كما فسرها الوسيط وبعد أن ساق - سبحانه - ألوانا من الأدلة الكونية الشاهدة

بوحدانيته ، ومن الأدلة النقلية النافية للشركاء ، ومن الأدلة الوجدانية
التى تهيج القلوب نحو الحق . . . أتبع ذلك بتحريض الكافرين على التدبر فى
- ملكون السموات والأرض ، لعل هذا التدبر يهديهم إلى الإيمان . فقال
تعالى - : ( أَوَلَمْ يَرَ . . . ) .قوله ( رَتْقاً ) مصدر رقته رتقا : إذا
سده . يقال : رتق فلان الفتق رتقا ، إذا ضمه وسده ، وهو ضد الفتق الذى هو
) بمعنى الشق والفصل .وللعلماء فى معنى هذه الآية أقوال أشهرها : أن معنى
كَانَتَا رَتْقاً ) أن السماء كانت صماء لا ينزل منها مطر ، وأن الأرض كانت
، لا يخرج منها نبات ، ففتق الله - تعالى - السماء بأن جعل المطر ينزل منها
، وفتق الأرض بأن جعل النبات يخرج منها .وهذا التفسير منسوب إلى ابن عباس
فقد سئل عن ذلك فقال : كانت السموات رتقا لا تمطر ، وكانت الأرض رتقا لا
تنبت ، فلما خلق - سبحانه - للأرض أهلا ، فتق هذه بالمطر ، وفتق هذه
بالنبات .ومنهم من يرى أن المعنى : كانت السموات والأرض متلاصقتين كالشىء
الواحد ، ففتقهما الله - تعالى - بأن فصل بينهما ، فرفع السماء إلى مكانها
وأبقى الأرض فى مقرها ، وفصل بينهما بالهواء .قال قتادة قوله ( كَانَتَا ،
رَتْقاً ) يعنى أنهما كانا شيئا واحداً ففصل الله بينهما بالهواء .ومنهم من
يرى أن معنى " كانتا رتقا " أن السموات السبع كانت متلاصقة بعضها ببعض
ففتقها الله - تعالى - بأن جعلها سبع سموات منفصلة ، والأرضون كانت كذلك
رتقا ، ففصل الله - تعالى - بينها وجعلها سبعا .قال مجاهد : كانت السموات
طبقة واحدة مؤتلفة ، ففتقها فجعلها سبع سموات ، وكذلك الأرضين كانت طبقة
واحدة ففتقها فجعلها سبعا " .وقد رجح بعض العلماء المعنى الأول فقال ما
ملخصه : كونهما " كانتا رتقا " بمعنى أن السماء لا ينزل منها مطر ، والأرض
لا تنبت ، ففتق - سبحانه - السماء بالمطر والأرض بالنبات ، هو الراجح وتدل
عليه قرائن من كتاب الله - تعالى - منها :أن قوله - تعالى - : ( أَوَلَمْ
يَرَ الذين كفروا . . ) يدل على أنهم رأوا ذلك لأن الأظهر فى رأى أنها
بصرية ، والذى يرونه بأبصارهم هو أن السماء تكون لا ينزل منها مطر ، والأرض
لا نبات فيها . فيشاهدون بأبصارهم نزول المطر من السماء ، وخروج النبات من
الأرض .ومنها : أنه - سبحانه - أتبع ذلك بقوله : ( وَجَعَلْنَا مِنَ المآء
كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ) والظاهر اتصال هذا الكلام بما قبله . أى : وجعلنا من
الماء الذى أنزلناه بفتقنا السماء ، وأنبتنا به أنواع النبات بفتقنا الأرض
- كل شىء حى .ومنها : أن هذا المعنى جاء موضحا فى آيات أخرى ، كقوله ،
: تعالى - : ( والسمآء ذَاتِ الرجع والأرض ذَاتِ الصدع ) والمراد بالرجع
نزول المطر من السماء تارة بعد أخرى ، والمراد بالصدع : انشقاق الأرض عن
: النبات . واختار هذا القول ابن جرير وابن عطية والفخر الرازى .فإن قيل
هذا الوجه مرجوح ، لأن المطر لا ينزل من السموات ، بل من سماء واحدة وهى
سماء الدنيا؟قلنا : إنما أطلق عليه لفظ الجمع ، لأن كل قطعة فيها سماء كما
يقال : ثوب أخلاق - أى : قطع - .والآية الكريمة مسوقة بتجهيل المشركين
وتوبيخهم على كفرهم ، مع أنهم يشاهدون بأعينهم ما يدل دلالة واضحة على
وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، ويعلمون أن من كان كذلك ، لا يصح أن تترك
عبادته إلى عبادة حجر أو نحوه ، مما لا يضر ولا ينفع .والمعنى : أو لم
يشاهد الذين كفروا بأبصارهم ، ويعلموا بعقولهم ، أن السموات والأرض كانتا
رتقا ، بحيث لا ينزل من السماء مطر ، ولا يخرج من الأرض نبات ، ففتق
، الله - تعالى - السماء بالمطر ، والأرض بالنبات .إنهم بلا شك يشاهدون ذلك
ويعقلونه بأفكارهم . ولكنهم لاستيلاء الجحود والعناد عليهم ، يعبدون من
: - دونه - سبحانه - مالا ينفع من عَبَده ، ولا يضر من عصاه .وقال - سبحانه
بالتثنية ، باعتبار النوعين اللذين هما نوع السماء ، ونوع ( كَانَتَا )
الأرض ، كما فى قوله - تعالى - : ( إِنَّ الله يُمْسِكُ السماوات والأرض
أن تَزُولاَ . . ) وقوله - تعالى - : ( وَجَعَلْنَا مِنَ المآء كُلَّ
شَيْءٍ حَيٍّ . . . ) تأكيد لمضمون ما سبق ، وتقرير لوحدانيته ونفاذ
قدرته - سبحانه - والجعل بمعنى الخلق . و ( مِنَ ) ابتدائية .أى : وخلقنا
من الماء بقدرتنا النافذة ، كل شىء متصف بالحياة الحقيقية وهو الحيوان ، أو
كل شىء نام فيدخل النبات ، ويراد من الحياة ما يشمل النمو .وهذا العام
مخصوص بما سوى الملائكة والجن مما هو حى ، لأن الملائكة - كما جاء فى بعض
) - الأخبار - خلقوا من النور ، والجن مخلوقون من النار .قال - تعالى
خَلَقَ الإنسان مِن صَلْصَالٍ كالفخار وَخَلَقَ الجآن مِن مّارِجٍ مّن
نّارٍ ) قال القرطبى : وفى قوله - تعالى - : ( وَجَعَلْنَا مِنَ المآء
. كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ) ثلاث تأويلات : أحدها : أنه خلق كل شىء من الماء
قاله قتادة . الثانى : حفظ حياة كل شىء بالماء : الثالث : وجعلنا من ماء
الصلب - أى : النطفة - كل شىء حى . .وقوله : ( أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ ) إنكار
لعدم إيمانهم مع وضوح كل ما يدعو إلى الإيمان الحق ، والفاء للعطف على مقدر
يستدعيه هذا الإنكار .أى : أيشاهدون بأعينهم ما يدل على وحدانية الله
وقدرته . ومع ذلك لا يؤمنون؟ إن أمرهم هذا لمن أعجب العجب ، وأغرب
!!الغرائب

وجعلنا في الارض رواسي ان تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - أدلة أخرى على وحدانيته وقدرته فقال : ( وَجَعَلْنَا فِي الأرض رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ . . . ) الوراسى : جمع راسية ، من رسا الشىء إذا ثبت ورسخ ، والمراد بها الجبال الثابتة الراسخة فى الأرض .أى : وجعلنا فى الأرض جبالا ثوابت ، كراهة أن ( تَمِيدَ بِهِمْ ) أى : أن تضطرب وتتحرك بهم الأرض . يقال : ماد الشىء يميد ميدا - من باب باع - إذا تحرك واهتز .( وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ) ، والفجاج .جمع فج وهو الطريق الواسع .والسبل : جمع سبيل وهو الطريق . وهو بدل من ( فِجَاجاً ) .أى : وجعلنا فى الأرض طرقا واسعة ، ومنافذ متعددة ، لعلهم بذلك يهتدون ويتوصلون إلى الأماكن التى يريدون الوصول إليها . ويعلمون أن الذى وهبهم كل هذه النعم ، هو الله - تعالى - الذى يجب أن يخلصوا له العبادة والطاعة .

وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن اياتها معرضون

كما فسرها الوسيط ( وَجَعَلْنَا السمآء سَقْفاً مَّحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ) أى : وجعلنا السماء سقفا للأرض كما يكون السقف للبيت ، وجعلناه محفوظا من السقوط ومن التشقق ، ومن كل شيطان رجيم . وهم - أى المشركون - عن آياتها الدالة على قدرتنا ووحدانيتنا وعلمنا . معرضون ذاهولن ، لا يتعظون ولا يتذكرون .ومن الآيات الدالة على حفظ السماء من السقوط ، قوله - تعالى - : ( . . . وَيُمْسِكُ السمآء أَن تَقَعَ عَلَى الأرض إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ الله بالناس لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ) ومن الآيات الدالة على حفظها من التشقق والتفطر قوله - سبحانه - : ( أَفَلَمْ ينظروا إِلَى السمآء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ) وعلى حفظها من الشياطين قوله - تعالى - : ( وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ) ومن الآيات الدالة على إعراض هؤلاء المشركين عن العبر والعظات قوله - سبحانه - : ( وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السماوات والأرض يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ).

وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات الدالة على قدرته ووحدانيته بقوله - تعالى - ( وَهُوَ الذي خَلَقَ الليل والنهار والشمس والقمر كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ) .أى : وهو وحده - سبحانه - الذى خلق بقدرته الليل والنهار بهذا النظام البديع ، وخلق الشمس والقمر بهذا الإحكام العجيب " كل واحد من الشمس والقمر يسير فى فلكه وطريقه المقدر له بسرعة " أى : وانتظام ، كالسابح فى الماء .وقوله : ( يَسْبَحُونَ ) من السبح وهو المر السريع فى الماء أو الهواء .وجاء يسبحون بمضير العقلاء . لكون السباحة المسندة إليهما من فعل العقلاء ، كما فى قوله - تعالى - : ( والشمس والقمر رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ) هذا والمتأمل فى هذه الآيات يراها قد ساقت جملة من الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وعلى كمال قدرته .

وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد افان مت فهم الخالدون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن مصير البشر جميعا إلى الفناء ، وأن كل نفس ذائقة الموت ، وأن من طبيعة الإنسان تعجل الأمور قبل أوانها ، وأن المشركين لو علموا المصير السىء الذى ينتظرهم يوم القيامة ، لما قالوا ما قالوه من باطل ، ولما فعلوا ما فعلوه من قبائح ، قال - تعالى - : ( وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ . . . ) .قال القرطبى : قوله - تعالى - : ( وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الخلد ) أى دوام البقاء فى الدنيا .نزلت حين قالوا : نتربص بمحمد - صلى الله عليه وسلم - ريب المنون . وذلك أن المشركين كانوا يدفعون نبوته ويقولون : شاعر نتربص به ريب المنون ، ولعله يموت كما مات شاعر بنى فلان ، فقال الله - تعالى - : قد مات الأنبياء قبلك . . يا محمد ، وتولى الله دينه بالنصر والحياطة ، فهكذا نحفظ دينك وشرعك والاستفهام فى قوله - سبحانه - : ( أَفَإِنْ مِّتَّ فَهُمُ الخالدون ). للانكار والنفى . . .والمعنى : وما جعلنا - أيها الرسول الكريم - لبشر من - قبلك - كائنا من كان - الخلود فى هذه الحياة ، وأنت إن مت فهم - أيضا سيموتون فى الوقت الذى حدده الله - تعالى - لانقضاء عمرك وأعمارهم ، وما دام الأمر كذلك فذرهم فى جهالتهم يعمهون ، ولا تلتفت إلى شماتتهم فيك ، أو إلى تربصهم بك ، فإنك ميت وإنهم ميتون ، وكل شىء هالك إلا وجهه له الحكم - . وإليه ترجعون ، ورحم الله الإمام الشافعى حيث يقول :تمنى أناس أن أموت وإن أمت ... فتلك سبيل لست فيها بأوحدفقل للذى يبغى خلاف الذى مضى ... تهيأ لأخرى مثلها ، وكأن قدوقال شاعر آخر :إذا ما الدهر جر على أناس ...

كلاكِلُه أناخ بآخرينا فقل للشامتين بنا أفيقوا ... سيلقى الشامتون كما لقينا

كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون

) : كما فسرها الوسيط ثم أكد - سبحانه - عدم خلود بشر فى هذه الحياة فقال كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الموت ) .أى : كل نفس أوجدها الله - تعالى - فى هذه الحياة ، ستذوق مرارة نزول الموت بها . ومفارقة روحها لجسدها .قال الآلوسى ما ملخصه : والموت عند الأشعرى ، كيفية وجودية تضاد الحياة ، وعند كثيرين غيره : أنه عدم الحياة عما من شأنه الحياة بالفعل .وقال بعضهم : المراد بالنفس هنا : النفس الإنسانية لأن الكلام مسوق لنفى خلود البشر .واختير ) : - عمومها لتشمل نفوس البشر والجن وسائر نفوس الحيوان .وقوله - تعالى وَنَبْلُوكُم بالشر والخير فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ) بيان لسنة من سننه - تعالى - فى معاملة عباده .وقوله - سبحانه - : ( وَنَبْلُوكُم ) من البَلْوِ بمعنى الاختبار والامتحان . يقال : فلان بلاه الله بخير أو شر يبلوه بَلْواً ، وأبلاه وابتلاه ابتلاء ، بمعنى امتحنه .وقوله : ( فِتْنَةً ) مصدر مؤكد لنبلوكم من غير لفظه .أى : كل نفس ذائقة الموت ، ونختبركم فى ( ، هذه الحياة بألوان من النعم وبألوان من المحن ، لنرى أتشكرون عند النعمة وتصبرون عند المحنة ، أم يكون حالكم ليس كذلك؟ وفى جميع الأحوال فإن مرجعكم ، إلينا لا محالة ، وسنجازيكم بما تستحقون من ثواب على شكركم وصبركم وسنجازى غير الشاكرين وغير الصابرين بما يستحقون من عقاب ، ولا يظلم ربك أحدا .قال بعض العلماء : " والابتلاء بالشر مفهوم أمره ليتكشف مدى احتمال . . المبتلى ، ومدى صبره على الضر ، ومدى ثقته فى ربه ، ورجائه فى رحمته . فأما الابتلاء بالخير فهو فى حاجة إلى بيان .إن الابتلاء بالخير أشد وطأة فكثيرون يصمدون أمام الابتلاء بالشر ولكن القلة القليلة هى التى تصمد للابتلاء بالخير .كثيرون يصبرون على الابتلاء بالمرض والضعف ، وقليلون هم الذين يصبرون على الابتلاء بالصحة والقدرة .كثيرون يصبرون على الفقر والحرمان ، فلا تتهاوى نفوسهم ولا تذل . وقليلون هم الذين يصبرون على ، الثراء ومغرياته وما يثيره من أطماع .كثيرون يصبرون على الكفاح و الجراح وقليلون هم الذين يصبرون على الدعة ، ولا يصابون بالحرص الذى يذل أعناق الرجال .إن الابتلاء بالشر قد يثير الكبرياء ، ويستحث المقاومة ويجند الأعصاب لاستقبال الشدة . . . أما الرخاء فقد يرخى الأعصاب ويفقدها - المقاومة . . . إلا من عصم الله ، وصدق رسوله الله - صلى الله عليه وسلم حيث يقول : " عجبا لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له " .وشيبه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( وَلَقَدْ أَرْسَلنَآ إِلى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بالبأسآء والضرآء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ) وقوله - سبحانه - : ( وَبَلَوْنَاهُمْ بالحسنات والسيئات لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ).

واذا راك الذين كفروا ان يتخذونك الا هزوا اهذا الذي يذكر الهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - جانبا من السفاهات التى كان المشركون يقابلون بها النبى - صلى الله عليه وسلم - فقال : ( وَإِذَا رَآكَ الذين كفروا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً ) .أى : وإذا أبصرك المشركون - أيها الرسول الكريم - سخروا منك ، واستخفوا بك وقالوا على سبيل التهوين من شأنك : ( أَهذا الذي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ ) أى : أهذا هو مدعى النبوة الذى يذكر آلهتكم بسوء ويعيبها ، وينفى شفاعتها لنا ، وأنها تقربنا إلى الله زلفى .وقوله - سبحانه - : (وَهُمْ بِذِكْرِ الرحمن هُمْ كَافِرُونَ ) فى محل نصب حال من ضمير القول المقدر .أى : أنهم يقولون فيما بينهم أهذا هو ، الرسول الذى يذكر آلهتكم بسوء ، والحال أن هؤلاء المشركين الجاهلين - كافرون بالقرآن الذى أنزله الله - تعالى - عليك - أيها الرسول الكريم لتخرج الناس به من الظلمات إلى النور .فالآية الكريمة تنعى على هؤلاء المشركين جهالاتهم وسفاهاتهم ، حيث استكثروا على الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يذم آلهتهم التى لا تنفع ولا تضر ولم يستكثروا على أنفسهم ، أن يكفروا بخالقهم وبذكره الذى أنزله على نبيه - صلى الله عليه وسلم - ليكون رحمة لهم .قال صاحب الكشاف : الذكر يكون بخير وبخلافه . فإذا دلت الحال على أحدهما أطلق ولم يقيد . كقولك للرجل : سمعت فلانا يذكرك ، فإن كان الذاكر صديقا فهو ثناء ، وإن كان عدوا فهو ذم ، ومنه قوله : ( أَهذا الذي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ ) .والمعنى : أنهم عاكفون على ذكر آلهتهم بهممهم ، وربما يجب . أن لا تذكر به من كونهم شفعاء وشهداء .ويسوءهم أن يذكرها ذاكر بخلاف ذلك وأما ذكر الله - تعالى - وما يجب أن يذكر به من الوحدانية ، فهم به كافرون لا يصدقون به أصلا ، فهم أحق بأن يُتّخَذُوا هزوا منك ، فإنك محق وهم

مبطلون . . . فسبحان من أضلهم حتى تأدبوا مع الأوثان ، وأساءوا الأدب مع الرحمن " .

خلق الانسان من عجل ساريكم اياتي فلا تستعجلون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما جبل عليه الإنسان من تسرع وتعجل فقال : ( خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ ) .والعجَل : طلب الشىء وتحريه قبل أوانه ، وهو ضد البطء .والمراد بالإنسان : جنسه .والمعنى : خلق جنس الإنسان مجبولا على العجلة والتسرع فتراه يستعجل حدوث الأشياء قبل وقتها المحدد لها مع أن ذلك قد يؤدى إلى ضرره .فالمراد من الآية الكريمة وصف الإنسان ، بالمبالغة فى تعجل الأمور قبل وقتها ، حتى لكأنه مخلوق من نفس التعجل . والعرب تقول : فلان خلق من كذا ، يعنون بذلك المبالغة فى اتصاف هذا الإنسان بما وصف به ، ومنه قولهم خلق فلان من كرم ، وخلقت فلانة من الجمال .وقوله : ( سَأُوْرِيكُمْ آيَاتِي فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ ) تهديد وزجر لأولئك المشركين - أيها المشركون - فلا تتعجلوا ذلك فإنه آت لا ريب فيه .قال ابن كثير - الكافرين الذين كانوا يستعجلون العذاب .أى : سأريكم عقابى وانتقامى منكم والحكمة فى ذكر عجلة الإنسان هنا : أنه - سبحانه - لما ذكر المستهزئين - بالرسول - صلى الله عليه وسلم - وقع فى النفوس سرعة الانتقام منهم . فقال سبحانه - : ( خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ ) لأنه - تعالى - يملى للظالم حتى يفلته ، ويُنْظِر ثم لا يؤخر ، ولهذا قال : ( إذا أخذه لم يفلته ، يؤجل ثم يعجل ) أى : نقمى واقتدارى على من عصانى ( فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ ) .وقال الآلوسى : " والنهى عن استعجالهم إياه - تعالى - مع أن نفوسهم جبلت عَلَى العجلة ، ليمنعوها عما تريده وليس هذا من التكليف بما لا يطاق . لأنه - سبحانه - أعطاهم من الأسباب ما يستطيعون به كف النفس عن مقتضاها ، ويرجع هذا النهى إلى الأمر بالصبر " .

ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين

كما فسرها الوسيط ثم أكد - سبحانه - ما يدل على تعجلهم لما فيه هلاكهم فقال أى : أن هؤلاء. ( وَيَقُولُونَ متى هذا الوعد إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ) : المشركين بلغ من طغيانهم وجهلهم أنهم كانوا يتعجلون العذاب الذى توعدهم الله - تعالى - به إذا ما استمروا على كفرهم . ويقولون للرسول - صلى الله عليه وسلم - ولأصحابه - على سبيل التهكم والاستهزاء - متى يقع هذا العذاب الذى توعدتمونا به . إننا مترقبون له ، فإن كنتم صادقين فى وعيدكم ، فأسرعوا فى إنزاله . وأسرعوا فى دعوة ربكم - سبحانه - أن يأتى بالساعة وجواب الشرط لقوله ( إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ) محذوف ، لدلالة ما قبله. عليه .أى : إن كنتم صادقين فى وعيدكم بأن هناك عذابا ينتظرنا ، فأتوا به بسرعة .

لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون

كما فسرها الوسيط وهنا يسوق القرآن ما يدل على غفلتهم وسوء تفكيرهم ، وعلى أنهم لو كانوا يعلمون ما ينتظرهم من عذاب يوم القيامة ، لما تفوهوا بما تفوهوا به - فيقول - سبحانه - ( لَوْ يَعْلَمُ الذين كَفَرُواْ حِينَ لاَ يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النار وَلاَ عَن ظُهُورِهِمْ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ) .وجواب " لو " محذوف . و " يعلم " بمعنى يعرف ، و " حين " مفعوله .أى : لو عرف الكافرون وقت وقوع العذاب بهم . وما فيه من فظائع تجعلهم يعجزون عن دفع النار عن وجوههم وعن ظهورهم . . . لو يعرفون ذلك لما استعجلوه . ولما استخفوا بالنبى - صلى الله عليه وسلم - وبأصحابه ، لكن عدم معرفتهم هى التى جعلتهم يستعجلون ويستهزئون .وخص - سبحانه - الوجوه والظهور بالذكر . لكونهما أظهر الجوانب ، ولبيان أن العذاب سيغشاهم من أمامهم ومن خلفهم دون أن يملكوا له دفعا .وقال - سبحانه - ( وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ) لبيان أنهم مع عجزهم عن دفع العذاب بأنفسهم . فإن غيرهم - أيضا - لن يستطيع دفعه عنهم .قال صاحب الكشاف : " جواب " " لو " محذوف . و " حين " مفعول به ليعلم . أى : لو يعلمون الوقت الذى يستعلمون عنه بقولهم : " متى هذا الوعد وهو وقت صعب شديد تحيط بهم فيه النار من وراء وقدام ، فلا يقدرون على " دفعها ومنعها من أنفسهم ، ولا يجدون ناصرا ينصرهم؛ لما كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال ، ولكن جهلهم به هو الذى هونه عندهم ، ويجوز أن يكون " يعلم " متروكا بلا تعدية ، بمعنى : لو كان معهم علم ولو يكونوا جاهلين ، لما كانوا مستعجلين ، وحين : منصوب بمضمر ، أى حين "لا يكفون عن وجوههم النار " يعلمون أنهم كانوا على الباطل . .

بل تاتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ ) . . . بيان لسرعة قيام الساعة ، ومفاجأتها لهم . أى : بل تأتيهم الساعة الموعود بها ، وبعذابهم فيها ، ومفاجأة من غير شعور بمجيئها فتبهتهم " أى : فتدهشهم وتحيرهم ، والبهت : الانقطاع والحيرة ." فلا يستطيعون ردها " أى : فلا يستطيعون دفع الساعة أو ردها عنهم ( وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ ) أى : ولا هم يمهلون لتوبة أو معذرة .

ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - الآيات الكريمة بتسلية النبى - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من هؤلاء المشركين ، فقال :( وَلَقَدِ استهزىء بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بالذين سَخِرُواْ مِنْهُمْ مّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ) .أى : ولقد استهزىء - أيها الرسول الكريم - برسل كثيرين من قبلك ، فنزل بهؤلاء المشركين المستهزئين برسلهم ، العذاب الذى كانوا يستهزئون به فى الدنيا ، ويستعجلون رسلهم فى نزوله .وصدرت الآية الكريمة بلام القسم وقد ، لزيادة تحقيق مضمونها وتأكيده ، وتنوين الرسل للتفخيم والتكثير ، أى : والله لقد استهزىء برسل كثيرين ذوى شأن خطير كائنين فى زمان قبل زمانك .وعبر - سبحانه - بالفعل حاق ، لأن هذه المادة تستعمل فى إحاطة المكروه ، فلا يقال : فلان حاق به الخير ، ولأنها تدل على الشمول واللزوم .أى : فنزل بهم العذاب الذى كانوا يستهزئون به فى الدنيا ، نزولا شاملا ، أحاط بهم من كل جهة إحاطة تامة .وبذلك تكون الآيات الكريمة قد بينت جانبا من سنن الله - تعالى - فى خلقه ، وحكت بعض الأفعال القبيحة التى كان المشركون يفعلونها مع النبى - صلى الله عليه وسلم - وهددتهم عليها تهديدا شديدا ، وسلت النبى - صلى الله عليه وسلم - عما ارتكبوه فى حقه .

قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن بل هم عن ذكر ربهم معرضون

كما فسرها الوسيط ثم أمر - سبحانه - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يُذَكِّر هؤلاء الجاحدين بنعمه - تعالى - وأن ينذرهم بأسه وعقابه إذا ما استمروا فى كفرهم ، فقال - عز وجل - : ( قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم . . . ) قوله - تعالى - : ( يَكْلَؤُكُم ) أى : يرعاكم ويحفظكم . يقال : فلان. كَلأَ فلانا كَلأً وكِلاءَة - بالكسر - إذا حرسه ، واكتلأ فلان من غيره ، إذا احترس منه .والاستفهام للإنكار والتقريع .أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المستهزئين بك وبما جئت به من عند ربك : قل لهم من الذى يحرسكم ويحفظكم " بالليل " وأنتم نائمون " والنهار " وأنتم متيقظون " من الرحمن " أى : من عذاب الرحمن وبأسه إذا أراد أن يهلككم بسبب عكوفكم على كفركم وشرككم .وتقديم الليل على النهار ، لما أن الدواهى فيه أكثر ، والأخذ فيه أشد ، واختار - سبحانه - لفظ الرحمن ، للإشعار بأنهم يعيشون فى خيره ورحمته . ومع ذلك لا يشكرونه - تعالى - على نعمه .ولذا - أخبر - سبحانه - عنهم بقوله : ( بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ ) أى : بل هم بعد كل هذا الإنكار عليهم ، والتنبيه لهم عن ذكر ربهم وكتابه الذى أنزله لهدايتهم ، معرضون شاردون ، لا يحاولون الانتفاع بتوجيهاته ، ولا يستمعون إلى إرشاداته .فالجملة الكريمة تنفى عنهم الانتفاع بما يوجهه الرسول - صلى الله عليه وسلم - إليهم من هدايات وعظات .

ام لهم الهة تمنعهم من دوننا لا يستطيعون نصر انفسهم ولا هم منا يصحبون

كما فسرها الوسيط ثم وجه - سبحانه - إليهم سؤالا آخر فقال : ( أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِّن دُونِنَا . . . ) ؟ .و ( أَمْ ) هنا هى المنقطعة التى بمعنى بل والهمزة ، فهى مشتملة على معنى الإضراب والإنكار .والمعنى : وسلهم - أيها الرسول الكريم - مرة أخرى : أهؤلاء الجاحدين آلهة أخرى تستطيع أن تحرسهم وترعاهم سوانا نحن؟ كلا ليس لهم ذلك .فالجملة الكريمة إضراب عن وصفهم بالإعراض إلى توبيخهم على جهالاتهم بسبب اعتمادهم على آلهة لا تنفع ولا تضر .وقوله : ( لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلاَ هُمْ مِّنّا يُصْحَبُونَ ) نفى على أبلغ وجه لأن تكون هناك آلهة ترعاهم سوى الله - تعالى - أى : كلا . . . ليس لهم آلهة تمنعهم من عذابنا إن أردنا ، إنزاله بهم ، فإن هؤلاء الآلهة لا يستطيعون نصر أنفسهم فضلا عن نصر غيرهم ولا هم منا يصحبون ، أى : يجارون ويمنعون من نزول الضر بهم .قال ابن جرير : وقوله ( يُصْحَبُونَ ) بمعنى يجارون ، تقول العرب : أنا لك جار وصاحب من " فلان . بمعنى أجيرك وأمنعك منه . وهؤلاء إذا لم يصبحوا بالجوار ، ولم يكن لهم مانع من عذاب الله ، مع سخط الله عليهم ، فلم يصحبوا بخير ولن ينصروا .

بل متعنا هؤلاء واباءهم حتى طال عليهم العمر افلا يرون انا ناتي الارض

ننقصها من اطرافها افهم الغالبون

كما فسرها الوسيط ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن نعمة أخرى من نعم الله عليهم لم يحسنوا شكرها ، فقال - تعالى - : ( بَلْ مَتَّعْنَا هؤلاء وَآبَآءَهُمْ حتى طَالَ عَلَيْهِمُ العمر . . . ) .أى :لا تلتفت - أيها الرسول الكريم - إلى هؤلاء المشركين الذين أعرضوا عن ذكر ربهم ، والذين ، زعموا أن آلهتهم تضر أو تنفع ، فإننا قد كلأناهم برعايتنا بالليل والنهار ومتعناهم وآباءهم من قبلهم بالكثير من متع الحياة الدنيا ، حتى طالت أعمارهم فى رخاء ونعمة ، فحملهم ذلك على الطغيان والبطر والإصرار على الكفر وسنأخذهم فى الوقت الذى نريده أخذ عزيز مقتدر ، فإن ما أعطيناه لهم من نعم. إنما هو على سبيل الاستدراج لهم .ثم يلفت - سبحانه - أنظارهم إلى الوقاع المشاهد فى هذه الحياة فيقول : ( أَفَلاَ يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأرض نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ أَفَهُمُ الغالبون ) .وللعلماء فى تفسير هذه الجملة الكريمة أقوال منها : أن المراد بنقص الأرض من أطرافها : إهلاك المشركين السابقين الذين كذبوا رسلهم ، كقوم نوح وعاد وثمود ، وهم يمرون على قرى بعض هؤلاء المكذبين ، ويرون آثارهم وقد دمرت ديارهم .والمعنى : أفلا ينظرون هؤلاء المشركون الذين كذبوك يا محمد ، فيرون بأعينهم ما حل بأمثالهم ممن كذبوا الرسل من قبلك . وكيف أننا طوينا الأرض بهم . وجعلناهم أثرا بعد عين .والاستفهام فى قوله : ( أَفَهُمُ الغالبون ) للإنكار .أى : - لم تكن الغلبة والعاقبة في يوم من الأيام لمن كذبوا رسل الله - تعالى وإنما الغلبة والظفر وحسن العاقبة لمن آمن بالرسل وصدقهم واتبع ما جاءوا به من عند ربهم .وقد أشار الإمام ابن كثير إلى هذا المعنى بقوله : " أفلا يعتبرون نصر الله لأوليائه على أعدائه ، وإهلاكه الأمم المكذبة والقرى الظالمة وإنجائه لعباده المؤمنين . ولهذا قال : ( أَفَهُمُ الغالبون ) يعنى : بل هم المغلوبون الأسفلون الأخسرون الأرذلون .ومنها أن المراد بنقص الأرض من أطرافها : نقص أرض الكفر ودار الحرب ، وتسليط المسلمين عليها وانتزاعها من أيديهم بدليل الاستفهام الإنكارى فى قوله ( أَفَهُمُ الغالبون ) أى :لا . . . ليسوا هم الذين يغلبون جندنا ، وإنما جندنا هم الغالبون " وقد صدر الآلوسى تفسيره لهذا القول فقال : " أفلا يرون أنا تأتى الأرض. أى : أرض الكفرة " ننقصها من أطرافها " بتسليط المسلمين عليها ، وحوز ما يحوزونه منها ، ونظمه فى سلك ملكهم . . . " أفهم الغالبون " على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين .والمراد إنكار ترتيب الغالبية على ما ذكر من نقص أرض الكفرة بتسليط المؤمنين عليها ، كأنه قيل : أبعد ظهور ما ذكر ورؤيتهم له يتوهم غلبتهم ، وفى التعريف تعريض بأن المسلمين هم المتعينون للغلبة المعروفون فيها .وقال صاحب الكشاف : " فإن قلت : أى فائدة فى قوله ( نَأْتِي الأرض ) ؟ .قلت : فيه تصوير ما كان الله يجريه على أيدى المسلمين ، وأن عساكرهم وسراياهم كانت تغرو أرض المشركين وتأتيها غالبة عليها ، ناقصة من أطرافها .وهذان الرأيان مع وجاهتهما ، إلا أن الرأى الأول الذى ذهب إليه ابن كثير أكثر شمولا ، لأنه يتناول ما أصاب المكذبين للرسل ، السابقين من عقاب كما يشمل التهديد للمكذبين المعاصرين للعهد النبوى بأنهم إذا استمروا فى طغيانهم فسيحل بهم ما حل بمن سبقوهم .وهناك من يرى أن المراد بنقص الرض من أطرافها : موت العلماء ، أو خرابها عند موت أهلها ، أو نقص الأنفس والثمرات . . . ولكن هذه الآراء ليس معها ما يرجحها .

قل انما انذركم بالوحي ولا يسمع الصم الدعاء اذا ما ينذرون

كما فسرها الوسيط ثم أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يوجه إلى هؤلاء المشركين إنذارا حاسما ، فقال - تعالى - : ( قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بالوحي . . . ) .أى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين : إنى بعد أن بينت لكم ما بينت من هدايات وإرشادات أنذركم عن طريق الوحى الصادق ، بأن الساعة آتية لا ريب فيها ، فلا تستعجلوا ذلك فكل آت قريب ، وسترون فيها ما ترون من أهوال وعذاب .وقوله ( وَلاَ يَسْمَعُ الصم الدعآء إِذَا مَا يُنذَرُونَ ) توبيخ لهم وتجهيل .أى : ولا يسمع الصم دعاء من يدعوهم إلى ما ينفعهم ، ولا يلتفتون إلى إنذار من ينذرهم وذلك لكمال جهلهم ، وشدة عنادهم وانطماس بصائرهم .

ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ليقولن يا ويلنا انا كنا ظالمين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - حالهم عندما ينزل بهم شىء من العذاب فقال : ( وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ ياويلنآ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ) .أى : ولئن أصاب هؤلاء المشركين شىء قليل من عذاب ربك يا محمد . ليقولن على سبيل التفجع والتحسر وإظهار الخضوع : يا ويلنا - أى يا هلاكنا - إنا كنا ظالمين ، ولذلك نزل بنا هذا العذاب ، وفى هذا التعبير ألوان من المبالغات منها : ذكر المس الذى

: يكفى فى تحققه إيصال ما ، ومنها : ما فى النفح من النزارة والقلة ، يقال
نفح فلان فلانا نفحة ، إذا أعطاه شيئا قليلا ومنها . البناء الدال على
المرة والواحدة كما يفيد ذلك التعبير بالنفحة . أى : نفحة واحدة من عذاب
ربك ، والمقصود من الآية الكريمة بيان سرعة تأثر هؤلاء المشركين ، بأقل شىء
من العذاب الذى كانوا يستعجلونه وأنهم إذا ما نزل بهم شىء منه ، أصيبوا
. بالهلع والجزع ، وتنادوا بالويل والثبور والاعتراف بالظلم وتجاوز الحدود

ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وان كان مثقال حبة من
خردل اتينا بها وكفى بنا حاسبين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - مظهرا من مظاهر عدله مع عباده يوم
القيامة فقال : ( وَنَضَعُ الموازين القسط لِيَوْمِ القيامة فَلاَ تُظْلَمُ
نَفْسٌ شَيْئاً . . . ) .أى : ونحضر الموازين العادلة لمحاسبة الناس على
أعمالهم يوم القيامة ولإعطاء كل واحد منهم ما يستحقه من ثواب أو عقاب ، دون
أن يظلم ربك أحداً من خلقه .( وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ
خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وكفى بِنَا حَاسِبِينَ ) أى : وإن كانت الأعمال
التى عملها الإنسان فى الدنيا فى نهاية الحقارة والقلة ، أتينا بها فى
صحيفة عمله لتوزن ، وكفى بنا عادِّين ومحصين على الناس أعمالهم ، إذ لا
) : يخفى علينا شىء منها سواء أكان قليلا أم كثيراً .قال ابن كثير : قوله
وَنَضَعُ الموازين ) الأكثر على أنه ميزان واحد ، وإنما جمع باعتبار تعدد
الأعمال الموزونة فيه .وقال القرطبى : " الموازين : جمع ميزان ، فقيل : إنه
يدل بظاهره على أن لكل مكلف ميزانا توزن به أعماله ، فتوضع الحسنات فى كفة
والسيئات فى كفة .وقيل : يجوز أن يكون هناك موازين للعامل الواحد ، يوزن ،
بكل ميزان منها صنف من أعماله . . . وقيل : ذِكْر الميزان مثَل وليس ثَمّ
ميزان وإنما هو العدل ، والذى وردت به الأخبار ، وعليه السواد الأعظم القول
) الأول . و " القسط " صفة الموازين ووحد لأنه مصدر . . .واللام فى قوله
لِيَوْمِ القيامة ) قيل للتوقيت . أى للدلالة على الوقت ، كقولهم : جاء
، فلان لخمس ليال بقين من الشهر . وقيل هى لام كى ، أى : لأجل يوم القيامة
أو بمعنى فى أى : في يوم القيامة .وقوله - سبحانه - ( فَلاَ تُظْلَمُ
نَفْسٌ شَيْئاً ) بيان للعدل الإلهى ، وأنه - سبحانه -لا يظلم أحدا شيئا
مما له أو عليه ، أى : فلا تظلم نفس شيئا من الظلم لا قليلا ولا كثيراً
وقوله ( وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ).
تصوير لدقة الحساب ، وعدم مغادرته لشىء من أعمال الناس ، إذ الخردل حب فى
غاية الصغر والدقة . ومثقال الشىء : وزنه .وأنث الضمير فى قوله " بها " وهو
راجع إلى المضاف الذى هو " حبة من خردل " .وقوله - سبحانه - : ( وكفى بِنَا
- حَاسِبِينَ ) بيان لإحاطة الله - تعالى - : بعلم كل شىء . كما قال
تعالى - ( إِنَّ الله لاَ يخفى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأرض وَلاَ فِي السمآء
وفى معنى هذه الآية وردت آيات كثيرة منها قوله - تعالى - : ( إِنَّ الله (
لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ
مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً ) وقوله - سبحانه - : ( يابنى إِنَّهَآ إِن
تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي
( السماوات أَوْ فِي الأرض يَأْتِ بِهَا الله إِنَّ الله لَطِيفٌ خَبِيرٌ
وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد ذكرت أولئك المشركين بجانب من نعم
الله - تعالى - عليهم ، وحضهم على التدبر والاتعاظ ، وأنذرتهم بسوء العاقبة
إذا ما استمروا فى كفرهم وشركهم ، وصورت لهم دقة الحساب يوم القيامة ، وأن
. كل إنسان سيحاسب على عمله سواء أكان صغيرا أم كبيرا ، ولا يظلم ربك أحدا

ولقد اتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرا للمتقين

كما فسرها الوسيط وبعد أن فصل - سبحانه - الحديث عن دلائل التوحيد والنبوة
والمعاد ، ورد على المشركين ردا يفحمهم ، أتبع ذلك بالحديث عن قصص بعض
- الأنبياء تسلية للرسول - صلى الله عليه وسلم - وتثبيتا لقلبه ، فقال
تعالى - : ( وَلَقَدْ آتَيْنَا موسى . . . ) .المراد بالفرقان وبالضياء
وبالذكر : التوراة ، فيكون الكلام من عطف الصفات . والمعنى : ولقد أعطينا
موسى وهارون - عليهما السلام - كتاب التوراة ليكون فارقا بين الحق والباطل
وليكون - أيضا - ضياء يستضىء به أتباعه من ظلمات الكفر والضلالة ، وليكون ،
ذكراً حسناً لهم ، وموعظة يتعظون بما اشتمل عليه من آداب وأحكام .قال
الآلوسى : " قوله - سبحانه - : ( وَلَقَدْ آتَيْنَا موسى وَهَارُونَ
- الفرقان وَضِيَآءً وَذِكْراً . . . ) .نوع تفصيلى لما أجمل فى قوله
تعالى - قبل ذلك : ( وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نوحي
إِلَيْهِمْ ) وتصديره بالتوكيد القسمى لإظهار كمال الاعتناء بمضمونه
والمراد بالفرقان : التوراة ، وكذا بالضياء والذكر . والعطف كما فى قوله.
إلى الملك القرم وابن الهمام ... وليث الكتيبة فى المزدحموقيل : الفرقان:
: هنا : النصر على الأعداء . . . والضياء التوراة أو الشريعة . وعن الضحاك

أن الفرقان فرق البحر . . .وخص المتقين بالذكر ، لأنهم هم الذين انتفعوا بما اشتمل عليه هذا الكتاب من هدايات .

الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون

. كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( الذين يَخْشَوْنَ رَبّهُمْ بالغيب صفة مدح للمتقين .أى : آتينا موسى وهارون الكتاب الجامع لصفات الخير ( . ليكون هداية للمتقين ، الذين من صفاتهم أنهم يخافون ربهم وهو غير مرئى لهم ويخشون عذابه فى السر والعلانية ( وَهُمْ مِّنَ الساعة مُشْفِقُونَ ) أى ، وهم من الساعة وما يقع فيها من حساب دقيق خائفون وجلون وليسوا كأولئك : الكافرين الجاحدين الذين يستعجلون حدوثها .وخصت الساعة بالذكر مع أنها ، داخلة فى الإيمان بالغيب ، للعناية بشأنها حيث إنها من أعظم المخلوقات . وللردّ على من أنكرها واستعجل قيامها

وهذا ذكر مبارك انزلناه افانتم له منكرون

كما فسرها الوسيط واسم الإشارة في قوله : ( وهذا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ ) للقرآن الكريم ، أى : وهذا القرآن الذى أنزلناه على عبدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - هو ذكر وشرف لكم ، وهو كذلك كثير الخيرات والبركات لمن اتبع توجيهاته .والاستفهام في قوله : ( أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ) للتوبيخ والإنكار ، والخطاب للمشركين .أى : كيف تنكرون كونه ، من عند الله مع أنكم بمقتضى فصاحتكم تدركون من بلاغته ، مالا يدركه غيركم ومع أنكم تعترفون بنزول التوراة على موسى وهارون .إن إنكاركم لكون القرآن : من عند الله ، لهو دليل واضح على جحودكم للحق بعد أن تبين لكم .قال الجمل وتقديم الجار والمجرور على المتعلق ، دل على التخصيص ، أى : أفأنتم للقرآن خاصة دون كتاب اليهود تنكرون؟ فإنهم كانوا يراجعون اليهود فيما عنّ لهم من المشكلات .

ولقد اتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين

- كما فسرها الوسيط ثم تسوق السورة بعد ذلك بشىء من التفصيل قصة إبراهيم : عليه السلام - مع قومه ، وما دار بينه وبينهم من محاورات ومحاولات فتقول قصة إبراهيم - عليه السلام - مع. ( . . . وَلَقَدْ آتَيْنَآ إِبْرَاهِيمَ ) قومه ، قد وردت فى سور متعددة منها : سورة البقرة ، والعنكبوت ، والصافات وهنا تحدثنا سورة الأنبياء عن جانب من قوة إيمانه - عليه السلام - ومن. سلامة حجته ومن تصميمه على تنفيذ ما يرضى الله - تعالى - بالقول والعمل - والمراد بالرشد : الهداية إلى الحق والبعد عن إرتكاب ما نهى الله. تعالى - عنه .والمراد بقوله - تعالى - ( مِن قَبْلُ ) أى : من قبل أن يكون - نبيا .والمعنى : ولقد آتينا - بفضلنا وإحساننا - إبراهيم - عليه السلام الرشد إلى الحق ، والهداية إلى الطريق المستقيم ، " من قبل " أى : من قبل النبوة بأن جنبناه ما كان عليه قومه من كفر وضلال .وقد أكتفى الإمام ابن - كثير بهذا المعنى فى قوله - تعالى - ( مِن قَبْلُ ) فقال : يخبر - تعالى عن خليله إبراهيم - عليه السلام - ، أنه آتاه رشده من قبل .أى : من صغره ألهمه الحق والحجة على قومه ، كما قال - تعالى - : ( وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ آتَيْنَاهَآ إِبْرَاهِيمَ على قَوْمِهِ . . . ) ومن المفسرين من يرى أن المقصود بقوله - تعالى - ( مِن قَبْلُ ) أى : من قبل موسى وهارون ، فقد كان الحديث عنهما قبل ذلك بقليل فى قوله - تعالى - : ( وَلَقَدْ آتَيْنَا موسى وَهَارُونَ الفرقان وَضِيَآءً وَذِكْراً لِّلْمُتَّقِينَ . . . ) فيكون المعنى : ولقد آتينا إبراهيم رشده وهداه ، ووفقنا للنظر والاستدلال على الحق ، من قبل موسى وهارون ، لأنه يسبقهما فى الزمان .وقد رجح هذا المعنى الإمام الآلوسى فقال : " ولقد آتينا إبراهيم رشده " .أى : الرشد اللائق به وبأمثاله من الرسل الكبار ، وهو الرشد الكامل ، أعنى : الاهتداء إلى وجوه الصلاح فى الدين والدنيا . . . " من قبل " أى : من قبل موسى وهارون ، وقيل من قبل البلوغ . . . والأول مروى عن ابن عباس وابن عمر ، وهو الوجه : - الأوفق لفظا ومعنى ، أما لفظا فللقرب ، وأما معنى فلأن ذكر الأنبياء عليهم السلام - للتأسى ، وكان القياس أن يذكر نوح ثم إبراهيم ثم موسى ، لكن روعى فى ذلك ترشيخ التسلى والتأسى ، فقد ذكر موسى ، لأن حاله وما قاساه من قومه . . . أشبه بحال نبينا - صلى الله عليه وسلم - .ويبدو لنا أن الآية الكريمة تتسع للمعنيين . أى : أن الله - تعالى - قد أعطى إبراهيم رشده ، من ) : قبل النبوة ، ومن قبل موسى وهارون لسبقه لهما فى الزمان .وقوله وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ) بيان لكمال علم الله - تعالى - أى : وكنا به وبأحواله وبسائر شئونه عالمين ، بحيث لا يخفى علينا شىء من أحواله أو من أحوال غيره .

اذ قال لابيه وقومه ما هذه التماثيل التي انتم لها عاكفون

كما فسرها الوسيط وقوله : ( إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هذه التماثيل التي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ) بيان لما جاءَ بِه إبراهيم أباه وقومه من قول سديد يدل على شجاعته ورشده .أى : وكنا به عالمين . وقت أن قال لأبيه وقومه على سبيل الإرشاد والتنبيه : ما هذه التماثيل الباطلة التى أقبلتم عليها ، وصرتم ملازمين لعبادتها بدون انقطاع .وسؤاله - عليه السلام - لهم بما التى هى لبيان الحقيقة ، من باب تجاهل العارف ، لأنه يعلم أن هذه الأصنام مصنوعة من الأحجار أو ما يشبهها ، وإنما أراد بسؤاله تنبيههم إلى فساد فعلهم . حيث عبدوا ما يصنعونه بأيديهم .وعبر عن الأصنام بالتماثيل ، زيادة فى التحقير من أمرها ، والتوهين من شأنها ، فإن التماثيل هو الشىء المصنوع من الاحجار أو الحديد أو نحو ذلك ، على هيئة مخلوق من مخلوقات الله - تعالى - كالإنسان والحيوان ، يقال : مثلت الشىء بالشىء إذا شبهته به .فهو - عليه السلام - سماها باسمها الحقيقى الذى تستحقه ، دون أن يجاريهم فى تسميتها آلهة .وقوله : ( عَاكِفُونَ ) من العكوف بمعنى المداومة والملازمة . يقال : عكف فلان على الشىء إذا لازمه وواظب عليه ، ومنه الاعتكاف لأنه حبس النفس عن التصرفات العادية .وفى التعبير عن عبادتهم لها بالعكوف عليها ، تفظيع لفعلهم وتنفير لهم منه ، حيث انكبوا على تعظيم من لا يستحق التعظيم ، وتعلقوا بعبادة تماثيل هم صنعوها بأيديهم .

قالوا وجدنا اباءنا لها عابدين

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( قَالُواْ وَجَدْنَآ آبَآءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ) حكاية لما قالوه فى ردهم على إبراهيم - عليه السلام - وهو رد يدل على تحجر عقولهم ، وانطماس بصائرهم حيث قلدوا فعل آبائهم بدون تدبر أو تفكر .أى : قالوا فى جوابهم على إبراهيم - عليه السلام - وجدنا آباءنا يعبدون هذه التماثيل فسرنا على طريقتهم .

قال لقد كنتم انتم واباؤكم في ضلال مبين

كما فسرها الوسيط وهنا يرد عليهم إبراهيم بقوله : ( لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَآؤُكُمْ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ) .أى : لقد كنتم أنتم وآباؤكم الذين وجدتموهم يعبدون هذه الأصنام ، فى ضلال عجيب لا يقادر قدره ، وفى فساد ظاهر واضح لا يخفى أمره على عاقل ، لأن كل عاقل يعلم أن هذه الأصنام لا تستحق العبادة أو التقديس أو العكوف عليها ، والباطل لا يصير حقا بفعل الآباء له .

قالوا اجئتنا بالحق ام انت من اللاعبين

كما فسرها الوسيط وعندما واجههم إبراهيم - عليه السلام - بهذا الحكم البين الصريح ، قالوا له : ( أَجِئْتَنَا بالحق أَمْ أَنتَ مِنَ اللاعبين ) .أى : أجئتنا يا إبراهيم بالحق الذى يجب علينا اتباعه ، أم أنت من اللاعبين اللاهين الذين يقولون ما يقولون بقصد الهزل والملاعبة .وسؤالهم هذا يدل على تزعزع عقيدتهم . وشكهم فيما هم عليه من باطل ، إلا أن التقليد لآبائهم جعلهم يعطلون عقولهم " ويستحبون العمى على الهدى " .ويجوز أن يكون سؤالهم هذا من باب الإنكار عليه . واستبعاد أن يكون آباؤهم على باطل ، وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : " بقوا متعجبين من تضليله إياهم ، وحسبوا أن ما قاله ، إنما قاله على وجه المزاح والمداعبة ، لا على طريق الجد فقالوا له : هذا الذى جئتنا به ، أهو جد وحق أم لعب وهزل .

قال بل ربكم رب السماوات والارض الذي فطرهن وانا على ذلكم من الشاهدين

كما فسرها الوسيط وقد رد عليهم إبراهيم - عليه السلام - ردا حاسما يدل على قوة يقينه فقال : " بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن . . " .أى : قال لهم إبراهيم بلغة الواثق بأنه على الحق : أنا لست هازلا فيما أقوله لكم ، وإنما أنا جاد كل الجد فى إخباركم أن الله - تعالى - وحده هو ربكم ورب آبائكم ، ورب السموات والأرض ، فهو الذى خلقهن وأنشأهن بما فيهن من مخلوقات بقدرته التى لا يعجزها شىء .وقوله : ( وَأَنَا على ذلكم مِّنَ الشاهدين ) تذييل المقصود به تأكيد ما أخبرهم به ، وما دعاهم غليه . أى : وأنا على أن الله - تعالى - هو ربكم ورب كل شىء من الشاهدين ، الذين يثقون فى صدق ما يقولون ثقة الشاهد على شىء لا يشك فى صحته .

وتالله لاكيدن اصنامكم بعد ان تولوا مدبرين

، كما فسرها الوسيط ثم أضاف إلى هذا التأكيد القولى ، تأكيداً آخر فعليا
فقال لهم : ( وتالله لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ
مُدْبِرِينَ ) .أى : وحق الله الذى فطركم وفطر كل شىء ، لأجتهدن فى تحطيم
: أصنامكم ، بعد أن تنصرفوا بعيدا عنها . وتولوها أدباركم .وأصل الكيد
الاحتيال فى إيجاد ما يضر مع إظهار خلافه . وقد عبر به إبراهيم عن تكسير
. الأصنام وتحطيمها ، لأن ذلك يحتاج إلى احتيال وحسن تدبير

فجعلهم جذاذا الا كبيرا لهم لعلهم اليه يرجعون

كما فسرها الوسيط وقد نفذ إبراهيم ما توعد به الأصنام ، فقد انتهز فرصة
ذهاب قومه بعيدا عنها فحطمها ، قال تعالى - ( فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلاَّ
" : كَبِيراً لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ) .والفاء فى قوله
فجعلهم " فصيحة . والجذاذ القطع الصغيرة جمع جذاذ من الجذ بمعنى القطع
والكسر .أى : فولوا مدبرين عن الأصنام فجعلها بفأسه قطعا صغيرة ، بأن حطمها
عن آخرها - سوى الصنم الأكبر لم يحطمه بل تركه من غير تكسير . لعلهم إليه
يرجعون فيسألونه كيف وقعت هذه الواقعة وهو حاضر ، ولم يستطع الدفاع عن
إخوته الصغار؟!!ولعل إبراهيم - عليه السلام - قد فعل ذلك ليقيم لهم أوضح
الأدلة على أن هذه الأصنام لا تصلح أن تكون آلهة ، لأنها لم تستطع الدفاع
عن نفسها ، وليحملهم على التكفير فى أن الذى يجب أن يكون معبوداً ، إنما هو
: الله الخالق لكل شىء ، والقادر على كل شىء .قال الآلوسى ما ملخصه : وقوله
، لبيان وجه الكسر واستبقاء الكبير ( لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ )
، وضمير " إليه " عائد إلى إبراهيم ، أى : لعلهم يرجعون إلى إبراهيم
فيحاجهم ويبكتهم .وعن الكلبى : أن الضمير للكبير ، أى : لعلهم يرجعون إلى
الكبير ، كما يرجع إلى العالم فى حل المشكلات فيقولون له : ما لهؤلاء
مكسورة ، وما لك صحيحا ، والفأس فى عنقك أو فى يدك؟ وحينئذ يتبين لهم أنه
. . . عاجز لا ينفع ولا يضر ، ويظهر أنهم فى عبادته على جهل عظيم

قالوا من فعل هذا بالهتنا انه لمن الظالمين

، كما فسرها الوسيط وعاد القوم إلى أصنامهم بعد تركهم إياها لفترة من الوقت
، فوجدوها قد تحطمت إلا ذلك الكبير ، فأصابهم ما أصابهم من الذهول والعجب
ويصور القرآن الكريم ذلك فيقول : ( قَالُواْ مَن فَعَلَ . . . ) .أى : وحين
رجع القوم من عيدهم ورأوا ما حل بأصنامهم " قالوا " على سبيل التفجع
" والإنكار : " من فعل هذا " الفعل الشنيع " بآلهتنا " التى نعظمها " إنه
أى هذا الفاعل " لمن الظالمين " لهذه الآلهة . لإقدامه على إهانتها وهى
الجديرة بالتعظيم - فى زعمهم - ، ولمن الظالمين لنفسه حيث سيعرضها للعقوبة
. منا

قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم

كما فسرها الوسيط ( قَالُواْ ) أى : بعضهم وهم الذين سمعوا من إبراهيم قوله
وتا الله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين " . (سَمِعْنَا فَتًى " :
يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ) والمراد بالذكر هنا : الذكر
بالسوء والذم .أى : سمعنا فتى يذكرهم بالنقص والذم والتهديد بالكيد ، وهذا
. الفتى يقال له إبراهيم ، ولعله هو الذى فعل بهم ما فعل

قالوا فاتوا به على اعين الناس لعلهم يشهدون

) : كما فسرها الوسيط وهنا تشاوروا فيما بينهم وقالوا . إذا كان الأمر كذلك
فَأْتُواْ بِهِ ) وأحضروه ( على أَعْيُنِ النَّاسِ ) أى : أمام أعينهم
. ليتمكنوا من رؤيته على أتم وجه ( لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ) مساءلتنا له
ومواجهتنا إياه بالعقوبة التى يستحقها على فعله هذا ، أو يشهدون عليه بأنه
هو الذى حطم الأصنام .قال ابن كثير : وكان هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم
أن يتبين فى هذا المحفل العظيم ، كثرة جهلهم ، وقلة عقلهم ، فى عبادة هذه ،
. " . . الأصنام ، التى لا تدفع عن نفسها ضرا ، ولا تملك لها نصرا

قالوا اانت فعلت هذا بالهتنا يا ابراهيم

كما فسرها الوسيط وجاءوا بإبراهيم - عليه السلام - وقالوا له على سبيل
الاستنكار والتهديد : " أأنت فعلت هذا " التكسير والتحطيم " بآلهتنا " التى
نعبدها " يا إبراهيم "؟

قال بل فعله كبيرهم هذا فاسالوهم ان كانوا ينطقون

، كما فسرها الوسيط وهنا يرد عليهم إبراهيم - عليه السلام - بتهكم ظاهر واستهزاء واضح فيقول : ( بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا ) يعنى الذى تركه بدون تحطيم ، فإن كنتم لم تصدقوا قولى ( فَاسْأَلُوهُمْ ) عمن فعل بهم ذلك أى : إن كانوا ممن يتمكن من النطق أجابوكم ( إِن كَانُواْ يِنْطِقُونَ ) وأخبروكم عمن فعل بهم ما فعل .فأنت ترى أن إبراهيم - عليه السلام - لم يقصد بقوله هذا الإخبار بأن كبير الأصنام هو الذى حطمها ، أو سؤالهم للأصنام عمن حطمها ، وإنما الذى يقصده هو الاستهزاء بهم ، والسخرية بأفكارهم ، فكأنه يقول لهم : إن هذه التماثيل التى تعبدونها من دون الله .لا تدرى إن كنت أنا الذى حطمتها أم هذا الصنم الكبير ، وأنتم تعرفون أنى قد بقيت قريبا منها بعد أن وليتم عنها مدبرين ، وإذا كان الأمر كذلك فانظروا من الذى حطمها إن كانت لكم عقول تعقل؟قال صاحب الكشاف : هذا - أى قول إبراهيم لهم : بل فعله كبيرهم هذا - من معاريض الكلام ، ولطائف هذا النوع لا يتغلغل فيها إلا أذهان الخاصة من علماء المعانى .والقول فيه أن قصد إبراهيم - عليه السلام - لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم ، وإنما قصد تقريره لنفسه ، وإثباته لها على أسلوب تعريضى ، يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيتهم .وهذا كما لو قال لك صاحبك ، وقد كتبت كتابا بخط رشيق - وأنت شهير بحسن الخط - : أأنت كتبت هذا؟ وصاحبك أمى لا يحسن الخط ، ولا يقدر إلى على خربشة فاسدة - أى كتابة رديئة - فقلت له : بل كتبته أنت ، كان قصدك بهذا الجواب ، تقرير أن هذه الكتابة لك . مع الاستهزاء به . . .وهذا التفسير للآية الكريمة من أن إبراهيم - عليه السلام - قد قال لقومه ما قال من سبيل الاستهزاء بهم ، هو الذى تطمئن إليه قلوبنا ، وقد تركنا أقوالا أخرى للمفسرين فى معنى الآية ، نظرا لضعف هذه الأقوال بالنسبة لهذا القول .

فرجعوا الى انفسهم فقالوا انكم انتم الظالمون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( فرجعوا إلى أَنفُسِهِمْ فقالوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظالمون ) بيان للأثر الذى أحدثه رد إبراهيم - عليه السلام- .أى : أنهم بعد أن قال لهم إبراهيم ( بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُواْ يِنْطِقُونَ ) ، أخذوا فى التفكر والتدبر فرجعوا إلى أنفسهم باللوم ، وقال بعضهم لبعض إنكم أنتم الظالمون ، حيث ، عبدتم مالا يستطيع الدفاع عن نفسه أو حيث تركتم آلهتكم بدون حراسة .

ثم نكسوا على رءوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون

كما فسرها الوسيط ولكن هذا الأثر ، وهذا اللوم لأنفسهم ، لم يلبث إلا قليلا حتى تبدد ، بسبب استيلاء العناد والجحود عليهم ، فقد صور القرآن حالهم بعد ذلك فقال :( ثُمَّ نُكِسُواْ على رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هؤلاء يَنطِقُونَ ) .وقوله : ( نُكِسُواْ ) فعل مبنى للمجهول من النكس ، وهو قلب الشىء من حال إلى حال ، وأصله : قلب الشىء بحيث يصير أعلاه أسفله .أى : ثم انقلبوا من لومه لأنفسهم لعبادتهم لما لا يقدر على دفع الأذى عنه ، إلى التصميم على كفرهم وضلالهم ، فقالوا لإبراهيم على سبيل التهديد : لقد علمت أن هذه الأصنام لا تنطق ، فكيف تأمرنا بسؤالها؟ إن أمرك هذا لنا لهو دليل على أنك تسخر بعقولنا ، ونحن لن نقبل ذلك ، وسننزل بك العقاب الذى تستحقه وقد شبه القرآن الكريم عودتهم إلى باطلهم وعنادهم ، بعد رجوعهم إلى أنفسهم. ، باللوم ، شبه ذلك بالانتكاس ، لأنهم بمجرد أى خطرت لهم الفكرة السليمة أطفأوها بالتصميم على الكفر والضلال ، فكان مثلهم كمثل من انتكس على رأسه بعد أن كان ماشيا على قدميه ، فياله من تصوير بديع لحالة من يعود إلى الظلام ، بعد أن يتبين له النور .والجملة الكريمة ( لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هؤلاء يَنطِقُونَ ) جواب لقسم محذوف ، معمول لقول محذوف ، والتقدير : ثم نكسوا على رءوسهم قائلين : والله لقد علمت ما هؤلاء ينطقون .

قال افتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم

كما فسرها الوسيط ولم يملك إبراهيم إزاء انتكاسهم على رءوسهم ، إلا أن يوبخهم بعنف وضيق ، - وهو الحليم الأواه المنيب - وقد قابلوا تأنيبه لهم - بتوعده بالعذاب الشديد ، ولكن الله - تعالى - نجاه من مكرهم ، قال تعالى - : ( قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ . . . ) .أى : قال إبراهيم لقومه بعد أن ضاق بهم ذرعا : أتتركون عبادة الله الذى خلقكم ، وتعبدون غيره أصناما لا تنفعكم بشىء من النفع ، ولا تضركم بشىء من الضر .

اف لكم ولما تعبدون من دون الله افلا تعقلون

) : كما فسرها الوسيط ثم يضيف إلى هذا التبكيت لهم ، الضجر منهم ، فيقول ( أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله أَفَلاَ تَعْقِلُونَ

و " أف " اسم فعل مضارع بمعنى أتضجر . وأصله صوت المتضجر من استقذار الشىء .
، واللام فى قوله ( لَّكُمْ ) لبيان المتضجر لأجله .أى : سحقا وقبحا لكم .
ولما تعبدونه من أصنام متجاوزين بها عبادة الله - تعالى - عن جهل وسخف
وطغيان .( أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ) ما أنتم فيه من ضلال واضح ، فترجعون عنه
. إلى عبادة الواحد القهار

قالوا حرقوه وانصروا الهتكم ان كنتم فاعلين

كما فسرها الوسيط وعندما وصل إبراهيم فى توبيخهم وتبكيتهم إلى هذا الحد
أخذتهم العزة بالإثم ، شأنهم فى ذلك شأن كل طاغية جهول ، يلجأ إلى القوة
الغاشمة بعد أن تبطل حجته ، فقالوا فيما بينهم : ( حَرِّقُوهُ وانصروا
آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ) .أى : قال بعضهم لبعض بعد أن عجزوا
: عن مقارعة الحجة بالحجة ، وبعد أن رأوا إبراهيم قد أفحمهم بمنطقة الحكيم
أى : بالنار ، فإنها أشد العقوبات .قيل : إن الذى اقترح ( حَرِّقُوهُ )
: عليهم ذلك هو رئيسهم : نمروذ بن كنعان . وقيل : هو رجل من الفرس اسمه
: هينون .وقوله : ( وانصروا آلِهَتَكُمْ ) بيان لسبب تحريقه بالنار .أى
حرقوه بالنار من أجل الانتصار لآلهتكم التى حطمها فى غيبتكم ( إِن كُنتُمْ
، فَاعِلِينَ ) .أى : إن كنتم بحق تريدون أن تنصروا آلهتكم نصرا يرضيها
، فاحرقوه بالنار .قال صاحب الكشاف : أجمعوا رأيهم - لما غلبوا - بإهلاكه
وهكذا المبطل إذا قرعت شبهته بالحجة وافتضح . لم يكن أحد أبغض إليه من
- المحق ولم يبق له مفزع إلا مناصبته العداء ، كما فعلت قريش برسول الله
، صلى الله عليه وسلم - حين عجزوا عن المعارضة .والذى أشار بإحراقه : نمروذ
وعن ابن عمر : رجل من أعراب العجم . واختاروا المعاقبة بالنار لأنها أهول
. " ما يعاقب به وأفظعه ، ولذلك جاء : "لا يعذب بالنار إلا خالقها

قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على ابراهيم

كما فسرها الوسيط وقوله تعالى : ( قُلْنَا يانار كُونِي بَرْداً وسلاما على
: إِبْرَاهِيمَ . . ) مسبوق بكلام محذوف يفهم من سياق القصة .والتقدير
، وأحضر قوم إبراهيم الحطب ، وأضرموا نيرانا عظيمة ، وألقوا بإبراهيم فيها
فلما فعلوا ذلك ، قلنا : يا نار كونى - بقدرتنا وأمرنا - ذات برد ، وذات
سلام على إبراهيم ، فكانت كما أمرها الله - تعالى - ، وصدق - سبحانه - إذ
يقول : ( بَدِيعُ السماوات والأرض وَإِذَا قضى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ
لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ) وتحولت النار إلى برد وسلام على إبراهيم ، وأراد
" الكافرون به كيدا ، أى إحراقا بالنار " فجعلناهم " بإرادتنا وقدرتنا
. الأخسرين " حيث لم يصلوا إلى ما يريدون ، ولم يحققوا النصر لآلهتهم

وارادوا به كيدا فجعلناهم الاخسرين

) - كما فسرها الوسيط بل رد الله - تعالى - كيدهم فى نحورهم .وقال - سبحانه
فَجَعَلْنَاهُمُ الأخسرين ) بالإطلاق لتشمل خسارتهم كل خسارة سواء أكانت
: دنيوية أم أخروية .وقد ذكر المفسرون عند تفسيرهم لهذه الآيات آثارا منها
أن إبراهيم - عليه السلام - حين جىء به إلى النار ، قالت الملائكة : يا
ربنا ما فى الأرض أحد يعبدك سوى إبراهيم ، وأنه الآين يحرف فأذن لنا فى
نصرته!!فقال - سبحانه - : إن استغاث بأحد منكم فلينصره ، وإن لم يدع غيرى
فأنا أعلم به ، وأنا وليه ، فخلوا بينى وبينه ، فهو خليلى ليس لى خليل غيره
فأتى جبريل - عليه السلام - إلى إبراهيم ، فقال له : ألك حاجة؟ فقال.
إبراهيم : أما إليك فلا ، وأما إلى الله فنعم!!فقال له جبريل : فلم لا
. تسأله؟ فقال إبراهيم - عليه السلام - : حسبى من سؤالى علمه بحالى

ونجيناه ولوطا الى الارض التي باركنا فيها للعالمين

: كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - نعما أخرى أنعم بها على إبراهيم فقال
وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الأرض التي بَارَكْنَا فِيهَا )
لِلْعَالَمِينَ ) .والضمير فى قوله : ( وَنَجَّيْنَاهُ ) يعود إلى إبراهيم
و " لوطا " هو ابن أخيه ، وقيل : ابن عمه .والمراد بالأرض التى باركنا .
فيها : أرض الشام على الصحيح وعدَّى ( نَجَّيْنَاهُ ) بإلى ، لتضمينه معنى
أخرجناه .أى : وأخرجناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها ، بأن جعلناها
مهبطا للوحى ، ومبعثا للرسل لمدة طويلة ، وبأن جعلناها كذلك عامرة بالخيرات
وبالأموال وبالثمرات للأجيال المتعاقبة .والآية الكريمة تشير إلى هجرة
، إبراهيم ومعه لوط - عليهما السلام - من أرض العراق التى كانا يقيما فيها
إلى أرض الشام ، فرارا بدينهما ، بعد أن أراد قوم إبراهيم أن يحرقوه بالنار
- فأبطل الله - تعالى - كيدهم ومكرهم ، ونجاه من شرهم .وقد أشار - سبحانه ،
إلى ذلك فى آيات أخرى منها قوله - تعالى - : ( فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ

إِنِّي مُهَاجِرٌ إلى ربي إِنَّهُ هُوَ العزيز الحكيم ( . . . ).

ووهبنا له اسحاق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - ( وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً . . . ) بيان لنعمة أخرى من النعم التى أنعم الله - سبحانه - بها على إبراهيم .والنافلة : الزيادة على الأصل . ولذا سميت صلاة السنن نافلة ، لأنها زيادة على الصلوات المفروضة . وإسحاق هو ابن إبراهيم . ويعقوب هو ابن إسحاق .فلفظ " نافلة " حال من يعقوب أى : ووهبنا لإبراهيم يعقوب حال كونه زيادة على إسحاق . ( وَكُلاًّ ) من المذكورين وهم إبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب .( جَعَلْنَا صَالِحِينَ ) أى : جعلناهم أفراداً صالحين لأن وفقناهم لما نحبه ونرضاه ، وشرفناهم بالنبوة والرسالة .

وجعلناهم ائمة يهدون بامرنا واوحينا اليهم فعل الخيرات واقام الصلاة وايتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين

كما فسرها الوسيط ( وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ) أى وجعلنا هؤلاء المذكورين ، أئمة فى الخير ، يهدون ويرشدون غيرهم إلى الدين : الحق بسبب أمرنا لهم بذلك ، وتكليفهم بتبليغ وحينا إلى الناس .قال صاحب الكشاف : قوله - سبحانه - : ( يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ) فيه أن من صلح ليكون قدوة فى دين الله ، فالهداية محتومة عليه ، مأمور بها من جهة الله ليس له أن يخل بها ، ويتثاقل عنها ، وأول ذلك أن يهتدى بنفسه ، لأن الانتفاع بهداه أعم ، والنفوس إلى الاقتداء بالمهدى أميل " .وقوله : ( وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ الخيرات ) أى : وأوحينا إليهم أن يفعلوا الطاعات ، وأن يأمروا الناس بفعلها ، وأوحينا إليهم كذلك ( وَإِقَامَ الصلاة وَإِيتَآءَ الزكاة ) أى : أن يقيموا الصلاة وأن يؤدوا الزكاة وأن يأمروا غيرهم بذلك وعطف إقام الصلاة وإيتاء الزكاة على فعل الخيرات من باب عطف الخاص على العام . للاهتمام به إذ الصلاة أفضل العبادات البدنية والزكاة أفضل العبادات المالية ( وَكَانُواْ لَنَا عَابِدِينَ )لا لغيرنا ، فهم لم يخطر ببالهم عبادة أحد سوانا ، لأنهم من المصطفين الأخيار .هذا ، والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة التى وردت فى قصة إبراهيم مع قومه . يراها قد حكت لنا غيرة إبراهيم - عليه السلام - على دين الله - تعالى - وقوة حجته فى الدفاع عن الحق ، ومجاهدته بما يعتقده بدون خوف من قومه ، وجمعه فى دعوته بين القول والعمل .كما يراها قد بينت لنا أن من يدافع عن دين الله - تعالى - يدافع الله - سبحانه - عنه ، وينصره على أعدائه ، ويرد كيدهم فى نحورهم كما يراها - أيضا - قد أشارت إلى أن من هاجر من أرض إلى أخرى من أجل إعلاء كلمة الله - تعالى - رزقه الله نظير ذلك الخير والبركة ، والذرية الصالحة التى تهدى غيرها إلى الطريق المستقيم .

ولوطا اتيناه حكما وعلما ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث انهم كانوا قوم سوء فاسقين

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - جانبا من قصة لوط - عليه السلام - مع قومه فقال - تعالى - : ( وَلُوطاً آتَيْنَاهُ . . . ) .قوله - تعالى - : - ( وَلُوطاً ) منصوب بفعل مضمر يفسره المذكور بعده وهو ( آتَيْنَاهُ ) .أى : وآتينا لوطا - عليه السلام - ( حُكْماً ) أى : نبوة ، أو حكمة تهديه إلى ما يجب فعله أو تركه و " علما " أى : علما كثيراً لما ينبغى علمه وفهمه ). وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ القرية التي كَانَت تَّعْمَلُ الخبائث ) والمراد بالقرية : قرية سدوم التى أرسل الله - تعالى - لوطا لأهلها .والأعمال الخبيثة التى كانوا يعملونها على رأسها الإشراك بالله - تعالى - وفاحشة اللواط التى اشتهروا بها دون أن يسبقهم إليها أحد ، كما قال - تعالى - : - ( وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الفاحشة مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ العالمين أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرجال وَتَقْطَعُونَ السبيل وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ المنكر فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ ائتنا بِعَذَابِ الله إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ) أى : ونجينا لوطا بفضلنا ورحمتنا من العذاب الذى حل بأهل قريته الذين كانوا يعملون الأعمال الخبائث ، كالشرك بالله - تعالى - واللواط ، وقطعهم الطريق ، وارتكابهم المنكر فى مجالسهم .وقوله - تعالى - : - ( إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ) تعليل لنجاة لوط - عليه السلام - مما حل بهم .أى : جعلنا هذه القرية عاليها سافلها ، ونجينا لوطا ومن آمن معه من العذاب الذى حل بسكانها ( إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ) أى : أصحاب عمل سىء ( خارجين عن طاعتنا ) .

وادخلناه في رحمتنا انه من الصالحين

: كما فسرها الوسيط ( وَأَدْخَلْنَاهُ ) أى : لوطا ( فِي رَحْمَتِنَآ ) أى
فى أهل رحمتنا فى الدنيا والآخرة ( إِنّهُ مِنَ الصالحين ) الذين سبقت لهم
. منا الحسنى

ونوحا اذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه واهله من الكرب العظيم

- كما فسرها الوسيط ثم ذكرت السورة الكريمة جانبا من قصة نوح مع قومه . قال
تعالى - : ( وَنُوحاً إِذْ . . . ) .أى : واذكر - أيضا - أيها المخاطب
عبدنا " نوحا " - عليه السلام - ( إِذْ نادى مِن قَبْلُ ) أى : حين نادانا
واستجار بنا من قبل زمان إبراهيم ومن جاء بعده من الأنبياء .وهذا النداء
) : - الذى نادى به نوح ربه ، قد جاء ذكره فى آيات منها قوله - تعالى
وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ المجيبون وَنَجّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ
مِنَ الكرب العظيم ) وقوله - سبحانه - : ( وَقَالَ نُوحٌ رّبِّ لاَ تَذَرْ
عَلَى الأرض مِنَ الكافرين دَيّاراً ) ( فاستجبنا لَهُ ) أى : أجبنا له
دعاءه ، ولم نخيب له رجاء فينا .( فَنَجّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ ) الذين آمنوا
به وصدقوه ( مِنَ الكرب العظيم ) أى : من الطوفان العظيم الذى أغرق
: الكافرين ، والذى كانت أمواجه كالجبال .وأصل الكرب : الغم الشديد . يقال
فلان كربه هذا الأمر ، إذا ضايقه وجعله فى أقصى درجات الهم والخوف .قال
الآلوسى : " وكأنه على ما قيل من كرب الأرض ، وهو قلبها بالحفر . إذ الغم
يثير النفس إثارة ذلك ، أو من كربت الشمس إذا دنت للمغيب ، فإن الغم الشديد
. " تكاد شمس الروح تغرب منه . . . وفى وصفه بالعظيم تأكيد لشدته ،

ونصرناه من القوم الذين كذبوا باياتنا انهم كانوا قوم سوء فاغرقناهم اجمعين

كما فسرها الوسيط ( وَنَصَرْنَاهُ ) بفضلنا وإحساننا ( مِنَ القوم الذين
كَذّبُواْ بِآيَاتِنَا ) الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا . وعلى أن نوحا
رسولا من رسلنا .والمراد بهؤلاء القوم : قومه الذين لبث نوح فيهم ألف سنة
إلا خمسين عاما . يدعوهم إلى إخلاص العبادة لله . فلم يؤمن به إلا قليل
منهم .( إِنّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ ) أى : إنهم كانوا قوما يعملون
أعمال السوء والقبح (فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ) بسبب إصرارهم على
. الكفر والعصيان ، ولم ننج منهم إلا من اتبع نوحا عليه السلام

وداوود وسليمان اذ يحكمان في الحرث اذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم
شاهدين

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك جانبا من قصة نبيين كريمين هما
- داود وسليمان فقال - تعالى - : ( وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ . . . ) .قوله
- سبحانه - : ( وَدَاوُودَ ) منصوب - أيضا - بفعل مقدر ، أو معطوف على قوله
، سبحانه - قبل ذلك : ( وَنُوحاً إِذْ نَادَى ) .وسليمان هو ابن داود
وكلاهما من أنبياء الله - سبحانه - ، وينتهى نسبهما إلى يعقوب - عليه
السلام - وكانت وفاتهما قبل ميلاد المسيح - عليه السلام - بألف سنة تقريبا
: وقد جمع الله - تعالى - لهما بين الملك والنبوة .والحرث : الزرع . قيل ،
كان كرما - أى عنبا - تدلت عناقيده .وقوله : ( نَفَشَتْ ) من النفش وهو
الرعى بالليل خاصة . يقال : نفشت الغنم والإبل ، إذا رعت ليلا بدون راع
وقد ذكر المفسرون عند تفسيرهم لهذه الآيات روايات ملخصها : أن رجلين دخلا
على داود - عليه السلام - أحدهما صاحب زرع ، والآخر صاحب غنم ، فقال صاحب
الزرع لداود : يا نبى الله ، إن غنم هذا قد نفشت فى حرثى فلم تبق منه شيئا
فحكم داود - عليه السلام - لصاحب الزرع أن يأخذ غنم خصمه فى مقابل ،
إتلافها لزرعه .وعند خروجهما التقيا بسليمان - عليه السلام - فأخبراه بحكم
أبيه . فدخل سليمان على أبيه فقال له : يا نبى الله ، إن القضاء غير ما
قضيت ، فقال له : كيف؟ قال : ادفع الغنم إلى صاحب الزرع لينتفع بها ، وادفع
الزرع إلى صاحب الغنم ليقوم عليها حتى يعود كما كان . ثم يعيد كل منهما إلى
صاحبه ما تحت يده ، فيأخذ صاحب الزرع زرعه ، وصاحب الغنم غنمه . . . فقال
داود - عليه السلام - القضاء ما قضيت يا سليمان .والمعنى : اذكر - أيها
) الرسول الكريم - قصة داود وسليمان ، وقت أن كانا يحكمان فى الزرع الذى
نفشت فيه غنم القوم ) أى : تفرقت فيه وانتشرت ليلا دون أن يكون معها راع
فرعته وأفسدته .قال القرطبى : " ولم يرد - سبحانه - بقوله ( إِذْ
يَحْكُمَانِ فِي الحرث ) : الاجتماع فى الحكم وإن جمعهما فى القول ، فإن
حكمين على حكم واحد لا يجوز وإنما حكم كل واحد منهما على انفراده ، وكان
سليمان الفاهم لها بتفيهم الله - تعالى - له .وقوله - تعالى - : ( وَكُنّا
- لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ) جملة معترضة جىء بها لبيان شمول عمل الله
تعالى - وإحاطته بكل شىء .أى : وكنا لما حكم به كل واحد منهما عالمين
) وحاضرين ، بحيث لا يغيب عنا شىء مما قالاه .وضمير الجمع فى قوله

، لِحُكْمِهِمْ ) : لداود وسليمان ، واستدل بذلك من قال إن أقل الجمع اثنان
وقيل : ضمير الجمع يعود عليهما وعلى صاحب الزرع وصاحب الحرث أى : وكنا
. للحكم الواقع بين الجميع شاهدين

ففهمناها سليمان وكلا اتينا حكما وعلما وسخرنا مع داوود الجبال يسبحن
والطير وكنا فاعلين

كما فسرها الوسيط والضمير المنصوب فى قوله - تعالى - : ( فَفَهَّمْنَاهَا
سُلَيْمَانَ ) يعود إلى القضية أو المسألة التى عرضها الخصمان على داود
وسليمان .أى : ففهمنا سليمان الحكم النسب والأوفق فى هذه المسألة أو القضية
وذلك لأن داود - كما يقول العلماء . قد اتجه فى حكمه إلى مجرد التعويض ،
لصاحب الحرث . وهذا عدل فحسب . أما حكم سليمان فقد تضمن مع العدل البناء
والتعمير ، وجعل العدل دافعا إلى البناء والتعمير ، وهذا هو العدل الحى
الإيجابى فى صورته البانية الدافعة ، وهو فتح من الله وإلهام يهبه من يشاء
وقوله - سبحانه - : ( وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً ) ثناء من. "
الله - تعالى - على داود وسليمان - عليهما السلام - والمقصود من هذا الثناء
: دفع ما قد يتبادر إلى بعض الأذهان من أن داود لم يكن مصيبا فى حكمه .أى
وكلا من داود وسليمان قد أعطيناه من عندنا (حُكْماً ) أى : نبوة وإصابة فى
القول والعمل ( وَعِلْماً ) أى : فقها فى الدين ، وفهما سليما للأمور .وقد
توسع بعض المفسرين فى الحديث عن هذا الحكم الذى أصدره داود وسليمان فى قضية
الحرث أكان بوحى من الله إليهما ، أم كان باجتهاد منهما ، وقد رجح بعض
العلماء أنه كان باجتهاد منهما فقال : اعلم أن جماعة من العلماء قالوا : إن
حكم داود وسليمان فى الحرث المذكور فى هذه الآية كان بوحى ، إلا أن ما أوحى
إلى سليمان كان ناسخا لما أوحى إلى داود .وفى الآية قرينتان على أن حكمهما
، كان باجتهاد لا بوحى ، وأن سليمان أصاب فاستحق الثناء باجتهاده وإصابته
وأن داود لم يصب فاستحق الثناء باجتهاده ، ولم يستوجب لوما ولا ذما لعدم
) إصابته .كما أثنى - سبحانه - على سليمان بالإصابة فى قوله
فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ) وأثنى عليهما فى قوله : ( وَكُلاًّ آتَيْنَا
حُكْماً وَعِلْماً ) .فدل قوله ( إِذْ يَحْكُمَانِ ) على أنهما حكما فيها
معا ، كل منهما بحكم مخالف لحكم الآخر ، ولو كان وحيا لما ساغ الخلاف . ثم
، قال : ( فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ) فدل ذلك على أنه لم يفهمها داود
ولو كان حكمه فيها بوحى لكان مفهما إياها كما نرى .فقوله : ( إِذْ
يَحْكُمَانِ ) مع قوله ( فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ) قرينة على أن الحكم
لم يكن بوحى بل باجتهاد ، وأصاب فيه سليمان دون داود بتفهيم الله إياه ذلك
والقرينة الثانية : هى أن قوله - تعالى - ( فَفَهَّمْنَاهَا ) يدل على أنه.
فهمه إياها من نصوص ما كان عندهم من الشرع ، لا أنه - تعالى - أنزل عليه
فيها وحيا جديدا ناسخا ، لأن قوله - تعالى - : ( فَفَهَّمْنَاهَا ) أليق
بالأول من الثانى كما ترى . . .ثم بين - سبحانه - نماذج من النعم التى أنعم
بها على داود - عليه السلام - فقال : ( وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الجبال
يُسَبِّحْنَ والطير وَكُنَّا فَاعِلِينَ ) .والتسخير : التذليل أى : وجعلنا
- الجبال والطير يسبحن الله - تعالى - ويقدسنه مع داود ، امتثالا لأمره
سبحانه - .قال ابن كثير : وذلك لطيب صوته ، بتلاوة كتابه الزبور ، وكان إذا
ترنم به تقف الطير فى الهواء فتجاوبه ، وترد عليه الجبال تأويبا . ولهذا
لما مر النبى - صلى الله عليه وسلم - على أبى موسى الأشعرى ، وهو يتلو
القرآن من الليل ، وكان له صوت طيب ، فوقف واستمع إليه وقال : " لقد أوتى
هذا من مزامير آل داود " .وقال صاحب الكشاف : " فإن قلت : لم قدمت الجبال
على الطير؟ قلت : لأن تسخيرها وتسبيحها أعجب ، وأدل على القدرة ، وأدخل فى
الإعجاز ، لأنها جماد ، والطير حيوان ، إلا أنه غير ناطق ، روى أنه كان يمر
بالجبال مسبحا وهى تجاوبه ، وقيل : كانت تسير معه حيث سار . . .وتسبيح
الجبال والطير مع داود - عليه السلام - هو تسبيح حقيقى ، ولكن بكيفية
يعلمها الله - تعالى - كما قال - سبحانه - ( تُسَبِّحُ لَهُ السماوات السبع
والأرض وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ولكن
- لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ . . . ) وشبيه بالآية التى معنا قوله
تعالى - : ( وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً ياجبال أَوِّبِي
مَعَهُ والطير وَأَلَنَّا لَهُ الحديد ) وقوله - سبحانه - : ( اصبر على مَا
يَقُولُونَ واذكر عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأيد إِنَّهُ أَوَّابٌ إِنَّا
سَخَّرْنَا الجبال مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بالعشي والإشراق والطير مَحْشُورَةً
) : كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ) ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله
وَكُنَّا فَاعِلِينَ ) أى : وكنا فاعلين ذلك لداود من تسخير الجبال والطير
معه يسبحن الله وينزهنه عن كل سوء ، على سبيل التكريم له . والتأييد لنبوته
إذ أن قدرتنا لا يعجزها شىء ، سواء أكان هذا الشىء مألوفا للناس أم غير ،
. مألوف

وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من باسكم فهل انتم شاكرون

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى : ( وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ) بيان لنعمة أخرى من النعم التى أنعم الله بها على داود .واللبوس : كل ما يلبس كاللباس والملبس : والمراد به هنا : الدروع .أى : وبجانب ما منحنا داود من فضائل ، فقد علمناه من لدنا صناعة الدروع بحذق وإتقان ، وهذه الصناعة التى علمناه إياها بمهارة وجودة ( لِتُحْصِنَكُمْ مِّن بَأْسِكُمْ ) .أى : لتجعلكم فى حرز ومأمن من الإصابة بآلة الحرب . وتقى بعضكم من بأس بعض ، لأن الدرع تقى صاحبها من ضربات السيوف ، وطعنات الرماح .يقال : أحصن فلان فلانا ) : إذا جعله فى حرز وفى مكان منيع من العدوان عليه .والاستفهام فى قوله ، فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ) للحض والأمر أى : فاشكروا الله - تعالى - على - هذه النعم ، بأن تستعملوها فى طاعته - سبحانه - .قال القرطبى - رحمه الله وهذه الآية أصل فى اتخاذ الصنائع والأسباب ، وهو قول أهل العقول " : ، والألباب .لا قول الجهلة الأغبياء القائلين بأن ذلك إنما شرع للضعفاء فالسبب سنة الله فى خلقه ، فمن طعن فى ذلك فقط طعن فى الكتاب والسنة ، وقد - أخبر الله - تعالى - عن نبيه داود أنه كان يصنع الدروع ، وكان - أيضا يصنع الخوص ، وكان يأكل من عمل يده ، وكان آدم حراثا ، ونوح نجارا ، ولقمان خياطا ، وطالوت دباغا ، فالصنعة يكف بها الإنسان نفسه عن الناس ، ويدفع بها عن نفسه الضرر والبأس ، وفى الحديث : " إن الله يحب المؤمن المحترف المتعفف ويبغض السائل الملحف ، " .

ولسليمان الريح عاصفة تجري بامره الى الارض التي باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك جانبا من نعمه على سليمان بن داود فقال : ( وَلِسُلَيْمَانَ الريح عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأرض التي بَارَكْنَا فِيهَا ) .وقوله : ( وَلِسُلَيْمَانَ الريح ) معطوف على معمول " سخرنا " فى قوله - تعالى - قبل ذلك : ( وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الجبال يُسَبِّحْنَ ) و " عاصفة " حال من الريح .أى : وسخرنا لسليمان الريح حال كونها عاصفة أى : شديدة الهبوب ، كما سخرنا مع أبيه الجبال يسبحن والطير .يقال : عصفت الريح تعصف إذا اشتدت ، فهى عاصف وعاصفة - وعصوف سميت بذلك لتحطيمها ما تمر عليه فتجعله كالعصف وهو التبن .وقوله : تعالى - : ( تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأرض التي بَارَكْنَا فِيهَا ) أى جعلناها مع قوتها وشدتها تجرى بأمر سليمان وإذنه إلى الأرض التى باركنا فيها وهى أرض الشام . وقيل : يحتمل أن يكون المراد بها ما هو أعم من أرض - الشام .ووصفت الريح هنا بأنها عاصفة ، وفى آية أخرى بأنها رخاء قال تعالى - : ( تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ) لأنها تارة تكون عاصفة ، وتارة تكون لينة رخاء . على حسب ما تقتضيه حكمته - سبحانه - .وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : " فإن قلت : وصفت هذه الرياح بالعصف تارة وبالرخاوة أخرى ، فما التوفيق بينهما؟قلت : كانت فى نفسها رخية طيبة كالنسيم ، فإذا مرت بكرسيه أبعدت به فى مدة يسيرة ، على ما قال : " غدوها شهر ورواحها شهر " فكان جمعها بين الأمرين أن تكون رخاء فى نفسها وعاصفة فى ) : عملها ، مع طاعتها لسليمان على حسب ما يريد " .وقال - سبحانه - هنا تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأرض التي بَارَكْنَا فِيهَا ) أى تجرى بأمره . إلى تلك الأرض فى حال إيابه ورجوعه إليها ، حيث مقر مملكته ومسكنه فالمقصود من الآية الكريمة الإخبار عن جريانها فى حال عودته إلى مملكته أما الآية الأخرى التى تقول : ( فَسَخَّرْنَا لَهُ الريح تَجْرِي. بِأَمْرِهِ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ) أى : حيث أراد لها أن تجرى ، فالمقصود منها الإخبار عن جريها بإذنه فى غير حال عودته إلى مملكته ، وبذلك أمكن الجمع بين الآيتين ، إذ الجهة فيهما منفكة .وقوله - تعالى - : ( وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ) أى : وكنا بكل شىء يجرى فى هذا الكون عالمين علما مطلقا لا كعلم غيرنا من خلقنا .فإنه علم محدود بما نشاؤه ونقدره فالجملة الكريمة بيان لإحاطة علم الله - تعالى - بكل شىء ، والتنبيه بأن. ما أعطاه الله - تعالى - لسليمان ، إنما كان بإرادته - سبحانه - وعلمه .

ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حافظين

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَمِنَ الشياطين مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذلك ) بيان لمنة أخرى من المنن الكثيرة التى امتن بها - سبحانه - على عبده ونبيه سليمان .ويغوصون من الغوص وهو النزول تحت الماء ، ومنه الغواص الذى ينزل تحت الماء لاستخراج الجواهر وغيرها .وقوله : ( مَن يَغُوصُونَ لَهُ ) فى محل نصب عطفا على معمول ) : سَخَّرْنَا ) ، السابق .أى : وسخرنا - أيضا - لسليمان من يغوص له ، أى لأجله ، من الشياطين ، فينزلون تحت مياه البحار ليستخرجوا له منها الجواهر

النفيسة كاللؤلؤ والمرجان .وفى التعبير بقوله : ( لَهُ ) إشعار بأن غوصهم لم يكن لمنفعة أنفسهم أو باختيارهم ، وإنما هم كانوا يغوصون من أجل مصلحة سليمان - عليه السلام - وبأمره .وقوله : ( وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذلك أى : لم تكن مهمتهم الغوص فقط وإنما كان سليمان يسخرهم ويكلفهم بأعمال ( - أخرى كثيرة كبناء المدائن والقصور وصنع التماثيل والمحاريب . . . كما قال تعالى - : ( وَلِسُلَيْمَانَ الريح غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ القطر وَمِنَ الجن مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السعير يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كالجواب وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعملوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشكور ) فاسم الإشارة فى قوله ( وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذلك ) يعود إلى الغوص أى : ويعملون له عملا كثيرا سوى ذلك الغوص .ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ( وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ) أى : وكنا لهؤلاء الشياطين حافظين من أن يخرجوا عن طاعته . أو أن يوجد منهم فساد فيما هم مسخرون له .وتلك نعمة كبرى لسليمان - عليه السلام - حيث جعل - سبحانه - الشياطين لا يستطيعون أن يزيغوا عن أمره .هذا وقد ذكر بعض المفسرين عند تفسيرهم لهذه الآيات قصصا متعددة منها قصة بساط الريح الذى قيل إن سليمان كان يجلس عليه هو وجنده ، فيطير بهم إلى الشام فى وقت قصير ، ومنها صفة حمل الريح له وصفة جنوده من الجن والإنس والطير .وقد رأينا عدم ذكر ذلك هنا ، لأنه لم يرد ما يؤيده من الآثار الصحيحة .

وايوب اذ نادى ربه اني مسني الضر وانت ارحم الراحمين

- كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - جانباً من قصة أيوب - عليه السلام وهى قصة تمثل الابتلاء بالضر فى اشد صوره . قال - تعالى - : ( وَأَيُّوبَ إِذْ نادى . . . ) .قال ابن كثير : " يذكر الله - تعالى - عن أيوب - عليه السلام - ما كان قد أصابه من البلاء فى ماله وولده وجسده ، وذلك أنه كان له من الدواب والأنعام والحرث شىء كثير ، وأولاد كثيرون ، ومنازل مرضية . فابتلى فى ذلك كله ، وذهب عن آخره ، ثم ابتلى فى جسده . . ولم يبقى من الناس أحد يحنو عليه سوى زوجته . . . وقد كان نبى الله أيوب غاية فى الصبر وبه يضرب المثل فى ذلك .وقال الآلوسى : وهو ابن أموص بن رزاح بن عيص بن إسحاق . وحكى ابن عساكر أن أمه بنت لوط ، وأن أباه ممن آمن بإبراهيم فعلى هذا كانت بعثته قبل موسى وهارون . وقيل : بعد شعيب ، وقيل : بعد سليمان . . " والضر - بالفتح - يطلق على كل ضرر - وبالضم - خاص بما يصيب الإنسان فى نفسه من مرض وأذى وما يشبههما .والمعنى : واذكر - أيها الرسول الكريم أو أيها المخاطب - عبدنا أيوب - عليه السلام - وقت أن نادى ربه ، وتضرع إليه بقوله : يا رب أنى أصابنى ما أصابنى من الضر والتعب ، وأنت أجل وأعظم رحمة من كل من يتصف بها .فأنت ترى أن أيوب - عليه السلام - لم يزد فى تضرعه عن وصف حاله ( أَنِّي مَسَّنِيَ الضر ) ووصف خالقه - تعالى - بأعظم صفات الرحمة دون أن يقترح شيئاً أو يطلب شيئا ، وهذا من الأدب السامى الذى سلكه الأنبياء مع خالقهم - عز وجل - .قال صاحب الكشاف : " ألفط - أيوب - فى السؤال ، حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة ، وذكر ربه بغاية الرحمة ، ولم يصرح بالمطلوب . ويحكى أن عجوزا تعرضت لسليمان بن عبد الملك فقالت : يا أمير المؤمنين ، مشت جرذان - أى فئران - بيتى على العصى!! فقال لها : ألطفت من السؤال ، لا جرم لأجعلنها تثب وثب الفهود ، وملأ بيتها حبا . . . " .وبعد أن دعا أيوب ربه - تعالى - بهذه الثقة ، وبهذا الأدب والإخلاص ، كانت الإجابة المتمثلة

فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر واتيناه اهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين

) كما فسرها الوسيط فى قوله - تعالى - : ( فاستجبنا لَهُ ) أى دعاءه وتضرعه فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ ) أى : فأنزلنا ما نزل به من بلاء فى جسده وجعلناه سليما معافى . بأن أمرناه أن يضرب برجله الأرض ففعل ، فنبعت له ، عين فاغتسل منها ، فزال عن بدنه كل مرض أصابه بإذن الله - تعالى - .قال - سبحانه - : ( واذكر عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشيطان بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ اركض بِرِجْلِكَ هذا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ . . ) وقال - تعالى - : ( وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَّعَهُمْ ) أى : لم نخيب رجاء أيوب حين دعانا ، بل استجبنا له دعاءه بفضلنا وكرمنا ، فأزلنا عنه المرض الذى نزل به ، ولم نكتف بهذا - أيضا - بل عوضناه عمن فقده من أولاده ، ورزقناه مثلهم معهم .قال الآلوسى ما ملخصه " : قوله : ( وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَّعَهُمْ ) أخرج ابن مردويه وابن عساكر عن ابن عباس قال : سالت النبى - صلى الله عليه وسلم - عن قوله : فقال : " رد الله ( وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَّعَهُمْ )

" تعالى - امرأته إليه ، وزاد فى شبابها ، حتى ولدت له ستا وعشرين ذكرا فالمعنى على هذا : آتيناه في الدنيا مثل أهله عددا مع زيادة مثل آخر .وعن. قتادة : إن الله أحيا له أولاده الذين هلكوا فى بلائه ، وأوتى مثلهم في الدنيا . . .ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله - تعالى - : ( رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وذكرى لِلْعَابِدِينَ ) أى : أجبنا له دعاءه ، وفعلنا معه ما فعلناه من ألوان الخيرات ، من أجل رحمتنا به ، ومن أجل أن يكون ما فعلناه معه عبرة وعظة وذكر لغيره من العابدين حتى يقتدوا به فى صبره على - البلاء ، وفى المداومة على شكرنا فى السراء والضراء .وخص - سبحانه : العابدين بالذكرى ، لأنهم أكثر الناس بلاء وامتحانا . ففى الحديث الشريف أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل " .وفى حديث " " آخر : " يبتلى الرجل على قدر دينه ، فإن كان فى دينه صلابة زيد فى بلائه - وقد كان أيوب آية فى الصبر ، وبه يضرب المثل فى ذلك .هذا ، وقصة أيوب. عليه السلام - ستأتى بصورة أكثر تفصيلا فى سورة " ص " ، وقد تركنا هنا أقوالا عن كيفية مرضه ، وعم مدة هذا المرض . . . نظرا لضعفها ، ومنافاتها لعصمة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - من الأمراض المنفرة .

واسماعيل وادريس وذا الكفل كل من الصابرين

كما فسرها الوسيط ثم أشارت السورة إشارات مجملة إلى قصة كل من إسماعيل وإدريس وذالكفل ، قال - تعالى - : ( وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ . . . ) وإسماعيل : هو الابن الأكبر لإبراهيم - عليهما السلام - وهو الذبيح الذى. - افتداه الله - تعالى - بذبح عظيم .وإدريس : هو واحد من أنبياء الله تعالى - ، قالوا : وهو جد نوح - عليه السلام - وأنه ولد فى حياة آدم ، وبعث بعد موته .أما ذو الكفل : فقد قال الآلوسى فى شأنه ما ملخصه : ظاهر نظم ذى الكفل فى سلك الأنبياء أنه منهم ، وهذا ما ذهب إليه الأكثر . واختلف فى اسمه : فقيل : بشر وهو ابن أيوب ، بعثه الله - تعالى - بعد أبيه ، وكان مقيما بالشام .وقيل : هو إلياس بن ياسين وينتهى نسبه إلى هارون - عليه السلام - .وقيل : هو زكريا والد يحيى - عليهما السلام - وسمى بذلك لكفالته - مريم .وقيل : لم يكن نبيا وإنما كان عبدا صالحا . . . " .ثم مدح - سبحانه هؤلاء الأنبياء فقال : ( كُلٌّ مِّنَ الصابرين ) أى : كل واحد منهم من عبادنا الصابرين الذين تحملوا فى سبيلنا الكثير من المصاعب والآلام .

وادخلناهم في رحمتنا انهم من الصالحين

كما فسرها الوسيط ( وَأَدْخَلْنَاهُمْ ) بفضلنا وإحساننا ( فِي رَحْمَتِنَا التى وسعت كل شىء ( إِنَّهُمْ مِّنَ ) عبادنا ( الصالحين ) لحمل رسالتنا ( وتبليغها إلى أقوامهم بصدق وصبر وأمانة ، .

وذا النون اذ ذهب مغاضبا فظن ان لن نقدر عليه فنادى في الظلمات ان لا اله الا انت سبحانك اني كنت من الظالمين

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك جانبا من قصة يونس - عليه - السلام - فقال : ( وَذَا النون . . . ) .المراد بذى النون : يونس بن متى عليه السلام - ، والنون : الحوت . وجمعه نينان وأنوان . وسمى بذلك لابتلاع الحوت له .قال - تعالى - : ( وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ المرسلين إِذْ أَبَقَ إِلَى الفلك المشحون فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ المدحضين فالتقمه الحوت وَهُوَ مُلِيمٌ . . ) وملخص قصة يونس " أن الله - تعالى - ارسله إلى أهل نينوى بالعراق فى حوالى القرن الثامن قبل الميلاد ، فدعاهم إلى إخلاص العبادة لله - عز وجل - فاستعصوا عليه ، فضاق بهم ذرعا ، وتركهم وهو غضبان ليذهب إلى غيرهم ، فوصل إلى شاطىء البحر ، فوجد سفينة فركب فيها ، وفى خلال سيرها فى البحر ضاقت بركابها ، فقال ربانها : إنه لا بد من أحد الركاب يلقى بنفسه فى البحر لينجو الجميع من الغرق . فجاءت القرعة على يونس ، فألقى بنفسه فى - اليم فالتقمه الحوت . . . ثم نبذه إلى الساحل بعد وقت يعلمه الله - تعالى فأرسله - سبحانه - إلى قومه مرة أخرى فآمنوا .وسيأتى تفصيل هذه القصة فى ، - سورة الصافات - بإذن الله - .والمعنى : واذكر أيها المخاطب لتعتبر وتتعظ عبدنا ذان النون . وقت أن فارق قومه وهو غضبان عليهم ، لأنهم لم يسارعوا : إلى الاستجابة له .قال الجمل : وقوله : ( إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً ) أى ، غضبان على قومه ، فالمفاعة ليست على بابها فلا مشاركة كعاقبت وسافرت ويحتمل أن تكون على بابها من المشاركة ، أى غاضب قومه وغاضبوه حين لم يؤمنوا فى أول الأمر " .وقوله - تعالى - : ( فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ) بيان لما ظنه يونس - عليه السلام - حين فارق قومه غاضبا عليهم بدون إذن من ربه - عز وجل - .أى : أن يونس قد خرج غضبان على قومه لعدم استجابتهم لدعوته فظن أن لن نضيق عليه ، عقابا له على مفارقته لهم من غير أمرنا ، أو فظن أننا لن نقضى عليه بعقوبة معينة فى مقابل تركه لقومه بدون

: إذننا .فقوله : ( نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ) بمعنى نضيق عليه ونعاقبه . يقال
- قدر الله الرزق يقدره - بكسر الدال وضمها - إذا ضيقه . ومنه قوله - تعالى
وقوله : ( وَأَمَّآ ( الله يَبْسُطُ الرزق لِمَنْ يَشَآءُ وَيَقَدِرُ ) :
إِذَا مَا ابتلاه فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ . . ) أى : ضيقه عليه .ثم
بين - سبحانه - ما كان يردده يونس وهو فى بطن الحوت فقال : ( فنادى فِي
الظلمات أن لاَّ إله إِلاَّ أنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظالمين
والفاء فى قوله ( فنادى ) فصيحة .والمراد بالظلمات : ظلمات البحر ، وبطن.
الحوت ، والليل .أى : خرج يونس غضبان على قومه . فحدث له ما حدث من التقام
الحوت له ، فلما صار فى جوفه المظلم ، بداخل البحر المظلم ، أخذ يتضرع
) ، إلينا بقوله : أشهد أن لا إله إلا أنت يا إلهى مستحق للعبادة
سُبْحَانَكَ ) أى : أنزهك تنزيها عظيما ( إِنِّي كُنتُ مِنَ الظالمين )
لنفسى حين فارقت قومى بدون إذن منك .وإنى أعترف بخطئى - يا إلهى - فتقبل
توبتى ، واغسل حوبتى .هذا وقد ذكر ابن جرير وابن كثير وغيرهما من المفسرين
هنا روايات متعددة عن المدة التى مكثها يونس فى بطن الحوت ، وعن فضل الدعاء
الذى تضرع به إلى الله - تعالى - ، ومن ذلك ما رواه ابن جرير عن سعد بن أبى
: وقاص - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول
بسم الله الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى ، دعوة يونس بن متى " "
" : قال : قلت : يا رسول الله ، هى ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين؟ قال . "
- هى ليونس بن متى خاصة وللمؤمنين عامة ، إذا دعوا بها . ألم تسمع قول الله
تعالى - : ( فنادى فِي الظلمات أن لاَّ إله إِلاَّ أنتَ سُبْحَانَكَ
إِنِّي كُنتُ مِنَ الظالمين فاستجبنا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغم وكذلك
. " " نُنجِي المؤمنين ) فهو شرط من الله لمن دعاه به

فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أنه قد أجاب ليونس دعاءه فقال
وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغم ) أى : من الحزن الذى كان فيه حين التقمه الحوت
- وصار فى بطنه .وقد بين - سبحانه - فى آية أخرى ، أن يونس - عليه السلام
) : - لو لم يسبح الله لبث فى بطن الحوت إلى يوم البعث . قال - تعالى
فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ المسبحين لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إلى يَوْمِ
يُبْعَثُونَ ) وقوله - تعالى - : ( وكذلك نُنجِي المؤمنين ) بشارة لكل مؤمن
يقتدى بيونس فى إخلاصه وصدق توبته ، ودعائه لربه .أى : ومثل هذا الإنجاء
الذى فعلناه مع عبدنا يونس ، ننجى عبادنا المؤمنين من كل غم ، متى صدقوا فى
. إيمانهم ، وأخلصوا فى دعائهم

وزكريا اذ نادى ربه رب لا تذرني فردا وانت خير الوارثين

كما فسرها الوسيط ثم ساقت السورة الكريمة بعد ذلك جانبا من قصى زكريا ويحيى
فقال - تعالى - : ( وَزَكَرِيَّآ إِذْ . . . . ) .وزكريا هو ابن آزن بن
، بركيا ، ويتصل نسبه بسليمان - عليه السلام - ، وكان عيسى قريب العهد به
حيث كفل زكريا مريم أم عيسى .أى : واذكر - أيها المخاطب - حال زكريا - عليه
: السلام - وقت أن نادى ربه وتضرع إليه فقال : يا رب لا تتركنى فردا أى
وحيداً بدون ذرية ( وَأَنتَ خَيْرُ الوارثين ) أى : وأنت خير حى باق بعد كل
. الأموات

فاستجبنا له ووهبنا له يحيى واصلحنا له زوجه انهم كانوا يسارعون في الخيرات
ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين

كما فسرها الوسيط فكانت نتيجة هذا الدعاء الخالص أن أجاب الله لزكريا دعاءه
فقال : ( فاستجبنا لَهُ ) أى دعاءه وتضرعه .( وَوَهَبْنَا لَهُ ) بفضلنا
وإحساننا ابنه ( يحيى ) - عليهما السلام - .( وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ
) : بأن جعلناها تلد بعد أن كانت عقيما تكريما له ورحمة به .وقوله (
إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَارِعُونَ فِي الخيرات ) تعليل لهذا العطاء الذى
" منحه - سبحانه - لأنبيائه - عليهم الصلاة والسلام - والضمير فى " إنهم
يعود للأنبياء السابقين . وقيل : يعود إلى زكريا وزوجه ويحيى .أى : لقد
أعطيناهم من ألوان النعم ، لأنهم كانوا يبادرون فى فعل الخيرات التى ترضينا
ويجتهدون فى أداء كل قول أو عمل أمرناهم به .( وَيَدْعُونَنَا رَغَباً ،
وَرَهَباً ) أى : ويجأرون إلينا بالدعاء ، راغبين فى آلائنا ونعمنا وراهبين
خائفين من عذابنا ونقمنا .فقوله ( رَغَباً وَرَهَباً ) مصدران بمعنى اسم
الفاعل ، منصوبان على الحال ، وفعلهما من باب " طرب " ( وَكَانُواْ لَنَا
خاشِعِينَ ) أى : مخبتين متضرعين لا متكبرين ولا متجبرين .وبهذه الصفات
. الحميدة ، استحق هؤلاء الأخيار أن ينالوا خيرنا وعطاءنا ورضانا

والتي احصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها اية للعالمين

، كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - الحديث عن هؤلاء الأنبياء الكرام
بذكر جانب من قصة مريم وابنها عيسى فقال : ( والتي أَحْصَنَتْ . . . )
وقوله : ( أَحْصَنَتْ ) من الإحصان بمعنى المنع ، يقال : هذه درع حصينة أى.
مانعة صاحبها من الجراحة . ويقال : هذه امرأة حصينة ، أى : مانعة نفسها :
من كل فاحشة بسبب عفتها أو زواجها .أى : واذكر - أيضا أيها المخاطب خبر
مريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها ، أي : حفظته ومنعته من النكاح منعا كليا
والتعبير عنها بالموصول لتفخيم شأنها ، وتنزيهها عن السوء .( فَنَفَخْنَا .
فِيهَا مِن رُّوحِنَا ) أى : فنفخنا فيها من جهة روحنا ، وهو جبريل - عليه
السلام - حيث أمرناه بذلك فامتثل أمرنا ، فنفخ فى جيب درعها ، فكان بذلك
- عيسى ابنها ، ويؤيد هذا التفسير قوله - تعالى - فى سورة مريم : ( قَالَ )
أى جبريل لمريم - ( إِنَّمَآ أَنَاْ رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلاَماً
زَكِيّاً ) أى : لأكون سببا فى هبة الغلام لك عن طريق النفخ فى درعك فيصل
هذا النفخ إلى الفرج فيكون الحمل بعيسى بإذن الله وإرادته .والمراد بالآية
: فى قوله - سبحانه - : ( وَجَعَلْنَاهَا وابنهآ آيَةً لِّلْعَالَمِينَ )
الأمر الخارق للعادة ، الذى لم يسبقه ولم يأت بعده ما يشابهه .أى : وجعلنا
مريم وابنها عيسى آية بينة ، ومعجزة واضحة دالة على كمال قدرتنا للناس
جميعا ، إذ جاءت مريم بعيسى دون أن يمسها بشر ، ودون أن تكون بغيا .قال
) : - صاحب الكشاف : " فإن قلت : هلا قيل آيتين كما قال - سبحانه
وَجَعَلْنَا الليل والنهار آيَتَيْنِ ) قلت : لأن حالهما بمجموعهما آية
. " واحدة . وهى ولادتها إياه من غير فحل

ان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاعبدون

كما فسرها الوسيط وبعد هذا الحديث المتنوع عن قصص عدد كبير من الأنبياء فى
سورة الأنبياء ، عقب - سبحانه - على ذلك ببيان أنهم - عليهم السلام - قد
جاءوا بعقيدة واحدة ، هى إخلاص العبادة لله - تعالى - فقال : ( إِنَّ هذه
أُمَّتُكُمْ . . . ) .لفظ الأمة يطلق بإطلاق متعددة . يطلق على الجماعة كما
فى قوله - تعالى - ( وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ
أُمَّةً مِّنَ الناس يَسْقُونَ . . ) ويطلق على الرجل الجامع للخير ، كما
فى قوله - تعالى - : ( إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ
) : - حَنِيفاً . . . ) ويطلق على الحين والزمان ، كما فى قوله - سبحانه
وَقَالَ الذي نَجَا مِنْهُمَا وادكر بَعْدَ أُمَّةٍ . . ) أى وتذكر بعد حين
: - من الزمان .والمراد بالأمة هنا : الدين والملّة . كما فى قوله - تعالى
أى : على دين وملة معينة ( . . . إِنَّا وَجَدْنَآ آبَآءَنَا على أُمَّةٍ )
والمعنى : إن ملة التوحيد التى جاء بها الأنبياء جميعا . هى ملتكم ودينكم.
- أيها الناس ، فيجب عليكم أن تتبعوا هؤلاء الأنبياء ، وأن تخلصوا لله
تعالى - العبادة والطاعة ، فهو - سبحانه - ربكم ورب كل شىء ، فاعبدوه حق
. العبادة لتنالوا رضاه ومحبته

وتقطعوا امرهم بينهم كل الينا راجعون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك حال الناس من الدين الواحد
) : الذى جاء به الرسل ، وعاقبة من اتبع الرسل وعاقبة من خالفهم فقال
وتقطعوا أَمْرَهُمْ . . . ) .والضمير فى قوله - تعالى - : ( وتقطعوا ) يعود
للناس الذى تفرقوا فى شأن الدين شيعا وأحزابا . أى : وافترق الناس فى شأن
الدين الحق فرقا متعددة ، وسنحاسبهم جميعا على أعمالهم حسابا دقيقا ، يجازى
. فيه المحسن خيرا ، ويعاقب فيه المسىء على إساءته

فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وانا له كاتبون

كما فسرها الوسيط وقال - سبحانه - : ( فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ ) بالنفى
المفيد للعموم ، لبيان كمال عدالته - تعالى - وتنزيهه - عز وجل - عن ظلم
، أحد ، أو أخذ شىء مما يستحقه .وعبر عن العلم بالسعى ، لإظهار الاعتداد به
وأن صاحب هذا العمل الصالح ، قد بذلك فيه جهدا مشكورا ، وسعى من أجل الحصول
. عليه سعيا بذل فيه طاقته

وحرام على قرية اهلكناها انهم لا يرجعون

كما فسرها الوسيط ثم أكد - سبحانه - بعد ذلك ما سبق أن قرره من أن الكل
سيرجعون إليه للحساب ، فقال : ( وَحَرَامٌ على قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَآ
أَنّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ ) .وللمفسرين فى تفسير هذه الآية الكريمة أقوال
منها :أن المعنى : وحرام - أى : وممتنع امتناعا تاما - على قرية أهلكنا
أهلها بسبب فسوقهم عن أمرنا ، وتكذيبهم لرسلنا أنهم لا يرجعون إلينا فى

الآخرة للحساب .فالآية الكريمة تأكيد لما قررته الآيات السابقة ، من أن الذين تقطعوا أمرهم بينهم ، والذين آمنوا وعملوا صالحا فى دنياهم ، الكل سيرجعون إلى الله - تعالى - ليجازيهم بما يستحقون يوم القيامة .وقد أكدت الآية الكريمة ورجوعهم إليه - تعالى - يوم القيامة بأسلوب بديع ، حيث نفت عن الأذهان ما قد يبتادر من أن هلاك الكافرين بالعذاب فى الدنيا ، قد ينجيهم من الحساب والعقاب يوم القيامة ، وأثبتت أن الرجوع يوم القيامة للحساب مؤكد .قال صاحب فتح القدير : ( وَحَرَامٌ على قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَآ . . . ) قرأ أهل المدينة " حرام " ، وقرأ أهل الكوفة " وحرم " بكسر الحاء وإسكان الراء - وهما لغتان مثل : حلال وحل .ومعنى - " أَهْلَكْنَاهَآ ) : قدرنا إهلاكها . وجملة ( أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ ) فى محل رفع مبتدأ ، وقوله : " حرام " خبرها . . . والمعنى : وممتنع ألبتة عدم رجوعها إلينا للجزاء . .وقال بعض العلماء : " وجعل أبو مسلم هذه الآية من تتمة ما قبلها و "لا " فيها على بابها . وهى مع لفظ " حرام " من قبيل نفى النفى . فيدل على الإثبات ، والمعنى : وحرام على القرية المهلكة . عدم رجوعها إلى الآخرة ، بل واجب رجوعها للجزاء ، فيكون الغرض إبطال قول من - ينكر البعث . وتحقيق ما تقدم من أنه لا كفران لسعى أحد وأنه - سبحانه سيحييه وبعمله يجزيه .ومنهم من يرى أن "لا " زائدة ، وأن المراد بالرجوع رجوع الهالكين إلى الدنيا فيكون المعنى : وحرام على أهل قرية أهلكناهم بسبب كفرهم ومعاصيهم ، أن يرجعوا إلى الدنيا مرة أخرى بعد هلاكهم .ومنهم من يرى أن المراد بقوله - تعالى - ( أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ ) أى :لا يرجعون إلى التوبة أو إلى الإيمان .قال صاحب الكشاف : استعير الحرام للممتنع وجوده . ومنه قوله - تعالى - : ( إِنَّ اللّه حَرَّمَهُمَا عَلَى الكافرين ) أى ، منعهما منهم . . . ومعنى الرجوع : الرجوع من الكفر إلى الإسلام والإنابة ، ومجاز الآية : إن قوما عزم الله - تعالى - على إهلاكهم غير متصور أن يرجعوا وينيبوا إلى أن تقوم القيامة . .ويبدو لنا أن القول الأول هو أقرب إلى الصواب ، لأنه هو المتبادر من ظاهر الآية ، ولأنه هو المستقيم مع سياق الآيات ، ولأنه بعيد عن التكلف إذ أن الآية الكريمة واضحة فى بيان أن حكمة الله قد اقتضت أن يرجع المهلكون فى الدنيا بسبب كفرهم ومعاصيهم إلى الحياة يوم القيامة ليحاسبوا على أعمالهم كما قال - تعالى - : ( قُلْ إِنَّ الأولين والآخرين لَمَجْمُوعُونَ إلى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ) ولعل مما يؤيد هذا الرأى قوله - تعالى - بعد ذلك : ( حتى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ . . . ) .

حتى اذا فتحت ياجوج وماجوج وهم من كل حدب ينسلون

كما فسرها الوسيط ( حتى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ . . . )فإن حتى هنا ابتدائية ، وما بعدها غاية لما يدل عليه ما قبلها ، فكأنه قيل : إن هؤلاء المهلكين ممتنع ألبتة عدم رجوعهم إلينا وإنما هم سيستمرون على هلاكهم حتى تقوم الساعة فيرجعوا إلينا للحساب ، ويقولوا عند مشاهدته : يا ويلنا قد كنا فى غفلة من هذا .ويأجوج ومأجوج اسمان أعجميان لقبيلتين من الناس ، قيل مأخوذان من الأوجة وهى الاختلاط أو شدة الحر ، وقيل من الأوج وهو سرعى : الجرى .والمراد بفتحهما : فتح السد الذى على هاتين القبيلتين ، والذى يحول بينهم وبين الاختلاط بغيرهم من بقية الناس .( وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ) والحدب : المترفع من الأرض كالجبل ونحوه .و ( يَنسِلُونَ ) من النسل - بإسكان السين - وهو مقاربة الخطو مع الإسراع فى السير ، يقال : نسل الرجل فى مشيته إذا أسرع ، وفعله من باب قعد وضرب .أى : وهم - أى يأجوج ومأجوج من كل مرتفع من الأرض يسرعون السير إلى المحشر ، أو إلى الأماكن التى يوجههم الله - تعالى - إليها ، و قيل إن الضمير " هم " يعود إلى الناس المسوقين إلى أرض المحشر ، أو إلى الأماكن التى يوجههم الله - تعالى - إليها ، وقيل إن الضمير " هم " يعود إلى الناس المسوقين إلى أرض المحشر .

واقترب الوعد الحق فاذا هي شاخصة ابصار الذين كفروا يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين

كما فسرها الوسيط وقوله : ( واقترب الوعد الحق . . . ) معطوف على ( فُتِحَتْ ) أى : فتح السد الذى كان على يأجوج ومأجوج ، وقرب موعد الحساب والجزاء .قال الآلوسى : وهو ما بعد النفخة الثانية لا النفخة الأولى . وهذا الفتح لسد يأجوج ومأجوج يكون فى زمن نزول عيسى من السماء ، وبعد قتله الدجال .فقد أخرج مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه من حديث طويل إن الله - تعالى - يوحى إلى عيسى بعد أن يقتل الدجال : أنى قد أخرجت : عبادا من عبادى ، لا يدان لك بقتالهم ، فحرز عبادى إلى الطور ، فيبعث الله - تعالى - يأجوج ومأجوج وهم كما قال - سبحانه - ( مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ) ثم يرسل الله عليهم نغفا - فى رقابهم فيصبحون موتى كموت نفس واحدة " .وقوله : فإذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا . . . جواب للشرط وهو

قوله : تعالى - قبل ذلك ( إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ) .والضمير
هى " للقصة والشأن . و" إذا " للمفاجأة . قال الجمل : قوله : ( فَإِذَا "
- هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الذين كَفَرُواْ . . . ) فيه وجهان : أحدهما
وهو الأجود - أن يكون هى ضمير القصة . وشاخصة : خبر مقدم . وأبصار : مبتدأ
" . . مؤخر ، والجملة خبر لهى لأنها لا تفسير إلا بجملة مصرح بجزأيها
والمعنى : لقد تحقق ما أخبرنا به من أمارات الساعة ، ومن خروج يأجوج.
ومأجوج ، ومن عودة الخلق إلينا للحساب . . . ورأى المشركون كل ذلك ، فإذا
بأبصارهم مرتفعة الأجفان لا تكاد تطرف من شدة الهول والفزع .يقال : شخص بصر
فلان يشخص شخوصا فهو شاخص ، إذا فتح عينيه وصار لا يستطيع تحريكهما .وقوله
: مقول لقول محذوف .أى ( ياويلنا قَدْ كُنّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هذا ) :
، أن هؤلاء الكافرين يقولون وهم شاخصو البصر : يا هلاكنا أقبل فهذا أوانك
فإننا قد كنا فى الدنيا فى غفلة تامة عن هذا اليوم الذى أحضرنا فيه للحساب
وقوله : ( بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ) إضراب عن وصف أنفسهم بالغفلة ، إلى.
وصفها بالظلم وتجاوز الحدود .أى : لم نكن فى الحقيقة فى غفلة عن هذا اليوم
وأهواله ، فقد أخبرنا رسلنا به ، بل الحقيقة أننا كنا ظالمين لهؤلاء الرسل
لأننا لم نطعمهم ، وكنا ظالمين لأنفسنا حيث عرضناها لهذا العذاب الأليم
. وهكذا يظهر الكافرون الندامة والحسرة فى يوم لا ينفعهم فيه ذلك.

انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم انتم لها واردون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( إِنّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن
- دُونِ الله حَصَبُ جَهَنَّمَ . . ) زيادة فى تقريعهم وتوبيخهم .والحَصَب
بفتحتين - ما تحصب به النار . أى : يلقى فيها لتزداد به اشتعالا كالحطب
- والخشب .أى : إنكم - أيها الكافرون - وأصنامكم التى تعبدونها من دون الله
تعالى - وقود جهنم ، وزادها الذى تزداد به اشتعالا .وفى إلقاء أصنامهم معهم
فى النار مع أنها لا تعقل ، زيادة فى حسرتهم وتبكيتهم ، حيث رأوا بأعينهم
مصير ما كانوا يتوهمون من ورائه المنفعة .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم
قرنوا بآلهتهم؟ قلت : لأنهم لا يزالون لمقارنتهم فى زيادة غم وحسرة ، حيث
أصابهم ما أصابهم بسببهم ، النظر إلى وجه العدو باب من العذاب ، ولأنهم
قدروا أنهم يستشفعون بهم فى الآخرة ، وينتفعون بشفاعتهم ، فإذا صادفوا
الأمر على عكس ما قدروا ، لم يكن شىء أبغض إليهم منهم .وجملة ( أَنتُمْ
- لَهَا وَارِدُونَ ) بدل من ( حَصَبُ جَهَنَّمَ ) ، أو مستأنفة .أى : أنتم
أيها الكافرون - ومعكم أصنامكم داخلون فى جهنم دخولا لا مفر لكم منه .وجاء
الخطاب بقوله ( أَنتُمْ ) على سبيل التغليب ، وإلا فالجميع داخلون فيها
ولا يدخل فى هذه الآية ما عبده هؤلاءالمشركون من الأنبياء والصالحين كعيسى.
والعزير والملائكة ، فإن عبادتهم لهم كانت عن جهل وضلال منهم ، فإن هؤلاء
. الأخيار ما أمروهم بذلك ، وإنما أمروهم بعبادة الله - تعالى - وحده

لو كان هؤلاء الهة ما وردوها وكل فيها خالدون

كما فسرها الوسيط ثم أقام - سبحانه - لهؤلاء الكافرين الأدلة على بطلان
: عبادتهم لغيره فقال : ( لَوْ كَانَ هؤلاء آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ) .أى
لو كان هؤلاء الأصنام المبعودون من دون الله آلهة حقا - كما زعمتم أيها
الكافرون - ما ألقى بهم فى النار ، وما قذفوا فيها كما يقذف الحطب ، وحيث
تبين لكم دخولهم إياه ، فقد ثبت بطلان عبادتكم لها ، وأن هذه الآلهة
المزعومة لا تملك الدفاع عن نفسها فضلا عن غيرها .وقوله ( وَكُلٌّ فِيهَا
خَالِدُونَ ) تذييل مقرر لما قبله . أى : وكل من العابدين والمعبودين باقون
. فى هذه النار على سبيل الخلود الأبدى

لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات ببيان حال الكافرين فى جهنم
فقال : ( لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ ) .أى : لهم فيها تنفس شديد يخرج من أقصى
أفواههم بصعوبة وعسر ، كما هو شأن المغموم المحزون . وأصل الزفير : تردد
النفس حتى تنتفخ منه الضلوع .( وَهُمْ فِيهَا لاَ يَسْمَعُونَ ) أى : وهم
: فى جهنم لا يسمعون ما يريحهم ، وإنما يسمعون ما فيه توبيخهم وعذابهم ، أو
. وهم فيها لا يسمع بعضهم زفير بعض لشدة ما هم فيه من هول وخوف

ان الذين سبقت لهم منا الحسنى اولئك عنها مبعدون

كما فسرها الوسيط وبعد هذا الحديث الذى ترتجف له القلوب . . . أتبع القرآن
) : - ذلك بحديث آخر تسر له النفوس ، وتنشرح له الصدور ، فقال - تعالى
: إِنَّ الذين . . . ) .الحسنى : تأنيث الأحسن ، وهى صفة لموصوف محذوف .أى
إن الذين سبقت لهم منا فى دنياهم المنزلة الحسنى بسبب إيمانهم الخالص

) وعملهم الصالح ، وقولهم الطيب .( أولئك ) المصوفون بتلك الصفات الحميدة
عَنْهَا مُبْعَدُونَ ) أى : عن النار وحرها وسعيرها . . . مبعدون إبعادا
. تاما بفضل الله - تعالى - ورحمته

لا يسمعون حسيسها وهم في ما اشتهت انفسهم خالدون

كما فسرها الوسيط وقوله : ( لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيَسَهَا ) تأكيد لبعدهم عن
النار . وأصل الحسيس الصوت الذى تسمعه من شىء يمر قريبا منك .أى : هؤلاء
المؤمنون الصادقون الذين سبقت لهم من خالقهم الدرجة الحسنى ، لا يسمعون صوت
، النار ، الذى يحس من حركة لهيبها وهيجانها ، لأنهم قد استقروا فى الجنة
وصاروا فى أمان واطمئنان .وقوله - سبحانه - : ( وَهُمْ فِي مَا اشتهت
أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ) بيان لفوزهم بأقصى ما تتمناه الأنفس بعد بيان
، بعدهم عن صوت النار .أى : وهم فيما تتمناه أنفسهم ، وتشتهيه أفئدتهم
. وتنشرح له صدورهم ، خالدون خلوداً أبديا لا ينغصه حزن أو انقطاع

لا يحزنهم الفزع الاكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - ( لاَ يَحْزُنُهُمُ الفزع الأكبر . . . )
بيان لنجاتهم من كل ما يفزعهم ويدخل القلق على نفوسهم .أى : إن هؤلاء الذين
سبقت لهم منا الحسنى ، لا يحزنهم ما يحزن غيرهم من أهوال يشاهدونها
ويحسونها فى هذا اليوم العصيب ، وهم يوم القيامة وما يشتمل عليه من مواقف
متعددة ، فالمراد بالفزع الأكبر : الخوف الأكبر الذى يعترى الناس فى هذا
اليوم .وفضلا عن ذلك فإن الملائكة تستقبلهم بفرح واستبشار ، فتقول لهم على
سبيل التهنئة : ( هذا يَوْمُكُمُ الذي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ) به فى الدنيا
من خالقكم - عز وجل - فى مقابل إيمانكم وعملكم الصالح .قالوا : وهذا
الاستقبال من الملائكة للمؤمنين ، يكون على أبواب الجنة ، أو عند الخروج من
. القبور

يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدانا اول خلق نعيده وعدا علينا انا
كنا فاعلين

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - سورة الأنبياء ببيان جانب من أحوال هذا
الكون يوم القيامة ، وببيان سننه فى خلقه ، وببيان نعمه على عباده ، وببيان
ما أمر به نبيه - صلى الله عليه وسلم - فقال - تعالى - : ( يَوْمَ نَطْوِي
قوله - سبحانه - : ( يَوْمَ نَطْوِي السمآء كَطَيِّ السجل. ( . . .
لِلْكُتُبِ . . ) الظرف فيه منصوب بقوله - تعالى - قبل ذلك ( لاَ
يَحْزُنُهُمُ الفزع الأكبر ) أو بقوله - سحبانه - : ( وَتَتَلَقَّاهُمُ
الملائكة ) وقوله : ( نَطْوِي ) من الطى وهو ضد النشر . والسجل : الصحيفة
، التى يكتب فيها .والمراد بالكتب : ما كتب فيها من الألفاظ والمعانى
فالكتب بمعنى المكتوبات . واللام بمعنى على .والمعنى : إن الملائكة تتلقى
، هؤلاء الأخيار الذين سبقت لهم من الله - تعالى - الحسنى بالفرح والسرور
يوم يطوى - سبحانه - السماء طيا مثل طى الصحيفة على ما فيها من كتابات .وفى
هذا التشبيه إشعار بأن هذا الطى بالنسبة لقدرته - تعالى - فى منتهى السهولة
) واليسر ، حيث شبه طيه السماء بطى الصحيفة على ما فيها .وقيل : إن لفظ
السجل ) اسم لملك من الملائكة ، وهو الذى يطوى كتب أعمال الناس بعد موتهم
والإضافة فى قوله ( كَطَيِّ السجل ) من إضافة المصدر إلى مفعوله ، والجار.
والمجرور صفة لمصدر مقدر . أى : نطوى السماء طيا كطى الرجل أو الملك
. الصحيفة على ما كتب فيها .وقرأ أكثر القراء السبعة : ( للكتاب ) بالإفراد
- ومعنى القراءتين واحد لأن المراد به الجنس فيشمل كل الكتب .وقوله - تعالى
بيان لصحة الإعادة قياسا ( كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ) :
على البدء ، إذ الكل داخل تحت قدرته - عز وجل - .أى : نعيد أول خلق إعادة
مثل بدئنا إياه ، دون أن ينالنا تعب أو يمسنا لغوب ، لأن قدرتنا لا يعجزها
شىء : قال - تعالى - : ( وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فرادى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ
أَوَّلَ مَرَّةٍ . . ) قال صاحب الكشاف : " وما أول الخلق حت يعيده كما
بدأه؟ قلت : أوله إيجاده من العدم ، فكما أوجده أولا عن عدم . يعيده ثانيا
عن عدم " .وقوله - تالى - : ( وَعْداً عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ
تأكيد للإعادة . ولفظ " وعدا " منصوب بفعل محذوف . و " علينا " فى موضع (
الصفة له .أى : هذه الإعادة وعدنا بها وعدا كائنا علينا باختيارنا وإرادتنا
إنا كنا محققين هذا الوعد ، وقادرين عليه ، والعاقل من يقدم فى دنياه ،
. العلم الصالح الذى ينفعه عند بعثه للحساب

ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادي الصالحون

) : كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - سنة من سننه التى لا تتخلف فقلا

وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزبور مِن بَعْدِ الذكر أَنَّ الأرض يَرِثُهَا
عِبَادِيَ الصالحون ) .والمراد بالزبور : الكتاب المزبور أى : المكتوب ، مأخوذ من قولهم : زبرت الكتاب إذا كتبته .ويشمل هنا جميع الكتب السماوية كالتوراة والإنجيل والزبور .والمراد بالذكر : اللوح المحفوظ الذى هو أم الكتاب .وقيل : المراد بالزبور : كتاب داود خاصة . وبالذكر التوارة ، أو العلم ، والمقصود بالأرض هنا : أرض الجنة .فيكون المعنى : ولقد كتبنا فى الكتب السماوية ، من بعد كتابتنا فى اللوح المحفوظ : أن أرض الجنة نورثها يوم القيامة لعبادنا الصالحين .وهذا القول يؤيده قوله - تعالى - فى شأن المؤمنين : ( وَقَالُواْ الحمد للَّهِ الذي صَدَقَنَا وَعْدَهُ
وَأَوْرَثَنَا الأرض نَتَبَوّأُ مِنَ الجنة حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ
أَجْرُ العاملين ) ومن المفسرين من يرى أن المراد بالأرض هنا : أرض الدنيا فيكون المعنى :ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن هذه الأرض التى يعيش عليها الناس مؤمنهم وكافرهم ، ستكون فى النهاية لعبادنا الصالحين .قال الآلوسى ما ملخصه : أخرج ابن جرير عن ابن عباس أن المراد بالأرض فى الآية أرض الجنة ، وإنها الأرض التى يختص بها الصالحون . لأنها لهم خلقت ، وغيرهم إذا حصلوا فيها فعلى وجه التبع ، وأن الآية ذكرت عقب ذكر الإعادة وليس بعدها أرض يستقر عليها الصالحون . ويمتن الله بها عليهم سوى أرض الجنة .وفى رواية أخرى عن ابن عباس أن المراد بها أرض الدنيا يرثها المؤمنون ، ويستولون عليها .أخرج مسلم وأبو داود والترمذى عن ثوبان قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " أن الله - تعالى - زوى لى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإن أمتى سيبلغ ملكها ما زوى لى منها . . . " .ويبدو لنا أنه لا مانع من أن يكون المراد بالأرض التى يرثها العباد الصالحون ، ما يشمل أرض الجنة وأرض الدنيا ، لأنه لم يرد نص يخصص أحد المعنيين .وقد سار على هذا التعميم الإمام ابن كثير فقال عند تفسيره لهذه الآية : " يقول الله - تعالى - مخبرا عما قضاه لعباده الصالحين ، من السعادة فى الدنيا والآخرة ووراثة الأرض فى الجنيا والآخرة كقوله - تعالى - ( إِنَّ الأرض
( للَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ والعاقبة لِلْمُتَّقِينَ
وقال - سبحانه - ( إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا والذين آمَنُواْ فِي الحياة الدنيا وَيَوْمَ يَقُومُ الأشهاد ) وأخبر - تعالى - أن هذا مكتوب مسطور فى الكتب الشرعية ، فهو كائن لا محالة ، ولهذا قال : ( وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزبور مِن بَعْدِ الذكر أَنَّ الأرض يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصالحون
( . . .
.

ان في هذا لبلاغا لقوم عابدين

كما فسرها الوسيط واسم الإشارة فى قوله - تعالى - : ( إِنَّ فِي هذا
لَبَلاَغاً لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ) يعود على القرآن الكريم الذى منه هذه السورة .والبلاغ : الشىء الذى يكفى الإنسان للوصول إلى غايته . يقال : فى هذا الشىء بلاغ أى : كفاية أو سبب لبلوغ المقصد .أى : إن فى هذا القرآن ، وفيما ذكر فى هذه السورة من آداب وهدايات ، وعقائد وتشريعات ، لبلاغا وكفاية فى الوصول إلى الحق ، لقوم عابدين .وخص العابدين بالذكر ، لأنهم هم المنتفعون بتوجيهات القرآن الكريم ، إذ العابد لله - تعالى - بإخلاص ، يكون خاشع القلب ، نقى النفس ، مستعدا للتلقى والتدبر والانتفاع .

وما ارسلناك الا رحمة للعالمين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن من مظاهر فضله على الناس أن أرسل إليهم نبيه - صلى الله عليه وسلم - ليكون رحمة لهم فقال : ( وَمَآ
أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ) .أى : وما أرسلناك - أيها الرسول الكريم - بهذا الدين الحنيف وهو دين الإسلام ، إلا من أجل أن تكون رحمة للعالمين من الإنس والجن .وذلك لأننا قد أرسلناك بما يسعدهم فى دينهم وفى دنياهم وفى آخرتهم متى اتبعوك ، واستجابوا لما جئتهم به ، وأطاعوك فيما تأمرهم به أو تنهاهم عنه .وفى الحديث الشريف : " إنما أنا رحمة مهداة " فرسالته - صلى الله عليه وسلم - رحمة فى ذاتها ، ولكن هذه الرحمة انتفع بها من استجاب لدعوتها ، أما من أعرض عنها فهو الذى ضيع على نفسه فرصة الانتفاع ورحم الله صاحب الكشاف فقد وضح هذا المعنى فقال : أرسل - صلى الله عليه وسلم - " رحمة للعالمين " لأنه جاء بما يسعدهم إن اتبعوه ، ومن خالف ولم يتبع ، فإنما أتى من عند نفسه ، حيث ضيع نصيبه منها . ومثاله : أن يفجر الله عينا عذيقة - أى : كبيرة عذبه - ، فيسقى ناس زرعهم ، ومواشيهم بمائها فيفلحوا ، ويبقى ناس مفرطون فيضيعوا . فالعين المفجرة فى نفسها نعمة من الله - تعالى - ورحمة للفريقين . ولكن الكسلان محنة على نفسه ، حيث حرمها ما ينفعها " .

قل انما يوحى الي انما الهكم اله واحد فهل انتم مسلمون

كما فسرها الوسيط ثم أمر الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يخبر الناس بأن رسالته لحمتها وسداها الدعوة إلى عبادة الله - تعالى - وحده فقال : ( قُلْ إِنَّمَآ يوحى إِلَيَّ أَنَّمَآ إلهكم إله وَاحِدٌ . . . ) أى : قل - يا محمد - للناس : إن الذى أوحاه الله - تعالى - إلىّ من تكاليف - وهدايات وعبادات وتشريعات . . . تدور كلها حول إثبات وحدانيته - سبحانه ووجوب إخلاص العبادة له وحده .قال الآلوسى - رحمه الله - : " ذهب جماعة إلى أن فى الآية حصرين : الأولى : لقصر الصفة على الموصوف . والثانى : لقصر الموصوف على الصفة .فالأول : قصر فيه الوحى على الوحدانية . والثانى : قصر فيه الله - تالى - على الوحدانية ، والمعنى : ما يوحى إلىّ إلا اختصاص الله بالوحدانية ، ومعنى هذا القصر أنه الأصل الأصيل وما عداه راجع إليه ، أو غير منظور إليه فى جانبه . . . " .والاستفهام فى قوله - سبحانه - : ( فَهَلْ أَنتُمْ مُّسْلِمُونَ ) للتحضيض أى : ما دام الأمر كما ذكر لكم فأسلموا لتسلموا .

فان تولوا فقل اذنتكم على سواء وان ادري اقريب ام بعيد ما توعدون

كما فسرها الوسيط ثم أرشد - سبحانه - النبى - صلى الله عليه وسلم - إلى ما يقوله للناس فى حال إعراضهم عن دعوته ، فقال : ( فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ آذَنتُكُمْ على سَوَآءٍ . . . ) .وآذنتكم : من الإيذان بمعنى الإعلام والإخبار . ومنه الأذان للصلاة بمعنى الإعلام بدخول وقتها .قال بعضهم : آذن منقول من أذن إذا علم ، ولكنه كثر استعماله فى إجرائه مجرى الإنذار والتحذير .أى : فإن أعرضوا عن دعوتك - أيها الرسول الكريم - فقل لهم : لقد أعلمتكم وأخبرتكم بما أمرنى ربى أن أعلمكم وأخبركم به ، ولم أخص أحدا منكم بهذا الإعلام دون غيره ، وإنما أخبرتكم جميعا " على سواء " أى : حال كونكم جميعا مستوين فى العلم .فقوله : ( على سَوَآءٍ ) فى موضع الحال من المفعول الأول لآذنتكم . أى : فقد أعلمتكم ما أمرنى ربى به حالة كونهم مستوين فى هذا العلم .ويجوز أن يكون الجار والمجرور فى موضع الصفة لمصدر مقدر . أى : فقد آذنتكم إيذانا على سواء .وقوله - تعالى - : ( وَإِنْ أدري أَقَرِيبٌ أم بَعِيدٌ مّا تُوعَدُونَ ) إرشاد منه - سبحانه - لنبيه - صلى الله عليه وسلم - إلى ما يقوله لهم - أيضا - فى حال إعراضهم عن دعوته .و " إن " نافية أى : فإن أعرضوا عن دعوتك يا محمد ، فقل لهم : لقد أعلمتكم جميعا بما أمرنى الله بتبليغه إليكم ، وإنى بعد هذا التبليغ والتحذير ما أدرى وما أعرف ، أقريب أم بعيد ما توعدون به من العذاب ، أو من غلبة المسلمين عليكم أو من قيام الساعة . فإن علم ذلك وغيره إلى الله - تعالى - وحده ، وما ، أنا إلا مبلغ عنه .

انه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون

كما فسرها الوسيط وقوله تعالى : ( إِنّهُ يَعْلَمُ الجهر مِنَ القول وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ) .فهو - سبحانه - الذى يعلم ما تجهرون به وما تسرونه من أقوال وأعمال . ويعلم - أيضا - ما تكتمونه فى نفوسكم من كفر وجحود وكراهية لى ولأتباعى ، وسيعاقبكم - سبحانه - على ذلك العقاب الذى تستحقونه .

وان ادري لعله فتنة لكم ومتاع الى حين

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَإِنْ أَدْرِي لَعَلّهُ فِتْنَةٌ لّكُمْ وَمَتَاعٌ إلى حِينٍ ) زيادة فى تأكيد أن علم ما سينزل بهم من عقاب مرده إلى الله - تعالى - وحده .أى : وإنى - أيضا - ما أدرى ، لعل تأخير عقابكم - بعد أن أعرضتم عن دعوتى - من باب الامتحان والاختبار لكم ، أو من باب الاستدراج لكم إلى حين مقدر عنده - سبحانه - ، ثم يأخذكم بعد ذلك أخذ عزيز مقتدر .وفى إسناد علم ما سينزل بهم إلى الله - تعالى - وحده ، تخويف لهم أى : تخويف ، وأدب ليس بعده أدب من النبى - صلى الله عليه وسلم - مع الله - عز وجل - .

قال رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بقوله : ( قَالَ رَبِّ احكم بالحق وَرَبُّنَا الرحمن المستعان على مَا تَصِفُونَ ) أى : قال الرسول - صلى الله عليه وسلم - بعد أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة وهو يتضرع إلى ربه : رب احكم بينى وبين هؤلاء الذين آنتهم على سواء بالحق ) وَرَبُّنَا الرحمن ) أى : الكثير الرحمة على عباده ( المستعان ) أى : المطلوب منه العون ( على مَا تَصِفُونَ ) أى : على ما تصفونه بألسنتكم من

أنواع الكذب والزور والبهتان .وقرأ أكثر القراء السبعة ( قُلْ رَبِّ احكم بالحق . . . ) بصيغة الأمر . وهذه القراءة تدل على أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد أمره الله - تعالى - أن يقول ذلك .وصيغة " قال . . . " تدل على أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد امتثل أمر ربه ، فقال ما أمره بقوله .وبعد : فهذا تفسير لسورة الأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام - نسأل الله تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

يا ايها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شيء عظيم

كما فسرها الوسيط افتتحت سورة الحج بهذا النداء الموجه من الخالق - عز وجل - إلى الناس جميعاً ، يأمرهم فيه بامتثال أمره ، وباجتناب نهيه ، حتى يفوزوا برضاه يوم القيامة .وقوله - سبحانه - : ( إِنَّ زَلْزَلَةَ الساعة شَيْءٌ عَظِيمٌ ) تعليل للأمر بالتقوى .قال القرطبى : الزلزلة شدة الحركة ومنه قوله - تعالى - : ( . . . وَزُلْزِلُواْ حتى يَقُولَ الرسول والذين آمَنُواْ مَعَهُ متى نَصْرُ الله . . ) وأصل الكلمة من زل فلان عن الموضع أى : زال عنه وتحرك ، وزلزل الله قدمه ، أى : حركها وهذه اللفظة تستعمل فى تهويل الشىء " .وقال الآلوسى : " والزلزلة : التحريك الشديد ، والإزعاج العنيف ، بطريق التكرير ، بحيث يزيل الأشياء من مقارها ، ويخرجها من مراكزها .وإضافتها إلى الساعة ، من إضافة المصدر إلى فاعله ، لكن على سبيل المجاز فى النسبة كما فى قوله - تعالى - : ( بَلْ مَكْرُ الليل والنهار ) لأن المحرك حقيقة هو الله - تعالى - ، والمفعول الأرض أو الناس ، أو من إضافته إلى المفعول ، لكن على إجرائه مجرى المفعول به اتساعاً كما فى قوله يا سارق الليلة أهل الدار . . " .والمعنى : يأيها الناس اتقوا ربكم " : إتقاء تاماً ، بأن تصونوا أنفسكم عن كل ما لا يرضيه ، وبأن تسارعوا إلى فعل ما يحبه ، لأن ما يحدث فى هذا الكون عند قيام الساعة ، شىء عظيم ، ترتجف لهوله القلوب ، وتخشع له النفوس .وقال - سبحانه - : ( إِنَّ زَلْزَلَةَ الساعة شَيْءٌ عَظِيمٌ ) بصيغة الإجمال والإبهام لهذا الشىء العظيم لزيادة التهويل والتخويف .

يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما ارضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد

كما فسرها الوسيط ثم فصل - سبحانه - هذا الشىء العظيم تفصيلاً يزيد فى وجل القلوب فقال : ( يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ . . ) .والضمير فى " ترونها " ، يعود إلى الزلزلة لأنها هى المتحدث عنها والظرف " يوم " منصوب بالفعل تذهل ، والرؤية بصرية لأنهم يرون ذلك بأعينهم .والذهول : الذهاب عن الأمر والانشغال عنه مع دهشة وحيرة وخوف ومنه قول عبد الله ابن رواحة - رضى الله عنه - :ضربا يُزيل الهامَ عن مَقِيله ... ويُذْهِل الخليلَ عن خليلهأى : أن هذه الزلزلة من مظاهر شدتها ورهبتها ، أنكم ترون الأم بسببها تنسى وتترك وليدها الذى ألقمته ثديها وكأنها لا تراه ولا تحس به من شدة الفزع .قال صاحب الكشاف : " فإن قلت : لم قيل ( مُرْضِعَةٍ ) دون مرضع؟ قلت : المرضعة التى هى فى حال الإرضاع ملقمة ثديها الصبى ، والمرضع : التى من شأنها أن ترضع وإن لم تباشر الإرضاع فى حال وصفها به ، فقيل : مرضعة ، ليدل على أن ذلك الهول إذا فوجئت به هذه وقد ألقمت الرضيع ثديها نزعته عن فيه لما يلحقها من الدهشة ( عَمَّآ أَرْضَعَتْ ) عن إرضاعها : أو عن الذى أرضعته وهو الطفل .. . " .وقوله - سبحانه - : ( وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ) بيان لحالة ثانية تدل على شدة الزلزلة وعلى عنف آثارها .أى : وترونها - أيضاً - تجعل كل حاملتضع حملها قبل تمامه من شدة الفزع .ثم بين - سبحانه - حالة ثالثة للآثار التى تدل على شدة هذه الزلزلة فقال : ( وَتَرَى الناس سكارى وَمَا هُم بسكارى ولكن عَذَابَ الله شَدِيدٌ ) .أى : وترى - أيها المخاطب - الناس فى هذا الوقت العصيب ، هيئتهم كهيئة السكارى من قوة الرعب والفزع . وما هم على الحقيقة بسكارى ، لأنهم لم يشربوا ما يسكرهم ولكن عذاب الله شديد . أى ولكن شدة عذابه - سبحانه - هى التى جعلتهم بهذه الحالة التى تشبه حالة : السكارى فى الذهول والاضطراب .وقد أشار صاحب الكشاف إلى هذا المعنى فقال وتراهم سكارى على التشبيه ، وما هم بسكارى على التحقيق ، ولكن ما رهقهم " من خوف عذاب الله ، هو الذى أذهب عقولهم ، وطير تمييزهم ، وردهم فى نحو حال من يذهب السكر بعقله وتمييزه . . " .وقد علق صاحب الانتصاف على عبارة صاحب الكشاف هذه فقال : قال الأحمد : والعلماء يقولون : إن من أدلة المجاز صدق نقيضه ، كقولك : زيد حمار ، إذا وصفته بالبلادة ، ثم يصدق أن تقول : وما هو بحمار ، فتنفى عنه الحقيقة ، فكذلك الآية ، بعد أن أثبت السكر المجازى نفى الحقيقة أبلغ نفى مؤكد بالباء ، والسر فى تأكيده : التنبيه على أن هذا السكر الذى هو بهم فى تلك الحالة ليس من المعهود فى شىء ، وإنما هو أمر لم

يعهدوا مثله من قبل . والاستدراك بقوله ( ولكن عَذَابَ الله شَدِيدٌ ) راجع
، إلى قوله : ( وَمَا هُم بسكارى ) وكأنه تعليل لإثبات السكر المجازى
فكأنهى قيل : إذا لم يكونوا سكارى من الخرم فما هذا السكر الغريب وما سببه؟
فقال : شدة عذاب الله - تعالى - " .هذا ، وقد اختلف العلماء فى وقت هذه
الزلزلة المذكورة هنا ، فمنهم من يرى أنها تكون فى آخر عمر الدنيا ، وأول
أحوال الساعة ومنهم من يرى أنها تكون يوم القيامة ، بعد خروج الناس من
: قبروهم للحساب .وقد وفى هذه المسألة حقها الإمام ابن كثير فقال ما ملخصه
قال قائلون : هذه الزلزلة كائنة فى آخر عمر الدنيا . وأول أحوال الساعة "
وقال آخرون : بل ذلك هول وفزع وزلزال وبلبال ، كائن يوم القيامة فى.
العرصات ، بعد القيام من القبور .ثم ساق - رحمه الله - سبعة أحاديث استدل
بها أصحاب الرأى الثانى .ومن هذه الأحاديث ما رواه الشيخان عن أبى سعيد
- الخدرى قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " يقول الله
تعالى - يوم القيامة : يا آدم . فيقول : لبيك ربنا وسعديك . فيُنَادَى بصوت
إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار ، قال : يا رب ، وما بعث :
النار؟ قال : من كل ألف - أراه قال - تسعمائة وتسعة وتسعين ، فحينئذ تضع
الحامل حملها ويشيب الوليد ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب
الله شديد " . فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم . فقال - صلى الله عليه
وسلم - : " مِن يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعين ومنكم واحد ، ثم أنتم فى
الناس كالشعرة البيضاء فى الثور الأسود ، وإنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل
الجنة - فكبرنا - ثم قال : ثلث أهل الجنة - فكبرنا - ثم قال : شطر أهل
الجنة فكبرنا " " .وعلى الرأى الأول تكون الزلزلة بمعناها الحقيقى ، بأن
تتزلزل الأرض وتضطرب ، ويعقبها طلوع الشمس من مغربها ، ثم تقوم الساعة
وعلى الرأى الثانى تكون الزلزلة المقصود بها شدة الخوف والفزع ، كما فى.
) : قوله - تعالى - فى شأن المؤمنين بعد أن أحاطت بهم جيوش الأحزاب
: هُنَالِكَ ابتلي المؤمنون وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالاً شَدِيداً ) فالمقصود
. أصيبوا بالفزع والخوف ، وليس المقصود أن الأرض تحركت واضطربت من تحتهم

ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد

كما فسرها الوسيط وبعد هذا الافتتاح الذى يغرس الخوف فى النفوس ، ويحملها
، على تقوى الله وخشيته ، ساقت السورة حال نوع من الناس يجادل بالباطل
ويتبع خطوات الشيطان ، فقال - تعالى - : ( وَمِنَ الناسِ . . ) .و ( مِنَ )
فى قوله ( وَمِنَ الناس ) للتبعيض . وقوله ( يُجَادِلُ ) من الجدال بمعنى
. المفاوضة على سبيل المنازعة والمخاصمة والمغالبة ، مأخوذ من جدلت الحبل
، أى : أحكمت فتله ، كأن المتجادلين يحاول كل واحد منهما أن يقوى رأيه
ويضعف رأى صاحبه .والمراد بالمجادلة فى الله : المجادلة فى ذاته وصفاته
وتشريعاته .وقوله : ( بِغَيْرِ عِلْمٍ ) حال من الفاعل فى يجادل . وهى حال
موضحة لما تشعر به المجادلة هنا من الجهل والعناد .أى : ومن الناس قوم
، استولى عليهم الجهل والعناد ، لأنهم يجادلون وينازعون فى ذات الله وصفاته
وفى وحيه وفى أحكامه بغير مستند من علم عقلى أو نقلى ، وبغير دليل أو ما
يشبه الدليل .وقوله - سبحانه - ( وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ )
معطوف على ما قبله . والمريد والمتمرد : البالغ أقصى الغاية فى الشر
والفساد ، يقال : مرد فلان على كذا - من باب نصر وظرف - إذا عتا وتجبر
واستمر على ذلك .وأصل المادة للملاسة والتجرد ، ومنه قولهم : شجرة مرداء أى
ملساء لا ورق لها . وغلام أمرد . أى : لم ينبت فى ذقنه شعر . . .أى : يجادل
فى ذات الله وصفاته بغير علم يعلمه ، ويتبع فى جداله وتطاوله وعناده ، كل
شيطان عاد عن الخير ، متجرد للفساد ، لا يعرف الحق أو الصلاح ، ولا هما
يعرفانه ، وإنما هو خالص للشر والغى والمنكر من القول والفعل .وتقييد
الجدال بكونه بغير علم ، يفهم منه أن الجدال بعلم لإحقاق الحق وإبطال
الباطل ، سائغ محمود ، ولذا قال الإمام الفخر الرازى : " هذه الآية
بمفهومها تدل على جواز المجادلة الحقة ، لأن تخصيص المجادلة مع عدم العلم
بالدلائل ، يدل على أن المجادلة مع العلم جائزة " ، فالمجادلة الباطلة هى
المرادة من قوله - تعالى - : ( مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً . . . )
والمجادلة الحقة هى المرادة من قوله : ( وَجَادِلْهُم بالتي هِيَ أَحْسَنُ
. . ).

كتب عليه انه من تولاه فانه يضله ويهديه الى عذاب السعير

، كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة هذا المجادل بالباطل
والمتبع لكل شيطان مريد ، فقال : ( كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلاَّهُ
فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إلى عَذَابِ السعير ) .أى : كتب على هذا
الشيطان ، وقضى عليه " أنه من تولاه " أى اتخذه وليا وقدوة له " فأنه يضله
أى : فشأن هذا الشيطان أن يضل تابعه عن كل خير " ويهديه إلى عذاب السعير "
أى : وأن شأن هذا الشيطان - أيضا - أن يهدى متبعه إلى طريق النار "

المستعرة ، وفى التعبير بقوله : ( وَيَهْدِيهِ إلى عَذَابِ السعير ) تهكم
بمن يتبع هذا الشيطان ، إذ سمى - سبحانه - قيادة الشيطان لأتباعه هداية
وقد ذكر كثير من المفسرين أن هاتين الآيتين نزلتا فى شأن النضر بن الحارث.
أو العاص بن وائل ، أو أبى جهل .. . وكانوا يجادلون النبى - صلى الله عليه
، وسلم - بالباطل .ومن المعروف أن نزول هاتين الآيتين فى شأن هؤلاء الأشخاص
لا يمنع من عمومهما فى شأن كل من كان على شاكلة هؤلاء الأشقياء ، إذ العبرة
بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .ولذا قال صاحب الكشاف : " وهى عامة فى كل من
تعاطى الجدال فيما يجوز على الله وما لا يجوز ، من الصفات والأفعال . ولا
يرجع إلى علم . ولا يعض فيه بضرس قاطع ، وليس فيه اتباع البرهان ، ولا نزول
على النصفة ، فهو يخبط خبط عشواء ، غير فارق بين الحق والباطل . "

يا ايها الناس ان كنتم في ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم
من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الارحام ما نشاء
الى اجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا اشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد
الى ارذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وترى الارض هامدة فاذا انزلنا
عليها الماء اهتزت وربت وانبتت من كل زوج بهيج

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - أهم القضايا التى جادل فيها المشركون
بغير علم ، واتبعوا فى جدالهم خطوات الشيطان ، وهى قضية البعث ، وأقام
الأدلة على صحتها ، وعلى أن البعث حق وواقع فقال - تعالى - : ( ياأيها
الناس . . . ) .قال أبو حيان فى البحر : لما ذكر - سبحانه - من يجادل فى
قدرة الله بغير علم ، وكان جدالهم فى الحشر والمعاد ، ذكر دليلين واضحين
، على ذلك . أحدهما : فى نفس الإنسان وابتداء خلقه . وتطوره فى أطوار سبعة
وهى : التراب ، والنطفة ، والعلقة ، والمضغة ، والإخراج طفلا ، وبلوغ الأشد
والتوفى أو الرد إلى أرذل العمر .والدليل الثانى : فى الأرض التى يشاهد ،
تنقلها من حال إلى حال فإذا اعتبر العاقل ذلك ثبت عنده جوازه عقلا ، فإذا
ورد الشرع بوقوعه ، وجب التصديق به ، وأنه واقع لا محالة .والمراد بالناس
هنا : المشركون وكل من كان على شاكلتهم فى إنكار أمر البعث واستبعاده ، لأن
: المؤمنين يعترفون بأن البعث حق ، وأنه واقع بلا أدنى شك أو ريب .والمعنى
يأيها الناس إن كنتم فى شك من أمر إعادتكم إلى الحياة مرة أخرى للحساب يوم
القيامة ، فانظروا وتفكروا فى مبدأ خلقكم ، فإن هذا التفكر من شأنه أن يزيل
هذا الشك ، لأن الذى أوجدكم الإيجاد الأول . وخلقكم من التراب ، قادر على
إعادتكم إلى الحياة مرة أخرى ، إذ الإعادة - كما يعرف كل عاقل - أيسر من
، ابتداء الفعل .وقد قرب - سبحانه - هذا المعنى فى أذهانكم فى آيات كثيرة
منها قوله - تعالى - : ( وَهُوَ الذي يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ
وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ المثل الأعلى فِي السماوات والأرض وَهُوَ
العزيز الحكيم ) وأتى - سبحانه - بأن المفيدة للشك فقال : ( إِن كُنتُمْ
فِي رَيْبٍ مِّنَ البعث ) مع أن كونهم فى ريب أمر محقق تنزيلاً للمحقق
منزلة المشكوك فيه ، وتنزيهاً لموضوع البعث عن أن يتحقق الشك فيه من أى
عاقل ، وتوبيخا لهم لوضعهم الأمور فى غير مواضعها .ووجه الإتيان بفى الدالة
على الظرفية ، للإشارة إلى أنهم قد امتلكهم الريب وأحاط بهم إحاطة الظرف
بالمظروف .قال الألوسى : " وقوله ( فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ )
، دليل جواب الشرط ، أو هو الجواب بتأويل ، أى : إن كنتم فى ريب من البعث
فانظروا إلى مبدأ خلقكم ليزول ريبكم ، فإنا خلقناكم من تراب ، وخلقهم من
تراب فى ضمن خلق أبيهم آدم منه . . " .وقال بعض العلماء ما ملخص : والتحقيق
- فى معنى قوله - تعالى ( فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ) : أنه
سبحانه - خلق أباهم آدم منه ، ثم خلق من آدم زوجه حواء ، ثم خلق الناس
منهما عن طريق التناسل .فلما كان أصلهم الأول من تراب ، أطلق عليهم أنه
خلقهم من تراب؛ لأن الفروع تتبع الأصل . وعلى ذلك يكون خلقهم من تراب هو
الطور الأول . . " .ثم بين - سبحانه - الطور الثانى من أطوار خلق الإنسان
فقال : ( ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ) وهذا اللفظ مأخوذ من النطف - بفتح النون مع
التشديد وإسكان الطاء - بمعنى السيلان والتقاطر .يقال : نطفت القربة ، إذا
، تقاطر الماء منها بقلة .والنطفة تطلق فى اللغة : على الماء القليل
والمراد بها هنا : الماء المختلط من الرجل والمرأة عند الجماع ، والمعبر
عنه بالمنى .وقوله ( ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ) هو الطور الثالث . والعلقة
جمعها علق ، وهى قطعة من الدم جامدة ، تتحول إليها النطفة .وقوله : ( ثُمَّ
مِن مُّضْغَةٍ ) هو الطور الرابع ، والمضغة قطعة صغيرة من اللحم تحول إليها
العلقة .وقوله - سبحانه - ( مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ) صفة
للمضغة .والمراد بالمخلقة : التامة الخلقة ، السالمة من العيوب ، والمراد
بغير المخلقة : ما ليست كذلك كأن تكون ناقصة الخلقة .وقد اكتفى بهذا المعنى
: صاحب الكشاف فقال : " والمخلقة " المستواة الملساء من النقصان والعيب
يقال : خلق السواك والعود ، إذا سواه وملسه ، من قولهم : صخرة خلقاء ، إذا
كانت ملساء . كأن الله - تعالى - يخلق المضغ متفاوتة . منها . ما هو كامل
، الخلقة أملس من العيوب ، ومنها ما هو على عكس ذلك ، فيتبع ذلك التفاوت

: تفاوت الناس فى خلقهم وصورهم وطولهم وقصرهم وتمامهم ونقصانهم . . " .وقيل
مخلقة " أى : مستبينة الخلق ، ظاهرة التصوير . " وغير مخلقة " أى : لم
يستبن خلقها ولا ظهر تصويرها كالسقط الذى هو مضغة ولم تظهر صورته الإنسانية
بعد .وقيل : " مخلقة " أى : نفخ فيها الروح . " وغير مخلقة " أى : لم ينفخ
فيها الروح .ويبدو لنا أن ما ذهب إليه صاحب الكشاف واكتفى به أولى بالقبول
لأنه هو المشهور من كلام العرب . فهم يقولون : حجر أخلق أى : أملس مصمت ،
- لا يؤثر فيه شىء ، وصخرة خلقاء ، أى : ليس بها تشويه أو كسر .وقوله
: تعالى - : ( لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ) متعلق بقوله : ( خَلَقْنَاكُمْ ) أى
خلقناكم على هذا النحو العجيب ، وفى تلك الأطوار البديعة . لنبين لكم كمال
قدرتنا ، وبليغ حكمتنا . وأننا لا يعجزنا إعادة كل حى إلى الحياة بعد موته
وحذف مفعول " نبين " للإشعار بأن أفعاله - تعالى - الدالة على كمال قدرته.
لا يحيط بها وصف ، ولا تمدها عبارة . . .أى : لنبين لكم عن طريق المشاهدة ،
- ما يدل على كمال قدرتنا دلالة يعجز الوصف عن الإحاطة بها .وقوله ،
تعالى - : ( وَنُقِرُّ فِي الأرحام مَا نَشَآءُ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى )
كلام مستأنف مسوق لبيان أحوال الناس بعد تمام خلقهم ، وتوارد تلك الأطوار
عليهم .أى : ونقر ونثبت فى أرحام الأمهات ما نشاء إقراره وثبوته فيها من
الأجنة والأحمال ، إلى أجل معلوم عندنا . وهو الوقت المحدد للولادة والوضع
وما لم نشأ إقراره من الحمل لفظته الأرحام وأسقطته ، إذ كل شىء بمشيئتنا ،
وإرادتنا .وقوله - تعالى - : ( ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ) بيان للطور
الخامس من أطوار خلق الإنسان .أى : ثم نخرجكم من أرحام أمهاتكم بعد
استقراركم فيها إلى الوقت الذى حددناه ، طفلاً صغيراً . أى : أطفالاً
، صغاراً ، وإنما جاء مفرداً باعتبار إرادة الجنس الشامل للواحد والمتعدد
او باعتبار كل واحد منهم ، وهو حال من ضمير المخاطبين .ومن الأساليب
العربية المعهودة ، أن الاسم المفرد إذا كان اسم جنس . يكثر إطلاقه على
الجمع ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ( واجعلنا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً ) أى
أئمة . وقوله - سبحانه - ( فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ :
نَفْساً . . ) أى : أنفسا ، ومن هذا القبيل قول الشاعر :وكان بنو فزارة
) - شَرَّ عمٍّ ... فكنت لهم كشر بنى الأخيناأى : شر أعمام .وقوله تعالى
ثُمَّ لتبلغوا أَشُدَّكُمْ ) بيان للطور السادس ، والأشد : قوة الإنسان
وشدته واشتعال حرارته ، من الشدة بمعنى الارتفاع والقوة ، يقال : شد النهار
- إذا ارتفع ، وهو مفرد جاء بصيغة الجمع ، أو جمع لا واحد له ، أو جمع شدة
كأنعم ونعمة - .قال الآلوسى : " والجملة علة لنخرجكم ، وهى معطوفة على علة
أخرى مناسبة لها .كأنه قيل : ثم نخرجكم لتكبروا شيئاً فشيئاً ثم لتبلغوا
. أشدكم ، أى كمالكم فى القوة والعقل والتمييز . . . وقيل : علة لمحذوف
والتقدير : ثم نمهلكم لتبلغوا أشدكم . . .وتقديم التبيين " لنبين لكم " على
ما بعده ، مع أن حصوله بالفعل بعد الكل ، للإيذان بأنه غاية الغايات ومقصود
، بالذات .وإعادة اللام فى " لتبلغوا " مع تجريد " نقر ، ونخرج " عنها
للإشعار بأصالة البلوغ بالنسبة إلى الإقرار والإخراج إذ عليه يدور التكليف
المؤدى إلى السعادة والشقاوة " .وقوله - سبحانه - : ( وَمِنكُمْ مَّن يتوفى
وَمِنكُمْ مّن يُرَدُّ إلى أَرْذَلِ العمر لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدِ
عِلْمٍ شَيْئاً ) بيان للطور السابع والأخير .أى : منكم - أيها الناس - من
يبلغ أشده فى هذه الحياة ، ومنكم من يموت قبل ذلك ، ومنكم من يعيش إلى أرذل
العمر أى : أخسه وأدونه ، فيصير من بعد علمه بالأشياء وفهمه لها ، لا علم
له ولا فهم ، شأنه فى ذلك شأن الأطفال .قال - تعالى - : ( لَقَدْ خَلَقْنَا
( الإنسان في أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ
فالآية الكريمة تصور أطوار خلق الإنسان ومراحل حياته أكمل تصوير ، للتنبيه
على مظاهر قدرة الله - تعالى - وعلى أن البعث حق وصدق .وبعد إقامة هذا
الدليل من نفس الإنسان وتطور خلقه على صحة البعث ، ساق - سبحانه - الدليل
) - الثانى عن طريق مشاهدة الأرض وتنقلها من حال إلى حال ، فقال - تعالى
وَتَرَى الأرض هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الماء اهتزت
وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ) .وقوله : ( هَامِدَةً )
أى : يابسة ، يقال : همدت الأرض تهمد - بضم الميم - هموداً ، إذا يبست
ومعنى : " اهتزت " : تحركت ، يقال : هز فلان الشىء فاهتز ، إذا حركه فتحرك.
ومعنى : " ربت " زادت بسبب تداخل الماء والنبات فيها ، يقال : ربا الشىء.
- يربو ربوا ، إذا زاد ونما ، ومنه الربا والربوة .أى : وترى - أيها العاقل
، ببصرك الأرض يابسة لا نبات فيها ، فإذا ما أنزلنا عليها بقدرتنا الماء
، تحركت بسبب خروج النبات منها ، وانتفخت بسبب ما يتخللها من الماء والنبات
وأنبتت بعد ذلك من كل صنف بهيج نضر حسن المنظر .وشبيه بهذه الآية فى أن
- إحياء الأرض بعد موتها دليل على إحياء الناس بعد موتهم ، بقدرة الله
تعالى - وإرادته ، قوله - عز وجل - ( وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأرض
خَاشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الماء اهتزت وَرَبَتْ إِنَّ الذي
أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الموتى إِنَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ).

ذلك بان الله هو الحق وانه يحيي الموتى وانه على كل شيء قدير

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما يدل على وحدانيته وقدرته فقال : ( ذلك بِأَنَّ الله هُوَ الحق وَأَنَّهُ يُحْيِي الموتى وَأَنَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ) .واسم الإشارة يعود إلى المذكور من خلق الإنسان وإحياء الأرض بعد موتها . . .أى : ذلك الذى ذكرناه لكم دليل واضح ، وبرهان قاطع ، على أن الله - تعالى - هو الإله الحق ، الذى يجب أن تخلصوا له العبادة والطاعة ، لأنه هو وحده الخالق لكل شىء ، ولأنه هو وحده الذى يعيد الموتى إلى الحياة ، ولأنه هو وحده الذى لا يعجزه شىء .وخص - سبحانه - إحياء الموتى بالذكر ، مع أن من جملة الأشياء المقدور عليها . للتصريح بما هو محل النزاع وهو البعث ، ولدحض شبه المنكرين له .

وان الساعة اتية لا ريب فيها وان الله يبعث من في القبور

كما فسرها الوسيط ثم أكد - سبحانه - ذلك تأكيداً دامغاً فقال : ( وَأَنَّ الساعة ) وما تشتمل عليه من حساب وثواب وعقاب ( آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا ). - أى : لا ريب ولا شك فى إتيانها فى الوقت الذى يريده الله - تعالى ( وَأَنَّ الله ) - تعالى - وحده ( يَبْعَثُ مَن فِي القبور ) ليحاسبهم على أعمالهم .وبذلك نرى الآيات الكريمة قد أقامت أعظم الأدلة وأوضحها على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، وعلى أن البعث حق وصدق وأنه آت لا ريب فيه .

ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير

كما فسرها الوسيط ثم ساقت السورة الكريمة بعد ذلك نموذجين لصنفين من الناس - أحدهما : متكبر مغرور ، والآخر مذبذب لا ثبات له فى عقيدة فقال - تعالى ، - قال ابن كثير - رحمه الله - : " لما ذكر - تعالى. ( . . ومِنَ الناس ) : حال الضلال الجهال المقلدين لغيرهم فى الآية الثالثة من هذه السورة وهى قوله - سبحانه - : ( وَمِنَ الناس مَن يُجَادِلُ فِي الله بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ) ذكر فى هذه حال الدعاة إلى الضلال من رءوس الكفر والبدع ، فقال : ( ومِنَ الناس مَن يُجَادِلُ فِي الله بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ ) أى : بلا عقل صحيح ولا نقل صحيح صريح بل بمجرد الرأى والهوى " .ولعل مما يؤيد ما ذهب إليه ابن - كثير من أن الآية الثالثة من هذه السورة فى شأن المقلدين لغيرهم ، أنه سبحانه - قال فيها فى شأنهم : ( وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ).

ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله له في الدنيا خزي ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق

) : كما فسرها الوسيط أما فى هذه الآية فقد قال فى شأن هذا النوع من الناس ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ الله . . . ) أى : ليضل غيره ويصرفه عن طاعة الله - تعالى - واتباع طريقه الحق .وقد نفت الآية الكريمة عن هذا المجادل ، استناده إلى أى دليل أو ما يشبه الدليل ، فهو يجادل فى ذات الله - تعالى - وفى صفاته " بغير علم " يستند إليه وبغير " هدى " يهديه ، ويرشده إلى الحق وبغير " كتاب منير " أى : وبغير وحى ينير عقله وقلبه ويوضح له سبيل الرشاد .فأنت ترى أن الآية قد جردت هذا المجادل من أى مستند إليه فى جداله سواء كان عقلياً أم نقلياً ، بل أثبتت له الجهالة من جميع الجهات .ثم صورته السورة الكريمة بعد ذلك بتلك الصورة المزرية ، صورة الجاهل المغرور المتعجرف ، فقال - تعالى - : ( ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ الله ) .وقوله ( ثَانِيَ ) من الثَّنْى بمعنى اللَّىّ والميل عن الاستقامة . يقال : فلان ثنى الشىء إذا رد بعضه على بعض فانثنى أى : مال والتوى .والعِطْف - بكسر العين - الجانب ، وهذا التعبير كناية عن غروره وصلفه مع جهله . أى : أنه مع جداله بدون علم ، متكبر معجب بنفسه ، معرض عن الحق ، مجتهد فى إضلال غيره عن سبيل الله - تعالى - وعن الطريق الذى يوصل إلى الرشاد .ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة هذا الجاهل المغرور المضل لغيره فقال : ( لَهُ فِي الدنيا خِزْيٌ ) أى : هوان وذله وصغار .( وَنُذِيقُهُ يَوْمَ القيامة عَذَابَ الحريق ) أى : ونجعله يوم القيامة يدرك طعم العذاب المحرق . ويصطلى به جزاء غروره وشموخه فى الدنيا بغير حق .

ذلك بما قدمت يداك وان الله ليس بظلام للعبيد

كما فسرها الوسيط وتقول له ملائكتنا وهى تصب عليه ألوان العذاب ( ذلك بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ) أى : ذلك الذى تتذوقه من عذاب محرق سببه : جهلك وغرورك وإصرارك على الكفر ، وحرصك على إضلالك لغيرك .وأسند - سبحانه - سبب ما نزل بهذا الكافر من خزى وعذاب إلى يديه ، لأنهما الجارحتان اللتان يزاول بهما

أكثر الأعمال .وقوله - سبحانه - ( وَأَنّ الله لَيْسَ بِظَلاّمٍ
- لِّلعَبِيدِ ) بيان لعدله - تعالى - مع عباده ، أى : وأن الله - تعالى
، ليس بذى ظلم لعباده أصلاً ، حتى يعذبهم بدون ذنب ، بل هو عادل رحيم بهم
ومن مظاهر عدله ورحمته أنه يضاعف الحسنات ، ويعاقب على السيئات ، ويعفو عن
كثير من ذنوب عباده .

ومن الناس من يعبد الله على حرف فان اصابه خير اطمان به وان اصابته فتنة
انقلب على وجهه خسر الدنيا والاخرة ذلك هو الخسران المبين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - نوعاً آخر من الناس ، لا يقل جرماً عن
سابقه فقال - تعالى - : ( وَمِنَ الناس مَن يَعْبُدُ الله على حَرْفٍ
فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطمأن بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقلب على
وَجْهِهِ . . ) .قال صاحب الكشاف : " على حرف " أى : على طرف من الدين لا
فى وسطه وقلبه . وهذا مثل لكونهم على قلق واضطراب فى دينهم :لا على سكون
وطمأنينة ، كالذى يكون على طرف من العسكر ، فإن أحس بظفر وغنيمة قر واطمأن
وإلا فر وطار على وجهه . . " .وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية ،
روايات منها : ما أخرجه البخارى عن ابن عباس قال : كان الرجل يقدم المدينة
فإذا ولدت أمرأته غلاماً ، ونتجت خيله . قال : هذا دين صالح ، وإن لم تلد ،
امرأته ، ولم تنتج خيله قال : هذا دين سوء . . . " .والمتأمل فى هذه الآية
الكريمة يراها قد صورت المذبذبين فى عقيدتهم أكمل تصوير ، فهم يقيسون
العقيدة بميزان الصفقات التجارية ، إن ربحوا من ورائها فرحوا ، وإن خسروا
فيها أصابهم الغم والحزن .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - فى شأن
المنافقين : ( وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصدقات فَإِنْ أُعْطُواْ
مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ
) على حَرْفٍ ) يصور هذا النوع من الناس ، وكأنه
والتعبير بقوله - سبحانه -
يتأرجح فى عبادته كما يتأرجح من يكون على طرف الشىء . فهو معرض للسقوط فى
أية لحظة .والمراد من الخير فى قوله - تعالى - ( فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ
اطمأن بِهِ ) الخير الدنيوى من صحة وغنى ومنافع دنيوية .أى : فإن نزل بهذا
المذبذب فى عبادته خير دنيوى ( اطمأن بِهِ ) أى : ثبت على ما هو عليه من
عبادة ثباتاً ظاهرياً ، وليس ثباتاً قلبياً حقيقياً كما هو شأن المؤمنين
الصادقين الذين لا يزحزحهم عن إيمانهم وعد أو وعيد .( وَإِنْ أَصَابَتْهُ
فِتْنَةٌ ) أى : مصيبة أو شر ( انقلب على وَجْهِهِ ) أى : ارتد ورجع عن
عبادته ودينه إلى الكفر والمعاصى .وقوله - تعالى - : ( خَسِرَ الدنيا
والآخرة ذلك هُوَ الخسران المبين ) بيان لسوء عاقبة صنيعه .أى : هذا الذى
يعبد الله على حرف ، جمع على نفسه خسارتين ، خسارة الدنيا بسبب عدم حصوله
على ما يريده منها ، وخسارة الآخرة بسبب ارتداده إلى الكفر وغشيان السيئات
وذلك الذى جمعه على نفسه هو الخسران الواضح ، الذى لا ينازع فى شأنه ،
عاقلان ، إذ لا خسران أشد وأظهر ، من الخسران الذى ضيع دنياه وآخرته .

يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ذلك هو الضلال البعيد

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - مظاهر خسران هذا المذبذب ، وأحواله
القبيحة فقال : ( يَدْعُو مِن دُونِ الله مَا لاَ يَضُرُّهُ وَمَا لاَ
يَنفَعُهُ . . . ) .أى : يعبد سوى الله - تعالى - أوثاناً وأصناماً ، إن
ترك عبادتها لا تستطيع أن تضره ، وإن عبدها فلن تستطيع أن تنفعه .و ( ذلك )
الذى يفعله هذا الشقى من عبادته لما لا يضر ولا ينفع ( هُوَ الضلال البعيد
بعداً شاسعاً عن كل صواب ورشاد ) .

يدعو لمن ضره اقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير

كما فسرها الوسيط ثم أضاف - سبحانه - إلى تبكيت هذا المذبذب وتقريعه
تقريعاً آخر فقال : ( يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ
لَبِئْسَ المولى وَلَبِئْسَ العشير ) .والمولى : هو كل من انعقد بينك وبينه
سبب ، يجعلك تواليه ويواليك ، وتناصره ويناصرك . والعشير : هو من يعاشرك
ويخالطك فى حياتك .أى : يعبد هذا الإنسان الجاهل المضطرب ، معبوداً ضرره
أقرب من منفعته ، لبئس الناصر ولبئس الصاحب هذا المعبود .فإن قيل : كيف
نجمع بين هذه الآية التى جعلت المعبود الباطل ضرره أقرب من نفعه ، وبين
الآية السابقة عليها والتى نفت الضر والنفع نفياً تاماً .وقد أجاب العلماء
عن هذا التساؤل بإجابات منها : أن لفظ " يدعو " فى الآية الثانية بمعنى
- يقول .وقد صدر الألوسى تفسيره للآية بهذا الرأى فقال ما ملخصه : " قوله
تعالى - ( يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ ) . استئناف يبين
مآل دعائه وعبادته غير الله - تعالى - ويقرر كون ذكل ضلالاً بعيداً .
فالدعاء هنا بمعنى القول ، أى : يقول الكافر يوم القيامة برفع صنته ، وصراخ
حين يرى تضرره بمعبوده ودخوله النار بسببه ، ولا يرى منه أثراً مما كان

يتوقعه منه من نفع أو دفع ضر : والله لبئس الذى يتخذ ناصراً - من دون الله - ولبئس الذى يعاشر ويخالط ، فكيف بما هو ضرر محض ، عار من النفع بالكلية ، وفى هذا من المبالغة فى تقبيح حال الصنم والإمعان فى ذمه ما لا يخفى . . . " .ومنها ما ذكره الإمام القرطبى فقال : قوله - تعالى - ( يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ ) أى : هذا الذى انقلب على وجهه يدعو من ضره أدنى من نفعه ، أى : فى الآخرة ، لأنه بعبادته دخل النار ولم يرد منه نفعاً أصلاً ، ولكنه قال : ضره أقرب من نفعه ، ترفيعاً للكلام ، كقوله - تعالى - : ( وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لعلى هُدًى أَوْ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ) ومنها : ما ذكره بعض العلماء من أن الآية الأولى فى شأن الذين يعبدون الأصنام ، إذ الأصنام لا تنفع من عبدها ، ولا ضر من كفر بها ، ولذا قال فيها : ما لا يضره وما لا ينفعه ، والقرينة على أن المراد بذلك الأصنام ، التعبير بلفظة " ما " فى قوله : ( مَا لاَ يَضُرُّهُ وَمَا لاَ يَنفَعُهُ ) لأن لفظ " ما " يأتى - غالباً - لما لا يعقل .والأصنام لا تعقل .أما الآية الثانية فهى فى شأن من عبد بعض الطغاة من دون الله ، كفرعون القائل لقومه : " ما علمت لكم من إله غيرى " فإن فرعون وأمثاله من الطغاة المعبودين ، قد يغدقون نعم الدنيا على عابديهم . وهذا النفع الدنيوى بالنسبة لما سيلاقونه من عذاب لا شىء . فضر هذا المعبود بخلود عابده فى النار . أقرب من نفعه بعرض قليل زائل من حطام الدنيا .والقرينة على أن المراد بالمعبود الباطل فى الآية الثانية بعض الطغاة الذين هم من جنس العقلاء : هى التعبير " بمن " التى تأتى - غالباً - لمن يعقل ، كما قال - تعالى - : ( يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ . . ) .ويبدو لنا أن هذا القول الأخير له وجه من القبول .وبذلك نرى السورة الكريمة قد ساقت لنا نماذج من أحوال الناس فى هذه الحياة . لكى يحذرهم المؤمنون ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة .

ان الله يدخل الذين امنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الانهار ان الله يفعل ما يريد

كما فسرها الوسيط ثم بينت السورة الكريمة ما أعده الله - تعالى - للمؤمنين الصادقين من حسن الثواب ، بعد أن صرحت بما توعد به - سبحانه - المجادلين فيه بغير علم بسوء العقاب ، فقال - تعالى - : ( إِنَّ الله يُدْخِلُ الذين آمَنُواْ . . . ) .

من كان يظن ان لن ينصره الله في الدنيا والاخرة فليمدد بسبب الى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ

كما فسرها الوسيط للعلماء فى تفسير الآية الأولى أقوال :أولها أن الضمير فى قوله ( يَظُنُّ ) يعود إلى أعداء النبى - صلى الله عليه وسلم - وفى قوله ( يَنصُرَهُ ) يعود إليه - صلى الله عليه وسلم - .والمعنى : ( من كان يظن ) من الكافرين الكارهين للحق الذى جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - ( أن لن ينصره الله ) . أى : أن لن ينصر الله نبيه - صلى الله عليه وسلم - ( فى الدنيا والآخرة فليمدد ) هذا الكافر ( بسبب ) أى : بحبل إلى السماء ، أى : سقف بيته ، لأن العرب تسمى كل ما علاك فهو سماء ." ثم ليقطع " ثم ليختنق هذا الكافر بهذا الحبل ، بأن يشده حول عنقه ويتدلى من الحبل المعلق بالسقف حتى يموت .( فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ ) أى : فليتفكر هذا الكافر فى أمره ، هل يزيل فعله هذا ما امتلأت به نفسه من غيظ لنصر الله - تعالى - لنبيه - صلى الله عليه وسلم -؟كلا ، فإن ما يفعله بنفسه من الاختناق والغيظ ، لن يغير شيئاً من نصر الله - تعالى - لنبيه - صلى الله عليه وسلم ، فليمت هذا الكافر بغيظه وكيده .فالمقصود بالآية الكريمة ، بيان أن ما قدره الله - تعالى - من نصر لنبيه - صلى الله عليه وسلم - لن يحول بين تنفيذه حائل ، مهما فعل الكافرون ، وكره الكارهون ، فليموتوا بغيظهم ، فإن الله - تعالى - ناصر نبيه لا محالة .وصح عود الضمير فى قوله ( أَن لَّن يَنصُرَهُ ) إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - مع أنه لم يسبق له ذكر ، لأن الكلام دال عليه فى الآيات السابقة ، إذ المراد بالإيمان فى قوله - تعالى - فى الآية السابقة ( إِنَّ الله يُدْخِلُ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ) الإيمان بصدق النبى - صلى الله عليه وسلم - فيما جاء به عند ربه . . .وعبر - سبحانه - عن اختناق هذا الحاقد بالحبل بقوله : ( ثُمَّ لْيَقْطَعْ ) لأن قطع الشىء يؤدى إلى انتهائه وهلاكه ، والمفعول محذوف . والتقدير : ثم ليقطع نفسه أو حياته .وقد صدر صاحب الكشاف تفسيره للآية بهذا القول فقال : هذا كلام قد دخله اختصار .والمعنى : إن الله ناصر رسوله فى الدنيا والآخرة ، فمن كان يظن من حاسديه وأعاديه أن الله يفعل خلاف ذلك . . فليستقص وسعه ، وليستفرغ مجهوده فى إزالة ما يغيظه . بأن يفعل ما يفعله من بلغ به الغيظ كل مبلغ ، حتى مد حبلاً إلى سماء بيته فاختنق ، فلينظر - هذا الحاسد - وليصور فى نفسه أنه إن فعل ذلك هل يذهب نصر الله الذى

يغيظه؟وسمى - سبحانه - فعل هذا الكاف كيداً ، لأنه وضعه موضع الكيد ، حيث لم يقدر على غيره ، أو سماه كذلك على سبيل الاستهزاء ، لأنه لم يكد به محسوده ، إنما كاد نفسه .والمراد : إنه ليس فى يده إلا ما ليس بمذهب لما " يغيظه . . " .وثانيها : إن الضمير فى قوله : ( لَّن يَنصُرَهُ ) يعود إلى من " فى قوله ( مَن كَانَ يَظُنُّ ) وأن النصر هنا بمعنى الرزق . .فيكون المعنى : من كان من الناس يظن أن لن يرزقه الله فى الدنيا والآخرة فليختنق ، وليقتل نفسه ، إذ لا خير فى حياة ليس فيها رزق الله وعونه ، أو فليختنق ، فإن اختناقه لن يغير شيئاً مما قضاه الله - تعالى - .قال الآلوسى : واستظهر أبو حيان كون الضمير فى " ينصره " عائداً على " من " لأنه المذكور ، وحق الضمير أن يعود على مذكور . . . وفسر النصر بالرزق .قال أبو عبيدة : وقف علينا سائل من بنى بكر فقال : من ينصرنى نصره الله - أى : من يرزقنى رزقه الله .والمعنى : أن الارزاق بيد الله - تعالى -لا تنال إلا بمشيئته ، فمن ظن أن الله - تعالى - غير رازقه ، ولم يصبر ولم يستسلم فليختنق ، فإن ذلك - لا يقلب القسمة ولا يرده مرزوقاً .والغرض : الحث على الرضا بما قسمه الله تعالى -لا كمن يعبده على حرف . . .وثالثها : أن الآية فى قوم من المسلمين ، استبطأوا نصر الله - تعالى - لاستعجالهم وشدة غيظهم وحنقهم على المشركين فنزلت الآية لبيان أن كل شىء عند الله بمقدار .ويكون المعنى: من كان من الناس يظن أن لن ينصره الله ، واستبطأ حدوث ذلك ، فليمت غيظاً . لأن للنصر على المشركين وقتاً لا يقع إلا فيه بإذن الله ومشيئته .ويبدو أن أقرب - الأقوال إلى الصواب ، القول الأول ، وعليه جمهور المفسرين ، ويؤيده قوله تعالى - : ( إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا والذين آمَنُواْ فِي الحياة الدنيا وَيَوْمَ يَقُومُ الأشهاد )وقوله - سبحانه - : ( . . . وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأنامل مِنَ الغيظ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ الله عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ).

وكذلك انزلناه ايات بينات وان الله يهدي من يريد

كما فسرها الوسيط ثم مدح - سبحانه - القرآن الكريم فقال : ( وكذلك أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ . . . ) أى : ومثل ذلك الإنزال البليغ ، الواضح ، أنزلنا القرآن آيات بينات الدلالة على معانيها الحكيمة وتوجيهاتها السديدة .وأن الله - تعالى - يهدى من يريد هدايته إلى صراطه المستقيم ، فهو الهادى الذى ليس هناك من هاد سواه .

ان الذين امنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين اشركوا ان الله يفصل بينهم يوم القيامة ان الله على كل شيء شهيد

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن مرد الفصل بين الفرق المختلفة إليه - وحده . إذ هو العليم بكل ما عليه كل فرقة من حق أو باطل ، فقال - تعالى : فى هذه الآية الكريمة. ( . . . إِنَّ الذين آمَنُواْ والذين هَادُواْ ) حدثنا القرآن عن ست فرق من الناس : أما الفرقة الأولى ، فهى : فرقة الذين آمنوا ، والمراد بهم : الذين آمنوا بالنبى - صلى الله عليه وسلم - وصدقوه ، واتبعوه .وابتدأ القرآن بهم ، للإشعار بأن دين الإسلام هو الدين الحق القائم على أساس أن الفوز برضا الله - تعالى -لا ينال إلا الإيمان والعمل الصالح ، ولا فضل لأمة على أمة إلا بذلك ، كما قال - تعالى - : ( إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عَندَ الله أَتْقَاكُمْ ) وأما الفرقة الثانية فهى فرقة الذين هادوا أى : صاروا يهودا . يقال : هاد فلان وتهود أى : دخل فى اليهودية وسموا يهودا نسبة إلى " يهوذا " أحد أولاد يعقوب - عليه السلام - ، وقلبت. الذال دال عند التعريب . أو سموا يهودا حين تابوا من عبادة العجل مأخوذ من هاد يهود هودا بمعنى تاب . ومنه قوله - تعالى - : ( إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ) أى : تبنا إليك .والفرقة الثالثة هى فرقة " الصابئين " جمع صابئ وهو الخارج من دين إلى آخر .يقال : صبأ الظِّلف والناب والنجم - كمنع ، وكرم - إذا طلع .والمراد بهم : الخارجون من الدين الحق إلى الدين الباطل . وهم قوم يعبدون الكواكب والملائكة ويزعمون أنهم على دين صابئ بن شيث ابن آدم .والفرقة الرابعة هى فرقة " النصارى " جمع نصران بمعنى نصرانى كندامى وندمان . والياء فى نصرانى للمبالغة ، وهم قوم عيسى - عليه السلام - ، قيل سموا بذلك لأنهم كانوا أنصارا له : وقيل : إن هذا الاسم مأخوذ من الناصرة : " وهى القرية التى كان عيسى قد نزل بها .وأما الفرقة الخامسة فهى فرقة ، المجوس " وهم قوم يعبدون الشمس والقمر والنار . وقيل : هم قوم أخذوا من دين النصارى شيئاً ، ومن دين اليهود شيئاً ، ويقولون : بأن للعالم أصلين : نوراً وظلمة . . .وأما الفرقة السادسة والأخيرة فهى فرقة الذين أشركوا . والمشهودر أنهم عبدة الأصنام والأوثان ، وقيل ما يشملهم ويشمل معهم كل من اتخذ مع الله - تعالى - إلها آخر .وقوله - سبحانه - : ( إِنَّ الله يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القيامة إِنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ) - بيان لما سيكون عليه حالهم جميعاً يوم القيامة ، من حكم عادل سيحكم الله

تعالى - به عليهم .أى : إن الله تعالى يحكم بين هؤلاء جميعاً بحكمه العادل
يوم القيامة ، إنه - سبحانه - على كل شىء شهيد ، بحيث لا يخفى عليه شىء من
أحوال خلقه .قال الجمل ما ملخصه : ولهذه الآية قيل : الأديان ستة . واحد
للرحمن وهو الإسلام . وخمسة للشيطان وهى ما عداه . وإنّ الثانية وإسمها
وخبرها فى محل رفع خبر لإن الأولى .وقوله : ( إِنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ
شَهِيدٌ ) تعليل لقوله : ( إِنَّ الله يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ . . ) وكأن
. قائلاً قال : أهذا الفصل عن علم أو لا؟ فقيل : إن الله على كل شىء شهيد
. " أى : علم به علم مشاهدة

الم تر ان الله يسجد له من في السماوات ومن في الارض والشمس والقمر والنجوم
والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله
فما له من مكرم ان الله يفعل ما يشاء

- كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن الكون كله يخضع لسلطانه - تعالى
ويسجد لوجهه فقال : ( أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يَسْجُدُ . . . ) .الاستفهام
فى قوله ( أَلَمْ تَرَ . . . ) للتقرير . والرؤية هنا بمعنى العلم وذلك لأن
سجود هذه الكائنات لله - تعالى - آمنا به عن طريق الإخبار دون أن نرى
. كيفيته .والسجود فى اللغة : التذلل والخضوع مع انخفاض بانحناء وما يشبهه
وخص فى الشرع بوضع الجبهة على الأرض بقصد العبادة .والمراد به هنا : دخول
الأشياء جميعها تحت قبضة الله - تعالى - وتسخيره وانقيادها لكل ما يريده
منا انقيادا تاما ، وخوضعها له - عز وجل - بكيفية هو الذى يعلمها . فنحن
- نؤمن بأن هذه الكائنات تسجد لله - تعالى - ونفوض كيفية هذا السجود له
، تعالى - .والمعنى : لقد علمت - أيها العاقل - أن الله - تعالى - يسجد له
ويخضع لسلطانه جميع من فى السموات وجميع من فى الأرض .وقوله : ( والشمس
- والقمر والنجوم ) عطف خاص على قوله : ( مَن فِي السماوات ) .ونص - سبحانه
، عليها مفرداً إياها بالذكر ، لشهرتها ، ولاستبعاد بعضهم حدوث السجود منها
ولأ آخرين كانوا يعبدون هذه الكواكب ، فبين - سبحانه - أنها عابدة وساجدة
لله ، وليست معبودة .وقوله - تعالى - : ( والجبال والشجر والدواب ) عطف خاص
على ( مَن فِي الأرض ) ونص - سبحانه - عليها - أيضا - لأن بعضهم كان
يعبدها ، أو يعبد ما يؤخذ منها كالأصنام .وقوله - تعالى - ( وَكَثِيرٌ
- مِّنَ الناس ) بيان الذين اهتدوا إلى طريق الحق . أى : ويسجد له - كذلك
كثير من الناس ، وهم الذين خلصت عقولهم من شوائب الشرك والكفر ، وطهرت
نفوهسم من الأدناس والأوهام .وقوله : ( وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العذاب )
بيان لحال الذين استحبوا العمى على الهدى .أى : وكثير من الناس حق وثبت
عليهم العذاب ، بسبب إصرارهم على الكفر ، وإيثارهم الغى على الرشد .ثم
ختم - سبحانه - الآية الكريمة بما يدل على نفاذ قدرته ، وعموم مشيئته فقال
وَمَن يُهِنِ الله فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنّ الله يَفْعَلُ مَا ) :
يَشَآءُ ) . و " من " شرطية ، وجوابها : " فما له من مكرم " ومكرم اسم فاعل
من أكرم .أى : ومن يهنه الله ويخزه ، فما له من مكرم يكرمه ، أو منقذ ينقذه
مما هو فيه من شقاء ، إن الله - تعالى - يفعل ما يشاء فعله بدون حسيب
يحاسبه ، أو معقب يعقب على حكمه .قال - تعالى - : ( والله يَحْكُمُ لاَ
مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الحساب ).

هذان خصمان اختصموا في ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق
رءوسهم الحميم

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك صورة فيها ما فيها من وجوه
المقارنات بين مصير الكافرين ومصير المؤمنين ، لكى ينحاز كل ذى عقل سليم
إلى فريق الإيمان لا الكفر ، فقال - تعالى - : ( هذان خَصْمَانِ . . . )
ذكر المفسرون فى سبب نزول قوله - تعالى - ( هذان خَصْمَانِ اختصموا فِي
رَبِّهِمْ . . . ) روايات أشار الإمام ابن كثير إلى معظمها فقال : " ثبت فى
الصحيحين عن أبى ذر : أنه كان يقسم قسماً أن هذه الآية ( هذان خَصْمَانِ )
: نزلت فى حمزة وصاحبيه . وعتبة وصاحبيه ، يوم برزوا فى بدر .وعن قتادة قال
اختصم المسلمون وأهل الكتاب ، فقال أهل الكتاب : نبينا قبل نبيكم ، وكتابنا
قبل كتابكم ، فنحن أولى بالله منكم ، وقال المسلمون : كتابنا يقضى على
الكتب كلها ، ونبينا خاتم الأنبياء ، فنحن أولى بالله منكم ، فأفلج الله
الإسلام على من ناوأه - أى فنصر الله الإسلام - ، وأنزل الآية .وعن مجاهد
فى الآية : مثل الكافر والمؤمن اختصما فى البعث .وهذا القول يشمل الأقوال
، كلها ، وينتظم فيه قصة بدر وغيرها ، فإن المؤمنين يريدون نصرة دين الله
والكافرون يريدون إطفاء نور الإيمان .أى : هذا خصمان اختصموا فى ذات ربهم
وفى صفاته ، بأن اعتقد كل فريق منهم أنه على الحق ، وأن خصمه على الباطل
- قال الجمل : والخصم فى الأصل مصدر ولذلك يوحد ويذكر غالبا ، وعليه قوله
تعالى - : ( وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الخصم إِذْ تَسَوّرُواْ المحراب )
ويجوز أن يثنى ويؤنث ، ولما كان كل خصم فريقا يجمع طوائف قال : ( اختصموا )

بصيغة الجمع كقوله - تعالى - : ( وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ المؤمنين اقتتلوا
فالجمع مراعاة للمعنى .وقوله - سبحانه - : ( فَالذين كَفَرُواْ قُطِّعَتْ
لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ . . . ) تفصيل وبيان لحال كل خصم وفريق .أى : )
فالذين كفروا جزاؤهم أنهم قطع الله - تعالى - لهم من النار ثيابا ، وألبسهم
إياها .قال الآلوسى : أى أعد الله لهم ذلك ، وكأنه شبه إعداد النار الحيطة
بهم بتقطيع ثياب وتفصيلها لهم على قدر جثثهم . ففى الكلام استعارة تمثيلية
تهكمية ، وليس هناك تقطيع ثياب ولا ثياب حقيقة . وكأن جميع الثياب للإيذان
بتراكم النار المحيطة بهم ، وكون بعضها فوق بعض . . . وعبر بالماضى ، لأن
الإعداد قد وقع ، فليس من التعبير بالماضى لتحققه . . .وقوله : ( يُصَبُّ
مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الحميم ) زيادة فى عذابهم ، أى : لم تقطع لهم ثياب
النار فحسب ، وإنما زيادة على ذلك يصب من فوق رءوسهم " الحميم " أى : )
الماء البالغ أقصى درجات الشدة فى الحرارة .

يصهر به ما في بطونهم والجلود

كما فسرها الوسيط وقوله : ( يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ والجلود )
بيان للآثار التى تترتب على هذا العذاب .والفعل " يصهر " مأخوذ من الصهر
بمعنى الإذابة . يقال : صهر فلان الشحم يصهره إذا أذابه .أى : فذلك الحميم
الذى يصب من فوق رءوسهم من آثاره أنه يذاب به ما بطونهم من الشحوم والأحشاء
كما تذاب به جلودهم - أيضا - فقوله : ( والجلود ) عطف على ( مَا ) .
الموصولة فى قوله ( مَا فِي بُطُونِهِمْ ) أى : يذاب به الذى فى بطونهم
" وتذاب به أيضا جلودهم .وقيل : إن لفظ الجلود مرفوع بفعل محذوف معطوف على
يصهر " .والتقدير : يصهر به ما فى بطونهم من أحشاء وشحوم ، وتحرق به الجلود
. قالوا : ذلك لأن الجلود لا تذاب وإنما تنقبض وتنكمش إذا أصليت بالنار .

ولهم مقامع من حديد

كما فسرها الوسيط والضمير فى قوله - سبحانه - : ( وَلَهُمْ مَّقَامِعُ مِنْ
حَدِيدٍ ) يعود إلى الكفرة المعذبين بهذا الحميم الذى تصهر به البطون
، - والمقامع : جمع مقمعة - بكسر الميم وسكون القاف وفتح الميم الثانية.
وهى آلة تستعمل فى القمع عن الشىء ، والزجر عنه ، يقال : قمع فلان فلانا
إذا قهره وأذله .أى : وخصصت لهؤلاء الكافرين مضارب من حديد تضربهم بها
" الملائكة على رءوسهم زيادة فى إذلالهم وقهرهم .وقيل : إن الضمير فى " لهم
يعود على خزنة النار . أى : ولخزنة النار مضارب من حديد يضربون بها هؤلاء
الكافرين .وعلى كلا القولين فالآية الكريمة تصور هوان هؤلاء الكافرين أكمل
. تصوير

كلما ارادوا ان يخرجوا منها من غم اعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( كُلَّمَآ أرادوا أَن يَخْرُجُواْ
مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا ) بيان لما يقابلون به عندما يريدون
التزحزح عن النار .أى : كلما أراد هؤلاء الكافرون أن يخرجوا من النار ومن
) : - غمها وكربها وسعيرها : أعيدوا فيها مرة أخرى ، كما قال - تعالى
يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ النار وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا
وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ) وقوله - تعالى - : ( وَذُوقُواْ عَذَابَ
الحريق ) مقول لقول محذوف أى : أعيدوا فيها وقيل لهم على لسان خزنة النار : )
ذوقوا العذاب المحرق لأبدانكم .هذا هو حال فريق الكافرين . وهو حال يزلزل
. القلوب ويرهب المشاعر ، ويفزع النفوس

ان الله يدخل الذين امنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الانهار
يحلون فيها من اساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير

كما فسرها الوسيط ولكن القرآن كعادته فى قرن الترهيب بالترغيب .لا يترك
النفوس فى هذا الفزع ، بل يتبع ذلك بما يمسح عنها خوفها ورعبها عن طريق
بيان حسن حال المؤمنين فيقول : ( إِنَّ الله يُدْخِلُ الذين آمَنُواْ
( . . . وَعَمِلُواْ الصالحات جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار
وغير - سبحانه - الأسلوب فلم يقل : والذين آمنوا على سبيل العطف على الذين.
كفروا . . . تعظيم لشأن المؤمنين ، وإشعار بمباينة حالهم لحال خصمائهم
الكافرين .أى : إن الله - تعالى - بفضله وإحسانه يدخل عباده الذين آمنوا
وعملوا فى دنياهم الأعمال الصالحات ، جنات عاليات تجرى من تحت أشجارها
وثمارها الأنهار .وقوله ( يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ
وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ) بيان لما ينالون فى تلك الجنات
من خير وفير ، وعطاء جزيل .أى : يتزينون فى تلك الجنات بأساور كائنة من
الذهب الخالص ، ومن اللؤلؤ الثمين ، أما لباسهم الدائم فيها فهو من الحرير

الناعم الفاخر .قال الآلوسى : وقوله - تعالى - : ( وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا
حَرِيرٌ ) غير الأسلوب حيث لم يقل ويلبسون فيها حريرا ، للإيذان بأن ثبوت
اللباس لهم أمر محقق غنى عن البيان . . . ثم إن الظاهر أن هذا الحكم عام فى
كل أهل الجنة ، وقيل هو باعتبار الأغلب ، لما أخرجه النسائى وابن حيان
": - وغيرهما عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم
من لبس الحرير فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة . وإن دخل الجنة لبسه أهل
الجنة ولم يلبسه " .قالوا : ومحله فيمن مات مصرا على ذلك .

وهدوا الى الطيب من القول وهدوا الى صراط الحميد

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( وهدوا إِلَى الطيب مِنَ القول وهدوا
إلى صِرَاطِ الحميد ) بيان لحسن خاتمتهم ، ولعظم النعم التى أنعم الله بها
عليهم .أى : وهدى الله - تعالى - هؤلاء المؤمنين إلى القول الطيب الذى يرضى
الله - تعالى - عنهم ، كأن يقولون عند دخولهم الجنة : ( . . . الحمد للَّهِ
الذي أَذْهَبَ عَنَّا الحزن إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ الذي
أَحَلَّنَا دَارَ المقامة مِن فَضْلِهِ لاَ يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلاَ
، يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ) وهداهم - أيضا - خالقهم إلى الصراط المحمود
وهو صراط الذين أنعم الله عليهم بنعمة الإيمان والإسلام ، فصاروا بسبب هذه
النعمة يقولون الأقوال الطيبة ، ويفعلون الأفعال الحميدة .قال الشوكانى :
قوله : ( وهدوا إِلَى الطيب مِنَ القول . . . ) أى : أرشدوا إليه . قيل :
هو لا إله إلا الله . وقيل : القرآن . وقيل : هو ما يأتيهم من الله من
بشارات . وقد ورد فى القرآن ما يدل على هذا القول المجمل هنا ، وهو قوله -
سبحانه - : ( الحمد للَّهِ الذي صَدَقَنَا وَعْدَهُ . . ) ( الحمد للَّهِ
الذي هَدَانَا لهذا . . ) ( الحمد للَّهِ الذي أَذْهَبَ عَنَّا الحزن . . )
ومعنى : ( وهدوا إلى صِرَاطِ الحميد ) أنهم أرشدوا إلى الصراط المحمود وهو
طريق الجنة ، أو صراط الله الذى هو دينه القويم وهو الإسلام .

ان الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء
العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب اليم

كما فسرها الوسيط وبعد هذا الحديث المؤثر عن الخصمين وعن عاقبة كل منهما .
جاء الحديث عن المسجد الحرام ، وعن مكانته ، وعن الأمر ببنائه ، وعن . .
وجوب الحج إليه ، وعن المنافع التى تعود على الحجاج ، وعن سوء مصير من يصد
الناس عن هذا المسجد ، جاء قوله - تعالى - : ( إِنَّ الذين كَفَرُوا
وَيَصُدُّونَ . . . ) .قال الإمام الرازى : اعلم أنه - تعالى - بعد أن فصل
بين الكفار والمؤمنين ذكر عظم حرمة البيت ، وعظم كفر هؤلاء الكافرين فقال :
( إِنَّ الذين كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله والمسجد الحرام )
قال ابن عباس : الآية نزلت فى أبى سفيان بن حرب وأصحابه حين صدوا رسول
الله - صلى الله عليه وسلم - عام الحديبية عن المسجد الحرام ، عن أن يحجوا
ويعتمروا ، وينحروا الهدى . فكره رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قتالهم
وكان محرما بعمرة ، ثم صالحوه على أن يعود فى العام القادم . . .وصح عطف
المضارع وهو " يصدون " على الماضى وهو " كفروا " لأن المضارع هنا لم يقصد
به زمن معين من حال أو استقبال ، وإنما المراد به مجرد الاستمرار ، كما فى
قولهم : فلان يحسن إلى الفقراء ، فإن المراد به استمرار وجود إحسانه .ويجوز
أن يكون قوله ( وَيَصُدُّونَ ) خبرا لمبتدأ محذوف ، أى : وهم يصدون عن
. . المسجد الحرام . وخبر إن فى قوله - سبحانه - : ( إِنَّ الذين كَفَرُوا
محذوف لدلالة آخر الآية عليه .والمعنى : إن الذين أصروا على كفرهم بما (
أنزله الله - تعالى - على نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - ، واستمروا على
منع أهل الحق من أداء شعائر دين الله - تعالى - ، ومن زيارة المسجد الحرام
هؤلاء الكافرون سوف نذيقهم عذابا أليما .ويصح أن يكون الخبر محذوفا . . .
للتهويل والإرهاب . وكأن وصفهم بالكفر والصد كاف فى معرفة مصيرهم المهين
قال القرطبى : قوله - تعالى - : ( والمسجد الحرام ) قيل إنه المسجد نفسه.
وهو ظاهر القرآن ، لأنه لم يذكر غيره ، وقيل الحرم كله ، لأن المشركين صدوا
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه عنه عام الحديبية ، فنزل خارجا
عنه . . . وهذا صحيح لكنه قصد هنا بالذكر المهم المقصود من ذلك .وقوله -
سبحانه - : ( الذي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً العاكف فِيهِ والباد ) . .
، تشريف لهذا المكان حيث جعل الله - تعالى - الناس تحت سقفه سواء . .
وتشنيع على الكافرين الذين صدوا المؤمنين عنه .ولفظ " سواء " قرأه جمهور
القراء بالرفع على أنه خبر مقدم ، والعاكف : مبتدأ ، والباد معطوفة عليه أى
العاكف والباد سواء فيه . أى مستويان فيه .وقرأه حفص عن عاصم بالنصب على :
أنه المفعول الثانى لقوله " جعلناه " بمعنى صيرناه . أى : جعلناه مستويا
فيه العاكف والباد . ويصح أن يكون حالا من الهاء فى ( جَعَلْنَاهُ ) أى :
وضعناه للناس حال كونه سواء العاكف فيه والباد .والمراد : بالعاكف فيه
المقيم فيه . يقال : عكف فلان على الشىء ، إذا لازمه ولم يفارقه . والباد :

الطارىء عليه من مكان آخر .وأصله من يكون من أهل البوادى الذين يسكنون المضارب والخيام ، ويتنقلون من مكان إلى آخر .أى : جعلناه للناس على العموم يصلون فيه ، ويطوفون به ، ويحترمونه ويستوى تحت سقفه من كان مقيما فى ، جواره ، وملازما للتردد عليه ، ومن كان زائرا له وطارئا عليه من أهل البوادى أو من أهل البلاد الأخرى سوى مكة .فهذا المسجد الحرام يتساوى فيه عباد الله ، فلا يملكه أحد منهم ، ولا يمتاز فيه أحد منهم ، بل الكل فوق أرضه وتحت سقفه سواء .وقوله - تعالى - : ( وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ) تهديد لكل من يحاول ارتكاب شىء نهى الله عنه فى هذا المسجد الحرام .والإلحاد الميل . يقال : ألحد فلان فى " دين الله ، أى : مال وحاد عنه .و " من " شرطية وجوابها " نذقه " ومفعول يرد " محذوف لقصد التعميم ، أى : ومن يرد فيه مرادا بإلحاد ، ويصح أن يكون المفعول قوله ( بِإِلْحَادٍ ) على أن الباء زائدة .أى : ومن يرد فى هذا المسجد الحرام إلحاداً ، أى : ميلا وحيدة عن أحكام الشريعة وآدابها بسبب ظلمه وخروجه عن طاعتنا ، نذقه من عذاب أليم لا يقادر قدره ، ولا يكتنه كنهه وقد جاء هذا التهديد فى أقصى درجاته لأن القرآن توعد بالعذاب الأليم كل من. بنوى ويريد الميل فيه عن دين الله ، وإذا كان الأمر كذلك ، فمن ينوى ويفعل يكون عقابه أشد ، ومصيره أقبح .ويدخل تحت هذا التهديد كل ميل عن الحق إلى الباطل ، أو عن الخير إلى الشر كالاحتقار ، والغش .ولذا قال ابن جرير بعد أن ساق الأقوال فى ذلك : وأولى الأقوال التى ذكرناها فى تأويل ذلك بالصواب ، القول الذى ذكرناه من أن المراد بالظلم فى هذا الموضع ، كل معصية لله : وذلك لأن الله عم بقوله : ( وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ ) ولم يخصص به ظلما دون ظلم فى خبر ولا عقل ، فهو على عمومه ، فإذا كان ذلك كذلك ، فتأويل الكلام : ومن يرد فى المسجد الحرام بأن يميل بظلم فيعصى الله فيه نذقه يوم القيامة من عذاب موجع له .

واذ بوانا لابراهيم مكان البيت ان لا تشرك بي شيئا وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود

- كما فسرها الوسيط ثم تحدثت السورة بعد ذلك عن بناء البيت وتطهيره فقال تعالى - : ( وَإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ البيت أن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئاً . . . ) .وبوانا من التبوؤ بمعنى النزول فى المكان . يقال : بوأته منزلا أى : أنزلته فيه ، وهيأته له ، ومكنته منه .والمعنى : واذكر أيها العاقل لتعتبر وتتعظ وقت أن هيأنا لنبينا إبراهيم مكان بيتنا الحرام ، وأرشدناه إليه ، لكى يبنيه بأمرنا ، ليكون مثابة للناس وأمنا .قال بعض العلماء : والمفسرون يقولون بوأه له ، واراه إياه ، بسبب ريح تسمى ، الخجوج ، كنست ما فوق الأساس : حتى ظهر الأساس الأول الذى كان مندرسا فبناه إبراهيم وإسماعيل عليه . . . وأن محل البيت كان مربض غنم لرجل من ، جرهم .وغاية ما دل عليه القرآن : أن الله بوأ مكانه لإبراهيم ، فهيأه له وعرفه إياه ليبنيه فى محله ، وذهبت جماعة من أهل العلم إلى أن أول من بناه ) : إبراهيم ولم يبن قبله .وظاهر قوله - تعالى - على لسان إبراهيم رَّبَّنَآ إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ - بَيْتِكَ المحرم . . . ) يدل على أنه كان مبنيا واندرس كما يدل عليه أيضا - قوله هنا ( مَكَانَ البيت ) لأنه يدل على أن له مكانا سابقا كان معروفا .و " أن " فى قوله - تعالى - : ( أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئاً ) مفسرة ، والتفسير - كما يقول الآلوسى - باعتبار أن التبوئة من أجل العبادة ، فكأنه قيل : أمرنا إبراهيم بالعبادة ، وذلك فيه معنى القول دون حروفه ، أو لأن بوأناه بمعنى قلنا له تبوأ .والمعنى : واذكر - أيها المخاطب - وقت أن هيأنا لإبراهيم - عليه السلام - مكان بيتنا الحرام ، وأوصيناه بعدم الإشراك بنا ، وبإخلاص العبادة لنا ، كما أوصيناه - أيضا - بأن يطهر هذا البيت من الأرجاس الحسية والمعنوية الشاملة للكفر والبدع والضلالات والنجاسات ، وأن يجعله مهيأ للطائفين به ، وللقائمين فيه لأداء فريضة الصلاة .قال الشوكانى : والمراد بالقائمين فى قوله : ( وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ والقآئمين ) المصلون . . .وذكر ( الركع السجود ) بعده ، لبيان أركان الصلاة دلالة على عظم شأن هذه العبادة ، وقرن الطواف بالصلاة لأنهما لا يشرعان إلى فى البيت ، فالطواف عنده والصلاة إليه .وقد أخذ ، العلماء من هذه الآية الكريمة ، أنه لا يجوز أن يترك عند بيت الله الحرام قذر من الأقذار ولا نجس من الأنجاس المعنوية ولا الحسية ، فلا يترك فيه أحد يرتكب ما لا يرضى الله ، ولا أحد يلوثه بقذر من النجاسات .

واذن في الناس بالحج ياتوك رجالا وعلى كل ضامر ياتين من كل فج عميق

`<!-- TODO:MISSING -->` كما فسرها الوسيط {=html}

ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في ايام معلومات على ما رزقهم من بهيمة

الانعام فكلوا منها واطعموا البائس الفقير

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( لِّيَشْهَدُواْ مَنَافِعَ ) متعلق ، بقوله : ( يَأْتُوكَ ) .أى : يأتيك الناس راجلين وراكبين من كل مكان بعيد ليشهدوا وليحصلوا منافع عظيمة فهم فى دينهم وفى دنياهم .ومن مظاهر منافعهم الدينية : غفران ذنوبهم ، وإجابة دعائهم ، ورضا الله - تعالى - عنهم .ومن مظاهر منافعهم الدنيوية : اجتماعهم فى هذا المكان الطاهر ، وتعارفهم وتعاونهم على البر والتقوى ، وتبادلهم المنافع فيما بينهم عن طريق البيع والشراء وغير ذلك من أنواع المعاملات التى أحلها الله - تعالى - .وجاء لفظ منافع " بصيغة التنكير ، للتعميم والتعظيم والتكثير . أى : منافع عظيمة ) وشاملة لأمور الدين والدنيا ، وليس فى الإمكان تحديدها لكثرتها ، وقوله وَيَذْكُرُواْ اسم الله في أيّامٍ مّعْلُومَاتٍ على مَا رَزَقَهُمْ مِّن بَهِيمَةِ الأنعام ) معطوف على قوله ( لِّيَشْهَدُواْ ) .والمراد بالأيام المعلومات : الأيام العشر الأولى من شهر ذى الحجة ، أو هى أيام النحر ، أو يوم العيد وأيام التشريق .والمراد ببهمية الأنعام : الإبل والبقر والغنم أى : ليشهدوا منافع لهم ، وليكثروا من ذكر الله ومن طاعته فى تلك الأيام. - المباركة . وليشكروه على ما رزقهم من بهيمة الأنعام التى يتقربون إليه - سبحانه - عن طريق ذبحها وإراقة دمائها ، واستجابة لأمره - عز وجل وقوله - سبحانه - : ( فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ البآئس الفقير ). إرشاد منه - تعالى - إلى كيفية التصرف فيها بعد ذبحها .أى : فكلوا من هذه البهيمة بعد ذبحها ، وأطعموا منها الإنسان البائس ، أى : الذى أصابه بؤس ومكروه بجانب فقره واحتياجه .قال الآلوسى : والأمر فى قوله ( فَكُلُواْ مِنْهَا .. . ) للإباحة بناء على أن الأكل كان منهيا عنه شرعا ، وقد قالوا إن الأمر بعد المنع يقتضى الإباحة ويدل على سبق النهى قوله - صلى الله : " عليه وسلم - : " كنت نهيتكم عن أكل لحوم الأضاحى فكلوا منها وادخروا وقيل : لأن أهل الجاهلية كانوا يتحرجون فيه ، أو للندب على مواساة الفقراء. ومساواتهم فى الأكل منها .

ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما يفعلونه بعد حلهم وخروجهم من الإحرام فقال : ( ثُمّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطّوّفُواْ بالبيت العتيق ) .والمراد بالقضاء هنا : الإزالة ، وأصله ، القطع والفصل ، فأريد به الإزالة على سبيل المجاز .والتفث : الوسخ والقذر كطول الشعر والأظفار يقال : تَفِث فلان - كفرح - يتفَث تفثا فهو تفث ، إذا : ترك الاغتسال والتطيب والتنظيف فأصابته الأوساخ .والمراد بالطواف هنا طواف الإفاضة ، الذى هو أحد أركان الحج ، وبه يتم التحلل .والعتيق : القديم - حيث إنه أول بيت وضع لعبادة الله فى الأرض ، وقيل سمى بالعتيق لأن الله تعالى - أعتقه من أ ، يتسلط عليه جبار فيهدمه أو يخربه .والمعنى : ثم بعد ، حلهم وبعد الإتيان بما عليهم من مناسك . فليزيلوا عنهم أدرانهم وأوساخهم وليوفوا نذورهم التى نذروها لله - تعالى - فى حجهم ، وليطوفوا طواف الإفاضة بهذا البيت القديم الذى جعله الله - تعال - أول بيت لعبادته ، وصانه من ، اعتداء كل جبار أثيم .وبذلك نرى الآيات الكريمة قد توعدت كل من يصد الناس عن هذا البيت بأشد ألوان الوعيد ، وبينت أن الناس فيه سواء ، وتحدثت عن جانب من فضله - سبحانه -على نبيه إبراهيم - عليه السلام - حيث أرشده إلى مكان هذا البناء ، وشرفه بتهيئته ليكون أول مكان لعبادته - تعالى - ، وأمره بأن ينادى فى الناس بالحج إليه ، ليشهدوا منافع عظيمة لهم .

ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه واحلت لكم الانعام الا ما يتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الاوثان واجتنبوا قول الزور

كما فسرها الوسيط ثم انتقلت السورة الكريمة بعد ذلك إلى الحديث عن الذين يعظمون حرمات الله ، وعما أحله الله لعباده من الأنعام ، وعن سوء عاقبة من يشرك بالله ، فقال - تعالى - : ( ذلك وَمَن يُعَظّمْ . . . ) .اسم الإشارة فى قوله : ( ذلك وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ الله . . . ) يؤتى به ( ذلك ) فى مثل هذا التركيب للفصل بين كلامين ، والمشهور فى مثل هذا التركيب الإتيان بلفظ " هذا " كما فى قوله - تعالى - : ( هذا ذِكْرٌ وَإِنّ لِلْمُتّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ) وجىء هنا بلفظ ذلك للإشعار بتعظيم شأن المتحدث عنه ، وعلو منزلته ، وهو يعود إلى المذكور من تهيئة مكان البيت لإبراهيم ، وأمره بتطهيره . . . الخ .قال صاحب الكشاف : قوله ( ذلك ) خبر مبتدأ محذوف أى : الأمر والشأن ذلك ، كما يقدم الكاتب جملة من كتابه فى بعض المعانى ، ثم إذا أراد الخوض فى معنى آخر قال : هذا ، وقد كان كذا والحرمات : جمع حرمة . والحرمة كل ما أمر الله - تعالى - باحترامه ، ونهى. عن قوله أو فعله ، ويدخل فى ذلك دخولا أوليا ما يتعلق بمناسك الحج كتحريم

الرفث والفسوق والجدال والصيد ، وتعظيم هذه الحرمات يكون بالعلم بوجوب مراعاتها ، وبالعمل بمقتضى هذا العلم .والمعنى : ذلك الذى ذكرناه لكم عن البيت الحرام وعن مناسك الحج ، هو جانب من أحكام الله - تعالى - فى هذا الشأن فاتبعوها ، والحال أن من يعظم حرمات الله - تعالى - بأن يترك ملابستها واقترافها ، فهو أى : هذا التعظيم ، خير له عند ربه ، إذ بسبب هذا التعظييم لتلك الحرمات ينال رضا ربه وثوابه .وقد جاء النهى فى هذه الجملة عن فعل هذه المحرمات بأبلغ أسلوب حيث عبر عن اجتنابها بالتعظيم وبأفعل التفضيل وهو لفظ " خير " وبإضافتها إلى ذاته .فكأنه - سبحانه - يقول : إذا كان ترك هذا التعظيم لحرمات الله يؤدى إلى حصولكم على شىء من المتاع الدنيوى الزائل ، فإن الاستمساك بهذا التعظيم أفضل من ذلك بكثير عند ربكم - وخالقكم ، فكونوا عقلاء ولا تستبدلوا الذى هو أدنى بالذى هو خير .ثم بين : سبحانه - بعض الأحكام التى تتعلق بالأنعام وهى الإبل والبقر والغنم فقال أى : وأحل. ( وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأنعام إِلاَّ مَا يتلى عَلَيْكُمْ ) الله - تعالى - لكم فضلا منه ورحمة ذبح الأنعام وأكلها إلا ما يتلى عليكم تحريم ذبح وأكله فاجتنبوه .وهذا الإجمال هنا ، قد جاء ما فصله قبل ذلك فى سورة الأنعام فى قوله - تعالى - : ( قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَآ أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً على طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ الله بِهِ ) قال بعض العلماء : ثم إنه ليس المقصود بما يتلى ، ما ينزل فى المستقبل ، كما يعطيه ظاهر الفعل المضارع ، بل المراد ما سبق نزوله مما يدل على حرمة الميتة وما أهل لغير الله به .أو ما يدل على حرمة الصيد فى الحرم أو حالة الإحرام .وعلى هذا يكون السر فى التعبير بالمضارع ، التنبيه إلى أن ذلك المتلو ينبغى استحضاره والالتفات إليه . . . والجملة معترضة لدفع ما عساه يقع فى الوهم من أن تعظيم حرمات - الله فى الحج قد يقضى باجتناب الأنعام ، كما قضى باجتناب الصيد .ثم أمرهم - سبحانه - باجتناب ما يغضبه ، وحضهم على الثبات على الدين الحق فقال تعالى - : ( فاجتنبوا الرجس مِنَ الأوثان واجتنبوا قَوْلَ الزور حُنَفَآءَ للَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ) والفاء فى قوله : ( فاجتنبوا ) هى الفصيحة . والرجس : الشىء المستقذر الذى تعافه النفوس . و ( مَن ) فى قوله بيانية ، والأوثان : الأصنام ، يدخل فى حكمها ومعناها ( مِنَ الأوثان ) عبادة كل معبود من دون الله - تعالى كائنا من كان .وسماها - سبحانه - رجسا زيادة فى تقبيحها وفى التنفير منها .والزور : الكذب والباطل وكل قول مائل ، عن الحق فهو زور ، لأن أصل المادة التى هى الزور من الزورار بمعنى الميل والاعوجاج ، ومنه قوله - تعالى - : ( وَتَرَى الشمس إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ اليمين ) أى : تميل .وقوله ( حُنَفَآءَ ) جمع حنيف وهو المائل عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق .والمعنى : مادام الأمر كما ذكرت لكم ، فاجتنبوا - أيها الناس عبادة الأوثان أو تعظيمها ، واجتنبوا - أيضا - القول المائل عن الحق ، وليكن شأنكم وحالكم الثبات على الدين الحق ، وعلى إخلاص العبادة لله - تعالى - الذى خلقكم ، وخلق كل شىء وهذه الجملة الكريمة مؤكدة لما سبق من وجوب تعظيم حرمات الله ، ومن وجوب. التمسك بما أحله الله والبعد عما حرمه .قال الآلوسى : قوله - تعالى - : ( واجتنبوا قَوْلَ الزور ) تعميم بعد تخصيص ، فإن عبادة الأوثان رأس الزور ، لما فيها من ادعاء الاستحقاق ، كأنه - تعالى - لما حث على تعظيم الحرمات ، أتبع ذلك بما فيه رد لما كانت الكفرة عليه من تحريم البحائر والسوائب ونحوهما ، والافتراء على الله - تعالى - بأنه حكم بذلك . ولم يعطف قول الزور على الرجس ، بل أعاد العامل لمزيد الاعتناء . والإضافة بيانية . . .

حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكانما خر من السماء فتخطفه الطير او تهوي به الريح في مكان سحيق

كما فسرها الوسيط وجملة ( حُنَفَآءَ للَّهِ ) وجملة ( غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ) حالان مؤكدتان لما قبلهما من وجوب اجتناب عبادة الأوثان ، واجتناب قول الزور .أى : اجتنبوا ما أمرناكم باجتنابه حال كونكم ثابتين على الدين الحق ، مخلصين لله العبادة .ثم صور - سبحانه - حال من يشرك بالله تصويرا تنخلع له القلوب ، ويحمل كل عاقل على اجتناب هذا الرجس فقال : ( وَمَن يُشْرِكْ بالله فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السمآء فَتَخْطَفُهُ الطير أَوْ تَهْوِي بِهِ الريح فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ) .أى : ومن يشرك بالله - تعالى - فى عبادته ، ومات على ذلك ، فكأنما سقط من السماء إلى الأرض ، فاختطفته جوارح الطير بسرعة فمزقت أوصاله ، أو تسقطع الريح فى مكان بعيد اشد البعد بحيث لا يعثر له على أثر .والمقصود من هذه الجملة تقبيح حال الشرك والمشركين ، وبيان أن الوقوع فى الشرك يؤدى إلى الهلاك الذى لا نجاة معه بحال ، لأن من يسقط من السماء فتتمزق أوصاله ، وتتخطفه الطير أو تلقى به الريح فى مكان بعيد لا يطمع له فى نجاة ، بل هو هالك لا محالة .فاجملة الكريمة مقررة لوجوب اجتناب الشرك بأبلغ صورة .قال صاحب الكشاف : يجوز فى

: هذا التشبيه أن يكون من المركب والمفرق ، فإن كان تشبيها مركبا فكأنه قال
من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكا ليس بعد نهاية ، بأن صور حاله بصورة
، حال من خر من السماء فاختطفته الطير فتفرق مزعا - أى قطعا - فى حواصلها
أو عصفت به الريح حتى هوت به فى بعض المطاوح - أى المقاذف - البعيدة .وإن
كان مفرقا فقد شبه الإيمان فى علوه بالسماء ، والذى ترك الإيمان وأشرك
، بالله بالساقط من السماء ، والأهواء التى تتوزع أفكاره بالطير المختطفة
والشيطان الذى يطوح به فى وادى الضلالة ، بالريح التى تهوى بما عصفت به فى
. بعض المهاوى المتلفة

ذلك ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب

كما فسرها الوسيط ثم أمر - سبحانه - بتعظيم شعائره بعد أن أمر بتعظيم
حرماته فقال : ( ذلك وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ الله فَإِنَّهَا مِن
- تَقْوَى القلوب ) .قال القرطبى : والشعائر : جمع شعيرة ، وهى كل شىء لله
تعالى - فيه أمر أشعر به وأعلم . ومنه شعار القوم فى الحرب ، أى : علامتهم
التى يتعارفون بها . ومنه إشعار البدنة وهو الطعن فى جانبها الأيمن حتى
يسيل الدم فيكون علامة لها . . فشعائر الله : إعلان دينه لا سيما ما يتعلق
. . بالمناسك . و قال قوم : المراد هنا تسمين البدن . والاهتمام بأمرها
، والمعنى : ذلك الذى أمرناكم به أو نهيناكم عنه عليكم امتثاله وطاعته.
والحال أن من يعظم شعائر الله ، التى من بينها الذبائح التى يتقرب بها
إليه - تعالى - يكون تعظيمه إياها عن طريق تسمينها ، وحسن اختيارها يكون
دليلا على تقوى القلوب ، وحسن صلتها بالله - سبحانه - وخشيتها منه ، وحرصها
على رضاه - عز وجل - .قال الآلوسى : وتعظيمها أن تهتار حسانا سمانا غالية
الأثمان . روى أنه - صلى الله عليه وسلم - أهدى مائة بدنة فيها جمل لأبى
جهل فى أنفه برة - أى حلقه - من ذهب . وعن عمر أنه أهدى نجيبة طلبت منه
بثلاثمائة دينار ، فسأل النبى - صلى الله عليه وسلم - أن يبيعها ويشترى
بثمنها بدنا فنهاه عن ذلك ، وقال له : بل أهدها . . .وفى إضافة هذه الشعائر
- إلى الله - تعالى - : حض على الاهتمام بها وفعل ما يرضى الله - تعالى
بالنسبة لها .والضمير المؤنث فى قوله ( فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى القلوب )
: يعود على الفعلة التى يتضمنها الكلام ، أو إلى الشعائر بحذف المضاف ، أى
. فإن تعظيمها أى الشعائر من تقوى القلوب ، فحذف المضاف لدلالة الكلام عليه

لكم فيها منافع الى اجل مسمى ثم محلها الى البيت العتيق

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إلى أَجَلٍ
مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إلى البيت العتيق ) . بيان لبعض مظاهر نعم
الله - تعالى - عليهم فى هذه الأنعام .أى : لكم - أيها المؤمنون - فى تلك
الأنعام التى تقدمونها قربة لله - تعالى - " منافع " تصل إليكم عن طريق
ركوبها ولبنها ونسلها . . . وهذه المنافع موقوتة إلى وقت معين ، هو وقت
ذبحها أو وقعت تعيينها وتسميتها هديا ، أما بعد ذلك فاتركوا الانتفاع بها
- للفقراء والمحتاجين ، فهذا أكثر ثوابا لكم عند الله - تعالى - .وقوله
سبحانه - ( ثُمَّ مَحِلُّهَآ إلى البيت العتيق ) بيان لمكان ذبحها .والمحل
مأخوذ من حل الشىء يحل - بالكسر - حلولا إذا وجب أو انتهى أجله . والمراد
، به فى الآية مكان الحلول ، أى : المكان الذى ينتهى فيه أجل تلك الأنعام
أو المكان الذى يجب ذبحها فيه .والمعنى : لكم فى تلك الأنعام منافع إلى أجل
مسمى ثم المكان الذى تذبح فيه منته إلى البيت العتيق . ومتصل به .والمقصود
بهذا المحل الحرم كله ، لأن البيت ليس مكانا للذبح .وبعضهم يرى أن المراد
بالمحل فى قوله : ( ثُمَّ مَحِلُّهَآ إلى البيت العتيق ) : تحلل الحجاج من
إحرامهم بعد أداء شعائر الحج المعبر عنها بقوله - تعالى - : ( ذلك وَمَن
يُعَظِّمْ شَعَائِرَ الله . . . ) .قال القرطبى : قوله - تعالى - : ( ثُمَّ
مَحِلُّهَآ إلى البيت العتيق ) يريد أنها تنتهى إلى البيت ، وهو الطواف
فقوله : ( مَحِلُّهَآ ) مأخوذ من إحلال المحرم .والمعنى : أن شعائر الحج
كلها من الوقوف بعرفة ورمى الجمار والسعى ينتهى إلى طواف الإفاضة بالبيت
. . العتيق . فالبيت على هذا التأويل مراد بنفسه

ولكل امة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الانعام
فالهكم اله واحد فله اسلموا وبشر المخبتين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أنه قد شرع لكل أمة الذبائح التى
ينتفعون بها ، لكى يذكروه - سبحانه - ويشكروه ويخلصوا له العبادة ، ولكى
يطعموا منها السائل والمحتاج ، فقال - تعالى - : ( وَلِكُلِّ أُمَّةٍ
جَعَلْنَا . . . ) .المنسك - بفتح السين وكسرها - مأخوذ من النسك بمعنى
العبادة ، فيجوز أن يراد به النسك نفسه ، ويجوز أن يراد به مكانه أو زمانه
- ويبدو أن المراد به هنا عبادة خاصة وهى الذبح تقربا إلى الله - تعالى.

قال الآلوسى : والمنسك موضع النسك إذا كان اسم مكان ، أو النسك إذا كان.
- مصدرا . وفسره مجاهد هنا بالذبح وإراقة الدماء على وجه التقرب إليه
تعالى - فجعله مصدرا ، وحمل النسك على عبادة خاصة ، وهو أحد استعمالاته وإن
) كان فى الأصل بمعنى العبادة مطلقا ، وشاع فى أعمال الحج . .وجملة
وَلِكُلِّ أُمَّةٍ . . . ) معطوفة على قوله - تعالى - قبل ذلك : ( لَكُمْ
فِيهَا مَنَافِعُ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ) والمعنى : جعلنا لكم - أيها
المؤمنون - منافع كثيرة فى هذه الأنعام إلى وقت معين ، ثم تكون نهايتها
وذبحها عند البيت الحرام ، كما جعلنا وشرعنا لمن قبلكم من الأمم شعيرة
الذبح ليتقربوا بها إلينا ، وأرشدناهم إلى المكان الذى يذبحون فيه ، وإلى
) أفضل الطرق التى تجعل ، ذبائحهم مقبولة عندنا .وفى هذه الجملة الكريمة
وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً ) ، تحريك لنفوسهم نحو اقدام على
إراقة الدم تقربا إلى الله ، لأن هذه الذبائح ليست من شعائر هذه الأمة
- وحدها ، وإنما هى من شعائرها ومن شعائر الأمم التى سبقتها .وقوله - تعالى
( لِّيَذْكُرُواْ اسم الله على مَا رَزَقَهُمْ مِّن بَهِيمَةِ الأنعام ) :
بيان للعلة التى من أجلها شرعت تلك الذبائح .أى : شرعناها لكم وللأم
السابقة عليكم للإكثار من ذكر الله عند ذبحها فهو - سبحانه - الذى رزقكم
إياها بفضله وإحسانه ، فعليكم أن تكثروا من ذكره وشكره ، ليزيدكم من خيره
- ورزقه .وفى هذه الجملة الكريمة تقريع وتوبيخه لمن يذكرون غير اسم الله
تعالى - عند الذبح ، وتأكيد لوجوب ذكر اسمه - تعالى - ، حتى لكأن المقصود
- الأعظم من ورائ ذبح هذه الأنعام ، هو المداومة على ذكر اسم الله - عز وجل
و على شكره - سبحانه - على نعمه ، أما ما سوى ذلك كالأكل منها ، والانتفاع
، بها . . . فهى مقاصد فرعية .ثم عقب - سبحانه - على ذلك بتقرير وحدانيته
وبوجوب إسلام الوجه إليه ، فقال : ( فإلهكم إله وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُواْ
أى : شرعنا لكم ذلك لأن إلكم إله واحد لا شريك له لا فى ذاته ولا فى. (
صفاته ، فله وحده أسلموا وجوهكم ، وأخلصوها لعبادته وطاعته .فجملة ( فإلهكم
إله وَاحِدٌ ) بمثابة العلة لما قبلها من تخصيص اسمه الكريم بالذكر عند
- الذبح ، لأن تفرده - سبحانه - بالألوهية يستلزم هذا التخصيص .وقوله
تعالى - : ( فَلَهُ أَسْلِمُواْ ) مرتب على ما قبله ، لأنه متى ثبت أن
المستحق للعبادة والطاعة هو الله الواحد الأحد ، فعليهم أن يسلموا وجوههم
إليه .ثم أمر الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يبشر المخبتين
برضاه - سبحانه - وبمثوبته فقال : ( وَبَشِّرِ المخبتين ) أى : المتواضعين
لله - تعالى - المطمئنين إلى عدالة قضائه فيهم ، ولفظ ( المخبتين ) من
: الإخبات . وهو فى الأصل نزول الخَبْت - بفتح الخاء وسكون الباء .أى
: المكان المنخفض ، ثم استعمل فى اللين والواضع . يقال : فلان مخبت ، أى
، متواضع خاشع لله رب العالمين .وحذف - سبحانه - المبشر به لتهويله وتعظيمه
أى : وبشر - أيها الرسول الكريم - هؤلاء المتواضعين لله - تعالى - بالثواب
. العظيم ، والأجر الكبير الذى لا تحيط بوصفه عبارة

الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما اصابهم والمقيمي الصلاة
ومما رزقناهم ينفقون

كما فسرها الوسيط ثم مدحهم - سبحانه - بأربع صفات فقال : ( الذين إِذَا
ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ . . ) .أى : بشر هؤلاء المخبتين الذين من
صفاتهم أنهم إذا سمعوا ذكر الله - تعالى - وصفاته ، وحسابه لعباده يوم
: القيامة ، خافت قلوبهم ، وحذرت معصيته - تعالى - .والذين من صفاتهم كذلك
الصبر على ما يصيبهم من مصائب ومحن فى هذه الحياة ، والمداومة على أداء
الصلاة فى مواقيتها بإخلاص وخشوع ، والأنفاق مما رزقهم الله - تعالى - على
الفقراء والمحتاجين .فإن قيل : كيف نجمع بين هذه الاية التى وصفت المؤمنين
الصادقين بأنهم إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وبين قوله - تعالى - فى آية
أخرى : ( أَلاَ بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ القلوب ) فالجواب : أنه لا تنافى
بين الآيتين ، لأن من شأن المؤمن الصادق أنه إذا استحضر وعيد الله وحسابه
لعباده يوم القيامة ، امتلأ قلبه بالخشية والخوف والوجل .فإذا ما استحضر
، بعد ذلك رحمته - سبحانه - وسعة عفوه ، اطمأن قلبه وسكن روعه ، وثبت يقينه
وانشرح صدره ، استسلم لقضاء الله وقدره بدون تردد أو تشكك أو جزع .فالوجل
والاطمئنان أمران يجدهما المؤمن فى قلبه ، فى وقتين مختلفين . وفى حالتين
متمايزتين .ويؤخذ من هاتين الآيتين : أن التواضع لله - تعالى - ، والمراقبة
له - سبحانه - والصبر على بلائه ، والمحافظة على فرائضه . . . كل ذلك يؤدى
. إلى رضاه - عز وجل - ، وإلى السعادة الدنيوية والأخروية

والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها
صواف فاذا وجبت جنوبها فكلوا منها واطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم
لعلكم تشكرون

- كما فسرها الوسيط ثم أكد سبحانه - ما سبق الحديث عنه من وجوب ذكر اسمه

تعالى - عند الذبح ، ومن وجوب شكره على نعمه فقال : ( والبدن جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّن شَعَائِرِ اللَّه ) .والبدن : جمع بدنة . وهى الإبل خاصة التى تهدى إلى البيت الحرام للتقرب بها إلى الله - تعالى - وقيل : البدن تطلق على الإبل والبقر .وسميت بهذا الإسم لبدانتها وضخامتها . يقال : بدن الرجل - بوزن كرم - إذا كثر لحمه ، وضخم جسمه .أى : وشرعنا لكم - أيها المؤمنون - التقرب إلينا بالإبل البدينة السمينة وجعلنا ذلك شعيرة من شعائر ديننا ، وعلامة من العلامات الدالة على قوة إيمان من ينفذ هذه الشعيرة بتواضع وإخلاص .وقوله - تعالى - ( لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ) جملة مستأنفة مقررة لما قبلها . أى : لكم فيه خير فى الدنيا عن طريق الانتفاع بألبانها ووبرها . . . ولكم فيها خير فى الآخرة عن طريق الثواب الجزيل الذى تنالونه من خالقكم بسبب استجابتكم لما ارشدكم إليه .وقوله - تعالى - : ( فاذكروا اسم الله عَلَيْهَا صَوَآفَّ ) إرشاد لما يقوله الذابح عند ذبحها .وصواف : جمع اصفة . أى : قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن استعدادا للذبخ! .أى : إذا ما هيأتم هذه الإبل للذبح ، فاذكروا اسم الله عليها ، بأن تقولوا عند نحرها بسم الله والله أكبر ، الله منك وإليك .وقوله - سبحانه - : ( فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ القانع والمعتر ) : وجبت بمعنى سقطت : وهو كناية عن بيان لما ينبغى عليهم فعله بعد ذبحها .ووجبت الشمس إذا غابت .والقانع : هو موتها . يقال : وجب الجدار إذا سقط ، ووجبت الشمس إذا غابت .والقانع : هو الراضى بما قدره الله - تعالى - له ، فلا يتعرض لسؤال الناس مأخوذ من قنع يقنع - كرضى يرضى - وزنا ومعنى .والمعتر : هو الذى يسأل غيره ليعطيه . يقال : فلان يعترى الأغنياء ، أى : يذهب إليهم طالبا عطاءهم .وقيل : القانع هو الطامع الذى يسأل غيره ، والمعتر : هو الذى يتعرض للعطاء من غير سؤال وطلب .أى : فإذا ما سقطت جنوب هذه الإبل على الأرض ، وأعددتموها للأكل فكلوا منها ، وأطعموا الفقير القانع الذى لا يسألكم ، والفقير المعتر الذى يتعرض لكم بالسؤال والطلب .ثم بين - سبحانه - مظاهر فضله عليهم ، حيث ذلل هذه الأنعام لهم فقال : ( كذلك سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ) وقوله ( كذلك ) نعت لمصدر محذوف . أى : مثل ذلك التسخير البديع سخرنا لكم هذه الأنعام ، وذللناها لكم ، وجعلناها منقادة لأمركم ، لعلكم بعد أن شاهدتم هذه النعم ، وانتفعتم بها ، تكونون من الشاكرين لنا ، والمستجيبين لتوجيهاتنا وإرشادنا .قال صاحب الكشاف : منّ الله على عباده واستحمد إليهم بأن سخر لهم البدن مثل التسخير الذى رأوا وعلموا . يأخذونها منقادة للأخذ ، طيعة ، فيعقلونها ويحبسونها صافة قوائمها ، ثم يطعنون فى لبانها . ولولا تسخير الله لم تطعن ، ولم تكن بأعجز من بعض الوحوش التى هى أصغر منها جرما وأقل قوة ، وكفى بما يتأبد من الإبل شاهدا على ذلك .

لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - الحديث عن شعائر الحج ، بتوجيه عباده - إلى وجوب الإخلاص له ، والاستجابة لأمره ، وشكره على نعمه ، فقال - تعالى : لَن يَنَالَ اللَّه لُحُومُهَا وَلاَ دِمَآؤُهَا ولكن يَنَالُهُ التقوى ) مِنكُمْ . . . ) .أى : لن يصل إلى الله - تعالى - لحم هذه الأنعام ودماؤها من حيث هى لحوم ودماء ، ولكن الذى يصل إليه - سبحانه - ويثيبكم عليه ، هو ، تقواكم ومراقبتكم له - سبحانه - وخوفكم منه ، واستقامتكم على أمره وإخلاصكم العبادة له .قالوا : وفى هذا إشارة إلى قبح ما كان يفعله المشركون ، من تقطيعهم للحوم الأنعام ، ونشرها حول الكعبة ، وتلطيخها بالدماء ، وتحذير للمسلمين من أن يفعلوا فعل هؤلاء الجهلاء ، إذ رضا الله - تعالى -لا ينال ، بذلك ، وإنما ينال بتقوى القلوب .ثم كرر - سبحانه - تكذيره إياهم بنعمه ليكون أدعى إلى شكره وطاعته فقال : ( كذلك سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ الله على مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ المحسنين ) .أى : كهذا التسخير العجيب الذى ترونه سخرنا لكم هذه الأنعام لكى تكبروا الله وتعظموه - وتقدسوه بسبب هدايته لكم إلى الإيمان .وبشر - أيها الرسول الكريم المحسنين لأقوالهم وأفعالهم ، بثوابنا الجزيل وبعطائنا الواسع .وبذلك ترى أن سورة الحج قد سبحت بنا سبحا طويلا فى حديثها عن البيت الحرام ، وعن آداب الحج ومناكسه وأحكامه ، وعن الجزاء الحسن الذى أعده - تعالى - للمستجيبين لأمره .

ان الله يدافع عن الذين امنوا ان الله لا يحب كل خوان كفور

- كما فسرها الوسيط وبعد هذا الحديث عن الشعائر والمناسك ، أذن - سبحانه - للمؤمنين بالقتال فى سبيله ، للدفاع عن دينه وشعائره ، ووعدهم - عز وجل - بالنصر متى نصروه وحافظوا على فرائضه . . . فقال - تعالى - : ( إِنَّ الله قال الفخر الرازى : اعلم أنه - تعالى - لما بين ما يلزم فى الحج. ( . . . . ، ومناسكه وما فيه من منافع الدنيا والآخرة ، وما كان من صد الكفار عنه

) - أتبع ذلك ببيان ما يزيل الصد . ويؤمن معه التمكن من الحج فقال - تعالى
إِنَّ اللَّه يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمنوا ) .ومفعول " يدافع " محذوف . وجاء
التعبير بقوله - تعالى - ( يُدَافِعُ ) بصيغة المفاعلة ، للمبالغة فى
الدفاع والدفع ، أو للدلالة على أن ذلك حاصر للمؤمنين كلما حصل من الكافرين
عدوان عليهم .أى : أن الله - تعالى - بفضله وكرمه يدافع عن المؤمنين
أعداءهم وخصومه ، فيرد كيدهم فى نحورهم .وصح أن يكون ( يُدَافِعُ ) بمعنى
يدفع ، ويؤيده قراءة ابن كثير وأبى عمرو . أى : أن الله - تعالى - يدفع
السوء عن عباده المؤمنين الصادقين ، ويجعل العاقبة لهم على أعداءهم
فالجملة الكريمة بشارة للمؤمنين ، وتقوية لعزائمهم حتى يقبلوا على ما شرعه.
الله لهم من جهاد أعدائهم ، بثبات لا تردد معه ، وبأمل عظيم فى نصر الله
وتأييده .وقوله - سبحانه - : ( إِنَّ اللَّه لاَ يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ
كَفُورٍ ) تعليل لوعده - سبحانه - للمؤمنين بالدفاع عنهم ، وبجعل العاقبة
، لهم .والخوان : هو الشديد الخيانة ، والكفور : هو المبالغ فى كفره وجحوده
فاللفظان كلاهما صيغة مبالغة .قال الآلوسى : وصيغة المبالغة فيهما لبيان أن
المشركين كذلك ، لا للتقييد المشعر بمحبة الخائن والكافر . . . .أى : إن
الله - تعالى - يدافع عن المؤمنين لمحبته لهم ، ويبغض هؤلاء الكافرين الذين
) - بلغوا فى الخيانة والكفر اقصى الدركات .وأوثر التعبير بقوله - تعالى
لاَ يُحِبُّ ) على قوله : يبغض أو يكره ، للإشعار بأن المؤمنين هم أحباء
الله - تعالى - ، وللتعريض بهؤلاء الكافرين الذين تجاوزوا كل حد فى
كراهيتهم لأهل الحق .

اذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير

: كما فسرها الوسيط ثم رخص - سبحانه - للمؤمنين بأن يقاتلوا فى سبيله فقال
- وقوله. ( . . . أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ )
تعالى - ( أُذِنَ ) فعل ماض مبنى للمجهول مأخوذ من الإذن بمعنى الإباحة
والرخصة . والمقصود إباحة مشروعية القتال ، وقد قالوا : بأن هذه الآيات أول
ما نزل في شأن مشروعية القتال .أخرج الإمام أحمد والترمذى عن ابن عباس قال
لما خرج النبى - صلى الله عليه وسلم - من مكة قال أبو بكر : أخرجوا نبيهم :
) ليهلكن ، فنزلت هذه الآيات .وقرأ ابن كثير وابن عامر وحمزة والكسائي
أُذِنَ ) بالبناء الفاعل . والمأذون لهم فيه هو القتال ، وهو محذوف فى قوة
المذكور بدليل قوله ( يُقَاتَلُونَ ) والباء فى قوله ( بِأَنَّهُمْ
ظُلِمُواْ ) للسببية .أى : أذن الله - تعالى - للمؤمنين ، ورخص لهم ، بأن
يقاتلوا أعداءهم الذين ظلموهم ، وآذوهم ، واعتدوا عليه ، بعد أن صبر هؤلاء
المؤمنون على أذى أعدائهم صبرا طويلا .قال الآلوسى : والمراد بالموصول
أصحاب النبى - صلى الله عليه وسلم - الذين فى مكة ، فقد نقل الواحدى وغيره
- أن المشركين كانوا يؤذونهم ، وكانوا يأتون النبى - صلى الله عليه وسلم ،
بين مضروب ومشجوج ويتظلمون إليه فيقو لهم : اصبروا فإنى لم أومر بالقتال
حتى هاجر - صلى الله عليه وسلم - فنزلت هذه الآية ، وهى أول آية نزلت في
القتال بعد ما نهى عنه فى نيف وسبعين آية .وقوله - تعالى - : ( وَإِنَّ
الله على نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ) وعد منه - سبحانه - للمؤمنين بالنصر وحض
- لهم على الإقدام على الجهاد فى سبيله بدون تردد أو وهن .أى : وإن الله
، تعالى - لقادر على أن ينصر عباده المؤمنين . وعلى أن يمكن لهم فى الأرض
وعلى أن يجعلهم الوارثين لأعدائهم الكافرين .قال الإمام ابن كثير ما ملخصه
قوله : ( وَإِنَّ الله على نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ) أى : هو قادر على نصر
عباده المؤمنين من غير قتال ، ولكنه يريد من عباده أن يبلوا جهدهم فى طاعته
كما قال - تعالى - : ( فَإِذَا لَقِيتُمُ الذين كَفَرُواْ فَضَرْبَ
الرقاب حتى إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ الوثاق فَإِمَّا مَنًّا
بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حتى تَضَعَ الحرب أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ
يَشَآءُ اللَّهُ لاَنْتَصَرَ مِنْهُمْ ولكن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُمْ
بِبَعْضٍ ) وإنما شرع - سبحانه - الجهاد فى الوقت الأليق به ، لأنهم لما
كانوا بمكة ، كان المشركون أكثر عددا . فلو أمر المسلمون بالقتال لشق ذلك
عليهم . . .فلما استقروا بالمدينة . وصارت لهم دار إسلام ، ومعقلا يلجأون
. . . إليه شرع الله جهاد الأعداء ، فكانت هذه الآية أول ما نزل فى ذلك

الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله
الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا
ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( الذين أُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِم
بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا الله . . . ) بيان لبعض
- الأسباب التى من أجلها شرع الله الجهاد فى سبيله .أى : إن الله - تعالى
لقدير على نصر المؤمنين الذين أخرجهم الكافرون من ديارهم بغير حق ، وبغير
أى سبب من الأسباب ، سوى أنهم كانوا يقولون ربنا الله - تعالى - وحده ، ولن

- نعبد من دونه إلها آخر .أى : ليس هناك ما يوجب إخراجهم - فى زعم المشركين ، سوى قولهم ربنا الله .ثم حرض - سبحانه - المؤمنين على القتال فى سبيله - بأن بين لهم أن هذا القتال يقتضيه نظام هذا العالم وصلاحه ، فقال - تعالى : ( وَلَوْلاَ دَفْعُ الله الناس بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسم الله كَثِيراً ) .والمراد بالدفع : إذن الله المؤمنين فى قتال المشركين والمراد بقوله : ( بَعْضَهُمْ ) الكافرون . وبقوله : ( بِبَعْضٍ ) المؤمنون : والصوامع : جمع صومعة ، وهى بناء مرتفع يتخذه الرهبان معابد لهم .والبيع : جمع بيعة - بكسر الباء - وهى كنائس النصارى التى لا تختص بالرهبان والصلوات : أماكن العبادة لليهود .أى : ولولا أن الله - تعالى - أباح للمؤمنين قتال المشركين ، لعاث المشركون فى الأرض فسادا ، ولهدموا فى زمن موسى وعيسى أماكن العبادة الخاصة بأتباعهما ، ولهدموا فى زمن الرسول - صلى الله عليه وسلم - المساجد التى تقام فيها الصلاة .قال القرطبى : قوله - تعالى - : ( وَلَوْلاَ دَفْعُ الله الناس بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ . . . ) أى ولولا ما شرعه الله - تعالى - للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء لاستولى أهل الشرك . وعطلوا ما بناه أهل الديانات من مواضع العبادات ولكنه دفع بأن أوجب القتال ليتفرغ أهل الدين للعبادة . فالجهاد أمر متقدم فى الأمم . وبه صلحت الشرائع ، واجتمعت المتعبدات ، فكأنه قال : أذن فى القتال فليقاتل المؤمنون . ثم قوى هذا الأمر فى القتال بقوله : ( وَلَوْلاَ دَفْعُ الله الناس . . . ) الآية أى : لولا الجهاد والقتال لتغلب أهل الباطل على أهل الحق فى كل أمة . . .فالآية الكريمة تفيد أن الله - تعالى - قد شرع القتال لإعلاء الحق وإزهاق الباطل ، ولولا ذلك لاختل هذا العالم ، وانتشر فيه الفساد .والتعبير بقوله - تعالى - : ( لَّهُدِّمَتْ ) بالتشديد للإشعار بأن عدم مشروعية القتال ، يؤدى إلى فساد ذريع ، وإلى تحطيم شديد لأماكن العبادة ، والطاعة لله - عز وجل - .وقدم الصوامع والبيع والصلوات على المساجد باعتبار أنها أقدم منها فى الوجود ، أو للانتقال من الشريف إلى الأشرف .ثم ساق - سبحانه - بأسلوب مؤكد سنة من سننه التى لا تتخلف فقال : ( وَلَيَنصُرَنَّ الله مَن يَنصُرُهُ إِنَّ الله لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ) .أى : والله لينصرن - سبحانه - من ينصر دينه وأولياءه ، لأنه - تعالى - هو القوى على كل فعل يريده ، العزيز الذى لا يغالبه مغالب ، ولا ينازعه منازع .وقد أنجز - سبحانه - وعده وسنته ، فسلط عباده المؤمنين من المهاجرين والأنصار ، على أعدائه ، فأذلوا الشرك والمشركين وحطموا دولتى الأكاسرة والقياصرة ، وأورثهم أرضهم وديارهم .

الذين ان مكناهم في الارض اقاموا الصلاة واتوا الزكاة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامور

كما فسرها الوسيط ثم وصف - سبحانه - هؤلاء المؤمنين الذين وعدهم بنصره بأكرم الصفات ليميزهم عن غيرهم فقال : ( الذين إِنْ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأرض أَقَامُواْ الصلاة وَآتَوُاْ الزكاة وَأَمَرُواْ بالمعروف وَنَهَوْاْ عَنِ المنكر وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأمور ) .أى : ولينصرن الله - تعالى - هؤلاء المؤمنين الصادقين الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق ، والذين من صفاتهم أنهم إذا ما مكنا لهم فى الأرض ، ونصرناهم على أعدائهم ، شكروا لنا ما أكرمناهم به ، فأقاموا الصلاة فى مواقيتها بخشوع وإخلاص ، وقدموا زكاة أموالهم للمحتاجين ، وأمروا غيرهم بالمعروف ونهوه عن المنكر ، ولله - تعالى - وحده عاقبة الأمور ومردها ومرجعها فى الآخرة ، فيجازى كل إنسان بما يستحقه من ثواب أو عقاب .فالآية الكريمة تبين أن أولى الناس بنصر الله ، هم هؤلاء المؤمنون الصادقون ، الذين أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر . . . .وشبيه بهذه الآية الكريمة قوله - تعالى - : ( إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا والذين آمَنُواْ فِي الحياة الدنيا وَيَوْمَ يَقُومُ الأشهاد ) وقوله - تعالى - : ( ياأيها الذين آمنوا إِن تَنصُرُواْ الله يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ . . . ).

وان يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود

- كما فسرها الوسيط وبعد أن أذن الله - تعالى - لنبيه - صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين فى القتال ، وبشرهم بالنصر . . . أتبع ذلك بتسليته - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من حزن بسبب تكذيب المشركين له ووبخ - سبحانه - أولئك المشركين على عدم اعتبارهم بمن سبقهم فقال - تعالى - : ( وَإِن يُكَذِّبُوكَ . . . ) .المعنى :لا تحزن - أيها الرسول الكريم - لأن هؤلاء المشركين قد كذبوك فيما جئتهم به من عند ربك ، وأعرضوا عنه ، فإن قوم نوح ، وقوم هود ، وقوم صالح ، وقوم إبراهيم ، وقوم لوط ، وقوم شعيب ، وقوم موسى ، قد كذبوا هؤلاء الأنبياء الكرام ، وما يقال لك من هؤلاء المشركين ، قد قيل للرسل من قبلك .قال - تعالى - : ( كَذَلِكَ مَآ أَتَى الذين مِن قَبْلِهِمْ

مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ أَتَوَاصَوْاْ بِهِ
بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ
وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذكرى تَنفَعُ المؤمنين ) واستغنى فى عاد وثمود عن ذكر
. القوم ، لاشتهارهم بهذا الاسم الذى يدل دلالة واضحة على هؤلاء الظالمين

وقوم ابراهيم وقوم لوط

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

واصحاب مدين وكذب موسى فامليت للكافرين ثم اخذتهم فكيف كان نكير

كما فسرها الوسيط وقال - سبحانه - : ( وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ) ولم يقل وقوم
، شعيب ، لأنهم هم الأسبق فى التكذيب له - عليه السلام - على أصحاب الأيكة
) : - ولأنهم هم أهله أما أصحاب الأيكة فكانوا غرباء عنه .وقال - سبحانه
وَكُذِّبَ موسى ) لأنه لم يكذّب من جميع قومه وهم بنو إسرائيل . وإنما كان
المكذب له هو فرعون وملأه ، وللإشارة إلى أن موسى - عليه السلام - قد جاء
إلى الناس بآيات واضحات تدل على صدقه ، ومع ذلك فقد قوبل بالتكذيب من فرعون
وملئه .ثم بين - سبحانه - ما حل بهؤلاء من عقوبات فقال : ( فَأَمْلَيْتُ
: لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ) .والإملاء
الإمهال وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى أن رسول الله - صلى الله عليه
: وسلم - قال : " إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته " .والنكير
اسم مصدر بمعنى الإنكار ، يقال : أنكرت على فلان فعله ، إذا ردعته وزجرته
عنه .أى : هؤلاء الأقوام الذين كذبوا أنبياءهم ، لم أعاجلهم بالعقوبة ، بل
- أملهتم وأمليت لهم ، ثم أخذتهم أخذ عزيز مقتدر ، فانظر - أيها العاقل
كيف كان إنكارى عليهم؟ لقد كان إنكارا مخيفا مهلكا ( فَكُلاًّ أَخَذْنَا
بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَّنْ
أَخَذَتْهُ الصيحة وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأرض وَمِنْهُمْ مَّنْ
أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ الله لِيَظْلِمَهُمْ ولكن كانوا أَنفُسَهُمْ
يَظْلِمُونَ ) وقال - سبحانه - ( فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ) بالإظهار
) : - دون الإضمار ، لزيادة التشنيع عليهم والاستفهام فى قوله - تعالى
فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ) للتهويل والتعجيب . أى : لقد كان إنكارا فظيعا
. . . حول حياتهم إلى موت ، وعمرانهم إلى خراب ، وغرورهم إلى ذلة وهوان
. فعلى مشركى قريش أن يعتبروا بذلك ويتعظوا . . . وإلا فالعاقبة معروفة لهم

فكاين من قرية اهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر
مشيد

كما فسرها الوسيط وبعد هذا البيان المشتمل على سوء عاقبة هذه الأمم التى
كذبت رسلها . . . أتبع ذلك - سبحانه - ببيان مصير كثير من الأمم الظالمة
فقال : ( فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ
( خَاوِيَةٌ على عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ
وكلمة " كأين " مركبة من كاف التشبيه ، ومن أى الاستفهامية المنونة ، ثم.
، هجر معنى جزأيها وصارت كلمة واحدة بمعنى كم الخبرية المفيدة للتكثير
ويكنى بها عن عدد مبهم فتفتقر إلى تمييز بعدها . ومميزها غالبا ما يجر بمن
كما فى الآية وفى غيرها . قال - تعالى - : ( وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ
قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ . . ) ( وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي
السماوات والأرض يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ) قال
- الآلوسى : وقوله : ( فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ ) منصوب بمضمر يفسره قوله
. . . تعالى - : ( أَهْلَكْنَاهَا ) أى : فأهلكنا كثيرا من القرى أهلكناها
أو مرفوع على الابتداء ، وجملة ( أَهْلَكْنَاهَا ) خبره .أى : فكثير من
القرى أهلكناها . . . وقوله : ( وَهِيَ ظَالِمَةٌ ) جملة حالية من مفعول
أهلكنا . . .ولفظ ( خَاوِيَةٌ ) بمعنى ساقطة أو خالية . يقال خوى البيت
يخوى إذا سقط أو خلا ممن يسكنه .والعروش : جمع عرش وهو سقف البيت ، ويسمى
العريش : وكل ما يُهيأ ليُسْتَظَلَ به فهو عريش .وبئر معطلة أى : مهجورة
لهلاك أهلها ، يقال : بأر فلان الأرض إذا حفرها ليستخرج منها الماء
، والمَشِيد : المجصص بالشِّيد وهو الجصّ . يقال : شاد فلان بيته يَشِيده.
، إذا طلاه بالشِّيد .والمعنى : وكثير من القرى أهلكناها بسبب ظلمهم وكفرهم
. فإذا ما نظرت إليها وجدتها خالية من أهلها ، وقد سقطت سقوفها على جدرانها
- وكثير من الآبار التى كانت تتفجر بالماء عطلناها وصارت مهجورة ، وكثير
أيضا - من القصور المشدة الفخمة أخليناها من أهلها . وذلك لأنهم كذبوا
رسلنا ، وجحدوا نعمنا ، فدمرناهم تدميرا . وجعلنا مساكنهم من بعدهم اثرا
بعد عين .فأنت ترى أن هذه الآية الكريمة قد اشتملت على أشد ألوان الوعيد
والتهديد لكفار قريش الذين كذبوا الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأعرضوا عن
دعوته .وشبيه بهذه الاية قوله - تعالى - : ( وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ

عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً وَعَذّبْنَاهَا عَذَاباً نُّكْراً فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْراً ).

افلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها او اذان يسمعون بها فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور

كما فسرها الوسيط ثم ينتقل القرآن الكريم من هذا التهديد الشديد ، إلى التوبيخ والتقريع لهؤلاء المشركين ، الذين لا يعتبرون ولا يتعظون فيقول ) : أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأرض فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ ، أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا . . . ) .والاستفهام للتوبيخ والإنكار والفاء للعطف على مقدر يستدعيه المقام .والمعنى : إن مصارع الغابرين وديارهم ، يمر بها كفار قريش ، ويعرفونها ، فهم يرون فى طريقهم إلى الشام قرى صالح وقرى لوط . . . . قال - تعالى - : ( وَإِنّكُمْ لّتَمُرّونَ عَلَيْهِمْ مّصْبِحِينَ وبالليل أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ) والشأن فى هذه الرؤية أن تجعل صاحبها يعتبر ويتعظ ، متى كان عنده قلب يعقل ما يجب فهمه ، أو أذن تسمع ما يجب سماعه وتنفيذه ، ولكن هؤلاء الجاهلين يرون مصارع الغابرين فلا يعقلون ، ولا يعتبرون ، ويسمعون الأحاديث عن تلك الآبار المعطلة ، والقصور الخالية من سكانها ، والمنازل المهدمة ، فلا يتعظون وقوله - تعالى - : ( فَإِنّهَا لاَ تَعْمَى الأبصار ولكن تعمى القلوب. التي فِي الصدور ) بيان لسبب انطماس بصائرهم ، وقسوة قلوبهم .والضمير فى ، قوله ( فَإِنّهَا ) للقصة : أى : فإن الحال أنه لا يعتد بعمى الأبصار ولكن الذى يعتد به عمى القلوب التى فى الصدور ، وهؤلاء المشركون قد أصيبوا بالعمى الذى هو أشنع عمى وأقبحه ، وهو عمى القلوب عن الفهم وقبول الحق وذكر - سبحانه - أن مواضع القلوب فى الصدور ، لزيادة التأكيد ، ولزيادة. إثبات العمى لتلك القلوب التى حدد - سبحانه - موضعها تحديدا دقيقا .قال الآلوسى : فالكلام تذييل لتهويل ما نزل بهم من عدم فقه القلب ، وأنه العمى الذى لا عمى بعده ، بل لا عمى إلا هو ، أو المعنى : إن أبصارهم صحيحة سالمة لا عمى بها . وإن العمى بقلوبهم ، فكأنه قيل : أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب ذات بصائر ، فإن الآفة ببصائر قلوبهم لا بأبصار عيونهم ، وهى الآفة التى كل آفة دونها . كأنه يحثهم على إزالة المرض وينعى عليهم تقاعدهم عنها .

ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وان يوما عند ربك كالف سنة مما تعدون

كما فسرها الوسيط ثم أكد - سبحانه - انطماس بصائرهم ، حيث بين أنهم بدل أن يتوبوا إلى الله ويستغفروه ، استعجلوا العذاب فقال : ( وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب وَلَن يُخْلِفَ الله وَعْدَهُ وَإِنّ يَوْماً عِندَ رَبّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مّمّا تَعُدّونَ ) .أى : أن هؤلاء الطغاة بدل أن يسيروا فى الأرض فيعتبروا ويتعظوا ، أخذوا يطلبون منك - ايها الرسول الكريم - نزول العذاب عاجلا ، على سبيل الاستهزاء بك والاستخفاف بما هددناهم به ، ويقولون لك : متى هو؟فالجملة الكريمة ( وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب ) خبرية فى اللفظ ، استفهامية فى المعنى .وقوله - سبحانه - : ( وَلَن يُخْلِفَ الله وَعْدَهُ ) جملة حالية جىء بها لتهديهم على استعجالهم العذاب ، أى : والحال أن الله - تعالى - لن يخلف ما وعدهم به من العذاب ، بل هو منجزه فى الوقت الذى يريده هو وليس الذى يريدونه هم .وقوله - سبحانه - : ( وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مّمّا تَعُدّونَ ) جملى مستأنفة سيقت : لبيان أن حساب الأزمان فى تقدير الله - تعالى - يخالف ما يقدره البشر .أى دعهم - أيها الرسول الكريم - يستعجلون العذاب ، فذلك دأب الظالمين فى كل حين ، وسبيل الجاهلين فى كل زمان ، واعلمهم أن الله - تعالى - لن يخلف وعده إياهم به فى الوقت المحدد لذلك ، وإن يوما عنده - تعالى - كالف سنة مما ، يعده هؤلاء فى دنياهم ، وسيأتيهم هذا اليوم الذى يطول عليهم طولا شديدا لمايرون فيه من عذاب مهين .قال القرطبى : قوله - تعالى - : ( وَإِنّ يَوْماً عِندَ رَبّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مّمّا تَعُدّونَ ) قال ابن عباس ومجاهد : يعنى من الأيام التى خلق فيها السموات والأرض . وقال عكرمة : يعنى من أيام الآخرة ، أعلمهم الله إذ استعجلوه بالعذاب فى أيام قصيرة أنه يأتيهم به فى أيام طويلة .وقال الفراء : هذا ويعد لهم بامتداد عذابهم فى الآخرة .وقيل المعنى : وإن يوما فى الخوف والشدة فى الآخرة كألف سنة من سنىّ الدنيا فيها خوف وشدة . . .

وكاين من قرية امليت لها وهي ظالمة ثم اخذتها والي المصير

كما فسرها الوسيط ثم أكد - سبحانه - أن إملاءه للظالمين ، سيعقبه العذاب

الأليم ، فقال : ( وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ) .أى : وكثير من القرى ، الظالمة أملهت عقوبة أهلها إلى أجل مسمى ، ثم أخذتها بعد ذلك أخذا شديدا جعلهم فى قراهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها ، وسيرجعون إلينا فيجدون عذابا أشد وأبقى ، إذ أن مصيرهم إلىَّ لا إلى غيرى .

قل يا ايها الناس انما انا لكم نذير مبين

- كما فسرها الوسيط وبعد هذا العرض لمصارع الغابرين وبيان سنة الله - تعالى فى المكذبين ، يأمر - سبحانه - نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يرشد الناس إلى مصيرهم فيقول : ( قُلْ ياأيها الناس إِنَّمَآ أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ) .أى : قل - أيها الرسول الكريم - للناس ، إن وظيفتى أن أنذركم وأخوفكم من عذاب الله ، بدون التباس أو غموض .

فالذين امنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم

كما فسرها الوسيط ( فالذين آمَنُواْ ) وعملوا الأعمال الصالحات لهم من ربهم مغفرة واسعة ، ورزق كريم ، لا انقطاع معه ولا امتناع .

والذين سعوا في اياتنا معاجزين اولئك اصحاب الجحيم

كما فسرها الوسيط ( والذين سَعَوْاْ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ ) أى : والذين بذلوا كل جهودهم فى إبطال آياتنا الدالة على وحدانيتا وقدرتنا وصدق رسلنا ، وأسرعوا فى تكذيبها وغالبوا المؤمنين وعارضوهم ليظهروهم بمظهر العاجز عن الدفاع عن دينهم وعن عقيدتهم .( أولئك ) الموصوفون بهذا السعى الأثيم ( أَصْحَابُ الجحيم ) أى : الملازمون للنار المتأججة ملازمة المالك لما يملكه .

وما ارسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى القى الشيطان في امنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله اياته والله عليم حكيم

كما فسرها الوسيط ثم انتقلت السورة الكريمة بعد ذلك إلى الحديث عن فضل الله - تعالى - على أنبيائه ورسله حيث عصمهم من كيد الشيطان ووسوسته وحفظ دعوتهم من تكذيب المكذبين ، وعبث العابثين . . . فقال - تعالى - : ( وَمَآ أَرْسَلْنَا . . . ) .قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآيات : قد ذكر كثير من المفسرين ها هنا قصة الغرانيق ، وما كان من رجوع كثير من المهاجرين إلى أرض الحبشة ، ظنا منهم أن مشركى قريش قد أسلموا .ولكنها من طرق كلها مرسلة ، ولم أرها مسندة من وجه صحيح .ثم قال - رحمه الله - : قال ابن أبى حاتم : حدثنا يونس بن حبيب ، حدثنا أبو داود ، حدثنا شعبة ، عن أبى بشر عن سعيد بن جبير قال : قرأ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بمكة سورة النجم ، فلما بلغ هذا الموضع : ( أَفَرَأَيْتُمُ اللات والعزى وَمَنَاةَ الثالثة الأخرى ) قال : فألقى الشيطان على لسانه : " تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن ترتجى " .قالوا : - أى المشركون - : ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم ، فسجد وسجدوا ، فأنزل الله - تعالى - هذه الآية ( وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تمنى أَلْقَى الشيطان في أُمْنِيَّتِهِ . . . ) .وجمع - سبحانه - بين الرسول والنبى ، لأن المقصود بالرسول من بعث بكتاب ، وبالنبى من بعث بغير كتاب ، أو المقصود بالرسول من بعث بشرع جديد ، وبالنبى من بعث لتقرير شرع من قبله .ولفظ ( تمنى ) هنا : فسره العلماء بتفسيرين :أولهما : أنه من التَّمَنِّى ، بمعنى محبة الشىء ، وشدة الرغبة فى الحصول عليه ، ومفعول " ألقى " محذوف والمراد بإلقاء الشيطان فى أمنيته : محاولته صرف الناس عن دعوة الحق ، عن طريق إلقاء الأباطيل فى نفوسهم ، وتثبيتهم على ما هم فيه من ضلال .والمعنى : وما أرسلنا من قبلك - يا محمد - من رسول ولا نبى ، إلا إذا تمنى هداية قومه إلى الدين الحق الذى جاءهم به من عند ربه ، ألقى الشيطان الوساوس والشبهات فى طريق أمنيته لكى لا تتحقق هذه الأمنية ، بأن يوهم الشيطان الناس بأن هذا الرسول أو النبى ساحر أو مجنون ، أو غير ذلك من الصفات القبيحة التى برأ الله - تعالى - منها رسله وأنبياءه .قال - تعالى - : ( كَذَلِكَ مَآ أَتَى الذين مِن قَبْلِهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ أَتَوَاصَوْاْ بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ) والآية الكريمة على هذا التفسير واضحة المعنى ، ويؤيدها الواقع ، إذ أن كل رسول أو نبى بعثه الله - تعالى - كان حريصا على هداية قومه ، وكان يتمنى أن يؤمنوا جميعا ، بل إن الرسول - صلى الله عليه وسلم - كاد يهلك نفسه هما وغما بسبب إصرار قومه على الكفر .قال - تعالى - : ( فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ على آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بهذا الحديث أَسَفاً ) إلا أن قوم كل

، رسول أو نبى منهم من آمن به .ومنهم من أعرض عنه بسبب إغراء الشيطان لهم وإيهامهم بأن ما هم عليه من ضلال هو عين الهدى .وإلى هذا التفسير أشار صاحب الكشاف بقوله : " قوله - تعالى - : ( مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ ) دليل بين على تغاير الرسول والنبى . والفرق بينهما أن الرسول من الأنبياء : من جمع إلى المعجزة الكتاب المنزل عليه والنبى غير الرسول : من لم ينزل عليه كتاب وإنما أمر أن يدعو الناس إلى شريعة من قبله .والسبب فى نزول هذه الآية أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما أعرض عنه قومه وشاقوه ، وخالفته عشيرته ولم يشايعوه فى ما جاء به : تمنى لفرط ضجره من إعراضهم ، ولحرصه وتهالكه على إسلامهم أن لا ينزل عليه ما ينفرهم ، لعله يتخذ ذلك طريقا إلى استمالتهم واستنزالهم عن غيرهم وعنادهم .أما التفسير الثانى للفظ ( تمنى ) فهو أنه بمعنى قرأ وتلا . ومنه قو حسان بن ثابت ، فى رثاء عثمان بن عفان رضى الله عنه :تمنى كتاب الله أول لَيْلِهِ ... وآخره لاقى حمام المقادرأى ) قرأ وتلا كتاب الله فى أول الليل . وفى آخر الليل وافاه أجله .ومفعول : أَلْقَى ) على هذا المعنى محذوف - أيضا - والمراد بما يلقيه الشيطان فى قراءته : ما يلقيه فى معناها من أكاذيب وأباطيل ، ليصد الناس عن اتباع ما يقرؤه الرسول وما يتلوه ، وليس المراد أنه يلقى فيها ما ليس منها بالزيادة - أو بالنقص ، فإن ذلك محال بالنسبة لكتاب الله - تعالى - الذى تكفل سبحانه - بحفظه فقال : ( إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ) والمعنى : وما أرسلنا من قبلك - أيها الرسول الكريم - من رسول ولا نبى إلا إذا قرأ شيئا مما أنزلناه عليه ، القى الشيطان فى معنى قراءته الشبه والأباطيل ، ليصد الناس عن اتابع ما يتلوه عليهم هذا الرسول أو النبى .قال الآلوسى - رحمه الله - : والمعنى : وما أرسلنا من قبلك رسولا ولا نبيا ، إلا وحاله أنه إذا قرأ شيئا من الآيات ، ألقى الشيطان الشبه ، والتخيلات فيما يقرؤه على أوليائه ، ليجادلوه بالباطل ، ويردوا ما جاء به كما قال - تعالى - : ( . . . وَإِنَّ الشياطين لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيَآ ئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ . . ) وقال - سبحانه - : ( وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإنس والجن يُوحِي بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ القول غُرُوراً . . ) وهذا كقولهم عند سماع قراءة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ( حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الميتة والدم إن محمدا يحل ذبيحة نفسه ويحرم ما ذبحه الله . وكقولهم عند سماع قراءته ( لقوله - تعالى - ( إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله حَصَبُ جَهَنَّمَ . . ) إن عيسى قد عبد من دون الله ، وكذلك الملائكة قد عبدوا من دون الله .

ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وان الظالمين لفي شقاق بعيد

كما فسرها الوسيط والآية الكريمة ( لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشيطان ) على هذا التفسير - أيضا - واضحة المعنى ، إذا المراد بما يلقيه الشيطان فى قراءة الرسول أو النبى ، تلك الشبه والأباطيل التى يلقيها فى عقول الضالين : - فيجعلهم يؤولونها تأويلا سقيما ويفهمونها فهما خاطئا .وقوله - تعالى ، ( فَيَنسَخُ الله مَا يُلقِي الشيطان ثُمّ يُحْكِمُ الله آيَاتِهِ والله عَلِيمٌ حَكِيمٌ ) بيان لسنته - سبحانه - التى لا تتخلف فى إحقاق الحق . وإبطال الباطل .وقوله ( فَيَنسَخُ ) من النسخ بمعنى الإزالة . يقال : نسخت الشمس الظل إذا أزالته .أى : فيزيل - سبحانه - بمقتضى قدرته وحكمته ما ألقاه الشيطان فى القلوب التى شاء الله - تعالى - لها الإيمان والثبات على الحق ثم يحكم - سبحانه - آياته بأن يجعلها متقنة ، لا تقبل الرد ، ولا تحتمل الشك فى كونها من عند - عز وجل - والله عليم بجميع شئون خلقه ، حكيم فى كل أقواله وأفعاله وتصرفاته .ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أن الحكمة فى إلقاء الشيطان لشبهه وضلالته هى امتحان الناس فقال : ( لِّيَجْعَلَ مَا يُلقِي الشيطان فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ والقاسية قُلُوبُهُمْ . . . ) .أى : فعل ما فعل - سبحانه - ليجعل ما يلقيه الشيطان من تلك الشبه فى القلوب فتنة واختبارا وامتحانا ، للذين فى قلوبهم مرض ، أى شك وارتياب ، وهم المنافقون ، وللذين قست قلوبهم ، وهم الكافرون : المجاهرون بالجحود والعناد .فقوله - تعالى - : ( لِّيَجْعَلَ . . . ) متعلق - ب ( أَلْقَى ) أى : ألقى الشيطان فى أمنية الرسل والأنبياء ليجعل الله تعالى - ذلك لإلقاء فتنة الذين فى قلوبهم مرض .ومعنى كونه فتنة لهم : أنه - سبب لتماديهم فى الضلال ، وفى إصرارهم على الفسوق والعصيان .ثم بين سبحانه - سوء عاقبة الفريقين فقال : ( وَإِنَّ الظالمين ) ، وهم من فى قلوبهم مرض ، ومن قست قلوبهم ( لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ) أى لفى خلاف للحق شديد . بسبب نفاقهم وكفرهم .

وليعلم الذين اوتوا العلم انه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وان الله لهاد الذين امنوا الى صراط مستقيم

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - حكمة أخرى لما فعله الشيطان من إلقاء الشبه والوساوس فى القلوب فقال :( وَلِيَعْلَمَ الذين أُوتُواْ العلم أَنَّهُ الحق مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ
والضمير فى ( أَنَّهُ ) يعود إلى ما جاء به الرسل والأنبياء من عند ربهم. ( - أى : وفعل ما فعل - سبحانه - أيضا ، ليعلم العلماء من عباده ، الذين حبب. سبحانه - إليهم الإيمان ، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان ، أن ما جاء ) به الرسل والأنبياء هو الحق الثابت من ربك ، فيزدادوا إيمانا به ) فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ) أى : فتخضع وتسكن وتطمئن إليه نفوسهم .و وَإِنَّ الله ) - تعالى - ( لَهَادِ الذين آمنوا ) به وصدقوا أنبياءه ورسله ، يوصلهم إلى السعادة فى الدنيا والآخرة .هذا ( إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ) وقد أبطل العلماء - قديما وحديثا - قصة الغرانيق ، ومن العلماء القدماء الذين تصدوا لهذا الإبطال الإمام الفخر الرازى ، فقد قال ما ملخصه : قصة الغرانيق باطلة عند أهل التحقيق ، واستدلوا على بطلانها بالقرآن والسنة والمعقول .أما القرآن فمن وجوه منها قوله - تعالى - : ( وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأقاويل لأَخَذْنَا مِنْهُ باليمين ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوتين ) وقوله - سبحانه - : ( وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهوى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يوحى ) وقوله - عز وجل ( قُلْ مَا يَكُونُ لي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَآءِ نفسي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يوحى إِلَيَّ . . . وأما السنة ، فقد قال الإمام البيهقى : هذه القصة غير ثابتة من جهة ( النقل وأيضا فقد روى البخارى فى صحيحه أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قرأ سورة " النجم " وسجد فيها المسلمون والمشركون والإنس والجن ، وليس فيه حديث الغرانيق . وروى هذا الحديث من طرق كثيرة وليس فيها البتة حديث الغرانيق وأما المعقول فمن وجوه منها : أن من جور على الرسول - صلى الله عليه. - وسلم - تعظيم الأوثان فقد كثر ، لان من المعلوم بالضرورة أن أعظم سعيه صلى الله عليه وسلم - كان نفى الأوثان .ومنها : أننا لو جوزنا ذلك لارتفع الأمان عن شرعه . . . فإنه لا فرق فى العقل بين النقصان عن الوحى وبين الزيادة فيه .فبهذه الوجوه عرفنا على سبيل الإجمال أن هذه القصة موضوعة . أكثر ما فى الباب أن جمعا من الفسرين ذكرها ، لكنهم ما بلغوا حد التواتر . وخبر الواحد لا يعارض الدلائل النقلية والعقلية المتواترة .وقال بعض العلماء ما ملخصه : اعلم أن مسألة الغرانيق مع استحالتها شرعا ، ودلالة القرآن على بطلانها ، لم تثبت من طريق صالح للاحتجاج به ، وصرح بعد ثبوتها خلق كثير من علماء الحديث كما هو الصواب .والحاصل : أن القرآن دل على بطلانها ، ولم تثبت من جهة النقل ، مع استحالة الإلقاء على لسانه - صلى الله عليه وسلم - شرعا ولو على سبيل السهو .والذى يظهر لنا أنه الصواب : هو أن ما يلقيه الشيطان فى قراءة النبى : الشكوك والوساوس المانعة من تصديقها وقبولها ، كإلقائه عليهم أنها سحر أو شعر أو أساطير الأولين . . .والدليل على هذا المعنى : أن الله - تعالى - بين أن الحكمة فى الإلقاء المذكور امتحان الخلق ، لأنه قال : ( لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشيطان فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم . . . ) ثم قال : ( وَلِيَعْلَمَ الذين أُوتُواْ العلم أَنَّهُ الحق مِن رَّبِّكَ . . . ) فهذا يدل على أن الشيطان يلقى عليهم ، أن الذى يقرؤه النبى ليس بحق ، فيصدقه الأشقياء ، ويكذبه المؤمنون الذين أوتوا العلم ، ويعلمون أنه الحق لا الكذب ، كما يزعم لهم الشيطان فى إلقائه . . . " .

ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تاتيهم الساعة بغتة او ياتيهم عذاب يوم عقيم

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن الكافرين سيستمرون على شكهم فى القرآن حتى تأتيهم الساعة ، وأنه - تعالى - سيحكم بين الناس يوم القيامة ، فيجازى الذين أساءوا بما عملوا . ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى . فقال - عز وجل - : ( وَلاَ يَزَالُ الذين كَفَرُوا . . . ) .قال الجمل : " لما ذكر سبحانه - حال الكافرين أولا ، ثم حال المؤمنين ثانيا ، عاد إلى شرح حال الكافرين ، فهو رجوع لقوله : ( وَإِنَّ الظالمين لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ) والمرية بالكسر والضم . لغتان مشهورتان .والضمير فى قوله : ( مِّنْهُ ) يعود إلى القرآن الكريم ، أو إلى ما جاء به الرسول من عند ربه ، وقيل إلى ما ألقاه الشيطان .وقد رجح ابن جرير كونه للقرآن فقال : وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب قول من قال : هى كناية من ذكر القرآن الذي أحكم الله آياته وذلك أن ذلك من ذكر قوله : ( وَلِيَعْلَمَ الذين أُوتُواْ العلم . . ) أقرب منه من ذكر قوله ( فَيَنسَخُ الله مَا يُلْقِي الشيطان . . ) والمعنى ولا يزال الذين كفروا فى شك وريب مما أوحاه الله إليك من قرآن ، بسبب قسوة قلوبهم ، واستيلاء الجحود والعناد على نفوسهم .وسيستمرون على هذه الحال حتى تَأْتِيَهُمُ الساعة ) أى : القيامة ( بَغْتَةً ) أى : فجأة ( أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ) أى :لا مثل له فى هوله وشدة عذابه

ولا يوم بعده ، إذ كل يوم يلد ما بعده عن الأيام إلا هذا اليوم وهو يوم القيامة فإنه لا يوم بعده .قال ابن كثير : " وقوله : ( أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ) قال مجاهد : قال أبى بن كعب : هو يوم بدر .وكذا قال عكرمة وسعيد بن جبير وقتادة وغير واحد واختاره ابن جرير .وفى رواية عن عكرمة ومجاهد هو يوم القيامة لا ليلة له ، وكذا قال الضحاك والحسن .وهذا القول هو الصحيح ، وإن كان يوم بدر من جملة ما أوعدوا به ، لكن هذا هو المراد ، ولهذا قال : ( الملك يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ) كقوله : ( مالك يَوْمِ الدين ) .

الملك يومئذ لله يحكم بينهم فالذين امنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - مظاهر قدرته ، وشمول قهره لغيره فقال : ( الملك يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ) . . . والتنوين فى قوله ( يَوْمَئِذٍ ) عوض عن جملة .أى : السلطان القاهر ، والتصرف الكامل ، يوم تأتيهم الساعة بغتة ، أو يوم يأتيهم عذابها يكون لله - تعالى - وحده ، كما أن الحكم بين الناس جميعا يكون له وحده - سبحانه - ( فالذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ ) الأعمال ( الصالحات ) يكونون فى هذا اليوم ( فِي جَنَّاتِ النعيم )

والذين كفروا وكذبوا باياتنا فاولئك لهم عذاب مهين

كما فسرها الوسيط ( والذين كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآياتِنَا ) التى جاءتهم بها رسلنا ( فأولئك لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ) أى : لهم عذاب ينالون بسببه ما ينالون من هوان وذل .

والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا او ماتوا ليرزقنهم الله رزقا حسنا وان الله لهو خير الرازقين

كما فسرها الوسيط ( والذين هَاجَرُواْ ) من ديارهم ( فِي سَبِيلِ ) إعلاء كلمة الله ونصرة دينه ( ثُمَّ قتلوا ) أى : قتلهم الكفار فى الجهاد ( أَوْ مَاتُواْ ) أى : على فراشهم .هؤلاء وهؤلاء ( لَيَرْزُقَنَّهُمُ الله ) - تعالى - بفضله وكرمه ( رِزْقاً حَسَناً ) يرضيهم ويسرهم يوم يلقونه .حيث يبوئهم جنته .قال - تعالى - : ( وَلاَ تَحْسَبَنَّ الذين قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ الله أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ) . . . وقال - سبحانه - ( وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى الله وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الموت فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَىَ الله ) وقوله - عز وجل - : ( وَإِنَّ الله لَهُوَ خَيْرُ الرازقين ) تذييل قصد به بيان أن عطاءه - سبحانه - فوق كل عطاء ، لأنه يرزق من يشاء بغير حساب ، ويعطى من يشاء دون أن ينازعه منازع ، أو يعارضه معارض ، أو ينقص مما عنده شىء .

ليدخلنهم مدخلا يرضونه وان الله لعليم حليم

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ . . . ) استئناف مقرر لما قبله . و " مدخلا " أى : إدخالا ، من أدخل يدخل - بضم الياء - وهو مصدر ميمى للفعل الذى قبله ، والمفعول محذوف .أى : ليدخلنهم الجنة إدخالا يرضونه .وقرأ نافع ( مدخلا ) - بفتح الميم - على أنه اسم مكان أريد به الجنة ، أى : ليدخلنهم مكانا يرضونه وهو الجنة .( وَإِنَّ الله ) - تعالى - ( لَعَلِيمٌ ) بالذى يرضيهم ، وبالذى يستحقه كل إنسان من خير أو شر ( حَلِيمٌ ) فلا يعاجل بالعقوبة ، بل يستر ويعفو عن كثير .

ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغي عليه لينصرنه الله ان الله لعفو غفور

كما فسرها الوسيط ثم بشر - سبحانه - عباده الذين يقع عليهم العدوان بالنصر على من ظلمهم ، فقال - تعالى - : ( ذلك وَمَنْ عَاقَبَ . . . ) .اسم الإشارة ذلك ، فى قوله - تعالى - ( ذلك وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ) .يعود إلى ما ذكره - سبحانه - قبل ذلك من أن الملك له يوم القيامة ، ومن الرزق الحسن الذى منحه للمهاجرين فى سبيله ثم قتلوا أو ماتوا : والعقاب : مأخوذ من التعاقب ، وهو مجىء الشىء بعد غيره . والمراد به هنا . مجازاة الظالم بمثل ظلمه .قال القرطبى : قال مقاتل : نزلت هذه الآية فى قوم : من مشركى مكة . لقوا قوما من المسلمين لليلتين بقيتا من المحرم : فقالوا إن أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - يكرهون القتال فى الشهر الحرام فاحملوا عليهم فناشدهم المسلمون أن لا يقاتلوهم فى الشهر الحرام . فأبى

المشركون إلا القتال ، فحملوا عليهم فثبت المسلمون ونصرهم الله على المشركين ، وحصل فى أنفس المسلمين شىء من القتال فى الشهر الحرام ، فأنزل الله الآية .فمعنى ( وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ) أى : من جازى الظالم بمثل ما ظلمه ، فسمى جزاء العقوبة عقوبة لاستواء الفعلين فى الصورة فهى مثل : ( جَزَآءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ) وقوله ( ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ ) أى : أن الظالم المبتدئ بالظلم عاد مرة أخرى فبغى على المظلوم وآذاه .وقوله ( لَيَنصُرَنَّهُ الله ) وعد مؤكد منه - سبحانه - بنصرة المظلوم ، والجملة جواب قسم محذوف . أى والله لينصرن - سبحانه - المظلوم على الظالم فى الحال أو المآل .قوله : ( إِنَّ الله لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ) تعليل للنصرة ، وبيان بأن المظلوم عندما ترك العفو عن الظالم ، لا يؤاخذه - سبحانه - على ذلك ، ما دام لم يتجاوز فى رد العدوان الحدود المشروعة ، وهى الانتصار على القصاص بالمثل .أى : إن الله - تعالى - لكثير العفو عن عباده ، وكثير المغفرة لذنوبهم وخطاياهم .

ذلك بان الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وان الله سميع بصير

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن نصره للمظلوم مرجعه إلى شمول قدرته على كل شىء ، فقال - تعالى - : ( ذلك بِأَنَّ الله يُولِجُ الليل ) .ومعنى يولج : يدخل . يقال : ولج فلان منزله ، إذا دخله .أى : ذلك الذين فعلناه : من نصرة المبغى عليه على الباغى ، كائن بسبب أن قدرتنا لا يعجزها شىء ، ومن مظاهر ذلك أننا ندخل جزءا من الليل فى النهار فيقصر الليل ويزيد النهار ، وندخل جزءا من النهار فى الليل فيحصل العكس . وأنتم ترون ذلك بأعينكم وتشاهدون كيف يسيران بهذا النظام البديع .( وَأَنَّ الله سَمِيعٌ بَصِيرٌ ) أى : وأن الله - تعالى - سميع لكل المسموعات ، بصير لك المبصرات ، لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

ذلك بان الله هو الحق وان ما يدعون من دونه هو الباطل وان الله هو العلي الكبير

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( ذلك بِأَنّ الله هُوَ الحق وَأَنّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الباطل . . ) بيان لحقيته - عز وجل - للعبادة والطاعة والخضوع التام .واسم الإشارة يعود إلى ما وصف به نفسه قبل ذلك من صفات القدرة الباهرة والعلم التام .أى : ذلك الذى تراه - أيها العاقل - فى هذا الكون من مخلوقات ، ومن نصر للمظلوم ، ومن إدخال الليل فى النهار وإدخال النهار فى الليل ، سببه أن الله - تعالى - هو الإله الحق الذى يجب أن تعنو له الوجوه . وأن ما عداه من معبودات آلهة باطلة ما أنزل الله بها من سلطان .( وَأَنَّ الله ) - تعالى - وحده ( هُوَ العلي ) أى : العالى على جميع الكائنات بقدرته ، وكل شىء دونه ( الكبير ) أى : العظيم الذى لا يدانيه فى عظمته أحد .فأنت ترى أن هذه الآيات الكريمة ، قد وصفت الله - تعالى - بما هو أهل له من صفات الجلال والكمال .

الم تر ان الله انزل من السماء ماء فتصبح الارض مخضرة ان الله لطيف خبير

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ما يدل على سعة فضله ورحمته بعباده فقال : ( أَلَمْ تَرَ أَنّ . . . ) .الاستفهام فى قوله : ( أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَتُصْبِحُ الأرض مُخْضَرَّةً ) للتقرير .وقوله : ( مُخْضَرَّةً ) أى : ذات خضرة بسبب النبات الذى ( . . ) ينبته الله فيها بعد نزول المطر عليها .والمعنى : لقد رأيت ببصرك وعلمت ببصيرتك أيها المخاطب أن الله - تعالى - قد أنزل من السماء ماء ، فتصير الأرض بسببه ذات خضرة ، وفى ذلك أعظم الأدلة على كمال قدرته ، وعظيم رحمته بعباده .وقال - سبحانه - ( فَتُصْبِحُ ) بصيغة المضارع ، لاستحضار صورة الاخضرار ، الذى اتصف به الأرض بعد نزول المطر عليها ، وصيغة الماضى لا تفيد دوام استحضارها ، لأن الفعل الماضى يفيد انقطاع الشىء .ولم ينصب هذا الفعل المضارع فى جواب الاستهفام ، لأن الاستفهام تقريرى فهو فى معنى الخبر والخبر لا جواب له ، فكأنه قيل : لقد رأيت ، ولأن السببية هنا غير متحققة ، إذ الرؤية لا يتسبب عنها اخضرار الأرض ، وإنما اخضرارها يكون بسبب نزول المطر .وقد أشار صاحب الكشاف إلى ذلك فقال : فإن قلت : هلا قيل : فأصبحت؟ ولم صرف إلى لفظ المضارع؟قلت : لنكتة فيه وهى إفادة بقاء أثر المطر زمانا بعد زمان ، كما تقول : أنعم علىّ فلان عام كذا ، فأروح وأغدوا شاكرا له . ولو قلت : فرحت وغدوت لم يقع ذلك الموقع . فإن قلت : فما له رفع ولم ينصب جوابا للاستفهام؟قلت : لو نصب لأعطى ما هو عكس الغرض ، لأن معناه إثبات الاخضرار فينقلب بالنصب إلى نفى الاخضرار . مثاله أن تقول لصاحبك ألم تر أنى أنعمت عليك فتشكر . إن نصبته فأنت ناف لشكره . شاك تفريطه فيه ، وإن

رفعته فأنت مثبت للشكر وهذا وأمثاله مما يجب أن يرغب له من استم بالعلم في علم الإعراب وتوقير أهله .وقال بعض العلماء ما ملخصه : فإن قيل : كيف قال فتصبح مع أن اخضرار الأرض قد يتأخر عن صبيحة المطر .فالجواب : أن تصبح هنا بمعنى تصير ، والعرب تقول : فلان أصبح غنيا ، أى : صار غنيا ، أو أن الفاء للتعقيب ، وتعقيب كل شىء بحسبه ، كقوله - تعالى - : ( ثُمَّ خَلَقْنَا النطفة عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العلقة مُضْغَةً فَخَلَقْنَا المضغة عِظَاماً مع أن بين كل شيئين أربعين يوما ، كما جاء فى الحديث الصحيح .ثم ( . . . ختم - سبحانه - الآية بقوله : ( إِنَّ الله لَطِيفٌ خَبِيرٌ ) أى : إن الله - تعالى - لطيف بعباده .ومن مظاهر لطفه بهم ، إنزاله المطر على الأرض للانتفاع بما تنبته من كل زوج بهيج ، وهو - تعالى - خبير بأحوال عباده ، لا يعزب عن عمله مثقال ذرة من هذه الأحوال .

له ما في السماوات وما في الارض وان الله لهو الغني الحميد

كما فسرها الوسيط فإنه - سبحانه - ( لَّهُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض ) خلقا وملكا وتصرفا ( وَإِنَّ الله لَهُوَ الغني ) عن كل ما سواه الحميد ) أى : المستوجب للحمد من كل خلقه .

الم تر ان الله سخر لكم ما في الارض والفلك تجري في البحر بامره ويمسك السماء ان تقع على الارض الا باذنه ان الله بالناس لرءوف رحيم

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأرض والفلك تَجْرِي فِي البحر بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السمآء أَن تَقَعَ عَلَى الأرض إِلاَّ بِإِذْنِهِ . . . ) بيان لألوان أخرى من الغم التى أنعم بها على بنى آدم .أى : لقد علمت - أيضا - أيها العاقل ، أن الله - تعالى - سخر لكم يا بنى آدم - ما فى الرض من دواب وشجر وأنها وغير ذلك مما تحتاجونه لحياتكم ، وسخر لمنفعتكم السفن التى تجرى فى البحر بتقديره وإرادته وإذنه .وهو - سبحانه - الذى يمسك السماء ويمنعها من أن تقع على الأرض ، فتهلك من فيها ، ولو شاء لأذن لها فى الوقوع فسقطت على الأرض فأهلكت من عليها .قال الجمل : وقوله : ( إِلاَّ بِإِذْنِهِ ) : الظاهر أنه استثناء مفرغ من أعم الأحوال ، وهو لا يقع إلا فى الكلام الموجب إلا أن قوله : ( وَيُمْسِكُ السمآء أَن تَقَعَ عَلَى الأرض ) فى قوة النفى . أى - لا يتركها تقع فى حالة من الأحوال إلى فى حالة كونها ملتبسة بمشيئة الله تعالى - ، فالباء للملابسة .وقوله - سبحانه - : ( إِنَّ الله بالناس لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ) أى : لكثير الرأفة والرحمة بهم ، ومن علامات ذلك أنه سخر لهم ما فى الأرض وسخر لهم الفلك ، وأمسك السماء عنهم ، ولم يسقطها عليهم .وشبيه بهذه الاية قوله - تعالى - : ( إِنَّ الله يُمْسِكُ السماوات والأرض أَن تَزُولاَ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَآ مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ) .

وهو الذي احياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ان الانسان لكفور

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - هذه النعم بما هو أجلها وأعظمها فقال : ( وَهُوَ الذي أَحْيَاكُمْ ) أى : بعد أن كنتم أمواتا فى بطون أمهاتكم ، وقبل أن ينفخ بقدرته الروح فيكم . ( ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ) أى : بعد انقضاء آجالكم فى هذه الحياة ( ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ) أى : عند البعث والحساب ). إِنَّ الإنسان لَكَفُورٌ ) أى : لكثير الجحود والكفران لنعم ربه التى لا تحصى .فأنت ترى أن هذه الآيات الكريمة قد ذكرت أنواعا متعددة من الأدلة على قدرته - سبحانه - ، كما ذكرت ألوانا من نعمه على عباده ، ومن ذلك إنزال الماء من السماء فتصبح الأرض مخضرة بعد أن كانت يابسة . وتسخير ما فى الأرض للإنسان ، وتسخير الفلك لخدمته ومنفعته ، وإمساك السماء أن تقع على الأرض إلا بمشيئته - تعالى - وإيجادنا من العدم بقدرته ورحمته .

لكل امة جعلنا منسكا هم ناسكوه فلا ينازعنك في الامر وادع الى ربك انك لعلى هدى مستقيم

- كما فسرها الوسيط وبعد أن عرضت السورة الكريمة دلائل قدرة الله - تعالى ورحمته بعباده أتبعت ذلك ببيان أنه - سبحانه - قد جعل لكم أمة شرعة ومنهاجا وأمرت النبى - صلى الله عليه وسلم - أن يمضى فى طريقة لتبليغ رسالة ، الله - تعالى - دون أن يلتفت إلى ممارات المشركين له ، وأن يفوض الحكم فيهم إليه - سبحانه - فهو العليم بكل شىء ، فقال - تعالى - : ( لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا . . . ) .قال الآلوسى : قوله - تعالى - : ( لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ . . . ) كلام مستأنف جىء به لزجر ، معاصريه - صلى الله عليه وسلم - من أهل الأديان السماوية عن منازعته

: ببيان حال ما تمسكوا به من الشرائع ، وإظهار خطئهم .والمراد الأمة هنا
القوم الذين يدينون بشريعة معينة . والمراد بالمنسك المنهج والشريعة التى
يتبعونها فى عقيدتهم وفى معاملاتهم . . .أى : شرعنا لكل أمة من الأمم
السابقة منهجا يسيرون عليه فى اعتقادهم وفى طريقة حياتهم ، فالأمة التى
، وجدت من مبعث موسى إلى مبعث عيسى - عليهما السلام - شريعتها التوراة
والأمة التى وجدت من بعث عيسى حتى مبعث محمد - صلى الله - شريعتها الأنجيل
والأمة التى وجدت منذ مبعث محمد - صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة ،
شريعتها القرآن .وعلى كل أمة أدركت بعثة محمد - صلى الله عليه وسلم - أن
، تتبعه فيما جاء به من عند ربه ، لأن شريعته هى الشريعة الناسخة لما قبلها
والمهيمنة عليها .ويرى بعضهم أن المراد بالمنسك هنا : المكان الذى يذبحون
فيه ذبائحهم تقربا إلى الله - تعالى - .وقد رجح الإمام ابن جرير ذلك فقال
ما ملخصه : وأصل المناسك فى كلام العرب : الموضع المعتاد الذى يعتاده الرجل
ويألفه لخير أو شر . يقال : إن لفلان منسكا يعتاده ، يراد مكانا يغشاه
: ويألفه لخير أو شر . وقد اختلف أهل التأويل فى معنى المنسك هنا ، فقيل
عيد ، وقيل : إراقة الدم . . . والصواب من القول فى ذلك أن يقال : عنى بذلك
إراقة الدم أيام النحر بمنى ، لأن المناسك التى كان المشركون جادلوا فيها
. . . رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كانت إراقة الدم فى هذه الأيام
ولذلك قلنا : عنى بالمنسك فى هذا الموضع : الذبح . .ويبدو لنا أن القول
الأول ، وهو تفسير المنسك بالشريعة الخاصة أقرب إلى الصواب لشموله للذبح
وغيره .والضمير فى قوله : ( هُمْ نَاسِكُوهُ ) يعود لكل أمة .أى : جعلنا
- لكل أمة شريعة تسير على تعاليمها ، وتنهج على نهجها . .والفاء فى قوله
تعالى - : ( فَلاَ يُنَازِعُنَّكَ فِي الأمر ) لترتيب النهى على ما قبلها
والمنازعة : المجادلة والمخاصمة . والمراد بالأمر : ما جاء به النبى - صلى.
الله عليه وسلم - من عند ربه - تعالى - من تشريعات وأحكام .أى : قد جعلنا
، لكل أمة من الأمم السابقة شريعة تتبع تعاليمها ، وما دام الأمر كذلك
، فاسلك أنت وأتباعك - أيها الرسول الكريم - الشريعة التى أوحيناها إليك
وأمرناك باتباعها ، ولا تلتفت إلى مخاصمة من ينازعك فى ذلك من اليهود أو
النصارى أو غيرهم ، فإن منازعتهم لك فيما جئت به من عند ربك ، يدل على
جهلهم وسوء تفكيرهم ، لأن ما جئت به من عند ربك مصدق لشريعتهم ، ومهيمن
) : عليها وناسخ لها .ثم أرشده - سبحانه - إلى ما يجب عليه نحو دينه فقال
وادع إلى رَبِّكَ إِنَّكَ لعلى هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ) .أى : وادع هؤلاء
الذين ينازعونك فيما جئتهم به من الحق ، وأدع غيرهم معهم إلى ترك التنازع
، والتخاصم ، وإلى الدخول فى دين الإسلام : فإنك أنت على الصراط المستقيم
. الذى لا اعوجاج فيه ولا التباس

وان جادلوك فقل الله اعلم بما تعملون

كما فسرها الوسيط ثم بين له - سبحانه - ما يفعله إذا ما لجُّوا فى منازعتهم
له فقال : ( وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ الله أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ )
- أى : وإن أبوا إلا مجادلتك بعد أن ظهر الحق ، ولزمتهم الحجة ، فقل لهم.
أيها الرسول الكريم - امرى وامركم إلى الله - تعالى - ، فهو الذى يتولى
الحكم بينى وبينكم يوم القيامة ، لأنه - سبحانه - هو العليم بحالى وحالكم
وهذه الجملة الكريمة قد تضمنت تهديدهم على استمرارهم فى جدالهم بعد أن.
تبين لهم الحق ، كما تضمنت وجوب إعراض الرسول - صلى الله عليه وسلم - عنهم
.

الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون

كما فسرها الوسيط ثم أكد - سبحانه - هذا التهديد والإعراض فقال : ( الله
يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ) أيها المسلمون وبين هؤلاء الكافرين ( يَوْمَ القيامة
، فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ ) فى الدنيا ( تَخْتَلِفُونَ ) من أمر هذا الدين
وحينئذ يتبين من هو على الحق ومن هو على الباطل ، وسيجازى - سبحانه - كل
. فريق بما يستحقه من ثواب أو عقاب

الم تعلم ان الله يعلم ما في السماء والارض ان ذلك في كتاب ان ذلك على الله يسير

: كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات بتأكيد علمه بكل شىء قال
: أى. ( . . أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ الله يَعْلَمُ مَا فِي السمآء والأرض )
لقد علمت - أيها الرسول الكريم - وتيقنت ، أن الله - تعالى -لا يعزب عن
علمه مثقال ذرة مما يحصل فى السموات والأرض من أقوال أو أفعال .( إِنَّ ذلك
الذى يجرى فى السموات والأرض كائن وثابت ( فِي كِتَابٍ ) هو اللوح (
المحفوظ المشتمل على جميع أحوال الخلق .( إِنَّ ذلك ) الذى ذكرناه لك من
- الحكم بين الناس ، ومن العلم بأحوالهم ومن تسجيل أعمالهم ( عَلَى الله )

تعالى - ( يَسِيرٌ ) وهين ، لأنه - سبحانه - له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين .

ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطانا وما ليس لهم به علم وما للظالمين من نصير

كما فسرها الوسيط ثم وبخ - سبحانه - الكافرين على جهلهم ، حيث عبدوا من دونه مالا ينفعهم ولا يضرهم ، وحيث كرهوا الحق وأصحابه ، فقال - تعالى - : أى : أن هؤلاء المشركين الذين ينازعونك. ( . . . وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ) فيما جئتهم به من عند ربك ، يتركون ما تدعوهم إليه - أيها الرسول الكريم - من إخلاص للعبادة لله - تعالى - ويعبدون من دونه - سبحانه - آلهة أخرى لا دليل لهم على عبادتها من عقل أو نقل .إذ قوله - سبحانه - : ( مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً ) نفى لأن يكون لهم دليل سمعى على عبادتها وقوله - تعالى - : ( وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ ) نفى لأن يكون لهم دليل عقلى على عبادتها .والتنكير فى قوله : " سلطانا ، وعلم " للتقليل ، أى لا دليل لهم أصلا لا من جهة السمع ، ولا من جهة العقل ، ومع ذلك يتمسكون : بهذه العبادة الباطلة .وقوله - تعالى - : ( وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ) تهديد بسوء المصير لهؤلاء المشركين .أى : وما للظالمين الذين وضعوا العبادة فى غير موضعها ، من نصير ينصرهم من عقاب الله وعذابه ، لأنهم بسبب عبادتهم لغير الله - تعالى - ، قد قطعوا عن أنفسهم كل رحمة ومغفرة .

واذا تتلى عليهم اياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم اياتنا قل افانبئكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أنهم بانب ضلالهم ، تأخذهم العزة بالإثم إذا ما نصحهم الناصحون بالإقلاع عن هذا الضلال فقال : ( وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الذين كَفَرُواْ المنكر يَكَادُونَ يَسْطُونَ بالذين يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آياتنا وقوله ( يَسْطُونَ ) من السطو ، بمعنى الوثب والبطش بالغير . يقال: ( . . . سلطا فلان على فلان ، إذا بطش به بضرب أو شتم أو سرقة أو ما يشبه ذلك .أى : ، وإذا تتلى على هؤلاء الظالمين ، آياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا : من قبل عبادنا المؤمنين ( تَعْرِفُ ) - أيها الرسول الكريم - ( فِي وُجُوهِ الذين كَفَرُواْ ) بهذه الآيات البينات ( المنكر ) أى : ترى فى وجوههم الإنكار لها ، والغضب منها ومن قارئها ، والكراهية والعبوس عند سماعها .بل ويكادون فوق ذلك ، يبطشون بالمؤمنين الذين يتلون عليهم آياتنا ، ويعتدون عليهم بالسب تارة ، والضرب تارة أخرى .وذلك لأن هؤلاء الظالمين ، حين عجزوا عن مقارعة الحجة بالحجة لجأوا إلى السطو والعدوان ، وهذا شأن الطغاة الجاهلين فى كل زمان ومكان .ثم أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يقول لهؤلاء الطغاة على سبيل التهديد والوعيد ، ما من شأنه أن يردعهم عن سطوهم وبغيهم فقال : ( قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذلكم أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الظالمين ألا أخبركم بما هو أشد. ( ألما من غيظكم على من يتلو عليكم آياته ، ومن همكم بالسطو عليه؟أشد من كل ذلك ( النار ) التى ( وَعَدَهَا الله الذين كَفَرُواْ ) أى : وعدهم بدخولها و بالاصطلاء بسعيرها ( وَبِئْسَ المصير ) مصير هؤلاء الكافرين .قال الجمل ، وقوله : ( النار ) خبر مبتدأ محذوف ، كأن سائلا سأل فقال : وما الأشر؟ : فقيل : النار ، أى : هو النار . وحينئذ فالوقف على ذلكم ، أو على النار ويصح أن يكون لفظ النار مبتدأ ، والخبر : وعدها الله ، وعلى هذا فالوقف. . . . على : كفروا

يا ايها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب

كما فسرها الوسيط ثم وجه - سبحانه - نداء إلى الناس . بين فيه أن كل آلهة تعبد من دونه - عز وجل - فهى باطلة وهى أعجز من أن تدافع عن نفسها ، وأن كل : عابد لها هو جاهل ظالم . فقال - تعالى - : ( ياأيها الناس . . . ) .المثل الشبيه والنظير ، ثم أطلق على القول السائر المعروف ، لمماثلة مضربه - وهو الذى يضرب - فيه - بمورده - وهو الذى ورد فيه أولا - ولا يكون إلا لما فيه غرابة .وإنما تضرب الأمثال لإيضاح المعنى الخفى ، وتقريب الشىء المعقول من الشىء المحسوس ، وعرض الغائب فى صورة المشاهد ، فيكون المعنى الذى ضرب له المثل أوقع فى القلوب ، وأثبت فى النفوس .وسمى الله - تعالى - ما ساقه فى ، هذه الآية الكريمة مثلا ، لأن ما يفعله المشركون من عبادتهم لآلهة عاجزة : يشبه المثل فى غرابته وفى التعجب من فعله .قال صاحب الكشاف : فإن قلت

الذى جاء به - سبحانه - ليس بمثل فكيف سماه مثلا؟قلت : قد سميت الصفة أو القصة الرائعة الملتقاة بالاستغراب مثلا ، تشبيها لها ببعض الأمثال المسيرة لكونها مستحسنة مستغربة عندهم .والمعنى : يأيها الناس لقد بينا لكم قصة ، مستغربة وحالا عجيبة . لما يعبد من دون الله - تعالى - فاستمعوا إليها بتدبر وتعقل .وقوله : ( إِنَّ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله لَن يَخْلُقُواْ ذُبَاباً وَلَوِ اجتمعوا لَهُ . . ) بيان للمثل وتفسير له والذباب : اسم جنس واحدة ذبابة - وهى حشرة معروفة بطيشها وضعفها وقذارتها. أى : إن المعبودات الباطلة التى تعبدونها أيها المشركون ، لن تستطيع أن تخلق ذبابة واحدة ، حتى لو اشتركت جميعها فى محاولة خلق هذه الذبابة .قال صاحب الكشاف : وهذا من أبلغ ما أنزله الله فى تجهيل قريش ، واستركاك عقولهم والشهادة على أن الشيطان قد خزمهم بخزائمه - أى قد ربطهم برباطه ، حيث وصفوا بالإلهية - التى تقتضى الاقتدار على المقدورات كلها - صوروا وتماثيل يستحيل منها أن تقدر على أقل ما خلقه وأذله وأصغره وأحقره ، ولو اجتمعوا ، لذلك وتساندوا . . .وقوله - سبحانه - ( وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذباب شَيْئاً لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ) بيان لعجز تلك الآلهة الباطلة من أمر آخر سوى الخلق .أى : وفضلا عن عجز تلك الأصنام مجتمعة عن خلق ذبابة ، فإنها إذا اختطف الذباب منها شيئا من الأشياء لا تستطيع استردادم منه لعجزها عن ذلك قال القرطبى : وخص الذباب لأربعة أمور تخصه : لمهانته وضعفه ، ولاستقذارم. وكثرته ، فإذا كان هذا الذى هو أضعف الحيوان وأحقره ، لا يقدر من عبدوه من دون الله - تعالى - على خلق مثله ، ودفع أذيته ، فكيف يجوز أن يكونوا آلهة - معبودين ، وأربابا مطاعين ، وهذا من أقوى حجة وأوضح برهان .ثم ختم ) : سبحانه - الآية الكريمة بما يدل على عجز الخاطف والمخطوف منه فقال - ضَعُفَ الطالب والمطلوب ) .قال الآلوسى : والطالب : عابد غير الله تعالى - والمطلوب : الالهة ، وكون عابد ذلك طالب لدعائه إياه ، واعتقادم نفعه ، وضعفه لطلبه النفع من غير جهته ، وكون الآخر مطلوبا ظاهرا كضعفه وقيل : " الطالب الذباب يطلب ما يسلبه من الآلهة ، والمطلوب : الآلهة على. معنى المطلوب منه ما يسلب . . " .وعلى آية حال فإن هذا التعليل يدل دلالة واضحة على عجز كل معبود باطل ، وأنه قد تساوى فى عجزه مع أضعف مخلوقات الله وأحقرها .

ما قدروا الله حق قدره ان الله لقوي عزيز

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أن هؤلاء المشركين ، قد وضعوا الأمور فى غير موضعها ، لجهلهم وغبائهم فقال : ( مَا قَدَرُواْ الله حَقَّ قَدْرِهِ . . . ) .أى : ما عظموا الله حق تعظيمه ، وما عرفوه حق معرفته ، حيث تركوا عبادة الواحد القهار ، وعبدوا ما يعجز عن رد ما سلبه الذباب منه ، على خلق كل شىء ( عَزِيزٌ )لا يغالبه مغالب ( إِنَّ الله لَقَوِيٌّ ). ولا يدافعه مدافع .

الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس ان الله سميع بصير

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن له مطلق التصرف فى اختيار رسله فقال : أى. ( . . . الله يَصْطَفِي مِنَ الملائكة رُسُلاً وَمِنَ الناس ) : الله - تعالى - وحده هو الذى يختار من بين ملائكته رسلا يرسلهم لتبليغ وحيه إلى أنبيائه ، كما اختار جبريل - عليه السلام - لهذه الوظيفة ، وهو الذى يختار من بين الناس رسلا ، كما اختار إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وغيرهم - لهذه المهمة ، فهو - سبحانه - أعلم حيث يجعل رسالته .( إِنَّ الله ) تعالى - ( سَمِيعٌ ) لأقوال عباده ( بَصِيرٌ ) بأحوالهم ، لا تخفى عليه خافية من شئونهم .

يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم والى الله ترجع الامور

كما فسرها الوسيط ( يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ) أى : يعلم ما قدموا من أعمال ، وما يعملون الآن ، وما سيعملونه فى المستقبل إذ ) أن علمه - سبحانه - ليس مقيدا بزمان أو مكان ( وَإِلَى الله ) تعالى وحده تُرْجَعُ الأمور ) كلها لا إلى غيره .

يا ايها الذين امنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون

كما فسرها الوسيط ثم وجه - سبحانه - فى نهاية السورة نداء إلى عبادة ، المؤمنين ، أمرهم فيه بالمداومة على طاعته ، وبالإخلاص فى عبادته وبالجهاد فى سبيله ، وبالاعتصام بحبله ، فقال - تعالى - : ( ياأيها الذين آمَنُواْ اركعوا . . . ) .والمراد بالركوع والسجود هنا : الصلاة ، وعبر

عنها بهما ، لأنهما أهم أركانها ، وناداهم - سبحانه - بصفة الإيمان ، لحضهم
على الامتثال لما أمروا به .أى : يا من آمنتم بالله - تعالى - وبملائكته
وبكتبه وبرسله وباليوم الآخر حافظوا على أداء الصلاة فى مواقيتها بخشوع
وإخلاص ، لأن هذه الصلاة من شأنها أن تنهاكم عن الفحشاء والمنكر ، وأن ترفع
: درجاتكم عند خالقكم .وقوله - تعالى - : ( وَاعْبُدُواْ رَبَّكُمْ ) أى
واعبدوا ربكم الذى تولاكم برعايته وتربيته فى كل مراحل حياتكم ، عبادة
خالصة لوجهه الكريم .وقوله : ( وافعلوا الخير ) تعميم بعد التخصيص ، إذ فعل
، الخير يشمل كل قول وعمل يرضى الله - تعالى - : كإنفاق المال فى وجوه البر
وكصلة الرحم والإحسان إلى الجار وكغير ذلك من الأفعال التى حضت عليها
تعاليم الإسلام .وقوله - تعالى - : ( لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ) تذييل قصد
به التحريض على امتثال ما أمره الله - تعالى - به ، والفلاح : الظفر
، بالمطلوب .أى : أدوا الصلاة بخشوع ومواظبة ، واعبدوا ربكم عبادة خالصة
- وافعلوا الخير الذى يقربكم من خالقكم ، لكى تنالوا رضاه وثوابه - عز وجل
، فكلمة " لعل " للتعليل ، ويصح أن تكون على معناها الحقيقى وهو الرجاء.
ولكن على تقدير صدوره من العباد فيكون المعنى : وافعلوا الخير حالة كونكم
راجين الفلاح ، ومتوقعين الفوز والنجاح .والمتأمل فى هذه الآية الكريمة
يراها أنها قد جمعت أنواع التكاليف الشرعية ، وأحاطت بها من كل جوانبها
قال الآلوسى ما ملخصه : وهذه الآية آية سجدة عند الشافعة وأحمد ، لظاهر ما.
فيها من الأمر بالسجود ، ولحديث عقبة بن عامر قال : قلت يا رسول الله أفضلت
سورة الحج على سائر القرآن بسجدتين؟ قال : نعم فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما
وذهب أبو حنيفة ومالك إلى أنها ليست آية سجدة . لأنها مقرونة بالأمر.
بالركوع ، والمعهود فى مثله من القرآن ، كونه أمرا بما هو ركن للصلاة ، كما
فى قوله - تعالى - : ( يامريم اقنتي لِرَبِّكِ واسجدي واركعي مَعَ الراكعين
. وما روى من حديث عقبة إسناده ليس بالقوى (

وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة
ابيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم
وتكونوا شهداء على الناس فاقيموا الصلاة واتوا الزكاة واعتصموا بالله هو
مولاكم فنعم المولى ونعم النصير

، كما فسرها الوسيط وبعد أن أمر - سبحانه - بالصلاة وبالعبادة وبفعل الخير
أتبع ذلك بالأمر بالجهاد فقال - تعالى - : ( وَجَاهِدُواْ فِي الله حَقَّ
جِهَادِهِ ) .والجهاد مأخوذ من الجهد ، وهو بذل أقصى الطاقة فى مدافعة
العدو .وهى أنواع ، أعظمها : جهاد أعداء الله - تعالى - من الكفار
والمنافقين والظالمين والمبتدعين فى دين الله - تعالى - ما ليس منه .كذلك
من أنواع الجهاد : جهاد النفس الأمارة بالسوء ، وجهاد الشيطان .وإضافة " حق
إلى " جهاد " فى قوله : ( حَقَّ جِهَادِهِ ) من إضافة الصفة التى إلى "
الموصوف أى : وجاهدوا - أيها المؤمنون - فى سبيل الله - تعالى - ومن أجل
إعلاء كلمته ، ونصر شريعته ، جهادا كاملا صادقا لا تردد معه ولا تراجع .قال
صاحب الكشاف : قوله : ( وَجَاهِدُوا . . . . ) أمر بالغزو وبمجاهدة النفس
والهوى . وهو الجهاد الأكبر . عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه رجع من
بعض غزواته فقال : " رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر " ( فِي
) الله ) أى : فى ذات الله ومن أجله . يقال : هو حق عالم ، وجد عالم ، ومنه
حَقّ جِهَادِهِ ) .فإن قلت : ما وجه هذه الإضافة وكان القياس حق الجهاد
: فيه ، أو حق جهادكم فيه ، كما قال : ( وَجَاهِدُوا فِي الله ) ؟قلت
الإضافة تكون بأدنى ملابسة واختصاص . فلما كان الجهاد مختصا بالله من حيث
" إنه مفعول لوجهه ومن أجله صحت إضافته إليه . . .وجملة " هو اجتباكم
: مستأنفة ، لبيان علة الأمر بالجهاد ، والاجتباء : الاختيار والاصطفاء .أى
جاهدوا - أيها المؤمنون - من أجل إعلاء كلمة الله ، لأنه - سبحانه - هو
الذى اختاركم للذب عن دينه ، واصطفاكم لحرب أعدائه ، وجدير بمن اختاره الله
: واصطفاه أن يكون مطيعا له .ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر لطفه بعباده فقال
أى : ومن مظاهر رحمته. ( وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدين مِنْ حَرَجٍ )
بكم - أيها المؤمنون - أنه سبحانه لم يشرع فى هذا الدين الذى تدينون به ما
فيه مشقة بكم ، أو ضيق عليكم : وإنما جعل أمر هذا الدين ، مبنى على اليسر
والتخفيف ورفع الحرج ، ومن قواعده التى تدل على ذلك : أن الضرر يزال . وأن
المشقة تجلب التيسير : وأن اليقين لا يرفع بالشك ، وأن الأمور تتبع مقاصدها
وأن التوبة الصادقة النصوح تجب ما قبلها من ذنوب .ومن الآيات التى تدل ،
على أن هذا الدين مبنى على التيسير ورفع الحرج قوله - تعالى - : ( لاَ
. . . ) : - يُكَلِّفُ الله نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا . . ) وقوله - سبحانه
يُرِيدُ الله بِكُمُ اليسر وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ العسر . . . ) وفى الحديث
الشريف : " بعثت بالحنيفية السمحاء " .قال بعض العلماء : وأنت خبير بأن
هناك فرقا كبيرا ، بين المشقة فى الأحكام الشرعية ، وبين الحرج والعسر فيها
فإن الأولى حاصلة وقلما يخلو منها تكليف شرعى ، إذ التكليف هو التزام ما ،
فيه كلفة ومشقة ، أما المشقة الزائدة عن الحد التى تصل إلى حد الحرج ، فهى

المرفوعة عن المكلفين .فقد فرض الله الصلاة على المكلف ، وأوجب عليه أداءها
وهذا شىء لا حرج فيه . ثم هو إذا لم يستطيع الصلاة من قيام ، فله أن ،
يؤديها وهو قاعد أو بالإيماء . . . وهكذا جميع التكاليف الشرعية .والخلاصة
أن هذا الدين الذى جاءنا به محمد - صلى الله عليه وسلم - من عند ربه - عز :
وجل - مبنى على التخفيف والتيسير ، لا على الضيق والحرج ، والذين يجدون فيه
ضيقا وحرجا ، هم الناكبون عن هديه ، الخارجون على تعاليمه .ورحم الله
، الإمام القرطبى فق قال : " رفع الحرج إنما هو لمن استقام على منهاج الشرع
وأما السراق وأصحاب الحدود فعليهم الحرج ، وهم جاعلوه على أنفسهم بمفارقتهم
الدين . . . " .والمراد بالملة فى قوله - تعالى - : ( مِّلَّةَ أَبِيكُمْ
: إِبْرَاهِيمَ ) الدين والشريعة ، ولفظ " ملة " هنا منصوب بنزع الخافض .أى
- ما جعل عَلَيكم - أيها المؤمنون - فى دينكم من حرج ، كما لم يجعل ذلك
أيضا - فى لمة أبيكم إبراهيم .ويصح أن يكون منصوبا على المصدرية بفعل دل
عليه ما قبله من نفى الحرج بعد حذف المصدر المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه
- أى : وسع عليكم فى دينكم توسعة ملة إبيكم إبراهيم .ووصف - سبحانه .
إبراهيم - عليه السلام - بالأبوة لهذه الأمة ، لأن رسول هذه الأمة - صلى
الله عليه وسلم - ينتهى نسبه إلى إبراهيم ، ورسول هذه الأمة - صلى الله
عليه وسلم - كالأب لها ، من حيث أنه - صلى الله عليه وسلم - جاءها من عند
) : - ربه - عز وجل - بما يحييها ويسعدها .والضمير " هو " فى قوله - تعالى
- هُوَ سَمَّاكُمُ المسلمين مِن قَبْلُ وَفِي هذا . . . ) يعود إلى الله
. تعالى - أى : هو - سبحانه - الذى سماكم المسلمين من قبل نزول القرآن
وسماكم - أيضا - بهذا الإسم فى هذا القرآن .وقيل : الضمير " هو " يعود إلى
إبراهيم أى : إبراهيم هو الذى سماكم المسلمين .ومن وجوه ضعف هذا القول : أن
، اللن - تعالى - قال : ( وَفِي هذا ) أى سماكم المسلمين فى هذا القرآن
، وإبراهيم - عليه السلام - لحق بربه قبل نزول هذا القرآن بآزمان طويلة
وأيضا فإن السياق يؤيد أن الضمير " هو " يعود إلى الله - تعالى - لأن
الأفعال السابقة كقوله ( هُوَ اجتباكم وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدين
مِنْ حَرَجٍ ) تعود إليه - عز وجل - .ثم بين - سبحانه - أسباب هذا الاجتباء
والاصطفاء فقال : ( لِيَكُونَ الرسول شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ
شُهَدَآءَ عَلَى الناس ) .والمراد بشهادة الرسول على أمته : الإخبار بأنه
: قد بلغهم رسالة ربه .والمراد بشهادة هذه الأمة على غيرها من الناس
الإخبار بأن الرسل الذين أرسلهم الله - تعالى - إلى هؤلاء الناس ، قد
بلغوهم رسالة ربهم ، ونصحوهم بإخلاص العبادة لله وحده .ويؤيد ذلك ما رواه
- البخارى عن أبى سعيد الخدرى قال : " قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم
يدعى نوح - عليه السلام - يوم القيامة فيقول : لبيك وسعديك يا رب . فيقا :
له : هل بلغت ما أرسلت به؟ فيقول : نعم . فيقال لأمته : هل بلغكم؟ فيقولون
ما أتانا من نذير . فيقال له : من يشهد لك؟ فيقول : محمد - صلى الله عليه :
: - وسلم - وأمته ، فيشهدون أنه قد بلغ " .وشبيه بهذه الجملة قوله - تعالى
وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى )
الناس وَيَكُونَ الرسول عَلَيْكُمْ شَهِيداً ) والمعنى : فعلنا ما فعلنا من
اجتبائكم ، والتيسير عليكم ، وتسميتكم بالمسلمين ، ليكون الرسول - صلى الله
، عليه وسلم - شهيدا عليكم يوم القيامة بأنه قد بلغكم ما أمر بتبليغه إليكم
ولتكونوا أنتم شهداء على الناس بأن رسلهم قد بلغوهم رسالة ربهم .وما دام
الأمر كذلك ( فَأَقِيمُواْ الصلاة ) أيها المؤمنون بأن تؤدوها فى أوقاتها
بإخلاص وخشوع ( وَآتُواْ الزكاة ) التى كلفكم الله - تعالى - بإيتائها إلى
مستحقيها ( واعتصموا بالله ) أى : التجئوا إليه ، واستعينوا به فى كل
، أموركم فإنه - سبحانه - ( هُوَ مَوْلاَكُمْ ) أى : ناصركم ومتولى شئونكم
- ومالك أمركم ، وهو - تعالى - ( نِعْمَ المولى وَنِعْمَ النصير ) أى : هو
عز وجل - نعم المالك لأمركم ، ونعم النصير القوى لشأنكم .وبعد : فهذه سورة
، الحج ، وهذا تفسير محرر لها .نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه
. ونافعا لعباده .وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

قد افلح المؤمنون

- كما فسرها الوسيط أخرج الإمام أحمد والترمذى والنسائى عن عمر بن الخطاب
رضى الله عنه - قال : كان إذا نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم الوحى
، نسمع عند وجهه كدوى النحل ، فأنزل عليه يوما ، فمكثنا ساعة فسرى عنه ،
فاستقبل القبلة ، فرفع يديه فقال : " اللهم زدنا ولا تنقصنا ، وأكرمنا ولا
تهنا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وارض عنا وأرضنا " .ثم
قال : لقد أنزلت على عشر آيات ، من أقامهن دخل الجنة ، ثم قرأ : ( قَدْ
أَفْلَحَ المؤمنون ) إلى قوله : ( هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ) .وأخرج النسائى
عن يزيد بن بابنوس قال : قلنا لعائشة : يا أم المؤمنين ، كيف كان خلق رسول
الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت : كان خلقه القرآن ، ثم قرأت : ( قَدْ
أَفْلَحَ المؤمنون ) حتى انتهت إلى قوله - تعالى - : ( والذين هُمْ على
صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ) وقالت : هكذا كان خلق رسول الله صلى الله

عليه وسلم .والفلاح : الظفر بالمراد ، وإدراك المأمول من الخير والبر مع البقاء فيه .

الذين هم في صلاتهم خاشعون

كما فسرها الوسيط والخشوع : السكون والطمأنينة ، ومعناه شرعاً : خشية فى القلب من الله - تعالى - تظهر آثارها على الجوارح فتجعلها ساكنة مستشعرة ، أنها واقفة بين يدى الله - سبحانه - .والمعنى : قد فاز وظفر بالمطلوب أولئك المؤمنون الصادقون ، الذين من صفاتهم أنهم فى صلاتهم خاشعون ، بحيث لا يشغلهم شىء وهم فى الصلاة عن مناجاة ربهم ، وعن أدائها بأسمى درجات التذلل والطاعة .ومن مظاهر الخشوع : أن ينظر المصلى وهو قائم إلى موضع سجوده ، وأن يتحلى بالسكون والطمأنينة ، وأن يترك كل ما يخل بخشوعها كالعبث بالثياب أو بشىء من جسده ، فقد أبصر النبى صلى الله عليه وسلم رجلاً يعبث بلحيته فى الصلاة فقال : " لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه " .قال القرطبى : اختلف الناس فى الخشوع هل هو من فرائض الصلاة أو مكملاتها على قولين ، والصحيح الأول ومحلق القلب ، وهو أول عمل يرفع من الناس . . . " .

والذين هم عن اللغو معرضون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( والذين هُمْ عَنِ اللغو مُعْرِضُونَ ) بيان لصفة ثانية من صفات هؤلاء المؤمنين .واللغو : ما لا فائدة فيه من الأقوال والأعمال . فيدخل فيه اللهو والهزل وكل ما يخل بالمروءة وبآداب الإسلام .أى : أن صفات هؤلاء المؤمنين أنهم ينزهون أنفسهم عن الباطل والساقط من القول أو الفعل ، ويعرضون عن ذلك فى كل أوقاتهم لأنهم لحسن صلتهم بالله - تعالى - اشتغلوا بعظائم الأمور وجليلها :لا بحقيرها وسفسافها ، وهم كما وصفهم الله - سبحانه - فى آية أخرى : ( وَإِذَا سَمِعُوا اللغو أَعْرَضُوا عَنْهُ ) ( وَإِذَا مَرُّوا باللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً ).

والذين هم للزكاة فاعلون

كما فسرها الوسيط أما الصفة الثالثة من صفاتهم فقد بينها - سبحانه - بقوله ويرى أكثر العلماء : أن المراد. ( والذين هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ) : بالزكاة هنا : زكاة الأموال . قالوا : لأن أصل الزكاة فرض بمكة قبل الهجرة ، وما فرض بعد ذلك فى السنة الثانية من الهجرة هو مقاديرها ، ومصارفها ، وتفاصيل أحكامها أى : أن من صفات هؤلاء المؤمنين أنهم يخرجون زكاة أموالهم : عن طيب نفس .ويري بعض العلماء : أن المراد بالزكاة هنا : زكاة النفس . أى تطهيرها من الآثام والمعاص . فهى كقوله - تعالى - ( قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ) أى : أن من صفات هؤلاء المؤمنين ، أنهم يفعلون ما يطهر نفوسهم ويزكيها .قال ابن كثير رحمه الله : ويحتمل أن يكون كلا الأمرين مرادا ، وهو زكاة لنفوس وزكاة الأموال ، فإنه من جملة زكاة النفوس ، والمؤمن الكامل هو الذى يتعاطى هذا وهذا . "

والذين هم لفروجهم حافظون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - الصفة الرابعة من صفاتهم فقال : ( والذين هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلاَّ على أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ) .أى : أن من صفات هؤلاء المؤمنين - أيضاً - أنهم أعفاء ممسكون لشهواتهم لا يستعملونها إلا مع زوجاتهم التى أحلها الله - تعالى - لهم ، أو مع ما ملكت أيمانهم من الإماء والسرارى ، وذلك لأن من شأن الأمة المؤمنة إيماناً حقاً ، أن تصان فيها الأعراض ، وأن يحافظ فيها على الأنساب ، وأن توضع فيها الشهوات فى مواضعها التى شرعها الله - تعالى - وأن يغض فيها الرجال أبصارهم والنساء أبصارهن عن كل ما هو قبيح .وما وجدت أمة انتشرت فيها الفاحشة ، كالزنا واللواط وما يشبههما ، إلا وكان أمرها فرطاً ، وعاقبتها خسرا ، إذ فاحشة الزنا تؤدى إلى ضياع الأنساب ، وانتشار الأمراض ، وفساد النفوس من كل قيمة خلقية مقبولة وفاحشة اللواط وما يشبهها تؤدى إلى شيوع الفاحشة فى الأمة ، وإلى تحول من. يأتى تلك الفاحشة من أفرادها إلى مخلوقات منكوسة ، تؤثر الرذيلة على الفضيلة .وجملة : ( فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ) تعليل للاستثناء .أى : هم حافظون لفروجهم ، فلا يستعملون شهواتهم إلا مع أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم ، فإنهم غير مؤاخذين على ذلك ، لأن معاشرة الأزواج أو ما ملكت الأيمان ، مما أحله الله تعالى .

الا على ازواجهم او ما ملكت ايمانهم فانهم غير ملومين

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html}

ثم بين - سبحانه - الصفة الرابعة من صفاتهم فقال : ( والذين هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلاَّ على أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ) .أى : أن من صفات هؤلاء المؤمنين - أيضاً - أنهم أعفاء ممسكون لشهواتهم لا يستعملونها إلا مع زوجاتهم التى أحلها الله - تعالى - لهم ، أو مع ما ملكت أيمانهم من الإماء والسرارى ، وذلك لأن من شأن الأمة المؤمنة إيماناً حقاً ، أن تصان فيها الأعراض ، وأن يحافظ فيها على الأنساب ، وأن توضع فيها الشهوات فى مواضعها التى شرعها الله - تعالى - وأن يغض فيها الرجال أبصارهم والنساء أبصارهن عن كل ما هو قبيح .وما وجدت أمة انتشرت فيها الفاحشة ، كالزنا واللواط وما يشبههما ، إلا وكان أمرها فرطاً ، وعاقبتها خسرا ، إذ فاحشة الزنا تؤدى إلى ضياع الأنساب ، وانتشار الأمراض ، وفساد النفوس من كل قيمة خلقية مقبولة وفاحشة اللواط وما يشبهها تؤدى إلى شيوع الفاحشة فى الأمة ، وإلى تحول من. يأتى تلك الفاحشة من أفرادها إلى مخلوقات منكوسة ، تؤثر الرذيلة على الفضيلة .وجملة : ( فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ) تعليل للاستثناء .أى : هم حافظون لفروجهم ، فلا يستعملون شهواتهم إلا مع أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم ، فإنهم غير مؤاخذين على ذلك ، لأن معاشرة الأزواج أو ما ملكت الأيمان ، مما أحله الله تعالى .

فمن ابتغى وراء ذلك فاولئك هم العادون

كما فسرها الوسيط وقوله ( فَمَنِ ابتغى وَرَآءَ ذلك ) أى : فمن طلب خلاف ذلك الذى أحله الله - تعالى - ( أولئك هُمُ العادون ) أى : المعتدون - المتجاوزون حدوده - سبحانه - ، الوالغون فى الحرام الذى نهى الله - تعالى - عنه . يقال : عدا فلان الشىء يعدوه عدوا ، إذا جاوزه وتركه .

والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون

كما فسرها الوسيط أما الصفة الخامسة من صفات هؤلاء المفلحين ، فقد عبر عنها - سبحانه - بقوله : ( والذين هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ) .والأمانات : جمع أمانة ، وتشمل كل ما استودعك الله - تعالى إياه ، وأمرك بحفظه .فتشمل جميع التكاليف التى كلفنا الله بأدائها كما تشمل الأموال المودعة ، والأيمان والنذور والعقود وما يشبه ذلك .والعهود : جمع عهد . ويتناول كل ما طلب منك الوفاء به من حقوق الله - تعالى - وحقوق الناس قال القرطبى : والأمانة والعهد يجمع كل ما يحمله الإنسان من أمر دينه. ودنياه ، قولاً وفعلاً ، وهذا يعم معاشرة الناس والمواعيد وغير ذلك . وغاية ذلك حفظه والقيام به . والأمانة أعم من العهد وكل عهد فهو أمانة فيما تقدم فيه قول أو فعل أو معتقد " .وراعون : من الرعى بمعنى الحفظ يقال : رعى الأمير رعيته رعاية ، إذا حفظها واهتم بشئونها .أى : أن من صفات هؤلاء المفلحين . أنهم يقومون بحفظ ما ائتمنوا عليه من أمانات ، ويوفون بعهودهم مع الله - تعالى - ومع الناس ، ويؤدون ما كلفوا بأدائه بدون تقصير أو تقاعس ، وذلك لأنه لا تستقيم حياة أمة من الأمم . إلا إذا أديت فيها الأمانات. وحفظت فيها العهود ، واطمأن فيها كل صاحب حق إلى وصول هذا الحق إليه .

والذين هم على صلواتهم يحافظون

كما فسرها الوسيط أما الصفة السادة والأخيرة من صفات هؤلاء المؤمنين الصادقين ، فهى قوله - تعالى - ( والذين هُمْ على صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ) .أى : أن من صفاتهم أنهم يحافظون على الصلوات التى أمرهم الله بأدائها محافظة تامة ، بأن يؤدوها فى أوقاتها كاملة الأركان والسنن والآداب والخشوع ، ولقد بدأ - سبحانه - صفات المؤمنين المفلحين بالخشوع فى الصلاة وختمها بالمحافظة عليها للدلالة على عظم مكانتها ، وسمو منزلتها وبعد أن بين - سبحانه - تلك الصفات الكريمة التى تحلى بها أولئك المؤمنون. المفلحون ، وهى صفات تمثل الكمال الإنسانى فى أنقى صوره .

اولئك هم الوارثون

كما فسرها الوسيط بعد ذلك بين - سبحانه - ما أعد لهم من حسن الثواب فقال : ( أولئك هُمُ الوارثون الذين يَرِثُونَ الفردوس هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ) والفردوس : أعلى الجنات وأفضلها وهو لفظ عربى يجمع فى فراديس .وقيل : هو. لفظ معرب معناه : الذى يجمع ما فى البساتين من ثمرات .وفى صحيح مسلم عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إذا سألتم الله فسلوه الفردوس ، فإنه

أوسط الجنة ، وأعلى الجنة ، ومنه تفجر أنهار الجنة " .أى : أولئك الموصوفون بتلك الصفات الجليلة ، هم الجديرون بالفلاح فإنهم يرثون أعلى الجنات وأفضلها ، وهم فيها خالدون خلوداً أبديًا لا يمسهم فيها نصب ، ولا يمسهم فيها لغوب .

الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون

كما فسرها الوسيط وعبر - سبحانه - عن حلولهم فى الجنة بقولهم ( يَرِثُونَ ) ، للإشعار بأن هذا النعيم الذى نزلوا به ، قد استحقوه بسبب أعمالهم الصالحة كما يملك الوارث ما ورثه عن غيره ، ومن المعروف أن ما يملكه الإنسان عن طريق الميراث يعتبر أقوى أسباب الملك .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( وَتِلْكَ الجنة التي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ) وقوله - سبحانه - : ( ونودوا أَن تِلكُمُ الجنة أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ) وحذف مفعول اسم الفاعل الذى هو ( الوارثون ) لدلالة قوله ( الذين يَرِثُونَ الفردوس ) عليه .وبذلك نرى الآيات الكريمة قد مدحت المؤمنين الصادقين مدحاً عظيماً ووعدتهم بالفوز بأعلى الجنات وأفضلها ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين

كما فسرها الوسيط وبعد الحديث عن صفات المؤمنين المفلحين ، انتقلت السورة إلى الحديث عن أطوار خلق الإنسان ، وأطوار نموه ، ونهاية حياته ، وبعثه للحساب يوم القيامة ، - فقال - تعالى - : ( وَلَقَدْ خَلَقْنَا . . . ) المراد بالإنسان هنا : آدم - عليه السلام - .والسلالة : اسم لما سُلَّ من الشىء واستُخرج منه . تقول : سللت الشعرة من العجين ، إذا استخرجتها منه . يقال : الولد سلالة أبيه . أى كأنه انسل من ظهر أبيه .والمعنى : ولقد خلقنا أباكم آدم من جزء مستخرج من الطين .والتعبير بسلالة يشعر بالقلة ، إذ لفظ الفعالة يدل على ذلك ، كقلامة الظفر ، ونحاتة الحجر ، وهى ما يتساقط عند النحت .و " من " فى الموضعين : ابتدائية إلا أن الأولى متعلقة " بخلقنا " والثانية متعلقة بسلالة بمعنى مسلولة من الطين .

ثم جعلناه نطفة في قرار مكين

كما فسرها الوسيط والضمير المنصوب فى قوله ( ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ) يعود على النوع الإنسانى المتناسل من آدم - عليه السلام - .وأصل النطفة : الماء الصافى . أو القليل من الماء الذى يبقى فى الدلو أو القربة ، وجمعها نُطف ونِطاف . يقال : نطفت القربة ، إذا تقاطر ماؤها بقلة .والمراد بها هناك المنى الذى يخرج من الرجل ، ويصب فى رحم المرأة .والمعنى : لقد خلقنا أباكم آدم بقدرتنا من سلالة من طين ، ثم خلقنا ذريته بقدرتنا - أيضاً - من منىٍ يخرج من الرجل فيصب فى قرار مكين ، أى : فى مستقر ثابت ثبوتاً مكيناً ، وهو رحم المرأة .قال القرطبى : " قوله - تعالى - : ( وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان ) : الإنسان هو آدم - عليه السلام - لأنه استل من الطين . ويجىء الضمير فى قوله ( ثُمّ جَعَلْنَاهُ ) عائداً على ابن آدم ، وإن كان لم يذكر لشهرة الأمر ، فإن المعنى لا يصلح إلا له . . . " .وشبيه بهاتين الآيتين قوله - تعالى - : ( ذلك عَالِمُ الغيب والشهادة العزيز الرحيم الذي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإنسان مِن طِينٍ ثُمّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلاَلَةٍ مِّن مّآءٍ مّهِينٍ . . . ) وقوله - سبحانه - : ( أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مّآءٍ مّهِينٍ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مّكِينٍ إِلَى قَدَرٍ مّعْلُومٍ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ القادرون وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ).

ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم انشاناه خلقا اخر فتبارك الله احسن الخالقين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أطواراً أخرى لخلق الإنسان تدل على كمال قدرته - - تعالى - فقال : ( ثُمَّ خَلَقْنَا النطفة عَلَقَةً ) أى : ثم صيرنا النطفة البيضاء ، علقة حمراء إذ العلقة عبارة عن الدم الجامد ). فَخَلَقْنَا العلقة مُضْغَةً ) أى : جعلنا بقدرتنا هذه العلقة قطعة من اللحم ، تشبه فى صغرها قطعة اللحم التى يمضغها الإنسان فى فمه ). فَخَلَقْنَا المضغة عِظَاماً ) أى : حولنا هذه المضغة من اللحم التى لم تظهر معالمها بعد ، إلى عظم صغير دقيق ، على حسب ما اقتضته حكمتنا فى خلقنا أى : فكسونا هذه المضغة التى تحولت ( فَكَسَوْنَا العظام لَحْماً ) ، بقدرتنا إلى عظام دقيقة باللحم ، بحيث صار هذا اللحم ساتراً للعظام ومحيطاً

بها .قال بعض العلماء : " وهنا يقف الإنسان مدهوشاً ، أمام ما كشف عنه القرآن من حقيقة فى تكوين الجنين ، لم تعرف على وجه الدقة إلا أخيراً ، بعد تقدم علم الأجنة التشريحى " .وذلك أن خلايا العظام غير خلايا اللحم وقد ثبت أن خلايا العظام هى التى تكون أولاً من الجنين ، ولا تشاهد خلية واحدة من خلايا اللحم إلا بعد ظهور خلايا الهيكل العظمى للجنين . وهى التى يسجلها النص القرآنى فى قوله - تعالى - ( فَخَلَقْنَا المضغة عِظَاماً فَكَسَوْنَا العظام لَحْماً ) فسبحانه العليم الخبير .وقوله - تعالى - : ( ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ ) بيان لما انتهت إليه أطوار خلق الإنسان .أى : ، ثم صيرنا هذا الإنسان بشراً سويًّا ، بعد أن كان نطفة ، فعلقة ، فمضغة - فعظاماً ، فلحماً يكسو هذه العظام ، وهذا كله يدل على كمال قدرة الله تعالى - وعلى أنه حق ، إذ قدرته - سبحانه -لا يعجزها شىء .قال صاحب الكشاف قوله - تعالى - : ( ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ ) ، أى : خلقاً " : مباينا للخلق الأول مباينة ما أبعدها ، حيث جعله حيوانا بعد أن كان جماداً ، وناطقاً وكان أبكم ، وسميعاً وكان أصم وبصيراً وكان أكمه ، وأودع ، باطنه وظاهره - بل كل عضو من أعضائه بل كل جزء من أجزائه - عجائب فطرته ). " . . . وغرائب حكمته ، لا تدرك بوصف الواصف ، ولا تبلغ بشرح الشارح فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الخالقين ) أى : فكثر خيره - سبحانه - ودام إحسانه وتقدس شأنه ، فهو - عز وجل - أحسن الخالقين على الإطلاق ، فقد أتقن ، كل شىء خلقه ، وأحكم كل شىء صنعه .ولفظ " تبارك " فعل ماض لا ينصرف والأكثر إسناده إلى غير مؤنث .وهو مأخوذ من البركة بمعنى الكثرة من كل خير أو بمعنى الثبات والدوام وكل شىء دام وثبت فقد برك ، .

ثم انكم بعد ذلك لميتون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - حالهم بعد أن يكونوا خلقاً آخر فقال : ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلك لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القيامة ) تُبْعَثُونَ ) .أى : ثم إنكم بعد ذلك الذى ذكره - سبحانه - لكم من أطوار خلقكم تصيرون أطفالاً ، فصبياناً فغلماناً ، فشباناً ، فكهولاً ، فشيوخاً . ثم مصيركم بعد ذلك كله ، أو خلال ذلك كله ، إلى الموت المحتوم الذى لا . . مفر لكم منه ، ولا مهرب لكم عنه .

ثم انكم يوم القيامة تبعثون

كما فسرها الوسيط ثم إنكم يوم القيامة تبعثون من قبوركم للحساب والجزاء وهكذا نجد هذه الآيات الكريمة تذكر الإنسان بأطوار نشأته . وبحلقات حياته. وبنهاية عمره . وبحتمية بعثه .وفى هذا التذكير ما فيه من الاعتبار : للمعتبرين ، ومن الاتعاظ للمتعظين ، ومن البراهين الساطعة على وحدانية الله - تعالى - .

ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين

كما فسرها الوسيط وبعد أن ساق - سبحانه - ما يدل على قدرته عن طريق خلق الإنسان فى تلك الأطوار المتعددة ، أتبع ذلك ببيان مظاهر قدرته عن طريق تلك الكائنات المختلفة ، فقال - تعالى - : ( وَلَقَدْ خَلَقْنَا . . . . ) الطرائق : جمع طريقة ، والمراد بها السموات السبع . وسميت طرائق لأن كل. سماء فوق الأخرى ، والعرب تسمى كل شىء فوق شىء طريقة بمعنى مطروقة .وهو مأخوذ من قولهم : فلان طرق النعل ، إذا ركب بعضها فوق بعض .فالآية الكريمة فى معنى قوله - تعالى - : ( الذي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً ) وقيل سميت طرائق ، لأنها طرق الملائكة فى النزول والعروج .أى : ولقد خلقنا : فوقكم - أيها الناس - سبع سموات بعضها فوق بعض ( وَمَا كُنَّا ) فى وقت من ، الأوقات ( عَنِ الخلق غَافِلِينَ ) بل نحن معهم بقدرتنا ورعايتنا وحفظنا ندبر لهم أمور معاشهم ، ونيسر لهم شئون حياتهم دون أن نغفل عن شىء - مهما صغر - من أحوالهم ، لأننا لا تأخذنا سنة ولا نوم ، ولا يعترينا ما يعترى البشر من سهو أو غفلة .

وانزلنا من السماء ماء بقدر فاسكناه في الارض وانا على ذهاب به لقادرون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعض النعم التى تأتينا من جهة هذه الطرائق فقال : ( وَأَنزَلْنَا مِنَ السمآء مَآءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأرض . . ) .أى : وأنزلنا لكم - أيها الناس - بقدرتنا ورحمتنا ، ماء بقدر . أى : أنزلناه بمقدار معين ، بحيث لا يكون طوفانا فيغرقكم ، ولا يكون قليلاً فيحصل لكم الجدب والجوع والعطش . وإنما أنزلناه بتقدير مناسب . . . ) : لجلب المنافع ، ودفع المضار ، كما قال - سبحانه - فى آية أخرى وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ) وقوله : ( فَأَسْكَنَّاهُ

فِي الأرض ) أى : هذا الماء النازل من السماء بتقدير معين منا تقتضيه حكمتنا ، جعلناه ساكناً مستقراً فى الأرض ، لتنعموا به عن طريق استخراجه من الآبار والعيون وغيرها .وفى هذه الجملة الكريمة إشارة إلى أن المياه الجوفيى الموجودة فى باطن الأرض ، مستمدة من المياه النازلة من السحاب عن طريق المطر .وهذا ما قررته النظريات العلمية الحديثة بعد مئات السنين من نزول القرآن الكريم . وبعد أن بقى العلماء دهوراً طويلة ، يظنون أن المياه التى فى جوف الأرض ، لا علاقة لها بالمياه النازلة على الأرض عن طريق المطر وقوله - سبحانه - : ( وَإِنَّا على ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ) بيان لمظهر من مظاهر قدرته ورأفته ورحمته - تعالى - بعباده .أى : وإنا على إذهاب هذا الماء الذى أسكناه فى باطن الأرض لقادرون ، بأن نجعله يتسرب إلى أسفل طبقات الأرض لا تستطيعون الوصول إليه ، أو بأن نزيله من الأرض إزالة تامة ، لأن القادر على إنزاله قادر على إزالته وإذهابه ، ولكنا لم نفعل ذلك رحمة بكم ، وشفقة عليكم ، فاشكرونا على نعمنا وضعوها فى مواضعها الصحيحة .قال صاحب الكشاف : " قوله : ( على ذَهَابٍ بِهِ ) من أوقع النكرات وأحزها للمفصل .والمعنى : على وجه من وجوه الذهاب به ، وطريق من طرقه ، وفيه إيذان باقتدار المذهب ، وأنه لا يتعايى عليه شىء إذا أراده ، وهو أبلغ فى الإبعاد من قوله :( قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْراً فَمَن ، يَأْتِيكُمْ بِمَآءٍ مّعِينٍ ) فعلى العباد أن يستعظموا النعمة فى الماء ويقيدوها بالشكر الدائم ، ويخافوا نفارها إذا لم تشكر .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأرض ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ . . ).

فانشانا لكم به جنات من نخيل واعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تاكلون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - الآثار الجليلة المترتبة على إنزال الماء من السماء فقال : ( فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنّاتٍ مِّن نّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ . . . ) .أى : فأوجدنا لكم بسبب نزول الماء على الأرض بساتين متنوعة ، بعضها من نخيل ، وبعضها من أعناب ، وبعضها منهما معاً ، وبعضها من غيرهما .وخص النخيل والأعناب بالذكر ، لكثرة منافعهما ، وانتشارهما فى الجزيرة العربية ، أكثر من غيرهما .( لَّكُمْ فِيهَا ) أى : فى تلك الجنات تتلذذون بها فى مأكلكم ( وَمِنْهَا ) . أى : ومن ( فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ ) . هذه البساتين والجنات ( تَأْكُلُونَ ) ما تريدون أكله منها فى كل الأوقات

وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للاكلين

) : كما فسرها الوسيط والمراد بالشجرة فى قوله - تعالى - بعد ذلك وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ . . ) ، شجرة الزيتون . وهى معطوفة على " جنات " من عطف الخاص على العام .أى : فأنشأنا لكم بسبب هذا لاماء النازل من السماء ، جنات ، وأنشأنا لكم بسببه - أيضاً - شجرة مباركة تخرج من هذا الوادى المقدس الذى كلم الله - تعالى - عليه موسى - عليه السلام - وهو المعروف بطور سيناء . أى : بالجبل المسمى بهذا الاسم فى منطقة سيناء ، ومكانها معروف .قالوا : وكلمة سيناء - بفتح السين والمد على الراجح - معناها : الحسن باللغة النبطية . أو معناها : الجبل الملىء بالأشجار . وقيل : مأخوذة من السنا بمعنى الارتفاع .وخصت شجرة الزيتون بالذكر : لأنها من أكثر الأشجار فائدة بزيتها وطعامها وخشبها ، ومن أقل الأشجار - أيضاً - تكلفة لزارعها .وخص طور سيناء بإنباتها فيه ، مع أنها تنبت منه ومن غيره ، لأنها أكثر ما تكون انتشاراً فى تلك الأماكن ، أو لأن منبتها الأصلى كان فى هذا المكان ، ثم انتقلت منه إلى غيره من الأماكن وقوله : ( تَنبُتُ بالدهن وَصِبْغٍ لِّلآكِلِينَ ) بيان لمنافع هذه الشجرة على سبيل المدح ، والتعليل لإفرادها بالذكر .والدهن : عصارة كل شىء ذى دسم . والمراد به هنا : زيت الزيتون .وقراءة الجمهور : ( تَنبُتُ ) - بفتح التاء وضم الباء - على أنه مضارع نبت الثلاثى .فيكون المعنى : هذه الشجرة من مزاياها أنها تنبت مصحوبة وملتبسة بالدهن الذى يستخرج من زيتونها فالباء فى قوله ( بالدهن ) للمصاحبة والملابسة ، كما تقول : خرج فلان بسلاحه ، أى : مصاحباً له .وقرأ ابن كثير وأبو عمرو : تُنْبِت - بضم التاء وكسر الباء - من أنبت بمعنى نبت . أو : من أنبت التعدى بالهمزة ، كأنبت الله الزرع ، والتقدير : تنبت ثمارها مصحوبة بالدهن .والصبغ فى الأصل يطلق على الشىء الذى يصبغ به الثوب .والمراد به هنا : الإدام لأنه يصبغ الخبز ، ويجعله كأنه مصبوغ به .أى : أن من فوائد هذه الشجرة المباركة أنها يتخذ منها الزيت الذى ينتفع به ، والإدام الذى يحلو معه أكل الخبز والطعام روى الإمام أحمد عن مالك بن ربيعة الساعدى ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " كلوا الزيت وادهنوا به فإنه من شجرة مباركة .

وان لكم في الانعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تاكلون

كما فسرها الوسيط وبعد أن بين - سبحانه - جانباً من مظاهر نعمه فى الماء والنبات أتبع ذلك ببيان جانب آخر من نعمه فى الأنعام والحيوان . فقال - فقال - تعالى - : ( وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأنعام لَعِبْرَةً . . . ) .والأنعام : تطلق على الإبل والبقر والغنم . وقد تطلق على الإبل خاصة .والعبرة : اسم من الاعتبار ، وهو - الحالة التى تجعل الإنسان يعتبر ويتعظ بما يراه ويسمعه .أى : وإن لكم أيها الناس - فيما خلق الله لكم من الأنعام لعبرة وعظة ، تجعلكم تخلصون - العبادة لله - تعالى - وتشكرونه على آلائه .وقوله - سبحانه - : ( نُّسْقِيكُمْ مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ) . بيان لمواطن العبرة ، وتعريف بأوجه النعمة .أى : نسقيكم مما فى بطونها من ألبان خالصة ، تخرج من بين فرث ودم ، ولكم فى هذه الأنعام منافع كثيرة ، كأصوافها وأوبارها وأشعارها ، ومنها تأكلون من لحومها ، ومما يستخرج من ألبانها .

وعليها وعلى الفلك تحملون

كما فسرها الوسيط ( وَعَلَيْهَا ) أى : وعلى هذه الأنعام ، والمراد بها هنا الإبل خاصة ( وَعَلَى الفلك ) أى : السفن التى تجرى فى البحر : تُحْمَلُونَ ) بقدرتنا ومنتنا ، حيث تحمل هذه الإبل وتلك السفن أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس . . .وقريب من هاتين الآيتين فى المعنى قوله - تعالى- : ( أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ ) وقوله - سبحانه - : ( والذي خَلَقَ الأزواج كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الفلك والأنعام مَا تَرْكَبُونَ لِتَسْتَوُواْ على ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا استويتم عَلَيْهِ وَتَقُولُواْ سُبْحَانَ الذي سَخَّرَ لَنَا هذا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّآ إلى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ) وبذلك نرى الآيات الكريمة قد ذكرت لنا أنواعاً من نعم الله - تعالى - على عباده ، هذه النعم التى تدل على كمال قدرته ، وعظيم رحمته .وبعد أن بين - سبحانه - دلائل قدرته عن طريق خلق الإنسان ، وعن طريق خلقه لهذه الكائنات التى يشاهدها الإنسان وينتفع بها . . . أتبع ذلك ، بالحديث عن بعض الرسل - عليهم الصلاة والسلام - وعن موقف أقوامهم منهم . وعن سوء عاقبة المكذبين لرسل الله - تعالى - وأنبيائه .

ولقد ارسلنا نوحا الى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره افلا تتقون

، كما فسرها الوسيط وابتدأ - سبحانه - الحديث عن جانب من قصة نوح مع قومه - فقال - تعالى - : ( وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً . . . ) .تلك هى قصة نوح عليه السلام - مع قومه ، كما وردت فى هذه السورة الكريمة ، وقد وردت بصورة أكثر تفصيلاً فى سورتى هود ونوح .وينتهى نسب نوح - عليه السلام - إلى شيص بن آدم - عليه السلام - وقد ذكر نوح فى القرآن فى ثلاثة وأربعين موضعاً قال الجمل فى حاشيته : وعاش نوح من العمر ألف سنة وخمسين ، لأنه أرسل على رأس الأربعين ومكث يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وعاش بعد الطوفان ستين سنة .وقدمت قصته هنا على غيره ، لتتصل بقصة آدم المذكورة فى قوله - تعالى - : ( وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِن سُلاَلَةٍ مِّن طِينٍ ) للمناسبة بينهما من حيث إن نوحاً يعتبر آدم الثانى ، لانحصار النوع الإنسانى بعده فى نسله وقوم الرجل : أقرباؤه الذين يجتمعون معه فى جد واحد . وقد يقيم الرجل بين قوم ليس منهم فى نسبه ، فيسميهم قومه على سبيل المجاز ، لمجاورته لهم .وكان قوم نوح يعبدون الأصنام . فأرسل الله - تعالى - إليهم نوحاً لينهاهم عن ذلك وليأمرهم بإخلاص العبادة لله - تعالى - .واللام فى قوله - سبحانه - : ( وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إلى قَوْمِهِ . . . ) واقعة فى جواب قسم محذوف أى : والله لقد أرسلنا نبينا نوحاً - عليه السلام - إلى قومه ، ليخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان .وقوله - سبحانه - ( فَقَالَ ياقوم اعبدوا الله مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ . . . ) حكاية لما وجهه إليهم من نصائح وإرشادات .أى : أرسلنا نوحاً إلى قومه ، فقال لهم ما قاله كل نبى : يا قوم اعبدوا الله وحده ، فإنكم ليس لكم إله سواه ، فهو الذى خلقكم ، وهو الذى رزقكم ، وهو الذى يحييكم وهو الذى يميتكم ، وكل معبود غيره - سبحانه - فهو باطل .وفى ندائهم بقوله : ( ياقوم ) تلطف فى الخطاب ، ليستميلهم إلى دعوته فكأنه يقول لهم : أنتم أهلى وعشيرتى يسرنا ما يسركم ، ويؤذينى ما يؤذيكم ، فاقبلوا دعوتى ، لأنى لكم ناصح أمين .وقوله : ( أَفَلاَ تَتَّقُونَ ) ،

- تحذير لهم من الإصرار على شركهم ، بعد ترغيبهم فى عبادة الله - تعالى
وحده بأطلف أسلوب .أى : أفلا تتقون الله - تعالى - وتخافون عقوبته ، بسبب
عبادتكم لغيره ، مع أنه - سبحانه - هو الذى خلقكم فالاستفهام للإنكار
والتوبيخ .

فقال الملا الذين كفروا من قومه ما هذا الا بشر مثلكم يريد ان يتفضل عليكم
ولو شاء الله لانزل ملائكة ما سمعنا بهذا في ابائنا الاولين

) : كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - ما رد به قوم نوح عليه فقال
فَقَالَ الملأ الذين كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ مَا هذا إِلاَّ بَشَرٌ
مِّثْلُكُمْ . . . ) .والمراد بالملأ : أصحاب الجاه والغنى من قوم نوح
وهذا اللفظ اسم جمع لا واحد له من لفظه - كرهط - وهو مأخوذ من قولهم : فلان
ملىء بكذا ، إذا كان قادراً عليه . أو لأنهم متمالئون . أى : متظاهرون
: متعاونون ، أو لأنهم يملأون القلوب والعيون مهابة .. . .وفى وصفهم بالكفر
تشنيع عليهم وذم لهم ، وإشعار بأنهم عريقون فيه . أى : فقال الأغنياء
وأصحاب النفوذ الذين مردوا على الكفر ، فى الدر على نبيهم نوح عليه السلام
أى : قالوا لأتباعهم على سبيل. ( مَا هذا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ) :
التحذير من الاستماع إلى دعوة نبيهم ، ما هذا ، أى : نوح عليه السلام - إلا
بشر مثلكم ، ومن جنسكم ، ولا فرق بينكم وبينه فكيف يكون نبياً؟ولم يقولوا
ما نوح إلا بشر مثلكم ، بل أشاروا إليه بدون ذكر اسمه ، لأنهم لجهلهم :
وغرورهم يقصدون تهوين شأنه - عليه الصلاة والسلام - فى أعين قومه .وقوله
: ( يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ) أى : أ ، نوحاً جاء بما جاء به
بقصد الرياسة عليكم .ومرادهم بهذا القول : تنفير الناس منه ، وحضهم على
عداوته .وقوله : ( وَلَوْ شَآءَ الله لأنزَلَ مَلاَئِكَةً ) استبعاد منهم
لكون الرسول من البشر أى : ولو شاء الله أن يرسل رسولاً ليأمرنا بعبادته
- وحده . لأرسل ملائكة ليفعلوا ذلك ، فهم - لانطماس بصائرهم وسوء تفكيرهم
يتوهمون أن الرسول لا يكون من البشر ، وإنما يكون من الملائكة .ومفعول
المشيئة محذوف . أى : ولو شاء الله عبادته وحده لأرسل ملائكة ليأمرونا بذلك
فلما لم يفعل علمنا أنه ما أرسل رسولاً ، فنوح - فى زعمهم - كاذب فى ،
دعواه .وقولهم : ( مّا سَمِعْنَا بهذا في آبَائِنَا الأولين ) أى ما سمعنا
، بهذا الكلام الذى جاءنا به نوح فى آباءنا الأولين ، الذين ندين باتباعهم
ونقتدى بهم فى عبادتهم لهذه الأصنام .

ان هو الا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين

كما فسرها الوسيط ثم هم لا يكتفون بهذا الجمود والتحجر ، بل يصفون نبيهم
بما هو برىء منه فيقولون : ( إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ
فَتَرَبَّصُواْ بِهِ حتى حِينٍ ) .والجِنّة : الجنون ، يقال جُنَّ : فلان
: إذا أصيب بالجنون ، أو إذا مسه الجن فصار فى حالة خبل وجنون .والتربص
الانتظار والترقب ، أى : ما نوح - عليه السلام - الذى يدعى النبوة ، إلا
رجل به حالة من الجنون والخبل ، فانتظروا عليه إلى وقت شفائه من هذا الجنون
أو إلى وقت موته ، وعندئذ تستريحون منه ، ومن دعوته التى ما سمعنا بها فى
- آبائنا الأولين .فأنت ترى أن القوم قد واجهوا نبيهم نوحاً - عليه السلام
بأقبح مواجهة حيث وصفوه بأنه يريد من وراء دعوته لهم السيادة عليهم ، وأنه
ليس نبيًّا لأن الأنبياء لا يكونون من البشر - فى زعمهم - وأنه قد خالف ما
ألفوه عن آبائهم ، ومن خالف ما كان عليه آباءهم لا يجوز الاستماع إليه
وأنه مصاب بالجنون وأنه عما قريب سيأخذه الموت ، أو يشفى مما هو فيه .وهكذا
الجهل والغرور والجحود . . . عندما يستولى على الناس ، يحول فى نظرهم
الإصلاح إلى إفساد ، والإخلاص إلى حب للرياسة ، والشىء المعقول المقبول .
إلى أن شىء غير معقول وغير مقبول ، وكمال العقل وردجانه ، إلى جنونه
ونقصانه .وصدق الله إذ يقول : ( سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِي الذين
يَتَكَبَّرُونَ فِي الأرض بِغَيْرِ الحق وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ
يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرشد لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً
وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الغي يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً . . . ).

قال رب انصرني بما كذبون

كما فسرها الوسيط ثم يحكى القرآن بعد ذلك أن نوحاً - عليه السلام - بعد أن
استمع إلى ما قاله قومه فى شأ ، ه من ضلالات وسفاهات ، لجأ إلى ربه - عز
وجل - يشكو إليه ما أصابه منهم ويلتمس منه النصر عليهم . فقال : كما حكى
القرآن عنه : ( رَبِّ انصرني بِمَا كَذَّبُونِ ) .أى : قال نوح فى مناجاته
لربه : يا رب أنصرنى على هؤلاء القوم الكافرين بسبب تكذيبهم لى وتطاولهم
على . وسخريتهم منى ، وإصرارهم على عبادة غيرك .

فاوحينا اليه ان اصنع الفلك باعيننا ووحينا فاذا جاء امرنا وفار التنور
فاسلك فيها من كل زوجين اثنين واهلك الا من سبق عليه القول منهم ولا
تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون

) : كما فسرها الوسيط وقد أجاب الله - تعالى - دعاء عبده نوح فقال
فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ ) أى : فأوحينا إليه فى أعقاب دعائه وتضرعه .( أَنِ
اصنع الفلك بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ) أى : أوحينا إليه أن ابتدىء يا نوح
فى صنع السفينة وأنت تحت رعايتنا وحفظنا ، وسنرسل إليك وحينا ليرشدك إلى ما
أنت فى حاجة إليه من إتقان صنع السفينة ، ومن غير ذلك من شئون .وفى التعبير
بقوله - سبحانه - ( أَنِ اصنع ) إشارة إلى أن نوحا - عليه السلام - قد
- باشر بنفسه صنع السفينة التى هى وسيلة النجاة له وللمؤمنين معه .وفى قوله
تعالى - : ( بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ) إشارة إلى أن نوحا بجانب مباشرته
للصنع بنفسه ، كان مزودا من الله - تعالى - بالعناية والرعاية وبحسن
التوجيه والإرشاد عن طريق الوحى الأمين .وذلك لأن سنة الله - تعالى - قد
اقتضت أن لا يضيع عمل عباده المخلصين ، الذين يبذلون أقصى جهدهم فى الوصول
إلى غاياتهم الشريفة .والباء فى قوله ( بِأَعْيُنِنَا ) للملابسة ، والجار
) - والمجرور فى موضع الحال من ضمير " اصنع " .والفاء فى قوله - سبحانه
فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا ) لترتيب مضمون ما بعدها على إتمام صنع السفينة
والمراد بالأمر هنا : العذاب الذى أعده الله - تعالى - لهؤلاء الظالمين من
قوم نوح - عليه السلام - . ويشهد لذلك قوله - سبحانه - فى آية أخرى : ( لاَ
عَاصِمَ اليوم مِنْ أَمْرِ ) أى : من عذابه ( إِلاَّ مَن رَّحِمَ ) والمراد
بمجىء هذا الأمر : اقتراب وقته ، ودنو ساعته ، وظهور علاماته وقوله - تعالى
بيان وتفسير لمجىء هذا الأمر ، وحلول وقت إهلاكهم ( وَفَارَ التنور ) :
وقوله : ( فَارَ ) من الفوران : بمعنى شدة الغليان للماء وغيره . يقال.
للماء فار إذا اشتد غليانه . ويقال للنار فارت إذا عظم هيجانها . ومنه
قوله - تعالى - ( إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ
تَفُورُ ) وللمفسرين فى المراد بلفظ ( التنور ) أقوال منها : أن المراد به
الشىء الذى يخبز فيه الخبز ، وهو ما يسمى بالموقد أو الفرن .ومنها أن
. المراد به وجه الأرض . أو موضع اجتماع الماء فى السفينة ، أو طلوع الفجر
وقد رجح الإمام ابن جرير القول الأول فقال : وألوى الأقوال بالصواب قول . .
. . من قال : وهو التنور الذى يخبز فيه ، لأن هذا هو المعروف من كلام العرب
ويبدو أن فوران التنور كان علامة لنوح على أن موعد إهلاك الكافرين من قومه.
قد اقترب .أى : فإذا اقترب موعد إهلاك قومك الظالمين يا نوح ، ومن علامة
ذلك أن ينبع الماء من التنور ويفوز فوراناً شديداً ( فاسلك فِيهَا ) فأدخل
فى السفينة ( مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثنين ) ولفظ ( زَوْجَيْنِ ) تثنية زوج
والمراد به هنا : الذكر والأنثى من كل نوع .وقراءة الجمهور : ( مِن كُلٍّ .
) زَوْجَيْنِ اثنين) بدون تنوين للفظ كل ، وبإضافته إلى زوجين . .وقرأ حفص
. مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثنين ) بتنوين كل ، وهو تنوين عوض عن مضاف إليه
والتقدير : فأدخل فى السفينة من كل نوع من أنواع المخلوقات التى أنت فى
حاجة إليها ذكراً وأنثى ، ويكون لفظ ( زَوْجَيْنِ ) مفعولاً لقوله ( فاسلك
: ولفظ اثنين : صفة له .والمراد بأهله فى قوله - تعالى - ( وَأَهْلَكَ ) (
أهل بيته كزوجته وأولاده المؤمنين ، ويدخل فيهم كل من آمن به - عليه
السلام - سواء أكان من ذوى قرابته أم من غيرهم ، بدليل قوله - تعالى - فى
سورة هود : ( قُلْنَا احمل فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثنين وَأَهْلَكَ
إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ القول وَمَنْ آمَنَ وَمَآ آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ
قَلِيلٌ ) وجملة : ( إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ القول مِنْهُمْ ) استثناء
من الأهل . والمراد بمن سبق عليه القول منهم : من بقى على كفره ولم يؤمن
برسالة نوح - عليه السلام - كزوجته وابنه كنعان .أى : أدخل فى السفينة
ذكراً وأنثى من أنواع المخلوقات ، وأدخل فيها - أيضاً - المؤمنين من أهلك
ومن غيرهم ، إلا الذين سبق منا القول بهلاكهم بسبب إصرارهم على الكفر . فلا
: تدخلهم فى السفينة ، بل اتركهم خارجها ليغرقوا مع المغرقين .قال الآلوسى
وجىء بعلى فى قوله : ( إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ القول مِنْهُمْ ) لكون
السابق ضارا ، كما جىء باللام فى قوله : ( إِنَّ الذين سَبَقَتْ لَهُمْ
مِّنَّا الحسنى ) لكون السابق نافعاً .وقوله - تعالى - : ( وَلاَ
- تُخَاطِبْنِي فِي الذين ظلموا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ) نهى منه - سبحانه
لنوح - عليه السلام - عن الشفاعة لهؤلاء الكافرين ، أو عن طلب تأخير العذاب
المهلك لهم .أى : اترك يا نوح هؤلاء الظالمين ، ولا تكملنى فى شأنهم ، كأن
تطلب الشفاعة لهم أو تأخير العذاب عنهم ، فإنهم مقضى عليهم بالإغراق لا
محالة . ولا مبدل لحكمى أو إرادتى .ويبدو - والله أعلم - أن هذه الجملة
الكريمة ، كانت نهيا من الله - تعالى - لنوح عن الشفاعة فى ابنه الذى غرق
): مع المغرقين ، والذى حكى القرآن فى سورة هود أن نوحا قد قال فى شأنه
رَبِّ إِنَّ ابني مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الحق وَأَنتَ أَحْكَمُ
الحاكمين ).

فاذا استويت انت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين

كما فسرها الوسيط ثم ارشد الله - تعالى - نبيه نوحاً إلى ما يقوله بعد أن يستقر فى السفينة فقال - سبحانه - : ( فَإِذَا استويت أَنتَ وَمَن مَّعَكَ من أهلك وأتباعهك المؤمنين ( عَلَى الفلك ) .أى : السفينة التى علمناك عن طريق وحينا كيفية صنعها بإحكام وإتقان ( فَقُلِ ) يا نوح على سبيل الشكر لنا ، والتقدير لذاتنا ( الحمد للَّهِ الذي نَجَّانَا ) بفضله وكرمه ( مِنَ القوم الظَّالمين ) الذين استحبوا العمى على الهدى ، وآثروا الضلالة على الهداية ، وتطاولوا على نبيهم الذى جاء لسعادتهم .

وقل رب انزلني منزلا مباركا وانت خير المنزلين

كما فسرها الوسيط (وَقُل ) - أيضاً - يا نوح ( رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكاً ) أى : أنزلنى إنزالاً ، أو مكان إنزال مباركاً - أى مليئاً بالخيرات والبركات ، خالياً مما حل بالظالمين من إغراق وإهلاك . ( وَأَنتَ يا إلهى ( خَيْرُ المنزلين ) بفضلك وكرمك فى المكان الطيب المبارك ( .

ان في ذلك لايات وان كنا لمبتلين

كما فسرها الوسيط ثم عقب - سبحانه - على ما اشتملت عليه قصة نوح من حكم وآداب بقوله : ( إِنَّ فِي ذلك لآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ) .أى : إن فى ذلك الذى ذكرناه لك - أيها الرسول الكريم - عن نوح وقومه ( لآيَاتٍ ) ، بينات ، ودلالات واضحات ، على أن هذا القرآن من عندنا لا من عند غيرنا ) وعلى أن العاقبة للمؤمنين ، وسوء المنقلب للكافرين .و " إن " فى قوله وَإِن كُنّا ) هى المخففة من الثقيلة ، واللام فى قوله ( لَمُبْتَلِينَ ) هى الفارقة بينها وبين إن النافية ، والجملة حالية ، والابتلاء : الاختبار والامتحان . . .أى : إن فى ذلك الذى ذكرناه عن نوح وقومه لآيات واضحات على وحدانيتنا وقدرتنا ، والحال والشأن أن من سنتنا أن نبتلى الناس بالنعم وبالنقم ، وبالخير والشر . ليتبين من يعتبر ويتعظ ، وليتميز الخبيث من الطيب ، وليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حى عن بينة ، وإن الله لسميع عليم .

ثم انشانا من بعدهم قرنا اخرين

كما فسرها الوسيط ثم تمضى السورة فى حديثها عن قصص الأولين ، فتحكى لنا قصة أقوام آخرين مع نبى من أنبيائهم فتقول : ( ثُمَّ أَنشَأْنَا . . . ) .أى : ثم أنشأنا من بعد أولئك القوم المغرقين الذين كذبوا نبيهم نوحاً - عليه السلام - ، ( قَرْناً آخَرِينَ ) غيرهم ، وهم على الأرجح - قوم هود - عليه السلام - بدليل قوله - تعالى - فى آية أخرى فى شأنهم : ( واذكروا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ . . ) كما أن قصة هود مع قومه ، كثيراً ما تأتى بعد قصة نوح مع قومه .وقيل : هم قوم صالح - عليه السلام - .وعلى أية حال فإن سورة " المؤمنون " فى عرضها لقصص الأنبياء تحرص على بيان أن استقبال المكذبين لأنبيائهم كان متشابها فى القبح والتكذيب وقال - سبحانه - ( قَرْناً آخَرِينَ ) للإشعار بأنهم كانوا يعيشون فى زمان واحد مع نبيهم ، وأنهم كانوا معاصرين له ، ومشاهدين لأحواله قبل البعثة وبعدها .

فارسلنا فيهم رسولا منهم ان اعبدوا الله ما لكم من اله غيره افلا تتقون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أنه امتن عليهم بإرسال رسول فيهم فقال : ( فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ أَنِ اعبدوا الله مَا لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرُهُ . . . ) .أى : كان من مظاهر رحمتنا ومننا على هؤلاء القوم الآخرين الذين جاءوا بعد إهلاك قوم نوح ، أن أرسلنا فيهم رسولاً منهم نشأ بين أظهرهم وعرفوا حسبه ونسبه ، فقال لهم ما قاله كل نبى لقومه : اعبدوا الله وحده ، فإنكم ليس من إله سواه ، لأنه - سبحانه - هو الذى أوجدكم فى هذه الحياة . . . ( أَفَلاَ تَتَّقُونَ ) بأسه وعقابه إذا ما عبدتم غيره؟!

وقال الملا من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الاخرة واترفناهم في الحياة الدنيا ما هذا الا بشر مثلكم ياكل مما تاكلون منه ويشرب مما تشربون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما رد به هؤلاء المشركون الجاحدون على نبيهم فقال : ( وَقَالَ الملأ مِن قَوْمِهِ الذين كَفَرُواْ

وَكَذّبُواْ بِلِقَآءِ الآخرة وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الحياة الدنيا مَا
هذا إِلاّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ . . . ) .أى : وقال الأغنياء والزعماء من
قوم هذا النبى ، الذين كفروا بالحق لما جاءهم ، وكذبوا بالبعث والجزاء الذى
. يكون فى الآخرة ، والذين أبطرتهم النعمة التى أنعمنا عليهم بها فى دنياهم
قالوا لنبيهم بجفاء وسوء أدب لكى يصرفوا غيرهم عن الإيمان به : ما هذا . .
الذى يدعى النبوة ( إِلاّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ) وكأنهم يرون - لغبائهم
وانطماس عقولهم - أن الرسول لا يكون من البشر ، أو يرون جواز كونه من البشر
إلا أنهم قالوا ذلك على سبيل المكر ليصدوا أتباعهم وعامة الناس عن دعوته ،
) : ثم أضافوا إلى هذا القول الباطل ما يؤكده فى نفوس الناس فقالوا.
يَأْكُلُ مِمّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ ) من طعام ، وغذاء ، ( وَيَشْرَبُ
. مِمّا تَشْرَبُونَ ) من ماء وما يشبه الماء

ولئن اطعتم بشرا مثلكم انكم اذا لخاسرون

كما فسرها الوسيط ثم أضافوا إلى ذلك قولهم ( وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ ) أيها
) . . . الناس ( بَشَراً مِّثْلَكُمْ ) فى المأكل والمشرب والملبس والعادات
إِنّكُمْ إِذاً ) بسبب هذه الطاعة ( لّخَاسِرُونَ ) خسارة ليس بعدها
خسارة .والمتأمل فى هذه الآية الكريمة يرى أن الله - تعالى - وصف هؤلاء
الجاحدين بالغنى والجاه ، وأنهم من قوم هذا النبى فازداد حسدهم له وحقدهم
عليه ، وأنهم أصلاء فى الكفر ، وفى التكذيب باليوم الآخر ، وأنهم - فوق كل
ذلك - من المترفين الذين عاشوا حياتهم فى اللهو واللعب والتقلب فى ألوان
الملذات .. . ولا شىء يفسد الفطرة ، ويطمس القلوب ، ويعمى النفوس والمشاعر
عن سماع كلمة الحق . كالترف والتمرغ فى شهوات الحياة .لذا تراهم فى شبهتهم
الأولى يحاولون أن يصرفوا الناس عن هذا النبى ، بزعمهم أنه بشر ، يأكل مما
يأكل منه الناس ، ويشرب مما يشربون منه ، والعقلاء فى زعمهم -لا يتبعون
. نبيًّا من البشر ، لأن اتباعه يؤدى إلى الخسران المبين

ايعدكم انكم اذا متم وكنتم ترابا وعظاما انكم مخرجون

، كما فسرها الوسيط ولقد نهجوا فى قولهم الباطل هذا ، نهج قوم نوح من قبلهم
فقد قالوا فى شأنه : ( مَا هذا إِلاّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن
. يَتَفَضّلَ . . ) أما شبهتهم الثانية التى أثاروها لصرف الناس عن الحق
فقد حكاها القرآن فى قوله عنهم : ( أَيَعِدُكُمْ أَنّكُمْ إِذَا مِتُّمْ
: وَكُنتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُمْ مُّخْرَجُونَ . . . ) . أى
أيعدكم هذا الذى يدعى النبوة - وهو بشر مثلكم - أنكم إذا فارقتم هذه الحياة
وصرتم أمواتاً ، وصارت بعض أجزاء أجسامكم تراباً وبعضها عظاماً نخرة ، أنكم
) مخرجون من قبوركم إلى الحياة مرة أخرى للحساب والجزاء؟والاستفهام فى قوله
أَيَعِدُكُمْ ) للإنكار والتحذير من اتباع هذا النبى ، والجملة مستأنفة
- مقررة لمضمون ما قبلها من الصد عن الاستماع إلى ما جاءهم به نبيهم ، لأنه
فى زعمهم - يؤدى إلى الخسران .وكرر - سبحانه - لفظ ( أَنّكُمْ ) لبيان
. حرصهم على تأكيد أقوالهم الباطلة فى نفوس الناس ، حتى يفروا من وجه نبيهم

هيهات هيهات لما توعدون

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - أنهم لم يكتفوا بكل ما أثاروه من شبه
لصرف أتباعهم عن الحق بل أضافوا إلى ذلك . أن ما يقوله هذا النبى مستبعد فى
العقول ، وأنه رجل افترى على الله كذبا . . .فقال - تعالى - : ( هَيْهَاتَ
هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ إِنْ هِيَ إِلاّ حَيَاتُنَا الدنيا نَمُوتُ
وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افترى على
الله كَذِباً وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ) .ولفظ " هيهات " اسم فعل
، ماض ، معناه : بَعُد بعداً شديداً ، والغالب فى استعمال هذا اللفظ مكرراً
ويكون اللفظ الثانى مؤكداً لفظياً للأول .أى : قال الملأ من قوم هذا النبى
لغيرهم ، على سبيل التحذير من اتباعه : بعد بعداً كبيراً ما يعدكم به هذا
الرجل من أن هناك بعثاً وحساباً وجزاء بعد الموت ، وأن هناك جنة وناراً يوم
القيامة .قال الآلوسى : " وقوله - سبحانه - : ( هَيْهَاتَ ) اسم بمعنى بعد
وهو فى الأصل اسم صوت ، وفاعله مستتر فيه يرجع للتصديق أو للصحة أو للوقوع.
. . . أو نحو ذلك مما يفهم من السياق . والغالب فى هذه الكلمة مجيئها مكررة
وقوله؛ ( لِمَا تُوعَدُونَ ) بيان لمرجع ذلك الضمير ، فاللام متعلقة بمقدر
كما فى قولهم : سقيا له .أى : التصديق أو الوقوع المتصف بالبعد كائن لما ،
. . . توعدون

ان هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين

كما فسرها الوسيط و قوله - سبحانه - ( إِنْ هِيَ إِلاّ حَيَاتُنَا الدنيا

بيان لتماديهم فى جحودهم وجهلهم وغرورهم .أى : إنهم لم يكتفوا ( . . باستبعاد حصول البعث والجزاء يوم القيامة بل أضافوا إلى ذلك الإنكار الشديد لحصولهما فقالوا : ما الحياة الحقيقية التى لا حياة بعدها إلا حياتنا الدنيا التى نحياها ، ولا وجود لحياة أخرى ، كما يقول هذا النبى - فنحن نموت كما مات آباؤنا ، ونحيا كما يولد أبناؤنا . وهكذا الدنيا فيها موت لبعض الناس ، وفيها يحاة لغيرهم ( وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ) بعد الموت على الإطلاق .

ان هو الا رجل افترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين

كما فسرها الوسيط ثم أضافوا إلى إنكارهم هذا للدار الآخرة ، تكاولاً على نبيهم ، واتهاماً له بما هو برىء منه ، فقالوا : ( إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افترى على الله كَذِباً . . . ) أى؛ ما هذا النبى الذى أمركم بترك عبادة آلهتكم ، وأخبركم بأن هناك بعثاً وحساباً ، إلا رجل اختلق على الله الكذب فيما يقوله ويدعو إليه ( وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ) فى يوم من الأيام ، فكونوا مثلنا - أيها الناس - فى عدم الإيمان به ، وفى الانصراف عنه .وهكذا يصور لنا القرآن الكريم بأسلوبه البليغ ، موقف الطغاة من دعوة الحق ، وكيف أنهم لا يكتفون بالانصراف عنها وحدهم ، بل يؤلبون غيرهم بكل وسيلة على الانقياد لهم ، وعلى محاربة من جاء بهذه الدعوة بمختلف السبل وشتى الطرق .

قال رب انصرني بما كذبون

- كما فسرها الوسيط ثم يحكى لنا القرآن بعد ذلك موقف النبى الذى أرسله الله تعالى - لهؤلاء القوم الظالمين فيقول : ( قَالَ رَبِّ انصرني بِمَا كَذَّبُونِ ) .أى : قال ما قاله أخوه نوح من قبله : رب انصرنى على هؤلاء الجاحدين ، فأنت تعلم - يا إلهى - أنهم كذبوا ما جئتهم به من عندك .

قال عما قليل ليصبحن نادمين

كما فسرها الوسيط وجاءت الاستجابة من الله - تعالى - لهذا النبى ، كما جاءت لأخيه نوح من قبله ، ويحكى القرآن ذلك فيقول : ( قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ) .أى : قال الله - عز وجل - لنبيه : لقد أجبنا دعاءك أيها النبى الكريم ، وبعد وقت قليل من الزمان . ليصبحن نادمين أشد الندم على أقوالهم الباطلة ، وأفعالهم القبيحة ، ولكن هذا الندم لن ينفعهم لأنه جاء فى غير أوانه .والجار والمجرور فى قوله ( عَمَّا قَلِيلٍ ) متعلق بقوله : ( لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ) أى : ليصبحن عن زمن قليل نادمين ، و " عن " هنا بمعنى بعد ، و " ما " جىء بها لتأكيد معنى القلة .وأكد - سبحانه - قوله ( لَّيُصْبِحُنَّ ) بلام القسم ونون التوكيد ، لبيان أن هذا الوعيد آت لا ريب فيه ، وفى وقت قريب .

فاخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعدا للقوم الظالمين

) : كما فسرها الوسيط وجاء الوعيد فعلاً . وأخبر - سبحانه - عن ذلك فقال ، فَأَخَذَتْهُمُ الصيحة بالحق . . . ) . أى : فأهلكناهم إهلاكاً تامًّا بالصيحة التى صاحها بهم جبريل - عليه السلام - حيث صاح بهم مع الريح العاتية التى أرسلها الله عليهم فدمروا تدميرا .وذكر - سبحانه - هنا الصيحة فقط مع أن قوم هود قد أهلكوا بها وبالريح الصرصر العاتية للإشعار بأن إحدى هاتين العقوبتين لو انفردت كافية لإهلاكهم ، فقد قال - سبحانه - فى شأن الريح التى أرسلها عليهم : ( تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لاَ يرى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي القوم المجرمين ) وقوله ( بالحق ) حال من الصيحة ، وهو متعلق بمحذوف ، والتقدير ، فأخذتهم الصيحة حالة كونها بالعدل الذى لا ظلم معه ، وإنما هم الذين ظلموا أنفسهم بتكذيبهم لنبيهم .وقوله - سبحانه - ( فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَآءً فَبُعْداً لِّلْقَوْمِ الظالمين ) بيان لمصيرهم الأليم . والغثاء : الرميم الهامد الذى يحمله السيل من ورق الشجر وغيره ، يقال : غثا الوادى يغثو إذا كثر غثاؤه .أى : فصيرناهم هلكى هامدين كغثاء السيل البالى ، الذى اختلط بزبده ، فهلاكاً وبعداً لهؤلاء القوم الظالمين ، كما هلك وبعد من قبلهم قوم نوح - عليه السلام - .

ثم انشانا من بعدهم قرونا اخرين

كما فسرها الوسيط ثم تمضى السورة فى استعراضها - على سبيل الإجمال - لقصص بعض الأنبياء ، قال - تعالى - : ( ثُمَّ أَنشَأْنَا . . . ) .أى : ( ثُمَّ

أَنشَأْنَا ) من بعد قوم نوح وقوم هود ( قُرُوناً آخَرِينَ ) أى : أقواماً آخرين من الناس ، كل قوم كانوا مجتمعين فى زمان واحد ، كقوم صالح ، وقوم لوط ، وقوم شعيب وغيرهم .

ما تسبق من امة اجلها وما يستاخرون

كما فسرها الوسيط وقوله عز وجل - : ( مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ) بيان لمظهر من مظاهر قدرة الله - تعالى - وإحكامه لشئون خلقه . . . أى : ما تسبق أمة من الأمم أجلها الذى قدرناه لها ساعة من الزمان ، ولا تستأخر عنه ساعة ، بل الكل نهلكه ونميته فى الوقت الذى حددناه بقدرتنا وحكمتنا .و " من " فى قوله ( مِنْ أُمَّةٍ ) مزيدة للتأكيد : وفى هذا المعنى قوله - تعالى - : (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ).

ثم ارسلنا رسلنا تترى كل ما جاء امة رسولها كذبوه فاتبعنا بعضهم بعضا وجعلناهم احاديث فبعدا لقوم لا يؤمنون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - على سبيل الإجمال ، أن حكمته قد اقتضت أن يرسل رسلاً آخرين ، متتابعين فى إرسالهم . كل واحد يأتى فى أعقاب أخيه ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور . فقال - تعالى - : ( ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى . . . ) .ولفظى ( تَتْرَى ) مصدر كدعوى ، وألفه للتأنيث وأصله : وَتْرى فقلبت الواو تاء ، وهو منصوب على الحال من رسلنا .أى : ثم أرسلنا بعد ذلك رسلنا متواترين متتابعين واحداً بعد الآخر ، مع فترة ومهلة من الزمان بينهما .قال القرطبى : ومعنى " تترى " : تتواتر ، ويتبع بعضهم بعضاً ترغيباً وترهيباً . .قال الأصمعى : واترت كتبى عليه أتبعت بعضها بعضاً إلى أن بين كل واحد منها وبين الآخر مهلة . . . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ( تَتْرًى ) بالتنوين على أنه مصدر أدخل فيه التنوين على فتح الراء ، كقولك : حمدًا وشكرًا . .ثم بين - سبحانه - موقف كل أمة من رسولها فقال : ( كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ . . ) أى : كلما جاء رسول كل أمة إليها ليبلغها رسالة الله - تعالى - وليدعوها . إلى عبادته وحده - سبحانه - كذب أهله هذه الأمة هذا الرسول المرسل إليهم وأعرضوا عنه وآذوه . . .قال ابن كثير : " وقوله : ( كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ) يعنى جمهورهم وأكثرهم ، كقوله - تعالى - ياحسرة عَلَى العباد مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ) وأضاف - سبحانه - الرسول إلى الأمة ، للإشارة إلى أن كل رسول قد جاء إلى الأمة المرسل إليها . وفى التعبير بقوله : ( كُلَّ مَا جَآءَ . . . ) إشعار بأنهم قابلوه بالتكذيب . بمجرد مجيئه إليهم ، أى : إنهم بادروه بذلك بدون تريث أو تفكر .فماذا كانت عاقبتهم؟ كانت عاقبتهم كما بينها - سبحانه - فى قوله : (فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضاً وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْداً لِّقَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ ) .أى : فأتبعنا بعضهم بعضاً فى الهلاك والتدمير ، وجعلناهم بسبب تكذيبهم لرسلهم أحاديث يتحدث الناس بها على سبيل التعجيب والتلهى ، ولم يبق بين الناس إلا أخبارهم السيئة .وذكرهم القبيح ( فَبُعْداً ) وهلاكاً لقوم لا يؤمنون بالحق ولا يستجيبون للهدى .قال صاحب الكشاف : " وقوله ( وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ) أى : أخباراً يسمر بها ، ويتعجب منها . والأحاديث تكون اسم جمع للحديث ، ومنه أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وتكون جمعاً للأحدوثة : التى هى مثل الأضحوكة والألعوبة والأعجوبة .وهى : ما يتحدث به الناس تلهياً وتعجباً ، وهو المراد هنا " .

ثم ارسلنا موسى واخاه هارون باياتنا وسلطان مبين

- كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك جانباً من قصة موسى وهارون عليهما السلام - فقال : ( ثُمَّ أَرْسَلْنَا موسى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ إلى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فاستكبروا وَكَانُواْ قَوْماً عَالِينَ ) .أى : ثم أرسلنا من بعد أولئك الأقوام المهلكين الذين جعلناهم أحاديث ( موسى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا ) ، الدالة على قدرتنا ، وهى الآيات التسع وهى : العصا ، واليد ، والسنون والبحر ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم .وزودناه مع هذه الآيات العظيمة بسلطان مبين ، أى : بحجة قوية واضحة ، تحمل كل عاقل على الإيمان به ، وعلى الاستجابة له .

الى فرعون وملئه فاستكبروا وكانوا قوما عالين

كما فسرها الوسيط وكان هذا الإرسال منا لموسى وهارون إلى فرعون وملئه ، أى

وجهاء قومه وزعمائهم الذين يتبعهم غيرهم .( فاستكبروا ) جميعاً عن :
الاستماع إلى دعوة موسى وهارون - عليهما السلام - ، ( وَكَانُواْ قَوْماً
عَالِينَ ) أى؛ مغرورين متكبرين ، مسرفين فى البغى والعدوان .

فقالوا انؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - مظاهر هذا الغرور والتكبر من فرعون
وملئه فقال : ( فقالوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا ) وهما موسى
وهارون ( وَقَوْمُهُمَا ) أى : بنو إسرائيل الذين منهم موسى وهارون ( لَنَا
عَابِدُونَ ) أى : مسخرون خاضعون منقادون لنا كما ينقاد الخادم لمخدومه
- فأنت ترى أن فرعون وملأه ، قد أعرضوا عن دعوة موسى وهارون ، لأنهما.
أولاً - بشر مثلهم ، والبشرية - فى زعمهم الفاسد - تتنافى مع الرسالة
والنبوة ، ولأنهما - ثانياً - من قوم بمنزلة الخدم لفرعون وحاشيه ، ولا
يليق - فى طبعهم المغرور - أن يتبع فرعون وحاشيته من كان من هؤلاء القوم
المستضعفين .قال الآلوسى : " وقوله : ( فقالوا ) عطف على ( استكبروا ) وما
بينهما اعتراض مقرر للاستكبار ، والمراد : فقالوا فيما بينهم . . . وثنى
البشر لأنه يطلق على الواحد كقوله - تعالى - ( بَشَراً سَوِيّاً ) وعلى
الجمع ، كما فى قوله : - تعالى - ( فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ البشر أَحَداً
ولم يئن ( مِثْل ) نظرا إلى كونه فى حكم المصدر ، ولو أفرد البشر ( . . .
لصح ، لأنه اسم جنس يطلق على الواحد وغيره ، وكذا لو ثنى المثل ، فإنه جاء
مثنى فى قوله : ( يَرَوْنَهُمْ مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ العين ) ومجموعاً كما
فى قوله : ( . . . ثُمّ لاَ يكونوا أَمْثَالَكُم ) وهذه أحوالهم ، بناء
على جهلهم بتفاصيل شئون الحقيقة البشرية ، وتباين طبقات أفرادها فى مراقى
الكمال . . . ومن عجب أنهم لم يرضوا للنبوة ببشر ، وقد رضى أكثرهم للإلهية
بحجر . . . " .

فكذبوهما فكانوا من المهلكين

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة فرعون وملئه فقال
فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ المهلكين ) .أى : فكذب فرعون وأتباعه موسى
وهارون - عليهما السلام - فيما جاءوا به من عند ربهما - عز وجل - فكانت
نتيجة هذا التكذيب أن أغرقنا فرعون ومن معه جميعاً .

ولقد اتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما أعطاه لموسى بعد هلاك فرعون وقومه
فقال : ( وَلَقَدْ آتَيْنَا موسى الكتاب لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ )
والضمير فى قوله - تعالى - ( لَعَلَّهُمْ ) يعود إلى قوم موسى من بنى.
إسرائيل . لأنه من المعروف أن التوراة أنزلت على موسى بعد هلاك فرعون وملئه
أى : ولقد آتينا موسى - بفضلنا وكرمنا - الكتاب المشتمل على الهداية. . .
والإرشاد ، وهو التوراة ، ( لَعَلَّهُمْ ) أى : بنى إسرائيل ( يَهْتَدُونَ
. إلى الصراط المستقيم ، بسبب اتباعهم لتعاليمه ، وتمسكهم بأحكامه (
فالترجى فى قوله ( لَعَلَّهُمْ ) إنما هو بالنسبة لهم .وقريب من هذه الآية
قوله - تعالى - : ( وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكتاب مِن بَعْدِ مَآ
أَهْلَكْنَا القرون الأولى بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً
لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ).

وجعلنا ابن مريم وامه اية واويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - ما يدل على كمال قدرته ، حيث أوجد عيسى
) - من غير أب وجعل أمه مريم تلده من غير أن يمسها بشر . فقال - تعالى
وَجَعَلْنَا ابن مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً . . . ) .أى : وجعلنا نبينا
عيسى - عليه السلام - ، كما جعلنا أمه مريم ، آية واضحة وحجة عظيمة ، فى
) : الدلالة على قدرتنا النافذة التى لا يعجزها شىء .قال أبو حيان : " قوله
وَجَعَلْنَا ابن مَرْيَمَ وَأُمّهُ آيَةً ) أى : جعلنا قصتهما ، وهى آية
عظمى بمجموعها ، وهى آيات مع التفصيل ، ويحتمل أن يكون حذف من الأول " آية
- لدلالة الثانى ، أى : وجعلنا ابن مريم آية ، وأمة آية " .وقوله - تعالى "
بيان لجانب مما ( وَآوَيْنَاهُمَآ إلى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ )
. أنعم به سبحانه - على عيسى وأمه .والربوة : المكان المرتفع من الأرض
واصلها من قولهم : ربا الشىء يربو ، إذا ازداد وارتفع ، ومنه الربا لأنه
زيادة أخذت على أصل المال .ومعين؛ اسم مفعول من عانه إذا أدركه وأبصره
بعينه ، فالميم زائدة ، وأصله معيون كمبيوع ثم دخله الإعلال . والكلام على
حذف مضاف . أى : وماء معين .أى : ومن مظاهر رعايتنا وإحساننا إلى عيسى وأمه
أننا آويناهما وأسكناهما ، وأنزلناهما فى جهة مرتفعة من الأرض ، وهذه الجهة

ذات قرار ، أى : ذات استقرار لاستوائها وصلاحيتها للسكن لما فيها من الزروع والثمار ، وهى فى الوقت ذاته ينساب الماء الظاهر للعيون فى ربوعها . قالوا : والمراد بهذه الربوة : بيت المقدس بفلسطين ، أو دمشق ، أو مصر . والمقصود من الآية الكريمة : الإشارة إلى إيواء الله - تعالى - لهما ، فى مكان طيب ، ينضر فيه الزرع ، وتطيب فيه الثمار ، ويسيل فيه الماء ويجدان خلال عيشهما به الأمان والراحة .

يا ايها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا اني بما تعملون عليم

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - الحديث عن هؤلاء الأنبياء ، بتوجيه خطاب إلى الرسل جميعاً ، أمرهم فيه بالأكل من الطيبات ، وبالتزود من العمل الصالح ، فقال - تعالى - : ( ياأيها الرسل كُلُواْ مِنَ الطيبات واعملوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ) . ووجه - سبحانه - الخطاب إلى الرسل جميعاً ، مع أن الموجود منهم عند نزول الآية واحد فقط ، وهو الرسول صلى الله عليه وسلم للدلالة على أن كل رسول أمر فى زمنه بالأكل من الطيبات التى أحلها - تعالى - وبالعمل الصالح . وفى اية غشارة إلى أن المداومة على الأكل من الطيبات التى أحلها الله ، والتى لا شبهة فيها ، له أثره فى مواظبة الإنسان على العمل الصالح . قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : يأمر الله - تعالى - عباده المرسلين بالأكل من الحلال ، والقيام بالصالح من الأعمال ، فدل هذاعلى أن الحلال عون على العمل الصاحل ، فقام الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - بهذا أتم قيام ، وجمعوا بين كل خير قولاً وعملاً . ودلالة ونصحاً . ثم ساق - رحمه الله - عدداً من الأحاديث فى هذا المعنى منها : أن أم عبد الله - بنت شداد بن أوس - " بعثت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدح لبن عند فطره وهو صائم ، وذلك مع طول النهار وشدة الحر . فرد إليها رسولها : أنّى كانت لك الشاة؟ - أى : على أية حال تملكينها - فقالت : اشتريتها من مالى ، فشرب منه ، فلما كان من الغد أتته أم عبد الله فقالت له : يا رسول الله . بعثتث إليك بلبن مرثية لك من طول النهار وشدة الحر ، فرددت إلىّ الرسول فيه؟ فقال لها : " بذلك أمرت الرسل أن لا تأكل إلا طيبًا ولا تعمل إلا صالحاً " " . ومنها : ما ثبت فى صحيح مسلم ، عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يا أيها الناس ، إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : ( ياأيها الرسل كُلُواْ مِنَ الطيبات واعملوا صَالِحاً ) وقال : ( ياأيها الذين آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ) ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ، ومطعمه من حرام ، ومشربه من حرام ، وملبسه من حرام ، وغذى بالحرام . يمد يديه إلى السماء : يارب يا رب فأنى يستحاب لذلك " . وقوله - سبحانه - : ( إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ) تحذير من مخالفة ما أمر به - تعالى . أى : إنى بما تعملون - أيها الرسل وأيها الناس - عليم فأجازيكم على هذا العمل بما تستحقون .

وان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاتقون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( وَإِنَّ هذه أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً . . . ) جملة مستأنفة . والمراد بالأمة هنا : الشّريعة والدين الذى - أنزله الله - تعالى - على أنبيائه ورسله ، أى : وإن شريعتكم - أيها الرسل جميعاً هى شريعة واحدة لا تختلف فى أصولها التى تتعلق بالعقائد والعبادات والمعاملات ، وإن اختلفت فى الأحكام الفرعية . وقرأ بعض القراء السبعة ) : وَأنّ هذه أمّتُكُمْ . . . ) بفتح الهمزة ، على أن الآية من جملة ما خوطب به الرسل . والتقدير : واعلموا - أيها الرسل - أن ملتكم وشريعتكم ، ملة واحدة ، وشريعة واحدة فى عقائدها وأصول أحكامها . ( وَأَنَا رَبُّكُمْ ) لا شريك لى فى الربوبية ( فاتقون ) أى : فخافوا عقابى ، واحذروا مخالفة أمرى ، وصونوا أنفسكم من كل ما نهيتكم عنه .

فتقطعوا امرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك حال المصرين على كفرهم وضلالهم من دعوة الرسل عليهم - الصلاة والسلام - فقال : ( فتقطعوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ . . . ) . الفاء فى قوله - تعالى - : ( فتقطعوا ) لترتيب حالهم ، وما هم عليه من تفرق وتنازع واختلاف ، على ما سبق من أمرهم بالتقوى واتباع ما جاءهم به الرسل . وضمير الجمع يعود إلى الأقوام السابقين الذين خالفوا رسلهم ، وتفرقوا شيعاً وأحزاباً . وقوله ( زُبُراً ) حال من هذا الضمير . ومفرده زُبْرَة - كغرفة - بمعنى : قطعة . والمراد به هنا : طائفة من الناس . والمراد بأمرهم : أمر دينهم الذى هو واحد فى الأصل . أى : أن هؤلاء الأقوام الذين جاء الرسل لهدايتهم ، لم يتبعوا دين رسلهم بل تفرقوا

فى شأنه شيعاً وأحزاباً ، فمنهم أهل الكتاب الذين قال بعضهم : عزير ابن الله ، وقال بعضهم : المسيح ابن الله ، ومنهم المشركون الذين عبدوا من دون الله - تعالى - أصناماً لا تضر ولا تنفع ، وصار كل حزب من هؤلاء المعرضين عن الحق ، مسروراً بما هو عليه من باطل ، وفرحاً بما هو فيه من ضلال والآية القرآنية بأسلوبها البديع ، تسوق هذا التنازع من هؤلاء الجاهلين فى شأن الدين الواحد ، فى صورة حسية ، يرى المتدبر من خلالها ، أنهم تجاذبوه فيما بينهم ، حتى قطعوه فى أيديهم قطعاً ، ثم مضى كل فريق منهم بقطعته وهو فرح مسرور ، مع أنه - لو كان يعقل - لما انحدر إلى هذا الفعل القبيح ، ولما فرح بعمل شىء من شأنه أن يحزن له كل عاقل .

فذرهم في غمرتهم حتى حين

كما فسرها الوسيط والخطاب فى قوله - تعالى - : ( فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حتى حِينٍ ) للرسول صلى الله عليه وسلم والضمير المنصوب " هم " للمشركين .والغمرة فى الأصل : الماء الذى يغمر القامة ويسترها ، إذ المادة تدل على التغطية والستر .يقال : غمر الماء الأرض إذا غطاها وسترها . ويقال : هذا رجل غُمْر - بضم الغين وإسكان الميم - إذا غطاه الجهل وجعله لا تجربة له بالأمور . ويقال : هذا رجل غِمْر - بكسر الغين - إذا غطى الحقد قلبه والمراد بالغمرة هنا : الجهالة والضلالة ، والمعنى : لقد أديت - أيها الرسول - الرسالة ، ونصحت لقومك . وبلغتهم ما أمرك الله - تعالى - بتبليغه وعليك الآن أن تترك هؤلاء الجاحدين المعاندين فى جهالاتهم وغفلتهم ، وحيرتهم ( حتى حِينٍ ) أى : حتى يأتى الوقت الذى حددناه للفصل فى أمرهم بما تقتضيه حكمتنا .وجاء لفظ " حين " بالتنكير ، لتهويل الأمر وتفظيعه .

ايحسبون انما نمدهم به من مال وبنين

كما فسرها الوسيط ثم تأخذ السورة الكريمة بعد ذلك فى السخرية منهم لغفلتهم عن هذا المصير المحتوم ، الذى سيفاجئهم بما لا يتوقعون . فيقول : ( أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الخيرات بَل لاَّ يَشْعُرُونَ ) .والهمزة فى قوله " أَيَحْسَبُونَ ) للاستفهام الإنكارى . و " ما " موصولة ، وهى اسم " أن وخبرها جملة " نسارع لهم .. . " والرابط مقدر أى : به .أى : أيزن هؤلاء الجاهلون . أن ما نعطيهم إياه من مال وبنين ، هو من باب المسارعة منا فى إمدادهم بالخيرات لرضانا عنهم وإكرامنا لهم؟ كلا : ما فعلنا معهم ذلك لتكريمهم ، وإنما فعلنا ذلك معهم لاستدراجهم وامتحانهم ، ولكنهم لا يشعرون بذلك . ولا يحسون به لانطماس بصائرهم ولاستيلاء الجهل والغرور على نفوسهم فقوله - سبحانه - ( بَل لاَّ يَشْعُرُونَ ) إضراب انتقالى عن الحسبان المذكور وهو معطوف على مقدر ينسحب إليه الكلام .أى : ما فعلنا ذلك معهم لإكرامنا إياهم كما يظنون ، بل فعلنا ما فعلنا استدارجا لهم ، ولكنهم لا يشعرون لهم ولا إحساس ، وما هم إلا كالأنعام بل هم أضل .لذا قال بعض الصالحين : من يعص الله - تعالى - ولم ير نقصاناً فيما أعطاه - سبحانه - من الدنيا . فليعلم أنه مستدرج قد مكر به .وشبيه بهاتين الآيتين قوله - تعالى - : ( فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهذا الحديث سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنّ كَيْدِي مَتِينٌ ).

نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html}

ثم تأخذ السورة الكريمة بعد ذلك فى السخرية منهم لغفلتهم عن هذا المصير المحتوم ، الذى سيفاجئهم بما لا يتوقعون . فيقول : ( أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الخيرات بَل لاَّ يَشْعُرُونَ ) .والهمزة فى قوله ( أَيَحْسَبُونَ ) " للاستفهام الإنكارى . و " ما " موصولة ، وهى اسم " أن " وخبرها جملة نسارع لهم .. . " والرابط مقدر أى : به .أى : أيزن هؤلاء الجاهلون . أن ما نعطيهم إياه من مال وبنين ، هو من باب المسارعة منا فى إمدادهم بالخيرات لرضانا عنهم وإكرامنا لهم؟ كلا : ما فعلنا معهم ذلك لتكريمهم ، وإنما فعلنا ذلك معهم لاستدراجهم وامتحانهم ، ولكنهم لا يشعرون بذلك . ولا يحسون به لانطماس بصائرهم ولاستيلاء الجهل والغرور على نفوسهم .فقوله - سبحانه - ( بَل لاَّ يَشْعُرُونَ ) إضراب انتقالى عن الحسبان المذكور وهو معطوف على مقدر ينسحب إليه الكلام .أى : ما فعلنا ذلك معهم لإكرامنا إياهم كما يظنون بل فعلنا ما فعلنا استدارجا لهم ، ولكنهم لا يشعرون لهم ولا إحساس ، وما هم إلا كالأنعام بل هم أضل .لذا قال بعض الصالحين : من يعص الله - تعالى - ولم ير نقصاناً فيما أعطاه - سبحانه - من الدنيا . فليعلم أنه مستدرج قد

مكر به .وشبيه بهاتين الآيتين قوله - تعالى - : ( فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بهذا الحديث سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ).

ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون

كما فسرها الوسيط وبعد أن صورت السورة الكريمة حالة أصحاب القلوب التى غمرها الجهل والعمى ، أتبعت ذلك بإعطاء صورة وضيئة مشرقة لأصحاب القلوب الوجلة المؤمنة ، المسارعة فى الخيرات فقال - تعالى - : ( إِنَّ الذين هُم قوله - سبحانه - ( إِنَّ الذين هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ. ( . . . مُّشْفِقُونَ ) بيان للصفة الأولى من صفات هؤلاء المؤمنين الصادقين والإشفاق : هو الخوف من الله - تعالى - والخشية منه - سبحانه - مع شدة. - الرقة فى القلب وكثرة الخوف من عقابه .أى : أنهم من خشية عقابه - عز وجل حذرون خائفون ، وهذا شأن المؤمنين الصادقين ، كما قال الحسن البصرى : إن المؤمن جمع إحساناً وشفقة ، وإن المنافق جمع إساءة وأمنا .

والذين هم بايات ربهم يؤمنون

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( والذين هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ) بيان للصفة الثانية أى : أنهم يؤمنون إيماناً راسخاً بجميع آيات الله - سبحانه - الدالة على وحدانيته وقدرته ، سواء أكانت تلك الآيات تنزيلية أم كونية .

والذين هم بربهم لا يشركون

كما فسرها الوسيط وقوله - عز وجل - : ( والذين هُم بِرَبِّهِمْ لاَ يُشْرِكُونَ ) صفة ثالثة لهم . أى : أنهم يخلصون العبادة لله - تعالى - وحده ، ويقصدون بأقوالهم وأعمالهم وجهه الكريم ، فهم بعيدون عن الرياء والمباهاة بطاعاتهم .

والذين يؤتون ما اتوا وقلوبهم وجلة انهم الى ربهم راجعون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - صفتهم الرابعة فقال : ( والذين يُؤْتُونَ مَآ آتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ) .قرأ القراء السبعة ( يُؤْتُونَ مَآ آتَواْ ) بالمد ، على أنه من الإتيان بمعنى الإعطاء ، والوجل : استشعار الخوف . يقال : وَجِل فلان وَجَلاً فهو واجل ، إذا خاف ، أى : يعطون ما يعطون من الصدقات وغيرها من ألوان البر ، ومع ذلك فإن قلوبهم خائفة أن لا يقبل منهم هذا العطاء ، لأى سبب من الأسباب فهم كما قال بعض الصالحين : لقد أدركنا أقواماً كانوا من حسناتهم أن ترد عليهم ، أشفق منكم على سيئاتكم أن تعذبوا عليها .قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : أى : يعطون العطاء وهم خائفون أن لا يتقبل منهم ، لخوفهم أن يكونوا قد قصروا فى القيام بشروط الإعطاء ، وهذا من باب الإشفاق والاحتياط .كما روى الإمام أحمد عن عائشة أنها قالت : " يا رسول الله ( والذين يُؤْتُونَ مَآ آتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ) هو الذى يسرق ويزنى ويشرب الخمر ، وهو يخاف الله - عز وجل -؟قال : "لا يا بنت الصديق ، ولكنه الذى يصلى ويصوم ويتصدق وهو يخاف الله - تعالى - " .ثم قال - رحمه الله - وقد قرأ آخرون : ( والذين يُؤْتُونَ مَآ آتَواْ . . ) من الإتيان . أى : يفعلون ما فعلوا وهم خائفون . . .

اولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون

كما فسرها الوسيط والمعنى على القراءة الأولى - وهى قراءة الجمهور : السبعة وغيرهم - أظهر لأنه قال - بعد ذلك - : ( أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الخيرات وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ) فجعلهم من السابقين ، ولو كان المعنى على القراءة الأخرى ، لأوشك أن لا يكونوا من السابقين ، بل من المقتصدين أو المقتصرين .وجملة ( وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ) حال من الفاعل فى قوله - تعالى - ( يُؤْتُونَ ) .وجملة ( أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ) تعليلية بتقدير اللام ، وهى متعلقة بقوله : ( وَجِلَةٌ ) .أى : وقلوبهم خائفة من عدم القبول لأنهم إلى ربهم راجعون ، فيحاسبهم على بواعث أقوالهم وأعمالهم ، وهم - لقوة إيمانهم - يخشون التقصير فى أى جانب من جوانب طاعتهم له - عز وجل - .وقد جاءت هذه الصفات الكريمة - كما يقول الإمام الرازى - فى نهاية الحسن ، لأن الصفة الأولى دلت على حصول الخوف الشديد الموجب للاحتراز عما لا ينبغى ، والثانية : دلت على قوة إيمانهم بآيات ربهم ، والثالثة دلت على شدة إخلاصهم ، والرابعة : دلت على أن المستجمع لتلك الصفات يأتى

، بالطاعات مع الوجل والخوف من التقصير ، وذلك هو نهاية مقامات الصديقين
) : - رزقنا الله - سبحانه - الوصول إليها .واسم الإشارة فى قوله - تعالى
أولئك يُسَارِعُونَ فِي الخيرات ) يعود إلى هؤلاء المؤمنين الموصوفين بتلك
الصفات الجليلة .وهذه الجملة خبر عن قوله - تعالى - : ( إِنَّ الذين هُم
مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ ) وما عطف عليه ، فاسم " إن " : أربع
موصولات ، وخبرها جملة ( أولئك يُسَارِعُونَ فِي الخيرات . . ) .أى : أولئك
الموصوفون بتلك الصفات ، يبادرون برغبة وسرعة إلى فعل الخيرات ، وإلى
الوصول إلى ما يرضى الله - تعالى - ( وَهُمْ لَهَا ) أى : لهذه الخيرات وما
يترتب عليها من فوز وفلاح ( سَابِقُونَ ) لغيرهم .

ولا نكلف نفسا الا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات الكريمة المشتملة على صفات
المؤمنين الصادقين ، ببيان أن هذه الصفات الجليلة لم تكلف أصحابها فوق
طاقتهم ، لأن الإيمان الحق إذا خالطت بشاشته القلوب يجعلها لا تحس بالمشقة
عند فعل الطاعات ، وإنما يجعلها تحس بالرضا والسعادة والإقدام على فعل
الخير بدون تردد ، فقال - تعالى - ( وَلاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ
وُسْعَهَا . . . ) .أى : وقد جرت سنتنا فيما شرعناه لعبادنا من تشريعات
، - أننا لا نكلف نفساً من النفوس إلا فى حدود طاقتها وقدرتها . كما قال
تعالى - : ( لاَ يُكَلِّفُ الله نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا ) والمراد
بالكتاب فى قوله - تعالى - : ( وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بالحق . . )
: - كتبا الأعمال الذى يحصيها الله - تعالى - فيه ويشهد لذلك قوله - سبحانه
هذا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بالحق إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا )
كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ) وقوله - تعالى - ( وَوُضِعَ الكتاب فَتَرَى المجرمين
مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ . . . ) والمراد بنطق الكتاب بالحق : أن كل ما
فيه حق وصدق . أى : ولدينا صحائف أعمالكم ، التى سجلها عليكم الكرام
، الكاتبون ، وفيها جميع أقوالكم وأفعالكم فى الدنيا ، بدون زيادة أو نقصان
بل هى مشتملة على كل حق وصدق فقد اقتضت حكمتنا وعدالتنا أننا لا نظلم أحداً
وإنما نعطى كل إنسان ما يستحقه من خير ، ونعفو عن كثير من الهفوات .وبذلك
نرى الآيات الكريمة ، قد مدحت المؤمنين الصادقين ، ووصفتهم بما هم أهله من
صفات كريمة .

بل قلوبهم في غمرة من هذا ولهم اعمال من دون ذلك هم لها عاملون

، كما فسرها الوسيط ثم تعود السورة مرة أخرى إلى الحديث عن أحوال الكافرين
فتوبخهم على استمرارهم فى غفلتهم ، وتصور جزعهم وجؤارهم عند ما ينزل بهم
- العذاب فتقول : ( بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي . . . ) .قال الجمل : قوله
تعالى - : ( بَلْ قُلُوبُهُمْ . . . ) هذا رجوع لأحوال الكفار المحكية فيما
سبق بقوله : ( أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِن مَّالٍ
وَبَنِينَ ) والجمل التى بينهما وهى قوله : ( إِنَّ الذين هُم مِّنْ
خَشْيَةِ رَبِّهِمْ ) إلى قوله ( وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ) اعتراض فى خلال
الكلام المتعلق بالكفار .أى : هذه هى أوصاف المؤمنين الصادقين ، أما
الكافرون فقلوبهم فى ( غَمْرَةٍ مِّنْ هذا ) أى : فى جهالة وغفلة مما عليه
هؤلاء المؤمنون من صفات حميدة ، ومن إيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله
واليوم الآخر .وهؤلاء الكافرون ( وَلَهُمْ أَعْمَالٌ ) سيئة كثيرة ( مِّن
دُونِ ذلك ) أى من غير ما ذكرناه عنهم من كون قلوبهم فى غمرة وجهالة عن
الحق ( هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ) أى : هم مستمرون عليها ، ومعتادون لفعلها
مندفعون فى ارتكابها بدون وعى أو تدبر .

حتى اذا اخذنا مترفيهم بالعذاب اذا هم يجارون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - عندما ينزل بهم العذاب فقال : ( حتى
إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بالعذاب إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ) .وحتى هنا
ابتدائية ، أى : حرف تبتدئ بعده الجمل ، وجملة ( إِذَآ أَخَذْنَا ) شرطية :
وجوابها ( إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ) .والجؤار : الصراخ مطلقاً ، أو .
باستغاثة . يقال : جأر الثور يجأر إذا صاح .وجأر الداعى إلى الله ، إذا ضج
ورفع صوته بالتضرع إلى الله عز وجل .أى : حتى إذا عاقبنا هؤلاء المترفين
الذين أبطرتهم النعمة . بالعذاب الذى يردعهم ويخزيهم ويذلهم ، إذا هم
يجأرون إلينا بالصراخ وبالاستغاثة .وعبر عن عقابهم ، بالأخذ ، للإشعار
بسرعة هذا العقاب وشدته ، كما فى قوله - تعالى - ( . . . أَخَذْنَاهُمْ
بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُّبْلِسُونَ ) وخص المترفين بالذكر ، للإشارة إلى
أن ما كانوا فيه من التنعم والتمتع والتطاول فى الدنيا ، لن ينفعهم شيئاً
عند نزول هذا العذاب بهم .

لا تجاروا اليوم انكم منا لا تنصرون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( لاَ تَجْأَرُواْ اليوم إِنّكُمْ مِّنّا لاَ تُنصَرُونَ ) تأنيب وزجر لهم على جؤارهم وصراخهم . والمراد باليوم . الوقت الذى فيه نزل العذاب بهم .أى : عندما أخذناهم بالعذاب المباغت المفاجىء ، وضجوا بالاستغاثة والجؤار ، قلنا لهم على سبيل التقريع والزجر :لا تجأروا ولا تصرخوا فى هذا الوقت الذى أصابكم ما أصابكم فيه من عذاب . فإنكم لن تجدوا من ينجيكم من عذابنا ، أو من يدفع عنكم هذا العذاب . .

قد كانت اياتي تتلى عليكم فكنتم على اعقابكم تنكصون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - الأسباب التى أفضت بهم إلى هذا العذاب المهين ، فقال - تعالى - : ( قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تتلى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ على أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُون . . ) .والأعقاب : جمع عقب ، وهو مؤخر القدم ( تَنكِصُون ) من النكوص ، وهو الرجوع إلى الخلف . يقال : فلان نكص على عقبيه ، إذا رجع إلى الوراء ، وهو هنا كناية عن الإعراض عن الآيات أى : لا تجأروا ولا تصرخوا ، فإن ذلك لن يفيدكم شيئاً ، بسبب إصراركم على. كفركم فى حياتكم الدنيا ، فقد كانت آياتى الدالة على وحدانيتى تتلى على مسامعكم من نبينا صلى الله عليه وسلم ومن المؤمنين به ، فكنتم تعرضون عن سماعها أشد الإعراض ، وكنتم تستهزئون بها ، وتكادون تسطون بالذين يتلونها عليكم .

مستكبرين به سامرا تهجرون

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - ( مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِراً تَهْجُرُونَ ) مقرر لمضمون ما قبله ، من إعراضهم عن آيات الله . ونكوصهم على أعقابهم عند سماعها .والضمير فى ( بِهِ ) يرى جمهور المفسرين أنه يعود إلى البيت الحرام ، والباء للسببية .وقوله : " سامرا " اسم جمع كحاج وحاضر وراكب ، مأخوذ من السمر وأصله ظل القمر وسمى بذلك لسمرته ، ثم أطلق على الحديث بالليل . يقال : سمر فلان يسمر - ككرم يكرم - إذا تحدث ليلاً مع غيره بقصد المسامرة والتسلية .وقوله : ( تَهْجُرُونَ ) قرأه الجمهور - بفتح التاء وضم الجيم - مأخوذ من الهجر - بإسكان الجيم - بمعنى الصد والقطيعة ، أو من الهجر - بفتح الجيم - بمعنى الهذيان والنطق بالكلام الساقط ، بسبب المرض أو الجنون .وقرأ نافع ( تُهْجِرُونَ ) بضم التاء وكسر الجيم - مأخوذ من هجر هجاراً إذا نطق بالكلام القبيح .والمعنى : قد كانت آياتى تتلى عليكم - أيها المستغيثون من العذاب - فكنتم تعرضون عنها ، ولم تكتفوا بهذا الإعراض ، بل كنتم متكبرين على المسلمين بالبيت الحرام ، وكنتم تتسامرون بالليل حوله ، فتستهزئون بالقرآن ، وبالرسول صلى الله عليه وسلم وبتعاليم الإسلام وتنطقون خلال سمركم بالقول الباطل ، الذى يدل على مرض قلوبكم ، وفساد عقولكم ، وسوء أدبكم .وقوله : ( مُسْتَكْبِرِينَ ) و ( سَامِراً ) و ( تَهْجُرُونَ ) أحوال ثلاثة مترادفة على واو الفاعل فى ( تَنكِصُونَ ) أو ( متداخلة ، بمعنى أن كل كلمة منها حال مما قبلها .قال القرطبى ) : مُسْتَكْبِرِينَ ) حال ، والضمير فى ( بِهِ ) قال الجمهور : هو عائد على الحرم ، أو المسجد ، أو البلد الذى هو مكة . وإن لم يتقدم له ذكر لشهرته فى الأمر .أى : يقولون نحن أهل الحرم فلا نخاف . وقيل : المعنى أنهم يعتقدون فى نفوسهم أن لهم بالمسجد والحرم أعظم الحقوق على الناس والمنازل فيستكبرون لذلك .وقالت فرقة : الضمير عائد على القرآن ، من حيث ذكرت الآيات .والمعنى يحدث لكم سماع آياتى كبرا وطغياناً فلا تؤمنوا بى . . . " .والمتأمل فى : هذه الآيات الكريمة ، يراها تصور حسرة المشركين وجؤارهم يوم ينزل بهم العذاب تصويراً بديعاً ، كما تين ما كانوا عليه من غرور وسوء أدب ، مما جعلهم أهلاً لهذا المصير الأليم .

افلم يدبروا القول ام جاءهم ما لم يات اباءهم الاولين

كما فسرها الوسيط ثم تنتقل السورة الكريمة من تأنيبهم وتيئيسهم من الاستجابة لجؤارهم ، إلى سؤالهم بأسلوب توبيخى عن الأسباب التى أدت بهم إلى الإعراض عما جاءهم به رسولهم صلى الله عليه وسلم فتقول : ( أَفَلَمْ يَدّبّرُواْ . . . ) .قال الجمل : قوله - تعالى - : ( أَفَلَمْ يَدّبّرُواْ القول . . . ) شروع فى بيان أسباب حاملة لهم على ما سبق من قوله - تعالى - : ( فَكُنتُمْ على أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُون . . . ) إلخ والهمزة لإنكار ما هم فيه من عدم التدبر واستقباحه ، والفاء للعطف على. مقدر يستدعيه المقام : والمراد بالقول : القرآن الكريم وما اشتمل عليه من هدايات .والمعنى : أفعلوا ما فعلوا من النكوص على الأعقاب ، ومن الغرور ومن

الهذيان بالباطل من القول ، فلم يتدبروا هذا القرآن ، ولم يتفكروا فيما اشتمل عليه من توجيهات حكيمة . . . إنهم لو تدبروه لوجدوا فيه من العظات والآداب والأحكام ، والقصص ، والعقائد ، والتشريعات . . . . ما يسعدهم ، ويهديهم إلى الصراط المستقيم . فالجملة الكريمة تحضهم على تدبر هذا القرآن لأنهم إن تدبروه تدبرا صادقا . لعلموا أنه الحق الذى لا يحوم حوله باطل وشبيه بهذه الجملة قوله - تعالى - : ( أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القرآن . وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ الله لَوَجَدُواْ فِيهِ اختلافا كَثِيراً ) وقوله - سبحانه - : ( أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القرآن أَمْ على قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ) وبعد أن وبخهم - سبحانه - على تركهم الانتفاع بالقرآن . أتبع ذلك بتقريعهم على أن ما جاءهم به الرسول صلى الله عليه وسلم يتفق فى أصوله مع ما جاء به الرسل السابقون لآبائهم الأولين . أى : أكذبوا رسولهم لأنه جاءهم بما لم يأت به الرسل لآبائهم؟ كلا ، فإن ما جاءهم به الرسول صلى الله عليه وسلم يطابق - فى جوهره - ما جاء به إبراهيم وإسماعيل وغيرهما من آبائهم الأولين . قال - تعالى - ( شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدين مَا وصى بِهِ نُوحاً والذي أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وموسى وعيسى أَنْ أَقِيمُواْ الدين وَلاَ تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ . . ) وقال - سبحانه - : ( قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنَ الرسل وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ . . . ) ويجوز أن يكون المعنى : أكذب هؤلاء الجاهلون رسولهم صلى الله عليه وسلم لأنهم فى أمان من العذاب ، وهذا الأمان لم يكن فيه آباؤهم الأولون؟ كلا ، وإن من شأن العقلاء أنهم لا يأمنون مكر الله فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون . قال الآلوسى : وأم فى قوله - تعالى - ( أَمْ جَآءَهُمْ مّا لَمْ يَأْتِ آبَآءَهُمُ الأولين ) منقطعة ، وما فيها من معنى بل ، للاضراب والانتقال من التوبيخ بما ذكر إلى التوبيخ بآخر . والهمزة فإنكار الوقوع لا لإنكار الواقع . أى : بل أجاءهم من الكتاب ما لم يأت آباءهم الأولين ، حتى استبعدوه فوقعوا فيما وقعوا فيه من الكفر والضلال ، بمعنى أن مجىء الكتب من جهته - تعالى - إلى الرسل قديمة له - تعالى - وأن مجىء القرآن جار على هذه السنة فلماذا ينكرونه؟ وقيل المعنى : أفلم يدبروا القرآن ليخافوا عند تدبر آياته ، ما نزل بمن قبلهم من - المكذبين ، أم جاءهم من الأمن ما لم يأت آباءهم الأولين ، حين خافوا الله تعالى - فآمنوا به وبكتبه ورسله ، فالمراد بآبائهم : " المؤمنون " منهم . . . . - كإسماعيل - عليه السلام

ام لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون

كما فسرها الوسيط ثم انتقلت السورة إلى توبيخهم - ثالثاً - على كفرهم مع علمهم بصدق الرسول وأمانته ، فقال - تعالى - ( أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ) . أى : أيكون سبب كفرهم أنهم لم يعرفوا رسولهم محمداً صلى الله عليه وسلم ؟ كلا فإن هذا لا يصلح سبباً ، إذ هم يعرفون حسبه ونسبه ، وأمانته ، وصدقه ، وكانوا يلقبونه بالصادق الأمين قبل بعثته ، وأبو سفيان - قبل أن يدخل فى الإسلام - شهد أمام هرقل ملك الروم ، بأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان معروفا بصدقه وأمانته قبل البعثة .

ام يقولون به جنة بل جاءهم بالحق واكثرهم للحق كارهون

كما فسرها الوسيط ثم انتقلت السورة - للمرة الرابعة - إلى توبيخهم على أمر آخر ، فقال - تعالى - : ( أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ . . . ) . أى : أيكون سبب إصرارهم على كفرهم اتهامهم للرسول صلى الله عليه وسلم بالجنون؟ كلا ، فإنهم يعلمون حق العلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم هو أكمل الناس عقلا ، وأرجحهم فكرا ، وأثقبهم رأيا ، وأوفرهم رزانة . وقوله - تعالى - : ( بَلْ جَآءَهُمْ بالحق وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ) إضراب عما يدل عليه ما سبق من اتهامات باطلة دارت على ألسنة المشركين . أى : ليس الأمر كما زعموا من أنه صلى الله عليه وسلم به جنة أو أنه أتاهم بما لم يأت آباءهم الأولين ، بل الأمر الصدق ، أن الرسول صلى الله عليه وسلم جاءهم بالحق الثابت الذى لا يحوم حوله باطل ولكن هؤلاء القوم أكثرهم كارهون للحق ، لأنه يتعارض مع أنانيتهم وشهواتهم ، وأهوائهم . وقال - سبحانه - : ( وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ) لأن قلة من هؤلاء المشركين كانت تعرف أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد جاءهم بالحق ، وتحب أن تدخل فى الإسلام ، ولكن حال بينهم وبين ذلك ، الخوف من تعبير أقوامهم لهم بأنهم فارقوا دين آبائهم وأجدادهم ، كأبى طالب - مثلا - فإنه مع دفاعه عن الرسول صلى الله عليه وسلم بقى على كفره . قال صاحب الكشاف : فإن قلت : قوله ( وَأَكْثَرُهُمْ ) فيه أن أقلهم كانوا لا يكرهون الحق؟ قلت : كان فيهم من يترك الإيمان به أنفة واستنكافا من توبيخ قومه ، وأن يقولوا صبأ وترك دين آبائه ، لا كراهة للحق ، كما يحكى عن أبى طالب . فإن قلت : يزعم بعض الناس

أن أبا طالب صح إسلامه؟ قلت : يا سبحان الله . كأن أبا طالب كان أخمل أعمام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يشتهر إسلام حمزة والعباس - رضى الله عنهما - ويخفى إسلام أبى طالب " .

ولو اتبع الحق اهواءهم لفسدت السماوات والارض ومن فيهن بل اتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما كان سينزل بالعالم من فساد - فيما لو اتبع الحق - على سبيل الفرض - أهواء هؤلاء المشركين ، فقال. تعالى - : ( وَلَوِ اتبع الحق أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ السماوات والأرض وَمَن فِيهِنَّ . . . ) .والمراد بالحق هنا - عند كثير من المفسرين - هو الله - عز وجل - إذ أن هذا اللفظ من أسمائه - تعالى - .والمعنى : ولو أجاب الله - تعالى - هؤلاء المشركين إلى ما يهوونه ويشتهونه من باطل وقبيح . لفسدت السموات والأرض ومن فيهن؛ لأن أهواءهم الفاسدة من شرك . وظلم ، وحقد وعناد . . . ، لا يمكن أن يقوم عليها نظام هذا الكون البديع ، الذى ، أقمناه على الحق والعدل .ويرى بعض المفسرين أن المراد بالحق هنا ما يقابل الباطل ويدل على ذلك قوله - تعالى - : ( بَلْ جَآءَهُمْ بالحق وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ) .فيكون المعنى : ولو اتبع الحق الذى جاءهم به الرسول صلى الله عليه وسلم أهواء المشركين ، لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ، وذلك لأن الرسول صلى الله عليه وسلم جاءهم بالتوحيد وهم يريدون الشرك ، وجاءهم بمكارم الأخلاق ، وهم يريدون ما ألفوه من شهوات ، وجاءهم بالتشريعات العادلة الحكيمة ، وهم يريدون التشريعات التى ترضى غرورهم وأوضاعهم الفاسدة ، والتى منها تفضيل الناس بحسب أحسابهم وغناهم ، لا بحسب إيمانهم وتقواهم . . . ومع وجاهة الرأيين ، إلا أننا نميل إلى الرأى الثانى لأنه أقرب إلى سياق الآيات ، كما يشير إلى ذلك قوله - تعالى - : ( بَلْ ، أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِمْ مُّعْرِضُونَ ) انتقال من توبيخهم على كراهيتهم للحق ، إلى توبيخهم على نفورهم مما فيه عزهم ) : - وفخرهم .والمراد بذكرهم : القرآن الذى هو شرف لهم ، كما قال - تعالى وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ) أى : كيف يكرهون الحق الذى جاءهم به رسولهم صلى الله عليه وسلم مع أنه قد أتاهم بالقرآن الكريم الذى فيه ، شرفهم ومجدهم؟ إن إعراضهم عن هذا القرآن ليدل دلالة قاطعة ، على غبائهم وجهلهم ، لأن العاقل لا يعرض عن شىء يرفع منزلته ، ويكرم ذاته .

ام تسالهم خرجا فخراج ربك خير وهو خير الرازقين

كما فسرها الوسيط ثم انتقلت السورة الكريمة - للمرة الخامسة - إلى توبيخهم على كفرهم ، مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يسألهم أجراً على ما ينقذهم من ظلمات هذا الكفر إلى نور الإيمان . فقال - تعالى - ( أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً . . . ) أى : أجراً وجعلا وجزاء . . .أى : أيكون السبب فى عدم إيمانهم بك - أيها الرسول الكريم - أنك تسألهم أجرا على دعوتك لهم إلى إخلاص العبادة لنا؟لا : ليس الأمر كما يتوهمون ، فإنك لم تسألهم أجراً على دعوتك إياهم إلى الدخول فى الإسلام .والجملة الكريمة معطوفة على قوله - تعالى - قبل ذلك ( أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ . . . ) وما بينهما اعتراض وقوله - سبحانه - : ( فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ - الرازقين ) تعليل لنفى سؤالهم إياهم الأجر على دعوتهم إلى الحق .أى : أنت - أيها الرسول الكريم - ما طالتهم بأجر على دعوتك إياهم إلى الإيمان بالله تعالى - وحده ، لأن ما أعطاك الله - تعالى - من خير وفضل أكبر وأعظم من عطاء هؤلاء الضعفاء الذين لا يستغنون أبداً عن عطائنا . والله - تعالى - هو خير الرازقين ، لأن رزقه دائم ورزق غيره مقطوع ، ولأنه هو المالك لجميع الأرزاق ، وغيره لا يملك معه شيئاً .قال بعض العلماء : المراد بالخرج والخراج هنا : الأجر والجزاء والمعنى : أنك لا تسألهم على ما بلغتهم من الرسالة المتضمنة لخيرى الدنيا والآخرة أجرا وأصل الخرج والخراج : هو ما تخرجه إلى كل عامل فى مقابلة أجرة أو جعل .وقرأ ابن عامر : ( أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرْجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ) - بإسكان الراء فيهما معاً وحذف الألف- .وقرأ حمزة والكسائى : ( أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرَاجاً فَخَرَاجُ ) : رَبِّكَ خَيْرٌ ) بفتح الراء بعدها ألف فيهما معاً - .وقرأ الباقون أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ) بإسكان الراء وحذف الألف فى الأول وفتح الراء وإثبات الألف فى الثانى .والتحقيق : أن معنى اللفظين واحد ، وأنهما لغتان فصيحتان ، وقراءتان سبعيتان ، خلافاً لمن زعم أن بين معناها فرقاً زاعماً أن الخرج ما تبرعت به ، وأن الخراج ما لزمك أداؤه " .

وانك لتدعوهم الى صراط مستقيم

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات الكريمة ، ببيان أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يدعو إلا إلى الحق ، وأن المعرضين عن دعوته عن طريق الحق خارجون ، فقال - تعالى - ( وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ . . ) .أى : وإنك - أيها الرسول الكريم - لتدعو هؤلاء المشركين إلى طريق واضح قويم ، تشهد العقول باستقامته وسلامته من أى عوج .

وان الذين لا يؤمنون بالاخرة عن الصراط لناكبون

كما فسرها الوسيط ( وَإِنَّ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة ) ككفار قريش ومن لف لفهم ( عَنِ الصراط ) المستقيم ( لَنَاكِبُونَ ) أى : لمائلون وخارجون .يقال : نكب فلان عن الطريق ينكب نكوبا - من باب دخل - إذا عدل عنه . ومال إلى غيره .وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة ، قد شهدت للرسول صلى الله عليه وسلم بالبراءة من كل تهمة تفوه بها المشركون ، وقطعت معاذيرهم ، وردت عليهم بما يخرس ألسنتهم ، حيث حكت شبهاتهم بأمانة ثم كرت عليها بالإبطال ، وأثبتت أن الرسول صلى الله عليه وسلم إنما جاءهم ليدعوهم إلى الصراط المستقيم .

ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا في طغيانهم يعمهون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ، أن هؤلاء المشركين ، قد قست قلوبهم ، وفسدت نفوسهم ، وماتت ضمائرهم ، وصاروا لا يؤثر فيهم الابتلاء بالخير أو الشر ، فقال - تعالى - : ( وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا . . أى : ولو رحمنا هؤلاء المشركين الذين تنكبوا الصراط المستقيم وكشفنا . ( ما بهم من ضر .أى : من سوء حال بسبب ما نزل بهم من قحط وجدب وفقر ). لَّلَجُّواْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ) أى : لتمادوا فى طغيانهم ، وتجاوزوا الحدود فى كفرهم وضلالهم ، وفى تحيرهم وترددهم بدون تمييز بين الحق والباطل .والتعبير بقوله - تعالى - ( لَّلَجُّواْ ) يشعر بأنهم لقسوة ، قلوبهم ، صاروا لا تؤثر فيهم المصائب بل يزدادون بسببها طغياناً وكفراً إذ الفعل " لجوا " مأخوذ من اللجاج . هو التمادى والعناد فى ارتكاب المنهى عن ارتكابه .يقال : لج فلان فى الأمر يلج لججا ولجاجة . إذا لازمه وواظب عليه . ومنه " اللُّجة " - بفتح اللام - لكثرة الأصوات . ولُجة البحر - بضم اللام - لتردد أمواجه . . .وقوله : ( يَعْمَهُونَ ) من العمه ، بمعنى : التردد والتحير ، وهو للقلوب بمنزلة العمى للعيون .وهو مأخوذ من قولهم أرض عمهاء ، إذا لم يكن فيها علامات ترشد إلى الخروج منها .

ولقد اخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بالعذاب فَمَا استكانوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ) مؤكد لما قبله من وصف هؤلاء المشركين بالجحود والعناد .والمراد بالعذاب هنا : العذاب الدنيوى كالجوع والقحط والمصائب .والاستكانة : الانتقال من كون إلى كون ومن حال إلى حال . ثم غلب استعمال هذه الكلمة فى الانتقال من حال التكبر والغرور إلى ، حال التذلل والخضوع .أى : ولقد أخذنا هؤلاء الطغاة ، بالعذاب الشديد كالفقر ، والمصائب والأمراض فما خضعوا لربهم - عز وجل - وما انقادوا له وأطاعوه ، وما تضرعوا إليه - سبحانه - بالدعاء الخالص لوجهه الكريم ، لكى يكشف عنهم - عز وجل - ما نزل بهم من ضر .

حتى اذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد اذا هم فيه مبلسون

كما فسرها الوسيط وفظ " حتى " فى قوله - تعالى - ( حتى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ . . . ) يقصد به ابتداء الكلام ، وإذا الأولى شرطية ، والثانية وهى قوله ( إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ) رابطة للجواب .أى : هم مستمرون على جحودهم وعنادهم ، حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد من أبواب عذاب الآخرة المعد لهم إذا هم فيه مبلسون ، أى ، ساكتون من شدة الحيرة وآيسون من كل نجاء . يقال : أبلس فلان إبلاساً : إذا سكت فى حيرة ويأس من الخلاص مما هو فيه من عذاب وبلاء .وقريب من هذه الآيات فى المعنى قوله - تعالى - : ( إِنَّ شَرَّ الدواب عِندَ الله الصم البكم الذين لاَ يَعْقِلُونَ وَلَوْ عَلِمَ الله فِيهِمْ خَيْراً لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُمْ مُّعْرِضُونَ ) وقوله - عز وجل - : ( بَلْ بَدَا لَهُمْ مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ) وقوله - سبحانه - : ( وَلَقَدْ أَرْسَلنَآ إلى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بالبأساء والضراء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ فلولا إِذْ جَآءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ ولكن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ

وَزَيّنَ لَهُمُ الشيطان مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ).

وهو الذي انشا لكم السمع والابصار والافئدة قليلا ما تشكرون

كما فسرها الوسيط ثم تاخذ السورة الكريمة بعد ذلك فى تذكيرهم بنعم الله عليهم ، لعلهم يتوبون أو يتذكرون ، فتقول : ( وَهُوَ الذي أَنْشَأَ . . . ) أى : " وهو " الله - تعالى - وحده ، " الذى أنشأ لكم " أيها الناس بفضله. ورحمته " السمع " الذى تسمعون به " والأبصار " التى تبصرون بها " والأفئدة التى بواسطتها تفهمون وتدركون . . .ولو تدبر الإنسان هذه النعم حق التدبر " لاهتدى إلى الحق . ولآمن بأن الخالق لهذه الحواس وغيرها . هو الله الواحد : القهار .ولكن الإنسان - إلا من عصم الله - قليل الشكر لله - تعالى - ولذا قال - سبحانه - : ( قَلِيلاً مّا تَشْكُرُونَ ) أى : شكراً قليلاً ما تشكرون هذه النعم الجليلة ، بدليل أن أكثر الناس فى هذه الحياة ، كافرون " بوحدانية الله - تعالى - .فلفظ " قليلاً " صفة لموصوف محذوف ، و " ما " لتأكيد هذه القلة وتقريرها .

وهو الذي ذراكم في الارض واليه تحشرون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَهُوَ الذي ذَرَأَكُمْ فِي الأرض وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ) بيان لنعمة أخرى من نعمه التى لا تحصى .أى : ، وهو - سبحانه - الذى أوجدكم من الأرض ، ونشركم فيها عن طريق التناسل وإليه وحده تجمعون يوم القيامة للحساب .

وهو الذي يحيي ويميت وله اختلاف الليل والنهار افلا تعقلون

كما فسرها الوسيط ثم ذكر ما يدل على كمال قدرته فقال : ( وَهُوَ الذي يُحْيِي وَيُمِيتُ ) بدون أن يشاركه فى ذلك مشارك ، ( وَلَهُ ) وحده ) ، التأثير فى اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما ، وزيادة أحدهما ونقص الآخر أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ) وتدركون ما فى هذا لكه من دلائل واضحة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته؟

بل قالوا مثل ما قال الاولون

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك أن هؤلاء المشركين ، لم يقابلوا نعم الله - تعالى - عليهم بالشكر ، وإنما قابلوها بالجحود وبإنكار البعث والحساب ، وأمر - سبحانه - رسوله صلى الله عليه وسلم أن يرد عليهم : - فقال - تعالى - : ( بَلْ قَالُواْ . . . ).لفظ " بل " فى قوله - تعالى للإضراب الانتقالى . وهو ( بَلْ قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ الأولون ) معطوف على مضمر يقتضيه المقام .أى : لقد سقنا لهم ألواناً من النعم ، وسقنا لهم ما يدل على قدرتنا ومع ذلك فلم يؤمنوا . بل قالوا مثل ما قال من هم على شاكلتهم فى الكفر من الأقوام الأولين .

قالوا اذا متنا وكنا ترابا وعظاما انا لمبعوثون

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - ما قالوه فقال : ( قَالُواْ ) على سبيل التعجب والإنكار ( أَإِذَا مِتْنَا وَكُنّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنّا لَمَبْعُوثُونَ ) .فهم يرون - لجهلهم وغبائهم - أنه من المستحيل أن يعادوا إلى الحياة بعد أن يموتوا ويصيروا تراباً وعظاماً نخرة .وهذا الذى قالوه ) - هنا . قد حكى القرآن عنهم مثله فى آيات كثيرة ، من ذلك قوله - تعالى - أَإِذَا مِتْنَا وَكُنّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ) وقوله سبحانه - : ( يَقُولُونَ أَإِنّا لَمَرْدُودُونَ فِي الحافرة أَإِذَا كُنّا عِظَاماً نَّخِرَةً قَالُوا تِلْكَ إِذاً كَرّةٌ خَاسِرَةٌ ).

لقد وعدنا نحن واباؤنا هذا من قبل ان هذا الا اساطير الاولين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أنهم لم يكتفوا بإنكارهم للبعث ، بل أضافوا إلى ذلك سوء الأدب ، والسخرية ممن يؤمن به فقال : ( لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَآؤُنَا هذا مِن قَبْلُ . . ) .أى : لقد وعدنا على لسان هذا الرسول صلى الله عليه وسلم بأن البعث حق ، كما وعد آباؤنا قبل ذلك ). على ألسنة الرسل السابقين ، ونحن لا نصدق هذا الرسول ، ولا أولئك الرسل إِنْ هاذآ إِلاّ أَسَاطِيرُ الأولين ) أى : ما هذا البعث الذى وعدنا جميعاً به ، إلا أساطير الأولين . أى : أكاذيبهم التى سطروها من عند أنفسهم فى كتبهم .والأساطير : جمع أسطورة ، كأحدوثة ، وأعجوبة ، وأكذوبة .وهكذا الجهلاء المغرورون ، لا يقفون من الحق موقف المنكر له فحسب ، بل يضيفون إلى

- ذلك سوء الأدب ، وقبح المنطق ، والقول بغير علم .وقد أمر الله - تعالى - رسوله أن يرد على أباطيلهم ، وأن يلزمهم بثلاث حجج ، تدل على أن الله - تعالى - قادر على إعادتهم إلى لاحياة بعد موتهم .

قل لمن الارض ومن فيها ان كنتم تعلمون

كما فسرها الوسيط أما الحجة الأولى فتتجلى فى قوله - سبحانه - : ( قُل لِّمَنِ الأرض وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ) أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - لمن هذه الأرض ملكاً وتصرفاً ، ولمن هذه المخلوقات التى عليها ، خلقاً وتدبيراً ، إن كنتم من أهل العلم والفهم؟ أو كنتم عالمين بذلك فأخبرونى من خالقهم؟ فجواب الشرط محذوف لدلالة الاستفهام عليه .

سيقولون لله قل افلا تذكرون

، كما فسرها الوسيط ( سَيَقُولُونَ لِلّهِ ) ولا يملكون أن يقولوا غير ذلك - لأن بداهة العقل تضطرهم إلى أن يعترفوا بأن الأرض ومن فيها لله - تعالى ، أى : قل لهم فى الجواب على اعترافهم هذا ( قُلْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ). أتعلمون ذلك ، فلا تتذكرون بأن من خلق الأرض ومن فيها قادر على إحياء الناس بعد موتهم .

قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم

كما فسرها الوسيط وأما الحجة الثانية فهى قوله - سبحانه - : ( قُلْ مَن رَّبُّ السماوات السبع وَرَبُّ العرش العظيم ) وهو كرسيه الذى وسع السموات والأرض؟

سيقولون لله قل افلا تتقون

كما فسرها الوسيط ( سَيَقُولُونَ لِلّهِ ) فهو رب كل شىء . ( قُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ) أى : قل لهم على سبيل التبكيت والتقريع ، أتقولون ذلك ، ومع هذا لا تتقون الله ، ولا تخافون عقابه ، بسبب عبادتكم لغيره ، وإنكاركم لما نهاكم عن إنكاره؟

قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون

كما فسرها الوسيط وأما الحجة الثالثة ، فتتجلى فى قوله عز وجل : ( قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ . . . ) أى : قل لهم من بيده ملك كل شىء كائناً ما كان .فالملكوت من الملك ، وزيدت الواو والتاء للمبالغة فى هذا الملك .( وَهُوَ يُجْيِرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ ) أى : وهو - سبحانه - يغيث من يشاء من خلقه فلا يستطيع أحد أن يناله بسوء ، أما من يريد الله - تعالى - أن يزل به عقابه ، فلن يستطيع أحد أن يمنع هذا العقاب عنه .يقال : أجرت فلاناً على فلان ، إذا أغثته وأنقذته منه . وعدى بعلى لتضمينه معنى النصر .إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ) أى : إن كنتم - أيضاً - من أهل العلم والفهم .

سيقولون لله قل فانى تسحرون

، كما فسرها الوسيط ( سَيَقُولُونَ لِلّهِ ) أى : سيقولون ملك كل شىء لله والقدرة على كل شىء لله .( قُلْ فأنى تُسْحَرُونَ ) أى : قل لهم فى الجواب عليهم ، ما دمتم قد اعترفتم بأن كل شىء تحت قدرة الله وسيطرته ، فكيف تخدعون وتصرفون عن الحق وعن الرشد مع علمكم بهما ، إلى ما أنتم عليه من باطل وغى!! .يقال : سحر فلان غيره ، بمعنى خدعه ، أو أتى عمل السحر . والمسحور هو الشخص المخدوع أو من تأثر بما عمل له من سحر .وبهذه الحجج الدامغة ، أخرس الله - تعالى - ألسنة المنكرين للبعث ، واثبت لهم أنه - سبحانه -لا يعجزه شىء .

بل اتيناهم بالحق وانهم لكاذبون

كما فسرها الوسيط وبعد أن أثبت - سبحانه - أن البعث حق ، أتبع ذلك بإثبات وحدانيته ، وإبطال ما يعزمون له - تعالى - من الولد والشريك . فقال ) : بَلْ أَتَيْنَاهُمْ . . . ) .قوله - سبحانه - ( بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بالحق . . إضراب عن قول أولئك الكافرين ( إِنْ هاذآ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأولين ) أى : ما كان ما أخبرناهم به من أن هناك بعثاً وحساباً ، أساطير بالأولين ( بل أخبرناهم وأتيناهم بالحق الثابت ، والوعد الصادق ، وإنهم لكاذبون فى

دعواهم أن البعث غير واقع ، وأن مع الله - تعالى - آلهة أخرى ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يجئهم بالحق الذى يريدونه .

ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله اذا لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون

كما فسرها الوسيط ثم وبخهم - سبحانه - على قولهم إن لله ولداً وشريكاً فقال : ( مَا اتخذ اللَّه مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إله بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ ) . . . - أى : لم يتخذ الله - تعالى - ولداً - كما يزعم هؤلاء الجاهلون ، لأنه - سبحانه - منزه عن ذلك . ولم يكن معه من إله يشاركه فى ألوهيته وربوبيته عز وجل -زولو كان الأمر كما يزعمون ( لَّذَهَبَ كُلُّ إله بِمَا خَلَقَ ) واستقل به عن غيره . ( وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ ) أى : ولحدث بينهم التحارب والتغالب . . . ولفسد هذا الكون ، كما قال - تعالى - : ( لَوْ كَانَ فِيهِمَآ آلِهَةٌ إِلاَّ الله لَفَسَدَتَا . . . ) ( سُبْحَانَ الله عَمَّا يَصِفُونَ ) أى : تنزه الله - تعالى - وتقدس عما يصفه به هؤلاء الجاهلون . فهو - سبحانه - الواحد الأحد . الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد .

عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون

كما فسرها الوسيط ( عَالِمِ الغيب والشهادة ) أى : هو العليم بما يغيب عن عقول الناس ومداركمهم وهو العليم - أيضاً - بما يشاهدونه بأبصارهم وحواسهم الله - عز وجل - وتقدس ( عَمَّا يُشْرِكُونَ ) معه من آلهة ( فتعالى ) . أخرى ، لا تضر ولا تنفع : ولا تملك لعابديها موتاً ولا حياة ولا نشوراً .

قل رب اما تريني ما يوعدون

كما فسرها الوسيط ثم تترك السورة الحديث مع هؤلاء المشركين ، وتوجه حديثها إلى النبى صلى الله عليه وسلم فتأمره أن يتلجىء إلى خالقه ، وأن يستعيذ به من شرور الشياطين . . . قال - تعالى - : ( قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي . قال الجمل : " لما أعلم الله - تعالى - نبيه صلى الله عليه وسلم . ( . . بأنه منزل عذابه بهؤلاء المشركين ، إما فى حياته صلى الله عليه وسلم أو بعد مماته ، علمه كيفية الدعاء بالتخلص من عذابهم فقال - تعالى - : ( قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ) وقوله : ( تُرِيَنِّي ) فعل مضارع مبنى على الفتح لاتصاله بنون التوكيد ، و ( مَا ) مفعول به ، ورأى بصرية تعدت لمفعولين بواسطة الهمزة ، لأنه من أرى الرباعى ، فياء المتكلم مفعول أول ، وما الموصولة المفعول الثانى . . . " . أى : قل - أيها الرسول الكريم - يا رب إن تطلعنى وترينى العذاب الذى توعدت به هؤلاء المشركين .

رب فلا تجعلني في القوم الظالمين

، كما فسرها الوسيط أى فأسألك - يا إلهى - أن لا تجعلنى قريناً لهم فيه - وأبعدنى عن هؤلاء القوم الظالمين ، حتى لا يصيبنى ما يصيبهم .ورسول الله صلى الله عليه وسلم - فى عصمة من الله - تعالى - من أن يجعله مع القوم الظالمين ، حين ينزل بهم العذاب ، ولكن جاءت الآية بهذا الدعاء والإرشاد ، للزيادة فى التوقى ، ولتعليم المؤمنين أن لا يأمنوا مكر الله ، وأن يلوذوا دائماً بحماه .

وانا على ان نريك ما نعدهم لقادرون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( وَإِنَّا على أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ) بيان لكمال قدرة الله تعالى التى لا يعجزها شىء أى : نحن قادرون - يا محمد - على إطلاعك على العذاب الذى أعددناه لهم ولكن لحكمة نعلمها ، لم نطلعك عليه ، بل سنؤخره عنهم إلى الوقت الذى نريده ، قال تعالى : ( وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الذي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البلاغ وَعَلَيْنَا الحساب ) .

ادفع بالتي هي احسن السيئة نحن اعلم بما يصفون

كما فسرها الوسيط ثم أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر على أذاهم . وبمقابلة سيئاتهم بالخصال الحسنة ، فقال : ( ادفع بالتي هِيَ أَحْسَنُ السيئة نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ) . أى : قابل - أيها الرسول الكريم - سيئات هؤلاء المشركين الجاهلين ، بالأخلاق والسجايا التى

هى أحسن من غيرها ، كأن تعرض عنهم ، وتصبر على سوء أخلاقهم ، فأنت صاحب الخلق العظيم ، ونحن أعلم منك بما يصفوننا به من صفات باطلة . وما يصفوك به من صفات ذميمة ، وسنجازيهم على ذلك بما يستحقون ، فى الوقت الذى نريده فالآية الكريمة توجيه حكيم من الله - تعالى - لنبيه - ، وتسلية له عما أصابه من أعدائه ، وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( خُذِ العفو وَأْمُرْ بالعرف وَأَعْرِضْ عَنِ الجاهلين ).

وقل رب اعوذ بك من همزات الشياطين

كما فسرها الوسيط ثم أمره - تعالى - بأن يستعيذ به من وساوس الشياطين ونزغاتهم فقال : ( وَقُلْ رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشياطين وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ) .وقوله : ( هَمَزَاتِ ) جمع همزة : وهى المرة من الهمز . وهى فى اللغة النخس والدفع باليد أو بغيرها . يقال همزه يهمزه - بضم الميم وكسرها - إذا نخسه ودفعه وغمزه .ومنه المهماز ، وهو حديدة تكون مع الراكب للدابة يحثها بها على السير .والمراد بهمزات الشياطين - هنا : وساوسهم لبنى آدم وحضهم إياهم على ارتكاب ما نهاهم الله - تعالى عنه .أى : وقل - أيها الرسول الكريم - يا رب أعوذ بك ، واعتصم بحماك ، من وساوس الشياطين ، ومن نزغاتهم الأثيمة ، ومن همزاتهم السيئة .

واعوذ بك رب ان يحضرون

كما فسرها الوسيط وأعوذ بك يا إلهى وأتحصن بك ، من أن يحضرنى أحد منهم فى أى أمر من أمور دينيى أو من دنياى ، فأنت وحدك القادر على حمايتى منهم .وفى هذه الدعوات من الرسول صلى الله عليه وسلم وهو المعصوم من همزات الشياطين - تعليم للمؤمنين ، وإرشاد لهم ، إلى اللجوء - دائما - إلى خالقهم ، لكى يدفع عنهم وساوس الشياطين ونزغاتهم .

حتى اذا جاء احدهم الموت قال رب ارجعون

كما فسرها الوسيط ثم تنتقل السورة بعد ذلك إلى بيان أقوال هؤلاء المشركين عندما ينزل بهم الموت ، وعندما تلفح وجوههم النار ، وكيف أنهم يلتمسون العودة بذلة ولكن لا يجابون إلى طلبهم ، لأنه جاء فى غير وقته . . . .استمع إلى السورة الكريمة وهى تصور أحوالهم عند الاحتضار ، وعند الإلقاء بهم فى النار فتقول : ( حتى إِذَا جَآءَ . . . ) .قوله - تعالى - : ( حتى إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ الموت . . . ) بيان لحال الكافرين عندما يدركهم الموت . و " حتى " حرف ابتداء . . . والمراد بمجىء الموت : مجىء علاماته .أى : أن هؤلاء الكافرين يستمرون فى لجاجهم وطغيانهم ، حتى إذا فاجأهم الموت ، ونزلت بهم سكراته ، ورأوا مقاعدهم فى النار ، قال كل واحد منهم يا رب ارجعنى إلى الدنيا ، ( لعلي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ ) أى : لكى أعمل عملا صالحا فيما تركت خلفى من عمرى فى أيام الدنيا ، بأن أخلص لك العبادة والطاعة وأتبع كل ما جاء به نبيك من أقوال وأفعال .وجاء لفظ ( ارجعون ) بصيغة الجمع . لتعظيم شأن المخاطب ، وهو الله - تعالى - واستدرار عطفه - عز وجل .أو أن هذا الكافر استغاث بالله - تعالى - فقال : " رب " ثم وجه خطابه بعد ذلك إلى خزنة النار من الملائكة فقال : " ارجعون " .

لعلي اعمل صالحا فيما تركت كلا انها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون

كما فسرها الوسيط و " لعل " فى قوله تعالى : ( لعلي أَعْمَلُ صَالِحاً ) للتعليل . أى : ارجعون لكى أعمل عملا صالحا .وفى معنى هذه الآية وردت آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - : ( . . وَتَرَى الظالمين لَمَّا رَأَوُاْ ) - العذاب يَقُولُونَ هَلْ إلى مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ) وقوله - سبحانه وَلَوْ ترى إِذِ المجرمون نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فارجعنا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ ) ثم بين - سبحانه - الجواب عليهم فقال : ( كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِمْ بَرْزَخٌ إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ) .و " كلا " حرف زجر وردع . والبرزخ : الحاجز والحاجب بين الشيئين لكى لا يصل أحدهما إلى الآخر . والمراد بالكلمة : ما قاله هذا الكافر . أى : رب ارجعون .أى يقال لهذا الكافر النادم : كلا ، لا رجوع إلى الدنيا ( إِنَّهَا ) أى قوله رب ارجعون ، ( كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ) ولن تجديه شيئا ، لأنه قالها بعد فوات الأوان لنفعها ، ( وَمِن وَرَآئِهِمْ ) أى : ومن أمام هذا الكافر وأمثاله ، حاجز يحول بينهم وبين الرجوع إلى الدنيا ، وهذا الحاجز مستمر إلى يوم البعث والنشور .فالمراد بالبرزخ : تلك المدة التى يقضيها هؤلاء الكافرون منذ موتهم إلى يوم يبعثون .وفى هذه الجملة الكريمة . زجر شديد لهم

عن طلب العودة إلى الدنيا . وتيئيس وإقناط لهم من التفكير فى المطالبة بالرجعة ، وتهديد لهم بعذاب القبر إلى يوم القيام .

فاذا نفخ في الصور فلا انساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أن ما ينفع الناس يوم القيامة ) : - إنما هو إيمانهم وعملهم ، لا أحسابهم ولا أنسابهم . فقال - تعالى فَإِذَا نُفِخَ فِي الصور فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَآءَلُونَ ) .والأنساب : جمع نسب . والمراد به القرابة ، والمراد : بالنفخ فى الصور : النفخة الثانية التى يقع عندها البعث والنشور . وقيل : النفخة الأولى التى عندها يُحِيى الله الموتى .والمراد بنفى الأنساب ، انقطاع آثارها التى كانت مترتبة عليها فى الدنيا ، من التفاخر بها والانتفاع بهذه القرابة فى قضاء الحوائج .أى : فإذا نفخ إسرافيل - عليه السلام - فى الصور - وهو آلة نُفَوض هيئتها إلى الله - تعالى - ، فلا أنساب ولا أحساب بين الناس نافعة لهم فى هذا الوقت ، إذ النافع فى ذلك الوقت هو الإيمان والعمل الصالح .ولا هم يستاءلون فيما بينهم لشدة الهول ، واستيلاء الفزع على النفوس ولا تنافى بين هذه الآية ، وبين قوله - تعالى - : ) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ) فإن كل آية تحكى حالة من الحالات ، ويوم القيامة له مواقف متعددة ، فهم لا يتساءلون من شدة الهول فى موقف . ويتساءلون فى آخر عندما يأذن الله - تعالى - لهم بذلك .

فمن ثقلت موازينه فاولئك هم المفلحون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فأولئك هُمُ المفلحون . . ) بيان لما يكون بعد النفخ فى الصور من ثواب أو عقاب .أى وجاء وقت الحساب بعد النفخ فى الصور ، ( فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ) : أى : موازين أعماله الصالحة ، ( فأولئك هُمُ المفلحون ) فلاحا ليس بعده فلاح .

ومن خفت موازينه فاولئك الذين خسروا انفسهم في جهنم خالدون

كما فسرها الوسيط ( وَمَنْ خَفَّتْ ) موازين أعماله الصالحة ( فأولئك الذين خسروا أَنفُسَهُمْ ) بأن ضيعوها وألقوا بها إلى التهلكة ، فهم ، ( فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ) فيها خلودا أبديا .

تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون

كما فسرها الوسيط ( تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النار وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ) واللفح : الإحراق الشديد يقال : فلان لفحته النار تلفحه لفحا ولفحانا إذا أحرقته .والكلوح ، هو أن تتقلص الشفتان ، وتتكشف الأسنان ، لأن النار قد أحرقت الشفتين ، كما يشاهد - والعياذ بالله - رأس الشاة بعد شويها .أى : تحرق النار وجوه هؤلاء الأشقياء ، وهم فيها متقلصو الشفاه عن الأسنان ، من أثر ذلك الإحراق واللفح .

الم تكن اياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون

كما فسرها الوسيط ثم يقال لهم بعد كل هذا العذاب المهين على سبيل التقريع والتوبيخ : ( أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي ) الدالة على وحدانيتى وقدرتى وصدق رسلى ( تتلى عَلَيْكُمْ ) فى الدنيا على ألسنة هؤلاء الرسل الكرام ) فَكُنْتُمْ بِهَا ) أى : بهذه الآيات ( تُكَذِّبُونَ ) هؤلاء الرسل فيما جاؤوكم به من عندى من هدايات وإرشادات .

قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين

كما فسرها الوسيط وكأنهم قد خيل إليهم - بعد هذا السؤال التوبيخى ، أنهم قد أذن لهم فى الكلام ، وأن اعترافهم بذنوبهم قد ينفعهم فيقولون - كما حكى القرآن عنهم - : ( قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا . . ) ، أى : يا ربنا تغلبت علينا أنفسنا الأمارة بالسوء ، فصرفتنا عن الحق وتغلبت علينا ملذاتنا وشهواتنا وسيئاتنا التى أفضت بنا إلى هذا المصير المؤلم ( وَكُنَّا قَوْماً ضَآلِّينَ ) عن الهدى والرشاد ، بسبب شقائنا وتعاستنا .

ربنا اخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون

كما فسرها الوسيط ( رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا ) أى : من هذه النار التى تلفح وجوهنا ( فَإِنْ عُدْنَا ) إلى ما نحن عليه من الكفر وارتكاب السيئات أى : فإنا متجاوزون لكل حد فى الظلم ، ونستحق بسبب ( فَإِنَّا ظَالِمُونَ ) ، ذلك عذابا اشد مما نحن فيه .وهكذا يصور القرآن بأسلوبه البديع المؤثر ، أحوال الكافرين يوم القيامة ، تصويرا ترتجف له القلوب ، وتهتز منه النفوس . وتقشعر من هوله الأبدان .

قال اخسئوا فيها ولا تكلمون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( قَالَ اخسئوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ ) جواب على طلبهم الخروج من النار ، والعودة إلى الدنيا .أى : قال الله - تعالى - لهم على سبيل الزجر والتيئيس : ( اخسئوا فِيهَا ) اسكتوا وانزجروا انزجار الكلاب ، وامكثوا فى تلك النار ( وَلاَ تُكَلِّمُونِ ) فى شأن خروجكم منها ، أو فى شأن عودتكم إلى الدنيا .

انه كان فريق من عبادي يقولون ربنا امنا فاغفر لنا وارحمنا وانت خير الراحمين

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - ( إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ . . . ) تعليل لزجرهم عن طلب الخروج أى : اخسأوا فى النار ولا تكلمون ، لأنه كان فى الدنيا فريق كبير من عبادى المؤمنين يقولون بإخلاص ورجاء : ( رَبَّنَآ آمَنَّا ) بك واتبعنا رسلك ( فاغفر لَنَا ) ذنوبنا ( وارحمنا ) برحمتك التى وسعت كل شىء ( وَأَنتَ خَيْرُ الراحمين ) .

فاتخذتموهم سخريا حتى انسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( فاتخذتموهم سِخْرِيّاً . . . ) هو محط التعليل ، أى : فكان حالكم معهم أنكم سخرتم واستهزأتم بهم .( حتى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي ) أى : فاتخذتموهم سخريا ، وداومتم على ذلك ، وشغلكم هذا الاستهزاء . حتى أنسوكم - لكثرة انهماككم فى السخرية بهم - تذكر عقابى ، لكم فى هذا اليوم ، ( وَكُنْتُمْ مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ) فى الدنيا . وتتغامزون عندما ترونهم استخفافا بهم .

اني جزيتهم اليوم بما صبروا انهم هم الفائزون

كما فسرها الوسيط فلهذه الأسباب ، اخسأوا فى النار ولا تكلمون ، أما هؤلاء المؤمنون الذين كنتم تستهزئون بهم فى الدنيا . فإنى ( جَزَيْتُهُمُ اليوم ) الجزاء الحسن ( بِمَا صبروا أَنَّهُمْ هُمُ الفآئزون ) فوزا ليس هناك ما هو أكبر منه .

قال كم لبثتم في الارض عدد سنين

كما فسرها الوسيط وبعد هذا الرد الذى فيه ما فيه من الزجر للكافرين ، وبعد بيان أسبابه ، وما اشتمل عليه من تبكيت وتقريع ، يوجه إليهم - سبحانه - سؤالا يزيدهم حسرة على حسرتهم ، فيقول : (قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ . . ) .أى : قال الله - تعالى - لهم بعد أن زجرهم وأمرهم أن يسكتوا سكوت هوان وذلة : كم عدد السنين التى لبثتموها فى دنياكم التى تريدون الرجوع إليها؟ولا شك أن الله - تعالى - يعلم مقدار الزمن الذى لبثوه ، ولكنه سألهم ليبين لهم قصر أيام الدنيا ، بالنسبة لما هم فيه من عذاب مقيم ، وليزيد فى حسرتهم وتوبيخهم .

قالوا لبثنا يوما او بعض يوم فاسال العادين

كما فسرها الوسيط وهنا يقولون فى يأس وذلة : ( لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ) وهو جواب يدل على استصغارهم للمدة التى لبثوها فى الدنيا بجانب ما هم فيه من عذاب .وقوله - تعالى - ( فَسْئَلِ العآدين ) يشعر بذهولهم عن التحقق من مقدار المدة التى لبثوها فى الدنيا .أى : فاسأل المتمكنين من معرفة المدة التى مكثناها فى الدنيا .

قال ان لبثتم الا قليلا لو انكم كنتم تعلمون

كما فسرها الوسيط فيرد الله - تعالى - عليهم بقوله ( قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ ) أى : ما لبثتم فى الدنيا ، ( إِلاَّ قَلِيلاً ) أى : إلا وقتا قليلا ( لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ) شيئا من العلم لأدركتم أن ما

لبثتموه فى الدنيا ، هو قليل جدا بالنسبة إلى مكثكم فى النار بسبب إصراركم على كفركم فى حياتكم الدنيا ، فجواب لو محذوف ، لدلالة الكلام عليه .ولا يتعارض قولهم هنا ( لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ ) مع آيات أخرى ذكرت بأنهم ( يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْراً ) ) : - وبأنهم ( مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ ) كما فى قوله - تعالى - وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة يُقْسِمُ المجرمون مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ . لأن كل فريق منهم قد أخبر بما تبادر إلى ذهنه ، فبعضهم قال : لبثنا ( . عشرا ، وبعضهم قال : لبثنا يوما أو بعض يوم ، وبعضهم أقسم بأنه ما لبث فى الدنيا غير ساعة .وهذا يدل على أن أهوال العذاب ، قد أنستهم ما كانوا فيه فى الدنيا من متاع ، وما انغمسوا فيه من شهوات . . .

افحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون

كما فسرها الوسيط والاستفهام فى قوله - تعالى - : ( أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً . . . ) للإنكار والنفى ، والحسبان هنا : بمعنى الظن . والفاء معطوفة على محذوف مقدر . والعبث : اللعب وما لا فائدة فيه من قول أو فعل .أى أغرتكم الدنيا ، وغفلتم عن مصيركم ، فحسبتم أنما خلقناكم عبثا لا لحكمة تقتضيها إرادتنا من خلقكم ، وحسبتم كذلك ( أَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ ) يوم القيامة للحساب والجزاء .

فتعالى الله الملك الحق لا اله الا هو رب العرش الكريم

كما فسرها الوسيط إن جزاء هذا الحسبان الباطل ، هو هذا المصير المهين الذى تصطلون بناره اليوم . ثم - سبحانه - ذاته عن أن يكون قد خلقهم عبثا فقال : فتعاظم وتقدس عن كل ما لا يليق. ( . . فَتَعَالَى الله الملك الحق ) أى : بجلاله وكماله ، الله الملك الحق ، فهو - عز وجل - منزه عن أن يخلق الناس ، بدون حكمة أو غرض صحيح .( لاَ إِلَه إِلاَّ هُوَ ) فإن كل ما عداه مخلقو له . وهو - سبحانه - ( رَبُّ العرش الكريم ) .

ومن يدع مع الله الها اخر لا برهان له به فانما حسابه عند ربه انه لا يفلح الكافرون

) : كما فسرها الوسيط ثم هدد - سبحانه - كل من يعبد غيره أشد تهديد فقال - وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ) أى : ومن يدع مع الله - تعالى - آلها آخر فى عبادته أو مناجاته أو أقواله ، أو أفعاله . . .( لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ ) أى :لا دليل له على هذه العبادة ، وليس لهذه الجملة الكريمة مفهوم مخالفة ، بل هى صفة مطابقة للواقع ، لأن كل عابد لغير الله ، لا دليل له على هذه العبادة إطلاقا ، إذ العبادة لا تكون إلا لله - تعالى - وحده فذكر هذه الجملة لإقرار الوقاع وتأكيده ، لا لإخراج المفهوم عن حكم. المنطوق .وقوله ( فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الكافرون ) تهديد شديد لمن يدعو مع الله - تعالى - إلها آخر . أى : من يفعل ذلك فسيلقى الحساب الشديد ، والجزاء الرادع ، من عند ربه - عز وجل - ، لأن عدالته قد اقتضت أن الكافرين به لا ينالون الفلاح ، وإنما ينالون الخزى والخسران .

وقل رب اغفر وارحم وانت خير الراحمين

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بقوله : ( وَقُل رَّبِّ اغفر وارحم وَأَنتَ خَيْرُ الراحمين ) أى : وقل - أيها الرسول الكريم - مناجيا ربك : رب اغفر للمؤمنين ذنوبهم ، وارحم العصاة منهم ، وأنت يا مولانا خير من يرحم ، وخير من يغفر .قال الآلوسى : " وفى تخصيص هذه الدعاء بالذكر ما يدل على أهمية ما فيه ، وقد علم النبى صلى الله عليه وسلم أبا بكر أن يقول نحوه فى صلاته . فقد أخرج الشيخان عن أبى بكر - رضى الله عنه - قال : يا رسول الله ، علمنى دعاء أدعو به فى صلاتى . فقال له قل : " اللهم إنى ظلمت نفسى ظلما كثيرا ، وإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لى مغفرة من عندك ، وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم " .

سورة انزلناها وفرضناها وانزلنا فيها ايات بينات لعلكم تذكرون

كما فسرها الوسيط افتتحت سورة النور بافتتاح لم تشترك معها فيه سورة أخرى ، من سور القرآن الكريم .وقوله - سبحانه - : ( سُورَةٌ ) خبر لمبتدأ محذوف أى : هذه سورة .والسورة القرآنية : هى مجموعة من الآيات المسرودة ، لها مبدأ ولها نهاية ، وجمعها : سُوَر .وكلمة سورة مأخوذة من سور المدينة ، وكأن السورة القرآنية سميت بهذا الاسم لإحاطتها بآياتها إحاطة السور بما

يكون بداخله .أو أنها فى الأصل تطلق على المنزلة السامية ، والسورة
: القرآنية سميت بذلك لرفعتها وعلو شأنها .قال القرطبى : والسورة فى اللغة
اسم للمنزلة الشريفة ، ولذلك سميت السورة من القرآن سورة . قال النابغة
- ألم تر أن الله أعطاك سُورَة ... ترى كلّ مَلْكٍ دونَها يتذبذبوقوله:
تعالى - : ( وَفَرَضْنَاهَا ) من الفرض بمعنى القطع . وأصله قطع الشىء
الصُّلْب والتأثير فيه .والمراد به هنا : تنفيذ أحكام اللَّه - تعالى - على
أتم وجه وأكمله .والمعنى هذه سورة قرآنية . أنزلناها عليك - أيها الرسول
، الكريم - ، وأوجبنا ما فيها من أحكام ، وآداب وتشريعات ، إيجابا قطيعا
وأنزلنا فيها آيات بينات واضحات الدلالة على وحدانيتنا ، وقدرتنا ، وعلى
صحة الأحكام التى وردت فيها ، لتتذكرها وتعتبروا بها وتعتقدوا صحتها
وتنفذوا ما اشتملت عليه من أمر أو نهى .وجمع - سبحانه - بين الإنزال
والفرضية فقال : ( أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا ) لبيان أن الغرض منها ليس
مجرد الإنزال وإنما الإنزال المصحوب بوجوب تنفيذ الأحكام والآداب التى
. اشتملت عليها ، والتى أنزلت من أجلها .ومعلوم أن إنزال السورة كلها
) - يستلزم إنزال هذه الآيات منها فيكون التكرار فى قوله - تعالى
وَأَنزَلْنَا فِيهَآ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ) لكمال العناية بشأنها ، كما هى
) - الحال فى ذكر بالخاص بعد العام .و " لعل " فى قوله - تعالى
لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ) للتعليل . أى : لعلكم تتذكرون ما فيها من آيات
دالة على وحدانيتنا وقدرتنا ، وعلى سمو تشريعاتنا ، فيؤدى بكم هذا التذكر
إلى عبادتنا وطاعتنا .ثم بين - سبحانه - بعد ذلك حد الزانى والزانية ، وقبح
، جريمة الزنا تقبيحا يحمل عل النفور ، وحرمها على المؤمنين تحريما قاطعا
. فقال - تعالى - : ( الزانية . . . )

الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تاخذكم بهما رافة في
دين الله ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الاخر وليشهد عذابهما طائفة من
المؤمنين

كما فسرها الوسيط قوله - تعالى - : ( الزانية والزاني . . ) شروع فى تفصيل
الأحكام ، التى أشار إليها - سبحانه - فى الآية الأولى من هذه السورة ، وهى
قوله : ( سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا . . . ) والزنا من الرجل
معناه : وطء المرأة من غير ملك ولا شبهة ملك ومعناه من المرأة : أن تمكن
الرجل من أن يزنى بها .والخطاب فى قوله - تعالى - : ( فاجلدوا . . . )
" للحكام المكلفين بتنفيذ حدود الله - عز وجل - .قال الجمل : " وفى رفع
الزانية والزانى " وجهان : أحدهما - وهو مذهب سيبويه - أنه مبتدأ خبره
محذوف . أى : فيما يتلى عليكم حكم الزانية ، ثم بين ذلك بقوله : ( فاجلدوا
، والثانى : وهو مذهب الأخفش وغيره - أنه مبتدأ . والخبر جملة الأمر ( . .
ودخلت الفاء لشبه المبتدأ بالشرط . . " .فإن قيل : ما الحكمة فى أن يبدأ
) : الله فى فاحشة الزنا بالمرأة ، وفى جريمة السرقة بالرجل ، حيث قال
والسارق والسارقة فاقطعوا أَيْدِيَهُمَا . . . ) فالجواب : أن الزنا من
المرأة أقبح ، فإنه يترتب عليه فساد الأنساب ، وإلحاق الدنس والعار بزوجها
وأهلها ، وافتضاح أمرها عن طريق الحمل ، وفضلا عن ذلك ، فإن تمكينها نفسها
للرجل : هو الذى كان السبب فى اقترافه هذه الفاحشة ، فلهذا وغيره قدمت
، المرأة هنا .وأما جريمة السرقة ، فالغالب أن الرجال أكثر إقداما عليها
لأنها تحتاج إلى جسارة وقوة ، واجتياز للمخاطر . . . لذا قدم الرجل على
المرأة فيها .وقوله - تعالى - ( وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي
دِينِ الله . . ) نهى منه - سبحانه - عن التهاون فى تنفيذ حدوده ، وحض على
إقامتها بحزم وقوة ، والرأفة : أعلى درجات الرحمة . يقال : رؤف فلان
- بفلان - بزنة كرم - إذا اشتد فى رحمته ، وفى العناية بأمره .أى : أقيموا
أيها الحكام - حدود الله - تعالى - على الزانية والزانى بأن تجلدوا كل واحد
منهما مائة جلدة ، دون أن تأخذكم شفقة أو رحمة فى تنفيذ هذه الحدود ، ودون
- أن تقبلوا فى التخفيف عنهما شفاعة شفيع ، أو وساطة وسيط ، فإن الله
تعالى - الذى شرع هذه الحدود . وأمر بتنفيذها بكل شدة وقوة ، أرحم بعباده
وبخلقه منكم . والرحمة والرأفة فى تنفيذ أحكامه ، لا فى تعطيلها . ولا فى
إجرائها على غير وجهها .وقوله - سبحانه - : ( إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ
بالله واليوم الآخر . . . ) تأكيد لما قبله ، وإلهاب لمشاعرهم ، لتنفيذ
، حدود الله - تعالى - .أى : إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر إيمانا حقا
فأقيموا حدود الله ، وأجلدوا الزانية والزانى مائة جلدة ، لا تأخذكم بهما
رأفة أو شفقة فى ذلك .وقوله - سبحانه - : ( وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا
طَآئِفَةٌ مِّنَ المؤمنين ) بيان لما يجب على الحكام أن يفعلوه عند تنفيذ
: العقوبة والأمر بشهود عذابهما للاستحباب لا للوجوب .والمراد بعذابهما
إقامة الحد عليهما ، والطائفة فى الأصل : اسم فاعل من الطواف ، وهو الدوران
والإحاطة . وتطلق الطائفة عند كثير من اللغويين على الواحد فما فوقه .قال
الآلوسى : " والحق أن المراد بالطائفة هنا ، جماعة يحصل بهم التشهير والزجر
وتختلف قلة وكثرة بحسب اختلاف الأماكن والأشخاص فرب شخص يحصل تشهيره ،

وزجره بثلاثة . وآخر لا يحصل تشهيره وزجره بعشرة وللقائل بالأربعة هنا وجه وجيه " .ولعل السبب فى وجاهة رأى القائلين بالأربعة أن هذا العدد هو الذى يثبت به الزنا .أى : وليشهد إقامة الحد على الزانية والزانى ، عدد من المؤمنين ، ليكون زيادة فى التنكيل بمن يرتكب هذه الفاحشة ، وأدعى إلى الاعتبار والاتعاظ وأزجر لمن تسول له نفسه الإقدام على تلك الجريمة النكراء .

الزاني لا ينكح الا زانية او مشركة والزانية لا ينكحها الا زان او مشرك وحرم ذلك على المؤمنين

كما فسرها الوسيط ثم أضاف - سبحانه - إلى تقبيح أمر الزنا تقبيحا آخر أشد وأخزى فقال : ( الزاني لاَ يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً والزانية لاَ يَنكِحُهَآ إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ . . . ) .والظاهر أن المراد بالنكاح هنا : العقد الذى تترتب عليه المعاشرة الزوجية ، لأن أكثر ورود لفظ النكاح فى القرآن . أن يكون بمعنى العقد ، بل قال بعضهم إنه لم يرد إلا بهذا المعنى .أى : أنه جرت العادة أن الشخص الزانى لا يتزوج إلا زانية مثله أو مشركة وكذلك المرأة الزانية لا تميل بطبعها إلا إلى الزواج من رجل زان مثلها أو من رجل مشرك وذلك لأن المؤمن بطبعه ينفر من الزواج بالمرأة الزانية ، وكذلك المرأة المؤمنة تأنف من الزواج بالرجل الزانى فالآية الكريمة تحكى بأسلوب بديع ما تقتضيه طبيعة الناس فى التآلف. والتزاوج ، وتبين أن المشاكلة فى الطباع علة للتلاقى ، وأن التنافر فى الطباع علة للاختلاف .وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول : " الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف " وبدىء هنا بالزانى ، لأن الآية مسوقة للحديث عن النكاح ، والرجل هو الذى. يتولاه ، وهو الأصل فيه ، لأنه هو الذى يلتمسه عن طريق الخطبة وما يتبعها من خطوات توصله إلى إتمام عقد الزواج ، والمرأة - فى هذا الباب - تكون فى العادة مطلوبة لا طالبة ، ومرغوبة لا راغبة .وجمع - سبحانه - بين رغبة الزانى ورغبة الزانية لتأكيد ما يليق بكليهما من الميل الدنىء . والطبع الوضيع . والسلوك الخبيث . وأن كل واحد منهما ألعن من صاحبه فى ولوج الطريق القبيح .واسم الإشارة فى قوله - تعالى - : ( وَحُرِّمَ ذلك عَلَى المؤمنين يعود على الزنا . وعلى الزواج من الزوانى ، لما فيه من التشبيه بالفاسقين ( ومن التعرض للعقوبة وسوء السيرة .أى : وحرم ذلك الذى نهيناكم عنه - وهو ، الزنا والاقتران بمن يرتكبه - على المؤمنين الأطهار ، الذين ينزهون أنفسهم عن الوقوع فى السوء والفحشاء .هذا . وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها : ما رواه الترمذى وأبو داود والنسائى عن عمرو فى سبب نزول هذه الآية روايات منها : ما رواه الترمذى وأبو داود والنسائى عن عمرو بن شعيب عن أبيه ، عن جده قال : كان رجل يقال له " مرثد بن أبى مرثد " كان يحمل الأسارى من مكة حتى يأتى بهم المدينة . قال : وكانت امرأة بَغِىٌّ بمكة يقال لها " عناق " وكانت صديقة له - أى فى الجاهلية - وأنه واعد رجلا من أسارى مكة يحمله ، قال : فجئت حتى انتهيت إلى ظل حائط من حوائط مكة فى ليلة مقمرة قال : فجاءت " عناق " فأبصرت سواد ظلى تحت الحائط ، فلما انتهت إلى عرفتنى ، فقالت : مرثد؟فقلت : مرثد فقالت : مرحبا وأهلا . هلم فبت عندنا الليلة . فقال : فقلت : يا عناق . حرم الله الزنا . فقالت : يا أهل الخيام هذا الرجل يحمل أسراكم . قال : فتبعنى ثمانية و دخلت الخندمة - أى جبل بمكة - فانتهيت إلى غار . . . فأعماهم الله - تعالى - عنى . ثم رجعوا فرجعت إلى صاحبى فحملته إلى المدينة ، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله ، أنكح عناقا؟ أنكح عناقا؟ - مرتين - ، فأمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يرد شيئا حتى نزلت هذه الآية : ( الزاني لاَ يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً . . . ) فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا مرثد . ( الزاني لاَ يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً . . . ) فلا تنكحها .هذا . ومن الأحكام والآداب التى أخذها العلماء من هاتين الآيتين ما يأتى :1 - ظاهر قوله - تعالى - : ( الزانية والزاني فاجلدوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ . . . ) يفيد أن هذا الجلد لكل من ارتكب هذه الفاحشة سواء أكان محصنا أم غير محصن .ولكن هذا الظاهر قد فصلته السنة الصحيحة . حيث بينت أن هذا الحد ، إنما هو لغير المحصن . أما المحصن - وهو المتزوج أو من سبق له الزواج - فإن حده الرجم حتى يموت .قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : " هذه الآية الكريمة فيها حكم الزانى فى الحد " .وللعلماء فيه تفصيل ونزاع ، فإن الزانى لا يخلو إما أن يكون بكرا : وهو الذى لم يتزوج ، أو محصنا : وهو الذى قد وطىء فى نكاح صحيح ، وهو حر بالغ عاقل .فأما إذا كان بكرا لم يتزوج فإن حده مائة جلدة كما فى الآية . ويزاد على ذلك أن يُغرّب عاما عند جمهور العلماء .وحجتهم فى ذلك ما ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة ، " أن أعرابيين أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أحدهما : يا رسول الله ، إن ابنى كان عسيفا - أى أجيرا - عند هذا فزنى بامرأته فافتديت ابنى منه بمائة شاة

ووليدة ، فسألت أهل العلم فأخبرونى أن على ابنى جلد مائة وتغريب عام . وأن
على امرأة هذا الرجم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " والذى نفسى
بيده لأقضين بينكما بكتاب الله : الوليدة والغنم رد عليك . وعلى ابنك جلد
، مائة وتغريب عام واغد يا أُنَيس - وهو رجل من قبيلة أسلم - إلى امرأة هذا
فإن اعترفت فارجمها ، فغدا عليها ، فاعترفت فرجمها " .ففى هذا دلالة على
تغريب الزانى مع جلده مائة . إذا كان بكرا لم يتزوج فأما إذا كان محصنا
- فإنه يرجم .وثبت فى الصحيحين من حديث مالك - مطولا - ، أن عمر بن الخطاب
رضى الله عنه - قام فخطب الناس فقال : " أيها الناس ، إن الله بعث محمدا
صلى الله عليه وسلم بالحق ، وأنزل عليه الكتاب ، فكان فيما أنزل عليه آية
، الرجم فقرأناها وعيناها ، ورجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجمنا بعده
، فأخشى أن يطول بالناس زمان فيقول قائل :لا نجد آية الرجم فى كتاب الله
فيضلوا بترك فريضة قد أنزلها الله ، فالرجم فى كتاب الله حق على من زنى من
الرجال والنساء ، إذا قامت البينة أو الحبل أو الاعتراف " .وقد رجم النبى
صلى الله عليه وسلم مازا والغمدية ، إلا أن جمهور الفقهاء يرون أنه يكتفى
بالرجم ، ولا يجلد قبل الرجم ، لأنه لم ينقل عن الرسول صلى الله عليه وسلم
أنه جلد أحدا من الزناة المحصنين قبل أن يرجمهم ، ومن الفقهاء من يرى أنهم
يجلدون ثم يرجمون بعد ذلك .وقال بعض العلماء ما ملخصه : اعلم أن رجم
: الزانيين المحصنين ، دلت عليه آيتان من كتاب الله - تعالى - ، إحداهما
نسخت تلاوتها وبقى حكمها ، والثانية : باقية التلاوة والحكم .أما التى نسخت
تلاوتها وبقى حكمها ، فهى قوله - تعالى - : ( الشيخ والشيخة إذا زنيا
فارجموعما ألبتة ) - وقد ورد ذلك فى روايات متعددة - وتدل هذه الروايات على
أن الصحابة قرأوها ووعوها . وعقلوها . وأن حكمها باق لأن النبى صلى الله
عليه وسلم فعله ، والصحابة فعلوه من بعده .وأما الآية التى هى باقية
التلاوة والحكم ، فهى قوله - تعالى - : ( أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين أُوتُواْ
نَصِيباً مِّنَ الكتاب يُدْعَوْنَ إلى كِتَابِ الله لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ
ثُمّ يتولى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ) على القول بأنها نزلت
فى رجم اليهوديين الزانيين بعد الإحصان ، وقد رجمهما النبى صلى الله عليه
وسلم وقصة رجمه لهما مشهورة ، ثابتة فى الصحيح . وعليه فقوله : ( ثُمّ
يتولى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ) أى : عما فى التوراة من حكم
الرجم ، وذم المعرض عن الرجم فى هذه الآية . يدل على أنه ثابت فى شرعنا
. فدلت الآية - على هذا القول - أن الرجم ثابت فى شرعنا ،وهى باقية التلاوة
كذلك أخذ العلماء من قوله - تعالى - : ( وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا - 2. .
رَأْفَةٌ فِي دِينِ الله . . . ) أنه لا تجوز الشفاعة فى الحدود ، كما لا
يجوز إسقاط الحد؛ لأن فى ذلك تعطيلا لتنفيذ شرع الله - تعالى - على الوجه
الأكمل .قال الآلوسى ما ملخصه : " قوله - تعالى - : ( وَلاَ تَأْخُذْكُمْ
بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ الله . . . ) أى فى طاعته وإقامة حده الذى شرعه
والمراد النهى عن التخفيف فى الجلد . بأن يجلدوهما جلدا غير مؤلم ، أو .
بأن يكون أقل من مائة جلدة . أو بإسقاط الحد بشفاعة أو نحوها .لما صح " أن
الرسول صلى الله عليه وسلم أنكر على حِبِّه أسامة بن زيد حين شفع فى فاطمة
: بنت الأسود بن عبد الأسد المخزومية ، التى سرقت قطيفة أو حليا ، وقال له
يا أسامة ، أتشفع فى حد من حدود الله - تعالى - ، ثم قام صلى الله عليه "
وسلم فخطب فقال : " أيها الناس ، إنما ضل من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم
- الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، أيم الله
تعالى - لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها " .وكما تحرم الشفاعة ، يحرم
قبولها ، فعن الزبير بن العوام - رضي الله عنه - قال : " إذا بلغ الحد إلى
الإمام ، فلا عفا الله - تعالى - عنه إن عفا " .3 - يرى كثير من الفقهاء أن
، التحريم فى قوله - تعالى - : ( وَحُرِّمَ ذلك عَلَى المؤمنين ) للتنزيه
وعبر عنه بلفظ " حُرِّمَ " للتغليظ والتنفير من الإقدام على زواج المؤمن من
الزانية ، أو على زواج المؤمنة من الزانى .ويرى آخرون أن التحريم على ظاهره
وأنه لا يجوز للمؤمن أن يتزوج بالزانية . وكذلك لا يجوز للمؤمنة أن تتزوج ،
بالزانى .وقد فصل القول فى هذه المسألة بعض العلماء فقال ما ملخصه : اعلم
أن العلماء اختلفوا فى جواز نكاح العفيف بالزانية ونكاح العفيفة بالزانى
فذهب جماعة من أهل العلم منهم الأئمة الثلاثة - أبو حنيفة ومالك.
- والشافعى - إلى جواز نكاح الزانية مع الكراهة التنزيهية . . . لأن الله
تعالى - قال ( . . وَأُحِلَّ لَكُمْ مّا وَرَاءَ ذَلِكُمْ . . ) وهو شامل
بعمومه الزانية والعفيفة .وقالت جماعة أخرى من أهل العلم :لا يجوز تزويج
الزانى العفيفة ، ولا عكسه ، وهو مذهب الإمام أحمد . وقد ورى عن الحسن
وقتادة .ومن أدلتهم الآية التى نحن بصددها ، وهى قوله - تعالى - : ( الزاني
لاَ يَنكِحُ إِلاّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً ) لأنها قد حرمت فى نهايتها
أن يتزوج التقى بالزانية ، أو التقية بالزانى .وعلى أية حال فالمتدبر فى
، هاتين الآيتين يراهما ، تشددان العقوبة على من يرتكب جريمة الزنا
وتتنفران من الاقتراب منها وممن يقع فيها أعظم تنفير ، لأن الإسلام حرص على
أن ينتشر العفاف والطهر بين أفراد المجتمع الإسلامى ، وشرع من وسائل
. الوقاية ما يحمى الأفراد والجماعات من الوقوع فى هذه الرذيلة

والذين يرمون المحصنات ثم لم ياتوا باربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة ابدا واولئك هم الفاسقون

كما فسرها الوسيط وبعد أن نفر - سبحانه - من جريمة الزنا أعظم تنفير ، وأمر بتنفيذ عقوبته فى مرتكبها بدون رأفة أو تساهل . . . أتبع ذلك بتشريعات أخرى - من شأنها أن تحمى أعراض الناس وأنفسهم من اعتداء المعتدين ، فقال - تعالى ، قوله - تعالى - ( يَرْمُونَ ) من الرمى. ( . . . والذين يَرْمُونَ ) : وأصله القذف بشىء صلب أو ما يشبهه تقول : رمى فلان فلانا بحجر . إذا قذفه به . والمراد به هنا : الشتم والقذف بفاحشة الزنا ، أو ما يستلزمه كالطعن فى النسب .قال الإمام الرازى : وقد أجمع العلماء على أن المراد هنا : الرمى : بالزنا .وفى الآية أقوال تدل عليه . أحدها : تقدم ذكر الزنا . وثانيها أنه - تعالى - ذكر المحصنات ، وهن العفائف ، فدل ذلك على أن المراد بالرمى رميهن بضد العفاف ، وثالثها : قوله ( ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ) يعنى على صحة ما رموهن به ، ومعلوم أن هذا العدد من الشهود غير مشروط إلا بالزنا ، ورابعها : انعقاد الإجماع على أنه لا يجب الجلد بالرمى " بغير الزنا . فوجب أن يكون المراد هنا هو الرمى بالزنا . . . " .و ، المحصنات " جمع محصنة ، والإحصان فى اللغة بمعنى المنع ، هذه درع حصينة أى : مانعة صاحبها من الجراحة . ويقال هذا موضع حصين ، أى : مانع من يريده بسوء .والمراد بالمحصنات هنا : النساء العفيفات البعيدات عن كل ريبة وفاحشة وسميت المرأة العفيفة بذلك . لأنها تمنع نفسها من كل سوء .قالوا : ويطلق. ، الإحصان على المرأة والرجل ، إذا توفرت فيهما صفات العفاف . والإسلام والحرية ، والزواج .وأنما خص - سبحانه - النساء بالذكر هنا : لأن قذفهن أشنع ، والعار الذى يلحقهن بسبب ذلك أشد ، وإلا فالرجال والنساء فى هذه الأحكام سواء .وقوله - تعالى - : ( والذين يَرْمُونَ المحصنات . . . ) مبتدأ ، أخبر عنه بعد ذلك بثلاث جمل ، وهى قوله : " فاجلدوهم . . . ، ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا ، وأولئك هم الفاسقون " .والمعنى أن الذين يرمون النساء العفيفات بالفاحشة ، ثم لم يأتوا بأربعة شهداء يشهدون لهم على صحة ، ما قذفوهن به ، فاجلدوا - أيها الحكام - هؤلاء القاذفين ثمانين جلدة عقابا لهم على ما تفوهوا به من سوء فى حق هؤلاء المحصنات ، ولا تقبلوا لهؤلاء القاذسفين شهادة أبدا بسبب إلصاقهم التهم الكاذبة بمن هو بىء منها . وأولئك هم الفاسقون . أى : الخارجون على أحكام شريعة الله - تعالى - وعلى آدابها السامية .فأنت ترى أن الله - تعالى - قد عاقب هؤلاء القاذفين للمحصنات بثلاث عقوبات .أولاها : حسية ، وتتمثل فى جلدهم ثمانين جلدة ، وهى عقوبة قريبة من عقوبة الزنا .وثانيتها : معنوية ، وتتمثل فى عدم قبول شهادتهم ، بأن تهدر أقوالهم ، ويصيرون فى المجتمع أشبه ما يكونون بالمنبوذين ، الذين إن قالوا لا يصدق الناس أقوالهم ، وإن شهدوا لا تقبل ، شهادتهم ، لأنهم انسخلت عنهم صفة الثقة من الناس فيهم .وثالثتها : دينية - وتتمثل فى وصف الله - تعالى - لهم بالفسق . أى : بالخروج عن طاعته سبحانه - وعن آداب دينه وشريعته .وما عاقب الله - تعالى - هؤلاء القاذفين فى أعراض الناس ، بتلك العقوبات الرادعة ، إلا لحكم من أهمها : حماية أعراض المسلمين من ألسنة السوء ، وصيانتهم من لك ما يخدش كرامتهم ، ويجرح عفافهم وأقسى شىء على النفوس الحرة الشريفة الطاهرة ، أن تلصق بهم التهم الباطلة. وعلى رأس الرذائل التى تؤدى إلى فساد المجتمع ، ترك ألسنة السوء تنهش . أعراض الشرفاء ، دون أن تجد هذه الألسنة من يخرسها أو يردعها .

الا الذين تابوا من بعد ذلك واصلحوا فان الله غفور رحيم

) - كما فسرها الوسيط وقد اتفق الفقهاء على أن الاستثناء فى قوله - تعالى إِلاَّ الذين تَابُواْ مِن بَعْدِ ذلك وَأَصْلَحُواْ ) يعود على الجملة الأخيرة . بمعنى أن صفة الفسق لا تزول عن هؤلاء القاذفين للمحصنات إلا بعد توبتهم وصلاح حالهم .أى : وأولئك القاذفون للمحصنات دون أن يأتوا بأربعة ، - شهداء على صحة ما قالوه . هم الفاسقون الخارجون عن طاعة الله - تعالى إلا الذين تابوا منهم من بعد ذلك توبة صادقة نصوحا ، وأصحلوا أحوالهم وأعمالهم ، فإن الله - تعالى - كفيل بمغفرة ذنوبهم ، وبشمولهم برحمته .كما اتفقوا - أيضا - على أن هذا الاستثناء لا يعود إلى العقوبة الأولى وهى الجلد ، لأن هذه العقوبة يجب أن تنفذ عليهم ، متى ثبت قذفهم للمحصنات ، حتى ، ولو تابوا وأصلحوا .والخلاف إنما هو فى العقوبة الوسطى وهى قبول شهادتهم : فجمهور الفقهاء يرون صحة عودة الاستثناء عليها بعد التوبة ، فيكون المعنى إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا ، فاقبلوا شهادتهم .ويرى الإمام أبو حنيفة أن الاستثناء لا يرجع إلى قبول شهادتهم ، وإنما يرجع فقط إلى العقوبة الأخيرة وهى الفسق ، فهم لا تقبل شهادتهم أبدا أى : طول مدة حياتهم ، حتى وإن تابوا وأصلحوا .وقد فصل القول فى هذه المسألة الإمام القرطبى فقال ما ، ملخصه : " تضمنت الآية ثلاثة أحكام فى القاذف : جلده ، ورد شهادته أبدا

وفسقه .فالاستثناء غير عامل فى جلده وإن تاب - أى أنه يجلد حتى ولو تاب
وعامل فى فسقه بإجماع . أى : أن صفة الفسق تزول عنه بعد ثبوت توبته.
واختلف الناس فى عمله فى رد الشهادة . فقال أبو حنيفة وغيره : "لا يعمل.
الاستثناء فى رد شهادته . وإنما يزول فسقه عند الله - تعالى - . وأما شهادة
القاذف فلا تقبل ألبتة . ولو تاب وأكذب نفسه ، ولا بحال من الأحوال .وقال
، الجمهور : الاستثناء عامل فى رد الشهادة ، فإذا تاب القاذف قبلت شهادته
وإنما كان ردها لعلة الفسق ، فإذا زال بالتوبة قبلت شهادته مطلقا ، قبل
الحد وبعده . وهو قول عامة الفقهاء .ثم اختلفوا فى صورة توبته ، فمذهب عمر
- بن الخطاب - رضى الله عنه - والشعبى وغيره : أن توبته لا تكون - مقبولة
: إلا إذا كذب نفسه فى ذلك القذف الذى حد فيه .وقالت فرقة منها مالك وغيره
توبته أن يصلح ويحسن حاله ، وإن لم يرجع عن قوله بتكذيب ، وحسبه الندم على
قذفه ، والاستغفار منه ، وترك العود إلى مثله " .ويبدو لنا أن ما أفتى به
أمير المؤمنين عمر بن الخطاب هو الأولى بالقبول ، لأن اعتراف القاذف بكذبه
فيه محو لآثار هذا القذف ، وفيه تبرئة صريحة للمقذوف ، وهذه التبرئة ،
تزيده انشراحا وسرورا ، وترد إليه اعتباره بين أفراد المجتمع .كما يبدو لنا
أن الأَوْلى فى هذه الحالة أن تقبل شهادة القاذف ، بعد هذه التوبة التى
صاحبها اعتراف منه بكذبه فيما قال : لأن إقدامه على تكذيب نفسه قرينة على
صدق توبته وصلاح حاله .وهكذا يحمى الإسلام أعراض أتباعه ، بهذه التشريعات
الحكيمة ، التى يؤدى اتباعها إلى السعادة فى الدنيا والآخرة .

والذين يرمون ازواجهم ولم يكن لهم شهداء الا انفسهم فشهادة احدهم اربع شهادات بالله انه لمن الصادقين

كما فسرها الوسيط ثم انتقلت السورة الكريمة من الحديث عن حكم القذف بصفة
: - عامة ، إلى الحديث عن حكم القذف إذا ما حدث بين الزوجين ، فقال - تعالى
ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات روايات. ( . . . والذين يَرْمُونَ )
متعددة ، منها ما أخرجه البخارى عن ابن عباس ، " أن هلال بن أمية ، قذف
امرأته عند النبى صلى الله عليه وسلم بِشَرِيك بن السحماء ، فقال له الرسول
، صلى الله عليه وسلم : " البينة أوحَدٌّ فى ظهرك " . فقال : يا رسول الله
إذا رأى أحدنا على امرأته رجلا ينطلق يلتمس البينة؟ فجعل النبى صلى الله
عليه وسلم يقول له : " البينة أو حد فى ظهرك " .فقال هلال : والذى بعثك
بالحق إنى لصادق ولينزلن الله ما يبرىء ظهري من الحد . فنزل جبريل بهذه
، الآيات .فانصرف النبى صلى الله عليه وسلم فأرسل إليهما ، فجاء هلال فشهد
والنبى صلى الله عليه وسلم يقول : إن الله يعلم أن أحدكم كاذب ، فهل منكما
تائب؟ ثم قامت زوجته فشهدت ، فلما كانت عند الخامسة وقفوها وقالوا : إنها
موجبة - أى للعذاب ولغضب الله - تعالى - .قال ابن عباس : فتلكأت ونكصت حتى
ظننا أنها ترجع ، ثم قالت :لا أفضح قومى سائر اليوم ، فمضت .وفى رواية
فشهدت فى الخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين ، ففرق الرسول صلى
الله عليه وسلم بينهما ، وقضى أن لا يدعى ولدها لأب ولا يرمى ولدها ، ومن
) - رماها أو رمى ولدها فعليه الحد . . " .والمراد بالرمى فى قوله - تعالى
) : - والذين يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ ) الرمى بفاحشة الزنا .وقوله - تعالى
وَلَمْ يَكُنْ لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلاّ أَنفُسُهُمْ ) أى : ولم يكن لهؤلاء
) : الأزواج الذين قذفوا زوجاتهم بالزنا من يشهد معهم سوى أنفسهم .وقوله
فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ ) أى : فشهادة أحدهم التى ترفع عنه حد القذف ، أن
يشهد " أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين " فيما رماها به من الزنا .قال
الجمل ما ملخصه : " قوله - تعالى - ( وَلَمْ يَكُنْ لَّهُمْ شُهَدَآءُ
، إِلاّ أَنفُسُهُمْ ) فى رفع أنفسهم وجها : أحدهما أنه بدل من شهداء
والثانى ، أنه نعت له على أن إلا بمعنى غير ، ولا مفهوم لهذا القيد . بل
يلاعن ولو كان واجدا للشهود الذين يشهدون بزناها . وقوله : ( فَشَهَادَةُ )
" . . . مبتدأ ، وخبره " أربع شهادات " أى : فشهادتهم المشروعة أربع شهادات
: وقرأ الجمهور : " أربع شهادات " بالنصب على المصدر ، لأن معنى : فشهادة.
أن يشهد .والتقدير : فعليهم أن يشهد أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن
الصادقين فيما قاله .

والخامسة ان لعنت الله عليه ان كان من الكاذبين

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( والخامسة أَنّ لَعْنَةَ الله
عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الكاذبين ) بيان لما يجب على القاذف بعد أن شهد
أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين .أى : والشهادة الخامسة بعد الأربع
المتقدمة ، أن يشهد القاذف بأن لعنة الله - تعالى - عليه ، إن كان من
الكاذبين ، فى رميه لزوجته بالزنا .قال الآلوسى : وإفرادها - أى الشهادة
الخامسة - بالذكر ، مع كونها شهادة - أيضا - ، لاستقلالها بالفحوى ووكادتها
، فى إفادتها ما يقصد بالشهادة من تحقيق الخبر ، وإظهار الصدق . وهى مبتدأ
خبره قوله - تعالى - ( لَعْنَةَ الله عَلَيْهِ ) .

ويدرا عنها العذاب ان تشهد اربع شهادات بالله انه لمن الكاذبين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما يجب على المرأة لكى تبرىء نفسها مما
رماها به زوجها فقال : ( وَيَدْرَؤُاْ عَنْهَا العذاب أن تَشْهَدَ
) - أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بالله إِنَّهُ لَمِنَ الكاذبين ) .وقوله - تعالى
وَيَدْرَؤُاْ ) من الدَّرْء بمعنى الدفع . يقال : درأ فلان التهمة عن نفسه
إذا دفعها عن نفسه ، وتبرأ منها .والمراد بالعذاب هنا : العذاب الدنيوى ،
وهو الحد الذى شرعه الله - تعالى - فى هذا الشأن .أى : أن الزوجة التى
رماها زوجها بفاحشة الزنا يدفع عنها الحد ويرفع ، إذا شهدت أربع شهادات
. بالله ، إن زوجها لمن الكاذبين فيما قذفها به

والخامسة ان غضب الله عليها ان كان من الصادقين

) كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( والخامسة ) بالنصب عطفا على
أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ ) .أى : يدرأ عنها العذاب إذا شهدت أربع شهادات بالله
أن زوجها كاذب فيما رماها به ، ثم تشهد بعد ذلك شهادة خامسة مؤداها : أن
غضب الله عليها ، إن كان زوجها من الصادقين ، فى اتهامه إياها بفاحشة الزنا
وجاء من جانب المرأة التعبير بقوله - تعالى - : ( أَنَّ غَضَبَ الله.
عَلَيْهَآ ) ليكون أشد فى زجرها عن الكذب ، واعترافها بالحقيقة بدون إنكار
. لأن العقوبة الدنيوية أهون من غضب الله - تعالى - عليها فى حالة كذبها ،

ولولا فضل الله عليكم ورحمته وان الله تواب حكيم

- كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات ببيان جانب من فضله
تعالى - على خلقه فقال : ( وَلَوْلاَ فَضْلُ الله عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ
وَأَنَّ الله تَوَّابٌ حَكِيمٌ ) .وجواب " لولا " محذوف . وجاءت الآية
بأسلوب الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ، للعناية بشأن مقام الامتنان والفضل
- من الله - تعالى - عليهم بتشريع هذه الأحكام .أى : ولوا أن الله - تعالى
تفضل عليكم ورحمكم - أيها المؤمنون - بسبب ما شرعه لكم فى حكم الذين يرمون
أزواجهم بالفاحشة . . . لولا ذلك لحصل لكم من الفضيحة ومن الحرج ما لا يحيط
به الوصف ، ولكنه - سبحانه - شرع هذه الأحكام سترا للزوجين ، وتخفيفا
عليهما . وحضا لهما على التوبة الصادقة النصوح ، وأن الله - تعالى - " تواب
أى : كثير القبول لتوبة التائب متى صدق فيها ، " حكيم " أى : فى كل ما "
شرعه لعباده .هذا ، ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآيات ، أن
قاذف زوجته بفاحشة الزنا ، إذا لم يأت بأربعة شهداء على صحة ما قاله . فإنه
يكون مخيرا بين أن يلاعن ، وبين أن يقام عليه الحد .بخلاف من قذف أجنبية
محصنة بفاحشة الزنا ، فإنه يقام عليه الحد ، إذا لم يأت بأربعة شهداء على
أنه صادق فى قوله .قال بعض العلماء : ولعلك تقول : لماذا كان حكم قاذف
: زوجته ، مخالفا لكم قاذف الأجنبية؟ وما السر فى أنه جاء مخففا؟والجواب
. أنه لا ضرر على الزوج بزنا الأجنبية؟ وأما زنا زوجته فيلحقه به العار
. وفساد البيت . فلا يمكنه الصبر عليه ، ومن الصعب عليه جدا أن يجد البينة
فتكليفه إياها فيه من العسر والحرج ما لا يخفى . وأيضا فإن الغالب فى الرجل
أنه لا يرمى زوجته بتلك الفاحشة ، إلا عن حقيقة . لأن فى هذا الرمى إيذاء
له ، وهتكا لحرمته ، وإساءة لسمعته . . . فكان رميه إياها بالقذف دليل صدقه
إلا أن الشارع أراد كمال شهادة الحال . بذكر كلمات اللعان المؤكدة .
بالأيمان ، فجعلها - منضمة إلى قوة جانب الزوج - قائمة مقام الشهود فى قذف
، الأجنبى " .كذلك أخذ العلماء من هذه الآيات أن كيفية اللعان بين الزوجين
أن يبدأ بالزوج فيقول أمام القاضى : أشهد بالله إنى لمن الصادقين ، وفى
المرة الخامسة يقول : لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين - أى فيما رمى به
زوجته - ، وكذلك المرأة تقول فى لعانها أربع مرات : أشهد بالله إنه لمن
- الكاذبين . وفى المرة الخامسة تقول : غضب الله عليها إن كان من الصادقين
أى فيما قاله زوجها فى حقها - .فإذا ما قالا ذلك . سقط عنهما الحد ، وفرق
القاضى بينهما فراقا أبديا .قال القرطبى : " قال مالك وأصحابه : وبتمام
اللعان تقع الفرقة بين المتلاعنين فلا يجتمعان أبدا . ولا يتوارثان . ولا
يحل له مراجعتها أبدا لا قبل زوج ولا بعده .وقال أبو حنيفة وغيره :لا تقع
الفرقة بعد فراغهما من اللعان حتى يفرق الحاكم بينهما .وقال الشافعى : إذا
أكمل الزوج الشهادة والالتعان : فقد زال فراش امرأته . التعنت أو لم تلتعن
لأن لعانها إنما هو لدرء الحد عنها لا غير . وليس لالتعانها فى زوال .
. " . . . الفراش معنى

ان الذين جاءوا بالافك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم لكل امرئ
منهم ما اكتسب من الاثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم

. كما فسرها الوسيط وبعد أن بين - سبحانه - حكم القذف بالنسبة للمحصنات
وبالنسبة للزوجات ، أتبع - عز وجل - ذلك بإيراد مثل لما قاله المنافقون فى
شأن السيدة عائشة - رضى الله عنها - . ولما كان يجب على المؤمنين أن يفعلوه
فى مثل هذه الأحوال ، فقال - تعالى - : ( إِنَّ الذين . . . ) .قال الإمام
ابن كثير ما ملخصه : " هذه الآيات نزلت فى شأن السيدة عائشة - رضى الله
عنها - حين رماها أهل الإفك والبهتان من المنافقين ، بما قالوه من الكذب
البحت ، والفرية التى غار الله - تعالى - لها ولنبيه صلى الله عليه وسلم
فأنزل براءتها صيانة لعرض الرسول صلى الله عليه وسلم .جاء فى الصحيحين
وغيرهما من حديث عائشة أنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا
أراد سفرا أقرع بين نسائه ، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه . فأقرع بيننا فى
غزوة غزاها فخرج سهمى - وكان ذلك فى غزوة بنى المصطلق على الأرجح - ، فخرجت
مع النبى صلى الله عليه وسلم ، وذلك بعدما أُنزل الحجاب ، وأنا أُحمل فى
هودج وأنزل فيه .فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوته
تلك ، وقفل ودنونا من المدينة ، آذن ليلة بالرحيل ، فقمت حين آذنوا بالرحيل
، حتى جاوزت الجيش .فلما قضيت من شأنى أقبلت إلى الراحلة ، فلمست صدرى ،
فإذا عقد لى قد انقطع ، فرجعت فالتمست عقدى فاحتبسنى ابتغاؤه ، وأقبل الرهط
الذين كانوا يرحلون بى ، فاحتملوا هودجى ، فرحلوه على بعيرى . وهم يحسبون
أنى فيه . وكان النساء إذ ذاك خفافا ، لم يثقلهن اللحم ، فلم يستنكر القوم
حين رفعوه خفة الهودج ، فاحتملوه ، وكنت جارية حديثة السن ، فبعثوا الجمل
وساروا ، فوجدت عقدى بعد ما سار الجيش . فجئت منزلهم ، وليس فيه أحد منهم
فيممت منزلى الذى كنت فيه . وظننت أن القوم سيفقدوننى فيرجعون إلى .فبينا
أنا جالسة فى منزلى غلبتنى عيناى فنمت وكان صفوان بن المعطل السلمى ، قد
عرّس - أى تأخر - من وراء الجيش ، فأصبح عند منزلى فرأى سواد إنسان نائم ،
فأتانى فعرفنى حين رآنى . وقد كان يرانى قبل أن يُضْرَب علينا الحجاب
فاستيقظت باسترجاعه حتى عرفنى . فخمرت وجهى بجلبابى ، والله ما كلمنى كلمة.
ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه ، حين أناخ راحلته ، فوطىء على يديها ،
فركبتها ، فانطلق يقود بى الراحلة . حتى أتينا الجيش ، بعدما نزلوا فى نحو
الظهيرة . فهلك من هلك فى شأنى ، وكان الذى تولى كبره عبد الله بن أبى بن
سلول . . . " .وقد افتتحت هذه الآيات الكريمة بقوله - تعالى - : ( إِنَّ
، الذين جَآءُوا بالإفك عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ ) .والإفك : أشنع الكذب وأفحشه
: يقال أفِكَ فلان - كضرب وعلم - أَفْكاً ، أى : كذب كذبا قبيحا .والعصبة
الجماعة من العشرة إلى الأربعين ، من العصب وهو الشد ، لأن كل واحد منها
يشد الآخر ويؤازره .أى : إن الذين قالوا ما قالوا من كذب قبيح ، وبهتان
شنيع ، على السيدة عائشة - رضى الله عنها - هم جماعة ينتسبون إليكم - أيها
المسلمون - بعضهم قد استزلهم الشيطان .- كمسطح بن أثاثة - وبعضهم يظهرون
الإسلام ويبطنون الكفر والنفاق - كعبد الله بن أبى بن سلول - وأتباعه .وفى
التعبير بقوله - تعالى - ( عُصْبَةٌ ) : إشعار بأنهم جماعة لها أهدافها
الخبيثة ، التى تواطئوا عل نشرها ، وتكاتفوا على إشاعتها ، بمكر وسوء نية
وقوله - سبحانه - : ( لاَ تَحْسَبُوهُ شَرّاً لّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ.
لّكُمْ لِكُلّ . . ) تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم ولأصحابه المؤمنين
الصادقين ، عما أصابهم من هم وغم بسبب هذا الحديث البالغ نهاية دركات الكذب
والقبح .أى :لا تظنوا - أيها المؤمنون - أن حديث الإفك هذا هو شر لكم ، بل
هو خير لكم ، لأنه كشف عن قوى الإيمان من ضعيفة . كما فضح حقيقة المنافقين
وأظهر ما يضمرونه من سوء للنبى صلى الله عليه وسلم ولأهل بيته ، وللمؤمنين
كما أنكم قد نلتم بصبركم عليه وتكذيبكم له أرفع الدرجات عند الله تعالى ،
: ثم بين - سبحانه - ما أعده لهؤلاء الخائضين فى حديث الإفك من عقاب فقال.
أى لكل واحد من هؤلاء. ( لِكُلِّ امرىء مِّنْهُمْ مّا اكتسب مِنَ الإثم )
الذين اشتركوا فى إشاعة حديث الإفك العقاب الذى يستحقه بسبب ما وقع فيه من
آثام ، وما اقترفه من سيئات .وقوله - تعالى - : ( والذي تولى كِبْرَهُ
مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ) بيان لسوء عاقبة من تولى معظم إشاعة هذا
: الحديث الكاذب .والكبر - بكسر الكاف وضمها - مصدر لمعظم الشىء وأكثره .أى
والذى تولى معظم الخوض فى هذا الحديث الكاذب ، وحرض على إشاعته ، له عذاب
عظيم لا يقادر قدره من الله - تعالى - .والمقصود بهذا الذى تولى كبره . عبد
، الله بن أبى بن سلول ، رأس المنافقين وزعيمهم ، فهو الذى قاد حملته
واضطلع بالنصيب الأكبر لإشاعته .روى أنه لما جاء صفوان بن المعطل يقود
راحلته وعليها عائشة - رضى الله عنها - قال عبد الله بن أبى لمن حوله : من
هذه؟ قالوا عائشة فقال - لعنه الله - : امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت
ثم جاء يقودها ، والله ما نجت منه وما نجا منها .وقال ابن جرير : " والأولى
بالصواب قول من قال ، الذى تولى كبره عبد الله بن أبى بن سلول ، وذلك أنه
لا خلاف بين أهل العلم بالسير ، وأن الذى بدأ بذكر الإفك . وكان يجمع أهله
ويحدثهم به ، هو عبد الله بن ابى بن سلول " .وقال الآلوسى : " والذى تولى
كبره . . . كما فى صحيح البخارى عن الزهرى عن عروة عن عائشة : هو عبد الله
بن أبى - عليه اللعنة - وقد سار على ذلك أكثر المحدثين .أخرج الطبرانى وابن
مردويه عن ابن عمر ، أنه بعد نزول هذه الآيات فى براءة السيدة عائشة دعا

الرسول صلى الله عليه وسلم أبا عبيدة بن الجراح فجمع الناس ، ثم تلاها عليهم .ثم بعث إلى عبد الله بن أبى . فجىء به فضربه حدين ، ثم بعث إلى حسان بن ثابت ، ومسطح . وحمنة بنت جحش فضربوا ضربا وجيعا . . . وقيل إن ابن أبى لم يحد أصلا ، لأنه لم يقر ، ولم يلتزم إقامة البينة عليه تأخيرا لجزائه إلى يوم القيامة " .

لولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بانفسهم خيرا وقالوا هذا افك مبين

كما فسرها الوسيط ثم وجه - سبحانه - المؤمنين إلى الطريق الذى كان يجب عليهم أن يسلكوه فى مثل هذه الأحوال فقال :( لولا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ المؤمنون والمؤمنات بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُواْ هاذآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ) .و " لولا " حرف تحضيض بمعنى هلا والمراد " بأنفسهم " هنا إخوانهم فى الدين والعقيدة .أى : هلا وقت أن سمعتم - أيها المؤمنون والمؤمنات - حديث الإفك هذا ظننتم " بأنفسكم " . أى : بإخوانكم وبأخواتكم ظنا حسنا جميلا ، وقلتم : هذا الحديث الذى أذاعه المنافقون كذب شنيع وبهتان واضح لا يصدقه عقل أو نقل .وفى التعبير عن إخوانهم وأخواتهم فى الدين بأنفسهم ، أسمى ألوان الدعوة إلى غرس روح المحبة والمودة والإخاء الصادق بين المؤمنين ، حتى لكأن الذى يظن السوء بغيره إنما ظنه بنفسه .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( . . . ثُمَّ أَنْتُمْ هؤلاء تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ . . . ) وقوله - سبحانه - ( . . وَلاَ تلمزوا أَنفُسَكُمْ . ) قال أبو حيان - رحمه الله - : " وعدل بعد الخطاب - فى الآية الأولى - إلى الغيبة فى هذه الآية - ، وعن الضمير إلى الظاهر ، فلم يجىء التركيب ظننتم بأنفسكم خيرا وقلتم هذا إفك مبين . ليبالغ - سبحانه - فى التوبيخ بطريقة الالتفات ، وليصرح بلفظ الإيمان ، دلالة على أن الاشتراك فيه ، مقتض فى أن لا يصدق مؤمن على أخيه قو عائب ولا طاعن ، وفيه تنبيه على أن المؤمن إذا سمع قالة سوء فى أخيه أن يبنى الأمر فيه على ظن الخير ، وأن يقول بناء على ظنه : هذا إفك مبين . هكذا باللفظ الصرحي ببراءة أخيه ، كما يقول ، المستيقن المطلع على حقيقة الحال ، وهذا من الأدب الحسن ، ومعنى بأنفسهم أى : كأن يقيس فضلاء المؤمنين والمؤمنات هذا الأمر على أنفسهم ، فإذا كان ذلك يبعد عليهم قضوا بأنه فى حق من هو خير منهم أبعد . . " .ولقد فعل المؤمنون الصادقون ذلك ، فها هو ذا أبو أيوب خالد بن زيد الأنصارى ، قالت له امرأته أم أيوب : يا أبا أيوب ، أما تسمع ما يقوله الناس في عائشة - رضى الله عنها -؟ قال : نعم ، وذلك الكذب . أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت : لا . والله ما كنت لأفعله . قال : فعائشة والله خير منك .وفى رواية أن أبا أيوب قال لزوجته أم أيوب : ألا ترين ما يقال؟ فقالت له : لو كنت بدل صفوان أكنت تظن بحرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم سوءا؟ قال :لا ، فقالت : ولو كنت أنا بدل عائشة - رضى الله عنها - ما خنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعائشة خير منى ، وصفوان خير منك .وهكذا المؤمنون الأطهار الأخيار ، يبنون أمورهم على حسن الظن بالناس .ورحم الله صاحب الانتصاف . فقد علق على ما قالته أم أيوب لزوجها فقال : ولقد ألهمت - أم أيوب - بنور الإيمان إلى هذا السر الذى انطوى عليه التعبير عن الغير من المؤمنين بالنفس ، فإنها نزلت زوجها منزلة صفوان ونفسها منزلة عائشة ، ثم أثبتت لنفسها ولزوجها البراءة والأمانة ، حتى أثبتتها لصفوان وعائشة بالطريق الأولى - رضى الله عنها - .

لولا جاءوا عليه باربعة شهداء فاذ لم ياتوا بالشهداء فاولئك عند الله هم الكاذبون

كما فسرها الوسيط ثم وصف - سبحانه - الخائضين فى حديث الإفك بالكذب لأنهم قالوا قولا بدون دليل ، فقال : ( لَّوْلاَ جَآءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ) أى : وما داموا لم يأتوا بهم - ولن يأتوا بهم - ( فأولئك عِندَ الله ) أى : فى حكمه - سبحانه - وفى شريعته ( هُمُ الكاذبون ) كذبا قبيحا تشمئز منه النفوس ، ويسجل عليهم الخزى والعار إلى يوم القيامة .

ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والاخرة لمسكم في ما افضتم فيه عذاب عظيم

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - جانبا من مظاهر فضله ورحمته بالمؤمنين فقال :( وَلَوْلاَ فَضْلُ الله عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدنيا والآخرة لَمَسَّكُمْ فِي مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ) .و " لولا " هنا لامتناع الشىء لوجود غيره ، و " أفضتم " من الإفاضة بمعنى التوسع فى الشىء . والاندفاع فيه بدون تريث أو تحقق ، وأصله من قوله : " أفاض فلان الإناء ، إذا ملأه حتى فاض " .أى : ولولا فضل الله عليكم ورحمته بكم - أيها المؤمنون - فى الدنيا بإعطائكم فرصة للتوبة . وفى الآخرة بقبول توبتكم ، لولا ذلك " لمسكم " أى : لنزل بكم بسبب ما أفضتم فيه من حديث الإفك عذاب

. - عظيم ، لا يعلم مقدار ألمه وشدته إلا الله - تعالى

اذ تلقونه بالسنتكم وتقولون بافواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم

كما فسرها الوسيط ثم صور - سبحانه - أحوالهم فى تلك الفترة العصيبة من تاريخ الدعوة الإسلامية فقال : ( إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ ) . و " إذ " ظرف لقوله - تعالى - ( لَمَسَّكُمْ ) .أى : لمسكم عذاب عظيم . وقت تقليكم هذا الحديث السيىء لسانا عن لسان باستخفاف واستهتار! ويأخذه بعضكم عن بعض بدون تحرج أو تدبر .( وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَّا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ) أى : وتقولون بأفواهكم قولا تلوكه الأفواه ، دون أن يكون معه بقية من علم أو بينة أو دليل .ففى هاتين الجملتين زجر شديد لأولئك الذين خاضوا فى حديث الإفك ، بدون تدبر أو تعقل ، حتى لكأنهم - وقد أفلت منهم الزمام ، واستزلهم الشيطان - ينطقون بما ينطقون به بأفواههم لا بوعيهم وبألسنتهم لا بعقولهم ، ولا بقلوبهم ، وإنما هم يتفوهون بكلمات لا علم ، لهم بحقيقتها .ولا دليل معهم على صدقها .وهذا كله يتنافى مع ما يقتضيه الإيمان الصحيح من تثبت ومن حسن ظن بالمؤمنين .ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بما هو أشد فى الزجر والتهديد فقال : ( وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِندَ الله عَظِيمٌ ) .أى : وتحسبون أن ما خضتم فيه من كذب على الصديقة بنت الصديق شيئا هينا ، والحال أن ما فعلتموه ليس كذلك ، بل هو عند الله - تعالى - وفى حكمه شىء عظيم ، تضج لهوله الأرض والسماء لأن ما خضتم فيه يسىء إلى النبى صلى الله عليه وسلم ويسىء إلى أهل بيته ، ويسىء إلى صحابى جليل هو صفوان ، ويسىء إلى بيت الصديق - رضى الله عنه - بل ويسىء إلى الجماعة الإسلامية كلها .

ولولا اذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا ان نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم

كما فسرها الوسيط ثم يوجههم - سبحانه - مرة أخرى إلى ما كان يجب عليهم أن يفعلوه فى مثل هذه الأحوال فيقول : ( ولولا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بهذا سُبْحَانَكَ هذا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ) .وأصل معنى " سبحانك " تنزيه الله - تعالى - عن كل نقص . ثم شاع استعماله فى كل أمر يتعجب منه . وهذا المعنى هو المراد هنا .والبهتان : هو الكذب الذى يبهت ويحير سامعه لشناعته وفظاعته ، يقال : بهت فلان فلانا إذا قال عليه مالم يقله وما لم يفعله .أى : وهلا وقت أن سمعتم - أيها المؤمنون - حديث الإفك ممن افتراه واخترعه ، قلتم له على سبيل الزجر والردع والإفحام : ما يكون لنا أن نتكلم بهذا . أى : ما يصح منا إطلاقا أن نتكلم بهذا الحديث البالغ أقصى الدركات فى الكذب والافتراء .وقلتم له أيضا - على سبيل التعجب من شناعة هذا الخبر : " سبحانك " ، أى : نتعجب يا ربنا من شناعة ما سمعناه ، فإن ما سمعناه عن أم المؤمنين عائشة كذب يبهت ويدهش من يسمعه ، وهو فى الشناعة لا تحيط بوصفه عبارة .وهكذا يؤدب الله - تعالى - عباده المؤمنين بالأدب السامى ، حيث يأمرهم فى مثل هذه الأحوال ، أن ينزهوا أسماعهم عن مجرد الاستماع إلى ما يسىء إلى المؤمنين ، وأن يتحرجوا من مجرد النطق بمثل حديث الإفك ، وأن يستنكروا ذلك على من يتلفظ به .

يعظكم الله ان تعودوا لمثله ابدا ان كنتم مؤمنين

كما فسرها الوسيط ثم نهى - سبحانه - المؤمنين من العودة إلى مثل هذا الأمر العظيم فقال : ( يَعِظُكُمُ الله أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِ أَبَداً إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ) .أى : يعظكم الله تعالى أيها المؤمنون - بما يرقق قلوبكم ، ويحذركم من العودة إلى الخوض فى حديث الإفك ، أو فيما يشبهه من أحاديث باطلة ، وعليكم أن تمتثلوا ما آمركم به ، وما أنهاكم عنه امتثالا كاملا ، إن كنتم مؤمنين إيمانا كاملا .فقوله - تعالى ( إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ) من باب تهييجهم وإثارة حماستهم للاستجابة لوعظه وتحذيره - سبحانه - .

ويبين الله لكم الايات والله عليم حكيم

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - ( وَيُبَيِّنُ الله لَكُمُ الآيات والله عَلِيمٌ حَكِيمٌ ) إبراز لما فضل به - سبحانه - عليهم من تعليم وتوجيه وحسن تربية .أى : ويبين الله - تعالى - لكم الآيات التى تسعدكم فى دنياكم وآخرتكم متى اتبعتم ما اشتملت عليه من آداب وأحكام ، والله - تعالى - " عليم " بأحوال خلقه " حكيم " فى جميع ما يأمر به ، أو ينهى عنه .

ان الذين يحبون ان تشيع الفاحشة في الذين امنوا لهم عذاب اليم في الدنيا

والاخرة والله يعلم وانتم لا تعلمون

، كما فسرها الوسيط ثم يواصل القرآن الكريم توجيهاته الحكيمة للمؤمنين
فيهدد الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا بالعذاب الأليم ، وينهى
. المؤمنين عن اتباع خطوات الشيطان ، قال تعالى : ( إِنَّ الذين يُحِبُّونَ
قال الإمام الرازى : " اعلم أنه - سبحانه - بعد أن بين ما على أهل. ( . .
، الإفك ، وما على من سمع منهم ، وما ينبغى أن يتمسك به المؤمنون من آداب
أتبعه بقوله : ( إِنَّ الذين يُحِبُّونَ أن تَشِيعَ الفاحشة فِي الذين
آمَنُواْ . . . ) ليعلم أن من أحب ذلك فقد شارك فى هذا الذم ، كما شارك فيه
من فعله ومن لم ينكره ، وليعلم أهل الإفك كما أن عليهم العقوبة فيما أظهروه
فكذلك يستحقون العقوبة بما أسروه ، من محبة إشاعة الفاحشة فى المؤمنين ،
ومعنى " تشيع " تنتشر وتكثر ، ومنه قولهم : شاع الحديث . إذا ظهر بين.
الناس .والفاحشة : هى الصفة البالغة أقصى دركات القبح ، كالرمى بالزنا وما
يشبه ذلك .وهى صفة لموصوف محذوف . أى : الخصلة الفاحشة ، والمقصود بمحبة
شيوعها : محبة شيوع خبرها بين عامة الناس .والمعنى : إن الذين يحبون أن
، تنتشر قالة السوء بين صفوف المؤمنين ، وفى شأنهم ، لكى يلحقوا الأذى بهم
هؤلاء الذين يحبون ذلك " لهم " بسبب نواياهم السيئة " عذاب أليم فى الدنيا
كإقامة الحد عليهم ، وازدراء الأخيار لهم ، ولهم - أيضا - عذاب أليم " فى "
الآخرة " وهو أشد وأبقى من عذاب الدنيا ." والله " تعالى وحده " يعلم " ما
ظهر وما خفى من الأمور والأحوال " وأنتم " أيها الناس - "لا تعلمون " إلا
ما كان ظاهرا منها ، فعاملوا الناس على حسب ظواهرهم ، واتركوا بواطنهم
لخالقهم ، فهو - سبحانه - الذى يتولى محاسبتهم عليها .فالآية الكريمة يؤخذ
منها : أن العزم على ارتكاب القبيح ، منكر يعاقب عليه صاحبه ، وأن محبة
الفجور وشيوع الفواحش فى صفوف المؤمنين ، ذنب عظيم يؤدى إلى العذاب الأليم
فى الدنيا والآخرة ، لأن الله - تعالى - علق الوعيد الشديد فى الدارين على
. محبة انتشار الفاحشة فى الذين آمنوا

ولولا فضل الله عليكم ورحمته وان الله رءوف رحيم

كما فسرها الوسيط ثم ذكر - سبحانه - المؤمنين بفضله عليهم مرة أخرى ، لكى
يزدادوا اعتبارا واتعاظا فقال ( وَلَوْلاَ فَضْلُ الله عَلَيْكُمْ
وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ الله رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ) .وجواب " لولا " محذوف ، كما
أن خبر المبتدأ محذوف ، والتقدير : ولولا فضل الله عليكم ، ورحمته بكم
موجودان ، لعاجلكم بالعقوبة . ولكنه - سبحانه - لم يعاجلكم بها ، لأنه شديد
. الرأفة والرحمة بعباده ، ولو يؤاخذهم بما كسبوا ما ترك عليها من دابة

يا ايها الذين امنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فانه
يامر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من احد
ابدا ولكن الله يزكي من يشاء والله سميع عليم

كما فسرها الوسيط ثم وجه - سبحانه - نداء إلى المؤمنين نهاهم فيه عن اتباع
خطوات الشيطان ، فقال : ( ياأيها الذين آمَنُواْ لاَ تَتَّبِعُواْ
خُطُوَاتِ الشيطان وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشيطان فَإِنَّهُ يَأْمُرُ
بالفحشآء والمنكر . . . ) .والخطوات : جمع خطوة . وهى فى الأصل تطلق على ما
بين القدمين . والمراد بها هنا : طرقه ومسالكه ووساوسه ، التى منها الإصغاء
إلى حديث الإفك ، والخوض فيه .وما يشبه ذلك من الأقوال الباطلة ، والأفعال
القبيحة .أى : يا من آمنتم بالله حق الإيمان ، احذروا أن تسلكوا المسالك
التى يغريكم بسلوكها الشيطان ، فإن الشيطان وظيفتها الإغراء بالشر لا
بالخير ، والأمر بالفحشاء والمنكر ، وليس بالفضائل والمعروف .وجواب الشرط
فى قوله : ( وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشيطان ) محذوف ، والتقدير : ومن
يتبع خطوات الشيطان يقع فى الضلال والعصيان ، فإن الشيطان لا يأمر إلا
بالفحشاء والمنكر .وخاطبهم - سبحانه - بصفة الإيمان ، لتحريك قوة الإيمان
- فى قلوبهم ، ولتهييجهم على الاستجابة لما أرشدهم إليه - سبحانه - .وقوله
سبحانه - ( وَلَوْلاَ فَضْلُ الله عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا
مِنكُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً . . . ) بيان لمظاهر فضله - تعالى - ولطفه
بعباده المؤمنين .والمراد بالتزكية هنا : التطهير من أرجاس الشرك ، ومن
الفسوق والعصيان .أى : ولولا فضل الله عليكم - أيها المؤمنون - ورحمته
- بكم - ما طهر أحد منكم من دنس الذنوب والمعاصى طول حياته ، ولكن الله
تعال - بفضله ورحمته يطهر من يشاء تطهيره من الأرجاس والأنجاس . بأن يقبل
توبته . ويغسل حوبته ." والله " - تعالى - " سميع " لدعاء عباده ومناجاتهم
. إياه " عليم " بما يسرونه وما يعلنونه من أقوال وأفعال

ولا ياتل اولو الفضل منكم والسعة ان يؤتوا اولي القربى والمساكين
والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا الا تحبون ان يغفر الله لكم

والله غفور رحيم

كما فسرها الوسيط ثم حض - عز وجل - أصحاب النفوس النقية الطاهرة ، على المواظبة على ما تعودوه من سخاء وسماحة ، فقال : ( وَلاَ يَأْتَلِ أُوْلُواْ الفضل مِنكُمْ والسعة أن يؤتوا أُوْلِي القربى والمساكين والمهاجرين فِي سَبِيلِ الله وَلْيَعْفُواْ وليصفحوا ألاَ تُحِبُّونَ أن يَغْفِرَ الله لَكُمْ والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ) .وقد صح أن هذه الآية الكريمة نزلت فى شأن أبى بكر - رضى الله عنه - عندما أقسم أن لا يعطى مسطح بن أثاثة شيئا من النفقة أو الصدقة .وكان مسطح قريبا لأبى بكر . وكان من الفقراء الذين تعهد - أبو بكر رضى الله عنه - بالإنفاق عليهم لحاجتهم وهجرتهم وقرابتهم منه .وقوله : ( وَلاَ يَأْتَلِ ) أى : ولا يحلف . يقال : آلى فلان وائتلى . إذا حلف ومنه قوله - تعالى - : ( لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ . . . ) أى : يحلفون .أى : ولا يحلف " أولوا الفضل منكم والسعة " أى أصحاب الزيادة منكم فى قوة الدين . وفى سعة المال " أن يؤتوا أولى القربى . . " أى : على أن لا يعطوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله ، شيئا من أموالهم .فالكلام فى قوله : " أن يؤتوا " على تقدير حرف الجر ، أى :لا يحلفوا على أن لا يؤتوا ، وحذف حرف الجر قبل المصدر المنسبك من أن وصلتهما مطرد ، ومفعول " يؤتوا " الثانى محذوف . أى : أن يؤتوا أولى القرى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله ، النفقة التى تعودوا أن يقدموها لهم .وقوله - تعالى - : ( وَلْيَعْفُواْ وليصفحوا ) تحريض على العفو والصفح .والعفو معناه : التجاوز عن خطأ المخطىء ونسيانه ، مأخوذ من ، عفت الريح الأثر ، إذا طمسته وأزالته .والصفح : مقابلة الإساءة بالإحسان فهو أعلى درجة من العفو .أى : قابلوا - أيها المؤمنون - إساءة المسىء بنسيانها ، وبمقابلتها بالإحسان .وقوله : ( ألاَ تُحِبُّونَ أن يَغْفِرَ الله لَكُمْ ) أى : ألا تحبون - أيها المؤمنون أن يغفر الله لكم ذنوبكم ، بسبب عفوكم وصفحكم عمن أساء إليكم؟فالجملة الكريمة ترغيب فى العفو والصفح بأبلغ أسلوب ، وقد صح أن أبا بكر - رضى الله عنه - لما سمع الآية قال : بلى والله يا ربنا ، إنا لنحب أن تغفر لنا ، وأعاد إلى مسطح نفقته ، وفى رواية أنه - رضى الله عنه - ضاعف لمسطح نفقته .قال الآلوسى : " وفى الآية من : الحث على مكارم الأخلاق ما فيها . واستدل بها على فضل الصديق - رضى الله عنه - ، لأنه داخل فى أولى الفضل قطعا ، لأنه وحده أو مع جماعة سبب النزول - ولا يضر فى ذلك الحكم لجميع المؤمنين كما هو الظاهر . . . " .ثم ختم سبحانه - الآية الكريمة بما يرفع من شأن العفو والصفح فقال : ( والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ) .أى : والله - تعالى - كثيرة المغفرة ، وواسع الرحمة بعباده ، فكونوا - أيها المؤمنون - أصحاب عفو وصفح عمن أساء إليكم .

ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والاخرة ولهم عذاب عظيم

كما فسرها الوسيط وبعد أن أمر - سبحانه - المؤمنين بالعفو والصفح عمن استزلهم الشيطان ، فخاضوا فى حديث الإفك ثم ندموا وتابوا ، أتبع ذلك ببيان سوء عاقبة المصريين على خبثهم وعلى محبة إشاعة الفاحشة فى صفوف الجماعة الإسلامية فقال - تعالى - : ( إِنَّ الذين . . . . ) .المعنى : " إن الذين يرمون " بالفاحشة النساء " المحصنات " أى : المانعات أنفسهن عن كل سوء وريبة " الغافلات " أى : الغافلات عن أن تدور الفاحشة بأذهانهن ، لأنهن طبعن على التخلق بالأخلاق الفاضلة الكريمة ، فهن فوق كونهن محصنات ، لا يخطر السوء ببالهن لطهارة معدنهن ." المؤمنات " أى : الكاملات الإيمان بالله - تعالى - ، وبصدق رسوله صلى الله عليه وسلم ، وبكل ما يجب الإيمان به .وقوله - سبحانه - : ( لُعِنُواْ فِي الدنيا والآخرة ) أى : طردوا من - رحمة الله - تعالى - فى الدنيا وفى الآخرة ، وفوق كل ذلك " لهم " منه - تعالى - " عذاب عظيم "لا تحيط العبارة بوصفه .

يوم تشهد عليهم السنتهم وايديهم وارجلهم بما كانوا يعملون

كما فسرها الوسيط وجملة " يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون " مقررة لمضمون ما قبلها ، مبنية لحلول وقت ذلك العذاب بهم أى : لهم عذاب عظيم يوم القيامة ، يوم يقفون أمام الله - تعالى - للحساب. فتشهد عليهم ألسنتهم ، وأيديهم ، وأرجلهم ، بما كانوا يعملونه فى الدنيا من أعمال سيئة ، وبما كانوا يقولونه من أقوال قبيحة .فالمراد بشهادة هذه الجوارح ، نطقها وإخبارها عما كانوا يعملونه فى الدنيا .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( حتى إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قالوا أنطقَنَا الله الذي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ . . . ) وقوله - سبحانه - ( اليوم نَخْتِمُ على

أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا
( كَانُواْ يَكْسِبُونَ

يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون ان الله هو الحق المبين

كما فسرها الوسيط والمراد بالدين فى قوله - تعالى - : ( يَوْمَئِذٍ
يُوَفِّيهِمُ الله دِينَهُمُ الحق . . . ) الجزاء الذى يستحقونه بسبب
" : آثامهم . ويوفيهم : من التوفية بمعنى إعطاء الشىء كاملا ووافيا . وقوله
يومئذ " ظرف ليوفيهم .أى : فى هذا اليوم العظيم وهو القيامة . الذى تشهد
فيه الجوارح على صاحبها ، يجازى الله - تعالى - هؤلاء الفاسقين الجزاء الحق
العادل الذى يستحقونه بسبب رميهم النساء المحصنات الغافلات المؤمنات
بالفاحشة ." ويعلمون " علما لا مجال معه للشك أو الريب عندما يشاهدون
، العذاب " أن الله " - تعالى - هو الإله " الحق " فى ذاته وصفاته وأفعاله
وأنه - عز وجل - هو " المبين " أى : المظهر لما أبطنته النفوس ، وخبأته
الضمائر ، والقادر على مجازاة الذين أساءوا بما عملوا ، وعلى مجازاة الذين
. أحسنوا بالحسنى

الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات
اولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - الآيات التى نزلت فى حديث الإفك بتقرير
سنته الإلهية ، التى نشاهدها فى واقع الناس - وهى : أن شبيه الشىء منجذب
إليه ، وأن الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف . وما تناكر منها
اختلف " - كما جاء فى الحديث الشريف - فقال - تعالى - : " الخبيثات
" للخبيثين " أى : الخبيثات من النساء ، مختصات بالخبيثين من الرجال
والخبيثون " من الرجال مختصون " بالخبيثات " من النساء ، " والطيبات " منهن
للطيبين " منهم ." والطيبون " - أيضا - منهم " للطيبات " منهن .وهكذا "
يألف الشكل كله ، والطيور على أشكالها تقع ، وإذا كان النبى صلى الله عليه
وسلم هو أطيب الطيبين ، فلا يمكن أن تكون زوجاته صلى الله عليه وسلم وعلى
رأسهن عائشة ، إلا من أطيب الطيبات من النساء ، وأطهر الطاهرات منهن .ثم
- جاءت شهادة الله - تعالى - وهى تغنى عن كل شهادة - بما يثبت براءة عائشة
) - رضى الله عنها - من كل ما افتراه عليها المفترون ، جاء قوله - سبحانه
أولئك مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ
أى : أولئك ، الطيبون والطيبات ، وعلى رأسهم رسول الله صلى الله عليه. (
وسلم وأهل بيته . وعلى رأس أهل بيته عائشة - رضى الله عنها - مبرءون مما
يقولون أى : مما يقوله الخبيثون والخبيثات فى شأنهم .وألوئك الطيبون
والطيبات " لهم مغفرة " عظيمة من الله - تعالى - ولهم " رزق كريم " هو جنة
عرضها السموات والأرض ، جزاء إيمانهم وعملهم الصالح وصبرهم على الأذى .هذا
هو حديث القرآن عن حديث الإفك ، الذى أشاعه الفاسقون عن السيدة عائشة - رضى
الله عنها - وكان مقصدهم الأكبر من وراء ذلك هو الطعن فى نبوة الرسول صلى
الله عليه وسلم . ولكن الله - تعالى - رد عليهم بما يكبتهم ويخرس ألسنتهم
هذا ، ويؤخذ من هذه الآيات الكريمة جملة من الأحكام والآداب من أهمها ما.
- يأتى :1 - غيرة الله - تعالى - على حرمة نبيه صلى الله عليه وسلم ودفاعه
سبحانه - عن أوليائه ، ورده لكيد المنافقين فى نحورهم .قال الإمام ابن كثير
- عند تفسيره لهذه الآيات : " هذه الآيات نزلت فى شأن عائشة أم المؤمنين
رضى الله عنها - حين رماها أهل الإفك والبهتان من المنافقين . بما قالوه من
الكذب البحت والفرية التى غار الله - تعالى - لها ولنبيه - صلوات الله
وسلامه عليه - فأنزل الله - سبحانه - براءتها ، صيانة لعرض الرسول صلى الله
عليه وسلم " .2 - تسلية الله - تعالى - لعباده المؤمنين ، عما أصابهم من هم
، - وغم بسبب هذا الحديث المفترى على الصديقة بنت الصديق - رضى الله عنهما
، وقد ظل هذا الحديث يتردد فى جنبات المدينة ، حتى نزلت هذه الآية الكريمة
لإحقاق الحق وإبطال الباطل .ومن مظاهر هذه التسلية قوله - تعالى - ( لاَ
تَحْسَبُوهُ شَرّاً لّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لّكُمْ . . . ) قال صاحب
الكشاف : ومعنى كونه خيرا لهم أنهم اكتسبوا فيه الثواب العظيم ، لأنه كان
بلاء .. . ومحنة ظاهرة . وأنه نزلت فيه ثمانى عشرة آية ، كل واحدة منها
. مستقلة ، بما هو تعظيم لشأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتسلية له
وتنزيه لأم المؤمنين - رضوان الله عليها - وتطهير لأهل البيت . وتهويل لمن
تكلم فى ذلك ، أو سمع به فلم تمجه أذناه ، وعدة ألطاف للسامعين والتالين
- إلى يوم القيامة . وفوائد دينية وأحكام وآداب لا تخفى على متأمليها " .3
إرشاد المؤمنين إلى أن من أنجع الوسائل لمحاربة الإشاعات الكاذبة ، أن يحسن
بعضهم الظن ببعض ، وأن يكتموا هذه الإشاعات حتى تموت فى مهدها ، وأن يزجروا
، من يتفوه بها . أو من يعمل بعلى ترويجها . وأن يظهروا له احتقارهم
ونفورهم من مجرد سماعها .وهذا الإرشاد الحكيم ، نراه فى آيات متعددة من هذه
القصة ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ( لولا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنّ

المؤمنون والمؤمنات بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُواْ هاذآ إِفْكٌ
مُّبِينٌ ) ( ولولا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن
نَّتَكَلَّمَ بهذا سُبْحَانَكَ هذا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ) .4 - بيان جانب من
مظاهر فضل الله - تعالى - ورحمته بعباده المؤمنين ، الذين سبقتهم ألسنتهم
بالخوض فى حديث الإفك ، أو فى سماعه . . . ثم تابوا بعد ذلك مما وقعوا فيه
ويتجلى هذا الفضل العظيم ، فى قوله - تعالى - : ( وَلَوْلاَ فَضْلُ الله
عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدنيا والآخرة لَمَسَّكُمْ فِي مَآ
أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ) ( وَلَوْلاَ فَضْلُ الله عَلَيْكُمْ
وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ الله رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ) ( وَلَوْلاَ فَضْلُ الله
عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً ولكن الله
يُزَكِّي مَن يَشَآءُ والله سَمِيعٌ عَلِيمٌ ) 5 - تحذير المؤمنين تحذيرا
شديدا ، عن مغبة الوقوع مرة أخرى . فيما وقع فيه بعضهم من الخوض فى حديث
الإفك ، وفيما يشبهه من أحداث ، وبيان أن ما حدث من بعضهم يتنافى مع ما
يقتضيه الإيمان ، ومع آداب الإسلام .ومن الآيات التى وردت فى هذا التحذير
قوله - تعالى - : ( يَعِظُكُمُ الله أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِ أَبَداً إِن
كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ وَيُبَيِّنُ الله لَكُمُ الآيات والله عَلِيمٌ
حَكِيمٌ ) 6 - تهديد الذين افتروا حديث الإفك بخبث وبسوء نية ، وبإصرار على
نشر قالة السوء فى صفوف المؤمنين . . . تهديدهم بأشد ألوان العذاب فى
الدنيا والآخرة ، ووصفهم بأقبح الصفات التى تدعو إلى نبذهم والبعد عنهم
ومن الآيات التى وردت فى ذلك قوله - تعالى : ( لَّوْلاَ جَآءُوا عَلَيْهِ
بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ بِالشُّهَدَآءِ فأولئك عِندَ
الله هُمُ الكاذبون ) وقوله - سبحانه - : ( إِنَّ الذين يُحِبُّونَ أَن
تَشِيعَ الفاحشة فِي الذين آمَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدنيا
والآخرة ) وقوله - عز وجل - : ( إِنَّ الذين يَرْمُونَ المحصنات الغافلات
المؤمنات لُعِنُواْ فِي الدنيا والآخرة وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ يَوْمَ
تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا
كَانُواْ يَعْمَلُونَ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ الله دِينَهُمُ الحق
وَيَعْلَمُونَ أَنَّ الله هُوَ الحق المبين ) .قال صاحب الكشاف - رحمه
الله - عند تفسيره لهذه الآيات ما ملخصه : " ولو فليت القرآن كله وفتشت عما
أوعد به العصاة ، لم تر الله - تعالى - قد غلظ فى شىء تغليظه فى الإفك على
عائشة - رضوان الله عليها . وأنزل - سبحانه - من الآيات القوارع ، المشحونة
بالوعيد الشديد . ما أنزل فى حديث الإفك ، ولو لم ينزل الله إلى هذه
الثلاث - يعنى قوله - تعالى - : ( إِنَّ الذين يَرْمُونَ المحصنات الغافلات
إلى قوله - سبحانه - ( وَيَعْلَمُونَ أَنَّ الله هُوَ الحق المبين ( . . .
لكفى بها . حيث جعل القذفة ملعونين فى الدارين جميعا ، وبأن جوارحهم تشهد (
عليهم بما أفكوا وبهتوا . . . . فأوجز - سبحانه - فى ذلك وأشبع ، وفصل
وأجمل ، وأكد وكرر . . . . وما ذلك إلا لإظهار علو منزلة رسوله صلى الله
عليه وسلم ونفى التهمة عن حرمته . . . " .7 - توجيه المؤمنين الصادقين إلى
العفو والصفح ، عمن شارك فى حديث الإفك بالقول ، أو بالسماع ، أو بالرضا به
ما دام هؤلاء المشاركون قد تابوا أو ندموا على ما وقع منهم ، ندما يدل ،
على حسن توبتهم ، كأن يعترفوا بخطئهم أو يعتذروا عما فرط منهم .ويشهد لهذا
التوجيه قوله - تعالى - فى شأن أبى بكر الصديق ، بعد أن أقسم أن لا ينفق
على مسطح - ( وَلاَ يَأْتَلِ أُوْلُواْ الفضل مِنكُمْ والسعة أَن يؤتوا
أُوْلِي القربى والمساكين والمهاجرين فِي سَبِيلِ الله وَلْيَعْفُواْ
وليصفحوا ألاَ تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ الله لَكُمْ والله غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ) 8 - تكريم السيدة عائشة - رضى الله عنها - تكريما يظل ملازما
لها إلى أن يرث الله - تعالى - الأرض ومن عليها . فقد برأها - سبحانه - مما
افتراه عليها المفترون ، وشهد بحصانتها وغفلتها عن السوء ، وقوة إيمانها ،
وطيب عنصرها ، وأنزل فى شأنها قرآنا يتلى إلى يوم القيامة ، ويكفيها فخرا
قوله - تعالى - : ( أولئك مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم
مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ) .وقد ساق بعض العلماء كثيرا من الأحاديث
التى تدل على فضلها وعلى حب النبى صلى الله عليه وسلم لها ، فقال ما ملخصه
وفى الجملة فإن أهل السنة مجمعون على تعظيم عائشة . وعلى محبة النبى " :
صلى الله عليه وسلم لها ، ففى الصحيح عن عمرو بن العاص قال : " قلت يا رسول
الله . أى النساء أحب إليك؟ قال : " عائشة " " .وثبت فى الصحيح - أيضا
" - أن الناس كانوا يتحرون بهداياهم يوم عائشة لما يعلمون من محبته صلى الله
عليه وسلم إياها . . . وكان فى مرضه الذى مات فيه يقول : أين أنا اليوم؟
استبطاء ليوم عائشة . ثم استأذن نساءه - رضى الله عنهن - أن يُمَرَّض فى
بيتها ، وفيه توفى فى حجرها " .هذه بعض الأحكام والآداب التى تؤخذ من هذه
الآيات ، ومن أرد المزيد فليرجع إلى أمهات كتب التفسير ، ففيها ما يشبع
وينفع .

يا ايها الذين امنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستانسوا وتسلموا على
اهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون

كما فسرها الوسيط وبعد أن بين - سبحانه - قبح جريمة الزنا . وشناعة جريمة القذف ، وعقوبة كل من يقع فى هاتين الجريمتين ، أتبع ذلك ببيان الآداب التى - تحمل المتمسك بها على التحلى بالفضيلة والنقاء والطهر . . . وبدأ سبحانه - بآداب الاستئذان فقال - تعالى - : ( ياأيها الذين . . . . ) .ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات ، أن امرأة من الأنصار جاءت إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ، إنى أكون فى بيتى على حال لا أحب أن يرانى عليها أحد ، لا والد ولا ولد ، فيأتى الأب فيدخل على وإنه لا يزال - يدخل على رجل من أهلى وأنا على تلك الحال ، فكيف أصنع؟ فنزل قوله - تعالى - : ( ياأيها الذين آمَنُواْ لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حتى تَسْتَأْنِسُواْ ) .فقال أبو بكر - رضى الله عنه - يا رسول الله ، أفرأيت الخانات والمساكن فى طرق الشام ، ليس فيها ساكن ، فأنزل الله - تعالى - : ( لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ ) .والمراد بالبيوت فى قوله - تعالى - البيوت المسكونة من أصحابها ، بدليل ( . . . لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتاً ) قوله - سبحانه - بعد ذلك ، ( لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ ) .وقوله - تعالى - : ( تَسْتَأْنِسُواْ ) من الاستئناس بمعنى الاستعلام والاستكشاف ، فهو من آنس الشىء إذا أبصره ظاهرا مكشوفا ، ومنه قوله - تعالى - ( فَلَمَّا قضى مُوسَى الأجل وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ من جَانِبِ الطور نَاراً قَالَ لأَهْلِهِ امكثوا إني آنَسْتُ نَاراً . . ) أى : قال لأهله إنى رأيت ناراً .ويصح أن يكون من الاستئناس الذى هو ضد الاستيحاش ، لأن الذى يقرع الباب غيره لا يدرى أيؤذن له أم لا ، فهو كالمستوحش من خفاء الحال عليه ، فإذا أذن له أهل البيت فى الدخول ، زالت وحشته ، ودخل وهو مرتاح النفس .وعلى هذا المعنى يكون الكلام من باب المجاز ، حيث أطلق اللازم وهو الاستئناس ، وأريد الملزوم وهو الإذن فى الدخول .والمعنى : يامن آمنتم بالله - تعالى - حق الإيمان ، لا تدخلوا " بيوتا غير بيوتكم التى تسكنونها ، والتى هى مسكونة لسواكم " حتى تستأنسوا " أى : حتى تعلموا أن صاحب البيت قد أذن لكم ، ورضيت نفسه بدخولكم ، وتسلموا على أهلها " أى : وتسلموا السلام الشرعى على أهل هذه البيوت الساكنين فيها .وعبر - سبحانه - عن الاستئذان فى الدخول بالاستئناس ، لأنه ، يوحى بأن القادم قد استأنس بمن يريد الدخول عليهم وهم قد أنسوا به . واستعدوا لاستقباله ، فهو يدخل عليهم بعد ذلك وهم متهيئون لحسن لقائه - فإذا ما صاحب كل ذلك التسليم عليهم . كان حسن اللقاء أتم وأكمل .وعبر سبحانه - عن الاستئذان فى الدخول بالاستئناس ، لأنه يوحى بأن القادم قد استأنس بمن يريد الدخول عليهم وهم قد أنسوا به ، واستعدوا لاستقباله ، فهو يدخل عليهم بعد ذلك وهم متهيئون لحسن لقائه . فإذا ما صاحب كل ذلك التسليم عليهم . كان حسن اللقاء أتم وأكمل .وقوله ( ذلكم ) : أى الاستئناس والتسليم قبل الدخول ( خَيْرٌ لَّكُمْ ) من الدخول بدون استئناس أو استئذان أو تسليم ، وقوله : ( لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ) متعلق بمحذوف ، ولعل هنا للتعليل. أى : أرشدناكم إلى هذا الأدب السامى ، وبيناه لكم ، كى تعملوا به ، وتكونوا . دائما متذكرين له ، وتتركوا اقتحام بيوت غيركم بدون استئذان منهم

فان لم تجدوا فيها احدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو ازكى لكم والله بما تعملون عليم

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - حالة أخرى توجب عليهم الاستئذان ، فقال : ( فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَداً فَلاَ تَدْخُلُوهَا حتى يُؤْذَنَ لَكُمْ . . ) .أى : فإن لم تجدوا فى هذه البيوت أحدا ، بأن كانت خالية من سكانها لظرف من الظروف ، فلا يصح لكم - أيضا - أن تدخلوها ، حتى يؤذن لكم فى دخولها ممن يملك الإذن بذلك .قال صاحب الكشاف : " وذلك أن الاستئذان لم يشرع لئلا يطلع الدامر - أى الداخل بغير إذن - على عورة ، ولا تسبق عينه إلى ما لا يحل النظر إليه فقط ، وإنما شرع لئلا يوقف على الأحوال التى يطويها الناس فى العادة عن غيرهم ، ويتحفظون من اطلاع أحد عليها ، ولأنه " تصرف فى ملك غيرك ، فلا بد من أن يكون برضاه ، وإلا أشبه الغصب والتغلب فالآية الأولى لبيان حكم دخول البيوت المسكونة بأهلها ، وهذه لبيان حكم دخول البيوت الخالية من سكانها .وقوله - تعالى - : ( وَإِن قِيلَ لَكُمْ ارجعوا فارجعوا هُوَ أزكى لَكُمْ ) بيان لما يجب عليهم فى حالة عدم الإذن ، لهم بالدخول .أى : وإن قيل لكم من جهة أهل البيت ارجعوا ولا تدخلوا ، فارجعوا ولا تلحوا فى طلب الدخول ، فإن هذا الرجوع هو أطهر لأخلاقكم وأبقى لمرءوتكم . من الإلحاح فى الاستئذان ، ومن الوقوف على أبواب ) : - أصحابُها قد تكون أحوالهم لا تسمح لكم بالدخول عليهم .وقوله - سبحانه والله بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ) تذييل قصد به التحذير من مخالفة ما أمر الله - تعالى - به ، وما نهى - سبحانه - عنه .أى : والله - تعالى - لا تخفى عليه خافية من أعمالكم ، فأصلحوها ، والتزموا باتباع ما أمركم به ، وما

نهاكم عنه ، فإنه - سبحانه - سيجازيكم عليها بما تستحقون من ثواب أو عقاب . فالمقصود من هذا الإخبار : إفادة لازمه وهو المجازاة على هذه الأعمال.

ليس عليكم جناح ان تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ ) بمنزلة الاستثناء من الأحكام التى اشتملت عليها الآيتان السابقتان .فقد ذكر المفسرون أنه لما نزلت آية الاستئذان ، قال بعض الصحابة يا رسول الله . كيف ، بالبيوت التى بين مكة والمدنية والشام وبيت المقدس ، وهى على ظهر الطريق وليس فيها ساكن من أربابها ، فنزلت هذه الآية .والمراد بالمتاع : التمتع والانتفاع بها .أى : ليس عليكم - أيها المؤمنون - حرج أو إثم فى أن تدخلوا بغير استئذان بيوتا غير معدة لسكنى طائفة معينة من الناس ، بل هى معدة ، لينتفع بها من يحتاج إليها من دون أن يتخذها مسكنا له ، كالرباطات والفنادق ، والحوانيت ، والحمامات ، وغير ذلك من الأماكن المعدة للراحة المؤقتة لا للسكن والإقامة .وقوله : ( فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ ) أى : فيها حق تمتع وانتافع لكم ، كالوقاية من الحر والبرد . وكتبادل المنافع فيما بينكم بالبيع أو الشراء ، وغير ذلك مما يتناسب مع وظيفة هذه البيوت غير المسكونة .وقوله - سبحانه - : ( والله يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ) وعيد وتحذير آخل لأولئك الذين يدخلون البيوت ولا يرعون حرمتها ، بل يبيحون لعيونهم ولجوارحهم ، مالم تبحه آداب الإسلام ، وتعاليمه - كالتطلع إلى العورات . وما يشبه ذلك من المقاصد السيئة .أى : والله ، تعالى - وحده يعلم ما تظهرونه وما تخفونه من أقوال وأعمال ، وسيحاسبكم عليها ، فاحذروا أن تسلكوا مسلكا لا يرضى خالقكم عنكم .هذا ، ومن الأحكام - والآداب التى أخذها العلماء من هذه الآيات ما يأتى :1 - أن على كل إنسان ، سواء أكان رجلا أم امرأة - أن يستأذن ويسلم قبل الدخول على غيره فى بيته لأن الله - تعالى - يقول : ( ياأيها الذين آمَنُواْ لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حتى تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ على أَهْلِهَا . . . ) فهذا نهى صريح عن الدخول بدون استئذان .إلا أن جمهور الفقهاء يرون أن الطلب فى الاستئناس على سبيل الوجوب وفى السلام على سبيل الندب ، كما هو حكم السلام فى غير هذا الموطن .2 - يرى بعض العلماء أن القادم يبدأ بالاستئذان قبل السلام ، كما جاء فى الآية الكريمة ، ويرى كثير منهم تقديم السلام على الاستئذان ، لأن الواو لا تستلزم الترتيب ، ولأن هناك أحاديث متعددة ، تفيد أن السلام مقدم على الاستئذان ، ومنها ما أخرجه الترمذى عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " السلام قبل الكلام " .وبعض العلماء فصل فى هذه المسألة فقال : إن كان القادم يرى أحدا من أهل البيت ، سلم أولا ثم استأذن فى الدخول ، وإن كان لا يرى أحدا منهم قدم الاستئذان على السلام .وهذا الرأى وجاهته ظاهرة ، لأن فيه جمعا بين الأدلة .3 -لا صحة لما ذكره بعضهم من أن أصل الآية " حتى تستأذنوا " ، وأن الكاتبين أخطأوا فى كتابتهم فكتبوا " حتى تستأنسوا " ، وذلك لأن جميع ، الصحابة أجمعوا على كتابة " حتى تستأنسوا " فى جميع نسخ المصحف العثمانى وعلى تلاوة الآية بلفظ " تستأنسوا " ومضى على ذلك إجماع المسلمين فى كل مكان ، سواء فى كتابتهم للمصحف أم فى قراءتهم له .قال القرطبى : إن مصاحف الإسلام كلها ، قد ثبت فيها " حتى تستأنسوا " وصح الإجماع فيها من لدن عثمان ، فهى لا تجوز مخالفتها . وإطلاق الخطأ والوهم على الكاتب فى لفظ أجمع الصحابة عليه قول لا يصح .. . وقد قال الله - تعالى - ( لاَّ يَأْتِيهِ الباطل مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ) وقال - سبحانه - ( إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ) سورة الحجر الآية 9 .4 - ظاهر قوله - تعالى - أن الاستئذان غير مقيد بعدد ، إلا أن السنة ( . . حتى تَسْتَأْنِسُواْ ) : الصحيحة قد بينت أن الاستئذان يكون ثلاث مرات فإن لم يؤذن له بعدها انصرف ومن الأحاديث التى وردت فى هذا المعنى ما رواه البخارى عن أبى سعيد الخدرى. - قال : " كنت فى مجلس من مجالس الأنصار ، إذ جاء أبو موسى - كأنه مذعور فقال : استأذنت على عمر ثلاثا فلم يؤذن لى فرجعت فقال : ما منعك - أى من الدخول -؟ قلت : استأذنت ثلاثا فلم يؤذن لى : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع . فقال لى : لتأتين بالبينة . فهل منكم أحد سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول ذلك؟ فقام معه أبى بن كعب ، فأخبر عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ذلك " .قال بعض العلماء : " والراجح أن الواجب إنما هو الاسئذان مرة . فأما كمال العدد ثلاثا فهو حق المستأذن إن شاء أكمله ، وإن شاء اقتصر على مرة أو مرتين . فقد ثبت أن عمر بن الخطاب استأذن على النبى صلى الله عليه وسلم مرتين ، فلم يؤذن له فرجع ، فتبعه غلام فقال له : ادخل فقد أذن لك النبى صلى الله عليه وسلم .5 - ظاهر قوله - تعالى - ( لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتاً غَيْرَ

بُيُوتِكُمْ حتى تَسْتَأْنِسُواْ ) يفيد أنهم ليس عليهم استئذان فى دخول
بيوتهم . إلا أن هذا الظاهر يصح حمله على الزوجة . لأنه يجوز بين الزوج
وزوجته من الأحوال مالا يجوز لأحد غيرهما ، ومع ذلك فإنه ينبغى أن يشعر
الرجل زوجته بقدومه ، حتى لا يفاجئها بما تكره له أن يطلع عليه .ورحم الله
الإمام ابن كثير فقد قال عند تفسره لهذه الآيات : وهذا - أى عدم الاستئذان
على الزوجة - محمول على عدم الوجوب ، وإلا فالأولى أن يعلمها بدخوله ولا
يفاجئها به ، لاحتمال أن تكون على هيئة لا تحب أن يراها عليها . . . ولهذا
جاء فى الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنه نهى أن يطرق
الرجل أهله طروقا .وأما بالنسبة لغير زوجته ، كأمه ، وأخواته ، وبنيه
وبناته البالغين ، فإنه يلزمه أن يستأذن عليهم ، لأنه إن دخل عليهم بدون
استئذان ، فقد تقع علينه على ما لا يصح الاطلاع عليه .ومن الأحاديث التى
وردت فى هذا المعنى . ما أخرجه مالك فى الموطأ عن عطاء بن يسار ، " أن رجلا
قال للنبى صلى الله عليه وسلم : أأستأذن على أمى؟ قال : " نعم ، قال : ليس
لها خادم غيرى ، أأستأذن عليها كلما دخلت؟ قال صلى الله عليه وسلم أتحب أن
تراها عريانة؟ قال : لا . . . قال : فاستأذن عليها " " .وأخرج البخارى فى
الأدب المفرد عن نافع : كان ابن عمر إذا بلغ بعض ولده الحلم ، لم يدخل عليه
إلا بإذن .6 - وردت أحاديث متعددة فى كيفية الاستئذان ، وفى التحذير من
التطلع إلى بيوت الغير بدون إذن .فمن آداب الاستئذان أن لا يقف المستأذن
أمام الباب بوجهه . ولكنه يجعل الباب عن يمينه أو عن يساره ، ومن الأحاديث
التى وردت فى ذلك ما أخرجه أبو داود عن عبد الله بن بشر قال : كان رسول
الله صلى الله عليه وسلم إذا أتى باب قوم ، لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه
ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر ، ويقول : السلام عليكم .كذلك من آداب ،
الاستئذان أن لا يقول المستأذن " أنا " فى الرد على رب المنزل ، وإنما يذكر
اسمه ، ففى صحيح البخارى عن جابر قال : أتيت النبى صلى الله عليه وسلم فى
دين كان على أبى ، فدققت الباب ، فقال : من ذا؟ قلت : أنا . فقال أنا ، أنا
كأنه كرهها " .ولعل السر فى النهى عن الرد بلفظ " أنا " أن هذا اللفظ ،
يعبر به كل واحد عن نفسه ، فلا تحصل به معرفة شخصية المستأذن ، والمقصود
بالاستئذان الإفصاح لا الإبهام .أما التحذير من التطلع إلى بيوت الغير بدون
إذن ، فيكفى لذلك ما جاء فى الصحيحين عن أبى هريرة ، " أن رسول الله صلى
- : الله عليه وسلم قال : " لو أن امرأ اطلع عليك بغير إذنك فحذفته - أى
رميته - بحصاة ، ففقأت عينه ، ما كان عليك من جناح " " .هذه بعض الأحكام
والآداب التى تتعلق بالاستئذان ، ومنها نرى كيف أدب الإسلام أتباعه بهذا
الأدب العالى ، الذى يؤدى التمسك به إلى غرس الفضائل ومكارم الأخلاق فى
. نفوس الأفراد والجماعات

قل للمؤمنين يغضوا من ابصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك ازكى لهم ان الله خبير
بما يصنعون

. كما فسرها الوسيط وبعد أن نهى - سبحانه - عن دخول البيوت بدون استئذان
أتبع ذلك بالأمر بغض البصر ، وحفظ الفرج ، وعدم إبداء الزينة إلى فى الحدود
المشروعة ، فقال - تعالى - : ( قُلْ لِّلْمُؤْمِنِينَ . . . ) .قال الآلوسى
. قوله - تعالى - ( قُلْ لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَارِهِمْ :
شروع فى بيان أحكام كلية شاملة للمؤمنين كافة ، يندرج فيها حكم ( . .
المستأذنين عند دخول البيوت اندراجا أوليا .وقوله - تعالى - : ( يَغُضُّواْ
من الغض بمعنى الخفض . يقال : غض الرجل صوته إذا خفضه . وغض بصره إذا (
خفضه ومنعه من التطلع إلى مالا يحل له النظر إليه . قال الشاعر :وأغض طرفى
: إن بدت لى جارتى ... حتى يوارى جارتى مأواهاوهو جواب الأمر " قل " أى
قل - أيها الرسول الكريم - للمؤمنين بأن يغضوا من أبصارهم عما يحرم أو يكره
النظر إليه وبأن يحفظوا فروجهم عما لا يحل لهم ، فإن ذلك دليل على كمال
- الإيمان! وعلى حسن المراقبة وشدة الخوف من الله - تعالى - .وجمع - سبحانه
بين غض البصر وحفظ الفرج ، باعتبارهما كالسبب والنتيجة ، إذ أن عدم غض
البصر كثيرا ما يؤدى إلى الوقوع فى الفواحش ، ولذا قدم - سبحانه - الأمر
بغض البصر ، على الأمر بحفظ الفرج .وجاء التعبير بقوله - سبحانه - ( قُلْ )
للإشعار بأن المؤمنين الصادقين ، من شأنهم إذا ما أمرهم الرسول صلى الله
عليه وسلم بأمر ، فإنهم سرعان ما يمتثلون ويطيعون ، لأنه صلى الله عليه
- وسلم مبلغ عن الله - تعالى - الذى يجب الامتثال لأمره ونهيه .وخص
سبحانه - المؤمنين بهذا الأمر ، لأنهم أولى الناس بالمخاطبة . وبالإرشاد
إلى ما يرفع درجاتهم ، ويعلى أقدارهم .قال صاحب الكشاف : و " من " للتبعيض
فإن قلت : كيف دخلت فى غض البصر ، دون حفظ الفروج؟ قلت : للدلالة على . . .
. . . أن أمر النظر أوسع ألا ترى أن المحارم لا بأس بالنظر إلى شعورهن
والأجنبية ينظر إلى وجهها وكفيها . . . وأما أمر الفرج فمضيق .واسم الإشارة
فى قوله - تعالى - : ( ذلك أزكى لَهُمْ ) يعود إلى ما ذكر من الغض والحفظ
أى : ذلك الذى كلفناك بأمر المؤمنين به - أيها الرسول الكريم - أزكى.
- لقلوبهم ، وأطهر لنفوسهم ، وأنفع لهم فى دنياهم وآخرتهم .وقوله - سبحانه

- تحذير من مخالفة أمره ( إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ) :
سبحانه - .أى : مرهم - أيها الرسول الكريم - بالتزام ما أمرناهم به وما
نهيناهم عنه ، لأننا لا يخفى علينا شىء من تصرفاتهم ، ولأننا أعلم بهم من
أنفسهم ، وسنحاسبهم على ما يصنعون فى دنياهم ، يوم القيامة .

وقل للمؤمنات يغضضن من ابصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر
منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن او ابائهن
او اباء بعولتهن او ابنائهن او ابناء بعولتهن او اخوانهن او بني اخوانهن او
بني اخواتهن او نسائهن او ما ملكت ايمانهن او التابعين غير اولي الاربة من
الرجال او الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بارجلهن ليعلم
ما يخفين من زينتهن وتوبوا الى الله جميعا ايه المؤمنون لعلكم تفلحون

كما فسرها الوسيط ثم أرشد - سبحانه - النساء إلى ما أرشد إليه الرجال فقال
وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ ) :
( فُرُوجَهُنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا
أى : وقل - أيها الرسول الكريم - للمؤمنات - أيضا - بأن الواجب عليهم أن.
يكففن أبصارهن عن النظر إلى مالا يحل لهن ، وأن يحفظن فروجهن عن كل ما نهى
الله - تعالى - عنه ، ولا يظهرن شيئا مما يتزين به ، إلا ما جرت العادة
بإظهاره ، كالخاتم فى الإصبع ، والكحل فى العين .. . وما يشبه ذلك من
الأمور التى لا غنى للمرأة عن إظهارها .ومع أن النساء يدخلن فى خطاب الرجال
، على سبيل التغليب ، إلا أن الله - تعالى - خصهن بالخطاب هنا بعد الرجال
لتأكيد الأمر بغض البصر ، وحفظ الفرج ، ولبيان أنه كما لا يحل للرجل أن
ينظر إلى المرأة - إلا فى حدود ما شرعه الله - فإنه لا يحل للمرأة كذلك أن
تنظر إلى الرجل ، لأن علاقتها به ، ومقصده منها كمقصدها منه ، ونظرة أحدهما
للآخر - على سبيل الفتنة وسوء القصد - يؤدى إلى مالا تحمد عقباه .وقوله -
تعالى - : ( وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ على جُيُوبِهِنَّ ) بيان لكيفية
إخفاء بعض مواضع الزينة بعد النهى عن إبدائها .والخُمُر - بضم الخاء
والميم - جمع خمار . وهو ما تغطى به المرأة رأسها وعنقها وصدرها ، والجيوب
جمع جيب ، وهو فتحة فى أعلى الثياب يبدو منها بعض صدر المرأة وعنقها
والمراد به هنا : محله وهو أعلى الصدر ، وأصله : من الجَب بمعنى القطع .أى.
وعلى النساء المؤمنات أن يسترن رءوسهن وأعناقهن وصدورهن بخمرهن ، حتى لا :
يطلع أحد من الأجانب على شىء من ذلك .قالوا : وكان النساء فى الجاهلية
يسدلن خمرهن من خلف رءوسهن ، فتنكشف نحورهن وأعناقهن وقلائدهن ، فنهى
الله - تعالى - المؤمنات عن ذلك .ولقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه
الآية جملة من الأحاديث ، منها : ما رواه البخارى عن عائشة - رضى الله
: - عنها - قالت : يرحم الله نساء المهاجرات الأول - لما أنزل الله - تعالى
أخذن أزرهن فشققنها ( وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ على جُيُوبِهِنَّ )
فاختمرن بها .وفى رواية أنها قالت : إن لنساء قريش لفضلا ، وإنى - والله ما
، رأيت أفضل من نساء الأنصار أشد تصديقا بكتاب الله ، ولا إيمانا بالتنزيل
لما نزلت هذه الآية . انقلب إليهن رجالهن يتلون عليهن ما أنزل الله إليهم
فيها ، ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته ، وعلى كل ذى قرابة ، فما منهم
امرأة إلا قامت إلى مرطها - وهو كساء من صوف - فاعتجرت به تصديقا وإيمانا
بما أنزل الله من كتابه ، فأصبحن وراء رسول الله صلى الله عليه وسلم فى
صلاة الصبح معتجرات كأن رءوسهن الغربان .والمقصود بزينتهن فى قوله -
تعالى - : ( وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ )
الزينة الخفية وهى ما عدا الوجه والكفين ، كشعر الرأس والذراعين والساقين
فقد نهى الله - تعالى - النساء المؤمنات عن إبداء مواضع الزينة الخفية لكل.
أحد ، إلا من استثناهم - سبحانه - بعد ذلك ، وهم اثنا عشر نوعا ، بدأهم
بالبعول وهم الأزواج لأنهم هم المقصودون بالزينة ، ولأن كل بدن الزوجة حلال
لزوجها .أى : وعلى النساء المؤمنات أن يلتزمن الاحتشام فى مظهرهن ، ولا
يبدين مواضع زينتهن الخفية إلا " لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو
" أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أن بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن
فهؤلاء الأصناف السبعة الذين ذكرهم الله - تعالى - بعد الأزواج ، كلهم من
المحارم الذين لا يحل للمرأة الزواج بواحد منهم ، وقد جرت العادة باحتياج
النساء إلى مخالطتهم ، كما جرت العادة بأن الفتنة مأمونة بالنسبة لهم ، فمن
طبيعة النفوس الكريمة أنها تأنف من التطلع إلى المحارم بالنسبة لها . ويلحق
، بهؤلاء المحارم الأعمام والأخوال والمحارم من الرضاع . والأصول وإن علوا
والفروع وإن سفلوا ،وقوله - تعالى - : ( أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا
مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التابعين غَيْرِ أُوْلِي الإربة مِنَ الرجال
أَوِ الطفل الذين لَمْ يَظْهَرُواْ على عَوْرَاتِ النسآء ) بيان لبقية
الأفراد الذين يجوز للمرأة أن تبدى زينتها الخفية أمامهم .أى : ويجوز
للنساء المؤمنات أن يبدين زينتهن - أيضا - أمام نسائهم المختصات بهن الصحبة
والخدمة ، وأمام ما ملكت إيمانهن من الإيماء لا من العبيد البالغين ، وأمام
الرجال التابعين لهن طلبا للإحسان والانتفاع ، والذين فى الوقت نفسه قد

، تقدمت بهم السن ، ولا حاجة لهم فى النساء ، ولا يعرفون شيئا من أمورهن
) : - ولا تحدثهم أنفسهم بفاحشة ، ولا يصفونهن للأجانب .فقوله - سبحانه
: غَيْرِ أُوْلِي الإربة ) أى : غير ذوى الحاجة من الرجال فى النساء يقال
أَرِب الرجل إلى الشىء يأرَبُ أرضبا - من باب تعب إذا احتاج إليه .ويجوز
لهن كذلك إظهار زينتهن أمام الأطفال الذين لم يظهروا على عورات النساء ، أى
الذين لم يعرفوا ما العورة ، ولم يستطيعوا بعد التمييز بينها وبين غيرها :
ولم يبلغوا السن التى يشتهون فيها النساء .يقال : ظهر على الشىء إذا اطلع ،
عليه وعرفه ، ويقال : فلان ظهر على فلان إذا قوى عليه وغلبه .فهؤلاء اثنا
عشر نوعا من الناس ، ليس عليهم ولا على المرأة حرج ، فى أن يروا منها موضع
الزينة الخفية ، كالرأس والذراعين ، والساقين ، لا نتفاء الفتنة التى من
- أجلها كان الستر والغطاء . فأما الزوج فله رؤية جميع جسدها .ثم نهى
سبحانه - النساء عن ابداء حركات تعلن عن زينتهن المستورة ، بل عليهن أن
يلتزمن من خلال خروجهن من بيوتهن الأدب والاحتشام والمشى الذى يصاحب الوقار
والاتزان ، فقال - تعالى - : ( وَلاَ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنّ
لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنّ ) .أى : ولا يصح للنساء
المؤمنات أن يضربن بأرجلهن فى الأرض ، ليسمعن غيرهن من الرجال أصوات حليهن
الداخلية ، بقصد التطلع إليهن ، والميل نحوهن بالمحادثة أو ما يشبهها
فالمقصود من الجملة الكريمة نهى المرأة المسلمة ، عن استعمال أى حركة أو.
فعل من شأنه إثارة الشهوة والفتنة كالمشية المتكلفة ، والتعطر الملفت للنظر
وما إلى ذلك من ألوان التصنع الذى من شأنه تهييج الغرائز الجنسية .ثم ،
ختم - سبحانه - تلك الآية الجامعة لأنواع من الأدب السامى ، بدعوة المؤمنين
إلى التوبة الصادقة . فقال - تعالى - : ( وتوبوا إِلَى الله جَمِيعاً
أَيُّهَ المؤمنون لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ) .أى : وتوبوا إلى الله جميعا
أيها المؤمنون والمؤمنات ، توبة صادقة نصوحا تجعلكم تخشونه - سبحانه - فى
: السر والعلن ، لكى تنالوا الفلاح والنجاح فى دنياكم وأخراكم .قال القرطبى
ليس فى القرآن الكريم آية أكثر ضمائر من هذه الآية . جمعت خمسة وعشرين "
ضميرا للمؤمنات ما بين مرفوع ومجرور . . . " .هذا ، ومن الأحكام والآداب
، التى اشتملت عليها هاتان الآيتان ما يأتى :1 - وجوب غض البصر وحفظ الفرج
لأن الإسلام يهدف إلى مجتمع طاهر من الدنس ، نظيف من الخنا ، مجتمع لا تمنع
فيه الشهوات الحلال وإنما تمنع منه الشهوات الحرام ، مجتمع لا تختلس فيه
العيون النظرات السيئة ولا تتطلع فيه الأبصار إلى مالا يحل لها التطلع إليه
فالله - تعالى - يقول : ( إِنَّ السمع والبصر والفؤاد كُلُّ أولئك كَانَ ،
عَنْهُ مَسْؤُولاً ) ويقول : ( يَعْلَمُ خَآئِنَةَ الأعين وَمَا تُخْفِي
الصدور ) وقد وردت أحاديث متعددة فى الأمر بغض البصر ، وحفظ الفرج ، ومن
: ذلك ما أخرجه الشيخان عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال
كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا مدرك ذلك لا محالة ، العينان زناهما "
النظر ، والأذنان زناهما الاستماع ، واللسان زناهما الكلام ، واليد زناها
البطش ، والرجل زناها الخطا ، والقلب يهوى ويتمنى ، ويصدق ذلك الفرج أو
يكذبه " .وروى الإمام مسلم فى صحيحه عن جرير بن عبد الله قال : " سألت رسول
" : الله صلى الله عليه وسلم عن نظر الفجأة - أى البغتة من غير قصد - فقال
اصرف بصرك "؟"2 - أنه لا يحل للمرأة أن تبدى زينتها لأجانب ، إلا ما ظهر
منها ، لأن الله - تعالى - يقول : ( وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنّ إِلاَّ
- مَا ظَهَرَ مِنْهَا ) .قال الإمام القرطبى ما ملخصه : " أمر الله - تعالى
النساء بالا يبدين زينتهن للناظرين ، إلا ما استثناه من الناظرين فى باقى
الآية ، حذارا من الافتتان ، ثم استثنى ما يظهر من الزينة ، واختلف الناس
فى قدر ذلك .فقال ابن مسعود : ظاهر الزينة هو الثياب . . . وقال سعيد بن
جبير والأوزاعى : الوجه والكفان والثياب . . . وقال ابن عباس وقتادة : ظاهر
الزينة هو الكحل والسوار والخضاب . . ونحو هذا ، فمباح أن تبديه لكل من ظهر
عليها من الناس .وقال ابن عطية : ويظهر لى بحكم ألفاظ الآية ، بأن المرأة
مأمورة بأن لا تبدى ، وأن لا تجتهد فى الإخفاء لكل ما هو زينة ، ووقع
الاستثناء فيما يظهر ، بحكم ضرورة حركة فيما لا بد منه ، أو إصلاح شأن ونحو
ذلك ، " فما ظهر " على هذا الوجه مما تؤدى إليه الضرورة فى النساء فهو
المعفو عنه .قلت : أى القرطبى - : وهذا قول حسن ، إلا أنه لما كان الغالب
من الوجه والكفين ظهورهما ، عادة وعبادة ، صح أن يكون الاستثناء راجعا
، إليهما .يدل على ذلك ما رواه أبو داود عن عائشة ، " أن أسماء بنت أبى بكر
دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليها ثياب رقاق ، فأعرض عنها وقال
يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا " :
وأشار إلى وجهه وكفيه " " .وقال بعض علمائنا : " إن المرأة إذا كانت ،
جميلة وخيف من وجهها و كفيها الفتنة فعليها ستر ذلك " .هذا ، وفى هذه
المسألة كلام كثير للعلماء فارجع إليه إن شئت .وإلى هنا ترى السورة الكريمة
قد نهت عن الزنا ، ووضعت فى طريقه السدود الوقائية والنفسية . حيث حرمت
، الاختلاط ، وأمرت بالاستئذان ، وبغض البصر ، وبحفظ الفرج ، وبعدم التبرج
. - وبالإكثار من التوبة إلى الله - تعالى

وانكحوا الايامى منكم والصالحين من عبادكم وامائكم ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم

كما فسرها الوسيط ثم أنت بعد ذلك بالعلاج الإيجابى ، الذى من شأنه أن يصرف الإنسان عن فاحشة الزنا المحرمة ، لأنه سيجد فيما أحله الله - تعالى - ما يغنيه عنها ، و ذلك عن طريق الأمر بتيسير الزواج ، والحض عليه . قال - تعالى - : ( وَأَنْكِحُواْ . . . ) .الخطاب فى قوله - تعالى : ( وَأَنْكِحُواْ الأيامى مِنْكُمْ . . . ) للأولياء والسادة ، والأيامى : جمع أيم - بفتح الهمزة وتشديد الياء المكسورة . . . وهو كل ذكر لا أنثى معه ، وكل أنثى لا ذكر معها بكرا أو ثيبا .والمراد بالأيامى هنا الأحرار والحرائر .وقوله - تعالى - ( مِنْ عِبَادِكُمْ ) جمع عبد وهو الرقيق ، و " وإمائكم " جمع أمة .والمراد من الإنكاح هنا : المعاونة والمساعدة فى الزواج والعمل على إتمامه بدون عوائق لا تؤيدها شريعة الله - تعالى - .أى : زوِّجوا - أيها الأولياء والسادة - من لا زوج له من الرجال المسلمين أو النساء المسلمات ، ويسروا لهم هذا الأمر ولا تعسروه ، لأن الزواج هو الطريق المشروع لقضاء الشهوة ، ولحفظ النوع الإنسانى ، ولصيانة الأنساب من الاختلاط ، ولإيجاد مجتمع تفشو فيه الفضيلة ، وتموت فيه الرذيلة .وزوجوا - أيضا الصالحين للزواج من عبيدكم وإمائكم فإن هذا الزواج أكرم لهم وأحفظ لعفتهم .قال صاحب الكشاف " فإن قلت لم خص الصالحين؟ قلت : ليحصن دينهم ، ويحفظ عليهم صلاحهم ، ولأن الصالحين من الأرقاء . هم الذين مواليهم يشفقون عليهم . . . فكانوا مظنة للتوصية بشأنهم . . وأما المفسدون منهم فحالهم عند مواليهم على عكس ذلك " .والأمر فى قوله - تعالى - : ( وَأَنْكِحُواْ ) يرى جمهور العلماء أنه للندب ، بدليل أنه قد وجد أيامى فى العهد النبوى ولم يجبروا على الزواج ، ولو كان الأمر للوجوب ، لأجبروا عليه . . . ويرى بعضهم أنه للوجوب .قال الإمام ابن كثير : اشتملت هذه الآيات الكريمات على جمل من الأحكام المحكمة ، والأوامر المبرمة ، فقوله - تعالى - : ( وَأَنْكِحُواْ الأيامى مِنْكُمْ والصالحين مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمائِكُمْ ) هذا أمر ، بالتزويج ، وقد ذهب طائفة من العلماء إلى وجوبه ، على كل من قدر عليه واحتجوا بظاهر قوله صلى الله عليه وسلم : " " يا معشر الشباب . من استطاع منكم الباءة " - أى القدرة على الزواج - فليتزوج ، فإنه أغض للبصر ، وأحفظ للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء " أى : وقاية - .ويبدو لنا ، أن الزواج يختلف حكمه باختلاف الأحوال ، فمن كان - مثلا قادرا على الزواج ويخشى إذا ترك الزواج أن يقع فى الفاحشة : فإن الزواج بالنسبة له يكون واجبا عليه . بخلاف من أمن الوقوع فى الفاحشة ، فإن الزواج بالنسبة له يكون مندوبا أو مستحبا .ولذا قال الإمام القرطبى : " اختلف العلماء فى هذا الأمر - أى فى قوله - تعالى - ( وَأَنْكِحُواْ ) - على ثلاثة أقوال : فقال علماؤنا يختلف الحكم فى ذلك باختلاف حال المؤمن من خوف العنت ، ومن عدم صبره . . فإذا خاف الهلاك فى الدين أو الدنيا فالنكاح حتم .وإن لم يخش شيئا وكانت الحال مطلقة ، فالنكاح مباح .قال الشافعى : إنه قضاء لذة فكان ، مباحا كالأكل والشرب .وقال مالك وأبو حنيفة : هو مستحب .وقوله - سبحانه - : ( إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ الله مِن فَضْلِهِ ) حض لمن يملك عقد الزواج على أن لا يجعل الفقر حائلا دون إتمامه . لأن الأرزاق بيد الله - تعالى - وحده .أى : زوجوا - أيها الأولياء والسادة - من كان أهلا للزواج ، وصالحا له وراغبا فيه ، من رجالكم ونسائكم ، ولا يمنعكم فقرهم من إتمامه ، فإنهم إن يكونوا فقراء اليوم ، فالله - تعالى - قادر على أن يغنيهم فى الحال أو فى المستقبل متى شاء ذلك ، فإن قدرته - عز وجل - لا يعجزها شىء ، وكم من أناس كانوا فقراء قبل الزواج ، ثم صاروا أغنياء بعده .روى الإمام أحمد والترمذى والنسائى وابن ماجه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : " ثلاثة حق على الله عونهم : الناكح يريد العفاف - والمكاتب يريد الأداء ، والغازى فى سبيل الله " .فهذا عهد أخذه الله تعالى - على ذاته - فضلا منه وكرما - ولن يخلف الله - عز وجل - عهده وقوله - سبحانه - : ( والله وَاسِعٌ عَلِيمٌ ) أى : والله - تعالى - واسع. الغنى لا تنفد خزائنه ، ولا ينتهى ما عنده من خير ، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء .

وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله والذين يبتغون الكتاب مما ملكت ايمانكم فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا واتوهم من مال الله الذي اتاكم ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان اردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فان الله من بعد اكراههن غفور رحيم

كما فسرها الوسيط ثم أرشد - سبحانه - الذين لا يجدون وسائل النكاح ، إلى ما يعينهم على حفظ فروجهم ، فقال : ( وَلْيَسْتَعْفِفِ الذين لاَ يَجِدُونَ نِكَاحاً حتى يُغْنِيَهُمُ الله مِن فَضْلِهِ ) .والاستعفاف : طلب العفة ،

) : واختيار طريق الفضيلة التى من وسائلها ما أشار إليه - سبحانه - فى قوله
قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُواْ
" فُرُوجَهُمْ ) والمعنى : وعلى المؤمنين والمؤمنات " الذين لا يجدون نكاحا
أى : الذين لا يجدون الوسائل والأسباب التى توصلهم إلى الزواج بسبب ضيق ذات
اليد ، أو ما يشبه ذلك ، عليهم أن يتحصنوا بالعفاف وأن يصونوا أنفسهم عن
، الفواحش ، وأن يستمروا على ذلك حتى يرزقهم الله - تعالى - من فضله رزقا
- يستعينون به على إتمام الزواج .فهذه الجملة الحكيمة وعد كريم من الله
- تعالى - للتائقين إلى الزواج ، العاجزين عن تكاليفه بأنه - سبحانه
سيرزقهم من فضله ما يعينهم على التمكن منه ، متى اعتصموا بطاعته ، وحافظوا
: على أداء ما أمرهم به .قال صاحب الكشاف : " وما أحسن ما رتب هذه الأوامر
حيث أمر - أولا - بما يعصم من الفتنة ويبعد عن مواقعة المعصية ، وهو غض
البصر . ثم بالنكاح الذى يحصن به الدين ، ويقع به الاستغناء بالحلال عن
الحرام ، ثم بالحمل على النفس الأمارة بالسوء ، وعزفها عن الطموح إلى
- الشهوة عند العجز عن النكاح إلى أن يرزق القدرة عليه " .ثم حض - سبحانه
على إعانة الأرقاء لكى يتخلصوا من رقهم ويصيروا أحرارا . فقال : ( والذين
يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ
( عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَآتُوهُمْ مِّن مَّالِ اللهِ الذِي آتَاكُمْ
والمراد بالكتاب هنا : المكاتبة التى تكون بين السيد وعبده ، بأن يقول.
السيد لعبده : إن أديت إلى كذا من المال فأنت حر لوجه الله ، فإذا قبل
العبد ذلك وأدى ما طلبه منه سيده ، صار حرا .أى : والذين يطلبون المكاتبة
: من عبيدكم - أيها الأحرار . . . فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا ، أى
أمانة وقدرة على الكسب ، وأعينوهم على التحرر من رقهم بأن تعطوهم شيئا من
المال الذى آتاكم الله إياه ، بفضله وإحسانه .وهكذا نرى الإسلام يأمر
أتباعه الذين رزقهم الله نعمة الحرية ، أن يعينوا مماليكهم على ما يمكنهم
- من الحصول على هذه النعمة .ومن العلماء من يرى أن الأمر فى قوله - تعالى
وفى قوله ( وَآتُوهُمْ ) للوجوب ، لأنه هو الذى ( فَكَاتِبُوهُمْ ) :
يتناسب مع حرص شريعة الإسلام على تحرير الأرقاء .ثم نهى - سبحانه - عن
رذيلة كانت موجودة فى المجتمع ، لكى يطهره منها ، فقال : ( وَلاَ
تُكْرِهُواْ فَتَيَاتِكُمْ عَلَى البغآء إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً
لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ الحياة الدنيا ) .قال الآلوسى : أخرج مسلم وأبو داود
عن جابر أن جارية لعبد الله بن أبى بن سلول يقال لها " مسيكة " وأخرى يقال
لها " أميمة " كان يكرههما على الزنا ، فشكتا ذلك إلى الرسول صلى الله عليه
وسلم فنزلت .وأخرج ابن مردويه عن على - رضى الله عنه - أنهم كانوا فى
الجاهلية يكرهون إماءهم على الزنا ، ويأخذون أجورهن ، فنهوا عن ذلك فى
الإسلام ، ونزلت الآية .والفتيات جمع فتاة والمراد بهن هنا الإماء ، وعبر
عنهن بقوله " فتياتكم " على سبيل التكريم لهن ، ففى الحديث الشريف : "لا
يقولن أحدكم عبدى وأمتى ولكن فتاى وفتاتى " .والبغاء - بكسر الباء - زنى
المرأة خاصة ، مصدر بغت المرأة تبغى بغاء إذا فجرت .والتحصن : التصون
والتعفف من الزنا .والمعنى : ولا تكرهوا - أيها الأحرار - فتياتكم اللائى
تملكوهن على الزنا إن كرهنه وأردن العفاف والطهر ، لكى تنالوا من وراء
- إكراههن على ذلك ، بعذ المال الذى يدفع لهن نظير افتراشهن .وقوله - تعالى
ليس المقصود منه أنهن إن لم يردن التحصن ( إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً )
، يكرهن على ذلك ، وإنما المراد منه بيان الواقع الذى نزلت من أجله الآية
وهو إكرامهم لإمائهم على الزنا مع نفورهن منه . ولأن الإكراه لا يتصور عند
رضاهن بالزنا واختيارهن له ، وإنما يتصور عند كراهتهن له ، وعدم رضاهن عنه
ولأن فى هذا التعبير تعبيرا لهم ، فكأنه - سبحانه - يقول لهم : كيف يقع ،
منكم إكراههن على البغاء وهن إماء يردن العفة ويأبين الفاحشة؟ ألم يكن
الأولى بكم والأليق بكرامتكم أن تعينوهن على العفاف والطهر ، بدل أن
- تكرهوهن على ارتكاب الفاحشة من أجل عرض من أعراض الحياة الدنيا؟وقوله
تعالى - : ( وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ
- غَفُورٌ رَّحِيمٌ ) بيان لمظهر من مظاهر فضل الله - تعالى - ورحمته
بعباده .أى : ومن يكره إماءه على البغاء فإن الله - تعالى - بفضله وكرمه من
بعد إكراههم لهن ، غفور رحيم لهن ، أما أنتم يا من أكرهتموهن على الزنا
فالله وحده هو الذى يتولى حسابكم ، وسيجازيكم بما تستحقون من عقاب .فمغفرة
الله - تعالى - ورحمته إنما هى للمكرهات على الزنا ، لا للمكرهين لهن على
ذلك .قال بعض العلماء : قوله - تعالى - : ( فَإِنَّ اللهَ مِن بَعْدِ
إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ) قيل : غفور لهن : وقيل غفور لهم . وقيل
غفور لهن ولهم .والأظهر : أن المعنى لهن ، لأن المكره لا يؤاخذ بما يكره :
، عليه ، بل يغفره الله له ، لعذره بالإكراه . فالموعود بالمغفرة والرحمة
هو المعذور بالإكراه دون المكره - بكسر الراء - لأنه غير معذور بفعله
. القبيح

ولقد انزلنا اليكم ايات مبينات ومثلا من الذين خلوا من قبلكم وموعظة
للمتقين

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - هذه التشريعات الحكيمة . والتوجيهات السديدة ، بقوله - تعالى - : ( وَلَقَدْ أَنْزَلْنَآ إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِّنَ الذين خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ) . وقوله ( مُّبَيِّنَاتٍ ) قرأها بعض القراء السبعة بفتح الياء المشددة ، وقرأها الباقون بكسرها .فعلى قراءة الفتح يكون المعنى : وبالله لقد أنزلنا إليكم - أيها المؤمنون - فى هذه السورة وغيرها آيات بَيِّنًا لكم معانيها ، وجعلناها واضحة الدلالة على ما شرعناها لكم من أحكام وآداب وحدود .وعلى قراءة الكسر يكون المعنى : وبالله لقد أنزلنا إليكم آيات ، هى مبينات موضحات لكل ما أنتم فى حاجة إلى بيانه ومعرفته من آداب وتشريعات ، فإسناد التبيين هنا إلى الآيات على سبيل المجاز .وقوله ( وَمَثَلاً مِّنَ الذين خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ ) معطوف على " آيات " . والمراد بالمثل : الأخبار العجيبة التى ذكرها - سبحانه - عن السابقين .أى : أنزلنا إليكم آيات واضحات فى ذاتها وموضحة لغيرها . وأنزلنا إليكم - أيضا - قصصا عجيبة ، من أخبار السابقين الذين خلوا من قبلكم ، لتهتدوا بها فيما يقع بينكم من أحداث .فمثلا :لا تتجبوا من كون عائشة - رضى الله عنها - قد اتهمت بما هى منه بريئة ، فقد اتُّهمت من قبلها مريم بالفعل الفاضح الذى برأها الله تعالى منه ، واتهم يوسف - عليه السلام - : بما هو منه برىء ، وألقى فى السجن بضع سنين مع براءته .فيوسف ومريم وعائشة ، قد برأهم الله - تعالى - مما رموا به ، وكفى بشهادة الله شهادة .وقوله ( وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ) أى : وجعلنا هذه الآيات التى أنزلنا إليكم موعظة يتعظ بها المتقون ، الذين صانوا أنفسهم عن محارم الله ، وراقبوه - سبحانه - فى السر والعلن ، فانتفعوا بها دون غيرهم من المفسدين والفاسقين .فأنت ترى أن الله - تعالى - قد وصف الآيات التى أنزلها على عباده المؤمنين بثلاث صفات . وصفها - أولا - بأنها بينة فى ذاتها أو مبينة لغيرها ، ووصفها - ثانيا - بأنها مشتملة على الأمثال العجيبة لأحوال السابقين ، ووصفها - ثالثا - بأنها موعظة للمتقين الذين تستشعر قلوبهم دائما الخوف من الله - تعالى وما ذكره الله - تعالى - قبل هذه الآية من آداب وأحكام يتناسق مع التعقيب. كل التناسق ، ويتجاوب معه كل التجاوب .وكيف لا يكون كذلك ، والقرآن هو كلام الله الذى أعجز كل البلغاء والفصحاء ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا .

الله نور السماوات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كانها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الامثال للناس والله بكل شيء عليم

كما فسرها الوسيط ثم انتقلت السورة الكريمة بعد ذلك ، إلى الحديث عن جلال الله - تعالى - ونوره وعظمته وعن بيوته التى أذن لها أن ترفع ، وعن الرجال الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن طاعته وتقديسه ، وعن الجزاء الحسن الذى أعده الله - سبحانه - لهؤلاء الأخيار ، فقال : ( الله نُورُ . . . ) .قال الإمام القرطبى ما ملخصه : " قوله - تعالى - : ( الله نُورُ السماوات والأرض ) . النور فى كلام العرب : الأضواء المدركة بالبصر . واستعمل مجازا فيما صح من المعانى ولاح . فيقال : كلام له نور . . . وفلان نور البلد فيجوز أن يقال : الله - تعالى - نور ، من جهة المدح ، لأنه أوجد جميع الأشياء ، ونور جميع الأشياء منه ابتداؤها ، وعنه صدورها ، وهو - سبحانه - ليس من الأضواء المدركة ، جل وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا .واختلف العلماء فى تأويل هذه الآية : فقيل : المعنى : به وبقدرته أنارت أضواؤها واستقامت أمورها ، وقامت مصنوعاته ، فالكلام على التقريب للذهن ، كما يقال الملك نور أهل البلد ، أي : به قوام أمرها . . . فهو - أى النور - فى : الملك مجاز . وهو فى صفة الله - تعالى - حقيقة محضة .قال ابن عرفة : أي منور السموات والأرض . وقال مجاهد : مدبر الأمور في السموات والأرض .قال ابن عباس : المعنى : الله هادى السموات والأرض . والأول أعم للمعانى وأصح مع التأويل .ويبدو لنا أن أقرب الأقوال إلى الصواب هو الذى رجحه الإمام القرطبى فيكون معنى الجملة الكريمة : الله - تعالى - هو نور العالم كله ، علويه وسفليه ، بمعنى منوره بالمخلوقات التكوينية ، وبالآيات التنزيلية وبالرسالات السماوية ، الدالة دلالة واضحة على وجوده - سبحانه - وعلى وحدانيته ، وقدرته ، وسائر صفاته الكريمة ، والهادية إلى الحق ، وإلى ما به صلاح الناس فى دنياهم وآخرتهم .وقال ابن كثير : " وقد ثبت فى الصحيحين عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل يقول : اللهم لك الحمد أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت نور " السموات والأرض ومن فيهن " .وقال صلى الله عليه وسلم فى دعائه يوم آذاه المشركون من أهل الطائف : " أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن يحل بى غضبك ، أو ينزل بى سخطك ، لك العتبى -

- أى الرجوع عن الذنب - حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك " .وأضاف
، سبحانه - نوره إلى السموات والأرض ، للدلالة على سعة إشراق هذا النور
وعموم سنائه ، وتمام بهائه فى الكون كله .ثم قرب - عز وجل - نوره إلى
الأذهان فقال : ( مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ . . . ) .أى
صفة نوره العجيبة الشأن فى الإضاءة والسطوع ، كصفة مشكاة - وهى الفتحة :
الصغيرة فى الجدار دون أن تكون نافذة فيه - هذه المشكاة فيها مصباح ، أى
سراج ضخم ثاقب تشع منه الأنوار .وقال - سبحانه - : ( مَثَلُ نُورِهِ
كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ) لأن وجود المصباح فى هذه المكشاة يكون أجمع
لنوره ، وأحصر لضيائه ، فيبدو قويا متألقا ، بخلاف مالو كان المصباح فى
مكان نافذ فإنه لا يكون كذلك .( المصباح فِي زُجَاجَةٍ ) أى : فى قنديل من
الزجاج الصافى النقى ، الذى يقيمه الريح ، ويزيده توهجا وتألقا .هذه
الزجاجة ) فى ذاتها ( كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ) أى شديد الإنارة
، نسبة إلى الدر فى صفائه وسنائه وإشراقه وحسنه .( يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ
مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ ) أى : هذا المصباح يستمد نوره من زيت شجرة
مباركة أى : كثيرة المنافع ، زيتونة أى : هى شجرة الزيتون .فحرف " من "
: لابتداء الغاية ، والكلام ، على حذف مضاف ، أى : من زيت شجرة ، مباركة
صفة لشجرة ، وزيتونة : بدل أو عطف بيان من شجرة .ووصف - سبحانه - شجرة
الزيتون بالبركة ، لطول عمرها ، وتعدد فوائدها التى من مظاهرها : الانتفاع
بزيتها وخصبها وورقها وثمارها .قال - تعالى - : ( وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن
طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بالدهن وَصِبْغٍ لِّلآكِلِينَ ) وقوله - سبحانه
- صفة أخرى لشجرة الزيتون .أى : أن ( لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ ) :
هذه الشجرة ليست متميزة إلى مكان معين أو جهة معينة بل هى مستقبلة للشمس
طول النهار ، تسطع عليها عند شروقها وعند غروبها وما بين ذلك ، فترتب على
تعرضها للشمس طول النهار ، امتداد حياتها ، وعظم نمائها وحسن ثمارها
وقوله - تعالى - : ( يَكَادُ زَيْتُهَا يضياء وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ
نَارٌ ) صفة ثالثة لتلك الشجرة .أى ، أنها يكاد زيتها من شدة صفائه يضىء
دون أن تمسه النار ، فهو زيت من نوع خاص ، بلغ من الشفافية أقصاها ، ومن
الجودة أعلاها .قال بعض العلماء : وقد شُبِّه فى الآية نورُ الله ، بمعنى
أدلته ، وآياته - سبحانه - من حيث دلالتها على الهدى والحق ، وعلى ما ينفع
الخلق فى الحياتين شبه ذلك بنور المشكاة التى فيها زجاجة صافية ، وفى تلك
الزجاجة مصباح يتقد بزيت بلغ الغاية فى الصفاء والرقة والإشراق ، حتى يكاد
يضىء بنفسه من غير أن تمسه نار " .وقوله - سبحانه - : ( نُّورٌ على نُورٍ )
- أى : هو نور عظيم متضاعف ، كائن على نور عظيم مثله ، إذ أن نور الله
تعالى -لا حد لتضاعفه ، ولا نهاية لعمقه بخلاف الأنوار الأخرى . فإن
لتضاعفها حدا محدودا مهما كان إشراقها وضوؤها .فقوله : ( نُّورٌ ) خبر
لمبتدأ محذوف ، أى : هو نور . وقوله ( على نُورٍ ) متعلق بمحذوف هو صفة له
- مؤكدة لما أفاده التنكير من الفخامة . أى : كائن على نور مثله .ثم بين ،
: سبحانه - سنة من سننه فقال : ( يَهْدِي الله لِنُورِهِ مَن يَشَآءُ ) أى
يهدى الله - تعالى - لنوره العظيم من يشاء هدايته من عباده ، بأن يوفقهم
للإيمان ، والعمل بتعاليم الإسلام ، وللسير على طريق الحق والرشاد .ثم
ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ( وَيَضْرِبُ الله الأمثال لِلنَّاسِ
والله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ) .أى : ويضرب الله - تعالى - الأمثال للناس
لكى يقرب لهم الأمور وييسرلهم المسائل ، ويبرز لهم المعقول فى صورة ،
المحسوس ، والله - تعالى - بكل شىء عليم ، سواء أكان هذا الشىء ظاهرا أم
باطنا ، معقولا أم محسوسا .قال بعض العلماء ما ملخصه : هذه الآية الكريمة
من الآيات التى صنفت فيها مصنفات ، منها " مشكاة الأنوار " للإمام الغزالى
" ومنها ما قاله الإمام ابن القيم عنها فى كتابه " الجيوش الإسلامية . . .
، فقد قال - رحمه اله - : سمى الله تعالى - نفسه نورا ، وجعل كتابه نورا .
ورسوله صلى الله عليه وسلم نورا ، ودينه نورا ، واحتجب عن خلقه بالنور وجعل
دار أوليائه نورا يتلألأ . قال - تعالى - ( الله نُورُ السماوات والأرض )
وقد فسر بكونه منور السموات والأرض وهادى أهل السموات والأرض فبنوره اهتدى
أهل السموات والأرض . وهذا إنما هو فعله . وإلا فالنور الذى هو من أوصافه
قائم به . ومنه اشتق اسم النور الذى هو أحد الأسماء الحسنى . . . " .

في بيوت اذن الله ان ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والاصال

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أكثر الأماكن والأشخاص إنتفاعا
بنوره ، فقال - تعالى - : ( فِي بُيُوتٍ أَذِنَ الله أن تُرْفَعَ
وَيُذْكَرَ فِيهَا اسمه يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بالغدو والآصال رِجَالٌ لاَّ
تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ الله ) .وقوله ( فِي
بُيُوتٍ ) متعلق بقوله : ( يُسَبِّحُ ) . والمراد بهذه البيوت : المساجد
" كلها ، وعلى رأسها المسجد الحرام ، والمسجد النبوى ، والمسجد الأقصى .و
أذن " بمعنى أمر وقضى ، وفاعل " يسبح " قوله " رجال " .والغدو والغداة : من
طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، والآصال جمع أصيل ، وهو ما بين العصر وغروب

الشمس .أى : هذا هو نور الله - الذى يهدى إليه من يشاء من عباده ، وعلى رأس
أولئك العباد الذين هداهم الله - سبحانه - إلى ما يحبه ويرضاه ، هؤلاء
- الرجال الذين يعبدونه ويقدسونه فى تلك المساجد التى أمر - سبحانه
بتشييدها وتعظيم قدرها ، وصيانتها من كل سوء أو نجس ، إنهم يسبحونه
وينزهونه عن كل نقص ، ويتقربون إليه بالصلوات وبالطاعات . فى تلك المساجد
فى أول النهار وفى آخرة ، وفى غير ذلك من الأوقات .وخص - سبحانه - أوقات
الغدو والآصال بالذكر ، لشرفها وكونها أشهر ما تقع فيه العبادات .

رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة
يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والابصار

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ
وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ الله ) مدح وتكريم لهؤلاء الرجال .أى : يسبح
الله - تعالى - فى تلك المساجد بالغدو والآصال ، رجال من شأنهم ومن صفاتهم
أنهم لا يشغلهم ، " تجارة " مهما عظمت ، " ولا بيع " ، مهما اشتدت حاجتهم ،
إليه " عن ذكر الله " أى : عن تسبيحه وتحميده وتكبيره وتمجيده وطاعته .ولا
تشغلهم - أيضا - هذه التجارات والبيوع عن " إقام الصلاة " فى مواقيتها
بخشوع وإخلاص ، وعن " إيتاء الزكاة " للمستحقين لها .وذلك لأنهم " يخافون
يوما " هائلا شديدا هو يوم القيامة الذى " تتقلب فيه القلوب والأبصار " أى
تضطرب فيه القلوب والأبصار فلا تثبت من شدة الهول والفزع .

ليجزيهم الله احسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - الأسباب التى حملتهم على الإكثار من
هذه الطاعات فقال ( لِيَجْزِيَهُمُ الله أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ
وَيَزِيدَهُمْ مِّن فَضْلِهِ ) .أى : إنهم يكثرون من تسبيح الله بالغدو
والآصال ، دون أن يشغلهم عن ذلك أى شاغل ، لأنهم يرجون منه - سبحانه - أن
يجزيهم أحسن الجزاء على أعمالهم ، وأن يزيدهم من فضله وإحسانه ، بما يليق
بكرمه وامتنانه ." والله " - تعالى - " يرزق من يشاء " أن يرزقه " بغير
حساب " أى : بدون حدود ، ولا قيود ، وبدون حصر لما يعطيه ، لأن خزائنه لا
تنقص ولا تنفد ، حتى يحتاج إلى عد وحساب لما يخرج منها .فالجملة الكريمة
، تذييل قصد به التقرير للزيادة التى يتطلع إليها هؤلاء الرجال الصالحون
ووعد منه - عز وجل - بأنه سيرزقهم رزقا يزيد عما يتوقعونه .وبذلك نرى
الآيات قد طوفت بنا مع نور الله - عز وجل - ومثلت له بما من شأنه أن يجعل
النفوس يشتد استمساكها بالحق الذى جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من
عند ربه ، ومدحت مدحا عظيما أولئك الرجال الأخيار ، الذين يكثرون من طاعة
، الله - تعالى - فى بيوته التى أمر برفعها ، دون أن يشغلهم عن ذلك شاغل
. وبشرتهم بالعطاء الواسع الذى سيعطيهم الله إياه بفضله وكرمه

والذين كفروا اعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمان ماء حتى اذا جاءه لم يجده
شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب

كما فسرها الوسيط وبعد تلك الصورة المشرقة التى بينها - سبحانه - لمن هداهم
لنوره ، أتبع ذلك بضرب مثلين لأعمال الكفار ، فقال - تعالى - : ( والذين
كفروا أَعْمَالُهُمْ . . . ) .قال الآلوسى : قوله - تعالى - ( والذين كفروا
، أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ ) عطف على ما قبله ، من باب عطف القصة على القصة
أو على مقدر ينساق إليه ما قبله ، كأنه قيل : الذين آمنوا أعمالهم حالا
: ومآلا كما وصف والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة .والمراد بأعمالهم هنا
، الأعمال الصالحة التى كانوا يعملونها فى الدنيا كالإحسان إلى الفقراء
وصلة الأرحام وما يشبه ذلك .والسراب : هو الشعاع الذى يتراءى للناظر من
بعيد كأنه ماء . ويكون ذلك فى وسط النهار عند اشتداد الحر ، فى الأماكن
الواسعة ، وسمى سرابا لأنه يرى من بعيد يتسرب فوق الأرض كأنه ماء ، مع أنه
ليس بماء ولا غيره .والباء فى قوله ( بِقِيعَةٍ ) بمعنى فى . والقيعة : جمع
قاع وهو ما انبسط واتسع من الأرض . دون أن يكون فيه زرع ، وفوقه يتراءى
السراب . والجار والمجرور متعلق بمحذوف ، صفة للسراب .أى : والذين كفروا
بالحق لما جاءهم : أعمالهم الصالحة فى الدنيا التى يتوقعون الخير من ورائها
تكون بالنسبة لهم يوم القيامة ، كسراب كائن فى صحراء واسعة ، " يحسبه ،
- الظمآن ماء " .أى : يظن الشخص الذى اشتد به العطش أنه ماء .وخص - سبحانه
هذا الحسبان بالظمآن ، مع أن كل من يراه يظنه ماء لأن هذا الذى اشتد به
العطش أشد حرصا على طلبه من غيره ، فالتشبيه به أتم وأكمل .و " حتى " فى
قوله - سبحانه - : ( حتى إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً ) غاية
لمحذوف ، والتقدير : هذا السراب يظنه الظمآن ماء فيسرع نحوه ، حتى إذا ما
وصل إليه ، لم يجد ما حسبه ماء وعلق عليه آماله شيئا أصلا ، لا ماء ولا
غيره .فأنت ترى أن الله - تعالى - قد شبه ما يعمله الكافرون من أعمال البر

فى الدنيا ، التى يظنونها نافعة لهم - شبه هذه الأعمال من حيث خيبة أملهم فيها بسراب يحسبه الظمآن ماء ، فيذهب إليه ليروى عطشه ، فإذا ما وصل إليه : لم يجده شيئا ، فيخيب أمله ، وتشتد حسرته .قال الإمام الرازى : فإن قيل " قوله : " حتى إذا جاءه " يدل على كونه شيئا ، وقوله : " لم يجده شيئا مناقض له؟قلنا : الجواب عنه من وجوه ثلاثة : الأول : المراد معناه أنه لم يجد شيئا نافعا ، كما يقال : فلان ما عمل شيئا وإن كان قد اجتهد الثانى : حتى إذا جاءه أى : جاء موضع السراب لم يجد السراب شيئا ، فاكتفى بذكر السراب عن ذكر موضعه . الثالث : الكناية للسراب ، لأن السراب يرى من بعيد بسبب الكثافة كأنه ضباب وهباء ، وإذا قرب منه رق وانتثر وصار كالهواء وقوله - سبحانه - : ( وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ) معطوف على جملة " لم يجده " فهو داخل التشبيه أى : ووجد الظمآن حكم الله - تعالى - وقضاءه فيه عند السراب ، فوفاه - سبحانه - حسابه الذى يستحقه كاملا غير منقوص .وفى هذه الجملة الكريمة من التصوير المرعب للكافر ما فيها . حيث شبهته بالظمآن الذى ذهب مسرعا ليروى ظمأه مما ظنه ماء فلما وصل إليه لم يجد ماء ، وإنما وجد الله - تعالى - الذى كفر به وجحد وحدانيته - عنده ، فوفاه حسابه الذى يستحقه من العذاب بدلا من وجود الماء الذى أتعب نفسه فى السعى إليه ." والله " - تعالى - " سريع الحساب " ، لأنه لا يشغله حساب عن حساب ولا عمل عن عمل ، بل حساب الناس جميعا عنده - عز وجل - كحساب النفس الواحدة .

او كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض اذا اخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ) مثال آخر لأعمال الكافرين التى لا ينتفعون بها مع أنهم يعتقدون أنها ستنفعهم .فحرف " أو " للتقسيم ، وما بعدها معطوف على قوله - سبحانه - قبل ذلك ، " كسراب بقيعة " .والمعنى : أو أن الأعمال الحسنة فى الدنيا لهؤلاء الكافرين ، مثلها - من حيث خلوها عن نور الحق وعن النفع - كمثل " ظلمات " كثيفة " فى بحر لجى " أى : عميق الماء كثيره ، من اللج وهو معظم ماء البحر ." يغشاه موج " أى : هذا البحر اللجى يغطيه ويستره ويعلوه موج عظيم " من فوقه موج " آخر أشد منه " من فوقه سحاب ". أى : من فوق تلك الأمواج الهائلة الشديدة ، سحاب كثيف متراكم قائم " ظلمات بعضها فوق بعض " أى : هذه الأمواج المتلاطمة ، وتحتها البحر العميق المظلم ، وفوقها السحب الفاتحة الداكنة ، هى ظلمات بعضها فوق بعض ، " إذا أخرج يده لم يكد يراها " أى : إذا أخرج الواقع فى تلك الظلمات يده التى هى " جزء منه ، لم يكد يراها من شدة تراكم الظلمات .قال الآلوسى : " إذا أخرج أى : من ابتلى بهذه الظلمات " يده " وجعلها بمرأى منه ، قريبة من عينيه لينظر إليها " لم يكد يراها " أى : لم يقرب من رؤيتها ، وهى أقرب شىء إليه فضلا عن أن يراها . . .ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة ببيان سنة من ، سننه التى لا تتخلف فقال : ( وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُورٍ ) .والمعنى : وأى إنسان لم يشأ الله - تعالى - أن يجعل له نورا يهديه إلى الصراط المستقيم فما لهذا الإنسان من نور يهديه إلى الحق والخير ، من أى مخلوق كائنا من كان ، إذ أن الذى يملك منح النور الهادى إنما هو الله - تعالى - وحده .قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهاتين الآيتين ما ملخصه : هذان مثلان ضربهما الله - تعالى - لنوعى الكفار ، فأما المثال الأول ، فهو للكفار الدعاة إلى كفرهم ، الذين يحسبون أنهم على شىء من الأعمال والاعتقادات وليسوا فى نفس الأمر على شىء " فمثلهم فى ذلك كالسراب الذى يرى فى القيعان من الأرض عن بعد كأنه بحر طام .وهذا المثال - مثال لذوى الجهل المركب - أى الذين يعتقدون الباطل ويزعمون أنه الحق والمثال الثانى لأصحاب الجهل البسيط ، وهم الأغشام والمقلدون لأئمة الكفر فمثلهم كما قال - تعالى : " أو كظلمات فى بحر لجى . . . " .

الم تر ان الله يسبح له من في السماوات والارض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون

كما فسرها الوسيط وبعد أن أورد - سبحانه - هذين المثلين للذين كفروا وأعمالهم ، أتبع ذلك ببيان أن الكون كله يسبح بحمد الله - تعالى - وأن الكون كله فى ملكه وقبضته ، فقال - تعالى - : ( أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ . . . ) للتقرير. ( أَلَمْ تَرَ . . . ) : الاستفهام فى قوله - تعالى - : والرؤية : بمعنى العلم .والتسبيح : مشتق من السبح ، وهو المر السريع فى الماء أو فى الهواء . فالمسبح : مسرع فى تنزيه الله - تعالى - وتقديسه وإثبات ما يليق بجلاله من صفات الكمال .والمعنى : لقد علمت أيها الرسول الكريم علما يشبه المشاهدة فى اليقين ، أن الله - تعالى - يسبحه ويقدسه

وينزهه عن كل ما لا يليق به - عز وجل - جميع من فى السموات ، وجميع من فى الأرض .وقوله - تعالى - : ( والطير صَآفَّاتٍ ) يرفع ، " والطير " على أنه معطوف على " من " وينصب " صافات " على أنه حال .أى : والطير - أيضا - تسبح لله - تعالى - حال كونها صافات أجنحتها فى الجو ، دون أن يمسكها أحد إلا هو - سبحانه - .وخص الطيور بالذكر مع أنها مندرجة تحت من فى السموات والأرض لعدم استقرارها بصفة دائمة على الأرض ، فهى - فى مجموعها - تارة على الأرض وتارة فى الجو .وذكرها فى حال بسطها لأجنحتها لأن هذه الحالة من أعجب ، أحوالها ، حيث تكون فى الجو باسطة لأجنحتها بدون تحريك ، مما يدل على بديع صنع الله فى خلقه .وصدق الله إذ يقول : ( أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطير فَوْقَهُمْ صَآفَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنّ إِلاّ الرحمن إِنّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ . . . ) وقوله - تعالى - : ( كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ) استئناف لبيان مظهر من مظاهر قدرة الله تعالى - وحكمته ، حيث ألهم - سبحانه - كل مخلوق من مخلوقاته كيفية التسبيح لخالقه - عز وجل .والتنوين فى " كل " عوض عن المضاف إليه ، والضمير المحذوف الذى هو فاعل " علم " يعود على المصلى والمسبح .أى : كل واحد ممن يصلى ، لله - تعالى - ويسبح بحمده - سبحانه - ، قد علم معنى صلاته ومعنى تسبيحه ، فهو لم يعبد الله اتفاقا أو بلا روية ، وإنما عبده - تعالى - عن قصد ونية ولكن يكفية نفوض معرفتها إل الخالق - عز وجل - وحده .ومنهم من يرى أن الضمير فى " علم " يعود إلى الله - تعالى - فيكون المعنى : كل واحد من هؤلاء المصلين والمسبحين ، قد علم - سبحانه - صلاتهم وتسبيحهم له علما تاما شاملا .قال بعض العلماء ما ملخصه : واعلم أن الأظهر أن يكون ضمير الفاعل المحذوف فى قوله ( كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ) راجعا إلى المصلين والمسبحين أى : كل من المصلين قد علم صلاة نفسه ، وكل من المسبحين قد علم تسبيح نفسه ، لأنه على هذا القول يكون قوله - تعالى - ( والله عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ) من باب التأسيس .أما على القول بأن الضمير يعود إلى الله - تعالى - . أى : كل واحد منهم قد علم الله صلاته وتسبيحه . فيكون قوله - تعالى - : ( والله عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ) من باب التأكيد اللفظى ، والتأسيس للأحكام أولى من التأكيد لها .والظاهر أن الطير - تعالى - تسبح وتصلى صلاة وتسبيحا يعلمهما الله ، ونحن لا نعلمهما كما قال - تعالى وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ ) تَسْبِيحَهُمْ . . . ).

ولله ملك السماوات والارض والى الله المصير

كما فسرها الوسيط وبعد أن بين - سبحانه - أن جميع مخلوقاته تسبح بحمده وأنه - تعالى - عليم بأفعالهم لا يخفى عليه شىء منها ، أتبع ذلك ببيان أن هذا الكون ملك له وحده ، فقال : " ولله ملك السموات والأرض "لا لأحد غيره لا استقلالا ولا اشتراكا ، بل هو وحده - سبحانه - الملاك لهما ولمن فيهما ، وإلى الله المصير " أى : وإليه وحده مصيرهم ورجوعهم بعد موتهم ، فيجازى " كل مخلوق من مخلوقاته بما يستحق من ثواب أو عقاب .

الم تر ان الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالابصار

كما فسرها الوسيط ثم لفت - سبحانه - بعد ذلك أنظار عباده إلى مظاهر قدرته . . . فى هذا الكون ، حيث يزجى السحاب ، ثم يؤلف بينه ، ثم يجعله ركاما وحيث نوع مخلوقاته مع أنها جميعا من أصل واحد فقال - تعالى - : ( أَلَمْ تَرَ أَنّ . . . . ) .قوله - تعالى - ( يُزْجِي ) من الإزجاء بمعنى الدفع بأناة ورفق . يقال : زجى الراعى إبله تزجية ، إذا ساقها برفق . وأزجت الريح ، السحاب ، أى : دفعته .والمعنى : لقد علمت - أيها العاقل - ورأيت بعينيك أن الله - تعالى - يسوق بقدرته السحاب الذى فى الجو ، سوقا رفيقا إلى حيث يريد .( ثُمّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ) أى : يسوق - سبحانه - السحاب سوقا ) هادئا سهلا . ثم بعد ذلك يصل بعضه ببعض ، ويجمع بعضه مع بعض ، ثم بعد ذلك يَجْعَلُهُ رُكَاماً ) أى : متراكما بعضه فوق بعض . يقال ركم فلان الشىء يركمه ركما ، إذا جمعه ، وألقى بعضه على بعض ، ومنه : الرمل المتراكم ، أى المجتمع .وهذا الذى حكاه القرآن من سوق الله - تعالى - للسحب ثم تجميعها : ثم تحويلها إلى قطع ضخمة متراكمة متكاثفة كقطع الجبال ، يراه الراكب ، للطائرات بوضوح وتسليم بقدرة الله - تعالى - ، الذى أحسن كل شىء خلقه وقوله - سبحانه - : ( فَتَرَى الودق يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ ) بيان لما . يترتب على هذا السوق الرفيق ، والتجمع الدقيق من آثار .والودق : المطر وهو فى الأصل مصدر ودَق السحاب يدِق وَدْقاً ، إذا نزل منه المطر . والخلال " جمع خلل - كجبال وجبل - والمارد بها التفوق والشقوق .قال القرطبى : فى الودق " قولان : أحدهما : أنه البرق . . . والثانى : أنه المطر . وهو قول

الجمهور يقال : ودقت السحابة فهى وادقة . وودق المطر يدق ودقا . أى : قطر
أى : يسوق الله - تعالى - السحاب إلى حيث يشاء بقدرته ، ثم يؤلف بينه ، ثم.
يجعله متراكما بعضه فوق بعض ، فترى - أيها العاقل - المطر يخرج من فتوق هذا
- السحاب المتراكم ومن فروجه ، تارة بشدة وعنف ، وتارة بهدوء ورفق .وقوله
تعالى - : ( وَيُنَزِّلُ مِنَ السمآء مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ
فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مّن يَشَآءُ . . . ) بيان
لمظهر آخر من مظاهر قدرته - سبحانه - .أى : وينزل - سبحانه - من جهة السماء
، قطعا من السحاب الكثير من البرد ، وهو شىء ينزل من السحاب يشبه الحصى
ويسمى حب الغمام : وحب المزن.قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما الفرق بين " من
الأولى ، والثانية ، والثالثة فى قوله ( وَيُنَزِّلُ مِنَ السمآء مِن "
جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ ) ؟قلت الأولى لابتداء الغاية ، والثانية
للتبعيض ، والثالثة للبيان ، أو الأوليان للابتداء ، والآخرة للتبعيض .فإن
قلت : ما معنى " من جبال فيها من برد "؟ قلت : فيه معنيان : أحدهما : أن
يخلق الله فى السماء جبال برد . كما فى الأرض جبال حجر ، والثانى : أن يريد
- الكثرة بذكر الجبال ، كما يقال : فلان يملك جبالا من ذهب .وقوله - تعالى
: أى ( فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مّن يَشَآءُ ) :
فيصيب بالذى ينزله من هذا البرد من يشاء إصابته من عباده ، ويصرفه عمن يشاء
- صرفه عنهم ، إذ الإصابة والصرف بمقتضى حكمته وإرادته .ثم ختم - سبحانه
. الآية الكريمة بقوله : ( يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بالأبصار )
والسنا : شدة الضوء . يقال : سنا الشىء يسنو سنا ، إذا أضاء .أى : يكاد ضوء
برق السحاب الموصوف بما مر من الإزجاء والتأليف والتراكم . . . يخطف
. الأبصار من شدة إضاءته ، وزيادة لمعانه وسرعة توهجه

يقلب الله الليل والنهار ان في ذلك لعبرة لاولي الابصار

كما فسرها الوسيط وبعد أن ساق - سبحانه - هذا الدليل العلوى على وحدانيته
) : وقدرته . أتبعه بدليل زمنى يحسه الناس ويشاهدونه فى حياتهم فقال
يُقَلِّبُ الله الليل والنهار ) أى : يعاقب بينهما فيأتى بهذا ، ويذهب بذاك
وينقص أحدهما ويزيد فى الآخر ، ويجعل أولهما وقتا لحلول نعمه والثانى ،
لنزول نقمه ، أو العكس ، فهو - سبحانه - صاحبهما والمتصرف فيها " إن فى ذلك
التقليب والإزجاء والتأليف ، وغير ذلك من مظاهر قدرته المبثوثة فى الآفاق "
لآيات " عظيمة " لأولى الأبصار " التى تبصر قدرة الله - تعالى - وتعتبر "
. بها ، فتخلص له العبادة والطاعة

والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين
ومنهم من يمشي على اربع يخلق الله ما يشاء ان الله على كل شيء قدير

، كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - دليلا ثالثا من واقع خلق كل دابة
. وبديع صنعه فيما خلقه فقال : ( والله خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ
والدابة : اسم لكل حيوان ذى روح ، سواء أكان من العقلاء أم من غيرهم. ( . .
وهذا اللفظ مأخوذ من الدبيب ، بمعنى المشى الخفيف .وتطلق الدابة فى العرف .
" : على ذوات الأربع ، والمراد بها هنا ما هو أعم من ذلك .قال بعض العلماء
وهذه الحقيقة الضخمة التى يعرضها القرآن بهذه البساطة ، حقيقة أن كل دابة
خلقت من ماء ، قد تعنى وحدة العنصر الأساسى فى تركيب الأحياء جميعا ، وهو
الماء ، وقد تعنى ما يحاول العلم الحديث أن يتبعه من أن الحياة خرجت من
البحر ، ونشأت أصلا فى الماءن ثم تنوعت الأنواع وتفرعت الأجناس .ولكنا نحن
على طريقتنا فى عدم تعليق الحقائق القرآنية الثابتة على النظريات العلمية
القابلة للتعديل والتبديل . . . .لا نزيد على هذه الإشارة شيئا ، مكتفين
بإثبات الحقيقة القرآنية ، وهى أن الله - تعالى - خلق الأحياء كلها من
. . الماء ، فهى ذات أصل واحد ، ثم هى - كما ترى العين - متنوعة الأشكال
- وقال الإمام الرازى : فإن قيل لماذا نكر الماء هنا ، وجاء معرفا فى قوله.
تعالى - : ( وَجَعَلْنَا مِنَ المآء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ) والجواب : إنما
جاء هنا منكرا ، لأن المعنى ، أنه خلق كل دابة من نوع من الماء يختص بتلك
الدابة ، وإنما جاء معرفا فى قوله ( وَجَعَلْنَا مِنَ المآء ) لأن المقصود
هناك ، كونهم مخلوقين من هذا الجنس ، وههنا بيان أن ذلك الجنس ينقسم إلى
.. أنواع كثيرة .وقوله - تعالى - : ( فَمِنْهُمْ مّن يَمْشِي على بَطْنِهِ
تفصيل لهذه المخلوقات التى خلقت من الماء .والضمير فى " منهم " يعود ( .
إلى " كل " باعتبار معناه ، وفيه تغليب العاقل على غيره .أى : فمن هذه
الدواب من يمشى على بطنه كالزواحف وما يشبهها ، " ومنهم من يمشى على رجلين
كالإنس والطير " ومنهم من يمشى على أربع " كالأنعام والوحوش " يخلق الله "
تعالى - " ما يشاء " خلقه من دواب وغيرها على وفق إرادته وحكمته " إن - "
الله على كل شىء قدير " فلا يعجزه - سبحانه - خلق ما يريد خلقه ، ولا يمنعه
من ذلك مانع ، بل كل شىء خاضع لقدرته - عز وجل .وبذلك نرى هذه الآيات
الكريمة قد ساقت ألوانا من الأدلة على قدرة الله - تعالى - . منها ما يتعلق

بالكائن العلوى ، ومنها ما يتعلق بالزمان ، ومنها ما يتعلق بخلق أنواع الدواب على اختلاف أشكالها .

لقد انزلنا ايات مبينات والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم

كما فسرها الوسيط وبعد أن ساقت السورة ما ساقت من الأحكام والآداب ومن الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، أتبعت ذلك بالحديث عن طائفة المنافقين ، الذين لم ينتفعوا بآيات الله ، ولم يتأدبوا بأدب المؤمنين . . فقال - تعالى - : ( لَّقَدْ أَنزَلْنَآ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ . . . ) .
قوله - سبحانه - : ( مُّبَيِّنَاتٍ ) قرأها بعض القراء السبعة ، بفتح الياء المشددة - بصيغة اسم المفعول - فيكون المعنى : بالله لقد أنزلنا على عبدنا محمد صلى الله عليه وسلم آيات بيناها ووضحناها ، وجعلناها خالية من اللبس والغموض .وقرأها الباقون بكسر الياء المشددة - بصيغة اسم الفاعل - فيكون المعنى : لقد أنزلنا آيات مبينات للأحكام والحدود والآداب التى شرعها الله - تعالى - فعلى هذه القراءة يكون المفعول محذوفا .وقوله - تعالى - : ( وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ) أى : والله - تعالى - بفضله وإحسانه يهدى من يشاء هدايته إلى الصراط المستقيم ، الذى هو طريق الإسلام . وسبيل الحق والرشاد .

ويقولون امنا بالله وبالرسول واطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما اولئك بالمؤمنين

كما فسرها الوسيط والضمير فى قوله - تعالى - : ( وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ) يعود على طائفة من الذين لم يهدهم - سبحانه - إلى الصراط المستقيم ، وهم المنافقون .أى : أن هؤلاء المنافقين يقولون بألسنتهم فقط : آمنا بالله وبالرسول ، وأطعنا الله والرسول فى كل أمر أو نهى .ثم بين - سبحانه - أنهم كاذبون فى دعواهم الإيمان والطاعة فقال : ( ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّن بَعْدِ ذَلِكَ ) .أى : يدعون أنهم يؤمنون بالله وبالرسول ، ويطيعون أحكامهما ، وحالهم أن عددا كبيرا منهم يعرضون عما يقتضيه الإيمان والطاعة ، من أدب مع الله - تعالى - ومع رسوله صلى الله عليه وسلم ، ومن انقياد لأحكام الإسلام .وقوله - سبحانه - : ( وَمَآ أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ) نفى لدعواهم الإيمان ، وتوبيخ لهم على أقوالهم التى يكذبها واقعهم ، أى : وما أولئك المنافقون الذى يقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ، بالمؤمنين على الحقيقة ، لأنهم يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم ، ولأنهم لو كانوا يؤمنون حقا . لما أعرضوا عن أحكام الله - تعالى - ، وعن طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم .

واذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم اذا فريق منهم معرضون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - حالة أخرى من أحوالهم الذميمة فقال : ( وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ) .أى : أن هؤلاء المنافقين من صفاتهم - أيضا - أنهم إذا ما دعاهم داع إلى أن يجعلوا شريعة الله - تعالى - هى الحكم بينهم وبين خصومهم ، إذا فريق كبير منهم يعرض عن هذا الداعى ، ويسرع إلى التحاكم إلى الطاغوت . كما فى قوله - تعالى - : ( أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً )
والتعبير عنهم بقوله " إذا فريق منهم معرضون " إشعار بأنهم بمجرد دعوتهم إلى الحق ، ينفرون من الداعى نفورا شديدا بدون تدبر أو تمهل ، لأنهم يعلمون علم اليقين أن الحق عليهم لا لهم ، أما إن لاح لهم أن الحق لهم لا عليهم ، فإنهم يهرولون نحو الرسول صلى الله عليه وسلم يطلبون حكمه ، ولذا قال - تعالى - : ( وَإِن يَكُنْ لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ) .

وان يكن لهم الحق ياتوا اليه مذعنين

كما فسرها الوسيط ( وَإِن يَكُنْ لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ) والإذعان : الانقياد والطاعة ، يقال : أذعن فلان لفلان ، إذا انقاد له وخضع لأمره .أى : وإن يكن لهؤلاء المنافقين الحق على غيرهم ، يأتوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم منقادين طائعين راضين بحكمه ، لأنهم واثقون من أنه صلى الله عليه وسلم لن يبخسهم شيئا من حقوقهم لا يأتون إليه مذعنين فى كل الأحوال ، وإنما يأتون إليه صلى الله عليه وسلم مذعنين لحكمه عندما يكونون أصحاب حق فى قضية من القضايا الدنيوية التى تحصل بينهم وبين غيرهم .

افي قلوبهم مرض ام ارتابوا ام يخافون ان يحيف الله عليهم ورسوله بل اولئك هم الظالمون

كما فسرها الوسيط ثم يعقب القرآن الكريم على تصرفاتهم القبيحة بإثبات نفاقهم ، وبالتعجيب من ترددهم وريبهم ، وباستنكار ما هم عليه من خلق ذميم فيقول : ( أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمِ ارتابوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ الله عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ . . . ) ؟!وقوله : ( يَحِيفَ ) من الحيف ، وهو الميل إلى أحد الجانبين ، يقال : حاف فلان فى قضائه ، إذا جار وظلم .أى : ما بال هؤلاء المنافقين يعرضون عن أحكام الإسلام ولا يقبلون على حكم الرسول صلى الله عليه وسلم إلا إذا كانت لهم حقوق عند غيرهم أسبب ذلك أنهم مرضى القلوب بالنفاق وضعف الإيمان؟ أم سبب ذلك أنهم يشكون فى صدق نبوته صلى الله عليه وسلم ؟ أم سببه أنهم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله؟لا شك أن هذه الأسباب كلها قد امتلأت بها قلوبهم الفاسدة ، وفضلا عن ذلك فهناك سبب أشد وأعظم ، وهو حرصهم على الظلم ووضع الأمور فى غير مواضعها ولذا ختم - سبحانه - الآية الكريمة - بقوله : ( بَلْ أولئك هُمُ الظالمون ، أى : بل أولئك المنافقون هم الظالمون لأنفسهم ولغيرهم ، حيث وضعوا. ( الأمور فى غير موضعها ، وآثروا الغى على الرشد ، والكفر على الإيمان .قال الجمل : وقوله : ( أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ . . . ) إلخ استنكار واستقباح لإعراضهم المذكور ، وبيان لمنشئه بعد استقصاء عدة من القبائح المحققة فيهم والاستفهام للإنكار لكن النفى المستفاد به لا يتسطل على هذه الأمور ، الثلاثة ، لأنها واقعة لهم ، وقائمة بهم ، والواقع لا ينفى ، وأنما هو متسلط على منشئتها وسببيتها لإعراضهم . . .

انما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم ان يقولوا سمعنا واطعنا واولئك هم المفلحون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما هو واجب على المؤمنين إذا ما دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم ، أن يقولوا سمعنا وأطعنا .ولفظ " قول منصوب على أنه خبر " كان " واسمها أن المصدرية ما ما فى حيزها ، وهو : أن " يقولوا سمعنا وأطعنا .والمعنى : أن من صفات المؤمنين الصادقين ، أنهم إذا ما دعوا إلى حكم شريعة الله - تعالى - التى أوحاها إلى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقولوا عندما يدعون لذلك : سمعنا وأطعنا ، بدون تردد أو تباطؤ .. وأولئك " الذين يفعلون ذلك " هم المفلحون " فلاحا تاما فى الدنيا ". والآخرة .

ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فاولئك هم الفائزون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما يترتب على طاعة الله ورسوله فقال : ) وَمَن يُطِعِ الله وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ الله - تعالى - فى السر والعلن ) وَيَتَّقْهِ ) فى كل الأحوال ( فأولئك ) الذين يفعلون ذلك ( هُمُ الفآئزون بالنعيم المقيم ، والرضوان العظيم ( .

واقسموا بالله جهد ايمانهم لئن امرتهم ليخرجن قل لا تقسموا طاعة معروفة ان الله خبير بما تعملون

كما فسرها الوسيط ثم عادت السورة الكريمة إلى استكمال الحديث عن المنافقين فقال - تعالى - ( وَأَقْسَمُواْ بالله جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ ، أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ) .والجهد : الوسع والطاقة ، من جهد نفسه يجهدها - بفتح الهاء فيهما - إذا اجتهد فى الشىء ، وبذل فيه أقصى وسعه .أى وأقسم هؤلاء المنافقون بالأيمان الموثقة بأشد وسائل التوثيق ، بأنهم متى : أمرهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالخروج معه للجهاد ليخرجن سراعا تلبية لأمره .وهنا يأمر الله - تعالى - نبيه صلى الله عليه وسلم أن يرد عليهم ردا كله تهكم وسخرية بهم ، بسبب كذبهم فيقول : ( قُل لاَّ تُقْسِمُواْ طَاعَةٌ مّعْرُوفَةٌ ) .أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - على سبيل السخرية والزجر ، لا تقسموا على ما تقولون ، فإن طاعتكم معروف أمرها ، ومفروغ منها فهى طاعة باللسان فقط . أما الفعل فيكذبها .وذلك كما تقول لمن اشتهر ، بالكذب :لا تحلف لى على صدقك ، فأمرك معروف لا يحتاج إلى قسم أو دليل .ثم عقب - سبحانه - على هذه السخرية منهم بقوله : ( إِنَّ الله خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ) أى : إن الله - تعالى - مطلع اطلاعا تاما على ظواهركم - وبواطنكم فلا يحتاج منكم إلى قسم أو توكيد لأقوالكم ، وقد علم - سبحانه أنكم كاذبون فى حلفكم .

قل اطيعوا الله واطيعوا الرسول فان تولوا فانما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وان تطيعوه تهتدوا وما على الرسول الا البلاغ المبين

كما فسرها الوسيط ثم يأمر - سبحانه - رسوله صلى الله عليه وسلم أن يرشدهم
إلى الطاعة الصادقة ، لا طاعتهم الكاذبة فيقول : ( قُلْ أَطِيعُواْ الله
، وَأَطِيعُواْ الرسول ) طاعة ظاهرة وباطنة ، طاعة مصحوبة بصدق الاعتقاد
) - وكمال الإخلاص ، فإن هذه الطاعة هي المقبولة منكم .وقوله - سبحانه
فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَّا
حُمِّلْتُمْ ) تحذير لهم من التمادى فى نفاقهم وكذبهم .أى : مرهم - أيها
الرسول الكريم - بالطاعة الصادقة ، فإن توليتم - أيها المنافقون - عن دعوة
الحق وأعرضتم عن الصراط المستقيم ، فإن الرسول الكريم ليس عليه سوى ما
حملناه إياه . وهو التبليغ والإنذار والتبشير ، وأما أنتم فحذار أن تستمروا
فى نفاقكم .ثم أرشدهم - سبحانه - إلى طريق الفوز والفلاح فقال : ( وَإِن
تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ) . أى : وإن تطيعوا أيها المنافقون - رسولنا صلى
، الله عليه وسلم فى كل ما يأمركم به أو ينهاكم عنه ، تهتدوا إلى الحق
وتظفروا بالسعادة .وقوله - تعالى - : ( وَمَا عَلَى الرسول إِلاَّ البلاغ
المبين ) تذييل مقرر لما قبله ، من أن مغبة الإعراض عائدة عليهم . كما أن
فائدة الطاعة راجعة لهم .أى : وما على الرسول الذى أرسلناه لإرشادكم إلى ما
ينفعكم إلا التبليغ الواضح ، والنصح الخالص ، والتوجيه الحكيم .وبذلك ترى
هذه الآيات الكريمة قد كشفت عن رذائل المنافقين ، وحذرتهم من التمادى فى
نفاقهم ، وأرشدتهم إلى ما يفيدهم ويسعدهم ، كما وضحت ما يجب أن يكون عليه
. المؤمنون الصادقون من طاعة لله - تعالى - ولرسوله صلى الله عليه وسلم

وعد الله الذين امنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف
الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم
امنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فاولئك هم الفاسقون

كما فسرها الوسيط ثم تركت السورة الكريمة الحديث عن المنافقين ، لتسوق وعد
. . الله الذى لا يتخلف للمؤمنين الصادقين ، قال - تعالى - : ( وَعَدَ الله
قال الإمام ابن كثير : " هذا وعد من الله - تعالى - لرسوله صلى الله. ( .
، عليه وسلم بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض أى : أئمة الناس والولاة عليهم
. . . وبهم تصلح البلاد ، وتخضع لهم العباد ، وقد فعل تبارك وتعالى ذلك
فإنه لم يمت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى فتح عليه مكة وخيبر والبحرين
وسائر جزيرة العرب ، ولهذا ثبت فى الصحيح عن رسوله الله صلى الله عليه ،
وسلم أنه قال : " إن الله زوى لى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ
: - ملك أمتى ما زوى لى منها . . " .وفى تصدير الآية الكريمة بقوله - تعالى
بشارة عظيمة للمؤمنين ، بتحقيق وعده - تعالى - ، إذ ( . . وَعَدَ الله )
وعد الله لا يتخلف . كما قال - تعالى - : ( وَعْدَ الله لاَ يُخْلِفُ الله
وَعْدَهُ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ) والخطاب للرسول صلى الله
عليه وسلم وللمؤمنين ، ومن بيانية ، والآية الكريمة مقررة لمضمون ما قبلها
وهو قوله - تعالى - ( وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ . . . ) أى : وعد ،
الله - تعالى - بفضله وإحسانه ، الذين صدقوا فى إيمانهم من عباده ، والذين
: جمعوا مع الإيمان الصادق ، العمل الصالح ، وعدهم ليستخلفهم فى الأرض ، أى
، ليجعلنهم فيها خلفاء يتصرفون فيها تصرف أصحاب العزة والسلطان والغلبة
" بدلا من أعدائهم الكفار .قال الآلوسى : واللام فى قوله " ليستخلفنهم
. واقعة فى جواب القسم المحذوف . ومفعول وعد الثانى محذوف دل عليه الجواب
أى : وعد الله الذين آمنوا استخلافهم ، وأقسم ليستخلفنهم . . . و " ما " فى
قوله " كما استخلف " مصدرية والجار والمجرور متعلق بمحذوف . وقع صفة لمصدر
محذوف ، أى : ليستخلفنهم استخلافا كائنا كاستخلافه " الذين من قبلهم " من
الأمم المؤمنة ، الذين أسكنهم الله - تعالى - فى الأرض بعد إهلاك أعدائهم
- من الكفرة الظالمين .هذا هو الوعد الأول للمؤمنين : أن يجعلهم - سبحانه
خلفاءه فى الأرض . كما جعل عباده الصالحين من قبلهم خلفاءه ، وأورثهم أرض
) - الكفار وديارهم .وأما الوعد الثانى فيتجلى فى قوله - تعالى
: وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الذي ارتضى لَهُمْ ) .والتمكين
التثبيت والتوطيد والتمليك . يقال : تمكن فلان من الشىء ، إذا حازه وقدر
عليه .أى : وعد الله المؤمنين بأن يجعلهم خلفاءه فى أرضه ، وبأن يجعل دينهم
. وهو دين الإسلام الذى ارتضاه لهم . ثابتا فى القلوب ، راسخا فى النفوس
باسطا سلطانه على أعدائه ، له الكلمة العليا فى هذه الحياة ، ولمخالفيه
الكلمة السفلى .وأما الوعد الثالث فهو قوله - سبحانه - : " وليبدلنهم من
، بعد خوفهم أمنا " .أى : وعدهم الله - تعالى - بالاستخلاف فى الأرض
وبتمكين دينهم . وبأن يجعل لهم بدلا من الخوف الذى كانوا يعيشون فيه ، أمنا
واطمئنانا ، وراحة فى البال ، وهدوءا فى الحال .قال الربيع بن أنس عن أبى
العالية فى هذه الآية : " كان النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه بمكة نحوا
من عشر سنين . يدعون إلى الله وحده . . . وهم خائفون ، فلما قدموا المدينة
أمرهم الله بالقتال ، فكانوا بها خائفين ، يمسون فى السلاح ويصبحون فى
السلاح . فصبروا على ذلك ما شاء الله . ثم إن رجلا من الصحابة قال : يا

رسول الله : " أبد الدهر نحن خائفون هكذا؟ أما يأتى علينا يوم نأمن فيه
- ونضع السلاح؟ فقال صلى الله عليه وسلم لن تَغْبَرُوا - أى : لن تمكثوا
" " إلا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم فى الملأ العظيم محتبيا ليست فيهم حديدة
وأنزل الله هذه الآية فأظهر الله نبيه على جزيرة العرب فآمنوا ووضعوا.
- السلاح . . .ولكن هذا الاستخلاف والتمكين والأمان متى يتحقق منه - سبحانه
لعباده؟لقد بين الله - تعالى - الطريق إلى تحققه فقال ( يَعْبُدُونَنِي لاَ
: يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً ) فهذه الجملة الكريمة يصح أن تكون مستأنفة ، أى
جوابا لسؤال تقديره متى يتحقق هذا الاستخلاف والتمكين والأمان بعد الخوف
للمؤمنين؟ فكان الجواب : يعبدوننى عبادة خالصة تامة مستكملة لكل شروطها
وآدابها وأركانها ، دون أن يشركوا معى فى هذه العبادة أحدا كائنا من كان
- كما يصح أن تكون حالا من الذين آمنوا ، فيكون المعنى : وعد الله - تعالى.
عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، بالاستخلاف فى الأرض ، وبتمكين دينهم
فيها . وبتبديل خوفهم أمنا ، فى حال عبادتهم له - سبحانه - عبادة لا يشوبها
شرك أو رياء أو نقص .وروى الإمام أحمد عن أبى بن كعب قال : قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : " بشر هذه الأمة بالسناء والرفعة ، والدين والنصر
والتمكين فى الأرض ، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا ، لم يكن له فى الآخرة
نصيب " . ذلك هو وعد الله - تعالى - لعباده الذين أخلصوا له العبادة
والطاعة ، وأدوا ما أمرهم به ، واجتنبوا ما نهاهم عنه ، أما الذين انحرفوا
) : عن طريق الحق . وجحدوا نعمه - سبحانه - عليهم ، فقد بين عاقبتهم فقال
وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذلك فأولئك هُمُ الفاسقون ) .أى : ومن كفر بعد كل هذه
النعم التى وعدت بها عبادى الصالحين ، واستعمل هذه النعم فى غير ما خلقت له
، فأولئك الكافرون الجاحدون هم الفاسقون عن أمرى ، الخارجون عن وعدى ،
الناكبون عن صراطى .وهكذا نرى الآية الكريمة قد جمعت أطراف الحكمة من كل
جوانبها ، فقد رغبت المؤمنين فى إخلاص العبادة لله - تعالى - بأسمى ألوان
الترغيب ، حيث بينت لهم أن هذه العبادة سيترتب عليها الاستخلاف والتمكين
والأمان . ثم رهبت من الكفر والجحود ، وبينت أن عاقبتهما الفسوق والحرمان
. - من نعم الله - تعالى

واقيموا الصلاة واتوا الزكاة واطيعوا الرسول لعلكم ترحمون

: كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أهم أركان هذه العبادة فقال
وَأَقِيمُواْ الصلاة وَآتُواْ الزكاة وَأَطِيعُواْ الرسول لَعَلَّكُمْ )
- تُرْحَمُونَ ) .أى : واظبوا - أيها المؤمنون - على إخلاص العبادة لله
تعالى - وأدوا الصلاة فى أوقاتها بخشوع وإحسان ، وقدموا الزكاة للمستحقين
لها ، وأطيعوا الرسول صلى الله عليه وسلم طاعة تامة ، لعلكم بسبب هذه
. العبادة والطاعة ، تنالون رحمة الله - تعالى - ورضوانه

لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الارض وماواهم النار ولبئس المصير

كما فسرها الوسيط ثم ثبت الله - تعالى - المؤمنين ، وهون من شأن أعدائهم
لكى لا يرهبهم قوتهم فقال : ( لاَ تَحْسَبَنَّ الذين كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ
فِي الأرض وَمَأْوَاهُمُ النار وَلَبِئْسَ المصير ) .أى :لا تظنن - أيها
الرسول الكريم أنت ومن معك من المؤمنين - أن الذين كفروا مهما أوتوا من قوة
وبسطة من المال ، فى إماكنهم أن يعجزونا عن إهلاكهم واستئصالهم وقطع دابرهم
فإن قوتنا لا يعجزها شىء وهم فى قبضتنا سواء أكانوا فى الأرض التى يعيشون ،
" عليها أم فى غيرها ، واعلم أن " مأواهم " فى الآخرة " النار ولبئس المصير
هذه النار التى هى مستقرهم ومسكنهم .فالآية الكريمة بيان لمآل الكفرة فى
الدنيا والآخرة ، بعد بيان ما أعده الله - تعالى - فى الدنيا والآخرة من
استخلاف وتمكين وأمان ورحمة للمؤمنين .وقوله : ( الذين كَفَرُواْ ) هو
المفعول الأول ، لتحسبن ، وقوله ( مُعْجِزِينَ ) هو المفعول الثانى .قال
القرطبى : " وقرأ ابن عامر وحمزة " يحسبن " بالياء ، بمعنى لا يحسبن الذين
" . . كفروا أنفسهم معجزين الله فى الأرض ، لأن الحسبان يتعدى إلى مفعولين
أى : أن " الذين كفروا " فى محل رفع فاعل يحسبن ، والمفعول الأول محذوف.
- تقديره : أنفسهم . وقوله ( مُعْجِزِينَ ) هو المفعول الثانى .وقوله
، سبحانه - : ( وَلَبِئْسَ المصير ) جواب لقسم مقدر . والمخصوص بالذم محذوف
أى : وبالله " لبئس المصير " هى . أى : النار التى يستقرون فيها .وبعد هذه
، التوجيهات الحكيمة التى تتعلق ببيان أعمال المؤمنين ، وأعمال الكافرين
وببيان جانب من مظاهر قدرة الله - تعالى - فى خلقه ، وببيان أقوال
المنافقين التى تخالف أفعالهم ، وببيان ما وعد الله - تعالى - به المؤمنين
. . . . من خيرات

يا ايها الذين امنوا ليستاذنكم الذين ملكت ايمانكم والذين لم يبلغوا الحلم
منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد
صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم

بعضكم على بعض كذلك يبين الله لكم الايات والله عليم حكيم

كما فسرها الوسيط بعد كل ذلك ، عادت السورة الكريمة إلى الحديث عما افتتحت
به من الحديث عن الأحكام والآداب التى شرعها الله - تعالى - ، وأمر
المؤمنين بالتمسك بها فقال - تعالى - : ( ياأيها الذين ءَامَنُواْ . . . )
ذكر المفسرون فى سبب نزول قوله - تعالى - : ( ياأيها الذين ءَامَنُواْ .
لِيَسْتَأْذِنكُمُ . . . ) روايات منها : أن امرأة يقال لها أسماء بنت أبى
مرثد ، دخل عليها غلام كبير لها ، فى وقت كرهت دخوله فيه ، فأتت النبى صلى
الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ، إن خدمنا وغلماننا يدخلون علينا فى
حال نكرهها ، فأنزل الله تعالى هذه الآية :ومنها ما روى من أن الرسول صلى
الله عليه وسلم بعث فى وقت الظهيرة غلاما من الأنصار يقال له مدلج ، إلى
عمر بن الخطاب ، فدق الغلام الباب على عمر - وكان نائما - فاستيقظ ، وجلس
فانكشف منه شىء فقال عمر : لوددت أن الله - تعالى - نهى آباءنا وأبناءنا
وخدمنا من الدخول علينا فى هذه الساعة إلا بإذن ثم انطلق عمر مع الغلام إلى
- النبى صلى الله عليه وسلم فوجد هذه الآية قد نزلت فخر ساجدا لله - تعالى
وقد صدرت الآية الكريمة بندائهم بصفة الإيمان . لحضهم على الامتثال لما .
) اشتملت عليه من آداب قويمة . وتوجيهات حكيمة .واللام فى قوله
لِيَسْتَأْذِنكُمُ ) هى لام الأمر والمراد بما ملكت أيمانهم : الأرقاء سواء
أكانوا ذكورا أم إناثا ، ويدخل فيهم الخدم ومن على شاكلتهم .والمراد بالذين
لم يبلغوا الحلم . الأطفال الذين فى سن الصبا ولم يصلوا إلى سن البلوغ إلا
أنهم يعرفون معنى العورة ويميزون بين ما يصح الاطلاع عليه وما لا يصح
والمعنى : يا من آمنتم بالله حق الإيمان من الرجال ، والنساء ، عليكم أن.
تمنعوا مماليككم وخدمكم وصبيانكم الذين لم يبلغوا سن البلوغ ، من الدخول
عليكم فى مضاجعكم بغير إذن فى هذه الأوقات الثلاثة ، خشية أن يطلعوا منكم
على ما لا يصح الاطلاع عليه .فقوله - تعالى - : ( ثَلاَثَ مَرَّاتٍ ) تحديد
للأوقات المنهى عن الدخول فيها بدون استئذان ، أى : ثلاث أوقات فى اليوم
والليلة .ثم بين - سبحانه - هذه الأوقات فقال : ( مِّن قَبْلِ صلاة الفجر )
وذلك لأن هذا الوقت يقوم فيه الإنسان من النوم عادة ، وقد يكون متخففا من
ثيابه . ولا يجب أن يراه أحد وهو على تلك الحالة .( وَحِينَ تَضَعُونَ
ثيابكم مِّنَ الظهيرة ) أى : وحين تخلعون ثيابكم وتطرحونها فى وقت الظهيرة
، عند شدة الحر ، لأجل التخفيف منها وارتداء ثياب أخرى أرق من تلك الثياب ،
طلبا للراحة واستعدادا للنوم .( وَمِن بَعْدِ صلاة العشاء ) لأن هذا الوقت
- يتجرد فيه الإنسان من ثياب اليقظة ، ليتخذ ثيابا أخرى للنوم .وقوله
: سبحانه - : ( ثَلاَثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ ) خبر مبتدأ محذوف ، والعورات
- جمع عورة .وتطلق على ما يجب ستره من الإنسان ، وهى - كما يقول الراغب
: مأخوذة من العار ، وذلك لأن المظهر لها يلحقه العار والذم بسبب ذلك .أى
هذه الأوقات من ثلاث عورات كائنة لكم - فعليكم أن تعودوا مماليككم وخدمكم
وصبيانكم . على الاستئذان عند إرادة الدخول عليكم فيها ، لأنها أوقات يغلب
فيها اختلاء الرجل بأهله ، كما يغلب فيها التخفف من الثياب ، وانكشاف ما
يجب ستره .وقوله - سبحانه - : ( لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلاَ عَلَيْهِمْ
: جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ) بيان لمظهر من مظاهر التيسير فى شريعة الإسلام .أى
" وليس عليكم أيها المؤمنون والمؤمنات ، ولا عليهم ، أى : أرقائكم وصبيانكم
جناح " آ : حرج أو إثم فى الدخول بدون استئذان " بعدهن " أى : بعد كل وقت
من تلك الأوقات الثلاثة .وقوله - تعالى - ( طوافون عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ
على بَعْضٍ ) تعليل لبيان العذر المرخص فى ترك الاستئذان فى غير الأوقات
التى حددها الله - تعالى - .أى :لا حرج فى دخول مماليككم وصبيانكم عليكم
، فى غير هذه الأوقات بدون استئذان لأنهم تكثر حاجتهم فى التردد عليكم
وأنتم كذلك لا غنى لكم عنهم فأنتم وهم يطوف بعضكم على بعض لقضاء المصالح فى
كثير من الأوقات .وبذلك يجمع الإسلام فى تعاليمه بين التستر والاحتشام
- والتأدب بآدابه القويمة ، وبين السماحة وإزالة الحرج والمشقة .ثم ختم
سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ( كَذَلِكَ يُبَيِّنُ الله لَكُمُ الايات
- والله عَلِيمٌ حَكِيمٌ ) .أى : مثل هذا البيان الحكيم يبين الله - تعالى
، لكم الآيات التى توصلكم متى تمسكتم بها ، إلى طريق الخير و السعادة
والله - عز وجل - عليم بما يصلح عباده ، حكيم فى كل ما يأمر به ، أو ينهى
عنه .وهكذا تسوق لنا الآية الكريمة ألوانا من الأدب السامى ، الذى يجعل
، الكبار والصغار يعيشون عيشة فاضلة ، عامرة بالطهر والعفاف والحياء
. والنقاء من كل ما يجرح الشعور ، ومن كل تصور يتنافى مع الخلق الكريم

واذا بلغ الاطفال منكم الحلم فليستاذنوا كما استاذن الذين من قبلهم كذلك
يبين الله لكم اياته والله عليم حكيم

كما فسرها الوسيط ثم انتقلت السورة إلى الحديث عن حكم البالغين بالنسبة
) - للاستئذان ، بعد حديثها عن حكم غير البالغين بالنسبة لذلك فقال - تعالى
وَإِذَا بَلَغَ الأطفال مِنكُمُ الحلم فَلْيَسْتَأْذِنُواْ كَمَا استأذن

الذين مِن قَبْلِهِمْ . . . ) .أى : وإذا بلغ الأطفال منكم - أيها المؤمنون والمؤمنات - سن الاحتلام والبلوغ الذي يصلح معه الزواج ، فعليهم أن يستأذنوا فى الدخول عليكم فى كل الأوقات ، كما استأذن الذين هم أكبر منهم فى السن عندما بلغوا سن الاحتلام ، فقد أمر - سبحانه أمرا عاما بذلك فقال : ( ياأيها الذين آمَنُواْ لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حتى " : تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ على أَهْلِهَا . . . ) قال صاحب الكشاف ، والمعنى أن الأطفال مأذون لهم فى الدخول بغير إذن إلا فى العورات الثلاث فإذا اعتاد الأطفال ذلك ثم خرجوا عن حد الطفولة ، بأن يحتلموا ، أو يبلغوا ، السن التى يحكم عليهم فيها بالبلوغ ، وجب أن يفطموا عن تلك العادة ويحملوا على أن يستأذنوا في جميع الأوقات ، كما هو الحال بالنسبة للرجال الكبار الذين لم يعتادوا الدخول عليكم إلا بإذن .وهذا مما الناس منه فى غفلة ، وهو عندهم كالشريعة المنسوخة . وعن ابن مسعود : " عليكم أن تستأذنوا على آبائكم وأمهاتكم وأخواتكم . . . " .ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله ) : - كذلك يُبَيِّنُ الله لَكُمْ آيَاتِهِ والله عَلِيمٌ حَكِيمٌ ) أى : والله تعالى - عليم بأحوال النفوس وبما يصلحها من آداب ، حكيم فى كل ما يشرعه من أحكام .

والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحا فليس عليهن جناح ان يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة وان يستعففن خير لهن والله سميع عليم

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك بعض الأحكام التى تتعلق بالنساء اللاتى بلغن سن اليأس ، فقال : ( والقواعد مِنَ النسآء اللاتي لاَ يَرْجُونَ نِكَاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِنّ جُنَاحٌ أن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ . . . ) .والقواعد : جمع قاعدة - بغير تاء - لاختصاص هذه الكلمة بالنساء كحائض وطامث .وقالوا : سميت المرأة العجوز بذلك ، لأنها تكثر القعود لكبر سنها .أى : والنساء العجائز اللاتى قعدن عن الولد أو عن الحيض ، ولا يطمعن فى الزواج لكبرهن ، فليس على هؤلاء النساء حرج أن ينزعن عنهن ثيابهن الظاهرة ، والتى لا يفضى نزعها إلى كشف عورة ، أو إظهار زينة أمر الله - تعالى - بسترها .فقوله - سبحانه - : ( فَلَيْسَ عَلَيْهِنّ جُنَاحٌ أن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنّ ) بيان لمظهر من مظاهر التيسير فى شريعة الإسلام ، لأن المرأة العجوز إذا تخففت من بعض ثيابها التى لا يفضى التخفف منها إلى فتنة أو إلى كشف عورة . . . فلا بأس بذلك ، لأنها - فى العادة -لا تتطلع النفوس إليها ، وذلك بأن تخلع القناع - الذى يكون فوق الخمار ، والرداء الذى يكون فوق الثياب .وقوله - تعالى ) غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ) حال . وأصل التبرج : التكلف والتصنع فى إظهار ما يخفى ، من قولهم سفينة بارجة أى :لا غطاء عليها .والمراد به هنا إظهار المرأة زينتها ومحاسنها للرجال الذين لا يصح لهم الاطلاع عليها .أى : لا حرج على النساء القواعد من خلع ثيابهن الظاهرة ، حال كونهن غير مظهرات : للزينة التى أمرهن الله - تعالى - بإخفائها ، وغير قاصدات بهذا الخلع - لثيابهن الظاهرة التبرج وكشف ما أمر الله - تعالى - بستره .وقوله سبحانه - : ( وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنّ ) أى : وأن يبقين ثيابهن الظاهرة عليهن بدون خلع ، خير لهن ، وأطهر لقلوبهن ، وأبعد عن التهمة ، وأنفى لسوء الظن بهن .وسمى الله - تعالى - إبقاء ثيابهن عليهن استعفافا . أى : طلبا للعفة ، للإشعار بأن الاحتشام والتستر . . . خير للمرأة حتى ولو كانت من القواعد .وقوله - تعالى - ( والله سَمِيعٌ عَلِيمٌ ) أى : سميع لكل ما من شأنه أن يُسمع ، عليم بأحوال النفوس وحركاتها وسكناتها .وبذلك نرى هذه الآيات الكريمة ، قد بينت للناس أقوم المناهج ، وأسمى الآداب ، وأفضل الأحكام التى باتباعها يسعد الأفراد والجماعات .

ليس على الاعمى حرج ولا على الاعرج حرج ولا على المريض حرج ولا على انفسكم ان تاكلوا من بيوتكم او بيوت ابائكم او بيوت امهاتكم او بيوت اخوانكم او بيوت اخواتكم او بيوت اعمامكم او بيوت عماتكم او بيوت اخوالكم او بيوت خالاتكم او ما ملكتم مفاتحه او صديقكم ليس عليكم جناح ان تاكلوا جميعا او اشتاتا فاذا دخلتم بيوتا فسلموا على انفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة كذلك يبين الله لكم الايات لعلكم تعقلون

كما فسرها الوسيط ثم انتقلت السورة الكريمة بعد ذلك إلى الحديث عن أحكام أخرى فيها ما فيها من حسن للتنظيم فى العلاقات بين الأقارب والأصدقاء ، وفيها ما فيها من اليسر والسماحة ، فقال - تعالى - : ( لَّيْسَ عَلَى الأعمى . . ) .ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها ما روى عن ابن عباس أنه قال : لما أنزل الله - تعالى - : ( يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ لاَ تأكلوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بالباطل . . ) تحرج المسلمون عن مؤاكلة المرضى والعمى والعرج ، وقالوا : الطعام أفضل الأموال ، وقد نهانا الله عن أكل المال والباطل ، والأعمى لا يبصر موضع الطعام الطيب ،

والأعرج لا يتمكن من الجلوس ، ولا يستطيع المزاحمة ، والمريض يضعف عن
التناول ولا يستوفى من الطعام حقه ، فأنزل الله هذه الآية .وقيل نزلت
ترخيصا لهؤلاء فى الأكل من بيوت من سمى الله فى هذه الآية ، وذلك أن هؤلاء
كانوا يدخلون على الرجل لطلب الطعام ، فإذا لم يكن عنده شيء ذهب بهم إلى
بيت أبيه ، أو بيت أمه ، أو بعض من سمى الله فى هذه الآية ، فكان أهل
الزمانة يتحرجون من ذلك ، ويقولون ذهب بنا إلى غير بيته ، فأنزل الله هذه
. . الآية .وقيل نزلت رخصة للأعمى والأعرج والمريض عن التخلف عن الجهاد
ويبدو لنا أن الآية الكريمة نزلت لتعليم المؤمنين ألوانا متعددة من الآداب.
التى شرعها الله - تعالى - لهم ، ويسرها لهم بفضله وإحسانه ، حتى يعلموا أن
شريعته - سبحانه - مبنية على اليسر لا على العسر ، وعلى التخفيف ورفع الحرج
لا على التشديد والتضييق .والحرج : الضيق ومنه الحرجة للشجر الملتف ،
: المتكاثف بعضه ببعض ، حتى ليصعب على الشخص أن يمشى فيه . والمراد به هنا
الإثم .والمعنى : ليس على الأعمى والأعرج والمريض حرج أو إثم فى الأكل من
بيوت هؤلاء الذين سماهم الله - تعالى - .كذلك ليس عليكم حرج أو إثم - أيها
المؤمنون - فى أن تأكلوا أنتم ومن معكم ( مِن بُيُوتِكُمْ ) التى هى ملك
لكم .وذكر - سبحانه - بيوتهم هنا مع أنه من المعروف أنه لا حرج فى أن يأكل
الإنسان من بيته ، للإشعار بأن أكلهم من بيوت الذين سيذكرهم - سبحانه - بعد
ذلك من الآباء والأمهات والأقارب ، يتساوى فى نفى الحرج مع أكلهم من بيوتهم
أى أن أكل الناس من بيوتهم لم يذكر هنا لنفى حرج كان متوهما ، وإنما ذكر
لإظهار التسوية بين أكلهم من بيوت أقاربهم وأصدقائهم ، وبين أكلهم من
بيوتهم .وبعضهم يرى أن المراد بقوله ( أَن تَأْكُلُواْ مِن بُيُوتِكُمْ )
أى : من بيوت زوجاتهم وأولادهم .ثم ذكر - سبحانه - بيوتا أخرى لا حرج عليهم
فى الأكل منها فقال : ( أَوْ بُيُوتِ آبَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ
أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ
أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ
أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاَتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَّفَاتِحَهُ
أى : أو البيوت التى تملكون التصرف فيها بإذن أصحابها ، كأن تكونوا وكلاء (
عنهم فى التصرف فى أموالهم .ومفاتح : جمع مفتح - بكسر الميم - وهو آلة
) الفتح وملك هذه المفاتح : كناية عن كون الشىء تحت يد الشخص وتصرفه .وقوله
أَوْ صَدِيقِكُمْ ) معطوف على ما قبله والصديق هو من يصدق فى مودتك ، وتصدق
أنت فى مودته ، وهو اسم جنس يطلق على الواحد والجمع ، والمراد هنا : الجمع
أى : ولا حرج عليكم - أيضا - فى الأكل من بيوت أصدقائكم .فالآية الكريمة .
قد أجازت الأكل من هذه البيوت المذكورة ، وهى أحد عشر بيتا - وإن لم يكن
فيها أصحابها ، ما دام الآكل قد علم رضا صاحب البيت بذلك ، وأن صاحب البيت
، لا يكره هذا ولا يتضرر منه ، استناداً إلى القواعد العامة فى الشريعة ،
والتى منها : "لا ضرر ولا ضرار " وأنه "لا يحل مال امرىء مسلم إلا بطيب
نفس منه " .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : فما معنى ( أَوْ صَدِيقِكُمْ ) قلت
معناه : أو بيوت أصدقائكم ، والصديق يكون واحدا وجمعا ، وكذلك الخليط :
والقطين والعدو .ويحكى عن الحسن أنه دخل داره ، وإذا جماعة من أصدقائه قد
استلوا سلالا من تحت سريره فيها أطايب الأطعمة . وهم مكبون عليها يأكلون
فتهللت أسارير وجهه سرورا وضحك وقال : هكذا وجدناهم ، هكذا وجدناهم . يريد
أكابر الصحابة ومن لقيهم من البدريين .وكان الرجل منهم يدخل دار صديقه وهو
، غائب فيسأل جاريته كيسه . فيأخذ منه ما شاء ، فإذا حضر مولاها فأخبرته
أعتقها سرورا بذلك .وقوله - سبحانه - : ( لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن
تَأْكُلُواْ جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً ) بيان لنوع آخر من أنواع السماحة فى
شريعة الإسلام .والأشتات : جمع شَتّ - بفتح الشين - يقال : شت الأمر يشت
شتا وشتاتا ، إذا تفرق . ويقال : هذا أمر شت ، أى : متفرق .أى : ليس
عليكم - أيها المؤمنون - حرج أو إثم فى أن تأكلوا مجتمعين أو متفرقين ، وقد
كان بعضهم من عاداته أن لا يأكل منفردا ، فإن لم يجد من يأكل معه عاف
الطعام ، فرفع الله - تعالى - هذا الحرج المتكلف ، ورد الأمر إلى ما تقتضيه
شريعة الإسلام من بساطة ويسر وعدم تكلف ، فأباح لهم أن يأكلوا فرادى
ومجتمعين .فالجملة الكريمة بيان للحالة التى يجوز عليها الأكل ، بعد بيان
البيوت التى يجوز الأكل منها والمتأمل فى هذه الآية الكريمة يراها قد
اشتملت على أحكم الأداء للترتيب اللفظى والموضوعى ، فقد بدأت ببيت الإنسان
، نفسه ، ثم بيوت الآباء ، فالأمهات ، فالإخوة ، فالأخوات ، فالأقارب
، فالبيوت التى يملكون التصرف فيها؛ فبيوت الأصدقاء . . .ثم لم يكتف بذلك
وإنما بينت الحالة التى يباح الأكل منها . . .ثم بعد ذلك علمتنا آداب دخول
البيوت التى ندخلها للأكل أو لغيره ، فقال - تعالى - : ( فَإِذَا
دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُواْ على أَنفُسِكُمْ تَحِيّةً مِّنْ عِندِ
الله مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ) .والمراد بأنفسكم هنا : أهل تلك البيوت التى
يدخلونها ، لأنهم بمنزلة أنفسهم فى شدة المودة والمحبة والألفة ، و " تحية
منصوب بفعل مقدر أى : فحيوا تحية .أى : فإذا دخلتم أيها المؤمنون "
والمؤمنات بيوتا فسلموا على أهلها الذين هم بمنزلة أنفسكم ، وحيوهم تحية
ثابتة من عند الله ، مباركة طيبة ، أى مستتبعة لزيادة البركات والخيرات

، ولزيادة المحبة والمودة .ووصف - سبحانه - هذه التحية بالبركة والطيب
لأنها دعوة مؤمن لمؤمن وكلاهما يرجو بها من الله - تعالى - زيادة الخير
وطيب الرزق .وتحية الإسلام أن يقول المسلم لأخيه المسلم : السلام عليكم
ورحمة الله وبركاته .ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ( كَذَلِكَ
يُبَيِّنُ الله لَكُمُ الآيات لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ) .أى : مثل هذا
البيان القويم ، يبين الله - تعالى - لكم الآيات المحكمة ، والإرشادات
النافعة ، لكى تعقلوا ما اشتملت عليه من هدايات ، توصلكم متى انتفعتم بها
إلى السعادة والفلاح .

انما المؤمنون الذين امنوا بالله ورسوله واذا كانوا معه على امر جامع لم
يذهبوا حتى يستاذنوه ان الذين يستاذنونك اولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله
فاذا استاذنوك لبعض شانهم فاذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله ان الله غفور
رحيم

كما فسرها الوسيط وبعد أن ساقت السورة الكريمة ما ساقت من أحكام وآداب منها
ما يتعلق بالحدود ، ومنها ما يتعلق بالاستئذان ، ومنها ما يتعلق بالتستر
. . . والاحتشام ، ومنها ما يتعلق بتنظيم العلاقات بين الأقارب والأصدقاء
بعد كل ذلك اختتمت ببيان ما يجب أن يكون عليه المؤمنون من أدب مع رسولهم
صلى الله عليهم وسلم فقال - تعالى - : ( إِنَّمَا المؤمنون الذين آمَنُوا
روى ابن إسحاق فى سبب نزول هذه الآيات ما ملخصه : أنه لما كان. ( . . .
تجمع قريش وغطفان فى غزوة الأحزاب ، ضرب الرسول صلى الله عليه وسلم خندقا
حول المدينة وعمل معه المسلمون فيه ، فدأب فيه ودابوا ، وأبطأ عن رسول الله
، صلى الله عليه وسلم وعن المسلمين فى عملهم ذلك ، رجال من المنافقين
وجعلوا يُوَرُّون - أى يستترون - بالضعيف من العمل ، ويتسللون إلى أهليهمى
بغير علم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا إذن . وجعل الرجل من
المسلمين إذا ناتبه النائبة من الحاجة التى لا بد منها يذكر ذلك لرسول الله
صلى الله عليه وسلم ويستأذن فى اللحوق لحاجته ، فيأذن له ، فإذا قضى حاجته
رجع إلى ما كان فيه من العمل رغبة فى الخير واحتسابا له . فأنزل الله هذه ،
) : الآيات فى المؤمنين وفى المنافقين .والمراد بالأمر الجامع فى قوله
وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ على أَمْرٍ جَامِعٍ ) : الأمر الهام الذى يستلزم
اشتراك الجماعة فى شأنه ، كالجهاد فى سبيل الله ، وكالإعداد لعمل من
الأعمال العامة التى تهم المسلمين جميعا .والمعنى : إن من شأن المؤمنين
الصادقين ، الذين آمنوا بالله ورسوله حق الإيمان أنهم إذا كانوا مع رسول
، الله صلى الله عليه وسلم على أمر جامع من الأمور التى تقتضى اشتراكهم فيه
لم يفارقوه ولم يذهبوا عنه ، حتى يستأذنوه فى المفارقة أو فى الذهاب ، لأن
هذا الاستئذان دليل على قوة الإيمان ، وعلى حسن أدبهم مع نبيهم صلى الله
عليه وسلم .قال الآلوسى : وقوله : ( وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ على أَمْرٍ
جَامِعٍ . . . ) معطوف على ( آمَنُوا ) داخل معه فى حيز الصلة ، والحصر
- باعتبار الكمال . أى : إنما الكاملون فى الإيمان الذين آمنوا بالله
تعالى - ، وبرسوله صلى الله عليه وسلم من صميم قلوبهم ، وأطاعوا فى جميع
الأحكام التى من جملتها ما فصل من قبل . وإذا كانوا معه صلى الله عليه وسلم
على أمر مهم يجب اجتماعهم فى شأنه كالجمعة والأعياد والحروب ، وغيرها من
الأمور الداعية إلى الاجتماع . . . لم يذهبوا عنه صلى الله عليه وسلم ( حتى
يَسْتَأْذِنُوهُ ) فى الذهاب فيأذن لهم . . .وخص - سبحانه - الأمر الجامع
بالذكر ، للإشعار بأهميته ووجوب البقاء معه صلى الله عليه وسلم حتى يعطيهم
الإذن بالانصراف ، إذ وجودهم معه يؤدى إلى مظاهرته صلى الله عليه وسلم
- ومعاونته فى الوصول إلى أفضل الحلول لهذا الأمر الهام .ثم مدح - سبحانه
الذين لا يغادرون مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم - إذا كانوا معه على
أمر جامع حتى يستأذنوه فقال : ( إِنَّ الذين يَسْتَأْذِنُونَكَ أولئك الذين
يُؤْمِنُونَ بالله وَرَسُولِهِ ) .أى : إن الذين يستأذنونك فى تلك الأحوال
الهامة ، والتى تستلزم وجودهم معك ، أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله حق
الإيمان ، لأن هذا الاستئذان فى تلك الأوقات دليل على طهارة نفوسهم ، وصدق
يقينهم ، وصفاء قلوبهم .ثم بين - سبحانه - وظيفته - صلى الله عليه وسلم
فقال : ( فَإِذَا استأذنوك لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِّمَن شِئْتَ
مِنْهُمْ واستغفر لَهُمُ الله إِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ) .أى : فإذا
استأذنك هؤلاء المؤمنون فى الانصراف ، لقضاء بعض الأمور والشئون التى هم فى
حاجة إليها ، فأنت مفوض ومخير فى إعطاء الإذن لبعضهم وفى منعه عن البعض
- الآخر ، إذ الأمر فى هذه المسألة متروك لتقديرك - أيها الرسول الكريم
وقوله - تعالى - ( واستغفر لَهُمُ ) فيه إشارة إلى أنه كان الأولى بهؤلاء.
المؤمنين ، أن يبقوا مع الرسول صلى الله عليه وسلم حتى ينتهوا من حل هذا
الأمر الجامع الذى اجتمعوا مع الرسول صلى الله عليه وسلم من أجله ، وحتى
يأذن لهم صلى الله عليه وسلم فى الانصراف دون أن يطلبوا منه ذلك ، فإن
الاستئذان قبل البت فى الأمر الهام الذى يتعلق بمصالح المسلمين جميعا ، غير
، مناسب للمؤمنين الصادقين ، ويجب أن يكون فى أضيق الحدود ، وأشد الظروف

. ومع كل ذلك ، فالله - تعالى - واسع المغفرة لعباده عظيم الرحمة بهم

لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا فليحذر الذين يخالفون عن امره ان تصيبهم فتنة او يصيبهم عذاب اليم

كما فسرها الوسيط ثم أكد الله - تعالى - وجوب التوقير والتعظيم لنبيه صلى الله عليه وسلم فقال : ( لاَّ تَجْعَلُواْ دُعَآءَ الرسول بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً . . ) .ولأهل العلم فى تفسير هذه الآية أقوال من أهمها : أن المصدر هنا وهو لفظ " دعاء " مضاف إلى مفعوله ، وهو الرسول صلى الله عليه وسلم على أنه مدعو ، فيكون المعنى لا تجعلوا - أيها المؤمنون - دعاءكم الرسول إذا دعوتموه ، ونداءكم له إذا ما ناديتموه كدعاء أو نداء بعضكم لبعض ، وإنما عليكم إذا ما ناديتموه أن تنادوه بقولكم يا نبى الله ، أو يا رسول الله ، ولا يليق بكم أن تنادوه باسمه مجردا ، بأن تقولوا يا محمد .كما أن من الواجب عليكم أن تخفضوا أصواتكم عند ندائه توقيرا واحتراما له صلى الله عليه وسلم والمتتبع للقرآن الكريم ، يرى أن الله - تعالى - لم يناد رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم باسمه مجردا ، وإنما ناداه بقوله : يأيها المدثر ، يأيها الرسول ، يأيها النبى . . .

وإذا كان اسمه صلى الله عليه وسلم قد ورد فى القرآن الكريم فى أكثر من موضع ، فإن وروده لم يكن فى معرض النداء ، وإنما كان فى غيره كما فى قوله - تعالى - ( مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ الله والذين مَعَهُ أَشِدَّآءُ عَلَى الكفار رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ . . ) فالآية الكريمة تنهى المؤمنين عن أن ينادوا أو يخاطبوا النبى صلى الله عليه وسلم باسمه مجردا ، كما يخاطب بعضهم بعضا .ومن العلماء من يرى أن المصدر هنا مضاف إلى فاعله ، فيكون المعنى :لا تقيسوا دعاءه إياكم على دعاء بعضكم بعضا ، بل يجب عليكم متى دعاكم لأمر أن تلبوا أمره بدون تقاعس أو تباطؤ .وعلى كلا التفسيرين فالآية الكريمة تدل على وجوب توقير الرسول صلى الله عليه وسلم وتعظيمه . وشبيه بها قوله - تعالى - : ( ياأيها الذين آمَنُواْ لاَ ترفعوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النبي وَلاَ تَجْهَرُواْ لَهُ بالقول كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ إِنَّ الذين يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ الله أولئك الذين امتحن الله قُلُوبَهُمْ للتقوى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ) ثم حذر - سبحانه - المنافقين من سوء عاقبة أفعالهم فقال : ( قَدْ يَعْلَمُ الله الذين يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذاً فَلْيَحْذَرِ الذين يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ) .وقد هنا للتحقيق .وقوله ( يتسللون من التسلل ، وهو الخروج فى خفاء مع تمهل وتلصص ) لِوَاذاً ) مصدر فى موضع الحال أى : ملاوذين . والملاوذة معناها : الاستتار بشىء مخافة من يراك ، أو هى الروغان من شىء إلى شىء على سبيل الخفاء .أى : إن الله - تعالى - عليم بحال هؤلاء المنافقين الذين يخرجون من مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم فى خفاء واستتار : بحيث يخرجون من الجماعة قليلا قليلا يستتر بعضهم ببعض حتى يخرجوا جميعا .قالوا : وكان المنافقون تارة يخرجون ، إذا ارتقى الرسول صلى الله عليه وسلم المنبر . ينظرون يمينا وشمالا . ثم يخرجون واحدا واحدا . وتارة يخرجون من مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم وتارة يفرون من الجهاد يعتذرون بالمعاذير الباطلة .وعلى أية حال فالآية الكريمة تصور خبث نفوسهم ، والتواء طباعهم ، وجبن قلوبهم ، أبلغ تصوير ، حيث ترسم أحوالهم وهم يخرجون فى خفاء متسللين ، حتى لا يراهم المسلمون والفاء فى قوله - تعالى - : ( فَلْيَحْذَرِ . . . ) لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، والضمير فى قوله : ( عَنْ أَمْرِهِ ) يعود إلى النبى صلى الله عليه وسلم أو إلى الله - تعالى - والمعنى واحد ، لأن الرسول مبلغ عن الله - تعالى - .والمخالفة معناها : أن يأخذ كل واحد طريقا غير طريق الآخر فى حاله أو فعله .والمعنى : فليحذر هؤلاء المنافقون الذين يخالفون أمر النبى صلى الله عليه وسلم ويصدون الناس عن دعوته . ويتباعدون عن هديه ، فليحذروا من ، أن تصيبهم فتنة ، أى : بلاء وكرب يتربت عليه افتضاح أمرهم ، وانكشاف سرهم يستأصلهم عن آخرهم ، ولعذاب الآخرة ( أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ) ، اشد وأبقى .قال القرطبى : وبهذه الآية احتج الفقهاء على أن الأمر للوجوب ووجهها أن الله - تعالى - قد حذر من مخالفة أمره ، وتوعد بالعقاب عليها بقوله : ( تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ) فتحرم مخالفته ، ويجب امتثال أمره " .

الا ان لله ما في السماوات والارض قد يعلم ما انتم عليه ويوم يرجعون اليه فينبئهم بما عملوا والله بكل شيء عليم

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بقوله : ( ألا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السماوات والأرض ) .أى : له - سبحانه - ما فى السموات

والأرض من موجودات خَلقا ومُلكا وتصرفا وإيجاداً ( قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ ) أيها المكلفون من طاعة أو معصية ، ومن استجابة لأمره أو عدم استجابة .( وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُواْ ) أى : ويعلم - سبحانه - أحوال خلقه جميعا يوم يرجعون إليه يوم القيامة . فيجازى كل إنسان بما يستحقه من ثواب أو عقاب .( والله - تعالى - ( بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ) بحيث لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا

كما فسرها الوسيط افتتحت السورة الكريمة بالثناء على الله - تعالى - ثناء يليق بجلاله وكماله .ولفظ " تبارك " فعل ماض لا يتصرف . أى : لم يجىء منه مضارع ولا أمر ولا اسم فاعل : وهو مأخوذ من البركة بمعنى الكثرة من كل خير وأصلها النماء والزيادة . أى : كثرة خيره وإحسانه ، وتزايدت بركاته .أو . مأخوذ من البَرْكَة بمعنى الثبوت . يقال : برك البعير ، إذا أناخ فى موضعه فلزمه وثبت فيه . وكل شىء ثبت ودام فقد برك . أى : ثبت ودام خيره على خلقه والفرقان : القرآن . وسمى بذلك لأنه يفرق بين الحق والباطل .ونذيرا : من. - الإنذار ، وهو الإعلام المقترن بتهديد وتخويف .أى : جل شأن الله - تعالى وتكاثرت ودامت خيراته وبركاته ، لأنه - سبحانه - هو الذى نزل القرآن الكريم " على عبده محمد صلى الله عليه وسلم ليكون " للعالمين " أى : للإنس وللجن نذيرا " أى : منذرا إياهم بسوء المصير إن هم استمروا على كفرهم وشركهم .وفى التعبير بقوله - تعالى - ( تَبَارَكَ ) إشعار بكثرة ما يفيضه - سبحانه - من خيرات وبركات على عباده ، وأن هذا العطاء ثابت مستقر ، وذلك يستلزم عظمته وتقدسه عن كل ما لا يليق بجلاله - عز وجل - .ولم يذكر - سبحانه - لفظ - الجلالة ، واكتفى بالاسم الموصول الذى نزل الفرقان ، لإبراز صلته سبحانه - وإظهارها فى هذا المقام ، الذى هو مقام إثبات صدق رسالته التى أوحاها إلى نبيه صلى الله عليه وسلم .وعبر - سبحانه - ب ( نَزَّلَ ) بالتضعيف ، لنزول القرآن الكريم مفرقا فى أوقات متعددة ، لتثبيت فؤاد النبى صلى الله عليه وسلم .ووصف الله - تعالى - رسوله صلى الله عليه وسلم بالعبودية ، وأضافها لذاته ، للتشريف والتكريم والتعظيم . وأن هذه العبودية لله - تعالى - هى ما يتطلع إليه البشر .واختير الإنذار على التبشير . لأن المقام يقتضى ذلك ، إذ أن المشركين قد لجوا فى طغيانهم وتمادوا فى كفرهم وضلالهم ، فكان من المناسب تخويفهم من سوء عاقبة ما هم عليه من عناد .وهذه الآية الكريمة تدل على عموم رسالته صلى الله عليه وسلم للناس جميعا . حيث قال - سبحانه - : ( لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ) أى : لعالم الإنس وعالم الجن ، وشبه بها قوله - تعالى - : ( وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ) وقوله - سبحانه - : ( قُلْ يا أيها الناس إِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ). . .

الذي له ملك السماوات والارض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديرا

كما فسرها الوسيط ثم وصف - سبحانه - ذاته بجملة من الصفات التى توجب له العبادة والطاعة فقال : ( الذي لَهُ مُلْكُ السماوات والأرض ) فهو الخالق لهما . وهو المالك لأمرهما ، لا يشاركه فى ذلك مشارك .والجملة الكريمة خبر لمبتدأ محذوف . أو بدل من قوله : ( الذي نَزَّلَ ) .( وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً ) فهو - سبحانه - منزه عن ذلك وعن كل ما من شأنه أن يشبه الحوادث بل هو المالك وحده لكل شىء ( وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي المُلْكِ ). : فى هذا الوجود .( وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ) أى وهو - سبحانه - الذى خلق كل شىء فى هذا الوجود خلقا متقنا حكيما بديعا فى هيئته ، وفى زمانه ، وفى مكانه ، وفى وظيفته ، على حسب ما تقتضيه إرادته وحكمته . وصدق الله إذ يقول : ( إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ) فجملة " فقدره تقديرا " بيان لما اشتمل عليه هذا الخلق من إحسان واتقان فهو - سبحانه - لم يكتف بمجرد إيجاد الشىء من العدم ، وإنما أوجده فى تلك الصورة البديعة التى عبر عنها فى آية أخرى بقوله : ( . . . صُنْعَ الله الذي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ . . ) قال صاحب الكشاف : فإن قلت : فى الخلق معنى التقدير . فما معنى قوله : ( وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ) .قلت : معناه أنه أحدث كل شىء إحداثا مراعى فيه التقدير والتسوية ، فقدره وهيأه لما يصلح له . مثاله : أنه خلق الإنسان على هذا الشكل المقدر المسوى الذى تراه ، فقدره للتكاليف والمصالح المنوطة به فى بابى الدين والدنيا ، وكذلك كل حيوان وجماد ، جاء به على الجبلة المستوية المقدرة بأمثلة الحكمة والتدبير . . .

واتخذوا من دونه الهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ولا يملكون لانفسهم ضرا

ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أن المشركين لم يفطنوا إلى ما اشتمل عليه هذا الكون من تنظيم دقيق ، ومن صنع حكيم يدل على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، بل إنهم - لانطماس بصائرهم - عبدوا مخلوقا مثلهم فقال - تعالى - : ( واتخذوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لاَّ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ . . ) .والضمير فى قوله ( واتخذوا . . ) يعود على المشركين المفهوم من قوله ( وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي المُلْكِ ) أو من المقام - أى : واتخذ هؤلاء المشركون معبودات باطلة يعبدونها من دون الله - عز وجل. وهذه المعبودات لا تقدر على خلق شىء من الأشياء ، بل هى من مخلوقات ، الله - تعالى - .وعبر هن هذه الآية بمضير العقلاء فى قوله ( لاَّ يَخْلُقُونَ ) جريا على اعتقاد الكفار أنها تضر وتنفع ، أو لأن من بين من اتخذوهم آلهة بعض العقلاء كالمسيح والعزير والملائكة . . . .وأيضا هؤلاء الذين اتخذهم المشركون آلهة : ( لاَ يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ ) فضلا عن غيرهم ( ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً ) فهم لا يملكون دفع الضر عن أنفسهم ، ولا جلب النفع لذواتهم ( وَلاَ يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلاَ حَيَاةً وَلاَ نُشُوراً ) أى : ولا يقدرون على إماتة الأحياء . ولا على إحياء الموتى فى الدنيا ، ولا على بعثهم ونشرهم فى الآخرة .فأنت ترى أن الله - تعالى - قد وصف تلك الآلهة المزعومة بسبع صفات ، كل صفة منها كفيلة بسلب صفة الألوهية عنها ، فكيف وقد اجتمعت هذه الصفات السبع فيها؟!!إن كل من يشرك مع الله - تعالى - أحدا فى العبادة . لو تدبر هذه الآية وأمثالها من آيات القرآن الكريم لأيقن واعتقد أن المستحق للعبادة والطاعة إنما هو الله رب العالمين .

وقال الذين كفروا ان هذا الا افك افتراه واعانه عليه قوم اخرون فقد جاءوا ظلما وزورا

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - بعض الشبهات التى أثارها المشركون حول القرآن الكريم الذى أنزله على نبيه صلى الله عليه وسلم فقال : ( وَقَالَ الذين كفروا . . . . ) .الإفك : أسوأ الكذب . يقال : أفك فلان - كضرب وعلم - أفكا ، إذا قال أشنع الكذب وأقبحه .والزور فى الأصل : تحسين الباطل مأخوذ من الزورِ وهو الميل وأطلق على الباطل زور لما فيه من الميل عن . الصدق إلى الكذب ، ومن الحق إلى ما يخالفه .أى : وقال الذين كفروا فى شأن القرآن الكريم الذى أنزله الله - تعالى - على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ما هذا إلى كذب وبهتان ( افتراه ) واختلقه محمد صلى الله عليه وسلم من عند نفسه ، ( وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ ) أى وأعانه وساعده على هذا الاختلاق ) قَوْمٌ آخَرُونَ ) من اليهو أو غيرهم ، كعداس - مولى حويطب بن عبد العزى - ويسار - مولى العلاء بن الحضرمى - وأبى فكيهة الرومى . وكان هؤلاء من أهل الكتاب الذين أسلموا .وقوله - تعالى - : ( فَقَدْ جَآءُوا ظُلْماً وَزُوراً ) رد على أقوال الكافرين الفاسدة وجاءوا بمعنى فعلوا ، وقوله : ( ظُلْماً ) ( منصوب به . والتنوين للتهويل .أى : فقد فعل هؤلاء الكافرون بقولهم هذا ظلما عظيما وزورا كبيرا ، حيث وضعوا الباطل موضع الحق ، والكذب موضع الصدق .ويصح ، أن يكون قوله : ( ظُلْماً ) منصوبا بنزع الخافض أى : فقد جاءوا بظلم عظيم . وكذب فظيع ، انحرفوا به عن جادة الحق والصواب

وقالوا اساطير الاولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة واصيلا

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - مقولة أخرى من مقولاتهم الفاسدة فقال : وقالوا أَسَاطِيرُ الأولين اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تملى عَلَيْهِ بُكْرَةً ) وَأَصِيلاً ) .والأساطير : جمع أسطورة بمعنى أكذوبة واكتتبها : أى : أمر غيره بكتابتها له . أو جمعها من بطون كتب السابقين .أى : أن هؤلاء الكافرين لم يكتفوا بقولهم السابق فى شأن القرآن ، بل أضافوا إلى ذلك قولا آخر أشد شناعة وقبحا ، وهو زعمهم أن هذا القرآن أكاذيب الأولين وخرافاتهم ، أمر ) الرسول صلى الله عليه وسلم غيره بكتابتها له ، وبجمعها من كتب السابقين فَهِيَ ) أى : هذه الأساطير ( تملى عَلَيْهِ ) أى : تلقى عليه صلى الله عليه وسلم بعد اكتتابها ليحفظها ويقرأها على أصحابه ( بُكْرَةً وَأَصِيلاً أى : فى الصباح والمساء أى : تملى عليه خفية فى الأوقات التى يكون الناس ( فيها نائمين أو غافلين عن رؤيتهم .

قل انزله الذي يعلم السر في السماوات والارض انه كان غفورا رحيما

كما فسرها الوسيط وقد أمر الله - تعالى - رسوله صلى الله عليه وسلم بالرد عليهم بما يخرس ألسنتهم فقال : ( قُلْ أَنزَلَهُ الذي يَعْلَمُ السر فِي السماوات والأرض . . ) .أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الذين زعموا

أن القرآن أساطير الأولين ، وأنك افتريته من عند نفسك ، وأعانك على هذا الافتراء قوم آخرون . . . . قل لهم : كذبتم أشنع الكذب وأقبحه ، فأنتم أول من يعلم بأن هذا القرآن له من الحلاوة والطلاوة ، وله من حسن التأثير ما يجعله - باعتراف - زعمائكم ليس من كلام البشر وإنما الذى أنزله علىّ هو الله - تعالى - الذى يعلم السر فى السموات والأرض ، أى : يعلم ما خفى فيها ويعلم الأسرار جميعها فضلا عن الظواهر .قال الآلوسى : " قل " لهم ردا عليهم وتحقيقا للحق : أنزله الله - تعالى - الذى لا يعزب عن علمه شىء من الأشياء ، وأودع فيه فنون الحكم والأسرار على وجه بديع ، لا تحوم حوله الأفهام ، حيث أعجزكم قاطبة بفصاحته وبلاغته ، وأخبركم بمغيبات مستقبلة ، وأمور مكنونة ، لا يهتدى إليها ولا يوقف - إلا بتوفيق الله - تعالى - العليم ، الخبير عليها . . .ثم ختم - سبحانه - الآية بما يفتح باب التوبة للتائبين ) : - وبما يحرضهم على الإيمان والطاعة لله رب العالمين فقال - تعالى - إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ) .أى : إنه - سبحانه - واسع المغفرة والرحمة ، لمن ترك الكفر وعاد إلى الإيمان ، وترك العصيان وعاد إلى الطاعة قال الإمام ابن كثير : وقوله : ( إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ) دعاء. لهم إلى التوبة والإنابة ، وإخبار بأن رحمته واسعة ، وأن حلمه عظيم وأن من . تاب إليه تاب عليه ، فهؤلاء مع كذبهم . وافترائهم . وفجورهم . وبهتهم وقولهم عن الرسول والقرآن ما قالوا ، يدعوهم - سبحانه - إلى التوبة ) : - والإقلاع عما هم عليه من كفر إلى الإسلام والهدى . كما قال - تعالى - لَّقَدْ كَفَرَ الذين قالوا إِنَّ الله ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إله إِلاَّ إله وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الذين كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ أَفَلاَ يَتُوبُونَ إلى الله وَيَسْتَغْفِرُونَهُ والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ) قال الحسن البصرى : انظروا إلى هذا الكرم والجود . قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة .

وقالوا مال هذا الرسول ياكل الطعام ويمشي في الاسواق لولا انزل اليه ملك فيكون معه نذيرا

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك شبهة ثالثة ، تتعلق بشخصية النبى صلى الله عليه وسلم حيث أنكروا أن يكون الرسول من البشر وأن يكون آكلا للطعام وماشيا فى الأسواق ، فقال - تعالى - : ( وَقَالُواْ مَالِ هذا ذكر بعض المفسرين فى سبب نزول هذه الآيات أن جماعة من قريش. ( . . . . قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم إن كنت تريد بما جئت به مالا جمعنا لك المال حتى تكون أغنانا ، وإن كنت تريد ملكا ، جعلناك ملكا علينا . . .فقال صلى الله عليه وسلم : " ما أريد شيئا مما تقولون ، ولكن الله تعالى بعثنى ، إليكم رسولا ، وأنزل على كتابا ، وأمرنى أن أكون لكم بشيراً ونذيراً فبلغتكم رسالة ربي ، ونصحت لكم . فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علىّ أصبر لأمر الله - تعالى - حتى يحكم بينى وبينكم " .فقالوا : فإن كنت غير قابل شيئا مما عرضنا عليك ، فسل ربك أن يبعث معك ملكا يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك ، وسله أن يجعل لك جنانا وقصورا فقال لهم صلى الله عليه وسلم : " ما أنا بفاعل ، وما أنا بالذى يسأل. . . " ربه هذا ، وما بعثت إليكم بهذا ، ولكن الله - تعالى - بعثنى بشيرا ونذيرا ) : فأنزل الله تعالى فى قولهم ذلك . . .والضمير فى قوله - تعالى وَقَالُواْ ) يعود إلى مشركى قريش و " ما " استفهامية بمعنى إنكار الوقوع " ونفيه ، وهى مبتدأ ، والجار والمجرور بعدها الخبر . وجملة " يأكل الطعام حال من الرسول .أى : أن مشركى قريش لم يكتفوا بقولهم إن محمد صلى الله عليه وسلم قد افترى القرآن ، وإن القرآن أساطير الأولين . بل أضافوا إلى ذلك أنهم قالوا على سبيل السخرية والتهكم والإنكار لرسالته : كيف يكون محمدا صلى الله عليه وسلم رسولا ، وشأنه الذى نشاهده بأعيننا . أنه " يأكل الطعام كما يأكل سائر الناس " ويمشى فى الأسواق " أى : ويتردد فيها كما نتردد " طلبا للرزق . " لولا أنزل إليه ملك " أى : هلا أنزل إليه ملك يعضده ويساعده ويشهد له بالرسالة " فيكون " هذا الملك " معه نذيرا " أى : منذرا من يخالفه بسوء المصير .

او يلقى اليه كنز او تكون له جنة ياكل منها وقال الظالمون ان تتبعون الا رجلا مسحورا

" كما فسرها الوسيط " أو يلقى إليه " أى : إلى الرسول صلى الله عليه وسلم كنز " أى : مال عظيم يغنيه عن التماس الرزق بالأسواق كسائر الناس ، وأصل الكنز ، جعل المال بعضه على بعض وحفظه . من كنزل التمر فى الوعاء ، إذا حفظه . " أو تكون له " صلى الله عليه وسلم " جنة يأكل منها " أى : حديقة مليئة بالأشجار المثمرة ، لكى يأكل منها ونأكل معه من خيرها ." وقال الظالمون " فضلا من كل ذلك " إن تتبعون " أى : ما تتبعون " إلا رجلا مسحورا أى : مغلوبا على عقله ، ومصابا بمرض قد أثر فى تصرفاته .فأنت ترى أن "

- هؤلاء الظالمين قد اشتمل قولهم الذى حكاه القرآن عنهم - على ست قبائح قصدهم من التفوه بها صرف الناس عن اتباعه صلى الله عليه وسلم .قال صاحب الكشاف عند تفسيره لهذه الآيات : أى : إن صح أنه رسول الله فما باله حاله كمحالنا " يأكل الطعام " كما نأكل ، ويتردد فى الأسواق لطلب المعاش كما نتردد . يعنون أنه كان يجب أن يكون ملكا مستغنيا عن الأكل والتعيش ، ثم ، نزلوا عن اقتراحهم أن يكون ملكا إلى ، اقتراح أن يكون إنسانا معه ملك فليكن مرفودا بكنزل يلقى إليه من السماء يستظهر به ولا يحتاج إلى تحصيل . . . المعاش . ثم نزلوا فاقتنعوا بأن يكون رجلا له بستان يأكل منه ويرتزق وأراد بالظالمين : إياهم بأعيانهم . وضع الظاهر موضع المضمر ليسجل عليهم . . بالظلم فيما قالوا

انظر كيف ضربوا لك الامثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا

كما فسرها الوسيط وقد رد الله - تعالى - على مقترحاتهم الفاسدة ، بالتهوين من شأنهم و بالتعجيب من تفاهة تفكيرهم ، وبالتسلية للرسول صلى الله عليه وسلم عما أصابه منهم فقال : ( انظر كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الأمثال فَضَلُّواْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ) .أى : انظر - أيها الرسول الكريم - إلى هؤلاء الظالمين ، وتعجب من تعنتهم ، وضحالة عقولهم . وسوء أقاويلهم . حي وصفوك تارة بالسحر . وتارة بالشعر . وتارة بالكهانة . وقد ، ضلوا عن الطريق المستقيم فى كل ما وصفوك به . وبقوا متحيرين فى باطلهم دون أن يستطيعوا الوصول إلى السبيل الحق . وإلى الصراط المستقيم .فالآية الكريمة تعجيب من شأنهم ، واستعظام لما نطقوا به . وحكم عليهم بالخيبة . والضلال ، وتسلية للرسول صلى الله عليه وسلم عما قالوه فى شأنه

تبارك الذي ان شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجري من تحتها الانهار ويجعل لك قصورا

كما فسرها الوسيط ثم أضاف - سبحانه - إلى هذه التسلية . تسلية أخرى لرسوله صلى الله عليه وسلم فقال - تعالى - : ( تَبَارَكَ الذي إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِّن ذلك جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار وَيَجْعَل لَّكَ قُصُوراً ) .أى : جل شأن الله تعالى ، وتكاثرت خيراته ، فهو - سبحانه - الذى - إن شاء - جعل لك فى هذه الدنيا - أيها الرسول الكريم خيرا من ذلك الذى اقترحوه من الكنوز والبساتين ، بأن يهبك جنات عظيمة تجرى من تحت أشجارها الأنهار ، ويهبك قصورا فخمة ضخمة .ولكنه - سبحانه - لم يشأ ذلك ، لأن ما ادخره لك من عطاء كريم خير وأبقى .فقوله - تعالى - : ( إِن شَآءَ ) كلام معترض لتقييد عطاء الدنيا ، أى : إن شاء أعطاك فى الدنيا أكثر : - مما اقترحوه ، أما عطاء الآخرة فهو محقق ولا قيد عليه .وقوله - سبحانه تفسير لقوله : ( خَيْراً مِّن ( جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ) . ذلك ) فهو بدل أو عطف بيان

بل كذبوا بالساعة واعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا

كما فسرها الوسيط ثم انتقل - سبحانه - من الحديث عن قبائحهم المتعلقة بوحدانية الله تعالى ، وبشخصية رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحديث عن - رذيلة أخرى من رذائلهم المتكاثرة ، ألا وهى إنكارهم للبعث والحساب ، فقال تعالى - : ( بَلْ كَذَّبُواْ بالساعة وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بالساعة - سَعِيراً ) .أى؛ إن هؤلاء الكافرين لم يكتفوا باتخاذ آلهة من دون الله تعالى - ، ولم يكتفوا بالسخرية من رسوله صلى الله عليه وسلم بل أضافوا إلى ذلك أنهم كذبوا بيوم القيامة وما فيه من بعث وحشر وثواب وعقاب . والحال : أننا بقدرتنا وإرادتنا قد أعددنا وهيأنا لمن كذب بهذا اليوم سعيرا . أى نارا عظيمة شديدة الاشتعال .وقال - سبحانه - : ( وَأَعْتَدْنَا لِمَن ، كَذَّبَ بالساعة ) ولم يقل : لمن كذب بها . للمبالغة فى التشنيع عليهم والزجر لهم ، إذ أن التكذيب بها كفر يستحق صاحبه الخلود فى النار المستعرة .

اذا راتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا

كما فسرها الوسيط ثم صور - سبحانه - حالهم عندما يعرضون على النار ، وهلعهم عندما يلقون فيها ، كما بين - سبحانه - حال المتقين وما أعد لهم من نعيم ) : مقيم ، فقال - تعالى - : ( إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن . . . ) .قوله تعالى إِذَا رَأَتْهُمْ . . ) . الضمير فيه يعود إلى " سعيرا " والتغيظ فى الأصل إظهار الغيظ ، وهو شدة الغضب الكامن فى القلب .والزفير : ترديد النفس من : شدة الغم والتعب حتى تنتفخ منه الضلوع ، فإذا ما اشتد كان له صوت مسموع والمعنى : أن هؤلاء الكافرين الذين كذبوا بالساعة ، قد أعتدنا لهم بسبب.

هذا التكذيب نارا مستعرة ، إذا رأتهم هذه النار من مكان بعيد عنها . سمعوا لها غليانا كصوت من اشتد غضبه ، وسمعوا لها زفيرا . أى : صوتا مترددا كأنها تناديهم به .فالآية الكريمة تصور غيظ النار من هؤلاء المكذبين تصويرا مرعبا يزلزل النفوس ويخيف القلوب .والتعبير بقوله - تعالى - : ( مِّن مَّكَانٍ ، بَعِيدٍ ) يزيد هذه الصورة رعبا وخوفا ، لأنها لم تنتظرهم إلى أن يصلوا إليها ، بل هى بمجرد أن تراهم من مكان بعيد - والعياذ بالله - يسمعون تغيظها وزفيرها وغضبها عليهم ، وفرحها بإلقائهم فيها .قال الآلوسى : وإسناد الرؤية إليها حقيقة على ما هو الظاهر ، وكذا نسبة التغيظ والزفير فيما بعد ، إذ لا امتناع فى أن يخلق الله تعالى النار حية مغتاظة زافرة على لاكفار ، - فلا حاجة إلى تأويل الظواهر الدالة على أن لها إدراكا كهذه الآية ، كقوله تعالى - : ( يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امتلأت وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ) وقوله : صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح الذى رواه الإمام البخارى : " شكت النار إلى ربها فقالت : رب أكل بعضى بعضا ، فأذِنَ لها بنفسين : نفس فى الشتاء ونفس فى الصيف . . " .

واذا القوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا

) : كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - حالهم عندما يستقرون فيها فقال وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُوراً ) .أى : أن النار إن رأت هؤلاء المجرمين سمعوا لها ما يزعجهم ويفزعهم ، ( وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً ) أى : وإذا ما طرحوا فيها فى مكان ضيق منها ، حالة كونهم ( مُّقَرَّنِين ) أى مقيدين بالأغلال بعضهم مع بعض أو مع الشياطين الذين أضلوهم .( دَعَوْاْ هُنَالِكَ ) أى : تنادوا هنالك فى ذلك المكان بقولهم ( ثُبُوراً ) أى هلاكا وخسرانا يقال فلان ثبره الله - تعالى - أى : أهلكه إهلاكا لا قيام له منه .أى : يقولون عندما يلقون فيها ، يا هلاكنا أقبل فهذا أوانك ، فإنك أرحم بنا مما نحن فيه .

لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا

كما فسرها الوسيط ووصف - سبحانه - المكان الذى يلقون فيه بالضيق ، للإشارة إلى زيادة كربهم ، فإن ضيق المكان يعجزهم عن التفلت والتململ . هنا يسمعون من يقول لهم على سبيل الزجر والسخرية المريرة ، ( لاَّ تَدْعُواْ اليوم ثُبُوراً وَاحِداً وادعوا ثُبُوراً كَثِيراً ) . أى : اتركوا اليوم طلب الهلاك الواحد . واطلبوا هلاكا كثيرا لا غاية لكثرته ، ولا منتهى لنهايته قال صاحب الكشاف : قوله : ( وادعوا ثُبُوراً كَثِيراً ) أى : أنكم وقعتم. فيما ليس ثبوركم فيه واحدا ، وإنما هو ثبور كثير ، إما لأن العذاب أنواع وألوان كل نوع منها ثبور لشدته وفظاعته ، أو لأنهم كلما نضجت جلودهم بدلوا غيرها ، فلا غاية لهلاكهم .

قل اذلك خير ام جنة الخلد التي وعد المتقون كانت لهم جزاء ومصيرا

كما فسرها الوسيط ثم أمر الله - تعالى - رسوله صلى الله عليه وسلم أن يبين لهم ما أعده - سبحانه - لعباده المتقين ، فقال : ( قُلْ أذلك خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الخلد التي وُعِدَ المتقون كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيراً لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَالِدِينَ كَانَ على رَبِّكَ وَعْداً مَّسْئُولاً ) .واسم الإشارة . ذلك يعود إلى ما ذكر من العذاب المهين لهم والاستفهام للتقريع والتهكم .والعائد إلى الموصول محذوف ، أى : وعدها الله - تعالى - للمتقين ، وإضافته الجنى إلى الخلد للمدح وزيادة السرور للذين وعدهم الله - تعالى - بها .أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الكافرين ، أذلك العذاب المهين الذى أعد لكم خير ، أم جنة الخلد التى وعدها الله - تعالى - للمتقين ، والتى ( كَانَتْ لَهُمْ ) بفضل الله وكرمه ( جَزَآءً ) على أعمالهم الصالحة ( وَمَصِيراً ) طيبا يصيرون إليه .

لهم فيها ما يشاءون خالدين كان على ربك وعدا مسئولا

: كما فسرها الوسيط ( لَّهُمْ فِيهَا ) فى تلك الجنة ( مَا يَشَآءُونَ ) أى ما يشاءونه من خيرات وملذات حالمة كونهم ( خَالِدِينَ ) فيها خلودا أبديا أى : كان ذلك العطاء الكريم ( كَانَ على رَبِّكَ وَعْداً مَّسْئُولاً ). الذى تفضلنا به على عبادنا المتقين ووعدناهم به ، من حقهم أن يسألونا ) تحقيقه لعظمه وسمو منزلته ، كما قال - تعالى - حكاية عنهم فى آية أخرى رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا على رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ ) القيامة إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الميعاد ) وعلى هذا المعنى يكون قولا مَّسْئُولاً ) بمعنى جديرا أن يسأل عنه المؤمنون لعظم شأنه .ويجوز أن يكون

السائلون عنه الملائكة ، كما فى قوله - تعالى - : ( رَبَّنَا
وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ التي وَعَدْتَّهُمْ . . ) ويرى بعضهم أن
المعنى ، كان ذلك العطاء للمؤمنين وعدا منا لهم ، ونحن بفضلنا وكرمنا سننفذ
. . هذا الوعد ، قال - تعالى - : ( وَعْدَ الله لاَ يُخْلِفُ الله وَعْدَهُ
- هذا ، وقد تكلم العلماء هنا عن المراد بلفظ " خير " فى قوله - تعالى ( .
وقالوا : إن هذا اللفظ صيغة تفضيل ( قُلْ أَذلك خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الخلد )
- والمفضل عليه هنا وهو العذاب لا خير فيه البته ، فكيف عبر - سبحانه ،
بلفظ خير؟وقد أجابوا عن ذلك بأن المفاضلة هنا غير مقصودة ، وإنما المقصود
هو التهكم بهؤلاء الكافرين الذين آثروا الضلالة على الهداية ، واستحبوا
الكفر على الإيمان .قال أبو حيان - رحمه الله - : و " خير " هنا ليست تدل
، على الأفضلية ، بل هى على ما جرت به عادة العرب فى بيان فضل الشىء
. . . وخصوصيته بالفضل دون مقابلة . كقول الشاعر : فشر كما لخير كما الفداء
وكقول العرب : الشقاء أحب إليك أم السعادو . وكقوله - تعالى - حكاية عن
يوسف - عليه السلام - : ( رَبِّ السجن أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يدعونني
. ( إِلَيْهِ

ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول اانتم اضللتم عبادي هؤلاء ام هم
ضلوا السبيل

كما فسرها الوسيط ثم تنتقل السورة الكريمة إلى الحديث عن حالهم عندما
يعرضون هم وآلهتهم للحشر والحساب يوم القيامة ، وقد وقفوا جميعا أمام ربهم
- للسؤال والجواب ، قال - تعالى - : ( وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ . . . ) .قوله
تعالى - : ( وَيَوْمَ ) منصوب على المفعولية بفعل مقدر ، والمقصود من ذكر
اليوم : تذكيرهم بما سيحدث فيه من أهوال حتى يعتبروا ويتعظوا ، والمضير فى
يحشرهم " للكافرين الذين عبدوا غير الله - تعالى - .وقوله : ( وَمَا "
يَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله ) معطوف على مفعول " يحشرهم " والمراد بهؤلاء
الذين عبدوهم من دون الله : الملائكة وعزير وعيسى وغيرهم من كل معبود سوى
الله - تعالى - .والمعنى : واذكر لهم - أيها الرسول الكريم - حالهم لعلهم
أن يعتبروا يوم نحشرهم جميعا للحساب والجزاء يوم القيامة ، ونحشر ونجمع
معهم جميع الذين كانوا يعبدونهم غيرى .ثم نوجه كلامنا لهؤلاء المعبودين من
دونى فأقول لهم : أانتم - أيها المعبودون - كنتم السبب فى ضلال عبادى عن
إخلاص العبادة لى ، بسبب إغرائكم لهم بذلك أم هم الذين من تلقاء أنفسهم قد
ضلوا السبيل ، بسبب إيثارهم الغى على الرشد ، والكفر على الإيمان؟والسؤال
للمعبودين إنما هو من باب التقريع للعابدين ، وإلزامهم الحجة وزيادة حسرتهم
وتبرئة ساحة المعبودين .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( وَإِذْ ،
قَالَ الله ياعيسى ابن مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتخذوني وَأُمِّيَ
إلهين مِن دُونِ الله قَالَ سُبْحَانَكَ ) وقوله - عز وجل - : ( وَيَوْمَ
يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلاَئِكَةِ أهؤلاء إِيَّاكُمْ
كَانُواْ يَعْبُدُونَ قَالُواْ سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ
قال الإمام الرازى ما ملخصه : فإن قيل : إنه - سبحانه - عالم فى ( . .
الأزل بحال المسئول عنه فما فائدة السؤال؟ .والجواب : هذا استفهام على سبيل
التقريع للمشركين ، كما قال - سبحانه - لعيسى : ( أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ
اتخذوني وَأُمِّيَ إلهين مِن دُونِ الله ) ولأن أولئك المعبودين لما برءوا
أنفسهم وأحالوا ذلك الضلال عليهم ، صار تبرُّؤُ المعبودين عنهم أشد فى
. حسرتهم وحيرتهم .وقال - سبحانه - ( أَمْ هُمْ ضَلُّوا السبيل ) ولم يقل
. ضلوا عن السبيل ، للإشعار بأنهم قد بلغوا فى الضلال أقصاه ومنتهاه

قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا ان نتخذ من دونك من اولياء ولكن متعتهم
واباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما أجاب به المعبودون فقال
قَالُواْ سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ
مِنْ أَوْلِيَآءَ ولكن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَآءَهُمْ حتى نَسُواْ الذكر
" : - وَكَانُواْ قَوْماً بُوراً ) .أى قال المعبودون لخالقهم - عز وجل
سبحانك " أى : ننزهك تنزيها تاما عن الشركاء وعن كل ما لا يليق بجلالك
وعظمتك ، وليس للخلائق جميعا أن يعبدوا أحدا سواك . ولا يليق بنا نحن أو هم
أن نعبد غيرك ، وأنت يا مولانا الذى أسبغت عليهم وعلى آبائهم الكثير من
نعمك . " حتى نسوا الذكر " أى : حتى تركوا ما أنزلته عليهم على ألسنة رسلك
" من الدعوة إلى عبادتك وحدك لا شريك لك " وكانوا " بسبب ذلك " قوما بورا
أى : هلكى ، جمع بائر من البوار وهو الهلاك .قال القرطبى : وقوله ( بُوراً
، أى : هلكى قاله ابن عباس . . . وقال الحسن " بورا " أى :لا خير فيهم (
مأخوذ من بوار الأرض ، وهو تعطيلها عن الزرع فلا يكون فيها خير . وقال
شَهْر بن حَوْشَب : البوار : الفساد والكساد ، من قولهم : بارت السلعة إذا
كسدت كساد الفساد . . . وهو اسم مصدر يستوى فيه الواحد والاثنان والجمع

والمذكر والمؤنث .وهكذا ، يتبرأ المعبودون من ضلال عابديهم ، ويوبخونهم على جحودهم لنعم الله - تعالى - وعلى عبادتهم لغيره . ويعترفون لخالقهم - عز وجل - بأنه لا معبود بحق سواه .

فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفا ولا نصرا ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا

كما فسرها الوسيط وهنا يوجه - سبحانه - خطابه إلى هؤلاء العابدين الجهلاء الكاذبين فيقول : ( فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلاَ نَصْراً . . . ) .أى : قال الله - تعالى - لهؤلاء الكافرين على سبيل التقريع والتبكيت : والآن لقد رأيتم تكذيب من عبدتموهم لكم ، وقد حق عليكم العذاب بسبب كفركم وكذبكم ، وصرتم لا تملكون له " صرفا " أى : دفعا بأية صورة نم الصور . وأصل الصرف : رد الشىء من حالة إلى حالة أخرى ، ولا تملكون له - أيضا - " نصرا " أى فردا من أفراد النصر لا من جهة أنفسكم ، ولا من جهة غيركم ، بل لقد حل بكم العذاب حلولا لا فكاك لكم منه بأى وسيلة من الوسائل ." ومن يظلم منكم " أى : ومن يكفر بالله - تعالى - منكم أيها المكلفون بالإيمان " نذقه عذابا كبيرا "لا يقادر قدره فى الخزى والهوان .قال صاحب الكشاف : هذه المفاجأة بالاحتجاج والإلزام - فى قوله : ( فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ ) حسنة رائعة ، خاصة إذا انضم إليها الالتفات وحذف القول ، ونحوها قوله - تعالى - : ( يَا أَهْلَ الكتاب قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ على فَتْرَةٍ مِّنَ الرسل أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ . . ) وقول القائل :قالوا خراسان أقصى ما يُراد بنا ... ثم القُفُول فقد جئنا خراساناوبذلك نرى الآيات الكريمة قد أقامت الحجة على الكافرين بطريقة تخرس ألسنتهم ، وتجعلهم أهلا لكل ما يقع عليهم من عذاب أليم .

وما ارسلنا قبلك من المرسلين الا انهم لياكلون الطعام ويمشون في الاسواق وجعلنا بعضكم لبعض فتنة اتصبرون وكان ربك بصيرا

كما فسرها الوسيط ثم تعود السورة مرة أخرى إلى تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم وإلى الرد على شبهات أعدائه فتقول : ( وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ . . أى : وما أرسلنا قبلك - أيها الرسول الكريم - أحدا من رسلنا ، إلا. ( . وحالهم وشأنهم أنهم يأكلون الطعام الذى يأكله غيرهم من البشر . ويمشون فى الأسواق كما يمشى غيرهم من الناس ، طلبا للرزق .وإذاً فقول المشركين فى شأنك " مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق " قول يدل على جهالاتهم وسوء نياتهم فلا تتأثر به ، ولا تلتفت إليه ، فأنت على الحق وهم على الباطل .وقوله - تعالى - : ( وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً : بيان لسنة من سنن الله - تعالى - فى خلقه ، اقتضتها حكمته ومشيئته .أى ( اختبرنا بعضكم ببعض ، وبلونا بعضكم ببعض ، ليظهر قوى الإيمان من ضعيفه ، إذ أن قوى الإيمان لتصديقه بقضاء الله وقدره يثبت على الحق ويلتزم بما أمره - الله - تعالى - به ، أما ضعيف الإيمان فإنه يحسد غيره على ما آتاه الله تعالى - من فضله . كما حسد المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم على منصب النبوة الذى أعطاه الله - تعالى - إياه ( وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ) قال القرطبى : قوله - تعالى - : إن ( وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ) : أى الدنيا دار بلاء وامتحان ، فأراد - سبحانه - أن يجعل بعض العبيد فتنة لبعض على العموم فى جميع الناس ، فالصحيح : فتنى للمريض . والغنى : فتنة للفقير ومعنى هذا ، أن كل واحد مختبر بصاحبه ، فالغنى ممتحن بالفقير ، فعليه . . أن يواسيه ولا يسخر منه ، والفقير ممتحن بالغنى ، فعليه أن لا يحسده . ولا يأخذ منه إلا ما أعطاه ، وأن يصبر كل واحد منهما على الحق . . والرسول المخصوص بكرامة النبوة فتنة لأشراف الناس من الكفار فى عصره . . . فالفتنة أن يحسد المبتلى المعافَى . والصبر : أن يحبس كلاهما نفسه ، هذا عن : البطر وذاك عن الضجر .والاستفهام فى قوله - تعالى - : ( أَتَصْبِرُونَ ) - للتقرير أى : أتصبرون على هذا الابتلاء والاختبار فتنالوا من الله تعالى - الأجر ، أم لا تصبرون فيزداد همكم وغمكم؟ويصح أن يكون الاستفهام . . ) : - بمعنى الأمر . أى : اصبروا على هذا الابتلاء كما فى قوله - تعالى وَقُلْ لِّلَّذِينَ أُوتُواْ الكتاب والأميين أَأَسْلَمْتُمْ . . . ) أى . أسلموا . . . وكما فى قوله - سبحانه - : ( فَهَلْ أَنْتُمْ مُّنتَهُونَ ) : ) أى : انتهوا عن الخمر والميسر .ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً ) أى : وكان ربك أيها - الرسول الكريم - بصيرا بأحوال النفوس الطاهرة والخفية ، وبتقلبات القلوب وخلجاتها . فاصبر على أذى قومك ، فإن العاقبة لك ولأتباعك المؤمنين .فهذا التذييل فيه ما فيه من التسلية والتثبيت لفؤاد النبى صلى الله عليه وسلم .

وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا انزل علينا الملائكة او نرى ربنا لقد استكبروا في انفسهم وعتوا عتوا كبيرا

، كما فسرها الوسيط ثم حكت السورة للمرة الرابعة تطاول المشركين وجهالاتهم وردت عليهم بما يخزيهم ، وبينت ما أعد لهم من عذاب فى يوم لا ينفعهم فيه الندم .قال - تعالى - : ( وَقَالَ الذين لاَ يَرْجُونَ . . . ) .قال الفخر الرازى : اعلم أن قوله - تعالى - : ( وَقَالَ الذين لاَ يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ) هو الشبهة الرابعة لمنكرى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وحاصلها : لماذا لم ينزل الله الملائكة حتى يشهدوا أن محمدا محق فى دعواه أو نرى ربنا حتى يخبرنا بأنه أرسله إلينا . .والرجاء : الأمل والتوقع لما ، فيه خير ونفع . وفسره بعضهم بمجرد التوقع الذى يشمل ما يسر وما يسوء : - وفسره بعضهم هنا بأن المراد به : الخوف .والمراد بلقائه - سبحانه الرجوع إليه يوم القيامة للحساب والجزاء لأنهم ينكرون ذلك ، ولا يبالون به ولا يخافون أهواله . قالوا - على سبيل التعنت والعناد - :هلا أنزل علينا ، الملائكة لكى يخبرونا بصدق محمد صلى الله عليه وسلم أو هلا نرى ربنا جهرة ومعاينة ليقول لنا إن محمدا صلى الله عليه وسلم رسول من عندى!وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( . . أَوْ تَأْتِيَ بالله والملائكة قَبِيلاً ) أى ليشهدوا بصدقك ، وقد رد الله - تعالى - عليهم بقوله : ( لَقَدِ استكبروا : فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوّاً كَبِيراً ) .والعتو : تجاوز الحد فى الظلم والعدوان . يقال عتا فلان يعتو عتوا ، إذا تجاوز حده فى الطغيان .أى ، والله لقد أضمر هؤلاء الكافرون الاستكبار عن الحق فى أنفسهم المغرورة : وتجاوزوا كل حد فى الطغيان تجاوزا كبيرا ، حيث طلبوا مطالب هى أبعد من أن ينالوها بعد الأرض عن السماء . وصدق الله إذ يقول : ( . . . إِن فِي - صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ . . ) ووصف - سبحانه عتوهم بالكبر للدلالة على إفراطهم فيه ، وأنهم قد وصلوا فى عتوهم إلى الغاية القصوى منه .

يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا

: كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - الحالة التى يرون فيها الملائكة فقال : أى. ( يَوْمَ يَرَوْنَ الملائكة لاَ بشرى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ ) لقد طلب هؤلاء الظالمون نزول الملائكة عليهم ، ورؤيتهم لهم . ونحن سنجيبهم إلى ما طلبوه ولكن بصورة أخرى تختلف اختلافا كليا عما يتوقعونه ، إننا سنريهم الملائكة عند قبض أرواحهم وعند الحساب بصورة تجعل هؤلاء الكافرين يفزعون ويهلعون . بصورة لا تبشرهم بخير ولا تسرهم رؤيتهم معها ، بل تسوءهم وتحزنهم ، كما قال - تعالى - : ( وَلَوْ ترى إِذْ يَتَوَفَّى الذين كَفَرُوا الملائكة يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ . . ) وكما قال - سبحانه - : ( فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الملائكة يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ) فالآية الكريمة مسوقة على سبيل الاستئناف . لبيان حالهم الشنيعة عندما تنزل عليهم الملائكة . بعد بيان تجاوزهم الحد فى الطغيان وفى طلب ما ليس من حقهم .والمراد بالملائكة هنا : ملائكة العذاب - الذين يقبضون أرواحهم ، والذين يقودونهم إلى النار يوم القيامة .وقال سبحانه - : ( يَوْمَ يَرَوْنَ الملائكة . . . ) ولم يقل : يوم تنزل الملائكة ، للإيذان من أول الأمر بأن رؤيتهم لهم ليست على الطريقة التى طلبوها ، بل على وجه آخر فيه ما فيه من العذاب المهين لهؤلاء الكافرين وجاء نفى البشرى لهم بلا النافية للجنس للمبالغة فى نفى أى بارقة تجعلهم. يأملون فى أن ما نزل بهم من سوء ، قد يتزحزح عنهم فى الحال أو الاستقبال قال الجمل فى حاشيته : وقوله ( لاَ بشرى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ ). هذه الجملة معمولة لقول مضمر . أى : يرون الملائكة يقولون لا بشرى . فالقول حال من الملائكة وهو نظير التقدير فى قوله - تعالى - : ( . . . يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِّن كُلِّ بَابٍ سَلاَمٌ عَلَيْكُم . . . ) وكل من الظرف والجار والمجرور خبر عن لا النافية للجنس .وقوله - تعالى - : ( وَيَقُولُونَ حِجْراً مَّحْجُوراً ) تأكيد لما قبله من أنه لا خير لهؤلاء الكافرين من وراء رؤيتهم للملائكة .والحجر - بكسر الحاء وفتحها - الحرام ، وأصله المنع . ومحجورا صفة مؤكدة للمعنى ، كما فى قولهم : موت مائت . وليل أليل . وحرام محرم .قال الآلوسى : وهى - أى : حجرا محجورا - كلمة تقولها العرب عند لقاء عدو موتور ، وهجوم نازلة هائلة ، يضعونها موضع الاستعاذة ، حيث يطلبون من الله - تعالى - أن يمنع المكروه فلا يلحقهم ، فكأن المعنى ، نسأل الله - تعالى - أن يمنع ذلك منعا ، ويحجره حجرا .وقال الخليل : كان الرجل يرى الرجل الذى يخاف منه القتل فى الجاهلية فى الأشهر الحرم فيقول : حجرا محجورا . أى : حرام عليك التعرض لى فى هذا الشهر فلا يبدأ بشر والقائلون لهذا القول يرى بعضهم أنهم الملائكة ، فيكون المعنى : تقول. الملائكة للكفار حجرا محجورا . أى : حراما محرما أن تكون لكم اليوم بشرى .

أو أن يغفر الله لكم ، أو أن يدخلكم جنته .وقد رجح ابن جرير ذلك فقال ما ملخصه : وإنما اخترنا أن القائلين هم الملائكة من أجل أن الحجر هو الحرام . . فمعلوم أن الملائكة هى التى تخبر أهل الكفر ، أن البشرى عليهم حرام : ويبدو لنا أنه لا مانع من أن يكون هذا القول من الكفار ، فيكون المعنى. أن هؤلاء الكفار الذين طلبوا نزول الملائكة عليهم ليشهدوا لهم بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم عندما يرونهم عند الموت أو عند الحساب يقولون لهم بفزع ، وهلع : " حجرا محجورا " أى : حراما محرما عليكم أن تنزلوا بنا العذاب فنحن لم نرتكب ما نستحق بسببه هذا العذاب المهين ، ولعل مما يشهد لهذا المعنى قوله - تعالى - : ( الذين تَتَوَفَّاهُمُ الملائكة ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُاْ السلم مَا كُنّا نَعْمَلُ من سواء بلى إِنَّ اللَّه عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فادخلوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى المتكبرين ) وعلى كلا الرأيين فالجملة الكريمة تؤكد سوء عاقبة الكافرين .

وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك وعيدا آخر لهؤلاء الكافرين فقال : (وَقَدِمْنَآ إلى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مّنثُوراً ) .والهباء : الشىء الدقيق الذى يخرج من النافذة مع ضوء الشمس شبيها بالغبار .والمنثور : المتفرق فى الجو بحيث لا يتأتى جمعه أو حصره .أى وقدمنا وقصدنا وعمدنا - بإرادتنا وحكمتنا إلى ما عمله هؤلاء الكافرون من : - عمل صالح فى الدنيا - كالإحسان إلى الفقراء ، والإنفاق فى وجوه الخير فجعلناه باطلا ضائعا ، ممزقا كل ممزق ، لأنهم فقدوا شرط قبوله عندنا ، وهو إخلاص العبادة لنا .فقد شبه - سبحانه - أعمالهم الصالحة فى الدنيا فى عدم انتفاعهم بها يوم القيامة - بالهباء المنثور ، الذى تفرق وتبدد وصار لا يرجى خير من ورائه لحقارته وتفاهته .

اصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا واحسن مقيلا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما سيكون عليه أصحاب الجنة من نعيم مقيم يوم القيامة فقال : ( أَصْحَابُ الجنة يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مّسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ) .والمستقر : المكان الذى يستقر فيه الإنسان فى أغلب وقته . والمقيل : المكان الذى يؤوى إليه فى وقت القيلولة " للاستراحة من عناء الحر .أى : " أصحاب الجنة يومئذ " أى : يوم القيامة خير مستقرا " أى : خير مكانا ومنزلا فى الجنة ، مما كان عليه الكافرون فى الدنيا من متاع زائل ، ونعيم حائل " وأحسن مقيلا " أى : وأحسن راحة وهناء ومأوى ، مما فيه الكافرون من عذاب مقيم .وقد استنبط بعض العلماء . من هذه الآية أن حساب أهل الجنة يسير ، وأنه ينتهى فى وقت قصير ، لا يتجاوز نصف النهار . قالوا : لأن قوله - تعالى - ( وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ) يدل على أنهم فى وقت القيلولة ، يكونون فى راحة ونعيم ، ويشير إلى ذلك قوله - تعالى - : - فَأَمّا مَنْ أوتِىَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ ) - حِسَاباً يَسِيراً وَيَنقَلِبُ إلى أَهْلِهِ مَسْرُوراً ) وأما أهل النار والعياذ بالله - فهم ليسوا كذلك لأن حسابهم غير يسير .وقد ساق ابن كثير فى هذا المعنى آثارا منها أن سعيد الصواف قال : بلغنى أن يوم القيامة يقصر على المؤمن حتى يكون كما بين العصر إلى غروب الشمس وأنهم ليقيلون فى رياض الجنة .

ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا

كما فسرها الوسيط ثم وصف - سبحانه - بعض الأهوال التى تحدث فى هذا اليوم فقال : ( وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السمآء بالغمام وَنُزِّلَ الملائكة تَنزِيلاً ) وقوله ( تَشَقَّقُ ) أصله تتشقق بمعنى تتفتح . والباء يصح أن تكون بمعنى. ( عن ، وأن تكون للسببية أى : بسبب طلوعه منها ، وأن تكون للحال ، أى : ملتبسة بالغمام .والغمام : اسم جنس جمعى لغمامة . وهى السحاب الأبيض الرقيق سمى بذلك لأنه يغم ما تحته ، أى : يستره ويخفيه .والمعنى : واذكر - أيها العاقل لتعتبر وتتعظ - أهوال يوم القيامة . يوم تتفتح السماء وتتشقق بسبب طلوع الغمام منها ، ونزول الملائكة منها تنزيلا عجيبا غير معهود .قال صاحب الكشاف : ولما كان انشقاق السماء بسبب طلوع الغمام منها جعل الغمام كأنه الذى تشقق به السماء ، كما تقول : شق السنام بالشفرة وانشق بها ، ونظيره قوله - تعالى - :( السّمَآءُ مُنفَطِرٌ بِهِ . . ) فإن قلت : أى فرق بين قولك : انشقت الأرض بالنبات ، وانشقت عنه؟ قلت : معنى انشقت به ، أن الله شقها بطلوعه فانشقت به . ومعنى انشقت عنه : أن التربة ارتفعت عند طلوعه والمعنى : أن السماء تتفتح بغمام يخرج منها ، وفى الغمام الملائكة ينزلون. وفى أيديهم صحف أعمال العباد .

الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوما على الكافرين عسيرا

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( الملك يَوْمَئِذٍ الحق للرحمن وَكَانَ يَوْماً عَلَى الكافرين عَسِيراً ) .لفظ " الملك " مبتدأ ، و " للرحمن " خبره .أى : الملك يومئذ " ظرف للمبتدأ و " الحق " نعت له و الثابت الذى لا يزول ، ولا يشاركه فيه أحد للرحمن يومئذ ، وكان هذا اليوم - عسيرا على الكافرين ، لشدة الهول والعذاب الذى يقع عليهم فيه .وخص سبحانه - ثبوت الملك له فى هذا اليوم بالذكر ، مع أنه - تعالى - هو المالك لهذا الكون فى هذا اليوم وفى غيره ، للرد على الكافرين الذين زعموا أن أصنامهم ستشفع لهم يوم القيامة ، ولبيان أن ملك غيره - سبحانه - فى الدنيا إنما هو ملك صورى زائل ، أما الملك الثابت الحقيقى فهو الله الواحد القهار .قال ابن كثير : وفى الصحيح " أن الله يطوى السموات بيمينه ، ويأخذ الأرض بيده الأخرى ثم يقول : أنا الملك . أنا الديان . أين ملوك الأرض أين الجبارون . أين المتكبرون . "

ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا

كما فسرها الوسيط ثم صور - سبحانه - ما سيكون عليه الكافرون يوم القيامة من حسرة وندامة ، تصويرا بليغا ، مؤثرا فقال : ( وَيَوْمَ يَعَضُّ الظالم على يَدَيْهِ يَقُولُ ياليتني اتخذت مَعَ الرسول سَبِيلاً ياويلتى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَناً خَلِيلاً ) .وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات أن عقبة بن أبى معيط دعا النبى صلى الله عليه وسلم لحضور طعام عنده . فقال له النبى صلى الله عليه وسلم لا آكل من طعامك حت تنطق بالشهادتين ، فنطق بهما . فبلغ ذلك صديقه أمية بن خلف ، فقال له : يا عقبة بلغنى أنك أسملت . فقال له :لا . ولكن قلت ما قلت تطييبا لقلب محمد صلى الله عليه وسلم حتى يأكل من طعامى . فقال له : كلامك على حرام حتى تفعل كذا وكذا بمحمد صلى الله عليه وسلم ففعل الشقى ما أمره به صديقه الذى لا يقل شقاوة عنه .أما عقبة فقد أمر النبى صلى الله عليه وسلم بقتله فى غزوة بدر وأما أبى بن خلف فقد طعنه النبى صلى الله عليه وسلم فى غزوة أحد طعنة لم يبق بعدها سوى زمن يسير ثم هلك .وعلى اية حال فإن الآيات وإن كانت قد نزلت فى هذين الشقيين . فإنها تشمل كل من كان على شاكلتهما فى الكفر والعناد ، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .وعض اليدين كناية عن شدة الحسرة والندامة والغيظ ، لأن النادم ندما شديدا ، يعض يديه . وليس أحد أشد ندما يوم القيامة من الكافرين .قال - تعالى - : ( وَأَسَرُّواْ الندامة لَمَّا رَأَوُاْ العذاب وَجَعَلْنَا الأغلال في أَعْنَاقِ الذين كَفَرُواْ . . . ) والمعنى : واذكر - أيها العاقل - يوم القيامة وما فيه من حساب وجزاء ، يوم يعض الظالم على يديه من شدة غيظه وندمه وحسرته .ويقول فى هذا اليوم ( ياليتني اتخذت مَعَ الرسول سَبِيلاً ) .أى : يا ليتنى سلكت معه طريق الحق الذى جاء به ، واتبعته فى كل ما جاء به من عند ربه .

يا ويلتى ليتني لم اتخذ فلانا خليلا

كما فسرها الوسيط ( ياويلتى ) أى : ثم يقول هذا الظالم يا هلاكى أقبل فهذا أوان إقبالك ، فهذه الكلمة تستعمل عند وقوع داهية دهياء لا نجاة منها ، وكأن المتحسر ينادى ويلته ويطلب حضورها بعد تنزيلها منزلة من يفهم نداءه ). ( لَيْتَنِي لَمْ أَتّخِذْ فُلاَناً خَلِيلاً ) أى : ليتنى لم أتخذ فلانا الذى أضلنى فى الدنيا صديقا وخليلا لى . والمراد بفلان : كل من أضل غيره وصرفه عن طريق الحق ، ويدخل فى ذلك دخولا أوليا أبى بن خلف .

لقد اضلني عن الذكر بعد اذ جاءني وكان الشيطان للانسان خذولا

كما فسرها الوسيط ( لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذكر بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ) أى : والله لقد أضلنى هذا الصديق المشئوم عن الذكر أى : عن الهدى بعد إذ جاءنى الرسول صلى الله عليه وسلم فالجملة الكريمة تعليل لتمنيه المذكور ، وتوضيح لتمللله . وأكده بلام القسم للمبالغة فى بيان شدة ندمه وحسرته والمراد بالذكر هنا : ما يشمل القرآن الكريم ، وما يشمل غيره من توجيهات. النبى صلى الله عليه وسلم وفى التعبير بقوله : ( بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ) إشعار بأن هدى الرسول صلى الله عليه وسلم قد وصل إلى هذا الشقى ، وكان فى إمكانه أن ينتفع به .ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ( وَكَانَ الشيطان لِلإِنْسَانِ خَذُولاً ) أى : وكان الشيطان دائما وأبدا . خذولا للإنسان . أى : صارفا إياه عن الحق ، محرضا له على الباطل ، فإذا ما احتاج الإنسان إليه خذله وتركه وفر عنه وهو يقول : إنى برىء منك .يقال : خذل فلان فلانا ، إذا ترك نصرته بعد أن وعده بها .وهكذا تكون عاقبة الذين يتبعون أصدقاء

السوء ، وصدق الله إذ يقول : ( الأخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ
عَدُوٌّ إِلاّ المتقين ) ومن الأحاديث التى وردت فى الأمر باتخاذ الصديق
الصالح ، وبالنهى عن الصديق الطالح ، ما رواه الشيخان عن أبى موسى الأشعرى
، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " مثل الجليس الصالح وجليس السوء
كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك إما أن يحذيك . وإمّا أن تبتاع منه
وإما أن تجد منه ريحا طيبة ، ونافخ الكير ، إما أن يحرق ثوبك . وإما أن .
تجد منه ريحا خبيثة " .

وقال الرسول يا رب ان قومي اتخذوا هذا القران مهجورا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم فى
- شأن هؤلاء المشركين ، وما قالوه فى شأن القرآن الكريم ، وما رد به
- سبحانه - عليهم ، فقال - تعالى - : ( وَقَالَ الرسول . . . ) .قوله
) : سبحانه - : ( وَقَالَ الرسول . . . ) معطوف على قوله - تعالى - قبل ذلك
وَقَالَ الذين لاَ يَرْجُونَ . . ) وما بينهما اعتراض مسوق لاستعظام قبح ما
قالوه ولبيان ما يحل بهم بسببه من عذاب .أى : وقال الرسول محمد صلى الله
" عليه وسلم متضرعا وشاكيا لربه " يارب إن قومى " الذين أرسلتنى إليهم قد
اتخذوا هذا القرآن " المشتمل على ما يهديهم إلى الرشد وعلى ما يسعدهم فى
، دنياهم وآخرتهم ، قد اتخذوه " مهجورا " أى : متروكا فقد تركوا تصديقه
وتركوا العمل به وتركوا ، التأثر بوعيده . . . من الهَجْر - بفتح الهاء
، بمعنى الترك ، أو المعنى : قد اتخذوا هذا القرآن مادة لسخريتهم وتهكمهم
- من الهُجْر - بضم الاء - بمعنى الهذيان والقول الباطل ، ومنه قوله
تعالى - : ( مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِراً تَهْجُرُونَ ) وقد اشتملت هذه
الآية الكريمة على التخويف العظيم لمن يهجر القرآن الكريم . فلم يحفظه أو
. . لم يحفظ شيئا منه ، ولم يعمل بما فيه من حلال وحرام ، وأوامر ونواه
قال بعض العلماء هجر القرآن أنواع : أحدها : هجر سماعة وقراءته . وثانيها.
هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه . . . وثالثها : هجر تحكيمه :
. . والتحاكم إليه فى أصول الدين وفروعه . . . ورابعها : هجر تدبره وتفهمه
. وكل هذا دخل فى هذه الآية ، وإن كان بعض الهجر أهون من بعض .

وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين وكفى بربك هاديا ونصيرا

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ
نَبِيٍّ عَدُوّاً مِّنَ المجرمين . . ) تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم
عما أصابه من قومه ، وتصريح بأن ما أصابه قد أصاب الرسل من قبله ، والبلية
إذا عمت هانت . أى : كما جعلنا قومك - أيها الرسول الكريم - يعادونك
ويكذبونك ، جعلنا لكل نبى سابق عليك عدوا من المجرمين ، فاصبر - أيها
) : - الرسول - كما صبر إخوانك السابقون .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى
وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإنس والجن
يُوحِي بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ القول غُرُوراً وَلَوْ شَآءَ
- رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ) ثم شفع - سبحانه
) هذه التسلية بوعد كريم منه - عز وجل - لنبيه صلى الله عليه وسلم فقال
وكفى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً ) .أى : وكفى ربك - أيها الرسول
- الكريم - هاديا يهدى عباده إلى ما تقتضيه حكمته ومشيئته ، وكفى بِهِ
سبحانه - بعد ذلك - وللمرة الخامسة - بعض شبهاتهم وأباطيلهم فقال ( وَقَالَ
. . . الذين كَفَرُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ القرآن جُمْلَةً وَاحِدَةً
) .

وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القران جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك
ورتلناه ترتيلا

كما فسرها الوسيط ( وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ
القرآن جُمْلَةً وَاحِدَةً . . . )أى : وقال الذين كفروا بالحق الذى جاءهم
به الرسول صلى الله عليه وسلم : هلا نزل هذا القرآن على محمد صلى الله عليه
وسلم جملة واحدة ، دون أن ينزل مفرقا كما نراه ونسمعه .وقولهم هذا دليل على
سوء أدبهم فقد طلبوا مالا يعنيهم . واقترحوا شيئا لا مدخل لهم فيه ولا علم
عندهم بحكمته ، ولذا در سبحانه عليهم بقوله : ( كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ
فُؤَادَكَ ) والكاف بمعنى مثل ، والجار والمجرور نعت لمصدر محذوف مع عامله
وقوله ( لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ) تعليل للعامل المحذوف .فالجملة .
الكريمة استئناف مسوق للرد عليهم ، ولبيان بعض الحكم فى نزول القرآن مفرقا
وقوله - سبحانه - : ( وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ) معطوف على الفعل.
المحذوف . والتنكير فى " ترتيلا " للتفخيم والتعظيم . وأصل الترتيل ، عدم
التلاصق . يقال ، ثغر مرتل . أى مفلج الأسنان غير متلاصقها .أى : نزلناه
، مفرقا ، ورتلناه ترتيلا بديعا ، بأن قرأناه عليك بلسان جبريل شيئا فشيئا

: على تؤدة وتمهل ، وجعلنا بعضه ينزل فى إثر بعض .قال صاحب الكشاف ما ملخصه
وقوله " كذلك " جواب لهم ، أى : كذلك أنزلناه مفرقا ، والحكمة فيه : أن
نوقى بتفريقه فؤادك حتى تعيه وتحفظه . . .فإن قلت : ذلك فى كذلك يجب أن
يكون إشارة إلى شىء تقدمه ، والذى تقدمه هو إنزاله جملة واحدة فكيف فسرته
بكذلك أنزلناه مفرقا؟قلت : لأن قولهم : لولا أنزل عليه القرآن جملة ، معناه
لماذا أنزل مفرقا ، والدليل على فساد هذا الاعتراض أنهم عجزوا عن أن :
يأتوا بنجم واحد من نجومه . . . فكأنهم قدروا على تفاريقه حتى يقدروا على
جملته .

ولا ياتونك بمثل الا جئناك بالحق واحسن تفسيرا

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ
جِئْنَاكَ بِالحق وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً )أى : سر أيها الرسول الكريم فى
طريقك ، وبلغ ما أنزلناه إليك ، ولا تلتفت إلى مقترحات المشركين وأباطيلهم
فإنهم لا يأتونك بمثل ، أى : بكلام عجيب هو مثل فى التهافت والفساد للطعن ،
فى نبوتك " إلا جئناك " فى مقابلته بالجواب " الحق " الثابت الصادق الذى
يزهق باطلهم ، وبما هو أحسن تفسيرا وبيانا من مثلهم وشبهاتهم :والاستثناء
مفرغ من عموم الأحوال . أى : ولا يأتونك فى حال من الأحوال بمثل للطعن فى
نبوتك ، إلا جئناك وسلحناك بما يزهق أمثالهم وشبههم ، فسر فى طريقك - أيها
الرسول الكريم - فإنك على الحق المبين .فأنت ترى أن هذه الآيات الكريمة من
أعظم الآيات لتشجيع النبى صلى الله عليه وسلم على تبليغ دعوته ، بدون
اكتراث بما يثيره المشركون حوله من شبهات .

الذين يحشرون على وجوههم الى جهنم اولئك شر مكانا واضل سبيلا

، كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - سوء مصيرهم بسبب أقوالهم الباطلة
وأفعالهم القبيحة ، فقال - تعالى - : ( الذين يُحْشَرُونَ على وُجُوهِهِمْ
، إلى جَهَنَّمَ ) أى : يحشرون ماشين على وجوههم أو يسحبون عليها إلى جهنم
بسبب كفرهم وعنادهم .( أولئك ) الذين نفعل بهم ذلك ( شَرٌّ مَّكَاناً ) أى
منزلا ومكانا ومصيرا لهم هو جهنم وأولئك - أيضا - هم أضل الناس طريقا عن :
طريق الحق والرشاد ، ولذا كانت طريقهم لا توصلهم إلا إلى النار وبئس القرار
قال الإمام ابن كثير : وفى الصحيح عن أنس : أن رجلا سأل النبى صلى الله.
عليه وسلم فقال : يا رسول الله كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ فقال
: إن الذى أمشاه على رجليه قادر على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة .

ولقد اتينا موسى الكتاب وجعلنا معه اخاه هارون وزيرا

كما فسرها الوسيط ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن أحوال الأقوام
- السابقين الذين كذبوا أبنياءهم ، فكانت عاقبتهم الإهلاك والتدمير فقال
- تعالى - : ( وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى . . . ) .قوله - تعالى
) : وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكتاب . . ) كلام مستأنف لزيادة تسلية الرسول
صلى الله عليه وسلم ، ولترهيب المشركين وحضهم على الاتعاظ والاعتبار واتباع
الرسول صلى الله عليه وسلم حتى لا يعرضوا أنفسهم للهلاك والدمار الذى نزل
بأمثالهم من السابقين .أى : وبالله لقد آتينا موسى - عليه السلام
الكتاب " أى : التوارة لتكون هداية لقومه ( وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ
هَارُونَ وَزِيراً ) . أى : وجعلنا معه - بفضلنا وحكمتنا - أخاه هارون لكى
يكون عونا له وعضدا فى تبليغ ما أمرناه بتبليغه .

فقلنا اذهبا الى القوم الذين كذبوا باياتنا فدمرناهم تدميرا

كما فسرها الوسيط ( فَقُلْنَا اذهبآ إِلَى القوم الذين كَذَّبُواْ
بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً ) والتدمير : أشد الإهلاك .وأصله
كسر الشىء على وجه لا يمكن إصلاحه ، وفى الكلام حذف يعرف من السياق
والمعنى : فقلنا لهما اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا الدالة على.
، وحدانيتنا وقدرتنا ، وهم فرعون وقومه ، فذهبا إليهم ودعواهم إلى الإيمان
فأعرضوا عنهما وكذبوهما ، وتمادوا فى طغيانهم ، فكانت عاقبة ذلك أن دمرناهم
- تدميرا عجيبا ، بأن أغرقهم الله جميعا ، أمام موسى و من معه .فقوله
تعالى - ( فَدَمَّرْنَاهُمْ . . ) معطوف على مقدر ، أى : فذهبا إليهم
فكذبوهما فدمرناهم تدميرا .

وقوم نوح لما كذبوا الرسل اغرقناهم وجعلناهم للناس اية واعتدنا للظالمين
عذابا اليما

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - ما جرى لقوم نوح فقال : ( وَقَوْمَ

نُوحٍ لّمَّا كَذّبُواْ الرسل أَغْرَقْنَاهُمْ . . . ) .والمراد بالرسل
نوح ومن قبله ، أو نوح وحده ، وعبر عنه بالرسل ، لأن تكذيبهم له يعتبر :
تكذيبا لجميع الرسل ، لأن رسالتهم واحدة فى أصولها .( وَجَعَلْنَاهُمْ
لِلنّاسِ آيَةً ) أى : بعد أن أغرقناهم بسبب كفرهم ، جعلنا إغراقهم أو
قصتهم عبرة وعظة للناس الذين يعتبرون ويتعظون .والتعبير ب " آية " بصيغة
التنكير ، يشير إى عظم هذه الآية وشهرتها ، ولا شك أن الطوفان الذى أغرق
) : - الله - تعالى - به قوم نوح من الآيات التى لا تنسى .وقوله - سبحانه
وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَاباً أَلِيماً ) بيان لسوء مصير كل ظالم
يصنع المور فى غير مواضعها .أى : وهيأنا وأعددنا للظالمين عذابا أليما
موجعا ، بسبب ظلمهم وكفرهم ، وعلى رأس هؤلاء الظالمين قوم نوح ، الذين
. . . كفروا به وسخروا منه

وعادا وثمود واصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا

) : كما فسرها الوسيط ثم ذكر - سبحانه - بضع من جاء بعد قوم نوح فقال
وَعَاداً وَثَمُودَاْ ) أى : ودمرنا وأهلكنا قوم عاد بسبب تكذيبهم لنبيهم
هود - عليه السلام- ، كما أهلكنا قوم ثمود بسبب تكذيبهم لنبيهم صالح - عليه
السلام - .وقوله - تعالى - : ( وَأَصْحَابَ الرس ) معطوف على ما قبله . أى
وأهلكنا أصحاب الرس . كما أهلكنا من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود .والرس فى :
لغة العرب : البئر التى لم تبن بالحجارة ، وقيل : البئر مطلقا ، ومنه قول
الشاعر :وهم سائرون إلى أرضهم ... فياليتهم يحفرون الرساساأى : فيا ليتهم
يحفرون الآبار .وللمفسرين فى حقيقة أصحاب الرس أقوال : فمنهم من قال إنهم
من بقايا قبيلة ثمود ، بعث الله إليهم نبيا فكذبوه ورَسُّوه فى تلك البئر
أى : ألقوا به فيها ، فأهلكهم الله - تعالى - .وقيل : هم قومه كانوا يعبدون
الأصنام ، فأرسل الله إليهم شعيبا - عليه السلام - فكذبوه فبينما هم حول
: الرس - أى البئر - فانهارت بهم ، وخسف الله - تعالى - بهم الأرض . وقيل
الرس بئر بأنطاكية ، قتل أهلها حبيبا النجار وألقوه فيها . . .واختار ابن
جرير - رحمه الله - أن أصحاب الرس هم أصحاب الأخدود ، الذين ذكروا فى سورة
البروج .وقد ذكر بعض المفسرين فى شأنهم روايات ، رأينا أن نضرب عنها صفحا
لضعفها ونكارتها .واسم الإشارة فى قوله - تعالى - : ( وَقُرُوناً بَيْنَ
ذَلِكَ كَثِيراً ) يعود إلى عاد وثمود وأصحاب الرس ، والقرون : جمع قرن
والمراد به هنا : الجيل من الناس الذين اقترنوا فى الوجود فى زمان واحد من.
الأزمنة .أى : وأهلكنا قرونا كثيرة بين قوم عاد وثمود وأصحاب الرس . لأن
. تلك القرون سارت على شاكلة أمثالهم من الكافرين والفاسقين

وكلا ضربنا له الامثال وكلا تبرنا تتبيرا

. . كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الأمثال
بيان لمظهر من مظاهر رحمة الله - تعالى - : حيث إنه - سبحانه -لا يهلك (
الأمم إلا بعد أن يسوق لها ما يرشدها ، فتأبى إلا السير فى طريق الغي
والعصيان . و " كلا " منصوب بفعل مضمر يدل عليه ما بعده . فإن ضرب المثل فى
معنى التذكير والتحذير ، والتنوين عوض عن المضاف إليه .أى : وأنذرنا كل
فريق من القرون الماضية المكذبة ، وضربنا له الأمثال الحكيمة الكفيلة
بإرشاده إلى طريق الحق ، ولكنه استحب العمى على الهدى ، والضلالة على
الهداية ، فكانت عاقبته كما قال - تعالى - بعد ذلك ( وَكُلاًّ تَبّرْنَا
تَتْبِيراً ) .أى : وكل قرن من هؤلاء المكذبين أهلكناه إهلاكا لا قيام له
منه ، وأصل التتبير : التفتيت . وكل شىء فتته وكسرته فقد تبرته . ومنه
التبر لفتات الذهب والفضة .والمراد به هنا التمزيق والإهلاك الشديد الذى
. يستأصل من نزل به

ولقد اتوا على القرية التي امطرت مطر السوء افلم يكونوا يرونها بل كانوا لا
يرجون نشورا

كما فسرها الوسيط ثم وبخ - سبحانه - مشركى مكة على عدم اعتبارهم واتعاظهم
بما يرون من آثار فقال - تعالى - : ( وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى القرية التي
أُمْطِرَتْ مَطَرَ السوء أَفَلَمْ يَكُونُواْ يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُواْ
لاَ يَرْجُونَ نُشُوراً ) .والمراد بالقرية هنا : قرية سدوم التى هى أكبر
قرى قوم لوط ، والتى جعل الله - تعالى - عاليها سافلها . والمراد بما أمطرت
) : - به : الحجارة التى أنزلها الله - تعالى - عليها ، كما قال - تعالى
فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً
مِّن سِجِّيلٍ ) والسوء - بفتح السين وتشديدها - مصدر ساءه . أى : فعل به
- ما يكره . والسوء - بالضم والتشديد- اسم منه .والاستفهام فى قوله - تعالى
للتقريع والتوبيخ على عدم الاعتبار ( أَفَلَمْ يَكُونُواْ يَرَوْنَهَا ) :
بما يرونه من أمور تدعو كل عاقل إلى التدبر والتفكر والاتعاظ .أى : أقسم

لك - أيها الرسول الكريم - أن هؤلاء الذين اتخذوا القرآن مهجورا ، كانوا ، وما زالوا يمرون مصبحين وبالليل على قرية قوم لوط ، التى دمرناها تدميرا بسبب فسوق أهلها وفجورهم ، وكانوا يرون ما حل بها من خراب . ولكنهم لكفرهم ، بك والبعث والحساب ، لم يتأثروا بما رأوا ، ولم يعتبروا بما شاهدوا - وسيندمون يوم القيامة على كفرهم ولكن لن ينفعهم الندم .وصدر - سبحانه الآية الكريمة بلام القسم وقد ، لتأكيد رؤيتهم لتلك القرية التى أمطرت مطر - السوء .والمراد برؤيتها ، رؤية ما حل بها من خراب ودمار كما قال - تعالى : ( وَإِنَّكُمْ لَّتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ وبالليل أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ) وقوله - سحانه - : ( بَلْ كَانُواْ لاَ يَرْجُونَ نُشُوراً ) بيان للسبب الذى جعلهم لا يعتبرون ولا يتعظون .أى : أنهم كانوا يرون عاقبة ، أهل تلك القرية التى جعلنا عاليها سافلها ، ولكن تكذيبهم بالبعث والنشور والثواب والعقاب يوم القيامة ، حال بينهم وبين الاعتبار والاتعاظ والإيمان بالحق ، وجعلهم يمرون بما يدعو إلى التدبر والتفكر ، ولكنهم لعدم توقعهم للقاء الله ، ولعدم إيمانهم بالجزاء يوم القيامة قست قلوبهم وانطمست بصائرهم ، وصاروا كما قال - تعالى - : ( وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السماوات والأرض يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بالله إِلاَّ وَهُمْ مُّشْرِكُونَ ).

واذا راوك ان يتخذونك الا هزوا اهذا الذي بعث الله رسولا

كما فسرها الوسيط وبعد هذا العرض لأحوال بعض الأمم الماضية ، عادت السورة الكريمة إلى بيان ما كان المشركون يقولونه عند رؤيتهم للنبى صلى الله عليه وسلم وإلى بيان سوء عاقبتهم ، وفرط جهالاتهم ، قال - تعالى - : ( وَإِذَا رَأَوْكَ إِن . . . ) .قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - : يخبر - تعالى - عن استهزاء المشركين بالرسول صلى الله عليه وسلم إذا رأوه ، كما قال - تعالى - : ( وَإِذَا رَآكَ الذين كفروا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أهذا الذي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ . . . ) بعنونه بالعيب والنقص . ومن عجب أن هؤلاء المشركين الذين كانوا يستهزئون بالرسول صلى الله عليه وسلم بعد ، بعثته إليهم ، هم أنفسهم الذين كانوا يلقبونه قبل بعثته بالصادق الأمين ) : - وما ملهم على هذا الكذب والجحود إلا الحسد والعناد .وقوله - تعالى - أهذا الذي بَعَثَ الله رَسُولاً ) مقول لقول محذوف وعائد الموصول محذوف أيضا - . أى : كلما وقعت أبصار أعدائك عليك - أيها الرسول الكريم - سخروا منك ، واستنكروا نبوتك ، وقالوا على سبيل الاستبعاد والتهكم : أهذا هو الإنسان الذي بعثه الله - تعالى - ليكون رسولا إلينا . وقولهم هذا الذى حكاه القرآن عنهم ، يدل على أنهم بلغوا أقصى درجات الجهالة وسوء الأدب .

ان كاد ليضلنا عن الهتنا لولا ان صبرنا عليها وسوف يعلمون حين يرون العذاب من اضل سبيلا

كما فسرها الوسيط ثم يشير القرآن إلى كذبهم فيما قالوه ، لأنهم مع إظهارهم للسخرية منه صلى الله عليه وسلم كانوا فى واقع أمرهم ، وحقيقة حالهم يعترفون له بقوة الحجة ، وهذا ما حكاه القرآن عنهم فى قوله : ( إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلاَ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ) .أى : أنهم كانوا يقولون فيما بينهم : إن هذا الرسول كاد أن يصرفنا بقوة حجته عن عبادة آلهتنا . لولا أننا قاومنا هذا الشعور وثبتنا على عبادة أصنامنا .قال الآلوسى : قوله : ( إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا ) أى : يصرفنا عن عبادتها صرفا كليا بحيث يبعدنا عنها لا عن عبادتها فقط . لولا أن صبرنا عليها واستمسكنا بعبادتها . . . وهذا اعتراف منهم بأنه صلى الله عليه وسلم قد بلغ من الاجتهاد فى لدعوة إلى التوحيد . . . ما شارفوا معه أن يتركوا دينهم لولا فرط جهالاتهم ولجاجهم وغاية عنادهم .وقوله - تعالى - : ( وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ العذاب مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً ) تهديد لهم على سوء أدبهم ، وعلى جحودهم للحق بعد أن تبين لهم .أى : وسوف يعلم هؤلاء الكافرون حين يرون العذاب ماثلا أمام أعينهم ، من أبعد طريقا عن الحق أهم أم المؤمنون .فالجملة الكريمة وعيد شديد لهم على استهزائهم بالرسول ، الكريم الذى جاءهم ليخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان .

ارايت من اتخذ الهه هواه افانت تكون عليه وكيلا

كما فسرها الوسيط ثم يهملهم القرآن ويتركهم فى طغيانهم يعمهون ويلتفت بالخطاب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ليسرى عن نفسه ، وليسليه عما لحقه منهم . وليبين له حقيقة حالهم فيقول : ( أَرَأَيْتَ مَنِ اتخذ إلهه هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً . . . ) .والاستفهام فى قوله - سبحانه - ( أَرَأَيْتَ ) للتعجب من شناعة أحوالهم ، ومن قبح تفكيرهم .فهل مثل هؤلاء يصلحون لأن تهتم بأمرهم ، أو تحزن لاستهزائهم؟ كلا إنهم لا

يصلحون لذلك ، وعليك أن تمضى فى طريقك فأنت لا تقدر على حفظهم أو كفالتهم
أو هدايتهم ، وإنما نحن الذين نقدر على ذلك ، وسنتصرف معهم بما تقتضيه
حكمتنا ومشيئتنا .فقوله - تعالى - : ( أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً
استئناف مسوق لاستبعاد كونه صلى الله عليه وسلم وكيلا أو حفيظا لهذا الذى )
اتخذ إلهه هواه ، والاستفهام للنفى والإنكار . أى : إنك - أيها الرسول
الكريم -لا قدرة لك على حفظه من الوقوع فى الكفر والضلال .

ام تحسب ان اكثرهم يسمعون او يعقلون ان هم الا كالانعام بل هم اضل سبيلا

كما فسرها الوسيط ثم أضاف - سبحانه - إلى توبيخهم السابق توبيخا أشد وأنكى
فقال - تعالى - : ( أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ
يَعْقِلُونَ . . . ) .و " أم " هنا : هى المنقطعة ، وهى تجمع فى معناها بين
الإضراب الانتقالى ، والاستهفام الإنكارى .أى : بل أتحسب أن أكثر هؤلاء
الكافرين يسمعون ما ترشدهم إليه سماع تدبر وتعقل ، أو يعقلون ما تأمرهم به
أو تنههم عنه بافتتاح بصيرة ، وباستعداد لقبول الحق . .كلا إنهم ليسوا كذلك
لاستيلاء الجحود والحسد على قلوبهم .وقال - سبحانه - ( أَمْ تَحْسَبُ ،
أَنَّ أَكْثَرَهُمْ . . . ) لأن هناك قلة منهم كانت تعرف الحق معرفة حقيقية
ولكن المكابرة والمعاندة ومتابعة الهوى . . . حالت بينها وبين الدخول فيه ،
واتباع ما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم .وقوله - سبحانه - : ( إِنْ ،
هُمْ إِلاَّ كَالأَنعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ) ذم لهم على عدم
انتفاعهم بالهداية التى أرسلها الله - تعالى - إليهم .أى : هؤلاء المشركون
ليسوا إلى كالأنعام فى عدم الانتفاع بما يقرع قلوبهم وأسماعهم من توجيهات
حكيمة ، بل هم أضل سبيلا من الأنعام : لأن الأنعام تنقاد لصاحبها الذى يحسن
: إليها ، أما هؤلاء فقد قابلوا نعم الله بالكفر والجحود .قال صاحب الكشاف
فإن قلت : ما معنى ذكر الأكثر؟ قلت : كان فيهم من لا يصده عن الإسلام إلى
داء واحد ، وهو حب الرياسة ، وكفى به داء عضالا .فإن قلت : كيف جُعِلوا أضل
، من الأنعام؟ قلت : لأن الأنعام تنقاد لأربابها التى تعلفها وتتعهدها
، وتعرف من يحسن إليها ممن يسىء إليها ، وتطلب ما ينفعها وتتجنب ما يضرها
وتهتدى لمراعيها ومشاربها ، وهؤلاء لا ينقادون لربهم ، ولا يعرفون إحسانه
إليهم ، من إساءة الشيطان الذى هو عدوهم ، ولا يطلبون الثواب الذى هو أعظم
المنافع ، ولا يتقون العقاب الذى هو أشد المضار والمهالك . .وهكذا نرى
الآيات الكريمة تصف هؤلاء المستهزئين برسولهم صلى الله عليه وسلم بأوصاف
تهبط بهم عن درجة الأنعام ، وتتوعدهم بما يستحقونه من عذاب مهين .

الم تر الى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا

- كما فسرها الوسيط ثم تنتقل السورة بعد ذلك إلى الحديث عن مظاهر قدرة الله
تعالى - وعن جانب من الآلاء التى أنعم بها على عباده ، فإن من شأن هذه
النعم المبثوثة فى هذا الكون ، أن تهدى المتفكر فيها إلى منشئها وواهبها
وإلى وجوب إخلاص العبادة له ، قال - تعالى - : ( أَلَمْ تَرَ . . . ) .قال
. القرطبى : قوله - تعالى - : ( أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظل
يجوز أن تكون هذه الرؤية من رؤية العين ، ويجوز أن تكون من العلم .قال ( .
الحسن وقتادة وغيرهما : مد الظل من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس . وحكى أبو
، عبيدة عن رؤبة أنه قال : " كل ما كانت عليه الشمس فزالت عنه فهو فىء وظل
وما لم تكن عليه الشمس فهو ظل " .والجملة الكريمة شروع فى بعض دلائل
قدرته - سبحانه - وواسع رحمته ، إثر بيان جهالات المشركين ، وغفلتهم عما فى
هذا الكون من آثار تدل على وحدانية الله - تعالى - .والخطاب للرسول صلى
الله عليه وسلم والاستفهام للتقرير .والمعنى لقد رأيت - أيها الرسول
الكريم - بعينيك ، وتأملت بعقلك وبصيرتك ، فى صنع ربك الذى أحسن كل شىء
خلقه ، وكيف أنه - سبحانه - مد الظل ، أى : بسطه وجعله واسعا متحركا مع
حركة الأرض فى مواجهة الشمس ، وجعله مكانا يستظل فيه الناس من وهج الشمس
وحرها ، فيجدون عنده الراحة بعد التعب . . . وهذا من عظيم رحمة ربك بعباده
وقوله - تعالى - : ( وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ) جملة معترضة.
لبيان مظهر من مظاهر قدرته - تعالى - . أى : " ولو شاء " - سبحانه - لجعل
هذا الظل " ساكنا " أى : ثابتا دائما مستقرا على حالة واحدة بحيث لا تزيله
الشمس ، ولا يذهب عن وجه الأرض ، ولكنه - سبحانه - لم يشأ ذلك ، لأن مصلحة
خلقه ومنفعتهم فى وجوده على الطريقة التى أوجده عليها بمقتضى حكمته
وقوله - سبحانه - : ( ثُمَّ جَعَلْنَا الشمس عَلَيْهِ دَلِيلاً ) معطوف.
على قوله ( مَدَّ الظل ) داخل فى حكمه . أى : ألم ترى إلى عجيب صنع ربك كيف
مد الظل ، ثم جعلنا بقدرتنا وحكمتنا الشمس دليلا عليه ، إذ هو يزول بتسلطها
عليه ويظهر عند احتجاجها عنه ، ويستدل بأحوالها على أحواله ، فهو يتبعها
، كما يتبع الإنسان من يدله على الشىء ، من حيث إنه يزيد كلما احتجبت عنه
ويتقلص كلما ظهرت عليه .قال الجمل : قوله : ( ثُمَّ جَعَلْنَا الشمس
عَلَيْهِ دَلِيلاً ) أى : جعلنا الشمس بنسخها الظل عند مجيئها دالة على أن

الظل شىء ، لأن الأشياء تعرف بأضدادها ، ولولا الشمس ما عرف الظل ، ولولا النور ما عرفت الظلمة . . . ولم يؤنث الدليل - وهو صفة الشمس - لأنه فى معنى الاسم ، كما يقال : الشمس برهان ، والشمس حق .

ثم قبضناه الينا قبضا يسيرا

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً ) معطوف - أيضا - على " مد " وداخل فى حكمه .والقبض : ضد المد والبسط ، واليسير : السهل الذى لا عسر فيه .أى : ثم قبضنا ذلك الظل الممدود بقدرتنا وحكمتنا - قبضا يسيرا وهينا علينا .بأن محوناه بالتدريج عند - إيقاعنا الشمس عليه . حتى انتهى أمره إلى الزوال والاضمحلال .وقال - سبحانه - : ( إِلَيْنَا ) للتنصيص على أن مد الظل وقبضه مرجعه إليه تعالى - وحده . فليس فى إمكان أحد سواه - عز وجل - أن يفعل ذلك .قال صاحب الكشاف : قوله : ( ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً ) أى : على مهل . وفى هذا القبض اليسير شيئا بعد شىء من النمافع مالا يعد ولا يحصر ولو قبض دفعة واحدة لتعطلت أكثر مرافق الناس بالظل والشمس جميعا .فإن قلت . ثم " فى هذين الموضعين كيف موقعها؟ قلت : موقعها لبيان تفاضل الأمور " : الثلاثة : كان الثانى أعظم من الأول ، والثالث أعظم منهما ، تشبيها لتباعد ما بينهما فى الفضل ، بتباعد ما بين الحوادث فى الوقت . . . ويحتمل أن يريد قبضه عند قيام الساعة بقبض أسبابه وهى الأجرام التى تبقى الظل ، فيكون قد ذكر إعدامه بإعدام أسبابه .

وهو الذي جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا

كما فسرها الوسيط ثم انتقلت السورة من الحديث عن الظل ومده وقبضه . إلى الحديث عن الليل والنوم والنهار . فقال - تعالى - : ( وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الليل لِبَاساً والنوم سُبَاتاً وَجَعَلَ النهار نُشُوراً ) ولباسا : أى : ساترا بظلامه كما يستر اللباس ما تحته .والسبات : الانقطاع . عن الحركة مع وجود الروح فى البدن ، مأخوذ من السبت بمعنى القطع أو الراحة والسكون ، ومنه قوله - تعالى - : ( وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً ) أى - راحة لأبدانكم .والنشور : بمعنى الانتشار والحركة لطلب المعاش . أى : وهو سبحانه - الذى جعل لكم - أيها الناس - الليل " لباسا " أى : ساترا لكم يستركم كما يستر اللباس عوراتكم ، وجعل لكم النوم " سباتا " أى : راحة - لأبدانكم من عناء العمل . وما يصاحبه من مشقة وتعب ، وجعل - سبحانه النهار " نشورا " أى : وقتا مناسبا لانتشاركم فيه ، وللسير فى مناكب الأرض طلبا للرزق والكسب ووسائل المعيشة .وهكذا تتقلب الحياة بالإنسان وهو تارة ، تحت جنح الليل الساتر ، وتارة مستغرق فى نومه ، وتارة يكدح لطلب معاشه وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً ، وَجَعَلْنَا الليل لِبَاساً وَجَعَلْنَا النهار مَعَاشاً ).

وهو الذي ارسل الرياح بشرا بين يدي رحمته وانزلنا من السماء ماء طهورا

كما فسرها الوسيط ثم ذكر - سبحانه - نعمته فى الرياح ، حيث تكون بشيرا بالأمطار التى تحيى الأرض بعد موتها ، فقال - تعالى - : ( وَهُوَ الذي أَرْسَلَ الرياح بُشْرَى بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ) .وبشرا : أى : مبشرات - بنزول الغيث المستتبع لمنفعة الخلق .أى : وهو - سبحانه - الذى أرسل بقدرته - الرياح لتكون بشيرا لعباده بقرب نزول رحمته المتمثلة فى الغيث : الذى به حياة الناس والأنعام وغيرهما .قال الجمل : " الرياح " أى ، المبشرات وهى الصبا - وتأتى من جهة مطلع الشمس - والجنوب والشمال والدبور - وتأتى من ناحية مغرب الشمس - وفى قراءة سبعية : وهو الذى أرسل - الريح .. . على إرادة الجنس ، و " بشرا " قرىء بسكون الشين وضمها وقرىء ) : - أيضا - نشرا ، أى : متفرقة قدام المطر .وشبيه بهذه الآية قوله - تعال - : ( وَهُوَ الذي يُنَزِّلُ الغيث مِن بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الولي الحميد ) ثم ذكر - سبحانه - ما ترتب على إرسال الرياح من خير فقال : ( وَأَنزَلْنَا مِنَ السمآء مَآءً طَهُوراً . . ) .أى : وأنزلنا من السماء ماء طاهرا فى ذاته ، مطهرا لغيره ، سائغا فى شربه - نافعا للإنسان والحيوان والنبات والطيور وغير ذلك من المخلوقات .ووصف ، سبحانه - الماء بالطهور زيادة فى الإشعار بالنعمة وزيادة فى إتمام المنة . فإن الماء الطهور أهنأ وأنفع مما ليس كذلك .

لنحيي به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا انعاما واناسي كثيرا

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً ) .أى :

أنزلنا من السماء ماء طهورا ، لنحيى بهذا الماء بلدة ، أى : أرضا جدباء لا
" نبات فيها لعدم نزول المطر عليها ، ولكى نسقى بهذا الماء أيضا " أنعاما
. أى : إبلا وبقرا وغنما " وأناسى كثيرا " أى : وعددا كثيرا من الناس
فالأناسى : جمع إنسان واصله أناسين فقلبت نونه ياء وأدغمت فيما قبلها
وقدم - سبحانه - إحياء الأرض ، لأن خروج النبات منها بسبب المطر تتوقف.
عليه حياة الناس والأنعام وغيرهما .وخص الأنعام بالذكر ، لأن مدار معاشهم
عليها ، ولذا قدم سقيها على سقيهم .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم خص
الأنعام من بين ما خلق من الحيوان الشارب؟قلت : لأن الطير والوحش تبعد فى
طلب الماء فلا يعوزها الشرب بخلاف الأنعام . .فإن قلت : فما معنى تنكير
الأنعام والأناسى وصفها بالكثرة .قلت : معنى ذلك أن عِلْيَة الناس وجلهم
مُنيخون بالقرب من الأودية والأنهار ومنابع الماء ، فيهم غنية عن سقى
السماء ، وأعقابهم - وهم كثير منهم -لا يعيشهم إلا ما ينزل الله من رحمته
وسقيا سمائه .فإن قلت : لم قدم إحياء الأرض وسقى الأنعام على سقى
الأناسى؟قلت : لأن حياة الأناسى بحياة أرضهم وحياة أنعامهم ، فقدم ما هو
سبب حياتهم وتعيشهم على سقيهم ، ولأنهم إذا ظفروا بما يكون سقيا لأرضهم
. ومواشيهم لم يعدموا سقياهم

ولقد صرفناه بينهم ليذكروا فابى اكثر الناس الا كفورا

كما فسرها الوسيط والضمير المنصوب فى قوله - تعالى - : ( وَلَقَدْ
صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُواْ . . ) يعود إلى الماء الطهور الذى
سبق الحديث عنه .والتصريف : التكرير والتنويع والانتقال من حال إلى حال .أى
ولقد صرفنا هذا المطر النازل من السماء فأنزلناه بين الناس فى البلدان :
المختلفة ، وفى الأوقات المتفاوتة ، وعلى الصفات المتغايرة ، فنزيده فى بعض
البلاد وننقصه أخرى ، ونمنعه عن بعض الأماكن . . . كل ذلك على حسب حكمتنا
ومشيئتنا .وقد فعلنا ما فعلنا لكى يعتبر الناس ويتعظوا ويخلصوا العبادة لنا
قال الآلوسى : قوله : ( وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ ) الضمير للماء المنزل من.
السماء ، وتصريفه : تحويل أحواله ، وأوقاته وإنزاله على أنحاء مختلفة .وقال
بعضهم : هو راجع إلى القول المفهوم من السياق ، وهو ما ذكر فيه إنشاء
السحاب وإنزال المطر ، وتصريفه : تكريره ، وذكره على وجوه ولغات مختلفة
والمعنى : ولقد كررنا هذا القول وذكرناه على أنحاء مختلفة فى القرآن وغيره.
من الكتب السماوية بين الناس ليتفكروا .وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن
) : عطاء الخراسانى أنه عائد على القرآن . ألا ترى قوله - تعالى - بعد ذلك
، وَجَاهِدْهُمْ بِهِ ) وحكاه فى البحر عن ابن عباس . والمشهور عنه ما تقدم
ولعل المراد ما ذكر فيه من الأدلة على كمال قدرته - تعالى - .ويبدو لنا أن
أقرب الأقوال إلى الصواب هو القول الأول ، لأن سياق الحديث عن المطر النازل
من السماء بقدرة الله - تعالى - ولأن هذا القول هو المأثور عن جمع من
. . . الصحابة والتابعين ، كابن عباس ، وابن مسعود وعكرمة ، ومجاهد وقتادة
وغيرهم .وقوله - تعالى - : ( فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً ) بيان
لموقف أكثر الناس من نعم الله - تعالى - . أى : أنزلنا المطر ، وصرفناه بين
الناس ليعتبروا ويتعظوا ، فأبى أكثرهم إلا الجحود لنعمنا ، ومقابلتها
، بالكفران ، وإسنادها إلى غيرنا ممن لا يخلقون شيئا وإنما هم عباد لنا
وخلقنا .وفى صحيح مسلم " أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال يوما لأصحابه
بعد نزول المطر من السماء : " أتدرون ماذا قال ربكم؟ " قالوا : الله ورسوله
أعلم . فقال صلى الله عليه وسلم : " قال ربكم ، أصبح من عبادى مؤمن بى
وكافر ، فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته فذاك مؤمن بى كافر بالكواكب
-. " " وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا ، فذاك كافر بى مؤمن بالكواكب ،
، والنوء - بتشديد النون وفتحها وسكون الواو : سقوط نجم فى المغرب مع الفجر
وطلوع آخر يقابله من ساعته بالمشرق .وقال - سبحانه - : ( فَأَبَى أَكْثَرُ
- الناس . . . ) لمدح القلة المؤمنة منهم ، وهم الذين قابلوا نعم الله
. تعالى - بالشكر والطاعة

ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا

كما فسرها الوسيط ثم ذكر - سبحانه - ما يدل على رفعة منزلة نبيه صلى الله
عليه وسلم فقال : ( وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ
نَّذِيراً ) . أى : ولو شئنا لبعثنا فى زمنك - أيها الرسول الكريم - فى كل
قرية من القرى نذيرا ينذر أهلها بسوء عاقبة الكفر والجحود ، ويكون عونا لك
على تحمل أعباء الرسالة التى أرسلناك بها . . . ولكنّا لم نشأ ذلك تكريما
. لك وتعظيما لقدرك ، حيث خصصناك بعموم الرسالة لجميع الناس

فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا

كما فسرها الوسيط وما دام الأمر كذلك " فلا تطع الكافرين " فيما يريدونه

منك من أمور باطلة فاسدة " وجاهدهم به " أى : بهذا القرآن ، عن طريق قراءته والعمل بما فيه ، وبيان ما اشتمل عليه من دلائل وبراهين على صحة دعوتك وقوله - تعالى - : ( جِهَاداً كَبِيراً ) مؤكد لما قبله . أى : جاهدهم. بالقرآن جهادا كبيرا مصحوبا بالإغلاظ عليهم تارة ، وبإبطال شبهاتهم وأراجيفهم تارة أخرى .قال - تعالى - : ( يا أيها النبي جَاهِدِ الكفار والمنافقين واغلظ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المصير ).

وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح اجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَهُوَ الذي مَرَجَ البحرين هذا عَذْبٌ فُرَاتٌ وهذا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَّحْجُوراً ) بيان لمظهر آخر من مظاهر قدرته - عز وجل - .و " مرج " من المرج بمعنى الإرسال والتخلية ، ومنه قولهم . مرج فلان دابته إذا أرسلها إلى المرج وهو المكان الذى ترعى فيه الدواب ، ويصح أن يكون المرج بمعنى الخلط ، ومنه قوله - تعالى - : ( فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ) أى : مختلط . ومنه قيل للمرعى : مرج ، لاختلاط الدواب فيه بعضها ببعض .والعذب الفرات : هو الماء السائغ للشرب ، الذى يشعر الإنسان عند شربه باللذة ، وهو ماء الأنهار وسمى فراتا لأنه يَفْرُت العطش ، أى يقطعه ويكسره ويزيله والملح الأجاج : هو الشديد الملوحة والمرارة وهو ماء البحار . سمى أجاجا. من الأجيج وهو تلهب النار ، لأن شربه يزيد العطش .والبرزخ . الحاجز الذى يحجز بين الشيئين .أى : وهو - سبحانه - الذى أرسل البحرين . العذب والمالح - فى مجاريهما متجاورين ، كما ترسل الدواب فى المراعى ، أو جعلهما - بقدرته " فى مجرى واحد ومع ذلك لا يختلط أحدهما بالآخر : بل جعل - سبحانه - بينهما برزخا " أى : حاجزا عظيما ، وحجرا محجورا .أى : وجعل كل واحد منهما حراما محرما على الآخر أن يفسده .والمراد : لزوم كل واحد منهما صفته التى أوجده الله عليها ، فلا ينقلب العذب فى مكانه ملحا ، ولا الملح فى مكانه عذبا قال - تعالى - : ( مَرَجَ البحرين يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ ) وقال - سبحانه - : ( أَمَّنْ جَعَلَ الأرض قَرَاراً وَجَعَلَ خِلاَلَهَآ أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ البحرين حَاجِزاً أإله مَّعَ الله بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ) وهذا الحاجز الذى جعله - سبحانه - بين البحرين : العذب والملح ، من أكبر الأدلة وأعظمها على قدرة الله - تعالى - ، وعلى أن لهذا الكون إلها صانعا حكيما مدبرا وأن كل شىء فى هذا الكون يسير بنظام معلوم ، وبنسق مرسوم .

وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا

كما فسرها الوسيط وبعد هذا الحديث المتنوع عن مظاهر قدرة الله - تعالى - فى الظل وفى الرياح وفى الماء . .جاء الحديث عن خلق الإنسان . فقال - تعالى - : ( وَهُوَ الذي خَلَقَ مِنَ المآء بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً ) . والمراد بالماء : ماء النطفة ، وبالبشر الإنسان . أو المراد بالماء. ( . . الماء المطلق الذى أشار إليه سبحانه فى قوله : ( وَجَعَلْنَا مِنَ المآء ، " كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ) أى : وهو - سبحانه - الذى خلق من ماء النطفة إنسانا فجعله نسبا وصهرا " أى : فجعل من جنس هذا الإنسان ذوى نسب : وهم الذكور الذين ينتسب إليهم بأن يقال فلان بن فلان ، كما جعل من جنسه - أيضا ذوات صِهْرٍ وهن الإناث ، لأنهن موضع المصاهرة .والصهر يطلق على أهل بيت المرأة وأقاربها ، كالأبوين والإخوة والأعمام والأخوال ، فهؤلاء يعتبرون أصهارا لزوج المرأة .قال صاحب الكشاف : قسم - سبحانه - البشر قسمين : ذوى نسب ، أى : ذكورا ينسب إليهم فيقال : فلان بن فلان وفلانة بنت فلان وذوات صهر : أى : إناثا يُصَاهَر بهن ونحوه قوله - تعالى - : ( فَجَعَلَ مِنْهُ الزوجين الذكر والأنثى ) ( وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً ) حيث خلق - سبحانه - من النطفة الواحدة بشرا نوعين : ذكرا وأنثى .وإلى هنا نرى هذه الآية الكريمة قد اشتملت على ستة أدلة محسوسة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته . وهذه الأدلة الستة هى . الظلال قبضا وبسطا ، والليل والنهار راحة ونشورا ، والرياح بشرا بين يدى رحمته ، والأمطار حياة للناس والأنعام وغيرهما ، ومرج البحرين أحدهما عذب فران والآخر ملح أجاج ، وخلق الإنسان من نطفة منها الذكر ومنها الأنثى .

ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيرا

كما فسرها الوسيط ثم بينت السورة الكريمة بعد ذلك موقف المشركين من هذه النعم العظيمة كما بينت وظيفة النبى صلى الله عليه وسلم وأمرته بالمضى فى دعوته متوكلا على الله - تعالى - وحده الذى خلق فسوى . وقدر فهدى . . . - قال - تعالى - : ( وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ . . . ) .الضمير فى قوله

تعالى - : ( وَيَعْبُدُونَ . . . ) يعود على الكافرين ، الذين عموا وصموا عن الحق .أى : أن هؤلاء الكافرين يتركون عبادة الله - تعالى - الواحد القهار ، ويعبدون من دونه آلهة لا تنفعهم عبادتها إن عبدوها ، ولا تضرهم شيئا من الضرر إن تركوا عبادتها .وقوله - سبحانه - : (وَكَانَ الكافر على رَبِّهِ ظَهِيراً ) بيان لما وصل إليه هؤلاء الكافرون من حمق وجهالة وجحود فالمراد بالكافر : جنسه .والظهير : المعين . يقال : ظاهر فلان فلانا إذا أعانه وساعده . وظهير بمعنى مظاهر .أى : وكان هؤلاء الكافرون مظاهرين ومعاونين للشيطان وحزبه ، على الإشراك بالله - تعالى - الذى خلقهم ، وعلى عبادة غيره - سبحانه - .ويصح أن يكون الكلام على حذف مضاف . أى : وكان الكافر على حرب دين ربه ، ورسول ربه ، مظاهرا للشيطان على ذلك .وقال - سبحانه - ( على رَبِّهِ ظَهِيراً ) لتفظيع جريمة هذا الكافر وتبشيعها ، حيث صوره - سبحانه - بصورة من يعاون على محاربة خالقه ورازقه ومربيه وواهبه الحياة .

وما ارسلناك الا مبشرا ونذيرا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - الوظيفة التى من أجلها أرسل رسوله فقال : ( وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً ) أى : وما أرسلناك - أيها الرسول الكريم - إلى الناس جميعا ، إلا لتبشرهم بثواب الله - تعالى - ورضوانه إذا أخلصوا له العبادة والطاعة ، ولتنذرهم بعقابه - وغضبه ، إن هم استمروا على كفرهم وشركهم ، فبلغ رسالتنا - أيها الرسول ومن شاء بعد ذلك فليؤمن ومن شاء فليكفر .

قل ما اسالكم عليه من اجر الا من شاء ان يتخذ الى ربه سبيلا

كما فسرها الوسيط و ( قُلْ ) لهم على سبيل النصح والإرشاد ودفع التهمة عن نفسك ( مَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ) أى : ما أسألكم على هذا التبليغ والتبشير والإنذار من أجر ، إن أجرى إلا على الله - تعالى - وحده وقوله - سبحانه - : ( إِلاَّ مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إلى رَبِّهِ سَبِيلاً ) استثناء منقطع .أى :لا أسألكم على تبليغى لرسالة ربى أجرا منكم لكن من شاء منكم أن يتخذ إلى مرضاة ربه سبيلا ، عن طريق الصدقة والإحسان ، إلى الغير ، فأنا لا أمنعه من ذلك .قال الآلوسى ما ملخصه : قوله : ( إِلاَّ مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إلى رَبِّهِ ) أى : إلى رحمته ورضوانه ( سَبِيلاً أى طريقا . والاستثناء عند الجمهور منقطع ، أى : لكن من شاء أن يتخذ إلى ( ربه - سبحانه - سبيلا ، أى : بالإنفاق القائم مقام الأجر ، كالصدقة فى سبيل الله ، فليفعل .وذهب البعض إلى أنه متصل . وفى الكلام مضاف مقدر ، أى : إلا فعل من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا بالإيمان والطاعة حسبما أدعو إليهما ، أى ، فهذا أجرى .وفى ذلك قلع كلى لشائبة الطمع ، وإظهار لغاية الشفقة عليهم : حيث جعل ذلك - مع كون نفعه عائدا عليهم - عائدا إليه صلى الله عليه وسلم فى صورة الأجر .وعلى كلا الرأيين فالآية الكريمة تدل دلالة واضحة على أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يطلب أجرا من الناس على دعوته ، ولا يمنعهم من إنفاق جزء من أموالهم فى وجه الخير ، وأنه صلى الله عليه وسلم يعتبر إيمانهم بالحق الذى جاء به ، هو بمثابة الأجر له ، حيث إن الدال على الخير كفاعله .ولقد حكى القرآن الكريم فى كثير من آياته ، أن جميع الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ما سألوا الناس أجرا على دعوتهم إياهم إلى عبادة الله - تعالى - وطاعته . ومن هذه الآيات قوله - سبحانه - حكاية عن نوح وهود وصالح ولوط وشعيب - : ( وَمَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ على رَبِّ العالمين ).

وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرا

كما فسرها الوسيط ثم أمر - سبحانه - نبيه صلى الله عليه وسلم بالاجتهاد فى تبليغ رسالته وبالتوكل عليه وحده ، فقال - تعالى - : ( وَتَوَكَّلْ عَلَى الحي الذي لاَ يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ . . . ) .أى : سر فى طريقك - أيها الرسول الكريم - لتبليغ دعوتنا ، ولا تلتفت إلى دنيا الناس وأموالهم . وتوكل توكلا تاما على الله - تعالى - فهو الحى الباقى الذى لا يموت ، أما غيره فإنه ميت وزائل .( وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ) أى : ونزه ربك عن كل نقص ، وأكثر من التقرب إليه بصالح الأعمال . ( وكفى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ ) وأكثر من التقرب إليه بصالح الأعمال . ( خَبِيراً ) أى عليما بها ما ظهر منها وما بطن ، وما بدا منها وما استتر علما تاما ، لا يعزب عنه - سبحانه - مثقال ذرة منها .

الذي خلق السماوات والارض وما بينهما في ستة ايام ثم استوى على العرش الرحمن فاسال به خبيرا

كما فسرها الوسيط ( الذي خَلَقَ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا ) من هواء وأجرام لا يعلمها إلا هو - سبحانه - .( فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ) من أيامه التى لا يعلم مقدار زمانها إلا هو - عز وجل - ( ثُمَّ استوى عَلَى العرش ) استواء واستعلاء يليق بذاته ، بلا كيف أو تشبيه أو تمثيل ، كما قال الإمام مالك - رحمه الله - : الكيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة . ولفظ " ثم " فى قوله ( ثُمَّ استوى عَلَى العرش )لا يدل على الترتيب الزمنى وإنما يدل على بعد الرتبة ، رتبة الاستواء والاستعلاء والتملك .وقوله : ( الرحمن ) أى : هو الرحمن . أى : صاحب الرحمة العظيمة الدائمة بعباده . والفاء فى قوله - تعالى - : ( فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً ) هى الفصيحة . والجار والمجرور صلة " اسأل " وعدى الفعل " اسأل " بالباء لتضمنه معنى الاعتناء ، والضمير يعود إلى ما سبق ذكره من صفات الله - تعالى - ، ومن عظيم قدرته ورحمته .والمعنى : لقد بينا لك مظاهر قدرتنا ووحدانيتا ، فإن شئت الزيادة فى هذا الشأن أو غيره ، فسأل قاصدا بسؤالك ربك الخبير بأحوال كل شىء خبرة مطلقة ، يستوى معها ما ظهر من أمور الناس وما خفى منها .قال الإمام ابن جرير : وقوله - تعالى - : ( فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً ) يقول : فاسأل يا محمد بالرحمن خبيرا بخلقه ، فإنه خالق كل شىء ولا يخفى عليه ما خلق ، فعن ابن جريج : قوله : ( فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً ) . قال : يقول - سبحانه - لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : إذا أخبرتك شيئا فاعلم أنه كلما أخبرتك فأنا الخبير . والخبير فى قوله ( فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً ) منصوب على الحال من الهاء التى فى قوله ( بِهِ ) .

واذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن انسجد لما تامرنا وزادهم نفورا

كما فسرها الوسيط ثم أخبر - سبحانه - عن جهالات المشركين وسخافاتهم فقال : ( وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسجدوا للرحمن قَالُوا وَمَا الرحمن أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً ) .أى : وإذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنون معه لهؤلاء المشركين : اجعلوا سجودكم وخضوعكم للرحمن وحده ، ( قَالُوا ) على سبيل التجاهل وسوء الأدب والجحود : ( وَمَا الرحمن أَنَسْجُدُ لِمَا ) . ( أى : وما الرحمن الذى تأمروننا بالسجود له ( تَأْمُرُنَا ) أى : أنسجد لما تأمرنا بالسجود له من غير أن نعرفه ، ومن غير أن نؤمن به .( وَزَادَهُمْ نُفُوراً ) أى : وزادهم الأمر بالسجود نفورا عن الإيمان وعن السجود لله الواحد القهار .فالآية الكريمة تحكى ما جبل عليه أولئك المشركون من استهتار وتطاول وسوء أدب ، عندما يدعوهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى إخلاص العبادة لله - عز وجل ، وإلى السجود للرحمن الذى تعاظمت رحماته ، وتكاثرت آلاؤه .ولقد بلغ من تطاول بعضهم أنهم كانوا يقولون : ما نعرف الرحمن إلا ذاك الذى باليمامة ، يعنون به مسيلمة الكذاب .

تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا

كما فسرها الوسيط ثم رد - سبحانه - على تطاولهم وجهلهم بما يدل على عظيم قدرته - عز وجل - وعلى جلال شأنه - تعالى - فقال : ( تَبَارَكَ الذي جَعَلَ فِي السمآء بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُّنِيراً ) والبروج : جمع برج ، وهى فى اللغة : القصور العالية الشامخة ، ويدل لذلك قوله - تعالى - : ( أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الموت وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ) والمراد بها هنا : المناطق الخاصة بالكواكب السيارة ، ومداراتها الفلكية الهائلة ، وعددها اثنا عشر منزلا ، هى : الحمل ، والثور ، والجوزاء ، والسرطان ، والسنبلة ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجى ، والدلو ، والحوت .وسميت بالبروج . لأنها - بالنسبة لهذه الكواكب كالمنازل لساكنيها .والسراج : الشمس ، كما قال تعالى - : ( أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ الله سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً وَجَعَلَ القمر فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشمس سِرَاجاً ) أى : جل شأن الله - تعالى - وتكاثرت آلاؤه ونعمه ، فهو - سبحانه - الذى جعل فى السماء " بروجا " أى : منازل للكواكب السيارة و " جعل فيها " أى : فى السماء " سراجا " وهو الشمس " وجعل فيها " - أيضا - " قمرا منيرا " أى : قمرا يسطع نوره على الأرض المظلمة ، فيبعث فيها النور الهادى اللطيف .

وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن اراد ان يذكر او اراد شكورا

كما فسرها الوسيط ثم تنتقل السورة الكريمة إلى الحديث عن نعمة أخرى فتقول : ( وَهُوَ الذي جَعَلَ الليل والنهار خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً ) .والخلفة . كل شىء يجىء بعد شىء آخر غيره . ومنخ خلفة النبات . أى : الورق الذى يخرج منه بعد أن تساقط الورق

السابق عليه .أى : وهو - سبحانه - الذى جعل الليل والنهار متعاقبين . بحيث يخلف كل واحد منهما الآخر بنظام دقيق ، ليكونا مناسبين " لمن أراد أن يذكر أى : يتعظ ويعتبر ويتذكر أن الله - تعالى - لم يجعلهما على هذه الهيئة . " عبثا فيتدارك ما فاته من تقصير وتفريط فى حقوق الله - عز وجل - " أو أراد شكورا " .أى : وجعلهما كذلك لمن أراد أن يزداد من شكر الله على نعمه التى ، لا تحصى ، والتى من أعظمها وجود الليل ولانهار على هذه الهيئة الحكيمة التى تدل على وحدانية الله - تعالى - وعظيم قدرته ، وسعة رحمته .وبعد هذا الحديث المتنوع عن شبهات المشركين والرد عليها ، وعن مظاهر قدرة الله ونعمه . . . على عباده ، وعن الذين إذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن

وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما

كما فسرها الوسيط بعد كل ذلك جاء الحديث عن عباد الرحمن ، أصحاب المناقب الحميدة ، والصفات الكريمة ، والمزايا التى جعلتهم يتشرفون بالانتساب إلى ، خالقهم جاء قوله - تعالى - : ( وَعِبَادُ . . . ) .هؤلاء هم عباد الرحمن - وتلك هى صفاتهم التى ميزتهم عن سواهم .وقد افتتحت هذه الآيات بقوله تعالى - : ( وَعِبَادُ الرحمن الذين يَمْشُونَ على الأرض هَوْناً . . ) وهذه الجملة الكريمة مبتدأ . والخبر قوله - تعالى - : ( أولئك يُجْزَوْنَ. الغرفة بِمَا صَبَرُوا . . ) وما بينهما من الموصولات صفات لهم .وإضافتهم إلى الرحمن من باب التشريف والتكريم والتفضيل .و " هونا " مصدر بمعنى اللين والرفق . . . وهو صفة لموصوف محذوف .أى : وعباد الرحمن الذين رضى الله عنهم وأرضاهم ، من صفاتهم أنهم يمشون على الأرض مشيا لينا رقيقا ، لا تكلف فيه ولا خيلاء ولا تصنع فيه ولا ضعف ، وإنما مشيهم تكسوه القوة والجد ، والوقار - والسكينة .قال الإمام ابن كثير : أى : يمشون بسكينة ووقار . . . كما قال تعالى - : ( وَلاَ تَمْشِ فِي الأرض مَرَحاً إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأرض وَلَن تَبْلُغَ الجبال طُولاً ) وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى من التصانع تصنعا ورياء ، فقد كان سيد ولد آدم صلى الله عليه وسلم إذا مشى كأنما ، ينحط من صبب - أى : من موضع منحدر - وكأنما الأرض تطوى له ، وعندما رأى : عمر - رضى الله عنه - شابا يمشى رويدا قال له : ما بالك؟ أأنت مريض؟ قال لا فعلاه بالدرة ، وأمره أن يسير بقوة . . .هذا هو شأنهم فى مشيهم ، أما شأنهم مع غيرهم ، فقد وصفهم - سبحانه - بقوله : ( وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُواْ سَلاَماً )أى : إذا خاطبهم الجاهلون بسفاهة وسوء أدب لم يقابلوهم بالمثل ، بل يقابلوهم بالقول الطيب ، كما قال - تعالى - فى ، آية أخرى : ( وَإِذَا سَمِعُواْ اللغو أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَالُنَآ وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الجاهلين ).

والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما

كما فسرها الوسيط ثم وصف - سبحانه - حالهم مع خالقهم فقال : ( وَالَّذِينَ يِبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً ) والبيتوتة أن يدركك الليل سواء أكنت نائما أم غير نائم .أى : أن من صفاتهم أنهم يقضون جانبا من ليلهم تارة ساجدين على جباههم لله - تعالى - وتارة قائمين على أقدامهم بين ، يديه - سبحانه - .وخص وقت الليل بالذكر . لأن العبادة فيه أخشع ، وأبعد عن الرياء ، وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( تتجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ المضاجع يَدْعُونَ رَبّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً . . . ) وقوله - سبحانه - : ( أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَآءَ الليل سَاجِداً وَقَآئِماً يَحْذَرُ الآخرة وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِ . . ).

والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ان عذابها كان غراما

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - جانبا من دعائهم إياه . وخوفهم من عقابه ، فقال : ( والذين يَقُولُونَ رَبّنَا اصرف عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ) بأن تبعده عنا وتبعدنا عنه .( إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً ) أى : إن عذابها كان لازما دائما غير مفارق ، منه سمى الغريم غريما لملازمته لغريمه ، ويقال : فلان مغرم بكذا ، إذا كان ملازما لمحبته والتعلق به .

انها ساءت مستقرا ومقاما

كما فسرها الوسيط ( إِنّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً ) وساءت بمعنى بئست ، والمخصوص بالذم محذوف .أى : إن جهنم بئست مستقرا لمن استقر بها ، وبئست مقاما لمن أقام بها .فالجملة الكريمة تعليل آخر ، لدعائهم بأن يصرفها ربهم عنهم .

والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما

- كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - حالهم فى سلوكهم وفى معاشهم فقال تعالى - : ( والذين إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ
أى : أن من صفاتهم أنهم ملتزمون فى إنفاقهم التوسط ، فلا هم. ( . . . مسرفون ومتجاوزون للحدود التى شرعها الله - تعالى - ولا هم بخلاء فى نفقتهم إلى درجة التقتير والتضييق ، وإنما هم خيار عدول يعرفون أن خير الأمور أوسطها .واسم الإشارة فى قوله - تعالى - : ( وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ
قَوَاماً ) يعود إلى المذكور من الإسراف والتقتير . والقوام : الشىء بين الشيئين . وقوام الرجل : قامته وحسن طوله وهيئته ، وهو : خبر لكان ، واسمها مقدر فيها .أى : وكان إنفاقهم " قواما " أى وسطا بين الإسراف والتقتير : والتبذير والبخل ، فهم فى حياتهم نموذج يقتدى به فى القصد والاعتدال والتوازن . وذلك لأن الإسراف والتقتير كلاهما مفسد لحياة الأفراد والجماعات والأمم ، لأن الإسراف تضييع للمال فى غير محله . والتقتير إمساك له عن وجوهه المشروعة ، أما الوسط والاعتدال فى إنفاق المال ، فهو سمة من سمات العقلاء الذين على أكتفاهم تنهض الأمم ، وتسعد الأفراد والجماعات .

والذين لا يدعون مع الله الها اخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله الا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق اثاما

كما فسرها الوسيط وبعد أن بين - سبحانه - ما هم عليه من طاعات ، أتبع ذلك ببيان اجتنابهم للمعاصى والسيئات فقال : ( والذين لاَ يَدْعُونَ مَعَ الله
إلها آخَرَ ) أى :لا يشركون مع الله - تعالى - إلها آخر لا فى عبادتهم ولا فى عقائدهم . وإنما يخلصون وجوههم لله - تعالى - وحده .( وَلاَ يَقْتُلُونَ
النفس التي حَرَّمَ الله إِلاَّ بالحق ) أى : ولا يقتلون النفس التى حرم الله - تعالى - قتلها لأى سبب من الأسباب ، إلا بسبب الحق المزيل والمهدر لعصمتها وحرمتها ، ككفر بعد إيمان ، وزنا بعد إحصان ، أو قتل نفس بغير ذنب يوجب قتلها .( وَلاَ يَزْنُونَ ) أى : ولا يرتكبون فاحشة الزنا ، بأن يستحلوا فرجا حرمه الله - تعالى - عليهم .روى الشيخان وغيرهما عن عبد الله بن مسعود قال : " سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى الذنب أكبر؟ قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك ، قلت : ثم أى : قال : " أن تقتل ولدك خشية أن : - يطعم معك ، قلت : ثم أى؟ قال: أن تزانى حليلة جارك . . . " " .وقوله تعالى - : ( وَمَن يَفْعَلْ ذلك يَلْقَ أَثَاماً . . . ) بيان لسوء عاقبة من يرتكب شيئا من تلك الفواحش السابقة .أى : ومن يفعل ذلك الذى نهينا عنه من الإشراك والقتل والزنا ، يلق عقابا شديدا لا يقادر قدره .

يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا

" كما فسرها الوسيط وقوله ( يُضَاعَفْ لَهُ العذاب يَوْمَ القيامة ) بدل من ) يلق " بدل كل من كل .أى: يضاعف العذاب يوم القيام لمن يرتكب شيئا من ذلك
وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً ) أى : ويخلد فى ذلك العذاب خلودا مصحوبا بالذلة والهوان والاحتقار .

الا من تاب وامن وعمل عملا صالحا فاولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما

كما فسرها الوسيط ثم استثنى - سبحانه - التائبين من هذا العذاب المهين فقال
إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فأولئك يُبَدِّلُ ) :
الله سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ . . . ) .أى : يضاعف العذاب لمن يرتكب شيئا من تلك الكبائر . ويخلد فيه مهانا ، إلا من تاب عنها توبة صادقة نصوحا ، وآمن بالله - تعالى - إيمانا حقا ، وداوم على إتيان الأعمال الصالحة ، فأولئك التائبون المؤمنون المواظبون على العمل الصالح " يبدل الله - تعالى - سيئاتهم حسنات " بأن يمحو - سبحانه - سوابق معاصيهم - بفضله وكرمه - ويثبت بدلها لواحق طاعاتهم ، أو بأن يحبب إليهم الإيمان ، ويكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان ، ويجعلهم من الراشدين .قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : وقوله : ( فأولئك يُبَدِّلُ الله سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ
وَكَانَ الله غَفُوراً رَّحِيماً ) فى معناه قولان :أحدهما : أنهم بدلوا مكان عمل السيئات بعمل الصالحات . قال ابن عباس : هم المؤمنون . كانوا من قبل إيمانهم على السيئات ، فرغب الله بهم عن ذلك فحولهم إلى الحسنات فأبدلهم مكان السيئات الحسنات . .والثانى : أن تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح حسنات ، وما ذاك إلا أنه كلما تذكر ما مضى ندم واسترجع واستغفر فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار . .روى الطبرانى عن أبى فروة أنه أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : " أرأيت رجلا عمل الذنوب كلها ، ولم

" : يترك حاجة ولا داجة فهل له من توبة؟ فقال له صلى الله عليه وسلم أأسلمت؟ " قال : نعم .قال : فافعل الخيرات ، واترك السيئات . فيجعلها الله لك خيرات كلها .قال : " وغدراتى وفجراتى؟ قال : نعم . " فما زال يكبر حتى توارى " .وقوله - تعالى - : ( وَكَانَ الله غَفُوراً رَّحِيماً ) اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ما قبله . أى : وكان الله - تعالى - واسع المغفرة والرحمة لمن تاب إليه وأناب .

ومن تاب وعمل صالحا فانه يتوب الى الله متابا

) : كما فسرها الوسيط ثم أشار - سبحانه - إلى شروط التوبة الصادقة فقال وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى الله مَتَاباً ) .أى ومن تاب عن المعاصى تركا تاما ، وداوم على العمل الصالح ليستدرك ما فاته : منه ، فإنه فى هذه الحالة يكون قد تاب ورجع إلى الله - تعالى - رجوعا صحيحا مقبولا منه - سبحانه - بحيث يترتب عليه محو العقاب وإثبات الثواب .وهكذا ، نجد رحمة الله - تعالى - تحيط بالعبد من كل جوانبه ، لكى تحمله على ولوج باب التوبة والطاعة ، وتوصد فى وجهه باب الفسوق والعصيان .

والذين لا يشهدون الزور واذا مروا باللغو مروا كراما

- كما فسرها الوسيط ثم واصلت السورة حديثها عن عباد الرحمن ، فقال - تعالى والذين لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِاللَّغْوِ مَرُّوا ) : كِراماً ) .وأصل الزور : تحسين الشىء ووصفه بغير صفته ، ووضعه فى غير موضعه مأخوذ من الزَّور بمعنى الميل والانحراف عن الطريق المستقيم إلى غيره ، واللغو : هو مالا خير فيه من الأقوال أو الأفعال .أى : إن من صفات عباد. الرحمن أنهم لا يرتكبون شهادة الزور ، ولا يحضرون المجالس التى توجد فيها هذه الشهادة ، لأنها من أمهات الكبائر التى حاربها الإسلام .وفضلا عن ذلك فإنهم " إذا مروا باللغو " أى : بالمجالس التى فيها لغو من القول أو الفعل مروا كراما " أى : أعرضوا عنها إكراما لأنفسهم ، وصونا لكرامتهم ، وحفاظا " . . . على دينهم ومروءتهم .والتعبير بقوله - تعالى - : ( وَإِذَا مَرُّواْ ، فيه إشعار بأن مرورهم على تلك المجالس كان من باب المصادفة والاتفاق ( ) : - لأنهم أكبر من أن يقصدوا حضورها قصدا .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى وَإِذَا سَمِعُواْ اللغو أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الجاهلين ).

والذين اذا ذكروا بايات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - سرعة تأثرهم وتذكرهم ، وقوة عاطفتهم نحو دينهم فقال : ( وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً ) .والمراد بآيات ربهم ، القرآن الكريم وما اشتمل عليه من عظات وهدايات . . .أى : أن من صفات هؤلاء المتقين أنهم ، إذا ذكرهم مذكر بآيات الله - تعالى - المشتملة على المواعظ والثواب والعقاب ، أكبوا عليها ، وأقبلوا على المذكِّر بها بآذان واعية ، وبعيون مبصرة ، وليس كأولئك الكفار أو المنافقين الذين ينكبون على عقائدهم الباطلة انكباب الصم العمى الذين لا يعقلون ، وينكرون ما جاءهم به رسول ربهم بدون فهم أو وعى أو تدبر .فالآية الكريمة مدح للمؤمنين على حسن تذكرهم وتأثرهم ووعيهم ، وتعريض بالكافرين والمنافقين الذين يسقطون على باطلهم سقوط الأنعام على ما يقدم لها من طعام وغيره .قال صاحب الكشاف : قوله : ( لَمْ يَخِرُّواْ . . ) ليس بنفى للخرور ، وإنما هو إثبات له ، ونفى للصمم والعمى : كما تقول : لا يلقانى زيد مُسَلِّما هو نفى للسلام لا للقاء .والمعنى ، أنهم إذا ذكروا بها أكبوا عليها حرصا على استماعها ، وأقبلوا على المذكر ، بها ، وهم فى إكبابهم عليها ، سامعون بآذان واعية . مبصرون بعيون واعية لا كالذين يذكرون بها فتراهم مكبين عليها . . . وهم كالصم العميان حيث لا يعونها كالمنافقين وأشباههم .

والذين يقولون ربنا هب لنا من ازواجنا وذرياتنا قرة اعين واجعلنا للمتقين اماما

كما فسرها الوسيط ثم ذكر - سبحانه - فى نهاية الحديث عنهم أنهم لا يكتفون - بهذه المناقب الحميدة التى وهبهم الله إياها ، وإنما هم يتضرعون إليه . سبحانه - أن يجعل منهم الذرية الصالحة ، وأن يرزقهم الزوجات الصالحات فقال - تعالى - : ( والذين يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ واجعلنا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً ) .أى : يقولون فى دعائهم وتضرعهم يا ( رَبَّنَا هَبْ لَنَا ) : بفضلك وجودك ( مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ) أى

ما يجعل عيوننا تسر بهم ، ونفوسنا تنشرح برؤيتهم ، وقلوبنا تسكن وتطمئن
) وجودهم ، لأنهم أتقياء صالحون مهتدون .( واجعلنا ) يا ربنا
لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً ) أى : اجعلنا قدوة وأسوة للمتقين .يقتدون بنا فى
أقوالنا الطيبة ، وأعمالنا الصالحة ، فأنت تعلم - يا مولانا - أننا نعمل
على قدر ما نستطيع فى سبيل إرضائك وفى السير على هدى رسولك صلى الله عليه
وسلم . هذه هى صفات عباد الرحمن ذكرها القرآن فى هذه الآيات الكريمة ، وهى
تدل على قوة إيمانهم ، وصفاء نفوسهم ، وطهارة قلوبهم . . . فماذا أعد
الله - تعالى - لهم؟

اولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما

كما فسرها الوسيط لقد بين - سبحانه - ما أعده فهم فقال : ( أولئك
يُجْزَوْنَ الغرفة بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً
وَسَلاَماً خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً ) .والغرفة
) : - فى الأصل : كل بناء مرتفع ، والجمع غرف وغرفات كما فى قوله - تعالى
لكن الذين اتقوا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ
مّبْنِيّةٌ ) وقوله - سبحانه - : ( وَهُمْ فِي الغرفات آمِنُونَ )
والمراد بها هنا : أعلى منازل الجنة أو الجنة نفسها أو جنسها الصادق بغرف
- كثيرة .أى : أولئك المتقون المتصفون . بالصفات السابقة ، يجازيهم الله
تعالى - بأعلى المنازل والدرجات فى الجنة ، بسبب صبرهم على طاعته ، وبعدهم
عن معصيته ويلقون فى تلك المنازل الرفيعة ( تَحِيّةً وَسَلاَماً ) عن
. ربهم - عز وجل - ومن ملائكته الكرام ، ومن بعضهم لبعض

خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما

، كما فسرها الوسيط ( خَالِدِينَ فِيهَا ) أى : فى تلك المنازل الرفيعة
) والجنات العالية ، خلودا أبديا .( حَسُنَتْ ) تلك الغرفة والمنزلة
مُسْتَقَرّاً ) يستقرون فيها ( وَمُقَاماً ) يقيمون فيه وذلك فى مقابل ما
. أعد للكافرين من نار ساءت مستقرا ومقاما

قل ما يعبا بكم ربي لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاما

. . كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بقوله : ( قُلْ مَا
قال القرطبى : يقال : ما عبأت بفلان ، أى : ما باليت به . أى : ما كان. ( .
: له عندى وزن ولا قدر . وأصل يعبأ : من العبء وهو الثقل . . . فالعبء
الحمل الثقيل ، والجمع أعباء . و " ما " استفهامية ، وليس يبعد أن تكون
نافية ، لأنك إذا حكمت بأنها استفهام فهو نفى خرج مخرج الاستفهام ، وحقيقة
القول عندى أن موضع " ما " نصب والتقدير أى عبء يعبأ بكم ربى؟ أى : أى
مبالاة يبالى بكم ربى لولا دعاؤكم . .هذا ، وللعلماء فى تفسير هذه الآية
أقوال منها : أن قوله - تعالى - : ( قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي
. لَوْلاَ دُعَآؤُكُمْ ) خطاب للمؤمنين أو للناس جميعا ، وأن المصدر هو
. . دعاؤكم مضاف لفاعله ، وأن بقية الآية وهى قوله : ( فَقَدْ كَذَّبْتُمْ
- خطاب للكافرين ، والمعنى على هذا القول :قل - أيها الرسول الكريم ( .
للمؤمنين أو للناس جميعا ، أى اعتداد لكم عند ربكم لولا دعاؤكم ، أى : لولا
عبادتكم له - عز وجل - أى : لولا إخلاصكم العبادة له لما اعتد بكم .ثم أفرد
الكافرين بالخطاب فقال : ( فَقَدْ كَذّبْتُمْ ) أيها الكافرون ( فَسَوْفَ
يَكُونُ لِزَاماً ) .أى : فسوف يكون جزاء التكذيب " لزاما " أى : عذابا
دائما ملازما لكم . فلزاما مصدر لام ، كقاتل قتالا ، والمراد به هنا اسم
- الفاعل .وقد وضح صاحب الكشاف هذا القول فقال : لما وصف الله - تعالى
عبادة العباد ، وعدد صالحاتهم وحسناتهم . . . أتبع ذلك ببيان أنه إنما
اكترث لأولئك وعبأ بهم وأعلى ذكرهم ، لأجل عبادتهم فأمر رسوله صلى الله
، عليه وسلم أن يصرح للناس ، ويجزم لهم القول ، بأن الاكتراث لهم عند ربهم
إنما هو للعبادة وحدها لا لمعنى آخر . . .وقوله ( فَقَدْ كَذّبْتُمْ )
يقول : إذا أعلمتكم أن حكمى ، أنى لا أعتد بعبادى إلا من أجل عبادتهم ، فقد
. خالفتم بتكذيبكم حكمى ، فسوف يلزمكم أثر تكذيبكم حتى يكبكم فى النار
ونظيره فى الكلام أن يقول الملك لمن عصاه : " إن من عادتى أن أحسن إلى من
" . . يطيعنى ، ويتبع أمرى ، فقد عصيتَ فسوف ترى ما أحل بك بسبب عصيانك
ومن العلماء من يرى أن الخطاب فى الآية للكافرين ، وأن المصدر مضاف.
لمفعوله ، فيكون المعنى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الكافرين ، ما
يعبأ بكم ربى ، ولا يكترث لوجودكم ، لولا دعاؤه إياكم على لسانى ، إلى
توحيده وإخلاص العبادة له ، وبما أنى قد دعوتكم فكذبتم دعوتى . فسوف يكون
عاقبة ذلك ملازمة العذاب لكم .وهذا قول جيد ولا إشكال فيه وقد تركنا بعض
" الأقوال لضعفها ، وغناء هذين القولين عنها .وبعد : فهذا تفسير لسورة
الفرقان " تلك السورة التى حكت شبهات المشركين وأبطلتها . وساقت من تسلية

الرسول صلى الله عليه وسلم وتثبيته ، وبشرت عباد الرحمن بأرفع المنازل
ونسأل الله - تعالى - أن يجعلنا جميعا منهم ، وأن يحشرنا فى زمرتهم .وصلى.
. الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

طسم

كما فسرها الوسيط سورة الشعراء من السور التى افتتحت بحرف من الحروف
المقطعة وهو قوله - تعالى - : ( طساما ) .وقد ذكرنا آراء العلماء في الحروف
، المقطعة بشىء من التفصيل عند تفسيرنا لسور : " البقرة ، آل عمران
والأعراف ، ويونس . . " إلخ .وقلنا ما خلاصته : لعل أقرب الأقوال إلى
الصواب ، أن هذه الحروف المقطعة ، قد وردت فى افتتاح بعض السور ، على سبيل
الإيقاظ والتنبيه ، للذين تحداهم القرآن .فكأن الله - تعالى - يقول لهؤلاء
المعاندين والمعارضين فى أن القرآن من عند الله : هاكم القرآن ترونه مؤلفا
من كلان هو من جنس ما تؤلفون منه كلامكم ، ومنظوما من حروف هى من جنس
الحروف الهجائية التى تنظمون منها حروفكم ، فإن كنتم فى شك فى أنه من عند
الله - تعالى - فهاتوا مثله ، أو عشر سور من مثله ، أو سورة واحدة من مثله
. - فعجزوا وانقلبوا خاسرين ، وثبت أن هذا القرآن من عند الله - تعالى ،

تلك ايات الكتاب المبين

كما فسرها الوسيط واسم الإشارة ( تِلْكَ ) يعود إلى الآيات القرآنية التى
تضمنتها هذه السورة الكريمة أو إلى جميع آيات القرآن التى نزلت قبل ذلك
والمراد بالكتاب القرآن الكريم الذى تكفل - سبحانه - بإنزاله على نبيه صلى.
الله عليه وسلم .والمبين : اسم فاعل من أبان الذى هو بمعنى بان ، مبالغة فى
: الوضوح والظهور .قال صاحب الصحاح : " يقال : بأن الشىء يبين بيانا ، أى
اتضح ، فهو بين ، وكذا أبان الشىء فهو مبين " .أى : تلك الآيات القرآنية
التى أنزلناها عليك - أيها الرسول الكريم - والتى سننزلها عليك تباعا حسب
حكمتنا وإرادتنا ، هى آيات الكتاب الواضح إعجازه ، والظاهرة هداياته
- ودلالاته على أنه من عند الله - تعالى - ، ولو كان من عند غيره - سبحانه
. لوجدوا فيه اخلافا كثيرا

لعلك باخع نفسك الا يكونوا مؤمنين

كما فسرها الوسيط ثم خاطب - سبحانه - رسوله صلى الله عليه وسلم بما يسليه
عن تكذيب المشركين له ، وبما يهون عليه أمرهم فقال - تعالى - ( لَعَلَّكَ
بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ) .قال بعض العلماء ما
ملخصه : اعلم أن لفظة ( لعل ) هنا للاشفاق عليه صلى الله عليه وسلم أن يبخع
نفسه لعدم إيمانهم .وقال بعضهم : إن ( لعل ) هنا للنهى ، أى :لا تبخع نفسك
- لعدم إيمانهم وهو الأظهر ، لكثرة ودود النهى صريحا عن ذلك . قال - تعالى
والمعنى : لعلك - أيها ( فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ) :
الرسول الكريم - قاتل نفسك هما وغما . بسبب تكذيب الكافرين لك ، وعدم
. . . إيمانهم بدعوتك وإعراضهم عن رسالتك التى أرسلناك بها إليهم

ان نشا ننزل عليهم من السماء اية فظلت اعناقهم لها خاضعين

كما فسرها الوسيط لا - أيها الرسول الكريم -لا تفعل ذلك ، فإنما عليك
البلاغ وعلينا الحساب ، وإنك لا تستطيع هداية أحد ولكن الله - تعالى - يهدى
من يشاء ، وإننا ( إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِّنَ السمآء آيَةً
، فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ) .ومفعول المشيئة محذوف
والمراد بالآية هنا المعجزة القاهرة التى تجعلهم لا يملكون انصرافا معها عن
: الإيمان ، والأعناق جمع عنق . وقد تطلق على وجوه الناس وزعمائهم تقول
جاءنى عنق من الناس : أى جماعة منهم أو من رؤسائهم والمقدمين فيهم .والمعنى
لا تحزن يا محمد لعدم إيمان كفار مكة بك ، فإننا إن نشأ إيمانهم ، ننزل :
عليهم آية ملجئة لهم إلى الإيمان ، تجعلهم ينقادون له ، ويدخلون فيه دخولا
ملزما لهم ، ولكنا لا نفعل ذلك ، لأن حكمتنا قد اقتضت أن يكون دخول الناس
فى الإيمان عن طريق الاختيار والرغبة ، وليس عن طريق الإلجاء والقسر
وصور - سبحانه - هذه الآية بتلك الصورة الحسية ( فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ.
لَهَا خَاضِعِينَ ) ، للإشعار بأن هذه بالآية لو أراد - سبحانه - إنزالها
لجعلتهم يخضعون خضوعا تاما لها ، حتى لكأن أعناقهم على هيئة من الخضوع
: والذلة لا تملك معها الارتفاع أو الحركة .قال صاحب الكشاف : " فإن قلت
كيف صح مجىء خاضعين خبرا عن الأعناق؟ قلت : أصل الكلام : فظلوا لها خاضعين
فأقحمت الأعناق لبيان موضع الخضوع ، وترك الكلام على أصله . كقوله : ذهبت .
أهل اليمامة ، كأن الأهل غير مذكور . أو لما وصفت بالخضوع الذى هو للعقلاء
قيل : خاضعين . . . . وقيل أعناق الناس : رؤساؤهم ومقدموهم شبهوا ،

بالأعناق كما قيل لهم : هم الرءوس والنواصى والصدور . . . وقيل : جماعات الناس . . " .

وما ياتيهم من ذكر من الرحمن محدث الا كانوا عنه معرضين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما عليه هؤلاء الكافرون من صلف وجحود فقال : ( وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرحمن مُحْدَثٍ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ) .أى : ولقد بلغ الجحود والجهل بهؤلاء الكافرين ، أنهم كلما جاءهم قرآن محدث تنزيله على نبيهم صلى الله عليه وسلم ومتجدد نزوله عليه صلى الله عليه وسلم أعرضوا عنه إعراضا تاما .وعبر عن إعراضهم بصيغة النفى والاستثناء التى هى أقوى أدوات القصر ، للإشارة إلى عتوهم فى الكفر والضلال ، وإصرارهم على العناد والتكذيب .وفى ذكر اسم الرحمن هنا : إشارة إلى عظيم رحمته - سبحانه - بإنزال هذا الذكر ، وتسجيل لأقصى دركات الجهالة عليهم ، لأنهم أعرضوا عن الهداية التى أنزلها الرحمن الرحيم لسعادتهم ، وحرموا أنفسهم مها وهم أحوج الناس إليها .و ( مِّنَ ) الأولى لتأكيد عموم إعراضهم ، والثانية لابتداء الغاية ، وجملة ( إِلاَّ كَانُواْ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ) حالية .

فقد كذبوا فسياتيهم انباء ما كانوا به يستهزئون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - سوء عاقبتهم فقال : ( فَقَدْ كَذَّبُواْ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ) أى : فقد كذبوا هؤلاء الجاحدون بالذكر الذى أتيتهم به - أيها الرسول الكريم - دون أن يكتفوا بالإعراض عنه ، فاصبر فسيأتهم أنباء العذاب الذى كانوا يستهزئون به عندما تحدثهم عنه ، وهو واقع بهم لا محالة ولكن فى الوقت الذى يشاؤه - سبحانه - .وفى التعبير عن وقوع العذاب بهم ، بإتيان أنبائه وأخباره ، تهويل من شأن هذا العذاب ، وتحقيق لنزوله ، أى : فسيأتيهم لا محالة مصداق ما كانوا به يستهزئون ويصيرون هم أحاديث الناس يتحدثون بها ويتناقلون أنباءها .

اولم يروا الى الارض كم انبتنا فيها من كل زوج كريم

كما فسرها الوسيط ثم وبخهم - سبحانه - على غفلتهم وعلى عدم التفاتهم إلى ما في هذا الكون من عظات وعبر . فقال - تعالى - : ( أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى الأرض كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ) .والاستفهام للإنكار والتوبيخ ، والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام .أى : أعمى هؤلاء الجاحدون عن مظاهر قدرة الله - تعالى - ورحمته بهم ، ولم يروا بأعينهم كيف أخرجنا النبات من الأرض ، وجعلنا فيها أصنافا وأنواعا لا تحصى من النباتات الكريمة الجميلة المشتملة على الذكر والأنثى .فالآية الكريمة توبيخ لهم على إعراضهم عن الآيات التكوينية ، بعد توبيخهم على إعراضهم عن الآيات التنزيلية ، وتحريض لهم على التأمل فيما فوق الأرض من نبات مختلف الأنواع والأشكال والثمار . لعل هذا التأمل ينبه حسهم الخامد وذهنهم البليد وقلبهم المطموس .قال صاحب الكشاف : " وصف الزوج - وهو الصنف من النبات - بالكرم ، والكريم : صفة لكل ما يرضى ويحمد فى بابه . يقال : وجه كريم إذا رضى فى حسنه وجماله ، وكتاب كريم . أى : مرضى فى معانيه وفوائده . . . والنبات الكريم : المرضى فيما يتعلق به من المنافع .فإن قلت : ما معنى الجمع بين كم وكل؟ قلت : قد دل ( كُلِّ ) على الإحاطة بأزواج النبات على سبيل التفصيل . و ( كَمْ ) على أن هذا المحيط متكاثر مفرط الكثرة ، فهذا معنى الجمع بينهما . . . وبه نبه على كمال قدرته ، . " .

ان في ذلك لاية وما كان اكثرهم مؤمنين

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات بآيتين تكررتا فى السورة الكريمة ثمانى مرات . ألا وهما قوله - تعالى - ( إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العزيز الرحيم ) .أى : إن فى ذلك الذى ذكرناه عن إنباتنا لكل زوج كريم فى الأرض ( لآيَةً ) عظيمة الدلالة على كماق قدرتنا ، وسعة رحمتنا ، وما كان أكثر هؤلاء الكافرين مؤمنين ، لإيثارهم العمى على الهدى ، والغى على الرشد .

وان ربك لهو العزيز الرحيم

كما فسرها الوسيط ( وَإِنَّ رَبَّكَ ) - أيها الرسول الكريم - ( العزيز ) ، أى : صاحب العزة والغلبة والقهر ( الرحيم ) أى : الواسع الرحمة بعباده حيث لم يعاجلهم بالعقوبة مع كفرهم لعلهم يتوبون أو يعقلون .

واذ نادى ربك موسى ان ائت القوم الظالمين

- كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - جانبا من قصة موسى - عليه السلام - بأسلوب يتناسب مع ما اشتملت عليه السورة الكريمة من إنذار وتخويف ، وبطريقة أحاطت بجوانب هذه القصة منذ أن ذهب موسى - عليه السلام - لفرعون وقومه إلى أن انتهت بهلاكهم وإغراقهم .لقد بدأ - سبحانه - هذه القصة بقوله - تعالى - : ( وَإِذْ نادى . . . ) موسى - عليه السلام - هو ابن عمران ، وينتهى نسبه إلى يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - عليهم السلام - ويرجح المؤرخون أن ولادته كانت فى القرن الثالث عشر قبل ميلاد عيسى - عليه السلام - وأن بعثته كانت فى عهد منفتاح بن رمسيس الثانى .وقد وردت قصة موسى مع فرعون وقومه ، ومع إسرائيل فى كثير من سور القرآن الكريم تارة بصورة فيها شىء من التفصيل ، وتارة بصورة فيها شىء من الاختصار والتركيز ، تبعا لمقتضى الحال الذى وردت من أجله .وقد وردت هنا وفى سورة الأعراف وفى سورة طه . وفى سورة القصص بأسلوب فيه بسطة وتفصيل .لقد افتتحت هنا بقوله - تعالى - : ( وَإِذْ نادى رَبُّكَ موسى أَنِ ائت القوم الظالمين ) .وهذا النداء كان بالوادى المقدس طوى ، كما جاء فى سورة طه وفى سورة النازعات .أى : واذكر - أيها الرسول الكريم - وقت أن نادى ربك نبيه موسى قائلا له : اذهب إلى القوم الظالمين لتبلغهم رسالتى ، وتأمرهم بإخلاص العبادة لى .

قوم فرعون الا يتقون

، كما فسرها الوسيط وقوله : ( قَوْمَ فِرْعَوْنَ ) بدل أو عطف بيان ووصفهم - سبحانه - بالظلم لعبادتهم لغيره ، ولعدوانهم على بنى إسرائيل بقتل الذكور ، واستبقاء النساء .وقوله : - تعالى - ( أَلا يَتَّقُونَ ) تعجيب من حالهم . أى : ائتهم يا موسى وقل لهم : ألا يتقون الله - تعالى - ويخشون عقابه . ويكفون عن كفرهم وظلمهم .

قال رب اني اخاف ان يكذبون

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - رد موسى فقال : ( قَالَ رَبِّ إني أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ) .أى : قال موسى فى الإجابة على ربه - عز وجل - يا رب إنى أعرف هؤلاء القوم ، وأعرف ما هم عليه من ظلم وطغيان ، وإنى أخاف تكذيبهم لى عندما أذهب إليهم لتبليغ وحيك .

ويضيق صدري ولا ينطلق لساني فارسل الى هارون

كما فسرها الوسيط ( وَيَضِيقُ صَدْرِي ) أى : وليس عندى فصاحة اللسان التى تجعلنى أظهر ما فى نفسى من تفنيد لأباطيلهم ، ومن إزهاق لشبهاتهم ، خصوصا عند اشتداد غضبى عليهم .( فَأَرْسِلْ إلى هَارُونَ ) أى : فأرسل وحيك الأمين إلى أخى هارون ، ليكون معينا لى على تبليغ ما تكلفنى بتبليغه .

ولهم علي ذنب فاخاف ان يقتلون

كما فسرها الوسيط ( وَلَهُمْ عَلَيّ ذَنبٌ ) حيث إنى قتلت منهم نفسا ) فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ) عندما أذهب إليهم ، على سبيل القصاص منى .فأنت ترى أن موسى - عليه السلام - قد شكا إلى ربه خوفه من تكذيبهم وضيق صدره من طغيانهم ، وعقدة فى لسانه ، وخشيته من قتلهم له عندما يرونه .وليس هذا من باب الامتناع عن أداء الرسالة ، أو الاعتذار عن تبليغها . وإنما هو من باب طلب العون من الله - تعالى - والاستعانة به - عز وجل - على تحمل هذا الأمر ، والتماس الإذن منه - فى إرسال هارون معه . ليكون عونا له فى مهمته وليخلفه فى تبليغ الرسالة فى حال قتلهم له ..وشبيه بهذا الجواب ما حكاه عنه - سبحانه - فى سورة طه فى قوله - تعالى - : ( اذهب إلى فِرْعَوْنَ إِنّهُ طغى قَالَ رَبِّ اشرح لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي واحلل عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي يَفْقَهُواْ قَوْلِي واجعل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشدد بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً ).

قال كلا فاذهبا باياتنا انا معكم مستمعون

كما فسرها الوسيط وقد رد الله - تعالى - على نبيه موسى - عليه السلام - ردا حاسما لإزالة الخوف ، ومزهقا لكل ما يحتمل أى يساور نفسه من عدوان عليه ، فقال - تعالى - : ( قَالَ كَلاّ فاذهبا بِآيَاتِنَآ إِنّا مَعَكُمْ

مُّسْتَمِعُونَ ) .أى : قال الله - تعالى - لموسى على سبيل الإرشاد والتعليم : كلا ، لا تخف أن يكذبوك أو أن يضيق صدرك ، أو أن لا ينطلق لسانك أو أن يقتلوك ، كلا لا تخف من شىء من ذلك ، فأنا معكما برعايتى ومادام ، الأمر كذلك فاذهب أنت وأخوك بآياتنا الدالة على وحدانيتنا فإننا معكم سامعون لما تقولانه لهم ولما سيقولونه لكما .وعبر - سبحانه - بكلا المفيدة للزجر ، لزيادة إدخال الطمأنينة على قلب موسى - عليه السلام - .والمراد . . بالآيات هنا : المعجزات التى أعطاها - سبحانه - لموسى وعلى رأسها العصا وقال - سبحانه - ( إِنَّا مَعَكُمْ ) مع أنهما اثنان ، تعظيما لشأنهما أو. ) لكون الاثنين أقل الجمع . أو المراد هما ومن أرسلا إليه .والتعبير بقوله إِنَّا مَعَكُمْ مُّسْتَمِعُونَ ) بصيغة التأكيد والمعية والاستماع ، فيه . ما فيه من العناية بشأنهما ، والرعاية لهما ، والتأييد لأمرهما

فاتيا فرعون فقولا انا رسول رب العالمين

كما فسرها الوسيط والفاء فى قوله : ( فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فقولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ العالمين أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بني إِسْرَائِيلَ ) لترتيب ما بعدها على ما قبلها من الوعد برعايتهما .و " أن " فى قوله ( أَنْ : أَرْسِلْ ) مفسرة . لتضمن الإرسال المفهوم من الرسول معنى القول .أى اذهبا وأنتما متسلحان بآياتنا الدالة على صدقكما ، فنحن معكم برعايتنا وقدرتنا . فأتيا فرعون بدون خوف أو وجل منه ( فقولا ) له بكل شجاعة وجراءة أى : رب جميع العوالم التى من بينها ( إِنَّا رَسُولُ رَبِّ العالمين ) عالم الجن . وعالم الملائكة .وقد أرسلنا - سبحانه - إليك ، لكى تطلق سراح بنى إسرائيل من ظلمك وبغيك ، وتتركهم يذهبون معنا إلى أرض الله الواسعة لكى ) يعبدوا الله - تعالى - وحده .قال الآلوسى : " وإفراد الرسول فى قوله إِنَّا رَسُولُ رَبِّ العالمين ) لأنه مصدر بحسب الأصل ، وصف به كما يوصف بغيره من المصادر للمبالغة ، كرجل عدل . . . أو لوحدة المرسل أو المرسل به - أى : لأنهما ذهبا برسالة واحدة وفى مهمى واحدة " .وإلى هنا تكون الآيات الكريمة قد قصت علينا ، ما أمر الله - تعالى - به نبيه موسى - عليه - السلام - وما زوده به - سبحانه - من إرشاد وتعليم ، بعد أن التمس منه سبحانه - العون والتأييد .

ان ارسل معنا بني اسرائيل

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html}

والفاء فى قوله : ( فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فقولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ العالمين أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بني إِسْرَائِيلَ ) لترتيب ما بعدها على ما قبلها من الوعد برعايتهما .و " أن " فى قوله ( أَنْ أَرْسِلْ ) مفسرة . لتضمن الإرسال المفهوم من الرسول معنى القول .أى : اذهبا وأنتما متسلحان بآياتنا الدالة على صدقكما ، فنحن معكم برعايتنا وقدرتنا . فأتيا فرعون بدون خوف أو وجل منه ( فقولا ) له بكل شجاعة وجراءة ( إِنَّا رَسُولُ رَبِّ العالمين ) أى : رب جميع العوالم التى من بينها عالم الجن . وعالم الملائكة ، وقد أرسلنا - سبحانه - إليك ، لكى تطلق سراح بنى إسرائيل من ظلمك وبغيك. وتتركهم يذهبون معنا إلى أرض الله الواسعة لكى يعبدوا الله - تعالى - وحده قال الآلوسى : " وإفراد الرسولى فى قوله ( إِنَّا رَسُولُ رَبِّ العالمين. ، لأنه مصدر بحسب الأصل ، وصف به كما يوصف بغيره من المصادر للمبالغة ( كرجل عدل . . . أو لوحدة المرسل أو المرسل به - أى : لأنهما ذهبا برسالة واحدة وفى مهمى واحدة " .وإلى هنا تكون الآيات الكريمة قد قصت علينا ، ما أمر الله - تعالى - به نبيه موسى - عليه السلام - وما زوده به - سبحانه - من إرشاد وتعليم ، بعد أن التمس منه سبحانه - العون والتأييد .

قال الم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما دار بين موسى وفرعون من محاورات فقال - تعالى - : ( قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ . . . ) .أى : قال فرعون لموسى بعد أن عرفه ، وبعد أن طلب منه موسى أن يرسل معه بنو إسرائيل . قال له يا موسى ( أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً ) أى : ألم يسبق لك أنك عشت فى منزلنا ، ورعيناك وأنت طفل صغير عندما قالت امرأتى ( لاَ تَقْتُلُوهُ عسى أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً ) ( . . وَلَبِثْتَ فِينَا ) أى : فى كنفنا وتحت سقف بينا ( مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ عدداً ) .

وفعلت فعلتك التي فعلت وانت من الكافرين

كما فسرها الوسيط ( وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ التي فَعَلْتَ ) وهى قتلك لرجل من شيعتى ( وَأَنتَ مِنَ الكافرين ) .أى : وأنت من الجاحدين بعد ذلك لنعمتى التى أنعمتها عليك ، فى حال طفولتك ، وفى حال صباك ، وفى حال شبابك .لأنك جئتنى أنت وأخوك بما يخالف ديننا ، وطلبتما منا أن نرسل معكما بنى إسرائيل - فهل هذا جزاء إحسانى إليك؟وهكذا نرى فرعون يوجه إلى موسى - عليه السلام . تلك الأسئلة على سبيل الإنكار عليه لما جاء به ، متوهما أنه قد قطع عليه طريق الإجابة .

قال فعلتها اذا وانا من الضالين

- كما فسرها الوسيط ولكن موسى - عليه السلام - وقد استجاب الله - تعالى دعاءه ، وأزال عقدة لسانه ، رد عليه ردا حكيما ، فقال - كما حكى القرآن عنه أى قال موسى فى ( قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذاً وَأَنَا مِنَ الضالين ) : ، جوابه على فرعون : أنا لا أنكر أنى قد فعلت هذه الفعلة التى تذكرنى بها ولكنى فعلتها وأنا فى ذلك الوقت من الضالين ، أى : فعلت ذلك قبل أن يشرفنى الله بوحيه ، ويكلفنى بحمل رسالته ، وفضلا عن ذلك فأنا كنت أجهل أن هذه الوكزة تؤدى إلى قتل ذلك الرجل من شيعتك ، لأنى ما قصدت قتله ، وإنما قصدت ، تأديبه ومنعه من الظلم لغيره .فالمراد بالضلال هنا : الجهل بالشىء والذهاب عن معرفة حقيقته .

ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكما وجعلني من المرسلين

كما فسرها الوسيط وقوله : ( فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ ) بيان لما ترتب على فعلته التى فعلها .أى : وبعد هذه الفعلة التى فعلتها وأنا من الضالين ، توقعت الشر منكم ، ففرت من وجوهكم حين خشيت منكم على نفسى فكانت النتيجة أن وهبنى ( رَبِّي حُكْماً ) أى : علما نافعا ( وَجَعَلَنِي مِنَ المرسلين ) الذين اصطفاهم الله - تعالى - لحمل رسالته والتشرف بنبوته .

وتلك نعمة تمنها علي ان عبدت بني اسرائيل

كما فسرها الوسيط ثم أضاف موسى - عليه السلام - إلى هذا الرد الملزم فرعون ردا آخر أشد إلزاما وتوبيخا فقال : ( وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا ، عَلَيّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ) .واسم الإشارة ( تِلْكَ ) يعود إلى التربية المفهومة من قوله - تعالى - قبل ذلك : ( أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً . . . الخ ) .وقوله ( تَمُنُّهَا ) صفة للخير و ( أَنْ عَبَّدتَّ ) عطف بيان للمبتدأ موضح له .وهذا الكلام من موسى - عليه السلام - يرى بعضهم أنه قال على وجهة الاعتراف له بالنعمة ، فكأنه يقول له تلك التربية التى ربيتها لى نعمة منك على ، ولكن ذلك لا يمنع من أن أكون رسولا من الله - تعالى - إليك ، لكى تقلع عن كفرك ، ولكى ترسل معنا بنى إسرائيل .ويرى آخرون أن هذا الكلام من موسى لفرعون ، إنما قاله على سبيل التهكم به ، والإنكار عليه فيما امتن به عليه ، فكأنه يقول له : إن ما تمنّ به على هو فى الحقيقة نقمة ، وإلا فأية منة لك علىّ فى استعبادك لقومى وأنا واحد منهم ، إن خوف أمى من قتلك لى هو الذى حملها على أن تلقى بى فى البحر وتربيتى فى بيتك كانت لأسباب خارجة عن قدرتك . .ويبدو لنا أن هذا الرأى ، أقرب إلى الصواب ، لأنه هو المناسب لسياق القصة ، ولذا قال صاحب الكشاف عند تفسيره لهذه الآية : " ثم كر موسى على امتنان فرعون عليه بالتربية فأبطله من أصله ، واستأصله من سِنْخِهِ - أى : من أساسه - ، وأبى أن يسمى نعمته إلا نقمة . حيث بين أن حقيقة إنعامه عليه تعبيد بنى إسرائيل ، لأن تعبيدهم وقصدهم بالذبح لأبنائهم هو السبب فى حصوله عنده وتربيته ، فكأنه امتن عليه بتعبيد قومه ، وتذليلهم واتخاذهم خدما له . . . " .

قال فرعون وما رب العالمين

. كما فسرها الوسيط وبهذا الجواب التوبيخى أفحم موسى - عليه السلام - فرعون وجعله يحول الحديث عن هذه المسألة التى تتعلق بتربيته لموسى إلى الحديث عن شىء آخر حكاه القرآن فى قوله : ( قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ العالمين ) أى قال فرعون لموسى : أى شىء رب العالمين الذى أنت وأخوك جئتما لتبلغا - رسالته لى ، وما صفته؟وهذا السؤال يدل على طغيان فرعون - قبحه الله وتجاوزه كل حد فى الفجور ، فإن هذا السؤال يحمل فى طياته استنكار أن يكون هناك إله سواه ، كما حكى عنه القرآن فى آية أخرى قوله : ( وَقَالَ فِرْعَوْنُ ياأيها الملأ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرِي . . ) فهو ينكر رسالة موسى - عليه السلام - من أساسها .

قال رب السماوات والارض وما بينهما ان كنتم موقنين

كما فسرها الوسيط وهنا يرد موسى . بقوله : ( قَالَ رَبُّ السماوات والأرض
وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ مُّوقِنِينَ ) .أى : قال موسى : ربنا - يا
فرعون - هو رب السموات ورب الأرض ، ورب ما بينهما من أجرام وهواء . وإن
كنتم موقنين بشىء من الأشياء ، فإيمانكم بهذا الخالق العظيم وإخلاصكم
. العبادة له أولى من كل يقين سواه .وفى هذا الجواب استصغار لشأن فرعون
، وتحقير لمزاعمه ، فكأنه يقول له : إن ربنا هو رب هذا الكون الهائل العظيم
أما ربوبيتك أنت - فمع بطلانها - هى ربوبية لقوم معينين خدعتهم بدعواك
. . الألوهية ، فأطاعوك لسفاهتهم وفسقهم

قال لمن حوله الا تستمعون

كما فسرها الوسيط وهنا يلتفت فرعون إلى من حوله ليشاركوه التعجيب مما قاله
موسى وليصرفهم عن التأثر بما سمعوه منه ، فيقول لهم : ( أَلاَ
. تَسْتَمِعُونَ ) أى : ألا تستمعون إلى هذا القول الغريب الذى يقوله موسى
. . والذى لا عهد لنا به ، ولا قبول عندنا له ولا صبر لنا عليه

قال ربكم ورب ابائكم الاولين

كما فسرها الوسيط ولكن موسى - عليه السلام - لم يمهلهم حتى يردوا على فرعون
بل أكد لهم وحدانية الله - تعالى - وهيمنته على هذا الكون ( قَالَ
رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَآئِكُمُ الأولين ) .أى : ربنا الذى هو رب السموات
والأرض وما بينهما ، هو ربكم أنتم - أيضا - وهو رب آبائكم الأولين ، فكيف
تتركون عبادته ، وتعبدون عبدا من عباده ومخلوقا من مخلوقاته هو فرعون؟

قال ان رسولكم الذي ارسل اليكم لمجنون

، كما فسرها الوسيط وهنا لم يملك فرعون إلا الرد الدال على إفلاسه وعجزه
فقال ملتفتا إلى من حوله : ( إِنَّ رَسُولَكُمُ الذي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ
لَمَجْنُونٌ ) .أى : قال فرعون - على سبيل السخرية بموسى - مخاطبا أشراف
قومه : إن رسولكم الذى أرسل إليكم بما سمعتم ( لَمَجْنُونٌ ) لأنه يتكلم
بكلام لا تقبله عقولنا ، ولا تصدقه آذاننا وسماه رسولا على سبيل الاستهزاء
وجعل رسالته إليهم لا إليه ، لأنه - فى زعم نفسه - أكبر من أن يرسل إليه ،
. . رسول ، ولكى يهيجهم حتى ينكروا على موسى قوله

قال رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون

كما فسرها الوسيط ولكن موسى - عليه السلام - لم يؤثر ما قاله فرعون ف نفسه
بل رد عليه وعليهم بكل شجاعة وحزم فقال : ( رَبُّ المشرق والمغرب وَمَا ،
بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ) .أى : قال موسى : ربنا رب السموات
والأرض وما بينهما . وربكم ورب آبائكم الأولين . ورب المشرق الذى هو جهة
طلوع الشمس وطلوع النهار . ورب المغرب الذى هو غروب الشمس وغروب النهار
وخصهما بالذكر . لأنهما من أوضح الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته.
ولأن فرعون أو غيره من الطغاة لا يجرؤ ولا يملك ادعاء تصريفهما أو التحكم
. فيهما على تلك الصورة البديعة المطردة . والتى لا اختلال فيها ولا اضطراب
كما قال إبراهيم للذى حاجه فى ربه : ( إِنَّ الله يَأْتِي بالشمس مِنَ . .
المشرق فَأْتِ بِهَا مِنَ المغرب فَبُهِتَ الذي كَفَرَ . . ) وجملة ( إِن
كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ) حض لهم على التعقل والتدبر ، وتحذير لهم من التمادى
فى الجحود والعناد .أى : ربنا وربكم هو رب هذه الكائنات كلها ، فأخلصوا
العبادة له ، إن كانت لكم عقول تعقل ما قلته لكم ، وتفهم ما أرشدتكم إليه
وهكذا انتقل بهم موسى من دليل إلى دليل على وحدانية الله وقدرته ، ومن حجة.
إلى حجة ، ومن أسلوب إلى أسلوب لكى لا يترك مجالا فى عقولهم للتردد فى قبول
. دعوته

قال لئن اتخذت الها غيري لاجعلنك من المسجونين

كما فسرها الوسيط ولكن فرعون - وقد شعر بأن حجة موسى قد ألقمته حجرا انتقل
من أسلوب المحاورة فى شأن رسالة موسى إلى التهديد والوعيد - شأن الطغاة
عندما يعجزون عن دفع الحجة بالحجة - فقال لموسى عليه السلام - : ( لَئِنِ
اتخذت إلها غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ المسجونين ) .أى : قال فرعون لموسى
، بثورة وغضب : لئن اتخذت إلها غيرى يا موسى ليكون معبودا لك من دونى
لأجعلنك واحدا من جملة المسجونين فى سجنى فهذا شأنى مع كل من يتمرد على
عبادتى ، ويخالف أمرى . . .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ألم يكن لأسجننك
أخصر من ( لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ المسجونين ) ومؤديا مؤداه؟قلت : أما كونه

أخصر فنعم . وأما كونه مؤديا مؤداه فلا ، لأن معناه : " لأجعلنك واحدا ممن عرفت حالهم فى سجونى وكان من عادته أن يأخذ من يريد سجنه فيطرحه فى هوة ذاهبة فى الأرض ، بعيدة العمق .لا يبصر فيها ولا يسمع فكان ذلك أشد من القتل " .

قال اولو جئتك بشيء مبين

. كما فسرها الوسيط ولكن موسى - عليه السلام - لم يخفه هذا التهديد والوعيد بل رد عليه ردا حكيما فقال له : ( أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ) ، والاستفهام للإنكار ، والواو للعطف على كلام مقدر يستدعيه المقام. ، والمعنى . أتفعل ذلك بى بأن تجعلنى من المسجونين ، ولو جئتك بشىء مبين يدل دلالة واضحة على صدقى فى رسالتى وعلى أنى رسول من رب العالمين؟وعبر عن ، المعجزة التى أيده الله بها بأنها ( شَيْءٍ مُّبِينٍ ) للتهويل من شأنها ، والتفخيم من أمرها

قال فات به ان كنت من الصادقين

كما فسرها الوسيط ولعل مقصد موسى - عليه السلام - بهذا الكلام ، أن يجر فرعون مرة أخرى إلى الحديث فى شأن الرسالة التى جاءه من أجلها بعد أن رآه يريد أن يحول مجرى الحديث عنها إلى التهديد والوعيد ، وأن يسد منافذ الهروب ) : عليه أمام قومه . ولذا نجد فرعون لا يملك أمام موسى إلى أن يقول له فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ) .أى : فأت بهذا الشىء المبين ، إن . . كنت - يا موسى - من الصادقين فى كلامك السابق

فالقى عصاه فاذا هي ثعبان مبين

- كما فسرها الوسيط وهنا كشف موسى - عليه السلام - عما أيده الله - تعالى ) به من معجزات حسية خارقة ( فألقى عَصَاهُ ) على الأرض أمام فرعون وقومه فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ) .أى : فإذا هى حية عظيمة فى غاية الجلاء والوضوح على أنها حية حقيقة ، لا شائبة معها للتخييل أو التمويه كما يفعل السحرة .

ونزع يده فاذا هي بيضاء للناظرين

كما فسرها الوسيط ولم يكتف موسى بذلك فى الدلالة على صدقه . ( وَنَزَعَ : يَدَهُ ) أى : من جيبه (فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّاظِرِينَ ) أى فإذا هى بيضاء بياضا يخالف لون جسمه - عليه السلام - ، فهى تتلألأ كأنها قطعة من القمر ، ولها شعاع يكاد يغشى الأبصار ، وليس فيها ما يشير إلى أن بها سوءا أو مرضا .

قال للملا حوله ان هذا لساحر عليم

كما فسرها الوسيط وهنا أحس فرعون بالرعب يسرى فى أوصاله ، وبأن ألوهيته المزعومة قد أوشكت على الانشكاف . وبأن معجزة موسى توشك أن تجعل الناس يؤمنون به ، فالتفت إليهم وكأنه يحاول جذبهم إليه ، واستطلاع رأيهم فيما شاهدوه ، ويحكى القرآن ذلك بأسلوبه البليغ فيقول : ( قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ . . . ) .أى : قال فرعون للملأ المحيطين به - بعد أن زلزلته معجزة ، موسى - ( إِنَّ هذا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ) .أى : لساحر بارع فى فن السحر فهو مع اعترافه بضخامة ما أتى به موسى ، يسميه سحرا .

يريد ان يخرجكم من ارضكم بسحره فماذا تامرون

كما فسرها الوسيط ثم يضيف إلى ذلك قوله لهم : ( يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُمْ ) هذا الساحر ( مِّنْ أَرْضِكُمْ ) التى نشأتم عليها ( فَمَاذَا تَأْمُرُونَ أى : فبأى شىء تشيرون على وأنتم حاشتيى ومحل ثقتى؟وفى هذه الجملى الكريمة ( . تصوير بديع لنفس هذا الطاغية وأمثاله . . .إنه منذ قليل كان يرغى ويزبد وإذا به بعد أن فاجأه موسى بمعجزته ، يصاب بالذعر ويقول لمن زعم أنه ربهم الأعلى ( فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ) .وهكذا الطغاة عندما يضيق الخناق حول رقابهم يتذللون ويتباكون . . فإذا ما انفك الخناق من حول رقابهم ، عادوا إلى طغيانهم وفجورهم .ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال : " ولقد تحير فرعون لما أبصر الآيتين ، وبقى لا يدرى أى طرفيه أطول ، حتى زل عنه ذكر دعوى الألوهية ، وحط عن منكبيه كبرياء الربوبية . وارتعدت فرائصه ، وانتفخ سَحَره - أى رئته - خوفا وفرقا ، وبلغت به الاستكانة لقومه الذين هم بزعمه عبيده وهو إلههم : أن طفق يؤامرهم ويعترف لهم بما حذر منه وتوقعه وأحس به

. " - من جهة موسى - عليه السلام

قالوا ارجه واخاه وابعث في المدائن حاشرين

كما فسرها الوسيط ورد الملأ من قوم فرعون عليه بقولهم : ( أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ) أى : أخر أمرهما ، يقال : أرجأت هذا الأمر وأرجيته . إذا أخرته ومنه أخذ لفظ المرجئة لتلك الفرقة التى تؤخر العمل وتقول :لا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة .( وابعث فِي المدآئن حَاشِرِينَ أى : وابعث فى مدن مملكتك رجالا من شرطتك يحشرون السحرة ، أى : يجمعونهم ( عندك لتختار منهم من تشاء .

ياتوك بكل سحار عليم

كما فسرها الوسيط وقوله : ( يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ) مجزوم فى جواب الأمر . أى : إن تبعثهم يأتوك بكل سحار فائق فى سحره ، عليم بفنونه ومداخله .

فجمع السحرة لميقات يوم معلوم

كما فسرها الوسيط ولبى فرعون طلب مستشاريه ، فأرسل فى المدائن من يجمع له السحرة ( فَجُمِعَ السحرة ) أى المعرفون ببراعتهم فيه ( لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مّعْلُومٍ ) أى : جمعوا وطلب منهم الاستعداد لمنازلة موسى - عليه السلام - فى وقت معين هو " يوم الزينة " أى : يوم العيد . كما قال - تعالى - فى آية أخرى : ( قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزينة وَأَن يُحْشَرَ الناس ضُحًى ).

وقيل للناس هل انتم مجتمعون

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - ما فعله أعوان فرعون من حض الناس على حضور تلك المباراة فقال : ( وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُمْ مُّجْتَمِعُونَ ( أى : فى ذلك اليوم المعلوم الذى ينازل فيه السحرة موسى فالمقصود بالاستفهام الحض على الحضور والحث على عدم التخلف .

لعلنا نتبع السحرة ان كانوا هم الغالبين

كما فسرها الوسيط والترجى فى قولهم ( لَعَلّنَا نَتّبِعُ السحرة إِن كَانُواْ هُمُ الغالبين ) المقصود به - أيضا - حض السحرة على بذل أقصى جهدهم ليتغلبوا على موسى - عليه السلام - ، فكأنهم يقولون لهم : ابذلوا قصارى جهدكم فى حسن إعداد سحركم فنحن نرجو أن تكون الغلبة لكم ، فنكون معكم لا مع موسى - عليه السلام - .

فلما جاء السحرة قالوا لفرعون ائن لنا لاجرا ان كنا نحن الغالبين

كما فسرها الوسيط ثم يحكى القرآن بعد ذلك ما قاله السحرة لفرعون عند التقائهم به فيقول : ( فَلَمّا جَآءَ السحرة قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ ) بعد أن التقى بهم ليشجعهم على الفوز ، ( أَإِنّ لَنَا لأَجْراً ) مجزيا ( إِن كُنّا نَحْنُ الغالبين ) لموسى - عليه السلام - .

قال نعم وانكم اذا لمن المقربين

كما فسرها الوسيط وهنا يرد عليهم فرعون ، فيعدهم . ويمنيهم ( قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذاً لَّمِنَ المقربين ) . أى : نعم لكم الأجر العظيم الذى يرضيكم ، وفضلا عن ذلك فستكونون عندى من الرجال المقربين إلى نفسى ، والذين سأخصهم برعايتى ومشورتى .وهكذا يعد فرعون السحرة ويمنيهم ( يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشيطان إِلاَّ غُرُوراً ).

قال لهم موسى القوا ما انتم ملقون

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما قاله موسى للسحرة ، وما قال فرعون لهم بعد أن أعلنوا إيمانهم ، فقال - تعالى - : ( قَالَ لَهُمْ . . . أى للسحرة بعد أن أعدوا عدتهم لمنازلته ، ومن ( قَالَ لَهُمْ موسى ). ( خلفهم فرعون وقومه يشجعونهم على الفوز قال لهم : ( أَلْقُواْ مَا أَنتُمْ مُّلْقُونَ ) من السحر ، فسوف ترون عاقبة منازلتكم له .وأسلوب الآية الكريمة يشعر بعدم مبالاة موسى - عليه السلام - بهم أو بتلك الحشود التى من ورائهم ، فهو مطمئن إلى نصر الله - سبحانه - له .

فالقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون انا لنحن الغالبون

كما فسرها الوسيط ( فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيّهُمْ وَقَالُواْ ) أى : عند إلقائهم لتلك الحبال والعصى ( بِعِزّةِ فِرْعَونَ ) أى : بقوته وجبروته وسطوته ( إِنّا لَنَحْنُ الغالبون )لا موسى - عليه السلام - ولم ) تفصل السورة هنا ما فصلته سورة الأعراف من أنهم حين ألقوا حبالهم وعصيهم سحروا أَعْيُنَ الناس واسترهبوهم وَجَآءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ) أو ما وضحته سورة طه من أنهم حين ألقوا حبالهم : ( أَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً موسى ولعل السر فى عدم التفصيل هنا ، أن السورة الكريمة تسوق الأحداث متتابعة ( تتابعا سريعا ، تربط معها قلب القارىء وعقله بما ستسفر عنه هذه الأحداث من ظهر الحق ، ومن دحور الباطل .

فالقى موسى عصاه فاذا هي تلقف ما يافكون

- كما فسرها الوسيط ولذا جاء التعقيب السريع بما فعله موسى - عليه السلام فقال - تعالى - : ( فألقى موسى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ ) أى : تبتلع بسرعة ، وتأخذ بقسوة ( مَا يَأْفِكُونَ ) أى : ما فعلوه وما يفعلونه من السحر ، الذيى يقلبون به حقائق الأشياء عن طريق التمويه والتخييل . ورأى السحرة بأعينهم ومعهم الحشود من خلفهم ، رأوا ما أجراه الله - تعالى - على يد موسى - عليه السلام - رأوا كل ذلك فذهلوا وبهروا وأيقنوا أن ما جاء به موسى ليس سحرا وإنما هو شىء آخر فوق طاقة البشر ، ولو كان سحرا لعرفوه فهم رجاله ، وأيضا لو كان سحرا لبقيت حبالهم وعصيهم على الأرض ، ولكنها ابتلعتها عصا موسى - عليه السلام .

فالقي السحرة ساجدين

كما فسرها الوسيط عندئذ لم يتمالكوا أنفسهم ، بل فعلوا ما حكاه القرآن عنهم فى قوله - سبحانه - : ( فَأُلْقِيَ السحرة سَاجِدِينَ ) أى : فخروا ساجدين على وجوههم بدون تردد .

قالوا امنا برب العالمين

كما فسرها الوسيط وهم يقولن : ( آمَنَّا بِرَبِّ العالمين رَبِّ موسى وَهَارُونَ ) .وهكذا بعد أن شاهد السحرة الحق يتلألأ أمام أبصارهم . لم يملكوا إلا أن ينطقوا به على رءوس الأشهاد ، وتحولوا من قوم يلتمسون الأجر من فرعون قائلين : ( أَإِنّ لَنَا لأَجْراً إِن كُنّا نَحْنُ الغالبين ) ، إلى قوم آخرين هجروا الدنيا . ومغانمها ، واستهانوا بالتهديد والوعيد ونطقوا بكلمة الحق فى وجه من كانوا يقسمون بعزته إنا لنحن الغالبون .وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول فى حديثه الذى رواه الشيخان : " ما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن ، إن شاء أقامه ، وإن شاء أزاغه " .

رب موسى وهارون

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

قال امنتم له قبل ان اذن لكم انه لكبيركم الذي علمكم السحر فلسوف تعلمون لاقطعن ايديكم وارجلكم من خلاف ولاصلبنكم اجمعين

كما فسرها الوسيط ثم يحكى - سبحانه - بعد ذلك موقف فرعون وقد رأى ما حطمه وزلزله فقال - تعالى - : ( قَالَ ) أى فرعون للسحرة ( آمَنتُمْ لَهُ ) أى : لموسى ( قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ) بالإيمان به .. ( إِنَّهُ ) أى : موسى - عليه السلام - ( لَكَبِيرُكُمُ الذي عَلّمَكُمُ السحر ) أى : فأنتم متواطئون معه على هذه اللعبة ( فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ) ما أنزله بكم من عذاب .( لأُقَطّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مّنْ خِلاَفٍ ) أى : لأقطعن من كل واحد منكم يده اليمنى مع رجله اليسرى . ( وَلأُصَلِّبَنّكُمْ أَجْمَعِينَ ) أى : فى جذوع النخل - كما جاء فى آية أخرى - والمتأمل فى قول فرعون - كما حكاه القرآن عنه يرى فيه الطغيان والكفر ، فهو يستنكر على السحرة إيمانهم بدون إذن .ويرى فيه الكذب الباطل الذى قصد من ورائه تشكيك قومه فى صدق موسى وفى نبوته فهو يقول لهم : ( إِنّهُ لَكَبِيرُكُمُ الذي عَلّمَكُمُ السحر ) .ويرى فيه بعد هذا التلبيس على قومه ، التهديد الغليظ - شأن الطغاة فى كل زمان ومكان - فهو يقول للسحرة الذين صاروا مؤمنين : ( فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لأُقَطّعَنّ أَيْدِيَكُمْ

وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلاَفٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ) أى : بدون استثناء لواحد منهم .

قالوا لا ضير انا الى ربنا منقلبون

كما فسرها الوسيط ولم يتلفت السحرة إلى هذا التهديد والوعيد بعد أن استقر الإيمان فى قلوبهم ، بل قالوا - كما حكى القرآن عنهم - : ( لاَ ضَيْرَ ) : مصدر ضاره الأمر يضوره ويضيره ضيرا ، أى : ضره وألحق به الأذى .أى قالوا - بكل ثبات وعدم مبالاة بوعيده -لا ضرر علينا من عقابك فستحمله صابرين فى سبيل الحق الذى آمنا به .( إِنَّآ إلى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ) أى : راجعون إليه ، فيجازينا على صبرنا .

انا نطمع ان يغفر لنا ربنا خطايانا ان كنا اول المؤمنين

كما فسرها الوسيط ( إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا ) خَطَايَانَآ ) التى وقعنا فيها قبل الإيمان ، كعبادة فرعون وكتعاطى السحر ) أَن كُنَّآ ) أى : لأن كنا ( أَوَّلَ المؤمنين ) بالحق بعد أن جاءنا .

واوحينا الى موسى ان اسر بعبادي انكم متبعون

- كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - هذه القصة ببيان ما أمر به نبيه موسى - عليه السلام - وما حل بفرعون وقومه من هلاك بسبب كفرهم وبغيهم ، فقال تعالى - : ( وَأَوْحَيْنَآ . . . ) .قوله - سبحانه - : ( وَأَوْحَيْنَآ إلى موسى أَنْ أَسْرِ بعبادي . . . ) معطوف على كلام مقدر يفهم من سياق القصة - والتقدير : وبعد أن انتصر موسى على السحرة نصرا جعلهم يخرون ساجدين لله. تعالى - وبعد أن مكث موسى فى موصر حينا من الدهر ، يدعو فرعون وقومه إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - فلم يستجيبوا له . . .بعد كل ذلك ) وَأَوْحَيْنَآ إلى موسى أَنْ أَسْرِ بعبادي ) أى : سر ببنى إسرائيل ليلا إلى جهة البحر وعبر - سبحانه - عنهم بعبادى . تلطفا بهم بعد أن ظلوا تحت ظلم فرعون مدة طويلة .وقوله - ( إِنَّكُم مُّتَّبِعُونَ ) تعليل للأمر بالإسراء . أى : سر بهم ليلا إلى جهة البحر ، لأن فرعون سيتبعكم بجنوده ، وسأقضى قضائى فيه وفى جنده .

فارسل فرعون في المدائن حاشرين

كما فسرها الوسيط والفاء فى قوله - تعالى - : ( فَأَرْسَلَ فِرْعَونُ فِي المدآئن حَاشِرِينَ ) هى الفصيحة ، والحاشرين جمع حاشر : والمراد بهم الذين يحشرون الناس ويجمعونهم فى مكان معين ، لأمر من الأمور الهامة .قالوا : جمعوا له جيشا كبيرا يتكون من مئات الآلاف من الجنود . أى : وعلم فرعون بخروج موسى ومعه بنو إسرائيل . فأرسل جنوده ليجمعوا له الناس من المدائن المتعددة فى مملكته .

ان هؤلاء لشرذمة قليلون

كما فسرها الوسيط وبعد أن اكتمل عددهم ، أخذ في التهوين من شأن موسى ومن معه فقال : ( إِنَّ هؤلاء لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ) .والشرذمة : الطائفة القليلة من الناس - وخصها بعضهم بالأخساء والسفلة منهم .ومنه قولهم : هذا ثوب شرذام ، وثياب شرذام ، أى : رديئة متقطعة .أى : إن هؤلاء الذين خرجوا بدون إذنى وإذنكم ، لطائفة قليلة من الناس الذين هم بمنزلة العبيد والخدم لى ولكم .

وانهم لنا لغائظون

كما فسرها الوسيط ( وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ) أى : وإنهم بجانب قلتهم ، وخروجهم بدون إذننا ، يأتون بأقوال وأفعال تغيظنا وتغضبنا ، على رأسها اقتراحهم علينا أن نترك ديننا .

وانا لجميع حاذرون

كما فسرها الوسيط ( وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ) أى : متيقظون لمكائدهم ومحتاطون لمكرهم ، وممسكون بزمام الأمور حتى لا يؤثر فينا خداعهم .يقال : حذر فلان حذرا - من باب تعب - بمعنى : استعد للأمر وتأهب له بيقظة . .وكلام فرعون هذا - الذى حكاه القرآن عنه - يوحى بهلعه وخوفه مما فعله موسى - عليه السلام - إلا أنه أراد أن يستر هذا الهلع والجزع بالتهوين من شأنه ومن شأن

الذين خرجوا معه وبتحريض قومه على اللحاق بهم وتأديبهم ، وبالظهور بمظهر المستعد هو وقومه لمجابهة الأخطار والتمرد بكل قوة وحزم .قال صاحب الكشاف : والمعنى : أنهم - أى موسى ومن معه - لقلتهم لا يبالى بهم ، ولا يتوقع غلبتهم وعلوهم ، ولكنهم يفعلون أفعالا تغيظنا ، ونحن قوم من عادتنا التيقظ والحذر واستعمال الحزم فى الأمور ، فإذا خرج علينا خارج سارعنا إلى حسم فساده ، وهذه معاذير اعتذر بها إلى أهل المدائن لئلا يظن به ما يكسر من قهره وسلطانه ، وقرىء : حذرون .. . والحذر : اليقظ . والحاذر : الذى يجدد حذره .

فاخرجناهم من جنات وعيون

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما اقتضته إرادته ومشيئته فى فرعون وقومه فقال : (فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ) أى : فأخرجناهم بقدرتنا وإرادتنا من ( جَنَّاتٍ ) .أى : بساتين كانوا يعيشون فيها ( وَعُيُونٍ ) عذبة الماء كانوا يشربون منها .

وكنوز ومقام كريم

كما فسرها الوسيط ( وَكُنُوزٍ ) أى : وأموال كانت تحت أيديهم ( وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ) أى : ومساكن حسنة جميلة كانوا يقيمون فيها .أى : أخرجناهم من كل ذلك بقدرتنا ومشيئتنا ، ليلقوا مصيرهم المحتوم وهو الغرق ، بسبب إصرارهم على كفرهم وطغيانهم .

كذلك واورثناها بني اسرائيل

كما فسرها الوسيط وقوله : ( كَذَلِكَ ) خبر لمبتدأ محذوف . أى : الأمر كذلك وقوله ( وَأَوْرَثْنَاهَا بني إِسْرَائِيلَ ) أى : وأورثنا تلك الجنات. والعيون والكنوز والمنازل الحسنى لبنى إسرائيل .قال الجمل : وقوله ( وَأَوْرَثْنَاهَا ) أى : الجنات والعيون والكنوز لبنى إسرائيل ، وذلك أن الله - عز وجل - رد بنى إسرائيل إلى مصر بعد هلاك فرعون وقومه ، فأعطاهم جميع ما كان لفرعون وقومه من الأموال والمساكن الحسنة . . .والظاهر أن هذه الجملة اعتراضية ، وأن قوله - بعد ذلك - ( فَأَتْبَعُوهُم ) معطوف قوله - تعالى - : ( فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ) . . لأن إعطاء البساتين وما بعدها لبنى إسرائيل ، كان بعد هلاك فرعون وقومه .ومن العلماء من يرى أن بنى إسرائيل لم يعودوا لمصر بعد هلاك فرعون وقومه ، وأن الضمير فى قوله - تعالى - : ( وَأَوْرَثْنَاهَا ) إلى الجنات والعيون والكنوز التى أخرج الله - تعالى - منها فرعون وقومه ، بأن عاد موسى ومن معه إلى مصر - لفترة معينة - بعد هلاك فرعون وملئه ، ثم خرجوا منها بعد ذلم مواصلين سيرهم إلى الأرض المقدسة ، التى أمرهم موسى - عليه السلام - بدخولها .ولعل ما يؤيد ما نرجحه قوله - تعالى - : ( وَأَوْرَثْنَا القوم الذين كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأرض وَمَغَارِبَهَا التي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمّتْ كَلِمَةُ رَبّكَ الحسنى على بني إِسْرَآئِيل بِمَا صَبَرُواْ وَدَمّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ) وقوله - سبحانه - : ( وَنُرِيدُ أَن نَّمُنّ عَلَى الذين استضعفوا فِي الأرض وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الوارثين وَنُمَكّنَ لَهُمْ فِي الأرض وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ).

فاتبعوهم مشرقين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما حدث من فرعون وقومه ، وما قاله بنو إسرائيل عندما شاهدوهم ، فقال - تعالى - ( فَأَتْبَعُوهُم مّشْرِقِينَ ) .أى : أخرجنا فرعون وقومه من أموالهم ومساكنهم . . . فساروا ) مسرعين خلف موسى ومن معه ، ( فَأَتْبَعُوهُم ) أى : فلحقوا بهم مّشْرِقِينَ ) أى : فى وقت شروق الشمس يقال : أشرق فلان إذا دخل فى وقت الشروق ، كأصبح إذا دخل فى وقت الصباح .

فلما تراءى الجمعان قال اصحاب موسى انا لمدركون

كما فسرها الوسيط ( فَلَمّا تَرَاءَى الجمعان ) أى : تقاربا بحيث يرى كل فريق خصمه .( قَالَ ) بنو إسرائيل لنبيهم موسى - عليه السلام - والخوف يملأ نفوسهم : ( إِنّا لَمُدْرَكُونَ ) أى : سيدركنا بعد قليل فرعون وجنوده ، ولا قدرة لنا .. . على قتالهم . .

قال كلا ان معي ربي سيهدين

) : كما فسرها الوسيط وهنا رد عليهم موسى - عليه السلام - بثقة وثبات بقوله
كَلاَّ ) أى : كلا لن يدرككم ، فاثبتوا ولا تجزعوا ( إِنَّ مَعِيَ رَبِّي
سَيَهْدِينِ ) .بهذا الجزم والتأكيد رد موسى على بنى إسرائيل ، وهو رد يدل
- على قوة إيمانه ، وثبات يقينه ، وثقته التى لا حدود لها فى نصر الله
. تعالى - له ، وفى هدايته إياه إلى طريق الفوز والفلاح

فاوحينا الى موسى ان اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم

كما فسرها الوسيط ولم يطل انتظار موسى لنصر الله - تعالى - بل جاءه سريعا
متمثلا فى قوله - سبحانه - ( فَأَوْحَيْنَآ إلى موسى أَنِ اضرب بِّعَصَاكَ
البحر ) أى : البحر الأحمر - على أرجح الأقوال - وهو الذى كان يسمى ببحر
القلزم .فضربه ( فانفلق ) إلى اثنى عشر طريقا ( فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ ) أى
. قسم منه ( كالطود العظيم ) أى : كالجبل الشامخ الكبير :

وازلفنا ثم الاخرين

- كما فسرها الوسيط وسار موسى ومن معه فى الطريق اليابس بين أمواج البحر
- بقدرة الله - تعالى - ، ( وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخرين ) أى : وقربنا
بقدرتنا وحكمتنا - هنالك القوم الآخرين وهم فرعون وجنوده . أى : قربناهم من
موسى وقومه فدخلوا وراءهم فى الطريق الذى سلكوه بين أمواج البحر ، فماذا
كانت النتيجة؟كانت النتيجة أن خرج موسى ومن معه سالمين ، أما فرعون وجنوده
. فقد انطبق عليهم البحر فأغرقهم أجمعين

وانجينا موسى ومن معه اجمعين

كما فسرها الوسيط وصدق الله إذ يقول : ( وَأَنجَيْنَا ) - أى : بقدرتنا
ورحمتنا - ( موسى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ) من الغرق ومن لحاق فرعون بهم
.

ثم اغرقنا الاخرين

. كما فسرها الوسيط ( ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخرين ) وهم فرعون وجنوده

ان في ذلك لاية وما كان اكثرهم مؤمنين

) : كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - هذه القصة - كما ختم غيرها - بقوله
إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ
رَبَّكَ لَهُوَ العزيز الرحيم ) .أى : إن فى ذلك الذى قصصناه عليك - أيها
الرسول الكريم - من قصة موسى وفرعون ، ( لآيَةً ) عظيمة تدعو إلى إخلاص
العبادة والطاعة لنا ، ومع ذلك فلم يؤمن بما جاء به نبينا موسى ، إلا عدد
. قليل

وان ربك لهو العزيز الرحيم

كما فسرها الوسيط ( وَإِنَّ رَبَّكَ ) - أيها الرسول الكريم - ( لَهُوَ
العزيز ) . أى : الغالب المنتقم من أعدائه ( الرحيم ) أى : الواسع الرحمة
بأوليائه ، حيث جعل العاقبة لهم .وهكذا ساق لنا - سبحانه - هنا جانبا من
قصة موسى - عليه السلام - بهذا الأسلوب البديع ، لتكون عبرة وعظة لقوم
. يؤمنون

واتل عليهم نبا ابراهيم

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك جانبا من قصة إبراهيم - عليه
السلام - فقال - تعالى - : ( واتل عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ . . . )
، وقصة إبراهيم - عليه السلام - قد وردت فى القرآن فى سورة متعددة.
وبأساليب متنوعة ، وردت فى سورة البقرة ، وكان معظم الحديث فيها ، يدور حول
بنائه للبيت الحرام هو وابنه إسماعيل ، وحكاية تلك الدعوات الخاشعات التى
تضرع بها إلى ربه .ووردت فى سورة الأنعام ، وكان معظم الحديث فيها يدور حول
إقامته الأدلة على وحدانية الله - تعالى - عن طريق التأمل فى مشاهد هذا
الكون .ووردت فى سورة هود ، وكان معظم الحديث فيها يدور حول تبشيره بإسحاق
ووردت فى سورة إبراهيم ، وكان معظم الحديث فيها يدور حول ما توجه به. . .
إلى ربه من دعاء بعد أن ترك بعض ذريته فى جوار بيت الله الحرام .ووردت فى

سورة الحجر . وكان معظم الحديث فيها يدور حول ما دار بينه وبين الملائكة من
مناقشات .ووردت فى سورة مريم ، وفيها حكى القرآن تلك النصائح الحكيمة التى
وجهها لأبيه وهو يدعوه لعبادة الله - تعالى - وحده .ووردت فى سورة الأنبياء
، وفيها عرض القرآن لما دار بينه وبين قومه من مجادلات ومن تحطيم للأصنام .
ومن إلقائهم إياه فى النار فصارت بأمر الله - تعالى - بردا وسلاما عليه
أما هنا فى سورة الشعراء ، فيحكى لنا - سبحانه - ما دار بينه وبين قومه من.
) : - مناقشات ، وما توجه به إلى خالقه من دعوات .لقد افتتحت بقوله - تعالى
- واتل عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ) أى : واقرأ - أيها الرسول الكريم
على قومك - أيضا - نبأ رسولنا إبراهيم - عليه السلام - الذى يزعم قومك أنهم
، ورثته ، وأنهم يتبعونه فى ديانته ، مع أن إبراهيم برىء منهم ومن شركهم
. - لأنه ما أرسل إلا لنهى أمثالهم عن الإشراك بالله - تعالى

اذ قال لابيه وقومه ما تعبدون

كما فسرها الوسيط وقوله ( إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ
منصوب على الظرفية . أى : اقرأ عليهم نبأه وقت أن قال لأبيه وقومه على (
سيل التبكيت وإلزامهم الحجة : أى شىء هذا الذى تعبدونه من دون الله - عز
وجل -؟

قالوا نعبد اصناما فنظل لها عاكفين

كما فسرها الوسيط فأجابوه بقولهم : ( نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا
عَاكِفِينَ ) وكان يكفيهم فى الجواب أن يقولوا : نعبد أصناما ، ولكنهم
لغبائهم وجهلهم قصدوا التباهى والتفاخر بهذه العبادة الباطلة أى : نعبد
، أصناما منحوتة من الحجر أو مما يشبهه ، ونداوم على عبادتها ليلا ونهارا
ونعكف على التقرب لها كما يتقرب الحبيب إلى حبيبه .وهكاذ ، عندما تنحط
. . الأفهام ، تتباهى بما يجب البعد عنه ، وتفتخر بالمرذول من القول والفعل
.

قال هل يسمعونكم اذ تدعون

كما فسرها الوسيط وقد رد عليهم إبراهيم - عليه السلام - بما يوقظهم من
جهلهم لو كانوا يعقلون ، فقال لهم : ( يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ
يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ) .أى : قال لهم إبراهيم على سبيل التنبيه
والتبكيت : هذه الأصنام التى تعبدونها من دون الله ، هل تسمع دعاءكم إذا
. دعوتموها ، وهل تحس بعبادتكم لها إذا عبدتموها

او ينفعونكم او يضرون

كما فسرها الوسيط وهل تملك أن تنفعكم بشىء من النفع أو تضركم بشىء من
. الضر؟ولم يستطع القوم أن يواجهوا إبراهيم بجواب

قالوا بل وجدنا اباءنا كذلك يفعلون

كما فسرها الوسيط بعد أن ألقمهم حجرا بنصاعة حجته ، فلجأوا إلى التمسح
: بآبائهم فقالوا : ( بَلْ وَجَدْنَآ آبَآءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ) .أى
قالوا له : إن هذه الأصنام هى كما قلت يا إبراهيم لا تسمع دعاءنا ، ولا
تنفعنا ولا تضرنا ، ولكننا وجدنا آباءنا يعبدونها ، فسرنا على طريقتهم فى
عبادتها ، فهم قالوا ما قاله أمثالهم فى الجهالة فى كل زمان ومكان ( إِنَّا
. ( وَجَدْنَآ آبَآءَنَا على أُمَّةٍ وَإِنَّا على آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ

قال افرايتم ما كنتم تعبدون

- كما فسرها الوسيط وأمام هذا التقليد الأعمى ، نرى إبراهيم - عليه السلام
- يعلن عداوته لهم ولمعبوداتهم الباطلة ، ويجاهرهم بأن عبادته إنما هى لله
تعالى - وحده فيقول :( أَفَرَأَيْتُمْ مَّا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُمْ
وَآبَآؤُكُمُ الأقدمون فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لي إِلاَّ رَبَّ العالمين ) .أى
قال لهم إبراهيم على سبيل الإنكار والتأنيب : أفرأيتم وشاهدتم هذه :
الأصنام التى عبدتموها أنتم وآباؤكم الأقدمون من دون الله - تعالى - إنها
عدو لى لأن عبادتها باطلة لكن الله - تعالى - رب العالمين هو ولىى وصاحب
الفضل على فى الدنيا والآخرة ، فلذا أعبده وحده .فقوله ( إِلاَّ رَبَّ
: العالمين ) . استثناء منقطع من ضمير ( إِنَّهُمْ ) .قال صاحب الكشاف
وإنما قال : ( عَدُوٌّ لي ) تصويرا للمسألة فى نفسه ، على معنى : أنى فكرت
فى أمرى فرأيت عبادتى لها عبادة للعدو فاجتنبتها وآثرت عبادة الذى الخير

كله منه ، وأراهم بذلك أنها نصيحة نصح بها نفسها أولا ، وبنى عليها تدبير
أمره ، لينظروا فيقولوا : ما نصحنا إبراهيم إلا بما نصح به نفسه ، ليكون
، أدعى لهم إلى القبول . ولو قال : فإنهم عدو لكم لم يكن بتلك المثابة
ولأنه دخل في باب من التعريض ، وقد يبلغ التعريض للمنصوح ما لا يبلغه
التصريح ، لأنه يتأمل فيه ، فربما قاده التأمل إلى التقبل ومنه ما يحكى عن
، الشافعي - رحمه الله - : أن رجلا واجهه بشيء ، فقال : لو كنتُ بحيث أنت
لاحتجتُ إلى الأدب . . . وسمع رجل ناسا يتحدثون في الحِجْر فقال : ما هو
. . بيتي ولا بيتكم

انتم واباؤكم الاقدمون

`<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html} كما فسرها الوسيط

وأمام هذا التقليد الأعمى ، نرى إبراهيم - عليه السلام - يعلن عداوته لهم
ولمعبوداتهم الباطلة ، ويجاهرهم بأن عبادته إنما هي لله - تعالى - وحده
فيقول :( أَفَرَأَيْتُمْ مَّا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَآبَآؤُكُمُ
الأقدمون فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ العالمين ) .أي : قال لهم
إبراهيم على سبيل الإنكار والتأنيب : أفرأيتم وشاهدتم هذه الأصنام التي
عبدتموها أنتم وآباؤكم الأقدمون من دون الله - تعالى - إنها عدو لي لأن
عبادتها باطلة لكن الله - تعالى - رب العالمين هو وليي وصاحب الفضل علي في
. الدنيا والآخرة ، فلذا أعبده وحده .فقوله ( إِلاَّ رَبَّ العالمين )
) : استثناء منقطع من ضمير ( إِنَّهُمْ ) .قال صاحب الكشاف : وإنما قال
عَدُوٌّ لِي ) تصويرا للمسألة في نفسه ، على معنى : أني فكرت في أمري فرأيت
عبادتي لها عبادة للعدو فاجتنبتها وآثرت عبادة الذي الخير كله منه ، وأراهم
بذلك أنها نصيحة نصح بها نفسها أولا ، وبنى عليها تدبير أمره ، لينظروا
فيقولوا : ما نصحنا إبراهيم إلا بما نصح به نفسه ، ليكون أدعى لهم إلى
القبول . ولو قال : فإنهم عدو لكم لم يكن بتلك المثابة ، ولأنه دخل في باب
من التعريض ، وقد يبلغ التعريض للمنصوح ما لا يبلغه التصريح ، لأنه يتأمل
- فيه ، فربما قاده التأمل إلى التقبل ومنه ما يحكى عن الشافعي - رحمه الله
. . . أن رجلا واجهه بشيء ، فقال : لو كنتُ بحيث أنت ، لاحتجتُ إلى الأدب :
. . وسمع رجل ناسا يتحدثون في الحِجْر فقال : ما هو بيتي ولا بيتكم

فانهم عدو لي الا رب العالمين

`<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html} كما فسرها الوسيط

وأمام هذا التقليد الأعمى ، نرى إبراهيم - عليه السلام - يعلن عداوته لهم
ولمعبوداتهم الباطلة ، ويجاهرهم بأن عبادته إنما هي لله - تعالى - وحده
فيقول :( أَفَرَأَيْتُمْ مَّا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَآبَآؤُكُمُ
الأقدمون فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ العالمين ) .أي : قال لهم
إبراهيم على سبيل الإنكار والتأنيب : أفرأيتم وشاهدتم هذه الأصنام التي
عبدتموها أنتم وآباؤكم الأقدمون من دون الله - تعالى - إنها عدو لي لأن
عبادتها باطلة لكن الله - تعالى - رب العالمين هو وليي وصاحب الفضل علي في
. الدنيا والآخرة ، فلذا أعبده وحده .فقوله ( إِلاَّ رَبَّ العالمين )
) : استثناء منقطع من ضمير ( إِنَّهُمْ ) .قال صاحب الكشاف : وإنما قال
عَدُوٌّ لِي ) تصويرا للمسألة في نفسه ، على معنى : أني فكرت في أمري فرأيت
عبادتي لها عبادة للعدو فاجتنبتها وآثرت عبادة الذي الخير كله منه ، وأراهم
بذلك أنها نصيحة نصح بها نفسها أولا ، وبنى عليها تدبير أمره ، لينظروا
فيقولوا : ما نصحنا إبراهيم إلا بما نصح به نفسه ، ليكون أدعى لهم إلى
القبول . ولو قال : فإنهم عدو لكم لم يكن بتلك المثابة ، ولأنه دخل في باب
من التعريض ، وقد يبلغ التعريض للمنصوح ما لا يبلغه التصريح ، لأنه يتأمل
- فيه ، فربما قاده التأمل إلى التقبل ومنه ما يحكى عن الشافعي - رحمه الله
. . . أن رجلا واجهه بشيء ، فقال : لو كنتُ بحيث أنت ، لاحتجتُ إلى الأدب :
. . وسمع رجل ناسا يتحدثون في الحِجْر فقال : ما هو بيتي ولا بيتكم

الذي خلقني فهو يهدين

كما فسرها الوسيط ثم حكى القرآن الكريم ، ما وصف به إبراهيم خالقه من صفات
كريمة تليق بجلاله - سبحانه - فقال : ( الذي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ )
أي : أخلص عبادتي لرب العالمين ، الذي أوجدني بقدرته ، والذي يهديني وحده
إلى ما يصلح شأني في دنياي وفي آخرتي .قال الجمل وقوله : ( الذي خَلَقَنِي
. يجوز فيه أوجه : النصب على النعت لرب العالمين أو البدل أو عطف البيان (
أو الرفع على الابتداء . وقوله ( فَهُوَ يَهْدِينِ ) جملة اسمية في محل .
. رفع خبر له

والذي هو يطعمني ويسقين

كما فسرها الوسيط وقوله : ( والذي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ) معطوف على ما قبله . أى : وهو - سبحانه - وحده الذى يطعمنى ويسقينى من فضله ، ولو شاء لأمسك عنى ذلك .

واذا مرضت فهو يشفين

كما فسرها الوسيط وأضاف المرض إلى نفسه في قوله ( وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ) وإن كان الكل من الله - تعالى - تأدبا مع خالقه - عز وجل - وشكرا له - سبحانه - على نعمة الخلق والهداية . والإطعام والإسقاء والشفاء .

والذي يميتني ثم يحيين

كما فسرها الوسيط والمراد بالإحياء فى قوله : ( والذي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ) إعادة الحياة إلى الميت يوم القيامة أى : ومن صفات رب العالمين الذى أخلص له العبادة ، أنه - سبحانه - الذى بقدرته وحده أن يميتنى عند حضور أجلى ، ثم يعيدنى إلى الحياة مرة أخرى يوم البعث والحساب .وجاء العطف ب ( ثُمَّ ) فى قوله ( يُحْيِينِ ) لاتساع الأمر بين الإماتة فى الدنيا والإحياء فى الآخرة .

والذي اطمع ان يغفر لي خطيئتي يوم الدين

كما فسرها الوسيط ثم ختم إبراهيم هذه الصفات الكريمة بقوله : ( والذي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدين ) أي : وهو وحده الذى - أطمع أن يغفر لى ذنوبى يوم ألقاه لأنه لا يقدر على ذلك أحد سواه - عز وجل - ، لأنه يوجه. وفى هذه الآية أسمى درجات الأدب من إبراهيم مع ربه - سبحانه طمعه فى المغفرة إليه وحده ، ويستعظم - عليه السلام - ما صدر منه من أمور قد تكون خلاف الأولى ، ويعتبرها خطايا ، هضما لنفسه ، وتعليما للأمة أن تجتنب المعاصى ، وأن تكون منها على حذر وأن تفوض رجاءها إلى الله - تعالى - وحده .

رب هب لي حكما والحقني بالصالحين

كما فسرها الوسيط وبعد أن أثنى إبراهيم - عليه السلام - على ربه بهذا الثناء الجميل ، أتبع ذلك بتلك الدعوات الخاشعات فقال : ( رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً ) أى : علما واسعا مصحوبا بعمل نافع .( وَأَلْحِقْنِي بالصالحين ) من عبادك الذين رضيت عنهم - ورضوا عنك ، بحيث ترافقنى بهم فى جنتك .

واجعل لي لسان صدق في الاخرين

كما فسرها الوسيط ( واجعل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخرين ) أى : واجعل لى ذكرا حسنا ، وسمعة طيبة ، وأثرا كريما فى الأمم الأخرى التى ستأتى من بعدى وقد أجاب - سبحانه - له هذه الدعوة ، فجعل أثره خالداً ، وجعل من ذريته الأنبياء والصالحين ، وعلى رأسهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

واجعلني من ورثة جنة النعيم

كما فسرها الوسيط ( واجعلني مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النعيم ) أى : واجعلنى فى الآخرة عندما ألقاك - يا ربى - للحساب ، من عبادك الذين أكرمتهم بدخول جنتك وبوراثتها فضلا منك وكرما .

واغفر لابي انه كان من الضالين

كما فسرها الوسيط ( واغفر لأبي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضآلين ) عن طريق الحق فإنى قد وعدته بأن استغفر له عندك - يا إلهى - .قال ابن كثير : وهذا مما ، رجع عنه إبراهيم - عليه السلام - كما قال - تعالى - : ( وَمَا كَانَ استغفار إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهُ حَلِيمٌ ) وقد قطع - تعالى - الإلحاق فى استغفاره لأبيه ، فقال : ( قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ في إِبْرَاهِيمَ والذين مَعَهُ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءآؤُاْ مِّنْكُمْ

وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا
وَبَيْنَكُمُ العداوة والبغضآء أَبَداً حتى تُؤْمِنُواْ بِاللهِ وَحْدَهُ
إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ
( . . لَكَ مِنَ اللهِ مِن شَيْءٍ

ولا تخزني يوم يبعثون

كما فسرها الوسيط ( وَلاَ تُخْزِنِي ) أى : ولا تفضحنى ( يَوْمَ
يُبْعَثُونَ ) أى : يوم تبعث عبادك فى الآخرة للحساب ، بل استرنى واجبرنى
وتجاوز عن تقصيرى .

يوم لا ينفع مال ولا بنون

كما فسرها الوسيط ( يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ ) من أحد لديك
.

الا من اتى الله بقلب سليم

كما فسرها الوسيط ( إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ) أى :
واسترنى - يا إلهى - ولا تفضحنى يوم القيامة ، يوم لا ينتفع الناس بشىء من
أموالهم ولا من أولادهم ، ولكنهم ينتفعون بإخلاص قلوبهم لعبادتك . بسلامتها
من كل شرك أو نفاق ، وبصيانتها من الشهوات المرذولة . والأفعال القبيحة
وهكذا نرى فى قصة إبراهيم : الشجاعة فى النطق بكلمة الحق ، حيث جابه قومه.
وأباه ببطلان عبادتهم للأصنام .ونرى الحجة الدامغة التى جعلت قومه لا يجدون
عذرا يعتذرون به عن عبادة الأصنام سوى قولهم : ( وَجَدْنَآ آبَآءَنَا
كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ) .ونرى الثناء الحسن الجميل منه على ربه - عز وجل -
الذي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ والذي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ) :
وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ) .ونرى الدعاء الخاشع الخالص الذى
يتضرع به إلى خالقه - عز وجل - ، لكى يرزقه العلم والعمل ، وبأن يحشره مع
الصالحين ، وأن يجعل له أثرا طيبا بعد وفاته بين الأمم الأخرى ، وبأن يجعله
من الوارثين لجنة النعيم ، وبأن يستره بستره الجميل يوم القيامة ، يوم لا
ينفع الناس شىء سوى إخلاص قلوبهم وعملهم الصالح ، وهى دعوات يرى المتأمل
فيها شدة خوف إبراهيم - وهو الحليم الأواه المنيب - من أهوال يوم الحساب
نسأل الله - تعالى - بفضله وكرمه ، أن جنبنا إياها ، وأن يسترنا بستره.
الجميل .

وازلفت الجنة للمتقين

كما فسرها الوسيط ثم يبين - سبحانه - بعد ذلك مشهدا من مشاهد يوم القيامة ،
ويحكى أقوال الغاوين وحسراتهم . . . فيقول : ( وَأُزْلِفَتِ . . . )
وقوله - سبحانه - : ( وَأُزْلِفَتِ الجنة . . . ) من الإزلاف بمعنى القرب.
والدنو .أى : وقربت الجنة يوم القيامة للمتقين ، الذين صانوا أنفسهم عن كل
مالا يرضاه الله - تعالى - ، وصارت بحيث يشاهدونها ويتلذذون برؤيتها .

وبرزت الجحيم للغاوين

كما فسرها الوسيط ( وَبُرِّزَتِ الجحيم لِلْغَاوِينَ ) أى : أما الغاوون
الذين استحبوا العمى على الهدى ، وآثروا الغواية على الهداية ، فقد برزت
الجحيم لهم بأهوالها وسعيرها ثم قيل لهؤلاء الكافرين على سبيل التقريع
والتأنيب .

وقيل لهم اين ما كنتم تعبدون

كما فسرها الوسيط ( وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ مِن
دُونِ الله ) أى : أين الآلهة التى كنتم تعبدونها فى الدنيا من دون الله -
تعالى - وتزعمون أنها شفعاؤكم عنده؟!

من دون الله هل ينصرونكم او ينتصرون

كما فسرها الوسيط ( هَلْ يَنصُرُونَكُمْ ) الآن من هذا العذاب المعد لكم
أَوْ يَنتَصِرُونَ ) هم من العذاب الذى سيحل بهم معكم؟كلا ثم كلا ، إنكم
وهم حصب جهنم ، وستدخلونها جميعا خاسئين .وليس المقصود بالسؤال الاستفهام ،
وإنما المقصود به التقريع والتوبيخ ، ولذا لا يحتاج إلى جواب .

فكبكبوا فيها هم والغاوون

كما فسرها الوسيط ثم ذكر - سبحانه - ما حل بهؤلاء الأشقياء من عذاب في أعقاب هذا التأنيب فقال : ( فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ والغاوون وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ) .والكبكبة : تكرير الكب ، وهو الإلقاء على الوجه - مرة بعد أخرى ، وضمير الجمع للآلهة التى عبدها الكافرون من دون الله تعالى - : وجىء بضمير العقلاء على سبيل التهكم بهم ، أى : فألقى المعبودون والعابدون فى جهنم ، ومعهم جنود إبليس كلهم سواء أكانوا من الشياطين أم من أتباعه من الجن والإنس .وفى التعبير بكبكبوا تصوير صادق مؤثر لحالة هؤلاء الضالين ، وهم يتساقطون - والعياذ بالله - فى جهنم ، بلا رحمة ، ولا عناية ولا نظام ، بل بعضهم فوق بعض وقد تناثرت أشلاؤهم .

وجنود ابليس اجمعون

`<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html} كما فسرها الوسيط

ثم ذكر - سبحانه - ما حل بهؤلاء الأشقياء من عذاب فى أعقاب هذا التأنيب فقال : ( فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ والغاوون وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ) .والكبكبة : تكرير الكب ، وهو الإلقاء على الوجه مرة بعد أخرى ، وضمير الجمع للآلهة التى عبدها الكافرون من دون الله - تعالى - : وجىء بضمير العقلاء على سبيل التهكم بهم ، أى : فألقى المعبودون والعابدون فى جهنم ، ومعهم جنود إبليس كلهم سواء أكانوا من الشياطين أم من أتباعه من الجن والإنس .وفى التعبير بكبكبوا تصوير صادق مؤثر لحالة هؤلاء الضالين ، وهم يتساقطون - والعياذ بالله - فى جهنم ، بلا رحمة ، ولا عناية ولا نظام ، بل بعضهم فوق بعض وقد تناثرت أشلاؤهم .

قالوا وهم فيها يختصمون

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما قاله الغاوون لآلهتهم فقال : قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ تالله إِن كُنَّا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ العالمين ) .أى : قال العابدون لمعبوديهم على سبيل المخاصمة لهم ، والتبرؤ منهم : تالله ما كنا إلا فى ضلال مبين ، وقت أن كنا فى الدنيا نسويكم برب العالمين فى العبادة مع أنكم خلق من خلقه لا تضرون ولا تنفعون .

تالله ان كنا لفي ضلال مبين

`<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html} كما فسرها الوسيط

ثم بين - سبحانه - ما قاله الغاوون لآلهتهم فقال : ( قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ تالله إِن كُنَّا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ العالمين ) .أى : قال العابدون لمعبوديهم على سبيل المخاصمة لهم ، والتبرؤ منهم : تالله ما كنا إلا فى ضلال مبين ، وقت أن كنا فى الدنيا نسويكم برب العالمين فى العبادة مع أنكم خلق من خلقه لا تضرون ولا تنفعون .

اذ نسويكم برب العالمين

`<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html} كما فسرها الوسيط

ثم بين - سبحانه - ما قاله الغاوون لآلهتهم فقال : ( قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ تالله إِن كُنَّا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ العالمين ) .أى : قال العابدون لمعبوديهم على سبيل المخاصمة لهم ، والتبرؤ منهم : تالله ما كنا إلا فى ضلال مبين ، وقت أن كنا فى الدنيا نسويكم برب العالمين فى العبادة مع أنكم خلق من خلقه لا تضرون ولا تنفعون .

وما اضلنا الا المجرمون

كما فسرها الوسيط ( وَمَآ أَضَلَّنَآ ) عن اتباع طريق الحق ( إِلاَّ المجرمون ) من شياطين الإنس والجن ، الذين زينوا لنا الكفر والفسوق والعصيان ، وصدونا عن الإيمان والطاعة والهداية .

فما لنا من شافعين

كما فسرها الوسيط ( فَمَا لَنَا ) اليوم ) ( مِن شَافِعِينَ ) يشفعون لنا عند ربنا .

ولا صديق حميم

كما فسرها الوسيط وما لنا - أيضا - من ( صَدِيقٍ حَمِيمٍ ) أى : مخلص فى صداقته ، يدافع عنا عند ربنا ، ويهتم بأمرنا فى هذا الموقف العصيب .قال الآلوسى ، والمراد التلهف والتأسف على فقد شفيع يشفع لهم مما هم فيه ، أو - صديق شفيق يهمه ذلك . وقد ترقوا لمزيد انحطاط حالهم فى التأسف ، حيث نفوا - أولا - أن يكون لهم من ينفعهم في تخليصهم من العذاب بشفاعته ، ونفوا . ثانيا - أن يكون لهم من يهمه أمرهم ويشفق عليهم ، ويتوجع لهم ، أو يخلصهم

فلو ان لنا كرة فنكون من المؤمنين

كما فسرها الوسيط و ( لَوْ ) فى قوله - تعالى - ( فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً . . . ) للتمنى الدال على كمال التحسر . والكرة : الرجعة إلى الدنيا مرة أخرى لتدارك ما فاتهم من الإيمان .أى : فياليت لنا عودة إلى الدنيا مرة أخرى ، فنستدرك ما فاتنا من طاعة الله - تعالى ( فَنَكُونَ مِنَ المؤمنين ) الذين أزلفت الجنة لهم ، وأبعدت عنهم النار التى نحن مخلدون فيها .

ان في ذلك لاية وما كان اكثرهم مؤمنين

- كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - قصة إبراهيم بما ختم به قصة موسى عليهما السلام - فقال : ( إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ . . . ) .

وان ربك لهو العزيز الرحيم

كما فسرها الوسيط إن فى ذلك الذى ذكرناه لك - أيها الرسول الكريم - عن حال إبراهيم مع قومه ومع أبيه ، وعن أهواليوم القيامة ، إن ذلك كله لحجة وعظة لمن أراد أن يؤمن ويعتبر ، ومع ذلك فإن أكثر قوم إبراهيم ما كانوا مؤمنين ( وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العزيز الرحيم ) .

كذبت قوم نوح المرسلين

، كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك جانبا من قصة نوح مع قومه فقال - تعالى - : ( كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ . . . ) .تلك هى قصة نوح مع قومه ، كما وردت فى هذه السورة ، وقد ذكرت فى سور أخرى منها سور : الأعراف وهود ، والمؤمنون ، ونوح . . . ولكن بأساليب أخرى .وينتهى نسب نوح - عليه السلام - إلى شيث بن آدم ، وقد ذكر نوح فى القرآن فى ثلاث وأربعين موضعا وكان قوم نوح يعبدون الأصنام ، فأرسل الله - تعالى - إليهم نوحا ، ليدلهم على طريق الرشاد .وقوم الرجل : أقرباؤه الذين يجتمعون معه فى جد واحد . وقد يقيم الرجل بين الأجانب فيسميهم قومه مجازا لمجاورته لهم .قال الآلوسى : والقوم - كما فى المصباح - يذكر ويؤنث ، وكذلك كل اسم جمع لا واحد له من فظه نحو رهط ونفر ، ولذا يصغر على قويمة ، وقيل : هو مذكر ولحقت فعله علامة التأنيث على إرادة الأمة والجماعة منه . .والمراد بالمرسلين فى قوله - تعالى - : ( كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ المرسلين ) نبيهم نوحا - عليه السلام - وعبر عنه بذلك ، لأن تكذيبهم له ، بمثابة التكذيب لجميع الرسل ، لأنهم قد جاءوا جميعا برسالة واحدة فى أصولها التى لا تختلف باختلاف الزمان والمكان .

اذ قال لهم اخوهم نوح الا تتقون

كما فسرها الوسيط و ( إِذْ ) فى قوله - تعالى - : ( إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ ) أى : كذبوا نبيهم نوحا وقت أن قال لهم ناصحا ومنذرا ( أَلاَ تَتَّقُونَ ) أى : ألا تتقون الله - تعالى - الذى خلقكم ورزقكم ، فتخلصوا له العبادة وتتركوا عبادة غيره .

اني لكم رسول امين

كما فسرها الوسيط ووصفه - سبحانه - بالأخوة لهم ، لأنه كان واحدا منهم يعرفون حسبه ونسبه ونشأته بينهم .ثم علل نصحه لهم بقوله - كما حكى القرآن

- عنه ى- : ( إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ) آمركم بتقوى الله - تعالى
لأنى رسول معروف بينكم بالأمانة وعدم الخيانة أو الغش أو المخادعة .

فاتقوا الله واطيعون

كما فسرها الوسيط وما دام أمرى كذلك . ( فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ وَمَآ
أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ ) أى على هذا النصح ( مِنْ أَجْرٍ ) دنيوى ( إِنْ
أَجْرِيَ ) فيما أدعوكم إليه ( إِلاَّ على رَبِّ العالمين ) فهو الذى
أرسلنى إليكم ، وهو الذى يتفضل بمنحى أجرى لا أنتم .ولقد بينت لكم حقيقة
أمرى ( فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ ) .وهكذا نرى أن نوحا قد سلك مع قومه أحكم
الطرق فى دعوتهم إلى الله ، فهو يحضهم ثلاث مرات على تقوى الله بعد أن يبين
لهم أخوته لهم ، وأمانته عندهم ، وتعففه عن أخذ أجر منهم فى مقابل ما
يدعوهم إليه من حق وخير ، ومصارحته إياهم بأن أجره إنما هو من الله رب
العالمين ، وليس من أحد سواه .

وما اسالكم عليه من اجر ان اجري الا على رب العالمين

كما فسرها الوسيط وما دام أمرى كذلك . ( فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ وَمَآ
أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ ) أى على هذا النصح ( مِنْ أَجْرٍ ) دنيوى ( إِنْ
أَجْرِيَ ) فيما أدعوكم إليه ( إِلاَّ على رَبِّ العالمين ) فهو الذى
أرسلنى إليكم ، وهو الذى يتفضل بمنحى أجرى لا أنتم .

فاتقوا الله واطيعون

كما فسرها الوسيط ولقد بينت لكم حقيقة أمرى ( فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ )
وهكذا نرى أن نوحا قد سلك مع قومه أحكم الطرق فى دعوتهم إلى الله ، فهو.
يحضهم ثلاث مرات على تقوى الله بعد أن يبين لهم أخوته لهم ، وأمانته عندهم
وتعففه عن أخذ أجر منهم فى مقابل ما يدعوهم إليه من حق وخير ، ومصارحته ،
إياهم بأن أجره إنما هو من الله رب العالمين ، وليس من أحد سواه .

قالوا انؤمن لك واتبعك الارذلون

كما فسرها الوسيط فماذا كان ردهم على هذا القول الحكيم لنبيهم؟ لقد حكى
القرآن ردهم فقال : ( قالوا أَنُؤْمِنُ لَكَ واتبعك الأرذلون ) .والأرذلون
جمع الأرذل . وهو الأقل من غيره فى المال والجاه والنسب .أى : قال قوم :
، نوح له عندما دعاهم إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - : يا نوح أنؤمن لك
والحال أن الذين اتبعوك من سفلة الناس وفقرائهم ، وأصحاب الحرف الدنيئة
فينا .. ؟وهذا المنطق المرذول قد حكاه القرآن فى كثير من آياته ، على ألسنة
المترفين ، وهم يردون على أنبيائهم عندما يدعونهم إلى الدين الحق . .

قال وما علمي بما كانوا يعملون

كما فسرها الوسيط وهنا يرد عليهم نوح ردا حكيما قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا
كَانُواْ يَعْمَلُونَ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ على رَبِّي ) .أى : قال لهم
على سبيل الاستنكار لما واجهوه به : وأى علم لى بأعمال أتباعى ، إن الذى
يعلم حقيقة نواياهم وأعمالهم هو الله - تعالى - أما أنا فوظيفتى قبول أعمال
الناس على حسب ظواهرها .

ان حسابهم الا على ربي لو تشعرون

كما فسرها الوسيط وهؤلاء الضعفاء - الأرذلون فى زعمكم - ليس حسابهم إلا على
الله - تعالى - وحده ، فهو أعلم ببواطنهم وبأحوالهم منى ومنكم ( لَوْ
تَشْعُرُونَ ) أى : لو كنتم من أهل الفهم والشعور بحقائق الأمور لا بزيفها
لعلمتم سلامة ردى عليكم ولكنكم قوم تزنون الناس بميزان غير عادل ، لذا ،
قلتم ما قلتم .

وما انا بطارد المؤمنين

كما فسرها الوسيط ثم يحسم الأمر معهم فى هذه القضية فيقول : ( وَمَآ أَنَاْ
بحال من الأحوال ( بِطَارِدِ المؤمنين ) الذين اتبعونى وصدقونى وآمنوا (
بدعوتى سواء أكانوا من الأرذلين - فى زعمكم - أم من غيرهم .

ان انا الا نذير مبين

كما فسرها الوسيط ( إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ) أى : ليست وظيفتى إلا الإنذار الواضح للناس بسوء المصير ، إذا ما استمروا على كفرهم ، سواء أكانوا من الأغنياء أم من الفقراء .فأنت ترى أن نوحا - عليه السلام - قد جمع فى رده عليهم ، بين المنطق الرصين الحكيم ، وبين الحزم والشجاعة والزجر الذى يخرس ألسنتهم .

قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين

كما فسرها الوسيط لذا نراهم وقد أخرسهم المنطق المستقيم الذى سلكه نوح معهم يلجأون إلى التهديد والوعيد لنبيهم - عليه السلام - : ( قَالُواْ لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهِ يانوح لَتَكُونَنّ مِنَ المرجومين ) .أى : إذا لم تكف يا نوح عن مجادلتك لنا ، ومن دعوتك إيانا إلى ترك عبادة آلهتنا ، لنكونن من المرجومين منا بالحجارة حتى تموت .وهكذا الطغاة يلجأون إلى القوة والتهديد ، والوعيد ، عندما يجدون أنفسهم وقد حاصرهم أصحاب الحق من كل جوانبهم بالحجة الواضحة ، وبالرأى السديد .

قال رب ان قومي كذبون

كما فسرها الوسيط ويئس نوح - عليه السلام - من إيمان قومه ، بعد أن لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، وبعد أن سمع منهم ما يدل على رسوخهم فى الكفر والضلال ، تضرع إلى ربه ( قَالَ رَبِّ إِنّ قَوْمِي كَذّبُونِ ) واستمروا على ها التكذيب تلك القرون المتطاولة .

فافتح بيني وبينهم فتحا ونجني ومن معي من المؤمنين

كما فسرها الوسيط ( فافتح بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجّنِي وَمَن مّعِي مِنَ المؤمنين ) أى فاحكم بقدرتك العادلة بينى وبينهم حكما من عندك تنجى به أهل الحق ، وتمحق به أهل الباطل .وسمى الحكم فتحا ، لما فيه من إزالة الإشكال فى الأمر ، كما أن فتح الشىء المغلق يؤدى إلى إزالة هذا الإغلاق . ولذا قيل للحاكم فاتح لفتحه أغلاق الحق .

فانجيناه ومن معه في الفلك المشحون

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - أنه قد استجاب لنوح دعاءه فقال : ( فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مّعَهُ فِي الفلك المشحون ثُمّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الباقين ) .والفلك - كما يقول الآلوسى - : يستعمل للواحد وللجمع . وحيث أتى فى القرآن الكريم فاصلة استعمل مفردا . وحيث أتى غير فاصلة استعمل جمعا والمشحون : المملوء بهم وبكل ما يحتاجون إليه من وسائل المعيشة .أى : فاستجبنا لعبدنا نوح دعاءه . فأنجيناه ومن معه من المؤمنين فى السفينة المملوءة بهم ، وبما هم فى حاجة إليه .

ثم اغرقنا بعد الباقين

كما فسرها الوسيط ثم أغرقنا بعد إنجائهم الباقين من قومه على كفرهم وضلالهم .

ان في ذلك لاية وما كان اكثرهم مؤمنين

كما فسرها الوسيط ( إِنّ فِي ذَلِكَ ) الذى ذكرناه لك - أيها الرسول الكريم - عن نوح وقومه ( لآيَةً ) كبرى على وحدانيتنا وقدرتنا ( وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مّؤْمِنِينَ وَإِنّ رَبّكَ لَهُوَ العزيز الرحيم ) .

وان ربك لهو العزيز الرحيم

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html}

الذى ذكرناه لك - أيها الرسول الكريم - عن نوح وقومه ( إِنّ فِي ذَلِكَ ) كبرى على وحدانيتنا وقدرتنا ( وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم ( لآيَةً ) مّؤْمِنِينَ وَإِنّ رَبّكَ لَهُوَ العزيز الرحيم ) .

كذبت عاد المرسلين

- كما فسرها الوسيط ثم ساقت السورة الكريمة بعد ذلك ، جانبا من قصة هود عليه السلام - مع قومه فقال - تعالى - : ( كَذّبَتْ عَادٌ المرسلين . . .

، قد وردت قصة هود مع قومه فى سور شتى منها : سورة الأعراف ، وهود. ( .
- والأحقاف . . وينتهى نسب هود - عليه السلام - إلى نوح - عليهما السلام
وقومه هم قبيلة عاد - نسبة إلى أبيهم الذى كان يسمى بهذا الاسم - وكانت.
- مساكنهم بالأحقاف باليمن - والأحقاف جمع حقف وهو الرمل الكثير المائل
وكانوا يعبدون الأصنام ، فأرسل الله - تعالى - نبيهم هودا لينهاهم عن ذلك.
وليأمرهم بعبادة الله وحده . وبشكره - سبحانه - على ما وهبهم من قوة وغنى ،
.

اذ قال لهم اخوهم هود الا تتقون

كما فسرها الوسيط وقد افتتح هود نصحه لقومه ، بحضهم على تقوى الله وإخلاص
العبادة له وبيان أنه أمين فى تبليغ رسالة الله - تعالى - إليهم ، فهو لا
. يكذب عليهم ولا يخدعهم

اني لكم رسول امين

`<!-- TODO:MISSING -->`{=html} كما فسرها الوسيط

فاتقوا الله واطيعون

`<!-- TODO:MISSING -->`{=html} كما فسرها الوسيط

وما اسالكم عليه من اجر ان اجري الا على رب العالمين

كما فسرها الوسيط وببيان أنه لا يسألهم أجرا على نصحه لهم ، وإنما يلتمس
- الأجر من الله - تعالى - وحده .وقد سلك فى ذلك المسلك الذى اتبعه جده
. عليه السلام - مع قومه ، وسار عليه الأنبياء من بعده

اتبنون بكل ريع اية تعبثون

كما فسرها الوسيط ثم استنكر هود - عليه السلام - ما كان عليه قومه من ترف
وطغيان فقال لهم : ( أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ )
والريع بكسر الراء - جمع ريعة . وهو المكان المرتفع من الأرض أو الجبل.
المرتفع . . . وقيل : المراد به أبراج الحمام كانوا يبنونها للهو واللعب
والأكثرون على أن المراد به : المكان المرتفع ومنه : ريع النبات ، وهو
ارتفاعه بالزيادة .أى : أتبنون - على سبيل اللهو واللعب - فى كل مكان مرتفع
. بناء يعتبر آية وعلامة على عبثكم وترفكم ، وغروركم ،

وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون

: كما فسرها الوسيط ( وَتَتَّخِذُونَ ) أى : وتعملون ( مَصَانِعَ ) أى
قصورا ضخمة متينة ، أو حياضا تجمعون فيها مياه الأمطار . . . ( لَعَلَّكُمْ
. تَخْلُدُونَ ) أى : عاملين عمل من يرجو الخلود فى هذه الحياة الفانية

واذا بطشتم بطشتم جبارين

كما فسرها الوسيط ( وَإِذَا بَطَشْتُمْ ) أى : وإذا أردتم السطو والظلم
والبغى على غيركم ( بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ) .أى : أخذتموه بعنف وقهر
وتسلط دون أن تعرف الرحمة إلى قلوبكم سبيلا .فأنت ترى أن هودا - عليه
السلام - قد استنكر على قومه تطاولهم فى البنيان بقصد التباهى والعبث
والتفاخر ، لا بقصد النفع العام لهم ولغيرهم . كما استنكر عليهم انصرافهم
عن العمل الصالح الذى ينفعهم فى آخرتهم وانهماكهم فى التكاثر من شئون
، دنياهم حتى لكأنهم مخلدون فيها ، كما استنكر عليهم - كذلك - قسوة قلوبهم
. وتحجر مشاعرهم ، وإنزالهم الضربات القاصمة بغيرهم بدون رأفة أو شفقة

فاتقوا الله واطيعون

كما فسرها الوسيط وبعد نهيه إياهم عن تلك الرذائل ، أمرهم بتقوى الله
وطاعته وشكره على نعمه فقال : ( فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ واتقوا الذي
أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ
وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ إني أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ) .أى
اتركوا هذه الرذائل ، واتقوا الله وأطيعون فى كل ما أمركم به . أو أنهاكم :
. عنه ، واتقوا الله - تعالى

واتقوا الذي امدكم بما تعلمون

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

امدكم بانعام وبنين

كما فسرها الوسيط الذى أمدكم بألوان لا تحصى من النعم ، فقد أمدكم بالأنعام - وهى الإبل والبقر والغنم - التى هى أعز أموالكم ، وأمدكم بالأولاد ليكونوا قوة لكم .

وجنات وعيون

كما فسرها الوسيط وأمدكم بالبساتين العامرة بالثمار ، وبالعيون التى تنتفعون بمائها العذب .

اني اخاف عليكم عذاب يوم عظيم

كما فسرها الوسيط ثم ختم إرشاده لهم ، ببيان أنه حريص على مصلحتهم ، وأنه يخشى عليهم إذا لم يستجيبوا لدعوته أن ينزل بهم عذاب عظيم فى يوم تشتد أهواله ولا تنفعهم فيه أموالهم ولا أولادهم .نرى أن هودا - عليه السلام - قد جمع فى نصحه لقومه بين الترهيب والترغيب ، وبين الإنذار والتبشير ، وبين التعفف عن دنياهم ، والحرص على مصلحتهم .

قالوا سواء علينا اوعظت ام لم تكن من الواعظين

كما فسرها الوسيط ولكن هذه النصائح الحكيمة ، لم يستقبلها قومه استقبالا حسنا ، ولم تجد منهم قبولا ، بل كان ردهم عليه - كما حكى القرآن عنهم - : ( قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِّنَ الواعظين ) أى : قال قوم هود له بعد أن وعظهم ونصحهم : قالوا له بكل استهتار وسوء أدب. يا هود يستوى عندنا وعظك وعدمه ، ولا يعنينا أن تكون ممن يجيدون الوعظ أو : " من غيرهم ممن لا يحسنون الوعظ والإرشاد .قال صاحب الكشاف : فإن قيل : أوعظت أو لم تعظ " كان أخصر . والمعنى واحد .قلت : ليس المعنى بواحد وبينهما فرق ، لأن المراد : سواء علينا أفعلت هذا الفعل الذى هو الوعظ ، أم لم تكن أصلا من أهله ومباشريه ، فهو أبلغ فى قلة اعتدادهم بوعظه ، من قولك : أم لم تعظ .

ان هذا الا خلق الاولين

كما فسرها الوسيط ثم أضافوا إلى قولهم هذا قولا آخر لا يقل عن سابقه فى الغرور وانطماس البصيرة فقالوا : ( إِنْ هذا إِلاَّ خُلُقُ الأولين ) أى : ما هذا الذى تنهانا عنه من التطاول فى البنيان ، ومن اتخاذ المصانع . . إلا خلق آبائنا الأولين ، ومنهجهم فى الحياة ، ونحن على آثارهم نسير وعلى منهجهم نمشى .قال القرطبى ما ملخصه : قرأ أكثر القراء ( إِلاَّ خُلُقُ الأولين ) - بضم الخاء واللام - أى : عادتهم ودينهم ومذهبهم وما جرى عليه أمرهم . . .وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائى إلا خلق الأولين - بفتح الخاء وإسكان اللام - أى : ما هذا الذى جئتنا به يا هود إلا اختلاق الأولين وكذبهم ، والعرب تقول : حدثنا فلان بأحاديث الخلق ، أى : بالخرافات والأحاديث المفتعلة .وعلى كلتا القراءاتين فالآية الكريمة تصور ما كانوا عليه من تحجر وجهالة تصويرا بليغا .

وما نحن بمعذبين

كما فسرها الوسيط ثم انتقلوا بعد ذلك إلى غرور أشد واشنع فقالوا : ( وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ) .أى : هذه : حالنا التى ارتضيناها لحياتنا ، وما نحن بمعذبين على هذه الأعمال التى نعملها .وهكذا رد قوم هود على نبيهم - عليه السلام - بهذا الرد السيىء الذى يدل على استهتارهم وجفائهم وجمودهم على باطلهم .

فكذبوه فاهلكناهم ان في ذلك لاية وما كان اكثرهم مؤمنين

كما فسرها الوسيط ولذا جاءت نهايتهم الأليمة بسرعة وحسم ، قال - تعالى - : ( فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ) أى : أصر قوم هود على باطلهم وغرورهم فأهلكناهم ( وَأَمَا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً

( فَتَرَى القوم فِيهَا صرعى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ
أهكلهم الله - تعالى - دون أن تنفعهم أموالهم ، أو قوتهم التى كانوا يدلون
بها ويقولون : ( مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ).وختم - سبحانه - قصتهم بما
ختم به قصة نوح مع قومه من قبلهم ، فقال - تعالى - : ( إِنَّ فِي ذَلِكَ
لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ
العزيز الرحيم ) .

وان ربك لهو العزيز الرحيم

`<!-- TODO:MISSING -->`{=html} كما فسرها الوسيط

كذبت ثمود المرسلين

- كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك قصة صالح مع قومه ، فقال
تعالى - : ( كَذَّبَتْ ثَمُودُ المرسلين . . . ) .قد وردت قصة صالح مع قومه
فى سور أخرى منها الأعراف ، هود ، والنمل ، والقمر . . وثمود اسم للقبيلة
التى ارسل إليها صالح - لكى يأمرهم بعبادة الله وحده .وما زالت مساكنهم
، تعرف إلى الآن بمدائن صالح ، فى المنطقة التى بين المدينة المنورة والشام
. وقد مر النبى صلى الله عليه وسلم على ديارهم وهو متوجه إلى غزوة تبوك

اذ قال لهم اخوهم صالح الا تتقون

كما فسرها الوسيط وقد نصح صالح قومه ، بما نصح به هود ونوح قومهما من قبله
.

اني لكم رسول امين

`<!-- TODO:MISSING -->`{=html} كما فسرها الوسيط

فاتقوا الله واطيعون

. كما فسرها الوسيط فقد أمرهم بتقوى الله وصارحهم بصدقه معهم

وما اسالكم عليه من اجر ان اجري الا على رب العالمين

. كما فسرها الوسيط وبتعففه عن تعاطى الأجر على نصحه لهم

اتتركون في ما هاهنا امنين

كما فسرها الوسيط ثم وعظهم بما يرقق القلوب ، وبما يحمل العقلاء على شرك
الله - تعالى - على نعمه فقال لهم : ( أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَآ
آمِنِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ
. . ) والاستفهام للإنكار . والطلع : اسم من الطلوع وهو الظهور ، وأصله ثمر
النخل فى أول ما يطلع ، وهو بعد التلقيح يسمى خلالا - بفتح الخاء - ثم يصير
بسرا ، فرطبا ، فتمرا .والهضيم : اليانع والنضيج ، أو الرطب اللين اللذيذ
الذى تداخل بعضه فى بعض وهو وصف للطلع الذى قصد به الثمار الناضجة الطيبة
لصيرورته إليها .والمعنى : أتظنون أنكم متروكون بدون حساب أو سؤال من
خالقكم - عز وجل - وأنتم تتقلبون فى نعمه التى منها ما أنتم فيه من بساتين
، وأنهار وزروع كثيرة متنوعة .إن كنتم تظنون ذلك ، فأقلعوا عن هذا الظن
واعتقدوا بأنكم أنتم وما بين أيديكم من نعم ، إلى زوال ، وعليكم أن تخلصوا
لخالقكم العبادة والشكر لكى يزيدكم من فضله . .فأنت ترى أن - صالحا - عليه
السلام قد استعمل مع قومه أرق ألوان الوعظ ، لكى يوقظ قلوبهم الغافلة ، نحو
طاعة الله - تعالى - وشكره ، وقد استعمل فى وعظه لفت أنظارهم إلى ما
يتقلبون فيه من نعم تشمل البساتين والعيون ، الزروع المتعددة ، والنخيل
الجيدة الطلع ، اللذيذة الطعم ، حتى لكأن ثمرها لجودته ولينه ، لا يحتاج
. إلى هضم فى البطون

في جنات وعيون

`<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html} كما فسرها الوسيط

ثم وعظهم بما يرقق القلوب ، وبما يحمل العقلاء على شرك الله - تعالى - على
نعمه فقال لهم : ( أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَآ آمِنِينَ فِي جَنَّاتٍ
وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ . . ) .والاستفهام للإنكار

، والطلع : اسم من الطلوع وهو الظهور ، وأصله ثمر النخل فى أول ما يطلع .
وهو بعد التلقيح يسمى خلالا - بفتح الخاء - ثم يصير بسرا ، فرطبا ، فتمرا
والهضيم : اليانع والنضيج ، أو الرطب اللين اللذيذ الذى تداخل بعضه فى بعض.
وهو وصف للطلع الذى قصد به الثمار الناضجة الطيبة لصيرورته إليها .والمعنى
أتظنون أنكم متروكون بدون حساب أو سؤال من خالقكم - عز وجل - وأنتم :
تتقلبون فى نعمه التى منها ما أنتم فيه من بساتين وأنهار وزروع كثيرة
متنوعة .إن كنتم تظنون ذلك ، فأقلعوا عن هذا الظن ، واعتقدوا بأنكم أنتم
وما بين أيديكم من نعم ، إلى زوال ، وعليكم أن تخلصوا لخالقكم العبادة
والشكر لكى يزيدكم من فضله . .فأنت ترى أن - صالحا - عليه السلام قد استعمل
- مع قومه أرق ألوان الوعظ ، لكى يوقظ قلوبهم الغافلة ، نحو طاعة الله
تعالى - وشكره ، وقد استعمل فى وعظه لفت أنظارهم إلى ما يتقلبون فيه من نعم
تشمل البساتين والعيون ، الزروع المتعددة ، والنخيل الجيدة الطلع ، اللذيذة
. الطعم ، حتى لكأن ثمرها لجودته ولينه ، لا يحتاج إلى هضم فى البطون

وزروع ونخل طلعها هضيم

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html}

ثم وعظهم بما يرقق القلوب ، وبما يحمل العقلاء على شرك الله - تعالى - على
نعمه فقال لهم : ( أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَآ آمِنِينَ فِي جَنَّاتٍ
وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ . . ) .والاستفهام للإنكار
، والطلع : اسم من الطلوع وهو الظهور ، وأصله ثمر النخل فى أول ما يطلع .
وهو بعد التلقيح يسمى خلالا - بفتح الخاء - ثم يصير بسرا ، فرطبا ، فتمرا
والهضيم : اليانع والنضيج ، أو الرطب اللين اللذيذ الذى تداخل بعضه فى بعض.
وهو وصف للطلع الذى قصد به الثمار الناضجة الطيبة لصيرورته إليها .والمعنى
أتظنون أنكم متروكون بدون حساب أو سؤال من خالقكم - عز وجل - وأنتم :
تتقلبون فى نعمه التى منها ما أنتم فيه من بساتين وأنهار وزروع كثيرة
متنوعة .إن كنتم تظنون ذلك ، فأقلعوا عن هذا الظن ، واعتقدوا بأنكم أنتم
وما بين أيديكم من نعم ، إلى زوال ، وعليكم أن تخلصوا لخالقكم العبادة
والشكر لكى يزيدكم من فضله . .فأنت ترى أن - صالحا - عليه السلام قد استعمل
- مع قومه أرق ألوان الوعظ ، لكى يوقظ قلوبهم الغافلة ، نحو طاعة الله
تعالى - وشكره ، وقد استعمل فى وعظه لفت أنظارهم إلى ما يتقلبون فيه من نعم
تشمل البساتين والعيون ، الزروع المتعددة ، والنخيل الجيدة الطلع ، اللذيذة
. الطعم ، حتى لكأن ثمرها لجودته ولينه ، لا يحتاج إلى هضم فى البطون

وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين

كما فسرها الوسيط ثم ذكرهم بنعمة أخرى ، وكرر عليهم الأمر بتقوى الله فقال
وَتَنْحِتُونَ مِنَ الجبال بُيُوتاً فَارِهِينَ فاتقوا اللهَ ) :
وَأَطِيعُونِ ) .وقوله : ( وَتَنْحِتُونَ ) معطوف على ( أَتُتْرَكُونَ )
فهو داخل فى حيز الإنكار عليهم ، لعدم شكرهم لله - تعالى - والنحت : البرى
يقال : نحت فلان الحجر نحتا إذا براه وأعده للبناء .و (فَارِهِينَ ) أى .
ماهرين حاذقين فى نحتها . من فره - ككرم - فراهة . إذا برع فى فَعل الشىء :
) : وعرف غوامضه ودقائقه .قال القرطبى : وقرأ ابن كثير وابو عمرو ،
فَارِهِينَ ) بغير ألف في الفاء . وهى بمعنى واحد . . وفرق بينهما قوم
فَقَالوا : ( فَارِهِينَ ) أى حاذقين فى تحتها . . . وفرهين - بغير ألف - أى
أشرين بطرين فرهين . .أى : وأنهاكم - أيضا - عن انهماككم فى نحت الحجارة :
، من الجبال بمهارة وبراعة ، لكى تبنوا بها بيوتا وقصورا بقصد الأشر والبطر
لا يقصد الإصلاح والشكر لله - فمحل النهى إنما هو قصد الأشر والبطر فى
. البناء وفى النحت

فاتقوا الله واطيعون

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

ولا تطيعوا امر المسرفين

كما فسرها الوسيط ثم نهاهم عن طاعة المفسدين فى الأرض بعد أن أمرهم بتقوى
الله فقال : ( وَلاَ تطيعوا أَمْرَ المسرفين الذين يُفْسِدُونَ فِي الأرض
وَلاَ يُصْلِحُونَ ) .أى : اجعلوا طاعتكم لله - تعالى - وحده ، ولى بصفتى
رسوله إليكم ، واتركوا طاعة زعمائكم وكبرائكم المسرفين فى إصرارهم على
الكفر والجحود والذين من صفاتهم أنهم يفسدون فى الأرض فسادا لا يخالطه
إصلاح .قال الآلوسى : قوله : ( وَلاَ تطيعوا أَمْرَ المسرفين . . ) كأنه
عنى بالخطاب جمهور قومه . وبالمسرفين كبراءهم فى الكفر والإضلال . وكانوا

. . تسعة رهط . . . والإسراف : تجاوز الحد فى كل أمر

الذين يفسدون في الارض ولا يصلحون

: كما فسرها الوسيط والمراد به هنا : زيادة الفساد . . . والمراد بالأرض
أرض نمود . وقيل : الأرض كلها .ولما كان قوله ( يُفْسِدُونَ ) لا ينافى
إصلاحهم أحيانان أردفه بقوله - تعالى - : ( وَلاَ يُصْلِحُونَ ) لبيان كمال
. إفسادهم . وأنه لم يخالطه إصلاح أصلا

قالوا انما انت من المسحرين

كما فسرها الوسيط ولكن هذا النصح الحكيم من صالح لقومه ، لم يقابل منهم
بأنذ صاغية ، بل قابلوه بالتطاول والاستهتار وإنكار رسالته ( قالوا
إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ المسحرين مَآ أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ
بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ) .أى : قال قوم صالح له : أنت لست إلا من
. الذين غلب عليهم السحر ، وأثر فى عقولهم ، فصاروا يتكلمون بكلام المجانين

ما انت الا بشر مثلنا فات باية ان كنت من الصادقين

. كما فسرها الوسيط وما أنت - أيضا - إلا بشر مثلنا تأكل الطعام كما نأكل
وتشرب الشراب كما نشرب . . . فإن كنت رسولا حقا فأتنا بعلامة ومعجزة تدل
على صدقك فى دعواك الرسالة وكأنهم - لجهلهم وانطماس بصائرهم - يرون أن
- البشرية تتنافى مع النبوة والرسالة ، وتضرع صالح - عليه السلام - إلى ربه
. عز وجل - أن يمنحه معجزة لعلها تكون سببا فى هداية قومه

قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم

كما فسرها الوسيط وأجاب الله - تعالى - تضرعه ، فقال - سبحانه - : ( قَالَ
هذه نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ وَلاَ
تَمَسُّوهَا بسواء فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ) .قال ابن كثير
ثم إنهم اقترحوا عليه آية يأتيهم بها ، ليعلموا صدقه بما جاءهم به من :
ربهم ، فطلبوا منه أن يخرج لهم الآن من صخرة عندهم ناقة عُشرَاء من صفتها
كذا وكذا . فعند ذلك أخذ عليهم صالح العهود والمواثيق ، لئن أجابهم إلى ما
سألوا ليؤمنن به ، فأنعموا بذلك - أى : قالوا نعم - فقام نبى الله صالح
فصلى ، ثم دعا ربه أن يجيبهم على سؤالهم ، فانفطرت تلك الصخرة التى أشاروا
. إليها . عن ناقة عشراء . على الصفة التى وصفوها . فآمن بعضهم وكفر أكثرهم

ولا تمسوها بسوء فياخذكم عذاب يوم عظيم

كما فسرها الوسيط والمعنى : قال لهم صالح - عليه السلام - بعد أن طلبوا منه
معجزة تدل على صدقه : هذه ناقة ( لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ
مَّعْلُومٍ ) أى : لها نصيب معين من الماء ، ولكم نصيب آخر منه ، وليس لكم
أن تشربوا منه فى يوم شربها .وليس لها أن تشرب منه فى يوم شربكم ، واحذروا
. أن تمسوها بسوء - كضرب أو قتل - فيأخذكم عذاب يوم عظيم

فعقروها فاصبحوا نادمين

كما فسرها الوسيط ووصف اليوم بالعظم لعظم ما يحل فيه من عذاب ينزل بهم إذا
.مسوها بسوء

فاخذهم العذاب ان في ذلك لاية وما كان اكثرهم مؤمنين

كما فسرها الوسيط ولكن قومه لم يفوا بعهودهم ( فَعَقَرُوهَا ) أى : فعقروا
الناقة التى هى معجزة نبيهم . وأسند العقر إليهم جميعا . مع أن الذى عقرها
بعضهم ، لأن العقر كان برضاهم جميعا ، كما يرشد إليه قوله - تعالى - فى آية
أخرى : ( فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فتعاطى فَعَقَرَ ) وقوله ( فَأَصْبَحُواْ
. نَادِمِينَ ) بيان لما ترتب على عقرهم لها

وان ربك لهو العزيز الرحيم

كما فسرها الوسيط وندمهم إنما كان سبب خوفهم من وقوع العذاب عليهم بسبب ذلك
ولم يكن بسبب إيمانهم وتوبتهم . أو أن ندمهم جاء فى غير أوانه ، كما يشعر ،
بذلك قوله - تعالى : (فَأَخَذَهُمُ العذاب ) أى أن العذاب نزل بهم فى
أعقاب عقرهم لها ، بدون تراخ أو إمهال ، وكان عذابهم أن أخذتهم الرجفة

وتبعتها الصيحة التى صاحها بهم جبريل فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ، ثم يجيء التعقيب السابق : ( إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العزيز الرحيم ) .

كذبت قوم لوط المرسلين

`<!-- TODO:MISSING -->`{=html} كما فسرها الوسيط

اذ قال لهم اخوهم لوط الا تتقون

) : - كما فسرها الوسيط ثم جاءت بعد ذلك قصة لوط . مع قومه ، فقال - تعالى : - كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ المرسلين . . . ) .قال ابن كثير - رحمه الله ولوط هو ابن هاران بن آزر ، وهو ابن أخى إبراهيم ، وكان قد آمن مع إبراهيم ، وهاجر معه إلى أرض الشام ، فبعثه الله إلى أهل سدوم وما حولها من القرى ، يدعوهم إلى الله - تعالى - وبأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، وهو إتيان الذكور دون الإناث ، وهذا شىء لم يكن بنو آدم تعهده ولا تألفه ، ولا يخطر ببالهم ، حتى صنع ذلك أهل سدوم - وهى قرية بوادى الأردن - عليهم لعائن الله .

اني لكم رسول امين

كما فسرها الوسيط ولقد بدأ لوط - عليه السلام - دعوته لقومه يأمرهم بتقوى الله .

فاتقوا الله واطيعون

. كما فسرها الوسيط وبإخبارهم بأنه رسول أمين من الله - تعالى - إليهم

وما اسالكم عليه من اجر ان اجري الا على رب العالمين

. كما فسرها الوسيط وبأنه لا يسألهم أجرا ع دعوته لهم إلى الحق والفضيلة

اتاتون الذكران من العالمين

: كما فسرها الوسيط ثم نهاهم عن أبرز الرذائل التى ، كانت متفشية فيهم فقال أَتَأْتُونَ الذكران مِنَ العالمين وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ ) رَبُّكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ) .والاستفهام للإنكار والتقريع والذكران : جمع ذكر وهو ضد الأنثى .والعادون جمع عاد . يقال : عدا فلان فى الأمر يعدو ، إذا تجاوز الحد فى الظلم .أى : قال لوط لقومه : أبلغ بكم انحطاط الفطرة ، وانتكاس الطبيعة ، أنكم تأتون الذكور الفاحشة ، وتتركون نساءكم اللائى أحلهن الله - تعالى - لكم ، وجعلهن الطريق الطبيعى للنسل وعمارة الكون .إنكم بهذا الفعل القبيح الذميم ، تكونون قد تعديتم حدود الله - تعالى - وتجاوزتم ما أحله الله لكم ، إلى ما حرمه عليكم .

وتذرون ما خلق لكم ربكم من ازواجكم بل انتم قوم عادون

`<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html} كما فسرها الوسيط

ثم نهاهم عن أبرز الرذائل التى ، كانت متفشية فيهم فقال : ( أَتَأْتُونَ الذكران مِنَ العالمين وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ) .والاستفهام للإنكار والتقريع والذكران : جمع ذكر وهو ضد الأنثى .والعادون جمع عاد . يقال : عدا فلان فى الأمر يعدو ، إذا تجاوز الحد فى الظلم .أى : قال لوط لقومه : أبلغ بكم انحطاط الفطرة ، وانتكاس الطبيعة ، أنكم تأتون الذكور الفاحشة ، وتتركون نساءكم اللائى أحلهن الله - تعالى - لكم ، وجعلهن الطريق الطبيعى للنسل وعمارة الكون .إنكم بهذا الفعل القبيح الذميم ، تكونون قد تعديتم حدود الله - تعالى - وتجاوزتم ما أحله الله لكم ، إلى ما حرمه عليكم .

قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين

، كما فسرها الوسيط وقد ردوا عليه بما يدل على شذوذهم وعلى إنتكاس فطرتهم فقد قالوا له على سبيل التهديد والوعيد : ( لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يالوط لَتَكُونَنَّ مِنَ المخرجين ) .أى : قالوا له متوعدين : لئن لم تسكت يا لوط

، عن نهيك إيانا عما نحن فيه ، لتكونن من المخرجين من قريتنا إخراجا تاما ولنطردنك خارج ديارنا .وهكذا النفوس عندما تنحدر فى الرذيلة وتنغمس فى المنكر ، تعادى من يدعوها إلى الفضيلة وإلى الطهر والعفاف .

قال اني لعملكم من القالين

) كما فسرها الوسيط وقد رد لوط - عليه السلام - على سفاهتهم وسوء أدبهم : قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِّنَ القالين ) .والقالين : جمع قال . يقال قليت فلانا أقليه - كرميته أرميه - إذا كرهته كرها شديدا .أى : قال لهم لوط موبخا ومؤنبا : إنى لعملكم القبيح الذي ترتكبونه مع الذكور ، من المبغضين له أشد البغض ، المنكرين له أشد الإنكار .

رب نجني واهلي مما يعملون

كما فسرها الوسيط ثم توجه إلى ربه - تعالى - بقوله . ( رَبِّ نَجِّنِي ، وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ) أى : نجنى يا رب ، ونج أهلى المؤمنين معى مما يعمل هؤلاء الأشرار من منكر لم يسبقهم إليه أحد.

فنجيناه واهله اجمعين

كما فسرها الوسيط فأجاب الله - تعالى - دعاءه فقال : ( فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عَجُوزاً فِي الغابرين ) .والمراد بهذه العجوز ، امرأته وكانت كافرة وراضية عن فعل قومها .والغابرين : جمع غابر وهو الباقى بعد غيره . يقال غبر الشىء يغبر غبورا . إذا بقى .

الا عجوزا في الغابرين

كما فسرها الوسيط وقوله : ( إِلاَّ عَجُوزاً ) استثناء من أهله .أى : فاستجبنا للوط دعاءه ، فأنجيناه وأهله المؤمنين جميعا ، إلا امرأته العجوز فإننا لم ننجها بل بقيت مع المهلكين لخبثها وعدم إيمانها .

ثم دمرنا الاخرين

كما فسرها الوسيط ( ثُمّ دَمّرْنَا الآخرين ) أى : ثم أهلكنا قوم لوط المصرين على كفرهم وعلى إتيانهم المنكر ، تدميرا شديدا ، فإنا جعلنا أعلى قريتهم سافلها ، وأبدناهم عن آخرهم .

وامطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين

كما فسرها الوسيط ( وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم ) بعد ذلك الإهلاك ( مَّطَراً - : عجيبا أمره فقد كان نوعا من الحجارة ، كما جاء فى آية أخرى فى قوله ( تعالى - : ( وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مّنْضُودٍ ) وقوله - سبحانه - : ( فَسَآءَ مَطَرُ المنذرين ) بيان لسوء مصيرهم .أى : دمرنا هؤلاء القوم ، وأمطرنا عليهم مطرا من الحجارة زيادة فى إهانتهم ، فساءت عاقبتهم ، وتحقق ما أنذرناهم به من دمار .

ان في ذلك لاية وما كان اكثرهم مؤمنين

، كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - قصة لوط - عليه السلام - مع قومه بمثل ما ختم به القصص السابقة فقال : ( إِنّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مّؤْمِنِينَ وَإِنّ رَبّكَ لَهُوَ العزيز الرحيم ) .

وان ربك لهو العزيز الرحيم

`<!-- TODO:MISSING -->`{=html} كما فسرها الوسيط

كذب اصحاب الايكة المرسلين

- كما فسرها الوسيط ثم جاءت فى نهاية هذه القصص ، قصة شعيب - عليه السلام مع قومه . فقال - تعالى - : ( كَذّبَ أَصْحَابُ . . . ) .الأيكة : منطقة مليئة بالأشجار ، كانت - فى الغالب - بين الحجاز وفلسطين حول خليج العقبة ، ولعلها المنطقة التى تسمى بمعان .وشعيب ينتهى نسبه إلى إبراهيم - عليهما السلام - وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذكر شعيبا قال : " ذلك خطيب الأنبياء " لحسن مراجعته لقومه ، وقوة حجته .وكان قومه أهل كفر وبخس

للمكيال والميزان ، وقطع الطريق ، فدعاهم إلى وحدانية الله - تعالى - وإلى مكارم الأخلاق .قال ابن كثير : " هؤلاء - أعنى أصحاب الأيكة - هم أهل مدين على الصحيح ، وكان نبى الله شعيب من أنفسهم وإنما لم يقل ها هنا : أخوهم شعيب ، لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة وهى شجرة .

اذ قال لهم شعيب الا تتقون

كما فسرها الوسيط وقيل شجر ملتف كالغيضة . كانوا يعبدونها ، فلهذا لما قال كذب أصحاب الأيكة المرسلين ، لم يقل : إذ قال لهم أخوهم شعيب ، وإنما قال : فقطع نسبة الأخوة بينهم ( إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلاَ تَتَّقُونَ ) : للمعنى الذى نسبوا إليه ، وإن كان أخاهم نسبا ، ومن الناس من لم يتفطن ، لهذه النكتة ، فظن أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين ، فزعم أن شعيبا - عليه السلام - بعثه الله إلى أمتين . . . والصحيح أنهم أمة واحدة وصفوا فى كل مقام بشىء ، ولهذا وعظ هؤلاء وأمرهم بوفاء المكيال والميزان ، كما فى قصة مدين سواء بسواء . . . . " .

اني لكم رسول امين

كما فسرها الوسيط وقد افتتح شعيب - عليه السلام - دعوته لقومه . بأمرهم بتقوى الله - تعالى - وببيان أنه أمين فى تبليغهم ما أمره الله بتبليغه إليهم .

فاتقوا الله واطيعون

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html}

- وقد افتتح شعيب - عليه السلام - دعوته لقومه . بأمرهم بتقوى الله - تعالى - وببيان أنه أمين فى تبليغهم ما أمره الله بتبليغه إليهم .

وما اسالكم عليه من اجر ان اجري الا على رب العالمين

كما فسرها الوسيط وبمصارحتهم بأنه لا يسألهم أجراً على دعوته إياهم إلى ما يسعدهم .

اوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين

كما فسرها الوسيط ثم نهاهم عن أفحش الرذائل التى كانت منتشرة فيهم فقال لهم : ( أَوْفُواْ الكيل وَلاَ تَكُونُواْ مِنَ المخسرين وَزِنُواْ بالقسطاس المستقيم وَلاَ تَبْخَسُواْ الناس أَشْيَآءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأرض مُفْسِدِينَ واتقوا الذي خَلَقَكُمْ والجبلة الأولين ) . . . والجبلة : الجماعة الكثيرة من الناس الذين كانوا من قبل قوم شعيب. والمقصود بهم أولئك الذين كانوا ذوى قوة كأنها الجبال فى صلابتها ، كقوم هود وأمثالهم ممن اغتروا بقوتهم ، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر .قال القرطبى وقوله : ( واتقوا الذي خَلَقَكُمْ والجبلة الأولين ) .الجبلة : هى : الخليقة . ويقال : جبل فلان على كذا ، أى : خلق ، فالخُلُق جِبِلة وجُبُلة - بكسر الجيم والباء وضمهما - والجبلة : هو الجمع ذو العدد الكثير من الناس ، ومنه قوله - تعالى - : ( وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً . . . ) والمعنى : قال شعيب - عليه السلام - لقومه ناصحا ومرشدا : يا قوم . أوفوا الكيل أى : أتموه ( وَلاَ تَكُونُواْ مِنَ المخسرين ) الذين يأكلون حقوق غيرهم عن طريق التطفيف فى الكيل والميزان .

وزنوا بالقسطاس المستقيم

كما فسرها الوسيط ثم أكد نصحه هذا بنصح آخر فقال : ( وَزِنُواْ ) للناس الذين تتعاملون معهم ( بالقسطاس المستقيم ) أى : بالعدل الذى لا جور معه ولا ظلم .

ولا تبخسوا الناس اشياءهم ولا تعثوا في الارض مفسدين

كما فسرها الوسيط ثم أتبع هذا الأمر بالنهى فقال : ( وَلاَ تَبْخَسُواْ الناس أَشْيَآءَهُمْ ) أى : ولا تنقصوا للناس شيئا من حقوقهم ، أيا كان مقدرا هذا الشىء .( وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأرض مُفْسِدِينَ ) والعُثُو : أشد أنواع الفساد . يقال : عثا فلان فى الأرض يعثو ، إذا اشتد فساده .أى ، ولا تنتشروا فى الأرض حالة كونكم مفسدين فيها بالقتل وقطع الطريق :

) وتهديد الآمنين .فقوله ( مُفْسِدِينَ ) حال مؤكدة لضمير الجمع فى قوله ( تَعْثَوْا ) .

واتقوا الذي خلقكم والجبلة الاولين

كما فسرها الوسيط ثم ذكرهم بأحوال السابقين ، وبأن الله - تعالى - هو الذى خلقهم وخلق أولئك السابقين فقال : ( واتقوا الذي خَلَقَكُمْ ) من ماء مهين . وخلق - أيضا - الأقوام السابقين ، الذين كانوا أشد منكم قوة وأكثر جمعا . والذين أهلكهم - سبحانه - بقدرته بسبب إصرارهم على كفرهم وبغيهم .

قالوا انما انت من المسحرين

كما فسرها الوسيط واستمع قوم شعيب إلى تلك النصائح الحكيمة . ولكن لم يتأثروا بها ، بل اتهموا نبيهم فى عقله وفى صدقه ، وتحده فى رسالته فقالوا - كما حكى القرآن عنهم - : ( إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ المسحرين وَمَآ أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الكاذبين ( فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِّنَ السمآء إِن كُنتَ مِنَ الصادقين قالوا له بسفاهة وغرور : إنما أنت يا شعيب من الذين أصيبوا بسحر عظيم. ، جعلهم لا يعقلون ما يقولون ، أو إنما أنت من الناس الذين يأكلون الطعام ، ويشربون الشراب ، ولا مزية لك برسالة أو بنبوة علينا ، فأنت بشر مثلنا . وما نظنك إلا من الكاذبين فيما تدعيه .

وما انت الا بشر مثلنا وان نظنك لمن الكاذبين

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

فاسقط علينا كسفا من السماء ان كنت من الصادقين

كما فسرها الوسيط فإن كنت صادقا فى دعوى الرسالة فأسقط علينا ( كِسَفاً مِّنَ السمآء ) أى : قطعا من العذاب الكائن من جهة السماء .وجاء التعبير بالواو هنا فى قوله ( وَمَآ أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا ) للإشارة إلى أنه جمع بين أمرين منافيين لدعواه الرسالة ، وهما : كونه من المسحرين وكونه بشرا وقصدوا بذلك المبالغة فى تكذيبه ، فكأنهم يقولون له : إن وصفا واحدا كاف فى تجريدك من نبوتك فكيف إذا اجتمع فيك الوصفان ، ولم يكتفوا بهذا بل أكدوا عدم تصديقهم له فقالوا : وما نظنك إلا من الكاذبين .ثم أضافوا إلى كل تلك السفاهات . والتحدى حيث تعجلوا العذاب .

قال ربي اعلم بما تعملون

كما فسرها الوسيط ولكن شعيبا - عليه السلام - قابل استهتارهم بقوله : ( ربي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ )أى : ربى وحده هو العليم بأقوالكم وأعمالكم ، وسيجازيكم عليها بما تستحقون من عذاب أليم .

فكذبوه فاخذهم عذاب يوم الظلة انه كان عذاب يوم عظيم

كما فسرها الوسيط ثم يعجل - سبحانه - ببيان عاقبتهم السيئة فيقول : ( فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظلة إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ) .قال الآلوسى : وذلك على ما أخرج عبد بن حميد ، وابن جرير - وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، والحاكم عن ابن عباس : أن الله - تعالى ، بعث عليهم حرا شديدا ، فأخذ بأنفاسهم ، فدخلوا أجواف البيوت ، فدخل عليهم ، فخرجوا منها هرابا إلى البرية . فبعث الله - تعالى - عليهم سحابة فأظلتهم من الشمس ، وهى الظلة ، فوجدوا لها بردا ولذة ، فنادى بعضهم بعضا حتى إذا اجتمعوا تحتها ، أسقطها الله عليهم نارا .فأهلكتهم جميعا . .ففى الأعراف ) : ذكر أنهم أخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين ، وذلك لأنهم قالوا لَنُخْرِجَنَّكَ ياشعيب والذين آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ . . ) فلما أرجفوا بنبى الله ومن تبعه . - أى : حاولوا زلزلتهم وتخويفهم - أخذتهم الرجفة .وفى سورة هود قال : ( وَأَخَذَ الذين ظَلَمُواْ الصيحة ) وذلك لأنهم استهزءوا بنبى الله فى قولهم : ( أصلاوتك تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءابَاؤُنَآ . . ) فناسب أن تأتيهم صيحة تسكتهم . .وها هنا قالوا : ( فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِّنَ السمآء ) على وجه التعنت والعناد فناسب أن ينزل بهم ما استبعدوا وقوعه فقال : ( فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظلة ) .

ان في ذلك لاية وما كان اكثرهم مؤمنين

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - قصة شعيب مع قومه بمثل ما ختم به قصص الرسل السابقين مع أقوامهم فقال - تعالى - : ( إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنّ رَبَّكَ لَهُوَ العزيز الرحيم ) .وإلى هنا ترى سورة الشعراء قد ساقت لنا سبع قصص من قصص الأنبياء ، مع أقوامهم .ساقت لنا قصة موسى ، فإبراهيم ، فنوح . فهود ، فصالح ، فلوط فشعيب - عليهم جميعا الصلاة والسلام - .ويلاحظ فى قصص هذه السورة ، أنها لم تجىء على حسب الترتيب الزمنى - كما هو الشأن فى سورة الأعراف - وذلك لأن المقصود الأعظم هنا هو الاعتبار والاتعاظ ، فأما فى سورة الأعراف ، فكان التسلسل الزمنى مقصودا لعرض أحوال الناس منذ آدم - عليه السلام - .كما يلاحظ أن معظم القصص هنا ، قد افتتح بافتتاح متشابه ، وهو أمر كل نبى قومه بتقوى الله ، وبيان أنه رسول أمين . وبيان أنه لا يطلب من قومه أجرا على دعوته ، نرى ذلك واضحا فى قصة نوح وهود وصالح وشعيب ولوط مع أقوامهم .ولعل السر فى ذلك التأكيد على أن الرسل جميعا قد جاؤوا برسالة واحدة فى أصولها وأسسها ، ألا وهى الدعوة إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - ، وإلى مكارم الأخلاق .كما يلاحظ - أيضا - أن كل قصة من تلك القصص قد اختتمت بقوله - تعالى - : ( إِنّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنّ رَبّكَ لَهُوَ العزيز الرحيم ) .ولعل السر فى ذلك تكرار التسلية للنبى صلى الله عليه وسلم ، وتثبيت فؤاده . وبيان أن ما أصابه من قومه ، قد أصاب الرسل السابقين ، فعليه أن يصبر كما صبروا ، وقد قالوا : " المصيبة إذا عمت خفت " .كما يلاحظ - كذلك - على قصص هذى السورة التركيز على أهم الأحداث وبيان الرذائل التى انغمس فيها أولئك الأقوام ، باستثناء قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون فقد جاءت بشىء من التفصيل .

وان ربك لهو العزيز الرحيم

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

وانه لتنزيل رب العالمين

كما فسرها الوسيط وكما بدأت السورة بالحديث عن القرآن ، وعن الرسول صلى الله عليه وسلم ، عادت مرة أخرى بعد الحديث عن قصص بعض الأنبياء - إلى متابعة الحديث عن القرآن الكريم ، وعن نزوله ، وعن تأثيره ، وعن مصدره . فقال - تعالى - : ( وَإِنّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ العالمين . . . ).الضمير فى قوله ( وَإِنّهُ ) يعود إلى القرآن الكريم ، وما اشتمل عليه من قصص ، وهدايات . .أى : وإن هذا القرآن لتنزيل رب العالمين ، لا تنزيل غيره - والتعبير عن إنزاله بالتنزيل ، للمبالغة فى إنزاله من عند الله - تعالى وحده .ووصف - سبحانه - ذاته بالربوبية للعالمين ، للإيذان بأن إنزاله بهذه الطريقة ، من مظاهر رحمته بعباده ، وإحكام تربيته لهم جميعا .قال - تعالى - وقال - سبحانه - : ( تَنزِيلاً ( تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ العالمين ) : مِّمَّنْ خَلَقَ الأرض والسماوات العلى ).

نزل به الروح الامين

كما فسرها الوسيط ثم وصف - سبحانه - من نزل به بالأمانة فقال : ( نَزَلَ بِهِ الروح الأمين ) وهو جبريل - عليه السلام - وعبر عنه بالروح ، لأن الأرواح تحيا بما نزل به كما تحيا الأجسام بالغذاء .

على قلبك لتكون من المنذرين

كما فسرها الوسيط أى : نزل جبريل الأمين - بأمرنا - بهذا القرآن كاملا غير منقوص ، ( على قَلْبِكَ ) أيها الرسول الكريم ( لِتَكُونَ مِنَ المنذرين ) أى : من أجل أن تنذر به الناس ، وتخوفهم بسوء المصير إذا ما استمروا على كفرهم وفسوقهم عن أمر الله - تعالى - .قال الجمل : قال الكرخى : وقوله ( على قَلْبِكَ ) خصه بالذكر وهو إنما أنزل عليه ليؤكد أن ذلك المنزل محفوظ ، والرسول متمكن من قلبه لا يجوز عليه التغير . ولأن القلب المخاطب فى الحقيقة لأنه موضع التمييز والاختيار ، وأما سائر الأعضاء فمسخرة له ، ويدل على ذلك القرآن والحديث والمعقول .أما القرآن فقوله - تعالى - : ( إِنّ فِي ذَلِكَ لذكرى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السمع وَهُوَ شَهِيدٌ ) وأما الحديث فقوله صلى الله عليه وسلم : " ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب " .وأما المعقول : فإن القلب إذا غشى عليه ، لم يحصل له شعور ، وإذا أفاق القلب شعر بجميع ما ينزل بالأعضاء من الآفات .وقال الآلوسى ما ملخصه : وخص القلب بالإنزال ، قيل للإشارة إلى كمال تعقله صلى الله عليه وسلم وفهمه ذلك

المنزل ، حيث لم تعبر واسطة فى وصوله إلى القلب . .وقيل للإشارة إلى صلاح قلبه صلى الله عليه وسلم حيث كان منزلا لكلام الله - تعالى - . .

بلسان عربي مبين

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ) متعلق بقوله - تعالى - ( نَزَلَ ) . أى : نزل هذا القرآن باللسان العربى ليكون أوضح فى البلاغ والبيان لقومك لأننا لو نزلناه بلسان أعجمى أو بلغة أعجمية لتعللوا بعدم فهمه وقلة إدراكهم لمعناه .وبذلك نرى أن الله - تعالى - قد بين لنا مصدر القرآن ، والنازل به ، والنازل عليه ، وكيفية النزول ، وحكمة الإنزال ، واللغة التى نزل بها ، وكل ذلك أدلة من القرآن ذاته على أنه من عند الله - تعالى - وأنه من كلامه الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وانه لفي زبر الاولين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن الكتب السماوية السابقة قد ذكرت ما يدل على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم الذى أنزل الله - تعالى - عليه هذا القرآن فقال - تعالى - : ( وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأولين أَوَ لَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بني إِسْرَائِيلَ ) .والزبر : جمع زَبُور ، وهو الكتاب المقصور على الحكم والمواعظ ، كزبور داود . مأخوذ من الزبر بمعنى الزجر . لزجره الناس عن اتباع الباطل .والمعنى : وإن نعت هذا القرآن الكريم ، ونعت الرسول الذى سينزل عليه هذا القرآن . لموجود فى كتب السابقين .قال الإمام ابن كثير : أخبر - تعالى - : بأن ذكر هذا القرآن والتنويه به لموجود فى كتب الأولين المأثورة عن أبنيائهم ، الذين بشروا به فى قديم الدهر وحديثه ، كما أخذ الله عليهم الميثاق بذلك ، حتى قام آخرهم خطيبا فى ملئه بالبشارة بأحمد : ( وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابن مَرْيَمَ يابني إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التوراة وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي إسمه أَحْمَدُ . . ).

اولم يكن لهم اية ان يعلمه علماء بني اسرائيل

. . كما فسرها الوسيط والاستفهام فى قوله ( أَوَ لَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً للإنكار والتوبيخ . والواو للعطف على مقدر ، والتقدير : أغفلوا عن ذلك ( . وجهلوه ، ولم يكفهم للدلالة على صدقه وحقيته أن يعلم ذلك علماء بنى إسرائيل ويتحدث عنه عُدُولهم ، وينتظرون مبعث الرسول صلى الله عليه وسلم ونزول ، القرآن عليه صلى الله عليه وسلم .قال - تعالى - : ( وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ الله مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الذين كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُمْ مَّا عَرَفُواْ ) : - كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ الله عَلَى الكافرين ) وقال - سبحانه الذين يَتَّبِعُونَ الرسول النبي الأمي الذي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التوراة والإنجيل يَأْمُرُهُم بالمعروف وَيَنْهَاهُمْ عَنِ المنكر ).

ولو نزلناه على بعض الاعجمين

كما فسرها الوسيط ثم ذكر - سبحانه - طرفا من جحود الكافرين وعنادهم فقال : ( وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ على بَعْضِ الأعجمين فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ) .والأعجمين : جمع أعجم ، وهو الذى لا يفصح وفى لسانه عجمة وإن كان عربى النسب ، أو جمع أعجمى ، إلا أنه حذف منه ياء النسب تخفيفا ، كأشعر جمع أشعرى .أى : ولو نزلنا هذا القرآن على رجل من الأعجمين الذين لا يحسنون النطق بالعربية ، فقرأ هذا القرآن على قومك - أيها الرسول الكريم - قراءة صحيحة لكفروا به عنادا ومكابرة مع أنهم فى قرارة أنفسهم يعرفون صدقه ، وأنه ليس من كلام البشر .فالآيتان الكريمتان المقصود بهما تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم عما يراه من إنكار المشركين لدعوته ، ومن وصفهم للقرآن تارة بأنه سحر ، وتارة بأنه أساطير الأولين ، تصوير صادق لما وصل إليه أولئك المشركون من جحود وعناد ومكابرة .وشبيه بهاتين الآيتين قوله - تعالى - : ( وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ الملائكة وَكَلَّمَهُمُ الموتى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ ليؤمنوا إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله ).

فقراه عليهم ما كانوا به مؤمنين

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html}

ثم ذكر - سبحانه - طرفا من جحود الكافرين وعنادهم فقال : ( وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ على بَعْضِ الأعجمين فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ) .والأعجمين : جمع أعجم ، وهو الذى لا يفصح وفى لسانه عجمة ، وإن كان عربى النسب ، أو جمع أعجمى ، إلا أنه حذف منه ياء النسب تخفيفا كأشعر جمع أشعرى .أى : ولو نزلنا هذا القرآن على رجل من الأعجمين ، الذين لا يحسنون النطق بالعربية ، فقرأ هذا القرآن على قومك - أيها الرسول الكريم - قراءة صحيحة لكفروا به عنادا ومكابرة مع أنهم فى قرارة أنفسهم يعرفون صدقه ، وأنه ليس من كلام البشر .فالآيتان الكريمتان المقصود بهما تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم عما يراه من إنكار المشركين لدعوته ، ومن وصفهم للقرآن تارة بأنه سحر ، وتارة بأنه أساطير الأولين ، تصوير صادق لما وصل إليه أولئك المشركون من جحود وعناد ومكابرة .وشبيه بهاتين الآيتين قوله - تعالى - : ( وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ الملائكة وَكَلَّمَهُمُ الموتى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مّا كَانُواْ ليؤمنوا إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله ).

كذلك سلكناه في قلوب المجرمين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أنهم مع عملهم بأن هذا القرآن من عند الله ، وتأثرهم به سيستمرون على كفرهم حتى يروا العذاب الأليم ، فقال - تعالى - : ( كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي . . . ) .قوله - تعالى : ( سَلَكْنَاهُ ) من السّلك بمعنى إدخال الشىء فى الشىء تقول : سلكت الطريق إذا دخلت فيه . والضمير يعود إلى القرآن الكريم وقوله : ( كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ ) نعت لمصدر محذوف .أى : مثل ذلك الإدخال العجيب ، أدخلنا القرآن فى قلوب المجرمين ، حيث جعلناهم - بسبب جحودهم وعنادهم - مع تأهثرهم به واعرافهم بفصاحته ، لا يؤمنون به ، حتى يروا بأعينهم العذاب الأليم ومنهم من يرى أن الضمير فى ( سَلَكْنَاهُ ) يعود إلى كفر الكافرين. وتكذيبهم . والمعنى - كما يقول ابن كثير - : كذلك سلكنا التكذي والكفر والجحود والعناد . أى : أدخلناه فى قلوب المجرمين .

لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الاليم

كما فسرها الوسيط لا يؤمنون به . أى : بالحق ( حتى يَرَوُاْ العذاب الأليم حيث لا ينفع الظالمين معذرتهم ، ولهم اللعنة ولهم سوء الدار .والرأيان ( متقاربان فى المعنى ، لأن المراد بالتكذيب على الرأى الثانى تكذيبهم بالقرآن ، إلا أن الرأى الأول أنسب بسياق الآيات ، وبانتظام الضمائر . . .

فياتيهم بغتة وهم لا يشعرون

كما فسرها الوسيط ثم بين -ەسبحانه - أن نزول العذاب بالمجرمين سيكون مباغتا لهم فقال : ( فَيَأْتِيَهُم ) أى : العذاب ( بَغْتَةً ) فجأة وعلى غير توقع أى : بإتيانه بعد أن يحيط بهم ( وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ) .

فيقولوا هل نحن منظرون

كما فسرها الوسيط وعندئذ يقولون على سبيل التمنى والتحسر ( هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ) أى : ليتنا نمهل قليلا لكى نصلح ما أفسدناه من أقوال وأعمال قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما معنى التعقيب فى قوله : ( فَيَأْتِيَهُم. بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ فَيَقُولُواْ . . ) .قلت : ليس المعنى ترادف رؤية العذاب ومفاجأته ، وسؤال النظرة فيه فى الوجود ، وإنما المعنى ، ترتبها فى الشدة ، كأنه قيل :لا يؤمنون بالقرآن حتى تكون رؤيتهم للعذاب فما هو أشد منها وهو لحوقه بهم مفاجأة ، فما هو أشد منه وهو سؤالهم النظرة ومثال ذلك أن تقول لمن تعظه : إذا أسأت مقتك الصالحون ، فمقتك الله ، فإنك. لا تقصد بهذا الترتيب أن مقت الله يوجد عقيب مقت الصالحين ، وإنما قصدك ، إلى ترتيب شدة الأمر على المسىء ، ونه يحصل له بسبب الإساءة مقت الصالحين ، فما هو اشد من مقتهم وهو مقت الله . . .

افبعذابنا يستعجلون

كما فسرها الوسيط والاستفهام فى قوله - تعالى - : ( أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ) للتوبيخ والتهكم بهؤلاء المجرمين ..

افرايت ان متعناهم سنين

كما فسرها الوسيط أبلغ الحمق والجهل بهؤلاء المجرمين أنهم استعجلوا وقوع العذاب بهم ، وقالوا لنا : ( أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ مَآ أغنى عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ) .وقوله : ( أَفَرَأَيْتَ ) معطوف على قوله : ( فَيَقُولُواْ والاستفهام للتعجب من أحوالهم .والمعنى : إن شأن هؤلاء المجرمين ( . . لموجب للعجب : إنهم قبل نزول العذاب بهم يستعجلونه ، فإذا ما نزل بساحتهم قالوا - على سبيل التحسر والندم - : هل نحن منظرون .أعلم - أيها الرسول الكريم - أننا حتى لو أمهلناهم وأخرناهم .

ثم جاءهم ما كانوا يوعدون

كما فسرها الوسيط ثم جاءهم عذابنا بعد ذلك ، فإن هذا التمتع الذى عاشوا فيه .

ما اغنى عنهم ما كانوا يمتعون

كما فسرها الوسيط وذلك التأخير الذى لو شئنا لأجبناهم إليه . . . كل ذلك لن ينفعهم بشىء عند حلول عذابنا ، بل عند حلول عذابنا بهم سينسون ما كانوا فيه من متاع ومن نعيم ومن غيره .قال الإمام ابن كثير : وفى الحديث الصحيح : يؤتى بالكافر فيغمس فى النار غمسة ثم يقال له : هل رأيت خيراً قط؟ فيقول : لا والله يا رب . ويؤتى بأشد الناس بؤسا كان فى الدنيا ، فيصبغ فى الجنة صبغة ، ثم يقال له : هل رأيت بؤسا قط؟ فيقول :لا والله يا رب .ولهذا كان عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يتمثل بهذا البيت :كأنك لم تُؤتَر من الدهر ليلة ... إذا أنت أدركت الذى كنت تطلب

وما اهلكنا من قرية الا لها منذرون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - سنته التى لا تتخلف فقال : ( وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ لَهَا مُنذِرُونَ ذكرى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ) .

ذكرى وما كنا ظالمين

كما فسرها الوسيط وقوله : ( ذكرى ) مفعول لأجله ، فيكون المعنى : لقد اقتضت سنتنا وعدالتنا ، أننا لا نهلك قرية من القرى الظالم أهلها ، إلا بعد أن نرسل فى أهل تلك القرى رسلا منذرين ، لكى يذكروهم بالدين الحق . . . وليس من شأننا أن نكون ظالمين لأحد ، بل من شأننا العدالة والإنصاف ، وتقديم النصيحة والإرشاد والإنذار للفاسقين عن أمرنا ، قبل أن ننزل بهم عذابنا وشبيه بهاتين الآيتين قوله - تعالى - : ( وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً ) وقوله - سبحانه - : ( وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ القرى حتى يَبْعَثَ في أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنّا مُهْلِكِي القرى إِلاّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ).

وما تنزلت به الشياطين

كما فسرها الوسيط ثم عادت السورة الكريمة إلى تأكيد أن هذا القرآن من عند الله - سبحانه - وردت شبهات المشركين بأسلوب منطقى رصين ، قال - تعالى - : ( وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشياطين .أى : إن هذا القرآن الكريم ، ما تنزلت به الشياطين - كما يزعم مشركو قريش ، حيث قالوا : إن لمحمد صلى الله عليه وسلم تابعا من الجن يخبره بهذا القرآن ويلقيه عليه - وإنما هذا القرآن نزل به الروح الأمين ، على قلبه صلى الله عليه وسلم .

وما ينبغي لهم وما يستطيعون

كما فسرها الوسيط وإن الشياطين ( وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ ) ذلك إذ هم يدعون إلى الضلالة والقرآن يدعو إلى الهداية ( وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ) أن ينزلوا به ولا يقدرون على ذلك أصلا .

انهم عن السمع لمعزولون

كما فسرها الوسيط ( إِنّهُمْ عَنِ السمع لَمَعْزُولُونَ ) أى : إن هؤلاء الشياطين عن سماع القرآن الكريم لمعزولون عزلا تاما . فالشهب تحرقهم إذا ما حاولوا الاستماع إليه . كما قال - تعالى - : ( وَأَنّا لَمَسْنَا السمآء

فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً وَأَنّا كُنّا
نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآن يَجِدْ لَهُ
شِهَاباً رّصَداً ) فأنت ترى أن الله - تعالى - قد صان كتابه عن الشياطين
بأن بيّن بأنهم ما نزلوا به ، ثم بيّن - ثانيا أنهم ما يستقيم لهم ،
النزول به لأن ما اشتمل عليه من هدايات يخالف طبيعتهم الشريرة ، ثم بين
- ثالثا - بأنهم حتى لو حاولوا ما يخالف طبيعتهم لما استطاعوا ، ثم بين
رابعا - بأنه حتى لو انبغى واستطاعوا حمله ، لما وصلوا إلى ذلك ، لأنهم
، بمعزل عن الاستماع إليه ، إذ ما يوحى به - سبحانه - إلى أنبيائه
. فالشياطين محجوبون عن سماعه ، وهكذا صان الله - تعالى - كتابه صيانة تامة
. وحفظه حفظا جعله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه

فلا تدع مع الله الها اخر فتكون من المعذبين

كما فسرها الوسيط ثم نهى - سبحانه - عن الشرك بأبلغ وجه ، وأمر النبى صلى
: الله عليه وسلم بأن يجهر بدعوته ، وبأن يتوكل عليه وحده - سبحانه - فقال
الفاء فى قوله - تعالى - ( فَلاَ تَدْعُ . . ). ( . . . . فَلاَ تَدْعُ )
فصيحة ، والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم على سبيل طلب الازدياد من إخلاص
العبادة لله - تعالى - .أى : إذا علمت - أيها الرسول الكريم - ما أخبرناك
، به ، فأخلص العبادة لنا ، واحذر أن تعبد مع الله - تعالى - إلها آخر
فتكون من المعذبين .وخوطب صلى الله عليه وسلم بهذه الآية وأمثالها ، مع أنه
أخلص الناس فى عبادته لله - تعالى - ، لبيان أن الشرك أقبح الذنوب وأكبرها
- وأنه لو انحرف إليه - على سبيل الفرض - أشرف الخلق وأكرمهم عند الله
تعالى - لعذبه - سبحانه - على ذلك ، فكيف يكون حال غيره ممن هم ليسوا فى
. شرفه ومنزلته لا شك أن عذابهم سيكون أشد ، وعقابهم سيكون أكبر

وانذر عشيرتك الاقربين

كما فسرها الوسيط ثم أمر الله - تعالى - رسوله صلى الله عليه وسلم أن ينذر
أقرب الناس إليه ، ليكونوا قدوة لغيرهم . وليعلموا أن قرابتهم للرسول صلى
- الله عليه وسلم لن تنجيهم من عذاب الله ، ما استمروا على شركهم ، فقال
تعالى - : ( وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأقربين ) .والعشيرة : أهل الرجل الذين
يتكثر بهم ، و ( الأقربين ) هم أصحاب القرابة القريبة كالآباء والأبناء
والإخوة والأخوات ، والأعمام والعمات وما يشبه ذلك .وقد ذكر المفسرون
أحاديث متعددة ، فيما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه
- الآية ، منها : ما أخرجه الشيخان عن ابن عباس قال : لما أنزل الله
تعالى - هذه الآية : " أتى النبى صلى الله عليه وسلم الصفا فصعد عليه ثم
نادى : يا صباحاه ، وهى كلمة يقوله المستغيث أو المنذر لقومه - فاجتمع
الناس إليهن بين رجل يجئ إليه ، وبين رجل يبعث رسوله ، فقال رسول الله صلى
الله عليه وسلم : يا بنى عبد المطلب ، يا بنى فهر ، يا بنى لؤى ، أرأيتم لو
أخبرتكم أن خيلا بسفح الجبل تريد أن تغير عليكم ، أكنتم مصدقى؟ قالوا : نعم
قال : " فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد " .فقال أبو لهب : تبا لك سائر .
اليوم ، أما دعوتنا إلا لهذا ، وأنزل الله : ( تَبّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ
وَتَبّ ) " .قال الآلوسى : ووجه تخصيص عشيرته الأقربين بالذكر مع عموم
رسالته صلى الله عليه وسلم : دفع توهم المحاباة ، وأن الاهتمام بشأنهم أهم
وأن البداءة تكون بمن يلى ثم من بعده . .أى : أن هذه الآية الكريمة ، لا ،
: تتعارض مع عموم رسالته صلى الله عليه وسلم للناس جميعا ، لأن المقصود بها
. البدء بإنذار عشيرته الأقربين ، ليكونوا أسوة لغيرهم

واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( واخفض جَنَاحَكَ لِمَنِ اتبعك مِنَ
المؤمنين ) إرشاد منه - سبحانه - لنبيه صلى الله عليه وسلم إلى كيفية
معاملته لأتباعه .وخفض الجناح : كناية عن التواضع . واللين ، والرفق ، فى
صورة حسية مجسمة ، إذ من شأن الطائر حين يهبط أو حين يضم صغاره إليه أن
يخفض جناحه ، كما أن رفع الجناح يطلق على التكبر والتعالى ، ومنه قوه
الشاعر :وأنت الشهير بخفض الجنا ... ح فلا تك فى رفعه أجدلاأى : وكن - أيها
الرسول الكريم - متواضعا لين الجانب ، لمن اتبعك من المؤمنين ، و لقد كان
النبى صلى الله عليه وسلم سيد المتواضعين مع أصحابه ، إلا أن الآية الكريمة
تعلم المسلمين فى كل زمان ومكان - وخصوصا الرؤساء منهم - كيف يعامل بعضهم
بعضا .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : المتبعون للرسول صلى الله عليه وسلم هم
المؤمنون ، والمؤمنون هم المتبعون للرسول صلى الله عليه وسلم فما معنى قوله
؟قلت : فيه وجهان : أن يسميهم قبل الدخول ( لِمَنِ اتبعك مِنَ المؤمنين ) :
، فى الإيمان مؤمنين لمشارفتهم ذلك ، وأن يراد بالمؤمنين المصدقين بألسنتهم
وهم صنفان : صنف صدق الرسول واتبعه فيما جاء به : وصنف ما وجد منه إلى

التصديق فحسب . ثم إما أن يكونوا منافقين أو فاسقين ، والمنافق والفاسق لا يخفض لهما الجناح .ويبدو لنا أنه لا داعى إلى هذه التقسيمات التى ذهب إليها صاحب الكشاف - رحمه الله - ، وأن المقصود بقوله : ( لِمَنِ اتبعك مِنَ المؤمنين ) تأكيد الأمر بخفض الجناح ، وللإشعار بأن جميع أتباعه من المؤمنين ، ومثل هذا الأسلوب كثير فى القرآن الكريم ،ومنه قوله - تعالى - ومن المعلوم أن الأقوال لا تكون إلا ( . . . يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم ) : بالأفواه ، وقوله - تعالى - : ( وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ . . ) ومن المعروف أن الطائر لا يطير إلا بجناحيه .

فان عصوك فقل اني بريء مما تعملون

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - لنبيه كيف يعامل العصاة فقال : فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بريء مِّمَّا تَعْمَلُونَ ) .قال الآلوسى الظاهر أن الضمير المرفوع فى ( عَصَوْكَ ) عائد على من أمر صلى الله عليه وسلم بإنذارهم ، وهم العشيرة . أى : فإن عصوك ولم يتبعوك بعد إنذارهم ، فقل إنى برئ من عملكم ، أو من دعائكم مع الله إلها آخر . وجوز أن يكون عائدا على الكفار المفهوم من السياق .وقيل : هو عائد على من اتبع من المؤمنين . أى : فإن عصوك يا محمد فى الأحكام وفروع الإسلام ، بعد تصديقك والإيمان بك ، وتواضعك لهم ، فقل إنى برئ مما تعملون من المعاصى . . .وكان هذا فى مكة قبل أن يؤمر صلى الله عليه وسلم بقتال المشركين .

وتوكل على العزيز الرحيم

) : كما فسرها الوسيط ثم أمره - سبحانه - بالتوكل عليه وحده فقال وَتَوكَّلْ عَلَى العزيز الرحيم ) أى : اخفض جناحك لأتباعك المؤمنين ، وقل لمن عصاك بعد إنذاره إنى برئ من أعمالكم ، واجعل توكلك واعتمادك على ربك وحده ، فهو - سبحانه - صاحب العزة والغلبة ، والقهر ، وصاحب الرحمة التى وسعت كل شىء .

الذي يراك حين تقوم

كما فسرها الوسيط وهو - عز وجل - ( الذي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ) إلى عبادته وإلى صلاته دون أن يكون معك أحد .

وتقلبك في الساجدين

كما فسرها الوسيط وهو - سبحانه - الذى يرى ( وَتَقَلُّبَكَ فِي الساجدين ) أى : يراك وأنت تصلى مع المصلين ، فتؤمهم وتنتقل بهم من ركن إلى ركن ، ومن سنة إلى سنة حال صلاتك ، والتعبير بقوله ( تَقَلُّبَكَ ) يشعر بحرصه صلى الله عليه وسلم على تعهد أصحابه ، وعلى تنظيم صفوفهم فى الصلاة ، وعلى غير ذلك مما هم فى حاجة إليه من إرشاد وتعليم .وعبر عن المصلين بالساجدين ، لأن العبد أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد ، فهذا التعبير من باب التشريف والتكريم لهم

انه هو السميع العليم

كما فسرها الوسيط ( إِنَّهُ ) - سبحانه - ( هُوَ السميع ) لكل ما يصح تعلق السمع به ( العليم ) بكل الظواهر والبواطن ، لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا السماء .

هل انبئكم على من تنزل الشياطين

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ببيان أن الشياطين من المحال أن تتنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم الصادق الأمين . . .وإنما . . تتنزل على الكاذبين الخائنين ، فقال - تعالى - : ( هَلْ أُنَبِّئُكُمْ الاستفهام فى قوله - تعالى - : ( هَلْ أُنَبِّئُكُمْ . . . ) للتقرير. ( . والخطاب للمشركين الذين اتهموا النبى صلى الله عليه وسلم تارة بأنه كاهن ، - وتارة بأنه ساحر أو شاعر .أى : ألا تريدون أن تعرفوا - أيها المشركون ، ، على من تتنزل الشياطين؟! إنهم لا يتنزلون على الرسول صلى الله عليه وسلم لأنه طبعه يتباين مع بطائعهم ، ومنهجه يتعارض مع مسالكهم ، فهو يدعو إلى الحق وهم يدعون إلى الباطل .

تنزل على كل افاك اثيم

كما فسرها الوسيط إنما تتنزل الشياطين ( على كُلِّ أَفَّاكٍ ) أى : كثير الإفك والكذب ( أَثِيمٍ ) أى : كثير الارتكاب للآثام والسيئات ، كأولئك الكهنة الذين يأكلون أموال الناس بالباطل .

يلقون السمع واكثرهم كاذبون

كما فسرها الوسيط والضمير فى قوله ( يُلْقُونَ السمع وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ) يجوز أن يعود إلى كل أفاك أثيم ، وهم الكهان وأشباههم ، والجملة صفة لهم ، أو مستأنفة .والمراد بإلقائهم السمع : شدة الإنصات وقوة الإصغاء للتلقى .والمعنى : تتنزل الشياطين على كل أفاك أثيم . وهؤلاء الأفاكون الآثمون ، منصتون إنصاتا شديدا إلى الشياطين ليسمعوا منهم ، وأكثر هؤلاء الكهنة كاذبون فيما يقولونه للناس ، وفيما يخبرون به عن الشياطين روى البخارى عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : " سأل الناس النبى صلى الله عليه وسلم عن الكهان ، فقال : إنهم ليسوا بشىء ، قالوا : يا رسول الله فإنهم يحدثون بالشىء يكون حقا؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم " تلك ، الكلمة من الحق يخطفها الجنى فيرقرها - أى : فيرددها فى أذن وليه كقرقرة الدجاجة - فيخلطون معها أكثر من مائة كذبة " " .ويجوز أن يعود الضمير على الشياطين . وتكون الجملة حالية أو مستأنفة ، ومعنى إلقائهم السمع : إنصاتهم إلى الملأ الأعلى ليسترقوا شيئا من السماء .فيكون المعنى : تتنزل الشياطين على كل أفاك أثيم ، حالة كون الشياطين ينصتون إلى الملأ الأعلى . ليسترقوا شيئا من السماء ، وأكثر هؤلاء الشياطين كاذبون فيما ينقلونه إلى الأفاكين والآثمين من الكهان .ويصح أن يكون السمع بمعنى المسموع . أى : يلقى كل من ) : الشياطين والكهنة ما يسمعونه إلى غيرهم .قال الجمل : قوله وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ) الأظهر أن الأكثرية باعتبار أقوالهم ، على معنى أن هؤلاء قلما يصدقون فيما يحكون عن الجنى . أو المعنى : وأكثر أقوالهم كاذبة لا باعتبار ذواتهم حتى يلزم من نسبة الكذب إلى أكثرهم كون أقلهم صادقا على الإطلاق . . . فالكثرة فى المسموع لا فى ذوات القائلين وقال بعضهم : المراد بالأكثر الكل . . .والمقصود من هذه الآيات الكريمة. إبطال ما زعمه المشركون من أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد تلقى هذه القرآن عن الشياطين أو عن غيرهم ، وإثبات أن هذا القرآن ما نزل إلا من عند الله - تعالى - بواسطة الروح الأمين .

والشعراء يتبعهم الغاوون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( والشعرآء يَتَّبِعُهُمُ الغاوون ) إبطال لشبهة أخرى من شبهاتهم وهى زعمهم أنه صلى الله عليه وسلم شاعر والشعراء : جمع شاعر كعالم وعلماء . والغاوون : جمع غاو وهو الضال عن طريق. الحق .أى : ومن شأن الشعراء أن الذين يتبعونهم من البشر ، هم الضالون عن الصراط المستقيم ، وعن جادة الحق والصواب .

الم تر انهم في كل واد يهيمون

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ ) تأكيد لما قبله ، من كون الشعراء يتبعهم الغاوون . والخطاب لكل من تتأتى منه الرؤية والمعرفة .والوادى : هو المكان المتسع . والمراد به هنا : فنون القول وطرقه ويهيمون : من الهيام وهو أن يذهب المرء على وجهه دون أن يعرف له جهة معينة. يقصدها .يقال : هام فلان على وجهه ، إذا لم يكن له مكان معين يقصده . والهيام داء يستولى على الإبل فيجعلها تشرد عن صاحبها بدون وقوف فى مكان معين ، ومنه قوله - تعالى - : ( فَشَارِبُونَ شُرْبَ الهيم ) أى : الجمال العطاش الشاردة .

وانهم يقولون ما لا يفعلون

كما فسرها الوسيط والمعنى : ألم تر - أيها العاقل - أن هؤلاء الشعراء فى كل فن من فنون الكذب فى الأقوال يخوضون ، وفى كل فج من فجاج الباطل والعبث والفحش يتكلمون ، وأنهم فوق ذلك يقولون مالا يفعلون ، فهم يحضون غيرهم على الشىء ولا يفعلونه ، وهم يقولون فعلنا كذا وفعلنا كذا - على سبيل التباهى والتفاخر - مع أنهم لم يفعلوا .قال صاحب الكشاف : ذكر الوادى والهيوم : فيه تمثيل لذهابهم فى كل شعب من القول واعتسافهم وقلة مبالاتهم بالغلو فى المنطق ومجاوزة حد القصد فيه ، حتى يفضلوا أجبن الناس على عنترة وأشحهم على حاتم ، وأن يبهتوا البرىء ، ويفسقوا التقى .

الا الذين امنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما

ظلموا وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى : ( إِلاَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ
. . الصالحات وَذَكَرُواْ الله كَثِيراً وانتصروا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ
استثناء من الشعراء المذمومين الذين يتبعهم الغاوون ، والذين هم فى كل ( .
واد يهيمون .أى : إلا الشعراء الذين آمنوا بالله - تعالى - وعملوا الأعمال
الصالحات وذكروا الله كثيرا بحيث لا يشغلهم شعرهم عن طاعة الله ، وانتصروا
من بعد ما ظلموا من أعدائهم الكافرين ، بأن ردوا على أباطيلهم ، ودافعوا عن
الدين الحق .إلا هؤلاء ، فإنهم لا يكونون من الشعراء المذمومين ، بل هم من
الشعراء الممدوحين .قال ابن كثير : لما نزل قوله - تعالى - : ( والشعرآء
يَتَّبِعُهُمُ الغاوون ) جاء حسان بن ثابت ، وعبد الله بن رواحة ، وكعب بن
- مالك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يبكون وقالوا . قد علم الله
تعالى - أنا شعراء ، فتلا عليهم النبى صلى الله عليه وسلم : ( إِلاَّ الذين
آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ) قال : أنتم . ( وَذَكَرُواْ الله كَثِيراً
" قال : أنتم ( وانتصروا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ) قال : أنتم (
فالشعراء : منهم المذمومون وهم الذين فى كل واد يهيمون ويقولون مالا.
يفعلون . .ومنهم الممدوحون وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وذكروا الله
كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا .والشعر فى ذاته كلام : حسنه حسن ، وقبيحه
قبيح ، فخذ الحسن ، واترك القبيح .وقد تكلم العلماء هنا كلاما ويلا يتعلق
- بتفسير هذه الآيات التى تحدثت عن الشعراء فارجع إليه إن شئت .ثم ختم
سبحانه - السورة الكريمة بقوله - تعالى - ( وَسَيَعْلَمْ الذين ظلموا أَيَّ
. مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ) .والمنقلب : المرجع والمصير ، وهو مفعول مطلق
أى : ينقلبون أى انقلاب والجملة الكريمة مشتملة على أشد ألوان التهديد
والوعيد للظالمين .قال القرطبى : ومعنى : ( أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ )
أى مصير يصيرون ، وأى مرجع يرجعون ، لأن مصيرهم إلى النار ، وهو أقبح مصير
ومرجعهم إلى العقاب وهو شر مرجع يرجعون ، لأن مصيرهم إلى النار ، وهو ،
: أقبح مصير ، ومرجعهم إلى العقاب وهو شر مرجع والفرق بين المنقلب والمرجع
أن المنقلب : الانتقال إلى ضد ما هو فيه ، والمرجع : العود من حال هو فيها
إلى حال كان عليها ، فصار كل مرجع منقلبا ، وليس كل منقلب مرجعا .وقال ،
- الإمام ابن كثير : والصحيح أن هذه الآية عامة فى كل ظالم . . . وعن عائشة
. رضى الله عنها - قالت : كتب أبى وصيته من سطرين : بسم الله الرحمن الرحيم
هذا ما أوصى به أبو بكر بن أبى قحافة ، عند خروجه من الدنيا ، حين يؤمن
الكافر ، وينتهى الفاجر ، ويصدق الكاذب . إنى استخلفت عليكم عمر بن الخطاب
) فإن يعدل فذاك ظنى به ، ورجائى فيه ، وإن يظلم ويبدل فلا أعلم الغيب ،
. ( وَسَيَعْلَمْ الذين ظلموا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ

طس تلك ايات القران وكتاب مبين

، كما فسرها الوسيط سورة النمل : من السور التى افتتحت ببعض الحروف المقطعة
وهو قوله - تعالى - ( طسا ) .وقد ذكرنا آراء العلماء فى هذه الحروف المقطعة
بشىء من التفصيل عند تفسيرنا لسور : البقرة ، وآل عمران ، والأعراف ، ويونس
وهود ، ويوسف . . . إلخ .وقلنا ما خلاصته : لعل أقرب الأقوال إلى الصواب ،
أن هذه الحروف المقطعة . قد رودت فى افتتاح بعض السور ، على سبيل الإيقاظ ،
والتنبيه ، للذين تحداهم القرآن .فكأن الله - تعالى - يقول لأولئك الكافرين
الذين زعموا أن هذا القرآن ليس من عنده - تعالى - : هاكم القرآن ترونه
مؤلفاً من كلام هو من جنس ما تؤلفون منه كلامكم ، ومنظوماً من حروف هى من
جنس الحروف الهجائية ، التى تنظمون منها حروفكم ، فإن كنتم فى شك فى أنه من
عند الله - تعالى - فهاتوامثله ، أو هاتوا عشر سور من مثله ، أو هاتوا سورة
- واحدة من مثله .فعجزوا وانقلبوا خاسرين ، وثبت أن هذا القرآن من عند الله
عز وجل - .واسم الإشارة ( تِلْكَ ) يعود إلى الآيات القرآنية التى تضمنتها
هذه السورة الكريمة . أو إلى جميع آيات القرآن التى نزلت قبل ذلك .وهو - أى
: لفظ ( تِلْكَ ) - مبتدأ وخبره قوله - سبحانه - ( آيَاتُ القرآن ) ، أى
تلك الآيات الحكيمة التى أنزلناها إليك - إيها الرسول الكريم - هى آيات
القرآن ، الذى أنزلناه إليك لتخرج الناس به من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان
: - فإضافة الآيات إلى القرآن لتعظيم شأنها ، وسمو منزلتها .وقوله - تعالى.
معطوف على القرآن من باب عطف إحدى الصفتين على ( وَكِتَابٍ مُّبِينٍ )
" : الأخرى ، كقولهم هذا فعل فلان السخى والجواد الكريم .قال الآلوسى
والمبين : وإما من أبان المتعدى ، أى : مظهر ما فى تضاعيفه من الحكم
والأحكام وأحوال القرون الأولى . . . وإما من أبان اللازم ، بمعنى بان . أى
ظاهر الإعجاز . وهو على الاحتمالين ، صفة مادحة لكتاب ، مؤكدة لما أفاده :
. . التنوين من الفخامة . "

هدى وبشرى للمؤمنين

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( هُدًى وبشرى لِلْمُؤْمِنِينَ ) فى
حيز النصب على الحالية من قوله ( آيَاتُ ) ولفظ (هُدًى ) مصدر هداه هدى
وهداية ، ومعناه : الدلالة الموصلة إلى البغية .و ( وبشرى ) : الخبر السار
فهى أخص من مجرد الخبر ، وسمى الخبر السار بشرى ، لأن أثره يظهر على .
- البشرة ، وهي ظاهر جلد الإنسان .أى : أنزلنا إليك - أيها الرسول الكريم
هذه الآيات القرآنية ، حالة كونها هداية للمؤمنين إلى طريق السعادة والفلاح
- وبشارة لهم بما يشرح صدروهم ، ويدخل الفرح والسرور على نفوسهم .وخص ،
سبحانه - المؤمنين بذلك ، لأنهم المنتفعون بهذه الهداية والبشارة ، دون
سواهم من الكافرين والنافقين .قال - تعالى - : ( قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ
آمَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ والذين لاَ يُؤْمِنُونَ في آذَانِهِمْ وَقْرٌ
- وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أولئك يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ )وقال
سبحانه - : ( وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ
أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هذه إِيمَاناً فَأَمَّا الذين آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ
إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ).

الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالاخرة هم يوقنون

كما فسرها الوسيط ثم وصف - سبحانه - هؤلاء المؤمنين بثلاث صفات جامعة بين
خيرى الدنيا والآخرة فقال : ( الذين يُقِيمُونَ الصلاة ) أى : يؤدونهما فى
). أوقاتها المقدرة لها ، مستوفية لواجباتها وسننها وآدابها وخشوعها
وَيُؤْتُونَ الزكاة ) التى كلفهم الله - تعالى - بإيتائها ، بإخلاص وطيب
نفس .( وَهُم بالآخرة هُمْ يُوقِنُونَ ) والآخرة تأنيث الآخر . والمراد بها
الدار الآخرة ، وسميت بذلك لأنها تأتى بعد الدنيا التى هى الدار الأولى
وقوله : ( يُوقِنُونَ ) من الإيقان . وهو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع.
بحيث لا يطرأ عليه شك ، أو تحون حوله شبهة . يقال : يقن الماء ، إذا سكن ،
، وظهر ما تحته .ويقال : يَقِنْت من هذا الشىء يقَناً ، وأيقنت ، وتيقنت
واستيقنت ، اعتقدت اعتقاداً جازماً من وجوده أو صحته .أى : وهم بالدار
الآخرة وما فيها من حساب وعقاب ، يوقنون إيقاناً قطعيًّا ، لا أثر فيه
للادعاءات الكاذبة ، والأوهام الباطلة .قال الجمل : ولما كان إقامة الصلاة
وإيتاء الزكاة ، مما يتكرر ويتجدد فى أوقاتهما ، أتى بهما فعلين ، ولما كان
الإيقان بالآخرة أمراً ثابتاً مطلوباً دوامه ، أتى به جملة اسمية .وجعل
خبرها مضارعاً ، للدلالة على أن إيقانهم يستمر على سبيل التجدد " .

ان الذين لا يؤمنون بالاخرة زينا لهم اعمالهم فهم يعمهون

، كما فسرها الوسيط وبعد أن مدح - سبحانه - المؤمنين بتلك الصفات الطيبة
أتبع ذلك ببيان ما عليه غيرهم من ضلال وحيرة فقال : ( إِنَّ الذين لاَ
( يُؤْمِنُونَ بالآخرة زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ
) وقوله : ( زَيَّنَّا ) من التزيين ، بمعنى التحسين والتجميل .و.
يَعْمَهُونَ ) من العمه بمعنى التحير والتردد . يقال : عمه فلان - كفرح
ومنع - إذا تحير وتردد فى أمره .والمعنى : إن الذين لا يؤمنون بالدار
: الآخرة وما فيه من ثواب وعقاب ، ( زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ ) أى
حسناها لهم ، وحببناها إليهم ، بسبب استحبابهم العمى على الهدى ، والغى على
الرشد ( فَهُمْ يَعْمَهُونَ ) أى : فهم يتحيرون ويتخبطون ويرتكبون ما
يرتكبون من قبائح ، ظنا منهم أنها محاسن .وصدق الله إذ يقول : ( أَفَمَن
زُيِّنَ لَهُ سواء عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ الله يُضِلُّ مَن
يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ . . . ).

اولئك الذين لهم سوء العذاب وهم في الاخرة هم الاخسرون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - قبح عاقبتهم فقال : ( أولئك الذين
لَهُمْ سواء العذاب ) .أى : أولئك الذين لم يؤمنوا بالآخرة ، لهم أشد أنواع
العذاب الذى يذلهم ويؤلمهم فى الدنيا ( وَهُمْ فِي الآخرة هُمُ الأخسرون )
. أى : وهم فى الآخرة أشد خسارة منهم فى الدنيا إذ عذاب الدنيا له نهاية
. أما عذاب الآخرة فلا نهاية له

وانك لتلقى القران من لدن حكيم عليم

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى القرآن من
لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ) كلام مستأنف سيق بعد بيان بعض صفات القرآن
) الكريم ، تمهيداً لما سيأتى بعد ذلك من قصص وآداب وأحكام وهدايات .وقوله
لَتُلَقَّى ) من التلقى بمعنى الأخذ عن الغير ، والمراد به جبريل - عليه
السلام - .أى : وإنك - أيها الرسول الكريم - لتتلقى القرآن الكريم بواسطة
، جبريل - عليه السلام - من لدن ربك الذى يفعل كل شىء بحكمة ليس بعدها حكمة

- ويدبر كل أمر بعلم شامل لكل شىء .وصدرت هذه الآية الكريمة بحرفى التأكيد
) وهما إن ولام القسم - للدلالة على كمال العناية بمضمونه .والتعبير بقوله
- لَتُلَقَّى ) يشعر بمباشرة الأخذ عن جبريل - عليه السلام - بأمر الله
: - تعالى - الحكيم العليم ، كما يشعر بقوته وشدته ، كما فى قوله - سبحانه
وجاء الأسلوب بالبناء ( إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً )
للمفعول فى قوله : " تلقى " وحذف الفاعل وهو جبريل للتصريح فى آيات أخرى
منها قوله - تعالى - ( نَزَلَ بِهِ الروح الأمين على قَلْبِكَ لِتَكُونَ
، مِنَ المنذرين ) وجمع - سبحانه - فى وصفه لذاته بين الحكمة والعلم
للدلالة على أن هذا القرآن تتجلى فيه كل صفات الإتقان والإحكام ، لأن كلام
. الحكيم فى أفعاله ، العليم لك شىء

اذ قال موسى لاهله اني انست نارا ساتيكم منها بخبر او اتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون

كما فسرها الوسيط وبعد أن بين - سبحانه - أن هذا القرآن ، قد تلقاه الرسول
صلى الله عليه وسلم من لدن حكيم عليم أتبع ذلك بجانب من قصة موسى - عليه
السلام - لتكون بمثابة التسلية للرسول صلى الله عليه وسلم عن موقف كفار مكة
منه - عليه الصلاة والسلام - فقال - تعالى - : ( إِذْ قَالَ موسى لأَهْلِهِ
، هذا جانب من قصى موسى - عليه السلام - كما جاءت فى هذه السورة. ( . . .
، وقد جاءت فى سور أخرى بصورة أوسع ، كسور : البقرة ، والأعراف ، ويونس
والشعراء ، والقصص . . .وقد افتتحت هنا بقوله - تعالى : ( إِذْ قَالَ موسى
لأَهْلِهِ إِني آنَسْتُ نَاراً ) .والظرف " إذ " متعلق بمحذوف تقديره : اذكر
و " موسى " - عليه السلام - هو ابن عمران ، وينتهى نسبه إلى يعقوب بن.
إسحاق ابن إبراهيم - عليه السلام - ، وكانت بعثته - على الراجح - فى القرن
الحادى عشر أو الثانى عشر قبل الميلاد .والمراد بأهله : زوجته ، وهى ابنة
الشيخ الكبير الذى قال له - بعد أن سقى لابنتيه غنمهما- : ( قَالَ إِني
أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابنتي هَاتَيْنِ على أَن تَأْجُرَنِي
ثَمَانِيَ حِجَجٍ . . . ) قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : " وكان ذلك بعد
، أن قضى موسى الأجل الذى بينه وبين صهره ، فى رعاية الغنم ، وسار بأهله
قيل : قاصداً بلاد مصر بعد ما طالت الغيبة عنها أكثر من عشر سنين ، ومعه
. . . زوجته فأضل الطريق ، وكانت ليلة شاتية ، ونزل منزلاً بين شعاب وجبال
فبينما هو كذلك إذ آنس من جانب الطور ناراً . . . " .وقوله : ( آنَسْتُ )
من الإيناس ، بمعنى الإبصار الواضح الجلى يقال : آنس فلان الشىء إذا أبصره
وعلمه وأحس به .أى : واذكر - أيها الرسول الكريم - وذكر أتباعك ليعتبروا و
يتعظوا ، وقت أن قال موسى لأهله ، وهو فى طريقه من جهة مدين إلى مصر .إنى
) أبصرت - إبصاراً لا شبهة فيه - ناراً . فامكثوا فى مكانكم ، فإنى
سَآتِيكُمْ مِّنْهَا بِخَبَرٍ ) أى : سآتيكم من جهتها بخبر ينفعنا فى
رحلتنا هذه ، وتسترشد به فى الوصول إلى أهدى الطرق التى توصلنا إلى المكان
الذى نريده .و ( أَوْ ) فى قوله - سبحانه - : ( آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ
لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ) مانعة خلو .قال القرطبى : ما ملخصه : " قرأ
عاصم وحمزة والكسائى : ( بِشِهَابٍ قَبَسٍ ) بتنوين ( شِهَابٍ ) وقرأ
الباقون بدون تنوين على الإضافة ، أى : بشعلة نار ، من إضافة النوع إلى
. جنسه كخاتم فضة . والشهاب : كل ذى نور ، نحو الكواكب ، والعود الموقد
والقبس : اسم لما يقتبس من جمر وما أشبهه ، فالمعنى بشهاب من قبس . . . ومن
قرأ ( بِشِهَابٍ قَبَسٍ ) ، بالتنوين جعله بدلاً منه ، أو صفة له . على
، تأويله بمعنى المقبوس . . " .وقوله : ( تَصْطَلُونَ ) أى : تستدفئون
والاصطلاء : الدنو من النار لتدفئة البدن عند الشعور بالبرد . قال الشاعر
النار فاكهة الشتاء فمن يرد ... أكل الفواكه شاتيا فليصطلوالمعنى : قال:
موسى - عليه السلام - لأهله عندما شاهد النار : امكثوا فى مكانكم ، فإنى
ذاهب إليها ، لكى آتيكم من جهتها بخبر فى رحلتنا فإن لم يكن ذلك ، فإنى
آتيكم بشعلة مقتطعة منها ومقتبسة من أصلها ، لعلم تستدفئون بها فى تلك
: - الليلة الشديدة البرودة .قال صاحب الكشاف : " فإن قلت : - قوله - تعالى
) هنا ( سَآتِيكُمْ مِّنْهَا بِخَبَرٍ ) مع قوله - تعالى - فى سورة القصص
لعلي آتِيكُمْ مِّنْهَا بِخَبَرٍ ) كالمتدافعين . لأن أحدهما ترج ، والآخر
تيقن . قلت : قد يقول الراجى إذا قوى رجاؤه : سأفعل كذا ، وسيكون كذا ، مع
تجويزه الخيبة .فإن قلت : كيف جاء بسين التسويف - هنا -؟ قلت : عدة لأهله
أنه يأتيهم وإن أبطأ ، أو كانت المسافة بعيدة .فإن قلت : فلم جاء بأو دون
الواو؟ قلت : بنى الرجاء على أنه إن لم يظفر بحاجتيه جميعاً لم يعدم واحدة
منهما : إما هداية الطريق ، وإما اقتباس النار ، ثقة بعادة الله أنه لا
. " . . . يكاد يجمع بين حرمانين على عبده

فلما جاءها نودي ان بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما حدث لموسى عندما اقترب من النار

فقال : ( فَلَمّا جَآءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النار وَمَنْ
حَوْلَهَا . . ) و ( أَن ) هنا مفسرة ، لما فى النداء من معنى القول .وقوله
من البركة ، بمعنى ثبوت الخير وكثرته . والخير هنا يتمثل فى ( بُورِكَ ) :
، تكليم الله - تعالى - لنبيه موسى . وفى ندائه له . وتشريفه برسالته
- وتأييده بالمعجزات .والمراد بمن فى النار : من هو قريب منها ، وهو موسى
عليه السلام - .والمراد بمن حولها : الملائكة الحاضرون لهذا النداء ، أو
الأماكن المجاورة لها .أى : فلما وصل موسى - عليه السلام - إلى القرب من
: مكان النار ، نودى موسى من قبل الله - عز وجل - على سبيل التكريم والتحية
- أن قُدس وطهر واختير للرسالة من هو بالقرب منها وهو موسى - عليه السلام
: ومن حولها من الملائكة ، أو الأماكن القريبة منها .قال الآلوسى : " قوله
ذهب جماعة إلى أن فى الكلام مضافا ( مَن فِي النار وَمَنْ حَوْلَهَا )
: مقدراً فى موضعين . أى : من فى مكان النار ، ومن حول مكانها قالوا
- ومكانها البقعة التى حصلت فيها ، وهى البقعة المباركة ، المذكورة فى قوله
تعالى - : ( فَلَمَّآ أَتَاهَا ) أى : النار - ( نُودِيَ مِن شَاطِىءِ
: الوادي الأيمن فِي البقعة المباركة مِنَ الشجرة . . ) وقيل : من فى النار
موسى - عليه السلام - ، ومن حولها : الملائكة الحاضرون . . . وقيل الأول
الملائكة ، والثانى موسى ، واستغنى بعضهم عن تقدير المضاف بجعل الظرفية
مجازاً عن القرب التام . . . وأيا ما كان فالمراد بذلك بشارة موسى - عليه
- السلام - " .وقال الشوكانى : " ومذهب المفسرين أن المراد بالنار - هنا
النور " .وقوله - تعالى - : ( وَسُبْحَانَ الله رَبِّ العالمين ) من تتمة
- النداء ، وخبر منه - تعالى - لموسى بالتنزيه . لئلا يتوهم من سماع كلامه
تعالى - التشبيه بما للبشر من كلام .أى : وتنزه الله - عز وجل - وتقدس رب
. العالمين عن كل سوء ونقص ومماثلة للحوادث

يا موسى انه انا الله العزيز الحكيم

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( إِنّهُ أَنَا الله العزيز الحكيم )
- إعلام منه - عز وجل - لعبده موسى بأن المخاطب له ، إنما هو الله - تعالى
) الذى عز كل شىء وقهره وغلبه . والذى أحكم كل شىء خلقه .والضمير فى قوله
إِنّهُ ) للشأن . وجملة ( أَنَا الله ) مبتدأ وخبر والعزيز الحكيم صفتان
لذاته - عز وجل - .أى : يا موسى إن الحال والشأن إنى أنا الله العزيز
الحكيم ، الذى أخاطبك وأناجيك . فتنبه لما سأمرك به . ونفذ ما سأكلفك بفعله
.

والق عصاك فلما راها تهتز كانها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى لا تخف اني
لا يخاف لدي المرسلون

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك بعض ما أمر به موسى - عليه
السلام - فقال : ( وَأَلْقِ عَصَاكَ ) .والجملة الكريمة معطوفة على ما
تضمنه النداء .أى : نودى أن بورك من فى النار ومن حولها . . . ونودي أن ألق
عصاك التي بيدك .وقوله : ( فَلَمّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنّهَا جَآنٌّ
ولى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ . . . ) معطوف على كلام مقدر؟أى : فاستجاب
موسى - عليه السلام - لأمر ربه فألقى عصاه فصارت حية ، فلما رآها تهتز . أى
تضطرب وتتحرك بسرعة شديدة حتى لكأنها ( جَآنٌّ ) فى شدة حركتها وسرعة :
تقلبها ( ولى مُدْبِراً ) عنها من الخوف ( وَلَمْ يُعَقِّبْ ) أى : ولم
. يرجع على عقبه . بل استمر فى إدباره عنها دون أن يكفر فى الرجوع إليها
يقال : عقب المقاتل . إذا كر على عدوه بعد الفرار منه .والجان : الحية
الصغيرة السريعة الحركة . أو الحية الكبيرة ، والمراد هنا : التشبيه بها فى
شدة الحركة وسرعتها مع عظم حجمها .وإنما ولى موسى مدبراً عنها ، لأنه لم
يخطر بباله أن عصاه التى بيده ، يحصل منها ما رآه بعينه ، من تحولها إلى
حية تسعى وتضطرب وتتحرك بسرعة كأنها جان ، ومن طبيعة الإنسان أنه إذا رأى
أمرا غريباً اعتراه الخوف منه ، فما بالك بعصا تتحول إلى حية تسعى .ثم
بين - سبحانه - ما نادي به موسى على سبيل التثبيت وإدخال الطمأنينة على
قلبه ، فقال : ( ياموسى لاَ تَخَفْ ) .أى : فلما ولى موسى ولم يعقب عندما
ألقى عصاه فانقلبت حية ، ناداه ربه - تعالى - بقوله : ( ياموسى لاَ تَخَفْ
مما رأيت؛ أو من شىء غيرى ما دمت فى حضرتى .وجملة ( إِنِّي لاَ يَخَافُ (
لَدَيّ المرسلون ) تعليل للنهى عن الخوف ، أى إنى لا يخاف عندى من اخترته
. لحمل رسالتى ، وتبليغ دعوتى

الا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فاني غفور رحيم

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( إِلاّ مَن ظَلَمَ ثُمّ بَدّلَ
حُسْناً بَعْدَ سواء فَإِنِّي غَفُورٌ رّحِيمٌ ) استثناء منقطع مما قبله
أى : إنى يا موسى لا يخاف لدى المرسلون ، لكن من ظلم وارتكب فعلاً سيئاً.

من عبادى ، ثم تاب إلى توبة صادقة ، بأن ترك الظلم إلى العدل والشر إلى
الخير . والمعصية إلى الطاعة ، فإنى أغفر له ما فرط منه ، لأنى أنا وحدى
الواسع المغفرة والرحمة .قال ابن كثير : هذا استثناء منقطع ، وفيه بشارة
عظيمة للبشر ، وذلك أن من كان على شىء ثم أقلع عنه وتاب وأناب ، فإن الله
يتوب عليه ، كما قال - تعالى - ( وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ
وَعَمِلَ صَالِحَاً ثُمّ اهتدى ) وقال - تعالى - ( وَمَن يَعْمَلْ سوءا
أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّه يَجِدِ اللّه غَفُوراً
رَّحِيماً ) وقيل : إن الاستثناء متصل ، فيكون المعنى : لا يخاف لدى
المرسلون ، إلا من ظلم منهم بأن وقع فى الصغائر التى لا يسلم منها أحد ، ثم
- تاب منها وأقلع عنها ، فإنى غفور رحيم .قال الآلوسى : " والظاهر - هنا
انقطاع الاستثناء ، والأوفق بشأن المرسلين ، أن يراد بمن ظلم : من ارتكب
ذنباً كبيراً أو صغيراً من غيرهم . و ( ثُمَّ ) يحتمل أن تكون للتراخى
الزمانى فتفيد الآية المغفرة لمن بدل على الفور من باب أولى . ويحتمل أن
- تكون للتراخى الرتبى ، وهو ظاهر بين الظلم والتبديل . . . " .وعبر
سبحانه - عن ترك الظلم بالتبديل ، للإشارة إلى الإقلاع التام عن هذا الظلم
. -وإلى أن هذا الظلم قد حل محله العدل والطاعة والانقياد لأمره - تعالى ،

وادخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء في تسع ايات الى فرعون وقومه انهم
كانوا قوما فاسقين

كما فسرها الوسيط ثم أرشد - سبحانه - موسى - عليه السلام - إلى معجزة أخرى
) : لتكون دليلاً على صدقه فى رسالته إلى من سيرسله إليهم فقال .
( وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سواء
والمراد بجيبه : فتحة ثوبه أو قميصه عند مدخل رأسه ، أو عند جانبه الأيمن.
وأصل الجيب : القطع . يقال : جاب الشىء إذا قطعه .والمعنى : وأدخل يا ،
. موسى يدك اليمنى فى فتحة ثوبك ، ثم أخرجها تراها تخرج بيضاء من غير سوء
أى : تخرج منيرة مشرقة واضحة البياض دون أن يكون بها أى سوء من مرض أو برص
أو غيرهما . وإنما يكون بياضها بياضاً مشرقاً مصحوباً بالسلامة بقدرة
الله - تعالى - وإرادته .قال الحسن البصرى : أخرجها - والله - كأنها مصباح
) : فعلم موسى أنه قد لقى ربه ،وقوله : ( تَخْرُجْ ) جواب الأمر فى قوله ،
وَأَدْخِلْ ) ، و ( بَيْضَآءَ ) حال من فاعل تخرج ، و ( مِنْ غَيْرِ سواء )
يجوز أن يكون حالاً أخرى . أو صفة لبيضاء .والمراد باليد هنا : كف يده
اليمنى . والسوء : الردئ والقبيح من كل شىء ، وهو هنا كناية عن البرص لشدة
قبحه .وقوله - تعالى - : ( فِي تِسْعِ آيَاتٍ إلى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ )
يصح أن يكون حالاً ثالثة من فاعل ( تَخْرُجْ ) فيكون المعنى : وأدخل يا
موسى يدك فى جيبك تخرج حالة كونها بيضاء .وحالة كونها من غير سوء ، وحالة
كونها مندرجة أو معدودة فى ضمن تسع آيات وزدناك بها ، لتكون معجزات لك أمام
فرعون وقومه ، على أنك صادق فيما تبلغه عن ربك .قال الجمل " وقوله : ( فِي
تِسْعِ آيَاتٍ ) فيه وجوه : أحدها : أنه حال ثالثة يعنى من فاعل تخرج ، أى
. . . آية فى تسع آيات .الثانى : أنه متعلق بمحذوف أى : اذهب فى تسع آيات :
والمراد بالآيات التسع التى أعطاها الله - تعالى - لموسى - عليه. "
، السلام - : العصا ، واليد ، والسنون ، والبحر ، والطوفان ، والجراد
والقمل ، والضفادع ، والدم . كما جاء ذلك عن ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم
- وقد جاء الحديث عن هذه الآيات فى مواضع أخرى من القرآن الكريم منها قوله.
تعالى - : ( فألقى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ وَنَزَعَ
) : - يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّاظِرِينَ ) وقوله - سبحانه
وَلَقَدْ أَخَذْنَآ آلَ فِرْعَونَ بالسنين وَنَقْصٍ مِّن الثمرات
لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ) وقوله - عز وجل - : ( فَأَوْحَيْنَآ إلى موسى
( أَنِ اضرب بِّعَصَاكَ البحر فانفلق فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كالطود العظيم
وقال - تعالى - : ( فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطوفان والجراد والقمل
والضفادع والدم . . . ) وتحديد الآيات بالتسع ، لا ينفى أن هناك معجزات
أخرى ، أعطاها الله - تعالى - لموسى - عليه السلام - إذ من المعروف عند
علماء الأصول أن تحديد العدد بالذكر ، لا يدل على نفى الزائد عنه .قال ابن
كثير : " ولقد أوتى موسى - عليه السلام - آيات أخرى كثيرة ، منها ضربه
الحجر بالعصا ، وخروج الماء منه . . . وغير ذلك . مما أوتوه بنو إسرائيل
بعد خروجهم من مصر . ولكن ذكر هنا هذه الآيات التسع التى شاهدها فرعون
- وقومه ، وكانت حجة عليهم فخالفوها وعاندوها كفراً وجحوداً .وقوله - تعالى
استئناف مسوق لبيان سبب إرسال ( إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فَاسِقِينَ ) :
موسى إلى فرعون وقومه .أى : هذه الآيات التسع أرسلناك بها يا موسى إلى
، فرعون وقومه ، لأنهم كانوا قوماً فاسقين عن أمرنا ، وخارجين على شرعنا
. وعابدين لغيرنا من مخلوقاتنا

فلما جاءتهم اياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - موقف فرعون وقومه من هذه المعجزات الدالة على صدق موسى فقال :( فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ . وَجَحَدُواْ بِهَا واستيقنتها أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً . فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المفسدين ) .وقوله ( مُبْصِرَةً ) من الإبصار والظهور . وهو اسم فاعل بمعنى اسم المفعول ، للإشعار بشدة وضوحها وإنارتها ، حتى لكأنها تبصر نفسها لو كانت مما يبصر . كما يقال : ماء دافق بمعنى مدفوق

وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين

كما فسرها الوسيط وقوله : ( وَجَحَدُواْ بِهَا ) من الجحود . وهو إنكار الحق مع العلم بأنه حق ، يقال : جحد فلان حق غيره ، إذا أنكره مع علمه به وقوله : ( واستيقنتها ) من الإيقان وهو الاعتقاد الجازم الذى لا يطرأ عليه شك وجىء بالسين لزيادة التأكيد .والمعنى : وذهب موسى - عليه السلام - ومعه المعجزات الدالة على صدقه ، إلى فرعون وقومه ليدعوهم إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - وحده ، فلما جاءهم موسى بتلك المعجزات المضيئة الواضحة للدلالة على صدقه ، قالوا على سبيل العناد والغرورو ، هذا الذى نراه منك يا موسى ، سحر بين وظاهر فى كونه سحرا .وجحد فرعون وقومه هذه المعجزات التى جاء بها موسى من عند ربه - تعالى - ، مع أن أنفسهم قد علمت علما لا شك معه أنها معجزات وليست سحراً ، ولكنهم خالفوا علمهم ويقينهم ( ظُلْماً ) للآيات حيث أنزلوها عن منزلتها الرفيعة وسموها سحراً ( وَعُلُوّاً ) أى : ترفعا واستكباراً عن الإيمان بها .( فانظر ) أيها العاقل ( كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المفسدين ) ؟ لقد كانت عاقبتهم أن أغرقهم الله جميعاً ، بسبب كفرهم وظلمهم وجحودهم وفسادهم فى الأرض .وفى التعبير بقوله : ( فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ آيَاتُنَا . . ) إشعار بأن هذه الآيات الدالة على صدق موسى - عليه السلام - قد وصلت إليهم بدون أن يتعبوا أنفسهم فى الذهاب إليها ، فهى جاءتهم إلى بيوتهم لكى تهديهم إلى الصراط المستقيم ، ولكنهم قابلوا ذلك بالكفر والجحود .وأسند - سبحانه - المجىء إلى الآيات وأضافها إلى ذاته - تعالى - للإشارة إلى أنها خارجة عن أن تكون من صنع موسى ، وإنما هى من صنع الله - تعالى - ومن فعله ، و موسى ما هو إلا منفذ لما أمره ربه ، ومؤيد لما منحه إياه من معجزات دالة على صدقه فيما يبلغه عنه .وقوله : ( ظُلْماً وَعُلُوّاً ) منصوبان على أنهما مفعولان لأجله ، أو على أنهما حالان من فاعل جحدوا .أى : جحدوا الآيات مع تيقنهم أنها من عند الله ، من أجل الظلم ، لها والتعالى على من جاء بها ، أو : جحدوا بها حالة كونهم ظالمين لها ومستكبرين عنها .وفى قوله - سبحانه - : ( فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المفسدين ) تسلية عظمى للرسول صلى الله عليه وسلم عما أصابه من الكافرين فهم كانوا كفرعون وقومه فى جحود الحق الذى جاءهم به الرسول صلى الله عليه وسلم مع يقينهم بأنه حق ، ولكن حال بينهم وبين الدخول أسباب متعددة ، على رأسها العناد ، والحسد ، مع يقينهم بأنه حق ، ولكن حال بينهم وبين الدخول أسباب متعددة ، على رأسها العناد ، والحسد ، والعكوف على ما كان عليه الآباء ، والكراهية لتغيير الأوضاع التى تهواها نفوسهم ، وزينتها لهم شهواتهم .

ولقد اتينا داوود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين

كما فسرها الوسيط وبعد أن ساق - سبحانه - هذا الجانب من قصة موسى - عليه السلام - ، أتبع ذلك بالحديث عن جانب من النعم التى أنعم بها على نبيين كريمين من أنبيائه ، وهما داود وسليمان - عليهما السلام - فقال - تعالى : - قوله - سبحانه. ( . . . وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ ) : - ( وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً ) كلام مستأنف مسوق لتقرير قوله - تعالى - : ( وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى القرآن مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ) إذ القرآن الكريم هو الذى قص الله - تعالى - فيه أخبار السابقين ، بالصدق والحق .وداود هو ابن يسى ، من سبط يهوذا من بنى إسرائيل وكانت ولادته فى بيت لحم سنة 1085 ق . م - تقريباً - ، وهو الذى قتل ، جالوت ، كما قال - تعالى - : ( فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ الله وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ الله الملك والحكمة وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَآءُ . . ) وكانت وفاته سنة 1000 ق . م تقريباً .وسليمان هو ابن داود - عليهما السلام - ولد بأورشليم حوالى سنة 1043 ق . م وتوفى سنة 975 ق . م .وقد جاء ذكرهما فى سورتى الأنبياء وسبأ وغيرهما .ويعتبر عهدهما أزهى عهود بنى إسرائيل ، فقد أعطاهما الله - تعالى - نعما جليلة .والمعنى : والله لقد أعطينا داود وابنه سليمان علما واسعا من عندنا ، ومنحناهما بفضلنا وإحساننا معرفة غزيرة بعلوم الدين والدنيا .أما داود فقد أعطاه - سبحانه - علم الزبور ، فكان يقرؤه بصوت جميل ، كما علمه صناعة الدروع . . قال - تعالى -

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنّا فَضْلاً ياجبال أَوِّبِي مَعَهُ ) :
والطير وَأَلَنّا لَهُ الحديد ) وأما سليمان فقد آتاه - سبحانه - ملكا لا
. ينبغى لأحد من بعده ، وعلمه منطق الطير ، ورزق الحكم السديد بين الناس
قال - تعالى - : ( فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْماً
وَعِلْماً ) وقوله - سبحانه - ( وَقَالاَ الحمد لِلَّهِ الذي فَضَّلَنَا
- على كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ المؤمنين ) بيان لموقفهما من نعم الله
) تعالى - عليهما ، وهو موقف يدل على حسن شكرهما لخالقهما .والواو فى قوله
وَقَالاَ ) للعطف على محذوف ، أى : آتيناهما علما غزيراً فعملا بمقتضاه
وشكرا الله عليه ، وقالا : الحمد لله الذى فضلنا بسبب ما آتانا من علم ونعم
- على كثير من عباده المؤمنين ، الذين لم ينالوا ما نلنا من خيره وبره ،
سبحانه - .قال صاحب الكشاف : " وفى الآية دليل على شرف العلم ، وإنافة محله
، وتقدم حَمَلَتهِ وأهله ، وأن نعمة العلم من أجل النعم ، وأجزل القسم .
وأن من أوتيه فقد أونى فضلاً على كثير من عباد الله . . " .وفى التعبير
، بقوله - تعالى - : ( فَضَّلَنَا على كَثِيرٍ . . ) دلالة على حسن أدبهما
. وتواضعهما ، حيث لم يقولا فضلنا على جميع عباده

وورث سليمان داوود وقال يا ايها الناس علمنا منطق الطير واوتينا من كل شيء
ان هذا لهو الفضل المبين

كما فسرها الوسيط والمراد بالوراثة فى قوله - تعالى - : ( وَوَرِثَ
سُلَيْمَانُ دَاوُودَ . . . ) وراثة العلم والنبوة والملك . أى : وورث
سليمان داود فى نبوته وعلمه وملكه .قال ابن كثير : " وقوله : ( وَوَرِثَ
، سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ) : أى : فى الملك والنبوة وليس المراد وراثة المال
إذ لو كان كذلك ، لم يخص سليمان وحده من ين سائر أولاد داود .. . ولكن
المراد بذلك وراثة الملك والنبوة فإن الأنبياء لا تورث أموالهم ، أخبر بذلك
رسول الله صلى الله عليه وسلم : " نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه
صدقة " .ثم حكى - سبحانه - ما قاله سليمان على سبيل التحدث بنعم الله عليه
فقال - تعالى - : ( وَقَالَ ياأيها الناس عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطير ،
وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ . . ) .أى : وقال سليمان - عليه السلام - على
سبيل الشكر لله - تعالى - : يأيها الناس : علمنا الله - تعالى - بفضله
وإحسانه فهم ما يريده كل طائر إذا صوت أو صاح ، وأعطانا - سبحانه - من كل
، شىء نحتاجه وننتفع به فى ديننا أو دنيانا .وقدم نعمة تعليمه منطق الطير
- لأنها نعمة خاصة لا يشاركه فيها غيره ، وتعتبر من معجزاته - عليه السلام
وقيل : إنه علم منطق جميع الحيوانات ، وإنما ذكر الطير لأنه أظهر فى.
النعمة ، ولأن الطير كان جندا من جنده ، يسير معه لتظليله من الشمس .قال
الآلوسى : " والجملتان - علمنا منطق الطير ، وأوتينا من كل شىء - كالشرح
للميراث .وعن مقاتل : أنه أريد بما أوتيه النبوة والملك وتسخير الجن والإنس
" والشياطين والريح .وعن ابن عباس : هو ما يريده من أمر الدنيا والآخرة
وعبر عن نعم الله - تعالى - عليه بنون العظمة فقال ( أُوتِينَا ) ولم يقل.
أوتيت ، للإشعار بأنه عبد من عباد الله المطاعين ، الذين سخر لهم جنوداً من
الجن والإنس والطير ، ليكونوا فى خدمته ، وليستعملهم فى وجوه الخير فى فى
وجوه الشر ، فهو لم يقل ذلك على سبيل التباهى والتعالى ، وإنما قاله على
سبيل التحدث بنعمى الله .وإسم الإشارة فى قوله - تعالى - : ( إِنَّ هذا
لَهُوَ الفضل المبين ) يعود إلى ما أعطاه الله - تعالى - إياه من العلم
والملك وغيرهما .أى : إن هذا الذى أعطانا إياه من العلم والملك ، وكل شىء
. - تدعو إليه الحاجة ، لهو الفضل الواضح ، والإحسان الظاهر منه - عز وجل

وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فهم يوزعون

كما فسرها الوسيط ثم تنتقل السورة الكريمة إلى الحديث عن مظاهر ملك
سليمان - عليه السلام - فتقول : ( وَحُشِرَ لِسْلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ
الجن والإنس والطير فَهُمْ يُوزَعُونَ ) .والحشر : الجمع . يقال : حشر
القائد جنده إذا جمعهم لأمر من الأمور التى تهمه .وقوله : ( يُوزَعُونَ )
من الوزع بمعنى الكف والمنع . يقال : وزعه عن الظلم وزعا ، إذا كفه عنه
ومنه قول عثمان بن عفان - رضى الله عنه - : " إن الله ليزع بالسلطان ما لا.
... يزع بالقرآ ، " .ومنه قول الشاعر :ولا يَزَعُ النفسَ اللجوجَ عن الهوى
- من الناس ، إلا وافرُ العقل كامِلهُوالمعنى : وجمع لسليمان - عليه السلام
عساكره وجنوده من الجن والإنس والطير ( فَهُمْ يُوزَعُونَ ) أى : فهم
محبوسون ومجموعون بنظام وترتيب ، بحيث لا يتجاوز أحدهم مكانه أو منزلته أو
وظيفته المسئول عنها .فالتعبير بقوله ( يُوزَعُونَ ) يشعر بأن هؤلاء الجنود
مع كثرتهم ، لهم من يزعهم عن الفوضى والاضطراب ، إذ الوازع فى الحرب ، هو
من يدير أمور الجيش ، وينظم صفوفه ، ويرد من شد من أفراده إلى جادة الصواب
ولقد ذكر بعض المفسرين هنا أقوالاً فى عدد جيش سليمان ، رأينا أن نضرب.
عنها صفحا ، لضعفها ويكفينا أن نعلم أن الله - تعالى - قد سخر لسليمان جندا

- من الجن والإنس والطير ، إلا أن عدد هؤلاء الجنود مرد علمه إلى الله ، تعالى- وحده ، وإن كان التعبير القرآنى يشعر بأن هؤلاء الجند المجموعين يمثلون مركبا عظيما ، وحشدا كبيرا .

حتى اذا اتوا على واد النمل قالت نملة يا ايها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - ما قالته نملة عندما رأت هذا الجيش العظيم المنظم ، فقال - تعالى - : ( حتى إِذَآ أَتَوْا عَلَى وَادِ النمل قَالَتْ نَمْلَةٌ ياأيها النمل ادخلوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ) .و ( حتى ) هنا ابتدائية ) : أى : يبتدأ بها الكلام ، وقوله ( قَالَتْ نَمْلَةٌ ) جواب إذا .وقوله . لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ ) من الحطم ، وأصله : كسر الشىء . . يقال : حطم فلان الشىء إذا كسره ، والمراد به هنا : الإهلاك والقتل .والمعنى : وحشر لسليمان جنوده ، فسار هؤلاء الجنود فى قوة ونظام ، ( حتى إِذَآ أَتَوْا عَلَى وَادِ النمل ) أى : على مكان يعيش فيه النمل فى مملكة سليمان ( قَالَتْ نَمْلَةٌ على سبيل النصح والتحذير بعد أن رأت سليمان وجنوده : ( ياأيها النمل ( ادخلوا مَسَاكِنَكُمْ ) أى : ادخلوا أماكن سكناكم ، وابتعدوا عن طريق هذا الجيش الكبير ، وانجوا بأنفسكم ، كى لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا : يشعرون بكم .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم عدى ( أَتَوْا ) بعلى؟ قلت . يتوجه على معنين : أحدهما : أن إتيانهم كان من فوق ، فأتى بحرف الاستعلاء والثانى : أن يراد قطع الوادى وبلوغ آخره ، من قولهم أتى على الشىء إذا . . : أنفذه وبلغ آخره . . .فإن قلت : ( لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ ) ما هو؟ قلت يحتمل أن يكون جواباً للأمر ، وأن يكون نهيا بدلاً من الأمر . والذى جوز أن : يكون بدلاً منه : أنه فى معنى :لا تكونوا حيث أنتم فيحطمكم ، على طريقة . لاأرينك ههنا " .أى :لا تحضر ها هنا بحيث أراك .

فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب اوزعني ان اشكر نعمتك التي انعمت علي وعلى والدي وان اعمل صالحا ترضاه وادخلني برحمتك في عبادك الصالحين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما فعله سليمان بعد أن أدرك ما قالته النملة لأفراد جنسها ، فقال - تعالى - : ( فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن ، قَوْلِهَا ) أى : فسمع قولها السابق فاهتزت نفسه ، وتبسم ضاحكاً من قولها لفظنتها إلى تحذير أبناء جنسها ، ولسروره بما قالته عنه وعن جيشه ، حيث وصفتهم بأنهم لا يقدمون على إهلاك جنسها ، ولسروره بما قالته عنه وعن جيشه حيث وصفتهم بأنهم لا يقدمون على إهلاك النمل ، إلا بسبب عدم شعورهم بهم ، وقوله ( ضَاحِكاً ) حال مؤكدة لأنه قد فهم الضحك من التبسم .وقيل : هو حال. مقدرة؛ لأن التبسم أول الضحك .ثم حكى - سبحانه - ما نطق به سليمان بعد ذلك فقال : ( وَقَالَ رَبِّ أوزعني أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ التي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وعلى وَالِدَيَّ . . . ) .أى : وقال سليمان : يا رب ألهمنى المداومة على شكرك والامتناع عن جحود نعمك ، والكف عن كل ما يؤدى إلى كفران ) منك التى أفضتها على وعلى والدى .ووفقنى كذلك لأن ( أَعْمَلَ ) عملاً ) صَالِحاً تَرْضَاهُ ) عنى وتقبله منى ( وَأَدْخِلْنِي ) يا إلهى ) بِرَحْمَتِكَ ) وإحسانك ( فِي عِبَادِكَ الصالحين ) الذين رضيت عنهم ورضوا عنك .وهكذا جمع سليمان - عليه السلام - فى هذا الدعاء البليغ المؤثر ، أسمى ألوان الخشية من الله - تعالى - والشكر له - سبحانه - على نعمه ، والرجاء فى رضاه وعطائه الجزيل .

وتفقد الطير فقال ما لي لا ارى الهدهد ام كان من الغائبين

كما فسرها الوسيط ثم تحكى السورة الكريمة بعد ذلك ما دار بين سليمان - عليه ) : - السلام - وبين جندى من جنود مملكته وهو الهدهد ، فقال - تعالى وَتَفَقَّدَ الطير . . . . ) .التفقد : تطلب الشىء ومعرفة أحواله ، ومنه قولهم : تفقد القائد جنوده ، أى : تطلب أحوالهم ليعرف حاضرهم من غائبهم والطير اسم جنس لكل ما يطير ، ومفرده طائر ، والمراد بالهدهد هنا : طائر. معين وليس الجنس .و ( أَمْ ) منقطعة بمعنى بل .أى : وأشرف سليمان - عليه السلام - على أفراد مملكته ليعرف أحوالها ، فقال بعد أن نظر فى أحوال الطير أى : ما الذى حال بينى وبين رؤية الهدهد ثم ( مَالِيَ لاَ أَرَى الهدهد ) : - تأكد من غيابه فقال بل هو من الغائبين .قال الآلوسى : " والظاهر أن قوله : عليه السلام - ذلك ، مبنى على أنه ظن حضوره ومنه مانع له من رؤيته ، أى عدم رؤيتى إياه مع حضوره ، لأي سبب؟ ألساتر أم لغيره . ثم لاح له أنه غائب فأضرب عن ذلك وأخذ يقول : ( أَمْ كَانَ مِنَ الغآئبين ) كأنه يسأل عن صحة ، . . . ما لاح له . فأم هى المنقطعة ، كما فى قولهم : إنها لإبل أم شاء

لاعذبنه عذابا شديدا او لاذبحنه او لياتيني بسلطان مبين

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ) بيان للحكم الذى أصدره سليمان - عليه السلام - على الهدهد بسبب غيابه بدون إذن أى : لأعذبن الهدهد عذاباً شديداً يؤلمه ، أو لأذبحنه ، أو ليأتينى بحجة قوية توضح سبب غيابه . وتقنعنى بالصفح عنه ، وبترك تعذيبه ، أو ذبحه .فأنت ترى أن سليمان - عليه السلام - وهو النبى الملك الحكيم العادل - يقيد تعذيب الهدهد أو ذبحه . بعدم إتيانه بالعذر بالمقبول عن سبب غيابه ، أما إذا أتى بهذا العذر فإنه سيعفو عنه ، ويترك عقابه ، فكأنه - عليه السلام - يقول : هذا الهدهد الغائب إما أن أعذبه عذاباً شديداً وإما أن أذبحهى بعد حضوره ، وإما أن يأتينى بعذر مقبول عن سبب غيابه ، وفى هذه الحالة فأنا سأعفو عنه .

فمكث غير بعيد فقال احطت بما لم تحط به وجئتك من سبا بنبا يقين

كما فسرها الوسيط ثم يحكى القرآن بعد ذلك ما كان من الهدهد ، فقال : ( فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ) أى فمكث الهدهد زماناً غير بعيد من تهديد سليمان له ، ثم أتاه فقال له : ( أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ) أى : علمت أشياء أنت لم تعلمها . وابتدأ كلامه بهذه الجملة التى فيها ما فيها من المفاجآت لترغيبه فى الإصغاء إليه ، ولاستمالة قلبه لقبول عذره بعد ذلك قال صاحب الكشاف : " ألهم الله الهدهد فكافح سليمان بهذا الكلام ، على ما أوتى من فضل النبوة والحكمة والعلوم الجمة ، والإحاطة بالمعلومات الكثيرة ، ابتلاء له فى علمه ، وتنبيهاً على أن فى أدنى خلقه وأضعفه من أحاط علماً بما لم يحط به ، لتتحاقر إليه نفسه ، ويتصاغر إليه علمه ، ويكون لطفاً له فى ترك الإعجاب الذى هو فتنة العلماء . . " .وقوله : ( وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ) تفسير وتوضيح لقوله قبل ذلك : أحطت بما لم تحط به ، وسبأ فى الأصل : اسم لسبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، ثم صار بعد ذلك اسما لحى من الناس سموا باسم أبيهم ، أو صار اسما للقبيلة ، أو لمدينة تعرف بمأرب باليمن .بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث ليال .وقد قرأ بعضهم هذا اللفظ بالتنوين باعتباره اسم رجل ، وقرأه آخرون بغير تنوين لأنه ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث ، أى : قال الهدهد لسليمان بادئاً حديثه بما يشير إلى قبول عذره : علمت شيئاً أنت لم تعلمه ، وجئتك من جهة قبيلة سبأ بنبأ عظيم خطير ، أنا متيقن من صدقه .

اني وجدت امراة تملكهم واوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم

كما فسرها الوسيط ثم قص عليه ما رآه فقال : ( إِنِّي وَجَدتُّ امرأة تَمْلِكُهُمْ ) والمراد بهذه المرأة : بلقيس بنت شراحيل بن مالك بن ريان . ورثت الملك عن أبيها .أى : إنى وجد قبيلة سبأ تحكمها امرأة ، وتتصرف فى أمورهم دون أن يعترض عليها معترض ، أو ينافسها منافس .وقوله ( وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ) معطوف على ما قبله . أى : وبين يديها جميع الأشياء التى تحتاجها لتصريف شئون مملكتها ، والمحافظة على قوتها واستقرارها . . .وفضلاً عن كل ذلك (وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ) أى : لها سرير ملك فخم ضخم يدل على غناها وترفها ، ورقى مملكتها فى الصناعة وغيرها .والمراد أن لها عرشاً عظيماً بالنسبة إلى أمثالها من الدنيا .

وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان اعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون

كما فسرها الوسيط ثم أضاف إلى ذلك قوله : ( وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ الله . . . ) .أى : والأهم من كل ذلك أنى وجدت هذه المرأة ومعها قومها يتركون عبادة الله - تعالى - ، ويعبدون الشمس التى هى من مخلوقاته - عز وجل - .( وَزَيَّنَ لَهُمُ الشيطان أَعْمَالَهُمْ ) التى هى عبادتهم للشمس ، وما يشبهها من ألوان الكفر والفسوق عن أمر ( الله - تعالى - .( فَصَدَّهُمْ ) أى فمنعهم الشيطان ( عَنِ السبيل ) الحق ) بسبب ذلك ( لاَ يَهْتَدُونَ ) إلى عبادة الله - تعالى - الذى لا فَهُمْ ) معبود بحق سواه .

الا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السماوات والارض ويعلم ما تخفون وما تعلنون

كما فسرها الوسيط وقوله : ( أَلاَّ يَسْجُدُواْ لِلَّهِ الذي يُخْرِجُ الخبء فِي السماوات والأرض ) بيان لما ترتب على إغواء الشيطان لهم . وقد قرأ عامة القراء ( أَلاَّ ) - بتشديد اللام - و ( يَسْجُدُواْ ) فعل مضارع منصوب بأن

المدغمة فى لفظه لا ، وهو مع ناصبه فى تأويل مصدر ، فى محل نصب على أنه مفعول لأجله .والمعنى : وزين لهم الشيطان أعمالهم من أجل أن يتركوا السجود لله - تعالى - ( الذي يُخْرِجُ الخبء فِي ) أى : الذى يظهر الشىء المخبوء فى السموات والأرض ، كائناً ما كان هذا الشىء ، لأنه - سبحانه - لا يخفى عليه شىء فيهما .قال الآلوسى : وقوله - تعالى - : ( أَلاَّ يَسْجُدُواْ للّهِ ) أى : لئلا يسجدوا لله واللام للتعليل ، وهو متعلق بصدهم أو بزين والفاء فى ( فَصَدَّهُمْ )لا يلزم أن تكون سببية لجواز كونها تفريعية أو تفصيلية ، أى : فصدهم عن ذلك لأجل أن لا يسجدوا لله - عز وجل - .أو زين لهم ذلك لأجل أن لا يسجدوا له - تعالى - .ثم قال : وقرأ الكسائى : ( أَلاَّ ) : - بتخفيف اللام - على أنها حرف استفتاح وتنبيه .وقوله - تعالى وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ) معطوف على ما قبله .والمعنى زين لهم الشيطان أعمالهم لئلا يسجدوا لله الذى يعمل المخبوء والمستور فى السموات والأرض ، ويعلم ما تخفون من أسرار ، وما تعلنون من أقوال .قال بعض العلماء : " واعلم أن التحقيق أن آية النمل هذه ، محل سجدة على كلتا القراءتين ، لأن قراءة الكسائى فيها الأمر بالسجود ، وقراءة الجمهور فيها ذم تارك السجود وتوبيخه " .

الله لا اله الا هو رب العرش العظيم

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( الله لاَ إله إِلاَّ هُوَ رَبُّ العرش العظيم ) فى معنى التعليل لحقيقة السجود لله - تعالى - وحده .أى : اجعلوا سجودكم لله - تعالى - وحده ، واتركوا السجود لغيره ، لأنه - سبحانه - لا إله بحق سواه ، وهو - سبحانه - صاحب العرش العظيم ، الذى لا يدانيه ولا يشبه شىء مما يطلق عليه هذا اللفظ .

قال سننظر اصدقت ام كنت من الكاذبين

- كما فسرها الوسيط ثم تحكى السور بعد ذلك ما كان من سليمان - عليه السلام وما كان من ملكه سبأ بعد أن وصلها كتابه ، فقال - تعالى - : ( قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ . . . ) .قوله - سبحانه - : ( قَالَ سَنَنظُرُ . . ) حكاية لما قاله سليمان - عليه السلام - فى رده على الهدهد ، الذى قال له فى " تبرير عذره : ( أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ . . ) إلخ .والفعل " ننظر من النظر بمعنى التأمل فى الأمور ، والتدبر فى أحوالها ، والسين للتأكيد أى : قال سليمان للهدهد بعد أن استمع إلى حجته : سننظر - أيها الهدهد - فى أقوالك ، ونرى أكنت صادقاً فيها ، أم أنت من الكاذبين .وهكذا نرى نبى الله سليمان - وهو العاقل الحكيم -لا يتسرع فى تصديق الهدهد أو تكذيبه ، ولا يخرجه النبأ العظيم الذى جاءه به الهدهد ، عن اتزانه ووقاره ، وإنما يبنى أحكامه على ما سيسفر عنه تحققه من صدق خبره أو كذبه .وهذا هو اللائق بشأن النبى الكريم سليمان ، الذى آتاه الله - تعالى - النبوة والملك والحكمة ) . قال القرطبى " وقوله : ( سَنَنظُرُ ) من النظر الذى هو التأمل والتصفح. أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الكاذبين ) أى : فى مقالتك . و ( كُنتَ ) بمعنى أنت وقال : ( سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ ) ولم يقل سننظر فى أمرك ، لأن الهدهد لما صرح بفخر العلم فى قوله : ( أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ) صرح له سليمان بقوله : سننظر أصدقت أم كذبت ، فكان ذلك كفاء لما قاله " .

اذهب بكتابي هذا فالقه اليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( اذهب بِّكِتَابِي هذا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فانظر مَاذَا يَرْجِعُونَ ) بيان لما أمر به سليمان - عليه السلام - الهدهد ، بعد أن قال له : سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين .أى : خذ - أيها الهدهد - كتابى هذا . فاذهب به إلى هؤلاء القوم من أهل سبأ ، ( ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ ) أى : ثم انصرف عنهم إلى مكان قريب منهم ( فانظر مَاذَا يَرْجِعُونَ ) أى : فتأمل ماذا يقول بعضهم لبعض ، وبماذا يراجع بعضهم بعضاً ، ثم أخبرنى بذلك .قال ابن كثير : وذلك أن سليمان - عليه السلام - كتب كتاباً إلى بلقيس وقومها ، وأعطاه لذلك الهدهد فحمله . . . وذهب به إلى بلادهم ، فجاء فى قصر بقليس . إلى الخلوة التى كانت تختلى فيها بنفسها ، فألقاه إليها من كوة هنالك بين يديها . ثم تولى ، ناحية أدبا ، فتحريت مما رأت . وهالها ذلك ، ثم عمدت إلى الكتاب فأخذته ففتحت ختمه وقرأته . . " .وقال صاحب الكشاف : " فإن قلت : لم قال : فألقه إليهم . على لفظ الجمع؟ قلت : لأنه قال : ( وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ ) فقال : فألقهِ إلى الذين هذا دينهم ، اهتماماً منه بأمر الدين ، واشتغالاً به عن غيره . وبنى الخطاب فى الكتاب على لفظ الجمع لذلك " .

قالت يا ايها الملا اني القي الي كتاب كريم

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما فعلته ملكة سبأ ، بعد أن جاءها كتاب سليمان - عليه السلام - ، فقال - تعالى - : ( قَالَتْ يَاأَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحمن الرَّحِيمِ أَلاَّ تَعْلُواْ عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ) . أى : قالت لحاشيتها بعد أن قرأت الكتاب وفهمت ما فيه ( يَاأَيُّهَا الْمَلأُ ) - أى : يا أيها الأشراف من قومى ( إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ) . وصفته بالكرم لاشتماله على الكلام الحكيم ، والأسلوب البديع ، والتوجيه الحسن ، ولجمال هيئته ، وعجيب أمره .

انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم

كما فسرها الوسيط ثم أفصحت عن مصدره فقالت : ( إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ ) وعن مضمونه فقالت : ( وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحمن الرَّحِيمِ ) وفى ذلك إشارة إلى وصفه بالكرم ، حيث اشتمل على اسم الله - تعالى - وعلى بعض صفاته ، وعلى ترك التكبر ، وعلى الدخول فى الدين الحق .

الا تعلوا علي واتوني مسلمين

كما فسرها الوسيط كما يدل عليه قوله - تعالى - : ( أَلاَّ تَعْلُواْ عَلَيَّ ) أى : ألا تتكبروا على كما يفعل الملوك الجبابرة ( وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ) منقادين طائعين لشريعة الله - وحده ، التى توجب عليكم إخلاص العبادة له ، دون أحد سواه ، إذ هو - سبحانه - الخالق لكل شىء ، وكل معبود سواه فهو باطل . فالكتاب - مع إيجازه - متضمن لفنون البلاغة . ولمظاهر القوة الحكيمة العادلة ، التى اتبعها سليمان فى رسالته إلى ملكة سبأ وقومها .

قالت يا ايها الملا افتوني في امري ما كنت قاطعة امرا حتى تشهدون

كما فسرها الوسيط وبعد أن بلغت حاشيتها بمصدر الكتاب ومضمونه ، استأنفت حديثها فقالت : ( يَاأَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي ) والفتوى : الجواب على المستفتى فيما سأل عنه ، والمراد بها هنا : المشورة وإبداء الرأى . أى : قالت يأيها الأشراف والقادة من قومى ، أشيروا على ماذا سأفعل فى أمر هذا الكتاب الذى جاءنى من سليمان ، والذى يطلب منا فيه ما سمعتم؟ ثم أضافت إلى ذلك قولها : ( مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ ) أى : أنتم تعلمون أنى لا أقطع أمراً يتعلق بشئون المملكة إلا بعد استشارتكم ، وأخذ رأيكم . وفى قولها هذا دليل على حسن سياستها ، ورجاحة عقلها ، حيث جمعت رءوس مملكتها ، واستشارتهم فى أمرها ، وأعلمتهم أن هذه عادة مطردة عندها . وبذلك طابت نفوسهم ، وزادت ثقتهم فيها .

قالوا نحن اولو قوة واولو باس شديد والامر اليك فانظري ماذا تامرين

كما فسرها الوسيط فقد قالوا لها : ( قَالُواْ نَحْنُ أُوْلُو قُوَّةٍ ) أى أصحاب قوة فى الأجساد ، ( وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ ) أى : وأصحاب بلاء : شديد فى القتال . ( والأمر إِلَيْكِ ) أى : موكول إلى رأيك ، وإلى ما تطمئن إليه نفسك من قرار . ( فانظري مَاذَا تَأْمُرِينَ ) فتأملى وتفكرى فيما تأمريننا به بالنسبة لهذا الكتاب ، فنحن سنطيعك فى كل ما تطلبينه منا .

قالت ان الملوك اذا دخلوا قرية افسدوها وجعلوا اعزة اهلها اذلة وكذلك يفعلون

كما فسرها الوسيط وهنا يحكى لنا القرآن الكريم ما كانت عليه تلك المرأة من دهاء وكياسة ، وإيثار للسلم على الحرب ، واللين على الشدة ، فقال - تعالى - : ( قَالَتْ إِنَّ الملوك ) : من شأنهم أنهم ( إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً ) من القرى . أو مدينة من المدن ، بعد تغلبهم على أهلها عن طريق الحرب والقتال . أى : أشاعوا فيها الفساد والخراب والدمار . وفوق كل ذلك ( أَفْسَدُوهَا ) . أى : أهانوا أشرافها ورؤساءها ( وجعلوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ) : وجعلوهم أذلة بعد أن كانوا أعزة . ليكونوا عبرة لغيرهم . ( وكذلك يَفْعَلُونَ ) أى : وهذه هى عادتهم التى يفعلونها عند دخولهم قرية من القرى عن طريق القهر والقسر والقتال . والمقصود من قولها هذا : التلويح لقومها ، بأن السلم أجدى من الحرب ، وأن الملاينة مع سليمان - عليه السلام - أفضل من المجابهة والمواجهة بالقوة .

واني مرسلة اليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون

كما فسرها الوسيط ثم صرحت لهم بما ستفعله معه فقالت : ( وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ المرسلون ) .
وقوله : ( فَنَاظِرَةٌ ) معطوف على ( مُرْسِلَةٌ ) وهو من الانتظار بمعنى الترقب .أى : وإنى قد قررت أن أرسل إلى سليمان وجنوده هدية ثمينة تليق بالملوك أصحاب الجاه والقوة والسلطان ، وإنى لمنتظرة ماذا سيقول سليمان لرسلى عندما يرى تلك الهدية . وماذا سيفعل معهم .قال ابن عباس : قالت لقومها إن قبل الهدية فهو ملك فقاتلوه ، وإن لم يقبلها فهو نبى فاتبعوه !!وقال قتادة : رحمها الله ورضى عنها ما كان أعقلها فى إسلامها وفى شركها .
لقد علمت أن الهدية تقع موقعا من الناس .

فلما جاء سليمان قال اتمدونن بمال فما اتاني الله خير مما اتاكم بل انتم بهديتكم تفرحون

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما كان من سليمان عندما رأى الهدية ، فقال - تعالى - : ( فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَانَ . . ) .فى الكلام يفهم من السياق ، وتقتضيه بلاغة القرآن الكريم والتقدير : وهيأت ملكة سبأ الهدية الثمينة لسليمان - عليه السلام- . وأرسلتها مع من اختارتهم من قومها لهذه المهمة ، فلما جاء سليمان أى : فلما وصل الرسل إلى سليمان ومعهم هدية ملكتهم إليه .فلما رآها قال - على سبيل الإنكار والاستخفاف بتلك الهدية : - أى : أتقدمون إلى هذا المال الزائل والمتمثل فى ( أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ ) - تلك الهدية لأكف عن دعوتكم إلى إتيانى وأنتم مخلصون العبادة لله - تعالى وحده . وتاركون لعبادة غيره؟كلا لن ألتفت إلى هديتكم ( فَمَآ آتَانِيَ الله من النبوة والملك الواسع ( خَيْرٌ مِّمَّآ آتَاكُمْ ) من أموال من جملتها ( ، تلك الهدية .فالجملة الكريمة تعليل لإنكاره لهديتهم ، ولاستخفافه بها وسخريته منها .وقوله - سبحانه - : ( بَلْ أَنتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ) إضراب عما ذكره من إنكاره لتلك الهدية وتعليله لهذا الإنكار إلى بيان ما هم عليه من ضيق فى التفكير ، حيث أوهموا أن هذه الهدية ، قد ، تفيد فى صرف سليمان عن دعوتهم إلى وحدانية الله -تعالى - ، وقد تحمله على : تركهم وشأنهم .أى : افهموا - أيها الرسل - وقولوا لمن أرسلكم بتلك الهدية : إن سليمان ما آتاه الله من خير ، أفضل مما آتاكم ، وإنه يقول لكم جميعا : انتفعوا أنتم بهديتكم وافرحوا بها ، لأنكم لا تفكرون إلا فى متع الحياة الدنيا ، أما أنا ففى غنى عن هداياكم ولا يهمنى إلا إيمانكم .

ارجع اليهم فلناتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها اذلة وهم صاغرون

كما فسرها الوسيط ثم أبع سليمان - عليه السلام - هذا الاستنكار بالتهديد فقال : - كما حكى القرآن عنه - : ( ارجع إِلَيْهِمْ ) .أى : قال سليمان لمن أرسلته بلقيس بالهدية : عد من حيث أتيت ومعك هديتك .( فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُمْ بِهَا ) أى : فوالله لنأتينهم بجنود لا قدرة لهم على مقاومتهم ، ولا طاقة لهم على قتالهم .( وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ) أى : ووالله لنخرجن هذه الملكة وقومها من بلاد سبأ ، حالة كونهم أذلة ، وحالة كونهم مخزومين مقهورين ، بعد أن كانوا فى عزة وقوة .وعاد الرسل بهديتهم إلى الملكة ، دون أن يهتم القرآن بما جرى لهم بعد ذلك ، لأن القرآن لا يهتم إلى بالجوهر واللباب فيما يقصه من أحداث .

قال يا ايها الملا ايكم ياتيني بعرشها قبل ان ياتوني مسلمين

- كما فسرها الوسيط ثم يحكى القرآن بعد ذلك ما طلبه سليمان - عليه السلام : من جنوده فيقول : ( قَالَ ياأيها الملأ . . . ) .قال ابن كثير ما ملخصه فلما رجعت الرسل إلى ملكة سبأ بما قاله سليمان ، قالت : قد - والله - عرفت ما هذا بملك ، وما لنا به من طاقة . . . وبعثت إليه : إنى قادمة إليك بملوك قومى ، لأنظر فى أمرك وما تدعونا إليه من دينك . . . ثم شخصت إليه فى اثنى عشر ألف رجل من أشراف قومها - بعد أن أقفلت الأبواب على عرشها - فجعل سليمان يبعث الجن يأتونه بمسيرها ومنتهاها كل يوم وليلة ، حتى إذا دنت جمع من عنده من الإنس والجن ممن تحت يده فقال : ( قَالَ ياأيها الملأ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ) .أى : قال سليمان لجنوده : أى واحد منكم يستطيع أن يحضر لى عرش هذه الملكة قبل أن تحضر إلى هى وقومها مسلمين ، أى : منقادين طائعين مستسلمين لما أمرتهم به ولعل سليمان - عليه السلام - قد طلب إحضار عرشها - من بلاد اليمن إلى بيت المقدس حيث مقر مملكته ، ليطلعها على عظيم قدرة الله - تعالى - ، وعلى ما أعطاه - سبحانه - له من ملك عريض ، ومن نعم جليلة ، ومن قوة خارقة ، حيث سخر له من يحضر له عرشها من مكان بعيد فى زمن يسير .ولعل كل ذلك يقودها هى

. وقومها إلى الإيمان بالله رب العالمين

قال عفريت من الجن انا اتيك به قبل ان تقوم من مقامك واني عليه لقوي امين

كما فسرها الوسيط وبعد أن قال سليمان لجنده أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين ، رد عليه عفريت من الجن بقوله : ( أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ) .والعفريت : هو المارد القوى من الشياطين ، الذين سخرهم الله - تعالى - لخدمة سليمان وللقيام بأداء ما يكلفهم به . ويقال له : عفرين ، وعفريتة - بكسر العين وسكون الفاء - .أى : قال عفريت من الجن لسليمان : أنا آتيك بعرش هذه الملكة ، قبل أن تقوم من مقامك ، أى : قبل أن تقوم من مجلسك هذا الذى فيه للقضاء بين الناس . او قبل أن تقف من جلوسك .( وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ) أى : وإنى على حمله وإحضاره من تلك الأماكن البعيدة إليك ، لقوى على ذلك ، بحيث لا يثقل على حمله ، ولأمين على إحضاره دون أن يضيع منه شىء .

قال الذي عنده علم من الكتاب انا اتيك به قبل ان يرتد اليك طرفك فلما راه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني ااشكر ام اكفر ومن شكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان ربي غني كريم

كما فسرها الوسيط وكأن سليمان قد استبطأ إحضاره عرش تلك المملكة فى هذه الفترة التى حددها ذلك العفريت القوة ، فنهض جندي آخر من جنوده ، ذكره القرآن بقوله : ( قَالَ الذي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الكتاب أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ) . قالوا : والمراد بهذا الذى عنده علم من الكتاب : آصف بن برخيا ، وهو رجل من صلحاء بنى إسرائيل ، آتاه الله - تعالى - من لدنه علما ، وكان وزيرا لسليمان .قالوا : وكان يعلم اسم الله الأعظم ، الذى إذا دعى به - سبحانه - أجاب الداعى ، وإذا سئل به - تعالى - أجاب السائل .قيل : المراد به سليمان نفسه ، ويكون الخطاب على هذا العفريت ، فكأنه استبطأ ما قاله العفريت فقال له : - على سبيل التحقير - أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك .وقيل : المراد به جبريل ، والأول هو المشهور عند المفسرين .أى : قال الرجل الذى عنده علم من كتاب الله - تعالى - يا سليمان أنا آتيك بعرش بلقيس ، قبل أن تغمض عينك وتفتحها ، وهو كناية عن السرعة الفائقة فى إحضاره .وفى ذلك ما فيه من الدلالة على شرف العلم وفضله وشرف حاملية وفضلهم وأن هذه الكرامة التى وهبها الله - تعالى - لهذا الرجل ، كانت بسبب ما آتاه - سبحانه - من علم .وجاء عرش الملكة لسليمان من بلاد اليمن إلى بلاد الشام ، بتلك السرعة الفائقة ( فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ ) أى : فلما رأى سليمان العرش المذكور حاضرا لديه ، وكائنا بين يديه . . . لم يغتر ولم يتكبر ، ولم يأخذه الزهو والعجب بل قال - كما حكى القرآن عنه - : ( هذا مِن فَضْلِ رَبِّي ليبلوني . أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ) .أى : قال سليمان : هذا الذى أراه من إحضار العرش بتلك السرعة من فضل ربى وعطائه ، لكى يمتحننى أأشكره على نعمه أم أجحد هذه النعم .( وَمَن شَكَرَ ) الله - تعالى - على نعمه ( فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ) حيث يزيده - سبحانه - منها .( وَمَن كَفَرَ ) نعم الله - تعالى - وجحدها ( فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ ) عن خلقه ( كَرِيمٌ ) فى معاملته لهم ، حيث لم يعاجلهم بالعقوبة ، بل يعفو ويصفح عن كثير من ذنوبهم .

قال نكروا لها عرشها ننظر اتهتدي ام تكون من الذين لا يهتدون

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - هذه القصة البديعة ، ببيان ما فعله سليمان بالعرش ، وبما قاله لملكة سبأ بعد أن قدمت إليه ، وبما انتهى إليه أمرها ، فقال - تعالى - : ( قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا . . . ) ، قوله : ( نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا ) من التنكير الذى هو ضد التعريف. وهو جعل الشىء على هيئة تخالف هيئته السابقة حتى لا يعرف .أى : قال سليمان لجنوده ، بعد أن استقر عنده عرش بلقيس : غيروا لهذه الملكة عرشها ، كأن تجعلوا مؤخرته فى مقدمته ، وأعلاه أسفله .وافعلوا ذلك لكى ( نَنظُرْ ) ونعرف ( أتهتدي ) إليه بعد هذا التغيير ، أو إلى الجواب اللائق بالمقام عندما تسأل ( أَمْ تَكُونُ مِنَ الذين لاَ يَهْتَدُونَ ) إلى معرفة الشىء بعد تغيير معالمه المميزة له . أو إلى الجواب الصحيح عندما تسأل عنه فالمقصود بتغيير هيئة عرشها : اختبار ذكائها وفطنتها ، وحسن تصرفها ، عند. مفاجأتها بإطلاعها على عرشها الذى خلفته وراءها فى بلادها . وإيقافها على مظاهر قدرة الله - تعالى - وعلى ما وهبه لسليمان - عليه السلام - من معجزات .

فلما جاءت قيل اهكذا عرشك قالت كانه هو واوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( فَلَمَّا جَآءَتْ . . . ) شروع فى
بيان ما قالته عندما عرض عليها سليمان عرشها .أى : فلما وصلت بلقيس إلى
سليمان - عليه السلام - عرض عليها عرشها بعد تغيير معالمه . ثم قيل لها من
جهته - عليه السلام - : ( أَهَكَذَا عَرْشُكِ ) أى : أمثل هذا العرش الذى
ترينه الآن ، عرشك الذى خلفته وراءك فى بلادك .فالهمزة للاستفهام والهاء
للتنبيه - والكاف حرف جر ، وذا اسم إشارة مجرور بها ، والجار والمجرور خبر
مقدم ، وعرشك مبتدأ مؤخر .ولم يقل لها : أهذا عرشك ، لئلا يكون إرشادا لها
إلى الجواب ، فيفوت المقصود من اختبار ذكائها وحسن تصرفها .ولا شك أن هذا
القول يدعوها للدهشة والمفاجأة بما لم يكن فى حسبانها ، وإلا فأين هى من
عرشها الذى تركته خلفها على مسافة بعيدة ، بينها وبين مملكة سليمان عشرات
الآلاف من الأميال .ولكن الملكة الأريبة العاقلة ، هداها تفكيرها إلى جواب
ذكى ، فقالت - كما حكى القرآن عنها - : ( كَأَنَّهُ هُوَ ) أى : هذا
العرش - الذى غيرت هيئته - كأنه عرشى الذى تركته فى بلادى ، فهى لم تثبت
، أنه هو ، ولم تنف أنه غيره ، وإنما تركت الأمر مبنيا على الظن والتشبيه
لكى يناسب الجواب السؤال .وقوله - سبحانه - : ( وَأُوتِينَا العلم مِن
قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ) يرى بعض المفسرين أنه من تتمة كلام بقليس
وكأنها عندما استشعرت مما شاهدته اختبار عقلها قالت : وأتينا العلم من ،
قبلها ، أى : من قبل تلك الحالة التى شاهدناها ، بصحة نبوة سليمان وكنا
مسلمين ، طائعين لأمره .ومنهم من يرى أنه من سليمان ، وتكون الجملة معطوفة
: على كلام مقدر وجىء بها من قبيل التحدث بنعمة الله - تعالى - .والمعنى
قال سليمان : لقد أصابت بلقيس فى الجواب ، وعرفت الحق ، ولكننا نحن الذين
- أويتنا العلم من قبلها - أى من قبل حضور ملكة سبأ - وكنا مسلمين لله
تعالى - وجوهنا .ويبدو لنا أن كون هذه الجملة ، حكاها القرآن على أنها من
تتمة كلامها أقرب إلى الصواب ، لأنه هو الظاهر من سياق الكلام .قال الآلوسى
ما ملخصه : قوله : ( وَأُوتِينَا العلم مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا :
مُسْلِمِينَ ) من تتم كلامها على ما اختاره جمع من المفسرين . كأنها
استشعرت مما شاهدته اختبارها ، وإظهار معجزة لها ، ولما كان الظاهر من
السؤال هو الأول ، سارعت إلى الجواب بما أنبأ عن كمال عقلها ، ولما كان
) : إظهار المعجزة دون ذلك فى الظهور ، ذكرت ما يتعلق به آخرا وهو قولها
: وَأُوتِينَا العلم ) وفيه دلالة على كمال عقلها - أيضا - .والمعنى
وأوتينا العلم بكمال قدرة الله ، وصحة نبوتك من قبل هذه المعجزة أو من قبل
هذه الحالة ، بما شاهدناه من أمر الهدهد . وما سمعناه من رسلنا إليك ، وكنا
. مؤمنين من ذلك الوقت ، فلا حاجة إلى إظهار هذه المعجزة

وصدها ما كانت تعبد من دون الله انها كانت من قوم كافرين

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن
. دُونِ الله . . ) بيان للأسباب التى منعتها من الدخول فى الإسلام قبل ذلك
و ( مَا ) موصولة على أنها فاعل " صد " .أى : وصدها ومنعها الذى كانت تعبده
من دون الله - تعالى - وهو الشمس - عن عبادة الله - تعالى - وحده ، وعن
المسارعة إلى الدخول فى الإسلام .ويصح أن تكون ( مَا ) مصدرية ، والمصدر هو
الفاعل . أى . وصدها عبادة الشمس ، عن المسارعة إلى الدخول فى الإسلام
وجملة ( إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ) تعليل لسببية عبادتها.
- لغير الله - تعالى- .أى : إن هذه المرأة كانت من قوم كافرين بالله
تعالى - ، جاحدين لنعمه ، عابدين لغيره ، منذ أزمان متطاولة ، فلم يكن فى
مقدورها إظهار إسلامها بسرعة وهى بينهم .فالجملة الكريمة كأنها اعتذار لها
. عن سبب تأخرها فى الدخول فى الإسلام

قيل لها ادخلي الصرح فلما راته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال انه صرح ممرد
من قوارير قالت رب اني ظلمت نفسي واسلمت مع سليمان لله رب العالمين

، كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - هذه القصة ببيان ما فاجأها به سليمان
- لتزداد يقينا بوحدانية الله - تعالى - ، وبعظم النعم التى أعطاها
سبحانه - له فقال : ( قِيلَ لَهَا ادخلي الصرح فَلَمَّا رَأَتْهُ
حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ) .والصرح : القصر ويطلق على
كل بناء مرتفع .ومنه قوله - تعالى - : ( وَقَالَ فَرْعَوْنُ ياهامان ابن
لِي صَرْحاً لعلي أَبْلُغُ الأسباب ) ويطلق - أيضا - على صحن الدار وساحته
يقال : هذه صرحة الدار . أى : ساحتها وعرصتها .وكان سليمان - عليه
السلام - قد بنى هذا الصرح ، وجعل بلاطه من زجاج نقى صاف كالبلور . بحيث
: يرى الناظر ما يجرى تحته من ماء .أى : قال سليمان لملكة سبأ بعد أن سألها
، أهكذا عرشك ، وبعد أن أجابته بما سبق بيانه . قال لها : ادخلى هذا القصر
فلما رأت هذا الصرح وما عليه من جمال وفخامة ، حسبته لجة ، أى : ظنته ماء
غزيرا كالبحر .( وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ) لئلا تبتل بالماء أذيال

ثيابها .وهنا قال سليمان مزيلا لما اعتراها من دهشة : ( إِنَّهُ ) أى : ما
حسبته لجة ( صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ) أى : قصر مملس من زجاج لا
يحجب ما وراءه .فقوله ( مُّمَرَّدٌ ) بمعنى مملس ، مأخوذ من قولهم : شجرة
مرداء إذا كانت عارية من الورق ، وغلام أمرد ، إذا لم يكن فى وجهه شعر
والتمريد فى البناء ، معناه : التمليس والتسوية والنعومة .والقوارير : جمع
قارورة ، وهى إناء من زجاج ، وتطلق القارورة على المرأة ، لأن الولد يقر فى
" : رحمها ، أو تشبيها لها بآنية الزجاج من حيث ضعفها ، ومنه الحديث الشريف
- رفقا بالقوارير " والمراد بالقوارير هنا . المعنى الأول .ثم حكى - سبحانه
ما قالته بلقيس بعد أن رأت جانبا من عداب صنع الله فقال : ( قَالَتْ رَبِّ
) . . إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ) أى : بسبب عبادى لغيرك قبل هذا الوقت
وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ ) طائعة مختارة ، وإسلامى إنما هو ( لِلَّهِ
رَبِّ العالمين ) وليس لأحد سواه .وبعد ، فهذا تفسير محرر لتلك القصة ، وقد
أعرضنا عن كثير من الإسرائيليات التى حشا بها بعض المفسرين تفاسيرهم ، عند
- حديثهم عن الآيات التى وردت فى هذه القصة ، ومن ذلك ما يتعلق بسليمان
عليه السلام - وبجنوده من الطير . وبمحاورة النملة له ، وبالهدية التى
. . أرسلتها ملكة سبأ إليه ، وبما قالته الشياطين لسليمان عن هذه المرأة
الخ وقد اشتملت هذه القصة على عبر وعظات وأحكام وآداب ، من أهمها ما يأتى
أن الله - تعالى - قد أعطى - بفضله وإحسانه - داود وسليمان - عليهما - 1:
السلام - نعما عظيمة ، على رأسها نعمة النبوة ، والملك ، والعلم النافع
وأنهما قد قابلا هذه النعم بالشكر لله - تعالى - واستعمالها فيما خلقت له.
ونرى ذلك فى قوله - تعالى - : ( وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ.
عِلْماً وَقَالاَ الحمد لِلَّهِ الذي فَضَّلَنَا على كَثِيرٍ مِّنْ
عِبَادِهِ المؤمنين ) وفى قوله - تعالى - : ( رَبِّ أوزعني أَنْ أَشْكُرَ
نِعْمَتَكَ التي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وعلى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ
( صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصالحين
وفى قوله - سبحانه - : ( هذا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيبلوني أَأَشْكُرُ أَمْ
أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ
فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ) 2 - أن سليمان - عليه السلام - قد أقام
دولته على الإيمان بالله - تعالى - وعلى العلم النافع ، وعلى القوة العادلة
أما الإيمان بالله - تعالى - وإخلاص العبادة له - سبحانه - ، فهو كائن.
له - عليه السلام - بمقتضى نبوته التى اختاره الله لها ، وبمقتضى دعوته إلى
وحدانية الله - عز وجل - فقد حكى القرآن عنه أنه قال فى رسالته إلى ملكة
سبأ : ( إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ الله الرحمن الرحيم
، أَلاَّ تَعْلُواْ عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ )وأما العلم النافع
فيكفى أن القصة الكريمة قد افتتحت بقوله - تعالى - : ( وَلَقَدْ آتَيْنَا
) : - دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً . . ) واشتملت على قوله - سبحانه
وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ ياأيها الناس عُلِّمْنَا مَنطِقَ
الطير . . ) وعلى قوله - عز و جل - : ( قَالَ الذي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ
الكتاب أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ) وأما
القوة ، فنراها فى قوله - تعالى - : ( وَحُشِرَ لِسْلَيْمَانَ جُنُودُهُ
مِنَ الجن والإنس والطير فَهُمْ يُوزَعُونَ ) وفى قوله - سبحانه ( ارجع
إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُمْ بِهَا
وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ) 3 - أن سليمان
، عليه السلام كانت رسالته الأولى نشر الإيمان بالله - تعالى - فى الأرض
وتطهيرها من كل معبود سواه .والدليل على ذلك أن الهدهد عندما أخبره بحال
الملكة التى كانت هى وقومها يعبدون الشمس من دون الله . . .ما كان من
سليمان - عليه السلام - إلا أن حمله كتابا قويا بليغا يأمرهم فيه بترك
التكبر والغرور ، وبإسلام وجوههم لله وحده : ( أَلاَّ تَعْلُواْ عَلَيَّ
وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ) 4 - أن سليمان - عليه السلام - كان يمثل الحاكم
اليقظ المتنبه لأحوال رعيته ، حيث يعرف شئونها الصغيرة والكبيرة ، ويعرف
الحاضر من أفرادها والغائب ، حتى ولو كان الغائب طيرا صغيرا ، من بين آلاف
الخلائق الذين هم تحت قيادته .ولقد صور القرآن ما كان عليه سليمان - عليه
السلام - من يقظة ودراية بأفراد رعيته أبدع تصوير فقال : ( وَتَفَقَّدَ
الطير فَقَالَ مَالِيَ لاَ أَرَى الهدهد أَمْ كَانَ مِنَ الغآئبين ) قال
الإمام القرطبى : رحمه الله - : فى هذه الآية دليل على تفقد الإمام أحوال
رعيته ، والمحافظة عليهم ، فانظر إلى الهدهد مع صغره ، كيف لم يَخْفَ على
سليمان حاله ، فكيف بعظام الملك . .ثم يقول - رحمه الله - على سبيل التفجع
، والشكوى عن حال الولاة فى عهده : فما ظنك بوال تذهب على يديه البلدان
وتضيع الرعية ويضيع الرعيان . . . ورحم الله القائل :وهل أفسد الدينَ إلا
الملوكُ ... وأحبارُ سوءٍ ورهبانُها5 - أن سليمان - عليه السلام - كان
بجانب تعهده لشئون رعيته ، يمثل الحاكم الحازم العادل ، الذى يحاسب المهمل
ويتوعد المقصر ، ويعاقب من يستحق العقاب ، وفى الوقت نفسه يقبل عذر ،
المعتذر متى اعتذر عذرا مشروعا ومقنعا .انظر إليه وهو يقول - كما حكى
القرآن عنه - عندما تفقد الهدهد فلم يجده : ( لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً

( شَدِيداً أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ
إن الجيوش الجرارة التى تحت قيادة سليمان - عليه السلام -لا تؤثر فيها غياب هدهد منها . . . ولكن سليمان القائد الحازم ، كأنه يريد أن يعلم جنوده أن لكل جندى رسالته التى يجب عليه أن يؤديها على الوجه الأكمل سواء أكان ، هذا الجندى صغيرا أم كبيرا ، وأ ، من فرط فى الأمور الصغيرة ، لا يستبعد منه أن يفرط فى الأمور الكبيرة .6 - أن الجندى الصغير فى الأمة التى يظلها ، العدل والحرية والأمان . . .لا يمنعه صغره من أن يرد على الحاكم الكبير بشجاعة وقوة . . .انظر إلى الهدهد - مع صغره - يحكى عن القرآن ، أنه رد على ) : نبى الله سليمان الذى آتاه الله ملكا لا ينبغى لأحد من بعده بقوله
( أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ
ونجد سليمان - عليه السلام -لا يؤاخذه على هذا القول ، بل يضع قوله موضع التحقيق والاختبار فيقول له : ( قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ
مِنَ الكاذبين ) وهكذا الأمم العاقلة الرشيدة ، لا يهان فيها الصغير ، ولا يظلم فيها الكبير .7 - أن حكمة الله - تعالى - قد اقتضت أن تتألف الأمم من حاكمين ومحكومين ، وأن كل فريق له حقوق وعليه واجبات ، وأن الأمم لا تصلح بدون حاكم يحكمها ويرعى شئونها ، ويحق الحق ويبطل الباطل .قال القرطبى : عند تفسيره لقوله - تعالى - : ( وَحُشِرَ لِسْلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ
الجن والإنس والطير فَهُمْ يُوزَعُونَ ) فى الآية دليل على اتخاذ الإمام والحكام وَزَعَةً - أى ولاة ، أو قضاة - يكفون الناس ويمنعونهم من تطاول بعضهم على بعض . . .قال ابن عون : سمعت الحسن يقول وهو فى مجلس قضائه : والله ما يصلح هؤلاء الناس إلا وزعة .ومن الأقوال الحكيمة لأمير المؤمنين عثمان بن عفان - رضى الله عنه - " إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن أن الحاكم العاقل هو الذى يستشير من هو أهل للاستشارة فى الأمور - 8. " التى تهم الأمة . فها هى ذى ملكة سبأ عندما جاءها كتاب سليمان - عليه السلام - جمعت وجوه قومها ، وقالت لهم - كما حكى القرآن عنها : ( ياأيها الملأ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْراً حتى تَشْهَدُونِ
- قال القرطبى : وفى هذه الآية دليل على صحة المشاورة . . . وقد قال ( . . الله - تعالى - لنبيه صلى الله عليه وسلم ( وَشَاوِرْهُمْ فِي الأمر ) وقد مدح الله الفضلاء بقوله : ( وَأَمْرُهُمْ شورى بَيْنَهُمْ ) والمشاورة من الأمر القديم وخاصة فى الحرب ، فهذه بلقيس امرأة جاهلية كانت تعبد الشمس من دون الله قالت : ( ياأيها الملأ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي . . ) لتختبر عزمهم على مقاومة عدوهم . وربما كان فى استبدادها برأيها وهَن فى طاعتها ، وكان فى مشاورتهم وأخذ رأيهم عون على ما تريده من شوكتهم ، وشدة مدافعتهم ، ألا ترى إلى قولهم فى جوابهم : ( نَحْنُ أُوْلُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ
والأمر إِلَيْكِ فانظري مَاذَا تَأْمُرِينَ . . ) 9 - أن الهداية إذا لمس المهدى إليه من ورائها ، عدم الإخلاص فى إهدائها . وأن المقصد منها صرفه عن حق يقيمه ، أو عن باطل يزيله .. . فإن الواجب عليه أن يرد هذه الهدية لصاحبها . وأن يمتنع عن قبولها . . .ألا ترى إلى سليمان - عليه السلام - قد رد الهدية الثمينة التى أهدتها بلقيس إليه ، حين أحس أن من وراء هذه الهدية شيئا . يتنافى مع تبليغ وتنفيذ رسالة الله - تعالى - التى أمره بتبليغها وتنفيذها ، ألا وهى : الأمر بإخلاص العبادة لله - تعالى - والنهى عن الإشراك به ، وبلقيس إنما كانت تقصد بهديتها ، اختبار سليمان ، أنبى هو أم ملك ، كما سبق أن أشرنا .لذا وجدنا القرآن يحكى عن سليمان - عليه السلم - أنه رد هذه الهدية مع من جاءوا بها ، وقال : ( أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ
فَمَآ آتَانِيَ الله خَيْرٌ مِّمَّآ آتَاكُمْ بَلْ أَنتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ
تَفْرَحُونَ ) 10 - أن ملكة سبأ دل تصرفها على أنها كانت ملكة عاقبة رشيدة حكيمة ، فقد استشارت خاصتها فى كتاب سليمان - عليه السلام - ، ولوحت لهم ، بقوته وبما سيترتب على حره ، وآثرت أن تقدم له هدية على سبيل الامتحان ، واستحبت المسالمة على المحاربة . . . وكان عندها الاستعداد لقبول الحق والدخول فيه ، وما أخرها عن المسارعة إليه إلا لكونها كانت من قوم كافرين وعندما التقت بسليمان ، وانكشفت لها الحقائق سارعت إلى الدخول فى الدين. الحق ، وقالت : ( قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ
سُلَيْمَانَ لِلّهِ رَبِّ العالمين ) .هذه بعض العبر والعظات التى تؤخذ من هذه القصة . . .

ولقد ارسلنا الى ثمود اخاهم صالحا ان اعبدوا الله فاذا هم فريقان يختصمون

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك جانبا من قصة صالح - عليه السلام - مع قومه ، فقال - تعالى - : ( وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ . . . )
قوله - سبحانه - : ( وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً.
معطوف على قوله - تعالى - : ( وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ ( . . وَسُلَيْمَانَ عِلْماً ) وللام فى قوله ( وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ . . ) جواب ، - لقسم محذوف ، و ( ثَمُودَ ) اسم للقبيلة التى منها صالح - عليه السلام سميت باسم جدها ثمود . وقيل : سميت بذلك لقلة مائها ، لأن الثمد هو الماء

القليل .وكانت مساكنهم بالحجر - بكسر الحاء وسكون الجيم - ، وهو مكان بين
الحجاز والشام ، ومازلت مساكنهم تعرف بمدائن صالح إلى اليوم . وقد مر النبى
صلى الله عليه وسلم بديارهم ، وهو ذاهب إلى غزوة تبوك ، سنة تسع بعد الهجرة
وصالح - عليه السلام - هو نبيهم ، وكان واحدا منهم ، وينتهى نسبه إلى.
نوح - عليه السلام - وقبيلة ثمود تسمى عادا الثانية ، أما قبيلة عاد فتسمى
عادا الأولى ، ونبيهم هود - عليه السلام - قالوا : وكان بين القبيلتين زهاء
- مائة عام .والمعنى : وبالله لقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود ، أخاهم صالحا
- عليه السلام - ، فقال لهم ما قاله كل نبى لقومه : ( أَنِ اعبدوا الله )
) : - تعالى - وحده ، ولا تشركوا معه آلهة أخرى .و " إذا " فى قوله - تعالى
فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ) هى الفجائية و ( يَخْتَصِمُونَ )
، من المخاصمة بمعنى المجادلة والمنازعة .أى : أرسلنا نبينا صالحا إلى قومه
، - فكانت المفاجأة أن انقسم قومه إلى قسمين : قسم آمن به - وهم الأقلون
وقسم كفر به - وهم الأكثرون .وهذه الخصومة بين الفريقين ، قد أشار إليها
القرآن فى قوله - تعالى - : ( قَالَ الملأ الذين استكبروا مِن قَوْمِهِ
لِلَّذِينَ استضعفوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً
مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قالوا إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ
قَالَ الذين استكبروا إِنَّا بالذي آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ).

قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( قَالَ ياقوم لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ
، بالسيئة قَبْلَ الحسنة . . . ) بيان لما وجهه صالح إلى الكافرين من قومه
من نصائح حكيمة . . .أى : قال صالح - عليه السلام - للمكذبين لرسالته من
قومه بأسلوب رقيق حكيم : يا قوم لماذا كلما دعوتكم إلى الحق أعرضتم عن
دعوتى ، وآثرتم الكفر على الإيمان ، واستعجلتم عقوبة الله - تعالى - التى
حذرتكم منها ، قبل أن تتضرعوا إليه - سبحانه - بطلب الهداية والرحمة .وقوله
حض منه على ( لَوْلاَ تَسْتَغْفِرُونَ الله لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ) :
- الإقلاع عما هم فيه من عناد وضلال .أى : هلا استغفرتم الله - تعالى
وأخلصتم له العبادة ، واتبعتمونى فيما أدعوكم إليه ، لكى يرحمكم ربكم ويعفو
- عنكم .فالمراد بالسيئة : العذاب الذى تعجلوه ، والذى أشار إليه - سبحانه
فى قوله : ( فَعَقَرُواْ الناقة وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ
( وَقَالُواْ يَاصَالِحُ ائتنا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ المرسلين

قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل انتم قوم تفتنون

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - ما رد به هؤلاء المتكبرون على نبيهم
) : فقال - تعالى - ( قَالُواْ اطيرنا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ . . . ) .وقوله
اطيرنا ) أصله تطيرنا ، فأدغمت التاء فى الطاء ، وزيدت همزة الوصل ، ليتأتى
، الابتداء بالكلمة . والتطير : التشاؤم .قال الآلوسى : وعبر عنه بذلك
لأنهم كانوا إذا خرجوا مسافرين فيمرون بطائر يزجرونه فإن مر سانحا - بأن مر
من ميامن الشخص إلى مياسره - تيمنوا ، وإن مر بارحا - بأن مر من المياسر
إلى الميامن - تساءموا . فلما نسبوا الخير والشر إلى الطائر ، استعير لما
كان سببا لهما من قدر الله - تعالى - وقسمته - عز وجل - أو من عمل العبد
: الذى هو سبب الرحمة والنعمة .أى قال المكذبون من قوم صالح فى الرد عليه
أصابنا الشؤم والنحس بسبب وجودك فينا ، وبسبب المؤمنين الذين استجابوا
لدعوتك . حيث أصبنا بالقحط بعد الرخاء والضراء بعد السراء .ولا شك أن قولهم
هذا يدل على جهلهم المطبق ، وعلى سوء تفكيرهم ، لأن السراء والضراء من عند
الله - تعالى - وحده . ولا صلة لهما بوجود صالح والذين آمنوا معه بينهم
. . . ولذا رد عليهم صالح - عليه السلام - بقوله ( طَائِرُكُمْ عِندَ الله
أى : قال لهم موبخا وزاجرا : ليس الأمر كما زعمتم أن وجودنا بينكم هو. (
السبب فيما أصابكم من شر ، بل الحق أن ما يصيبكم من شر وقحط هو من عند الله
بسبب أعمالكم السيئة ، وإصراركم على الكفر ، واستحبابكم المعصية على ،
الطاعة . والعقوبة على المغفرة .ثم زاد صالح - عليه السلام - الأمر توضيحا
وتبيانا فقال لهم : ( بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ) .أى قال لهم : ليس
ما أصابكم بسببنا . بل أنتم قوم " تفتنون " أى تختبرون وتمتحنون بما يقع
، عليكم من شر ، حتى تتوبوا إلى خالقكم ، قبل أن ينزل بكم العذاب الماحق
إذا ما بقيتم على كفركم .فأنت ترى أن صالحا - عليه السلام - قد رد على
جهالتهم بأسلوب قوى رصين ، بين لهم فيه ، أن تشاؤمهم فى غير محله ، وأن
حظهم ومستقبلهم ومصيرهم بيد الله - تعالى - وحده ، وأن ما أصابهم من بلاء
وقحط ، إنما هو لون من امتحان الله - تعالى - لهم ، لكى يتنبهوا ويستجيبوا
. لدعوة لحق ، قبل أن يفاجئهم الله - تعالى - بالعذاب الذى يهلكهم

وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الارض ولا يصلحون

كما فسرها الوسيط ولكن هذا النصح الحكيم الذى وجهه صالح إلى المكذبين من قومه ، لم يجد أذنا صاغية منهم ، بل قابله زعماؤهم بالتكبر وبالإصرار على - التخلص من صالح - عليه السلام - ومن أهله ، وقد حكى القرآن ذلك فى قوله تعالى - : ( وَكَانَ فِي المدينة تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأرض وَلاَ يُصْلِحُونَ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بالله لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ) .والمراد بالمدينة : مدينة قوم صالح - عليه السلام - وهى الحِجْر - بكسر الحاء وإسكان الجيم - .قال الجمل : قوله تسعة رهط " أى تسعة أشخاص ، وبهذا الاعتبار وقع تمييزاً للتسعة ، لا " : باعتبار لفظه ، وهم الذين سعوا فى عقر الناقة ، وباشره منهم قدار بن سالف ، وكانوا من أبناء أشراف قوم صالح ، والإضافة بيانية . أى : تسعة رهط . وفى الصباح : الرهط دون العشرة من الرجال ، ليس فيهم امرأة .ووصفهم بأنهم يفسدون فى الأرض ولا يصلحون . للإشارة إلى أن نفوسهم قد تمحضت للفساد وللإفساد ، ولا مكان فيها للصلاح وللإصلاح .

قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه واهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك اهله وانا لصادقون

: كما فسرها الوسيط وقوله : ( تَقَاسَمُواْ ) فعل أمر محكى بالقول ، بمعنى احلفوا بالله ، ويجوز أن يكون فعلا ماضيا مفسرا لقالوا ، فكأنه قيل : ما ) : الذى قالوا؟ فكان الجواب : تقاسموا أى : أقسموا .وقوله لَنُبَيِّتَنَّهُ ) من البيات وهو مباغتة العدو ليلا لقتله . يقال بيت القوم العدو ، إذا أوقعوا به ليلا .والمراد بوليه : المطالبون بدمه من أقاربه ، وفى ذلك إشارة إلى أن هؤلاء الظالمين لم يكونوا ليستطيعوا قتل صالح - عليه السلام - علانية ، خوفا من مناصرة أقاربه له .و ( مَهْلِكَ ) ، بضم الميم وفتح اللام - من أهلك الرباعى ، فهو أيضا مصدر ميمى من أهلك ويجوز أن يكون اسم زمان أو مكان .والمعنى : وكان فى المدينة التى يسكنها صالح - عليه السلام - وقومه ، تسعة أشخاص ، دأبهم وديدنهم ، الإفساد فى الأرض ، وعدم الإصلاح فيها ، بأى حال من الأحوال .وقد تعاهد هؤلاء التسعة . وأكدوا ما تعاهدوا عليه بالأيمان المغلظة . على أن يباغتوا نبيهم وأهله ليلا ، فيقتلوهم جميعا ، ثم ليقولن بعد جريمتهم الشنعاء لأقارب صالح - عليه السلام - : ما حضرنا هلاك أهله وهلاك صالح معهم ، ولا علم عندنا بما حل بهم ، وبه من قتل ، وإنا لصادقون فى كل ما قلناه .وهكذا المفسدون فى الأرض يرتكبون أبشع الجرائم وأشنعها ، ثم يبررونها بالحيل الساذجة الذميمة ثم بعد ذلك يحلفون بأغلظ الأيمان أنهم بريئون من تلك الجرائم .ومن العجيب أن هؤلاء المجرمين الغادرين يقولون فيما بينهم : ( تَقَاسَمُواْ بالله ) أى : احلفوا بالله ، على أن تنفذوا ما اتفقنا عليه من قتل صالح وأهله ليلا غيلة وغدرا . فهم يؤكدون إصرارهم على الإجرام بالحلف بالله ، مع أن الله - تعالى - برئى منهم ومن غدرهم .وقولهم : ( مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ ) نفى منهم لحضور قتلهم ، فضلا عن مباشرة قتلهم ، كأنهم أرادوا بهذه الجملة الإتيان بحيلة يبررون بها كذبهم ، أى : أننا قتلناهم فى الظلام ، فلم نشاهد أشخاصهم ، وإنا لصادقون فى ذلك .

ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون

- كما فسرها الوسيط ولكن هذا المكر السىء ، والتحايل القبيح قد أبطله الله تعالى - وجعله يحيق بهم وبأشياعهم ، فقد قال - تعالى - ( مكَرُواْ مَكْراً ) أى : ودبرنا لصالح - عليه السلام - ولمن آمن به ، تدبيرا محمودا محكما ( وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ) أى : وهم لا يشعرون بتدبيرنا الحكيم ، حيث أنجينا صالحا ومن معه من المؤمنين ، وأهلكنا أعداءه أجمعين .

فانظر كيف كان عاقبة مكرهم انا دمرناهم وقومهم اجمعين

، كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - الآثار التى ترتبت على مكرهم السىء وعلى تدبيره المحكم فقال - تعالى - :( فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ) أى : فانظر - أيها العاقل - وتأمل واعتبر فيما آل إليه أمر هؤلاء المفسدين ، لقد دمرناهم وأبدناهم ، وأبدنا معهم جميع الذين كفروا بنبينا صالح - عليه السلام .قال بعض العلماء ما ملخصه : قوله - تعالى - : ( أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ) قرأه الجمهور بكسر همزة ( إِنَّا ) على الاستئناف ، وقرأه عاصم وحمزة والكسائى : ( أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ ) بفتح الهمزة وفى إعرا المصدر المنسبك من أن وصلتها أوجه منها : أنه بدل من ) عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ ) ومنها : أنه خبر مبتدأ محذوف ، وتقديره : هى أى :

. . . عاقبة مكرهم تدميرنا إياهم

فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ان في ذلك لاية لقوم يعلمون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً
بِمَا ظلموا . . ) مقرر ومؤكد لما قبله من تدمير المفسدين وإهلاكهم .أى :
إن كنت - أيها المخاطب - تريد دليلا على تدميرهم جميعا ، فتلك هى بيوتهم
خاوية وساقطة ومتهدمة على عروشها ، بسبب ظلمهم وكفرهم ومكرهم .( إِنَّ فِي
ذلك ) الذى فعلناه بهم من تدمير وإهلاك ( لآيَةً ) بينة ، وعبرة واضحة ،
لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ) أى : يتصفون بالعلم النافع الذى يتبعه العمل
الصالح .

وانجينا الذين امنوا وكانوا يتقون

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - هذه القصة بتأكيد سنته التى لا تتخلف
فقال : ( وَأَنجَيْنَا ) أى : بفضلنا وإحساننا ، ( الذين آمَنُواْ ) وهم
- نبينا صالح وأتباعه ( وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ) أى : وكانوا يتقون الله
تعالى - ويخافون عذابه .وبذلك تكون السورة الكريمة قد ساقت لنا جانبا من
قصة صالح مع قومه هذا الجانب فيه ما فيه من عظات وعبر لقوم يعقلون .

ولوطا اذ قال لقومه اتاتون الفاحشة وانتم تبصرون

، كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك طرفا من قصة لوط مع قومه
- فقال - تعالى - : ( وَلُوطاً إِذْ قَالَ . . . ) .قصة لوط - عليه السلام
قد ذكرت فى سور متعددة منها الأعراف ، وهود ، والحجر . . .وهنا تتعرض
السورة الكريمة ، لإبراز ما كان عليه أولئك القوم من فجور ، وما هددوا به
نبيهم .قال ابن كثير - رحمه الله - : ولوط هو ابن هاران بن آزر ، وهو ابن
أخى إبراهيم - عليه السلام - وكان لوط قد آمن مع إبراهيم ، وهاجر معه إلى
، أرض الشام ، فبعثه الله - تعالى - إلى أهل " سدوم " ، وما حولها من القرى
يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، وينهاهم عما يرتكبونه من المآثم والمحارم
- والفواحش التى اخترعوها ، دون أن يسبقهم إليها أحد من بنى آدم . . .وقوله
- تعالى - : ( وَلُوطاً . . . ) منصوب بفعل مضمر محذوف ، والتقدير : واذكر
أيها العاقل - وقت أن أرسلنا لوطا إلى قومه . فقال لهم على سبيل الزجر
والتوبيخ : ( أَتَأْتُونَ الفاحشة وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ) أى : أتأتون
الفاحشة التى لم يسبقكم إليها أحد ، وهى إتيان الذكور دون الإناث ، وأنتم
تبصرون بأعينكم أنها تتنافى مع الفطرة السوية حتى بالنسبة للحيوان الأعجم
فأنتم ترون وتشاهدون أن الذكر من الحيوان لا يأتى الذكر ، وإنما يأتى
- الأنثى ، حيث يتأتى عن طريقها التوالد والتناسل وعمارة الكون .فقوله
سبحانه - : ( وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ) جملة حالية المقصود بها زيادة
تبكيتهم وتوبيخهم ، لأنهم يشاهدون تنزه الحيوان عنها ، كما يعلمون سوء
عاقبتها ، وسوء عاقبة الذين خالفوا أنبيائهم من قبلهم .

ائنكم لتاتون الرجال شهوة من دون النساء بل انتم قوم تجهلون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرجال
شَهْوَةً مِّن دُونِ النسآء . . . ) تأكيد للإنكار السابق ، وتوضيح للفاحشة
التى كانوا يأتونها .والإتيان : كناية عن الاستمتاع والجماع ، مأخوذ من أتى
- المرأة إذا جامعها .أى : أئنكم - أيها الممسوخون فى فطرتكم وطبائعكم
لتصبون شهوتكم التى ركبها الله - تعالى - فيكم فى الرجال دون النساء اللاتى
جعلهن الله - تعالى - محل شهوتكم ومتعتكم .قال الآلوسى : والجملة الكريمة
تثنية للإنكارن وبيان لما يأتونه من الفاحشة بطريق التصريح بعد الإبهام
وتحلية الجملة بحرفى التأكيد ، للإيذان بأن مضمونها مما لا يصدق وقوعه أحد
لكمال شناعته ، وإيراد المفعول بعنوان الرجولية دون الذكورية ، لزيادة ،
التقبيح والتوبيخ .وقوله - تعالى - : ( بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ )
إضراب عن الإنكار إلى الإخبار عن الأسباب التى جعلتهم يرتكبون هذه القبائح
وهى أنهم قوم دينهم الجهل والسفاهة والمجون وانطماس البصيرة .وقد حكى ،
القرآن أن لوطا قد قال لهم فى سورة الأعراف : ( بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ
مُّسْرِفُونَ ) وقال لهم فى سورة الشعراء : ( بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ
وقال لهم هنا : ( بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ) ومجموع الآيات يدل (
على أنهم كانوا مصابين بفساد العقل ، وانحراف الفطرة ، وتجاوز كل الحدود
التى ترتضيها النفوس الكريمة .

فما كان جواب قومه الا ان قالوا اخرجوا ال لوط من قريتكم انهم اناس يتطهرون

) : كما فسرها الوسيط ثم حكى القرآن بعد ذلك جوابهم السيىء على نبيهم فقال
فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قالوا أَخرِجوا آلَ لُوطٍ مِّن
قَرْيَتِكُمْ . . ) .والفاء للتفريع ، والاستثناء مفرغ من أعم الأشياء .أى
هكذا نصح لوط قومه وزجرهم ، فما كان جوابهم شيءا من الأشياء سوى قول :
بعضهم لبعض أخرجوا لوطا والمؤمنين من قريتكم التى يساكنوكم فيها .وفى
التعبير بقولهم : ( مِّن قَرْيَتِكُمْ ) إشارة إلى غرورهم وتكبرهم فكأنهم
يعتبرون لوطا وأهله المؤمنين دخلاء عليهم ، ولا مكان لهم بين هؤلاء
المجرمين لأن القرية - وهى سدوم - هى قريتهم وحدهم ، دون لوط وأهله
وقوله - تعالى - حكاية عنهم : ( إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ) تعليل.
للإخراج ، وبيان لسببه ، أى أخرجوهم من قريتكم لأنهم أناس يتنزهون عن الفعل
الذى نفعله ، وينفرون من الشهوة التى نشتهيها وهى إتيان الرجال . .وما أعجب
العقول عندما تنتكس ، والنفوس عندما ترتكس ، إنها تأبى أن يبقى معها
الأطهار ، بل تحرض على طردهم ، ليبقى معها الممسوخون والمنحرفون الذين
انحطت طباعهم ، وزين لهم الشيطان سوء أعمالهم فرأوه حسنا .ورحم الله صاحب
الكشاف فقد قال : وقولهم : ( إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ) سخرية بهم
وبتطهرهم من الفواحش ، وافتخارا بما كانوا فيه من القذارة ، كما يقول
الفسقة لبعض الصلحاء إذا وعظهم : أبعدوا عنا هذا المتقشف وأريحونا من هذا
المتزهد .

فانجيناه واهله الا امراته قدرناها من الغابرين

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما آل إليه أمر الفريقين فقال
فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امرأته قَدَّرْنَاهَا مِنَ الغابرين
: وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَسَآءَ مَطَرُ المنذرين ) .والغابر
الباقى . يقال : غبر الشىء يغبر غبورا . إذا بقى .أى : فكانت عاقبة تلك
المحاورة التى دارت بين لوط وقومه ، أن أنجينا لوطا وأهله الذين آمنوا معه
فإننا لم ننجها لخبثها وعدم إيمانها ، فبقيت مع القوم ( امرأته ) ،
الكافرين ، حيث قدرنا عليها ذلك بسبب كفرها ومالأتها لقومها .

وامطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين

كما فسرها الوسيط ( وَأَمْطَرْنَا ) على هؤلاء المجرمين ( مَّطَراً ) عظيما
هائلا عجيبا أمره وهو حجارة من سجيل دمرتهم تدميرا ( فَسَآءَ مَطَرُ
المنذرين ) أى : فبئس العذاب عذابهم .وهكذا تكون عاقبة كل من آثر الكفر على
الإيمان ، والرذيلة على الفضيلة .

قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى الله خير اما يشركون

- كما فسرها الوسيط وبعد هذا الحديث المتنوع عن قصص بعض الأنبياء ، ساق
، سبحانه - ما يدل على وحدانيته ، وكمال قدرته ، وسعة فضله على عباده
: فقال - تعالى - : ( قُلِ الحمد لِلَّهِ . . . ) .قال صاحب البحر المحيط
لما فرغ - سبحانه - من قصص هذه السورة ، أمر رسوله صلى الله عليه وسلم
بحمده - تعالى - والسلام على المصطفين ، وأخذ فى مباينة واجب الوجود وهو
، الله - تعالى - ومباينة الأصنام والأديان التى أشركوها مع الله وعبدوها
وابتدأ فى هذا التقرير لقريش وغيرهم بالحمد لله ، وكأنها صدر خطبة ، لما
يلقى من البراهين الدالة على الوحدانية والعلم والقدرة . وقد اقتدى بذلك
، المسلمون فى تصانيف كتبهم ، وخطبهم ، ووعظهم ، فافتتحوا بتحميد الله
والصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم وتبعهم المتراسلون فى أوائل كتب
الفتوح والتهانى والحوادث التى لها شأن .والمعنى : قل - أيها الرسول
الكريم - للناس : ( الحمد لِلَّهِ ) - تعالى - وحده ، فهو - سبحانه - صاحب
النعم والمنن على عباده ، وهو - عز وجل - الذى له الخلق والأمر وليس لأحد
سواه .وقل - أيضا - ( وَسَلاَمٌ على عِبَادِهِ الذين اصطفى ) أى : أمان
وتحية لعباده الذين اصطفاهم واختارهم - سبحانه - لحمل رسالته وتبليغ دعوته
والاستجابة لأمره ونهيه ، والطاعة له فى السر والعلن .والاستفهام فى قوله ،
للإنكار والتقريع ، والألف منقلبة ( ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ )
عن همزة الاستفهام .أى : وقل لهم - أيها الرسول الكريم - آلله الذى له
الخلق والأمر ، والذى أنعم عليكم بالنعم التى لا تحصى ، خير ، أم الآلهة
- الباطلة التى لا تنفع ولا تضر ، والتى يعبدها المشركون من دون الله
تعالى - . إن كل من عنده عقل ، لا يشك فى أن المستحق للعبادة والطاعة ، هو
الله رب العالمين .ولفظ ( خَيْرٌ ) ليس للتفضيل ، وإنما هو من باب التهكم
: بهم ، إذ لا خير فى عبادة الأصنام أصلا . وقد حكى عن العرب أنهم يقولون
السعادة أحب إليك أم الشقاوة ، مع أنه لا خير فى الشقاوة إطلاقا .قال
الآلوسى : وقوله ( ءَآللَّهُ ) بالمد لقلب همزة الاستفهام ألفا ، والأصل
أألله؟ ( خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ) والظاهر أن ( ما ) موصولة ، والعائد

محذوف أى : آلله الذى ذكرت شئونه العظيمة خير أم الذى يشركونه من الأصنام و
أفعل تفضيل ، ومرجع الترديد إلى التعريض بتبكيت الكفرة من ( خَيْرٌ )
جهته - عز وجل - وتسفيه آرائهم الركيكة ، والتهكم بهم ، إذا من البين أنه
ليس فيما أشركوه به - سبحانه - شائبة خير ، حتى يمكن أن يوازن بينه وبين من
. . هو خير محض

امن خلق السماوات والارض وانزل لكم من السماء ماء فانبتنا به حدائق ذات
بهجة ما كان لكم ان تنبتوا شجرها اله مع الله بل هم قوم يعدلون

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - خمس آيات ، وكل آية فيها ما يدل على
- كمال قدرته وعلمه ، وختم كل آية بقوله : ( أإله مّعَ الله ) ؟ فقال
تعالى - ( أَمَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض . . ) و ( أم ) هنا منقطعة بمعنى
بل الإضرابية والاستفهام للإنكار والتوبيخ .أى : بل قالوا لنا - إن كنتم
تعقلون أيها الضالون - من الذى خلق السموات والأرض ، وأوجدهما على هذا
النحو البديع ، والتركيب المحكم .( وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ السمآء مَآءً )
وهو المطر ، الذى لا غنى لكم عنه فى شئون حياتكم .( فَأَنبَتْنَا بِهِ
حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ) والحدائق : جمع حديقة ، وهى فى الأصل اسم
البستان المحاط بالأسوار ، من أحدث بالشىء إذا أحاط به ، ثم توسع فيها
- فصارت تطلق على كل بستان سواء أكان مسورا بسور أم لا .أى : وأنزل
سبحانه - بقدرته من السماء ماء مباركا ، فأنبتنا لكم بسبب هذا الماء حدائق
وبساتين وجنات ذات منظر حسن ، يشرح الصدور ، ويدخل السرور على النفوس
وقال - سبحانه - : ( فَأَنبَتْنَا . . ) بصيغة الالتفات من الغيبة إلى.
، التكلم . لتأكيد أن القادر على هذا الإنبات هو الله - تعالى - وحده
. وللإيذان بأن إنبات هذه الحدائق مع اختلاف ألوانها ، وأشجارها ، وطعومها
: لا يقدر عليه إلا هو - سبحانه - .ولذا أتبع - عز وجل - هذه الجملة بقوله
- أى : ما كان فى إمكانكم ( مّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُواْ شَجَرَهَا )
أيها الناس - بحال من الأحوال ، أن تنبتوا أشجار هذه الحدائق ، فضلا عن
: إيجاد ثمارها ، وإخراجها من العدم إلى الوجود .قال الإمام الرازى : يقال
ما حكمة الالتفات فى قوله : (فَأَنبَتْنَا . . ) والجواب : أنه لا شبهة فى
- أن خالق السموات والأرض ، ومنزل الماء من السماء ، ليس إلا الله - تعالى
ولكن ربما عرضت الشبهة فى أن منبت الشجرة هو الإنسان ، فإن الإنسان قد.
، يقول : أنا الذى ألقى البذر فى الأرض ، وأسقيها الماء . . . وفاعل السبب
فاعل للمسبب ، فأنا المنبت للشجرة .فلما كان هذا الاحتمال قائما .لا جرم
. . . أزال - سبحانه - هذا الاحتمال . لأن الإنسان قد يأتى بالبذر والسقى
. . ولا يأتى الزرع على وفق مراده . . . فلهذه النكتة جاء الالتفات
- وقوله - تعالى - : ( أإله مّعَ الله ) أى : أإله آخر كائن مع الله.
تعالى - هو الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء . . . كلا .لا
شريك مع الله - تعالى - فى خلقه وقدرته ، وإيجاده لهذه الكائنات ( بَلْ
هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ) .أى : بل إن هؤلاء المشركين قوم يعدلون عمدا عن
) : الحق الواضح وهو التوحيد ، إلى الباطل البين وهو الشرك .فقوله
يَعْدِلُونَ ) مأخوذ من العدول بمعنى الانحراف عن الحق إلى الباطل . أو من
- العدل والمساواة ، فيكون المعنى : بل هم قوم - لجهلهم - يساوون بالله
تعالى - غيره من آلهتهم .والجملة الكريمة : انتقال من تبكيتهم بطريق الخطاب
. إلى توبيخهم ، وتجهيلهم ، وبيان سوء تفكيرهم ، وانطماس بصائرهم ،

امن جعل الارض قرارا وجعل خلالها انهارا وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين
حاجزا اله مع الله بل اكثرهم لا يعلمون

كما فسرها الوسيط ثم انتقلت السورة الكريمة إلى لفت أنظارهم إلى حقائق
) : - كونية أخرى يشاهدونها بأعينهم ، ويحسونها بحواسهم . فقال - تعالى
، أَمّن جَعَلَ الأرض قَرَاراً ) والقرار : المكان الذى يستقر فيه الإنسان
ويصلح لبناء حياته عليه .أى : بل قولوا لنا - أيها المشركون : من الذى جعل
، هذه بالأرض التى تعيشون عليها ، مكانا صالحا لاستقراركم ، ولحرثكم
ولتبادل المنافع فيما بينكم ، ومن الذى دحاها وسواها وجعلها بهذه الطريقة
) البديعة .ومن الذى ( وَجَعَلَ خِلاَلَهَآ ) أى : جعل فيما بينها
، أَنْهَاراً ) تجرى بين أجزائها ، لتنتفعوا بمياه هذه الأنهار فى شربكم
: وفى غير ذلك من شئون حياتكم . ومن الذى ( وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ ) أى
) : جعل لصلاح حالها جبالا ثوابت ، تحفظها من أن تضطرب بكم .ومن الذى
جَعَلَ بَيْنَ البحرين ) أى : جعل بين البحر العذب والبحر الملح ( حَاجِزاً
يجعلهما لا يختلطان ولا يمتزجان .ثم يأتى الاستفهام الإنكارى ( أإله (
مّعَ الله ) ؟ أى : أإله مع الله - تعالى - هو الذى فعل ذلك؟ كلا ، ليس مع
الله - تعالى - آلهة أخرى فعلت ذلك .( بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ )
أى : بل أكثر هؤلاء المشركين ، لا يعلمون الأمور على وجهها الصحيح ، لجهلهم
وعكوفهم على ما ورثوه عن آبائهم بدون تفكير أو تدبر .وعبر بأكثرهم ، لأن ،

. هناك قلة منهم تعلم الحق ، لكنها تنكره جحودا وعنادا

امن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الارض االه مع الله قليلا ما تذكرون

كما فسرها الوسيط ثم تنتقل السورة - للمرة الثالثة - إلى لفت أنظارهم إلى الحقيقة التى هم يحسونها فى خاصة أنفسهم ، وفى حنايا قلوبهم فتقول : ( أمّن يُجِيبُ المضطر إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السواء ) .والمضطر : اسم مفعول من الاضطرار الذى هو افتعال من الضرورة .والمراد به : الإنسان الذى نزلت به شدة من الشدائد . جعلته يرفع أكف الضراعة إلى الله - تعالى - لكى يكشفها عنه .أى : وقولوا لنا - أيها المشركون - : من الذين يجيب دعوة الداعى المكروب الذى نزلت به المصائب والرزايا؟ ومن الذى يكشف عنه وعن غيره السوء والبلاء؟ إنه الله وحده ، هو الذى يجيب دعاء من التجأ إليه ، وهو وحده - سبحانه - الذى يكشف السوء عن عباده ، على حسب ما تقتضيه إرادته وحكمته .وقولوا لنا - أيضا - : من الذى ( يَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ الأرض ) أى : من الذى يجعلكم يخلف بعضكم بعضا . قرنا بع قرن وجيلا بعد جيل ( أإله مّعَ الله ) هو الذى فعل ذلك .كلا ، بل الله وحده - عز وجل - هو الذى يجيب المضطر ، وهو الذى يكشف السوء ، وهو الذي يجعلكم خلفاء الأرض ، ولكنكم ( قَلِيلاً مّا تَذَكَّرُونَ ) أى : ولكنكم زمانا قليلا هو الذى تتذكرون فيه نعم الله - تعالى - عليكم ، ورحمته بكم .وختم - سبحانه - هذه الآية بتلك الجملة الحكيمة ، لأن الإنسان من شأنه - إلا من عصم الله - أنه يذكر الله - تعالى - عند الشدائد ، وينساه عند الرخاء .وصدق الله إذ يقول : ( وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الإنسان أَعْرَضَ وَنَأى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسّهُ الشر فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ).

امن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته االه مع الله تعالى الله عما يشركون

كما فسرها الوسيط ثم انتقلت السورة الكريمة - للمرة الرابعة - إلى لفت أنظارهم إلى نعمه - سبحانه - عليهم فى أسفارهم فقال - تعالى - : ( أمّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ البر والبحر ) .أى : وقولوا لنا - أيها المشركون- : من الذى يرشدكم فى أسفاركم إلى المكان الذى تريدون الذهاب إليه عندما تلتبس عليكم الطرق ، وأنتم بين ظلمات البحر وأمواجه ، أو وأنتم فى متاهات الأرض وفجاجها .وقولوا لنا : ( وَمَن يُرْسِلُ الرياح بُشْرَاً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ) أى : ومن الذى يرسل لكم الرياح لتكون مبشرات بقرب نزول المطر ، الذى هو رحمة من الله - تعالى - لكم ، بعد أن أصابكم اليأس والقنوط؟( أإله مّعَ الله ) هو الذى فعل ذلك ، كلا ، فما فعل ذلك أحد سواه .وقوله - سبحانه - : ( تَعَالَى الله عَمّا يُشْرِكُونَ ) تأكيد لوحدانيته وقدرته وتنزيه له - تعالى - عن الشرك والشركاء .أى : تنزه الله وتقدس عن شرك هؤلاء المشركين ، فهو الواحد الأحد فى ذاته ، وفى صفاته ، وفى أفعاله .

امن يبدا الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والارض االه مع الله قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين

كما فسرها الوسيط ثم انتقلت السورة الكريمة - للمرة الخامسة - إلى لفت أنظارهم إلى نعمة أخروية ، بعد أن ساقت ما ساقت من النعم الدنيوية ، فقال - تعالى - : ( أمّن يَبْدَأُ الخلق ثُمّ يُعيدُهُ ) أى : قولوا لنا - أيها المشركون - من الذى فى قدرته أن يوجد الخلق فى الأرحام من نطفة ، ثم يحولها ، إلى علقة ، ثم إلى مضغة . . . ثم يعيد هذه المخلوقات جميعها بعد موتها - إلى الحياة مرة أخرى؟ لا شك أنه لا يقدر على ذلك أحد سوى الله - تعالى ثم قولوا لنا ( وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السمآء والأرض ) بالمطر والنبات. والأموال ، وبغير ذلك من ألوان النعم التى لا تحصى؟( أإله مّعَ الله ) هو - الذى فعل ذلك؟ كلا ، لم يفعل ذلك سوى الله - تعالى - وحده ثم لقن الله تعالى - رسوله صلى الله عليه وسلم الجواب الذى يخرس ألسنتهم عند المعارضة أو المجادلة فقال : ( قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ) أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - عند معارضتهم لك ، أحضروا حجتكم. وهاتوا برهانا عقليا أو نقليا ، على أن الله - تعالى - شريكا فى ملكه ، إن كنتم صادقين فيما انغمستم فيه من جهل وشرك وكفر به - عز وجل - .قال الإمام الرازى ما ملخصه : اعلم أنه - تعالى - لما عدد نعم الدنيا ، أتبع ذلك بنعم الآخرة فقال : ( أمّن يَبْدَأُ الخلق ثُمّ يُعيدُهُ ) ، لأن نعم الله - تعالى - لا تتم إلا بالإعادة بعد الابتداء . فإن قيل : كيف قيل لهم : ( أمّن يَبْدَأُ الخلق ثُمّ يُعيدُهُ ) وهم منكرون للإعادة؟فالجواب : أنهم كانوا معترفين بالابتداء ، ودلالة الابتداء على الإعادة دلالة ظاهرة قوية ،

فلما كان الكلام مقرونا بالدلالة الظاهرة ، صاروا كأنهم لم يبق لهم عذر فى الإنكار . .وبذلك ترى هذه الآيات الكريمة ، قد أقامت أوضح الأدلة وأقواها على وحدانية الله - تعالى - . وعلى كمال قدرته ، وشمول علمه ، وانفراده بالخلق والتدبير . .

قل لا يعلم من في السماوات والارض الغيب الا الله وما يشعرون ايان يبعثون

كما فسرها الوسيط ثم انتقلت السورة الكريمة بعد ذلك إلى الحديث عن علم الله - تعالى - الذى غيبه عن عباده ، وعن أقوال المشركين فى شأن البعث والحساب ، وعن توجيهات الله - تعالى - لنبيه فى الرد عليهم . . . فقال - تعالى - : ( قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن . . . ) .ذكر بعض المفسرين أن كفار مكة - سألوا النبى صلى الله عليه وسلم عن وقت قيام الساعة ، فنزل قوله - تعالى ( . . قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السماوات والأرض الغيب إِلاَّ الله ) : والغيب : مصدر غاب يغيب ، وكثيرا ما يستعمل بمعنى الغائب ، ومعناه : مالا. تدركه الحواس ، ولا يعلم ببداهة العقل .و " من " اسم موصول فى محل رفع على أنه فاعل " يعلم " و " الغيب " مفعوله فيكون المعنى : قل - أيها الرسول الكريم - لكل من سألك عن موعد قيام الساعة :لا يعلم أحد من المخلوقات الكائنة فى السموات والأرض ، الغيب إلا الله - تعالى - وحده ، فإنه هو الذى يعلمه .ويجوز أن يكون لفظ " من " فى محل نصب علىالمفعولية و " الغيب " بدل منه ، ولفظ الجلالة " الله " فاعل " يعلم " فيكون المعنى : قل لا يعلم - الأشياء التى تحدث فى السموات والأرض الغائبة عنا ، إلا الله - تعالى قال القرطبى : وفى صحيح مسلم عن عائشة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال : " من زعم أن محمدا صلى الله عليه وسلم يعلم ما فى غد ، فقد أعظم على الله الفرية " .وقوله - سبحانه - : ( وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ " يُبْعَثُونَ ) تأكيد لانفراد الله - تعالى - بعلم الغيوب ، ولفظ " إيان ظرف زمان متضمن معنى متى .أى : وما يشعر هؤلاء الكافرون الذين سألوا عن وقت قيام الساعة ، ولا غيرهم ، متى يكون بعثهم من قبورهم للحساب ، إذ علم وقت قيام الساعة لا يعلمه إلى الله وحده .فالجملة الكريمة تنفى عنهم العلم بموعد قيام الساعة فى أدق صورة وأخفاها ، فهم لا يشعرون ولا يحسون بقيام الساعة ، ( بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ ) ثم بين - سبحانه - حقيقة أمرهم فى الآخرة بصورة أكثر تفصيلا . فقال : ( بَلِ ادارك عِلْمُهُمْ فِي الآخرة . . ) .

بل ادارك علمهم في الاخرة بل هم في شك منها بل هم منها عمون

- كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - ( بَلِ ادارك . . . ) قرأه الجمهور بكسر اللام وتشديد الدال وبعدها ألف - وأصله تدارك ، بزنة تفاعل .وللعلماء ، فى تفسير هذه الآية أقوال أشهرها : أن التدارك بمعنى الاضمحلال والفناء ، وأصله التتابع والتلاحق . يقال : تدارك بنو فلان ، إذا تتابعوا فى الهلاك و " فى " بمعنى الباء .أى : بل تتابع علم هؤلاء المشركين بشئون البعث حتى اضمحل وفنى ، ولم يبق لهم علم بشىء مما سيكون فيها قطعا مع توافر أسبابه ومباديه من الدلائل .والمقصود : أن أسباب علمهم بأحوال الآخرة مع توافرها قد تساقطت من اعتبارهم لكفرهم بها ، فَأَجْرَى ذلك مُجْرَى تتابعها فى الانقطاع .ومنهم من يرى أن التدارك هنا التكامل ، فيكون المعنى : بل تكامل علمهم بشئون الآخرة ، حين يعاينون ما أعد لهم من عذاب ، بعد أن كانوا ينكرون البعث والحساب فى الدنيا .قال الآلوسى ما ملخصه : قوله : ( بَلِ ادارك عِلْمُهُمْ فِي الآخرة ) إضراب عما تقدم على وجه يفيد تأكيده وتقريره والمعنى : بل تتابع علمهم فى شأن الآخرة ، التى ما ذكر من البعث حال . . . ، من أحوالها ، حتى انقطع وفنى ، ولم يبق لهم علم بشىء مما سيكون فيها قطعا . . . مع توفر أسبابه ، فهو ترق من وصفهم بجهل فاحش إلى وصفهم بجهل أفحش وجوز أن يكون " ادارك " بمعنى استحكم وتكامل . . .ويبدو لنا أن الآية الكريمة تتسع للقولين ، على معنى أن المشركين اضمحل علمهم بالآخرة لكفرهم بها فى الدنيا ، فإذا ما بعثوا يوم القيامة وشاهدوا العذاب ، أيقنوا بحقيقتها ، وتكامل علمهم واستحكم بأن ما كانوا ينكرونه فى الدنيا . قد صار حقيقة لا شك فيها ، ولا مفر لهم من عذابها . .ومن الآيات التى توضح هذا المعنى قوله - تعالى - : ( لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هذا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ اليوم حَدِيدٌ ) أى : علمك بما كنت تنكره فى الدنيا قد صار فى نهاية القوة والوضوح .وقرأ ابن كثير وأبو عمرو : بسكون اللام من بل . وهمزة قطع مفتوحة مع - ( بل أدرك علمهم فى الآخرة ) ، سكون الدال فى " أَدْرَكَ " فهو بزنة أفعل .أى : بل كمل علمهم فى الآخرة وذلك بعد أن شاهدوا أهوالها ، ورأوها بأعينهم ، وقد كانوا مكذبين فها فى الدنيا .وقوله - سبحانه - : ( بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ) بيان لأحوالهم فى الدنيا .أى : أن هؤلاء المشركين كانوا فى الدنيا يشكون فى الآخرة ، بل كانوا فى عمى عنها ، بحيث لا يفتحون

بصائرهم أو أبصارهم ، عما قال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم بشأنها .فأنت ترى أن الآية الكريمة قد انتقلت فى تصوير كفر هؤلاء المشركين بالآخرة ، من : حالة شنيعة إلى حالة أخرى أشد منها فى الشناعة والجحود .قال صاحب الكشاف فإن قلت : هذه الإضرابات الثلاثة ما معناها؟ قلت : ما هى إلا تنزيل لأحوالهم؛ وصفهم أولا بأنهم لا يشعرون وقت البعث ، ثم لا يعلمون بأن القيامة كائنة ، ثم إنهم يخبطون فى شك ومرية ، فلا يزيلونه مع أن الإزالة مستطاعة . . . ثم بما هم أسوأ حالا وهو العمى ، وأن يكون مثل البهيمة قد عكف همه على بطنه وفرجه ، لا يخطر بباله حق ولا باطل ، ولا يفكر فى عاقبة .

وقال الذين كفروا اذا كنا ترابا واباؤنا ائنا لمخرجون

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك أقوالهم الباطلة ، التى جعلتهم فى عمى عن الآخرة فقال : ( وَقَالَ الذين كفروا أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَآؤُنَآ أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ ) .أى : وقال الذين كفروا على سبيل الإنكار للبعث والحساب : أئذا متنا وصرنا مثل التراب ، وصار آباؤنا كذلك مثل التراب ، أنبعث ونخرج إلى الحياة مرة أخرى بعد أن صرنا جميعا عظاما نخرة وأجسادا بالية؟يقولون ذها ، وينسون لجهلهم وانطماس بصائرهم أن الله - تعالى - أوجدهم بقدرته ولم يكونوا شيئا مذكورا .والاستفهام للإنكار والنفى والعامل فى " إذا " محذوف ، دل عليه " مخرجون " وقوله " ( وَآبَآؤُنَآ ) ، معطوف على اسم كان ، أى : أنبعث ونخرج نحن وآباؤنا إذا كنا كذلك؟

لقد وعدنا هذا نحن واباؤنا من قبل ان هذا الا اساطير الاولين

كما فسرها الوسيط ثم يتبعون قولهم هذا ، بقول أشد منه فى الإنكار والتهكم فيقولون : ( لَقَدْ وُعِدْنَا هذا نَحْنُ وَآبَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هاذآ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأولين ) .والأساطير : جمع أسطورة ، كأحاديث وأحدوثة وأكاذيب وأكذوبة .ومرادهم بها : الخرافات والتخيلات التى لا حقيقة لها .أى : لقد وعدنا الإخراج والإعادة إلى الحياة ، نحن وآباؤنا من قبل ، أى : من قبل أن يخبرنا محمد صلى الله عليه وسلم بذلك ، فنحن وآباؤنا ما زلنا نسمع من القصاص أن هناك بعثا وحسابا ، ولكن لا نرى لذلك حقيقة ولا وقوعا . . وما هذا الذى نسمعه من محمد صلى الله عليه وسلم فى شأن الآخرة إلا أكاذيب. الأولين ، وخرافاتهم التى لا مكان لها فى عقولنا .وهكذا يؤكدون إنكارهم للآخرة ، بشتى ألوان المؤكدات ، المصحوبة بالتهكم والاستخفاف .

قل سيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين

كما فسرها الوسيط وهنا يلفت القرآن أنظارهم إلى مصارع المكذبين من قبلهم ، ويأمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يحذرهم من سوء مصير هذا الإنكار والاستهزاء ، فيقول : ( قُلْ سِيرُواْ فِي الأرض فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المجرمين ) .أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الجاحدين : سيروا فى الأرض لتروا بأعينكم مصارع المكذبين بما جاءهم به الرسل من قبلكم ولتعتبروا بما أصابهم بسبب إجرامهم ، وإنكارهم للبعث والحساب يوم القيامة . فالآية الكريمة توجههم إلى ما من شأنه أن يفتح مغاليق قلوبهم المتحجرة وأن. يزيل عن نفوسهم قسوتها وعنادها .

ولا تحزن عليهم ولا تكن في ضيق مما يمكرون

كما فسرها الوسيط وبعد هذا التوجيه الحكيم تأخذ السورة الكريمة فى تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم عما أصابه من حزن بسبب كفرهم فتقول : ( وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ) والحزن اكتئاب نفسى يحدث للإنسان من أجل وقوع ما يكرهه .والمقصود بالنهى عن الحزن : النهى عن لوازمه ، كالإكثار من محاولة تجديد شأن المصائب ، وتعظيم أمرها ، وبذلك تتجدد الآلام ، ويصعب نسيانها .والمكر : التدبير المحكم . أو صرف الغير عما يريده بحيلة ، لقصد إيقاع الأذى به .أى : ولا تحزن - أيها الرسول الكريم - على هؤلاء المشركين ، بسبب إصرارهم على الكفر والجحود ولا يضيق صدرك ، ويمتلىء هما وغما بسبب مكرهم فإن الله - تعالى - عاصمك منهم ، وناصرك عليهم .

ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين

كما فسرها الوسيط ثم تعود السورة التى سرد أباطيلهم فتقول : ( وَيَقُولُونَ متى هذا الوعد إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ) أى : ويقول هؤلاء المشركون للرسول صلى الله عليه وسلم ولأصحابه : متى يحصل هذا الوعد الذى توعدتمونا به ، وهو أن عذابا سيصيبنا إذا لم نؤمن بما أنتم مؤمنون به .إن كنتم صادقين فى وعدكم

لنا بهذا العذاب ، فأنزلوه بنا ، فنحن قد طال انتظارنا له . وهكذا الأشرار يتعجلون مصيرهم الأليم ، ويبحثون عن حتفهم بظلفهم ، وذلك لإيغالهم فى الغرور والعناد .

قل عسى ان يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون

، كما فسرها الوسيط ولذا جاء الرد عليهم ، يحمل فى طياته العذاب الشديد والتهكم المرير ، فيقول - تعالى - آمرا رسوله صلى الله عليه وسلم بالرد عليهم ( قُلْ عسى أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الذي تَسْتَعْجِلُونَ ) . . . والرديف - كما يقول صاحب المصباح - الذى تحمله خلفك على ظهر الدابة. ومنه ردف المرأة ، وهو عَجُزُها ، والجمع أرادف . . . وترادف القوم : إذا تتابعوا ، وكل شىء تبع شيئا فهو ردفه .أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - ، لا تتعجلوا العذاب فعسى ما تستعجلونه من عذاب ، بعضه قد لحقكم ونزل بكم وبعضه فى طريقه إليكم ، وأنتم لا تشعرون بذلك ، لشدة غفلتكم ، وتبلد مشاعركم .والتعبير بقوله : ( رَدِفَ لَكُم ) يشعر بأن العذاب ليس بعيدا عنهم ، وإنما هو قريب منهم ، كقرب الراكب فوق الدابة ممن هو ردفه - أى خلفه - عليها .ولقد لحقهم شىء من هذا العذاب الذى تعجلوه فى مكة ، عندما أصيبوا بالقحط والجدب ، ولحقهم شىء منه بعد ذلك فى بدر ، عندما قتل المسلمون أكثر زعمائهم ، كأبى جهل ، وغيره . . . ولعذاب الآخرة أشد وأبقى .

وان ربك لذو فضل على الناس ولكن اكثرهم لا يشكرون

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر فضله على الناس ، فقال وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى الناس ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ ) .أى : وإن ربك - أيها الرسول الكريم - لذو فضل عظيم ، وإنعام كبير على الناس . ومن مظاهر ذلك : أنه لم يعاجلهم بالعقوبة مع كفرهم وعصيانهم ، ولكن أكثر هؤلاء الناس لا يشكرونه - سبحانه - على فضله وإنعامه والتعبير " بأكثر " للإشعار بأن هناك قلة مؤمنة من الناس ، ملازمة لشكر. الله - تعالى - فى السراء والضراء ، والعسر واليسر .

وان ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - شمول علمه لكل شىء فقال : ( وَإِنَّ رَبَّكَ ) - أيها الرسول الكريم - ( لَيَعْلَمُ ) علما تاما ( مَا تُكِنُّ ) - صُدُورُهُمْ ) أى : ما تخفيه وتستره صدورهم من أسرار ، ويعلم - أيضا وَمَا يُعْلِنُونَ ) أى : ما يظهرونه من أقوال وأفعال .

وما من غائبة في السماء والارض الا في كتاب مبين

كما فسرها الوسيط ( وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي السمآء والأرض ) أى : وما من شىء غائب عن علم الخلق سواء أكان فى السماء أو فى الأرض .( إِلاَّ ) وهو عندنا ( فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ) أى : إلا وهو عندنا فى كتاب واضح لمن يطالعه بإذن ربه ، وهذا الكتاب المبين هو اللوح المحفوظ الذى سجل - سبحانه - فيه أحوال خلقه .وما دام الأمر كذلك ، فلا تحزن - أيها الرسول الكريم - لما عليه هؤلاء المشركون من جحود وعناد ، بل فوض إلينا أمرنا ، فأنت عليك البلاغ ، ونحن علينا الحساب .

ان هذا القران يقص على بني اسرائيل اكثر الذي هم فيه يختلفون

كما فسرها الوسيط ثم مدحت السورة الكريمة القرآن الكريم ، وساقت المزيد من التسلية للنبى صلى الله عليه وسلم فقال - تعالى - : ( إِنَّ هذا القرآن . . قال الإمام الرازى : اعلم أنه - سبحانه - لما تمم الكلام فى إثبات . ( المبدأ والمعاد . ذكر بعد ذلك ما يتعلق بالنبوة ، ولما كانت الدلالة الكبرى فى إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم هو القرآن ، لا جرم بين الله - تعالى - أولا كونه معجزة . . .أى : إن هذا القرآن من معجزاته الدالة على أنه من عند الله - تعالى - ، أنه يقص على بنى إسرائيل ، الذين هم حملة التوراة والإنجيل ، أكثر الأشياء التى اختلفوا فيها ، ويبين لهم وجه الحق والصواب فيما اختلفوا فيه .ومن بين ما اختلف فيه بنو إسرائيل : اختلافهم فى شأن عيسى - عليه السلام - ، فاليهود كفروا به ، وقالوا على أمه ما قالوا من الكذب والبهتان ، والنصارى قالوا فيه إنه الله ، أو هو ابن الله ، فجاء القرآن ليبين لهم القول الحق فى شأن عيسى - عليه السلام - فقال : من بين ما قاله : ( إِنَّمَا المسيح عِيسَى ابن مَرْيَمَ رَسُولُ الله وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ . . ) : - وقال - سبحانه ( يَقُصُّ على بني إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الذي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ )

للإشارة إلى أن القرآن ترك أشياء اختلفوا فيها دون أن يحكيها ، لأنه لا ، يتعلق بذكرها غرض هام يستدعى الحديث عنها ، ولأن فى عدم ذكرها سترا لهم . . . عما وقعوا فيه من أخطاء

وانه لهدى ورحمة للمؤمنين

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( وَإِنّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤمِنِينَ ) صفة أخرى من صفات القرآن الكريم الدالة على أنه من عند الله - تعالى - :أى : وإن هذا القرآن لمن صفاته - أيضا - أننا جعلناه هداية للمؤمنين إلى الصراط المستقيم ، ورحمة لهم ينالون بسببها العفو والمغفرة من الله .وخص هدايته ورحمته بالمؤمنين ، لأنهم هم الذين آمنوا به ، وصدقوا بما ، فيه ، وعملوا بأوامره ، واجتنبوا نواهيه ، وطبقوا على أنفسهم أحكامه . وآدابه ، وتشريعاته

ان ربك يقضي بينهم بحكمه وهو العزيز العليم

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن مرد القضاء بين المختلفين إليه وحده - فقال : ( إِن رَبّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ . . ) .أى : إن ربك أيها الرسول الكريم - يقضى بين بنى إسراءيل الذين اختلفوا فيما بينهم اختلافا كبيرا ، بحكمه العادل ، كما يقضى بين غيرهم ، فيجازى الذين أساؤوا بما عملوا ، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .( وَهُوَ ) - سبحانه - ( وَهُوَ العزيز ) الذى لا يغالب ( العليم ) بكل شىء فى هذا الوجود .

فتوكل على الله انك على الحق المبين

. . كما فسرها الوسيط والفاء فى قوله - تعالى - : ( فَتَوَكّلْ عَلَى الله للتفريع . أى : ما دمت قد عرفت ذلك - أيها الرسول الكريم - ففوض أمرك إلى ( العزيز العليم وحده ، وتوكل عليه دون سواه ، وبلغ رسالته دون أن تخشى أحدا : إلا إياه .وجملة " إنك على الحق المبين " تعليل للتوكل على الله وحده .أى توكل على الله - تعالى - وحده ، لأك - أيها الرسول الكريم - على الحق . الواضح البين ، الذى لا تحوم حوله شبهة من باطل

انك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( إِنّكَ لاَ تُسْمِعُ الموتى وَلاَ تُسْمِعُ الصم الدعآء إِذَا وَلّوْاْ مُدْبِرِينَ . . ) تعليل آخر لوجول التوكل على الله - تعالى - .وقد شبه - سحبانه - أولئك المشركين ، بالأموات الذين فقدوا الحياة ، وبالصم الذين فقدوا السمع ، وبالعمى الذين فقدوا : البصر ، وذلك لأنهم لم ينتفعوا بهذه الحواس ، فصاروا كالفاقدين لها .أى دم - أيها الرسو الكريم - على توكلك على الله - تعالى - وحده ، وإنك لا تستطيع أن تسمع هؤلاء المشركين . ما يردهم عن شركهم ، لأنهم كالموتى الذين لا حس لهم ولا عقل ، ولأنهم كالصم الذين فقدوا نعمة السمع .وقوله : ( إِذَا وَلّوْاْ مُدْبِرِينَ ) لتتميم التشبيه . وتأكيد نفى السماع . أى : إذا أعرضوا عن الحق إعراضا تاما ، وأدبروا عن الاستماع إليك .قال الجمل : فإن قلت : ما معنى قوله ( مُدْبِرِينَ ) والأصم لا يسمع سواء أقبل أو أدبر؟قلت هو تأكيد ومبالغة للأصم . وقيل : إن الأصم إذا كان حاضرا قد يسمع رفع : الصوت ، أو يفهم بالإشارة ، فإذا ولى لم يسمع ولم يفهم .ومعنى الآية : إنهم لفرط إعراضهم عما يدعون إليه كالميت ، الذى لا سبيل إلى إسماعه ، وكالأصم . الذى با يسمع ولا يفهم

وما انت بهادي العمي عن ضلالتهم ان تسمع الا من يؤمن باياتنا فهم مسلمون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَمَآ أَنتَ بِهَادِي العمي عَن ضَلالَتِهِمْ . . ) أى : وما أنت - أيها الرسول الكريم - بقادر على أن تصرف ، العمى عن طريق الضلال الذى انغمسوا فيه ، لأن الهداية إلى طريق الحق مردها إلى الله - تعالى - وحده .ثم بين - سبحانه - فى مقابل ذلك ، من هم أهل السماع والبصر فقال : ( إِن تُسْمِعُ إِلاّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مّسْلِمُونَ ) .أى : أنت - أيها الرسول الكريم - ما تستطيع أن تسمع ، إسماعا مجديا نافعا ، إلا لمن يؤمن بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا لأن هؤلاء هم المطيعون لأمرنا ، المسلمون وجوههم لنا .وبذلك ترى الآيات الكريمة قد ساقت الكثير من وسائل التسلية للرسول صلى الله عليه وسلم عما - أصابه من المشركين ، كما ساقت ما يدل على أن هذا القرآن من عند الله . تعالى - : وعلى أنه - سبحانه - هو الحكم العدل بين عباده

واذا وقع القول عليهم اخرجنا لهم دابة من الارض تكلمهم ان الناس كانوا باياتنا لا يوقنون

كما فسرها الوسيط ثم أخذت السورة الكريمة تسوق فى أواخرها بعض أشراط الساعة - وعلاماتها ، وأهوالها ، لكى تعتبر النفوس ، وتخشع لله - تعالى - . فقال عز وجل - : ( وَإِذَا وَقَعَ . . . ) .قال الإمام ابن كثير : هذه الدابة تخرج فى آخر الزمان عند فساد الناس ، وتركهم أوامر الله ، وتبديلهم الدين الحق ، يخرج الله لهم دابة من الأرض قيل : من مكة ، وقيل من غيرها .ثم ذكر - رحمه الله - جملة من الأحاديث فى هذا المعنى منها : ما رواه مسلم عن حذيفة بن اسيد الغفارى قال : " أشرف علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم من غرفته ، ونحن نتذاكر أمر الساعة فقال :لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات : طلوع الشمس من مغربها ، والدخان ، والدابة ، وخروج يأجوج ومأجوج ، ونزول عيسى بن مريم ، والدجال ، و ثلاثة خسوف : خسف بالمغرب ، وخسف بالمشرق ، وخسف بجزيرة العرب ، ونار تخرج من قعر عدن ، تسوق - أو تحشر - الناس ، تبيت معهم حيث باتوا - وتقيل معهم حيث قالوا " .والدابة : اسم لكل حيوان ذى روح : سواء أكان ذكرا أم أنثى ، عاقلا أم غير عاقل ، من الدبيب وهو فى الأصل ، المشى الخفيف ، واختصت فى العرف بذوات القوائم الاربع .والمراد بوقوع القول عليهم : قرب قيام الساعة ، وانتهاء الوقت الذى يقبل فيه الإيمان من الكافر أو الذى تنفع فيه التوبة .والمعنى إذا دنا وقت قيام الساعة . وانتهى . الوقت الذى ينفع فيه الإيمان أو التوبة . . أخرجنا للناس بقدرتنا وإرادتنا دابة من الأرض تكلمهم ، فيفهمون كلامها ، ويعرفون أن موعد قيام الساعة قد اقترب . و ( أَنَّ النَّاسَ ) أى : الكافرين ( كَانُوا بِآيَاتِنَا ) الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ( لاَ يُوقِنُونَ ) بها ، ولا يصدقون أن هناك بعثا وحسابا .فخروج الدالة علامة من علامات الساعة الكبرى ، يخرجها الله - عز وجل - ليعلم الناس قرب انتهاء الدنيا وأن الحساب العادل للمؤمنين والكافرين آت لا شك فيه ، وأن التوبة لن تقبل فى هذا الوقت ، لأنها جاءت فى غير وقتها المناسب .وقد ذكر بعض المفسرين أوصافا كثيرة ، منها أن طولها ستون ذارعا وأن رأسها رأس ثور ، وأذنها أذن فيل ، وصدرها صدر اسد . . الخ .ونحن نؤمن بأن هناك دابة تخرج فى آخر الزمان ، وأنها تكلم الناس بكيفية يعلمها الله - عز وجل - أمّا ما يتعلق بالمكان الذى تخرج منه هذه الدابة ، وبالهيئة التى تكون عليها من حيث الطول والقصر ، فنكل ذلك إلى علمه - سبحانه - حيث لم يرد حديث صحيح يعتمد عليه فى بيان ذلك .

ويوم نحشر من كل امة فوجا ممن يكذب باياتنا فهم يوزعون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ) بيان إجمالى لحال المكذبين بالساعة عند قيامها ، بعد بيان بعض أشراطها .والظرف متعلق بمحذوف . والحشر : الجمع ، قالوا والمراد بهذا الحشر : حشر الكافرين إلى النار ، بعد حشر الخلائق جميعها ، والفصل بينهم .والفوج : يطلق فى الأصل على الجماعة التى تسير بسرعة ، ثم توسع فيه فصار يطلق على كل جماعة وإن لم يكن معها مرور أو إسراع .وقوله : ( يُوزَعُونَ ) من الوزع . بمعنى الكف والمنع ، يقال : وزعه عن الشىء ، إذا كفه عنه ، ومنعه من غشيانه والوازع فى الحرب ، هو الموكل بتنظيم الصفوف ، ومنع الاضطراب فيها .والمعنى واذكر - أيها العاقل لتعتبر وتتعظ - يوم ( نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ ) : من الأمم ( فَوْجاً ) .أى : جماعة من الذين كانوا يكذبون فى الدنيا بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ( فَهُمْ يُوزَعُونَ ) أى : فهم يقفون بين أيدينا ، داخرين صاغرين ، بحيث لا يتقدم أحد منهم على أحد ، وإنما يتحركون ويساقون إلى حيث نريد منهم ، ويتجمعون جميعا ليلقوا مصيرهم المحتوم وأفرد - سبحانه - هؤلاء المكذبين بالذكر . - مع أن الحشر يشمل الناس جميعا - لإبراز الحال السيئة التى يكونون عليها عندما يجمعون للحساب دون أن يشذ منهم أحد ، ودون أن يتحرك أولهم حتى يجتمع معه آخرهم . .

حتى اذا جاءوا قال اكذبتم باياتي ولم تحيطوا بها علما اماذا كنتم تعملون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أحوالهم بعد ذلك فقال : ( حتى إِذَا جَآءُوا ) أى : حتى إذا ما وصلوا إلى موقف الحساب قال الله - تعالى - لهم على سبيل التأنيب والتوبيخ ( أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي ) الدالة على وحدانيتى وعلى أن الآخرة حق . وأن الحساب حق وجملة ، ( وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْماً ) حالية ، لزيادة التشنيع عليهم . والتجهيل لهم .أى : أكذبتم بآياتى الدالة على أن البعث حق ، دون أن تتفكروا فيها ، ودون أن يكون عندكم أى علم أو دليل على صحة هذا التكذيب .ثم أضاف - سبحانه - إلى هذا التوبيخ لهم ، توبيخا أشد وأعظم ، فقال : ( أَمَّا ذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ) .أى : إذا لم تكونوا قد كذبتم بآياتى ، فولوا لنا ماذا كنتم تعملون ، فإننا لا

. يخفى علينا شىء منها ، ولا نعاقبكم إلا عليها

ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون

، كما فسرها الوسيط ولا شك أن هذا التساؤل المقصود منه تأنيبهم وتقريعهم والاستهزاء بهم ، لأنه من المعروف أنهم كذبوا بآيات الله ، وأنهم قد قضوا حياتهم فى الكفر والضلال ، ولذا وقوفا واجمين لا يحيرون جوابا ، فكانت النتيجة كما قال - تعالى - بعد ذلك : ( وَوَقَعَ القول عَلَيهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لاَ يَنطِقُونَ ) . أى : وحل العذاب عليهم بسبب ظلمهم وجحودهم ، فاستقبلوه باستسلام وذلة ، دون أن يستطيعوا النطق بكلمة تنفعهم أو بحجة يدافعون بها عن أنفسهم . . .فالمقصود بوقوع القول عليهم : إقامة الحجة عليهم ، ونزول العذاب بهم واستحقاقهم له بسبب ظلمهم وكفرهم .

الم يروا انا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا ان في ذلك لايات لقوم يؤمنون

كما فسرها الوسيط وبعد هذا التوبيخ لهم وهم فى ساحة الحشر ، انتقلت السورة إلى توبيخهم على فعلتهم حين كانوا فى الدنيا . فتقول : ( أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا الليل لِيَسْكُنُواْ فِيهِ والنهار مُبْصِراً ) .أى : أبلغت الغفلة والجهالة بهؤلاء المكذبين - أنهم يعيشون - فى هذا الكون ليأكلوا ويشربوا ويتمتعوا ، دون أن يعتبروا أو يتفكروا .لقد أوجدنا لهم ليلا يسكنون فيه ، وأوجدنا لهم نهارا يبتغون فيه أرزاقهم ، وجعلنا الليل والنهار بهذا المقدار ، لتتيسر لهم أسباب الحياة والراحة ، فكيف لم يهتدوا ، إلى أن لهذا الكون خالقا حكيما قادرا؟( إِنّ فِي ذَلِكَ ) الذى جعلناه لهم ، من وجود الليل والنهار بهذه الطريقة ( لآيَاتٍ ) بينات واضحات على وحدانيتنا وقدرتنا ( لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ) بأن الله - تعالى - هو الخالق لكل شىء وهو الإله الحق لا إله سواه .وذلك ، لأن من تأمل فى تعاقب الليل والنهار بتلك الصورة البديعة المطردة ، وفى اختلافهما طولا وقصرا ، وظلمة وضياء . . . أيقن بأن لهذا الكون إلها واحدا قادرا على إعادة الحياة إلى الأموات ، ليحاسبهم على أعمالهم .قال الآلوسى : وقوله : ( والنهار مُبْصِراً ) أى : ليبصروا بما فيه من الإضاءة ، وطرق التقلب فى أمور معاشهم فبولغ حيث جعل الإبصار الذى هو حال الناس حالا له ، ووصفا من أوصافه التى ، جعل عليها بحيث لم ينفك عنها ، ولم يسلك فى الليل هذا المسلك . لما أن تأثير ظلام الليل فى السكون ، ليس بمثابة تأثير ضوء النهار فى الإبصار .

ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السماوات ومن في الارض الا من شاء الله وكل اتوه داخرين

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصور ( . . فَفَزِعَ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض إِلاّ مَن شَآءَ الله معطوف على قوله - تعالى - قبل ذلك ( وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً ) والصور ، القرن الذى ينفخ فيه نفخة الصَّعْق والبعث ، وذلك يكون عند النفخة الثانية . . . والنافخ : إسرافيل - عليه السلام - .قال القرطبى - ما ملخصه : والصحيح فى الصور أنه قرن من نور ، ينفخ فيه إسرافيل .والصحيح أيضا - فى النفخ فى الصور أنهما نفختان . وأن نفخة الفزع إنما تكون راجعة إلى نفخة الصعق لأن الأمرين لازمان لهما . . والمراد - هنا النفخة الثانية - أى : يحيون فزعين ، يقولون : " من بعثنا من مرقدنا " ويعاينون من الأمر ما يهولهم ويفزعهم .والمعنى واذكر - أيها العاقل - يوم ينفخ إسرافيل فى الصور بإذن الله - تعالى - وأمره ( فَفَزِعَ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض ) أى : خافوا وانزعجوا ، وأصابهم الرعب ، لشدة ما يسمعون ، وهول ما يشاهدون ، فى هذا اليوم الشديد .وقوله : ( إِلاّ مَن شَآءَ الله ) استثناء ممن يصيبهم الفزع .أى : ونفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله - تعالى - لهم عدم الفزع والخوف .والمراد بهؤلاء الذين لا يفزعون ، قيل : الأنبياء ، وقيل : الشهداء ، وقيل : الملائكة .ولعل الأنسب أن يكون المراد ما يعم هؤلاء السعداء وغيرهم ، ممن رضى الله عنهم ورضوا عنه لأنه لم يرد نص صحيح يحددهم .وقوله - سبحانه - : ( وَكُلٌّ أَتَوْهُ ، دَاخِرِينَ ) أى : وكل واحد من هؤلاء الفزعين المبعوثين عند النفخة ، أتوا : إلى موقف الحشر ، للوقوف بين يدى الله - تعالى - ( دَاخِرِينَ ) أى : صاغرين أذلاء .يقال : دخر فلان - كمنع وفرح - دخرا ودخورا .إذا صغر وذل .

وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي اتقن كل شيء انه خبير بما تفعلون

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( وَتَرَى الجبال تَحْسَبُهَا

- جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرّ السحاب . . . ) معطوف على قوله - سبحانه
قبل ذلك : ( يُنفَخُ فِي الصور ) .أى : فى هذا اليوم الهائل الشديد ، يفزع
من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، وترى الجبال الراسيات
الشامخات ، ( تَحْسَبُهَا جَامِدَةً ) أى ثابتة فى أماكنها ، والحال أنها
تمر فى الجو مر السحاب ، الذى تسسيره الرياح سيرا حثيثا .وهكذا تصور الآيات
الكريمة أهوال ذلك اليوم هذا التصوير البديع المعجز المؤثر ، فالناس
جميعا - إلا من شاء الله - فزعون وجلون ، والجبال كذلك كأنها قد أصابها ما
أصاب الناس ، حتى لكأنها - وهى تسرع الخطا - . السحاب فى خفته ومروقه
وتناثره ، ثم يعقب - سبحانه - على كل ذلك بقوله ( صُنْعَ الله الذي
أَتْقَنَ كُلّ شَيْءٍ ) .ولفظ ( صُنْعَ ) يجوز أن يكون منصوبا على الإغراء
أى : انظروا صنع الله - تعالى - الذى أتقن كل شىء فقد أحسن - سبحانه - ما
خلقه وأحكمه ، وجعله فى أدق صورة ، وأكمل هيئة ، وصدق الله - تعالى - إذ
يقول ( وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ) قال صاحب فتح
القدير : وانتصاب " صنع " على المصدرية ، أى : صنع الله ذلك صنعا . وقيل هو
مصدر مؤكد لقوله : ( وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصور ) وقيل منصوب على الإغراء
: وجملة : ( إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ) تعليل لما قبله . أى.
- صَنَع الله ما خلقه على هذا الإحكام العجيب ، والإتقان البديع ، لأنه
. سبحانه - خبير بما تفعلونه ومطلع على ما تخفونه وما تعلنونه

من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ امنون

، كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ببيان جزاء من أحسن
وببيان جزاء من أساء ، وببيان منهج الرسول صلى الله عليه وسلم فى دعوته
فقال - تعالى - : ( مَن جَآءَ . . . ) .قوله - سبحانه - : ( مَن جَآءَ
- بالحسنة فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا ) بيان وتفصيل لمظاهر علم الله - تعالى
لكل ما يفعله الناس ، الذى أشير إليه قبل ذلك بقوله : ( إِنّهُ خَبِيرٌ
بِمَا تَفْعَلُونَ ) والمراد بالحسنة : كل ما يقوله أو يفعله المسلم من قول
طيب ، ومن عمل صالح ، فيشمل النطق بالشهادتين ، وأداء ما كلف الله الإنسان
بأدائه من فرائض وواجبات ، واجتناب السيئات والشبهات .أى : من جاء بالفعلة
الحسنة ، فله من الله - تعالى - ما هو خير منها من ثواب وعطاء حسن ، كما
قال - تعالى - فى آية أخرى : ( مَن جَآءَ بالحسنة فَلَهُ عَشْرُ
- أَمْثَالِهَا ) فالمراد بما هو خير منها : الثواب الذى يمنحه الله
تعالى - لمن أتى بها .وقوله - تعالى - : ( وَهُمْ مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ
، آمِنُونَ ) تقرير لما قبله ، وبشارة للمؤمنين الذين جاءوا بالحسنات
بالأمان والاطمئنان .أى : وهم من الفزع الكائن للناس فى يوم البعث والحساب
آمنون مطمئنون ، كما قال - سبحانه - : ( لاَ يَحْزُنُهُمُ الفزع الأكبر ،
وَتَتَلَقّاهُمُ الملائكة هذا يَوْمُكُمُ الذي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ) وكما
قال - تعالى - : ( أَفَمَن يلقى فِي النار خَيْرٌ أَم مَّن يأتي آمِناً
. ( يَوْمَ القيامة

ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار هل تجزون الا ما كنتم تعملون

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة من يأتى بالسيئات فقال
: وَمَن جَآءَ بالسيئة فَكُبّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النار ) .قال ابن كثير
قال ابن مسعود : وأبو هريرة ، وابن عباس ، وأنس بن مالك ، وعطاء ، وسعيد بن
جبير ، وغيرهم : ( مَن جَآءَ بالسيئة ) أى الشرك .ولعل مما يؤيد أن المراد
بالسيئة هنا : الشرك . قوله - تعالى - : ( فَكُبّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النار
: لأن هذا الجزاء الشديد ، يتناسب مع رذيلة الشرك - والعياذ بالله - .أى ( )
ومن جاء بالفعلة الشنيعة فى السوء ، وهى الإشراك بالله ( فَكُبّتْ
وُجُوهُهُمْ فِي النار ) أى : فألقوا بسبب شركهم فى النار على وجوههم
منكوسين .يقال : كب فلان فلانا على وجهه ، وأكبه ، إذا نكسه وقلبه على وجهه
وفى كبهم على وجوههم فى النار ، زيادة فى إهانتهم وإذلالهم لأن الوجه هو.
مجمع المحاسن ، ومحل المواجهة للغير .والاستفهام فى قوله - تعالى - : ( )
هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ) لزيادة توبيخهم وتقريعهم
، والجملة بإضمار قول محذوف .أى : والذين جاءوا بالأفعال السيئة فى دنياهم
يكبون على وجوههم فى النار يوم القيامة ، ويقال لهم على سبيل الزجر
والتأنيب : ما حل بكم من عذاب هو بسبب أعمالكم وشرككم .وكون المراد بالسيئة
هنا الشرك ، لا يمنع من أن الذى يرتكب السيئات من المسلمين ، يعاقب عليها
ما لم يتب منها فالله - تعالى - يقول : ( لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ ولا
أَمَانِيِّ أَهْلِ الكتاب مَن يَعْمَلْ سواءا يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ
( لَهُ مِن دُونِ الله وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً

انما امرت ان اعبد رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شيء وامرت ان اكون من
المسلمين

كما فسرها الوسيط ثم يأمر الله - تعالى - نبيه أن يعلن للناس منهجه فى دعوته فيقول : ( إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ البلدة الذي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ . . ) .والمراد بالبلدة الذى حرمها : مكة المكرمة التى عظم الله - تعالى - حرمتها ، فجعلها حرما آمنا ، لا يسفك فيها دم ، ولا يصاد فيها صدم ، ولا يعضد فيها شجر . وقوله : ( الذي حَرَّمَهَا ) صفة للرب .وخصت مكة بالذكر : تشريفا لها ، ففيها البيت الحرام الذى هو أول بيت وضع فى الأرض .أى : قل - أيها الرسول الكريم - للناس : إن الله - تعالى - أمرنى أن أخلص لله - سبحانه - عبادتى ، فهو رب البلد الحرام مكة ، ورب كل شىء ، وله جميع ما فى هذا الكون خلقا ، وملكا ، وتصرفا .

وان اتلو القران فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فقل انما انا من المنذرين

كما فسرها الوسيط ( وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ المسلمين وَأَنْ أَتْلُوَ القرآن ) أى : وأمرنى كذلك أن أكون من الثابتين على دينه ، المنقادين لأمره المسلمين له وجوههم ، وأمرنى - أيضا - أن أتلو القرآن على مسامعكم ، لأنه ، هو معجزتى الدالة على صدقى .( فَمَنِ اهتدى ) إلى الحق الذى جئته به وبينته له ( فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ) أى : فإن منافع هدايته تعود إلى نفسه .( وَمَن ضَلَّ ) عن طريق الحق ، وأعرض عن دعوتى ، ( فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا مِنَ المنذرين ) .أى : ومن ضل عن الهدى بعد أن نصحته وأرشدته ، فقد أمرنى ربى أن أقول له : إنما أنا من المنذرين للضالين بسوء العاقبة ، ولست عليهم بحفيظ ، أو بِمُكْرِهٍ إياهم على الإيمان .

وقل الحمد لله سيريكم اياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون

كما فسرها الوسيط ثم ختم السورة الكريمة بهذا التوجيه الكريم ، للرسول صلى الله عليه وسلم فقال - تعالى - : ( وَقُلِ الحمد للَّهِ ) .أى : وقل - أيها الرسول الكريم - للناس : الثناء كله ، والفضل كله ، لله - تعالى - وحده . ) وهو - سبحانه - ( سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ ) الدالة على وحدانيته وقدرته فَتَعْرِفُونَهَا ) أى : فتعرفون صدقها . .وصدق الله - عز وجل - ففى كل يوم بل فى كل ساعة ، يرى عبادة بعض آياته الدالة على وحدانيته وقدرته ، فى أنفسهم ، وفى آفاق هذا الكون وما أحكم قوله - تعالى - : ( سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفاق وفي أَنفُسِهِمْ حتى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحق ) ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بهذه الجملة التى تحمل طابع التهديد والوعيد لمن خالف أمره ، فقال - تعالى - : ( وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ) .أى : وما ربك - أيها الرسول الكريم - بغافل عما يعمله الناس ، وما يقولونه لك ، وما يتهمونك به ، فسر فى طريقك ، وبلغ ما أمرك - سبحانه - بتبليغه ، فإن العاقبة لك ولأتباعك المؤمنين ، أما الكافرون والمنافقون فنحن الذى سنتولى حسابهم . . .

طسم

كما فسرها الوسيط سورة القصص من السور التى افتتحت ببعض الحروف الهجائية وقد رجحنا أن هذه الحروف ، قد افتتحت بها بعض سور القرآن الكريم ، للإيقاظ. والتنبيه للذين تحداهم القرآن الكريم .فكأن الله - تعالى - يقول لهؤلاء المعارضين فى أن القرآن من عند الله - تعالى - : هاكم القرآن ترونه مؤلفا من حروف هى من جنس الحروف الهجائية ، ومنظوما من كلام هو من جنس ما تؤلفون منه كلامكم .فإن كنتم فى شك فى كون هذا القرآن من عند الله ، فهاتوا مثله أو عشر سور من مثله أو سورة واحدة من مثله وادعوا من شئتم من الخلق لكى ، يعاونكم فى ذلك .فلما عجزوا - وهم أهل الفصاحة والبيان - ثبت أن غيرهم أعجز - وأن هذا القرآن من عند الله - تعالى ، .

تلك ايات الكتاب المبين

كما فسرها الوسيط و ( تِلْكَ ) اسم إشارة ، والمشار إليه الآيات . والمراد بها آيات القرآن الكريم ، ويندرج فيها آيات هذه السورة التى معنا .( الكتاب مصدر كتب كالكتب . وأصله ضم أديم ألى آخر بالخياطة ، واستعمل عرفا فى : ( ضم الحروف بعضها إلى بعض بالخط . والمراد به : القرآن الكريم .و ( المبين ) أى : الواضح المظهر للحق من الباطل ، من أبان بمعنى أظهر .أى : تلك : الآيات التى أنزلناها عليك - أيها الرسول الكريم - هى آيات الكتاب المظهر للحق من الباطل ، والموضح للخير من الشر ، والكاشف عن حقائق الأمور ، وعن قصص الأولين .

نتلو عليك من نبا موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - : ما سيقصه على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه السورة فقال : ( نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ موسى وَفِرْعَوْنَ بالحق لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ) .وقوله - تعالى - ( نَتْلُواْ ) من التلاوة بمعنى القراءة المرتلة التى يقصد منها التذكير والإرشاد .والنبأ الخبر العظيم المشتمل على أمور من شأنها أن يهتم الناس بها .وموسى - عليه السلام - : هو ابن عمران بن يصهر بن ماهيث بن لاوى بن يعقوب - عليه السلام - وكانت ولادة موسى فى حوالى القرن الثالث عشر قبل الميلاد .وفرعون ، اسم كان يطلق فى القديم على كل ملك لمصر ، كما يقال لملك الروم : قيصر ، ولملك اليمن : تبع .ويرى كثير من المؤرخين أن فرعون مصر ، الذى ولد وبعث فى عهده موسى - عليه السلام - هو منفتاح ابن الملك رمسيس الثانى .قال الآلوسى ما ملخصه : والظاهر أن ( مِن ) فى قوله ( نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ موسى وَفِرْعَوْنَ ) تبعيضية . والجار والمجرور متعلق بمحذوف وقع صفة لمفعول ( نَتْلُواْ ) المحذوف . وقوله ( الحق ) حال من فاعل ( نَتْلُواْ ) أى : نتلو ملتبسين بالحق ، أو من مفعوله ، أى : نتلو شيئا من بنئهما ملتبسا بالحق . . .والمعنى : نتلو عليك - أيها الرسول الكريم - تلاوة كلها حق وصدق شيئا عجيبا ، وخبرا هاما ، يتعلق بقصة موسى - عليه السلام - وبقصة فرعون ، ، وقوله - سبحانه - : ( لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ) أى : نتلو عليك هذه الآيات. لقوم يؤمنون بها ، وينتفعون بما اشتملت عليه من هدايات وعبر وعظات .

ان فرعون علا في الارض وجعل اهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح ابناءهم ويستحيي نساءهم انه كان من المفسدين

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأرض وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً . . ) كلام مستأنف لتفصيل ما أجمله من النبأ . وقوله ( عَلاَ فِي الأرض ) أى تكبر فيها وطغى ، من العلو بمعنى الارتفاع. والمقصود أنه جاوز كل حد فى غروره وظلمه وعدوانه . والمراد بالأرض : أرض ، مصر وما يتبعها من بلاد .و ( شِيَعاً ) جمع شيعة ، وهم الأتباع والجماعات وكل قوم اجتمعوا على أمر فهم شيعته .أى : إن فرعون طغى وبغى وتجبر فى الأرض وجعل أهلها شيعا وأتباعا له ، وصار يستعمل كل طائفة منهم ، فيما يريده من ، أمور دولته ، فهذه الطائفة للبناء ، وتلك للسحر ، وثالثة لخدمته ومناصرته على ما يريد . . .وجملة ( يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ ) لبيان حال الذين جعلهم شيعا وأحزابا .والمراد بهذه الطائفة : بنو إسرائيل .أى : أنه بعد أن جعل أهل مملكته شيعا وأحزابا اختص طائفة منهم بالإذلال والقهر والظلم ، فصار يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم . أى : يذبح الذكور من بنى : إسرائيل بمجرد ولادتهم ، ويترك الإناث أحياء .قال الإمام الرازى ما ملخصه وفى ذبح الذكور دون الإناث مضرة من وجوه :أحدهما : أن ذبح الأبناء يقتضى فناء الرجال . وذلك يقتضى انقطاع النسل . .ثانيها : أن هلاك الذكور يقتضى فساد مصالح النساء فى المعيشة ، فإن المرأة لتتمنى الموت إذا انقطع عنها ، تعهد الرجال .ثالثها : أن قتل الذكور عقب الحمل الطويل ، وتحمل الكد والرجاء القوى فى الانتفاع به ، من أعظم العذاب . . .رابعها : أن بقاء ، النساء بدون الذكران من أقاربهن ، يؤدى إلى صيرورتهن مستفرشات للأعداء وذلك نهاية الذل والهوان .قالوا : وإنما كان فرعون يذبح الذكور من بنى إسرائيل دون الإناث . لأن الكهنة أخبروه ، بأن مولودا سيولد من بنى إسرائيل يكون ذهاب ملك فرعون على يده .وقوله - سبحانه - : ( إِنَّهُ كَانَ مِنَ ، المفسدين ) تعليل وتأكيد لما كان عليه فرعون من تجبر وطغيان .أى : إن فرعون كان من الراسخين فى الفساد والإفساد ، ولذلك فعل ما فعل من ظلم لغيره ، ومن تطاول جعله يقول للناس : ( أَنَاْ رَبُّكُمُ الأعلى ).

ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما اقتضته إرادته وحكمته ، من تنفيذ وعيده فى القوم الظالمين ، مهما احتاطوا وحذروا ، ومن إنقاذه للمظلومين بعد أن أصابهم من الظلم ما أصابهم فقال : ( وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الذين استضعفوا فِي الأرض وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الوارثين وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأرض وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ) .وقوله ( نَّمُنَّ ) من المن بمعنى التفضل ، ومنه قوله - تعالى - : ( لَقَدْ مَنَّ الله عَلَى ) : المؤمنين . . . ) أى : لقد تفضل عليهم ، وأحسن إليهم .وقوله وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأرض ) من التمكين ، وأصله : أن نجعل للشىء مكانا ، يستقر فيه ، ويحل به .ثم استعير للتسليط وللحصول على القوة بعد الضعف وللعز بعد الذل .وقوله : ( يَحْذَرُونَ ) من الحذر ، بمعنى الاحتراس والاحتراز من الوقوع فى الأمر المخيف . يقال : حذر فلان فلانا ، إذا خافه

واحترس منه .قال الشوكانى : والواو ، فى قوله ( وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ )
للعطف على جملة ، ( إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأرض ) لأن بينهما تناسبا
من حيث إن كل واحدة منهما ، للتفسير والبيان للنبأ . ويجوز أن تكون حالا من
فاعل ( يَسْتَضْعِفُ ) بتقدير مبتدأ . أى : ونحن نريد أن نمن على الذين
استضعفوا فى الأرض . . والأول أولى .والمعنى : لقد طغا فرعون وبغى ، ونحن
، بإرادتنا وقدرتنا ( وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ ) ونتفضل على بنى إسرائيل
). الذين استضعفوا فى الأرض ، بأن ننجيهم من ظلمه ، وننقذهم من قهره وبغيه
وَنَجْعَلَهُمُ الوارثين ) للأرض المباركة ، التى نعطيهم إياها متى آمنوا
وأصلحوا ، كما قال - تعالى - : ( وَأَوْرَثْنَا القوم الذين كَانُوا
يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأرض وَمَغَارِبَهَا التي بَارَكْنَا فِيهَا
وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الحسنى على بَنِي إِسْرَآئِيلَ بِمَا صَبَرُواْ
وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ
يَعْرِشُونَ ).

ونمكن لهم في الارض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأرض ) أى :
ونجعلهم أقوياء راسخى الأقدام فى الأرض التى نورثهم إياها ، بعد القوم
الظالمين .( وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا ) أى : ونطلع
فرعون وهامان - وهو وزير فرعون - وجنودهما التابعين لهما ( مِنْهُمْ ) أى :
من بنى إسرائيل المستضعفين فى الأرض ( مّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ) أى ما
كانوا يحاولون دفعه واتقاءه ، فقد كان فرعون وجنده يقتلون الذكور من بنى
إسرائيل ، خوفا من ظهور غلام منهم يكون هلاك فرعون على يده .قال ابن كثير :
- أراد فرعون بحوله وقوته ، أن ينجو من موسى . فما نفعه ذلك ، بل نفذ الله
- تعالى - حكمه . بأن يكون إهلاك فرعون على يد موسى ، بل يكون هذا الغلام
الذى احترزت من وجوده - يا فرعون - ، وقتلت بسببه ألوفا من الولدان ، إنما
منشؤه ومرباه على فراشك وفى دارك . . . وهلاكك وهلاك جندك على يديه ، لتعلم
أن رب السموات العلا ، هو القاهر الغالب العظيم ، الذى ما شاء كان ، وما لم
- يشأ لم يكن .وهكذا تعلن السورة الكريمة فى مطلعها ، أن ما أراده الله
تعالى -لا بد أن يتم ، أمام أعين فرعون وجنده ، مهما احتاطوا ومهما
احترسوا ، ( والله غَالِبٌ على أَمْرِهِ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ
يَعْلَمُونَ ).

واوحينا الى ام موسى ان ارضعيه فاذا خفت عليه فالقيه في اليم ولا تخافي ولا
تحزني انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين

كما فسرها الوسيط ثم فصل - سبحانه - الحديث عن موسى - عليه السلام - فذكر
ما ألهمه لأمه عند ولادته . وما قالته امرأة فرعون له عند التقاط آل فرعون
لموسى ، وما كانت عليه أم موسى من حيرة وقلق ، وما قالته لأخته ، وكيف رد
، الله - تعالى - بفضله وكرمه موسى إلى أمه . .لنستمع إلى السورة الكريمة
وهى تفصل هذه الأحداث ، بأسلوبها البديع المؤثر فتقول : ( وَأَوْحَيْنَآ
- إلى أُمِّ موسى أَنْ أَرْضِعِيهِ . . . ) .قال الإمام الرازى : اعلم أنه
تعالى - لما قال : ( وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الذين استضعفوا ) ابتدأ
بذكر أوائل نعمه فى هذا الباب فقال : ( وَأَوْحَيْنَآ إلى أُمِّ موسى أَنْ
أَرْضِعِيهِ ) .والوحى إلى أم موسى ، يجوز أن يكون عن طريق الإلهام ، كما
، فى قوله - تعالى - : ( وأوحى رَبُّكَ إلى النحل . . ) أو عن طريق المنام
أو عن طريق إرسال ملك أخبرها بذلك .قال الآلوسى : والظاهر أن الإيحاء إليها
كان بإرسال ملك ، ولا ينافى ذلك الإجماع على عدم نبوتها ، لما أن
- الملائكة - عليهم السلام - قد ترسل إلى غير الأنبياء وتكلمهم .والظاهر
أيضا - أن هذا الإيحاء كان بعد الولادة . . وقيل : كان قبلها . . .و ( أَنْ
فى قوله ( أَنْ أَرْضِعِيهِ ) مفسرة ، لأن الوحى فيه معنى القول دون
حروفه .والخوف : حالة نفسية تعترى الإنسان ، فتجعله مضطرب المشاعر ، لتوقعه
، حصول أمر يكرهه .والحزن : اكتئاب نفسى يحدث للإنسان من أجل وقوع ما يكرهه
، كموت عزيز لديه . أو فقده لشىء يحبه .وفى الكلام حذف يعرف من السياق
، والتقدير : وحملت أم موسى به فى الوقت الذى كان فرعون يذبح الأبناء
ويستحيى النساء ، وأخفت حملها عن غيرها ، فلما وضعته اصابها ما أصابها من
خوف وفزع على مصير ابنها ، وهنا ألهمناها بقدرتنا وإرادتنا . وقذفنا فى
قلبها أن أرضعيه فى خفاء وكتمان ( فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ ) من فرعون
وحاشيته أن يقتلوه كما قتلوا غيره من أبناء بنى إسرائيل .( فَأَلْقِيهِ فِي
اليم ) أى : فى البحر والمراد به نهر النيل ، وسمى بحرا لاتساعه ، وإن كان
الغالب إطلاق البحر على المياه غير العذبة .( وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تحزني )
أى : ولا تخافى عليه من حصول مكروه له ، ولا تحزنى لمفارقته لك ، فهو فى
رعايتنا وحمايتنا ، ومن رعاه الله - تعالى - وحماه ، فلا خوف عليه ولا حزن
وجملة ( إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ المرسلين ) تعليل.

لنهى عن الخوف والحزن ، وتبشير لها بأن ابنها سيعود إليها ، وسيكون من رسل الله - عز وجل - .قال صاحب الكشاف : فإن قلت ما المراد بالخوفين - فى الآية - حتى أوجب أحدهما ونهى عن الآخر؟قلت : أما الأول ، فالخوف عليه من القتل ، لأنه كان إذا صاح خافت أن يسمع الجيران صوته ، فينموا عليه . وأما الثانى : فالخوف عليه من الغرق ومن الضياع ، ومن الوقوع فى يد بعض العيون المبثوثة من قبل فرعون لى تطلب الولدان .فإن قلت : ما الفرق بين الخوف والحزن؟ قلت : الخوف ، غم يلحق الإنسان لشىء متوقع .والحزن : غم يلحقه لشىء وقع ، فنهيت عنهما جميعا وأومنت بالوحى إليها ، ووعدت بما يلسيها ، ويمطئن قلبها ، ويملؤها غبطة وسرورا ، وهو رده إليها . وجعله من المرسلين .وهكذا نجد الآية الكريمة قد اشتملت على أبلغ الأساليب وأبدعها ، فى بيان قدرة الله - تعالى - ورعايته لمن يريد رعايته .قالوا : مدح الأصمعى امرأة لإنشادها شعرا حسنا ، فقرأت هذه الآية الكريمة قم قالت له : أبعد هذه الآية فصاحة ، لقد اشتملت على أمرين وهما ( أَرْضِعِيهِ ) ( فَأَلْقِيهِ ) ونهيين وهما ( لاَ تَخَافِي وَلاَ تحزني ) وخبرين ( إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ المرسلين ) وبشارتين فى ضمن الخبرين وهما : الرد والجعل المذكوران .

فالتقطه ال فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا ان فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين

كما فسرها الوسيط والفاء فى قوله : ( فالتقطه آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً . . . ) هى الفصيحة .والالتقاط : وجود الشىء والحصول عليه من غير طلب ولا قصد .والمراد بآل فرعون : جنوده وأتباعه الذين ، عثروا على التابوت الذى به موسى ، وحملوه إلى فرعون . والحزن - بالتحريك : وبضم فسكون - نقيض السرور ، وفعله كفرح .يقال : حزنه الأمر وأحزنه : أى جعله حزينا .واللام فى قوله : ( لِيَكُونَ . . ) هى لام العاقبة والصيرورة قال القرطبى : قوله - تعالى - : ( فالتقطه آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً ) لما كان التقاطهم إياه يؤدى إلى كونه عدوا لهم وحزنا ، فاللام فى ( لِيَكُونَ ) لام العاقبة والصيرورة ، لأنهم إنما أخذوه ليكون لهم قرة عين ، فكان عاقبة ذلك أن كان لهم عدوا وحزنا ، فذكر الحال بالمآل كما فى قول الشاعر :وللمنايا تربى كل مرضعة ... ودورنا لخراب الدهر نبنيهاأى : فعاقبة البناء : الخراب ، وإن كان فى الحال مفروحا به .ويرى بعضهم أن اللام هنا يصح أن تكون للتعليل ، بمعنى ، أن الله - تعالى - سخر ، بمشيئته وإرادته فرعون وآله . لالتقاط موسى ، ليجعله لهم عدوا وحزنا فكأنه - سبحانه - يقول : قدرنا عليهم التقاطه بحكمتنا وإرادتنا ، ليكون لهم عدوا وحزنا .إلى هذا المعنى أشار الإمام ابن كثير بقوله : قال محمد بن إسحاق وغيره اللام هنا لام العاقبة لا لام التعليل ، لأنهم لم يريدوا بالتقاطه ذلك - أى : لم يريدوا بالتقاطه العداوة والحزن - ، ولا شك أن ظاهر اللفظ يقتضى ما قالوا . ولكن إذا نظرنا إلى معنى السياق ، فأنه نبقى اللام للتعليل ، لأن معناه : أن الله - تعالى - قيضهم لالتقاطه ليجعله لهم عدوا وحزنا ، فيكون أبلغ فى إبطال حذرهم منه .ومع وجاهة الرأيين ، إلا أننا نميل إلى الرأى الثانى ، لأنه - كما قال الإمام ابن كثير - أبلغ فى إبطال حذرهم منه ، ولأن قوله - تعالى - : ( إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَاطِئِينَ ) يشير إلى أن اللام للتعليل . . .والمعنى : ونفذت أم موسى ما أوحيناه إليها ، فأرضعت ابنها موسى وألقته فى اليم حين خافت عليه القتل ، فالتقطه آل فرعون من اليم ، ليكون لهم عدوا وحزنا ، وليعلموا أن ما أردناه لا بد أن يتم مهما احترسوا واحتاطوا وحذروا ، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .وقوله - تعالى - : ( إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَاطِئِينَ ) تعليل لما قبله ، و ( خَاطِئِينَ ) - أى : مرتكبين للخطيئة التى هى الذنب العظيم ، كقوله - تعالى - فى قوم نوح عليه السلام - :( مِّمَّا خطيائاتهم أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَاراً ) . . وكقوله - سبحانه - فى شأن الكافرين ( بلى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً ( . . ) وَأَحَاطَتْ بِهِ خطيائته فأولئك أَصْحَابُ النار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ) أى : فعلنا ما فعلنا من جعل موسى عدوا وحزنا لفرعون وآله ، لأن فرعون ووزيره هامان ، وجنودهما الذين يناصرونهما ، كانوا مرتكبين للذنوب العظيمة فى كل ما يأتون ويذرون ، ومن مظاهر ذلك قتلهم لذكور بنى إسرائيل ، وإبقاؤهم لإناثهم .

وقالت امرات فرعون قرت عين لي ولك لا تقتلوه عسى ان ينفعنا او نتخذه ولدا وهم لا يشعرون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَقَالَتِ امرأة فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لاَ تَقْتُلُوهُ عسى أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً . . ) بيان لما أنطق الله به امرأة فرعون للدفاع عن موسى - عليه

السلام - .قال الجمل : وامرأة فرعون هى : آسيا بنت مزاحم ، وكانت من خيار النساء ، ومن بنات الأنبياء ، وكانت أما للمساكين ترحمهم وتتصدق عليهم ويكفى فى مدحها قوله - تعالى - : ( وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ امرأت فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابن لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الجنة وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ القوم الظالمين ) أى : وقالت امرأة فرعون بعد أن أخرج موسى من التابوت ، ورأته بين أيدى فرعون وآله : ( قُرَّةُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ) أى : هذا الطفل هو قرة عين لى ولك ، أى : هو محل السرور والفرح لعينى ولعينك يا فرعون فالجملة الكريمة كناية عن السرور به ، إذ لفظ ( قُرَّةُ ) مأخوذ من القرار. ، بمعنى الاستقرار ، وذلك لأن العين إذا رأت ما تحبه ، استقر نظرها عليه وانشغلت به عن غيره .ثم أضافت إلى ذلك قولها ( لاَ تَقْتُلُوهُ ) والخطاب لفرعون وجنده .ثم عللت النهى عن قتله بقولها : ( عسى أَن يَنْفَعَنَا ) فى ، مستقبل حياتنا ، فنجنى من ورائه خيرا .( أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً ) لنا - فإن هيئته وصورته تدل على النجابة والجمال واليمن وهكذا شاءت إرادة الله تعالى - ، أن تجعل امرأة فرعون ، سببا فى إنقاذ موسى من القتل ، وفى أن يعيش فى بيت فرعون ، ليكون له فى المستقبل عدوا وحزنا .وقوله - تعالى - : ( وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ) جملة حالية ، أى : فعلوا ما فعلوا والحال أنهم لا يشعرون أن هلاكهم سيكون على يديه .والظاهر أن هذه الجملة من كلام الله - تعالى - ، وليست حكاية لما قالته امرأة فرعون .

واصبح فؤاد ام موسى فارغا ان كادت لتبدي به لولا ان ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين

كما فسرها الوسيط ثم صورت السورة الكريمة تصويرا بديعا مؤثرا ، ما كانت عليه أم موسى من لهفة وقلق ، بعد أن فارقها ابنها ، فقال - تعالى - : ( وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ موسى فَارِغاً ) أى : وبعد أن ألقت أم موسى به فى اليم ، والتقطه آل فرعون ، وعلمت بذلك أصبح قلبها وفؤادها خاليا من التفكير فى أى شىء فى هذه الحياة ، إلا فى شىء واحد وهو مصير ابنها موسى - عليه السلام - .وفى هذا التعبير ما فيه من الدقة فى تصوير حالتها النفسية ، حتى لكأنها صارت فاقدة لكل شىء فى قلبها سوى أمر ابنها وفلذة كبدها .قال ابن كثير : قوله - تعالى - : ( وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ موسى فَارِغاً ) من كل شىء من أمور الدنيا إلا من موسى . قال ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وسعيد - بن جبير ، والحسن البصرى ، وقتادة . . . وغيرهم .و ( إِن ) فى قوله تعالى - ( إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ ) هى المخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن ، وتبدى بمعنى تظهر ، من بدا الشىء يبدو بدوا إذا ظهر ظهورا واضحا والضمير فى ( بِهِ ) يعود إلى موسى - عليه السلام - .أى : وصار فؤاد أم موسى فارغا من كل شىء سوى التكفير فى مصيره ، وإنها كادت لتصرح للناس بأن الذى التقطه آل فرعون ، هو ابنها ، وذلك لشدة دهشتها وخوفها عليه من فرعون وجنده .وجواب الشرط فى قوله - تعالى - ( لولا أَن رَّبَطْنَا على قَلْبِهَا محذوف دل عليه ما قبله .وأصل الربط : الشد والتقوية للشىء . ومنه قولهم ( فلان رابط الجأش ، أى : قوى القلب .وقوله - تعالى - : ( لِتَكُونَ مِنَ المؤمنين ) علة لتثبيت قلبها وتقويته ، فهو متعلق بقوله ( رَّبَطْنَا ) .أى ربطنا على قلبها لتكون من المصدقين بوعد الله - تعالى - ، وأنه سيرد : إليها ابنها ، كى تقر عينها ولا تحزن .

وقالت لاخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما فعلته أم موسى بعد ذلك فقال : ( وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ . . . ) أى لم تسكت أم موسى بعد أن علمت بالتقاط آل فرعون له ، بل قالت لأخت موسى ( قُصِّيهِ ) أى تتبعى أثره وخبره وما آل إليه أمره . يقال : قص فلان أثر فلان فهو يقصه ، إذا تتبعه ، ومنه القصص للأخبار المتتبعة .والفاء فى قوله - سبحانه - : ( فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ ) هى الفصيحة . والجنب : الجانب .أى : فقصت أخت موسى أثره ، فأبصرته عن جانب منها ، وكأنها لا تريد أن تطلع أحدا على أنها تبحث عن أخيها . وتتبع أثره والجار والمجرور حال من الفاعل ، أى : بصرت به مستخفية كائنة عن جنب .قال الآلوسى : ( عَن جُنُبٍ ) أى عن بعد ، وقيل عن شوق إليه وقال الكرمانى ( جُنُبٍ ) صفة لموصوف محذوف ، أى عن مكان جنب بعيد . . . وكأنه من الأضداد ، فإنه يكون بمعنى القريب - أيضا - كالجار الجنب . وقيل على جانب . . . وقيل : النظر عن جنب ، أن تنظر الشىء كأنك لا تريده والتعبير بقوله - تعالى - : ( فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ ) يشعر بأن أخت موسى أبصرت أخاها إبصارا فيه مخادعة لآل فرعون ، حتى لا تجعلهم يشعرون بأنها تبحث عنه .ويشهد لذلك قوله - تعالى - : ( وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ) .أى : وهم - أى آل فرعون -لا يشعرون أنها أخته تبحث عنه وتتبع أخباره

وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل ادلكم على اهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - مظهرا من مظاهر حكمته وقدرته وتدبيره لأمر موسى كى يعود إلى أمه ، فقال - تعالى - .( وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ المراضع مِن قَبْلُ . . . ) .والمراد بالتحريم هنا : المنع ، والمراضع : جمع مرضع - بضم الميم وكسر الضاد - وهى المرأة التى ترضع .أى : ومنعنا موسى بقدرتنا وحكمتنا من أن يرضع من المرضعات وكان ذلك من قبل أن تعلم بخبره أمه وأخته .قال ابن كثير : قوله - تعالى - : ( وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ المراضع مِن قَبْلُ ) أى : تحريما قدريا ، وذلك لكرامة الله له ، صانه عن أن يرتضع غير ثدى أمه ، لأنه - سبحانه - جعل ذلك سببا إلى رجوعه إلى أمه ، لترضعه وهى آمنة بعد أن كانت خائفة . .وقوله - سبحانه - : ( فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ على أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ) حكاية لما قالته أخت موسى لفرعون وحاشيته ، والاستفهام ، للتحضيض .أى : وبعد أن بصرت أخت موسى به عن جنب ، ورأت رفضه للمراضع وبحثهم عمن يرضعه ، قالت : ( هَلْ أَدُلُّكُمْ على أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ ) أى : يقومون بتربيته وإرضاعه من أجل راحتكم وراحته أى : وهم لا يمنعونه ما ينفعه فى تربيته ( وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ) ، وغذائه ، ولا يقصرون فيما يعود عليه بالخير والعافية .

فرددناه الى امه كي تقر عينها ولا تحزن ولتعلم ان وعد الله حق ولكن اكثرهم لا يعلمون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( فَرَدَدْنَاهُ إلى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلاَ تَحْزَنَ ) معطوف على كلام محذوف ، والتقدير : فسمعوا منها ما قالت ، ودلتهم على أمه ، فرددناه إليها ، كى يطمئن قلبها وتقر عينها برجوع ولدها إليها ، ولا تحزن لفراقه .ولتعلم أن وعد الله - تعالى - حق ، أى : أن وعده - سبحانه -لا خلف فيه ، بل هو كائن لا محالة ). ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ) أى : ولكن أكثر الناس لا يعلمون هذه الحقيقة حق العلم ، ولذا يستعجلون الأمور ، دون أن يفطنوا إلى حكمته - سبحانه - فى تدبير أمر خلقه .وبذلك نرى هذه الآيات قد صاغت لنا بأبلغ أسلوب جانبا من حياة موسى - عليه السلام - ، ومن رعاية الله - تعالى - له ، وهو ، ما زال فى سن الرضاعة .

ولما بلغ اشده واستوى اتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين

كما فسرها الوسيط ثم قص علينا - سبحانه - جانبا من حياة موسى - عليه السلام - بعد أن بلغ أشده واستوى ، فقال - تعالى - : ( وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ . . . ) .قوله - سبحانه - ( وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ واستوى ) بيان لجانب من النعم التى أنعم الله - تعالى - بها على موسى فى تلك المرحلة من حياته .و ( لَمَّا ) ظرف بمعنى حين . والأشد : قوة الإنسان ، واشتعال حرارته من الشدة بمعنى القوة والارتفاع يقال : شد النهار إذا ارتفع . وهو مفرد جاء بصيغة الجمع ولا واحد له من لفظه .وقوله : ( واستوى ) من الاستواء بمعنى الاكتمال وبلوغ الغاية والنهاية .أى - وحين بلغ موسى - عليه السلام - منتهى شدته وقوته ، واكتمال عقله ، قالوا : وهى السن التى كان فيها بين الثلاثين والأربعين .( آتَيْنَاهُ ) بفضلنا وقدرتنا ( حُكْماً ) أى : حكمة وهى الإصابة فى القول والفعل ، وقيل : النبوة .( وَعِلْماً ) أى : فقها فى الدين ، وفهما سليما للأمور ، وإدراكا قويما لشئون الحياة .وقوله - سبحانه - (وَكَذَلِكَ نَجْزِي المحسنين ) بيان لسنة من سننه - تعالى التى لا تتخلف .أى : ومثل هذا الجزاء الحسن ، والعطاء الكريم ، الذى أكرمنا به موسى وأمه نعطى ونجازى المحسنين ، الذين يحسنون أداء ما كلفهم الله - تعالى - به . فكل من أحسن فى أقواله وأعماله ، أحسن الله - تعالى - جزاءه ، وأعطاه الكثير من آلائه .

ودخل المدينة على حين غفلة من اهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان انه عدو مضل مبين

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - بعض الأحداث التى تعرض لها موسى - عليه السلام - فى تلك الحقبة من عمره فقال : ( وَدَخَلَ المدينة على حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ) .والمراد بالمدينة : مصر ، وقيل : ضاحية من ضواحيها ، كعين شمس ، أو منف .وجملة ( على حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ) حال من الفاعل . أى : دخلها مستخفيا .قيل : والسبب في دخوله على هذه الحالة ، أنه بدت منه مجاهرة لفرعون وقومه بما يكرهون ، فخافهم وخافوه .

فاختفى وغاب ، فدخلها متنكرا .أى : وفى يوم من الأيام ، وبعد أن بلغ موسى سن القوة والرشد ، دخل المدينة التى يسكنها فرعون وقومه : ( على حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ) أى : دخلها مستخفيا فى وقت كان أهلها غافلين ، عما يجرى فى مدينتهم من أحداث ، بسبب راحتهم فى بيوتهم فى وقت القيلولة أو ما يشبه ذلك .( فَوَجَدَ ) موسى ( فِيهَا ) أى فى المدينة ( رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلاَنِ ) أى : يتخاصمان ويتنازعان فى أمر من الأمور .( هذا مِن شِيعَتِهِ ) أى : أحد الرجلين كان من طائفته وقبيلته . أى : من بنى إسرائيل أى : والرجل الثانى كان من أعدائه وهم القبط ( وهذا مِنْ عَدُوِّهِ ) : الذين كانوا يسيمون بنى إسرائيل سوء العذاب .( فاستغاثه الذي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الذي مِنْ عَدُوِّهِ ) أى : فطلب الرجل الإسرائيلى من موسى ، أن ينصره على الرجل القبطى .والاستغاثة : طلب الغوث والنصرة ، ولتضمنه معنى النصرة عدى بعلى .( فَوَكَزَهُ موسى فقضى عَلَيْهِ ) والفاء هنا فصيحة . والوكز : الضرب بجميع الكف .قال القرطبى : والوكز واللكز واللهز بمعنى واحد ، وهو الضرب بجميع الكف .أى : فاستجاب موسى لمن استنصره به ، فوكز القبطى ، . أى : فضربه بيده مضمومة أصابعها فى صدره ، ( فقضى عَلَيْهِ ) أى : فقتله وهو لا يريد قتله ، وإنما كان يريد دفعه ومنعه من ظلم الرجل الإسرائيلي والتعبير بقوله - تعالى - : ( فَوَكَزَهُ موسى فقضى عَلَيْهِ ) يشير إلى. - أن موسى - عليه السلام - كان على جانب عظيم من قوة البدن ، كما يشير أيضا - إلى ما كان عليه من مروءة عالية . حملته على الانتصار للمظلوم بدون ، تقاعس أو تردد .ولكن موسى - عليه السلام - بعد أن رأى القبطى جثة هامدة استرجع وندم ، وقال : ( هذا مِنْ عَمَلِ الشيطان ) أى : قال موسى : هذا ). الذى فعلته وهو قتل القبطى ، من علم الشيطان ومن وسوسته ، ومن تزيينه إِنَّهُ ) أى : الشيطان ( عَدُوٌّ ) للإنسان ( مُّضِلٌّ ) له عن طريق الحق . أى : ظاهر العداوة والإضلال ( مُّبِينٌ )

قال رب اني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له انه هو الغفور الرحيم

كما فسرها الوسيط ثم أضاف إلى هذا الندم والاسترجاع ، ندما واستغفارا آخر : فقال : ( رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فاغفر لِي فَغَفَرَ لَهُ ) .أى قال موسى - عليه السلام - بعد قتله القبطى بدون قصد - مكررا الندم ، والاستغفار : يا رب إنى ظلمت نفسى ، بتلك الضربة التى ترتب عليها الموت - فاغفر لى ذنبى ، ( فَغَفَرَ ) الله - تعالى ( لَهُ ) ذنبه ، ( إِنَّهُ ) سبحانه - ( هُوَ الغفور الرحيم ).

قال رب بما انعمت علي فلن اكون ظهيرا للمجرمين

كما فسرها الوسيط ثم أكد موسى عليه السلام - للمرة الثالثة ، توبته إلى ربه وشكره إياه على نعمه ، فقال : ( رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ ، أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ ) .والظهير : المعين لغيره والناصر له . يقال : ظاهر فلان فلانا إذا أعانه ، ويطلق على الواحد والجمع . ومنه قوله - تعالى - : ( وَالْمَلاَئِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ) .قال صاحب الكشاف : قوله ( بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ) يجوز أن يكون قسماً جوابه محذوف ، تقديره أقسم بإنعامك على بالمغفرة لأتوبن ( فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً : لِّلْمُجْرِمِينَ ) . وأن يكون استعطافا ، كأنه قال : رب اعصمنى بحق ما أنعمت على من المغفرة فلن أكون - إن عصمتنى - ظهيرا للمجرمين .وأراد بمظاهرة المجرمين إما صحبة فرعون وانتظامه فى جملته ، وتكثيره سواده ، حيث كان يركب بركوبه ، كالولد مع الوالد . وكان يسمى ابن فرعون . وإما مظاهرة من أدت مظاهرته إلى الجرم والإثم ، كمظاهرة الإسرائيلى المؤدية إلى القتل الذى لم يحل له .وهذه الضراعة المتكررة إلى الله - تعالى - من موسى - عليه السلام - ، تدل على نقاء روحه ، وشدة صلته بربه ، وخوفه منه ، ومراقبته له - سبحانه - ، فإن من شأن الأخيار فى كل زمان ومكان ، أنهم لا يعينون الظالمين ، ولا يقفون إلى جانبهم .قال القرطبى : ويروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من مشى مع مظلوم ليعينه على مظلمته ، ثبت الله قدميه على الصراط يوم القيامة ، يوم تزل الأقدام ، ومن مشى مع ظالم ليعينه على ظلمه ، أزل الله قدميه على الصراط يوم تدحض فيه الأقدام " .

فاصبح في المدينة خائفا يترقب فاذا الذي استنصره بالامس يستصرخه قال له موسى انك لغوي مبين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما كان من أمر موسى بعد هذه الحادثة - فقال : فَأَصْبَحَ فِي المدينة خَآئِفاً يَتَرَقَّبُ ) .أى : واستمر موسى عليه السلام - بعد قتله للقبطى ، يساوره القلق ، فأصبح يسير فى طرقات المدينة التى حدث فيها القتل ، ( خَآئِفاً ) من وقوع مكروه به ) يَتَرَقَّبُ ) ما سيسفر عنه هذا القتل من اتهامات وعقوبات ومساءلات

والتعبير بقوله ( خَآئِفاً يَتَرَقَّبُ ) يشعر بشدة القلق النفسى الذى.
- أصاب موسى - عليه السلام - فى أعقاب هذا الحادث ، كما يشعر - أيضا - بأنه
عليه السلام - لم يكن فى هذا الوقت على صلة بفرعون وحاشيته ، لأنه لو كان
على صلة بهم ، ربما دافعوا عنه ، أو خففوا المسألة عليه .و ( إِذَا ) فى
قوله - تعالى - ( فَإِذَا الذي استنصره بالأمس يَسْتَصْرِخُهُ ) فجائية
ويستصرخه : أى : يستغيث به ، مأخوذ من الصراخ وهو رفع الصوت ، لأن من عادة.
المستغثيث بغيره أن يرفع صوته طالبا النجدو والعون .أى : وبينما موسى على
هذه الحالة من الخوف والترقب ، فإذا بالشخص الإسرائيلى الذى نصره موسى
بالأمس ، يستغيث به مرة أخرى من قبطى آخر ويطلب منه أن يعينه عليه .وهنا
قال موسى - عليه السلام - لذلك الإسرائيلى المشاكس : ( إِنَّكَ لَغَوِيٌّ
مُّبِينٌ ) .والغوى : فعيل من أغوى يغوى ، وهو بمعنى مغو ، كالوجيع والأليم
بمعنى : الموجع والمؤلم . والمراد به هنا : الجاهل أو الخائب أو الضال عن
الصواب .أى : قال له موسى بحدة وغضب : إنك لضال بين الضلال ولجاهل واضح
الجهالة ، لأنك تسببت فى قتلى لرجل بالأمس ، وتريد أن تحملنى اليوم على أن
أفعل ما فعلته بالأمس ، ولأنك لجهلك تنازع من لا قدرة لك على منازعته أو
مخاصمته .

فلما ان اراد ان يبطش بالذي هو عدو لهما قال يا موسى اتريد ان تقتلني كما
قتلت نفسا بالامس ان تريد الا ان تكون جبارا في الارض وما تريد ان تكون من
المصلحين

كما فسرها الوسيط ومع أن موسى - عليه السلام - قد قال للإسرائيلى ( إِنَّكَ
لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ) إلا أن همته العالية ، وكراهيته للظلم ، وطبيعته التى
، تأبى التخلى عن المظلومين كل ذلك دفعه إلى إعداد نفسه لتأديب القبطى
ويحكى القرآن ذلك فيقول : ( فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بالذي هُوَ
عَدُوٌّ لَّهُمَا . . ) .والبطش : هو الأخذ بقوة وسطوة . يقال : بطش فلان
بفلان إذا ضربه بعنف وقسوة .أى : فحين هيأ موسى - عليه السلام - نفسه للبطش
بالقبطى الذى هو عدو لموسى وللإسرائيلى ، حيث لم يكن على دينهما .( قَالَ
ياموسى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بالأمس إِن
تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِي الأرض وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ
مِنَ المصلحين ) .ويرى بعض المفسرين ، أن القائل لموسى هذا القول ، هو
الإسرائيلى ، الذى طلب من موسى النصرة والعون ، وسبب قوله ذها : أنه توهم
أن موسى يريد أن يبطش به دون القبطى ، عندما قال له : ( إِنَّكَ لَغَوِيٌّ
مُّبِينٌ ) .فيكون المعنى : قال الإسرائيلى لموسى بخوف وفزع : يا موسى
أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا - هى نفس القبطى - بالأمس ، وما تريد بفعلك
هذا إلا أن تكوه ( جَبَّاراً فِي الأرض ) أى : ظالما قتالا للناس فى الأرض
، الذين يصلحون ، بين الناس ( وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ المصلحين ) ،
فتدفع التخاصم بالتى هى أحسن .ويرى بعضهم أن القائل لموسى هذا القول هو
القبطى ، لأنه فهم من قول موسى للإسرائيلى ( إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ )
أنه - أى : موسى - هو الذى قتل القبطى بالأمس.وقد رجح الإمام الرازى هذا
الوجه الثانى فقال : والظاهر هذا الوجه ، لأنه - تعالى - قال : ( فَلَمَّآ
( أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بالذي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ ياموسى
فهذا القول إذن منه - أى من القبطى - لا من غيره - وأيضا قوله : ( إِن
تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِي الأرض )لا يليق إلا بأن يكون
، قولا من كافر - وهو القبطى - .وما رجحه الإمام الرازى هو الذى نميل إليه
وإن كان أكثر المفسرين قد رجحوا الرأى الأول ، وسبب ميلنا إلى الرأى الثانى
أن السورة الكريمة قد حكت ما كان عليه فرعون وملؤه من علو وظلم واضطهاد ،
لبنى إسرائيل ، ومن شأن الظالمين أنهم يستكثرون الدفاع عن المظلومين ، بل
ويتهمون من يدافع عنهم بأنه جبار فى الأرض ، لذا نرى أن القائل هذا القول
لموسى ، هو القبطى ، وليس الإسرائيلى - والله أعلم بمراده - .

وجاء رجل من اقصى المدينة يسعى قال يا موسى ان الملا ياتمرون بك ليقتلوك
فاخرج اني لك من الناصحين

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى
المدينة يسعى . . ) معطوف على كلام محذوف يرشد إليه السياق .والتقدير :
وانتشر خبر قتل موسى للقبطى بالمدينة ، فأخذ فرعون وقومه فى البحث عنه
لينتقموا منه . . . وجاء رجل - قيل هو مؤمن من آل فرعون - من أقصى المدينة
أى : من أطرافها وأبعد مكان فيها ( يسعى . . ) أى : يسير سيرا سريعا نحو ،
موسى ، فلما وصل إليه قال له : ( ياموسى إِنَّ الملأ )وهم زعماء قوم فرعون
أى : يتشاورون فى أمرك ليقتلوك ، أو ( يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ).
يأمر بعضهم بعضا بقتلك ، وسمى التشاور بين الناس ائتمارا ، لأن كلا من
المتشاورين يأمر الآخر ، ويأتمر بأمره . ومنه قوله - تعالى - ):
وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ ) أى : وتشاوروا بينكم بمعروف .وقوله

أى : قال الرجل لموسى : مادام الأمر ( فاخرج إِنِّي لَكَ مِنَ الناصحين ) : كذلك يا موسى فاخرج من هذه المدينة ، ولا تعرض نفسك للخطر ، إنى لك من الناصحين بذلك ، قبل أن يظفروا بك ليقتلوك .

فخرج منها خائفا يترقب قال رب نجني من القوم الظالمين

: كما فسرها الوسيط واستجاب موسى لنصح هذا الرجل ( فَخَرَجَ مِنْهَا ) أى من المدينة ، حالة كونه ( خَآئِفاً ) من الظالمين ( يَتَرَقَّبُ ) التعرض ) : له منهم ، ويعد نفسه للتخفى عن أنظارهم .وجعل يتضرع إلى ربه قائلا رَبِّ نَجِّنِي ) بقدرتك وفضلك ( مِنَ القوم الظالمين ) بأن تخلصنى من كيدهم ، وتحول بينهم وبينى ، فأنا ما قصدت بما فعلت ، إلا دفع ظلمهم وبغيهم ، وإلى هنا تكون السورة الكريمة ، قد قصت علينا هذا الجانب من حياة موسى. بعد أن بلغ أشده واستوى ، وبعد أن دفع بهمته الوثابة ظلم الظالمين ، وخرج من مدينتهم خائفا يترقب ، ملتمسا من خالقه - عز وجل - النجاة من مكرهم .

ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي ان يهديني سواء السبيل

كما فسرها الوسيط ثم حكت لنا السورة الكريمة بعد ذلك ، ما كان منه عندما : - توجه إلى جهة مدين ، وما حصل له فى تلك الجهة من أحداث ، فقال - تعالى - لفظ ( تِلْقَآءَ ) فى قوله. ( . . . وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ ) تعالى - : ( وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ ) منصوب على الظرفية المكانية ، وهو فى الأصل اسم مصدر . يقال دارى تلقاء دار فلان ، إذا كانت محاذية لها .و ( مَدْيَنَ ) اسم لقبيلة شعيب - عليه السلام - أو لقريته - التى كان يسكن فيها ، سميت بذلك نسبه إلى مدين بن إبراهيم - عليه السلام وإنما توجه إليها موسى - عليه السلام - ، لأنها لم تكن داخلة تحت سلطان. فرعون وملئه .أى : وبعد أن خرج موسى من مصر خائفا يترقب ، صرف وجهه إلى جهة قرية مدين التى على أطراف الشام جنوبا ، والحجاز شمالا .صرف وجهه إليها مستسلما لأمر ربه ، متوسلا إليه بقوله : ( عسى ربي أن يَهْدِيَنِي : سَوَآءَ السبيل ) .أى : قال على سبيل الرجاء فى فضل الله - تعالى - وكرمه عسى ربى الذى خلقنى بقدرته ، وتولانى برعايته وتربيته ، أن يهدينى ويرشدنى إلى أحسن الطرق التى تؤدى بى إلى النجاة من القوم الظالمين .فالمراد بسواء السبيل : الطريق المستقيم السهل المؤدى . إلى النجاة ، من إضافة الصفة إلى الموصوف أى : عسى أن يهدينى ربى إلى الطريق الوسط الواضح .

ولما ورد ماء مدين وجد عليه امة من الناس يسقون ووجد من دونهم امراتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وابونا شيخ كبير

كما فسرها الوسيط وأجاب الله - تعالى - دعاءه ، ووصل موسى بعد رحلة شاقة مضنية إلى أرض مدين ، ويقص علينا القرآن ما حدث له بعد وصوله إليها فيقول : وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ الناس ) يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امرأتين تَذُودَانِ ) .قال القرطبى : وورده الماء : معناه بلغه ، لا أنه دخل فيه . ولفظه الورود قد تكون بمعنى الدخول فى المورود ، وقد تكون بمعنى الاطلاع عليه والبلوغ إليه وإن لم يدخل ) : - فورود موسى هذا الماء كان بالوصول إليه . .وقوله - تعالى ، تَذُودَانِ ) من الذود بمعنى الطرد والدفع والحبس . يقال : ذاد فلان إبله عن الحوض ، ذودا وذيادا إذا حبسها ومنعها من الوصول إليه .والمعنى وحين وصل موسى - عليه السلام - إلى الماء الذى تستقى منه قبيلة مدين ( وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً ) أى جماعة كثيرة ( مِّنَ الناس يَسْقُونَ ) أى : يسقون إبلهم وغنمهم ، ودوابهم المختلفة .( وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ) أى : ووجد بالقرب منهم . أو فى جهة غير جهتهم .( امرأتين تَذُودَانِ ) أى : امرأتين تطردان وتمنعان أغنامهما أو مواشيهما عن الماء ، حتى ينتهى الناس من السقى ثم بعد ذلك هما تسقيان دوابهما ، لأنهما لا قدوة لهما على مزاحمة الرجال ، وهنا قال لهما موسى - صاحب الهمة العالية ، والمروءة السامية ، والنفس. الوثابة نحو نصرة المحتاج - قال لهما بما يشبه التعجب : ( مَا خَطْبُكُمَا ؟ أى : ما شأنكما؟ وما الدافع لكما إلى منع غنمكما من الشرب من هذا الماء ( مع أن الناس يسقون منه؟وهنا قالتا له على سبيل الاعتذار وبيان سبب منعهما ، لمواشيهما عن الشرب : ( لاَ نَسْقِي حتى يُصْدِرَ الرعآء وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ) .ويصدر : من أصدر - والصدر عن الشىء : الرجوع عنه ، وهو ضد الورود . يقال : صدر فلان عن الشىء . إذا رجع عنه .قال الشوكانى : قرأ الجمهور " يصدر " بضم الياء وكسر الدال - مضارع أصدر المتعدى بالهمزة ، وقرأ ابن عامر وأبو عمرو " يصدر " بفتح الياء وضم الدال - من صدر يصدر اللازم ، فالمفعول على القراءة الأولى محذوف . أى : يرجعون مواشيهم . . . و - جمع الراعى ، مأخوذ من الرعى بمعنى الحفظ .أى : قالتا لموسى ( الرعآء ) عليه السلام - : إن من عادتنا أن لا نسقى . مواشينا حتى يصرف الرعاء دوابهم

عن الماء ، ويصبح الماء خاليا لنا ، لأننا لا قدرة لنا على المزاحمة ، وليس
- عندنا رجل يقوم بهذه المهمة ، وأبونا شيخ كبير فى السن لا يقدر - أيضا
. على القيام بمهمة الرعى والمزاحمة على السقى

فسقى لهما ثم تولى الى الظل فقال رب اني لما انزلت الي من خير فقير

كما فسرها الوسيط وبعد أن سمع موسى منهما هذه الإجابة ، سارع إلى
معاونتهما - شأن أصحاب النفوس الكبيرة ، والفطرة السليمة ، وقد عبر القرآن
عن هذه المسارعة بقوله : ( فسقى لَهُمَا ) .أى : فسقى لهما مواشيهما سريعا
من أجل أن يريحهما ويكفيهما عناء الانتظار وفى هذا التعبير إشارة إلى .
قوته ، حيث إنه استطاع وهو فرد غريب بين أمة من الناس يسقون - أن يزاحم تلك
الكثرة من الناس ، وأن يسقى للمرأتين الضعيفتين غنمهما . دون أن يصرفه شىء
عن ذلك .رحم الله صاحب الكشاف . فقد أجاد عند عرضه لهذه المعانى . فقال ما
ملخصه : " قوله : ( فسقى لَهُمَا ) أى : فسقى غنمهما لأجلهما . وروى أن
الرعاة كانوا يضعون على رأس البئر حجرا لا يقله إلا سبعة رجال . . فأقله
وحده .وإنما فعل ذلك رغبة فى المعروف وإغاثة للملهوف والمعنى : أنه وصل إلى
ذلك الماء ، وقد ازدحمت عليه أمة من الناس ، متكافئة العدد ، ورأى
الضعيفتين من ورائهم ، مع غنمهما مترقبتين لفراغهم . فما أخطأت همته فى دين
، الله تلك الفرصة ، مع ما كان به من النصب والجوع ، ولكنه رحمهما فأغاثهما
) بقوة قلبه ، وبقوة ساعده .فإن قلت : لم ترك المفعول غير مذكور فى قوله
يَسْقُونَ ) و ( تَذُودَانِ ) قلت : لأن الغرض هو الفعل لا المفعول . ألا
ترى أنه إنما رحمهما لأنهما كانتا على الذياد وهم على السقى ، ولم يرحمهما
لأن مذودهما غنم ومسقيهم إبل مثلا .فإن قلت : كيف طابق جوابهما سؤاله؟ قلت
سألهما عن سبب الذود فقالتا : السبب فى ذلك أننا امرأتان ضعيفتان :
مستورتان لا نقدر على مزاحمة الرجال ، فلا بد لنا من تأخير السقى إلى أن
يفرغوا ، ومالنا رجل يقوم بذلك ، وأبونا شيخ كبير ، فقد أضعفه الكبر ، فلا
يصلح للقيام به ، فهما قد أبدتا إليه عذرهما فى توليهما السقى بأنفسهما
فإن قلت : كيف ساغ لنبى الله الذى هو شعيب - عليه السلام - أن يرضى.
، لابنتيه بسقى الماشية؟ قلت ، الأمر فى نفسه ليس بمحظور ، فالدين لا يأباه
وأما المروءة فالناس مختلفون فى ذلك .والعادات متباينة فيه . . وأحوال
العرب فيه خلاف أحوال العجم . ومذهب أهل البدو غير مذهب أهل الحضر ، خصوصا
إذا كانت الحالة حالة ضرورة . . .وقوله - تعالى - : ( ثُمَّ تولى إِلَى
الظل ) فقال : ( رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ
بيان لما فعله موسى وقاله بعد أن سقى للمرأتين غنمهما .أى : فسقى موسى (
للمرأتين غنمهما ، ثم أعرض عنهما متجها إلى الظل الذى كان قريبا منه فى ذلك
: المكان ، قيل كان ظل شجرة وقيل ظل جدار .فقال : على سبيل التضرع إلى ربه
ياربى : إنى فقير ومحتاج إلى أى خير ينزل منك على سواء أكان هذا الخير
طعاما أم غيره .قال الآلوسى ما ملخصه : وقوله : ( فَقَالَ رَبِّ إِنِّي
لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ ) أى : لأي شىء تنزله من خزائن كرمك إلى ( مِنْ
خَيْرٍ ) جل أو قل ، ( فَقِيرٌ ) أى : محتاج ، وهو خبر إن . وعدى باللام
. لتضمنه معنى الاحتياج . و ( ما ) نكرة موصوفة ، والجملة بعدها صفتها
والرابط محذوف ، و ( مِنْ خَيْرٍ ) بيان لها والتنوين فيه للشيوع ، والكلام
تعريض لما يطعمه ، بسبب ما ناله من شدة الجوع .يدل لذلك ما أخرجه ابن
مردويه عن أنس بن مالك : قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لما سقى
موسى للجاريتين ، ثم تولى إلى الظل . فقال : رب إنى لما أنزلت إلى من خير
. " فقير ، وإنه يومئذ فقير إلى كف من تمر

فجاءته احداهما تمشي على استحياء قالت ان ابي يدعوك ليجزيك اجر ما سقيت لنا
فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين

كما فسرها الوسيط واستجاب الله - تعالى - لموسى دعاءه . وأرسل إليه الفرج
سريعا ، يدل لذلك قوله - تعالى - بعد هذا الدعاء من موسى : ( فَجَآءَتْهُ
إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى استحيآء قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ
لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا . . ) .وفى الكلام حذف يفهم من
السياق وقد أشار إليه ابن كثير بقوله : لما رجعت المرأتان سراعا بالغنم إلى
أبيهما ، أنكر حالهما ومجيئهما سريعا ، فسألهما عن خبرهما فقصتا عليه ما
فعل موسى - عليه السلام - . فبعث إحداهما إليه لتدعوه إلى أبيها ، كما
: قال - تعالى - : ( فَجَآءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى استحيآء ) اى
. مشى الحرائر ، كما روى عن عمر بن الخطاب أنه قال : كانت مستترة بكم درعها
أى قميصها .ثم قال ابن كثير : وقد اختلف المفسرون فى هذا الرجل من هو؟ على
أقوال : أحدهما أنه شعيب النبى - عليه السلام - الذى أرسله الله إلى أهل
مدين ، وهذا هو المشهور عند كثيرين وقد قاله الحسن البصرى وغير واحد ورواه
ابن أبى حاتم .وقد روى الطبرانى عن مسلمة بن سعد العنزى أنه وفد على رسول
الله صلى الله عليه وسلم فقال له : مرحبا بقوم شعيب ، وأختان موسى .وقال

آخرون : بل كان ابن أخى شعيب . وقيل : رجل مؤمن من آل شعيب .ثم قال - رحمه
الله - ثم من المقوى لكونه ليس بشعيب ، أنه لو كان إياه لأوشك أن نيص على
اسمه فى القرآن ها هنا . وما جاء فى بعض الأحاديث من التصريح بذكره فى قصة
موسى لم يصح إسناده .والمعنى : ولم يطل انتظار موسى للخير الذى التمسه من
) خالقه - عز وجل - فقد جاءته إحدى المرأتين اللتين سقى لهما ، حالة كونها
). تَمْشِي عَلَى استحياء ) أى : على تحشم وعفاف شأن النساء الفضليات
) قَالَتْ ) بعبارة بليغة موجزة : ( إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ ) للحضور إليه
لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ) أى : ليكافئك على سقيك لنا غنمنا
: واستجاب موسى لدعوة أبيها وذهب معها للقائه ( فَلَمَّا جَآءَهُ ) ، أي.
: فلما وصل موسى إلى بيت الشيخ الكبير ، ( وَقَصَّ عَلَيْهِ القصص ) ، أى
وقص عليه ما جرى له قبل ذلك ، من قتله القبطى ، ومن هربوه إلى أرض مدين
فالقصص هنا مصدر بمعنى اسم المفعول ، أى : المقصوص .( قَالَ ) أى : الشيخ.
الكبير لموسى ( لاَ تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ القوم الظالمين ) أى :لا تخف يا
موسى من فرعون وقومه ، فقد أنجاك الله - تعالى - منهم ومن كل ظالم .وهذا
- القول من الشيخ الكبير لموسى ، صادف مكانه ، وطابق مقتضاه ، فقد كان موسى
عليه السلام - أحوج ما يكون فى ذلك الوقت إلى نعمة الأمان والاطمئنان ، بعد
أن خرج من مصر خائفا يترقب .ثم يحكى القرآن بعد ذلك ، ما أشارت به إحدى
الفتاتين على أبيها : فقال - تعالى - : ( قَالَتْ إِحْدَاهُمَا ) ولعلها
التى جاءت إلى موسى على استحياء لتقوله له : ( إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ
لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ) .

قالت احداهما يا ابت استاجره ان خير من استاجرت القوي الامين

- كما فسرها الوسيط ( ياأبت استأجره ) أى : قالت لأبيها بوضوح واستقامة قصد
شأن المرأة السليمة الفطرة النقية العرض القوية الشخصية - يا أبت استأجر
هذا الرجل الغريب ليكفينا تعب الرعى ، ومشقة العمل خارج البيت .ثم عللت
طلبها بقولها : ( إِنَّ خَيْرَ مَنِ استأجرت القوي الأمين ) أى : استأجره
ليرى غنمنا ، فإنه جدير بهذه المهمة ، لقوته وأمانته ، ومن جمع فى سلوكه
وخلقه بين القوة والأمانة ، كان أهلا لكل خير ، ومحلا لثقة الناس به على
، أموالهم وأعراضهم .قال ابن كثير : قال عمر ، وابن عباس ، وشريح القاضى
وأبو مالك ، وقتادة . . . وغير واحد : لما قالت : ( إِنَّ خَيْرَ مَنِ
استأجرت القوي الأمين ) قال لها أبوها : وما علمك بذلك؟ قالت : إنه رفع
، الصخرة التى لا يطيق حملها إلا عشرة رجال ، وأنه لما جئت معه تقدمت أمامه
فقال لى : كونى من ورائى ، فإذا اجتنبت الطريق فاحذفى - أى فارمى - بحصاة
. أعلم بها كيف الطريق لأهتدى إليه

قال اني اريد ان انكحك احدى ابنتي هاتين على ان تاجرني ثماني حجج فان اتممت
عشرا فمن عندك وما اريد ان اشق عليك ستجدني ان شاء الله من الصالحين

كما فسرها الوسيط واستجاب الشيخ الكبير لما اقترحته عليه ابنته ، وكأنه أحس
: بصدق عاطفتها ، وطهارة مقصدها وسلامة فطرتها ، فوجه كلامه إلى موسى قائلا
ولعله أراد( قَالَ إني أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابنتي هَاتَيْنِ )
بإحداهما ، تلك التى قالت له : يا أبت استأجره ، لشعوره - وهو الشيخ الكبير
والأب العطوف ، الحريص على راحة ابنته - بأن هناك عاطفة شريفة تمت بين ،
قلب ابنته ، وبين هذا الرجل القوى الأمين ، وهو موسى - عليه السلام - .وفى
هذه الآيات ما فيها من الإشارة إلى رغبة المرأة الصالحة ، فى الرجل الصالح
وإلى أنه من شأن الآباء العقلاء أن يعملوا على تحقيق هذه الرغبة .قال ،
الشوكانى : فى هذه الآية مشروعية عرض ولى المرأة لها على الرجل ، وهذه سنة
، ثابتة فى الإسلام ، كما ثبت من عرض عمر لابنته حفصة على أبى بكر وعثمان
وغير ذلك مما وقع فى أيام الصحابة أيام النبوة ، وكذلك ما وقع من عرض
المرأة لنفسها على رسول الله صلى الله عليه وسلم .وقوله - سبحانه - : ( على
أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ ) بيان لما اشترطه الشيخ الكبير على
موسى - عليه السلام - .أى قال له بصيغة التأكيد : إنى أريد أن أزوجك إحدى
ابنتى هاتين ، بشرط أن تعمل أجيرا عندى لرعى غنمى ( ثَمَانِيَ حِجَجٍ ) أى
ثمانى سنين .قال الجمل : وقوله : ( على أَن تَأْجُرَنِي ) فى محل نصب على :
. . . . الحال ، إما من الفاعل أو من المفعول .أى : مشروطا على أو عليك ذلك
و ( تَأْجُرَنِي ) مفعلوه الثانى محذوف أى : تأجرني نفسك و ( ثَمَانِيَ
حِجَجٍ ) ظرف له .وقوله : ( فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِندِكَ ) أى
فإن أتممت عشر سنين كأجير عندى لرعاية غنمى ، أى : فهذا الإتمام من عندك :
على سبيل التفضل والتكرم فإنى لا أشترط عليك سوى ثمانى حجج .وقوله ( وَمَآ
أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ
الصَّالِحِينَ ) بيان لحسن العرض الذى عرضه الشيخ على موسى .أى : وما أريد
أن أشق عليك أو أتبعك فى أمر من الأمور خلال استئجارى لك ، بل ستجدنى - إن
شاء الله - تعالى - من الصالحين ، فى حسن المعاملة ، وفى لين الجانب ، وفى

الوفاء بالعهد .وقال : ( سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللّهُ . . . ) للدلالة على أنه من المؤمنين . الذين يفرضون أمورهم إلى الله - تعالى - ويرجون توفيقه ومعونته على الخير .

قال ذلك بيني وبينك ايما الاجلين قضيت فلا عدوان علي والله على ما نقول وكيل

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - ما رد به موسى فقال : ( قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيّمَا الأجلين قَضَيْتُ فَلاَ عُدْوَانَ عَلَيّ والله على مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ) .أى : ( قَالَ ) موسى فى الرد على الشيخ الكبير (ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ) أى : ذلك الذى قلته لى واشترطته على ، كائن وحاصل بينى وبينك ، وكلانا مطالب بالوفاء به فاسم الإشارة مبتدأ ، ) : وبينى وبينك خبره ، والإشارة مرجعها إلى ما تعاقدا عليه ، وأى فى قوله أَيّمَا الأجلين ) شرطية ، وجوابها ، ( فَلاَ عُدْوَانَ عَلَيّ ) و ( وما مزيدة للتأكيد .والمعنى : أى الأجلين ، أى الثمانية الأعوام أو العشرة ( الأعوام ( قَضَيْتُ ) أى : وفيت به ، وأديته معك أجيرا عندك ( فَلاَ عُدْوَانَ عَلَيّ ) أى : فلا ظلم على ، وأصل العدوان : تجاوز الحد .قال صاحب الكشاف ما ملخصه : أى قال موسى : ذلك الذى قلته . . . قائم بيننا جميعا لا يخرج كلانا عنه لا أنا عما اشترطت على ولا أنت عما اشترطت على ) - نفسك . . . ثم قال : أى أجل من الأجلين قضيت - أطولهما أو أقصرهما فَلاَ عُدْوَانَ عَلَيّ ) أى : فلا يعتدى على فى طلب الزيادة عليه . فإن قلت : تصور العدوان إنما هو فى أحد الأجلين الذى هو الأقصر ، وهو المطالبة بتتمة العشر ، فما معنى تعليق العدوان بهما جميعا؟قلت : معناه ، كما أنى إن طولبت بالزيادة على العشر كان عدوانا لا شك فيه ، فكذلك إن طولبت بالزيادة على الثمانى . أراد بذلك تقرير أمر الخيار ، وأنه ثابت مستقر ، وأن الأجلين على السواء إما هذا وإما هذا من غير تفاوت بينهما فى القضاء ، وأما التتمة فهى موكولة إلى رأيى . إن شئت أتيت بها ، وإلا لم أجبر عليها .والمقصود بقوله : ( والله على مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ) . توثيق العهد وتأكيده ، وأنه لا سبيل لواحد منهما على الخروج عنه أصلا .أى : والله - تعالى - شهيد ووكيل - ورقيب على ما اتفقنا عليه ، وتعاهدنا على تنفيذه ، وكفى بشهادته - سبحانه - شهادة .وقد ساق الإمام ابن كثير جملة من الآثار التى تدل على أن موسى عليه السلام - قد قضى أطول الأجلين . ومن ذلك ما جاء عن ابن عباس " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال سألت جبريل : أى الأجلين قضى موسى؟ قال " : هذا ، والمتأمل فى هذه أكملهما وأتمهما ، وفى رواية : أبرهما وأوفاهما " " .الآيات الكريمة ، يرى فيها بجلاء ووضوح ، ما جبل عليه موسى - عليه السلام - من صبر على بأساء الحياة وضرائها ومن همة عالية تحمله فى كل موطن على إعانة المحتاج ، ومن طبيعة إيجابية تجعله دائما لا يقف أمام مالا يرضيه مكتوف اليدين ، ومن عاطفة رقيقة تجعله فى كل الأوقات دائم التذكر لخالقه ، كثير التضرع إليه بالدعاء ، .كما يرى فيها الفطرة السوية ، والصدق مع النفس والحياء ، والعفاف ، والوضوح ، والبعد عن التكلف والالتواء ، كل ذلك متمثل فى قصة هاتين المرأتين اللتين سقى لهما موسى غنمهم ، واللتين إحداهما تمشى على استحياء ، ثم قالت لأبيها : يا أبت استأجره .كما يرى فيها ما كان يتحلى به ذلك الشيخ الكبير من عقل راجح ، ومن قول طيب حكيم ، يدخل الأمان والاطمئنان على قلب الخائف ، ومن أبوة حانية رشيدة ، تستجيب للعواطف الشريفة ، وتعمل على تحقيق رغباتها عن طريق الزواج الذى شرعه الله - تعالى - .

فلما قضى موسى الاجل وسار باهله انس من جانب الطور نارا قال لاهله امكثوا اني انست نارا لعلي اتيكم منها بخبر او جذوة من النار لعلكم تصطلون

كما فسرها الوسيط ومضت السنوات العشر ، التى قضاها موسى أجيرا عند الشيخ الكبير فى مدين ، ووفى كل واحد منهما بما وعد به صاحبه ، وتزوج موسى بإحدى ابنتى الشيخ الكبير ، وقرر الرجوع بأهله إلى مصر ، فماذا حدث له فى طريق عودته؟ يحكى لنا القرآن الكريم بأسلوبه البديع ما حدث لموسى - عليه السلام - بعد ذلك فيقول : ( فَلَمَّا قضى . . . . ) .المراد بالأجل فى قوله - تعالى - : ( فَلَمَّا قضى مُوسَى الأجل . . ) المدة التى قضاها موسى أجيرا عند الشيخ الكبير ، بجهة مدين .والمعنى : ومكث موسى عشر سنين فى مدين فلما قضاها وتزوج بإحدى ابنتى الشيخ الكبير ، استأذن منه ( وَسَارَ ، بِأَهْلِهِ ) أى وسار بزوجته متجها إلى مصر ليرى أقاربه وذوى رحمه ، أو إلى ) مكان آخر قيل : هو بيت المقدس .( آنَسَ مِن جَانِبِ الطور نَاراً ) ولفظ آنَسَ ) من الإيناس ، وهو إبصار الشىء ورؤيته بوضوح لا التباس معه ، حتى لكأنه يحسه بجانب رؤيته له .أى : وخلال سيره بأهله إلى مصر ، رأى بوضوح و جلاء ( مِن جَانِبِ الطور نَاراً ) .أى : رأى من الجهة التى تلى جبل الطور نارا عظيمة .قال الآلوسى : " استظهر بعضهم أن المبصر كان ورا حقيقة ، إلا

: أنه عبر عنه بالنار ، اعتبارا لاعتقاد موسى - عليه السلام - ، وقال بعضهم
كان المبصر فى صور النار الحقيقية ، وأما حقيقته ، فوراء طور العقل ، إلا
أن موسى - عليه السلام - ظنه النار المعروفة " .وقوله - سبحانه - ( قَالَ
لأَهْلِهِ امكثوا إني آنَسْتُ نَاراً . . ) حكاية لما قاله موسى - عليه
السلام - لزوجته ومن معها عندما أبصر النار .أى : عندما ابصر موسى النار
بوضوح وجلاء (قَالَ لأَهْلِهِ امكثوا ) فى مكانكم ( إني آنَسْتُ نَاراً )
على مقربة منى وسأذهب إليها .( لعلي آتِيكُمْ مِّنْهَا بِخَبَرٍ ) ينفعنا
فى مسيرتنا ، ( أَوْ ) أقتطع لكم منها ( جَذْوَةٍ مِّنَ النار لَعَلَّكُمْ
تَصْطَلُونَ ) .قال الجلم : قرأ حمزة : ( أَوْ جُذْوَةٍ ) بضم الجيم . وقرأ
، عامص بالفتح ، وقرأ الباقون بالكسر ، وهى لغات فى العود الذى فى رأسه نار
هذا هو المشهور . وقيده بعضهم فقال : فى رأسه نار من غير لهب ، وقد ورد ما
يقتضى اللهب فيه ، وقيلأ : الجذوة العود الغليظ سواء أكان فى رأسه نار أم
لم يكن . وليس المراد هنا إلا ما فى رأسه نار .وقوله : ( تَصْطَلُونَ ) من
الاصطلاء بمعنى الاقتراب من النار للاستدفاء بها من البرد . والطاء فيه
مبدلة من تاء الافتعال .أى : قال موسى لأهله امكثوا فى مكانكم حتى أرجع
إليكم ، فإنى أبصرت نارا سأذهب إليها ، لعلى آتيكم من جهتها بخبر يفيدنا فى
رحلتنا ، أو أقتطع لكم منها قطعة من الجمر ، كى تستدفئوا بها من البرد .قال
ابن كثير ما ملخصه : وكان ذلك بعدما قضى موسى الأجل الذى كان بينه وبين
صهره فى رعاية الغنم ، وسار بأهله . قيل : قاصدا بلاد مصر بعد أن طالت
الغيبة عنها أكثر من عشر سنين ، ومعه زوجته ، فأضل الطريق ، وكانت ليلة
شاتية . ونزل منزلا بين شعاب وجبال ، فى برد وشتاء ، وسحاب وظلام وضباب
، وجعل يقدح بزند معه ليورى نارا - أى : ليخرج نارا - كما جرت العادة به
فجعل لا يقدح شيئا ، ولا يخرج منه شرر ولا شىء ، فبينما هو كذلك إذ آنس من
. .. جانب الطور نارا

فلما اتاها نودي من شاطئ الواد الايمن في البقعة المباركة من الشجرة ان يا
موسى اني انا الله رب العالمين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - : ما حدث لموسى بعد أن وصل إلى الجهة
التى فيها النار فقال - تعالى - : ( فَلَمَّآ أَتَاهَا نُودِيَ مِن
شَاطِىءِ الوادي الأيمن فِي البقعة المباركة مِنَ الشجرة أن ياموسى إني
أَنَا الله رَبُّ العالمين ) .والضمير فى " أتاها " ، يعود إلى النار التى
رآها ، وشاطىء الوادى : جانبه ، والأيمن : صفته .أى : فحين أتى موسى - عليه
السلام - إلى النار التى أبصرها ، ( نُودِيَ مِن شَاطِىءِ الوادي الأيمن )
أى سمع نداء من الجانب الأيمن بالنسبة له ، أى : لموسى وهو يسير إلى النار
: التى رآها ، فمن لابتداء الغاية .ويرى بعضهم أن المراد بالأيمن . أى
المبارك ، مأخوذ من اليمن بمعنى البركة .وقوله : ( فِي البقعة المباركة )
متعلق بقوله ( نُودِيَ ) أو بمحذوف حال من الشاطىء .وقوله : ( مِنَ الشجرة
بدل اشتمال من شاطىء الوادى ، فإنه كان مشتملا عليها .والبقعة : اسم (
للقطعة من الأرض التى تكون غير هيئة القطعة المجاورة لها وجمعها بقع بضم
الباء وفتح القاف - وبقاع .ووصفت بالبركة : لما وقع فيها من التكليم
والرسالة لموسى ، و إظهار المعجزات والآيات على يديه .أى : فلما اقترب موسى
. من النار ، نودى من ذلك المكان الطيب ، الكائن على يمينه وهو يسير إليه
، والمشتمل على البقعة المباركة من ناحية الشجرة .ولعل التنصيص على الشجرة
- للإشارة إلى أنها كانت الوحيدة فى ذلك المكان .و ( أَن ) فى قوله - تعالى
تفسيرية ، لأن النداء قوله ( أن ياموسى إني أَنَا الله رَبُّ العالمين ) :
أى : نودى أن يا موسى تنبه وتذكر إنى أنا الله رب العالمين .قال الإمام.
ابن كثير : وقوله - تعالى - : ( أن ياموسى إني أَنَا الله رَبُّ العالمين
. أى : الذى يخاطبك ويكلمك هو رب العالمين ، الفعال لما يشاء لا إله غيره (
ولا رب سواه ، تعالى وتقدس وتنزه عن مماثلة المخلوقات فى ذاته وصفاته
. - وأقواله - سبحانه

وان الق عصاك فلما راها تهتز كانها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى اقبل
ولا تخف انك من الامنين

كما فسرها الوسيط قوله - سبحانه - : ( وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ) معطوف على
قوله ( أن ياموسى ) فكلاها مفسر للنداء ، والفاء فى قوله ( فَلَمَّا
رَآهَا تَهْتَزُّ ) فصيحة .والمعنى : نودى أن يا موسى إنى أنا الله رب
العالمين ، ونودى أن ألق عصاك ، فألقاها . ( فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ )
أى تضطرب بسرعة ( كَأَنَّهَا جَآنٌّ ) أى : كأنها فى سرعة حركتها وشدة
اضطرابها ( جَآنٌّ ) أى : ثعبان يدب بسرعة ويمرق فى خفة ولى مدبرا ولم يعقب
أى : ولى هاربا خوفا منها ، دون أن يفكر فى العودة إليها . ليتبين ماذا .
بها ، وليتأمل ما حدث لها .يقال : عقب المقاتل إذا كر راجعا إلى خصمه ، بعد
أن فر من أمامه .وهنا جاءه النداء مرة أخرى ، فى قوله - تعالى - : ( ياموسى

أَقْبِلْ وَلاَ تَخَفْ إِنّكَ مِنَ الآمنين ) .أى : يا موسى أقبل نحو
، المكان الذى كنت فيه ، ولا تخف مما رأيته ، إنك من عبادنا الآمنين عندنا
. المختارين لحمل رسالتنا

اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم اليك جناحك من الرهب فذانك
برهانان من ربك الى فرعون وملئه انهم كانوا قوما فاسقين

كما فسرها الوسيط ثم أمره - سبحانه - بأمر آخر فقال : ( اسلك يَدَكَ فِي
جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سواء . . ) .ولفظ ( اسلك ) من
السلك - بتشديد السين مع الفتح - بمعنى إدخال الشىء فى الشىء .أى : أدخل
يدك يا موسى فى فتحة ثوبك ، تخرج بيضاء من غير سوء مرض أو عيب ( واضمم
إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرهب ) والجناح : اليد ، والرهب : الخوف والفزع
والمقصود بالجملة الكريمة ( واضمم إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرهب ) إرشاد.
موسى إلى ما يدخل الطمأنينة على قلبه ، ويزيل خوفه .والمعنى : افعل يا موسى
ما أمرناك به ، فإذا أفزعك أمر يدك وما تراه من بياضها وشعاعها ، فأدخلها
، فى فتحة ثوبك ، تعد إلى حالتها الأولى .وإذا انتابك خوف عند معاينة الحية
فاضمم يدك إلى صدرك ، يذهب عنك الخوف .قال صاحب الكشاف : فإن قلت ما معنى
، قوله : ( واضمم إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرهب ) ؟ قلت : فيه معنيان
، أحدهما : أن موسى - عليه السلام - لما قلب الله العصا حية فزع واضطرب
فاتقاها بيده ، كما يفعل الخائف من الشىء ، فقيل له : إن اتقاءك بيدك فيه
غضاضة - أى منقصة - عند الأعداء فإذا ألقيتها فعندما تنقلب حية ، فأدخل يدك
تحت عضدك مكان اتقائك بها ، ثم أخرجها بيضاء ليحصل الأمران : اجتناب ما هو
غضاضة عليك ، وإظهار معجزة أخرى .والثانى : أن يراد بضم جناحة إليه ، تجلده
. . وضبطه نفسه ، وتشدده عند انقلاب العصا حية ، حتى لا يضطرب ولا يرهب
واسم الإشارة فى قوله ، فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه . . . يعود.
: إلى العصا واليد . والتذكير لمراعاة الخبر وهو ( بُرْهَانَانِ ) والبرهان
: الحجة الواضحة النيرة التى تلجم الخصم ، وتجعله لا يستطيع معارضتها . أى
، فهاتان المعجزتان اللتان أعطيناك إياهما يا موسى ، وهما العصا واليد
حجتان واضحتان كائنتان ( مِن رّبِّكَ ) فاذهب بهما إلى ( فِرْعَوْنَ
). وَمَلَئِهِ ) لكى تبلغهم رسالتنا ، وتأمرهم بإخلاص العبادة لنا
إِنّهُمْ ) أى : فرعون وملئه ( كَانُواْ قَوْماً فَاسِقِينَ ) أى : خارجين
. من الطاعة إلى المعصية . ومن الحق إلى الباطل

قال رب اني قتلت منهم نفسا فاخاف ان يقتلون

، كما فسرها الوسيط وهنا تذكر موسى ما كان بينه وبين فرعون وقومه من عداوة
فقال : ( رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَن
يَقْتُلُونِ ) إذا ذهبت إليهم بهذه الآيات . وهو عليه السلام -لا يقول ذلك
- هروبا من تبليغ رسالة الله - تعالى - وإنما ليستعين برعايته - عز وجل ،
. وبحفظه . عندما يذهب إلى هؤلاء الأقوام الفاسقين

واخي هارون هو افصح مني لسانا فارسله معي ردءا يصدقني اني اخاف ان يكذبون

كما فسرها الوسيط ثم أضاف إلى ذلك قوله : ( وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ
مِنِّي لِسَاناً ) أى هو أقدر منى على المدافعة عن الدعوة وعلى تبيان الحق
وتوضيحه .( فَأَرْسِلهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إني أَخَافُ أَن
، يُكَذِّبُونِ ) والردء : العون والنصير .يقال : ردأته على عدوه وأردأته
إذا أعنته عليه ، وردأت الجدار إذا قويته بما يمنعه من أن ينقض .أى : فأرسل
، أخى هارون معى إلى هؤلاء القوم ، لكى يساعدنى ويعيننى على تبليغ رسالتك
ويصدقنى فيما سأدعوهم إليه ، ويخلفنى إذا ما اعتدى على . ( إني أَخَافُ أَن
يُكَذِّبُونِ ) إذا لم يكن معى أخى هارون يعيننى ويصدقنى .والمتأمل فى هذا
الكلام الذى ساقه الله - تعالى - على لسان موسى - عليه السلام - يرى فيه
إخلاصه فى تبليغ رسالة ربه ، وحرصه على أن يؤتى هذا التبليغ ثماره الطيبة
على أكمل صورة ، وأحسن وجه .قال صاحب الكشاف : فإن قلت تصديق أخيه ما
الفائدة فيه؟قلت : ليس الغرض بتصديقه أن يقول له صدقت ، أو يقول للناس صدق
أخى ، وإنما هو أن يلخص بلسانه الحق ، ويبسط القول فيه ، ويجادل به الكفار
: كما يصدق القول بالبرهان . وفضل الفصاحة إنما يحتاج إليه لذلك ، لا لقوله
. صدقت ، فإن سحبان وباقلا يستويان فيه

قال سنشد عضدك باخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون اليكما باياتنا انتما ومن
اتبعكما الغالبون

كما فسرها الوسيط ثم حكى القرآن بعد ذلك ، أن الله - تعالى - قد أجاب لموسى
رجاءه فقال : ( قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ) .شد العضد : كناية عن

التقوية له ، لأن اليد تشتد وتقوى ، بشدة العضد وقوته . وهو من المرفق إلى
الكتف .أى قال - سبحانه - لقد استجبنا لرجائك يا موسى ، وسنقويك ونعينك
بأخيك ( وَنَجْعَلُ لَكُمَا ) بقدرتنا ومشيئتنا ( سُلْطَاناً ) أى : حجة
وبرهانا وقوة تمنع الظالمين ( فَلاَ يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ) بأذى ولا
يتغلبان عليكما بحجة .وقوله ( بِآيَاتِنَآ ) متعلق بمحذوف . أى : فوضا
- أمركما إلى ، واذهبا إلى فرعون وقومه بآياتنا الدالة على صدقكما .وقوله
تعالى - : ( أَنتُمَا وَمَنِ اتبعكما الغالبون ) مؤكد لمضمون ما قبله . من
تقوية قلب موسى ، وتبشيره بالغلبة والنصر على أعدائه .أى : أجبنا طلبك يا
. موسى ، وسنقويك بأخيك ، فسيرا إلى فرعون وقومه ، فسنجعل لكما الحجة عليهم
وستكونان أنتما ومن اتبعكما من المؤمنين أصحاب الغلبة والسلطان على فرعون
وجنده .ونفذ موسى وهارون - عليهما السلام - أمر ربهما - عز وجل - فذهبا إلى
. - فرعون ليبلغاه دعوة الحق ، وليأمراه بإخلاص العبادة لله - تعالى

فلما جاءهم موسى باياتنا بينات قالوا ما هذا الا سحر مفترى وما سمعنا بهذا
في ابائنا الاولين

كما فسرها الوسيط وتحكى الآيات الكريمة بعد ذلم ما دار بين موسى وبين فرعون
. . . وقومه من محاورات ومجادلات ، إنتهت بانتصار الحق ، وهلاك الباطل
تحكى الآيات كل ذلك فتقول : ( فَلَمَّا جَآءَهُم . . . ) .المراد بالآيات
: فى قوله - تعالى - ( فَلَمَّا جَآءَهُم موسى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ )
العصا واليد . وجمعهما تعظيم لشأنهما ، ولاشتمال كل واحدة منهما على دلائل
- متعددة على صدق موسى - عليه السلام - فيما جاء به من عند ربه - تعالى
والمعنى : ووصل موسى إلى فرعون وقومه ، ليأمرهم بعبادة الله وحده ، فلما.
). جاءهم بالمعجزات التى أيدناه بها ، والتى تدل على صدقه دلالة واضحة
قَالُواْ ) له على سبيل التبجح والعناد ( مَا هاذآ إِلاَّ سِحْرٌ
مُّفْتَرًى ) أى : قالوا له : ما هذا الذى جئت به يا موسى إلا سحر أتيت به
- من عند نفسك .ثم أكدوا قولهم الباطل هذا بآخر أشد منه بطلانا ، فقالوا
كما حكى القرآن عنهم - : ( وَمَا سَمِعْنَا بهذا في آبَآئِنَا الأولين )
أى : وما سمعنا بهذا الذى جئتنا به يا موسى ، من الدعوة إلى عبادة الله.
وحده ومن إخبارك لنا بأنك نبى . . . ما سمعنا بشىء من هذا كائنا أو واقعا
فى عهد آبائنا الأولين وقولهم هذا يدل على إعراضهم عه الحق ، وعكوفهم على
ما ألفوه بدون تفكر أو تدبر.

وقال موسى ربي اعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار انه لا
يفلح الظالمون

كما فسرها الوسيط وقد رد عليهم موسى ردا منطقيا حكيما ، حكاه القرآن فى
قوله : ( وَقَالَ موسى ربي أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بالهدى مِنْ عِندِهِ . . )
أى : وقال موسى فى رده على فرعون وملئه : ربى الذى خلقنى وخلقكم ، أعلم.
منى ومنكم بمن جاء بالهدى والحق من عنده ، وسيحكم بينى وبينكم بحكمه العادل
ولم يصرح موسى - عليه السلام - بأنه يريد نفسه ، بالإتيان بالهداية لهم من.
، عند الله - تعالى - ليكفكف من عنادهم وغرورهم ، وليرخى لهم حبل المناقشة
: حتى يخرس ألسنتهم عن طريق المعجزات التى أيده الله - تعالى - بها .وقوله
- معطوف على ما قبله .أى : وربى ( وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدار )
أيضا - أعلم منى ومنكم بمن تكون له النهاية الحسنة ، والعاقبة الحميدة .قال
، الآلوسى : وقوله : ( وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدار ) وهى الدنيا
- وعاقبتها أن يختم للإنسان بها ، بما يفضى به إلى الجنة بفضل الله - تعالى
وكرمه .وقوله - سبحانه - ( إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظالمون ) تذييل قصديه
ببان سنة من سننه - تعالى - التى لا تتخلف أى أنه - سبحانه - قد اقتضت سنته
أن لا يفوز الظالمون بمطلوب بل الذين يفوزون بالعاقبة الحميدة هم الذين
. قالوا ربنا الله ثم استقاموا

وقال فرعون يا ايها الملا ما علمت لكم من اله غيري فاوقد لي يا هامان على
الطين فاجعل لي صرحا لعلي اطلع الى اله موسى واني لاظنه من الكاذبين

، - كما فسرها الوسيط ولكن هذا الرد المهذب الحكيم من موسى - عليه السلام
لم يعجب فرعون المتطاول المغرور فأخذ في إلقاء الدعاوى الكاذبة ، التى
حكاها القرآن عنه فى قوله : ( وَقَالَ فِرْعَوْنُ ياأيها الملأ مَا
عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرِي ) .أى : وقال فرعون لقومه - على سبيل
الكذب والفجور - ياأيها الأشراف من أتباعى ، إنى ما علمت لكم من إله سواى
وقوله هذا يدل على ما بلغه من طغيان وغرور ، فكأنه يقول لهم : إنى لم أعلم.
بأن هناك إلها لكم سواى ، ومالا أعمله فلا وجود له .وقد قابل قومه هذا
الهراء والهذيان ، بالسكوت والتسليم ، شأن الجهلاء الجبناء وصدق الله إذ
يقول : ( فاستخف قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً

فَاسِقِينَ ) ثم تظاهر بعد ذلك بأنه جاد فى دعواه أمام قومه بأنه لا إله
) : لهم سواه ، وأنه حريص على معرفة الحقيقة ، فقال لوزيره هامان
فَأَوْقِدْ لِي ياهامان عَلَى الطين فاجعل لِّي صَرْحاً لعلي أَطَّلِعُ إلى
إله موسى ) .والصرح : البناء الشاهق المرتفع . أى : فاصنع لى يا هامان من
الطين آجرا قويا ، ثم هيىء لى منه بناء عاليا مكشوفا . أصعد عليه ، لعلى
أرى إله موسى من فوقه . والمراد بالظن فى قوله : ( وَإِنِّي لأَظُنُّهُ
مِنَ الكاذبين ) اليقين . أى : وإنى لمتيقن أن موسى من الكاذبين فى دعواه
أن هناك إلها غيرى . . فى هذا الكون .وهكذا . استخف فرعون بعقول قومه
الجاهلين الجبناء ، فأفهمهم أنه لا إله لهم سواه ، وأن موسى كاذب فيما
ادعاه .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - ( وَقَالَ فَرْعَوْنُ ياهامان ابن
لِي صَرْحاً لعلي أَبْلُغُ الأسباب أَسْبَابَ السماوات فَأَطَّلِعَ إلى إله
موسى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِباً وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سواء
عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السبيل وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ
قال ابن كثير : وذلك لأن فرعون ، بنى هذا الصرح ، الذى لم ير فى الدنيا (
بناء أعلى منه ، وإنما أراد أن يظهر لرعيته ، تكذيب موسى فيما قاله من أن
هناك إلها غير فرعون . ولهذا قال : ( وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الكاذبين )
. أى : فى قوله إن ثم ربا غيرى

واستكبر هو وجنوده في الارض بغير الحق وظنوا انهم الينا لا يرجعون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - الأسباب التى حملت فرعون على هذا القول
الساقط الكاذب ، فقال : ( واستكبر هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأرض بِغَيْرِ
الحق وظنوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لاَ يُرْجَعُونَ ) .والاستكبار : التعالى
والتطاول على الغير بحمق وجهل . أى : وتعالى فرعون وجنوده فى الأرض التى
خلقناها لهم ، دون أن يكون لهم أى حق فى هذا التطاول والتعالى ، وظنوا
. واعتقدوا أنهم إلينا لا يرجعون ، لمحاسبتهم ومعاقبتهم يوم القيامة

فاخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين

كما فسرها الوسيط فماذا كانت نتيجة ذلك التطاول والغرور ، والتكذيب بالبعث
والحساب؟ لقد كانت نتيجته كما قال - تعالى - - بعد ذلك : ( فَأَخَذْنَاهُ
وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي اليم ) .والنبذ : الطرح والإهمال للشىء
لحقارته وتفاهته .أى : فأخذنا فرعون وجنوده بالعقاب الأليم أخذا سريعا
حاسما فألقينا بهم فى البحر ، كما يلقى بالنواة أوالحصاة التى لا قيمة لها
ولا اعتداد بها .( فانظر ) أيها العاقل نظر تدبر واعتبار ( كَيْفَ كَانَ ،
عَاقِبَةُ الظالمين ) ؟ لقد كانت عاقبتهم الإغراق الذى أزهق أرواحهم
. واستأصل باطلهم

وجعلناهم ائمة يدعون الى النار ويوم القيامة لا ينصرون

كما فسرها الوسيط ( وَجَعَلْنَاهُمْ ) أى : فرعون وجنوده ، ( أَئِمَّةً )
) فى الكفر والفسوق والعصيان بسبب أنهم ( يَدْعُونَ ) ، غيرهم إلى ما يوصل
إِلَى النار ) وسعيرها والاحتراق بها .( وَيَوْمَ القيامة لاَ يُنصَرُونَ )
أى : ويوم القيامة لا يجدون من ينصرهم ، بأن يدفع العذاب عنهم بأية صورة من
. الصور

واتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين

كما فسرها الوسيط ( وَأَتْبَعْنَاهُم فِي هَذِهِ الدنيا ) التى قضوا حياتهم
فيها فى الكفر والضلال ، أتبعناهم فيها ( لَعْنَةً ) أى : طردا وإبعادا عن
: رحمتنا .( وَيَوْمَ القِيَامَةِ هُمْ مِّنَ المقبوحين ) والشىء المقبوح
هو المطرود المبعد عن كل خير . أى : وهم يوم القيامة - أيضا - من المبعدين
عن رحمتنا ، بسبب كفرهم وفسوقهم .والتعبير بقوله - سحبانه - : ( وَيَوْمَ
القِيَامَةِ هُمْ مِّنَ المقبوحين ) يتناسب كل التناسب مع ما كانوا عليه فى
، الدنيا من تطاول وغرور واستعلاء .فهؤلاء الذين كانوا فى الدنيا كذلك
صاروا فى الآخرة محل الازدراء وقبح الهيئة والاشمئزاز من كل عباد الله
. المخلصين

ولقد اتينا موسى الكتاب من بعد ما اهلكنا القرون الاولى بصائر للناس وهدى
ورحمة لعلهم يتذكرون

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - قصة موسى ببيان جانب مما منحه - عز
وجل - له من نعم فقال : ( وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكتاب ) أى آتيناه
التوراة لتكون هداية ونورا ( مِن بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا القرون الأولى )

أى : أنزلنا التوراة على موسى ، من بعد إهلاكنا للقرون الأولى من الأقوام المكذبين ، كقوم نوح وهود وصالح وغيرهم .قال الآلوسى : " والتعرض لبيان كون إيتائها بعد إهلاكهم للإشعار بأنها نزلت بعد مساس الحاجة إليها ، تمهيدا لما يعقبه من بيان الحاجة الداعية إلى إنزال القرآن الكريم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن إهلاك القرون الأولى . من موجبات اندراس معالم الشرائع ، وانطماس آثارها ، المؤديين إلى اختلال نظام العالم وفساد أحوال الأمم وكل ذلك يستدعى تشريعا جديدا .وقوله - تعالى - ( بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً ) منصوب على أنه مفعول لأجله أو حال أى : آتيناه التوراة من أجل أن تكون أنوارا لقلوبهم يبصرون بها الحقائق ، كما يبصرون بأعينهم المرئيات ، ومن أجل أن تكون هداية لهم إلى الصراط المستقيم ، ورحمة لهم من العذاب .وقوله - سبحانه - ( لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ) تعليل لهذا الإيتاء ، وحض لهم على الشكر .أى آتيناهم الكتاب الذى عن طريقه يعرفون الحق من الباطل . . . كى يكونوا دائما متذكرين لنعمنا ، وشاكرين لنا على هدايتنا لهم ورحمتنا بهم .وإلى هنا نرى السورة الكريمة ، قد حدثتنا عن - جوانب متعددة من حياة موسى - عليه السلام - .حدثتنا عن رعاية الله تعالى - له حيث أراد له أن يعيش فى بيت فرعون وأن يحظى برعاية امرأته ، وأن يعود بعد ذلك إلى أمه كى تقر عينها به ، دون أن يصيبه أذى من فرعون الذى - كان يذبح الذكور من بنى إسرائيل ويستحيى نساءهم .ثم حدثتنا عن رعاية الله تعالى - له ، بعد أن بلغ أشده واستوى ، حيث نجاه من القوم الظالمين ، بعد أن قتل واحدا منهم .ثم حدثتنا عن رعاية الله - تعالى - له ، بعد أن خرج من مصر خائفا يترقب متجها إلى قرية مدين ، التى قضى فيها عشر سنين أجيرا عند شيخ كبير من أهلها .ثم حدثتنا عن رعاية الله - تعالى - له ، بعد أن قضى تلك المدة ، وسار بأهله متجها إلى مصر ، وكيف أن الله - تعالى - أمره بتبليغ - رسالته إلى فرعون وقومه ، وأنه - عليه السلام - قد لبى أمر ربه - سبحانه ، وبلغ رسالته على أتم وجه وأكمله ، فكانت العاقبة الطيبة له ولمن آمن به وكانت النهاية الأليمة لفرعون وجنوده .وهكذات طرفت بنا السورة الكريمة مع - قصى موسى - عليه السلام - ذلك التطواف الذى نرى فيه رعاية الله - تعالى ، لموسى ، وإعداده لحمل رسالته ، كما نرى فيه نماذج متنوعة لأخلاقه الكريمة ولهمته العالية ، ولصبره على تكاليف الدعوة ، ولسنن الله - تعالى - فى خلقه تلك السنين التى لا تتخلف فى بيان أن العاقبة الحسنة للمتقين ، والعاقبة القبيحة للكافرين والفاسقين .

وما كنت بجانب الغربي اذ قضينا الى موسى الامر وما كنت من الشاهدين

كما فسرها الوسيط ثم بدأت السورة بعد ذلك فى تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفى بيان أن هذا القرآن من عند الله ، وفى بيان جانب من شبهات المشركين ، ثم تلقين الرسول صلى الله عليه وسلم الرد المزهق لها . . لنستمع إلى الآيات الكريمة التى تحكى لنا بأسلوبها البليغ ، هذه المعانى وغيرها : - فتقول : ( وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الغَربي . . ) .الخطاب فى قوله - تعالى للرسول صلى الله عليه وسلم والمراد ( . . . وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الغربي ) بجانب الغربى : الجانب الغربى لجبل الطور الذى وقع فيه الميقات ، وفيه تلقى موسى التوراة من ربه - تعالى - .أى : وما كنت - أيها الرسول الكريم - حاضرا فى هذا المكان ، ( إِذْ قَضَيْنَآ إلى مُوسَى الأمر ) أى ، وقت أن كلفناه ). بحمل رسالتنا ، وأنزلنا إليه التوراة ، لتكون هداية ونورا له ولقومه وَمَا كنتَ ) أيضا - أيها الرسول الكريم - ( مِنَ الشاهدين ) لذلك ، حتى تعرف حقيقة ما كلفنا به أخاك موسى ، فتبلغه للناس عن طريق المشاهدة فالمقصود بالآية بيان أن ما بلغه الرسول صلى الله عليه وسلم عن أخبار. الأولين ، إنما بلغه عن طريق الوحى الذى أوحاه الله - تعالى - إليه ، وليس - عن طريق آخر .قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : يقول - تعالى منبها على برهان نبوة محمد صلى الله عليه وسلم حيث أخبر بالغيوب الماضية ، خبرا كأن سامعه شاهد وراء لما تقدم ، وهو رجل أمى لا يقرأ شيئا من الكتب نشأ بين قوم لا يعرفون شيئا من ذلك ، كما أنه لما أخبره عن مريم وما كان من أمرها ، قال - تعالى - : ( وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ) ثم قال - تعالى - ( تِلْكَ مِنْ أَنْبَآءِ الغيب نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هذا فاصبر )

ولكنا انشانا قرونا فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاويا في اهل مدين تتلو عليهم اياتنا ولكنا كنا مرسلين

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَلَكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ العمر ) - بيان للأسباب التى من أجلها قص الله - تعالى - على نبيه صلى الله عليه وسلم أخبار الأمم السابقة .أى : أنت أيها

الرسول الكريم - لم تكن معاصرا لتلك الأحداث ولكن أخبرناك بها عن طريق
، الوحى ، والسبب فى ذلك أن بينك وبين موسى وغيره من الأنبياء أزمانا طويلة
تغيرت فيه الشرائع والأحكام ، وعميت على الناس الأنبياء ، فكان من الخير
والحكمة أن نقص عليك أخبار السابقين بالحق الذى لا يحوم حوله باطل ، حتى
يعرف الناس الأمور على وجهها الصحيح.قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف يتصل
قوله : ( وَلَكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُوناً ) بهذا الكلام؟قلت : اتصاله به
وكونه استدراكا له ، مِن حيث إن معناه : ولكنا أنشأنا بعد عهد الوحى إلى
) عهدك قرونا طويلة ( فَتَطَاوَلَ ) على آخرهم : وهو القرن الذى أنت فيهم
، العمر ) .أى : أمد انقطاع الوحى ، واندرست العلوم ، فوجب إرسالك إليهم
فأرسلناك وأكسبناك - أى : وأعطيناك - العلم بقصص الأنبياء . . فذكر سبب
- الوحى الذى هو إطالة الفترة ودل به على المسبب ، على عادة الله - تعالى
فى اختصاراته .وقوله - سبحانه - : ( وَمَا كُنتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ
مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ) مؤكدة لمضمون ما قبله . من عدم
معرفة الرسول صلى الله عليه وسلم لأخبار السابقين إلا عن طريق الوحى .وقوله
من الثواء بمعنى الإقامة . يقال : ثوى فلان بالمكان يثوى ( ثاوياً ) :
: ثواء فهو ثاو ، إذا أقام فيه . والمثوى : المنزل ، ومنه الأثر القائل
أصحلوا مثاويكم ، أى : منازلكم .أى : وما كنت - أيها الرسول الكريم - مقيما
فى أهل مدين ، وقت تلاوتك على أهل مكة المكرمة ، قصة موسى والشيخ الكبير
وما جرى بينهما ، حتى تنقلها إليهم بطريق المشاهدة وإنما أنت أخبرتهم بها
عن طريق وحينا الصادق المتمثل فيما أنزلناه عليك من آيات القرآن البينات
فالضمير فى قوله ( تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ) يعود على أهل مكة . والجملة.
حالية .ويرى أكثر المفسرين أن الضمير لأهل مدين ، أى وما كنت مقيما فى أهل
مدين ، تقرأ عليهم آياتنا ، وتتعلم منهم ، والجملة حالية - أيضا - أو خبر
ثان .وعلى كلا التفسيرين فالمقصود بالجملة الكريم إثبات أن ما أخبر به
الرسول صلى الله عليه وسلم عن الأولين ، إنما هو عن طريق الوحى ليس غير
وقوله - سبحانه - : ( وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ) أى : ولكنا كنا.
. مرسلين لك ، وموحين إليك بتلك الآيات وفيها ما فيها عن أخبار الأولين
. لإحقاق الحق وإبطال الباطل

وما كنت بجانب الطور اذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما اتاهم من
نذير من قبلك لعلهم يتذكرون

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - ما يؤكد هذه المعانى تأكيدا قويا ، حتى
يخرس ألسنة الكافرين ، فقال - تعالى - : ( وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطور
إِذْ نَادَيْنَا ) .أى : وما كنت - أيضا أيها الرسول الكريم - بجانب الجبل
المسمى بالطور وقت أن نادينا موسى ، وكلفناه بحمل رسالتنا ، وأعطيناه
) : - التوراة ، وأوحينا إليه بما أوحينا من أحكام وتشريعات .وقوله - تعالى
ولكن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ) أى : ولكن فعلنا ما فعلنا ، بأن أرسلناك
إلى الناس ، وقصصنا عليك ما نريده من أخبار الأولين ، من أجل رحمتنا بك
وبالناس ، حتى يعتبروا ويتعظوا بأحوال السابقين ، فالعاقل من اتعظ بغيره
فقوله - تعالى - : ( رَّحْمَةً ) منصوب على أنه مفعول لأجله ، أو على.
المصدرية .وقوله - سبحانه - : ( لِتُنذِرَ قَوْماً مَّآ أَتَاهُم مِّن
نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ ) صفة لقوله ( قَوْماً ) و ( مَّآ ) موصولة مفعول
ثان لتنذر ، وقوله : ( مِّن نَّذِيرٍ ) متعلق .أى : أرسلناك رحمة ، لتنذر
قوما العقاب الذى أتاهم من نذير من قبلك ، وكما قال - تعالى - : ( وَإِن
مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ ) وصح أن تكون ( مَّآ ) فى قوله
للتأكيد ، فيكون المعنى : أرسلناك رحمة لتنذر هؤلاء ( مِّن نَّذِيرٍ )
المشركين من أهل مكة الذين لم يأتهم نذير من قبلك منذ أزمان متطاولة . إذ
الفترة التى بينك وبين أبيهم إسماعيل تزيد على ألفى سنة .ورسالة إسماعيل
إليهم قد اندرست معالمها ، فكانت الحكمة والرحمة تقتضيان إرسالك إليهم
لتنذرهم سوء عاقبة الشرك .أما معظم الرسل من قبلك - كموسى وعيسى وزكريا
ويحيى وداود وسليمان فكانت مع تباعد زمانها عنك - أيضا - إلى غيرهم من بنى
إسرائيل ، ومن الأمم الأخرى ، المتناثرة فى طراف الجزيرة العربية .فالمراد
- بالقوم على هذا الرأى : العرب المعاصرون له صلى الله عليه وسلم كما قال
تعالى - : ( لِتُنذِرَ قَوْماً مَّآ أُنذِرَ آبَآؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ
ولعل هذا الرأى أقرب إلى سياق الآيات ، وإلى إقامة الحجة على مشركى قريش (
الذين وقفوا من الرسول صلى الله عليه وسلم موقف المكذب لرسالته ، المعادى ،
لدعوته .وقوله - سبحانه - : ( لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ) تذييل قصد به
حضهم على التذكر والاعتبار .أى : أرسلناك إليهم كى يتذكروا ما ترشدهم إليه
. ويعتبروا بما جئتهم به ، ويخشوا سوء عاقبة مخالفة إنذارك لهم ،

ولولا ان تصيبهم مصيبة بما قدمت ايديهم فيقولوا ربنا لولا ارسلت الينا
رسولا فنتبع اياتك ونكون من المؤمنين

) : كما فسرها الوسيط ثم أبطل - سبحانه - ما يتعللون به من معاذير فقال
ولولا أن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ
رَبَّنَا لولا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ
وَنَكُونَ مِنَ المؤمنين ) .و ( ولولا ) الأولى : امتناعية ، تدل على
" امتناع الجواب لوجود الشرط ، وجوابها محذوف لدلالة الكلام عليه ، و " أن
، وما فى حيزها فى محل رفع بالابتداء .و ( لولا ) الثانية : تحضيضية
وجوابها قوله ( فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ . . ) وجملة ( فَيَقُولُواْ ) عطف على
ومن جملة ما فى حيز ( لولا ) الأولى .والمعنى : ولولا ( أَن تُصِيبَهُم )
أن تصيب هؤلاء المشركين ( مُّصِيبَةٌ ) أى عقوبة شديدة . بسبب اقترافهم
) الكفر والمعاصى ( فَيَقُولُواْ ) على سبيل التعلل عند نزوزل العقوبة بهم
رَبَّنَا ) أى : يا ربنا هلا أرسلت إلينا رسولا من عندك ( فَنَتَّبِعَ
آيَاتِكَ ) الدالة على صدقه ( وَنَكُونَ مِنَ المؤمنين ) به وبما جاء به من
، آيات من عندك .أى : ولولا قولهم هذا ، وتعللهم بأنهم ما حملهم على الكفر
، إلا عدم مجىء رسول إليهم يبشره وينذرهم . . لولا ذلك لما أرسلناك إليهم
ولكنا أرسلناك إليهم لنقطع حجتهم ، ونزيل تعللهم ، ونثبت لهم أن استمرارهم
على كفرهم - بعد إرسالك إليهم ، كان بسبب عنادهم وجحودهم ، واستحواذ
الشيطان عليهم .قال الإمام ابن كثير : قوله - تعالى - : ( ولولا أن
تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ ) أى : وأرسلناك إليهم - يا محمد لتقيم عليهم الحجة
ولتقطع عذرهم إذا جاءهم عذاب من الله بسبب كفرهم ، فيحتجوا بأنهم لم ،
يأتهم رسول ولا نذير ، كما قال - تعالى - بعد ذكره إنزال كتابه المبارك وهو
القرآن : ( أَن تقولوا إِنَّمَآ أُنزِلَ الكتاب على طَآئِفَتَيْنِ مِن
قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ أَوْ تَقُولُواْ
لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا الكتاب لَكُنَّآ أَهدى مِنْهُمْ فَقَدْ
جَآءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ).

فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا اوتي مثل ما اوتي موسى اولم يكفروا
بما اوتي موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا وقالوا انا بكل كافرون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك موقفهم بعد مجىء الرسول صلى
الله عليه وسلم إليهم فقال : ( فَلَمَّا جَآءَهُمُ الحق مِنْ عِندِنَا )
متمثلا فى رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم وفيما أيدناه به من معجزات دالة
) على صدقه ، وعلى رأسها القرآن الكريم .لما جاءهم هذا الرسول الكريم
قَالُواْ ) على سبيل التعنت والجحود : هلا أوتى هذا الرسول مثل ما أوتى
موسى ، من توراة أنزلت عليه جملة واحدة ومن معجزات حسية منها العصا واليد
والطوفان ، والجراد . . . إلخ .وقوله - عز وجل - ( أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ
بِمَآ أُوتِيَ موسى مِن قَبْلُ . . ) رد عليهم لبيان أن ما قالوه هو من باب
العناد والتعنت ، والاستفهام لتقرير كفرهم وتأكيده .أى : قالوا ما قالوا
على سبيل الجحود ، والحال أن هؤلاء المشركين كفروا كفرا صريحا بما أعطاه
الله - تعالى - لموسى من قبلك - يا محمد - من معجزات ، كما كفروا بالمعجزات
التى جئت بها من عند ربك ، فهم ديدنهم الكفر بكل حق .ثم حكى - سبحانه - بعض
أقوالهم الباطلة فقال : ( قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُواْ إِنَّا
بِكُلٍّ كَافِرُونَ ) .وقوله : ( سِحْرَانِ ) خبر لمبتدأ محذوف . أى
: قالوا ما يقوله كل مجادل بغير علم : هما - أى ما اء به موسى وما جاء به
محمد - عليهما الصلاة والسلام ، ( سِحْرَانِ تَظَاهَرَا ) أى : تعاونا على
إضلالنا ، وإخراجنا عن ديننا ، وقالوا - أيضا - ( إِنَّا بِكُلٍّ ) أى بكل
واحد مما جاءوا به ( كَافِرُونَ ) كفرا لا رجوع معه إلى ما جاء به هذان
النبيان - عليهما الصلاة والسلام - .قال الآلوسى : وقوله : ( قَالُواْ )
استئناف مسوق لتقرير كفرهم المستفاد من الإنكار السابق ، وبيان كيفيته ، و
يعنون بهما ما أوتى نبينا وما أوتى موسى . . ( تَظَاهَرَا ، ( سِحْرَانِ )
أى : تعاونا بتصديق كل واحد منهما الآخر ، وتأييده إياه ، وذلك أن أهل (
مكة بعثوا رهطا منهم إلى رؤساء اليهود فى عيد لهم ، فسألوهم عن شأنه صلى
الله عليه وسلم فقالوا : إنا نجده فى التوارة بنعته وصفته ، فلما رجع الرهط
وأخبروهم بما قالت اليهود . قالوا ذلك .وقرأ الأكثرون ( قَالُواْ ساحْرَانِ
. - تَظَاهَرَا ) وأرادوا بهما محمد وموسى - عليهما الصلاة والسلام

قل فاتوا بكتاب من عند الله هو اهدى منهما اتبعه ان كنتم صادقين

كما فسرها الوسيط ثم أمر الله - تعالى - رسوله صلى الله عليه وسلم أن
يتحداهم ، وأن يفحمهم بما يخرس ألسنتهم فقال : ( قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَابٍ
مِّنْ عِندِ الله هُوَ أهدى مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ
- أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الجاحدين : لقد أنزل الله. (
تعالى - على موسى التوراة . وأنزل القرآن على ، وأنا مؤمن بهما كل الإيمان
فإن كنتم أنتم مصرون على كفركم ( فَأْتُواْ بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ الله ،
هُوَ أهدى مِنْهُمَآ ) أى هو أوضح منهما وأبين فى الإرشاد إلى الطريق

المستقيم .وقوله ( أَتِّبِعْهُ ) مجزوم فى جواب الأمر المحذوف ، أى : إن تأتوا به أتبعه . . ( إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ) فى زعمكم أن القرآن والتوراة نوع من السحر .فالآية الكريمة تتهكم بهم ، وتسخر منهم ، بأسلوب بديع معجز ، لأنه من المعروف لكل عاقل أنهم ليسوا فى استطاعتهم - ولا فى - استطاعة غيرهم - أن يأتوا بكتاب ، أهدى من الكتابين اللذين أنزلهما سبحانه - على نبيين كريمين من أنبيائه ، هما موسى ومحمد - عليهما الصلاة والسلام - .ولذا قال صاحب الكشاف ما ملخصه : وهذا الشرط يأتى به المدل بالأمر المتحقق لصحته ، لأن امتناع الإتيان بكتاب أهدى من الكتابين . أمر معلوم متحقق .لا مجال فيه للشك ، ويجوز أن يقصد بحرف الشك التهكم بهم .

فان لم يستجيبوا لك فاعلم انما يتبعون اهواءهم ومن اضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ان الله لا يهدي القوم الظالمين

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ ) زيادة فى تثبيت قلب النبى صلى الله عليه وسلم وتسليته عما أصابه منهم من أذى .أى : فإن لم يفعلوا ما تحديتهم به ، من الإتيان بكتاب هو أهدى من الكتابين .( فاعلم ) - أيها الرسول الكريم - ( أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ) الباطلة ، وشهواتهم الزائفة ، عندما يجادلونك فى شئون دعوتك .والاستفهام فى قوله : ( وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتبع هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ الله . . ) للنفى والإنكار .أى : ولا أحد أضل ممن اتبع هواه وشيطانه ، دون أن تكون معه هداية من الله - تعالى - تهديه إلى طريق الحق ، لأن هذا الضال قد استحب العمى على الهدى . وآثر الغواية على الرشد .وقوله - سبحانه - : ( إِنَّ الله لاَ يَهْدِي القوم الظالمين ) تذييل مبين لسنة الله - تعالى - فى خلقه .أى : إنه - سبحانه - جرت سنته أن لا يهدى القوم الظالمين إلى طريق الحق بسبب إصرارهم على الباطل ، وتجاوزهم لكل حدود الحق والخير .

ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون

كما فسرها الوسيط ثم أكد - سبحانه - قطع أعذارهم وحججهم بقوله : ( وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ القول لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ) .وقوله ) : وَصَّلْنَا ) من الوصل الذى هو ضد القطع ، والتضعيف فيه للتكثير .أى : ولقد أنزلنا هذا القرآن عليك - أيها الرسول الكريم - متتابعا ، وأنت أوصلته إليهم كذلك ، ليتصل تذكيرك لهم ، عن طريق ما اشتمل عليه من عقائد وآداب وأحكام وقصص .( لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ) أى : ليكون ذلك أقرب إلى تذكرهم وتعقلهم وتدبرهم ، لأن استماعهم فى كل يوم . أو بين الحين والحين إلى جديد منه ، أدعى إلى تذكرهم واعتبارهم .فالمقصود بالآية الكريمة . قطع كل حجة لهم ، وبيان أن القرآن الكريم قد أنزله - سبحانه - متتابعا ولم ينزله جملة واحدة ، لحكم من أعظمها اتصال التذكير بهداياته بين حين وآخر ، على حسب ما يجد فى المجتمع من أحداث .وبذلك نرى الآيات الكريمة ، قد أقامت ألوانا من الحجج والبراهين ، على صدق النبى صلى الله عليه وسلم فيما يبلغه عن ربه ، وعلى أن هذا القرآن من عند الله ، كما حكت جانبا من شبهات المشركين ، وردت عليها بما يبطلها .

الذين اتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون

كما فسرها الوسيط ثم تمدح السورة الكريمة بعد ذلك ، طائفة من أهل الكتاب ، - استقامت قلوبهم ، وخلصت نفوسهم من العناد ، فاستقبلوا آيات الله - تعالى ومن جاء بها استقبالا يدل على صدق إيمانهم - فقال - تعالى - : ( الذين آتَيْنَاهُمُ . . . ) .ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات روايات منها : أنها نزلت فى سبعين من القسيسين بعثهم النجاشى إلى النبى صلى الله عليه وسلم فلما قدموا عليه ، قرأ عليهم سورة يس ، فجعلوا يبكون وأسلموا .وقيل : نزلت فى عبد الله بن سلام وأصحابه الذين أسلموا من اليهود .وقيل : نزلت فى نصارى نجران .وعلى أية حال فالآيات الكريمة تمدح قوما من أهل الكتاب أسلموا وتعرض بالمشركين الذين أعرضوا عن دعوة الإسلام ، مع أن فى اتباعها ، سعادتهم ورشدهم .والضمير فى قوله ( مِن قَبْلِهِ ) يعود إلى القرآن الكريم أو إلى النبى صلى الله عليه وسلم والمراد بالموصول من آمن من أهل الكتاب ، والمراد بالكتاب التوارة والإنجيل .أى : الذين آتيناهم الكتاب من اليهود ، والنصارى من قبل نزول القرآن عليك - أيها الرسول الكريم - هم به يؤمنون ، لأنهم يرون فيه الحق الذى لا باطل معه ، والهداية التى لا تشوبها ضلالة .

واذا يتلى عليهم قالوا امنا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين

كما فسرها الوسيط ( وَإِذَا يتلى ) عليهم هذا القرآن ( قالوا ) بفرح وسرور

بأنه كلام الله - تعالى - ( إِنَّهُ الحق مِن رَّبِّنَآ ) ( آمَنَّا بِهِ )
أى : إنه الكتاب المشتمل على الحق الكائن من عند ربنا وخالقنا ( إِنَّا
- كُنَّا مِن قَبْلِهِ ) أى : من قبل نزوله ( مُسْلِمِينَ ) وجوهنا لله
تعالى - ، ومخلصين له العبادة .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : أى فرق بين
الاستئنافين ( إِنَّهُ ) و ( إِنَّا ) ؟قلت : الأول تعليل للإيمان به ، لأن
كونه حقا من الله حقيق بأن يؤمن به . والثانى : بيان لقوله : ( آمَنَّا
بِهِ ) لأنه يحتمل أن يكون إيمانا قريب العهد وبعيده ، فأخبروا أن إيمانهم
به متقادم ، لأن آباءهم القدماء قرءوا فى الكتب الأول ذكره؛ وأبناءهم من
بعدهم .

اولئك يؤتون اجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما أعده لهؤلاء الأخيار من ثواب فقال :
أى : أولئك. ( أُولَـئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ )
الموصوفون بتلك الصفات الكريمة يؤتون أجرهم مضاعفا بسبب صبرهم على مغالبة
شهواتهم ، وبسبب صبرهم على ما يستلزمه اتباع الحق من تكاليف .قال القرطبى :
قوله - تعالى - ( أُولَـئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ
" : ثبت فى صحيح مسلم عن أبى موسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (
ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ، وأدرك النبى صلى
- الله عليه وسلم فآمن به واتبعه وصدقه فله أجران ، وعبد مملوك أدى حق الله
عز وجل - وحق سيده فله أجران ، ورجل كانت له أمة فغذاها فأحسن تغذيتها ، ثم
أدبها فأحسن تأديبها ، ثم أعتقها وتزوجها ، فله أجران " .قال علماؤنا : لما
، كان كل واحد من هؤلاء مخاطبا بأمرين من جهتين استحق كل واحد منهم أجرين
فالكتابى كان مخاطبا من جهة نبيه ، ثم إنه خوطب من جهة نبينا ، فأجابه
واتبعه فله أجر الملتين .وقوله - تعالى - ( وَيَدْرَؤُنَ بالحسنة السيئة )
بيان لصفة أخرى من صفاتهم الحسنة .و ( وَيَدْرَؤُنَ ) من الدرء بمعنى الدفع
ومنه الحديث الشريف : " ادرءوا الحدود بالشبهات " .أى :لا يقابلون السيئة
). بمثلها ، وإنما يعفون ويصفحون ، ويقابلون الكلمة الخبيثة بالكلمة الحسنة
، وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ) أى : ومما أعطيناهم من مال يتصدقون
. بدون إسراف أو تقتير

واذا سمعوا اللغو اعرضوا عنه وقالوا لنا اعمالنا ولكم اعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين

كما فسرها الوسيط ( وَإِذَا سَمِعُواْ اللغو أَعْرَضُواْ عَنْهُ ) أى :
). وإذا سمعوا الكلام الساقط الذى لا خير فيه . انصرفوا عنه تكرما وتنزها
- وَقَالُواْ ) لمن تطاول عليهم وآذاهم ، لنا أعمالنا ، التى سيحاسبنا الله
- تعالى - عليها ( وَلَكُمْ ) - أيضا - أعمالكم ، التى سيحاسبكم الله
، تعالى - عليها .( سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ ) أى : سلام متاركة منا عليكم
وإعراض عن سفاهتكم ، فليس المراد بالسلام هنا : سلام التحية ، وإنما
المقصود به سلام المتاركة والإعراض .( لاَ نَبْتَغِي الجاهلين ) أى : إن
ديننا ينهانا عن طلب صحبة الجاهلين ، وعن المجادلة معهم .قال ابن كثير ما
، ملخصه : لما انتهى وفد أهل الكتاب من لقائه مع النبى صلى الله عليه وسلم
: وآمنوا به ، وقاموا عنه ، اعترضهم أبو جهل فى نفر من قريش ، فقالوا لهم
خيبكم الله من ركب ، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ، ترتادون لهم لتأتوهم
بخبر الرجل ، فلم تكد تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم ، وصدقتموه فيما
قاله ، ما نعلم وفدا أحمق منكم . . . فقالوا لهم : سلام عليكم ، لا نجاهلكم
. لنا ما نحن عليه ، ولكم ما أنتم عليه ،

انك لا تهدي من احببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو اعلم بالمهتدين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أن الهداية منه وحده ، ورد على
- أقوال المشركين ، وبين سنة من سننه فى خلقه ، كما بين أن ما عنده - سبحانه
أفضل وأبقى ، من شهوات الدنيا وزينتها ، فقال - تعالى - : ( إِنَّكَ لاَ
تَهْدِي . . . ) .المعنى : ( إِنَّكَ ) - أيها الرسول الكريم - ( لاَ
تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ) أى : لا تستطيع بقدرتك الخاصة أن تهدى إلى
الإيمان من تريد هدايته إليه .( ولكن الله يَهْدِي مَن يَشَآءُ ) أى : ولكن
، الله - تعالى - وحده ، هو الذى يملك هداية من يشاء هدايته إلى الإيمان
فهو - سبحانه - الخالق لكل شىء ، وقلوب العباد تحت تصرفه - تعالى - يهدى من
). يشاء منها ويضل من يشاء ، على حسب مشيئته وحكمته ، التى تخفى على الناس
وَهُوَ ) - سبحانه - ( أَعْلَمُ بالمهتدين ) أى : بالقابلين للهداية
المستعدين لها .فبلغ - أيها الرسول الكريم - ما كلفناك به ، ثم اترك بعد
ذلك قلوب الناس إلى خالقهم ، فهو - سبحانه - الذى يصرفها كيف يشاء .قال بعض

العلماء : وإن للإنسان ليقف أمام هذا الخبر ، مأخوذا بصرامة هذا الدين واستقامته ، فهذا عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكافله وحاميه والذائد عنه ، لا يكتب الله له الإيمان ، على شدة حبه لرسول الله صلى الله عليه وسلم وشدة حب الرسول له أن يؤمن .ذلك أنه إنما قصد إلى عصبية القرابة وحب الأبوة ، ولم يقصد إلى العقيدة ، وقد علم الله منه ذلك فلم يقدر له ما كان يحبه له صلى الله عليه وسلم ويرجوه ، فأخرج هذا الأمر - أى الهداية - من خاصة رسوله صلى الله عليه وسلم وجعله خاصا بإرادته - سبحانه - وتقديره . وما على الرسول إلا البلاغ ، وما على الداعين بعده إلا النصيحة ، والقلوب ، بعد ذلك بين أصابع الرحمن والهدى والضلال وفق ما يعلمه من قلوب العباد واستعدادهم للهدى والضلال .

وقالوا ان نتبع الهدى معك نتخطف من ارضنا اولم نمكن لهم حرما امنا يجبى اليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ولكن اكثرهم لا يعلمون

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - جانبا من الاعتذارات الواهية التى تذرع بها المشركون فى عدم الدخول فى الإسلام .فقال - تعالى - : ( وقالوا إِن نَّتَّبِعِ الهدى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ) والتخطف : الانتزاع بسرعة . يقال : فلان اختطفه الموت . إذا أخذه بغتة بدون إمهال .وقد ذكروا : فى سبب نزولها ، أن بعض المشركين أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال له يا محمد ، نحن نعلم أنك على الحق ، ولكنا نخشى إن اتبعناك ، وخالفنا العرب أن يتخطفونا من أرضنا ، وإنما نحن أكلة رأس - أى : قليلون لا نستطيع ، مقاومة العرب .وقد رد الله - تعالى - على تعللهم هذا بقوله : ( أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً يجبى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقاً مِّن لَّدُنَّا ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ) .وقوله : ( يجبى إِلَيْهِ ) أى : يحمل إليه ، يقال جبى فلان الماء فى الحوض إذا جمعه فيه ، وحمله إليه .والاستفهام لتقريعهم على قولهم هذا الذى يخالف الحقيقة ، أى : كيف قالوا ذلك ، مع أننا قد جعلنا لهم حرما ذا أمان يعيشون من حوله. وتأتيهم خيرات الأرض من كل مكان ، وقد فعلنا ذلك معهم وهم مشركون ، فكيف نعرضهم للخطف وهم مؤمنون .قال صاحب الكشاف : وكانت العرب فى الجاهلية ، حولهم - أى حول أهل مكة - يتغاورون ويتناحرون وهم آمنون مطمئنون فى حرمهم وبحرمة البيت هم قارون بواد غير ذى زرع ، والثمرات والأرزاق تجبى إليهم من ، كل مكان ، فإذا خولهم الله ما خولهم من الأمن والرزق بحرمة البيت وحدها وهم كفرة عبدة أصنام ، فكيف يستقيم أن يعرضهم للتخطف والخوف ، ويسلبهم - الأمن ، إذا ضموا إلى حرمة البيت حرمة ، الإسلام . .والتعبير بقوله سبحانه - : ( يجبى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقاً ) للإشعار بكثرة الخيرات والثمرات ، التى تأتى إلى أهل مكة من كل جانب من جوانب الأرض ومن كل نوع من أنواع ثمارها . والجملة الكريمة صفة من صفات الحرم ، وقوله - تعالى - : ( مِّن لَّدُنَّا ) أى : من جهتنا ومن عندنا وليس من. عند غيرنا الذين تخشون غضبهم أو تخطفهم لكم ، إن اتبعتم الرسول صلى الله عليه وسلم .فالمقصود بهذه الجملة الكريمة بيان سعة فضل الله - تعالى ، - وأنه هو القادر على كل شىء .وقوله - تعالى - : ( ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ) متعلق بقوله ( أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً ) أى : لقد جعلنا لهم حرما ذا أمن ، وأفضنا عليهم من خيرات الأرض ، ولكن. أكثرهم يجهلون هذه الحقيقة ، ويجهلون أن اتباعهم للدين الحق ، يؤدى إلى سعادتهم فى حياتهم وبعد مماتهم ، وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ الناس مِنْ حَوْلِهِمْ أفبالباطل يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ الله يَكْفُرُونَ ).

وكم اهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا وكنا نحن الوارثين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - الأسباب الحقيقية التى تؤدى إلى زوال النعم ، التى من بينها نعمة الأمان والاطمئنان ، فقال - تعالى - : ( وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ) .وكم هنا خبرية للتكثير - و ( بَطِرَتْ ) من البطر ، بمعنى الأشر والغرور واستعمال نعم الله ، تعالى - فى غير ما خلقت له .أى : وكثيرا من أهل قرى كانت أحوالهم كحال أهل مكة فى الأمن وسعة الرزق ، فلما بطروا معيشتهم ، واستعملوا نعمنا فى الشر لا فى الخير ، وفى الفسوق لا فى الطاعة ، أخذناهم أخذ عزيز مقتدر ، بأن دمرناهم وقراهم تدميرا .إذاً فبطر النعمة وعدم الشكر عليها ، هو السبب الحقيقى فى الهلاك ، وليس اتباع الهدى ، كما زعم أولئك المشركون الجاهلون قال القرطبى : " بين - سبحانه - لمن توهم ، أنه لو آمن لقاتلته العرب. وتخطفته ، أن الخوف فى ترك الإيمان أكثر ، فكم من قوم كفروا ثم حل بهم البوار . والبطر : الطغيان بالنعمة " .و ( مَعِيشَتَهَا ) أى : فى معيشتها فلما حذف " فى " تعدى الفعل ، كما فى قوله - تعالى - : ( واختار موسى ،

قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً )ثم بين - سبحانه - مآل مساكن هؤلاء الطاغين فقال : ( فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً ) .أى : فتلك مساكن هؤلاء الطغاة ترونها يا أهل مكة فى أسفاركم - إنها لم تسكن من بعدهم إلا زمانا قليلا ، كالذى يرتاح بها وهو مسافر ثم يتركها إلى غير عودة إليها ، لأنها صارت غير صالحة لذلك لشؤمها .( وَكُنَّا نَحْنُ الوارثين ) أى : وكنا نحن وحدنا الوارثين لها منهم ، لأنهم لم يتركوا أحدا يرث منازلهم وأموالهم ، أو لأنها صارت خرابا لا تصلح للسكن .

وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في امها رسولا يتلو عليهم اياتنا وما كنا مهلكي القرى الا واهلها ظالمون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - مظهرا من مظاهر عدالته ، وسنة من سننه التى كتبها على نفسه فقال - تعالى - : ( وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ القرى حتى يَبْعَثَ في أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ) والمراد ب ( أُمِّهَا ) أكبرها وأعظمها كمكة بالنسبة للجزيرة العربية .أى. إن حكمة الله - تعالى - وعدالته قد اقتضت ، أن لا يهلك قرية من القرى : التى كفر أهلها ، حتى يبعث فى كبرى تلك القرى وأصلها رسولا من رسله الكرام يتلو على أهلها آياته ، ويبلغهم دعوته ، ويلين لهم الحق من الباطل .وحكمة ، إرسال الرسول فى كبرى تلك القرى ، لأنها المركز والعاصمة ، التى تبلغ الرسالة إلى القرى التابعة لها ، ولأنها فى العادة - المكان المختار لسكنى وجهاء القوم ورؤسائهم .قال ابن كثير ما ملخصه : وفى هذه الآية دلالة على أن النبى صلى الله عليه وسلم المبعوث من أم القرى - وهى مكة - ، رسول إلى جميع القرى من عرب وأعجام ، كما قال - تعالى - : ( وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّتُنذِرَ أُمَّ القرى وَمَنْ حَوْلَهَا ) . وقال - تعالى : ( قُلْ ياأيها الناس إِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ) وثبت فى الصحيحين أنه قال : " بعثت إلى الأحمر والأسود " ، ولذا ختم به الرسالة والنبوة ، فلا نبى بعده ، ولا رسول ، بل شرعه باق بقاء الليل والنهار إلى يوم القيامة .وقوله - سبحانه - : ( وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي القرى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ) معطوف على ما قبله . وهو قوله : ( وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ القرى ) ومؤكد له .أى : وما كنا فى حال من الأحوال بمهكلى هذه القرى ، إلا فى حال ظلم أهلها لأنفسهم ، عن طريق تكذيبهم لرسلنا وإعراضهم عن آياتنا ، وإيثارهم الكفر على الإيمان .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ).

وما اوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وابقى افلا تعقلون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن هذه الدنيا وما فيها من متاع ، هى ، شىء زهيد وضئيل بالنسبة لما ادخره - عز وجل - لعباده الصالحين من خيرات فقال : ( وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الحياة الدنيا وَزِينَتُهَا ) .أى : وما أعطيتموه - أيها الناس - من خير ، وما أصبتموه من مال فهو متاع زائل من أعراض الحياة الدنيا الزائلة وحطامها الذى لا دوام له ومهما كثر فهو إلى فناد ، ومهما طال فله نهاية ، فأنتم تتمتعون بزينة ، الحياة الدنيا ثم تتركونها لغيركم .( وَمَا عِندَ الله ) - تعالى - من ثواب وعطاء جزيل فى الآخرة ، هو فى نفسه ( خَيْرٌ وأبقى ) لأن لذته خالصة من الشوائب والأكدار وبهجته لا تنتهى ولا تزول .( أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ) هذه التوجيهات الحكيمة ، وتعملون بمقتضاها ، فإن من شأن العقلاء أن يؤثروا الباقى على الفانى ، والذى هو خير على الذى هو أدنى .

افمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين

كما فسرها الوسيط ثم نفى - سبحانه - التسوية بين أهل الجنة وأهل النار بأبلغ أسلوب فقال : ( أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاَقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الحياة الدنيا ) .فالاستفهام للإنكار ونفى المساواة بين الفريقين ، والمراد بالوعد : الموعود به وهو الجنة ونعيمها اى : أنه لا يستوى فى عرف أى عاقل ، حال المؤمنين الذين وعدناهم وعدا حسنا. بالجنة ونعيمها ، وهم سيظفورن بما وعدناهم به لا محالة ، وحال اولئك - الكافرين والفاسقين الذين متعانهم إلى حين بمتاع الدنيا الزائلة .وقوله - سبحانه - : ( ثُمَّ هُوَ يَوْمَ القيامة مِنَ المحضرين ) معطوف على ) مّتّعْنَاهُ ) وداخل معه فى حيز الصلة ، ومؤكد لإنكار المساواة .أى : ثم هو هذا الذى متعناه بمتاع الحياة الدنيا الزائل ، من المحضرين لعذابنا فى النار ، والمحضرين : جمع محضر . اسم مفعول من أحضره .وهذا التعبير يشعر

بإحضاره إلى النار وهو مكره خائف ، من العذاب المهين الذى أعدّ له ، فالآية الكريمة قد نفت بأبلغ أسلوب - المساواة بين المؤمنين والكافرين .

ويوم يناديهم فيقول اين شركائي الذين كنتم تزعمون

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - جانبا من أقوال المشركين يوم القيامة ، ومن أحوالهم السيئة ، ورد أمرهم وأمر غيرهم إليه وحده - عز وجل- فقال : ( وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ . . . ) .الظرف فى قوله - سبحانه - : ( وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ ) منصوب بفعل مقدر ، ونداؤهم نداء إهانة وتحقير والنداء صادر عن الله - تعالى - .أى : واذكر - أيها المخاطب - لتتعظ وتعتبر حال أولئك الظالمين ، يوم يناديهم الله - تعالى - فيقول لهم : ( أَيْنَ شُرَكَآئِيَ الذين كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ) أى : أين شركائى الذين كنتم فى الدنيا تزعمونهم شركائى ، لكى ينصروكم أو يدفعوا عنكم العذاب .فمفعولا ( تَزْعُمُونَ ) محذوفان ، لدلالة الكلام عليهما . والمقصود بهذا الاستهفام - أَيْنَ شُرَكَآئِيَ ) الخزى والفضيحة ، إذ من المعلوم أنه لا شركاء لله - تعالى -لا فى ذاته ولا فى صفاته .

قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين اغوينا اغويناهم كما غوينا تبرانا اليك ما كانوا ايانا يعبدون

كما فسرها الوسيط والمراد بالذين حق عليهم القول فى قوله - تعالى - : ( قَالَ الذين حَقّ عَلَيْهِمُ القول . . . ) رؤساؤهم فى الكفر ، ودعاتهم إليه كالشياطين ، ومن يشبهونهم فى التحريض على الضلال .أى قال : رؤساؤهم ودعاتهم إلى الكفر ، الذين ثبت عليهم العذاب بسبب إصرارهم على الفسوق والجحود .( رَبّنَا هؤلاء الذين أَغْوَيْنَآ ) أى : يا ربنا هؤلاء هم أتباعنا الذين أضللناهم .( أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ) أى : دعوناهم إلى الضلالة التى كنا عليها فأطاعونا فيما دعوناهم إليه .قال صاحب الكشاف ، ما ملخصه : قوله : ( هؤلاء ) مبتدأ ، و ( الذين أَغْوَيْنَآ ) صفته والراجع إلى الموصول محذوف و ( أَغْوَيْنَاهُمْ ) الخبر . والكاف صفة لمصدر محذوف تقديره : أغويناهم فغووا غيا مثل ما غوينا ، يعنون أنا لم نغو إلا باختيارنا ، لا أن فوقنا مغوين أغوونا بقسر منهم وإلجاء . أودعونا إلى الغى وسولوه لنا ، فهؤلاء كذلك غووا باختيارهم ، لأن إغواءنا لهم ، لم يكن إلا " . . وسوسة وتسويلا .لا قسرا أو إلجاء " فلا فرق إذا بين غينا وغيهم وقوله - سبحانه - ( تَبَرّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كانوا إِيَّانَا . يَعْبُدُونَ ) من كلام الرؤساء والشياطين ، فهو مقرر لما قبله ، ومؤكد له أى : تبرأنا إليك منهم ، ومن ادعائهم أننا أجبرناهم على الضلالة والغواية. والحق أنهم ما كانوا يعبدوننا ، بل كانوا يعبدون ما سولته لهم أهواؤهم ، وشهواتهم الباطلة .فالآية الكريمة تحكى تبرؤ رءوس الكفر من أتباعهم يوم القيامة ، ومن الآيات التى وردت فى هذا المعنى قوله - تعالى- : ( وَقَالَ الشيطان لَمّا قُضِيَ الأمر إِنّ الله وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحق وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلاّ أَن دَعَوْتُكُمْ فاستجبتم لِي فَلاَ تَلُومُونِي ولوموا أَنفُسَكُمْ . . ) وقوله - سبحانه - : ( واتخذوا مِن دُونِ الله آلِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزّاً كَلاّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً ) .

وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وراوا العذاب لو انهم كانوا يهتدون

كما فسرها الوسيط ثم وجه - سبحانه - إليهم توبيخا آخر فقال : ( وَقِيلَ ادعوا شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ العذاب لَوْ أَنّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ) .أى : وقيل لهؤلاء الكافرين على سبيل الفضيحة والتقريع : اطلبوا من شركائكم الذين توهمتم فيهم النفع والضر أن يشفعوا لكم ، أو أن ينقذوكم مما أنتم فيه من عذاب ، فطلبوا منهم ذلك لشدة حيرتهم وذلتهم ( فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ ) ولم يلتفتوا إليهم .( وَرَأَوُاْ العذاب ) أى : ورأى الشركاء والمشركون العذاب ماثلا أمام أعينهم .و ( لَوْ ) فى قوله : ( لَوْ أَنّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ) شرطية ، وجوابها محذوف . والتقدير : لو أنهم كانوا فى الدنيا مهتدين إلى طريق الحق . لما أصابهم هذا العذاب المهين .ويجوز أن تكون للتمنى فلا تحتاج إلى جواب ، ويكون المعنى . ورأوا العذاب . فتمنوا أن لو كانوا ممن هداهم الله - تعالى - إلى الصراط المستقيم فى الدنيا .

ويوم يناديهم فيقول ماذا اجبتم المرسلين

كما فسرها الوسيط ثم وجه - سبحانه - إليهم نداء آخر لا يقل عن سابقه في فضيحتهم وتقريعهم فقال - تعالى - : ويوم يناديهم فيقول : ( مَاذَا أَجَبْتُمُ المرسلين )أى : واذكر - أيها العاقل - حال هؤلاء الكافرين يوم يناديهم المنادى من قبل الله - عز وجل - فيقول لهم : ما الذى أجبتم به رسلكم عندما أمروكم بإخلاص العبادة لله - تعالى - ونهوكم عن الإشراك والكفر؟فالمقصود من السؤال الأول : توبيخهم على إشراكهم ، والمقصود من السؤال الثانى ، توبيخهم على تكذيبهم لرسلهم ، ولذا وقفوا من هذه الأسئلة موقف الحائر المذهول المكروب ، كما قال - تعالى - : ( فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأنبآء يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لاَ يَتَسَآءَلُونَ ) .

فعميت عليهم الانباء يومئذ فهم لا يتساءلون

كما فسرها الوسيط ( فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأنبآء يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لاَ يَتَسَآءَلُونَ )أى : فخفيت عليهم الحجج التى يجيبون بها على هذه الأسئلة ، وصاروا لفرط دهشتهم وذهولهم عاجزين عن أن يسأل بعضهم بعضا عن الإجابة .وعدى فعمى ، لتضمنه معنى الخفاء قال - سبحانه - ( فَعَمِيَتْ ) عَلَيْهِمُ الأنبآء ) ولم يقل : فعموا عن الأنباء ، للمبالغة فى بيان ذهولهم وصمتهم المطبق فى ذلك اليوم العسير ، حتى لكأنما الأنباء والأخبار ) - عمياء لا تصل إليهم ، ولا تعرف شيئا عنهم .والتعبير بقوله - سبحانه فَهُمْ لاَ يَتَسَآءَلُونَ ) يشعر بزيادة حيرتهم وفرط دهشتهم فهم جميعا قد صاروا فى حالة من الإبلاس والحيرة ، جعلتهم يتساوون فى العجز والجهل .

فاما من تاب وامن وعمل صالحا فعسى ان يكون من المفلحين

كما فسرها الوسيط وكعادة القرآن الكريم فى الجمع بين حال الكافرين وحال المؤمنين ، أتبع الحديث عن الكافرين ، بالحديث عن المؤمنين فقال ) : فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فعسى ) هذا التائب المؤمن المواظب على الأعمال الصالحة ( أَن يَكُونَ مِنَ المفلحين ) أى من الفائزين بالمطلوب .قال ابن كثير : و ( عسى ) من الله - عز وجل - موجبة ، فإن هذا واقع بفضل الله ومنّه - أى وعطائه -لا محالة .

وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن مرد الأمور جميعها إليه ، وأنه هو صاحب الخلق والأمر فقال : ( وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ) أى : وربك - أيها الرسول الكريم - يخلق ما يشاء أن يخلقه ، ويختار من يختار من عباده لحمل رسالته ، ولتبليغ دعوته . ( لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ) و ( مَا ) فى قوله - تعالى ( مَا كَانَ لَهُمُ الخيرة ) نافية والخيرة من التخير وهى بمعنى الاختيار ، والجملة مؤكدة لما قبلها من أنه - سبحانه - يخلق ما يشاء ويختار .أى : وربك وحده يخلق ما يشاء خلقه ويختار ما يشاء اختياره لشئون عباده ، وما صح وما استقام لهؤلاء المشركين أن يختاروا شيئا لم يختره الله - تعالى - أو لم يرده ، إذ كل شىء فى هذا الوجود خاضع لإرادته وحده - عز وجل - ولا يملك أحد كائنا من كان أن يقترح عليه شيئا ولا أن يزيد أو ينقص فى خلقه شيئا .وليس هؤلاء المشركين أن يختاروا للنبوة أو لغيرها أحدا لم يختره الله - تعالى - لذلك ، فالله -عز وجل - أعلم حيث يجعل رسالته .قال القرطبى ما ملخصه : قوله ( مَا كَانَ لَهُمُ الخيرة ) أى : ليس يرسل من اختاروه هم .وقيل : يجوز أن تكون ) مَا ) فى موضع نصب بيختار ، ويكون المعنى ، ويختار الذى كان لهم فيه الخيرة والصحيح الأول لإطباقهم الوقف على قوله ( وَيَخْتَارُ ) ، و ( مَا ) نفى. عام لجميع الأشياء ، أن يكون للعبد فيها شىء سوى اكتسابه بقدرة الله - عز وجل - .وقال الثعلبى : و ( مَا ) نفى ، أى ليس لهم الاختيار على الله . وهذا أصوب ، كقوله - تعالى - : ( وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى الله وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الخيرة مِنْ أَمْرِهِمْ . ) وقوله - تعالى - : ( سُبْحَانَ الله وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ) - تنزيه له - عز وجل - عن الشرك والشركاء .أى تنزه الله - تعالى - وتقدس بذاته وصفاته عن إشراك المشركين ، وضلال الضالين .

وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن علمه شامل لكل شىء فقال ) : ( وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ) .أى : وربك - أيها الرسول الكريم - يعلم علما تاما ما تخفيه صدور هؤلاء المشركين من أسرار ، وما تعلنه من أقوال ، وسيحاسبهم على كل ذلك حسابا لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

وهو الله لا اله الا هو له الحمد في الاولى والاخرة وله الحكم واليه ترجعون

كما فسرها الوسيط ( وَهُوَ الله ) - سبحانه -لا إله إلا هو يستحق العبادة - والخضوع ( لَهُ الحمد فِي الأولى والآخرة ) .أى : فى الدنيا ، وله الحمد ) أيضا - فى الآخرة ، وله وحده ( الحكم ) النافذ ( وَإِلَيْهِ ) وحده تُرْجَعُونَ ) للحساب لا إلى غيره .

قل ارايتم ان جعل الله عليكم الليل سرمدا الى يوم القيامة من اله غير الله ياتيكم بضياء افلا تسمعون

كما فسرها الوسيط ثم أمر - سبحانه - نبيه صلى الله عليه وسلم بمظاهر قدرته - سبحانه - فى هذا الكون ، وأن يوقظ مشاعرهم للتأمل فى ظاهرتين كونيتين ، هما الليل والنهار ، فإن التدبر فيما اشتملتا عليه من تنظيم دقيق - من شأنه أن يبعث على الإيمان بقدرة موجدهما ، وهو الله عز وجل . قال ، تعالى - : ( قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن . . . ) .السرمد : الدائم الذى لا ينقطع والمراد به هنا : دوام الزمان من ليل أو نهار .والمعنى : قل - أيها ، الرسول الكريم - للناس ليعتبروا ويتعظوا وينتبهوا إلى مظاهر قدرتنا ورحمتنا أخبرونى ماذا كان يحصل لكم إن جعل الله - تعالى - عليكم الزمان ليلا ، دائما إلى يوم القيامة ، ( مَنْ إله غَيْرُ الله ) - تعالى - ( يَأْتِيكُمْ ) بِضِيَآءٍ ) تبصرون عن طريقه عجائب هذا الكون ، وتقضون فيه حوائجكم أَفَلاَ تَسْمَعُونَ ) ما أرشدناكم إليه سماع تدبر وتفهم واعتبار يهديكم إلى طاعة الله - تعالى - وشكره على نعمه .

قل ارايتم ان جعل الله عليكم النهار سرمدا الى يوم القيامة من اله غير الله ياتيكم بليل تسكنون فيه افلا تبصرون

- كما فسرها الوسيط ثم قال لهم : أخبرونى بعد ذلك ، لو جعل الله - تعالى - عليكم الزمان ضياء دائما إلى يوم القيامة ( مَنْ إله غَيْرُ الله ) تعالى - ( يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ) أى : تستريحون فيه من عناء العمل والكد والتعب بالنهار ( أفلاَ تُبْصِرُونَ ) أى : أفلا تبصرون هذه الدلائل الساطعة الدالة على قدرة الله - تعالى - ورأفته بكم .إن دوام الزمان على هيئة واحدة من ليل أو نهار ، يؤدى إلى اختلال الحياة ، وعدم توفر أسباب المعيشة السليمة لكم ، بل ربما أدى إلى هلاككم .إن المشاهد من ، أحوال الناس ، أنهم مع وجود الليل لساعات محدودة ، يشتافون لطلوع الفجر لقضاء مصالحهم ، ومع وجود النهار لساعات محدودة - أيضا - يتطلعون إلى حلول الليل ، ليستريحوا فيه من عناء العمل .وختم - سبحانه - الآية الأولى بقوله لأن حاسة السمع - فيما لو كان الليل سرمدا - هى ( أَفَلاَ تَسْمَعُونَ ) : : أكثر الحواس استعمالا فى تلك الحالة المفترضة ، وختم الآية الثانية بقوله لأن حاسة البصر - فيما لو كان النهار سرمدا - من ، ( أفلاَ تُبْصِرُونَ ) أكثر الحواس استعمالا فى هذه الحالة .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : هلا قيل بنهار تتصرفون فيه ، كما قيل " بليل تسكنون فيه "؟قلت ذكر الضياء - هو : ضوء الشمس - لأن المنافع التى تتعلق به متكاثرة ، ليس التصرف فى المعاش وحده ، والظلام ليس بتلك المنزلة .

ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الليل والنهار لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ) بيان لمظاهر فضل الله - تعالى - على الناس حيث جعل الليل والنهار على تلك الحالة التى يعيشون فيها .أى : ومن رحمته بكم - أيها الناس - أنه - سبحانه - لم يجعل زمان الليل سرمدا ، ولا زمان النهار ، بل جعلها متعاقبين ، وجعل لكل واحد منهما زمانا محددا مناسبا لمصالحكم ومنافعكم ، فالليل تسكنون فيه وتريحون فيه أبدانكم ، والنهار ، تنتشرون فيه لطلب الرزق من الله تعالى .وقد فعل - سبحانه - ذلك لمصلحتكم كى تشكروه على نعمه ، وتخلصوا له العبادة والطاعة .

ويوم يناديهم فيقول اين شركائي الذين كنتم تزعمون

كما فسرها الوسيط وبعد هذا الحديث عن مشاهد الكون ، عادت السورة - للمرة الثالثة - إلى الحديث عن أحوال المجرمين يوم القيامة ، فقال - تعالى - : ( وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآئِيَ الذين كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ) .أى : كن متذكرا - أيها العاقل - لتعتبر وتتعظ ، حال

المجرمين يوم القيامة ، يوم يناديهم الله - تعالى - على سبيل التقريع والتأنيب فيقول لهم : أين شركائى الذين كنتم فى دنياكم تزعمون أنهم شركائى فى العبادة والطاعة .إنهم لا وجود لهم إلى فى عقولكم الجاهلة ، وأفكاركم الباطلة ، وتقاليدكم السقيمة .قال - تعالى - : ( وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرادى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوّلَ مَرّةٍ وَتَرَكْتُمْ مّا خَوّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نرى مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ الذين زَعَمْتُمْ أَنّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَآءُ لَقَد تّقَطّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلّ عَنكُم مّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ).

ونزعنا من كل امة شهيدا فقلنا هاتوا برهانكم فعلموا ان الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( وَنَزَعْنَا مِن كُلّ أُمّةٍ شَهِيداً ) .أى : أخرجنا بسرعة من كل أمة من الأمم شهيدا يشهد عليهم ، والمراد به الرسول الذى أرسله - سبحانه - إلى تلك الأمة المشهود عليها ) . فَقُلْنَا هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ ) أى : فقلنا لهؤلاء المشركين - بعد أن شهد عليهم أنبياؤهم بأنهم قد بلغوهم رسالة الله - قلنا لهم : هاتوا برهانكم وأدلتكم على صحة ما كنتم عليه من شرك وكفر فى الدنيا : والأمر هنا للتعجيز والإفضاح .ولذا عقب - سبحانه - عليهم بقوله : ( فعلموا أنّ الحق لِلّهِ - أى : فعجزوا عن الإتيان بالبرهان ، وعلموا أن العبادة الحق إنما هى لله ( تعالى - وحده . ( وَضَلّ عَنْهُمْ مّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ) أى : وغاب عنهم ما كانوا يفترونه فى حياتهم ، من أن معبوداتهم الباطلة ستشفع لهم يوم القيامة .وبعد هذا البيان المتنوع عن دعاوى المشركين والرد عليها ، وعن أحوالهم يوم القيامة ، وعن أحوالهم المؤمنين الصادقين . . .

ان قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم واتيناه من الكنوز ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة اولي القوة اذ قال له قومه لا تفرح ان الله لا يحب الفرحين

- كما فسرها الوسيط بعد كل ذلك ، ختم - سبحانه - قصة موسى - عليه السلام التى جاء الحديث عنها فى كثير من آيات هذه السورة - ختمها بقصة قارون الذى . . . كان من قوم موسى - عليه السلام - فقال - تعالى - : ( إِنّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ موسى ).( قال القرطبى : قوله - تعالى - ( إِنّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ موسى ). لما قال - تعالى - : ( وَمَآ أُوتِيتُم مّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الحياة الدنيا وَزِينَتُهَا ) بين أن قارون أوتيها واغتر بها . ولم تعصمه من عذاب الله ، كما لم تعصم فرعون ولستم - أيها المشركون - بأكثر عددا ومالا من قارون وفرعون ، فلم ينفع فرعون جنوده وأمواله ، ولم ينفع قارون قرابته من موسى ولا كنوزه .قال النخعى وقتادة وغيرهما : كان قارون ابن عم موسى . . . وقيل كان ابن خالته . .وقوله ( فبغى عَلَيْهِمْ ) من البغى وهو مجاوزة الحد فى كل شىء . يقال : بغى فلان على غيره بغيا ، إذا ظلمه واعتدى عليه . وأصله من بغى الجرح ، إذا ترامى إليه الفساد .والمعنى : إن قارون كان من قوم موسى ). أى : من بنى إسرائيل الذين أرسل إليهم موسى كما أرسل إلى فرعون وقومه ، فبغى عَلَيْهِمْ ) أى : فتطاول عليهم ، وتجاوز الحدود فى ظلمهم وفى الاعتداء عليهم .ولم يحدد القرآن كيفية بغيه أو الأشياء التى بغى عليهم فيها ، للإشارة إلى أن بغيه قد شمل كل ما من شأنه أن يسمى بغيا من أقوال أو أفعال .وقوله - تعالى - : ( وَآتَيْنَاهُ مِنَ الكنوز مَآ إِنّ - مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بالعصبة أُوْلِي القوة ) بيان لما أعطى الله ) تعالى - لقارون من نعم .والكنوز : جمع كنز وهو المال الكثير المدخر ، و مَآ ) موصولة . وهى المفعول الثانى لآتينا .وصلتها ( إِنّ ) وما فى حيزها وقوله : ( مَفَاتِحَهُ ) جمع مفتح - بكسر الميم وفتح التاء - وهو الآلة . التى يفتح بها - أو جمع مفتح - بفتح الميم والتاء - بمعنى الخزائن التي تجمع فيها الأموال .وهو - أى لفظ مفاتحه - اسم إن ، والخبر : ( لَتَنُوءُ بالعصبة أُوْلِي القوة ) .وقوله ( لَتَنُوءُ ) . أى لتعجز أو لتثقل . يقال ) ناء فلان بحمل هذا الشىء ، إذا أثقله حمله وأتعبه : والباء فى قوله : ، بالعصبة ) للتعدية والعصبة : الجماعة من الناس من غير تعيين بعدد معين سموا بذلك لأنهم يتعصب بعضهم لبعض ومنهم من خصها فى العرف ، بالعشرة إلى ، الأربعين .والمعنى : وآتينا قارون - بقدرتنا وفضلنا - من الأموال الكثيرة ما يثقل حمل مفاتح خزائنها ، العصبة من الرجال الأقوياء ، بحيث تجعلهم شبه عاجزين عن حملها .قال صاحب الكشاف : وقد بولغ فى ذكر ذلك - أى فى كثرة أمواله - بلفظ الكنوز ، والمفاتح ، والنوء ، والعصبة ، وأولى القوة والمراد بالفرح فى قوله - سبحانه - : ( إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لاَ تَفْرَحْ ) : البطر والأشر والتفاخر على الناس ، والاستخفاف بهم واستعمال نعم الله - تعالى - فى السيئات والمعاصى .وجملة : ( إِنّ الله لاَ يُحِبّ - الفرحين ) تعليل للنهى عن الفرح المذموم .أى : لقد أعطى الله - تعالى قارون نعما عظيمة ، فلم يشكر الله عليها ، بل طغى وبغى ، فقال له العقلاء

من قومه :لا تفرح بهذا المال الذى بين يديك فرح البطر الفخور ، المستعمل لنعم الله فى الفسوق والمعاصى ، فإن الله - تعالى -لا يحب من كان كذلك .

وابتغ فيما اتاك الله الدار الاخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا واحسن كما احسن الله اليك ولا تبغ الفساد في الارض ان الله لا يحب المفسدين

كما فسرها الوسيط ثم قالوا له - أيضا - على سبيل النصح والإرشاد : ( وابتغ فِيمَآ آتَاكَ الله الدار الآخرة ) أى : واطلب فيما أعطاك الله - تعالى - من أموال عظيمة ، ثواب الدار الآخرة ، عن طريق إنفاق جزء من مالك فى وجوه الخير ، كالإحسان إلى الفقراء والمحتاجين .( وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدنيا ) أى : اجعل مالك زادا لآخرتك ، ولا تترك التنعم بنعم الله فى دنياك فإن لربك عليك حقا ، ولنفسك عليك حقا ، ولأهلك عليك حقا ، ولضيفك عليك حقا ، فأعط كل ذى حق حقه .( وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ الله إِلَيْكَ ) أى : وأحسن إلى عباد الله بأن تترك البغى عليهم ، وتعطيهم حقوقهم . مثل ما أحسن الله إليك بنعم كثيرة .( وَلاَ تَبْغِ الفساد فِي الأرض ) أى : ولا تطلب الفساد فى الأرض عن طريق البغى والظلم ( إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ المفسدين ) كما أنه - سبحانه -لا يحب الفرحين المختالين .وهكذا ساق العقلاء من قوم قارون النصائح الحكيمة له ، والتى من شأن من اتبعها أن ينال السعادة فى دنياه وأخراه .

قال انما اوتيته على علم عندي اولم يعلم ان الله قد اهلك من قبله من القرون من هو اشد منه قوة واكثر جمعا ولا يسال عن ذنوبهم المجرمون

كما فسرها الوسيط ولكن قارون قابل هذه النصائح ، بالغرور وبالإصرار على الفساد والجحود فقال كما حكى القرآن عنه ( إِنَّمَآ أوتِيتُهُ على عِلْمٍ عندي ) .أى : قال قارون فى الرد على ناصحيه : إن هذا المال الكثير الذى تحت يدى ، إنما أوتيته بسبب علمى وجدى واجتهادى . . . فكيف تطلبون منى أن أتصرف بمقتضى نصائحكم؟ لا . لن أتبع تلك النصائح التى وجهتموها إلى ، فإن هذا المال مالى ولا شأن لكم بتصرفى فيه ، كما أنه لا شأن لكم بتصرفاتى الخاصة ولا بسلوكى فى حياتى التى أملكها .وهذا القول يدل على أن قارون ، كان قد بلغ الذروة فى الغرور والطغيان وجحود النعمة .ولذا جاءه التهديد المصحوب بالسخرية منه ومن كنوزه ، فى قوله - تعالى - : ( أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ الله قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ القرون مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً ) .والمقصود بهذا الاستفهام التعجيب من حاله ، والتأنيب له على جهله وغروره .أى : أبلغ الغرور والجهل بقارون أنه يزعم أن هذا المال الذى بين يديه جمعه بمعرفته واجتهاده ، مع أنه يعلم - حق العلم عن طريق التوراة وغيرها ، أن الله - تعالى - قد أهلك من قبله . من أهل القرون السابقة عليه من هو أشد منه فى القوة ، وأكثر منه فى جمع المال واكتنازه .فالمقصود بالجملة الكريمة تهديده وتوبيخه على غروره وبطره وقوله - سبحانه - : ( وَلاَ يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ المجرمون ) جملة حالية .أى : والحال أنه لا يسأل عن ذنوبهم المجرمون سؤال استعتاب واستعلام - لأن الله - تعالى -لا يخفى عليه شىء . وإنما يسألون - كما جاء فى قوله ، تعالى - ( فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ) - سؤال توبيخ وإفضاح .فالمراد بالنفى فى قوله - سبحانه - ( وَلاَ يُسْأَلُ . . . ) سؤال الاستعلام والاستعتاب ، والمراد بالإثبات فى قوله : ( فَلَنَسْأَلَنَّ ) أو فى قوله : ( فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُم ) سؤال التقريع والتوبيخ .أو نقول : إن فى يوم القيامة مواقف ، فالمجرمون قد يسألون فى موقف ، ولا يسألون فى موقف آخر ، وبذلك يمكن الجمع بين الآيات التى تنفى السؤال والآيات التى تثبته .

فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما اوتي قارون انه لذو حظ عظيم

كما فسرها الوسيط ثم حكى القرآن بعد ذلك مظهرا آخر من مظاهر غرور قارون وبطره فقال : ( فَخَرَجَ على قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ) والجملة الكريمة معطوفة على قوله قبل ذلك ( قَالَ إِنَّمَآ أوتِيتُهُ على عِلْمٍ عندي ) وما بينهما اعتراض . والزينة : اسم ما يتزين به الإنسان من حلى أو ثياب أو ما يشبهها .أى : قال ما قال قارون على سبيل الفخر والخيلاء ، ولم يكتف بهذا القول بل خرج على قومه فى زينة عظيمة . وأبهة فخمة ، فيها ما فيها من ألوان الرياش والخدم .وقد ذكر بعض المفسرين روايات متعددة ، فى زينته التى خرج فيها ، رأينا أن نضرب عنها صفحا لضعفها ، ويكفى أن نعلم أنها زينة فخمة لأنه لم يرد نص فى تفاصيلها .وأمام هذه الزينة الفخمة التى خرج فيها قارون أنقسم الناس إلى فريقين ، فريق استهوته هذه الزينة ، وتمنى أن يكون له مثلها ، وقد عبر القرآن عن هذا الفريق بقوله : ( قَالَ الذين يُرِيدُونَ

الحياة الدنيا ياليت لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَارُونُ إِنّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ) .أى : خرج قارون على قومه فى زينته ، فما كان من الذين يريدون الحياة الدنيا وزخارفها من قومه ، إلا أن قالوا على سبيل التمنى والانبهار . . . يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون من مال وزينة ورياش ، إنه لذو حظ عظيم ، ونصيب ضخم ، من متاع الدنيا وزينتها .هكذا قال الذين يريدون الحياة الدنيا . وهم الفريق الأول من قوم قارون . أما الفريق الثانى المتمثل فى أصحاب الإيمان القوى ، والعلم النافع ، فقد قابلوا أصحاب هذا القول بالزجر والتعنيف .

وقال الذين اوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن امن وعمل صالحا ولا يلقاها الا الصابرون

كما فسرها الوسيط وقد حكى القرآن ذلك عنهم فقال : ( وَقَالَ الذين أُوتُواْ العلم وَيْلَكُمْ ثَوَابُ الله خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلاَ يُلَقَّاهَآ إِلاّ الصابرون ) .وكلمة ( وَيْلَكُمْ ) أصلها الدعاء بالهلاك ، وهى منصوبة بمقدر . أى : ألزمكم الله الويل .ثم استعملت فى الزجر والتعنيف والحض على ترك ما هو قبيح ، وهذا الاستعمال هو المراد هنا .أى : وقال الذين أوتوا العلم النافع من قوم قارون . لمن يريدون الحياة الدنيا : كفوا عن قولكم هذا ، واتركوا الرغبة فى أن تكونوا مثله ، فإن ( ثَوَابُ الله ) فى الاخرة ( خَيْرٌ ) مما تمنيتموه ، وهذا الثواب إنما هو ( لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ) فلا تتمنوا عرض الدنيا الزائل .وهذه الثوبة العظمة التى أعدها الله - تعالى - لمن آمن وعمل صالحا ( وَلاَ يُلَقَّاهَآ أى :لا يظفر بها ، ولا يوفق للعمل لها ( إِلاّ الصابرون ) على طاعة ( الله - تعالى - وعلى ترك المعاصى والشهوات .قال صاحب الكشاف : والراجع فى وَلاَ يُلَقَّاهَآ ) للكلمة التى تكلم بها العلماء ، أو للثواب ، لأه فى معنى المثوبة أو الجن أو للسيرة والطريقة وهى الإيمان والعمل الصالح .ثم جاءت بعد ذلك العقوبة لقارون ، بعد أن تجاوز الحدود فى البغى والفخر والإفساد فى الأرض.

فخسفنا به وبداره الارض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين

كما فسرها الوسيط وقد حكى سبحانه - هذه العقوبة فى قوله : ( فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأرض ) .وقوله - تعالى - ( فَخَسَفْنَا ) من الخسف وهو النزول فى الأرض ، يقال : خسف المكان خسفا - من باب ضرب - إذا غار فى الأرض ويقال : خسف القمر ، إذا ذهب ضؤوه ، وخسف الله بفلان الأرض ، إذا غيبه . فيها .قال ابن كثير لما ذكر الله - تعالى - اختيال قارون فى زينته ، وفخره على قومه وبغيه عليهم ، عقب ذلك بأنه خسف به وبداره الأرض ، كما ثبت فى الصحيح - عند البخارى من حديث الزهرى عن سالم - أن أباه حدثه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " بينا رجل يجر إزاره إذ خسف به ، فهو يتجلجل فى الأرض إلى يوم القيامة " .أى : تمادى قارون فى بغيه ، ولم يستمع لنصح الناصحين ، فغيبناه فى الأرض هو وداره ، وأذهبناهما فيها ذهابا تاما أى : فما ( فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ الله ). كان لقارون من جماعة أو عصبة تنصره من عذاب الله ، بأن تدفعه عنه ، أو ترحمه منه .( وَمَا كَانَ ) قارون ( مِنَ المنتصرين ) بل كان من الأذلين الذين تلقوا عقوبة الله - تعالى - باستسلام وخضوع وخنوع ، دون أن يستطيع هو - أو قومه رد عقوبة الله - تعالى .

واصبح الذين تمنوا مكانه بالامس يقولون ويكان الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا ان من الله علينا لخسف بنا ويكانه لا يفلح الكافرون

كما فسرها الوسيط ثم - بين - سبحانه - ما قاله الذين كانوا يتمنون أن يكونوا مثل قارون فقال - تعالى - : ( وَأَصْبَحَ الذين تَمَنّوْاْ مَكَانَهُ بِالأمس يَقُولُونَ وَيْكَأَنّ الله يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لولا أن مّنّ الله عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنّهُ لاَ يُفْلِحُ الكافرون ) .ولفظ " وى " اسم فعل بمعنى أعجب ، ويكون - أيضا - للتحسر والتندم ، وكان الرجل من العرب إذا أراد أن يظهر ندمه وحسرته على أمر فائت يقول : وى .وقد يدخل هذا اللفظ على حرف " كأن " المشددة - كما فى الآية - وعلى المخففة .قال الجمل ما ملخصه قوله : ( وَيْكَأَنّ الله ) فى هذا اللفظ مذاهب : أحدها : أن ( وى ) كلمة برأسها ، وهى اسم فعل معناها أعجب ، أى : أنا ، ( والكاف ) للتعليل ، ( وأن وما فى حيزها مجرورة بها ، أى : أعجب لأن الله - تعالى - يبسط الرزق لمن ( يشاء ويقدر .. . وقياس هذا القول أن يوقف على " وى " وحدها ، وقد فعل ذلك الكسائى .الثانى : أن كأن هنا للتشبيه إلا أنه ذهب معناه وصارت للخبر

" واليقين ، وهذا - أيضا - يناسبه الوقف على ( وى ) .الثالث : أن " ويك كلمة برأسها ، والكاف حرف خطاب ، و " أن " معمولة لمحذوف . أى : أعمل أن : الله يبسط . . . وهذا يناسب الوقف على ( ويك ) وقد فعله أبو عمرو .الرابع أن أصل الكلمة ويلك ، فحذفت اللام وهذا يناسب الوقف على الكاف - أيضا - كما فعل أبو عمرو .الخامس : أن ( وَيْكَأَنَّ ) كلها كلمة مستقلة بسيطة ومعناها ألم تر . . . ولم يرسم فى القرآن إلا ( وَيْكَأَنَّ ) و ( وَيْكَأَنَّهُ : متصلة فى الموضعين . . ووصل هذه الكلمة عند القراءة لا خلاف بينهم فيه ( والمعنى : وبعد أن خسف الله - تعالى - الأرض بقارون ومعه داره ، أصبح. الذين تمنوا أن يكونوا مثله ( بالأمس ) أى : منذ زمان قريب ، عندما خرج عليهم فى زينته ، أصبحوا يقولون بعد أن رأوا هلاكه : ( وَيْكَأَنَّ الله يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ) أى : صاروا يقولون ما أعجب قدرة الله - تعالى - فى إعطائه الزرق لمن يشاء من عباده وفى منعه عمن يشاء منهم ، وما أحكمها فى تصريف الأمور ، وما أشد غفلتنا عندما - تمنينا أن نكون مثل قارون ، وما أكثر ندمنا على ذلك .لولا أن الله تعالى - قد منّ علينا ، بفضله وكرمه لخسف بنا الأرض كما خسفها بقارون - وبداره .( وَيْكَأَنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الكافرون ) أى : ما أعظم حكمة الله تعالى - فى إهلاكه للقوم الكافرين ، وفى إمهاله لهم ثم يأخذهم بعد ذلك أخذ عزيز مقتدر .

تلك الدار الاخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الارض ولا فسادا والعاقبة للمتقين

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - قصة قارون ببيان سنة من سننه التى لا تتخلف فقال : ( تِلْكَ الدار الآخرة نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأرض وَلاَ فَسَاداً ) .واسم الإشارة ( تِلْكَ ) مبتدأ ، والدار الآخرة صفة له ، ونجعلها . . . خبره ، وجاءت الإشارة بهذه الصيغة المفيدة للبعد ، للإشعار بعظم هذه الدار وعلو شأنها .أى : تلك الدار الآخرة وما فيها من جنات ونعيم ، نجعلها خالصة لعبادنا الذين لا يريدون بأقوالهم ولا بأفعالهم ظ ( عُلُوّاً فِي الأرض ) أى : تطاولا وتعاليا فيها ( وَلاَ فَسَاداً ) أى : ظلما أو بغيا أو عدوانا على أحد .( والعاقبة ) الطيبة الحسنة ، إنما هى ( لِلْمُتَّقِينَ ) الذين صانوا أنفسهم عن كل سوء وقبيح .

من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات الا ما كانوا يعملون

كما فسرها الوسيط ( مَن جَآءَ ) فى دنياه ( بالحسنة ) أى بالأعمال الحسنة ) فَلَهُ ) فى مقابلها عندنا بفضلنا وإحساننا ( خَيْرٌ مِّنْهَا ) أى : فله عندنا خير مما جاء به من حسنات ، بأن نضاعفها ، وتثيبه عليها ثوابا عظيما لا يعلم مقداره أحد .( وَمَن جَآءَ بالسيئة فَلاَ يُجْزَى الذين عَمِلُواْ الأعمال ( السيئات إِلاَّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ) أى : فلا يجوزون ( إلا الجزاء الذى يناسب أعمالهم فى القبح والسوء .وهكذا يسوق لنا القرآن فى قصصه العبر والعظات ، لقوم يتذكرون ، فمن قصة قارون نرى أن كفران النعم ، يؤدى إلى زوالها ، وأن الغرور والبغى والتفاخر كل ذلك يؤدى إلى الهلاك وأن خير الناس من يبتغى فيما آتاه الله من نعم ثواب الآخرة ، دون أن يهمل نصيبه من الدنيا ، وأن العاقل هو من يستجيب لنصح الناصحين ، وأن الناس فى كل زمان ومكان ، منهم الذين يريدون زينة الحياة الدنيا ، ومنهم الأخيار الأبرار الذين يفضلون ثواب الآخرة ، على متع الحياة الدنيا ، وأن العاقبة الحسنة قد جعلها - سبحانه - لعباده المتقين ، وأنه - سبحانه - يجازى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

ان الذي فرض عليك القران لرادك الى معاد قل ربي اعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ببشارة النبى صلى الله عليه وسلم ، وبتثبيت قلبه ، وبأمره بالمضى فى تبليغ رسالة ربه بدون خوف أو وجل . . . فقال - تعالى - : ( إِنَّ الذي فَرَضَ . . . ) .قال القرطبى : قوله - تعالى - : ( إِنَّ الذي فَرَضَ عَلَيْكَ القرآن لَرَآدُّكَ إلى مَعَادٍ . . ) . ختم - سبحانه - السورة ببشارة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم برده إلى مكة قاهرا لأعدائه . وقيل : هو بشارة له بالجنة . والأول أكثر . وهو قول جابر بن عبد الله ، وابن عباس ، ومجاهد ، وغيرهم .قال القتبى : معاد الرجل بلده ، لأنه ينصرف عنه ثم يعود إليه . . وقيل إلى معاد أى : إلى الموت .قال الآلوسى : وقد يقال : أطلق - سبحانه - المعاد على مكة ، لأن العرب كانت تعود إليها فى كل سنة ، لمكان البيت فيها ، وهذا وعد منه - عز وجل - لنبيه صلى الله عليه وسلم وهو بمكة أنه - عليه الصلاة

والسلام - يهاجر منها ثم يعود إليها . وروى عن غير واحد أن الآية نزلت بالجحفة بعد أن خرج صلى الله عليه وسلم من مكة مهاجرا واشتاق إليها ، ووجه ارتباطها بما تقدمها : تضمنها الوعد بالعاقبة الحسنى فى الدنيا ، كما تضمن ما قبلها الوعد بالعاقبة الحسنى فى الآخرة .والمعنى : ( إِنَّ الذي فَرَضَ عَلَيْكَ القرآن ) - أيها الرسول الكريم - ، بأن أنزله إليك ، وكلفك بحفظه وتلاوته على الناس ، والعمل بأوامره ونواهيه .( لَرَآدُّكَ إلى مَعَادٍ ) أى : لرادك إلى المكان الذى أنت فيه وهو مكة ، بعد أن تهاجر منه .تعود إليه ظاهرا منتصرا ، بعد أن خرجت منه وأنت مطارد من أعدائك .تعود إليه ومعك الآلاف من أتباعك بعد أن خرجت منه وليس معك سوى صاحبك أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - .وقد حقق الله - تعالى - هذا الوعد لنبيه صلى الله عليه وسلم فقد عاد الرسول إلى مكة ومعه أصحابه المؤمنون ، بعد سنوات قليلة من هجرتهم منها .قال صاحب الكشاف : " ووجه تنكيره - أى لفظ المعاد - أنها كانت فى ذلك اليوم معادا له شأن ، ومرجعا له اعتداد ، لغلبة رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها ، وقهره لأهلها ، لظهور عز الإسلام وأهله ، وذل الشرك وحزبه .ثم أرشد - سبحانه - نبيه إلى ما يرد به على دعاوة المشركين فقال : ( قُل ربي أَعْلَمُ مَن جَآءَ بالهدى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ) .أى : قل - أيها الرسول الكريم - لمن خالفك وكذبك ، ربى وحده هو الأعلم بالمهتدى وبالضال منى ومنكم ، وسيجازى كل فريق بما يستحقه ، وستعلمون - أيها المشركون - لمن عقبى الدار .

وما كنت ترجو ان يلقى اليك الكتاب الا رحمة من ربك فلا تكونن ظهيرا للكافرين

، كما فسرها الوسيط ثم ذكره - سبحانه - بنعمة اختصاصه بالنبوة وحمل الرسالة فقال : ( وَمَا كُنتَ ترجوا أن يلقى إِلَيْكَ الكتاب إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ) .أى : وما كنت - أيها الرسول الكريم - قبل وحينا إليك بالرسالة تتوقع أو تظن أننا سنكلفك بها ، لكننا كلفناك بها وشرفناك بحملها رحمة ، منها بالناس فأنت الرحمة المهداة والنعمة المسداة إليهم ، لإخراجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان .

ولا يصدنك عن ايات الله بعد اذ انزلت اليك وادع الى ربك ولا تكونن من المشركين

`<!-- TODO:MISSING -->`{=html} كما فسرها الوسيط

ولا تدع مع الله الها اخر لا اله الا هو كل شيء هالك الا وجهه له الحكم واليه ترجعون

`<!-- TODO:MISSING -->`{=html} كما فسرها الوسيط

الم

) كما فسرها الوسيط سورة العنكبوت من السور التى افتتحت ببعض حروف التهجى الاما ) ، ويبلغ عدد السور التى افتتحت بحروف التهجى ، تسعا وعشرين سورة وقد سبق أن قلنا : لعل أقرب الأقوال إلى الصواب ، أن هذه الحروف المقطعة. قد وردت فى افتتاح بعض السور ، على سبيل الإيقاظ والتنبيه ، للذين تحداهم القرآن الكريم ، فكأن الله - تعالى - يقول لأولئك العارضين فى أن القرآن من عند الله : هاكم القرآن ترونه مؤلفا من كلام هو من جنس ما تؤلفون منه كلامهم ، ومنظوما من حروف هى من جنس الحروف الهجائية التى تنظمون منها حروفكم ، فإن كنتم فى شك من كونه منزلا من عند الله ، فهاتوا مثله ، وادعوا من شئتم من الخلق لكى يعاونكم فى ذلك . .

احسب الناس ان يتركوا ان يقولوا امنا وهم لا يفتنون

كما فسرها الوسيط والاستفهام فى قوله - سبحانه - : ( أَحَسِبَ الناس أَن يتركوا أَن يقولوا آمَنّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ ) للإنكار و ( حسب ) من الحسبان بمعنى الظن . وقوله : ( يُفْتَنُونَ ) من الفتن ، بمعنى الاختبار والامتحان .يقال : فتنت الذهب بالنار ، أى : أدخلته فيها لتعلم الجيد منه من الخبيث .وجملة " أن يتركوا " سدت مسد مفعولى حسب ، وجملة " أن يقولوا " فى موضع نصب ، على معنى : لأن يقولوا ، وهى متعلقة بقوله : ( يتركوا ) . وجملة " وهم لا يفتنون " فى موضع الحال من ضمير " يتركوا " .والمعنى : أظن الناس أن يتركوا بدون امتحان ، واختبار ، وابتلاء ، وبدون نزول المصائب بهم لأنهم نطقوا بكلمة الإيمان؟ إن ظنهم باطل ، ووهم فاسد ، لأن الإيمان ، ليس كلمة تقال باللسان فقط ، بل هو عقيدة تكلف صاحبها الكثير من ألوان

الابتلاء والاختبار ، عن طريق التعرض لفقد الأموال والأنفس والثمرات ، حتى يتميز قوى الإيمان من ضعيفه .قال القرطبى : والمراد بالناس قوم من المؤمنين كانوا بن ربيعة ، والوليد بن الوليد . . . فكانت صدورهم تضيق بذلك : وربما استنكروا أن يمكن الله الكفار من المؤمنين . قال مجاهد وغيره ، فنزلت هذه الآية مسلية ومعلمة أن هذه هى سيرة الله فى عباده ، اختبار للمؤمنين وفتنة .قال ابن عطية : وهذه الآية وإن اكنت نزلت بهذا السبب أو ما فى معناه من الأقوال ، فهى باقية فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، موجد حكمها بقية الدهر . .

ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَلَقَدْ فَتَنَّا الذين مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ الله الذين صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ الكاذبين ) هذا مؤكد لما قبله من أن ظن الناس أن يتركوا بدون ابتلاء ، لقولهم آمنا ، الظن فى غير محله ، لأن سنة الله قد اقتضت أن يدفع الناس بعضهم ببعض ، وأن يجعل الكافرين يتصارعون مع المؤمنين ، إلا أن العاقبة فى النهاية للمؤمنين - والمقصود بقوله - تعالى - : ( فَلَيَعْلَمَنَّ . . ) إظهار علمه. سبحانه - ، أو المجازاة على الأعمال .أى : ولقد فتنا الذين من قبل هؤلاء المؤمنين من أصحابك - أيها الرسول الكريم - ، ( فَلَيَعْلَمَنَّ الله الذين صَدَقُواْ . . . ) أى فليظهرن الله - تعالى - فى عالم الواقع حال الذين صدقوا فى إيمانهم ، من حال الكاذبين منهم ، حتى ينكشف للناس ما هو غائب عن علمهم .أو المعنى : ولقد فتنا الذين من قبلهم من المؤمنين السابقين ، كأتباع نوح وهود وصالح وغيرهم ، فليجزين الذين صدقوا في إيمانهم بما يستحقون من ثواب ، وليجزين الكاذبين بما يستحقون من عقاب ، ولترتب المجازاة على العلم ، أقيم السبب مقام المسبب .قال الإمام ابن جرير : قوله ) : فَلَيَعْلَمَنَّ الله الذين صَدَقُواْ . . . ) أى : فليعلمن الله الذين صدقوا منهم فى قولهم آمنا ، وليعلمن الكاذبين منهم فى قولهم ذلك ، والله عالم بذلك منهم ، قبل الاختبار ، وفى حال الاختبار ، وبعد الاختبار ، ولكن معنى ذلك : وليظهرن الله صدق الصادق منهم فى قوله آمنا بالله ، من كذب الكاذب منهم . .وذكر أن هذه الآية نزلت فى قوم من المسلمين ، عذبهم المشركون ، ففتن بعضهم ، وصبر بعضهم على أذاهم ، حتى أتاهم الله بفرج من عنده .وفى معنى هاتين الايتين وردت آيات كثيرة منها قوله - تعالى - : ( أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الجنة وَلَمَّا يَعْلَمِ الله الذين جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصابرين ) وقوله - تعالى - : ( أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ الله الذين جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ الله وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ المؤمنين وَلِيجَةً . . ) وقوله - سبحانه - : ( وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حتى نَعْلَمَ المجاهدين مِنكُمْ والصابرين وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ) وقد ساق الإمام القرطبى عند تفسيره لهاتين الآيتين من سورة العنكبوت عددا من الأحاديث النبوية ، منها قوله : " روى البخارى عن خباب بن الأرت قالوا : شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو متوسد بردة له فى ظل الكعبة فقلنا له : ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال : " قد كان من قبلكم يؤخذ ، فيحفر له فى الأرض ، فيجعل فيها ، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه ، فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد لحمه وعظمه ، فما يصرفه ذلك عن دينه ، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت ، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون " " .والخلاصة ، أن المقصود من الآتيين تنبيه الناس فى كل زمان ومكان ، إلى أن ظن بعض الناس أن الإيمان يتعارض مع الابتلاء بالبأساء والضراء ، ظن خاطئ ، وإلى أن هذا الابتلاء سُنة ماضية فى السابقين وفى اللاحقين إلى يوم القيامة .

ام حسب الذين يعملون السيئات ان يسبقونا ساء ما يحكمون

، كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن عقابه للمرتكبين السيئات واقع بهم - وأنهم إذا ظنوا خلاف ذلك ، فظنهم من باب الظنون السيئة القبيحة ، فقال تعالى - : ( أَمْ حَسِبَ الذين يَعْمَلُونَ السيئات أن يَسْبِقُونَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ) .و " أم " هنا منقطعة بمعنى بل ، والاستفهام للإنكار والتوبيخ ، وقوله : ( أَن يَسْبِقُونَا ) سد مسد مفعولى حسب ، وأصل السبق : الفوت والتقدم على الغير .والمراد به هنا : التعجيز ، والمعنى : بل أحسب الذين يعملون الأعمال السيئات كالكفر والمعاصى ، " أن يسبقونا " أى : أن يعجزونا فلا نقدر على عقابهم ، أو أن فى إمكانهم أن يهربوا من حسابنا لهم؟ إن كانوا يظنون ذلك فقد : ( سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ) أى : بئس الظن ظنهم هذا ، وبئس الحكم حكمهم على الأمور .

من كان يرجو لقاء الله فان اجل الله لات وهو السميع العليم

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ما يدخل السرور والاطمئنان على قلوب عباده المؤمنين الصادقين فقال - تعالى - : ( مَن كَانَ يَرْجُو لِقَآءَ الله فَإِنَّ أَجَلَ الله لآتٍ وَهُوَ السميع ) أى : من كان من الناس يرجو لقاء الله - تعالى - يوم القيامة لقاء يسره ويرضيه ، ويطمعه في ثوابه وعطائه ، فلثبت على إيمانه ، وليواظب على العمل الصالح ، ( فَإِنَّ أَجَلَ الله لآتٍ ) . أى : فإن الأجل الذى حدده الله - تعالى - لموت كل نفس وللبعث والحساب ، لآت لا محالة فى وقته الذى حدده - سبحانه - " وهو السميع " بما يخفونه وما يعلنونه .فالرجاء فى لقاء الله " ، لأقوال خلقه " العليم - بمعنى الطمع فى ثوابه ، ومنهم من فسره بمعنى الخوف من حسابه - سبحانه قال صاحب الكشاف : لقاء الله : مثل للوصول إلى العاقبة ، من تلقى ملك. الموت ، البعث ، والحساب ، والجزاء ، مثلت تلك الحال بحال عبد قدم على سيده بعد عهد طويل ، وقد اطلع مولاه على ما كان يأتى ويذر ، فإما أن يلقاه ببشر " : وترحيب ، لما رضى من أفعاله ، أو بضد ذلك لما سخطه منها . . . وقيل يرجو " يخاف ، كما فى قول الشاعر :إذا لسعته الدبر لم يرج لسعها . . ... أي إذا لسعته النحل لم يخف لسعهاوعلى كلا التفسرين للرجاء . فإن الآية : الكريمة تبشر المؤمنين بما يدخل السرور على نفوسهم ، وتعدهم بأنهم متى ثبتوا على إيمانهم ، وأحسنوا أعمالهم ، فإن ثوابهم سيظفرون به كاملا غير منقوص ، بفضل الله وإحسانه .

ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه ان الله لغني عن العالمين

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ) معطوف على ما قبله ، ومؤكد لمضمونه . أى : ومن جاهد فى طاعة الله ، وفى سبيل إعلاء كلمته ، ونصرة دينه ، فإنما يعود ثواب جهاده ونفعه لنفسه لا لغيره .( إِنَّ الله ) - تعالى - ( لَغَنِيٌّ عَنِ العالمين ) ، جميعا ، لأنه - سبحانه -لا تنفعه طاعة مطيع ، كما لا تضره معصية عاص . وإنما لنفسه يعود ثواب المطيع وعليها يرجع عقاب المسئ

والذين امنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم احسن الذي كانوا يعملون

كما فسرها الوسيط ثم وضح - سبحانه - ما أعده للمؤمنين الصادقين من ثواب جزيل فقال : ( والذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ) أى : لنسترن عنهم سيئاتهم ، ولنزيلنها - بفضلنا وإحساننا - من صحائف أعمالهم .ثم بعد ذلك ( وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الذي كَانُواْ يَعْمَلُونَ ) أى : ولنجزينهم بأحسن الجزاء على أعمالهم الصالحة التى كانوا يعملونها فى الدنيا ، بأن نعطيهم على الحسنة عشر أمثالها .قال الجمل ما ملخصه : قوله : ( والذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات . . ) يجوز أن يكون مرفوعا بالابتداء ، والخبر جملة القسم المذحوف وجوابها أى : والله لنكفرن . ويجوز أن يكون منصوبا بفعل مضمر على ، الاشتغال . أى : ونخلص الذين آمنوا من سيئاتهم . .وقال ( أَحْسَنَ ) لأنه سبحانه إذا جازاهم بالأحسن ، جازاهم بما هو دونه . فهو من التنبيه على الأدنى بالأعلى .

ووصينا الانسان بوالديه حسنا وان جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما الي مرجعكم فانبئكم بما كنتم تعملون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن طاعة الله - تعالى - يجب أن تقدم على كل طاعة . فقال : ( وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ . . فِي الصالحين ) .وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول الآية الأولى روايات منها ما ، أخرجه الترمذى ، من أنها نزلت فى سعد بن أبى وقاص ، وذلك أنه حين أسلم قالت له أمه حمنة بنت سفيان : يا سعد بلغنى أنك صبأت ، فوالله لا يظلنى سقف . بيت ، وإن الطعام والشراب على حرام ، حتى تكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم فجاء سعد إلى النبى صلى الله عليه وسلم - إليه ما قالته أمه .فنزلت . . . ، هذه الآية . . فجاء سعد إليها فقال لها : يا اماه لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسا نفسا ما تركت دينى ، فكلى إن شئت ، وإن شئت فلا تأكلى ، فلما يست منه أكلت وشربت . .وقوله : ( حُسْناً ) منصوب على أنه نعت لمصدر محذوف أى : ووصينا الإنسان بوالديه إيصاء حسنا ، وعبر بالمصدر للمبالغة فى وجوب الإحسان إليهما ، بأن يكون باراً بهما ، وعطوفاً عليهما ، وسخياً معهما .وقوله - سبحانه - : ( وَإِن جَاهَدَاكَ ) معطوف على ما قبله بإضمار القول : أى : ووصينا الإنسان بوالديه حسنا ، قولنا له ( وَإِن جَاهَدَاكَ أى : إن حملاك وأمراك ( لِتُشْرِكَ بِي ) فى العبادة أو الطاعة ( مَا ( لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا ) فى ذلك ، فإنه لا طاعة لمخلوق

فى معصية الخالق .وقوله - سبحانه - : ( مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ) بيان
، للواقع ، فهذا القيد لا مفهوم له ، لأنه ليس هناك من إله فى هذا الكون
سوى الله عز وجل .وقوله تعالى : ( إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم
- بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ) تذييل المقصد به التحذير من معصيته - سبحانه
أى : إلى مرجعكم جميعا - أيها الناس - يوم القيامة ، فأحاسبكم على أعمالكم.
حسابا دقيقا ، وأجازى الذين أساءوا بما علموا ، وأجازى الذين أحسنوا
. بالحسنى

والذين امنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين

كما فسرها الوسيط ( والذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ ) الأعمال ( الصالحات
لَنُدْخِلَنَّهُمْ ) بفضلنا وإحساننا ( فِي الصالحين ) أى فى زمرة الأقوام
. الذين رضينا عنهم ، ورضوا عنا ( الصالحين )

ومن الناس من يقول امنا بالله فاذا اوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله
ولئن جاء نصر من ربك ليقولن انا كنا معكم اوليس الله باعلم بما في صدور
العالمين

كما فسرها الوسيط ثم يرسم القرآن الكريم بعد ذلك صورة واضحة لأصحاب القلوب
المريضة ، والنفوس الضعيفة ، ويحكى جانبا من أقوالهم الفاسدة ، ودعاواهم
الكاذبة فيقول : ( وَمِنَ الناس مَن يِقُولُ . . . عَمَّا كَانُواْ
يَفْتَرُونَ ) .وقوله - سبحانه - : ( وَمِنَ الناس مَن يِقُولُ آمَنَّا
بالله . . . ) بيان لحال قوم ضعف إيمانهم ، واضطراب يقينهم ، بعد بيان حال
المؤمنين الصادقين فى قوله : ( والذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات
لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصالحين ) قال القرطبى : قوله - تعالى - : ( وَمِنَ
الناس مَن يِقُولُ آمَنَّا بالله . . . ) قال مجاهد : نزلت فى ناس من
المنافقين بمكة ، كانوا يؤمنون ، فإذا أوذوا رجعوا إلى الشرك ، وقال عكرمة
كان قوم قد أسلموا فأكرههم المشركون على الخروج إلى در ، فقُتل بعضهم :
والمعنى : ( وَمِنَ الناس مَن يِقُولُ ) بلسانه دون أن يواطئ هذا القول.
قلبه ( آمَنَّا بالله ) .وقوله ( فَإِذَآ أُوذِيَ فِي الله جَعَلَ فِتْنَةَ
الناس كَعَذَابِ الله ) بيان لحال هذا البعض من الناس عندما تنزل بهم
المصائب والنكبات .أى : فإذا أوذى هذا البعض - بعد قوله آمنا بالله - من
أجل هذا القول ومن أجل تركه الدين الباطل ، ودخوله فى الدين الحق ( جَعَلَ
فِتْنَةَ الناس ) له أى جعل عذابهم له ، وإيذاءهم إياه ( كَعَذَابِ الله )
، أى بمنزلة عذاب الله فى الشدة والألم ، فيترتب على ذلك أن يتزلزل إيمانه
) ويضعف يقينه ، بل ربما رجع إلى الكفر بعد الإيمان .وفى جعل هذا البعض
فِتْنَةَ الناس كَعَذَابِ الله ) دليل واضح على ضعف إيمانه ، وفساد تفكيره
لأن عذابا لناس له دافع ، أما اعذاب الله فلا دافع له ، ولأن عذاب الناس ،
لا يترتب عليه ثواب عظيم ، أما عذاب الله فهو بسبب غضب الله - سبحانه - على
من عصاه ، ولأن عذاب الناس معروف أمده ونهايته أما عذاب الله فلا يعرف أحد
- مداه أو نهايته .ثم بين - سبحانه - حال هذا الفريق إذا ما مَنَّ الله
تعالى - على المؤمنين الصادقين بنصر ، فقال : ( وَلَئِنْ جَآءَ نَصْرٌ مِّن
) : رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ) .والضمير فى قوله
. لَيَقُولُنَّ ) بضم اللام يعود إلى ( مَن ) فى قوله : ( مَن يِقُولُ )
: باعتبار معناها ، كما أن إفراد الضمائر العائدة إليها باعتبار لفظها ، أى
هكذا حال ضعاف الإيمان ، عند الشدائد يساوون عذاب الناس بعذاب الله ، ولا
يثبتون على إيمانهم أما إذا جاءكم النصر - أيها الرسول الكريم - فإن هؤلاء
الضعاف فى إيمانهم ، يقولون بكل ثقة وتأكيد : إنا كنا معكم مشايعين ومؤيدين
ونحن إنما أكرهنا على ما قلنا ، وما دام الأمر كذلك فأشركوننا معكم فيما ،
ترتب على النصر من مغانم وخيرات .وقوله - سبحانه - : ( أَوَ لَيْسَ الله
، بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ العالمين ) رد عليهم فى دعواهم الإيمان
وفى قولهم للمؤمنين : ( إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ) والاستفهام لإنكار ما
- زعموه ، ولتقدير علم الله - تعالى - الشامل للسر والعلانية .أى : إن الله
. تعالى - عالم بما فى صدور العالمين جميعا من خير وشر ، وإيمان وكفر

وليعلمن الله الذين امنوا وليعلمن المنافقين

كما فسرها الوسيط وإن هؤلاء الذين يقولون آمنا ، ليس الله - تعالى - فى
حاجة إلى قولهم ، فهو - سبحانه - يعلم السر وأخفى ( وَلَيَعْلَمَنَّ الله
) تعالى - علما تاما ( الذين آمَنُواْ ) به حق الإيمان - (
وَلَيَعْلَمَنَّ ) حال المنافقين ، علما لا يخفى عليه شئ من حركاتهم
وسكناتهم . وسيجازيهم بما يستحقون من عقاب . وأكد - سبحانه - علمه بلام
القسم وبنون التوكيد ، للرد على دعاوى ضعاف الإيمان بأقوى أسلوب ، وأبلغه
. حتى يقلوا عن نفاقهم ، ويتبعوا المؤمنين الصادقين فى ثباتهم ،

وقال الذين كفروا للذين امنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء انهم لكاذبون

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما زعمه أئمة الكفر من دعاوى باطلة ، ورد عليها فقال : ( وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لِلَّذِينَ آمَنُواْ اتبعوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ ) .أى : وقال الذين كفروا للذين آمنوا على سبيل التضليل والإغراء : اتبعوا سبيلنا أى طريقنا الذى وجدنا عليه آباءنا ، وهو عبادة الأصنام ، ولنحمل عنكم خطاياكم يوم القيامة ، إن كان هناك بعث وحساب .واللام فى قوله : ( وَلْنَحْمِلْ ) لام الأمر ، كأنهم آمرين أنفسهم بذلك ، لِيُغْيروا المؤمنين باتباعهم .أى : اطمئنوا إلى ، أننا لن نتخلى عنكم ، ولن ننقض عهودنا معكم فى حمل خطاياكم لو اتبعتمونا أو هو أمر فى تأويل الشرط والجزاء . أى : إن تتبعوا سبيلنا نحمل خطاياكم وقد رد الله - تعالى - زعمهم هذا بقوله : ( وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ) أى : وما هؤلاء الكافرين بحاملين لشئ من خطايا غيرهم التى زعموا حملها يوم القيامة ، وأنهم لكاذبون فى كل أقوالهم .و ( مَن ) الأولى بيانية ، والثانية لنفى حمل أى خطايا مهما صغرت . وقد جاء التكذيب لهم بهذا الأسلوب المؤكد ، حتى يخرس ألسنتهم ، ويمحو كل أثر من أقوالهم من الأذهان .

وليحملن اثقالهم واثقالا مع اثقالهم وليسالن يوم القيامة عما كانوا يفترون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن الأمر على عكس ما زعموه فقال : ( وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ) . أى : ليس الأمر - كما زعموا من أنهم يحملون خطايا المؤمنين ، بل الحق أن أئمة الكفر هؤلاء سيحملون خطاياهم كاملة غير منقوصة ، وسيحملون فوقها خطايا أخرى هى خطايا تسببهم فى إضلال غيرهم ، وصرفه عن الطريق الحق .وعبر عن الخطايا ، بالأثقال ، للإشعار بغاية ثقلها ، وفداحة حملها ، وعظم العذاب الذى يترتب عليها .( وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ القيامة ) سؤال تأنيب وتوبيخ ( عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ) أى : عما كانوا يختلقونه فى الدنيا من أكاذيب ، وأباطيل ، أدت بهم إلى سوء المصير .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ القيامة وَمِنْ أَوْزَارِ الذين يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَآءَ مَا يَزِرُونَ ) قال الإمام ابن كثير : وفى الصحيح : " من دعا إلى هدى ، كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة ، كان عليه من الإثم ، مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة ، من غير أن ينقص من آثامهم شيئا " .

ولقد ارسلنا نوحا الى قومه فلبث فيهم الف سنة الا خمسين عاما فاخذهم الطوفان وهم ظالمون

كما فسرها الوسيط وبعد هذا الحديث عن أنواع الناس ، وعن أقوال المشركين - الفاسدة ، وعن سوء عاقبتهم ، ساق - سبحانه - جانبا من قصة نوح وإبراهيم . . . عليهما السلام - فقال - تعالى - : ( وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ) .قال الآلوسى : قوله : ( وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا - نُوحاً إلى قَوْمِهِ ) . شروع فى بيان افتتان الأنبياء - عليهم السلام بأذية أممهم ، إثر بيان افتتان المؤمنين بأذية الكفار تأكيدا للانكار على ، الذين يحسبون أن يتركوا بمجرد الإيمان بلا ابتلاء ، وحثا لهم على الصبر فإن الأنبياء - عليهم السلام - حيث ابتلوا بما أصابهم من جهة أممهم من فنون المكاره وصبروا عليها ، فلأن يصبر هؤلاء المؤمنون أولى وأحرى . .و " نوح عليه السلام - ينتهى نسبه إلى شيت بن آدم ، وقد ذكر نوح فى القرآن فى - " ثلاث وأربعين موضعا ، وجاءت قصته مع قومه بصورة فيها شئ من التفصيل ، فى سور : هود والأعراف ، والمؤمنون ، ونوح .وقوم الرجل : أقرباؤه الذين يجتمعون معه فى جد واحد . وقد يقيم الرجل بين الأجانب فيسميهم قومه مجازا للمجاورة .وكان قوم نوح يعبدون الأصنام ، فأرسل الله - تعالى - إليهم نبيهم - نوحا ، ليدلهم على طريق الحق والرشاد .والمعنى : ولقد أرسلنا نبينا نوحا عليه السلام - إلى قومه ، لكى يأمرهم بإخلاص العبادة لنا ، وينهاهم عن عبادة غيرنا ( فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً ) يدعوهم إلى الدين الحق ، ليلا ونهارا ، وسرا وعلانية .قالوا : بعث الله - نوحا وهو فى سن الأربعين من عمره ، ولبث يدعو قومه إلى عبادة الله ، تعالى - وحده ، ألف سنة إلا خمسين عاما ، وعاش بعد الطوفان ستين سنة فيكون عمره كله ألف سنة وخمسين سنة .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : فلم جاء المميز أولا بالسنة ، وثانيا بالعام؟ قلت : لأن تكرير الفظ الواحد ، حقيق بالاجتناب فى البلاغة ، إلا إذا وقع ذلك لأجل غرض يبتغيه المتكلم من تفخيم

أو تهويل أو تنويه أو نحو ذلك .والمقصود بذكر هذه المدة الطويلة التى قضاها
نوح - عليه السلام - مع قومه ، تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم - وتثبيته
فكأن الله - تعالى - يقول له : يا محمد لقد لبث أخوك نوح تلك المدة ،
الطويلة ، ومع ذلك لم يؤمن معه إلا قليل ، فعليك أن تقتدى به فى صبره ، وفى
مطاولته لقومه .وقوله - سبحانه - ( فَأَخَذَهُمُ الطوفان وَهُمْ ظَالِمُونَ
بيان لسوء عاقبة المكذبين لنوح - عليه السلام - بعد أن مكث فيهم تلك (
المدة الطويلة .والطوفان : قد يطلق على كل ما يطوف بالشئ على كثرة وشدة من
السيل والريح والظلام ، وقد غلب إطلاقه على طوفان الماء ، وهو المراد هنا
- أى مكث نوح فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى إخلاص العبادة لله.
تعالى - ولكنهم كذبوه ، فأخذهم الطوفان ، والحال أنهم كانوا مستمرين على
. الظلم والكفر ، دون أن تؤثر فيهم مواعظ نبيهم ونذره

فانجيناه واصحاب السفينة وجعلناها اية للعالمين

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة نوح ومن آمن معه فقال
فأَنْجَيْنَاهُ وأَصْحَابَ السفينة ) : أى : فأنجينا نوحا ومن آمن معه ، وهم
الذين ركبوا معه فى السفينة ، قيل : كان عدد هؤلاء الذين آمنوا به ثمانين
) : - ما بين ذكر وأنثى ، وقيل كانوا أقل من ذلك .والضمير فى قوله - سبحانه
: وَجَعَلْنَاهَآ آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ) للسفينة ، أو للحادثة والقصة .أى
فأنجينا نوحا ومن ركب معه فى السفينة ، وجعلناها أى هذه الحادثة عبرة وعظة
للعالمين ، حيث شاهدوا سوء عاقبة الكفر والظلم على ممر الأيام والأعوام
قالوا : ومن مظاهر وجوه العبرة فى قصة نجاة نوح ومن معه : أن السفينة التى.
حملتهم وأقلتهم بقيت مدة طويلة ، وهى مسترة على جبل الجودى ، الذى يرى كثير
. من المؤرخين أن مكانه بشمال العراق ، بالقرب من مدينة الموصل

وابراهيم اذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون

كما فسرها الوسيط ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن جانب من قصة
إبراهيم - عليه السلام - مع قومه ، فقال - تعالى - : ( وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ
قَالَ لِقَوْمِهِ اعبدوا الله واتقوه . . . ) .ولفظ ( إِبْرَاهِيمَ ) منصوب
بفعل مضمر . أى : واذكر - أيها المخاطب - إبراهيم - عليه السلام - وقت أن
) قال لقومه : اعبدوا الله - تعالى - وحده ، وصونوا أنفسكم عن كل ما يغضبه
، ذلكم ) الذى أمرتكم به من العبادة والتقوى ( خَيْرٌ لَّكُمْ ) من الشكر
ومن كل شئ فى هذه الحياة ( إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ) أى : إن كنتم من ذوى
- العلم والفهم بما هو خير وبما هو شر .فأنت ترى أن إبراهيم - عليه السلام
قد بدأ دعوته لقومه يأمرهم بإخلاص العبادة لله - تعالى - ، وبالخوف من
عقابه ، ثم ثنى بتحبيب هذه الحقيقة إلى قلوبهم ، ببيان أن إيمانهم خير لهم
. . ثم ثلث بتهييج عواطفهم نحو العلم النافع ، الذى يتنافى مع الجهل ،

انما تعبدون من دون الله اوثانا وتخلقون افكا ان الذين تعبدون من دون الله
لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له اليه ترجعون

كما فسرها الوسيط ثم بعد ذلك نفرهم من فساد ما هم عليه من باطل ، فقال كما
حكى القرآن عنه : ( إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله أَوْثَاناً
وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً . . . ) .والأوثان : جمع وثن . وتطلق الأوثان على
، التماثيل والأصنام التى كانوا يصنعونها بأيديهم من الحجارة أو ما يشبهها
ثم يعبدونها من دون الله - تعالى - .وقوله : ( وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً ) أى
وتكذبون كذاب واضحا ، حيث سميتم هذه الأوثان آلهة ، مع أنها لا تضر ولا :
تفنع ، ولا تغنى عنكم ولا عن نفسها شيئا .أو يكون قوله ( وَتَخْلُقُونَ )
بمعنى وتصنعون وتنحتون . أى : وتصنعون بأيديكم هذه الأوثان صنعا ، من أجل
الإفك والكذب والانصراف عن كل ما هو حق إلى كل ما هو باطل .ثم بين لهم
تفاهة هذه الأوثان فقال : ( إِنَّ الذين تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله ) من
أوثان وأصنام ( لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً ) أى :لا يملكون لكم شيئا
من الرزق حتى ولو كان غاية فى القلة .وما دام الأمر كذلك : ( فابتغوا عِندَ
- الله ) - تعالى - وحده ( الرزق ) الذى يكفيكم ويغنيكم ( واعبدوه ) وحده
) سبحانه - ( واشكروا لَهُ ) نعماءه ومننه وعطاياه .فأنتم وجميع الخلق
إِلَيْهِ ) وحده ( تُرْجَعُونَ )لا إلى غيره ، فيجازيكم على أعمالكم وهكذا
نرى إبراهيم - عليه السلام - قد سلك فى دعوته قومه إلى الحق أبلغ الأساليب
وأحكمها ، حيث أمرهم بعبادة الله وتقواه ، وبين لهم منافع ذلك ، وحرضهم على
سلوك طريق العلم لا طريق الجهل ، ونفرهم من عبادة الأوثان ، حيث بين لهم
تفاهتها وحقارتها وعجزها ، وحضهم على طلب الرزق ممن يملكه وهو الله - عز
. وجل - الذى إليه المرجع والمآب

وان تكذبوا فقد كذب امم من قبلكم وما على الرسول الا البلاغ المبين

كما فسرها الوسيط ثم أخذ سيدنا إبراهيم - عليه السلام - يحذر قومه من الاستمرار فى تكذيبه ويلفت أنظارهم إلى أن هناك حسابا وثوابا وعقابا وبعثا وأن عليهم أن يتعظوا بمن قبلهم ، فقال - تعالى - ( وَإِن تُكَذِّبُواْ ، فَقَدْ . . . لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ) .قال صاحب الكشاف : وهذه الآية - وهى قوله - تعالى - ( وَإِن تُكَذِّبُواْ ) والآيات التى بعدها إلى قوله : محتملة أن تكون من جملة قول ( . . فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ) إبراهيم - صلوات الله عليه - لقومه ، وأن تكون آيات وقعت معترضة فى شأن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قريش ، بين أول قصة إبراهيم وآخرها .فإن قلت : إذا كانت من قول إبراهيم ، فما المراد بالأمم من قبله؟ قلت : المرد بهم قوم شيث وإدريس ونوح وغيرهم ، وكفى بقوم نوح أمة فى معنى أمم جَمة مكذبة .وقال الإمام ابن كثير : والظاهر من السياق أن كل هذه الآيات ، من كلا إبراهيم الخليل - عليه السلام - يحتج عليهم لإثبات المعاد ، لقوله بعد هذا كله : ( فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ) وقوله - سبحانه - : ( وَإِن تُكَذِّبُواْ . . . ) معطوف على محذوف ، والتقدير : إن تطيعونى - أيها الناس - فقد ونجوتم ، وإن تكذبونى فيما أخبرتكم به ، فلستم بدعا فى ذلك فقد كذب أمم من قبلكم رسلهم ، فكانت عاقبة المكذبين خسرا .ثم بين لهم إبراهيم - عليه السلام - وظيفة فقال : ( وَمَا عَلَى الرسول إِلاَّ البلاغ المبين ) أى : لقد بلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ، وتلك هى وظيفتى التى كلفنى بها ربى ، وليس على سواها ، أما الحساب والجزاء فمرده إلى الله تعالى وحده .

اولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده ان ذلك على الله يسير

- كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - ما يدل على أن البعث حق ، وأنه تعالى -لا يعجزه شئ ، فقال : ( أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ الله الخلق ثُمّ يُعِيدُهُ ) .والاستفهام لتوبيخهم على إنكارهم هذه الحقيقة ، وعدم تعلقهم لما يدل عليها دلالة واضحة ، والواو للعطف على مقدر .والمعنى : ألم ينظر هؤلاء المشركون المنكرون للبعث ، ويعلموا كيف خلق الله - تعالى - الخلق ابتداء ، ليستدلوا بذلك على قدرته على الإعادة ، وهى أهون عليه ، إنهم ليرون كيف يبدئ الله الخلق فى النبتة النامية ، وفى الشجرة الباسقة. وفى كل ما لم يكن ، ثم بعد ذلك يكون ، فكيف أنكروا إعادة هذا المخلوق إلى الحياة مرة أخرى ، مع أنه من المسلم عند كل ذى عقل ، أن الإعادة أيسر من الخلق ابتداء؟فالآية الكريمة تقرعهم على إنكارهم البعث ، وتسوق لهم الأدلة الواضحة على إمكانيته .واسم الإشارة فى قوله ( إِنّ ذلك عَلَى الله يَسِيرٌ ) يعود إلى ما ذكر من الأمرين وهما : بدء الخلق ، وإعادته إلى الحياة مرة أخرى .أى : إن ذلك الذى ذكرناه لكم من خلقكم ابتداء ، ثم إعادتكم إلى الحياة بعد موتكم ، يسير وهين على الله ، لأنه - سبحانه -لا يعجزه شئ .

قل سيروا في الارض فانظروا كيف بدا الخلق ثم الله ينشئ النشاة الاخرة ان الله على كل شيء قدير

كما فسرها الوسيط ثم أمر - سبحانه - رسوله صلى الله عليه وسلم أن يلفت أنظار قومه إلى التأمل والتدبر فى أحوال هذا الكون ، لعل هذا التأمل يديهم إلى الحق فقال : ( قُلْ سِيرُواْ فِي الأرض فانظروا كَيْفَ بَدَأَ الخلق - ثُمّ الله يُنشِئُ النشأة الآخرة ) .أى : قل - أيها الرسول الكريم لهؤلاء المنكرين للبعث : سيحوا فى الأرض ، وتتبعوا أحوال الخلق ، وتأملوا . كيف خلقهم الله - تعالى - ابتداء على أطوار مختلفة ، وطبائع متمايزة وأحوال شتى . . ثم قل لهم بعد كل ذلك ، الله الذى خلق الخلق ابتداء على تلك الصور المتنوعة المتكاثرة ، هو وحده الذى ( يُنشِىءُ النشأة الآخرة ) أى : هو وحده الذى ينشئهم ويخلقهم ويعيدهم إلى الحاية مرة أخرى ، بعد أن أوجهم فجملة ( ثُمَّ الله يُنشِىءُ النشأة الآخرة ) معطوفة على فى المرة الأولى .والكيفية في هذه الآية قوله : ( سِيرُواْ ) وداخلة معها فى حيز القول .وفى الآية السابقة وهى باعتبار بدء الخلق على أطوار شتى ، وصور متعددة . قوله : ( أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ الله الخلق ثُمّ يُعِيدُهُ ) باعتبار بدء الخلق من مادة وغيرها .والمقصود بالأمر بالسير : التدبر ، والتأمل والاعتبار ، لأن من شأن التنقل فى جنبات الأرض ، أنه يوقظ الحس ويبعث على التفكير ، ويفتح العين والقلب على المشاهدة الجديدة التى لم تألفها العين ، ولم يتأملها القلب قبل ذلك .وجاء الأمير بالسير عاما ، لأن كل إنسان - فى كل زمان ومكان - يأخذ وجوه اعلبرة والعظة - عن طريق هذا السير ما يتناسب مع عقله ، وثقافته ، وبيئته ، وفكره ، ومستواه المادى ، والاجتماعى ، والحضارى .وقوله - سبحانه - : ( إِنّ الله على كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ) تعليل لما قبله . أى : هو - سبحانه - قادر على النشأة الأولى ،

. وعلى النشأة الآخرة ، لأن قدرته لا يعجزنها شئ ولا يحول دون نفاذها حائل

يعذب من يشاء ويرحم من يشاء واليه تقلبون

كما فسرها الوسيط وهو - سبحانه - ( يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ) ويرحم من يشاء
برحمته ، ( وَإِلَيْهِ ) وحده لا إلى غيره ( تُقْلَبُونَ ) أى : ترجعون
جميعا فيحاسبكم على أعمالكم .( وَمَآ أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأرض
وَلاَ فِي السمآء ) أى : وما أنتم - أيها الناس - بقادرين على أن تفلتوا أو
تهربوا من لقاء الله - تعالى - ومن حسابه ، سواء أكنتم فى الأرض ، أم كنتم
فى السماء ، إذ ليست هناك قوة فى هذا الوجود تحول بينكم وبين الانقلاب
. إليه - سبحانه - والوقوف بين يديه للحساب والجزاء

وما انتم بمعجزين في الارض ولا في السماء وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير

كما فسرها الوسيط قال الشوكانى : ( وَمَآ أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأرض
. . وَلاَ فِي السمآء ) قال الفراء : ولا من فى السماء يمعجزين الله فيها
والمعنى : أنه لا يعجزه - سبحانه - أهل الأرض ولا أهل السماء فى السماء لو
كنتم فيها ، كما تقول :لا تفوتنى فلان هاهنا ولا بالبصرة . يعنى : ولا
. . بالبصرة لو صار إليها

والذين كفروا بايات الله ولقائه اولئك يئسوا من رحمتي واولئك لهم عذاب اليم

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : مصير الكافرين فقال : ( والذين
كَفَرُواْ بِآيَاتِ الله ) الدالة على وحدانيته وقدرته ، وعلى ذاته وصفاته
وكفروا - أيضا - بالأدلة الدالة على ( لِقَآئِهِ ) بأن أنكروا البعث . .
والحساب والجزاء ( أولئك ) الذين كفروا بكل ذلك ( يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِي
أى : انقطع ألهم فى رحمتى إياهم انقطاعا تاما وعبر - سبحانه - بالماضى (
لدلالة علمه التام على تحقق وقوع هذا اليأس ، وفقدان الأمل عند هؤلاء
- الكافرين وقت أن يقفوا بين يديه للحساب ، بسبب كفرهم سوء أعمالهم .وأضاف
عز وجل - الرحمة إليه ، للإشارة إلى سبقها لغضبه ، وأنها تشمل عبادة
المؤمنين .( أولئك ) أى : الذين كفروا بآيات الله وبلقائه ( لَهُمْ عَذَابٌ
. - أَلِيمٌ )لا يعلم مقدار شدته وفظاعته إلا هو - سبحانه

فما كان جواب قومه الا ان قالوا اقتلوه او حرقوه فانجاه الله من النار ان في ذلك لايات لقوم يؤمنون

كما فسرها الوسيط ثم قص - سبحانه - بعد ما قاله قوم إبراهيم له ، وما رد به
عليهم . فقال - تعالى - : ( فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ . . . فِي الآخرة
. . لَمِنَ الصالحين ) .فقوله - تعالى - : ( فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ
بيان لما رد به الظالمون على نبيهم إبراهيم - عليه السلام - بعد أن ( .
" وعظهم ونصحهم وأقام لهم أوضح الأدلة على صدقة فيما يبلغه عن ربه .ولفظ
جواب " بالنصب ، خبر كان ، واسمها قوله : ( إِلاَّ أَن قَالُواْ اقتلوه
أَوْ حَرِّقُوهُ ) .والمراد بقتله : إزهاق روحه بسيف ونحوه ، لتظهر
المقابلة بين الإحراق والقتل .وجاء هنا الترديد بين الأمرين ، للاشعار بأن
من قومه من أشار بقتله ، ومنهم من أشار بإحراقه ، ثم اتفقوا جميعا على
الإحراق ، كما جاء فى قوله - تعالى - : ( قَالُواْ حَرِّقُوهُ وانصروا
آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ) والمعنى : فما كان جواب قوم إبراهيم
له ، بعد أن نصحهم وظهرت حجته عليهم ، إلا أن قالوا فيما بينهم ، اقتلواه
بالسيف ، أو أحرقوه بالنار ، لتستريحوا منه ، وتريحوا آلهتكم من عدوانه
عليها ، وتحطيمه لها . .وقولهم هذا الذى حكاه القرآن عنهم ، يدل على
) - إسرافهم فى الظلم والطغيان والجهالة . .والفاء فى قوله - تعالى
، فَأَنْجَاهُ الله مِنَ النار ) فصيحة . أى : فاتفقوا على إحراقه بالنار
وألقوه فيما بعد اشتعالها ، فأنجاه الله - تعالى - منها ، بأن جعلها بردا
: وسلاما عليه . .( إِنَّ فِي ذلك لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ) . . أى
إن فى ذلك الذى فعلناه بقدرتنا مع إبراهيم - عليه السلام - حيث أخرجناه
، سليما من النار ( لآيَاتٍ ) بينات على وحدانيتنا وقدرتنا ، لقوم يؤمنون
- بأن الله - تعالى - هو رب العالمين ، وأنه له الخلق والأمر .وجمع
- سبحانه - الآيات لأن فى نجاة إبراهيم ، دلالات متعددة على قدرة الله
، تعالى لا دلالة واحدة ، فنجاته من النار وتحويلها عليه إلى برد وسلام آية
وعجز المشركين جميعا عن أن يلحقوا به ضررا آية ثانية ، وإصرارهم على كفرهم
مع ما شاهدوه ، آية ثالثة على أن القلوب الجاحدة تبقى على جحودها مع وجود
- المعجزات الدالة على صدق من جاء بها من عند الله - تعالى - .ولذا خص
. سبحانه - هذه الآيات ، لأنهم هم وحدهم المنتفعون بها

وقال انما اتخذتم من دون الله اوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا وماواكم النار وما لكم من ناصرين

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - ما قاله إبراهيم - عليه السلام - لقومه بعد أن نجاه الله من شرورهم فقال : ( وَقَالَ إِنَّمَا اتخذتم مِّن دُونِ الله أَوْثَاناً مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الحياة الدنيا ثُمَّ يَوْمَ القيامة يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ) ، ولفظ " مودة " وردت فيه قراءات : فقد قرأه بعض القُرَّاء السبعة بالنصب. على أنه مفعول به لقوله : ( اتخذتم ) أو على أنه مفعول لأجله ، فيكون المعنى :وقال إبراهيم لقومه : يا قوم إنكم لم تتخذوا هذه الأوثان معبودات لكم عن عقدية واقتناع بأحقية عبادتها . وإنما اتخذتموها معبودات من أجل فيما بينكم ، ومن أجل أن يجامل بعضكم بعضا فى عبادتها ، على حساب الحق والهدى .وهذا شأنكم فى الدنيا ، أما فى يوم القيامة ، فهذه المودة ستزول لأنها مودة باطلة ، وسيكفر بعضكم ببعض ، ويلعن بعضكم بعضا ، حيث يتبرأ : القادة من الأتباع ، والأتباع من القادة . ( وَمَأْوَاكُمُ النار ) أى ومنزلكم الذى تأوون إليه أنتم وأصنامكم يوم القيامة النار ( وَمَا لَكُمْ مِّن نَّاصِرِينَ ) يخلصونكم من هذه النار ، أو يخففون عسيرها عنكم .وبعض : القراء السبعة قرأ لفظ ( مَّوَدَّةَ ) بالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، أى : أن ما اتخذتموه من عبادة الأوثان ، هو مودة بينكم فى الحياة الدنيا أما فى الآخرة فسيكفر بعضكم ببعض ، ليعن بعضكم بعضا .والمقصود من الآية الكريمة ، بيان أن هؤلاء المشركين لم يتخذوا الأصنام آلهة ، وهم يعتقدون صحة ذلك اعتقادا جازما ، وإنما اتخذوها فى الدنيا آلهة تارة على سبيل التواد فيما بينهم ، وتارة على سبيل التقليد والمسايرة لغيرهم . . أما فى الآخرة . . فستتول تلك المودات والمسايرات والتقاليد إلى عداوات ومقاطعات وملاعنات

فامن له لوط وقال اني مهاجر الى ربي انه هو العزيز الحكيم

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ . . . ) بيان - للثمرة الطيبة التى ترتبت على دعوة إبراهيم لقومه ، إلى عبادة الله تعالى - وحده ، بعد أن مكث فيهم مدة لا يعلمها إلا الله ، وبعد أن أقام لهم ألوانا من الأدلة على أن ما جاءهم به هو الحق ، وما هم عليه هو الباطل والتعبير بقوله - سبحانه - : ( فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ ) يعشر بأن لوطا - عليه السلام - وحده ، هو الذى لبى دعوة إبراهيم ، وصدقه فى كل ما أخبر به ولوط - عليه السلام - يرى كثير من العلماء أنه ابن أخرى إبراهيم - عليه السلام - فهو لوط بن هاران بن آزر .والضمير فى قوله - سبحانه - : ( وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إلى ربي ) يرى بعضهم أنه يعود إلى لوط ، لأنه أقرب مذكور أى : فآمن لوط لإبراهيم وصدقه فى كل ما جاء به ، وقال إنى مهاجر إلى . الجهة التى أمرنى ربى بالهجرة إليها ، لأبلغ دعوته ، فهو لم يهاجر من أجل منفعة دنيوية ، وإنما هاجر من أجل تبليغ أمر به ، وإعلاء كلمته .ويرى آخرون أن الضمير يعود إلى إبراهيم - عليه السلام - ، لأن الحديث عنه .قال الآلوسى ما ملخصه : ( وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إلى ربي ) أى : وقال إبراهيم : إنى مهجر ، أى : من قومى ، إلى ربى . . أى إلى الجهة التى أمرنى بأن أهاجر ) . . . إليها ( إِنَّهُ ) - عز وجل - ( هُوَ العزيز ) الغالب على أمره ) الحكيم ) الذى لا يفعل فعلا إلا وفيه حكمة ومصلحة .وقيل : الضمير فى . وَقَالَ ) للوط - عليه السلام - ، وليس بشئ لما يلزم عليه من التفكيك

ووهبنا له اسحاق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب واتيناه اجره في الدنيا وانه في الاخرة لمن الصالحين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعض النعم التى أنعم بها على نبيه إبراهيم ، بعد أن هاجر من العراق إلى بلاد الشام لتبليغ رسالة ربه غلى الناس فقال : ( وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النبوة والكتاب .. . ) .أى : ووهبنا لإبراهيم - بعد أن هاجر ومعه زوجه " سارة " وابن أخيه " لوط " - وهبنا له ابنه إسحاق ، وهبنا لإسحاق يعقوب ، وجعلنا بفضلنا ورحمتنا ، فى ذرية إبراهيم النبوة ، إذ من نسله جميع الأنبياء من بعده ، كما جعلنا فى ذريته - أيضا - الكتب التى أنزلناها على الأنبياء من بعده ، كالتوراة ، والإنجيل والزبور ، والقرآن فالمراد بالكتاب هنا : الكتب السماوية التى انزلها - سبحانه - على موسى. وعيسى وداود ومحمد - صلوات الله عليه - وهم جميعا من نسل إبراهيم .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما بال إسماعيل لم يذكر ، وذكر إسحاق ويعقوب؟قلت : قد دل عليه فى قوله : ( وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النبوة والكتاب ) وكفى الدليل لشهرة أمره ، وعلو قدره .فإن قلت : ما المراد بالكتاب؟ قلت : قصد به : جنس الكتاب ، حتى دخل تحته ما نزل على ذريته من الكتب الأربعة ، التى هى

) : - التوراة ، والزبور ، والإنجيل ، والقرآن .وقوله - سبحانه
- وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدنيا ) بيان لنعمة أخرى أنعم بها - سبحانه
على نبيه إبراهيم - عليه السلام - .أى : وهبنا له الذرية الصالحة ، وجعلنا
فى ذريته النبوة والكتب السماوية ، وآتيناه أجره على أعماله الصالحة فى
الدنيا ، بأن رزقناه الزوجة الصالحة ، والذكر الحسن بعد وفاته .( وَإِنَّهُ
فِي الآخرة لَمِنَ الصالحين ) الذين نعطيهم فيها أجزل العطاء وأوفاه .وهكذا
، جمع الله - تعالى - بفضله وإحسانه ، لنبيه إبراهيم ، خيرى الدنيا والآخرة
. جزاء إيمانه العميق ، وعمله الصالح ، ووفائه فى تبليغ رسالة ربه

ولوطا اذ قال لقومه انكم لتاتون الفاحشة ما سبقكم بها من احد من العالمين

كما فسرها الوسيط وبمناسبة الحديث عن قصة إبراهيم مع قومه ، جاء بعد ذلك
الحديث عن جانب من قصة لوط مع قومه . لوط - عليه السلام - الذى آمن
بإبراهيم وهاجر معه إلى بلاد الشام . .قال - تعالى - : ( وَلُوطاً إِذْ
) قَالَ لِقَوْمِهِ . . . . لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ) .وقوله - سبحانه
- وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ) منصوب بالعطف على إبراهيم فى قوله
تعالى - : ( وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ . . ) أو بفعل مضمر .أى
واذكر - أيها العاقل لتعبير وتتعظ - نبينا لوطا - عليه السلام - وقت أن :
): قال لقومه على سبيل الزجر والتوبيخ والإنكار لما هم عليه من فعل قبيح
إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الفاحشة مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ
، العالمين ) أى : إنكم لتفعلون الفعلة البالغة أقصى دركات القبح والفحش
والتى ما فعلها أحد قبلكم ، بل أنتم أول من ابتدعها ، وهى إتيان الكذور دون
الإناث .قال عمر بن دينار : ما نزا ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط .وقال
، الوليد بن عبد الملك : لولا أن الله - تعالى - قد قص علينا خبر قوم لوط
ما ظننت أن ذكرا يعلوا ذكرا .وجاء قوله - عليه السلام - مؤكدا بجملة من
المؤكدات ، لتسجيل هذه الفاحشة عليهم بأقوى أسلوب ، وبأنهم لم يسبقهم أحد
. إلى ارتكابها

ائنكم لتاتون الرجال وتقطعون السبيل وتاتون في ناديكم المنكر فما كان جواب
قومه الا ان قالوا ائتنا بعذاب الله ان كنت من الصادقين

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرجال
وَتَقْطَعُونَ السبيل وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ المنكر . . ) بيان لتلك
: الفاحشة التى كانوا يقترفونها ، والاستفهام للتأنيب والتقريع .والسبيل
، الطريق . والنادى : اسم جنس للمكان الذى يجتمع فيه الناس لأمر من الأمور
أى : أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء ، وتقطعون الطريق على المارة
، بأن تنتهبوا أموالهم ، أو بأن تكرهوهم إكراها على ارتكاب الفاحش معهم ،
أو بأن تعتدوا عليهم بأى صورة من الصور ، وفضلا عن كل ذلك فإنكم ترتكبون
المنكرات فى مجالسكم الخاصة ، وفى نواديكم التى تتلاقون فيها .فأنت ترى أن
نبيهم - عليه السلام - قد وصفهم بأوصاف ، كل صفة أقبح من سابقتها والباعث
لهم على ارتكاب تلك المنكرات ، هو انتكاس فطرتهم ، وفساد نفوسهم ، وشذوذ
شهواتهم .فماذا كان جوابهم على نبيهم - عليه السلام -؟ لقد كان جوابهم فى
غاية التبجح والسفاهة ، وقد حكاه القرآن فى قوله : ( فَمَا كَانَ جَوَابَ
قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ ائتنا بِعَذَابِ الله إِن كُنتَ مِنَ
الصادقين ) .أى : فما كان جواب قوم لوط عليه ، إلا أن قالوا له على سبيل
الاستخفاف بوعظه وزجره : ائتنا يا لوط بعذاب الله الذى تتوعدنا به ، إن كنت
صادقا فى دعواك انك رسول ، وفى دعواك أن عذابا سينزل علينا ، بسبب أفعالنا
هذه التى ألفناها وأحببناها .وهكذا نرى أن هؤلاء المجرمين ، قد قابلوا نصح
نبيهم تارة بالاستخفاف والاستهزاء كما هنا ، وتارة بالتهديد والوعيد ، كما
فى قوله - تعالى - : ( أخرجوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ
أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ).

قال رب انصرني على القوم المفسدين

كما فسرها الوسيط ولذا لجأ لوط - عليه السلام - إلى ربه ، يلتمس منه النصرة
والعون فقال : ( رَبِّ انصرني عَلَى القوم المفسدين ) ، اى : انصرنى بأن
تنزل عذابك على هؤلاء القوم المفسدين ، الذين مردوا على ارتكاب فواحش ، لم
. يسبقهم بها من أحد من العالمين

ولما جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا انا مهلكو اهل هذه القرية ان اهلها
كانوا ظالمين

، - كما فسرها الوسيط وأجاب الله - تعالى - دعاء نبيه لوط - عليه السلام
وأرسل - سبحانه - ملائكته لنبيه إبراهيم ليبشروه بابنه إسحاق . قبل أن

ينفذوا عذاب الله فى قوم لوط ، قال - تعالى - :( وَلَمَّا جَآءَتْ
( رُسُلُنَآ إِبْرَاهِيمَ بالبشرى قالوا إِنَّا مهلكوا أَهْلِ هذه القرية
أى : وحين جاء الملائكة إلى إبراهيم ليبشروه بابنه إسحاق : قالوا له : يا
إبراهيم : إنا مرسلون من ربك لإهلاك أهل هذه القرية وهى قرية سدوم التى
، يسكنها قوم لوط ، والسبب فى ذلك ( إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَالِمِينَ )
حيث أتوا بفاحشة لم يسبقهم إليها أحد ، وقطعوا الطريق على الناس ، واقترفوا
. فى مجالسهم المنكرات

قال ان فيها لوطا قالوا نحن اعلم بمن فيها لننجينه واهله الا امراته كانت
من الغابرين

) : كما فسرها الوسيط وهنا قال لهم إبراهيم - عليه السلام - بخشيته وشفقته
، إِنَّ فِيهَا لُوطاً ) أى : إن فى هذه القرية التى جئتم لإهلاكها لوطا
وهو نبى من أنبياء الله الصالحين فكيف تهلكونها وهو معهم فيها؟ وهنا رد
عليه الملائكة بما يزيل خشية فقالوا : ( نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ) من
الأخيار ومن الأشرار ، ومن المؤمنين ومن الكافرين .( لَنُنَجِّيَنَّهُ
وَأَهْلَهُ إِلاَّ امرأته كَانَتْ مِنَ الغابرين ) أى : اضمئن يا إبراهيم
فإن الله - تعالى - قد أمرنا أن ننجى لوطا وأن ننجى معه من الهلاك أهله
المؤمنين ، إلا امرأته فستبقى مع المهلكين ، لأنها منهم ، بسبب خيانتها
للوط - عليه السلام - حيث كانت تقر جرائم قومها ، ولا تعمل على إزالتها
وإنكارها ، كما هو شأن الزوجات الصالحات .والغابر : الباقى . يقال : غبر
الشئ يغبر غبورا ، أى : بقى ، وقد يستعمل فيما مضى - أيضا - فيكون من
. الأضداد . ومنه قولهم : هذا الشئ حدث فى الزمن الغابر . أى : الماضى

ولما ان جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقالوا لا تخف ولا تحزن انا
منجوك واهلك الا امراتك كانت من الغابرين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - حال لوط - عليه السلام - بعد أن وصل
) : - إليه الملائكة لينفذوا قضاء الله - تعالى - فى قومه ، فقال - عز وجل
وَلَمَّآ أن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ
ذَرْعاً ) .و " أن " هنا مزيدة لتأكيد المجئ . " وسئ بهم " أى : اعترته
: المساءة والأحزان بسبب مجيئهم ، لخوفه من اعتداء قومه عليهم .قال القرطبى
والذرع مصدر ذرع . وأصله أن يذرع البعير بيديه فى سيره ذرعا ، على قدر سعة
خطوه ، فإذا حمل عليه أكثر من طاقته ضاق عن ذلك ، وضعف ومد عنقه ، فضيق
، الذرع عبارة عن ضيق الوسع . . وإنما ضاق ذرعه بهم ، لما رأى من جمالهم
وما يعلمه من فسوق قومه . . . أى : وحين جاءت الملائكة إلى لوط - عليه
السلام - ورآهم ، ساءه وأحزنه مجيئهم ، لأنه كان يعرفهم ، ويعرف أن قومه
قوم سوء ، فخشى أن يعتدى قومه عليهم . وهو لا يستطيع الدفاع عن هؤلاء
الضيوف .والتعبير بقوله - سبحانه - ( وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً ) : تعبير
بليغ ، وتصوير بديع لنفاد حيلته ، واغتمام نفسه ، وعجزه عن وجود مخرج
للمكره الذى حل به .و " ذرعا " تمييز محول عن الفاعل ، أى : ضاق بأمرهم
ذرعه .ولاحظ الملائكة - عليهم السلام - على لوط قلقه وخوفه ، فقالوا له على
سبيل التبشير وإدخال الطمأنينية على نفسه ، يا لوط : ( لاَ تَخَفْ وَلاَ
تَحْزَنْ ) أى :لا تخف علينا من قومك ، ولا تحزن لمجيئنا إليك بتلك الصورة
المفاجئة .ثم أفصحوا له عن مهمتهم فقالوا : ( إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ
إِلاَّ امرأتك كَانَتْ مِنَ الغابرين ) .أى : إنا منجوك وأهلك المؤمنين من
العذاب الذى ننزله بقومك ، إلا امرأته فسيدركها العذاب مع قومك ، وستهلك مع
. الهالكين بسبب تواطئها معهم ، ورضاها بأفعالهم القبيحة

انا منزلون على اهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون

كما فسرها الوسيط ثم أخبروه بالكيفية التى ينزل بها العذاب على قومه فقالوا
إِنَّا مُنزِلُونَ على أَهْلِ هذه القرية رِجْزاً مِّنَ السمآء بِمَا ) :
كَانُواْ يَفْسُقُونَ ) .والرجز : العذاب الذى يزعج المعذب به ويجعله فى
حالة اضطراب وهلع . يقال : ارتجز فلان ، إذا اضطرب وانزعج .أى : إنا منزلون
بأمر الله - تعالى - وإرادته ، على أهل هذه القرية - وهى قرية سدوم التى
كان يسكنها قوم لوط - ( رِجْزاً مِّنَ السمآء ) أى : عذابا شديدا كائنا من
، السماء ، بحيث لا يملكون دفعه أو النجاة منه ، بسبب فسوقهم عن أمر ربهم
. وخروجهم عن طاعته

ولقد تركنا منها اية بينة لقوم يعقلون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن حكمته قد اقتضت . أن يجعل آثار
هؤلاء الظالمين باقية بعدهم ، لتكون عبرة وعظة لغيرهم فقال : ( وَلَقَد

تَّرَكْنَا مِنْهَآ آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ) .أى : ولقد
تركنا من هذه القرية بعد تدميرها ، علامة بينة ، وآية واضحة . تدل على هلاك
أهلها ، حتى تكون عبرة لقوم يستعلمون عقولهم فى التدبر والتفكر .قال ابن
كثير : وذلك أن جبريل - عليه السلام - اقتلع قراهم من قرار الأرض ، ثم
رفعها إلى عنان السماء ، ثم قلبها عليهم ، وأرسل الله عليهم حجارة من سجيل
منضود ، مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد ، وجعل مكانها . بحيرة
خبيثة منتنة ، وجعلهم عبرة إلى يوم التناد ، وهم من أشد الناس عذابا يوم
المعاد ، ولهذا قال : ( وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ آيَةً بَيِّنَةً
لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ) كما قال : ( وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ
مُّصْبِحِينَ وبالليل أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ) .

والى مدين اخاهم شعيبا فقال يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الاخر ولا
تعثوا في الارض مفسدين

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - جانبا من قصة شعيب وهود وصالح - عليهم
السلام - مع أقوامهم ، وكيف أن هؤلاء الأقوام قد كانت عاقبتهم خسرا ، بسبب
تكذيبهم لأنبيائهم فقال - تعالى - : ( وإلى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً
أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ) .قوله - سبحانه - : ( وإلى مَدْيَنَ . .
أَخَاهُمْ شُعَيْباً . . . ) معطوف على مقدر محذوف ، لدلالة ما قبله عليه
. - ومدين : اسم للقبيلة التى تنسب إلى مدين بن إبراهيم - عليه السلام
وكانوا يسكنون فى المنطقة التى تسمى معان بين حدود الحجاز والشام .وقد أرسل
- الله - تعالى - إليهم شعيبا - عليه السلام - ليأمرهم بعبادة الله - تعالى
وحده ، ولينهاهم عن الرذائل التى كانت منتشرة فيهم ، والتى من أبرزها
، التطفيف فى المكيال والميزان .والمعنى : وكما أرسلنا نوحا إلى قومه
- وإبراهيم إلى قومه ، أرسلنا إلى أهل مدين ، ورسولنا شعيبا - عليه السلام
أى : فقال لهم ناصحا ومرشدا ، الكلمة التى ( فَقَالَ ياقوم اعبدوا الله ).
قالها كل نبى لأمته : يا قوم اعبدوا الله - تعالى - وحده ، واتركوا ما أنتم
عليه من شرك .وقال لهم - أيضا : وارجوا النجاة من أهوال يوم القيامة ، بأن
تستعدوا له بالإيمان والعمل الصالح ، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ، فإن
الإفساد فى الأرض ليس من شأن العقلاء ، وإنما هو من شأن الجهلاء الجاحدين
لنعم الله - تعالى - . يقال : عَثِى فلان فى الأرض يعثو ويعثى - كقال
وتعب - ، إذا ارتكب اشد أنواع الفساد فيها .فأنت ترى أن شعيبا - عليه
السلام - وهو خطيب الأنبياء - كما جاء فى الحديث الشريف ، قد أمر قومه
بإخلاص العبادة لله ، وبالعمل الصالح الذى ينفعهم فى أخراهم ، ونهاهم عن
الإفساد فى الأرض ، فماذا كان موقفهم منه؟

فكذبوه فاخذتهم الرجفة فاصبحوا في دارهم جاثمين

- كما فسرها الوسيط كان موقفهم منه : التكذيب والإعراض ، كما قال - سبحانه
أى : فيما أمرهم به ، وفيما نهاهم عنه .( فَأَخَذَتْهُمُ ( فَكَذَّبُوه ) :
الرجفة ) أى : فأهلكهم الله - تعالى - بسبب تكذيبهم لنبيهم بالرجفة ، وهى
الزلزلة الشديدة . رجفت الأرض ، إذا اضطربت اضطرابا شديدا .ولا تعارض هنا
بين قوله - تعالى - : ( فَأَخَذَتْهُمُ الرجفة ) وبين قوله - سبحانه - فى
سورة الحجر : ( فَأَخَذَتْهُمُ الصيحة ) لأنه يجوز أن الله - تعالى - جعل
لإهلاكهم سببين : الأول : أن جبريل - عليه السلام - صاح بهم صيحة شديدة
أذهلتهم ، ثم رجفت بهم الأرض فأهلكتهم . وبعضهم قال : إن الرجفة والصيحة
بمعنى واحد .وقوله - تعالى - : ( فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ )
بيان لما آل إليه أمرهم بعد هلاكهم .والمراد بدارهم : مساكنهم التى
، يسكنونها ، أو قريتهم التى يعيشون بها وقوله : ( جَاثِمِينَ ) من الجثوم
وهو للناس والطيور بمنزلة البروك للإبل . يقال : جثم الطائر يجثم جثما
وجثوما فهو جاثم - من باب ضرب - ، إذا وقع على صدره ولزم مكانه فلم يبرحه
أى : فأصبحوا فى مساكنهم هامدين ميتين لا تحس لهم حركة ، ولا تسمع لهم.
ركزا .

وعادا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان اعمالهم فصدهم عن
السبيل وكانوا مستبصرين

) : كما فسرها الوسيط ثم أشار - سبحانه - بعد ذلك إلى مصارع عاد وثمود فقال
وَعَاداً وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ
وَزَيَّنَ لَهُمُ الشيطان أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السبيل
وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ) .وعاد : هم قوم هود - عليه السلام - وكانوا
يسكنون بالأحقاف فى جنوب الجزيرة العربية ، بالقرب من حضر موت .وثمود : هم
قوم صالح - عليه السلام - وكانت مساكنهم بشمال الجزيرة العربية ، وما زالت
مساكنهم تعرف حتى الآن بقرى صالح .أى : وأهلكنا عادا وثمود بسبب كفرهم

وعنادهم ، كما أهلكنا غيرهم ، والحال أنه قد تبين لكم - يا أهل مكة - وظهر لكم بعض مساكنهم ، وانتم تمرون عليهم في رحلتى الشتاء والصيف .فقوله - سبحانه - : ( وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ ) المقصود منه ، غرس العبرة والعظة فى نفوس مشركى مكة ، عن طريق المشاهدة لآثار المهلكين فإن مما يحمل العقلاء على الاعتبار ، مشاهدة آثار التمزيق والتدمير ، بعد القوة والتمكين .( وَزَيَّنَ لَهُمُ الشيطان أَعْمَالَهُمْ ) السيئة . بسبب وسوسته وتسويله ، ( فَصَدَّهُمْ عَنِ السبيل ) الحق ، وعن الطريق المستقيم أى : عادا وثمود ( مُسْتَبْصِرِينَ ) أى : وكانت لهم عقول ( وَكَانُوا ). يستطيعون التمييز بها بين الحق والباطل ، وبين الخير والشر ، ولكنهم لم يستعملوها فيما خلقت له ، وإنما استحبوا العمى على الهدى ، وآثروا الغى على ) : - الرشد ، فأخذهم الله - تعالى - أخذ عزيز مقتدر .وقوله - تعالى مُسْتَبْصِرِينَ ) من الاستبصار بمعنى التمكن من تعقل الأمور . وإدراك خيرها من شرها ، وحقها من باطلها .

وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الارض وما كانوا سابقين

كما فسرها الوسيط ثم أشار - سبحانه - إلى ما حل بقارون وفرعون وهامان فقال ، أى : وأهلكنا - أيضا - قارون ( وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ) : : وهو الذى كان من قوم موسى فبغى عليهم ، كما أهلكنا فرعون الذى قال لقومه وهامان الذى كان وزيرا لفرعون وعونا له فى ( أَنَاْ رَبُّكُمُ الأعلى ) الكفر والظلم والطغيان .قال الآلوسى : وتقديم قارون ، لأن المقصود تسلية النبى صلى الله عليه وسلم فيما لقى من قومه لحسدهم له ، وقارون كان من قوم موسى - عليه السلام - وقد لقى منه ما لقى . أو لأن حال قارون أوفق بحال عاد وثمود ، فإنه كان من أبصر الناس وأعلمهم بالتوراة ، ولكنه لم يفده - الاستبصار شيئا ، كما لم يفدهم كونهم مستبصرين شيئا . .ثم بين - سبحانه ما جاءهم به موسى - عليه السلام - وموقفهم منه فقال : ( وَلَقَدْ جَآءَهُمْ ). موسى بالبينات ) أى : جاءهم جميعا بالمعجزات الواضحات الدالة على صدقه . فاستكبروا فِي الأرض ) أى : فاستكبروا قارون وفرعون وهامان فى الأرض وأبوا أن يمؤمنوا بموسى ، بل وصوفه بالسحر وبما هو برئ منه .( وَمَا كَانُواْ سَابِقِينَ ) اى : وما كانوا بسبب استكبارهم وغرورهم هذا ، هاربين أو نجاين من قضائنا ، فيهم ، ومن إهلاكنا لهم .فقوله : ( سَابِقِينَ ) من السبق ، بمعنى التقدم على الغير . يقال فلان سبق طالبه ، إذا تقدم عليه دون أن يستطيع هذا الطالب إدراكه .والمراد أن قارون وفرعون وهامان ، لم يستطيوا - رغم قوتهم وغناهم - أن يفلتوا من عقابنا ، بل أدركهم عذابنا إدراكا تاما فأبادهم وقضى عليهم .

فكلا اخذنا بذنبه فمنهم من ارسلنا عليه حاصبا ومنهم من اخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الارض ومنهم من اغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - الحديث عن هؤلاء المكذبين ، ببيان سنة من سننه التى لا تتخلف ، فقال : ( فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ) .أى : ، فكلا من هؤلاء المذكورين كقوم نوح وإبراهيم ولوط وشعيب وهود وصالح وكقارون وفرعون وهامان وأمثالهم : كلا من هؤلاء الظالمين أخذناه وأهلكناه بسبب ذنوبه التى اصر عليها دون أن يرجع عنها .( فَمِنْهُم مّن أَرْسَلنَا عَلَيْهِ حَاصِباً ) أى : فمن هؤلاء الكافرين من أهلكناه ، بأن أرسلنا عليه ريحا شديدة رمته بالحصباء فأهلكته .قال القرطبى : قوله : ( فَمِنْهُم مّن أَرْسَلنَا عَلَيْهِ حَاصِباً ) يعنى قوم لوط . والحاصب ريح يأتى بالحصباء وهى الحصى الصغار . وتستعمل فى كل عذاب .( وَمِنْهُمْ مّنْ أَخَذَتْهُ ، الصيحة ) كما حدث لقوم صالح وقوم شعيب - عليهما السلام - .( وَمِنْهُمْ مّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأرض ) وهو قارون .( وَمِنْهُمْ مّنْ أَغْرَقْنَا ) كما فعلنا مع قوم نوح ومع فرعون وقومه .( وَمَا كَانَ الله لِيَظْلِمَهُمْ أى : وما كان الله - تعالى - مريدا لظلمهم ، لأنه - سبحانه - اقتضت رمته ( وحكمته ، أن لا يعذب أحدا بدون ذنب ارتكبه .( ولكن كانوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ) أى : ما ظلم الله - تعالى - هؤلاء المهلكين ، ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم ، وعرضوها للدمار ، بسبب إصرارهم على كفرهم ، واتباعهم للهوى والشيطان .وبذلك نرى الآيات قد قصت على النسا مصارع الغاربين ، الذين كذبوا الرسل ، وحاربوا دعوة الحق ، ليكون فى هذا القصص عبرة للمعتبرين ، وذكرى للمتذكرين .

مثل الذين اتخذوا من دون الله اولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وان اوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون

كما فسرها الوسيط ثم ضرب الله مثلا ، لمن يتخذ آلهة من دونه : وتوعد من
. . . يفعل ذلك بأشد أنواع العذاب ، فقال - تعالى - ( مَثَلُ الذين اتخذوا
إِلاَّ العالمون ) .والمثَل والمِثْل : النظير والشبيه ، ثم أطلق المثل على
القول السائر المعروف ، لمماثلة مضربه - وهو الذى يضرب فيه - لمورده - وهو
الذى ورد فيه أولا - ولا يكون إلا فيما فيه غرابة - ثم استعير للصفة أو
الحال أو القصة ، إذا كان لها شأن عجيب ، وفيها غرابة . وعلى هذا المعنى
يحمل المثل هنا .وإنما تضرب الأمثال لإيضاح المعنى الخفى ، وتقريب الشئ
المعقول من الشئ المحسوس ، وعرض الغائب فى صورة الحاضر ، فيكون المعنى الذى
ضرب له المثل ، أوقع فى القلوب ، وأثبت فى النفوس .والعنكبوت : حشرت معروفة
تنسج لنفسها فى الهواء بيتا رقيقا ضعيفا ، لا يغنى عنا شيئا ، وتطلق هذه ،
. الكلمة على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث والغالب فى استعمالها التأنيث
والواو والتاء زائدتان ، كما فى لفظ طاغوت .والمعنى : حال هؤلاء المشركين
الذين اتخذوا من دون الله - تعالى - أصناماً يعبدونها ، ويرجون نفعها
وشفاعتها . . كحال العنكبوت فى اتخاذها بيتاً ضعيفاً مهلهلاً ، لا ينفعها
لا فى الحر ولا فى القر ، ولا يدفع عنها شيئاً من الأذى .فالمقصود من المثل
تجهيل المشركين وتقريعهم ، حيث عبدوا من دون الله - تعالى - آلهة ، هى فى
ضعفها ووهنا تشبه بيت العنكبوت ، وأنهم لو كانوا من ذوى العلم لما عبدوا
تلك الآلهة .قال صاحب الكشاف : الغرض تشبيه ما اتخذوه متكلاً ومتعمداً فى
. دينهم ، وتولوه من دون الله ، بما هو مثل عند الناس فى الوهن وضعف القوة
وهو نسج العنكبوت . ألا ترى غلى مقطع التشبيه ، وهو قوله : ( وَإِنَّ
أَوْهَنَ البيوت لَبَيْتُ العنكبوت ) .فإن قلت : ما معنى قوله : ( لَوْ
كَانُواْ يَعْلَمُونَ ) وكل أحد يعلم وهن بيت العنكبوت؟ قلت : معناه ، لو
. كانوا يعلمون أن هذا مثلهم ، وأن أمر دينهم بالغ هذه الغاية من الوهن
وقال الآلوسى : قوله : ( لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ) أى : لو كانوا.
يعلمون شيئاً من الأشياء ، لعلموا أن هذا مثلهم ، أو أن أمر دينهم بالغ هذه
الغاية من الوهن . و " لو " شرطية ، وجوابها محذوف ، وجوز بعضهم كونها
. للتمنى فى جواب لها ، وهو غير ظاهر

ان الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن علمه شامل لكل شئ ، وأنه سيجازى
هؤلاء المشركين بما يستحقونه من عقاب فقال : ( إِنَّ الله يَعْلَمُ مَا
يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ العزيز الحكيم ) .و " ما " موصولة
- وهى مفعول يعلم ، والعائد محذوف ، و " من شئ " بيان لما .أى : إن الله ،
تعالى - يعلم علماً تاماً الذى يعبده هؤلاء المشركون من دونه ، سواء أكان
ما يعبدونه من الجن أم من الإنس أم من الجمادات أم من غير ذلك ، ( وَهُوَ
سبحانه - ( العزيز ) أى : الغالب على كل شئ ( الحكيم ) فى أقواله - (
. وأفعاله

وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون

، كما فسرها الوسيط ( وَتِلْكَ الأمثال ) التى سقناها فى كتابنا العزيز
والتى من بينها المثال السابق .( نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ) على سبيل
: الإرشاد والتنبيه والتوضيح .( وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلاَّ العالمون ) أى
، وما يعقل هذه الأمثال ، ويفهم صحتها وحسنها ، إلا الراسخون فى العلم
. المتدبرون فى خلق الله - تعالى - ، الفاقهون لما يتلى عليهم

خلق الله السماوات والارض بالحق ان في ذلك لاية للمؤمنين

كما فسرها الوسيط ثم ذكر - سبحانه - ما يدل على عظيم قدرته ، وأمر نبيه صلى
- الله عليه وسلم بالإكثار من تلاوة القرآن الكريم ، ومن الصلاة ، فقال
تعالى - : ( خَلَقَ الله . . . يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ) .أى : خلق
الله - تعالى - السموات والأرض بالحق الذى لا باطل معه ، وبالحكمة التى لا
. يشوبها عبث أو لهو ، حتى يكون هذا الخلق متفقاً مع مصالح عبادنا ومنافعهم
ومن مظاهر ذلك ، أنك لا ترى - أيها العاقل - فى خلق الرحمن من تفاوت أو.
تصادم ، أو اضطراب .واسم الإشارة فى قوله - تعالى - : ( إِنَّ فِي ذلك
لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ) يعود إلى خلق السماوات والأرض ، وما اشتملنا
عليه من بدائع وعجائب .أى : إن فى ذلك الذى خلقناه بقدرتنا ، من سماوات
مرتفعة بغير عمد ، ومن أرض مفروشة بنظام بديع ، ومن عجائب لا يحصيها العد
- فى هذا الكون ، إن فى كل ذلك لآية بينة ، وعلامة واضحة ، على قدرة الله
عز وجل - .وخص المؤمنين بالذكر ، لأنهم هم المتدبرون فى هذه الآيات
والدلائل ، وهم المنتفعون بها فى التعرف على وحدانية الله وقدرته ، وعلى
. حسن عبادته وطاعته

اتل ما اوحي اليك من الكتاب واقم الصلاة ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله اكبر والله يعلم ما تصنعون

كما فسرها الوسيط والمقصود بالتلاوة فى قوله - تعالى - : ( اتل مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الكتاب ) : القراءة المصحوبة بضبط الألفاظ ، وبتفهم المعانى . والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم كل من آمن به . أى : اقرأ - أيها الرسول الكريم - ما أوحينا إليك من آيات هذا القرآن قراءة تدبر واعتبار واتعاظ ، ودوام على ذلك ، ومر أتباعك أن يقتدوا بك فى المواظبة على هذه القراءة الصحيحة النافعة .( وَأَقِمِ الصلاة ) أى : وواظب على إقامة الصلاة فى أوقاتها بخشوع وإخلاص واطمئنان ، وعلى المؤمنين أن يقتدوا لك فى ذلك .وقوله : ( إِنَّ الصلاة تنهى عَنِ الفحشاء والمنكر ) تعليل للأمر بالمحافظة على إقامة الصلاة بخشوع وإخلاص . أى : دوام - أيها الرسول الكريم - على إقامة الصلاة بالطريقة التى يحبها الله - تعالى - ، فإن من شأن الصلاة التى يؤديها المسلم فى أوقاتها بشخوع وإخلاص ، أن تنهى مؤديها عن ارتكاب الفحشاء - وهى كل ما قبح قوله وفعله - ، وعن المنكر - وهو كل ما تنكره الشرائع والعقول السليمة - .قال الجمل : " ومعنى نهيها عنهما ، أنها سبب الانتهاء عنها لأنها مناجاة لله - تعالى - ، فلا بد أن تكون مع إقبال تام على طاعته ، وإعراض كل عن معاصيه .قال ابن مسعود : فى الصلاة منتهى ومزدجر عن معاصى الله ، فمن لم تأمره صلاته بالمعروف ، ولم تنهه عن المنكر لم يزدد من الله إلا بعداً . .وروى عن أنس - رضى الله عنه - أن فتى من ، الأنصار ، كان يصلى مع النبى صلى الله عليه وسلم ثم يأتى الفواحش ، فذكر للنبى صلى الله عليه وسلم - فقال : إن صلاته ستناه ، فلم يلبث أن تاب وحسن حاله .والخلاصة : أن من شأن الصلاة المصحوبة بالإخلاص والخشوع وبإتمام سننها وآدابها ، أن تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر ، فإن وجدت إنساناً يؤدى الصلاة ، ولكنه مع ذلك يرتكب بعض المعاصى ، فأقول لك : إن الذنب ليس ذنب الصلاة ، وإنما الذنب ذنبه ذا المرتكب للمعاصى ، لأنه لم يؤد الصلاة أداء مصحوباً بالخشوع والإخلاص .. . . وإنما أداها دون أن يتأثر بها قلبه ولعلها تنهاه فى يوم من الأيام ببركة مداومته عليها ، كما جاء فى . . الحديث الشريف : " إن الصلاة ستنهاه " .وقوله - سبحانه - : ( وَلَذِكْرُ الله أَكْبَرُ ) أى : ولذكر الله - تعالى - بجميع أنواعه من تسبيح وتحميد وتكبير وغير ذلك من ألوان العبادة والذكر ، أفضل وأكبر من كل شئ آخر ، لأن هذا الذكر لله - تعالى - فى كل الأحوال ، دليل على صدق الإيمان ، وحسن ) : - الصلة بالله - تعالى - .قال الآلوسى ما ملخصه : قوله - تعالى وَلَذِكْرُ الله أَكْبَرُ ) ، قال ابن عباس ، وابن مسعود ، وابن عمر . . أى ولذكر الله - تعالى - إياكم ، أكبر من ذكركم إياه - سبحانه - . .وروى عن : جماعة من السلف أن المعنى : ولذرك العبد لله - تعالى - ، أكبر من سائر الأعمال .أخرج الإمام أحمد عن معاذ بن جبل قال : ما عمل ابن آدم عملاً أنجى له من عذاب الله يوم القيامة ، من ذكر الله - تعالى - .وقيل : المراد بذكر الله : الصلاة . كما فى قوله - تعالى - : ( فاسعوا إلى ذِكْرِ الله ) أى : إلى الصلاة ، فيكون المعنى : وللصلاة أكبر من سائر الطاعات ، وإنما عبر عنها به ، للإيذان بأن ما فيها من ذكر الله - تعالى - هو العمدة فى كونها مفضلة على الحسنات ، نهاية عن السيئات .ويبدو لنا أن المراد بذكر الله - تعالى - هنا : ما يشمل كل قول طيب وكل فعل صالح ، يأتيه المسلم بإخلاص وخشوع ، وعلى رأس هذه الأقوال والأفعال : التسبيح والتحميد والتكبير والتهليل ، والصلاة وما اشتملت عليه من أقوال وأفعال . .وأن المسلم متى ، أكثر من ذكر الله - تعالى - ، كان ثوابه - سبحانه - له ، وثناؤه عليه أكبر وأعظم من كل قول ومن كل فعل .وقوله - سبحانه - : ( والله يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ) تذييل قصد به الترغيب فى إخلاص العبادة لله ، والتحذير من ، الرياء فيها .أى : داوموا - أيها المؤمنون . على تلاوة القرآن الكريم بتدبر واعتبار ، وأقيموا الصلاة فى أوقاتها بخشوع وخضوع ، وأكثروا من ذكر الله - تعالى - فى كل أحوالكم ، فإن الله - تعالى - يعلم ما تفعلونه وما ، تصنعونه من خير أو شر ، وسيجازى - سبحانه - الذين أساءوا بما عملوا . ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى

ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتي هي احسن الا الذين ظلموا منهم وقولوا امنا بالذي انزل الينا وانزل اليكم والهنا والهكم واحد ونحن له مسلمون

كما فسرها الوسيط ثم أمر الله - تعالى - رسوله والمؤمنين . أن يجادلوا أهل - الكتاب بالتى هى أحسن ، ما داموا لم يرتكبوا ظلماً ، وأقام - سبحانه الأدلة على أن هذا القرآن من عنده وحده ، فقال : ( وَلاَ تجادلوا أَهْلَ . : إِلاَّ الظالمون ) .والمجادلة : المخاصمة . يقال : جادل فلانٌ فلاناً . . إذا خاصمه ، وحرص كل واحد منها على أن يغلب صاحبه بقوة حجته . أى : ولا ، تجادلوا - أيها المؤمنون - غيركم من أهل الكتاب ، وهم اليهود والنصارى ، إلا بالطريقة التى هى أحسن ، بأن ترشدوهم إلى طريق الحق بأسلوب لين كريم

كما قال - تعالى - فى آية أخرى : ( ادع إلى سَبِيلِ رَبِّكَ بالحكمة والموعظة الحسنة وَجَادِلْهُم بالتي هِيَ أَحْسَنُ ) وقوله : ( إِلاَّ الذين ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ) استثناء من الذين يجادلون بالتى هى أحسن .أى : ناقشوهم وأرشدوهم إلى الحق بالتى هى أحسن ، إلا الذين ظلموا منهم . بأن أساءوا إليكم ، ولم يستعملوا الأدب فى جدالهم ، فقابلوهم بما يليق بحالهم من الإغلاظ والتأديب .وعلى هذا التفسير يكون المقصود بالآية الكريمة ، دعوة المؤمنين إلى استعمال الطريقة الحسنى فى مجادلتهم لأهل الكتاب عموماً ما عدا الظالمين منهم فعلى المؤمنين أن يعاملوهم بالأسلوب المناسب لردعهم . وزجرهم وتأديبهم .وقيل : المرد بأهل الكتاب هنا : المؤمنون منهم ، والمرد بالذين ظلموا : من بقى على الكفر منهم .فيكون المعنى : ولا تجادلوا - أيها المؤمنون - من آمن من أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن ، إلا لاذين بقوا على كفرهم فعاملوهم بما يليق بحالهم من التأديب والإغلاظ عليهم .ويبدو لنا أن التفسير الأول هو الأرجح والأظهر ، لأن الآية مسوقة لتعليم المؤمنين كيف يجادلون من بقى على دينه من أهل الكتاب ، ولأن من ترك كفره منهم ودخل فى الإسلام أصبح مسلما وليس من أهل الكتاب ، وما دام الأمر كذلك فليس المسلمون فى حاجة إلى إرشادهم إلى كيفية مجادلته ، ولأن قوله - تعالى - بعد ذلك : ( وقولوا آمَنَّا بالذي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ ) يرجح أن المراد بأهل الكتاب هنا من بقى على دينه منهم .أى : جادلوهم بالطريقة الحسنى ما داموا لم يظلموكم ، وقولوا لهم على سبيل التعليم والإرشاد ( آمَنَّا بالذي أُنزِلَ إِلَيْنَا ) وهو القرآن ، وآمنا بالذى أنزل إليكم من التوراة والإنجيل .قال الشوكانى : أى : آمنا بأنهما منزلان من عند الله ، وأنهما شريعة ثابتة إلى قيام الشريعة الإسلامية ، والبعثة المحمدية ولا يدخل فى ذلك ما حرفوه وبدلوه .( وإِلَهكم وَاحِدٌ )لا شريك له لا فى ذاته ولا فى صفاته ( وَنَحْنُ ) جميعاً معاشر المؤمنين ( لَهُ مُسْلِمُونَ ) أى : مطيعون وعابدون له وحده ، ولا نتخذ أربابا من دونه - عز وجل - .قال القرطبى ما ملخصه : اختلف العلماء فى قوله - تعالى - : ( وَلاَ تجادلوا أَهْلَ الكتاب . . . ) فقال مجاهد : هى محكمة ، فيجوز مجادلة أهل الكتاب بالتى هى أحسن ، على معنى الدعاء لهم إلى الله - عز وجل - ، والتنبيه على حججه وآياته . . وقوله : ( إِلاَّ الذين ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ) أى ظلموكم . .وقيل : هذه الآية منسوخة بآية القتال وهى قوله :( قَاتِلُواْ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالله . . ) وقول مجاهد : حسن ، لأن أحكام الله - عز وجل -لا يقال فيها إنها منسوخة إلا بخبر يقطع العذر ، أو حجة من معقول . .

وكذلك انزلنا اليك الكتاب فالذين اتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد باياتنا الا الكافرون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - موقف الناس من هذا الكتاب الذى أنزله على نبيه صلى الله عليه وسلم - فقال : ( وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الكتاب فالذين آتَيْنَاهُمُ الكتاب يُؤْمِنُونَ بِهِ . . ) .والكاف بمعنى مثل : واسم الإشارة يعود إلى المصدر المفهوم من أنزلنا . أى : ومثل ذلك الإنزال المعجز البديع ، أنزلنا إليك الكتاب - أيها الرسول الكريم - ليكون هداية للناس ، فالذين آتيناهم الكتاب الشامل للتوراة والإنجيل وعقلوه وفتحوا قلوبهم للحق ، يؤمنون بهذا الكتاب الذى نزل عليك ، وهو القرآن . فالمراد بالذين أوتوا الكتاب : المؤمنون منهم كعبد الله بن سلام وأمثاله. والمراد بالكتاب جنسه . والضمير فى " به " يعود إلى القرآن الكريم الذى أنزله الله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وخص هؤلاء المؤمنين منهم بإيتاء الكتاب ، على سبيل المدح لهم . لأنهم انتفعوا بما أوتوه من علم وعملوا بمقتضاه ، أما غيرهم من بقى على كفره ، فلكونه لم ينتفع بما فى الكتاب من هدايات ، فكأنه لم يره أصلاً .وقوله : ( وَمِنْ هؤلاء مَن يُؤْمِنُ بِهِ ) : ومن هؤلاء العرب الذين أرسلت إليهم - أيها الرسول الكريم - من يؤمن بهذا القرآن الذى أنزلناه إليك .و " من " للتبعيض ، لأنه ملم يؤمنوا جميعاً ، وإنما من منهم من هداه الله - تعالى - إلى الصراط المستقيم .( وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَآ ) الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ، وعلى صدقك فيما تبلغه عنا ، ( إِلاَّ الكافرون ) أى : إلا الموغلون فى الكفر ، المصرون عليه إصراراً تاماً .والجحود : إنكار الحق مع معرفة أنه حق وعبر عن الكتاب بالآيات ، للإشعار بأنها فى غاية الظهور والدلالة على. كونها من عند الله - تعالى - ، وأنه ما يكذب بها إلا من غطى الحق بالباطل عن تعمد وإصرار .فأنت ترى أن الآية الكريمة قد بينت أن من الناس من قابل هذا القرآن بالتصديق والإذعان ، ومنهم من قابله بالجحود والنكران . .

وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذا لارتاب المبطلون

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - أبلغ الأدلة وأوضحها على أن هذا القرآن من عنده - تعالى - ، فقال : ( وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِ مِن

: كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَّأرْتَابَ المبطلون ) .أى
أنت - أيها الرسول الكريم - ما كنت فى يوم من الأيام قبل أن ننزل عليك هذا
القرآن - تالياً لكتاب من الكتب ، ولا عارفاً للكتابة ، ولو كنت ممن يعرف
القراءة والكتابة ، لارتاب المبطلون فى شأنك ، ولقالوا إنك نقلت هذا القرآن
بخطك من كتب السابقين .و ( مِن ) فى قوله ( مِن كِتَابٍ ) لتأكيد نفى كونه
صلى الله عليه وسلم قارئاً لأى كتاب من الكتب قبل نزول القرآن عليه .وقوله
لتأكيد نفى كونه صلى الله عليه وسلم ( وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ) :
يعرف الكتاب أو الخط .قال الإمام ابن كثير : وهكذا صفته صلى الله عليه
وسلم فى الكتب المتقدمة ، كما قال - تعالى - : ( الذين يَتَّبِعُونَ الرسول
. النبي الأمي الذي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التوراة والإنجيل
وهكذا كان صلوات الله وسلامه عليه - إلى يوم القيامة ، لا يحسن الكتابة ( .
ولا يخط سطرا وحلا حرفاً بيده ، بل كان له كتاب يكتبون بين يديه الوحى ،
والرسائل إلى الأقاليم . .والمراد بالمبطلين ، كل من شك فى كون هذا القرآن
- من عند الله - تعالى - سواء أكان من مشركى مكة أم من غيرهم .وسماهم
سبحانه - مبطلين ، لأن ارتيابهم ظاهر بطلانه ومجانبته للحق ، لأن الرسول
صلى الله عليه وسلم قد لبث فيهم قبل النبوة أربعين سنة ، يعرفون حسبه ونسبه
. ويعلمون حق العلم أنه أمى لا يعرف الكتابة والقراءة ،

بل هو ايات بينات في صدور الذين اوتوا العلم وما يجحد باياتنا الا الظالمون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - حقيقة هذا الكتاب المعجز فقال : ( بَلْ
هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الذين أُوتُواْ العلم ) .أى : هذا
الكتاب ليس أساطير الأولين اكتتبها الرسول صلى الله عليه وسلم كما زعم
المبطلون - بل هو آيات بينات واضحات راسخات ، فى صدور المؤمنين به ، الذين
حفظوه وتدبروه وعملوا بتوجيهاته وإرشاداته ، وعملوا بما فيه من حكم وأحكام
وعقائد وآداب .ووصف الله - تعالى - المؤمنين بهذا القرآن بالعلم على سبيل
- المدح لهم ، والإعلاء من شأنهم حيث استطاعوا عن طريق ما وهبهم - سبحانه
، من علم نافع ، أن يوقنوا بأن هذا من عند الله ، ولو كان من عند غير الله
لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً .وقوله - سبحانه - : ( وَمَا يَجْحَدُ
بِآيَاتِنَآ إِلاَّ الظالمون ) تذييل المقصود به ذم الذين تجاوزا كل حق
، وصدق فى أحكامهم وتصرفاتهم .ألا : وما يجحد آياتنا مع وضوحها وسطوعها
وينكر كونها من عند الله - تعالى - ، إلا الظالمون المتجاوزون لكل ما هو حق
. ولكل ما هو صدق ،

وقالوا لولا انزل عليه ايات من ربه قل انما الايات عند الله وانما انا نذير مبين

كما فسرها الوسيط ثم قصت علينا السورة الكريمة بعد ذلك طرفاً من أقوال
المشركين الفاسدة وأمرت الرسول صلى الله عليه وسلم أن يرد عليهم بما يزهق
باطلهم ، كما قصت علينا لونا من ألوان جهالاتهم ، حيث استعجلوا الذى لا
يستعجله عاقل . فقال - تعالى - : ( وَقَالُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ . . . مَا
كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ) ومرادهم بالآيات فى قوله - تعالى - : ( وَقَالُواْ
لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ) الآيات الكونية ، كعصا
موسى ، وناقة صالح . ولولا حرف تحضيض بمعنى هَلا .أى : وقال المبطلون للنبى
صلى الله عليه وسلم على سبيل التعنت والعناد ، هلا جئتنا يا محمد بمعجزات
) : حسية كالتى جاء بها بعض الأنبياء من قبلك ، لكى نؤمن بك ونتبعك؟وقوله
( قُلْ إِنَّمَا الآيات عِندَ الله وَإِنَّمَآ أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ
إرشاد من الله - تعالى - لنبيه صلى الله عليه وسلم إلى ما يرد به عليهم .أى
قل - أيها الرسول - الكريم - فى ردك على هؤلاء الجاهلين ، إنما الآيات :
التى تريدونها عند الله - تعالى - وحده ، ينزلها حسب إرادته وحكمته ، أما
أنا فإن وظيفتى الإنذار الواضح بسوء مصير من أعرض عن دعوتى ، وليس من
. وظيفتى أن أقترح على الله - تعالى شيئاً

اولم يكفهم انا انزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ان في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ
- أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكتاب يتلى عَلَيْهِمْ . . . ) كلام مستأنف من جهته
تعالى - لتوبيخهم على جهالاتهم ، والاستفهام للإنكار ، والواو للعطف على
مقدر .والمعنى : أقالوا ما قالوا من باطل وجهل ، ولم يكفهم أنا أنزلنا عليك
هذا الكتاب الناطق بالحق ، يتلى على مسامعهم صباح ومساء ، ويديهم إلى ما
فيه سعادتهم ، لو تدبروه وآمنوا به ، واتبعوا أوامره ونواهيه؟والتعبير
بقوله - سبحانه - : ( يتلى عَلَيْهِمْ ) ، يشير إلى أن هذه التلاوة متجددة
عليهم ، وغير منقطعة عنهم ، وكان فى إمكانهم أن ينتفعوا بها لو كانوا

يعقلون .ولذا ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ( إِنَّ فِي ذلك لَرَحْمَةً وذكرى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ) .أى : إن فى ذلك الكتاب الذى ، أنزلناه عليك - أيها الرسول الكريم - ، والذى تتلوه عليهم صباح مساء ، لرحمة عظيمة ، وذكرى نافعة ، لقوم يؤمنون بالحق ، ويفتحون عقولهم للرشد ، لا للتعنت والجحود والعناد .

قل كفى بالله بيني وبينكم شهيدا يعلم ما في السماوات والارض والذين امنوا بالباطل وكفروا بالله اولئك هم الخاسرون

) : كما فسرها الوسيط ثم أرشده - سبحانه - إلى جواب آخر يرد به عليهم فقال قُلْ كفى بالله بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً ) . اى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الجاهلين : يكفينى كفاية تامة أن يكون الله - تعالى - وحده هو الشهيد بينى وبينكم على أنى صادق فيما أبلغه عنه ، وعلى أن هذا القرآن ، من عنده .وهو - سبحانه - ( يَعْلَمُ مَا فِي السماوات والأرض ) علماً لا يعزب عنه شئ ، وسيجازينى بما أستحقه من ثواب ، وسيجازيكم بما يستحقونه من عقاب .( والذين آمَنُوا بالباطل ) وأعرضوا عن الحق ( وَكَفَرُوا بالله ) - مع وضوح الأدلة على أنه - سبحانه - هو المستحق للعبادة والطاعة - تعالى الذين فعلوا ذلك : ( أولئك هُمُ الخاسرون ) خسارة ليس بعدها خسارة ، حيث. آثروا الغى على الرشد ، واستحبوا العمى على الهدى ، وسيكون أمرهم فرطاً فى الدنيا والآخرة .

ويستعجلونك بالعذاب ولولا اجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون

. . . كما فسرها الوسيط وقوله - عز وجل - : ( وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب ) بيان للون آخر من ألوان انطماس بصيرة هؤلاء الكافرين ، ومن سفاهاتهم وجهالاتهم . أى : أن هؤلاء المشركين لم يكتفوا بتكذيبك - أيها الرسول الكريم - بل أضافوا إلى ذلك ، التطاول عليك ، لسوء أدبهم ، وعدم فهمهم لوظيفتك . بدليل أنهم يطلبون منك أن تنزل عليهم العذاب بعجلة وبدون إبطاء على سبيل التحدى لك . كما قالوا فى موطن آخر : ( اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السمآء أَوِ ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ) ثم يبين الله - تعالى - حكمته فى تأخير عذابه عنهم إلى حين فيقول : ( وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ العذاب . . . ) . أى : يستعجلك المشركون يا محمد فى نزول العذاب بهم ، والحق أنه لولا أجل مسمى ، ووقت معين ، حدده الله - تعالى - فى علمه لنزول العذاب بهم ، لجاءهم العذاب فى الوقت الذى طلبوه ، بدون إبطاء أو تأخير .ومع ذلك فقل لهم - أيها الرسول الكريم - إن هذا العذاب آت لا ريب فيه فى الوقت الذى يشاؤه الله - تعالى - ، وإن هذا العذاب المدمر المهلك : ( لَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ) أى : ليحلن عليهم فجأة وبدون مقدمات ، والحال أنهم لا يشعرون به ، بل ياتيهم بغتة فيبهتهم ، ويستأصل شأفتهم .

يستعجلونك بالعذاب وان جهنم لمحيطة بالكافرين

، كما فسرها الوسيط ثم كرر - سبحانه - أقوالهم على سبيل التعجيب من حالهم ) : والتسلية للرسول صلى الله عليه وسلم عما لقيه منهم . فقال يَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بالكافرين ) .آى يستعجلونك - أيها الرسول الكريم - بالعذاب ، الذى لا يطلبه أحد فى ذهنه : مثقال ذرة من عقل ، والحال أن ما استعجلوه سينزل بهم لا محالة ، وستحيط بهم جهنم من كل جانب .

يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت ارجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - كيفية إحاطة جهنم بهم فقال : ( يَوْمَ يَغْشَاهُمُ العذاب ) .أى : ستحيط بهم جهنم من كل جانب . يوم يحل بهم العذاب ( مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ) أى: من جميع جهاتهم سبحانه - لهم ، على سبيل التقريع والتأنيب ( ذُوقُواْ مَا - ( وَيِقُول ). كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ) أى : تذوقوا العذاب المهين الذى كنتم تستعجلونه فى الدنيا والذى أحاط بكم من كل جانب بسبب أعمالكم القبيحة ، وأقوالكم الباطلة وبعد أن بين - سبحانه - سوء عاقبة المكذبين ، الذين استعجلوا العذاب. لجهلهم وعنادهم ، أتبع ذلك بتوجيه نداء إلى المؤمنين أمرهم فيه بالثبات على الحق ، فقال - تعالى - : ( الذين عَاهَدْتَّ . . . وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ ) .

يا عبادي الذين امنوا ان ارضي واسعة فاياي فاعبدون

كما فسرها الوسيط قال الإمام ابن كثير : قوله - تعالى - : ( ياعبادي الذين آمنوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ ) : هذا أمر من الله - تعالى - لعباده المؤمنين ، بالهجرة من البلد الذى لا يقدرون فيه على إقامة الدين ، إلى أرض الله الواسعة ، حيث يمكن إقامة الدين ، بأن يوحدوا الله ويعبدوه كما أمرهم روى الإمام أحمد عن أبى يحيى مولى الزبير بن العوام قال : قال رسول . ، الله صلى الله عليه وسلم : " البلاد بلاد الله ، والعباد عباد الله فحيثما أصبت خيراً فأقم " .ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم بها خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة ، ليأمنوا على دينهم هناك . . . ثم بعد ذلك ، هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة المنورة . .وفى ، ندائهم بقوله : ( ياعبادي ) وفى وصفهم بالإيمان ، تكريم وشتريف لهم ، حيث أضافهم - سبحانه - إلى ذاته ، ونعتم المحبب إلى قلوبهم .وقوله : ( إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ ) تحريض لهم على الهجرة من الأرض التى لا يتمكنون فيها من إقامة شعائر دينهم ، فكانه - سبحانه - يقول لهم : ليس هناك ما يجبركم على الإقامة فى تلك الأرض التى لا قدرة لكم فيها على إظهار دينكم ، بل - أخرجوا منها فإن أرضى واسعة ، ومن خرج من أجل كلمة الله ، رزقه الله ، تعالى - من حيث لا يحتسب .ومن المفسرين الذين أجادوا فى شرح هذا المعنى صاحب الكشاف - رحمه الله - فقد قال : ومعنى الآية : أن المؤمن إذا لم يتسهل له العبادة فى بلد هو فيه ، ولم يتمش له أمر دينه كما يحب ، فليهاجر عنه إلى بلد يقدر أنه فيه أسلم قلباً ، وأصح ديناً ، وأكثر عبادة . .ولعمرى إن البقاع تتفاوت فى ذلك التفاوت الكير ، ولقد جربنا وجرب أولونا ، فلم نجد فيما درنا وداروا : أعون على قهر النفس ، وعصيان الشهوة ، وأجمع للقلب المتلفت ، وأضم للهم المنتشر ، وأحث على القناعة ، وأطرد للشيطان ، وأبعد عن الفتن . . من سكنى حرم الله ، وجوار بيت الله ، فلله الحمد على سهل من ذلك وقرب . .والفاء فى قوله - تعالى - ( فَإِيَّايَ فاعبدون ) بمعنى الشرط وإياى منصوب بفعل مضمر ، قد استغنى عنه بما يشبه . أى : فاعبدوا إياى ، ، فاعبدون .والمعنى : إن ضاق بكم مكان ، فإياى فاعبدوا ، لأن أرضى واسعة . ولن تضيق بكم .

كل نفس ذائقة الموت ثم الينا ترجعون

، كما فسرها الوسيط ثم رغبهم بأسلوب آخر فى الهجرة من الأرض الظالم أهلها بأن بين لهم بأن الموت سيدركهم فى كل مكان ، فقال - تعالى - : ( كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الموت ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ) .أى : كل نفس سواء أكانت فى وظنها الذى عاشت فيه أم فى غيره ، ذائقة لمرارة الموت ، ومتجرعة لكأسه ، ثم إلينا بعد ترجعون جميعاً لنحاسبكم على اعمالكم .

والذين امنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفا تجري من تحتها الانهار خالدين فيها نعم اجر العاملين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما أعده للمؤمنين الصادقين من جزاء طيب فقال : ( والذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِّنَ الجنة غُرَفاً ) .أى : والذين آمنوا وعملوا الأعمال الصالحات ، لننزلنهم من الجنة غرفا عالية فخمة . هذه الغرف من صفاتها أنها ( تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ) زيادة فى إكرام أصحابها ، وفضلاً عن ذلك فقد جعلناهم خَالِدِينَ فِيهَا ) خلوداً أبدياً .والمخصوص بالمدح فى قوله : ( نِعْمَ أَجْرُ العاملين ) محذوف . أى : نعم أجر العاملين ، أجر هؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات .

الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون

كما فسرها الوسيط وقوله : ( الذين صَبَرُواْ وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ) صفة لهؤلاء العاملين .أى : من مناقبهم الجليلة أنهم يصبرون على طاعة الله وعلى كل ما يحسن معه الصبر ، وأنهم يفوضون أمورهم إلى خالقهم لا إلى غيره ، .

وكاين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها واياكم وهو السميع العليم

كما فسرها الوسيط ثم رغبهم - سبحانه - فى الهجرة لإعلاء كلمة الله بأسلوب ثالث ، حيث بين لهم أن هجرتهم لن تضيع شيأ من رزقهم الذى كتبه الله لهم ، فقال - سبحانه - : ( وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا الله يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السميع العليم ) .روى أن بعض الذين أسلموا بمكة عندما أمرهم النبى صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى المدينة " قالوا : كيف نهاجر إلى بلدة ليس لنا فيها معيشة ، فنزلت هذه الآية .وكلمة

كأين " : مركبة من كاف التشبيه وأى الاستفهامية المنونة ، ثم هجر معنى
جزأيها وصارت كلمة واحدة بمعنى كم الخبرية الدالة على التكثير . ويكنى بها
عن عدد مبهم فتفتقر إلى تمييز بعدها . وهى مبتدأ . و " من دابة " تمييز لها
وجملة ( لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا ) صفة لها ، وجملة الله يرزقها " هى.
الخبر .والدابة : اسم لكل نفس تدب على وجه الأرض سواء أكانت من العقلاء أم
، من غير العقلاء . أى : وكثير من الدواب التى خلقها الله - تعالى - بقدرته
. . لا تستطيع تحصيل رزقها ، ولا تعرف كيف توفره لنفسها ، لضعفها أو عجزها
، ومع هذا فالله - تعالى - رحمته وفضله يرزقها ولا يتركها تموت جوعاً
ويرزقكم أنتم - أيضاً ، لأنه لا يوجد مخلوق - مهما اجتهد ودأب يستطيع أن
يخلق رزقه .( وَهُوَ ) - سبحانه - ( السميع ) لكل شئ ( العليم ) بما تسرون
وما تعلنون .وقدم - سبحانه - رزق الدابة التى لا تستطيع تحصيله ، على رزقهم
فقال : اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ) لينفى من قلوب الناس القلب على
الرزق ، وليشعرهم بأن الأسباب ليست هى كل شئ ، فإن واهب الأسباب ، لا يترك
أحداً بدون رزق ، ولإزالة ما قد يخطر فى النفوس من أن الهجرة من أجل إعلاء
كملة الله قد تنقص الرزق . .وهكذا يسوق - سبحانه - من المرغبات فى الهجرة
فى سبيله ، ما يقنع النفوس ، ويهدى القلوب ، ويجعل المؤمنين يقبلون على
تلبية ندائه ، وهم آمنون مطمئنون على أرواحهم ، وعلى أرزاقهم ، وعلى حاضرهم
. ومستقبلهم ، فسبحان من هذا كلامه

ولئن سالتهم من خلق السماوات والارض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فانى
يؤفكون

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ببيان ما عليه المشركون
. من تناقض فى أفكارهم وفى تصوراتهم ، وببيان حال هذه الحياة الدنيا
وببيان جانب من النعم التى أنعم بها على أهل مكة ، وببيان ما أعده
للمجاهدين فى سبيله من ثواب ، فقال - تعالى - : ( وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ
مَّنْ خَلَقَ . . . لَمَعَ المحسنين ) .وقوله - سبحانه - : ( وَلَئِن
سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض وَسَخَّرَ الشمس والقمر
لَيَقُولُنَّ الله . . . ) بيان لما كان عليه مشركو العرب من اعتراف بأن
المستقبل بخلق هذا الكون هو الله - تعالى - .أى : ولئن سألت - أيها الرسول
الكريم - هؤلاء المشركين ، من الذى أوجد هذه السماوات وهذه الأرض ، ومن
- الذى ذلل وسخر لمنفعتكم الشمس والقمر ، ليقولن بدون تردد الله - تعالى
هو الذى فعل ذلك بقدرته .وقوله - سبحانه - : ( فأنى يُؤْفَكُونَ ) تعجيب من
تناقضهم فى أفعالهم ، ومن انحراف فى تفكيرهم ، ومن تركهم العمل بموجب ما
تقتضيه أقوالهم .أى : إذا كنتم معترفين بأن الله وحده هو الخالق للسموات
والأرض . المسخر للشمس والقمر ، فلماذا أشركتم معه فى العبادة آلهة أخرى؟
ولماذا تنصرفون عن الإقرار بوحدانيته - عز وجل -؟

الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له ان الله بكل شيء عليم

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن الأرزاق جميعها بيده ، يوسعها لمن
يشاء ويضيقها على من يشاء فقال : ( الله يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَآءُ
مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ . . . ) .والضمير فى قوله : ( لَهُ ) يعود
: على ( مِنْ ) على حد قولك : عندى درهم ونصفه . أى : ونصف درهم آخر .أى
الله - تعالى - وحده وهو الذى يوسع الرزق لمن يشاء أن يوسعه عليه من عباده
- وهو وحده الذى يضيق الرزق على من يشاء أن يضيقه عليه من عباده . لأنه ،
سبحانه -لا يسأل عما يفعل ، وأفعاله كلها خاضعة لمشيئته وحكمته ، وكل شئ
عنده بمقدار .ويجوز أن يكون المعنى : الله - تعالى - وحده هو الذى بقدرته
أن يوسع الرزق لمن يشاء من عباده تارة ، وأن يضيقه عليهم تارة أخرى .فعلى
المعنى الأول : يكون البسط فى الرزق لأشخاص ، والتضييق على آخرين ، وعلى
المعنى الثانى يكون البسط والتضييق للأشخاص أنفسهم ولكن فى أوقات مختلفة
والله - تعالى - قادر على كل هذه الأحوال ، لأنه - سبحانه -لا يعجزه شئ.
فيعلم ما فيه صلاح عباده وما فيه ( إِنَّ الله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ).
فسادهم ، ويعمل من يستحق أن يبسط له فى رزقه ، ومن يستحق التضييق على رزقه
.

ولئن سالتهم من نزل من السماء ماء فاحيا به الارض من بعد موتها ليقولن الله
قل الحمد لله بل اكثرهم لا يعقلون

كما فسرها الوسيط ثم أكد - سبحانه - للمرة الثانية اعتراف هؤلاء المشركين
بقدرة الله - تعالى - فقال : ( وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مّن نّزّلَ مِنَ
السمآء مَآءً ) أى : ماء كثيراً ( فَأَحْيَا بِهِ الأرض مِن بَعْدِ
مَوْتِهَا ) أى : فجعل الأرض بسبب نزول الماء عليها تصبح خضراء بالنبات بعد
أن كانت جدباء قاحلة .لئن سألتهم من فعل ذلك ( لَيَقُولُنَّ الله ) هو الذى

فعل ذلك .( قُلِ الحمد لِلَّهِ ) أى : قل - أيها الرسول الكريم - على سبيل الثناء على الله - تعالى - : الحمد لله الذى أظهر حجته ، وجعلهم ينطقون بأنك على الحق المبين ، ويعترفون بأن إشراكهم إنما هو من باب العناد والجحود .وقوله - سبحانه - : ( بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ) إضراب عما هم عليه من انحراف وتناقض ، إلى بيان حقيقة حالهم ، وتسلية للرسول صلى الله عليه وسلم عما يعتريه بسببهم من حزن .أى : بل أكثرهم لا يعقلون شيئاً مما يجب أن يكون عليه العقلاء من فهم سليم للأمور ، ومن العمل بمقتضى ما تنطق به الألسنة .وفى التعبير بأكثرهم ، إنصاف لقلة منهم عقلت الحق فاتبعته وآمن به وصدقته .

وما هذه الحياة الدنيا الا لهو ولعب وان الدار الاخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - هو إن هذه الحياة الدنيا ، بالنسبة للدار الآخرة فقال : ( وَمَا هذه الحياة الدنيآ إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدار الآخرة لَهِيَ الحيوان لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ) .واللهو اشتغال الإنسان بما لا يعنيه ولا يهمه . أو هو الاستمتاع بملذات الدنيا : واللعب : العبث . وهو فعل لا يقصد به مقصد صحيح .أى : أن هذه الحياة الدنيا ، وما فيها من حطام ، تشبه فى سرعة إنقضائها وزوال متعها ، الأشياء التى يلهو بها الأطفال ، يجتمعون عليها وقتاً ، ثم ينفضون عنها .أما الدار الآخرة ، فهى دار الحياة الدائمة الباقية ، التى لا يعقبها موت ، ولا يعتريها فناء ولا انقضاء .ولفظ " الحيوان " مصدر حى . سمى به ذو الحياة ، والمارد به هنا : نفس الحياة الحقة .وقوله : ( لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ) أى : لو كانوا يعلمون حق العلم ، لما آثروا متع الدنيا الفانية على خيرات الآخرة الباقية .

فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون

- كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - حالهم عندما يحيط بهم البلاء فقال تعالى - : ( فَإِذَا رَكِبُواْ فِي الفلك دَعَوُاْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين . . ) أى : أن من صفات هؤلاء الجاحدين ، أنهم إذا ركبوا السفن ، وجرت بهم بريح طيبة وفرحوا بهان ثم جاءتهم بعد ذلك ريح عاصف ، وظنوا ان الغرق قد اقترب منهم ، تضرعوا إلى الله - تعالى - مخلصين له العبادة والدعاء ).( فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى البر ) بفضله وكرمه ، وأنقذهم من الغرب المحقق وَلِيَتَمَتَّعُواْ ) مع الله - تعالى - غيره فى العبادة والطاعة .

ليكفروا بما اتيناهم وليتمتعوا فسوف يعلمون

كما فسرها الوسيط وقد فعلوا ذلك : ( لِيَكْفُرُواْ بِمَآ آتَيْنَاهُمْ ) من نعم ، وبما منحناهم من فضل ورحمة .( وَلِيَتَمَتَّعُواْ ) بمتع هذه الحياة وزينتها إلى حين ( فَسَوْفَ يَعلَمُونَ ) عما قريب عاقبة هذا الكفران لنعم الله ، وهذا التمتع بزينة الحياة الدنيا دون أن يعلموا شيئاً ينفعهم فى أخراهم .قال الآلوسى : قوله : ( لِيَكْفُرُواْ بِمَآ آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُواْ ) : الظاهر أن اللام فى الموضعين لام كى ، أى : يشركون ليكونوا كافرين بما آتيناهم من نعمة النجاة بسبب شركهم ، ويتمتعوا باجتماعهم على عبادة الأصنام ، فالشرك سبب لهذا الكفران . وأدخلت لام كى على مسببه ، لجعله كالغرض لهم منه ، فهى لام العاقبة فى الحقيقة .وقيل : اللام فيهما لام الأمر ، والأمر بالكفران والتمتع ، منجاز فى التخلية والخذلان والتهديد ، كما تقول عند الغضب على من يخالفك : " افعل ما شئت " .

اولم يروا انا جعلنا حرما امنا ويتخطف الناس من حولهم افبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون

كما فسرها الوسيط ثم ذكرهم - سبحانه - بنعمة الحرم الآمن ، الذى يعيشون فى جواره مطمئنين ، فقال : ( أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ الناس مِنْ حَوْلِهِمْ ) .أى : أجهل هؤلاء قيمة النعمة التى هم فهيا ، ولم يدركوا ويشاهدوا أنا جعلنا بدلهم مكة حرماً آمناً ، يأمنون فيه على أموالهم وأنفسهم وأعراضهم ، والحال أن الناس من حرولهم يقتل بعضهم بعضاً ، ويعتدى بعضهم على بعض بسرعة وشدة . والتخطف : الأخذ بسرعة .قال صاحب الكشاف : كانت العرب حول مكة يغزو بعضهم بعضاً ، ويتغورون ، ويتناهبون ، وأهل مكة قارون فيها آمنون لا يغار عليهم مع قلتهم وكثرة العرب ، فذكرهم الله بهذه النعمة الخاصة بهم .والاستفهام فى قوله - تعالى - : ( أفبالباطل يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ الله يَكْفُرُونَ ) للتعجب

: من حالهم ، وللتوبيخ لهم على هذا الجحود والكفر لنعم الله - تعالى - أى
أفبعد هذه النعمة الجليلة يؤمنون بالأصنام وبنعمة الله التى تستدعى
، استجابتهم للحق يكفرون .فالآية الكريمة قد اشتملت على ما لا يقادر قدره
. من تعجب وتوبيخ وتقريع

ومن اظلم ممن افترى على الله كذبا او كذب بالحق لما جاءه اليس في جهنم مثوى للكافرين

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افترى عَلَى
اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالحق لَمَّا جَآءَهُ ) أى : لا أحد أشد ظلماً
ممن افترى على الله كذاب ، بأن زعم بأن لله - تعالى - شريكاً ، أو كذب
بالحق الذى جاءه به الرسول صلى الله عليه وسلم بأن أعرض عنه ، وأبى أن
يستمع إليه .والاستفهام فى قوله - تعالى - : ( أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ
مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ) للتقرير ، والمثوى : المكان الذى يثوى فيه الشخص
ويقيم به ، ويستقر فيه .أى : أليس فى جهنم مأوى ومكانا يستقر فيه هؤلاء ،
الكافرين لنعم الله - تعالى -؟ بل إن فيها مكانا لاستقرارهم ، وبئس المكان
. فإنها ساءت مستقرا ومقاما ،

والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين

) : - كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السروة الكريمة بقوله - تعالى
والذين جَاهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ الله لَمَعَ
المحسنين ) .أى : هذا الذى ذكرناه سابقاً من سوء مصير ، هو للمشركين الذين
يؤمنون بالباطل ويتركون الحق ، أما الذين بذلوا جهدهم فى سبيل إعلاء ديننا
وقدموا أنفسهم وأموالهم فى سبيل رضائنا وطاعتنا ، وأخلصوا لنا العبادة ،
والطاعة ، فإننا لن نتخلى عنهم ، بل سنهديهم إلى الطريق المستقيم ، ونجعل
العاقبة الطيبة لهم ، فقد اقتضت رحمتنا وحكمتنا أن نكون مع المحسنين فى
أقوالهم وفى أفعالهم ، وتلك سنتنا التى لا تتخلف ولا تتبدل .وبعد فهذا
تفسير لسروة " العنكبوت " نسأل - تعالى - أن يجعله خالصاً لوجهه ، ونافعاً
. لعباده وصلى الله عليه سيدنا محمد وعلى آله وصاحبه وسلم

الم

كما فسرها الوسيط سورة الروم من السور التى افتتحت بعض حروف التهجى ، وقد
ذكرنا فى أكثر من سورة آراء العلماء فى هذه الحروف ، ورجحنا أن هذه الحروف
قد ذكرها - سبحانه - فى افتتاح بعض السور القرآنية ، للتنبيه إلى أن هذا
القرآن من عند الله ، لأن الله - تعالى - قد أنزله على رسوله صلى الله عليه
وسلم بمثل الحروف التى ينطق بها المشركون ، ومع ذلك فهم أعجز من أن يأتوا
. بسورة من مثله

غلبت الروم

) : - كما فسرها الوسيط وقد ذكر المفسريون فى سبب نزول قوله - تعالى
- غُلِبَتِ الروم في أَدْنَى الأرض ) روايات منها ، ما رواه ابن جرير
بإسناده - عن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - قال : " كانت فارس ظاهرة
على الروم . وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم ، وكان المسلمون
، يحبون أن تظهر الروم على فارس ، لأنهم أهل كتاب ، وهم أقرب إلى دينهم
فلما نزلت : ( الاما غُلِبَتِ الروم في أَدْنَى الأرض ) قالوا : يا أبا بكر
إن صاحبك يقول : إن الروم تظهر على فراس فى بضع سنين : قال : صدق . قالوا .
هل لك أن نقامرك؟ - أى : نراهنك وكان ذلك قبل تحريم الرهان - فبايعوه على
أربع فلائص - جمع قلوص ، وهى من الإبل : اشابة - إلى سبع سنين . فمضت
السبع ولميكن شئ . ففرح المشركون بذلك ، فشق على المسلمين ، فذكر للنبى صلى
الله عليه وسلم فقال : ما بضع سنين عندكم؟ قالوا : دون العشر .قال : اذهب
فزايدهم ، وازدد سنتين فى الأجل . قال : فما مضت السنتان حتى جاءت الركبان
بظهور الروم على فارس ، ففرح المؤمنون بذلك " .وقال بعض العلماء : اتفق
المؤرخون من المسلمين وأهل الكتاب على ان ملك فارس كان قد غزا بلاد الشام
مرتين : فى سنة 613 ، وفى سنة 614 ، أى : قبل الهجرة بسبع سنين ، فحدث أن
بلغ الخبر مكة . ففرح المشركون ، وشتموا فى المسلمين . . فنزلت هذه الآيات
فلم يمض من البضع - وهو ما بين الثلاث إلى التسع - سبع سنين ، إلا وقد.
. انتصر الروم على الفرس ، وكان ذلك سنة 621م . أى : قبل الهجرة بسنة

في ادنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون

: كما فسرها الوسيط وأدنى بمعنى أقرب . والمراد بالأرض : أرض الروم .أى

غلبت الروم فى أقرب أرضها من بلاد الفرس .قال ابن كثير : وكانت الواقعة الكائنة بين فارس والروم ، حين غلبت الروم ، بين أذرعات وبصرى ، - على ما ذكره ابن عباس وعكرمة وغيرهما - ، وهى طرف بلاد الشام مما يلى الحجاز .وقال : مجاهد : كان ذلك فى الجزيرة ، وهى أقرب بلاد الروم من فارس .وقال الآلوسى والمراد بالأرض . أرض الروم ، على أن " أل " نائبة مناب الضمير المضاف إليه والأقربية بالنظر إلى أهل مكة ، لأن الكلام معهم .أو المراد أرض مكة ، ونواحيها ، لأنها الأرض المعهودة عندهم ، والأقربية بالنظر إلى الروم وقوله - تعالى - : ( وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي. - بِضْعِ سِنِينَ ) بشارة من الله - تعالى - للمؤمنين ، بأن الله - تعالى سيحقق لهم ما يرجونه من انتصار الروم على الفرس .أى وهم - أى الروم - من بعد هزيمتهم من الفرس ، سينتصرون عليهم ، خلال بضع سنين .

في بضع سنين لله الامر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون

كما فسرها الوسيط والتعبير بقوله - تعالى - : ( سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ ) ، لتأكيد هذا الوعد ، وبيان أن نصر الروم على فارس سيتم خلال سنوات قليلة من عمر الأمم ، وقد تحقق هذا الوعد ، وبيان أن نصر الروم على فارس سيتم خلال سنوات قليلة من عمرا لأمم ، وقد تحقق هذا الوعد على أكمل صورة وأتمها ، فقد انتصر الروم على الفرس نصرا عظيما ، وثبت أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - حيث أخبر عن أمور ستقع في المستقبل ، وقد وقعت كما أخبر .وقوله - سبحانه - : ( لِلَّهِ الأمر مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ) جملة : معترضة لبيان قدرة الله - تعالى - التامة النافذة ، فى كل وقت وآن . أى لله - تعالى - وحده الأمر النافذ من قبل انتصار الفرس على الروم ، ومن بعد انتصار الروم على الفرس : وكلا الفريقين كان نصره أو هزيمته بإرادة الله ). ومشيئته ، وليس أحد من الخلق أن يخرج عما قدره - سبحانه - وأراده وَيَوْمَئِذٍ ) أى : ويوم أن يتغلب الروم على الفرس ( يَفْرَحُ المؤمنون بِنَصْرِ الله ) حيث نصر أهل الكتاب وهم الروم ، على من لا كتاب لهم وهم الفرس ، الذين كانوا يعبدون النار فأبطل - سبحانه - بهذا النصر شماتة المشركين فى المسلمين ، وازنداد المؤمنون ثبتاتا على ثباتهم .قال ابن كثير وقد كانت نصرة الروم على فارس ، يوم وقعة بدر ، فى قول طائفة كبيرة من : العلماء . . فلما انتصرت الروم على فارس ، فرح المؤمنون بذلك ، لأن الروم أهل كتاب فى الجملة ، فهم أقرب إلى المؤمنين من المجوس .

بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ العزيز الرحيم ) مؤكد لما قبله . أى : ينصر - سبحانه - من يريد نصره ، ويهزم من يريد هزيمته ، وهو ، العزيز الذى لا يغلبه غالب ، الرحيم الذى وسعت رحمته كل شئ .

وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن اكثر الناس لا يعلمون

) : كما فسرها الوسيط ثم زاد - سبحانه - هذا الأمر تأكيدا وتقوية فقال وَعْدَ الله لاَ يُخْلِفُ الله وَعْدَهُ ) . ولفظ " وعد " منصوب بفعل محذوف - أى : وعد الله المؤمنين بالنصر وبالفرح وعدا مؤكدا ، وقد اقتضت سنته. ، سبحانه - أنه لا يخلف وعده .( ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ) ذلك لا نطماس بصائرهم ، ولاستيلاء الجهل على عقولهم ، ولاستحواذ الشيطان عليهم .

يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الاخرة هم غافلون

كما فسرها الوسيط والضمير فى قوله - تعالى - : ( يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الحياة الدنيا ) يعود للأكثر من الناس .أى : هؤلاء الأكثرون من الناس من أسباب جهلهم بسنن الله - تعالى - فى خلقه ، أنهم لا يهتمون إلا بملاذ ، الحياة الدنيا ومتعها وشهواتها ، ووسائل المعيشة فيها .( وَهُمْ عَنِ الآخرة ) وما فيها من حساب وثواب وعقاب ( هُمْ غَافِلُونَ ) لأنهم آثروا ) : - الدارة العاجلة ، على الدار الباقية ، فهم - كما قال - تعالى ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأمل فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ) قال صاحب الكشاف ما ملخصه : وقوله : ( يَعْلَمُونَ ظَاهِراً بدل من قوله : ( ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ) .وفى هذا ( الإبدال من النكتة أنه أبدله منه ، وجعله بحيث يقوم مقامه ، ويسد مسده . ليعلمك أنه لا فرق بين عدم العلم الذى هو الجهل ، وبين وجد العلم الذى لا يتجاوز الدنيا . . وفى تنكير قوله : ( ظاهِراً ) إشارة إلى أنهم لا يعملون إلا ظاهرا واحدا من جملة ظواهر الحياة الدنيا .فالآية الكريمة تنعى على

هؤلاء الكافرين وأشباههم ، إنهماكهم فى شئون الدنيا انهماكا تاما ، جعلهم غافلين عما ينتظرهم فى أخراهم من حساب وعقاب . ورحم الله القائل :ومن البلية أن ترى لك صاحبا فى صور الرجل السميع المبصرفطن بكل مصيبة فى ماله وإذا يصاب بدينه لم يشعر

اولم يتفكروا في انفسهم ما خلق الله السماوات والارض وما بينهما الا بالحق واجل مسمى وان كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون

كما فسرها الوسيط ثم حضهم - سبحانه - على التفكير فى خلق أنفسهم ، وعلى التفكير فى ملكوت السماوات والأرض ، لعل هذا التفكر والتدبر يهديهم إلى الصراط المستقيم ، فقال - تعالى - : ( أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ في أَنفُسِهِمْ . . مَا خَلَقَ الله السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلاَّ بالحق وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ) لتوبيخ أولئك الكافرين الذين يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ، وهم عن الآخرة هم غافلون ، والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام . و ( مَّا ) فى قوله ( مَّا خَلَقَ ) للنفى ، والباء فى قوله ( إِلاَّ بالحق ) للملابسة . وقوله : ( وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ) معطوف على الحق .والمعنى : أبلغ الجهل بهؤلاء الكافرين ، أنهم اكتفوا بالانهماك فى متع الحياة الدنيا ، ولم يتفكروا فى أحوال أنفسهم وفى أطوار خلقها ، لأنهم لو تفكروا علموا وأيقنوا ، أن الله - تعالى - : ما خلق السماوات والأرض وما بينهما ، إلا ملتبسه بالحق الذى يشوبه باطل ، وبالحكمة التى لا يحرم حولها عبث ، وقد قدر - سبحانه - لهذه المخلوقات جميعها أجلا معينا تنتهى عنده ، وهو وقت قيام الساعة ، يوم تدبل الأرض غير الأرض والسماوات .فالآية الكريمة تنعى على هؤلاء الأشقياء ، غفلتهم عن الدار الآخرة وما فيها من حساب ، وتحضهم على التفكر فى تكوين أنفسهم ، وفى ملكوت السماوات والأرض ، لأن هذا التفكر من شأنه أن يهديإلى الحق ، كما تلفت - أنظارهم إلى أن لهذا الكون كله نهاية ينتهى عندها ، وقت أن يأذن الله تعالى - بذلك ، وبقيام الساعة .ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة ببيان موقف الأكثرية من الناس من قضية البعث والجزاء فقال : ( وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ الناس بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ) .أى : وإن كثيرا من الناس لفى انشغال تام بدنياهم عن آخرتهم ، ولا يؤمنون بما فى الآخرة من حسبا وثواب وعقاب ، بل يقولون : ما الحياة إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ، وعلى راس هذا الصنف من الناس مشركو مكة الذين أرسل النبى صلى الله عليه وسلم فيهم ، لإخراجهم من الظلمات إلى النور .وقال - سبحانه - : ( وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ الناس ) للإشعار بان هناك عددا قليلا من الناس - بالنسبة لهؤلاء الكثيرين - قد آمنوا بلقاء ربهم ، واستعدوا لهذا اللقاء عن طريق العمل الصالح الذى يرضى خالقهم - عز وجل - .

اولم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا اشد منهم قوة واثاروا الارض وعمروها اكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون

كما فسرها الوسيط ثم قرعهم - سبحانه - للمرة الثانية على عدم اتعاظهم بأحوال السابقين من الأمم قبلهم ، فقال - تعالى - : ( أَوَلَمْ يَسيرُواْ فِي الأرض فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذين مِن قَبْلِهِمْ ) .أى اقعد مشركو مكة فى ديارهم ، ولم يسيروا فى الأرض سير المتأملين المتفكرين المعتبرين فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، من الأمم الماضية ، كقوم عاد وثمود ، وقوم لوط .وقوله - سبحانه - : ( كانوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ) بيان لحال لهؤلاء الأقوام السابقين ( وَأَثَارُواْ الأرض ) أى : كان أولئك السابقون أقوى من أهل مكة فى كل مجال من مجالات القوة ، وكانوا أقدر منهم على حراثة الأرض ، وتهيئتها للزراعة ، واستخراج خيراتها من باطنها .( وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ) أى : حرثوا الأرض وشقوا باطنها ، وعمروها عمارة أكثر من عمارة أهل مكة لها ، لأن أولئك الأقوام السابقين كانوا أقوى من كفار مكة ، وكانوا أكثر دارية بعمارة الأرض : وهؤلاء الأقوال السابقون : ( وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بالبينات ) أى. ، بالمعجزات الواضحات ، وبالحجج الساطعات ، ولكن هؤلاء الأقوام كذبوا رسلهم فأهلكهم الله - تعالى - ( فَمَا كَانَ الله لِيَظْلِمَهُمْ ) أى : فما كان الله - تعالى - من شأنه أن يعذبهم بدون ذنب .( ولكن كانوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ) حيث ارتكبوا من الكفر والمعاصى ما كان سببا فى هلاكهم .

ثم كان عاقبة الذين اساءوا السواى ان كذبوا بايات الله وكانوا بها يستهزئون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - المصير السيئ الذى حل بهؤلاء الكافرين فقال : ( ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الذين أَسَاءُواْ السواءى ) .ولفظ " عاقبة

" قرأه ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائى - بفتح التاء - على أنه خبر " كان " قدم على اسمها ، وهو لفظ " السوأى " الذى هو تأنيث الأسوأ ، كالحسنى تأنيث الأحسن . وجرد الفعل " كان " من التاء مع أن السوأى مؤنث ، غير حقيقى فيكون المعنى : ثم كانت العقوبة السيئة وهى العذاب فى جهنم ، عاقبة الذين. عملوا فى دنياهم الأعمال السيئات .وقرأ الباقون برفع لفظ " عاقبة " على أنه اسم كان ، وخبرها لفظ " السوأى " أى : ثم كانت عاقبة هؤلاء الكافرين الذين أساءوا فى دنياهم ، أسوأ العقوبات ، وأقبحها ، أو كانت عاقبتهم العاقبة السوأى وهى الإلقاء بهم فى النار وبئس القرار .وقوله - سبحانه - : ( أَن كَذَّبُواْ بِآيَاتِ اللّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ) تعليل لما آل إليه أمرهم من عاقبة سيئة ، أى : لأن كذبوا ، أو بأن كذبوا بحذف حرف الجر ، أى؛ كانت عاقبتهم فى الآخرة أسوا العقوبات وأقبحها وهى العذاب فى جهنم. لأنهم فى الدنيا كذبوا بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وعلى صدق نبينا صلى الله عليه وسلم وكانوا بها يستهزئون .

الله يبدا الخلق ثم يعيده ثم اليه ترجعون

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - ما يدل على قدرته ، وبين أحوال الناس وأقسامهم يوم القيامة ، فقال - تعالى - : ( اللّهُ يَبْدَأُ الخلق . . . . فِي العذاب مُحْضَرُونَ ) .أى : ( الله ) - تعالى - وحده هو ( يَبْدَأُ الخلق ) أى : ينشئه ويوجده على غير مثال سابق ، ( ثُمَّ يُعِيدُهُ ) أى : إلى الحياة مرة أخرى يوم القيامة ( ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ) للحساب والجزاء ، فيجازى - سبحانه - كل إنسان بما يستحقه من ثواب أو عقاب .وأفرد - سبحانه - : الضمير فى ( يُعِيدُهُ ) باعتبار لفظ الخلق . وجمعه فى قوله ( تُرْجَعُونَ ) باعتبار معناه .

ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون

كما فسرها الوسيط ثم ذكر - سبحانه - حال المجرمين يوم القيامة فقال : ( وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة يُبْلِسُ المجرمون ) و ( يُبْلِسُ ) من الإبلاس بمعنى السكوت والذهول وانقطاع الحجة ، يقال : أبلس الرجل ، إذا وقف ساكتا حائرا مبهوتا لا يجد ينقذه مما هو فيه من بلاء .أى : ويوم تقوم الساعة ، ويشاهد المجرمون أهوالها ، يصابون بالذهوب والحيرة والسكوت المطبق لانقطاع حجتهم ، وشدة حزنهم وهمهم ، ويأسهم من النجاة يأسا تاما .

ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين

كما فسرها الوسيط ( وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ) فى هذا اليوم ( مِّن شُرَكَآئِهِمْ ) الذين عبدوهم فى الدنيا ( شُفَعَاءُ ) يشفعون لهم ، ويجيرونهم من عذاب الله .( وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَافِرِينَ ) أى : أنهم فى هذا اليوم العسير لم يكن لها من شفعاء يشفعون لهمز بل إنهم صاروا فى هذا اليوم الشديد ، كافرين بشركائهم الذين توهموا منهم الشفاعة ، لأنهم يوم القيامة تتجلى لهم الحقائق ، ويعرفون أن هؤلاء الشركاء لا يرجى منهم نفع ، ولا يخشى منهم ضر .

ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون

كما فسرها الوسيط ثم كرر - سبحانه - هذا المعنى على سبيل التأكيد والتهويل من شأنه فقال : ( وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ) والضمير فى قوله : ( يَتَفَرَّقُونَ ) للناس جميعا . والمراد بتفقرهم أن. كل طائفة منهم تتجه إلى الجهة التى أمرهم - سبحانه - بالتوجه إليها ، لينال كلٌّ جزاءه .

فاما الذين امنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - كيفية هذا التفريق فقال : ( فَأَمَّا الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ) : والروضة : تطلق على كل مكان مرتفع زاخر بالنبات الحسن . والمراد بها هنا. الجنة ويحبرون : من الحبور بمعنى الفرح والسرور والابتهاج .أى : ويوم تقوم الساعة ، فى هذا اليوم يتفرق الناس إلى فريقين ، فأما فريق الذين آمنا ، وعملوا فى دنياهم الأعمال الصالحات ، فسيكونون فى الآخرة فى جنة عظيمة يسرون بدخولها سرورا عظيما ، وينعمون فيها نعيما لا يحيط به الوصف .

واما الذين كفروا وكذبوا باياتنا ولقاء الاخرة فاولئك في العذاب محضرون

كما فسرها الوسيط ( وَأَمَّا الذين كَفَرُواْ ) بالله وبرسله وباليوم الآخر
الدالة على وحدانيتنا وصدق أنبيائنا ( فأولئك ( وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا )
، الكافرون ( فِي العذاب مُحْضَرُونَ ) أى : مقيمون فيه ، ومجموعون إليه (
. بحيث لا يستطيعون الهروب منه - والعياذ بالله

فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون

كما فسرها الوسيط وبعد هذا البيان المؤثر لأهوال يوم القيامة ، ولأحوال
الناس فيه . . ساق - سبحانه - أنواعا متعددة من الأدلة والبراهين على
وحدانيته - عز وجل - وقدرته ، ورحمته بخلقه فقال - تعالى - : ( فَسُبْحَانَ
- الله . . . . العزيز الحكيم ) .قالوا الإمام الرازى : لما بين - سبحانه
عظمته في الابتداء بقوله ( مَّا خَلَقَ الله السماوات والأرض وَمَا
بَيْنَهُمَآ إِلاَّ بالحق وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ) وعظمته فى الانتهاء ، بقوله
وأن الناس يتفرقون فريقين ، ويحكم - عز ( وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة ) :
وجل - على البعض بأن هؤلاء للجنة ولا أبالى ، وهؤلاء للنار يتفرقون فريقين
ويحكم - عز وجل - على البعض بأن هؤلاء للجنة ولا أبالى ، وهؤلاء للنار ،
ولا أبالى ، بعد كل ذلك أمر بتنزيهه عن كل سوء ، وبحمده على كل حال ، فقال
والفاء فى قوله : ( فَسُبْحَانَ ).( فَسُبْحَانَ الله حِينَ تُمْسُونَ ) :
لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، ولفظ " سبحان " اسم مصدر ، منصوب بفعل
. محذوف . والتسبيح : تنزيه الله - تعالى - : عن كل ما لا يليق بجلاله
والمعنى إذا علمتم ما أخبرتكم به قبل ذلك ، فسبحوا الله - تعالى - ونزهوه
كل نقص ( حِينَ تُمْسُونَ ) أى : حين تدخلون فى وقت المساء ، ( وَحِينَ
. تُصْبِحُونَ ) أى : تدخلون فى وقت الصباح

وله الحمد في السماوات والارض وعشيا وحين تظهرون

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( وَلَهُ الحمد فِي السماوات والأرض )
جملة معترضة لبيان أن جميع الكائنات تحمده على نعمه ، وإن فوائد هذا الثناء
تعود عليهم لا عليه - سبحانه - .وقوله ( وَعَشِيّاً ) معطوف على ( حِينَ
تُمْسُونَ ) أى : سبحوا الله - تعالى - : حين تمسون ، وحين تصبحون ، وحين
يستركم الليل بظلامه . وحين تكونون فى وقت الظهيرة ، فإنه - سبحانه - هو
المستحق للحمد والثناء من أهل السماوات ومن أهل الأرض ، ومن جميع المخلوقات
قال ابن كثير : وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ألا أخبركم.
، لم سمى الله إبراهيم خليله الذى وفى؟ لأنه كان يقول كلما أصبح وأمسى
: سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون " .وفى حديث آخر : " من قال حين يصبح
فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون . . أدرك ما فاته فى يومه ، ومن قالها
. " حين يسمى ، أدرك ما فاته فى ليلته

يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيي الارض بعد موتها وكذلك
تخرجون

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - مظهرا من مظاهر قدرته فقال
يُخْرِجُ الحي مِنَ الميت ) كإخراجه الإنسان من النطفة ، والنبات من الحب
والمؤمن من الكفار ( وَيُخْرِجُ الميت مِنَ الحي ) كما فى عكس هذه الأمور ،
). كإخراجه النطفة من الإنسان ، والحب من النبات ، والكافر من المؤمن ،
، وَيُحْيِي الأرض ) بالنبات ( بَعْدَ مَوْتِهَا ) : أى : بعد قحطها وجدبها
كما قال - سبحانه - : ( وَتَرَى الأرض هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا
( عَلَيْهَا المآء اهتزت وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ
وقوله - تعالى - : ( وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ) تذييل قصد به تقريب إمكانية
، البعث من العقول والأفهام . أى : ومثل هذا الإخراج للنبات من الأرض
وللحى من الميت ، نخرجكم - أيها الناس - من قبوركم يوم القيامة ، للحساب
. والجزاء

ومن اياته ان خلقكم من تراب ثم اذا انتم بشر تنتشرون

كما فسرها الوسيط ثم أورد - سبحانه - بعد ذلك أنواعا من الأدلة على قدرته
التى لا يعجزها شئ ، فقال - تعالى - : ( وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ
مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُمْ بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ) .والآيات : جمع
- آية ، وتطلق على الآية القرآنية ، وعلى الشئ العجيب ، كما فى قوله
: تعالى - : ( وَجَعَلْنَا ابن مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً ) والمراد بها هنا
- الأدلة الواضحة ، والبراهين الساطعة ، الدالة على وحدانية الله - تعالى
وقدرته .والمعنى : ومن آياته - سبحانه - الدالة على عظمته ، وعلى كمال
قدرته ، أنه خلقكم من تراب ، أى : خلق أباكم آدم من تراب ، وأنتم فروع عنه
و " إذ " فى قوله : ( ثُمَّ إِذَآ أَنتُمْ بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ) هى.

الفجائية .أى : خلقكم بتلك الصورة البديعة من مادة التراب التى لا يرى فيها
رائحة للحياة ، ثم صرتم بعد خَلْقِنا إياكم فى أطوار متعددة ، بشرا تنتشرون
، فى الأرض ، وتمشون فى مناكبها ، وتتقلبون فيها تارة عن طريق الزراعة
، وتارة عن طريق التجارة ، وتارة عن طريق الأسفار . . كل ذلك طلبا للرزق
ولجمع الأموال .وعبر - سبحانه - بثم المفيدة للتراخى ، لأن انتشارهم فى
الأرض لا يتأتى إلا بعد مرورهم بأطوار متعددة ، منها أطوار خلقهم فى بطون
: أمهاتهم ، وأطوار طفولتهم وصباهم ، إلى أن يبلغوا سن الرشد .قال الشوكانى
، وإذا الفجائية وإن كانت أكثر ما تقع بعد الفاء لكنها وقعت هنا بعد ثم
بالنسبة إلى ما يليق بهذه الحالة الخاصة ، وهى أطوار الإنسان ، كما حكاها
الله - تعالى - فى مواضع ، من كونه نطفة ، ثم مضغة ، ثم عظمها مكسوها لحما
.

ومن اياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة
ورحمة ان في ذلك لايات لقوم يتفكرون

كما فسرها الوسيط ثم انتقلت السورة الكريمة إلى بيان آية ثانية ، دالة على
كمال قدرته ورأفته بعباده ، فقال : ( وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم
، مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً ) أى : ومن آياته الدالة على رحمته بكم
أنه - سبحانه - خلق لكم ( مِّنْ أَنفُسِكُمْ ) أى : من جنسكم فى البشرية
والإنسانية أزواجا .قال الآلوسى : قوله : ( مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً
فإن خلق أصل أزواجكم حواء من ضلع آدم - عليه السلام - متضمن لخلقهن من (
" أنفسكم " فمن " للتبعيض والأنفس بمعناها الحقيقى ، ويجوز أن تكون " من
، ابتدائية ، والأنفس مجاز عن الجنس ، أى : خلق لكم من جنسكم لا من جنس آخر
قيل : هو الأوفق لما بعد .وقوله - سبحانه - : ( لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ) بيان
لعلة خلقهم على هذه الطريقة . أى : خلق لكم من جنسكم أزواجا ، لتسكنوا
إليها ، ويميل بعضكم إلى بعض ، فإن الجنس إلى الجنس أميل ، والنوع إلى
النوع أكثر ائتلافا وانسجاما ( وَجَعَلَ ) - سبحانه - ( بَيْنَكُم ) يا
معشر الأزواج والزوجات ( مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ) أى : محبة ورأفة ، لم تكن
بينكم قبل ذلك ، وإنما حدثت عن طريق الزواج الذى شرعه - سبحانه - بين
الرجال والنساء ، والذى وصفه - تعالى - بهذا الوصف الدقيق ، فى قوله - عز
وجل - :( هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ) ( إِنَّ فِي
ذَلِكَ ) الذى ذكرناه لكم قبل ذلك ( لَآيَاتٍ ) عظمة تهدى إلى الرشد وإلى
- الاعتبار ( لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ) فى مظاهر قدرة الله - تعالى
. ورحمته بخلقه

ومن اياته خلق السماوات والارض واختلاف السنتكم والوانكم ان في ذلك لايات
للعالمين

كما فسرها الوسيط ثم ذكر - سبحانه - آية ثالثة فقال : ( وَمِنْ آيَاتِهِ
خَلْقُ السماوات والأرض ) أى : ومن آياته الدالة على قدرته التامة على كل
شئ ، خلقه للسموات والأرض بتلك الصورة البديعة ( واختلاف أَلْسِنَتِكُمْ )
أى : واختلاف لغاتكم فهذا يتكلم بالعربية ، وآخر بالفارسية وثالث بالرومية
إلى غير ذلك مما لا يعلم عدده من اللغات ، بل إن الأمة الواحدة تجد . .
) فيها عشرات اللغات التى يتكلم بها أفرادها ، ومئات اللهجات
، وَأَلْوَانِكُمْ ) أى : ومن آياته كذلك ، اختلاف ألوانكم ، فهذا أبيض
وهذا أسود ، وهذا لا أصفر ، وهذا أشقر . . مع أن الجميع من أب واحد وأم
واحدة وهما آدم وحواء . بل إنك لا تجد شخصين يتطابقان تطابقا تاما فى
خلقتهما وشكلهما .قال صاحب الكشاف : الألسنة : اللغات . او اجناس النطق
واشكاله . خالف - عز وجل - بين هذه الأشياء حتى لا تكاد تسمع منطقين متفقين
فى همس واحد ، ولا جهارة ، ولا حدة ، ولا رخاوة ، ولا فصاحة . . ولا غير
، ذلك من صفات النطق وأحواله ، وكذلك الصور وتخطيطها ، والألوان وتنويعها
ولاختلاف ذلك وقع التعارف ، ولو اتفقت وتشاكلت ، وكانت ضربا واحدا ، لوقع
التجاهل والالتباس ، ولتعطلت مصالح كثيرة . . وهم على الكثرة التى لا
) يعلمها إلا الله مختلفون متفاوتون .( إِنَّ فِي ذَلِكَ ) الذى وضحناه لكم
، لآيَاتٍ ) بينات ( لِّلْعَالِمِينَ ) - بفتح اللام - وهى قراءة الجمهور
أى : إن فى ذلك لآيات لجميع أصناف العالم من بار وفاجر ، ومؤمن وكافر .وقرأ
. حفص - بكسر اللام - أى إن فى ذلك لآيات لأولى العلم والفهم من الناس

ومن اياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ان في ذلك لايات لقوم
يسمعون

كما فسرها الوسيط ثم ذكر - سبحانه - آية رابعة فقال : ( وَمِنْ آيَاتِهِ
) ، مَنَامُكُم ) أى : نومكم ( بالليل والنهار ) لراحة أبدانكم وأذهانكم
وابتغآؤكم مِّن فَضْلِهِ ) أى : وطلبكم أرزاقكم فيهما من فضل الله وعطائه

الواسع .قال الجمل : قيل فى الآية تقديم وتأخير ، ليكون كل واحد مع ما ، يلائمه ، والتقدير : ومن آياته مناكم بالليل وابتغاؤكم من فضله بالنهار فحذف حرف الجر لاتصاله بالليل ، وعطف عليه ، لأن حرف العطف قد يقوم مقام الجار ، والأحسن أن يجعل على حاله ، والنوم بالنهار مما كانت العرب تعده نعمة من الله ولا سيما فى أوقات القيلولة فى البلاد الحارة .( إِنَّ فِي ذَلِكَ ) كله ( لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ) هذه التوجيهات سماع تدبر وتفكر واعتبار فيعملون بما يسمعون .

ومن اياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيي به الارض بعد موتها ان في ذلك لايات لقوم يعقلون

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - آية خامسة فقال : ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا .أى : ومن آياته - سبحانه - الدالة على قدرته ، أنه يريكم البرق ، فتارة تخافون مما يحدث بعده من صواعق متلفة ، وأمطار مزعجة ، وتارة ترجون من ورائه المطر النافع ، والغيث المدرار .وانتصاب " خوفا وطمعا " على أنهم مفعول لأجله ، أى : يريكم ذلك من أجل الخوف والطمع ، إذ بهما يعيش المؤمن حياته بين الخوف والرجاء ، فلا يبطر ولا ييأس من رحمة الله . ) وَيُنَزِّلُ مِنَ السمآء مَآءً ) كثيرا ( فَيُحْيِي بِهِ ) أى : بسبب هذا الماء ( الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا ) أى : بأن يحولها من أرض جدباء هامدة إلى أرض خضراء زاخرة بالنبات ( إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ) هذه الإرشادات ، ويستعملون عقولهم فى الخير لا فى الشر ، وفى الحق لا فى الباطل ، وفى استنباط المعانى الدالة على كمال قدرة الله - تعالى - ورحمته .

ومن اياته ان تقوم السماء والارض بامره ثم اذا دعاكم دعوة من الارض اذا انتم تخرجون

كما فسرها الوسيط ثم ذكر - سبحانه - آية سادسة فقال : ( وَمِنْ آيَاتِهِ أن تَقُومَ السمآء والأرض بِأَمْرِهِ ) والمراد بقيامه : ثباتهما وبقاؤهما بتلك الصورة العجيبة البديعة .أى : ومن آياته - سبحانه - الدالة على كمال قدرته ، خلقه للسموات وللأرض ، وإبقاؤه لهما على هذها لصورة البديعة وقيامها وثباتهما واستمساكهما على تلك الهيئة العجيبة ، وذلك كله بإرادته وأمره ومشيئته .قال ابن كثير : وشبيه بذلك قوله - تعالى - : ( وَيُمْسِكُ السمآء أن تَقَعَ عَلَى الأرض إِلاَّ بِإِذْنِهِ ) وقوله : ( إِنَّ الله يُمْسِكُ السماوات والأرض أن تَزُولاَ ) وكان عمر بن الخطاب . رضى الله عنه - إذا اجتهد فى اليمين قال :لا ، والله الذى تقوم السماء والأرض بأمره أى : هى قائمة ثابتة بأمره وتسخيره إياها .وقوله - تعالى - : ( ثُمَّ ، إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأرض إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ) بيان لامتثالهم لأمهر بدون تقاعس ، عندما يدعوهم الداعى للخروج من قبورهم للبعث والحساب .و " ثم " بعدها كلام محذوف ، و " وإذا " الأولى شرطيه ، والثانية فجائية ، والداعى هو إسرافيل بأمر الله - تعالى - : وقوله : ( مِّنَ الأرض متعلق بقوله ( دَعَاكُمْ ) .أى : ثم بعد موتكم ووضعكم فى قبوركم ، إذا ( دعاكم الداعى دعوة واحدة من الأرض التى أنتم مستقرون فيها ، إذا أنتم تخرجون من قبوركم مسرعين بدون تلبث أو توقف ، كما يجيب المدعو المطيع دعوة الداعى المطاع .قال صاحب الكشاف : وإنما عطف هذه الجملة على قيام السماوات والأرض بثم ، بيانا لعظم ما يكون من ذلك الأمر ، واقتداره - سبحانه - على مثله وهو أن يقول : يا أهل القبول قوموا ، فلا تبقى نسمة من الأولين والآخرين إلا قامت تنظر ، كما قال - تعالى - : ( ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أخرى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ) وكما فى قوله - سبحانه - : ( فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُم بِالساهرة ) وكما فى قوله - عز وجل - : ( يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً ) .

وله من في السماوات والارض كل له قانتون

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات ، بآية جامعة لكل معانى القدرة والإيجاد والهيمنة على هذا الكون فقال : ( وَلَهُ مَن فِي السماوات والأرض ) أى من الملائكة والجن والإنس ، خلقا ، وملكا ، وتصرفا ، كل ذلك له وحده - سبحانه -لا لأحد غيره .وقوله : ( كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ) مؤكد ، لما قبله ومقرر له ، أى : كل الخلائق له لا لغيره طائعون خاضعون ، خاشعون طوعا وكرها ، إذ لا يمتنع عليه - سبحانه - شئ يريد فعله بهم ، من حياة أو موت ، ومن صحة أو مرض ، ومن غنى أو فقر .هذا ، والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة ، يرى أكثر من عشرة أدلة ، على وحدانية الله - تعالى - وعلى انفراده بالخلق ، وعلى إمكانية البعث ، ومن هذه الأدلة خلق الإنسان من

- تراب ، وصيرورته بعد تقلبه فى أطوار التكوين بشراً سويا ، وإيجاده
سبحانه - للذكور والإناث ، حتى يبقى النوع الإنسانى إلى الوقت المقدر فى
علمه - تعالى - : وإيجاده للناس على هذه الصورة التى اختلفت معها ألسنتهم
وألوانهم ، مع أن أصلهم واحد ، وجعله - على هذه الصورة التى اختلفت معها
ألسنتهم وألوانهم ، مع أن أصلهم واحد ، وجعله - تعالى - الليل مناما لراحة
الناس ، والنهار معاشا لابتغاء الرزق ، وإنزاله المطر من السماء لإحياء
الأرض بالنبات ، وبقاء السموات والأرض على هذه الصورة العجيبة بأمره
. وتدبيره . . . إلى غير من الأدلة المبثوثة فى الأنفس والآفاق

وهو الذي يبدا الخلق ثم يعيده وهو اهون عليه وله المثل الاعلى في السماوات
والارض وهو العزيز الحكيم

- كما فسرها الوسيط ثم أكد - سبحانه - ما يدل على إمكانية البعث ، فقال
: تعالى - : ( وَهُوَ الذي يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ . . . ) .أى
وهو - سبحانه - الذى يبدأ الخلق بدون مثال سابق ، ثم يعيد هذه المخلوقات
بعد موتها إلى الحياة مرة أخرى للحساب والجزاء .والضمير فى قوله : ( وَهُوَ
أَهْوَنُ عَلَيْهِ ) للإعادة المفهومة من قوله ( ثُمّ يُعِيدُهُ )
والتذكير للضمير باعتبار المعنى ، أى : والعود أم الرد ، أو الإرجاع أهون
عليه .أى : وهو - سبحانه - وحده الذى يخلق المخلوقات من العدم ، ثم يعيدها
إلى الحياة مرة أخرى فى الوقت الذى يريده ، وهذه الإعادة للأموات أهون
عليه ، أى : أسهل عليه من البدء .وهذه الأسهلية على طريقة التمثيل والتقريب
بما هو معروف عند الناس من أن إعادة الشئ من مادته الأولى أسهل من ،
) : ابتدائه .ورحم الله صاحب الكشاف ، فقد وضح هذا المعنى فقال : قوله
، وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ) أى : فيما يجب عندكم ، وينقاس على أصولكم
، ويقتضيه معقولكم لأن من أعاد منكم صنعة شئ كانت أسهل عليه من إنشائها
، وتعتذرون للصانع اذا خَطِئَ فى بعض ما ينشئه بقولكم : أول الغزل أخرق
وتسمون الماهر فى صناعته معاودا ، تعنون أنه عاودها كرة بعد أخرى ، حتى مرن
عليها وهانت عليه .فإن قلت لم أخرت الصلة فى قوله : ( وَهُوَ أَهْوَنُ
عَلَيْهِ ) وقدمت فى قوله ( هُوَ عَلَيّ هَيِّنٌ ) قلت . هناك قصد
الاختصاص وهو محزه ، فقيل : هو عليه هين ، وأن كان مستصعبا عندكم أن يولد
بين هِملّ . أى : شيخ فان - وعاقر . وأما هنا فلا معنى للاختصاص ، كيف
والأمر مبنى على ما يعقلون ، من أن الإعادة أسهل من الابتداء ، فلو قدمت
الصلة لتغير المعنى ..ومنهم من يرى أن أهون هنا بمعنى هين ، إرجاعكم إلى
الحياة بعد موتكم هين عليه . والعرب تجعل أفعل بمعنى فاعل فى كثير من
كلامهم ، ومنه قول الشاعر :إن الذى سمك السماء بنى لنا ... بيتا دعائمه أعز
: وأطولأى : بنى لنا بيتا دعائمه عزيزة طويلة منه قولهم الله أكبر أى
كبير .وقوله - تعالى - : ( وَلَهُ المثل الأعلى فِي السماوات والأرض . . )
أى : وله - سبحانه - الوصف الأعلى الذى ليس لغيره مثله ، لا فى السماوات
ولا فى الأرض ، إذ لا يشاركه أحد فى ذاته و صفاته فهو - سبحانه - ليس كمثله
شئ .( وَهُوَ العزيز ) الذى يَغلب ولا يُغلب ( الحكيم ) فى كل أقواله
وأفعاله وتصرفاته .وبعد هذا التطواف المتنوع فى آفاق الأنفس ، وفى أعماق
. هذا الكون

ضرب لكم مثلا من انفسكم هل لكم من ما ملكت ايمانكم من شركاء في ما رزقناكم
فانتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم انفسكم كذلك نفصل الايات لقوم يعقلون

كما فسرها الوسيط ضرب - سبحانه - مثلا لا مجال للجدل فيه ، لوضوحه واعتماده
على المنطق السليم ، وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يمضى فى طريقه
المستقيم ، كما أمر المؤمنين بأن يلتجئوا إليه - سبحانه - وحده وأن يصونوا
. . . أنفسهم عن كل ما يغضبه ، فقال - تعالى - : ( ضَرَبَ لَكُمْ مَّثَلاً
لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ) و ( مِّنْ ) فى قوله - سبحانه - : ( ضَرَبَ .
لَكُمْ مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ ) ابتدائية ، والجار والمجرور فى محل
نصب ، صفة لقوله : ( مَّثَلاً ) .أى : ضرب لكم - أيها الناس - مثلا ، يظهر
منه بطلان الشكر ظهورا واضحا ، وهذا المثل كائن من أحوال أنفسكم ، التى هى
أقرب شئ لديكم .قال القرطبى : والآية نزلت فى كفار قريش ، كانوا يقولون فى
" . . التلبية : " لبيك لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك
وقوله - تعالى - : ( هَلْ لَّكُمْ مِّن مّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّن.
شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ ) تصوير وتفضيل للمثل ، والاستفهام
، للإنكار والنفى . و ( مِّن ) الأولى للتبعيض ، والثانية لتأكيد النفى
وقوله ( شُرَكَآءَ ) مبتدأ ، وخبره ( لَّكُمْ ) وقوله : ( مِّن مّا
مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ) متعلق بمحذوف حال من شركاء .وقوله : ( فَأَنتُمْ
فِيهِ سَوَآءٌ ) جواب للاستفهام الذى هو بمعنى النفى . والجملة مبتدأ وخبر
وقوله : ( تَخَافُونَهُمْ ) خبر ثان لأنتم ، وقوله : ( كَخِيفَتِكُمْ .
أَنفُسَكُمْ ) صفة لمصدر محذوف ، أى : تخافونهم خيفة كائنة مثل خيفتكم من

هو من نوعكم .والمعنى : ضرب الله - تعالى - لكم - أيها الناس - مثلا منتزعا
من أنفسكم التى هى أقرب شئ إليكم ، وبيان هذا المثل : أنكم لا ترضون أن
يشارككم فى أموالكم التى رزقناكم إياها ، عبيدكم وإماؤكم ، مع أنهم مثلكم
فى البشرية ، ونحن الذين خلقناهم كما خلقناكم ، بل إنكم لتخافون على
أموالكم منهم ، أن يشاركوكم فيها ، كما تخافون عليها من الأحرار المشابهين
لكم فى الحرية وفى جواز التصرف فى تلك الأموال . فإذا كان هذا شأنكم مع
عبيدكم - الذين هم مثلكم فى البشرية ، والذين لم تخلقوهم بل نحن الذين
خلقناكم وخلقناهم - فكيف أجزتم لأنفسكم أن تشركوا مع الله - تعالى - آلهة
أخرى فى العبادة ، مع أنه - سبحانه - هو الخالق لكم ولهم ، والرازق لكم
ولهم؟!!إن تصرفكم هذا ظاهر التناقض والبطلان ، لأنكم لم ترضوا أن يشارككم
غيركم فى أموالكم ، ورضيتم أن تشركوا مع الله - تعالى - : غيره فى العبادة
مع أنه - سبحانه - هو الخالق والرازق لكل شئ .فالمقصود من الآية الكريمة ،
إبطال الشرك بأبلغ أسلوب ، وأوضح بيان ، وأصدق حجة ، وأقوى دليل .ولذا ،
ختمها - سبحانه - بقوله : ( كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيات لِقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ ) أى : مثل ذلك التفصيل الجلى الواضح ، نفصل الآيات الدالة على
وحدانيتنا ، لقوم يعقلون هذه الأمثال ، وينتفعون بها فى إخلاص العبادة لله
الواحد القهار .قال الإمام القرطبى : قال بعض العلماء : هذه الآية أصل فى
- الشركة بين المخلوقين ، لافتقار بعضهم إلى بعض ، ونفيها عن الله - سبحانه
وذلك أنه قال - سبحانه - : ( ضَرَبَ لَكُمْ مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ )
فيجب أن يقولوا : ليس عبيدنا شركاءنا فيما رزقتنا ، فيقال لهم : فكيف يتصور
أن تنزهوا أنفسكم عن مشاركة عبيدكم ، وتجعلوا عبيدى شركائى فى خلقى ، فهذا
حكم فاسد ، وقلة نظر وعمى قلب!!فإذا أبطلت الشركة بين العبيد وساداتهم فيما
يملكه السادة ، والخلق كلهم عبدي الله - تعالى - فيبطل أن يكون شئ من
العالم شركا لله - تعالى - فى شئ من أفعاله .ثم قال - رحمه الله - : وهذه
المسألة أفضل للطالب ، من حفظ ديوان كامل فى الفقه ، لأن جميع العبادات
البدنية ، لا تصح إلا بتصحيح هذه المسألة فى القلب فافهم ذلك .

بل اتبع الذين ظلموا اهواءهم بغير علم فمن يهدي من اضل الله وما لهم من
ناصرين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أن هؤلاء المشركين لم ينتفعوا
بهذه الأمثال لاستيلاء الجهل والعناد عليهم فقال : ( بَلِ اتبع الذين ظلموا
أَهْوَآءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ) .أى : لم ينتفع هؤلاء الظالمون بهذا المثل
الجلى فى إبطال الشرك ، بل لجوا فى كفرهم ، واتبعوا أهواءهم الزائفة
وأفكارهم الفاسدة ، وجهالاتهم المطبقة دون أن يصرفهم عن ذلك علم نافع )
فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ الله ) أى : إذا كان هذا هو حالهم ، فمن الذى
يستطيع أن يهدى إلى الحق ، من أضله الله - تعالى - : عنه بسبب زيفه
واستحبابه العمى على الهدى .إنه لا أحد يستطيع ذلك ( وَمَا لَهُمْ مِّن
نَّاصِرِينَ ) ينصرونهم من عقابه - سبحانه - لهم .

فاقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله
ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون

كما فسرها الوسيط ثم أمر سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يثبت على الحق
الذى هداه - عز وجل - إليه فقال : (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً
والفاء هى الفصحية ، وقوله : ( أَقِمْ ) من الإقامة على الشئ والثبات (
عليه ، وعدم التحول عنه .قوله : ( حَنِيفاً ) من الحنف ، وهو الميل من
الباطل إلى الحق ، وضده الجنف ، و ( حَنِيفاً ) حال من فاعل ( أَقِمْ ) .أى
إذا كان الأمر كما ذكرت لك - أيها الرسول الكريم - من بطلان الشكر فاثبت :
على ما أنت عليه من إخلاص العبادة لله - تعالى - وحده ، وأقبل على هذا الدين
الذى أوحاه الله إليك ، بدون التفات عنه ، أو ميل إلى سواه .قال صاحب
الكشاف : قوله : ( فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ) أى : فقوم وجهك
له وعدِّله ، غير ملتفت عنه يمينا أو شمالا ، وهو تمثيل لإقباله على الدين
واستقامته عليه وثباته ، واهتمامه بأسبابه ، فإن من اهتم بالشئ عقد عليه
طرفه ، وسدد إليه نظره ، وقوم له وجهه ، مقبلا به عليه .والمراد بالفطرة فى
قوله - تعالى - : ( فِطْرَتَ الله التي فَطَرَ الناس ) الملة . أى : ملة
الإسلام والتوحيد .أو المراد بها : قابلية الدين الحق ، والتهيؤ النفسى
لادراكه . والأصل فيها أنها بمعنى الخلقة .أى : اثبت - أيها الرسول
الكريم - على هذا الدين الحق ، والزموا - أيها الناس - فطرة الله ، وهى ملة
الحق ، التى فطر الناس عليها ، وخلقهم قابلين لها .قال ابن كثير عند تفسيره
لهذه الآية : يقول - تعالى - : فسدد وجهك واستمر على الدين الذى شرعه الله
لك ، من الحنيفية ملة إبراهيم ، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة ، التى فطر
الله الخلق عليها ، فإنه - تعالى - : فطر خلقه على معرفته وتوحيده .وفى
الحديث : " إنى خلقت عبادى حنفاء ، فاجتالتهم - أى حولتهم - الشياطين عن

: دينهم " .وروى البخارى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال
ما من مولود يولد إلا على الفطرة ، فأبواه يهودانه أن ينصرانه أو يمجسانه "
كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء؟ ثم يقول : فطرة ،
الله التى فطر الناس عليها " .وقال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم وحّد الخطاب
أولا ، ثم جمع؟ قلت : خوطب رسول الله صلى الله عليه وسلم أولا ، وخطاب
الرسول خطاب لأمته ، مع ما فيه من التعظيم للإمام ، ثم جمع بد ذلك للبيان
والتلخيص .وقوله : ( لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله ) تعليل لما قبله من
الأمر بلزوم الفطرة التى فطر - سبحانه - الناس عليها .أى : الزموا فطرة
الله التى هى دين الإسلام ، وقبول تعاليمه والعمل بها ، لأن هذا الدين قد
ارتضاه الله - تعالى - لكم ، ولا تبديل ولا تغيير لما فطركم عليه وارتضاه
لكم .و ( ذَلِكَ ) الدين الذى اختاره - سبحانه - لكم ، هو ( الدين القيم )
أى : القويم المستقيم ، الذى لا اعوجاج فيه ولا انحراف .فاسم الإشارة يعود
إلى الدين الذى أمرنا - سبحانه - بالثبات عليه ، فى قوله : ( فَأَقِمْ
وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ) .وقوله - تعالى - : ( ولكن أَكْثَرَ الناس
لاَ يَعْلَمُونَ ) استدراك لبيان موقف الناس من هذا الدين القيم .أى : ذلك
الدين الذى ارتضيته لكم هو الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون هذه
، الحقيقة ، بسبب استحواذ الشيطان عليهم ، واتباعهم للأهواء الزائفة
والتقاليد الفاسدة .

منيبين اليه واتقوه واقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين

كما فسرها الوسيط ثم حرضهم - سبحانه - على الاستمرار فى اتباع توجيهات هذا
الدين القيم فقال : ( مُنِيبِينَ إِلَيْهِ واتقوه وَأَقِيمُواْ الصلاة )
قال القرطبي : وفى أصل الإنابة قولان : أحدهما ، أنه القطع . ومنه أخذ.
- اسم الناب لأنه قاطع ، فكأن الإنابة هى الانقطاع إلى الله - عز وجل
بالطاعة . والثانى : أن أصله الرجوع ، مأخوذ من ناب ينوب إذا رجع مرة بعد
أخرى ، ومنه النوبة لأنها الرجوع إلى عادة ، ولفظ ( مُنِيبِينَ ) منصوب على
الحال .والمعنى : أقيموا وجوهكم - أيها الناس - لخالقكم وحده ، كونكم
راجعين إليه بالتوبة والطاعة ، ومقبلين إليه بالاستغفار والعبادة ، ومتقين
له فى كل أحوالكم ، ومداومين على إقامة الصلاة فى أوقاتها بخشوع واطمئنان
- المبدلين لفطرة الله - تعالى ( وَلاَ تَكُونُواْ مِنَ المشركين ).
المتبعين لأهوائهم وشهواتهم .

من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون

كما فسرها الوسيط وقوله ( مِنَ الذين فَرّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ
شِيَعاً ) بدل مما قبله .أى : ولا تكونوا من المشركين ، الذين اختلفوا فى
شأن دينهم اختلافات شتى على حسب أهوائهم ، وصاروا شيعا وفرقا وأحزابا
متنازعة .( كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ) أى : كل حزب منهم
صار مسرورا بما لديه من دين باطل ، وملة فاسدة ، وعقيدة زائفة ، وهذا الفرح
بالباطل سببه جهلهم ، وانطماس بصائرهم عن الانقياد للحق .

واذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين اليه ثم اذا اذاقهم منه رحمة اذا فريق
منهم بربهم يشركون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أحوال الناس فى السراء والضراء وعندما
- يوسع الله - تعالى - فى أرزاقهم ، وعندما يضيق عليهم هذه الأرزاق ، فقال
تعالى - : ( وَإِذَا مَسّ الناس . . . لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ )
، أى : ( وَإِذَا مَسّ الناس ضُرٌّ ) من قحط أو مصيبة فى المال أو الولد.
، أى : إذا نزل بهم الضر ( دَعَوْاْ رَبّهُمْ مّنِيبِينَ إِلَيْهِ )
أسرعوا بالدعاء إلى الله - تعالى - متضرعين إليه أن يكشف عنهم ما نزل بهم
من بلاء .هذا حالهم عند الشدائد والكروب ، أما حالهم عند العافية والغنى
وتفريج الهموم ، فقد عبر عنه - سبحانه - بقوله : ( ثُمّ إِذَآ أَذَاقَهُمْ
مّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مّنْهُمْ بِرَبّهِمْ يُشْرِكُونَ ) .و
إِذَآ ) الأولى شرطية ، والثانية فجائية .أى : هم بمجرد نزول الضر بهم
يلجأون إلى الله - تعالى - لإزالته ، ثم إذا ما كشفه عنهم ، وأحاطهم برحمته
أسرع فريق منهم بعباده غيره - سبحانه - .وقوله - تعالى - : ( إِذَا ،
فَرِيقٌ مّنْهُمْ ) : إنصاف وتشريف لفريق آخر من الناس ، من صفاتهم أنهم
يذكرون الله - تعالى - فى كل الأحوال ، ويصبرون عند البلاء ، ويشكرون عند
الرخاء .التنكير فى قوله - سبحانه - " ضر ، ورحمة " للإشارة إلى أن هذا
النوع من الناس يجزعون عند أقل ضر ، ويبطرون ويطغون لأدنى رحمة ونعمة .

ليكفروا بما اتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون

كما فسرها الوسيط واللام فى قوله - تعالى - : ( لِيَكْفُرُواْ بِمَآ آتَيْنَاهُمْ ) هى العاقبة . أى : فعلوا ما فعلوا من الجزع عند الضر ، ومن البطر عند النعم ، ليكون مآل حالهم إلى الكفر والجحود لنعم الله ، وإلى سوء العاقبة والمصير .ثم التفت إليهم - سبحانه - بالخطاب مهددا ومتوعدا فقال : أى : فتمتعوا - أيها الجاحدون ( فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ) لنعم الله - بهذا المتاع الزائل من متع الحياة الدنيا ، فسوف تعلمون ما يترتب على ذلك من عذاب مهين .

ام انزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - ( أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِ يُشْرِكُونَ ) التفات من الخطاب إلى الغيبة ، على سبيل التحقير لهم ، والتهوين من شأنهم . والاستفهام للنفى والتوبيخ .والسلطان : الحجة والبرهان .أى : هؤلاء الذين أشركوا معنا غيرنا فى العبادة ، هل نحن أنزلنا عليهم حجة ذات قوم وسلطان تشهد لهم بأن شركهم لا يخالف الحق ، وتنطق بأن كفرهم لا غبار عليه؟كلا ، إننا ما أنزلنا عليهم شيئا من ذلك ، وإنما هم الذين وقعوا فى الشرك ، بغير علم ، ولا هدى ولا كتاب منير .فالآية الكريمة تتهكم بهم لسفههم وجهلهم ، وتنفى أن يكون شركهم مبنيا على دليل أو ما شبه الدليل ، أو أن يكون هناك من أمرهم به سوى تقاليدهم الباطلة ، وأهوائهم الفاسدة وأفكارهم الزائفة .

واذا اذقنا الناس رحمة فرحوا بها وان تصبهم سيئة بما قدمت ايديهم اذا هم يقنطون

كما فسرها الوسيط ثم عادت الصورة الكريمة إلى الحديث عن أحوال بعض النفوس البشرية فى حالتى العسر واليسر ، فقال - تعالى - : ( وَإِذَآ أَذَقْنَا الناس رَحْمَةً ) من صحة أو غنى أو أمان ( فَرِحُواْ بِهَا ) أى : فرحوا بها فرح البطر الأشر ، الذى لا يقابل نعم الله - تعالى - بالشكر ، ولا يستعملها فيما خلقت له .فالمراد بالفرح هنا : الجحود والكفران للنعم ، وليس مجرد السرور بالحصول على النعم .( وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ) شدة أو مصيبة ( بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ) أى : بسبب شؤم معاصيهم ، وإهمالهم لشكر الله - تعالى - على نعمه ( إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ) أى : أسرعوا باليأس من رحمة الله ، وقنطوا من فرجه ، واسودت الدنيا فى وجوههم ، شأن الذين لا يعرفون سنن الله - تعالى - فى خلقه ، والذين يعبدون الله على حرف - فهم عند السراء جاحدون مغرورون . . وعند الضراء قانطون يائسون .وعبر ، سبحانه - فى جانب الرحمة بإذا ، وفى جانب المصيبة بأن ، للإشعار بأن رحمته - تعالى - بعباده متحققة فى كل الأحوال . وأن ما ينزل بالناس من مصائب ، هو بسبب ما اجترحوه من ذنوب .ونسب - سبحانه - الرحمة إلى ذاته فقال دون السيئة فقد قال : ( وَإِن ( وَإِذَآ أَذَقْنَا الناس رَحْمَةً ) : تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ) لتعليم العباد الأدب مع خالقهم - عز وجل - وإن كان الكل بيده - سبحانه - وبمشيئته ، وشبيه بهذا قوله - تعالى - : ( وَأَنَّا لاَ ندري أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأرض أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً ) ، والتعبير بإذا الفجائية فى قوله ( إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ) للإشارة إلى سرعة يأسهم من رحمة الله - تعالى حتى ولو كانت المصيبة هينة بسيرة ، وذلك لضعف يقينهم وإيمانهم . إذ القنوط من رحمة الله ، يتنافى مع الإيمان الحق .

اولم يروا ان الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ان في ذلك لايات لقوم يؤمنون

، كما فسرها الوسيط ثم عقب - سبحانه - على أحوالهم هذه ، بالتعجيب من شأنهم وبالتقريع عليهم على جهلهم ، فقال : ( أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ الله يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ) .أى : أجهل هؤلاء الناس الذين لم يخالط الإيمان قلوبهم ، ولم يشاهوا بأعينهم أن الله - تعالى - بمقتضى حكمته ، يسوع الرزق لمن يشاء من عباده . ويضيقه على من يشاء مهم ، لاراد لقضائه ، ولا معقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل .إن واقع الناس يشهد ويعلن : أن الله - تعالى - يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، فما لهؤلاء القوم ينكرون هذا الواقع بأفعالهم القبيحة ، حيث إنهم يبطرون عند السراء ، ويقنطون عند الضراء؟ فالمقصود بالآية الكريمة توبيخهم على عدم فهمهم لسنن الله فى خلقه ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ( إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ) أى : إن فى ذلك الذى ذكرناه لكم من أحوال الناس ، ومن قدرتنا على كل شئ ( لآيَاتٍ ) واضحات ، وعبر بينات ، لقوم يؤمنون بما أرشدناهم إليه ، ويعلمون بما يقتضيه إيمانهم .

فات ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله

واولئك هم المفلحون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما يجب على المسلم بالنسبة للمال الذى وهبه الله إياه ، فقال - تعالى - : ( فَآتِ ذَا القربى حَقَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ) .والخطاب فى قوله - تعالى - : ( فَآتِ ذَا . . . القربى حَقَّهُ . . ) للنبى صلى الله عليه وسلم ولكل من يصلح له من أمته والفاء : لترتيب ما بعدها على ما قبلها .والمعنى : إذا كان الأمر كما ذكرت لكم ، من أبسط الأرزاق وقبضها بيدى وحدى ، فأعط - أيها الرسول الكريم - ذا القربى حقه من المودة والصلة والإحسان ، وليقتد بك فى ذلك أصحابك وأتباعك وأعط - أيضا - ( والمسكين ) الذى لا يملك شيئا ذا قيمة ، حقه من الصدقة. والبر ، وكذلك ( وابن السبيل ) وهو المسافر المنقطع عن ماله فى سفره ، ولو كان غنيا فى بلده .وقدم - سبحانه - الأقارب ، لأن دفع حاجتهم واجب من الواجبات التى جعلها - سبحانه - للقريب على قريبه .قال القرطبى : واختلف فى هذه الآية ، فقيل : إنها منسوخة بآية المواريث . وقيل :لا نسخ ، بل للقريب حق لازم فى البر على كل حال ، وهو الصحيح ، قال مجاهد وقتادة : صلة الرحم فرض من الله - عز وجل - ، حتى قال مجاهد :لا تقبل صدقة من أحد ورحمه محتاجة .وقال الجمل فى حاشيته : وعدم ذكر بقية الأصناف المستحقين للزكاة ، يدل على أن ذلك فى صقة التطوع ، وقد احتج أبو حنفية - رحمه الله - بهذه الآية على وجوب نفقة المحارم ، والشافعى - رحمه الله - قاس سائر الأقارب - ما عدا الفروع والأصول - على ابن العم ، لأنه لا ولادة بينهم .ثم قال : وهؤلاء الثلاثة يجب الإحسان إليهم وإن لم يكن إليهم وإن لم يكن للإنسان مال زائد ، لأن المقصود هنا : الشفقة العامة ، والفقير داخل فى المسكين . ) : ثم بين - سبحانه - الآثار الطيبة المترتبة على هذا البر والعطاء فقال. ( ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ الله وأولئك هُمُ المفلحون أى : ذلك الإيتاء لهؤلاء الثلاثة ، خير وأبقى عند الله - تعالى - للذين. يريدون بصدقتهم وإحسانهم وجه الله ، وأولئك المتصفون بتلك الصفات الحميدة ، هم الكاملون فى الفلاح ، والظفر بالخير فى الدنيا والآخرة .

وما اتيتم من ربا ليربو في اموال الناس فلا يربو عند الله وما اتيتم من زكاة تريدون وجه الله فاولئك هم المضعفون

، كما فسرها الوسيط وبعد أن حضهم على صلة الأقارب والمساكين وابن السبيل نفرهم من تعاطى الربا فقال : ( وَمَآ آتَيْتُمْ مِّن رِّباً لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ الناس فَلاَ يَرْبُو عِندَ الله ) .والربا : الزايدة مطلقا . يقال : ربا الشئ يربو إذا زاد ونما ، ومنه قوله - تعالى - : ( وَتَرَى الأرض هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المآء اهتزت وَرَبَتْ ) أى : زادت .قال الآلوسى ما ملخصه : والظاهر أن المراد بالبر هنا ، الزيادة المعروفة فى المعاملة التى حرمها الشارع . ويشهد لذلك ما روى عن السدى ، من أن الآية نزلت فى ربا ثقيف ، كانوا يرابون ، وكذلك كانت قريش تتعاطى الربا وعن ابن عباس وغيره : أن المراد به هنا العطية التى يتوقع بها مزيد مكافأة. ، وعليه فتسميتها ربا مجاز ، لأنها سبب للزيادة .ويبدو لنا أن المراد هنا ، الربا الذى حرمه الله - تعالى - بعد ذلك تحريما قاطعا ، وأن المقصود من ، الآية التنفير منه على سبيل التدرج ، حتى إذا جاء التحريم النهائى له تقبلته نفوس الناس بدون مفاجأة لهذا التحريم .قال صاحب الكشاف : هذه الآية فى معنى قوله - تعالى - ( يَمْحَقُ الله الربا وَيُرْبِي الصدقات ) سواء بسواء . يريد : وما أعطيتم أكلة الربا ( مِّن رِّباً لِّيَرْبُوَ فِي ) أموالهم ، أى : ليزيد ويزكو فى أموالهم ، فلا يزكو عند الله ولا يبارك فيه ثم حض - سبحانه - على التصدق فى سبيله فقال : ( وَمَآ آتَيْتُمْ مِّن. ) زَكَاةٍ ) أى من صدقة تتقربون بها إلى الله ، و ( تُرِيدُونَ ) بأدائها وَجْهَ الله ) أى : رضاه وثوابه . ( فأولئك ) الذين يفعلون ذلك ( هُمُ المضعفون ) أى : ذوو الأضعاف المضاعفة من الثواب والعطا الكريم ، فالمضعفون جمع مضعف - بكسر العين - على أنه اسم فاعل من أضعف ، إذا صار ضِعْف - بكسر فسكون - كأقوى وأيسر ، إذا صار ذا قوة ويسار .وقال - سبحانه - : ( فأولئك هُمُ المضعفون ) ولم يقل : فأنتم المضعفون ، لأنه رجع من المخاطبة إلى الغيبة ، كأنه قال لملائكته : فاولئك الذين يريدون وجهى بصدقاتهم ، هم المضعفون ، فهو أمدح لهم من أن يقول : فأنتم المضعفون .

الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء سبحانه وتعالى عما يشركون

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك مظاهر فضله على الناس فقال الله الذي خَلَقَكُمْ ) على غير مثال سابق ( ثُمّ رَزَقَكُمْ ) من فضله بأنواع من الرزق الذى لا غنى لكم عنه فى معاشكم ( ثُمّ يُمِيتُكُمْ ) بعد انقضاء أعماركم فى هذه الحياة ( ثُمّ يُحْيِيكُمْ ) يوم القيامة للحساب

والجزاء .والإستفهام فى قوله - سبحانه - : ( هَلْ مِن شُرَكَآئِكُمْ مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُمْ مِّن شَيْءٍ ) للانكار والنفى . أى : ليس من شركائكم الذي عبدتموهم من يستطيع أن يفعل شيئاً من ذلك ، فكيف اتخذتموهم آلهة وأشركتموهم معى فى العبادة؟ إن الله - تعالى - وحده هو الخالق وهو الرازق وهو المحيى وهو الميت .( سُبْحَانَهُ وتعالى عَمّا يُشْرِكُونَ ) تنزه وتقس عن شرك هؤلاء المشركين وعن جهل أولئك الجاهلين .

ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت ايدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون

كما فسرها الوسيط وبعد هذا التوجيه الحكيم ، يسوق - سبحانه - الآثار السيئة التى ترتب على الكفر والمعاصى ، ويأمر بالاعتبار بالسابقين ، ويبين عاقبة الأشرار وعاقبة الأخيار فيقول : ( ظَهَرَ الفساد فِي البر . . . لاَ يُحِبُّ الكافرين ) .قال ابن كثير ما ملخصه : قال ابن عباس وغيره : المراد بالبر ها هنا ، الفيافى . وبالبحر : الأمصار والقرى ، ما كان منها على جانب نهر .وقال آخرون : بل المراد بالبر هو البر المعروف . وبالبحر المعروف : والقول الأول أظهر ، وعليه الأكثر ، ويؤيده ما ذكره ابن إسحاق فى السيرة. أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صالح ملك أيلة ، وكتب به ببحره - يعنى ببلده - .والمعنى : ظهر الفساد فى البر والبحر ، ومن مظاهر ذلك انتشار الشرك والظلم ، والقتل وسفك الدماء ، والأحقاد والعدوان ، ونقص البركة فى الزروع والثمار والمطاعم والمشارب ، وغير ذلك مما هو مفسدة وليس بمنفعة . قال ابن كثير - رحمه الله - : وقال أبو العالية : من عصى الله فى الأرض. فقد أفسد فيها ، لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة ، ولهذا جاء الحديث الذى رواه أبو داود : " الحد يقام فى الأرض ، أحب إلى أهلها من أن يمطروا أربعين صباحاً " .والسبب فى هذا أن الحدود إذا أقيمت ، انكف الناس ، أو أكثرهم أو كثير منهم ، عن تعاطى المحرمات . وإذا ارتكبت المعاصى كان سبباً فى محق البركات . . وكلما أقيم العدل كثرت البركات والخيرات . وقد ثبت فى الحديث الصحيح : " إن الفاجر إذا مات تستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب " وقوله - تعالى - : ( بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي الناس ) بيان لسبب ظهور. الفساد . أى : عم الفساد وطم البر والبحر ، بسبب اقتراف الناس للمعاصى وانهماكهم فى الشهوات ، وتفلتهم من كل ما أمرهم الله - تعالى - به ، أو نهاهم عنه ، كما قال - تعالى - : ( وَمَآ أَصَابَكُمْ مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ) فظهور الفساد وانتشاره ، لا يتم عبثاً أو اعتباطاً ، وإنما يتم بسبب إعراض الناس عن طاعة الله - تعالى - ، وارتكابهم للمعاصى . .ثم بين - سبحانه - ما ترتب على الوقوع فى المعاصى من بلاء واختبار ، فقال : ( لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الذي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ) .واللام فى " ليذيقهم " للتعليل وهى متعلقة بظهر . أى : ظهر الفساد . . ليذيق - سبحانه - الناس نتائج بعض اعمالهم السيئة ، كى يرجعوا عن غيرهم وفسقهم ، ويعودوا إلى الطاعة والتوبة ، ويجوز ان تكون متعلقة بمحذوف ، اى : عاقبهم بانتشار الفساد بينهم. ليجعلهم يحسون بسوء عاقبة الولوغ فى المعاصى ، ولعلهم يرجعون عنها ، إلى الطاعة والعمل الصالح .

قل سيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان اكثرهم مشركين

كما فسرها الوسيط ثم يلفت - سبحانه - أنظار الناس إلى سوء عاقبة من ارتكس فى الشرك والظلم ، فيقول : ( قُلْ سِيرُواْ فِي الأرض فانظروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذين مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّشْرِكِينَ ) . أى : قل - أيها الرسول الكريم - للناس : سيروا فى الأرض سير المتأملين المعتبرين ، لتروا بأعينكم ، كيف كانت عاقبة الظالمين من قبلكم ..لقد كانت عاقبتهما الدمار والهلاك ، بسبب إصرار أكثرهم على الشكر والكفر ، وانغماس فريق منهم فى المعاصى والفواحش .فالمراد بالسير ، ما يترتب عليه من عظات وعبر ، حتى لا تكون عاقبة اللاحقين ، كعاقبة السابقين ، فى الهلاك والنكال .

فاقم وجهك للدين القيم من قبل ان ياتي يوم لا مرد له من الله يومئذ يصدعون

كما فسرها الوسيط ثم أكد - سبحانه ما سبق أن أمر به رسوله صلى الله عليه وسلم من ثبات على الحق فقال : ( فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينَ القيم . . . ) أى : إذا كان الأمر كما ذكرت لك - أيها الرسول الكريم - من سوء عاقبة الأشرار ، وحسن عاقبة الأخيار . فاثبت على هذا الدين القويم ، الذى أوحيناه إليك ، ولا تتحول عن إلى جهة ما .( مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ الله ) أى : اثبت على هذا الدين القيم ، من قبل أن يأتى يوم القيامة ، الذى لا يقدر أحد على ردِّه أو دفع عذابه إلا الله - تعالى وحده .ثم بين - سبحانه - أحوال الناس فى هذا اليوم فقال : ( يَوْمَئِذٍ

يَصّدّعُونَ ) .أى : يتفرقون . وأصله يتصدعون ، فقلبت تاؤه صاداً وأدغمت
والتصدع التفرق : يقال : تصدع القوم إذا تفرقوا ، ومنه قول الشاعر :وكنا ،
كندْمانَىْ جَذِيمةَ حقبة ... من الدهر حتى قيل لن يتصدعا أى : لن يتفرقا
والمعنى : اثبت على هذا الدين ، من قبل أن يأى يوم القيامة ، الذى يتفرق.
فيه الناس إلى فريقين

من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحا فلانفسهم يمهدون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - الفريق الأول فقال : ( مَن كَفَرَ
فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ) أى : من كفر من الناس ، فعاقبه كفره واقعة عليه لا
: على غيره ، وسيتحمل وحده ما يترتب على ذلك من عذاب مهين .قال صاحب الكشاف
، قوله ( فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ) كلمة جامعة لما لا غاية وارءه من المضار
لأن من كان ضاره كفره ، فقد أحاطت به كل مضرة .ثم بين - سبحانه - الفريق
: الثانى فقال : ( وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ) أى
ومن عمل فى دنياه عملاً صالحاً ، فإنه بسبب هذا العمل يكون قد مهد وسوى
لنفسه مكانا مريحا يستقر فيه فى الآخرة .والمهاد : الفراش . ومنه مهاد
الصبى أى فراشه . ويقال مهدت الفراش مهدا ، أى : بسطته ووطأته . ومهدت
الأمور . أى : سويتها وأصلحتها .فالجملة الكريمة تصوير بديع للثمار الطيبة
التى تترتب على العمل الصالح فى الدنيا ، حتى لكأن من يعمل هذا العمل ، يعد
لنفسه فى الآخرة مكاناً مبعداً ، ومضجعاً هنيئا ، ينزل فيه وهو فى أعلى
درجات الراحة والنعيم :قال ابن جرير : قوله - تعالى - ( فَلأَنفُسِهِمْ
يَمْهَدُونَ ) أى : فلأنفسهم يستعدون ، ويسوون المضجع ، ليسلموا من عقاب
ربهم ، وينجوا من عذابه ، كما قال الشاعر :أمهد لنفسك ، حان السقْم والتلف
ولا تضيعن نفسا ما لها خلف ...

ليجزي الذين امنوا وعملوا الصالحات من فضله انه لا يحب الكافرين

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما اقتضته حكمته وعدالته فقال
لِيَجْزِيَ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات مِن فَضْلِهِ إِنّهُ لاَ
يُحِبُّ الكافرين ) .أى : فعل ما فعل - سبحانه - من تقسيم الناس إلى فريقين
ليجزى الذين آمنوا عملوا الأعمال الصالحات ، الجزاء الحسن الذى يستحقونه ،
- وليعطيهم العطاء الجزيل من فضله ، لأنه يحبهم ، أما الكافرون ، فإنه ،
. سبحانه -لا يحبهم ولا يرضى عنهم

ومن اياته ان يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجري الفلك بامره
ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون

- كما فسرها الوسيط ثم تعود السورة الكريمة إلى الحديث عن آيات الله
تعالى - الدالة على قدرته ، وعن مظاهر فضله على الناس ورحمته بهم ، وعن
الموقف الجحودى الذى وقفه بعضهم من هذه النعم . . قال - تعالى - : ( وَمِنْ
) : - آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ . . . . فَهُمْ مُّسْلِمُونَ ) .قوله - سبحانه
وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرياح مُبَشِّرَاتٍ ) بيان لأنواع أخرى من
الظواهر الكونية الدالة على قدرته - عز وجل - .أى : ومن الآيات والبراهين
الدالة على وحدانية الله - تعالى - ونفاذ قدرته ، أنه - سبحانه - يرسل
بمشيئته وإرادته الرياح ، لتكون بشارة بأن من ورائها أمطارا ، فيها الخير
الكثير للناس .قال الآلوسى : قوله : ( وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرياح
أى : الجنوب ، ومهبها من مطلع سهيل إلى مطلع الثريا ، والصبا : ومهبها من (
مطلع الثريا إلى بنات نعش . والشمال : ومهبها من بنات نعش إلى مسقط النسر
الطائر ، فإنها رياح الرحمة . أما الدبور ومهبها من مسقط النسر الطائر إلى
مطلع سهيل ، فريح العذاب .وقوله :( وَلِيُذِيقَكُمْ مِّن رَّحْمَتِهِ
وَلِتَجْرِيَ الفلك بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ . . ) بيان
للفوائد التى تعود على الناس من إرسال الرياح التى تعقبها الأمطار ، وهو
متعلق بقوله ( يُرْسِلَ ) .أى : يرسل الرياح مبشرات بالأمطار ويرسلها
لمنحكم من رحمته الخصب والنماء لزرعكم ، وللتجرى الفلك عند هبوبها فى البحر
، بإذنه - تعالى - ولتبتغوا أرزاقكم من فضله - سبحانه - عن طريق الأسفار
: والانتقال من مكان إلى آخر ، ولكى تشكروا الله - تعالى - على هذه النعم
. فإنكم إذا شكرتموه - سبحانه - على نعمه زادكم منها

ولقد ارسلنا من قبلك رسلا الى قومهم فجاءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين
اجرموا وكان حقا علينا نصر المؤمنين

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ
رُسُلاً إلى قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بالبينات . . . ) كلام معترض بين
الحديث عن نعمة الرياح ، لتسلية الرسول صلى الله عليه عما لقحه من قومه من

أذى .أى ولقد أرسلنا من قبلك - أيها الرسول الكريم - رسلاً كثيرين ، إلى قومهم ليهدوهم إلى الرشد ، وجاء كل رسول إلى قومه بالحجج الواضحات التى تدل على صدقه .وقوله ( فانتقمنا مِنَ الذين أَجْرَمُواْ ) معطوف على كلام محذوف أى : أرسلناهم بالحجج الواضحات ، فمن أقوامهم من آمن بهم ، ومنهم من كذبهم ، فانتقمنا من المكذبين لرسلهم .( وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ المؤمنين ) أى : وكان نصر المؤمنين حقاً أوجبناه على ذاتنا ، فضلاً منا وكرماً ، وتكريماً وإنصافاً لمن آمن بوحدانيتنا ، وأخلص العبادة لنا ". وحقا " خبر كان ، و " نصر المؤمنين " اسمها و " علينا " متعلق بقوله حقا ، قال ابن كثير : قوله هو حق أوجبه على نفسه الكريمة ، تكريماً وتفضلاً. كقوله : ( كَتَبَ رَبُّكُمْ على نَفْسِهِ الرحمة ) وعن أبى الدرداء قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ما من امرئ مسلم يرد من عرض أخيه ، إلا كان حقا على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة : ثم تلا صلى الله عيله وسلم هذه الآية " .

الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فاذا اصاب به من يشاء من عباده اذا هم يستبشرون

كما فسرها الوسيط ثم يعود السورة مرة أخرى إلى الحديث عن الرياح وما يترتب عليها من منافع فتقول : ( الله الذي يُرْسِلُ الرياح ) بقدرته ومشيئته فَتُثِيرُ سَحَاباً ) أى : هذه الرياح يرسلها الله - تعالى - تتحرك فى الجو وفق إرادته - سبحانه - وتحرك السحاب وتنشره من مكان إلى آخر ). فَيَبْسُطُهُ فِي السمآء كَيْفَ يَشَآءُ ) : أى فيبسط الله - تعالى - هذا السحاب فى طبقات الجو ، بالكيفية التي يختارها - سبحانه - ويريدها ، بأن يجعله تارة متكاثفاً ، وتارة متناثراً ، وتارة من جهة الشمال ، وتارة من جهات غيرها .( وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً ) أى : ويجعله قطعا بعضها فوقبعض تارة أخرى . والكسف : جمع كسفه ، وهى القطعة من السحاب .( فَتَرَى الودق ) أى المطر ( يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ ) أى يخرج من خلافه أى يخرج ويتساقط من خلال هذا السحاب ، ومن بين ذراته . ( فَإِذَآ أَصَابَ بِهِ ) ، أى : بهذا المطر ( مَن يَشَآءُ ) إصابته به ( مِنْ عِبَادِهِ ) بأن ينزله على أراضيهم وعلى بلادهم ( إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ) أى : يفرحون بذلك ، لأنه يكون سبباً فى حياتهم وحياة دوابهم وزروعهم . .وأعرف الناس بنعمة المطر ، أولئك الذين يعيشون فى الأماكن البعيدة عن الأنهار . كأهل مكة ومن يشبهونهم ممن تقوم حياتهم على مياه الأمطار .

وان كانوا من قبل ان ينزل عليهم من قبله لمبلسين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - حالهم قبل نزول تلك الأمطار عليهم فقال وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِّن قَبْلِهِ ) : لَمُبْلِسِينَ ) .وإن مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن المحذوف ، والضمير فى ( يُنَزَّلَ ) يعود للمطر ، وفى قوله ( مِّن قَبْلِهِ ) يعود لنزول المطر - أيضاً - على سبيل التأكيد ، وقوله : ( لَمُبْلِسِينَ ) خبر كان . والإبلاس : اليأس من الخير ، والسكوت ، والانكسار غما وحزنا . يقال أبلس الرجل ، إذا سكت على سبيل اليأس والذل والانكسار .أى : هم عند نزول الأمطار يستبشرون ويفرحون ، ولو رأيت حالهم قبل نزول الأمطار لرأيتهم فى غاية الحيرة والقنوط والإبلاس ، لشدة حاجتهم إلى الغيث الذى طال انتظارهم له وتطلعهم إليه دون أن ينزل .قال صاحب الكشاف : وقوله ( مِّن قَبْلِهِ ) من باب التكرير والتوكيد ، كقوله - تعالى - : ( فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي النار خَالِدِينَ فِيهَا ) " ومعنى التوكيد فيه الدلالة على أن عهدهم بالمطر قد تطاول وبعد ، فاستحكم يأسهم ، وتمادى إبلاسهم ، فكان الاستبشار على قدر اغتمامهم بذلك " .

فانظر الى اثار رحمت الله كيف يحيي الارض بعد موتها ان ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير

كما فسرها الوسيط ثم لفت - سبحانه - أنظار الناس إلى ما يترتب على نعمة المطر من آثار عظيمة فقال : ( فانظر إلى آثَارِ رَحْمَتِ الله . . . ) والفاء للدلالة على سرعة الانتقال من محالة اليأس إلى الاستبشار . أى فانظر - أيها العاقل - نظرة تعقل واتعاظ واستبصار ، إلى الآثار المترتبة على نزول المطر ، وكيفي أن نزوله حول النفوس من حالة الحزن إلى حالة الفرح ) : - وجعل الوجوه مستبشرة بعد أن كانت عابسة يائسة .وقوله - تعالى ، كَيْفَ يُحْيِي الأرض بَعْدَ مَوْتِهَآ ) فى محل نصب على تقدير الخافض .أى - فانظر إلى آثار رحمة الله بعد نزول المطر ، وانظر وتأمل كيف يحيى الله : تعالى - بقدرته ، الأرض بعد موتها بأن يجعلها خضراء ويانعة ، بعد ان كانت جدباء قاحلة .واسم الإشارة فى قوله - تعالى - ( إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي

الموتى ) يعود على الله - تعالى - . أى : إن ذلك الإله العظيم الذى أحيا الأرض بعد موتها ، لقادر على إحياء الموتى ، إذ لا فرق بينهما بالنسبة لقدرة الله التى لا يعجزها شئ . ( وَهُوَ ) - سبحانه - ( على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ) ومن جملة الأشياء المقدور عليها ، إحياء الموتى .وهكذا يسوق القرآن الكريم الأدلة على البعث ، بأسلوب منطقى ، منتزع من واقع الناس ، ومن المشاهد التى يرونها فى حياتهم .

ولئن ارسلنا ريحا فراوه مصفرا لظلوا من بعده يكفرون

كما فسرها الوسيط وبعد أن صور - سبحانه - أحوال الناس عند رؤيته للرياح التى تثير السحب المحملة بالأمطار ، وأنهم عند رؤيتها يفرحون ويستبشرون . بعد أن صور ذلك بأسلوب بديع ، أتبع ذلك بتصوير حالهم عندما يرون ريحاً تحمل لهم الرمال والأتربة ، وتضر بمزروعاتهم فقال - تعالى - ( وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرّاً لَّظَلُّواْ مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ) .والضمير فى " رأوه " يعود إلى النبات المفهوم من السياق . أى : هذا حال الناس عندما يرون الرياح التى تحمل لهم الأمطار ، أما إذا أرسلنا عليهم ريحاً معها الأتربة والرمال ، فرأوا نباتهم وزروعهم قد اصفرت واضمحلت وأصابها ما يضرها أو يتلفها . . فإنهم يظلون من بعد إرسال تلك الريح عليهم ، يكفرون بنعم الله ، ويجحدون آلاءه السابقة ، ويقابلون ما أرسلناه عليهم بالسخط والضيق ، لا بالاستسلام لقضائنا ، وملازمة طاعتنا قال الآلوسى ما ملخصه : واللام فى قوله : ( وَلَئِنْ ) موطئة للقسم دخلت. على حرف الشرط ، والفاء " فرأوه " فصيحة ، واللام فى قوله " لظلوا " لام - جواب القسم الساد مسد الجوابين ، والماضى بمعنى المستقبل . . وفيما ذكر سبحانه - من ذمهم على عدم تثبيتهم ما لا يفخى ، حيث كان من الواجب عليهم أن يتولكوا على الله - تعالى - فى كل حال ، وليجأوا إليه بالاستغفار ، إذا احتبس منهم المطر ، ولا ييأسوا من روح الله - تعالى - ويبادروا إلى الشكر ، بالطاعة ، إذا اصابهم برحمته ، وأن يصبروا على بلائه إذا اعترى زرعهم آفة . . فعكسوا الأمر ، وأبوا ما يجديهم ، وأتوا بما يؤذيهم

فانك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين

كما فسرها الوسيط ثم سلى - سبحانه - نبيه عما لحقه منهم من أذى ، بعد أن ذكر له جانباً من تقلب أحوالهم ، فقال - تعالى - : ( فَإِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الموتى وَلاَ تُسْمِعُ الصم الدعآء إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ) اى : فاصبر - أيها الرسول - لحكم ربك ، واثبت على ما أنت عليه من حق . فَإِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الموتى ) إذا ناديتهم ( وَلاَ تُسْمِعُ الصم الدعآء إذا ما دعوتهم او وعظتهم .وقوله ( إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ) بيان ( لإعراضهم عن الحق ، بعد بيان كونهم كالأموات وكالصم .

وما انت بهاد العمي عن ضلالتهم ان تسمع الا من يؤمن باياتنا فهم مسلمون

كما فسرها الوسيط ثم وصفهم بالعمى فقال : ( وَمَآ أَنتَ بِهَادِ العمي عَن ضَلاَلَتِهِمْ ) بسبب فقدهم الانتفاع بأبصارهم ، كما فقدوا الانتفاع ببصائرهم .( إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ) أى : ما تستطيع أن تسمع إلا من يؤمن باياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ( فَهُمْ مُّسْلِمُونَ ) أى : منقادون للحق ومتبعون له .فالآيتان الكريمتان تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم عما اصابه من هؤلاء المشركين ، وعن إخفاق جهوده مع كثير منهم ، لانطماس بصائرهم ، حيث شبههم - سبحانه - بالموتى وبالصم وبالعمى ، فى عدم انتفاعهم بالوعظ والإرشاد . .

الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير

كما فسرها الوسيط وبعد هذا التطواف فى أعماق الأنفس والآفاق . أخذت السورة الكريمة فى أواخرها ، تذكر الناس بمراحل حياتهم ، وبأحوالهم يوم القيامة ، وبفضائل القرآن الكريم ، وبأمر النبى صلى الله عليه وسلم بالصبر والثبات . قال - تعالى - : ( الله الذي خَلَقَكُمْ . . . الذين لاَ يُوقِنُونَ ) . قال القرطبى ما ملخصه : قوله - تعالى - ( الله الذي خَلَقَكُمْ مِّن ضَعْفٍ . . ) .استدلال آخر على قدرته - تعالى - ومعنى ( مِّن ضَعْفٍ ) من نطفة ضعيفة ، أو فى حال ضعف ، وهو ما كانوا عليه فى الابتداء من الطفولة - والصغر . . وقرأ الجمهور بضم الضاد ، وقرأ عاصم وحمزة بفتحها ، والضعف بالضم والفتح - خلاف القوة ، وقيل بالفتح فى الرأى ، وبالضم فى الجسد . . . وقال - سبحانه - : ( خَلَقَكُمْ مِّن ضَعْفٍ ) ولم يقل خلقكم ضعافاً. للإشعار بأن الضعف هو مادتهم الأولى التى تركب منها كيانهم ، فهو شامل .

- لتكوينهم الجسدى ، والعقلى ، والعطافى ، والنفسى . إلخ . أى : الله تعالى - بقدرته ، هو الذى خلقكم من ضعف ترون جانباً من مظاهره فى حالة طفولتكم وحداثة سنكم .( ثُمَّ جَعَلَ ) - سبحانه - ( مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ) أى : ثم جعل لكم من بعد مرحلة الضعف مرحلة أخرى تتمثل فيها القوة بكل صورها الجسدية والعقلية والنفسية . .( ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً ) أى : ثم جعل من بعد مرحلة القوة ، مرحلة ضعف آخر ، تعقبه مرحلة أخرى أشد منه فى الضعف ، وهى مرحلة الشيب والهرم والشيخوخة التى هى أرذل العمر ، وفيها يصير الإنسان أشبه ما يكون بالطفل الصغير فى كثير من أحواله . .( يَخْلُقُ ) - سبحانه - ( مَا يَشَآءُ ) خلقه ( وَهُوَ العليم ) بكل شئ ( القدير ) على كل شئ .فأنت ترى أن هذه الآية قد جمعت مراحل حياة الإنسان بصورها المختلفة .

ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما يقوله المجرمون عندما يبعثون من قبورهم للحساب فقال : ( وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة يُقْسِمُ المجرمون مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ ) .والمراد بالساعة : يوم القيامة ، وسميت بذلك لأنها تقوم فى آخر ساعة من عمر الدنيا ، أو لأنها تقع بغتة ، والمراد بقيامها : حصولها ووجودها ، وقيام الخلائق فى ذلك الوقت للحساب أى : وحين تقوم الساعة، ويرى المجرمون أنفسهم وقد خرجا من قبورهم للحساب بسرعة ودهشة يقسمون بأنهم ما لبثوا فى قبورهم أو فى دنياهم ، غير وقت قليل من الزمان ، ، قال ابن كثير : يخبر الله - تعالى - عن جهل الكفار فى الدنيا والآخرة. ففى الدنيا فعلوا ما فعلوا من عبادة الأصنام ، وفى الآخرة يكون منهم جهل عظيم - أيضاً - فمنه إقسامهم بالله أنهم ما لبثوا فى الدنيا إلا ساعة واحدة ومقصودهم بذلك عدم قيام الحجة عليهم ، وأنهم لم ينظروا حتى يعذر إليهم . وقوله : ( كَذَلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ) تذييل قصد به بيان ما جبلوا. عليه من كذب .ويؤفكون من الافك بمعنى الكذب . يقال : أفك الرجل ، إذا صرف عن الخير والصدق أى : مثل هذا الكذب الذى تفوهوا به فى الاخرة كانوا فعلون فى الدنيا ، فهم فى الدارين لا ينفكون عن الكذب وعن اختلاق الباطل .

وقال الذين اوتوا العلم والايمان لقد لبثتم في كتاب الله الى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - ما قاله أهل العلم والإيمان فى الرد عليهم . فقال : ( وَقَالَ الذين أوتُواْ العلم والإيمان لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ الله إلى يَوْمِ البعث ) .أى : وقال الذين أوتوا العلم والإيمان من الملائكة والمؤمنين الصادقين فى الرد على هؤلاء المجرمين : لقد لبثتم فى علم الله وقضائه بعد مفارقتكم الدنيا إلى يوم البعث ، أى : - إلى الوقت الذى حدده - سبحانه - لبعثكم ، والفاء فى قوله - تعالى ) فهذا يَوْمُ البعث ) هى الفصيحة . اى : إن كنتم منكرين للبعث ، فهذا يومه تشادونه بأعينكم . ولا تستطيعون إنكاره الآن كما كنتم تنكرونه فى الدنيا فالجملة الكريمة ، المقصود بها توبيخهم وتأنيبهم على إنكارهم ليوم الحساب. وقوله ( ولكنكم كُنتمْ لاَ تَعْلَمُونَ ) زيادة فى تقريعهم . أى : فهذا. يوم البعث مائل أمامكم . ولكنكم كنتم فى الدنيا لا تعلمون أن حق وصدق . بل كنتم بسبب كفرهم وعنادكم تستخفون به وبمن يحدثكم عنه ، فاليوم تذوقون سوء عاقبة إنكاركم له ، واستهزائكم به .

فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون

: كما فسرها الوسيط ولذا قال - سبحانه - بعد ذلك : ( فَيَوْمَئِذٍ ) أى فيوم أن تقوم الساعة ويقف الناس للحساب . ( لاَّ ينفَعُ الذين ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ ) أى لا ينفعهم الاعتذار ، ولا يفيدهم علمهم بأن الساعة حق - أى : ولا هم يقبل منهم الرجوع إلى الله ( وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ) . ، تعالى - بالتوبة والعمل الصالح .قال الآلوسى : والاستعتاب : طلب العتبى وهى الاسم من الإعتاب ، بمعنى إزالة العتب . أى :لا يطلب منهم إزالة عتب الله - تعالى - وغضبه عليهم ، لأنهم قد حق عليهم العذاب . . .

ولقد ضربنا للناس في هذا القران من كل مثل ولئن جئتهم باية ليقولن الذين كفروا ان انتم الا مبطلون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - موقفهم من القرآن الكريم ، وأنهم لو اتبعوا توجيهاته لنجوا من العذاب المهين ، فقال - تعالى - : ( وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هذا القرآن مِن كُلِّ مَثَلٍ ) .أى : وبالله لقد ضربنا للناس فى هذا القرآن العظيم ، كل مثل حكيم ، من شأنه أن يهدى القلوب

إلى الحق ، ويرشد النفوس إلى ما يسعدها . .( وَلَئِن جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ )
أى ولئن جئت - أيها الرسول - هؤلاء المشركين بآية بينة تدل على صدقك فيما
تبلغه عن ربك .( لَّيَقُولَنَّ ) على سبيل التطاول والتبجح ( إِنْ أَنتُمْ
إِلاَّ مُبْطِلُونَ ) أى : ما أنتم إلا متبعون للباطل أيها المؤمنون بما
يدعوكم إليه الرسول صلى الله عليه وسلم .

كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون

) : كما فسرها الوسيط ثم يعقب - سبحانه - على هذا التطاول والغرور بقوله
: كَذَلِكَ يَطْبَعُ الله على قُلُوبِ الذين لاَ يَعْلَمُونَ ) . والطبع
الختم على الشئ حتى لا يخرج منه ما هو بداخله . ولا يدخل فيه ما هو خارج
عنه .أى : مثل هذا الطبع العجيب ، يطبع الله - تعالى على قلوب هؤلاء الذين
، لا يعلمون ، ولا يعملون على إزالة جهلهم ، لتوهمهم أنهم ليسوا بجهلاء
وهذا أسوأ أنواع الجهل ، لأنه جهل مركب ، إذ صاحبه يجهل أنه جاهل .فهو كما
قال الشاعر :قال حمار الحكيم يوما ... لو أنصفونى لكنت اركبلأننى جاهل بسيط
وصاحبى جاهل مركب ...

فاصبر ان وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ، بأمر النبى صلى الله
عليه وسلم بالصبر على هؤلاء الجاهلين ، فقال : ( فاصبر إِنَّ وَعْدَ الله
حَقٌّ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الذين لاَ يُوقِنُونَ ) .أى : إذا كان الأمر
وصفنا لك من أحوال هؤلاء المشركين ، فاصبر على أذاهم ، وعلى جهالاتهم ، فإن
وعد الله - تعالى - بنصرك عليهم حق لا شك فى ذلك .( وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ
أى : ولا يزعجنك ويحملنك على عدم الصبر ، الذين لا يوقنون صحة ما تتلوا (
عليهم من آيات ، ولا بما يزعجنك ويحملنك على عدم الصبر ، الذين لا يوقنون
بصحة ما تتلوا عليهم من آيات ، ولا بما تدعوهم إليه من رشد وخير .وهكذا
ختمت السورة الكريمة بالوعد بالنصر ، كما افتتحت بالوعد به ، للمؤمنين
الصادقين ( وَعْدَ الله لاَ يُخْلِفُ الله وَعْدَهُ ولكن أَكْثَرَ الناس
لاَ يَعْلَمُونَ ) وبعد : فهذه هى سورة الروم ، وهذا تفسير محرر لها ، نسأل
الله - تعالى - أن يجعله خالصاً لوجهه نافعاً لعباده .وصلى الله على سيدنا
محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الم

كما فسرها الوسيط سورة لقمان من السور التى بدئت ببعض حروف التهجى . .وقد
فصلنا القول فى معانيها ، عند تفسيرنا لسور : البقرة ، وآل عمران وغيرهما
وقلنا فى نهاية سردنا لأقوال العلماء فى ذلك : ولعل أقرب الأقوال إلى.
، الصواب أن يقال : إن هذه الحروف المقطعة ، قد وردت فى افتتاح بعض السور
للإشعار بأن هذا القرآن الذى تحدى الله به المشركين ، هو من جنس الكلام
المركب من هذه الحروف التى يعرفونها . فإذا عجزوا عن الإتيان بسورة من
مثله ، فذلك لبلوغه فى الفصاحة والحكمة ، مرتبة يقف فصحاؤهم وبلغاؤهم دونها
بمراحل شاسعة .

تلك ايات الكتاب الحكيم

كما فسرها الوسيط واسم الإشارة فى قوله - سبحانه - : ( تِلْكَ آيَاتُ
الكتاب الحكيم ) يعود إلى آيات القرآن الكريم ، ويندرج فيها آيات السور
التى معنا .والمراد بالكتاب : القرآن الكريم على الصحيح . لأنه هو المتحدث
عنه .قال الآلوسى : وأما حمله على الكتب التى خلت قبل القرآن . . فهو فى
: غاية البعد ، والحكيم - بزنة فعيل - مأخوذ من الفعل حكم بمعنى منع ، تقول
، حكمت الفرس ، إذا وضت الحكمة فى فمها لمنعها من الجموح والشرود .والمقصود
أن هذا القرآن ممتنع أن يتطرق إليه الفساد ، ومبرأ من الخلل والتناقض
والاختلاف .قال الإمام الرازى ما ملخصه : وفى وصف الكتاب بكونه حكيما وجوه
منها : أن الحكيم هو ذو الحكمة ، بمعنى اشتماله على الحكمة ، فيكون الوصف ،
- للنسبة كلابن وتامر . ومنها أن الحكيم بمعنى الحاكم ، بدليل قوله - تعالى
وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الكتاب بالحق لِيَحْكُمَ بَيْنَ الناس فِيمَا ) :
اختلفوا فِيهِ ) ومنها أن الحكيم بمعنى المحكم . . " أى المبرأ من الكذب
والتناقض " .والمعنى : تلك الآيات السامية ، المنزلة عليك يا محمد ، هى
آيات الكتاب ، المشتمل على الحكمة والصواب ، المحفوظ من كل تحريف أو تبديل
الناطق بكل ما يوصل إلى الدنيوية والأخروية .وصحت الإشارة إلى آيات الكتاب
، مع أنها لم تكنقد نزلت كلها لأن الإشارة إلى بعضها كالإشارة إلى جميعها
حيث كانت بصدد الإنزال ، ولأن الله - تعالى - قد وعد رسوله صلى الله عليه
وسلم بنزول القرآن عليه ، كما فى قوله - تعالى - : ( إِنَّا سَنُلْقِي

عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ) ووعد الله - تعالى -لا يتخلف .

هدى ورحمة للمحسنين

) كما فسرها الوسيط وقوله ( هُدًى وَرَحْمَةً ) منصوبان على الحالية من آيَاتُ ) .أى : هذا الكتاب أنزلنا عليك يا محمد آياته ، لتكون هداية ورحمة للمحسنين فى أقوالهم وفى أفعالهم ، وفى كل أحوالهم .

الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالاخرة هم يوقنون

) : كما فسرها الوسيط ثم وصف - سبحانه - هؤلاء المحسنين ، بصفات كريمة فقال الذين يُقِيمُونَ الصلاة ) أى : يؤدونها فى أوقاتها المحددة لها ، مستوفية لواجباتها ، وسننها ، وآدابها وخشوعها ، فإن الصلاة التامة هى تلك التى صحبها الإخلاص ، والخشوع ، والأداء الصحيح المطابق لما ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم .( وَيُؤْتُونَ الزكاة ) أى : ويعطون الزكاة التى أوجبها الله - تعالى - فى أموالهم لمستحقيها ( وَهُمْ بالآخرة هُمْ يُوقِنُونَ ) والمراد بالآخرة : الدار الآخرة ، وسميت بذلك لأنها تأتى بعد الدنيا التى هى الدار الدنيا .وقوله ( يُوقِنُونَ ) من الإيقان ، وهو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع ، بحيث لا يطرأ عليك شك ، ولا تحوم حوله شبهة . .أى : أن من صفات هؤلاء المحسنين ، أنهم يؤدون الصلاة بخشوع وإخلاص ، ويقدمون زكاة أموالهم لمستحقيها ، وهم بالآخرة وما فيها من حساب وثواب وعقاب ، يوقنون إيقانا قطعيا ، لا اثر فيه للادعاءات الكاذبة ، والأوهام الباطلة .وفى إيراد " هم " قبل لفظ الآخرة . وقبل لفظ يوقنون : تعريض بغيرهم ممن كان اعتقادهم فى أمر الآخرة غير مطابق للحقيقة ، أو غير بالغ مرتبة اليقين .

اولئك على هدى من ربهم واولئك هم المفلحون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك الثمار الطيبة التي ترتبت على تلك الصفات الكريمة ، فقال - تعالى - : ( أولئك على هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وأولئك هُمُ المفلحون ) .والفلحون : من الفلاح وهو الظفر والفوز بدرك البغية . واصله من الفلح - بسكون اللام - وهو الشق والقطع ، ومنه فلاحة الأرض وهو شقها للحرث ، واستعمل منه الفلاح فى الفوز ، كأن الفائز شق طريقه وفلحه ، للوصول إلى مبتغاه ، أو انفتحت له طريق الظفر وانشقت .والمعنى : أولئك المتصفون بما تقدم من صفات كريمة ، على هداية عظيمة من ربهم توصلهم إلى المطلوب ، وأولئك هم الفائزون بكل مرغوب .والتنكير فى قوله ( على هُدًى ) للتعظيم ، وأتى بلفظ " على " للاشارة إلى التمكن والرسوخ ، ووصفه بأنه ( مِّن رَّبِّهِمْ ) لأنه - سبحانه - هو الذى وفقهم إليه ، ويسر لهم أسبابه .

ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا اولئك لهم عذاب مهين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - حال طائفة أخرى منا لناس ، كانا على النقيض من سابقيهم ، فقال : ( وَمِنَ الناس مَن يَشْتَرِي . . . فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ) .قد ذكر المفسرون فى سبب نزول هاتين الآيتين روايات اشهرها ، أنهما نزلتا فى النضر بن الحارث . اشترى قينة - أى مغنية - ، وكان لا يسمع بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قينته ، فيقول لها : أطعميه واسقيه وغنيه ، فهذا خير مما يدعوك إليه محمد صلى الله عليه وسلم من الصلاة والصيام ، وأن تقاتل بين يديه .و ( لَهْوَ الحديث ) : باطله ويطلق على كل كلام يلهى القلب ، ويشغله عن طاعة الله - تعالى - ، كالغناء ، والملاهى ، وما يشبه ذلك مما يصد عن ذكر الله - تعالى - :وقد فسر كثير من العلماء بالغناء ، والأفضل تفسيره بكل حديث لا يثمر خيرا .و ( مِنَ ) فى قوله ( وَمِنَ الناس ) للتبعيض ، أى : ومن الناس من يترك القول الذى ينفعه ويشترى الأحاديث الباطلة ، والخرافات الفاسدة .قال القرطبى ما ملخصه : هذه إحدى الآيات التى استدل بها العلماء على كارهة الغناء والمنع منه . ولا يختلف فى تحريم الذى يحرك النفوس ، ويبعثها على الغزل والمجون . . فأما ما سلم من ذلك ، فيجوز القليل منه فى أوقات الفرح ، كالعرس والعيد وعند التنشيط على الأعمال الشاقة ، كما كان فى حفر الخندق . .وقوله : ( لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ الله بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً ) تعليل لاشتراء لهو الحديث . والمراد بسبيل الله - تعالى - : دينه وطريقه الذى اختاره لعباده .وقد قرأ الجمهور : ( ليُضل ) بضم الياء - أى : يشترى لهو الحديث ليضل غيره عن صراط الله المستقيم ، حالة كونه غير عالم بسوء عاقبة ما يفعله ، ولكى يتخذ آيات الله - تعالى - مادة لسخريته واستهزائه وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ( ليَضل ) - بفتح الياء - فيكون المعنى : يشترى. لهو الحديث ليزداد رسوخا فى ضلاله .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : القراءة

بالضمر بينة ، لأن النضر كان غرضه باشتراء اللهو ، أن يصد الناس عن الدخول
فى الإسلام واستماع القرآن ، ويضلهم عنه ، فما معنى القراءة بالفتح؟ .قلت
، فيه معنيان ، أحدهما : ليثبت على ضلاله الذى كان عليه ، ولا يصدف عنه :
ويزيد فيه ويمده فإن المخذوف كان شتديد الشكيمة فى عداوة الدين وصد الناس
عنه . والثانى : أن بوضع ليضَل موضع ليضُل ، من قبل أن من أضل كان ضالا لا
محالة ، فدل بالرديف على المردوف . .وقوله : ( أولئك لَهُمْ عَذَابٌ
مُّهِينٌ ) بيان لسوء عاقبة من يؤثر الضلالة على الهداية .أى : أولئك الذين
يشترون لهو الحديث ، ليصرفوا الناس عند دين الله - تعالى - ، وليستهزئوا
. بآياته ، لهم عذاب يهينهم ويذلهم ، ويجعلهم محل الاحتقار والهوان

واذا تتلى عليه اياتنا ولى مستكبرا كان لم يسمعها كان في اذنيه وقرا فبشره
بعذاب اليم

كما فسرها الوسيط ثم فصل - سبحانه - حال هذا الفريق الشقى فقال : ( وَإِذَا
تتلى عَلَيْهِ ) أى : على النضر وأمثاله ( آيَاتُنَا ) الدالة على
وحدانيتنا وقدرتنا ، وعلى صدق نبينا صلى الله عليه وسلم .( ولى
مُسْتَكْبِراً ) أى : أعرض عنها بغررو واستعلاء . ( كَأَن لَّمْ
يَسْمَعْهَا ) أى : كأن حاله فى استكباره عن سماع الآيات ، كحال الذى لا
يسمعها إطلاقا .( كَأَنّ في أُذُنَيْهِ وَقْراً ) أى : كأن فى أدنيه صمما
وثقلا ومرضا يحول بينه وبين السماع .والجملتان الكريمتان حال من قوله ( ا
مُسْتَكْبِراً ) والمقصود بهما توبيخ هذا الشقى وأمثاله ، وذمهم ذما موجعا
لإعراضهم عن الحق .وقوله - تعالى - : ( فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ )
، تهكم به ، واستخفاف بتصرفاته .أى : فبشر هذا الشقى الذى اشترى هلو الحديث
. وأعرض عن آياتنا بالعذاب الأليم ، الذى يناسب غرروه واستكباره

ان الذين امنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم

- كما فسرها الوسيط ثم أكدت السورة الجزاء الحسن الذى أعده الله - تعالى
، للمؤمنين ، وذكرت جانبا من مظاهر قدرته - سبحانه - ، ورحمته بعباده
فقال - تعالى - : ( إِنَّ الذين آمَنُواْ . . . فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ) .أى
) إن الذين آمنوا بالله - تعالى - إيمانا حقا ، وعملوا الأعمال الصالحات :
لَهُمْ ) فى مقابلة ذلك ( جَنّاتُ النعيم ) أى : لهم جنات عالية يتنعمون
. فيها بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر

خالدين فيها وعد الله حقا وهو العزيز الحكيم

كما فسرها الوسيط (خَالِدِينَ فِيهَا ) خلودا أبديا ( وَعْدَ الله حَقّاً
، أى : هم خالدون فى تلك الجنات خلودا أبدا ، فقد وعدهم - سبحانه - بذلك (
ووعده حق وصدق ، لون يخلفه - سبحانه - تفضلا منه وكرما .قال الجمل . وقوله
مصدر مؤكد لنفسه ، لأن قوله : ( لَهُمْ جَنَّاتُ النعيم ) فى ( وَعْدَ )
معنى وعدهم الله ذلك . وقوله ( حَقّاً ) مصدر مؤكد لغيره . أى : لمضمون تلك
الجملة الأولى وعاملها مختلف ، فتقدير الأولى : وعد الله ذك وعدا . وتقدير
: الثانية ، وحقه حقا .وقوله - تعالى - : ( وَهُوَ العزيز الحكيم ) أى
وهو - سبحانه - العزيز الذى لا يغلبه غالب . الحكيم فى كل أفعاله وتصرفاته
.

خلق السماوات بغير عمد ترونها والقى في الارض رواسي ان تميد بكم وبث فيها
من كل دابة وانزلنا من السماء ماء فانبتنا فيها من كل زوج كريم

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - جانبا من مظاهر قدرته وعزته وحكمته
فقال : ( خَلَقَ السماوات بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ) .والعمد : جمع
عماد . وهو ما تقام عليه القبة أو البيت . وجملة " ترونها " فى محل نصب حال
من السماوات .أى هو : - سبحانه - وحده ، الذى رفع هذه السماوات الهائلة فى
صنعها وفى ضخامتها . بغير مستند يسندها . وبغير أعمدة تعتمد عليها . وأنتم
ترون ذلك بأعينكم بدون لبس أو خفاء . ولا شك أن خلقها على هذه الصورة من
أكبر الأدلة على أن لهذا الكون خالقا مدبرا قادرا حكيما ، هو المستحق
للعبادة والطاعة .وقوله - تعالى - : ( وألقى فِي الأرض رَوَاسِيَ أَن
تَمِيدَ بِكُمْ ) بيان لنعمة ثاينة مما أنعم به - سبحانه - على عباده
والرواسى : جمع راسية . والمراد بها الجبال الشوامخ الثابتة .أى : ومن
رحمته بكم ، وفضله عليكم ، أن ألقى - سبحانه - فى الأرض جبالا ثوابت كراهة
أن تميد وتضطرب بكم ، وأنتم عليها .( وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ )
أى : وأوجد ونشر فى الأرض التى تعيشون فوقها ، من كل دابة من الدواب التى
لا غنى لكم عنها والتى فيها منعفتكم ومصلحتكم .والبث : معناه : النشر
- والتفريق . يقال : بث القائد خيله إذا نشرها وفرقها .ثم بين - سبحانه

نعمة ثالثة فقال : ( وَأَنزَلْنَا ) أى : بقدرتنا ( مِنَ السمآء مَآءً ) أى
ماء كثيرا هو المطر ، ( فَأَنْبَتْنَا فِيهَا ) أى : فأنبتنا فى الأرض :
بسبب نزول المطر عليها . ( مِن كُلِّ زَوْجٍ ) أى : صنف ( كَرِيمٍ ) أى حسن
جميل كثير المنافع .

هذا خلق الله فاروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين

كما فسرها الوسيط والإشارة فى قوله : ( هذا خَلْقُ الله ) تعود إلى ما
ذكره - سبحانه - من مخلوقات قبل ذلك . والخلق بمعنى المخلوق .هذا الذى
ذكرناه لكم من خلق السماوات والأرض والجبال . . هو من خلوقنا وحدنا ، دون
أن يشاركنا فيما خلقناه مشارك .والفاء فى قوله - تعالى - : ( فَأَرُونِي
مَاذَا خَلَقَ الذين مِن دُونِهِ ) واقعة فى جواب شرط مقدر ، أى : إذا
علمتم ذلك فأرونى وأخبرونى ، ماذا خلق الذين اتخذتموهم آلهة من دونه -
سبحانه - إنهم لم يخلقوا شيئا ، ما بل هم مخلوقون لله - تعالى .فالمقصود
بهذه الجملة الكريمة تحدى المشركين ، وإثبات أنهم فى عبادتهم لغير الله ،
قد تجاوزوا كل حد فى الجهالة والضلالة .وقوله - سبحانه - : ( بَلِ الظالمون
فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ) إضراب عن تبكيتهم وتوبيخهم ، إلى تسجيل الضلال
الواضح عليهم .أى : بل الظالمون فى ضلال بين واضح ، لأنهم يعبدون آلهة لا
تضر ولا تنفع ، ويتركون عبادة الله - تعالى - الخلاق العليم .

ولقد اتينا لقمان الحكمة ان اشكر لله ومن يشكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر
فان الله غني حميد

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - على لسان عبد صالح من عباده ، جملة من
الوصايا الحكيمة ، لتكون عظة وعبر للناس ، فقال - تعالى - : ( وَلَقَدْ
آتَيْنَا لُقْمَانَ . . . الأصوات لَصَوْتُ الحمير ) .قال ابن كثير - رحمه
الله - : اختلف السلف فى لقمان ، هل كان نبيا أو عبدا صالحا من غير نبوة؟
والأكثرون على أنه لم يكن نبيا .وعن ابن عباس وغيره : كان لقمان عبدا حبشا
نجارا . . .قال له مولاه : اذبح لنا شاة وجئنى بأخبث ما فيها؟ فذبحها
وجهاءه بلسانها وقلبها . ثم قال له مرة ثانية : اذبح لنا شاة وجئنى بأحسن
ما فيها؟ فذبحها وجاءه - أيضا بقلبها ولسانها ، فقال له مولاه ما هذا؟
فقال لقمان : إنه ليس من شئ أطيب منهما إذا طابا ، وليس من شئ أخبث منها
إذا خبثا .وقال له رجل : ألست عبد فلان؟ فما الذى بلغ بك ما أرى من الحكمة؟
فقال لقمان : قدر الله وأداء الأمانة ، وصدق الحديث ، وتركى مالا يعنينى
ومن أقواله لابنه : يا بنى اتخذ تقوى الله لك تجارة ، يأتك الربح من غير
بضاعة . يا بنى ، لا تكن اعجز من هذا الديك الذى يصوت بالأسحار ، وأنت نائم
، على فراشك ، يا بنى ، اعتزل الشر كما يعتزلك ، فإن الشر للشر خلق .يا بنى
عليك بمجالس العلماء ، وبسماع كلام الحكماء ، فإن الله - تعالى - يحيى
، القلب الميت بنور الحكمة .يا بنى ، إنك منذ نزلت الدنيا استدبرتها
واستقبلت الآخرة ، ودار أنت إليها تسير ، أقرب من دار أنت عنها ترتحل .وقال
: الآلوسى ما ملخصه : ولقمان : اسم أعجمى لا عربى وهو ابن باعوراء . قيل
- كان فى زمان داود - عليه السلام - وقيل : كان زمانه بين عيسى وبين محمد
عليهما الصلاة والسلام - .ثم قال الآلوسى : وإنى اختار أنه كان رجلا صالحا
حكيما ، ولم يكن نبيا .وقوله - سبحانه - : ( وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ
الحكمة ) كلام مستانف مسوق لإبطال الإشراك بالله - تعالى - عن طرق النقل
بعد بيان إبطاله عن طريق العقل ، فى قوله - سبحانه - قبل ذلك : ( هذا ،
: خَلْقُ الله فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الذين مِن دُونِهِ . . . ) والحكمة
اكتساب العلم النافع والعمل به . و هى : العقل والفهم . أو هى الإصافة فى
القول والعمل .والمعنى : والله لقد أعطينا - بفضلنا وإحساننا - عبدنا لقمان
العلم النافع والعمل به .وقوله - سبحانه - ( أَنِ اشكر للَّهِ ) بيان لما
يقتضيه إعطاء الحكمة . أى : أتيناه الحكمة وقلنا له أن اشكر لله على ما
أعطاك من نعم لكى يزيدك منها .قال الشوكانى : قوله : ( أَنِ اشكر للَّهِ )
أن هى المفسرة : لأن فى إيتاء الحكمة معنى القول . وقيل التقدير : قلنا له
: أن اشكر لى . . وقيل : بأن اشكر لى فشكر ، فكان حكيما بشكره .والشكر لله
الثناء عليه فى مقابلة النعمة - واستعمالها فيما خلقت له - ، وطاعته فيما
) : أمر به .ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة الشكر وسوء عاقبة الجحود فقال
وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله
غَنِيٌّ حَمِيدٌ ) .أى : ومن يشكر الله - تعالى - على نعمه ، فإن نفع شكره
، إنما يعود إليه ، ومن جحد نعم الله - تعالى - واستحب الكفر على الإيمان
فالله - تنعالى - غنى عنه وعن غيره ، حقيق بالحمد من سائر خلقه لإنعامه
عليهم بالنعم التى لا تعد ولا تحصى : فحميد بمعنى محمود .فالجملة الكريمة
، المقصود بها ، بيان غنى الله - تعالى - عن خلقه ، وعدم انتفاعهم بطاعتهم
لأن منفعتها راجعة إليهم ، وعدم تضرره بمعصيتهم . وإنما ضرر ذلك يعود عليهم
وعبر - سبحانه - فى جانب الشكر بالفعل المضارع ، للإشارة إلى أن من شأن .

الشاكرين أنهم دائما على تذكر لنعم الله - تعالى - ، وإذا ما غفلوا عن ذلك لفترة من الوقت ، عادوا إلى طاعته - سبحانه - وشكره .وعبر فى جانب الكفر بالفعل الماضى ، للإشعار بأنه لا يصح ولا ينبغى من أى عاقل ، بل كل عاقل ، عليه أن يهجر ذلك هجرًا تاما ، وأن يجعله فى خبر كان .وجواب الشرط محذوف وقد قام مقامه قوله - تعالى - : ( فَإِنَّ الله غَنِيٌّ حَمِيدٌ ) والتقدير . ومن كفر فضرر كفره راجع إليه . لأن الله - تعالى - غنى حميد :

واذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - ما قاله لقمان لابنه على سبيل النصيحة والإرشاد فقال - تعالى - : ( وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بني لاَ تُشْرِكْ بالله إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ) .وقوله ( يَعِظُهُ ) من الوعظ ، وهو الزجر المقترن بالتخويف . وقيل : هو التذكير بوجوه الخير بأسلوب يرق له القلب .قالوا : واسم ابنه " ثاران " أو " مانان " أى : واذكر - أيها العاقل - لتعتبر وتنتفع ، وقت أن قال لقمان لابنه وهو يعظه ، ويرشده إلى وجوه الخير بألطف عبارة ، يا نبى ( لاَ تُشْرِكْ بالله تعالى -لا فى عبادتك ولا فى قولك ، ولا فى عملك ، بل أخلص كل ذلك - ) لخالقكم - عز وجل - .وفى ندائه بلفظ ( يابني ) إشفاق عليه . ومحبة له ، فالمراد بالتصغير إظهار الحنو عليه ، والحرص على منفعته .قيل : وكان ابنه كافرا فما زال يعظه حتى أسلم . وقيل : بل كان مسلما ، والنهى عن الشرك المقصود به ، المدوامة على ما هو عليه من إيمان وطاعة لله رب العالمين وجملة ( إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ) تعليل للنهى . أى : يا بنى حذار. أن تشرك بالله فى قولك أو فعلك ، إن الشرك بالله - تعالى - لظلم عظيم ، لأنه وضع للأمور فى غير موضعها الصحيح ، وتسوية فى العبادة بين الخالق والمخلوق .

ووصينا الانسان بوالديه حملته امه وهنا على وهن وفصاله في عامين ان اشكر لي ولوالديك الي المصير

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ . . . ) كلام مستأنف ، جئ به على سبيل الاعتراض فى أثناء وصية لقمان لابنه لبيان سمو منزلة الوالدين ، ولأن القرآن كثيرا ما يقرن بين الأمر ، بوحدانية الله - تعالى ، والأمر بالإحسان إلى الوالدين .ومن ذلك قوله - تعالى : ( وقضى رَبُّكَ أَلاَّ تعبدوا إِلاَّ إِيَّاهُ وبالوالدين إِحْسَاناً ) وقوله - عز وجل - : ( قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وبالوالدين إِحْسَاناً ) أى : أمرنا كل إنسان أن يكون بارا بأبويه ، وأن يحسن إليهما ، وأن يطيع أمرهما فى المعروف .ثم بين - سبحانه - ما بذلته الأم من جهد يوجب الإحسان إليهما فقال : ( حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً على وَهْنٍ ) أى : حملته أمه فى بطنها وهى تزداد فى كل يوم ضعفا على ضعف ، بسبب زيادة وزنه ، وكبر حجمه ، وتعريضها لألوان من التعب خلال حمله ووضعه .والوهن : الضعف . يقال : وهو فلان يهن وهنا : إذا ضعف . ولفظ " وهنا " حال من أمه بتقدير مضاف . أى : حملته أمه ذات وهن ، أو مصدر مؤكد لفعل هو الحال . أى : تهن وهنا . وقوله : ( على وَهْنٍ ) متعلق بمحذوف صفة للمصدر . أى : وهنا كائنا على وهن .وقوله : ( وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ) بيان لمدة إرضاعه . والفصال : الفطام عن الرضاع . أى : وفطام المولود عن الرضاعة يتم بانقضاء عامين من ولادته ، كما قال - تعالى - : ( والوالدات يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أن يُتِمَّ الرضاعة وهاتان الجملتان ( حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً على وَهْنٍ وَفِصَالُهُ ( فِي عَامَيْنِ ) جاءتا بعد الوصية بالوالدين عموما ، تأكيدًا لحق الأم ، وبيانا لما تبذله من جهد شاق فى سبيل أولادها ، تستحق من أجله كل رعاية وتكريم وإحسان .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : فقوله : ( حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً على وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ) كيف اعترض به بين المفسر والمفسر؟قلت : لما وصى بالوالدين : ذكر ما تكابده الأم وتعانيه من المشاق والمتاعب فى حمله وفصاله هذه المدة المتطاولة ، إيجابا للتوصية بالوالدة خصوصا وتذكيرا بحقها العظيم مفردا ، ومن ثم " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن قال له : من أبر؟ قال : " أمك ثم أمك ثم أمك ، ثم قال بعد ذلك " : ثم أباك " " .وقوله - سبحانه - : ( أَنِ اشكر لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ المصير ) بيان لما تستلزمه الوصية بالوالدين أى : وصينا الإنسان بوالديه حسنا ، وقلنا له : اشكر لخالقكم فضله عليك ، بأن تخلص له العبادة والطاعة ، واشكر لوالديك ما تحملاه من أجلك من تعب ، بأن تحسن إليهما ، واعلم أن مصيرك إلى خالقك - عز وجل - وسيحاسبك على أعمالك ، وسيجازيك عليها بما تستحقه من ثواب أو عقاب .

وان جاهداك على ان تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا واتبع سبيل من اناب الي ثم الي مرجعكم فانبئكم بما كنتم تعملون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - حدود الطاعة للوالدين فقال : ( وَإِن جَاهَدَاكَ على أن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا ) .والجملة الكريمة معطوفة على قوله ( وَوَصَّيْنَا ) . بإضمار القول . أى : ووصينا الإنسان بوالديه . وقلنا له : ( وَإِن جَاهَدَاكَ ) أى : وإن حملاك ( على أن تُشْرِكَ بِي ) فى العبادة أو الطاعة ، ( مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا ) فى ذلك ، فإنه لا طاعة لمخلوق ، فى معصية الخالق .وجملة ( مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ) لبيان الواقع - فلا مفهوم لها ، إذ ليس هناك من إله يعلم سوى الله - عز وجل - .ثم أمر سبحانه - مبصاحبتهما بالمعروف حتى مع كفرهما فقال : ( وَصَاحِبْهُمَا فِي الدنيا مَعْرُوفاً ) .أى : إن حملاك على الشرك . فلا تطعمهما ، ومع ذلك ، فصاحبهما فى الأمور الدنيوية التى لا تتعلق بالدين مصاحبة كريمة حسنة يرتضيهما الشرع ، وتقضيها مكارم الأخلاق .وقوله ( مَعْرُوفاً ) صفة لمصدر محذوف . أى : صحابا معروفا . أو منصوب بنزع الخافض . أى : بالمعروف .ثم أرشد - سبحانه - إلى وجوب اتباع أهل الحق فقال : ( واتبع سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ) . أى : واتبع - أيها العاقل طريق الصالحين من عبادى ، الذين رجعوا إلي بالتوبة والإنابة والطاعة والإخلاص .( ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ ) جميعا يوم القيامة - أيها الناس - ( فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ) فى الدنيا ، وأجازى كل إنسان على حسب عمله : ( فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ) قال القرطبى ما ملخصه : وهاتان الآيتان نزلتا فى شأن سعد بن أبى وقاص لما أسلم ، وأن أمه حلفت أن لا تأكل طعاما حتى تموت . وفيها دليل على صلة الأبوين الكافرين ، بما أمكن من المال إن كانا فقيرين . وقد قالت أسماء بنت أبى بكر الصديق ، للنبى صلى الله عليه وسلم وقد " . . . قدمت عليها خالتها وقيل : أمها من الراضعة : يا رسول الله ، إن أمى قدمت على وهى راغبة أفاصلها؟ قال : " نعم " وراغبة قيل معناه : عن الإسلام ، أو راغبة فى الصلة .

يا بني انها ان تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة او في السماوات او في الارض يات بها الله ان الله لطيف خبير

كما فسرها الوسيط ثم ذكر - سبحانه - بقية الوصايا التى أوصى بها لقمان ابنه فقال : ( يابني إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السماوات أَوْ فِي الأرض يَأْتِ بِهَا الله ) والضمير فى قوله : ( إِنَّهَآ ) يعود إلى الفعلة التى يفعلها من خير أو شر . و ( تَكُ ) مجزوم بسكون النون المحذوفة ، وهو فعل الشرط . والجواب ( يَأْتِ بِهَا الله ) والمثقال : أقل ما يوزن به الشئ . والخردل : فى غاية الصغر الدقة .والمعنى : يا بنى إن ما تفعله من حسنة أو سيئة ، سواء أكان فى نهاية القلة والصغر ، كمثال حبة من خردل ، أم كان هذا الشئ القليل مخبوءا فى صخرة من الصخور الملقاة فى فجاد الأرض ، أم كان فى السماوات أم فى الأرض - فإن الله - تعالى - يعلمه ويحضره ويجازى عليه ( إِنَّ الله ) - تعالى ، لطيف خبير أى : محيط بجميع الأشياء جليلها وحقيرها ، عظيمها وصغيرها - فالمقصود من الآية الكريمة ، غرس الهيبة والخشية والمراقبة لله - تعالى. سبحانه -لا يخفى عليه شئ فى هذا الكون ، مهما دق وقل وتخفى فى أعماق الأرض والسماء .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( وَنَضَعُ الموازين القسط لِيَوْمِ القيامة فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وكفى بِنَا حَاسِبِينَ ) .

يا بني اقم الصلاة وامر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما اصابك ان ذلك من عزم الامور

كما فسرها الوسيط ثم أمره بالمحافظة على الصلاة وبالأمر بالمعروف ، وبالنهى عن المنكر وبالصبر على الأذى ، فقال : ( يابني أَقِمِ الصلاة ) أى : واظب على أدائها فى أوقاتها بخشوع وإخلاص لله رب العالمين .( وَأْمُرْ بالمعروف أى بكل ما حض الشرع على قوله أو فعله ( وانه عَنِ المنكر ) أى : عن كل ما نهى الشرع عن قوله أو فعله .( واصبر على مَآ أَصَابَكَ ) من الأذى ، فإن الحياة مليئة بالشدائد والمحن والراحة إنما هى فى الجنة فقط .واسم الإشارة فى قوله : ( أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأمور ) يعود إلى الطاعات المذكورة قبله . وعزم الأمور : أعاليها ومكارمها . أو المراد بها ما أوجبه الله - تعالى - على الإنسان .قال صاحب الكشاف : ( إِنَّ ذَلِكَ ) مما عزمها لله من الأمور ، أى : قطعه قطع إيجاب وإلزام . . ومنه الحديث : " إن الله يحب أن يؤخذ برخصة كما يحب أن يؤخذ بعزائمه " ومنه عزمات الملوك ،

وذلك أن يقول الملك لبعض من تحت يده ، عزمت عليك إلا فعلت كذا . فإذا قال ذلك لم يكن للمعزوم عليه بد من فعله ، ولا مندوحة فى تركه .وناهيك بهذه الآية مؤذنة بقدم هذه الطاعات ، وأنها كانت مأمورا بها فى سائر الأمم ، وأن الصلاة لم تزل عظيمة الشأن ، سابقة القدم على ما سواها .

ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الارض مرحا ان الله لا يحب كل مختال فخور

كما فسرها الوسيط ثم نهاه عن التكبر والغرور والتالى على الناس فقال : ( وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ) .والصعر فى الأصل : مرض يصب البعير فيجعله معوج العنق ، والمراد به هنا ، التكبر واحتقار الناس ، ومنه قولا الشاعر :وكنا إذا الجبّار صعر خده ... مشينا إليه بالسيوف نعاتبهأى : ولا تمل صفحة وجهك عن الناس ، ولا تتعالى عليهم كما يفعل المتكبرون والمغرورون بل كن هينا لينا متواضعا ، كما هو شأن العقلاء . .( وَلاَ تَمْشِ فِي الأرض مَرَحاً ) أى : ولا تمش فى الأرض مشية المختالين المعجبين بأنفسهم . و ( مَرَحاً ) مصدر وقع موقع الحال على سبيل المبالغة ، أو هو مفعول مطلق لفعل محذوف . أى : تمرح مرحا . والجملة فى موضع الحال . أو مفعول لأجله أى : من أجل المرح .وقوله : ( إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ) تعليل لنهى . والمختال : المتكبر الذى يختال فى مشيته ، ومنه قولهم : فلان يمشى الخيلاء ، أى يمشى مشية المغرور المعجب بنفسه .والفخور : المتباهى على الناس بماله أو جاهة أو منصبه . . يقال فخر فلان - كمنع - فهو فاخر وفخور ، إذا تفاخر بما عنده على الناس ، على سبيل التطاول عليهم والتنقيص من شأنهم .أى : إن الله - تعالى -لا يحب من كان متكبرا على الناس متفاخرا بماله أو جاهه ، .

واقصد في مشيك واغضض من صوتك ان انكر الاصوات لصوت الحمير

كما فسرها الوسيط ثم أمر بالقصد والاعتدال فى كل أموره فقال : ( واقصد فِي مَشْيِكَ ) أى وكن معتدلا فى مشيك ، بحيث لا تطبئ ولا تسرع . من القصد وهو التوسط فى الأمور .( واغضض مِن صَوْتِكَ ) واخفض من صوتك فلا ترفعه إلا إذا استدعى الأمر رفعه ، فإن غض الصوت عند المحادثة فيه أدب وثقة بالنفس ، واطمئنان إلى صدق الحديث واستقامته .وكان أهل الجاهلية يتفاخرون بجهارة الصوت وارتفاعه ، فنهى المؤمنون عن ذلك ، ومدح - سبحانه - الذين يخفضون أصواتهم فى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ( إِنَّ الذين يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ الله أولئك الذين امتحن الله قُلُوبَهُمْ للتقوى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ) وقوله - تعالى - ، تعليل للأمر بخفض الصوت ( إِنَّ أنكَرَ الأصوات لَصَوْتُ الحمير ) ، وللنهى عن رفعه بدون موجب .أى : إن أقبح الأصوت وأبشعها لهو صوت الحمير ، فالجملة الكريمة حض على غض الصوت بأبلغ وجه وآكده ، حيث شبه - سبحانه الرافعين لأصواتهم فى غير حاجة إلى ذلك ، بأصوات الحمير التى هى مثار السخرية مع النفور منها .وهكذا نجد أن لقمان قد أوصى ابنه بجملة من الوصايا السامية النافعة ، فقد أمره - أولا - بإخلاص العبادة لله - تعالى - ثم غرس فى قلبه الخوف من الله - عز وجل - ، ثم حضه على إقامة الصلاة ، وعلى الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وعلى الصبر على الأذى ، ثم نهاه عن الغرور ، والتكبر والافتخار ، وعن رفع الصوت بدون مقتض لذلك . وبتنفيذ هذه الوصايا يسعد الأفراد ، وترقى المجتمعات .

الم تروا ان الله سخر لكم ما في السماوات وما في الارض واسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير

كما فسرها الوسيط ثم ذكر - سبحانه - بعض النعم التى أنعم بها على الناس ، ودعا المنحرفين عن الحق إلى ترك المجادلة بالباطل ، وإلى مخالفة الشيطان فقال - تعالى - : ( أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ الله ... عَذَابِ السعير ) والخطاب فى قوله - تعالى - : ( أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ الله سَخَّرَ لَكُمْ. مَّا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض ) لأولئك المشركين الذين استحبوا العمى على الهدى ، واشتروا لهو الحديث ليضلوا غيرهم عن طريق الحق .وسخر : من التسخير ، بمعنى التذليل والتكليف ، يقال : سخر فلان فلانا تسخيرا ، إذا كلفه عملا بلا أجرة ، والمراد به هنا : الإعداد والتهيئة لما يراد الانتفاع به .والاستفهام لتقرير الواقع وتأكيده . أى : لقد رأيتم - أيها الناس - وشاهدتم أن الله - تعالى - سخر لمنفعتكم ومصلحتكم ما فى السماوات من شمس وقمر ونجوم . . وما فى الأرض من زرع وأشجار وحيوانات وجبال . . وما دام الأمر كذلك فاشكروا الله - تعالى - على هذا التسخير ، وأخلصوا له العبادة والطاعة .وقوله - تعالى - : ( وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ) معطوف على ما قبله .وقوله : ( وَأَسْبَغَ ) بمعنى أتم وأكمل عليكم نعمه : وهى ما ينتفع به الإنسان ويستلذه من الحلال

والنعمة الظاهرة : هى النعمة المحسوسة كنعمة السمع والبصر وحسن الهيئة. والمال ، والجاه ، وما شبه ذلك ما يراه الإنسان ويشاهده .والنعمة الباطنة هى النعمة الخفية التى يجد الإنسان أثرها فى نفسه دون أن يراها . كنعمة : الإيمان بالله - تعالى - وإسلام الوجه له - عز وجل - ، والاتجاه إلى مكارم الأخلاق ، والبعد عن رذائلها وسفسافها .وفى تفسير النعم الظاهرة والباطنة أقوال أخرى ، نرى أن ما ذكرناه أوجهها وأجمعها .ثم بين - سبحانه - ما عليه بعض الناس من جدال بالباطل فقال : ( وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ ) : ) .وقوله ( يُجَادِلُ ) من الجدال بمعنى المفاوضة على سبيل المخاصمة والمنازعة والمغالبة . مأخوذ من جدلت الحبل ، إذا أحكمت فتله ، فكأن المتجادلين يحول كل واحد منهما أن يقوى رأيه ، ويضعف رأى صاحبه .والمراد من المجادلة فى الله : المجادلة فى ذاته وصفاته وتشريعاته . .وقوله : ( بِغَيْرِ عِلْمٍ ) حال من الفاعل فى ( يُجَادِلُ ) ، وهى حال موضحة لما تشعر به المجادلة هنا من الجهل والعناد . أى : ومن الناس قوم استولى عليهم الجهل والعناد ، لأنهم يجادلون ونازعون فى ذات الله ، وفى صفاته ، وفى وحيه ، وفى تشريعاته . . ، بغير مستند من عمل عقلى أو نقلى ، وبغير " هدى " يهديه ويرشديه إلى الحق وبغير ( كِتَابٍ مُّنِيرٍ ) أى : وبغير وحى ينير عقله وقلبه ، ويوضح له سبيل الرشاد .فأنت ترى أن الآية الكريمة قد جردت هذا المجادل ، من أى مستند يستند إليه فى جداله ، سواء أكان هذا المستند عقليا أم نقليا ، بل أثبتت له الجهالة من كل الجهات .

واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه اباءنا اولو كان الشيطان يدعوهم الى عذاب السعير

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن هؤلاء المجادلين بالباطل ، لم يكتفوا بذلك ، بل أضافوا إلى رذائلهم السابقة رذائل أخرى منها العناد والتقليد الأعمى ، فقال ( وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتبعوا مَآ أَنزَلَ الله .. - أى : وإذا قيل لهؤلاء المجادلين بالباطل اتبعوا ما أنزله الله . ( . ). تعالى - على نبيه صلى الله عليه وسلم من قرآن كريم ، ومن وحى حكيم قَالُواْ ) على سبيل العناد والتقليد الأعمى ( بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَآءَنَا ) من عبادة الأصنام والأوثان ، والسير على طريقتهم التى كانوا يسيرون عليها .وقوله - سبحانه - : ( أَوَلَوْ كَانَ الشيطان يَدْعُوهُمْ إلى عَذَابِ السعير ) رد عليهم ، وبيان لبطلان الاعتماد فى العقيدة على مجرد تقليد الآباء .والهمزة للاستفهام الإنكارى ، والواو للحال . أى : أيتبعون ما كان عليه آباؤهم ، والحال أن هذا الاتباع هو من وحى الشيطان الذى يقودهم إلى ما يؤدى إلى عذاب السعير .قال الالوسى : وفى الآية دليل على المنع من التقدلي لمن قدر على النظر . وأما اتباع الغير فى الدين بعد العلم بدليل ما أنه محق ، فاتباع فى الحقيقة لما أنزل الله - تعالى وليس من التقليد المذموم فى شئ ، وقد قال - سبحانه - : ( فاسألوا أَهْلَ الذكر إِن كُنْتُم لاَ تَعْلَمُونَ ).

ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى والى الله عاقبة الامور

كما فسرها الوسيط ثم فصل سبحانه بعد ذلك حسن عاقبة الأخيار ، وسوء عاقبة الأشرار الذين لا يحسنون التدبر فى أنفسهم ، أو فيما حولهم ، فقال تعالى - : - وقوله - تعالى. ( وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ . . . هُوَ الغني الحميد ) : أى : ومن يتجه إلى ( وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى الله وَهُوَ مُحْسِنٌ ) الله - تعالى - ويذعن لأمره ، ويخلص له العبادة ، وهو محسن فى أقواله وأفعاله .من يفعل ذلك ( فَقَدِ استمسك بالعروة الوثقى ) والعربوة فى أصل معناها : تطلق على ما يتعلق بالشئ من عراه ، أى من الجهة التى يجب تعليقه منها . وتجمع على عرا .والعروة من الدلو مقبضه ، ومن الثوب : مدخل زره - والوثقى : تأنيث الأوثق ، وهو الشئ المحكم الموثق . يقال : وثق - بالضم. وثاقه ، أى : قوى وثبت فهو وثيق ، أى : ثابت محكم .والمعنى : ومن يستسلم ، لأمر الله - تعالى - ويأتى بالأقوال والأفعال على وجه حسن ، فقد ثبت أمره واستقام على الطريقة المثلى ، وأمسك من الدين بأقوى سبب ، وأحكم رباط .فقد شبه - سبحانه - المتوكل عليه فى جميع أموره ، المحسن فى أفعاله ، بمن ترقى فى حبل شاهق ، وتدلى منه ، فاستمسك بأوثق عروة ، من حبل متين مأمون انقطاعه وخص - سبحانه - الوجه بالذكر ، لأنه أكرم الأعضاء وأعظمها حرمة ، فإذا خضع. الوجه الذى هو أكرم الأعضاء ، فغيره أكثر خضوعا .وقوله : ( وإلى الله عَاقِبَةُ الأمور ) أى : وإلى الله - تعالى - وحده تصير الأمور ، وترجع إليه ، وتخضع لحكمه وإرادته .

ومن كفر فلا يحزنك كفره الينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا ان الله عليم بذات

الصدور

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( وَمَن كَفَرَ فَلاَ يَحْزُنكَ كُفْرُهُ . . . ) تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من حزن بسبب إصرار الكافرين على كفرهم .أى : ومن استمر أيها الرسول - على كفره بعد أن بلغته رسالتنا ودعوتنا ، فلا يحزنك بعد ذلك بقاؤه على كفره وضلاله ، فأنت عليك البلاغ ، ونحن علينا الحساب ، وإنك لا تهدى من أحببت ، ولكن الله يهدى من يشاء .وقوله - سبحانه - : ( إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم ، بِمَا عملوا ) بيان لسوء مصيرهم .أى : إلينا وحدنا مرجع هؤلاء الكافرين فنخبرهم بما عملوه فى الدنيا من أعمال سيئة ، ونجازيهم عليها بما يستحقونه من عقاب .( إِنّ الله ) - تعالى - ( عَلِيمٌ ) علما تاما ( بِذَاتِ الصدور ) . . أى : بمكنونات الصدور وخفاياها

نمتعهم قليلا ثم نضطرهم الى عذاب غليظ

كما فسرها الوسيط ( نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ) فى هذه الحياة الدنيا . أن نمتعهم تمتيعا قليلا فى دنياهم ، بأن نعظيم الأموال والأولاد فى سبيل يالاستدراج .( ثُمَّ نُضْطَرُّهُمْ إلى عَذَابٍ غَلِيظٍ ) أى نعطيهم فى حياتهم القصيرة ما يتمتعون به من مال وصحة . . ثم نلجئهم وندفعهم دفعا يوم القيامة الى عذاب مروع فظيع ، لضخامة ثقله ، وشدة وقعه .والمراد بالاضطرار الإلجاء والقسر والإلزام ، أى : أنهم لا يستطيعون التفلت أو الانفكاك : عن هذا العذاب الذى أعد لهم .ووصف - سبحانه - العذاب بالغلظ ، لزيادة تهويله وشدته . فهو ثقيل عليهم ثقل الأجرام الضخمة التى تهوى على رأس الإنسان ، فتشل حركته وتهلكه .

ولئن سالتهم من خلق السماوات والارض ليقولن الله قل الحمد لله بل اكثرهم لا يعلمون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما كان عليه هؤلاء الكافرون من تناقض - بين أقوالهم وأفعالهم فقال :( وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ ) أيها الرسول الكريم ) .. وأوجدها على هذا النظام البديع ( مّنْ خَلَقَ السماوات ) ، لَيَقُولُنّ ) فى الجواب ( الله ) أى : الله - تعالى - هو الذى خلقها وهو الذى أوجدهما .( قُلِ الحمد لِلّهِ ) قل - أيها الرسول الكريم - الحمد لله - تعالى - وحده ، حيث اعترفتم بأن خالقهما هو الله ، وما دام الأمر ، كذلك ، فكيف أشركتم معه فى العبادة غيره؟ إن قولكم هذا الذى تؤيده الفطرة ليتنافى مع أنتم عليه من كفر وضلال .وقوله - سبحانه - ( بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ) إضراب عن أقوالهم إلى بيان واقعهم ، أى : بل أكثرهم لا يعلمون الحقائق علما سليما ، وإنما هم يقولون بألسنتهم ، وما يتباين تباينا . . تاما مع أفعالهم ، وهذا شأن الجاهلين ، الذين انطمست بصائرهم

لله ما في السماوات والارض ان الله هو الغني الحميد

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما يدل على عظم قدرته ، وشمول ملكه ، فقال : ( لِلَّهِ مَا فِي السماوات والأرض ) . أى : لله - تعالى - وحده ما فى السماوات وما فى الأرض ، خلقا ، وملكا ، وتصرفا . .( إِنّ الله هُوَ ، الغني ) عن كل ما سواه ( الحميد ) أى : المحمود من أهل الأرض والسماء . لأنه هو الخالق لكل شئ ، والرازق لكل شئ

ولو انما في الارض من شجرة اقلام والبحر يمده من بعده سبعة ابحر ما نفدت كلمات الله ان الله عزيز حكيم

كما فسرها الوسيط ثم ساق - تعالى - بعد ذلك ما يدل على شمول علمه ، ونفاذ قدرته ، فقال - سبحانه - ( وَلَوْ أَنّمَا فِي الأرض . . . . سَمِيعٌ بَصِيرٌ ) .قال ابن كثير : قال قتادة : قال المشركون : إنما هذا كلام يوشك أن ينفد ، فقال - تعالى - ( وَلَوْ أَنّمَا فِي الأرض مِن شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ ) .وعن ابن عباس " أن أحبار قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم أرأيت قولك : ( وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ العلم إِلاَّ قَلِيلاً ) ؟ إيانا تريد أم قومك؟ فقال صلى الله عليه وسلم : " كلا عنيت " فقالوا : ألست تتلو فيما جاءم أنا قد أوتينا التوراة فيها تبيان لكل شئ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : " إنها فى علم الله قليل ، وعندكم من ذلك ما يكفيكم " وأنزل الله فيما سألوه عنه من ذلك : ( وَلَوْ أَنّمَا فِي الأرض مِن شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ ) .و " لو " شرطية ، وجوابها ( مّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ الله ) و من " فى قوله ( مِن شَجَرَةٍ ) للبيان ، وفي الآية الكريمة كلام محذوف " يدل عليه السياق .والمعنى : ولو أن ما فى الأرض من أشجار تحولت بغصونها

، وفروعها إلى أقلام ، ولو أن البحر - أيضا - تحول إلى مداد لتلك الأقلام
وأمد هذا البحر بسبعة أبحر أخرى . وكتبت بتلك الأقلام ، وبذلك المداد كلمات
، الله التى يحيط بها علمه - تعالى - .لنفدت الأقلام ، ولند ماء البحر
لتناهى كل ذلك ، وما نفدت كلمات الله - تعالى - ولا معلوماته ، لعد تناهيها
لا يعجزه شئ ، ولا يغلبه غالب ( حَكِيمٌ ) فى كل ( إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ).
أقواله وأفعاله .فالآية الكريمة المقصود منها بيان أن علم الله - تعالى لا
نهاية له ، وأن مشيئته لا يقف أمامها شئ ، وكلماته لا أول لها ولا آخر
وقال - سبحانه - ( مِن شَجَرَةٍ ) بالإفراد ، لأن المراد تفصيل الشجر.
واستقصاؤه شجرة فشجرة ، حتى لا تبقى واحدة من أنواع الأشجار إلا وتحولت إلى
أقلام .وجمع - سبحانه - الأقلام ، للتكثير ، أى : أقلام كثيرة يصعب عدها
والمراد بالبحر : البحر المحيط بالأرض ، لأنه المتبادر من التعريف ، إذ هو.
الفرد الكامل .وإنما ذكرت السبعة بعد ذلك على وجه المبالغة دون إرادة الحصر
وإلا فلو اجتمعت عشرات البحار ما نفدت كلمات الله .قال صاحب الكشاف فإن ،
: قلت : مقتضى الكلام أن يقال : ولو أن الشجر أقلام ، والبحر مداد؟ قلت
. أغنى عن ذكر المداد قوله ( يَمُدُّهُ ) لأنه من قولك : مد الدواة وأمدها
جعل البحر الأعظم بمنزلة الدواة ، وجعل الأبحر السبعة مملوءة مدادا ، فهى
تصب فيه مدادها أبدا صبا لا ينقطع .فإن قلت : الكلمات جمع قلة ، والموضع
موضع التكثير لا التقليل ، فهلا قيل : كلم الله؟ .قلت : معناه أن كلماته لا
- تفى بكتابها البحار فكيف بكلمه .وقال الآلوسى : والمراد بكلماته - تعالى
كلمات علمه - سبحانه - وحكمته . وقيل : المراد بها : مقدوراته وعجائب خلقه
.والتى إذا أراد - سبحانه - شيئا منها قال له :( كُنْ فَيَكُونُ ) ،

ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة ان الله سميع بصير

كما فسرها الوسيط ثم أتبع - سبحانه - ذلك ببيان نفاذ قدرته فقال : ( مّا
خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ . . . ) أى : ما
خلقكم - أيها الناس - جميعا ، ولا بعثكم يوم القيامة ، إلا كلخق نفسى واحدة
أو بعثها ، لأن قدرته - عز وجل - يتساوى معها القليل والكثير والصغير
والكبير ، قال - تعالى - ( إِنَّمَآ أَمْرُهُ إِذَآ أَرَادَ شَيْئاً أَن
يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ) وقال - سبحانه - : ( وَمَآ أَمْرُنَآ إِلاَّ
وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بالبصر ) ( إِنَّ الله ) - تعالى - : ( سَمِيعٌ ) لكل
. شئ ( بَصِيرٌ ) بأحوال خلقه لا يخفى عليه شئ منهم

الم تر ان الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس
والقمر كل يجري الى اجل مسمى وان الله بما تعملون خبير

كما فسرها الوسيط ثم ذكر - سبحانه - الناس بجانب من مظاهر قدرته ونعمه
عليهم ، لكى يخلصوا له العبادة والطاعة ، فقال - تعالى - : ( أَلَمْ تَرَ
- أَنَّ الله يُولِجُ . . . كُلَّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ) .والاستفهام فى قوله
سبحانه - : ( أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يُوَلِجُ الليل فِي النهار . . . )
- للتقرير . والخطاب لكل من يصلح له ليعتبر ويتعظ ، ويخلص العبادة لله
تعالى - .وقوله ( يُولِجُ ) من الإيلاج بمعنى الإدخال . يقال : ولج فلان
منزله ، إذا دخله . . ثم استعير لزيادة زمان النهار فى الليل وعكسه ، بحسب
المطالع .أى : لقد رأيت وشاهدت - أيها العاقل - أن الله - تعالى - ، يدخل
الليل فى النهار ، ويدخل النهار فى الليل ، ويزيد فى أحدهما وينقص من الآخر
على حسب مشيئته وحكمته . .وأنه - سبحانه - ( وَسَخَّرَ الشمس والقمر ) أى ،
ذللهما وجعلهما لمنفعة الناس ومصلحتهم ، كما جعلهما يسيران هما والليل :
والنهار ، بنظام بديع لا يتخلف .وقوله : ( كُلٌّ يجري إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى
كل من الشمس والقمر يجريان فى مدارهما بنظام ثابت محكم ، إلى الوقت الذى (
: حدده - سبحانه - لنهاية سيرهما ، وهو يوم القيامة . قال ابن كثير : قوله
، قيل : إلى غاية محدودة .وقيل : إلى يوم القيامة ( إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى )
، وكلا المعنيين صحيح . ويستشهد للقول الأول بحديث أبى ذر الذى فى الصحيحين
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " يا أبا ذر ، أتدرى أين تذهب هذه
الشمس؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : فإنهما تذهب فتسجد تحت العرش ، ثم
تستأذن ربهما ، فيوشك أن يقال لها : ارجعى من حيث جئت " .وقال الجمل : قوله
قاله هنا بلفظ ( إلى ) ، وفى سورتى فاطر ( إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ; ) :
والزمر ، بلفظ " لأجل ، لأن ما هنا وقع بين آيتين دالتين على غاية ما ينتهى
إليه الخلق ، وهما قوله : ( مّا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ . . . )
، الآية . وقوله ( اتقوا رَبّكُمْ واخشوا يَوْماً ) الدالة على الانتهاء
وما فى فاطر والزمر خال من ذلك . إذ ما فى فاطر لم يذكر مع ابتداء خلق ولا
انتهائه ، وما فى الزمر ذكر ما ابتدائه ، فناسب ذكر اللام ، والمعنى يرى كل
كما ذكر لبلوغ أجل مسمى .وجملة ( وَأَنَّ الله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ )
- معطوفة على قوله : ( تَرَ أَنَّ الله يُولِجُ ) أى : لقد علمت أن الله
تعالى - قد فعل ذلك ، وأنه سبحانه - خبير ومطلع على كل عمل تعملونه - أيها

الناس - دون أن يخفى عليه شئ منها .

ذلك بان الله هو الحق وان ما يدعون من دونه الباطل وان الله هو العلي الكبير

كما فسرها الوسيط واسم الإشارة فى قوله : ( ذَلِكَ بِأَنَّ الله هُوَ الحق يعود إلى ما تقدم ذكره من إيلاج الليل فى النهار ، وتسخير الشمس ( . . . والقمر . وهو مبتدأ . وقوله ( بِأَنَّ الله هُوَ الحق ) خبره والباء ، للسببية . أى : ذلك الذي فعلناه سببه ، أن الله - تعالى - هو الإله الحق الذى لا إله سواه ، وأن ما يدعون من دونه من آلهة أخرى هو ( الباطل ) الذى لا يصح أن يسمى بهذا الاسم ، لأنه مخلوق زائل متغير ، لا يضر ولا ينفع .

الم تر ان الفلك تجري في البحر بنعمت الله ليريكم من اياته ان في ذلك لايات لكل صبار شكور

كما فسرها الوسيط ثم ذكر - سبحانه - الناس بنعمة أخرى من نعمه التى لا تحصى فقال : ( أَلَمْ تَرَ أَنَّ الفلك تَجْرِي فِي البحر بِنِعْمَةِ الله لِيُرِيَكُمْ مِّنْ آيَاتِهِ ) .أى : ولقد علمت - أيضا - وشاهدت - أيها العاقل - حال السفن ، وهى تجرى فى البحر ، بمشيئة الله وقدرته ، وبلطفه ورحمته وإحسانه . ليطلعكم على بعض آياته الدالة على باهر قدرته ، وسمو حكمته وسابغ نعمته .( إِنَّ فِي ذَلِكَ ) الذى شاهدتموه وانتفعتم به من السفن وغيرها ( لآيَاتٍ ) واضحات على قدرة الله - تعالى - ورحمته لعباده ) لِّكُلِّ صَبَّارٍ ) أى : لكل إنسان كثير الصبر ( شَكُورٍ ) . أى : كثير الشكر لله - تعالى - على نعمه ورحمته .

واذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر فمنهم مقتصد وما يجحد باياتنا الا كل ختار كفور

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أحوال الناس عندما تحيط بهم المصائب وهم فى وسط البحر فقال : ( وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَّوْجٌ كالظلل دَعَوُاْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ) .وقوله ( غَشِيَهُمْ ) من الغشاء " بمعنى : الغطاء . فيقال : غشى الظلام المكان ، إذا حل به واصل " الموج الحركة والازدحام . ومنه قولهم : ماج البحر إذا اضطرب ارتفع ماؤه . والظلل : جمع ظلة - كغرفة وغرف - وهى ما أظل غيره من سحاب أو جبل أو غيرهما .أى : وإذا ما ركب الناس فى السفن ، وأحاطت بهم الأمواج من كل جانب ، وأوشكت أن تعلوهم وتغطيهم . . فى تلك الحالة لجأوا إلى الله - تعالى - وحده ، يدعونه بإخلاص وطاعة وتضرع ، أن ينجيهم مما هم فيه من بلاء . . .( فَلَمَّا نَجَّاهُمْ ) - سبحانه - بفضله وإحسانه ، وأوصلهم ( إِلَى البر ) انقسموا ) : إلى قسمين ، أما القسم الأول ، فقد عبر عنه - سبحانه - بقوله فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ ) أى : فمنهم من هو مقتصد ، أى : متوسط فى عبادته وطاعته ، يعيش حياته بين الخوف والرجاء .قال ابن كثير : قال ابن زيد : هو المتوسط فى العمل ، ثم قال ابن كثير : وهذا الذى قاله ابن زيد هو المراد فى قوله - تعالى - : ( ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكتاب الذين اصطفينا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بالخيرات ) فالمقتصد ها هنا هو المتوسط فى العمل . ويحتمل أن يكون مرادا هنا - أيضا - ويكون من باب الإنكار على من شاهد تلك الأهوال ، والأمور العظام ، والآيات الباهرات فى البحر ، ثم بعد ما أنعم الله عليه من الخلاص ، كان ينبغى أن يقابل ذلك بالعمل التام ، والمبادرة إلى الخيرات ، فمن اقتصد بعد ذلك كان مقصرا ، والحالة هذه .وأما القسم الثانى فقد عبر عنه - سبحانه - بقوله : ( وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَآ إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ) .والختار : من الختر . وهو أبشع وأقبح الغدر والخديعة . يقال فلان خاتر وختار وختير ، إذا كان شديد الغدر والنقض لعهوده ، ومنه قول الشاعر :وإنك لو رأيت أبا عمير ... ملأت يديك من غدر وختر والكفور : هو الشديد الكفران والجحود لنعم الله - تعالى - .أى : وما يجحد بآياتنا الدالة على قدرتنا ورحمتنا ، إلا من كان كثير النقض لعهودنا ، شديد النكران لنعمنا .

يا ايها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا ان وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بدعوة الناس إلا - الاستعداد ليوم الحساب وإلى مراقبة الله - تعالى - فى كل أحوالهم ، لأنه - سبحانه -لا يخفى عليه شئ منها . فقال : ( ياأيها الناس اتقوا رَبَّكُمْ .

عَلَيمٌ خَبِيرٌ ) .والمعنى : ( ياأيها الناس اتقوا رَبَّكُمْ ) بأن . . .
تطيعوه ولا تعصوه ، وبأن تشكروه ولا تكفروه ، واخشوا يوما ، أى : وخافوا
أهوال يوم عظيم .( لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ ) أى :لا يستطيع
والد أن ينفع ولده بشئ من النفع فى هذا اليوم . أو أن يقضى عنه شيئا من
الأشياء .( وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً ) أى : ولا
- يستطيع المولود - أيضا - أن يدفع عن والده شيئا مما يحتاجه منه .وخص
سبحانه - الوالد والمولود بالذكر ، لأن رابطة المحبة والمودة بينهما هى
أقوا الروابط وأوثقها ، فإذا انتفى النفع بينهما فى هذا اليوم ، كان
انتفاؤه بالنسبة لغيرها من باب أولى .وقوله : ( إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ )
أى : إن ما وعد الله - تعالى - به عباده من البعث والحساب والثواب والعقاب
حق وثابت ثبوتا لا يقبل الشك أو التخلف .وما دام الأمر كذلك ( فَلاَ ،
تَغُرَّنَّكُمُ الحياة الدنيا ) أى : فلا تخدعنكم الحياة الدنيا بزخارفها
وشهواتها ومتعها ، ولا تشغلنكم عن طاعة الله - تعالى - وعن حسن الاستعداد
لهذا اليوم الهائل الشديد . فإن الكيسّ الفطن هو الذى يتزود لهذا اليوم
بالإيمان الحق ، والعمل الصالح النافع .( وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ
. الغرور ) أى : ولا يصرفنكم الشيطان عن طاعة الله ، وعن امتثال أمره
فالمراد بالغرور : الشيطان . أو كل ما يصرفك عن طاعة الله - تعالى .قال
الآلوسى : ( وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الغرور ) أى : الشيطان ، كما روى عن
: ابن عباس وغيره . بأن يحملكم على المعاصى بتزيينها لكم . . وعن أبى عبيدة
كل شئ غرك حتى تعصى الله - تعالى - فهو غرور سواء أكان شيطانا أم غيره وعلى
ذلك ذهب الراغب فقال : الغرور كل ما يغر الإنسان من مال أو جاه أو شهوة أو
، شيطان . . وأصل الغرور : من غر فلان فلانا ، إذا أصاب غرته ، أى : غفلته
: ونال منه ما يريد . به الخداع .والظاهر أن " بالله " صلة " يغرنكم " أى
. لا يخدعنكم بذكر شئ من شئونه - تعالى - ، يجركم بها على معاصيه - سبحانه

ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الارحام وما تدري نفس
ماذا تكسب غدا وما تدري نفس باي ارض تموت ان الله عليم خبير

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - جانبا من الأمور التى استأثر - عز
وجل - بعلمها فقال : ( إِنَّ اللَّهِ عِندَهُ عِلْمُ الساعة ) أى : عنده وحده
علم وقتها ، وعلم قيامها ، كما قال - تعالى - : ( يَسْأَلُونَكَ عَنِ
الساعة أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لاَ
: يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلاَّ هُوَ . . . ) ( وَيُنَزِّلُ الغيث ) أى
وينزل بقدرته المطر ، ويعلم وحده وقت نزوله . ( وَيَعْلَمُ مَا فِي الأرحام
أى : ويعلم ما فى أرحام الأمهات من ذكر أو أنثى .( وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ (
من النفوس كائنة من كانت ( مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً ) من خير أو شر ، ومن (
رزق قليل أو كثير ، لأنها لا تملك عمرها إلى الغد .( وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ
من النفوس - أيضا - كائنة من كانت ( بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ) أى : بأى (
مكان ينتهى أجلها .( إِنَّ اللَّهِ ) - تعالى - ( عَلِيمٌ ) بكل شئ ( خَبِيرٌ
بما يجرى فى نفوس عباده . وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه (
- الآية ، جملة من الأحاديث والآثار ، منها ما راه الإمام أحمد عن ابن عمر
رضى الله عنهما - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " مفاتيح الغيب خمس لا
يعلمهن إلا الله ، ثم قرأ هذه الآية " .وعن مجاهد قال : " جاء رجل من أهل
البادية فقال للنبى صلى الله عليه وسلم - " إن امرأتى حبلى فأخبرنى ما تلد؟
وبلادنا جدبة فأخبرنى متى ينزل الغيب؟ وقد علمت متى ولدت فأخبرنى متى أموت؟
- فأنزل الله الآية .وهذه الأمور الخمسة من الأمور التى استأثر الله "
تعالى - بها على سبيل العلم اليقينى الشامل المطابق للواقع . .ولا مانع من
أن يطلع الله - تعالى - بضله وكرمه ، بعض أصفيائه على شئ منها .وليست
- المغيبات محصورة فى هذه الخمسة ، بل كل غيب لا يعلمه إلا الله - تعالى
داخل فيما استأثر الله - تعالى - بعلمه ، وإنما خصت هذه الخمسة بالذكر
لأنها من أهم المغيبات ، أو لأن السؤال كان عنها .وما يخبر به المنجم
والطبيب وعلماء الأرصاد الجوية من الأمور التى لم تتكشف بعد ، فمبناه على
- الظن لا على اليقين ، وعلى احتمال الخطأ والصواب .أما علم الله - تعالى
بهذه الأمور وغيرها ، فهو علم يقينى قطعى شامل .لا يحتمل الظن أو الشك أو
الخطأ .وصدق الله إذ يقول : ( وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا
خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ) وبعد : فهذا
، تفسير محرر لسورة " لقمان " نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه
. ونافعا لعباده ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الم

كما فسرها الوسيط سورة السجدة من السور التى افتتحت ببعض حروف التهجى ، وقد
: سبق أن ذكرنا آراء العلماء فى لك بشئ من التفصيل عند تفسيرنا لسورة
البقرة ، وآل عمران ، والأعراف . .وقلنا : ما ملخصه : إن أقرب الأقوال إلى

الصواب ، أن هذه الحروف المقطعة ، قد وردت فى افتتاح بعض السور ، على سبيل الإيقاظ والتنبيه إلى إعجاز القرآن .فكأن الله - تعالى - يقول لأولئك الكافرين المعارضين فى أن القرآن من عند الله : هاكم القرآن ترونه مؤلفاً من كلام هو من جنس ما تؤلفون منه كلامكم ومنظوماً من حروف ، وهى من جنس الحروف الهجائية التى تنظمون منها حروفكم .فإن كنتم فى شك من كونه منزلاً من عند الله فهاتوا مثله ، وادعوا من شئتم من الخلق لكى يعاونكم فى ذلك ، أو هاتوا عشر سور من مثله ، أو سورة من مثله . .ومع كل هذا التساهل فى التحدى . فقد عجزوا وانقلبوا خاسرين ، وثبت بذلك أن القرآن من عند الله - تعالى - وحده .

تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( تَنزِيلُ الكتاب لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ العالمين ) بيان لمصدر القرآن الكريم وأنه لا شك فى كونه من عند الله - عز وجل - .وقوله : ( تَنزِيلُ الكتاب ) مبتدأ . وخبره ( مِن رَّبِّ العالمين ) وجملة ( لاَ رَيْبَ فِيهِ ) معترضة بينهما ، أو حال من الكتاب . أى : تنزيل هذا الكتاب عليك - أيها الرسول الكريم - كائن من رب العالمين. وهذا أمر لا شك فيه ، ولا يخالطه ريب أو تردد عند كل عاقل .وعجل - سبحانه - بنفى الريب ، حيث جعله بين المبتدأ والخبر ، لبيان أن هذه القضية ليست محلاً للشك أو الريب ، وأن كل منصف يعلم أن هذا القرآن من رب العالمين .

ام يقولون افتراه بل هو الحق من ربك لتنذر قوما ما اتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون

كما فسرها الوسيط و " أم " فى قوله - تعالى - : ( أَمْ يَقُولُونَ افتراه ) هى المنقطعة التى بمعنى بل والهمزة . والاستفهام للتعجيب من قولهم وإنكاره والافتراء : الاختلاق . يقال : فلان افترى الكذب ، أى : اختلقه . وأصله من الفرى بمعنى قطع الجلد . وأكثر ما يكون للإفساد .والمعنى : بل أيقول هؤلاء المشركون ، إن محمدا صلى الله عليه وسلم ، قد افترى هذا القرآن ، واختلقه من عند نفسه . . . ؟وقوله - عز وجل - : ( بَلْ هُوَ الحق مِن رَّبِّكَ ) رد على أقوالهم الباطلة .أى :لا تستمع - أيها الرسول الكريم - إلى أقاويلهم الفاسدة ، فإن هذا القرآن هو الحق الصادر إليك من ربك - عز وجل - .ثم بين سبحانه - الحكمة فى إرساله صلى الله عليه وسلم - وفى إنزال القرآن عليه فقال : ( لِتُنذِرَ قَوْماً مَّآ أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ) .والإنذار : هو التخويف من ارتكاب شئ تسوء عاقبته . و " ما " نافية .و " نذير " فاعل " أتاهم " و " من " مزيدة للتأكيد .أى : هذا القرآن - يا محمد - هو معجزتك الكبرى ، وقد أنزلناه إليك لتنذر قوماً لم يأتهم نذير من قبلك بما جئتهم به من هدايات وإرشادات وآداب وقد فعلنا ذلك رجاء أن يهتدوا إلى الصراط المستقيم ، ويستقبلوا دعوتك. بالطاعة والاستجابة لما تدعوهم إليه .ولا يقال : إن إسماعيل - عليه السلام - قد أرسل إلى آباء هؤلاء العرب الذين أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم إليهم ، لأن رسالة إسماعيل قد اندرست بطول الزمن ، ولم ينقلها الخلف عن السلف ، فكانت رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى قومه ، جديدة فى منهجها وأحكامها وتشريعاتها .

الله الذي خلق السماوات والارض وما بينهما في ستة ايام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع افلا تتذكرون

كما فسرها الوسيط ثم أثنى - سبحانه - على ذاته ، بما يستحقه من إجلال وتعظيم وتقديس فقال : ( الله الذي خَلَقَ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ) .والأيام جمع يوم ، واليوم فى اللغة : مطلق الوقت ، أى : فى ستة أوقات لا يعلم مقدارها إلا الله - تعالى - .وهو - سبحانه - قادر على أن يخلق السماوات والأرض وما بينهما فى لمحة أو لحظة ، ولكنه - عز وجل - خلقهن فى تلك الأوقات ، لكى يعلم عباده التأنى والتثبت فى الأمور .قال القرطبى : قوله - تعالى - : ( سِتَّةِ أَيَّامٍ ) قال الحسن : من أيام الدنيا . وقال ابن عباس : إن اليوم من الأيام الستة ، التى خلق الله فيها السماوات والأرض ، مقداره ألف سنة من سنى الدنيا .وقال بعض العلماء ما ملخصه : وليست هذه الأيام من أيام هذه الأرض التى نعرفها ، إذ أيام هذه الأرض ، مقياس زمنى ناشئ من دورة هذه الأرض حول نفسها أمام الشمس مرة ، تؤلف ليلاً ونهاراً على هذه الأرض . . وهو مقياس يصلح لنا نحن أبناء هذه الأرض الصغيرة الضئيلة . أما حقيقة هذه الأيام الستة المذكورة فى القرآن ، فعلمها عند الله . ولا سبيل لنا إلى تحديها وتعيين مقدارها ، فهى من ايام الله التى يقول عنها : ( وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ) وقوله - سبحانه - : ( ثُمَّ استوى عَلَى العرش

إشارة إلى استعلائه وهيمنته على شئون خلقه .وقال بعض العلماء : وعرش ( الله - تعالى - مما لا يعلمه البشر إلا بالاسم . . وقد ذكر فى إحدى وعشرين آية . وذكر الاستواء على العرش فى سبع آيات .أما الاستواء على العرش ، فذهب سلف الأمة ، إلى أنه صفة الله - تعالى - بلا كيف ولا انحصار ولا تشبيه ولا تمثيل ، لاستحالة اتصافه - سبحانه - بصفات المحدثين ، ولوجوب تنزيهه عما لا يليق به : ( لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السميع البصير ) وأنه يجب الإيمان بها كما وردت ، وتفويض العلم بحقيقتها إليه - تعالى - .قال الإمام مالك : الكيف غير مقعول ، والاستهواء غير مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .وقال محمد بن الحسن : اتفق الفقهاء جميعاً على الإيمان بالصفات ، من غير تفسير ولا تشبيه .وقال الإمام الرازى : إن هذا المذهب هو الذى نقول به ونختاره ونعتمد عليه . .وقوله - سبحانه - : ( مَا لَكُمْ مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ شَفِيعٍ أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ ) أى : ليس لكم - أيها الناس - إذا تجاوزتم حدوده - عز وجل - ( مِن وَلِيٍّ ) أى : من ناصر ينصركم إذا أراد عقابكم ، ( وَلاَ شَفِيعٍ ) يشفع لكم عنده لكى يعفو عنكم ، أفلا تعقلون هذه المعانى الواضحة ، وتسمعون هذه المواعظ البليغة ، التى من شأنها أن تحملكم على التذكر والاعتبار والطاعة التامة لله رب العالمين .فالآية الكريمة جمعت فى توجيهاتها الحكيمة ، بين مظاهر قدرة الله - تعالى - ، وبين الترهيب من معصية ومخالفة أمره ، وبين الحض على التذكر والاعتبار .

يدبر الامر من السماء الى الارض ثم يعرج اليه في يوم كان مقداره الف سنة مما تعدون

كما فسرها الوسيط ثم أضاف - سبحانه - إلى ما سبق أن وصف به ذاته ، صفات أخرى تليق بجلاله ، فقال : ( يُدَبِّرُ الأمر مِنَ السمآء إِلَى الأرض ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ) .وقوله - تعالى - : ( يُدَبِّرُ ) من التدبير بمعنى الإحكام والإتقان ، والمراد به هنا : إيجاد الأشياء علت هذا النحو البديع الحكيم الذى نشاهده ، وأصل التدبير : النظر فى أعقاب الأمور محمودة العاقبة - وقوله : ( يَعْرُجُ ) من العروج بمعنى الصعود والارتفاع والصيرورة إليه. - تعالى - .والضمير فى " إليه " يعود إلى الأمر الذى دبره وأحكمه - سبحانه أى : أن الله - تعالى - هو الذى يحكم شئون الدنيا السماوية والأرضية إلا. أن تقوم الساعة ، وهو الذى يجعلها على تلك الصورة البديعة المتقنة ، ثم تصعد إليه - تعالى - تلك الأمور والشئون المدبرة ، فى يوم ، عظيم هو يوم القيامة ( كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمّا تَعُدُّونَ ) من أيام الدنيا .قال الآلوسى ما ملخصه : وقوله : ( مِنَ السمآء إِلَى الأرض ) متعلقان بقوله : ( يُدَبِّرُ ) ومن ابتدائية ، وإلى انتهائية . أى : يريده - تعالى - على وجه الإتقان ومراعاة الحكمة ، منزلاً له من السماء إلى الأرض . وإنزاله من السماء باعتبار أسبابه ، فإن أسبابه سماوية من الملائكة وغيرهم .وقوله ( ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ) أى : ذلك الأمر بعد تدبيره . وهذا العروج مجاز عن ثوبته فى علمه . . أو عن كتابته فى صحف الملائكة بأمره - تعالى - .وقال بعض العلماء : وقد ذكر - سبحانه - هنا أنه ( يُدَبِّرُ الأمر مِنَ السمآء إِلَى الأرض ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ) . وذكر فى سورة الحج ( وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ) وذكر فى سورة المعارج ( تَعْرُجُ الملائكة والروح إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ) والجمع بين هذه الآيات من وجهين :الأول : ما جاء عن ابن عباس من أن يوم الألف فى سورة الحج هو أحد الأيام الستة التى خلق الله فيها السماوات والأرض .ويوم الألف فى ، سورة السجدة ، هو مقدار سير الأمر وعروجه إليه - تعالى - ، ويوم الخمسين ألفا - فى سورة المعارج - هو يوم القيامة .الثانى : أن المراد بجميعها يوم - القيامة ، وأن الاختلاف باعتبار حال المؤمن والكافر ويدل لهذا الوجه قوله - تعالى - : ( فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الكافرين غَيْرُ يَسِيرٍ ) أى : أن يوم القيامة يتفاوت طوله بحسب اختلاف الشدة ، فهو يعادل فى حالة ألف سنة من سنى الدنيا ، ويعادل فى حالة أخرى خمسين ألف سنة .

ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم

كما فسرها الوسيط واسم الإشارة فى قوله ( ذلك عَالِمُ الغيب والشهادة العزيز الرحيم ) يعود إلى الله - تعالى - ، وهو مبتدأ ، وهو بعده أخبار له - عز وجل - .أى : ذلك الذى اتصف بتلك الصفات الجليلة ، وفعل تلك الأفعال المتقنة الحكيمة ، هو الله - تعالى - ، (عَالِمُ الغيب والشهادة ) أى : عالم كل ما غاب عن الحسن ، وكل ما هو مشاهد له ، لا يخفى عليه شئ مما ظهر أو بطن ( العزيز ) الذى لاي غلبه غالب ( الرحيم ) بعباده .

الذي احسن كل شيء خلقه وبدا خلق الانسان من طين

كما فسرها الوسيط ( الذي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ) أى : الذى أحكم وأتقن كل شئ خلقه وأوجده فى هذا الكون ، لأنه - سبحانه - أوجده على النحو الذى تقتضيه حكمته ، وتستدعيه مصلحة عباده .قال الشوكانى : وقرأ الجمهور ( خلَقه ) - بفتح اللام - على أنه فعل ماض صفة لشئ ، فهو فى محل جر . أو صفة للمضاف فيكون فى محل نصب .وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ابن عامر : ( خلْقه ) - بسكون اللام - وفى نصبه أوجه : الأول : أن يكون بدلاً من ( كُلَّ شَيْءٍ ) بدل اشتمال ، والضمير عائد على كل شئ ، وهذا هو المشهور . .والمراد بالإنسان فى قوله - تعالى - : ( وَبَدَأَ خَلْقَ الإنسان مِن طِينٍ ) آدم - عليه السلام - ، أى وبدأ خلق أبيكم آدم من طين ، فصار على أحسن صورة وأبدع شكل ،.

ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين

كما فسرها الوسيط ( ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ ) أى : ذريته ، وسميت بذلك لأنها تنسل وتنفصل منه .( مِن سُلاَلَةٍ ) أى : من خلاصة ، وأصلها ما يسل ويخلص بالتصفية .( مَّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ) أى : ممتهن لا يهتم بشأنه ، ولا يعتنى به ، والمقصود به : المنى الذى يخرج من الرجل .

ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والابصار والافئدة قليلا ما تشكرون

، كما فسرها الوسيط ( ثُمَّ سَوَّاهُ ) أى : هذا المخلوق الذى أوجده من طين ، أو من ماء مهين . والمراد : ثم عدل خلقه ، وسوى شكله ، وتناسب بين أعضائه وأتمه فى أحسن صورة . . .( وَنَفَخَ فِيهِ ) - سبحانه - ( مِن رُّوحِهِ ) أى : من قدرته ورحمته ، التى صار بها هذا الإنسان إنساناً كاملا فى أحسن تقويم .وإضافة الروح إليه - تعالى - للتشريف والتكريم لهذا المخولق ، كما فى قولهم بيت الله .( وَجَعَلَ لَكُمُ ) بعد ذلك ( السمع ) الذى تسمعون به التى تبصرون بها ، ( والأفئدة ) التى تعقلون بها ، وتحسون ( والأبصار ) الأشياء بواسطتها .وقوله : ( قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ) بيان لموقف بنى آدم من هذه النعم المتكاثرة والمتنوعة . ولفظ " قليلاً " منصوب على أنه صفة لمحذوف وقع معمولاً لتشكرون .أى : شكراً قليلاً تشكرون ، أو زماناً قليلاً تشكرون .وهكذا بنو آدم - إلا من عصم الله - ، أوجدهم الله - تعالى - بقدرته وسخر لمنفعتهم ومصلحتهم ما سخر من مخلوقات ، وصانهم فى كل مراحل خلقهم ، بأنواع من الصيانة والحفظ . . ومع ذلك فقليل منهم هم الذين يشكرونه - عز وجل - على نعمه . وصدق - ستبحانه - حيث يقول : ( وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشكور ) .

وقالوا ااذا ضللنا في الارض اانا لفي خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كافرون

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - شبهات المشركين ورد عليها ، وصور أحوالها الليمة عندما تقبض الملائكة أرواحهم ، فقال - تعالى - : ( وقالوا : أَإِذَا ضَلَلْنَا . . . بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ) .قال القرطبى قوله - تعالى - : ( وقالوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الأرض ) هذا قول منكرى البعث أى : هلكنا وبطلنا وصرنا ترابا . وأصله من قول العرب : ضل الماء فى اللبن إذا ذهب ، والعرب تقول للشئ غلب عليه غيره حتى خفى فيه أثره : قد ضل أى : وقال الكافرون على سبيل الإنكار ليوم القيامة وما فيه من حساب. . أئذا صارت أجسادنا كالتراب واختلطت به ، أنعاد إلى الحياة مرة أخرى ، ونخلق خلقاً جديداً . .وقوله - سبحانه - : ( هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ) إضراب وانتقال من حكاية كفرهم بالبعث والحساب إلى حكاية ما هو أشنع من ذلك وهو كفرهم بلقاء الله - تعالى - الذى خلقهم ورزقهم وأحياهم وأماتهم . . أى : بل هم لانطماس بصائرهم ، واستيلاء العناد والجهل عليهم ، بلقاء ربهم يوم القيامة ، كافرون جاحدون ، لأنهم قد استبعدوا إعادتهم إلى الحياة بعد موتهم ، مع أن الله - تعالى - قد أوجدهم ولم يكونوا شيئاً مذكوراً .

قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم الى ربكم ترجعون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أن مردهم إليه لا محالة بعد أن يقبض ملك الموت أرواحهم فقال : ( قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الموت الذي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ) .وقوله ( يَتَوَفَّاكُم ) : من التوفى . وأصله أخذ الشئ وافيا تاما . يقال : توفاه الله ، أى : استوفى روحه وقبضها ، وتوفيت مالى بمعنى استوفيته والمراد بملك الموت

: عزرائيل .أى : قل - أيها الرسول الكريم - فى الرد على هؤلاء الجاحدين
- سيتولى قبض أرواحكم عند انتهاء آجالكم ملك الموت الذى كلفه الله - تعالى
بذلك ثم إلى ربكم ترجعون ، فيجازيكم بما تستحقونه من عقاب ، بسبب كفرهم
وجحودكم .وأسند - سبحانه - هنا التوفى إلأى ملك الموت ، لأنه هو المأمور
بقبض الأرواح . وأسنده إلى الملائكة فى قوله - تعالى - ( فَكَيْفَ إِذَا
تَوَفَّتْهُمُ الملائكة ) لأنهم أعوان ملك الموت الذين كلفهم الله بذلك
وأسنده - سبحانه - إلى ذاته فى قوله : ( الله يَتَوَفَّى الأنفس حِينَ.
. مِوْتِهَا ) لأن كل شئ كائنا ما كان ، لا يكون إلا بقضائه وقدره

ولو ترى اذ المجرمون ناكسو رءوسهم عند ربهم ربنا ابصرنا وسمعنا فارجعنا
نعمل صالحا انا موقنون

كما فسرها الوسيط ثم صور - سبحانه - أحوال هؤلاء الكافرين ، عندما يقفون
للحاسب ، تصويراً مرعباً مخيفاً فقال : ( وَلَوْ ترى إِذِ المجرمون
نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ ) .وجواب " لو " محذوف ، والتقدير
، لرأيت شيئاً تقشعر من هوله الأبدان .وقوله : ( نَاكِسُوا ) من النكس :
وهو قلب الشئ على راسه كالتنكيس . . وفعله من باب نصر - والخطاب يصح أن
يكون للرسول صلى الله عليه وسلم - أو لكل من يصلح له .أى : ولو ترى - أيها
الرسول الكريم - حال أولئك المجرمين الذين أنكروا البعث والجزاء ، وهم
يقفون أمام خالقهم بذلة وخزى ، لحسابهم على أعمالهم . . لو ترى ذلك لرأيت
شيئاً ترتعد له الفرائص ، وتهتز منه القلوب .وقوله : ( رَبَّنَآ
( أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فارجعنا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ
حكاية لما يقولونه فى هذا الموقف العصيب . أى : يقولونه بذلة وندم : يا
ربنا نحن الآن نبصر مصيرنا ، ونسمع قولك ونندم على ما كنا فيه من كفر وضلال
إلى الدنيا ، لكى ( نَعْمَلْ ) عملاً ( صَالِحاً إِنَّا ( فارجعنا ) ،
مُوقِنُونَ ) الآن بأن ما جاءنا به رسولك هو الحق ، وأن البعث حق . وان
. الجزاء حق ، وأن الجنة حق ، وأن النار حق

ولو شئنا لاتينا كل نفس هداها ولكن حق القول مني لاملان جهنم من الجنة
والناس اجمعين

كما فسرها الوسيط ولكن هذا الإيقان والاعتراف منهم ، قد جاء فى غير أوانه
ولذا لا يقبله - سبحانه - منهم ، ولذا عقب - سبحانه - على ما قالوه بقوله ،
أى : ولو . ( . . . وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ) :
شئنا أن نؤتى كل نفس رشدها وهداها وتوفيقها إلى الإيمان ، لفعلنا ، لأن
: إرادتنا نافذة ، وقدرتنا لا يعجزها شئ .( ولكن حَقَّ القول مِنِّي ) آى
ولكن ثبت وتحقق قولى .( لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجنة ) أى من الجن
وسموا بذلك لاستتارهم عن الأنظار .ومن ( الناس أَجْمَعِينَ ) بسبب فسوقهم
عن أمرنا ، وتكذيبهم لرسلنا .فالمقصود من الآية الكريمة بيان أن قدرة
الله - تعالى -لا يعجزها شئ ، إلا أن حكمته - سبحانه - قد اقتضت أن الذين
سبق فى علمه أنهم يؤثرون الضلالة على الهداية ، لسوء استعدادهم ، يكون
، مصيرهم إلى لانار ، وأما الذين آثروا الهداية على الضلالة لنقاء نفوسهم
وكمال استعدادهم ، فيكون مصيرهم إلى جنة عرضها السماوات والأرض .كما أن
حكمته - سبحانه - قد اقتضت أن يميز الإنسان على غيره ، بأن يجعل له طبيعة
) - خاصة يملك معها اختيار طريق الهدى أو طريق الضلال . كما قال - تعالى
إِنَّا خَلَقْنَا الإنسان مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ
فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً إِنَّا هَدَيْنَاهُ السبيل إِمَّا
. ( شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً

فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا انا نسيناكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم
تعملون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما يقال لهؤلاء المجرمين عندما يلقى
بهم فى جهنم فقال - تعالى - : ( فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ
يَوْمِكُمْ هاذآ إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ الخلد بِمَا
كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ) .والذوق حقيقة إدراك المطعومات . والأصل فيه أن يكون
فى أمر مرغوب فى ذوقه وطلبه . والتعبير به هنا عن ذوق العذاب من باب التهكم
بهم .والفاء فى قوله : ( فَذُوقُواْ ) لترتيب الأمر بالذوق على ما قبله
: والباء للسببية . والمراد بالنسيان لازمه ، وهو الترك والإهمال .أى
ويقال لهؤلاء المجرمين عندما يلقى بهم فى النار : ذوقوا لهيبها وسعيرها
بسبب نسيانكم وإهمالكم وجحودكم ليوم القيامة وما فيه من حساب . وإننا من
جانبنا قد أهملناكم وتركناكم . بسبب إصراركم على كفركم ، وذوقوا العذاب
" الذى أنتم مخلدون فيه بسبب أعمالكم القبيحة فى الدنيا " جزاء وفاقا
وكرر - سبحانه - لفظ ( ذُوقُواْ ) على سبيل التأكيد ، وزيادة التقريع.

. والتأنيب

انما يؤمن باياتنا الذين اذا ذكروا بها خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون

، كما فسرها الوسيط ثم تترك السورة الكريمة هؤلاء المجرمين يذوقون العذاب وتنتقل إلى الحديث عن مشهد آخر ، عن مشهد يشرح النفوس ، ويبهج القلوب ، إنه مشهد المؤمنين الصادقين ، وما أعد الله - تعالى - من ثواب قال - تعالى - : ( إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا . . . بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ) : أى. ويصدق ( بِآيَاتِنَا ) الدالة على قدرتنا ووحدانيتنا ( إِنَّمَا يُؤْمِنُ ). أصحاب النفوس النقية الصافية ، الذين إذ ذكروا بها ، أى : بهذه الآيات ، خَرُّواْ سُجَّداً ) لله - تعالى - من غير تردد ( وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ) أى : ونزهوه عن كل ما لا يليق به - عز وجل -( وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ) عن طاعته - سبحانه - ، وعن الانقياد لأمره ونهيه .

تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون

، كما فسرها الوسيط ثم صور - سبحانه - أحوالهم فى عبادتهم وتقربهم إلى الله تصويراً بديعاً فقال : ( تتجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ المضاجع يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً ) .والتجافى : التحرك إلى جهة أعلى . وأصله من جفا فلان السرج عن فرسه ، إذا رفعه . ويقال تجافى فلان عن مكانه ، إذا انتقل عنه .والجنوب : جمع جنب . وأصله الجارحة ، والمراد به الشخص والمضاجع : جمع مضجع ، وهو مكان الاتكاء للنوم .والمعنى : أن هؤلاء ، المؤمنين الصادقين ، تتنحى وترتفع أجسامهم ، عن أماكن نومهم ، وراحتهم ) ، حالة كونهم يدعون ربهم بإخلاص وإنابة ( خَوْفاً ) من سخطه عليهم ) وَطَمَعاً ) فى رضاه عنهم .( وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ) من فضلنا وخيرنا . يُنفِقُونَ ) فى وجوه البر والخير

فلا تعلم نفس ما اخفي لهم من قرة اعين جزاء بما كانوا يعملون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ . . ) بيان للعطاء الجزيل ، والثواب العظيم . أى : فلا تعلم نفس من النفوس سواء أكانت لملك مقرب ، أم لنبى مرسل ما أخفاه الله - تعالى - لهؤلاء المهتدين بالليل والناس نيام ، من ثواب ، تقر به أعينهم ، وتسعد به قلوبهم ، وتبتهج له نفوسهم . .وهذا العطاء الجزيل إنما هو بسبب أعمالهم الصالحة فى الدنيا .وهكذا نرى فى هذه الآيات الكريمة صورة مشرقة لعباد الله الصالحين ، وللثواب الذى لا تحيط به عبارة ، والذى أكرمهم الله - تعالى - به .وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآيات ، عدداً من الأحاديث الواردة فى فضل قيام الليل ، منها ما رواه الإمام أحمد " عن معاذ بن جبل - رضى الله عنه - قال : كنت مع النبى صلى الله عليه وسلم فى سفر ، فأصبحت يوماً قريباً منه . ونحن نسير ، فقلت : يا نبى الله ، أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ، ويباعدنى من النار . فقال : " لقد سألت عن عظيم ، وأنه ليسير على من يسره الله عليه ، تعبد الله ولا تشكر به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت . ثم قال : ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة ، والصدقة تطفئ الخطيئة ، وصلاة الرجل فى جوف الليل شعار الصالحين ، ثم قرأ صلى الله عليه وسلم : ( تتجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ المضاجع يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً ) " " .وعن أسماء بنت يزيد قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ، جاء مناد فنادة بصوت يسمع الخلائق : سيعلم أهل الجمع اليوم من أولى بالكرم . ثم يرجع فينادى : ليقم الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع " .وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله - تعالى - قال : " أعددت لعبادى الصالحين ، ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر " .

افمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أن عدالته قد اقتضت عدم التسوية بين الأخيار والأشرار ، وأن كل إنسان إنما يجازى يوم القيامة على حسب عمله فقال - تعالى - : ( أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً . . . المجرمين مُنتَقِمُونَ ) .والاستفهام فى قوله : ( أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً . . . ) للإنكار ، والفسوق : الخروج عن طاعة الله .أى : أفمن كان فى هذه الدنيا - مؤمناً بالله حق الإيمان ، كمن كان فيها فاسقاً وخارجاً عن طاعة الله تعالى - وعن دينه الذى ارتضاه لعباده؟كلا ، إنهم لا يستوون لا فى سلوكهم وأعمالهم ، ولا فى جزائهم الدنيوى أو الأخروى .وقد ذكروا أن هذه الآية نزلت

فى شأن الوليد بن عقبة ، وعلى نب أبى طالب - رضى الله عنه - ، حيث قال الوليد لعلى : أنا أبسط منك لساناً ، وأحد سنانا ، وأملأ فى الكتيبة جسداً فقال له على : اسكت ، فإنما أنت فاسق ، فنزلت هذه الآية .

اما الذين امنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات الماوى نزلا بما كانوا يعملون

كما فسرها الوسيط ثم فصل - سبحانه - حسن عاقبة المؤمنين ، وسوء عاقبة الفاسقين ، فقال : ( أَمَّا الذين آمَنُواْ ) بالله حق الإيمان ) وَعَمِلُواْ ) الأعمال ( الصالحات ) .( فَلَهُمْ جَنَّاتُ المأوى ) أى : فلهم الجنات التى يأوون إليها ، ويسكنون فيها ( نُزُلاً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ) والنزل : أصله ما يهيّأ للضيف النازل من الطعام والشراب والصلة ، ثم عمم فى كل عطاء . أى : فلهم جنات المأوى ينزلون فيها نزولاً مصحوباً بالتكريم والتشريف جزاء أعمالهم الصالحة التى عملوها فى الدنيا .

واما الذين فسقوا فماواهم النار كلما ارادوا ان يخرجوا منها اعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون

كما فسرها الوسيط ( وَأَمّا الذين فَسَقُواْ )أى : خرجوا عن طاعتنا ، وعن دعوة رسولنا صلى الله عليه وسلم .( فَمَأْوَاهُمُ النار ) أى : فمنزلتهم ومسكنهم ومستقرهم النار وبئس القرار .( كُلَّمَآ أرادوا أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ ) هرباً من لهيبها وسعيرها وعذابها .( أُعِيدُواْ فِيهَا ) مرغمين مكرهين ، وردوا إليها مهانين مستذلين .( وَقِيلَ لَهُمْ ) على سبيل الزجر والتأنيب وزيادة الحسرة فى قلوبهم .( ذُوقُواْ عَذَابَ النار الذي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ) فى الدنيا ، وتستهزئون بمن ينذركم به ، ويخوفكم منه .

ولنذيقنهم من العذاب الادنى دون العذاب الاكبر لعلهم يرجعون

كما فسرها الوسيط ( وَلَنُذِيقَنّهُمْ مِّنَ العذاب الأدنى ) أى الأهون والأقرب والأقل وهو عذاب الدنيا ، من طريق ما ننزله بهم من أمراض وأسقام ومصائب متنوعة .( دُونَ العذاب الأكبر ) أى : الاشد والأعظم والأبقى ، وهو عذاب الآخرة .( لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ) عما هم فهي من شرك وكفر وفسوق وعصيان .

ومن اظلم ممن ذكر بايات ربه ثم اعرض عنها انا من المجرمين منتقمون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - حال من يدعى إلى الهدى فيعرض عنه ، فقال : ( وَمَنْ أَظْلَمُ مِمّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ) .أى :لا أحد أشد ظلماً وكفراً ممن ذكره المذكر بالآيات الدالة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، وعلى أن دين الإسلام هو الحق ، ثم أعرض عنها جحوداً وعناداً .( إِنَّا مِنَ المجرمين مُنتَقِمُونَ ) أى : إنّا من أهل الإجرام والجحود لآياتنا منتقمون إنتقاماً يذلهم ويهينهم قال صاحب الكشاف : " ثم " فى قوله ( ثُمّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ) للاستبعاد. والمعنى : أن الإعراض عن مثل آيات الله ، فى وضوحها وإنارتها وإرشادها. إلى سواء السبيل ، والفوز بالسعادة العظمى بعد التذكير بها مستبعد فى العقل والعدل . كما تقول لصاحبك : وجدت مثل تلك الفرصة ثم لم تنتهزها ، استبعاداً لتركه الانتهاز .ومنه " ثم " فى بيت الحماسة لا يشكف الغماء إلا ابن حرة يرى غمرات الموت ثم يزورها استبعد أن يزور غمرات الموت بعد أن رآها ... واستيقنها واطلع على شدتها .فإن قلت : هلا قيل : إنا منه منتقمون؟ قلت : لما جعله أظلم كل ظالم ، ثم توعد المجرمين عامة بالانتقام منهم ، فقد دل على إصابة الأظلم بالنصيب والأوفر من الانتقام ، ولو قاله بالضمير لم يفد هذه الإفادة .

ولقد اتينا موسى الكتاب فلا تكن في مرية من لقائه وجعلناه هدى لبني اسرائيل

- كما فسرها الوسيط ثم أشارت السورة الكريمة بعد ذلك إلى ما أعطاه الله تعالى - لنبيه موسى - عليه السلام - من نعم . وما منحه للصالحين من قومه من منن ، فقال - تعالى - : ( وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكتاب . . . فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ) .والمراد بالكتاب فى قوله - تعالى - : ( وَلَقَدْ آتَيْنَآ مُوسَى الكتاب ) التوراة التى أنزلها سبحانه - لتكون هداية لبنى إسرائيل قالوا : وإنما ذكر موسى لقربه من النبى صلى الله عليه وسلم ووجود من كان. على دينه إلزاماً لهم . إنما لم يختر عيسى - عليه السلام - للذكر وللاستدلال ، لأن اليهود ما كانوا يوافقون على نبوته ، وأما النصارى فكانوا يعترفون بنبوة موسى - عليه السلام - .والضمير المجرور فى قوله : ( فَلاَ تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِ ) يعود إلى موسى على أرجح الأقوال - أو

إلى الكتاب .أى : أتينا موسى الكتاب فلا تكن - أيها الرسول الكريم - فى مرية أو شك من لقاء وسى للكتاب الذى أوحيناه إليه ، بقبول ورضا وتحمل لتكاليف الدعوة به ، فكن مثله فى لك ، وبلغ ما أنزل إليك من ربك دون ان تخشى أحداً سواه .قال الآلوسى ما ملخصه : قوله : ( وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكتاب ) أى : جنس الكتاب ( فَلاَ تَكُن فِي مِرْيَةٍ ) أى : شك مِّن لِّقَآئِهِ ) أى : من لقائه ذلك الجنس .وحمل بعضهم ( الكتاب ) على العهد ، أى الكتاب المعهود وهو التوراة .ونهيه صلى الله عليه وسلم عن أن يكون فى شك ، المقصود به أمته ، والتعريض بمن اتصف بذلك . وقيل الكتاب المراد به التوراة ، وضمير ، لقائه ، عائد إليه من غير تقدير مضاف . ولقاء ، صدر مضاف إلى مفعوله موسى . أى : فلا تكن فى مرية من لقاء موسى الكتاب . ومضاف إلى فاعله ، ومفعوله موسى . أى : من لقاء الكتاب موسى ووصوله إليه وهذا الرأى الأخير الذى عبر عنه الآلوسى - رحمه الله - بقوله " وقيل " وهو. فى رأينا رجح الآراء ، وأقربها إلى الصواب ، لبعده عن التكلف .قال الجمل فى حاشيته ، بعد أن ساق ستة أقوال فى عودة الضمير فى قوله ( مِّن لِّقَآئِهِ ) وأظهرها أن الضمير إما لموسى وإما للكتاب . أى : لا ترتب فى أن موسى لقى : - الكتاب أنزل عليه .قال صاحب الكشاف : والضمير فى " لقائه " له - أى لموسى ، ومعناه : إنا آتينا موسى - عليه السلام - مثل ما آتيناك من الكتب ، ولقيناه مثل ما لقيناك من الوحى ، فلا تكن فى شك من أنك لقيت مثله ، ولقيت نظيره كقوله - تعالى - : ( فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ - إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الذين يَقْرَءُونَ الكتاب مِن قَبْلِكَ ) .وقوله تعالى - : ( وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لبني إِسْرَائِيلَ ) أى : وجعلنا الكتاب الذى أنزلناه على نبينا موسى - عليه السلام - هداية لبنى إسرائيل إلى طريق الحق والسداد .

وجعلنا منهم ائمة يهدون بامرنا لما صبروا وكانوا باياتنا يوقنون

كما فسرها الوسيط ( وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ ) والأئمة : جمع إمام ، وهو من يقتدى به فى الأمور المختلفة . والمراد بهم هنا : من يقتدى بهم فى وجوه الخير والبر .أى : وجعلنا من بنى إسرائيل أئمة فى الخير والصلاح ، يهدون غيرهم إلى الطريق الحق ، بأمرنا وإرادتنا وفضلنا ، وقد وفقناهم لذلك حين صبروا على أداء ما كل فناهم به من عبادات ، وعلى مشاق الدعوة إلى الحق ، وعلى كل أم يستلزم الصبر وحبس النفس .وفى ذلك إرشاد وتعليم للمسلمين ، بأن يسلكوا طريق الأئمة الصالحين ، ممن كانوا قبلهم ، وأن يبلغوا دعوة الله إلى غيرهم بصبر ويقين ، وقوله - سبحانه - ( وَكَانُواْ بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ) زيادة فى مدحهم. وفى تقرير أنهم أهل للإمامة فى الخير ، أى : وكانوا بسبب إداركهم السليم لمعانى آياتنا : يوقنون إيقانا جازما بأنهم على الحق الذى لا يحوم حلوه باطل وبأنهم متبعون لشريعة الله - تعالى - التى لا يضل من اتبعها وسار على نهجها .

ان ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون

كما فسرها الوسيط ثم أشار - سبحانه - إلى أن بنى إسرائيل جميعاً لم يكونوا كذلك ، وإنما كان منهم الأخيار والأشرار ، وأنه - تعالى - سيحكم بين الجميع يوم القيامة بحكمه العادل ، فقال : ( إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القيامة فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ) .أى : إن ربك - أيها الرسول الكريم - هو وحده الذى يتولى القضاء والحكم بين المؤمنين والكافرين يوم القيامة ، فيما كانوا يختلفون فيه فى الدنيا من أمور متنوعة على رأسها ما يتعلق بالأمور الدينية .

اولم يهد لهم كم اهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم ان في ذلك لايات افلا يسمعون

كما فسرها الوسيط ثم يسوق - سبحانه - فى أواخر السورة ما من شأنه أن يهدى الضالين إلى الصراط المستقيم ، وما يرشدهم إلى مظاهر نعمه عليهم ، وما يزيد النبى صلى الله عليه وسلم صلى الله عليه وسلم ثباتاً على ثباته ، ويقيناً على يقينة ، فيقول - عز وجل - ( أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا إِنَّهُمْ مُّنتَظِرُونَ ) .والاستفهام فى قوله - تعالى - : ( أَوَلَمْ . . يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا . . . ) لإنكار عدم اهتدائهم إلى ما ينفعهم مع وضوح أسباب هذا الاهتداء . والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام والخطاب للمشركين وعلى رأسهم كفار مكة . و " كم " خبرية بمعنى كثير . فى محل نصب لأهلكنا .والمعنى : أغفل هؤلاء المشركون عما أصاب الظالمين من قبلهم ، ولم يتبين لهم - لانطماس بصائرهم - أننا قد أهلكنا كثيراً من أهل الأزمان السابقة من قبلهم ، بسبب تكذيبهم لأنبيائهم ، وإيثارهم الكفر على

الإيمان .وقوله - تعالى - ( يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ) حال من الضمير
فى ( لَهُمْ ) ، لتسجيل أقصى أنواع الجهالة والعناد عليهم . أى : أبلغ بهم
الجهل والعناد أنهم لم يعتبروا بالقرون المهلكة من قبلهم ، مع أنهم يمشون
فى مساكن هؤلاء السابقين ، ويمرون على ديارهم مصبحين وممسين ، ويرون
- بأعينهم آثارهم الدارسة ، وبيوتهم الخاوية على عروشها .ثم ختم - سبحانه
الآية الكريمة بما يزيد فى تبكيتهم وتقريعهم فقال : ( إِنَّ فِي ذَلِكَ
لآيَاتٍ أَفَلاَ يَسْمَعُونَ ) .أى : إن فى ذلك الذى يرونه من مصارع
الغابرين ، وآثار الماضين ، لآيات بينات ، وعظات بليغات ، فهلا تدبروا فى
ذلك ، واستمعوا إلى صوت الحق بتعقل وتفهم؟فقوله - تعالى - : ( أَفَلاَ
يَسْمَعُونَ ) حض لهم على الاستماع إلى الآيات الدالة على سوء عاقبة
الظالمين ، بتدبر وتعقل واتعاظ ، وتحول من الباطل إلى الحق ، قبل أن يحل
بهم ما حل بأهل الأزمنة الغابرة .

اولم يروا انا نسوق الماء الى الارض الجرز فنخرج به زرعا تاكل منه انعامهم
وانفسهم افلا يبصرون

) : كما فسرها الوسيط ثم نبههم - سبحانه - إلى نعمة من نعمه الكثيرة فقال
أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ الْمَآءَ إِلَى الأرض الجرز فَنُخْرِجُ بِهِ
زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلاَ يُبْصِرُونَ
والأرض والجرز : هى الأرض اليابسة التى جرز نباتها وقطع ، إما لعدم نزول (
الماء عليها ، وإما لرعيه منها .قال القرطبى ما ملخصه : والأرض الجرز هى
التى جرز نباتها أى : قطع ، إما لعدم الماء ، وإما لأنه رعى وأزيل ، ولا
يقال للتى لا تنبت كالسباخ جرز .وهو مشتق من قولهم : رجل جروز إذا كان لا
يبقى شيئاً إلا أكله ، وكذلك ناقة جروز : إذا كانت تأكل كل شئ تجده ، وسيف
جراز ، أى : قاطع . .أى : أعموا ولم يشاهدوا بأعينهم ( أَنَّا نَسُوقُ )
: بقدرتنا ورحمتنا ( الماء ) الذى تحمله السحب ( إِلَى الأرض الجرز ) أى
اليابسة الخالية من النبات ، فينزل عليها .( فَنُخْرِجُ بِهِ ) أى : فنخرج
بهذا الماء النازل على الأرض القاحلة ( زَرْعاً ) كثيراً نافعاً ( تَأْكُلُ
مِنْهُ ) أى : من هذا الزرع ( أَنْعَامُهُمْ ) أى : تأكل منه ما يصلح
لأكلها كالأوراق والأغصان وما يشبه ذلك .وقوله ( وَأَنفُسُهُمْ ) معطوف على
أنعامهم . أى : تأكل أنعامهم من الزرع ما يناسبها ، ويأكل منه الناس ما
يناسبهم كالبقول والحبوب .وقدم - سبحانه - الأنعام على بنى آدم للترقى من
الأدنى إلى الأشرف .وقوله - تعالى - ( أَفَلاَ يُبْصِرُونَ ) حض لهم على
التأميل فى هذه النعم ، والحرص على شكر المنعم عليها ، وإخلاص العبادة له .

ويقولون متى هذا الفتح ان كنتم صادقين

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - ما كان عليه المشركون ، من غرور
واستخفاف بالوعيد فقال : ( وَيَقُولُونَ متى هذا الفتح إِن كُنتُمْ
صَادِقِينَ ) .والمراد بالفتح : الحكم والقضاء والفصل فى الخصومة بين
) : - المتخاصمين ، ومنه قوله - تعالى - حكاية عن شعيب - عليه السلام
رَبَّنَا افتح بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بالحق وَأَنتَ خَيْرُ الفاتحين
أى : " احكم بيننا وبين قومنا بالحق ، وأنت خير الحاكمين " .أى : ويقول (
المشركون للنبى صلى الله عليه وسلم ولأصحابه على سبيل الاستهزاء ، واستعجال
العقاب : متى هذا الذى تحدثوننا عنه من أن الله - تعالى - سيفصل بيننا
وبينكم ، ويجعل لكم النصر ولنا الهزيمة؟لقد طال انتظارنا لهذا اليوم الذى
يتم فيه الحكم بيننا وبينكم ، فإن كنتم صادقين فى قولكم ، فادعوا ربكم أن
يعجل بهذا اليوم .

قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا ايمانهم ولا هم ينظرون

كما فسرها الوسيط وهنا يأمر الله - تعالى - نبيه صلى الله عليه وسلم - أن
يرد عليهم بما يخرسهم فيقول : ( قُلْ يَوْمَ الفتح لاَ يَنفَعُ الذين كفروا
إِيمَانُهُمْ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ ) . أى : قل - أيها الرسول - فى الرد
على هؤلاء الجاهلين المغرورين : إن يوم الفصل بيننا وبينكم قريب ، وهو آت
لا محالة فى الوقت الذى يحدده الله - تعالى - ويختاره ، سواء أكان هذا
اليوم فى الدنيا ، عندما تموتون على الكفر ، أم فى الآخرة عندما يحل بكم
العذاب ، ولا ينفعكم إيمانكم ، ولا أنتم تمهلون أو تنظرون ، بل سينزل بكم
العذاب سريعاً وبدون مهلة .

فاعرض عنهم وانتظر انهم منتظرون

) - كما فسرها الوسيط وما داما لأمر كما ذكرنا لك - أيها الرسول الكريم
فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وانتظر إِنَّهُمْ مُّنتَظِرُونَ ) . أى : فأرعض عن

هؤلاء المشركين ، وعن أقوالهم الفاسدة دون أن تلتفت إليها ، وامض فى طريقك - أنت وأتباعك ، وانتظر النصرة عليهم بفضلنا وإرادتنا ، إنهم - أيضاً منتظرون ما سيئول إليه أمرك ، وسيكون أمرك بخلاف ما يمكرون وما ينتظرون وبعد : فهذا تفسير وسيط لسورة السجدة ، نسأل الله - تعالى - أن يجعله. خالصاً لوجهه ، ونافعاً لعباده .وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

يا ايها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين ان الله كان عليما حكيما

كما فسرها الوسيط افتتحت سورة الأحزاب بهذا النداء لسيد الخلق صلى الله عليه وسلم وبهذا الوصف الكريم ، وهو الوصف بالنبوة ، على سبيل التشريف والتعظيم .قال صاحب الكشاف : جعل - سبحانه - نداءه بالنبى والرسول فى قوله وترك نداءه باسمه ، كما قال : يا ( ياأيها الرسول ) . ( ياأيها النبي ) : آدم ، يا موسى ، يا عيسى ، يا داودك كرامة له وتشريفا ، وتنويها بفضله .فإن ) : قلت : إن لم يوقع فى النداء . فقد أوقعه فى الإخبار ، فى قوله مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ الله ) قلت : ذلك لتعليم الناس بأنه رسول ، وتلقين لهم ، أن يسموه بذلك ويدعوه به .والمراد بأمره بتقوى الله : المداومة على ذلك ، والازدياد من هذه التقوى .أى : واظب - أيها النبى الكريم - على تقوى الله وعلى مراقبته ، وعلى الخوف منه ، وأكثر من ذلك ، فإن تقوى الله ، على رأس الفضائل التى يحبها - سبحانه - .قال ابن كثير : هذا تنبيه بالأعلى على الأدنى ، فإنه - تعالى - إذا كان يأمر عبده ورسوله بهذا ، فلأن يأتمر من دونه بذلك بطريق الأولى والأحرى .وقد قال خلف بن حبيب : التقوى أن تعمل بطاعة الله ، على نور من الله ، ترجوا ثواب الله .وبعد الأمر بالتقوى ، جاء النهى عن طاعة غير المؤمنين ، فقال - تعالى - : ( وَلاَ تُطِعِ الكافرين والمنافقين ) . أى : واظب - أيها النبى الكريم - على تقوى الله ، واجتنب طاعة الكافرين الذين جحدوا نعم الله عليهم ، وعبدوا معه آلهة أخرى ، واجتنب كذلك طاعة المنافقين الذين يظهرون الإسلام ويخفون الكفر .وفى إيراد هذا النهى بعد الأمر بتقوى الله ، إشارة وإيحاء إلى ما كان يبذله هؤلاء الكافرون والمنافقون من جهود عنيفة ، لزحزحة النبى صلى الله عليه وسلم عما هو عليه من حق ، ولصرفه عن دعوتهم إلى الإسلام .وقد ذكروا فى سبب نزول هذه الآية روايات منها : أن جماعة من أهل مكة ، طلبوا من النبى صلى الله عليه وسلم أن يرجع عن قوله ، وأن يعطوه شطر أموالهم ، وأن المنافقين واليهود - بالمدينة هدوده بالقتل إن لم يرجع عن دعوتهم إلى الإسلام ، فنزلت .وقوله تعالى - ( إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ) : تعليل الأمر والنهى ، أى : اتبع ما أمرناك به ، ومنا نهيناك عنه ، لأن الله - تعالى - عليم بكل شئ وحكيم فى كل أقواله وأفعاله .

واتبع ما يوحى اليك من ربك ان الله كان بما تعملون خبيرا

كما فسرها الوسيط ثم أمره - سبحانه - باتباع ما يوحيه إليه فقال : ( واتبع مَا يوحى إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ ) أى : واظب على تقوى الله ، وابتعد عن طاعة أعدائك ، واتبع فى كل ما تأتى وتذر ، كل ما نوحيه إليك من عندنا اتباعا تاما .فالجملة الكريمة معطوفة على ما قبلها . من قبيل عطف العام على الخاص .وفى النص على ما قبلها . من قبيل عطف العام على الخاص .وفى النص على أن الوحى إليه صلى الله عليه وسلم وأن هذا الوحى من ربه الذى تولاه بالتربية والرعاية ، إشعار بوجوب الاتباع التام الذى لا يشوبه انحراف أو تردد .ثم أكد - سبحانه - هذا الأمر تأكيدا قويا فقال : ( إِنَّ الله كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ) أى : إنه - تعالى - خبير ومحيط بحركات النفوس وبخفايا القلوب ، وكل ن يخالف ما أمرنان به ، أو نهيناه عنه ، فلا يخفى علينا أمره ، وسنجازيه يوم القيامة بما يستحقه .

وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَتَوَكَّلْ على الله ) أى : وفوض أمرك إليه - عز وجل - وحده .( وكفى بالله وَكِيلاً ) أى : وكفى بربك حافظا لك ، وكفيلا بتدبير أمرك .فأنت ترى أن هذه الآيات قد تضمنت ثلاثة أوامر : تقوى الله ، واتباع وحيه ، والتوكيل عليه - تعالى - وحده . كما تضمنت نهيه صلى الله عليه وسلم عن طاعة الكافرين والمنافقين . وباتباع هذه الأوامر والنواهى ، يسعد الأفراد ، وتسعد الأمم .

ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه وما جعل ازواجكم اللائي تظاهرون منهن امهاتكم وما جعل ادعياءكم ابناءكم ذلكم قولكم بافواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل

كما فسرها الوسيط ثم أبطل - سبحانه - بعض العادات التى كان متفشية فى
) : - المجتمع ، وكانت لا تتناسب مع شريعة الإسلام وآدابه ، فقال - تعالى
مَّا جَعَلَ اللّه لِرَجُلٍ . . . اللّه غَفُوراً رَّحِيماً ) .قال القرطبى
ما ملخصه : قوله - تعالى - ( مّا جَعَلَ اللّه لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ
فِي جَوْفِهِ ) نزلت فى رجل من قريش اسمه جميل بن معمر الفهرى ، كان حفاظا
لما يسمع ، وكان يقول : لى قلبان أعقل بهما أفضل من عقل محمد . فلما هزم
المشركون يوم بدر ، ومعهم هذا الرجل ، رآه أبو سفيان وهو معلق إحدى نعليه
فى يده والأخرى فى رجله - من شدة الهلع - ، فقال له أبو سفيان هو معلق إحدى
نعليك فى يدك والأخرى فى رجلك؟ قال : ما شعرت إلا أنهما فى رجلى . فعرفوا
يومئذ أنه لو كان له قلبان لما نسى نعله فى يده .وقيل سبب نزولها أن بعض
المنافقين قال : إن محمدا صلى الله عليه وسلم له قلبان ، لأنه ربما كان فى
شئ فنزع فى غيره نزعه ثم عاد إلى شأنه الأول ، فأكذبهم الله بقوله : ( مّا
جَعَلَ اللّه لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ) .ويرى بعضهم : أن هذه
الجملة الكريمة ، مثل ضربه الله - تعالى - للمظاهر من امرأته ، والمتبنى
ولد غيره ، تمهيدا لما بعده .أى : كما أن الله - تعالى - لم يخلق للإنسان
قلبين فى جوفه ، كذلك لم يجعل المرأة الواحدة زوجا للرجل وأما له فى وقت
واحد ، وكذلك لم يجعل المرء دعيا لرجل وابنا له فى زمن واحد .وإلى هذا
المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : أى : ما جمع الله قلبين فى جوف ، ولا
زوجية وأمومة فى امرأة ، ولا بنوة ودعوة فى رجل . . لأن الأم مخدومة مخفوض
، لها الجناح ، والزوجة ليست كذلك .ولأن البنؤة أصالة فى النسب وعراقة فيه
والدعوة : إلصاق عارض بالتسمية لا غير .فإن قلت : أى فائدة فى ذكر الجوف؟
قلت : الفائدة فيه كالفائدة فى قوله - تعالى - : ( ولكن تعمى القلوب التي
، في الصدور ) وذلك ما يصلح للسامع من زيادة التصور والتجلى للمدلول عليه
لأنه إذا سمع به ، صور لنفسه جوفا يشتمل على قلبين فكان أسرع إلى الإنكار
وقوله - سبحانه - : ( وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللائي تُظَاهِرُونَ.
مِنْهُنّ أُمّهَاتِكُمْ ) إبطال لما كان سائدا من أن الرجل كان إذا قال
لزوجته أنت على كظهر أمى حرمت عليه .يقال . ظاهر فلان من امرأته وتظهر وظهر
منها ، إذا قال لها : أنت على كظهر أمى ، يريد أنها محرمة عليه كحرمة أمه
، وقد جاء الكلام عن الظهار ، وعن حكمه ، وعن كفارته ، فى سورة المجادلة.
فى قوله - تعالى - : ( قَدْ سَمِعَ اللّه قَوْلَ التي تُجَادِلُكَ فِي
زَوْجِهَا وتشتكي إِلَى اللّه واللّه يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمآ إِنَّ اللّه
سَمِيعٌ بَصِيرٌ الذين يُظَاهِرُونَ مِنكُمْ مِّن نِّسَآئِهِمْ مّا هُنّ
أُمّهَاتِهِمْ إِنْ أُمّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللائي وَلَدْنَهُمْ
وَإِنّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَراً مِّنَ القول وَزُوراً وَإِنَّ اللّه
لَعَفُوٌّ غَفُورٌ )وقوله - سبحانه - : ( وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ
أَبْنَآءَكُمْ ) إبطال لعادة أخرى كانت موجودة ، وهى عادة التبنى
والأدعياء : جمع دعى . وهو الولد الذى يدعى ابنا لغير أبيه وكان الرجل.
يتبنى ولد غيره ، ويجرى عليه أحكام البنوة النسبية ، ومنها حرمة زواج الأب
بزوجه ابنه بالتبنى بعد طلاقها ، ومنها التوارث فيما بينهما .قال ابن كثير
وقوله : ( وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ) هذا هو المقصود :
بالنفى ، فإنها نزلت فى شأن زيد بن حارثة ، مولى النبى صلى الله عليه وسلم
فقد كان صلى الله عليه وسلم قد تبناه قبل النبوة ، وكان يقال له زيد بن ،
) : محمد . فأراد الله - تعالى - أن يقطع هذا الإلحاق ، وهذه النسبة بقوله
: وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ) ، كما قال فى أثناء السورة
مّا كَانَ مُحَمّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مّن رّجَالِكُمْ ولكن رّسُولَ اللّه )
وَخَاتَمَ النبيين ) واسم الإشارة فى قوله : ( ذَلِكُمْ قَوْلُكُم
بِأَفْوَاهِكُمْ ) يعود إلى ما سبق ذكره من التلفظ بالظهار ، ومن إجراء
التبنى على ولد الغير ، وهو مبتدأ ، وما بعده خبر .أى : ذلكم الذى تزعمونه
فى تشبيه الزوجة بالأم فى التحريم ، ومن نسبة الأبناء إلى غير آبائهم
الشرعيين ، هو مجرد قول باللسان لا يؤيده الواقع ، ولا يسانده الحق .قال
ابن جرير : وقوله : (ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ ) يقول - تعالى
ذكره - هذا القول ، وهو قول الرجل لأمرأته : أنت على كظهر أمى ، ودعاؤه من
ليس بابنه أنه ابنه ، إنما هو قولكم بأفواهكم ، لا حقيقة له ، ولا يثبت
: بهذه الدعوة نسب الذى ادعيت بنوته ، ولا تصير الزوجة أما بقول الرجل لها
أنت على كظهر أمى .ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ( والله
يَقُولُ الحق وَهُوَ يَهْدِي السبيل ) أى : والله - تعالى - يقيول الحق
الثابت الذى لا يحرم حوله باطل ، وهو - سبحانه - دونه غير يهدى ويرشد إلى
السبيل القويم الذى يوصل إلى الخير والصلاح . وما دام الأمر كذلك فاتركوا
، عاداتكم وتقاليدكم التى ألفتموها . والتى أبطلها الله - تعالى - بحكمته
. - وابتعوا ما يأمركم به - سبحانه

ادعوهم لابائهم هو اقسط عند الله فان لم تعلموا اباءهم فاخوانكم في الدين
ومواليكم وليس عليكم جناح فيما اخطاتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله

غفورا رحيما

كما فسرها الوسيط ثم أرشدت إلى الطريق السليمة فى معاملة الابن المتبنى
فقال : ( ادعوهم لآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ الله ) أى انسبوا هؤلاء
- الأدعياء إلى آبائهم ، فإن هَذا النسب هو أقسط وأعدل عند الله - تعالى
قال الآلوسى : أخرج الشيخان " عن ابن عمر - رضى الله عنهما - أن زيد بن.
. حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد
حتى نزل القرآن : ( ادعوهم لآبَآئِهِمْ ) فقال صلى الله عليه وسلم " أنت
زيد بن حارثة بن شراحيل " " .وكان زيد قد أسر فى بعض الحروب ، ثم بيع فى
مكة ، واشتراه حكيم بن حزام ، ثم أهداه إلى عمته السيدة خديجة ، ثم أهدته
: خديجة - رضى الله عنها - إلى النبى صلى الله عليه وسلم وصار الناس يقولون
زيد بن محمد حتى نزلت الآية .وقوله - سبحانه - : ( فَإِن لَّمْ تعلموا
آبَاءَهُمْ فَإِخوَانُكُمْ فِي الدين وَمَوَالِيكُمْ ) إرشاد إلى معاملة
هؤلاء الأدعياء فى حَالة عدم معرفة آبائهم .أى : انسبوا هؤلاء الأدعياء إلى
آباءهم الحقيقيين لكى تنسبوهم إليهم ، فهؤلاء الأدعياء هم إخوانكم فى الدين
والعقيدة ، وهو مواليكم ، فقولوا لهم ، يا أخى أو يا مولاى ، واتركوا
نسبتهم إلى غير آبائهم الشرعيين .وفى الجملة الكريمة إشارة إلى ما كان عليه
، المجتمع الجاهلى من تخلخل فى العلاقات الجنسية ، ومن اضطراب فى الأنساب
، وقد عالج الإسلام كل ذلك بإقامة الأسرة الفاضلة ، المبنية على الطهر
والعفاف ، ووضع الأمور فى مواضعها السليمة .ثم بين - سبحانه - جانبا من
مظاهر اليسر ورفع الحرج فى تشريعاته فقال : ( وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ
فِيمَآ أَخْطَأْتُمْ بِهِ ولكن مّا تَعَمّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ الله
غَفُوراً رّحِيماً ) .أى : انسبوا - أيها المسلمون - الأبناء إلى آبائهم
الشرعيين ، فإن لم تعرفوا آباءهم فخاطبوهم ونادوهم بلفظ : يا أخى أو يا
، مولاى . ومع كل ذلك فمن رحمتنا بكم أننا لم نجعل عليكم جناحا أو إثما
فيما وقعت فيه من خطأ غير مقصود بنسبتكم بعض الأبناء والأدعياء إلى غير
آبائهم ، ولكننا نؤاخذكم ونعاقبكم فيما تعمدته قلوبكم من نسبة الأبناء إلى
غير آبائهم .و ( وَكَانَ الله غَفُوراً رّحِيماً ) - وما زال واسع المغفرة
والرحمة لمن يشاء عن عباده .هذا ، ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هاتين
الآيتين : حرص شريعة الإسلام على إعطاء كل ذى حق حقه ، ومن مظاهر ذلك
إبطال الظهار الذى كان يجعل المرأة محرمة على الرجل ، ثم تبقى بعد ذلك
معلقة ، ولا هى مطلقة ففتزوج غير زوجها ، ولا هى زوجة فتحل له فشرع
- الإسلام كفارة الظهار إنصافا للمرأة ، وحرصا على كرامتها .ومن مظاهر ذلك
، أيضا - : إبطال عادة التبنى ، حتى ينتسب الأبناء إلى آبائهم الشرعيين
وحتى تصير العلاقات بين الآباء والأبناء قائمة على الأسس الحقيقية
. والواقعية .ولقد حذر الإسلام من دعوة الإبن إلى غير أبيه تحذيرا شديدا
ونفر من ذلك .قال القرطبى : جاء فى الحديث الصحيح " عن سعد بن أبى وقاص
وأبى بكرة ، كلاهما قال : سَمعته أذناى ووعاه قلبى ، محمدا صلى الله عليه
وسلم يقول : " من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه
حرام " وفى حديث أبى ذر أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول : " ليس من
. " رجل ادعى لغير أبيه وهو يعلمه إلا كفر

النبي اولى بالمؤمنين من انفسهم وازواجه امهاتهم واولو الارحام بعضهم اولى
ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين الا ان تفعلوا الى اوليائكم
معروفا كان ذلك في الكتاب مسطورا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما يجب على المؤمنين نحو نبيهم صلى
- الله عليه وسلم ونحو أزواجه ، وما يجب للأقارب فيها بينهم ، فقال - تعالى
أى : النبى صلى الله. ( . . . النبي أولى بالمؤمنين مِنْ أَنْفُسِهِمْ ) :
عليه وسلم أحق بالمؤمنين بهم من أنفسهم وأولى فى المحبة والطاعة ، فإذا ما
، دعاهم إلى أمر ، ودعتهم أنفسهم إلى خلافه ، وجب أن يؤثروا ما دعاهم إليه
على ما تدعوهم إليه أنفسهم ، لأنه صلى الله علي وسلم لا يدعوهم إلا إلى ما
ينفعهم ، أما أنفسهم فقد تدعوهم إلى ما يضرهم .وفى الحديث الصحيح الذى رواه
الإمام مسلم عن أبى هريرة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن
- مثلى ومثل أمتى ، كمثل رجل استوقد نارا ، فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه
أى فى الشئ المستوقد - وأنا آخذ بحُجزكم - أى : وأنا آخذ بما يمنعكم من
السقوط كملابسكم ومعاقد الإزار - وأنتم تقحمون فيه " أى : وأنتم تحاولون
، الوقوع فيما يحرقكم - . قال القرطبى : قال العلماء : الحجزة : السراويل
والمعقد للإزار ، فإذا أراد الرجل إمساك من يخاف سقوطه أخذ بذلك الموضع
منه ، وهذا مثل لاجتهاد نبينا صلى الله عليه وسلم فى نجاتنا ، وحرصه على
تخليصنا من الهلكات التى بين أيدينا ، فهو أولى بنا من أنفسنا .وقال
الإمام ابن كثير . قد علم الله - تعالى - شفقة رسوله صلى الله عليه وسلم
على أمته ، ونصحه لهم : فجعله أولى بهم من أنفسهم ، وحكمه فيهم مقدما على
اختيارهم لأنفسهم .وفى الصحيح " والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون

أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين " .وروى البخارى عن هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به فى الدنيا والآخرة . اقرءوا إن شئتم : ( النبي أولى بالمؤمنين مِنْ أَنْفُسِهِمْ ) فأيما مؤمن ترك مالا فليرثه عصبته من كانوا ، فإن ترك دينا أو ضياعا فليأتنى فأنا مولاه " .وروى الإمام أحمد عن جابر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول : " أنا أولى بكل مؤمن من نفسه فأيما رجل مات وترك دينا فإلى ، ومن ترك مالا فلورثته " .وقال الآلوسى : وإذا كان صلى الله عليه وسلم بهذه المثابة فى حق المؤمنين ، يجب عليهم أن يكون أحب إليهم من أنفسهم ، وحكمه - عليه الصلاة والسلام - عليهم أنفذ من حكمها ، وحقه آثر لديهم من حقوقها ، وشفقتهم عليه أقدم من شفقتهم عليها .وسبب نزول الآية - على ما قيل - ما روى من أنه صلى الله عليه وسلم أراد غزوة تبوك ، فأمر الناس بالخروج : فقال أناس منهم : نستأذن آباءنا وأمهاتنا فنلزت . ووجه دلالتها على السبب أنه صلى الله عليه وسلم إذا كان أولى من أنفسهم ، فهو أولى من الأبوين بالطريق الأولى .ثم بين - سبحانه - منزلة أزواجه صلى الله عليه وسلم بالنسبة للمؤمنين فقال : ( وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ) أى : وأزواجه صلى الله عليه وسلم بمنزلة أمهاتكم - أيها المؤمنون - فى الاحترام والإكرام ، وفى حرمة الزواج بهن .قالوا : وأما ما عدا ذلك كالنظر إليهن ، والخلوة بهن ، وإرثهن . فهن كالأجنبيات .ثم بين - سبحانه - أن التوارث إنما يكون بين الأقارب فقال - تعالى - ( وَأُوْلُو الأرحام بَعْضُهُمْ أولى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ المؤمنين والمهاجرين إِلاَّ أَن تفعلوا إِلى أَوْلِيَآئِكُمْ مَّعْرُوفاً كَانَ ذَلِكَ فِي الكتاب مَسْطُوراً )

والمراد بأولى الأرحام : الأقارب الذين تربط بينهم رابطة الرحم كالآباء . والأبناء والإخوة ، والأخوات .وقوله : ( فِي كِتَابِ الله ) متعلق بقوله ( أولى ) أو بمحذوف على أنه حال من الضمير فى ( أولى ) .والمراد بالمؤمنين والمهاجرين . من لا تربط بينهم وبين غيرهم رابطة قرابة .قال ابن كثير : وقد أورد ابن أبى حاتم عن الزبير بن العوام قال : أنزل الله - عز وجل - فينا خاصة معشر قريش والأنصار : ( وَأُوْلُو الأرحام بَعْضُهُمْ أولى بِبَعْضٍ ) وذلك أنا معشر قريش ، لما قدمنا المدينة قدمناه ولا أموال لنا ، فوجدنا الأنصار نعم الإخوان ، فواخيناهم ووارثناهم . . حتى أنزل الله هذه الآية فينا معشر قريش والأنصار خاصة ، فرجعنا إلى مواريثنا .وشبيه بهذه الآية فى وجوب أن يكون التوارث بحسب قرابة الدم ، قوله - تعالى - فى آخر آية من سورة الأنفال : ( والذين آمَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ فأولئك مِنكُمْ وَأُوْلُواْ الأرحام بَعْضُهُمْ أولى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ الله إِنَّ الله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ) والاستثناء فى قوله - سبحانه - : ( إِلاَّ أن تفعلوا إلى أَوْلِيَآئِكُمْ مَّعْرُوفاً ) رجح بعضهم أنه استثناء منقطع . وقوله ( أن تفعلوا ) مبتدأ ، وخبره محذوف والمراد بالكتاب فى قوله ( كَانَ ذَلِكَ فِي الكتاب مَسْطُوراً ) القرآن. الكريم ، أو اللوح المحفوظ .والمعنى : وأولو الأرحام وهم الأقارب ، بعضهم أولى ببعض فى التوارث فيما بينهم ، وفى تبادل المنافع بعضهم مع بعض ، وهذه الأولية والأحقية ثابتة فى كتاب الله - تعالى - حيث بين لكم فى آيات المواريث التى بسورة النساء ، كيفية تقسيم التركة بين الأقارب ، وهم بهذا البيان أولى فى ميراث الميت من المؤمنين والمهاجرين الذين لا تربطهم بالميت صلة القرابة .هذا هو حكم الشرع فيما يتعلق بالتوارث ، لكن إذا أردتم - أيها المؤمنون - أن تقدموا إلى غير أقاربكم من المؤمنين معروفا ، كأن توصوا له ببعض المال فلا بأس ، ولا حرج عليكم فى ذلك .وهذا الحكم الذى بيناه لكم ، فيما يتعلق بالتوارث بين الأقارب ، كان مسطورا ومكتوبا فى اللوح المحفوظ وفى آيات القرآن التى سبق نزولها ، فاعملوا بما شرعناه لكم ، واتركوا ما نهيناكم عنه .قال الشوكانى ما ملخصه : قوله : ( إِلاَّ أَن تفعلوا إلى أَوْلِيَآئِكُمْ مَّعْرُوفاً ) هذا الاستثناء إما متصل من أعم العام ، والتقدير : وأولو الأرحام بعضهم اولى ببعض فى كل شئ من الإرث وغيره ، إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا ، من صدقة أو وصية ، فإن ذلك جائز .وإما منقطع . والمعنى : لكن فعل المعروف للأولياء لا بأس به .والإشارة بقوله : ( كَانَ ذَلِكَ ) تعود إلى ما تقدم ذكره . أى : كان نسخ الميراث بالهجرة والمخالفة والمعاقدة ، ورده إلى ذوى الأرحام من القرابات ( فِي الكتاب مَسْطُوراً ) أى : فى اللوح المحفوظ ، أو فى القرآن مكتوبا .وبذلك نرى الآية الكريمة قد وضحت ما يجب على المؤمنين نحو نبيهم ، وما يجب عليهم نحو أزواجه ، وما يجب عليهم نحو أقاربهم فيما يتعلق بالتوارث .

واذ اخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى ابن مريم واخذنا منهم ميثاقا غليظا

كما فسرها الوسيط ثم ذكر الله - تعالى - رسوله صلى الله عليه وسلم بالعهد الذى أخذه عليه وعلى الأنبياء من قبله ، فقال - تعالى - : ( وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النبيين . . . عَذَاباً أَلِيماً ) .والميثاق : العهد

الموثق المؤكد ، مأخوذ من لفظ وثق ، المتضمن معنى الشد والربط على الشئ
بقوة وإحكام .أى : واذكر - أيها الرسول الكريم - وقت أن أخذنا من جميع
النبيين العهد الوثيق ، على أن يبلغوا ما أوحيناه إليهم من هداياتا للناس ،
وعلى أن يأمروهم بإخلاص العبادة لنا ، وعلى أن يصدق بعضهم بعضا فى أصول
الشرائع ومكارم الأخلاق . . كما أخذنا هذا العهد الوثيق منك ، ومن أنبيائنا
نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم .وخص هؤلاء الأنبياء بالذكر ، للتنويه
بفضلهم ، فهم وألو العزم من الرسل ، وهم الذين تحلموا فى سبيل إعلاء كلمة
الله - تعالى - أكثر ما تحمل غيرهم .وقدم صلى الله عليه وسلم فى قوله
( وَمِنْكَ وَمِن نُّوحٍ ) لمزيد فضله صلى الله عليه وسلم على جميع الأنبياء
قال الآلوسى : وإلا يضر تقديم نوح - عليه السلام - فى سورة الشورى ، أعنى.
قوله - تعالى - : ( شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدين مَا وصى بِهِ نُوحاً والذي
أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ) إذ لك مقام مقال . والمقام فى سورة الشورى وصف دين
الإسلام بالأصالة . والمناسب فيه تقديم نوح ، فكأنه قيل : شرع لكم الدين
الأصيل الذى بعث عليه نوح فى العهد القديم ، وبعث عليه محمد صلى الله عليه
وسلم فى العهد الحديث ، وبعث عليه من توسط بينهما من الأنبياء .وقوله -
سبحانه - : ( وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِّيثَاقاً غَلِيظاً ) معطوف على ما
قبله وهو ( أَخَذْنَا مِنَ النبيين مِيثَاقَهُمْ ) ، لإفادة تفخيم شأن هذا
الميثاق المأخوذ على الأنبياء ، وبيان أنه عهد فى أقصى درجات الأهمية
والشدة .أى : وأخذنا من هؤلاء الأنبياء عهدا عظيم الشأن ، بالغ الخطورة ،
رفيع المقدار .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : فماذا أراد بالميثاق الغليظ؟قلت
أراد به ذلك الميثاق بعينه . إذ المعنى : وأخذنا منهم بذلك الميثاق :
ميثاقا غليظا .والغلظ استعارة فى وصف الأجرام . : والمراد : عظم الميثاق
وجلالة شأنه فى بابه .وقيل : المراد بالميثاق الغليظ : اليمين بالله على
الوفاء بما حملوا .

ليسال الصادقين عن صدقهم واعد للكافرين عذابا اليما

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( لِّيَسْأَلَ الصادقين عَن
صِدْقِهِمْ ) متعلق بقوله : ( أَخَذْنَا ) ، أو بمحذوف . والمراد بالصادقين
الأنبياء الذين أخذ الله عليهم الميثاق .أى : فعل - سبحانه - : ذلك ليسأل :
يوم القيامة أنبياءه عن كلامهم الصادق الذى قالوه لأقوامهم ، وعن موقف
هؤلاء الأقوام منهم .والحكمة من هذا السؤال تشريف هؤلاء الرسل وتكريمهم ،
وتوبيخ المكذبين لهم فيما جاءوهم به من كلام صادق ومن إرشاد حكيم .وقوله -
سبحانه - : ( وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً أَلِيماً ) معطوف على ما
دل عليه قوله ، ليسأل الصادقين .أى : أثاب - عز وجل - الأنبياء الكرام بسبب
صدقهم فى تبليغ رسالته وأعد للكافرين الذين أعرضوا عن دعوة أنبيائهم عذابا
أليما ، بسب هذا الإعراض .وهكذا جمعت الآية الكريمة بين ما أعده -
سبحانه - من ثواب عظيم للصادقين . ومن عذاب أليم للكافرين .

يا ايها الذين امنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءتكم جنود فارسلنا عليهم
ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا

كما فسرها الوسيط وبعد هذا البيان الحكيم لبعض الأحكام الشرعية . انتقلت
السورة الكريمة إلى الحديث عن غزوة الأحزاب ، وعن فضل الله - تعالى - على
المؤمنين فيها ، فقال - سبحانه - : ( ياأيها الذين آمَنُواْ اذكروا . . .
نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ ) .وغزوة الأحزاب ، من الغزوات الشهيرة فى تاريخ
الدعوة الإسلامية ، وكانت - على الراجح - فى شهر شوال من السنة الخامسة
بعد الهجرة .وملخصها - كما ذكر الإمام ابن كثير - أن نفرا من اليهود - على
رأسهم حيى بن أخطب - خرجوا إلى مكة ، واجتمعوا بأشراف قريش وألبوهم على حرب
المسلمين ، فأجابوهم إلى ذلك .ثم خرجوا إلى قبيلة غطفان فدعوهم لحرب
المسلمين ، فاستجابوا لهم - ايضا - .وخرجت قريش فى أحابيشها ومن تابعها ،
والجميع فى جيش قريب من عشرة آلاف رجل .وعندما علم الرسول صلى الله عليه
وسلم بمقدمهم ، أمر بحفر خندق حول المدينة .ووصلت جيوش الأحزاب إلى مشارف
المدينة ، فوجدوا الخندق قد حفر ، وأنه يحول بينهم وبين اقتحامها . كما أن
المسلمين كانوا لهم بالمرصاد .وخلال الفترة العصيبة ، نقض يهود بنى قريظة
عهودهم مع المسلمين ، وانضموا إلى جيوش الأحزاب ، فزاد الخطب على المسلمين
، - ومكث الأعداء محاصرين للمدينة قريبا من شهر . ثم جاء نصر الله - تعالى.
بأن أرسل على جيوش الأحزاب ريحا شديدة ، وجنودا من عنده ، فتصدعت جبهات
الأحزاب ، وانكفأت خيامهم ، وملأ الرعب قلوبهم ، ( وَرَدَّ الله الذين
كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْراً وَكَفَى الله المؤمنين
القتال ) وقد ابتدأ الله - تعالى - الحديث عن هذه الغزوة ، بنداء وجهه إلى
المؤمنين ، ذكرهم فيه بفضله عليهم ، وبرحمته بهم فقال : ( ياأيها الذين
آمَنُواْ اذكروا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ
فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا ) .والمعنى :

) يا من آمنتم بالله حق الإيمان ، ( اذكروا ) على سبيل الشكر والاعتبار
نِعْمَةَ اللَّه عَلَيْكُمْ ) ورحمته بكم .( إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ )
كثيرة ، هى جنود جيوش الأحزاب ( فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً ) شديدة
زلزلتهم ، وجعلتهم يرحلون عنكم بخوف وفزع .كما أرسلنا عليهم ( وَجُنُوداً
لَّمْ تَرَوْهَا ) وهم الملائكة ، الذين ألقوا الرعب فى قلوب أعدائكم
، قالوا : روى أن الله - تعالى - بعث عليهم ريحا باردة فى ليلة باردة.
فألقت التراب فى وجوههم ، وأمر الملائكة فقلعت أوتاد خيامهم ، وأطفأت
: نيرانهم وقذفت فى قلوبهم الرعب . . فقال كل سيد قوم لقومه : يا بنى فلان
النجاء النجاء .وقوله - سبحانه - : ( وَكَانَ اللَّه بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيراً ) تذييل قصد به بيان مظهر آخر من مظاهر فضله - تعالى - عليهم .أى
جاءتكم تلك الجنود الكثيرة . فأرسلنا عليهم ريحا شديدة ، وأرسلنا عليهم :
من عندنا جنودا لم تروها ، وكنا فوق كل ذلك مطلعين على أعمالكم من حفر
الخندق وغيره وسامعين لدعائكم ، وقد أجبناه لكم ، حيث رددنا أعداءكم عنكم
. دون أن ينالوا خيرا

اذ جاءوكم من فوقكم ومن اسفل منكم واذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا

كما فسرها الوسيط ثم فصل - سبحانه - ما حدث للمؤمنين فى هذه الغزوة ، بعد
هذا الإجمال ، فقال : ( إِذْ جَآءُوكُمْ مِّن فَوْقِكُمْ ) أى : من أعلى
. الوادى من جهة المشرق .والجملة بدل من قوله ( إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ )
والمراد بالذين جاءوا من تلك الجهة : قبائل غطفان وهوزان . . وانضم إليهم
بنو قريظة بعد أن نقضوا عهودهم .( وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ) أى : ومن أسفل
) : الوادى من جهة المغرب ، وهم قريش ومعهم أحابيشهم وحلفاؤهم .وقوله
وَإِذْ زَاغَتِ الأبصار ) معطوف على ما قبله ، داخل معه فى حيز التذكير .أى
واذكروا وقت أن زاغت أبصاركم ، ومالت عن كل شئ حولها ، وصارت لا تنظر إلا :
. إلى أولئك الأعداء . يقال زاغ البصر يزيغ زيغا وزيغانا إذا مال وانحرف
ويقال - أيضا : زاغ البصر ، إذا مل وتعب بسبب استدامة شخوصه من شدة الهول
وقوله ( وَبَلَغَتِ القلوب الحناجر ) بيان آخر لما أصاب المسلمين من بلاء.
، بسبب إحاطة جيوش الأحزاب بهم .والحناجر : جمع حنجرة ، وهى جوف الحلقوم
والمراد أن قلوبكم فزعت فزعا شديدا ، حتى لكأنها قد انتقلت من أماكنها إلى
أعلى ، حتى قاربت أن تخرج من أفواهكم .فالآية تصور ما أصاب المسلمين من فزع
وكرب فى غزوة الأحزاب ، وتصيرا بديعا مؤثرا ، يرسم حركات القلوب ، وملامح
الوجوه ، وخلجات النفوس .وقوله - سبحانه - ( وَتَظُنُّونَ بِاللَّه الظنونا )
بيان لما دار فى عقولهم من أفكار ، حين رأوا الأحزاب وقد أحاطوا بالمدينة
والظنون جمع الظن . وهو مصدر يطلق على القليل والكثير منه . وجاء بصيغة.
- الجمع لتعدد أنواعه ، واختلافه باختلاف قوة الإيمان وضعفه .أى : وتظنون
أيها المؤمنون - بالله - تعالى - الظنون المختلفة ، فمنكم من ازداد يقينا
على يقينه ، وازداد ثقة بوعد الله - تعالى - وبنصره ، ومنكم من كان أقل من
ذلك فى ثباته ويقينه ، ومنكم من كان يظهر أمامكم الإيمان والاسلام ، ويخفى
الكفر والعصيان ، وهم المنافقون وهؤلاء ظنوا الظنون السيئة ، بأن اعتقدوا
بأن الدائرة ستدور عليكم .قال ابن كثير : قوله ( وَتَظُنُّونَ بِاللَّه
الظنونا ) قال الحسن : ظنون مختلفة ، ظن المنافقون أن محمدا وأصحابه
- يستأصلون ، وأيقن المؤمنون أن ما وعد الله ورسوله حق ، وأنه - سبحانه
سيظهر دينه على الدين كله ولو كره المشركون ." عن أبى سعيد قال : قلنا يوم
الخندق : يا رسول الله ، هل من شئ نقول ، فقد بلغت القلوب الحناجر؟ فقال
" صلى الله عليه وسلم : نعم : قولوا : اللهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا
. قال : فضرب الله - تعالى - وجوه أعدائه بالريح فهزمهم.

هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا

كما فسرها الوسيط ولفظ ( هُنَالِكَ ) فى قوله - تعالى - : ( هُنَالِكَ
ابتلي المؤمنون ) : ظرف مكان للبعيد ، وهو منصوب بقوله ( ابتلي ) والابتلاء
الاختبار والامتحان بالشدائد والمصائب .أى : فى ذلك المكان الذى أحاط به :
الأحزاب من كل جانب ، امتحن الله - تعالى - المؤمنين واختبرهم ، ليتميز قوى
الإيمان من ضعيفه .( وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالاً شَدِيداً ) أى : واضطربوا
شديدا ، من شدة الفزع ، لأن الأعداء حاصروهم ، ولأن بنى قوى الإيمان من
ضعيفه .( وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالاً شَدِيداً ) أى : واضطربوا اضطرابا شديدا
من شدة الفزع ، لأن الأعداء حاصروهم ، ولأن بنى قريظة نقضوا عهودهم .ولقد ،
بلغ انشغال المسلمين بعدوهم انشغالا عظيما ، حتى أنهم لم يستطيعوا أن يؤدوا
، بعض الصلوات فى أوقاتها ، " وقال بعض الصحابة : يا رسول الله ، ما صلينا
فقال لهم صلى الله عليه وسلم : " ولا أنا ، والله ما صليت ثم قال : شغلنا
المشركون عن الصلاة الوسطى ، صلاة العصر ، ملأ الله أجوافهم وقلوبهم نارا
- وخرجت طليعتان للمسلمين ليلا ، فالتقتا - دون أن تعرف إحداهما الأخرة ."

فتقاتلا . وحديث بينهم ما حدث من جراح وقتل ، ولم يشعروا أنهم من المسلمين
حتى تنادوا بشعار الإسلام :" حم .لا ينصرون " . فكف بعضهم عن بعض .فلما ،
بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم : " جراحكم فى سبيل الله ومن
قتل منكم فإنه شهيد " " .

واذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا

كما فسرها الوسيط ومما زاد فى بلاء المسلمين وحزنهم . ما ظهر من أقوال
قبيحة من المنافقين . حكاها - سبحانه - فى قوله : ( وَإِذْ يَقُولُ
المنافقون والذين فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ
إِلاَّ غُرُوراً ) أى : واذكروا - أيضا - أيها المؤمنون - وقت أن كشف
المنافقون وأشباههم عن نفوسهم الخبيثة وطباعهم الذميمة ، وقلوبهم المريضة ،
فقالوا لكم وأنتم فى أشد ساعات الحرج والضيق : ( مَّا وَعَدَنَا اللهُ
وَرَسُولُهُ ) بالنصر والظفر ( إِلاَّ غُرُوراً ) أى : إلا وعدا باطلا ، لا
يطابق الواقع الذى نعيش فيه .وقال أحدهم : إن محمدا كان يعدنا أن نأخذ كنوز
كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يستطيع أن يذهب إلى الغائط .

واذ قالت طائفة منهم يا اهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستاذن فريق منهم
النبي يقولون ان بيوتنا عورة وما هي بعورة ان يريدون الا فرارا

كما فسرها الوسيط ( وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ ياأهل يَثْرِبَ لاَ
مُقَامَ لَكُمْ فارجعوا . . . ) .أى : واذكروا - كذلك - أيها المؤمنون -
وقت أن قالت لكم طائفة من هؤلاء المنافقين : ( ياأهل يَثْرِبَ ) أى : يا
أهل المدينة ، لا مقام لكم فى هذا المكان الذى تقيمون فيه بجوار الخندق
لحماية بيوتكم ومدينتكم ، فارجعوا إلى مساكنكم ، واستسلموا لأعدائكم .قال
الشوكانى : وذلك أن المسلمين خرجوا فى غزوة الخندق ، فجعلوا ظهورهم إلى جبل
سلع ، وجعلوا وجوههم إلى العدو ، وجعلوا الخندق بينهم وبين القوم . فقال
هؤلاء المنافقون : ليس ها هنا موضع إقامة وأمروا الناس بالرجوع إلى منازلهم
بالمدينة .ثم بين - سبحانه - أن هؤلاء المنافقين لم يكتفوا بهذا القول
من الوقوف إلى جانب المؤمنين ، فقال - تعالى - : الذميم ، بل كانوا يهربون
( وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النبي يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا
عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً ) .أى :
أنهم كانوا يحرضون غيرهم على ترك مكانه فى الجهاد ، ولا يكتفون بذلك ، بل
كان كل فريق منهم يذهب إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فيستأذنه فى
الرجوع إلى بيوتهم ، قائلين له : يا رسول الله : ( إِنَّ بُيُوتَنَا
عَوْرَةٌ ) أى : خالية ممن يحرسها .يقال : دار ذات عورة إذا سهل دخولها
لقلة حصانتها .وهنا يكشف القرآن عن حقيقتهم ويكذبهم فى دعواهم فيقول :
( وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ) أى : والحال أن بيوتهم كما يزعمون ، وإنما الحق
أنهم يريدون الفرار من ميدان القتال ، لضعف إيمانهم ، وجبن نفوسهم .روى " أن
بنى حارثة بعثوا أحدهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقول له : إن
بيوتنا عورة ، وليست دار من دور الأنصار مثل دورنا ، وليس بيننا وبين غطفان
أحد يردهم عنا ، فأذن لنا كى نرجع إلى دورنا ، فمنع ذرارينا ونساءنا . فأذن
لهم صلى الله عليه وسلم .فبلغ سعد بن معاذ ذلك فقال : يا رسول الله ، لا
تأذن لهم ، إنا والله ما أصابنا وإياهم شدة إلا فعلوا ذلك . . فردهم " .

ولو دخلت عليهم من اقطارها ثم سئلوا الفتنة لاتوها وما تلبثوا بها الا
يسيرا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن هؤلاء المنافقين جمعوا لأنفسهم كل
نقيض ، فهم يسرعون إلى ما يؤذى المؤمنين ، ويبطئون عما ينفعهم ، فقال -
تعالى - : ( وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ
سُئِلُواْ الفتنة لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلاَّ يَسِيراً )
والضمير فى قوله - تعالى - ( دُخِلَتْ ) للبيوت أو للمدينة . وفاعل الدخول
من يدخل هذه البيوت أو المدينة من أهل الكفر والفاسد . وأسند - سبحانه -
الدخول إلى بيوتهم ، للإشعار بأن الأعداء يدخلونها وهم قابعون فيها .
والأقطار : جمع قطر بمعنى الناحية والجانب والجهة .والمراد بالفتنة هنا ،
الردة عن الإسلام أو قتال المسلمين .وقوله ( لآتَوْهَا ) قرأه الجمهور
بالمد بمعنى لأعطوها . وقرأه نافع وابن كثير ( لآتَوْهَا ) بالقصر ، بمعنى
لجاءوها وفعلوها والتلبث : الإبطاء والتأخر .والمعنى إن هؤلاء المنافقين
الذين يزعمون أن بيوتهم عورة ، هم كاذبون فى زعمهم ، وهم أصحاب نيات خبيثة
ونفوس عارية عن كل خير .والدليل على ذلك ، أن بيوتهم هذه التى يزعمون ،
أنها عورة ، لو اقتحمها عليهم مقتحم من المشركين وهم قابعون فيها ، ثم طلب
منهم أن ينضم إليهم فى مقاتلة المسلمين ، لسارعوا إلى تلبية طلبه ، ولكانوا
مطيعين له كل الطاعة ، وما تأخروا عن تلبية طلبه إلا لمدة قليلة ، يعدون

العدة خلالها لقتالكم - أيها المسلمون - وللانسلاخ عن كل رابطة تربطكم بهم
) : لأن عقيدتهم واهنة ، ونفوسهم مريضة خائرة .قال صاحب الكشاف : قوله .
: وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ ) أى : المدينة . وقيل : بيوتهم . من قولك
دخلت على فلان داره ( مِّنْ أَقْطَارِهَا ) أى . من جوانبها . يريد : ولو
دخلت هذه العساكر المتحزبة - التى يفرون منها - مدينتهم من نواحيها كلها
وانثالت على أهاليهم .وألادهم ناهبين سابين ، ثم سئلوا عند ذلك الفزع وتلك
، الرجفة ، ( الفتنة ) أى : الردة والرجعة إلى الكفر ، ومقاتلة المسلمين
لأتوها ، أى : لجاءوها ولفعلوها . وقرئ . لأتوها أى لأعطوها ( وَمَا
تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلاَّ يَسِيراً ) ريثما يكون السؤال والجواب من غير
. توقف . أو ما لبثوا بالمدينة بعد ارتدادهم إلا يسيرا ، فإن الله يهلكهم

ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الادبار وكان عهد الله مسئولا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ، أن من الصفات اللازمة
للمنافقين ، نقضهم لعهودهم فقال - تعالى - : ( وَلَقَدْ كَانُواْ
عَاهَدُواْ الله مِن قَبْلُ لاَ يُوَلُّونَ الأدبار وَكَانَ عَهْدُ الله
مَسْئُولاً ) .أى : ولقد كان هؤلاء المنافقون قد حلفوا من قبل غزوة الأحزاب
أنهم سيكونون معكم فى الدفاع عن الحق وعن المدينة المنورة التى يساكنونكم ،
: فيها ، ولكنهم لم يفوا بعهودهم .( وَكَانَ عَهْدُ الله مَسْئُولاً ) أى
- مسئولا عنه صاحبه الذى عاهد الله - تعالى - على الوفاء ، وسيجازى
. سبحانه - كل ناقض لعهده ، بما يستحقه من عقاب

قل لن ينفعكم الفرار ان فررتم من الموت او القتل واذا لا تمتعون الا قليلا

، كما فسرها الوسيط ثم واصلت السورة الكريمة حديثها عن هؤلاء المنافقين
. . فوبختهم على سوء فهمهم ، وعلى جبنهم وخورهم ، وعلى سلاطة ألسنتهم
فقال - تعالى - : ( قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الفرار . . . . مّا قاتلوا
) : إِلاَّ قَلِيلاً ) .أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المنافقين
لَّن يَنفَعَكُمُ الفرار إِن فَرَرْتُمْ مِّنَ الموت أَوِ القتل ) ، لأن كل
إنسان لا بد له من نهاية تنتهى عندها حياته ، سواء أكانت تلك النهاية عن
، طريق القتل بالسيف ، أم عن طريق الموت على الفراش .وما دام الأمر كذلك
فعلى هؤلاء المنافقين أن يعلموا : أن الجبن لا يؤخر الحياة ، وأن الشجاعة
لا تقدمها عن موعدها . وصدق الله إذ يقول : (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ
فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ
يَسْتَقْدِمُونَ ) وقوله : ( إِن فَرَرْتُمْ . . . ) جوابه محذوف لدلالة ما
سبق عليه . أى : إن فررتم لن ينفعكم فراركم .وقوله : ( وَإِذاً لاَّ
تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ) تذييل قصد به زجرهم عن الجبن الذى استولى
- عليهم .أى : إن فراركم من الموت أو القتل ، إن نفعكم - على سبيل الفرض
لفترة من الوقت ، فلن ينفعكم طويلا ، لأنكم لن تتمتعوا بالحياة بعد هذا
الفرار إلا وقتا قليلا ، ثم ينزل بكم قضاء الله - تعالى - الذى لا مرد لكم
. منه ، فما تفرون منه هو نازل بكم قطعا

قل من ذا الذي يعصمكم من الله ان اراد بكم سوءا او اراد بكم رحمة ولا يجدون
لهم من دون الله وليا ولا نصيرا

كما فسرها الوسيط ثم أمر الله - تعالى - رسوله صلى الله عليه وسلم أن
يقرعهم بحجة أخرى لا يستطيعون الرد عليها ، فقال : ( قُلْ مَن ذَا الذِي
يَعْصِمُكُمْ مِّنَ الله إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سواءا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ
رَحْمَةً ) .أى : قبل - أيها الرسول - لهؤلاء الجاهلين : من هذا الذى يملك
، أن يدفع ما يريده الله - تعالى - بكم من خير أو شر ، ومن نعمة أو نقمة
ومن موت أو حياة .إن أحداً لا يستطيع أن يمنع قضاء الله عنكم . فالاستفهام
للإنكار والنفى .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف جعلت الرحمة قرينة السوء
فى العصمة ، ولا عصمة إلا من السوء؟قلت : معناه ، أو يصيبكم بسوء إن أراد
" : بكم رحمة ، فاختصر الكلام وأجرى مجرى قول : " متقلدا سيفا ورمحا " - أى
متقلدا سيفا وحاملا رمحا " .وقوله - تعالى - : ( وَلاَ يَجِدُونَ لَهُمْ
مِّن دُونِ الله وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً ) معطوف على ما قبله . أى :لا
- يجدون من يعصمهم مما يرديه الله - تعالى - بهم ، ولا يجدون من دونه
سبحانه - وليا ينفعهم ، أو نصيرا ينصرهم ، إذ هو وحده - سبحانه - الناصر
والمغيث والمجير .قال - تعالى - : ( مّا يَفْتَحِ الله لِلنَّاسِ مِن
رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِن
بَعْدِهِ وَهُوَ العزيز الحكيم ).

قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لاخوانهم هلم الينا ولا ياتون الباس
الا قليلا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن علمه محيط بهؤلاء المنافقين ، وأنهم
لن يفلتوا من عقابه ، فقال : ( قَدْ يَعْلَمُ الله المعوقين مِنكُمْ
والقآئلين لإِخْوَانِهِمْ هَلُمّ إِلَيْنَا وَلاَ يَأْتُونَ البأس إِلاَّ
قَلِيلاً ) .قال الآلوسى ما ملخصه : قال ابن السائب : الآية فى عبد الله بن
أبى وأمثاله ممن رجع من المنافقين من الخندق إلى المدينة . كانوا إذا جاءهم
، المنافق قالوا له : ويحك اجلس ولا تخرج ، ويكتبون إلى إخوانهم فى العسكر
أن ائتونا فإنا ننتظركم .وكان بعضهم يقول لبعض : ما محمد وأصحابه إلا
أكْلَةُ راس ، ولو كانوا لحما لالتهمهم أبو سفيان وأصحابه ، فخلوهم .و " قد
للتحقيق ، لأن الله - تعالى -لا يخفى عليه شئ . و " المعوقين " من "
العَوْق وهو المنع والصرف ، يقال : عاق فلان فلانا ، إذا صرفه عن الجهة
: التى يريدها .و " من " فى قوله ( مِنكُمْ ) للبيان . والمراد بالأخوة
التطابق والتشابه فى الصفات الذميمة ، والاتجاهات القبيحة . التى على رأسها
كراهيتهم للنبى صلى الله عليه وسلم ولأصحابه .و " هلم " اسم فعل أمر بمعنى
. أقبل .والمعنى : إن الله - تعالى -لا يخفى عليه حال أولئك المنافقين
الذين يخذلون ويثبطون ويصرفون إخوانهم فى النفاق والشقاق ، عن الاشتراك مع
المؤمنين ، فى حرب جيوش الأحزاب ، ويقولون لهم : ( هَلُمَّ إِلَيْنَا ) أى
أقبلوا نحونا ، وتعالوا إلى جوارنا ، ولا تنضموا إلى صفوف المسلمين :
وقوله - سبحانه - : ( وَلاَ يَأْتُونَ البأس إِلاَّ قَلِيلاً ) ذم لهم على.
جبنهم وخورهم .أى : أن من صفاتهم الأصيلة أنهم جبناء ، ولا يقبلون على
، الحرب والقتال ، إلا إقبالا قليلا . فهم تارة يخرجون مع المؤمنين
. لإِيهامهم أنهم معهم ، أو يخرجون معهم على سبيل الرياء والطمع فى غنيمة

اشحة عليكم فاذا جاء الخوف رايتهم ينظرون اليك تدور اعينهم كالذي يغشى عليه
من الموت فاذا ذهب الخوف سلقوكم بالسنة حداد اشحة على الخير اولئك لم
يؤمنوا فاحبط الله اعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا

كما فسرها الوسيط ثم أخذت السورة الكريمة فى تصوير ما جبلوا عليه من سوء
تصويرا معجزا ، فقال - تعالى - ( أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ) ، جمع شحيح من
الشح وهو البخل فى أبح صوره . ولفظ ( أَشِحَّةً ) منصوب على الحال من
الضمير فى قوله : ( وَلاَ يَأْتُونَ البأس إِلاَّ قَلِيلاً ) .أى : أن من
- صفات هؤلاء المنافقين الجبن والخور ، حالة كونهم بخلاء بكل خير يصل إليكم
أيها المؤمنون - فهم لا يعاونوكم فى حفر الخندق ، ولا فى الدفاع عن الحق
والعرض والشرف ولا فى أى شئ فيه منفعة لكم .(فَإِذَا جَآءَ الخوف ) ، أى
) . فإذا اقترب الوقت الذى يتوقع فيه اللقاء بينكم وبين أعدائكم
) رَأَيْتَهُمْ ) أيها الرسول الكريم - ( يَنظُرُونَ إِلَيْكَ ) بجبن وهلع
تَدورُ أَعْيُنُهُمْ ) فى مآقيهم يمينا وشمالا .وحالهم كحال الذى ( يغشى
عَلَيْهِ مِنَ الموت ) أى : كحال الذى أحاط به الموت من كل جانب ، فصار فى
أقصى دركات الوهن والخوف والفزع .هذه هى حالهم عندما يتوقعون الشدائد
) - والمخاوف ، أما حالهم عند الأمان وذهاب الخوف ، فهى كما قال - تعالى
) فَإِذَا ذَهَبَ الخوف سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ) .وقوله
سَلَقُوكُمْ ) من السّلْق . وأصله بسط العضو ومده للأذى ، سواء أكان هذا
العضو يدا أو لسانا . والمراد به الإيذاء بالكلام السيئ القبيح .أى : أنهم
عند الشدائد جبناء بخلاء ، فإذا ما ذهبا لخوف وحل الأمان ، سلطوا عليكم
ألسنتهم البذيئة بالأذى والسوء ، ورموكم بألسنة ماضية حادة ، تؤثر تأثير
، الحديد فى الشئ ، وارتفعت أصواتهم بعد أن كانوا إذا ما ذكر القتال أمامهم
صار حالهم كحال المغشى عليه من الموت .ثم هم بعد كل ذلك ( أَشِحَّةً عَلَى
الخير ) أى بخلاء بكل خير ، فهم يحرصون على جمع الغنائم ، وعلى الأموال بكل
وسيلة ، ولكنهم لا ينفقون شيئا منها فى وجه من وجوه الخير والبر .قال ابن
كثير قوله ( أَشِحَّةً عَلَى الخير ) أى : ليس فيهم خير ، قد جمعوا الجبن
والكذب وقلة الخير ، فهم كما قال فى أمثالهم الشاعر :أفى السلم أعْيَاراً
جفاء وغلظة ... وفى الحرب أمثال النساء العواركأى : هم فى حال المسالمة
كأنهم الحمير الأعيار . جمع عير وهو الحمار . وفى الحرب كأنهم النساء الحيض
ثم بين - سبحانه - سوء مصيرهم فقال : ( أولئك لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ.
الله أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى الله يَسِيراً ) .أى : أولئك
المنافقون الموصوفون بما سبق من الصفات السيئة ( لَمْ يُؤْمِنُواْ ) بما
يجب الإيمان به إيمانا صادقا ، بل قالوا بألسنتهم قولا تكذبه قلوبهم
وأفعالهم ( فَأَحْبَطَ الله أَعْمَالَهُمْ ) بأن أبطلها وجلها هباء منثورا
- وكان ذلك الإحباط على الله - سبحانه - هينا يسيرا .وخص - سبحانه ،
يُسْرَ إحباط عملهم بالذكر مع أن كل شئ يسير عليه - تعالى - لبيان أن
أعمالهم جديرة بالإحباط والإفساد ، لصدورها عن قلوب مريضة ، ونفوس خبيثة
قال صاحب الكشاف : وهل يثبت للمنافقين عمل حتى يرد عليه الإحباط؟قلت :لا.
، لكنه تعليم لن عسى يظن أن الإيمان باللسان إيمان ، وإن لم يوطئه القلب ،
، وإن ما يعمل المنافق من الأعمال يجدى عليه ، فبين أن إيمانه ليس بإيمان

وأن كل عمل يوجد منه باطل ، وفيه بعث على إتقان المكلف أساس أمره وهو الإيمان الصحيح ، وتنبيه على أن الأعمال الكثيرة من غير تصحيح المعرفة كالبناء من غير أساس ، وأنها مما يذهب عند الله هباء منثورا .

يحسبون الاحزاب لم يذهبوا وان يات الاحزاب يودوا لو انهم بادون في الاعراب يسالون عن انبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا الا قليلا

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - هذا الحديث الجامع عن صفات المنافقين عند الشدائد والمحق فقال : ( يَحْسَبُونَ الأحزاب لَمْ يَذْهَبُواْ ) .أى : أن هؤلاء المنافقين بلغ بهم الجبن والخور ، أنهم حتى بعد رحيل الأحزاب عن المدينة ، ما زالوا يحسبون ويظنون أنهم لم يذهبوا عنها ، فهم يأبون أن يصدقوا أن الله - تعالى - قد رد الذين كفروا بغيظهم دون أن ينالوا خيرا وفى هذه الجملة ما فيها من التهكم بالمنافقين ، حيث وصفتهم بأنهم حتى بعد ذهاب أسباب الخوف ، ما زالوا فى جبنهم يعيشون .ثم بين - سبحانه - حالهم فيما لو عاد الأحزاب على سبيل الفرض والتقدير فقال : ( وَإِن يَأْتِ الأحزاب ) .أى : إلى المدينة مرة ثانية .( يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الأعراب ) أى : وإن تعد جيوش الأحزاب إلى مهاجمة المدينة مرة ثانية ، يتمنى هؤلاء المنافقون ، أن يكونوا غائبين عنها ، نازلين خارجها مع أهل البوادى من الأعراب ، حتى لا يعرضوا أنفسهم للقتال .فقوله : ( بَادُونَ جمع باد وهو ساكن البادية . يقال : بدا القوم بَدّا ، إذا نزحوا من ( - المدن إلى البوادى .والأعراب : جمع أعرابى وهو من يسكن البادية .ثم بين سبحانه - تلهفهم على سماع الأخبار السيئة عن المؤمنين فقال : ( يَسْأَلُونَ ( عَنْ أَنبَآئِكُمْ وَلَوْ كَانُواْ فِيكُمْ مَّا قاتلوا إِلاَّ قَلِيلاً أى : هؤلاء المنافقون يسألون القادمين من المدينة ، والذاهبين إليها من أخباركم - أيها المؤمنون - حتى لكأنهم غير ساكنين فيها .ولو كانوا فيكم عندما يعود الكافرون إلى المدينة - على سبيل الفرض - ما قاتلوا معكم إلا قتالا قليلا حتى لا ينكشف أمرهم انكشافا تاما . فهم لا يقاتلون عن رغبة ، وإنما يقاتلون رياء ومخادعة .وهكذا نجد الآيات الكريمة قد أفاضت فى شرح الأحوال القبيحة التى كان عليها المنافقون عندما هاجمت جيوش الأحزاب المدينة ، ووصفتهم بأبشع الصفات وأبغضها إلى كل نفس كريمة ، حتى يحذرهم المؤمنون .وكعادة القرآن الكريم فى المقارنة بين الأخيار والأشرار ، ساقت السورة بعد ذلك صورة مشرقة مضيئة للمؤمنين الصادقين ، الذين عندما رأوا جيوش الأحزاب قالوا : ( هذا مَا وَعَدَنَا الله وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ الله وَرَسُولُهُ ) والذين صدقوا ما عدوا الله عليه دون أن يبدلوا تبديلا .

لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الاخر وذكر الله كثيرا

كما فسرها الوسيط لنستمع إلى القرآن الكريم وهو يصور لنا موقف المؤمنين فى - غزوة الأحزاب ، كما يحكى جانبا من فضل الله عليهم ، ومن لطفه بهم فيقول سبحانه - : ( لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ . . . كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً ) .قال القرطبى : قوله - تعالى - : ( لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ) أى : كان لكم قدوة فى النبى صلى الله عليه وسلم حيث بذلك نفسه لنصرة دين الله ، فى خروجه إلى الخندق . والأسوة : القدوة . وقرأ عاصم ( أُسوة ) بضم الهمزة . والباقون بكسرها . والجمع أُسىً ، وإسًى - بضم الهمزة وكسرها .يقال : فلان ائتسى بفلان ، إذا اقتدى به وسار على نهجه وطريقته .وقال الإمام ابن كثير : هذه الآية الكريمة أصل كبير فى الأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم فى أقواله وأفعاله وأحواله ولهذا أمر الناس بالتأسى بالنبى صلى الله عليه وسلم كان فى هذه الغزوة بصفة خاصة ، وفى غيرها بصفة عامة القدوة الحسنة الطيبة فى كل أقواله وأفعاله وأحواله صلى الله عليه وسلم .لقد شارك أصحابه فى حفر الخندق ، وفى الضرب بالفأس . وفى حمل التراب بل وشاركهم فى أراجيزهم وأناشيدهم ، وهم يقومون بهذا العمل الشاق المتعب .وشاركهم فى تحمل آلام الجوع ، وآلام السهر . بل كان صلى الله عليه وسلم هو القائد الحازم الرحيم ، الذى يلجأ إليه أصحابه عندما يعجزون عن إزالة عقبة صادفتهم خلال حفرهم للخندق .قال ابن إسحاق ما ملخصه : وعمل المسلمون فيه - أى فى الخندق - حتى أحكموه ، وارتجزوا فيه برجل من الملسمين يقال له " جُعَيلٌ " سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عَمْراً ، فقالوا :سماه من بعد جعيل عمرا ... وكان للبائس يما ظهيرافإذا " : مروا بعمرو ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " عمرا " وإذا بظهر قال ظهرا " .ثم قال ابن إسحاق : وكان فى حفر الخندق أحاديث بلغتنى فيها تحقيق نبوته صلى الله عليه وسلم فكان فيما بلغنى أن جابر بن عبد الله كان يحدث ، أنهم اشتدت عليهم فى بعض الخندق كُدْيَةٌ - أى صخرة عظيمة - ، فشكوا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعا بإناء من ماء فتفل فيه ، ثم دعا بما شاء الله أن يدعو به ، ثم نضح ذلك الماء على تلك الكدية ، فيقول من حضرها :

فوالذى بعثه بالحق نبيا لانهالت - أى : لتفتت - حتى عادت كالكثيب - أى
كالرمل المتجمع -لا ترد فأسا ولا مسحاة .وهذه الآية الكريمة وإن كان
نزولها فى غزوة الأحزاب ، إلا أن المقصود بها وجوب الاقتداء بالرسول صلى
الله عليه وسلم فى جميع أقواله وأفعاله ، كما قال - تعالى - : ( وَمَا
آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهوا ) والجار
والمجرور فى قوله - سبحانه - : ( لِّمَن كَانَ يَرْجُو الله واليوم الآخر )
متعلق بمحذوف صفة لقوله ( حَسَنَةٌ ) ، أو بهذا اللفظ نفسه وهو ( حَسَنَةٌ
والمراد بمن كان يرجو الله واليوم الآخر : المؤمنون الصادقون الذين وفو. (
بعهودهم .أى : لقد كان لكم - أيها الناس - قدوة حسنة فى نبيكم صلى الله
عليه وسلم ، وهذه القدوة الحسنة كائنة وثابتة للمؤمنين حق الإيمان . الذين
يرجون ثواب الله - تعالى - ، ويؤملون رحمته يوم القيامة ، إذ هم المنتفعون
بالتأسى برسولهم صلى الله عليه وسلم وقوله : ( وَذَكَرَ الله كَثِيراً )
معطوف على ( كَانَ ) ، أى : هذه الأسوة الحسنة بالرسول صلى الله عليه وسلم
ثابتة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، ولمن ذكر الله - تعالى - ذكرا
- كثيرا ، لأن الملازمة لذكر الله - تعالى - توصل إلى طاعته والخوف منه
سبحانه - .وجمع - سبحانه - بين الرجاء والإكثار من ذكره ، لأن التأسى
. التام بالرسول صلى الله عليه وسلم لا يتحقق إلا بهما

ولما راى المؤمنون الاحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله
ورسوله وما زادهم الا ايمانا وتسليما

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - على سبيل التشريف والتكريم - ما قاله
) : - المؤمنون الصادقون عندما شاهدوا جيوش الأحزاب ، فقال - تعالى
وَلَمَّا رَأى المؤمنون الأحزاب قَالُواْ هذا مَا وَعَدَنَا الله
وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ الله وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً
وَتَسْلِيماً ) .واسم الإشارة ( هذا ) يعود إلى ما رأوه من الجيوش التى
جاء بها المشركون ، أو إلى ما حدث لهم من ضيق وكرب بسبب ذلك .أى : وحين رأى
المؤمنون الصادقون جيوش الأحزاب وقد أقبلت نحو المدينة ، لم يهنوا ولم
يجزعوا ، بل ثبتوا على إيمانهم وقالوا ( هذا ) الذى نراه من خطر داهم ، هو
ما وعدنا به الله ورسوله ، وأن هذا الخطر سيعقبه النصر ، وهذا الضيق سيعقبه
الفرج ، وهذا العسر سيأتى بعد اليسر .قال الآلوسى ما ملخصه : وأرادوا
بقولهم ذلك ، ما تضمنه قوله - تعالى - فى سورة البقرة : ( أَمْ حَسِبْتُمْ
أَن تَدْخُلُواْ الجنة وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الذين خَلَوْاْ مِن
قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ البأسآء والضرآء وَزُلْزِلُواْ حتى يَقُولَ الرسول
والذين آمَنُواْ مَعَهُ متى نَصْرُ الله ألا إِنَّ نَصْرَ الله قَرِيبٌ )
وكان نزول هذه الآية قبل غزوة الخندق بحول - كما جاء عن ابن عباس .وفى
رواية عن ابن عباس - أيضا - " أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه
: إن الأحزاب سائرون إليكم تسعا أو عشرا " ، أى : فى آخر تسع ليال أو عشر
، أى : من وقت الاخبار ، أو من غرة الشهر فلما رأوهم قد أقبلوا فى الموعد
الذى حدده صلى الله عليه وسلم قالوا ذلك .وقوله - تعالى - : ( وَصَدَقَ
الله وَرَسُولُهُ ) داخل فى حيز ما قالوه .أى : قالوا عندما شاهدوا جيوش
الأحزاب : هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وقالوا - أيضا - على سبيل التأكيد
: وقوة اليقين والتعظيم لذات الله ، ولشخصية رسوله : وصدق الله ورسوله ، أى
وثبت صدق الله - تعالى - فى أخباره ، وصدق رسوله صلى الله عليه وسلم فى
أقواله .والضمير فى قوله : ( وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً
وَتَسْلِيماً ) يعود إلى ما رأوه من جيوش الأحزاب ومن شدائد نزلت بهم بسبب
ذلك .أى - وما زادهم ما شهدوه من جيوش الأحزاب ، ومن بلاء أحاط بهم بسبب
ذلك ، إلا إيمانا بقدرة الله - تعالى - وتسليما لقضائه وقدره ، وأملا فى
. نصره وتأييده

من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من
ينتظر وما بدلوا تبديلا

كما فسرها الوسيط ثم أضاف - سبحانه إلى هذا المديح لهم ، مديحا آخر فقال :
مِّنَ المؤمنين رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَاهَدُواْ الله عَلَيْهِ )
فَمِنْهُمْ مَّن قضى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ
تَبْدِيلاً ) والنحب : النذر ، وهو أن يلتزم الانسان الوفاء بأمر تعهد به
وقضاؤه : الفراغ منه ، والوفاء به على أكمل وجه .وكان رجال من الصحابة قد
نذروا ، أنهم إما صاحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حرب ، أن يثبتوا
معه ، وأن لا يفروا عنه .والمعنى : من المؤمنين رجال كثيرون ، وفوا أكمل
وفاء بما عاهدوا الله - تعالى - عليه ، من التأييد لرسوله صلى الله عليه
وسلم ومن الثبات معه فى كل موطن .(فَمِنْهُمْ مَّن قضى نَحْبَهُ ) أى
: فمنهم من وفى بوعده حتى أدركه أجله فمات شهيدا - كحمزة بن عبد المطلب
، ومصعب ابن عمير وغيرهما - رضى الله عنهم أجمعين - .( وَمِنْهُمْ مَّن

يَنتَظِرُ ) أى : ومنهم من هو مستمر على الوفاء ، وينتظر الشهادة فى سبيل الله - تعالى - فى الوقت الذى يريده - سبحانه - ويختاره ، كبقية الصحابة الذين نزلت هذه الآية وهم ما زالوا على قيد الحياة .قال الامام ابن كثير : قال الامام أحمد : حدثنا هاشم من القاسم ، حدثنا سليمان بن المغيرة ، عن ثابت قال أنس : غاب عمى أنس بن النضر - سُمِّيتُ به - لم يشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر ، فشق عليه وقال : أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غبت عنه ، لئن أرانى الله مشهدا فيما بعد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليَرِيّن الله ما أصنع . قال : فهاب أن يقول غيرها . فشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد .فاستقبل سعد بن معاذ ، فقال له أنس : يا ابا عمرو ، أين واهاً لريح الجنة أجده دون أحد .قال : فقاتلهم حتى قتل : فوُجِدَ فى جسده بضْعُ وثمانون من ضربة وطعنة ورمية فقالت أخته - عمتى الرُّبَيِّع ابنة النضر - فما عرفت أخى إلا ببنانه .قال : فنزلت هذه الآية : ( مِّنَ المؤمنين رِجَالٌ ) فكانوا يرون أنها نزلت فيه وفى أصحابه - رضى الله عنهم ، ورواه مسلم والترمذى والنسائى من حديث سليمان بن المغيرة .وقوله - تعالى - : ( وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلاً ) معطوف على ( صَدَقُواْ ) أى : هؤلاء الرجال صدقوا صدقا تاما فى عهودهم مع الله - تعالى - حتى آخر لحظة من لحظات حياتهم ، وما غيروا ولا بدلوا شيئا مما عاهدوا الله - تعالى - عليه .

ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين ان شاء او يتوب عليهم ان الله كان غفورا رحيما

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - الحكمة من هذا الابتلاء والاختبار فقال : ( لِّيَجْزِيَ الله الصادقين بِصِدْقِهِمْ ) أى : فعل - سبحانه - ما فعل. فى غزوة الأحزاب من أحداث ، ليجزى الصادقين فى إيمانهم الجزاء الحسن الذى يستحقونه بسبب صدقهم ووفائهم .( وَيُعَذِّبَ المنافقين إِن شَآءَ ) أى : إن شاء تعذيبهم بسبب موتهم على نفاقهم .( أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ) من نفاقهم بفضله وكرمه فلا يعذبهم .قال الجمل : وقوله : ( وَيُعَذِّبَ المنافقين إِن شَآءَ ) جوابه محذوف ، وكذلك مفعول ( شَآءَ ) محذوف - أيضا - إن شاء تعذيبهم عذبهم .والمراد بتعذيبهم إماتتهم على النفاق ، بدليل العطف فى قوله - تعالى - ( كَانَ ) وما زال - ( إِنَّ الله ). ( أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ) أى : واسع المغفرة والرحمة لمن يشاء من عباده ( غَفُوراً رَّحِيماً ) .

ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - المصير السيئ الذى انتهى إليه الكافرون فقال : ( وَرَدَّ الله الذين كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْراً ) .أى : ورد الله - تعالى - بفضله وقدرته الذين كفروا عنكم - أيها المؤمنون - حالة كونهم متلبسين بغيظهم وحقدهم . دون أن ينالوا أى خير من إتيانهم إليكم ، بل رجعوا خائبين خاسرين .فقوله ( بِغَيْظِهِمْ ) حال من الموصول ، والباء للملابسة ، وجملة ( لَمْ يَنَالُواْ خَيْراً ) حال ثانية من الموصول أيضا .وقوله : ( وَكَفَى الله المؤمنين القتال ) بيان للمنة العظمى التى امتن بها - سبحانه - عليهم .أى : وأغنى الله - تعالى - بفضله وإحسانه المؤمنين عن متاعب القتال وأهواله بأن أرسل على جنود الأحزاب ريحا شديدة ، وجنودا من عنده .( وَكَانَ الله ) - تعالى - ( قَوِيّاً ) على إحداث كل أمر يريده ( عَزِيزاً ) أى : غالبا على كل شئ .قال ابن كثير : وفى قوله ( وَكَفَى الله المؤمنين القتال ) إشارة إلى وضع الحرب بينهم وبين قريش . وهكذا وقع بعدها . لم يغزهم المشركون ، بل غزاهم المسلمون فى بلادهم قال محمد بن إسحق : لما انصرف أهل الخندق عن الخندق ، قال رسول الله صلى ". الله عليه وسلم فيما بلغنا : " لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ، ولكنكم تغزونهم " فلم تغز قريش بعد ذلك المسلمين ، وكان صلى الله عليه وسلم هو الذى يغزوهم بعد ذلك ، حتى فتح الله عليه مكة .وروى الإمام أحمد " عن سليمان بن صرد قال : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب : " الآن نغزوهم ولا يغزونا " " .

وانزل الذين ظاهروهم من اهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتاسرون فريقا

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - الحديث عن غزوة الأحزاب ، ببيان ما حل ببنى قريظة من عذاب مهين ، بسبب نقضهم لعهودهم فقال : ( وَأَنزَلَ الذين ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الكتاب مِن صَيَاصِيهِمْ ) .والصياصى : جمع صيصة وهى كل ما يتحصن به من الحصون وغيرها . ومنه قيل لقرن الثور صيصة لأنه يدفع به عن نفسه .أى : وبعد أن رحلت جيوش الأحزاب عنكم أيها المؤمنون - أنزل

الله - تعالى - بقدرته الذين ظاهروهم وناصروهم عليكم ، وهم يهود بنى قريظة
أنزلهم من حصونهم ، ومكنكم من رقابهم .( وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرعب ،
الشديد منكم ، بحيث صاروا مستسلمين لكم ، ونازلين على حكمكم .( فَرِيقاً (
منهم ( تَقْتُلُونَ ) وهم الرجال . وتأسرون فريقا آخروهم الذرية والنساء (
.

واورثكم ارضهم وديارهم واموالهم وارضا لم تطئوها وكان الله على كل شيء
قديرا

- كما فسرها الوسيط ( وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ ) أى : وأورثكم الله
تعالى - أرض هؤلاء اليهود وزروعهم كما أورثكم ( وَدِيَارَهُمْ ) أى حصونهم
التى تركوها من خلفهم ، كنقودهم ومواشيهم .كما أورثكم ( وَأَمْوَالَهُمْ )
بعد يقصد القتال وهى أرض خيبر ، أو أرض فارس ( وَأَرْضاً لَّمْ تَطَئُوهَ )
والروم .وفى هذه الجملة الكريمة ( وَأَرْضاً لَّمْ تَطَئُوهَا ) بشارة
عظيمة للمؤمنين ، بأن الله - تعالى - سينصرهم على أعدائهم .( وَكَانَ الله
على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً ) لأنه - سبحانه -لا يعزه شئ .أخرج الشيخان عن
عائشة - رضى الله عنها - قالت : " لما رجع النبى صلى الله عليه وسلم من
، الخندق ، وضع السلاح واغتسل ، أتاء جبريل فقال : يا محمد قد وضعت السلاح
والله ما وضعناه فاخرج إليهم فقال النبى صلى الله عليه وسلم : فإلى أين؟
قال : ها هنا . وأشار إلى بنى قريظة . فخرج النبى صلى الله عليه وسلم إليهم
وعن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال : " قال النبى - صلى الله عليه.
وسلم - يوم الأحزاب ، لا يصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة ، فأدرك بعضهم
العصر فى الطريق ، فقال بعضهم : لا نصلى حتى نأتيها ، وقال بعضهم : بل نصلى
فذكر ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فلم يعنف أحدا .وبعد أن حاصر المسلمون ،
بنى قريظة خمسا وعشرين ليلة ، نزلوا بعدها على حكم سعد بن معاذ - رضى الله
عنه - فحكم بقتل رجالهم ، وتقسيم أموالهم ، وسبى نسائهم وذراريهم .وقال
الرسول صلى الله عليه وسلم له : " لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع
سماوات " " .وإلى هنا نجد السورة الكريمة قد حدثتنا حديثا جامعا حكيما عن
غزوة الأحزاب ، فقد ذركت المؤمنين - أولا - بنعم الله - تعالى - عليهم ، ثم
صورت أحوالهم عندما أحاطت بهم جيوش الأحزاب من فوقهم ومن أسفل منهم .ثم حكت
ما قاله المنافقون فى تلك الساعات العصيبة ، وما أشاروا به على أشباههم فى
، النفاق ، وما اعتذروا به من أعذار باطلة ، وما جبلوا عليه من أخلاق قبيحة
على رأسها الجبن والخور وضعف العزيمة وفساد النية .ثم انتقلت إلى الحديث عن
المواقف المشرقة الكريمة التى وقفها المؤمنون الصادقون عندما رأوا الأحزاب
- وكيف أنهم ازدادوا إيمانا على إيمانهم ، ووفوا بعهودهم مع الله - تعالى ،
- دون أن يبدلوا تبديلا .وكا بدئت الآيات بتذكير المؤمنين بنعم الله
تعالى - عليهم ، ختمت - أيضا - بهذا التذكير حيث رد الله أعداءهم عنهم دون
. أن ينالوا خيرا ، ومكنهم من معاقبة الغادرين من اليهود

يا ايها النبي قل لازواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين
امتعكن واسرحكن سراحا جميلا

كما فسرها الوسيط ثم عادت السورة الكريمة مرة أخرى - بعد هذا الحديث عن غزة
الخندق - إلى بيان التوجيهات الحكيمة التى وجهها الله - تعالى - إلى نبيه
صلى الله عليه وسلم وإلى أزواجه ، فقال - ( ياأيها النبي قُل لأَزْوَاجِكَ
أَجْراً عَظِيماً ) .ففى هاتين الآيتين يأمر الله - تعالى - نبيه . . . .
صلى الله عليه وسلم أن يخير أزواجه بين أن يعشن معه معيشة الكفاف والزهد فى
زينة الحياة الدنيا وبين أن يفارقهن ليحصلن على ما يشتهينه من زينة الحياة
الدنيا .قال الإمام القرطبى ما ملخصه : قال علماؤنا : هذه الآية متصلة
بمعنى ما تقدم من المنع من إيذاء النبى صلى الله عليه وسلم وكان قد تأذى
ببعض الزوجات . قيل : سألنه شيئا عن عرض الدنيا . وقيل : سألنه زيادة فى
: النفقة .روى البخارى ومسلم - واللفظ لمسلم - " عن جابر بن عبد الله قال
دخل ابو بكر يستأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد الناس جلوسنا
ببابه لم يؤذن لأحد منهم ، قال : فأذن لأبى بكر فدخل ، ثم جاء عمر فاستأذن
فأذن له ، فوجد النبى صلى الله عليه وسلم جالسنا حوله نساؤه .قال : فقال
عمر ، والله لأقولن شيئا يضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول
الله ، لو رأيت بنت زيد - زوجة عمر - سألتنى النفقة فقمت إليها فوجأت عنقها
فضحك رسول الله صلى الله علي وسلم وقال : " هن حولى كما ترى يسألننى :
النفقة " .فقام أبو بكر إلى ابنته عائشة ليضربها ، وقام عمر إلى ابنته حفصة
ليضربها وكلاهما يقول : تسألن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ليس عنده
فقلت : والله لا نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا أبدا ليس عنده.
ثمن زلت هاتان الآيتان . فبدأ صلى الله عليه وسلم بعائشة فقال لها : " يا.
عائشة ، إنى أريد أن أعرض عليك أمرا ، أحب أن لا تعجلى فيه حتى تشتشيرى
: أبويك " .قالت : وما هو يا رسول الله؟ فتلا عليها هاتين الآيتين . فقالت

أفيك يا رسول الله أستشير أبوى!! بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة .وفعل
- أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ما فعلت عائشة " .وقال الإمام ابن كثير
بعد أن ساق جملة من الأحاديث فى هذا وكان تحته يومئذ تسع نسوة ، خمس من
قريش : عائشة وحفصة ، وأم حبيبة وسودة ، وأم سلمة .وأربع من غير قريش - وهن
صفية بنت حيى النضرية ، وميمونة بنت الحارث الهلالية ، وزينب بنت جحش
الأسدية ، وجويرية بنت الحارث المُصْطَلِقِيّة - رضى الله عنهن .وقال
الإمام الآلوسى : فلما خيرهن واخترن الله ورسوله والدار الآخرة مدحهن
الله - تعالى - على ذلك ، إذ قال - سبحانه - : ( لاَّ يَحِلُّ لَكَ النِّسَآءُ
مِن بَعْدُ وَلاَ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ
حُسْنُهُنَّ ) فقصره الله - تعالى - عليهن ، وهن التسع اللاتى اخترن الله
ورسوله والدار الآخرة .والمعنى : ( ياأيها النبي قُل لأَزْوَاجِكَ ) اللائى
فى عصمتك ( إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الحياة الدنيا وَزِينَتَهَا ) .أى : إن
كنتن تردن سعة الحياة الدنيا وبهجتها وزخارفها ومتها من مأكل ومشرب وملبس ،
فوق ما أنتن فيه عندى من معيشة مقصورة على ضروريات الحياة ، وقائمة على
الزهد فى زينتها .إن كنتن تردن ذلك : ( فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ
) : وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً ) .قال الجمل : وقوله
فَتَعَالَيْنَ ) فعل أمر مبنى على السكون ، ونون النسوة فاعل . وأصل هذا
الأمر أن يكون الآمر أعلى مكانا من المأمور ، فيدعوه أن يرفع نفسه إليه
، ثم كثر استعماله حتى صرا معناه أقبل . وهو هنا كناية عن الاختيار والإرادة
والعلاقة هى أن المخبر يدنو إلى من يخبره .وقوله : ( أُمَتِّعْكُنَّ ) .
مجزوم فى جواب الأمر . والمتعة : ما يعطيه الرجل للمرأة التى طلقها ، زيادة
على الحقوق المقررة لها شرعا ، وقد جعلها - سبحانه - حقا على المحسنين
الذين يبغون رضا الله - تعالى - وحسن ثوابه .وقوله ( وَأُسَرِّحْكُنَّ )
معطوف على ما قبله ، والتسريح : إرسال الشئ ، ومنه تسريح الشعر ليخلص بعضه
من بعض . ويقال : سرح فلان الماشية ، إذا أرسلها لترعى والمراد به هنا
: طلاق الرجل للمرأة ، وتركها لعصمته .أى : ما قل - أيها الرسول الكريم
- لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها ، ولا تستطعن الصبر على
المعيشة ، معى ، فلكن أن تخترن مفارقنى ، وإنى على استعداد أن أعطيكن
المتعة التى ترضينها ، وأن أطلقكن طلاقا لا ضرر فيه ، ولا ظلم معه ، لأنى
أعطيكن ما هو فوق حقكن .

وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الاخرة فان الله اعد للمحسنات منكن اجرا عظيما

كما فسرها الوسيط ( وَإِن كُنتُنَّ )لا تردن ذلك ، وإنما ( تُرِدْنَ الله
وَرَسُولَهُ والدار الآخرة ) .أى : وإنما تردن ثواب الله - تعالى - والبقاء
مع رسوله صلى الله عليه وسلم ، وإيثار شظف الحياة على زينتها ، وإيثار ثواب
الدار الآخرة على متع الحياة الدنيا .إن كنتن تردن ذلك فاعلمن أن ( الله
تعالى - ( أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ ) ، بسبب إيمانهن وإحسانهن - (
لا يعلم مقداره إلا الله - تعالى - .وبهذا التأديب ( أَجْراً عَظِيماً )
الحكيم ، والإرشاد القويم ، أمر الله - تعالى - رسوله صلى الله عليه وسلم
أن يؤدب نساءه ، وأن يرشدهن إلى ما فيه سعادتهن ، وأن يترك لهن حرية
الاختيار .

يا نساء النبي من يات منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرا

كما فسرها الوسيط ثم وجه - سبحانه - الخطاب إلى أمهات المؤمنين ، فأدبهن
أكمل تأديب وأمرهن بالتزام الفضائل ، وباجتناب الرذائل ، لأنهن القدوة
لغيرهن من النساء ، ولأنهن فى بيوتهن ينزل الوحى على رسول الله صلى الله
عليه وسلم فقال - تعالى - : ( يانسآء النبي . . . . كَانَ لَطِيفاً
خَبِيراً ) .فقوله - سبحانه - ( يا نسآء النبي مَن يَأْتِ مِنكُنَّ
بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا العذاب ضِعْفَيْنِ ) نداء من
الله تعالى - لهن . على سبيل الوعظ والارشاد والتأديب ، والعناية بشأنهن
: لأنهن القدوة لغيرهن ، والفاحشة : ما قبح من الأقوال والأفعال .والمعنى
يا نساء النبى صلى الله عليه وسلم من يأت منكن بمعصية ظاهرة القبح ، يضاعف
الله - تعالى - لها العقاب ضعيفين ، لأن المعصية من رفيع الشأن تكون أشد
قبحا ، وأعظم جرما .قال صاحب الكشاف : وإنما ضوعف عذابهن ، لأن ما قبح من
سائر النساء ، كان أقبح منهن وأقبح ، لأن زيادة قبح المعصية ، تتبع زيادة
الفضل والمرتبة . . وليس لأحد من النساء ، مثل فضل نساء النبى صلى الله
عليه وسلم ولا على أحد منهن مثل ما لله عليهن من النعمة . . ولذلك كان ذم
العقلاء للعاصى العالم : أشد منه للعاصى الجاهل ، لأن المعصية من العالم
أقبح .وقد روى عن زين العابدين بن على بن الحسين - رضى الله عنهم - أنه قال
له رجل : إنكم أهل بيت مغفور لكم ، فغضب ، وقال نحن أحرى أن يجرى فينا ، ما

أجرى الله - تعالى - على نساء نبيه صلى الله عليه وسلم من أن لمسيئنا ضعيفين من العذاب ، ولمحسننا ضعفين من الأجر .وقوله - سبحانه - : ( مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ . . . ) جملة شرطية . والجملة الشرطية لا تقتضى وقوع الشرط ، كما فى قوله - تعالى - : ( وَلَقَدْ أُوْحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الذين مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ . . وكما فى قوله - سبحانه - : ( وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ) ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة ببيان أن منزلتهن - رضى الله عنهن -لا تمنع من وقوع العذاب بهن فى حالة ارتكابهن لما نهى الله - تعالى - عنه ، فقال : (وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً - أى : وكان ذلك التضعيف للعذاب لهن ، يسيرا وهينا على الله ، لأنه ( سبحانه -لا يصعب عليه شئ .هذا هوالجزاء فى حالة ارتكابهن - على سبيل - الفرض - لما نهى الله - تعالى - عنه ، أما فى حالة طاعتهن ، فقد بين سبحانه - جزاءهن بقوله : ( وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً ) .

ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها اجرها مرتين واعتدنا لها رزقا كريما

كما فسرها الوسيط ( وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً ) والقنوت : ملازمة الطاعة لله - تعالى - ، والخضوع والخشوع لذاته ، أى : ومن يقنت منكن - يا سناء النبى - لله - تعالى - ، ويلازم طاعته. ويحرص على مرضاة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وتعمل عملا صالحا .من يفعل ذلك منكن ، نؤتها أجرها الذى تستحقه مضاعفا ، فضلا منا وكرما ، ( وَأَعْتَدْنَا لَهَا ) أى : وهيأنا زيادة على ذلك ( رِزْقاً كَرِيماً )لا يعلم مقداره ، إلا الله - تعالى - .وهكذا نرى أن الله - تعالى - قد ميز أمهات المؤمنين - فجعل حسنتهن كحسنتين لغيرهن ، كما جعل سيئتهن بمقدار سيئتين لغيرهن أيضا - وذلك لعظم مكانتهن ، ومشاهدتهن من رسول الله صلى الله عليه وسلم . مالا يشاهد غيرهن ، من سلوك كريم ، وتوجيه حكيم .

يا نساء النبي لستن كاحد من النساء ان اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولا معروفا

كما فسرها الوسيط ثم وجه - سبحانه - إليهن نداء ثانيا فقال : ( يانسآء النبي لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النسآء إِنِ اتقيتن ) .أى : يا نساء النبى ، لقد أعطاكن الله - تعالى - من الفضل من سمو المنزلة ما لم يعط غيركن ، - فأنتن فى مكان القدوة لسائر النساء ، وهذا الفضل كائن لكن إن اتقيتن الله : تعالى - وصنتن أنفسكن عن كل ما نهاكن - سبحانه - عنه .قال صاحب الكشاف أحد فى الأصل بمعنى وحد ، وهو الواحد ، ثم وضع فى النفى العام مستويا فيه المذكر والمؤنث والواحد وما وراءه . ومعنى قوله ( لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النسآء ) : لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء . أى : إذا استقصيت أمة النساء جماعة جماعة ، لم توجد منهن جماعة واحدة تساويكن فى الفضل والسابقة وجواب الشرط فى قوله ( إِنِ اتقيتن ) محذوف لدلالة ما قبله عليه . أى : إن. اتقيتن فلستن كأحد من النساء .قال الآلوسى : قوله ( إِنِ اتقيتن ) شرط لنفى المثلية وفضلهن على النساء ، وجوابه محذوف دل عليه المذكور . . والمفعول محذوف . أى : إن اتقيتن مخالفة حكم الله - تعالى - ورضا رسوله صلى الله عليه وسلم والمراد إن دمتن على اتقاء ذلك . والمراد به التهييج بجعل طلب الدنيا والميل إلى ما تميل إليه النساء لبعده من مقامهن ، بمنزلة الخروج من ، التقوى .فالمقصود بالجملة الكريمة بيان أن ما وصلن إليه من منزلة كريمة - هو بفضل تقواهن وخشيتهن لله - تعالى - وليس بفضل شئ آخر .ثم نهاهن ) : سبحانه - عن النطق بالكلام الذى يطمع فيهن من فى قلبه نفاق وفجور فقال فَلاَ تَخْضَعْنَ بالقول فَيَطْمَعَ الذي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ) .أى : فلا ترققن الكلام ، ولا تنطقن به بطريقة لينة متكسرة تثير شهرة الرجال ، وتجعل مريض القلب يطمع فى النطق بالسوء معكن فإن من محاسن خصال المرأة أن تنزه خطابها عن ذلك ، لغير زوجها من الرجال .وهكذا يحذر الله - تعالى - أمهات المؤمنين - وهن الطاهرات المطهرات - عن الخضوع بالقول ، حتى يكون فى ذلك عبرة وعظة لغيرهن فى كل زمان ومكان فإن مخاطبة المرأة - لغير زوجها من الرجال - بطريقة لينة مثيرة للشهوات والغرائز ، تؤدى إلى فساد كبير ، وتطمع ) : من لا خلاق لهم فيها .ثم أرشدهن - سبحانه - إلى القول الذى يرضيه فقال وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً ) .أى : اتركن الكلام بطريقة تطمع الذى فى قلبه مرض فيكن ، وقلن قولا حسنا محمودا . وانطقن به بطريقة طبيعية ، بعيدة . عن كل ريبة أن انحراف عن الحق والخلق الكريم

وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى واقمن الصلاة واتين الزكاة واطعن الله ورسوله انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا

كما فسرها الوسيط ثم أمرهن - سبحانه - بعد ذلك بالاستقرار فى بيوتهن ، وعدم الخروج منها إلا لحاجة شرعية فقال ( وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ) .قال القرطبى ما ملخصه : قوله ( وَقَرْنَ ) قرأه الجمهور - بكسر القاف - من القرار تقول : قَرَرْتُ بالمكان - بفتح الراء أقِر - بكسر القاف - إذا نزلت فيه - والأصل - اقررن - بكسر الراء - فحذفت الراء الأولى تخفيفا . . ونقلوا حركاتها إلى القاف ، واستغنى عن ألف الوصل لتحرك القاف . . فصارت الكلمة ( قِرن ) - بكسر القاف - .وقرأ عاصم ونافع ( وقَرْن ) - بفتح القاف - من قررت فى المكان - بكسر الراء - إذا أقمت فيه . . والأصل اقْرَرْن الراء - فحذفت الراء الأولى لثقل التضعيف ، وألقيت حركتها على القاف . . فتقول : ( قَرن ) - بالفتح - للقاف - .والمعنى : الْزَمْنَ يا نساء النبى صلى الله عليه وسلم بيوتكن ، ولا تخرجن منها إلا لحاجة مشروعة ، ومثلهن فى ذلك جميع النساء المسلمات ، لأن الخطاب لهن فى مثل هذه الأمور - هو خطاب لغيرهن من النساء المؤمنات من باب أولى ، وإنما خاطب - سبحانه - أمهات المؤمنين على سبيل التشريف ، واقتداء غيرهن بهن .قال بعض العلماء : والحكمة فى هذا الأمر : أن ينصرفن إلى رعاية شئون بيوتهن ، وتوفير وسائل الحياة المنزلية التى هى من خصائصهن ، ولا يحسنها الرجال ، وإلى تربية الأولاد فى عهد الطفوة وهى من شأنهن . وقد جرت السنة الإلهية بأن أمر الزوجين قسمة بينهما ، فللرجل أعمال من خصائصهم لا يحسنها النساء ، وللنساء أعمال خصائصهن لا يحسنها الرجال ، فإذا تعدى أحد الفريقين عمله ، اختل النظام فى البيت والمعيشة .وقال صاحب الظلال ما ملخصه : والبيت هو مثابة المرأة التى تجد فيها نفسها على حقيقتها كما أرادها الله - تعالى - ولكى يهيئ الإسلام للبيت جوه السليم ، ويهيئ للفراخ الناشئة فيه رعايتها ، أوجب على الرجل النفقة ، وجعلها فريضة ، كى يتاح للأم من الجهد ومن الوقت ومن هدوء البال ، ما شترف به على هذه الفراخ الزغب ، وما تهيئ به للمثابة . . نظامها وعطرها وبشاشتها .فالأم المكدودة بالعمل وبمقتضياته وبمواعيده لا يمكن أن تهيئ للبيت جوه وعطره ، ولا يمكن أن تهيئ للطفولة النابة فيه حقها ورعايتها .إن خروج المرأة للعمل كارثة على البيت قد تبيحها الضرورة ، أما أن يتطوع بها الناس وهم قادرون على اجتنابها ، فتلك هى اللعنة التى تصيب الأرواح والضمائر والعقول ، فى عصور الانتكاس والشرور والضلال .وهذه الجملة الكريمة ليس المقصود بها ملازمة البيوت فلا يبرحنها إطلاق وإنما المصود بها أن يكون البيت هو الأصل فى حياتهن ، ولا يخرجن إلا لحاجة مشروعة ، كأداء الصلاة فى المسجد ، وكأداء فريضة الحج وكزيارة الوالدين والآقارب ، وكقضاء مصالحهن التى لا تقضى إلا بهن .. بشرط أن يكون خروجهن مصوحبا ) ، بالتستر والاحتشام وعدم التبذل .ولذا قال - سبحانه - بعد هذا الأمر ( وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجاهلية الأولى ) .وقوله : ( تَبَرّجْنَ ) مأخوذ من البَرَج - بفتح الباء والراء - وهو سعة العين وحسنها ، ومنه قولهم سفينة برجاء ، أى : متسعة ولا غطاء عليها .والمراد به هنا : إظهار ما : ينبغى ستره من جسد المرأة ، مع التكلف والتصنع فى ذلك .والجاهلية الأولى ، بمعنى المتقدمة ، إذ يقال لكل متقدم ومتقدمة : أول وأولى .أو المراد بها : الجاهلية الجهلاء التى كانت ترتكب فيها الفواحش بدون تحرج .وقد فسروها بتفسيرات متعددة ، منها : قول مجاهد : كانت المرأة تخرج فتمشى بين يديى الرجال ، فذلك تبرج الجاهلية .ومنها قول قتادة : كانت المرأة فى الجاهلية تمشى مشية فيها تكسر ، .ومنها قول مقاتل : والتبرج : أنها الخمار على رأسها ولا تشده فيوارى قلائدها وعنقها .ويبدو لنا أن التبرج المنهى عنه فى الآية الكريمة ، يشمل كل ذلك ، كما يشمل كل فعل تفعله المرأة ، ويكون هذا الفعل متنافيا مع آداب الإسلام وتشريعاته .والمعنى : الزمن يا نساء النبى بيوتكن فلا تخرجن إلا لحاجة مشروعة ، وإذا خرجتن فاخرجن فى لباس الحشمة والوقار ، ولا تبدى إحداكن شيئا أمرها الله - تعالى - بسرته وإخفائه ، واحذرن ، التشبيه بنساء أهل الجاهلية الأولى ، حيث كن يفعلن ما يثير شهوة الرجال ، ويلفت أنظارهم اليهن .ثم أتبع - سبحانه - هذا المنهى بما يجعلهن على صلة طيبة بخالقهن - عز وجل - فقال : ( وَأَقِمْنَ الصلاة ) أى : داومن على إقامتها فى أوقاتها بخشوع وإخلاص . ( وَآتِينَ الزكاة ) التى فرضها الله - تعالى - عليكن . وخص - سبحانه - هاتين الفريضتين بالذكر من بين سائر الفرائض ، لأنهما أساس العبادات البدنية والمالية .( وَأَطِعْنَ الله ، وَرَسُولَهُ ) أى : فى كل ما تأتين وتتركن ، لا سيما فيما أمرتن به ونهيتن عنه .وقوله : ( إِنَّمَا يُرِيدُ الله لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرجس ، أَهْلَ البيت وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ) تعليل لما أمرن به من طاعات ولما نهين عنه من سيئات .والرجس فى الأصل : يطلق على كل شئ مستقذر . وأريد به هنا : الذنوب والآثام وما يشبه ذلك من النقائص والأدناس .وقوله ( أَهْلَ البيت ) منصوب على النداء ، أو على المدح . ويدخل فى أهل البيت هنا دخولا

أوليا : نساؤه صلى الله عليه وسلم بقرينة سياق الآيات .أى : إنما يريده الله - تعالى - بتلك الأوامر التى أمركن بها ، و بتلك النواهى التى نهاكن عنها ، أن يذهب عنكن الآثام والذنوب والنقائص ، وأن يطهركن من كل ذلك تطهيرا تاما كاملا .قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : قوله : ( إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرجس أَهْلَ البيت . . . ) هذا نص فى دخول أزواج النبى صلى الله عليه وسلم فى أهل البيت ها هنا ، لأنهن سبب نزول هذه الآية .وقدوردت أحاديث تدل على أن المراد أعم من ذلك ، فقد روى الإمام أحمد بسنده - عن أنس بن مالك قال :" إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يمر بباب فاطمة ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر ، يقول : الصلاة يا أهل البيت : ثم يتلو هذه الآية . . " .وقال بعض العلماء : والتحقيق - إن شاء الله - أنهن داخلات فى الآية ، بدليل السياق ، وإن كانت الآية تتناول غيرهن - من أهل البيت .ونظير ذلك من دخول الزوجات فى اسم أهل البيت ، قوله تعالى - فى زوجة إبراهيم : ( قالوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ الله رَحْمَةُ الله وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ البيت ) وأما الدليل على دخول غيرهن فى الآية ، فهو أحاديث جاءت " عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه " قال فى على وفاطمة والحسن والحسين - رضى الله عنهم - : " إنهم أهل البيت ودعا الله أن يذهب عنهم الرجس ويطهرهم تطهيرا " .وبما ذكرنا تعلم أن الصواب شمول الآية الكريمة لأزواج النبى صلى الله عليه وسلم ولعلى وفاطمة والحسن والحسين .فإن قيل : الضمير فى قوله : ( لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرجس ) وفى قوله : ( وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ) ضمير الذكور ، فقلو كان المراد أزواج النبى صلى الله عليه وسلم لقيل ليذهب عنكن ويطهركن؟فالجواب : ما ذكرناه من أن الآية تشملهن وتشمل فاطمة وعلى والحسن والحسين ، وقد أجمع أهل اللسان العربى على تغليب الذكور على الإناث فى الجموع ونحوها . .ومن أساليب اللغة العربية التى نزل بها القرآن ، أن زوجة الرجل يطلق عليها أهل وباعتبار لفظ الأهل تخاطب مخاطبة الجمع المذكر ، ومنه قوله - تعالى - فى موسى ( فَقَالَ لأَهْلِهِ امكثوا ) وقوله ( سَآتِيكُمْ ) والمخاطب امرأته كما قال غير واحد . .وقال بعض أهل العلم : إن أهل البيت فى الآية هم من تحرم عليهم الصدقة .

واذكرن ما يتلى في بيوتكن من ايات الله والحكمة ان الله كان لطيفا خبيرا

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - هذه التوجيهات الحكيمة بقوله - عز وجل - : ( واذكرن مَا يتلى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ الله والحكمة . . أى : واذكرن فى أنفسكن ذكرا متصلا ، وذَكِّرْن غيركن على سبيل الإرشاد. ( بما يتلى فى بيوتكن من آيات الله البينات الجامعة بين كونها معجزات دالة ، على صدق النبى صلى الله عليه وسلم ، وبين كونها مشتملة على فنون الحكم ، والآداب والمواعظ . .ويصح أن يكون المراد بالآيات : القرآن الكريم وبالحكمة : أقوال النبى صلى الله عليه وسلم وأفعاله وتقريراته . .وفى الآية الكريمة إشارة إلى أنهن - وقد خصهن الله - تعالى - بجعل بيوتهن موطنا لنزول القرآن ، ولنزول الحكمة - أحق بهذا التذكير ، وبالعمل الصالح من غيرهن ). ، إِنَّ الله كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً ) أى : خلا يخفى عليه شئ من أحوالكم . وقد أنزل عليكم ما فيه صلاح أموركم فى الدنيا والآخرة

ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات اعد الله لهم مغفرة واجرا عظيما

- كما فسرها الوسيط وبعد هذه التوجيهات الحكيم لأمهات المؤمنين ، ساق سبحانه - توجيها جامعا لأمهات الفضائل ، وبشر المتصفين بهذه الفضائل بالمغفرة والأجر العظيم فقال - تعالى - : ( إِنَّ المسلمين والمسلمات ) ورد فى سبب نزول هذه الآية روايات منها : ما أخرجه الإمام أحمد والنسائى. وغيرهما ، عن أم سلمة - رضى الله عنها - قالت : قلت للنبى صلى الله عليه وسلم ما لنا لا نذكر فى القرآن كما يذكر الرجال؟ قالت : فلم يرعنى منه صلى ) : الله عليه وسلم ذات يوم إلا نداؤه على المنبر ، وهو يتلو هذه الآية إِنَّ المسلمين والمسلمات . . . ) .وأخرج الترمذى وغيره عن أم عمارة الأنصارية أنها أتت النبى صلى الله عليه وسلم فقالت : ما أرى كل شئ إلا للرجال ، وما أرى النساء يذكرون بشئ ، فنلت هذه الآية .وأخرجه ابن جرير عن قتادة قال : دخل نساء على أزواج النبى صلى الله عليه وسلم فقلن : قد ذكركن الله - تعالى - فى القرآن ، وما يذكرنا بشئ أما فينا ما يذكر ، فأنزل الله - تعالى - هذه الآية .والمعنى : ( إِنَّ المسلمين والمسلمات ) - والإسلام : الانقياد لأمر الله - تعالى - وإسلام الوجه له - سبحانه وتفويض الأمر إليه وحده .( والمؤمنين والمؤمنات ) والإيمان : هو التصديق ). القلبى ، والإذعان الباطنى ، لما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم

والقانتين والقانتات ) والقنوت : هو المواظبة على فعل الطاعات عن رضا واختيار .( والصادقين والصادقات ) والصدق : والصدق : هو النطف بما يطاب الواقع ، والبعد عن الكذب والقول الباطل . .( والصابرين والصابرات ) والصبر هو توطين النفس على احتمال المكاره والمشاق فى سبيل الحق ، وحسب النفس عن : الشهوات .( والخاشعين والخاشعات ) والخشوع : صفة تجعل القلب والجوارح فى ). حالة انقياد تام لله - تعالى - ومراقبة له ، واستشعار لجلاله وهيبته والمتصدقين والمتصدقات ) والتصدق : تقديم الخير إلى الغير بإخلاص ، فدعا لحاجته ، وعملا على عونه ومساعدته .( والصائمين والصائمات ) والصوم : هو تقرب إلى الله - تعالى - واستعلاء على مطالب الحياة ولذائذها ، من أجل التقرب إليه - سبحانه - بما يرضيه .( والحافظين فُرُوجَهُمْ والحافظات ) وحفظ الفرج : كناية عن التعفف والتطهر والتصون عن أن يضع الإنسان شهوته فى غير الموضع الذى أحله الله - تعالى - .( والذاكرين الله كَثِيراً والذاكرات ، وذكر الله - تعالى - يتمثل فى النطق بما يرضيه كقراءة القرآن الكريم ( والإكثار من تسبيحه - عز وجل - وتحميده وتكبيره . .وفى شهور النفس فى كل لحظة مراقبته - سبحانه - .هؤلاء الذين اصتفوا بهذه الصفات من الرجال ) والنساء ( أَعَدّ الله ) - تعالى - ( لَهُم مّغْفِرَةً ) واسعة لذنوبهم وَأَجْراً عَظِيماً )لا يعلم مقداره إلا هو - عز وجل - .وهكذا نجد القرآن الكريم يسوق الصفات الكريمة ، التى من شأن الرجل والمرأة إذا ما اتصفا بها أن يسعدا فى دنياهما وفى أخراهما ، وأن يسعد بهما المجتمع الذى يعيشان ، فيه . .نها صفات نظمت علاقة الإنسان بربه ، وبنفسه ، وبغيره ، تنظيما حكيما ، يهدى الى الرشد ، ويوصل إلى الظفر والنجاح .

وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله امرا ان يكون لهم الخيرة من امرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا

كما فسرها الوسيط ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن الحقوق الواجبة على المسلم نحو خالقه - عز وجل - ونحو رسوله صلى الله عليه وسلم ، وعن تأكيد إبطال عادة التبنى التى كانت منتشرة قبل نزول هذه السورة ، وعن بيان الحكمة لهذا الإبطال ، وعن علاقة الرسول صلى الله عليه وسلم بغيره من أتباعه . . فقال - تعالى - : ( وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ : - بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ) .ذكر المفسرون فى سبب نزول قوله - تعالى . . روايات منها : " أنها نزلت فى ( وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ ) زينب بنت جحش - رضى الله عنها - خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد ابن حارثة فاستنكفت ، وقالت : أنا خير منه حسبا ، فأنزل الله - تعالى - هذه الآية .وفى رواية أنها قالت : يا رسول الله ، لست بنكاحته ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " بل فانكحيه " فقالت : يا رسول الله ، أؤامر فى نفسى؟ فبينما هما يتحادثان ، أنزل الله - تعالى هذه الآية . فقالت : يا رسول الله قد رضيته لى زوجا؟ قال : نعم قالت : إذا لا أعصى رسول الله صلى الله عليه ، وسلم قد زوجته نفسى " .وذكر بعضهم أنها نزلت فى أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط ، وكانت أول من هاجر من النساء . . يعنى بعد صلح الحديبية ، فهوهبت نفسها للنبى صلى الله عليه وسلم ، فزوجها من مولاه زيد بن حارثة ، بعد فراقه لزينب فسخطت هى وأخوها وقالا : إنما أردنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فزوجنا عبده ، فنزلت الآية بسبب ذلك ، فأجابا إلى تزويج زيد .قال ابن كثير : هذه الاية عامة فى جميع الأمور . وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشئ - فليس لأحد مخالفته ، ولا اختيار لأحد هاهنا ولا رأى ولا قول ، كما قال ، تعالى - : ( فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حتى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ في أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً ) وفى الحديث الشريف : " والذى نفسى بيده ، لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به " .والمعنى :لا يصح : ولا يحل لأى مؤمن ولا لأية مؤمنة ( إِذَا قَضَى اللّه وَرَسُولُهُ ) أى إذا أراد الله ورسوله أمرا . من الأمور .وقال - سبحانه - : ( إِذَا قَضَى الله وَرَسُولُهُ أَمْراً ) للإشعار ، بأن ما يفعله الرسول صلى الله عليه وسلم إنما يفعله بأمرا لله - تعالى - لأنه صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى .وقوله : ( أن يَكُونَ لَهُمُ الخيرة مِنْ أَمْرِهِمْ ) أى :لا يصح لمؤمن أو مؤمنة إذا أراد الله ورسوله أمرا ، أن يختاروا ما يخالف ذلك ، بل يجب عليهم أن يذعنوا لأمره صلى الله عليه وسلم وأن يجعلوا رأيهم تابعا لرأيه فى كل شئ .وكلمة الخيرة : مصدر من تخيّر ، كالطِّيَرَة مصدر من تَطَيَّر . وقوله : ( مِنْ أَمْرِهِمْ ) متعلق بها ، أو بمحذوف وقع حالا منها .وجاء الضمير فى قوله ( لَهُمُ ) وفى قوله ( مِنْ أَمْرِهِمْ ) بصيغة الجمع : رعاية للمعنى إذ أن لفظى مؤمن ومؤمنة وقعا فى سياق النفى ، فيعمان كل مؤمن وكل مؤمنة .وقوله - سبحانه - : ( وَمَن يَعْصِ الله وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُّبِيناً ) بيان لسوء عاقبة واضحا بينا .

واذ تقول للذي انعم الله عليه وانعمت عليه امسك عليك زوجك واتق الله وتخفي

في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله احق ان تخشاه فلما قضى زيد منها
وطرا زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في ازواج ادعيائهم اذا قضوا
منهن وطرا وكان امر الله مفعولا

كما فسرها الوسيط ثم ذكر - سبحانه - قصة زواج النبى صلى الله عليه وسلم من
السيدة زينب بنت جحش ، وما ترتب على هذا الزواج من هدم لعادات كانت متأصلة
فى الجاهلية فقال - تعالى - : ( وَإِذْ تَقُولُ لِلذِي أَنعَمَ الله عَلَيْهِ
- أى : واذكر - أيها الرسول الكريم - وقت أن قلت للذى أنعم الله ( . . .
تعالى - عليه بنعمة الإيمان ، وهو زيد بن حارثة - رضى الله عنه - .وأنعمت
). . عليه ، بنعمة العتق ، والحرية ، وحسن التربية ، والمحبة ، والإكرام
أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ واتق الله ) أى : اذكر وقت قولك له : أمسك عليك
زوجك زينب بنت جحش ، فلا تطلقها ، واتق الله فى أمرها ، واصبر على ما بدر
منها فى حقك . . .وكان زيد - رضى الله عنه - قد اشتكى للنبى صلى الله عليه
، وسلم من تطاولها عليه ، وافتخارها بحسبها ونسبها ، وتخشينها له القول
وقال : يا رسول الله ، إنى أريد أن أطلقها .وقوله - تعالى - : ( وَتُخْفِي
فِي نَفْسِكَ مَا الله مُبْدِيهِ ) معطوف على ( تَقُولُ ) . أى : تقول له
ذلك وتخفى فى نفسك الشئ الذى أظهره الله - تعالى - لك ، وهو إلهامك بأن
: زيدا سيطلق زينب ، وأنت ستتزوجها بأمر الله - عز جل - .قال الآلوسى
والمرد بالموصول ( مّا ) عل ما أخرج الحكيم الترمذى وغيره عن على ابن
الحسين ما أوحى الله - تعالى - به إليه من أن زينب سيطلقها زيد . ويتزوجها
، هو صلى الله عليه وسلم .وإلى هذا ذهب أهل التحقيق من المفسرين ، كالزهرى
وبكر بن العلاء ، والقشيرى ، والقاضى أبى بكر بن العربى ، وغيرهم .وقال بعض
العلماء ما ملخصه : قوله - تعالى - : ( وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا الله
- مُبْدِيهِ ) جملة : الله مبدية صلة الموصول الذى هو ( مَا ) . وما أبداه
) : - سبحانه - هو زواجه صلى الله عليه وسلم بزينب ، وذلك فى قوله - تعالى
فَلَمَّا قضى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا ) وهذا هو التحقيق
فى معنى الآية ، الذى دل عليه القرآن ، وهو اللائق بجنابه صلى الله عليه
وسلم .وبه تعلم أن ما قاله بعض المفسرين ، من أن ما أخفاه فى نفسه صلى الله
عليه وسلم وأبداه الله - تعالى - ، وهو وقوع زينب فى قلبه صلى الله عليه
وسلم ومحبته لها ، وهى زوجة لزيد ، وأنها سمعته يقول عندما رآها : سبحان
مقلب القلوب . . إلى آخر ما قالوا . . كله لا صحة له . .وقال الإمام ابن
- كثير عند تفسيره لهذه الآية : ذكر ابن جرير وابن أبى حاتم - وغيرهما
هاهنا آثارا عن بعض السلف ، أحببنا أن نضرب عنها صفحا ، لعدم صحتها . فلا
نوردها . .هذا ، ولفضيلة شيخنا الجليل الدكتور أحمد السيد الكومى رأى فى
معنى هذه الجملة الكريمة ، وهو أن ما أخفاه الرسول فى نفسه : هو علمه
بإصرار زيد على طاقه لزينب ، لكثرة تفاخرها عليه ، وسماعه منها ما يكرهه
وما لا يستطيع معه الصبر على معاشرتها .وما أبداه الله - تعالى - : هو علم.
، الناس بحال زيد معها ، ومعرفتهم بأن زينب تخشن له القول ، وتسمعه ما يكره
وتفخر عليه بنسبها . .فيكون المعنى : تقول للذى أنعم الله عليه ، وأنعمت
عليه ، أمسك عليك زوجك واتق الله ، وتخفى فى نفسك أن زيدا لن يستطيع الصبر
على معاشرة زوجه لوجود التنافر بينهما . . مع أن الله - تعالى - قد أظهر
ذلك عن طريق كثرة شكوى زيد منها ، وإعلانه أنه حريص على طلاقها ، ومعرفة
كثير من الناس بهذه الحقيقة . . .ومما يؤيد هذا الرأى أنه لم يرد لا فى
الكتاب ولا فى السنة ما يدل دلالة صريح على أن الله قد أوحى إلى نبيه صلى
، الله عليه وسلم أن زيدا سيطلق زينب ، وأنه صلى الله عليه وسلم سيتزوجها
- بكل ما ورد فى ذلك هى تلك الرواية التى سبق أن ذكرناها عن على بن الحسين
رضى الله عنهما - .قال صاحب الظلال : وهذا الذى أخفاه النبى صلى الله عليه
وسلم فى نفسه ، وهو يعلم أن الله مبديه ، هو ما ألهمه الله أن سيفعله . ولم
. يكن أمرا صريحا من الله . وإلا ما تردد فيه ولا أخره ولا حاول تأجيله
والجهر به فى حينه مهما كانت العواقب التى يتوقعها عن إعلانه . ولكنه صلى
الله عليه وسلم كان أمام إلهام يجده فى نفسه ، ويتوجس فى الوقت ذاته من
. مواجهته ومواجهة الناس به حتى أذن الله بكونه . فطلق زيد زوجه فى النهاية
وهو لا يفكر لا هو لا زينب فيما سيكون بعد . .وهذه الأوقال جميعها تهدم
هدما تاما كل الروايات التى رويت عن هذا الحادث ، والى تشب بها أعداء
- الإسلام فى كل زمان ومكان ، وصاغوا حولها الأساطير والمفتريات .وقوله
سبحانه - : ( وَتَخْشَى النَّاسَ والله أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ) معطوف على ما
قبله ، ومؤكد لمضمونه .أى : تقول له ما قلت ، وتخفى في نفسك ما أظهره الله
وتخشى أن تواجه الناس بما ألهمك الله - تعالى - به من أمر زيد وزينب ، مع ،
أن الله - تعالى - أحق بالخشية من كل ما سواه .فالجملة الكريمة عتاب رقيق
، من الله - تعالى - لنبيه صلى الله عليه وسلم وإرشاد له إلى أفضل الطرق
- وأحكم السبل ، لمجابهة أمثال هذه الأمور ، وحلها حلا سليما .ثم بين
سبحانه - الحكمة من زواجه صلى الله عليه وسلم بزينب فقال : ( فَلَمَّا قضى
زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لاَ يَكُونَ عَلَى
المؤمنين حَرَجٌ في أَزْوَاجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ

: وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ الله مَفْعُولاً ) .الوطر : الحاجة . وقضاء الوطر
: بلوغ منتهى ما تريده النفس من الشئ ، يقال : قضى فلان وطره من هذا الشئ
إذا أخذ اقصى حاجته منه .والمراد هنا : أن زيدا قضى حاجته من زينب ، ولم
يبق عنده أدنى رغبة فيها ، بل صارت رغبته العظمى فى مفارقتها .أى : فلما
قضى زيد حاجته من زينب ، وطلقها ، وانقضت عدتها ، زوجناكها ، أى : جعلناها
)زوجة لك ، ( لِكَيْ لاَ يَكُونَ عَلَى المؤمنين حَرَجٌ ) أو ضيق أو مشقة
في أَزْوَاجِ أَدْعِيَآئِهِمْ ) أي : فى الزواج من أزواج أدعيائهم ، الذين
تبنوهم ( إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنّ وَطَراً ) أى : إذا طلق هؤلاء الأدعياء
أزواجهم ، وانقضت عدة هؤلاء الأزواج ، فلا حرج على الذين سبق لهم هؤلاء
الأدعياء أن يتزوجوا بنسائهم ، ولهم فى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة
- حسنة .( وَكَانَ أَمْرُ الله مَفْعُولاً ) أى : وكان ما يريده الله
تعالى - حاصلا لا محالة .قال الإمام ابن كثير : قوله : ( فَلَمَّا قضى
زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا ) أى : لما فرغ منها وفارقها
زوجناكها ، وكان الذى ولى تزويجها منهه هو الله - عز وجل - بمعنى : أنه
أوحى إليه أن يدخل بها بلا وليّ ولا مهر ولا عقد ولا شهود من البشر . .روى
الإمام أحمد عن أنس قال : " لما انقضت عدة زينب - رضى الله عنها - قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد بن حارثة " اذهب فاذكرها على " فانطلق
حتى أتاها وهى تخمر عجينها . قال : فلما رأيتها عظمت فى صدرى حتى ما أستطيع
أن أنظر إليها . وجعلت أقول - وقد وليتها ظهرى ، ونكصت على عقبى - يا زينب
أبشرى . أرسلنى رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرك قالت : ما أنا بصانعة .
شيئا حتى أؤامر ربى - أى : أستشيره فى أمرى - فقامت إلى مسجدها . ونزول
القرآن . وجاء رسول الله فدخل عليها بغير إذن " .وروى البخارى عن أنس بن
مالك ، أن زينب بنت جحش كانت تفخر على أزواج النبى صلى الله عليه وسلم
فتقول : زوجكن أهاليكن ، وزوجنى الله من فوق سبع سماوات . .وقال الإمام
الشوكانى : وقوله : ( لِكَيْ لاَ يَكُونَ عَلَى المؤمنين حَرَجٌ في
أَزْوَاجِ أَدْعِيَآئِهِمْ ) .أى : فى التزوج بأزواج من يجعلونه ابنا ، كما
كانت تفعله العرب ، فإنهم كانوا يتبنون من يريدون . . وكانوا يعتقدون أنه
يحرم عليهم نساء من تبنوه ، كما تحرم نساء أبنائهم على الحقيقة ، والأدعياء
جمع دعى ، وهو الذى يدعى ابنا من غير أن يكون ابنا على الحقيقة . فأخبرهم :
الله - تعالى - أن نساء الأدعياء حلال لهم - بعد انقضاء العدة - بخلاف
. . الأبناء من الصلب ، فإن نساءهم تحرم على الآباء بنفس العقد عليها

ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له سنة الله في الذين خلوا من قبل
وكان امر الله قدرا مقدورا

كما فسرها الوسيط وبعد أن بين - سبحانه - الحكمة من زواج النبى صلى الله
- عليه وسلم بالسيدة زينب بنت جحش ، التى كانت قبل ذلك زوجة لزيد بن حارثة
الذى كان الرسول قد تبناه وأعتقه - بعد كل ذلك أخذت السورة الكريمة فى
- تقرير هذه الحكمة وتأكيدها ، وإزالة كل ما علق بالأذهان بشأنها ، فقال
تعالى - : ( مّا كَانَ عَلَى النبي مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ الله لَهُ
أى : ما كان على النبى صلى الله عليه وسلم من حرج أو لوم أو مؤاخذة. ( . ..
فى فعل ما أحله الله له ، وقدره عليه ، وأمره به من زواجه بزينب بعد أن ،
: طلقها ابنه بالتبنى زيد بن حارثة فقوله : ( فِيمَا فَرَضَ الله لَهُ ) أى
: فيما قسمه له ، وقدره عليه ، مأخوذ من قولهم : فرض فلان لفلان كذا ، أى
قدر له هذا الشئ وجعله حلالا له .وقوله - تعالى - : ( سُنّةَ الله فِي
( الذين خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ الله قَدَراً مَّقْدُوراً
زيادة فى تأكيد هذه الحكمة ، وفى تقرير صحة ما فرضه الله - تعالى - لنبيه
صلى الله عليه وسلم .أى : ما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم من زواجه
بزينب بعد طلاقها من زيد ، قد جعله الله - تعالى - سنة من سننه فى الأمم
الماضية ، وكان أمر الله - تعالى - قدرا مقدورا . أى : واقعا لا محالة
والقدر : إيجاد الله - تعالى - على قَدْرٍ مخصوص حسبما تقتضى حكمته.
ويقابله القضاء : وهو الإرادة الأزلية المتعلقة بالأشياء على ما هى عليه.
وقد يستعمل كل منهما بمعنى الآخر . والأظهر أن قدر الله - تعالى - هنا .
بمعنى قضائه .ولفظ ( مّقْدُوراً ) وصف جئ به للتأكيد ، كما فى قولهم : ظل
. ظليل ، وليل أليل

الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون احدا الا الله وكفى بالله
حسيبا

كما فسرها الوسيط ثم مدح - سبحانه - هؤلاء المؤمنين الصادقين الذين يبلغون
دعوته دون أن يخشوا أحدا سواه فقال : ( الذين يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ الله
للذين يكلفهم - سبحانه - بتبليغها لهم . والموصول فى محل جر صفة للذين (
خلوا . أو منصوب على المدح .( وَيَخْشَوْنَهُ ) أى : ويخافونه وحده ( وَلاَ
، يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ الله ) - عز وجل - فى كل ما يأتون وما يذرون

- وما يقولون وما يفعلون .( وكفى بالله حَسِيباً ) أى : وكفى بالله - تعالى
. محاسبا لعباده على نبات قلوبهم وأفعالهم جوارحهم ، وأقوال ألسنتهم

ما كان محمد ابا احد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما

كما فسرها الوسيط ثم حدد - سبحانه - وظيفته رسوله صلى الله عليه وسلم وأثنى
عليه بما هو أهله ، فقال - تعالى - : ( مّا كَانَ مُحَمّدٌ أَبَآ أَحَدٍ
مّن رّجَالِكُمْ ) أى : لم يكن محمد صلى الله عليه وسلم أبا لأحد من
رجالكم أبوة حقيقة ، تترتب عليها آثارها وأحكامها من الإرث ، والنفقة
والزواج . . . وزيد كذلك ليس ابنا له صلى الله عليه وسلم فزواجه صلى الله
) : عليه وسلم بزينب التى طلقها زيد لا حرج فيه ، ولا شبهة فى صحته ، وقوله
: ولكن رَّسُولَ اللّه وَخَاتَمَ النبيين ) استدراك لبيان وظيفته وفضله .أى
لم يكن صلى الله عليه وسلم أبا لأحدكم على سبيل الحقيقة ، ولكنه كان رسولا
- من عند الله - تعالى - ليخرجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان وكان
أيضا - خاتم النبيين ، بمعنى أنهم ختموا به ، فلا نبى بعده ، فهو كالخاتَم
والطابَع لهم . ختم الله - تعالى - به الرسول والأنبياء ، فلا رسول ولا نبى
بعده إلى قيام الساعة .قال القرطبى : قرأ الجمهور ( وَخَاتَمَ ) - بكسر
التاء - بمعنى أنه ختمهم ، أى : جاء آخرهم .وقرأ عاصم ( وخاتم ) - بفتح
التاء - بمعنى أنهم ختموا به ، فهو كالخاتم والطابع لهم .وقيل : الخاتم
والخاتم - بالفتح والكسر - لغتان ، مثل طابع وطابع . .وقد روى الإمام مسلم
عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " مثلى ومثل الأنبياء من
قبلى كمثل رجل بنى دارا فأتمها وأكملها ، إلا موضع لبنة ، فجعل الناس
يدخولنها ويتعدبون منها ويقولون : ما أجمل هذه الدار ، هلا وضعت هذه
" اللبنة؟ قال صلى الله عليه وسلم فأنا موضع اللبنة جئت فختمت الأنبياء
وقد ذكر الإمام ابن كثير عددا من الأحاديث فى هذا المعنى منها ما رواه.
الإمام مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " فضلت
، على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ونصرت بالرعب ، وأحلت لى الغنائم
" وجعلت لى الأرض طهورا ومسجدا ، وأرسلت إلى الخلق كافة ، وختم بى النبيون
ثم قال - رحمه الله - بعد أن ذكر هذا الحديث وغيره : والأحاديث فى هذا.
كثيرة ، فمن رحمة الله - تعالى - بالعباد إرسال محمد صلى الله عليه وسلم
، إليهم ، ثم من تشريفه له ختم الأنبياء والمرسلين به ، وإكمال الحنيف له
وقد أخبر - تعالى - فى كتابه ، وأخبر رسوله فى السنة المتواترة عنه ، أنه
لا نبى بعده ، ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده فهو كذاب أفاك دجال
- ضال مضل ، ولو تخرق وشعبذ ، وأتى بأنواع السحر والطلاسم . .ثم ختم
سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ( وَكَانَ اللّه بِكُلّ شَيْءٍ عَلِيماً )
أى : وكان - عز وجل - وما زال ، هو العليم علما تاما بأحوال خلقه ، وبما.
، ينفعهم ويصلحهم ، ولذا فقد شرع لكم ما أنتم فى حاجة إليه من تشريعات
واختار رسالة نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم لتكون خاتمة الرسالات ، فعليكم
. أن تقابلوا ذلك بالشكر والطاعة ، ليزيدكم - سبحانه - من فضله وإحسانه

يا ايها الذين امنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا

كما فسرها الوسيط ثم جاءت الآيات الكريمة بعد ذلك لتؤكد هذا المعنى وتقرره
فأمرت المؤمنين بالإكثار من ذكر الله - تعالى - ومن تسبيحه وتحميده ،
وتكبيره - فقال - سبحانه - : ( ياأيها الذين آمَنُواْ . . . لَهُمْ أَجْراً
كَرِيماً ) .والمقصود بذكر الله - تعالى - فى قوله : ( ياأيها الذين
آمَنُواْ اذكروا الله ذِكْراً كَثِيراً ) ما يشمل التهليل والتحميد
والتكبير وغير ذلك من القوال والأفعال التى ترضيه - عز وجل - .أى : يا من
، آمنتم بالله حق الإيمان اكثروا من التقرب إلى الله - تعالى - بما يرضيه
، فى كل أوقاتكم وأحوالكم ، فإن ذكر الله - تعالى - هو رطب النفوس ودواؤها
وهو عافية الأبدان وشفاؤها ، به تطمئن القلوب ، وتنشرح الصدور . .والتعبير
بقوله : ( اذكروا الله ذِكْراً كَثِيراً ) يشعر بأن من شأن المؤمن الصادق
فى إيمانه ، أن يواظب على هذه الطاعة مواظبة تامة .ومن الأحاديث التى وردت
. فى الحض على الإكثار من ذكر الله ، ما رواه الإمام أحمد عن أبى الدرداء
رضى الله عنه . . قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ألا أنبئكم .
بخير أعمالكم ، وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها فى درجاتكم ، وخير لكم من
إعطاء الذهب والوَرِقِ - أى : الفضة ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا
أعناقهم ، ويضربوا أعناقكم ، قالوا : وما هو يا رسول الله؟ قال : ذكر
: الله - عز وجل - " .وعن عمرو بن قيس قال : " سمعت عبد الله بن بسر يقول
جاء اعرابيان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أحدهما : يا رسول الله
أى الناس خير؟ قال : " من طال عمره وحسن عمله " .وقال الآخر : يا رسول ،
" : الله ، إن شرائع الإسلام قد كثرت علينا ، فمرنى بأمر أتشبث به . قال
- لا يزال لسانك رطبا بذكر الله " " .وقال ابن عباس : لم يفرض الله - تعالى

، فريضة إلا جعل لها حدا معلوما ، ثم عذر أهلها فى حال العذر ، غير الذكر
فإن الله - تعالى - لم يجعل له حدا ينتهى إليه ، ولم يعذر أحداً فى تركه
) : - إلا مغلوبا على عقله ، وأمرهم به فى الأحوال كلها ، فقال - تعالى
( . . . الذين يَذْكُرُونَ الله قِيَاماً وَقُعُوداً وعلى جُنُوبِهِمْ
وقال - سبحانه - : ( فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصلاة فاذكروا الله قِيَاماً
وَقُعُوداً وعلى جُنُوبِكُمْ . . ) أى : بالليل وبالنهار ، فى البر والبحر
، وفى السفر والحضر ، والغنى والفقر ، والسقم والصحة ، والسر والعلانية ،
. . وعلى كل حال

وسبحوه بكرة واصيلا

كما فسرها الوسيط وقوله : ( وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ) معطوف على
والتسبيح : التنزيه . مأخوذ من السبح ، وهو المر السريع فى ( اذكروا )
. الماء أو فى الهواء . فالسبح مسرع فى تنزيه الله وتبرئته من السوء
والبكرة : أول النهار . والأصيل : أخره .أى : اكثروا - أيها المؤمنون - من
ذكر الله - تعالى - فى كل أحوالكم ، ونزهوه - سبحانه - عن كل ما لا يليق به
فى أول النهار وفى آخره .وتخصيص الأمر بالتسبيح فى هذين الوقتين ، لبيان ،
فضلهما ، ولمزيد الثواب فيهما ، وهذا لا يمنع أن التسبيح فى غير هذين
- الوقتين له ثوابه العظيم عند الله - تعالى - .- وأيضا - خص - سبحانه
. التسبيح بالذكر مع دخوله فى عموم الذكر ، للتنبيه على مزيد فضله وشرفه
قال صاحب الكشاف : والتسبيح من جملة الذكر . وإنما اختصه - تعالى - من بين.
أنواعه اختصاص جبريل وميكائيل من بين الملائكة ، ليبين فضله على سائر
. الأذكار ، لأنه معناه تنزيه ذاته عما لا يجوز عليه من الصفات والأفعال

هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات الى النور وكان بالمؤمنين
رحيما

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( هُوَ الذي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ
وَمَلاَئِكَتُهُ . . ) استئناف جار مجرى التعليل لما قبله ، من الأمر
بالإكثار من الذكر ومن التسبيح .والصلاة من الله - تعالى - على عباده
معناها : الرحمة بهم ، والثناء عليهم ، كما أن الصلاة من الملائكة على
- الناس معناها : الدعاء لهم بالمغفرة والرحمة .قال القرطبى : قوله - تعالى
: قال ابن عباس . . ( هُوَ الذي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلاَئِكَتُهُ ) :
لما نزل : ( إِنَّ الله وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النبي . . ) قال
المهاجرون والأنصار : هذا لك يا رسول الله خاصة ، وليس لنا فيه شئ ، فأنزل
الله هذه الآية .ثم قال القرطبى : قلت : وهذه نعمة من الله - تعالى على هذه
) : الأمة من أكبر النعم ، ودليل على فضلها على سائر الأمم . وقد قال
كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ) والصلاة من الله على العبد
هى رحمته له ، وبركته لديه . وصلاة الملائكة : دعاؤهم وللمؤمنين استغفارهم
لهم ، كما قال - تعالى - : ( الذين يَحْمِلُونَ العرش وَمَنْ حَوْلَهُ
يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ
لِلَّذِينَ آمَنُواْ ) وقوله : ( لِيُخْرِجَكُمْ مِّنَ الظلمات إِلَى النور
، متعلق بقوله : ( يُصَلِّي ) أى : يرحمكم - سبحانه - برحمته الواسعة (
ويسخر ملائكته للدعاء لكم ، لكى يخرجكم بفضله ومنته ، من ظلمات الظلال
) والكفر إلى النور والهداية والإيمان .( وَكَانَ ) - سبحانه - وما زال
بالمؤمنين رَحِيماً ) رحمة عظيمة واسعة ، تشمل الدنيا والآخرة .أما رحمته
لهم فى الدنيا فمن مظاهرها : هدايته إياهم إلى الصراط المستقيم .وأما
رحمته - سبحانه - لهم فى الآخرة فمن مظاهرها : أنهم يأمنون من الفزع الأكبر
وفى صحيح البخارى عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - ، " أن رسول الله صلى.
الله عليه وسلم رأى امرأة من السبى قد أخذت صبيا لها فألصقته إلى صدرها
: وأضعته فقال : " أترون هذه تلقى ولدها فى النار وهى تقدر على ذلك؟ قالوا
. " " لا . قال : فوالله لله أرحم بعباده من هذه لولدها

تحيتهم يوم يلقونه سلام واعد لهم اجرا كريما

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - عز وجل - ما أعده للمؤمنين فى الآخرة فقال
تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلاَمٌ ) .والتحية : أن يقول قائل
للشخص : حياك الله ، أى : جعل لك حاية طيبة .وهذه التحية للمؤمنين فى
) : - الآخرة ، تشمل تحية الله - تعالى - لهم ، كما فى قوله - سبحانه
سَلاَمٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ )وتشمل تحية الملائكة لهم ، كما فى
قوله - تعالى - : ( وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِّن كُلِّ
بَابٍ سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عقبى الدار ) كما تشمل
تحية بعضهم لبعض كما فى قوله - عز وجل - : ( دَعْوَاهُمْ فِيهَا
سُبْحَانَكَ اللهم وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ

- أَنِ الحمد للّهِ رَبِّ العالمين ) أى : تحية المؤمنين يوم يلقون الله تعالى فى الآخرة ، أو عند قبض أرواحهم ، سلام وأمان لهم من كل ما يفزعهم أو يخيفهم أو يزعجهم .( وَأَعَدَّ لَهُمْ ) - سبحانه - يوم القيامة ( أَجْراً كَرِيماً ) هو الجنة التى فيها مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

يا ايها النبي انا ارسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا

كما فسرها الوسيط ثم وجه - سبحانه - نداء إلى النبى صلى الله عليه وسلم حدد له فيه وظيفته ، وأمره بتبشير المؤمنين بما يسرهم ، ونهاه عن طاعة الكافرين والمنافقين فقال : ( ياأيها النبي . . . وكفى بالله وَكِيلاً ) .وقوله ) : وَمُبَشِّراً ) من التبشير ، وهو الإخبار بالأمر السار لمن لا علم له بهذا الأمر .وقوله : ( وَنَذِيراً ) من الإنذار ، وهو الإخبار بالأمر المخيف لكى يجتنب ويحذر .والمعنى : يأيها النبى الكريم ( إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ ) إلى الناس ( شَاهِداً ) أى : شاهدا لمن آمن منهم بالإيمان ، ولمن كفر منهم بالكفر ، بعد أن بلغتهم رسالة ربك تبليغا تاما كاملا .( وَمُبَشِّراً ) أى ومبشرا المؤمنين منهم برضا الله - تعالى - .( وَنَذِيراً ) أى : ومنذرا : للكافرين بسوء العاقبة ، بسبب إعراضهم عن الحق الذى جئتهم به من عند الخالق - عز وجل - .وقدم - سبحانه - التبشير على الإنذار ، تكريما للمؤمنين المبشرين ، وإشعارا بأن الأصل فى رسالته صلى الله عليه وسلم التبشير ، فقد أرسله الله - تعالى - رحمة للعالمين .

وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا

كما فسرها الوسيط وقوله : ( وَدَاعِياً إِلَى الله بِإِذْنِهِ ) أى : وأرسلناك - أيضا - داعيا للناس إلى عبادة الله - تعالى - وحده ، وهذه الدعوة لهم منك كائنة بإذنه - سبحانه - وبأمره وبتيسيره .فالتقييد بقوله ) بِإِذْنِهِ ) لبيان أنه صلى الله عليه وسلم لم يدع الناس إلى ما دعاهم إليه من وجوب إخلاص العبادة له - سبحانه - ، من تلقاء نفسه ، وإنما دعاهم إلى ذلك بأمر الله - تعالى - وإذنه ومشيئته ، وللإشارة إلى أن هذه الدعوة لا تؤتى ثمارها المرجوة منها إلا إذا صاحبها إذن الله - تعالى - للنفوس بقبولها .وقوله : ( وَسِرَاجاً مُّنِيراً ) معطوف على ما قبله . والسراج : المصباح الذى يستضاء به فى الظلمات .أى : وأرسلناك - أيها الرسول الكريم - بالدين الحق ، لتكون كالسراج المنير الذى يهتدى به الضالون ، ويخرجون بسببه من الظلمات إلى النور .ووصف السراج بالإنارة ، لأن من المصابيح ما لا يضئ - إذا لم يوجد به ما يضيئه من زيت أو ما يشبهه .قال صاحب الكشاف : جلى الله تعالى - بنبيه صلى الله عليه وسلم ظلمات الشرك ، فاهتدى به الضالون ، كما يجلى ظلام الليل بالسراج المنير ويهتدى به . أو أمد الله بنور نبوته نور البصائر ، كما يمد بنور السراج نور الأبصار . ووصفه بالإنارة لأن من السراج ما لا يضئ إذا قل سليطه - أى : زيته - ودقت فتيلته . .

وبشر المؤمنين بان لهم من الله فضلا كبيرا

كما فسرها الوسيط وبعد أن وصف الله - تعالى - رسوله صلى الله عليه وسلم بهذه الصفات الكريمة ، اتبع ذلك بأمره بتبشير المؤمنين برضا الله عنهم ، وبنهيه عن طاعة الكافرين ، فقال - تعالى - : ( وَبَشِّرِ المؤمنين . . . ) . أى : انظر - أيها الرسول الكريم - إلى أحوال الناس وإلى موقفهم من دعوتك وبشر المؤمنين منهم ( بِأَنَّ لَهُمْ مِّنَ الله ) - تعالى - (فَضْلاً كَبِيراً ) أى : عطاء كبيرا ، وأجراً عظيما ، ومنزلة سامية بين الأمم .

ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع اذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا

كما فسرها الوسيط ( وَلاَ تُطِعِ الكافرين والمنافقين ) فيا يشيرون به عليك من ترك الناس وما يعبدون ، و من عدم بيان ما هم عليه من باطل وجهل ، بل اثبت على ما أنت عليه من حق ، وامض فى تبليغ دعوتك دون أن يخشى أحدا إلا الله - تعالى - .( وَدَعْ أَذَاهُمْ ) أى : ولا تبال بما ينزلونه بك من أذى بسبب دعوتك إياهم إلى ترك عبادة الأصنام والأوثان ، واصبر على ما يصبك ، منهم حتى يحكم الله - تعالى - بحكمه العادل بينك وبينهم .( وَتَوَكَّلْ عَلَى الله ) فى كل أمورك ( وكفى بالله ) - تعالى - ( وَكِيلاً ) توكل إليه الأمور ، وترد إليه الشئون . .هذا ، ومن الأحاديث النبوية التى اشتملت على بعض المعانى التى اشتملت عليها هذه الآيات ، ما رواه الإمام البخارى والإمام أحمد عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن علاص فقلت له : أخبرنى عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التوراة؟ قال : والله إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن : ( ياأيها النبي إِنَّآ

أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ) وحرزا للمؤمنين ، أنت
عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل ، لست بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق ، ولا
يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويصفح ، ولن يقبضه الله - تعالى - حتى
. يقيم به الملة العوجاء ، ويفتح به أعينا عميا ، وآذانا صما ، وقلوبا غلفا

يا ايها الذين امنوا اذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل ان تمسوهن فما
لكم عليهن من عدة تعتدونها فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا

كما فسرها الوسيط ثم عادت السورة الكريمة - بعد هذا الحديث الجامع عن وظيفة
الرسول صلى الله عليه وسلم وعن فضله - إلى الحديث عن جانب من أحاكم الزواج
. . . . والطلاق ، فقال - تعالى - : ( ياأيها الذين آمنوا إِذَا نَكَحْتُمُ
والمراد بالنكاح هنا فى قوله ( إِذَا نَكَحْتُمُ ) العقد ، لأن الحديث. (
فى حكم المرأة التى تم طلاقها قبل الدخول بها .وهذا الحكم شامل للمؤمنات
ولغيرهن كالكتابيات ، إلا أن الآية الكريمة خصت المؤمنات بالذكر ، للتنبيه
على أن من ساق المؤمن أن لا ينكح إلا مؤمنة تخيرا للنطفة .والعدة : هى الشئ
المعدود . وعدة المرأة معناها : المدة التى بانقضائها يحل لها الزواج من
- شخص آخر ، غير الذى كان زوجا لها .والمعنى : يا من آمنتم بالله - تعالى
حق الإيمان ، ( إِذَا نَكَحْتُمُ المؤمنات ) أى : إذا عقدتم عليهن عقد
النكاح ، ولم يبق بينكم وبينهن سوى الدخول بهن .( ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ
مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ ) أى : ثم طلقتموهن من قبل أن تجامعوهن .قال
الآلوسى : وفائدة المجئ بثم مع أن الحكم ثابت لمن تزوج امرأة وطلقها على
الفور كثبوته لمن تزوجها وطلقها بعد مدة مديدة ، إزاحة ما عسى يتوهم أن
. تراخى الطلاق ، له دخل فى إيجاب العدة ، لاحتمال الملاقاة والجماع سرا
أى : أن الحكم الذى اشتملت عليه الآية الكريمة ، ثابت سواء تم الطلاق بعد.
عقد الزواج مباشرة ، أم بعده بمدة طويلة .وفى التعبير عن الجماع بالمس
، كناية لطيفة . من شأنها أن تربى فى الإنسان حسن الأدب ، وسلامة التعبير
وتجنب النطق بالألفاظ التى تخدش الحياء .وقوله : ( فَمَا لَكُمْ
عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ) جواب إذا ، وبيان للحكم
المترتب على طلاق المرأة قبل الدخول بها .أى : إذا طلقتموهن قبل الدخول بهن
فلا عدة عليهن ، بل من حقهن أن يتزوجن بغيركم ، بعد طلاقكم لهن بدون ،
التقيد بأية مدة من الزمان .قال الجمل : وقوله : ( تَعْتَدُّونَهَا ) صفة
: لعدة . وتعتدونها تفتعلونها ، إما عن العد ، وإما عن الاعتداد ، أى
: تحسبونها أو تستوفون عددها ، من قولك : عد فلان الدراهم فاعتدها ، أى
فاستوفى عددها . .فالمقصود من الآية الكريمة بيان أن المطلقة قبل الدخول
بها لا عدة عليها إطلاقا بنص الكتاب وإجماع الأمة ، أما المطلقة بعد الدخول
بها فعليها العدة إجماعا .وقوله - سبحانه - : ( فَمَتِّعُوهُنَّ
وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً ) بيان لما يجب على المؤمنين أن يفعلوه
بالنسبة لمن طلقت قبل الدخول بها .وأصل المتعة والمتاع ، ما ينتفع بها ،
الإنسان من مال أو كسوة أو غير ذلك . ثم أطلقت المتعة على ما يعطيه الرجل
، للمرأة من مال أو غيره عند طلاقها منه ، لتنتفع به ، جبرا لخاطرها
وتعويضا لها عما نالها بسبب هذا الفراق .وأصل التسريح : أن ترعى الإبل
السرح ، وهو شجر له ثمرة ، ثم أطلق على كل إرسال فى الرعى ، ثم على كل
إرسال وإخراج .والتسريح الجميل : هو الذى لا ضرر معه . وإنما معه الكلام
الطيب ، والفعل الحسن .والمعنى : إذا طلقتموهن قبل الدخول بهن ، فأعطوهن من
المال ما يجبر خاطرهن ، وما يكون عوضا عن فراقهن .. وأطلقوا سراحهن
ليستأنفن حياة جديدة مع غيركم ، وساعدوهن على ذلك إن استطعتم ، فإن من شأن
العقلاء ، يعاشروا أزواجهن بالمعروف ، وأن يفارقوهن - أيضا - بالمعروف .ومن
العلماء من يرى أن المتعة واجبة للمرأة على الرجل فى حال مفارقتها قبل
الدخول بها ، لأن الآية الكريمة قد أمرت بذلك ، والأمر بقتضى الوجوب .وقد
بينا ذلك بالتفصيل عند تفسيرها لقوله - تعالى - فى سورة البقرة : ( لاَّ
جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النسآء مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ
تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الموسع قَدَرُهُ
وَعَلَى المقتر قَدَرُهُ مَتَاعاً بالمعروف حَقّاً عَلَى المحسنين وَإِن
طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ
فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلاَّ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ
الذي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النكاح وَأَن تعفوا أَقْرَبُ للتقوى وَلاَ
تَنسَوُاْ الفضل بَيْنَكُمْ إِنَّ الله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ) ومن
. مجموع هذه الآيات : نرى أحكم التشريعات ، وأسمى التوجيهات

يا ايها النبي انا احللنا لك ازواجك اللاتي اتيت اجورهن وما ملكت يمينك مما
افاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي
هاجرن معك وامراة مؤمنة ان وهبت نفسها للنبي ان اراد النبي ان يستنكحها
خالصة لك من دون المؤمنين قد علمنا ما فرضنا عليهم في ازواجهم وما ملكت
ايمانهم لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفورا رحيما

. كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك جانبا من مظاهر فضله عليه
- وتكريمه له حيث خصه بأمور تتعلق بالنكاح لم يخص بها أحدا غيره . فقال
تعالى - : ( ياأيها النبي إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ . . . . على
كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيباً ) .والمراد بالأجور فى قوله - سبحانه - : ( ياأيها
. النبي إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاتي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ
: المهور التى دفعها صلى الله عليه وسلم لأزواجه .قال ابن كثير ( . .
يقول - تعالى - مخاطبا - نبيه - صلوات الله وسلامه عليه - بأن قد أحل له من
النساء أزواجه اللائى أعطاهن مهورهن ، وهى الأجور ها هنا ، كما قاله مجاهد
وغير واحد .وقد كان مهره صلى الله عليه وسلم لنسائه : اثنتى عشرة أوقية
ونصف أوقية . فالجمعي خمسمائة درهم إلا أم حبيبة بنت أبى سفيان فإنه أمهرها
عنه النجاشى - رحمه الله - بأربعمائة دينار ، وإلا صفية بنت حيى فإنه
اصطفاها من سبى خيبر ، ثم أعتقها وجعل عتقها صداقها . وكذلك جويرية بنت
: الحارث المصطلقية ، أدى عنها كتابتها إلى ثبات بن قيس وتزوجها .وفى قوله
إشارة إلى أن إعطاء المهر كاملا للمراة دون إبقاء ( آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ )
شئ منه ، هو الأكمل والأفضل ، وأن تأخير شئ منه إنما هو مستحدث ، لم يكن
معروفا عند السلف الصالح .وأُطْلِق على المهر أَجْرٌ لمقابلته الاستمتاع
الدائم بما يحل الاستمتاع به من الزوجة ، كما يقابل الأجر بالمنفعة .وقوله
بيان لنوع ( وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ الله عَلَيْكَ ) :
آخر مما أحله الله - تعالى - لنبيه صلى الله عليه وسلم .والمعنى : يأيها
النبى إنا أحللنا لك - بفضلنا - على سبيل التكريم والتشريف لك ، الاستمتاع
- بأزواجك الكائنات عندك ، واللاتى أعطيتهن مهورهن - كعائشة وحفصة وغيرهما
لأنهن قد اخترنك على الحياة الدنيا وزينتها .كما أحللنا لك التمتع بما ،
، ملكت يمينك من النساء اللائى دخلن فى ملكك عن طريق الغنيمة فى الحرب
كصفية بنت حيى بن أخطب ، وجويرية بنت الحارث .ثم بين - سبحانه - نوعا ثالثا
أحله - سبحانه - له فقال : ( عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ
عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاَتِكَ اللاتي هَاجَرْنَ
مَعَكَ ) .أى : وأحللنا لك - أيضا - الزواج بالنساء اللائى تربطك بهن قرابة
من جهة الأب ، أو قرابة من جهة الأم .وقوله ( اللاتي هَاجَرْنَ مَعَكَ )
إشارة إلى ما هو أفضل ، وللإيذان بشرف الهجرة وشرف من هاجر .والمراد
- بالمعية هنا . الاشتراك فى الهجرة .لا المصاحبة فيها ، لما فى قوله
تعالى - حكاية عن ملكة سبأ : ( قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي
وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ العالمين ) .قال بعض العلماء
وقد جاء فى الآية الكريمة عدة قيود ، ما أريد بواحد منها غلى التنبيه على :
الحالة الكريمة الفاضلة .منها : وصف النبى صلى الله عليه وسلم باللاتى آتى
أجورهن ، فإنه تنبيه على الحالة الكاملة ، فإن الأكمل إيتاء المهر كاملا
دون أن يتأخر منه شئ .ومنها : أن تخصيص المملوكات بأن يكن من الفئ ، فإن
، المملوكة إذا كانت غنيمة من أهل الحرب كانت أحل وأطيب مما يشترى من الجلب
لأن المملوكة عن طريق الغنيمة تكون معروفة الحالة والنشأة .ومنها : قيد
الهجرة فى قوله : ( اللاتي هَاجَرْنَ مَعَكَ ) ، ولا شك أن من هاجرت مع
النبى صلى الله عليه وسلم أولى بشرف زوجة النبى صلى الله عليه وسلم ممن
عداها .ثم بين - سبحانه - نوعا رابعا من النساء ، أحله لنبيه صلى الله عليه
وسلم فقال : ( وامرأة مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ
. ( أَرَادَ النبي أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ المؤمنين
والجملة الكريمة معطوفة على مفعول ( أَحْلَلْنَا ) .وقد اشتملت هذه الجملة
على شرطين ، الثانى منهما قيد للأول ، لن هبتها نفسها له صلى الله عليه
وسلم لا توجب حلها له إلا بقبوله الزواج منها .وقوله ( يَسْتَنكِحَهَا )
بمعنى ينكحها . يقال : نكح واستنكح ، بمعنى عجل واستعجل : ويجوز أن يكون
) بمعنى طلب النكاح .وقوله : ( خَالِصَةً ) منصوب على الحال من فاعل
: وَهَبَتْ ) أى : حال كونها خالصة لك دون غيرك . أو نعت لمصدر مقدر . أى
هبة خالصة . . .والمعنى وأحللنا لك كذلك امرأة مؤمنة ، إن ملكتك نفسها بدون
نفسها بدون مهر وإن أنت قبلت ذلك عن طيب خاطر منك ، وهذا الإحلال إنما هو
خاص بك دون غيرك من المؤمنين ، لأن غيرك من المؤمنين لا تحل لهم من وهبت
نفسها لواحد منهم إلا بولى ومهر .وقد ذكروا ممن وهبن أنفسهن له صلى الله
عليه وسلم خولة بنت حكيم ، وأم شريك بنت جابر ، وليلى بنت الحطيم . .وقد
اختلف العلماء فى كونه صلى الله عليه وسلم قد تزوج بواحدة من هؤلاء
الواهبات أنفسهن له أم لا .والأرجح أنه صلى الله عليه وسلم لم يتزوج بواحدة
منهن ، وإنما زوجهن لغيره . ويشهد لذلك ما رواه الشيخان " عن سهل بن سعد
الساعدى ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءته امرأة فقالت : يا رسول
الله ، إنى قد وهبت نفسى لك . فقامت قياما طويلا ، فقام رجل فقال : يا رسول
الله ، زوجنيها إن لم يكن لك بها حاجة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم
هل عندك من شئ تصدقها إياه؟ فقال : ما عندى إلا إزارى هذا . فقال صلى :
: الله عليه وسلم : إن أعطيتها إزارك جلست لا إزار لك ، فالتمس شيئا . فقال
. لا أجد شيئا : فقال : التمس ولو خاتما من حديد ، فقام الرجل فلم يجد شيئا

فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : هل معك من القرآن شئ؟ قال نعم . سورة
: كذا وسورة كذا - لسور يسميها - فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم
زوجتكها بما معك من القرآن " .وإلى هنا يتضح لنا أن المقصود بالإحلال فى
الآية الكريمة : الإذن العام والتوسعة عليه صلى الله عليه وسلم فى الزواج
من هذه الأصناف ، والإباحة له فى ان يختار منهن من تقتضى الحكمة الزاوج
منها ، واختصاصه صلى الله عليه وسلم بأمور تتعلق بالنكاح ، لا تحل لأحد
سواه .ولهذا قال - سبحانه - بعد ذلك : ( قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا
عَلَيْهِمْ في أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ) فإن هذه
الجملة الكريمة معترضة ومقررة لمضمون ما قبلها ، من اختصاصه صلى الله عليه
، وسلم بأمور فى النكاح لا تحل لغيره ، كحل زواجه ممن تخبه نفسها بدون مهر
- إن قبل ذلك العرض منها .أى : هذا الذى أحللناه لك - أيها الرسول الكريم
هو خاص بك ، أما بالنسبة لغيرك من المؤمنين فقد علمنا ما فرضناه عليهم فى
حق أزواجهم من شرائط العقد وحقوقه ، فلا يجوز لهم الإخلال بها ، كما لا
يجوز لهم الاقتداء بك فيما خصك الله - تعالى - به ، على سبيل التوسعة عليك
والتكريم لك ، فهم لا يجوز لهم التزوج إلا بعقد وشهود ومهر ، كما لا يجوز ،
لهم أن يجمعوا بين أكثر من أربع نسوة .وعلمنا - أيضا - ما فرضناه عليهم
بالنسبة لما ملكت أيمانهم ، من كونهن ممن يجوز سبيه وحربه ، لا ممن لا يجوز
سبيه ، أو كان له عهد مع المسلمين .وقوله : ( لِكَيْلاَ يَكُونَ عَلَيْكَ
حَرَجٌ ) متعلق بقوله : ( أَحْلَلْنَا ) وهو راجع إلى جميع ما ذكر ، فيكون
، المعنى :أحللنا من آتيت أجورهن من النساء ، والمملوكات ، والأقارب
والواهبة نفسها لك ، لندفع عنك الضيق والحرج ، ولتتفرغ لتبليغ ما أمرناك
بتبليغه .وقيل : إنه متعلق بخالصة ، أو بعاملها ، فيكون المعنى : خصصناك
بنكاح من وهبت نفسها لك بدون مهر ، لكى لا يكون عليك حرج فى البحث عنه
، وترى بعضه أنه متعلق بمحذوف ، أى : بينا لك ما بينا من أحكام خاصة بك.
حتى تخرج من الحرج ، وحتى يكون ما تفعله هو بوحى منا وليس من عند نفسك .ثم
: ختم - سبحانه - الآية بقوله : ( وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً ) أى
. وكان الله - تعالى - وما زال واسع المغفرة والرحمة لعباده المؤمنين

ترجي من تشاء منهن وتؤوي اليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك
ذلك ادنى ان تقر اعينهن ولا يحزن ويرضين بما اتيتهن كلهن والله يعلم ما في
قلوبكم وكان الله عليما حليما

كما فسرها الوسيط وقوله - عز وجل - ( تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وتؤوي
- إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ) شروع فى بيان جانب آخر من التوسعة التى وسعها
سبحانه - لنبيه صلى الله عليه وسلم فى معاشرته لنسائه ، بعد بيان ما أحله
، له من النساء .وقوله : ( تُرْجِي ) من الإرجاء بمعنى التأخير والتنحية
وقرئ مهموزا وغير مهموز . تقول : أرجيت الأمر وأرجأته ، إذا أخرته ، ونحيته
جانبا حتى يحين موعده المناسب .وقوله : ( وتؤوي ) من الإيواء بمعنى الضمر
والتقريب ، ومنه قوله - تعالى - : (وَلَمَّا دَخَلُواْ على يُوسُفَ آوى
) إِلَيْهِ أَخَاهُ . . ) أى : ضمة إليه وقربه منه .والضمير فى قوله
مِنْهُنَّ ) يعود إلى زوجاته صلى الله عليه وسلم اللائى كن فى عصمته .قال
القرطبى ما ملخصه : واختلف العلماء فى تأويل هذه الآية ، وأصح ما قيل فيها
التوسعة على النبى صلى الله عليه وسلم فى ترك القَسْم ، فكان لا يجب عليه :
القسم بين زوجاته .وهذا القول هو الذى يناسب ما مضى ، وهو الذى ثبت معناه
فى الصحيح ، عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : كنت أغار على اللائى وهبن
أنفسهن لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأقول : أو تهب المرأة نفسها لرجل؟
فلما أنزل الله - تعالى - : ( تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ . . . ) .قالت
قلت : والله ما رأى ربك إلا يسارع فى هواك .قال ابن العربى : هذا الذى
ثبت فى الصحيح هو الذى ينبغى أن يعول عليه . والمعنى المراد : هو أن النبى
صلى الله عليه وسلم كان مخيرا فى أزواجه ، إن شاء أن يقسم قسم ، وإن شاء أن
يترك القسم ترك . لكنه كان يقسم من جهة نفسه ، تطييبا لنفوس أزواجه .وقيل
. كان القسم واجبا عليه ثم نسخ الوجوب بهذه الآية .وقيل : الآية فى الطلاق
: أى : تطلق من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء .وقيل : المراد بالآية
، الواهبات أنفسهن له صلى الله عليه وسلم .ثم قال القرطبى : وعلى كل معنى
فالآية معناها التوسعة على رسول الله صلى الله عليه وسلم والإباحة ، وما
اخترناه أصح والله أعلم .أى : لقد وسعنا عليك - أيها الرسول الكريم - فى
معاشرة نسائك ، فأبحنا لك أن تؤخر المبيت عند من شئت منهن ، وأن تضم إليك
من شئت منهن ، بدون التقيد بوجوب القسم بينهن ، كما هو الشأن بالنسبة
لأتباعك حيث أوجبنا عليهم العدل بين الأزواج فى البيوتة وما يشبهها .ومع
هذا التكريم من الله - تعالى - لنبيه ، إلا أنه صلى الله عليه وسلم كان
يقسم بينهن إلى أن لحق بربه؟ عدا السيدة سودة ، فإنها قد وهبت ليلتها
لعائشة . .أخرج البخاري عن عائشة رضى الله عنها - أن رسول الله - صلى الله
عليه وسلم كان يستأذن فى يوم المرأة منا بعد أن نزلت هذه الآية ترجى من
تشاء منهن . .فقيل : لها ما كنت تقولين؟ فقالت : كنت أقول : إن كان ذاك

) : - إليَّ فإنى لا أريد يا رسول الله أن أوثر عليك أحدا .وقوله - تعالى
وَمَنِ ابتغيت مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكَ ) . زيادة فى
: التوسعة عليه صلى الله عليه وسلم وفى ترك الأمر لإرادته واختياره .أى
أبحنا لك - أيها الرسول الكريم - أن تقسم بين نسائك ، وأن تترك القسمة
بينهن ، وأبحنا لك - أيضا - أن تعود إلى طلب من اجتنبت مضاجعتها إذ لا حرج
عليك فى كل ذلك . بعد أن فوضنا الأمر إلى مشيئتك واختيارك .فالابتغاء بمعنى
) : الطلب ، وعزلت اجتنبت واعتزلت وابتعدت ، و ( مّنْ ) شرطية ، وجوابها
فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكَ ) أى : فلا حرج ولا إثم عليك فى عدم القسمة بين
أزواجك ، وفى طلب إيواء من سبق لك أن اجتنبتها .قال الشوكانى : والحاصل أن
الله - سبحانه - فوض الأمر إلى رسوله صلى الله عليه وسلم كى يصنع مع زوجاته
ما شاء ، من تقديم وتأخير ، وعزل وإمساك ، وضم من أرجأ ، وإرجاء من ضم إليه
وما شاء فى أمرهن فعل توسعة عليه ، ونفيا للحرج عنه .وإسم الإشارة فى ،
قوله : ( ذَلِكَ أدنى أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلاَ يَحْزَنَّ
وَيَرْضَيْنَ بِمَآ آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ . . . ) يعود إلى ما تضمنه
الكلام السابق من تفويض أمر الإرجاء والإيواء إلى النبى صلى الله عليه
وسلم .وأدنى بمعنى أقرب . ( تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ ) كناية عن تقبل ما
يفعله معهن برضا وارتياح نفس . يقال قرت عين فلان ، إذا رأت ما ترتاح
لرؤيته ، مأخوذ من ا لقرار بمعنى الاستقرار والسكون . .وقوله : ( وَلاَ
يَحْزَنَّ ) معطوف على ( أن تَقَرَّ ) وقوله ( وَيَرْضَيْنَ ) معطوف
عليه - أيضا - .والمعنى ، ذلك شرعناه لكل من تفويض الأمر اليك فى شأن أزاجك
أقرب إلى رضى نفوسهن لما تصنعه معهن ، واقرب إلى عدم حزنهن وإلى قبولهن ،
- لما تفعله معهن ، لأنهن يعلمن أن ما تفعله معهن إنما هو من الله - تعالى
وليس باجتهاد منك ، ومتى علمن ذلك طابت نفوسهن سواء ويت بينهن فى القسم
: والبيتوتة والمجامعة . . أم لم تسو .قال القرطبى : قال قتادة وغيره : أى
ذلك التخيير ذلك خيرناك فى حصبتهن أدنى إلى رضاهن ، إذ كان من عندنا -لا
. من عندك - ، لأنهن إذا علمت أن الفعل من الله قرت أعينهن بذلك ورضين
وكان - عليه الصلاة والسلام - مع هذا يشدد على نفسه فى رعاية التسوية.
بينهن ، تطييبا لقلوبهن ويقول : " اللهم هذه قدرتى فيما أملك ، فلا تلمنى
فيما تملك ولا أملك " .وقوله - سبحانه - ( والله يَعْلَمُ مَا فِي
قلُوبِكُمْ ) خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ولأزواجه ، ويندرج فيه جميع
المؤمنين والمؤمنات وجمع بجمع الذكور للتغليب .أى : والله - تعالى - يعلم
ما فى قلوبكم من حب وبغض ، ومن ميل إلى شئ ، ومن عدم الميل إلى شئ آخر .قال
- صاحب الكشاف : وفى هذه الجملة وعيد لمن لم ترض منهن بما دبر الله - تعالى
من ذلك ، وبعث على تواطؤ قلوبهن والتصافى بينهن ، والتوافق على طلب رضا
- رسولا لله صلى الله عليه وسلم وما فيه طيب نفسه .( وَكَانَ الله )
تعالى - ( عَلِيماً ) بكل ما تظهره القلوب وما تسره ( حَلِيماً ) حيث لم
. يعاجل عباده بالعقوبة قبل الإرشاد والتعليم

لا يحل لك النساء من بعد ولا ان تبدل بهن من ازواج ولو اعجبك حسنهن الا ما
ملكت يمينك وكان الله على كل شيء رقيبا

كما فسرها الوسيط ثم كرم - سبحانه - أمهات المؤمنين بعد تكريمه لنبيه صلى
الله عليه وسلم فقال : ( لاَّ يَحِلُّ لَكَ النساء مِن بَعْدُ . . . ) .أى
لا يحل لك ، - أيها الرسول الكريم - أن تتزوج بنساء أخريات من بعد التسع :
، اللائى فى عصمتك اليوم ، لأنهم قد اخترنك وآثرنك على زينة الحياة الدنيا
ورضين عن طيب نفس أن يعشن معك وتحت رعايتك ، مهما كان فى حياتك معهن من شظف
العيش ، والزهد فى متع الدنيا .وقوله : ( وَلاَ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ
( أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ
، معطوف على ما قبله .أى :لا يحل لك الزواج بعد اليوم بغير من هن فى عصمتك
كما لا يحل لك - أيضا - أن تطلق واحدة منهن وتتزوج بأخرى سواها ، حتى ولو
أعجبك جمال من تريد زواجها من غير نسائك اللائى فى عصمتك عند نزول هذه
الآية .فالآية الكريمة قدا شتملت على حكمين : أحدهما : حرمة الزواج بغير
، التسع اللائى كن فى عصمته عند نزولها، والثانى : حرمة تطليق واحدة منهن
للزواج بأخرى بدلها .وقوله : ( بَعْدُ ) ظرف مبنى على الضم لحذف المضاف
اليه . أى : من بعد اليوم . و ( أَزْوَاجٍ ) مفعول به ، و ( مِنْ ) مزيدة
لاستغراق الجنس . اى : ولا أنت بدل بهن أزواجا أخريات مهما كان شأن هؤلاء
الأخريات .وجملة : ( وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ) فى موضع الحال من
الفاعل وهو الضمير فى ( تَبَدَّلَ ) . أى :لا يحل لك الزيادة عليهن ، ولا
أن تتبدل بهن أزواجا غيرهن فى آية حالة من الأحوال ، حتى ولو فى حال إجابك
، بغيرهن ويصح أن تكون هذه الجملة شرطية ، وقد حذف جوابها لفهمه من الكلام
ويكون المعنى : ولو أعجبك حسنهن لا يحل لك نكاحهن .وقوله : ( إِلاَّ مَا
مَلَكَتْ يَمِينُكَ ) استثناء من هذا الحكم . أى :لا يحل لك الزيادة عليهن
ولا استبدال غيرهن بهن ، ولكن يحل لك ان تضيف اليهن ما شئت من النساء ،
اللائى تملكهن عن طريق السبى .وهذا الذى سرنا عليه من أن الآية الكريمة فى

شأن أزواجه صلى الله عليه وسلم هو الذى سار عليه جمهور المفسرين .قال ابن كثير : ذكر غير واحد من العلماء كابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وغيرهم - أن هذه الآية الكريمة نزلت مجازاة لأزواج النبى صلى الله عليه وسلم ورضا الله عنهن على حسبن صنيعين ، فى اختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة ، لما خيرهن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما تقدم ، فلما اخترن رسول الله ، كان جزاؤهن أن قصره عليهن ، وحم عليه أن يتزوج بغيرهن ، أو يستبدل بهن أزواجا غيرهن ، ولو أعجبه حسنهن ، إلا الإماء والسرائر ، فلا حجر عليه فيهن .ثم إنه - سبحانه - رفع عنه الحجر فى ذلك ، ونسخ حكم هذه الآية ، وأباح له التزوج ، ولكنه لم يقع منه بعد ذلك زواج لغيرهن ، لتكون المنة للرسول صلى الله عليه وسلم عليهن . روى الإمام أحمد عن عائشة قالت : ما مات رسول الله - صلى الله عليه وسلم حتى أحل الله له النساء .ومن العلماء من يرى أن قوله تعالى - ( مِن بَعْدُ ) المراد به : من بعد من أحللنا لك الزواج بهن ، وهن الأصناف الأربعة اللائى سبق الحديث عنهن فى قوله - تعالى - : ( ياأيها النبي إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاتي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ الله عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ . . . ) .وهذا الرأى الثانى وإن كان أشمل من سابقه ، إلا أننا نرجح أن الآية الكريمة مسوقة لتكريم أمهات المؤمنين اللائى اخرنا لله ورسوله والدار الآخرة على الحياة الدنيا وزينتها .هذا ، والنساء التسع ، اللائى حرم الله - تعالى - على نبيه صلى الله عليه وسلم الزيادة عليهن والاستبدال بهن ، هن : عائشة بنت أبى بكر ، وحفصة بنت عمر ، وأم حبيبة بنت أبى سفيان ، وسودة بنت زمعة ، وأم سلمة بنت أبى أمية ، وصفية بنت حيى بن أخطب ، وميمونة بنت الحارث ، وزينب بنت جحش ، وجويرية بنت الحارث .ثم ختم - سبحانه - الاية الكريمة بقوله : ( وَكَانَ الله على كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيباً ) أى : وكان الله - تعالى - وما زال ، مطلعا على كل شئ من أحوالكم - أيها الناس - فاحذروا أن تتجاوزا ما حده الله - تعالى - لكم ، لأن هذا التجاوز ، يؤدى إلى عدم رضا الله - سبحانه - عنكم .وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد ذكرت ألوانا متعددة من مظاهر تكريم الله - تعالى - لنبيه صلى الله عليه وسلم ومن توسعته عليه فى شأن أواجه ، وفى شأن ما أحله له من عدم التقيد فى القَسْم بينهن ، وفى تقديم أو تأخير من شاء منهن . .كما أنها قد كرمت أمهات المؤمنين تكريما عظيما . لاختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة على الحياة الدنيا وزينتها .

يا ايها الذين امنوا لا تدخلوا بيوت النبي الا ان يؤذن لكم الى طعام غير ناظرين اناه ولكن اذا دعيتم فادخلوا فاذا طعمتم فانتشروا ولا مستانسين لحديث ان ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم والله لا يستحيي من الحق واذا سالتموهن متاعا فاسالوهن من وراء حجاب ذلكم اطهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم ان تؤذوا رسول الله ولا ان تنكحوا ازواجه من بعده ابدا ان ذلكم كان عند الله عظيما

كما فسرها الوسيط ثم ساقت السورة الكريمة بعد لك ألوانا من التشريعات الحكيمة ، والأداب القويمة ، التى تتعلق بدخول بيوت النبى صلى الله عليه وسلم ، وبحقوق أزواجه صلى الله عليه وسلم فى حياته وبعد مماته ، وبوجوب احترامه وتوقيره صلى الله عليه وسلم فقال - تعالى - : ( ياأيها الذين آمَنُواْ . . . . بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ) .ذكر المفسرون فى سبب نزول قوله - تعالى : ( ياأيها الذين آمَنُواْ لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتَ النبي . . روايات متعددة منها ، ما ثبت فى الصحيحين عن عمر بن الخطاب أنه قال ( : وافقت ربى فى ثلاث . فقلت : يا رسول الله ، لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى فأنزل الله - تعالى - : ( واتخذوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ) ، وقلت : يا رسول الله ، إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر ، فلو حجبتهن فأنزل الله آية الحجاب . وقلت لأزواج النبى صلى الله عليه وسلم ما تمالأن عليه فى الغيرة ( عسى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِّنكُنَّ ) فنزل كذلك .وروى البخارى عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال : لما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب جحش ، دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون ، فإذا هو كأنه يتهيأ للقيام فلم يقوموا . فلما رأى ذلك قام ، فلما قام صلى الله عليه وسلم قام معه من قام ، وقعد ثلاثة نفر . فجاء النبى صلى الله عليه وسلم ليدخل ، فإذا القوم جلوس ، ثم إنهم قاموا ، فانطلقت فجئت فأخبرت النبى صلى الله عليه وسلم أنهم قد انطلقوا . فجاء حتى دخل ، فذهبت أدخل ، فألقى الحجاب بيني وبينه ، فأنزل الله - تعالى - : ( ياأيها الذين آمَنُواْ لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتَ النبي . . . ) الآية .قال ابن كثير : وكان وقت نزولها فى صبيحة عرس رسول الله صلى الله عليه وسلم بزينب بنت جحش : التى تولى الله - تعالى - تزويجها بنفسه ، وكان ذلك فى ذى القعدة من السنة الخامسة ، فى قول قتادة والواقدى وغيرهما والمراد ببيوت النبى : المساكن التى اعدها صلى الله عليه وسلم لسكنى أزواجه .والاستثناء فى قوله - تعالى - : ( إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إلى

: طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ ) استثناء مفرغ من أعم الأحوال .وقوله
: حال من ضمير ( تَدْخُلُواْ ) و ( إِنَاهُ ) أى ( غَيْرَ نَاظِرِينَ )
- نضجه وبلوغه الحد الذى يؤكل معه . يقال : أنَى الطعام يأنَى أنْياً وإنى
- كقلى يقلى - إذا نضج وكان معدا للأكل .والمعنى : يامن آمنتم بالله
تعالى - حق الإيمان ، لا تدخلوا بيوت النبى صلى الله عليه وسلم فى حال من
الأحوال ، إلا فى حال الإذن لكم بدخولها من أجل حضور طعام تدعون إلى
تناوله ، وليكن حضوركم فى الوقت المناسب لتناوله ، لا قبل ذلك بأن تدخلوا
البيوت بدون استئذان ، فإذا وجدوا طعاما يعد ، انتظروا حتى ينضج ليأكلوا
منه .فالنهى فى الآية الكريمة مخصوص بمن دخل من غير دعوة ، وبمن دخل بدعوة
ولكنه مكث منتظرا للطعام حتى ينضج ، دون أن تكون هناك حاجة لهذا الانتظار .
أما إذا كان الدخول بدعوة أو لحضور طعام بدون انتظار مقصود لوقت نضجه ، فلا
، يتناوله النهى .قال الآلوسى : والآية على ما ذهب إليه جمع من المفسرين
خطاب لقوم كانوا يتحينون طعام النبى صلى الله عليه وسلم فيدخلون وقعدون
منتظرين لإدراكه ، فهى مخصوصة بهم وبأمثالهم ممن يفعل مثل فعلهم فى
المستقبل . فالنهى مخصوص بمن دخل بغير دعوة ، وجلس منتظرا للطعام من غير
حاجة فى تفيد النهى عن الدخول بإذن لغير طعام ، ولا من الجلوس واللبث بعد
الطعام لمهم آخر .وقوله - سبحانه - ( وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فادخلوا )
استدراك على ما فهم من النهى عن الدخول بغير إذن ، وفيه إشعار بأن الإذن
متضمن معنى الدعوة .أى : لا تدخلوا بدون إذن ، فإذا أذن لكم ودعيتم إلى
الطعام فادخلوا لتناوله وقوله - تعالى - ( فَإِذَا طَعِمْتُمْ فانتشروا
وَلاَ مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ) بيان للون آخر من ألوان الآداب الحكيمة
التى شرعها الإسلام فى تناول الطعام عند الغير .أى : إذا دعيتم لحضور طعام
فى بيت النبى صلى الله عليه وسلم فادخلوا ، فإذا ما انتهيتم من طعامكم عنده
فتفرقوا ولا تمكثوا فى البيت مستأنسين لحديث بعضكم مع بعض ، أو لحديثكم ،
مع أهل البيت .فقوله ( مُسْتَأْنِسِينَ ) مأخوذ من الأنس بمعنى السرور
والارتياح للشئ . تقول : أنست لحديث فلان ، فإذا سررت له ، وفرحت به
، وأطلق - سبحانه - نفى الاستئناس للحديث ، من غير بيان صاحب الحديث.
للإشعار بأن المكث بعد الطعام غير مرغوب فيه على الإطلاق ، ما دام ليس
هناك من حاجة إلى هذا المكث . وهذا أدب عام لجميع المسلمين .واسم الإشارة
فى قوله : ( إِنّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النبي فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ )
يعود إلى الانتظار والاستئناس للحديث ، والدخول بغير إذن . والجملة بمثابة
التعليل لما قبلها .أى : إن ذلكم المذكور كان يؤذى النبى صلى الله عليه
وسلم كان يستحيى أن يصرح لكم بذلك ، لسمو خلقه ، وكما أدبه ، كما أنه صلى
الله عليه وسلم كان يستحيى أن يقول لكم كلاما تدركون منه أنه يريد انصرافكم
- وقوله - تعالى - : ( والله لاَ يَسْتَحْيِي مِنَ الحق ) أى : والله.
تعالى -لا يستحيى من إظهار الحق ومن بيانه ، بل من شأنه - سبحانه - أن
يقول الحق ، ولا يسكت عن ذلك .وإذا كان الرسول صلى الله عليه سولم قد منعه
حياؤه من أن يقول قولا تفهمون منه ضجره من بقائكم فى بيته بعد تناول طعامكم
عنده . . . فإن الله - تعالى - وهو خالقكم لا يمتنع عن بيان الحق فى هذه
الأمور وفى غيرها ، حتى تتأدبوا بأدب القويم . ثم ذكر - سبحانه - بعض
الآداب التى يجب عليهم أن يلتزموها مع نساء نبيهم صلى الله عليه وسلم فقال
: ( وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنّ مَتَاعاً فاسألوهن مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذلكم
أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنّ . . ) .أى : وإذا طلبتم - أيها
المؤمنون - من أزواج النبى صلى الله عليه وسلم شيئا يتمتع به سواء أكان هذا
الشئ حسيا كالطعام أم معنويا كمعرفة بعض الأحكام الشرعية .. إذا سألتموهن
شيئا من ذلك فليكن سؤالكم لهن من وراء حجاب ساتر بينكم وبينهن . .لأن
سؤالكم إياهن بهذه الطريقة ، أطهر لقلوبكم وقلوبهن ، وأبعد عن الوقوع فى
الهواجس الشيطانية التى قد تتولد عن مشاهدتكم لهن ، ومشاهدتهن لكم . . ثم
ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ( وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تؤْذُواْ
رَسُولَ الله وَلاَ أَن تنكحوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَداً إِنّ
ذلكم كَانَ عِندَ الله عَظِيماً ) .أى : وما صح وما استقام لكم - أيها
المؤمنون - أن تؤذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأى لون من ألوان الأذى
سواء أكان بدخول بيوته بغير إذنه ، أم بحضوركم إليها انتظارا لنضج الطعام ،
بجلوسكم بعد الأكل بدون مقتض لذلك ، أم بغير ذلك مما يتأذى به صلى الله
، عليه وسلم .كما أنه لا يصح لكم بحال من الأحوال أن تنكحوا أزواجه من بعده
) أى : من بعد وفاته .( إِنّ ذلكم ) أى : إيذاءه ونكاح أزواجه من بعده
كَانَ عِندَ الله ) - تعالى - ذنبا ( عَظِيماً ) وإثما جسيما ، لا يقادر
قدره .

ان تبدوا شيئا او تخفوه فان الله كان بكل شيء عليما

- كما فسرها الوسيط ثم حذرهم - سبحانه - من مخالفة أمره ، بأن بين لهم بأنه
سبحانه - لا يخيفى عليه شئ ، من أمرهم ، فقال : ( إِن تُبْدُواْ شَيْئاً )
بأن تظهروه على ألسنتكم ( أَوْ تُخْفُوهُ ) بأن تضمروه فى قلوبكم ، فإنه فى

) - الحالين لا يعزب عن علمنا ، وسنحاسبكم عليه ، (فَإِنَّ اللّه ) - تعالى
كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ) بحيث لا يخفى عليه شئ ، فى الارض ولا فى
، السماء .هذا وقد أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة التى تسمى بآية الحجاب
جملة من الأحكام والآداب منها :1- وجوب الاستئذان عند دخول البيوت لتناول
طعام ، ووجوب الخروج بعد تناوله إلا إذا كانت هناك ضرورة تدعو للبقاء ، كما
أن من الواجب الحضور إلى الطعام فى الوقت المناسب له ، وليس قبله انتظارا
لنضجه وتقديمه .2- حرمة الاختلاط بين الرجال والنساء سواء أكان ذلك فى
الطعام أم فى غيره ، فقد أمر - سبحانه - المؤمنين ، إذا سألوا أزواج النبى
صلى الله عليه وسلم شيئا أن يسألوهن من وراء حجاب ، وعلل ذلك بأن سؤالهن
بهذه الطريقة ، يؤدى إلى طهارة القلوب ، وعفة النفوس ، والبعد عن الريبة
وخواطر السوء . .وحكم نساء المؤمنين فى ذلك كحكم أمهات المؤمنين ، لأن
قوله - سبحانه - ( ذلكم أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنّ ) علة عامة
تدل على تعميم الحكم ، إذ جميع الرجال والنساء فى كل زمان ومكان فى حاجة
إلى ما هو أطهر للقلوب ، وأعف للنفوس . .قال بعض العلماء ما ملخصه : وقوله
قرينة واضحة على إرادة ( ذلكم أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنّ ) :
تعميم الحكم ، إذ لم يقل أحد من العقلاء ، إن غير ازواج النبى صلى الله
عليه وسلم لا حاجة بهن إلى أطهرية قلوبهن ، وقلوب الرجال من الريبة منهن
فالجملة الكريمة فيها الدليل الواضح على أن وجوب الحجاب حكم عام فى جميع..
النساء .لا خاص بأمهات المؤمنين ، وإن كان أصل اللفظ خاصا بهن ، لأن عموم
علته دليل على عموم الحكم فيه . .3- كذلك أخذ العلماء من هذه الآية أنه لا
يجوز للرجل الأجنبى أن يصافح امرأة أجنبية عنه . ولا يجوز له أن يمس شئ من
بدنه شيئا من بدنها .والدليل على ذلك أن النبى صلى الله عليه ولم ثبت عنه
أن قال : " إنى لا أصافح النساء " .والله - تعالى - يقول : ( لَّقَدْ كَانَ
لَكُمْ فِي رَسُولِ اللّه أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ) فيلزمنا أن لا نصافح النساء
الأجنبيات اقتداء به صلى الله عليه وسلم .4- تكريم الله - تعالى - لنبيه
صلى الله عليه وسلم ودفاعه عنه ، وإلزام المؤمنين بالعمل على كل ما يرضيه
. . ولا يؤذيه ، وبعدم نكاح أزواجه من بعده أبدا

لا جناح عليهن في ابائهن ولا ابنائهن ولا اخوانهن ولا ابناء اخوانهن ولا
ابناء اخواتهن ولا نسائهن ولا ما ملكت ايمانهن واتقين الله ان الله كان على
كل شيء شهيدا

كما فسرها الوسيط ثم استثنت السورة الكريمة بعض الأصناف الذين يجوز للمرأة
أن تظهر أمامهم بدون حجاب ، وبينت سمو منزلة رسول الله صلى الله عليه وسلم
وأكدت التحذير من إيذائه ، ومن إيذاء المؤمنين والمؤمنات ، وأمرت النبى ،
صلى الله عليه وسلم أن يرشد أزواجه وبناته ونساء المؤمنين إلى وجوب
الاحتشام فى ملابسهن . . فقال - تعالى - : ( لاَّ جُنَاحَ عَلَيْهِنّ في
آبَآئِهِنّ . . . الله غَفُوراً رّحِيماً ) .قال القرطبى : لما نزلت آية
الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب لرسول الله صلى الله عليه وسلم
وسلم : ونحن أيضا نكلمهن من وراء حجاب؟ فنزلت هذه الآية : ( لاَّ جُنَاحَ
عَلَيْهِنّ في آبَآئِهِنّ وَلاَ أَبْنَآئِهِنّ ) .فالآية الكريمة مسوقة
لبيان من لا يجب على النساء أن يحتجبن منه .أى :لا حرج ولا إثم على أمهات
المؤمنين ولا على غيرهن من النساء . فى ترك الحجاب بالنسبة لآبائهن ، أو
أبنائهن أو أخوانهن ، أو أبناء إخوانهن أو أبناء أخواتهن ، أو نسائهن
اللاتى تربطن بهن رابطة قرابة أو صداقة ، أو ما ملكت أيمانهن من الذكور أو
الإناث .فهؤلاء يجوز للمرأة أن تخاطبهم بدون حجاب ، وأن تظهر أمامهم بدون
ساتر . وهذا لون من ألوان اليسر والسماحة فى شريعة الإسلام .ولم يذكر
. سبحانه - العم والخال ، لأنهما يجريان مجرى الوالدين ، وقد يسمى العم أبا
كما فى قوله - تعالى - حكاية عن يعقوب : ( أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ
حَضَرَ يَعْقُوبَ الموت إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي
قَالُواْ نَعْبُدُ إِلهَكَ وإله آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ
وَإِسْحَاقَ إلها وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ) وإسماعيل كان عم
اليعقوب لا أباله .قال الجمل : وقوله : ( وَلاَ نِسَآئِهِنّ ) أى : ولا
: جناح على زوجات النبى صلى الله عليه وسلم فى عدم الاحتجاب عن نسائهن ، أى
عن النساء المسلمات وإضافتهن لهن من حيث المشاركة فى الوصف ، وهو الإسلام
وأما النساء الكافرات فيجب على أزواج النبى الاحتجاب عنهن .كما يجب على ،
سائر المسلمات . أى : ما عدا ما يبدو عند المنهة ، أما هو فلا يجب عل
المسلمات حجبه وستره عن الكافرات .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : فى
سورة النور : ( وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنّ إِلاّ لِبُعُولَتِهِنّ أَوْ
آبَآئِهِنّ أَوْ آبَآءِ بُعُولَتِهِنّ أَوْ أَبْنَآئِهِنّ أَوْ
أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنّ . . . ) الآية .ثم عقب . سبحانه هذا الترخيص
والتيسر بقوله : ( واتقين الله إِنَّ اللّه كَانَ على كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً
والجملة الكريمة معطوفة على محذوف ، والتقدير : لقد أبحت لكن معشر. (
- النساء مخاطبة هؤلاء الأصناف بدون حجاب : فامتثلن أمرى ، واتقين الله

- تعالى - فى كل أحوالكن ، واحرصن على العفاف والتستر والاحتشام ، لأن الله
- تعالى - فى كل أحوالكن ، واحرصن على العفاف والتستر والاحتشام ، لأن الله
تعالى - مطلع على كل ما يصدر عنكن ، وسيجازى كل إنسان بما يستحقه من ثواب
. أو عقاب

ان الله وملائكته يصلون على النبي يا ايها الذين امنوا صلوا عليه وسلموا تسليما

كما فسرها الوسيط ثم أثنى الله - تعالى - على نبيه ثناء كبيرا وأمر
المؤمنين بأن يعظموه ويوقروه فقال : ( إِنَّ اللَّهَ وَمَلاَئِكَتَهُ
يُصَلُّونَ عَلَى النبي ياأيها الذين آمَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ
وَسَلِّمُواْ تَسْلِيماً ) .قال القرطبى ما ملخصه : هذه الآية شرف الله بها
رسوله صلى الله عليه وسلم فى حياته وموته ، وذكر منزلته منه .. والصلاة من
الله رحمته ورضوانه ، ومن الملائكة الدعاء والاستغفار ، ومن الأمة الدعاء
. والتعظيم لأمره . .والضمير فى ( يُصَلُّونَ ) لله - تعالى - ولملائكته
وهذا قول من الله شرف به ملائكته . .أو فى الكلام حذف . والتقدير : إن الله
يصلى وملائكته يصلون .وقال ابن كثير : والمقصود من هذه الآية الكريمة ، أن
الله - تعالى - أخبر عباده بمنزلة بعده ونبيه عنده فى الملأ الأعلى : بأنه
يثنى عليه عند الملائكة المقربين وأن الملائكة تصلى عليه ، ثم أمر الله أهل
العالم السفلى بالصلاة والتسليم عليه . ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين
العلوى والسفلى جميعا .والمعنى : إن الله - تعالى - يثنى على نبيه محمد صلى
الله عليه وسلم ويرضى عنه ، وإن الملائكة تثنى عليه صلى الله عليه وسلم
وتدعو له بالظفر بأعلى الدرجات وأسماها .( ياأيها الذين آمَنُواْ صَلُّواْ
عَلَيْهِ ) أى : عظموه ووقروه وادعوا له بأرفع الدرجات ( وَسَلِّمُواْ
تَسْلِيماً ) أى : وقولوا : السلام عليك أيها النبى . والسلام : مصدر بمعنى
السلام .أى : السلام من النقائص والآفات ملازمة لك .والتعبير بالجملة
الاسمية فى صدر الآية ، للإشعار بوجوب المداومة والاستمرار على ذلك . وخص
المؤمنين بالتسليم ، لأن الآية وردت بعد النهى عن إيذاء النبى صلى الله
عليه وسلم ، والإيذاء له صلى الله عليه وسلم إنما يكون من البشر .وقد ساق
المفسرون - وعلى رأسهم ابن كثير والقرطبى والآلوسى - أحاديث متعددة فى فضل
الإكثار من الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ، وفى كيفية الصلاة عليه
ومنها ما رواه الإمام أحمد وابن ماجة عن عامر بن ربيعة قال : سمعت. .
النبى صلى الله عليه وسلم يقول : " من صلى على صلاة لم تزل الملائكة تصلى
عليه ما صلى على ، فليُقِلَّ عبد من ذلك أو ليكثر " .ومنها ما رواه الشيخان
، وغيرهما عن كعب بن عُجْرَة قال : لما نزلت هذه الاية قلنا : يا رسول الله
، قد علمنا السلام ، فكيف الصلاة عليك ، قال : قالوا : اللهم صل على محمد
. وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد
اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم
إنك حميد مجيد .والآية الكريمة تدل على وجوب الصلاة والسلام على النبى صلى
الله عليه وسلم والمؤمنون الصادقون هم الذين يكثرون من ذلك . قال صاحب
الكشاف ما ملخصه : فإن قلت : الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم
واجبة أم مندوب إليها؟ قلت : بل واجبة ، وقد اختلفوا فى حال وجوبها ، فمنهم
من أوجبها كلما جرى ذكره صلى الله عليه وسلم ومنهم من قال تجب فى كل مجلس
مرة ، وإن تكرر ذكره .ومنهم من أوجبها فى العمرة مرة . . والذى يقتضيه
الاحتياط : الصلاة عليه عند كل ذكر . . . لما ورد من الأخبار فى ذلك .ومنها
: " رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل على " .

ان الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والاخرة واعد لهم عذابا مهينا

كما فسرها الوسيط ثم توعد - سبحانه - الذين يسيئون إلى رسوله صلى الله عليه
وسلم بأى لون من ألوان الإساءة فقال : ( إِنَّ الذين يُؤْذُونَ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدنيا والآخرة وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً
مُّهِيناً ) .والمراد بأذى الله ورسوله : ارتكاب ما يبغضان ويكرهان من
الكفر والفسوق والعصيان ، ويشمل ذلك ما قاله اليهود : عزير ابن الله ، ويد
الله مغلولة ، وما قاله النصارى : من أن المسيح ابن الله ، كما يشمل ما
. قاله الكافرون فى الرسول صلى الله عليه وسلم من أنه كاهن أو ساحر أو شاعر
، وقيل : إن المقصود بالآية هنا : إيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم خاصة.
وذكر الله - تعالى - معه للتشريف ، وللإشارة إلى أن ما يؤذى الرسول يؤذى
الله - تعالى - ، كما جعلت طاعة الرسول ، طاعة لله .قال ابن كثير : والظهر
أن الآية عامة فى كل من آذى الرسول صلى الله عليه وسلم بشئ ، فإن من آذاه
فقد آذى الله ، ومن أطاعه فقد اطاع الله ، ففى الحديث الشريف : " الله الله
فى أصحابى ، لاتتخذوهم غرضا بعدى ، فمن أحبهم فبحبى أحبهم ، ومن أبغضهم
فببغضى أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذانى ، ومن آذانى فقد آذى الله ، ومن آذى

الله يوشك أن يأخذه " .أى : إن الذين يؤذون الله - تعالى - ورسوله صلى الله
). . عليه وسلم ، بارتكاب ما لا يرضاه من كفر أو شرك أو فسوق أو عصيان
لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدنيا والآخرة ) أى : طرد الله - تعالى - هؤلاء الذين
ارتبوا الأذى من رحمته ، وأبعدهم من رضاه فى الدنيا والآخرة .( وَأَعَدَّ
لَهُمْ ) - سبحانه - فى الآخرة ( عَذَاباً مُّهِيناً ) أى : عذابا يهينهم
. ويجعلهم محل الاحتقار والإزدراء من غيرهم

والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا واثما
مبينا

كما فسرها الوسيط وبعد هذا الوعيد الشديد لمن آذى الله ورسوله ، جاء وعيد
آخر لمن آذى المؤمنين والمؤمنات ، فقال - تعالى - : ( والذين يُؤْذُونَ
المؤمنين والمؤمنات بِغَيْرِ مَا اكتسبوا فَقَدِ احتملوا بُهْتَاناً
وَإِثْماً مُّبِيناً ) .أى : والذين يرتكبون فى حق المؤمنين والمؤمنات ما
يؤذيهم فى أعراضهم أو فى أنفسهم أو فى غير ذلك مما يتعلق بهم ، دون أن يكون
المؤمنون أو المؤمنات قد فعلوا ما يوجب أذاهم . .( فَقَدِ احتملوا
بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً ) أى : فقد ارتكبوا إثما شنيعا ، وفعلا
- قبيحا ، وذنبا ظاهرا بينا ، بسبب إذائهم للمؤمنين والمؤمنات .وقال
سبحانه - هنا ( بِغَيْرِ مَا اكتسبوا ) ولم يقل ذلك فى الآية السابقة عليها
لأن الناس بطبيعتهم يدفع بعضهم بعضا ، ويعتدى بعضهم على بعض ، ويؤذى ،
بعضهم بعضا ، أما الله - تعالى - ورسوله صلى الله عليه وسلم فلا تصور منهما
ذلك .وجمع - سبحانه - فى ذمهم بين البهتان والاثم المبين ، للدلالة على
فظاعة ما ارتكبوه فى حق المؤمنين والمؤمنات ، إذ البهتان هو الكذب الصرحي
الذى لا تقبله العقول ، بل يحيرها ويدهشا لشدته وبعده عن الحقيقة .والإثم
المبين : هو الذنب العظيم الظاهر البين ، الذى لا يخفى قبحه على أحد .روى
: ابن أبى حاتم عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه
أى الربا أربى عند الله؟قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : أربى الربا " "
عند الله ، استحلال عرض امرئ مسلم " " ثم قرأ صلى الله عليه وسلم هذه الآية
.

يا ايها النبي قل لازواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن
ذلك ادنى ان يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفورا رحيما

كما فسرها الوسيط ثم أمر الله - تعالى - رسوله صلى الله عليه وسلم أن يأمر
- أزواجه وبناته ونساء المؤمنين عامة ، بالاحتشام والتستر فى ملابسهن فقال
تعالى - ( ياأيها النبي قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ المؤمنين
يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلاَبِيبِهِنَّ ) .قال الآلوسى : روى عن غير
واحد أنه كانت الحرة والأمة ، تخرجان لَيلاً لقضاء الحاجة فى الغيطان وبين
النخيل ، من غير تمييز بين الحرائر والإماء ، وكان فى المدينة فساق
يتعرضون للإماء ، وربما تعرضوا للحرائر ، فإذا قيل لهم قالوا : حسبناهن
. إماء ، فأمرت الحرائر أن يخالفن الإماء فى الزى والتستر فلا يطمع فيهن
وقوله : ( يُدْنِينَ ) من الإدناء بمعنى التقريب ، ولتضمنه معنى السدل.
والإرخاء عُدِّىَ بعلى . وهو جواب الأمر ، كما فى قوله - تعالى - : ( قُل
لِّعِبَادِيَ الذين آمَنُواْ يُقِيمُواْ الصلاة . . . ) .والجلابيب : جمع
: جلباب ، وهو ثوب يستر جميع البدن ، تلبسه المرأة ، فوق ثيابها .والمعنى
، يأيها النبى قل لأزواجك اللائى فى عصمتك ، وقل لبناتك اللائى هن من نسلك
وقل لنساء المؤمنين كافة ، قل لهن : إذا ما خرجن لقضاء حاجتهن ، فعليهن أن
يسدلن الجلابيب عليهن ، حتى يسترن أجسامهن سترا تاما ، من رءوسهن إلى
أقدامهن ، زيادة فى التستر والاحتشام ، وبعدا عن مكان التهمة والريبة .قالت
أم سلمة - رضى الله عنها - : لما نزلت هذه الآية ، خرج نساء الأنصار كأن
على رءوسهن الغربان من السكينة وعليهن أكسية سود يلبسنها .وقوله : ( ذلك
أدنى أن يُعْرَفْنَ فَلاَ يُؤْذَيْنَ ) بيان للحكمة من الأمر بالتستر
والاحتشام .أي : لك التستر والاحتشام والإدناء عليهن من جلابيبهن يجعلهن
أدنى وأقرب إلى أن يعرفن ويميزن عن غيرهن من الإماء ، فلا يؤذين من جهة من
، فى قلوبهم مرض .قال بعض العلماء : وقد يقال إن تأويل الآية على هذا الوجه
وصرها على ال حرائر ، قد يفهم منه أن الشارع قد أهمل أمر الإماء ، ولم
يبال بما ينالهن من الإيذاء من ضعف إيمانهم ، مع أن فى ذلك من الفتنة ما
فيه ، فهلا كان التصون والتستر عاما فى جميع النساء؟والجواب ، أن الإماء
بطبيعة عملهن يكثر خروهجن وترددهن فى الأسواق ، فإذا كلفن أن يتقنعن ويلبسن
الجلباب السابغ كلما خرجن ، كان فى ذلك حرج ومشقة عليهن ، وليس كذلك
الحرائر فإنهن مأمورات بعدم الخروج من البيوت إلا لضرورة ومع ذلك فإن
القرآن الكريم قد نهى عن إيذاء المؤمنين والمؤمنات جميعا - سواء الحرائر
والإماء ، وتوعد المؤذين بالعذاب المهين .. والشارع - أيضا - لم يخطر على
الإمام التستر والتقنع ، ولكنه لم يكلفهن بذلك فدعا للحرج والعسر ، فللأمة

أن تلبس الجلباب السابغ متى تيسر لها ذلك . .هذا ، ويرى الإمام أبو حيان
أن الأرجح أن المراد بنساء المؤمنين ، ما يشمل الحرائر والإماء وأن الأمر
بالتستر يشمل الجميع ، وأن الحكمة من وراء هذا الأمر باسدال الجلابيب عليهن
درء التعرض لهن بسوء من ضعاف الايمان .فقد قال - رحمه الله - : والظاهر ،
أن قوله : ( وَنِسَآءِ المؤمنين ) يشمل الحرائر والإماء ، والفتنة
بالإماء أكثر لكثرة تصرفهن ، بخلاف الحرائر ، فيحتاج إخراجهن من عموم
النساء إلى دليل واضح . . ( ذلك أدنى أن يُعْرَفْنَ ) لتسترهن بالعفة فلا
يتعرض لهن ، ولا يليقين بما يكرهن ، لأن المرأة إذا كانت فى غاية التستر
والانضمام لم يقدم عليها بخلاف المتبرجة فإنها مطموع فيها .ويبدو لنا أن
هذا الرأى الذى اتجه أبو حيان - رحمه الله - أولى بالقبول من غيره ، لتمشية
- مع شريعة الإسلام التى تدعو جميع النساء إلى التستر والعفاف .ثم ختم
سبحانه - الآية بقوله : ( وَكَانَ الله غَفُوراً رَّحِيماً ) أى : وكان
الله - تعالى - وما زال واسع المغفرة والرحمة لمن تاب إليه توبة صادقة مما
. وقع فيه من أخطاء وسيئات

لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك
بهم ثم لا يجاورونك فيها الا قليلا

كما فسرها الوسيط ثم هدد - سبحانه - المنافقين وأشباههم بسوء المصير ، إذا
ما استمروا فى إيذائهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين والمؤمنات
وبين - عز وجل - أن وقت قيام الساعة مرد علمه إليه وحده . وأن الكافرين .
عند قيامها سيندمون ولكن لني نفعهم الندم ، فقال - تعالى - : ( لَّئِن
: لَّمْ يَنتَهِ المنافقون . . . والعنهم لَعْناً كَبِيراً ) .والمنافقون
: جمع منافق ، وهو الذى يظهر الإسلام ويخفى الكفر .والذين فى قلوبهم مرض
هم قوم ضعاف الإيمان ، قليلو الثبات على الحق .والمرجفون فى المدينة : هم
الذين ينشرون أخبار السوء عن المؤمنين ويلقون الأكاذيب الضارة بهم
ويذيعونها بين الناس . وأصل الإرجاف : التحريك الشديد للشئ ، مأخوذ من
الرجفة التى هى الزلزلة . ووصف به الأخبار الكاذبة ، لكونها فى ذاتها
متزلزلة غير ثابتة ، أو لإحداثها الاضطراب فى قلوب الناس .وقد سار بعض
المفسرين ، على أن هذه الأوصاف الثلاثة ، كل وصف منها لطائفة معينة ، وسار
آخرون على أن هذه الأوصاف لطائفة واحدة هى طائفة المنافقين ، وأن العطف
لتغاير الصفات مع اتحاد الذات ،قال القرطبى : قوله : ( لَّئِن لَّمْ
. يَنتَهِ المنافقون والذين فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ والمرجفون فِي المدينة
أهل التفسير على أن الأوصاف الثلاثة لشئ واحد . . والواو مقحمة كما ( . .
فى قول الشاعر :إلى الملك القرم وابن الهما ... م وليث الكتيبة فى
المزدحمأراد إلى الملك القرم ابنا لهمام ليث الكتيبة .وقيل : كان منهم قوم
يرجفون ، وقوم يتبعون النساء للريبة ، وقوم يشككون المسلمين .وقد سار صاحب
الكشاف على أن هذه الأوصاف لطوائف متعددة من الفاسقين ، فقال : ( والذين
). . فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ ) قوم كان فيهم ضعف إيمان ، وقلة ثبات عليه
والمرجفون فِي المدينة ) ناس كانوا يرجفون بأخبار السوء عن سرايا رسول الله
صلى الله عليه وسلم فيقولون : هزموا وقتلوا وجرى عليهم كيت وكيت ، فيكسرون
، بذلك قلوب المؤمنين .والمعنى : لئن لم ينته المنافقون عن عدائكم وكيدكم
والفسقة عن فجورهم ، والمرجفون عما يؤلفون من أخبار السوء ، لنأمرنك بأن
تفعل بهم الأفاعيل التى تسوؤهم وتنوؤهم .وقوله : ( لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ
: جواب القسم . أى : لنسلطنك عليهم فتستأصلهم بالقتل والتشريد ، يقال (
أغرى فلان فلانا بكذا ، إذا حرضه على فعله .وقوله : ( ثُمَّ لاَ
: يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلاَّ قَلِيلاً ) معطوف على جواب القسم . أى
، لنغرينك بهم ثم لا يبقون بعد ذلك مجاورين لك فيها إلا زمانا قليلا
يرتحلون بعده بعيدا عنكم ، لكى تبتعدوا عن شرورهم .وجاء العطف بثم فى قوله
للإشارة إلى أن إجلاءهم عن المدينة نعمة ( ثُمَّ لاَ يُجَاوِرُونَكَ ) :
عظيمة بالنسبة للمؤمنين ، ونقمة كبيرة بالنسبة لهؤلاء المنافقين وأشباههم
.

ملعونين اينما ثقفوا اخذوا وقتلوا تقتيلا

كما فسرها الوسيط وقوله : ( مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثقفوا ) أى : مطرودين
) من رحمة الله - تعالى - ومن فضله ، أينما وجدوا وظفر بهم المؤمنون .و
مَّلْعُونِينَ ) منصوب على الحال من فاعل ( يُجَاوِرُونَكَ ) و ( ثقفوا )
بمعنى وجدوا . تقول ثقفت الرجل في الحرب أثقفه ، إذا أدركته وظفرت به
وقوله : ( أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلاً ) بيان لما يحيق بهم من.
عقوبات عند الظفر بهم .أى : هم ملعونون ومطرودون من رحمة الله بسبب سوء
أفعالهم ، فإذا ما أدركوا وظفر بهم ، أخذوا أسارى أذلاء ، وقتلوا تقتيلا
شديدا ، وهذا حكم الله - تعالى - فيهم حتى يقلعوا عن نفاقهم وإشاعتهم قالة
. السوء فى المؤمنين ، وإيذائهم للمسلمين والمسلمات

سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن سنته قد اقتضت تأديب الفجار والفسقة حتى يقلعوا عن فجورهم وفسقهم فقال : ( سُنَّةَ الله فِي الذين خَلَوْا مِن - قَبْلُ ) وقوله : ( سُنَّةَ ) منصوب على أنه مصدر مؤكد . أى : سن الله تعالى - ذلك سنة ، فى الأمم الماضة من قبلكم - أيها المؤمنون - بأن جعل تأديب الذين يسعون فى الأرض بالفاسد ، ويؤذون أهل الحق ، سنة من سننه التى لا تتخلف .( وَلَن تَجِدَ ) - أيها الرسول الكريم - ( لِسُنَّةِ الله ) الماضية فى خلقه ( تَبْدِيلاً ) أو تحويلا ، لقيامها على الإرادة الحكيمة والعدالة القويمة ، .

يسالك الناس عن الساعة قل انما علمها عند الله وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن وقت قيام الساعة لا يعلمه إلا هو فقال : ( يَسْأَلُكَ الناس عَنِ الساعة قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ الله : وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ الساعة تَكُونُ قَرِيباً ) .والسائلون هنا قيل هم اليهود ، وسؤالهم عنها كان بقصد التعنت والإساءة إلى النبى صلى الله عليه وسلم .أى : يسألك اليهود وأشباههم فى الكفر والنفاق عن وقت قيام الساعة ، على سبيل التعنت والامتحان لك .( قُلْ ) لهم - أيها الرسول الكريم - ( إِنَّمَا ) علم وقت قيامها عند الله - تعالى - وحده ، دون أى أحد سواه .( وَمَا يُدْرِيكَ ) أى : وما يعلمك ( لَعَلَّ الساعة تَكُونُ قَرِيباً ) أى . لعل قيامها وحصولها يتحقق فى قوت قريب ، ولكن هذا الوقت مهما قرب لا يعلمه إلا علام الغيوب - سبحانه - .ولقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول : " بعثت أنا والساعة كهاتين " ويشير إلى إصبعيه السبابة والوسطى .

ان الله لعن الكافرين واعد لهم سعيرا

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - تعالى - ما أعده للكافرين من عقاب فقال ). إِنَّ الله لَعَنَ الكافرين ) بأن طردهم من رحمته ، وأبعدهم عن مغفرته وَأَعَدَّ لَهُمْ ) فوق ذلك فى الآخرة ( سَعِيراً ) أى : نارا شديدة الاشتعال والاتقاد .

خالدين فيها ابدا لا يجدون وليا ولا نصيرا

كما فسرها الوسيط ( خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَداً ) أى : خالدين فيها خلودا أبديا لا خروج لهم منها معه .( لاَّ يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً ) أى لا يجدون من يحول بينهم وبين الدخول فى هذه النار المسعرة ، كما لا يجدون من يخلصهم من عذابها وسعيرها .

يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا اطعنا الله واطعنا الرسولا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - حسراتهم عندما يحل بهم العذاب فى الآخرة فقال : يوم تقلب وجوههم فى النار ، يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا .و ( يَوْمَ ) ظرف لعدم الوجدان لمن يدافع عنهم أو ينصرهم أى : لا يجدون من يدفع عنهم العذاب : يوم تقلب وجوههم فى النار تارة إلى جهة ، وتارة إلى جهة أخرى ، كما يقلب اللحم عند شوائه .وحينئذ يقولون على سبيل التحسر والتفجع : يا ليتنا أطعنا الله - تعالى - فيما أمرنا به ، وأطعنا رسوله فيما جاءنا به من عند ربه .قال صاحب الكشاف : وقوله ) : تُقَلَّبُ ) بمعنى تتقلب ، ومعنى تقليبها : تصريفها فى الجهات ، كما ترى البيضة تدور فى القدر إذا غلت ، فترامى بها الغليان من جهة إلى جهة .أو تغييرها عن أحوالها وتحويلها عن هيئاتها ، أو طرحها فى النار مقلوبة منكوسة وخصت الوجوه بالذكر ، لأنه الوجه أكرم موضع على الإنسان من جسده ويجوز أن يكون الوجه عبارة عن الجملة .

وقالوا ربنا انا اطعنا سادتنا وكبراءنا فاضلونا السبيلا

كما فسرها الوسيط ( وَقَالُواْ رَبّنَآ إِنّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا السبيلا ) ، أى : وقال هؤلاء الكافرون - بعد هذا التحسر والتفجع - يا ربنا إنا أطعنا فى الدنيا ( سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا ) أى : ملوكنا ورؤساءنا وزعماءنا ، فجعلونا فى ضلال عن الصراط المستقيم ، وعن السبيل الحق .

ربنا اتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا

كما فسرها الوسيط ( رَبَّنَآ آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ العذاب ) أى : يا ربنا بهؤلاء السادات والكبراء عذابا مضاعفا ، بسبب ضلالهم فى أنفسهم ، وبسبب إضلالهم لغيرهم .( والعنهم لَعْناً كَبِيراً ) اى واطرادهم من رحمتك وأبعدهم عن مغفرتك ، إبعادا شديدا عظيما ، فهم كانوا سببا لنا فى هذا العذاب المهين الذى نزول بنا .وهكذا نرى الآيات الكريمة ، تصور لنا أحوال الكافرين فى الآخرة هذا التصوير المؤثر ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حى عن بينة .

يا ايها الذين امنوا لا تكونوا كالذين اذوا موسى فبراه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها

كما فسرها الوسيط وبعد أن فصلت السورة الكريمة ما فصلت من أحكام ، وأرشدت إلى ما أرشدت من أداب ، وقصت ما قصت من أحداث . . بعد كل ذلك وجهت فى - أواخرها نداءين إلى المؤمنين ، أمرتهم فيهما بتقوى الله - تعالى وبالاقتداء بالأخيار من عباده ، وباجتناب بسلوك الأشرار ، كما ذكرتهم بثقل الأمانة التى رضوا بحلمها ، وبحسن عاقبة الصالحين وسوء عاقبة المكذبين ، قال - تعالى - : ( ياأيها الذين آمَنُواْ . . . وَكَانَ الله غَفُوراً - رَّحِيماً ) .والمراد بالذين آذوا موسى - عليه السلام - فى قوله - تعالى قومه ( ياأيها الذين آمَنُواْ لاَ تَكُونُواْ كالذين آذَوْاْ موسى ) : الذين أرسله الله إليهم .فقد حكى القرآن الكريم ألوانا من إيذائهم له ، ومن ذلك قولهم له : ( ياموسى اجعل لَّنَآ إلها كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ . . . ) - وقولهم : ( لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى نَرَى الله جَهْرَةً ) ومن إيذائهم له عليه السلام - ما رواه الإمام البخارى والترمذى عن أبى هريرة قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن موسى كان رجلا حييا ستيرا لا يرى من جلده شئ ، فآذاه من آذاه من بنى إسرائيل ، وقالوا : ما يستتر إلا من عيب بجلده ، إما برص ، وإما آفة . وإن الله - تعالى - أراد أن يبرئه مما قالوا وإن موسى خلا يوما وحده فوضع ثيابه على حجر ثم اغتسل ، فلما فرغ أقبل عى ، ثيابه ليأخذها ، وإن الحجر عدا بثوبه ، وأخذ موسى عصاه وطلب الحجر ، فجعل يقول : ثوبى حجر ، ثوبى حجر حتى انتهى إلا ملأ بنى إسرائيل ، فرأوه عريانا أحسن ما خلق الله - تعالى - ، وأبرأه الله - تعالى مما يقولون . . " فذلك قوله - تعالى - ( ياأيها الذين آمَنُواْ لاَ تَكُونُواْ كالذين آذَوْاْ موسى ) .والمعنى : يا من آمنتم بالله - تعالى - حق الإيمان ، التزموا الأدب والطاعة والاحترام لنبيكم صلى الله عليه وسلم واحذروا أن تسلكوا معه المسلك الذى سلكه بنو إسرائيل مع نبيهم موسى - عليه السلام - حيث آذوه بشتى أنواع الأذى .وقولهم : ( لَن نَّصْبِرَ على طَعَامٍ وَاحِدٍ . . . ) . . - واتخاذهم العجل إلها من دون الله فى غيبة نبيهم موسى - عليه السلام ). فَبرَّأَهُ الله مِمَّا قَالُواْ ) أى : فأظهر الله - تعالى - براءته من كل ما نسبوه إليه من سوء .( وَكَانَ عِندَ الله وَجِيهاً ) أى : وكان عند - الله - تعالى - ذا جاه عظيم ، ومكانه سامية ، ومنزلة عالية ، حيث نصره سبحانه - عليهم ، واصطفاه لحمل رسالته . .يقال : وجه الرجل يوجه وجاهة فهو وجيه ، إذا كان ذا جاه وقدر . .

يا ايها الذين امنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا

كما فسرها الوسيط ثم أمرهم - سبحانه - بمراقبته وبالخوف منه ، بعد أن نهاهم عن التشبه ببنى إسرائيل فى إيذائهم لنبيهم فقال : ( ياأيها الذين آمَنُواْ اتقوا الله وَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً ) .والقول السديد : هو القول الصادق الصحيح الخالى من كل انحراف عن الحق والصواب ، مأخوذ من قولك : سدد فلان سهمه يسدده ، إذا وجهه بإحكام إلى المرمى الذى يقصده فأصابه . ومنه قولهم : سهم قاصد . إذا أصاب الهدف .أى : يأيها الذين آمنوا اتقوا الله ، وراقبوه وخافوه فى كل ما تأتون وما تذرون ، وفى كل ما تقولون وما تفعلون ، وقولوا قولا كله الصدق والصواب .

يصلح لكم اعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما

كما فسرها الوسيط فإنكم إن فعلتم ذلك ( يُصْلِحْ ) الله - تعالى - ( لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ) بأن يجعلها مقبولة عنده ( وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ) التى فرطت منكم ، بأن يمحوها عنكم ببركة استقامتكم فى أقوالكم وأفعالكم ). وَمَن يُطِعِ الله وَرَسُولَهُ ) فى كل الأقوال والأعمال ( فَقَدْ فَازَ ) فى الدارين ( فَوْزاً عَظِيماً )لا يقادر قدره ، ولا يعلم أحد كنهه وعلو منزلته .

انا عرضنا الامانة على السماوات والارض والجبال فابين ان يحملنها واشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ضخامة التبعة التى حملها الإنسان فقال : ( إِنَّا عَرَضْنَا الأمانة عَلَى السماوات والأرض والجبال فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسان . . ) .وأرجح الأقوال وأجمعها فى المراد بالأمانة هنا : أنها التكاليف والفرائض الشرعية التى كلف الله - تعالى - بها عباده ، من إخلاص فى العبادة ، ومن أداء للطاعات ، ومن محافظة على آداب هذا الدين وشعائره وسننه .وسمى - سبحانه - ما كلفنا به أمانة ، لأن هذه التكاليف حقوق أمرنا - سبحانه - بها ، وأوجب علينا مراعاتها والمحافظة عليها ، وأداءها بدون وائتمننا عليها إخلال بشئ منها .والمراد بالإنسان : آدم - عليه السلام - أو جنس الإنسان والمراد بحمله إياها : تقبله لحمل هذه التكاليف والأوامر والنواهى مع ثقلتها وضخامتها .وللعلماء فى تفسير هذه الآية اتجاهات ، فمنهم من يرى أن الكلام على حقيقته ، وأن الله - تعالى - قد عرض هذه التكاليف الشرعية المعبر عنها بالأمانة ، على السماوات والأرض والجبال ( فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا ) لثقلها وضخامتها ( وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ) أى : وخفن من عواقب حملها أن ينشأ لهن من ذلك ما يؤدى بهن إلى عذاب الله وسخطه بسبب التقصير فى أداء ما كلفن بأدائه .( وَحَمَلَهَا الإنسان ) أى : وقبل الإنسان حمل هذه الأمانة عند عرضها عليه ، بعد أن أبت السماوات والأرض والجبال حملها ، وأشفقن منها .( إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ) أى : إنه كان مفرطا فى ظلمه لنفسه ، ومبالغة فى الجهل ، لأن هذا الجنس من الناس لم يلتزموا جميعا بأداء ما كلفهم الله - تعالى - بأدائه . وإنما منهم من أداها على وجهها - وهم الأقلون - ، ومنهم من لم يؤدها وإنما عصى ما أمره به ربه ، وخان الأمانة التى التزم بأدائها .فالضمير فى قوله ( إِنَّهُ ) يعود على بعض أفراد جنس الإنسان ، وهم الذين لم يؤدوا حقوق هذه الأمانة التى التزموا بحملها .قال الآلوسى : ( إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ) أى : بحسب غالب أفراده الذين لم يعملوا بموجب فطرتهم السليمة ، دون من عداهم من الذين لم يعملوا بموجب فطرتهم السليمة ، دون من عداهم من الذين لم يبدلوا فطرة الله ويكفى فى صدق الحكم على الجنس بشئ ، وجوده فى بعض أفراده ، فضلا عن وجوده فى غالبها . .وقال بعض العلماء : ورجوع الضمير إلى مجرد اللفظ دون اعتبار المعنى التفصيلى معروف فى اللغة التى نزل بها القرآن .وقد جاء فعلا فى آية من كتاب الله ، وهى قوله - تعالى - : ( وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلاَ يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ . . . )لأن الضمير فى قوله : ( وَلاَ يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ ) راجع إلى لفظ المعمر دون معناه التفصيلى ، كما هو ظاهر .وهذه المسألة هى المعروفة عند علماء العربية بمسألة : عندى درهم ونصفه . أى : ونصف درهم آخر .وأصحاب هذا الاتجاه يقولون : لا مانع إطلاقا من أن يخلق الله - تعالى - إدراكا ونطقا للسموات والأرض والجبال ، ولكن هذا الإدراك والنطق لا يعلمه إلا هو - سبحانه - .ومما يشهد لذلك قوله - تعالى - : ( تُسَبِّحُ لَهُ السماوات السبع والأرض وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ) قال الجمل : وكان هذا العرض عليهن - أى على السماوات والأرض والجبال تخييرا لا إلزاما ، ولو ألزمهن لم يمتنعن عن حملها . والجمادات كلها خاضعة لله - تعالى - مطيعة لأمره ، ساجدة له .قال بعض أهل العلم : ركب الله - تعالى - فيهن العقل والفهم حين عرض عليهن الأمانة ، حتى عقلن الخطاب ، وأجبن بما أجبن .ويرى بعضهم أن العرض فى الآية الكريمة من قبيل ضرب المثل ، أو من قبيل المجاز قال الإمام القرطبى ما ملخصه : لما بين - تعالى - فى هذه السورة من الأحكام ما بين ، أم بالتزام أوامره ، والأمانة تعم جميع وظائف الدين ، على الصحيح من الأقوال ، وهو قول الجمهور . .ويصح أن يكون عرض الأمانة على السماوات والأرض والجبال على سبيل الحقيقة .وقال القفال وغيره : العرض فى هذه الآية ضرب مثل ، أى : أن السماوات والأرض والجبال على كبر أجرامها ، لو كانت بحيث يجوز تكليفها ، لثقل عليها تقلد الشرائع ، لما فيها من الثواب والعقاب .أى : أن التكليف أمر حقه أن تعجز عنه السماوات والأرض والجبال ، وقد حمله الإنسان وهو ظلوم جهول لو عقل . وهذا كقوله : ( لَوْ أَنزَلْنَا هذا القرآن على جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ الله . . . ) وقال قوم : إن الآية من المجاز : أى : أنا إذا قايسنا ثقل الأمانة بقوة السماوات والأرض والجبال ، رأينا أنها لا تطيقها ، وأنها لو تكلمت لأبت وأشفقت ، فَعُبِّر عن هذا بعرض الأمانة . كما تقول : عرضت الحمل على البعير فأباه ، وأنت تريد : قايست قوته بثقل الحمل فرأيت أنها تقصر عنه . .وقيل : ( عَرَضْنَا ) يعنى عارضنا الأمانة بالسموات والأرض والجبال ، فضعفت هذه الأشياء عن الأمانة . ورجحت الأمانة بثقلها عليها . . .ويبدو لنا أن حمل الكلام على الحقيقة أولى بالقبول ، لأنه ما

دام لم يوجد مانع يمنع منه ، فلا داعى لصرفه عن ذلك .ومما لا شك أن قدرة الله - تعالى -لا يعجزها أن تخلق فى السماوات والأرض ولاجبال إدراكا وتمييزا ونطقا لا يعلمه إلا هو - سبحانه - .

ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفورا رحيما

كما فسرها الوسيط واللام فى قوله - سبحانه - : ( لِّيُعَذِّبَ الله المنافقين والمنافقات . . . ) متعلقة بقوله : ( وَحَمَلَهَا الإنسان . . ) أى : وحملها الإنسان ليعذب اله - تعالى - بعض أفراده الذين لم يراعوها. ولم يؤدوا ما التزموا بحمله وهم المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات - أى : ويقبل الله - تعالى ( وَيَتُوبَ الله عَلَى المؤمنين والمؤمنات ) توبة المؤمنين والمؤمنات ، بأن يكفر عنهم سيئاتهم وخطاياهم .( وَكَانَ الله تعالى - ما زال ( غَفُوراً رَّحِيماً ) أى : واسع المغفرة والرحمة لمن - ( تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى .أما بعد : فهذا تفسير لسورة ( الأحزاب ) نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده . .والحمد الله الذى بنعمته تتم الصالحات .وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الارض وله الحمد في الاخرة وهو الحكيم الخبير

، كما فسرها الوسيط افتتحت سورة ( سبأ ) بتقرير الحقيقة الأولى فى كل دين وهى أن المستحق للحمد المطلق ، والثناء الكامل ، هو الله رب العالمين والحمد : هو الثناء باللسان على الجميل الصدر عن اختيار من نعمة أو غيرها. و ( أل ) فى الحمد للاستغراق ، بمعنى أن المستحق لجيمع المحامد ، ولكافة. ألوان الثناء ، هو الله - تعالى - .وإنما كان الحمد مقصورا فى الحقيقة عليه ، وحده - سبحانه - ، لأن كل ما يستحق أن يقابل بالثناء ، فهو صادر عنه ومرجعه إليه ، إذ هو الخالق لكل شئ ، وما يقدم إلى بعض الناس من حمد جزاء ، إحسانهم ، هو فى الحقيقة حمد له - لأنه - سحبانه - هو الذى وفقهم لذلك وأعانهم عليه .وقد اختار - سبحانه - افتتاح هذه السورة بصفة الحمد ، دون المدح أو الشكر ، لأنه وسط بينهما ، إذ المدح أعم من الحمد ، لأن المدح ، يكون للعاقل وغيره ، فقد يمدح الإنسان لعقله ، وتمدح اللؤلؤة لجماها أما الحمد فإنه لا يحصل إلا للفاعل المختار على ما يصدر عنه من إحسان والحمد أخص من الشكر ، لأن الشكر من أجل نعمه وصلت إليك أما الحمد فيكون. من أجل نعمة وصلت إليك أو إلى غيرك .وفى القرآن الكريم خمس سور اشتركت فى ، الافتتاح بقوله - تعالى - : ( الحمد للَّهِ . . ) وهى سورة الفاتحة والأنعام ، وسبأ وفاطر .ولكن لكل سورة من هذه السور ، منهج خاص فى بيان أسباب الحمد لله - تعالى - وحده .وقد أحسن القرطبى - رحمه الله - عندما قال فإن قيل : قد افتتح غيرها أى : سورة الأنعام - بالحمد لله ، فكان : ، الاجتزاء بواحدة يغني عن سائره؟ فالجواب أن لكل واحد منه معنى فى موضعه لا يؤدى عن غيره ، من أجل عقده بالنعم المختلفة ، و - أيضا - فلما فيه من الحجة فى هذا الموضع على الذين هم بربهم يعدلون .والمعنى : الحمد الكامل الشامل لله - تعالى - وحده ، لأنه هو ، الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض ، خلقا وملكا وتصرفا ، بحيث لا يخرج شئ فيهما عن إرادته ومشيئته وقوله : وله الحمد فى الآخرة ، تنبيه إلى أن حمده - عز وجل - ليس مقصورا. على الدنيا ، بل يشمل الدنيا والآخرة .فالمؤمنون فى الدنيا على ما وهبهم من نعم الإيمان والإحسان ، ويحمدونه فى الآخرة على ما منحهم من جنة عرضها السماوات والأرض، ويقولون : ( الحمد للَّهِ الذي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأرض نَتَبَوّأ مِنَ الجنة حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ العاملين ) قال صاحب الكشاف : ولما قال - سبحانه - : الحمد لله ، ثم وصف ذاته بالإنعام بجميع النعم الدنيوية ، كان معناه : أنه المحمود على نعم الدنيا ، تقول : احمد أخاك الذى كساك وحملك ، تريد : احمده على كسوته وحملانه .ولما قال : ( وَلَهُ الحمد فِي الآخرة ) علم أنه المحمود على نعم الآخرة وهو الثواب .وقال الآلوسى : والفرق بين الحمدين مع كون نعم الدنيا ونعم الآخرة بطريق التفضل ، أن الأول على نهج العبادة ، والثانى على وجه التلذذ والاغتباط وقد ورد فى الخبر أن أهل الجنة يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس .وقال الجمل : فإن قلت : الحمد مدح للنفس ، ومدحها مستقبح فيما بين الخلق ، فما وجه ذلك؟فالجواب : ان هذا المدح دليل على أن حاله - تعالى - بخلاف حال الخلق ، وأنه يحسن منه ما يقبح من الخلق ، وذلك يدل على أنه - تعالى - مقدس عن أن تقاس أفعاله ، على افعال العباد .ثم ختم - سبحانه الآية بقوله : ( وَهُوَ الحكيم الخبير ) أى : وهو - تعالى - الذى أحكم أمور الدارين ، ودبرها بحكمته ، وهو العليم بظواهر عباده وبواطنهم ، لا يخفى عليه شئ من أحوالهم .

يعلم ما يلج في الارض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور

كما فسرها الوسيط ثم فصل - سبحانه - بعض علمه فقال : ( يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأرض ) والولوج الدخول ، يقال : ولج فلان منزله ، فهو يلجه ولجا وولوجا ، إذا دخله .أى : أنه - سبحانه - يعلم ما يلج فى الأرض وما يدخل فيها من ماء نازل من السماء ، ومن جواهر دفنت فى طياتها ، ومن بذور ومعادن فى جوفها .ويعلم - أيضا - ( وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ) من نبات وحبوب وكنوز وغير ذلك من أنواع الخيرات .ويعلم كذلك ( وَمَا يَنزِلُ مِنَ السمآء ) من ، ). أمطار ، وثلوج ، وبرد ، وصواعق ، وبركات ، من عنده - تعالى - لأهل الأرض وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ) أى : ويعلم ما يصعد فيها من الملائكة والأعمال الصالحة ، كما قال - تعالى - : ( إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكلم الطيب والعمل الصالح يَرْفَعُهُ ) وعدى العروج بفى لتضمنه معنى الاستقرار ، وهو فى الأصل يعد بإلى قال - تعالى - : ( تَعْرُجُ الملائكة والروح إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ) وقوله : ( يَعْرُجُ ) من العروج ، وهو الذهاب فى صعود . والسماء جهة العلو مطلقا .( وَهُوَ الرحيم ، الغفور ) أى : وهو - سبحانه - صاحب الرحمة الواسعة ، والمغفرة العظيمة لمن يشاء من عباده .وهذه الآية الكريمة - مع وجازة ألفاظها - تصور تصويرا بديعا معجزا ، مظاهر علم الله - تعالى - ، ولو أن أهل الأرض جميعا حاولوا إحصاء ( مَا يَلِجُ فِي الأرض وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السمآء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ) لما استطاعوا أن يصلوا إلى إحصاء بعض تلك الحشود الهائلة من خلق الله - تعالى - فى أرض أو سمائه .ولكن هذه الحشود العجيبة فى حركاتها ، وأحجامها ، وأنواعها ، وأجناسها ، وصورها ، وأحوالها قد أحصاها علم الله - تعالى - الذى لا يخفى عليه شئ . .

وقال الذين كفروا لا تاتينا الساعة قل بلى وربي لتاتينكم عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الارض ولا اصغر من ذلك ولا اكبر الا في كتاب مبين

، كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - ما قاله الكافرون فى شأن يوم القيامة : فقال - تعالى - ( وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لاَ تَأْتِينَا الساعة ) .أى وقال الذين كفروا بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر ، لا تأتينا الساعة بحال من الأحوال ، وإنما نحن ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ، وإذا متنا فإن الأرض تأكل أجسادنا ، ولا نعود إلى الحياة مرة أخرى .وعبروا عن إنكارهم لها بقولهم : ( لاَ تَأْتِينَا الساعة ) مبالغة فى نفيها نفيا كليها ، فكأنهم يقولون :لا تأتينا الساعة فى حال من الأحوال ، لأننا ننكر وجودها أصلا ، فضلا عن إتيانها .وقد أمر الله - تعالى - رسوله صلى الله عليه وسلم أن يرد عليهم بما يؤكد وجودها وإتيانها تأكيدا قاطعا فقال ) : قُلْ بلى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ) .و " بلى " حرف جواب لرد النفى ، - فتفيد إثبات المنفى قبلها ، ثم أكد - سبحانه - ذلك بجملة القسم .أى : قل أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المنكرين لإتيان الساعة : ليس الأمر كما زعمتم ، بل هى ستأتيكم بغتة ، وحق ربى الذى أوجدنى وأوجدكم .فالجملة الكريمة قد اشتملت على جملة من المؤكدات التى تثبت أن الساعة آتية لا ريب فيها ، ومن ذلك التعبير ب ( بلى ) بالجملة القسمية .قال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : هذه إحدى الآيات الثلاث التى لا رابع لهن ، مما أمر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم أن يقسم بربه العظيم على ووقع المعاد ، لما - أنكره من أنكره من أهل الكفر والعناد : فإحداهن فى سورة يونس ، وهى قوله تعالى - : ( وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وربي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ ) والثانية : هذه الآية التى معنا . والثالثة : فى سورة التغابن وهى قوله - تعالى - : ( زَعَمَ الذين كفروا أَن لَّن يُبْعَثُواْ قُلْ بلى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ . . ) وقوله - تعالى : - عَالِمِ الغيب لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السماوات وَلاَ فِي الأرض وَلاَ أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ) تقوية لتأكيد إتيان الساعة .قالوا لأن تأكيد القسم بجلائل نعوت المقسم به يؤذن بخامة شأن المقسم عله ، وقوة إثباته ، وصحته ، لما أن ذلك فى حكم الاستشهاد على الأمر .وقوله ( يَعْزُبُ ) بمعنى يغيب ويخفى ، وفعله من باب " قلت وضرب " . يقال : عزب الشئ يعزب - بضم الزاى وكسرها - إذا غاب وبعد .والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المنكرين لإتيان الساعة كذبتم فى إنكاركم وحق الله - تعالى - لتأتينكم ، والذى أخبرنى بذلك هو : - الله - تعالى - ( عَالِمِ الغيب ) أى : عالم ما غاب وخفى عن حسكم ، وهو سبحانه -لا يغيب عن علمه مقدار أو وزن مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض - ولا أصغر من ذلك المثقال ، ولا أكبر منه ، إلا وهو مثبت وكائن فى علمه ، تعالى - الذى لا يغيب عنه شئ ، أو فى اللوح المحفوظ الذى فيه تسجل أحوال

الخلائق وأقوالهم وأفعالهم .وقوله - سبحانه - : ( عَالِمِ الغيب ) قرأ
بعضهم بكسر الميم على أنه نعت لقوله ( رَبِّي ) .أى : قبل بلى وربى عالم
: الغيب لتأتينكم الساعة .وقرأه آخرون بضم الميم على أنه مبتدأ ، وخبر جملة
أو هو خبر لمبتدأ محذوف . أى : هو عالم الغيب ، ( لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ )
، وقوله : ( لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ ) تمثيل لقلة الشئ.
ودقته ، والمراد انه لا يغيب عن علمه شئ ما ، مهما دق أو صغر ، إذ المثقال
مفعال من الثقل ، ويطلق على الشئ البالغ النهاية فى الصغر ، والذرة تطلق :
- على النملة ، وعلى الغبار الذى يتطاير من التراب عند النفخ .وفى قوله
، سبحانه - : ( وَلاَ أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ ) إعجاز علمى بليغ للقرآن الكريم
إذ كان من المعروف إلى عهد قريب ، أن الذرة أصغر الأجسام ، فأشار القرآن
إلى أن هناك ما هو أصغر منها ، وهذا ما اكتشفه العلم الحديث بعد تحطيم
الذرة ، وتقسيمها إلى جزئيات .قال الجمل : وقوله : ( وَلاَ أَصْغَرُ مِن
، ذَلِكَ ) العامة على رفع أصغر وأكبر ، وفيه وجهان :أحدهما : الابتداء
والخبر إلا فى كتاب ، والثانى : العطف على ( مِثْقَالُ ) ، وعلى هذا فيكون
: قوله : ( إِلاَّ فِي كِتَابٍ ) تأكيد للنفى فى ( لاَ يَعْزُبُ ) كأنه قال
لكنه فى كتاب مبين .فإن قيل : فأى حاجة إلى ذكر الأكبر ، فإن من علم ما هو
- أصغر من الذرة لا بد وأن يعلم الأكبر؟ فالجواب : لما كان الله - تعالى
أراد بيان إثبات الأمور فى الكتاب ، فلو اقتصر على الأصغر لتوهم متوهم أنه
يثبت الصغائر لكونها محل النسيان ، وأما الأكبر فلا ينسى فلا حاجة إلى
. إثباته ، فقال : الإثبات فى الكتاب ليس كذلك فإن الأكبر مكتوب أيضا

ليجزي الذين امنوا وعملوا الصالحات اولئك لهم مغفرة ورزق كريم

كما فسرها الوسيط واللام فى قوله - تعالى -:( لِّيَجْزِيَ الذين آمَنُواْ
وَعَمِلُواْ الصالحات ) متعلقة بقوله ( لَتَأْتِيَنَّكُمْ ) وهى للتعليل
ولبيان الحكمة فى إتيانها .أى : لتأتينكم الساعة أيها الكافرون ، والحكمة
فى ذلك ليجزى - سبحانه - الذى آمنوا وعملوا الصالحات الجزاء الحسن الذى
يستحقونه .( أولئك ) الموصوفون بصفتى الإيمان والعمل الصالح ( لَهُمْ
مَّغْفِرَةٌ ) عظيمة من ربهم لذنوبهم ( وَ ) لهم كذلك ( رِزْقٌ كَرِيمٌ )
. تنشرح له صدورهم ، وتقرّ به عيونهم

والذين سعوا في اياتنا معاجزين اولئك لهم عذاب من رجز اليم

: كما فسرها الوسيط ( والذين سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ ) أى
والذين سعوا فى إبطال آياتنا ، وفى تكذيب رسلنا ( مُعَاجِزِينَ ) أى
مسابقين لنا ، لتوهمهم أننا لا نقدر عليهم ، وأنهم يستطيعون الإفلات من
عقابنا ز يقال : عاجز فلان فلانا وأعجزه إذا غالبه وسبقه .( أولئك ) الذين
يفعلون ذلك ( لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ) أى : لهم عذاب من أسوأ
أنواع العذاب وأشده ألما وإهانة .وهكذا نرى الآيات الكريمة بعد ثنائها على
، الله - تعالى - بما هو أهله ، وبعد إثباتها لعلمه الذى لا يعزب عنه شئ
وبوعد حكايتها لأقوال المشركين وردها عليهم .بعد كل ذلك تصرح بأن الحكمة من
، إتيان الساعة . مجازاة الذين آمنوا وعملوا الصالحات بما يستحقون من ثواب
ومجازاة الذين كفروا وسعوا فى آيات الله بالقدح فيها وصد الناس عنها . بما
. يستحقون من عقاب

ويرى الذين اوتوا العلم الذي انزل اليك من ربك هو الحق ويهدي الى صراط
العزيز الحميد

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - موقف أهل العلم النافع مما جاء به
- الرسول صلى الله عليه وسلم من عند ربه ، وموقف الكافرين من ذلك ، ورد
) : - سبحانه - على هؤلاء الكافرين بما يثبت ضلالهم وجهلهم ، فقال - تعالى
وَيَرَى الذين أُوتُواْ العلم . . . لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ) .والمراد
بالرؤية فى قوله - تعالى - : ( وَيَرَى الذين أُوتُواْ العلم ) المعرفة
والعلم واليقين . والمراد بالذين أوتوا العلم : المؤمنون الصادقون الذين
اتبعوا النبى صلى الله عليه وسلم فى كل ما جاءهم به من عند ربه ، سواء
أكانوا من العرب أم من غيرهم ، كمؤمنى أهل الكتاب من اليهود والنصارى
، والجملة الكريمة مستأنفة لمدح هؤلاء العلماء العقلاء على إيمانهم بالحق.
أو معطوف على يجزى فى قوله - تعالى - قبل ذلك : ( لِّيَجْزِيَ الذين
آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ) والمراد ب ( الذي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن
رَّبِّكَ ) القرآن الكريم .والمعنى :لا تحزن - أيها الرسول الكريم - لما
يقوله الكافرون بشأنك ولما يفعلونه لإبطال دعوتك ، فإن الذين أوتوا العلم
وهم أتباعك الصادقون ، يعلمون ويعتقدون أن ما أنزل إليك من ربك هو الحق
الذى لا يحوم حوله باطل ، وهو الصدق الذى لا يشوبه كذب ، وهو الكتاب الذى
يهدى من اتبعه وأطاع توجيهاته إلى دين الله - تعالى - ، العزيز ، الذى يقهر

: ولا يقهر ( الحميد ) أى المحمود فى جيمع شئونه .والمفعول الأول ليرى قوله
والمفعول الثانى " الحق " و " هو " ضمير فصل متوسط . . ( الذي أنزِل )
بين المفعولين و " يهدى " معطوف على المفعول الثانى من باب عطف الفعل على
الاسم لتأويله به ، أى : يرونه حقا وهاديا .وعبر - سبحانه - عن إيمان أهل
، العلم بما جاءهم به الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله : ( وَيَرَى )
، للإشعار بأنهم قد آمنوا هذا الإيمان الجازم عن إدراك ومشاهدة ويقين
وأنهم قد صاروا لا يشكون فى كون هذا المُنَزَّل عليه من ربه ، هو الحق
الهادى إلى الصراط المستقيم .وفى وصفهم بقوله : ( أُوتُوا العلم ) ثناء
عظيم عليهم ، لأنهم انتفعوا بعلمهم وسخروه لخدمة الحق ، وللشهادة له بأنه
حق ، ويهدى إلى السعادة الدينية والدنيوية والأخروية .وهكذا العلماء
العاملون بمقتضى علمهم النافع . يكونون أنصارا للحق والهدى فى كل زمان
. ومكان

وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم اذا مزقتم كل ممزق انكم لفي خلق جديد

، كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - ما قاله ألوئك الكافرون فيما بينهم
على سبيل الاستهزاء بالنبى صلى الله عليه وسلم فقال - تعالى - : ( وَقَالَ
الذين كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ على رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا
. مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ) .وتمزيق الشئ : تخريقه وجعله قطعا قطعا
يقال : ثوب ممزق ومزيق . إذا كان مقطعا مخرقا . والمراد بالرجل : الرسول
صلى الله عليه وسلم .أى : وقال الذين كفروا بعضهم لبعض ، ألا تريدون أن
ندلكم ونرشدكم إلى رجل ، هذا الجرل يخبركم ويحدثكم ، بأنكم إذا متم ، وفرقت
أجسامكم فى الأرض كل تفريق ، وصرتم رفاتا وعظاما ، وأصبحتم طعاما فى بطون
الطيور والوحوش .( إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ) أى : إنكم بعد هذا
التمزيق والتفريق ، تخلقون خلقا جديدا ، وتعودون إلى الحياة مرة أخرى
للحساب على أعمالكم التى علمتموها فى حياتكم .وقالوا : ( هَلْ نَدُلُّكُمْ
على رَجُلٍ ) وهو صلى الله عليه وسلم أشهر من نار على علم بينهم ، لقصد
تجاهل أمره ، والاستخفاف بشأنهن والاستهزاء بدعوته .ورحم الله صاحب الكشاف
فقد قال : فإن قلت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مشهورا علما فى قريش
وكان إنباؤه بالبعث شائعا بينهم ، فما معنى قولهم : ( هَلْ نَدُلُّكُمْ ،
على رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ ) فنكروه لهم ، وعرضوا عليهم الدلالة عليه كما
: يدل على مجهول فى أمر مجهول؟قلت : كانوا يقصدون بذلك الطَّنز - أى
الاستخفاف والسخرية - فأخرجوه مخرج التحلى ببعض الأحاجى التى يتحاجى بها
: للضحك والتلهى ، متجاهلين به وبأمره .وقال الآلوسى - رحمه الله - : وقوله
أى يحدثكم بأمر مستغرب عجيب . . وإذا فى قوله : ( إِذَا ( يُنَبِّئُكُمْ )
مُزِّقْتُمْ ) شرطية ، وجوابها محذوف لدلالة ما بعده عليه . أى : تبعثون أو
تحشرون ، وهو العامل فى " إذا " على قول الجمهور ، والجملة الشرطية بتمامها
معمولة لقوله : ( يُنَبِّئُكُمْ ) لأنه فى معنى يقول لكم إذا مزقتم كل ممزق
تبعثون ، ثم أكد ذلك بقوله - تعالى - : ( إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ )
.

افترى على الله كذبا ام به جنة بل الذين لا يؤمنون بالاخرة في العذاب والضلال البعيد

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - بعد ذلك : ( أفترى عَلَى الله كَذِباً
أَم بِهِ جِنَّةٌ ) حكاية لقول آخر من أقوالهم الباطلة ، التى قالوا هل بشأن
ما جاءهم به النبى صلى الله عليه وسلم .والاستفهام لتعجبهم مما قاله صلى
الله عليه وسلم لأن قوله لهم : إنكم ستبعثون وتحاسبون يوم القيامة ، جعلهم
لجهلهم وانطماس عقولهم - يستنكرون ذلك ، ويرجعون قوله صلى الله عليه وسلم
إلى أمرين : إما افتراء الكذب واختلاقه على الله - تعالى - وإما إصابته
بالجنون الذى جعله يقول قولا لا يدرى معناه .وقد رد الله - تعالى - بما
ينفى عن رسوله صلى الله عليه وسلم ما اتهموه به ، وبما يثبت جهلهم وغباءهم
فقال . ( بَلِ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة فِي العذاب والضلال البعيد )
أى : ليس الأمر كما زعم هؤلاء الكافرون ، من أن الرسول صلى الله عليه وسلم.
الذى أخبرهم بأن هناك بعثا وحسابا ، به جنة أو افترى على الله كذبا ، بل
، الحق أن هؤلاء الكافرين الذين لا يؤمنون بالآخرة وما فيها من ثواب وعقاب
غارقون فى العذاب الذى لا نهاية له . وفى الضلال البعيد عن الحق غاية البعد
.

افلم يروا الى ما بين ايديهم وما خلفهم من السماء والارض ان نشا نخسف بهم الارض او نسقط عليهم كسفا من السماء ان في ذلك لاية لكل عبد منيب

كما فسرها الوسيط ثم هددهم - سبحانه - بسوء العاقبة ، إذا ما استمروا فى

ضلالهم وجهالاتهم وذكرهم بما يشاهدونه من عجائب قدرته فقال : ( أَفَلَمْ يَرَوْاْ إلى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السمآء والأرض
والاستفهام للتعجب من حالهم ، ومن ذهولهم عن الفكر والتدبر ، والفاء. ( للعطف على مقدر يقتضيه المقام .والمعنى : أعمى هؤلاء الكافرون فلم يعتبروا ولم يتعظوا بما يشاهدونه من مظاهر قدرته - عز وجل - المحيطة بهم من كل جانب والمنتشرة في آفاق السماوات وفى جوانب الأرض؟إن تأملهم فى مظاهر قدرتنا الواضحة أمام أعينهم ، من شأنه أن يهديهم إلى الحق الذى جاءهم به رسولنا صلى الله عليه وسلم ومن شأنه أن يجعلهم يوقنون بأننا ( إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأرض ) كما فعلنا بقارون .( أَوْ ) إن نشأ ( نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِّنَ السمآء ) والكِسَفُ جمع كِسْفَة بمعنى قطعة أى : لا يعجزنا أن نخسف بهم الأرض . كما لا يعجزنا - أيضا - أن نتنزل عليهم قطعا من العذاب الكائن من السماء فنهلكهم ، كما أنزلناها على أصحاب الأيكة : فأهلكناهم بسبب تذكيبهم وجحودهم .ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله أى : إن فى ذلك. ( إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ) الذى ذكرناه من مظاهر قدرتنا الواضحة بين أيديهم ، لآية بينة ، وعبرة ظاهرة لكل عبد أى : راجع إلى الله - تعالى - بالتوبة الصادقة ، وبالطاعة ، الخالصة لما جاءه به نبينا صلى الله عليه وسلم .

ولقد اتينا داوود منا فضلا يا جبال اوبي معه والطير والنا له الحديد

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - نموذجين من الناس ، أولهما : أعطاه الله - تعالى - الكثير من نعمه وفضله وإحسانه ، فوقف من كل ذلك موقف المعترف بنعم الله الشاكر لفضله .وثانيهما : أعطاه الله - تعالى - النعم فوقف منها مموقف الجاحد البطر الكنود .أما النموذج الأول فنراه فى شخص النبيين الكريمين داود وسليمان - عليهما السلام - فقد قال - سبحانه - فى شأنهما : ( وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنّا فَضْلاً . . . العذاب المهين وقوله - سبحانه - : ( وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنّا فَضْلاً ) بيان. ( لما مَنّ الله - تعالى - به على عبده داود - عليه السلام - من خير وبركة أى : ولقد آتينا عبدنا فضلا عظيما ، وخيرا وفيرا ، وملكا كبيرا ، بسبب. ) : إنابته إلينا ، وطاعته لنا .ثم فصل - سبحانه - مظاهر هذا الفضل فقال ياجبال أَوِّبِي مَعَهُ ) والتأويب الترديد والترجيع . يقال : أوّب فلان تأويبا إذا رَجّع مع غيره ما يقوله .والجملة مقول لقول محذوف : أى : وقلنا يا جبال رددى ورجعى مع عبدنا داود تسبيحه لنا ، وتقديسه لذاتنا ، وثناءه علينا ، كما قال - تعالى - : ( إِنَّا سَخَّرْنَا الجبال مَعَهُ ) يُسَبِّحْنَ بالعشي والإشراق ) وقوله : ( والطير ) بالنصب عطفا على قوله ) فَضْلاً ) أى : وسخرنا له الطير لتسبح معه بحمدنا . أو معطوف على محل ياجبال ) أى : ودعونا الجبال والطير إلى التسبيح معه .قال الإمام ابن كثير - رحمه الله : يخبر - تعالى - عما به على عبده ورسوله داود - عليه السلام - مما آتاه من الفضل المبين ، وجمع له بين الانبوة والملك المتكن ، والجنود ذوى العَدَد والعُدَد ، وما أعطاه ومنحه من الصوت العظيم ، الذى كان إذا سبح به ، تسبح معه الجبال الراسيات ، الصم الشامخات ، وتقف له الطيور السارحات . والغاديات الرائحات ، وتجاوبه بأنواع اللغات .وفى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع صوت أبى موسى الأشعرى يقرأ من الليل " " فوقف فاستمع لقراءته ثم قال : " لقد أوتى هذا مزمارا من مزامير آل داود ، ) : وقال صاحب الكشاف : فإن قلت : أى فريق بين هذا النظم وبين أن يقال. " آتَيْنَا دَاوُودَ مِنّا فَضْلاً ) تأويب الجبال معه والطير؟قلت : كم بينهما من الفرق؟ ألا ترى إلى ما فيه من الفخامة التى لا تخفى ، من الدلالة على عزة الربوبية وكبرياء الألوهية ، حيث جعلت الجبال مُنَزَّلَةً مَنزِلَةَ العقلاء ، الذين إذا أمرهم أطاعوا وأذعنوا ، وإذا دعاهم سمعوا وأجَابوا ، إشعارا بأنه ما من حيوان وجماد وناطق وصامت إلا وهو منقاد لمشيئته ، غير ممتنع على إرادته .وقوله - تعالى - : ( وَأَلَنّا لَهُ الحديد ) ، بيان لنعمة أخرى من النعم التى أنعم بها - سبحانه - عليه .أى : وصيرنا الحديد لينا فى يده ، بحيث يصبح - مع صلابته وقوته - كالعجين فى يده ، يشكله كيف يشاء ، من غير أن يدخله فى نار ، أو أن يطرقه بمطرقة فالجملة الكريمة معطوفة على قوله ( آتَيْنَا ) ، وهى من جملة الفضل الذى. منحه - سبحانه - لنبيه داود - عليه السلام - .

ان اعمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحا اني بما تعملون بصير

كما فسرها الوسيط و ( أَنِ ) فى قوله : ( أَنِ اعمل سَابِغَاتٍ ) مصدرية على حذف حرف الجر . وسابغات صفة لموصوف محذوف .أى : ألنا له الحديد ، لكى يعمل منه دروعا سابغات .والدرع السابغ ، هى الدرع الواسعة التامة . يقال : سبغ الشئ سبوغا ، إذا كان واسعا تاما كاملا . ومنه قولهم : نعمة سابغة ، إذا كانت تامة كاملة .قال - تعالى - : ( أَلَمْ تَرَوْاْ أَنّ الله

سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ
نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ) وقوله : ( وَقَدِّرْ فِي السرد )
والتقدير هنا بمعنى الإحكام والإجادة وحسن التفكير فى عمل الشئ . والسرد
نسج الدروع وتهيئاتها لوظيفتها .أى : آتينا داود كل هذا الفضل الذى من :
، جملته إلانة الحديد فى ديه ، وقلنا له يا داود : اصنع دروعا سابغات تامات
وأحكم نسج هذه الدروع ، بحيث تكون فى أكمل صورة ، وأقوى هيئة .روى ان
الدروع قبل عهد داود كانت تعمل بطريقة تثقل الجسم ، ولا تؤدى وظيفتها لا
تثقل الجسم ولا تتعبه ، وفى الوقت نفسه تكون محكمة إحكاما تاما بحيث لا
تنفذ منها الرماح ، ولا تقطعها السيوف ، وكان الأمر كله من باب الإلهام
- والتعليم من الله - تعالى - لعبده داود - عليه السلام - .ثم أمره - سبحانه
داود وأهله بالعمل الصالح فقال : ( واعملوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا
تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ) .أى : واعملوا عملا صالحا يرضينى ، فإنى مطلع ومحيط
ومبصر لكل ما تعملونه من عمل ، وسأجازيكم عليه يوم القيامة بالجزاء الذى
، تستحقونه .قال القرطبى : وفى هذه الآية دليل على تعلم أهل الفضل الصنائع
وأن التحرف بها لا ينقص من مناصبهم . بل ذلك زيادة فى فضلهم وفضائلهم ، إذ
يحصل لهم التواضع فى أنفسهم ، والاستغناء عن غيرهم ، وكسب الحلال الخالى عن
الامتنان . وفى الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " إن خير ما أكل
المرء من عمل يده ، وإن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده " .

ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر واسلنا له عين القطر ومن الجن من
يعمل بين يديه باذن ربه ومن يزغ منهم عن امرنا نذقه من عذاب السعير

كما فسرها الوسيط هذا ما أعطاه الله - تعالى - لنبيه داود من فضل ، أما
نبيه سليمان بن داود ، فقد أعطاه - سبحانه - أفضالا أخرى ، عبر عنها فى
قوله - تعالى - : ( وَلِسُلَيْمَانَ الريح غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا
شَهْرٌ ) .والغدوة والغداة : أول النهار إلى الزوال . والرواح من الزوال
- إلى الغروب .والمعنى : وسخرنا لنبينا سليمان بن داود - عليهما السلام
الريح ، تجرى بأمره فى الغدوة الواحدة مسيرة شهر ، وتعود بأمره فى الروحة
الواحدة مسيرة شهر . أى : أنها لسرعتها تقطع فى مقدار الغدوة الواحدة ما
يقطعه الناس فى شهر من الزامن ، وكذلك الحال بالنسبة للروحة الواحدة ، وهى
فى كل مرة تسير بأمر سليمان ، ووفق إرادته التى منحه الله - تعالى - إياها
وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( وَلِسُلَيْمَانَ الريح عَاصِفَةً
- تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأرض التي بَارَكْنَا فِيهَا ) وقوله - سبحانه
( فَسَخَّرْنَا لَهُ الريح تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ) :
) : ثم بين - تعالى - نعمة ثانية من النعم التى أنعم بها على سليمان فقال
وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ القطر ) .والقطر : هو النحاس المذاب . مأخوذ من
قطَر الشئ يَقْطُر قَطْراً وقطَرانا ، إذا سال .أى : كما ألنا لداود الحديد
أسلنا لابنه سليمان النحاس وجعلناه مذابا ، فكان يستعمله فى قضاء مصالحه ،
كما يستعمل الماء ، وهذا كله بفضلنا وقدرتنا .ثم بين - سبحانه - نعمة ،
ثالثة أنعم بها على سليمان - عليه السلام - فقال : ( وَمِنَ الجن مَن
يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ) .أى : وسخرنا له من الجن من
يكونون فى خدمته ، ومن يعملون بين يديه ما يريده منهم ، وهذا كله بأمرنا
ومشيئتنا وقدرتنا .( وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا ) أى : من ينحرف
من هؤلاء الجن عما أمرناه به من طاعة سليمان ، ( نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ
السعير ) أى : ننزل به عذابنا الأليم ، الذى يذله ويخزيه فى الدنيا والآخرة
.

يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا ال
داوود شكرا وقليل من عبادي الشكور

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعض الأشياء التى كان الجن يعملونها
لسليمان - عليه السلام - فقال : ( يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَآءُ مِن
( مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كالجواب وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ
المحاريب : جمع محراب . وهو كل مكان مرتفع ، ويطلق على المكان الذى يقف
فيه الإمام فى المسجد ، كما يطلق على الغرفة التى يصعد إليها ، وعلى أشرف
أماكن البيوت .قالوا والمراد بها : اماكن العبادة ، والقصور المرتفعة
والتماثيل : جمع تمثال وقد يكون من حجر أو خشب أو نحاس أو غير ذلك .قال
القرطبى ما ملخصه : والتماثيل جمع تمثال . وهو كل ما صور على مثل صورة
حيوان أو غير حيوان . وقيل : كانت من زجاج ونحاس ورخام ، تماثيل أشياء ليست
بحيوان .وذكر أنها صورة الأنبياء والعلماء ، وكانت تصور فى المساجد ليراها
الناس . فيزدادوا عبادة واجتهادا .وهذا يدل على أن ذلك كان مباحا فى زمانهم
ونسخ ذلك بشرع محمد صلى الله عليه وسلم .والجِفان : جمع جَفْنَة . وهى ،
الآنية الكبيرة . والجَوَاب : جمع جابية ، وهى لاحوض الكبير الذى يحبى فيه
الماء ويجمع لتشرب منه الدواب .والقدور : جمع قدر . وهو الآنية التى يطبخ

فيها الطعام من نحاس أو فخار أو غيرهما .وراسيات : جمع راسية بمعنى ثابتة
لاتتحرك .أى : أن الجن يعملون لسليمان - عليه السلام - ما يشاء من مساجد
وقصور ، ومن صور متنوعة ، ومن قصاع كبار تشبه الأحواض الضخمة ، ومن قدور
) : - ثابتات على قواعدها ، بحيث لا تحرك لضخامتها وعظمها .وقوله - سبحانه
اعملوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشكور ) مقول لقول
محذوف .أى : أعطينا سليمان كل هذه النعم ، وقلنا له ولأهله : اعملوا يا آل
دواد عملا صالحا ، شكرا لله - تعالى - على فضله وعطائه ، وقليل من عبادى هو
الذى يشكرنى شكراخ الصا على نعمى وفضلى وإحسانى .وقوله ( شُكْراً ) يجوز أن
يكون مفعولا لأجله . أى : اعملوا من أجل الشكر ، أو مصدرا واقعا موقع الحال
أى : اعملوا شاكرين .و ( قَلِيلٌ ) خبر مقدم .و ( مِّنْ عِبَادِيَ ) صفة .
له . و ( الشكور ) مبتدأ مؤخر . وهكذا يختم القرآن هذه النعم بهذا التغيب
الذى يكشف عن طبيعة الناس فى كل زمان ومكان ، حتى يحملهم على أن يخالفوا
: أهواءهم ونفوسهم ، ويكثروا من ذلك الله - تعالى - وشكره .وحقيقة الشكر
- الاعتراف بالنعمة للمنعم ، والثناء عليه لإنعامه ، واستعمال نعمه
، سبحانه - فيما خلقت له .والانسان الشكور : هو المتوفر على أداء الشكر
. الباذل قصارى جهده فى ذلك ، عن طريق قلبه ولسانه وجوارحه

فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته الا دابة الارض تاكل منساته فلما
خر تبينت الجن ان لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - النعم التى أنعم بها على داود وسليمان
ببيان مشهد وفاة سليمان ، فقال : ( فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الموت ،
مَا دَلَّهُمْ على مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ
، والمراد بدابة الأرضة : قيل هى الأَرَضَة التى تأكل الخشب وتتغذى به. (
يقال : أرضتا لدابة الخشب أرضا - من باب ضرب - ، إذا أكلته . فإضافة الدابة
إلى الأرض - بمعنى الأكل والقطع - من إضافة الشئ إلى فعله .و ( مِنسَأَتَهُ
أى : عصاه التى كان مستندا عليها . وسميت العصا بذلك لأنها تزجر بها (
الأغنام إذا جاوزت مرعاها . من نسأ البعير - كنع - إذا زجره وساقه ، أو إذا
، أخره ودفعه .والمعنى : فلما حكنا على سليمان - عليه السلام - بالموت
وأنفذناه فيه ، وأوقعناه عليه ، ( مَا دَلَّهُمْ ) أى : الجن الذين كانوا
فى خدمته ( على مَوْتِهِ ) بعد أن مات وظل واقفا متكئا على عصاه ( إِلاَّ
، دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ) .أى : انهم لم يدركوا أنه مات
واستمروا فى أعمالهم الشاقة التى كلفهم بها ، حتى جاءت الدابة التى تفعل
، الأَرْضَ - أى الأكل والقطع - فأكلت شيئا من عصاه التى كان متكئا عليها
فسقط واقعا عبد أن كان واقفا .( فَلَمَّا خَرَّ ) أى : فلما سقط سليمان على
الأرض ( تَبَيَّنَتِ الجن ) أى : ظهر لهم ظهورا جليا ( أَن لَّوْ كَانُواْ
يَعْلَمُونَ الغيب ) كما يزعم بعضهم .( مَا لَبِثُواْ فِي العذاب المهين )
أى : ما بقوا فى الأعمال الشاقة التى كلفهم بها سليمان .وذلك أن الجن
استمروا فيما كلفهم به سليمان من اعمال شاقة ، ولم يدركوا أنه قد مات ، حتى
جاءت الأرضة فأكلت شيئا من عصاه ، فسقط على الأرض وهنا فقط علموا انه قد
مات .قال ابن كثير : يذكر - تعالى - فى هذه الآية كيفية موت سليمان - عليه
، السلام - وكيف عمّى الله موته على الجان المسخرين له في الأعمال الشاقة
فإنه مكث متوكئا على عصاه ، وهى منسأته - مدة طويلة نحواً من سنة ، فلما
أكلتها دابة الأرض ، - وهى الأرضة - ضعف وسقط إلى الأرض ، وعلم أنه قد مات
قبل ذلك بمدة طويلة - تبينت الجن والإنس أيضاً - أن الجن لا يعلمون الغيب
كما كانوا يتوهمون ويواهمون الناس ذلك .هذا هو النموذج الأول الذى ساقه ،
- الله - تعالى - للشاكرين ، متمثلا فى موقف داود وسليمان - عليهما السلام
. . مما أعطاهما - سبحانه - من نعم جزيله

لقد كان لسبا في مسكنهم اية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا
له بلدة طيبة ورب غفور

- كما فسرها الوسيط أما النموذج الأول الذى جاء فى أعقاب سابقه - فقد ساقه
سبحانه - لسوء عاقبة الجاحدين ، متمثلا فى قصة قبيلة سبأ وكيف أنهم قابلوا
نعم الهل بالبطر ، فمحقها - سبحانه - من بين أيديهم وفى شأنهم يقول - عز
وجل - : ( لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ . . . وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
حَفُيظٌ ) .و ( لِسَبَإٍ ) فى الأصل اسم لرجل ، وهو : سبأ بن يشجب بن يعرب
بن قحطان بن هود ، وهو أول ملك من ملوك اليمن . .والمراد به هنا : الحى أو
القبيلة المسماة باسمه ، فيصرف على الأول ويترك صرفه على الثانى .وكانوا
يسكنون بمأرب باليمن ، على مسيرة ثلاثة أيام من صنعاء وكانت أرضهم مخصبة
، ذات بساتين وأشجار متنوعة ، وزاد خيرهم ونعيمهم بعد أن اقاموا سدا
، ليأخذوا من مياه الأمطار على قدر حاجتهم ، وكان هذا السد يعرف بسد مأرب
ولكنهم لم يشكروا الله - تعالى - على هذه النعم ، فسلبها - سبحانه - منهم
، قال ابن كثير : كانت سبأ ملوك اليمن وأهلها ، وكانت التبابعة منهم.

وبلقيس منهم ، وكانوا فى نعمة وغبطة ، وبعث الله إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ، ويشكروه بتوحيده وعبادته فكانوا كذلك ما شاء الله ، ثم أرعضوا عما أمروه به ، فعوقبوا بإرسال السيل والتفرق فى البلاد .أخرج الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس قال : " إن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سبأ : ما هو؟ رجل أم امرأة أم أرض؟ فقال صلى الله عليه وسلم : ، بل هو رجل . كانله عشرة اولاد ، سكن اليمن منهم ستة ، وهم : مَذْحِجْ وكِنْدَه ، والأزد ، والأشعريون ، وأنمار ، وحِميْر . وسكن الشام منهم " أربعة وهم : لَخْم ، وجُذَام ، وعامِلَةُ ، وغسّان " .وإنما سمى " سبأ ، لأنه أول من سبأ فى العرب - أى : جمع السبايا - ، وكان يقال له الرائش - لأنه أول من غنم فى الغزو فأعطى قومه ، فسمى الرائش ، والعرب تسمى المال ريشا ورياشا ، وذكروا أنه بشر برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى زمانه المتقدم .والمعنى : والله لقد كان لقبيلة سبأ فى مساكنهم التى يعيشون فيها بينة واضحة ، وعلامة ظاهرة تدل على قدرة الله - تعالى - وعلى ( آيَةٌ ) فضله على خلقه وعلى وجوب شكره على نعمه ، وعلى سوء عقابة الجاحدين لهذه - النعم .فالمراد بالآية : العلامة الواضحة الدالة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته وبديع صنعه ، ووجوب شكره ، والتحير من معصيته .ثم وضح سبحانه - هه الآية فقال : ( جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ) أى : كانت لأهل سبأ طائفتان من البساتين والجنان : طائفة من يمين بلدهم ، وطائفة أخرى عن شماله .وهذه البساتين المحيطة بهم كانت زاخرة بما لذ وطاب من الثمار ، قالوا : كانت المرأة تمشى تحت أشجار تلك البساتين وعلى رأسها المكتل. ) يمتلئ من أنواع الفواكه التى تتساقط فى مكتلها دون جهد منها .ولفظ جَنَّتَانِ ) مرفوع على البدل من ( آيَةٌ ) أو على أنه مبتدأ ، وخبره قوله وقوله - تعالى - : ( كُلُواْ مِن رِّزْقِ. ( عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ) : رَبِّكُمْ واشكروا لَهُ .. ) مقول لقول محذوف .أى : وقلنا لهم على ألسنة رسلنا ، وعلى ألسنة الصالحين منهم ، كلوا من الأرزاق الكريمة ، والثمار ، الطيبة ، التى أنعم بها ربكم عليكم ، واشكروا له - سبحانه - هذا العطاء فإنكم إذا شكرتموه زادكم من فضله وإحسانه .وقوله : ( بَلدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ) كلام مستأنف لبيان موجبات الشكر .أى : هذه البلدة التى تسكنونها بلدة طيبة لاشتمالها على كل ما تحتاجونه من خيرات ، وربكم الذى أعطاكم هذه النعم ، رب واسع المغفرة والرحمة لمن تاب إليه وأناب ، ويعفو عن كثير من ذنوب عباده بفضله وإحسانه .

فاعرضوا فارسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي اكل خمط واثل وشيء من سدر قليل

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما أصابهم بسبب جحودهم وبطرهم فقال فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ العرم وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ) .والعرم : اسم للوادى الذى كان يأتى منه السيل . وقيل : هو المطر الشديد الذى لا يطاق .فيكون من إضافة الموصوف إلى الصفة : أى : أرسلنا عليهم السيل الشديد المدمر .ويرى بعضهم أن المراد بالعرم السدود التى كانت مبنية لحجز الماء من خلفها ، ويأخذون منها لزروعهم على قدر حاجتهم ، فلما أصيبوا بالترف والجحود تركوا العناية بإصلاح هذه السدود فتصدعت ، واجتاحت المياه آراضيهم فأفسدتها ، واكتسبت مساكنهم ، فتفرقوا ، عنها ، ومزقوا شر ممزق ، وضرب بهم الأمثال التى منها قولهم : تفرقوا أيدى سبأ . وهو مثل يضرب لمن تفرق شملهم تفرقا لا الاجتماع لهم معه .وهذا ما حدث لقبيلة سبأ فقد تفرق بعضهم غلى المدينة المنورة كالأوس والخزرج ، وذهب بعضهم إلى عمان كالأزد ، وذهب بعضهم إلى الشام كقبيلة غسان .وقوله ) : - ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ ) الأكل : هو الثمر ، ومنه قوله - تعالى ) : فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ ) أى : ثمرها . والخمط : هو ثمر الأراك أو هو النبت المر الذى لا يمكن أكله .و ( الأثل ) هو نوع من الشجر يشبه شجر الطرفاء . أو هو نوع من الشجر كثير الشوك و ( السدر ) هو ما يعرف بالنبق . أو هو نوع من الثمار التى يقل الانتفاع بها .والمعنى : فأعرض أهل سبأ عن شكرنا وطاعتنا . . فكانت نتيجة ذلك ، أن أرسلنا عليهم السيل الجارف ، الذى احتج أراضهيم ، فأفسد مزارعهم ، وأجلاهم عن ديارهم ، ومزقهم شر ممزق . . وبدلناهم بالجنان اليانعة التى كانوا يعيشون فيها ، بساتين أخرى قد ذهبت ثمارها الطيبة اللذيذة ، وحلت محلها ثمار مرة لا تؤكل ، وتناثرت فيأما كنهم الأشجار التى لا تسمن ولا تغنى من جوع ، بدلا من تلك الأشجار التى كانت تحمل لهم ما لذ وما طاب ، وعظم نفعه .فالمقصود من الآية الكريمة ببيان أن الجحود والبطر ، يؤديان إلى الخراب والدمار ، وإلى زوال النعم وتحويلها إلى نقم .

ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي الا الكفور

) : - كما فسرها الوسيط ولذا جاء التعقيب بعد هذه الآية بقوله - تعالى
: ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُواْ وَهَلْ نجازي إِلاَّ الكفور ) .أى
ذلك الذى فعلناه بهم من تدبيل جنتيهم ، بجنتين ذواتى أكل خمط . . هو الجزاء
العادل لهم بسبب جحودهم وترفهم وفسوقهم عن أمرنا .وإننا من شأننا ومن سنتنا
، أننا لا نعاقب ولا نجازى هذا الجزاء الرادع الشديد ، إلا لمن جحد نعمنا
وكفر بآياتنى ، وآثر الغى على الرشد ، والعصيان على الطاعة .فاسم الإشارة
يعود إلى التبديل الذى تحدثت عنه الآية السابقة . وهو المفعول الثانى
لجزيناهم مقدم عليه . أى : جزيناهم ذلك التبديل لا غيره . والمراد بالجزاء
هنا : العقاب .قال صاحب الكشاف : قوله : ( وَهَلْ نجازي إِلاَّ الكفور )
بمعنى وهل يعاقب .وهو الوجه الصحيح . وليس لقائل أن يقول : لم قيل : وهل
يجازى إلا الكفور ، على اختصاص الكفر بالجزاء ، والجزاء عام للمؤمن والكافر
. لأنه لم يرد الجزاء العام وإنما أريد الخاص وهو العقاب ،

وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير
سيروا فيها ليالي واياما امنين

، كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - نقمة أخرى أصابتهم بسبب جهلهم وحمقهم
) : - وكيف أن هذه النقمة قد حلت محل نعمة كانوا فيها ، فقال - تعالى
وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ القرى التي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى
ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السير سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ
) وَأَيَّاماً آمِنِينَ ) .أى : وجعلنا - بقدرتنا ورحمتنا بين أهل سبأ
وَبَيْنَ القرى التي بَارَكْنَا فِيهَا ) كمكة فى الجزيرة العربية ، وكبيت
المقدس فى بلاد الشام ، جعلنا بينهم وبين تلك القرى المباركة ، ( قُرًى
). ظَاهِرَةً ) أى : قرى متقاربة متواصلة ، بحيث يرى من فى إحداها غيرها
وَقَدَّرْنَا فِيهَا السير ) أى : وجعلنا زمن السير من قرية إلى أخرى مقدرا
محددا ، بحيث لا يتجاوز مدة معينة قد تكون نصف يوم أو أقل .وقالوا : كان
) : المسافر يخرج من قرية ، فيدخل الأخرى قبل حلول الظلام بها .وقوله
: سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ ) مقول لقول محذوف . أى
وقلنا لهم : سيروا فى تلك القرى المتقاربة العارمة بالخيرات ، والتى توصلكم
إلى القرى المباركة . . سيروا فيها ليالى وأياما آمنين من كل شر سواء سرتم
بالليل أم بالنهار ، فإن الأمن فيها مستتب فى كل الأوقات : وفى كل الأحوال
فالآية الكريمة تحكى نعمة عظمى أخرى أنعم الله - تعالى - بها على أهل سبأ .
وهى نعمة تيسير سبل السفر لهم إلى القرى المباركة ، وتهيئة الأمان ،
والاطمئنان لهم خلال سفرهم ، وهى نعمة عظمى لا يدرك ضخامتها إلا من مارس
. الأسفار من مكان إلى آخر

فقالوا ربنا باعد بين اسفارنا وظلموا انفسهم فجعلناهم احاديث ومزقناهم كل
ممزق ان في ذلك لايات لكل صبار شكور

كما فسرها الوسيط ولكنهم لم يقدروا هذه النعمة ، بل بلغ بهم الجهل والحمق
) : - والبطر ، أنهم دعوا الله - تعالى - بقولهم - كما حكى القرآن عنهم
فَقَالُواْ رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ) .أى : ما أننا بفضلنا
وإحساننا قد أعطيناهم تلك النعمة ، ومكانهم منها ، وهى نعمة تيسير وسائل
السفر ، ومنحهم الأمان والاطمئنان خلاله . . إلا أنهم - لشؤمهم وضيق
تفكيرهم وشقائهم - تضرعوا إلينا وقالوا : يا ربنا اجعل بيننا وبين القرى
المباركة ، مفاوز وصحارى متباعدة الأقطار ، بدل تلك القرى العامرة
: المتقاربة ، فهم - كما يقول صاحب الكشاف - : بطروا النعمة ، وبشموا . أى
سئموا - من طيب العيش ، وملوا العافية ، فطلبوا النكد والتعب ، كما طلب بنو
إسرائيل البصل والثوم ، مكان المن والسلوى .وفى هذه الجملة الكريمة قراءات
- متعددة ذكرها القرطبى فقال ما ملخصه : فقراءة العامة ( ربنا ) - النصب
. على أنه نداء مضاف . . ( باعد ) - بزنة فاعل - سألوا المباعدة فى أسفارهم
وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ( ربنا ) كذلك على الدعاء ( بعّد ) - بتشديد
العين - من التبعيد .وقرأ يعقوب وغيره ( ربُّنا ) - بالرفع - ( باعَدَ )
بفتح العين والدال - على الخبر . أى : لقد باعد ربنا ( بَيْنَ أَسْفَارِنَا
وقوله : ( وظلموا أَنفُسَهُمْ ) أى : قالوا ذلك القول السئ ، وظلموا . (
أنفسهم بسببه ، حيث أجيب دعاؤهم ، فكان نقمة عليهم ، لأنهم بعد أن كانوا
يسافرون بيسر وأمان ، صاروا يسافرون بمشقة وخوف .وقوله : ( فَجَعَلْنَاهُمْ
أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ) بيان لما آل إليه أمرهم
والأحاديث : جمع أحدوثة ، وهى ما يتحث به الناس على سبيل التلهى والتعجب.
. أى : قالوا ما قالوا من سوء وفعلوا ما فعلوا من منكر ، فكانت نتيجة ذلك
: أن صيرناهم أحاديث يتلهى الناس بأخبارهم ، ويضربون بهم المثل ، فيقولون
فتفرقوا أيدى سبأ ، ومزقناهم كل ممزق فى البلاد المتعددة ، فمنهم من ذهب
، إلى الشام ، ومنهم من ذهب إلى العراق . . . . بعد أن كانوا أمة متحدة
يظلها الأمان والاطمئنان ، والغنى والجاه . .( إِنَّ فِي ذَلِكَ ) الذى

فعلناه بهم بسبب جهلهم وفسوقهم وبطرهم ( لآيَاتٍ ) واضحات بينات ( لِّكُلِّ
صَبَّارٍ ) على طاعة الله - تعالى - ( شَكُورٍ ) له - سبحانه - على نعمه
وخص - سبحانه - الصبار والشكور بالذكر . لأنهما هما المنتفعان بآياته.
وعبره ومواعظه .

ولقد صدق عليهم ابليس ظنه فاتبعوه الا فريقا من المؤمنين

كما فسرها الوسيط ثم بين - عز وجل - الأسباب التى أدت إلى جحودهم وفسوقهم
فقال : ( وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فاتبعوه إِلاَّ
فَرِيقاً مِّنَ المؤمنين ) .ولفظ ( صَدَّقَ ) قرأه بعض القراء السبعة
بتشديد الدال المفتوحة ، وقرأه البعض الآخر بفتح الدال بدون تشديد . وقوله
متعلق بصدق .وقوله ( ظَنَّهُ ) مفعول به على قراءة ( عَلَيْهِمْ ) :
) التشديد ، ومنصوب بنزع الخافض على القراءة التخفيف ، وضمير الجمع فى
عَلَيْهِمْ ) وفى ( فاتبعوه ) يعود إلى قوم سبأ .والمعنى على القراءة
بالتشديد : ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فى قدرته على إغوائهم ، وحقق ما كان
، يريده منهم من الانصراف عن طاعة الله - وشكره ، فاتبعوا خطوات الشيطان
بسبب انغماسهم فى الفسوق والعصيان ، إلا فريقا من المؤمنين ، لم يستطع
إبليس إغواءهم لأنهم أخلصوا عبادتهم لخالقهم - عز وجل - ، واستمسكوا
بالعروة الوثقى التى لا انفصام لها .والمعنى على القراءة بالتخفيف : ولقد
صدق إبليس فى ظنها ، ه إذا أغواهم اتبعوه ، لأنه بمجرد أن زين لهم المعاصى
: أطاعوه ، إلا فريقا من المؤمنين لم يطيعوه .قال القرطبى ما ملخصه : وقوله
نصب على الاستثناء وفيه قولان : أحدهما ( إِلاَّ فَرِيقاً مِّنَ المؤمنين )
أن يراد به بعض المؤمنين - فتكون من للتبعيض - ، لأنه كثيرا من المؤمنون :
يذنبون وينقادون لإبليس فى بعض المعاصى .أى : ما سلم من المؤمنين أيضا إلا
فريق ، وهو المقصود بقوله - تعالى - : ( إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ
عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ . . . ) والثانى : أن المراد بهم جميع المؤمنين ، فعن
ابن عباس أنه قال : هم المؤمنون كلهم .وعلى هذا تكون ( مِّنَ ) للبيان لا
. . للتبعيض

وما كان له عليهم من سلطان الا لنعلم من يؤمن بالاخرة ممن هو منها في شك
وربك على كل شيء حفيظ

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - إن إغواء الشيطان لأهل سبأ ولأشباههم
من بنى آدم ، لم يكن عن قسر وإكراه ، وإنما كان عن اختيار منهم ليتميز
الخبيث من الطيب فقال - تعالى - : ( وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّن
سُلْطَانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بالآخرة مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا
. فِي شَكٍّ ) .والمراد بالسلطان هنا : التسلط بالقهر والغلبة والإكراه
والمراد بالعلم فى قوله - تعالى - ( إِلاَّ لِنَعْلَمَ ) إظهار هذا العلم
للناس ليتميز قوى الإيمان من غيره .أى : وما كان لإبليس عليهم سلطان قاهر
يجعلهم لا يملكون دفعه ، وإنما كان له عليهم الوسوسة التى يملكون صرفها
ودعفها متى حسنت صلتهم بنا ، ونحن ما أبحنا لإبليس الوسوسة لبنى آدم ، إلا
، لنظهر فى عالما لواقع حال من يؤمن بالآخرة وما فهيا من ثواب وعقاب ومحسبا
: - ولنميزه عمن هو منها فى شك وريب وإنكار . .قال الشوكانى - رحمه الله
والاستثناء فى قوله ( إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بالآخرة مِمَّنْ هُوَ
مِنْهَا فِي شَكٍّ ) منقطع أى :لا سلطان له عليهم ، ولكن ابتليناهم
بوسوسته لنعلم .وقيل : هو متصل مفرغ من أعم العلل . أى : ما كان له عليهم
من تسلط بحال من الأحوال ، ولا لعلة من العلل ، إلا ليتميز من يؤمن ومن لا
يؤمن ، لأنه - سبحانه - قد علم ذلك علما أزليا . وقال الفراء : إلا لنعلم
- ذلك عندكم . والأولى حمل العلم هنا على التمييز والإظهار .ثم ختم
سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ( وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفُيظٌ )
أى : وربك - أيها الرسول الكريم - على كل شئ رقيب وحفيظ ، بحيث لا يخرج شئ
عن حفظه وهيمنته وعلمه وقدرته .وهكذا نجد القرآن قد ساق لنا قصتين
متعاقبتين ، إحداهما تدل على أن طاعة الله - تعالى وشكره ، وإخلاص العبادة
- له ، ومحسن الصلة به - سبحانه - ، كل ذلك يؤدى إلى المزيد من نعمه
تعالى - ، كما محدث لداود وسليمان - عليهما السلام - .وأما الثانية فتدل
على ان الجحود والبطر والانغماس فى المعاصى والشهوات . كل ذلك يؤدى إلى
زوال النعم ، كا حدث لقبيلة سبأ .وصدق الله إذ يقول : ( لَقَدْ كَانَ فِي
قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الألباب مَا كَانَ حَدِيثاً يفترى ولكن
تَصْدِيقَ الذي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى
وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ).

قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في
الارض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير

كما فسرها الوسيط ثم نجد السورة الكريمة بعد ذلك ، تلقن النبى صلى الله
عليه وسلم الحجج التى تؤيد ما هو عليه من حق وصدق ، وتزهق ما عليه أعداؤه
من باطل وكذب . . فتقول : ( قُلِ ادعوا الذين زَعَمْتُمْ . . . العزيز
الحكيم ) .والأمر بالدعاء فى قوله - سبحانه - : ( قُلِ ادعوا الذين
زَعَمْتُمْ مِّن دُونِ الله ) للتوبيخ والتعجيز . ومفعولا ( زَعَمْتُمْ )
محذوفان .أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المزعومة بعد ذلك فى
قوله - تعالى - : ( لاَ يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السماوات وَلاَ
فِي الأرض . . ) .أى : هؤلاء الشركاء لا يملكون شيئا ما قل أو كثر لا فى
السماوات ولا فى الأرض ، بل الذى يملك كل شئ ، هو الله - تعالى - وحده
فالجملة الكريمة مستأنفة لبيان حال هذه الآية ، وللكشف عن حقيقتها .
والتعبير بعدم ملكيتهم لمثقال ذرة ، المقصود به أنهم لا يملكون شيئا على.
- الإطلاق ، لأن مثقال الذرة أقل ما تصور فى الحقارة والقلة .وذكر
سبحانه - السماوات والأرض لقصد التعميم ، إذ هما محل الموجودات الخارجية
أى :لا يملكون شيئا ما فى هذا الكون العلوى والسفلى .وبعد أن نفى عن.
الشركاء الملكية الخالصة لأى شئ فى هذا الكون ، أتبع ذلك بنفى ملكيتهم لشئ
ولو على سبيل المشاركة ، فقال - تعالى - : ( وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن
شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّن ظَهِيرٍ ) .أى : أن هؤلاء الذين زعمتموهم
شركاء لله - تعالى - فى العبادة ، لايمكون شيئا ما فى هذا الكون ملكية خاصة
- ولا يملكون شيئا ما - أيضا - على سبيل المشاركة لغيرهم . وليس لله ،
تعالى - أحد يعينه أو يظاهره فيما يريد من إيجاد أو إعدام ، بل الأمر كله
، إليه وحده .فأنت ترى أن الآية الكريمة قد نفت عن تلك الآلهة المزعومة
ملكية أى شئ فى هذا الكون ، سواء أكانت ملكية خالصة ، أم ملكية على سبيل
- المشاركة ، وأثبتت أن المالك والمتصرف فى هذا الكون إنما هو الله - تعالى
. وحده ، دون أن يكون فى حاجة إلى عون من تلك الآلهة أو من غيرها

ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن اذن له حتى اذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا
قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير

كما فسرها الوسيط ثم نفى - سبحانه - أن تكون هناك شفاعة من أحد لأحد إلا
بإذنه - تعالى - فقال : ( وَلاَ تَنفَعُ الشفاعة عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ
، - أَذِنَ لَهُ ) .والشفاعة : من الشفع الذى هو ضد الوتر - أى : الفرد
ومعناها : انضمام الغير إلى الشخص ليدفع عنه ما يمكن دفعه من ضر .أى : ولا
- تنفع الشفاعة عند الله - تعالى - من أحد لأحد ، إلا لمن أذن الله - تعالى
، له فى ذلك .قال الآلوسى ما ملخصه : والمراد نفى شفاعة الأصنام لعابديها
ولكنه - سبحانه - ذكر على وجه عام ، ليكون طريقا برهانيا . أى :لا تنفع
الشفاعة فى حال من الأحوال ، أو كائنة لمن كانت ، إلا كائنة لشافع أذن له
فيها من النبيين والملائكة ونحوهم من المستأهلين لمقام الشفاعة . ومن البين
أنه لا يؤذن فى الشفاعة للكفار ، فقد قال - تعالى - :( لاَّ يَتَكَلَّمُونَ
إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحمن وَقَالَ صَوَاباً ) والشفاعة لهم بمعزل عن
الصواب ، وعدم الإذن للأصنام أبين وأبين ، فتبين حرمان هؤلاء الكفرة منها
بالكلية . . .وقوله : ( حتى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا
قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ الحق . . ) بيان لما يكون عليه المنتظرون للشفاعة
: من لهفة وقلق .والتضعيف فى قوله ( فُزِّعَ ) للسلب . كما فى قولهم ،
مَرّضت المريض إذا عملت على إزالة مرضه .فمعنى : ( فُزِّعَ عَن
قُلُوبِهِمْ ) : كشف الفزع عنها ، وهدأت أحوالها بعد أن أصابها ما أصابها
من هول وخوف فى هذا اليوم الشديد ، وهو ويم القيامة .و ( حتى ) غاية لما
فهم من الكلام قبلها ، من أن هناك تلهفا وترقبا من الراجين للشفاعة ومن
الشفعاء ، إذ الكل منتظر بقلق لما يؤول إليه أمره من قبول الشفاعة أو عدم
- قبولها .والمعنى : ولا تقبل الشفاعة يوم القيامة من أحد إلا لمن أذن الله
تعالى - له فى ذلك ، وفى هذا اليوم الهائل الشديد ، يقف الناس فى قلق ولهفة
منتظرين قبول الشفاعة فيهم . حتى إذا كشف الفزع عن قلوب الشافعين والمشفوع
لهم ، بسبب إذن الله - تعالى - فى قبولها ممن يشاء ولمن يشاء ، واستبشر
الناس وقال بعضهم لبعض ، أو قالوا للملائكة : ( مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ )
أى : ماذا قال ربكم فى شأننا ومصيرنا .وهنا تقول لهم الملائكة ، أو يقول
بعضهم لبعض : ( قَالُواْ الحق ) أى : يقولون قال ربنا القول الحق وهو
الإذن فى الشفاعة لمن ارتضى .فلفظ ( الحق ) منصوب بفعل مضمر . أى : قالوا
). قال ربنا الحق أو صفة لموصوف محذوف . أى : قالوا : قال ربنا القول ارتضى
وَهُوَ ) - سبحانه - ( العلي ) أى : المتفرد بالعلو فوق خلقه ( الكبير ) أى
: المتفرد بالكبرياء والعظمة .قال صاحب الكشاف - رحمة الله - : فإن قلت :
بم اتصل قوله : ( حتى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ) ، ولأى شئ وقعت حتى
غاية؟ .قلت : اتصل بما فهم من هذا الكلام ، من أن ثم انتضارا للإذن
وتوقعها وتمهلا وفزعا من لاراجين للشفاعة والشفعاء ، هل يؤذون لهم أولا؟
: وأنه لا يطلق الإذن إلا بعد ملىّ من الزمان ، وطول التربص . .كأنه قيل
ينتظرون ويتوقفون كليا فزعين وهلين ، حتى إذا كشف الفزع عن قلوب الشافعين

والمشفوع لهم ، بكلمة يتكلم بها رب العزة فى إطلاق الإذن : تباشروا بذلك
: وسأل بعضهم بعضا ( مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ) قال ( الحق ) أى
. . القول الحق ، وهو الإذن بالشفاعة لمن ارتضى

قل من يرزقكم من السماوات والارض قل الله وانا او اياكم لعلى هدى او في ضلال مبين

كما فسرها الوسيط ثم أمر الله - تعالى - رسوله صلى الله عليه وسلم أن
يسألهم للمرة الثانية على سبيل التنبيه والتوبيخ ، من الذى يملك أن يرزقهم
فقال - سبحانه - : ( قُلْ مَن يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السماوات والأرض . . ) ،
أى : قبل أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المشركين من الذى يرزقكم من السماء.
بالمطر وغيره ، ويرزقكم من الأرض بالنباتات والمعادن وغير لك من المنافع
وقوله - تعالى - : ( قُلِ الله ) جواب على هذا السؤال ، وهو جواب لا.
يملكون إلا الاعتراف به .أى : قل لهم منبها ولافتا أنظارهم إلى ما هم فيه
من جهل : الله ومحده هو الذى يرزقكم بما لا يحصى من الأرزاق التى بعضها من
السماوات ، وبعضها من الأرض .وقوله - سبحانه - : ( وَإِنَّآ أَوْ
إِيّاكُمْ لعلى هُدًى أَوْ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ) داخل فى حيز الأمر
السابق ، ولكن بأسلوب فيه ما فيه من الحكمة والتلطف ، ومن حمل المخاطب على
التفكر والتدبر حتى يعود إلى الرشد والصواب .أى : وقل لهم - أيضا - أيها
الرسول الكريم - لقد علمتم - يا معشر المشركين أن المستحق للعبادة هو
. الله - تعالى - وحده ، لأنه هو الذى خلقكم ورزقكم من السماوات والأرض
وإن أحدنا لا بد أن يكن على الهدى والآخر على الضلال . وسنترك تحديد من.
المهتدى ومن هو الضال لعقولكم وضمائركم .وستعلمون - علم اليقين - بعد
التفكر والتدبر أننا نحن المسلمين على الحق ، وأنتم يا معشر المشركين على
الباطل . .فالجملة لون من ألوان الدعوة إلى الله - تعالى - بأسلوب مهذب
، حكيم ، من شأنه أن يحمل القلوب النافرة عن الحق ، إلى الاستسلام له
والدخول فيه . .قال القرطبى : وقوله : ( وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لعلى
هُدًى أَوْ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ) هذا على وجه الإنصاف فى الحجة ، كما
، يقول القائل لغيره : أحدنا كاذب ، وهو يعلم أنه صادق ، وأن صاحبه كاذب
والمعنى : ما نحن وأنتم على أمر وامحد ، بل على أمرين متضادين ، وأحد
الفريقين مهتد وهو نحن ، والآخر ضال وهو أنتم ، فكذبهم بأحسن من تصريح
التكذيب .والمعنى : أنتم الضالون حين أشركتم بالله الذى يرزقكم من السماوات
والأرض . .وقوله : ( أَوْ إِيّاكُمْ ) معطوف على اسم إن ، وخبرها وهو
المذكور . وحذف خبر الثانى للدلالة عليه .أى : وإنا لعلى هدى أو فى ضلال
. مبين ، وإنكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين

قل لا تسالون عما اجرمنا ولا نسال عما تعملون

كما فسرها الوسيط ثم أتبع - سبحانه - هذا الكرم الحكيم فى الدعوة إلى الحق
بكلام لا يقل عنه حكمة وبلاغة فقال : ( قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّآ ،
أَجْرَمْنَا وَلاَ نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ) أى : وقل لهم للمرة
الثالثة - أيها الرسول الكريم - أنتم - أيها المشركون -لا تسألون يوم
، - القيامة عن إجارمنا فى حق أنفسنا - إن كنا قد أجرمنا وأخطأنا فى حقها
ونحن - أيضا - لا يسألنا الله - تعالى - عن سبب بقائكم فى الكفر وفى
الأعمال السيئة ، لأننا قد بلغناكم رسالة ربكم - عز وجل - ونصحناكم
بالإقلاع عن الشرك والمعاصى .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - ، ( وَإِن
كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بريائون مِمَّآ
( أَعْمَلُ وَأَنَا برياء مِّمَّا تَعْمَلُونَ

قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم

كما فسرها الوسيط ثم أمره - سبحانه - أن يذكرهم بيوم القيامة ما فيه من
حساب دقيق ، فقال : ( قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ
بَيْنَنَا بالحق وَهُوَ الفتاح العليم ) .أى : وقل لهم - أيها الرسول
الكريم - إن الله - تعالى - بقدرته سيجمعنا وإياكم يوم القيامة ، ثم يحكم
بيننا جميعا بحكمه العادل ، وهو - سبحانه - ( الفتاح العليم ) أى : الحاكم
. فى كل أمر باحلكم الحقن المطلع على جميع أحوال عباده

قل اروني الذين الحقتم به شركاء كلا بل هو الله العزيز الحكيم

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات بتوجيه رسوله صلى الله عليه
وسلم إلى أن يقول لهم قولا يخرس به ألسنتهم ، ويبطل حججهم فقال : ( قُلْ
. أَرُونِيَ الذين أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَآءَ ) والرؤية هنا بصرية
ومفعولها الأول الياء ، ومفعلوها الثانى الاسم الموصول ، ولفظ شركاء : حال

أى : وقل لهم - أيضا - للمرة الخامسة على سبيل إلزامهم الحجة : أرونى.
، وأطلعونى على أصناكم التى ألحقتموها بالله - تعالى - فى العبادة
، واتخذتموها شركاء له فى الطاعة . . إنها ما هى إلا أشياء لا تضر ولا تنفع
، وأنتم تعرفون ذلك عنها ، وها هى أمامكم واقعها وحالها ينبئ بعجزها التام
فكيف أشركتموها مع الله - تعالى - فى العبادة والطاعة؟فالمقصود من الرؤية
هنا علمية ، فيكون لفظ ( شُرَكَآءَ ) هو المفعول الثالث .أى : عرفونى
الأصنام والأوثان التى جعلتموها شركاء لله - تعالى - فى العبادة .ثم
زجرهم - سبحانه - عن هذا الضلال فقال : ( كَلاَّ بَلْ هُوَ الله العزيز
- الحكيم ) أى : كلا ليس الأمر كما زعتم من أن لله - تعالى - شركاء ، بل هو
. سبحانه - العزيز الذى لا يغلبه غالب ، الحكيم فى كل أقواله وأفعاله

وما ارسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن اكثر الناس لا يعلمون

كما فسرها الوسيط وهكذا نجد الآيات الكريمة قد لقنت النبى صلى الله عليه
وسلم الحجج التى يرد بها على المشركين ، والتى من شأنها أن تحملهم على
اعتناق الحق ، واجتناب الباطل ، لو كانوا يعقلون ، ثم بين - سبحانه - وظيفة
الرسول صلى الله عليه وسلم ورد على شبهات المشركين فقال : ( وَمَآ
أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَآفَّةً . . .وَلاَ تَسْتَقْدِمُونَ ) .قال الآلوسى
المتبادر أن ( كَآفَّةً ) حال من الناس ، قدم " إلا " عليه للاهتمام :
، وأصله من الكف بمعنى المنع ، وأريد به العموم لما فيه من المنع من الخروج
واشتهر فى ذلك حتى قطع فيه النظر عن معنى المنع بالكلية . فمعنى جاء الناس
كافة : جاءوا جميعا :قال ابن عباس : أرسل الله - تعالى - محمدا صلى الله
عليه وسلم إلى العرب والعجم ، فأكرمهم على الله - تعالى - أطوعهم له . .أى
وما أرسلناك - أيها الرسول الكريم - إلا إلى الناس جميعا ، لتبشر المؤمن :
) . منهم بحسن الثواب ، وتنذر من أعرض عن الحق الذى جئت به بسوء العقاب
ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ) هذه الحقيقة ، وهى عموم رسالتك
. وكونك بشيرا ونذيرا

ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين

كما فسرها الوسيط ( وَيَقُولُونَ ) أى : المشركون على سبيل الاستهزاء بما
جئتهم به ( متى هذا الوعد ) الذى تعدنا به وهو قيام الساعة ، وما فيها من
حساب وثواب وعقاب .أخبرونا عنه - أيها المؤمنون - ( إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ
( فيما تحدثوننا عنه ، وفيما تدعوننا إليه من إيمان .

قل لكم ميعاد يوم لا تستاخرون عنه ساعة ولا تستقدمون

كما فسرها الوسيط وهنا أمر الله - تعالى - رسوله صلى الله عليه وسلم - أن
يرد عليهم ردا فيه كل معانى التهديد والوعيد فقال : ( قُل لَّكُم مِّيعَادُ
) يَوْمٍ لاَّ تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلاَ تَسْتَقْدِمُونَ ) و
، مِّيعَادُ ) يجوز أن يكون مصدرا مرادا به الوعد ، وأن يكون اسم زمان
والإضافة للبيان .والمراد بالساعة الوقت الذى هو فى غاية القلة . وليس ما
اصطلح عليه النسا من كونها اى : قل لهم - ايها الرسول الكريم -لا
تتعجلوا - ايها الكافرون - ما أخبرتكم عنه من أن يوم القيامة آت لا ريب فيه
ومن أن العاقبة الطيبة ستكون لنا لا لكم؛ فإن لكم ميقاتا محدا ، وموعدا ،
معلوما ، يأذن الله - تعالى - بحلول وبانتهاء حياتكم وببعثكم . . ( لاَّ
تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً ) من الزمان ( وَلاَ تَسْتَقْدِمُونَ ) عنه
ساعة كما قال - تعالى - : ( إِنَّ أَجَلَ الله إِذَا جَآءَ لاَ يُؤَخَّرُ
لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ) وكما قال - سبحانه - : ( وَمَا نُؤَخِّرُهُ
إِلاَّ لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ
( بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ.

وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القران ولا بالذي بين يديه ولو ترى اذ
الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم الى بعض القول يقول الذين استضعفوا
للذين استكبروا لولا انتم لكنا مؤمنين

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - بعض الأقوال الباطلة التى قالها
، المشركون فى شأن القرآن الكريم ، وصور أحوالهم السيئة يوم العرض والحساب
) : - وكيف أن كل فريق منهم صار يلقى التبعة على غيره ، قال - تعالى
وَقَالَ الذين كَفَرُواْ . . . هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُواْ
يَعْمَلُونَ ) .والمراد بالذي بين يديه فى قوله - تعالى - : ( وَقَالَ
( الذين كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بهذا القرآن وَلاَ بالذي بَيْنَ يَدَيْهِ
الكتب السماوية السابقة كالتوراة والإنجيل .قالوا : وذلك لأن المشركين
سألوا بعض أهل الكتاب ، عن الرسول صلى الله عليه وسلم فأخبروهم بأن صفاته

فى التوراة والإنجيل ، فغضبوا وقالوا ما قالوا . .أى : وقال الذين كفروا بإصرار وعناد وجحود لكل ما هو حق : قالوا لن نؤمن بهذا القرآن الذى جئت به يا محمد صلى الله عليه وسلم من عند ربك ، ولا نؤمن - أيضا - بالكتب السماوية الأخرى التى تؤيد أنك رسول من عند الله - تعالى - فالآية الكريمة تحكى ما جبل عليه هؤلاء الكافرون من تصميم على الباطل ، ومن نبذ للحق مهما تعددت مصادره .قال الإمام الرازى : لما بين - سبحانه - الأمور الثلاثة ، من التوحيد والرسالة والحشر ، وكانوا بالكل كافرين ، بيّن كفرهم العام بقوله : ( وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بهذا القرآن وَلاَ بالذي بَيْنَ يَدَيْهِ ) وقوله : ( وَلاَ بالذي بَيْنَ يَدَيْهِ ) المشهور أنه التوراة والإنجيل ، وعلى هذا فالمراد بالذين كفروا ، المشركون المنكرون للنبوات والحشر .ويحتمل أن يكون المعنى ، لن نؤمن بهذا القرآن ولا بما فيه من الأخبار والآيات والدلائل فيكون المراد بالذى بين يديه ما اشتمل عليه من أخبار وأحكام - ويكون المراد بالذين كفروا عموم الكافرين بما فيهم أهل الكتاب لأن الجميع لا يؤمن بالقرآن ولا بما اشتمل عليه .وقوله - تعالى - : ( وَلَوْ ترى إِذِ الظالمون مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ القول ) بيان لأحواله السيئة يوم القيامة ، ولإصرارهم على الكفر .و ( لَوْ ) شرطية ، وجوابها محذوف كما أن مفعول ترى ) محذوف أيضا و ( مَوْقُوفُونَ ) أى محبوسون للحساب يوم القيامة .يقال - وقفت الرجل عن فعل هذا الشئ ، إذا منعته وحجزته عن فعله .أى : ولو ترى : أيها المخاطب - حال الظالمين وقت احتباسهم عند ربهم يوم القيامة ، وهم يتحاورون ويتجادلون فيما بينهم بالأقوال السيئة وكل فريق ، يلقى التبعة على غيره .لو ترى ذلك لرأيت أمرا عجيبا ، وحالا فظيعة ، تنفطر لها القلوب ، وترتعد من هولها النفوس .والتعبير بقوله - سبحانه - : ( مَوْقُوفُونَ ) يشعر بذلتهم وبؤسهم ، فهم محبوسون للحاسب على غير إرادة منهم ، كما يحبس المجرم فى سجنه انتظارا لمصيره السيئ .وقوله : ( عِندَ رَبِّهِمْ ) تبكيت وتوبيخ لهم ، على ما كانوا يفعلونه فى الدنيا من إنكار لليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب وحساب .وقوله - سبحانه - : ( يَقُولُ الذين استضعفوا لِلَّذِينَ استكبروا لَوْلاَ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ) تفصيل لجانب من محاوراتهم فيما بينهم ، ولما كانوا يراجعون فيه القول بعضهم مع بعض والمراد بالذين استضعفوا : الأتباع والعامة من الناس ، والمراد بالذين. استكبروا : الزعماء والقادة والرؤساء .أى : يقول الأتباع من الكافرين لقادتهم ورؤسائهم بغيظ وحسرة ، لولا أنتم منعتمونا عن اتباع الحق لكنا مؤمنين به ، ومتبعين لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم .إنهم يقولون لهم فى موقف الحساب يوم القيامة ، ما كانوا عاجزين عن قوله فى الدنيا . عندما كانوا مستذلين لهم ، وخاضعين لسلطانهم .

قال الذين استكبروا للذين استضعفوا انحن صددناكم عن الهدى بعد اذ جاءكم بل كنتم مجرمين

كما فسرها الوسيط وهنا يرد الزعماء باستنكار وضيق ، ويحكى ذلك القرآن فيقول على سبيل التوبيخ والتقريع ( قَالَ الذين استكبروا لِلَّذِينَ استضعفوا ) : كلا ، إننا ما ( أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الهدى بَعْدَ إِذْ جَآءَكُمْ ) فعلنا ذلك ، ولسنا نحن الذين حلنا بينكم وبين اتباع الحق .( بَلْ ) أنتم ، الذين ( كُنتُمْ مُّجْرِمِينَ ) فى حق أنفسكم ، حيث ابتعتمونا باختياركم ورضيتم عن طواعية منكم أن تتبعوا غيركم بدون تفكر أو تدبر للأمور .

وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار اذ تامروننا ان نكفر بالله ونجعل له اندادا واسروا الندامة لما راوا العذاب وجعلنا الاغلال في اعناق الذين كفروا هل يجزون الا ما كانوا يعملون

كما فسرها الوسيط ولم يقتنع الأتباع بما رد به عليهم السادة والكبراء ، بل حكى القرآن للمرة الثانية ردهم عليهم فقال : ( وَقَالَ الذين استضعفوا لِلَّذِينَ استكبروا ) فى الرد عليهم بسحرة وألم : ( بَلْ مَكْرُ الليل والنهار ) أى قالوا لهم أنتم لستم صاقين فى قولكم لنا : إنكم لم تصدرونا عن اتباع الهدى بعد إذ جاءنا بل إن مكركم بنا الليل والنهار وإغراءكم لنا ، بالبقاء على الكفر وتهديدكم إيانا بالقتل أو التعذيب إذا ما خالفناكم وأمرنا لنا بأن نكفر بالله - تعالى - ونجعل له أندادا ، أى شركاء فى العبادة والطاعة . كل ذلك هو الذى حال بيننا وبين اتباع الحق الذى جاءنا به الرسول صلى الله عليه وسلم .والمكر : هو الاحتيال والخديعة . يقال مكر فلان بفلان ، إذا خدعه وأراد به شرا . وهو هنا فاعل محذوف والتقدير : بل الذى صدنا عن الإيمان مكركم بنا فى الليل والنهار ، فحذف المضاف إليه واقيم مقامه الظرف اتساعا .وقوله : ( إِذْ تَأْمُرُونَنَآ . . ) ظرف للمكر . أى : بل مركم الدائم بنا وقت أمركم لنا بأن نكفر بالله ونجعل له أشباها ونظراء نعبدها من دونه - تعالى - هو الذى حال بيننا وبين اتباع الحق والهدى .قال

الجمل : وقوله ( بَلْ مَكْرُ الليل والنهار ) يجوز رفع ( مَكْرُ ) من ثلاثة
، أوجه : أحدها : على الفاعلية بتقدير : بل صدنا مكركم فى هذين الوقتين
. الثانى أن يكون مبتدأ خبره محذوف . أى : مكر الليل صدنا عن اتباع الحق
الثالث : العكس ، أى : سبب كفرنا مكركم . وإضافة المكر إلى الليل والنهار
إما على الإسناد المجازى كقولهم : ليل ماكر ، فيكون مصدرا مضافا لمرفوعه
وإما على الاتساع فى الظرف ، فجعل كالمفعول به فيكون مضافا لمنصوبه
والضمير المرفوع فى قوله - سبحانه - : ( وَأَسَرُّواْ الندامة لَمَّا.
رَأَوُاْ العذاب ) يعود إلى الأتباع والزعماء . وأسروا من الإسرار بمعنى
الكتمان والإخفاء .أى : وأضمر الذين استضعفوا والمستبرون الندامة والحسرة
، حين شاهدوا العذاب المعد لهم جميعا ، وذلك لأنهم بهتوا وشدهوا حين عاينوه
ودفنت الكلمات فى صدورهم فلم يتمكنوا من النطق بها وأصابهم ما أصابهم من
الكمد الذى يجعل الشفاه لا تتحرك ، والألسنة لا تنطق .فالمقصود من إسرار
الندامة : بيان عجزهم الشديد عن النطق بما يريدون النطق به لفظاعة ما شهدوه
: من عذاب غليظ قد أعد لهم .وقيل إن ( وَأَسَرُّواْ الندامة ) بمعنى أظهروها
: لأن لفظ أسر من الأضداد .قال الآلوسى ما ملخصه : ( وَأَسَرُّواْ ) أى
) . . أضمر الظالمون من الفريقين ( الندامة ) على ما كان منهم فى الدنيا
لَمَّا رَأَوُاْ العذاب ) لأنهم بهتوا لما عاينوه فلم يقدروا على النطق
وقيل : أسروا الندامة . بمعنى أظهروهان فإن لفظ " أسر " من الأضداد ، إذ.
الهمزة تصلح للإثبات وللسلب ، فمعنى أسره : جعله سره ، أو أزال سره . .ثم
بين - سبحانه - ما حل بهم من عذاب بسبب كفرهم فقال : ( وَجَعَلْنَا الأغلال
في أَعْنَاقِ الذين كَفَرُواْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُواْ
: يَعْمَلُونَ ) .والأغلال . جمع غل وهى القيود التى يقيد بها المجرمون .أى
وجعلنا القيود فى أعناق الذين كفروا جميعا ، سواء منهم من كان تابعا أم
متبوعا . وما جزيناهم بهذا الجزاء المهين الأليم ، إلا بسبب أعمالهم السيئة
وأقوالهم القبيحة .وهكذا نرى الآيات الكريمة تصور لنا تصويرا مؤثرا بديعا .
، ما يكون عليه الكافرون يوم القيامة من حسرة وندم ، ومن عداوة وبغضاء ،
ومن تهم يلقيها كل فريق على الآخر ، بدون احترام من المستضعفين لزعمائهم
الذين كانوا يذلونهم فى الدنيا ، بعد أن سقطت وزالت الهيبة الزائفة التى
كان الزعماء يحيطون بها أنفسهم فى الحياة الدنيا ،.وأصبح الجميع يوم الحساب
فى الذلة سواء ( وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِراً وَلاَ يَظْلِمُ
. ( رَبُّكَ أَحَداً

وما ارسلنا في قرية من نذير الا قال مترفوها انا بما ارسلتم به كافرون

كما فسرها الوسيط ثم تحكى السورة الكريمة بعد ذلك جانبا من الأقوال الزائفة
التى كان المترفون يتذرعون بها للبقاء على كفرهم ، ومن الإجابات التى ،
لقنها - سبحانه - لنبيه صلى الله عليه وسلم لكى يخرس بها ألسنتهم ، ويزيل
بها شبهاتهم قال - تعالى - ( وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ . . . وَهُوَ
خَيْرُ الرازقين ) .قال صاحب الكشاف عند تفسيره لقوله - تعالى - : ( وَمَآ
أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا
بِمَآ أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ . . . ) : هذه تسلية لرسول الله صلى
، الله عليه وسلم مما منى به من قومه من التكذيب والكفر بما جاء به
- والمنافسة بكثرة الأموال والأولاد ، والتكبر بذلك على المؤمنين . . وأنه
سبحانه - لم يرسل قط إلى أهل قرية من نذير ، إلا قالوا له مثل ما قال أهل
مكة لرسول الله صلى الله عليه وسلم .والمعنى : ما أرسلنا فى قرية ، من
القرى ( مِّن نَّذِيرٍ ) ينذر أهلها بسوء العاقبة إذا ما استمروا على كفرهم
وضلالهم . ( إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَآ ) أى : إلا قال أغنياؤها ورؤساؤها
وجبابرتها المتسعون فى النعم فيها ، لمن جاءوا لإنذارهم وهدايتهم إلى الحق
) - من الدعوة إلى عبادة الله - تعالى ( إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُمْ بِهِ ).
كَافِرُونَ ) بما نحن عليه من شرك وتقليد للآباء مؤمنون .فالآية الكريمة
تحكى موقف المترفين فى كل أمة ، من الرسل الذين جاءوا لهدايتهم ، وأن هؤلاء
المترفين فى كل زمان ومكان ، كانوا أعداء وللمصلحين ، لأن التفرق من شأنه
أن يفسد الفطرة ، ويبعث على الغرور والتطاول ، ويحول بين الإنسان وبين
التمسك بالفضائل والقيم العليا ، ويهدى إلى الانغماس فى الرذائل والشهوات
. الدنيا

وقالوا نحن اكثر اموالا واولادا وما نحن بمعذبين

كما فسرها الوسيط ثم يحكى القرآن الكريم أن هؤلاء المترفين لم يكتفوا
بإعلان كفرهم ، وتكذيبهم للأنبياء والمصلحين ، بل أضافوا إلى ذلك التبجح
والتعالى على المؤمنين . فقال - تعالى - : ( وَقَالُواْ ) أى المترفون
الذين أبطرتهم النعمة للمؤمنين الفقراء ( نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً
، وَأَوْلاَداً ) منكم - أيها المؤمنون - إذ أموالنا أكثر من أموالكم
. وأولادنا أكثر من أولادكم ، ولولا أننا أفضل عند الله منكم ، لما اعطانا

مالا يعطيكم . .فنحن نعيش حياتنا فى أمان واطمئنان ( وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ) بشئ من العذاب الذى تعدوننا به لا فى الدنيا ولا فى الآخرة .قال الامام ابن كثير تفسيره هذه الآية : افتخر المترفون - بكثرة الأموال والأولاد ، واعتقدوا أن ذلك دليل على محبة الله لهم ، واعتنائه بهم وأنه ما كان ليعطيهم هذا فى الدنيا ، ثم يعذبهم فى الآخرة ، وهيهات فى ، الآخرة ، وهيهات لهم ذلك. قال - تعالى - : ( فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ الله لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الحياة الدنيا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ).

قل ان ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن اكثر الناس لا يعلمون

كما فسرها الوسيط ثم أمر الله - تعالى - رسوله صلى الله عليه وسلم وأن يصحح لهؤلاء المترفين خطأهم ، وأن يكشف عن جهلهم ، وأن يبين لهم أن مسألة الغنى والفقر بيد الله - تعالى - وحده ، وأن الثواب والعقاب لا يخضعان للغنى أو للفقر ، وإنما يتبعان الإيمان أو الكفر ، فقال - تعالى - ( قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ) .وبسط الرزق : سعته وكثرته . وتقديره : تقليله وتضييقه .أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الجاهلين ( إِنَّ رَبِّي ) وحده هو الذى يبسطه له ( وَيَقْدِرُ ) أى : ويقتر ( يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَآءُ ) أن يضيقه عليه . والأمر فى كلتا مرده إلى الله - وحده ، على حسب ما تقتضيه حكمته فى خلقه .وربما يوسع رزق العاصى ويضيق رزق المطيع . أو العكس ، وربما يوسع على شخص وقت وضيق عليه فى وقت آخر ، ولا ينقاس على ذلك أمر الثواب والعقاب ، لأن مناطهما الطاعة وعدمها هذه الحقيقة التى اقتضتها حكمة ( ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ). الله - تعالى - وإرادته ، فزعموا أن بسط الرزق دليل الشرف والكرامة ، وأن ضيق الرزق دليل الهوان والذل ، ولم يدركوا - لجهلهم وانطماس بصائرهم - أن بسط الرزق قد يكون للاستدراج ، وأن تضييقه قد يكون للابتلاء والاختبار ، ليتميز قوى الإيمان من ضعيفه .

وما اموالكم ولا اولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى الا من امن وعمل صالحا فاولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات امنون

) : كما فسرها الوسيط ثم زاد - سبحانه - هذه القضية وتوضيحا وتبيينا فقال وَمَآ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ بالتي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زلفى ) .الزلفى : مصدر كالقربى ، وانتصابه على المصدرية من معنى العامل . أى ليست كثرة أموالكم ، ولا كثرة أولادكم بالتى من شأنها أن تقربكم إلينا قربى ، لأن هذه الكثرة ليست دليل محبة منا لكم ، ولا تكريم منالكم ، وإنما الذى يقربكم منا هو الإيمان والعمل الصالح .كما وضح - سبحانه - هذه الحقيقة فى قوله بعد ذلك : ( إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فأولئك لَهُمْ جَزَآءُ الضعف بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِي الغرفات آمِنُونَ ) .أى : ليس الأمر كما زعمتم - أيها المترفون - من أن كثرة الأموال والأولاد ستنجيكم من العذاب ، ولكن الحق والصدق أن الذى ينجيكم من ذلك ويقربكم منا ، هو الإيمان والعمل الصالح . فهلاء الذين آمنوا وعملوا الأعمال الصالحة لهم عند الله - تعالى - الجزاء الحسن المضاعف ، وهم فى غرفات الجنات آمنون مطمئنون .قال الشوكانى ما ملخصه : قوله : ( إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ) هو استثناء منقطع فيكون محله النصب . أى : لكن من آمن وعمل صالحا . . . والإشارة بقوله : ( فأولئك ) إلى ( مَنْ ) والجمع باعتبار المعنى . وهو مبتدأ . وخبره ( لَهُمْ جَزَآءُ الضعف ) أى : فأولئك يجازيهم الله الضعف ، وهو من إضافة المصدر إلى المفعول . أو فأولئك لهم الجزاء المضاعف فيكون من إضافة الموصوف إلى الصفة . .

والذين يسعون في اياتنا معاجزين اولئك في العذاب محضرون

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة المصرين على كفرهم فقال والذين يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أولئك فِي العذاب مُحْضَرُونَ ) ، أى : والذين يسعون فى إبطال آياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا. ( مُعَاجِزِينَ ) .أى : زاعمين سبقهم لنا ، وعدم قدرتنا عليهم ( أولئك ) الذين يفعلون ذلك ( فِي العذاب مُحْضَرُونَ ) أى : فى عذاب جهنم مخلدون ، حيث تحضرهم ملائكة العذاب بدون شفقة أو رحمة ، وتلقى بهم فيها .

قل ان ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له وما انفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( قُلْ إِنّ رَبِّي يَبْسُطُ الرزق

لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ) تأكيد وتقرير لتلك الحقيقة
- التى سبق الحديث عنها ، وهى أن التوسع والتضييق فى الرزق بيد الله
تعالى - وحده .والضمير فى قوله - تعالى - ( لَهُ ) يعود إلى الشخص الموسع
عليه أو المضيق عليه فى رزقه . أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء
- المترفين على سبيل التأكيد وإزالة ما هم عليه من جهل : إن ربى - عز وجل
يبسط الرزق لمن يشاء من عابده ، ويضيق هذا الرزق على ما يشاء أن يضيقه منهم
وليس فى ذلك ما يدل على السعادة أو الشقاوة ، لأن هذه الأمور خاضعة ،
لحكمته فى خلقه - سبحانه - .( وَمَآ أَنفَقْتُمْ ) أيها المؤمنون ( مِّن
) - شَيْءٍ ) فى سبيل الله - تعالى - وفى أوجه طاعته ( فَهُوَ ) - سبحانه
يُخْلِفُهُ ) أى : يعوضه لكم بما هو خير منه . يقال : فلان أخلق لفلان
: وأخلف عليه ، إذا أعطاه العوض والبدل .( وَهُوَ خَيْرُ الرازقين ) أى
وهو - سبحانه - خير رازق لعباده لأن كل رزق يصل إلى الناس إنما هو بتقديره
وإرادته ، وقد جرت سنته - سبحانه - أن يزيد الأسخياء من فضله وكرمه .وفى
الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما من يوم يصبح
العباد فيه ، إلا ملكان ينزلان ، فيقول احدهما : اللهم اعط منفقا خلفا
ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكا تلفا " .وبذلك نرى الآيات الكريمة قد حكت
جانبا من شبهات المشركين ، ومن أقوالهم الباطلة ، وردت عليهم بما يزهق
. باطلهم ، ويمحو شبهاتهم ، لكى يزداد المؤمنون إيمانا على إيمانهم

ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة اهؤلاء اياكم كانوا يعبدون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - حال أولئك المشركين يوم القيامة ، وكيف
أن الملائكة يكذبونهم فى مزاعمهم ، فقال - تعالى - : ( وَيَوْمَ
- يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً . . . . كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ) .أى : واذكر
أيها العاقل - لتعتبر وتتعظ ( يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ) أى : يجمع
الله - سبحانه - الكافرين جميعا . الذين استضعفوا فى الدنيا والذين
استكبروا .( ثُمَّ يَقُولُ ) - عز وجل - ( لِلْمَلآئِكَةِ ) على سبيل
التبكيت والتقريع للمشركين ( أهؤلاء ) الكافرون ( إِيَّاكُمْ كَانُواْ
يَعْبُدُونَ ) أى : أهؤلاء كانوا يعبدونكم فى الدنيا . وأنتم رضيتم بذلك .و
مبتدأ ، وخبره ( كَانُواْ يَعْبُدُونَ ) و ( إِيَّاكُمْ ) مفعول ( هؤلاء )
، يعبدون .وتخصيص الملائكة بالخطاب مع أن من الكفار من كان يعبد الأصنام
ومن كان يعبد غيرها ، لأن المقصود من الخطاب حكاية ما يقوله الملائكة فى
الرد عليهم .قال صاحب الكشاف : هذا الكلام خطاب للملائكة . وتقريع للكفار
- وارد على المثل السائر : إياك أعنى واسمعى يا جارة ، ونحوه قوله - تعالى
لعيسى : ( أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتخذوني وَأُمِّيَ إلهين مِن دُونِ الله
وقد علم - سبحانه - كون الملائكة وعيسى ، منزهين برآه مما وجه عليهم من (
السؤال ، والغرض أن يقول ويوقلوا ، ويسأل وجيبوا ، فيكون التقريع للمشركين
. أشد ، والتعبير أبلغ ، وهوانهم ألزم

قالوا سبحانك انت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن اكثرهم بهم مؤمنون

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( قَالُواْ سُبْحَانَكَ أَنتَ
وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ ) حكاية لأقوال الملائكة .أى : قال الملائكة فى
الإجابة على سؤال خالقهم . ( سُبْحَانَكَ ) أى : ننزهك ونقدسك عن أن يكون
لك شريك فى عبادتك وطاعتك ( أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ ) أى : أنت
الذى نواليك ونتقرب إليك وحدك بالعبادة ، وليس بيننا وبين هؤلاء المشركين
أى موالاة أو قرب ، ولا دخل لنا فى عبادتهم لغيرك .ثم صرحوا بما كان
المشركون يعبدونه فى الدنيا فقالوا : ( بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ الجن
، أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ) .أى : إن هؤلاء المشركين لا علم نا با
هم كانوا يبعدوننا ، ونبرأ من ذلك إن كانوا قد عبدونا ، وهم إنما كانوا
يعبدون فى الدنيا ( الجن ) أى الشياطين ، وكان أكثر هؤلاء المشركين يؤمنون
- بعبادة الشياطين . ويطيعونهم فيما يأمرونهم به ، أو ينهونهم عنه .فقوله
تعالى - ( بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ الجن ) إضراب انتقالى ، لبيان السبب
: فى شرك هؤلا المشركين ، وتصريح بمن كانوا يعبدونهم فى الدنيا .قال الجمل
) - فإن قيل جميعهم كانوا متابعين للشيطان ، فما وجه قوله - تعالى
أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ) فإنه يدل على أن بعضهم لم يؤمن بالجن ولم
يطعمهم؟فالجواب من وجهين : أحدهما : أن الملائكة احترزوا عن دعوة الإحاطة
بهم ، فقالوا أكثرهم ، لأن الذين رأوهم واطعلوا على أحولاهم كانوا يعبدون
الجن ، ولعل فى الوجود من لم يطلع الله الملائكة على حاله من الكفار
الثانى : هو أن العبادة عمر ظاهر ، والإيمان عمل باطن ، فقالوا : بل.
كانوا يبعدون الجن لاطلاعهم على أعمالهم ، وقالوا : أكثرهم بهم مؤمنون عند
عمل القلب ، لئلا يكونوا مدعين اطلاعهم على ما فى القلوب ، فإن القلب لا
. يطلع على ما فيه إلا الله

فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أن الملك فى يوم الحساب له وحده فقال : ( فاليوم لاَ يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعاً وَلاَ ضَرّاً ) .أى : فاليوم لا يملك أحد من المعبودين أن ينفع أحدا من العابدين أو أن يضره ، بل الذى يملك كل ذلك هو الله - تعالى - وحده .فالمقصود من ، - الآية الكريمة بيان أن مرد النفع والضر فى هذا اليوم إلى الله - تعالى ). وحده ، فالعابدون لا يملكون شيئا ، والمعبودون كذلك لا يملكون شيئا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ النار التي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ) أى : ونقول فى هذا اليوم الهائل الشديد للذين ظلموا أنفسهم وظلموا الحق بعبادتهم لغيرنا ، نقول لهم ( ذُوقُواْ ) فظاعة وشدرة عذاب النار التى كنتم تكذبون بها فى الدنيا ، وتنكرون أن يكون هناك بعث أو حساب أو ثواب أو عقاب .

واذا تتلى عليهم اياتنا بينات قالوا ما هذا الا رجل يريد ان يصدكم عما كان يعبد اباؤكم وقالوا ما هذا الا افك مفترى وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم ان هذا الا سحر مبين

كما فسرها الوسيط ثم تعود السورة الكريمة إلى الحديث عن جانب من اقوال هؤلاء المشركين فى شأن النبى صلى الله عليه وسلم وفى شأن القرآن الكريم ، وتهددهم بسوء المصير إذا استمروا في طغيانهم وجهلهم فتقول : ( وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا . . . فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ) .قوله : ( تتلى ) من التلاوة ، وهى قراءة الشئ بتدبر وتفهم .أى : وإذا ما تليت آياتنا الدالة دلالة واضحة على وحدانيتنا وقدرتنا ، وعلى صدق رسولنا صلى الله عليه وسلم فيما يبلغه عنا .( قَالُواْ مَا هذا إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَآؤُكُمْ ) أى : قالوا على سبيل الإنكار والاستهزاء ، ما هذا التالى لتلك الآيات إلا رجل يريد أن يمنعكم عن عبادة الآلهة التى كان يعبدها آباؤكم الأقدمون .ويعنون بقولهم ( مَا هذا إِلاَّ رَجُلٌ ) الرسول صلى الله عليه وسلم ويقصدون بالإشارة إليه ، الاستخفاف به والتحقير من شأنه صلى الله عليه وسلم .وقالوا : ( يُرِيدُ أن ، يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَآؤُكُمْ ) لإثارة حمية الجاهلية فيهم فكأنهم يقولون لهم : احذروا اتباع هذا الرجل ، لأنه يريد أن يجعلهم من أتباعه ، وأن يقطع الروابط التى تربط بينكم وبين آبائكم الذين أنتم قطعة منهم .ولم يكتفوا بالتشكيك فى صدق الرسول صلى الله عليه وسلم بل أضافوا إلى ذلك التكذب للقرآن الكريم ، ويحكى - سبحانه - ذلك فيقول : ( وَقَالُواْ مَا هاذآ إِلاَّ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ) .أى : وقالوا فى شأن القرآن الكريم : ما هذا الذى يتلوه محمد صلى الله عليه وسلم علينا ، إلا ( إِفْكٌ ) أى : كلام مصروف عن وجهه ، وكذب فى ذاته ( مُّفْتَرًى ) أى : مختلق على الله - تعالى - من حيث نسبته إليه .فقوله ( مُّفْتَرًى ) صفة أخرى وصفوا بها القرآن الكريم ، فكأنهم يقولون - قبحهم الله - ما هذا القرآن إلا كذب فى نفسه ، ونسبته إلى الله - تعالى - ليست صحيحة .ثم أضافوا إلى تكذيبهم للرسول صلى الله عليه وسلم وللقرآن ، تكذيبا عاما لكل ما جاءهم به الرسول من حق ، فقالوا - كما حكى القرآن عنهم - : ( وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هاذآ إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ) .أى : وقال الكافرون فى شأن كل حق جاءهم به الرسول صلى الله عليه وسلم : ما هذا الذى جئتنا به إلا سحر واضح .وهكذا نراهم - لعنادهم وجهلهم - قد كذبوا الرسول ، صلى الله عليه وسلم وكذبوا القرآن . وكذبوا كل توجيه قويم ، وإرشاد حكيم أرشدهم إليه صلى الله عليه وسلم إذ اسم الإشارة الأول يعود إلى الرسول صلى الله عليه وسلم والثانى يعود إلى القرآن ، والثالث يعود إلى تعاليم الإسلام كلها .

وما اتيناهم من كتب يدرسونها وما ارسلنا اليهم قبلك من نذير

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن أقوالهم هذه لا تستند إلى دليل أو ) : - ما يشبه الدليل ، وإنما هم يهرفون بما لا يعرفون ، فقال - تعالى وَمَآ آتَيْنَاهُمْ مِّنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِّن نَّذِيرٍ ) .أى : أن هؤلاء الذين قالوا ما قالوا من باطل وزور ، لم نأتهم بكتب يدرسونها ويقرءونها ليعرفوا منها أن الشرك حق فيكون لهم عذرهم فى التمسك به ، وكذلك لم نرسل إليهم قبلك - أيها الرسول ، الكريم - نذيرا يدعوهم إلى عابدة الأصنام ، ويخوفوهم من ترك عبادتها .وما دام الأمر كذلك ، فمن أين أتوا بهذا التصميم على شركهم ، وبهذا الإنكار للحق الذى جاءهم؟ إن أمرهم هذا لهو فى غاية الغرابة والعجب .فالمقصود من الآية الكريمة تجهيلهم والتهكم بهم ، ونفى أن يكون عندهم حتى ما يشبه

الدليل على صحة ما فيه من شرك.وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِ يُشْرِكُونَ ) وقوله - عز وجل - : ( أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ).

وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما اتيناهم فكذبوا رسلي فكيف كان نكير

كما فسرها الوسيط ثم بين لهم - سبحانه - بعد ذلك هوان أمرهم . وتفاهة شأنهم بالنسبة لمن سبقوهم ، فقال : ( وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُواْ رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ) .والمعشار بمعنى العشر وهو لغة فيه . تقول : عندى عشر يدنار ومعشار دينار ، قال أبو حيان : والمعشار مفعال من العشر ، ولم يبين على هذا الوزن من ألفاظ العدد غيره وغير المرباع . ومعناهما : العشر والربع . والضمير فى قوله ( وَمَا بَلَغُواْ ) يعود لكفار مكة ، وقوله : ( مَآ آتَيْنَاهُمْ ) وفى قوله : ( فَكَذَّبُواْ رُسُلِي ) يعود إلى الأمم السابقة .والنكير : مصدر كالإنكار ، وهو من المصادر التى جاءت على وزن فعيل .والمعنى :لا تحزن - أيها الرسول الكريم - لتكذيب قومك لك ، فقد كذب الذين من قبلهم من الأمم رسلهم ، وإن قومك لم يبلغوا من القوة والغنى والكثرة . . عشر ما اكن عليه سابقوهم ، ولكن لما كذب أولئك السابقون أنبياءهم ، أخذتهم أخذ عزيز مقتدر ، بأن دمرناهم جميعا .والاستفهام فى قوله - تعالى - ( فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ) للتهويل . والجملة الكريمة معطوفة على مقدر والمعنى : فحين تمادوا فى تكذيب رسلى ، جاءهم إنكارى بالتدمير ، فكيف كان إنكارى عليهم بالتدمير والإهلاك؟ لقد كان شيئا هائلا فظيعا تركهم فى ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها ، فعلى قومك أن يحذروا من أن يصيبهم مثله .وجعل - سبحانه - التدمير إنكارا ، تنزيلا للفعل منزلة القول ، كما فى قول بعضهم : ونشتم بالأفعال لا بالتكلم .ويرى بعضهم أن الضمير فى قوله ( وَمَا بَلَغُواْ ) يعود على الذين من قبلهم ، وفى قوله ( آتَيْنَاهُمْ ) يعود إلى كفار مكة .وقد رجح الإمام الرازى هذا الرأى فقال ما ملخصه : قال المفسرون : معنى الآية : ما بلغ هؤلاء المشركون معشار ما آتينا المتقدمين . . ثم إن الهل أخذ هؤلاء المتقدمين دون أن تنفعهم قوتهم ، لما كذبوا رسلهم ، فكيف حال هؤلاء الضعفاء - وهم قومك .ثم قال - رحمه الله - : وعندى وجه آخر فى معنى الآية ، وهو أن يقال : وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم ، أى : الذين من قبلهم ما بلغوا معشار ما آتينا قومك من البيان والبرهان .وذلك لأن كتابك يا محمد أكمل من سائر الكتب فإذا كنت قد أنكرت على المتقدمين لما كذبوا رسلهم - مع أنهم لم يؤتوا معشار ما أوتى قومك من البيان - ، فكيف لا أنكر على قومك بعد تكذيبهم لأوضح الكتب ، وأفصح الرسل . .ويبدو لنا أن المعنى الأول الذى عبر عنه الإمام الرازى بقوله : قال المفسرون ، هو الأرجح لأنه هو المتبادر من معنى الآية الكريمة ، لأنه يفيد التقليل من شأن مشركى مكة ، بالنسبة لمن سبقهم من الأمم ، من ناحية القوة والغنى .وفى القرآن الكريم آيات متعددة هذا المعنى منها قوله - تعالى - : ( أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأرض فَيَنظُرُواْ ، كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذين مِن قَبْلِهِمْ كانوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ الأرض وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بالبينات فَمَا كَانَ الله لِيَظْلِمَهُمْ ولكن كانوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ) وبعد هذا الحديث عن أقوال المشركين فى شأن الرسول صلى الله عليه وسلم وفى شأن القرآن . .

قل انما اعظكم بواحدة ان تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة ان هو الا نذير لكم بين يدي عذاب شديد

كما فسرها الوسيط وبعد هذا الرد الملزم لهم والمزهق لباطلهم . بعد كل ذلك لقن الله - تعالى - نبيه صلى الله عليه وسلم الحجج القاطعة ، والأقوال الحكيمة ، التى تهدى إلى الرشد بأبلغ أسلوب ، واصدق بيان ، فقال - تعالى - : ( قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ . . . إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ) .قوله - تعالى - ( أَعِظُكُمْ ) من الوعظ ، وهو تذكير الغير بالخير والبر بكلام مؤثر رقيق يقال : وعظه يعظه وعظا وعظه ، إذا أمره بالطاعة ووصاه بها .وقوله ( بِوَاحِدَةٍ ) صفة لموصوف محذوف .والتقدير : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المشركين الذين قالوا الكذب فى شأنك وفى شأن ما جئت به ، قل لهم : إنما أعظكم وآمركم وأوصيكم بكلمة واحدة ، أو بخصلة واحدة .ثم فسر - سبحانه - هذه الكلمة بقوله : ( أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مثنى وفرادى ) . والمراد بالقيام هنا : التشمير عن ساعد الجد ، وتلقى ما جاءهم به الرسول صلى الله عليه وسلم بقلب مفتوح . وعقل واع ، ونفس خالية من التعصب والحقد والعكوف على التقليد .و ( مثنى وفرادى ) أى : متفرقين اثنين اثنين ، وواحدة واحدا ، وهما منصوبان على الحال .( ثُمَّ

تَتَفَكَّرُواْ ) بعد ذلك فى أمر هذا الرسول صلى الله عليه وسلم وفى أمر
، رسالته ، وفى أمر ما جاء به من عند ربه ، فعند ذلك ترون أنه على الحق
وأنه قد جاءكم بما يسعدكم .فالآية الكريمة تأمرهم أن يفكر كل اثنين
بموضوعية وإنصاف فى أمر الرسول صلى الله عليه وسلم ثم يعرض كل واحد منهما
حصيلة تفكيره على صاحبه ، وأن يفكر كل واحد منهم على انفراد - أيضا فى شأن
هذا الرسول ، من غير تعصب وهوى .وقدم الاثنين فى القيام على المنفرد ، لأن
تفكير الاثنين فى الأمور بإخلاص واجتهاد وتقدير ، أجدى فى الوصول إلى الحق
من تفكير الشخص الواحد ولم يأمرهم بأن يتفكروا فى جماعة ، لأن العقلية
الجماعية كثيرا ما تتبع الانفعال الطارئ . وقلما تتريث فى الحكم على الأمور
ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال عند تفسيره لهذه الآية : والمعنى : إنما .
أعظكم بواحدة إن فعلتموها ، أصبتم الحق ، وتخلصتم من الباطل - وهى : أن
تقوموا لوجه الله خالصا ، متفرقين اثنين اثنين ، وواحدا واحدا ، ( ثُمَّ
تَتَفَكَّرُواْ ) فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به .أما الاثنان
فيتكفر ان ويعرض كل واحد منهما محصول فكره على صاحبه ، وينظران فيه :
، متصادقين متناصفين ، لا يميل بهما اتباع هوى ، ولا ينبض لهما عرق عصبية
حتى يهجم بهما الفكر الصالح ، والنظر الصحيح على جادة الحق يفكر فى نفس
وكذلك الفرد : ه بعدل ونصفة من غير أن يكابرها ، ويعرض فكره على عقله.
وذهنه ، وما استقر عنده من عادات العقلاء ، ومجارى أحوالهم . والذى أوجب
، تفرقهم مثنى وفرادى ، أن الاجتماع مما يشوش الخواطر ، ويعمى البصائر
: ويمنع من الروية ، ويخلط القول . ومع ذلك يقل الإنصاف ويكثر الاعتساف
ويثور عجاج التعصب .وقوله - سبحانه - : ( مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّن جِنَّةٍ )
كلام مستأنف بجئ به لتنزيه ساحته صلى الله عليه وسلم عما افتراه عليه
المفرتون من كونه قد أصيب بالجنون .أى : اجتمعوا اثنين اثنين ، أو واحدا
واحدا ، ثم تفكروا بإخلاص وروية فترون بكل تأكيد أن محمدا صلى الله عليه
، وسلم ليس به شئ من الجنون ، إنما هو أرجح الناس عقلا ، وأصدقهم قولا
وأفضلهم علما ، وأحسنهم عملا ، وأزكاهم نفسا ، وأنقاهم قلبا ، وأجمعهم لكل
كمال بشرى .وقوله - تعالى - ( إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ
يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ) بيان لوظيفته صلى الله عليه وسلم أى : ليس به صلى
الله عليه وسلم من جنون ، وإنما هو نذير لكم ، يحذركم ويخوفكم من العذاب
الشديد الذى سينزل بكم يوم القيامة ، إذا ما بقيتم على شرككم وكفركم ، وهذا
العذاب ليس بعيدا عنكم .قال الإمام ابن كثير : " قال الامام أحمد : حدثنا
بشير بن المهاجر ، حدثنى عبد الله بن بريدة عن أبيه قال : خرج علينا رسول
الله صلى الله عليه وسلم يوما فنادى ثلاث مرات فقال : " أيها الناس أتدرون
ما مثلى ومثلكم "؟ قالوا : الله ورسوله أعلم فقال :" إنما مثلى ومثلكم كمثل
قوم خافوا عدوا يأتيهم . فبعثوا رجلا يتراءى لهم ، فبينما هو كذلك أبصر
العدو ، فأقبل لينذرهم وخشى أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه ، فأهوى
بثوبته وقال : أيها الناس أوتيتم . أيها الناس وأتيتم . . " " .وبهذا
الاسناد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بعثت أنا والساعة جميعا ، إن
كادت لتسبقنى " .

قل ما سالتكم من اجر فهو لكم ان اجري الا على الله وهو على كل شيء شهيد

كما فسرها الوسيط ثم أمره - سبحانه - للمرة الثانية أن يصارحهم بأنه لا
يريد منهم أجرا على دعوته إياهم إلى ما يسعدهم فقال : ( قُلْ مَا
سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الله
وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ) .أى : وقل لهم - أيها الرسول الكريم .
بعد أن دعوتهم إلى التفكير الهادئ ، المتأنى فى أمرك : إنى ما طلبت منكم
أجرا على دعوتى إياكم إلى الحق والخير ، وإذا فرض وطلبت فهو مردود عليكم .
لأنى لا ألتمس أجرى إلا من الله - تعالى - وحده ، وهو - سبحانه - على كل شئ
شهيد ورقيب ، ولا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء .قال الآلوسى قوله :
قل ما سألتكم من أجرن أى : مهما سألتكم من نفع على تبليغ الرسالة ( فَهُوَ
لَكُمْ ) والمراد نفى السؤال رأسا ، كقولك لصاحبكم إن أعطيتنى شيئا فخذه ،
وأنت علم أنه لم يعطك شيئا : فما شرطية ، مفعول ( سَأَلْتُكُم ) وقوله )
فَهُوَ لَكُمْ ) الجواب - وقيل هى موصولة ، والعائد محذوف ، ومن للبيان
ودخلت الفاء فى الخبر لتضمنها معنى الشرط . أى : الذى سألتكموه من الأجر
فهو لكم ، وثمرته تعود إليكم .

قل ان ربي يقذف بالحق علام الغيوب

كما فسرها الوسيط ثم أمره - سبحانه - للمرة الثالثة ، أن يبين لهم أنهم لا
قدرة لهم على مجادلته أو محاربته ، لأن الله - تعالى - قد سلحه بما ينصره
عليهم فقال : ( قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بالحق عَلاَّمُ الغيوب ) .وأصل
القذف : الرمى بقوة وشدة والمراد به هنا : ما يوحيه الله - تعالى - على
نبيه صلى الله عليه وسلم من قرآن وتوجيهات وإلهامات ، والباء فى قوله )

بالحق ) للسببية .أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - إن ربى يلقى الوحى
- إلى وإلى أنبيائه ، بسبب الحق الذى كلفهم بتبليغه إلى الناس ، وهو
سبحانه - وحده علام الغيوب .قال الجمل : ما ملخصه قوله : ( يَقْذِفُ بالحق
يجوز أن يكون مفعوله محذوفا ، لأنه القذف فى الأصل الرمى ، وعبر به هنا (
عن الإلقاء . أى : يلقى الوحى إلى أنبيائه بالحق ، أى : بسبب الحق ، أو
- متلبسا الحق .ويجوز أن يكون التقدير : يقذف الباطل بالحق ، كما قال
تعالى - ( بَلْ نَقْذِفُ بالحق عَلَى الباطل فَيَدْمَغُهُ ) ويجوز أن يكون
. المعنى : قل إن ربى يقضى ويحكم بالحق ، بتضمين " يقذف " معنى يقضى ويحكم

قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد

كما فسرها الوسيط ثم أمره - عز وجل - للمرة الرابعة أن يبين لهم أن باطلهم
) - سيزول لا محالة وسينتهى أمره انتهاء لن تقوم له بعد قائمة فقال - تعالى
قُلْ جَآءَ الحق وَمَا يُبْدِىءُ الباطل وَمَا يُعِيدُ ) .والإبداء : هو
، فعل الأمر ابتداء . والإعادة : فعله مرة أخرى ، ولا يخلو الحى منهما
فعدمها كناية عن هلاكه . كما يقول : فلان لا يأكل ولا يشرب ، كناة عن هلاكه
أى : قل أيها الرسول لهؤلاء الكافرين ، لقد جاء الحق المتمثل فى دين.
الإسلام الذى ارسلنى به إليكم ربى ، وما دام الإسلام قد جاء ، فإن الباطل
المتمثل فى الكفر الذى أنتم عليه ، قد آن له أن يذهب وأن يزول ، وأن لا
. يبقى له أبداء أو إعادة ، فقد اندثر وأهيل عليه بالتراب إلى غير رجعة

قل ان ضللت فانما اضل على نفسي وان اهتديت فبما يوحي الي ربي انه سميع قريب

كما فسرها الوسيط ثم أمره - سبحانه - للمرة الخامسة أن يصارحهم بأنه مسئول
، أمام الله عما يرشدهم إليه ، وأنهم ليسوا مسؤولين عن هدايته أو ضلاله
فقال - تعالى - : ( قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ على نَفْسِي
وَإِنِ اهتديت فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ) .أى : وقل لهم - أيها
الرسول الكريم - على سبيل الإرشاد والتنبيه ، إنى إن ضللت عن الصراط
، المستقيم ، وعن ابتاع الحق ، فإنهما غثم ضلالى على نفسى وحدها لا عليكم
- وإن اهتديت إلى طريق الحق والصواب ، فاهتدائى بسبب ما يوحيه الله - تعالى
إلى من توجيهات حكيمة ، وإرشادات قويمة ، ( إِنَّهُ ) - سبحانه - ( سَمِيعٌ
لكل شئ ( قَرِيبٌ ) منى ومنكم .وهكذا نجد هذه الآيات الكريمة قد أمرت (
الرسول صلى الله عليه وسلم خمس مرات ، أن يخاطب المشركين بما يقطع عليهم كل
طريق للتشكيك فى شأن دعوته ، وبما يوصلهم إلى طريق الهداية والسعادة لو
: كانوا يعقلون

ولو ترى اذ فزعوا فلا فوت واخذوا من مكان قريب

كما فسرها الوسيط وأخيرا نرى سورة " سبأ " تختتم بهذه الآيات ، التى تصور
، تصويرا مؤثرا ، حالة الكافرين عندما يخرجون من قبولهم للبعث والحساب
يعلوهم الهلع والفزع ، ويحال بينهم وبين ما يشتهون ، لأن توبتهم جاءت فى
غير أوانها . . . قال - تعالى - : ( وَلَوْ ترى إِذْ فَزِعُواْ . . . فِي
: شَكٍّ مّرِيبٍ ) .وجواب ( لَوْ ) محذوف . وكذلك مفعول ( ترى ) . والفزع
حالة من الخوف والرعب تعترى الإنسان عندما يشعر بما يزعجه ويخفيه . والفوت
النجاة والمهرب ، وهذا الفزع للكافرين يكون عند خروجهم من قبورهم للبعث :
والحساب ، أو عند قبض أرواحهم .أى : ولو ترى - أيها العاقل - حال الكافرين
وقت خروجهم من قبورهم للحساب ، وقد اعتراهم الفزع والهلع . . لرأيت شيئا ،
هائلا ، وأمرا عظيما . .وقوله ( فَلاَ فَوْتَ ) أى : فلا مهرب لهم ولا نجاة
يومئذ من الوقوف بين يدى الله - تعالى - للحساب ، ولمعاقبتهم على كفرهم
) وجحودهم . .وقوله : ( وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ) معطوف على
فَزِعُواْ ) أى : فزعوا دون أن ينفعهم هذا الفزع ، وأخذوا ليلقوا مصيرهم
السيئ من مكان قريب من موقف الحساب .قال الآلوسى : والمراد بذكر قرب
المكان ، سرعة نزول العذاب بهم والاستهانة بهم وبهلاكهم ، وإلا فلا قرب ولا
. . - بعد بالنسبة إلى الله - عز وجل

وقالوا امنا به وانى لهم التناوش من مكان بعيد

كما فسرها الوسيط ( وقالوا آمَنّا بِهِ ) أى : وقال هؤلاء الكافرون عندما
رأوا العذاب المعد لهم فى الآخرة : آمنا بالله - تعالى - وبأنه هو الواحد
الفرد الصمد ، الذى لا معبود بحق سواه ، وآمنا بهذا الدين الذى جاءنا به
رسوله صلى الله عليه وسلم .وقوله - سبحانه - : ( وأنى لَهُمُ التناوش مِن
مّكَانٍ بَعِيدٍ ) بيان لعدم انتفاعهم بما قالوه من إظهار الإيمان فى هذا
. الوقت .والتناوش : التناول . يقال : فلا ناشٍ الشئ ينوشه نوشا إذا تناوله
ومنه قولهم : تناشوا بالرماح ، أى : تناول بعضهم بعضا بها .أى : لقد قالوا

بعد البعث آمنا بهذا الدين ، ومن أين لهم فى الآخرة تناول الإيمان والتوبة
من الكفر ، وكان ذلك قريباً منهم فى الدنيا فضيعوه ، وكيف يظفرون به فى
الآخرة وهى بعيدة عن دار الدنيا التى هى محل قبول الإيمان .فالجملة
الكريمة تمثيل لحالهم فى طلب الخلاص بعد أن فات أوانه ، وأن هذا الطلب فى
نهاية الاستبعاد كما يدل عليه لفظ ( أنى ) .قال صاحب الكشاف : والتناوش
والتناول أخوان . إلا أن التناوش تناول سهل لشئ قريب . .وهذا تمثيل لطلبهم
ما لا يكون ، وهو أني نفعهم إيمانهم فى هذا الوقت ، كما يفنع المؤمنين
إيمانهم فى الدنيا . مثلت حالهم بحال من يريد أن يتناول الشئ من غلوة - أى
. من كان بعيد - ، كما يتناوله الآخر من قيس ذراع تناولا سهلا لا تعب فيه :
.

وقد كفروا به من قبل ويقذفون بالغيب من مكان بعيد

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِ مِن قَبْلُ )
أى : قالوا آمنا بأن يوم القيامة حق ، والحال أنهم قد كفروا به من قبل فى
الدنيا ، عندما دعاهم إلى الإيمان به رسول الله صلى الله عليه وسلم
وقوله - تعالى - : ( وَيَقْذِفُونَ بالغيب مِن مّكَانٍ بَعِيدٍ ) بيان.
، لما كانوا عليه فى الدنيا من سفاهة فى القول ، وجرأة فى النطق بالباطل
وفيما لا علم لهم به .والعرب تقول لكل من تكلم فيما لا يعلمه : هو يقذف
ويرجم بالغيب ، والجملة الكريمة معطوفة على قوله : ( وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِ
مِن قَبْلُ ) .أى : لقد كفروا بهذا الدين فى الدنيا ، وكانوا ينطقون بأقوال
لا علم لهم بها ، وبينها وبين الحق والصدق مسافات بعيدة ، فقد نسبوا إلى
الله - تعالى - الولد والشريك ، ويقولون فى الرسول صلى الله عليه وسلم إنه
ساحر . . ، وفى شأن البعث : إنه لا حقيقة له ، وفى شأن القرآن : إنه أساطير
الأولين .فالمقصود بالآية تقريعهم وتجهيلهم ، على ما كانا يتفوهون به من
. كلام ساقط ، بينه وبين الحقيقة مسافات بعيدة

وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل باشياعهم من قبل انهم كانوا في شك مريب

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ببيان حرمانهم التام
مما يشتهونه فقال : ( وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا
فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ فِي شَكٍّ مّرِيبٍ
. وقوله ( حِيلَ ) فعل بمنى للمجهول مأخوذ من الحول بمعنى المنع والحجز. (
- تقول حال الموج بينى وبين فلان . أى : منعنى من الوصول إليه ، ومنه قوله
تعالى - : ( وَحَالَ بَيْنَهُمَا الموج فَكَانَ مِنَ المغرقين ) أى : وحجز
وفصل بين هؤلاء المشركين يوم القيامة ( وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ) ويتمنون
من قبول إيمانهم فى هذا اليوم ، أو من العفو عنهم فى هذا اليوم ، أو من
العفو عنهم ورجوعهم إلى الدنيا . . حيل بينهم وبين كل ذلك ، ( كَمَا فُعِلَ
بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ) أى : كما هو الحال بالنسبة لأمثالهم ونظرائهم
الذين سبقوهم فى الكفر .( إِنَّهُمْ كَانُواْ ) جميعاً على نمط واحد ( فِي
شَكٍّ ) من أمر هذا الدين ( مّرِيبٍ ) أى : موقع فى الريبة .وبعد : فهذا
تفسير وسيط " سبأ " نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصاً لوجهه ، ونافعاً
لعباده . والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات وصلى الله على سيدنا محمد
. وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين

الحمد لله فاطر السماوات والارض جاعل الملائكة رسلا اولي اجنحة مثنى وثلاث
ورباع يزيد في الخلق ما يشاء ان الله على كل شيء قدير

كما فسرها الوسيط افتتحت سورة " فاطر " كما سبق أن ذركنا عند تفسيرنا لسورة
، سبأ " بتقرير الحقيقة الأولى فى كل دين ، وهى أن المستحق للحمد المطلق "
. والثناء الكامل ، هو الله رب العالمين .و " أل " فى الحمد للاستغراق
- بمعنى أن المستحق لجميع المحامد ، ولكافة ألوان الثناء هو الله - تعالى
وقوله : ( فَاطِرِ السماوات والأرض ) أى خالقهما وموجدهما على غير مثال.
يحتذى ، إذ لامراد بالفطر هنا : والاختراع للشئ الذى لم يوجد ما يشبهه من
قبل .قال القرطبى : والفاطر : الخالق ، والفَطر - بفتح الفاء - : الشق عن
الشئ . يقال فطرته فانفطر . ومنه : فطر ناب البعير ، أى : وتفطر الشئ ، أى
) تشقق . .والفطر : الابتداء والاختراع . قال ابن عباس : كنت لا أدري ما :
فَاطِرِ السماوات والأرض ) حتى أتى أعرابيان يختصمان فى بئر ، فقال أحدهما
: أنا فطرتهما ، أى : أنا ابتدأتها . .والمراد بذكر السماوات والأرض :
العالم كله . ونبه بهذا على أن من قدر على الابتداء ، قادر على الإعادة
- والمعنى : الحمد المطلق والثناء التام الكامل لله - تعالى - وحده ، فهو.
سبحانه الخالق للسموات والأرض ، ولهذا الكون بأسره ، دون أن يسبقه إلى ذلك
سابق ، أو يشاركه فيما خلق وأوجد مشارك .وقوله - تعالى - : ( جَاعِلِ
الملائكة رُسُلاً أولي أَجْنِحَةٍ مثنى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ ) بيان لمظهر

. آخر من مظاهر قدرته - تعالى - التى لا يعجزها شئ .والملائكة : جمع ملك
والتاء لتأنيث الجمع ، وأصله ملاك . وهم جند من خلق الله - تعالى - وقد
وصفهم - سبحانه - بصفات متعددة ، منها : أنهم ( يُسَبِّحُونَ الليل والنهار
لاَ يَفْتُرُونَ ) وأنهم ( عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ) ( لاَّ يَعْصُونَ الله
مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ) قال الجمل : وقوله : جاعل
الملائكة ، أى : بعضهم . إذ ليس كلهم رسلا كما هو معلوم . وقوله : ( أولي
أَجْنِحَةٍ ) نعت لقوله ( رُسُلاً ) ، وهو جيد لفظا لتوافقهما تنكيرا . أو
هو نعت للملائكة ، وهو جيد معنى إذ كل الملائكة لها أجنحة ، فهى صفة كاشفة
، وقوله : ( مثنى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ ) أسماء معدول بها عن اثنين اثنين. .
وثلاثة ثلاثة ، وأربعة أربعة ، وهى ممنوعة من الصرف ، للوصفية والعدل عن
، المكرر وهى صفة لأجنحة .أى : الحمد لله الذى خلق السماوات والأرض بقدرته
والذى جعل الملائكة رسلا إلى أنبيائه . وإلى من يشاء من عباده ، ليبلغوهم
ما يأمرهم - سبحانه - بتبليغه إليهم . .وهؤلاء الملائكة المكرمون ، ذوو
، أجنحة عديدة ، ذوو أجنحة عديدة . منهم من له جناحان ومنهم من له ثلاثة
، ومنهم من له أربعة ، ومنهم من له أكثر من ذلك ، لأن المراد بهذا الوصف
بيان كثرة الأجنحة لا حصرها .قال الآلوسى ما ملخصه قوله : ( جَاعِلِ
الملائكة رُسُلاً . . . ) معناه : جاعل الملائكة وسائط بينه وبين أنبيائه
والصالحين من عباده ، يبلغون إليهم رسالته بالوحى والإلهام والرؤيا
، الصادقة ، أو جاعلهم وسائط بينه وبين خلقه يوصلون إليهم آثار قدرته وصنعه
: كالأمطار والرياح وغيرهما .وقوله : ( مثنى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ ) معناه
أن من الملائكة من له جناحان ومنهم من له ثلاثة ، ومنهم من له أربعة ، ولا
دلالة فى الآية على نفى الزائد ، وما ذكر من عد للدلالة على التكثير
والتفاوت ، لا للتعيين ولا لنفى النصان عن اثنين . .فقد أخرج الشيخان عن
ابن مسعود فى قوله - تعالى - ( لَقَدْ رأى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الكبرى ) أن
: - الرسول صلى الله عليه سولم رأى جبريل وله ستمائة جناح . .وقوله - تعالى
استئناف مقرر لمضمون ما قبله ، من كمال ( يَزِيدُ فِي الخلق مَا يَشَآءُ )
قدرته ، ونفاذ إرادته .أى يزيد - سبحانه - فى خلق كل ما يزيد خلقه ما يشاء
أن يزيده من الأمور التى لا يحيط بها الوصف ، ومن ذلك أجنحة الملائكة فيزيد
فيها ما يشاء ، وكذلك ينقص فى الخلق ما يشاء ، والكل جاء على مقتضى الحكمة
: والتدبير .قال صاحب الكشاف : قوله ( يَزِيدُ فِي الخلق مَا يَشَآءُ ) أى
يزيد فى خلق الأجنحة ، وفى غيره ما تقتضيه مشيئته وحكمته .والآية مطلقة
، تتناول كل زيادة فى الخلق : من طول قامة ، واعتدال صورة ، وتمام الأعضاء
، وقوة فى البطش ، وحصافة فى العقل ، وجزالة فى الرأى ، وجرأة فى القلب
وسماحة فى النفس ، وذلاقة فى اللسان ، ولباقة فى التكلم ، وحسن تأن فى
- مزاولة الأمور ، وما أشبه ذلك مما لا يحيط به الوصف . .ثم ختم - سبحانه
الآية الكريمة بقولهك ( إِنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ) أى : إن
الله - تعالى -لا يعجزه شيئ يريده ، لأنه قدير على فعل كل شئ ، فالجملة
الكريمة تعليل لما قبلها من كونه - سبحانه - يزيد فى الخلق ما يشاء ، وينقص
. منه ما يشاء

ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( مَّا يَفْتَحِ الله لِلنَّاسِ مِن
رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا . . ) بيان لمظهر آخر من مظاهر قدرته وفضله
. على عباده .والمراد بالفتح هنا : الإطلاق والإرسال على سبيل المجاز
بعلاقة السببية لأن فتح الشئ المغلق ، سبب لإطلاق ما فيه إرساله .أى : ما
يرسل الله - تعالى - بفضله وإحسانه للناس من رحمة متمثلة فى الأمطار ، وفى
). الأرزاق ، وفى الصحة . . وفى غير ذلك ، فلا أحد يقدر على معها عنهم
وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ) أى : وما يمسك من شئ لا
- يريد إعطاءه لهم ، فلا أحد من الخلق يستطيع إرساله لهم . بد أن منعه الله
) تعالى - عنهم .( وَهُوَ ) - سبحانه - ( العزيز ) الذى لا يغلبه غالب
، الحكيم ) فى كل أقواله وأفعاله .وعبر - سبحانه - فى جانب الرحمة بالفتح
للإشعار بأن رحمته - سبحانه - من أعظم النعم وأعلاها ، حتى لكأنها بمنزلة
الخزائن المليئة بالخيرات ، والتى متى فتحت أصاب الناس منها ما أصابوا من
نفع وبر .و ( مِن ) فى قوله ( مِن رَّحْمَةٍ ) للبيان . وجاء الضمير فى
قوله : ( فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا ) مؤنثا ، لأنه يعود إليه وحدها .وجاء مذكرا
فى قوله ( فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ ) لأنه يشملها ويشمل غيرها ، أى : وما يسمك
- من رحمة أو غيرها عن عباده فلا يستطيع أحد أن يرسل ما أمسكه - سبحانه
وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( وَإِن يَمْسَسْكَ الله بِضُرٍّ فَلاَ
كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ
وقوله - سبحانه - : ( وَإِن يَمْسَسْكَ الله بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ ( . .
لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ
قَدُيرٌ ) قال ابن كثير : وثبت فى صحيح مسلم عن أبى سعيد الخدرى . " أن

رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا رفع راسه من الركوع يقول : سمع الله لمن حمده . اللهم ربنا لك الحمد . ملئ السماوات والأرض . وملئ ما شئت من شئ بعد . . اللهم لا مانع لما أعطيت . ولا معطى لما منعت . . ولا ينفع ذا الجد " منك الجد - أى : ولا ينفع صاحب الغنى غناه وإنما الذى ينفعه عمله الصالح .

يا ايها الناس اذكروا نعمت الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والارض لا اله الا هو فانى تؤفكون

كما فسرها الوسيط ثم وجه - سبحانه - نداء الى الناس . أمرهم فيه بذكره وشكره فقال : ( ياأيها الناس اذكروا نِعْمَتَ الله عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ الله يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السمآء والأَرض ) .والمراد من ذكر النعمة : ذكرها باللسان وبالقلب ، وشكر الله تعالى عليها ، واستعمالها فيما - خلقت له .والمراد بالنعمة هنا : النعم الكثيرة التى أنعم بها - سبحانه على الناس . كنعمة خلقهم ، ورزقهم ، وتسخير كثير من الكائنات لهم والاستفهام فى قوله : ( هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ الله يَرْزُقُكُمْ ). - للنفى والإنكار ، أى : يأيها الناس اذكروا بألسنتكم وقلوبكم ، نعم الله تعالى - عليكم ، واشكروه عليها . واستعملوها فى الوجوه التى أمركم باستعمالها فيها ، واعلموا أنه لا خالق غير الله - تعالى يرزقكم من السماء بالمطر وغيره ، ويرزقكم من الأرض بالنبات والزروع والثمار وما يشبه ذلك من الأرزاق التى فيها حياتكم وبقاؤكم .وقوله - تعالى - ( لآ إله إلاَّ هُوَ جملة مستأنفة لتقرير النفى المستفاد مما قبله أى :لا إله مستحق للعبادة ( والطاعة إلا الله - تعالى - ، إذ هو الخالق لكم ، وهو الذى أعطاكم النعم التى لا تعد ولا تحصى .( فأنى تُؤْفَكُونَ ) أى : وما دام الأمر كذلك : فكيف تصرفون عن إخلاص العبادة لخالقكم ورازقكم ، إلى الشرك فى عبادته فقوله ( تُؤْفَكُونَ ) من الأفك - بالفتح - بمعنى الصرف والقلب يقال : أفكه عن الشئ ، إذا صرفه عنه ، ومنه قوله - تعالى - : ( قالوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا . . ) أى : لتصرفنا عما وجدنا عليه آباءنا .

وان يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك والى الله ترجع الامور

- كما فسرها الوسيط وبعد هذا البيان المعجز لمظاهر قدرة الله - تعالى ورحمته بعباده ، وهيمنته على شئون خلقه . . أخذت السورة المريكة فى تسلية النبى صلى الله عليه وسلم وفى دعوة الناس إلى اتباع ما جاءهم به هذا النبى ) : - الكريم ، وفى بيان مصير المؤمنين ومصير الكافرين ، فقال - تعالى وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ . . . عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ) .قال الآلوسى : قوله : ( وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ) تسلية له صلى الله عليه وسلم بعموم البلية ، والوعد له صلى الله عليه وسلم والوعيد لأعدائه .والمعنى : وإن استمروا على أن يكذبوك فيما بلغت إليهم من الحق المبين . . فتأس بأولئك الرسل فى الصبر ، فقد كذبهم قومهم فصبروا على تذكيبهم . فجملة ( فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ) قائمة مقام جواب الشرط ، والجواب فى الحقيقة تأس . وأقيمت تلك الجملة مقامه ، اكتفاء بذكر السبب عن ذكر المسبب وجاء لفظ الرسل بصيغة التنكير ، للإشعار بكثرة عددهم ، وسمو منزلتهم. . أى : وإن يكذبك - أيها الرسول الكريم - قومك ، فلا تحزن ، ولا تبتئس ، فإن. إخوانك من الأنبياء الذين سبقوك ، قد كذبهم أقوامهم ، فأنت لست بدعا فى ذلك ومن الآيات الكثيرة التى وردت فى هذا المعنى قوله - تعالى - : ( مّا. يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ) وقوله - عز وجل - : ( وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ على مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حتى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ الله . . ) ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بما يزيد فى : تسليته صلى الله عليه وسلم فقال : ( وَإِلَى الله تُرْجَعُ الأمور ) .أى . وإلى الله - تعالى - وحده ترجع أمور الناس وأحوالهم وأعمالهم وأقوالهم وسيجازى - سبحانه - الذين أساءوا بما عملوا ، وسيجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

يا ايها الناس ان وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور

كما فسرها الوسيط ثم وجه - سبحانه - نداء ثانيا إلى الناس . بين لهم فيه أن البعث حق ، وأن من الواجب عليهم أن يستعدوا لاستقبال هذا اليوم بالإيمان . . والعمل الصالح فقال - تعالى - ( ياأيها الناس إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ أى : إنما وعدكم الله - تعالى - به من البعث والحساب والثواب والعقاب. ( .

حق لا ريب فيه ، وما دام الأمر كذلك ، ( فَلاَ تَغُرّنّكُمُ الحياة ، الدنيا ) أى : فلا تخدعنكم بمتعها ، وشهواتها ، ولذائذها ، فإنها إلى زوال وفناء ، ولا تشغلنكم هذه الحياة الدنيا من أدءا ما كلفكم - سبحانه - بأدائه من فرائض وتكاليف .( وَلاَ يَغُرّنّكُمْ بالله الغرور ) أى : ولا يخدعنكم ، عن طاعة ربكم ، ومالك أمركم ( الغرور ) .أى : الشيطان المبالغ فى خداعكم وفى صرفكم عن كل ما هو خير وبر .فالمراد بالغرور هنا : الشيطان الذى أقسم بالأيمان المغلظة ، بأنه لن يكف عن إغواء بنى آدم ، وعن تزيين الشرور والآثام لهم .فالمقصود بالآية الكريمة تذكير الناس بيوم القيامة وما فيه من أهوال . وتحذيرهم من اتباع خطوات الشياطن ، فإن لا يأمر إلا بالفحشاء والمنكر .

ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا انما يدعو حزبه ليكونوا من اصحاب السعير

كما فسرها الوسيط ثم أكد - سبحانه - هذا التحذير بقوله : ( إِنّ الشيطان لَكُمْ عَدُوٌّ ) يا بنى آدم ، عداوة قيدمة وباقية إلى يوم القيامة .وما دام الأمر كذلك ( فاتخذوه عَدُوّاً ) أى : فاتخذوا أنتم عدوا لكم فى عقائدكم .وفى عباداتكم . وفى كل أحوالكم ، بأن تخالفوا وسوسته وهمزاته وخطواته . .وقوله : ( إِنّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَابِ السعير ) تقرير وتأكيد لهذه العداوة .أى : اتخذوا - يا بنى آدم - الشيطان عدوا لكم ، لأنه لا يدعو أتباعه ومن هم من حزبه إلى خير أبدا ، وإنما يدعوهم الى العقائد الباطلة . والأقوال الفاسدة . والأفعال القبيحة التى تجعلهم يوم القيامة من أهل النار الشديدة الاشتعال . .

الذين كفروا لهم عذاب شديد والذين امنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة واجر كبير

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أقسام الناس يوم القيامة فقال الذين كَفَرُواْ ) بكل ما يجب الإيمان به ( لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ) بسبب كفرهم وفسوقهم عن أمر خالقهم - عز وجل - واتباعهم للشيطان . .( والذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ ) الأعمال ( الصالحات لَهُم ) من ربهم ( مّغْفِرَةٌ ) - عظيمة ( وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ) لا يعلم مقداره إلا الله - تعالى ( .

افمن زين له سوء عمله فراه حسنا فان الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ان الله عليم بما يصنعون

، كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - الفرق الشاسع بين المؤمن والكافر والمطيع ، والعاصى ، فقال : ( أَفَمَن زُيّنَ لَهُ سواء عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً . . . ) .والاستفهام للإنكار . و " من " موصولة فى مضوع رفع على الابتداء . والجملة بعدها صلنها ، والخبر محذوف لدلالة الكلام عليه ، و ) زُيّنَ ) من التزيين بمعنى التحسين . وقوله ( سواء عَمَلِهِ ) أى : عمله السيئ . فهو من إضافة الصفة إلى الموصوف .والمعنى : أفمن زين له الشيطان عمله السيئ ، فرآه حسنا ، كمن ليس كذلك؟ كلا إنهما لا يستويان فى عرف أى عاقل ، فإن الشخص الذى ارتكب الأفعال القبيحة التى زينها له الشيطان ، أو نفسه الأمارة بالسوء ، أو هواه . . . مصيره إلى الشقاء والتعاسة .أما الشخص الذى خالف الشيطان ، والنفس الأمارة بالسوء ، والهوى المردى . . فمصيره إلى السعادة والفلاح .وقد صرح - سبحانه - بالأمرين فى آيات منها قوله - تعالى - ( أَفَمَن كَانَ على بَيّنَةٍ مّن رّبّهِ كَمَن زُيّنَ لَهُ سواء عَمَلِهِ واتبعوا أَهْوَاءَهُمْ ) وجملة ( فَإِنّ الله يُضِلّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ ) تعليل لسببية التزيين لرؤية القبيح حسنا . أى : هؤلاء الذين يعملون الأعمال السيئة ، وهم يحسبون أنهم يسحنون صنعا. ، لا قدرة لك على هدايتهم - أيها الرسول الكريم - فإن الله - تعالى - وحده - هو الذى يضل من يشاء إضلاله ، ويهدى من يشاء هدايته .والفاء فى قوله - تعالى - : ( فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ) لتفريع . والحسرات جمعه حسرة ، وهى أشد ما يعترى الإنسان من ندم على أمر قد مضى وانتهى والجار والمجرور " عليهم " متعلق بقوله " حسرات " .أى : إذا كان ، الأمر كما أخبرناك - أيها الرسول الكريم - فامض فى طريقك وبلغ رسالة ربك ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، ولا تهلك نفسك هما وغما وحزنا من اجل هؤلاء الذين أعرضوا عن الحق ، واعتنقوا الباطل ، وظنوا أنهم بذلك يحسنون صنعا . .ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بما يزيد فى تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم فقال - تعالى - : ( إِنّ الله عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ) أى : إن الله - تعالى -لا يخفى عليه شئ مما يفعله هؤلاء الجاهلون من. أفعاله قبيحة ، وسيجازيهم يوم القيامة بما يستحقونه من عقاب .وشبيه هذه الآية قوله - تعالى - : ( لَعَلّكَ بَاخِعٌ نّفْسَكَ أَلاّ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ) وقوله - سبحانه - : ( فَلَعَلّكَ بَاخِعٌ نّفْسَكَ على

آثَارِهِمْ إِن لّمْ يُؤْمِنُواْ بهذا الحديث أَسَفاً ) وبعد هذه التسلية من الله - تعالى - لرسوله صلى الله عليه وسلم وبعد هذا التحذير من وسوسة الشيطان ومن خداعه ، وبعد هذا البيان لسوء عاقبة الكافرين ، وحسن عاقبة المؤمنين .

والله الذي ارسل الرياح فتثير سحابا فسقناه الى بلد ميت فاحيينا به الارض بعد موتها كذلك النشور

- كما فسرها الوسيط بعد كل ذلك . . ساقت السورة الكريمة ألوانا من نعم الله تعالى - على عباده ، ومن حرمته بهم ، نرى ذلك فى الرياح وفى السحب ، وفى البحار والأنهار ، وفى الليل نهار ، وفى الشمس القمر . . . وفى غير ذلك من النعم الظاهرة والباطنة فى هذا الكون ,قال - تعالى - : ( والله الذي أَرْسَلَ . . . وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ) .قال أبو حيان - رحمه الله - لما ذكر - سبحانه - أشياء من الأمور السماوية ، وإرسال الملائكة ، وإرسال الرياح وإرسالها ، وفى هذا احتجاج أتبع ذلك بذكر أشياء من الأمور الأرضية كالرياح على منكرى البعث ، دلهم على المثال الذى يعاينونه ، وهو إحياء الموتى سيان وفى الحديث " أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف يحيى الله الموتى وما آية ذلك فى خلقه؟ فقال : " هر مررت بوادى أهلا - محلا - أى مجبا لا نبات فيه - ثم مررت به يهتز خضرا؟ فقالوا : نعم ، فقال : فكذلك يحيى الله الموتى ، وتلك آيته فى خلقه " " .فقوله - تعالى - : ( والله الذي أَرْسَلَ الرياح فَتُثِيرُ سَحَاباً ) بيان لمظهر آخر من مظاهر قدرته - عز وجل - ومن سعة رحمته بعباده .وقوله : ( فَتُثِيرُ ) من الإثارة بمعنى التهييج والتحريك من حال إلى حال .أى : والله - تعالى - وحده ، هو الذى أرسل الرياح ، فجعلها بقدرته النافذة تحرك السحب من مكان إلى مكان ، فتذهب بها تارة إلى جهة الشمال ، وتارة إلى جهة الجنوب ، وتارة إلى غير ذلك وقوله : ( فَسُقْنَاهُ إلى بَلَدٍ مّيّتٍ ) بيان للحكمة من هذه الإثارة. والمراد بالبلد الميت : الأرض الجدباء التى لا نبات فيها . والضمير فى ( فَسُقْنَاهُ ) يعود إلى السحاب .وقوله : ( فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا ) أى : فأحيينا بالمطر النازل من السحاب الأرض الجدباء ، فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج .فالضمير فى قوله ( بِهِ ) يعود إلى المطر ، لأن السحاب يدل عليه بما بينهما من تلازم ، ويصح أن يعود إلى السحاب لأنه سبب نزول الأمطار .وقال - سبحانه - ( فَتُثِيرُ ) بصيغة المضارع . استحضارا لتلك الصورة البديعة الدالة على قدرة الله - تعالى - ، والتى من شأنها أن تغرس العظات والعبر فى النفوس .وقال - سبحانه - : ( فَسُقْنَاهُ ) فَأَحْيَيْنَا ) بنون العظمة ، وبالفعل الماضى ، للدلالة على تحقق قدرته ورحمته بعباده .قال صاحب الكشاف ما ملخصه : فإن قلت : لم جاء ( فَتُثِيرُ ) على المضارعة دون ما قبله وما بعده؟قلت : ليحكى الحال التى تقع فيها إثارة الرياح للحساب ، وتستحضر تلك الصور البديعة الدالة على القدر الربانية ، وهكذا يعقلون بكل فعل فيه نوع تميز وخصوصية .ولما كان سوق السحاب إلى البلد الميت ، وإحياء الأرض بالمطر بعد موتها ، من الدلائل على القدرة الباهرة قيل : فسقنا ، وأحيينا ، معدولا بهما عن لفظ الغيبة ، إلى ما هو أدخل فى الاختصاص وأدل عليه . .والكاف فى قوله - تعالى - : ( كَذَلِكَ النشور ) بمعنى مثل ، وهى فى محل رفع على الخبرية . أى : مثل الإحياء الذى تشاهدونه للأرض بعد نزول المطر عليها ، يكون إحياء الأموات منكم .قال الإمام الرازى فإن قيل ما وجه التشبيه بقوله : ( كَذَلِكَ النشور ) ؟ فالجواب من وجوه : أحدها : أن الأرض الميتة لما قبلت الحياة اللائقة بها ، كذلك الأعضاء تقبل: - الحياة .ثانيها : كما أن الريح يجمع القطع السحابية ، كذلك يجمع - سبحانه بين أجزاء الأعضاء . .ثالثها : كما أن نسوق الريح والسحاب إلى البلد الميت كذلك نسوق الروح والحياة إلى البدن الميت .والنشور : الإحياء والبعث بعد الموت . يقال : أنشر الله - تعالى - الموتى ونشرهم ، إذا أحياهم بعد موتهم . ونشر الراعى غنمه ، إذا بثها بعد أن آواها .

من كان يريد العزة فلله العزة جميعا اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر اولئك هو يبور

- كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن العزة الكاملة إنما هى لله تعالى - وحده فقال : ( مَن كَانَ يُرِيدُ العزة فَلِلَّهِ العزة جَمِيعاً . والمراد بالعزة : الشرف والمنعة والاستعلاء ، من قولهم : أرض عَزاز. ( . . ) :أى : صلبة قوية . و ( مَن ) شرطية ، وجواب الشرط محذوف . وقوله ، فَلِلّهِ العزة جَمِيعاً ) تعليل للجواب المحذوف .والمعنى من كان من الناس - يريد العزة التى لا ذلة معها . فليطع الله وليعتمد عليه وحده فالله تعالى - العزة كلها فى الدنيا والآخرة ، وليس لغيره منها شئ .وفى هذا رد على المشركين وغيرهم من يطلبون العزة من الأصنام أو من غيرها من المخلوقات قال - تعالى - : ( واتخذوا مِن دُونِ الله آلِهَةً لِيَكُونُواْ لَهُمْ

عِزّاً كَلاّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ
ضِدّاً ) وقال - سبحانه - : ( الذين يَتَّخِذُونَ الكافرين أَوْلِيَآءَ من
دُونِ المؤمنين أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ العزة فَإِنَّ العزة للَّهِ
جَمِيعاً ) قال القرطبى ما ملخصه : يريد - سبحانه فى هذه الآية ، أن ينبه
ذوى الأقدار والهمم ، من يان تنال العزة ومن أين تستحق ، فمن طلب العزة من
. الله - تعالى وجدها عنده ، - إن شاء الله - ، غير ممنوعة ولا محجوبة عنه
ومن طلبها من غيره وكله إلى من طلبها عنده . وقال صلى الله عليه وسلم .
مفسرا لهذه الآية : " من أراد عز الدارين فليطع العزيز " ، ولقد أحسن
القائل :وإذا تذللت الرقاب تواضعا ... منا إليك فعزها فى ذلها فمن كان يريد
العزة لينال الفوز الأكبر ، فليعتز بالله - تعالى - ، فإن منا عتز بغير
الله ، أذله الله ، ومن اعتز به - سبحانه أعزه .ولا تنافى بين هذه الآية
وبين قوله - تعالى - : ( وَلِلَّهِ العزة وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ
، ولكن المنافقين لاَ يَعْلَمُونَ ) لأن العزة الكاملة لله - تعالى - وحده
، - أما عزة الرسول صلى الله عليه وسلم فمستمدة من قربه من الله - تعالى
كما أن عزة المؤمنين مستمدة من إيمانهم بالله - تعالى - وبرسوله صلى الله
عليه وسلم .والخلاصة أن هذه الآية الكريمة ترشد المؤمنين إلى الطريق الذى
، - يوصلهم إلى السعادة الدنيوية والأخروية . ألا وهو طاعة الله - تعالى
والاعتماد عليه والاعتزاز به .وقوله - سبحانه - : ( إِلَيْهِ يَصْعَدُ
الكلم الطيب والعمل الصالح يَرْفَعُهُ ) حض لمؤمنين على النطق بالكلام
الحسن ، وعلى الإكثار من العمل الصالح .و ( يَصْعَدُ ) من الصعود بمعنى
الارتفاع إلى أعلى والعروج من مكان منخفض إلى مكان مرتفع . يقال صعد فى
السلم ويصعد صعودا إذا ارتقاه وارتفع فيه .و ( الكلم ) اسم جنس جمعى واحده
كلمة .والمراد بالكلمة الطيب : كل كلام يرضى الله - تعالى - من تسبيح
وتحميد وتكبيره . وأمره بالمعروف ، ونهى عن المنكر ، وغير ذلك من الأقوال
الحسنة .والمراد بصعوده : قبوله عند الله - تعالى - ورضاه عن صاحبه ، أو
صعود صحائف هذه الأقوال الطيبة .والمعنى : إليه - تعالى - وحده ، لا إلى
- غيره يصعد الكلم الطيب ، أى : يقبل عنده ، ويكون مرضيا لديه ، أو إليه
، وحده - ترفع صحائف أعمال عباده ، الصادقين فيجازيهم بما يستحقون من ثواب
، والعمل الصالح الصادر عن عباده المؤمنين يرفعه الله - تعالى - إليه
ويقبله منهم ، ويكافئهم عليه .فالفاعل لقوله ( يَرْفَعُهُ ) ضمير يعود على
الله - تعالى - العمل الصالح إليه ، ويقبله من أصحابه .ومنهم من يرى أن
الفاعل لقوله ( يَرْفَعُهُ ) هو العمل الصالح . والضمير المنصوب يعود إلى
الكلم الطيب . أى : أن العمل الصالح هو الذى يرفع الكلم الطيب . بأنه يجعله
مقبولا عند الله - تعالى - .ومنهم من يرى العكس . أى : أن الكلم الطيب هو
الذى يرفع العمل الصالح .قال الشوكانى ما ملخصه : ومعنى : ( والعمل الصالح
. يَرْفَعُهُ ) أن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب . كما قال الحسن وغيره
) ووجهه أنه لا يقبل الكلم الطيب إلا من العمل الصلاح وقيل : إن فاعل
يَرْفَعُهُ ) هو الكلم الطيب ، ومفعوله العمل الصالح . ووجه أن العمل
الصالح لا يقبل إلا مع التوحيد والإيمان وقيل : إن فاعل ( يَرْفَعُهُ )
ضمير يعود إلى الله - تعالى - .والمعنى : أن الله - تعالى - يرفع العمل
الصلاح على الكلم الطيب ، لأن العمل يحقق الكلام . وقيل : العمل الصالح هو
) الذى يرفع صاحبه .ويبدو لنا أن أرجح هذه الأقوال ، أن يكون الفاعل لقوله
يَرْفَعُهُ ) هو الله - تعالى - ، وأن الضمير المنصوب عائد إلى العمل
- الصالح لأن الله - تعالى - هو الذى يقبل الأقوال الطيبة ، وهو - سبحانه
- الذى يرفع الأعمال الصالحة ويقبلها عنده من عباده المؤمنين .ثم بين
تعالى - بعد ذلك سوء عاقبة الذين يمكرون السوء فقال : ( والذين يَمْكُرُونَ
( السيئات لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَـئِكَ هُوَ يَبُورُ
والمكر : التدبير المحكم . أو صرف غيرك عما يريده بحيلة . وهو مذموم إن.
تحرى به صاحبه الشر والسوء - كما فى الآية الكريمة ، ومحمود إن تحرى به
) صاحبه الخير والنفع و ( السيئات ) جمع سيئة وهى صفة لموصوف محذوف .وقوله
يَبُورُ ) أى : يبطل ويفسد ، من البوار : يقال : بار المتاع بوارا إذا كسد
وصار فى حكم الهالك .أى : والذين يمكرون المكرات السيئات من المشركين
والمنافقين وأشباههم ، لهم عذاب شديد من الله - تعالى - ، ومكر أولئك
الماكرين المفسدين ، مصيره إلى الفساد والخسران ، لأن المكر السيئ لا يحيق
إلا بأهله .ويدخل فى هذا المكر السيئ ما فعله المشركون مع الرسول صلى الله
عليه وسلم فى دار الندوة ، حيث بيتوا قتله ، ولكن الله - تعالى - نجاه من
، شرورهم ، كما دخل فيه غير ذلك من أقوالهم القبيحة ، وأفعالهم الذميمة
. ونياتهم الخبيثة

والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم ازواجا وما تحمل من انثى ولا تضع
الا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره الا في كتاب ان ذلك على الله
يسير

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك دليلا آخر على صحة البعث

والنشور ، وعلى كمال قدرته - تعالى - فقال : ( والله خَلَقَكُمْ مِّن
تُرَابٍ ) أى : خلقكم ابتداء فى ضمن خلق أبيكم آدم من تراب ( ثُمَّ مِن
نُّطْفَةٍ ) وأصلها الماء الصافى أو الماء القليل الذى يبقى فى الدلو أو
القربة ، وجمعها : نطف ونطاف . يقال : نطفت القربة إذا قطرت .والمراد بها
هنا : المنى الذى هو مادة التلقيح من الرجل للمرأة .( ثُمَّ جَعَلَكُمْ
أَزْوَاجاً ) أى : أصنافا ذكرانا وإناثا ، كما قال - تعالى - : ( أَوْ
يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً ) أو المراد : ثم جعلكم تتزاوجون ،
فالرجل يتزوج المرأة ، والمرأة تتزوج الرجل . ( وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى
وَلاَ تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ ) أى :لا يحصل من الأنثى حمل ، كما لا
يحصل منها وضع لما فى بطنها ، إلا والله - تعالى - عالم به علما تاما
لأنه - سبحانه -لا يخفى عليه شئ .( وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلاَ
يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ ) والمراد بالمعمر الشخص الذى
يطيل الله - تعالى - عمره .والضمير فى قوله ( مِنْ عُمُرِهِ ) يعود إلى شخص
آخر ، فيكون المعنى : ما يمد - سبحانه - فى عمر أحد من الناس ، ولا ينقص من
عمر أحد آخر ، إلا وكل ذلك كائن وثابت فى كتاب عنده - تعالى - وهذا الكتاب
هو اللوح المحفوظ ، أو صحائف أعمال العباد أو علم الله الأزلى .ومنهم من
يرى أن الضمير فى قوله ( مِنْ عُمُرِهِ ) يعود إلى الشخص ذاته وهو المعمر
فيكون المعنى : وما يمد الله - تعالى - فى عمر إنسان ، ولا ينقص من عمره
بمضى أيام حياته ، إلا وكل ذلك ثابت فى علمه - سبحانه - .قال بعض العلماء :
وقد أطال بعضهم الكلام فى ذلك ومحصله : أنه اختلف فى معنى ( مُّعَمَّرٍ )
فقيل : هو المزاد عمره بدليل ما يقابله من قوله ولا ينقص ، وقيل : المراد
بقوله ( مُّعَمَّرٍ ) من يجعل له عمر . وهل هو شخص واحد أو شخصان؟فعلى رأى
من قال بان المعمر ، هو من يجعل له عمر يكون شخصا واحدا بمعنى انه يكتب
عمره مائة سنة - مثلا - ، ثم يكتب تحته مضى يوم ، مضى يومان ، وهكذا فكتابة
الأصل هى التعمير . . والكتابة بعد ذلك هو النقص كما قيل :حياتك أنفاس
تُعَدّ فكلما ... مضى نفس منها انتقصَت به جزءاوالضمير حينئذ راجع إلى
المذكور . والمعمر على هذا هو الذى جعل الله - تعالى - له عمرا طال هذا
العمر أو قصر .وعلى رأى من قال بأن المعمر هو من يزاد فى عمره ، يكون من
ينقص فى عمره غير الذى يزاد فى عمره فهما شخصان . والضمير فى " عمره " على
هذا الرأى يعود إلى شخص آخر ، إذ لا يكون المزيد فى عمره منقوصا من عمره .
وقد رجح ابن جرير - رحمه - الله الرأى الأول وهو أن الضمير فى قوله ( مِنْ
عُمُرِهِ ) يعود إلى شخص آخر - فقال : وأولى التأويلين فى ذلك عندى بالصواب
التأويل الأول ، وذلك أن ذلك هو أظهر معنييه ، وأشبههما بظاهر التنزيل ،
واسم الإشارة فى قوله ( إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيرٌ ) يعود إلى
الخلق من تراب وما بعده .أى : إن ذلك الذى ذكرناه لكم من خلقكم من تراب ،
ثم من نطفة . . يسيروهن على الله - تعالى - لأنه - سبحانه -لا يعجزه شئ
على الإطلاق .

وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح اجاج ومن كل تاكلون
لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله
ولعلكم تشكرون

كما فسرها الوسيط ثم ذكر - سبحانه - نوعا آخر من أنواع بديع صنعه ، وعجيب
قدرته ، فقال : ( وَمَا يَسْتَوِي البحران هذا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ
شَرَابُهُ وهذا مِلْحٌ أُجَاجٌ . . . ) .والماء العذب الفرات : هو الماء
السائغ للشرب ، الذى يشعر الإنسان عند شربه باللذة وهو ماء الأنهار . وسمى
فراتا لأنه يفرت العطش ، أى : يقطعه ويزيله ويسكره .ولاماء الملح الأجاج :
هو الشديد الملوحة والمرارة وهو ماء البحار . سمى أجاجا من الأجيج وهو تهلب
النار ، لأن شربه يزيد العطشان عطشا وتعبا .قالوا : والآية الكريمة مثل
للمؤمن والكافر . فالبحر العذب : مثل للمؤمن ، والبحر الملح : مثل للكافر .
فكما أن البحرين اللذين أحدهما عذب فرات سائغ شرابه . والآخر ملح أجاج .
لا يتساويان فى طعمهما ومذاقهما . وإن اشتركا فى بعض الفوائد - فكذلك
المؤمن والكافر ، لا يتساويان فى الخاصية العظمى التى خلقا من أجلها ، وهى
إخلاص العبادة لله الواحد القهار ، وإن اشتركا فى بعض الصفات الأخرى
كالسخاء والشجاعة - لأن المؤمن استجاب لفطرته فآمن بالحق ، أما الكافر فقد
عاند فطرته ، فاصر على الكفر .وقوله : ( وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً
طَرِيّاً ) بيان لبعض النعم التى وهبها - سبحانه - لعباده من وجود البحرين
أى : ومن كل واحد منهما تأكلون لحماً طريا ، أى : غضا شهيا مفيداً .
لأجسادكم ، عن طريق ما تصطادونه منهما من أسماء وما يشبهها .قال بعض
العلماء . وفى وصفه بالطراوة ، تنبيه إلى أن ينبغى المسارعة إلى أكله ،
لأنه يسرع إليه الفاسد والتغيير . وقد أثبت الطب أن تناوله بعد ذهاب طراوته
من أضر المأكولات فسبحان الخبير بشئون خلقه . .وفيه - أيضاً - إيماء إلى
كمال قدرته - تعالى- حيث أوجد هذا اللحم الطرى النافع فى الماء الملح
الأجاج الذى لا يشرب .وقد كره العلماء أكل الطافى منه على وجه الماء ، وهو

الذى يموت حتف أنفه فى الماء فيطفو على وجهه ، لحديث جابر بن عبد الله ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما نضب عنه الماء فكلوه . وما لفظ الماء فكلوه ، وما طفا - على وجه الماء - فلا تأكلوه " .فالمراد من ميتة البحر فى حديث : " هو الطهور ماؤه الحل ميتته " ما لفظه البحر لا ما مات فيه من غير آفة .وقوله - تعالى - : ( وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ) بيان لنعمة ثانية من النعم التى تصل إلى الناس عن طريق البحرين .والحلية - بكسر الحاء - : اسم لما يتجلى به الناس ، ويتزينون بلبسه ، وجمع حلية : حِلى وحُلى - بسكر الحاء وضمها - يقال : تحلت المراة ، إذا لبست الحلى .أى : ومن النعم التى تصل إليكم عن طريق البحرين استخراجكم منهما ما ينفعكم ، وما تتحلى به نساؤكم ، كاللؤلؤ والمرجان وغيرهما .والتعبير بقوله : ( وَتَسْتَخْرِجُونَ ) يشير إلى كثرة الإخراج . فالسين والتاء للتأكيد . كما يشير بأن من الواجب على المسلمين ، أن يباشروا بأنفسهم استخراج ما فى البحرين من كنوز نافعة ، وأن لا يتركوا ذلك لأعدائهم وأسند - سبحانه - لباس الحلية إلى ضمير جمع الذكرو ، فقال. ) تَلْبَسُونَهَا ) على سبيل التغليب ، وإلا فإن هذه الحلية يلبسها النساء فى الأعم الأغلب من الأحوال .قال الآلوسى ما ملخصه : وقوله : ( تَلْبَسُونَهَا ) ، أى : تلبسها نساؤكم وأسند الفعل إلى ضمير الرجال ، لاختلاطهم بهن ( - وكونهم متبوعين ، أو لأنهم سبب لتزينهن فإن النساء يتزين - فى الغالب ليحسن فى أعين الرجال . .وقال بعض العلماء : وفى الآية دليل قرآن واضح على بطلان دعوى بعض العلماء من أن اللؤلؤ والمرجان ، لا يستخرجان إلا من البحر الملح خاصة .وقوله - تعالى - ( وَتَرَى الفلك فِيهِ مَوَاخِرَ ) بيان لنعمة ثالثة من نعمه - تعالى - عن طريق وجود البحار فى الأرض .وأصل المخر : الشق يقال مخرت السفينة البحر إذا شقته وسارت بين أمواجه ، ومخر الماء الأرض . ) إذا شقها .أى : وترى - أيها العاقل - ببصرك السفن فى كل من البحرين . مَوَاخِرَ ) أى تشق الماء بمقدوماتها ، وتسرع السير فيه من جهة إلى جهة والضمير فى قوله ( فِيهِ ) يعود إلى البحر الملح ، لأن أمر الفلك فيه أعظم. من أمرها فى البحر العذب ، وإن كانت السفن تجرى فى البحرين .ويجوز أن يكون الضمير فى قوله ( فِيهِ ) يعود إلى جنس البحر . أى : وترى السفن تشق كل بحر ) : - لتسير فيه من مكان إلى مكان . .واللام فى قوله - تعالى ، لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ) متعلقة بمحذوف دل عليه الكلام السابق .أى : أوجدنا البحرين ، وسخرناهما لمنفعتكم ، لتطلبوا أرزاقكم فيهما ، وهذه الأرزاق هى من فضل الله - تعالى - عليكم ، ومن رحمته بكم ، ولعلكم بعد ذلك تشكروننا على آلائنا ونعمنا ، فإن من شكرنا زدناه من خيرنا وعطائنا .

يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لاجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير

، كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - نعما أخرى تتجلى فى الليل وفى النهار وفى الشمس والقمر ، فقال : ( يُولِجُ الليل فِي النهار وَيُولِجُ النهار فِي الليل وَسَخَّرَ الشمس والقمر كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى ) .أى : ومن مظاهر فضله عليكم ، ورحمته بكم ، أنه أوجد لكم الليل والهار بهذا النظام البديع ، بأن أدخل أحدهما فى الآخر ، وجعلهما متعاقبين ، مع زيادة - أحدهما عن الآخر فى الزمان ، على حسب اختلاف المطالع ، والمغارب ، وأوجد أيضا - بفضله ورحمته الشمس والقمر لمنعتكم ، وكل واحد منهما يسير بنظام بديع محكم ، إلى الأجل والوقت الذى حدده الله - تعالى - لانتهاء عمر هذه الدنيا .والإشارة فى قوله : ( ذَلِكُمُ الله رَبُّكُمْ لَهُ الملك . . ) تعود إلى الخالق والموجد لتلك الكائنات العجيبة البديعة ، وهو الله - عز - وجل - .أى : ذلكم الذى أوجد كل هذه المخلوقات لمنفعتكم ، هو الله - تعالى ربكم وهو وحده الذى له ملك هذا الكون ، لا يشاركه فيه مشارك ، ولا ينازعه فى ملكيته منازع ( والذين تَدْعُونَ مِن دُونِهِ ) أى : والذين تعبدونهم من دون الله - تعالى - ، وتصفونهم بأنهم آلهة .( مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ) والقطمير : القشرة البيضاء الرقيقة الملتفة على النواة .أو هو النقطة فى ظهر النواة ، ويضرب مثلاً لأقل شئ وأحقره .أى : والذين تعبدونهم من دون الله - تعالى -لا يملكون معه - سبحانه - شيئا . ولو كان هذا الشئ فى نهاية القلة والحقارة والصغر ، كالنكتة التى تكون فى ظهر النواة .

ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير

كما فسرها الوسيط ثم أكد - سبحانه - هذا المعنى وقرره فقال : ( إِن تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ . . . ) .أى : إن هذه المعبودات ، الباطلة لا تملك من شئ مع الله - تعالى - ، بدليل أنكم إن تدعوهم لنفعكم

لن يسمعوا دعاءكم ، وإن تستغيثوا بهم عند المصائب والنوائب ، لمن يلبوا استغاثتكم . .( وَلَوْ سَمِعُوا ) على سبيل الفرض والتقدير ( مَا استجابوا لَكُمْ ) لأنهم لا قدرة لهم على هذه الاستجابة لعجزهم عن ذلك .( وَيَوْمَ القيامة ) الذى تتجلى فيه الحقائق ، وتنكشف الأمور ( يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ) .أى : يتبرأون من عبادتكم لهم ، ومن إشراككم إياهم العبادة ). مع الله - تعالى - ، فضلاً عن عدم استجابتهم لكم إذا دعوتموهم لنصرتكم وَلاَ يُنَبِّئُكَ ) أى : ولا يخبرك بهذه الحقائق التى لا تقبل الشك أو الريب .( مِثْلُ خَبِيرٍ ) أى : مثل من هو خبير بأحوال النفوس وبظواهرها وببواطنها . وهو الله - عز وجل - فإنه - سبحانه - هو الذى يعلم السر وأخفى وبهذا نرى الآيات الكريمة ، قد طوفت بنا فى أرجاء هذا الكون ، وساقت لنا. ألوانا من نعم الله - تعالى - على الناس ، كالرياح ، والسحاب ، والأمطار والبحار ، والليل والنهار ، والشمس والقمر . . وهى نعم تدل على وحدانية المنعم بها ، وعلى قدرته - عز وجل - وفى كل ذلك هداية إلى الحق لكل عبد منيب .

يا ايها الناس انتم الفقراء الى الله والله هو الغني الحميد

كما فسرها الوسيط ثم وجه - سبحانه - نداء ثالثاً إلى الناس ، نبههم فيه إلى ، فقرهم إليه - سبحانه - ، وإلى غناه عنهم ، وإلى مسئولية كل إنسان عن نفسه وإلى وظيفة الرسول صلى الله عليه وسلم الذى أرسله إليهم ، وإلى الفرق ) : - الشاسع بين الإيمان والكفر ، وإلى سوء مصير المكذبين ، فقال - تعالى - يا أيها النَّاس أَنتُمُ الفقرآء . . . فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ) .وقوله - تعالى - : ( يا أيها الناس أنتُمُ الفقرآء إِلَى الله . . . ) نداء منه - سبحانه - للناس ، يعرفهم فيه حقيقة أمرهم ، ولأنهم لا غنى لهم عن خالقهم عز وجل - .أى : يا أيها الناس أنتم المحتاجون إلى الله - تعالى - فى كل شئونكم الدنيوية والأخروية ( والله ) - تعالى - وحده هو الغنى ، عن كل مخلوق سواه ، وهو ( الحميد ) أى : المحمود من جميع الموجودات ، لأنه هو الخالق لكل شئ ، وهو المنعم عليكم وعلى غيركم بالنعم التى لا تحصى .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم عرف الفقراء؟ قلت : قصد بذلك أن يريهم أنه لشدة افتقارهم إليه هم جنس الفقراء ، وإن كانت الخلائق كلهم مفترقين إليه من الناس وغيرهم ، لأن الفقر مما يتبع الضعف ، ولكما كان الفقير أضعف كان أفقر وقد شهد الله - سبحانه - على الإنسان بالضعف فى قوله : ( وَخُلِقَ ، - الإنسان ضَعِيفاً ) ولو نكر لكان المعنى : أنتم بعض الفقراء .وجمع سبحانه - فى وصف ذاته بين الغنى والحميد ، للإشعار بأنه - تعالى - بجانب غناه عن خلقه ، هو الذى يفيض عليهم من نعمه ، وهو الذى يعطيهم من خيره وفضله ، ما يجعلهم يحمدونه بألسنتهم وقلوبهم .قال الآلوسى : قوله ( الحميد ) أى : المنعم على جميع الموجودات ، المستحق بإنعامه للحمد ، وأصله المحمود ( وأريد به ذلك عن طريق الكناية ، ليناسب ذكره بعد فقرهم ، إذ الغنى لا ، ينفع الفقير إلا إذا كان جواداً منعماً ، ومثله مستحق للحمد ، وهذا . . كالتكميل لما قبله

ان يشا يذهبكم ويات بخلق جديد

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ - بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ) بيان لمظهر من مظاهر غناه عن الناس .أى : إن يشأ سبحانه - يهلككم ويزيكم من هذا الوجود ، ويأت بأقوام آخرين سواكم ، فوجودكم فى هذه الحياة متوقف على مشيئته وإرادته .

وما ذلك على الله بعزيز

كما فسرها الوسيط واسم الإشارة فى قوله ( وَمَا ذَلِكَ عَلَى الله بِعَزِيزٍ ) يعود على الإذهاب بهم ، والإتيان بغيرهم .وما ذلك الذى ذكرناه لكم من إفنائكم والإتيان بغيركم ، بعزيز ، أى : بصعب أو عسير أو متنع على الله - تعالى - ، لأن قدرته - تعالى لا يعجزها شئ .

ولا تزر وازرة وزر اخرى وان تدع مثقلة الى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى انما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب واقاموا الصلاة ومن تزكى فانما يتزكى لنفسه والى الله المصير

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن كل نفس تتحمل نتائج أعمالها وحدها فقال : ( وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى ) .وقوله : ( تَزِرُ ) من " الوزر بمعنى الحمل . يقال : فلان وزر هذا الشئ إذا حمله . وفعله من باب وعد " ، وأكثر ما يكون استعمالاً فى حمل الآثم .وقوله ( وَازِرَةٌ ) : صفة لموصوف محذوف . أى : ولا تحمل نفس آثمة ، إثم نفس أخرى ، وإنما كل نفس

) : مسئولة وحدها عن أفعالها وأقوالها التى باشرتها ، أو تسببت فيها .وقوله
وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ
كَانَ ذَا قربى ) مؤكد لمضمون ما قبله ، من مسئولية كل نفس عن أفعالها
- وقوله : ( مُثْقَلَةٌ ) صفة لموصوف محذوف ، والمفعول محذوف - أيضاً.
للعلم به .وقوله ( حِمْلِهَا ) أى : ما تحمله من الذنوب والآثام ، إذ
الحمل - بكسر الحاء - ما يحمله الإنسان من أمتعة على ظهره أو رأسه أو كتفه
والمعنى :لا تحمل نفس آثمة إثم نفس أخرى ، وإن تنطلب نفس مثقلة بالذنوب.
من نفس أخرى ، أن تحمل عنها شيئاً من ذنوبها التى أثقلتها ، لا تجد استجابة
: - منها ، ولو كانت تلك النفس الأخرى من أقربائها وذوى رحمها .قال - تعالى
يا أيها الناس اتقوا رَبَّكُمْ واخشوا يَوْماً لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن )
( . . . وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً
وقال - سبحانه - : ( يَوْمَ يَفِرُّ المرء مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ.
وَأَبِيهِ وصاحبته وَبَنِيهِ لِكُلِّ امرىء مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ
يُغْنِيهِ ) قال صاحب الكشاف : فإن قلت : هلا قيل : ولا تزر نفس وزر أخرى؟
، قلت : لأن المعنى أن النفوس الوازرات لا ترى واحدة منهن إلا حاملة وزرها
) : ولا وزر غيرها .فإن قلت : كيف توفق بين هذا ، وبين قوله
: وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ) قلت
تلك الآية فى الضالين المضلين ، وأنهم يحملون أثقال إضلالهم لغيرهم ، مع
أثقالهم ، وذلك كله أوزارهم ، ما فيها شئ من وزر غيرهم .فإن قلت : فما
) : الفرق بين معنى (وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ) وبين معنى
( . . وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ
- ؟قلت : الأول فى الدلالة على عدل الله - تعالى - فى حكمه ، وأنه - تعالى
. . لا يؤاخذ نفساً بغير ذنبها .والثانى : فى أنه لا غياث يومئذ لمن استغاث
وإن كان المستغاث به بعض قرابتها من أب أو ولد أو أخ . . فإن قلت : إلام
أسند كان فى قوله ( وَلَوْ كَانَ ذَا قربى ) ؟ قلت : إلى المدعو المفهوم من
: قوله : ( وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ ) .فإن قلت : فلم ترك ذكر المدعو؟ قلت
ليعم ويشمل كل مدعو " .وقوله - تعالى - : ( إِنَّمَا تُنذِرُ الذين "
يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بالغيب وَأَقَامُواْ الصلاة ) .كلام مستأنف مسوق
- لبيان من هم أهل للاتعاظ والاستجابة للحق .أى : أنت - أيها الرسول الكريم
إنما ينفع وعظك وإنذارك . أولئك العقلاء الذين يخشون ربهم - عز وجل - دون
أن يروه ، أو يروا عذابه ، والذين يؤدون الصلاة فى مواقيتها بإخلاص وخشوع
واطمئنان .ثم حض - سبحانه - على تزكية النفوس وتطهيرها فقال : ( وَمَن تزكى
فَإِنَّمَا يتزكى لِنَفْسِهِ وَإِلَى الله المصير ) أى : ومن تطهر من دنس
الكفر والفسوق والعصيان . وحض نفسه بالإيمان ، والعمل الصالح ، والتوبة
النصوح ، فإن ثمرة تطهره إنما تعود إلى نفسه وحدها ، وإليها يرجع الأجر
والثواب ، والله - تعالى - إليه وحده مصير العباد لا إلى غيره .فالجملة
الكريمة دعوة من الله - تعالى - للناس ، إلى تزيكة النفوس وتطهيرها من كل
سوء ، بعد بيان أن كل نفس مسئولية وحدها عن نتائج أفعالها ، وأن أحداً لن
. يبلى طلب غيره فى أن يحمل شيئاً عنه من أوزاره

وما يستوي الاعمى والبصير

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - أمثلة ، لبيان الفرق الشاسع بين المؤمن
) : - والكافر ، وبين الحق والباطل ، وبين العلم والجهل . . فقال - تعالى
وَمَا يَسْتَوِي الأعمى والبصير وَلاَ الظلمات وَلاَ النور وَلاَ الظل
وَلاَ الحرور وَمَا يَسْتَوِي الأحياء وَلاَ الأموات . . . ) .والحرور : هو
الريح الحارة التى تلفح الوجوه من شدة حرها ، فهو فعول من الحر .أى : وكما
أنه لا يستوى فى عرف أى عاقل الأعمى والبصير ، كذلك لا يستوى الكافر
والمؤمن ، وكما لا تصلح المساواة بين الظلمات والنور ، كذلك لا تصلح
المساواة بين الكفر والإيمان ، وكما لا يتاسوى المكان الظليل مع المكان
الشديد الحرارة ، كذلك لا يستوى أصحاب الجنة وأصحاب النار .فأنت ترى أن
، الآيات الكريمة قد مثلت الكافر فى عدم اهتدائه بالأعمى ، والمؤمن بالبصير
كما مثلت الكفر بالظمات والإيمان بالنور ، والجنة بالظل الظليل ، والنار
بالريح الحارة التى تشبه السموم .وكرر - سبحانه - لفظ ( لاَ ) أكثر من مرة
لتأكيد نفي الاستواء ، بأية صورة من الصور .وقوله : ( وَمَا يَسْتَوِي ،
، الأحياء وَلاَ الأموات ) تمثيل آخر للمؤمنين الذين استجابوا للحق
وللكافرين الذين أصروا على باطلهم . أو هم تمثيل للعلماء والجهلاء قال
الإمام ابن كثير : يقول - تعالى - كما لا تستوى هذه الأشياء المتباينة
المختلفة ، كالأعمى والبصير لا يستويان ، بل بينهما فرق وبون كثير ، وكما
لا تستوى الظلمات ولا النور ، ولا الظل ولا الحرور ، كذلك لا يستوى الأحياء
ولا الأموات . وهذا مثل ضربه الله للمؤمنين الأحياء ، وللكافرين وهم
الأموات ، كقوله - تعالى - : ( أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ
وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي الناس كَمَن مَّثَلُهُ فِي
الظلمات لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا . . . ) وقال - تعالى - : ( مَثَلُ

( الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً
، فالمؤمن سميع بصير فى نور يمشى . . والكافر أعمى وأصم ، فى ظلمات يمشى
. . ولا خروج له منها ، حتى يفضى به ذلك إلى الحرور والسموم والحميم

ولا الظلمات ولا النور

`<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html} كما فسرها الوسيط

ثم ساق - سبحانه - أمثلة ، لبيان الفرق الشاسع بين المؤمن والكافر ، وبين
الحق والباطل ، وبين العلم والجهل . . فقال - تعالى - : ( وَمَا يَسْتَوِي
الأعمى والبصير وَلاَ الظلمات وَلاَ النور وَلاَ الظل وَلاَ الحرور وَمَا
يَسْتَوِي الأحيآء وَلاَ الأموات . . . ) .والحرور : هو الريح الحارة التى
تلفح الوجوه من شدة حرها ، فهو فعول من الحر .أى : وكما أنه لا يستوى فى
عرف أى عاقل الأعمى والبصير ، كذلك لا يستوى الكافر والمؤمن ، وكما لا تصلح
المساواة بين الظلمات والنور ، كذلك لا تصلح المساواة بين الكفر والإيمان
وكما لا يتاسوى المكان الظليل مع المكان الشديد الحرارة ، كذلك لا يستوى ،
أصحاب الجنة وأصحاب النار .فأنت ترى أن الآيات الكريمة قد مثلت الكافر فى
عدم اهتدائه بالأعمى ، والمؤمن بالبصير ، كما مثلت الكفر بالظمات والإيمان
بالنور ، والجنة بالظل الظليل ، والنار بالريح الحارة التى تشبه السموم
وكرر - سبحانه - لفظ ( لاَ ) أكثر من مرة ، لتأكيد نفى الاستواء ، بأية.
صورة من الصور .وقوله : ( وَمَا يَسْتَوِي الأحيآء وَلاَ الأموات ) تمثيل
آخر للمؤمنين الذين استجابوا للحق ، وللكافرين الذين أصروا على باطلهم . أو
هم تمثيل للعلماء والجهلاء قال الإمام ابن كثير : يقول - تعالى - كما لا
تستوى هذه الأشياء المتباينة المختلفة ، كالأعمى والبصير لا يستويان ، بل
بينهما فرق وبون كثير ، وكما لا تستوى الظلمات ولا النور ، ولا الظل ولا
الحرور ، كذلك لا يستوى الأحياء ولا الأموات . وهذا مثل ضربه الله للمؤمنين
الأحياء ، وللكافرين وهم الأموات ، كقوله - تعالى - : ( أَوَ مَن كَانَ
مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي الناس
كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظلمات لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا . . . ) وقال -
تعالى - : ( مَثَلُ الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هَلْ
يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ) فالمؤمن سميع بصير فى نور يمشى . . والكافر أعمى
وأصم ، فى ظلمات يمشى ، ولا خروج له منها ، حتى يفضى به ذلك إلى الحرور
. . والسموم والحميم

ولا الظل ولا الحرور

`<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html} كما فسرها الوسيط

ثم ساق - سبحانه - أمثلة ، لبيان الفرق الشاسع بين المؤمن والكافر ، وبين
الحق والباطل ، وبين العلم والجهل . . فقال - تعالى - : ( وَمَا يَسْتَوِي
الأعمى والبصير وَلاَ الظلمات وَلاَ النور وَلاَ الظل وَلاَ الحرور وَمَا
يَسْتَوِي الأحيآء وَلاَ الأموات . . . ) .والحرور : هو الريح الحارة التى
تلفح الوجوه من شدة حرها ، فهو فعول من الحر .أى : وكما أنه لا يستوى فى
عرف أى عاقل الأعمى والبصير ، كذلك لا يستوى الكافر والمؤمن ، وكما لا تصلح
المساواة بين الظلمات والنور ، كذلك لا تصلح المساواة بين الكفر والإيمان
وكما لا يتاسوى المكان الظليل مع المكان الشديد الحرارة ، كذلك لا يستوى ،
أصحاب الجنة وأصحاب النار .فأنت ترى أن الآيات الكريمة قد مثلت الكافر فى
عدم اهتدائه بالأعمى ، والمؤمن بالبصير ، كما مثلت الكفر بالظمات والإيمان
بالنور ، والجنة بالظل الظليل ، والنار بالريح الحارة التى تشبه السموم
وكرر - سبحانه - لفظ ( لاَ ) أكثر من مرة ، لتأكيد نفى الاستواء ، بأية.
صورة من الصور .وقوله : ( وَمَا يَسْتَوِي الأحيآء وَلاَ الأموات ) تمثيل
آخر للمؤمنين الذين استجابوا للحق ، وللكافرين الذين أصروا على باطلهم . أو
هم تمثيل للعلماء والجهلاء قال الإمام ابن كثير : يقول - تعالى - كما لا
تستوى هذه الأشياء المتباينة المختلفة ، كالأعمى والبصير لا يستويان ، بل
بينهما فرق وبون كثير ، وكما لا تستوى الظلمات ولا النور ، ولا الظل ولا
الحرور ، كذلك لا يستوى الأحياء ولا الأموات . وهذا مثل ضربه الله للمؤمنين
الأحياء ، وللكافرين وهم الأموات ، كقوله - تعالى - : ( أَوَ مَن كَانَ
مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي الناس
كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظلمات لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا . . . ) وقال -
تعالى - : ( مَثَلُ الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هَلْ
يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ) فالمؤمن سميع بصير فى نور يمشى . . والكافر أعمى
وأصم ، فى ظلمات يمشى ، ولا خروج له منها ، حتى يفضى به ذلك إلى الحرور
. . والسموم والحميم

وما يستوي الاحياء ولا الاموات ان الله يسمع من يشاء وما انت بمسمع من في القبور

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( إِنَّ الله يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي القبور ) بيان لنفاذ قدرة الله - تعالى - ومشيئته .أى : إن الله - تعالى - يسمع من يشاء أن يسمعه ، ويجعله مدركاً ، للحق ، ومستجيباً له أما أ ، ت - أيها الرسول الكريم - فليس فى استطاعتك أن تسمع هؤلاء الكافرين المصرين على كفرهم وباطلهم ، والذين هم أشبه ما يكونون بالموتى فى فقدان الحس ، وفى عدم السماع لما تدعوهم إليه .فالجملة الكريمة تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم عما أصابه من هؤلاء الجاحدين .

ان انت الا نذير

كما فسرها الوسيط ثم حدد الله - تعالى - لنبيه صلى الله عليه وسلم وظيفته - فقال : ( إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ ) .أى : ما أنت - أيها الرسول الكريم إلا منذر للناس من حلول عذاب الله - تعالى - بهم ، إذا ما استمروا على كفرهم ، أما الهداية والضلال فهما بيد الله - تعالى - وحده .

انا ارسلناك بالحق بشيرا ونذيرا وان من امة الا خلا فيها نذير

كما فسرها الوسيط ( إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ ) - أيها الرسول الكريم - إرسالاً ملتبساً ( بالحق ) الذى لا يحوم حوله الباطل ( بَشِيراً وَنَذِيراً ) أى : أرسلناك بالحق مبشراً المؤمنين بحسن الثواب ، ومنذراً الكافرين بأشد ألوان العقاب .( وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ ) أى : وما من أمة من الأمم الماضية ، وإلا وجاءها نذير ينذرها من سوء عاقبة الكفر ، ويدعوها إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - .فمن أفراد هذه الأمة من أطاعوا هذا النذير فسعدوا وفازوا ، ومنهم من استحب العمى على الهدى ، والكفر على الإيمان فشقوا وخابوا .

وان يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير

كما فسرها الوسيط ثم أضاف - سبحانه - إلى تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم تسلية أخرى فقال : ( وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الذين مِن قَبْلِهِمْ . . . ) .أى : وإن يكذبك قومك يا محمد فلا تحزن ، فإن الأقوام السابقين قد كذبوا إخوانك الين أرسلناهم إليهم ، كما كذبك قومك .وإن هؤلاء السابقين قد ( جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بالبينات ) أى : بالمعجزات الواضحات ) وبالزبر ) أى : وبالكتب المنزلة من عند الله - تعالى - جمع زبور وهو المكتوب ، كصحف إبراهيم وموسى .( وبالكتاب المنير ) أى : وبالكتاب الساطع فى براهينه وحججه ، كالتوراة التى أنزلناها على موسى ، والإنجيل الذى أنزلناه على عيسى .قال الشوكانى : قيل : الكتاب المنير داخل تحت الزبر ، وتحت البينات ، والعطف لتغير المفهومات ، وإن كانت متحدة فى الصدق . والأولى تخصيص البينات بالمعجزات . والزبر بالكتب التى فيها مواعظ ، والكتاب بما فيه شرائع وأحكام .

ثم اخذت الذين كفروا فكيف كان نكير

كما فسرها الوسيط ( ثُمَّ أَخَذْتُ الذين كَفَرُواْ ) بالعذاب الشديد ، بسبب إصراهم على كفرم ، وتكذيبهم لرسلهم .ووضع الظاهر موضع ضميرهم ، لذمهم وللأشعار بعلة الأخذ .والاستفهام فى قوله - تعالى - ( فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ) للتهويل .أى : فانظر - أيها العاقل - كيف كان إنكارى عليهم ، لقد كان إنكاراً مصحوباً بالعذاب الأليم الذى درمهم تدميراً ، واستأصلهم عن آخرهم .

الم تر ان الله انزل من السماء ماء فاخرجنا به ثمرات مختلفا الوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف الوانها وغرابيب سود

كما فسرها الوسيط ثم ذكر - سبحانه - بعد ذلك أدلة أخرى على عظيم قدرته . وبين من هم أولى الناس بخشيته ، ومدح الذين يكثرون من تلاوة كتابه ، ويحافظون على أداء فرائضه ، ووعدهم على ذلك بالأجر الجزيل فقال - تعالى - : ( أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أَنزَلَ . . . بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ) والاستفهام فى قوله - تعالى - : ( أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً ) . .لتقرير ما قبله ، من أن اختلاف الناس فى عقائدهم وأحوالهم أمر مطرد ، وأن هذا الاختلاف موجود حتى فى الحيوان والحجارة

والنبات . .قال الآلوسى ما ملخصه : قوله - تعالى - : ( أَلَمْ تَرَ . . )
هذه الكلمة قد تذكر لمن تقدم علمه فتكون للتعجب ، وقد تذكر لمن لا يكون
كذلك ، فتكون لتعريفه وتعجيبه ، وقد اشتهرت فى ذلك أجريت مجرى المثل فى هذا
الباب ، بأن شبه من لم ير الشئ ، بحال من رآه . فى أنه لا ينبغى أن يخيفى
عليه ، ثم أجرى الكلام معه . كما يجرى مع من رأى ، قصداً إلى المبالغة فى
، شهرته . .والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم ، أو لكل من يتأتى له الخطاب
- بتقرير دليل من أدلة القدرة الباهرة .والمعنى : لقد علمت - أيها العاقل
علماً لا يخالطه شك ، أن الله - تعالى - أنزل من السماء ماء كثيراً ، فأخرج
، بسببه من الأرض ، ثمرات مختلفاً ألوانها . فبعضها أحمر ، وبعضها أصفر
وبعضها أخضر . . وبعضها حلو المذاق ، وبعضها ليس كذلك ، مع أنها جميعاً
تسقى بماء واحد ، كما قال - تعالى - : ( وَفِي الأرض قِطَعٌ
مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ
وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يسقى بِمَآءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا على بَعْضٍ
فِي الأكل إِنَّ فِي ذلك لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ) وجاء قوله )
فَأَخْرَجْنَا ) على أسلوب الالتفات من الغيبة إلى التكلم ، لإظهار كمال
، الاعتناء بالفعل لما فيه من الصنع البديع المنبئ عن كمال القدرة والحكمة
ولأن المنة بالإخراج أبلغ من إنزال الماء .وقوله ( مُّخْتَلِفاً ) صفة
لثمرات ، وقوله ( َلْوَانُهَا ) فاعل به .وقوله - تعالى - : ( وَمِنَ
الجبال جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ
معطوف على ما قبله ، لبيان مظهر آخر من مظاهر قدرته - عز وجل .قال ( )
القرطبى ما ملخصه : " الجدد جمع جُدَّة - بضم الجيم - وهى الطرائق المختلفة
: الألوان " . . والجُدّة : الخطة التى فى ظهر الحمار تخالف لونه . والجدة
الطريق والجمع جدد . . أى : طارئق تخاف لون الجبل ، ومنه قولهم : ركب فلان
جُدّة من الأمر ، إذا رأى فيه رأيا .وغرابيب : جمع غربيب ، وهو الشئ
السواد ، والعرب تقول للشئ الشديد السواد ، أسود غربيب .وقوله : ( سُودٌ )
بدل من ( وَغَرَابِيبُ ) .أى : أنزلنا من السماء ماء أخرجنا به ثمرات
، مختلفاً ألوانها ، وجعلنا بقدرتنا من الجبال قطعاً ذات ألوان مختلفة
فمنها الأبيض ، ومنها الأحمر ، ومنها ما هو شديد السواد ، ومنها ما ليس
. . كذلك ، مما يدل على عظيم قدرتنا . وبديع صنعنا

ومن الناس والدواب والانعام مختلف الوانه كذلك انما يخشى الله من عباده
العلماء ان الله عزيز غفور

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن هذا الاختلاف ليس مقصوراً على
الجبال فقال : ( وَمِنَ الناس والدوآب والأنعام مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ
كَذَلِكَ .. . ) .وقوله : ( مُخْتَلِفٌ ) صفة لموصوف محذوف . وقوله
كَذَلِكَ ) صفة - أيضاً - لمصدر محذوف ، معمول لمختلف .أى : ليس اختلاف
الألوان مقصوراً على قطع الجبال وطرقها وأجزائها ، بل - أيضاً - من الناس
والدواب والأنعام ، أصناف وأنواع مختلفة ألوانها اختلافاً ، كذلك الاختلاف
الكائن فى قطع الجبال ، وفى أنواع الثمار .وإنما ذكر - سبحانه - هنا اختلاف
- الألوان فى هذه الأشياء ، لأن هذا الاختلاف من اعظم الأدلة على قدرة الله
تعالى - وعلى بديع صنعه .ثم بين - سبحانه - هنا اختلاف الألوان فى هذه
الأشياء ، لأن هذا الاختلاف من أعظم الأدلة على قدرة الله - تعالى - وعلى
بديع صنعه .ثم بين - سبحانه - أولى الناس بخشية فقال : ( إِنَّمَا يَخْشَى
، الله مِنْ عِبَادِهِ العلماء ) أى : إنما يخاف الله - تعالى - ويخشاه
العالمون بما يليق بذاته وصفاته ، من تقديس وطاعة وإخلاص فى العبادة ، أما
الجاهلون بذاته وصفاته - تعالى - ، فلا يخشونه ولا يخافون عقابه ، لانطماس
بصائرهم ، واستحوذ الشيطان عليهم ، وكفى بهذه الجملة الكريمة مدحاً للعلماء
حيث قصر - سبحانه - خشيته عليهم .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : هل يختلف ،
المعنى إذا قدم المفعول فى هذا الكلام أو أخر؟ قلت :لا بد من ذلك ، فإنك
إذا قدمت اسم الله ، وأخرت العلماء ، كان المعنى . إن الذين يخشون الله من
عباده هم العلماء دون غيرهم ، وإذا علمت على العكس انقلب المعنى إلى أنهم
لا يخشون إلا الله ، كقوله - تعالى - : ( وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ
الله ) وهما معنيان مختلفان .فإن قلت : ما وجه اتصال هذا الكلام بما
قبله؟قلت : لما قال ( أَلَمْ تَرَ ) بمعنى ألم تعلم أن الله أنزل من السماء
) : ماء ، وعدد آيات الله ، وأعلام قدرته ، وآثار صنعته . . أتبع ذلك بقوله
إِنَّمَا يَخْشَى الله مِنْ عِبَادِهِ العلماء ) كأنه قال : إنما يخشاه
مثلك ومن على صفتك ممن عرفه حق معرفته ، وعلمه كنه علمه .وعن النبى صلى
" الله عليه وسلم أنه قال : " أنا أرجو أن أكون أتقاكم لله وأعلمكم به
وقوله : ( إِنَّ الله عَزِيزٌ غَفُورٌ ) تعليل لوجوب الخشية ، لدلالته على
. أنه يعاقب على المعصية ، ويغفر الذنوب لمن تاب من عباده توبة نصوحاً

ان الذين يتلون كتاب الله واقاموا الصلاة وانفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية
يرجون تجارة لن تبور

كما فسرها الوسيط ثم مدح - سبحانه - المكثرون من تلاوة كتابه ، المحافظين على أداء فرائضه فقال : ( إِنَّ الذين يَتْلُونَ كِتَابَ الله . . . ) .أى إن الذين يداومون على قراءة القرآن الكريم بتدبر لمعانيه ، وعمل بتوجيهاته ، ( وَأَقَامُواْ الصلاة ) بأن أدوها فى مواقيتها بخشوع وإخلاص أى : وبذلوا ( وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً ). مما رزقناكم من خيرات ، تارة فى السر وتارة فى العلانية .وجملة ( يَرْجُونَ تِجَارَةً لّن تَبُورَ ) فى محل رفع خبر إن . والمراد بالتجارة : ثواب الله - تعالى - ومغفرته .وقوله : ( تَبُورَ ) بمعنى تكسد وتهلك .يقال : بار الشئ يبور بورا وبوارا ، إذا هلك وكسد .أى : هؤلاء الذين يكثرون من قراءة القرآن الكريم ، ويؤدون ما أوجبه الله - تعالى - عليهم ، يرجون من الله - تعالى الثواب الجزيل ، والربح الدائم ، لأنهم جمعوا فى طاعتهم له - تعالى بين الإكثار من ذكره ، وبين العبادات البدنية والمالية .

ليوفيهم اجورهم ويزيدهم من فضله انه غفور شكور

كما فسرها الوسيط واللام فى قوله : ( لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ . . ) متعلقة بقوله ( لَّن تَبُورَ ) على معنى يرجون تجارة لن تكسد لأجل أن يفويهم أجورهم التى وعدهم بها ، ويزيدهم فى الدنيا والآخرة من فضله ونعمه وعطائه .أو متعلقة بمحذوف ، والتقدير : فعلوا ما فعلوا ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ( إِنّهُ ) - سبحانه - ( غَفُورٌ أى : واسع المغفرة ( شَكُورٌ ) أى : كثير العطاء لمن يطيعه ويؤدى ما كلفه به .

والذي اوحينا اليك من الكتاب هو الحق مصدقا لما بين يديه ان الله بعباده لخبير بصير

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات الكريمة ، بتثبيت فؤاد النبى صلى الله عليه وسلم ، وتسليته عما أصابه من أعدائه فقال : ( والذي أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ الكتاب ) أى القرآن الكريم ( هُوَ الحق ) الثابت الذى لا يحوم حوله باطل .( مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ) أى : أن من صفات هذا القرآن أنه مصدق لما تقدمه من الكتب السماوية . كالتوراة والإنجيل .( إِنّ الله بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ) أى : إن الله - تعالى - لمحيط إحاطة تامة بأحوال عباده ، مطلع على ما يسرونه وما يلعنونه من أقوال أو أفعال .وبذلك نرى الآيات الكريمة قد أقامت ألوانا من الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، وأثنت على العلماء ، وعلى التالين للقرآن الكريم ، والمحافظين على أداء ما كلفهم الله - تعالى - ثناء عظيماً .

ثم اورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ذلك هو الفضل الكبير

كما فسرها الوسيط ثم انتقلت السورة الكريمة إلى بيان أقسام الناس فى هذه الحياة . ووعدة المؤمنين الصادقين بجنات النعيم ، فقال - تعالى - : ( ثُمّ أَوْرَثْنَا الكتاب . . . يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ) ." ثم " فى قوله - تعالى - : ( ثُمّ أَوْرَثْنَا الكتاب الذين اصطفينا مِنْ عِبَادِنَا ) للتراخى الرتبى . و ( أَوْرَثْنَا ) أى أعطينا ومنحنا ، إذ الميراث عطاء يصل للإنسان عن طريق غيره .والمراد بالكتاب : القرآن الكريم ، وما اشتمل عليه من عقائد وأحكام وآداب وتوجيهات سديدة . . وهو المفعول الثانى لأورثنا وقد على المفعول الأول ، وهو الموصول للتشريف .و ( اصطفينا ) بمعنى ، اخترنا واستخلصنا ، واشتقاقه من الصفو ، بمعنى الخلوص من الكدر والشوائب والمراد بقوله : ( مِنْ عِبَادِنَا ) الأمة الإسلامية التى جعلها الله. خير أمة أخرجت للناس .والمعنى : ثم جعلنا هذا القرآن الذى اوحيناه إليك ، الرسول الكريم - ميراثاً منك لأمتك ، التى اصطفيناها على سائر الأمم وجعلناها أمة وسطا . وقد ورثناها هذا الكتاب لتنتفع بهداياته . . وتسترشد بتوجيهاته ، وتعمل بأوامره ونواهيه .قال الآلوسى : قوله : ( الذين اصطفينا مِنْ عِبَادِنَا ) هم - كما قال ابن عباس وغيره - أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن الله - تعالى - اصطفاهم على سائر الأمم . .وفى التعبير بالاصطفاء ، تنويه بفضل هؤلاء العباد ، وإشارة إلى فضلهم على غيرهم ، كما أن التعبير بالماضى يدل على تحقق هذا الاصطفاء .ثم قسم - سبحانه - هؤلاء العباد إلى ثلاثة اقسام فقال : ( فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ . . وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بالخيرات بِإِذْنِ الله ) وجمهور العلماء على أن هذه الأقسام الثلاثة ، تعد إلى أفراد هذه الأمة. الإسلامية .وأن المراد بالظالم لنفسه ، من زادت سيئاته على حسناته .وأن

المراد بالمقصد : من تساوت حسناته مع سيئاته .وأن المراد بالسابقين
. بالخيرات : من زادت حسناتهم على سيئاتهم

جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من اساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير

) : كما فسرها الوسيط وعلى هذا يكون الضمير فى قوله - تعالى - بعد ذلك
، جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا . . . ) يعود إلى تلك الأقسام الثلاثة
لأنهم جميعاً من أهل الجنة بفضل الله ورحمته .ومن العلماء من يرى أن المراد
بالظالم لنفسه : الكافر ، وعليه يكون الضمير فى قوله : ( يَدْخُلُونَهَا )
يعود إلى المقتصد والسابق بالخيرات ، وأن هذه الآية نظير قوله - تعالى - فى
سورة الواقعة : ( وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً ثَلاَثَةً فَأَصْحَابُ الميمنة مَآ
أَصْحَابُ الميمنة وَأَصْحَابُ المشأمة مَآ أَصْحَابُ المشأمة والسابقون
السابقون . . ) .ومن المفسرين الذين رجحوا القول الأول ابن كثير فقد قال ما
ملخصه : يقول - تعالى - ثم جعلنا القائمين بالكتاب العظيم . . . وهم هذه
الأمة على ثلاث أقسام : ( فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ) وهو المفرط فى
بعض الواجبات المرتكب لبعض المحرمات . ( وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ ) وهو
المؤدى للواجبات التارك للمرحمات وقد يترك بعض المستحبات ، ويفعل بعض
المكروهات .( وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بالخيرات بِإِذْنِ الله ) وهو الفاعل
للواجبات والمستحبات .وقال ابن عباس : هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم
ورثهم الله - تعالى - كل كتاب أنزله . فظالمهم يغفر له ، ومقتصدهم يحاسب
حسابا يسيرا ، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب .وفى رواية عنه : السبق
- بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب ، والمقتصد يدخل الجنة برحمة الله - تعالى
والظالم لنفسه يدخل الجنة بشفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم .وفى الحديث ،
الشريف : " شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى " .وقال آخرون : الظالم لنفسه : هو
الكافر .والصحيح أن الظالم لنفسه من هذه الأمة ، وهذا اختيار ابن جرير كما
و ظاهر الآية ، وكا جاءت به الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من
طرق يشد بعضها بعضاً .ثم أورد الإمام ابن كثير بعد ذلك جملة من الأحاديث
منها : ما أخرجه الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه
" وسلم أنه قال فى هذه الآية : " هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة ، وكلهم فى الجنة
ومعنى قوله " بمنزلة واحدة " أى : فى أنهم من هذه الأمة ، وأنهم من أهل.
: الجنة ، وإن كان بينهم فرق فى المنازل فى الجنة .وقال الإمام ابن جرير
فإن قال لنا قائل : إن قوله ( يَدْخُلُونَهَا ) إنما عنى به المقتصد
والسابق بالخيرات؟قيل له : وما برهانك على أن ذلك كذلك من خبر أو عقل؟ فإن
قلا : قيام الحجة أن الظالم من هذه الأمة سيدخل النار ، ولم لم يدخل النار
: من هذه الأصناف الثلاثة أحد ، وجب أن لا يكون لأهل الإيمان وعيد .قيل
- إنه ليس فى الآية خبر أنهم لا يدخلون النار ، وإنما فيها إخبار من الله
تعالى - أنهم يدخلون جنات عدن : وجائز أن يدخلها الظالم لنفسه بعد عقوبة
، الله إياه على ذنوبه التى أصابها فى الدنيا . . ثم يدخلون الجنة بعد ذلك
فيكون ممن عمه خبر الله - تعالى - بقوله : ( جَنَّاتُ عَدْنٍ
. يَدْخُلُونَهَا ) .وقال الشوكانى : والظالم لنفسه : هو الذى عمل الصغائر
. وقد روى هذا القول عن عمر ، وعثمان ، وابن مسعود ، وأبى الدرداء ، وعائشة
وهذا هو الراجح ، لأن عمل الصغائر لا ينافى الاصطفاء ، ولا يمنع من دخول
صاحبه مع الذين يدخلون الجنة يحلون فيها من أساور . . وجه كونه ظالماً
لنفسه ، أنها نقصها من الثواب بما فعل من الصغائر المغفورة له ، فإنه لو
: عمل تلك الصغائر طاعات ، لكان لنفسه فيها من الثواب عظيماً . .قالوا
وتقديم الظالم لنفسه على المقتصد وعلى السابق بالخيرات . لا يقتضى تشريفاً
. كما فى قوله - تعالى - ( لاَ يستوي أَصْحَابُ النار وَأَصْحَابُ الجنة ،
ولعل السر فى مجئ هذه الأقسام بهذا الترتيب ، أن الظالمين لأنفسهم ( .
- الأقسام عددا ، ويليهم المقتصدون ، ويليهم السابقون بالخيرات ، كما قال
تعالى - ( وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشكور ) وقوله : ( بِإِذْنِ الله )
أى : بتوفيقه وإرادته وفضله .واسم الإشارة فى قوله : ( ذَلِكَ هُوَ الفضل
الكبير ) يعود إلى ما تقدم من توريث الكتاب ومن الاصطفاء .أى : ذلك الذى
أعطيناه - أيها الرسول الكريم - لأمتك من الاصطفاء ومن توريهم الكتاب ، هو
- الفضل الواسع الكبير ، الذى لا يقادر قدره ، ولا يعرف كنهه إلا الله
تعالى - .ثم بين - سبحانه - مظاهر هذا الفضل فقال : ( جَنَّاتُ عَدْنٍ
يَدْخُلُونَهَا ) والضمير للأنواع الثلاثة .أى : هؤلاء الظالمون لأنفسهم
والمقتصدون والسابقون بالخيرات ، ندخلهم بفضلنا ورحمتنا ، الجنات الدائمة
التى يخلدون فيها خلوداً أبدياً .يقال : عدن فلان بالمكان ، إذا أقام به
إقامة دائمة .( يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً
وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ) أى أنهم يدخلون الجنات دخولاً دائماً ، وهم
فى تلك الجنات يتزينون بأجمل الزينات ، وبأفخر الملابس ، حيث يلبسون فى
. أيديهم أساور من ذهب ولؤلؤا ، أما ثيابهم فهى من الحرير الخالص

وقالوا الحمد لله الذي اذهب عنا الحزن ان ربنا لغفور شكور

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - ما يقولونه بعد فوزهم بهذا النعيم فقال
والحزن : غم. ( وَقَالُواْ الحمد للَّهِ الذي أَذْهَبَ عَنّا الحزن ) :
يعترى الإنسان لخوفه من وال نعمة هو فيها . والمراد به هنا : جنس الحزن
الشامل لجميع أحزان الدين والدنيا والآخرة .أى : وقالوا عند دخولهم الجنات
الدائمة ، وشعورهم بالأمان والسعاة والاطمئنان : الحمد لله الذى أذهب عنا
جميع ما يحزننا من أمور الدنيا أو الآخرة .( إِنّ رَبّنَا ) بفضله وكرمه
، أى : لواسع المغفرة لعباده ولكثير العطاء للمطيعين ( لَغَفُورٌ شَكُورٌ )
. حيث أعطاهم الخيرات الوفيرة فى مقابل الأعمال القليلة

الذي احلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب

: كما فسرها الوسيط ( الذي أَحَلَّنَا دَارَ المقامة مِن فَضْلِهِ ) أى
: الحمد لله الذى أذهب عنا الأحزان بفضله ورحمته ، والذى ( أَحَلَّنَا ) أى
أنزلنا ( دَارَ المقامة ) أى : الدار التى لا انتقال لنا منها ، وإنما نحن
سنقيم فيها إقامة دائمة وهى الجنة التى منحها إياها بفضله وكرمه .وهذه
الدار ( لاَ يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ ) أى :لا يصيبنا فيها تعب ولا مشقة
ولا عناء . يقال : نصب فلان - كفرح - إذا نزل به التعب والإعياء .( وَلاَ
يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ) أى : ولا يصيبنا فيها كَلال وإعياء بسب التعب
والهموم ، يقال : لَغَب فلان لَغْباً ولُغُوباً . إذا اشتد به الإعياء
: والهزال .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما الفرق بين النصَب واللُّغوب؟قلت
النصب ، التعب والمشقة ، التى تصيب المنتصب للأمر ، المزاول له .وأما
. اللغوب ، فما يلحقه من الفتور بسبب النَصب . فالنصب : نفس المشقة والكلفة
. واللغوب : نتيجة ما يحدث منه من الكلال والفتور

والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها
كذلك نجزي كل كفور

كما فسرها الوسيط وبعد هذا البيان البليغ يشرح الصدور لحسن عاقبة المفحلين
- ساقت السورة الكريمة حال الكافرين ، وما هم فيه من عذاب مهين ، فقال ،
تعالى - : ( والذين كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ . . . بِذَاتِ الصدور
اى : ( والذين كَفَرُواْ ) فى الدنيا بكل ما يجب الإيمان به ( لَهُمْ ).( )
- فى الآخرة ( نَارُ جَهَنّمَ ) يعذبون فيها تعذيباً أليماً .ثم بين
سبحانه - حالهم فى جهنم فقال : ( لاَ يقضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلاَ
يُخَفّفُ عَنْهُمْ مّنْ عَذَابِهَا ) أى :لا يحكم عليهم فيما بالموت مرة
. أخرى كما ماتوا بعد انقضاء آجالهم فى الدنيا ، وبذلك يستريحون من العذب
ولا يخفف عنهم من عذاب جهنم ، بل هى كلمات خبت أو هدأ لهيبها ، عادت مرة
أخرى إلى شدتها ، وازدادت سعيرا .والمراد أنهم باقون فى العذاب الأليم بدون
موت ، أو حياة يستريحون فيها .( كَذَلِكَ نَجْزِي كُلّ كَفُورٍ ) أى : مثل
هذا الجزاء الرادع الفظيع ، نجزى فى الآخرة ، كل شخص كان فى الدنيا شديد
. . الجحود والكفران آيات ربه ، الدالة على وحدانيته وقدرته

وهم يصطرخون فيها ربنا اخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل اولم نعمركم ما
يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - :( وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا
( رَبّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الذي كُنّا نَعْمَلُ
بيان لما يجأرون به إلى ربهم وهم ملقون فى نار جهنم .ويصطرخون ، بمعنى
يستغيثون ويضجون بالدعاء رافعين أصواتهم ، افتعال من الصراخ ، وهو الصياح
. الشديد المصحوب بالتعب والمشقة ، ويستعمل كثيراً فى العويل والاستغاثة
وأصله يصترخون ، فأبدلت التاء طاء .وجملة ( رَبّنَآ أَخْرِجْنَا . . . )
مقول لقول محذوف .أى : وهم بعد أن ألقى بهم فى نار جهنم ، أخذوا يستغيثون
ويضجعون بالدعاء والعويل ويقولون : يا ربنا أخرجنا من هذه النار ، وأعدنا
إلى الحياة الدنيا ، لكى نؤمن بك وبرسولك ، ونعمل أعمالاً صالحة أخرى ترضيك
غير التى كنا نعملها فى الدنيا .وقولهم هذا يدل على شدة حسرتهم ، وعلى ،
اعترافهم بجرمهم ، وبسوء أعمالهم التى كانوا يعملونها فى الدنيا .وهنا
يأتيهم من ربهم الرد الذى يخزيهم فيقول - سبحانه - ( أَوَلَمْ
. نُعَمّرْكُمْ مّا يَتَذَكّرُ فِيهِ مَن تَذَكّرَ وَجَآءَكُمُ النذير
) والاستفهام للتوبيخ والتقريع ، والكلام على إضمار القول ، وقوله. ( . .
نُعَمّرْكُمْ ) من التعمير الإبقاء والإمهال فى الحياة الدانيا إلى
الوقت الذى كان يمكنهم فيه الإقلاع عن الكفر إلى الإيمان .و ( مَّا ) فى
) قوله ( يَتَذَكّرُ فِيهِ ) نكرة موصوفة بمعنى مدة . والضمير فى قوله
فِيهِ ) يعود إلى عمرهم الذى قضوه فى الدنيا .والمعنى : أن هؤلاء الكافرين
عندما يقولون بحسرة وضراعة : يا ربنا أخرجنا من النار وأعدنا إلى الدنيا

لنعمل عملاً صالحاً غير الذى كنا نعمله فيها ، يرد عليهم ربهم بقوله لهم على سبيل الزجر والتأنيب : أو لم نمهلكم فى الحياة الدنيا ، ونعطيكم العمر ، والوقت الذى كنتم تتمكنون فيه من التذكر والاعتبار واتباع طريق الحق وفضلاً عن كل ذلك فقد جاءكم النذير الذى ينذركم بسوء عاقبة إصراركم على كفركم ، ولكنكم كذبتموه وأعرضتم عن دعوته .والمراد بالنذير : جنسه فيتناول ، كل رسول أرسله الله - تعالى - إلى قومه ، فكذبوه ولم يستجيبوا لدعوته وعلى رأس هؤلاء المنذرين سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .والفاء فى قوله - تعالى - ( فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ) لترتيب الأمر بالذوق على ما قبلها من التعمير ومجئ النذير .أى : إذا كان الأمر كما ذكرنا لكم ، فاخسأوا فى جهنم ، واتركوا الصراخ والعويل ، وذوقوا عذبها الذى كنتم تكذبون به فى الدنيا ، فليس للمصرين على كفرهم من نصير ينصرهم ، أو يدفع عنهم شيئاً من العذاب الذى يستحقونه .

ان الله عالم غيب السماوات والارض انه عليم بذات الصدور

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - الآيات الكريمة ببيان سعة علمه . فقال : ( إِنَّ الله عَالِمُ غَيْبِ السماوات والأرض إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ) .أى : إن الله - تعالى - لا يخفى عليه شئ سواء أكان هذا الشئ فى السماوات أم فى الأرض ، إنه - سبحانه - عليم بما تضمره القلوب ، وما تخفيه الصدور ، وما توسوس به النفوس .

هو الذي جعلكم خلائف في الارض فمن كفر فعليه كفره ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم الا مقتا ولا يزيد الكافرين كفرهم الا خسارا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك جانباً من مظاهر فضله على عباده ، وأقام الأدلة على وحدانيته وقدرته ، فقال - تعالى - : ( هُوَ الذي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ . . . كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ) .وقوله - تعالى : - بيان لجانب من فضله ( هُوَ الذي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأرض ) : تعالى - على بنى آدم .و ( خَلاَئِفَ ) جملة خليفة ، وهو من يخلف غيره .أى هو - سبحانه - الذى جعلكم خلفاء فى أرضه ، وملككم كنوزها وخيراتها ومنافعها لكى تشكروه على نعمه ، وتخلصوا له العبادة والطاعة .أو جعلكم خلفاء لمن ، سبقكم من الأمم البائدة ، فاعتبروا بما أصابهم من النقم بسبب إعراضهم عن الهدى ، واتبعوا ما جاءكم به من رسولكم صلى الله عليه وسلم .وقوله ( فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ) أى : فمن كفر بالحق الذى جاءه به الرسول صلى الله عليه وسلم واستمر على ذلك ، فعلى نفسه يكون وبال كفره لا على غيره ). : وَلاَ يَزِيدُ الكافرين كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتاً ) أى : لا يزيدهم إلا بغضاً شديداً من ربهم لهم ، واحتقارهم لحالهم وغضباً عليهم . فالمقت : مصدر بمعنى البغض والكراهية ، وكانوا يقولون لمن يتزوج امرأة أبيه وللولد الذى يأتى عن طريق هذا الزواج ، المقتى ، أى : المبغوض ). وَلاَ يَزِيدُ الكافرين كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَسَاراً ) أى : ولا يزيدهم إصرارهم على كفرهم إلا خسارا وبوارا وهلاكاً فى الدنيا والآخرة .فالآية الكريمة تنفر اشد التنفير من الكفر ، وتؤكد سوء عاقبته ، تارة عن طريق بيان أنه مبغوض من الله - تعالى - ، وتارة عن طريق بيان أن المتلبس به ، لن يزداد إلا خسراناً وبوارا .

قل ارايتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله اروني ماذا خلقوا من الارض ام لهم شرك في السماوات ام اتيناهم كتابا فهم على بينت منه بل ان يعد الظالمون بعضهم بعضا الا غرورا

كما فسرها الوسيط ثم أمر الله - تعالى - رسوله صلى الله عليه وسلم أن يتحدى هؤلاء المشركين ، وأن يوبخهم على عنادهم وجحودهم فقال : ( قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ الأرض . . . ) .أى : قل - أيها الرسول الكريم - على سبيل التبكيت والتأنيث لهؤلاء المشركين . أخبرونى وأنبئونى عن حال شركائكم الذين عبدتموهم من دون الله ، ماذا فعلوا لكم من خير أو شر ، وأرونى أى جزء خلقوه من الأرض حتى استحقوا منكم الألوهية والشركة مع الله - تعالى - فى العبادة؟إنهم لم يفعلوا - ولن يفعلوا - شيئاً من ذلك ، فكيف أبحتم لأنفسكم عبادتهم؟وقوله ( أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السماوات ) تبكيت آخر لهم . أى : وقل لهم : إذا كانوا لم يخلقوا شيئاً من الأرض ، فهل لهم معنى شركة فى خلق السماوات أو فى التصرف فيها ، حتى يستحقوا لذلك مشاركتنا فى العبادة والطاعة .وقوله : ( أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً فَهُمْ على بَيِّنَةٍ مِّنْهُ ) تبكيت ثالث لهم . أى : وقل لهم إذا كانوا لم يخلقوا شيئاً من الأرض ، ولم يشاركونا فى خلق السماوات ، فهل نحن أنزلنا عليهم كتاباً أقررنا لهم فيه بمشاركتنا ، فتكون لهم الحجة الظاهرة البينة على صدق ما

يدعون؟والاستفهام فى جميع أجزاء الاية الكريمة للإنكار والتوبيخ .والمقصود بها قطع كل حجة يتذرعون بها فى شركهم ، وإزهاق باطلهم بألوان من الأدلة الواضحة التى تثبت جهالاتهم ، حيث أشركوا مع الله - تعالى - ما لا يضر ولا ينفع ، وما لا يوجد دليل أو ما يشبه الدليل على صحة ما ذهبوا إليه من كفر وشرك .ولذا ختمت الآية الكريمة بالإضراب عن أهامهم وبيان الأسباب التى حمتلهم على الشرك ، فقال - تعالى - : ( بَلْ إِن يَعِدُ الظالمون بَعْضُهُم بَعْضاً إِلاَّ غُرُوراً ) .أى : إن هؤلاء الشركاء لم يخلقوا شيئاً من الأرض ولا من السماء ، ولم نؤتهم كتاباً بأنهم شركاء لنا فى شئ ، بل الحق أن الظالمين يخدع بعضهم بعضاً ، ويعد بعضهم بعضاً بالوعود الباطلة ، بأن يقول الزعماء لأتباعهم : إن هؤلاء الآلهم هم شفعاؤنا عند الله ، وأننا ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، فيترتب على قولهم هذا ، أن ينساق الأتباع وراءهم كما تنساق الأنعام وراء راعيها .

ان الله يمسك السماوات والارض ان تزولا ولئن زالتا ان امسكهما من احد من بعده انه كان حليما غفورا

كما فسرها الوسيط وبعد أن بين - سبحانه - ما عليه المعبودات الباطلة من عجز وضعف ، أتبع ذلك ببيان جانب من عظيم قدرته ، وعميم فضله فقال : ( إِنَّ الله يُمْسِكُ السماوات والأرض أَن تَزُولاَ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ ) .أى : إن الله - تعالى - بقدرته وحدها ، يمسك السماوات والأرض كراهة أن نزولاً ، أو يمنعهما ويحفظهما من الزال أو الاضمحلال أو الاضطراب ، ولئن زالتا - على سبل الفرض والتقدير - فلن يستطيع أحد أن يمسكها ويمنعها عن هذا الزوال سوى الله - تعالى - ) إِنَّهُ ) - سبحانه - ( كَانَ ) وما زال ( حَلِيماً ) بعباده ( غَفُوراً ) لمن تاب إليه وأناب ، كما قال - تعالى - : ( وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحَاً ثُمَّ اهتدى ) قال الآلوسى : قوله ) ، وَلَئِن زَالَتَآ ) أى : إن أشرفتا على الزوال على سبيل الفرض والتقدير : إِنْ أَمْسَكَهُمَا ) أى : ما أمسكهما ( مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ ) أى من بعد إمساكه - تعالى - أو من بعد الزوال ، والجملة جواب القسم المقدر قبل . . لام التوطئة فى ( لَئِن ) . وجواب الشرط محذوف لدلالة جواب القسم عليه . و ( مِّن ) الأولى مزيدة لتأكيد العموم . والثانية للابتداء .

واقسموا بالله جهد ايمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن اهدى من احدى الامم فلما جاءهم نذير ما زادهم الا نفورا

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بما كان عليه المشركون من نقض العهود ، ومن مكر سئ حاق بهم ، ودعاهم - سبحانه - إلى الاعتبار بمن سبقهم ، وبين لهم جانباً من مظاهر فضله عليهم . ورأفته بهم فقال - تعالى - قال. ( وَأَقْسَمُواْ بالله جَهْدَ .كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً ) : القرطبى : قوله - تعالى - : ( وَأَقْسَمُواْ بالله جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أهدى مِنْ إِحْدَى الأمم ) هم قريش أقسموا قبل أن يبعث الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم حين بلغهم أن أهل الكتاب ، كذبوا رسلهم ، فلعنوا من كذب نبيه منهم . .و ( جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ) أى : أقوى أيمانهم وأغلظها والجهد : الطاقة والوسع والمشقة يقال : جهد نفسه يجهدها فى الأمر ، إذا بلغ بها أقصى وسعها وطاقتها فيه. : والمراد : أنهم أكدوا الأيمان ووثقوها ، بكل ألفاظ التوكيد والتوثيق .أى ) ، أن كفار مكة ، أقسموا بالله - تعالى - قسماً مؤكداً موثقاً مغلظاً لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ ) أى : نبى ينذرهم بأن الكفر باطل وأن الإيمان : بالله هو الحق .( لَّيَكُونُنَّ أهدى ) سبيلا ( مِنْ إِحْدَى الأمم ) أى ليكونن أهدى من اليهود ومن النصارى ومن غيرهم فى اتباعهم وطاعتهم ، لهذا الرسول الذى يأتيهم من عند ربهم لهدايتهم إلى الصراط المستقم .( فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ ) وهو محمد صلى الله عليه وسلم الذى هو أشرف الرسل ). ، مَّا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُوراً ) أى : ما زادهم مجيئه لهم نفورا عن الحق وتباعدا عن الهدى . أى : أنهم قبل مجئ الرسول صلى الله عليه وسلم كانوا يتمنون أن يكون الرسول منهم ، لا من غيرهم ، وأقسموا بالله بأنهم سيطيعونه فلما جاءهم الرسول صلى الله عليه وسلم نفروا عنه ولم يؤمنوا به .وإنما كان القسم بالله - تعالى - غاية أيمانهم ، لأنهم كانوا يحلفون بآبائهم - وبأصنامهم ، فإذا اشتد عليهم الحال ، وأرادوا تحقيق الحق ، حلفوا بالله تعالى - .وقوله ( لَّيَكُونُنَّ ) جواب القسم المقدر . وقوله : ( مَّا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُوراً ) جواب لمّا .

استكبارا في الارض ومكر السيئ ولا يحيق المكر السيئ الا باهله فهل ينظرون الا سنت الاولين فلن تجد لسنت الله تبديلا ولن تجد لسنت الله تحويلا

) كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( استكبارا فِي الأرض ) بدل من
نُفُوراً ) أو مفعول لأجله ( وَمَكْرَ السيىء ) معطوف على استكبارا
والمراد بمكرهم السيئ : تصميمهم على الشرك ، تكذيبهم للرسول صلى الله عليه.
وسلم ، من أجل المعاندة للحق ، والاستكبار عنه ، ومن أجل المكر السيئ الذى
استولى على نفوسهم ، والحق الدفين الذى فى قلوبهم .وقوله ( السيىء ) صفة
لموصوف مذحوف . وأصل التركيب : وأن مكروا المكر السيئ ، فأيم المصدر مقام
أن والفعل ، وأضيف إلى ما كان صفة له .وقوله - تعالى - : ( وَلاَ يَحِيقُ
المكر السيىء إِلاَّ بِأَهْلِهِ ) بيان لسوء عاقبة مكرهم ، وأن شره ما نزل
، إلا بهم .وقوله : ( يَحِيقُ ) بمعنى يحيط وينزل . يقول : حاق بفلان الشئ
إذا أحاط ونزل به . أى : ولا ينزل ولا يحيط شر لك المكر السيئ إلا بأهله
الماكرين .قال صاحب الكشاف : لقد حاق بهم يوم بدر . وعن النبى صلى الله
) : عليه وسلم : "لا تمركوا ولا تعينوا ماكرا ، فإن الله - تعالى - يقول
وَلاَ يَحِيقُ المكر السيىء إِلاَّ بِأَهْلِهِ ) ولا تبغوا ولا تعينوا
باغياً ، فإن الله - تعالى - يقول : ( ياأيها الناس إِنَّمَا بَغْيُكُمْ
على أَنفُسِكُمْ ) " .وقال الآلوسى - رحمه الله - : والاية عامة على الصحيح
والأمور بعواقبها ، والله - تعالى - بمهل ولا يهمل ، وراء الدنيا الآخرة ،
وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .وبالجملة : من مكر به غيره ، ونفذ ،
فيه المكر عاجلاً فى الظاهر ، ففى الحقيقة هو الفائز ، والماكر هو الهالك
وقوله - تعالى - : ( فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ آلأَوَّلِينَ ) حض.
لهم على الاستجابة للحق ، وترك المكر والمخادعة والعناد . والسنة : الطريقة
أى : إذا كان الأمر كما ذكرنا ، فهل ينتظر هؤلاء الماكرون ، إلا طريقتنا . .
فى الماكرين من قبلهم . وهى إهلاكهم ونزول العذاب والخسران بهم؟ إنهم ما
ينتظرون إلا ذلك .وقوله - سبحانه - : ( فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ الله
- تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ الله تَحْوِيلاً ) تأكيد لثبات سنته
تعالى - فى خلقه ، وتعليل لما يفيده الحكم بانتظارهم العذاب .أى : هذه
سنتنا وطريقتنا فى الماكرين لرسلهم ، أننا نمهلهم ولا نهملهم ، ونجعل
العاقبة السيئة لهم . ولن تجد لسنة الله - تعالى - فى خلقه تبديلا بأن يضع
غيرها مكانها ، ولن تجد لها تحويلا عما سارت عليه وجرت به .قال الجمل ما
ملخصه : قوله : ( فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ آلأَوَّلِينَ ) مصدر
مضاف لمفعوله تارة كما هنا ، ولفاعله أخرى كقوله ( فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ
الله تَبْدِيلاً ) لأنه - تعالى - سنها بهم ، فصحت إضافتها للفاعل وللمفعول
والفاء فى قوله ( فَلَن تَجِدَ ) لتعليل ما يفيده الحكم بانتظارهم العذاب ،
، ونفى وجدان التبديل والتحويل ، عبارة عن نفى وجودهما بالطريق البرهانى .
وتخصيص كل منهما بنفى مستقل لتأكيد انتفائهما .والمراد : بعدم التبديل . أن
. العذاب لا يبدل بغيره . وبعدم التحويل : أنه لا يحول عن مستحقه إلى غيره
. وجمع بينهما هنا : تعميما لتهديد المسئ لقبح مكره

اولم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا اشد
منهم قوة وما كان الله ليعجزه من شيء في السماوات ولا في الارض انه كان
عليما قديرا

، كما فسرها الوسيط ثم ساق لهم - سبحانه - وما يؤكد عدم تغيير سنته فى خلقه
بأن حضهم على الاعتبار بأحوال المهلكين من قبلهم ، والذين يرون بأعينهم
آثارهم ، فقال - تعالى - : ( أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأرض فَيَنظُرُواْ
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذين مِن قَبْلِهِمْ وكانوا أَشَدَّ مِنْهُمْ
، قُوَّةً ) .أى أعمى هؤلاء الماكرين عن التدبر ، ولم يسروا فى الأرض
فتيروا بأعينهم فى رحلاتهم إلى الشام أو إلى اليمن أو إلى غيرهما ، كيف
كانت عاقبة المكذبين من قبلهم ، لقد دمرناهم تدميرا ، مع أنهم كانوا أشد من
مشركى مكة قوة ، وأكثر جمعا ( وَمَا كَانَ الله لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ
فِي السماوات وَلاَ فِي الأرض ) أى وما كان من شأن الله - تعالى - أن يعجزه
شئ من الأشياء ، سواء أكان فى السماوات أم فى الأرض . بل كل شئ تحت أمره
وتصرفه .( إِنَّهُ ) - سبحانه - (كَانَ عَلِيماً ) بكل شئ ( قَدِيراً )
. على كل شئ

ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم الى
اجل مسمى فاذا جاء اجلهم فان الله كان بعباده بصيرا

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ببيان جانب من رحمته
بعباده فقال ( وَلَوْ يُؤَاخِذُ الله الناس بِمَا كَسَبُواْ ) من الذنوب أو
الخطايا .( مَا تَرَكَ على ظَهْرِهَا ) أى : على ظهر الأرض ( مِن دَآبَّةٍ
من الدواب التى تدب عليها . ( ولكن يُؤَخِّرُهُمْ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ) (
- وهو يوم القيامة .( فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ ) الذى حدده - سبحانه
لحسابهم ، جازاهم بما يستحقون (فَإِنَّ الله كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً )
أى :لا يخفى عليه شئ من أحوالهم . وبعد فهذا تفسير لسورة فاطر . نسأل

الله - تعالى - أن يجعله خالصاً لوجهه ، ونافعاً لعباده .وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

يس

كما فسرها الوسيط قوله - تعالى - يس من الألفاظ التى اختلف المفسرون فى معناها ، فمنهم من يرى أن هذه الكلمة اسم للسورة ، أو للقرآن ، أو للرسول صلى الله عليه وسلم .ومنهم من يرى أن معناها : يا رجل ، أو يا إنسان .ولعل أرجح الأقوال أن هذه الكلمة من الألفاظ المقطعة التى افتتحت بها بعض السور القرآنية ، للإشارة إلى إعجاز القرآن الكريم ، وللتنبيه إلى أن هذا القرآن المؤلف من جنس الألفاظ التى ينطقون بها ، هو من عند الله - تعالى - ، وأنهم ليس فى إمكانهم أو إمكان غيرهم أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور من مثله ، أو بسورة من مثله . . .قال الآلوسى : قوله - تعالى ( يس ) الكلام فيه كالكلام فى " ألم " ونحوه من الحروف المقطعة فى أوائل بعض السور ، إعرابا ومعنى عند الكثيرين .وظاهر كلام بعضهم أن " يس " بمجموعة ، اسم من أسمائه صلى الله عليه وسلم .وقرأ جمع بسكون النون مدغمة فى الواو ، وقرأ آخرون بسكونها مظهرة ، والقراءتان سبعيتان . .

والقران الحكيم

- كما فسرها الوسيط قوله - تعالى - : ( والقرآن الحكيم ) قسم منه - تعالى - بكتابه ذى الحكمة العالية . والهدايات السامية ، والتوجيهات السديدة ، والتشريعات القويمة ، والآداب الحميدة . . .

انك لمن المرسلين

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( إِنَّكَ لَمِنَ المرسلين ) جواب لهذا القسم .أى : وحق هذا القرآن الحكيم ، إنك أيها الرسول الكريم - لمن عبادنا الذين اصطفيناهم لحمل رسالتنا ، وتبليغ دعوتنا إلى الناس ، لكى يخلصوا العبادة لنا ، ولا يشركوا معنا فى ذلك غيرنا .وجاء هذا الجواب مشتملا على أكثر من مؤكد ، للرد على أولئك المشركين الذين استنكروا رسالة النبى صلى الله عليه وسلم وقالوا فى شأنه : " لست مرسلا " .قال بعض العلماء واعلم أن الأقسام الواقعة فى القرآن . وإن وردت فى صورة تأكيد المحلوف : عليه ، إلا أن المقصود الأصلى بها تعظيم المقسم به؛ لما فيه من الدلالة على اتصافه - تعالى - بصفات الكمال ، أو على أفعاله العجيبة ، أو على قدرته الباهرة فيكون المقصود من الحلف : الاستدلال به على عظم المحلوف عليه ، وهو هنا عظم شأن الرسالة . كأنه قال : إن من أنزل القرآن - وهو من هو فى عظم شأنه - هو الذى أرسل رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم - ومثل ذلك يقال له فى الأقسام التى فى السور الآتية . . .

على صراط مستقيم

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - ( على صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ) خبر ثان لحرف " إن " فى قوله - تعالى - قبل ذلك : ( إِنَّكَ لَمِنَ المرسلين ) .أى إنك - يا محمد - لمن أنبيائنا المرسلين ، على طريق واضح قويم ، لا اعوجاج : فيه ولا اضطراب ، ولا ارتفاع فيه ولا انخفاض ، بل هو فى نهاية الاعتدال والاستقامة .قال صاحب الكشاف : قوله : ( على صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ) خبر بعد خبر ، أوصلة للمرسلين .فإن قلت : أى حاجة إليه خبرا كان أو صلة ، وقد علم أن المرسلين لا يكونون إلا على صراط مستقيم؟قلت : ليس الغرض بذكره ما ذهبت إليه من تمييز من أرسل على صراط مستقيم عن غيره ممن ليس على صفته . وإنما الغرض وصفه ، ووصف ما جاء به من الشريعة ، فجمع بين الوصفين فى نظام واحد ، كأنه قال : إنك لمن المرسلين الثابتين على طريق ثابت ، وأيضا فإن التنكير فيه دل على أنه أرسل من بين الصراط المستقيم ، على صراط مستقيم لا يكتنه وصفه - أى : فى التضخيم والتعظيم - .

تنزيل العزيز الرحيم

كما فسرها الوسيط ثم مدح - سبحانه - كتابه بمدائح أخرى فقال : ( تَنزِيلَ العزيز الرحيم ) وقد قرأ بعض القراء السبعة : ( تنزيل ) بالنصب على المدح ، أو على المصدرية لفعل محذوف . أى : نزل الله - تعالى - القرآن تنزيل العزيز الرحيم .وقرأ البعض الآخر : ( تنزيل ) بالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف . أى : هذا القرآن هو تنزيل العزيز - الذى لا يغلبه غالب - ، الرحيم أى الواسع الرحمة بعباده .

لتنذر قوما ما انذر اباؤهم فهم غافلون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - الحكمة من إرساله لنبيه صلى الله عليه وسلم - فقال : ( لِتُنذِرَ قَوْماً مَّآ أُنذِرَ آبَآؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ) .واللام فى قوله : ( لِتُنذِرَ ) متعلقة بفعل مضمر يدل عليه قوله : ( إِنَّكَ لَمِنَ المرسلين ) .والإنذار : إخبار معه تخويف فى مدة تتسع للتحفظ من الخوف ، فإن لم تتسع له فهو إعلام وإشعار لا إنذار . وأكثر : ما يستعمل فى القرآن فى التخويف من عذاب الله - تعالى - .والمراد بالقوم كفار مكة الذين بعث النبى صلى الله عليه وسلم لإنذارهم ، وهذا لا يمنع أن رسالته عامة إلى الناس جميعا ، كما قال - تعالى - : ( قُلْ ياأيها الناس إِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ جَمِيعاً . . . ) و ( ما ) نافية ، والمراد - بآبائهم : آباؤهم الأقربون ، لأن آباءهم الأبعدون قد أرسل الله - تعالى إليهم إسماعيل - عليه السلام - .أى : أرسلناك - يا محمد - بهذه الرسالة من لدنا ، لتنذر قوما ، وهم قريش المعاصرون لك ، ولم يسبق لهم أو لآبائهم أن جاءهم نذير منا يحذرهم من سوء عاقبة الإشراك بالله - تعالى - فهم لذلك غافلون عما يجب عليهم نحو خالقهم من إخلاص العبادة له ، وطاعته فى السر والعلن .قال ابن كثير : قوله ( لِتُنذِرَ قَوْماً مَّآ أُنذِرَ آبَآؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ) يعنى بهم العرب ، فإنه ما أتاهم من نذير من قبله . وذكرهم وحدهم لا ينفى من عداهم ، كما أن ذكر بعض الأفراد لا ينفى العموم ، الذى وردت به الآيات والأحاديث المتواترة . . .وقال الجمل ما ملخصه : قوله ( لِتُنذِرَ قَوْماً ) أى العرب وغيرهم وقوله ( مَّآ أُنذِرَ ( . . . آبَآؤُهُمْ ) أى الأقربون ، إلا فآباؤهم الأبعدون قد أنذروا فآباء العرب الأقدمون أنذروا بإسماعيل ، وآباء غيرهم أنذروا بعيسى .. و " ما " نافية ، لأن قريشا لم يبعث إليهم نبى قبل نبينا صلى الله عليه وسلم فالجملة صفة لقوله ( قوما ) أى : قوما لم تنذروا . وقوله ( فَهُمْ غَافِلُونَ ) مرتب على الإنذار . . .

لقد حق القول على اكثرهم فهم لا يؤمنون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - مصير هؤلاء الغافلين ، الذين استمروا فى غفلتهم وكفرهم بعد أن جاءهم النذير ، فقال : ( لَقَدْ حَقَّ القول على أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ) .والجملة جواب لقسم محذوف . ومعنى حق ) ثبت ووجب .والمراد بالقول : العذاب الذى أعده الله - تعالى - لهم بسبب إصرارهم على كفرهم .أى : والله لقد ثبت وتحقق الحكم أزلا بالعذاب على أكثر هؤلاء المنذرين بسبب عدم إيمانهم برسالتك ، وجحودهم الحق الذى جئتهم به ، وإيثارهم باختيارهم الغى على الرشد ، والضلال على الهدى . . .وقال - سبحانه - ( على أَكْثَرِهِمْ ) لأن قلة منهم اتبعت الحق ، وآمنت به ، وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( إِنَّ الذين حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حتى يَرَوُا العذاب الأليم ).

انا جعلنا في اعناقهم اغلالا فهي الى الاذقان فهم مقمحون

كما فسرها الوسيط ثم صور - سبحانه - انكبابهم على الكفر ، وإصرارهم عليه ، تصويرا بليغا فقال : ( إِنَّا جَعَلْنَا في أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً فَهِىَ إِلَى الأذقان فَهُم مُّقْمَحُونَ ) .والأغلال : جمع غل - بضم الغين ، وهو القيد الذى تشد به اليد إلى العنق بقصد التعذيب والأذقان : جمع ذقن - بفتح الذال - وهو أسفل الفم .ومقمحون : من الإقماح ، وهو رفع الرأس مع غض البصر يقال : قمح البعير قموحا إذا رفع رأسه عن الحوض ولم يشرب . والفاء فى قوله ( فهى ) وفى قوله ( فهم ) : للتقريع .أى : إنا جعلنا فى أعناق هؤلاء الجاحدين قيودا عظيمة ، فهى - أى هذه القيود - واصلة إلى أذقانهم ، فهم بسبب ذلك مرفوعة رءوسهم ، مع غض أبصارهم ، بحيث لا يستطيعون أن يخفضوها - لان القيود التى وصلت إلى أذقانهم منعتهم من خفض رءوسهم .فقد شبه سبحانه - فى هذه الآية ، حال أولئك الكافرين ، المصرين على جحودهم وعنادهم بحال من وضعت الأغلال فى عنقه ووصلت إلى ذقنه ، ووجه الشبه أن كليهما لا يستطيع الانفكاك عما هو فيه .

وجعلنا من بين ايديهم سدا ومن خلفهم سدا فاغشيناهم فهم لا يبصرون

كما فسرها الوسيط ثم أكد - سبحانه - هذا الإصرار من الكافرين على كفرهم فقال : ( وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً ومِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ ) أى : إننا لم نكتف بجعل الأغلال فى أعناقهم ، بل أضفنا إلى ذلك أننا جعلنا من أمامهم حاجزا عظيما ومن خلفهم كذلك حاجزا عظيما . ( فأغشيناهم ) أى : فجلعنا على أبصارهم غشاوة

وأغطية تمنعهم من الرؤية ( فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ ) شيئا بسبب احتجاب
- الرؤية عنهم .فالآية الكريمة تمثيل آخر لتصميمهم على كفرهم ، حيث شبههم
سبحانه - بحال من أحاطت بهم الحواجز من كل جانب ، فمنعتهم من الرؤية
والإبصار .ولذا قال صاحب الكشاف عند تفسيره لهاتين الآيتين : ثم مثل
تصميمهم على الكفر ، وأنه لا سبيل على ارعوائهم ، بأن جعلهم كالمغلولين
المقمحين فى أنهم لا يلتفتون إلى الحق ، ولا يعطفون أعناقهم نحوه ، ولا
يطأطئون رءوسهم له ، وكالحاصلين بين سدين لا يبصرون ما قدامهم ولا ما خلفهم
فى أن لا تأمل ولا تبصر ، وأنهم متعاملون عن النظر فى آيات الله .وقد ذكروا
فى سبب نزول هاتين الآيتين روايات منها ما أخرجه ابن جرير عن عكرمة ، أن
أبا جهل قال : لئن رأيت محمدا لأفعلن ولأفعلن ، فأنزل الله - تعالى - قوله
فكانوا يقولن ( . . . إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً ) :
. لأبى جهل : هذا محمد صلى الله عليه وسلم فيقول : أين هو؟ ولا يبصره

وسواء عليهم اانذرتهم ام لم تنذرهم لا يؤمنون

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ
أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤمِنُونَ ) بيان لما وصل إليه
هؤلاء الجاحدون من عناد وانصراف عن الحق .وقوله ( سواء ) اسم مصدر بمعنى
الاستواء ، والمراد به اسم الفاعل . أى : مستو .أى : أن هؤلاء الذين جعلنا
فى أعناقهم أغلالا . . وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا ، مستو
عندهم إنذارك إياهم وعدمه ، فهم - لسوء استعداداهم وفساد فطرهم -لا يؤمنون
بالحق الذى جئتهم به سواء دعوتهم إليه أم لم تدعهم إليه ، وسواء خوفتهم
بالعذاب أم لم تخوفهم به ، لأنهم ماتت قلوبهم ، وصارت لا تتأثر بشئ مما
. . . تدعوهم إليه

انما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة واجر كريم

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - من هم أهل للتذكير فقال : ( إِنَّمَا
تُنذِرُ مَنِ اتبع الذكر ) .أى : إنما تنذر - أيها الرسول الكريم - إنذارا
. . نافعا ، أولئك الذين اتبعوا إرشادات القرآن الكريم وأوامره ونواهيه
وينفع إنذارك - أيضا - مع من ( وَخشِيَ الرحمن بالغيب ) أى : مع من خاف.
عقاب الرحمن دون أن يرى هذا العقاب ، ودون أن يرى الله - تعالى - الذى له
الخلق والأمر .هؤلاء هم الذين ينفع معهم الإنذار والتذكير والإرشاد ،
لأنهم فتحو قلوبهم للحق ، واستجابوا له .والفاء فى قوله : ( فَبَشِّرْهُ
بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ) لترتيب البشارة أو الأمر بها ، على ما
قبلها من اتباع الذكر والخشية .أى : فبشر - أيها الرسول الكريم - هذا النوع
من الناس ، بمغفرة عظيمة منا لذنوبهم ، وبأجر كريم لا يعلم مقداره أحد
. سوانا

انا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا واثارهم وكل شيء احصيناه في امام مبين

كما فسرها الوسيط ثم أكد - سبحانه - أن البعث حق ، وأن الجزاء حق ، لكى لا
) : يغفل عنهما الناس ، ولكى يستعدوا لهما بالإيمان والعمل الصالح فقال
إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الموتى . . . ) .أى : إنا نحن بقدرتنا وحدها نحيى
الموتى بعد موتهم ، ونعيدهم إلى الحياة مرة أخرى لكى نحاسبهم على أعمالهم
أى : وإنا نحن الذين نسجل ( وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَآثَارَهُمْ ).
عليهم أعمالهم التى عملوها فى الدنيا سواء أكانت هذه الأعمال صاحلة أم غير
صالحة .ونسجل لهم - أيضا - آثارهم التى تركوها بعد موتهم سواء أكانت صالحة
كعلم نافع ، أو صدقة جارية .. . أم غير صالحة كدار للهو واللعب ، وكرأى من
الآراء الباطلة التى اتبعها من جاء بعددهم ، وسنجازيهم على ذلك بما يستحقون
: من ثواب أو عقاب ( وَكُلَّ شيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ) أى
وكل شئ أثبتناه وبيناه فى أصل عظيم ، وفى كتاب واضح عندنا . ألا وهو اللوح
: المحفوظ ، أو علمنا الذى لا يعزب عنه شئ .قال الإمام ابن كثير ما ملخصه
وفى قوله : ( آثارهم ) قولان :أحدهما : ونكتب أعمالهم التى باشروها بأنفسهم
- وآثارهم التى أثروها - أى تركوها - من بعدهم ، فنجزيهم على ذلك - أيضا ،
إن خيرا فخيرا ، وإن شرا فشر . كقوله صلى الله عليه وسلم " من سن فى ،
الإسلام سنة حسنة ، فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده ، من غير أن ينقص
من أجورهم شئ ، ومن سن فى الإسلام سنة سيئة ، كان عليه وزرها ووزر من عمل
) بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شئ . . " .والثانى : أن المراد
وآثارهم ) أى : آثار خطاهم إلى الطاعة أو المعصية . فقد روى مسلم والإمام
أحمد عن جابر بن عبد الله قال : " خلت البقاع حول المسجد ، فأراد بنو سلمة
" : أن ينتقلوا قرب المسجد فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم
، إنه بلغنى أنكم تريدون أن تنتقلوا إلى المسجد؟ قالوا : نعم يا رسول الله
قد أردنا ذلك ، فقال : يا بنى سلمة ، دياركم تكتب آثاركم ، دياركم تكتب

آثاركم " " .هذا ، وتلك الرواية الصحيحة تشير إلى أن هذه الآية ليست مدنية - كما قيل - ، لأن هذه الرواية تصرح بأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد قال لبنى سلمة ، " دياركم تكتب آثاركم " أى : ألزموا دياركم تكتب آثاركم دون إشارة إلى سبب النزول .قال الآلوسى ما ملخصه : والأحاديث التى فيها . . أن الله - تعالى - أنزل هذه الآية ، حين أراد بنو سلمة أن ينتقلوا من ديارهم . معارضة بما فى الصحيحين من أن النبى صلى الله عليه وسلم قرأ لهم هذه الآية ، ولم يذكر أنها نزلت فيهم ، وقراءته صلى الله عليه وسلم لا تنافى تقدم النزول . أى : أن الآية مكية كبقية السورة .وبذلك نرى الآيات الكريمة ، قد أثبتت صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يبلغه عن ربه ، وبينت الحكمة من رسالته ، كما بينت أن يوم القيامة آت لا ريب فيه .

واضرب لهم مثلا اصحاب القرية اذ جاءها المرسلون

كما فسرها الوسيط ثم أمر الله - تعالى - رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقرأ على الناس - ليعتبروا ويتعظوا - قصة أصحاب القرية ، وما جرى بينهم وبين الرسل الذين جاءوا لهدايتهم وإرشادهم إلى الطريق المستقيم فقال - تعالى - : قال القرطبى ما ملخصه( . . . واضرب لَهُمْ مَّثَلاً أَصْحَابَ القرية ).
قوله - تعالى - : ( واضرب لَهُمْ مَّثَلاً أَصْحَابَ القرية ) وهذه القرية هى " أنطاكية " فى قول جميع المفسرين . . . والمرسلون : قيل : هم رسل من الله على الابتداء . وقيل : إن عيسى بعثهم إلى أنطاكية للدعاء إلى الله - تعالى - .ولم يرتض ابن كثير ما ذهب إليه القرطبى والمفسرون من أن المراد بالقرية " أنطاكية " كما أنه لم يرتض الرأى القائل بأن الرسل الثلاثة كانوا من عند عيسى - عليه السلام - فقد قال - رحمه الله - ما ملخصه : وقد تقدم عن كثير من السلف ، أن هذه القرية هى أنطاكية ، وأن هؤلاء الثلاثة كانوا رسلا من عيسى - عليه السلام - وفى ذلك نظر من وجوه :أحدها : أن ظاهر القصة يدل - على أن هؤلاء كانوا رسل الله - عز وجل - لا من جهة عيسى ، كما قال تعالى - : ( إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ اثنين فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ . . . ) .الثانى : أن أهل أنطاكية آمنوا برسل عيسى إليهم ، وكانوا أول مدينة آمنت بالمسيح عليه السلام ، ولهذا كانت عند النصارى ، إحدى المدن الأربعة التى فيها بتاركه - أى ، علماء بالدين المسيحى . .الثالث : أن قصة أنطاكية مع الحواريين أصحاب عيسى ، كانت بعد نزول التوراة ، وقد ذكر أبو سعيد الخدري وغيره ، أن الله تعالى بعد إنزاله التوراة لم يهلك أمة من الأمم عن آخرهم بعذاب يبعثه عليهم ، بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين . . .والذى يبدو لنا أن ما ذهب إليه الإمام ابن كثير هو الأقرب إلى الصواب وأن القرآن الكريم لم يذكر من هم أصحاب القرية ، لأن اهتمامه فى هذه القصة وأمثالها ، بالعبر والعظات التى تؤخذ منها .وضرب المثل فى القرآن الكريم كثيرا ما يستعمل فى تطبيق حالة غريبة ، بأخرى تشبهها ، كما فى قوله - تعالى - ( ضَرَبَ الله مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ امرأت نُوحٍ وامرأت لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ الله شَيْئاً وَقِيلَ ادخلا النارَ مَعَ الداخلين ) فيكون المعنى : واجعل - أيها الرسول الكريم - حال أصحاب القرية ، مثلا لمشركى مكة فى الإصرار على الكفر والعناد ، وحذرهم من أن مصيرهم سيكون كمصير هؤلاء السابقين ، الذين كانت عاقبتهم أن أخذتهم الصيحة فإذا هم خامدون ، لأنهم كذبوا المرسلين .وقوله - سبحانه - : ( إِذْ جَآءَهَا المرسلون ) بدل اشتمال من ( أَصْحَابَ القرية ) .والمراد بالمرسلين : الذين أرسلهم الله إلى أهل تلك القرية ، لهدايتهم إلى الحق .

اذ ارسلنا اليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا انا اليكم مرسلون

كما فسرها الوسيط وقوله : ( إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ اثنين فَكَذَّبُوهُمَا . . ) بيان لكيفية الإرسال ولموقف أهل القرية ممن جاءوا لإرشادهم إلى الدين الحق .أى : إن موقف المشركين منك - أيها الرسول الكريم - ، يشبه موقف أصحاب القرية من الرسل الذين أرسلناهم لهدايتهم ، إذ أرسلنا إلى أصحاب هذه القرية اثنين من رسلنا ، فكذبوهما .وأعرضوا عن دعوتهما .والفاء فى قوله ( فكذبوهما ) للإفصاح ، أى : أرسلنا إليهم اثنين لدعوتهم إلى إخلاص العبادة لنا فذهبا إليه فكذبوهما .وقوله : فعززنا بثالث : أى : فقوينا الرسالة برسول ثالث ، من التعزيز بمعنى التقوية ، ومنه قولهم . تعزز لحم الناقة ، إذا اشتد وقوى . وعزز المطر الأرض ، إذا قواها وشدها وأرض عزاز ، إذا كانت صلبة قوية .ومفعول ( فعززنا ) محذوف لدلالة ما قبله عليه أى : فعززناهما برسول ثالث ( فقالوا ) أى الرسل الثلاثة لأصحاب القرية ال إلى غيركم ، فأطيعونا فيما ندعوكم ( إِنَّآ إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ) : إليه من إخلاص العبادة لله - تعالى - ، ونبذ عبادة الأصنام .

قالوا ما انتم الا بشر مثلنا وما انزل الرحمن من شيء ان انتم الا تكذبون

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - ما دار بين الرسل وأصحاب القرية من محاورات فقال : ( قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ الرحمن مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ ) .أى : قال أصحاب القرية للرسل على سبيل الاستنكار والتطاول : أنم لستم إلا بشراً مثلنا فى البشرية ، ولا مزية لكم علينا ، وكأن البشرية فى زعمهم تتنافى مع الرسالة ، ثم أضافوا إلى ذلك قولهم : وما أنزل الرحمن من شئ مما تدعوننا إليه .ثم وصفوهم بالكذب فقالوا لهم : ما أنتم إلا كاذبون ، فيما تدعونه من أنكم رسل إلينا .وهكذا قابل أهل القرية رسل الله ، بالإعراض عن دعوتهم وبالتطاول عليهم ، وبالإنكار لما جاءوا به ، وبوصفهم بالكذب فيم يقولونه .

قالوا ربنا يعلم انا اليكم لمرسلون

كما فسرها الوسيط ولكن الرسل قابلوا كل ذلك بالأناة والصبر ، شأن الواثق من صدقه ، فقالوا لأهل القرية : ( رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ . وَمَا عَلَيْنَآ إِلاَّ البلاغ المبين )أى : قالوا لهم ، بثقة وأدب : ربنا - وحده - يعلم إنا إليكم لمرسلون ، وكفى بعلمه علما وبحكمه حكما ، وما علينا بعد ذلك بالنسبة لكم إلا أن نبلغكم ما كلفنا بتبيلغه إليكم تبليغا واضحا ، لا غموض فيه ولا التباس .فأنت ترى أن الرسل لم يقابلوا سفاهة أهل القرية بمثلها ، وإنما قابلوا تكذيبهم لهم . بالمنطق الرصين ، وبتأكيد أنهم رسل الله ، وأنهم صادقون فى رسالتهم ، لأن قولهم ( رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ) جار مجرى القسم فى التوكيد .

وما علينا الا البلاغ المبين

كما فسرها الوسيط وقوله : ( وَمَا عَلَيْنَآ إِلاَّ البلاغ المبين ) تحديد للوظيفة التى أرسلهم الله - تعالى - من أجلها .

قالوا انا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب اليم

كما فسرها الوسيط ولكن أهل القرية لم يقتنعوا بهذا المنطق السليم ، بل ردوا على الرسل ردا قبيحا ، فقالوا لهم : ( إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ) والتطير : التشاؤم . أى قالوا فى الرد عليهم : إنا تشاءمنا من وجودكم بيننا ، وكرهنا النظر إلى وجوهكم ، وإذا لم ترحلوا عنا ، وتكفوا عن دعوتكم لنا إلى ما لا نريده ، لنرجمنكم بالحجارة ، وليمسنكم منا عذاب شديد الألم قد ينتهى بقتلكم وهلاككم .قال صاحب الكشاف : قوله ( تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ) أى : تشاءمنا بكم ، وذلك أنهم كرهوا دينهم ، ونفرت منه نفوسهم وعادة الجهال أن يتيمنوا بكل شئ مالوا إليه ، واشتهوه وآثروه وقبلته طباعتهم ، ويتشاءمولا مما نفروا عنه وكرهوه ، فإن أصابهم خير أو بلاء قالوا : ببركة هذا وبشؤم هذا .

قالوا طائركم معكم ائن ذكرتم بل انتم قوم مسرفون

كما فسرها الوسيط ولكن الرسل قابلوا هذا التهديد - أيضا - بالثبات ، والمنطق الحكيم فقالوا لهم : ( طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَإِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ) .أى : قال الرسل لأهل القرية : ليس الأمر كما ذكرتم من أننا سبب شؤمكم ، بل الحق أن شؤمكم معكم ، ومن عند أنفسكم بسبب إصراركم على كفركم ، وإعراضكم عن الحق الذى جئناكم به من عند خالقكم وجواب الشرط لقوله : ( أَإِن ذُكِّرْتُم ) محذوف ، والتقدير : أئن وعظتم وذكرتم بالحق ، وخوفتهم من عقاب الله . . تطيرتم وتشاءمتم .وقوله : ( بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ) إضراب عما يقتضيه الاستفهام والشرط من كون التذكير سببا للشؤم .أى : ليس الأمر كما ذكرتم من أن وجودنا بينكم هو سبب شؤمكم ، بل الحق أنكم قوم عادتكم الإسراف فى المعاصى ، وفى إيثار الباطل على الحق ، والغى على الرشد ، والتشاؤم على التيامن .ثم بين - سبحانه - بعد تلك المحاورة التى دارت بين أهل القرية وبين الرسل ، والتى تدل على أن أهل القرية كانوا مثلا فى السفاهة والكراهة للخير والحق .

وجاء من اقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين

كما فسرها الوسيط بين - سبحانه - بعد ذلك ما دار بين أهل القرية ، وبين رجل صالح منهم ساءه أن يرى من قومه تنكرهم لرسل الله - تعالى - وتطاولهم عليهم

وتهديدهم لهم بالرجم : فقال - تعالى - :( وَجَآءَ مِنْ أَقْصَى المدينة ، رَجُلٌ . . ) .قوله - سبحانه - : ( وَجَآءَ مِنْ أَقْصَى المدينة رَجُلٌ يسعى . . ) معطوف على كلام محذوف يفهم من سياق القصة ، والتقدير :وانتشر خبر الرسل بين أصحاب القرية ، وعلم الناس بتهديد بعضهم لهم ( وَجَآءَ مِنْ أَقْصَى المدينة ) أى : رجل ذو قطرة سليمة ، يسرع الخطا لينصح قومه وينهاهم عن إيذاء الرسل ويأمرهم باتباعهم .قالوا : وهذا الرجل كان اسمه حبيب النجار ، لأنه كان يشتغل بالنجارة .وقد أكثر بعض المفسرين هنا من ذكر صناعته وحاله قبل مجيئه ، ونحن نرى أنه لا حاجة إلى ذلك ، لأنه لم يرد نص صحيح يعتمد عليه فيما ذكروه عنه .ويكفيه فخرا هذا الثناء من الله - تعالى - عليه بصرف النظر عن اسمه أو صنعته أو حاله ، لأن المقصود من هذه القصة وأمثالها فى القرآن الكريم هو الاعتبار والاقتداء بأهل الخير .وعبر هنا بالمدينة بعد التعبير عنها فى أول القصة بالقرية للإشارة إلى سعتها وإلى أن خبر هؤلاء الرسل قد انتشر فيها من أولها إلى آخرها .والتعبير بقوله ( يسعى ) : يدل على صفاء نفسه ، وسلامه قلبه ، وعلو همته ، ومضاء عزيمته حيث أسرع بالحضور إلى الرسل وإلى قومه ، ليعلن أمام الجميع كلمة الحق ، ولم يرتض أن يقبع فى بيته - كما يفعل الكثيرون - بل هرول نحو قومه ، ليقوم بواجبه فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .وقوله - تعالى - : ( قَالَ ياقوم اتبعوا المرسلين ) بيان لما بدأ ينصح قومه به بعد وصوله إليهم .أى : لقومه على سبيل الإرشاد والنصح ( ياقوم اتبعوا المرسلين ) الذين ( قال ) جاءوا لهدايتكم إلى الصراط المستقيم ، ولإنقاذكم من الضلال المبين الذى انغمستم فيه .

اتبعوا من لا يسالكم اجرا وهم مهتدون

كما فسرها الوسيط ثم أكد هذه الدعوة بقوله : ( اتبعوا مَن لاّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ) اتبعوا هؤلاء الرسل الذين جاءوا بأمر ربكم إليكم ، ليرشدوكم إلى الطريق الحق ، والحال أنهم فى أنفسهم ثابتون على الهدى ، راسخون فى التمسك بالعقيدة السليمة .

وما لي لا اعبد الذي فطرني واليه ترجعون

كما فسرها الوسيط ثم أخذ بعد ذلك فى حض قومه على اتباع الحق ، عن طريق بيان الأسباب التى حملته على الإيمان ، حتى يستثير قلوبهم نحو الهدى ، فقال - كما حكى القرآن عنه - : ( وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الذي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرحمن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلاَ يُنقِذُونِ ( إني إِذاً لَّفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ . إني آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فاسمعون .
- أى : قال الرجل الصالح لقومه : وأى مانع يمنعنى من أن أعبد الله - تعالى - وحده ، لأنه هو الذى خلقنى ولم أكن قبل ذلك شيئا مذكورا ، وهو الذى إليه يكون مرجعكم بعد مماتكم ، فيحاسبكم على أعمالكم فى الدنيا ، ويجازيكم عليها بما تستحقون من ثواب أو عقاب .

اتخذ من دونه الهة ان يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئا ولا ينقذون

كما فسرها الوسيط والاستفهام فى قوله : ( أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً ) للإنكار والنفى .أى :لا يصح ولا يجوز أن اتخذ معه فى العبادة آلهة ( .. أخرى ، كائنة ما كانت هذه الآلهة ، لأنه ( إِن يُرِدْنِ الرحمن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً ) من النفع ، حتى ولو كان هذا النفع فى نهاية القلة والحقارة .( وَلاَ يُنقِذُونِ ) : ولا تستطيع هذه الآلهة إنقاذى وتخليصى مما يصيبنى من ضر أراد الرحمن أن ينزله بى .

اني اذا لفي ضلال مبين

كما فسرها الوسيط ( إني إِذاً ) لو اتخذت هذه الآلهة شريكا مع الله فى العبادة ( لَّفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ) أى : لأكونن فى ضلال واضح لا يخفى على أحد من العقلاء .ثم ختم حديثه معهم بإعلان إيمانه بكل صراحة وقوة فقال ( إني آمَنتُ بِرَبِّكُمْ ) ، الذى خلقكم ورزقكم ( فاسمعون ) أى : فاسمعوا ما نطقت به ، واشهدوا لى بأنى آمنت بربكم الذى خلقكم وخلقنى ، وكفرت بهؤلاء الشركاء ، ولن أشرك معه - سبحانه - فى العبادة أحدا . مهما كانت النتائج .
وهكذا نرى الرجل الصالح الذى استقر الإيمان فى قلبه ومشاعره ووجدانه يدافع عن الحق الذى آمن به دفاعا قويا دون أن يخشى أحد إلا الله ، ويدعو قومه بشتى الأساليب إلى اتباعه ويقيم لهم ألوانا من الأدلة على صحة ما يدعو إليه .ثم يصارحهم فى النهاية ، ويشهدهم على هذه المصارحة ، بأنه قد آمن بما جاء به الرسل إيمانا لا يقبل الشك أو التردد ، ولا يثنيه عنه وعد أو وعيد

أو إيذاء أو قتل .ورحم الله صاحب الكشاف ، فقد أجاد فى تصوير هذه المعانى
فقال ما ملخصه : قوله ( اتبعوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ
مُّهْتَدُونَ ) كلمة جامعة فى الاستجابة لدعوة الرسل ، أى :لا تخسرون معهم
شيئا من دنياكم ، وتربحون صحة دينكم ، فينتظم لكم خير الدنيا وخير الآخرة
ثم أبرز الكلام فى مرض المناصحة لنفسه ، وهو يريد مناصحتهم ، وليتلطف بهم.
وبداريهم . . . فقال : ( وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الذي فَطَرَنِي
وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ) .

اني امنت بربكم فاسمعون

كما فسرها الوسيط ثم قال : ( إني آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فاسمعون ) يريد
فاسمعوا قولى وأطيعونى ، فقد نبهتكم على الصحيح الذى لا معدل عنه ، أن
العبادة لا تصح إلا لمن منه مبتدؤكم وإليه مرجعكم .

قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومي يعلمون

كما فسرها الوسيط ولكن هذه النصائح الغالية الحكيمة من الرجل الصالح لقومه
، لم تصادف أذنا واعية بل إن سياق القصة بعد ذلك ليوحى بأن قومه قتلوه ،
فقد قال - تعالى - بعد أن حكى نصائح هذا الرجل لقومه ، ( قِيلَ ادخل الجنة
: أى : قالت الملائكة لهذا الرجل الصالح عند موته على سبيل البشارة( . .
ادخل الجنة بسبب إيمانك وعملك الطيب .قال الآلوسى : قوله : ( قِيلَ ادخل
الجنة . . ) استئناف لبيان ما وقع له بعد قوله ذلك .والظاهر أن الأمر
المقصود به الإذن له بدخول الجنة حقيقة ، وفى ذلك إشارة إلى أن الرجل قد
فارق الحياة ، فعن ابن مسعود أنه بعد أن قال ما قال قتلوه . .وقيل : الأمر
للتبشير لا للإذن بالدخول حقيقة ، أى : قالت ملائكة الموت وذلك على سبيل
البشارة له بأنه من أهل الجنة - يدخلها إذا دخلها المؤمنون بعد البعث .

بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين

. كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( قَالَ ياليت قَوْمِي يَعْلَمُونَ
بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ المكرمين ) استئناف بيانى لبيان
، ما قاله عند البشارة .أى : قيل له أدخل الجنة بسبب إيمانك وعملك الصالح
فرد وقال : يا ليت قومى الذين قتلونى ولم يسمعوا نصحى ، يعلمون بما نلته من
ثواب من ربى ، فقد غفر لى - سبحانه - وجعلنى من المكرمين عنده ، بفضله
وإحسانه . .قال ابن كثير : ومقصوده - من هذا القول - أنهم لو اطلعوا على ما
حصل عليه من ثواب ونعيم مقيم ، لقادهم ذلك إلى اتباع الرسل ، فرحمه الله
ورضى عنه ، فلقد كان حريصا على هداية قومه .روى ابن أبى حاتم أن عروة بن
مسعود الثقفى ، قال للنبى صلى الله عليه وسلم : " ابعثنى إلى قومى أدعوهم
: إلى الإسلام ، فقال له صلى الله عليه وسلم " إنى أخاف أن يقتلوك " فقال
يا رسول الله ، لو وجدونى نائما ما أيقظونى . فقال له رسول الله صلى الله
: عليه وسلم " انطلق إليهم " فانطلق إليهم ، فمر على اللات والعزى ، فقال
لأصْبِحَنك غدا بما يسؤوك ، فغضبت ثقيف فقال لهم : يا معشر ثقيف : أسلموا
: تسلموا - ثلاث مرات - . فرماه رجل منهم فأصاب أكْحَلَه فقتله - والأكحل
عرق فى وسط الذراع - فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم - فقال : " هذا
مثله كمثل صاحب يس ( قَالَ ياليت قَوْمِي يَعْلَمُونَ . بِمَا غَفَرَ لِي
رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ المكرمين ) " .وقال صاحب الكشاف ما ملخصه : وقوله
إنما تمنى علم قومه بحاله ، ليكون ( . . ياليت قَوْمِي يَعْلَمُونَ ) :
علمهم بما سببا لاكتساب مثلها لأنفسهم ، بالتوبة عن الكفر ، والدخول فى
الإيمان . . وفى حديث مرفوع : " نصح قومه حيا وميتا " .وفيه تنبيه عظيم
على وجوب كظم الغيظ والحلم عن أهل الجهل والترؤف على من أدخل نفسه فى غمار
الأشرار وأهل البغى ، والتشمر فى تخليصه ، والتلطف فى افتدائه ، والاشتغال
، بذلك عن الشماتة به ، والدعاء عليه ، ألا ترى كيف تمنى الخير لقتلته
وللباغين له الغوائل وهم كفرة وعبدة أصنام .

وما انزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما نزل بأصحاب القرية من عذاب أهلكهم
فقال : ( وَمَآ أَنزَلْنَا على قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ ) أى : من بعده موته
لأنهم كانوا أحقر وأهون من أن نفعل معهم ذلك ( مِن جُندٍ مِّنَ السمآء ).
أى : وما صح وما استقام فى حكمتنا أن ننزل ( وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ).
عليهم جندا من السماء ، لهوان شأنهم ، وهوان قدرهم .

ان كانت الا صيحة واحدة فاذا هم خامدون

كما فسرها الوسيط ( إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً ) أى : ما كانت عقوبتنا لهم إلا صيحة واحدة صاحها بهم جبريل بأمرنا .( فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ) أى : هامدون ميتون ، شأنهم فى ذلك كشأن النار التى أصابها الخمود والانطفاء ، بعد أن كانت مشتعلة ملتهبة ، يقال .خمدت النار تخمد خمودا . إذا سكن لهيبها ، وانطفأ شررها ، وخمد الرجل - كقعد - إذا مات وانقطعت أنفاسه .وهذكا كانت نهاية الذين كذبوا المرسلين ، وقتلوا المصلحين . فقد نزلت بهم عقوبة الله - تعالى - فجعلتهم فى ديارهم جاثمين ،

يا حسرة على العباد ما ياتيهم من رسول الا كانوا به يستهزئون

كما فسرها الوسيط وبعد أن بين - سبحانه - سوء مصارع المكذبين ، أتبع ذلك ) : - بدعوة الناس إلى الاتعاظ بذلك من قبل فوات الأوان ، فقال - تعالى ياحسرة عَلَى العباد مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ )والحسرة : الغم والحزن على ما فات ، والندم عليه ندما لا نفع من ورائه ، كأن المتحسر قد انحسرت عنه قواه وذهبت ، وصار فى غير استطاعته إرجاعها .و " يا " حرف نداء و " حسرة " منادى ونداؤها على المجاز ، بتنزيلها منزلة العقلاء .والمراد بالعباد : أولئك الذين كذبوا الرسل وآثروا العمى على الهدى ، ويدخل فيهم دخولا أوليا أصحاب تلك القرية المهلكة ، كانوا فى دنياهم ما يأتيهم من رسول من الرسل ، إلا كانوا به يستهزئون ويتغامزون ، ويستخفون به وبدعوته ، مع أنهم - لو كانوا يعقلون . لقابلوا دعوة رسلهم بالطاعة والانقياد .قال صاحب الكشاف : قوله : ( ياحسرة عَلَى العباد . . . ) نداء للحسرة عليهم ، كأنما قيل لها : تعالى يا حسرة فهذه من أحوالك التى حقك أن تحضرى فيها ، وهى حال استهزائهم بالرسل .والمعنى : أنهم أحقاء بأن يتحسر عليهم المتحسرون ، ويتلهف علهيم المتلهفون . أو هم متحسر عليهم من جهة الملائكة والمؤمنين من الثقلين .وقرئ : يا حسرة العباد منهم على أنفسهم ، بسبب تكذيبهم لرسلهم ، واستهزائهم بهم .

الم يروا كم اهلكنا قبلهم من القرون انهم اليهم لا يرجعون

كما فسرها الوسيط ثم وبخ - سبحانه - كفار مكة ، بسبب عدم اعتبارهم بمن سبقهم فقال : ( أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ القرون أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ ) .والقرون : جمع قرن . وهم القوم المتقرنون فى زمن واحد . و " كم " خبرية بمعنى كثير .أى : ألم يعلم كفار مكة أننا أهلكنا كثيرا من الأمم السابقة عليهم ، بسبب إصرارهم على كفرهم ، واستهزائهم برسلهم ، وأن هؤلاء المهلكين لا يرجعون إليهم ليخبروهم بما جرى لهم ، لأنهم لن يستطيعوا ذلك فى الدنيا ، لحكمة أرادها الله - تعالى - .

وان كل لما جميع لدينا محضرون

كما فسرها الوسيط ولكن الجميع سيعودون إليه - سبحانه - وسيبعثهم يوم القيامة من قبورهم للحساب والجزاء ، كما قال - تعالى - : ( وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ) .و " إن " حرف نفى ، و " كل " مبتدأ ، والتنوين فيه عوض عن المضاف إليه و " لما " بمعنى إلا . و ( جميع ) خبر المبتدأ . و ( محضرون ) خبر ثان .أى : لقد علم أهل مكة وغيرهم أننا أهلكنا كثيرا من القرى الظالم أهلها . وأن هؤلاء المهلكين لن يرجعوا إلى أهل مكة فى الدنيا ، ولكن الحقيقة التى لا شك فيها أ ، ه ما من أمة من الأمم ، أو جماعة من الجماعات المتقدمة أو المتأخرة إلا ومرجعها إلينا يوم القيامة ، لنحاسبها على أعمالها ، ولنجازيها بالجزاء الذى تستحقه .كما قال - سبحانه - فى آية أخرى : ( وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ )

واية لهم الارض الميتة احييناها واخرجنا منها حبا فمنه ياكلون

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ألوانا من الأدلة الدالة على وحدانيته وقدرته ، وهذه الأدلة منها ما هو أرضى ، ومنها ما هو سماوى ، ومنه ما هو بحري ، وكلها تدل - أيضا - على فضله ورحمته ، قال - تعالى - : - وَآيَةٌ لَّهُمُ الأرض الميتة . . . ) .قال الإمام الرازى ما ملخصه قوله : ( وَآيَةٌ لَّهُمُ الأرض الميتة أَحْيَيْنَاهَا ) ، وجه تعلقه بما قبله أنه - سبحانه - لما قال : ( وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ) كان ذلك إشارة إلى الحشر ، فذكر ما يدل على إمكانه قطعا لإنكارهم واستبعادهم ، وعنادهم فقال : ( وَآيَةٌ لَّهُمُ الأرض الميتة أَحْيَيْنَاهَا . . . ) أى : وكذلك نحيى الموتى . . .والمراد بالآية هنا العلامة والبرهان والدليل .والمراد بالأرض الميتة : الأرض الجدباء التى لا نبات فيها .والمراد بالحب : جنسه من حنطة وشعير وغيرهما .أى : ومن العلامات

الواضحة لهؤلاء المشركين على قدرتنا على إحياء الموتى ، أننا ننزل الماء على الأرض الجدباء ، فتهتز وتربو ، وتخرج ألوانا وأصنافا من الحبوب التى يعيشون عليها . ويأكلون منها .وذكر - سبحانه - لفظ ( آية ) للإشعار بأنها آية عظيمة ، كان ينبغى لهؤلاء المشركين أن يلتفتوا إليها ، لأنهم يشاهدون بأعينهم الأرض القاحلة السوداء ، كيف تتحول إلى أرض خضراء بعد نزول المطر عليها .والله - تعالى - الذى قدر على ذلك ، قادر - أيضا - على إحياء الموتى وإعادتهم إلى الحياة .وقوله : ( أَحْيَيْنَاهَا ) كلام مستأنف مبين لكيفية كون الأرض الميتة آية .وقدم - سبحانه - الجار والمجرور فى قوله ( فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ) للدلالة على أن الحَبّ هو الشئ الذى تكون منه معظم المأكولات التى يعيشون عليها ، وأن قِلَّته تؤدى إلى القحط والجوع .

وجعلنا فيها جنات من نخيل واعناب وفجرنا فيها من العيون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعض النعم الأخرى التى تحملها الأرض لهم فقال : ( وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ العيون ) .والآية الكريمة معطوفة على قوله : ( أَحْيَيْنَاهَا ) ، ونخيل : جمع نخل ، كعبيد جمع عبد ، وأعناب : جمع عنب والعيون ، جمع عين . والمراد بها الآبار التى تسقى بها الزروع .أى : أحيينا هذه الأرض الميتة بالماء . . وجعلنا فيها - بقدرتنا ورحمتنا - بساتين كثيرة من نخيل وأعناب ، وفجرنا وشققنا فيها كثيرا من الآبار والعيون التى تسقى بها تلك الزروع والثمار .وخص النخيل والأعناب بالذكر ، لأنها أشقر الفواكه المعروفة لديهم ، وأنفعها عندهم .

لياكلوا من ثمره وما عملته ايديهم افلا يشكرون

كما فسرها الوسيط واللام فى قوله : ( لِيَأْكُلُواْ مِن ثَمَرِهِ ) متعلق بقوله : ( وجعلنا . . . ) .والضمير فى قوله : ( مِن ثَمَرِهِ ) يعود إلى المذكور من الجنات والنخيل والأعناب . أو إلى الله - تعالى - .أى : وجعلنا فى الأرض ما جعلنا من جناب ومن نخيل ومن أعناب ، ليأكلوا ثمار هذه الأشياء التى جعلناهم لهم ، وليشكرونا على هذه النعم .و " ما " فى قوله : ( وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ ) الظاهر أنها نافية والجملة حالية ، والاستفهام للحض على الشكر .أى : جعلنا لهم فى الأرض جنات من نخيل وأعناب ، ليأكلوا من ثمار ما جعلناه لهم ، وإن هذه الثمار لم تصنعها أيديهم وإنما الذى أوجدها وصنعها هو الله - تعالى - بقدرته ومشيئته .وما دام الأمر كذلك ، فلا شكرونا على نعمنا ، وأخلصوا العبادة لنا .قال ابن كثير : وقوله : ( وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ) أى : وما ذاك كله إلا من رحمتنا بهم ، لا بسعيهم ولا كدهم ، ولا بحولهم وقوتهم . قاله ابن عباس وقتادة . ولهذا قال : ( أَفَلاَ يَشْكُرُونَ ) أى : فهلا يشكرونه على ما أنعم به عليهم من هذه النعم التى لا تعد ولا تحصى .ويصح أن تكون " ما " هنا موصولة فيكون المعنى : ليأكلوا من ثمره ومن الذى عملته أيديهم من هذه الثمار كالعصير الناتج منها ، وكغرسهم لتلك الأشجار وتعهدها بالسقى وغيره ، إلى أن آتت أكلها .قال الشوكانى : وقوله : ( وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ) معطوف على ثمره ، أى : ليأكلوا من ثمره ، ويأكلوا مما عملته أيديهم كالعصير والدبس ونحوهما وكذلك ما غرسوه وحفروه على أن " ما " موصولة ، وقيل : هى نافية ، والمعنى : لم يعملوه بأيديهم ، بل العامل له هو الله . .

سبحان الذي خلق الازواج كلها مما تنبت الارض ومن انفسهم ومما لا يعلمون

كما فسرها الوسيط ثم أثنى - سبحانه - على ذاته بما هو أهل له من ثناء فقال : ( سُبْحَانَ الذي خَلَقَ الأزواج كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأرض وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ ) .ولفظ ( سبحان ) اسم مصدر منصوب على أنه مفعول مطلق بفعل محذوف ، والتقدير : سبحت الله سبحانا : أى : تسبيحا . بمعنى نزهته تنزيها عن كل سوء ، وعظمته تعظيما .و " من " فى الآية الكريمة للبيان .أى : ننزه الله - تعالى - تنزيها عن كل سوء ، ونعظمه تعظيما لا نهاية له ، فهو - عز وجل - ( الذي خَلَقَ الأزواج كُلَّهَا ) أى : الأنواع ، والأصناف كلها ذكورا وإناثا .( مِمَّا تُنبِتُ الأرض ) أى خلق الأصناف كلها التى تنبت فى الأرض من حبوب وغيرها .( وَمِنْ أَنفُسِهِمْ ) أى : وخلقها من أنفسهم إذ الذكر من الأنثى ، والأنثى من الذكر .( وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ ) أى : وخلق هذه الأصناف كلها من أشياء لا علم لهم بها ، وإنما مرد علمها إليه وحده - تعالى - كما قال - سبحانه - ( وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ) فالمقصود من الآية الكريمة بيان لمظهر من مظاهر قدرته - تعالى - وبديع خلقه ، حيث خلق الأصناف كلها ، نرى بعضها نابتا فى الأرض ، ونرى بعضها متمثلا فى الإنسان المكون من ذكر وأنثى ، وهناك مخلوقات أخرى لا يعلمها إلا الله - تعالى - .

واية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون

كما فسرها الوسيط وبعد أن بين - سبحانه - مظاهر قدرته عن طريق التأمل فى الأرض التى نعيش عليها ، عقب ذلك ببيان مظاهر قدرته عن طريق التأمل فى تقلب الليل والنهار ، وتعاقب الشمس والقمر ، فقال - تعالى - : ( وَآيَةٌ لَّهُمُ الليل نَسْلَخُ مِنْهُ النهار فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ) .وقوله ( نسلخ ) من السلخ بمعنى الكشط والإزالة ، يقال : سلخ فلان جلد الشاة ، إذا أزاله عنها .والمراد هنا : إزلة ضوء النهار عن الليل ، ليبقى لليل ظلمته .قال صاحب الكشاف : سلخ جلد الشاة ، إذا كشطه عنها وأزاله .ومنه : سَلَخُ الحيةِ لِخرْشَها - أى : لجلدها - فاستعير ذلك لإزالة الضوء وكشفه عن مكان الليل وملقى ظله .أى : ومن البراهين والعلامات الواضحة ، الدالة على وحدانية ، الله ، وقدرته على إحياء الموتى ، وجود الليل والنهار بهذه الطريقة التى نشاهدها ، حيث ينزع - سبحانه - عن الليل النهار ، فيبقى لليل ظلامه ، ويصير الناس فى ليل مظلم ، بعد أن كانوا فى نهار مضئ .فمعنى : ( فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ) : فإذا هم داخلون فى الظلام ، بعد أن كانوا بعيدين عنه . يقال : أظلَم القوم . إذا دخلوا فى الظلام . وأصبحوا ، إذا دخلوا فى وقت الصباح .

والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( والشمس تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ) بيان لدليل آخر على قدرته - تعالى - وهو معطوف على قوله - تعالى - قَبل ( ذلك : ( وَآيَةٌ لَّهُمُ الليل . . . )قال الآلوسى ما ملخصه : وقوله ( لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ) أى لحد معين تنتهى إليه . . شبه بمستقر المسافر إذا انتهى من سيره ، والمستقر عليه اسم مكان ، واللام بمعنى إلى . .ويصح أن يكون اسم زمان ، على أنها تجرى إلى وقت لها لا تتعداه ، وعلى هذا فمستقرها ، انتهاء سيرها عند انقضاء الدنيا . .والمعنى : وآية أخرى لهم على قدرتنا : وهى أن الشمس تجرى إلى مكان معين لا تتعداه وإلى زمن محدد لا تتجاوزه وهذا المكان وذلك الزمان ، كلاهما لا يعلمه إلا الله - تعالى- .قال بعض العلماء قوله - تعالى - : ( والشمس تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ) أى : والشمس : تدور حول نفسها ، وكان المظنون أنها ثابتة فى موضعها الذى تدور فيه حول . نفسها . ولكن عرف أخيرا أنها ليست مستقرة فى مكانها ، وإنما هى تجرى فعلا تجدرى فى اتجاه واحد ، فى هذا الفضاء الكونى الهائل بسرعة حسبها الفلكيون . : باثنى عشر ميلا فى الثانية .والله ربها الخبير بجريانها وبمصيرها يقول - إنها تجرى لمستقر لها ، هذا المستقر الذى ستنتهى إليه لا يعلمه إلا هو سبحانه - ولا يعلم موعده سواه .وحين نتصور أن حجم هذه الشمس يبلغ نحو مليون ضعف لحجم أرضنا هذه ، وأن هذه الكتلة الهائلة تتحرك أو تجرى فى الفضاء لا يسندها شئ ، حين نتصور ذلك ، ندرك طرفا من صفة القدرة التى تصرف هذا الوجود عن قوة وعن علم .وقد ساق القرطبى عند تفسيره لهذه الآية جملة من الأحاديث فقال : وفى صحيح مسلم عن أبى ذر قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله - تعالى - : ( والشمس تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ) قال مستقرها تحت العرش .ولفظ البخارى عن أبى ذر قال : " قال النَّبى صلى الله عليه وسلم لى حين غربت الشمس . " تدرى أين تذهب "؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش ، فتستأذن فيؤذن لها ، ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها ، وتستأذن فلا يؤذن لها . فقال لها : ارجعى من حيث جئت . فتطلع من "مغربه . فذلك قوله - تعالى : ( والشمس تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ) واسم الإشارة فى قوله ( وذَلِكَ تَقْدِيرُ العزيز العَليم ) يعود إلى. ، الجرى المفهوم من " تجرى ".أى : ذلك الجريان البديع العجيب المقدر الشمس تقدير الله - تعالى - العزيز الذى لا يغلبه غالب ، العليم بكل شئ فى هذا . الكون علما لا يخفى معه قليل أو كثير من أحوال هذا الكون

والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم

) : كما فسرها الوسيط ثم ذكر - سبحانه - آية أخرى تتعلق بكمال قدرته فقال والقمر قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ . . )ولفظ القمر قراه جمهور القراء بالنصب على أنه مفعول لفعل محذوف يفسره ما بعده .والمنازل جمع منزل . والمراد بها أماكن سيره فى كل ليلة ، وهى ثمان وعشرون منزلا ، تبدأ من أول ليلة فى الشهر ، إلى الليلة الثامنة والعشرين منه . ثم يستتر القمر ليلتين إن كان : الشهر تاما . ويستتر ليلة واحدة إن كان الشهر تسعا وعشرين ليلة .أى وقدرنا سير القمر فى منازل ، بأن ينزل فى كل ليلة فى منزل لا يتخطاه ولا ) يتقاصر عنه ، إذا كل شئ عندنا بمقدار . .وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو والقمر ) بالرفع على الابتداء ، وخبره جملة " قدرناه " .قال الآلوسى ما ملخصه . قوله : ( والقمر قَدَّرْنَاهُ ) - بالنصب - أى : وصيرنا سيره ، أى

. محله الذى يسيره فيه ( منازل ) فقدّر بمعنى صيرّ الناصب لمفعولين :
والكلام على حذف مضاف ، والمضاف المحذوف مفعوله الأول ( منازل ) مفعوله
، الثانى .وقرأ الحرميان وأبو عمرو : ( والقمرُ ) بالرفع ، على الابتداء
وجملة ( قدرناه ) خبره .والمنازل : جمع منزل ، والمراد به المسافة التى
يقطعها القمر فى يوم وليلة .وقوله - سبحانه - : ( حتى عَادَ كالعرجون
القديم ) تصوير بديع لحالة القمر وهو فى آخر منازله .والعرجون : هو قنو
النخلة ما بين الشماريخ إلى منبته منها ، وهو الذى يحمل ثمار النخلة سواء
أكانت تلك الثمار مستوية أم غير مستوية . وسمى عرجونا من الانعراج ، وهو
الانعطاف والتقوس ، شبه به القمر فى دقته وتقوسه واصفراره .أى : وصيرنا سير
، القمر فى منازل لا يتعداها ولا يتقاصر عنها ، فإذا صار فى آخر منازله
أصبح فى دقته وتقوسه كالعرجون القديم ، أى : العتيق اليابس .قال بعض
العلماء : والذى يلاحظ القمر ليلة بعد ليلة . يدرك ظل التعبير القرآنى
. العجيب ( حتى عَادَ كالعرجون القديم ) وبخاصة ظل ذلك اللفظ ( القديم )
فالمقر فى لياليه الأولى هلال . وفى لياليه الأخيرة هلال . ولكنه فى لياليه
الأولى يبدو وكأن فيه نضارة وقوة . وفى لياليه الأخيرة يطلع وكأنما يغشاه
سهوم ووجوم ، ويكون فيه شحوب وذبول . ذبول العرجون القديم ، فليست مصادفة
. أن يعبر القرآن عنه هذا التعبير الموحى العجيب

لا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( لاَ الشمس يَنبَغِي لَهَآ أَن
تدْرِكَ القمر وَلاَ الليل سَابِقُ النهار وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ
بيان لدقة نظامه - سبحانه - فى كونه ، وأن هذا الكون الهائل يسير بترتيب (
فى أسمى درجات الدقة ، وحسن التنظيم .أى :لا يصح ولا يتأتى للشمس أن تدرك
القمر فى مسيره فتجتمع معه بالليل .وكذلك لا يصح ولا يتأتى لليل أن يسبق
، النهار ، بأنه يزاحمه فى محله أو وقته ، وإنما كل واحد من الشمس والقمر
، والليل والنهار ، يسير ، فى هذا الكون بنظام بديع قدره الله - تعالى - له
- بحيث لا يسبق غيره ، أو يزاحمه فى سيره .قال الإمام ابن كثير : قوله
تعالى - : ( لاَ الشمس يَنبَغِي لَهَآ أن تدْرِكَ القمر ) قال مجاهد : لكل
منهما حد لا يعدوه ، ولا يقَصُر دونه ، إذا جاء سلطان هذا ذهب هذا ، وإذا
ذهب سلطان هذا جاء سلطان هذا . .وقال عكرمة : يعنى أن لكل منهما سلطانا فلا
ينبغى للشمس أن تطلع بالليل .وقوله : ( وَلاَ الليل سَابِقُ النهار ) يقول
- لا ينبغى إذا كان الليل أن يكون ليل آخر ، حتى يكون النهار . .وقوله :
تعالى - : ( وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ) التنوين فى " كل " عوض عن
المضاف إليه . .قال الآلوسى : والفلك : مجرى الكواكب ، سمى بذلك لاستدارته
كفلكة المغزل ، وهى الخشبة المستديرة فى وسطه ، وفلكه الخيمة ، وهى ،
الخشبة المستديرة التى توضع على رأس العمود لئلا تتمزق الخيمة .أى : وكل من
الشمس والقمر ، والليل والنهار ، فى أدزاء هذا الكون يسيرون بانبساط وسهولة
. لأن قدرة الله - تعالى - تمنعهم من التصادم أو التزاحم أو الاضطراب ،

واية لهم انا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون

كما فسرها الوسيط ثم ذكر - سبحانه - نوعا آخر من النعم التى امتن بها على
عبادهن فقال : ( وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنّا حَمَلنَا ذُرِّيّتَهُمْ فِي
الفلك المشحون ) .وللمفسرين فى تفسير هذه الآية أقوال منها : أن الضمير فى
، لهم " يعود إلى أهل مكة ، والمراد بذريتهم : أولادهم صغارا وكبارا "
والمراد بالفلك المشحون : جنس السفن .فيكون المعنى : ومن العلامات الدالة
على وحدانيتنا وقدرتنا ، أننا حملنا - بفضلنا ورحمتنا - أولادهم صغارا
وكبارا فى السفن المملوءة بما ينفعهم دون أن يصيبهم أذى ، وسخرنا لهم هذه
" السفن لينتقلوا فيها من مكان إلى آخر .ويرى بعضهم أن الضمير فى " لهم
يعود إلى الناس عامة ، والمراد بذريتهم آباؤهم الأقدمون ، والمراد بذريتهم
- آباؤهم الأقدمون ، والمراد بالفلك المشحون : سفينة نوح - عليه السلام
التى أنجاه الله - تعالى - فيها بمن معه من المؤمنين ، الذين لم يبق على
وجه الأرض من ذرية آدم غيرهم .فيكون المعنى : وعلامة دليل واضح للناس جميعا
على قدرتنا ، أننا حملنا - بفضلنا ورحمتنا - آباءهم الأقدمين الذين آمنوا
بنوح - عليه السلام - فى السفينة التى أمرناه بصنعها ، والتى كانت مليئة
ومشحونة ، بما ينتفعون به فى حياتهم .قال الجمل : وإطلاق الذرية على الأصول
صحيح ، فإن لفظ الذرية مشترك بين الضدين ، الأصول والفروع؛ لأن الذرية من
الذرء بمعنى الخلق .والفروع مخلوقون من الأصول ، والأصول خلقت منها الفروع
فاسم الذرية يعق على الآباء كما يقع على الأولاد .وهذا الرأى الثانى قد .
- اختاره الإمام ابن كثير ولم يذكر سواه ، فقد قال رحمه الله : يقول
تعالى - : ودلالة لهم - أيضا - على قدرته - تعالى - تسخيره البحر ليحمل
السفن ، فمن ذلك - بل أوله - سفينة نوح التى أنجاه الله فيها بمن معه من
المؤمنين ، ولهذا قال : ( وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنّا حَمَلنَا ذُرِّيّتَهُمْ

أى : آباءهم .( فِي الفلك المشحون ) أى : فى السفينة المملوءة بالأمتعة ( والحيوانات ، التى أمره الله أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين .

وخلقنا لهم من مثله ما يركبون

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ) بيان لنعمة أخرى من نعمه - تعالى - على عباده .والضمير فى قوله - تعالى - : ( مِّن مِّثْلِهِ ) يعود على السفن المشبهة لسفينة نوح - عليه السلام - .قال القرطبي : ما ملخصه قوله - تعالى - : ( وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ) والأصل ما يركبونه . والضمير فى ( مِّن مِّثْلِهِ ) للإبل . خلقها لهم للركوب فى البر . ، مثل السفن المركوبة فى البحر ، والعرب تشبه الإبل بالسفن . وقيل إنه للإبل والدواب وكل ما يركب .والأصح أنه للسفن . أى : خلقنا لهم سفنا أمثالها ، أى : أمثال سفينة نوح يركبون فيها .قال الضحاك وغيره : هى السفن المتخذة بعد سفينة نوح - عليه السلام - .

وان نشا نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - مظهرا آخر من مظاهر فضله على الناس فقال : ( وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلاَ صَرِيخَ لَهُمْ وَلاَ هُمْ يُنقَذُونَ . إِلاَّ رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ ) .الصريخ : المغيث : أى : فلا مغيث لهم . أو فلا إغاثة لهم ، على أنه مصدر كالصراخ ، لأن المستغيث الخائف ينادى به من ينقذه ، فيصرخ المغيث له قائلا : جاءك الغوث والعون .والاستثناء هنا مفرغ من أعم العلل .أى : وإن نشأ أن نغرق المحمولين فى السفن أغرقناهم ، دون أن يجدوا من يغيثهم منا ، أو من ينقذهم من الغرق ، سوى رحمتنا بهم ، وفضلنا عليهم ، وتمتيعنا إياهم بالحياة إلى وقت معين تنقضى عنده حياتهم .فالآيتان الكريمتان تصوران مظاهر قدرة الله ورحمته بعباده أكمل تصوير؛ وذلك لأن السفن التى تجرى فى البحر - مهما عظمت - تصير عندما تشتد أمواجه فى حالة شديدة من الاضطراب ، ويغشى الراكبين فيها من الهول والفزع ما يغشاهم ، وفى تلك الظروف العصيبة لا نجاة لهم مما هم فيه إلا عن طريق رعاية الله - تعالى - ورحمته بهم .

الا رحمة منا ومتاعا الى حين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - مظهرا آخر من مظاهر فضله على الناس فقال : ( وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلاَ صَرِيخَ لَهُمْ وَلاَ هُمْ يُنقَذُونَ . إِلاَّ رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ ) .الصريخ : المغيث : أى : فلا مغيث لهم . أو فلا إغاثة لهم ، على أنه مصدر كالصراخ ، لأن المستغيث الخائف ينادى به من ينقذه ، فيصرخ المغيث له قائلا : جاءك الغوث والعون .والاستثناء هنا مفرغ من أعم العلل .أى : وإن نشأ أن نغرق المحمولين فى السفن أغرقناهم ، دون أن يجدوا من يغيثهم منا ، أو من ينقذهم من الغرق ، سوى رحمتنا بهم ، وفضلنا عليهم ، وتمتيعنا إياهم بالحياة إلى وقت معين تنقضى عنده حياتهم .فالآيتان الكريمتان تصوران مظاهر قدرة الله ورحمته بعباده أكمل تصوير؛ وذلك لأن السفن التى تجرى فى البحر - مهما عظمت - تصير عندما تشتد أمواجه فى حالة شديدة من الاضطراب ، ويغشى الراكبين فيها من الهول والفزع ما يغشاهم ، وفى تلك الظروف العصيبة لا نجاة لهم مما هم فيه إلا عن طريق رعاية الله - تعالى - ورحمته بهم

واذا قيل لهم اتقوا ما بين ايديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون

كما فسرها الوسيط ثم ذكر - سبحانه - جانبا من رد المشركين السيئ على من يدعوهم إلى الخير ، ومن جهالاتهم حيث تعجلوا العذاب الذى لا محيص لهم عنه ، ومن أحوالهم عندقيام الساعة ، فقال - تعالى - :( وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتقوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ . . . ) .قوله - تعالى - : ( وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتقوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ ) . حكاية لموقف المشركين من الناصحين لهم ، ويكف أنهم صموا آذانهم عن سماع ( الآيات التنزيلية ، بعد صممهم عن التفكر فى الآيات التكوينية .أى : وإذا قال قائل لهؤلاء المشركين على سبيل النصح والإرشاد : ( اتقوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ ) أى : احذروا ما تقدم من ذنوبكم وما تأخر ، وصونوا أنفسكم عن ارتكاب المعاصى التى ارتكبها الظالمون من قبلكم ، فأهلكوا بسببها وأبيدوا ، وآمنوا بالله ورسوله واعملوا العمل الصالح ، لعلكم بسبب ذلك تنالون الرحمة من الله - تعالى - .وجواب " إذ " محذوف دل عليه ما بعده والتقدير : إذا قيل لهم ذلك أعرضوا عن الناصح ، واستخفوا به ، وتطاولوا عليه .

وما تاتيهم من اية من ايات ربهم الا كانوا عنها معرضين

) : كما فسرها الوسيط ويشهد لهذا الجواب المحذوف قوله - تعالى - بعد ذلك
وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُواْ
عَنْهَا مُعْرِضِينَ ) .و " من " الأولى مزيدة لتأكيد إعراضهم وصممهم عن
سماع الحق ، والثانية للتبعيض .أى : ولقد بلغ الجحود والجهل والعناد عند
هؤلاء المشركين ، أنهم ما تأتيهم آية من الآيات التى تدل على وحدانية
الله - تعالى - وقدرته ، وعلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم صادق فى دعوته
إلا كانوا عن كل ذلك معرضين إعراضا تاما ، شأنهم فى ذلك شأن الجاحدين من ،
قبلهم .وأضاف - سبحانه - إليه الآيات التى أتتهم ، لتفخيم شأنها ، وبيان
أنها آيات عظيمة ، كان من شأنهم - لو كانوا يعقلون - أن يتدبروها ، ويتبعوا
من جاء بها .

واذا قيل لهم انفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين امنوا انطعم من
لو يشاء الله اطعمه ان انتم الا في ضلال مبين

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - موقفا آخر ، من مواقفهم القبيحة ممن
نصحهم وأرشدهم إلى الصواب ، فقال - تعالى - : ( وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ
أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ قَالَ الذين كَفَرُواْ لِلَّذِينَ آمنوا
أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ الله أَطْعَمَهُ . . . ) .وقد ذكروا فى سبب
نزول هذه الآية روايات منها : أن أبا بكر الصديق - رضى الله عنه - كان يطعم
مساكين المسلمين ، فلقيه أبو جهل فقال له : يا أبا بكر : أتزعم أن الله
قادر على إطعام هؤلاء؟قال نعم . قال : فما باله لم يطعمهم؟ قال أبو بكر :
ابتلى - سبحانه - قوما بالفقر ، وقوما بالغنى ، وأمر الفقراء بالصبر ، وأمر
الأغنياء بالإعطاء .فقال أبو جهل : والله يا أبا بكر : إن أنت إلا فى ضلال
. . أتزعم أن الله قادر على إطعام هؤلاء وهو لا يطعمهم ، ثم تطعمهم أنت ،
فنزلت هذه الآية .وقيل : كان العاصى بن وائل السهمى ، إذا سأله المسكين قال
له : اذهب إلى ربك فهو أولى منى بك . ثم يقول : قد منعه الله فأطعمه أنا .
والمعنى : وإذا قال قائل من المؤمنين لهؤلاء الكافرين : أنفقوا على.
المحتاجين شيئا من الخير الكثيبر الذى رزقكم الله - تعالى - إياه .قال
الكافرون - على سبيل الاستهزء والسخرية - للمؤمنين : هؤلاء الفقراء الذين
طلبتهم منا أن ننفق عليهم ، لو شاء الله لأطعمهم ولأغناهم كما أغنانا ).
إِنْ أَنتُمْ ) أيها المؤمنون ( إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ) فى أمركم
) : لنا بالإنفاق عليهم أو على غيرهم .قال الشوكانى ما ملخصه : وقوله
، أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ الله أَطْعَمَهُ ) حكاية لتهكم الكافرين
وقد كانوا سمعوا المؤمنين يقولون : إن الرزاق هو الله ، وإنه يغنى من يشاء
ويفقر من يشاء ، فكأنهم حاولوا بهذا القول الإلزام للمؤمنين ، وقالوا :
نحن نوافق مشيئة الله فلا نطعم من لم يطعمه الله . وهذا غلط منهم ومكابرة
ومجادلة بالباطل ، فإن الله - سبحانه - أغنى بعض خلقه وأفقر بعضا ، وأمر
الغنى أن يطعم الفقير ، وابتلاه به فيما رغض له من ماله من الصدقة ، وقولهم
، هو وإن كان كلاما صحيحا فى نفسه ( مَن لَّوْ يَشَآءُ الله أَطْعَمَهُ ) :
ولكنهم لما قصدوا به الإنكار لقدرة الله ، وإنكار جواز الأمر بالإنفاق مع
قدرة الله ، كان احتجاجهم من هذه الحيثية باطلا .وقوله : ( إِنْ أَنتُمْ
إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ) من تتمة كلام الكفار . وقيل : هو رد من الله
عليهم .

ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين

كما فسرها الوسيط ثم يحكى القرآن إنكارهم للبعث ، واستهزاءهم بمن يؤمن به
فيقول : ( وَيَقُولُونَ متى هَذَا الوعد إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ) .أى :
ويقول الكافرون للمؤمنين - على سبيل الاستهزاء والتكذيب بالبعث - ( متى
. . . هَذَا الوعد ) الذى تعدوننا به من أن هناك بعثا ، وحسابا وجزاء
أحضروه لنا ( إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ) فيما تعدوننا به .

ما ينظرون الا صيحة واحدة تاخذهم وهم يخصمون

كما فسرها الوسيط وهنا يجئ الرد الذى يزلزلهم ، عن طريق بيان بعض مشاهد يوم
القيامة ، فيقول - سبحانه - : ( مَا يَنظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً
تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ . فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلاَ
إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ )المراد بالصيحة هنا : النفخة الأولى التى
) ينفخها إسرافيل بأمر الله - تعالى - فيموت جميع الخلائق .وقوله
يَخِصِّمُونَ ) أى : يختصمون فى أمور دنياهم . وفى هذا اللفظ عدة قراءات
سبعية .منها قراءة أبو عمرو وابن كثير : ( وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ) - بفتح

) : الياء والخاء وتشديد الصاد مع الفتح - ومنها قراءة عاصم والكسائى
وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ) بفتح الياء وكسر الخاء وتشديد الصاد مع الكسر .ومنها
قراءة حمزة ( يَخِصِّمُونَ ) بإسكان الخاء وكسر الصاد مع التخفيف .أى : أن
هؤلاء الكافرين الذين يستنكرون قيام الساعة ، ويستبعدون حصولها ، جاهلون
) غافلون ، فإن الساعة آتية لا ريب فيها ، وستحل بهم بغتة فإنهم ما ينتظرون
إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً ) يصيحها إسرافيل بأمرنا ، فتأخذهم هذه الصيحة
وتصعقهم وتهلكهم ( وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ) أى : وهم يتخاصمون ، ويتنازعون فى
. أمور دنياهم

فلا يستطيعون توصية ولا الى اهلهم يرجعون

كما فسرها الوسيط وعندما تنزل بهم هذه الصيحة ، لا يستطيع بعضهم أن يوصى
بعضا بما يريد أن يقول له ولا يستطيعون جميعا الرجوع إلى أهليهم ، لأنهم
يصعقون فى أماكنهم التى يكونون فيها عند حدوث هذه الصيحة .فأنت ترى أن
، الآيتين الكريمتين قد اشتملتا على أبلغ تصوير لأهوال علامات يوم القيامة
ولسرعة مجئ هذه الأهوال .أخرج الشيخان عن أبى هريرة قال : قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : " لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما ، فلا
يتبايعانه ، ولا يطويانه ، وليتقومن الساعة والرجل يليط حوضه - أى يسده
بالطين - فلا يسقى منه ، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن ناقته فلا
. " يطعمه ، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فمه فلا يطعمها

ونفخ في الصور فاذا هم من الاجداث الى ربهم ينسلون

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - حالهم عند النفخة الثانية فقال
( وَنُفِخَ فِي الصور فَإِذَا هُم مِّنَ الأجداث إلى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ
والمراد بالنفخ هنا : النفخة الثانية التى يكون معها البعث والحساب.
- والصور : القرن الذى ينفخ فيه إسرافيل ، ولا يعلم كيفيته سوى الله.
تعالى - :والأجداث : جمع جَدَث - بفتحتين - كفرس وأفراس - وهى القبور
، وينسلون : أى : يسرعون بطريق الجبر والقهر لا بطريق الاختيار.
، والنَّسَلاَن : الإسراع فى السير .أى : ونفخ فى الصور النفخة الثانية
فإذا بهؤلاء الكافرين الذين كانوا يستبعدون البعث وينكرونه ، يخرجون من
قبورهم سراعا - وبدون اختيار منهم - متجهين إلى ربهم ومالك أمرهم ليقضى
. فيهم بقضائه العادل

قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون

كما فسرها الوسيط ( قَالُواْ ) بعد خروجهم من قبورهم بسرعة وفزع ( ياويلنا
أى : يا هلاكنا احضر فهذا أوان حضورك .ثم يقولون بفزع أشد : ( مَن (
بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ) أى من أثارَنا من رقادنا ، وكأنهم لهول ما
شاهدوا قد اختلطت عقولهم ، وأصيبت بالهول ، فتوهموا أنهم كانوا نياما .قال
ابن كثير - رحمه الله - ( قَالُواْ ياويلنا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا
، يعنون قبورهم التى كانوا يعتقدون فى الدار الدنيا أنهم لا يبعثون منها (
، فلما عاينوا ما كذبوه فى محشرهم قالوا : يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا
وهذا لاينفى عذابهم فى قبورهم ، لأنه بالنسبة إلى ما بعده فى الشدة كالرقاد
وقوله : ( هَذَا مَا وَعَدَ الرحمن وَصَدَقَ المرسلون ) رد من الملائكة أو.
من المؤمنين عليهم ، أو هو حكاية لكلام الكفرة فى رد بعضهم على بعض على
سبيل الحسرة واليأس .و " ما " موصولة والعائد محذوف ، أى : هذا الذى وعده
" الرحمن والذى صدَّقه المرسلون .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : إذا جعلت " ما
مصدرية ، كان المعنى : هذا وعد الرحمن ، وصدق المرسلين ، على تسمية الموعود
والمصدق فيه بالوعد والصدق ، فما وجه قوله : ( وَصَدَقَ المرسلون ) ؟ إذا
جعلتها موصولة؟قلت : تقديره : هذا الذى وعده الرحمن ، والذى صدقه المرسلون
. . بمعنى : والذى صدق فيه المرسلون ، من قولهم : صدقوهم الحديث والقتال ،
.

ان كانت الا صيحة واحدة فاذا هم جميع لدينا محضرون

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - سرعة امتثالهم وحضورهم للحساب فقال
إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا
مُحْضَرُونَ ) .أى : ما كانت النفخة التى حكيت عنهم آنفا ( إِلاَّ صَيْحَةً
وَاحِدَةً ) صاحها إسرافيل بإذننا وأمرهم فيها بالقيام من قبورهم ( فَإِذَا
هُمْ جَمِيعٌ ) دون أن يتخلف أحد منهم لدينا محضرون ومجموعون للحساب
. والجزاء

فاليوم لا تظلم نفس شيئا ولا تجزون الا ما كنتم تعملون

كما فسرها الوسيط ( فاليوم ) وهو يوم القيامة ( لاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ
شَيْئاً ) من الظلم ، وإنما كل نفس توفى حقها .وقوله - تعالى - ( وَلاَ
تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ) أى : ولا تجزون إلا جزاء ما
كنتم تعملونه فى الدنيا ، فالجملة الكريمة تأكيد وتقرير لما قبلها .وشبيه
بهذه الآية قوله - تعالى - : ( وَنَضَعُ الموازين القسط لِيَوْمِ القيامة
فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ
خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وكفى بِنَا حَاسِبِينَ ) وبعد هذا الحديث المتنوع
عن أحوال الكافرين يوم القيامة ، جاء الحديث عما أعده الله - تعالى - بفضله
- وكرمه للمؤمنين ، وعما يقال للكافرين فى هذا اليوم من تبكيت وتأنيب فقال
تعالى - :( إِنَّ أَصْحَابَ الجنة اليوم . . . ) .

ان اصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون

كما فسرها الوسيط قوله - تعالى - : ( إِنَّ أَصْحَابَ الجنة اليوم فِي
شُغُلٍ فَاكِهُونَ ) بيان لأحوالهم الطيبة ، بعد بيان أحوال الكافرين
السيئة .والشغل : الشأن الذى يشغل الإنسان عما سواه من الشئون ، لكونه أهم
عنده من غيره ، وما فيه من التنكير للتفخيم ، كأنه قيل : فى شغل أى شغل
وفاكهون : أى : متنعون متلذذون فى النعمة التى تحيط بهم ، مأخوذ من.
الفكاهة - بفتح الفاء - وهي طيب العيش مع النشا . يقال : فكه الرجل فكها
وفكاهة فهو فكه وفاكه ، إذا طاب عيشه ، وزاد سروره ، وعظم نشاطه وسميت
الفاكهة بذلك لتلذذ الإنسان بها .أى : يقال للكافرين فى يوم الحساب والجزاء
زيادة فى حسرتهم - إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل عظيم ، يتلذذون فيه بما
يشرح صدورهم ، ويرضى نفوسهم ، ويقر عيونهم ، ويجعلهم فى أعلى درجات التنعم
والغبطة .وعبر عن حالهم هذه بالجملة الاسمية المؤكدة ، للإشعار بأن هذه
الحال ثابتة لهم ثبوتا تاما ، بفضل الله - تعالى - وكرمه .

هم وازواجهم في ظلال على الارائك متكئون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - جانبا من كيفية هذا التمتع بالجنة
ونعيمها فقال : ( هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلاَلٍ عَلَى الأرآئك
مُتَّكِئُونَ ) .و " هم " مبتدأ ، و ( أزواجهم ) معطوف عليه . و ( متكئون )
: خبر المبتدأ .قال الإمام الرازى : ولفظ الأزواج هنا يحتمل وجهين :أحدهما
أشكالهم فى الإحسان . وأمثالهم فى الإيمان ، كما قال - تعالى - : ( وَآخَرُ
مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ) وثانيهما : الأزواج هم المفهومون من زوج المرأة
وزوجة الرجل ، كما فى قوله - تعالى - : ( إِلاَّ على أَزْوَاجِهِمْ أَوْ
مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ . . . ) ويبدو أن المراد بالأزواج هنا :
حلائلهم اللاتى أحلهن الله لهم ، زيادة فى مسرتهم ويهجتهم ، وعلى هذا سار
عامة المفسرين .والظلال : جمع ظل أو ظلة ، وهى لا يظل الإنسان ويقيه من
الحر .والأرائك : جمع أريكة وهى ما يجلس عليه الإنسان من سرير ونحوه
للراحة والمتعة .أى : أن أصحاب الجنة هم وحلائلهم يجلسون على الأرائك
متكئين فى متعة ولذة .

لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون

كما فسرها الوسيط ( لَهُمْ فِيهَا ) أى فى الجنة ( فَاكِهَةٌ ) كثيرة
متنوعة ( وَلَهُمْ مّا يَدَّعُونَ ) أى : ولهم فوق ذلك جميع ما يطلبونه من
مطالب وما يتمنونه من أمنيات .فقوله : ( يَدَّعُونَ ) يصح أن يكون من
الدعاء بمعنى الطلب ، كما يصح أن يكون من الادعاء بمعنى التمنى .يقال
: ادعُ علىّ ما شئتَ أى : تمن علىّ ما شئت . ويقال : فلان فى خير ما
يدَّعِى ، أى : فى خير ما يتمنى .

سلام قولا من رب رحيم

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - هذا العطاء الجزيل للمؤمنين بقوله
( : سَلاَمٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ) .وللمفسرين فى إعراب قوله
( سَلاَمٌ ) أقوال منها : أنه مبتدأ خبره الناصب للفظ ( قَوْلاً ) أى : سلا
يقال لهم قولا . . .وقد أشار صاحب الكشاف إلى بعض هذه الأقوال فقال : وقوله
( سَلاَمٌ ) بدل من قوله ( مّا يَدَّعُونَ ) كأنه قال لهم : سلام يقال
لهم قولا من جهة رب رحيم .والمعنى : أن الله - تعالى - يسلم عليهم بواسطة
الملائكة ، أو بغير واسطة ، مبالغة فى تكريمهم ، وذلك غاية متمناهم . .وقد
ذكر الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية بعض الأحاديث ، منها ما رواه
ابن أبى حاتم - بسنده - عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم : " بينما أهل الجنة فى نعيمهم ، إذ سطع لهم نور ، فرفعوا رءوسهم

فإذا الرب - تعالى - قد أشرف عليهم من فوقهم ، فقال : السلام عليكم يا أهل الجنة . فذلك قوله : ( سَلاَمٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ) قال : فينظر إليهم وينظرون إلأيه ، فلا يلتفتون إلى شئ من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم ، ويبقى نوره وبركته عليهم وفى ديارهم " .والمتأمل فى هذه . الآيات الكريمة - كما يقال الإمام الفخر الرازى - يراها تشير إلى أن أصحاب الجنة ليسوا فى تعب ، كما تشير إلى وحدتهم وإلى حسن المكان ، وإلى إعطائهم كل ما يحتاجونه ، وإلى تلذذهم بالنعيم وإلى تلقيهم لأجمل تحية . .هذا هو حال المؤمنين ، وهذا بعض ما يقال لهم من ألفاظ التكريم ، فماذا يقال للمجرمين .

وامتازوا اليوم ايها المجرمون

) : كما فسرها الوسيط لقد بين - سبحانه - بعد ذلك ما يقال للمجرمين فقال - وامتازوا اليوم أَيُّهَا المجرمون ) أى : ويقال للمجرمين فى هذا اليوم على سبيل الزجر والتأنيب انفردوا - أيها المجرمون - عن المؤمنين ، واتجهوا إلى ما أعد لكم من عذاب فى جهنم ، بسبب كفركم وجحودكم للحق .يقال : امتاز ) : وتميز القوم بعضهم عن بعض ، إذا انفصل كل فريق عن غيره .قال تعالى وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ . فَأَمَّا الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ . وَأَمَّا الذين كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَلِقَآءِ الآخرة فأولئك فِي العذاب مُحْضَرُونَ )

الم اعهد اليكم يا بني ادم ان لا تعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - بعد ذلك : ( أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ - يابني ءَادَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُواْ الشيطان ) من جملة ما يقال لهم أيضا - على سبيل التقريع والتوبيخ .والعهد بالشئ : الوصية به ، والمراد به هنا : وصية الله - تعالى - للناس على ألسنة رسله ، أن يخلصوا له العبادة والطاعة ، وأن يخالفوا ، ما يوسوس لهم به الشيطان من شرك ومعصية .قال - الآلوسى : والمراد بالعهد هنا . ما كان منه - تعالى - على ألسنة الرسل عليهم السلام - من الأوامر والنواهى التى من جملتها قوله - تعالى - ( يابني ءَادَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشيطان كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِّنَ - الجنة . . ) وقيل : هو الميثاق المأخوذ عليهم فى عالم الذر ، إذ قال سبحانه - ( أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى . . . ) وقيل : هو ما نصب لهم من الحجج العقلية والسمعية الآمرة بعبادة الله - تعالى - الزاجرة عن عبادة غيره .. .والمراد بعبادة الشيطان : طاعته فيما يوسوس به إليهم ، ويزينه لهم ، عبر عنها بالعبادة لزيادة التحذير والتنفير عنها .والمعنى : لقد عهدت إليكم - يا بنى آدم - عهدا مؤكد على ألسنة رسلى ، أن لا تعبدوا الشيطان وأن لا تستمعوا لوسوسته ، وأن لا تتبعوا خطواته ، لأنه لكم عدو ظاهر العداوة ، بحيث لا تخفى عداوته على أحد من العقلاء .فجملة ( إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ) تعليل لوجوب الانتهاء عن طاعة الشيطان .

وان اعبدوني هذا صراط مستقيم

كما فسرها الوسيط وقوله : ( وَأَنِ اعبدوني هذا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ) بيان لما يجب عليهم أن يفعلوه بعد النهى عما يجب عليهم أن يجتنبوه .و " أن ، فى قوله ( أَن لاَّ تَعْبُدُواْ ) وفى قوله ( وَأَنِ اعبدوني ) مفسرة " والجملة الثانية معطوفة على الأولى .أى : لقد عهدت إليكم بأن تتركوا عبادة ) : الشيطان ، وعهدت إليكم أن تعبدونى وحدى دون غيرى .والإشارة فى قوله : هذا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ) تعود إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - .أى : هذا الذى أمرتكم به من إخلاص العبادة والطاعة لى هو الطريق الواضح المستقيم ، الذى يوصلكم إلى عز الدنيا ، وسعادة الآخرة .

ولقد اضل منكم جبلا كثيرا افلم تكونوا تعقلون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ) استئناف مسوق لتأكيد النهى عن : طاعة الشيطان ، ولتشديد التوبيخ لمن اتبع خطواته ." وجبلا كثيرا " بمعنى خلقا كثيرا حتى إنهم لكثرتهم كالجبل العظيم .ولفظ " جِبِلاًّ " قرأه نافع وعاصم - بكسر الجيم والباء ، وقرأه ابن كثير وحمزة والكسائى ( جِبِلاًّ ) : بضم الجيم وتسكين الباء مع تخفيف اللام وجميع القراءات بمعنى واحد .أى ولقد أغوى الشيطان منكم يا بنى آدم خلقا كثيرا ، فهل عقلتم ذلك ، واتعظتم بما فعله مع كثير من أبناء جنسكم ، وأخلصتم لنا العبادة والطاعة ، واتخذتم الشيطان عدوا لكم كما صرح بعداوتكم . وبالعمل على إغوائكم .قال - تعالى - :

إِنّ الشيطان لَكُمْ عَدُوٌّ فاتخذوه عَدُوّاً إِنّمَا يَدْعُواْ )
حِزْبَهُ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَابِ السعير ) وقال - سبحانه - حكاية عنه
قَالَ فَبِعِزّتِكَ لأُغْوِيَنّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلاّ عِبَادَكَ ) .
مِنْهُمُ المخلصين ).

هذه جهنم التي كنتم توعدون

كما فسرها الوسيط وبعد هذا التوبيخ لمن أطاعوا الشيطان ، يقال لهم فى
النهاية : ( هذه جَهَنّمُ التي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ) .أى : هذه جهنم ماثلة
أمام أعينكم أيها الكافرون ، وهى التى كنتم توعدون بها فى الدنيا ، وكنتم
تقابلون ذلك بالسخرية والتكذيب .

اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون

كما فسرها الوسيط ( اصلوها اليوم بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ) أى : ذوقوا
حرها ولهيبها وسعيرها ، بسبب كفركم فى الدنيا ، وموتكم على هذا الكفر
- والأمر فى قوله - تعالى - : ( اصلوها ) للتحقير والإهانة ، كما فى قوله.
تعالى - : ( ذُقْ إِنّكَ أَنتَ العزيز الكريم ) والذين يأمرونهم بذلك هم
خزنة النار ، بأمر من الله - تعالى - .

اليوم نختم على افواههم وتكلمنا ايديهم وتشهد ارجلهم بما كانوا يكسبون

كما فسرها الوسيط ثم تنتقل السورة الكريمة فتحكى لنا جانبا آخر من أحوال
الكافرين فى هذا اليوم العصيب ، كما تحكى لنا جانبا من مظاهر قدرة الله -
تعالى - فتقول :( اليوم نَخْتِمُ على أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلّمُنَآ . . . )
. المراد باليوم فى قوله - تعالى - : ( اليوم نَخْتِمُ على أَفْوَاهِهِمْ.
يوم القيامة .وقوله : ( نَخْتِمُ ) من الختم ، والختم الوسم على الشئ ( . .
بطابع ونحوه ، مأخوذ من وضع الخاتم على الشئ وطبعه فيه للاستيثاق ، لكى لا
يخرج منه ما هو بداخله ، ولا يدخله ما هو خارج عنه .أى : فى يوم القيامة
نختم على أفواه الكافرين فنجعلها لا تنطق ، وإنما تكلمنا أيديهم ، وتشهد
عليهم أرجلهم بما كانوا يكسبونه فى الدنيا من أقوال الباطلة ، وأفعال قبيحة
قالوا : وسبب الختم على أفواههم ، أنهم أنكروا أنهم كانوا مشركين فى.
الدنيا ، كما حكى عنهم - سبحانه - ذلك فى قوله - تعالى - : ( ثُمّ لَمْ
تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاّ أَن قَالُواْ والله رَبّنَا مَا كُنّا
مُشْرِكِينَ ) أو ليكونوا معروفين لأهل الموقف فى ذلك اليوم العصيب ، أو
لأن إقرار غير الناطق أبلغ فى الحجة من إقرار الناطق ، أو ليعلموا أن
أعضاءهم التى ارتكبت المعاصى فى الدنيا ، قد صارت شهودا عليهم فى الآخرة
وجعل - سبحانه ما تنطق به الأيدى كلاما ، وما تنطق به الأيدى كلاما ، وما.
تنطق به الأرجل شهادة ، لأن مباشرة المعاصى - غالباً - تكون بالأيدى ، أما
الأرجل فهى حاضرة لما ارتكب بالأيدى من سيئات ، وقول الحاضر على غيره شهادة
بما له ، أما قول الفاعل فهو إقرار ونطق بما فعله .قال الجمل : وقال الكرخى
أسند سبحانه فعل الختم إلى نفسه ، وأسند الكلام والشهادة إلى الأيدى :
، والأرجل ، لئلا يكون فيه احتمال أن ذلك منهم كان جبرا ، أو قهراً
والإقرار مع الإجبار غير مقبول . فقال : تكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم ، أى
باختيارها بعد إقدار الله لها على الكلام ، ليكون أدل على صدور الذنب منهم
وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآيات جملة من الأحاديث ، التى.
صرحت بأن أعضاء الإنسان تشهد عليه يوم القيامة بما ارتكبه فى الدنيا من
سيئات . ومن تلك الأحاديث ما جاء عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - أنه قال
" : كنا عند النبى صلى الله عليه وسلم - فضحك حتى بدت نواجذه ، ثم قال " :
أتدرون مم أضحك؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . قال من مجادلة العبد ربه يوم
القيامة .يقول : رب ألأم تُجِرنى من الظلم؟ فيقول : بلى ، فيقول :لا أجيز
علىّ إلا شاهدا من نفسى ، فيقول الله - تعالى - له : كفى بنفسك اليوم عليك
- حسيبا ، وبالكرام الكاتبين شهودا .قال : فيختم على فيه . ويقال لأركانه
أى لأعضائه - : انطقى . فتنطق بما عمله ، ثم يخلى بينه وبين الكلام ، فيقول
): - بعداً وسحقاً فعنكن كنت أناضل " " .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى :
وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ الله إِلَى النار فَهُمْ يُوزَعُونَ . حتى
إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ
وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ).

ولو نشاء لطمسنا على اعينهم فاستبقوا الصراط فانى يبصرون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن هؤلاء الكافرين هم فى قبضته فى كل
وقت فقال : ( وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا على أَعْيُنِهِمْ فاستبقوا الصراط
فأنى يُبْصِرُونَ ) .وقوله : ( لَطَمَسْنَا ) الطمس إزالة أثر الشئ عن طريق

، محوه . يقال : طمست الشئ طمسا - من باب ضرب - بمعنى محوته وأزلت أثره
والمطموس والطميس الأعمى . ومفعول المشيئة محذوف . والصراط : الطريق وهو
منصوب بنزع الخافض .أى : ولو نشاء طمس أعينهم بأن نمحو عنها الرؤية
، والإبصار لفعلنا ، ولكنا لم نفعل بهم ذلك فضلا منا عليهم ، ورحمة بهم
- فكان من الواجب عليهم أن يقابلوا نعمنا بالشكر لا بالكفر .وقوله - سبحانه
معطوف على ( لَطَمَسْنَا ) على سبيل الفرض .أى : لو ( فاستبقوا الصراط ) :
نشاء محو أبصارهم لمحوناها ، فلو أرادوا فى تلك الحالة المبادرة إلى الطريق
ليسيروا فيه ، أو ليعبروه لما استطاعوا ذلك . لأنهم كيف يستطيعون ذلك وهم
لا يبصرون شيئاً .فالاستفهام فى قوله - تعالى - : ( فأنى يُبْصِرُونَ )
. لاستبعاد اجتيازهم الطريق ، ونفى قدرتهم على التصرف

ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضيا ولا يرجعون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَاهُمْ على
مَكَانَتِهِمْ فَمَا استطاعوا مُضِيّاً وَلاَ يَرْجِعُونَ ) والمسخ : تبديل
الخلقة وتحويلها من حال إلى حال ، ومن هيئة إلى هيئة .أى : وفى قدرتنا إذا
شئنا ، أن نغير صورهم الإنسانية إلى صور أخرى قبيحة ، كأن نحولهم إلى قردة
أو حيوانات وهم ( على مَكَانَتِهِمْ ) أى : وهم فى مكانهم الذى يقيمون فيه
) بسبب هذا المسخ ( مُضِيّاً ) أى : ذهابا إلى مقاصدهم ( فَمَا استطاعوا )
وَلاَ يَرْجِعُونَ ) أى : ولما استطاعوا - أيضا - إذا ذهبوا أن يرجعوا .أى
فى إمكاننا أن نمسخهم وهم جالسون فى أماكنهم ، فلا يقدرون أن يمضوا إلى :
الأمام ، أو أن يعودوا إلى الخلف .فالمقصود بالآيتين الكريمتين تهديدهم على
، استمرارهم فى كفرهم ، وبيان أنهم تحت قدرة الله - تعالى - وفى قبضته
وأنه - سبحانه - قادر على أن يفعل بهم ما يشاء من طمس للأبصار ، ومن مسخ
. - للصور ، ومن غير ذلك مما يريده - تعالى

ومن نعمره ننكسه في الخلق افلا يعقلون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أحوال الإنسان عندما يتقدم به العمر
فقال : ( وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الخلق أَفَلاَ يَعْقِلُونَ
: وقوله : ( نُّعَمِّرْهُ ) من التعمير . بمعنى إطالة العمر .قال القرطبى(
وقوله : ( نُنَكِّسْهُ ) قرأه عاصم وحمزة - بضم النون الأولى وتشديد
الكاف - من التنكيس . وقرأه الباقون : ( نَنْكُسْه ) - بفتح النون الأولى
وضم الكاف - من نكست الشئ أنكُسُه نَكْساً إذا قلبته على رأسه فانتكس .قال
قتادة : المعنى : أنه يصير إلى حال الهرم الذى يشبه حال الصبا . . . قال
الشاعر :من عشا أَخْلَقَت الأيام جِدّتَه ... وخانه ثقتاه السمع
. . والبصرفطول العمر يصير الشباب هَرَما ، والقوة ضعفا ، والزيادة نقصا
: وقد استعاذ النبى صلى الله عليه وسلم من أن يرد إلى أرذل العمر ..والمعنى
- ومن نطل عمره ننكسه فى الخلق " أى : نرده إلى أرذل العمر ، فنجعله "
بقدرتنا - ضعيفا بعد أن كان قويا ، وشيخا بعد أن كان شابا فتيا ، وناقص
- العقل بعد أن كان مكتمله . . . ( أَفَلاَ يَعْقِلُونَ ) ذلك - أيها الناس
مع أنه من الأمور المشاهدة أمام أبصاركم ، وتعرفون أن من قدر على تحويل
الإنسان من ضعف إلى قوة ، ومن قوة إلى ضعف . . قادر - أيضا - على إعادته
إلى الحياة مرة أخرى بعد موته .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( الله
الذِي خَلَقَكُمْ مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ
جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ
العليم القدير ) وقوله - سبحانه - ( وَمِنكُمْ مَّن يُرَدُّ إلى أَرْذَلِ
العمر لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً ) وبذلك نرى الآيات
الكريمة ، قد هددت الكافرين بسوء المصير إذا استمروا فى كفرهم ، وبينت
جانباً من فضل الله - تعالى - عليهم ، لعلهم يفيئون إلى رشدهم ، ويشكرونه
. على نعمه

وما علمناه الشعر وما ينبغي له ان هو الا ذكر وقران مبين

كما فسرها الوسيط ثم رد - سبحانه - على الكافرين الذين وصفوا النبى صلى
- الله عليه وسلم بأنه شاعر ، كما قالوا عن القرآن أنه شعر ، فقال - تعالى
أى : وما عَلَّمْنا الرسول صلى. ( . . . وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشعر وَمَا ):
الله عليه وسلم وإنما الذى علمناه إياه هو القرآن الكريم ، المشتمل على ما
يسعد الناس فى دنياهم وفى آخرتهم .فالمقصود من هذه الجملة الكريمة ، نفى أن
يكون القرآن شعرا بأبلغ وجه لأن الذى علمه الله - تعالى - لنبيه هو القرآن
) : - وليس الشعر ، وما دام الأمر كذلك فالقرآن ليس شعراً .وقوله - تعالى
وَمَا يَنبَغِي لَهُ ) أى : ما علمناه الشعر ، وإنما علمناه القرآن ، فقد
، اقتضت حكمتنا أن لا نجعل الشعر فى طبعه صلى الله عليه وسلم ولا فى سليقته
فحتى لو حاوله - على سبيل الفرض - فإنه لا يتأتى له ، ولا يسهل عليه ولا

يستقيم مع فطرته صلى الله عليه وسلم .والضمير فى قوله - تعالى - : ( إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ) يعود إلى القرآن الكريم :أى : ما هذا القرآن الكريم إلا ذكر من الأذكار النافعة ، والمواعظ الناجحة ، والتوجيهات الحكيمة ، وهو فى الوقت نفسه ( وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ) أى : كتاب مقروء من الكتب السماوية الواضحة ، التى لا تختلط ولا تلتبس بكلام البشر .

لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين

كما فسرها الوسيط وقد أنزلناه على الرسول الكريم ( لينذر ) به ( مَن كَانَ حَيّاً ) .أى : من كان مؤمناً عاملاً ذا قلب حى ، ونفس نقية ، وأذن واعية ، لأن من كانت هذه صفاته انتفع بالإنذار والتذكير .( وَيَحِقَّ القول عَلَى الكافرين ) أى : أن من كان ذا قلب فإنه ينتفع بالإنذار ، أما من كان مصراً على كفره وضلاله ، فإن كلمة العذاب قد حقت عليه ، وصارت نهايته الإلقاء به فى جهنم وبئس القرار .وقد تكلم المفسرون هنا كلاما مفصلاً . عن كون القرآن ليس شعراً ، وكون الرسول صلى الله عليه وسلم ليس شاعراً ، وعلى رأسهم صاحب الكشاف فقد قال ما ملخصه : كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنه شاعر . فرد عليهم بقوله : ( وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشعر ) أى : أن القرآن ليس بشعر ، وأن هو من الشعر . والشعر إنما هو كلام موزون مقفى يدل على معنى فأين الوزن؟ وأين التقفية؟وأين المعانى التى ينتحيها الشعراء من معانيه؟ وأين نظم كلامهم من نظمه وأساليبه . . .( وَمَا يَنبَغِي لَهُ ) أى : وما يصح له ، ولا يتطلبه إن طلبه ، أى : جعلناه بحيث لو أراد قرض الشعر لم يتأت له . ولم يتسهل كما جعلناه أميا . . لتكون الحجة أثبت ، والشبهة أدحض . فإن قلت : فقوله :أنا النبى لا كذب ... أنا ابن عبد المطلبقلت : ما هو إلا كلام من جنس كلامه صلى الله عليه وسلم الذى كان يرمى به على السليقة . من غير صنعة ولا تكلف ، إلا أنه اتفق ذلك من غير قصد إلى ذلك ، ولا التفات منه ، إذا جاء موزونا ، كما يتفق فى كثير من إنشاءات الناس فى خطبهم ورسائلهم أشياء موزونة ، ولا يسميها أحد شعرا ، ولا يخطر ببال السامع ولا المتكلم . . . أنها شعر

اولم يروا انا خلقنا لهم مما عملت ايدينا انعاما فهم لها مالكون

كما فسرها الوسيط ثم ذكر - سبحانه - المشركين ببعض النعم التى أسبغها عليهم والتى يرونها بأعينهم ، ويعلمونها بعقولهم ، وسلى النبى صلى الله عليه وسلم عما لقيه منهم ، فقال - تعالى - :( أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ . . . ) .الاستفهام فى قوله - تعالى - : ( أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعاماً . . . ) للإنكار والتعجب من أحوال هؤلاء المشركين ، والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام .والأنعام : جمع نعم : وهى الإبل والبقر والغنم .والمعنى : أعمى هؤلاء المشركون عن مظاهر قدرتنا ، ولم يروا بأعينهم ، ولم يعلموا بعقولهم . أنا خلقنا لهم مما عملته أدينا . وصنعته قدرتنا . أنعاماً كثيرة هم لها مالكون يتصرفون فيها تصرف المالك فى ملكه وأسند - سبحانه - العمل إلى الأيدى ، للإشارة إلى أن خلق هذه الأنعام كان. بقدرته - تعالى - وحده دون أن يشاركه فى ذلك مشارك ، أو يعاونه معاون . كما يقول القائل : هذا الشئ فعلته بيدى وحدى ، للدلالة على تفرده بفعله والتعبير بقوله - تعالى - ( لهم ) للإشعار بأن خلق هذه الأنعام إنما حدث. لمنفعتهم ومصلحتهم .و ( ما ) فى قوله ( مِّمَّا عَمِلَتْ ) موصولة . والعائد محذوف . أى : مما علمته أيدينا .وقوله : ( فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ) بيان لإحدى المنافع المترتبة على خلق هذه الأنعام لهم .

وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها ياكلون

كما فسرها الوسيط أما المنافع الأخرى فقد جاءت بعد ذلك فى قوله : ( وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ . . . ) أى : وجعلنا هذه الأنعام مذللة ومسخرة لهم بحيث أصبحت فى أيديهم سهلة القيادة ، مطواعة لما يريدونه منها ، يقودونها ، فتنقاد للصغير والكبير . كما قال القائل :لقد عظم البعير بغير لُبٍّ ... فلم يستغن بالعِظَم البعيرُيصرّفُه الصبى بكل وجه ... ويحبسه على الخسف الجَريرُوتضربه الوليدة بالهراوى ... فلا غِيرَ لديه ولان نكيرففى هذه الجملة الكريمة تذكير لهم بنعمة تسخير الأنعام لهم ، ولو شاء - سبحانه - لجعلها وحشية بحيث ينفرون منها .والفاء فى قوله : ( فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ) تفريع على ما تقدم وركوب بمعنى مركوب .أى : وصيرناهذه الأنعام مذللة ومسخرة لهم ، فمنها ما يستعملونه فى ركوبهم والانتقال عليها من مكان إلى آخر ، ومنها ما يستعملونه فى مأكلهم عن طريق ذبحه .

ولهم فيها منافع ومشارب افلا يشكرون

كما فسرها الوسيط وفضلاً عن كل ذلك ، فإنهم " لهم " فى تلك الأنعام ( منافع أخرى غير الركوب وغير الأكل كالانتفاع بها فى الحراثة وفى نقل الأثقال ) . ولهم فيها - أيضاً - " مشارب " حيث يشربون من ألبانها .والاستفهام فى . . قوله : ( أَفَلاَ يَشْكُرُونَ ) للتخصيص على الشكر ، أى : فهلا يشكرون الله - تعالى - على هذه النعم ، ويخلصون له العبادة والطاعة .

واتخذوا من دون الله الهة لعلهم ينصرون

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - موقفهم الجحودى من هذه النعم فقال واتخذوا مِن دُونِ الله آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ) .أى : إن هؤلاء الكافرين لم يقابلوا نعمنا عليهم بالشكر ، وإنما قابلوها بالجحود والبطر فقط تركوا عبادتنا ، واتخذوا من دوننا آلهة أخرى لا تنفع ولا تضر ، متوهمين أنها تنصرهم عند ما يطلبون نصرها . وراجين أن تدفع عنهم ضرا عند التماس ذلك منها .

لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ .. ) دفع لما توهموه من نصرهم ونفى لما توقعوه من نفعهم .أى : هذه الآلهة المزعومة ، لا يستطيعون نصر هؤلاء الكافرين . لأنهم أعجز من أن ينصروا أنفسهم ، فضلاً عن نصرهم لغيرهم .وقال - سبحانه - : ( لاَ يَسْتَطِيعُونَ ) بالواو والنون على طريقة جمع العقلاء بناء على زعم المشركين أن هذه الأصنام تنفع أو تضر أو تعقل .والضمير " هم " فى قوله - تعالى - : ( وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ) يعود إلى المشركين ، والضمير فى قوله ( لهم ) يعود إلى الآلهة المزعومة .أى : وهؤلاء الكفار - لجهالتهم وانطماس بصائرهم - قد صاروا فى الدنيا بمنزلة الجند الذين أعدوا أنفسهم لخدمة هذه الآلهة والدفاع " عنها . والحضور عندها لخدمتها ، ورعايتها وحفظها .ويرى بعضهم أن الضمير هم " للآلهة ، والضمير فى " لهم " للمشركين ، عكس القول الأول ، فيكون " المعنى : وهؤلاء الآلهة لا يستطيعون نصر المشركين وهم أى الآلهة - " لهم ، أى : للمشركين ، ( جُندٌ مُّحْضَرُونَ ) أى : جند محضرون معهم إلى النار ليلقوا فيها كما يلقى الذين عبدوهم ، كما قال - تعالى - : ( ياأيها الذين آمَنُوا قوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا الناس والحجارة ) .

فلا يحزنك قولهم انا نعلم ما يسرون وما يعلنون

كما فسرها الوسيط والفاء فى قوله - تعالى - : ( فَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ للإفصاح . أى : إذا كان حال هؤلاء المشركين كما ذكرنا لك - أيها الرسول ( الكريم من الجهالة والغفلة ، فأعرض عنهم ، ولا تحزن عليهم ، ولا تبال بأقوالهم .وقوله - سبحانه - : ( إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ) تعليل للنهى عن الحزن بسبب أقوالهم . أى لا تحزن - أيها الرسول الكريم - بسبب أقوالهم الباطلة ، فإنا نعلم علما تاما ما يسرونه من حقد عليك ، وما يعلنونه من أعمال قبيحة ، وسنعاقبهم على كل ذلك العقاب الذى يستحقونه .فالآية الكريمة تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم عما كان يلقاه من هؤلاء المشركين .

اولم ير الانسان انا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ، بإقامة الأدلة - الساطعة على أن البعث حق ، وعلى أن قدرته - تعالى -لا يعجزها شئ ، فقال تعالى - :( أَوَلَمْ يَرَ الإنسان أَنَّا . . . ) .قد ذكروا فى سبب نزول هذه الآيات ، " أن أبىَّ بن خلف جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى يده عظم رميم ، وهو يفتته ويذريه فى الهواء ويقول : يا محمد ، أتزعم أن الله يبعث هذا؟ فقال صلى الله عليه وسلم : نعم . يميتك الله - تعالى - ثم يبعثك ، ثم يحشرك إلى النار " ونزلت هذه الآيات إلى آخر السورة . . والمراد بالإنسان : جنسه . ويدخل فيه المنكرون للبعث دخولا أوليا .وأصل النطفة : الماء القليل الذى يبقى فى الدلو أو القربة . وجمعها نطف ونطاف . يقال : نطفت القربة ، إذا تقاطر ماؤها بقلة .والمراد بها هنا : المنى الذى يخرج من الرجل ، إلى رحم المرأة .والخصيم : الشديد الخصام والجدال لغيره ، والمراد به هنا : الكافر والمجادل بالباطل .والمعنى : أبلغ الجهل بهذا الإنسان ، أنه لم يعلم أنا خلقناه بقدرتنا ، من ذلك الماء المهين الذى يخرج من الرجل فيصيب فى رحم المرأة ، وأن من أوجده من هذا الماء قادر على

، أن يعيده إلى الحياة بعد الموت .لقد كان من الواجب عليه أن يدرك ذلك
ولكنه لغفلته وعناده ، بادر بالمبالغة فى الخصومة والجدل الباطل . وجاهر
- بذلك مجاهرة واضحة ، مع علمه بأصل خلقته .قال الآلوسى ما ملخصه : وقوله
تعالى - : ( أَوَلَمْ يَرَ الإنسان أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ )
كلام مستأنف مسوق لبيان بطلان إنكارهم البعث ، بعد ما شاهدوا فى أنفسهم ما
يوجب التصديق به . . . والهمزة للإنكار والتعجب من أحوالهم ، وإيراد
. الإنسان مورد الضمير ، لأن مدار الإنكار متعلق بأحواله من حيث هو إنسان
والمراد بالإنسان الجنس . والخصيم إنما هو الكافر المنكر للبعث مطلقا
وقوله : ( فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ) عطف على الجملة المنفية ، داخل.
فى حيز الإنكار والتعجب كأنه قيل : أو لم ير أنا خلقناه من أخس الأشياء
. . . وأمهنها ، فأظهر الخصومة فى أمر يشهد بصحته مبدأ فطرته شهادة بينة

وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ
خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحيِي العظام وَهِيَ رَمِيمٌ ) معطوف على الكلام
المتقدم ، وداخل فى حيز الإنكار .أى : أن هذا الإنسان الجاهل المجادل
بالباطل ، لم يكتف بذلك ، بل ضرب لنا مثلاً هو فى غاية الغرابة ، حيث أنكر
قدرتنا على إحياء الموتى ، وعلى بعثهم يوم القيامة ، فقال : - دون أن يفطن
. إلى أصل خلقته - من يحيى العظام وهى رميم ، أى : وهى بالية أشد البلى
فرميم بزنة فعيل بمعنى فاعل . من رَمَّ اللازم بمعنى بَلِىَ ، أو بمعنى
مفعول ، من رم المتعدى بمعنى أبْلَى يقال : رمه إذا أبلاه . فيستوى فيه
المذكر والمؤنث .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم سمى قوله : ( مَن يُحيِي
العظام وَهِيَ رَمِيمٌ ) مثلاً؟قلت : لما دل عليه من قصة عجيبة شبيهة
بالمثل ، وهى إنكار قدرة الله - تعالى - على إحياء الموتى .. مع أن ما أنكر
. . من قبيل ما يوصف الله - تعالى - بالقدرة عليه ، بدليل النشأة الأولى

قل يحييها الذي انشاها اول مرة وهو بكل خلق عليم

كما فسرها الوسيط ثم لقن الله - تعالى - رسوله صلى الله عليه وسلم الجواب
الذى يخرس ألسنة المنكرين للبعث فقال : ( قُلْ يُحْيِيهَا الذي أَنشَأَهَآ
أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلقٍ عَلِيمٌ ) . . .أى : قل - أيها
الرسول الكريم - لهؤلاء الجاهلين المنكرين لإعادة الحياة إلى الأجساد بعد
موتها ، قل لهم : يحيى هذه الأجسام والأجساد البالية ، الله - تعالى - الذى
أوجدها من العدم دون أن تكون شيئاً مذكوراً ، ومن قدر على إيجاد الشئ من
العدم قادر من باب أولى على إعادته بعد هلاكه . وهو - سبحانه - بكل شئ فى
، هذا الوجود عليم علماً تاماً ، لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء
: سواء أكان هذا الشئ صغيراً أم كبيراً ، مجموعاً أم مفرقا .قال الشوكانى
وقد استدل أبو حنيفة وبعض أصحاب الشافعى بهذه الآية على أن العظام مما تحله
، الحياة - أى أنها بعد الموت تكون نجسة .وقال الشافعى :لا تحله الحياة
وأن المراد بقوله : ( مَن يُحيِي العظام ) من يحيى أصحاب العظام على تقدير
. مضاف محذوف . ورد بأن هذا التقدير خلاف الظاهر

الذي جعل لكم من الشجر الاخضر نارا فاذا انتم منه توقدون

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( الذي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشجر
الأخضر نَاراً فَإِذَآ أَنتُم مِّنْه تُوقِدُونَ ) دليل آخر على إمكانية
البعث وهو بدل من قوله - تعالى - قبل ذلك : ( الذي أَنشَأَهَآ أَوَّلَ
مَرَّةٍ . . . ) .والمراد بالشجر الأخضر : الشجر النَّدِى الرطب ، كشجر
المَرْخِ والعَفَار وهما نباتان أخضران إذا ضرب أحدهما بالآخر اتقدت منهما
: شرارة نار بقدرة الله - تعالى - .قال ابن كثير : المراد بذلك سَرْح - أى
شجر المرخ والعفار . ينبت بأرض الحجاز فيأتى من أراد قدح نار وليس معه زناد
فيأخذ منه عودين أخضرين ، ويقدح أحدهما بالآخر ، فتتولد النار من بينهما ،
: كالزناد سواء سواء .روى هذا عن ابن عباس - رضى الله عنهما - وفى المثل ،
لكل شجر نار ، واستمجد المرخ والعفار " .أى : لكل شجر حظ من النار ، ولكن "
أكثر الأشجار حظا من النار : المرخ والعفار . فهو مثل يضرب فى تفصيل بعض
، الشئ على بعض .أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المنكرين للبعث
يحيى الأجساد البالية الله - تعالى - الذى أنشأها أول مرة ، والذى جعل
لكم - بفضله ورحمته وقدرته - من الشجر الأخضر الرطب ناراً ، فإذا أنتم من
هذا الشجر الأخضر توقدون النار . وتنتفعون بها فى كثير من أحوال حياتكم
وإذاً فمن قدر على إحداث النار من الشجر الأخضر - مع ما فيه من المائية.
. المضادة لها - كان أقدر على إعادة الأجساد بعد فنائها

اوليس الذي خلق السماوات والارض بقادر على ان يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق

العليم

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

انما امره اذا اراد شيئا ان يقول له كن فيكون

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء واليه ترجعون

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

والصافات صفا

كما فسرها الوسيط الواو فى قوله - تعالى - : ( والصافات ) للقسم . وجوابه
قوله : ( إِنَّ إلهكم لَوَاحِدٌ )و ( الصافات ) من الصف ، وهو أن تجعل الشئ
على خط مستقيم . تقول : صففت القوم فاصطفوا ، إذا أقمتهم على خط مستقيم .
سواء أكانوا فى الصلاة ، أم فى الحرب ، أم فى غير ذلك .

فالزاجرات زجرا

كما فسرها الوسيط و ( الزاجرات ) : من الزجر ، وهو الدفع بقوة . تقول :
زجرت الإبل زجرا - من باب قتل - إذا منعتها من الدخول فى شئ ودفعتها إلى
غيره .

فالتاليات ذكرا

كما فسرها الوسيط و ( التاليات ) : من التلاوة ، بمعنى القراءة فى تدبر
وتأمل .وأكثر المفسرين على أن المراد بالصفات والزاجرات والتاليات : جماعة
من الملائكة موصوفة بهذه الصفات .فيكون المعنى : وحق الملائكة الذين يصفون
أنفسهم صفا لعبادة الله - تعالى - وطاعته ، أو الذين يصفون أجنحتهم فى
السماء انتظاراً لأمر الله ، والذين يزجرون غيرهم عن ارتكاب المعاصى ، أو
يزجرون السحاب إلى الجهات التى كلفهم الله - تعالى - بدفعه إليها ، والذين
يتلون آيات الله المنزلة على أنبيائه تقربا إليه - تعالى - وطاعة له .وقد
) : جاء وصف الملائكة بأنهم صافون فى قوله - تعالى - فى السورة نفسها
وَإِنَّا لَنَحْنُ الصافون . وَإِنَّا لَنَحْنُ المسبحون ) كما جاء وصفهم
بذلك فيما رواه مسلم فى صحيحه عن حذيفة قال : قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم " فضلنا على الناس بثلاث : جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة ، وجعلت لنا
الأرض مسجدا . وجعلت لنا تربتها طهورا إذا لم نجد الماء " .وفى حديث آخر
رواه مسلم وغيره عن جابر بن سَمُرَة قال : " قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم : " ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربهم "؟ قلنا : وكيف تصف الملائكة
عند ربهم؟ قال :" يتمون الصفوف المتقدم' ، ويتراصون فى الصف " " .وجاء
وصفهم بما يدل على أنهم يلقون الذكر على غيرهم من الأنبياء ، لأجل الإعذار
والإنذار به . كما فى قوله - تعالى - فى أوائل المرسلات : ( فالملقيات
) : ذِكْراً . عُذْراً أَوْ نُذْراً ) قال الإمام ابن كثير : قوله
فالتاليات ذِكْراً ) هم الملائكة يجيئون بالكتاب والقرآن من عند الله إلى
الناس ، وهذه الآية كقوله - تعالى - : ( فالملقيات ذِكْراً . عُذْراً أَوْ
: نُذْراً ) ومنهم من يرى أن المراد بالصافات والزاجرات والتاليات هنا
العلماء الذين يصفون أقدامهم عند الصلاة وغيرها من الطاعات ، ويزجرون غيرهم
عن المعاصى ، ويتلون كلام الله - تعالى - .ومنهم من يرى أن المراد بالصافات
الطيور التى تصف أجنحتها فى الهواء بالزاجرات وبالتاليات : جماعات الغزاة :
فى سبيل الله ، الذين يزجرون أعداء الله - تعالى - : ويكثرون من ذكره
ويبدو لنا أن القول الأول هو الأظهر والأرجح ، لأن الآيات القرآنية.
والأحاديث النبوية التى سقناها قبل ذلك تؤيده ، ويؤيده - أيضا - ما يجئ بعد
ذلك من أوصاف للملائكة كما فى قوله - تعالى - :( لاَّ يَسَّمَّعُونَ إلى
الملإ الأعلى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ) والمراد بالملأ الأعلى هنا
، والملائكة .ولأن هذا القول هو المأثور عن جماعة من الصحابة والتابعين .
كابن مسعود وابن عباس ، ومسروق ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ومجاهد .وإنما
أقسم الله - تعالى - هنا بالملائكة ، لشرفهم ، وسمو منزلتهم وامتثالهم
، لأوامره - سبحانه - امتثالا تاما وله - تعالى - أن يقسم بما شاء من خلقه
) تنويها بشأن المقسم ، ولفتا لأنظار الناس إلى ما فيه من منافع .ولفظ
الصافات ) مفعوله محذوف . والتقدير ، وحق الملائكة الصافات نفوسها أو
أجنحتها طاعة وامتثالا لأمر الله - تعالى - .والترتيب بالفاء فى هذه الصفات
على سبيل الترقى ، إذ الأولى كمال ، والثانية أكمل ، لتعدى منفعتها إلى ،

الغير ، والثالثة أكمل وأكمل ، لتضمنها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والتخلى عن الرذائل ، والتحلى بالفضائل .وقوله " صفا ، وزجرا " وذكرا " مصادر مؤكدة لما قبلها .

ان الهكم لواحد

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه : ( إِنَّ إلهكم لَوَاحِدٌ ) جواب للقسم ، وهو المقسم عليه . أى : وحق الملائكة الذين تلك صفاتهم ، إن ربكم - أيها الناس - لواحد لا شريك له فى ذاته ، ولا فى صفاته ولا فى أفعاله ، ولا فى خلقه .

رب السماوات والارض وما بينهما ورب المشارق

كما فسرها الوسيط وقوله : ( رَّبُّ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ المشارق ) بدل من قوله ( لواحد ) أو خبر بعد خبر لمبتدأ محذوف .أى : إن إلهكم - أيها الناس - لواحد : هو - سبحانه - رب السموات والأرض ، ورب ما بينهما من مخلوقات كالهواء وغيره ، ورب المشارق التى تشرق منها الشمس فى كل يوم على مدار العام ، إذ لها فى كل يوم مشرق معين تشرق منه . ولها فى كل يوم - أيضا مغرب تغرب فيه .واكتفى هنا بذكر المشارق والمغارب ، لأن كل واحد منهما يستلزم الآخر ، ولأن الشروق أدل على القدرة ، وأبلغ فى النعمة ، ولأن الشروق سابق على الغروب ، وقد قال - تعالى - فى آية أخرى : ( رَّبُّ المشرق والمغرب لآ إله إِلاَّ هُوَ فاتخذه وَكِيلاً ) والمراد بهما هنا جنسهما ، فهما صادقان على كل مشرق من مشارق الشمس التى هى ثلاثمائة وستون مشرقا - كما يقول العلماء - وعلى كل مغرب من مغاربها التى هى كذلك .وقال فى سورة الرحمن : ( رَبُّ المشرقين وَرَبُّ المغربين ) أى : مشرق الشتاء ومشرق الصيف ومغربهما ، أو مشرق الشمس والقمر ومغربهما .وبذلك يتبين أنه لا تعارض بين مجئ هذه الألفاظ تارة مفردة ، وتارة على سبيل التثنية وتارة على سبيل الجمع .قال بعض العلماء : قوله ( وَرَبُّ المشارق ) أى : ولكل نجم مشرق ولكل كوكب مشرق فهى مشارق كثيرة فى كل جانب من جوانب السموات الفسيحة وللتعبير دلالة أخرى دقيقة فى التعبير عن الواقع فى هذه الأرض التى نعيش. عليها كذلك ، فالأرض فى دورتها أمام الشمس تتوالى المشارق على بقاعها المختلفة - كما تتوالى المغارب ، فكلما جاء قطاع منها أمام الشمس ، كان هناك مشرق على هذا القطاع .وكان هناك مغرب على القطاع المقابل له فى الكرة الأرضية . . وهى حقيقة ما كان يعرفها الناس فى زمان نزول القرآن الكريم . . أخبرهم الله - تعالى - بها فى ذلك الزمان القديم .

انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك بعض مظاهر قدرته فى خلقه لهذه السموات وكيف أنه - تعالى - قد زين السماء الدنيا بالكواكب . وحفظها من تسلل أى شيطان إليها فقال تعالى :( إِنَّا زَيَّنَّا السمآء . . . ) . قوله - تعالى - ( زَيَّنَّا ) من التزيين بمعنى التحسين والتجميل. والمراد بالسماء الدنيا : السماء التى هى أقرب سماء إلى الأرض . فالدنيا مؤنث أدنى بمعنى أقرب .والكواكب : جمع كوكب وهو النجم الذى يرى فى السماء وقوله : ( بِزِينَةٍ الكواكب ) فيه ثلاث قراءات سبعية ، فقد قرأ الجمهور. بإضافة زينة إلى الكواكب . أى : بلا تنوين فى لفظ " بزينة " . وقرأ بعضهم بتنوين لفظ " زينة " وخفض لفظ الكواكب على أنه بدل منه . وقرأ بعضهم بتنوين لفظ ( بزينة ) ونصب لفظ الكواكب ، على أنه مفعول لفعل محذوف أى : أعنى الكواكب .والمعنى : إنا بقدرتنا وفضلنا زينا السماء الدنيا التى ترونها بأعينكم - أيها الناس - بالكواكب ، فجعلناها مضيئة بحيث تهتدون بها فى سيركم من مكان إلى مكان .كما قال - تعالى - فى آية أخرى : ( وَلَقَدْ زَيَّنَّا السمآء الدنيا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِّلشَّيَاطِينِ ) ومما لا شك أن منظر السماء وهى مليئة بالنجوم ، يشرح الصدور ، ويؤنس النفوس ، وخصوصا للسائرين فى فجاج الأرض ، أو ظلمات البحر .

وحفظا من كل شيطان مارد

كما فسرها الوسيط قوله - سبحانه - : ( وَحِفْظاً مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ) يتان لبما أحاط به - سبحانه - السماء الدنيا من حفظ ورعاية ، ولفظ " حفظا " منصوب على المصدرية بإضمار فعل قبله . أى وحفظناها حفظا. أو معطوف على محل " بزينة " .والشيطان : كل متمرد من الجن والإنس والدواب والمراد به هنا : المتمرد من الجن .والمارد : الشديد العتو والخروج عن طاعة الله - تعالى - المتعرى من كل خير .أى : إنا جعلنا السماء الدنيا مزينة بالكواكب وضيائها ، وجعلناها كذلك محفوظة من كل شيطان متجرد من الخير

. خارج عن طاعتنا ورحمتنا ،

لا يسمعون الى الملا الاعلى ويقذفون من كل جانب

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( لاَّ يَسَّمَّعُونَ إِلَى الملإ الأعلى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ . دُحُوراً وَلَهُمْ عَذابٌ ، وَاصِبٌ ) جملة مستأنفة لبيان حالهم عند حفظ السماء ، وبيان كيفية الحفظ " وما يصيبهم من عذاب وهلاك إذا ما حاولوا استراق السمع منها .ولفظ يسّمّعوُن " بتشديد السين - وأصله يتسمعون . فأدغمت التاء فى السين والضمير للشياطين ، وقرأ الجمهور (لا يَسْمعون ) بإسكان السين .قال صاحب الكشاف : الضمير فى ( لاَّ يَسَّمَّعُونَ ) لكل شيطان ، لأنه فى معنى الشياطين ، وقرئ بالتخفيف والتشديد . وأصله " يتسمعون " . والتسمع : تطلب السماع . يقال : تسمع فسمع . أو فلم يسمع .فإن قلت : أى فرق بين سمعت فلانا يتحدث ، وسمعت إليه يتحدث . وسمعت حديثه ، وإلى حديثه؟قلت : المعدى بنفسه : يفيد الإدراك ، والمعد بإلى يفيد الإصغاء مع الإدراك .والملأ فى الأصل الجماعة يجتمعون علىا أمر فيملأون النفوس هيبة ، والمراد بالملأ الأعلى هنا الملائكة الذين يسكنون السماء .وسموا بذلك لشرفهم ، ولأنهم فى جهة العلو : بخلاف غيرهم فإنهم يسكنون الأرض .وقوله : ( وَيُقْذَفُونَ ) من القذف ، بمعنى الرجم والرمى .

دحورا ولهم عذاب واصب

كما فسرها الوسيط و ( دُحُوراً ) مفعولا لأجله ، أى : يقذفون لأجل الدُّحور وهو الطرد والإبعاد ، مصدر دَحَرَه يدْحَرُهُ دَحْراً ودُحُوراً : إذا ، طرده وأبعده .والواصب : الدائم ، من الوصوب بمعنى الدوام ، يقال : وَصَبَ الشئ يَصِبُ وصُوباً ، إذا دام وثبت ، ومنه قوله : ( وَلَهُ الدين وَاصِباً ) ، أى : دائما ثابتا .والمعنى : إنا زينا السماء الدنيا بنور الكواكب ( وحفظناها - بقدرتنا ورعايتنا - من كل شيطان متجرد من الخير ، فإن هذا الشيطان وأمثاله كلما حاولوا الاستماع إلى الملائكة فى السماء لم نمكنهم من ذلك ، بل قذفناهم ورجمناهم بالشهب والنيران من كل جانب من جوانب السماء ، من أجل أن ندمرهم ونطردهم ونبعدهم عنها ، ولهم منا - فوق كل ذلك - عذاب دائم ثابت لا نهاية له .

الا من خطف الخطفة فاتبعه شهاب ثاقب

كما فسرها الوسيط وقوله : ( إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الخطفة ) استثناء من الواو فى ( يسمعون ) و " مَنْ فى محل بدل من الواو .والخطف : الأخذ للشئ بسرعة وخفية واختلاس وغفلة من المأخوذ منه .أى :لا يسمع الشياطين إلى الملأ الأعلى ، إلا الشيطان الذى خطف الخطفة من كلام الملائكة بسرعة موخفة ، فيما يتفاوضون فيه من أحوال البشر - دون ما يتعلق بالوحى - فإنه فى هذه الحالة يتبع هذا الشيطان ويلحقه ( شِهَابٌ ثَاقِبٌ ) أى : شعلة من النار تثقب الجو بضوئها فتهلكه وتحرقه وتثقبه وتمزقه .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( وَأَنَّا لَمَسْنَا السمآء فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً . وَأَنّا كُنّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآن يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رّصَداً ) ومما يدل على أن استراقهم للسمع ، واختطافهم للخطفة ، إنما يكون فى غير الوحى ، قوله - تعالى - : ( إِنَّهُمْ عَنِ السمع لَمَعْزُولُونَ ) وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : كانت الشياطين مقاعد من السماء فكانوا يستمعون الوحى قال : وكانت النجوم لا تجرى ، وكانت الشياطين لا ترمى . قال : فإذا سمعوا الوحى نزلوا إلى الأرض ، فزادوا فى الكلمة تسعا . قال : فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل الشيطان إذا قعد مقعده ، جاءه شهاب فلم يخطئه حتى يحرقه .

فاستفتهم اهم اشد خلقا ام من خلقنا انا خلقناهم من طين لازب

كما فسرها الوسيط ثم أمر - سبحانه - رسوله صلى الله عليه وسلم أن يوبخ ، المنكرين للبعث والحساب ، وحكى جانبا من أقوالهم الباطلة حول هذه القضية ورد عليهم ردا يزهق باطلهم . فقال - تعالى - :( فاستفتهم أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَم مَّنْ خَلَقْنَآ . . . ) : - تعالى - .الفاء فى قوله ( فاستفتهم . . . ) هى الفصيحة ، والاستفتاء : الاستخبار عن الشئ ومعرفة وجه الصواب فيه .والمراد من الاستفهام فى الآية : توبيخ المشركين على إصرارهم على شركهم وجهلهم . وتعجيب العقلاء من أحوالهم .واللازب : أى : الملتصق بعضه ببعض ، يقال : لزب الشئ يلزب لزبا ولزوبا ، إذا تداخل بعضه فى بعض والتصق بعضه ببعض . والطين اللازب : هو الذى يلزق باليد - مثلا - إذا ما التقت به قال النابغة الذبيانى :فلا تحسبون الخير لا شر بعده ... ولا

تحسبون الشر ضربة لازبأى : ضربة ملازمة لا مفارقة لها .والمعنى : إذا كان الأمر كما أخبرناك أيها الرسول الكريم - من أن كل شئ فى هذا الكون يشهد بوحدانيتنا وقدرتنا ، فاسأله هؤلاء المشركين ( أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً ) أى أهم أقوى خلقة وأمتن بنية ، وأضخم جسادا . . ( أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ) من : ملائكة غلاظ شداد ، ومن سماوات طباق ، ومن أرض ذات فجاج لا شك أنهم لن يجدوا جوابا يريدون به عليك ، سوى قولهم : إن خلق الملائكة والسموات والأرض أشد من خلقنا .وقوله - تعالى - ( إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ . لاَّزِبٍ ) إشارة إلى المادة الأولى التى خلقوا منها فى ضمن خلق أبيهم آدم - عليه السلام - .أى : إنا خلقناهم من طين ملتصق بعضه ببعض ، ومتداخل بعضه فى بعض .فأنت ترى أن الآية الكريمة قد ساقت دليلين واضحين على صحة البعث الذى أنكره المشركون .أما الدليل الأول فهو ما يعترفون به من أن خلق السموات والأرض والملائكة . . أعظم وأكبر منهم . . ومن كان قادراً على خلق - الأعظم والأكبر كان من باب أولى قادرا على خلق الأقل والأصغر .وقد ذكر سبحانه - هذه الحقيقة فى آيات كثيرة منها قوله - تعالى - ( لَخَلْقُ السماوات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ) وأما الدليل الثانى فهو قوله - تعالى - : ( إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لاَّزِبٍ ) وذلك لأن من خلقهم أولا من طين لازب ، قادر على أن يعيدهم مرة أخرى بعد أن يصيروا ترابا وعظاما .إذ من المعروف لدى كل عاقل أن الإعادة أيسر من الابتداء . وقد قرر - سبحانه - هذه الحقيقة فى آيات منها قوله - تعالى - : ( وَهُوَ الذي يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ المثل الأعلى فِي السماوات والأرض وَهُوَ العزيز الحكيم ) .

بل عجبت ويسخرون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن حال هؤلاء المشركين تدعو إلى العجب فقال : ( بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ) .قال الجمل : وقوله ( بَلْ عَجِبْتَ ) إضراب إما عن مقدر دل عليه قوله : ( فاستفتهم ) أى : هم لا يقرون بل عجبت ، وإما عن الأمر بالاستفتاء ، أى :لا تستفتهم فإنهم معاندون بل انظر إلى تفاوت حالك وحالهم .أى : بل عجبت - أيها الرسول الكريم - ومن حقك أن تعجب ، من إنكار هؤلاء الجاحدين لإمكانية البعث ، مع هذه الأدلة الساطعة التى سقناها لهم على أن البعث حق .وجملة ( وَيَسْخَرُونَ ) حالية أى : والحال أنهم يسخرون من تعجبك ومن إنكارك عليهم ذلك ، ومن إيمانك العميق بهذه الحقيقة ، حتى إنك لترددها على مسامعهم صباح مساء .قال الآلوسى وقرأ حمزة والكسائى : ( بل عجبتُ ) - بضم التاء - . . وأولت هذه القراءة : بأن ذلك من باب الفرض ، أى : لو كان العجب مما يجوز علىّ لعجبت من هذه الحال .ثم قال : والذى يقتضيه كلام السلف أن العجب فينا انفعال يحصل للنفس - عند الجهل للسبب ، ولذا قيل : إذا ظهر السبب بطل العجب ، وهو فى الله تعالى - بمعنى يليق لذاته - تعالى - وهو - سبحانه - أعلم به ، فلا يعينون معناه .

واذا ذكروا لا يذكرون

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - ( وَإِذَا ذُكِّرُواْ لاَ يَذْكُرُونَ . وَإِذَا رَأَوْاْ آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ) بيان لشدة تماديهم فى الباطل ، وإصرارهم عليه .أى : أن هؤلاء القوم من دأبهم ومن صفاتهم الملازمة لهم ، أنهم إذا وعظوا بما ينفعهم لا يتعظون .

واذا راوا اية يستسخرون

كما فسرها الوسيط وإذا رأوى آية واضحة فى دلالتها على الحق ) يَسْتَسْخِرُونَ ) أى : يبالغون فى السخرية وفى الاستهزاء بها ، يقال : استسخر القوم من الشئ ، إذا استدعى بعضهم بعضا للاستهزاء به .

وقالوا ان هذا الا سحر مبين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أنهم لا يكتفون بالسخرية ، بل قالوا أقوالا تدل على جحودهم وجهلهم ، فقال - تعالى - ( وقالوا إِن هاذآ إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ) .أى : وقالوا - على سبيل الجحود والعناد - ما هذا الذى أتانا به محمد - صلى الله عليه وسلم - إلا سحر واضح بين ، ولا يشك أحد منا فى كونه كذلك .

ااذا متنا وكنا ترابا وعظاما اانا لمبعوثون

كما فسرها الوسيط ( أَإِذَا مِتْنَا وَكُنّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنّا لَمَبْعُوثُونَ . أَوَ آبَآؤُنَا الأولون ) .أى : أنهم لم يكتفوا بقولهم : إن ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم سحر واضح ، بل أضافوا إلى ذلك على سبيل المبالغة فى الإنكار لما جاءهم به قولهم : أئذا متنا وانتهت حياتنا ووضعنا فى قبورنا ، وصرنا تراباً وعظاما أئنا لمبعوثون ومعادون إلى الحياة مرة أخرى؟ وهل آباؤنا الأولون الذين صاروا من قبلنا عظاما ورفاتا يبعثون أيضاً؟ولا شك أن قولهم هذا دليل واضح على انطماس بصائرهم ، وعلى شدة غفلتهم عن آثار قدرة الله - تعالى - التى لا يعجزها شئ . والتى من آثارها إيجادهم من العدم .

اواباؤنا الاولون

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html}

. أَإِذَا مِتْنَا وَكُنّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنّا لَمَبْعُوثُونَ ) أَوَ آبَآؤُنَا الأولون ) .أى : أنهم لم يكتفوا بقولهم : إن ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم سحر واضح ، بل أضافوا إلى ذلك على سبيل المبالغة فى الإنكار لما جاءهم به قولهم : أئذا متنا وانتهت حياتنا ووضعنا فى قبورنا ، وصرنا تراباً وعظاما أئنا لمبعوثون ومعادون إلى الحياة مرة أخرى؟ وهل آباؤنا الأولون الذين صاروا من قبلنا عظاما ورفاتا يبعثون أيضاً؟ولا شك أن قولهم هذا دليل واضح على انطماس بصائرهم ، وعلى شدة غفلتهم عن آثار قدرة الله - تعالى - التى لا يعجزها شئ . والتى من آثارها إيجادهم من العدم .

قل نعم وانتم داخرون

كما فسرها الوسيط ولذا لقن الله - تعالى - نبيه صلى الله عليه وسلم الجواب الذى يخرس ألسنتهم فقال : ( قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ ) .أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - ستبعثون أنتم وآباؤكم الأقدمون ، وأنتم جميعا ) دَاخِرُونَ ) أى : صاغرون مستسلمون ، لا تستطيعون التأخر أو التردد . يقال : دخر الشخص يدخر - بفتح الخاء - دخورا ، إذا ذل وصغر وهان .

فانما هي زجرة واحدة فاذا هم ينظرون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن بعثهم من قبورهم إنما يقع بصيحة واحدة فقال : ( فَإِنّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ )والزجرة واحدة من الزجر ، يقال : زجر الراعى غنمه إذا صاح عليها ، ومنعها من شئ معين . والضمير راجع إلى البعثة المدلول عليها بسياق الكلام ، والفاء : هى الفصيحة .أى : إذا كان الأمر كما ذكرنا . فإنما بعثهم من مرقدهم يكون بصيحة واحدة يصيحها إسرافيل فيهم بأمرنا ، فإذا هم قيام من قبورهم ينظرون إلى ما حولهم فى ذهول ، وينتظرون فى استسلام وذلة حكم الله - تعالى - فيهم .والمراد بهذه الزجرة : النفخة الثانية التى يقوم بها إسرافيل بأمر الله - تعالى - كما قال - تعالى - : ( وَنُفِخَ فِي الصور فَصَعِقَ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض إِلاّ مَن شَآءَ الله ثُمّ نُفِخَ فِيهِ أخرى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ) والتعبير عن الصيحة بالزجرة للدلالة على شدتها وعنفها على هؤلاء المشركين ، وأنها قد أتتهم ممن لا يستطيعون معصية أمره .

وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أحوالهم بعد هذه الزجرة فقال ) : وَقَالُواْ ياويلنا ) أى : وقالوا بعد أن خرجوا من قبورهم فى ذهول ياويلنا ) أى : يا هلا كنا أحضر فهذا أوان حضورك .وقولهك ( هذا يَوْمُ الدين ) يصح أن يكون من كلام بعضهم مع بعض بعد أن رأوا أن ما كانوا ينكرونه : قد أصبح حقيقة واقعة أمام أعينهم .أى : قال بعضهم لبعضهم فى ذعر وفزع ، يا ويلنا هذا يوم الجزاء على الأعمال . الذى كنا ننكره فى الدنيا ، قد أصبح حقيقة ماثلة أمام أعيننا .

هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون

كما فسرها الوسيط ويصح أن يكون هو وما بعده ، وهو قوله - تعالى - : ( هذا يَوْمُ الفصل الذي كُنتُمْ بِهِ تُكَذّبُونَ ) من كلام الملائكة على سبيل التأنيب لهم .أى : تقول لهم الملائكة : اطلبوا ما شئتم من الويل والهلاك ، فهذا اليوم هو يوم الجزاء على الأعمال ، وهو يوم الفصل والقضاء الذى كنتم تكذبون به فى الدنيا ، وتستهزئون ممن يأمركم بحسن الاستعداد له ، وينذركم

بسوء المصير إذا ما سرتم فى طريق الكفر به ، والإنكار له .

احشروا الذين ظلموا وازواجهم وما كانوا يعبدون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - حكمه العادل فيهم ، وصور أحوالهم البائسة تصويرا تقشعر من هوله الجلود ، وحكى جانبا من حسراتهم خلال تساؤلهم فيما بينهم فقال - تعالى - :( احشروا الذين . . . ) .قوله - تعالى - : ( احشروا ) من الحشر بمعنى الجمع مع السوق يقال : حشر القائد جنده حشرا - من باب قتل - إذا جمعهم . والمحشر : المكان الذى يجتمع فيه الخلائق .والمراد بالذين ظلموا : المشركون الذين أشركوا مع الله - تعالى - آلهة أخرى فى العبادة ومن الآيات التى وردت وأطلق فيها الظلم على الشرك والكفر ، قوله - تعالى - : ( إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ) وقوله - سبحانه - ( والكافرون هُمُ الظالمون ) وقد ثبت فى الحديث الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم فسر الظلم بالشرك فى قوله - تعالى - : ( الذين آمَنُواْ وَلَمْ يلبسوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أولئك لَهُمُ الأمن وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ) والمراد بأزواجهم : أشباههم ، ونظراؤهم وأمثالهم فى الشرك والكفر ، وهذا التفسير مأثور عن عدد من الصحابة والتابعين ، منهم عمر بن الخطاب ، والنعمان بن بشير ، وابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ومجاهد ، وأبو العالية .وقيل المراد بأزواجهم . قرناؤهم من الشياطين ، بأن يحشر كل كافر مع شيطانه .وقيل المراد بهم : نساؤهم اللائى كن على دينهم ، بأن كن مشركات فى الدنيا كأزواجهن ، ويبدو لنا أن جميع من ذكروا محشور . والعياذ بالله . إلى جهنم . إلا أن تفسير الأزواج هنا : بالأشباه والنظائر والأصناف أولى ، خصوصا وأن إطلاق الأزواج على الأصناف والأشباه جاء كثيرا فى القرآن الكريم ومن ذلك قوله - تعالى - : ( سُبْحَانَ الذي خَلَقَ الأزواج كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأرض وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ ) والمراد بما كانوا يعبدونه : الآلهة الباطلة التى كانوا فى الدنيا يعبدونها من دون الله ، كالأصنام والأوثان .والأمر من الله - تعالى - للملائكة فى هذا اليوم الشديد ، وهو يوم القيامة .أى : احشروا واجمعوا الذين كانوا مشركين فى الدنيا ، واجمعوا معهم كل من كان على شاكلتهم فى الكفر والضلال ، ثم اجمعوا معهم أيضا - آلهتهم الباطلة التى عبدوها من دون الله - تعالى - ثم ألقوا بها جميعا فى جهنم ، ليذوقوا سعيرها وحرها .وفى حشر الآلهة الباطلة مع عابديها زيادة تحسؤر وتخجيل لهؤلاء العابدين لأنهم رأوا بأعينهم بطلان وخسران ما كانوا يفعلونه فى الدنيا .

من دون الله فاهدوهم الى صراط الجحيم

كما فسرها الوسيط والضمير فى قوله : ( فاهدوهم إلى صِرَاطِ الجحيم ) يعود إلى المشركين وأشباههم وآلهتهم . وقوله ( فاهدوهم ) من الهداية بمعنى الدلالة على الشئ والإرشاد إليه .أى : احشروهم جميعا إلى جهنم ، وعرفوهم طريقها إن كانوا لا يعرفونه ، وأروهم إياه إن كانوا لا يرونه .والتعبير بالهداية والصراط فيه ما فيه من التهكم بهم ، والتأنيب لهم فكأنه - سبحانه - يقول : بما أنهم لم يهتدوا فى الدنيا إلى الخير وإلى الحق ، وإلى الصراط المستقيم ، فليهتدوا فى الآخرة إلى صراط الجحيم .

وقفوهم انهم مسئولون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَّسْئُولُونَ ) : زيادة فى توبيخهم وإذلالهم ، والوقف هنا : بمعنى الحبس .قال القرطبى يقال : وقفت الدابة أقفها وقفا فوقفت هى وقوفا : أى : احبسوهم ، وهذا يكون قبل السوق إلى الجحيم ، وفيه تقديم وتأخير أى : قفوهم للحساب ثم سوقوهم إلى النار . . أى : واحبسوهم فى موقف الحساب ، لأنهم مسئولون عما كانوا يقترفونه فى الدنيا من عقائد زائفة ، وأفعال منكرة ، وأقوال باطلة .ولا تعارض بين هذه الآية وأمثالها من الآيات التى صرحت بأن المجرمين يسألون يوم القيامة ، وبين آيات أخرى صرحت بأنهم لا يسألون كما فى قوله - تعالى - : ( فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَآنٌّ ) أقول لا تعارض بين هذه الآيات ، لأن فى يوم القيامة مواقف متعددة ، فقد يسألون فى موقف ولا يسألون فى آخر . . أو أن السؤال المثبت هو سؤال التوبيخ والتقريع والسؤال المنفى هو سؤال الاستعلام والاستخبار .

ما لكم لا تناصرون

كما فسرها الوسيط قوله - تعالى - ( مَا لَكُمْ لاَ تَنَاصَرُونَ ) تقريع آخر لهم ، أى : ما الذى جعلكم فى هذا اليوم عاجزين عن التناصر فيما بينكم - أيها الكافرون - مع أنكم فى الدنيا كنتم تزعمون أنكم جميع منتصر؟

بل هم اليوم مستسلمون

كما فسرها الوسيط ثم أضرب - سبحانه - عما تقدم إلى بيان حالهم يوم القيامة فقال : ( بَلْ هُمُ اليوم مُسْتَسْلِمُونَ ) .والاستسلام : أصله طلب السلامة ، والمراد به هنا : الانقياد التام ، والخضوع المطلق ، يقال : استسلم العدو لعدوه ، إذا انقاد له وخضع لأمره .أى : ليسوا فى هذا اليوم بقادرين على التناصر ، بل هم اليوم خاضعون ومستسلمون ، لعجزهم عن أى حيلة تنقذهم مما هم فيه من بلاء .

واقبل بعضهم على بعض يتساءلون

كما فسرها الوسيط ثم يحكى - سبحانه - ما يدور بينهم من مجادلات يوم القيامة فيقول : ( وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ )ويبدو أن التساؤل والتجادل هنا ، يكون بين الأتباع والمتبوعين ، أو بين العامة والزعماء .كما تدل عليه آيات منها قوله - تعالى - : ( وَلَوْ ترى إِذِ الظالمون مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ القول يَقُولُ الذين استضعفوا لِلَّذِينَ استكبروا لَوْلاَ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ) .

قالوا انكم كنتم تاتوننا عن اليمين

) : كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - ما قاله الضعفاء للزعماء فقال قالوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ اليمين ) وللمفسرين فى تأويل معنى اليمين هنا اتجاهات منها :أن المراد باليمين هنا : الجهة التى هى جهة الخير واليمن : أى : قال الضعفاء للرؤساء : إنكم كنتم فى الدنيا توهموننا وتخدعوننا بالبقاء على ما نحن عليه من عبادة الأصنام والأوثان ، لأن بقاءنا على ذلك فيه الخير واليمن والسلامة . فأين مصداق ما قلتموه لنا وقد نزل بنا ما نزل من أهوال وآلام؟فالمقصود بالآية الكريمة بيان ما يقوله الأتباع للمتبوعين على سبيل الحسرة والندامة ، لأنهم خدعوا بوسوستهم ، وأصيبوا بالخيبة بسبب اتباعهم لهم .وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : اليمين لما كانت أشرف العضوين وأمتنهما ، وكانوا يتيمنون بها ، فبها يصافحون ، ويماسحون ، ويناولون ويتناولون ، ويزاولون أكثر الأمور .لما كانت استعيرت لجهة الخير وجانبه ، فقيل : أتاه عن اليمين ، أى من الخير وناحيته ، ومنهم من يرى أن المراد باليمين هنا : اليمين الشرعية التى هى القسم. . وعن بمعنى الباء .أى : قالوا لهم : إنكم كنتم فى الدنيا تأتوننا بالأيمان المغلظة على أننا وأنتم على الحق فصدقناكم ، فأين نحن وأنتم الآن من هذه الآيمان المغلظة؟ لقد ظهر كذبها وبطلانها ، وأنتم اليوم مسئولون عما نحن فيه من كرب .ومنهم من يرى أن المراد باليمين هنا : القوة والغلبة . أى : أنكم كنتم فى الدنيا تجبروننا وتقسرونا على أتباعكم لأننا كنا ضعفاء وكنتم أقوياء .والذى نراه أن الآية الكريمة تسع كل هذه الأقوال ، لأن الرؤساء أوهموا الضعفاء بأنهم على الحق ، وأقسموا لهم على ذلك ، وهددوهم بالقتل أو الطرد إن هم اتبعوا ما جاءهم به الرسول صلى الله عليه وسلم .ومقصود الضعفاء من هذا القول ، إلقاء المسئولية كاملة على الرؤساء ، توهما منهم أن هذا الإلقاء سيخفف عنهم شيئا من العذاب .

قالوا بل لم تكونوا مؤمنين

كما فسرها الوسيط ثم يحكى القرآن بعد ذلك : أن الرؤساء قد ردوا عليهم بخمسة أجوبة .أولها : ( قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ) أى : قال الرؤساء للأتباع : نحن لم نتسبب فى كفركم فى الدنيا ، بل أنتم الذين أبيتم الإيمان باختياركم ، وآثرتم عليه الكفر باختياركم - أيضا - فكفركم نابع من ذواتكم ، وليس من شئ خارج عنكم ، ولم يدخل الإيمان قلوبكم فى وقت من الأوقات .فالجلمة الكريمة إضراب إبطالى من المتبوعين ، عما ادعاه التابعون .

وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوما طاغين

كما فسرها الوسيط وثانيها : يتجلى فى قوله - تعالى - : ( وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ ) أى : وما كان لنا عليكم من قوة أو غلبة تجبركم على البقاء فى الكفر والضلال ، ولكنكم أنتم الذين رضيتم بالكفر عن اختيار واقتناع منكم به .وثالثها قوله - تعالى - : ( بَلْ كُنتُمْ قَوْماً طَاغِينَ ) أى : نحن لم يكن لنا سلطان عليكم ، بل أنتم الذين كنتم فى الدنيا قوما طاغين وضالين مثلنا . والطغيان مجاوزة الحد فى كل شئ .

فحق علينا قول ربنا انا لذائقون

كما فسرها الوسيط ورابعها : نراه فى قوله - سبحانه - : ( فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ) والفاء للتفريع على ما تقدم ، من كون الرؤساء لم يجبروا الضعفاء على البقاء فى الكفر .أى : نحن وأنتم لم تكونوا مؤمنين أصلا . فكانت نتيجتنا جميعا ، أن استحققنا العذاب ، وأن لزمنا ما توعدنا به خالقنا من ذوق العذاب ، جزاء كفرنا وشركنا به - تعالى - .

فاغويناكم انا كنا غاوين

كما فسرها الوسيط وخامس هذه الأجوبة : بينه - سبحانه - فى قوله - حكاية عنهم - : ( فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ) .أى : فدعوناكم للغواية والضلالة دعوة غير ملجئة ، فاستجبتم لنا باختياركم الغى على الرشد مثلكم ، فلا تلومونا ولوموا أنفسكم فنحن ما ( إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ) أجبرناكم على اتباعنا ولكن أنتم الذين اتبعتمونا باختياركم .وهكذا رد الرؤساء على الضعفاء فيما اتهموهم به من أنهم السبب فيما حل بهم من عذاب أليم يوم القيامة .

فانهم يومئذ في العذاب مشتركون

كما فسرها الوسيط وهنا - بين - سبحانه - حكمه العادل فى الجميع ، فى الرؤساء والأتباع فيقول ( فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي العذاب مُشْتَرِكُونَ ) أى : كما كانوا متشاركين فى الدنيا فى الغواية والضلالة ، فإنهم فى الآخرة مشتركون جميعا فى حلول العذاب بهم ، وذوقهم لآلامه وسعيره .فالضمير فى قوله ( فَإِنَّهُمْ ) يعود للتابعين والمتبوعين ، لأنهم جميعا مستحقون للعذاب .

انا كذلك نفعل بالمجرمين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - الأسباب التى أدت بالكافرين جميعا إلى هذا المصير السيئ فقال : ( إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بالمجرمين ) أى : مثل ، هذا العذاب الأليم نفعل بالمجرمين ، لأنهم أشركوا معنا غيرنا فى العبادة وآذوا رسلنا الذين جاءوا لهدايتهم وإرشادهم .

انهم كانوا اذا قيل لهم لا اله الا الله يستكبرون

كما فسرها الوسيط ( إِنَّهُمْ كانوا ) فى الدنيا ( إِذَا قِيلَ لَهُمْ ) على سبيل النصيحة والدعوة إلى الحق ( لاَ إله إِلاَّ الله يَسْتَكْبِرُونَ ) ، عن قبول هذه النصيحة ، ويعرضون عنها ، ويصرون على كفرهم وجحودهم للحق ، ويستكبرون عن النطق بكلمة الإيمان .

ويقولون ائنا لتاركو الهتنا لشاعر مجنون

كما فسرها الوسيط ( وَيَقُولُونَ ) لمن نصحهم : ( أَإِنَّا لتاركوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ) .أى : ويقولون باستهزاء وغرور لمن دعاهم إلى الإيمان وإلى قول لاَ إله إلا الله ، يقولون له أتدعونا إلى أن نترك ما عليه آباؤنا وأجدادنا عن عقائد وأفعال ، وإلى أن نتبع ما جاءنا به هذا الشاعر المجنون .ويعنون بالشاعر المجنون - قبحهم الله - رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى أرسله الله - تعالى - لهدايتهم .

بل جاء بالحق وصدق المرسلين

كما فسرها الوسيط ولذا رد الله - تعالى -عليهم بقوله : ( بَلْ جَآءَ بالحق وَصَدَّقَ المرسلين ) .أى : ليس الرسول صلى الله عليه وسلم شاعرا أو مجنونا كما زعمتم - أيها الجاهلون - بل هو رسول صادق فيما يبلغه عن ربه ، وقد جاءكم بالحق وهو دين التوحيد الذى دعا إليه جميع الرسل ، فكان مصدقا لهم فى الدعوة إليه ، فكيف تزعمون أنه شاعر مجنون؟

انكم لذائقو العذاب الاليم

كما فسرها الوسيط ( إِنَّكُمْ ) . . أيها المشركون بسبب هذه المزاعم ( لَذَآئِقُو ) فى هذا اليوم ( العذاب الأليم ) الذى يذلكم ويخزيكم ويجعلكم فى حزن دائم .

وما تجزون الا ما كنتم تعملون

كما فسرها الوسيط ( وَمَا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ) أى
وما نجازيكم بهذا الجزاء الموجع المؤلم . إلا بسببَ أعمالكم القبيحة فى :
الدنيا .وهكذا نجد الآيات الكريمة قد بينت لنا بأسلوب مؤثر بديع ، سوء
، عاقبة الكافرين ، بسبب إعراضهم عن الحق . واستكبارهم عن الدخول فيه
. ووصفهم للرسول صلى الله عليه وسلم بما هو برئ منه

الا عباد الله المخلصين

كما فسرها الوسيط وكعادة القرآن الكرمي فى المقارنة بين مصير الأشرار ومصير
- الأخيار - ليهلك ن هكل عن بينة ويحيا من حى عن بينة - أتبع - سبحانه
- الحديث عن سوء عاقبة الكافرين - بالحديث عن حسن عاقبة المؤمنين ، فقال
) : تعالى - :( إِلاَّ عِبَادَ الله . . . ) .قال الآلوسى ما ملخصه : قوله
إِلاَّ عِبَادَ اللهِ المخلصين ) استثناء منقطع من ضمير ( ذائقو ) وما
بينهما اعتراض جئبه مسارعة إلى تحقيق الحق . ببيان أن ذوقهم العذاب ليس إلا
من جهتهم لا من جهة غيرهم أصلا . فإلا مؤولة بلكن .فالمعنى : إنكم - أيها
المشركون - لذائقو العذاب الأليم ، لكن عباد المخلصين - ليسو كذلك - أولئك
- لهم رزق معلوم . .ولفظ ( المخلصين ) قرأه بعض القراء السبعة - بفتح اللام
أى : لكن عباد الله - تعالى - الذين أخلصهم الله - تعالى - لطاعته وتوحيده
ليسوا كذلك .وقرأه البعض الآخر بكسر اللام . أى : لكن عباد الله الذين
. أخلصوا له العبادة والطاعة ، لا يذوقون حر النار كالمشركين

اولئك لهم رزق معلوم

كما فسرها الوسيط واسم الإشارة فى قوله : ( أُوْلَـئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ
مّعْلُومٌ ) يعود إلى هؤلاء العباد المخلصين .أى : أولئك العباد المتصفون
- بتلك الصفة الكريمة وهى الإخلاص ، لهم رزق عظيم معلوم فى وقته ، كما قال
تعالى - : ( وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً ) ومعلوم فى
خصائصه الكريمة وصفاته الحسنة ككونه لذيذ الطعم ، حسن المنظر ، غير مقطوع
. ولا ممنوع إلى غير ذلك من الصفات التى تجعله محل الرغبة والاشتهاء

فواكه وهم مكرمون

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ) بدل
مما قبله ، أو خبر لمبتدأ محذوف ، أى هذا الرزق المعلوم ، هو فواكه
والمراد بهذه الفواكه : ما يأكله الآكل على سبيل التلذذ والتفكه ، وجميع.
ما يأكله أهل الجنة كذلك حتى اللحم والخبز ، لأنهم فى الجنة فى غنى عن
القوت الذى يحفظون به حياتهم . وخصت الفاكهة بالذكر لأنها أطيب ما يأكله
الآكلون .وفضلا عن كل ذلك فهم فيها منعمون مكرمون ، لا يحتاجون إلى شئ إلا
. ويجدونه بين أيديهم ، بفضل الله - تعالى - ورحمته

في جنات النعيم

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - مكانهم وهيئتهم فقال : ( فِي جَنّاتِ
النعيم . على سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ )أى : هم فى جنات ليس فيها إلا النعيم
. الدائم

على سرر متقابلين

كما فسرها الوسيط وهم فى الوقت نفسه يجلسون على سرر متقابلين ، بأن تكون
. وجوههم متقابلة لا متدابرة ، فإن من شأن المتصافين أن يجلسوا متقابلين

يطاف عليهم بكاس من معين

. كما فسرها الوسيط ( يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّن مّعِينٍ ) والكأس
هو الإناء الذى فيه شراب ، فإن لم يكن فيه شراب فهو قدح ، وقد يسمى الشراب
) ذاته كأسا ، فيقال : شربت كأسا ، وذلك من باب تسمةي الشئ باسم محله .و
مّعِينٍ ) اسم فاعل من معن وهو صفة لكأس مأخوذ من عان الماء إذا نبع وظهر
على الأرض . أى : يطاف على هؤلاء العباد المخلصين وهم فى الجنة ، بكأس ملئ
بخمر لذة للشاربين ، نابعة من العيون ، وظاهرة للأبصار ، تجرى فى أنهار
الجنة كما تجرى المياه فى الأنهار .فالتعبير بقوله - تعالى - ( بِكَأْسٍ
. مِّن مّعِينٍ ) يشعر بكثرتها ، وقربها ممن يريدها

بيضاء لذة للشاربين

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ) صفتان للكأس باعتبار ما فيه .أى هذه الخمر التى يطاف بها عليهم ، بيضاء اللون ، لذيذة الطعم والرائحة عند الشاربين .

لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون

كما فسرها الوسيط ( لاَ فِيهَا غَوْلٌ ) أى : أذى أو مضرة ، والغَوْل . إهلاك الشئ - على غرة وغفلة .يقال : غاله يغوله غولا ، واغتاله اغتيالا ، إذا قضى عليه بغتة ، وأخذه من حيث لا يشعر .أى : أن خمر الآخرة ليس فيها ما يضر أو يؤذى ، كما هو الحال بالنسبة لخمر الدنيا ( وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ) و ( عن ) هنا للسببية ، فهى بمعنى الباء ، أى : ولا هم بسبب شربها تذهب عقولهم ، وتختل أفكارهم ، كما هو الحال فى خمر الدنيا .وأصل النَّزْف : نَزْعُ الشئ من مكانه وإذهابه بالتدريج ، يقال : نزف فلان ماء البئر ينزفه - من باب ضرب - إذا نزحه شيئا فشيئا إلى نهايته ، ويقال : نُزف الرجل - كعُنَى - إذا سكر حتى اختل عقله ، وخصت هذه المفسدة بالذكر مع عموم ما قبلها ، لكونها من أعظم مفاسد الخمر .

وعندهم قاصرات الطرف عين

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطرف عِينٌ ) بيان لمتعة أخرى من المتع التى أحلها الله - تعالى - لهم .وقاصرات : من القصر بمعنى الحبس ، وعين ، جمع عيناء ، وهى المرأة الواسعة العين فى جمال ، ولم يصبه الغبار ، فى صفاء البشرة ، ونقاء الجسد .وشبههن ببيض النعام ، لأن لونه مع بياضه وصفائه يخالطه شئ من الصرة وهو لون محبوب فى النساء عند العرب ولذا قالوا فى النساء الجميلات : بيضات الخدور .وإلى هنا تجد الآيات الكريمة قد بشرت عباد الله المخلصين . بالعطاء المتنوع الجزيل ، الذى تنشرح له الصدور ، وتقر به العيون ، وتبتهج له النفوس .

فاقبل بعضهم على بعض يتساءلون

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - بعض المحاورات التى تدور بين عباده - المخلصين ، بعد أن رأوا ما أعده - سبحانه - لهم من نعيم مقيم . . فقال : تعالى - :( فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ . . . ) .قال صاحب الكشاف فإن قلت : علام عطف قوله : ( فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ ) ؟قلت؛ هو معطوف على قوله - تعالى - قبل ذلك : ( يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ) والمعنى : يشربون فيتحادثون على الشراب كعادة الشاربين .قال الشاعر :وما بقيت من اللذات إلا ... أحاديث الكرام على المدامفيقبل بعضهم على بعض ( يَتَسَآءَلُونَ ) عما جرى لهم وعليهم فى الدنيا . إلا أن جئ به ماضيا على عادة الله فى أخباره .أى : أن هؤلاء العباد المخلصين ، بعد أن أعطاهم الله ما أعطاهم من النعم ، أقبل بعضهم على بعض ( يَتَسَآءَلُونَ ) فيما بينهم عن ذكرياتهم .

قال قائل منهم اني كان لي قرين

كما فسرها الوسيط وإذا بواحد منهم يقول لإخوانه - من باب التحدث بنعمة الله ، أى : إنى فى الدنيا كان لى صديق ملازم لى ( إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ): ينهانى عن الإيمان - بالبعث والحساب .

يقول انك لمن المصدقين

كما فسرها الوسيط ويقول لى - بأسلوب التهكم والاستهزاء :( أَإِنَّكَ لَمِنَ المصدقين ) أى : أئنك - أيها الرجل - لمن المصدقين بأن هناك بعثا وحسابا ، وثوابا وعقابا ، وجنة ونارا .

ااذا متنا وكنا ترابا وعظاما اانا لمدينون

كما فسرها الوسيط ثم يضيف إلى ذلك قوله : ( أَإِذَا مِتْنَا ) وانتهت حياتنا فى هذه الدنيا ، ووضعنا فى قبورنا (وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً ) أى : وصارت أجسادنا مثل التراب ومثل العظام البالية .( أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ) أى : أئنا بعد كل ذلك لمبعوثون ومعادون إلى الحياة مرة أخرى ومجزيون بأعمالنا . فقوله - تعالى - : ( لَمَدِينُونَ ) من الدين بمعنى ، الجزاء ، ومنه قوله - تعالى - : ( مالك يَوْمِ الدين ) والاستفهام للاستبعاد والإنكار من ذلك القرين للبعث والحساب .

قال هل انتم مطلعون

كما فسرها الوسيط وهنا يعرض هذا المؤمن على إخوانه ، أن يشاركوه فى الاطلاع على مصير هذا القرين الكافر بالبعث فيقول لهم : ( هَلْ أَنتُمْ مُّطَّلِعُونَ ) أى : أنتم مطلعون معى على أهل النار لنرى جميعا حال ذلك القرين الذى حكيت لكم حاله؟ والاستفهام للتخصيص ، أى : هنا صاحبونى فى الاطلاع على هذا القرين الكافر .

فاطلع فراه في سواء الجحيم

. كما فسرها الوسيط ( فاطلع ) ذلك الرجل المؤمن ومعه إخوانه على أهل النار فرآه فى سواء الجحيم ، أى : فرأى ذلك الرجل الذى كان قرينه وصاحبه الملازم له فى الدنيا ، ملقى به فى ( سَوَآءِ الجحيم ) أى : فى وسط النار ، وسمى الوسط سواء لاستواء المسافة منه إلى باقى الجوانب .قال الآلوسى : واطلاع أهل الجنة على أهل النار ، ومعرفة من فيها ، مع ما بينهما من التباعد غير بعيد بأن يخلق الله - تعالى - فيهم حدة النظر ، ويعرفهم من أرادوا الاطلاع عليه .ولعلهم - إن أرادوا ذلك - وقفوا على الأعراف . فاطعلوا على من أرادوا الاطلاع عليه من أهل النار . وقيل : إن لهم طاقات فى الجنة ينظرون منها من علو إلى أهل النار ، وعلم القائل بأن القرين من أهل النار ، لأنه كان منكرا للبعث .

قال تالله ان كدت لتردين

كما فسرها الوسيط ثم يحكى القرآن بعد ذلك ما قاله ذلك الرجل المؤمن لقرينه فى الدنيا بعد أن رآه فى وسط الجحيم فيقول .( قَالَ تالله إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ . وَلَوْلاَ نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ المحضرين ) .وقوله : قسم فيه معنى التعجب ، و ( إن ) مخففة من الثقيلة . واللام فى ( تالله ) قوله : ( لَتُرْدِينِ ) هى الفارقة بين إن المخففة والنافية ، والجملة جواب القسم ، وتردين : أى تهلكنى يقال : أردى فلان فلانا إذا أهلكه . ورَدِىَ فلان - من باب رَضِىَ - إذا هلك .

ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين

كما فسرها الوسيط و ( المحضرين ) من الإحضار ، يقال : أُحْضِر المجرم ليلقى جزاءه ، وهذا اللفظ يستعمل عند الإطلاق فى الشر ، إذ يدل على السوق مع الإكراه والقسر .أى : قال الرجل المؤمن لقرينه الملقى فى وسط جهنم ، وحق الله - تعالى - لقد كدت أيها القرين أن تهلكنى بصدك إياى عن الإيمان بالبعث والحساب ولولا نعمة ربى علىّ ، حيث عصمنى من طاعتك ، ووفقنى للإيمان . . لكنت اليوم من الذين أحضروا للعذاب مثلك ومثل أشباهك ، ولساقنى ملائكة العذاب إلى هذا المصير الأليم الذى أنت فيه اليوم ، فحمدا لله - تعالى - على الإيمان والهداية .

افما نحن بميتين

. كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ إِلاَّ مَوْتَتَنَا الأولى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ) بيان لما يقوله هذا الرجل المؤمن لأصحابه الذين معه فى الجنة ، وبعد أن انتهى من كلامه مع قرينه .وهذا الكلام يقوله على سبيل التلذذ والتحدث بنعمة الله عليهم والاستفهام للتقرير ، والفاء للعطف على مقدر يستدعيه المقام ، والمعطوف عليه محذوف .والمعنى : أنحن مخلدون فى هذا النعيم ، ولن يلحقنا موت مرة أخرى بعد موتتنا الأولى التى لحقتنا فى الدنيا ، ولن يصيبنا شئ من العذاب كما أصاب غيرنا؟إننا لنشعر جميعا بأننا لن نموت مرة أخرى ، وسنبقى فى هذا النعيم الدائم بفضل الله ورحمته .وبعضهم يرى أن هذا السؤال من أهل الجنة

للملائكة حين يذبح الموت .قال القرطبى : قوله : ( أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ . إِلاَّ مَوْتَتَنَا الأولى ) : هو من قول أهل الجنة للملائكة حين يذبح الموت ، ويقال : " يا أهل الجنة خلود بلا موت ، ويا أهل النار خلود بلا موت " .

الا موتتنا الاولى وما نحن بمعذبين

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html}

وقوله - تعالى - : ( أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ . إِلاَّ مَوْتَتَنَا الأولى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ) بيان لما يقوله هذا الرجل المؤمن لأصحابه الذين معه فى الجنة ، وبعد أن انتهى من كلامه مع قرينه .وهذا الكلام يقوله على سبيل التلذذ والتحدث بنعمة الله عليهم .والاستفهام للتقرير ، والفاء للعطف على مقدر يستدعيه المقام ، والمعطوف عليه محذوف والمعنى : أنحن مخلدون فى هذا النعيم ، ولن يلحقنا موت مرة أخرى بعد. موتتنا الأولى التى لحقتنا فى الدنيا ، ولن يصيبنا شئ من العذاب كما أصاب غيرنا؟إننا لنشعر جميعا بأننا لن نموت مرة أخرى ، وسنبقى فى هذا النعيم الدائم بفضل الله ورحمته .وبعضهم يرى أن هذا السؤال من أهل الجنة للملائكة حين يذبح الموت .قال القرطبى : قوله : ( أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ . إِلاَّ مَوْتَتَنَا الأولى ) : هو من قول أهل الجنة للملائكة حين يذبح الموت ، ويقال : " يا أهل الجنة خلود بلا موت ، ويا أهل النار خلود بلا موت " .

ان هذا لهو الفوز العظيم

كما فسرها الوسيط والإشارة فى قوله - تعالى - : ( إِنَّ هذا لَهُوَ الفوز العظيم ) لما سبق الإخبار به من نفى الموت والعذاب عن أهل الجنة ، وهذا القول - أيضا - حكاية لما يقوله ذلك المؤمن لمن معه فى الجنة ، أى : إن هذا النعيم الدائم الذى نحن فيه - يا أهل الجنة - لهو الفوز العظيم ، الذى لا يدانيه فوز ، ولا يقاربه فلاح .

لمثل هذا فليعمل العاملون

كما فسرها الوسيط ثم يقول لهم - أيضا - : ( لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ العاملون ) أى : لمثل هذا العطاء الجزيل ، والنعيم المقيم ، فليعمل العاملون ، لا لغير ذلك من الأعمال الدنيوية الزائلة الفانية .

اذلك خير نزلا ام شجرة الزقوم

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - ما يدل على البون الشاسع . بين النعيم المقيم الذى يعيش فيه عباد الله المخلصون . وبين الشقاء الدائم الذى يعيش فيه الكافرون ، فقال - تعالى - :( أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزقوم ) والنزل : ما يقدم للضيف وغيره من طعام ومكان ينزل به .و " ذلك " مبتدأ ، و ( خير ) خبره ، و ( نزلا ) : تمييز لخير ، والخيرية بالنسبة لما اختاره الكفار على غيره ، والجملة مقول لقول محذوف .وشجرة الزقوم هى شجرة لا وجود لها فى الدنيا ، وإنما يخلقها الله - تعالى - فى النار ، كما يخلق غيرها من أصناف العذاب كالحيات والعقاب .وقيل : هى شجرة سامة متى مست جسد أحد تورم ، ومات ، وتوجد فى الأراضى المجدبة المجاورة للصحراء .والزقوم : من التزقم وهو ابتلاع الشئ الكريه ، بمشقة شديدة .والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الكافرين أذلك النعيم الدائم الذى ينزل به المؤمنون فى الجنة خير ، أم شجرة الزقوم التى يتبلغ بها الكافرون وهم فى النار ، فلا يجدون من ورائها إلا الغم والكرب لمرارة طعمها ، وقبح رائحتها وهيئتها ومعلوم نه لا خير فى شجرة الزقوم ، ولكن المؤمنين لما اختاروا ما أدى بهم إلى نعيم الجنة وهو الإيمان والعمل الصالح ، واختار الكافرون ما أدى بهم إلى النار وبئس القرار ، قيل لهم ذلك على سبيل التوبيخ والتقريع ، لسوء اختيارهم .

انا جعلناها فتنة للظالمين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - شيئا عن هذه الشجرة فقال : ( إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ) أى : إنا جعلنا هذه الشجرة محنة

وابتلاء وامتحانا لهؤلاء الكافرين الظالمين ، لأنهم لما لما أخبرهم رسولنا صلى الله عليه وسلم بوجود هذه الشجرة فى النار . كذبوه واستهزأوا به ، فحق عليهم عذابنا بسبب هذا التكذيب والاستهزاء .قال القرطبى ما ملخصه قوله - تعالى - ( إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ) أى ، المشركين . . وذلك أنهم قالوا . كيف تكون فى النار شجرة مع أن النار تحرق الشجر ؟وكان هذا القول جهلا منهم ، إذ لا يستحيل فى العقل أن يخلق الله فى النار شجرا من جنسها لا تأكله النار ، كما يخلق الله فيها الأغلال والقيود والحياة والعقارب .

انها شجرة تخرج في اصل الجحيم

) كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أصل هذه الشجرة ومنبتها فقالك إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الجحيم ) أى : منبتها وأصلها يخرج من أسفل الجحيم ، أما أغصانها وفروعها فترتفع إلى دركاتها .

طلعها كانه رءوس الشياطين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ثمرها فقال : ( طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشياطين ) أى : ثمرها الذى يخرج منها ، وحملها الذى يتولد عنها ، يشبه فى تناهى قبحه وكراهيته ، رؤوس الشياطين التى هى أقبح ما يتصوره العقل وأبغض شئ يرد على الخاطر .قال صاحب الكشاف ما ملخصه : شبه حمل شجرة ، الزقوم برؤوس الشياطين ، للدلالة على تناهيه فى الكراهة وقبح المنظر ، لأن الشيطان مكروه مستقبح فى طباع الناس ، لاعتقادهم أنه شر محض لا يخالطه خير فيقولون فى القبيح الصورة : كأنه وجه شيطان ، أو كأنه رأس شيطان ، وإذا ، صوره المصورون صوروه على أقبح صورة .كما أنهم اعتقدوا فى الملك أنه خير محضا لا شر فيه ، فشبهوا به الصورة الحسنة ، قال الله - تعالى - : ( مَا هذا بَشَراً إِنْ هاذآ إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ) وهذا تشبيه تخييلى .وقيل : الشيطان حية عرفاء لها صورة قبيحة المنظر . . فجاء التشبيه بها . .

فانهم لاكلون منها فمالئون منها البطون

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا البطون ) تفريع على ما تقدم من كونها فتنة لهم .أى : هذا هو حال تلك الشجرة ، وهاذ هو أصلها وثمرها ، وإن هؤلاء الكفار الذين ، يستهزئون بمن يحدثهم عنها لآكلون من ثمارها حتى تمتلئ بطونهم ، رغما عنهم وإذلالا لهم .

ثم ان لهم عليها لشوبا من حميم

كما فسرها الوسيط ( ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا ) أى : على ما يأكلونه منها ( لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ ) أى : لشرابا مخلوطا بماء شديد الحرارة يقطع الأحشاء ، كما قال - تعالى - : ( وَسُقُواْ مَآءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ) فالشوب : الخلط يقال : شاب فلان طعامه ، إذا خلطه بغيره - والحميم : الماء الذى بلغ الغاية فى الحرارة . فطعامهم - والعياذ بالله. قد اجتمع فيه مرارة الزقوم وحرارة الماء وهذا أشنع ما يكون عليه الطعام .

ثم ان مرجعهم لالى الجحيم

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - مصيرهم الدائم فقال . ( ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لإِلَى الجحيم ) أى : ثم إن مرجعهم ومصيرهم ومقرهم الدائم بعد كل ذلك لإلى دركات الجحيم لا إلى غيرها .

انهم الفوا اباءهم ضالين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك الأسباب التى أدت بهم إلى هذا المصير السيئ فقال - تعالى - : ( إِنَّهُمْ أَلْفَوْاْ آبَآءَهُمْ ضَآلِّينَ . فَهُمْ على آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ )وقوله : ( أَلْفَوْاْ ) من الإِلْفِ للشئ بمعنى التعود عليه بعد وجوده وحصوله .

فهم على اثارهم يهرعون

كما فسرها الوسيط وقوله : ( يُهْرَعُونَ ) من الإهراع بمعنى الإسراع - الشديد ، أو الإسراع الذى تصحبه رعدة وفزع ، يقال : هُرِع وأُهْرِع بالبناء للمجهول فيهما - إذا استحث وأزعج ، ويقال : فلان يُهرع - بضم

الياء - إذا جاء مسرعا فى غضب أو ضعف أو خوف .أى : إن ما أصاب هؤلاء الكافرين من عذاب أليم ، سببه أنهم وجدوا آباءهم مقيمين على الضلال ، فاقتدوا بهم اقتداء أعمى ، وساروا خلفهم وعلى آثارهم بسرعة وبغير تدبر أو تعقل ، كما يسير الأعمى خلف من يذهب به إلى طريق هلاكه .فالآيتان الكريمتان توبيخ شديد لهؤلاء الكافرين ، لأنهم لم يكتفوا بتقليد آبائهم فى الضلال ، بل أسرعوا إلى ذلك إسراعا لا تمهل معه ولا تدبر .

ولقد ضل قبلهم اكثر الاولين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أحوال السابقين عليهم فقال : ( وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأولين ) .أى : ولقد ضل قبل هؤلاء الظالمين من قومك - أيها الرسول الكريم - أكثر الأقوام السابقين الذين أرسلنا إليهم رسلنا لهدايتهم .وفى التعبير بقوله : ( أكثر ) إنصاف ومدح للقلة المؤمنة التى اتبعت الحق .

ولقد ارسلنا فيهم منذرين

كما فسرها الوسيط ( وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُّنذِرِينَ ) أى : ولقد أرسلنا فى هؤلاء السابقين أنبياء كثيرين . ينذرونهم ويخوفونهم من عاقبة الكفر والشرك ، ولكن أكثر هؤلاء الأقوام لم يستجيبوا للحق .

فانظر كيف كان عاقبة المنذرين

كما فسرها الوسيط ( فانظر ) - أيها الرسول الكريم - ( فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المنذرين ) أى : فانظر وتأمل كيف كانت عاقبة هؤلاء الذين أنذروا فلم يستجيبوا للحق ، لقد كانت عاقبتهم أن دمرناهم تدميرا.

الا عباد الله المخلصين

كما فسرها الوسيط ( إِلاَّ عِبَادَ الله المخلصين ) أى : دمرنا هؤلاء الأقوام إلا عبادنا الذين أخلصوا لنا العبادة والطاعة فقد أنجيناهم بفضلنا ورحمتنا .

ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون

كما فسرها الوسيط ثم ذكر - سبحانه - بعد ذلك قصص بعض الأنبياء السابقين مع أقوامهم لتثبيت فؤاد النبى صلى الله عليه وسلم وتسليته عما أصابه من قومه ، وابتدأ تلك القصص ببيان جانب من قصة نوح - عليه السلام - مع قومه فقال - تعالى - :( وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ . . . ) .قصة نوح - عليه السلام - قد وردت فى القرآن الكريم فى سور متعددة منها : سورة الأعراف ، وسورة هود ، وسورة نوح ، وسورة المؤمنون .وهنا يحدثنا القرآن عن جانب من النعم التى أنعم بها الله - تعالى - على نبيه نوح - عليه السلام - حيث أجاب له دعاءه ، ونجاه وأهله من الكرب العظيم وأهلك أعداءه المكذبين .واللام فى قوله : ( وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ . . . ) واقعة فى جواب القسم محذوف والمراد بالنداء الدعاء الذى تضرع به نوح - عليه السلام - وطلب منا أن ننصره على قومه الكافرين فاستجبنا له أحسن إجابة ، ونعم المجيبون نحن ، فقد أهلكنا أعداءه بالطوفان .أخرج ابن مردويه عن عائشة قالت : كان النبى - صلى الله عليه وسلم - إذا صلى فى بيتى فمر بهذه الآية ، قال : " صدقت ربنا أنت أقرب من دعى ، وأقرب من بُغِى - أى طُلِب لإجابة الدعاء - فنعم المدعو أنت ، ونعم المعطى أنت ، ونعم المسئول أنت ربنا ونعم المصير " .

ونجيناه واهله من الكرب العظيم

كما فسرها الوسيط والمراد بأهله فى قوله - تعالى - : ( وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الكرب العظيم ) الذين آمنوا معه .أى : ونجيناه وأهله الذين آمنوا معه - بفضلنا وإحساننا - من الكرب العظيم ، الذى حل بأعدائه الكافرين ، حيث أغرقناهم أجمعين .

وجعلنا ذريته هم الباقين

كما فسرها الوسيط ( وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الباقين ) أى : وجعلنا ذريته من بعده هم الذين بقوا وبقى نسلهم من بعدهم ، وذلك لأن الله - تعالى - أهلك جميع الكافرين من قومه ، أما من كان معه من المؤمنين من غير ذريته ، فقد قيل إنهم ماتوا ، ولم يبق سوى أولاده .قال ابن كثير : قوله -

تعالى - ( وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الباقين ) قال ابن عباس : لم تبق إلا ذرية نوح .وقال قتادة : الناس كلهم من ذرية نوح .وروى الترمذي وابن ) : جرير وابن أبى حاتم عن سمرة عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله " وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الباقين ) قال : " هم سام ، وحام ، ويافث وروى الإمام أحمد - بسنده - عن سمرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال. : " سام أبو العرب ، وحام أبو الحبش ، ويافث أبو الروم " .

وتركنا عليه في الاخرين

كما فسرها الوسيط ( وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخرين . سَلاَمٌ على نُوحٍ فِي العالمين ) أى : وأبقينا عليه فى الأمم التى ستأتى من بعده إلى يوم القيامة ، الذكر الحسن ، والكلمة الطيبة ألا وهى قولهم : سلام على نوح فى العالمين .

سلام على نوح في العالمين

كما فسرها الوسيط سلام على نوح فى العالمين: أى تحية وأمان وثناء جميل على نوح فى العالمين .

انا كذلك نجزي المحسنين

كما فسرها الوسيط وقوله : ( إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي المحسنين . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المؤمنين ) تعليل لما منحه - سبحانه - لعبده نوح من نعم وفضل وإجابة دعاء .أى : مثل ذلك الجزاء الكريم الذى جازينا به نوحا - عليه السلام - نجازى كل من كان محسنا فى أقواله وأفعاله .

انه من عبادنا المؤمنين

كما فسرها الوسيط وإن عبدنا نوحا قد كان من عبادنا الذين بلغو درجة الكمال فى إيمانهم وإحسانهم .قال صاحب الكشاف : قوله : ( وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخرين ) أى من الأمم هذه الكلمة ، وهى : " سلام على نوح " يعنى : يسلمون عليه تسليما ويدعون له . فإن قلت : فما معنى قوله : ( فِي العالمين ) .قلت ، معناه الدعاء بثبوت هذه التحية فيهم جميعا ، وأن لا يخلو أحد منهم منها : كأنه قيل : ثبت الله التسليم على نوح وأدامه فى الملائكة والثقلين ، يسلمون عليه عن آخرهم .علل - سبحانه - مجازاة نوح بتلك التكرمة السنية ، من تبقية ذكره ، وتسليم العالمين عليه إلى آخر الدهر ، بأنه كان محسناً ، ثم علل كونه محسناً ، بأنه كان عبداً مؤمناً ، ليريك جلالة محل الإيمان ، وأنه لقصارى من صفات المدح والتعظيم ، ويرغبك فى تحصيله وفى الازدياد منه .

ثم اغرقنا الاخرين

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - القصة بقوله : ( ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخرين ) أى : لقد أضفنا إلى تلك النعم التى أعطيناها لنبينا نوح - عليه السلام - أننا أغرقنا أعداءه الذين آذوه ، وأعرضوا عن دعوته .وتلك سنتنا لا تتخلف ، أننا ننجى المؤمنين ، ونهلك الكافرين .

وان من شيعته لابراهيم

كما فسرها الوسيط وجاءت بعد قصة نوح - عليه السلام - قصة إبراهيم - عليه السلام - وقد حكى الله - تعالى - ما دار بين إبراهيم وبين قومه ، كما حكى - بعض النعم التى أنعمها - سبحانه - عليه ، بسبب إيمانه وإحسانه ، فقال تعالى - :( وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ . . . ) .الضمير فى قوله : ( وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ ) يعود على نوح - عليه السلام - وشيعة الرجل : أعوانه وأنصاره وأتباعه ، وكل جماعة اجتمعوا على أمر واحد أو رأى واحد فهم شيعة ، والجمع شِيعَ مثل سِدرة وسِدَر .قال القرطبى : الشيعة : الأعوان ، وهو مأخوذ من الشياع ، وهو الحطب الصغار الذى يقود مع الكبار حتى يستوقد والمعنى : وإن من شيعة نوح لإبراهيم - عليهما السلام - لأنه تابعه فى الدعوة إلى الدين الحق ، وفى الصبر على الأذى من أجل إعلاء كلمة الله تعالى ونصرة شريعته . . وهكذا جميع الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -اللاحق منهم يؤيد السابق ، ويناصره فى دعوته التى جاء بها من عند ربه ، وإن اختلفت شرائعهم فى التفاصيل والجزئيات ، فهى متحدة فى الأصول والأركان .

اذ جاء ربه بقلب سليم

، كما فسرها الوسيط وكان بين نوح وإبراهيم ، نبيان كريمان هما : هود وصالح - عليهما السلام - والظرف فى قوله - تعالى - : ( إِذْ جَآءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ) متعلق بمحذوف تقديره : اذكر أى : اذكر - أيها العاقل لتعتبر وتتعظ - وقت أن جاء إبراهيم إلى ربه بقلب سليم من الشرك ومن غيره من الآفات كالحسد والغل والخديعة والرياء .والمراد بمجيئه ربه بقلبه : إخلاص لقلبه لدعوة الحق ، واستعداده لبذل نفسه وكل شئ يملكه فى سبيل رضا ربه - عز وجل - .فهذا التعبير يفيد الاستسلام المطلق لربه والسعى الحثيث فى كل ما يرضيه .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما معنى المجئ بقلبه ربه؟ قلت : معناه أنه أخلص لله قلبه ، وعرف ذلك منه فضرب المجئ مثلا لذلك .

اذ قال لابيه وقومه ماذا تعبدون

كما فسرها الوسيط وقوله : ( إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ) شروع فى حكاية ما دار بينه وبين أبيه وقومه . والجملة بدل من الجملة السابقة عليها ، أو هى ظرف لقوله ( سليم ) أى : لقد كان إبراهيم - عليه السلام - سليم القلب ، نفى السريرة ، صادق الإيمان ، وقت أن جادل أباه وقومه قائلا لهم : أى شئ هذا الذى تعبدونه من دون الله - تعالى .

ائفكا الهة دون الله تريدون

كما فسرها الوسيط ثم أضاف إلى هذا التوبيخ لهم توبيخا آخر فقال لهم : ( أَإِفْكاً آلِهَةً دُونَ الله تُرِيدُونَ ) ؟ والإفك أسوأ الكذب . يقال أفِكَ فلان يأْفِكُ إفكا فهو أفوك . . إذا اشتد كذبه . وهو مفعول به لقوله ( تريدون ) وقوله ( آلهة ) بدل منه . وجعلت الآلهة نفس الإفك على سبيل المبالغة .أى : أتريدون إفكا آلهة دون الله؟ إن أردتكم هذه يمجها ويحتقرها كل عقل سليم .

فما ظنكم برب العالمين

كما فسرها الوسيط ثم حذرهم من السير فى طريق الشرك فقال : ( فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ العالمين ) .والاستفهام للإنكار والتحذير من سوء عاقبتهم إذا ما استمروا فى عبادتهم لغيره - تعالى - أى : فما الذى تظنون أن يفعله بكم خالقكم ورازقكم إذا ما عبدتم غيره؟ إنه لاشك سيحاسبكم على ذلك حسابا عسيرا ويعذبكم عذابا أليما ، وما دام الأمر كذلك فاتركوا عبادة هذه الآلهة ، الزائفة .وأخلصوا عبادتكم لخالقكم ورازقكم .قال الآلوسى : قوله : ( فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ العالمين ) أى : أى شئ ظنكم بمن هو حقيق بالعبادة ، لكونه ربا للعالمين؟ أشككتم فيه حتى تركتم عبادته - سبحانه - بالكلية ، أو أعلمتم أى شئ هو حتى جعلتم الأصنام شركاءه أو أى شئ ظنكم بعقابه - عز وجل - حتى اجترأتم على الإفك عليه ، ولم تخافوا عذابه .وعلى أية حال فالآية تدل دلالة على واضحة على استنكاره لما كان عليه أبوه وقومه من عباده لغير الله - تعالى - وعلى نفور فطرته لما هم عليه من باطل .

فنظر نظرة في النجوم

كما فسرها الوسيط ويهمل القرآن الكريم هنا ردهم عليه لتفاهته . وتنتقل السورة للإشارة إلى ما أضمره إبراهيم - عليه السلام - لتلك الآلهة الباطلة .فتقول : ( فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النجوم . فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ فَتَوَلَّوْاْ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ) .قالوا : كان قوم إبراهيم يعظمون الكواكب ، ويعتقدون تأثيرها فى العالم . . وتصادف أن حل أوان عيد لهم ، فدعوه إلى الخروج معهم كما هى عادتهم فى ذلك العبد .فتطلع إلى السماء وقلب نظره فى نجومها .

فقال اني سقيم

كما فسرها الوسيط ثم قال لهم معتذرا عن الخروج معهم - ليخلوا بالأصنام فيحطمها - : ( إِنِّي سَقِيمٌ ) أى مريض مرضا بمنعنى من مصاحبتكم .

فتولوا عنه مدبرين

كما فسرها الوسيط ( فَتَوَلَّوْاْ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ) أى : فتركوه وحده وانصرفوا إلى خارج بلدتهم .قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : وإنما قال إبراهيم لقومه ذلك ليقيم فى البلد إذا ذهبوا إلى عيدهم ، فإنه كان قد أزف خروجهم إلى عيد لهم ، فأحب أن يختلى بآلهتهم ليكسرها ، فقال لهم كلاما هو حق فى نفس الأمر فهموا منه أنه سقيم على ما يعتقدونه ، فتولوا عنه مدبرين

: قال قتادة : والعرب تقول لمن تفكر فى أمر : نظر فى النجوم ، يعنى قيادة.
: أنه نظر فى السماء متفكرا فيما يلهيهم به فقال : ( إِنِّي سَقِيمٌ ) أى
: ضعيف .وقول النبى صلى الله عليه وسلم " لم يكذب إبراهيم غير ثلاث كذبات
اثنتين فى ذات الله ، قوله ( إِنِّي سَقِيمٌ ) وقوله : ( بَلْ فَعَلَهُ
كَبِيرُهُمْ هذا ) وقوله فى سارة " هى أختى " " .ليس المراد بالكذب هنا
الكذب الحقيقى الذى يذم فاعله ، حاشا وكلا ، وإنما أطلق الكذب على هذا
تجوزاً ، وإنما هو من المعاريض فى الكلام لمقصد شرعى دينى ، كما جاء فى
الحديث : " إن من المعاريض لمندوحة عن الكذب " .وقيل قوله : ( إِنِّي
. - سَقِيمٌ ) أى ، مريض القلب من عبادتكم للأوثان من دون الله - تعالى
ويبدو لنا أى نظر إبراهيم - عليه السلام - فى النجوم ، إنما هو نظر المؤمن.
، المتأمل فى ملكوت الله - تعالى - المستدل بذلك على وحدانية الله وقدرته
وأنه إنما فعل ذلك أمامهم - وهم قوم يعظمون النجوم - ليقنعهم بصدق اعتذاره
عن الخروج معهم ، ويتم له ما يريده من تحطيم الأصنام .كما يبدو لنا أن قوله
المقصود منه : إنى سقيم القلب بسبب ما أنتم فيه من ( إِنِّي سَقِيمٌ ) :
كفر وضلال ، فإن العاقل يقلقه ويزعجه ويسقمه ما أنتم فيه من عكوف على عبادة
الأصنام .وقال لهم ذلك ليتركوه وشأنه ، حتى ينفذ ما أقسم عليه بالنسبة لتلك
الأصنام .فكلام إبراهيم حق فى نفس الأمر - كما قال الإمام ابن كثير - وقد
. ترك لقومه أن يفهموه على حسب ما يعتقدون

فراغ الى الهتهم فقال الا تاكلون

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - ما فعله إبراهيم بالأصنام بعد أن انفرد
بها فقال : ( فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلا تَأْكُلُونَ ) .وأصل
الروغ : الميل إلى الشئ بسرعة على سبيل الاحتيال . يقال : راغ فلان نحو
فلان . إذا مال إليه لأمر يريده منه على سبيل الاحتيال .أى : فذهب إبراهيم
مسرعاً إلى الأصنام بعد أن تركها القوم وانصرفوا إلى عيدهم ، فقال لها على
سبيل التهكم والاستهزاء : أيتها الأصنام ألا تأكلين تلك الأطعمة التى قدمها
لك الجاهلون على سبيل التبرك؟وخاطبها كما يخاطب من يعقل فقال : ( ألا
. تَأْكُلُونَ ) ، لأن قومه أنزلوها تلك المنزلة

ما لكم لا تنطقون

كما فسرها الوسيط وقوله : ( مَا لَكُمْ لاَ تَنطِقُونَ ) زيادة فى السخرية
. بتلك الأصنام ، وفى إظهار الغيظ منها ، والضيق بها ، والغضب عليها

فراغ عليهم ضربا باليمين

) : كما فسرها الوسيط هذا الغضب الذى كان من آثاره ما بينه القرآن فى قوله
فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ ) أى : فمال عليهم ضاربا إياهم بيده
اليمنى ، حتى حطمهم كما قال - تعالى - فى آية أخرى : ( فَجَعَلَهُمْ
( جُذَاذاً إِلاَّ كَبِيراً لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ
وقال - سبحانه - : ( ضَرْباً بِالْيَمِينِ ) للدلالة على أن إبراهيم - عليه
السلام - لشدة حنقه وغضبه على الأصنام - قد استعمل فى تحطيمها أقوى جارحة
يملكها وهى يده اليمنى . وقيل : يجوز أن يراد باليمين : اليمين التى حلفها
حين قال : ( وتالله لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ
مُدْبِرِينَ ) وانتهى إبراهيم من تحطيم الأصنام ، وارتاحت نفسه لما فعله
. . بها ، وشفى قلبه من الهم والضيق الذى كان يجده حين رؤيتها

فاقبلوا اليه يزفون

كما فسرها الوسيط وجاء قومه من رحلتهم ، ووجدوا أصنامهم قد تحطمت ، ويترك
القرآن هنا ما قالوه لإبراهيم عندما رأوا منظر آلهتهم بهذه الصورة المفزعة
: لهم ، مكتفياً بإبراز حالهم فيقول : ( فأقبلوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ) .أى
فحين رأوا آلهتهم بهذه الصورة . أقبلوا نحو إبراهيم يسرعون الخطا ولهم جلبة
وضوضاء تدل على شدة غضبهم لما أصاب آلهتهم .يقال : زَفَّ النعام يَزِفُّ
. زَفًّا وزفيفا ، إذا جرى بسرعة حتى لكأنه يطير

قال اتعبدون ما تنحتون

كما فسرها الوسيط ولم يأبه إبراهيم - عليه السلام - لهياج قومه ، وإقبالهم
) : نحوه بسرعة وغضب ، بل رد عليهم رداً منطقياً سليما ، فقال لهم
: أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ . والله خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ )أى
قال لهم موبخا ومؤنبا : أتعبدون أصناما أنتم تنحتونها وتقطعونها من الحجارة
أو من الخشب بأيديكم ، وتتركون عبادة الله - تعالى - الذى خلقكم وخلق الذى

. تعملونه من الأصنام وغيرها

والله خلقكم وما تعملون

كما فسرها الوسيط قال القرطبى ما ملخصه : قوله - تعالى - : ( والله خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ) " ما " فى موضع نصب ، أى : خلقكم وخلق ما تعملونه من الأصنام ، يعنى الخشب والحجارة وغيرها .وقيل إن " ما " استفهام ومعناه : التحقير لعملهم . وقيل : هى نفى أى : أنتم لا تعملون ذلك لكن ، الله خالقه والأحسن أن تكون " ما " مع الفعل مصدرا . والتقدير : والله - خلقكم وعملكم ، وهذا مذهب أهل السنة ، أن الأفعال خلق الله - عز وجل " : واكتساب للعباد .وروى أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال . " إن الله خالق كل صانع وصنعته

قالوا ابنوا له بنيانا فالقوه في الجحيم

كما فسرها الوسيط ولكن هذا المنطق الرصين من إبراهيم ، لم يجد أذنا واعية من قومه ، بل قابلوا قوله هذا بالتهديد والوعيد الذى حكاه - سبحانه - فى قوله : (قَالُواْ ابنوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِي الجحيم ) أى ، قالوا فيما بينهم : انبوا لإبراهيم بنيانا ، ثم املأوه بالنار المشتعلة . ثم ألقوا به فيها فتحرقه وتهلكه .فالمراد بالجحيم : النار الشديدة التأجج وكل نا رعضها فوق بعض فهى جحيم ، وهذا اللفظ مأخوذ من الجَحْمة وهى شدة ، التأجج والاتقاد - يقال : حجم فلان النار - كمنع - إذا أوقدها وأشعلها واللام فيه عوض عن المضاف إليه - أى - ألقوه فى جحيم ذلك البنيان الملئ . بالنار

فارادوا به كيدا فجعلناهم الاسفلين

، كما فسرها الوسيط وبنوا البنيان ، وأضرموه بالنار ، وألقوا بإبراهيم فيها فماذا كانت النتيجة؟كانت كما قال - سبحانه - بعد ذلك : ( فَأَرَادُواْ بِهِ - كَيْداً ) أى : شرا وهلاكا عن طريق إحراقه بالنار ( فَجَعَلْنَاهُمُ ) بقدرتنا التى لا يعجزها شئ - الأسفلين أى : الأذلين المقهورين ، حيث أبطلنا - كيدهم ، وحولنا النار إلى برد وسلام على عبدنا إبراهيم - عليه السلام وهكذا رعاية الله - تعالى - تحرس عباده المخلصين ، وتجعل العاقبة لهم على. . القوم الكافرين

وقال اني ذاهب الى ربي سيهدين

كما فسرها الوسيط ثم تسوق لنا السورة الكريمة بعد ذلك جانبا آخر من قصة إبراهيم - عليه السلام - هذا الجانب يتمثل فى هجرته من أجل نشر دعوة الحق وفى تضرعه إلى ربه أن يرزقه الذرية الصالحة ، فتقول : ( وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إلى رَبِّي سَيَهْدِينِ . رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصالحين . . )أى : قال إبراهيم بعد أن نجاه الله - تعالى - من كيد أعدائه ( وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إلى رَبِّي ) أى : إلى المكان الذى أمرنى ربى بالسير إليه ، وهو بلاد الشام ، وقد تكفل - سبحانه - بهدايتى إلى ما فيه صلاح دينى ودنياى قال القرطبى : " هذه الآية أصل فى الهجرة والعزلة . وأول من فعل ذلك. إبراهيم - عليه السلام - وذلك حين خلصه الله من النار ( وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إلى رَبِّي ) أى : مهاجر من بدل قومى ومولدى ، إلى حيث أتمكن من عبادة ربى ، فإنه ( سَيَهْدِينِ ) فيما نويت إلى الصواب .قال مقاتل : هو . أول من هاجر من الخلق مع لوط وسارة . إلى الأرض المقدسة وهى أرض الشام والسين فى قوله : ( سَيَهْدِينِ ) لتأكيد وقوع الهداية فى المستقبل ، بناء. على شدة توكله ، وعظيم أمله فى تحقيق ما يرجوه من ربه ، لأنه ما هاجر من . - موطنه إلا من أجل نشر دينه وشريعته - سبحانه

رب هب لي من الصالحين

كما فسرها الوسيط ثم أضاف إلى هذا الأمل الكبير فى هداية الله - تعالى - له أملا آخر وهو منحه الذرية الصالحة فقال : ( رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصالحين ، أى : وأسألك يا ربى بجانب هذه الهداية إلى الخير والحق ، أن تهب لى ولدا. ( هو من عبادك الصالحين ، الذين أستعين بهم على نشر دعوتك ، وعلى إعلاء كلمتك .

فبشرناه بغلام حليم

كما فسرها الوسيط وأجاب الله - تعالى - دعاء عبده إبراهيم ، كما حكى ذلك فى

قوله : ( فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلاَمٍ حَلِيمٍ ) .أى : فاستجبنا لإبراهيم
دعاءه فبشرناه على لسان ملائكتنا بغلام موصوف بالحلم وبمكارم الأخلاق .قال
، صاحب الكشاف : - وقد انطوت البشارة على ثلاثة : على أن الولد غلام ذكر
- وأنه يبلغ أوان الحلم ، وأنه يكون حليما .وهذا الغلام الذى بشره الله
. - تعالى - به . المقصود به هنا إسماعيل - عليه السلام

فلما بلغ معه السعي قال يا بني اني ارى في المنام اني اذبحك فانظر ماذا ترى
قال يا ابت افعل ما تؤمر ستجدني ان شاء الله من الصابرين

كما فسرها الوسيط والفاء فى قوله - تعالى - : ( فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ
السعي ) فصيحة ، أى : بشرناه بهذا الغلام الحليم ، ثم عاش هذا الغلام حتى
: بلغ السن التى فى إمكانه أن يسعى معه فيها ، ليساعده فى قضاء مصالحه .قيل
كانت سن إسماعيل فى ذلك الوقت ثلاث عشرة سنة .( قَالَ يابني إني أرى فِي
المنام أَنِّي أَذْبَحُكَ فانظر مَاذَا ترى ) .أى : فلام بلغ الغلام مع
، أبيه هذه السن ، قال الأب لابنه : يا بنى إنى رأيت فى منامى أنى أذبحك
فانظرماذا ترى فى شأن نفسك .قال الآلوسى ما ملخصه : يحتمل أنه - عليه
، السلام - رأى فى منامه أنه فعل ذلك . . ويحتمل أنه رأى ما تأويله ذلك
: ولكنه لم يذكره وذكر التأويل ، كما يقول الممتحن وقد رأى أنه راكب سفينة
رأيت فى المنام أنى ناج من هذه المحنة .ورؤيا الأنبياء وحى كالوحى فى
اليقظة ، وفى رواية أنه رأى ذلك فى ليلة التروية فأخذ يفكر فى أمره ، فسميت
بذلك ، فلما رأى ما رآه سابقا عرف أن هذه الرؤيا من الله ، فسمى بيوم عرفة
ثم رأى مثل ذلك فى الليلة الثالثة فهمّ بنحره فسمى بيوم النحر .ولعل ،
السر فى كونه مناما لا يقظة ، أن تكون المبادرة إلى الامتثال ، أدل على
كمال الانقياد والإخلاص .وإنما شاوره بقوله : ( فانظر مَاذَا ترى ) مع أنه
، سينفذ ما أمره الله - تعالى - به فى منامه سواء رضى إسماعيل أم لم يرض
لأن فى هذه المشاورة إعلاما له بما رآه ، لكى يتقبله بثبات وصبر ، وليكون
نزول هذا الأمر عليه أهون ، وليختبر عزمه وجلده .وقوله : ( قَالَ ياأبت
افعل مَا تُؤمَرُ ستجدني إِن شَآءَ الله مِنَ الصابرين ) حكاية لما رد به
إسماعيل على أبيه إبراهيم - عليهما السلام - وهو رد يدل على علو كعبه فى
الثبات ، وفى احتمال البلاء ، وفى الاستسلام لقضاء الله وقدره .أى : قال
الابن لأبيه : يا أبت افعل ما تؤمر به من قبل الله - تعالى - ولا تتردد فى
ذلك وستجدنى ن شاء الله من الصابرين على قضائه .وفى هذا الرد ما فيه من سمو
- الأدب ، حيث قدم مشيئة الله - تعالى - ، ونسب الفضل إليه ، واستعان به
سبحانه - فى أن يجعله من الصابرين على البلاء .وهكذا الأنبياء - عليهم
السلام - يلهمهم الله - تعالى - فى جميع مراحل حياتهم ما يجعلهم فى أعلى
. درجات السمو النفسى ، واليقين القلبى . والكمال الخلقى

فلما اسلما وتله للجبين

: كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما كان من الابن وأبيه فقال
وأسلما : بمعنى استلسلما ( فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ )
وانقادا لأمر الله ، فالفعل لازم ، أو بمعنى : سلّم الذبيح نفسه وسلم الأب
ابنه ، فيكون متعديا والمفعول محذوف .وقوله ( وَتَلَّهُ ) أى : صرعه وأسقطه
وأصل التل : الرمى على التّل وهو الرمل الكثيف المرتفع ، ثم عمم فى كل ،
رمى ودفع ، يقال : تل فلان فلانا إذا صرعه وألقاه على الأرض .والجبين : أحد
جانبى الجبهة ، وللوجه جبينان ، والجبهة بينهما .أى : فلما استسلم الأب
والابن لأمر الله - تعالى - وصرع الأب ابنه على شقه ، وجعل جبينه على الأرض
واستعد الأب لذبح ابنه . . كان ما كان منا من رحمة بهما . ومن إكرام لهما ،
. ومن إعلاء لقدرهما ،

وناديناه ان يا ابراهيم

كما فسرها الوسيط قال صاحب الكشاف : فإن قلت : أين جواب لما؟ قلت : هو
. محذوف تقديره : فلما أسلم وتله للجبين ( وَنَادَيْنَاهُ أن ياإبراهيم
قَدْ صَدّقْتَ الرؤيآ ) كان ما كان مما تنطق به الحال ، ولا يحيط به الوصف
من استبشارهما واغتباطهما ، وحمدهما لله ، وشكرهما على ما أنعم به عليهما من
دفع البلاء العظيم بعد حلوله ، وما اكتسبا فى تضاعيفه من الثواب ، ورضوان
الله الذى ليس وراءه مطلوب . .وقد ذكروا هنا آثار منها أن إسماعيل - عليه
، السلام - لما هم أبوه بذبحه قال له : يا أبت اشدد رباطى حتى لا اضطرب
واكفف عنى ثيابك حتى لا يتناثر عليها شئ من دمى فتراه أمى فتحزن ، وأسرع
مرّ السكين على حلقى ليكون أهون للموت على ، فإذا أتيت أمى فاقرأ عليها
. . السلام منى . . وكان ذلك عند الخصرة التى بمنى

قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزي المحسنين

. كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَنَادَيْنَاهُ أَن ياإبراهيم قَدْ صَدّقْتَ الرؤيآ ) أى : وعندما صرع إبراهيم ابنه ليذبحه ، واستسلما لأمرنا . . نادينا إبراهيم بقولنا ( وَنَادَيْنَاهُ أن ياإبراهيم . قَدْ صَدّقْتَ الرؤيآ ) أى : قد فعلت ما أمرناك به ، ونفذت ما رأيته فى رؤياك تنفيذا كاملا ، يدل على صدقك فى إيمانك ، وعلى قوة إخلاصك .قال الجمل : فإن قلت : كيف قال الله - تعالى - لإبراهيم : قد صدقت الرؤيا وهو إنما رأى أن يذبح ابنه ، وما كان تصديقها إلا لو حصل منه الذبح .قلت : جعله الله مصدقا لأنه بذل جهده ووسعه ، وأتى بما أمكنه ، وفعل ما يفعله الذابح ، فأتى بالمطلوب ، وهو انقيادها لأمر الله .وجملة ( إِنّا كَذَلِكَ نَجْزِي المحسنين ) تعليل لما قبلها . أى : فعلنا ما فعلنا من تفريج الكرب عن إبراهيم وإسماعيل ، لأن سنتنا قد اقتضت أن نجازى المسحنين الجزاء الذى يرفع درجاتهم ، ويفرج كرباتهم ، ويكشف الهم والغم عنهم .

ان هذا لهو البلاء المبين

كما فسرها الوسيط واسم الإشارة فى قوله : ( إِنّ هذا لَهُوَ البلاء المبين ) يعود إلى ما ابتلى الله - تعالى - نبيه إبراهيم وإسماعيل .أى : إن هذا الذى ابتلينا به هذين النبيين الكريمين ، لهو البلاء الواضح ، والاختبار الظاهر ، الذى به يتميز قوى الإيمان من ضعيفه ، والذى لا يحتمله إلا أصحاب العزائم العالية ، والقلوب السليمة ، والنفوس المخلصة لله رب العالمين .

وفديناه بذبح عظيم

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - مظاهر فضله على هذين النبيين الكريمين فقال : ( وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ) والذبح بمعنى المذبوح فهو مصدر بمعنى اسم المفعول كالطحن بمعنى المطحون .أى : وفدينا إسماعيل - عليه السلام - بمذبوح عظيم فى هيئته ، وفى قدره ، لأنه من عندنا ، وليس من عند غيرنا .قيل : افتداه الله - تعالى - بكبش أبيض ، أقرن ، عظيم القدر .

وتركنا عليه في الاخرين

كما فسرها الوسيط ( وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخرين . سَلاَمٌ على إِبْرَاهِيمَ . كَذَلِكَ نَجْزِي المحسنين . إِنّهُ مِنْ عِبَادِنَا المؤمنين )أى : ومن مظاهر فضلنا وإحساننا وتكريمنا لنبينا إبراهيم - أننا أبقينا ذكره الحسن فى الأمم التى ستأتى من بعده.

سلام على ابراهيم

كما فسرها الوسيط وجعلنا التحية والسلام منا ومن المؤمنين عليه إلى يوم الدين .

كذلك نجزي المحسنين

كما فسرها الوسيط ومثل هذا الجزاء نجزى المحسنين .

انه من عبادنا المؤمنين

كما فسرها الوسيط أنه - عليه السلام - من عبادنا الصادقين فى إيمانهم .

وبشرناه باسحاق نبيا من الصالحين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - مظهرا آخر من مظاهر فضله على نبيه إبراهيم فقال : ( وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِّنَ الصالحين . وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وعلى إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ )أى : ومن مظاهر تكريمنا لإبراهيم ، أننا بشرناه بولد آخر هو إسحاق ، الذى جعلناه نبيا من أنبيائنا الصالحين لحمل رسالتنا ، وأفضنا على إبراهيم وعلى إسحاق الكثير من بركاتنا الدينية والدنيوية ، بأن جعلنا عدداً كبيراً من الأنبياء من نسلهما .ومع ذلك فقد اقتضت حكمتنا أن نجعل من ذريتهما من هو محسن فى قوله وعمله ، ومن هو ظالم لنفسه بالكفر والمعاصى ظلما واضحا بينا ، وسنجازى كل فريق بما يستحقه من ثواب أو عقاب .هذا ومن الأحكام والآداب التى أخذها العلماء من هذه الآيات ما يأتى :1 - أن الرسل جميعا قد جاءوا من عند الله - تعالى - بدين واحد فى

أصوله ، وأن كل واحد منهم قد سار على نهج سابقه فى الدعوة إلى وحدانية الله وإلى مكارم الأخلاق ، وقد بين - سبحانه - فى مطلق هذه القصة ، أن إبراهيم ، كان من شيعة نوح - عليه السلام - أي : من أتباعه الذين ساروا على سنته فى دعوة الناس إلى عبادة الله وحده .وقد أمر - عز وجل - نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقتدى بإخوانه السابقين من الأنبياء ، فقال : ( أولئك الذين هَدَى الله فَبِهُدَاهُمُ اقتده ) 2 - أن تعاطى الحيل الشرعية من أجل إزالة ، المنكر ، أمر مشروع ، فإن إبراهيم - عليه السلام - لكى يقضى على الأصنام اعتذر لقومه عن الخروج معهم فى يوم عيدهم ، وقال لهم : إنى سقيم - بعد أن ، نظر فى النجوم .وكان مقصده من وراء ذلك ، أن يختلى بالأصنام ليحطمها ويثبت لقومه أنها لا تصلح للألوهية .3 - أن سنة الله - تعالى - قد اقتضت أن يراعى - بفضله وكرمه - عباده المخلصين ، وأن ينصرهم على أعدائهم ، الذين يبيتون لهم الشرور والسوء .ونرى ذلك جليا فى هذه القصة ، فقد أضمر الكافرون - لإبراهيم الكيد والإهلاك . فأنجاه الله - تعالى - من مكرهم ، كما قال تعالى - : ( فَأَرَادُواْ بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأسفلين ) .4 - أن على المؤمن إذا لم يتمكن من نشر دعوة الحق فى مكان معين أن ينتقل منه إلى مكان آخر متى كان قادرا على ذلك .وهذا ما فعله إبراهيم - عليه السلام - فقد قال لقومه بعد أن يئس من صلاحهم ، وبعد أن نجاه الله من كيدهم : ( إِنِّي ذَاهِبٌ إلى رَبِّي سَيَهْدِينِ ) .5 - أن الدعاء متى صدر من نفس عامرة بالإيمان والتقوى ، ومن قلب سليم من الهوى . . كان جديراً بالإجابة .فلقد تضرع إبراهيم إلى ربه أن يرزقه الذرية الصالحة ، فأجاب الله دعاءه .كما حكى - سبحانه - ذلك فى قوله : ( رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصالحين . ) : فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلاَمٍ حَلِيمٍ )ثم قال - سبحانه - بعد ذلك وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِّنَ الصالحين ) .6 - أن إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - قد ضربا أروع الأمثال فى صدق الإيمان ، وفى الاستسلام لأمر الله - تعالى - وفى الرضاء بقضائه .فكافأهما - عز وجل - على ، ذلك مكافأة جزيلة ، بأن جعل الذكر الحسن باقيا لإبراهيم إلى يوم القيامة وبأن افتدى الذبيح بذبح عظيم .قال - تعالى - : ( وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ . وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخرين . سَلاَمٌ على إِبْرَاهِيمَ . كَذَلِكَ نَجْزِي المحسنين . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المؤمنين ) .7 - أن الذبيح الذى ورد ذكره فى هذه القصة ، والذى افتداه الله - تعالى - بذبح عظيم ، هو إسماعيل - عليه السلام - وعلى ذلك سار جمهورالعلماء ، وم أدلتهم على ما ذهبوا إليه ما يأتى :( أ ) أن سياق القصة يدل دلالة واضحة على أن الذبيح إسماعيل ، لأن الله - تعالى - حكى عن إبراهيم أنه تضرع إليه - تعالى بقوله : ( رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصالحين ) فبشره - سبحانه - ( بِغُلاَمٍ- حَلِيمٍ ) ، وهذا الغلام عندما بلغ السن التى يمكنه معها مساعدة أبيه فى أعماله .قال له أبوه : ( يابني إني أرى فِي المنام أَنِّي أَذْبَحُكَ فانظر - مَاذَا ترى ) ثم افتدى الله - تعالى - هذا الغلام بذبح عظيم .ثم قال تعالى - بعد كل ذلك : ( وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِّنَ الصالحين ) .وهذا يدل على أن المبشر به الأول وهو إسماعيل ، غير المبشر به الثانى وهو إسحاق .( ب ) أن البشارة بمولد إسحاق - عليه السلام - قد جاء الحديث عنها مفصلا فى سورة هود . وظروف هذه البشارة وملابساتها ، تختلف عن الظروف والملابسات التى وردت هنا فى سورة الصافات ، وقد أشار إلى ذلك الإمام السيوطى فقال :وتأملت القرآن فوجدت فيه ما يقتضى القطع - أو ما يقرب منه - على أن الذبيح إسماعيل ، وذلك لأن البشارة وقعت مرتين :مرة فى قوله - تعالى - : ( رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصالحين . فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلاَمٍ حَلِيمٍ . فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السعي قَالَ يابني إني أرى فِي المنام أَنِّي أَذْبَحُكَ . . ) .فهذه الآية قاطعة فى أن المبشر به هو الذبيح ومرة فى قوله - فى سورة هود - ( وامرأته قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ. فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ ) فقد صرح فيها بأن المبشر به إسحاق ، ولم يكن بسؤال من إبراهيم ، بل قالت امرأته إنها عجوز ، وأنه شيخ ، وكان ذلك فى بلاد الشام ، لما جاءت الملائكة إليه ، بسبب قوم لوط ، وكان إبراهيم فى آخره عمره .أما البشارة الأولى فكانت حين انتقل من العراق إلى الشام ، وحين كان سنه لا يستغرب فيه الولد ، ولذلك سأله ، فعلمنا بذلك أنهما بشارتان فى وقتين بغلامين ، أحدهما بغير سؤال وهو إسحاق ، والثانية قبل ذلك بسؤال وهو غيره ، فقطعنا بأنه إسماعيل وهو الذبيح .ج - أن القول بأن الذبيح إسماعيل قد ورد - كما قال الإمام ابن القيم - عن كثير من الصحابة والتابعين ومن بعدهم . وأما القول بأنه إسحاق فباطل بأكثر من عشرين وجها .ثم قال الإمام ابن القيم : وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - يقول : هذا القول إنما هو متلقى عن أهل الكتاب ، مع أنه باطل بنص كتابهم فإن فيه : إن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه " بكره " وفى لفظ " وحيده " ولا يشك أهل الكتاب مع المسلمين أن إسماعيل هو بكر أولاد إبراهيم .ومن العلماء الذين فصلوا القول فى هذه المسألة ، الإمام ابن كثير ، فقد قال رحمه الله : " وقد ذهب ، جماعة من أهل العلم إلى أن الذبيح هو إسحاق ، وحكى ذلك عن طائفة من السلف حتى نقل عن بعض الصحابة - أيضاً - وليس ذلك فى كتاب ولا سنة ، وما أظن ذلك

تُلُقّى إلا عن أحبار أهل الكتاب ، وهذا كتاب الله شاهد ومرشد إلى أنه
إسماعيل ، فإنه ذكر البشارة بالغلام الحليم ، وذكر أنه الذبيح ، ثم قال بعد
ذلك : ( وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِّنَ الصالحين ) .ولما بشرت
الملائكة إبراهيم بإسحاق قالوا ( إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ )
وقال - تعالى - : ( فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَاقَ
يَعْقُوبَ ) أى : يولد له فى حياتهما ولد يسمى يعقوب ، فيكون من ذريته عقب
ونسل .وقد قدمنا أنه لا يجوز بعد ذلك أن يؤمر بذبحه وهو صغير ، لأن الله قد
وعدهما بأنه سيعقب ، ويكون له نسل ، فكيف يمكن بعد هذا أن يؤمر بذبحه
- صغيراً ، وإسماعيل وصف هنا بالحلم ، لأنه مناسب لهذا المقام .قال الآلوسى
رحمه الله - بعد أن ساق أقوال العلماء فى ذلك بالتفصيل : " والذى أميل إليه
أنه - أى الذبيح - إسماعيل - عليه السلام - ، بناء على أن ظاهر الآية
يقتضيه ، وأنه المروى عن كثير من أئمة أهل البيت ، ولم أتيقن صحة حديث
مرفوع يقتضى خلاف ذلك ، وحال أهل الكتاب لا يخفى على ذوى الألباب " .هذه
- بعض الأحكام والآداب التى يمكن أن نأخذها من هذه القصة ، التى حكاها
سبحانه - عن نبيه إبراهيم - عليه السلام - فى هذه السورة الكريمة ، وهناك
. أحكام وآداب أخرى يستطيع أن يستخلصها المتدبر فى هذه الآيات الكريمة

وباركنا عليه وعلى اسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين

`<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html} كما فسرها الوسيط

) : ثم بين - سبحانه - مظهرا آخر من مظاهر فضله على نبيه إبراهيم فقال
وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِّنَ الصالحين . وَبَارَكْنَا
عَلَيْهِ وعلى إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ
لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ )أى : ومن مظاهر تكريمنا لإبراهيم ، أننا بشرناه بولد
، آخر هو إسحاق ، الذى جعلناه نبيا من أنبيائنا الصالحين لحمل رسالتنا
وأفضنا على إبراهيم وعلى إسحاق الكثير من بركاتنا الدينية والدنيوية ، بأن
جعلنا عدداً كبيراً من الأنبياء من نسلهما .ومع ذلك فقد اقتضت حكمتنا أن
نجعل من ذريتهما من هو محسن فى قوله وعمله ، ومن هو ظالم لنفسه بالكفر
والمعاصى ظلما واضحا بينا ، وسنجازى كل فريق بما يستحقه من ثواب أو عقاب
- هذا ومن الأحكام والآداب التى أخذها العلماء من هذه الآيات ما يأتى :1.
أن الرسل جميعا قد جاءوا من عند الله - تعالى - بدين واحد فى أصوله ، وأن
كل واحد منهم قد سار على نهج سابقه فى الدعوة إلى وحدانية الله ، وإلى
مكارم الأخلاق ، وقد بين - سبحانه - فى مطلق هذه القصة ، أن إبراهيم كان من
شيعة نوح - عليه السلام - أى : من أتباعه الذين ساروا على سنته فى دعوة
الناس إلى عبادة الله وحده .وقد أمر - عز وجل - نبيه صلى الله عليه وسلم أن
يقتدى بإخوانه السابقين من الأنبياء ، فقال : ( أولئك الذين هَدَى الله
، فَبِهُدَاهُمُ اقتده ) 2 - أن تعاطى الحيل الشرعية من أجل إزالة المنكر
أمر مشروع ، فإن إبراهيم - عليه السلام - لكى يقضى على الأصنام ، اعتذر
لقومه عن الخروج معهم فى يوم عيدهم ، وقال لهم : إنى سقيم - بعد أن نظر فى
النجوم .وكان مقصده من وراء ذلك ، أن يختلى بالأصنام ليحطمها ، ويثبت لقومه
- أنها لا تصلح للألوهية .3 - أن سنة الله - تعالى - قد اقتضت أن يراعى
بفضله وكرمه - عباده المخلصين ، وأن ينصرهم على أعدائهم ، الذين يبيتون لهم
الشرور والسوء .ونرى ذلك جليا فى هذه القصة ، فقد أضمر الكافرون لإبراهيم
) : - الكيد والإهلاك . فأنجاه الله - تعالى - من مكرهم ، كما قال - تعالى
فَأَرَادُواْ بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأسفلين ) .4 - أن على المؤمن
إذا لم يتمكن من نشر دعوة الحق فى مكان معين أن ينتقل منه إلى مكان آخر متى
كان قادرا على ذلك .وهذا ما فعله إبراهيم - عليه السلام - فقد قال لقومه
بعد أن يئس من صلاحهم ، وبعد أن نجاه الله من كيدهم : ( إِنِّي ذَاهِبٌ إلى
رَبِّي سَيَهْدِينِ ) .5 - أن الدعاء متى صدر من نفس عامرة بالإيمان
والتقوى ، ومن قلب سليم من الهوى . . كان جديراً بالإجابة .فلقد تضرع
- إبراهيم إلى ربه أن يرزقه الذرية الصالحة ، فأجاب الله دعاءه .كما حكى
سبحانه - ذلك فى قوله : ( رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصالحين . فَبَشَّرْنَاهُ
بِغُلاَمٍ حَلِيمٍ )ثم قال - سبحانه - بعد ذلك : ( وَبَشَّرْنَاهُ
بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِّنَ الصالحين ) .6 - أن إبراهيم وإسماعيل - عليهما
السلام - قد ضربا أروع الأمثال فى صدق الإيمان ، وفى الاستسلام لأمر
الله - تعالى - وفى الرضاء بقضائه .فكافأهما - عز وجل - على ذلك مكافأة
جزيلة ، بأن جعل الذكر الحسن باقيا لإبراهيم إلى يوم القيامة ، وبأن افتدى
. الذبيح بذبح عظيم .قال - تعالى - : ( وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ
وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخرين . سَلاَمٌ على إِبْرَاهِيمَ . كَذَلِكَ
نَجْزِي المحسنين . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المؤمنين ) .7 - أن الذبيح
الذى ورد ذكره فى هذه القصة ، والذى افتداه الله - تعالى - بذبح عظيم ، هو
إسماعيل - عليه السلام - وعلى ذلك سار جمهورالعلماء ، وم أدلتهم على ما
ذهبوا إليه ما يأتى :( أ ) أن سياق القصة يدل دلالة واضحة على أن الذبيح

إسماعيل ، لأن الله - تعالى - حكى عن إبراهيم أنه تضرع إليه - تعالى - بقوله
فبشره - سبحانه - ( بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ( رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصالحين ) :
وهذا الغلام عندما بلغ السن التى يمكنه معها مساعدة أبيه فى أعماله ، (
قال له أبوه : ( يابني إني أرى فِي المنام أَنِّي أَذْبَحُكَ فانظر مَاذَا.
ترى ) ثم افتدى الله - تعالى - هذا الغلام بذبح عظيم ، ثم قال - تعالى - بعد
كل ذلك : ( وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِّنَ الصالحين ) .وهذا
يدل على أن المبشر به الأول وهو إسماعيل ، غير المبشر به الثانى وهو إسحاق
أن البشارة بمولد إسحاق - عليه السلام - قد جاء الحديث عنها مفصلا ( ب ).
فى سورة هود . وظروف هذه البشارة وملابساتها ، تختلف عن الظروف والملابسات
التى وردت هنا فى سورة الصافات ، وقد أشار إلى ذلك الإمام السيوطى فقال
وتأملت القرآن فوجدت فيه ما يقتضى القطع - أو ما يقرب منه - على أن الذبيح:
إسماعيل ، وذلك لأن البشارة وقعت مرتين :مرة فى قوله - تعالى - ( رَبِّ
هَبْ لِي مِنَ الصالحين . فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ . فَلَمَّا
. . بَلَغَ مَعَهُ السعي قَالَ يابني إني أرى فِي المنام أَنِّي أَذْبَحُكَ
فهذه الآية قاطعة فى أن المبشر به هو الذبيح .ومرة فى قوله - فى سورة. (
هود - ( وامرأته قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ ) فقد
صرح فيها بأن المبشر به إسحاق ، ولم يكن بسؤال من إبراهيم ، بل قالت
امرأته إنها عجوز ، وأنه شيخ ، وكان ذلك فى بلاد الشام ، لما جاءت الملائكة
إليه ، بسبب قوم لوط ، وكان إبراهيم فى آخره عمره .أما البشارة الأولى
، فكانت حين انتقل من العراق إلى الشام ، وحين كان سنه لا يستغرب فيه الولد
ولذلك سأله ، فعلمنا بذلك أنهما بشارتان فى وقتين بغلامين ، أحدهما بغير
سؤال وهو إسحاق ، والثانية قبل ذلك بسؤال وهو غيره ، فقطعنا بأنه إسماعيل
وهو الذبيح .ج - أن القول بأن الذبيح إسماعيل قد ورد - كما قال الإمام ابن
القيم - عن كثير من الصحابة والتابعين ومن بعدهم . وأما القول بأنه إسحاق
فباطل بأكثر من عشرين وجها .ثم قال الإمام ابن القيم : وسمعت شيخ الإسلام
، ابن تيمية - رحمه الله - يقول : هذا القول إنما هو متلقى عن أهل الكتاب
مع أنه باطل بنص كتابهم فإن فيه : إن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه " بكره
وفى لفظ " وحيده " ولا يشك أهل الكتاب مع المسلمين أن إسماعيل هو بكر "
أولاد إبراهيم .ومن العلماء الذين فصلوا القول فى هذه المسألة ، الإمام
ابن كثير ، فقد قال رحمه الله : " وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن
- الذبيح هو إسحاق ، وحكى ذلك عن طائفة من السلف ، حتى نقل عن بعض الصحابة
أيضاً - وليس ذلك فى كتاب ولا سنة ، وما أظن ذلك تُلُقّى إلا عن أحبار أهل
الكتاب ، وهذا كتاب الله شاهد ومرشد إلى أنه إسماعيل ، فإنه ذكر البشارة
بالغلام الحليم ، وذكر أنه الذبيح ، ثم قال بعد ذلك : ( وَبَشَّرْنَاهُ
بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِّنَ الصالحين ) .ولما بشرت الملائكة إبراهيم بإسحاق
) : - قالوا ( إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ ) وقال - تعالى
: فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ) أى
يولد له فى حياتهما ولد يسمى يعقوب ، فيكون من ذريته عقب ونسل .وقد قدمنا
أنه لا يجوز بعد ذلك أن يؤمر بذبحه وهو صغير ، لأن الله قد وعدهما بأنه
سيعقب ، ويكون له نسل ، فكيف يمكن بعد هذا أن يؤمر بذبحه صغيراً ، وإسماعيل
وصف هنا بالحلم ، لأنه مناسب لهذا المقام .قال الآلوسى - رحمه الله - بعد
أن ساق أقوال العلماء فى ذلك بالتفصيل : " والذي أميل إليه أنه - أى
الذبيح - إسماعيل - عليه السلام - ، بناء على أن ظاهر الآية يقتضيه ، وأنه
المروى عن كثير من أئمة أهل البيت ، ولم أتيقن صحة حديث مرفوع يقتضى خلاف
ذلك ، وحال أهل الكتاب لا يخفى على ذوى الألباب " .هذه بعض الأحكام والآداب
التى يمكن أن نأخذها من هذه القصة ، التى حكاها - سبحانه - عن نبيه
إبراهيم - عليه السلام - فى هذه السورة الكريمة ، وهناك أحكام وآداب أخرى
. يستطيع أن يستخلصها المتدبر فى هذه الآيات الكريمة

ولقد مننا على موسى وهارون

كما فسرها الوسيط ثم ذكر - سبحانه - جانباً من قصة موسى وهارون - عليهما
السلام - وهما من ذرية إبراهيم وإسحاق ، فقال - تعالى - :( وَلَقَدْ
مَنَنَّا على موسى . . . ) .موسى : هو ابن عمران بن يصهر بن ماهيث بن لاوى
: بن يعقوب بن إسحاق ، وكانت ولادته فى حوالى القرن الثالث عشر ق م .وهارون
أخو موسى ، قيل كان شقيقا له ، وقيل كان أخا له لأمه . .والمعنى : لقد
أنعمنا على موسى - وهارون - عليهما السلام بنعمة النبوة ، وبغيرها من النعم
. الأخرى

ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم

كما فسرها الوسيط والتى من بينها أننا نجيناهما وقومهما المؤمنين ، من
. استعباد فرعون إياهم ، ومن ظلمه لهم

ونصرناهم فكانوا هم الغالبين

: كما فسرها الوسيط ( وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُواْ هُمُ الغالبين ) أى
ونصرنا موسى وهارون ومن آمن بهما . فكانوا بسبب هذا النصر الذى منحناهم
. إياه ، هم الغالبين لأعدائهم ، بعد أن كانوا تحت أسرهم وقهرهم

واتيناهما الكتاب المستبين

: كما فسرها الوسيط ( وَآتَيْنَاهُمَا ) بعد كل ذلك ( الكتاب المستبين ) أى
الكتاب المبين الواضح وهو التوراة .يقال : استبان الشئ ، إذا ظهر ووضح
. وضوحا تاما

وهديناهما الصراط المستقيم

كما فسرها الوسيط ( وَهَدَيْنَاهُمَا الصراط المستقيم ) أى : وهديناهما
. وأرشدناهما - بفضلنا وإحساننا - إلى الطريق الواضح الذى لا عوج فيه

وتركنا عليهما في الاخرين

كما فسرها الوسيط ( وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الآخرين . سَلاَمٌ على
، موسى وَهَارُونَ ) أى : وأبقينا عليهما فى الأمم المتأخرة الثناء الجميل
. والذكر الحسن

سلام على موسى وهارون

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

انا كذلك نجزي المحسنين

كما فسرها الوسيط ( إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي المحسنين ) أى : مثل هذا
.التكريم نجازى عبادنا المسحنين

انهما من عبادنا المؤمنين

كما فسرها الوسيط ( إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا المؤمنين ) أى الذين صدقوا
. فى إيمانهم ، وفى طاعتهم لنا

وان الياس لمن المرسلين

- كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - جانبا من قصة إلياس - عليه السلام
وهو أيضا من ذرية إبراهيم وإسحاق ، فقال - تعالى - :( وَإِنَّ إِلْيَاسَ
- لَمِنَ . . . ) .إلياس - عليه السلام - هو ابن فنحاص بن العيزار بن هارون
عليه السلام - فهو ينتهى نسبه - أيضا - إلى إبراهيم وإسحاق .ويعرف إلياس فى
كتب الإسرائيليين باسم ( إيليا ) وقد أرسله الله - تعالى - إلى قوم كانوا
يعبدون صنما يسمونه بعلا .ويقال : إن رسالته كانت فى عهد " آخاب " أحد ملوك
بنى إسرائيل فى حوالى القرن العاشر ق م .والمعنى : ( وَإِنَّ إِلْيَاسَ
لَمِنَ المرسلين ) الذين أرسلناهم إلى الناس ليخرجوهم من ظلمات الكفر إلى
. نور الإيمان

اذ قال لقومه الا تتقون

كما فسرها الوسيط وقوله : ( إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلاَ تَتَّقُونَ ) شروع
فى بيان ما نصح به إلياس قومه ، والظرف مفعول لفعل محذوف ، والتقدير اذكر
وقت أن قال لقومه ألا تتقون الله . وتخشون عذابه ونقمته . والاستفهام للحض
. على تقوى الله - تعالى - واجتناب ما يغضبه

اتدعون بعلا وتذرون احسن الخالقين

) : كما فسرها الوسيط ثم أنكر عليهم عبادتهم لغيره - سبحانه - فقال
أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الخالقين ) .والبعل : اسم للصنم
الذى كان يعبده قومه ، وهو صنم قيل : سميت باسمه مدينة بعلبك بالشام ، وكان
قومه يسكنون فيها ، وقيل : البعل : الرب بلغة اليمن .أى : قال لهم على سبيل
التوبيخ والزجر : أتعبدون صنما لا يضر ولا ينفع وتتركون عبادة أحسن ما يقال
. له خالق ، وهو الله - عز وجل - الذى خلقكم ورزقكم

الله ربكم ورب ابائكم الاولين

كما فسرها الوسيط ولفظ الجلالة فى قوله : ( الله رَبّكُمْ وَرَبّ
آبَآئِكُمُ الأولين ) بدل من ( أحْسَنَ الخالقين ) .أى : أتعبدون صنما
صنعتموه بأيديكم ، وتذرون عبادة الله - تعالى - الذى هو ربكم ورب آبائكم
الأولين .وقرأ غير واحد من القراء السبعة ( الله ) - بالرفع - على أنه
مبتدأ ، و ( ربكم ) خبره .والتعرض لذكر ربوبيته - تعالى - لآبائهم الأولين
: الغرض منه التأكيد على بطلان عبادتهم لغيره - سبحانه - فكأنه يقول لهم ،
- إن الله - تعالى - الذى أدعوكم لعبادته وحده ليس هو ربكم وحدكم بل
. أيضاً - رب آبائكم الأولين ، الذين من طريقهم أتيتم إلى هذه الحياة

فكذبوه فانهم لمحضرون

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - ( فَكَذّبُوهُ فَإِنّهُمْ
لَمُحْضَرُونَ ) بيان لموقفهم من نبيهم ، ولما حل بهم من عذاب بسبب إعراضهم
عن دعوته .أى : دعا إلياس قومه على عبادة الله - تعالى - وحده ، فكذبوه
وأعرضوا عن دعوته ، وسيترتب على تكذيبهم هذا ، إحضارهم إلى جهنم إحضارا فيه
. ذلهم وهوانهم

الا عباد الله المخلصين

كما فسرها الوسيط ( إِلاّ عِبَادَ الله المخلصين ) فإنهم ناجون من
. الإحضار الأليم ، لأنهم سيكونون يوم القيامة محل تكريمنا وإحساننا

وتركنا عليه في الاخرين

كما فسرها الوسيط ( وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخرين ) أى : وأبقينا على
. إلياس فى الأمم الآخرين

سلام على ال ياسين

كما فسرها الوسيط ( سَلاَمٌ على إِلْ يَاسِينَ ) أي : أمان وتحية منا ومنهم
على إلياس ومن آمن معه .( إِنّا كَذَلِكَ نَجْزِي المحسنين . إِنّهُ مِنْ
( عِبَادِنَا المؤمنين

انا كذلك نجزي المحسنين

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

انه من عبادنا المؤمنين

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

وان لوطا لمن المرسلين

. كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك جانبا من قصة لوط مع قوم
فقال - تعالى - :( وَإِنّ لُوطاً لّمِنَ . . . ) .لوط - عليه السلام - هو
ابن أخ لسيدنا إبراهيم - عليه السلام - وكان قد آمن به وهاجر معه ، كما فى
قوله - تعالى - ( فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنّي مُهَاجِرٌ إلى ربي )
وقد أرسل الله - تعالى - لوطا إلى قرية سدوم - من قرى الشام - وكان أهلها
يعبدون الأصنام ويرتكبون الفاحشة ، التى لم يسبقهم إليها أحد من العالمين
. أى : ( لّمِنَ المرسلين ) الذين أرسلناهم لهداية الناس.

اذ نجيناه واهله اجمعين

: كما فسرها الوسيط ( إِذْ نَجّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ) أي
. اذكر - أيها العاقل - وقت أن نجيناه وجميع المؤمنين معه ، بفضلنا ورحمتنا

الا عجوزا في الغابرين

: كما فسرها الوسيط ( إِلاّ عَجُوزاً فِي الغابرين ) والمراد بالعجوز
أمرأته التى بقيت على كفرها وكانت تفشى أسرار زوجها ، أى : نجينا لوطا
: والمؤمنين معه من أهله ، إلا عجوزا بقيت فى العذاب مع القوم الغابرين أى

مع الباقين فى العذاب .

ثم دمرنا الاخرين

كما فسرها الوسيط ( ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخرين ) أى : ثم دمرنا القوم الآخرين الباقين على كفرهم ، كما دمرنا من بقى على كفره من أهل لوط ، كامرأته التى أعرضت عن دعوة الحق ، وانحازت إلى قومها المفسدين .

وانكم لتمرون عليهم مصبحين

كما فسرها الوسيط ثم وجه - سبحانه - الخطاب لمشركى قريش فقال : ( وَإِنَّكُمْ لَّتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ . وبالليل أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ) ؟أى : وإنكم يا أهل مكة لتمرون على مساكن قوم لوط المهلكين ، وأنتم سائرون إلى بلاد الشام ، تارة تمرون عليهم وأنتم داخلون فى وقت الصباح ، تارة تمرون عليهم وأنتم داخلونفى وقت الليل ، وترون بأعينكم ما حل بهم من دمار .

وبالليل افلا تعقلون

كما فسرها الوسيط وقوله ( أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ) معطوف على مقدر ، أى : أتشاهدون ذلك فلا تعقلون ، فالاستفهام للتوبيخ والحض على الاعتبار بأحوال الماضين .

وان يونس لمن المرسلين

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - هذه القصص ، بذكر جانب من قصة يونس - عليه السلام - فقال :( وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ . . . ) .يونس - عليه السلام - : هو ابن متى ، وقد ثبت فى الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما ينبغى لعبد أن يقول : أنا خير من يونس بن متى " .وملخص قصته أن الله - تعالى - أرسله إلى أهل نينوى بالعراق ، وفى حوالى القرن الثامن قبل الميلاد ، فدعاهم إلى إخلاص العبادة لله - فاستعصوا عليه ، فضاق بهم ذرعا ، وأخبرهم أن العذاب سيأتيهم خلال ثلاثة أيام ، فلما كان اليوم الثالث خرج يونس من بلدة قومه ، قبل أن يأذن الله له بالخروج ، فلما افتقده قومه ، آمنوا وتابوا ، وتضرعوا بالدعاء إلى الله قبل أن ينزل بهم العذاب فلما لم ير يونس نزول العذاب ، استحى أن يرجع إليهم وقال :لا أرجع إليهم. كذابا أبدا ، ومضى على وجهه فأتى سفينة فركبها فلما وصلت اللجنة وقفت ولم تتحرك .فقال صاحبها : ما يمنعها أن تسير إلا أن فيكم رجلا مشئوما ، فاقترعوا ليلقوا فى البحر من وقعت عليه القرعة ، فكانت على يونس ثم أعادوها فوقعت عليه ، فلما رأى ذلك ألقى بنفسه فى البحر ، فالتقمه الحوت .والمعنى : وإن يونس - عليه السلام - لمن المرسلين الذين اصطفيناهم لحمل رسالتنا وتبليغها إلى الناس .

اذ ابق الى الفلك المشحون

كما فسرها الوسيط ( إِذْ أَبَقَ ) أى : هرب من قومه بغير إذن من ربه - يقال أبق العبد - كضرب ومنع - إذا هرب من سيده فهو آبق .( إِلَى الفلك المشحون ) : أى : هرب من قومه إلى الفلك الملئ بالناس والأمتعة .

فساهم فكان من المدحضين

كما فسرها الوسيط ( فَسَاهَمَ ) أى : فقارع من فى السفينة بالسهام ، يقال : استهم القوم إذا اقترعوا ( فَكَانَ مِنَ المدحضين ) .أى : من المغلوبين حيث وقعت عليه القرعة دون سواء . يقال : دحضت حجة فلان ، إذا بطلت وخسرت .

فالتقمه الحوت وهو مليم

كما فسرها الوسيط ( فالتقمه الحوت وَهُوَ مُلِيمٌ ) أى بعد أن وقعت القرعة عليه ، ألقى بنفسه فى البحر ، ( فالتقمه الحوت ) أى : ابتلعه بسرعة : يقال لَقِم فلان الطعام - كسمع - والتقمه ، إذا ابتلعه بسرعة ، وتَلَّقمه إذا : ابتلعه على مهل .وجملة ( وَهُوَ مُلِيمٌ ) حالية فى محل نصب ، أى : فالتقمه الحوت وهو مكتسب من الأفعال ما يلام عليه ، حيث غادر قومه بدون إذن من ربه يقال : رجل مليم ، إذا أتى من الأقوال أو الأفعال ما يلام عليه ، وهو اسم فاعل من ألاَم الرجل ، إذا أتى ما يلام عليه .

فلولا انه كان من المسبحين

كما فسرها الوسيط ( فَلَوْلاَ أَنّهُ كَانَ مِنَ المسبحين . لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ) أى : فلولا أن يونس - عليه السلام - كان من المسبحين لله - تعالى - المداومين على ذكره . لولا هذا التسبيح للبث يونس فى تفريج الكروب ، وإزالة الهموم ، بإذن الله ورحمته . وفى الحديث الشريف : " تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة " .ورحم الله الإمام القرطبى فقد قال : " أخبر الله - عز وجل - أن يونس كان من المسبحين ، وأن تسبيحه كان سبب نجاته ، ولذا قيل : إن العمل الصالح يرفع صاحبه إذا عثَر وفى الحديث الشريف : " من استطاع منكم أن تكون له خبيثة من عمل صالح. فليفعل " فليجتهد العبد ، ويحرص على خصلة من صالح عمله ، يخلص فيها بينه وبين ربه ، ويدخرها ليوم فاقته وفقره ، ويسترها عن خلق الله ، لكى يصل إليه نفعها وهو أحوج ما يكون إليه .

للبث في بطنه الى يوم يبعثون

`<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html} كما فسرها الوسيط

فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ المسبحين . لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إلى ) يَوْمِ يُبْعَثُونَ ) أى : فلولا أن يونس - عليه السلام - كان من المسبحين لله - تعالى - المداومين على ذكره . لولا هذا التسبيح للبث يونس فى تفريج الكروب ، وإزالة الهموم ، بإذن الله ورحمته . وفى الحديث الشريف : " تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة " .ورحم الله الإمام القرطبى فقد قال : " أخبر الله - عز وجل - أن يونس كان من المسبحين ، وأن تسبيحه كان سبب نجاته ، ولذا قيل : إن العمل الصالح يرفع صاحبه إذا عثَر .وفى الحديث الشريف : " من استطاع منكم أن تكون له خبيثة من عمل صالح فليفعل " فليجتهد العبد ، ويحرص على خصلة من صالح عمله ، يخلص فيها بينه وبين ربه ، ويدخرها ليوم فاقته وفقره ، ويسترها عن خلق الله ، لكى يصل إليه نفعها وهو أحوج ما يكون إليه .

فنبذناه بالعراء وهو سقيم

، كما فسرها الوسيط فنبذناه بالعراء وهو سقيم ، والنبذ : الطرح ، والعراء الخلاء .أى : أن يونس - عليه السلام - بعد أن التقمه الحوت أخذ فى الإكثار من تسبيحنا ومن دعائنا ، فاستجبنا له دعاءه ، وأمرنا الحوت بطرحه فى الفضاء الواسع من الأرض .وجملة ( وَهُوَ سَقِيمٌ ) حالية . أى : ألقيناه بالأرض الفضاء حالة كونه عليلا سقيما ، لشدة ما لحقه من تعب وهو فى بطن الحوت .

وانبتنا عليه شجرة من يقطين

: كما فسرها الوسيط ( وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ) أى ومن مظاهر رحمتنا به ، أننا جعلنا فوقه شجرة من يقطين لكى تظلل عليه وتمنع عنه الحر .واليقطين : يطلق على كل شجر لا يقوم على ساق ، كالبطيخ والقثاء والقرع وهو مأخوذ من قطن بالمكان إذا أقام به .وقد قالوا إن المراد بهذه الشجرة ، هى شجرة القرع ، وقيل غير ذلك .

وارسلناه الى مائة الف او يزيدون

. كما فسرها الوسيط ( وَأَرْسَلْنَاهُ إلى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ، فَآمَنُواْ فَمَتّعْنَاهُمْ إلى حِينٍ ) أى : وبعد أن تداركته رحمتنا وأخرجناه من بطن الحوت ، ورعيناه برعايتنا ، أرسلناه إلى مائة ألف من الناس أو يزيدون على ذلك فى نظر الناظر إليهم .

فامنوا فمتعناهم الى حين

كما فسرها الوسيط فآمنوا جميعا ( فَمَتّعْنَاهُمْ ) بالحياة ( إلى حِينٍ ) انتهاء آجالهم .قال الإمام ابن كثير : ولا مانع من أن يكون الذين أرسل إليهم أولا ، أمر بالعودة إليهم بعد خروجه من بطن الحوت ، فصدقوه كلهم ، وآمنوا به ، وحكى البغوى أنه أرسل إلى أة أخرى بعد خروجه من بطن الحوت فصدقوه كلهم ، وآمنوا به ، وحكى البغى أنه أرسل إلى أمة أخرى بعد خروجه من الحوت ، كانوا مائة ألف ما أو يزيدون .هذا ومن العبر التى نأخذها من هذه القصة ، أن رحمة الله - تعالى - قريب من المحسنين ، وأن العبد إذا تاب توبة صادقة نصوحا ، وفى الوقت الذى تقبل فيه التوبة ، قبل الله - تعالى - توبته وفرج عنه كربه ، وأن التسبيح يكون سببا فى رفع البلاء .وبعد هذه الجولة ،

مع قصص بعض الأنبياء ، أمر الله - تعالى - قريب من المحسنين ، وأن العبد
- إذا تاب توبة صادقة نصوحا ، وفى الوقت الذى تقبل فيه التوبة ، قبل الله
. تعالى - توبته ، وفرج عنه كربه ، وأن التسبيح يكون سببا فى رفع البلاء

فاستفتهم الربك البنات ولهم البنون

- كما فسرها الوسيط وبعد هذه الجولة مع قصص بعض الأنبياء ، أمر الله
تعالى - رسولة صلى الله عليه وسلم أن يسأل هؤلاء المشركين ، سؤال توبيخ
وتأنيب ، عما قالوه فى شأن الملائكة من باطل وزور ، وأن يرد على أكاذيبهم
ردا يخرص ألسنتهم فقال - تعالى - :( فاستفتهم أَلِرَبِّكَ البنات . . . )
قوله - تعالى - ( فاستفتهم . . . ) معطوف على قوله - تعالى - فى أوائل.
السورة ( فاستفتهم أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَم مَّنْ خَلَقْنَآ . . . ) عطف
جملة على جملة . والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم والاستفتاء : الاستخبار
والاستفهام وطلب الفتيا من المفتى .أى : أسأل - أيها الرسول - هؤلاء
: المشركين سؤال تقريع وتأنيب : ( أَلِرَبِّكَ البنات وَلَهُمُ البنون ) أى
أسأله بأى وجه من وجوه القسمة جعلوا لربك البنات وجعلوا لأنفسهم البنين؟ إن
قسمتهم هذه لهى قسمة جائرة وفاسدة عند كل عاقل ، لأنه لا يليق فى أى عقل أن
يجعلوا لله - تعالى - الجنس الأدنى وهو جنس الإناث ، بينما يجعلون لأنفسهم
الجنس الأعلى .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - ( أَلَكُمُ الذكر وَلَهُ
الأنثى . تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضيزى ) قال صاحب الكشاف : ( فاستفتهم )
معطوف على مثله فى أول السورة ، وإن تباعدت بينهما المسافة ، أمر رسوله صلى
الله عليه وسلم باستفتاء قريش عن وجه إنكارهم البعث أولا . ثم ساق الكلام
، موصولا بعضه ببعض ، ثم أمره باستفتائهم عن وجه القسمة الضيزى التى قسموها
حيث جعلوا لله الإناث ولأنفسهم الذكور ، فى قولهم الملائكة بنات الله ، مع
: كراهتهم الشديدة لهن . ولقد ارتكبوا فى ذلك ثلاثة أنواع من الكفر :أحدها
، التجسيم ، لأن الولادة مختصة بالأجسام .والثانى : تفضيل أنفسهم على ربهم
حيث جعلوا أوضع الجنسين له ، وأرفعهما لهم .والثالث : أنهم استهانوا بأكرم
خلق الله ، وأقربهم إليه ، حيث أنثوهم . ولو قيل لأقلهم وأدناهم : فيك
أنوثة ، أو شكلك شكل النساء ، للبس لقائله جلد النمور ، ولا نقلبت
. حماليقه - أى : أجفان عينيه

ام خلقنا الملائكة اناثا وهم شاهدون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( أَمْ خَلَقْنَا الملائكة إِنَاثاً
- وَهُمْ شَاهِدُونَ ) تقريع آخر لهم على جهالاتهم وسفههم ، حيث أضرب
: سبحانه - عن الكلام الأول إلى ما هو أشد منه فى التبكيت والتأنيب .أى
إنهم زعموا أنه لربك البنات ولهم البنون ، فهل كانوا حاضرين وقت أن خلقنا
الملائكة حتى يعرفوا أنهم إناث؟ كلا إنهم لم يكونوا حاضرين وإنما هم يهرفون
بما لا يعرفون .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( وَجَعَلُوا الملائكة
الذين هُمْ عِبَادُ الرحمن إِنَاثاً أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ
) : شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ) قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم قال
وَهُمْ شَاهِدُونَ ) فخص علم المشاهدة .قلت : ما هو إلا الاستهزاء بهم
وتجهيل . . وذلك لأنهم كما لم يعلموا ذلك بطريق المشاهدة ، لم يعلموه بخلق
. علمه فى قلوبهم ، ولا بإخبار صادق ، ولا بطريق استدلال ونظر

الا انهم من افكهم ليقولون

كما فسرها الوسيط ثم أخبر - سبحانه - عن كذبهم فقال : ( أَلاَ إِنَّهُم
( مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ . وَلَدَ الله وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ
والإفك : أشنع الكذب وأقبحه . يقال : أفِك فلان كضرب وعلم - إفْكا
. وأفْكا ، إذا كذب كذبا فاحشا .أى : ألا إن هؤلاء الكافرين

ولد الله وانهم لكاذبون

) : كما فسرها الوسيط من شدة كذبهم ، وشناعة جهلهم ليقولون زوراً وبهتانا
وَلَدَ الله ) أى : اتخذ الله ولدا ( وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ) فى ذلك
كذبا ( تَكَادُ السماوات يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأرض وَتَخِرُّ
الجبال هَدّاً ) وافتتحت الآية الكريمة بأداة الاستفتاح " ألا " لتأكيد
. قولهم ، وأ ، هم كانوا مصرين على هذا القول الذى لا نهاية لبطلانه

اصطفى البنات على البنين

كما فسرها الوسيط ثم كرر - سبحانه - توبيخهم وتقريعهم فقال : ( أَصْطَفَى
البنات على البنين ) والاصطفاء : الاختيار والانتفاء . والاستفهام للإنكار

- والنفى ، أى : هل اختار الله البنات على البنين فى زعمهم؟ كلا إن الله تعالى - لم : يفعل شيئا من ذلك لأنه - سبحانه - غنى عن العالمين .

ما لكم كيف تحكمون

كما فسرها الوسيط ( مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ) أى : أى شئ حدث لكم ، وكيف أصدرتم هذه الأحكام الظاهرة البطلان عند كل من كان عنده أثر من عقل .

افلا تذكرون

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

ام لكم سلطان مبين

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

فاتوا بكتابكم ان كنتم صادقين

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ولقد علمت الجنة انهم لمحضرون

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

سبحان الله عما يصفون

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

الا عباد الله المخلصين

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

فانكم وما تعبدون

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

ما انتم عليه بفاتنين

كما فسرها الوسيط وقوله : ( مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ) نافية والضمير فى " عليه " يعود على الله - عز وجل - والجار والمجرور متعلق ( بفاتنين ) والمراد بالفتن : هنا الإفساد ، من قولهم : فلا نفتن على فلان خادمة . إذا أفسده . وجملة ( مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ) خبر إن .

الا من هو صال الجحيم

كما فسرها الوسيط و ( صال ) - بكسر اللام - اسم فاعل منقوص - كقاض - مضاف إلى ما بعده . وحذفت ياؤه لالتقاء الساكنين .والمعنى : إذا أدركتم - أيها المشركون - ما قلناه لكم . فثقوا أنكم أنتم وآلهتكم لن تستطيعوا أن تضلوا أحدا هداه الله - تعالى - لكنكم تستطيعون أن تضلوا من كان من أهل الجحيم ، مثلكم .فالمقصود بهذه الآيات الكريمة ، الاستخفاف بالمشركين وبآلهتهم وبيان أن من هداه الله ، تعالى -لا سلطان لهم عليه فى إغوائه أو إضلاله قال صاحب الكشاف : والضمير فى " عليه " لله - تعالى - ومعناه : فإنكم. ومعبوديكم ما أنتم وهم جميعا بفاتنين على الله ، إلا أصحاب النار الذين سبق فى علمه أنهم لسوء أعمالهم يستوجبون أن يصلوها .فإن قلت : كيف يتفننونهم على الله؟ قلت : يفسدونهم عليه بإغوائهم واستهوائهم .من قولك : فتن فلان على فلان امرأته ، كما تقول : أفسدها وخيبها عليه . .

وما منا الا له مقام معلوم

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن الملائكة معترفون اعترافا تاما بطاعتهم لله - تعالى - وبمداومتهم على عبادته وتسبيحه فقال : ( وَمَا مِنَّآ إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ . وَإِنَّا لَنَحْنُ الصآفون . وَإِنَّا لَنَحْنُ المسبحون )أى : لقد اعترف الملائكة بطاعتهم الكاملة - لله - تعالى - وقالوا : وما منا أحد إلا له مقام معلوم فى عبادة الله

. تعالى - وطاعته

وانا لنحن الصافون

كما فسرها الوسيط وإنا لنحن الصافون أنفسنا فى مواقف العبودية والطاعة لله - عز وجل .

وانا لنحن المسبحون

كما فسرها الوسيط وإنا لنحن المسبحون والمنزهون له - تعالى - عن كل مالا يليق به .وقد ذكر الإمام ابن كثير هنا جملة من الأحاديث منها أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم قال يوما لجلسائه : " أطَّتْ اسماء وحق لها أن تَئِط أى سمع لها صوت شديد - ليس فيها موضع قدم إلا عليه ملك راكع أو ساجد "، ثم قرأ : ( وَإِنَّا لَنَحْنُ الصآفون . وَإِنَّا لَنَحْنُ المسبحون )

وان كانوا ليقولون

كما فسرها الوسيط ثم أخبر - سبحانه - عن حال المشركين قبل أن يأتيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ( وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ . لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْراً مِّنَ الأولين . لَكُنَّا عِبَادَ الله المخلصين . فَكَفَرُواْ بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ) .و " إن " فى قوله ( وَإِن كَانُواْ . . . ) هى المخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير محذوف .والقائلون هم كفار مكة ، والفاء فى قوله (فَكَفَرُواْ بِهِ ) وهى الفصيحة الدالة على محذوف مقدر .والمعنى إن حال هؤلاء الكافرين وشأنهم ، أنهم كانوا يقولون قبل مجئ الرسول صلى الله عليه وسلم إليهم.

لو ان عندنا ذكرا من الاولين

كما فسرها الوسيط ( لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْراً مِّنَ الأولين ) أى : لو أن عندنا كتابا من كتب الأولين كالتوراة والإنجيل لكنا عباد الله المخلصين

لكنا عباد الله المخلصين

كما فسرها الوسيط لكنا عباد الله المخلصين: أى : لكنا بسبب وجود هذا الكتاب من عباد الله الذين يخلصون له العبادة والطاعة .

فكفروا به فسوف يعلمون

كما فسرها الوسيط فجاءهم محمد صلى الله عليه وسلم بالكتاب المبين كما تمنوا ) ، وطلبوا ، فكانت النتيجة أن كفروا به ، فسوف يعلمون سوء عاقبة هذا الكفر يَوْمَ يَغْشَاهُمُ العذاب مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيِقُول ذُوقُواْ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ).

ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ببشارة المؤمنين بنصره وبتسلية النبى صلى الله عليه وسلم عما أصابه من أعدائه ، فقال - تعالى ، - ) : المراد بكلمتنا فى قوله. ( . . . وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا ): وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا . . ) ما وعد الله - تعالى - به رسله وعباده الصالحين من جعل العاقبة الطيبة لهم .

انهم لهم المنصورون

كما فسرها الوسيط ومن الآيات التى وردت فى هذا المعنى قوله - تعالى - : ( إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا والذين آمَنُواْ فِي الحياة الدنيا وَيَوْمَ يَقُومُ الأشهاد ) وقوله - سبحانه - ( كَتَبَ الله لأَغْلِبَنَّ أَنَا ورسلي إِنَّ الله قَوِيٌّ عَزِيزٌ ) أى : والله لقد سبق وعدنا لعبادنا المرسلين بالنصر والفوز ( إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورون ) على أعدائهم.

وان جندنا لهم الغالبون

كما فسرها الوسيط ( وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون ) لمن عاداهم وناوأهم - وهذا الوعد بالنصر لا يتعارض مع هزيمتهم فى بعض المواطن - كيوم أحد مثلا. - لأن هذه الهزيمة إنما هى لون من الابتلاء الذى اقتضته حكمة الله - تعالى

ليتميز قوى الإيمان من ضعيفه ، أما النصر فى النهاية فهو للمؤمنين وهذا ما حكاه لنا التاريخ الصحيح ، فقد تم فتح مكة ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا بعد أن جاهد النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهزموا الكافرين ، ولم يفارق الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الدنيا إلا بعد أن صارت كلمة الله هى العليا ، وكلمة الذين كفروا هى السفلى .

فتول عنهم حتى حين

كما فسرها الوسيط ثم أمر الله - تعالى - رسوله صلى الله عليه وسلم بالإعراض عن المشركين ، وبالصبر على أذاهم ، فقال : ( فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حتى حِينٍ ) أى : فأعرض عنهم إلى وقت الذى يأذن الله لك فيه بقتالهم .

وابصرهم فسوف يبصرون

كما فسرها الوسيط ( وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ) أى : وانظر إليهم وراقبهم عندما ينزل بهم عذابنا ، فسوف يبصرون هم ذلك فى دنياهم وفى آخرتهم ، والأمر بمشاهدة ذلك : إشعار بأن نصره صلى الله عليه وسلم عليهم آت لا ريب فيه حتى لكأنه وواقع بين يديه ، مشاهد أمامه .

افبعذابنا يستعجلون

كما فسرها الوسيط والاستفهام فى قوله - سبحانه - : ( أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ) للتوبيخ والتأنيب . أى أبلغ الجهل وانطماس البصيرة بهؤلاء المشركين ، أنهم يستعجلون عذابنا . عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن المشركين قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم : يا محمد أرنا العذاب الذى تخوفنا به ، فنزلت هذه الآية .

فاذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - حالهم عندما ينزل بهم هذا العذاب الذى استعجلوا نزوله فقال ( فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ المنذرين ) . والساحة فى الأصل تطلق على الفناء الواسع للدار والمراد بها هنا القوم الذين يكونون فيها والمخصوص بالذم محذوف . أى : فإذا نزل العذاب بهؤلاء المشركين ، فبئس الصباح صباحهم . ولن ينفعهم حينئذ ندم أو توبة وخص الصباح بالذكر ، لأن العذاب كان يأتيهم فيه فى الغالب . أخرج الشيخان عن أنس ، رضى الله عنه . قال : " صبح رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر ، فلما خرجوا بفئوسهم ومساحيهم ورأوا الجيش ، رجعوا يقولون : محمد والله محمد والخميس - أى : والجيش فقال صلى الله عليه وسلم : " الله أكبر خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين " .

وتول عنهم حتى حين

كما فسرها الوسيط ثم كرر - سبحانه - تهديده ووعيده لهم على سبيل التأكيد لعلهم يعتبرون فقال : ( وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حتى حِينٍ . وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ) أى : وأعرض عنهم حتى حين .

وابصر فسوف يبصرون

كما فسرها الوسيط وأبصر ما توعدناهم به من عذاب أليم ، فسوف يبصرون هم ذلك .

سبحان ربك رب العزة عما يصفون

كما فسرها الوسيط ( سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العزة عَمَّا يَصِفُونَ ) أى : تنزه وتقدس ربك - أيها الرسول الكريم - عما وصفه به الواصفون الجاهلون من صفات لا تليق بذاته . وقوله ( رَبِّ العزة عَمَّا يَصِفُونَ ) بدل من ربك : أى هو صاحب العزة والغلبة والقوة التى لا يقف أمام قوتها شئ والتى لا يملكها أحد سواه .

وسلام على المرسلين

كما فسرها الوسيط ( وَسَلاَمٌ على المرسلين ) أى : سلام وأمان وتحية منا على المرسلين .

والحمد لله رب العالمين

كما فسرها الوسيط ( والحمد للَّهِ رَبِّ العالمين ) أى : والثناء الكامل لله - تعالى - رب العالمين جميعاً وخالقهم ورازقهم ، ومحييهم ومميتهم .

ص والقران ذي الذكر

كما فسرها الوسيط سورة " ص " من السور القرآنية التى افتتحت ببعض حروف التهجى ، وقد سبق أن بينا بشئ من التفصيل آراء العلماء فى هذه المسألة ، عند تفسيرنا لسورة البقرة ، وآل عمران ، والأعراف . ويونس . .وقلنا ما خلاصته : لعل أقرب الأقوال إلى الصواب ، أن هذه الحروف المقطعة قد وردت فى بعض السور القرآنية على سبيل الإيقاظ والتنبيه للذين تحداهم القرآن .فكأن الله - تعالى - يقول لأولئك المعارضين فى أن القرآن من عند الله هاكم القرآن ترونه مؤلفا من كلام من جنس ما تؤلفون منه كلامكم ، ومنظوما من حروف هى من جنس الحروف الهجائية التى تنظمون منها حروفكم .فإن كنتم فى شك من كونه منزلا من عند الله فهاتوا مثله ، وادعوا من شئتم من الخلق لكى يعاونكم فى ذلك ، أو فى الإتيان بعشر سور من مثله ، أو بسورة واحدة من مثله - فعجزوا وانقلبوا خاسرين . وثبت أن هذا القرآن من عند الله - تعالى.

والواو فى قوله - تعالى - : ( والقرآن ذِي الذكر ) للقسم . والمقسم به. القرآن الكريم . وجواب القسم محذوف ، لدلالة ما بعده عليه .والذكر ، يطلق على الشرف ونباهة الشأن ، يقال فلان مذكور ، أي : صاحب شرف ونباهة . ومنه قوله - تعالى - : ( وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ) ويطلق ويراد به التذكير على أنه مصدر ، لأن القرآن مشتمل على المواعظ والأحكام وقصص الأنبياء . وغير ذلك مما يسعد الناس فى دينهم ودنياهم .وهذان الإطلاقان ينطبقان على القرآن الكريم ، فيكون المعنى : وحق القرآن الكريم ذى الشرف العظيم ، وذى التذكير الحكيم المشتمل على ما ينفع الناس فى دنياهم وآخرتهم إنك - أيها الرسول لصادق فى كل ما تبلغه عن ربك ولم يصدر منك إطلاقا ما . . يخالف الحق الذى أمرناك بتبليغه للناس .قال بعض العلماء ما ملخصه : اعلم أنهم اختلفوا فى تعيين الشئ الذى أقسم الله - تعالى - عليه فى قوله ) : - والقرآن ذِي الذكر ) .فقال بعضهم إن المقسم عليه مذكور ، وهو قوله - تعالى - : ( إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النار ) أو قوله - تعالى - : ( إِنَّ هذا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ) أو قوله تعالى - : ( كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ ) . .والحق أن القول بأن المقسم عليه مذكور ظاهر السقوط .وقال آخرون إن المقسم عليه محذوف واختلفوا فى تقديره ، فقال صاحب الكشاف : التقدير : ( والقرآن ذِي الذكر ، إنه لمعجز . وقدره ابن عطية فقال : والتقدير : والقرآن ذى الذكر ليس ( الأمر كما يقول الكفار . .

بل الذين كفروا في عزة وشقاق

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( بَلِ الذين كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ) انتقال من القسم والمقسم به ، إلى بيان حال الكفار وما هم عليه من غرور وعناد .والمراد بالعزة هنا : الحمية والاستكبار عن اتباع الحق ، كما في قوله - تعالى - :( وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتق الله أَخَذَتْهُ العزة بالإثم فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ المهاد ) وليس المراد بها القهر والغلبة كما فى قوله - تعالى - : ( وَلِلَّهِ العزة وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ولكن المنافقين لاَ يَعْلَمُونَ ) وأصل الشقاق : المخالفة والمنازعة بين الخصمين حتى لكأن كل واحد منهما فى شق غير الذى فيه الآخر . والمراد به هنا : مخالفة المشركين لما جاءهم به النبى صلى الله عليه وسلم .والمعنى : وحق القرآن الكريم ذى الشرف وسمو القدر . إنك - أيها الرسول الكريم - لصادق فيما تبلغه عن ربك ، ولست كما يقول أعداؤك فى شأنك . بل الحق أن هؤلاء الكافرين فى حمية واستكبار عن قبول الهداية التى جئتهم بها من عند ربك ، وفى مخالفةٍ ومعارضةٍ لكل مالا يتفق مع ما وجدوا عليه آباءهم من عبادة للأصنام ، ومن عكوف على عاداتهم الباطلة .والتعبير بفى قوله ( فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ) للإشعار بأن ما هم علهي من عناد ومن مخالفته للحق ، قد أحاط بهم من كل جوانبهم ، كما يحيط الظرف بالمظروف . .

كم اهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص

كما فسرها الوسيط ثم خوفهم - سبحانه - بما أصاب الأمم من قبلهم ، وحذرهم من أن يكون مصيرهم كمصير المكذبين السابقين فقال : ( كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَواْ وَّلاَتَ حِينَ مَنَاصٍ ) .و ( كم ) هنا خبرية . ومعناها : الإخبار عن عدد كثير . وهى فى محل نصب على أنها مفعول به لأهلكنا .وصيغة الجمع فى أهلكنا للتعظيم و " من " فى قوله ( مِن

. قَبْلِهِم ) لابتداء الغاية ، وفى قوله : ( مِّن قَرْنٍ ) مميزة لِكَمْ
والقرن : يطلق على الزمان الذي يعيش فيه جيل من الناس ، ومدته - على
- الراجح - مائة سنة والمراد به هنا أهل الزمان .والمراد بالنداء فى قوله
تعالى - : ( فنادوا ) الاستغاثة والضراعة إلى الله أن يكشف عنهم العذاب .و
هى لا المشبهة بليس - وهذا رأى سيبويه - فهى حرف نفى زيدت فبيه ( لات )
، التاء لتأكيد هذا النفى .وأشهر أقوال النحويين فيها أنها تعمل عمل ليس
، وأنها لا تعمل إلى فى الحين خاصة ، أو فى لفظ الحين ونحوه من الأزمنة
كالساعة والأوان ، وأنها لابد أن يحذف اسمها أو خبرها ، والأكثر حذف
: المرفوع منهما وإثبات المنصوب .والحين : ظرف مبهم يتخصص بالإضافة .وقوله
مصدر ميمى بمعنى الفرار والخلاص . يقال : ناص فلان من عدوه - من ( مناص )
باب قال - فهو ينوص نوصا ومناصا ، إذا فر منه ، وهرب من لقائه .أو بمعنى
- النجاة والفوت . يقال: ناصه ينوصه إذا فاته ونجا منه .والمراد بقوله
تعالى - : ( أَهْلَكْنَا ) الشروع فى الإهلاك بدليل قوله - تعالى - بعد
ذلك ( فَنَادَواْ ) إذ من المعروف أن من هلك بالفعل لا يستغيث ولا ينادى
والمعنى : إن هؤلاء الكافرين المستكبرين عن طاعتنا وعبادتنا ، قد علموا.
أننا أهلكنا كثيرا من السابقين أمثالهم ، وأن هؤلاء السابقين عندما رأوا
أمارات العذاب ومقدماته ، جأروا إلينا بالدعاء أن نكشفه عنهم ، واستغاثوا
) : جاءت فى غير وقتها ، ولقد قلنا لهم عندما استغاثوا بنا عند فوات الأوان
وَّلاَتَ حِينَ مَنَاصٍ ) .أى : ليس الوقت الذى استغثتم بنا فيه وقت نجاة
وفرار من العقاب ، بل هو وقت تنفيذ العقوبة فيكم ، بعد أن تماديتم فى كفركم
- وأعرضتم عن دعوة الحق بدون إنابة أو ندم .وشبيه بهذه الآية قوله ،
تعالى - : ( فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قالوا آمَنَّا بالله وَحْدَهُ
وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ
إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا . ) وقوله - سبحانه - ( حتى
إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بالعذاب إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ . لاَ
تَجْأَرُواْ اليوم إِنَّكُمْ مِّنَّا لاَ تُنصَرُونَ ).

وعجبوا ان جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك جانبا من أكاذيب المشركين
الناتجة عن استكبارهم وشقاقهم فقال : ( وعجبوا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ
مِّنْهُمْ وَقَالَ الكافرون هذا سَاحِرٌ كَذَّابٌ . أَجَعَلَ الآلهة إلها
وَاحِداً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجَابٌ . وانطلق الملأ مِنْهُمْ أَنِ امشوا
وَاصْبِرُواْ على آلِهَتِكُمْ إِنَّ هذا لَشَيْءٌ يُرَادُ ) . .وقد ذكر
المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات روايات منها : " أن جماعة من قريش اجتمعوا
، فى نفر من مشيخة قريش ، فقال بعضهم لبعض : انطلقوا بنا إلى أبى طالب
لنكلمه فى شأن إبن أخيه . . . فلما دخلوا على أبى طالب قالوا له : أنت
كبيرنا وسيدنا ، فأنصفنا من ابن أخيك ، فمره فليكف عن شتم آلهتنا ، وندعه
وإلهه .فقال أبو طالب للنبى صلى الله عليه وسلم يا ابن أخى هؤلاء مشيخة
قريش ، وقد سألوك أن تكف عن شتم آلهتهم ويدعوك وإلهك .فقال صلى الله عليه
وسلم : " يا عم ، أفلا أدعوهم إلى ما هو خير لهم؟ قال : وإلام تدعوهم؟ قال
أدعوهم أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب ، ويملكون بها العجم " .فقال :
أبو جهل بن القوم : ما هى وأبيك؟ لنعطينها لك وشعرة أمثالها ، فقال صلى
الله عليه وسلم : " تقولون :لا إله إلا الله " .فنفر أبو جهل وقال : سلنا
غير هذا .فقال صلى الله عليه وسلم : " لو جئتمونى بالشمس حتى تضعوها فى يدى
ما سألتكم غيرها "فقاموا غضابا . وقالوا : والله لنشتمنك وإلهك الذى ،
أرسلك بهذا" .وقوله - تعالى - ( وعجبوا . . . ) مأخوذ من العجب ، وهو تغير
فى النفس من أمر لا ترتاح إليه ، وتخفى لديها أسبابه .أى : وعجب هؤلاء
الكافرون من مجئ منذر منهم ينذرهم بسوء عاقبة الشرك . ويأمرهم بعبادة
الله - تعالى - وحده .( وَقَالَ ) هؤلاء ( الكافرون ) عندما دعاهم الرسول
: صلى الله عليه وسلم إلى الدين الحق .( هذا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ) أى : قالوا
هذا الرسول ساحر لأنه يأتينا بخوارق لم نألفها ، وكذاب فيما يسنده إلى
) : - الله - تعالى - من أنه - سبحانه - أرسله إلينا .وقال - سبحانه
. وَقَالَ الكافرون ) بالإظهار دون الإضمار ، لتسجيل الكفر والجحود عليهم
وللإيذان بأن كفرهم هو الباعث لهم على وصف الرسول صلى الله عليه وسلم بما
. هو منزه عنه من السحر والكذب

اجعل الالهة الها واحدا ان هذا لشيء عجاب

كما فسرها الوسيط ثم أضافوا إلى هذا القول الباطل ، أقوالا أخرى لا تقل عن
غيرها فى البطلان والفساد .فقالوا - كما حكى القرآن - : ( أَجَعَلَ الآلهة
إلها وَاحِداً ) .والاستفهام للإنكار : أى : أجعل محمد صلى الله عليه وسلم
)الآلهة المتعددة ، إلها واحداً . وطلب منا أن ندين له بالعبادة والطاعة؟
، إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ) أى : إن هذا الذى طلبه منا ، ودعانا إليه

لشئ قد بلغ النهاية فى العجب والغرابة ومجاوزة ما يقبله العقل .و ( عُجَابٌ
أبلغ من عجيب . لأنك تقول فى الرجل الذى فيه طول : هذا رجل طويل ، بينما (
) تقول فى الرجل الذى تجاوز الحد المعقول فى الطول : هذا رجل طوال .فلفظ
عُجَابٌ ) صيغة المبالغة سماعية ، وقد حكاها - سبحانه - عنهم للإشعار
بأنهم كانوا يرون - لجهلهم وعنادهم - أن ما جاءهم به الرسول -؛ - هو شئ قد
تجاوز الحد فى العجب والغرابة .واسم الإشارة يعود إلى جعله صلى الله عليه
وسلم الآلهة إلها واحدا ، لأنهم يرون - لانطماس بصائرهم - أن ذلك مخالف
مخالفة تامة لما ورثوه ، عن آبائهم وأجدادهم من عبادة للأصنام .وما كان
. مخالفا لما ورثوه عن آبائهم فهو - فى زعمهم - متجاوز الحد فى العجب

وانطلق الملا منهم ان امشوا واصبروا على الهتكم ان هذا لشيء يراد

. كما فسرها الوسيط ثم صور - سبحانه - حرصهم على صرف الناس عن دعوة الحق
تصويرا بديعا ، فقال : ( وانطلق الملأ مِنْهُمْ أَنِ امشوا وَاصْبِرُوا
على آلِهَتِكُمْ ) .أى : وانطلق الأشراف فى قريش عن مجلس أبى طالب ، بعد أن
سمعوا من الرسول صلى الله عليه وسلم ما أغضبهم وخيب آمالهم .انطلقوا يقولون
أن امشوا فى طريقهم التى كان عليها آباؤكم واصبروا على عبادة آلهتكم مهما :
هوّن محمد صلى الله عليه وسلم من شأنها ، ومهما نهى عن عبادتها .( إِنَّ
هذا لَشَيْءٌ يُرَادُ ) أى : إن هذا الذى يدعونا إليه محمد صلى الله عليه
وسلم من عبادة الله - تعالى - وحده وترك عبادة آلهتنا لشئ يراد من جهته هو
وهو مصمم عليه كل التصميم ، ونحن من جانبنا يجب أن نقابل تصميمه على ،
دعوته ، بتصميم منا على عبادة آلهتنا .وعلى هذا المعنى تكون الإشارة هنا
عائدة إلى ما يدعوهم إليه النبى صلى الله عليه وسلم من عبادة الله وحده
ويصح أن تكون الإشارة إلى دينهم هم ، فيكون المعنى : إن هذا الدين الذى.
نحن عليه لشئ يراد لنا ، وقد وجدنا عليه آباءنا ، وما دام الأمر كذلك فلن
) : نتركه مهما كرّهنَا فيه محمد صلى الله عليه وسلم .قال الآلوسى : قوله
إِنَّ هذا لَشَيْءٌ يُرَادُ ) تعليل للأمر بالصبر ، والإشارة إلى ما وقع
وشاهدوه من أمر النبى صلى الله عليه وسلم وتصلبه فى أمر التوحيد ، ونفى
ألوهية آلهتهم . .أى : إن هذا لشئ عظيم يراد به من جهته صلى الله عليه وسلم
إمضاؤه وتنفيذه . فاقطعوا أطماعكم عن استنزاله إلى إرادتكم ، واصبرو على
عبادة آلهتكم . وقيل : إن هذا الأمر لشئ من نوائب الدهر يراد بنا ، فلا
حيلة إلا تجرع مرارة الصبر .وقيل : إن هذا - أى : دينكم - يُطلب لينتزع
. . منكم ويطرح ويراد إبطاله

ما سمعنا بهذا في الملة الاخرة ان هذا الا اختلاق

كما فسرها الوسيط ثم يضيفون إلى ذلك قولهم : ( مَا سَمِعْنَا بهذا فِى
الملة الآخرة . . . ) أى : ما سمعنا بهذا الدين الذى يدعونا إليه محمد صلى
الله عليه وسلم فى ملة العرب التى أدركنا عليها آباءنا ، أو ما سمعنا بهذا
- الذى يقوله محمد صلى الله عليه وسلم فى الملّة الآخرة ، وهى ملة عيسى
عليه السلام - فإن أتباعه يقولون بالتثليث ، ويقولون بأنه الدين الذى جاء
به عيسى .وعلى هذين القولين يكون قوله ( فِى الملة الآخرة ) متعلق بسمعنا
ويصح أن يكون المعنى : ما سمعنا بهذا الذى يدعونا إليه محمد صلى الله عليه.
وسلم كائنا فى الملة التى تكون فى آخر الزمان ، والتى حدثنا عنها الكهان
وأهل الكتاب .وعلى هذا الرأى يكون قوله ( فِى الملة الآخرة ) حالا من اسم
الإشارة وليس متعلقا بسمعنا .ثم أكدوا نفيهم لعدم سماعهم لما جاءهم به
الرسول صلى الله عليه وسلم بقولهم : ( إِنْ هذا إِلاَّ اختلاق ) أى : ما
سمعنا شيئا مما يقوله ، وما يقوله ما هو إلا كذب وتخرص اختلقه من عند نفسه
دون أن يسبقه إليه أحد .يقال : اختلاق فلان هذا القول ، إذا افتراه ،
. واصطنعه واخترعه من عند نفسه ، دون أن يكون له أصل من الواقع

اانزل عليه الذكر من بيننا بل هم في شك من ذكري بل لما يذوقوا عذاب

كما فسرها الوسيط ثم صرحوا فى نهاية المطالف بالسبب الحقيقى الذى حال بينهم
وبين الإيمان ، ألا وهو الحقد والحسد ، وإنكار أن يختص الله تعالى رسوله
من بينهم بالرسالة ، فقالوا - كما حكى القرآن عنهم - : ( أَأُنزِلَ
عَلَيْهِ الذكر مِن بَيْنِنَا؟ . . . ) .والاستفهام للإنكار والنفى . أى
يف يدعى محمد صلى الله عليه وسلم أنه قد نزل عليه القرآن من بيننا ، ونحن
السادة الأغنياء العظماء ، وهو دوننا فى ذلك؟ إننا ننكر وننفى دعواه النبوة
من بيننا .قال صاحب الكشاف : أنكروا أن يختص بالشرف من بين أشرافهم
ورؤسائهم وينزل عليه الكتاب من بينهم ، كما قالوا : ( وَقَالُواْ لَوْلاَ
نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ) وهذا الإنكار
ترجمة عما كانت تغلى به صدورهم من الحسد على ما أوتى من شرف النبوة من
بينهم .ولقد حكى القرآن أحقادهم هذه على النبى صلى الله عليه وسلم فى آيات

كثيرة ورد عليها بما يبطلها ومن ذلك قوله - تعالى - :( وَإِذَا جَآءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حتى نؤتى مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ الله الله أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ . . . ) ولقد صرح أبو جهل بهذا الحسد للنبى صلى الله عليه وسلم فعندما سأله سائل ، أتظن محمدا على حق أم : على باطل؟ كان جوابه : إن محمد لعلى حق ولكن متى كنا لبنى هاشم تبعا . أى متى كانت أسرتنا تابعة لبنى هاشم!!وفى رواية أنه قال : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب ، وكنا كفرسى رهان ، قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من - السماء ، فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصرفه .وقوله سبحانه - : ( بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي ) إضراب عن كلام يفهم من : السياق . وتسلية للرسول صلى الله عليه وسلم عما أصابه منهم من أذى .أى - هؤلاء الجاحدون الحاقدون لم يقطعوا برأى فى شأنك - أيها الرسول الكريم وفى شأن ما جئتهم به ، ولم يستندوا فى أقوالهم إلى دليل أو ما يشبه الدليل وإنما هم فى شك من هذا القرآن الذى أيدناك به ، بدليل أنك تراهم يصفونك ، تارة بالسحر ، وتارة بالكهانة ، وتارة بالشعر ، ولو عقلوا وأنصفوا لآمنوا بك وصدقوك .وقوله - سبحانه - : ( بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ) إضراب - عن مجموع الكلامين السابقين المشتملين على الحسد والشك .أى :لا تحزن أيها الرسول الكريم - من مسالكهم الخبيثة ، وأقوالهم الفاسدة . فإنهم ما ، فعلوا ذلك إلا أنهم لم يذوقوا عذابى بعد ، فإذا ذاقوه زال حسدهم وشكهم وتيقنوا بأنك على الحق المبين ، وهم على الباطل الذى لا يحوم حوله حق .وفى التعبير بقوله ( لما ) إشارة إلى أن نزول العذاب هبم وتذويقهم له ، قريب . للحصول

ام عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب

كما فسرها الوسيط ثم أنكر عليهم - سبحانه - بعد ذلك اعتراضهم على اختيار نبيه صلى الله عليه وسلم للرسالة ، وسلق هذا الإنكار بأسلوب توبيخى تهكمى فقال - تعالى - : ( أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ العزيز الوهاب ) أى : أنهم لم يملكوا خزائن رحمة ربك - أيها الرسول الكريم - حتى يعطوا منها من يشاءون ويمنعوها عمن يشاءون ، ويتخيروا للنبوة صناديدهم ويترفعوا بها عنك . . وإنما المالك لكل ذلك هو الله - تعالى - العزيز الذى لا يغلبه غالب - الوهاب ، أى : الكثير العطاء لعباده .والمراد بالعندية فى قوله ( عندهم ) : الملك والتصرف . وتقديم الظرف ( عند ) لأنه محل الإنكار وفى إضافة الرب - عز وجل - إلى الضمير العائد إلى النبى صلى الله عليه . وسلم تشريف وتكريم له صلى الله عليه وسلم .وجئ بصفة ( العزيز ) للرد على ما كانوا يزعمونه لأنفسهم وآلهتهم من ترفع وتكبر .كما جئ بصفة ( الوهاب ) - للإشارة إلى أن النبوة هبة من الله - تعالى - لمن يختاره من عباده ، وهو . سبحانه - أعلم حيث يجعل رسالته

ام لهم ملك السماوات والارض وما بينهما فليرتقوا في الاسباب

كما فسرها الوسيط وقوله - عز وجل - : ( أَمْ لَهُم مُّلْكُ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا . . . ) تأكيد لما أفادته الآية السابقة من عدم ملكيتهم لشئ من خزائن الله - تعالى - أى : أن هؤلاء الكافرين ليست عندهم خزائن ربك - أيها الرسول الكريم - وليسوا بمالكين شيئا - أى شئ - من هذه العوالم - العلوية أو السفلية ، وإنما هم خلق صغير من خلقنا العظيم الكبير .وقوله ، سبحانه - : ( فَلْيَرْتَقُواْ فِى الأسباب ) تعجيز لهم ، وتهكم بهم واستخفاف بأقوالهم ومزاعمهم ، والأسباب : جمع سبب وهو كل ما يتوصل به إلى غيره من حبل أو نحوه .والفاء جواب لشرط محذوف . والتقدير : إن كان عندهم خزائن رحمتنا ، ولهم شئ من ملك السموات والأرض وما بينهما ، فليصعدوا فى الطرق التى توصلهم إلى ما نملكه حتى يستولوا عليه ، ويدبروا أمره ، وينزلوا الوحى على من يختارونه للنبوة من أشرافهم وصناديدهم .فالجملة الكريمة قد - اشتملت على نهاية التعجيز لهم ، والتهكم بهم وبأقوالهم ، حيث بين . . سبحانه - أنهم أدعاء فيما يزعمون ، وأنهم يهرفون بما لا يعرفون

جند ما هنالك مهزوم من الاحزاب

كما فسرها الوسيط ثم بشر الله - تعالى - رسوله صلى الله عليه بالنصر عليهم فقال : ( جُندٌ مّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّن الأحزاب ) .ولفظ ( جند ) خبر لمبتدأ محذوف . و " ما " مزيدة للتقليل والتحقير ، نحو قولك : أكلت شيئا ما أى : شيئا قليلا ، وقيل : هى للتكثير والتهويل كقولهم : لأمر ما جدع قصير . أنفه .أى : لأمر عظيم . . وعلى كلا المعنيين فالمقصود أنهم لا وزن لهم بجانب قدرة الله - تعالى - ( هُنَالِكَ ) صفة لجند ، أو ظرف لمهزوم ، وهو إشارة إلى المكان البعيد .و ( مَهْزُومٌ ) خبر ثان للمبتدأ المقدر ، وأصل

الهَزْم : غَمْزُ الشئ اليابس حتى يتحطّم ويُكْسر .يقال : تَهزّمت القربة : بمعنى يبِست ، وتكسرت . وهُزِم الجيش بمعنى غُلِب وكُسِر .والمعنى ، هؤلاء المشركون - أيها الرسول الكريم -لا تهتم بأمرهم ، ولا تكترث بجموعهم فهم سواء أكانوا قليلن أم كثيرين ، لا قيمة لهم بجانب قوتنا التى لا يقف ، أمامها شئ ، ومهما تحزوا عليك فهم جند مهزومون ومغلوبون أمام قوة المؤمنين فى مواطن متعددة .فالآية الكريمة بشارة للمؤمنين بالنصر على أعدائهم كما قال - تعالى - : ( سَيُهْزَمُ الجمع وَيُوَلُّونَ الدبر ) قال صاحب الكشاف قوله : ( جُندٌ مّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّن الأحزاب ) يريد ما هم إلا : جيش من الكفار المتحزبين على رسل الله مهزوم مكسور عما قريب ، فلا تبال بما . . يقولون ، ولا تكترث بما يهذون ، و " ما " مزيدة ، وفيها معنى الاستعظام إلا أنه على سبيل الاستهزاء بهم . و ( هنالك ) إشارة حيث وضعوا فيه أنفسهم من الانتداب لمثل ذلك القول العظيم ، من قولهم لمن ينتدب لأمر ليس من أهله لست هنالك .وبذلك نرى الآيات الكريمة قد حكت أقوال المشركين ، وردت عليها : ردا يكبتهم ويزهق باطلهم ، وختمت بما يبشر المؤمنين بالنصر عليهم .ثم ساق - سبحانه - جانبا مما أصاب السابقين من دمار حين كذبوا رسلهم لكى يعتبر المشركون المعاصرون للنبى صلى الله عليه وسلم ولكى يقلعوا عن شركهم حتى لا يصيبهم ما أصاب أمثالهم من المتقدمين عليهم ، فقال - تعالى - :( بَلْ عَجِبْتَ . . . ) .

كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الاوتاد

. كما فسرها الوسيط قوله - تعالى - : ( كَذّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ استئناف مقرر لوعيد قريش بالهزيمة . ولوعد المؤمنين بالنصر ، وتأنيث ( . . قوم باعتبار المعنى ، وهو أنهم أمة وطائفة .أى : ليس قومك - يا محمد - هم أول المكذبين لرسلهم ، فقد سبقهم إلى هذا التكذيب قوم نوح ، فكان عاقبتهم الإغراق بالطوفان .وسبقهم - أيضا - إلى هذا التكذيب قوم عاد ، فقد كذبوا نبيهم هودا ، فكانت عاقبتهم الإهلاك بالريح العقيم . التى ما أتت على شئ إلا جعلته كالرميم .وقوله : ( وفِرْعَوْنُ ذُو الأوتاد ) معطوف على ما قبله أى : وكذب - أيضا - فرعون رسولنا موسى - عليه السلام - .وقوله : ( ذُو الأوتاد ) صفة لفرعون . والأوتاد : جمع وتد ، وهو ما يدق فى الأرض لتثبيت الشئ وتقويته .والمراد بها هنا : المبانى الضخمة العظيمة ، أو الجنود الذي يثبتون ملكه كما تثبت الأوتاد البيت ، أو الملك الثابت ثبوت الأوتاد .قال الآلوسى ما ملخصه : والأصل إطلاق ذى الأوتاد على البيت المشدود والمثبت بها فشبه هنا فرعون فى ثبات ملكه . . ببيت ثابت ذى عماد وأوتاد . .أو المراد ، بالأوتاد الجنود : لأنهم يقولون ملكه كما يقوى الوتد الشئ . أو المراد بها المبانى العظيمة الثابتة .ويصح أن تكون الأوتاد على حقيقتها فقد قيل إنه كان يربط من يريد قتله بين أوتاد متعددة ، ويتركه مشدودا فيها حتى يموت . . أى : وفرعون صاحب المبانى العظيمة ، والجنود الأقوياء ، والملك الوطيد. كذب رسولنا موسى - عليه السلام - ، فكانت عاقبة هذا التكذيب أن أغرقناه . ومن معه جميعا من جنوده الكافرين .

وثمود وقوم لوط واصحاب الايكة اولئك الاحزاب

كما فسرها الوسيط وكذب - أيضا - قوم ثمود نبيهم صالحا ، وقوم لوط نبيهم لوطا ، وأصحاب الأيكة وهم قوم شعيب . كذبوه كذلك - فكانت نتيجة هذا التكذيب الإهلاك لهؤلاء المكذبين - كما قال - تعالى - : ( فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مّن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مّنْ أَخَذَتْهُ الصيحة وَمِنْهُمْ مّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأرض وَمِنْهُمْ مّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ الله لِيَظْلِمَهُمْ ولكن كانوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ) والإشارة فى قوله - تعالى - : ( أولئك الأحزاب ) تعود إلى ، هؤلاء الأقوام المكذبين لرسلهم وسموا بالأحزاب ، لأنهم تحزبوا ضد رسلهم وانضم بعضهم إلى بعض فى تكذيبهم ، ووقفوا جميعا موقف المحارب لهؤلاء الرسل الكرام .

ان كل الا كذب الرسل فحق عقاب

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( إِن كُلٌّ إِلاّ كَذّبَ الرسل ، فَحَقّ عِقَابِ ) استئناف مقرر لما قبله من تكذيب هؤلاء الأقوام لرسلهم وبيان للأسباب التى أدت إلى عقاب المكذبين .و " إن " هنا نافية ، ولا عمل لها لانتقاض النفى بإلا . و " إلا " أداة استثناء مفرغ من أعم الصفات أو الأحكام : وجملة ( كَذّبَ الرسل ) فى محل رفع خبر " كل " .أى : ليس لهؤلاء الأقوام من صفات سوى تكذيب الرسل ، فكانت نتيجة هذ التكذيب أن حل بهم عقابى وثبت عليهم عذابى . الذى دمرهم تدميرا .والإخبار عن كل حزب من هذه الأحزاب بأنه كذب الرسل ، إما لأن تكذيب كل حزب لرسوله يعتبر من باب التكذيب لجميع

الرسل لأن دعوتهم واحدة ، وإما من قبيل مقابلة الجمع بالجمع ، والمقصود ) تكذيب كل حزب لرسوله .وقد جاء تكذيبهم فى الآية السابقة بالجملة الفعلية كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ . . . ) وجاء فى هذه الآية بالجملة الأسمية : لبيان إصرارهم على هذا التكذيب ، ومداومتهم عليه ، وإعراضهم عن دعوة الرسل لهم إعراضا تاما .

وما ينظر هؤلاء الا صيحة واحدة ما لها من فواق

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَمَا يَنظُرُ هؤلاءآء إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ) . بيان للعذاب المعد للمشركين المعاصرين للنبى صلى الله عليه وسلم بعد بيان العقاب الذى حل بالسابقين ، والمراد بالصحية هنا : النفخة الثانية التى ينفخها إسرافيل فى الصور. ، فيقوم الخلائق من قبورهم للحساب والجزاء .وقيل المراد بها النفخة الأولى وضعف هذا القول بأنهم لن يكونوا موجودين وقتها حتى يصعقوا بها . .وينظرون هنا بمعنى ينتظرون . وجعلهم - سبحانه - منتظرين للعقاب مع أنهم لم ينتظروه على سبيل الحقيقة لإشعار بتحقق وقوعه ، وأنهم بصدد لقائه ، فهم لذلك فى حكم المنتظرين له .أى : وما ينتظر هؤلاء المشركون الذين هم أمثال المهلكين ) من قبلهم ، ( إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً ) أى : نفخة واحدة ينفخا إسرافيل فَإِذَا هُم مِّنَ الأجداث إلى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ) وهذه النفخة ( مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ) أى : ليس لها من توقف وانتظار حتى ولو بمقدار فواق ناقة وهو الزمن الذى يكون بين الحلبتين ، أو الزمن الذى يكون فيه رجوع ، اللبن فى الضرع بعد الحلب .والمقصود بيان أن هذه الصيحة سريعة الوقوع وأنها لن تتأخر عن وقتها ، وأنها صيحة واحدة فقط يتم بعدها كل شئ يتعلق بالبعث والجزاء .قال الجمل فى حاشيته ما ملخصه : قوله : ( مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ) يجوز أن يكون قوله ( لها ) رافعا لقوله : ( مِن فَوَاقٍ ) على الفاعلية لاعتماده على النفى .وأن يكون جملة من مبتدأ وخبر ، وعلى التقديرين فالجملة المنفية صفة لصيحة ، ومن مزيدة . .والفواق - بفتح الفاء وضمها - الزمان الذى بين حلبتى الحالب ورضعتى الراضع - والمعنى : ما لها من توقف قدر فواق ناقة . وفى الحديث : " العيادة قدر فوق ناقة " .

وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات الكريمة ، ببيان ما جبل عليه هؤلاء المشركون من جهالات وسفاهات ، حيث تعجلوا العقاب قبل وقوعه بهم فقال - تعالى - : ( وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الحساب ) .والقط : النصيب والقطعة من الشئ . مأخوذ من قط الشئ إذا قطعه وفصله عن غيره . فهم قد أطلقوا القطعة من العذاب على عذابهم ، باعتبار أنها مقتطعة من العذاب الكلى المعد لهم ولغيرهم .أى : وقال هؤلاء المشركون الجاهلون يا ربنا ( عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا ) أى عجل لنا نصيبنا من العذاب - الذى توعدتنا به ، ولا تؤخره إلى يوم الحساب .وتصدير دعائهم بنداء الله تعالى - بصفة الربوبية ، يشعر بشدة استهزائهم بهذا العذاب الذى توعدهم - الله - تعالى - به على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم .ونسب - سبحانه القول إليهم جميعا من أن القائل هو النضر بن الحارث ، أو أبو جهل . . لأنهم - قد رضوا بهذا القول ، ولم يعترضوا على قائله .وقيل المراد بقوله - تعالى أى : صحائف أعمالنا لننظر فيها قبل يوم ( . . عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا ) : الحساب .وقيل المراد به : نصيبهم من الجنة أى : عجل لنا نصيبنا من الجنة التى وعد رسولك بها أتباعه ، وأعطنا هذا النصيب فى الدنيا قبل يوم الحساب لأننا لا نؤمن بوقوعه .وعلى جميع الأقوال ، فالمراد بيان أنهم قوم قد بلغ بهم التطاول والغرور منتهاه ، حيث استهزءوا بيوم الحساب ، وطلبوا تعجيل نزول العذاب بهم فى الدنيا ، بعد أن سمعوا من الرسول صلى الله عليه وسلم أن عقوبتهم مؤجلة إلى الآخرة .قال - تعالى - : ( وَمَا كَانَ الله لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ الله مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ) وقال - سبحانه - : ( وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالعذاب وَلَن يُخْلِفَ الله وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ).

اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داوود ذا الايد انه اواب

كما فسرها الوسيط ثم واصلت السورة الكريمة تسليتها للرسول صلى الله عليه - وسلم حيث أمرته بالصبر ، وذكرت له - بشئ من التفصيل - قصص بعض الأنبياء عليهم السلام - وبدأت بقصة داود - عليه السلام - الذى آتاه الله الملك والنبوة قال - تعالى - :( اصبر على مَا يَقُولُونَ واذكر . . . ) .الخطاب فى قوله - تعالى - : ( اصبر على مَا يَقُولُونَ . . . ) للنبى صلى الله عليه وسلم .أى : اصبر - أيها الرسول الكريم - على ما قاله أعدؤك فيك وفى

دعوتك لقد قالوا عنك إنك ساحر ومجنون وكاهن وشاعر . . وقالو عن القرآن الكريم : إنه أساطير الأولين . . وقالوا فى شأن دعوتك إياهم إلى وحدانية الله - تعالى - ( مَا سَمِعْنَا بهذا فِى الملة الآخرة إِنْ هذا إِلاَّ اختلاق ) وقالوا غير ذلك مما يدل على جهلهم وجحودهم للحق ، وعليك - أيها الرسول الكريم - أن تصبر على ما صدر منهم من أباطيل ، فإن الصبر مفتاح الفرج ، وهو الطريق الذى سلكه كل نبى من قبلك .وقال - سبحانه - : ( اصبر على مَا يَقُولُونَ ) بصيغة المضارع ، لاستحضار الصورة الماضية . وللإشعار بأن ما قالوه فى الماضى سيجددونه فى الحاضر وفى المستقبل فعليه أن يعد نفسه لاستقبال هذه الأقوال الباطلة بصبر وسعة صدر حتى يحكم الله - تعالى - بحكمه العادل ، بينه وبينهم .وقوله - تعالى - : ( واذكر عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأيد إِنَّهُ أَوَّابٌ ) معطوف على جملة ( واصبر ) . .وداود - عليه السلام - : هو ابن يسى من سبط " يهوذا " بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - وكانت ولادة داود فى حوالى القرن الحادى عشر قبل الميلاد . وقد منحه الله ، تعالى - النبوة والملك .وقوله - تعالى - ( ذَا الأيد ) صفة لداود والأَيْد : القوة . يقال : آدَ الرجل يئيد أَيْداً وإيادا ، إذا قوى واشتد )عوده ، فهو أيِّد . ومنه قولهم فى الدعاء : أيدك الله . أى : قواك و - أَوَّابٌ ) صيغة مبالغة من آب إذا رجع .أى : اصبر - أيها الرسول الكريم على أذى قومك حتى يحكم الله بينك وبينهم واذكر - لتزداد ثباتا وثقة - قصة وحال عبدنا داود ، صاحب القوة الشديدة فى عبادتنا وطاعتنا وفى دحر أعدائنا . أى : كثير الرجوع إلى ما يرضينا ( إِنَّهُ أَوَّابٌ ) . .

انا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والاشراق

- كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر فضله ونعمه على عبده داود عليه السلام - فقال : ( إِنَّا سَخَّرْنَا الجبال مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بالعشي والإشراق . . . )والعشى : الوقت الذى يكون من الزوال إلى الغروب أو ، إلى الصباح . والإشراق : وقت إشراق الشمس ، أى : سطوعها وصفاء ضوئها قالوا : وهو وقت الضحى . .فالإشراق غير الشروق ، لأن الشروق هو وقت طلوع الشمس . وهو يسبق الإشراق أى : إن من مظاهر فضلنا على عبدنا داود ، أننا سخرنا وذللنا الجبال معه ، بأن جعلناها بقدرتنا تقتدى به فتسبح بتسبيحه فى أوقات العشى والإشراق .وقال - سبحانه - ( معه ) للإشعار بأن تسبيحها كان سبيل الاقتداء به فى ذلك .أى : أنها إذا سمعته يسبح الله - تعالى - ويقدسه وينزهه ، رددت معه ما يقوله .وهذا التسبيح من الجبال لله - تعالى - إنما هو - على سبيل الحقيقة ولكن بكيفية لا يعلمها إلا هو - عز وجل - بدليل قوله سبحانه - : ( تُسَبِّحُ لَهُ السماوات السبع والأرض وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ) والقول بأن تسبيح الجبال كان بلسان الحال ضعيف لأمور منها : المخالفة لظاهر ما تدل عليه الآية من أن هناك تسبيحا حقيقيا بلسان المقال ، ومنها : أن تقييد التسبيح بكونه بالعشى والإشراق . وبكونه مع داود ، يدل على أنه تسبيح بلسان المقال ، إذ التسبيح بلسان الحال موجود منها فى كل وقت ، ولا يختص بكونه فى هذين الوقتين أو مع داود .وخص - سبحانه - وقتى العشى والإشراق بالذكر . للإشارة إلى مزيد شرفهما ، وسمو درجة العبادة فيهما .

والطير محشورة كل له اواب

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - ( والطير مَحْشُورَةً . . . ) معطوف على ) الجبال وكلمة محشورة : بمعنى مجموعة . وهى حال من الطير . والعامل قوله سخرنا ) .أى : إنا سخرنا الجبال لتسبح مع داود عند تسبيحه لنا ، كما سخرنا ) الطير وجمعناها لتردد معه التسبيح والتقديس لنا .والتعبير بقوله مَحْشُورَةً ) يشير إلى أن الطير قد حبست وجمعت لغرض التسبيح معه ، حتى - لكأنها تحلق فوقه ولا تكاد تفارقه من شدة حرصها على تسبيح الله - تعالى وتقديسه .وجملة ( كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ) مقررة لمضمون ما قبلها من تسبيح الجبال والطير .واللام فى " له " للتعليل ، والضمير يعود إلى داود - عليه السلام - .أى : كل من الجبال والطير . من أجل تسبيح داود ، كان كثير الرجوع : إلى التسبيح . ويصح أن يكون الضمير يعود إلى الله - تعالى - فيكون المعنى - كل من داود والجبال والطير ، كان كثير التسبيح والتقديس والرجوع إلى الله تعالى - بما يرضيه .

وشددنا ملكه واتيناه الحكمة وفصل الخطاب

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ) أى : قوينا ملك داود ، عن طريق كثرة الجند التابعين له ، وعن طريق ما منحناه من هيبة ونصرة وقوة . .( وَآتَيْنَاهُ الحكمة ) أى : النبوة ، وسعة العلم ، وصالح

العمل ، وحسن المنطق .( وَفَصْلَ الخطاب ) أى : وآتيناه أيضا الكلام البليغ الفاصل بين الحق والباطل ، وبين الصواب والخطأ ، ووفقناه للحكم بين الناس بطريقة مصحوبة بالعدل ، وبالحزم الذى لا يشوبه تردد أو تراجع .

وهل اتاك نبا الخصم اذ تسوروا المحراب

كما فسرها الوسيط ثم ساق -سبحانه - ما يشهد لعبده داود بذلك فقال ) : وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الخصم إِذْ تَسَوَّرُواْ المحراب ) .والاستفهام للتعجيب والتشويق لما يقال بعده ، لكونه أمراً غريباً تتطلع إلى معرفته النفس والنبأ : الخبر الذى له أهمية فى النفوس . .والخصم : أى المتخاصمين أو الخصماء . وهو فى الأصل مصدر خصمه أى : غلبه فى المخاصمة والمجادلة ، والمنازعة ، ولكونه فى الأصل صح إطلاقه على المفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث . . قالوا : وهو مأخوذ من تعلق كل واحد من المتنازعين بخُصُم الآخر .أى : بجانبه . .والظروف فى قوله : ( إِذْ تَسَوَّرُواْ المحراب ) متعلق بمحذوف . والتسور : اعتلاء السور ، والصعود فوقه ، إذ صيغة التفعل تفيد العلو والتصعد . كما يقال تسنم فلان الجمل ، إذ علا فوق سنامه والمحراب : المكان الذى كان يجلس فيه داود - عليه السلام - للتعبد وذكر الله - تعالى - .والمعنى : وهل وصل إلى علمك - أيها الرسول الكريم - ذلك النبأ العجيب ، ألا وهو نبأ أولئك الخصوم ، الذين تسلقوا على داود غرفته ، وقت أن كان جالسا فيها لعبادة ربه ، دون إذن منه ، ودون علم منه بقدومهم . إن كان هذا النبأ العجيب لم يصل إلى علمك ، فها نحن نقصه عليك.

اذ دخلوا على داوود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا الى سواء الصراط

كما فسرها الوسيط وقوله : ( إِذْ دَخَلُواْ على دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ بدل مما قبله . والفزع : انقباض فى النفس يحدث للإنسان عند توقع ( . . . ، مكروه .أى : أن هؤلاء الخصوم بعد أن تسوروا المحراب ، دخلوا على داود فخاف منهم ، لأنهم أتوه من غير الطريق المعتاد للإتيان وهو الباب ، ولأنهم أتوه فى غير الوقت الذى حدده للقاء الناس وللحكم بينهم ، وإنما أتوه فى وقت عبادته .ومن شأن النفس البشرية أن تفزع عندما تفاجأ بحالة كهذه الحالة قال القرطبى : فإن قيل : لم فزع داودو وهو نبى ، وقد قويت نفسه بالنبوة. واطمأنت بالوحى ، ووثقت بما آتاه الله من المنزلة ، وأظهر على يديه من الآيات ، وكان من الشجاعة فى غاية المكانة؟قيل له : ذلك سبيل الأنبياء قبله - لم يأمنوا القتل والأذية ، ومنهما كان يخاف .ألا ترى إلى موسى وهارون ، عليهما السلام - كيف قالا : ( إِنَّنَا نَخَافُ أن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يطغى ) - أى : فرعون - ، فقال الله لهما : ( لاَ تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وأرى ) ثم بين - سبحانه - ما قاله أولئك الخصوم لداود عندما شاهدوا عليه أمارات الوجل والفزع ، فقال : ( قَالُواْ لاَ تَخَفْ خَصْمَانِ بغى بَعْضُنَا على بَعْضٍ فاحكم بَيْنَنَا بالحق . . وَلاَ تُشْطِطْ واهدنآ إلى سَوَآءِ الصراط ) . .والبغى : الجور والظلم وأصله من بغى الجرح إذا ترامى إليه الفساد .والشطط : مجاوزة الحد فى كل شئ يقال : شط فلان على فلان فى الحكم واشتط . . إذى ظلم وتجاوز الحق إلى . الباطل .وقوله : ( خَصْمَانِ ) خبر لمبتدأ محذوف أى : نحن خصمان . والجملة ، استئناف معلل للنهى فى قولهم : ( لاَ تَخَفْ ) أى : قالوا لداود :لا تخف نحن خصمان بغى بعضنا على بعض ، فاحكم بيننا بالحكم الحق ، ولا تتجاوزه إلى غيره ، ( واهدنآ إلى سَوَآءِ الصراط ) أى : وأرشدنا إلى الطريق الوسط ، وهو طريق الحق والعدل .وإضافة سواء الصراط ، من إضافة الصفة إلى الموصوف .

ان هذا اخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال اكفلنيها وعزني في الخطاب

كما فسرها الوسيط ثم أخذا فى شرح قضيتهما فقال أحدهما : " إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة ، فقال أكفلنيها وعزنى فى الخطاب " والمراد بالأخوة هنا : الأخوة فى الدين أو فى النسب ، أوفيهما وفى غيرهما. كالصحبة والشركة .والنعجة : الأنثى من الضأن . وتطلق على أنثى البقر .وقوله أى : ملكنى إياها ، وتنازل لى عنها ، بحيث تكون تحت ( أَكْفِلْنِيهَا ) : ) : كفالتى وملكيتى كبقية النعاج التى عندى ، ليتم عددها مائة .وقوله وَعَزَّنِي فِي الخطاب ) أى : غلبنى فى المحاجة والمخاطبة لأنه أفصح وأقوى منى . . يقال : فلان عز فلانا فى الخطاب ، إذا غلبه . ومنه قولهم فى المثل - من عزّ بزّ . أى : من غلب غيره سلبه حقه . أى : قال أحدهما لداود : عليه السلام - : إن هذا الذى يجلس معى للتحاكم أمامك أخى . وهذا الأخ له تسع وتسعون نعجة ، أما أنا فليس لى سوى نعجة واحدة ، فطمع فى نعجتى وقال لى أى : ملكنيها وتنازل عنها ( وَعَزَّنِي فِي الخطاب ) ( أَكْفِلْنِيهَا ) :

. أى : وغلبنى فى مخاطبته لى ، لأنه أقوى وأفصح منى.

قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه وان كثيرا من الخلطاء ليبغي بعضهم على
بعض الا الذين امنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم وظن داوود انما فتناه
فاستغفر ربه وخر راكعا واناب

كما فسرها الوسيط وأمام هذه القضية الواضحة المعالم ، وأمام سكوت الأخ
. المدعى عليه أمام أخيه المدعى ، وعدم اعتراضه على قوله . . أمام كل ذلك
لم يلبث أن قال داود فِي حكمه : ( لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إلى
نِعَاجِهِ . . )واللام فى قوله : ( لَقَدْ . . . ) جواب لقسم محذوف .وإضافة
سؤال " إلى ( نَعْجَتِكَ ) من إضافة المصدر إلى مفعوله ، والفاعل محذوف "
أى : بسؤاله ، كما فى قوله - تعالى - : ( لاَّ يَسْأَمُ الإنسان مِن.
دُعَآءِ الخير ) أى : من دعائه .وقوله ( نعاجه ) متعلق بسؤال على تضمينه
معنى الضم .أى : قال داود - عليه السلام - بعد فراغ المدعى من كلامه ، وبعد
- إقرار المدعى عليه بصدق أخيه فيما ادعاه - والله إن كان ما تقوله حقا
أيها المدعى - فإن أخاك فى هذه الحالة يكون قد ظلمك بسبب طلبه منك أن
- تتنازل له عن نعجتك لكى يضمها إلى نعاجه الكثيرة .وإنما قلنا إن داود
عليه السلام - قد قال ذلك بعد إقرار المدعى عليه بصحة كلام المدعى ، لأنه
من المعروف أن القاضى لا يحكم إلا بعد سماع حجة الخصوم أو الخصين حتى يتمكن
من الحكم بالعدل .ولم يصرح القرآن بأن داود - عليه السلام - قد قال حكمه
بعد سماع كلام المدعى عليه ، لأنه مقرر ومعروف فى كل الشرائع ، وحذف ما هو
مقرر ومعلوم جائز عند كل ذى عقل سليم .ثم أراد داود - عليه السلام - وهو
الذى آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب - أراد أن يهون المسألة عن نفس المشتكى
) : وأن يخفف من وقع ما قاله أخوه الغنى له ، وما فعله معه ، فقال ،
وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ الخلطآء ليبغي بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ إِلاَّ الذين
آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ . . . ) .أى : قال داود
للمشتكى - على سبيل التسية له - : وإن كثيرا من الخلطاء ، أى الشركاء - جمع
: خليط ، وهو من يخلط ماله بمال غيره .( ليبغي بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ ) أى
ليعتدى بعضهم على بعض ، ويطمع بعضهم فى مال الآخر ( إِلاَّ الذين آمَنُواْ
وَعَمِلُواْ الصالحات ) فإنهم لا يفعلون ذلك لقوة إيمانهم ، ولبعدهم عن كل
ما لا يرضى خالقهم ، فالجملة الكريمة منصوبة المحل على الاستثناء ، لأن
الكلام قبلها تام موجب .وقوله : ( وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ) بيان لقلة عدد
المؤمنين الصادقين الذين يعدلون فى أحكامهم .ولفظ ( قليل ) خبر مقدم و " ما
- مزيدة للإبهام وللتعجب من قلتهم . و " هم " مبتدأ مؤخر .فكأنه "
سبحانه - يقول : ما أقل هؤلاء المؤمنين الذين يعملون الصالحات ويحرصون على
- إعطاء كل ذى حق حقه ، والجملة الكريمة اعتراض تذييلى .وبهذا نرى أن داود
- عليه السلام - قد قضى بين الخصمين ، بما يحق الحق ويبطل الباطل .ثم بين
سبحانه - ما حاك بنفس داود - عليه السلام - بعد أن دخل عليه الخصمان ، وبعد
أن حكم بينهما بالحكم السابق فقال : ( وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا
: فَتَنَّاهُ فاستغفر رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ ) .والظن معناه
ترجيح أحد الأمرين على الآخر .وفتناه : بمعنى امتحناه واختبرناه وابتليناه
- مأخوذ من الفتن بمعنى الابتلاء والاختبار .أى : وظن داود - عليه السلام ،
أن دخول الخصمين عليه بهذه الطريقة ، إنما هو لأجل الاعتداء عليه . وأن ذلك
لون من ابتلاء الله - تعالى - له ، وامتحانه لقوة إيمانه ، ولكن لما لم
يتحقق هذا الظن ، وإنما الذى تحقق هو القضاء بينهما بالعدل ، استغفر ربه
من ذلك الظن ، ( وَخَرَّ رَاكِعاً ) أى : ساجدا لله - تعالى - وعبر عنه
بالركوع لأنه فى كل منهما انحناء وخضوع لله - عز وجل - ( وأناب ) أى : ورجع
. داود إلى الله - تعالى - بالتوبة وبالمداومة على العبادة والطاعة

فغفرنا له ذلك وان له عندنا لزلفى وحسن ماب

كما فسرها الوسيط واسم الإشارة فى قوله - تعالى - : ( فَغَفَرْنَا لَهُ
ذَلِكَ . . ) يعود إلى الظن الذى استغفر منه ربه ، وهو ظنه بأن حضور
الخصمين إليه بهذه الطريقة غير المألوفة ، القصد منها الاعتداء عليه ، فلما
ظهر له أنهما حضرا إليه فى خصومه بينهما ليحكم فيها ، استغفر ربه من ذلك
الظن السابق ، فغفر الله - تعالى - له .فقوله : - تعالى - : ( فَغَفَرْنَا
لَهُ ذَلِكَ ) أى : فغفرنا له ذلك الظن الذى استغفر منه . . ( وَإِنَّ لَهُ
: عِندَنَا لزلفى ) أى : لقربه منا ومكانه سامية ( وَحُسْنَ مَآبٍ ) أى
. وحسن مرجع فى الآخرة وهو الجنة

يا داوود انا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى
فيضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا
يوم الحساب

، كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - هذه القصة ، بتلك التوجيهات الحكيمة
والآداب القويمة ، التى وجهها - سبحانه - إلى كل حاكم فى شخص داود - عليه
السلام - فقال : ( ياداوود إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ . . )
والخليفة : هو من يخلف غيره وينوب منابه ، فهو فعيل بمعنى فاعل . والتاء
فيه للمبالغة . أى : يا داود إنا جعلناك - بفضلنا ومنتنا - خليفة ونائبا
عنا فى الأرض ، لتتولى سياسة الناس ، ولترشدهم إلى الصراط المستقيم
والجملة الكريمة مقولة لقول محذوف معطوفة على ما سبقتها . أى : فغفرنا له.
ذلك وقلنا له يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض . ويصح أن تكون مستأنفة
لبيان مظاهر الزلفى والمكانة الحسنة التى وهبها - سبحانه - لداود؟ حيث جعله
خليفة فى الأرض .والفاء فى قوله - تعالى - : ( فاحكم بَيْنَ الناس بالحق
: وَلاَ تَتَّبِعِ الهوى . . ) للتفريع ، أو هى جواب لشرط مقدر . والهوى
ميل النفس إلى رغباتها بدون تحر للعدل والصواب .أى : إذا كان الأمر كما
- أخبرناك فاحكم - يا داود - بين الناس بالحكم الحق الذى أرشدك الله
تعالى - إليه ، وواظب على ذلك فى جميع الأزمان والأحوال : ولا تتبع هوى
النفس وشهواتها ، فإن النفس أمارة بالسوء .وقوله - سبحانه - ( فَيُضِلَّكَ
عَن سَبِيلِ الله . . . ) بيان للمصير السيئ الذى يؤدى إليه اتباع الهوى فى
الأقوال والأحكام .وقوله ( فَيُضِلَّكَ ) منصوب بأن المضمرة بعد فاء
السببية ، على أنه جواب للنهى السابق . أى : ولا تتبع الهوى ، فإن اتباعك
- له ، يؤدى بك إلى الضلال عن طريق الحق ، وعن مخالفة شرع الله - تعالى
ودينه .ثم بين - سبحانه - عاقبة الذين يضلون عن سبيله فقال : ( إِنَّ الذين
يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ الله لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدُ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ
الحساب ) .أى : إن الذين يضلون عن دين الله وعن طريقه وشريعته ، بسبب
اتباعهم للهوى ، لهم عذاب شديد لا يعلم مقداره إلا الله - تعالى - لأنهم
تركوا الاستعداد ليوم الحساب ، وما فيه من ثواب وعقاب .هذا ، ومن الأحكام
- والآداب التى أخذها العلماء من هذه الآيات ما يأتى :1 - سمو منزلة داود
- عليه السلام - عند ربه ، فقد افتتحت هذه الآيات ، بأن أمر الله - تعالى
رسوله صلى الله عليه وسلم أن يتذكر ما حدث لأخيه داود . ليكون هذا التذكير
- تسلية له عما أصابه من المشركين وعونا له على الثبات والصبر .ثم وصف
، سبحانه - عبده داود بأنه كان قويا فى دينه ، ورجاعا إلى ما يرضى ربه
وأنه - سبحانه - قد وهبه نعما عظيمة ، وآتاه الحكمة وفصل الخطاب .ثم ختمت
- هذه الآيات - أيضا - بالثناء على داود - عليه السلام - حيث قال - سبحانه
- وبيان أنه - تعالى . ( وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لزلفى وَحُسْنَ مَآبٍ ) :
- قد جعله خليفة فى الأرض .ومن الأحاديث التى وردت فى فضله - عليه السلام
ما أخرجه البخاري فى تاريخه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا ذكر
داود ، وحدث عنه قال : " كان أعبد البشر " .وأخرجه الديلمى عن ابن عمر قال
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لا ينبغى لأحد أن يقول إنى أعبد من :
، داود " .2 - أن قصة الخصمين اللذين تسورا على داود المحراب ، قصة حقيقية
وأن الخصومة كانت بين اثنين من الناس فى شأن غنم لهما ، وأنهما حين دخلا
- عليه بتلك الطريقة الغريبة التى حكاها القرآن الكريم ، فزع منهما داود
عليه السلام - وظن أنهما يريدان الاعتداء عليه ، وأن الله - تعالى - يريد
امتحانه وثباته أمام أمثال هذه الأحداث .فلما تبين لداود بعد ذلك أن
الخصمين لا يريدان الاعتداء عليه ، وإنما يريدان التحاكم إليه فى مسألة
- معينة ، استغفر ربه من ذلك الظن السابق - أى ظن الاعتداء عليه فغفر الله
تعالى - له . .والذى يتدبر الآيات الكريمة يراها واضحة وضوحا جليا فى تأييد
هذا المعنى .قال أبو حيان ما ملخصه - بعد أن ذكر جملة من الآراء - : والذى
أذهب إليه ما دل عليه ظاهر الآية من أن المتسورين للمحراب كانوا من الإنس
دخلوا عليه من غير المدخل ، وفى غير وقت جلوسه للحكم وأنه فزع منهم ظانا ،
أنهم يغتالونه ، إذ كان منفردا فى محرابه لعبادة ربه ، فلما اتضح له أنهم
، جاءوا فى حكومته ، وبرز منهم اثنان للتحاكم . . . وأن ما ظنه غير واقع
استغفر من ذلك الظن ، حيث اختلف ولم يقع مظنونة ، وخر ساجدا منيبا إلى
الله - تعالى - فغفر الله له ذلك الظن ، ولذلك أشار بقوله : ( فَغَفَرْنَا
لَهُ ذَلِكَ ) ولم يتقدم سوى قوله - تعالى - : ( وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا
فَتَنَّاهُ ) ويعلم قطعا أن الأنبياء معصومون من الخطايا ، ولا يمكن وقوعهم
فى شئ منها ، ضرورة أننا لو جوزنا عليهم شيئا من ذلك لبطلت الشرائع ، ولم
نثق بشئ مما يذكرون أنه أوحى الله به إليهم ، فما حكى الله - تعالى - فى
كتابه . يمر على ما أراده - تعالى - ، وما حكى القصاص مما فيه غض من منصب
النبوة ، طرحناه .2 - ومع أن ما ذكرناه سابقا ، وما نقلناه عن الإمام أبى
حيان ، هو المعنى الظاهر من الآيات ، وهو الذى تطمئن إليه النفس ، لأنه
يتناسب مع مكانة داود - عليه السلام - ، ومع ثناء الله - تعالى - عليه
وتكريمه له .أقول مع كل ذلك ، إلا أنا وجدنا كثيرا من المفسرين عند حديثهم
عن قصة الخصوم الذين تسوروا على داود المحراب ، يذكرون قصصا فى نهاية
النكارة ، وأقوالا فى غاية البطلان والفساد .فمثلا نرى ابن جرير وغيره
يذكرون قصة مكذوبة ملخصها : " أن داود - عليه السلام - كان يصلى فى محرابه
ثم تطلع من نافذة المكان الذى كان يصلى فيه ، فرأى امرأة جميلة فأرسل . . .

إليها فجاءته ، فسألها عن زوجها فأخبرته بأن زوجها ، اسمه " أوريا " وأنه
خرج مع الجيش الذى يحارب الأعداء . . فأمر داود - عليه السلام - قائد الجيش
أن يجعله فى المقدمة لكى يكون عرضة للقتل .. وبعد قتله تزوج داود بتلك
: المرأة . .ونرى صاحب الكشاف بعد أن يذكر هذه القصة ، ثم يعلق عليها بقوله
فهذا ونحوه مما يقبح أن يُحَدّثَ به عن بعض المتسمين بالصلاح من أبناء "
المسلمين ، فضلا عن بعض أعلام الأنبياء . . " نراه يذكر معها قصصا أخرى
ملخصها : أن داود - عليه السلام - لم يعمل على قتل " أوريا " وإنما سأله أن
يتنازل له عن امرأته ، فانصاع لأمره وتنازل له عنها . . أو أنه خطبها بعد
أن خطبها " أوريا " فآثر أهلها داود على " أوريا " .قال صاحب الكشاف : كان
، أهل زمان داود - عليه السلام - يسأل بعضهم بعضا أن ينزل له عن امرأته
. . فيتزوجها إذا أعجبته ، وكان لهم عادة فى المواساة بذلك قد اعتادوها
فاتفق أن عين داود وقعت على امرأة رجل يقال له " أوريا " فأحبها ، فسأله
النزول عنها ، فاستحيا أن يرده ، ففعل ، فتزوجها ، وهى أم سليمان - عليه
السلام - وقيل : خطبها " أوريا " ثم خطبها داود فآثر أهلها داود على أوريا
والذى نراه أن هذه الأقوال وما يشبهها عارية عن الصحة ، وينكرها النقل. .
والعقل ، ولا يليق بمؤمن أن يقبل شيئا منها . .ينكرها النقل : لأنها لم
تثبت من طريق يعتد به ، بل الثابت أنها مكذوبة .قال ابن كثير : قد ذكر
المفسرون ها هنا قصة ، أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات ، ولم يثبت فيها عن
المعصوم حديث يجب اتباعه ، ولكن روى ابن أبى حاتم حديثا لا يصح سنده ، لأنه
من رواية يزيد الرقاشى ، عن أنس - ويزيد وإن كان من الصالحين - لكنه ضعيف
الحديث عند الأئمة . .وقال السيوطى : القصة التى يحكونها فى شأن المرأة
وأنها أعجبته ، وأنه أرسل زوجها مع البعث حتى قتل ، أخرجها ابن أبى حاتم من
حديث أنس مرفوعا ، وفى إسناده ابن لهيعة ، وحاله معروف - عن ابن صخر ، عن
زيد الرقاشى ، وهو ضعيف . .وقال البقاعى : وتلك القصة وأمثالها من كذب
اليهود - وقد أخبرنى بعض من أسلم منهم أنهم يتعمدون ذلك فى حق داود - عليه
السلام - لأن عيسى - عليه السلام - من ذريته ، ليجدوا سبيلا إلى الطعن فيه
إذا فهذه القصص وتلك الأقوال غير صحيحة من ناحية النقل ، لأن رواتها.
معروفون بالضعف . وبالنقل عن الإسرائيليات .ويروى أن الإمام عليا - رضى
الله عنه - قال : " من حدث بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة
وستين جلدة ، وهو حد الفرية على الأنبياء " .وهى غير صحيحة من ناحية العقل
لأنه ليس من المعقول أن يمدح الله - تعالى - نبيه داود هذا المدح فى أول ،
الآيات وفى آخرها كما سبق أن أشرنا ، ثم نرى بعد ذلك من يتهمه بأنه أعجب
بامرأة ، ثم تزوجها بعد أن احتال لقتل زوجها ، بغير حق .أو طلب منه التنازل
له عنها ، أو خطبها على خطبته .إن هذه الأفعال يتنزه عنها كثير من الناس
- الذين ليسوا بأنبياء ، فكيف يفعلها واحد من أعلام الأنبياء . هو داود
عليه السلام - الذى مدحه الله - تعالى - بالقوة فى دينه . وبكثرة الرجوع
. إلى ما يرضى الله - تعالى - ، وبأنه - سبحانه - آتاه الحكمة وفصل الخطاب
وبأن له عند ربه ( لزلفى وَحُسْنَ مَآبٍ ) .والخلاصة : أن كل ما قيل عند
تفسير هذه الآيات ، مما يتصل بزواج داود بتلك المرأة أو بزوجها لا أساس له
من الصحة . لأنه لم يقم عليه دليل أو ما يشبه الدليل . بل قام الدليل على
- عدم صحته إطلاقا . لأنه يتنافى مع عصمة الأنبياء . الذين صانهم الله
تعالى - من ارتكاب ما يخدش الشرف والمروءة قبل النبوة وبعدها .قال الإمام
ابن حزم ما ملخصه : " ما حكاه الله - تعالى - عن داود قول صادق صحيح .لا
يدل على شئ مما قاله المستهزئون الكاذبون المتعلقون بخرافات ولّدها اليهود
وإنما كان ذلك الخصم قوما من بنى آدم بلا شك . مختصمين فى نعاج من الغنم.
- ومن قال إنهم كانوا ملائكة معرضين بأمر النساء . فقد كذب الله - تعالى.
) : ما لم يقل ، وزاد فى القرآن ما ليس فيه . . لأن الله - تعالى - يقول
وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الخصم ) فقال لهو : لم يكونوا خصمين . ولا بغى بعضهم
على بعض . ولا كان لأحدهما تسع وتسعون نعجة . ولا كان للآخر نعجة واحدة ولا
قال له : ( أَكْفِلْنِيهَا . . ) .4 - هذا : وهناك أقوال أخرى ذكرها
المفسرون عند تفسيرهم لهذه الآيات . منها : أن استغفار داود - عليه
السلام - إنما كان سببه أنه قضى لأحد الخصمين قبل أن يسمع حجة الآخر .قال
الإمام الرازى ما ملخصه : لم لا يجوز أن يقال إن تلك الزلة التى جعلت
داود يستغفر ربه - إنما حصلت لأنه قضى لأحد الخصمين ، قبل أن يسمع كلام
الخصم الآخر ، فإنه لما قال له : ( لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ
إلى نِعَاجِهِ . . ) فحكم عليه بكونه ظالما بمجرد دعوى الخصم بغير بينة
، لكون هذا الخصم مخالفا للصواب ، فعند هذا اشتغل داود بالاستغفار والتوبة
إلا أن هذا من باب ترك الأولى والأفضل .والذى نراه أن هذا القول بعيد عن
الصواب ، ولا يتناسب مع منزلة داود - عليه السلام - الذى آتاه الله الحكمة
وفصل الخطاب ، وذلك لأن من أصول القضاء وأولياته ، أن لا يحكم القاضى بين
الخصمين أو الخصوم إلا بعد سماع حججهم جميعا ، فكيف يقال بعد ذلك أن داود
: قضى لأحد الخصمين قبل أن يستمع إلى كلام آخر .قال صاحب الكشاف : فإن قلت
كيف سارع داود إلى تصديق أحد الخصمين ، حتى ظلم الآخر قبل استماع كلامه؟
قلت : ما قال داود ذلك إلا بعد اعتراف صاحبه ، ولكنه لم يحك فى القرآن.

لأنه معلوم ، ويروى أنه قال : أريد أخذها منه وأكمل نعانجى مائة فقال داود إن رمت ذلك ضربنا منك هذا وهذا . وأشار إلى طرف الأنف والجبهة . .ومنهم : من يرى ، أن استغفار داود - عليه السلام - كان سببه : أن قوما من الأعداء أرادوا قتله ، فتسوروا عليه المحراب ، فلما دخلوا عليه لقصد قتله وجدوا عنده أقواما . فلم يستطيعوا تنفيذ ما قصدوه ، وتصنعوا هذه الخصومة فعلم داود قصدهم ، وعزم على الانتقام منهم ، ثم عفا عنهم ، واستغفر ربه مما كان - قد عزم عليه ، لأنه كان يرى أن الأليق به العفو لا الانتقام .وهذا القول وإن كان لا بأس به من حيث المعنى - إلا ان الرأى الذى سقناه سابقا ، والذى ذهب إليه الإمام أبو حيان ، أرجح وأقرب إلى ما هو ظاهر من معنى الآيات وملخصه : أن الخصومة حقيقية بين اثنتين من البشر ، واستغفار داود - عليه السلام - سببه أنه ظن أنهم جاءوا لاغتياله ولإيذائه ، وأن هذا ابتلاء من الله - تعالى - ابتلاه به ، ثم تبين له بعد ذلك أنهم ما جاءوا للاعتداء عليه وإنما جاءوا ليقضى بينهم فى خصومة ، فاستغفر ربه من ذلك الظن . فغفر الله - تعالى - له .ولعلنا بهذا البيان نكون قد وفقنا للصواب ، فى تفسير هذه الآيات الكريمة ، التى ذكر بعض المفسرين عند تفسيرها أقوالا وقصصا لا يؤيدها عقل أو نقل ، ولا يليق بمسلم أن يصدقها ، لأنها تتنافى مع عصمة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - الذين اختارهم الله - تعالى - لتبليغ دعوته ، وحمل رسالته . وإرشاد الناس إلى إخلاص العبادة له - سبحانه - وإلى مكارم الأخلاق ، وحميد الخصال .

وما خلقنا السماء والارض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أنه لم يخلق السموات والأرض عبثا ، وأن حكمته اقتضت عدم المساواة بين الأخيار والأشرار ، وأن هذا القرآن قد أنزله - سبحانه - لتدبير آياته ، والعمل بتوجيهاته فقال - تعالى - :( وَمَا خَلَقْنَا السمآء . . . ) .المراد بالباطل فى قوله - تعالى - : ( وَمَا خَلَقْنَا السمآء والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً . . . ) العبث واللهو واللعب وما يخالف الحق ، والجملة الكريمة مستأنفة لتقرير أن يوم القيامة حق ، وأن كفر الكافرين به ضلال وجهل . وقوله ( بَاطِلاً ) صفة لمصدر محذوف ، أو مفعول لأجله . أى : وما خلقنا - بقدرتنا التى لا يعجزها شئ - السموات والأرض وما بينهما من مخلوقات لا يعلمها إلا الله - تعالى - . . ما خلقنا ذلك خلقا باطلا لا حكمة فيه ، أو خلقناه من أجل متابعة الهوى وترك العدل والصواب .وإنما خلقنا هذا الكون خلقا مشتملا على الحكم الباهرة ، وعلى المصالح الجمة والأسرار البليغة ، والمنافع التى لا يحصيها العد ، والهيئات والكيفيات التى تهدى من يتفكر فيها إلى اتباع الحق والرشاد .واسم الإشارة فى قوله - سبحانه - : ( ذَلِكَ ظَنُّ الذين كَفَرُواْ . . . ) يعود إلى ما نفاه - سبحانه - من خلقه للسموات والأرض وما بينهما على سبيل اللهو والعبث أى : نحن ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا خلقا مشتملا على الحكم الباهرة . . ولكن الذين كفرواهم الذين يظنون ويعتقدون أننا خلقنا هذه الكائنات من أجل الباطل واللهو واللعب . . وسبب هذا الظن والاعتقاد الفاسد منهم ، كفرُهم بالحق ، وجحودُهم ليوم القيامة وما فيه من حساب وثواب وعقاب وإعراضهم عما جاءهم به الرسول صلى الله عليه وسلم من هدايات وإرشادات ، وقوله - تعالى - : ( فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ النار ) بيان للعاقبة السيئة التى حلت بهم بسبب هذا الظن الفاسد . . فالفاء : للتفريع على ظنهم الباطل والويل : الهلاك والدمار .و ( من ) ابتدائية أو بيانية أو تعليلية .أى : القول بأن خلق هذا الكون خال من الحكمة ، هو ظن واعتقاد الذين كفروا وحدهم ، وما دام هذا مظنونهم ومعتقدهم فهلاك لهم كائن من النار - التى نسلطها عليهم فتحرق أجسادهم ، وتجعلهم يذوقون العذاب المهين .وقال سبحانه - ( فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ . . . ) بالإظهار فى مقام الإضمار ، للإشعار بعلية صلة الموصول للحكم أى : أن هذا الويل والهلاك كائن لهم بسبب كفرهم .وقال - سبحانه - : ( فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ) ولم يقل للذين ظنوا للإشارة إلى أن ظنهم القبيح هذا ، ما هو إلا نتيجة كفرهم وجحودهم للحق .

ام نجعل الذين امنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الارض ام نجعل المتقين كالفجار

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن حكمته قد اقتضت استحالة المساواة بين الأخيار والفجار ، فقال - تعالى - : ( أَمْ نَجْعَلُ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات كالمفسدين فِي الأرض أَمْ نَجْعَلُ المتقين كالفجار ) و " أم " فى الآية الكريمة منقطعة بمعنى بل الإضرابية ، والهمزة للاستفهام الإنكارى .والإضراب هنا انتقالى من تقرير أن هذا الكون لم يخلقه الله - تعالى - عبقا إلى تقرير استحالة المساواة بين المؤمنين والكافرين

والمعنى : وكما أننا لم نخلق هذا الكون عبثا ، كذلك اقتضت حكمتنا وعدالتنا.
استحالة المساواة - أيضا - بين المتقين والفجار .وذلك لأن المؤمنين . .
المتقين ، قد قدموا لنا فى دنياهم ما يرضينا ، فكافأناهم على ذلك بما
يرضيهم ، ويسعدهم ويشرح صدورهم ، ويجعلهم يوم القيامة خالدين فى جنات
النعيم .أما المفسدون الفجار ، فقد قدموا فى دنياهم ما يغضبنا ويسخطنا
عليهم ، فجازيناهم على ذلك بما يستحقون من عذاب السعير .وربك - أيها
العاقل - "لا يضيع أجر من أحسن عملا " " ولا يظلم الناس شيئا ولكن الناس
أنفسهم يظلمون " .فالمقصود بالآية الكريمة إعلان استحالة التسوية فى الآخرة
- بين المؤمنين والكافرين ، لأن التسوية بينهما ظلم ، وهو محال عليه
- تعالى - ، وما كان البعث والجزاء والثواب والعقاب يوم القيامة إلا ليجزى
سبحانه - الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ، .ومن
الآيات التى تشبه فى معناها هذه الآية قوله - تعالى - : ( أَمْ حَسِبَ
الذين اجترحوا السيئات أَن نَّجْعَلَهُمْ كالذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ
الصالحات سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ).

كتاب انزلناه اليك مبارك ليدبروا اياته وليتذكر اولو الالباب

كما فسرها الوسيط ثم مدح - سبحانه - القرآن الكريم الذى أنزله على رسوله
صلى الله عليه وسلم وبين حكمة إنزاله ، فقال : ( كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ
إِلَيْكَ مُبَارَكٌ ليدبروا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ الألباب )
: وقوله : ( كِتَابٌ ) خبر لمبتدأ محذوف . والمقصود به القرآن الكريم .أى.
هذا كتاب ( أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ ) بقدرتنا ورحمتنا - أيها الرسول الكريم
ومن صفاته أنه ( مُبَارَكٌ ) أى : كثير الخيرات والبركات . .وجعلناه كذلك ،
، أى ليتفكروا فيما اشتملت عليه آياته من أحكام حكيمة ( ليدبروا آيَاتِهِ )
). . . وآداب قويمة ، وتوجيهات جامعة لما يسعدهم فى دنياهم وآخرتهم
وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ الألباب ) أى : وليتعظ أصحاب العقول السليمة بما
جاء به من قصص وعبر عن السابقين ، كما قال - سبحانه - : ( لَقَدْ كَانَ فِي
قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الألباب مَا كَانَ حَدِيثاً يفترى ولكن
تَصْدِيقَ الذي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى
وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ).

ووهبنا لداوود سليمان نعم العبد انه اواب

- كما فسرها الوسيط ثم ذكر - سبحانه - جانبا من قصة سليمان - عليه السلام
فمدحه لكثرة رجوعه إلى الله ، وذكر بعض النعم التى امنحها إياه ، كما ذكر
، اختباره له . وكيف أن سليمان - عليه السلام - طلب من ربه المغفرة والملك
فأعطاه - سبحانه - ما طلبه . قال - تعالى - :( وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ
سُلَيْمَانَ نِعْمَ العبد . . . ) .فى هذه الآيات الكريمة مسألتان ذكر بعض
المفسرين فيهما كلاما غير مقبول .أما المسألة الأولى فهى مسألة : عرض الخيل
على سيدنا سليمان والمقصود به .وأما المسألة الثانية فهى مسألة المقصود
بقوله - تعالى - : ( وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ . . . ) .وسنسير فى
تفسير هذه الآيات على الرأى الذى تطمئن إلى صحته نفوسنا ، ثم نذكر بعده بعض
- الأقوال التى قيلت فى هذا الشأن ، ونرد على ما يستحق الرد منه ، فنقول
وبالله - التوفيق - :المخصوص بالمدح فى قوله - تعالى - : ( نِعْمَ العبد )
محذوف ، والمقوصد به سليمان - عليه السلام - .أى : ووهبنا - بفضلنا
وإحساننا - لعبدنا داود ابنه سليمان - عليهما السلام - ونعم العبد سليمان
فى دينه وفى خلقه وفى شكره لخالقه - تعالى - .وجملة ( إِنَّهُ أَوَّابٌ )
تعليل لهذا المدح من الله - تعالى - لسليمان - عليه السلام - أى : إنه رجاع
. إلى ما يرضى الله - تعالى - مأخوذ من آب الرجل إلى داره ، إذا رجع إليها

اذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد

كما فسرها الوسيط و " إذ " فى قوله : ( إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بالعشي
" الصافنات الجياد ) منصوب بفعل تقديره : اذكر ، و " عليه " متعلق بعُرِض و
العشى " يطلق على الزمان الكائن من زوال الشمس إلى آخر النهار . وقيل إلى
مطلع الفجر .والصافنات : جمع صافن ، والصافن من الخيل : الذى يقف على ثلاثة
أرجل ويرفع الرابعة فيقف على مقدم حافرها .والجياد : جمع جواد ، وهو الفرس
السريع العدو ، الجيد الركض ، سواء أكان ذاكراً أم أنثى ، يقال : جاد الفرس
- يجود جُودَة فهو جواد ، إذا كان سريع الجرى ، فاره المظهر . .أى : اذكر
أيها العاقل - ما كان من سليمان - عليه السلام - وقت أن عرض عليه بالعشى
الخيول الجميلة الشكل . السريعة العدو .قال صاحب الكشاف : فإن قلت . ما
- معنى وصفها بالصفون؟ قلت : الصفون لا يكاد يوجد فى الهجن ، وإنما هو فى
الخيل - العراب الخلص وقيل : وصفها بالصفون والجودة ، ليجمع لها بين
الوصفين المحمودين : واقفة وجارية ، يعنى إذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة فى

. . مواقفها ، وإذا جرت كانت سراعا خفافا فى جريها

فقال اني احببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - ما قاله سليمان - عليه السلام - خلال
) : - استعراضه للخيول الصافنات الجياد على سبيل الشكر لربه ، فقال - تعالى
فَقَالَ إني أَحْبَبْتُ حُبَّ الخير عَن ذِكْرِ رَبِّي حتى تَوَارَتْ
- بالحجاب ) .والخير : يطلق كثيرا على المال الوفير ، كما فى قوله - تعالى
والمراد به هنا : الخيل الصافنة ( وَإِنَّهُ لِحُبِّ الخير لَشَدِيدٌ ) :
- الجيدة ، والعرب تسمى الخيل خيرا ، لتعلق الخير بها ، روى البخارى عن أنس
رضى الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :" الخيل معقود
) بنواصيها الخير إلى يوم القيامة " .و ( عن ) هنا تعليلية . والمراد ب
ذِكْرِ رَبِّي ) طاعته وعبادته والضمير فى قوله ( حتى تَوَارَتْ ) يعود إلى
الخيل الصافنات الجياد ، والمراد بالحجاب : ظلام الليل الذى يحجب الرؤية
والمعنى : فقال سليمان وهو يستعرض الخيل أو بعد استعراضه لها : إنى أحببت.
استعراض الصافنات الجياد ، وأحببت تدريبها وإعدادها للجهاد ، من أجل ذكر
ربى وطاعته وإعلاء كلمته ، ونصرة دينه ، وقد بقيت حريصا على استعراضها
وإعدادها للقتال فى سبيل الله ، حتى توارت واختفت عن نظرى بسبب حلول الظلام
. الذى يحجب الرؤية

ردوها علي فطفق مسحا بالسوق والاعناق

كما فسرها الوسيط ( رُدُّوهَا عَلَيَّ ) أى قال سليمان لجنده ردوا الصافنات
الجياد علىَّ مرة أخرى ، لأزداد معرفة بها ، وفهما لأحوالها . .والفاء فى
قوله - تعالى - : ( فَطَفِقَ مَسْحاً بالسوق والأعناق ) فصيحة تدل على كلام
محذوف يفهم من السياق . و " طفق " فعل من أفعال الشروع يرفع الاسم وينصب
. الخبر ، واسمه ضمير يعود على سليمان ، و " مسحا " مفعول مطلق لفعل محذوف
والسوق والأعناق : جمع ساق وعنق .أى : قال سليمان لجنده : ردوا الصافنات
، الجياد علىّ ، فردوها عليه ، فأخذ فى مسح سيقانها وأعناقها إعجابا بها
- وسرورا بما هى عليه من قوة هو فى حاجة إليها للجهاد فى سبيل الله - تعالى
هذا هو التفسير الذى تطمئن إليه نفوسنا لهذه الآيات ، لخلوه من كل ما.
يتنافى مع سمو منزلة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - .ولكن كثيرا من
المفسرين نهجوا نهجا آخر ، معتمدين على قصة ملخصها : أن سليمان - عليه
، السلام - جلس يوما يستعرض خيلا له ، حتى غابت الشمس دون أن يصلى العصر
فحزن لذلك وأمر بإحضار الخيل التى شغله استعراضها عن الصلاة ، فأخذ فى ضرب
- سوقها وأعناقها بالسيف ، قربة لله - تعالى - .فهم يرون أن الضمير فى قوله
تعالى - ( حتى تَوَارَتْ بالحجاب ) يعود إلى الشمس . أى : حتى استترت الشمس
بما يحجبها عن الأبصار .وأن المراد بقوله - تعالى - (فَطَفِقَ مَسْحاً
بالسوق والأعناق ) الشروع فى ضرب سوق الخيل وأعناقها بالسيف لأنها شغلته
عن صلاة العصر .قال الجمل : ( فَطَفِقَ مَسْحاً بالسوق والأعناق ) أى : جعل
يضرب سوقها وأعناقها بالسيف . هذا قول ابن عباس وأكثر المفسرين .ولم يرتض
الإمام الرازى - رحمه الله - هذا التفسير الذى عليه أكثر المفسرين ، وإنما
ارتضى أن الضمير فى ( توارت ) يعود إلى الصافنات الجياد وأن المقصود
بقوله - تعالى - : ( فَطَفِقَ مَسْحاً بالسوق والأعناق ) الإعجاب بها
والمسح عليها بيده حبّاً لها . .فقد قال ما ملخصه : إن رباط الخيل كان
- مندوبا إليه فى دينهم ، كما أنه كذلك فى دين الإسلام ، ثم إن سليمان
عليه السلام - احتاج إلى الغزو . فجلس وأمر بإحضار الخيل وأمر بإجرائها
. وذكر أنى لا أحبها لأجل الدنيا وإنما أحبها لأمر الله ، وطلب تقوية دينه.
وهو المراد من قوله : ( عَن ذِكْرِ رَبِّي ) ثم إنه - عليه السلام - أمر
بإعدائها وتسييرها حتى توارت بالحجاب أى : غابت عن بصره .ثم أمر الرائضين
بأن يردوا تلك الخيل إليه ، فلما عادت طفق يمسح سوقها وأعناقها . والغرض من
ذلك : التشريف لها لكونها من أعظم الأعوان فى دفع العدو . . . وإظهار أنه
، خبير بأحوال الخيل وأمراضها وعيوبها فكان يمنحها ويمسح سوقها وأعناقها
: حتى يعلم هل فيها ما يدل على المرض . .وقال بعض العلماء نقلا عن ابن حزم
. . تأويل الآية على أنه قتل الخيل إذ اشتغل بها عن الصلاة ، خرافة موضوعة
. قد جمعت أفانين من القول؛ لأن فيها معاقبة خيل لا ذنب لها والتمثيل بها
وإتلاف مال منتفع به بلا معنى . ونسبة تضييع الصلاة إلى نبى مرسل . ثم
يعاقب الخيل على ذنبه لا على ذنبها . .وإنما معنى الآية أنه أخبر أنه أحب
حب الخير ، من أجل ذكر ربه حتى توارت الشمي أو تلك الصافنات بحجابها .ثم
أمر بردها . فطفق مسحا بسوقها وأعناقها بيده ، برابها ، وإكراما لها ، هذا
هو ظاهر الآية الذى لا يحتمل غيره ، وليس فيها إشارة أصلا إلى ما ذكروه من
قتل الخيل ، وتعطيل الصلاة . .والحق أن ما ذهب إليه كثير من المفسرين من أن
سليمان - عليه السلام - شغل باستعراض الخيل عن صلاة العصر ، وأنه أمر بضب
. سوقها وأعناقها . .لا دليل عليه لا من النقل الصحيح ولا من العقل السليم

، وأن التفسير المقبول للآية هو ما ذكره الإمام الرازى والإمام ابن حزم.
وما سبق أن ذكرناه من أن المقصود بقوله - تعالى - : (فَطَفِقَ مَسْحاً
بالسوق والأعناق ) إنما هو تكريمها . .وأن الضمير في قوله : ( حتى
. تَوَارَتْ ) يعود إلى الصافنات لأنه أقرب مذكور

ولقد فتنا سليمان والقينا على كرسيه جسدا ثم اناب

كما فسرها الوسيط ثم تحدثت الآيات الكريمة بعد ذلك عن فتنة سليمان - عليه
السلام - فقال - تعالى - : ( وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا
على كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ . . )وقوله : ( فَتَنَّا ) من الفتن
: بمعنى الابتلاء والاختبار والامتحان . تقول : فتنت الذهب بالنار ، أى
اختبرته لتعلم جودته . .قال الآلوسى : وأظهر ما قيل فى فتنة سليمان - عليه
السلام - أنه قال : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة . تأتى كل واحدة بفارس
يجاهد فى سبيل الله - تعالى - ولم يقل إن شاء الله . فطاف عليهن فلم تحمل
إلا امرأة وجاءت بشق رجل .وقد روى ذلك الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة مرفوعا
" وفيه : " فوالذى نفس محمد بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا فرسانا ،
ولكن الذى فى صحيح البخارى أربعين بدل سبعين . وأن الملك قال له : قل إن.
شاء الله ، فلم يقل - أى فلم يقل ذلك على سبيل النسيان ..والمراد بالجسد
ذلك الشق الذى ولدته له . ومعنى إلقائه على كرسيه : وضع القابلة له عليه
ليراه .وقد ذكروا أن سليمان : إنما قال : " تحمل كل امرأة فارسا يجاهد فى
سبيل الله " على سبيل التمنى للخير ، وطلب الذرية الصالحة المجاهدة فى سبيل
الله .ومعى " فلم يقل " أى : بلسانه على سبيل النسيان ، والنسيان معفو عنه
إلا أن سليمان - عليه السلام - لسمو منزلته اعتبر لك ذنبا يستحق ،
. . الاستغفار منه ، فقال بعد ذلك " اغفر لى . . . "وقوله :" لأطوفن الليلة
كناية عن الجماع ، قالوا : ولعل المقصود . طوافه عليهن ابتداء من تلك " .
الليلة ، ولا مانع من أن يستغرق طوافه بهن عدة ليال .وقد استنبط العلماء من
هذا الحديث أن فتنة سليمان ، هى تركه تعليق ما طلبه على مشيئة الله ، وأن
عقابه على ذلك كان عدم تحقق ما طلبه .وهذا الرأى فى تقديرنا هو الرأى
الصواب فى تفسير الآية الكريمة لأنه مستند إلى حديث صحيح ثابت فى الصحيحين
وفى غيرهما ، ولأنه يتناسب مع عصمة الأنبياء وسمو منزلتهم ، فإن النسيان
الذى لا يترتب عليه ترك شئ من التكاليف التى كلفهم الله - تعالى - بها جائز
عليهم .وقد ذكرنا عند تفسيرنا لقوله - تعالى - : ( وَلاَ تَقُولَنَّ
لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذلك غَداً . إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله ) أن الوحى
- مكث فترة لم ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه نسى أن يقول
عندما سأله المشركون عن بعض الأشياء إن شاء الله ، وقال سأجيبكم على ما
- سألتمونى عنه غدا .ومن العلماء من آثر عدم تعيين الفتنة التى اختبر الله
تعالى - بها سيدنا سليمان - عليه السلام - ، بتركه المشيئة ، فقال بعد أن
ذكر الحديث السابق : وجائز أن تكون هذه الفتنة التى تشير إليها الآيات هنا
وأن يكون الجسد هو هذا الوليد الشق ، ولكن هذا مجرد احتمال .ثم قال : وكل
ما نخرج به هو أنه كان عناك ابتلاء من الله وفتنة لنبى الله سليمان - عليه
السلام - فى شأن يتعلق بتصرفاته فى الملك والسلطان ، كما يبتلى الله أنباءه
. ليوجههم ويرشدهم ، ويبعد خطاهام عن الزلل ، وأن سليمان أناب إلى ربه ورجع
وطلب المغفرة ، واتجه إلى الله بالرجاء والدعاء . .ونرى أنه رأى لا بأس به
وإن كنا نؤثر عليه الرأى السابق لاستناده فى استنباط المراد من الفتنة ،
هنا إلى الحديث الصحيح .هذا . وهناك أقوال أخرى ذكروها فى المقصود بفتنة
، سليمان وبالجسد الذى ألقاه الله على كرسى سليمان ، وهى أقوال ساقطة
تتنافى مع عصمة الأنبياء - عليه السلام - .ومن هذه الأقوال قول بعضهم : إن
، الجسد الذى ألقى على كرسى سليمان ، عبارة عن شيطان تمثل له فى صورة إنسان
ثم أخذ من سليمان خاتمه الذى كان يصرف به ملكه .وقعد ذلك الشيطان على كرسى
سليمان ، ولم يعد لسليمان ملكه إلا بعد أن عثر على خاتمه .وقول بعضهم : إن
سبب فتنة سليمان - عليه السلام - هو سجود إحدى زوجاته لتمثال أبيها الذى
قتله سليمان فى إحدى الحروب ، وقد بقيت على هذه الحال هى وجواريها أربعين
ليلة ، دون أن تعلم سليمان بذلك .وقول بعضهم : إن سبب فتنة سليمان أنه
وُلِدَ له ولد فخاف عليه من الشياطين ، فأمر السحاب بحفظه وتغذيته . ولكن
هذا الولد وقع ميتا على كرسى سليمان ، فاستغفر سليمان ربه لأنه لم يعتمد
عليه في حفظ ابنه . إلى غير ذلك من الأقوال الساقطة الباطلة ، التى تتنافى
مع عصمة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وتتنافى - أيضا - مع كل عقل
سليم ، ولا مستند لها إلا النقل عن الإسرائيليات وعن القصاص الذين يأتون
بقصص ما أنزل الله بها من سلطان .قال أبو حيان - رحمه الله - : نقل
، المفسرون فى هذه الفتنة وفى إلقاء الجسد أقوال يجب براءة الأنبياء منها
يوقف عليها فى كتبهم ، وهى مما لا يحل نقلها ، وهى إم من أوضاع اليهود ، أو
الزنادقة ، ولم يبين الله - تعالى - الفتنة ما هى ، ولا الجسد الذى ألقاه
على كرسى سليمان .وأقرب ما قيل فيه ، أن المراد بالفتنة كونه لم يستثن فى
الحديث الذى قال فيه : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة . . والجسد الملقى هو

. . المولود شق رجل

قال رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لاحد من بعدي انك انت الوهاب

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( قَالَ رَبِّ اغفر لِي وَهَبْ لِي
- مُلْكاً لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّن بعدي . . . ) بيان لما قاله سليمان
عليه السلام - بعد الابتلاء والاختبار من الله - تعالى - له .أى : قال
) . . سليمان - عليه السلام - يا رب اغفر لي لى ما فرط منى من ذنوب وزلات
وَهَبْ لِي مُلْكاً ) عظيما ( لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّن بعدي ) أى :لا
يحصل مثله لأحد من الناس من بعدى ( إِنَّكَ أَنتَ ) يا إلهى ( الوهاب ) أى
الكثير العطاء لمن تريد عطاءه .وقدم سليمان - عليه السلام - طلب المغفرة :
- على طلب الملك ، للإشارة إلى أنها هى الأهم عنده .قال الإمام الرازى
، رحمه الله - : دلت هذه الآية على أنه يجب تقديم مهم الدين على مهم الدنيا
لأن سليمان طلب المغفرة أولا ، ثم بعدها طلب المملكة ، وأيضا الآية تدل على
، أن طلب المغفرة من الله - تعالى - سبب لانفتاح أبواب الخيرات فى الدنيا
لأن سليمان طلب المغفرة أولا ، ثم توسل به إلى طلب المملكة .ولايقال كيف
طلب سليمان - عليه السلام - الدنيا والملك مع حقارتهما إلى جانب الآخرة وما
فيها من نعيم دائم؛ لأن سليمان - عليه السلام - ما طلب ذلك إلا من أجل خدمة
دينه وإعلاء كلمة الله فى الأرض ، والتمكن من أداء الحقوق لأصحابها ، ونشر
- العدالة بين الناس ، وإنصاف المظلوم ، وإعانة المحتاج .وتنفيذ شرع الله
تعالى - على الوجه الأكمل .فهو - عليه السلام - لم يطلب الملك للظلم أو
البغى . . وإنما طلبه للتقوى به على تنفيذ شريعة الله - تعالى - فى الأرض
ولقد وضح الإمام القرطبى هذا المعنى فقال : كيف أقدم سليمان على طلب.
الدنيا ، مع ذمها من الله - تعالى - . . . ؟فالجواب : أن ذلك محمول عند
، العلماء على أداء حقوق الله - تعالى - وسياسة ملكه ، وترتيب منازل خلقه
وإقامة حدوده ، والمحافظة على رسومه وتعظيم شعائره ، وظهور عبادته ، ولزوم
طاعته . . . وحوشى سليمان - عليه السلام - أن يكون سؤالا طلبا لنفس الدنيا
لأنه هو والأنبياء ، أزهد خلق الله فيها ، وإنما سأل مملكتها لله . كما .
) سأل نوح دمارها وهلاكها لله ، فكانا محمودين مجابين إلى ذلك .ومعنى قوله
لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّن بعدي ) أى : أن يسأله . فكأنه سأل منه السؤال
. . بعده ، حتى لا يتعلق به أمل أحد ، ولم يسأل منع الإجابة

فسخرنا له الريح تجري بامره رخاء حيث اصاب

كما فسرها الوسيط والفاء فى قوله - تعالى - : ( فَسَخَّرْنَا لَهُ الريح
تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ) للتفريع على ما تقدم من طلب
سليمان من ربه أو يهبه ملكا لا ينبغى لأحد من بعده . والتسخير : التذليل
والانقياد . أى : دعانا - سليمان - عليه السلام والتمس منا أن نعطيه ملكا
لا ينبغى لأحد من بعده ، فاستجبنا له دعاءه ، وذللنا له الريح ، وجعلناها
: منقادة لأمره بحيث تجرى بإذنه رخية لينة ، إلى حيث يريدها أن تجرى .وقوله
. حال من الريح . وقوله ( بِأَمْرِهِ ) من إضافة المصدر لفاعله ( تَجْرِي )
أى : بأمره إياها . ولا تنافى بين هذه الآية وبين قوله - تعالى - فى آية
أخرى : ( وَلِسُلَيْمَانَ الريح عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأرض
التي بَارَكْنَا فِيهَا . . . ) لأن المقصود من الآيتين بيان أن الريح تجرى
بأمر سليمان ، فهى تارة تون لينة وتارة تكون عاصفة ، وفى كلتا الحالتين هى
. تسير بأمره ورغبته

والشياطين كل بناء وغواص

كما فسرها الوسيط وقوله : ( والشياطين كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ) معطوف
على الريح أى : سخرنا له الريح تجرى بأمره . . وسخرنا له الشياطين . بأن
جعلناهم منقادين لطاعته ، فمنهم من يقوم ببناء المبانى العظيمة التى يطلبها
سليمان منهم . ومنهم الغواصون الذين يغوصون فى البحار ليستخرجوا له منها
. اللؤلؤ والمرجان ، وغير ذلك من الكنوز التى اشتملت عليها البحار

واخرين مقرنين في الاصفاد

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي
الأصفاد ) معطوف على كل بناء ، داخل معه فى حكم البدل من الشياطين .أى : أن
الشياطين المسخرين لسليمان كان منهم البناءون ، وكان منهم الغواصون ، وكان
منهم المقيدون بالسلاسل والأغلال ، لتمردهم وكثرة شرورهم .فمعنى ( مقرنين )
مقرونا بعضهم ببعض بالأغلال والقيود . والأصفاد : جمع صَفَد وهو ما يوثق
. به الأسير من قيد وغُلّ

هذا عطاؤنا فامنن او امسك بغير حساب

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أنه أباح لسليمان - عليه السلام - أن يتصرف فى هذا الملك الواسع كما يشاء فقال : ( هذا عَطَآؤُنَا ) ( فامنن أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ) أى : فأعط من شئت منه . وأمسك عمن شئت . فأن غير محاسب منا لا على العطاء ولا على المنع .

وان له عندنا لزلفى وحسن ماب

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما أعده لسليمان - عليه السلام - فى الآخرة ، فقال : ( وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا ) أى فى الآخرة ( لزلفى ) لقرابة وكرامة ( وَحُسْنَ مَآبٍ ) أى : وحسن مرجع إلينا يوم القيامة .

واذكر عبدنا ايوب اذ نادى ربه اني مسني الشيطان بنصب وعذاب

كما فسرها الوسيط ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن أيوب - عليه السلام - فذكرت نداءه لربه ، واستجابة الله - تعالى - له وما وهبه من نعم جزاء صبره ، فقال - تعالى -( واذكر عَبْدَنَآ أَيُّوبَ . . . ) .قال الإمام الرازى : اعلم أن قصة أيوب هى القصة الثالثة من القصص المذكورة فى هذه السورة ، واعلم أن داود وسيمان كانا ممن أفاض الله عليه أصناف الآلاء والنعماء ، وأيوب كان ممن خصه الله بأنواع البلاء ، والمقصود من جميع هذه القصص الاعتبار .فكأن الله - تعالى - يقول لنبيه صلى الله لعيه وسلم : اصبر ، على سفاهة قومك ، فإنه ما كان فى الدنيا أكثر نعمة ومالا من داود وسليمان وما كان أكثر بلاء ومحنة من أيوب ، فتأمل فى أحوال هؤلاء لتعرف أن أحوال الدنيا لا تنتظم لأحد ، وأن العاقل لابد له من الصبر على المكاره . وأيوب - عليه السلام - هو ابن أموص بن برزاح ، وينتهى نسبه إلى إسحاق بن. إبراهيم - عليهما السلام - وكانت بعثته على الراجح بين موسى ويوسف - عليهما السلام - .وكان صاحب أموال كثيرة ، وله أولاد . . فابتلى فى ماله وولده ، وجسده ، وصبر على كل ذلك صبرا جميلا . فكافأه الله - تعالى - على صبره بأن أجاب دعاءه ، وآتاه أهله ومثلهم معهم . .وقوله - سبحانه - : ( واذكر عَبْدَنَآ أَيُّوبَ . . ) معطوف على قوله - تعالى - قبل ذلك : ( واذكر - عَبْدَنَا دَاوُودَ . . . ) و " النِّصْب " - بضم فسكون - وقرأ حفص ونافع بضم النون والصاد : - التعب والمشقة مأخوذ من قولهم أنصبنى الأمر ، إذا شق عليه وأتعبه . والعذاب : الآلام الشديدة التى يحس بها الإنسان فى بدنه . أى : واذكر - أيها الرسول الكريم - حال أخيك أيوب - عليه السلام - حين دعا ، ربه - تعالى - فقال : يا رب أنت تعلم أنى مسنى الشيطان بالهموم الشديد - وبالآلام المبرحة التى حلت بجسدى فجعلتنى فى نهاية التعب والمرض .وجمع سبحانه - فى بيان ما أصابه بين لفظى النصب والعذاب ، للإشارة إلى أنه قد ، أصيب بنوعين من المكروه : الغم الشديد بسبب زوال الخيرات التى كانت يديه وهو ما يشير إليه لفظ ( النصب ) والألم الكثير الذى حل بجسده بسبب الأمراض والأسقام ، والعلل ، وهو ما يشيير إليه لفظ ( العذاب ) .ونسب ما مسه من نصب وعذاب إلى الشيطان تأدبا منه مع ربه - عز وجل - حيث أبى أن ينسب الشر إليه - سبحانه - ، وإن كان الكل من خلق الله - تعالى - .وفى هذا النداء من أيوب لربه ، أسمى ألوان الأدب والإجلال ، إذا اكتفى فى تضرعه بشرح حاله دون أن يزيد على ذلك ، ودون أن يقترح على خالقه - عز وجل - شيئا معينا ، أو يطلب شيئا معينا .قال صاحب الكشاف : ألطف أيوب - عليه السلام - فى السؤال حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة .. ولم يصرح بالمطلوب .ويحكى أن عجوزا تعرضت لسليمان بن عبد الملك فقالت له : يا أمير المؤمنين ، مشت جرذان - أى فئران - بيتى على العصا!! فقال لها : ألطفت فى السؤال ، لا جرم لأجعلنها تثب وثب الفهود ، وملأ بيتها حبا .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - فى سورة الأنبياء : ( وَأَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضر وَأَنتَ أَرْحَمُ الراحمين ) وقد ذكر بعض المفسرين هنا قصصا وأقوالا فى غاية السقوط والفساد ، حيث ذكروا أن أيوب - عليه السلام - مرض زمنا طويلا ، وأن الديدان - تناثرت من جسده ، وأن لحمه قد تمزق .وهذه كلها أقوال باطلة ، لأن الله تعالى - عصم أنبياءه من الأمراض المنفرة ، التى تؤدى إلى ابتعاد الناس عنهم سواء أكانت أمراضا جسدية أم عصبية أم نفسية . .والذى يجب اعتقاده أن ، الله - تعالى - قد ابتلى عبده أيوب ببعض الأمراض التى لا تتنافى مع منصب النبوة ، وقد صبر أيوب على ذلك حتى ضرب به المثل فى الصبر ، فكانت عاقبة صبره أن رفع الله - تعالى - عنه الضر والبلاء ، وأعطاه من فضله الكثير من نعمه .

اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( اركض بِرِجْلِكَ هذا مُغْتَسَلٌ

بَارِدٌ وَشَرَابٌ ) حكاية لما قيل له بعد ندائه لربه ، أو مقول لقول محذوف
. معطوف على قوله ( نادى ) .وقوله : ( اركض ) بمعنى الدفع والتحريك للشئ
يقال : ركض فلان الدابة برجلة إذا دفعها وحركها بها .والمغتسل : اسم للمكان
الذى يغتسل فيه ، والمراد به هنا : الماء الذى يغتسل به .وقوله : ( هذا
مُغْتَسَلٌ ) مقول لقول محذوف .والمعنى : لقد نادانا عبدنا أيوب بعد أن
، أصابه من الضر ما أصابه ، والتمس منا الرحمة والشفاء مما نزل به من مرض
فاستجبنا له دعاءه ، وأرشدناه إلى الدواء ، بأن قلنا له : ( اركض
، بِرِجْلِكَ ) أى : اضرب بها الأرض ، فضربها فنبعت من تحت رجله عين الماء
فقلنا له : هذا الماء النابع من العين إذا اغتسلت به وشربت منه ، برئت من
. الأمراض ، ففعل ما أمرناه به ، فبرئ بإذننا من كل داء

ووهبنا له اهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لاولي الالباب

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أنه بفضله وكرمه لم يكتف بمنح أيوب
: - الشفاء من مرضه ، بل أضاف إلى ذلك أن وهب له الأهل والولد فقال - تعالى
وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا )
وذكرى لأُوْلِي الألباب ) .والآية الكريمة معطوفة على مقدر يفهم من السياق
أى : استجاب أيوب لتوجيهنا ، فاغتسل وشرب من الماء ، فكشفنا عنه ما نزل به
) من بلاء ، وعاد أيوب معافى ، ولم نكتف بذلك بل وهبنا له أهله . ووهبنا له
وَمِثْلَهُمْ مَّعَهُمْ ) أى : بأن رزقناه بعد الشفاء أولادا كعدد الأولاد
) الذين كانوا معه قبل شفائه من مرضه ، فصار عددهم مضاعفا .وذلك كله
: رَحْمَةً مِّنَّا ) أى من أجل رحمتنا به ( وذكرى لأُوْلِي الألباب ) أى
ومن أجل أن يتذكر ذلك أصحاب العقول السليمة ، فيصبروا على الشدائد كما صبر
أيوب ، ويلجأوا إلى الله - تعالى - كما لجأ ، فينالوا منا الرحمة والعطاء
الجزيل .قال الآلوسى ما ملخصه : قوله : ( وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ )
الجمهور على أنه - تعالى - أحيا له من مات من أهله ، وعافى المرضى ، وجمع
له من تشتت منهم ، وقيل - وإليه أميل - وهبه من كان حيا منهم ، وعافاه من
الأسقام ، وأرغد لهم العيش فتناسلوا حتى بلغ عددهم عدد من مضى ، ومثلهم
. معهم ، فكان له ضعف ما كان ، والظاهر أن هذه الهبة كانت فى الدنيا

وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث انا وجدناه صابرا نعم العبد انه اواب

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - منة أخرى من المنن التى من بها على
عبده أيوب فقال : ( وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فاضرب بِّهِ وَلاَ تَحْنَثْ
إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِّعْمَ العبد إِنَّهُ أَوَّابٌ ) .والجملة
: الكريمة معطوف على قوله قبل ذلك : ( اركض ) أو على ( وهبنا ) بتقدير
. وقلنا له .والضغث فى اللغة : القبضة من الحشيش اختلط فيها الرطب باليابس
وقيل : هى قبضة من عيدان مختلفة يجمعها أصل واحد .والحنث : يطلق على الإثم
وعلى الحُلُفِ فى اليمين .والآية الكريمة تفيد أن أيوب - عليه السلام - قد
حلف أن يضرب شيئا وأن عدم الضرب يؤدى إلى حنثه فى يمينه ، أى : إلى عدم
وفائه فيما حلف عليه ، فنهاه الله - تعالى - عن الحنث فى يمينه ، وأوجد له
المخرج الذى يترتب عليه البر فى يمينه دون أن يتأذى المضروب بأى أذى يؤلمه
وقد ذكروا فيمن وقع عليه الضرب وسبب هذا الضرب ، روايات لعل أقربها إلى.
الصواب ، أن أيوب أرسل امرأته فى حاجة له فأبطأت عليه ، فأقسم أنه إذا برئ
- من مرضه ليضربنها مائة ضربه ، وبعد شفائه رخص له ربه أن يأخذ حزمة صغيرة
وهى المعبر عنها بالضغث - وبها مائة عود ، ثم يضرب بها مرة واحدة ، وبذلك
يكون قد جمع بين الوفاء بيمينه ، وبين الرحمة بزوجته التى كانت تحسن خدمته
خلال مرضه ، وتقوم بواجبها نحوه خير قيام .والمعنى : وهبنا له بفضلنا
ورحمتنا أهله ومثلهم معهم ، وقلنا له بعد شفائه خذ بيدك حزمة صغيرة من
الحشيش فيها مائة عود ، فاضرب بها من حلفت أن تضربه مائة ضربة ، وبذلك تكون
، غير حانث فى يمينك .هذا وقد تكلم العلماء عن هذه الرخصة . أهى خاصة بأيوب
، أم هى عامة للناس؟ .فقال بعضهم : إذا حلف الشخص أن يضرب فلانا مائة جلدة
أو أن يضربه ضربا غير شديد ، فيكفيه مثل هذا الضرب المكذور الذى جاء فى
- الآية؛ لأن شرع من قبلنا شرع لنا .وقال آخرون : هذه الرخصة خاصة بأيوب
- عليه السلام - ولا تنسحب إلى غيره ، لأن الخطاب إليه وحده . ولأن الله
تعالى - لم يبين لنا فى الآية كيفية اليمين ، ولا من يقع عليه الضرب .ثم
بين - سبحانه - أنه جعل لعبده أيوب هذا المخرج لصبره وكثرة رجوعه إلى ما
يرضيه - تعالى - فقال : ( إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِّعْمَ العبد
إِنَّهُ أَوَّابٌ ) .أى : إنا وجدنا عبدنا أيوب صابرا على ما أصبناه به من
بلاء ، ونعم العبد هو . إنه كثير الرجوع إلينا فى كل أحواله .وبذلك نرى
الآيات الكريمة قد ساقت لنا جانبا من فضائل أيوب - عليه السلام - ومن النعم
. التى أنعم الله - تعالى - بها عليه جزاء صبره وطاعته لربه

واذكر عبادنا ابراهيم واسحاق ويعقوب اولي الايدي والابصار

كما فسرها الوسيط وبعد أن عرض - سبحانه - قصص داود وسليمان وأيوب بشئ من التفصيل . أتبع ذلك بالحديث عن عدد من الأنبياء على سبيل الإجمال ، فقال - تعالى - :( واذكر عِبَادَنَآ إِبْرَاهِيمَ . . . ) .أى : واذكر - أيها الرسول الكريم - حال عبادنا إبراهيم وإسحاق ، ويعقوب . أصحاب القوة فى الطاعة ، وأصحاب البصيرة المشرقة الواعية فى أمور الدين .فالأيدى مجاز مرسل عن القوة ، والأبصار جمع بصر بمعنى بصيرة على سبيل المجاز - أيضا - ويصح أن يكون المراد بقوله : ( أُوْلِي الأيدي والأبصار ) أى : أصحاب الأعمال الجليلة ، والعلوم الشريفة ، فيكون ذكر الأيدى من باب ذكر السبب وإرادة المسبب ، والأبصار بمعنى البصائر ، لأن عن طريقها تكون العلوم النافعة .قال صاحب الكشاف : قوله ( أُوْلِي الأيدي والأبصار ) يريد : أولى الأعمال والفكر ، كأن الذين لا يعملون أعمال الآخرة ، ولا يجاهدون فى الله ، ولا يفكرون أفكار ذوى الديانات ، ولا يستبصرون ، كأن هؤلاء فى حكم الزمنى - أى المرضى - الذين لا يقدرون على إعمال جوارهم . والمسلوبى العقول الذين لا استبصار بهم . وفيه تعريض بكل من لم يكن من عمال الله ، ولا من المستبصرين فى دين الله ، وتوبيخ على تركهم المجاهدة والتأمل ، مع كونهم متمكنين منهما

انا اخلصناهم بخالصة ذكرى الدار

، كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أسباب وصفهم بتلك الأوصاف الكريمة . . فقال - تعالى - : ( إِنَّآ أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدار ومعنى : ( أَخْلَصْنَاهُمْ ) خالصين لطاعتنا وعبادتنا . والباء فى. ( . ، قوله ( بِخَالِصَةٍ ) للسببية ، وخالصة اسم فاعل . والتنوين فيها للتفخيم وهى صفة لمحذوف .و ( ذِكْرَى الدار ) بيان لها بعد إبهامها للتفخيم . أو محلها النصب بإضمار أعنى . . أو الرفع على أنها خبر لمبتدأ محذوف أى : هى و ( ذِكْرَى ) مصدر مضاف لمفعوله ، وتعريف الدار للعهد . أى : الدار. - الآخرة .والمعنى : إنا جعلنا هؤلاء العباد - وهم إبراهيم وإسحاق يعقوب خالصين لطاعتنا وعبادتنا ، متبعين لأوامرنا ونواهينا ، لا تصافهم بخلصة خالصة من كل ما لا يرضينا ، وهى تذكرهم للدار الآخرة وما فيها من ثواب وعقاب .وقرأ نافع ( بخالصةٍ ) بدون تنوين على الإضافة لذكرى . من إضافة الصفة إلى الموصوف . أو المصدر لفاعله إن جعلت خالصة مصدرا كالعاقبة .أى : أخلصناهم بأن خلصت لهم ذكرى الدار .

وانهم عندنا لمن المصطفين الاخيار

كما فسرها الوسيط ثم أثنى عليهم - سبحانه - بثناء آخر فقال : ( وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ المصطفين الأخيار ) .أى : وإن هؤلاء العباد ، لهم عندنا ممن اصطفيناهم لحمل رسالتنا ، واخترناهم لتبليغ دعوتنا . ومن العباد الأخيار . أى : الذين يفضلون على غيرهم فى المناقب الحميدة ، والصفات الكريمة . جمع خير - بإسكان الياء - أفعل تفضيل .

واذكر اسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الاخيار

: كما فسرها الوسيط ثم أثنى - سبحانه - على عدد آخر من عباده الصالحين فقال ( واذكر إِسْمَاعِيلَ واليسع وَذَا الكفل وَكُلٌّ مِّنَ الأخيار ) وإسماعيل بن إبراهيم - عليهما السلام - ولم يذكر فيما سبق مع أبيه ومع. أخيه إسحاق ، ومع ابن أخيه يعقوب ، اعتناء بشأنه ، وللإشارة إلى عراقته فى الصبر وفى تحمل الشدائد .واليسع : هو ابن شافاط أو أخطوب : قيل استخلفه إلياس من بعده على بنى إسرائيل ، ثم منحه الله - تعالى - النبوة .وكانت وفاته فى حوالى سنة 840 ق . م وفدن بالسامرة .وذا الكفل : هو ابن أيوب . بعثه الله - تعالى - بعد أبيه ، وكان مقيما بالشام . والأكثرون على أنه نبى لذكره معهم .وقيل هو رجل صالح من بنى إسرائيل . ولم يكن نبيا ، وسمى بذلك - لأنه تكفل لأحد أنبيائهم بالقيام بالطاعات فوق بذلك .والتنوين فى قوله تعالى - : ( وَكُلٌّ مِّنَ الأخيار ) عوض عن المضاف إليه . أى : وكل هؤلاء العباد الذين ذكرناهم ، من أهل الخير والفضل والصلاح والصبر على الأذى .

هذا ذكر وان للمتقين لحسن ماب

كما فسرها الوسيط ثم عقبت السورة الكريمة على ذلك ، بعقد مقارنة بين عاقبة المؤمنين الصادقين ، وعاقبة الكافرين الجاحدين ، وذكرت جانبا مما يدور بين أهل النار من مجادلات . . فقال - تعالى - :( هذا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ . . . ) .قال الآلوسى : " هذا " إشارة إلى ما تقدم من الآيات الناطقة بمحاسنهم " ذكر " أى شرف لهم . . . والمراد أن فى ذكر قصصهم شرف عظيم لهم .أو المعنى : هذا المذكور من الآيات نوع من الذكر الذى هو . .

القرآن ، وذكر ذلك الانتقال من نوع من الكلام إلى آخر ، كما يقال الجاحظ فى كتبه : فهذا باب ، ثم يشرع فى باب آخر .ويقول الكاتب إذا فرغ من فصل من كتابه وأراد الشروع فى آخر : هذا ، وكان كيت وكيت ، ويحذف على ما قيل الخبر فى مثل ذلك كثيرا ، وعليه ( هذا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ . . )وقوله - تعالى - : ( وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ) بيان لما أعده لهم - سبحانه - فى الآخرة من عطاء جزيل ، وثواب عظيم .والمآب اسم مكان من آب فلان يؤوب إذا رجع ، والمراد بالمتقين : كل من تحققت فيه : صفة التقوى والخوف من الله - تعالى - وعلى رأسهم الأنبياء الذين اصطفاهم الله - تعالى - واختارهم لتبليغ رسالته . أى : وإن للمتقين فى الآخرة كريم يرجعون إليه فى الآخرة . فيجدون فيه مالا عين رأت . ولا أذن سمعت . ولا خطر على قلب بشر .واسم الإشارة فى قوله - تعالى - : ( هذا ذِكْرٌ ) يعود إلى ما ذكره - سبحانه - فى الآيات السابقة ، عن هؤلاء الأنبياء من ثناء وتكريم والذكر : الشرف والفضل .أى : هذا الذى ذكرناه عن هؤلاء الأنبياء شرف لهم . وذكر جميل يذكرون به إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، .

جنات عدن مفتحة لهم الابواب

كما فسرها الوسيط ثم فصل - سبحانه - ما أعده لهم فى الآخرة من تكريم فقال : ( جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الأبواب ) : والعدن فى اللغة. الإقامة الدائمة فى المكان . يقال : عدن فلان بمكان كذا ، إذا أقام به : إقامة دائمة . وجنات : بدل اشتمال من قوله : ( لَحُسْنَ مَآبٍ ) .أى : هؤلاء المتقون أكرمناهم فى الدنيا بالذكر الحسن . ونكرمهم فى الآخرة بأن ندخلهم جنات عظيمة دخولا دائما مؤبدا ، وقد فتحت أبوابها على سبيل التكريم لهم . والحفاوة بمقدمهم .

متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب

كما فسرها الوسيط ( مُتَّكِئِينَ فِيهَا . . . ) أى : فى تلك الجنات . وانتصب لفظ ( متكئين ) على الحال من ضمير " لهم " والعامل فيه قوله ( مفتحة ) وقوله : ( يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ) استئناف. ( لبيان حالهم فى الجنات ، أو حال - أيضا - من ضمير " لهم " .أى : أن المتقين لهم جنات عظيمة . فاتحة لهم أبوابها على سبيل التكريم ويجلسون فيها جلسة الآمن المطمئن المنعم ، حيث يتكئون ويستندون على الآرائك ، ويطلبون أنواعا كثيرة من الفاكهة اللذيذة ، ومن الشراب الطيب ، فيبلى طلبهم فى الحال .

وعندهم قاصرات الطرف اتراب

كما فسرها الوسيط ثم يضاف إلى هذه الفاكهة والشراب ، ما بينه - سبحانه - فى قوله : ( وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطرف أَتْرَابٌ ) أى : وعندهم فضلا عن كل ما تقدم نساء ذوات حياء ، وقد قصرن أعينهن على أزواجهن فلا يتطلعن إلى غيرهم ، لشدة محبتهن لهم .وهن متساويات فى السن والجمال والأخلاق الكريمة . فمعنى أتراب : أنهن متساويات فى السن والجمال والشباب . مأخوذ من التراب. لأن التراب يمسهن فى وقت واحد لاتحاد مولدهن : ن من الترائب وهى عظام الصدر المتماثلة .

هذا ما توعدون ليوم الحساب

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن هذا العطاء العظيم مقابل عملهم الصالح فى الدنيا فقال : ( هذا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الحساب ) .واللام فى قوله ( ليوم ) للتعليل . أى : هذا الذى ذكرناه لكم من نعيم الجنات . هو جزاء إيمانكم وعملكم الصالح من أجل يوم الحساب .

ان هذا لرزقنا ما له من نفاد

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - جزاءهم ببيان أنه جزاء خالد لا ينقطع ولا ينقص فقال : ( إِنَّ هذا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ) .أى : إن ، هذا الذى ذكرناه لكم - أيها المتقون - من الجنات وما اشتملت عليه من نعيم هو رزقنا الدائم لكم . وليس له من نفاذ أو انقطاع أو انتقاص . يقال نفد الشئ نفادا ونفدا ، إذا فنى وهلك وذهب .ومن الآيات التى وردت فى هذا المعنى قوله - تعالى - : ( إِنَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ) أى غير مقطوع .

هذا وان للطاغين لشر ماب

كما فسرها الوسيط وبعد هذا الحديث الذى يشرح الصدور عن المؤمنين وحسن عاقبتهم . جاء الحديث عن الكافرين وسوء مصيرهم - كما هى عادة القرآن الكريم فى قرن الترغيب بالترهيب فقال - تعالى - : ( هذا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ) .واسم الإشارة خبر لمبتدأ محذوف . أى الأمر هذا ، أو مبتدأ محذوف الخبر هذا للمؤمنين .وجملة ( وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ - مَآبٍ ) معطوفة على جملة " هذا " على التقديرين .أى : الأمر كما ذكرنا لك أيها الرسول الكريم - بالنسبة للمتقين ، أما الطاغون الذين تجاوزوا الحدود ، فى الكفر والجحود والإعراض عن الحق ، فإن مرجعهم إلينا سيكون شر مرجع . بسبب إصرارهم على كفرهم

جهنم يصلونها فبئس المهاد

كما فسرها الوسيط ( جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ المهاد ) أى : إذا كان المتقون يدخلون الجنات التى فتحت لهم أبوابها ، فإن الطاغين تستقبلهم جهنم بسعيرها ولهيبها فيلقون فيها ويفترشون نارها ، وبئست هى فراشا ومهادا .

هذا فليذوقوه حميم وغساق

كما فسرها الوسيط ( هذا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاق ) واسم الإشارة هنا مرفوع على الابتداء ، وخبره قوله ( حَمِيمٌ وَغَسَّاق ) وما بينهما اعتراض .والحميم : الماء الذى بلغ النهاية فى الحرارة ، والغساق : صديد يسيل من أجساد أهل النار مأخوذ من قولهم غسق الجرح - كضرب وسمع - غسقانا ، إذا سال منه الصديد وما يشبهه .أى : هذا هو عذابنا الذى أعددناه لهم ، يتمثل فى ماء بلغ الغاية فى الحرارة ، وفى قيح وصديد يسيلان من أجسادهم ، فليذوقوا كل ذلك جزاء كفرهم وجحودهم .

واخر من شكله ازواج

كما فسرها الوسيط ( وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ) أى : ليس عذابهم مقصوراً على الحميم والغساق بل لهم أنواع أخرى من العذاب ، تشبه فى شكلها وفى فظاعتها وفى شدتها ، الحميم والغساق .فقوله ( وآخر ) مبتدأ ، وقوله ( مِن شَكْلِهِ ) صفته ، وقوله : ( أَزْوَاجٌ ) خبره .والآية الكريمة معطوفة على الآية التى قبلها .

هذا فوج مقتحم معكم لا مرحبا بهم انهم صالو النار

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما يقوله أهل النار بعضهم لبعض على سبيل الندم والتحسر والتقريع . فقال : ( هذا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لاَ مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُواْ النار ) .والفوج : الجمع الكثير من الناس ، والاقتحام : ركوب الشدة والدخول فيها . يقال : قحم فلان نفسه فى الأمر ، إذا رمى نفسه فيه من غير روية .أى : قال الكفار بعضهم لبعض بعد أن رأوا غيرهم يلقى فى النار معهم ، أو قالت الملائكة لهم على سبيل التقريع والتأنيب : ( هذا فَوْجٌ ) أى جمع كثير من أتباعكم وإخوانكم فى الضلال . ( مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ) أى داخل معكم النار وعلى غير اختيار منه . وإنما يساق إليها سوقا فى ذلة ومهانة .وهنا يقول زعماء الكفر : ( لاَ مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُواْ النار ) أى : لا مرحباً ولا أهلاً بهؤلاء الداخلين فى النار معنا ، لأنهم سيصلون سعيرها مثلنا ، ولن يستطيعوا أن يدفعوا شيئا من حرها عنا . .فقوله ( مَرْحَباً ) مفعول به لفعل محذوف وجوبا ، والتقدير : أتوا معنا لا مرحباً بهم . والجملة دعائية لا محل لها من الإعراب أى : لا أتوا مكانا رحباً بل ضيقاً .

قالوا بل انتم لا مرحبا بكم انتم قدمتموه لنا فبئس القرار

كما فسرها الوسيط وهنا يحكى القرآن رد الفوج المقتحم للنار معهم فيقول : ( قَالُواْ بَلْ أَنتُمْ لاَ مَرْحَباً بِكُمْ . . )أى : قال الداخلون فى النار وهم الأتباع لرؤسائهم : بل أنتم الذين لا مرحباً بكم ، وإنما الضيق والهلاك لكم .( أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ القرار ) أى :لا مرحباً بكم لأنكم أنتم أيها الزعماء الذين تسببتم لنا دخول النار معكم ، إذ دعوتمونا فى الدنيا إلى الكفر فاتبعناكم فبئس القرار والمنزل لنا ولكم جهنم .

قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذابا ضعفا في النار

، كما فسرها الوسيط فالجملة الكريمة تعليل لأحقية الرؤساء بدخول النار
) : ويقولها الأتباع على سبيل التشفي منهم . ثم يضيفون إلى ذلك قولهم
رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هذا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِي النار ) .أى
يا ربنا من كان سببا فى نزول هذا العذاب بنا ، فزده عذابا مضاعفاً فى :
النار ، لأننا لولا هؤلاء الرؤساء وإضلالهم لنا ، لما صرنا إلى هذا المصير
الأليم .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - حكاية عنهم : ( وَقَالُواْ
رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا
السبيلا . رَبَّنَآ آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ العذاب والعنهم لَعْناً
كَبِيراً ).

وقالوا ما لنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الاشرار

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - ما يقوله أئمة الكفر ، عندما يدورون
بأعينهم فى النار ، فلا يرون المؤمنين الذين كانوا يستهزئون بهم فى الدنيا
فقال : ( وَقَالُواْ مَا لَنَا لاَ نرى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِّنَ
الأشرار . . ) أى : وقال رؤساء الكفر على سبيل التحسر والتعجب وهم ملقون فى
النار مالنا لا نرى معنا فى جهنم رجالاً من فقراء المؤمنين ، كنا نعدهم فى
الدنيا من الأراذل الأخساء ، لسوء حالهم ، وقلة ذات يدهم .قال القرطبى :
قال ابن عباس : يريدون أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يقول أبو جهل : أين
بلال؟ أين صهيب؟ أين عمار؟ أولئك فى الفردوس ، واعجبا لأبى جهل! مسكين أسلم
ابنه عكرمة ، وانيته جويرية ، وأسلمت أمه ، وأسلم أخوه ، وكفر هو .قال
ونورا أضاء الأرض شرقا ومغربا ... وموضع رجلى منه أسود مظلم:

اتخذناهم سخريا ام زاغت عنهم الابصار

كما فسرها الوسيط ثم حكى القرآن ما سأله هؤلاء المشركون لأنفسهم عندما
تلفتوا فى النار ، فلم يجدوا أحداً من المؤمنين الذين كانوا يصفونهم بأنهم
من الأشرار فقال : ( أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيّاً أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ
الأبصار ) .أى : إنهم بعد أن دخلوا النار أخذوا يدورون بأعينهم فيها فلم
يروا المؤمنين الذين كانوا يستهزئون بهم فى الدنيا ، فقالوا فيما بينهم :
ما بالنا لا نرى الرجال الذين كنا نسخر منهم فى الدنيا ، ألم يدخلوا معنا
النار؟ أم دخلوها ولكن أبصارنا لا تراهم وزاغت عنهم؟فهم يتحسرون على
أحوالهم البائسة بعد أن وجدوا أنفسهم فى النار ، وليس معهم من كانوا يسخرون
منهم فى الدنيا وهم فقراء المؤمنين .قال صاحب الكشاف : قوله :
( أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيّاً ) قرئ بلفظ الإخبار على أنه صفة للقوله
رجالا ) مثل قوله ( كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِّنَ الأشرار ) وقرئ بهمزة
الاستفهام على أنه إنكار على أنفسهم وتأنيب لها فى الاستسخار منهم .وقوله :
له وجهان من الاتصال : أحدهما : أن يتصل ( أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأبصار )
بقوله : ( مالنا ) أى : مالنا لا نراهم فى النار؟ كأنهم ليسوا فيها ، بل
أزاغت عنهم أبصارنا فلا نراهم وهم فيها؟ قسموا أمرهم بين أن يكونوا من أهل
الجنة وبين أن يكونوا من أهل النار إلا أنهم خفى عليهم مكانهم .الوجه
الثانى : أن يتصل بقوله : ( أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيّاً . . ) على معنى أى
الفعلين فعلنا بهم : الاستسخار منهم ، أم الازدراء بهم والتحقير ، وأن
أبصارنا كانت تعلو عنهم وتقتحمهم ، على معنى إنكار الأمرين جميعاً على
أنفسهم . . .

ان ذلك لحق تخاصم اهل النار

كما فسرها الوسيط واسم الإشارة فى قوله - تعالى - : ( إِنَّ ذَلِكَ
لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النار ) يعود إلى التخاصم الذى حكى عنهم .وقوله :
خبر إن . وقوله : ( تَخَاصُمُ ) خبر لمبتدأ محذوف ، والجملة بيان ( لحق )
لاسم الإشارة ، وفى الإبهام أولاً والتبين ثانياً مزيد تقرير له .أى : إن
ذلك الذى قصصناه عليك - أيها الرسول الكريم - من تخاصم أهل النار فيما
بينهم وتلاعنهم . . حق لا شك فيه ، وثابت ثبوتاً لا يختلف عليه عاقلان
- وبذلك تكون الآيات الكريمة قد ساقت بأبلغ بيان ما أعده الله - تعالى.
للمتقين من ثواب ، وما أعده للطاغين من عقاب .

قل انما انا منذر وما من اله الا الله الواحد القهار

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ، بتلقين رسوله صلى
الله عليه وسلم الرد الذى يرد به على المشركين المعترضين على دعوته ، ،
وببيان موقف إبليس من أمر الله - تعالى - له بالسجود لآدم ، وبيان ما
أعده - سبحانه - لإبليس وجنده من عذاب . فقال - تعالى - :( قُلْ إِنَّمَآ
أَنَا مُنذِرٌ وَمَا . . . ) .المعنى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء

المشركين : إنما وظيفتى الإنذار والتخويف لكم من عذاب شديد ، إذا بقيتم
- على كفركم ، وأعرضتم عن دعوتى .واقتصر على الإنذار مع أنه مبشر - أيضا
لأنه المناسب لردهم عن شركهم ، وعن وصفهم له تارة بأنه ساحر ، وأخرى بأنه
كاهن . . إلخ .وقوله - سبحانه - : ( وَمَا مِنْ إله إِلاَّ الله الواحد
القهار . رَبُّ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا العزيز الغفار ) نفى لكل
: شريك مع الله - تعالى - فى ذاته ، أو صفاته ، أو فى خلقه لهذا الكون . أى
ليس هناك من إله سوى الله - تعالى - فى هذا الكون ، وهو - سبحانه - الواحد
. الأحد ، القاهر فوق عباده

رب السماوات والارض وما بينهما العزيز الغفار

، كما فسرها الوسيط الموجد للسموات والأرض وما بينهما ، الغالب لكل شئ
الكثير المغفرة لمن يشاء من عباده .فأنت ترى أنه - سبحانه - قد وصف ذاته فى
هاتين الآيتين بخمس صفات؛ تليق بذاته وببيان أن الشرك به - سبحانه - فى
. العبادة أو الطاعة ظلم عظيم وجهل فاضح

قل هو نبا عظيم

كما فسرها الوسيط ثم أمر - سبحانه - رسوله صلى الله عليه وسلم أن يبين لهم
) : أن ما جاءهم به من عند ربه أمر عظيم ، لا يليق بعاقل أن يعرض عنه فقال
قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ . أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ) .أى : قل - يا
محمد - لهؤلاء المشركين : إن ما جئتكم به من عند ربى من قرآن كريم ، ومن
هدايات بها تسعدون فى دنياكم وآخرتكم ، هو خبر عظيم ، يجب أن تلقوا إليه
أسماعكم ، وأن تهيئوا نفوسكم لقبوله . . ولكنكم قابلتموه بالإعراض والصدود
لفرط غفلتكم ، وشدة جهالتكم ، وتماديكم فى كفركم .فالآية الأولى دعوة ،
هامة لهم لكى يقلعوا عن شركهم ، والآية الثانية توبيخ لهم على عنادهم حيث
. تركوا ما ينفعهم ، وعكفوا على ما يضرهم

انتم عنه معرضون

`<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html} كما فسرها الوسيط

ثم أمر - سبحانه - رسوله صلى الله عليه وسلم أن يبين لهم أن ما جاءهم به من
عند ربه أمر عظيم ، لا يليق بعاقل أن يعرض عنه فقال : ( قُلْ هُوَ نَبَأٌ
عَظِيمٌ . أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ) .أى : قل - يا محمد - لهؤلاء
المشركين : إن ما جئتكم به من عند ربى من قرآن كريم ، ومن هدايات بها
تسعدون فى دنياكم وآخرتكم ، هو خبر عظيم ، يجب أن تلقوا إليه أسماعكم ، وأن
تهيئوا نفوسكم لقبوله . . ولكنكم قابلتموه بالإعراض والصدود ، لفرط غفلتكم
وشدة جهالتكم ، وتماديكم فى كفركم .فالآية الأولى دعوة هامة لهم لكى ،
يقلعوا عن شركهم ، والآية الثانية توبيخ لهم على عنادهم حيث تركوا ما
. ينفعهم ، وعكفوا على ما يضرهم

ما كان لي من علم بالملا الاعلى اذ يختصمون

كما فسرها الوسيط ثم نفى صلى الله عليه وسلم عن نفسه أن يكون عنده علم بشئ
) : من أخبار الملأ الأعلى ، إلا عن طريق الوحى فقال - كما حكى القرآن عنه
مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بالملإ الأعلى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ) والمراد
، بالملأ الأعلى : علام السموات وما فيه من ملائكة لا يعصون الله ما أمرهم
ويفعلون ما يؤمرون .قال القرطبى : الملأ الأعلى هم الملائكة فى قول ابن
عباس والسدى . اختصموا فى أمر آدم حين خلق ، فقالوا : ( أَتَجْعَلُ فِيهَا
مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدماء . . . ) وقال إبليس : ( أَنَا
خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ )وفى هذا
بيان أن محمداً صلى الله عليه وسلم أخبر عن قصة آدم وغيره وذلك لا يتصور
إلا بتأييد إلهى . .وقال ابن كثير : وقوله : ( مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ
بالملإ الأعلى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ) أى : لولا الوحى من أين كنت أدرى
، باختلاف الملأ الأعلى .يعنى فى شأن آدم ، وامتناع إبليس من السجود له
ومحاجته ربه فى تفضيله عليه . . ؟ فالآية تنفى عن الرسول صلى الله عليه
. وسلم علم شئ من أخبار الملأ الأعلى إلأ عن طريق الوحى

ان يوحى الي الا انما انا نذير مبين

كما فسرها الوسيط وجملة ( إِن يوحى إِلَيَّ إِلاَّ أَنَّمَآ أَنَاْ نَذِيرٌ
مُّبِينٌ ) معترضة بين إيراد اختصامهم على سبيل الإجمال ، ثم إيراده فى
الآيات الآتية بعد ذلك على سبيل التفصيل .و " إن " نافية ونائب فاعل " يوحى

" ضمير تقدير هو يعود على المفهوم مما سبق . وهو شأن الملأ الأعلى ، و "
أنما " بفتح الهمزة على تقدير لام التعليل .أى : ليس لى من علم بما يدور فى
الملأ الأعلى إلا عن طريق الوحى ، وهذا الوحى لا ينزل على إلا من أجل أنى
. رسول من عند الله - تعالى - أنذركم بما يكلفنى به إنذاراً واضحا بينا

اذ قال ربك للملائكة اني خالق بشرا من طين

- كما فسرها الوسيط ثم فصل - سبحانه - هذا التخاصم الذى أشار إليه - سبحانه
قبل ذلك فى قوله : ( مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالملإِ الأعلى إِذْ
يَخْتَصِمُونَ ) فقال : ( إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي
خَالِقٌ بَشَراً مِّن طِينٍ . فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن
رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ ) .و " إذ " فى قوله ( إِذْ قَالَ
رَبُّكَ . . . ) بدل من قوله ( إِذْ يَخْتَصِمُونَ ) ، لاشتمال ما فى حيزها
على تفصيل تلك الخصومة . وقيل : هى منصوبة بتقدير اذكر .قالوا : والمراد
، بالملائكة هنا ، ما يشمل إبليس ، بدليل أن الأمر بالسجود لآدم كان للجميع
: وأنهم جميعاً امتثلوا لأمر الله - تعالى - ما عدا إبليس .والمراد بالبشر
آدم - عليه السلام - مأخوذ من مباشرة للأرض ، أو من كونه ظاهر البشرة ، أى
الجلد والهيئة . أى : لم يكن لى من علم بالملأ الأعلى وقت اختصامهم ، حين
قال الله - تعالى - للملائكة ومعهم إبليس : ( إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن
طِينٍ ) هو آدم عليه - السلام - فإذا صورته على صورة البشر ، وأفضت عليه ما
به من الحياة من الروح التى هى من أمرى - ولا علم لأحد بها سواى ، فاسجدوا
له سجود تحية وتكريم .ولا تعارض بين وصف آدم هنا بأنه خلق من طين ، وبين
وصفه فى آيات أخرى بأنه خلق من تراب ، أو من صلصال من حمأ مسنون ، فإن
، المادى التى خلق منها آدم وإن كانت واحدة ، إلا أنها مرت بمراحل متعددة
وكل آية تتحدث عن مرحلة معينة .وأضاف - سبحانه - الروح إلى ذاته ، للإشعار
بأن هذه الروح لايملكها إلا هو - تعالى - ، وأن مرد كنهها وكيفية هذا النفخ
- مما استأثر - سبحانه - به ، ولا سبيل لأحد إلى معرفته ، كما قال ،
تعالى - : ( وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الروح قُلِ الروح مِنْ أَمْرِ رَبِّي
) : وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ العلم إِلاَّ قَلِيلاً )والفاء فى قوله
فَقَعُواْ لَهُ . . . ) جواب إذا . والمراد بالوقوع : السقوط أى : فاسقطوا
وخروا له حالة كونكم ساجدين له بأمرى وإذنى ، على سبيل التحية له ، لأن
. السجود بمعنى العبادة لا يكون لغير الله تعالى

فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين

`<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html} كما فسرها الوسيط

ثم فصل - سبحانه - هذا التخاصم الذى أشار إليه - سبحانه - قبل ذلك فى قوله
: فقال ( مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالملإِ الأعلى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ) :
. إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن طِينٍ )
فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ
سَاجِدِينَ ) .و " إذ " فى قوله ( إِذْ قَالَ رَبُّكَ . . . ) بدل من قوله
. لاشتمال ما فى حيزها على تفصيل تلك الخصومة ، ( إِذْ يَخْتَصِمُونَ )
وقيل : هى منصوبة بتقدير اذكر .قالوا : والمراد بالملائكة هنا ، ما يشمل
إبليس ، بدليل أن الأمر بالسجود لآدم كان للجميع ، وأنهم جميعاً امتثلوا
- لأمر الله - تعالى - ما عدا إبليس .والمراد بالبشر : آدم - عليه السلام
: مأخوذ من مباشرة للأرض ، أو من كونه ظاهر البشرة ، أى الجلد والهيئة . أى
- لم يكن لى من علم بالملأ الأعلى وقت اختصامهم ، حين قال الله - تعالى
للملائكة ومعهم إبليس : ( إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن طِينٍ ) هو آدم
عليه - السلام - فإذا صورته على صورة البشر ، وأفضت عليه ما به من الحياة
من الروح التى هى من أمرى - ولا علم لأحد بها سواى ، فاسجدوا له سجود تحية
وتكريم .ولا تعارض بين وصف آدم هنا بأنه خلق من طين ، وبين وصفه فى آيات
أخرى بأنه خلق من تراب ، أو من صلصال من حمأ مسنون ، فإن المادى التى خلق
منها آدم وإن كانت واحدة ، إلا أنها مرت بمراحل متعددة ، وكل آية تتحدث عن
مرحلة معينة .وأضاف - سبحانه - الروح إلى ذاته ، للإشعار بأن هذه الروح
لايملكها إلا هو - تعالى - ، وأن مرد كنهها وكيفية هذا النفخ ، مما
) : - استأثر - سبحانه - به ، ولا سبيل لأحد إلى معرفته ، كما قال ، تعالى
وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الروح قُلِ الروح مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم
مِّنَ العلم إِلاَّ قَلِيلاً )والفاء فى قوله : ( فَقَعُواْ لَهُ . . . )
جواب إذا . والمراد بالوقوع : السقوط أى : فاسقطوا وخروا له حالة كونكم
ساجدين له بأمرى وإذنى ، على سبيل التحية له ، لأن السجود بمعنى العبادة لا
. يكون لغير الله تعالى

فسجد الملائكة كلهم اجمعون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما كان بعد ذلك فقال : ( فَسَجَدَ الملائكة كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ . إِلاَّ إِبْلِيسَ استكبر وَكَانَ مِنَ الكافرين ) .أى : امتثل الملائكة لأمر الله - تعالى - فسجدوا جميعا لآدم فى وقت واحد .

الا ابليس استكبر وكان من الكافرين

كما فسرها الوسيط إلا إبليس فإنه أبى الامتثال لأمر ربه ، واستكبر عن طاعته وصار بسبب ذلك من الكافرين الجاحدين لأمر الله - تعالى - .قال صاحب الكشاف : ولفظ " كل " للإحاطة و " أجمعون " فأفادوا معا أنهم سجدوا عن آخرهم ، ما بقى منهم ملك إلا سجد ، وأنهم سجدوا جميعا فى وقت واحد ، غير متفرقين فى أوقات .فإن قلت : كيف ساغ السجود لغير الله ، ؟ قلت : الذى لا يسوغ هو السجود لغير الله على وجه العبادة فأما على وجه التكرمة والتبجيل ، فلا يأباه العقل ، إلا أن يعمل الله تعالى فيه مفسدة فينهى عنه .

قال يا ابليس ما منعك ان تسجد لما خلقت بيدي استكبرت ام كنت من العالين

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - ما قاله لإبليس حين عصى أمره فقال : ( قَالَ ياإبليس مَا مَنَعَكَ أن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ . . ) ومذهب السلف فى مثل هذا التعبير ، أن اليد - مفردة أو غير مفردة - إذا وصف الله تعالى بها ذاته ، فهى ثابتة له ، على الوجه الذى يليق بكماله ، مع تنزهه -سبحانه - عن مشابهته للحوداث .ومذهب الخلف : تأويل اليد بالقدرة أو النعمة . والتثنية في يدى ، للتأكيد الدال على مزيد القدرة في خلقه . أى : قال الله - تعالى - لإبليس على سبيل التأنيث والتقريع : يا إبليس ما الذى منعك من السجود لآدم الذى خلقته بيدى؟( أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ العالين ) أى : أمنعك من السجود لآدم تكبرك من غير موجب هذا التكبر ، أم كنت ممن علا على غيره بدون حق؟ والاستفهام للتوبيخ والإنكار .

قال انا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين

كما فسرها الوسيط ( قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ ) أى : قال إبليس فى الجواب على ربه - تعالى - : أنا خير من آدم .( خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ ، وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ) فهو - لعنه الله - يرى أن النار أفضل من الطين ولا يصح سجود الفاضل للمفضول .ولا شك أن هذا التعليل من إبليس فى نهاية سوء الأدب ، لأنه بعدم سجوده قد عصى رب العالمين ، وفضلا عن ذلك فإن هذه العلة لا تقتضى صحة المدعى ، لأن النار ليست خيرا من الطين حتى يكون المخلوق منها أفضل ، إذ النار يطفئها الطين . .

قال فاخرج منها فانك رجيم

كما فسرها الوسيط وقد رد - سبحانه - على هذا التطاول من إبليس بقوله : ( فاخرج مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ . وَإِنَّ عَلَيْكَ لعنتي إلى يَوْمِ الدين ) .والفاء فى قوله ( فاخرج ) لترتيب الأمر بالطرد على ما حدث منه . والضمير فى " منها " يعود إلى السماء ، أو إلى الجنة ، لأنه كان فيهما .أى : قال - تعالى - لإبليس على سبيل الزجر : ما دمت يا إبليس قد عصيت أمرى ، فاخرج من الجنة ومن كل مكان فيه تكريم لك .

وان عليك لعنتي الى يوم الدين

كما فسرها الوسيط فإنك رجيم ، أى : مطرود من رحمتى . وإن عليك لعنتى وغضبى إلى يوم القيامة ، فإذا ما جاء هذا اليوم ازدادت لعنتى عليك .

قال رب فانظرني الى يوم يبعثون

كما فسرها الوسيط ( قَالَ رَبِّ فأنظرني ) أى : أمهلنى ( إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ) أى : فأخرنى ولا تمتنى إلى يوم البعث ، لأتمكن من إغواء ذرية آدم .

قال فانك من المنظرين

كما فسرها الوسيط ( قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ المنظرين . إلى يَوْمِ الوقت المعلوم ) أى : قال - سبحانه - قد أجبت لك ما تقتضيه حكمتى .

الى يوم الوقت المعلوم

كما فسرها الوسيط وهو أنى سأؤخر إهلاكك إلى الوقت الذى حددته لفناء الخلائق وهو قوت النفخة الأولى ، لا إلى وقت البعث الذى طلبه إبليس .

قال فبعزتك لاغوينهم اجمعين

كما فسرها الوسيط ( قَالَ ) أى : إبليس : ( فَبِعِزَّتِكَ ) أى : فبحق سلطانك وقهرك ( لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ) أى : لأغوين بنى آدم جميعا بالمعاصى ، ولأضلنهم ولأمنينهم .

الا عبادك منهم المخلصين

كما فسرها الوسيط ( إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين فلا يتأثرون بإغوائى ، لأنى لا قدرة لى عليهم .( قَالَ فالحق والحق أقول ( لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ .

قال فالحق والحق اقول

كما فسرها الوسيط وقوله ( فالحق ) مبتدأ محذوف الخبر أى : فالحق قسمى لأملأن . . وقوله : ( والحق أَقُولُ ) لفظ الحق منصوب هنا على أنه مفعول لأقول ، قدم عليه لإفادة الحصر .والجملة من الفاعل والمفعول معترضة بين القسم والقسم عليه لتقرير مضمون الجملة القسمية . أى : قال الله - تعالى - فى رده على إبليس : فالحق قسمى ويمينى - ولا أقول إلا الحق .

لاملان جهنم منك وممن تبعك منهم اجمعين

كما فسرها الوسيط لأملأن جهنم من جنسك يا إبليس ، وممن تبعك من الناس جميعا لأن هذا جزاء من عصانى ، .

قل ما اسالكم عليه من اجر وما انا من المتكلفين

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ، بأمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يبين للناس ، أنه لا يريد من وراء دعوته عرضا زائلا من أعراض الدنيا فقال ( قُلْ مَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا مِنَ المتكلفين . إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ . وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ) .أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المشركين وغيرهم : إنى لا أسألكم أجرا على تبليغكم ما أمرنى الله بتبليغه إليكم ، وما أنا من الذين يتكلفون ويتصنعون القول أو الفعل الذى لا يحسنونه ، بل أنا رسول من عند الله وصادق فيما أبلغه عنه .

ان هو الا ذكر للعالمين

كما فسرها الوسيط وما هذا القرآن الذى جئتكم به من عند ربى ، إلا وعظ بليغ للثقلين ، وشرف عظيم لهما فى اتباع أوامره ونواهيه .

ولتعلمن نباه بعد حين

كما فسرها الوسيط لتعلمن - أيها الناس - صدق ما أخبركم به من وعد ومن وعيد بعد وقت محدد فى علم الله - تعالى - وبعد : فهذا تفسير لسورة " ص " نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم؟ .

تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم

، كما فسرها الوسيط افتتحت سورة " الزمر " بالثناء على القرآن الكريم وببيان مصدره ، قال - تعالى - : ( تَنزِيلُ الكتاب مِنَ الله العزيز الحكيم أى : هذا الكتاب وهو القرآن الكريم . قد نزلي عليك - يا محمد - من لدن. ( الله - تعالى - ( العزيز ) أى : الغالب على كل شئ ( الحكيم ) فى كل تصرفاته وأفعاله ، وليس هذا القرآن قولا مفترى كما زعم الجاحدون الذين انطمست بصائرهم ، واستحبوا العمى على الهدى .والذى يتتبع آيات القرآن الكريم ، يرى ، أن الله - تعالى - إذا ذكر تنزيله لكتابه أتبع ذلك ببعض أسمائه الحسنى المتضمنة لصفاته الجليلة .ففى أول سورة غافر نجد قوله - تعالى - : ( حما . تَنزِيلُ الكتاب مِنَ الله العزيز العليم ) .وفى أول سورة الجاثية نجد

قوله - تعالى - : ( حما . تَنزِيلُ الكتاب مِنَ الله العزيز الحكيم ) .وفى
- أول سورة الأحقاف نجد مثل هذا الافتتاح .وفى أول سورة فصلت نجد قوله
تعالى - : ( حما . تَنزِيلٌ مِّنَ الرحمن الرحيم ) وفى صدر سورة " يس " نجد
قوله - سبحانه - ( تَنزِيلَ العزيز الرحيم . لِتُنذِرَ قَوْماً مَّآ
أُنذِرَ آبَآؤُهُمْ . . . ) ولا يخفى أن ذكره - سبحانه - لبعض أسمائه
الحسنى ، بعد ذكره لتنزيل هذا القرآن على قلب رسوله صلى الله عليه وسلم فيه
- ما فيه من الثناء على القرآن الكريم ، ومن بيان أنه قد نزل من عند الله
. تعالى - وحده ، الذى له الخلق والأمر . تبارك الله رب العالمين

انا انزلنا اليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ما يدعو الناس إلى قبول هذا
الكتاب ، وإلى العمل بهداياته ، فقال - تعالى - : ( إِنَّآ أَنزَلْنَآ
- إِلَيْكَ الكتاب بالحق . . ) .أى : هذا الكتاب هو تنزيل من عند الله
- تعالى - الغاب على كل شئ . والحكيم فى أقواله وأفعاله . وقد أنزله
، سبحانه - عليك - يا محمد - تنزيلا ملتبسا بالحق الذى لا يحوم حوله باطل
: أو ما يشبه الباطل ، وذلك يوجب قبوله والعمل بكل ما فيه .قال الآلوسى
قوله - تعالى - : ( إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الكتاب بالحق ) بيان لكونه
نازلا بالحق ، وتوطئة لما يذكر بعد . . أو شروع فى بيان المنزل إليه ، وما
، يجب عليه إثر بيان شأن المنزل . . والباء متعلقة بالإنزال ، وهى للسببية
أى : أنزلناه بسبب الحق ، أى : إثباته وإظهاره . أو بمحذوف وقع حالا من
المفعول وهى للملابسة . أى : أنزلناه ملتبسا بالحق والصواب .والمراد أن كل
ما فيه موجب للعمل والقبول حتما .والفاء فى قوله - تعالى - : ( فاعبد الله
مُخْلِصاً لَّهُ الدين ) لترتيب ما بعدها على ما قبلها . والعبادة : أقصى
درجات التذلل والخضوع للمعبود - عز وجل - والإخلاص معناه : أن يقصد المسلم
بعبادته وقوله وعمله وجه الله - تعالى - .أى : أنزلنا إليك - أيها الرسول
الكريم - هذا الكتاب بالحق الذى لا يشوبه باطل ، وما دام الأمر كذلك فعليك
أن تخلص لربك عبادتك وطاعتك ودينك إخلاصا تاما ، لا يحوم حوله رياء أو
تفاخر ، أو غير ذلك مما يتنافى مع إخلاص الخضوع لله - تعالى - وحده .قال
الشوكانى : وفى الآية دليل على وجوب النية ، وإخلاصها من الشوائب لأن
الإخلاص من الأمور القلبية التى لا تكون إلا بأعمال القلب ، وقد جاءت
" : السنة الصحيحة أن ملاك الأمر فى الأقوال والأفعال النية ، كما فى حديث
. " إنما الأعمال بالنيات " وحديث : "لا قول ولا عمل إلا بنية

الا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه اولياء ما نعبدهم الا ليقربونا
الى الله زلفى ان الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون ان الله لا يهدي من
هو كاذب كفار

كما فسرها الوسيط وجملة ( أَلاَ لِلّهِ الدين الخالص ) مؤكدة ومقررة
لمضمون ما قبلها من وجوب إفراد العبادة والطاعة لله - تعالى - : وزادها
تأكيداً وتقريراً لما قبلها تصديرها بأداة الاستفتاح ( ألا ) واشتمالها على
أسلوب القصر .أى : ألا إن الله - تعالى - وحده - وليس لأحد سواه - الدين
الخالص من شوائب الشرك والرياء . والعبادة لوجهه وحده ، والخضوع لقدرته
) : التى لا يعجزها شئ .ثم بين - سبحانه - ما عليه المشركون من ضلال فقال
والذين اتخذوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ
. . لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى الله زلفى إِنَّ الله يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ
- فالمراد بالموصول المشركون ، ومحله الرفع على الابتداء ، وخبره قوله(
تعالى - بعد ذلك : ( إِنَّ الله يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ) وجملة ( مَا
نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى الله زلفى ) فى محل نصب على
الحال بتقدير القول ، والاستثناء مفرغ من أعم العلل . والزلفى : اسم أقيم
) مقام المصدر الذى يتلاقى معه فى المعنى ، والمأخوذ من قوله
لِيُقَرِّبُونَآ ) .أى : لله - تعالى - وحده الدين الخالص ، والمشركون
الذين اتخذوا معبودات باطلة ليعبدوها من دون الله ، كانوا يقولون فى الرد
على من ينهاهم عن ذلك : إننا لا نعبد هذه المعبودات إلا من أجل أن نتوسل
بها ، لكى تقربنا إلى الله قربى ، ولتكون شفيعة لنا عنده حتى يرفع عنا
البلاء والمحن .( إِنَّ الله يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ) أى : بين هؤلاء
المشركون وبين غيرهم من المؤمنين الذين أخلصوا لله - تعالى -العبادة
والطاعة ( فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ) من أمر التوحيد والشرك ، بأن
يجازى المؤمنين بحسن الثواب ، ويجازى الكافرين بسوء العقاب .( إِنَّ الله
تعالى - ( لاَ يَهْدِي ) أى :لا يوفق للاهتداء للحق ( مَنْ هُوَ - (
كَاذِبٌ كَفَّارٌ ) .أى : من كان دائم الكذب على دين الله ، شديد الجحود
لآيات الله وبراهينه الدالة على وحدانيته ، وعلى أنه لا رب لهذا الكون سواه
.

لو اراد الله ان يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار

- كما فسرها الوسيط ثم أبطل - سبحانه - كل تصور للشرك والشركاء ، بأن نزه تعالى - ذاته عن اتخاذ الولد فقال : ( لَّوْ أَرَادَ الله أن يَتَّخِذَ وَلَداً لاصطفى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ سُبْحَانَهُ هُوَ الله الواحد القهار ) .أى : لو أراد الله - تعالى - على سبيل الفرض والتقدير - أن يتخذ - ولدا ، لاختار من خلقه ما يريده هو ، لا ما يريده الضالون ، لكنه سبحانه - لم يختر أحد اليكون ولدا له ، فدل ذلك على بطلان زعم الزاعمين بأن ). الملائكة بنات الله ، أو بأن عزيراً ابن الله ، أو بأن المسيح ابن الله سُبْحَانَهُ هُوَ الله الواحد القهار ) أى : تنزه - عز وجل - عن كل شئ من ذلك ، فإنه هو الله الواحد فى ذاته وفى صفاته ، القهار لكل مخلوقاته .قال الإمام ابن كثير : بيّن - تعالى - فى هذه الآية أنه لا ولد له كما يزعمه جهلة المشركين فى الملائكة ، والمعاندون من اليهود والنصارى فى العزيز وعيسى فقال : ( لَّوْ أَرَادَ الله أن يَتَّخِذَ وَلَداً لاصطفى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ) أى . لكان الأمر على خلاف ما يزعمون .وهذا شرط لا يلزم وقوعه ولا جوازه ، بل هو محال ، وإنما قصد تجهيلهم فيما ادعوه وزعموه كما قال : ( لَوْ أَرَدْنَآ أن نَّتَّخِذَ لَهْواً لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن ، لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ) وكما قال : ( قُلْ إِن كَانَ للرحمن وَلَدٌ فَأَنَاْ أَوَّلُ العابدين ) كل هذا من باب الشرط ، ويجوز تعليق الشرط على المستحيل لقصد المتكلم .وقال بعض العلماء ما ملخصه : إرادة اتخاذ الولد هنا ممتنعة ، لأن الإرادة لا تتعلق إلا بالممكنات ، واتخاذ الولد محال ، كما ثبت بالبرهان القطعى فتستحيل إرادته . وجعلها فى الآية شرطا وتعليق الجواب عليها ، لا يقتضى إمكانها فضلا عن وقوعها ، وقد عرف فى فصيح الكلام : تعليق المحال على المحال جوازا ووقوعا .على أن الولدية تقتضى - التجانس بين الوالد والولد . إذ هو قطعة منه . وقد ثبت أن كل ما عداه ، سبحانه - مخلوق له . فيلزم بموجب التجانس أن يكون المخلوق من جنس الخالق . وهو يستلزم حدوث الخالق ، أو قدم المخلوق ، وكلاهما محال

خلق السماوات والارض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لاجل مسمى الا هو العزيز الغفار

كما فسرها الوسيط ثم أقام - سبحانه - المزيد من الأدلة على وحدانيته وقدرته عن طريق التأمل فى ملكوت السموات والأرض ، وفى ظاهرة الليل والنهار ، وفى ، - تسخير الشمس والقمر ، وفى خلق بنى آدم من نفس واحدة . . . فقال - تعالى قوله - تعالى - : ( خَلَقَ. ( . . . خَلَقَ السماوات والأرض بالحق ): - السماوات والأرض بالحق ) تفصيل لبعض أفعاله الدالة على وحدانيته - سبحانه وقدرته .أى : الله وحده هو الذى أوجد هذه السموات وتلك الأرض ، إيجادا ملتبساً بالحق والحكمة والمصلحة التى تعود عليكم - أيها الناس - بالخير - والمنفعة ومن كان شأنه كذلك ، استحال أن يكون له شريك أو ولد .ثم ساق سبحانه - دليلا ثانيا على وحدانيته فقال : ( يُكَوِّرُ الليل عَلَى النهار وَيُكَوِّرُ النهار عَلَى الليل ) .والتكوير فى اللغة : طرح الشئ بعضه على بعض . يقال : كور فلان المتاع ، إذا ألقى بعضه على بعض ، ومنه كور العمامة أى : انضمام بعض أجزائها على بعض .والمقصود أن الليل والنهار كلاهما يكُر . على الآخر فيذهبه ويحل محله ، بطريقة متناسقة محكمة لا اختلال معها ولا اضطراب .قال صاحب الكشاف : " والتكوير : اللف واللى . يقال : كارَ العمامة على رأسه وكوّرها .وفيه أوجه ، منها : أن الليل والنهار خلفة يذهب هذا ويأتى مكانه هذا ، وإذا غشى مكانه ، فكأنما ألبسه ولف عليه ، كما يلف ، اللباس على اللابس .ومنها : أن كل واحد منهما يغيب الآخر إذا طرأ عليه : فشبه فى تغييبه إياه بشئ ظاهر لف عليه ما غيبه عن مطامح الأبصار .ومنها أن هذا يكر على هذا كرورا متتابعا ، فشبه ذلك بتتابع أكوار العمامة بعضها " . . على إثر بعض " .قال بعض العلماء ما ملخصه : " والتعبير بقوله " يكور تعبير عجيب ، يقسر الناظر فيه قسرا على الالتفات إلى ما كشف حديثا عن كروية الأرض فهو يصور حقيقة مادة ملحوظة على وجه الأرض ، فالأرض الكروية تدور حول نفسها فى مواجهة الشمس ، فالجزء الذى يواجه الشمس من سطحها المكور يغمره الضوء ويكون نهارا . ولكن هذا الجزء لا يثبت لأن الأرض تدور . وكلما تحركت بدأ الليل يغمر السطح الذى كان عليه النهار . وهذا السطح مكورن فالنهار كان عليه مكورا ، والليل يتبعه مكورا كذلك ، وبعد فترة يبدأ النهار من الناحية الأخرى يتكور على الليل ، وهكذا فى حركة دائبة " يكور - سبحانه - الليل على النهار ويكور النهار على الليل " .واللفظ يرسم الشكل ، ويحدد الوضع ، ويعين نوع طبيعة الأرض وحركتها ، وكروية الأرض ودورانها ، يفسران هذا التعبير - تفسيرا أدق من أى تفسير آخر لا يستصحب هذه النظرية .ثم ذكر - سبحانه دليلا ثالثا على وحدانيته وقدرته فقال : ( وَسَخَّرَ الشمس والقمر كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى )والتسخير : التذليل والانقياد والطاعة التامة .

أى : وجعل - سبحانه - الشمس والقمر منقادين لأمره انقيادا تاملا وكلاهما ، يجرى فى مداره إلى الوقت المحدد فى علم الله - تعالى - لنهاية دورانه وانقطاع حركته .وهما فى جريانهما يسيران بنظام محكم دقيق غاية الدقة ، كما قال - تعالى - :( لاَ الشمس يَنبَغِي لَهَآ أَن تدْرِكَ القمر وَلاَ الليل سَابِقُ النهار وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ) ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله ( ألا هُوَ العزيز الغفار ) .وفى تصدير الجملة الكريمة بأداة الاستفتاح ( ألا ) إشارة إلى كمال الاعتناء بمضمونه ، وإلى وجوب التدبر فيما اشتملت عليه .أى : ألا إن الله - تعالى - : وحده هو الخالق لكل ) تلك المخلوقات ، وهو وحده المتصرف فيها ، والمهيمن عليها ، وهو وحده العزيز ) الغالب على كل ما سواه ، الكثير المغفرة لذنوب عباده التائبين . إليه توبة نصوحا

خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وانزل لكم من الانعام ثمانية ازواج يخلقكم في بطون امهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا اله الا هو فانى تصرفون

) : كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - أدلة أخرى على وحدانية فقال خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ) .أى خلقكم - سبحانه - من نفس واحدة هى نفس أبيكم آدم ثم خلق من هذه النفس الواحدة ، زوجها وهى أمكم حواء .قال الشوكانى : والتعبير بالجعل دون الخلق مع العطف بثم . للدلالة على أن خلق حواء من ضلع آدم ، أدخل فى كونه آية باهرة دالة على كمال القدرة؛ لأن خلق آدم هو على عادة الله المستمرة فى خلقه ، وخلق حواء على الصفة المذكورة لم تَجرِبه عادة لكونه - تعالى - لم يخلق أنثى من ضلع رجل غيرها .وقال الجمل : فإن قلت كيف عطف بثم مع أن خلق حواء من آدم سابق على خلقنا منه؟ أجيب بأن ثم هنا للترتيب فى الإخبار لا فى الإيجاد . أو المعطوف متعلق بمعنى واحدة ، فثم عاطفة عليه لا على خلقكم فمعناه : خلقكم من نفس واحدة أفردت بالإيجاد ، ثم شفعت بزوجة . أو هو ، معطوف على خلقكم ، لكن المراد بخلقهم ، خلقهم يوم أخذ الميثاق فدفعة لا على ) : - هذا الخلق ، الذى هو فيه الآن بالتوالد والتناسل .وقوله - تعالى وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ الأنعام ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ) بيان لبعض آخر من أفعاله - تعالى - الدالة على وحدانيته وقدرته . والجملة الكريمة معطوفة على ما قبلها وهى قوله : ( خلقكم ) .أى : وأنزل لكم من كل من الإبل والبقر والغنم والمعز زوجين : ذكرا وأنثى يتم بهما التناسل وبقاء النوع .قالوا : وعبر - سبحانه - عن الخلق بالإنزال ، لما يروى أنه - تعالى - خلق هذه الأنواع فى الجنة ثم أنزلها ، فيكون الإنزال على سبيل الحقيقة .أو أن الكلام على سبيل المجاز ، لأن هذه الأنعام لا تعيش إلا عن طريق ما تأكلهن من نبات ، والنبات لا يخرج إلا بالماء النازل من السماء فكأن الأنعام نازلة من السماء ، لأن سبب سببها منزل منها . . أو أن " أنزل " هنا بمعنى أنشأ ) - وأوجد . أو لأن الخلق إنما يكون بأمر من السماء .وقوله - تعالى يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاَثٍ ) بيان لكيفية خلق ما خلقه الله من الأناسى والأنعام بتلك الطريقة العجيبة .أى أنه - تعالى - يخلقكم - أيها الناس - بقدرته فى ، بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق ، بأن يحولكم من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى عظام مكسورة باللحم ، ثم يحولكم بعد ذلك إلى خلق آخر ، وهذه المراحل كلها تتم وأنتم فى ظلمات بطون أمهاتكم ، وظلمات الأرحام التى بداخل البطون وظلمات الغشاء الذى بداخل الأرحام والبطون ، وذلك كله من أقوى الأدلة على قدرة الله - تعالى - ورعايته لخلقه .وصدق الله إذ يقول : ( أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ . فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ . إلى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ . فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ القادرون ) واسم الإشارة فى قوله - تعالى - ( ذَلِكُمُ الله رَبُّكُمْ لَهُ الملك لا إله إِلاَّ هُوَ فأنى تُصْرَفُونَ ) يعود إليه - سبحانه - باعتبار أفعاله السابقة . وتصرفون من الصرف بمعنى الابتعاد عن الشئ إلى غيره .أى : ذلكم العظيم الشأن الذى : ذكرنا لكم بعض مظاهر قدرته ، هو الله ربكم الذى له ملك كل شئ ، والذى لا معبود بحق سواه ، فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره؟ وكيف تزعمون أن له شريكا أو ولدا . . مع توفر الأدلة على بطلان ذلك .والمتأمل فى هاتين - الآيتين يراهما قد ذكرتا ألوانا من البراهين على وحدانية الله - تعالى وقدرته ، كخلق السموات والأرض بالحق ، وتكوير الليل على النهار ، والنهار على الليل ، وتسخير الشمس والقمر لمنافع الناس ، وخلق الناس جميعا من نفس واحدة ، ورعايتهم بطلفه وإحسانه فى مراحل حياتهم ، وإيجاد الأنعام التى تنفعهم فى شئونهم المختلفة .

ان تكفروا فان الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وان تشكروا يرضه لكم ولا تزر وازرة وزر اخرى ثم الى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون انه عليم بذات الصدور

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أنه غني عن خلقه ، وأنهم هم الفقراء
إليه فقال : ( إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلاَ يرضى
- لِعِبَادِهِ الكفر وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ) .أى : إن تكفروا
أيها الناس - بعد أن سقنا لكم من الأدلة ما سقنا على صحة الإيمان وفساد
الكفر ، فإن الله - تعالى - غنى عنكم وعن إيمانكم وعبادتكم وعن الخلق
: أجمعين .ومع ذلك فإنه - سبحانه - لرحمته بكم ، لا يرضى لعباده الكفر ، أى
لا يحبه منهم ولا يحمده لهم ، ولا يجازى الكافر المجازاة التى يجازى بها
المؤمن فإن المؤمن له جنات النعيم ، أما الكافر فله نار الجحيم .وإن تشكروا
الله على نعمه - أيها الناس - بأن تخلصوا له العبادة والطاعة وتستعملوا
نعمه فيما خلقت له ، يرض لكم هذا الشكر ، ويكافئكم عليه مكافأة جزيلة . بأن
يزيدكم من نعمه وإحسانه وخيره .( وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى ) أى
ولا تحمل نفس يوم القيامة حمل أخرى ، وإنما كل نفس تجازى على حسب :
) أعمالها فى الدنيا .( ثُمَّ إلى رَبِّكُمْ مَّرْجِعُكُمْ ) يوم القيامة
، فَيُنَبِّئُكُمْ ) أى : فيخبركم ( بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ) فى دنياكم
ويجازى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .( إِنَّهُ
سبحانه - ( عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ) أى : عليم بما تخفيه الصدور من - (
أسرار ، وبما تضمره القلوب من أقوال وأفعال . .لا يخفى عليه شئ فى الأرض
ولا فى السماء .قال الجمل فى حاشيته : قوله : ( وَلاَ يرضى لِعِبَادِهِ
الكفر ) معنى عدم الرضا به ، لا يفعل فعل الراضى ، بأن يأذن فيه ويقر عليه
، ويثيب فاعله ويمدحه ، بل يفعل فعل الساخط بأن ينهى عنه ، ويذم عليه ،
ويعاقب مرتكبه وإن كان بإرادته ، إذ لا يخرج شئ عنها .أو المعنى : ولا يرضى
لعباده المؤمنين الكفر ، وهم الذين قال الله - تعالى - فى شأنهم : ( إِنَّ
عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ) فيكون الكلام عاما فى اللفظ
خاصا فى المعنى ، كقوله - تعالى - : ( عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ الله
أى بعض العباد وبذلك ترى هذه الآية الكريمة قد أقامت الأدلة المتعددة على (
- وحدانية الله - تعالى - وعلى كمال قدرته ، وعلى أن من شكر الله - تعالى
على نعمه ، فإن عاقبة هذا الكشر تعود على الشاكر بالخير الجزيل ، أما من
جحد نعم الله - تعالى - وأشرك معه فى العبادة غيره ، فإن عاقبة هذا الجحود
تعود على الجاحد بالشرك الوبيل ، وبالشقاء فى الدنيا والآخرة .وبعد أن ،
أقام - سبحانه - الأدلة المتعددة على وحدانيته وكمال قدرته ، أتبع ذلك
- بالحديث عن طبيعة الإنسان فى حالتى السراء والضراء ، ونفى - سبحانه
): - المساواة بين المؤمنين والكافرين ، والعلماء والجهلاء فقال - تعالى
. ( . . . وَإِذَا مَسَّ الإنسان ضُرٌّ دَعَا

واذا مس الانسان ضر دعا ربه منيبا اليه ثم اذا خوله نعمة منه نسي ما كان
يدعو اليه من قبل وجعل لله اندادا ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلا انك
من اصحاب النار

`<!-- TODO:MISSING -->`{=html} كما فسرها الوسيط

امن هو قانت اناء الليل ساجدا وقائما يحذر الاخرة ويرجو رحمة ربه قل هل
يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما يتذكر اولو الالباب

`<!-- TODO:MISSING -->`{=html} كما فسرها الوسيط

قل يا عباد الذين امنوا اتقوا ربكم للذين احسنوا في هذه الدنيا حسنة وارض
الله واسعة انما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب

`<!-- TODO:MISSING -->`{=html} كما فسرها الوسيط

قل اني امرت ان اعبد الله مخلصا له الدين

`<!-- TODO:MISSING -->`{=html} كما فسرها الوسيط

وامرت لان اكون اول المسلمين

`<!-- TODO:MISSING -->`{=html} كما فسرها الوسيط

قل اني اخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم

`<!-- TODO:MISSING -->`{=html} كما فسرها الوسيط

قل الله اعبد مخلصا له ديني

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

فاعبدوا ما شئتم من دونه قل ان الخاسرين الذين خسروا انفسهم واهليهم يوم القيامة الا ذلك هو الخسران المبين

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده يا عباد فاتقون

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

والذين اجتنبوا الطاغوت ان يعبدوها وانابوا الى الله لهم البشرى فبشر عباد

- كما فسرها الوسيط والطاغوت : يطلق على كل معبود سوى الله - تعالى كالشيطان والأصنام وما يشبههما ، مأخوذ من الطغيان ، وهو مجاوزة الحد فى كل شئ . ويستعمل فى الواحد والجمع والمذكور المؤنث .والاسم الموصول مبتدأ . وجملة ( أَن يَعْبُدُوهَا ) بدل اشتمال من الطاغوت ، وجملة ( لَهُمُ البشرى هى الخبر .والمعنى : والذين اجتنبوا عبادة الطاغوت ، وكرهوا عبادة غير ( الله - تعالى - أيا كان هذا المعبود ، وأقبلوا على الخضوع والخشوع له وحده - عز وجل .أولئك الذين يفعلون ذلك ( لَهُمُ البشرى ) العظيمة فى حياتهم ، وعند مماتهم ، وحين يقفون بين يدى الله - تعالى - : ( فَبَشِّرْ عِبَادِ ) أى : فبشر - أيها الرسول الكريم - عبادى الذين هذه مناقبهم ، وتلك صفاتهم . . .

الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه اولئك الذين هداهم الله واولئك هم اولو الالباب

كما فسرها الوسيط ثم وصفهم - سبحانه - بما يدل على صفاء عقولهم ، وطهارة قلوبهم ، فقال : ( الذين يَسْتَمِعُونَ القول فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ . وللعلماء فى تفسير هذه الجملة الكريمة أقوال منها : أن المراد. ( . . بالقول الذى يتبعون أحسنه . ما يشمل تعاليم الإسلام كلها النابعة من الكتاب والسنة .والمراد بالأحسن الواجب والأفضل ، مع جواز الأخذ بالمندوب والحسن .فهم يتركون العقاب مع أنه جائز ، ويأخذون بالعفو لأنه الأفضل ، كما - قال - تعالى - ( وَأَن تعفوا أَقْرَبُ لِلتقوى . . ) وكما قال - سبحانه وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ) : وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ) فيكون المعنى : الذين يستمعون الأقوال الحسنة والأشد حسنا فيأخذون بما هو أشد حسنا . . .ومنها أن المراد بالقول هنا ما يشمل الأقوال كلها سواء أكانت طيبة أم غير طيبة ، فهم يستمعون من الناس إلى أقوال متباينة ، فيتبعون الطيب منها ، وينبذون غيره قال صاحب الكشاف ما ملخصه : قوله : ( الذين يَسْتَمِعُونَ القول. فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ) هم الذين اجتنبوا وأنابوا لأغيرهم ، وإنما أراد بهم أن يكونوا مع الاجتناب والإنابة على هذه الصفة . . وأراد أن ، يكونوا نقادا فى الدين ، مميزين بين الحسن والأحسن ، والفاضل والأفضل فإذا اعترضهم أمران : واجب ومندوب ، اختاروا الواجب . . . فهم حريصون على فعل ما هو أكثر ثوابا عند الله .وقيل : يستمعون القرآن وغيره فيتبعون ، القرآن . وقيل : يستمعون أوامر الله فيتبعون أحسنها . نحو القصاص والعفو والانتصار والإغضاء .وعن ابن عباس : هو الرجل يجلس مع القوم فيسمع الحديث فيه محاسن ومساوئ ، فيحدث بأحسن ما سمع ، وكيف عما سواه .ويبدو لنا أن هذا القول الأخير المأثور عن ابن عباس - رضى الله عنهما - هو أقرب الأقوال إلى ) : - الصواب ، لأنه هو الظاهر من معنى الجملة الكريمة .وقوله - سبحانه وأولئك هُمْ أُوْلُواْ الألباب ) ثناء آخر من الله - تعالى - على هؤلاء المؤمنين الذين اجتنبوا عبادة الطاغوت ، وأخلصوا لله - تعالى - العبادة .أى أولئك الذين هداهم الله - تعالى - إلى دينه الحق ، وإلى الصراط المستقيم : وأولئك هم أصحاب العقول السليمة ، والمدارك القويمة ، والقلوب الطاهرة ، النقية ..قال الآلوسى : وفى الآية دلالة على حط قدر التقليد المحض ، ولذا قيل :شمر وكن فى أمور الدين مجتهداً ... ولا تكن مثل عير قيد فانقاداواستدل بها على أن الهداية تحصل بفعل الله - تعالى - وقبول النفس لها . . .

افمن حق عليه كلمة العذاب افانت تنقذ من في النار

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن من أحاطت به خطيئته ، لن يستطيع أحد إنقاذه من العذاب فقال - تعالى - ( أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ

: العذاب أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النار ) .والاستفهام للنفى ، والتقدير
- أفمن وجب عليه العذاب بسبب إصراره على كفره حتى النهاية ، أفتستطيع أنت
أيها الرسول الكريم - أن تنقذه من هذا المصير الأليم؟ لا - أيها الرسول
، الكريم - إنك لا تستطيع ذلك . لأن من سبق عليه قضاؤنا بأنه من أهل النار
. بسبب استحبابه الكفر على الإيمان لن تستطيع أنت أو غيرك إنقاذه منها

لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها الانهار
وعد الله لا يخلف الله الميعاد

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( لكن الذين اتقوا رَبّهُمْ لَهُمْ
غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مّبْنِيّةٌ . . . ) بيان لحسن عاقبة
المؤمنين ، بعد بيان سوء عاقبة من حقت عليهم كلمة العذاب . .والغرف جمع
غرفة ، وتطلق على الحجرة التى تكون مرتفعة عن الأرض .أى : هذا حال الذين
عليهم كلمة العذاب ، أما حال الذين اتقوا ربهم فيختلف اختلافا تاما عن
غيرهم ، فإن الله - تعالى - قد أعد لهم - على سبيل التكريم والتشريف - غرفا
من فوقها غرف أخرى مبنية .ووصفت بذلك الإشارة إلى أنها معدة ومهيأة
لنزولهم فيها ، قبل أن يقدموا عليها ، زيادة فى تكريمهم وحسن لقائهم .وهذه
الغرف جميعها ( تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ) ليكون ذلك أدعى إلى زيادة
سرورهم .وقوله - تعالى - ( وَعْدَ الله لاَ يُخْلِفُ الله الميعاد ) تذييل
" مؤكد لمضمون ما قبله من كون المتقين لهم تلك الغرف المبنية . ولفظ " وعد
- مصدر منصوب بفعل مقدر .أى : وعدهم - تعالى - بذلك وعدا لا يخلفه ، لأنه
سبحانه - ليس من شأنه أن يخلف الموعد الذى يعده لعباده .وقد ذكر الإمام
ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية بعض الأحاديث ، منها ما رواه الإمام أحمد
عن أبى مالك الأشعرى ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن فى
الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها ، أعدها الله لمن أطعم
الطعام ، وألان الكلام ، وتابع الصيام ، وصلى والناس نيام " .وبذلك نرى هذه
الآيات الكريمة قد بشرت المتقين بأحسن البشارات وأكرمها ، وتوعدت المصرين
. على كفرهم وفجورهم باستحالة إنقاذهم من عذاب النار

الم تر ان الله انزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الارض ثم يخرج به زرعا
مختلفا الوانه ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يجعله حطاما ان في ذلك لذكرى لاولي
الالباب

كما فسرها الوسيط ثم ضرب - سبحانه - مثلا لسرعة زوال الحياة الدنيا ، وقرب
): - اضمحلال بهجتها . كما بين حال من شرح الله صدره للإسلام فقال - تعالى
) : ـ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أَنزَلَ . . . ) .الاستفهام فى قوله - تعالى
أَلَمْ تَرَ أَنّ الله أَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً . . . ) للتقرير
، والينابيع : جمع ينبوع ، وهو المنبع أو المجرى الذى يكون فى باطن الأرض.
: والذى يحمل الكثير من المياه الجارية أو المخزونة فى جوف الأرض .والمعنى
لقد علمت - أيها العاقل - أن الله - تعالى - أنزل من السحب المرتفعة فى جو
السماء ، ماء كثيرا ، فأدخله بقدرته على عيون ومسارب فى الأرض ، هذه العيون
والمسارب تارة تكون ظاهرة على وجه الأرض ، وتارة تكون فى باطنها ، وكل ذلك
- من أعظم الأدلة على قدرة الله - تعالى - ورحمته بعباده .ثم بين - سبحانه
مظرهاه آخر من مظاهر قدرته فقال : ( ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً
- مّخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ . . . ) .أى : هذا الماء الذى أنزله - سبحانه
بقدرته من السماء ، قد سلكه ينابيع فى الأرض ، ثم يخرج بسبب هذا الماء زرعا
مختلفا فى ألوانه وفى أشكاله ، فمنه ما هو أخضر ومنه ما هو أصفر ، ومنه ما
ليس كذلك مما يدل على كمال قدرة الله - تعالى - .وقوله - تعالى - : ( ثُمّ
يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً ) بيان لمظهر ثالث
من مظاهر قدرته - عز وجل - .والفعل " يهيج " مأخوذ من الهيْج بمعنى اليُبْس
والجفَاف . يقال : هاج النبات هَيْجاً وهِيَاجا ، إذا يبس واصفر . أو مأخوذ
من الهيج بمعنى شدة الحركة . يقال : هاج الشئ يهيج ، إذا ثار لمشقة أو ضرر
ثم يعقب ذلك الهيجان الجفاف واليبس .أى : ثم يصاب هذا الزرع المختلف ،
الألوان بالجفاف والضمور ، فتراه مصفرا من بعد اخضراره ونضارته ، ثم
يجعله - سبحانه - ( حُطَاماً ) أى : فتاتا متكسرا . يقال : حَطِمَ الشئ
حطَما - من باب تعب - إذا تكسر وتفتت وتحطم .( إِنَّ فِي ذَلِكَ ) الذى
ذكرناه من إنزال الماء من السماء ، ومن سلكه ينابيع فى الأرض ، ومن إخراج
: النبات المختلف الألوان بسببه ( لذكرى ) عظيمة ( لأُوْلِي الألباب ) .أى
لأصحاب العقول السليمة ، والأفكار القويمة .والمقصود من هذه الآية الكريمة
التحذير من الإنهماك فى الحياة الدنيا ومتعها ، حيث شبهها - سبحانه - فى ،
سرعة زوالها وقرب اضمحلالها - بالزرع الذى يبدو مخضرا وناضراً . . . ثم
، يعقب ذلك الجفاف والذبول والاضمحلال .وفى هذا المعنى وردت آيات كثيرة
منها قوله - تعالى - : ( واضرب لَهُم مّثَلَ الحياة الدنيا كَمَآءٍ
أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السماء فاختلط بِهِ نَبَاتُ الأرض فَأَصْبَحَ هَشِيماً

تَذْرُوهُ الرياح وَكَانَ الله على كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِراً ).

افمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله اولئك في ضلال مبين

كما فسرها الوسيط ثم نفى - سبحانه - المساواة بين المؤمن والكافر ، وبين المهتدى والضال فقال : ( أَفَمَن شَرَحَ الله صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ فَهُوَ على نُورٍ مِّن رَّبِّهِ . . ) .أى : أفمن شرح الله - تعالى - صدره للإسلام ، وجعله مستعدا لقبول الحق فهو بمقتضى هذا الشرح والقبول صار على نور وهداية من ربه ، كمن قسا قلبه وغلظ ، وأصبح أسيرا للظلمات والأوهام " لاشك أنهما لا يستويان فى عقل أى عاقل .فالاستفهام للإنكار والنفى ، و من " اسم موصول مبتدأ ، والخبر محذوف لدلالة قوله - تعالى - ( فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّن ذِكْرِ الله ) عليه .أى : فهلاك وخزى لأولئك المشركين الذين قست قلوبهم من أجل ذكر الله - تعالى - ، الذى من شأنه أن تلين له القلوب ، ولكن هؤلاء الكافرين إذا ما ذكر الله - تعالى - ، اشمأزت قلوبهم ، وقست نفوسهم ، لانطماس بصائرهم ، واستحواذ الشيطان عليهم ومنهم من جعل " من " فى قوله ( مِّن ذِكْرِ الله ) بمعنى عن . أى : فويل للقاسية قلوبهم عن قبول ذكر الله وطاعته وخشيته .قال صاحب الكشاف : قوله : أى : من أجل ذكره ، أى : إذا ذكر الله عندهم أو آياته ( مِّن ذِكْرِ الله ) اشمأزوا ، وازدادت قلوبهم قساوة ، كقوله - تعالى - : ( فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إلى رِجْسِهِمْ ) وقرئ : عن ذكر الله .فإن قلت : ما الفرق بين من وعن فى هذا؟ قلت : إذا قلت قسا قلبه من ذكر الله ، فالمعنى ما ذكرت ، من أن القسوة من أجل الذكر وبسببه . وإذا قلت : عن ذكر الله ، فالمعنى : غلظ عن قبول الذكر وجفا عنه . ونظيره : سقاه من العَيْمة . أى : من أجل عطشه وسقاه عن العيمة ، إذا أرواه حتى أبعده عن العطش .ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة ببيان مآل هؤلاء الذين قست قلوبهم فقال : ( أولئك فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ) .أى : أولئك المتصفون بتلك الصفات الذميمة فى ضلال واضح عن الصراط المستقيم .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( فَمَن يُرِدِ الله أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السمآء كذلك يَجْعَلُ الله الرجس عَلَى الذين لاَ يُؤْمِنُونَ ).

الله نزل احسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد

كما فسرها الوسيط ثم مدح - سبحانه - كتابه مدحا يليق به ، وبين حال المؤمنين الصادقين عند سماعه ، وسلى نبيه صلى الله عليه وسلم عما أصابه من أعدائه . فقال - تعالى - : ( الله نَزَّلَ أَحْسَنَ الحديث كِتَاباً . . . ) قوله - تعالى - : " مثانى " جمع مثنى من التثنية بمعنى التكرار والإعادة. ولذا سميت سورة الفاتحة بالسبع المثانى ، لأنها تكرر وتعاد مع كل صلاة .أى : الله - تعالى - نزل بفضله ورحمته عليك - يا محمد - أحسن الحديث : ( كِتَاباً مُّتَشَابِهاً ) أى : يشبه بعضه بعضا فى فصاحته وبلاغته ، وفى نظمه وإعجازه ، وفى صحة معانيه وأحكامه ، وفى صدقه وهداياته وإرشاداته إلى ما يسعد الناس فى دنياهم وآخرتهم . . ." مثانى " أى : تثنى وتكرر فيه القصص والمواعظ ، والأمثال والأحكام والوعد والوعيد ، كما تثنى وتكرر قراءاته فلا تمل على كثرة الترداد ، وإنما يزداد المؤمنون حبا وتعلقا بتلاوته كلما أكثروا من هذه التلاوة .وسمى - سبحانه - كتابه حديثا ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم كان يحدث به قومه ، ويخبرهم بما كان ينزل عليه منه . فلفظ الحديث هنا بمعنى المحدث به لا بمعنى كونه مقابلا للقديم .ولفظ ( كتابا ) بدل من قوله ( أَحْسَنَ الحديث ) وقوله : ( مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ ) صفتان للكتاب .ووصف بهما وهو مفرد وكلمة ( مثانى ) جمع ، باعتبار اشتماله على الكثير من السور والآيات والقصص والمواعظ والأحكام .أى - الله - تعالى - أنزل أحسن الحديث كتابا مشتملا على السور والآيات والمواعظ . . . التى يشبه بعضها فى الإعجاز . . والتى تثنى وتكرر فلا تمل على كثرة التكرار . .ورحم الله : " صاحب الكشاف فقد أجاد عند تفسيره لهذه الآية فقال له ما ملخصه : وإيقاع اسم مبتدأ ، وبناء ( نزل ) عليه ، فيه تفخيم لأحسن الحديث ورفع منه واستشهاد على حسنه ، وتأكيد لاستناده إلى الله ، وأنه من عنده ، وأن مثله ، لا يجوز أن يصدر إلا عنه ، وتنبيه على أنه وحى معجز مباين لسائر الأحاديث. فإن قلت : كيف وصف الواحد بالجمع؟ قلت : إنما صح ذلك لأن الكتاب جملة ذات تفاصيل ، وتفاصيل الشئ هى جملته لا غير ، ألا تراك تقول : القرآن سور وآيات كما تقول الإنسان عظام وعروق ، فإن قلت : ما فائدة التثنية . . . والتكرير؟ قلت : النفوس أنفر شئ عن حديث الوعظ والنصيحة ، فما لم يكرر عليها عودا عن بدء لم يرسخ فيها ، ولم يعمل عمله ، ومن ثم كانت عادة رسول

، الله صلى الله عليه وسلم أن يكرر عليهم ما كان يعظ به وينصح ثلاث مرات
) : - ليركزه فى قلوبهم ، كى يغرسه فى صدورهم . . .وقوله - تعالى
تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الذين يَخْشَوْنَ رَبّهُمْ ثُمّ تَلِينُ
جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إلى ذِكْرِ الله . . . ) .استئناف مسوق لبيان
آثار هذا القرآن الكريم فى نفوس قارئيه وسامعيه بعد بيان أوصافه فى ذاته
وقوله " تقشعر " من الاقشعرار ، وهو الانقباض الشديد للبدن . يقال : اقشعر.
جسد فلان ، إذا انقبض جلده واهتز . . . وهو هنا كناية عن الخوف الشديد من
الله - تعالى - .أى : أن هذا الكتاب العظيم عندما يقرؤه أو يسمعه المؤمنون
الصادقون الذين يخشون ربهم تقشعر جلودهم من شدة ما اشتمل عليه من زواجر
ونذر . ثم تلين جلودهم وقلوبهم إذا ما قرأوا أو استمعوا إلى آيات الرحمة
والمغفرة .قال الجمل : " فإن قلت : لم ذكرت الجلود وحدها أولا ثم قرنت
القلوب بها ثانيا؟ .قلت : ذكر الخشية التى تحملها القلوب مستلزم لذكر
القلوب ، فكأنه قيل : تقشعر جلودهم وتخشى قلوبهم فى أول الأمر ، فإذا ذكروا
، الله - تعالى - وذكروا رحمته وسعتها ، استبدلوا بالخشية رجاء فى قلوبهم
وبالقشعريرة لينا فى جلودهم . .والخلاصة أن من صفات هؤلاء المؤمنين
الصادقين ، أنهم يجمعون عند قراءتهم أو سماعهم للقرآن الكريم بين الخوف
والرجاء ، الخوف من عذاب الله - تعالى - والرجاء فى رحمته ومغفرته ، إذ أن
إقشعرار الجلود كناية عن الخوف الشديد ، ولين الجلود والقلوب كناية عن
السرور والارتياح ، وعدى الفعل " تلين " بإلى لتضمينه معنى تسكن وتطمئن
ومفعول (ذِكْرِ اللّه ) محذوف للعلم به ، أى : ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى.
ذكر الله رحمته وثوابه وجنته .قال ابن كثير ما ملخصه : هؤلاء المؤمنون
يخالفون غيرهم من وجوه :أحدها : أن سماع هؤلاء تلاوة الآيات ، وسماع أولئك
نغمات الأبيات .الثانى : أنهم إذا تليت عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا
بأدب وخشية ورجاء ومحبة وفهم وعلم ، ولم يكونوا - كغيرهم - متشاغلين ،
لاهين عنها .الثالث : أنهم يلزمون الأدب عند سماعها . . . ولم يكونوا
يتصارخون ويتكلفون ما ليس فيهم .قال قتادة عند قراءة لهذه الآية : هذا نعت
أولياء الله ، نعتهم الله بأنهم تقشعر جلودهم وتبكى أعينهم ، وتطمئن قلوبهم
إلى ذكر اللّه ، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم ، والغشيان عليهم ، إنما هذا فى
) : - أهل البدع ، وهذا من الشيطان . . .واسم الإشارة فى قوله - تعالى
ذَلِكَ هُدَى الله يَهْدِي بِهِ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ الله فَمَا
لَهُ مِنْ هَادٍ ) يعود إلى الكتاب الذى مرت أوصافه ، وأوصاف القارئين له
والمستمعين إليه .أى : ذلك الكتاب العظيم المشتمل على أحسن الإرشادات
وأحكمها ، هدى الله الذى يهدى بسببه من يشاء من عباده إلى الصراط المستقيم
ومن يضلله - سبحانه - عن طريق الحق ، فماله من هاد يهديه إلى هذا الطريق ،
القويم .

افمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون

، كما فسرها الوسيط ثم نفى - سبحانه - المساواة بين هؤلاء الذين يخشون ربهم
) : - وبين غيرهم ممن قست قلوبهم ، وانحرفت نفوسهم عن الحق ، فقال - تعالى
أَفَمَن يَتّقِي بِوَجْهِهِ سواء العذاب يَوْمَ القيامة وَقِيلَ
لِلظَّالِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ) .والاستفهام : للنفى
والإنكار ، و " من " اسم موصول مبتدأ ، والخبر محذوف .أى : أفمن كان يوم
القيامة مصيره إلى النار التى يتقيها ويحاول درأها عن نفسه بوجهه الذى هو
أشرف أعضائه ، كمن يأتى يوم القيامة آمنا مطمئنا بعيدا عن النار
وسعيرها؟وفى الآية الكريمة ما فيها من تهويل عذاب يوم القيامة ، إذ جرت
عادة الإنسان أن يتقى الآلام بيديه وجوارحه ، فإذا ما اتقاها بوجهه الذى
هو أشرف أعضائه ، كان ذلك دليلا على أن ما نزل به فى نهاية الفظاعة والشدة
، وفى قوله - تعالى - : ( سواء العذاب ) مبالغة أخرى ، إذ نفس العذاب سوء.
فإذا ما وصف بعد ذلك بالسوء ، كان أشد فى الفظاعة والإهانة والألم .وجملة
عطف على من " يتقى . . . " أى : هذا هو ( . . . وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ) :
مصير الظالمين ، إنهم يتقون النار بوجوههم التى هى أشرف أعضائهم ، وهذا
الاتقاء لن يفيدهم شيئا ، بل ستغشاهم النار بلهبها ، ويقال لهم : ذوقوا
العذاب الأليم بسبب ما كنتم تكسبون فى الدنيا من أقوال باطلة ، وأفعال
قبيحة .

كذب الذين من قبلهم فاتاهم العذاب من حيث لا يشعرون

) كما فسرها الوسيط ( كَذّبَ الذين مِن قَبْلِهِمْ ) من أمم الكفر والضلال
فَأَتَاهُمُ العذاب ) المقدر لكل أمة من أمم الكفر .( مِنْ حَيْثُ لاَ
يَشْعُرُونَ ) أى : من جهة التى لا تخطر لهم على بال ، أن العذاب يأتيهم
منها ، فيكون وقعه عليهم أشد وأفظع .

فاذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الاخرة اكبر لو كانوا يعلمون

كما فسرها الوسيط ( فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ) أى : العذاب الذى يذلهم ويخزيهم فى الحياة الدنيا ( وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ ) المعد لهم ( أَكْبَرُ ) كيفا وكمّا ( لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ) أى : لو كانوا من أهل العلم والفهم لما ارتكبوا ما ارتكبوا من كفر وفسوق وعصيان ، أدى بهم إلى العذاب المهين .

ولقد ضربنا للناس في هذا القران من كل مثل لعلهم يتذكرون

كما فسرها الوسيط ثم كرر - سبحانه - مدحه للقرآن الكريم ، بأن بين أنه مشتمل على كل مثل نافع للناس ، وأنه لا لبس فيه ولا اختلاف ، وساق مثلا للمشرك الذى يعبد آلهة كثيرة ، وللمؤمن الذى يبعد إلها واحدا ، وبين أن جميع الناس سيعمهم الموت . وأنهم جميعا سيرجعون إلى الله للحساب ، فقال - تعالى - :( وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ . . . ) .اللام فى قوله - تعالى - : (وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ . . . ) موطئة للقسم .أى والله لقد ضربنا وكررنا بأساليب متنوعة فى هذا القرآن العظيم ، من كل مثل : يحتاج إليه الناس فى أمورهم وشئونهم ، وينتفعون به فى دنياهم ودينهم وقوله - تعالى - : ( لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ) تعليل لضرب المثل . أى. فعلنا ذلك فى كتابنا الذى هو أحسن الحديث ، كى يتعظوا ويتذكروا ما أمرناهم به ، أو نهيناهم عنه .فلعل هنا بمعنى كى التعليلية ، وهذا التعليل إنما هو بالنسبة إلى غيره - تعالى - .

قرانا عربيا غير ذي عوج لعلهم يتقون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ . . . ) ثناء آخر منه - تعالى - على كتابه الكريم .والجملة الكريمة حال مؤكدة من قوله قبل ذلك : ( هذا القرآن . . . )أى : هذا القرآن قرآنا عربيا لا لبس فيه ولا اختلاف ولا اضطراب ولا تناقض .قال صاحب الكشاف : قوله حال مؤكدة كقولك : جاءنى زيد رجلا صالحا ، وإنسانا ( قُرْآناً عَرَبِيّاً ) عاقلا . ويجوز أن ينتصب على المدح ( غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ) أى : مستقيما بريئا من التناقض والاختلاف .فإن قلت : فهلا قيل مستقيما ، أو غير معوج؟ قلت : فيه فائدتان :إحداهما : نفى أن يكون فيه عوج قط ، كما قال : ( وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا ) والثانية : أن لفظ العوج مختص بالمعانى دون الأعيان . . . وقيل : المراد بالعوج : الشك واللبس ، وأنشد :وقد أتاك غير ذى عوج ... من الإله وقول غير مكذوبوقوله : ( لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ) علة أخرى لاشتمال القرآن على الامتثال المتكررة المتنوعة .أى : كررنا الأمثال النافعة فى هذا القرآن للناس ، كى يتقوا الله - تعالى - ويخشوا عقابه .

ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا الحمد لله بل اكثرهم لا يعلمون

، كما فسرها الوسيط ثم ضرب - سبحانه - مثلا للعبد المشرك وللعبد المؤمن فقال : ( ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ . . . )وقوله ( مَثَلاً ) مفعول ثان لضرب ، و مفعوله الأول . وأخر عن المفعول الثانى للتشويق إليه ، وليتصل ( رَّجُلاً ) به ما هو من تتمته ، وهو التمثيل لحال الكافر والمؤمن .وقوله : ( مُتَشَاكِسُونَ ) من الشاكس بمعنى التنازع والتخاصم وسوء الخلق ، يقال - رجل شَكْس وشكِس - بفتح الشين مع إسكان الكاف أو كسرها وفعله من باب كرم إذا كان صعب الطباع ، عسر الخلق .وقوله " سلما " بفتح السين واللام - مصدر وصف به على سبيل المبالغة .وقرأ ابن كثير وأبو عمرو : " سالما " أى خالصا لسيده دون أن ينازعه فيه منازع .والمعنى : إن مثل المشرك الذى يعبد آلهة متعددة ، كمثل عبد مملوك لجماعة متشاكسين متنازعين لسوء أخلاقهم وطباعهم ، وهذا العبد موزع وممزق بينهم ، لأن أحدهم يطلب منه شيئا معينا ، والثانى يطلب منه شيئا يباين ما طلبه الأول ، والثالث يطلب منه ما يتناقض مع ما طلبه الأول والثانى . . . وهو حائر بينهم جميعا ، لا يدرى أو يطيع ما أمره به الأول أم الثانى أم الثالث .. . ؟ لأنه لا يملك أن يطيع أهواءهم المتنازعة التى تمزق أفكاره وقواه .هذا هو مثل المشرك فى حيرته وضلاله وانتكاس حاله .أما مثل المؤمن فهو كمثل عبد مملوك لسيد واحد ، وخالص لفرد واحد ، وليس لغيره من سبيل إليه ، فهو يخدم سيده بإخلاص وطاعة ، لأنه يعرف ماله وما عليه ، وفى راحة تامة من الحيرة والمتاعب التى انغمس فيها ذلك العبد الذى يملكه الشركاء المتشاكسون .فالمقصود بهذين المثلين بيان ما عليه العبد المشرك من ضلال وتحير وتمزق ، وما عليه العبد المؤمن من هداية

واستقرار واطمئنان .واختار - سبحانه - الرجل لضرب المثلين ، لأنه أتم معرفة
- من غيره لما تعبه ولما يريحه ولما يسعده ولما يشقيه .قال صاحب الكشاف
رحمه الله - عند تفسيره لهذه الآية : واضرب - يا محمد 0 لقومك مثلا وقل لهم
ما تقولون فى رجل من المماليك قد اشترك فيه شركاء ، بينهم اختلاف وتنازع :
، كل واحد منهم يدعى أنه عبده ، فهم يتجاذبونه ، ويتعاورونه فى مهن شتى .
، وإذا عنت له حاجة تدافعوه ، فهو متحير فى أمره ، قد تشعبت الهموم قلبه
وتوزعت أفكاره ، لا يدرى أيهم يرضى بخدمته ، وعلى أيهم يعتمد فى حاجاته
وفى آخر : قد سلم لمالك واحد وخلص له ، فهو معتنق لما لزمه من خدمته معتمد.
عليه فيما يصلحه ، فهمه واحد ، وقلبه مجتمع ، أى هذين العبدين أحسن وأجمل
شأنا؟والمراد تمثيل حال من يثبت آلهة شتى . . . ويبقى متحيرا ضائعا لا يدرى
، - أيهم يعبد ، وممن يطلب رزقه؟ فَهمّهُ شَعَاع - بفتح الشين أى : متفرق
وقلبه أوزاع ، وحال من لم يثبت إلا إلها واحدا ، فهو قائم بما كلفه ، عرف
بما أرضاه وما أسخطه ، متفضل عليه فى عاجله ، مؤمل للثواب فى آجله
والاستفهام فى قوله - تعالى - : ( هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ) للإنكار.
والاستبعاد .أى : لا يستوى الرجل الذي فيه شركاء متشاكسون ، والرجل الذى
سلم لرجل آخر ، فى رأى أى ناظر ، وفى عقل أى عاقل ، فالأول فى حيرة من أمره
والثانى على بينة من شأنه .وساق - سبحانه - هذا المعنى فى صورة الاستفهام ،
للإشعار بأن ذلك من الجلاء والوضوح بحيث لا يخفى على كل ذى عقل سليم ،
وانتصب لفظ " مثلا " على التمييز المحول عن الفاعل ، لأن الأصل هل يستوى.
مثلهما وحالهما؟وجملة ( الحمد للَّهِ ) تقرير وتأكيد لما قبلها من نفى
الاستواء واستعباده ، وتصريح بأن ما عليه المؤمنون من إخلاص فى العبودية
لله - تعالى - يستحق منهم كل شكر وثناء على الله - عز وجل - حيث وفقهم لذلك
وقوله - تعالى - : ( بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ) إضراب وانتقال.
من بيان عدم الاستواء على الوجه المذكور ، إلى بيان أن أكثر الناس وهم
، المشركون لا يعلمون هذه الحقيقة مع ظهورها ووضوحها لكل ذى عينين يبصرهما
. وعقل يعقل به

انك ميت وانهم ميتون

كما فسرها الوسيط ثم أخبر - سبحانه - رسوله صلى الله عليه وسلم بأن الموت
سينزل به كما سينزل بأعدائه الذين يتربصون به ريب المنون ، ولكن فى الوقت
الذى يشاؤه الله - تعالى - فقال - : ( إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ
مَّيِّتُونَ ) .أى : إنك - أيها الرسول الكريم - سيلحقك الموت ، كما أنه
سيلحق هؤلاء المشركين لا محالة ، وما دام الأمر كذلك فأى موجب لتعجل الموت
الذى يعم الخلق جميعا .وجاء الحديث عن حلول الموت به صلى الله عليه وسلم
وبأعدائه ، بأسلوب التأكيد ، للإيذان بأنه لا معنى لاستبطائهم لموته صلى
، الله عليه وسلم ولا للشماتة به صلى الله عليه وسلم إذا ما نزل به الموت
. إذ لا يشمت الفانى فى الفانى مثله

ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما يكون بينه وبينهم يوم القيامة فقال؛
: أى. ( ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القيامة عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ )
ثم إنكم جميعا يوم القيامة عند ربكم وخالقكم تختصمون وتحتكمون ، فتقيم
عليهم - أيها الرسول الكريم - الحجة ، بأنك قد بلغت الرسالة ، وهم يعتذرون
بالأباطيل والتعليلات الكاذبة ، والأقوال الفاسدة ، وسينتقم ربك من الظالم
للمظلوم ، ومن المبطل للمحق .هذا ، وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره
- لهذه الآية ، جملة من الأحاديث والآثار فقال ما ملخصه : ثم إن هذه الآية
وإن كان سياقها فى المؤمنين والكافرين ، وذكر الخصومة بينهم فى الدار
الآخرة - فإنها شاملة لكل متنازعين فى الدنيا ، فإنه تعاد عيهم الخصومة فى
الدار الآخرة .روى ابن أبى حاتم عن الزبير بن العوام - رضى الله عنه - قال
لما نزلت هذه الآية قلت : يا رسول الله أتكرر علينا الخصومة؟ قال : نعم " :
: قلت : إن الأمر إذا لشديد " .وروى الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى قال .
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ " والذى نفسى بيده إنه ليختصم حتى
، الشاتان فيما انتطحتا " .وقال ابن عباس : يخاصم الصادقُ الكاذبَ
. والمظلومُ الظالمَ ، والمهدىُّ الضالّ ، والضعيفُ المُسْتَكْبِرَ

فمن اظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق اذ جاءه اليس في جهنم مثوى للكافرين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أنه لا أحد أشد ظلما ممن كذب على
الله - تعالى - وكذب بالصدق إذ جاءه ، وأن من صفات المتقين أنهم يؤمنون
- بالحق ، ويدافعون عنه ، وأنه - سبحانه - سيكفر عنهم سيئاتهم . . . فقال
تعالى - :(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّه . . . ) .الفاء فى
قوله - تعالى - : ( فَمَنْ أَظْلَمُ مِمّن كَذَبَ عَلَى الله . . . )

لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، والاستفهام للإنكار والنفى .أى ما دام
، الأمر كما ذكرنا لك - أيها الرسول الكريم - من أنك ستموت وهم سيموتون
وأنكم جميعا ستقفون أمام ربكم للحساب والجزاء . . فلا أحد أشد ظلما من
، هؤلاء المشركين الذين كذبوا على الله ، بأن عبدوا من دونه آلهة أخرى
ونسبوا إليه الشريك أو الولد ، ولم يكتفوا بكل ذلك ، بل كذبوا بالأمر الصدق
وقت أن جئتهم به من عند ربك .والتعبير بقوله : ( وَكَذَّبَ بالصدق إِذْ
جَآءَهُ ) يدل على أنهم بادروا بتكذيب ما جاءهم به الرسول صلى الله عليه
وسلم من عند ربه ، بمجرد أن سمعوه ، ودون أن يتدبروه أو يفكروا فيه
وتكذيبهم بالصدق ، يشمل تكذيبهم للقرآن الكريم ، ولكل ما جاءهم به الرسول.
صلى الله عليه وسلم .والاستفهام فى قوله - تعالى - : ( أَلَيْسَ فِي
جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ) للتقرير .والمثوى : المكان مأخوذ من
، قولهم ثوى فلان بمكان كذا ، إذا أقام به . يقال : ثَوَى يثوى ثواء
كمضَى يمضِى مَضَاء . .أى : أليس فى جهنم مكانا يكفى لإهانة الكافرين
. وإذلالهم وتعذيبهم؟ بل إن فيها لمكانا يذلهم ويذوقون فيه سوء العذاب

والذي جاء بالصدق وصدق به اولئك هم المتقون

: كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة أهل الصدق والإيمان فقال
والمراد بالذى. ( والذي جَآءَ بالصدق وَصَدَّقَ بِهِ أولئك هُمُ المتقون )
جاء بالصدق : رسول الله صلى الله عليه وسلم والمراد بالذى صدق به : ما يشمل
الرسول صلى الله عليه وسلم ويشمل كل من آمن به واتبعه فيما جاء به ، كأبى
) : - بكر الصديق وغيره من الصحابة .قال الآلوسى ما ملخصه : قوله - تعالى
والذي جَآءَ بالصدق وَصَدَّقَ بِهِ ) الموصول عبارة عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم كما أخرجه ابن جرير وغيره عن ابن عباس . . . والمؤمنون داخلون
. بدلالة السياق وحكم التبعية ، دخول الجند فى قولك : نزل الأمير موضع كذا
والجمع فى قوله - تعالى - : ( أولئك هُمُ المتقون ) باعتبار دخول الأتباع.
. تباعا : ومراتب التقوى متفاوتة ، ولرسول الله صلى الله عليه وسلم أعلاها
. .

لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين

) كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما أعده لهؤلاء المتقين من نعيم فقال
لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ . . . ) .أى : لهؤلاء المتقين كل ما
يشاءونه عند ربهم ومالك أمرهم ، بسبب تصديقهم للحق ، واتباعهم لما جاءهم به
رسولهم صلى الله عليه وسلم .وفى قوله : ( عِندَ رَبِّهِمْ ) تكريم وتشريف
لهم .وقوله : ( ذَلِكَ جَزَآءُ المحسنين ) أى : ذلك الذى ذكرناه من حصولهم
. على ما يشتهونه جزاء من أحسنوا فى أقوالهم وأفعالهم

ليكفر الله عنهم اسوا الذي عملوا ويجزيهم اجرهم باحسن الذي كانوا يعملون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - جانبا من مظاهر تكريمه لهم ، ورحمته
بهم فقال : ( لِيُكَفِّرَ الله عَنْهُمْ أَسْوَأَ الذي عَمِلُواْ
وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الذي كَانُواْ يَعْمَلُونَ ) .واللام
فى قوله : ( لِيُكَفِّرَ . . . ) متعلقة بمحذوف ، أى أعطاهم - سبحانه - ما
أعطاهم من فضله ورحمته ليكفر عنهم أسوأ الذنوب التى عملوها ، كالكفر قبل
- الإسلام ، بأن يغفر لهم ذلك ولا يؤاخذهم عليه .وإذا غفر الله - تعالى
لهؤلاء المتقين أسوأ أعمالهم ، غفر لهم - بفضله ورحمته ما هو دونه بالطريق
) الأولى ( وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ ) أى : ويعطيهم ثواب أعمالهم
بِأَحْسَنِ الذي كَانُواْ يَعْمَلُونَ ) أى : يعطيهم فى مقابل عملهم الصالح
فى الدنيا جنات فيها ما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .على
- هذا التفسير يكون قوله - تعالى - : أسوأ وأحسن ، أفعل تفضيل حيث كفر
سبحانه - عنهم أسوأ أعمالهم ، وكافأهم على أعمالهم بما هو أحسن منها وهو
الجنة .وهذا منتهى الفضل والإحسان من الله - تعالى - لعباده المتقين ، حيث
، عاملهم بالفضل ولم يعاملهم بالعدل .ومنهم من يرى أن قوله : أسوأ وأحسن
بمعنى السيئ والحسن ، فيكون أفعل التفضيل ليس على بابه ، وإلى هذا المعنى
أشار صاحب الكشاف بقوله : ما معنى إضافة الأسوأ والأحسن إلى الذى عملوا؟
وما معنى التفضيل فيهما؟ .قلت : أما الإضافة فما هى من إضافة أفعل إلى
الجملة التى يفضل عليها ، ولكن من إضافة الشئ إلى ما هو بعضه من غير تفضيل
كقولك : الأشج أعدل بنى مروان .وأما التفضيل فإيذان بأن السيئ الذى يفرط .
، منهم من الصغائر والزلات المكفرة ، هو عندهم الأسوأ لاستعاظامهم المعصية
والحسن الذى يعملونه هو عند الله الأحسن؛ لحسن إخلاصهم فيه ، فلذلك ذكر
. سيئهم بالأسوأ ، وحسنهم بالأحسن

اليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه ومن يضلل الله فما له من هاد

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - عصمته لنبيه صلى الله عليه وسلم بأبلغ
وجه وأتمه فقال ( أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ
مِن دُونِهِ ) .وقراءة الجمهور : ( عبده ) بالإفراد وقرأ حمزة والكسائى
والاستفهام للتقرير .قال القرطبى : وذلك أنهم خوفوا النبى صلى ( عباده )
الله عليه وسلم مضرة الأوثان فقالوا له : أتسب آلهتنا لئن لم تنته عن ذكرها
لتصيبنك بالسوء .وقال قتادة : مشى خالد بن الوليد إلى العزى ليكسرها بالفأس
. فقال له سادتها : احذرك منها يا خالد ، فإن لها شدة لا يقوم لها شئ ،
فعمد خالد إلى العزى فهشم أنفها حتى كسرها ، وتخويفهم لخالد تخويف للنبى
صلى الله عليه وسلم لأنه هو الذى أرسله . ويدخل فى الآية تخويفهم النبى صلى
الله عليه وسلم بكثرة جميعهم وقوتهم . .والمعنى : أليس الله - تعالى - بكاف
عبده محمدا صلى الله عليه وسلم من كل سوء؟ وكاف عباده المؤمنين الصادقين من
، أعدائهم؟ بلى إنه - سبحانه - لعاصم نبيه صلى الله عليه وسلم من أعدائه
- ولناصر عباده المتقين على من ناوأهم .والحال أن هؤلاء المشركين يخوفونك
أيها الرسول الكريم - من أصنامهم التى يعبدونها من دونه - تعالى - ، مع أن
هذه الآلهة الباطلة أتفه من أن تدافع عن نفسها فضلا عن غيرها .( وَمَن
يُضْلِلِ اللَّهُ ) أى : من يضلله الله - تعالى - ( فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ )
. يهديه إلى الصراط المستقيم

ومن يهد الله فما له من مضل اليس الله بعزيز ذي انتقام

كما فسرها الوسيط ( وَمَن يَهْدِ اللَّهُ ) أى : ومن يهده الله - تعالى - إلى
طريق الحق والصواب .( فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ ) أى : فما له من أحد كائنا
- من كان يستطيع إضلاله .( أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتقام ) بلى إنه
سبحانه - لعزيز لا يغلبه غالب ، ولا يمانعه مانع ، ولا ينازعه منازع . ولذو
. انتقام شديد من أعدائه ، ولا يستطيع أحد أن يمنع انتقامه منهم

ولئن سالتهم من خلق السماوات والارض ليقولن الله قل افرايتم ما تدعون من
دون الله ان ارادني الله بضر هل هن كاشفات ضره او ارادني برحمة هل هن
ممسكات رحمته قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - ما كان عليه هؤلاء المشركون من تناقض
بين أقوالهم وأفعالهم . وأمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يهديهم بسوء
المصير إذا ما استمروا على كفرهم . . . فقال - تعالى - :( وَلَئِن
سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السماوات . . . ) .المعنى : ولئن سألت - أيها
الرسول الكريم - هؤلاء المشركين : من الذى خلق هذه السموات التى ترونها
بأعينكم ، وخلق هذه الأرض التى فوقها تعيشون . .لئن سألتهم هذا السؤال ، لا
يملكون فى الإجابة عليه إلا إن يقولوا : خلقهم الله ، فلفظ الله فاعل لفعل
محذوف .وقولهم هذا دليل واضح على تناقضهم مع أنفسهم . لأنهم يعترفون بأن
الخالق هو الله ، ولكنهم يشركون معه فى العبادة آلهة أخرى لا تنفع ولا تضر
ولذا أمر الله - تعالى - نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم مبكتا .
وموبخا : ( قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ
أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي
بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ) ؟أى : قل - أيها الرسول
الكريم - لهؤلاء الجاهلين : إذا كان الأمر كما ذكرتم من أن الخالق لهذا
- الكون هو الله ، فأخبرونى عن هذه الآلهة التى تعبدونها من دونه - سبحانه
أتستطيع أن تدفع ضرا أراده الله - تعالى - بى؟ أم تستطيع أن تمنع رحمة أو :
خيرا أعطاه الله لى؟ كلا إنها لا تستطيع شيئا من ذلك ، وعبادتكم لها إنما
هى نوع من السفه والحماقة .وقال - سبحانه - : ( هَلْ هُنَّ . . . )
بالتأنيث على سبيل التحقير لتلك الآلهة المزعومة ، ولأنهم كانوا يسمونها
، بأسماء الإناث ، كاللات ، والعزى ، ومناة . إلخ .وقدم الضر لأن دفعه أهم
) : وعلق - سبحانه - إرادة الضر والرحمة بذاته صلى الله عليه وسلم فقال
إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ . . . ) ليرد عليهم ردا يخرس ألسنتهم ، حيث
خوفوه صلى الله عليه وسلم منها وزعموا أنه لو استمر فى تحقيرها فإنها
: ستؤذيه .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم فرض المسألة فى نفسه دونهم؟ قلت
لأنهم خوفوه مضرة الأوثان وتخبيلها ، فأمر بأن يقررهم - أولا - بأن خالق
العالم هو الله وحده ، ثم يقول لهم بعد التقرير : فإذا أرادنى خالق العالم
الذى أقررتم به بضر من مرض أو فقر أو غير ذلك من النوازل ، أو برحمة من صحة
أو غنى أو نحوهما . هل هؤلاء اللائى خوفتمونى إياهن كاشفات عنى ضره ، أو
ممسكات رحمته ، حتى إذا ألقمهم الحجر وقطعهم ، حتى لا يحيروا ببنت شفة قال
كافيا لمضرة أوثانكم ( عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ( حَسْبِيَ اللَّهُ ) :
المتوكلون ) وفيه تهكم .ويروى أنه صلى الله عليه وسلم سألهم فسكتوا ، فنزل
أى : قل - أيها الرسول الكريم - فى الرد عليهم( . . قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ) :
وفى السخرية من آلهتهم : الله - تعالى - الخالق لكل شئ ، كافينى فى جميع

أمورى ، وعاصمنى من كيدكم وكيد من تتوهمون كيده ، وعليه وحده لا على غيره
. يتوكل المتوكلون ، لعلمهم أن كل ما سواه تحت ملكوته وقدرته

قل يا قوم اعملوا على مكانتكم اني عامل فسوف تعلمون

كما فسرها الوسيط ثم أمره - سبحانه - مرة أخرى أن يتحداهم وأن يتهددهم فقال
: أى : وقل لهم للمرة الثالثة ( قُلْ ياقوم اعملوا على مَكَانَتِكُمْ ) :
اعملوا ما شئتم عمله من العداوة لى ، والتهديد بآلهتكم .والمكانة مصدر
مكن - ككرم - ، يقال : مكن فلان من الشئ مكانة ، إذا تمكن منه أبلغ تمكن
أى : اعملوا ما فى إمكانكم عمله معى . والأمر للتهديد والوعيد .( إِنِّي
عَامِلٌ ) أى : إنى سأقابل عملكم السيئ بعمل أحسن من جانبى ، وهو الدعوة
إلى وحدانية الله ، وإلى مكارم الأخلاق .( فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ )

من ياتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم

كما فسرها الوسيط من منا الذى ينجح فى عمله ، ومن منا يأتيه عذاب يخزيه
. ويفضحه ويهينه فى الدنيا ، ومن منا الذى يحل عليه عذاب مقيم فى الآخرة
فالمراد بالعذاب المخزى عذاب الدنيا ، والمراد بالعذاب المقيم عذاب الآخرة
ولقد تحقق ما توعدهم - سبحانه - به ، حيث أنزل عليهم عقابه فى بدر وفى
. غيرها فأخزاهم وهزمهم ، أما عذاب الآخرة فهو أشد وأبقى

انا انزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فانما يضل
عليها وما انت عليهم بوكيل

كما فسرها الوسيط ثم أخذت السورة الكريمة فى تسلية الرسول صلى الله عليه
وسلم عما أصابه منهم ، فقال - تعالى - : ( إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ
الكتاب لِلنَّاسِ بالحق . . . ) .أى : إنا أنزلنا عليك - أيها الرسول
الكريم - القرآن لأجل منفعة الناس ومصلحتهم ، وقد أنزلناه متلبسا بالحق
الذى لا يحوم حوله باطل .( فَمَنِ اهتدى ) إلى الصراط المستقيم ، وإلى الحق
المبين فهدايته تعود إلى نفسه ( وَمَن ضَلَّ ) عن الطريق المستقيم ، فإثم
) ضلاله . وإنما يعود على نفسه وحدها .( وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم ) يا محمد
بِوَكِيلٍ ) أى : بمكلف بهدايتهم ، وبإجبارهم على اتباعك ، وإنما أنت عليك
. البلاغ ، ونحن علينا الحساب

الله يتوفى الانفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها
الموت ويرسل الاخرى الى اجل مسمى ان في ذلك لايات لقوم يتفكرون

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - ما يدل على كمال قدرته ، ونفاذ مشيئته
: فقال - تعالى - : اللهُ يَتَوَفَّى الأنفس حِينَ مِوْتِهَا . . . ) .أى
الله - بقدرته وحدها يقبض أرواح مخلوقاته حين انتهاء آجالها بأن يقطع
تعلقها بالأجسام قطعا كليا ، ويسلب هذه الأجسام والأبدان ما به قوام حياتها
: - بأن تصير أجساما هامدة لا إدراك لها . ولا حركة فيها .وقوله - تعالى ،
معطوف على الأنفس ، أى : يسلب الحياة ( والتي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا )
عن الأنفس التى انتهى أجلها سلبا ظاهرا وباطنا ، ويسلب الحياة عنها سلبا
ظاهرا فقط فى حال نومها ، إذ أنها فى حالة النوم تشبه الموتى من حيث عدم
، التمييز والتصرف .فالآية الكريمة تشير إلى أن التوفى للأنفس أعم من الموت
إذ أن هناك وفاتين . وفاة كبرى وتكون عن طريق الموت ، ووفاة صغرى وتكون عن
. . . طريق النوم . كما قال - تعالى - ( وَهُوَ الذي يَتَوَفَّاكُم بالليل
أى : يجعلكم تنامون فيه نوما يشبه الموت فى انقطاع الإدراك والإحساس (
وقوله - تعالى - : ( فَيُمْسِكُ التي قضى عَلَيْهَا الموت وَيُرْسِلُ
الأخرى إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ) بيان لحالة الأنفس التى انتهى أجلها ، والتى
لم ينته أجلها بعد .أى : الله - تعالى - وحده هو الذى يتوفى الأنفس حين
- الموت ، وحين النوم ، أما الأنفس التى انتهى أجلها فيمسك - سبحانه
أرواحها إمساكا تاما بحيث لا تعود إلى أبدانها مرة أخرى ، وأما التى لم يحن
، وقت موتها ، فإن الله - تعالى - يعيدها إلى أبدانها عند اليقظة من نومها
وتستمر على هذه الحالة إلى أجل مسمى فى علمه - تعالى - فإذا ما انتهى أجلها
الذى حدده - سبحانه - لها ، خرجت تلك الأرواح من أبدانها خروجا تاما ، كما
، هو الشأن فى الحالة الأولى .ولا شك أن الله - تعالى - الذى قدر على ذلك
قادر أيضا - على إعادة الأرواح إلى أجسادها عند البعث والنشور يوم القيامة
، فالآية الكريمة مسوقة لبيان كما قدرة الله - تعالى - ولبيان أن البعث حق
وأنه يسير على قدرة الله التى لا يعجزها شئ .ولا منافاة بين هذه الآية التى
- صرحت بأن الله - تعالى - هو الذى يتوفى الأنفس عند موتها ، وبين قوله
) - تعالى - : ( قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الموت . . . ) وقوله - تعالى
حتى إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ الموت تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا . . . ) لأن

المتوفى فى الحقيقة هو الله - تعالى - وملك الموت إنما يقبض الأرواح بإذنه - سبحانه - ولملك الموت أعوان وجنود من الملائكة ينتزعون الأرواح بأمره المستمد من أمر الله - عز وجل - .قال القرطبى : " فإذا يقبض الله الروح فى حالين : فى حالة النوم وحالة الموت ، فما قبضه فى حال النوم فمعناه أنه يغمره بما يحبسه عن التصرف فكأنه شئ مقبوض . وما يقبضه فى حال الموت فهو يمسكه ولا يرسله إلى يوم القيامة .وفى الآية تنبيه على عظيم قدرته ، وانفراده بالألوهية ، وأنه يفعل ما يشاء ويحيى ويميت ، ولا يقدر على ذلك سواه .واسم الإشارة فى قوله : ( إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ) يعود إلى المذكور من التوفى والإمساك والإرسال أى : إن فى ذلك الذى ذكرناه لكم من قدرتنا على توفى الأنفس وإمساكها . وإرسالها ، لآيات بينات على وحدانيتنا وقدرتنا ، لقوم يحسنون التأمل والتفكير والتدبر ، فيما أرشدناهم إليه وأخبرناهم به .

ام اتخذوا من دون الله شفعاء قل اولو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون

كما فسرها الوسيط ثم نعى - سبحانه - على الكفار غفلتهم وعدم تفكرهم فقال : ( أَمِ اتخذوا مِن دُونِ الله شُفَعَآءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لاَ يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلاَ يَعْقِلُونَ ) .و " أم " هنا بمعنى بل والهمزة والاستفهام للإنكار ، والمراد بالشفعاء تلك الأصنام التى زعموا أنها ستشفع لهم يوم القيامة .والمعنى : لقد ترك هؤلاء المشركون التفكر والتدبر فى دلائل وحدانيته وقدرته - سبحانه - ولم يلتفتوا إلى ما ينفعهم ، بل اتخذوا الأصنام آلهة لينالوا بواسطتها الشفاعة عند الله .قل لهم - أيها الرسول الكريم - مرشدا ومنبها : أتفعلون ذلك ولو كانت هذه الآلهة لا تملك شيئا من أمرها ، ولا تعقل شيئا مما يتوجهون به إليها؟

قل لله الشفاعة جميعا له ملك السماوات والارض ثم اليه ترجعون

كما فسرها الوسيط ثم أمر - سبحانه - رسوله صلى الله عليه وسلم أن يبين لهم أن الله - تعالى - هو مالك الشفاعة كلها ، وأنه لن يستطيع أحد أن يشفع إلا بإذنه ، فقال : ( قُل لِلَّهِ الشفاعة جَمِيعاً .. . ) .أى : قل لهم الله - تعالى - هو المالك للشفاعة كلها ، وآلهتكم هذه لا تملك شيئا من ذلك بل أنتم وآلهتكم - أيها المشركون - ستكونون وقودا لنار جهنم .وهو ، سبحانه - : ( لَّهُ مُلْكُ السماوات والأرض ) ملكا تاما لا تصرف لأحد فى شئ منهما معه ، ولا شفاعة لأحد إلا بإذنه .( ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ) يوم القيامة فيحاسبكم على أعمالكم ، ويجازى الذين أساءوا بما عملوا ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

واذا ذكر الله وحده اشمازت قلوب الذين لا يؤمنون بالاخرة واذا ذكر الذين من دونه اذا هم يستبشرون

- كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أحوال هؤلاء المشركين ، عندما يذكر سبحانه - وحده دون أن تذكر معه آلهتهم ، كما بين أحوالهم السيئة يوم القيامة ، وكيف أنهم يندمون ولا ينفعهم الندم ، وكيف أنهم لو ملكوا فى هذا اليوم ما فى الأرض جميعا ومثله معه ، لقدموه فداء لأنفسهم من أهوال عذاب يوم القيامة . . فقال - تعالى - :( وَإِذَا ذُكِرَ الله وَحْدَهُ اشمأزت قوله - تعالى - : ( اشمأزت . . ) أى : نفرت وانقبضت وذعرت ، مأخوذ من الشَّمْزِ ، وهو نفور النفس مما تكرهه .قال الإمام الرازى : أعلم أن هذا نوع آخر من الأعمال القبيحة للمشركين وهو أنك إذا ذكرت الله وحده ظهرت آثار النفرة فى وجوههم وقلوبهم ، وإذا ذكرت الأنام والأوثان ظهرت آثار الفرح . . وذلك يدل على الجهل والحماقة ، لأن ذكرالله رأس السعادة وعنوان الخيرات ، وأما ذكر الأصنام فهو رأس الحماقات . .أى : إنك - أيها الرسول الكريم - إذا ذكرت الله - تعالى - وحده ، ونسبت إليه ما يليق به سبحانه - من وحدانيته وقدرته . . دون أن تذكر معه الأصنام اشمأزت وانقبضت وذعرت نفوس هؤلاء المشركين الجهلاء ، أما إذا ذكرت آلهتهم سواء أذكرت الله - تعالى - معها أم لم تذكره ، إذا هم يستبشرون ويبتهجون .والتعبير بالاشمئزاز والاستبشار ، يشعر بأنهم قد بلغوا الغاية فى الأمرين ، فهم عند ذكر الله - تعالى - تمتلئ قلوبهم إلى نهايتهم غما وهما وانقباضا وذعرا . وعند ذكر أصنامهم تمتلئ قلوبهم إلى نهايتها - أيضا - بهجة وسرورا حتى لتظهر آثار ذلك على بشرتهم . . .وحالهم هذا يدل على أنهم قد بلغوا الغاية - أيضا - فى الجهالة والسفاهة والغفلة . .وهذا الذى ذكرته الآية الكريمة من اشمئزاز الكافرين عند ذكر الله - تعالى - واستبشارهم عند ذكر غيره ، نرى ما يشبهه عند كثير من الناس . . .فكم من أناس إذا حدثتهم عن ذات الله - تعالى - وصفاته ، وعن سلامة دينه وتشريعاته ، وعن آداب قرآنه وهداياته ، وعن كل ما يتعلق بوجوب تنفيذ أوامره ونواهيه . . انقبضت نفوسهم ، واكفهرت

وجوههم ، وتمنوا لو أنك تركت الحديث عن ذلك .أما إذا سمعوا ما يتعلق بالتشريعات والنظم التى هى من صنع البشر - استبشرت نفوسهم ، وابتهجت أساريرهم .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( وَجَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وفي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي القرآن وَحْدَهُ وَلَّوْاْ على أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً ) وقال الآلوسى : وقد رأينا كثيرا من الناس على نحو هذه الصفة التى وصف الله - تعالى - بها المشركين ، يهشون لذكر أموات يستغيثون بهم ويطلبون منهم ، ويطربون من سماع حكايات كاذبة عنهم . . وينقبضون من ذكر الله - تعالى - وحده - ونسبة الاستقلال بالتصرف إليه - عز وجل - وسرد ما يدل على مزيد عظمته وجلاله . وينفرون ممن يفعل ذلك كل النفرة ، وينسبونه . . إلى ما يكره

قل اللهم فاطر السماوات والارض عالم الغيب والشهادة انت تحكم بين عبادك في ما كانوا فيه يختلفون

كما فسرها الوسيط ثم أمر الله - تعالى - نبيه صلى الله عليه وسلم أن يلتجئ - إلى خالقه وحده من شرور هؤلاء المشركين ، وأن يفوض أمره إليه ، فقال تعالى - ( قُلِ اللهم فَاطِرَ السماوات والأرض عَالِمَ الغيب والشهادة أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ) ولفظ : ( اللهم ) أصله يا الله . فلما استعمل دون حرف النداء . عوض عنه. بالميم المشددة التى فى آخره .ولفظ " فاطر ، عالم " منصوبان على النداء .أى قل - أيها الرسول الكريم - على سبيل الاستعاذة والاعتزال لما عليه هؤلاء : المشركون من جهل وسفه ، يا الله ، يا خالق السموات والأرض ويا عالم الغائب والمشاهد والخفى والظاهر من أمور خلقك ، أنت وحدك الذى تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون فى الدنيا ، فتجازى كل نفس بما تستحقه من ثواب أو عقاب وما دام الأمر كذلك ، فاهدنى إلى صراط المستقيم ، وجنبنى الشرك والمشركين. فالمقصود بالآية الكريمة تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم عما فعله. المشركون معه ، وإرشاده إلى ما يعصمه من كيدهم . وتعليم العباد وجوب الالتجاء إلى الله - تعالى - وحده - لدفع كيد أعدائه عنهم .وقد ساق الإملام ابن كثير عند تفسير لهذه الآية جملة من الأحاديث ، منها ما رواه الإمام مسلم فى صحيحه عن أبى مسلمة بن عبد الرحمن قال : سألت عائشة : بأى شئ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفتتح صلاته إذا قام من الليل؟ قالت : كان إذا قام من الليل افتتح صلاته بقوله : " اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض . عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، أهدنى لما اخْتُلِفَ فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم . . . " .وقال صاحب الكشاف : " بعل - بكسر العين - أى : دهش وفزع رسول الله صلى الله عليه وسلم من شدة شكيمتهم فى الكفر ، فقيل له : " ادع الله بأسمائه الحسنى ، وقل : أنت وحدك تقدر على الحكم بينى وبينهم ، ولا حيلة لغيرك فيهم " وفيه وصف حالهم ، وإعذار لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتسلية له ، ووعيد لهم . .

ولو ان للذين ظلموا ما في الارض جميعا ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون

كما فسرها الوسيط وبعد هذه التسلية من الله - تعالى - لنبيه صلى الله عليه وسلم بين - سبحانه - لهؤلاء الذين إذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوبهم . . بين لهم ما لهم من سوء المصير فقال : ( وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي الأرض جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْاْ بِهِ مِن سواء العذاب يَوْمَ القيامة . . ) .أى : أن العذاب المعد لهؤلاء المشركين شئ رهيب ، ولو أن لهم جميع ما أعد فى الأرض من خيرات ، ولهم - أيضا - مثل ذلك منضما إليه لقدموه فداء لأنفسهم ، ألما فى النجاة من سوء العذاب الذى ينتظرهم يوم القيامة .فالآية الكريمة وعيد لهم ليس بعده وعيد ، وتيئيس لهم من النجاة - ليس بعده تيئيس .ومن الآيات الكثيرة التى وردت فى هذا المعنى قوله تعالى - ( إِنَّ الذين كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَّا فِي الأرض جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُواْ بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ القيامة مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ النار وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ )ثم هددهم - سبحانه - بتهديد آخر فقال : ( وَبَدَا لَهُمْ مِّنَ الله مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ) .أى : وظهر لهم يوم القيامة من ألوان العقوبات ، ومن فنون الآلام ، ما لم يكونوا فى الدنيا يظنون أنه سيقع بهم ، وما لم يكن واردا فى حسبانهم .قال صاحب الكشاف : وقوله - تعالى - ( وَبَدَا لَهُمْ مِّنَ الله . . . ) وعيد لهم بعذاب مادروا كنهه لفظاعته وشدته ، وهو نظير قوله - تعالى - فى الوعد : ( فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ . . ) والمعنى : وظهر من سخط الله

وعذابه ، ما لم يكن قط فى حسابهم ، وما لم يحدثوا به أنفسهم .وقيل : عملوا
: أعمالا حسبوها حسنات ، فإذا هى سيئات .وعن سفيان الثورى أنه قرأها فقال
ويل . لأهل الرياء . ويل لأهل الرياء .وجزع بعض الصالحين عند موته ، فسئل
عن سبب ذلك فقال : أخشى أن يبدو لى من الله ما لم أحتسبه ، ثم قرأ هذه
. الآية

وبدا لهم سيئات ما كسبوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون

كما فسرها الوسيط ثم تهديد ثالث يتمثل فى قوله - تعالى - : ( وَبَدَا
لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مّا كَانُواْ بِهِ
يَسْتَهْزِئُونَ ) .والمراد بسيئات ما كسبوا : الأعمال السيئة التى
اكتسبوها فى دنياهم ، وهذا البدو والظهور يكون عند عرض صحائف أعمالهم عليهم
و " ما " موصولة أو مصدرية .أى : وظهر لهم عند عرض صحائف أعمالهم عليهم .
يوم القيامة ، الذى عملوه واكتسبوه فى الدنيا من رذائل ( وَحَاقَ بِهِم )
أى : وأحاط ونزل بهم العذاب الذى كانوا يستهزئون به فى حياتهم ويتهكمون بمن
كان يحذرهم منه فى الدنيا .وبعد هذا التصوير الرهيب لمصير هؤلاء المشركين
يوم القيامة ، عادت السورة إلى بيان تناقضهم مع أنفسهم ، فهم إن سئلوا عمن
خلق السموات والأرض ، قالوا : إن خالقهما هو الله ، ومع ذلك يعبدون غيره
وتشمئز قلوبهم عند ذكره وحده .وهم يتقربون إلى آلهتهم بالطاعات ، ومع ذلك
- فهم عند نزول الشدائد بهم ، ينسون تلك الآلهة ويتجهون إلى الله - تعالى
. وحده بالدعاء

فاذا مس الانسان ضر دعانا ثم اذا خولناه نعمة منا قال انما اوتيته على علم
بل هي فتنة ولكن اكثرهم لا يعلمون

كما فسرها الوسيط لنستمع إلى السورة الكريمة وهى تحكى أحوالهم فى السراء
والضراء فتقول : ( فَإِذَا مَسّ الإِنسان ضُرٌّ دَعَانَا ثُمّ إِذَا
. . . خَوّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنّا قَالَ إِنّمَآ أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ
والمراد بالإنسان هنا هو جنس الكفار ، بدليل سياق ، الآيات وسباقها ويصح(
أن يراد به جنس الإنسان عموما ، ويدخل فيه الكفار دخولا أوليا .أى : فإذا
أصاب الإنسان ضر ، من مرض أو فقر أو نحوهما ، دعانا قاعدا أو قائما . لكى
نكشف عنه ما نزل به من بلاء .( ثُمّ إِذَا خَوّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنّا
أى : ثم إذا أجبنا لهذا الإنسان دعوته وكشفنا عنه الضر وأعطيناه ( . . .
على سبيل التفضل والإحسان نعمة من عندنا ، بأن حولنا مرضه إلى صحة ، وفقره
إلى غنى .( قَالَ ) هذا الإنسان الظلوم الكفار ( إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ على
عِلْمٍ ) منى بوجوه المكاسب ، أو على علم منى بأن سأعطى هذه النعمة ، بسبب
استعدادى واجتهادى وتفوقى فى مباشرة الأسباب التى توصل إلى الغنى والجاه
وقال - سبحانه - : ( خَوّلْنَاهُ ) لأن التخويل معناه العطاء بدون مقابل.
مع تكراره مرة بعد مرة .وجاء الضمير فى قوله ( أُوتِيتُهُ ) مذكرا مع أنه ،
يعود إلى النعمة . لأنها بمعنى الإنعام . أى : إذا خولناه شيئاً من
الإنعام الذى تفضلنا به عليه ، قال إنما أوتيته على علم وتبوغ عندى
وقوله - تعالى - ( بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ ) رد لقوله ذلك ، وزجر لهذا الجاحد.
عما تفوه به .أى : ليس الأمر كما زعم هذا الجاحد ، فإننا ما أعطيناه هذه
النعم بسبب علمه - كما زعم - وإنما أعطيناه ما أعطيناه على سبيل الإحسان
منا عليه ، وعلى سبيل الابتلاء والاختبار له ، ليتبين قوى الإيمان من
ضعيفه ، وليتميز الشاكر من الجاحد .( ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ )
أى : ولكن أكثر الناس لا يعلمون هذه الحقائق ، ولا يفطن إليها إلا من
استنارت بصيرته ، وطهرت سريرته .قال صاحب الكشاف : فإن قلت ما السبب فى
عطف هذه الآية بالفاء ، وعطف مثلها فى أول السورة بالواو؟ قلت : السبب فى
ذلك أن هذه وقعت مسببة من قوله ( وَإِذَا ذُكِرَ الله وَحْدَهُ اشمأزت
قُلُوبُ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة ) على معنى أنهم يشمئزون من ذكر
، الله .ويستبشرون بذكر الآلهة . فإذا مس أحدهم ضر دعا من أشمأز من ذكره
. . دون من استبشر بذكره ، وما يبنهما من الأى اعتراض

قد قالها الذين من قبلهم فما اغنى عنهم ما كانوا يكسبون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - المصير السيئ للجاحدين السابقين ليعتبر
بهم اللاحقون فقال : ( قَدْ قَالَهَا الذين مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أغنى
عَنْهُمْ مّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ) .والضمير فى قوله ( قَالَهَا ) يعود
إلى ما حكاه - سبحانه - عن هذا الإنسان الجاحد من قوله : ( إِنّمَآ
أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ ) .فهذه الكلمة قد قالها قارون عندما نصحه الناصحون
فقد رد عليهم بقوله ( إِنّمَآ أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ عندي ) فكانت ،
نهايته أن خسف الله به وبداره الأرض .أى : قد قال هذه الكلمة نهايته على
الجحود والغرور ، بعض الأقوام الذين سبقوا قومك والذين يشبهونهم فى البطر

والكنود ، فكانت نتيجة ذلك أن أخذهم الله - تعالى - أخذ عزيز مقتدر ، ولم ينفعهم شيئا ما جمعوه من حطام الدنيا ، وما اكتسبوه من متاعها .

فاصابهم سيئات ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وما هم بمعجزين

كما فسرها الوسيط ( فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُواْ . . . ) أى : فأصاب هؤلاء السابقين ، العقاب الذى يستحقونه بسبب سيئاتهم التى اكتسبوها واقترفوها فى دنياهم .فالكلام على حذف مضاف . أى : فأصابهم جزاء سيئات كسبهم بأن أنزل الله - تعالى - بهم العقوبة التى يستحقونها بسبب إصرارهم على الكفر والمعاصى .( والذين ظَلَمُواْ مِنْ هؤلاء ) أى : من هؤلاء المشركين المعاصرين لك - أيها الرسول الكريم - .( سَيُصِيبُهُمْ ) - أيضا - سيئات ما كسبوا ، كما أصاب الذين من قبلهم .( وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ) أى : وما هم بفائتين أو هاربين من عذابنا .

اولم يعلموا ان الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ان في ذلك لايات لقوم يؤمنون

كما فسرها الوسيط ( أَوَلَمْ يعلموا أَنّ الله يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ) أى : أعموا عن التفكر والإبصار ، ولم يشاهدوا بأعينهم أن الله - تعالى - يوسع الرزق لمن يشاء من عباده ، ويضيقعه على من يشاء أن يضيقعه عليه منهم ، إذ أن ذلك مرجعه إلى مشيئته وحكمته - سبحانه - إذ سعة الرزق ليست دليلا على رضاه ، كما أن ضيقه ليس دليلا على غضبه .( إِنّ فِي ذَلِكَ ) الذى ذكرناه ( لآيَاتٍ ) واضحات ( لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ) بالحق ويستيجبون له ، وينتفعون بالهدايات التى نسوقها لهم .وبذلك نرى هذه الآيات الكريمة ، قد صورت حال المشركين أكمل تصوير ، كما بينت ما أُعِدّ لهم من عذاب مقيم ، بسبب إصرارهم على كفرهم ، وإعراضهم عن دعوة الحق .

قل يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم

كما فسرها الوسيط ثم فتح - سبحانه - لعباده باب رحمته ، ونهاهم عن اليأس من مغفرته ، وأمرهم أن يتوبوا إليه تبوة صادقة نصوحا ، قبل أن يفاجئهم الموت والحساب ، فقال - تعالى - :( قُلْ ياعبادي الذين أَسْرَفُواْ . . . ) .ذكر المفسرون فى سبب نزول قوله - تعالى - ( قُلْ ياعبادي الذين أَسْرَفُواْ على أَنفُسِهِمْ ) روايات منها : ما رواه محمد بن إسحاق عن نافع عن ابن عمر عن أبيه عمر بن الخطاب قال : لما اجتمعنا على الهجرة . تواعدت أنا وهشام بن العاص بن وائل السّهْمى وعيّاش بن أبى ربيعة بن عتبة ، فقلنا : الموعد أضَاةَ بنى غفار - أى : غدير بنى غفار - وقلنا : من تأخر منا فقد حبس فليمض صاحبه فأصبحت أنا وعياش بن عتبة ، وحبس عنا هشام ، وإذا به قد فُتِن فافتَتنَ ، فكنا نقول بالمدينة : هؤلاء قد عرفوا الله - عز وجل - وآمنوا برسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم افتتنوا لبلاء لحقهم لا نرى لهم توبة ، وكانوا هم - أيضاً - يقولون هذا فى أنفسهم . فأنزل اللّه - عز وجل - فى كتابه : ( قُلْ ياعبادي الذين أَسْرَفُواْ على أَنفُسِهِمْ . . ) إلى قوله - تعالى - ( أَلَيْسَ فِي جَهَنّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ) قال عمر : فكتبتها بيدى ، ثم بعثتها إلى هشام . قال هشام : فلما قدمت على خرجت بها إلى ذى طوى فقلت : اللهم فهمنيها ، فعرفت أنها نزلت فينا ، فرجعت فجلست على بعيرى فلحقت برسول الله صلى الله عليه وسلم .والأمر فى قوله - تعالى - : ( قُلْ ياعبادي الذين أَسْرَفُواْ على أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُواْ مِن رّحْمَةِ الله ) موجه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وإضافة العباد إلى الله - تعالى - للتشريف والتكريم .والإسراف : تجاوز الحد فى كل شئ ، وأشهر ما يكون استعمالا فى الإنفاق ، كما فى قوله - تعالى - : ( يابني ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ واشربوا وَلاَ تسرفوا ) والمراد بالإسراف هنا : الإسراف فى اقتراف المعاصى والسيئات ، والخطاب للمؤمنين المذنبين . وعدى الفعل " أسرفوا " بعلى ، لتضمنه معنى الجناية ، أى جنوا على أنفسهم .والقُنُوط : اليأس ، وفعله من بابى ضرب وتعب . يقال : فلان قانط من الحصول على هذا الشئ أى يائس من ذلك ولا أمل له فى تحقيق ما يريده .والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - لعبادى المؤمنين الذين جنوا على أنفسهم باتكابهم للمعاصى ، قل لهم :لا تيأسوا من رحمة الله - تعالى - ومن مغفرته لكم .وجملة ( إِنّ الله يَغْفِرُ الذنوب جَمِيعاً ) تعليلية . أى :لا تيأسوا من رحمة الله - تعالى - لأنه هو الذى تفضل بمحو الذنوب جميعها . لمن يشاء من عباده المؤمنين العصاة .( إِنّهُ ) - سبحانه - ( هُوَ الغفور الرحيم ) أى : هو الواسع المغفرة والرحمة لمن يشاء من عباده المؤمنين ، فهم إن تابوا من

ذنوبهم قبل - سبحانه - توبتهم كما وعد تفضلا منه وكرما ، وإن ما توا دون أن يتوبوا ، فهم تحت رحمته ومشيئته ، إن شاء غفر لهم ، وإن شاء عذبهم ، ثم أدخلهم الجنة بفضله وكرمه .أما غير المؤمنين ، فإنهم إن تابوا من كفرهم ودخلوا فى الإسلام ، غفر - سبحانه - ما كان منهم قبل الإسلام لأن الإسلام يَجُبّ ما قبله .وإن ماتوا على كفرهم فلن يغفر الله - تعالى - لهم لقوله : ( إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا ، دُونَ ذلك لِمَن يَشَآءُ ) قال الإمام الشوكانى : واعلم أن هذه الآية أرجى آية فى كتاب الله ، لاشتمالها على أعظم بشارة ، فإنه أولا : أضاف العباد . . إلى نفسه لقصد تشريفهم ، ومزيد تبشيرهم ، ثم وصفهم بالإسراف لى المعاصى ثم عقب على ذلك بالنهى عن القنوط من الرحمة . . ثم جاء بما لا يبقى بعده شك ولا يتخالج القلب عند سماعه ظن فقال : ( إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذنوب . . ) فالألف واللام قد صيرت الجمع الذى دخلت عليه للجنس الذى يستلزم استغراق أفراده ، فهو فى قوة إن الله يغفر كل ذنب كائنا ما كان ، إلا ما أخرجه النص القرآنى وهو الشرك .ثم لم يكتف بما أخبر به عباده من مغفرة كل ذنب ، بل أكد ذلك بقوله ( جميعا ) فيالها من بشارة ترتاح لها النفوس . . وما أحسن تعليل هذا الكلام بقوله : ( إِنَّهُ هُوَ الغفور الرحيم . . ) .وقال الجمل فى ، حاشيته ما ملخصه : وفى هذه الآية من أنواع المعانى والبيان أشياء حسنة : منها إقباله عليهم ، ونداؤهم ، ومنها : إضافتهم إليه إضافة تشريف ، ومنها الالتفات من التكلم إلى الغيبة ، فى قوله : ( مِن رَّحْمَةِ الله ) ، ومنها : إضافة الرحمة لأجل أسمائه الحسنى ، ومنه : إعادة الظاهر بلفظه فى قوله : ومنها : إبراز الجملة من قوله : ( إِنَّهُ هُوَ ( إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ ) الغفور الرحيم ) مؤكدة بإن ، والفصل ، وبإعادة الصفتين اللتين تضمنتهما الجملة السابقة .وقال عبد الله بن مسعود وغيره : هذه أرجى آية فى كتاب الله تعالى .

وانيبوا الى ربكم واسلموا له من قبل ان ياتيكم العذاب ثم لا تنصرون

كما فسرها الوسيط وبعد أن فتح - سبحانه - لعباده باب رحمته فتحا واسعا كريما . . أتبع ذلك بحضهم على التوبة والإنابة إليه ، حتى يزيدهم من فضله وإحسانه فقال : ( وأَنِيبواْ إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ العذاب ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ ) .أى قل لهم - أيها الرسول الكريم -لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا ، وارجعوا إليه بالتوبة والإنابة ، وأخلصوا له العبادة ، من قبل أن ينزل بكم العذاب الذى لا تستطيعون دفعه ثم لا تجدون من ينجيكم منه .فأنت ترى أن الآية الأولى بعد أن فتحت للعصاة باب رحمة الله على مصراعيه ، جاءت الآية الثانية فحثتهم على التوبة الصادقة النصوح ، حتى تكون رحمة الله - تعالى - بهم أكمل وأتم وأوسع : - فإن التوبة النصوح سبب فى تحويل السيئات إلى حسنات .كما قال - تعالى ، إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فأولئك يُبَدِّلُ ) ( الله سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ الله غَفُوراً رَّحِيماً

واتبعوا احسن ما انزل اليكم من ربكم من قبل ان ياتيكم العذاب بغتة وانتم لا تشعرون

) : كما فسرها الوسيط ثم أمرهم باتباع أوامر القرآن الكريم ونواهيه فقال واتبعوا أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ )أى : واتبعوا هذا القرآن الكريم ، الذى هو أحسن ما أنزله - سبحانه - إليكم ، بسبب ما اشتمل عليه من هدايات سامية ، ومن تشريعات حكيمة ، ومن آداب قويمة .فإن اتباع ما اشتمل عليه هذا القرآن من توجيهات . يؤدى إلى السعادة فى الدنيا والآخرة وقوله : ( مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ العذاب بَغْتَةً وَأَنتُمْ لاَ . تَشْعُرُونَ ) متعلق بالأمر بالاتباع ، وإرشاد إلى وجوب الامتثال بدون ، تأخير أو تسويف .أى : سارعو إلى اتباع إرشادات وتشريعات وآداب هذا القرآن من قبل أن ينزل بكم العذاب فجأة وبدون مقدمات ، بحيث لا تشعرون بإتيانه إلا عند نزوله .فالآية الكريمة تقرير وتأكيد لما قبلها : من الدعوة إلى المسارعة بالتوبة وبالعمل الصالح .

ان تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله وان كنت لمن الساخرين

كما فسرها الوسيط وقوله : ( أَن تَقُولَ نَفْسٌ ياحسرتا على مَا فَرَّطَتُ - فِي جَنبِ الله . . . ) أى : بسبب تفريطى وتقصيرى فى طاعة الله ، وفى حقه تعالى - .وأصل الجنب والجانب : الجهة المحسوسة للشئ ، وأطلق على الطاعة على سبيل المجاز ، حيث شبهت بالجهة . بجامع تعلق كل منهما - أى الجانب والطاعة - بصاحبه . إذ الطاعة لها تعلق بالله - تعالى - . كما أن الجهة لها تعلق بصاحبها .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم نكرت " نفس "؟ قلت : لأن المراد بها بعض الأنفس وهى نفس الكافر . ويجوز أن يكون نفس متميزة من

الأنفس : إما بلجاج فى الكفر شديد ، أو بعذاب عظيم ، ويجوز أن يراد التكثير كما قال الأعشى :دعا قومه حولى فجاءوا لنصره ... وناديت قوما بالمسناة ، : غيباورب بقيع لو هتفت بجوه ... أتانى كريم ينفض الرأس مغضباوهو يريد أفواجا من الكرام ينصرونه ، لا كريما واحدا . .وجملة ( وَإِن كُنتُ لَمِنَ الساخرين ) فى محل نصب على الحال . أى : فرطت فى جنب الله وطاعته ، والحال أنى لم أكن إلا من الساخرين بدينه ، المستهزئين بأتباع هذا الدين الحق .قال قتادة : لم يكفه أنه ضيع طاعة الله حتى سخر من أهلها .

او تقول لو ان الله هداني لكنت من المتقين

: كما فسرها الوسيط ثم ذكر - سبحانه - مقالة أخرى مما تقوله تلك النفس فقال ) إلى طاعته واتباع دينه ( أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ الله هَدَانِي ) لَكُنتُ مِنَ المتقين ) للشرك والمعاصى ، ومن الذين صانوا أنفسهم عما يغضبه - سبحانه - ولا يرضيه .

او تقول حين ترى العذاب لو ان لي كرة فاكون من المحسنين

كما فسرها الوسيط ثم ذكر - سبحانه - مقالة ثالثة لها فقال : ( أَوْ تَقُولَ هذه النفس ( حِينَ تَرَى العذاب ) فى الآخرة ( لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً ) ( أى رجعة إلى الدنيا ( فَأَكُونَ ) فيها ( مِنَ المحسنين ) لأقوالهم وأفعالهم ، وعقائدهم ، بحيث أخلص العبادة لله - تعالى - وأطيعه فى السر والعلن .وهكذا يصور القرآن الكريم أحوال النفوس فى الآخرة ، تصوير مؤثرا بليغاً ، يحمل كل عاقل على الإيمان الصالح الذى ينفعه فى ذلك اليوم الهائل الشديد .

بلى قد جاءتك اياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( بلى قَدْ جَآءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا واستكبرت وَكُنتَ مِنَ الكافرين ) رد منه - عز وجل - على هذا القائل : ( لَوْ أَنَّ الله هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ المتقين ) وتكذيب له فى هذه الدعوى .والمراد بالآيات : الحجج والبراهين الدالة على حقيقة دين الإسلام ، وعلى رأسها آيات القرآن الكريم .أى ليس الأمر كما ذكرت أيها النادم على ما فرط منه ، من أن الله لا يهدك إلى الطريق القويم ، بل الحق ، أن الله - تعالى قد أرشدك إليه عن طريق إرساله رسوله ، وإنزال كتابه ولكنك كذبت رسوله ، واستكبرت عن سماع آيات الله وعن اتباعها ، وكنت فى دنياك من الكافرين بها ، الجاحدين لصدقها ، فأصابك ما أصابك من عذاب الآخرة بسبب أعمالك القبيحة فى الدنيا .قال الشوكانى : وجاء - سبحانه - بخطاب المذكر فى قوله : " جاءتك ، وكذبت ، واستكبرت ، وكنت " لأن النفس تطلق على المذكر والمؤنث . قال المبرد : تقول العرب نفس واحد . أى ، إنسان واحد . .

ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة اليس في جهنم مثوى للمتكبرين

كما فسرها الوسيط ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن أحوال الكافرين - والمؤمنين يوم القيامة ، وعن مظاهر قدرة الله - تعالى - وعن تلقين الله تعالى - لنبيه صلى الله عليه وسلم الجواب الذى يرد به على المشركين . وعن أحوال الناس عند النفخ فى الصور . . قال - تعالى - :( وَيَوْمَ القيامة تَرَى الذين كَذَبُوا . . . ) .قوله - : ( وَيَوْمَ القيامة تَرَى الذين كَذَبُواْ عَلَى الله وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّة . . ) بيان لحالة الكافرين يوم القيامة ، ولما تكون عليه هيئتهم من خزى وهوان .أى : وفى يوم القيامة إذا نظرت - أيها الرسول الكريم - أو - أيها العاقل - إلى وجوه الذين كذبوا على الله ، بأن شركوا معه فى العبادة آلهة أخرى ، أو جعلوا له صاحبة أو ولدا . . إذا نظرت إليها رأيتها مسودة مكفهرة بسبب ما أحاط بهم من عذاب ، وما شاهدوه من أهوال .وقوله : ( وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ) جملة من مبتدأ وخبر ، وهى فى محل نصب على الحال من الذين كذبوا . . والاستفهام فى قوله : ( أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ) : للتقرير والمثوى المكان والمقام .يقال : ثوى فلان بالمكان وأثوى فيه ، إذا أقام به ، فهو ثاو ومنه قوله - تعالى - :( وَمَا كُنتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ) أى أليس فى جهنم مكانا ومقرا لإهانة المتكبرين وإذلالهم ، بسبب تطاولهم على غيرهم ، وتكذيبهم لآيات الله؟ بلى إن بها ما يجعلهم يذوقون العذاب الأليم .

وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - حال المؤمنين يوم القيامة ، بعد بيانه

لحال الذين كذبوا على الله فقال : ( وَيُنَجِّي الله الذين اتقوا
( بِمَفَازَتِهِمْ لاَ يَمَسُّهُمُ السواء وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ
، ومفازتهم : إسم مصدر . أو مصدر ميمى . من فاز فلان بكذا ، إذا ظفر به.
ونال مراده منه .أى؛ وينجى الله - تعالى - بفضله ورحمته ، ( الذين اتقوا )
الشرك والمعاصى من عذاب جهنم ، ( بِمَفَازَتِهِمْ ) أى : بسبب فوزهم برضا
) الله - تعالى - ورحمته ، جزاء إيمانهم وتقواهم ، وقرأ حمزة والكسائى
بِمَفَازَتِهِمْ ) بالجمع .ويصح أن تكون الباء فى قوله : ( بِمَفَازَتِهِمْ
للملابسة ، والجار والمجرور متعلق بمحذوف هو حال من الذين اتقوا . أى (
ينجيهما حالة كونهم متلبسين .وقوله : ( لاَ يَمَسُّهُمُ السواء وَلاَ هُمْ
يَحْزَنُونَ ) يجوز أن يكون تفسيراً لذلك الفوز ، كأنه قيل : وما مظاهر
، فوزهم فكان الجواب :لا يمسهم السوء الذى يصيب غيرهم من الكافرين والعصاة
ولا هم يحزنون على شئ تركوه خلفهم فى الدنيا .ويجوز أن يكون حالا من الذين
اتقوا . أى : ينجيهم بسبب مفازتهم ، حال كونهم لا يمسهم السوء ، أى :لا
يمسهم شئ مما يكره لا فى الحال ولا فى الاستقبال ، ولا هم يحزنون على ما
كان منهم فى الماضى .فأنت ترى أن الله - تعالى - قد كرم المتقين تكريما
عظيما ، حيث نجاهم من عذاب جهنم ، وجعلهم آمنين من كل ما يغمهم فى كل زمان
أو مكان .قال الإمام الرازى ما ملخصه : هذه آية جامعة ، لأن الإنسان إذا
علم أنه لا يمسه السوء ، كان فراغ البال بحسب الحال ، وإذا علم أنه لا يحزن
كان هادئ النفس عما وقع فى قلبه بسبب فوات الماضى ، فحينئذ يظهر أنه سلم عن
كل الآفات .وقد دلت الآية على أن المؤمنين ، لا ينالهم الخوف والرعب فى
القيامة ، وتأكد هذا بقوله : ( لاَ يَحْزُنُهُمُ الفزع الأكبر . . ) .

الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - ما يدل على كمال قدرته فقال : ( الله
- خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ) .أى : الله
تعالى - هو وحده الخالق لكل شئ فى هذا الكون ، وهو - سبحانه - المتصرف فى
كل شئ فى هذا الوجود ، بحيث لا يخرج مخلوق عن إذنه ومشيئته .

له مقاليد السماوات والارض والذين كفروا بايات الله اولئك هم الخاسرون

كما فسرها الوسيط ( لّهُ مَقَالِيدُ السماوات والأرض ) أى : له وحده
، مفاتيح خزائنهما ، والمقاليد جمع مقلاد ، أو اسم جمع ولا واحد له من لفظه
، مأخوذ من التقليد بمعنى الإلتزام . أى : أنه لا يملك أمر السموات والأرض
) : ولا يتمكن من التصرف فيهما غيره - تعالى - .قال صاحب الكشاف : قوله
لّهُ مَقَالِيدُ السماوات والأرض ) : أى : هو مالك أمرهما وحافظهما؛ لأن
حافظ الخزائن ومدبر أمرها ، هو الذى يملك مقاليدها ، ومنه قولهم : فلان
: ألقيت إليه مقاليد الملك ، وهى المفاتيح ، ولا واحد لها من لفظها وقيل
جمع مقليد . . والكلمة أصلها فارسية .فإن قلت : ما للكتاب العربى المبين
وللفارسية؟قلت : التعريب أحالها عربية ، كما أخرج الاستعمال المهمل عن كونه
مهملا ،ثم بين - سبحانه - مصير الكافرين فقال : ( والذين كَفَرُواْ
بِآيَاتِ الله أولئك هُمُ الخاسرون ) أى : والذين كفروا بآيات الله
التنزيلية والكونية الدالة على وحدانية ، أولئك هم البالغون أقصى الدرجات
) : فى الخسران .وهذه الآية الكريمة معطوفة على قوله - تعالى - قبل ذلك
- وَيُنَجِّي الله الذين اتقوا ) وما بينهما اعتراض للدلالة على هيمنة الله
. . تعالى - على شئون خلقه . . أى : وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم
والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الكاملون فى الخسران .وهذه المقابلة فيها
ما فيها من تأكيد الثواب العظيم للمتقين ، والعقاب الأليم للكافرين .

قل افغير الله تامروني اعبد ايها الجاهلون

كما فسرها الوسيط ثم أمر الله - تعالى - رسول الله صلى الله عليه وسلم أن
يوبخ الكافرين على جهالاتهم . فقال : ( قُلْ أَفَغَيْرَ الله تأمروني
أَعْبُدُ أَيُّهَا الجاهلون ) .وقد ذكروا فى سبب نزولها أن المشركين قالوا
للنبى صلى الله عليه وسلم استلم بعض آلهتنا ونؤمن بإلهك .والاستفهام
" للإنكار والتوبيخ ، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام ، و " غير
منصوب بقوله : ( أَعْبُدُ ) ، وأعبد معمول لتأمرونى على تقدير أن المصدرية
فلما حذفت بطل عملها .والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء ،
المشركين على سبيل التوبيخ والتأنيب : أبعد أن شاهدتهم ما شاهدتم من الآيات
الدالة على وحدانية الله - تعالى - ، وعلى صدقى فيما أبلغه عنه ، أبعد كل
- ذلك تأمرونى أن أعبد غير الله - تعالى - أيها الجاهلون بكل ما يجب لله
تعالى - من تنزيه وتقديس .ووصفهم هنا بالجهل ، لأن هذا الوصف هو الوصف
المناسب للرد على ما طلبوه منه صلى الله عليه وسلم من إشراك آلهتهم فى
العبادة .

ولقد اوحي اليك والى الذين من قبلك لئن اشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين

كما فسرها الوسيط ثم حذر - سبحانه - من الشرك أبلغ تحذير فقال : ( وَلَقَدْ أُوْحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الذين مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنّ مِنَ الخاسرين . بَلِ الله فاعبد وَكُن مِّنَ الشاكرين )قال الجمل : قوله : ( وَلَقَدْ أُوْحِيَ إِلَيْكَ . هذه اللام دالة على قسم مقدر وقوله ( لَئِنْ أَشْرَكْتَ ) هذه ( .. اللام - أيضا - دالة على قسم مقدر ، وقوله : ( لَيَحْبَطَنّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنّ مِنَ الخاسرين ) كل من هذين اللامين واقعة فى جواب القسم الثانى . والثانى وجوابه جواب الأول . وأما جواب الشرط فى قوله : ( لَئِنْ أَشْرَكْتَ ) فمحذوف ، لدخول جواب القسم عليه ، فهو من قبيل قول ابن مالك واحذف لدى اجتماع شرط مقسم ... جواب ما أخرت فهو ملتزموقوله ( أُوْحِيَ ): مسلط على ( إِلَيْكَ ) وعلى ( الذين مِن قَبْلِكَ ) فيكون المعنى : ولقد أوحى إليك - أيها الرسول الكريم - وأوحى إلى الرسل الذين من قبلك أيضا لئن أشركت ، بالله - تعالى - على سبيل الفرض ( لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ) أى ليفسدن عملك فسادا تاما ( وَلَتَكُونَنّ مِنَ الخاسرين ) خسارة ليس بعدها ، خسارة فى الدنيا والآخرة .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : الموحى إليهم جماعة ، فكيف قال : ( لَئِنْ أَشْرَكْتَ ) على التوحيد؟قلت : معناه . أوحى إليك لئن أشركت ليحبطن عملك ، وإلى الذين من قبلك مثله أو أوحى إليك وإلى : كل واحد منهم ، لئن أشركت ليحبطن عملك . كما تقول : فلان كسانا حلة . أى كل واحد منا .فإن قلت : كيف صح الكلام مع علم الله - تعالى - أن رسله لا . يشركون ولا تحبط أعمالهم .قلت : هو على سبيل الفرض . والمحالات يصح فرضها والآية الكريمة تحذر من الشرك بأسلوب سفيه ما فيه من التنفير منه ومن. - التقبيح له ، لأنه إذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم لو وقع فى شئ منه على سبيل الفرض - حبط عمله ، وكان من الخاسرين . فكيف بغيره من أفراد أمته؟

بل الله فاعبد وكن من الشاكرين

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( بَلِ الله فاعبد وَكُن مِّنَ ، الشاكرين ) أمر منه - تعالى - بالثبات على عبادة الله - تعالى - وحده ) وبالمداومة على شكره ، ونهى عن طاعة المشركين ، ولفظ الجلالة منصوب بقوله فاعبد ) والفاء جزائية فى جواب شرط مقدر .أى :لا تطع - أيها الرسول ، الكريم - المشركين فيما طلبوه منك ، بل اجعل عبادتك لله - تعالى - وحده . وكن من الشاكرين له على نعمه التى لا تحصى

وما قدروا الله حق قدره والارض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن هؤلاء المشركين بعبادتهم لغير الله - تعالى - قد تجاوزوا حدودهم معه - عز وجل- ولم يعطوه ما يستحقه من تنزيه وتقديس فقال : ( وَمَا قَدَرُواْ الله حَقّ قَدْرِهِ ) .أى : أن هؤلاء المشركين بعبادتهم لغيره - تعالى - ، ما عظموه حق تعظيمه ، وما أعطوه ما يستحقه - سبحانه - من تقديس وتكريم وتنزيه وطاعة .ثم ساق - سبحانه - ما يدل على وحدانيته . وكمال قدرته . فقال : ( والأرض جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القيامة والسماوات مَطْوِيّاتٌ بِيَمِينِهِ ) .والقَبْضة : المرة من القَبْض ، وتطلق على المقدار المقبوض بالكف . ومطويات أى : مجموعات تحت قدرته وملكه ، كما يجمع الكتاب المطوى ، والجملة الكريمة حال من لفظ ، الجلالة ، فيكون المعنى : إن هؤلاء المشركين لم يعظموا الله حق تعظيمه - حيث أشركوا معه فى العبادة آلهة أخرى هى من مخلوقاته ، والحال أنه سبحانه - هو المتولى لإبقاء السموات والأرض على حالهما فى الدنيا ، وهو المتولى لتبديلهما ، أو إزالتهما فى الآخرة ، فالأرض كلها مع عظمتها وكثافتها تكون يوم القيامة فى قبضته وتحت قدرته ، كالشئ الذى يقبض عليه القابض ، والسموات كذلك مع ضخامتها واتساعها ، تكون مطويات بيمينه وتحت قدرته وتصرفه ، كما يطوى الواحد منا الشئ الهين القليل بيمينه ، وما دام الأمر كذلك فكيف يشركون معه غيره فى العبادة؟فالمقصود من الآية الكريمة بيان وحدانيته وعظمته وقدرته - سبحانه - وبيان ما عليه المشركون من جهالة وانطماس بصيرة حين أشركوا معه فى العبادة غيره .قال صاحب الكشاف : والغرض من هذا الكلام إذا أخذته كما هو بجملته ومجموعته ، تصوير عظمته ، والتوقيف على كنه جلاله لا غير ، من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقة أو ، جهة مجاز . .وقال الآلوسى : والكلام فى هذه الآية عند كثير من الخلف تمثيل لحال عظمته - تعالى - ونفاذ قدرته . . بحال من يكون له قبضة فيها الأرض جميعا ، ويمين بها يطوى السموات ، أو بحال من يكون له قبضة فيها

الأرض والسموات ، ويمين بها يطوى السموات .والسلف يقولون : إن الكلام هنا تنبيه على مزيد جلالته - تعالى - . إلا أنهم لا يقولون إن القبضة مجاز عن الملك أو التصرف ، ولا اليمين مجاز عن القدرة ، بل ينزهون الله - تعالى - عن الأعضاء والجوارح ، ويؤمنون بما نسبه - تعالى - : إلى ذاته بالمعنى اللائق به الذى أراده - سبحانه - وكذا يفعلون فى الأخبار الواردة فى هذا المقام .فقد أخرج البخارى ومسلم عن ابن مسعود قال : " جاء حبر من الأحبار إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد . إنا نجد الله يحمل السموات يوم القيامة على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والشجر على إصبع ، والماء والثرى على إصبع ، وسائر الخلق على إصبع . فيقول : أنا الملك . فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه تصديقا لقول الحبر ، ثم قرأ هذه الآية . . "وقدم - سبحانه - الأرض على السموات لمباشرتهم لها ، ومعرفتهم بحقيقتها .وخص يوم القيامة بالذكر ، وإن كانت قدرته عامة وشاملة لدار الدنيا - أيضا - لأن الدعاوى تنقطع فى ذلك اليوم .كما قال - تعالى - ( وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ) روى الشيخان عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :" يطوى الله السموات يوم القيامة ، ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يقول أنا الملك ، أين الجبارون ، أين المتكبرون ، أين ملوك الأرض " .وقوله - تعالى - : ( سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ ) - تنزيه له - تعالى - : عما افتراه المفترون .أى : تنزه وتقدس الله - تعالى - عن شرك المشركين ، وعن ضلال الضالين .

ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الارض الا من شاء الله ثم نفخ فيه اخرى فاذا هم قيام ينظرون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - حال الناس عند النفخة الأولى والثانية فقال : ( وَنُفِخَ فِي الصور فَصَعِقَ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض إِلاَّ مَن شَآءَ الله ) .والصور : اسم للقرن الذى ينفخ فيه إسرافيل بأمر الله - تعالى - وحقيقته لا يعلمها إلا هو - سبحانه - وقوله ( فَصَعِقَ ) من الصعق بمعنى الموت أو بمعنى الصوت الشديد الذى يجعل الإنسان فى حالة ذهول - شديد حتى لكأنه قد فارق الحياة .أى : ونفخ فى الصور بأمر الله - تعالى - النفخة الأولى ، فخر ميتا كل من كان حيا فى السموات أو فى الأرض .( إِلاَّ مَن شَآءَ الله ) له الحياة من أهلهما ، قالوا : والمستثنى من الصعق جبريل وإسرافيل وميكائيل . ولم يرد حديث صحيح يعتمد عليه فى تعيين من استثناه الله - تعالى - : من ذلك ، فالأولى تفويض من استثناه الله من الصعق إلى علمه - عز وجل - .( ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أخرى ) أى : ثم نفخ فى الصور نفخة أخرى - وهى النفخة الثانية التى يكون بعدها البعث والنشور .( فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ) أى : فإذا بهؤلاء الذين صعقوا بعد النفخة الأولى قيام من قبورهم ، ينظرون حولهم بدهشة وحيرة ماذا يفعل بهم ، أو ينظرون على أى حال يكون مصيرهم .فالآية الكريمة تفيد أن النفخ فى الصور يكون مرتين : المرة الأولى يكون بعدها الصعق والموت لجميع الأحياء ، والنفخة الثانية يكون بعدها البعث والنشور وإعادة الحياة مرة أخرى .

واشرقت الارض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون

كما فسرها الوسيط والمراد بالأرض فى قوله - تعالى - : بعد ذلك ( وَأَشْرَقَتِ الأرض بِنُورِ رَبِّهَا . . . ) أرض المحشر .وأصل الإشراق : الإضاءة . يقال : أشرقت الشمس إذا أضاءت ، وشرقت : إذا طلعت .قال ابن كثير - وقوله : ( وَأَشْرَقَتِ الأرض بِنُورِ رَبِّهَا ) أى : أضاءت - الأرض : يوم القيامة ، إذا تجلى الحق - تبارك وتعالى - للخلائق لفصل القضاء والمراد بالكتاب فى قوله - تعالى - : ( وَوُضِعَ الكتاب ) صحائف الأعمال. التى تكون فى أيدى أصحابها .فالمراد بالكتاب جنسه ، أى : أعطى كل واحد كتابه إما بيمينه . وإما بشماله . وقيل المراد بالكتاب هنا : اللوح المحفوظ الذى فيه أعمال الخلق .( وَجِيءَ بالنبيين والشهدآء ) أى : وبعد أن أعطى كل إنسان صحائف أعماله جئ بالنبيين لكى يشهدوا على أممهم أنهم بلغوهم ما كلفهم الله بتبليغه إليهم ، وجئ بالشهداء وهم الملائكة الذين يسجلون على الناس أعمالهم من خير وشر ، كما قال - تعالى - :( وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ) وقيل المراد بهم : من استشهدوا فى سبيل الله ثم بين - سبحانه - مظاهر عدالته فى جمل حكيمة فقال : ( وَقُضِيَ بَيْنَهُم. بالحق ) أى : وقضى - سبحانه - بين الجميع بقضائه العادل ( وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ) أى : نوع من الظلم .

ووفيت كل نفس ما عملت وهو اعلم بما يفعلون

كما فسرها الوسيط ( وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مّا عَمِلَتْ ) من خير أو شر

أى : وهو سبحانه - عليم بما يفعلونه ( وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ )
من طاعة أو معصية ، لا يخفى عليه شئ من أحوال خلقه ، بل هو - تعالى - يعلم
السر وأخفى .

وسيق الذين كفروا الى جهنم زمرا حتى اذا جاءوها فتحت ابوابها وقال لهم
خزنتها الم ياتكم رسل منكم يتلون عليكم ايات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا
قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين

، كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ببيان مصير الكافرين
وببيان مصير المتقين ، وببيان ما يقوله المتقون عندما يرون النعيم المقيم
الذى أعده - سبحانه - لهم ، فقال - تعالى - :( وَسِيقَ الذين كفروا إلى
جَهَنَّمَ . . . ) .قوله - تعالى - ( وَسِيقَ ) من السوق بمعنى الدفع
، والمراد به هنا الدفع بعنف مع الإهانة و ( زُمَراً ) أى : جماعات متفرقة
بعضها فى إثر بعض . جمع زمرة وهى الجماعة القليلة ، أى : وسيق الذين كفروا
إلى نار جهنم جماعات جماعات ، وأفواجا أفواجا .( حتى إِذَا جَآءُوهَا
فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ) لتستقبلهم بحرها وسعيرها ، وكأنها قبل مجيئهم
إليها كانت مغلقة كما تغلق أبواب السجون ، فلا تفتح إلا لمن هم أهل لها
) بسبب جرائمهم .( وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ ) على سبيل الزجر والتأنيب
أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ) أى : من جنسكم تفهمون عنهم ما يقولونه
لكم .وهؤلاء الرسل ( يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ ) المنزلة
لمنفعتكم ( وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هذا ) أى : ويخوفونكم من
أهوال يومكم هذا وهو يوم القيامة .( قَالُواْ بلى ولكن حَقَّتْ كَلِمَةُ
العذاب عَلَى الكافرين ) أى : قالوا فى جوابهم على سائلهيم : بلى قد أتانا
، الرسل وبلغونا رسالة الله ، ولكننا لم نطعهم ، فحقت كلمة العذاب علينا
ووجبت علينا كلمة الله التى قال فيها : ( لأَمْلأنّ جَهَنّمَ مِنَ الجنة
والناس أَجْمَعِينَ ) وهنا رد عليهم السائلون بقولهم : ادخلوا أبواب جهنم
خالدين فيها ، خلودا أبديا ( فَبِئْسَ مَثْوَى المتكبرين ) أى : فبئس
المكان المعد للمتكبرين جهنم .

قيل ادخلوا ابواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين

`<!-- TODO:MISSING -->`{=html} كما فسرها الوسيط

وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا حتى اذا جاءوها وفتحت ابوابها وقال
لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين

كما فسرها الوسيط وبعد هذا البيان المرعب لمصير الكافرين ، جاء البيان الذى
يشرح الصدور بالنسبة لحال المتقين فقال - تعالى - : ( وَسِيقَ الذين اتقوا
رَبَّهُمْ إِلَى الجنة زُمَراً ) أى : جماعات .قال الآلوسى : أى : جماعات
: مرتبة حسب ترتب طبقاتهم فى الفضل .وفى صحيح مسلم وغيره عن أبى هريرة قال
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أول زمرة تدخل الجنة من أمتى على
صورة القمر ليلة البدر " .والمراد بالسوق هنا : الحث على المسير للإسراع
إلى الإكرام بخلافه فيما تقدم فإنه لإهانة الكفرة ، وتعجيلهم إلى العقاب
والآلام ، واختير للمشاكلة . .ثم بين - سبحانه - ما أعده هؤلاء المتقين من
نعيم مقيم فقال : ( حتى إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ
( لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فادخلوها خَالِدِينَ
والواو فى قوله ( وَفُتِحَتْ ) للحال ، والجملة الحالية بتقدير قد ، وجواب.
مقدر بعد قوله ( خَالِدِينَ ) .أى : حتى إذا جاءوها ، وقد فتحت ( إِذَا )
أبوابها على سبيل التكريم لهم ، وقال لهم خزنتها بفرح وحبور : سلام عليكم
من جميع المكاره ، طبتم من دنس المعاصى ، فادخلوها خالدين أى : حتى إذا
جاءوها وقالوا لهم ذلك سعدوا وابتهجوا .قال صاحب الكشاف ما ملخصه : وحتى
هنا هى التى تحكى بعدها الجمل . والجملة المحكية بعدها هى الشرطية ، إلا أن
جزاءها محذوف لأنه صفة ثواب أهل الجنة ، فدل بحذفه على أنه شئ لا يحيط به
الوصف . وحق موقعه ما بعد " خالدين " .وقيل : حتى إذا جاءوها ، جاءوها
. . وفتحت أبوابها .أى : مع فتح أبوابها

وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده واورثنا الارض نتبوا من الجنة حيث نشاء
فنعم اجر العاملين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما يقوله المتقون عند دخولهم الجنة على
سبيل الشكر لله - تعالى - : فقال : ( وَقَالُواْ الحمد للَّهِ الذي
صَدَقَنَا وَعْدَهُ ) بأن بعثنا من مرقدنا ، ومنحنا المزيد من عطائه ونعمه
أى : أرض الجنة التى استقروا فيها .( نَتَبَوّأُ ( وَأَوْرَثَنَا الأرض )
مِنَ الجنة حَيْثُ نَشَآءُ ) أى : ينزل كل واحد منا من جنته الواسعة حيث

يريد ، دون أن يزاحمه فيها مزاحم ، أو ينازعه منازع .( فَنِعْمَ أَجْرُ العاملين ) الجنة التى منحها - سبحانه - لعباده المتقين .

وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين

كما فسرها الوسيط ( وَتَرَى الملائكة حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ العرش ) أى : محدقين محيطين بالعرش مصطفين بحافته وجوانبه . جمع حَافٍّ وهو المحدق بالشئ ). يقال : حففت بالشئ إذا أحطت به ، مأخوذ من الحِفَاف وهو الجانب للشئ . يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ) أى : يمجدون ربهم بكل خير ، وينزهونه عن كل سوء . ( وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بالحق ) أى وقضى - سبحانه - بين العباد بالحق الذى لا يحوم حوله باطل . ( وَقِيلَ الحمد لِلَّهِ رَبِّ العالمين ) على قضائه بالحق ، وعلى مجازاته الذين أساءوا بما عملوا ، ومجازاته الذين أحسنوا بالحسنى .وبعد . فهذا تفسير محرر لسورة " الزمر " نسأل الله - تعالى - : أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

حم

كما فسرها الوسيط سورة " غافر " من السور التي افتتحت ببعض الحروف المقطعة وهو قوله - تعالى - : ( حما ) .وقد ذكرنا آراء العلماء فى تلك الحروف ، ، المقطعة بشئ من التفصيل ، عند تفسيرنا لسور : البقرة ، وآل عمران والأعراف ، ويونس . .وقلنا ما خلاصته : لعل أقرب الأقوال إلى الصواب ، أن هذه الحروف المقطعة ، قد جئ بها فى افتتاح بعض السور : على سبيل الإيقاظ والتنبيه للذين تحداهم القرآن .فكأنه - سبحانه - يقول لهؤلاء المعاندين والمعارضين فى أن القرآن من عند الله : ها كم القرآن ترونه مؤلفا من كلام هو من جنس ما تؤلفون منه كلامكم ، ومنظوما من حروف هي من جنس الحروف الهجائية التى تنظمون منها حروفكم ، فإن كنتم فى شك فى أنه من عند الله - تعالى - فهاتوا مثله ، أو عشر سور فى مثله ، أو سورة واحدة من مثله ، فعجزوا وانقلبوا خاسرين ، وثبت أن هذا القرآن من عند الله ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا .

تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( تَنزِيلُ الكتاب مِنَ الله ) جملة من - مبتدأ وخبر ، أى : هذا الكتاب منزل عليك - أيها الرسول الكريم - من الله تعالى - وحده ، وليس من عند أحد غيره .ثم وصف - سبحانه - ذاته بثمانى صفات تليق بذاته فقال : ( العزيز ) أى : الغالب لكل من سواه ، من العز بمعنى القوة والغلبة . يقال : عزّ فلان يعز - من باب تعب - فهو عزيز ، إذا كان معروفا بالقوة والمنعة ، ومنه قولهم : أرض عزاز إذا كانت صلبة قوية ). العليم ) أى : المطلع على أحوال خلقه دون أن يخفى عليه شئ منها .

غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا اله الا هو اليه المصير

كما فسرها الوسيط ( غَافِرِ الذنب ) أى : ساتر لذنوب عباده ، ومزيل لأثرها عنهم بفضله ورحمته .فلفظ ( غَافِرِ ) من الغفر بمعنى الستر والتغطية ، يقال غفر الله - تعالى - ذنب فلانٍ غَفْراً ومغفرة وغفرانا ، إذا غطاه وستره : وعفا عنه .ولفظ الذنب : يطلق على كل قول أو فعل تسوء عاقبته ، مأخوذ من ذنب الشئ ، أى : نهايته ( وَقَابِلِ التوب ) والتوب مصدر بمعنى الرجوع عن الذنب : والتوبة منه . يقال : تاب فلان عن الذنب توبة وتوبتا إذا رجع عنه .أى أنه - سبحانه يغفر ذنوب عباده ، ويقبل توبتهم فضلا منه وكرما .قال صاحب الكشاف : ما بال الواو فى قوله ( وَقَابِلِ التوب ) ؟قلت : فيها نكته جليلة وهى إفادة الجمع للمذنب التائب بين رحمتين : بين أن يقبل توبته فيكتبها ، له طاعة من الطاعات ، وأن يجعلها محاءة للذنوب ، كأنه لم يذنب . كأنه قال : جامع المغفرة والقبول . .( شَدِيدِ العقاب ) أى : لمن أشرك به ، وأعرض عن الحق الذى جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ( ذِي الطول ) أى : ذى الفضل والثواب والإنعام على من يشاء من عباده .والطّول : السعة والغنى والزيادة يقال : لفلان على فلان طول ، أى زيادة وفضل ، ومنه الطّول فى الجسم لأنه ، زيادة فيه . قال - تعالى - : ( وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً . ) أى : غنى وسعة .( لاَ إله إِلاَّ هُوَ ) أى :لا إله بحق وصدق إلا هو ( . - سبحانه - .( إِلَيْهِ المصير ) أى : إليه المرجع والمآب يوم القيامة ، ليحاسبكم على أعمالكم فى الدنيا .قال القرطبى : روى عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - أنه افتقد رجلا ذا بأس شديد من أهل الشام فلما سأل عنه قيل له : تتابع فى هذا الشراب .فقال عمر لكاتبه : اكتب من عمر بن الخطاب إلى فلان ،

سلام عليك ، وأنا أحمد الله إليك الذى لا إله هو ( بسم الله الرحمن
- الرَّحِيمِ . حما . تَنزِيلُ الكتاب مِنَ الله العزيز العليم ) .إلى قوله
تعالى - : ( إِلَيْهِ المصير ) .ثم ختم الكتاب وقال لرسوله :لا تدفعه إليه
حتى تجده صاحيا . ثم أمر من عنده بالدعاء له بالتوبة . فلما وصل الكتاب إلى
الرجل جعل يقرؤه ويقول : قد وعدنى الله أن يغفر لى ، وحذرنى عقابه ، فلم
يبرح يرددها حتى بكى ، ثم نزع فأحسن النزع وحسنت توبته .فلما بلغ عمر ذلك
قال : هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أحدكم قد زل زلته فسددوه وادعوا الله له أن
. يتوب عليه ، ولا تكونوا أعوانا للشيطان عليه

ما يجادل في ايات الله الا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد

كما فسرها الوسيط ثم هون - سبحانه - على نبيه صلى الله عليه وسلم من شأن
الكافرين ، وأخبره بأنهم أتفه من أن يغتر بهم فقال : ( مَا يُجَادِلُ فِي
آيَاتِ الله إِلاَّ الذين كَفَرُواْ فَلاَ يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي
البلاد ) .والمراد بالجدال هنا : الجدال بالباطل ، وأما الجدال من أجل
. الوصول إلى الحق فمحمود .وقوله : ( فَلاَ يَغْرُرْكَ ) جواب لشرط محذوف
والتقلب : التنقل من مكان إلى آخر من أجل الحصول على المنافع والمكاسب .أى
ما يجادل فى آيات الله الدالة على وحدانيته وقدرته ، عن طريق التكذيب بها :
والطعن فيها . . إلا الذين كفروا بالحق لما جاءهم ، وإذا تقرر ذلك ، فلا
يغررك - أيها الرسول الكريم - تقلبهم فى البلاد ، وتصرفهم فيها عن طريق
التجارات الرابحة ، وجمع الأموال الكثيرة ، فإن ما بين أيديهم من أموال
، إنما هو لون من الاستدراج ، وعما قريب ستزول هذه الأموال من بين أيديهم
. . وستكون عليهم حسرة

كذبت قبلهم قوم نوح والاحزاب من بعدهم وهمت كل امة برسولهم لياخذوه وجادلوا
بالباطل ليدحضوا به الحق فاخذتهم فكيف كان عقاب

كما فسرها الوسيط ( كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ ) أى : قبل هؤلاء الكافرين
المجادلين بالباطل ليدحضوا به الحق ( قَوْمُ نُوحٍ ) الذين أغرقناهم بسبب
هذا التكذيب لنبيهم .( والأحزاب مِن بَعْدِهِمْ ) أى : وكذلك الأقوام
الآخرون الذين جاءوا من بعد قوم نوح ، قد تحزبوا على أنبيائهم ، وأجمعوا
على تكذيبهم ، كما فعل قوم عاد مع نبيهم هود ، وكما فعل قوم ثمود مع نبيهم
) : - صالح ، وكما فعل أهل مدين مع نبيهم شعيب . .فالضمير فى قوله - تعالى
مِن بَعْدِهِمْ ) يعود إلى قوم نوح .وأفردهم - سبحانه - بالذكر لأنهم أول
قوم كذبوا رسولهم بعد أن مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما . ولم يزدهم
دعاؤه لهم إلا عتوا ونفورا .وقوله - تعالى - : ( وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ
بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بالباطل لِيُدْحِضُواْ بِهِ الحق
، بيان لما فعله هؤلاء الأقوام المجرمين ، لم يكتفوا بالتكذيب لأنبيائهم (
بل إن كل أمة منهم قد مكرت بنبيها ، وأرادت به السوء ، وحاولت أن تتمكن منه
بالأسر أو بالقتل ، وجادلته بالجدال الباطل ، لتزيل به الحق الذى جاء به من
عند ربه وتبطله .والتعبير بقوله : ( لِيَأْخُذُوهُ ) يشعر بأن هؤلاء
المجرمين كانوا حريصين على التمكن من إيذاء نبيهم ومن الاعتداء عليه ، كما
) : - يحرص الشخص على أخذ عدوه وأسره ليفعل به ما يشاء .وقوله - تعالى
فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ) بيان لما آل إليه مكرهم وجدالهم
بالباطل .أى : هموا بما هموا ، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق ، وحاولوا
أن يجعلوا رسولهم بمنزلة الأسير فيهم . فكانت نتيجة كل ذلك أن أخذناهم أخذ
عزيز مقتدر ، بأن دمرناهم تدميرا فكيف كان عقابى لهم؟ لقد كان عقابا مدمرا
. جعلهم أثرا بعد عين ، وترك آثار مساكنهم تشهد بهلاكهم واستئصالهم ،

وكذلك حقت كلمت ربك على الذين كفروا انهم اصحاب النار

): كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - سنة من سننه التى لا تتخلف فقال
وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الذين كفروا أَنَّهُمْ
أَصْحَابُ النار ) .أى : وكما حقت كلمة ربك - أيها الرسول الكريم - ووجبت
بإهلاك الأمم الماضية التى كذبت أنبياءها ، وجعلهم وقودا للنار ، فكذلك
تكون سنتنا مع المكذبين لك من قومك ، إذا ما استمروا فى تكذيبهم لك ، ولم
يعودوا إلى طريق الحق .فالآيات الكريمة تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم
. وتحذير لمشركى قريش من الاستمرار فى غيهم

الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين
امنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم
عذاب الجحيم

، كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - مظهرا من مظاهر رحمته بالمؤمنين

وتكريمهم ، فذكر أن حملة عرشه من وظائفهم الاستغفار للمؤمنين ، والدعاء لهم
. . . بالخير فقال - تعالى - :( الذين يَحْمِلُونَ العرش وَمَنْ حَوْلَهُ
- المراد بالذين يحملون العرش : عدد من الملائكة المقربين إلى الله(
تعالى - ولا يعلم عددهم أحد سوى الله - تعالى - لأنه لم يرد نص صحيح فى
تحديد عددهم .والمراد بمن حوله : عدد آخر من الملائكة يطوفون بالعرش مهللين
مسبحين مكبرين لله - تعالى - كما قال - تعالى - : ( وَتَرَى الملائكة
حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ العرش يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ . . . ) وعرش
الله - تعالى - كما قال الراغب مما لا يعلمه البشر إلا بالاسم ، فعلينا أن
نؤمن بان لله - تعالى - عرشا عظيما ، أما كيفيته وهيئته فنفوض معرفتها إلى
الخالق - عز وجل - .وقد ذكر هذا اللفظ فى القرآن الكريم فى إحدى وعشرين آية
. والاسم الموصول فى قوله - تعالى - : ( الذين يَحْمِلُونَ العرش ) مبتدأ.
وخبره قوله ( يُسَبِّحُونَ . . . ) .والجملة الكريمة مستأنفة ومسوقة لتسلية
النبى صلى الله عليه وسلم ببيان أن هؤلاء الملائكة الذين هم أقرب الملائكة
إلى الله - تعالى - يضمون إلى تسبيحهم لذاته - سبحانه - ، الاستغفار
للمؤمنين ، والدعاء لهم .وقد ذكر كثير من المفسرين كلاما طويلا فى صفة
هؤلاء الملائكة وفى صفة العرش . رأينا أن نضرب عنه صفحا لضعفه وقلة فائدته
، أى : الملائكة الكرام المقربون إلينا ، والحاملون لعرشنا ، والحافون به.
- من صفاتهم أنهم ( يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ) أى : ينزهون الله
). تعالى - عن كل نقص ، ويلهجون بحمده وبالثناء عليه بما يليق به
وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ) - تعالى - إيمانا تاما لا يشوبه ما يتنافى مع هذا
الإيمان والإذعان لله الواحد القهار .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما
فائدة قوله - تعالى - : ( وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ) ولا يخفى أن حملة العرش ومن
حوله مؤمنون؟قلت : فائدته إظهار شرف الإيمان وفضله ، والترغيب فيه ، كما
وصف الأنبياء فى غير موضع من كتابه بالصلاح كذلك ، كما عقب أعمال الخير
بقوله - تعالى - : ( ثُمَّ كَانَ مِنَ الذين آمَنُواْ ) فأبان بذلك فضل
، الإيمان .ويستغفرون للذين آمنوا ، أى : أنهم بجانب تسبيحهم وحمدهم لربهم
وإيمانهم به ، يتضرعون إليه - سبحانه - أن يغفر للذين آمنوا ذنوبهم .وفى
، هذا الاستغفار منهم للمؤمنين ، إشعار بمحبتهم لهم ، وعنايتهم بشأنهم
لأنهم مثلهم فى الإيمان بوحدانية - الله تعالى - وفى وجوب إخلاص العبادة
والطاعة له .ثم حكى - سبحانه - كيفية إستغفارهم للمؤمنين فقال : ( رَبَّنَا
وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلماً ) .والجملة الكريمة على تقدير
قول محذوف ، وهذا القول فى محل نصب على الحال من فاعل ( وَيَسْتَغْفِرُونَ
وقوله ( رَّحْمَةً وَعِلْماً ) منصوبان على التمييز .أى : إنهم يستغفرون (
للذين آمنوا ، حالة كونهم قائلين : يا ربنا يا من وسعت رحمتك ووسع علمك كل
شئ ، تقبل دعاءنا .( فاغفر ) بمقتضى سعة رحمتك وعلمك ( لِلَّذِينَ تَابُواْ
). إليك توبة صادقة نصوحا ( واتبعوا سَبِيلَكَ ) الحق ، وصراطك المستقيم (
وَقِهِمْ عَذَابَ الجحيم ) أى : وصنهم يا ربنا واحفظهم من الوقوع فى جهنم
. لأن عذابها كرب عظيم

ربنا وادخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من ابائهم وازواجهم وذرياتهم
انك انت العزيز الحكيم

: كما فسرها الوسيط يا ( رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ ) أى
وادخلهم جناتك دخولا دائما لا انقطاع معه . يقال : عدن فلان بالمكان
يعِدنُ عَدْناً ، إذا لزمه وأقام فيه دون أن يبرحه ، ومنه سمى الشئ المخزون
فى باطن الأرض بالمعدن ، لأنه مستقر بداخلها .( التي وَعَدْتَّهُمْ ) فضلا
منك وكرما .وأدخل معهم ( وَمَن صَلَحَ ) لدخولها بسبب إيمانهم وعملهم الطيب
يا ( مِنْ آبَآئِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ )
مولانا ( العزيز ) أى : الغالب لكل شئ ( الحكيم ) فى كل تصرفاتك وأفعالك
: فالمراد بالصلاح فى قوله - تعالى - : ( وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَآئِهِمْ ).
من كان منهم مؤمنا بالله ، وعمل عملا صالحا ، ودعو لهم بذلك . ليتم سرورهم
وفرحهم إذ وجود الآباء والأزواج والذرية مع الإنسان فى الجنة ، يزيد سروره
. وانشراحه

وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم

كما فسرها الوسيط ( وَقِهِمُ ) يا ربنا ( السيئات ) أى : احفظهم يا ربنا من
ارتكاب الأعمال السيئات ، ومن العقوبات التى تترتب على ذلك ، بأن تتجاوز عن
خطاياهم .( وَمَن تَقِ السيئات يَوْمَئِذٍ ) أى : فى يوم القيامة الذى
تجازى فيه كل نفس بما كسبت ( فَقَدْ رَحِمْتَهُ ) أى : فقد رحمته برحمتك
، الواسعة من كل سوء .( وَذَلِكَ ) الذى تقدم من رحمتهم ومن إدخالهم الجنة
ومن وقايتهم السوء .( هُوَ الفوز العظيم ) الذى لا يضارعه فوز ، والظفر
الكبير الذى لا يقاربه ظفر ، والأمل الذى لا مطمع وراءه لطامع .وبذلك نرى
هذه الآيات الكريمة ، قد أخبرتنا أن الملائكة المقربين يدعون للمؤمنين بما

. يسعدهم فى دنياهم وآخرتهم

ان الذين كفروا ينادون لمقت الله اكبر من مقتكم انفسكم اذ تدعون الى الايمان فتكفرون

: كما فسرها الوسيط وكعادة القرآن الكريم فى قرن الترغيب بالترهيب أو العكس جاء الحديث بعد ذلك عن الكافرين . مبينا انقطاعهم عن كل من يشفع لهم ، أو يدعو لهم بخير - كما دعا الملائكة للمؤمنين - فقال - تعالى - :( إِنَّ الذين كَفَرُوا . . . ) .المقت أشد أنواع البغض والغضب . يقال : مقته مقتا إذا غضب عليه غضبا شديدا ، ومنه قوله - تعالى - ( وَلاَ تَنكِحُواْ مَا ، نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِّنَ النسآء إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَآءَ سَبِيلاً ) والمنادى لهؤلاء الكافرين : هم ، الملائكة خزنة النار ، أو المؤمنون . وهذا النداء إنما يكون يوم القيامة ، يوم توفى كل نفس ما كسبت .أى : إن الذين كفروا بعد أن أحاطت بهم النار وبعد أن عادوا على أنفسهم بأشد ألوان الندامة والحسرة والمقت . لإيثارها الكفر على الإيمان .بعد كل ذلك ( يُنَادَوْنَ ) بأن يقال لهم : إن مقت الله - تعالى - لكم بسبب إصراركم على الكفر حتى هلكتم . . أشد وأعظم من : مقتكم لأنفسكم مهما بلغ مقتكم لها وكراهيتكم لها .قال الآلوسى ما ملخصه قوله ( يُنَادَوْنَ ) المنادى لهم الخزنة أو المؤمنون يقولون إعظاما لحسرتهم : ( لَمَقْتُ الله أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ) وهذا . . معمول للنداء لتضمنه معنى القول ، كأنه قيل : ينادون مقولا لهم : لمقت ومقت مصدر مضاف إلى الاسم الجليل : إضافة المصدر لفاعله ، وكذا إضافة المقت الثانى إلى ضمير الخطاب . .وقوله - سبحانه - : ( إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ، الإيمان فَتَكْفُرُونَ ) تعليل لمقت الله أى : لغضب الله - تعالى - عليكم أشد من غضبكم على أنفسكم الأمارة بالسوء وذلك لأنكم جاءتكم دعوة الحق على ألسنة رسلكم ، فأعرضتم عنها وصممتم على الكفر والفسوق والعصيان ، حتى . أدرككم الموت ، وها أنتم اليوم تجزون ما كنتم تعملونه فى الدنيا

قالوا ربنا امتنا اثنتين واحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل الى خروج من سبيل

- كما فسرها الوسيط ثم يحكى - سبحانه - ما يقوله الكافرون بعد أن أنزل بهم سبحانه - عقابه العادل فيقول : ( قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا اثنتين وَأَحْيَيْتَنَا اثنتين . . . ) .وأرادوا بالموتة الأولى : خلقهم من مادة لا روح فيها وهم فى بطون أمهاتهم . . وأرادوا بالثانية : قبض أرواحهم عند انقضاء آجالهم .وأرادوا بالحياة الأولى : نفخ أرواحهم فى أجسادهم وهى فى الأرحام ، وأرادوا بالثانية إعادتهم إلى الحياة يوم البعث ، للحساب والجزاء وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - :( كَيْفَ تَكْفُرُونَ بالله وَكُنْتُمْ . ) ( . . . أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمّ يُمِيتُكُمْ ثُمّ يُحْيِيكُمْ فاعترفنا بِذُنُوبِنَا ) أى : أنت يا ربنا الذى - بقدرتك وحدها - أمتنا إماتتين اثنتين ، وأحييتنا إحياءتين اثنتين ، وها نحن قد اعترفنا بذنوبنا التى وقعت منا فى الدنيا ، وندمنا على ما كان منا أشد الندم . .( فَهَلْ إلى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ) أى : فهل بعد هذا الاعتراف ، فى الإمكان أن . تخرجنا من النار ، وأن تعيدنا إلى الحياة الدنيا ، لنؤمن بك حق الإيمان ونعمل غير الذى كنا نعمل .فأنت ترى أن الآية تصور ذلهم وحسرتهم أكمل تصوير وأنهم يتمنون العودة إلى الدنيا ليتداركوا ما فاتهم ، ولكن هذا التمنى ، - والتلهف جاء بعد فوات الأوان .قال ابن كثير ما ملخصه : هذه الآية كقوله تعالى - :( كَيْفَ تَكْفُرُونَ بالله وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمّ يُمِيتُكُمْ ثُمّ يُحْيِيكُمْ . . . ) وهذا هو الصواب الذى لا شك ، فيه ولا مرية .وقال السدى : أميتوا فى الدنيا ثم أحيوا فى قبورهم فخوطبوا ثم أميتوا ثم أحيوا يوم القيامة .وقال ابن زيد : أحيوا حين أخذ عليهم الميثاق من صلب آدم ، ثم خلقهم فى الأرحام . ثم أماتهم يوم القيامة .وهذا القولان ضعيفان لأنه يلزمهما على ما قالا ثلاث إحياءات وإماتات .والمقصود - من هذا كله أن الكفار يسألون الرجعة وهم وقوف بين يدى الله ، كما قال تعالى - ( وَلَوْ ترى إِذِ المجرمون نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فارجعنا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ ).

ذلكم بانه اذا دعي الله وحده كفرتم وان يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن تذللهم هذا لن يجديهم ، وأن ما هم فيه من عذاب سببه إعراضهم عن دعوة الحق فى الدنيا ، فقال : ( ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ الله وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ

تُؤْمِنُواْ فالحكم للّهِ العلي الكبير ) .أى : ذلكم الذى نزل بكم من عذاب سببه ، أنكم كنتم فى الدنيا إذا عبد الله - تعالى - وحده ، وطلب منكم ذلك كفرتم به - عز وجل - ، وإن يشرك به غيره من الأصنام أو غيرها آمنتم ، وما دام هذا حالكم فى الدنيا ، فأخسأوا فى النار ولا تؤملوا فى الخروج منها ، بحال من الأحوال ، فالحكم لله وحده دون غيره ، وهو سبحانه الذى حكم عليكم بما حكم . .وهو - سبحانه - ( العلي ) أى : المتعالى عن أن يكون له مماثل فى ذاته أو صفاته ( الكبير ) أى : العظيم الذى هو أعظم وأكبر من أن يكون له شريك أو صاحبة أو ولد .وجمع - سبحانه - لذاته بين هذين الوصفين للدلالة على كبريائه وعظمته .

هو الذي يريكم اياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر الا من ينيب

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ما يدل على فضله ورحمته بعباده وعلى وحدانيته وكمال قدرته ، وعلى أن يوم القيامة آت لا ريب فيه ، وعلى ، أن كل نفس ستجازى فى هذا اليوم بما كسبت بدون ظلم أو محاباة ، لأن القضاء فيه لله الواحد القهار . فقال - تعالى - :( هُوَ الذي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ . . . )المقصود بآياته - عز وجل - فى قوله : ( هُوَ الذي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ . . . ) الدلائل الدالة على وحدانيته وقدرته ، كخلقه للشمس والقمر والليل والنهار ، والبحار والأنهار ، والسماء والأرض ، والمطر والرعد ، والنجوم والرياح ، والأشجار الكبيرة والصغيرة . . إلى غير ذلك من آياته التى لا تحصى فى هذا الوجود . .أى : هو - سبحانه - الذى يريكم آياته الدالة على وحدانيته وقدرته ، لتزدادوا - أيها المؤمنون - إيمانا على إيمانكم ، وثباتا على ثباتكم ، ويقينا على يقينكم ، بأن المستحق للعبادة والطاعة هو الله الواحد القهار .وقد ساق - سبحانه - فى كتابه عشرات الآيات الدالة على وحدانيته وقدرته ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ( إِنَّ فِي خَلْقِ السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيَاتٍ لأُوْلِي الألباب ) وقوله عز وجل : ( وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بالليل والنهار وابتغاؤكم مِّن فَضْلِهِ . . ) وقوله - تعالى - : ( إِنَّ فِي اختلاف الليل والنهار وَمَا خَلَقَ الله فِي السماوات والأرض لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ) والمراد بالرزق فى قوله : ( وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السماء رِزْقاً ) . . الأمطار التى تنزل من السماء على الأرض ، فتحييها بعد موتها ، بأن تحولها من أرض جدباء يابسة ، إلى أرض خضراء بشتى الزروع والثمار .وأطلق - سبحانه - على المطر رزقا . لأنه سبب فيه ، وأفرده بالذكر مع كونه من جملة الآيات التى ، يريها - تعالى - لعباده لتفرده بعنوان كونه من آثار رحمته ، وجلائل نعمه ) : - الموجبة لشكره - عز وجل - ، ولوجوب إخلاص العبادة له .وقوله - تعالى وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَن يُنِيبُ ) بيان لمن هو أهل للانتفاع بهذه الآيات .أى : وما يتذكر وينتفع بهذه الآيات إلا من يرجع عن المعصية إلى الطاعة وعن الكفر إلى الإيمان ، وعن العناد والجحود ، إلى التفكر والتدبر بقلب سليم .فقوله ( يُنِيبُ ) من الإنابة ، ومعناها الرجوع عن الكفر والمعاصى : إلى الإيمان والطاعة .

فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون

كما فسرها الوسيط والفاء فى قوله - تعالى - : ( فادعوا الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين . . . ) للإفصاح عن شرط مقدر . أى : إذا كان الأمر كما ذكرت لكم من أن كل شئ فى هذا الوجود يدل على وحدانية الله - تعالى - فأخلصوا له - العبادة والطاعة ( وَلَوْ كَرِهَ الكافرون ) منكم ذلك - أيها المؤمنون . فلا تلتفتوا إلى كراهيتهم ، وامضوا فى طريق الحق ، ودعوهم يموتوا بغيظهم - وقد أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة ، وجوب إخلاص العبادة لله - تعالى. ووجوب الإكثار من التضرع إليه بالدعاء .ومن الأحاديث التى أوردها الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ، ما رواه الإمام مسلم وأبو داود ، والنسائى ، وأحمد ، عن أبى الزبير محمد بن مسلم المكى قال : كان عبد الله بن الزبير يقول فى دبر كل صلاة حين يسلم : "لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شئ قدير ، لا حول ولا قوة إلا بالله لا إله إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه ، له النعمة وله الفضل ، وله الثناء ، الحسن ، لا إله إلا الله ، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون قال : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يهلل بهن دبر كل صلاة " .

رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من امره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق

كما فسرها الوسيط ثم يذكر - سبحانه - بعد ذلك من صفاته العظمى ، ما يزيد المؤمنين فى إخلاص العبادة له ، فيقول : ( رَفِيعُ الدرجات ذُو العرش . . ) أى : هو - تعالى - وحده صاحب الرفعة والمقام العالى ، وهو وحده صاحب العرش

العظيم ، الذى لا يعلم مقدار عظمته إلا هو . .قال الآلوسى قوله : ( رَفِيعُ
. . الدرجات ) رفيع صفة مشبهة أضيفت إلى فاعلها من رُفِعَ الشئ إذا علا
والدرجات : مصاعد الملائكة إلى أن يبلغوا العرش ، أى : رفيع درجات ملائكته
ومعارجهم إلى عرشه . . ويجوز أن يكون كناية عن رفعة شأنه وسلطانه - عز
- شأنه - كما أن قوله - تعالى - : ( ذُو العرش ) كناية عن ملكه - جل جلاله
والمراد بالروح فى قوله - تعالى - : ( يُلْقِي الروح مِنْ أَمْرِهِ على.
مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ ) : الوحى الذى يوحى به على أنبيائه ، وأمين
هذا الوحى جبريل - عليه السلام - .أى : هو وحده - سبحانه - الذى يلقى الوحى
حالة كون هذا الوحى ناشئا من أمره وقضائه على من يختاره لهذا الإلقاء من .
عباده الصالحين . فقوله ( مِنْ أَمْرِهِ ) متعلق بمحذوف حال من الروح .وسمى
- الوحى روحا ، لأن الأرواح تحيا به ، كما أن الأجساد تحيا بالغذاء .وقوله
- تعالى - : ( لِيُنذِرَ يَوْمَ التلاق ) بيان للوظيفة الخاصة بمن يختاره
سبحانه - من عباده لإلقاء الوحى عليه .والإنذار : الإعلام المقترن
بالتخويف والتحذير ، فكل إنذار إعلام ، وليس كل إعلام إنذاراً .والمراد
بيوم التلاق : يوم القيامة ، وسمى بيوم التلاق لأنه يتلاقى فيه الأولون
والآخرون والمؤمنون والكافرون ، والظالمون والمظلومون . . الكل يتلاقى فى
- ساحة المحشر ليقضى الله - تعالى - فيهم بقضائه العادل .أى : يلقى
سبحانه - بوحيه على أنبيائه ، لينذروا الناس ويحذروهم من سوء العذاب يوم
. القيامة ، إذا ما استمروا فى كفرهم وعصيانهم لخالقهم

يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار

، كما فسرها الوسيط ثم صور - سبحانه - أحوال الناس فى هذا اليوم العصيب
. . . فقال : ( يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لاَ يخفى عَلَى الله مِنْهُمْ شَيْءٌ
- وهذه الجملة الكريمة بدل من قوله ( يَوْمَ التلاق ) أى : يلقى - سبحانه(
على من يشاء من عباده ، لكى ينذر الناس من أهوال ذلك اليوم الذى يتلقى فيه
- الخلائق ، والذى يظهرون فيه ظهورا تاما ، دون أن يخفى منهم شئ على الله
تعالى - .والله - تعالى - لا يخفى عليه شئ من أمرهم لا فى هذا اليوم ولا فى
، غيره ، ولكنه - سبحانه - ذكر بروزهم وعدم خفائهم عليه فى هذا اليوم
لأنهم - لجهلهم - كانوا يتوهمون فى الدنيا أنهم يستطيعون التستر عنه ، كما
أشار - سبحانه - إلى ذلك فى قوله - تعالى -( ألا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ
صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ ألا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ
يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور
ورحم الله صاحب الشكاف : فقد قال : قوله : ( يَوْمَ هُم بَارِزُونَ ) أى (
ظاهرون لا يسترهم شئ من جبل أو أكمة أو بناء ، لأن الأرض بارزة قَاع صفصف :
ولا عليهم ثياب ، إنما هم عراة مكشوفون ، كما جاء فى الحديث : " يحشرون ،
عراة حفاة غرلا " ( لاَ يخفى عَلَى الله مِنْهُمْ شَيْءٌ ) بيان وتقرير
لبروزهم ، والله - تعالى -لا يخفى عليه منهم شئ برزوا أم لم يبرزوا ، فما
معناه؟قلت : معناه أنهم كانوا يتوهمون فى الدنيا أنهم إذا استتروا بالحيطان
والحجب ، أن الله لا يراهم وتخفى عليه أعمالهم ، فهم اليوم صائرون من
- البروز والانكشاف إلى حال لا يتوهمون فيها مثل ما كانوا يتوهمونه قال
تعالى - : ( ولكن ظَنَنتُمْ أَنَّ الله لاَ يَعْلَمُ كَثِيراً مِّمَّا
تَعْمَلُونَ . . ) وقوله - تعالى - : ( لِّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ الواحد
القهار ) السائل والمجيب هو الله - تعالى - .أى : ينادى الله - تعالى - فى
- المخلوقات فى ذلك اليوم ، لمن الملك فى هذا اليوم الهائل الشديد؟ ثم يجيب
سبحانه - على هذا السؤال بقوله : ( لِلَّهِ الواحد القهار ) .قال القرطبى
ما ملخصه : قال الحسن : هو السائل - تعالى - وهو المجيب ، لأنه يقول ذلك
حين لا أحد يجيبه ، فيجيب نفسه سبحانه فيقول : ( لِلَّهِ الواحد القهار )
فيقول المؤمنون هذا الجواب سرورا وتلذذا ، ويقوله الكافرون غما وانقيادا.
- وخضوعا .ثم قال : والقول الأول ظاهر جدا ، لأن المقصود إظهار انفراده
تعالى - بالملك عند انقطاع دعاوى المدعين ، وانتساب المنتسبين ، إذ قد ذهب
. كل ملك وملكه

اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم ان الله سريع الحساب

. كما فسرها الوسيط وبعد أن قرر - سبحانه - أن الملك فى هذا اليوم له وحده
أتبع ذلك ببيان ما يحدث فى هذا اليوم فقال : ( اليوم تجزى كُلُّ نَفْسٍ
بِمَا كَسَبَتْ . . . ) .أى : فى هذا اليوم الهائل الشديد تجازى كل نفس من
النفوس المؤمنة والكافرة ، والبارة والفاجرة . بما كسبت فى دنياها من خير
أو شر ، ومن طاعة أو معصية .( لاَ ظُلْمَ اليوم ) ولا جور ولا محاباة ولا
وساطات . . وإنما تعطى كل نفس ما تستحقه من ثواب أو عقاب .( إِنَّ الله
، سَرِيعُ الحساب ) لأنه - سبحانه -لا يحتاج إلى تفكير عند محاسبته لخلقه
بل هو - سبحانه - قد أحاط بكل شئ علما ، كما قال - تعالى - : ( عَالِمِ

الغيب لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرّةٍ فِي السماوات وَلاَ فِي الأرض
( وَلاَ أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ

وانذرهم يوم الازفة اذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع

كما فسرها الوسيط ثم يوجه الله - تعالى أمره إلى النبى صلى الله عليه وسلم بأن يحذر كفار قريش من أهوال هذا اليوم فيقول : ( وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الأزفة إِذِ القلوب لَدَى الحناجر كَاظِمِينَ . . ) .والآزفة : القيامة . - وأصل معنى الأزفة : القريبة ، وسميت القيامة بذلك لقربها ، يقال : أزف بزنة فرح - يوم الرحيل : إذا دنا وقرب .والحناجر : جمع حنجرة وهى الحلقوم وكاظمين : حال من أصحاب القلوب على المعنى . فإن ذكر القلوب يدل على ذكر. أصحابها .وأصل الكظم : الحبس والإمساك للشئ . يقال : كظم القربة إذا ملأها بالماء ، وسد فاها ، حتى لا يخرج منها شئ من الماء .والمعنى : وأنذر - أيها الرسول الكريم - الناس ، وحذرهم من أهوال يوم عظيم قريب الوقوع ، هذا اليوم تكون قلوبهم فيه مرتفعة عن مواضعها من صدورهم . ومتشبثة بحناجرهم ، ويكونون كاظمين عليها وممسكين بها حتى لا يخرج مع أنفساهم . كما يمسك صاحب القربة فمها لكى لا يتسرب منها الماء .فالآية الكريمة تصوير بديع لما يكون عليه الناس فى هذا اليوم من فزع شديد ، وكرب عظيم . وخوف ليس بعده خوف .والحديث عن قرب يوم القيامة قد جاء فى آيات كثيرة منها قوله - تعالى - : ( اقتربت الساعة وانشق القمر . . ) وقوله - سبحانه - ( اقترب لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ) والظاهر أن قوله هنا ( يَوْمَ الأزفة ) هو المفعول الثانى للإنذار ليس ظرفا له . لأن الإنذار والتخويف من أهوال يوم القيامة واقع فى دار الدنيا .وقوله : ( إِذِ القلوب ) بدل من يوم الآزفة .قال صاحب الكشاف : فإن قلت " كاظمين " بم أنتصب؟ قلت : هو حال من أصحاب القلوب على المعنى ، لأن المعنى : إذ قلوبهم لدى حناجرهم كاظمين عليها . ويجوز أن يكون حالا من القلوب ، وأن القلوب ، كاظمة على غم وكرب فيها مع بلوغها الحناجر .وإنما جُمِع السلامة ، لأنه وصفها بالكظم الذى هو من أفعال العقلاء ، كما قال - تعالى - : ( والشمس والقمر رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ . . . ) وقوله - تعالى - : ( مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ ) نفى لكون هؤلاء الظالمين يوجد فى هذا اليوم من ينفعهم أو يدافع عنهم .والحميم : هو الإنسان الذى يحبك ويشفق عليك ويهتم بأمرك ، ومنه قيل لخاصة الرجل : حَامَّتُهُ .والشفيع : من الشفع ، بمعنى الانضمام ، يقال شفع فلان لفلان إذا انضم إليه ليدافع عنه .أى : ليس للظالمين فى هذا اليوم قريب أو محب يعطف عليهم ، ولا شفيع يطيعهم فى الشفاعة لهم ، لأنهم فى هذا اليوم يكونون محل غضب الجميع ونقمتهم ، بسبب ظلمهم وإصرارهم على كفرهم .فالآية الكريمة نفت عنهم الصديق الذى يهتم بأمرهم ، والشفيع الذى يشفع لهم ، والإنسان الذى تكون له أية كلمة تسمع فى شأنهم .

يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور

كما فسرها الوسيط ثم أكد - سبحانه - شمول علمه لكل شئ فقال : ( يَعْلَمُ خَآئِنَةَ الأعين وَمَا تُخْفِي الصدور ) .والمراد بخائنة الأعين : النظرة الخائنة التى يتسلل بها المتسلل ليطلع على ما حرم الله الاطلاع عليه والجملة خبر لمبتدأ محذوف . والإضافة فى قوله ( خَآئِنَةَ الأعين ) على. معنى من ، وخائنة : نعت لمصدر محذوف .أى : هو - سبحانه - يعلم النظرة الخائنة من الأعين ، وهى التى يوجهها صاحبها فى تسلل وخفية إلى محارم ، الله - تعالى - كما يعلم - سبحانه - الأشياء التى يخفيها الناس فى صدورهم وسيجازيهم على ذلك فى هذا اليوم بما يستحقون .قال القرطبى : " ولما جئ بعبد الله بن أبى سرح إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدما اطمأن أهل مكة ، وطلب له الأمان عثمان بن عفان ، صمت رسول الله صلى الله عليه وسلم طويلا ، ثم قال : " نعم " .فلما انصرف قال صلى الله عليه وسلم لمن حوله : " ما صمت إلا ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه " .فقال رجل من الأنصار : فهلا أو مأت إلى " يا رسول الله؟ فقال : " إن النبى لا تكون له خائنة أعين .

والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء ان الله هو السميع البصير

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ان القضاء الحق فى هذا اليوم مرده إليه وحده فقال : ( والله يَقْضِي بالحق . . . ) .أى : والله - تعالى - يقضى بين عباده قضاء ملتبسا بالحق الذى لا يحوم حوله باطل .( والذين يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَقْضُونَ بِشَيْءٍ . . ) أى : والآلهة الذين يعبدهم الكفار من دون الله - تعالى -لا يقضون بشئ أصلا ، لأنهم لا يعلمون شيئا ، ولا يقدرون

- على شئ ، وإذا فهم أعجز وأتفه من أن يلتفت إليهم .( إِنَّ اللَّه ) - تعالى
لكل شئ ( البصير ) بكل شئ ، لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا ( هُوَ السميع )
. فى السماء

اولم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم
اشد منهم قوة واثارا في الارض فاخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من
واق

كما فسرها الوسيط ثم وبخ - سبحانه - هؤلاء الظالمين على عدم اعتبارهم
واتعاظهم بمن كان قبلهم فقال : ( أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ
فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذين كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ
كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الأرض فَأَخَذَهُمُ
الله بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ الله مِن وَاقٍ ) .أى : أبلغت
- الجهالة والغفالة وانطماس البصيرة بهؤلاء المشركين من قومك - يا محمد
أنهم لم يعتبروا ولم يتعظوا بالظالمين السابقين الذين دمرناهم تدميرا .إنهم
، يمرون عليهم مصبحين وبالليل ، وإنهم ليشاهدون آثارهم ماثلة أمام أعينهم
يشاهدون آثار قوم صالح ، ويشاهدون آثار غيرهم .ولقد كان هؤلاء السابقون
الظالمون ، أشد من مشركى قريش فى القوة والبأس ، وأشد منهم فى إقامة
، المبانى الفارهة ، والحصون الحصينة . .فلما استمروا فى جحودهم وكفرهم
أخذهم الله - تعالى - أخذ عزيز مقتدر ، بسبب ذنوبهم . وما كان لهم من دون
. الله - تعالى - من يدفع عنهم عذابه ، أو يقيهم من بأسه

ذلك بانهم كانت تاتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فاخذهم الله انه قوي شديد
العقاب

كما فسرها الوسيط ( ذَلِكَ ) الأخذ من أسبابه ( بِأَنَّهُمْ كَانَت
تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بالبينات ) أى : بالدلائل الواضحات على صدقهم فيما
) يبلغونهم عن ربهم .( فَكَفَرُواْ ) أى : بالرسل وبما جاءوهم به
فَأَخَذَهُمُ الله ) أى : فأهلكهم - سبحانه - ( إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ
، العقاب ) أى : إنه - سبحانه - قوى لا يحول بين ما يريد أن يفعله حائل
شديد العقاب لمن كفر به ، وأعرض عن دعوة رسله .وبذلك نرى الآيات الكريمة قد
ساقت لنا أنواعا متعددة من مظاهر قدرة الله ، ومن أهوال يوم القيامة ، ومن
. علمه الشامل لكل شئ ، ومن قضائه العادل ومن أخذه للظالمين أخذ عزيز مقتدر

ولقد ارسلنا موسى باياتنا وسلطان مبين

كما فسرها الوسيط ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن جانب من قصة
موسى - عليه السلام - مع فرعون . فذكرت جانبا من التهديدات التى وجهها
فرعون إلى موسى وقومه ، وكيف أن موسى - عليه السلام - رد عليه ردا قويا
. . . حكيما ، فقال - تعالى - :( وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا موسى بِآيَاتِنَا
المراد بآياتنا فى قوله : ( وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا موسى بِآيَاتِنَا ) تلك(
الآيات التسع التى أعطاها الله - تعالى - لموسى ، لتكون معجزات له دالة على
، صدقة ، وهى : العصا ، واليد ، والسنون ، والبحر ، والطوفان ، والجراد
والقمل والضفادع ، والدم .قال - تعالى - ( وَلَقَدْ آتَيْنَا موسى تِسْعَ
آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ . . ) والمراد بالسلطان المبين : الحجة القاهرة الظاهرة
- التى تغلب بها فى الحجاج والجدال على فرعون .أى : والله لقد منحنا موسى
عليه السلام - بفضلنا وقدرتنا معجزات باهرات ، ومنحناه - أيضا - حجة قوية
. واضحة ، يدمر بها حجج أعدائه

الى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( إلى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ
وَقَارُونَ . . . ) بيان لمن أرسله الله - تعالى - إليهم .وفرعون : لقب لكل
ملك من ملوك مصر فى تلك العهود السابقة ، والمراد به هنا : ذلك الملك
الجبار الظالم الذى أرسل فى عهده موسى - عليه السلام - ، ويقال إنه " منفاخ
بن رمسيس الثانى .و ( هَامَانَ ) هو وزير فرعون ( قَارُونَ ) هو الذى كان "
من قوم موسى فبغى عليهم . وأعطاه الله - تعالى - الكثير من الأموال . . ثم
خسف به وبداره الأرض .وخص - سبحانه - هؤلاء الثلاثة بالذكر ، مع أن رسالة
موسى كانت لهم ولأتباعهم ، لأنهم هم الزعماء البارزون ، الذين كانوا يدبرون
) : المكايد ضد موسى - عليه السلام - فيتبعهم العامة من أقوامهم .وقوله
فَقَالُواْ سَاحِرٌ كَذَّابٌ ) أرسلنه إلى هؤلاء الطغاة ومعه آياتنا الدالة
. على صدقه ، فكان جوابهم على دعوته إياهم إلى عبادة الله - تعالى - وحده
أن قالوا فى شأنه ، إنه ساحر يموه على الناس بسحره ، وأنه كذاب فى دعواه
أنه رسول من رب العالمين .وهكذا كانت نتيجة أول لقاء بين موسى - عليه

السلام - وبين هؤلاء الطغاة الظالمين . أنهم وصفوه بالسحر والكذب ، وهو المؤيد بآيات الله ، وبحججه الظاهرة . وما وصفوه بذلك إلا من أجل الحسد والعناد ، والحرص على دنياهم وملكهم .

فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا ابناء الذين امنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين الا في ضلال

كما فسرها الوسيط ثم لم يكتفوا بهذا القول ، بل انتقلوا إلى مرحلة أخرى أشد وأطغى ، فقالوا - كما حكى القرآن عنهم : ( فَلَمَّا جَآءَهُمْ بالحق مِنْ عِندِنَا قَالُواْ اقتلوا أَبْنَآءَ الذين آمَنُواْ مَعَهُ واستحيوا نِسَآءَهُمْ . . . ) .أى : فحين وصل إليهم موسى - عليه السلام - بدعوته وخاطبهم بما أمره الله - تعالى - أن يخاطبهم به ، وجابههم بالحق الذى زوده الله - تعالى - به .ما كان منهم إلا أن قالوا - على سبيل التهديد والوعيد - اقتلوا الذكور من أبناء الذين آمنوا مع موسى ، ودخلوا فى دينه ، واتركوا : الإناث بدون قتل لخدمتكم ، وليكون ذلك أبلغ فى إذلالهم . إذ بقاء النساء بدون رجال فتنة كبيرة . وذل عظيم .والتعبير بقوله : ( فَلَمَّا جَآءَهُمْ بالحق مِنْ عِندِنَا ) يشعر بأن هؤلاء الظالمين قد جاءهم الحق إلى بيوتهم ، ومساكنهم ، وأنهم لم يخرجوا لطلبه ، وإنما هو الذى جاءهم عن طريق موسى المؤيد بآيات الله - تعالى - .والقائلون : ( اقتلوا أَبْنَآءَ الذين آمَنُواْ مَعَهُ واستحيوا نِسَآءَهُمْ ) هم الملأ من قوم فرعون الذين كانوا يزينون له الظلم والعدوان . إرضاء له . وإرهابا لموسى - عليه السلام - ولمن آمن معه .قال الإمام الرازى : والصحيح أن هذا القتل كان غير القتل الذى وقع فى وقت ولادة موسى ، لأن القتل فى ذلك الوقت كان بسبب أن المنجمين قد أخبروا فرعون بولادة عدو له يظهر عليه ، فأمر بقتل الأبناء فى ذلك الوقت . وأما فى هذا الوقت . فموسى - عليه السلام - كان قد جاءه وأظهر المعجزات ، فعند ذلك أمر بقتل أبناء الذين آمنوا معه ، لئلا ينشأوا على دين موسى فيقوى بهم . وهذه العلة مختصة بالبنين دون البنات . فلهذا السبب أمر بقتل الأبناء . .وقوله - تعالى - : ( وَمَا كَيْدُ الكافرين إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ ) توهين لشأن الكافرين فى كل زمان ومكان ، وتشجيع للمؤمنين على أن يسيروا فى طريق الحق دون أن يرهبهم وعد أو وعيد . فإن النصر سيكون فى النهاية لهم أى : وما كيد الكافرين ومكرهم وعدوانهم ، إلا مصيره إلى الضلال والضياع. والبطلان . يقال : ضل فلان الطريق إذا ضاع منه الرشد . والتبست عليه السبل وصار تائها لا يعرف له طريقا يوصله إلى ما يريد .والجملة الكريمة معطوفة على قوله : ( قَالُواْ اقتلوا أَبْنَآءَ الذين آمَنُواْ مَعَهُ ) وجملة ) وَمَا كَيْدُ الكافرين إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ ) اعتراضية ، جئ بها مسارعة لبيان خسرانهم وضلالهم .

وقال فرعون ذروني اقتل موسى وليدع ربه اني اخاف ان يبدل دينكم او ان يظهر في الارض الفساد

كما فسرها الوسيط أى : وقال فرعون لحاشيته ومستشاريه وخاصته : اتركونى لأقتل موسى - عليه السلام - وأتخلص منه ومن أقواله التى فيها ما فيها من الضرر بى وبكم .ويبدو من أسلوب الآية الكريمة أن اتجاه فرعون لقتل موسى كان يجد معارضة مستشاريه . لأنهم يرون أن قتله لا ينهى المتاعب ، بل قد يزيدها اشتعالا لأن عامة الناس سيفهمون أن قتل موسى كان بسبب أنه على الحق ، فتثور ثائرتهم لقتله ، أو لأنهم كانوا يخافون أن قتله سيؤدى إلى نزول العذاب بهم غضبا من رب موسى ، ولعل بعضهم كان يعتقد أن موسى على حق ولكن الخوف منعه ، من الجهر بذلك ، أو لأنهم كانوا يرون أن قتل موسى سيؤدى إلى تفرغ فرعون لهم وهم لا يريدون هذا التفرغ ، لأنه يؤدى إلى ضياع الكثير من منافعهم .قال ، صاحب الكشاف : قوله : ( ذروني أَقْتُلْ موسى ) كانوا إذا هم بقتله كفّوه بقولهم : ليس موسى بالذى تخافه . وهو أقل من ذلك وأضعف وما هو إلا بعض السحرة . . وإنك إذا قتلته أدخلت الشبهة على الناس . واعتقدوا أنك قد عجزت عن معارضة بالحجة .والظاهر أن فرعون - لعنه الله - كان قد استيقن أن موسى نبيا .وأن ما جاء به آيات وما هو بسحر ، ولكن الرجل كان قتالا سفاكا للدماء فى أهون شئ ، فكيف لا يقتل من أحس منه بأنه هو الذى يثل عرشه . ويهدم ملكه ولكنه كان يخاف إن همّ بقتله . أن يعاجل بالهلاك . .وقوله : ( وَلْيَدْعُ . رَبَّهُ ) تظاهر من فرعون بأنه لا يبالى بما يكون من وراء قتله لموسى وأنه غير مكترث لا بموسى ولا برب موسى .فالجملة الكريمة بيان لما جبل عليه هذا الطاغية من فجور وتكبر واستهزاء بالحق فكأنه يقول : إنى قاتل لموسى ، وليدع ربه لكى يخلصه منى . . !!ثم نرى فرعون بعد ذلك يتظاهر أمام حاشيته أنه ما حمله على إرادة قتل موسى ، إلا الحرص على منفعتهم . فيقول : ( إني أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأرض الفساد )أى : اتركونى لأقتل موسى . وليدع ربه لكى يخلصه منى . إن كان فى إمكانه ذلك . فإنى أخاف إن لم أقتله أن يبدل دينكم الذى أنتم عليه بدين آخر أو أبان يظهر

فى الأرض التى تعيشون عليها الفساد ، عن طريق بث الفتن بينكم وإيقاد نار العداوة فى صفوفكم . والعمل على اضطراب أمر دنياكم ومعاشكم .وهكذا الطغاة الماكرون فى كل زمان ومكان : يضربون الحق بكل سلاح من أسلحتهم الباطلة . ثم يزعمون بعد ذلك أمام العامة والبسطاء والمغلوبين على أمرهم . . أنهم ما فعلوا ذلك إلا من أجل الحرص على مصالحهم الدينية والدنيوية!!قال الإمام الرازى : والمقصود من هذا الكلام ، بيان السبب لقتل موسى ، وهو أن وجوده يوجب إما فساد الدين أو فساد الدنيا ، أما فساد الدين فلأن القوم اعتقدوا أن الدين الصحيح هو الذى كانوا عليه . فلما كان موسى ساعيا فى إفساده كان فى اعتقادهم أنه ساع فى إفساد الدين الحق .وأما فساد الدنيا فهو أنه لا بد وأن يجتمع عليه قوم ، ويصير ذلك سببا لوقوع الخصومات وإثارة الفتن .ولما كان حب الناس لأديانهم فوق حبهم لأموالهم ، لا جرم بدأ فرعون يذكر الدين فقال :( إني أَخَافُ أن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ) ثم أتبعه بذكر فساد الدنيا فقال : ( أَوْ أن يُظْهِرَ فِي الأرض الفساد )

وقال موسى اني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - ما قاله موسى عليه السلام - بعد أن سمع من فرعون تهديداته له ، وتطاوله عليه ، فقال - تعالى - : ( وَقَالَ موسى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الحساب ) .وقوله ( عُذْتُ ) بمعنى استجرت ولجأت . يقال : عاذ فلان بفلان واستعاذ به ، إذا لجأ إليه . واستجار به .أى : وقال موسى - عليه السلام - لقومه على سبيل التثبيت لهم على الحق يا قوم . إنى استجرت وتحصنت بربى وربكم من شر كل مستكبر عن الإيمان بالحق ، كافر بيوم الحساب وما فيه ، من ثواب وعقاب .وفى هذا القول الذى قاله موسى لقومه : يتجلى صدق إيمانه وقوة يقينه ووثوقه برعاية الله - تعالى - له ، كما يتجلى فيه حرصه على نصحه لقومه بالثبات على الحق ، لأن الله - تعالى - الذى هو ربه وربهم ، كفيل برعايته ورعايتهم وبانجائه وبإنجائهم من فرعون وملئه ، كما يتجلى فيه أن الاستكبار عن اتباع الحق ، والتكذيب بالبعث ، على رأس الأسباب التى تعين على قسوة القلب ، وفساد النفس .قال صاحب الكشاف : وقوله : ( وَرَبِّكُمْ ) فيه بعث لهم على أن يقتدوا به ، فيعوذوا بالله عياذه ، ويعتصموا بالتوكل عليه اعتصامه ، وقال : ( مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ ) لتشمل استعاذته من فرعون وغيره من الجبابرة ، وليكون على طريقة التعريض ، فيكون أبلغ . وأراد بالتكبر : الاستكبار عن الإذعان للحق ، وهو أقبح استكبار وأدله على دناءة صاحبه ، ومهانة نفسه ، وعلى فرط ظلمه وعسفه .وقال : ( لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الحساب ) لأنه إذا اجتمع فى الرجل التجبر والتكذيب بالجزاء وقلة المبالاة بالعاقبة ، فقد استكمل أسباب القسوة والجراءة على الله وعباده ولم يترك عظيمة إلا ارتكبها . .وخلا هذا الوعيد والتهديد من فرعون وملئه لموسى - عليه السلام - ، قيض الله - تعالى - لموسى رجلا مؤمنا من آل فرعون كان يخفى إيمانه . هذا الرجل أخذ يدافع عن موسى دفاعا حكيما مؤثرا ، يحمل الترغيب تارة والترهيب أخرى ، والإرشاد تارة والتأنيب أخرى . . ويحكى القرآن ذلك بأسلوبه البليغ فيقول :( وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ . . . ) .

وقال رجل مؤمن من ال فرعون يكتم ايمانه اتقتلون رجلا ان يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وان يك كاذبا فعليه كذبه وان يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم ان الله لا يهدي من هو مسرف كذاب

. . . كما فسرها الوسيط ( وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ - قال الإمام الرازى : اعلم أنه - تعالى - لما حكى عن موسى - عليه السلام( - أنه ما زاد فى دفع مكر فرعون وشره على الاستعاذة بالله ، بين أنه - تعالى قيض إنسانا أجنبيا غير موسى حتى ذب عنه على أحسن الوجوه ، وبالغ فى تسكين تلك الفتنة ، واجتهد فى إزالة ذلك الشر .ثم قال - رحمه الله - يقول مصنف هذا الكتاب : ولقد جريت فى أحوال نفسى أنه كلما قصدنى شرير بشر ولم أتعرض له ، وأكتفى بتفويض ذلك الأمر إلى الله ، فإنه - سبحانه - يقيض أقواما لا أعرفهم ألبتة . يبالغون فى دفع ذلك الشر . .وظاهر الآية الكريمة يفيد أن هذا الرجل المؤمن كان من حاشية فرعون بدليل قوله - تعالى - : ( مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ ) ولم يكن من بنى إسرائيل .وقد رجح ابن جرير - رحمه الله - ذلك فقال : وأولى القولين فى ذلك بالصواب عندى : القول الذى قاله السدى من أن الرجل المؤمن كان من آل فرعون ، ولذا فقد أصغى لكلامه واستمع منه ما قاله ، وتوقف عن قتل موسى عند نهيه عن قتله . . ولو كان إسرائيليا لكان حريا أن يعاجل هذا القائل له ولملئه بالعقوبة على قوله ، لأنه لم يكن ستنصح بنى إسرائيل لاعتداده إياهم أعداء له . . ولكنه لما كان من ملأ قومه ، استمع إليه ، وكف فرعون عما كان قد هم به من قتل موسى . .قالوا : وهذا الرجل المؤمن هو الذى نصح موسى - عليه السلام - بقوله : ( إِنَّ الملأ

يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فاخرج إِنِّي لَكَ مِنَ الناصحين ) وكان
، اسمه " حزقيل " او " حبيب " .أى : وقال رجل مؤمن من آل فرعون وحاشيته
: وكان يكتم إيمانه عنهم ، حتى لا يصيبه أذى منهم ، فعندما سمع فرعون يقول
قال لهم : ( أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أن يَقُولَ ( ذروني أَقْتُلْ موسى )
رَبِّيَ الله وَقَدْ جَآءَكُمْ بالبينات مِن رّبِّكُمْ ) .أى : أتقتلون
رجلا لأنه يقول ربى الله وحده ، وقد جاءكم بالحجج البينات ، وبالمعجزات
الواضحة من عند ربكم ، كدليل على صدقه فيما يبلغه عنه .فقوله : ( أن
يَقُولَ رَبِّيَ الله ) فى موضع المفعول لأجله . أى : أتقتلونه من أجل قوله
هذا . وجملة ( وَقَدْ جَآءَكُمْ بالبينات مِن رّبِّكُمْ ) حالية من فاعل
يقول وهو موسى - عليه السلام - .والمقصود بهذا الاستفهام : الإنكار عليهم
والتبكيت لهم ، حيث قصدوا قتل رجل كل ذنبه أنه عبد الله - تعالى - وحده وقد
جاءهم بالمعجزات الواضحات الدالة على صحة فعله وقوله .قال الإمام ابن كثير
وقد كان هذا الرجل يكتم إيمانه عن قومه القبط ، فلم يظهر إلاّ هذا اليوم :
" حين قال فرعون ( ذروني أَقْتُلْ موسى )فأخذت الرجل غضبه لله - تعالى - و
أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر " اللهم إلا ما رواه البخارى فى صحيحه
، حيث قال :حدثنا على بن عبد الله ، حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا الأوزاعى
حدثنى عروة بن الزبير قال : قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص : أخبرنى بأشد
شئ صنعه المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " بينا رسول الله
صلى الله عليه وسلم بفناء الكعبة ، إذ أقبل عقبة بن أبى معيط فأخذ بمنكب
. رسول الله صلى الله عليه وسلم ولوى ثوبه فى عنقه ، فخنقه خنقا شديدا
فأقبل أبو بكر - رضى الله عنه - فأخذ بمنكبه ودفع عن النبى صلى الله عليه
" وسلم ثم قال : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم
وقال القرطبى : وعن على - رضى الله عنه - قال : اجتمعت قريش بعد وفاة أبى.
- طالب بثلاث : فأرادوا قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبل هذا يجؤه
أى يضربه - ، وهذا يُتَلْتِلهُ - أى : يحركه تحريكا شديدا - فلم يغثه أحد
: إلا أبو بكر وله ضفيرتان ، فأقبل يجأ هذا ويتلتل ذا ، ويقول بأعلى صوته
ويلكم : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ، والله إنه لرسول الله ، فقطعت
إحدى ضفيرتى أبى بكر يومئذ .ثم يحكى القرآن أن ذلك الرجل المؤمن ، لم يكتف
بالإنكار على قومه قصدهم موسى بالقتل بل أخذ فى محاولة إقناعهم بالعدول عن
هذا القصد بشتى الأساليب والحجج فقال : ( وَإِن يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ
كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الذي يَعِدُكُمْ . . ) .أى
أنه قال لهم : إن كان موسى - على سبيل الفرض - كاذبا فيما يقوله ويفعله :
فعليه وحده يقع ضرر كذبه ، وليس عليكم منه شئ ، وإن كان صادقا فيما يقوله
ويفعله فعليه وحده يقع ضرر كذبه ، وليس عليكم منه شئ ، وإن كان صادقا فيما
يقوله ويفعله ، فلا أقل من أن يصيبكم بعض الذى يعدكم به من سوء عاقبة
مخالفة ما أتاكم به من عند ربه . .فأنت ترى أن الرجل كان فى نهاية الحكمة
والإنصاف وحسن المنطق ، فى مخاطبته لقومه ، حيث بين لهم أن الأمر لا يخرج
عن فرضين ، وكلاهما لا يوجب قصد موسى - عليه السلام - بالقتل .ورحم الله
) : صاحب الكشاف : فقد أجاد عند تفسير لهذه الآية فقال ما ملخصه : وقوله
أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أن يَقُولَ رَبِّيَ الله . . . ) هذا إنكار عظيم
منه ، وتبكيت شديد لهم ، كأنه قال : أترتكبون الفعلة الشنعاء التى هى قتل
نفس محرمة ، وما لكم علة قط فى ارتكابها إلا كلمة الحق التى نطق بها وهى
قوله ( رَبِّيَ الله ) . .ثم أخذ فى الاحتجاج عليهم على طريقة التقسيم فقال
لا يخلو من أن يكون كاذبا أو صادقا ، فإن يك كاذبا فعليه يعود كذبه ولا :
: يتخطاه ضرره ، وإن يك صادقا يصبكم بعض ما يعدكم به إن تعرضتم له .فإن قلت
لم قال : ( بَعْضُ الذي يَعِدُكُمْ ) وهو - أى موسى - نبى صادق ، لابد لما
يعدهم أن يصيبهم كله لا بعضه؟قلت : لأنه احتاج فى مقاولة خصوم موسى ومنا
كريه ، إلى أن يلاوصهم - أى يحايلهم - ويداريهم ، ويسلك معهم طريق الإنصاف
فى القول ويأتيهم من جهة المناصحة ، فجاء بما علم أنه أقرب إلى تسليمهم
لقوله ، وأدخل فى تصديقهم له وقبولهم منه ، فقال ( وَإِن يَكُ صَادِقاً
يُصِبْكُمْ بَعْضُ الذي يَعِدُكُمْ ) وهو كلام المنصف فى مقاله ، غير
المشتط فيه ، ليسمعوا منه ولا يردوا عليه ، وذلك أنه حين فرضه صادقا ، فقد
أثبت أنه صادق فى جميع ما يعد ، ولكنه أردفه بقوله : ( يُصِبْكُمْ بَعْضُ
الذي يَعِدُكُمْ ) ليهضمه بعض حقه فى ظاهر الكلام ، فيريهم أنه ليس بكلام
من أعطاه حقه وافيا ، فضلا عن أن يتعصب له ، وتقديم الكاذب على الصادق أيضا
من هذا القبيل .ثم أرشد الرجل المؤمن الحصيف قومه إلى سنة من سنن الله التى
لا تتغير فقال : ( إِنّ الله لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذّابٌ )
أى : إن سنة الله - تعالى - قد اقتضت أنه - سبحانه -لا يهدى إلى الحق.
- والصواب ، من كان مسرفا فى أموره ، متجاوزا الحدود التى شرعها الله
تعالى - ومن كان كذابا فى إخباره عن الله - تعالى - ، ولو كان موسى مسرفا
أو كذابا ، لما أيده الله - تعالى - بالمعجزات الباهرة . وبالحجج الساطعة
الدالة على صدقه .فالجملة الكريمة إرشاد لهم عن طريق خفى إلى صدق موسى فيما
: يبلغه عن ربه ، وتعريض بما عليه فرعون من ظلم وكذب .قال الجمل فى حاشيته
فالجملة الكريمة كلام ذو وجهين نظرا لموسى وفرعون .الوجه الأول : أن هذا

إشارة إلى الرمز والتعريض بعلو شأن موسى ، والمعننى : إن الله هدى موسى إلى الإتيان بالمعجزات الباهرة ، ومن هداه الله إلى ذلك لا يكون مسرفا ولا كذابا .الوجه الثانى : أن يكون المراد أن فرعون مسرف فى عزمه على قتل موسى . . . وكاذب فى ادعائه الألوهية ، والله لا يهدى من كان كذلك .

يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الارض فمن ينصرنا من باس الله ان جاءنا قال فرعون ما اريكم الا ما ارى وما اهديكم الا سبيل الرشاد

كما فسرها الوسيط ثم أخذ فى تذكيرهم بنعم الله عليهم ، وفى تحذيره من نقمه فقال : ( ياقوم لَكُمُ الملك اليوم ظَاهِرِينَ فِي الأرض فَمَن يَنصُرُنَا : - مِن بَأْسِ الله إِن جَآءَنَا ) .أى : وقال الرجل المؤمن لقومه - أيضا يا قوم ، أى : يا أهلى ويا عشيرتى ، أنتم اليوم لكم الملك ، حالة كونكم ظاهرين ، أى : غالبين ومنتصرين فى أرض مصر ، عالين فيها على بنى إسرائيل قوم موسى .وإذا كان أمرنا كذلك ، فمن يستطيع أن ينصرنا من عذاب الله ، إن أرسله علينا ، بسبب عدم شكرنا له ، واعتدائنا على خلقه .وإنما نسب إليهم ما يسرهم من الملك والظهور فى الأرض دون أن يسلك نفسه معهم ، وسلك نفسه معهم فى موطن التحذير ، تطييبا لقلوبهم ، وإيذانا بأنه ناصح أمين لهم ، وأنه لا يهمه سوى منفعتهم ومصلحتهم . .وهنا نجد القرآن الكريم يخبرنا بأن فرعون بعد أن استمع إلى نصيحة الرجل المؤمن ، أخذته العزة بالإثم ، وقال ما يقوله كل طاغية معجب بنفسه : ( مَآ أُرِيكُمْ إِلاّ مَآ أرى وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلاّ سَبِيلَ الرشاد ) .أى : قال فرعون لقومه ، فى رده على نصيحة الرجل المؤمن : يا قوم لا أشير عليكم ولا أخبركم إلا بما أراه صوابا وخيرا ، وهو أن أقتل موسى - عليه السلام - وما أهديكم برأيى هذا إلا إلى طريق السداد والرشاد .وغرض فرعون بهذا القول ، التدليس والتمويه على قومه . وأنه ما يريد إلا منفعتهم ، مع أن الدافع الحقيقى لقوله هذا ، هو التخلص من موسى - حتى يخلو له الجو فى تأليه نفسه على جهلة قومه ، فإنهم كانوا كما قال تعالى - فى شأنهم : ( فاستخف قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فَاسِقِينَ ).

وقال الذي امن يا قوم اني اخاف عليكم مثل يوم الاحزاب

كما فسرها الوسيط ولكن الرجل المؤمن لم يسكت أمام هذا التدليس والتمويه الذى نطق به فرعون ، بل استرسل فى نصحه لقومه ، وحكى القرآن عنه ذلك فقال : وَقَالَ الذي آمَنَ ياقوم إني أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِّثْلَ يَوْمِ الأحزاب ) . . - أى قال لهم : يا قوم إنى أخاف عليكم إذا تعرضتم لموسى - عليه السلام( بالقتل أو بالتكذيب ، أن ينزل بكم عذاب مثل العذاب الذى نزل على الأمم الماضية التى تحزبت على أنبيائها ، وأعرضت عن دعوتهم ، فكانت عاقبتها خسرا . فالمراد بالأحزاب : تلك الأمم السابقة التى وقفت من أنبيائها موقف العداء والبغضاء . وكأن تلك الأمم من حزب ، والأنبياء من حزب آخر . والمراد باليوم هنا : الأحداث والوقائع والعقوبات التى حدثت فيه . فالكلام على حذف مضاف .أى : أخاف عليكم مثل حادث يوم الأحزاب .

مثل داب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلما للعباد

كما فسرها الوسيط وقوله : ( مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ والذين مِن بَعْدِهِمْ . . ) بدل أو عطف بيان من قوله ( مِّثْلَ يَوْمِ الأحزاب ) .والدأب : العادة الدائمة المستمرة يقال : دأب فلان على كذا . أى : إذا داوم عليه وجد فيه ، ثم غلب استعماله فى الحال والشأن والعادة . أخاف عليكم أن يكون حالكم وشأنكم كحال قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ، كقوم لوط ، فهؤلاء الأقوام كذبوا أنبياءهم فدمرهم الله - تعالى - تدميرا فاحذروا أن تسيروا على نهجهم بأن تقصدوا موسى - عليه السلام - بالقتل أو الإيذاء ، فينزل بكم العذاب مثل ما نزل بهم .( وَمَا الله ) - تعالى ) - يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعِبَادِ ) أى : فما أنزله - سبحانه - بهم من عذاب ، إنما هو بسبب إصرارهم على شركهم . وعلى الإعراض عن دعوة أنبيائهم ، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

ويا قوم اني اخاف عليكم يوم التناد

كما فسرها الوسيط ثم يواصل الرجل المؤمن تذكير قومه بأهوال يوم القيامة فيقول : ( وياقوم إني أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التناد )أخاف عليكم يوم القيامة الذى يكثر فيه نداء أهل الجنة لأهل النار . ونداء أهل النار لأهلا - " لجنة ، ونداء الملائكة لأهل السعادة وأهل الشقاوة .فلفظ " التناد بتخفيف الدال وحذف الياء - تفاعل من النداء ، يقال : تنادى القوم ، إذا نادى بعضهم بعضا . .

يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فما له من هاد

كما فسرها الوسيط وقوله : ( يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِّنَ الله مِنْ عَاصِمٍ . . . ) بدل من يوم التناد . أى : أخاف عليكم من أهوال يوم القيامة ، يوم تنصرفون عن موقف الحساب والجزاء فتتلقاكم النار بلهيبها وسعيرها ، وتحاولون الهرب منها فلا تستطيعون . لأنه لا عاصم لكم ولا مانع فى هذا اليوم من عذاب الله - تعالى- وعقابه .( وَمَن يُضْلِلِ الله فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ) أى : ومن يضلله الله - تعالى - عن طريق الحق بسبب سوء استعداده ، واستحبابه العمى على الهدى ، فما له من هاد يهديه إلى الصراط المستقيم .وهكذا نجد الرجل المؤمن بعد أن خوف قومه من العذاب الدنيوى ، أتبع ذلك بتخويفهم من العذاب الأخروى .

ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى اذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب

كما فسرها الوسيط ثم ذكرهم بعد ذلك بما كان من أسلافهم مع أحد أنبيائهم فقال : ( وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بالبينات فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُمْ بِهِ حتى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ الله مِن بَعْدِهِ رَسُولاً ) .والذى عليه المحققون أن المراد بيوسف هنا : يوسف بن يعقوب - عليهما السلام - والمراد بمجيئه إليهم : مجيئه إلى آبائهم إذ بين يوسف وموسى - عليهما السلام - أكثر من أربعة قرون ، فالتعبير فى الآية الكريمة من باب نسبة أحوال الآباء إلى الأبناء لسيرهم على منوالهم وعلى طريقتهم فى الإعراض عن الحق .أى : ولقد جاء يوسف - عليه السلام - إلى آبائكم من قبل مجئ موسى إليكم ، وكان مجيئه إلى آبائكم مصحوبا بالمعجزات والبينات ، والآيات الواضحات الدالة على صدقه .( فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُمْ بِهِ ) أى : فما زال آباؤكم فى شك مما جاءهم به من البينات والهدى ، كشأنكم أنتم مع نبيكم موسى - عليه السلام - .( حتى إِذَا هَلَكَ ) أى : مات يوسف - عليه السلام - .( قُلْتُمْ ) أى : قال آباؤكم الذين أنتم من نسلهم ( لَن يَبْعَثَ الله مِن بَعْدِهِ رَسُولاً ) فهم قد كذبوا رسالته فى حياته ، وكفروا بمن بعده من الرسل بعد موته ، لأنهم نفوا أن يكون هناك رسول من بعده .فأنت ترى أن الرجل المؤمن يحذر قومه من أن يسلكوا مسلك آبائهم ، فى تكذيب رسل الله ، وفى الإعراض عن دعوتهم .قال ابن كثير : قوله - تعالى - : ( وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بالبينات يعنى : أهل مصر ، قد بعث الله فيهم رسولا من قبل موسى ، وهو يوسف - عليه السلام - ، كان عزيز أهل مصر ، وكان رسولا يدعو إلى الله أمته القبط ، فما أطاعوه تلك الساعة إلا لمجرد الوزارة والجاه الدنيوى .ولهذا قال : ( فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُمْ بِهِ حتى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ الله مِن بَعْدِهِ رَسُولاً ) أى : يئستم فقلتم طامعين : ( لَن ) : يَبْعَثَ الله مِن بَعْدِهِ رَسُولاً ) وذلك لكفرهم وتكذيبهم .وقوله كَذَلِكَ يُضِلُّ الله مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ) أى : مثل ذلك الإضلال الفظيع ، يضل الله - تعالى - من هو مسرف فى ارتكاب الفسوق والعصيان ، ومن هو مرتاب فى دينه ، شاك فى صدق رسوله ، لاستيلاء الشيطان والهوى على قلبه .

الذين يجادلون في ايات الله بغير سلطان اتاهم كبر مقتا عند الله وعند الذين امنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار

كما فسرها الوسيط ثم بين لهم أن غضب الله - تعالى - شديد ، على الذين يجادلون فى آياته الدالة على وحدانيته وعلى كمال قدرته ، وعلى صدق أنبيائه بغير حجة أو دليل فقال ( الذين يُجَادِلُونَ في آيَاتِ الله بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ الله وَعِندَ الذين آمَنُواْ . . . ) مبتدأ ، وخبره قوله - تعالى. ( . : - وقوله : ( الذين يُجَادِلُونَ . . . ) والفاعل ضمير يعود إلى الجدال المفهوم من قوله ( . . كَبُرَ مَقْتاً ) : يُجَادِلُونَ ) أى : كبر جدالهم ( مَقْتاً ) تمييز محول عن الفاعل ، أى عظم بغضا جدالهم عند الله وعند المؤمنين .أى : الذين يجادلون فى آيات الله الدالة على وحدانيته ، وعلى صدق أنبيائه بغير دليل أو برهان أتاهم من الله - تعالى - عن طريق رسله ، هؤلاء الذين يفعلون ذلك ، كبر وعظم بغضا جدالهم عند الله - تعالى - وعند الذين آمنوا .قال الجمل : وهذه الصفة - وهى الجدال بالباطل بدون برهان - موجودة فى فرعون وقومه ، ويكون الرجل المؤمن قد عدل عن مخاطبتهم إلى الاسم الغائب ، لحسن محاورته لهم ، واستجلاب قلوبهم وأبرز ذلك فى صورة تذكرهم فلم يخصهم بالخطابوفى قوله : ( كَبُرَ ) ضرب من التعجب والاستعظام لجدالهم .وقوله : ( كَذَلِكَ يَطْبَعُ الله على كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ) أى : مثل ذلك الطبع العجيب ، يطبع الله -

، تعالى - ويختم بالكفر والعمى على قلب كل إنسان متكبر عن الاستماع للحق
. متطاول ومتجبر على خلق الله - تعالى - بالعدوان والإيذاء

وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحا لعلي ابلغ الاسباب

كما فسرها الوسيط ومع هذا النصح الزاخر بالحكم الحكيمة ، والتوجيهات
السليمة ، والإرشادات القويمة من الرجل المؤمن لقومه . . ظل فرعون سادرا
فى غيه ، مصراً على كفره وضلاله . . إلا أن الرجل المؤمن لم ييأس من توجيه
): النصح بل أخذ يذكر وينذر ويبشر . . ويحكى القرآن الكريم كل ذلك فيقول
) : - وَقَالَ فَرْعَوْنُ ياهامان . . ) .المراد بالصرح فى قوله - تعالى
وَقَالَ فَرْعَوْنُ ياهامان ابن لِي صَرْحاً . . . ) البناء العالى المكشوف
للناس ، الذى يرى الناظر من فوقه ما يريد أن يراه ، مأخوذ من التصريح بمعنى
، الكشف والإيضاح .والأسباب : جمع سبب ، وهو كل ما يتوصل به إلى الشئ
والمراد بها هنا : أبواب السماء وطرقها ، التى يصل منها إلى ما بداخلها .أى
وقال فرعون لوزيره هامان : يا هامان ابن لى بناء ظاهرا عاليا مكشوفا لا :
يخفى على الناظر وإن كان بعيدا عنه ، لعلى عن طريق الصعود على هذا البناء
الشاهق أبلغ الأبواب الخاصة بالسموات ، فأدخل منها فأنظر إلى إله موسى
- والمراد بالظن فى قوله ( وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِباً ) اليقين لقوله.
تعالى - فى آية أخرى : ( وَقَالَ فِرْعَوْنُ ياأيها الملأ مَا عَلِمْتُ
لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي ياهامان عَلَى الطين فاجعل لِّي
( صَرْحاً لعلي أَطَّلِعُ إلى إله موسى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الكاذبين
فقوله - كما حكى القرآن عنه - : ( مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إله غَيْرِي )
قرينة قوية على أن المراد بالظن فى الآيتين : اليقين والجزم ، بسبب غروره
وطغيانه .أى : ونى لأعتقد وأجزن بأن موسى كاذبا فى دعواه أن هناك إلها غيرى
لكم ، وفى دعواه أنه رسول إلينا .أى : وإنى لأعتقد وأجزم بأن موسى كاذبا فى
. دعواه أن هناك إلها غيرى لكم ، وفى دعواه أنه رسول إلينا

اسباب السماوات فاطلع الى اله موسى واني لاظنه كاذبا وكذلك زين لفرعون سوء
عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون الا في تباب

كما فسرها الوسيط وكرر لفظ الأسباب لأن اللفظ الثانى يدل على الأول ، والشئ
إذا أبهم ثم أوضح ، كان تفخيما لشأنه ، فلما أراد تفخيم ما أمل بلوغه من
أسباب السموات أبهمها ثم أوضحها .وقوله : ( فأطلع ) قرأه الجمهور بالرفع
عطفا على ( أبلغ ) فيكون فى حيز الترجى .وقرأه بعض القراء السبعة بالنصب
فيكون جوابا للأمر فى قوله : ( ابن لِي صَرْحاً . . ) .ولا شك أن قول فرعون
هذا بجانب دلالته على أنه بلغ الغاية فى الطغيان والفجور والاستخفاف
بالعقول ، يدل - أيضا - على شدة خداعه ، إذ هو يريد أن يتواصل من وراء هذا
القول إلى أنه ليس هناك إله سواه ولو كان هناك إلأه سواه لشاهده هو وغيره
من الناس .قال الإمام ابن كثير : وذلك لأن فرعون بنى هذا الصرح ، الذى لم
ير في الدنيا بناء أعلى منه ، وإنما أراد بهذا أن يظهر لرعيته تكذيب موسى
: فيما قاله ، من أن هناك إلها غير فرعون . .وقال الجمل فى حاشيته ما ملخصه
وقول فرعون هذا المقصود منه التلبيس والتمويه والتخليط على قومه توصلا
لبقائهم على الكفر ، وإلا فهو يعرف حقيقة الإله ، وأنه ليس فى جهة ، ولكنه
، أراد التلبيس ، فكأنه يقول لهم : لو كان إله موسى موجودا لكان له محل
ومحله إما الأرض وإما السماء ، ولم نره فى الأرض ، فيبقى أن يكون فى السماء
والسماء لا يتوصل إليها إلا بسلم ..ثم بين - سبحانه - أن مكر فرعون هذا ،
مصيره إلى الخسران فقال : ( وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سواء عَمَلِهِ
( وَصُدَّ عَنِ السبيل وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ
والتباب : الهلاك والخسران ، يقال : تب الله - تعالى - فلانا ، أى : أهلكه.
وتبت يدا فلان ، أى : خسرنا ومنه قوله - سبحانه - ( تَبَّتْ يَدَآ أَبِي ،
لَهَبٍ وَتَبَّ . . ) أى : ومثل ذلك التزيين القبيح ، زين لفرعون سوء عمله
فرآه حسنا ، لفجوره وطغيانه ، وصد عن سبيل الهدى والرشاد ، لأنه استحب ،
، العمى على الهدى . وما كيد فرعون ومكره وتلبيسه واحتياله فى إبطال الحق
. إلا فى هلاك وخسران وانقطاع

وقال الذي امن يا قوم اتبعون اهدكم سبيل الرشاد

كما فسرها الوسيط ثم حكى القرآن الكريم أن الرجل المؤمن قد تابع حديثه
) : ونصائحه لقومه ، بعد أن استمع إلى ما قاله فرعون من باطل وغرور فقال
وَقَالَ الذي آمَنَ ياقوم اتبعون . . ) أى : فيما أنصحكم به ، وأرشدكم إليه
أى : اتبعونى فيما نصحتكم به ، فإن فى ( أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرشاد ).
اتباعكم لى هدايتكم إلى الطريق الذى كله صلاح وسعاده وسداد . أما اتباعكم
. لفرعون فيؤدى بكم إلى طريق الغيا والضلال

يا قوم انما هذه الحياة الدنيا متاع وان الاخرة هي دار القرار

: كما فسرها الوسيط ( ياقوم إِنَّمَا هذه الحياة الدنيا مَتَاعٌ . . . ) أى
هذه الدنيا متاع زائل مهما طالت أيامه . .( وَإِنّ الآخرة ) وحدها ( هِيَ
. دَارُ القرار ) أى : هى الدار التى فيها البقاء والدوام والخلود

من عمل سيئة فلا يجزى الا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر او انثى وهو مؤمن
فاولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب

كما فسرها الوسيط ( مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً ) فى هذه الدنيا ( فَلاَ يجزى )
فى الآخرة ( إِلاّ مِثْلَهَا ) كرما من الله - تعالى - وعدلا .( وَمَنْ
- عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أنثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ ) بالله - تعالى
إيمانا حقا .( فأولئك ) المؤمنون الصادقون ( يَدْخُلُونَ الجنة يُرْزَقُونَ
فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ) أى : يرزقون فيها رزقا واسعا هنيئا ، لا يعلم
قدره إلا الله - تعالى - ، ولا يحاسبهم عليه محاسب فقد تفضل - سبحانه - على
. عباده . أن يضاعف لهم الحسنات دون السيئات

ويا قوم ما لي ادعوكم الى النجاة وتدعونني الى النار

كما فسرها الوسيط ثم استنكر موقف قومه منه فقال : ( وياقوم مَا لي
أَدْعُوكُمْ إِلَى النجاة ) من العذاب الدنيوى والأخروى ، بأن آمركم
بالإيمان والعمل الصالح ، وأنهاكم عن قتل رجل يقول ربى الله ، وقد جاءكم
بالبينات من ربكم وهو موسى - عليه السلام - .وأنتم ( وتدعونني إِلَى النار
، - أى : تدعوننى لما يوصل إلى النار وهو عبادة غير الله - تعالى (
والموافقة على قتل الصالحين أو إيذائهم . .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم
كرر نداء قومه؟ ولم جاء بالواو فى النداء الثالث دون الثانى؟قلت : أما
تكرير النداء ففيه زيادة تنبيه لهم ، وإيقاظ عن سنة الغفلة ، وفيه : أنهم
، قومه وعشيرته . . ونصيحتهم عليه واجبة ، فهو يتحزن لهم ، ويتلطف بهم
ويستدعى بذلك أن لا يتهموه - فإن سرورهم سروره ، وغمهم غمه - وأن ينزلوا
): على تنصيحه لهم ، كما كرر إبراهيم - عليه السلام - فى نصيحة أبيه قوله
ياأبت ) فى سورة مريم .وأما المجئ بالواو العاطفة فى النداء الثالث دون
الثانى ، فلأن الثانى داخل على كلام هو بيان للمجمل ، وتفسير له فأعطى
الداخل عليه حكمه فى امتناع دخول الواو . وأما الثالث : فداخل على كلام ليس
. بتلك المثابة

تدعونني لاكفر بالله واشرك به ما ليس لي به علم وانا ادعوكم الى العزيز
الغفار

كما فسرها الوسيط وقوله : ( تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بالله وَأُشْرِكَ بِهِ
مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ . . ) بدل من قوله : ( وتدعونني إِلَى النار )
وتفسير وبيان له .أى : أنا أدعوكم إلى النجاة من النار ، وأنتم تدعوننى إلى
- الإشراك بالله - تعالى - وإلى الكفر به ، مع أنى أعلم علم اليقين أنه
سبحانه -لا شريك له ، لا فى ذاته ولا فى صفاته .وقوله : ( وَأَنَا
أَدْعُوكُمْ إِلَى العزيز الغفار ) بيان للفرق الشاسع بين دعوته لهم
ودعوتهم له .فهم يدعونه إلى الشرك والكفر ، وإلى عبادة آلهة قد قام الدليل
القاطع على بطلانها ، وهو يدعوهم إلى عبادة الله - تعالى - وحده ، الغالب
. . لكل ما سواه ، الواسع المغفرة لمن تاب إليه بعد أن عصاه

لا جرم انما تدعونني اليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الاخرة وان مردنا
الى الله وان المسرفين هم اصحاب النار

كما فسرها الوسيط ثم يؤكد لهم بصورة لا تقبل الشك أو التردد أنما يطلبونه
منه هو الباطل وأن ما يطلبه منهم هو الحق فيقول : ( لاَ جَرَمَ أَنَّمَا
. . تدعونني إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدنيا وَلاَ فِي الآخرة
وجرم : فعل ماض بمعنى حق وثبت ووجب . وقد وردت هذه الكلمة فى القرآن فى(
خمسة مواضع ، وفى كل موضع جاءت متلوة بأنّ واسمها .وجمهورالنحاة على أنها
مركبة من " لا " و " جرم " تركيب خمسة عشر . ومعناها بعد هذا التركيب معنى
الفعل حق وثبت ، والجملة بعدها هى الفاعل لهذا الفعل . .ومن النحاة من يرى
أن "لا " نافية للجنس ، و " جرم " اسمها ، وما بعدها خبرها .أى : حق وثبت
لدى بما لا يقبل الشك ، أن آلهتكم التى تدعوننى لعبادتها آلهة باطلة ، لا
وزن لها ولا قيمة لا فى الدنيا ولا فى الآخرة . .( وَأَنَّ مَرَدَّنَآ )
جميعا ( إِلَى الله ) - تعالى - وحده ( وَأَنَّ المسرفين ) أى : المستكثرين
. من المعاصى فى الدنيا ( هُمْ أَصْحَابُ النار ) فى الآخرة

فستذكرون ما اقول لكم وافوض امري الى الله ان الله بصير بالعباد

كما فسرها الوسيط ثم نصح نصائحه الحكيمة الغالية بقوله : فستذكرون يا قوم ما أقول لكم من حق وصدق .( وَأُفَوِّضُ أمري إِلَى الله ) - تعالى - وحده لكى يعصمنى من كل سوء .( إِنَّ الله ) - تعالى - ( بَصِيرٌ بالعباد )لا يخفى عليه شئ من أقوالهم أو أفعالهم ، وسيجازى يوم القيامة كل نفس بما كسبت .

فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بال فرعون سوء العذاب

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( فَوقَاهُ الله سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُواْ ) بيان للعاقبة الطيبة التى أكرمه الله - سبحانه - بها بعد صدوعه بكلمة الحق أمام فرعون وجنده . .أى : فكانت نتيجة إيمان هذا الرجل ، وجهره بكلمة الحق ، ونصح لقومه ، أن وقاه الله - تعالى - ما أراده الظالمون به من أذى وعدوان ومن مكر سيئ ..( وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ ) أى : ونزل وأحاط بفرعون وقومه ( سواء العذاب ) بأن أغرقهم الله - تعالى - فى أليم ، وجعلهم عبرة لمن يعتبر .

النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة ادخلوا ال فرعون اشد العذاب

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - سوء مصيرهم بعد موتهم ، وعند قيام الساعة ، فقال : ( النار يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة أدخلوا آل فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العذاب ) . .والغدو . . أول النهار . والعشى : آخره . وجملة : ( النار يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا : بدل من قوله - تعالى - ( سواء العذاب ) . بعرض أرواح فرعون وملئه على ( النار بعد موتهم وهم فى قبورهم فى الصباح والمساء ، ( وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة ) يقال الملائكة العذاب : ( أدخلوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العذاب ) وهو عذاب جهنم وبئس المصير مصيرهم .قال القرطبى : والجمهور على أن هذا العرض فى البرزخ واحتج بعض أهل العلم فى تثبيت عذاب القبر بقوله - تعالى - : ( النار يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً ) . ما دامت الدنيا . قال مجاهد وغيره : هذه الآية تدل على عذاب القبر فى الدنيا ألا تراه. يقول - سبحانه - عن عذاب الآخرة : ( أدخلوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العذاب ) ، وفى الحديث عن ابن مسعود : إن أرواح آل فرعون ومن كان مثلهم من الكفار تعرض على النار بالغداة والعشى ، فيقال : هذه داركم . .هذا ، والمتأمل فى هذه الآية الكريمة ، يرى أن القرآن قد ساق على لسان مؤمن آل فرعون ، أسمى الأساليب وأحكمها فى الدعوة إلى الحق ، فقد بدأ نصحه بنهى قومه عن قتل موسى - عليه السلام - ، ثم ذكرهم بنعم الله عليهم ، وبسوء عاقبة الظالمين ، وبأن نعيم الدنيا زائل ، أما نعيم الآخرة فباق ، وبأن ما يدعوهم إليه هو الحق ، وبأن ما يدعونه إليه هو الباطل .ثم ختم تلك النصائح الغالية بتفويض أمره إلى الله فقال : ( فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أمري إِلَى الله إِنَّ الله بَصِيرٌ بالعباد ) فكانت نتيجة هذا التفويض أن وقاه الله - تعالى - من سوء مكر أعدائه ، ونجاه من شرورهم ، وأن جعل مكرهم السيئ يحيق بهم .

واذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا انا كنا لكم تبعا فهل انتم مغنون عنا نصيبا من النار

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - جانبا مما يدور بين أهل النار من مجادلات ، وكيف أن كل فريق منهم يطلب من الملائكة تخفيف العذاب عنه ، ولكن لا يجابون إلى طلبهم ، ولا تقبل معذرتهم ، وأن سنة الله قد اقتضت أن ينصر عباده الصالحين فى الدنيا والآخرة قال - تعالى - :( وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي النار . . . ) .( إِذْ ) فى قوله - تعالى - : ( وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي النار ) متعلق بمحذوف تقديره : اذكر ، أى : واذكر - أيها الرسول الكريم - لقومك ليعتبروا ويتعظوا وقت أن يتخاصم أهل النار فيما بينهم ). فَيَقُولُ الضعفاء ) منهم ( لِلَّذِينَ استكبروا ) فى الدنيا وكانوا رؤساء وقادة :( إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً ) أى إنا كنا فى الدنيا تابعين لكم ومنقادين لهواكم ومسخرين لخدمتكم . . والاستفهام فى قوله - تعالى - : ( فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِّنَ النار ) للطلب الممحوب بالرجاء والاستجداء . .أى : هذا هو حالنا أمامكم ، وقد كنا فى الدنيا منقادين لكم انقياد العبد لسيده ، فادفعوا عنا شيئا من هذا العذاب المهين الذى نزل بنا ، فطالما دافعنا عنكم فى الدنيا وسرنا وراءكم بدون تفكير أو معارضة . .وقوله : ( نَصِيباً ) منصوب بفعل مقدر يدل عليه قوله ( مُّغْنُونَ ) أى : فهل أنتم تدفعون عنا جزءا من العذاب الذى نحن فيه ،

. وتحملون عنا نصيبا منه

قال الذين استكبروا انا كل فيها ان الله قد حكم بين العباد

كما فسرها الوسيط وهنا يرد عليهم المستكبرون ، بضيق وملل . ويحكي القرآن
ذلك فيقول ( قَالَ الذين استكبروا ) أى للضعفاء .( إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ )
، أى : إنا نحن وأنتم جميعا فى جهنم ، فكيف ندفع عنكم شيئا من العذاب
وإننا لو كانت عندنا القدرة على دفع شئ من العذاب ، لدفعناه عن أنفسنا
، لفظ ( كل ) مبتدأ ، وفيها متعلق بمحذوف خبر ، والجملة من المبتدأ والخبر.
، خبر إن .وجملة : ( إِنَّ الله قَدْ حَكَمَ بَيْنَ العباد ) من جملة الرد
أى : إن الله - تعالى - قد حكم بين العباد بحكمه العادل ، فجعل للمؤمنين
الجنة ، وجعل للكافرين النار وقدر لكل منا ومنكم عذابا لا تغنى فيه نفس عن
. نفس شيئا

وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب

كما فسرها الوسيط وبعد أن يئس الكل من نصرة بعضهم لبعض ، اتجهوا جميعا نحو
) : خزنة جهنم لعلهم يشفعون لهم عند ربهم ، ويحكى القرآن : ذلك فيقول
وَقَالَ الذين فِي النار لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ) وهم الملائكة المكلفون
بتعذيب الكافرين .قالوا لهم : ( ادعوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً
مِّنَ العذاب ) أى : ادعوا ربكم أن يخفف عنا يوما واحدا من الأيام الكثيرة
التى ينزل علينا العذاب فيها بدون انقطاع ، لعلنا فى هذا اليوم نستطيع أن
. نلتقط أنفاسنا التى مزقها العذاب الدائم

قالوا اولم تك تاتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء
الكافرين الا في ضلال

كما فسرها الوسيط وهنا يرد عليهم خزنة جهنم بقولهم : ( أَوَلَمْ تَكُ
تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بالبينات ) أى : قالوا لهم على سبيل التوبيخ
والتأنيب : أو لم تك رسلكم فى الدنيا تنذركم بسوء مصير الكافرين ، وتأتيكم
بالمعجزات الواضحات الدالة على صدقهم .( قَالُواْ بلى ) أى : الكافرون
: لخزنة جهنم : بلى أتونا بكل ذلك فكذبناهم .وهنا رد عليهم الخزنة بقولهم
ما دام الأمر كما ذكرتم من أن الرسل قد نصحوكم ولكنكم أعرضتم عنهم ( فادعوا
ما شئتم فإن الدعاء والطلب والرجاء لن ينفعكم شيئا .( وَمَا دُعَاءُ )
الكافرين إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ ) أى : وما دعاء الكافرين وتضرعهم إلا فى ضياع
. وخسران

انا لننصر رسلنا والذين امنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - سنة من سننه التى لا تتخلف فقال
إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا والذين آمَنُواْ فِي الحياة الدنيا وَيَوْمَ
يَقُومُ الأشهاد ) .والإشهاد : جمع شاهد ، وعلى رأسهم الأنبياء الذين
يشهدون على أممهم يوم القيامة بأنهم قد بلغوهم دعوة الله ، والملائكة الذين
يشهدون للرسل بالتبليغ ، وللمؤمنين بالإيمان وللكافرين بالكفر ، وكل من
يقوم يوم القيامة للشهادة على غيره يكون من الأشهاد .أى : لقد اقتضت سنتنا
التى لا تتخلف أن ننصر رسلنا والمؤمنين فى الدنيا بالحجة الدامغة التى تزهق
باطل أعدائهم ، وبالتغلب عليهم ، وبالانتقام منهم .وإن ننصرهم فى الآخرة
) : كذلك بأن نجعل لهم الجنة ، والنار لأعدائهم .قال صاحب الكشاف : قوله
، فِي الحياة الدنيا وَيَوْمَ يَقُومُ الأشهاد ) أى : فى الدنيا والآخرة
يعنى أنه ينصرهم في الدارين جميعا بالحجة والظفر على أعدائهم ، وإن غلبوا
فى الدنيا فى بعض الأحايين امتحانا من الله ، فالعاقبة لهم ، ويتيح الله من
يقتص من أعدائهم ولو بعد حين .وما ذكره صاحب الكشاف فإننا نراه واقعا فى
سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وفى سيرة أتباعه فلقد هاجر النبى صلى الله
عليه وسلم من مكة وليس معه سوى أبى بكر الصديق ، وعاد إليها بعد ثمانى
سنوات فاتحا غازيا ظافرا ، ومن حوله الآلاف من أصحابه .والمؤمنون قد
. يُغْلبون - أحيانا - ويُعْتَدى عليهم . . ولكن العاقبة لابد أن تكون لهم
متى داوموا على التمسك بما يقتضيه إيمانهم من الثبات على الحق ، ومن العمل
الصالح . .وعبر - سبحانه - عن يوم القيامة ، بيوم يقوم الأشهاد ، للإشعار
بأن نصر الرسل والمؤمنين فى هذا اليوم سيكون نصرا مشهودا معلوما من الأولين
. والآخرين ، لا ينكره منكر . ولا ينازع فيه منازع

يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار

كما فسرها الوسيط وقوله : ( يَوْمَ لاَ يَنفَعُ الظالمين مَعْذِرَتُهُمْ )

أى : وننصرهم يوم القيامة يوم يقدم الظالمون أعذارهم لكى نعفو عنهم . فلا يقبل منهم عذر واحد ، لأنها أعذار ساقطة . وجاءت فى غير وقتها .ولا منافاة بين هذه الآية وبين قوله - تعالى - : ( وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ) لأن المقصود منهما واحد . وهو أنهم ليس لهم عذر مقبول حتى يلتفت إليهم ، وإنما عذرهم مرفوض رفضا تاما .( وَلَهُمُ اللعنة ) من الله - تعالى - ومن عباده المؤمنين ( وَلَهُمْ ) - أيضا - ( سواء الدار ) وهى جهنم وسوؤها ما يسوء فيها من العذاب ، فالإضافة من باب إضافة الصفة إلى الموصوف . أى : ولهم الدار السوءى .وفى هاتين الآيتين ما فيهما من البشارة السارة العظيمة للمؤمنين ومن الإهانة التى ليس بعدها إهانة للكافرين .

ولقد اتينا موسى الهدى واورثنا بني اسرائيل الكتاب

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - مثالا من نصره لرسله ولعباده المؤمنين فقال - تعالى - : ( وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الهدى وَأَوْرَثْنَا بني إِسْرَائِيلَ الكتاب . هُدًى وذكرى لأُوْلِي الألباب ) .أى : والله لقد آتينا عبدنا ونبينا موسى ما يهتدى به من المعجزات والصحف والشرائع .وأورثنا من بعده قومه بنى إسرائيل الكتاب وهو التوراة . لكى ينتفعوا بإرشاداته وأحكامه وتوجيهاته .

هدى وذكرى لاولي الالباب

كما فسرها الوسيط وفعلنا ما فعلنا من أجل أن يكون ذلك الكتاب هداية وذكرى لأصحاب العقول السليمة فقوله - تعالى - ( هُدًى وذكرى ) مفعول لأجله . أو هما مصدران فى موضع الحال . أى : وأورثنا بنى إسرائيل الكتاب ، حالة كونه هاديا ومذكرا لأولى الألباب . لأنهم هم الذين ينتفعون بالهدايات . وهم الذين يتذكرون ويعتبرون دون غيرهم .

فاصبر ان وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والابكار

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه الآيات الكريمة بأمر النبى صلى الله عليه وسلم بالصبر على أذى أعدائه . فقال : ( فاصبر إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ . . أى : إذا كان الأمر كما ذكرنا لك - أيها الرسول الكريم - من أننا سننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ( وَيَوْمَ يَقُومُ الأشهاد . . ) فاصبر على ما أصابك من أعدائك ، فإن ما وعدك الله - تعالى - به من النصر ثابت لا شك فيه ، وحق لا باطل معه .( واستغفر لِذَنبِكَ ) فإن استغفارك هذا وأنت المصعوم من كل ما يغضبنا - يجعل أمتك تقتدى بك فى ذلك ، وتسير على نهجك فى الإكثار من فعل الطاعات .( وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بالعشي والإبكار ) أى : وبجانب استغفارك من الذنوب ، أكثر من تسبيح ربك ومن تنزيهه عن كل مالا يليق به عند حلول الليل ، وعند تباكير الصباح ، فإن هذا الاستغفار ، وذلك التسبيح ، خير زاد للوصول إلى السعادة والفوز فى الدنيا والآخرة .قال الإمام الرازى ما ملخصه : واعلم أن مجامع الطاعات محصورة فى قسمين : التوبة عما لا ينبغى ، والاشتغال بما ينبغى ، والأول مقدم على الثانى بحسب الرتبة الذاتية . فوجب أن يكون مقدما عليه فى الذكر . .أما التوبة عما لا ينبغى ، فنراها فى قوله - تعالى - : ( واستغفر لِذَنبِكَ ) وأما الاشتغال بما ينبغى ، فنراه فى قوله - تعالى - ( وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بالعشي والإبكار ) .والتسبيح عبارة عن تنزيه الله - تعالى - عن كل ما لا يليق به ، والعشى والإبكار ، قيل صلاة العصر وصلاة الفجر . وقيل : الإبكار عبارة عن أول النهار إلى النصف . والعشى عبارة عن النصف إلى آخر النهار ، فيدخل فيه كل الأوقات ، وبالجملة فالمراد منه المواظبة على ذكر الله . . وأن لا يفتر اللسان عنه . .

ان الذين يجادلون في ايات الله بغير سلطان اتاهم ان في صدورهم الا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله انه هو السميع البصير

كما فسرها الوسيط ثم تعود السورة الكريمة مرة أخرى إلى توبيخ الذين يجادلون فى آيات الله بغير حجة أو برهان ، وتبين الأسباب التى حملتهم على ذلك ، وترشد إلى العلاج من شرورهم ، وتنفى المساواة بين الكافر والمؤمن ، وتدعو المؤمنين إلى الإكثار من التضرع إلى الله - تعالى - فتقول :( إِنَّ الذين يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ . . . ) .المراد بالمجادلة فى قوله - تعالى - : ( إِنَّ الذين يُجَادِلُونَ في آيَاتِ الله بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ . . المجادلة بالباطل بدون حجة أو دليل ، أما المجادلة لإحقاق الحق والكشف عنه . . فهى محمودة ، لأنها تهدى إلى الخير والصلاح . .قال صاحب الكشاف : فأما الجدال فى آيات الله ، لإيضاح ملتبسها ، وحل مشكلها ومقادحة أهل العلم

) فى استنباط معانيها ورد أهل الزيغ عنها ، فأعظم جهاد فى سبيل الله .وجملة
، إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ ) خبر إن
والكبر بمعنى التكبر والتعالى والتعاظم على الغير .والمعنى : إن الذين
يجادلون فى آيات الله - تعالى - الدالة على وحدانيته وصدق رسله ، وليس
عندهم دليل أو برهان على صحة دعواهم . .هؤلاء المجادلون بالباطل ما حملهم
على ذلك إلا التكبر والتعاظم والتطلع إلى الرياسة وإلى أن تكون النبوة فيهم
أو فيمن يميلون إليهم . . وهم جميعا لن يصلوا إلى شئ من ذلك ، ولن يبلغوا
ما تتوق إليه نفوسهم المريضة ، لأن العطاء والمنع بيد الله - تعالى - وحده
وصدق الله إذ يقول : ( مَّا يَفْتَحِ الله لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ .
مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ
العزيز الحكيم ) فالآية الكريمة تبين أن على رأس الأسباب التى حملت هؤلاء
: المجادلين بالباطل على جدالهم . هو حبهم للتكبر والتعالى . .قال الآلوسى
قوله : ( بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ . . ) أى : بغير حجة فى ذلك أتتهم
من جهته - تعالى - وتقييد المجادلة بذلك مع استحالة إتيان الحجة ، للإيذان
، بأن المتكلم فى أمر الدين ، لابد من استناده إلى حجة واضحة وبرهان مبين
وهذا عام فى كل مجادل مبطل . .وقوله : ( مَّا هُم بِبَالِغِيهِ ) صفة لقوله
أى ما هم ببالغى موجب الكبر ومقتضيه ، وهو متعلق إرادتهم من دفع ( كِبْرٌ )
الآيات أو من الرياسة أو النبوة . .وقوله - سبحانه - : ( فاستعذ بالله
إِنَّهُ هُوَ السميع البصير ) إرشاد منه - تعالى - إلى ما يقى من شرور
هؤلاء المجادلين بالباطل .أى : هذا هو حال المجادلين بالباطل وهذا هو
- الدافع إلى جدالهم ، وما دام هذا هو حالهم ، فالتجئ إلى الله - تعالى
أيها الرسول الكريم - لكى يحفظك من شرورهم وكيدهم ، نه - تعالى - هو السميع
. لكل شئ ، البصير بما ظهر وخفى من شئون عباده

لخلق السماوات والارض اكبر من خلق الناس ولكن اكثر الناس لا يعلمون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - للناس من طريق المشاهدة صغر حجمهم
بالنسبة إلى بعض خلقه - تعالى - فيقول : ( لَخَلْقُ السماوات والأرض
: أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ) .أى
. لخلق السموات والأرض ابتداء وبدون مثال سابق ، أكبر وأعظم من خلق الناس
ومما لا شك فيه أن من قدر على خلق الأعظم ، فهو على خلق ما هو أقل منه أقدر
وأقدر ، ولكن أكثر الناس لاستيلاء الغفلة والهوى عليهم ، لا يعلمون هذه
الحقيقة الجلية .وقوله - تعالى - ( أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس ) إنما هو
من باب تقريب الأشياء إلى الفهم . فمن المعروف بين الناس أن معالجة الشئ
- الكبير أشد من معالجة الشئ الصغير . وإن كان الأمر بالنسبة إلى الله
تعالى -لا تفاوت بين خلق الكبير وخلق الصغير ، إذ كل شئ خاضع لإرادته كما
قال - سبحانه - : ( إِنَّمَآ أَمْرُهُ إِذَآ أَرَادَ شَيْئاً أن يَقُولَ
) لَهُ كُن فَيَكُونُ ) قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف اتصل قوله
لَخَلْقُ السماوات والأرض . . . ) بما قبله؟قلت : إن مجادلتهم فى آيات الله
كانت مشتملة على إنكار البعث . وهو أصل المجادلة ومدارها ، فَحُجُّوا بخلق
السموات والأرض لأنهم كانوا مقرين بأن الله خالقهم ، وبأنهما خلق عظيم لا
يقادر قدره ، وخلق الناس بالقياس إلى خلقهما شئ قليل ، فمن قدر على خلقهما
. . مع عظمهما . كان على خلق الإنسان مع ضآلته أقدر

وما يستوي الاعمى والبصير والذين امنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء قليلا
ما تتذكرون

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - ( وَمَا يَسْتَوِي الأعمى والبصير والذين
آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات وَلاَ المسياء . . . ) نفى لعدم المساواة
بين الأخيار والأشرار . والمتقين والفجار . .أى : كما أنه لا يصح فى عرف أى
عاقل المساواة بين الأعمى والبصير . كذلك لا تصح المساواة بين المؤمنين
الذين قدموا فى دنياهم العمل الصالح ، وبين الكافرين والفاسقين الذين لطخوا
- حياتهم بالعمل السيئ ، والفعل القبيح . .ولفظ " قليلا " فى قوله - تعالى
" مفعول مطلق ، وهو صفة لموصوف محذوف ، و ( قَلِيلاً مَّا تَتَذَكَّرُونَ )
. ما " مزيدة للتأكيد . أى . تذكرا قليلا تتذكرون

ان الساعة لاتية لا ريب فيها ولكن اكثر الناس لا يؤمنون

- كما فسرها الوسيط ثم أكد - سبحانه - مجئ الساعة فى الوقت الذى يختاره
تعالى - فقال : ( إِنَّ الساعة لآتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا ) أى :لا ريب
ولا شك فى مجيئها فى الوقت الذى يشاؤه - عز وجل - ( ولكن أَكْثَرَ الناس
. . لاَ يُؤْمِنُونَ ) بذلك لغفلتهم وقصور نظرهم ، واستحواذ الشيطان عليهم

وقال ربكم ادعوني استجب لكم ان الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم

داخرين

كما فسرها الوسيط ثم أمر - سبحانه - عباده المؤمنين أن يكثروا من التضرع إليه بالدعاء فقال : ( وَقَالَ رَبُّكُمُ ادعوني أَسْتَجِبْ لَكُمْ . . . )
أى : وقال ربكم - أيها المؤمنون - تضرعوا إلى بالدعاء ، وتقربوا إلى. بالطاعات ، أستجب لكم ، ولا أخيب لكم رجاء .ولا تنافى بين تفسير الدعاء هنا بالسؤال والتضرع إلى الله - تعالى - ، وبين تفسيره بالعبادة ، لأن الدعاء هو لون من العبادة ، بل هو مخها كما جاء فى الحديث الشريف .والإنسان الذى التزم فى دعائه الآداب والشروط المطلوبة ، كان دعاؤه جديرا بالإجابة ، فقد حكى لنا القرآن الكريم فى آيات كثيرة ، أن الأنبياء والصالحين ، عندما دعوا الله - تعالى - أجاب لهم دعاءهم ، ومن ذلك قوله - تعالى - ( وَنُوحاً إِذْ نادى مِن قَبْلُ فاستجبنا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الكرب العظيم )ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة الذين يتكبرون عن طاعة الله وعن دعائه فقال : ( إِنَّ الذين يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ) أى : إن الذين يستكبرون عن طاعتى ، وعن التقرب إلى بما يرضينى ، سيدخلون يوم القيامة نار جهنم حالة كونهم أذلاء صاغرين .فقوله من الدخور بمعنى الانقياد والخضوع يقال : دخر فلان يدخر ( دَاخِرِينَ ) : دخورا إذا ذل وهان .هذا ، وقد ذكر الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية جملة من الأحاديث التى تتصل بموضوع الدعاء فارجع إليه إن شئت .

الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا ان الله لذو فضل على الناس ولكن اكثر الناس لا يشكرون

، كما فسرها الوسيط وبعد أن بين - سبحانه - مصير الذين يستكبرون عن عبادته أتبع ذلك ببيان ألوان من النعم التى أنعم بها على عباده ، كنعمة السماء والأرض ، ونعمة خلق الإنسان ورزقه من الطيبات ، ونعمة الليل والنهار . . فقال - تعالى - :( الله الذي جَعَلَ . . . ) .قوله - تعالى - : ( الله الذي جَعَلَ لَكُمُ الليل لِتَسْكُنُواْ فِيهِ والنهار مُبْصِراً ) بيان لنعمتى - الليل والنهار اللتين أنعم بهما - سبحانه - على الناس .أى الله - تعالى هو وحده الذى جعل لكم - أيها الناس - الليل لتسكنوا فيه ، وتستريحوا من عناء العمل بالنهار وهيأه لهذه الاستراحة بأن جعله مظلما ساكنا . .وجعل لكم بقدرته وفضله النهار مبصرا ، أى : جعله مضيئا مسفرا ، بحيث تبصرون فيه ما تريدون إبصاره ، من الأشياء المتنوعة .قال صاحب الكشاف : قوله ( مُبْصِراً : هو من الإسناد المجازى لأن الإبصار فى الحقيقة لأهل النهار .فإن قلت ( لم قرن الليل بالمفعول له ، والنهار بالحال؟ وهلا كانا حالين أو مفعولا لهما . فيراعى حق المقابلة؟قلت : هما متقابلان من حيث المعنى ، لأن كل واحد منهما يؤدى مؤدى الآخر ، ولأنه لو قال : لتبصروا فيه فاتت الفصاحة التى فى الإسناد المجازى ، ولو قيل : ساكنا - والليل يجوز أن يوصف بالسكون على الحقيقة ، ألا ترى إلى قولهم : ليل ساج وساكن لا ريح فيه - لم تتميز الحقيقة من المجاز .وقوله : ( إِنَّ الله لَذُو فَضْلٍ عَلَى الناس ولكن - أَكْثَرَ الناس لاَ يَشْكُرُونَ ) بيان لموقف أكثر الناس من نعم الله ، تعالى - عليهم .أى : إن الله - تعالى - لصاحب فضل عظيم على الناس جميعا ولكن أكثرهم لا يشكرونه على آلائه ونعمه ، لغفلتهم وجهلهم واستيلاء الأهواء والشهوات عليهم .وقال - سبحانه - ( لَذُو فَضْلٍ ) بالتنكير للإشعار بأنه فضل لا تحيط به عبارة أو وصف .

ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا اله الا هو فانى تؤفكون

كما فسرها الوسيط واسم الإشارة فى قوله - تعالى - : ( ذَلِكُمُ الله رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ . . )يعود إلى من سبقت صفاته ونعمه وهو الله - عز وجل - .و ( ذَلِكُمُ ) مبتدأ ، وما بعده أخبار متعددة .أى : ذلكم الذى أعطاكم من النعم ما أعطاكم هو الله - تعالى - ربكم خالق كل شئ فى هذا الوجود . لا إله إلا هو فى هذا الكون . .وقوله - تعالى - : ( فأنى تُؤْفَكُونَ ) تعجيب من انصرافهم - بعد هذه النعم - عن الحق إلى الباطل ، وعن الشكران إلى الكفران .أى؛ فكيف تنقلبون عن عبادته - سبحانه - إلى عبادة غيره ، مع أنه - عز وجل - هو الخالق لكل شئ ، وهو صاحب تلك النعم التى تتمتعون بها .

كذلك يؤفك الذين كانوا بايات الله يجحدون

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الذين كَانُواْ بِآيَاتِ الله يَجْحَدُونَ ) بيان لحال الذين وقفوا من نعم الله - تعالى - موقف الجحود والكفران .ويؤفك هنا : بمعنى القلب والصرف عن الشئ ، من الأفك - بالفتح - مصدر أفكه عن الشئ بمعنى صرفه عنه - وبابه ضرب - ومنه

. . . قوله - تعالى - :( قالوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا
أى : لتصرفنا عن عبادتها .والمعنى : مثل ذلك الصرف العجيب من الحق إلى ( الباطل ، ينصرف وينقلب كل أولئك الذين انتكست عقولهم ، والذين كانوا بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا يجحدون ويكفرون .

الله الذي جعل لكم الارض قرارا والسماء بناء وصوركم فاحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين

- كما فسرها الوسيط وبعد أن بين - سبحانه - مظاهر نعمه عن طريق الزمان - الليل والنهار - أتبع ذلك ببيان نعمه عن طريق المكان - الأرض والسماء فقال : ( الله الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرض قَرَاراً ) أى : جعل الأرض مكانا لاستقراركم عليها ، والسعى فيها .( والسمآء بِنَآء ) أى : وجعل لكم السماء بمنزلة القبة المبنية المضروبة فوق رءوسكم فأنتم ترونها بأعينكم مرفوعة فوقكم بغير عمد .قال الآلوسى قوله : ( والسمآء بِنَآء ) أى : قبة ، ومنه ، أبنية العرب لقبابهم التى تضرب . وإطلاق ذلك على السماء على سبيل التشبيه وهو تشبيه بليغ . وفيه إشارة لكرويتها . وهذا بيان لفضله - تعالى - المتعلق بالمكان بعد بيان فضله المتعلق بالزمان .وقوله : ( وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ) بيان لفضله - تعالى - المتعلق بذواتهم . أى : جعل لكم الأرض مستقرا ، والسماء بناء ، وصور أشكالكم فى أحسن تقويم . وأجمل هيئة . كما قال - تعالى - : ( لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان في أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ) ( وَرَزَقَكُمْ مِّنَ الطيبات ) أى : ورزقكم من الرزق الطيب الحلال المستلذ .( ذَلِكُمُ الله رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ الله رَبُّ ، العالمين ) أى : ذلكم الذى أعطاكم تلك النعم المتعلقة بزمانكم ، ومكانكم وذواتكم ، ومطعمكم ومشربكم . هو الله ربكم الذى لا تولاكم بتربيته ورعايته ، فى جميع أطوار حياتكم فتبارك الله - تعالى - وتعاظم فى ذاته وفى صفاته . فهو رب العالمين ومالك أمرهم .

هو الحي لا اله الا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين

كما فسرها الوسيط ( هُوَ الحي ) أى : هو - سبحانه - المنفرد بالحياة الدائمة الباقية . .( لا إله إِلاَّ هُوَ ) إذ لا موجود يدانيه ولا فى صفاته ولا فى أفعاله .( فادعوه مُخْلِصِينَ لَهُ الدين الحمد للَّهِ رَبِّ العالمين ) أى : فاعبدوه عبادة خالصة لوجهه الكريم ، وأطيعوه طاعة لا مكان معها للتردد أو التكاسل ، حالة كونكم قائلين : الحمد لله رب العالمين .قال ابن جرير : كان جماعة من أهل العلم يأمرون من قال لا إله إلا الله ، أن يتبعها بقوله : ( الحمد للَّهِ رَبِّ العالمين ) عملا بهذه الآية .

قل اني نهيت ان اعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءني البينات من ربي وامرت ان اسلم لرب العالمين

كما فسرها الوسيط ثم لقن الله - تعالى - نبيه صلى الله عليه وسلم الرد الذى يوبخ به المشركين فقال : ( قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله لَمَّا جَآءَنِيَ البينات مِن رَّبِّي . . ) .أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المشركين الذين يطلبون منك مشاركتهم فى - عبادة آلهتهم : قل لهم إنى نهيت من ربى وخالقى ومالك أمرى عن عبادة غيره -تعالى - ، والسبب فى ذلك أن كل الدلائل والبراهين التى أكرمنى - سبحانه ) : بها ، تشهد وتصرح بأن المستحق للعبادة هو الله - تعالى - وحده .فقوله لَمَّا جَآءَنِيَ البينات مِن رَّبِّي ) بيان السبب الذى من أجله نهاه ربه عنه عبادة غيره ، وهذه البينات تشمل دلائل التوحيد العقلية والنقلية .وقوله أى : إني بعد أن نهانى ربى ( وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ العالمين ) عن عبادة غيره أمرنى بأن أسلم وجهى إليه بالعبادة والطاعة ، إذ هو وحده رب العالمين ومالك أمرهم .

هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا اشدكم ثم لتكونوا شيوخا ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا اجلا مسمى ولعلكم تعقلون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - مظاهر قدرته فى خلق الإنسان فى أطوار مختلفة ، فقال - تعالى - ( هُوَ الذي خَلَقَكُمْ مِّن تُرَابٍ ) أى : خلق : أباكم آدم من تراب ، وأنتم فرع عنه .( ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ) وأصل النطفة الماء الصافى . أو القليل من الماء الذى يبقى فى الدلو أو القربة ، وجمعها : نطف ونطاف . يقال : نطفت القربة إذا تقاطر ماؤها بقلة .والمراد بها هنا المنى الذى يخرج من الرجل ، ويصب فى رحم المرأة ، ( ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ) والعلقة قطعة من الدم المتجمد .( ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ) أى : ثم

: يخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالا صغارا ، بعد أن تكامل خلقكم فيها . فقوله
اسم جنس يصدق على القليل والكثير .ثم ( لتبلغوا أَشُدَّكُمْ ) بعد ( طفلا )
ذلك ، بعد أن تنتقلوا من مرحلة الطفولة إلى المرحلة التى تكتمل فيها
أجسامكم وعقولكم .( ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخاً ) بعد ذلك ، بأن تصلوا إلى
السن التى تتناقص فيها قوتكم والجملة الكريمة معطوفة على قوله ( لتبلغوا )
). أو معمولة لمحذوف كالجمل التى تقدمتها ، أى : ثم يبقيكم لتكونوا شيوخا
وَمِنكُمْ مَّن يتوفى مِن قَبْلُ ) أى : ومنكم من يدركه الموت من قبل أن
) : - يدرك سن الشيخوخة ، أو سن الشباب ، أو سن الطفولة .وقوله - تعالى
ولتبلغوا أَجَلاً مُّسَمًّى ) معطوف على مقدر . أى : فعل ذلك بكم لكي
تعيشوا ، ولتبلغوا أجلا مسمى تنتهى عنده حياتكم ، ثم تبعثون يوم القيامة
للحساب . والجزاء .وقوله : ( وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ) أى : ولعلكم
تعقلون عن ربكم أنه هو الذى يحييكم يوم القيامة كما أماتكم ، وكما أنشأكم
. من تلك الأطور المتعددة وأنتم لم تكونوا قبل ذلك شيئا مذكورا

هو الذي يحيي ويميت فاذا قضى امرا فانما يقول له كن فيكون

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات الزاخرة بكثير من النعم
بقوله - تعالى - ( هُوَ الذي يُحْيِي ) من يريد إحياءه ( وَيُمِيتُ ) من
يشاء إماتته .( فَإِذَا قضى أَمْرا ) أى : فإذا أراد إبراز أمر من الأمور
إلى هذا الوجود ( فَإِنَّمَا يَقُولُ لَه ) أى لهذا الأمر ( كُن فيَكُونُ )
. فى الحال بدون توقف على سبب من الأسباب ، أو علة من العلل

الم تر الى الذين يجادلون في ايات الله انى يصرفون

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك - ما يسلى النبى صلى الله عليه
وسلم عما أصابه من المشركين ، بأن بين له سوء عاقبيتهم يوم القيامة ، وبأن
- أمره بالبصر على كيدهم ، وبشره بأن العاقبة ستكون له ولأتباعه . . فقال
تعالى - :( أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين يُجَادِلُونَ . . . ) .الاستفهام فى
. قوله - تعالى - : ( أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين يُجَادِلُونَ في آيَاتِ الله
للتعجيب من أحوال هؤلاء المشركين . حيث أنكروا الحق الواضح وانساقوا ( . .
وراء الأوهام والأباطيل .والمعنى : انظر - أيها الرسول الكريم - إلى أحوال
المشركين ، وتعجب من سلوكهم الذميم ، حيث جادلوا فى الآيات الدالة على
: وحدانية الله وقدرته بدون علم أو حجة .وقوله : ( أنى يُصْرَفُونَ ) أى
انظر كيف يصرفون عن آيات الله الموجبة للإيمان بها . إلى الجحود والتكذيب
والجدال بالباطل فيها؟لقد كان من المنتظر منهم أن يهتدوا إلى الحق بعد أن
وصل إليهم . . ولكنهم عموا وصموا عنه . لانطماس بصائرهم ، واستحواذ الشيطان
. عليهم

الذين كذبوا بالكتاب وبما ارسلنا به رسلنا فسوف يعلمون

) كما فسرها الوسيط وقوله : ( الذين كَذَّبُواْ بالكتاب . . ) بدل من قوله
إِنَّ الذين يُجَادِلُونَ في آيَاتِ الله ) أى : تعجب من هؤلاء الذين كذبوا
بالقرآن الكريم . الذى أنزلناه إليك - يا محمد - لتخرجهم به من الظلمات إلى
النور .وكذبوا - أيضا - ( وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا ) من سائر
الكتب والمعجزات . فهم لم يكتفوا بالتكذيب بك بل أضافوا إلى ذلك تكذيبهم
بكل كتاب ورسول .وقوله - تعالى - : ( فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ) وعيد شديد لهم
على تكذيبهم بالرسل وبكتبهم ، أى : فسوف يعلمون سوء عاقبة تكذيبهم لأنبياء
. الله - تعالى - ولكتبه التى أنزلها عليهم

اذ الاغلال في اعناقهم والسلاسل يسحبون

كما فسرها الوسيط ثم فصل - سبحانه - هذا الوعيد ، وبين ما أعده لهم من عذاب
فقال : ( إِذِ الأغلال في أَعْنَاقِهِمْ والسلاسل يُسْحَبُونَ . فِي الحميم
ثُمّ فِي النار يُسْجَرُونَ )و " إذ " هنا ظرف بمعنى " إذا " وهو متعلق
بيعلمون ، وعبر - سبحانه - بالظرف الدال على المضى ، للدلالة على تحقق
- الخبر ، حتى لكأن العذاب قد نزل بهم فعلا .والأغلال : جمع غل - بضم الغين
وهو القيد يوضع فى اليد والعنق فيجمعهما .والسلاسل : جمع سلسلة ، وهى ما
. يربط بها الجانى على سبيل الإذلال له

في الحميم ثم في النار يسجرون

: كما فسرها الوسيط والحميم : الماء البالغ أقصى درجات الحرارة .ويسجرون
مأخوذ من سجر التنور ، إذا ملأه بالوقود .والمعنى : فسوف يعلمون سوء عاقبة
تكذيبهم وجدالهم بالباطل يوم القيامة ، وقت أن توضع الأغلال والقيود فى

أعناقهم ، ثم يسحبون ويجرون إلى الحميم بعنف وإهانة ، ثم يلقى بهم فى النار التى تمتلئ بهم ، ويكونون وقودا لها . قال صاحب الكشاف : فإن قلت : وهل قوله إلا مثل قولك : سوف أصوم ( . . فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ . إِذِ الأَغلال ) : أمس؟ قلت : المعنى على إذا ، إلا أن الأمور المستقبلة لما كانت فى أخبارك الله - تعالى - متيقنة مقطوعا بها ، عبر عنها بلفظ ما كان ووجد . والمعنى . . على الاستقبال

ثم قيل لهم اين ما كنتم تشركون

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ) تبكيت وتأنيب لهم . أى : ثم قيل بعد هذا العذاب المهين لهم : أين تلك الآلهة التى كنتم تعبدونها من دون الله ، لكى تدفع عنكم شيئا من العذاب الأليم الذى نزل بكم؟

من دون الله قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعو من قبل شيئا كذلك يضل الله الكافرين

كما فسرها الوسيط وقوله : ( قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُنْ نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْئاً .. . ) حكاية لجوابهم الذى يدل على حسرتهم وبؤسهم . أى : قالوا : ذهبوا وضاعوا وغابوا عنا ولم نعد نعرف لهم طريقا ، ولا هم يعرفون عنا طريقا . ثم أضربوا عن هذا القول توهما منهم أن هذا الإضراب ينفعهم فقالوا : بل لم نكن نعبد من قبل فى الدنيا شيئا يعتد به ، وإنما كانت عبادتنا لتلك الآلهة أوهاما وضلالا . . وقوله - تعالى - : ( كَذَلِكَ يُضِلُّ الله الكافرين ) أى مثل هذا الضلال البين والتخبط الواضح يضل الله - تعالى - الكافرين ، ويجعلهم يتخبطون فى إجابتهم على السائلين ، لهم .

ذلكم بما كنتم تفرحون في الارض بغير الحق وبما كنتم تمرحون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - الأسباب التى أدت بهم إلى هذا العذاب المهين فقال : ( ذَلِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأرض بِغَيْرِ الحق وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ . ادخلوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى المتكبرين ) . وقوله : ( تَمْرَحُونَ ) من المرح ، وهو التوسع فى الفرح مع الأشر والبطر . أى : ذلك الذى نزل بكم من العذاب بسبب فرحكم وبطركم فى الأرض بالباطل ، وبسبب مرحكم وأشركم وغروركم فيها .

ادخلوا ابواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين

كما فسرها الوسيط وحق عليكم أن يقال لكم بسبب ذلك : ادخلوا أبواب جهنم المفتوحة أمامكم ، حالة كونكم خالدين فيها خلودا أبديا ، فبئس ( مَثْوَى ) أى : مكان المتكبرين ) عن قبول الحق جهنم . وقال - سبحانه - ( فَبِئْسَ مَثْوَى المتكبرين ) ولم يقل فبئس مدخل المتكبرين ، للإشارة إلى خلودهم فى جهنم ، إذ الثواء معناه الإقامة الدائمة ، مأخوذ من ثوى فلان بالمكان إذا أقام به إقامة دائمة .

فاصبر ان وعد الله حق فاما نرينك بعض الذي نعدهم او نتوفينك فالينا يرجعون

كما فسرها الوسيط ثم ذكر الله - تعالى - لنبيه صلى الله عليه وسلم الوصية بالصبر فقال : ( فاصبر إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الذي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ) وقوله : ( فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ ) أصله : فإن نُرِك ، فزيدت " ما " لتوكيد ( إن ) الشرطية ، وجوابها محذوف ، وقوله ( أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ) جوابه " فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ) والمعنى : إذا كان حال هؤلاء المشركين كما ذكرنا لك يا محمد ، فاصبر على جدالهم بالباطل ، إن وعد الله - تعالى - بتعذيبهم وبنصرك عليهم حق . فإن نرك بعض الذى نعدهم به من القتل والأسر والهزيمة فبها ونعمت ، أو نتوفينك قبل ذلك فإلينا مرجعهم يوم القيامة ، فنجازيهم بما يستحقون من عقاب . فالآية الكريمة تأمر النبى صلى الله عليه وسلم بمداومة الصبر ، وتحض على تبليغ ما أنزل إليه من ربه بدون كلل أو ملل ، ثم بعد ذلك يترك النتائج لله - تعالى - يسيرها كيف يشاء ، فإما أن يطلعه على ما توعد به أعداءه ، وإما أن يتوفاه قبل ذلك . وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( وَإِن مّا نُرِيَنّكَ بَعْضَ الذي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفّيَنّكَ فَإِنّمَا عَلَيْكَ البلاغ وَعَلَيْنَا الحساب )

ولقد ارسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك وما

كان لرسول ان ياتي باية الا باذن الله فاذا جاء امر الله قضي بالحق وخسر هنالك المبطلون

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - تسلية أخرى للرسول صلى الله عليه وسلم فقال : ( وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً . . . ) أى : رسلا كثيرين ( مِّن قَبْلِكَ ) أى من قبل إرسالك إلى الناس .( مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ كنوح وهود وصالح وإبراهيم . وغيرهم .( وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ ( - عَلَيْكَ ) أخبارهم وأحوالهم لأن حكمتنا قد اقتضت ذلك .كما قال - تعالى فى آية أخرى : ( وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ( وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّه موسى تَكْلِيماً والمراد بالآية فى قوله - تعالى - ( وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ الله ) المعجة الخارقة الدالة على صدقه فيما يبلغه عن ربه .أي : وما صح وما استقام لرسول من الرسل أن يأتى بمعجزة من عند نفسه وإنما يأتى بها بإذن الله - تعالى - ومشيئته ، إذ المعجزات جميعا عطايا ، من الله - تعالى - لرسله لتأييدهم فى دعوتهم .( فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ الله أى : فإذا جاء الوقت الذى حدده - سبحانه - لعذاب أعدائه ( قُضِيَ بالحق ) ( أى : قضى بين الناس جميعا بالحق ، فينجى - سبحانه - بقضائه العادل عباده ، المؤمنين .( وَخَسِرَ هُنَالِكَ المبطلون ) أى : وخسر - عند مجئ أمر الله عند القضاء بين خلقه - المبطلون ، وهم الذين ماتوا مصرين على كفرهم أو ) : - فسوقهم عن أمره .وكما قال - تعالى - في آيات أخرى منها قوله - تعالى : - وَلِلَّهِ مُلْكُ السماوات والأرض وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ المبطلون ) .

الله الذي جعل لكم الانعام لتركبوا منها ومنها تاكلون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - فى أواخر هذه السورة الكريمة ، جانبا آخر من نعمه على عباده ، ووبخ الفاسقين على عدم اعتبارهم بأحوال من سبقهم من الأمم ، وهددهم بأنهم عند مجئ العذاب إليهم لن ينفعهم إيمانهم . . فقال - تعالى - :( الله الذي جَعَلَ . . . ) .قوله - تعالى - ( الله الذي جَعَلَ لَكُمُ الأنعام . . ) بيان لنعمة أخرى من نعمه التى تتعلق بما سخره - سبحانه - لخدمة الإنسان من دواب ، بعد بيانه قبل لكثير من النعم التى تتعلق بالليل والنهار ، والسماء والأرض . . إلخ .والأنعام : جمع نعم ، وأطلق على الإبل والبقر والغنم ، قالوا والمراد بها هنا : الإبل خاصة؛ لأن معظم المنافع التى ذكرت هنا توجد فيها .أي - تعالى - هو الذى خلق لكم بقدرته الإبل ( لِتَرْكَبُواْ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ) أى لتركبوا بعضا منها ، ولتأكلوا بعضا آخر منها . فمن فى الموضعين للتبعيض .

ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون

كما فسرها الوسيط ( وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ ) أخرى غير الأكل وغير الركوب ، كالانتفاع بألبانها وأوباؤها وجلودها . .( وَلِتَبْلُغُواْ عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ ) أي : ومن منافعها - أيضا - أنكم تستعملونها فى الأمور الهامة كحمل الأثقال ، والانتقال عليها من مكان إلى مكان . .كما قال - تعالى - ( وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأنفس إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ) ( وَعَلَيْهَا وَعَلَى الفلك تُحْمَلُونَ ) أى : وعلى هذه الإبل فى البر وعلى السفن فى البحر تحملون .كما قال - تعالى - : ( والذي خَلَقَ الأزواج كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الفلك والأنعام مَا تَرْكَبُونَ ) هذا ، ولا مانع من أن يكون المراد بالأنعام هنا ما يشمل الإبل والبقر والغنم ، وإلى هذا المعنى ذهب الإمام ابن كثير ، فقد قال : يقول - تعالى - ممتنا على عباده بما خلق لهم من الأنعام! وهى : الإبل والبقر والغنم ، فالإبل تركب وتؤكل وتحلب ، ويحمل عليها الأثقال فى الأسفار والرحال إلى البلاد النائية ، والأقطار الشاسعة ، والبقر تؤكل ويشرب لبنها وتحرث عليها الأرض ، والغنم تؤكل ويشرب لبنها ، والجميع تجز أوبارها ، وأصوافها وأشعارها . فيتخذ منه الأثاث والثياب والأمتعة . . . "

ويريكم اياته فاي ايات الله تنكرون

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - ( وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ الله تُنكِرُونَ ) تعجب من غفلتهم عن هذه الآيات المبثوثة فى الكون ، والتى تدل جميعها على وحدانية الله - تعالى - وقدرته .ولفظ " أى " منصوب بقوله ( تُنكِرُونَ ) وقدم وجوبا لأن له صدر الكلام .أى : أنه - سبحانه - فى كل وقت وحين يريكم آياته الدالة على قدرته ووحدانيته ، فقولوا لى . أية تلك الآيات - تنكرون دلالتها على ذلك .إنها جميعا تنطق وتصرح بوجوب إخلاص العبادة لله

عز وجل - فكيف جحدتموها أو غفلتم عنها مع وضوحها؟فالآية الكريمة توبيخ شديد لأولئك الذين استحبوا العمى على الهدى مع أن كل شئ فى هذا الكون يدعوهم إلى الإيمان بالله الواحد القهار .

افلم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا اكثر منهم واشد قوة واثارا في الارض فما اغنى عنهم ما كانوا يكسبون

كما فسرها الوسيط ثم وبخهم - سبحانه - مرة أخرى لعدم اتعاظهم بمصارع الغابرين فقال : ( أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأرض فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذين مِن قَبْلِهِمْ . . . )أى : أقبعوا فى بيوتهم .فلم يسيروا فى أقطار الأرض . فينظروا كيف كانت عاقبة الأمم المكذبة من قبلهم ، كقوم صالح وقوم لوط ، وقوم شعيب وغيرهم .فالاستفهام للتوبيخ والتأنيب - والفاء فى قوله : ( أَفَلَمْ . . . ) للعطف على مقدر .ثم فصل - سبحانه - حال الذين كانوا من قبل كفار مكة فقال : ( كانوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ ) أى : فى العدد ( وَأَشَدَّ قُوَّةً ) أى فى الأبدان والأجسام ( وَآثَاراً فِي الأرض ) أى : وكانوا أظهر منهم فى العمران والحضارة والغنى .( فَمَآ أغنى عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ) أى أن هؤلاء الغابرين عندما حل بهم عذابنا لم تغن عنهم شيئا كثرتهم أو قوتهم أو أموالهم . . بل أخذناهم أخذ عزيز مقتدر فى زمن يسير .

فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - موقف هؤلاء الجاحدين من رسلهم فقال فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بالبينات فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُمْ مِّنَ العلم . . . ) .أى : فحين جاء الرسل إلى هؤلاء الجاهلين ، فرحوا بما لديهم من العلوم الدنيوية كالتجارة والزراعة . . واغتروا بتلك القشور التى كانوا يسمعونها ممن كانوا يزعمون أنهم على شئ من العلم الدينى ، واستهزأوا بما جاءهم به الرسل من علوم تهدى إلى الرشد ، وتدعو إلى إخلاص العبادة لله . واعتقدوا - لغبائهم - وانطماس بصائرهم - أنه لا علم أنفع من علومهم ففرحوا بها . .ورحم الله صاحب الكشاف فقد فصل القول عند تفسيره لهذه الآية فقال : قوله : ( فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُمْ مِّنَ العلم ) فيه وجوه :منها : أنه أراد العلم الوارد على سبيل التهكم فى قوله - تعالى - : ( بَلِ ادارك عِلْمُهُمْ فِي الآخرة ) وعلمهم فى الآخرة أنهم كانوا يقولون لانبعث ولا نعذب .ومنه : أن يريد علم الفلاسفة والدهريين عن بنى يونان ، وكانوا إذا سمعوا بوحى الله : دفعوه وصغروا علم الأنبياء إلى علمهم .ويجوز أن يريد بما فرحوا به من العلم : علمهم بأمور الدنيا ومعرفتهم بتدبيرها ، كما قال - تعالى - ( يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الحياة الدنيا وَهُمْ عَنِ الآخرة هُمْ غَافِلُونَ ) فلما جاءهم الرسل بعلوم الديانات . . لم يلتفتوا إليها ، وصغروها واستهزءوا بها ، واعتقدوا أنه لا أنفع وأجلب للفوائد من علمهم ففرحوا به .ويبدو لنا أن هذا الرأى الأخير الذى ذكره صاحب الكشاف ، هو أقرب الآراء إلى الصواب .وقوله - سبحانه - ( وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ) بيان لما نزل بهم من عذاب بسبب تكذيبهم لرسلهم ، واستهزائهم بهم . أى : ونزل بهؤلاء الكافرين العذاب الأليم بسبب استهزائهم برسلهم ، وإعراضهم عن دعوتهم .

فلما راوا باسنا قالوا امنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - حالهم عندما أحاط بهم العذاب فقال فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ) أى عاينوا عذابنا النازل بهم .( قالوا ) بفزع وخوف ( آمَنَّا بالله وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ) أى : وكفرنا بما كنا به مشركين فى الدنيا من عبادة لغير الله - تعالى - واعتماد على سواه .

فلم يك ينفعهم ايمانهم لما راوا باسنا سنت الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون

كما فسرها الوسيط وقد بين - سبحانه - أن إيمانهم هذا لن ينفعهم لأنه جاء فى غير وقته فقال ( فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ ) شيئا من النفع لأنه إيمان جاء عند معاينة العذاب ، والإيمان الذى يدعى فى هذا الوقت لا قيمة له ، لأنه جاء فى وقت الاضطرار لافى وقت الاختيار .ولفظ " سنة " فى قوله - تعالى - : ( سُنَّتَ الله التي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ . . . ) منصوب على أنه مصدر مؤكد لفعل محذوف .أى : سن الله - تعالى - ذلك ، وهو عدم نفع الإيمان عند حلول العذاب سنة ماضية فى الناس ، بحيث لا تتخلف فى أى

زمان أو مكان .( وَخَسِرَ هُنَالِكَ الكافرون ) أى : فى هذا الوقت الذى
ينزل الله - تعالى - فيه العذاب على الكافرين يخسرون كل شئ ، بحيث لا
ينفعهم لا أموالهم ولا أولادهم ولا آلهتهم التى كانوا يتوهمون شفاعتها
وبعد : فهذا تفسير وسيط لسورة " غافر " نسأل الله - تعالى - أن يجعله.
خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده :وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه
- وسلم

حم

كما فسرها الوسيط سورة " فصلت " من السور التى بدئت ببعض حروف التهجى
والرأى الراجح فى هذه الحروف أنها جئ بها للإيقاظ والتنبيه على أن هذا.
القرآن من عند الله - تعالى - ، بدليل أنه مؤلف من جنس الحروف التى يتخاطب
. بها المشركون ، ومع ذلك فقد عجزوا عن أن يأتوا بسورة من مثله

تنزيل من الرحمن الرحيم

كما فسرها الوسيط وقوله : ( تَنزِيلٌ مِّنَ الرحمن الرحيم ) بيان لمصدر هذا
القرآن ، وقوله ( تَنزِيلٌ ) خبر لمبتدأ محذوف .أى : هذا القرآن ليس أساطير
- الأولين - كما زعم الجاحدون الجاهلون - وإنما هو منزل من عند الله
تعالى - صاحب الرحمة العظيمة الدائمة .إذ لفظ " الرحمن " بمعنى عظيم الرحمة
لأن فعلان صيغة مبالغة فى كثرة الشئ وعظمته ، أما صيغة فعيل فتستعمل فى ،
- الصفات الدائمة ككريم ، فكأنه - تعالى - يقول : هذا الكتاب منزل من الله
تعالى - العظيم الرحمة الدائمة .قال بعض العلماء : وإنما خص هذان الوصفان
بالذكر ، لأن الخلق فى هذا العالم كالمرضى المحتاجين ، والقرآن مشتمل على
كل ما يحتاج إليه المرضى من الأدوية ، وعلى كل ما يحتاج إليه الأصحاء من
الأغذية . فكان أعظم النفع من الله على هذا العالم إنزال القرآن الناشئ عن
. رحمته ولطفه بخلقه

كتاب فصلت اياته قرانا عربيا لقوم يعلمون

كما فسرها الوسيط ثم أثنى - سبحانه - على هذا القرآن الذى أنزله بمقتضى
رحمته وحكمته فقال : ( كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً
لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . بَشِيراً وَنَذِيراً ) .ومعنى : ( فُصِّلَتْ
آيَاتُهُ ) : ميزت فى ألفاظها بفواصل ومقاطع ، وميزت فى معانيها لاشتمالها
على أنواع متعددة من المعانى الحكيمة .وقوله ( قُرْآناً ) منصوب على المدح
أو على الحال من كتاب ، ( عَرَبِيّاً ) صفة للقرآن .وقوله ( لِّقَوْمٍ ،
- يَعْلَمُونَ ) متعلق بفصلت .أى : هذا القرآن منزل من عند الله - تعالى
الذى وسعت رحمته كل شئ ، وهو كتاب فصلت آياته ووضحت وميزت من حيث ألفاظها
تفصيلا بليغا ، إذ اشتملت على فواصل ومقاطع فيما بينها ليسهل فهمه وحفظه
وفصلت آياته من حيث معانيها تفصيلا حكيما . إذ بعضها جاء لبيان ذاته.
وصفاته وأفعاله - تعالى - ، وبعضها اشتمل على ألوانه من نعمه التى لا تحصى
، وبعضها جاء بأسمى أنواع الهدايات والآداب والأحكام والقصص والمواعظ ،
وبعضها جاء لتبشير المؤمنين بحسن الثواب ، ولإنذار الكافرين بسوء العقاب
وخص - سبحانه - الذين يعلمون بالذكر ، لأنهم هم الذين ينتفعون بما اشتمل.
عليه هذا الكتاب من تفصيل لآياته شامل لألفاظها ومعانيها .قال صاحب الكشاف
قوله ( لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ) أى لقوم عرب يعلمون ما نزل عليهم من :
: الآيات المفصلة المبينة بلسانهم العربى ، لا يلتبس عليهم شئ منه .فإن قلت
، بم يتعلق قوله : ( لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ) ؟قلت : يجوز أن يتعلق بتنزيل
أو بفصلت ، أى : تنزيل من الله لأجلهم . أو فصلت آياته لهم .وأجود أن يكون
صفة مثل ما قبله وما بعده ، أى : قرآنا عربيا كائنا لقوم عرب؛ لئلا يفرق
. . بين الصلاة والصفات

بشيرا ونذيرا فاعرض اكثرهم فهم لا يسمعون

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ
يَسْمَعُونَ ) بيان لموقف الناس من هذا القرآن المنزل من الرحمن الرحيم
والمراد بالأكثر هنا : الكافرون الذين لا ينتفعون بهدايات القرآن الكريم.
، أى : هذا القرآن أنزلناه إليك لتخرج الناس به من الظلمات إلى النور.
فأعرض أكثرهم عن هداياته لاستحواذ الشيطان عليهم ، فهم لا يسمعون سماع تدبر
واتعاظ ، وإنما يسمعون بقلوب قاسية ، وعقول خالية من إدراك معانيه ، ومن
الاستجابة له .ونفى - سبحانه - سماعهم له ، مع أنهم كانوا يسمعون من الرسول
صلى الله عليه وسلم ومن أصحابه ، لأنهم لما سمعوه ولم يؤمنوا به . . صار
. سماعهم بمنزلة عدمه

وقالوا قلوبنا في اكنة مما تدعونا اليه وفي اذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل اننا عاملون

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - أقوالهم التي تدل على توغلهم فى الكفر والعناد فقال : ( وَقَالُواْ قُلُوبُنَا في أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فاعمل إِنَّنَا عَامِلُونَ ) ، والأكنة : جمع كنان وهو الغطاء للشئ . و ( وَقْرٌ الصمم الذى يحول بين الإنسان وبين سماع ما يقال له .والحجاب : من الحجب ( بمعنى الستر لأنه يمنع المشاهدة ، ومنه قيل للبواب حاجب ، لأنه يمنع من الدخول .أى : وقال الكافرون للنبى صلى الله عليه وسلم على سبيل تيئيسه من ، إيمانهم : إن قلوبنا قد كستها أغطية متكاثفة جعلتها لا تفقه ما تقوله لنا وما تدعونا إليه ، وإن آذاننا فيها صمم يحول بيننا وبين سماع حديثك ، وإن من بيننا ومن بينك حاجزا غليظا يحجب التواصل والتلاقى بيننا وبينك ، وما دام حالنا وحالك كذلك فاعمل ما شئت فيما يتعلق بدينك ، ونحن من جانبنا ، سنعمل ما شئنا فيما يتعلق بديننا .وهذه الأقوال التى حكاها القرآن عنهم تدل على أنهم قوم قد بلغوا أقصى درجات الجحود والعناد : فقلوبهم قد أغلقت عن إدراك الحق ، وأسماعهم قد صمت عن سماعه ، وأشخاصهم قد أبت الاقتراب من شخص الرسول صلى الله عليه وسلم الذى يحمل لهم الخير والنور ، وما حملهم على ذلك إلا اتباعهم للهوى والشيطان ,وصدق الله إذ يقول : ( فَلَمَّا زاغوا أَزَاغَ الله قُلُوبَهُمْ والله لاَ يَهْدِي القوم الفاسقين ).

قل انما انا بشر مثلكم يوحى الي انما الهكم اله واحد فاستقيموا اليه واستغفروه وويل للمشركين

كما فسرها الوسيط ثم لقن الله - تعالى - رسوله صلى الله عليه وسلم الجواب الذى يرد به عليهم فقال : ( قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يوحى إِلَيّ أَنّمَآ إلهكم إله وَاحِدٌ ) .أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الجاحدين : إنما أنا بشر مثلكم فى الصفات البشرية أوجدنى الله - تعالى - بقدرته كما أوجدكم ، وينتهى نسبى ونسبكم إلى آدم - عليه السلام إلا أن الله - تعالى - قد اختصنى بوحيه ورسالته - وهو أعلم حيث يجعل ، رسالته - وأمرنى أن أبلغكم أن إلهكم وخالقكم .. هو إله واحد لا شريك له فعليكم أن تخلصلوا له العبادة والطاعة .وقوله : ( فاستقيموا إِلَيْهِ واستغفروه ) أى : فالزموا الاستقامة فى طريقكم إليه - تعالى - بالإيمان به وطاعته والإخلاص فى عبادته .

الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالاخرة هم كافرون

. كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( . . وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ الذين لاَ يُؤْتُونَ الزكاة وَهُمْ بالآخرة هُمْ كَافِرُونَ ) تهديد لهم بسوء المصير إذا استمروا على عنادهم وشركهم .والويل : لفظ دال على الشر أو الهلاك ، وهو مصدر لافعل له من لفظه ، والمراد به هنا : الدعاء عليهم بالخزى والهلاك .أى : فهلاك وخزى وعقاب شديد لهؤلاء المشركين ، الذين لا يؤتون الزكاة ، أى :لا يؤمنون بها ، ولا يخرجونها إلى مستحقيها ، ولا يعملون على تطهير أنفسهم بأدائها . . . وفضلا عن كل ذلك فهم بالآخرة وما فيها من حساب وثواب وعقاب كافرون .قال ابن كثير : والمراد بالزكاة ها هنا : طهارة النفس من الأخلاق المرذولة . . .وقال قتادة : يمنعون زكاة أموالهم ، واختاره ابن جرير . .وفيه نظر ، لأن إيجاب الزكاة إنما كان فى السنة الثانية من الهجرة ، وهذه الآية مكية . اللهم إلا أن يقال :لا يبعد أن يكون أصل الزكاة - وهو الصدقة - كان مأمورا به فى ابتداء البعثة ، كقوله - تعالى - : ( وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ) فأما الزكاة ذات النصب والمقادير فإنما بين أمرها فى المدينة ، ويكون هذا جمعا بين القولين . وقال بعض العلماء : قد استدل بعض علماء الأصول بهذه الآية الكريمة على أن. الكفار مخاطبون بفروع الشريعة ، لأنه - تعالى - صرح فى هذه الآية الكريمة ، بأنهم مشركون ، وأنهم كافرون بالآخرة ، وقد توعدهم - سبحانه - بالويل على كفرهم بالآخرة ، وعدم إيتائهم الزكاة ، سواء أقلنا إن الزكاة فى الآية هى الزكاة المال المعروفة ، أو زكاة الأبدان عن طريق فعل الطاعات ، واجتناب المعاصى .ورجع بعضهم - أن المراد بالزكاة هنا زكاة الأبدان - لأن السورة مكية وزكاة المال المعروفة إنما فرضت فى السنة الثانية من الهجرة .وعلى أية حال فالآية تدل على خطاب الكفار بفروع الإسلام .أعنى امتثال أوامره واجتناب نواهيه ، وما دلت عليه هذه الآية من أنهم مخاطبون بذلك ، وأنهم يعذبون على الكفر والمعاصى ، جاء موضحا فى آيات أخر كقوله - تعالى - : ( مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ . قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ المصلين . وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ المسكين . وَكُنّا نَخُوضُ مَعَ الخائضين . . ) وخص سبحانه - من بين أوصاف المشركين منع الزكاة مقرونا بالكفر بالآخرة ، لأن

أحب شئ إلى الإنسان ماله ، وهو شقيق روحه ، فإذا بذله للمتحاجين ، فذلك أقوى دليل على استقامته ، وصدق نيته .

ان الذين امنوا وعملوا الصالحات لهم اجر غير ممنون

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( إِنَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ) بيان لحسن عاقبة المؤمنين ، بعد بيان سوء عاقبة الكافرين .أى : إن الذين آمنوا إيمانا حقا وعملوا الأعمال الصالحات ، لهم أجر عظيم غير ( مَمْنُونٍ ) أى غير مقطوع عنهم ، من مننت الحبل إذا قطعته ، أو غير منقوص عما وعدهم الله به ، أو غير ممنون به عليهم بل يعطون ما يعطون من خيرات جزاء أعمالهم الصالحة فى الدنيا ، فضلا من الله - تعالى - وكرما .

قل ائنكم لتكفرون بالذي خلق الارض في يومين وتجعلون له اندادا ذلك رب العالمين

كما فسرها الوسيط ثم أمر الله - تعالى - صلى الله عليه وسلم - أن يوبخ هؤلاء المشركين على إصرارهم على كفرهم ، مع أن مظاهر قدرة الله - تعالى - الماثلة أمام أعينهم تدعوهم إلى الإيمان ، فقال - تعالى - :( قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بالذي خَلَقَ . . . ) .قال الإمام الرازى ما ملخصه : اعلم أنه - تعالى - لما أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول للناس أردفه ( . . . قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يوحى إِلَيَّ ) : بما يدل على أنه لا يجوز إثبات الشركة بينه - تعالى - وبين هذه الأصنام فى الإلهية والمعبودية ، وذلك بأن بين كمال قدرته وحكمته فى خلق السموت والأرض فى مدة قليلة . . والاستفهام فى قوله ( أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ . . ) بمعنى الإنكار ، وهو لإنكار شيئين : الكفر بالله . . وجعل الأنداد له .والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المشركين على سبيل الإنكار لأفعالهم : أئنكم لتكفرون بالله - تعالى - الذى خلق الأرض فى يومين .قال الآلوسى : وإن واللام فى قوله ( أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ ) - لتأكيد الإنكار . . وعلق - سبحانه - كفرهم بالاسم الموصول لتفخيم شأنه تعالى - واستعظام كفرهم به .واليوم فى المشهور عبارة عن زمان كون الشمس فوق الأفق ، وأريد منه ها هنا الوقت مطلقا ، لأنه لا يتصور ذلك قبل خلق السماء والكواكب والأرض نفسها ، ثم إن ذلك الوقت يحتمل أن يكون بمقدار اليوم المعروف ، ويحتمل أن يكون أقل منه أو أكثر ، والأقل أنسب بالمقام .قال سعيد بن جبير - رضى الله عنه - إن الله - تعالى - قادر على أن يخلق هذا الكون كله فى لحظة ، ولكنه خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، ليعلم خلقه التثبت والتأنى فى الأمور .وقوله : ( وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ) معطوف على قوله ( تكفرون ) وداخل معه فى حكم الإنكار .والأنداد : جمع ند وهو مثل الشئ يضاده وينافره ويتباعد عنه . وأصله من ند البعير إذا نفر وذهب على وجهه شاردا .أى : وتجعلون له امثالا ونظراء تعبدونها من دونه ، وتسمونها - زورا وكذبا - آلهة ، وجمع - سبحانه - الأنداد باعتبار واقعهم ، لأنهم كانوا يعبدون آلهة شتى ، فمنهم من عبد الأصنام ، ومنهم من عبد الملائكة ، ومنهم من عبد الكواكب .واسم الإشارة فى قوله (ذَلِكَ رَبُّ العالمين ) يعود إلى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة .أى : ذلك الموصوف بتلك القدرة الباهرة ، رب العالمين جميعا ، وخالق جميع المخلوقات ، والمتولى لتربيتها دون سواه .

وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها اقواتها في اربعة ايام سواء للسائلين

كما فسرها الوسيط وقوله : ( وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا . . ) معطوف على ( خَلَقَ الأرض فِي يَوْمَيْنِ ) .والرواسى : جميع راس من الرسو - بفتح الراء وسكون السين - بمعنى الثبات والاستقرار فى المكان ، يقال : رسا الشئ إذا ثبت واستقر . وهو صفة لموصوف محذوف .أى : وجعل فيها - جبالا رواسى من فوقها ، لكى تستقر وتثبت ، ولا تميد أو تضطرب بكم .وقال - تعالى - : ( مِن فَوْقِهَا ) لبيان الواقع ، إذ وجود الجبال من فوق الأرض ومشاهدة الإنسان لذلك بعينيه ، يزيده اقتناعا بقدرة الله - تعالى - الباهرة وحكمته البليغة .( وَبَارَكَ فِيهَا ) أى : وجعلها مباركة زاخرة بأنواع الخيرات والمنافع ، عن طريق الزروع والثمار المبثوثة فوقها ، والمياه التى تخجر من جوفها . والكنوز التى تحصل من باطنها .( وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا ) والأقوات : جمع قوت . والمراد بها أرزاق أهل الأرض ، وما يصلحهم .أى : وجعل أقوات أهلها يحتاجون إليها فى معايشهم ومنافعهم على مقادير محددة معينة ، بحيث نشر فى كل قطر من أقطارها أقواتا تناسب أهله وبذلك يتبادل الناس المنافع فيما بينهم ، فيعمر الكون ، ويزيد الاتصال ،

والتعارف فيما بينهم .قال ابن جرير : بعد أن ذكر جملة من الأقوال فى معنى
هذه الآية : والصواب فى القول فى ذلك أن يقال : إن الله - تعالى - أخبر أنه
قدر فى الأرض أقوات أهلها ، وذلك ما يقوتهم من الغذاء ، ويصلحهم من المعاش
ولم يخصص - جل ثناؤه - بقوله ( وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا ) أنه قدر .
- فيها قوتا دون قوت ، بل عم الخبر عن تقديره جميع الأقوات . .وقوله
تعالى - : ( فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ) متعلق بمحذوف يدل ، عليه ما قبله .أى
خلق الأرض ، وجعل فيه رواسى من فوقها ، وبارك فيها ، وقدر فيها أقواتها :
فى تمام أربعة أيام ، فتكون المدة التى خلق فيها الأرض وما عليها أربعة
أيام .وقوله - سبحانه - : ( سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ) تأكيد لما دلت عليه
الآية الكريمة من أن خلق كل من الأرض وما فيها وما عليها قد حدث فى أربعة
أيام .قال الآلوسى : وقيدت الأيام الأربعة بقوله : ( سَوَآءً ) فإنه مصدر
: مؤكد لمضمر هو صفة الأيام . أى : - فى أربعة أيام - استوت سواء ، أى
استواء .وقوله - تعالى - : ( لِّلسَّآئِلِينَ ) متعلق بمحذوف وقع خبر
لمبتدأ محذوف ، أى : هذا الحصر فى أربعة ، كائن للسائلين عن مدة خلق الأرض
وما فيها . .وقال الجمل فى حاشيته : فإن قيل لم جعلت مدة خلق الأرض بما ،
فيها ، ضعف مدة خلق السموات ، مع كون السماء أكبر من الأرض وأكثر مخلوقات
وعجائب؟قلت : للتنبيه على أن الأرض هى المقصودة بالذات لما فيها من الثقلين
، ومن كثرة المنافع ، فزادت مدتها ليكون ذلك أدخل فى المنة على ساكنيها
وللاعتناء بشأنهم وشأنهم - أيضا - زادت مدتها لما فيها من الابتلاء
. . بالمعاصى والمجاهدات والمعالجات

ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعا او كرها قالتا
اتينا طائعين

، كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - جانبا من مظاهر قدرته فى خلق السماء
- فقال : ( ثُمَّ استوى إِلَى السمآء وَهِيَ دُخَانٌ . . ) .ومعنى استوائه
- سبحانه - إلى السماء ، ارتفاعه إليها بلا كيف أو تشبيه أو تحديد ، لأنه
: سبحانه - منزه عن ذلك .والدخان : ما ارتفع من لهب النار . والمراد به هنا
ما يرى من بخار الأرض أو بخار الماء ويصح أن يكون معنى : ( ثُمَّ استوى
) : إِلَى السمآء ) : تعلقت إرادته - تعالى - بخلقها .قال الآلوسى : قوله
ثُمَّ استوى إِلَى السمآء ) أى : قصد إليها وتوجه ، دون إرادة تأثير فى
غيرها ، من قولهم : استوى إلى مكان كذا ، إذا توجه إليه لا يلوى على غيره
وقوله : ( وَهِيَ دُخَانٌ ) أى أمر ظلمانى ، ولعله أريد بها مادتها التى.
منها تركبت .وقوله - تعالى - : ( فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائتيا طَوْعاً
أَوْ كَرْهاً . . . ) بيان لما وجهه - سبحانه - إليهما من أوامر .والمراد
بإتيانهما : انقيادهما التام لأمره - تعالى - .أى : فقال - سبحانه - للسماء
، وللأرض أخرجا ما خلقت فيكما من المنافع لمصالح العباد ، فأنت يا سماء
أبرزى ما خلقت فيك من شمس وقمر ونجوم . . وأنت يا أرض أخرجى ما خلقت فيك من
نبات وأشجار وكنوز .قال الفخر الرازى : والمقصود من هذا القول : إظهار كمال
: القدرة ، أى : ائتيا شئتما أم أبيتما ، كما يقول الجبار لمن تحت يده
لتفعلن هذا شئت أم لم تشأ ، ولتفعلنه طوعا أو كرها ، وانتصابهما على الحال
بمعنى طائعين أو مكرهين . .وقوله : ( قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ) ،
بيان لامتثالهما التام لأمره - تعالى - .أى : قالتا : فلنا ما أمرتنا به
منقادين خاضعين متسحيبين لأمرك ، فأنت خالقنا وأنت مالك أمرنا .قال القرطبى
وقوله : ( قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ) فيه وجهان : أنه تمثيل لظهور
الطاعة منهما ، حيث انقادا وأجابا فقام مقام قولهما . ومنه قول الراجز
امتلأ الحوض وقال قطنى ... مهلا رويدا ملأت بطنيعنى : ظهر ذلك فيه .وقال:
- أكثر أهل العلم : بل خلق الله - تعالى - فيهما الكلام فتكلمتا كما أراد
سبحانه - .وجمعهما - سبحانه - جمع من يعقل ، لخطابهما بما يخاطب به العقلاء
.

فقضاهن سبع سماوات في يومين واوحى في كل سماء امرها وزينا السماء الدنيا
بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم

) : كما فسرها الوسيط ثم فصل - سبحانه - بديع صنعه فى خلق السموات فقال
فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ . . . ) أى : ففرغ من خلقهن
) وتسويتهن على أبدع صورة وأحكم صنع فى مقدار يومين .والضمير فى قوله
فَقَضَاهُنَّ ) إما راجع إلى السماء على المعنى لأنها سبع سموات ، وإما
مبهم يفسره ما بعده وهو سبع سموات .وقوله : ( وأوحى فِي كُلِّ سَمَآءٍ
أَمْرَهَا ) أى : وأوحى فى كل منها ما أراده وما أمر به ، وخلق فيها ما
) : اقتضته حكمته من الملائكة ومن خلق لا يعلمه إلا هو - سبحانه - .وقوله
وَزَيَّنَّا السمآء الدنيا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ) أى : وزينا السماء
الدنيا أى القريبة منكم - بكواكب مضيئة ، وحفظناها عظيما من الاختلال
والاضطراب والسقوط ( ذلك ) الذى ذكرناه لكم من خلق السموات والأرض ، وخلق

ما فيهما .( تَقْدِيرُ العزيز العليم ) أى : تقدير الله - القاهر - لكل شئ
والعليم بما ظهر وبما بطن فى هذا الكون .وقد أخذ العلماء من هذه الآيات .
الكريمة أن خلق الأرض وما عليها من جبال ومن أقوات للعباد قد تم فى أربعة
- أيام ، وأن خلق السموات كان فى يومين فيكون مجموع الأيام التى خلق الله
تعالى - فيها السموات والأرض وما بينهما ستة أيام .وقد جاء ذلك فى آيات
متعددة ، منها قوله - تعالى - : ( إِنَّ رَبَّكُمُ الله الذي خَلَقَ
السماوات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ) وقوله - سبحانه - ( وَلَقَدْ
خَلَقْنَا السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا
مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ . . . ) كما أخذ العلماء منها - أيضا - : أن خلق
الأرض متقدم على خلق السموات بدليل قوله - تعالى - بعد حديثه عن خلق الأرض
) : ثم استوى إلى السماء وهي دخان .وبدليل قوله - تعالى - فى آية أخرى ،
هُوَ الذي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الأرض جَمِيعاً ثُمَّ استوى إِلَى السمآء
، فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ) وعلى هذا الرأى سار جمهور العلماء
وردوا على من قال بأن خلق السموات متقدم على خلق الأرض ، لأن الله - تعالى
يقول فى سورة النازعات : ( أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السمآء بَنَاهَا
رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا . وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ .
ضُحَاهَا . والأرض بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ) أى : بسطها .ردوا عليهم بما
روى عن ابن عباس من أنه سئل عن الجمع بين الآيات التى معنا ، وبين آيات
سورة النازعات فقال : إنه - تعالى - خلق الأرض أولا غير مدحورة ثم خلق
: السماء ، ثم دحا الأرض بعد ذلك ، وجعل فيها الرواسى والأنهار وغيرهما .أى
أن أصل خلق الأرض كان قبل خلق السماء ، ودحوها بجبالها وأشجارها كان بعد
) - خلق السماء ، وردوا عليهم - أيضا - بأن لفظ " بعد " فى قوله - تعالى
والأرض بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ) بمعنى مع أى : والأرض مع ذلك بسطها ومهدها
لسكنى أهلها فيها .وردوا عليهم - أيضا - بأنه - تعالى - لما خلق الأرض غير
مدحوة ، وهى أهل لكل ما فيها كان كل ما فيها كأنه قد خلق بالفعل لوجود أصله
فيها .قال بعض العلماء : والدليل من القرآن على أن وجود الأصل يمكن به
) : - إطلاق الخلق على الفرع ، - وإن لم يكن موجودا بالفعل - قوله - تعالى
وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلملائكة
اسجدوا لأَدَمَ . . . ) فقوله : ( خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُم ) أى
بخلقنا وتصويرنا لأبيكم آدم الذى هو أصلكم .كما أخذ منها العلماء أن وجود :
هذا الكون ، بتلك الصورة البديعة ، المتمثلة فى هذه الأرض وما أقلت . وفى
هذه السموات وما أظلت . . من أكبر الأدلة التى تحمل العقلاء على إخلاص
العبادة لله الواحد القهار .

فان اعرضوا فقل انذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود

كما فسرها الوسيط وبعد هذا الحديث المتنوع عن مظاهر قدرة الله فى هذا الكون
انتقلت السورة إلى تهديد المشركين ، وإنذارهم بأن عاقبتهم ستكون كعاقبة ،
الظالمين الذين سبقوهم ، فقال - تعالى - :( فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ
أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً . . . ) .ذكر المفسرون عند تفسيرهم لهذه الآيات
والتى قبلها روايات تتعلق بما بين النبى صلى الله عليه وسلم وبين بعض
المشركين ، منها ما ذكره محمد بن كعب القرظى قال : " حدثت أن عتبة بن ربيعة
قال يوما لقريش - ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس فى المسجد وحده : يا
معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه ، وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها
" : فقالوا : بلى يا أبا الوليد ، فقم إليه فكلمه . فقام إليه عتبة فقال.
يا محمد ، يابن أخى ، إنك منا حيث قد علمت من السلطة - أى من الشرف - فى
العشيرة وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم
وعبت به آلهتم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك ،
أمورا تنظر فيها لعلك تقبل بعضها .ثم قال : إن كنت - يا بن أخى - تريد مالا
أعطيناك من المال حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد ملكا جعلناك ملكا
علينا . . وإن كان الذى يأتيك رئيا تراه - أى ترى بعض الجن - طلبنا لك الطب
حتى تبرأ .فلما فرغ عتبة قال صلى الله عليه وسلم : " أفرغت يا أبا الوليد؟
قال : نعم . قال : " فاسمع منى " قال : افعل فتلا عليه النبى صلى الله "
- عليه وسلم من أول سورة " فصلت " ".- وفى رواية أنه لما بلغ قوله - تعالى
فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ ) :
عَادٍ وَثَمُودَ . . ) قال له عتبة : حسبك ما عندك غير هذا .ثم عاد عتبة
، إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : لقد جاءكم عتبة بوجه غير الذى ذهب به
فلما جلس إليهم قالوا له : ماوراءك يا أبا الوليد؟فقال : لقد سمعت من محمد
صلى الله عليه وسلم قولا ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالسحر ، ولا
بالشعر ، ولا بالكهانة . يا معشر قريش ، أطيعونى واجعلوها لى ، خَلُّوا بين
الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ
فقالوا : لقد سحرك محمد صلى الله عليه وسلم فقال : " هذا رأيى فيه فاصنعوا.
ما بدا لكم "فقوله - تعالى - : ( فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ
صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ) تهديد لهؤلاء المشركين ،

بعد أن وضح الحق لهم فى أكمل صورة . .والصاعقة - كما يقول ابن جرير - : كل
أمر هائل رآه الرائى أو عاينه أو أصابه ، حتى يصير من هوله وعظيم شأنه إلى
هلاك وعطب وذهاب عقل ، يكون مصعوقا . .والمراد بها هنا : العذاب الشديد
: الذى أنزله الله - تعالى - على قوم عاد وثمود فصعقهم وأهلكهم .والمعنى
قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المشركين لقد أقمت لكم الأدلة الناصعة
، على وحدانية الله - تعالى - وعلى عظيم قدرته ، وعلى أنى رسول من عنده
وصادق فيما أبلغه عنه .( فَإِنْ أَعْرَضُواْ ) عن دعوتك ، ولجوا فى طغيانهم
) واستمروا فى كفرهم وعنادهم .( فَقُلْ ) لهم على سبيل التحذير : لقد ،
- أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ) .وحض
سبحانه - عاداً وثمود بالذكر ، لأن مشركى قريش يعرفون ما جرى لهؤلاء
الظالمين . إذ قوم عاد كانوا بالأحقاف - أى بالمكان المرتفع الكثير
الرمال - فى جنوب الجزيرة العربية ورسولهم هو هود - عليه السلام - .وأما
ثمود فهم قوم صالح - عليه السلام - ، ومساكنهم كانت بشمال الجزيرة العربية
ومازالت آثارهم باقية ، وأهل مكة كانوا يمرون عليها فى طريقهم إلى بلاد ،
الشام للتجارة .

اذ جاءتهم الرسل من بين ايديهم ومن خلفهم الا تعبدوا الا الله قالوا لو شاء
ربنا لانزل ملائكة فانا بما ارسلتم به كافرون

كما فسرها الوسيط والضمير فى قوله - تعالى - : ( إِذْ جَآءَتْهُمُ الرسل
. . . مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ تعبدوا إِلاَّ الله
- يعود إلى قوم عاد وثمود .والمراد بالرسل : هود وصالح - عليهما السلام (
من باب إطلاق الجمع على الاثنين ، أو من باب إدخال من آمن بهما معهما فى
المجئ إلى هؤلاء الأقوام لدعوتهم إلى عبادة الله وحده .وقوله : ( إِذْ
جَآءَتْهُمُ الرسل . . . )حال من قوله ( صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ )
وقوله ( مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ) متعلق بجاءتهم
والمراد بالجملة الكريمة : أن الرسل بذلوا كل جهدهم فى إرشاد قوم عاد.
وثمود إلى الحق ولم يتركوا وسيلة إلا اتبعوها معهم وبينوا لهم بأساليب
متعددة حسن عاقبة المؤمنين وسوء عاقبة الكافرين .وقوله : ( أَلاَّ تعبدوا
إِلاَّ الله ) بيان لما نصح به الرسل أقوامهم و " أن " يصح أن تكون مصدرية
أى : بأن لا تعبدوا إلا الله ، ويصح أن تكون مخففة من الثقيلة ، واسمها ،
ضمير شأن محذوف . أو تفسيرية لأن مجئ الرسل يتضمن قولا .أى جاء الرسل إلى
قوم عاد وثمود بكل دليل واضح على وجوب إخلاص العبادة لله ، ولم يتركوا
وسيلة إلا اتبعوها معهم ، وقالوا لهم : اجعلوا عبادتكم لله - تعالى - وحده
قال صاحب الكشاف ما ملخصه : قوله : ( إِذْ جَآءَتْهُمُ الرسل مِن بَيْنِ.
أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِم . . . )أى : أتوهم من كل جانب ، واجتهدوا بهم
واعملوا فيهم كل حيلة ، فلم يروا منهم إلا العتو والإعراض ، كما حكى ،
الله - تعالى - عن الشيطان أنه قال : ( ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِّن بَيْنِ
أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ . . . ) يعنى لآتينهم من كل جهة ، ولأعملن
فيهم كل حيلة .وعن الحسن : أنذروهم بعذاب الله الدنوى والأخروى .وقيل
معناه : إذ جاءتهم الرسل من قبلهم ومن بعدهم ، بمعنى أن هودا وصالحا قد
أمروهم بالإيمان بهما وبجميع الرسل الذين من قبلهم والذين من بعدهم ، فكأن
الرسل جميعا قد جاءهم .وقوله - تعالى - : ( قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا
لأَنزَلَ مَلآئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ) حكاية
: للرد السيئ الذى رد به قوم عاد وثمود على رسلهم .ومفعول المشيئة محذوف أى
قال هؤلاء الكافرون لرسلهم على سبيل التكذيب لهم ، والتهكم بهم . أنتم لستم
رسلا ، ولو شاء الله - تعالى - أن يرسل إلينا رسلا لأرسل ملائكة ، وما دام
الأمر كذلك فإنا بما أرسلتم به - أيها الرسل - كافرون ، وإلى ما تدعونا
إليه مكذبون .والسبب الذى حمل هؤلاء الجاهلين على هذا القول : زعمهم أن
الرسل لا يكونون من البشر ، مع أن كل عقل سليم يؤيد أن الرسول لا يكون إلا
من البشر كما قال - تعالى - : ( وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ
بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ . . . ).

فاما عاد فاستكبروا في الارض بغير الحق وقالوا من اشد منا قوة اولم يروا ان
الله الذي خلقهم هو اشد منهم قوة وكانوا باياتنا يجحدون

كما فسرها الوسيط ثم فصل - سبحانه - بعد ذلك حال كل فريق منهم ، وبين ما
نزل به من عذاب مهين فقال : ( فَأَمَّا عَادٌ فاستكبروا فِي الأرض بِغَيْرِ
الحق وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً . . . ) .أى : هذا هو قولهم
على سبيل الإجمال لرسلهم ، وإليك جانبا من حال قوم عاد ، ومن أقوالهم
الباطلة .إنهم قد استكبروا فى الأرض بغير الحق . واغتروا بما بين أيديهم من
نعم ، وقالوا على سبيل التباهى والتفاخر والتكبر : من أشد منا قوة .وقيد
استكبارهم فى الأرض بأنه بغير الحق . لبيان واقعهم ، حيث كانوا كما وصفهم
- الله - تعالى - فى آيات أخرى متجبرين متعالين على غيرهم ، ومن ذلك قوله

تعالى : ( أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ . وَتَتَّخِذُونَ
مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ . وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ
جَبَّارِينَ ) الاستفهام فى قوله - تعالى - الذى حكاه عنهم ( مَنْ أَشَدُّ
مِنَّا قُوَّةً ) للإنكار والنفى .أى : لا أحد أقوى منا ، فنحن فى
استطاعتنا أن ندفع كل عذاب ينزل بنا ، وهذا هو الشعور الكاذب الذى يشعر به
الطغاة الجاهلون فى كل زمان ومكان .وقد رد الله - تعالى - عليهم وعلى
أمثالهم ردا منطقيا حكيما يخرس ألسنتهم فقال : ( أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ
الله الذي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا
بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ) .أى : اعموا وصموا عن الحق ، ولم يعلموا أن
الله - تعالى - الذى أجدهم من العدم ، هو - سبحانه - أشد منهم قوة وبأسا
إنهم لغرورهم وجهالاتهم نسوا كل ذلك ، وكانوا بآياتنا الدالة على قدرتنا.
ووحدانيتنا يجحدون ، ويعاندون وينكرون الحق الذى جاءتهم به رسلهم .

فارسلنا عليهم ريحا صرصرا في ايام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة
الدنيا ولعذاب الاخرة اخزى وهم لا ينصرون

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - ما نزل بهم من عذاب بسبب إصرارهم على
كفرهم ، وبسبب غرورهم وبطرهم فقال : ( فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً
صَرْصَراً في أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الخزي فِي الحيَاة
الدنيا . . . ) .ولفظ " صرصرا " من الصر - بفتح الصاد - وهو شدة الحر ، أى
من الصر - بكسر الصاد - وهو شدة البرد الذى يقبض البدن ، أو من الصرة التى
هى الصيحة المزعجة ، ومنه قوله - تعالى -( فَأَقْبَلَتِ امرأته فِي صَرَّةٍ
- أى : فى صيحة .ولا مانع من أن تكون هذه الريح التى أرسلها الله ( . . .
تعالى - عليهم ، قد اجتمع فيها الصوت الشديد المزعج ، والبرد الشديد القاتل
وقوله : ( نَّحِسَاتٍ ) جمع نحسة - بفتح النون وكسر الحاء - صفة مشبهة من.
نحس - كفرح وكرم - ضد سعد .أى : فأرسلنا على قوم عاد ريحا شديدة الهبوب
والصوت ، وشديدة البرودة أو الحرارة فى أيام نحاست أو مشئومات نكدات عليهم
بسبب إصرارهم على كفرهم وفعلنا ذلك معهم لنذيقهم العذاب المخزى لهم فى
الحياة الدنيا .( وَلَعَذَابُ الآخرة أخزي ) أى : أشد خزيا وإهانة لهم من
عذاب الدنيا .( وَهُمْ لاَ يُنصَرُونَ ) أى : وهم لا يجدون أحدا يدفع عنهم
هذا العذاب بحال من الأحوال .

واما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فاخذتهم صاعقة العذاب الهون
بما كانوا يكسبون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ، حال ثمود وما نزل بهم من
عذاب فقالك ( وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ . . . )أى : وأما قوم ثمود
الذين أرسلنا إليهم نبينا صالحا ، فبينا لهم عن طريقه سبيل الرشاد وسبيل
). الغى ، فالمراد بالهداية هنا : البيان والإرشاد والدلالة على الخير
فاستحبوا العمى عَلَى الهدى ) أى فاختاروا الكفر على الإيمان ، وآثروا
الغى على الرشد .فالمراد بالعمى هنا الكفر والضلال ، والمراد بالهداية
الإيمان والطاعة .( فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ العذاب الهون بِمَا كَانُواْ
يَكْسِبُونَ ) أى : فكانت نتيجة إيثارهم الكفر على الإيمان وتصميمهم على
ذلك . . أن أنزلنا عليهم الصاعقة التى أهلكتهم ، والعذاب المبين الذى
أبادهم ، بسبب ما اكتسبوه من ذنوب وقبائح .وقد حكى - سبحانه - ما أنزله
بعاد وثمود من عذاب فى آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - : ( كَذَّبَتْ
ثَمُودُ وَعَادٌ بالقارعة . فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بالطاغية .
وَأَمَا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ . سَخَّرَهَا
عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى القوم
فِيهَا صرعى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ) وقد ذكر بعضهم أن
الأيام النحسات التى نزل فيها العذاب على قوم عاد ، كانت فى أواخر شهر شوال
، وأن أولها كان فى يوم الأربعاء ، وآخرها - أيضا - كان فى يوم الأربعاء ،
ولذا صار بعض الناس يتشاءم من هذا اليوم .والحق أن ما ذكروه فى هذا الشأن
لا دليل عليه ، ولا يلتفت إليه ، وأن ما أصاب هؤلاء إنما كان بشؤم كفرهم
ومعاصيهم .قال بعض العلماء بعد أن ذكر بعض الآثار التى ذكروها فى أن يوم
الأربعاء يوم نحس : " فهذه الروايات وأمثالها لا تدل على شؤم يوم الأربعاء
على من لم يكفر بالله ولم يعصه ، لأن أغلبها ضعيف ، وما صح معناه منها
فالمراد ينحسه شؤمه على أولئك الكفرة العصاة الذين أهلكهم الله فيه بسبب
كفرهم ومعاصيهم " .

ونجينا الذين امنوا وكانوا يتقون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - فضله على المؤمنين ، ورحمته بهم فقال :
أى ونجين الذين آمنوا من عذاب ( . . . وَنَجَّيْنَا الذين آمَنُواْ )

- الدنيا ومن عذاب الآخرة .( وَكَانُواْ يتّقُون ) أى : يتقون الله
. تعالى - ويصونون أنفسهم عن كل ما لا يرضيه

ويوم يحشر اعداء الله الى النار فهم يوزعون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك جانبا من أحوال الظالمين يوم
القيامة ، يوم تشهد عليهم أسماعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ، يوم
يعلمون أن ما جاءهم به رسلهم حق لا ريب فيه ، فقال - تعالى - :( وَيَوْمَ
يُحْشَرُ أَعْدَآءُ . . . ) .الظرف فى قوله : ( وَيَوْمَ يُحْشَرُ
أَعْدَآءُ اللَّهِ إِلَى 49;لنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ) متعلق بمحذوف تقديره
اذكر .وقوله : ( يُوزَعُونَ ) من الوزع وأصله الكف ، تقول : وزع فلان :
فلانا عن الشئ ، أى : كفه ومنعه عنه . ومنه قول الشاعر :ولن يزع النفس
اللجوج عن الهوى ... من الناس ، إلا وافر العقل كاملهوالمراد هنا : أن يكف
أولهم ويمنع عن التحرك حتى يرد آخرهم فيلحق بأولهم ، بحيث يجتمعون جميعا
للحساب ثم يدعون إلى نار جهنم .والمعنى : واذكر - أيها العاقل - يوم يحشر
أعداء الله جميعا إلى النار ، بعد أن حوسبوا على أعمالهم السيئة ( فَهُمْ
، يُوزَعُونَ ) أى : فهم يحبسون فى هذا اليوم العصيب حتى يلحق آخرهم بأولهم
ويكفون جميعا عن الحركة حتى يقضى الله - تعالى - بقضائه العادل فيهم
والتعبير بقوله : ( أَعْدَآءُ الله ) يدل على ذمهم ، وعلى أن ما أبهم من.
عذاب مهين . إنما هو بسبب عداوتهم لله - تعالى - ولرسله - صلوات الله
عليهم - ، حيث أعرضوا عن الحق الذى جاءهم به الرسل من عند ربهم .والتعبير
. بقوله ( يُوزَعُونَ ) يشعر بأنهم يحبسون ويمنعون عن الحركة بغلظة وزجر

حتى اذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وابصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون

: كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أحوالهم عندما يعرضون على النار فقال
حتى إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ )
وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ) .والمراد بشهادة هذه الأعضاء
، عليهم : أنها تنطق - بإذن الله - تعالى - وتخبر بام اجترحوه من سيئات
) وبما فعلوه من قبائح .قال صاحب الكشاف ما ملخصه " فإن قلت " ما " فى قوله
حتى إِذَا مَا جَآءُوهَا ) ما هى؟قلت : مزيدة للتأكيد ، ومعنى التأكيد فيها
أن وقت مجيئهم النار لا محالة أن يكون وقت الشهادة عليهم ، ولا وجه لأن :
- يخلو منها . . .فإن قلت : كيف تشهد عليهم أعضاؤهم وكيف تنطق؟قلت : الله
عز وجل - ينطقها . . . بأن يخلق فيها كلاما . .وشهادة الجلود بالملامسة
للحرام ، وما أشبه ذلك مما يفضى إليها من المحرمات . وقيل : المراد بالجلود
. . الجوارح - وقيل : هو كناية عن الفروج

وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا انطقنا الله الذي انطق كل شيء وهو
خلقكم اول مرة واليه ترجعون

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - ما يقوله هؤلاء الكافرون لجوارحهم على
سبيل التوبيخ والتعجيب فقال : ( وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ
عَلَيْنَا . . )أى : وقال هؤلاء الكافرون لجلودهم التى تشمل جميع جوارحهم
بتعجب وذهول : لماذا شهدتم علينا مع أننا ما دافعنا إلا عنكم ، لكى ننقذكم
من النار؟وهنا ترد عليهم جوارهم بقولها - كما حكى سبحانه عنها - ( قالوا
أَنطَقَنَا الله الذي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ . . . )أى : قالوا فى الرد
) عليهم : أنطقنا الله - تعالى - الذى أنطق كل شئ بقدرته التى لا يعدزها شئ
وهو ) - سبحانه - الذى ( خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ) ولم تكونوا شيئا
مذكورا .( وَإِلَيْهِ ) وحده ( تُرْجَعُونَ ) فيحاسبكم على أعمالكم ، ويحكم
فيكم بحكمه العادل .وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية عددا
من الأحاديث ، منها ما جاء عن أنس ابن مالك - رضى الله عنه - قال : " ضحك
رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم وتبسم فقال : " ألا تسألون عن أى شئ
ضحكت "؟ قالوا : يا رسول الله ، من أى شئ ضحكت؟ قال :" عجبت من مجادلة
العبد ربه يوم القيامة ، يقول : أى ربى ، أليس قد وعدتنى أن لا تظلمنى؟ قال
- بلى . فيقول : فإنى لا أقبل على شاهدا إلا من نفسى . فيقول الله :
تعالى - : أو ليس كفى بى شهيدا . وبالملائكة الكرام الكاتبين؟ قال : فيردد
. هذا الكلام مرارا قال : فيختم على فيه ، وتتكلم أركانه بما كان يعمل
- فيقول : بعدا لكن وسحقا ، فعنكن كنت أجادل " " .وشبيه بهذه الآية قوله
تعالى - : ( اليوم نَخْتِمُ على أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ
وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ).

وما كنتم تستترون ان يشهد عليكم سمعكم ولا ابصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم
ان الله لا يعلم كثيرا مما تعملون

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - ما يقال لهؤلاء الكافرين يوم القيامة
) : - من جهته - تعالى - أو من جهة جوارحهم التى شهدت عليهم فقال - تعالى
وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاَ
أَبْصَارُكُمْ وَلاَ جُلُودُكُمْ ولكن ظَنَنتُمْ أَنّ الله لاَ يَعْلَمُ
كَثِيراً مِّمّا تَعْمَلُونَ ) .وقوله : ( تَسْتَتِرُونَ ) من الاستتار
. . بمعنى الاستخفاء ، " وما " نافية . وقوله : ( أن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ
فى موضع نصب على نزع الخافض أى : من أن يشهد عليكم . . أو مفعول لأجله ( .
أى : مخافة أو خشية أن يشهد عليكم سمعكم .والمعنى : أن جوارحهم تقول لهم.
يوم القيامة على سبيل التبكيت : أنتم - أيها الكافرون - لم تكونوا فى
الدنيا تخفون أعمالكم السيئة ، خوفا من أن نشهد عليكم ولكنكم كنتم تخفونها
لاعتقادكم أن الله - تعالى -لا يعلم ما تخفونه من أعمالكم ، ولكنه يعلم.
ما تظهرونه منها .وما حملكم على هذا الاعتقاد الباطل إلا جهلكم بصفات
الله - تعالى - وكفركم باليوم الآخر وما فيه من حسبا وجزاء ، واستبعادكم
أننا سنشهد عليكم .قال القرطبى : قوله - تعالى - : ( وَمَا كُنتُمْ
تَسْتَتِرُونَ أن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ . . . ) يجوز أن يكون
هذا من قول الجوارح لهم ، ويجوز أن يكون من قول الله - تعالى - لهم ، أو
، الملائكة .وفى صحيح مسلم عن ابن مسعود قال : اجتمع عند البيت ثلاثة نفر
قرشيان وثقفى ، - أى شخص من قبيلة ثقيف - أو ثقيفان وقرشى ، قليل فقه
قلوبهم ، كثير شحم بطونهم . فقال أحدهم : أترون الله - تعالى - يسمع ما
نقول : فقال الآخر : يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا .فأنزل الله - عز
وجل - : ( وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ
فالآية الكريمة تنعى على المشركين جهالاتهم الفاضحة ، حيث ظنوا أن. (
الله - تعالى -لا يعلم الكثير من أعمالهم ، وتنبه المؤمنين إلى أن من
الواجب عليهم أن يعلموا أن الله - تعالى - معهم ، ولا يخفى عليه شئ من
أقوالهم أو أفعالهم ، وأنه - سبحانه - يعلم السر ، وأخفىورحم الله من قال
إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل ... خلوت . ولكن قل : على رقيبولا تحسبن:
الله يغفل ساعة ... ولا أن ما يخفى عليك ، يغيب

وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم ارداكم فاصبحتم من الخاسرين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة ظن هؤلاء الكافرين الجاهلين
فقال : ( وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الذي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ ) .و
اسم إشارة يعود إلى ظنهم السابق ، وقوله ( أَرْدَاكُمْ ) خبره .أى ( ذلكم )
وذلكم الظن الذى ظننتموه بربكم ، وهو أنه - سبحانه -لا يعلم كثيرا مما :
- تعملونه سرا ، هذا الظن ( أَرْدَاكُمْ ) أى : أهلككم ، يقال ردى فلان
كصدى - إذا هلك (فَأَصْبَحْتُمْ ) أيها الكافرون من الخاسرين لكل شئ فى
. دنياكم

فان يصبروا فالنار مثوى لهم وان يستعتبوا فما هم من المعتبين

كما فسرها الوسيط ( فَإِن يَصْبِرُواْ ) عن العذاب ( فالنار مَثْوًى
لّهُمْ ) أى : فالنار هى المكان المعد لثوائهم فيه ، ولبقائهم به بقاء
أبديا . يقال : ثوى فلان بالمكان إذا أقام به إقامة دائمة . ؟( وَإِن
، يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ المعتبين ) أى : وإن يطلبوا الرضا عنهم
فما هم من المرضى عنهم ، وإنما هم من المغضوب عليهم ، أو وإن يطلبوا منا
الرجوع إلى ما يرضينا بأن نعيدهم إلى الدنيا ، فما هم من المجابين إلى ذلك
قال القرطبى : وأصل الكلمة من العَتْب - بفتح العين وسكون التاء - وهى.
المَوْجِدَة ، يقال : عتب عليه يعتب - كضرب يضرب - إذا وَجَدَ عليه . فإذا
. فاوضه فيما عتب عليه فيه ، قيل : عاتبه ، فإذا رجع إلى مسرتك فقد أعتب
والاسم العتبى ، وهو رجوع المعتوب عليه إلى ما يرى العاتب قال الشاعر :فإن
أك مظلوما فعبدا ظلمته ... وإن تك ذا عتبى فمثلك يعتبوبذلك نرى هذه الآيات
، الكريمة ، قد بينت الأحوال السيئة التى يكون عليها الكافرون يوم القيامة
. والمجادلات التى تدور بينهم وبين جوارحهم فى هذا اليوم العسير عليهم

وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين ايديهم وما خلفهم وحق عليهم القول في
امم قد خلت من قبلهم من الجن والانس انهم كانوا خاسرين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - جانبا من الأسباب التى أوقعتهم فى هذا
، المصير الأليم ، ومن الأقوال السيئة التى كانوا يتواصون بها فيما بينهم
وعن عاقبة هذا التواصى الأثيم فقال - تعالى - :( وَقَيّضْنَا لَهُمْ
: قُرَنَآءَ فَزَيّنُواْ لَهُم مّا بَيْنَ . . . ) .قال الجمل ما ملخصه
قوله : ( وَقَيّضْنَا . . . ) أى : سببنا وهيأنا وبعثنا لهم قرناء
. يلازمونهم ويستولون عليهم استيلاء القيض على البيض . والقيض قشر البيض
والتقييض - أيضا - التيسير والتهيئة ، تقول قيضت لفلان الشئ ، أى : هيأته.

ويسرته له . .والقرناء : جمع قرين ، وهو الصديق الملازم للشخص الذى لا يكاد
يفارقه ، وله تأثير عليه والمراد بما بين أيديهم : شهوات الدنيا وسيئاتها .
: والمراد بما خلفهم : ما يتعلق بالآخرة من بعث وحساب وثواب وعقاب .والمعنى
إن حكمتنا قد اقتضت أن نهيئ ونسبب لهؤلاء المشركين قرناء سوء ، هؤلاء
القرناء يزينون لهم القبيح من أعمال الدنيا التى يعيشون فيها ، كما يزينون
لهم إنكار ما يتعلق بما خلفهم من أمور الآخرة ، كتكذيبهم بالبعث والحساب
والجزاء .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ
الرحمن نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ . وَإِنَّهُمْ
( لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السبيل وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ
وقوله - تعالى - : ( وَحَقَّ عَلَيْهِمُ القول فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن
قَبْلِهِمْ مِّنَ الجن والإنس . . . ) بيان لما ترتب على استجابتهم لقرناء
السوء ، وانقيادهم لهم انقياد التابع للمتبوع .أى : وثبت عليهم القول الذي
قاله - سبحانه - لإبليس ، وتحقق مقتضاه وهو قوله - تعالى - : ( لأَمْلأَنَّ
جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ) وقوله : ( في
أُمَمٍ ) فى محل نصب على الحال من الضمير فى ( عَلَيْهِمُ ) أى : وثبت
عليهم العذاب . حالة كونهم داخلين فى جملة أمم كافرة جاحدة ، قد مضت من
) قبلهم ، وهذه الأمم منها ما هو من الجن ، ومنها ما هو من الإنس .وجملة
إِنَّهُمْ كَانُواْ خَاسِرِينَ ) تعليل لاستحقاقهم العذاب . والضمير لكفار
. قريش ولغيرهم من الأمم السابقة التى هلكت على الكفر

وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القران والغوا فيه لعلكم تغلبون

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - ما تواصى به المشركون فيما بينهم فقال
وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لاَ تَسْمَعُواْ لهذا القرآن والغوا فِيهِ ) :
لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ) .وقوله : ( والغوا فِيهِ ) من اللغو ، وهو
الكلام الساقط الذى لا فائدة فيه يقال : لغا فلان فى كلامه يلغو ، إذا نطق
بكلام ساقط لا خير فيه .ويبدو أن هذا الكلام قد قاله الزعماء من كفار مكة
لأتباعهم ، فقد ورد عن ابن عباس أنه قال : قال أبو جهل - لأتباعه - : إذا
قرأ محمد فصيحوا فى وجهه ، حتى لا يدري ما يقول .أى : وقال زعماء الكفر
لأتباعهم :لا تسمعوا لهذا القرآن الذى يقرأه محمد صلى الله عليه وسلم
: وأصحابه ، ولا تنصتوا إليه ، بل ابتعدوا عن قارئيه ، والغوا فيه أى
، وأظهروا عند قراءته أصواتكم باللغو من القول ، كالتشويش على القارئ
). . والتخليط عليه فى قراءته بالتصفيق وبرفع الصوت بالخرافات والهذيان
، لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ) أى : لعلكم بعملكم هذا تتغلبون على المسلمين
وتجعلونهم ينصرفون عن قراءة القرآن .ولا شك أن قولهم هذا دليل واضح على
خوفهم من تأثير القرآن فى القلوب ، هذا التأثير الذى حمل كثيرا منهم عند
سماعه على الدخول فى الإسلام ونبذ الكفر والكافرين .كما يدل على أنهم
لعجزهم عن معارضته ، وعن الإتيان بسورة من مثله ، لجأوا إلى تلك الأساليب
. السخيفة ، لصرف الناس عن سماع القرآن الكريم

فلنذيقن الذين كفروا عذابا شديدا ولنجزينهم اسوا الذي كانوا يعملون

كما فسرها الوسيط وقد رد - سبحانه - على فعلهم هذا بما يناسبه من تهديد
فقال : ( فَلَنُذِيقَنَّ الذين كَفَرُواْ عَذَاباً شَدِيداً
وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الذي كَانُواْ يَعْمَلُونَ ) .أى : فوالله
لنجعلن الذين كفروا بهذا القرآن والذين شوشوا على قارئيه بالصياح
والاستهزاء ، لنجعلنهم يذوقون العذاب الذى يهينهم ، ويحسون به إحساسا أليما
ولنجزينهم فى الآخرة الجزاء المناسب لقبح أعمالهم التى عملوها فى الدنيا .
قال الآلوسى : قوله - تعالى - : ( وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الذي
، كَانُواْ يَعْمَلُونَ ) أى : جزاء سيئات أعمالهم التى هى فى أنفسها أسوأ
فأفعل للزيادة المطلقة وقيل : إنه - سبحانه -لا يجازيهم بمحاسن كإغاثة
الملهوف ، وصلة الأرحام وإكرام الضيف . . لأن هذه الأعمال قد حبطت بسبب
كفرهم . .وقال الجمل فى حاشيته : وفى هذا تعريض بمن لا يكون عند سماعه
لكلام الله خاضعا خاشعا متفكرا متدبرا . وتهديد ووعيد شديد لمن يصدر عنه
عند سماعه ما يشوش على القارئ ويخلط عليه القراءة ، فانظر إلى عظمة القرآن
، المجيد ، وتأمل فى هذا التغليظ والتشديد ، واشهد لمن عظمه وأجل قدره
. وألفى إليه السمع وهو شهيد ، بالفوز العظيم

ذلك جزاء اعداء الله النار لهم فيها دار الخلد جزاء بما كانوا باياتنا
يجحدون

كما فسرها الوسيط واسم الإشارة فى قوله - تعالى - : ( ذَلِكَ جَزَآءُ
أَعْدَآءِ الله . . . ) يعود إلى ما تقدم من العذاب الشديد المعد لهؤلاء
) الكافرين ، وهو مبتدأ ، وجملة ( ذَلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ) خبره وقوله

النار ) بدل أو عطف بيان .أى : ذلك العذاب الشديد الذى نذيقه للكافرين جزاء
- عادل لأعداء الله ، وهذا العذاب الشديد يتمثل فى النار التى أعدها
. سبحانه - لهم .وجملة : ( لَهُمْ فِيهَا دَارُ الخُلْدِ ) مؤكدة لما قبلها
أى : لهم فى تلك النار الإقامة الدائمة الباقية المستمرة ، فهى بمثابة
الدار المهيأة لسكنهم الدائم .وقوله - سبحانه - : ( جَزَآءً بِمَا كَانُوا
بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ) بيان لحكم الله العادل فيهم .أى : نجازيهم جزاء
. أليما بسبب جحودهم لآياتنا الدالة على وحدانيتنا وعلى صدق رسلان

وقال الذين كفروا ربنا ارنا اللذين اضلانا من الجن والانس نجعلهما تحت
اقدامنا ليكونا من الاسفلين

كما فسرها الوسيط ثم صور - سبحانه - أحوالهم وهم يتقلبون فى النار وحكى بعض
أقوالهم التى يقولونها وهم فى ذلك العذاب الأليم فقال : ( وَقَالَ الذين
كَفَرُواْ ) على من أضلوهم .( رَبَّنَآ أَرِنَا الذين أَضَلاَّنَا مِنَ
الجن والإنس . . . ) أى : قالوا يا ربنا أطلعنا على الفريقين اللذين زينوا
لنا الكفر والفسوق والعصيان من أفراد الجن والإنس ( نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ
، أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأسفلين ) أى : أرنا إياهم لننتقم منهم
بأن ندوسها بأقدامنا احتقارا لهم ، وغضبا عليهم ، ليكونا بذلك فى أسفل مكان
من النار ، وفى أحقره وأكثرهم سعيرا .وهكذا تتحول الصداقة التى كانت بين
الزعماء والأتباع فى الدنيا ، إلى عداوة تجعل كل فريق يحتقر صاحبه ، ويتمنى
. له أسوأ العذاب

ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة الا تخافوا ولا
تحزنوا وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون

كما فسرها الوسيط وكعادة القرآن فى المقارنة بين عاقبة الأشرار وعاقبة
الأخيار ، جاء الحديث عن حسن عاقبة المؤمنين ، بعد الحديث عن سوء مصير
الكافرين ، فقال - تعالى - :( إِنَّ الذين قَالُواْ رَبُّنَا . . . )
والمعنى : إن الذين قالوا بكل صدق وإخلاص ربنا الله - تعالى - وحده ، لا.
شريك له لا فى ذاته ولا فى صفاته .( ثُمَّ استقاموا ) أى : ثم ثبتوا على
هذا القول ، وعملوا بما يقتضيه هذا القول من طاعة الله - تعالى - فى المنشط
والمكره ، وفى العسر واليسر ، ومن اقتداء برسوله صلى الله عليه وسلم فى كل
أحواله .قال صاحب الكشاف : و ( ثم ) لتراخي الاستقامة عن الإقرار فى
- المرتبة وفضلها عليه . لأن الاستقامة لها الشأن كله . ونحوه قوله - تعالى
إِنَّمَا المؤمنون الذين آمَنُواْ بالله وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ ) :
يَرْتَابُواْ ) والمعنى : ثم ثبتوا على الإقرار ومقتضياته .ولقد بين لنا
النبى صلى الله عليه وسلم أن الاستقامة على أمر الله جماع الخيرات ، ففى
صحيح مسلم عن سفيان بن عبد الله الثقفى قال : " قلت : يا رسول الله " قل لى
. فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك " قال : " قل آمنت بالله ثم استقم
وقوله - تعالى - : ( تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الملائكة أَلاَّ تَخَافُواْ" .
وَلاَ تَحْزَنُواْ ) بيان للآثار الطيبة التى تترتب على هذا القول المؤيد
بالثبات على طاعة الله - تعالى - :وتنزل الملائكة عليهم بهذه البشارات يشمل
ما يكون فى حياتهم عن طريق إلهامهم بما يشرح صدورهم ، ويطمئن نفوسهم ، كما
- يشمل تبشيرهم بما يسرهم عند موتهم وعند بعثهم .قال الآلوسى : قوله
تعالى - : ( تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الملائكة ) قال مجاهد : عند موتهم وعن
) زيد بن أسلم : عند الموت ، وعند القبر ، وعند البعث ، وقيل : معنى
تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ) يمدونهم فيما يعن ويطرأ لهم من الأمور الدينية
والدنيوية بما يشرح صدورهم ، ويدفع عنهم الخوف والحزن بطريق الإلهام كما
أن الكفرة يغريهم ما قيض لهم من قرناء السوء بتزيين القبائح .والخوف : غم
يلحق النفس لتوقع مكروه فى المستقبل .والحزن : غم يلحقها لفوات نفع فى
الماضى .أى : إن الذين قالوا ربنا الله باعتقاد جازم ، ثم استقاموا على
طاعته فى جميع الأحوال ، تتنزل عليهم من ربهم الملائكة ، لتقول لهم فى ساعة
احتضارهم وعند مفارقتهم الدنيا ، وفى كل حال من أحوالهم :لا تخافوا - أيها
المؤمنون الصادقون - مما أنتم قادمون عليه فى المستقبل ، ولا تحزنوا على ما
فارقتموه من أموال أو أولاد .( وَأَبْشِرُواْ ) عما قريب ، بالجنة التى كنت
. توعدون بها فى الدنيا

نحن اولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الاخرة ولكم فيها ما تشتهي انفسكم ولكم
فيها ما تدعون

) : كما فسرها الوسيط ثم يقولون لهم - أيضا - على سبيل الزيادة فى المسرة
نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي الحياة الدنيا وَفِي الآخرة ) .أى : نحن
نصراؤكم على الخير ، وأعوانكم على الطاعة فى الحياة الدنيا التى توشكون على
مفارقتها ، وفى الآخرة التى هى الدار الباقية ، سنتلقاكم فيها بالتكريم

، والترحاب .( وَلَكُمْ فِيهَا ) أى : فى الدار الآخرة ، ما تشتهى أنفسكم من أنواع الطيبات التى أعدها لكم خالقكم فى جناته .( وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ) أى : ما تتمنوه وتطلبونه ، فقوله ( تَدّعُونَ ) افتعال من الدعاء بمعنى الطلب .

نزلا من غفور رحيم

كما فسرها الوسيط قوله - تعالى - : ( نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ) حال من قوله : ( مَا تَدَّعُونَ ) ، وأصل النزل : ما يقدم للضيف عند نزوله على المضيف من مأكل طيب ، ومشرب حسن ، ومكان فيه راحته .أى : لكم فى الدارالآخرة جميع ما تطلبونه وما تدعونه ، حال كون هذا المعطى لكم رزقا وضيافة مهيأة لكم من ربكم الواسع المغفرة والرحمة .

ومن احسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال انني من المسلمين

كما فسرها الوسيط ثم سمت السورة الكريمة بعد ذلك بمنازل الذين يقومون بالدعوة إلى الحق بحكمة وإخلاص فقال - تعالى - : ( وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى الله وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ المسلمين ) .أى .لا أحد أحسن قولا ، وأعظم منزلة ، ممن دعا غيره إلى طاعة الله - تعالى - وإلى المحافظة على أداء ما كلفه به .ولم يكتف بهذه الدعوة لغيره ، بل أتبع ذلك بالعمل الصالح الذى يجعل المدعوين يزدادون استجابة له ) بعد كل ذلك على سبيل السرور والابتهاج والتحدث بنعمة الله : ( وَقَالَ ). - إِنَّنِي مِنَ المسلمين ) .أى : من الذين أسلموا وجوههم لله - تعالى وأخلصوا له القول والعمل .قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية ، أى : وهو فى نفسه مهتد بما يقوله ، فنفعه لنفسه لازم ومتعد ، وليس هو من الذين يأمرون بالمعروف ولا يأتونه ، يونهون عن المنكر ويأتونه . . وهذه الآية عامة فى كل . . من دعا إلى خير ، وهو فى نفسه مهتد .وقيل المراد بها المؤذنون الصلحاء . والصحيح أن الآية عامة فى المؤذنين وفى غيرهم .

ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي احسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كانه ولي حميم

. . كما فسرها الوسيط ثم أرشد - سبحانه - إلى ما ينمى روح المحبة والمودة ) : بين الداعى والمدعوين بصفة خاصة ، وبين المسلم وغيره بصفة عامة ، فقال وَلاَ تَسْتَوِي الحسنة وَلاَ السيئة ) .أى : ولا تستوى الخصلة الحسنة ولا الخصلة السيئة ، لا فى ذواتهما ولا فى الآثار التى تترتب عليهما ، إذا ، الخصلة الحسنة جميلة فى ذاتها ، وعظيمة فى الآثار الطيبة التى تنتج عنها ) : - أما الخصلة السيئة فهى قبيحة فى ذاتها وفى نتائجها .وقوله - تعالى ادفع بالتي هِيَ أَحْسَنُ ) إرشاد منه - تعالى - إلى ما يجب أن يتحلى به ، عباده المؤمنون .أى : ما دامت الخصلة الحسنة لا تتساوى مع الخصلة السيئة فعليك - أيها المسلم - أن تدفع السيئة إذا جاءتك من المسئ ، بأحسن ما يمكن دفعها به من الحسنات ، بأن تقابل ذنبه بالعفو ، وغضبه بالصبر ، وقطعه بالصلة وفظاظته بالسماحة .وقوله - سبحانه - : ( فَإِذَا الذي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ) بيان للآثار الجميلة التى تترتب على دفع السيئة بالحسنة .والولى : هو الصديق المحب الشفيق عليك . . من الولى بمعنى القرب .والحميم : يطلق فى الأصل على الماء الحار ، ، والمراد به هنا : الصديق الصدوق معك .أى : أنت إذا دفعت السيئة بالحسنة صار عدوك الذى أساء إليك ، كأنه قريب منك ، لأن من شأن النفوس الكريمة أنها تحب من أحسن إليها ، ومن عفا عنها ، ومن قابل شرها بالخير ، ومنعها بالعطاء .

وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم

- كما فسرها الوسيط ولما كانت هذه الأخلاق تحتاج إلى مجاهدة للنفس . . عقب سبحانه - على هذه التوجيهات السامية بقوله : ( وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الذين صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّاهَآ إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ) .والضمير فى يعود إلى تلك الخصال الكريمة السابقة ، التى على رأسها ( يُلَقّاهَا ) الدفع بالتى هى أحسن .أى : وما يستطيع القيام بتلك الأخلاق العظيمة التى على رأسها الدعوة إلى الله ومقابلة السيئة بالحسنة . . إلا الذين صبروا على المكاره وعلى الأذى .وما يستطيعها - أيضا - إلا صاحب الحظ الوافر ، والنصيب الكبير ، من توفيق الله - تعالى - له إلى مكارم الأخلاق .والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة يراها قد رسمت للمسلم أحكم الطرق ، وأفضل الوسائل ، التى ترفع درجته عند - خالقه - تعالى - .

واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه هو السميع العليم

، كما فسرها الوسيط ثم أرشد - سبحانه - عباده إلى ما يبعدهم عن كيد الشيطان
فقال : ( وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشيطان نَزْغٌ فاستعذ بالله إِنَّهُ
هُوَ السميع العليم ) .والنزغ والنخس والغرز بمعنى واحد . وهو إدخال
الإبرة أو طرف العصا فى الجلد . المراد به هنا : وسوسة الشيطان وكيده
للإنسان .والمعنى : وإن تعرض لك من الشيطان وسوسة تثير غضبك ، وتحملك على
خلاف ما أمرك الله - تعالى - به . . . فاستعذ بالله ، أى : فالتجئ إلى حماه
واستجر به من كيد الشيطان ( إنه ) - سبحانه - هو السميع لدعائك ، العليم
بكل أحوالك ، القادر على دفع كيد الشيطان عنك .فالآية الكريمة ترشد المؤمن
إلى العلاج الذى يحميه من وسوسة الشيطان وكيده ، ألا وهو الاستعاذة بالله
. السميع لكل شئ ، العليم بكل شئ القادر على كل شئ

ومن اياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا
لله الذي خلقهن ان كنتم اياه تعبدون

كما فسرها الوسيط وبعد هذه البشارات الكريمة ، والتوجيهات الحكيمة للمؤمنين
، ساق - سبحانه - أنواعا من الأدلة الكونية الدالة على وحدانيته وقدرته . .
فقال - تعالى - :( وَمِنْ آيَاتِهِ الليل والنهار . . . ) .المراد بالآيات
فى قوله - تعالى - : ( وَمِنْ آيَاتِهِ . . ) العلامات الدالة دلالة واضحة
- على وحدانية الله - تعالى - وقدرته .أى : ومن آياته على وحدانيته وقدرته
تعالى - وعلى وجوب إخلاص العبادة له ، وجود الليل والنهار والشمس والقمر
بتلك الطريقة البديعة ، حيث إن الجميع يسير بنظام محكم ، ويؤدى وظيفته أداء
دقيقا . كما قال - تعالى - : ( لاَ الشمس يَنبَغِي لَهَآ أَن تدْرِكَ القمر
- وَلاَ الليل سَابِقُ النهار وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ) وقوله
تعالى - ( لاَ تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ واسجدوا لِلَّهِ
الذي خَلَقَهُنّ . . . ) نهى عن السجود لغيره - تعالى - وأمر بالسجود له
- وحده .أى :لا تسجدوا - أيها الناس - للشمس ولا للقمر ، لأنهما - كغيرهما
من جملة مخلوقات الله - تعالى - ، واجعلوا طاعتكم وعبادتكم لله الذى خلق كل
شئ فى هذا الكون ، إن كنتم حقا تريدون أن تكون عبادتكم مقبولة عنده - عز وجل
- وجل - .فالآية الكريمة تقيم الأدلة على وجوب إخلاص العبادة لله - عز وجل
وتنهى عن عبادة غيره - تعالى - .قال الجمل : هذا رد على قوم عبدوا الشمس
والقمر ، وإنما تعرض للأربعة مع أنهم لم يعبدوا الليل والنهار ، للإيذان
بكمال سقوط الشمس والقمر عن رتبة السجودية لهما ، بنظمهما فى المخلوقية فى
سلك الأعراض التى لا قيام لها بذاتها ، وهذا هو السر فى نظم الكل فى سلك
، آياته .وإنما عبر عن الأربع بضمير الإناث - مع أن فيه ثلاثة مذكرة
والعادة تغليب المذكر على المؤنث - لأنه لما قال : ومن آياته ، فنظم
الأربعة فى سلك الآيات ، صار كل واحد منهما آية يعبر عنها بضمير الإناث فى
. قوله ( خَلَقَهُنّ )

فان استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسامون

- كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن استكبار الجاهلين عن عبادة الله
تعالى - وحده ، لن ينقص من ملكه شيئا فقال : ( فَإِنِ استكبروا فالذين
( عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بالليل والنهار وَهُمْ لاَ يَسْأَمُونَ
أى : فإن تكبر هؤلاء الكافرون عن إخلاص العبادة لله - تعالى - فلا تحزن.
- أيها الرسول الكريم - فإن الذين عند ربك من الملائكة . ينزهونه - تعالى
ويعبدونه عبادة دائمة بالليل والنهار وهم لا يسأمون ولا يملون ، لاستلذاذهم
لتلك العبادة والطاعة ، وخوفهم من مخالفة أمره - عز وجل - .فالآية الكريمة
تهون من شأن هؤلاء الكافرين ، وتبين أنه - تعالى - فى غنى عنهم وعن
عبادتهم؛ لأن عنده من مخلوقاته الكرام من يعبده بالليل والنهار بدون سأم أو
كلل .والمراد بالعندية فى قوله - تعالى - ( عِندَ رَبِّكَ ) عندية المكانة
والتشريف لا عندية المكان .وقوله ( فَإِنِ استكبروا فالذين عِندَ رَبِّكَ )
تعليل لجواب الشرط المقدر ، أى : فإن استكبروا فدعهم وشأنهم فالذين عند ربك
يسبحون له بالليل والنهار .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( وَلَهُ مَن
فِي السماوات والأرض وَمَنْ عِنْدَهُ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ
وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ . يُسَبِّحُونَ الليل والنهار لاَ يَفْتُرُونَ ).

ومن اياته انك ترى الارض خاشعة فاذا انزلنا عليها الماء اهتزت وربت ان الذي
احياها لمحيي الموتى انه على كل شيء قدير

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - آية أخرى من آياته الدالة على وجوب
إخلاص العبادة له فقال ( وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأرض خَاشِعَةً
فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المآء اهتزت وَرَبَتْ . . )و (خَاشِعَةً )

) : أى ، يابسة جدبة ، خشعت الأرض ، إذا أجدبت لعم نزول المطر عليها وقوله
) اهتزت ) أى : تحركت بالنبات قبل بروزه منها وبعد ظهوره على سطحها و
، وَرَبَتْ ) أى : انفتخت وعلت ، لأن النبات إذا قارب الظهور ترى الأرض
ارتفعت له ، ثم تشققت عنه . يقال : ربا الشئ إذا زاد وعلا وارتفع ، ومنه
الربوة للمكان المرتفع من الأرض .أى : ومن آياته - تعالى - الدالة على وجوب
العبادة له وحده ، أنك - أيها العاقل - ترى الأرض يابسة جامدة ، فإذا
أنزلنا عليها بقدرتنا المطر ، تحركت بالنبات ، وارتفعت بسببه ، ثم تصدعت
عنه .وعنى - سبحانه - هنا بقوله ( خَاشِعَةً ) لأن الحديث عن وجوب السجود
لله - تعالى - وحده ، والحديث عن السجود والطاعة يناسبه الخشوع .وفى سورة
الحج قال - سبحانه - : ( وَتَرَى الأرض هَامِدَةً . . ) لأن الحديث هناك
كان عن البعث ، وعن إمكانيته ، فناسب أن يعبر بالهمود الذى يدل على فقدان
الحياة .قال - تعالى - ( ياأيها الناس إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ البعث
فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ . . . ) وقوله - تعالى - : ( إِنَّ
الذي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الموتى إِنَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ) بيان
لمظاهر قدرته - عز وجل - .أى : إن الذى أحياها بنزول المطر عليها ، ويخرج
- النبات منها ، لقادر عن أن يحيى الموتى عن طريق البعث والنشور ، إنه
. سبحانه - على كل شئ قدير

ان الذين يلحدون في اياتنا لا يخفون علينا افمن يلقى في النار خير ام من
ياتي امنا يوم القيامة اعملوا ما شئتم انه بما تعملون بصير

كما فسرها الوسيط وبعد هذا الحديث عن مظاهر قدرة الله فى هذا الكون ، جاءت
الآيات بعد ذلك لتهديد الذين يلحدون فى آياته - تعالى - ولتمدح القرآن
الكريم ، ولتسلى النبى صلى الله عليه وسلم عما لقيه من أعدائه ، ولتبين أن
. . من عمل صالحا فثمار عمله لنفسه ، ومن عمل سيئا فعلى نفسه وحده يجبنى
قال - تعالى - :( إِنَّ الذين يُلْحِدُونَ في آيَاتِنَا لاَ يَخْفَوْنَ
عَلَيْنَآ أَفَمَن . . . ) .قوله - تعالى - ( يُلْحِدُونَ ) من الإلحاد وهو
الميل عن الاستقامة ، والعدول عن الحق .يقال ألحد فلان فى كلامه إذا مال عن
الصواب ، ومنه اللحد فى القبر ، لأنه أميل إلى ناحية منه دون الأخرى
والمعنى : إن الذين يميلون عن الحق فى شأن آياتنا بأن يؤولوها تأويلا
فاسدا ، أو يقابلوها باللغو فيها وعدم التدبر لما اشتملت عليه من توجيهات
حكيمة . .هؤلاء الذين يفعلون ذلك : ( لاَ يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ) أى ليسوا
بغائبين عن علمنا ، بل هم تحت بصرنا وقدرتنا ، وسنجازيهم بما يستحقون من
عقاب مهما ألحدوا ومالوا عن الحق والصواب .فالجملة تهديد لهم على تحريفهم
الباطل لآيات الله - تعالى - .ثم بين - سبحانه - البون الشاسع بين عاقبة
المؤمنين وعاقبة الكافرين ، فقال : ( أَفَمَن يلقى فِي النار خَيْرٌ أم
مّن يأتي آمِناً يَوْمَ القيامة ) ؟والغرض من هذا الاستفهام بيان أن الذين
يلحدون فى آيات الله سيكون مصيرهم الإلقاء فى النار ، وأن الذين استجابوا
للحق وساروا على طريقه وهم المؤمنون ، سيأتون آمنين من الفزع يوم القيامة
، قال الآلوسى : " وكان الظاهر أن يقابل الإلقاء فى النار بدخول الجنة.
لكنه عدل عنه إلى ما فى النظم الجليل ، اعتناء بشأن المؤمنين ، لأن الأمن
، من العذاب أعم وأهم ، ولذا عبر عن الأول بالإلقاء الدال على القهر والقسر
وعبر عن الثانى بالإتيان الدال على أنه بالاختيار والرضا ، مع الأمن ودخول
الجنة . . "وقوله - تعالى - : ( اعملوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ) تهديد آخر لهم على إلحادهم .أى : اعملوا أيها
، - المحلدون ما شئتم من أعمال قبيحة ، فإنها لا تخفى على خالقكم - عز وجل
لأنه بصير بكم ، ومطلع على أفعالكم ، وسيجازيكم عليها الجزاء العادل الذى
تستحقونه .فالمقصود من الأمر فى قوله - تعالى - ( اعملوا ) التهديد والوعيد
.

ان الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وانه لكتاب عزيز

) : كما فسرها الوسيط ثم أضاف - سبحانه - إلى ما سبق تهديدا ثالثا فقال
إِنَّ الذين كَفَرُواْ بالذكر لَمَّا جَآءَهُمْ ) .وخبر " إن " هنا محذوف
للعلم به مما سبق ، أى : إن الذين كفروا بالقرآن الكريم حين جاءهم على لسان
. رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخاسرون أو هالكون أو معذبون عذابا شديدا
أى : هذا القرآن الكريم هو الحق الذى جاءهم به صلى الله عليه وسلم ( وإنه )
: لعل هذا التدبر يوصلهم إلى الهداية والرشاد ( لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ) أى ،
. لكتاب منيع معصوم بعصمة الله - تعالى - له من كل تحريف أو تبديل

لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد

كما فسرها الوسيط ثم أكد - سبحانه - هذا المعنى فقال : ( لاَّ يَأْتِيهِ
الباطل مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ ) أى :لا يستطيع الباطل

أن يتطرق إليه من أى جهة من الجهات ، لا من جهة لفظه ولا من جهة معناه لأن الله - تعالى - تكفل بحفظه وصيانته ، كما قال - تعالى -( إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ) قال صاحب الكشاف : فإن قلت أما طعن فيه الطاعنون وتأوله المبطلون؟قلت : بلى ، ولكن الله قد تكفل : بحمايته عن تعلق الباطل به ، بأن قيض قوما عارضوهم بإبطال تأويلهم ، وإفساد أقاويلهم . فلم يخلوا طعن طاعن إلا ممحوقا ، ولا قول مبطل إلا مضمحلا وقوله : ( تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ) أى : هذا الكتاب منزل من لدن. الله الحكيم فى أقواله وأفعاله ، المحمود على ما أسدى لعباده من نعم لا تحصى .

ما يقال لك الا ما قد قيل للرسل من قبلك ان ربك لذو مغفرة وذو عقاب اليم

كما فسرها الوسيط ثم سلى - سبحانه - نبيه صلى الله عليه وسلم عما أصابه من أعدائه فقال : ( مَّا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ) .أى : لا تحزن - أيها الرسول الكريم - من الأقوال الباطلة التى قالها المشركون فى حقك ، فإن ما قالوه فى شأنك قد قاله السابقون عليهم فى حق رسلهم .فالآية الكريمة من أبلغ الآيات فى تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم لأنها كأنها تقول له ، إن ما أصابك من أذى قد أصاب إخوانك ، فاصبر كما صبروا .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( كَذَلِكَ مَآ أَتَى الذين مِن قَبْلِهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ أَتَوَاصَوْاْ بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ) ثم علل - سبحانه - هذه التسلية وهذا التوجيه بقوله : ( إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ) .أى : ما يقال لك إلا مثل ما قيل لإخوانك من قبلك ، وما دام الأمر كذلك ، فاصبر كما صبروا ، إن ربك الذى تولاك بتربيته ورعايته . لذو مغفرة عظيمة لعباده المؤمنين وذو عقاب أليم للكفار المكذبين .

ولو جعلناه قرانا اعجميا لقالوا لولا فصلت اياته ااعجمي وعربي قل هو للذين امنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في اذانهم وقر وهو عليهم عمى اولئك ينادون من مكان بعيد

كما فسرها الوسيط ثم رد - سبحانه - على بعض الشبهات التى أثاروها حول القرآن الكريم ردا يخرس ألسنتهم فقال : ( وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّا لَّقَالُواْ لَوْلاَ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَاعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ . . . ) .والأعجمى : يطلق على الكلام الذى لا يفهمه العربى ، كما يطلق على من لا يحسن النطق بالعربية . وقوله : ( ءَاعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ) خبر لمبتدأ محذوف .أى : ولو أنزلنا هذا القرآن بلغة العجم - كما قالوا : هلا أنزل هذا القرآن بلغة العجم .لو فعلنا ذلك - كما أرادوا لقالوا مرة أخرى على سبيل التعجب : فلا فصلت ووضحت آيات هذا الكتاب بلغة نفهمها؟ ثم لأضافوا إلى التعجب والإنكار ، تعجبا آخر فقالوا : أقرآن أعجمى ورسول عربى؟ومقصدهم من هذه الشبهة الداحضة ، إنما هو إنكار الإيمان به سواء أنزل بلغة العرب أم بلغة العجم .فهم عند نزوله عربيا قالوا من بين ما قالوا :لا تسمعوا لهذا القرآن والغو فيه ، ولو نزل بلسان أعجمى ، لاعترضوا وقالوا : هلا نزل بلسان عربى نفهمه .ولو جعلنا بعضه أعجميا وبعضه عربيا لقالوا : أقرآن أعجمى ورسول عربى .وهكذا المعاندون الجاحدون لا يقصدون من وراء جدالهم إلا التعنت والسفاهة .ثم أمر الله - تعالى - رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرد عليهم بالرد الذى يكبتهم فقال : ( قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ . . . )أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الجاحدين : هذا القرآن هو للذين آمنوا إيمانا حقا هداية - إلى الصراط المستقيم ، وشفاء لما فى الصدور من أسقام .كما قال - سبحانه فى آية أخرى : ( وَنُنَزِّلُ مِنَ القرآن مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ . . . ) ثم بين - سبحانه - موقف للكافرين من هذا الكتاب فقال : ( والذين لاَ يُؤْمِنُونَ ) أى : بهذا الكتاب ، وبمن نزل عليه الكتاب .( فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ ) أى : فى آذانهم صمم عن سماع ما ينفعهم ). وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ) أى : وهذا القرآن عميت قلوبهم عن تدبره وعن الاهتداء به .وقوله - تعالى - ( أولئك يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ) ذم شنيع لهم على إعراضهم عن هذا القرآن الذى ما أنزله الله - تعالى - إلا لإخراجهم من الظلمات إلى النور .أى : أولئك الكافرون الذين لا ينتفعون بالقرآن مثلهم فى صمم وانطماس بصائرهم ، كمثل من يناديه مناد من مكان بعيد فهو لا يسمع منه شيئا ، ولا يعقل عنه شيئا ، لوجود المسافة الشاسعة بين ، المنادى ، وبين من وقع عليه النداء .قال القرطبى : قوله - تعالى - : ( أولئك يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ) يقال ذلك لمن لا يفهم من التمثيل وحكى أهل اللغة أنه يقال للذى يفهم : أنت تسمع من قريب ، ويقال للذى لا يفهم : أنت تنادى من بعيد أى : كأنه ينادى من موضع بعيد منه ، فهو لا يسمع النداء ولا يفهمه .وقال الضحاك : ( يُنَادَوْنَ ) يوم القيامة بأقبح

أسمائهم ( مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ) فيكون ذلك لتوبيخهم وفضيحتهم .ومن يتدبر
هذه الآية الكريمة يرى مصداقها فى كل زمان ومكان ، فهناك من ينتفع بهذا
القرآن قراءة وسماعا وتطبيقا . . وهناك من يستمعون إلى هذا القرآن ، فلا
يزيدهم إلا صمما ، ورجسا إلى رجسهم وعمى على عماهم .

ولقد اتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم
وانهم لفي شك منه مريب

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - زيادة فى التسلية لرسوله صلى الله عليه
- وسلم ، أن اختلاف الأمم فى شأن ما جاء به الرسل شئ قديم فقال - تعالى - :
وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكتاب فاختلف فِيهِ . . ) .أى : ولقد آتينا
نبينا موسى - عليه السلام - كتابه التوراة ليكون هداية ونورا لقومه
، فاختلفوا فى شأن هذا الكتاب ، فمنهم من آمن به ، ومنهنم من صد عنه
).
وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ) - أيها الرسول الكريم - وهى
ألا يعذب المكذبين من أمتك فى الدنيا عذابا يستأصلهم ويهلكهم .لولا ذلك
لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ) أى : لأهلكهم كما أهلك السابقين من قبلهم
).
وَإِنَّهُمْ ) أى : كفار قومك ( لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ) أى : لفى شك
من هذا القرآن وريبة من أمره ، جعلهم يعيشون فى قلق واضطراب .

من عمل صالحا فلنفسه ومن اساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - سنة من سننه التى لا تتخلف فقال
: كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - سنة من سننه التى لا تتخلف فقال
: مَّنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا . . )أى
من عمل عملا صالحا بأن آمن بالله ، وصدق بما جاء به رسله ، فثمرة عمله
الصالح لنفسه .( وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ) أى : ومن عمل عملا سيئا ،
فضرر هذا العمل واقع عليها وحدها ( وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ
أى : وليس ربك - أيها الرسول الكريم - بذى ظلم لعباده الذين خلقهم بقدرته (
ورباهم بنعمته .فقوله ( ظلام ) صيغة نسب - كثمار وخباز - وليس صيغة ،
مبالغة .قال بعض العلماء ما ملخصه : " وفى هذه الآية وأمثالها سؤال معروف ،
وهو أن لفظة " ظلام " فيها صيغة مبالغة . ومعلوم أن نفى المبالغة لا يستلزم
نفى أصل الفعل . فقولك - مثلا - : زيد ليس بقتال للرجال لا ينفى إلا
مبالغته فى قتلهم ، فلا ينافى أنه ربما قتل بعض الرجال .ومعلوم أن المراد
بنفى المبالغة - وهى لفظ ظلام - فى هذه الآية وأمثالها المراد به نفى الظلم
من أصله .وقد أجابوا عن هذا الإشكال بإجابات منها : أن نفى صيغة المبالغة
، هنا ، قد جاء فى آيات كثيرة ما دل على أن المراد به نفى الظلم من أصله
- ومن ذلك قوله - تعالى - : ( وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ) وقوله
تعالى - : ( إِنَّ الله لاَ يَظْلِمُ الناس شَيْئاً . . . ) ومنها : أن
المراد بالنفى فى الآية ، نفى نسبة الظلم إليه . لأن صيغة فعال تستعمل
، مرادا بها النسبة ، فتغنى عن ياء النسب . . كقولهم " لبان " أى : ذو لبن
. . ونبال أى صاحب نبل .

اليه يرد علم الساعة وما تخرج من ثمرات من اكمامها وما تحمل من انثى ولا
تضع الا بعلمه ويوم يناديهم اين شركائي قالوا اذناك ما منا من شهيد

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - فى أواخر هذه السورة الكريمة ، أن علم
قيام الساعة إليه - تعالى - وحده ، وأن الإنسان لا يسأم من طلب المزيد من
الخير فإذا مسه الشر يئس وقنط . وأن حكمته - تعالى - قد اقتضت أن يقيم
للناس الأدلة على قدرته ووحدانيته من أنفسهم وعن طريق هذا الكون الذى
يعيشون فيه فقال - تعالى - :( إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ الساعة وَمَا
تَخْرُجُ . . . ) .قوله - تعالى - : ( إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ الساعة
وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَآمِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أنثى
وَلاَ تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ . . ) بيان لانفراد الخالق - عز وجل - بوقت
قيام الساعة ، وبإحاطة علمه - تعالى - بكل شئ ، وإرشاد للمؤمنين إلى ما
يقولونه إذا ما سئلوا عن ذلك .والأكمام : جمع كم - بكسر الكاف - وهو الوعاء
الذى تكون الثمرة بداخله .أى : إلى الله - تعالى - وحده مرجع علم قيام
الساعة ، وما تخرج ثمرات من أوعيتها الكائنة بداخلها ، وما تحمل من أنثى
حملا ولا تضعه إلا بعلمه وإرادته - عز وجل - و " من " فى قوله ( مِن
ثَمَرَاتٍ ) وفى قوله ( مِنْ أنثى ) مزيد لتأكيد الاستغراق . وفى قوله
مِّنْ أَكْمَامِهَا ) ابتدائية .قال الجمل : " فإن قلت : قد يقول الرجل
الصالح قولا فيصيب فيه ، وكذلك الكهان والمنجمون .قلت : أما قول الرجل
الصالح فهو من إلهام الله ، فكان من عمله - تعالى - الذى يرد إليه ، وأما
الكهان والمنجمون فلا يمكنهم القطع والجزم فى شئ ما يقولونه ألبتة ، وإنما
غايته ادعاء ظن ضعيف قد لا يصيب . وعلم الله - تعالى - هو العلم اليقين
المقطوع به الذى لا يشركه فيه أحد .ثم بين - سبحانه - تبرُّأ المشركين من

آلهتهم يوم القيامة فقالك ( وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآئِي قالوا
آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ . وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ
يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّواْ مَا لَهُمْ مِّن مَّحِيصٍ ) .والظرف " يوم
منصوب بفعل مقدر ، ومعنى " آذناك " أعلمناك وأخبرناك ، آذان فلان غيره "
يؤذنه ، إذا أعلمه بما يريد إعلامه به .والنداء والسؤال إنما لتوبيخهم
- والتهكم بهم فى هذا الموقف العظيم .والظن هنا بمعنى اليقين .أى : واذكر
أيها العاقل - لتعتبر وتتعظ يوم ينادى الله - تعالى - المشركين فيقول لهم
يوم القيامة : أين شركائى الذين كنتم تعبدون من دونى ليقربوكم إلى أو
) ليشفعوا لكم عندى؟( قالوا ) على سبيل التحسر والتذلل : يا ربنا لقد
آذَنَّاكَ ) أى : لقد أعلمناك بأنه مامنا أحد يشهد بأن لك شريكا ، فقد
. انكشفت عنا الحجب ، واعترفنا بأنك أنت الواحد القهار

وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل وظنوا ما لهم من محيص

كما فسرها الوسيط ( وَضَلَّ عَنْهُم ) أى : وغاب عن هؤلاء المشركين ، ما
). كانوا يدعون من قبل أى : ما كانوا يعبدونه فى الدنيا من أصنام وغيرها
وَظَنُّواْ مَا لَهُمْ مِّن مَّحِيصٍ ) أى : وأيقنوا بأنه لا مهرب ولا منجى
. لهم من العذاب .يقال : حاص يحيص حيصا ومحيصا إذا هرب

لا يسام الانسان من دعاء الخير وان مسه الشر فيئوس قنوط

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى- : ( لاَّ يَسْأَمُ الإنسان مِن دُعَآءِ
الخير وَإِن مَّسَّهُ الشر فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ) بيان لما جبل عليه الإنسان
من حب للمال وغيره من ألوان النعم .ومن ضيقه بما يخالف ذلك .ويبدو أن
المراد بالإنسان فى هذه الآية وأمثالها جنسه الغالب ، وإلا فهناك مؤمنون
صادقون ، إذا رزقهم الله النعم شكروا ، وإذا ابتلاهم بالمحن صبروا .والمراد
بالخير ما يشمل المال والصحة والجاه والسلطان وما إلى ذلك مما يشتهى
والسأم : الملل ، يقال سئم فلان هذا الشئ ، إذا مله وضاق به وانصرف عنه.
واليأس : أن ينقطع قلب الإنسان عن رجاء الحصول على الشئ ، يقال : يئس
فلان من كذا - من باب فهم - ، إذا فقد الرجاء فى الظفر به .والقنوط : أن
يظهر أثر ذلك اليأس على وجهه وهيئته ، بأن يبدو منكسرا متضائلا مهموما
فكأن اليأس شئ داخل من أعمال القلب بينما القنوط من الآثار الخارجية التى.
تظهر علاماتها على الإنسان .أى :لا يسأم الإنسان ولا يمل ولا يهدأ من
) طلب الخير والسعة فى النعم .( وَإِن مَّسَّهُ الشر ) من عسر أو مرض
- فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ) أى : فهو كثير اليأس والقنوط من رحمة الله - تعالى
وفضله ، بحيث تنكسر نفسه ، ويظهر ذلك على هيئته .وعبر - سبحانه - بيئوس
وقنوط وهما من صيغ المبالغة ، للإشارة إلى شدة حزنه وجزعه عندما يعتريه
. الشر

ولئن اذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما اظن الساعة قائمة
ولئن رجعت الى ربي ان لي عنده للحسنى فلننبئن الذين كفروا بما عملوا
ولنذيقنهم من عذاب غليظ

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - حالة أخرى من حالات هذا الإنسان فقال
وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ )
لَيَقُولَنَّ هذا لِي وَمَآ أَظُنُّ الساعة قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ
إلى ربي إِنَّ لِي عِندَهُ للحسنى . . . ) .أى : ولئن أعطينا هذا الإنسان
الجحود نعمة منا تتعلق بالمال أو بالصحة أو بغيرهما ، من بعد أن كان فقيرا
، أو مريضا . . ليقولن على سبيل الغرور والبطر : هذا الذى أعطيته شئ استحقه
لأنه جاءنى بسبب جهدى وعلمى .ثم يضيف إلى ذلك قوله : ( وَمَآ أَظُنُّ
). الساعة قَآئِمَةً ) أى : وما أعتقد أن هناك بعثا أو حسابا أو جزاء
وَلَئِن رُّجِعْتُ إلى ربي ) على سبيل الفرض والتقدير ( إِنَّ لِي عِندَهُ
للحسنى ) أى إن لى عنده ما هو أحسن وأفضل مما أنا فيه من نعم فى الدنيا
وقوله - تعالى - ( فَلَنُنَبِّئَنَّ الذين كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ.
وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ) بيان للعاقبة السيئة التى يكون
عليها هذا الإنسان الجاحد .أى : فلنعلمن هؤلاء الكافرين بأعمالهم السيئة
ولنرينهم عكس ما اعتقدوا بأن ننزل بهم الذل والهوان بدل الكرامة والحسنى ،
التى أيقنوا أنهم سيحصلون عليها ، ولنذيقنهم عذابا غليظا ، لا يمكنهم
الفكاك منه أو التفصى عنه لشدته وإحاطته بهم من كل جانب ، فهو كالوثاق
. الغليظ الذى لا يمكن للإنسان أن يخرج منه

واذا انعمنا على الانسان اعرض وناى بجانبه واذا مسه الشر فذو دعاء عريض

) : كما فسرها الوسيط ثم أكد - سبحانه - ما ذكره من حالات الإنسان فقال

وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الإنسان ) بنعمة من نعمنا التى توجب عليه شكرنا ، وطاعتنا .( أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ) أى : أعرض عن شكرنا وطاعتنا ) وتكبر وتفاخر على غيره وادعى أن هذه النعمة من كسبه واجتهاده .وقوله وَنَأَى بِجَانِبِهِ ) كناية عن الانحراف والتكبر والصلف والبطر .والنأى ) : - البعد . يقال : نأى فلان عن مكان كذا ، إذا تباعد عنه .وقوله - تعالى وَإِذَا مَسَّهُ الشر فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ) بيان لحالة هذا الإنسان فى حالة الشدة والضر .أى : هكذا حالة هذا الإنسان الجاحد ، فى حالة إعطائنا النعمة له يتكبر ويغتر ويجحد .وفى حالة إنزال الشدائد به يتضرع ويتذلل إلينا بالدعاء الكثير الواسع .وفى معنى هذه الآيات الكريمة ، جاءت آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - : ( كَلاَّ إِنَّ الإنسان لَيَطغى . أن رّآهُ استغنى ) وقوله - تعالى - : ( إِنَّ الإنسان خُلِقَ هَلُوعاً . إِذَا مَسَّهُ الشر جَزُوعاً . وَإِذَا مَسَّهُ الخير مَنُوعاً ).

قل ارايتم ان كان من عند الله ثم كفرتم به من اضل ممن هو في شقاق بعيد

كما فسرها الوسيط ثم أمر الله - تعالى - رسوله صلى الله عليه وسلم أن يوبخ هؤلاء الكافرين على جحودهم وجهالاتهم فقال : ( قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ الله ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ . . . ) .أى قل - أيها الرسول - الكريم - لهؤلاء الجاحدين : أخبرونى إن كان هذا القرآن من عند الله تعالى - وحده ، ثم كفرتم به مع ظهور الأدلة والبراهين على وجوب الإيمان به والاستفهام فى قوله - تعالى - : ( مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ. - بَعِيدٍ ) للنفى والإنكار أى :لا أحد أكثر ضلالا منكم - أيها الكافرون بسبب معاداتكم للحق ، وابتعادكم عنه ، ونفوركم منه نفورا شديدا .والشقاق والمشاقة بمعنى المخالفة والمعاداة . من الشق - أى : الجانب - فكأن كل واحد - من المتعاديين أو المتخالفين : صار فى شق غير شق صاحبه .ووصف - سبحانه - شقاقهم بالبعد ، للإشارة بأنهم قد بلغوا فى هذا الضلال مبلغا كبيرا وشوطا بعيدا .فالآية الكريمة تجهيل لهؤلاء الكافرين ، وحث لهم على التأمل والتدبر .

سنريهم اياتنا في الافاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق اولم يكف بربك انه على كل شيء شهيد

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن حكمته قد اقتضت أن يطلع الناس فى كل زمان ومكان على دلائل وحدانيته وقدرته ، وعلى صدق رسوله صلى الله عليه وسلم فيما بلغه عنه ، فقال : ( سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفاق وفي أَنفُسِهِمْ حتى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحق . . ) .والمراد بالآيات - فى قوله ( آيَاتِنَا ) : الدلائل والبراهين الدالة على وحدانيته - سبحانه - وعلى صدق رسوله صلى الله عليه وسلم .والآفاق : جمع أفق - كأعناق جمع عنق - وهو الناحية والجهة ، يقال : أفق فلان يأفق - كضرب يضرب - إذا سار فى آفاق الأرض وجهاتها المتعددة .والمعنى : سنطلع الناس على دلائل وحدانيتنا وقدرتنا فى أقطار السموات والأرض ، من شمس وقمر ونجوم ، وليل ونهار ، ورياح وأمطار ، وزرع وثمار ، ورعد وبرق وصواعق ، وجبال وبحار .سنطلعهم على مظاهر قدرتنا فى هذه الأشياء الخارجية التى يرونها بأعينهم ، كما سنطلعهم على آثار قدرتنا فى أنفسهم عن طريق ما أودعنا فيهم من حواس وقوى ، وعقل ، وروح - وعن طريق ما يصيبهم من خير وشر ، ونعمة ونقمة .ولقد صدق الله - تعالى ، وعده ، ففى كل يوم بل فى كل ساعة ، يطلع الناس على أسرار جديدة فى هذا ، الكون الهائل ، وفى أنفسهم .. وكلها تدل على وحدانيته - تعالى - وقدرته - وعلى صحة دين الإسلام الذى جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام .وقوله تعالى - : ( أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ) استئناف مسوق لتوبيخ الكافرين على عنادهم مع ظهور الأدلة على أن ما جاء به ، الرسول صلى الله عليه وسلم من عند ربه هو الحق المبين .والهمزة للإنكار ) والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام ، والباء مزيدة للتأكيد ، وقوله بربك ) فاعل كفى .والمعنى : ألم يغن هؤلاء الجاحدين عن الآيات الموعودة الدالة على صحة هذا الدين ، أن ربك - أيها الرسول الكريم - شهيد على كل شئ وعلى أنك صاقد فيما تبلغه عنه . . بلى إن فى شهادة ربك وعلمه بكل شئ ما ، يغنيك عن كل شئ سواه .

الا انهم في مرية من لقاء ربهم الا انه بكل شيء محيط

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - فى ختام السورة حقيقة أمر أولئك الكافرين فقال : ( أَلاَ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلاَ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ) .أى : ألا إن هؤلاء المشركين فى مرية وشك وريبة من لقاء ربهم يوم القيامة ، لإنكارهم البعث والحساب والجزاء . .ألا إنه - سبحانه - بكل شئ محيط إحاطة تامة لا يخفى عليه شئ فى

الأرض ولا فى السماء .وسيجمعهم يوم القيامة للحساب والجزاء ، ولن يستطيعوا النجاة من ذلك .وبعد : فهذا تفسير لسورة " فصلت " نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده ، والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

حم

، كما فسرها الوسيط سورة " الشورى " من السور التى افتتحت ببعض حروف التهجى ، وقد سبق أن ذكرنا أن أقرب الأقوال الى الصواب فى المقصود بهذه الحروف أنها وردت فى افتتاح بعض السور على سبيل الإيقاظ والتنبيه للذين تحداهم القرآن .فكأن الله - تعالى - يقول لأولئك المعارضين فى أن القرآن من عند ، الله : هاكم القرآن ترونه مؤلفا من كلام هو من جنس ما تؤلفون منه كلامكم ومنظوما من حروف هى من جنس الحروف الهجائية التى تنظمون منها حروفكم ، فإن كنتم فى شك من أنه منزل من عند الله ، فهاتوا مثله أو عشر سور من مثله ، أو سور من مثله . . فعجزوا وانقلبوا خاسرين ، وثبت أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - :وقد ذكر بعض المفسرين عند تفسيره لهذه السورة آثارا واهية رأينا أن نذكر بعضها للتنبيه على سقوطها .قال الإمام ابن كثير ما ملخصه ، وقد روى الإمام ابن جرير ها هنا أثرا غريبا عجيبا منكرا ، فقال : جاء : رجل إلى ابن عباس فقال له - وعنده حذيفة ابن اليمان - أخبرنى عن تفسير قول الله - تعالى - : ( حما عاساقا ) . فأطرق ابن عباس ثم أعرض عنه .فقال حذيفة للرجل : أنا أنبئك بها ، قد عرفتُ لم كرهها؟ نزلت فى رجل من أهل بيته يقال له : " عبد الإله " أو عبد الله ، ينزل على نهر من أنهار الشرق ، تبنى . . عليه مدينتان ، يشق النهر بينهما شقا . فإذا أذن الله فى زوال ملكهم بعث الله على إحداهما نارا ليلا . . ثم بخسف الله - تعالى - بالأخرى فذلك . قوله ( حما عاساقا ) .يعنى : عزيمة من الله وفتنة وقضاء حُمّ ( حما )

عسق

: كما فسرها الوسيط وعين ، يعنى عدلا منه ، وسين : يعنى سيكون ، وق ، يعنى . . واقع بهاتين المدينتين

كذلك يوحي اليك والى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم

، كما فسرها الوسيط والكاف فى قوله - تعالى - : ( كَذَلِكَ ) بمعنى مثل واسم الإشارة يعود إلى ما اشتملت عليه هذه السورة الكريمة من عقائد وأحاكم وآداب .أى : مثل ما فى هذه السورة الكريمة من دعوة إلى وحدانية الله ، وإلى مكارم الأخلاق ، أوحى الله به إليك وإلى الرسل من قبلك ، لتبلغوه للناس كى يعتبروا ويتعظوا .قال الآلوسى ما ملخصه : قوله - تعالى - : (كَذَلِكَ يوحي إِلَيْكَ وَإِلَى الذين مِن قَبْلِكَ ) كلام مستأنف ، وارد لتحقيق أن مضمون السورة ، موافق لما فى تضاعيف الكتب المنزلة ، على سائر الرسل المتقدمين فى الدعوة إلى التوحيد والإرشاد إلى الحق .والكاف مفعول ( يوحي ) أى : يوحى مثل ما فى هذه السورة من المعانى . .وجئ بقوله : ( يوحي ) بدل ( أوحى ) للدلالة على استمراره فى الماضى ، وأن إيحاء مثله ، عادته - تعالى - :و ) : - العزيز الحكيم ) صفتان له - عز وجل - .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إلى نُوحٍ والنبيين مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَآ إلى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ والأسباط وعيسى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً ) .

له ما في السماوات وما في الارض وهو العلي العظيم

كما فسرها الوسيط ثم ذكر - سبحانه - صفات أخرى لذاته فقال : ( لَهُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض وَهُوَ العلي العظيم ) .أى : لقد أوحى الله - تعالى - إليك أيها الرسول الكريم - بهذا القرآن كما أوحى إلى الرسل من قبلك بما شاء من وحى ، وهو - سبحانه - العزيز الذى لا يغلبه غالب ، الحكيم فى كل أقواله وأفعاله ، والذى له جميع ما فى السماوات وما فى الأرض خلقا وملكا وتصرفا . . وهو - سبحانه - ( العلي ) أى : المتعالى عن الأشباه والانداد والأمثال والأضداد ( العظيم ) أى : فى ذاته وفى صفاته ، وفى أفعاله .

تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الارض الا ان الله هو الغفور الرحيم

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر علو شأنه وكمال عظمته وجلاله فقال : ( تَكَادُ السماوات يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ) .والفعل )

) تَكَادُ ) مضارع " كاد " الذى هو من أفعاله المقاربة ، وقوله
يَتَفَطَّرْنَ ) أى : يتشققن . والضمير فى قوله - تعالى - : ( مِن
فَوْقِهِنَّ ) يعود إلى السماوات ، باعتبار أن كل سماء تنفطر فوق التى
تليها .وهذا التفطر سببه الخشية من الله - تعالى - ، الخوف من جلاله
وعظمته فيكون المعنى : تكاد السماوات يتشققن مع عظمهن ( مِن فَوْقِهِنَّ )
) - أى : من أعلاهن ، خشية ورهبة من عظمته - عز وجل - ، كما قال - تعالى
وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض مِن دَآبَّةٍ
والملائكة وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّن
فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ) ويصح أن يكون هذا التفطر سببه
شدة الفرية التى افتراها المشركون على الله - تعالى - حيث زعموا أن لله ،
ولدا ، كما قال سبحانه - : ( وَقَالُواْ اتخذ الرحمن وَلَداً لَّقَدْ
جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً تَكَادُ السماوات يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ
الأرض وَتَخِرُّ الجبال هَدّاً أَن دَعَوْا للرحمن وَلَداً ) قال صاحب
الكشف : فإن قلت : لم قال : ( مِن فَوْقِهِنَّ ) ؟ قلت : لأن أعظم الآيات
وأدلها على الجلال والعظمة : فوق السماوات ، وهى : العرش ، والكرسى ، وصفوف
الملائكة ، المرتجة بالتسبيح والتقديس حول العرش ، وما لا يعلم كنهه إلا
الله - تعالى - من آثار ملكوته العظمى ، فلذا قال : ( يَتَفَطَّرْنَ مِن
فَوْقِهِنَّ ) أى : يبتدئ الانفطار من جهتهن الفوقانية . أو لأن كلمة الكفر
جاءت من الذين تحت السماوات ، فكان القياس أن يقال : من تحتهن ، من الجهة
. التى جاءت منها الكلمة ، ولكنه بولغ فى ذلك فجعلت مؤثرة فى جهة الفوق
- كأنه قيل : يكدن يتفطرن من الجهة التى فوقهن ، دع التى تحتهن .وقوله
تعالى - : ( والملائكة يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ) مؤكد لما قبله من
بيان علو شأنه - عز وجل - ، وسمو عظمته وجلاله .أى : والملائكة ينزهون
، - ربهم - تعالى - عن كل ما لا يليق بجلاله وكماله ، خوفا منه - سبحانه
) ورهبة لذاته .وقوله : ( وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأرض ) معطوف على
يُسَبِّحُونَ ) . والمراد بمن فى الأرض : المؤمنون بصفة خاصة ، لأنهم هم
الذين يستحقون ذلك ، كما قال - تعالى - فى آية أخرى : ( الذين يَحْمِلُونَ
العرش وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ
- وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ ) أى : أن الملائكة ينزهون الله
- تعالى - عما لا يليق به . ويطلبون للمؤمنين من أهل الأرض عفو الله
تعالى - ورحمته وغفرانه .وقوله : ( لأَرْضِ ألاَ إِنَّ الله هُوَ الغفور
الرحيم ) تذييل قصد به الثناء على الله - تعالى - بما هو أهله .أى : ألا إن
الله - تعالى - وحده ، هو الواسع المغفرة والرحمة لمن يشاء من عباده ، لا
. يمنعه من ذلك مانع ، ولا يحاسبه على ما يفعل محاسب

والذين اتخذوا من دونه اولياء الله حفيظ عليهم وما انت عليهم بوكيل

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة المشركين فقال : ( والذين
اتخذوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ الله حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ
عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ) .أى : والذين اتخذوا من دون الله - تعالى - شفعاء
وشركاء ليقربوهم إليه زلفى ، الله - تعالى - وحده رقيب عليهم ، وسيجازيهم
بما يستحقون من عقاب يوم القيامة ، وما أ ، ت - أيها الرسول الكريم - عليهم
. بحفيظ أو رقيب على أعمالهم ، وإنما أنت عليك البلاغ ونحن علينا الحساب

وكذلك اوحينا اليك قرانا عربيا لتنذر ام القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع
لا ريب فيه فريق في الجنة وفريق في السعير

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - الحكمة من إنزال هذا القرآن على
، الرسول - صلى الله عليه وسلم - كما بين أنواعا من الأدلة عن كمال قدرته
ووجوب إفراده بالعبادة والخضوع . ووجوب التحاكم إلى شريعته عند الاختلاف
والتنازع . فقال - تعالى - : ( وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْآناً
) : - عَرَبِيّاً . . . بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ) .والكاف فى قوله - تعالى
وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً . . ) فى محل نصب على
المصدرية ، واسم الإشارة يعود إلى مصدر ( أَوْحَيْنَآ ) .أى : ومثل ذلك
الإيحاء البديع الواضح ، أوحينا إليك - أيها الرسول الكريم - قرآنا عربيا
لا لبس فيه ولا غموض .وقوله - سبحانه - ( لِّتُنذِرَ أُمَّ القرى وَمَنْ ،
حَوْلَهَا ) تعليل لهذا الإيحاء . والمراد بأم القرى : أهلها .وسميت مكة
بأم القرى ، لأنها مكان أول بيت وضع للناس ، ولأنها قبلة أهل القرى كلها
ومحجهم ، ولأنها أعظم القرى شأنا وغيرها كالتبع لها ، كما يتبع الفرع الأصل
- أى : أوحينا إليك هذا القرآن لتنذر به أهل أم القرى ، ولتنذر به - أيضا ،
من حولها من أهل القرى الأخرى .وخص أهل أم القرى ومن حولها بالذكر فى
- الإنذار ، لأنهم أقرب الناس - إليه صلى الله عليه وسلم - كما قال
تعالى - فى آية أخرى ( وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأقربين ) وليس معنى هذا
التخصيص أن رسالته - صلى الله عليه وسلم - كانت إليهم وحدهم ، لأن هناك

آيات أخرى كثيرة قد صرحت بأن رسالته - صلى الله عليه وسلم - كانت إلى الناس كافة ، ومن هذه الآيات : وقوله - تعالى - : ( قُلْ ياأيها الناس إِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ) وقوله - سبحانه - : ( وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ) وقوله - عز وجل - : ( وَأُوحِيَ إِلَيَّ هذا القرآن لأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَن بَلَغَ ) .فهذه الآيات وغيرها تنطق وتشهد بأن رسالته - صلى الله عليه وسلم - كانت للناس جميعا ، بل للإنس وللجن ، كما يشير إلى ذلك قوله - تعالى - : ( وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الجن يَسْتَمِعُونَ القرآن فَلَمَّا حَضَرُوهُ قالوا أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إلى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ) وجملة ( وَتُنذِرَ يَوْمَ الجمع لاَ رَيْبَ فِيهِ ) معطوفة على ما قبلها . والمراد بيوم الجمع : يوم القيامة ، لأنه اليوم الذى يجتمع فيه الأولون والآخرون بين يدى الله - تعالى - للحساب والجزاء ، والثواب والعقاب .أى : أوحينا إليك هذا القرآن لتنذر به أهل مكة ومن حلوها ، وتنذر الناس جميعا وتخوفهم من أهوال يوم القيامة ، الذى يجتمع فيه الخلائق للحساب وقوله ( لاَ رَيْبَ فِيهِ ) كلام معترض لتقرير ما قبله وتأكيده ، أو صلة. ليوم الجمع .وقوله : ( فَرِيقٌ فِي الجنة وَفَرِيقٌ فِي السعير ) بيان للنتيجة التى ترتبت على هذا الإنذار .أى : بعد هذا الإنذار الذى أنذرته للناس - أيها الرسول الكريم - هناك فريق آمن بك وصدقك فكان مصيره إلى الجنة وهناك فريق أعرض عنك وكذبك ، فكان مصيره إلى النار ، .

ولو شاء الله لجعلهم امة واحدة ولكن يدخل من يشاء في رحمته والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - ( وَلَوْ شَآءَ الله لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ولكن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِ ) بيان لكمال قدرته - عز وجل - .أى : ولو شاء الله - تعالى - أن يجعل الناس أمة واحدة - على الدين الحق لجعلهم كذلك ، لأن قدرته لا يعجزها شئ ، ولكنه - سبحانه لم يشأ ذلك ليتميز الخبيث من الطيب ، والمهتدى من الضال .أما المهتدون فهم ) - أهل رحمته ورضوانه ، وأما الضالون فهم أهل عذابه وغضبه فقوله - تعالى ولكن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِ ) بيان لمن عرفوا الدين الحق واتبعوه وقوله - سبحانه - : ( والظالمون مَا لَهُمْ مِّن وَلِيٍّ وَلاَ ) : نَصِيرٍ ) بيان لمن استحبوا العمى على الهدى .قال الآلوسى ما ملخصه ولكن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِ ) أى : أنه - تعالى - يدخل فى رحمته من يشاء أن يدخله فيها ، ويدخل فى عذابه من يشاء أن يدخله فيه ، ولا ريب فى أن مشيئته - تعالى - لكل من الإدخالين ، تابعة لاستحقاق كل فريق لعمله .وقال : ( والظالمون مَا لَهُمْ مِّن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ) ولم يقل ويدخل من يشاء فى عذابه ، للإيذان بأن الإدخال فى العذاب ، بسبب سوء اختيار الداخلين فيه .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ولكن حَقَّ القول مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجنة والناس أَجْمَعِينَ ) وقوله - سبحانه - : ( وَلَوْ شَآءَ الله لَجَمَعَهُمْ عَلَى الهدى ).

ام اتخذوا من دونه اولياء فالله هو الولي وهو يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير

كما فسرها الوسيط ثم أنكر - سبحانه - على أولئك الجاهلين اتخاذهم آلهة من دونه فقال : ( أَمِ اتخذوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ فالله هُوَ الولي وَهُوَ يُحْيِي الموتى وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ) .فأم بمعنى بل وهمزة الاستفهام الإنكارى ، لإنكار وقوع الشرك منهم ونفيه بأبلغ وجه .أى أن ما فعله هؤلاء المشركون من اتخاذهم آلهة من دونه - تعالى - شئ منكر : بلغ النهاية فى قبحه وفساده .قال صاحب الكشاف : " معن الهمزة فى ( أَمِ ) ، الإنكار وقوله : ( فالله هُوَ الولي ) أى : هو الذى يجب أن يتولى وحده ويعتقد أنه المولى والسيد ، فالفاء فى قوله ( فالله هُوَ الولي ) جواب شرط مقدر ، كأنه قيل بعد إنكارى كل ولى سواه . أى : إن أرادوا وليا بحق ، فالله - هو الولى بالحق ، لا ولى سواه .( وَهُوَ يُحْيِي ) الموتى أى : وهو سبحانه - الذى فى قدرته إعادة الحياة الى الموتى بعد موتهم .( وَهُوَ على ، كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ) أى : وهو - تعالى - وحده الذى لا يعجز قدرته شئ . وما دام الأمر كذلك ، فكيف اتخذ أولئك الجاهلون أولياء من دونه

وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه الى الله ذلكم الله ربي عليه توكلت واليه انيب

- كما فسرها الوسيط ثم وجه - سبحانه - أمره إلى نبيه - صلى الله عليه وسلم بأن يرشد المؤمنين إلى وجوب تحاكمهم إلى شريعته - تعالى - إذا ما دب خلاف

بينهم ، أو بينهم وبين أعدائهم ، فقال : ( وَمَا اختلفتم فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى الله ) .أى : عليكم أيها المؤمنون - إذ ما اختلفتم فى أمر من الأمور ، أن تحتكموا فيه إلى شريعة الله - عز وجل - ، وأن تقبلوا عن إذعان وطاعة حكمه - تعالى - .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى الله والرسول إِن كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بالله واليوم الآخر ذلك خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ) .واسم الإشارة فى قوله - سبحانه - ( ذَلِكُمُ الله رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ) يعود إلى الله - تعالى - الذى يجب أن يكون التحاكم إليه وحده عند الاختلاف .أى : ذلك الحاكم العادل الذى لا حاكم بحق سواه ) وخالقى ورازقى . ( عَلَيْهِ ) وحده ( تَوَكَّلْتُ ) واعتمدت فى رَبِّي ) جميع شئونى ( وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ) أى : وإليه وحده أرجع فى كل أمورى .

فاطر السماوات والارض جعل لكم من انفسكم ازواجا ومن الانعام ازواجا يذرؤكم فيه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير

كما فسرها الوسيط ( فَاطِرُ السماوات والأرض ) أى هو خالقهما وموجدهما على غير مثال سابق ، من فطر الشئ إذا ابتدعه واخترعه دون أن يُسبَق إلى ذلك ). جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الأنعام أَزْواجاً ) أى جعل لكم - سبحانه - بقدرته من جنس انفسكم أزواجا ، أى : نساء تجمع بينكم : وبينهن المودة والرحمة ، كما قال - تعالى - : ( وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لتسكنوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مّوَدّةً وَرَحْمَةً ) وقوله - سبحانه - : ( وَمِنَ الأنعام أَزْواجاً ) معطوف على ما قبله . أى : كما خلق لكم من أنفسكم أزواجا ، خلق - أيضا - للأنعام من جنسها إناثا ، ليحصل التوالد والتناسل والتعمير لهذا الكون .وقوله - تعالى - ( يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ) بيان للحكمة من هذا الجعل والخلق للأزواج .والذرء : التكاثر والبث . يقال : ذرأ فلان الشئ ، إذا بثه وكثره .والضمير المنصوب فى قوله ( يَذْرَؤُكُمْ ) يعود إلى المخاطبين وإلى الأنعام ، على سبيل التغليب للعقلاء على غيرهم .والضمير فى - قوله ( فِيهِ ) يعود إلى التزاوج بين الذكور والإناث المفهوم من قوله تعالى - : ( جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الأنعام أَزْواجاً ) .أى : يكثركم وينميكم بسبب هذا التزاوج الذى يحصل بين ذكوركم وإناثكم حيث يتناسل - أحيانا - بين الذكر الواحد والأنثى الواحدة ، عدد كبير من الأولاد .وقال - سبحانه - ( يَذْرَؤُكُمْ فِيه ) ولم يقل يذرؤكم به أى : بسببه ، للأشعار بان هذا التزواج قد صار مثل المنبع والأصل للبث والتكثير .قال - تعالى - : ( ياأيها الناس اتقوا رَبّكُمُ الذي خَلَقَكُمْ مِّن نّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَآءً ) .قال بعض العلماء : فإن قيل : ما وجه إفراد الضمير المجرور فى قوله ( يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ) مع أنه على ما ذكرتم ، يعود إلى الذكور والإناث من الآدميين والأنعام؟ .فالجواب : أن من أساليب اللغة العربية التى نزل بها القرآن . رجوع الضمير بصيغة الإفراد إلى المثنى أو الجمع باعتبار ما ذكر .ومنه قوله - تعالى - : ( قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ الله سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ على قُلُوبِكُمْ مَّنْ إله غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِهِ ) أى : يأتيكم بما ذكر من سمعكم وأبصاركم وقلوبكم .ثم نزه - سبحانه - ذاته عن الشبيه أو النظير . . فقال ( لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ) .أى : مثله شئ - تعالى - :لا فى ذاته ولا فى صفاته : ولا فى أفعاله ، فالكاف مزيدة فى خبر ( لَيْسَ ) و ( شَيْءٌ ) اسمها . أى ليس شئ مثله .أو أن الكاف أصلية . فيكون المعنى : ليس مثله - تعالى - أحد لا فى الذات ولا فى الصفات ولا فى الأفعال .وذلك كقول العرب : مثلك لا يبخل يعنون : أنت لا تبخل على سبيل الكتابة ، قصدا إلى المبالغة فى نفى البخل ، عن المخاطب بنفيه عن مثله ، فيثبت انتفاؤه عنه بدليله .والمقصود من الجملة الكريمة على كل تفسير : تنزيهه - تعالى - عن مشابهة خلقه فى الذات أو الصفات أو الأفعال .قال صاحب الكشاف : قالوا : مثلك لا يبخل ، فنفوا البخل عن مثله ، وهم يريدون نفيه عن ذاته ، قصدوا المبالغة فى ذلك فسلكوا به طريق الكناية ، لأنهم إذا نفوه عمن يسد مسده ، وعمن هو على أخص أوصافه ، فقد نفوه عنه .ونظيره قولك للعربى : العرب لا تحفر الذمم ، كان أبلغ من قولك : أنت لا تخفر . .وقوله - تعالى - : ( وَهُوَ السميع البصير ) أى : وهو - سبحانه - السمي لكل أقوال خلقه ، البصير بما يسرونه وما يعلنونه من أفعال .

له مقاليد السماوات والارض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر انه بكل شيء عليم

كما فسرها الوسيط ( لَهُ مَقَالِيدُ السماوات والأرض ) أى : له وحده مفاتيح خزائنهما ، وله وحده - أيضا - ملك هذه الخزائن ، لأن ملك مفاتيحها يستلزم ملكها .والمقاليد : جمع مقلاد أو أقليد وهو المفتاح .( يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ) أى : هو - سبحانه - الذى يوسع الرزق لمن شاء أن

) : - يوسعه له ، ويضيقه على من يشاء أن يضيقه عليه .( إِنَّهُ ) - تعالى
بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ )لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء .وبذلك
- نرى هذه الآيات الكريمة قد أقامت أوضح الأدلة وأقواها ، على وحدانية الله
. تعالى - وكمال قدرته

شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم
وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم
اليه الله يجتبي اليه من يشاء ويهدي اليه من ينيب

كما فسرها الوسيط ثم أكد - سبحانه - الحقيقة التى افتتحت بها السورة
الكريمة ، وهى وحدة الأديان فى جوهرها وأصولها ، وبين الأسباب التى أدت إلى
اختلاف الناس فى عقائدهم ، وأرشد النبى - صلى الله عليه وسلم - إلى أفضل
الأساليب فى الدعوة إلى الحق ، فقال - تعالى - : ( شَرَعَ لَكُم مِّنَ
الدين مَا . . . وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ) .قال الفخر الرازى : أعلم
: أنه - تعالى - لما عظم وحيه إلى نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - بقوله
ذكر فى هذه الآية ( كَذَلِكَ يوحي إِلَيْكَ وَإِلَى الذين مِن قَبْلِكَ )
تفصيل ذلك فقال : ( شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدين مَا وصى بِهِ نُوحاً . . )
أى : شرع الله لكم يا أصحاب محمد من الدين ما وصى به نوحا ومحمداً وإبراهيم.
وموسى وعيسى . . وإنما خص هؤلاء الأنبياء الخمسة بالذكر ، لأنهم أكابر
- الأنبياء ، وأصحاب الشرائع العظيمة ، والأتباع الكثيرة .والمراد بما شرعه
سبحانه - على ألسنة هؤلاء الرسل : أصول الأديان التى لا يختلف فيها دين عن
دين ، أو شريعة عن شريعة ، كإخلاص العبادة لله - تعالى - والإيمان بكتبه
ورسله وملائكته واليوم الآخر ، والتحلى بمكارم الأخلاق كالصدق والعفاف .أما
، ما يتعلق بفروع الشرائع ، كتحليل بعض الطيبات لقوم على سبيل التيسير لهم
وتحريمها على قوم على سبيل العقوبة لهم فهذا لا يدخل فى الصول الثابتة فى
- جميع الأديان ، وإنما يختلف باختلاف الظروف والأحوال .ويؤيد ذلك قوله
- تعالى - : ( لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ) وقوله
سبحانه - حكاية عن عيسى - عليه السلام - ( وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الذي
حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ) والمعنى : سن الله - تعالى - لكم يا أمة محمد - صلى
- الله عليه وسلم - من العقائد ومكارم الأخلاق ، ما سنه لنوح - عليه السلام
الذى هو أول أولى العزم من الرسل ، وأول أصحاب الشرائع الجامعة .وشرع
الله - تعالى - لكم أيضا ما أوحاه إلى نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - من
: آداب وأحكام وأوامر ونواه .وشرع لكم كذلك ما وصى به - سبحانه - أنبياءه
إبراهيم وموسى وعيسى ، من وصايا تتعلق بوجوب طاعة الله - تعالى - ، وإخلاص
العبادة له ، والبعد عن كل ما يتنافى مع مكارم الأخلاق ، ومحاسن الشيم
وقوله - سبحانه - : ( أَنْ أَقِيمُواْ الدين وَلاَ تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ).
تفصيل وتوضيح لما شرعه - سبحانه - لهؤلاء الكرام ، ولما أوصاهم به .والمراد
بإقامة الدين : التزام أوامره ونواهيه ، وطاة الرسل فى كل ما جاءوا به من
عند ربهم طاعة تامة .قال صاحب الكشاف : والمراد : إقامة دين الإسلام الذى
، هو توحيد الله - تعالى - وطاعته ، والإيمان برسله وكتبه ، وبيوم الجزاء
وسائر ما يكون الرجل بإقامته مسلما ، ولم يرد الشرائع التى هى مصالح الأمم
حسب أحوالها ، فإنها مختلفة متفاوتة ، قال الله - تعالى - ( لِكُلٍّ
جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ) ومحل ( أَنْ أَقِيمُواْ ) إما
النصب على أنه بدل من مفعول شرع والمعطوفين عليه ، وإما الرفع على
: الاستئناف ، كأنه قيل : وما ذلك المشروع؟ فقيل : هو إقامة الدين .أى
أوصاكم كما أوصى من قبلكم بالمحافظة على ما اشتمل عليه دين الإسلام من
عقائد وأحكام وآداب .. وأصول أجمعت عليها جميع الشرائع الإلهية ، كما
- أوصاكم بعدم الاختلاف فى أحكامه التى لا تقبل الاختلاف أو التفرق .ثم بين
سبحانه - موقف المشركين من الدين الحق فقال : ( كَبُرَ عَلَى المشركين مَا
تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ) .أى : شق وعظم على المشركين دعوتكم إياهم إلى
وحدانية الله - تعالى - وإلى ترك ما ألفوه من شرك ، ومن تقاليد فاسدة
ورثوها عن آبائهم .وقوله - تعالى - : ( الله يجتبي إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ
. ويهدي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ) بيان لكمال قدرته - تعالى - ونفاذ مشيئته
والاجتباء : الاصطفاء والاختيار . أى : الله - تعالى - بإرادته وحكمته
، يصطفى ويختار لرسالته من يشاء من عباده ، ويهدى إلى الحق من ينيب إليه
. ويرجع إلى طاعته - عز وجل - ويقبل على عبادته

وما تفرقوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك
الى اجل مسمى لقضي بينهم وان الذين اورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - الأسباب التى أدت إلى اختلاف المختلفين
فى أمر الدين ، وإلى تفرقهم شيعا وأحزابا فقال : ( وَمَا تفرقوا إِلاَّ مِن
بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ العلم بَغْياً بَيْنَهُمْ ) .والاستثناء مفرغ من أعم
الأوقات والأحوال والضمير فى قوله ( تفرقوا ) يعود على كل الذين اختلفوا

على أنبيائهم ، واعرضوا عن دعوتهم .وقوله ( بَغْياً ) مفعول لأجله ، مبين
. السبب الحقيقى للتفرق والاختلاف .أى : وما تفرق المتفرقون فى أمر الدين
وأعرضوا عما جاءتهم به رسلهم ، فى كل زمان ومكان ، إلا من بعد أن علموا
الحق ، ووصل إليهم عن طريق أنبيائهم ، ولم يحملهم على هذا التفرق والاختلاف
إلا البغى الذى استولى على نفوسهم ، والحسد لرسل الله - تعالى - على ما
آتاهم الله من فضله .فقوله - تعالى - : ( إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ
العلم ) زيادة فى ذمهم ، فإن الاختلاف بعد العلم ، أدعى إلى الذم والتحقير
لأنه يدل على أن هذا الاختلاف لم يكن عن جهل ، وإنما كان عن علم وإصرار ،
على الباطل .وقوله - تعالى - : ( بَغْياً بَيْنَهُمْ ) زيادة أخرى تحمل كل
عاقل على احتقارهم ونبذهم ، لأن هذه الجملة الكريمة تدل على أن اختلافهم لم
يكن من أجل الوصول إلى الحق ، وإنما كان الدافع إليه ، البغى والحسد
والعناد .أى : أن اختلافهم على أنبيائهم كان الدافع إليه الظلم وتجاوز الحد
والحرص على شهوات الدنيا ولذائذها ، والخوف على ضياع شئ منها من بين ،
) : أيديهم .ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر فضله ورحمته بهذه الأمة فقال
وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ
بِيْنَهُمْ ) .والمراد بهذه الكلمة : ما وعد الله - تعالى - نبيه - صلى
الله عليه وسلم - من أنه لن يهلك أمته بعذاب يستأصل شأفتهم ، كما أهلك قوم
نوح وغيرهم ، ومن انه - تعالى - سيؤخر عذابهم إلى الوقت الذى يختاره
- ويشاؤه - سبحانه - .أى : ولولا كلمة سبقت من ربك - أيها الرسول الكريم
بعدم إهلاكهم بعقوبة تستأصل شأفتهم ، وبتأخير العذاب عنهم إلى أجل مسمى فى
علمه - تعالى - لقضى بينهم بقطع دابرهم بسبب هذا الاختلاف الذى أدى بهم إلى
الإعراض عن دعوتك ، وإلى عكوفكم على كفرهم .( وَإِنَّ الذين أُورِثُواْ
الكتاب ) وهم أهل الكتاب المعاصرين لك من اليهود والنصارى ( مِن بَعْدِهِمْ
أى : من بعد الذين سبقوهم فى الاختلاف على أنبيائهم .( لَفِي شَكٍّ (
مِّنْهُ مُرِيبٍ ) أى : لفى شك من هذا القرآن . ومن كل ما جئتهم به من عند
ربك ، هذا الشك أوقعهم فى الريبة وقلق النفس واضطرابها وتذبذبها ، ولذلك لم
. يؤمنوا بما جئتهم به من عند ربك

فلذلك فادع واستقم كما امرت ولا تتبع اهواءهم وقل امنت بما انزل الله من
كتاب وامرت لاعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا اعمالنا ولكم اعمالكم لا حجة
بيننا وبينكم الله يجمع بيننا واليه المصير

كما فسرها الوسيط ثم حض - سبحانه - نبيه - صلى الله عليه وسلم - على المضى
فى دعوته فقال : ( فَلِذَلِكَ فادع ) .واسم الإشارة يعود إلى ما سبق
الحديث عنه من ذم التفرق ، ومن الأمر بإقامة الدين ، أى : فلأجل ما أمرناك
به من دعوة الناس إلى إقامة الدين وإلى النهى عن الاختلاف والتفرق ، من أجل
، ذلك فادع الناس إلى الحق الذى بعثناك به ، وإلى جمعهم على كلمة التوحيد
: التى تجعلهم يعيشون حياتهم آمنين مطمئنين .( واستقم كَمَآ أُمِرْتَ ) أى
واستقم على الصراط الذى كلفناك بالسير على نهجه . والزم المنهج القويم الذى
أمرناك بالتزامه .( وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ) أى : ولا تتبع شيئا من
أهواء هؤلاء الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا .( وَقُلْ ) لهم بكل ثبات وقوة
- أى : آمنت بكل ما أنزله ( آمَنتُ بِمَآ أَنزَلَ الله مِن كِتَابٍ )
تعالى - من كتب سماوية ، فالمراد بالكتاب : جنسه .( وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ
بَيْنَكُمُ ) أى : وأمرنى ربى أن أعدل بينكم فى الحكم عند رفع قضاياكم إلىّ
- فإن العدل شريعة الله تعالى .( الله رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ) أى : الله ،
تعالى - وحده هو الخالق لنا ولكم ، وهو المنعم علينا وعليكم بالنعم التى لا
تحصى .( لَنَآ أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ) أى : لنا أعمالنا
التى سيحاسبنا الله عليها يوم القيامة ، ولكم أنتم أعمالكم التى ستحاسبون
عليها ، فنحن لا نسأل عن أعمالكم وأنتم لا تسألون عن أعمالنا .( لاَ
، حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ) أى :لا احتجاج ولا خصومة بيننا وبينكم
لأن الحق قد ظهر ، فلم يبق للجدال أو الخصام حاجة بيننا وبينكم .( الله
يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ المصير ) أى . الله - تعالى - يجمع بيننا
وبينكم يوم القيامة ، وإليه وحده ، مصيرنا ومصيركم ، وسيجازى كل فريق منا
ومنكم بما يستحقه من جزاء .فأنت ترى أن هذه الآية الكريمة قد اشتملت على
- عشر جمل ، هذه الجمل الكريمة قد جاءت بأسمى ألوان الدعوة إلى الله
. تعالى - بالحكمة والموعظة الحسنة

والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم
غضب ولهم عذاب شديد

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة الذين يجادلون بالباطل فقال
والذين يُحَآجُّونَ فِي الله مِن بَعْدِ مَا استجيب لَهُ حُجَّتُهُمْ ) :
دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ ) .وقوله : ( دَاحِضَةٌ ) من الدحض بمعنى الزلل
والزوال . وأصله : الطين الذى لا تستقر عليه الأقدام . يقال : دحضت رجل

) ، فلان ، إذا زلت وزلقت .أى : والذين يخاصمون فى الله . فى دينه وشريعته
مِن بَعْدِ مَا استجيب لَهُ ) أى : من بعد أن استجاب العقلاء من الناس لهذا
الدين الحق ، واتبعوا رسوله .( حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ ) أى
حجة هؤلاء المجادلين بالباطل ، زائلة وزاهقة ( وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ )لا :
يقادر قدره من ربهم ( وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ) يوم القيام .

الله الذي انزل الكتاب بالحق والميزان وما يدريك لعل الساعة قريب

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - حال الكافرين والمؤمنين بالنسبة ليوم
القيامة ، كما بين جانبا من فضله على عباده ، ومن حرمته بهم ، فقال -
تعالى - : ( الله الذي أَنزَلَ . . . فِي الآخرة مِن نَّصِيبٍ ) .والمراد
بالكتاب فى قوله - تعالى - : ( الله الذي أَنزَلَ الكتاب بالحق والميزان )
جنسه أى : جميع الكتب السماوية التى أنزلها على أنبيائه .والمراد بالميزان
العدل والقسط الذى تضمنته شريعته - عز وجل - وأمر الناس بإقامته بينهم فى :
أمور معاشهم .وتسمية العدل بالميزان من باب تسمية الشئ باسم آلته ، لأن
الميزان آلة الإنصاف والقسط بين الناس فى معاملاتهم .قال - تعالى - : (
لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بالبينات وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الكتاب
والميزان لِيَقُومَ الناس بالقسط ) وقال - سبحانه - : ( الرحمن عَلَّمَ
القرآن خَلَقَ الإنسان عَلَّمَهُ البيان الشمس والقمر بِحُسْبَانٍ والنجم
والشجر يَسْجُدَانِ والسماء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الميزان أَلاَّ تَطْغَوْا
فِي الميزان وَأَقِيمُواْ الوزن بالقسط وَلاَ تُخْسِرُواْ الميزان ) أى :
الله - تعالى - هو وحده الذى أنزل جميع الكتب السماوية لهداية الناس
، ومنفعتهم ، وقد أنزلها - سبحانه - ملتبسة بالحق الذى لا يحوم حوله باطل
وأنزل كذلك شريعته العادلة ليتحاكم إليها الناس فى قضاياهم ومعاملاتهم
وقوله - تعالى - : ( وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ الساعة قَرِيبٌ ) إرشاد إلى.
أن وقت قيام الساعة لا يعلمه إلا الله - تعالى - :أى : إن وقت قيام الساعة
لا يعلمه إلا الله - تعالى - وحده ، وأى شئ يجعلكم عالما بوقتها إذا كان
مرد علمها إلى الله وحده ، ومع ذلك لعل وقت قيامها قريب .وقال : ( قَرِيبٌ
ولم يقل قريبة ، لأن تأنيث الساعة غير حقيقى ، أو لأن لفظ فعيل يستوى فيه (
المذكر والمؤنث ، كما فى قوله - تعالى - : ( إِنَّ رَحْمَتَ الله قَرِيبٌ
مِّنَ المحسنين ) وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( يَسْأَلُكَ الناس
عَنِ الساعة قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ الله وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ
الساعة تَكُونُ قَرِيباً ).

يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين امنوا مشفقون منها ويعلمون انها
الحق الا ان الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( يَسْتَعْجِلُ بِهَا الذين لاَ
يُؤْمِنُونَ بِهَا والذين آمَنُواْ مُشْفِقُونَ مِنْهَا ) بيان لموقف
الكافرين والمؤمنين من الساعة .أى : يستعجل الكافرون قيام الساعة ، استعجال
استهزاء وإستخفاف لجهلهم وانطماس بصائرهم ، أما الذين آمنوا بالله واليوم
الآخرز فهم خائفون مشفقون من قيامها ، لما فيها من أهوال وحساب وثواب وعقاب
) - ولأنهم لا يدرون ما الذى سيفعله الله - تعالى - بهم .فقوله - تعالى ،
مُشْفِقُونَ ) من الإشفاق ، وهو عناية مشوبة بخوف ، لأن المشفق يحب المشفق
عليه ، ويخاف ما يلحقه . فإذا عدى بحرف " من " فمعنى الخوف فيه اظهر ، وإذا
عدى بحرف " فى " فمعنى العناية فيه أظهر .وقوله - سبحانه - ( وَيَعْلَمُونَ
أَنَّهَا الحق ) تأكيد لإيمان المؤمنين بها ، ومدح لهم على هذا الإيمان
أى : أن المؤمنين وجلون من الساعة لما فيها من حساب . . ومع ذلك فهم لصدق.
يقينهم يعتقدون أنها آتية لا ريب فيها ، ويستعدون لاستقبالها بالإيمان
العميق ، وبالعمل الصالح الذى يرضى الله - تعالى - .ثم وبخ - سبحانه - الذى
يشكون فى البعث والنشور فقال : ( أَلاَ إِنَّ الذين يُمَارُونَ فِي الساعة
لَفِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ ) .وقوله : ( يُمَارُونَ ) من المماراة بمعنى
المجادلة والمخاصمة . يقال : مارى فلان فى الشئ يمارى مراء ومماراة ، إذا
خاصم وجادل ، أى : ألا إن الذين يخاصمون فى قيام الساعة خصام شك وريبة
، لفى ضلال بعيد عن الحق ، وفى ذهول شديد عن الصواب ، لأن قدرة الله
تعالى -لا يعجزها شئ ، ولأن حكمته قد اقتضت أن يجازى كل إنسان بما يستحقه
من ثواب أو عقاب .

الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوي العزيز

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أنه رءوف رحيم بعباده فقال : ( الله
لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ ) أى : حفى بهم ، عطوف عليهم ، يفيض عليهم جميعا من
صنوف بره مالا تحصيه العقول ، ومن مظاهر ذلك أنه لا يعاجلهم بالعقوبة ، مع
مجاهرتهم بمعصيته ، وأنه يرزقهم جميعا مع أن أكثرهم لا يشكرونه على نعمه

) وقوله ( يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ) أي : يبسط رزقه ويوسعه لمن يشاء من خلقه. وَهُوَ ) سبحانه ( القوي العزيز ) أى : وهو العظيم القوة الغالب على كل من سواه .

من كان يريد حرث الاخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الاخرة من نصيب

كما فسرها الوسيط ثم حكى - تعالى - سنته التى لا تتخلف فقال : ( مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخرة نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ) .والحرث فى الأصل؛ مصدر بمعنى إلقاء البذور فى الأرض ، لتنبت ما ينفع الناس من زرع . والمرد به ثمرات الأعمال ونتائجها ، تشبيها لها بثمرات البذور .والمعنى : من كان يريد - من الناس بأعمال ثواب الآخرة ، ورضا الله - تعالى - ضاعف الله - عز وجل له الأجر والثواب والعطاء .( وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدنيا ) أى : ومن كان يريد بعمله شهوات الدنيا نؤته منها ، ما قدرناه له من حطامها وزخارفها أى : وليس له فى الآخرة نصيب من ( وَمَا لَهُ فِي الآخرة مِن نَّصِيبٍ ). - خيراتها الباقية ، ونعيمها الدائم .وشبيه بهذه الآية الكريمة قوله تعالى - : ( مّن كَانَ يُرِيدُ العاجلة عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نّرِيدُ ثُمّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مّدْحُوراً وَمَنْ أَرَادَ الآخرة وسعى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَـئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مّشْكُوراً كُلاّ نّمِدُّ هؤلاء وهؤلاء مِنْ عَطَآءِ رَبّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبّكَ مَحْظُوراً ).

ام لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم ياذن به الله ولولا كلمة الفصل لقضي بينهم وان الظالمين لهم عذاب اليم

كما فسرها الوسيط ثم انتقلت السورة الكريمة إلى توبيخ المشركين على إصرارهم على كفرهم ، وقارنت بين مصيرهم السئ ، وبين المصير الطيب الذى وعد الله به المؤمنين . . . فقال - تعالى - : ( أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُواْ . . . بِذَاتِ الصدور ) .قال القرطبى : قوله - تعالى - : ( أَمْ لَهُمْ . ) : شُرَكَاءُ ) أي : ألهم ، والميم صلة الهمزة للتقريع .وهذا متصل بقوله شَرَعَ لَكُم مّنَ الدين مَا وصى بِهِ نُوحاً ) وقوله - تعالى - : ( الله الذي أَنزَلَ الكتاب بالحق والميزان ) كانوا لا يؤمنون به ، فهل لهم آلهة شرعوا لهم الشرك الذى لم يأذن به الله؟ وإذا استحال هذا فالله لم يشرع ، الشرك ، فمن أين يدينون به .فالآية الكريمة تنكر عليهم شركهم بأبلغ أسلوب وتؤنبهم على جهالتهم حيث أشركوا بالله - تعالى - : دون أن يكون عندهم دليل أو ما يشبه الدليل على صحة ما وقعوا فيه من باطل .والمراد بكلمة الفصل فى قوله - تعالى - : ( وَلَوْلاَ كَلِمَةُ الفصل لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ) ما تفضل به - سبحانه - من تأخير العذاب الماحق عنهم .أى : ولولا حكمنا بتأخير العذاب عنهم - فضلا منا وكرما - لقضى الأمر بين هؤلاء الكافرين وبين المؤمنين ، بأن أهلكنا الكافرين واستأصلنا شأفتهم فى الدنيا ، ولكن شاء ربك أن يؤخر عذابهم إلى يوم القيامة .( وَإِنّ الظالمين لَهُمْ عَذَابٌ . أَلِيمٌ ) فى الآخرة ، بسبب إصرارهم على ظلمهم وموتهم على الكفر والشرك

ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم والذين امنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير

كما فسرها الوسيط ثم صور - سبحانه - أحوالهم السيئة يوم القيامة تصويرا مؤثرا فقال : ( تَرَى الظالمين مُشْفِقِينَ مِمّا كَسَبُواْ وَهُوَ ) وَاقِعٌ بِهِمْ ) .أى : ترى - أيها العاقل - هؤلاء الظالمين يوم القيامة مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ ) أى خائفين خوفا شديدا ، بسبب ما اكتسبوه فى الدنيا من سيئات على رأسها الكفر ، وهذا الذعر الشديد لن ينفعهم ، فإن العذاب واقع بهم لا محالة ، سواء أخافوا أم لم يخافوا .وقوله - تعالى - : ) والذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات فِي رَوْضَاتِ الجنات لَهُمْ مّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبّهِمْ ) بيان للثواب العظيم الذى أعده الله - تعالى - لعباده المؤمنين .والروضات : جمع روضة ، وهو أشرف بقاع الجنة وأطيبها وأعلاها .أى : هذا هو مصير الظالمين يوم القيامة ، أما الذين آمنوا وعملوا فى دنياهم الأعمال الصالحات ، فهم يوم القيامة يكونون فى أشرف بقاع الجنات وأطيبها وأسماها منزلة ، حالة كونهم لهم ما يشاءون من خيرات عند ربهم ). ذَلِكَ هُوَ الفضل الكبير ) أى : الذى أعطيناه للمؤمنين من خيرات ، هو الفضل الكبير . الذى لا يعادله فضل ، ولا يماثله كرم .

ذلك الذي يبشر الله عباده الذين امنوا وعملوا الصالحات قل لا اسالكم عليه اجرا الا المودة في القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا ان الله غفور شكور

كما فسرها الوسيط واسم الإشارة فى قوله - تعالى - : ( ذَلِكَ الذي يُبَشِّرُ الله عِبَادَهُ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ) .أى : ذلك - الفضل الكبير ، هو البشارة العظمى؛ والعطاء الجزيل ، الذى يمنحه الله تعالى - يوم القيامة لعباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات .قال الآلوسى قوله أى : الفضل الكبير ، أو الثواب المفهوم من السياق ، هو ( الذي ( ذَلِكَ ) : يُبَشِّرُ الله عِبَادَهُ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ) أى : يبشر به فحذف الجار ثم العائد إلى الموصول ، كما هو عادتهم فى التدريج فى الحذف ولا مانع من حذفهما دفعة .وجوز كون ( ذَلِكَ ) إشارة إلى التبشير المفهوم من " يبشر " . أى : ذلك التبشير يبشره الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات .ثم أمر الله - تعالى - نبيه صلى الله عليه وسلم - أن يؤكد لأولئك المشركين من قومه ، أنه لا يسألهم أجرا على دعوته ، وإنما يسألهم المودة والمعاملة الحسنة لقرابته منهم فقال : ( قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ المودة فِي القربى ) .والضمير المجرور فى ( عَلَيْهِ ) يعود - إلى التبليغ والتبشير والإنذار الذى يفعله الرسول - صلى الله عليه وسلم معهم ( القربى ) مصدر كالقرابة والخطاب لكفار قريش .وللعلماء فى تفسير هذه الآية أقوال : أولها : أن المراد بالقربى : الصلة والقرابة التى تربط بين الرسول وبين كفار قريش .أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الكافرين ، إنى لا اسألكم على التبليغ أجرا ، لكن أسألكم أن تودونى لقرابتى فيكم فتكفوا عنى أذاكم ، وتمنعوا عنى أذى غيركم ، وتستجيبوا لدعوتى ، فإن صلة القرابة والرحم التى بينى وبينكم توجب عليكم ذلك .فالقربى هنا : بمعنى القرابة وصلة الرحم . و ( فِي ) للسببية بمعنى لام التعليل كما جاء فى - الحديث الشريف : " دخلت امرأة النار فى هرة " .ولا شك أن منع أذاهم عنه صلى الله عليه وسلم - بسبب قرابته فيهم ليس أجرا .وثانيها : أن المراد بالقربى : هنا : أقاربه وعشيرته وعترته فيكون المعنى لا أسألكم أجرا على دعوتى لكم إلى الخير والحق ، ولكن أسألكم أن تحفظونى فى قرابتى وأهل بيتى ، بأن تحسنوا إليهم ولا تؤذوهم بأى نوع من الأذى .ولا شك - أيضا - أن إحسانهم إلى أقاربه ، ليس أجرا منهم له على ذلك لأن الإحسان إلى الناس ، شئ قررته جميع الشرائع وتقتضيه مكارم الأخلاق .وثالثها : أن المراد بالقربى هنا : التقرب إلى الله - تعالى - بالإيمان والعمل الصالح .أى : لا أسألكم على التبليغ أجرا ، ولكن أسألكم أن تتقربوا إلى الله - تعالى - بما يرضيه بأن تتركوا الكفر والفسوق والعصيان ، وتدخلوا فى الإيمان والطاعة لله - تعالى - .وهذا الذى طلبه منهم ، ليس أجرا على التبليغ ، لأن التقرب إلى الله بالطاعات فرض عليهم . وقد رجح العلماء القول الأول ، واستدلوا على هذا - الترجيح بأحاديث منها : ما رواه البخارى عن ابن عباس أن سئل عن معنى قوله تعالى - ( إِلاَّ المودة فِي القربى ) ، فقال سعيد بن جبير : " قربى آل محمد " فقال ابن عباس : عَجِلت . إن النبى - صلى الله عليه وسلم - لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة . فقال : إلا أن تصلوا ما بينى وبينكم من القرابة .وقال ابن كثير بعد أن ساق هذا الحديث وغيره ، وبهذا الرأى قال مجاهد وعكرمة ، وقتادة ، والسدى ، وأبو مالك ، وعبد الرحمن بن زيد ، وغيرهم وقال الإمام ابن جرير - بعد أن ساق هذه الأقوال فى ذلك بالصواب ، وأشبهها. ، بظاهر التنزيل ، قول من قال معناه : لا أسألكم عليه أجرا يا معشر قريش إلا أن تودونى فى قرابتى منكم ، وتصلوا الرحم حتى بينى وبينكم .وإنما قلت هذا التأويل أولى بتأويل الآية ، لدخول ( فِي ) فى قوله : ( إِلاَّ المودة فِي القربى ) .ولو كان معنى ذلك على ما قاله من قال إلا أن تودوا قرابتى ، أو تتقربوا إلى الله ، لم يكن لدخول ( فِي ) فى الكلام فى هذا الموضع وجه معروف ولكان التنزيل إلا مودة القربى ، إن عنى به الأمر بمودة قرابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أو إلا المودة بالقربى إن عنى به الأمر بالتودد والتقرب إلى الله - تعالى - .وفى دخول ( فِي ) فى الكلام أوضح الدليل على أن معناه إلا مودتى فى قرابتى منكم .ثم بين - سبحانه - جانبا من مظاهر فضله على عباده فقال : ( وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً إِنَّ الله غَفُورٌ شَكُورٌ ) .وقوله ( يَقْتَرِفْ ) من القرف بفتح إلى الله تعالى ، نضاعف له - بفضلنا وإحساننا - ثوابها ، إن الله تعالى واسع المغفرة لعباده . كثير الشكر للطائعين بأن يعطيهم من فضله أكثر مما يستحقون ويرجون .

ام يقولون افترى على الله كذبا فان يشا الله يختم على قلبك ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته انه عليم بذات الصدور

، كما فسرها الوسيط ثم عادت السورة إلى توبيخ الكافرين على كذبهم وعنادهم فقال تعالى : ( أَمْ يَقُولُونَ افترى عَلَى الله كَذِباً ) .أى : بل أيقولون إن محمدا - صلى الله عليه وسلم - قد افترى على الله - تعالى - كذبا فيما يدعونا إليه ، وفيما يتلوه علينا من قرآن؟ثم أجاب - سبحانه - عن افترائهم هذا بقوله : ( فَإِن يَشَإِ الله يَخْتِمْ على قَلْبِكَ ) أى :

فإن يشأ الله - تعالى - يجعلك من المختوم على قلوبهم حتى تفترى عليه الكذب
لأن افتراء الكذب على الله لا يكون إلا ممن طبع الله على قلوبهم فهم لا ،
يفقهون ، وأنت أيها الرسول الكريم مبرأ ومنزه عن ذلك .فالمقصود من الجملة
الكريمة تنزيه ساحة الرسول - صلى الله عليه وسلم - عما قاله المشركون فى
شأنه ، وإثبات أن افتراء الكذب . إنما هو من شأنهم لا من شأنه - صلى الله
عليه وسلم - .قال صاحب الكشاف : قوله : ( فَإِن يَشَإِ اللّه يَخْتِمْ على
قَلْبِكَ ) أى : فإن يشأ الله - تعالى - يجعلك من المختوم على قلوبهم ، حتى
تفترى عليه الكذب ، فإنه لا يجترئ على افتراء الكذب على الله إلا من كان فى
مثل حالهم .وهذا الأسلوب مؤداه استبعاد الافتراء من مثله ، وأنه فى البعد
مثل الشرك بالله ، والدخول فى جملة المختوم على قلوبهم ومثال هذا : أن
يُخوّن بعض الأمناء فيقول : لعل الله خذلنى ، لعل الله أعمى قلبى ، وهو لا
، يريد إثبات الخذلان وعمى القلب ، وإنما يريد استبعاد أن يخون مثله
والتنبيه على أنه ركب من تخوينه أمر عظيم .وقوله - سبحانه - : ( وَيَمْحُ
الله الباطل وَيُحِقُّ الحق بِكَلِمَاتِهِ إِنّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور
كلام مستأنف غير داخل فى جواب الشرط ، لأنه - تعالى - يمحو الباطل : (
مطلقا ، وسقطت الواو من الفعل ( يَمْحُ ) لفظا لالتقاء الساكنين ، وخطا
، حملا له على اللفظ ، كما كتبوا ( سَنَدْعُ الزبانية ) فهو مرفوع لا محزوم
ويؤيد عطف ( وَيُحِقُّ ) المرفوع عليه .أى : من شأن الله - تعالى - أن يمحو
- الباطل ، وأن يثبت الحق بكلماته الفاصلة ، وقضائه العادل ، كما قال
تعالى - : ( بَلْ نَقْذِفُ بالحق عَلَى الباطل فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ
زَاهِقٌ ) ( إِنَّهُ ) سبحانه - ( عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ) أى : مطلع على
ما تخفيه الصدور من أسرار ونوايا ، لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء
. وسيجازى كل إنسان بما يستحقه من خير أو شر ،

وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون

كما فسرها الوسيط ثم تحدثت السورة الكريمة عن دلائل الإيمان فى الأنفس
والآفاق ، وعن آثار القدرة فيما يحيط بالناس ، وفيما يتعلق بحياتهم ومعاشهم
وفيما يتعلق بمظاهر لطفه بهم ، وفضله عليهم ، فقال - تعالى - : ( وَهُوَ ،
الذي يَقْبَلُ التوبة . . . وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ) .قال الجمل فى
حاشيته : قوله - تعالى - : ( وَهُوَ الذي يَقْبَلُ التوبة عَنْ عِبَادِهِ )
قال ابن عباس : يريد أولياءه وأهل طاعته . والتوبة واجبة من كل ذنب ، فإن
كان معصية بين العبد وربه فلها ثلاثة شروط ، الإقلاع عن المعصية ، والندم
على فعلها ، والعزم على عدم العودة إليها .وإن كانت المعصية تتعلق بحق آدمى
أضيف إلى ذلك : أن يبرأ من حق صاحبها . .والمعنى : وهو - سبحانه - وحده ،
الذى يقبل التوبة من عباده التائبين إليه ، شفقة عليهم ، ورحمة بهم ، بأن
يكفر سيئاتهم ، ولا يعاقبهم عليها .والقبول يعدى بعن ، لتضمنه معنى
) : - الإبانة والقطع ، ويعدى بمن لتضمنه معنى الآخذ كما فى قوله - تعالى
وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاّ أَنّهُمْ
كَفَرُواْ بالله وَبِرَسُولِهِ ) وعدى بعن هنا للإشارة إلى تجاوزه سبحانه
عن خطايا عباده .وقوله - تعالى - ( وَيَعْفُواْ عَنِ السيئات ) تأكيد لما
قبله وتقرير له أى : أنه عز وجل يقبل التوبة من عباده التائبين ، وفضلا عن
، ذلك ، يعفو عن سيئاتهم ، ويسترها عليهم ، بل ويحولها - بفضله إلى حسنات
كما قال - تعالى - ( إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً
) - فأولئك يُبَدِّلُ الله سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ) وقوله - سبحانه
وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ) تحذير من التمادى فى تأخير التوبة ، وفى
اقتراف ما نهى عنه ، فكأنه - تعالى - يقول : لقد فتحت لكم باب التوبة
والعفو ، فأقبلوا على طاعتى ، واتركوا معصيتى ، فإنى عليم بما تفعلونه من
خير أو شر ، وسأجازى كل إنسان بما يستحقه من ثواب أو عقاب .و ( مَا ) فى
قوله ( وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ) موصولة ، والعائد محذوف . أى : ويعلم
. الذى تفعلونه دون أن يخفى عليه - تعالى - شئ منه

ويستجيب الذين امنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب
شديد

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( وَيَسْتَجِيبُ الذين آمَنُواْ
) : وَعَمِلُواْ الصالحات وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ) معطوف على قوله
يَقْبَلُ التوبة عَنْ عِبَادِهِ ) .أى : ويستجيب سبحانه من الذين آمنوا
دعاءهم ، ويزيدهم من فضله وإحسانه ، بأن يعطيهم من النعم والخيرات أكثر مما
سألوا .قال الآلوسى ما ملخصه : والموصول مفعول بدون تقدير شئ ، بناء على أن
يتعدى بنفسه ، كما يتعدى باللام ، نحو شكرته وشكرت له ، أو ( يَسْتَجِيبُ )
بتقدير اللام على أنه من باب الحذف والإيصال ، والأصل : ويستجيب للذين
آمنوا . .( والكافرون لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ) أى : هذا هو حال المؤمنين
يجيب لهم - سبحانه - دعاءهم ، ويزيدهم من فضله وإحسانه . . . أما الكافرون

-الذين ستروا نعمه ، وجحدوا فضله ، فلهم عذاب شيدد لا يعلم مقداره إلا هو سبحانه - .

ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الارض ولكن ينزل بقدر ما يشاء انه بعباده خبير بصير

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - جانبا مما اقتضته في تدبير أمور عباده فقال : ( وَلَوْ بَسَطَ الله الرزق لِعِبَادِهِ لَبَغَوْاْ فِي الأرض ولكن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ) .والبغى : تجاوز الحد فى كل شئ يقال : بغى الجرح ، إذا أظهر ما بداخله من دم أو غيره .وبغى القوم ، إذا تجاوزوا حدودهم فى العدوان على غيرهم .أى : ولو بسط الله - تعالى - الرزق لعباده ، بأن وسعه عليهم جميعا توسعة فوق حاجتهم ، ( لَبَغَوْاْ فِي الأرض ) أى : لتجاوزوا حدودهم ، ولتكبروا فيها ، ولطغوا وعتوا وتركوا الشكر لنا ، وقالوا ما قاله قارون : ( إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ عندي ) وقوله : ( ولكن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ) بيان لما اقتضته حكمته - تعالى - أى : أن حكمته - تعالى - قد اقتضت عدم التوسعة فى الرزق لجميع عباده ، لأن هذه التوسعة تحملهم على التكبر والغرور والبطر ، لذا أنزل الله - تعالى - لهم الرزق بتقدير محدد اقتضته حكمته ومشيئته ، كما قال - سبحانه - : ( وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ) وقوله - تعالى - : ( إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ) تعليل لتنزيله الرزق على عباده بتقدير وتحديد دقيق .أى : فعل ما فعل - سبحانه - من إنزال الرزق على عباده بقدر ، لأنه - تعالى - خبير بخفايا أحوال عباده ، وبطوايا نفوسهم ، بصير بما يقولونه وبما يفعلونه .قال صاحب الكشاف : أى أنه - تعالى - يعلم ما يؤول إليه حالهم ، فيقدر لهم ما هو أصلح لهم ، واقرب إلى جمع شملهم ، فيفقر ويغنى ، ويمنع ويعطى ، ويقبض ويبسط كما توجبه الحكمة الربانية ، ولو أغناهم جميعا لبغوا ، ولو أفقرهم لهكلوا ، ولا شبهة فى أن البغى مع الفقر أقل ، ومع البسط أكثر وأغلب ، وكلاهما سبب ظاهر للإقدام على البغى والإحجام عنه ، فلو عم البسط ، لغلب البغى حتى ينقلب الأمر إلى عكس ما هو عليه الآن .

وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد

، كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ألوانا من نعمه على عباده وكلها تدل على وحدانيته وكمال قدرته فقال - تعالى - : ( وَهُوَ الذي يُنَزِّلُ الغيث مِن بَعْدِ مَا قَنَطُواْ ) .أى : وهو - سبحانه - الذى ينزل المطر على عباده ، من بعد أن انتظروه فترة طويلة حتى ظهرت على ملامحهم ) : - علامات اليأس ، وبدأت على وجوههم أمارات القنوط .وقوله - تعالى وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ ) معطوف على ( يُنَزِّلُ ) . أى : ينزل الأمطار بعد يأس الناس من نزولها ، وينشر رحمته عليهم عن طريق ما ينتج عن هذه الأمطار من خيرات وبركات وأرزاق .(وَهُوَ ) - سبحانه - ( الولي ) أى : الذى يتولى عباده برحمته وإحسانه ( الحميد ) أى : المحمود على فعله ، حيث أنزل على عباده الغيث بعد أن ينسوا منه ، والمتأمل فى هذه الآية الكريمة يراها تصور جانبا من فضل الله على عباده بطريقة محسوسة ، فالتعبير بالغيب يشعر بالغوث والنجدة بعد أن فقد الناس الأمل فى ذلك ، والتعبير بالقنوط .يشعر بأن آثار الضيق قد ظهرت على وجوههم ، والتعبير بقوله - تعالى - ( وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ ) ، يشعر بانتشار الرجاء والفرح والانشراح على الوجوه بعد أن حل بها القنوط .والتعبير بقوله - تعالى - : ( وَهُوَ الولي الحميد ) يشعر بقرب الله - تعالى - من عباده ، وبوجوب شركه على ما أعطى بعد المنع ، وعلى ما فرج بعد الضيق .

ومن اياته خلق السماوات والارض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم اذا يشاء قدير

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - لونا آخر من ألوان كمال قدرته فقال وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السماوات والأرض وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ) والمراد بالآيات هنا : الدلائل والعلامات الواضحة الدالة على كمال قدرته - عز وجل - .وقوله : ( وَمَا بَثَّ ) معطوف على ( خَلْقُ السماوات والأرض ) .أى : ومن العلامات الناصعة الدالة على كمال قدرته - تعالى - خلقه للسموات وللأرض بتلك الصورة الباهرة التى نشاهدها بأعيننا ، وخلقه - أيضا - لما ث فيها من دابة ، ولما نشر وفرق فيهما من دواب لا يعلم عددها إلا الله - تعالى - .والدابة : اسم لكل ما يدب على وجه الأرض أو غيرها . وظاهر الآية الكريمة يفيد وجود دواب فى السماوات .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم قال : ( فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ) والدواب فى الأرض وحدها؟ .قلت : يجوز أن ينسب الشئ إلى جميع المذكور وإن كان متلبسا ببعضه كما يقال : بنو تميم فيهم

شاعر مجيد ، أو شجاع بطل ، وإنما هو فخذ من أفخاذهم .ويجوز أن يكون للملائكة - عليهم السلام - مشى مع الطيران ، فيوصفوا بالدبيب كما يوصف به الأناسى ، ولا يبعد أن يخلق - سبحانه - فى السماوات حيوانا يمشى فيها مشى الأناسى على الأرض ، سبحان الذى خلق ما نعلم وما لا نعمل من أصناف الخلق وقوله - تعالى - : ( وَهُوَ على جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ) بيان. لكمال قدرته - عز وجل - .أى : وهو - سبحانه - قادر قدرة تامة على جمع الخلائق يوم القيامة للحساب والجزاء .كما قال - تعالى - فى آية أخرى ) : قُلْ إِنَّ الأولين والآخرين لَمَجْمُوعُونَ إلى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ) .

وما اصابكم من مصيبة فبما كسبت ايديكم ويعفو عن كثير

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن ما يصيب الناس من بلاء إنما هو بسبب أعمالهم فقال : ( وَمَآ أَصَابَكُمْ مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ) .أى : وما أصابكم - أيها الناس - من بلاء ، كمرض وخوف وفقر فإنما هو بسبب ما اكتسبتموه من ذنوب ، وما اقترفموه من خطايا ، ويعفو - سبحانه - عن كثير من السيئات التى ارتكبتموها ، فلا يحاسبكم عليها رحمة منه بكم .قال - تعالى - ( وَلَوْ يُؤَاخِذُ الله الناس بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ على ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ) وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية جملة من الأحاديث والآثار منها ما رواه ابن أبى حاتم عن على بن أبى طالب - رضى الله عنه - قال : ألا أخبركم بأفضل آية فى كتاب الله ، وحدثتنا بها رسول - صلى الله عليه وسلم - قال :( وَمَآ أَصَابَكُمْ مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ) وسأفسرها لك يا على : ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء فى الدنيا ، فبما كسبت أيديكم والله - تعالى - أحلم من أن يثنى عليه العقوبة فى الآخرة ، وما عفا الله ، عنه فى الدنيا فالله أكرم من أن يعود بعد عفوه .

وما انتم بمعجزين في الارض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير

كما فسرها الوسيط ثم حذر - سبحانه - الناس من عقابه فقال : ( وَمَآ أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأرض وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ الله مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ) .أى : وما أنتم - أيها الناس - بقادرين على الرهب منا فى أى مكان من الأرض أو فى غيرها ، لأن قدرتنا لا يعجزها أن تأتى بكم من أى مكان كنتم فيه ، وليس لكم غير الله - تعالى - من ولى يتولى أموركم ، أو نصير يدفع عنكم عذابه .قال - تعالى - ( مَّا يَفْتَحِ الله لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ العزيز الحكيم ).

ومن اياته الجوار في البحر كالاعلام

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك جانبا من دلائل قدرته عن طريق ما يشاهده الناس فى البحر ، فقال - تعالى - : ( وَمِنْ آيَاتِهِ الجوار فِي البحر كالأعلام ) .والجوار : جمع جارية والمراد بها السفينة لأنها تجرى فى البحر ، وهى صفة لموصوف محذوف .والأعلام : جمع علم وهو الجبل الكبير وأصله الأثر الذى يعلم به الشئ كعلم الطريق ، وعلم الجيش ، وسمى علما لأن الناس يسترشدون به فى سيرهم .أى : ومن آياته - سبحانه - الدالة على كمال قدرته ، هذه السفن الجارية فى البحر ، حتى لكأنها من ضخامتها وعظمها الجبال الشاهقة .

ان يشا يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره ان في ذلك لايات لكل صبار شكور

كما فسرها الوسيط ( إِن يَشَأْ ) - سبحانه - ( يُسْكِنِ الريح ) التى : بسببها تجرى السفن فى البحار ( فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ على ظَهْرِهِ ) أى فيصرن ثوابت على ظهر البحر لا يجرين . يقال : ركد الماء ركودا - من باب قعد - إذا سكن ، فهو راكد .( إِنَّ فِي ذَلِكَ ) الذى ذكرناه لكم من السفن المسخرة فى البحر بأمره - تعالى ( لآيَاتٍ ) عظيمات ( لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ) أى : لكل إنسان قد تحلى بصفتى الصبر والشكر لله - تعالى - ، حتى صارتا هاتان الصفتان سجية من سجاياه . .

او يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير

كما فسرها الوسيط ( أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا ) أى أو يهلكهن ويغرقهن بسبب ما اكتسبه الراكبون فى هذه السفن من ذنوب وخطايا .يقال : أوبق فلان فلانا إذا حبسه أو أهلكه . ووبق فلان - كوعد ووجل ، وبوقا إذا هلك

- وهو معطوف على قوله " يسكن " وكذلك قوله " ويعفو " .أى : إن يشأ.
سبحانه - يسكن الريح فتظل السفن ساكنة على ظهر البحر ، أو إن يشأ يرسل
الريح عاصفة بتلك السفن بمن فيها ، أو إن يشأ ينج ناسا بالعفو عنهم .قال
صاحب الكشاف : " يوبقهن " يهلكهن . والمعنى : أنه إن يشأ يبتلى المسافرون
، فى البحر بإحدى بليتين : إما أن يسكن الريح فيركد الجوارى على ظهر البحر
ويمنعهن من الجرى ، وإما أن يرسل الريح عاصفة فيهلكن إراقا بسبب ما كسبوا
" من الذنوب ( وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ) منها .فإن قلت : علام عطف " يوبقهن
قلت : على " يسكن " لأن المعنى : إن يشأ يسكن الريح فيركدن ، أو يعصفها
فيغرقن بعصفها .فإن قلت : فما معنى إدخال فى حكم الإيباق حيث جزم جزمه؟
قلت : معناه : أو إن يشأ يهلك ناسا وينج ناسا على طريق العفو عنهم .فإن قلت
. فمن قرأ " ويعفو "؟ قلت : قد استأنف الكلام :

ويعلم الذين يجادلون في اياتنا ما لهم من محيص

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن علمه شامل لكل شئ فقال
( وَيَعْلَمَ الذين يُجَادِلُونَ في آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِّن مَّحِيصٍ
والمحيص : المهر والمنجى من العذاب . يقال : حاص فلان عن الشئ ، إذا حاول
الفرار منه .وقراءة الجمهور بنصب " يعلم " على أنه منصوب على فعل مقدر . أى
فعل ما فعل - سبحانه - لينتقم من الظالمين ، وليعلم الذين يجادلون فى :
آياتنا الدالة على وحدنيتنا وقدرتنا . . أنهم لا محيص لهم ولا مهرب من
. عذابنا ، بسبب جدالهم بالباطل ليدحضوا به الحق

فما اوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وابقى للذين امنوا وعلى ربهم يتوكلون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن متاع الدنيا مهما كثر فهو إلى زوال
: فقال : ( فَمَآ أُوتِيتُمْ مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الحياة الدنيا ) أى ،
فما أعطيتم من شئ من متع الحياة الدنيا كالغنى والصحة والجاه . فإنما هو
متاع زائل من متع الحياة الدنيا .( وَمَا عِندَ الله ) من عطاء وثواب فى
الآخرة . خير وأبقى ، أى : هو خير فى ذاته من متاع الحياة الدنيا ، وأبقى
منه زمانا حيث لا يزول ولا يفنى .وقوله ( لِلَّذِينَ آمَنُواْ وعلى
رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ) متعلق بقوله ( خَيْرٌ وأبقى ) أى : هذا الذى
ذكرناه لكم من نعم الآخرة خير وأبقى ، للذين آمنوا بالله - تعالى - إيمانا
حقا؛ وللذين هم يتوكلون ولا يعتمدون إلا على ربهم وحده ، لا على غيره أصلا
.

والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش واذا ما غضبوا هم يغفرون

كما فسرها الوسيط وبعد هذا البيان المفصل للبراهين الدالة على وحدانية
الله - تعالى - وقدرته ، وللنعم التى أسبغها - سبحانه - على عباده . . بعد
كل ذلك أخذت السورة الكريمة فى بيان الصفات الطيبة والمناقب الحميدة ، التى
وفق الله - تعالى - عباده المؤمنين للتحلى بها ، فقال : ( والذين
) - يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ . . . لَمِنْ عَزْمِ الأمور ) .وقوله - تعالى
- والذين يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ والفواحش ) معطوف على قوله - تعالى
قبل ذلك : ( وَمَا عِندَ الله خَيْرٌ وأبقى لِلَّذِينَ آمَنُواْ وعلى
رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ) أو بدل منه .وكبائر الإثم : هى الذنوب الكبيرة
- التى يترتب عليها إقامة الحد على فاعلها أو الوعيد الشديد من الله
تعالى - لمرتكبها ، كقتل النفس ، وتعاطى الربا ، وما يشبه ذلك من الكبائر
- والفواحش : جمع فاحشة ، وهى من جملة كبائر الإثم ، إلا أن الله - تعالى.
خصها بالذكر من باب عطف الخاص على العام ، اهتماما وأكثر ما تطلق الفواحش
على جريمة الزنا .كما قال - تعالى - : ( وَلاَ تَقْرَبُوا الزنى إِنَّهُ
كَانَ فَاحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلاً ) والمعنى : وما عند الله - تعالى - من
ثواب فى الآخرة خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، وللذين يجتنبون
ارتكاب كبائر الآثام ، كقتل النفس ، وأكل أموال الناس بالباطل ، ويجتنبون
. كذلك ما فحش وعظم قبح من الذنوب ، كالزنا والبخل بما آتاهم الله من فضله
وليس المراد من هذه الآية الكريمة فتح الباب لارتكاب صغائر الآثام والذنوب.
بل المراد بيان فضل الله - تعالى - على عباده ، ورحمته بهم ، وبيان أن ،
اجتناب كبائر الإثم والفواحش ، يؤدى - بفضل الله وكرمه - إلى غفران صغائر
الذنوب ، كما قال - تعالى - : ( إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا
تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ
مُّدْخَلاً كَرِيماً ) وقوله - سبحانه - : ( وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ
، يَغْفِرُونَ ) صفة أخرى من صفاتهم الكريمة .أى : ما عند الله خير وأبقى
للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، وللذين يجنبون كبائر الإثم والفواحش
والذين من صفاتهم - أيضا - أنهم يتجاوزون عن الشخص الذى أغضبهم ، ويصفحون

عنه ، ويحلمون عليه .وخص حالة غضبهم بالغفران ، لأن هذه الحالة لا يقدر عليها إلا أصحاب العزائم القوية ، إذ من المعروف أن الإنسان فى حالة غضبه كثيرا ما يفقد صوابه ، ويغلب عليه عدم السيطرة على مشاعره ، فإذا ما استطاع أن يكظم غيظه فى حالة غضبه ، كان ذلك دليلا على قوة إيمانه وعلى ملكه لنوازع نفسه .قال صاحب الكشاف : " هم يغرون " أى : هم الأخصاء بالغفران فى حال الغضب ، لا يغول الغضب أحلامهم كما يقول حلوم الناس . والمجيئ بلفظ " هم " وإيقاعه مبتدأ وإسناد " يغفرون " إليه ، لهذه الفائدة ومثله " هم ينصرون " .

والذين استجابوا لربهم واقاموا الصلاة وامرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون

كما فسرها الوسيط ثم ذكر - سبحانه - صفات كريمة لهم فقال : ( والذين استجابوا لِرَبِّهِمْ ) أى أطاعوه فى كل ما أمرهم به ، أو نهاهم عنه ) . وَأَقَامُوا الصلاة ) أى : حافظوا عليها ، وأدوها فى أوقاتها بخشوع وإخلاص لله رب العالمين .( وَأَمْرُهُمْ شورى بَيْنَهُمْ ) أى : شأنهم أنهم إذا حدث بينهم أمر هام يحتاج إلى المراجعة والمناقشة ، تجمعوا وتشاوروا فيما هو أنفع وأصلح .قال القرطبى ما ملخصه : قوله - تعالى - : ( وَأَمْرُهُمْ شورى بَيْنَهُمْ ) أى : يتشاورون فى الأمور .والشورى مصدر شاورته - والتشاور : استخراج الرأى من الغير . .قال الحسن : ما تشاور قوم إلا هدوا لأرشد أمورهم وقال ابن العربى : الشورى : ألفة للجماعة ومسبار للعقول ، وسبب إلى الصواب. وقد قال الشاعر الحكيم :إذا بلغ الرأى المشورة فاستعن ... برأى لبيب أو نصيحة حازمولا تجعل الشورى عليك غضاضة ... فإن الخوافى قوة للقوادموقد كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - يستشير أصحابه فى الأمور التى تتعلق بالحروب وما يشببها من الأمور الدنيوية ، ولم يكن يشاورهم فى الأحكام لأنها منزلة من عند الله - تعالى - .فأما الصحابة فكانوا يتشاورون فى الأحكام ، ويستنطبونها من الكتاب والسنة ، فقد تشاوروا فى الخلافة بعد موت الرسول - صلى الله عليه وسلم - وفى ميراث الجد ، وفى حروب المرتدين .وقوله ( وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ) أى ومن صفات هؤلاء المؤمنين الصادقين - أيضا - أنهم مما أعطيناهم من الرزق ، يتصدقون على غيرهم من المحتاجين .

والذين اذا اصابهم البغي هم ينتصرون

كما فسرها الوسيط ( والذين إِذَآ أَصَابَهُمُ البغي هُمْ يَنتَصِرُونَ ) أى أن من صفاتهم كذلك أنهم إذا بغى عليهم باغ ، أو ظلمهم ظالم ، أو اعتدى : على كرامتهم أو على دينهم معتد ، فإنهم لا يخضعون له ، ولا يذلون أمامه ، وإنما هم ينتصرون لدينهم ولكرامتهم ، بأن يقابلوا بغيه وعدوانه ، بما يردعه ويجعله يخشى إصابتهم بأذى .

وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا واصلح فاجره على الله انه لا يحب الظالمين

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( وَجَزَآءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا . . ) بيان لوجوب عدم تجاوز الحد عنه دفع الظلم .أى : أن الله - تعالى - يأمركم أنكم إذا أردتم الانتصار من الباغى فعليكم أن تقابلوا بغيه وظلمه وعدوانه بمثله بدون زيادة منكم على ذلك ، كما قال - تعالى - فى آية أخرى : ( وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ - وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ) قال الشوكانى : " ذكر سبحانه - المغفرة عند الغضب فى معرض المدح فقال : " وإذا ما غضبوا هم يغفرون " كما ذكر الانتصار على الباغى فى معرض المدح - أيضا - لأنه التذلل - لمن بغى ، ليس من صفات من جعل الله له العزة ، حيث قال - سبحانه ) ( وَلِلَّهِ العزة وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ولكن المنافقين فالانتصار عند البغى فضيلة ، كما أن العفو عند الغضب فضيلة .قال النخعى : كانوا يكرهون أن يذلوا أنفسهم فيجترئ عليهم السفهاء .ولكن هذا الانتصار مشروط بالاقتصار على ما جعله الله - تعالى - له ، وعدم مجاوزته ، كما بينه - سبحانه - عقب ذلك بقوله : ( وَجَزَآءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ) فبين - سبحانه - أن العدل فى الانتصار ، هو الاقتصار على المساواة . .ثم بين - سبحانه - ما هو أسمى من مقابلة السيئة بمثلها فقال : فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى الله إِنّهُ لاَ يُحِبُّ ) الظالمين ) .أى : فمن عفا عمن أساء إليه ، وأصلح فيما بينه وبين غيره فأجره كائن على الله - تعالى - وحده ، وسيعطيه - سبحانه - من الثواب ما لا يعلمه إلا هو - عز وجل - .إنه - تعالى -لا يحب الظالمين بأى لون من ألوان الظلم وفى الحديث القدسى : " يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم. محركما فلا تظالموا " .

ولمن انتصر بعد ظلمه فاولئك ما عليهم من سبيل

كما فسرها الوسيط ثم أكد - سبحانه - ما سبق أن بينه من أن دفع بغى الباغى
أمر محمود ، فقال تعالى ( وَلَمَنِ انتصر بَعْدَ ظُلْمِهِ فأولئك مَا
عَلَيْهِمْ مِّن سَبِيلٍ ) .واللام فى قوله ( وَلَمَنِ انتصر ) هى لام
، الابتداء ، وقوله ( بَعْدَ ظُلْمِهِ ) مصدر مضاف لمفعوله و " من " شرطية
: وجوابها ( فأولئك مَا عَلَيْهِمْ مِّن سَبِيلٍ ) والمراد بالسبيل
، المؤاخذة والحرج . أى : أن من انتصر لدينه وعرضه بعد ظلم الظالم له
، فأولئك الذين يفعلون ذلك ، لا يؤاخذون من أحد ، ولا يلامون من غيرهم
لأنهم باشروا حقهم الذى شرعه الله - تعالى - لهم ، وهو مقابلة السيئة
. بمثلها

انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الارض بغير الحق اولئك لهم عذاب اليم

: كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - على من تقع المؤاخذة والمعاقبة فقال
إِنَّمَا السبيل عَلَى الذين يَظْلِمُونَ الناس وَيَبْغُونَ فِي الأرض )
بِغَيْرِ الحق ) .أى : إنما المؤاخذة والمعاقبة كائنة على الذين يظلمون
- غيرهم من الناس ، ويتكبرون ويتجاوزون حدودهم فى الأرض بغير الحق .وقيد
، سبحانه - البغى فى الأرض بكونه بغير الحق ، لبيان أنه لا يكون إلا كذلك
إذ معناه فى اللغة تجاوز الحد . يقال : بغى الجرح ، إذ تجاوز الحد فى فساده
فهذا القيد إنما هو لبيان الواقع ، وللتنفير منه .( أولئك لَهُمْ عَذَابٌ ،
أَلِيمٌ ) أى : أولئك الذين من صفاتهم الظلم والبغى لهم عذاب أليم ، بسبب
. ما اجترحوه من ظلم وبغى

ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الامور

) : كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - هذه الصفات الكريمة للمؤمنين فقال
: وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأمور ) .أى
، وللإنسان الصابر على الأذى الذيى يصفح عن أساء إليه ، الثواب الجزيل
والعاقبة الحسنة ، لأن ذلك الصبر والمغفرة منه ، لمن الأمور التى تدل على
الهمة ، وقوة العزيمة . .هذا ، والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة ، يراها قد
مدحت المؤمنين الصادقين بجملة من الصفات الحميدة ، التى تعتبر على رأس
الصفات الأساسية ، لكل أمة تريد أن تنال الظفر والسعادة فى دنياها وآخرتها
.

ومن يضلل الله فما له من ولي من بعده وترى الظالمين لما راوا العذاب يقولون هل الى مرد من سبيل

كما فسرها الوسيط وبعد هذا الحديث عن المؤمنين وعن صفاتهم الكريمة وعما
، اعده سبحانه لهم من ثواب ، جاء الحديث عن الظالمين وما أعد لهم من عقاب
وأمرهم - سبحانه - بالاستجابة لدعوة الحق من قبل أن يأتى يوم الحساب ، الذى
لا ينفعهم فيه شفيع أو نصير ، فقال - تعالى - : ( وَمَن يُضْلِلِ الله
فَمَا . . . فَإِنَّ الإنسان كَفُورٌ ) .وقوله تعالى : ( وَمَن يُضْلِلِ
الله فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ . . ) أى : ومن يخذله الله
تعالى ويبعده عن طريق الهداية بسبب زيغه وإيثاره الغى على الرشد ، فليس
لهذا الضال من ناصر ينصره بعد الله - تعالى - .فالمراد بالضلال هنا : ما هو
- ضد الهداية والتوفيق للخير . والضمير فى قوله " من بعده " يعود إلى الله
- عز وجل - وقيل : يعود للخذلان المفهوم من قوله " يضلل " .ثم بين - سبحانه
حال الظالمين عندما يعرضون على النار فقال : ( وَتَرَى الظالمين لَمَّا
- رَأَوُاْ العذاب يَقُولُونَ هَلْ إلى مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ) .أى : وترى
أيها العاقل - الظالمين حين رأوا العذاب المعد لهم يوم القيامة ، تراهم فى
: نهاية الحسرة والذلة ، ويقولون فى ندامة وانكسار : هل إلى ( مَرَدٍّ ) أى
. مرجع إلى الدنيا من سبيل أو طريق ، فنعمل غير الذى كنا نعمل

وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي وقال الذين امنوا ان الخاسرين الذين خسروا انفسهم واهليهم يوم القيامة الا ان الظالمين في عذاب مقيم

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا
خَاشِعِينَ مِنَ الذل يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ) بيان لحالهم عندما
يعرضون على النار بعد بيان ما يقولونه عند رؤيتهم لها .أى : أنهم عند
رؤيتهم لجهنم يقولون هل من طريق للهرب من هذا العذاب لكى نرجع إلى الدنيا

فنؤمن بالله - تعالى - ونعمل صالحا ، فلما وجدوا أنه لا طريق إلى ذلك زاد انكسارهم وذلهم وتراهم - أيها العاقل - يعرضون على النار عرضا مؤلما ، فهم خاضعون متضائلون من شدة ما أصابهم من ذل ، يسترقون النظر إلى النار من طرف : خفى ، أى : من عين لاتكاد تتحرك من شدة ضعفها وهوانها . .قال صاحب الكشاف متضائلين متقاصرين بما يلحقهم ، وقوله ( مِنَ الذل ) متعلق ( خَاشِعِينَ ) بخاشعين - ( يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ) أى : يبتدئ نظرهم من تحريك لأجفانهم ضعيف خفى بمسارقته كما ترى المصبور - أى المحبوس للقتل - ينظر إلى ، السيف ، وهكذا نظر الناظر إلى المكاره ، لا يقدر أن يفتح أجفانه عليها - ويملأ عينيه منها ، كما يفعل الناظر إلى الشئ المحبوب .ثم بين - سبحانه ما يقوله المؤمنون الفائزون برضا الله - تعالى - بعد رؤيتهم لأحوال هؤلاء الظالمين فقال : ( وَقَالَ الذين آمنوا إِنَّ الخاسرين الذين خسروا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ القيامة أَلاَ إِنَّ الظالمين فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ) .أى : وقال المؤمنون - على سبيل التحدث بنعمة الله عليهم - بعد أن رأوا انكسار الظالمين وذلتهم . . . قالوا هؤلا الخاسرين الذين خسروا أنفسهم يوم القيامة بتعريضها للعذاب المهين ، وخسروا أهليهم لأنهم إن كانوا معهم فى النار فلن ينفعوهم بشئ ، وإن كانوا فى الجنة فلن يستطيعوا الوصول إليهم . .ألا إن ذلك العذاب المقيم الذى حل بهؤلاء الظالمين هو الخسران التام الكامل الذى لا خسران أفظع منه .

وما كان لهم من اولياء ينصرونهم من دون الله ومن يضلل الله فما له من سبيل

كما فسرها الوسيط ( وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ الله وَمَن يُضْلِلِ الله . . ) أى : لم يكن هلؤلاء الظالمين من نصراء أو شفعاء يحولون بينهم وبين العذاب الذى أعده - سبحانه - لهم بسبب ظلمهم وكفرهم .( وَمَن يُضْلِلِ الله ) أى : ومن يضله الله - تعالى - عن طريق الهداية والرشاد (فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ ) أى فما له من طريق إلى الهدى أو النجاة .

استجيبوا لربكم من قبل ان ياتي يوم لا مرد له من الله ما لكم من ملجا يومئذ وما لكم من نكير

كما فسرها الوسيط ثم يوجه - سبحانه - أمره إلى هؤلاء المعاندين ، يدعوهم . . . إلى الاستجابة للحق من قبل أن يأتى يوم القيامة الذى لا شك فى مجيئته فيقول : ( استجيبوا لِرَبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ الله . . ) .أى : استجيبوا - أيها الناس - لدعوة الحق - التى دعاكم إليها ربكم وخالقكم ، عن طريق الرسول الذى أرسله - سبحانه إليكم ، ولتكن استجابتكم عاجلة فى هذه الدنيا ، من قبل أن يأتى يوم القيامة ، الذى لن يستطيع أحد أن يرده أو يدفعه ، بعد أن حكم - سبحانه - بمجيئه وجعل له اجلا محددا لا يتخلف عنه .ثم بين - سبحانه - حالهم عند مجئ هذا اليوم فقال : ( مَا لَكُمْ مِّن مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِّن نَّكِيرٍ ) .والملجأ : هو المكان الذى يلجأ إليه الإنسان عند الشدائد والكروب لاتقائها ، والنكير بمعنى الإنكار .أى : ليس لكم فى هذا اليوم ملجأ تلتجئون إليه من العذاب ، وليس لكم القدرة على إنكار شئ مما اجترحتموه فى الدنيا من الكفر والعصيان ، لأنه مسجل عليكم ، فما نزل بكم من عذاب بسبب كفركم وإعراضكم عن الحق ، شئ أنتم تستحقونه ، ولن تجدوا يوم القيامة من ينكر استحقاقكم لهذا العذاب .قال الآلوسى : قوله - تعالى - ( وَمَا لَكُمْ مِّن نَّكِيرٍ ) أى : إنكار على أنه مصدر أنكر على غير القياس . ونفى مع قوله - تعالى حكاية عنهم ( والله رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ) تنزيلا لما يقع من إنكارهم منزلة العدم ، نفعه وقيام الحجة ، وشهادة الجوارح عليهم . . أو يقال : إن الأمرين باعتبار تعدد الأحوال والمواقف ،

فان اعرضوا فما ارسلناك عليهم حفيظا ان عليك الا البلاغ وانا اذا اذقنا الانسان منا رحمة فرح بها وان تصبهم سيئة بما قدمت ايديهم فان الانسان كفور

- كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - وظيفة رسوله -صلى الله عليه وسلم فقال : ( فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَآ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ البلاغ . . ) .أى : فإن أعرض هؤلاء الظالمون عن دعوتك - أيها الرسول الكريم - ، فلا تحزن لذلك ، فإننا ما أرسلناك لتكون رقيبا على أعمالهم ، ومركها لهم على الإيمان ، وإنما أرسلناك لتلغ دعوة ربك إليهم ، ومن شاء بعد ذلك فليؤمن ومن شاء فليكفر .والمراد بالإنسان فى قوله - سبحانه - : ( وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا الإنسان مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ) جنسه الشامل للجميع والمراد بالرحمة : ما يشمل الغنى والصحة وغيرهما من النعم .أى : وإنا إذا أعطينا ومنحنا الإنسان بفضلنا وكرمنا نعمة كالمال والولد والجاه . فرح بها وانشرح لها .( وَإِن تُصِبْهُمْ ) أى

الناس ( سَيِّئَةٌ ) من بلاء أو مرض أو خوف أو فقر ( بِمَا قَدَّمَتْ : أَيْدِيهِمْ ) أى : بسبب ما اكتسبته أيديهم من المعاصى والسيئات حزنوا وامتعضوا .وقوله : ( فَإِنَّ الإنسان كَفُورٌ ) تعليل لجواب الشرط المحذوف أى : وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم نسوا نعمنا وقنطوا ، فإن الإنسان ، الكافر كثير الكفر والجحود لنعم خالقه - عز وجل - أما من آمن وعمل صالحا فإنه يشكر ربه عند النعم ، ويصبر عند البلاء والنقم .

لله ملك السماوات والارض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء اناثا ويهب لمن يشاء الذكور

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بالحديث عن مظاهر قدرته التى لا يعجزها شئ ، وعن نفاذ مشيئته وحكمته ، وعن فضله على نبيه - صلى الله عليه وسلم - حيث أوحى إليه بما أوحى ، من هدايات للناس . فقال تعالى - : ( لِلَّهِ مُلْكُ السماوات والأرض . . . إِلَى الله تَصِيرُ الأمور ) .وقوله - تعالى - ( لِلَّهِ مُلْكُ السماوات والأرض يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ . . ) بيان لكمال قدرته - سبحانه - ، ولنفاذ مشيئته . والملك - بضم الميم - الاستيلاء على الشئ والتمكن من التصرف فيه .أى : لله - تعالى وحده ملك جميع ما فى السماوات والأرض ، وليس لأحد معه شئ لا اشتراكا ولا استقلالا ، وهو - سبحانه - " يخلق ما يشاء " أن يخلقه ، من غير أن يكون لأحد وصاية عليه ، أو اختيار لشئ معين . .

او يزوجهم ذكرانا واناثا ويجعل من يشاء عقيما انه عليم قدير

، كما فسرها الوسيط ثم فصل - سبحانه - بعض مظاهر هذه القدرة التامة والإرادة النافذة فقال : ( يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذكور أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيماً ) فهذه الجملة الكريمة بدل مفصل من مجمل ، أو بدل بعض من كل . وأحوال الناس بالنسبة للذرية لا تخلو عن هذه الأقسام الأربعة فهو - سبحانه - إما أن يهب لمن يشاء من عباده إناثا لا ذكور معهن ، وإما أن يهب لهم ذكورا لا إناث معهن ، وإما أن يهب لبعضهم الإناث والذكور معا وهذا معنى قوله - تعالى - ( أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً ) إذ : التزويج معناه الجمع بين البنين والبنات .وإما أن يجعل بعضهم عقيما ، أى لا ذرية له ، ذكرا كان أو أنثى . يقال رجل عقيم وامرأة عقيم ، إذا كانا لا ذرية لهما .وهذه الأحوال الأربعة كلها مشاهدة فى حياة الناس ، فمنهم من معه الإناث فقط ، ومنهم من معه الذكور فقط ومنهم من معه الذكور والإناث ومنهم من ليس معه منهما شئ وهذا كله يدل على كمال قدرته - سبحانه - ، وعلى نفاذ إرادته وحكمته ، إذ أعطى من يشاء إعطاءه بفضله ، ومنع من يشاء منعه لحكمة يعلمها ، لاراد لقضائه ، ولا معقب لحكمه .فالآية الكريمة مسوقة لبيان أن العطاء والمنع بيد الله - تعالى - وحده ، وأن أحوال البشر بالنسبة للذرية خاضعة لمشيئته وحده ، وهو - سبحانه - يقدرها وفق علمه وإرادته وحكمته؛ ليس لأحد مدخل فى اختيار نوع معين من الذرية ، وليس عند أحد القدرة على إنجاب شئ منها ، إذا أراد الله منعه من ذلك .قال صاحب الكشاف ما ملخصه : " فإن قلت : لم قدم الإناث أولا على الذكور مع تقدمهم عليهن ، ثمرجع فقدمهم؟ ولم عرف الذكور بعدما نكر الإناث " .قلت : قدم الإناث لبيان أنه - سبحانه - يفعل ما يشاء ، لا ما يشاءه الإنسان ، فكان ذكر الإناث اللاتى من جملة ما لا يشاؤه الإنسان أهم ، والأهم واجب التقديم . .وأخر - سبحانه - الذكور ، فلما أخرهم لذلك تدارك تأخيرهم ، وهم أحقاء بالتقديم بتعريفهم ، لأن التعريف تنويه وتشهير ، فكأنه قال : ويهب لمن يشاء الفرسان الأعلام المذكورين الذين لا يخفون عليكم ، ثم أعطى بذلك كلا الجنسين حقه من التقديم والتأخير ، وعرف أن تقديمهن لم يكن لتقدمهن ، ولكن لمقتض آخر ، فقال : ( إِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ) .وقوله - تعالى - ( ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً ) تذييل قصد به تأكيد قدرته وحكمته . أى : إنه - سبحانه - واسع العلم بأحوال عباده وبما يصلحهم ، قدير على كل شئ ، فهو يفعل ما يفعله عن قدرة واختيار ، لا مكره له ولا معقب لحكمه .

وما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحيا او من وراء حجاب او يرسل رسولا فيوحي باذنه ما يشاء انه علي حكيم

- كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - الطرق التى بها يقع التكليم منه تعالى - للمختارين من عباده فقال : ( وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أن يُكَلِّمَهُ الله إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ . . ) .فهذه الآية الكريمة قد دلت على أن تكليم الله - تعالى - للبشر وقع على ثلاثة أوجه :الأول : عن طريق الوحى ، وهو الإعلام فى خفاء وسرعة عن طريق الإلقاء فى القلب يقظة أو مناما ،

ويشمل الإلهام والرؤيا المنامية .والوحى مصدر أوحى ، وقد غلب استعماله
فيما يلقى للمصطفين الأخيار من الكلمات الإلهية .والثانى : عن طريق
الإسماع من وراء حجاب ، أى حاجز ، بأن يسمع النبى كلاما دون أن يرى من
يكلمه ، كما حدث لموسى . عليه السلام - عندما كلمه ربه - عز وجل - ، وهذا
الطريق هو المقصود بقوله - تعالى - : ( أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ )
والثالث : عن طريق إرسال ملك ، وظيفته أن يبلغ الرسول ما أمره الله
بتبليغه له ، وهو المقصود بقوله - تعالى - ( أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً
فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ ) .وهذا الطريق الثالث قد وضحه الحديث
الذى رواه الإمام البخارى " عن عائشة - رضى الله عنها - أن الحارث بن هشام
سأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا رسول الله ، كيف يأتيك
الوحى؟ فقال - صلى الله عليه وسلم - أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس - " وهو
- أشد على - أى : أحيانا يأتينى مشابها صوته وقوع الحديد بعضه على بعض
فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال ، وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى
ما يقول .قالت عائشة : ولقد رأيته - صلى الله عليه وسلم - ينزل عليه الوحى
فى اليوم الشديد البرد ، فيصم عنه ، وإن جبينه ليتفصد عرقا .والمعنى : وما
صح وما استقام لبشر أن يكلمه الله - تعالى - فى من حال الأحوال إلا موحيا
إليه ، أو مسمعا أياه ما يريد إسماعه له من وراء حجاب أو يرسل إليه ملكا
ليبلغه ما يريده - سبحانه - منه .وقوله - تعالى - ( إِنَّهُ عَلِيٌّ
، حَكِيمٌ ) تعليل لما قبله ، أى : إنه - سبحانه - متعال عن صفات النقص
حكيم فى كل أقواله وأفعاله .

وكذلك اوحينا اليك روحا من امرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن
جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وانك لتهدي الى صراط مستقيم

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - جانبا من مظاهر فضله على نبيه - صلى
الله عليه وسلم - فقال : ( وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ
أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكتاب وَلاَ الإيمان .. ) .والكاف فى
قوله " كذلك " بمعنى مثل واسم الإشارة يعود إلى ما أوحاه إلى الرسل
السابقين .والمراد بالروح : القرآن - وسماه - سبحانه - روحا ، لأن الأرواح
تحيا به ، كما تحيا الأبدان بالغذاء المادى .أى : ومثل إيحائنا إلى غيرك من
الرسل ، أوحينا إليك - أيها الرسول الكريم ، هذا القرآن ، الذى هو بمنزلة
- الأرواح للأجساد ، وقد أوحيناه إليك بأمرنا وإرادتنا ومشيئتنا ، وأنت
أيها الرسول الكريم - ما كنت تعرف أو تدرك حقيقة هذا الكتاب حتى عرفناك
إياه ، وما كنت تعرف أو تدرك تفاصيل ، وشرائع وأحكام هذا الذين الذى أحينا
إليك بعد النبوة .فالمقصود بهذه الآية الكريمة نفى علم الرسول - صلى الله
عليه وسلم - بهذا القرآن قبل النبوة ، ونفى أن يكون - أيضا - عالما بتفاصيل
: - وأحكام هذا الدين لا نفى أصل الإيمان .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى
وَأَنزَلَ الله عَلَيْكَ الكتاب والحكمة وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ )
) : - تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ الله عَلَيْكَ عَظِيماً ) وقوله - سبحانه
نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القصص بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هذا
- القرآن وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الغافلين ) والضمير فى قوله
تعالى - : ( ولكن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَآءُ مِنْ
عِبَادِنَا ) يعود إلى القرآن الكريم ، الذى عبر عنه بالروح .أى : ولكن
) جعلنا هذا القرآن العظيم نورا ساطعا ، نهدى به من نشاء هدايته من عبادنا
وَإِنَّكَ ) أيها الرسول الكريم ( لتهدي ) من أرسلناك إليهم ( إلى صِرَاطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ) أى طريق واضح قويم اعوجاج فيه ولا التواء .

صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الارض الا الى الله تصير الامور

كما فسرها الوسيط وقوله : ( صِرَاطِ الله ) بدل مما قبله ، وإضافته إلى
) الله - تعالى - للتفخيم والتشريف .أى : وإنك لترشد الناس إلى صراط الله
). الذي لَهُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض ) ملكا وخلقا وتصرفا
أَلاَ إِلَى الله ) - تعالى - وحده ( تَصِيرُ الأمور ) أى : تنتهى إليه
الأمور وتصعد إليه وحده ، فيقضى فيها بقضائه العادل ، وبحكمه النهائى الذى
- لا معقب له .وبعد : فهذا تسير وسيط لسورة " الشورى " نسأل الله - تعالى
أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله
وصبحه وسلم .

حم

، كما فسرها الوسيط سورة " الزخرف " من السور التى افتتحت بالحروف المقطعة
وقد سبق أن قلنا فى المراد بهذه الحروف ما خلاصته : هذه الحروف التى افتتحت
بها بعض السور ، يغلب على الظن أنه جئ بها للتنبيه إلى إعجاز القرآن ، لأنه
مؤلف من كلام هو من جنس كلامهم ، ومع ذلك فقد عجزوا عن أن يأتوا بسورة من

مثله .

والكتاب المبين

كما فسرها الوسيط و ( الواو ) فى قوله - تعالى - : ( والكتاب المبين ) : للقسم ، والمقسم به الكتاب ، وجواب القسم قوله - تعالى - بعد ذلك ( إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً ) .أى : وحق هذا الكتاب الواضح المرشد إلى طريق الحق والسعادة ، لقد جعلنا قدرتنا وحكمتنا هذا الكتاب قرآنا عربيا ( لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ) .أى : جعلناه كذلك لكى تفهموه وتتعقلوه معانيه ، وتهتدوا إلى ما فيه من الأحكام السامية ، والآداب العالية .

انا جعلناه قرانا عربيا لعلكم تعقلون

كما فسرها الوسيط قال صاحب الكشاف : أقسم - سبحانه - بالكتاب المبين وهو القرآن وجعل قوله : ( إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً ) جوابا للقسم ، وهو من الأيمان الحسنة البديعة ، لتناسب القسم والمقسم عليه وكونهما من واد واحد . . و ( المبين ) أي : البين الذى أنزل بلغتهم وأساليبهم .فقوله - تعالى - : ( لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ) بيان للحكمة التى من أجلها أنزل الله - تعالى - هذا القرآن بلسان عربى مبين . أى : جعلناه كذلك رجاء أن تعقلوا وتفهموا أوامره ونواهيه ، وتوجيهاته وإرشاداته .

وانه في ام الكتاب لدينا لعلي حكيم

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - المنزلة السامية التى جعلها لهذا القرآن ، والصيانة التامة التى أحاطه بها فقال : ( وَإِنَّهُ في أُمِّ الكتاب لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ) .والمراد بأم الكتاب : اللوح المحفوظ وسمى بذلك لأن جميع الكتب السماوية منقولة عنه . كما قال - تعالى - : ( بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مّحْفُوظٍ ) .وقيل : المراد بأم الكتاب : علمه الأزلى - عز وجل - .أى : وإن هذا القرآن المبين لثابت وكائن فى اللوح المحفوظ ، وهو ( لَدَيْنَا ) أى : عندنا ( لَعَلِيٌّ ) أى : لرفيع الشأن ، عظيم القدر ( حَكِيمٌ ) أى : محكم النظم فى أعلى طبقات البلاغة . فلا يضيره تكذيب المكذبين ، ولا طعن الطاعنين .فالآية الكريمة تدل دلالة واضحة على القيمة العظيمة التى جعلها - سبحانه - لهذا القرآن ، فى علمه - تعالى - وتقديره ، كما أن وصف هذا الكتاب بقوله ( عَلِيٌّ حَكِيمٌ ) يؤكد هذه المنزلة السامية ويقررها .

افنضرب عنكم الذكر صفحا ان كنتم قوما مسرفين

- كما فسرها الوسيط وبعد هذا البيان المشرف للقرآن الكريم ، أتبع - سبحانه ذلك بالكشف عن مدى الإسراف القبيح الذى إرتكبه المشركون حين أعرضوا عنه فقال - تعالى - : ( أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذكر صَفْحاً أَن كُنتُمْ قَوْماً مُّسْرِفِينَ ) .والهمزة للاستفهام الإنكارى ، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام ، والضرب هنا : بمعنى التنحى والابتعاد والإهمال ، تقول : ضربت عن فلان صفحا ، إذا أعرضت عنه وتركته ، والصفح : مصدر صفحت عنه إذا أعرضت عنه ، وذلك بأن تعطيه صفحة وجهك أى : جانبه .وهو منصوب لنضرب ، من غير لفظة ، كما فى قولهم : قعدت جلوسا . أو على الحال من الفاعل : على المصدرية أى : صافحين .والمراد بالذكر هنا : القرآن الكريم .والمعنى : أنعرض عنكم ونهملكم فلا نذكركم بالقرآن الكريم ، ولا نرشدكم إلى هداياته . بسبب إسرافكم على أنفسكم ، ومحاربتكم للحق ، وإيثاركم الغى على الرشد؟ !!لا - لن نفعل ذلك ، بل سننزل هذا القرآن على نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم ومن شاء بعد ذلك فليؤمن ، ومن شاء فليكفر .قال الشوكانى : قوله : ( أَن كُنتُمْ قَوْماً مُّسْرِفِينَ ) قرأ نافع وحمزة والكسائى بكسر ( أَن ) على أنها شرطية ، والجزاء محذوف لدلالة ما قبله عليه . وقرأ الباقون بفتحها على التعليل ، أى : لأن كنتم قوما منهمكين فى الإسراف مصرين عليه .

وكم ارسلنا من نبي في الاولين

كما فسرها الوسيط ثم سلى - سبحانه - نبيه - صلى الله عليه وسلم - عن مكرهم فقال : ( وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نّبِيٍّ فِي الأولين ) و ( كَمْ ) هنا خبرية لإفادة كثرة الأنبياء والمرسلين وهى مفعول مقدم لأرسلنا . وقوله ( مِن نَّبِيٍّ ) تمييز لها .أى : ما أكثر الرسل الذين أرسلناهم فى الأمم الأولين لهدايتهم ، فكان موقف أكثر هؤلاء الأمم من رسلهم . يدل على إعراضهم

عنهم ، وتكذيبهم لهم ، فاصبر - أيها الرسول الكريم - على أذى قومك ، كما صبر الذين من قبلك .

وما ياتيهم من نبي الا كانوا به يستهزئون

كما فسرها الوسيط ثم أكد - سبحانه - هذا المعنى فقال : ( وَمَا يَأْتِيهِم مِّنْ نَّبِيٍّ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ) أى : أن هؤلاء السابقين لم يأتهم نبى من الأنبياء لهدايتهم ، إلا استهزأوا به ، وسخروا منه ، وأعرضوا عنه .

فاهلكنا اشد منهم بطشا ومضى مثل الاولين

- كما فسرها الوسيط فماذا كانت نتيجتهم؟ كانت استهزائهم برسلهم كما قال تعالى - : ( فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشاً ومضى مَثَلُ الأولين ) - والضمير فى قوله ( مِنْهُم ) يعود إلى القوم المسرفين ، المخاطبين بقوله. تعالى - : ( أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذكر صَفْحاً . . ) وفى الآية التفات من - الخطاب الى الغيبة ، لأن كان الظاهر أن يقال : فأهلكنا أشد منكم بطشا أيها المشركون - .وقوله : ( أَشَدَّ مِنْهُم ) مفعول به لأهلكنا . وأصله . نعت لمحذوف . أى : فأهلكنا قوما أشد منهم بطشا . والبطش : السطوة والقوة ) : - يقال : فلان بطش فلان إذا أخذه بقوة وعنف ، ومنه قوله - تعالى " وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ) والمراد " بمثل الأولين صفتهم المتمثلة فى استئصال شأفتهم ، وقطع دابرهم .أى : هكذا كان موقف السابقين من رسلهم ، لقد استهزءوا برسلهم فأهلكناهم ، وكانوا أشد قوة وبطشا من قومك المسرفين أيها الرسول الكريم - وقد اقتضت حكمتنا أن نسوق لقومك قصص هؤلاء السابقين وصفاتهم وما حل بهم من نكبات ، لكى يعتبروا بهم ، ولا ينهجوا نهجهم ، حتى لا يصيب قومك ما أصاب أولئك السابقين المكذبين .ومن الآيات الكثيرة التى وردت فى هذا المعنى قوله - تعالى - : ( أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأرض فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذين كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الأرض فَأَخَذَهُمُ الله بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ الله مِن وَاقٍ ) .

ولئن سالتهم من خلق السماوات والارض ليقولن خلقهن العزيز العليم

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك نماذج من تناقض هؤلاء المشركين - مع أنفسهم ومن مواقفهم الجحودية من نعم الله - تعالى - عليهم . . فقال تعالى - : ( وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السماوات . . . إلى وَّبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ) .واللام فى قوله - تعالى - : ( وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض ) للقسم . وجوابه قوله - تعالى - بعد ذلك : ( لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ . . . ) .والمعنى : وحق الله الذى لا إله إلا هو ، لئن سألت - أيها الرسول الكريم - هؤلاء المشركين عمن خلق هذا الكون ، ليقولون بدون تردد : الله - تعالى - المتصف فى نفس الأمر بالعزة والعلم .فالآية الكريمة تدل دلالة صريحة على أن هؤلاء المشركين - يعترفون بأن الله هو الخالق لهذا العالم ، وأن معبوداتهم بعض خلقه : تعالى - ولكنهم لجهلهم وانطماس بصائرهم أشركوها معه فى العبادة ، وقالوا ويبدو ( . . . مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى الله زلفى ) أن هاتين الصفتين : ( العزيز العليم ) ليستا من أقوالهم . فهم كانوا يعترفون بأن الله هو الخالق لهذا الكون ، ولكنهم لم يكونوا يعرفون الله بصفاته التى جاء بها القرآن الكريم .ولذا قال بعض العلماء : الذى يظهر أن هذا الكلام مجرأ ، فبعضه من قولهم وبعضه من قول الله - تعالى - ، فالذى هو من قولهم ( خَلَقَهُنَّ ) ، وما بعده من قول الله - عز وجل - ، وأصل الكلام ) : أنهم قالوا : خلقهن الله ، ويدل عليه قوله - تعالى - فى آية أخرى وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض لَيَقُولُنَّ الله ) ثم . لما قالوا : خلقهن الله وصف الله - تعالى - ذاته بهاتين الصفتين

الذي جعل لكم الارض مهدا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون

كما فسرها الوسيط ثم وصف - سبحانه - ذاته بصفات أخرى فقال : ( الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرض مَهْداً . . . ) .المهد والمهاد : الفراش المهد المذلل الذى ، يستقر عليه من جلس فوقه .أى : الخالق لهذا العالم هو الله العزيز العليم الذى جعل لكم الأرض كالفراش الممهد ، حيث بسطها لكم ، وجعلها صالحة لسيركم : عليها ، ولإنبات الزروع فيها .( وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً ) أى وجعل لكم فيها طرقا متعددة ، لكى تسلكوها ، فتصلوا من بلد إلى آخر ، ومن قطر إلى قطر ، كما قال - تعالى - فى آية أخرى ( والله جَعَلَ لَكُمُ الأرض

) : - بِسَاطاً لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً ) وقوله - تعالى
لّعَلّكُمْ تَهْتَدُونَ ) بيان للحكمة من جعل الأرض كذلك ، أى : جعلها
، ممهدة كثيرة الطرق ، لعلكم تهتدون إلى ما تريدون الوصول إليه من البلاد
. ومن المنافع المتعددة

والذي نزل من السماء ماء بقدر فانشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون

كما فسرها الوسيط ثم وصف - سبحانه - ذاته بصفة ثانية فقال : ( والذي
نَزّلَ مِنَ السمآء مَآءً بِقَدَرٍ ) .أى : وهو - تعالى - الذى أنزل من
السماء ماء بمقدار معين على قدر حاجتهم ومصلحتكم ، فلا هو بالكثير الذى
يغرقكم ولا هو بالقليل الذى لا يكفى حاجتكم ، بل نزله بقدر كفايتكم ، كما
قال - سبحانه - : ( وَأَنزَلْنَا مِنَ السمآء مَآءً بِقَدَرٍ
( فَأَسْكَنّاهُ فِي الأرض وَإِنّا على ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ
وكقوله - تعالى - فى آية ثانية : ( وَإِن مّن شَيْءٍ إِلاّ عِندَنَا
- خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزّلُهُ إِلاّ بِقَدَرٍ مّعْلُومٍ . . )وقوله
سبحانه - : ( فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مّيْتاً ) بيان للآثار المترتبة
على هذا الإنزال للماء .أى : نحن الذين بقدرتنا أنزلنا من السماء ماء على
، قدر حاجتكم ، وحسبما تقتضيه مصلحتكم ، فأحيينا بهذا الماء بلدة مجدبة
لانبات فيها ولا زرع .فالمراد بالنشور : الإحياء للأرض عن طريق إنبات
الزرع بها ، بعد أن كانت مجدبة .وقوله : ( كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ) بيان
، لإمكانية إحياء الناس بعد موتهم .أى : مثل ذلك الإحياء للأرض بعد موتها
تخرجون أنتم من قبوركم أحياء يوم القيامة .قال الآلوسى : وفى التعبير عن
، إخراج النبات بالإنشار الذى هو إحياء الموتى ، وعن إحيائهم بالإخراج
. فتخيم الإنبات ، وتهوين لأمر البعث ، وفى ذلك من الرد على منكريه ما فيه
وشبيه بهذه الآية قوله : ( وَهُوَ الذي يُرْسِلُ الرياح بُشْراً بَيْنَ.
يَدَيْ رَحْمَتِهِ حتى إِذَآ أَقَلّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ
لِبَلَدٍ مّيّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ المآء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ
. ( الثمرات كذلك نُخْرِجُ الموتى لَعَلّكُمْ تَذَكّرُونَ

والذي خلق الازواج كلها وجعل لكم من الفلك والانعام ما تركبون

كما فسرها الوسيط ثم وصف - سبحانه - ذاته بصفة ثالثة فقال : ( والذي خَلَقَ
الأزواج كُلّهَا ) أى : خلق أصناف وأنواع المخلوقات كلها . فالمراد
بالأزواج هنا : الأصناف المختلفة من الذكر والأنثى . ومن غير ذلك من أنواع
مخلوقاته التى لا تحصى .قال - سبحانه - ( سُبْحَانَ الذي خَلَقَ الأزواج
كُلّهَا مِمّا تُنبِتُ الأرض وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمّا لاَ
يَعْلَمُونَ ) وقوله - تعالى - : ( وَجَعَلَ لَكُمْ مّنَ الفلك والأنعام
مَا تَرْكَبُونَ ) أى : وسخر لكم بقدرته ورحمته من السفن التى تستعملونها
فى البحر ، ومن الإبل التى تستعملونها فى البر ، ما تركبونه وتحملون عليه
أثقالكم ، وتنتقلون بواسطة من مكان إلى آخر .فما فى قوله ( مَا تَرْكَبُونَ
موصولة ، والعائد محذوف والجملة مفعول ( جَعَلَ ) وقوله : ( مّنَ الفلك (
والأنعام ) بيان له مقدم عليه . أى : وجعل لكم ما تركبونه من الفلك
والأنعام .

لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم اذا استويتم عليه وتقولوا سبحان
الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - الحكمة من هذا التذليل والتسخير للفلك
والأنعام فقال : ( لِتَسْتَوُواْ على ظُهُورِهِ ) والضمير فى ( ظُهُورِهِ )
يعود إلى ( مَا ) فى قوله ( مَا تَرْكَبُونَ ) وجاء مفردا رعاية للفظ ( مَا
، وجمع الظهور لأن المراد بالمركوب جنسه .والاستواء : الاستعلاء على الشئ (
والتمكن منه ، أى : سخر لكم من السفن والأنعام ما تركبونه ، ولتسعلوا على
ظهروه استلاء المالك على مملوكه .( ثُمّ تَذْكُرُواْ ) بعد كل هذا التمكن
والاستعلاء ( نِعْمَةَ رَبّكُمْ إِذَا استويتم عَلَيْهِ ) أى : على تلك
السفن والأنعام التى تركبونها .والضمير فى ( عَلَيْهِ ) يعود - أيضا - الى
فى قوله ( مَا تَرْكَبُونَ ) باعتبار لفظ ( وَتَقُولُواْ ) على ( مَا )
سبيل الشكر لله - تعالى - والاعتراف بفضله ( سُبْحَانَ الذي سَخّرَ لَنَا
هذا ) .أى : وتقولوا : جل شأن الله ، وتنزه عن الشريك والمثيل ، فهو الذى
سخر لنا هذا المركوب من الفلك والأنعام ، وجعله منقادا لنا ، طائعا لأمرنا
أى : والحال أننا ما كنا لهذا المركوب ( وَمَا كُنّا لَهُ مُقْرِنِينَ ).
الصعب بقادرين على التمكن منه ، لولا أن الله - تعالى - سخره لنا ، وجعله
منقادا لأمرنا .فقوله : ( مُقْرِنِينَ ) أى : مطيقين وقادرين وضابطين ، من
أقرن الشئ ، إذا أطاقه وقدر عليه ، حتى لكأنه صار له قرنا ، أى : مثله فى
الشدة والقوة .والمقصود : ما كنا بقادرين أو بمطيقين لتذليل هذه السفن

والأنعام ، لولا أن الله - تعالى - قد جعلها مناقدة لنا ، ومسخرة لخدمتنا
- ولا يخفى أن الجمل أقوى من الإنسانن وأن البحر لو لم يذلله - سبحانه.
لنا ، لما قدرت السفن على الجرى فيه .قال القرطبى : قوله : ( وَمَا كُنَّا
: لَهُ مُقْرِنِينَ ) أى : مطيقين . . أو ضابطين وفى أصله قولان : أحدهما
: أنه مأخوذ من الإقران ، يقال : أقرن يقرن إقرانا إذا أطاق . وأقرنت كذا
: أطقته وحكمته ، كأنه جعله فى قرَن - أى : حبل - فأوثقه به وشده .والثانى
أنه مأخوذ من المقارنة ، وهو أن يقرن بعضها ببعض فى السير يقال : قرنت كذا
بكذا إذا ربطته به ، وجعلته قرينه .وقوله : ( وَإِنَّآ إلى رَبِّنَا
لَمُنقَلِبُونَ ) من جملة ما يقولونه - أيضا - عند استوائهم على ظهور السفن
والإبل .أى : تقولون إذا استويتم عليه : سبحان الذى لنا هذا المركب الصعب
وما كنا بقادرين على تذليله لولا أن الله - تعالى - وفقنا لذلك ، وإنا ،
، إلى ربنا وخالقنا لراجعون يوم القيامة ، لكى يحاسبنا على أعمالنا
. ويجازينا عليها بجزائه العادل

وانا الى ربنا لمنقلبون

، كما فسرها الوسيط هذا ، وقد ذكر الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآيات
جملة من الأحاديث ، منها ما رواه مسلم وأبو داود والنسائى . . " عن عبد
الله بن عمر أن النبى - صلى الله عليه وسلم - كان إذا ركب راحلته كبر ثلاثا
ثم قال : ( سُبْحَانَ الذي سَخَّرَ لَنَا هذا وَمَا كُنَّا لَهُ
مُقْرِنِينَ وَإِنَّآ إلى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ) . ثم يقول : اللهم إنى
أسألك فى سفرى هذا البر والتقوى . ومن العمل ما ترضى اللهم هون علينا السفر
واطولنا البعيد . اللهم أنت الصاحب فى السفر . والخليفة فى الأهل . اللهم .
اصحبنا فى سفرنا . واخلفنا فى أهلنا " .وبذلك نرى الآيات الكريمة قد ذكرت
أنواعا متعددة من مظاهر قدرة الله - تعالى - ، ومن رحمته بعباده ، لكى
. يخلصوا له العبادة والطاعة

وجعلوا له من عباده جزءا ان الانسان لكفور مبين

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - ما افتراه المشركون على خالقهم ورازقهم
من أكاذيب ورد عليها بما يزهق باطلهم ، فقال - تعالى - : ( وَجَعَلُواْ
لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا . . . كَانَ عَاقِبَةُ المكذبين ) .والمراد
. . بالجعل فى قوله - تعالى - : ( وَجَعَلُواْ لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا
الاعتقاد الباطل ، والحكم الفاسد . والمراد بالجزء الولد . والمقصود به ( .
) : خصوص البنات ، كما يدل عليه سياق الآيات .قال الآلوسى ما ملخصه : قوله
وَجَعَلُواْ لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا . . . ) متصل بقوله - تعالى - قبل
ذلك : ( وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض . . . )
والمراد بيان تناقضهم فى أنفسهم . . حيث اعترفوا بأنه - تعالى - خالق
السماوات والأرض ، ثم وصفوه بصفات المخلوقين .وعبر عن الولد بالجزء ، لأنه
بضعة - وفرع - من والده ، كما قيل : أولادنا أكبادنا . . وقيل الجزء : اسم
للإناث ، يقال : أجرأت المرأة إذا ولدة أنثى . .أى : أن هؤلاء المشركين
بلغ من تناقضهم فى أقوالهم وأفعالهم ، أنهم إذا سألهم سائل عن خالق هذا
الكون قالوا : الله . ومع ذلك فهم لجهالتهم اعتقدوا اعتقادا باطلا بأن
الملائكة بناته ، مع أن الملائكة من مخلوقاته التى يشملها هذا الكون
فالمقصود من الآية الكريمة تجهيل هؤلاء المشركين ، وتعجيب كل عاقل من.
شفاهتهم .والظاهر أن المراد بالإنسان فى قوله - تعالى - : ( إِنَّ الإنسان
لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ) الكافر والفاسق من بنى آدم ، لأن الإنسان المؤمن لا
يجحد نعم الله ، وإنما يشكره - تعالى - عليها .أى : إن الإنسان الكافر
والفساق عن أمر ربه ، لشديد الجحود لنعم ربه ، مظهرا ذلك فى أقواله وفى
. أفعاله

ام اتخذ مما يخلق بنات واصفاكم بالبنين

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - ما يدل على السخرية منهم ومن أحوالهم
الشاذة فقال : ( أَمِ اتخذ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بالبنين )
فالاستفهام للتوبيخ والإنكار .و ( أَصْفَاكُم ) أى : آثركم واختصكم . يقال
أصفى فلان فلانا بالشي ، إذا اختصه به . ومنه قولهم لما يختص السلطان به :
نفسه من الأشياء النفسية : الصوافى .أى : لقد زعمتم أن الملائكة بنات الله
فخبرونى بربكم هلى يعقل أن يتخذ الله - تعالى - أولاده من البنات اللائى ،
هن أقل منزلة من البنين فى تقديركم ، ويترك لكم الذكور؟ إن من شأن الذى
يختار جنس الأولاد أن يختار أعلاهم منزلة فبأى منطق زعمتم أن الملائكة بنات
: الله .قال صاحب الكشاف : قوله : ( أَمِ اتخذ مِمَّا يَخْلُقُ . . . ) أى
بَلْ آتخذ والهمزة للإنكار ، تجهيلا لهم ، وتعجيبا من شأنهم ، حيث لم
يرضوا بأن جعلوا لله من عباده جزءا حتى جعلوا ذلك الجزء شر الجزءين . وهو

- الاناث دون الذكور .فكأنه قيل : هبوا أن إضافة اتخاذ الولد إليه - تعالى
جائزة فرضا وتمثيلا أما تستحون من الشطط فى القسمة ، ومن ادعائكم أن آثركم
على نفسه بخير الجزءين . . ؟

واذا بشر احدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم

: كما فسرها الوسيط ثم أكد - سبحانه - جهلهم وغفلتهم عن المنطق السليم فقال
وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ للرحمن مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ )
، مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ . . ) .أى : أنهم قالوا الملائكة بنات الله
والحال ان الواحد منهم إذا بشره بأن امرأته قد ولدت له أنثى ، صار وجهه
مسودا من شدة الحزن ، وظل ممتلئا بالهم والكرب .فالمراد بقوله : ( بِمَا
ضَرَبَ للرحمن مَثَلاً ) جنس البنات حيث قالوا : الملائكة بنات الله .قال
. الجمل : قوله : ( وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم . . ) استئناف مقرر لما قبله
وقيل حال ، على معنى أنهم نسبوا إليه ما ذكر ، ومن حالهم أن أحدهم إذا بشر
، به اغتم والالتفات إلى الغيبة للإيذان بأن قبائحهم اقتضت الإعراض عنهم
وتحكى لغيرهم ليتعجب منها . و ( مَا ) فى قوله ( بِمَا ضَرَبَ للرحمن
مَثَلاً ) موصولة ومعناها البنات وضرب بمعنى جعل . والمفعول الأول الذى هو
عائد الموصول محذوف . أى : ضربه ، ومثلا هو المفعول الثانى ، والمثل بمعنى
. الشبه أى المشابه

اومن ينشا في الحلية وهو في الخصام غير مبين

: كما فسرها الوسيط ثم أضاف - سبحانه - إلى تبكيتهم السابق تبكيتا آخر فقال
( أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الحلية وَهُوَ فِي الخصام غَيْرُ مُبِينٍ )
والاستفهام للإنكار . وكلمة ( مَن ) عبارة عن جنس الإناث . وهى فى محل
: نصب بمضمر معطوف على ( جَعَلُواْ ) و ( يُنَشَّأُ ) يربى وينشأ . يقال
نشأ فلان فى بنى فلان ، إذا شب وترعرع فيهم و ( الحلية ) : اسم لما يتحلى
ويتزين به .أى : أيجترئون ويجعلون لله - تعالى - الإناث ، اللائى من شأنهم
، أن ينشأن فى الزينة ، لأن هذه الحياة هى المناسبة لهن ولتكوينهن الجسدى
واللائى من شأن معظمهن أنهن لا يقدرون على الدفاع عن أنفسهن لضعفهن وقصورهن
فى الجدال وفى بيان الحجة التى ترد الخصم ، وتزيل الشبهة . . .فالمقصود من
الاية الكريمة تأنيب هؤلاء المشركين على جهلهم وسوء أدبهم ، حيث إنهم نسبوا
إلى الله - تعالى - الإناث اللائى من شأنهن النشأة فى الحلية والدعة
والنعومة ، فصرن بمقتضى هذه النشأة ، وبمقتضى تكوينهن البدنى والعقلى ، لا
يقدرن على جدال أو قتال . . بينهما نسبوا إلى أنفسهم الذكور الذين هم
قوامون على النساء .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( أَلَكُمُ الذكر
وَلَهُ الأنثى تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضيزى ).

وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا اشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم
ويسالون

كما فسرها الوسيط ثم توعدهم - سبحانه - بسوء المصير بسبب افترائهم الكذب
فقال : ( وَجَعَلُواْ الملائكة الذين هُمْ عِبَادُ الرحمن إِنَاثاً
، أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ . . . ) والجعل هنا بمعنى القول والحكم على الشئ
كما تقول جعلت زيدا أفضل الناس ، أى حكمت عليه بذلك .أى : أن هؤلاء
، المشركين زعموا وحكموا بأن الملائكة الذين هم عباد الرحمن ، وصفوة خلقه
وأهل طاعته ، وزعموا أنهم إناث ، فهل كانوا حاضرين وقت أن خلقناهم حتى
) حكموا عليهم بهذا الحكم الباطل؟كلا إنهم لم يكونوا حاضرين ، ولذا
) سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ ) فى صحائف أعمالهم المليئة بالسيئات
وَيُسْأَلُونَ ) عنها سؤال تأنيب وتوبيخ يوم القيامة .فالمراد بالكتابة
. والسؤال : معاقبتهم على افترائهم الكذب . وتجهيلهم فيما قالوه

وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم ان هم الا يخرصون

: كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - لونا من ألوان معاذيرهم الكاذبة فقال
أى : وقال هؤلاء. ( وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ الرحمن مَا عَبَدْنَاهُمْ )
المشركون على سبيل الاحتجاب بالأعذار الباطلة : لو شاء الرحمن عدم عبادتنا
للملائكة أو للأصنام ما عبدناهم .ثم يرد الله - تعالى - عليهم بما يخرس
ألسنتهم ، ويهدم معاذيرهم فقال : ( مّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ
. . هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ) .أى : قالوا ما قالوه من غير علم أو برهان
لأن مشيئة الله لا يعلمها أحد سواه ، ولأنه - سبحانه - قد اقتضت حكمته
، ومشيئته . أن يجعل للانسان القدرة على اختيار طريق الحق أو طريق الباطل
وهم قد اختاروا طريق الباطل ، واستحبوا الكفر على الإيمان دون أن يكرههم
على ذلك مكره ، فما قالواه ما هو إلا نوع من أنواع خرصهم وكذبهم وظنونهم

الفاسدة .قود فصلنا القول فى مسألة المشيئة عند تفسيرنا لقوله - تعالى - فى سورة الأنعام : ( سَيَقُولُ الذين أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ الله مَا أَشْرَكْنَا . . . ) وعند تفسيرنا لقوله - تعالى - فى سورة النحل ( وَقَالَ الذين أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ الله مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ ولا آبَاؤُنَا . . ).

ام اتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ) إضراب عن نفى أن يكون لهم فيما ادعوه علم عن طريق العقل ، إلى إبطال أن يكون لهم علم من جهة النقل . و ( أَمْ ) بمعنى بل والهمزة . والاستفهام للإنكار والتوبيخ ، أى : بل أأعطيناهم كتابا من قبل القرآن ، فيه ما يشهد بصحة أقوالهم فهم بهذالكتاب مستمسكون؟ كلا إننا لم نعطهم شيا من ذلك .

بل قالوا انا وجدنا اباءنا على امة وانا على اثارهم مهتدون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - مستندهم الحقيقى فقال : ( بَلْ قالوا إِنَّا وَجَدْنَآ آبَآءَنَا على أُمَّةٍ وَإِنَّا على آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ) .أى : أنهم ليس لهم فى الحقيقة مستند لا من العقل ولا من النقل ، وإنما مستندهم الوحيد تقليدهم لآبائهم فى جهالاتهم وسفاهاتهم وكفرهم . فقد قالوا عندما دعاهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى الدين الحق : إنا وجدنا آباءنا على أمة ، أى على دين وطريقة تؤم وتقصد ، وهى عبادة هذه الآلهة ( وَإِنَّا على آثَارِهِم ) وطريقتهم ( مُّهْتَدُونَ ) أى سائرون بدون تفكر أو تدبر ، أو حجة أو دليل ، فهم أشبه ما يكونون بقطيع : الأنعام الذى يسير خلق قائده دون أن يعرف إلى أى طريق يسير . .

وكذلك ما ارسلنا من قبلك في قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا اباءنا على امة وانا على اثارهم مقتدون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَكَذَلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا من قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ آبَآءَنَا على أُمَّةٍ وَإِنَّا على آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ) تسلية للرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه منهم من أذى ، ومن قول باطل و ( الكاف ) بمعنى مثل . واسم الإشارة ذلك بعد إلى حال الكافرين من قبلهم. أى :لا تحزن - أيها الرسول الكريم - لما تراه من إعراض المشركين عن دعوتك. فإن شأنهم كشأ ، سابقيهم فى الكفر والضلال ، فإننا ما أرسلنا من قبلك من . رسول فى قرية من القرى ، أو فى قوم من الأقوام ، إلا قال المنعمون منهم والذين أبطرهم الترف لمن جاءهم بالحق : إنا وجدنا آباءنا على دين وطريقة تؤم وتقصد ، وإنا على آثارهم ، وعلى نهجهم ، مقتدون .أى : مقتدون بهم فى عبادتهم وأفعالهم .وخص المترفين بالذكر ، لأنهم القادة الذين صرفهم التنعم وحب الجاه والسلطان ، عن النظر والتدبر والاستماع للحق ، وجعلهم يستحبون العمى على الهدى .

قال اولو جئتكم باهدى مما وجدتم عليه اباءكم قالوا انا بما ارسلتم به كافرون

كما فسرها الوسيط وهنا يحكى القرآن رد الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيقول : ( قال أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بأهدى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَآءَكُمْ ) أي : قال الرسول - صلى الله عليه وسلم - لقومه الذين أصروا على. ( . . ، تقليد آبائهم فى الكفر والضلال : أتتبعون آباءكم وتقتدون بهم فى الكفر حتى جئتكم بدين أهدى وأصوب مما كان عليه آباؤكم؟وقوله : - تعالى - : ( قال أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ ) قراءة ابن عامر وحفص عن عاصم . وقرأ الجمهور ( قال أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ . . . ) على أن الأمر للرسول - صلى الله عليه وسلم وقوله - تعالى - : ( قالوا إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ). أى : قال المترفون فى الرد على رسلهم : إنا بما أرسلتم به من الهدى والدعوة إلى الدين الحق كافرون ، وباقون على الدين الذى كان عليه آباؤنا .

فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( فانتقمنا مِنْهُمْ فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المكذبين ) بيان للعاقبة السيئة التى حاقت بهم بسبب إصرارهم على كفرهم وتقليدهم لآبائهم .أى : قالوا للرسول هذا القول الذى يدل على إيثارهم الغى على الرشد ، فانتقمنا منهم بأن أخذناهم أخذ عزيز مقتدر ،

فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم أغرقنا .( فانظر ) - أيها العاقل - وتأمل ( كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المكذبين ) لقد كانت عاقبتهم أن دمرناهم تدميرا .هذا ، والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة ، يراها من أجمع الآيات القرآنية التى حكت الأقوال الباطلة التى تفوه بها المشركون ، وردت عليهم ردا منطقيا حكيما يهدمها من قواعدها .لقد ذكرت - أولا - أنهم جعلوا الله - تعالى - من عباده جزاء . . . ثم ردت عليهم بأنهم جاحدون لنعم الله ، وأنهم لو كانوا يعقلون لما حكموا هذا الحكم الذى يدل على جهلهم وغفلتهم ، لأنه لو كان الأمر كما ذكروا - على سبيل الفرض والتقدير - لما اختار - سبحانه - لذاته جنس البنات ، وأعطاهم البنين . .ثم ذكرت - ثانيا - حالهم عندما يبشرون بالأنثى ، وتهكمت بهم حين نسبوا إلى الله ( أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الحلية وَهُوَ فِي الخصام غَيْرُ مُبِينٍ ) والمقصود بذلك جنس البنات ، ثم ذكرت - ثالثا - أنهم حكموا على الملائكة بأنهم إناث ، وردت عليهم بأن حكمهم هذا ساقط ، لأنهم لم يشهدوا خلقهم حتى يحكموا عليهم هذا الحكم الفاسد ، وأنهم سيجازون على أحكامهم التى لا دليل عليها ، بما يستحقون من عقاب .ثم ذكرت - رابعا - معاذيرهم التى اعتذروا بها عندما حاصرتهم الحجج الدامغة ، فقد قالوا : ( لَوْ شَآءَ الرحمن ) فرد - سبحانه - عليهم بقوله : ( مّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاّ يَخْرُصُونَ ) ، لأن قولهم هذا ما هو إلا لون من ألوان الاحتيال على الحقيقة بالأقوال الساقطة .ثم ذكرت - خامسا - أنهم فى إصرارهم على كفرهم لم يستندوا إلى دليل عقلى أو نقلى ، وإنما استندوا على شئ واحد هو التقليد لآبائهم فى جهلهم وضلالهم . .وهكذا ذكر القرآن أقوالهم وشبهاتهم . . ثم رد عليها بما يدحضها . .

واذ قال ابراهيم لابيه وقومه انني براء مما تعبدون

كما فسرها الوسيط وبعد هذا البيان الماحق لشبهات المشركين ولأقوالهم الباطلة . . أتبع - سبحانه - ذلك بذكر جانب من قصة إبراهيم - عليه السلام - مع قومه ، وبذكر جانب من اعتراضاتهم على الرسول - صلى الله عليه وسلم - وعلى دعوته ، ورد عليها بما يخرس ألسنتهم فقال - تعالى - : ( وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ . . . والآخرة عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ) .أى : واذكر - أيها الرسول الكريم - لقومك حال جدك إبراهيم - عليه السلام - وقت أن قال لأبيه آزر ولقومه الذين كانوا عاكفين على عبادة الأصنام ، مقلدين فى ذلك آباءهم . . .قال لهم : إننى برئ ما تعبدونه من هذه الأوثان .وذكرهم سبحانه - هنا بحال إبراهيم ، لأنه كان أعظم آبائهم ، ومحط فخرهم ، والمجمع على محبته منهم .فكأنه - تعالى - يقول لهم : هذا هو حال جدكم إبراهيم الذى تعتزون به فلماذا لم تقلدوه فى إنكاره لعبادة الأصنام ، وفى هجره لما كان عليه أبوه وقومه ، وإخلاصه العبادة لله - تعالى - وحده .وقوله : ( بَرَآءٌ مصدر وقع موقع الصفة وهى برئ ، على سبيل المبالغة فى التبرى من عبادتهم ( لغير الله - تعالى - يقال : تبرات من فلان ، فأنا منه براء .أى : كرهت قوله وفعله والقرب منه .

الا الذي فطرني فانه سيهدين

كما فسرها الوسيط والاستثناء فى قوله : ( إِلاّ الذي فَطَرَنِي فَإِنّهُ سَيَهْدِينِ ) منقطع ، أى : أنا برئ من عبادة أصنامكم ، لكنى أبعد الذى خلقنى وفطرنى بقدرته ، فإنه و الذى سيهدين إلى الصراط المستقيم .ويصح أن يكون متصلا بناء على أنهم كانوا يعبدون الله - تعالى - الذى فطرنى .أى : خلقنى بقدرته على غير مثال سابق .وقال هنا ( سَيَهْدِينِ ) وقال فى آية - أخرى : ( الذي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ) للدلالة على ثقة ابراهيم عليه السلام - بفضل ربه - تعالى - عليه ، وأنه يهديه فى الحال وفى الاستقبال ، وأن هذه الهداية مصاحبة له فى كل وقت من أوقات حياته .ومن الآيات الكثيرة التى تشبه هاتين الآيتين قوله - تعالى - حكاية عن نبيه إبراهيم : ( فَلَمآ رَأى الشمس بَازِغَةً قَالَ هذا رَبِّي هاذآ أَكْبَرُ فَلَمّآ أَفَلَتْ قَالَ ياقوم إِنّي بريآء مِّمّا تُشْرِكُونَ إِنّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السماوات والأرض حَنِيفاً وَمَآ أَنَاْ مِنَ المشركين ) وقوله - سبحانه - : ( قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مّا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَآبَآؤُكُمُ الأقدمون فَإِنّهُمْ عَدُوٌّ لي إِلاّ رَبّ العالمين الذي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ). . . .

وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون

كما فسرها الوسيط والضمير المنصوب فى قوله - تعالى - بعد ذلك : ( وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ . . . ) يعود إلى كلمة التوحيد ، والمشتملة على البراءة من كل عبادة لغير الله - تعالى - ،

والمعبر عنها قبل ذلك بقوله - تعالى - : ( إِنِّي بَرَآءٌ مِّمَّا
تَعْبُدُونَ ) .وضمير الفاعل المستتر فى قوله - سبحانه - : ( وَجَعَلَهَا
، يعود إلى الله - تعالى - .أى : وجعل الله - تعالى - بفضله وكرمه ( . .
كلمة التوحيد ، باقية فى عقب ابراهيم ، وفى ذرتيه من بعده ، بأن جعل من
ذريته الأنبياء والصالحين الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا .ويؤيد هذا
المعنى قوله - تعالى - فى سورة الصافات : ( سَلاَمٌ على إِبْرَاهِيمَ
كَذَلِكَ نَجْزِي المحسنِين إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المؤمنِين
وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِّنَ الصالحين وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ
وعلى إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ
، - مُبِينٌ . . )ويصح أن يكون ضمير الفاعل يعود إلى إبراهيم - عليه السلام
على معنى أنه وصى ذريته من بعده بعبادة الله - تعالى - وحده ، وأنه دعا ربه
أن يجعل فى ذريته من يعبده وحده .فيكون المعنى : وجعل ابراهيم هذه الكلمة
وهى كلمة التوحيد باقية فى ذريته حيث أوصافهم بعبادة الله وحده .ويشهد لذلك
قوله - تعالى - : ( ووصى بِهَآ ) - أى بكلمة التوحيد - ( إِبْرَاهِيمُ
بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيّ إِنّ الله اصطفى لَكُمُ الدين فَلاَ
تَمُوتُنّ إِلاّ وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ . . ) .ثم بين - سبحانه - الحكمة
فى ذلك الجعل فقال : ( لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ) أى : جعلها كذلك رجاء أن
يرجع إلى كملة التوحيد من أشرك من ذرية ابراهيم ، ببركة دعائه لهم
- بالإيمان ودعاء من آمن منهم .فلقد حكى القرآن عن إبراهيم أن دعا الله
تعالى - بقوله : ( رَبِّ اجعلني مُقِيمَ الصلاة وَمِن ذُرِّيَتِي . . . )
وبقوله : ( واجنبني وَبَنِيّ أَن نَّعْبُدَ الأصنام ).

بل متعت هؤلاء واباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( بَلْ مَتَّعْتُ هؤلاء وَآبَآءَهُمْ
حتى جَآءَهُمُ الحق وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ) إضراب عن كلام محذوف يناسق إليه
الكلام ، والمراد " بهؤلاء " أهل مكة المعاصرين للنبى - صلى الله عليه
وسلم - وقوله : ( مَتَّعْتُ ) من التمتع بمعنى إعطائهم ما يشتهون من
- المطاعم والمشارب والنعم المتعددة ، واشتغالهم بذلك عن طاعة الله - تعالى
وشكره .والمعنى : اقتضت حكمتنا أن نجعل كلمة التوحيد باقية فى بعض ذرية
إبراهيم لعل من بقى من هذه الذرية على الشرك أن يرجع إليها ، ولكنهم لم
يرجعوا بل أصروا على كفرهم ، فلم أعالجهم بالعقوبة ، بل متعت هؤلاء
المشركين المعاصرين لك - أيها الرسول الكريم - بأن أمددتهم بالنعم المتعددة
هم وآباؤهم ، وبقيت تلك النعم فيهم : ( حتى جَآءَهُمُ الحق ) وهو دعوتك
- إياهم إلى إخلاص العبادة لنا ، وجاءهم ( وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ) هو أنت
أيها الرسول الكريم - فإن رسالتك واضحة المعالم ، بينة المقاصد ، ليس فيها
، شئ من الغموض الذى يحملها على الإعراض عنها .فالمقصود من الآية الكريمة
بيان أن الكلمة الباقية فى عقب إبراهيم وهى كلمة التوحيد ، لم يتبعها جميع
أفراد ذريته ، بل اتبعها قوم وكفر بها آخرون وأن هؤلاء الكافرين - وعلى
راسهم كفار قريش - لم يعاجلهم الله - تعالى - بالعقوبة ، بل أعطاهم نعما
متعددة ، فلم يشكروه - تعالى - عليها ، واستمروا على ذلك ، حتى جاءهم الحق
فلم يؤمنوا به ، ولا بمن حمله إليهم وهو الرسل المبين - صلى الله عليه ،
وسلم - .ومن الآيات التى تدل على أن ذرية إبراهيم كان منها المؤمن ، وكان
منها الكافر . قوله - تعالى - : ( وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً
وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النبوة والكتاب فَمِنْهُمْ
مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ )

ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وانا به كافرون

- كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - موقفهم من الحق الذى جاءهم به الرسول
صلى الله عليه وسلم - فقال : ( وَلَمَّا جَآءَهُمُ الحق قَالُواْ هذا
سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ) .أى : وحين جاءهم الرسول - صلى الله
عليه وسلم - بالحق من عند ربهم ، لكى يخرجهم من ظلمات الكفر ، إلى نور
الإيمان . . قالوا - على سبيل الجحود والعناد - : هذا الذى جئتنا به نوع
من السحر ، وإنا به كافرون مكذبون .والتعبير بقوله : ( جَآءَهُمُ ) يشعر
بأن الحق قد وصل إليهم دون أن يتبعوا أنفسهم فى البحث عنه ، ومع ذلك فقد
استقبلوه بالجحود والإنكار .

وقالوا لولا نزل هذا القران على رجل من القريتين عظيم

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - لونا آخر من ألوان حسدهم وعنادهم فقال
: ( وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين
، عَظِيمٍ ) .والمراد بالقريتين مكة أو الطائف . . ومقصودهما إحداهما
: كالوليد بن المغيرة من مكة ، وكعروة بن مسعود من الطائف . .ويعنون بالعظم

كثرة المال ، والرئاسة فى قومه .أى : وقال هؤلاء المشركون - على سبل العناد والحسد - : هلا أنزل هذا القرآن ، الذى يقرؤه علينا محمد - صلى الله عليه وسلم - على رجل عظيم فى ماله وسلطانه ، ويكون من إحدى هاتين القريتين ، وهما مكة أو الطائف .فهم لجهلهم وانطماس بصائرهم ، استكثروا أن ينزل هذا القرآن على محمد - صلى الله عليه وسلم - الذى وإن كان فى القمة من الشرف والسمو بين قومه إلا أنه لم يكن أكثرهم مالا وسلطانا ، وهم يريدون أن تكون النبوة فى زعيم من زعمائهم ، أورئيس من رؤسائهم .وهذا منهم - كما يقول الآلوسى - لجهلهم بأن رتبة الرسالة ، إنما تستدعى عظيم النفس ، بالتخلى عن الرذائل الدنية ، والتحلى بالكمالات والفضائل القدسية ، دون التزخرف بالزخارف الدنيوية .

اهم يقسمون رحمت ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمت ربك خير مما يجمعون

كما فسرها الوسيط وقد وبخهم الله - تعالى - على جهلهم هذا بقوله : ( أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ) فالاستفهام للإنكار والتهكم بهم ، والتعجب من تفكيرهم .والمراد بالرحمة : ما يشمل النبوة ، وما أنزله على نبيه - صلى الله عليه وسلم - من وحى ، وما منحه إياه من خلق كريم ، وخير عميم .أى : كيف بلغ الجهل والغباء بهؤلاء المشركين إلى هذه الدرجة؟ إنهم ليس بيدهم ولا بيد غيرهم عطاء ربك ، وليس عندهم مفاتيح الرسالة ليضعوها حيث شاؤا ، وليختاروا لها من أرادوا . وما دام الأمر كذلك فكيف يعترضون على نزول القرآن عليك - أيها الرسول الكريم -؟ .ثم بين - سبحانه - مظاهر قدرته فى خلقه فقال : ( نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الحياة الدنيا . . ) أى : نحن قسمنا بينهم أرزاقهم فى هذه الدنيا ، ولم نترك تقسيمها لأحد منهم ، ونحن الذين - بحكمتنا - تولينا تدبير أسبابها ولم نكلها إليهم لعلمنا بعجزهم وقصورهم . ونحن الذين رفعنا بعضهم فوق بعض درجات فى الدنيا ، فهذا غنى وذاك فقير ، هذا مخدوم ، وذاك خادم ، وهذا قوى ، وذاك ضعيف .ثم ذكر - سبحانه - الحكمة من هذا التفاوت فى الأرزاق فقال : ( لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً ) .أى : فعلنا ذلك ليستخدم بعضهم بعضا فى حوائجهم ، ويعاون بعضهم بعضا فى مصالحهم ، وبذلك تنتظم الحياة ، وينهض العمران . ويعم الخير بين الناس ، ويصل كل واحد إلى مطلوبه على حسب ما قدر الله - تعالى - له من رزق واستعداد . .ولو أنا تركنا أم تقسيم الأرزاق إليهم لتهارجوا وتقاتلوا ، وعم الخراب فى الأرض ، لأن كل واحد منهم يريد أن يأخذ ما ليس من حقه ، لأن الحرص والطمع من طبيعته .وإذا كان هذا هو حالهم بالنسبة لأمور دنياهم فكيف أباحوا لأنفسهم التحكم فى منصب النبوة ، وهو بلا شك أعلى شأنا ، وأبعد شأوا من أمور الدنيا .وقوله ) سُخْرِيّاً ) بضم السين - من التسخير ، بمعنى تسخير بعضهم لبعض وخدمة بعضهم لبعض ، وعمل بعضهم لبعض ، فالغنى - مثلا - يقدم المال لغيره ، نظير ما يقدمه له ذلك الغير من عمل معين . .وبذلك تنتظم أمور الحياة ، وتسير فى طريقها الذي رسمه - سبحانه - لها .قال الجمل ما ملخصه : قوله ) : ( لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً ) أى : ليستخدم بعضهم بعضا ، فيسخر الأغنياء بأموالهم ، الأجراء الفقراء بالعمل ، فيكون بعضهم سببا لمعاش بعض ، هذا بماله ، وهذا بأعماله ، فيلتئم قوام العالم ، لأن الأرزاق لو تساوت لتعطلت المعايش ، فلم يقدر أحد منهم أن ينفك عما جعلناه إليه من هذا الأمر الدنئ ، فكيف يطمعون فى الاعتراض فى أمر النبوة ، أيتصور عاقل أن نتولى قسم الناقص ، ونكل العالى إلى غيرنا . .هذا ، والمتأمل فى هذه الآية الكريمة يراها تقرر سنة من سنن الله - تعالى - التى لا تغيير لها ولا بتديل والتى تؤيدها المشاهدة فى كل زمان ومكان ، فحتى الدول التى تدعى المساواة ، فى كل شئ . . ترى سمة التفاوت فى الأرزاق وفى غيرها وضحة جلية ، وصدق الله فى قوله : ( وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ) .ومن الآيات التى تشبه هذه الآية قوله - تعالى - : ( والله فَضَّلَ بَعْضَكُمْ على بَعْضٍ فِي الرزق . . . ) وقوله - سبحانه - : ( انظر كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ على بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ) .

ولولا ان يكون الناس امة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - هذا التهوين لحطام الدنيا فقال : ( وَلَوْلاَ أن يَكُونَ الناس أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بالرحمن لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ) .و ( وَلَوْلاَ ) حرف امتناع لامتناع . والكلام على حذف مضاف . والمراد بالأمة الواحدة : أمة الكفر . والمعارج مع معرج وهى المصاعد التى يصعد عليها إلى أعلى .أى : ولولا كراهة أن يكون الناس جميعا

أمة واحدة مجتمعة على الكفر حين يشاهدون سعة الرزق ، ورفاهية العيش ، ظاهرة بين الكافرين . .لولا كراهية ذلك . لجعلنا بمشيئتنا وقدرتنا ، لمن يكفر ، بالرحمن ، الشئ الكثير من حطام الدنيا ، بأن نجعل لبيوتهم سقفا من فضة ولجعلنا لهم مصاعد فخمة عليها يرقون إلى أعلى مساكنهم .

ولبيوتهم ابوابا وسررا عليها يتكئون

كما فسرها الوسيط ولجعنا - ايضا - لبيوتهم أبوابا وسررا ثمينة ( عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ) أى : على السرر يتكئون وهم جالسون فوقها .

وزخرفا وان كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والاخرة عند ربك للمتقين

كما فسرها الوسيط (وَزُخْرُفاً ) أى : ولجعلنا لهم زخرفا ، ليستعملوه فى أسقف منازلهم ، وفى أبواب بيوتهم ، وفى غير ذلك من شئون حياتهم .والزخرف : يطلق على الشئ الذى يتزين به . فيشمل الذهب والفضة ، وغيرهما مما يستعمله الناس فى تزيين بيوتهم .وقوله : ( وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الحياة الدنيا والآخرة عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ) أى : وما كل ما ذكرناه من البيوت الموصوفة بما ذكرناه من الصفات السابقة ، إلا شئ يتمتع به المتمتعون فى الحياة ، التى أمرها إلى زوال واضمحلال . .أما الآخرة التى ، زينتها باقية لا تنتهى ولا تنقطع ، فهى عند ربك خاصة بالمؤمنين الصادقين الذين آثروا النعيم الباقى على النعيم الفانى ، فقدموا فى دنياهم العمل الصالح ، الذى ينفعهم فى أخراهم .

ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين

- كما فسرها الوسيط وبعد هذا الحديث الجامع عن هوان شأن الدنيا عند الله - تعالى - ، أتبع - سبحانه - ذلك ببيان حال الذين عن ذكر الله - تعالى ، وأنهم يوم القيامة لن ينفعهم ندمهم أو تحسرهم ، وسلى النبى - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه منهم . فقال - تعالى - : ( وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرحمن نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ) أى : ومن يتعام عن ذكر الرحمن ، ويعرض عن قرآنه ، ويتجاهل هدى الرسول - صلى الله عليه وسلم - ) نهيئ ونسب له شيطانا رجيما يستولى عليه ويستحوذ على قلبه وعقله .( فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ) أى : فذلك الشيطان يكون ملازما ومصاحبا لهذا الإنسان الذى أعرض عن القرآن ، ملازمة القرين لقرينه ) : - والشئ لظله .ومن الآيات التى تشبه هذه الآية قوله - تعالى ، : ( وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ القول فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمْ مِّنَ الجن والإنس إِنَّهُمْ كَانُواْ خَاسِرِينَ ).

وانهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون انهم مهتدون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - الآثار التى تترتب على مقارنة الشيطان للإنسان فقال : ( وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السبيل وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ) .والضمير فى ( وَإِنَّهُمْ ) يعود إلى الشيطان باعتبار جنسه ، وفى قوله - تعالى - ( لَيَصُدُّونَهُمْ ) يعود إلى ( وَمَن ، فى قوله ( وَمَن يَعْشُ ) باعتبار معناها .أى : ومن يعرض عن طاعة الله ( نهيئ له شيطانا ، فيكون ملازما له ملازمة تامة ، وإن هؤلاء الشياطين وظيفتهم أنهم يصدرون هؤلاء الفاسقين عن ذكر الله - تعالى - ، وعن سبيله الحق وصراطه المستقيم .( وَيَحْسَبُونَ ) أى : هؤلاء الكافرون ( أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ) إلى السبيل الحق . فالضمائر فى قوله ( وَيَحْسَبُونَ ) وما بعده يعود إلى الكافرين .ويصح أن يكون الضمير فى قوله ( وَيَحْسَبُونَ ) ، يعود إلى الكفار ، وفى قوله ( أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ) يعود إلى الشيطان فيكون المعنى :ويظن هؤلاء الكافرون أن الشيطان مهتدون إلى الحق ، ولذلك اتبعوهم وأطاعوهم .

حتى اذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما يكون بين هذا الإنسان الكافر وبين قرينه من الشياطين يوم القيامة ، فقال - تعالى - : ( حتى إِذَا جَآءَنَا قَالَ ياليت بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ المشرقين فَبِئْسَ القَرِين ) .أى :

لقد استمر هذا المعرض عن ذكر الله فى غيه . ومات على ذلك حتى إذا جاءنا يوم
). . القيامة لحساب والجزاء ، ( قَالَ ) لقرينه الذى صده عن طريق الحق
ياليت بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ المشرقين ) أى : أتمنى أن تكون المسافة
التى بينى وبينك من البعد والمفارقة ، كالمسافة التى بين المشرق والمغرب
فالمراد بالمشرقين المشرق والمغرب فعبر - سبحانه - بالمشرق على سبيل.
- التغليب لأحدهما على الآخر .( فَبِئْسَ القرين ) أى : فبئس القرين أنت
. أيها الشيطان - فالمخصوص بالذم محذوف

ولن ينفعكم اليوم اذ ظلمتم انكم في العذاب مشتركون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما سيقال لهذا العاشى عن ذكر
الله ولقرينه على سبيل التأنيب والتوبيخ فقال : ( وَلَن يَنفَعَكُمُ اليوم
إِذ ظَّلَمْتُمْ ) .والضمير فى قوله : ( يَنفَعَكُمُ ) يعود إلى التمنى
) المذكور فى قوله : ( ياليت بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ المشرقين . . ) و
إِذ ) ظرف لما مضى من الزمان ، بدل من ( اليوم ) .أى : ولن ينفعكم ندمكم
وتمنيكم اليوم شيئا ، بعد أن تبين لكم أنكم كنتم ظالمين فى الدنيا ، ومصرين
على الكفر والضلال .وقوله : ( أَنَّكُمْ فِي العذاب مُشْتَرِكُونَ ) تعليل
لما قبله ، أى : ولن ينفعكم اليوم تمنيكم وندمكم لأنكم فى هذا اليوم أنتم
وقرناؤكم مشتركون فى العذاب ، كما كنتم فى الدنيا مشتركون في سببه ، وهو
الكفر والضلال .قال صاحب الكشاف ما ملخصه : قوله : ( أَنَّكُمْ فِي العذاب
مُشْتَرِكُونَ ) فى محل الرفع على الفاعلية . يعنى : ولن ينفعكم كونكم
مشتركين فى العذاب كما ينفع الواقعين فى الأمر الصعف اشتراكهم فيه لتعاونهم
فى تحمل أعبائه . لأن كل واحد منكم ، به من العذاب ما هو فوق طاقته .ولك أن
تجعل الفاعل التنمى فى قوله : ( ياليت بَيْنِي وَبَيْنَكَ . . . ) على معنى
) : ولن ينفعكم اليوم ما أنتم فيه من تمنى مباعدة القرين ، وقوله :
، أَنَّكُمْ فِي العذاب مُشْتَرِكُونَ ) تعليل ، أى : ولن ينفعكم تمنيكم
) لأن حقكم أن تشتركوا أنتم وقرناؤهكم فى العذاب . . . وتقويه قراءة من قرأ
. إنكم ) بالكسر

افانت تسمع الصم او تهدي العمي ومن كان في ضلال مبين

، كما فسرها الوسيط وبعد هذا التوبيخ الشديد للمعرض عن ذكر الله ولشيطانه
يوجه الله - تعالى - خطابه لنبيه - صلى الله عليه وسلم - ليزيده تسلية
وتثبيتا فيقول : ( أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصم أَوْ تَهْدِي العمي وَمَن كَانَ
فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ) .والاستفهام للنفى أى : أفأنت - أيها الرسول
الكريم - تستطيع أن تسمع الصم صوتك ، أو أن تهدى الذين انطمست بصائرهم إلى
الطريق الحق . أو أن تخرج من كان فى الضلال الواضح إلى الهدى والرشاد؟كلا
. إنك لن تستطيع ذلك ، لأن الهداية والإضلال ، من الله - تعالى - وحده
وأنت - أيها الرسول الكريم - عليك البلاغ ونحن علينا الحساب .فالقصود من
الآية الكريمة تسلية الرسول - صلى الله عليه وسلم - ونهيه من أن يضيق صدره
بسبب إعراضهم المستمر عن دعوة الحق ، وبيان أن الهداية والإضلال بيد
الله - تعالى - وحده .وسماهم - سبحانه - صما وعميا ، مع أنهم يسمعون
ويبصرون ، لأنهم بمنزلة الصم والعمى فى عدم انتفاعهم بالهدى والرشاد الذى
جاءهم به - صلى الله عليه وسلم - .وقوله - تعالى - : ( وَمَن كَانَ فِي
ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ) معطوف على العمى والصم باعتبار تغاير الصفات .أى :
أنت - أيها الرسول الكريم - لن تستطيع هداية من كان أصم وأعمى ، ومن كان
مصرا على الضلال المبين وما ذام الأمر كذلك فسر فى طريقك ، دون أن تذهب
. . نفسك عليهم حسرات

فاما نذهبن بك فانا منهم منتقمون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا
مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ أَوْ نُرِيَنَّكَ الذي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا
عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ ) زيادة فى تسلية وتثبيته - صلى الله عليه
وسلم - .أى : أن أمرك - أيها الرسول الكريم - مع هؤلاء الظالمين لا يخلو عن
حالين : إما أن نتوفينك قبل أن ترى نقمتنا منهم . . . وفى هذه الحالة
فسنتولى نحن عذابهم والانتقام منهم ، حسب إرادتنا ومشيئتنا ، وإما أن نبقى
حياتك حتى ترى بعينيك العذاب الذى توعدناهم به ، فإنا عليهم وعلى غيرهم
متقدرون على تنفيذ ما نتوعد به من دون أن يستطيع أحد الإفلات من قبضتنا
وقدرتنا .قال ابن كثير : أى : نحن قادرون على هذا وعلى هذا . ولم يقبض
الله - تعالى - رسوله ، حتى أقر عينه من أعدائه ، وحكمه فى نواصيهم ، وملكه
ما تضمنته صياصيهم .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( وَإِن مَّا
نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الذي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا
) : - عَلَيْكَ البلاَغ وَعَلَيْنَا الحساب ) والفاء فى قوله - تعالى

فاستمسك بالذي أُوحِيَ إِلَيْكَ . . . ) واقعة جوابا لشرط مقدر .

او نرينك الذي وعدناهم فانا عليهم مقتدرون

`<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html} كما فسرها الوسيط

وقوله - سبحانه - : ( فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ ) زيادة فى تسلية وتثبيته - صلى الله عليه وسلم - .أى : أن أمرك - أيها الرسول الكريم - مع هؤلاء الظالمين لا يخلو عن حالين : إما أن نتوفينك قبل أن ترى نقمتنا منهم . . . وفى هذه الحالة فسنتولى نحن عذابهم والانتقام منهم ، حسب إرادتنا ومشيئتنا ، وإما أن نبقي حياتك حتى ترى بعينيك العذاب الذى توعدناهم به ، فإنا عليهم وعلى غيرهم متقدرون على تنفيذ ما نتوعد به من دون أن يستطيع أحد الإفلات من قبضتنا وقدرتنا .قال ابن كثير : أى : نحن قادرون على هذا وعلى هذا . ولم يقبض الله - تعالى - رسوله حتى أقر عينه من أعدائه ، وحكمه فى نواصيهم ، وملكه ما تضمنته صياصيهم ، وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ) والفاء فى قوله - تعالى - : ( فَاستمسك بالذي أُوحِيَ إِلَيْكَ . . . ) واقعة جوابا لشرط مقدر ( .

فاستمسك بالذي اوحي اليك انك على صراط مستقيم

كما فسرها الوسيط أى : إذا كان الأمر كما ذكرنا لك من أن أمرك مع هؤلاءا لمشركين لا يخلو عن حالين : فاستمسك - أيها الرسول الكريم - بما أوحينا إليك من هدايات وإرشادات ( إِنَّكَ على صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ) وطريق قويم لا عوج فيه ولا اضطراب .

وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسالون

كما فسرها الوسيط ( وَإِنَّهُ ) أى : هذا القرآن ( لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ) أى : لشرف عظيم لك ولشرف عظيم لأهل مكة الذين بعثت فيهم بصفة خاصة ، ولغيرهم ممن آمن بك بصفة عامة كما قال - تعالى - : ( لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ . . . ) أى : عزكم وشرفكم وقوله : ( وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ) تحذير من مخالفة ما اشتمل عليه هذا. القرآن من أحكام وآداب وتشريعات .أى : وسوف تسألون يوم القيامة عنه ، وعن القيام بحقه ، وعن مقدار تمسككم بأوامره ونواهيه وعن شكركم لله - تعالى - على نحكم لهذه النعمة .

واسال من ارسلنا من قبلك من رسلنا اجعلنا من دون الرحمن الهة يعبدون

كما فسرها الوسيط ثم أضاف - سبحانه - إلى هذا التثبيت لنبيه - صلى الله عليه وسلم تثبيتا آخر فقال : ( وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرحمن آلِهَةً يُعْبَدُونَ ) .والمقصود - من الآية الكريمة بيان أن الرسل جميعا ، قد دعوا أقوامهم إلى عبادة الله تعالى - وحده ، كما قال - سبحانه - : ( وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى الله وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضلالة ) وكما قال - تعالى - : ( وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نوحي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إله إِلاَّ أَنَاْ فاعبدون ) قال صاحب الكشاف ما ملخصه ليس المراد بسؤال الرسل حقيقة السؤال لاستحالته ، ولكنه مجاز عن النظر فى : أديانهم ، وأنهم ما جاءوا قط بعبادة الأوثان ، وإنما جاءوا بالأمر بعبادة الله - تعالى - وحده . .وقيل : إن النبى - صلى الله عليه وسلم - جمع الله له الأنبياء ، فى ليلة الإسراح فى بيت المقدس ، فصلى بهم إماما ، وقيل له سلهم : فلم يتشك ولم يسأل .وقيل معنا ، سل أمم من أرسلنا من قبلك ، وهم أهل الكتابين : التوارة والإنجيل فإذا سألهم فكأنما سأل - رسلهم - فالكلام على حذف مضاف .فالآية الكريمة تقرر على كل الوجوب بأبلغ أسلوب ، أن جميع الرسل قد جاءوا بعقيدة واحدة ، وبدين واحد ، هو عبادة الله - تعالى - ونبذ كل معبود سواه .

ولقد ارسلنا موسى باياتنا الى فرعون وملئه فقال اني رسول رب العالمين

كما فسرها الوسيط ثم تمضى السورة الكريمة فى تسليتها للرسول - صلى الله عليه وسلم - وفى تثبيتها للمؤمنين ، فتذكر جانبا من قصة موسى - عليه السلام

مع فرعون ، وكيف أن فرعون خسر من دعوة موسى - عليه السلام - وتباهى على قومه بذلك ، وكيف أنه استخف بهم فأطاعوه ، فكانت عاقبته وعاقبتهم أن أغرقهم الله جميعا . قال - تعالى - : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا موسى . . . سَلَفاً وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ ) .وقصة موسى - عليه السلام - مع فرعون ومع بنى إسرائيل ، على رأس القصص التى تكرر الحديث عنها فى القرآن الكريم ، فى سور متعددة ، وذلك لما فيها من مساجلات ومحاورات بين أهل الحق وأهل الباطل ، ولما فيها من عبر وعظات لقوم يعقلون .لقد وردت هذه القصة فى سور : البقرة والأعراف ، ويونس ، وهود ، والإسراء ، وطه ، والقصص ، والصافات ، وغافر . ولكن بأساليب متنوعة يكمل بعضها بعضا .وهنا تبدأ هذه القصة بقوله - تعالى - : ( وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا موسى بِآيَاتِنَآ إلى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ العالمين ) .أى : والله لقد أرسلنا نبينا موسى - عليه السلام - ( بِآيَاتِنَآ ) الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ، والتى على رأسها اليد والعصا . . وأرسلناه بهذه الآيات ( إلى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ) أى : أشراف قومه فقال لهم ناصحا ومرشدا : إنى رسول رب العالمين إليكم ، لآمركم بعبادة الله - تعالى - : وحده ، وأنهاكم عن عبادة غيره .

فلما جاءهم باياتنا اذا هم منها يضحكون

كما فسرها الوسيط ( فَلَمَّا جَآءَهُم بِآيَاتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ) أى : فحين جاء موسى - عليه السلام - إلى فرعون وملئه بآياتنا الدالة على قدرتنا سارعوا إلى الضحك والسخرية بها ، بون تأمل أو تدبر ، شأن المغرورين الجهلاء .فقوله - تعالى - : ( إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ) جواب ( لَمَّا ) والتعبير يشير إلى مسارعتهم إلى السخرية والاستخفاف بالآيات التى جاء بها موسى - عليه السلام - ، مع أن هذه الآيات كانت تقتضى منهم التدبر والتفكر لو كانوا يعقلون .

وما نريهم من اية الا هي اكبر من اختها واخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ) بيان لقسوة قلوبهم ، وعدم تأثرهم بالآيات والمعجزات .أى : وما نريهم من آية دالة على صدق نبينا موسى ، إلا وتكون هذه الآية أكبر من أختها السابقة عليها ، فى الدلالة على ذلك ، مع كون الآية السابقة عظيمة وكبيرة فى ذاتها .والمقصود بالجملة الكريمة ، بيان أن هؤلاء القوم لم يأتهم موسى - عليه السلام - بآية واحدة تشهد بصدقه فيما جاءهم به من عند ربه ، وإنما أتاهم بمعجزات متعددة ، وكل معجزة أدل على صدقه مما قبلها .ويصح أن يكون المراد وصف الجميع بالكبر ، على معنى أن كل واحد لكمالها فى ذاتها ، إذا نظر إليها الناظر ، ظنها أكبر من البواقى لاستقلالها بإفادة الغرض الذى جاءت من أجله .وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : والغرض بهذا الكلام ، أنهن موصوفات بالكبر ، لا يكدن يتفاوتن فيه ، وكذلك العادة فى الأشياء التى تتلاقى فى الفضل . وتتفاوت منازلها فيه التفاوت اليسير ، أن يختلف آراء الناس فى تفضيلها ، فيفضل بعضهم هذا ، وبعضهم ذاك ، فعلى ذلك بنى الناس كلامهم فقالوا : رأيت رجالا بعضهم أفضل من بعض ، وربما اختلفت آراء الرجل الواحد فيها ، فتارة يفضل هذا وتارة يفضل ذاك ، ومنه بيت الحماسة :من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم ... مثل النجوم التى يسرى بها الساربوقوله - تعالى - : ( وَأَخَذْنَاهُم بِالعذاب لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ) بيان للمصير السيئ الذى آلو إليه .أى : وأخذناهم بسبب إصرارهم على الكفر والمعاصى ، بالعذاب الدنيوى الشديد لكى يرجعوا عما هم عليه من كفر وفسوق ، ولكنهم لم يرجعوا .فالمراد بالعذاب هنا العذاب الدنيوى ، الذى أشار إليه - سبحانه - بقوله : ( فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيَاتٍ مُّفَصَّلاَتِ فاستكبروا وَكَانُوا قَوْماً مُّجْرِمِينَ ).

وقالوا يا ايه الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك اننا لمهتدون

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - ما قالوه بعد أن نزل بهم العذاب ، فقال : وَقَالُواْ ياأيه الساحر ادع لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ) .وجمهور المفسرين على أن قولهم هذا ، كان على سبيل التعظيم لموسى - عليه السلام - لأنهم كانوا يوقرون السحرة ، ويعتبرونهم العلماء .قال ابن كثير : قوله ( ياأيه الساحر ) أى : العالم . . وكان علماء زمانهم هم السحرة ، ولم يكن السحر عندهم فى زمانهم مذموما . فليس هذا منهم على سبيل الانتقاص ، لأن الحال حال ضرورة منهم إليه ، فهى تقتضى تعظيمهم لموسى - عليه السلام - . .و ( مَا ) فى قوله : ( بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ) مصدرية : أى : بعهده عندك ، والمراد بهذا العهد : النبوة

وسميت عهدا ، لأن الله - تعالى - عاهد نبيه أن يكرمه بها ، أو لأن لها .
حقوقا تحفظ كما يحفظ العهد .وقوله : ( إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ) مرتب على
كلام محذوف .أى : وحين أخذنا فرعون وقومه بالعذاب ، قالوا لموسى - على سبيل
التذلل والتعظيم من شأنه - يأيها الساحر الذى غلبنا بسحره وعلمه ، ادع لنا
) ربك بحق عهده إليك بالنبوة ، لئن كشف عنا ربك هذا العذاب الذى نزل بنا
إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ) أى إننا لمؤمنون ثابتون على ذلك ، متبعون لك فى
كل ما تأمرنا به أو تنهانا عنه .

فلما كشفنا عنهم العذاب اذا هم ينكثون

، كما فسرها الوسيط قدعا موسى - عليه السلام - ربه أن يشكف عنهم العذاب
فأجاب الله دعوته بأن كشف عنهم ، فماذا كانت النتيجة؟ كانت النتيجة أنهم
نقضوا عهدوهم ، واستمروا على كفرهم ، كما قال - تعالى - : ( فَلَمَّا
) كَشَفْنَا عَنْهُمُ العذاب ) أى : فحين كشفنا عنهم العذاب الذى حل بهم
. إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ) أى : إذا هم ينقضون عهدهم بالإيمان فلا يؤمنون
: يقال : نكث فلان عهده ونقضه ، إذا لم يف به .ومن سوء أدبهم أنهم قالوا
ادع لنا ربك ، فكأن الله - تعالى - رب موسى وحده ، وليس ربا لهم .وشبيه
بهاتين الآيتين قوله - تعالى - : ( وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرجز
قَالُواْ ياموسى ادع لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ
عَنَّا الرجز لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بني إِسْرَآئِيلَ
فَلَماَّ كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرجز إلى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا . . .
هُمْ يَنكُثُونَ ).

ونادى فرعون في قومه قال يا قوم اليس لي ملك مصر وهذه الانهار تجري من تحتي
افلا تبصرون

، كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - جانبا من طغيان فرعون وفجوره
: واستخفافه بعقول قومه فقال : ( ونادى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ . . ) أى
أن فرعون جمع زعماء قومه ، وأخبرهم بما يريد أن يقول لهم .أو أنه أمر
- مناديا ينادى فى قومه جميعا ، ليعلمهم بما يريد إعلامهم به ، وأسند
سبحانه - النداء إلى فرعون ، لأنه هو الآمر به .والتعبير بقوله : ( فِي
- قَوْمِهِ ) يشعر بأن النداء قد وصل اليهم جميعا ودخل فى قلوبهم .وقوله
تعالى - : ( قَالَ ياقوم أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وهذه الأنهار تَجْرِي
مِن تحتي أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ) حكاية لما قاله فرعون لقومه .أى : أن فرعون
جمع عظماء قومه ، وقال لهم - بعد أن خشى إيمانهم بموسى : ( ياقوم أَلَيْسَ
لِي مُلْكُ مِصْرَ ) بحيث لا ينازعنى فى ذلك منازع ، ولا يخالفنى فى ذلك
مخالف ، فالاستفهام للتقرير .وفضلا عن ذلك فإن هذه الأنهار التى ترونها
متفرعة من النيل تجرى تحت قدمى ، أو من تحت قصرى .( أَفَلاَ تُبْصِرُونَ )
) ذلك ، وتستدلون به على قوة أمرى ، وسعة ملكى ، وعظم شأنى فمفعول
. تُبْصِرُونَ ) محذوف ، أى : أفلا تبصرون عظمتى

ام انا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين

كما فسرها الوسيط و ( أَمْ ) فى قوله : ( أَمْ أَنَآ خَيْرٌ مِّنْ هذا الذي
هُوَ مَهِينٌ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ ) هى المنقطعة المقدرة بمعنى بل التى
هى للاضراب ، والإشارة بهذا تعود لموسى - عليه السلام - .أى : بل أنا خير
) من هذا الذى هو فقير وليس صاحب ملك أو سطوة أو مال . . . وفى الوقت نفسه
. . لاَ يَكَادُ يُبِينُ ) أى :لا يكاد يظهر كلامه لعقدة فى لسانه

فلولا القي عليه اسورة من ذهب او جاء معه الملائكة مقترنين

كما فسرها الوسيط ثم أضاف إلى ذلك قوله - كما حكى القرآن عنه : ( فَلَوْلاَ
أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ الملائكة
مُقْتَرِنِينَ ) .والأسورة : جمع سوار ، وهو كناية عن تمليكه ، وكانوا إذا
ملكوا رجلا عليهم ، جعلوا فى يديه سوارين ، وطوقوه بطوق من ذهب ، علامة على
أنه ملكهم .أى : فهلا لو كان موسى ملكا أو رسولا ، أن يحلى نفسه بأساور من
ذهب ، أو جاء إلينا ومعه الملائكة محيطين به ، ومتقارنين معه ، لكى يعينوه
ويشهدوا له بالنبوة .ولا شك أن هذه الأقوال التى تفوه بها فرعون ، تدل على
شدة طغيانه ، وعلى عظم غروره ، وعلى استغلاله الضخم لغفلة قومه وسفاهتهم
وضعفهم .ورحم الله الإمام ابن كثير فقد قال ما ملخصه : وهذا الذى قاله
فرعون - لعه الله - كذب واختلاق ، وإنما حمله على هذا الكفر والعناد ، وهو
ينظر إلى موسى - عليه السلام - بعين كافرة شقية ، وقد كان موسى من الجلالة
والعظمة والبهاء فى صورة يبهر أبصار ذوى الألباب .وقوله : ( وَلاَ يَكَادُ
يُبِينُ ) افتراء - أيضا - فإنه وإن كان قد أصاب لسانه فى حال صغره شئ من

- جهة تلك الجمرة ، فقد سأل ربه أن يحل عقدة من لسانه ، فاستجاب الله تعالى - له وفرعون إنما أراد بهذا الكلام ، أن يروج على رعيته ، لأنهم كانوا جهلة أغبياء . .

فاستخف قومه فاطاعوه انهم كانوا قوما فاسقين

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( فاستخف قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فَاسِقِينَ ) بيان لما كان عليه فرعون من لؤم وخداع ، ولما كان عليه قومه من جبن وخروج على طاعة الله - تعالى - .أى : وبعد أن قال فرعون لقومه ما قال من تطاول على موسى - عليه السلام - طلب منهم الخفة والسرعة والمبادرة إلى الاستجابة لما قاله لهم ، فأجابوه إلى طلبه منهم ، لأنهم كانوا قوما خارجين على طاعتنا ، مؤثرين الغى على الرشد ، والضلالة على الهداية . .

فلما اسفونا انتقمنا منهم فاغرقناهم اجمعين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - سوء عاقبتهم فقال : ( فَلَمَّآ آسَفُونَا انتقمنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ ) .وقوله : ( آسَفُونَا ) أى : أغضبونا أشد الغضب ، من أسف فلان أسفا ، إذا اشت غضبه و ( سَلَفاً ) أى : قدوة لمن بعدهم من الكفر فى استحقاق مثل عقوبتهم . وهو مصدر وصف به على سبيل المبالغة ، ولذا يطلق على القليل والكثيرز يقال : سلفه الشئ سلفا ، إذا تقدم ومضى . وفلان سلف له عمل صالح ، أى : تقدم له عمل صالح ومنه : الأسلاف ، أى : المتقدمون على غيرهم .أى : فلما أغضبنا فرعون وقومه أشد الغضب ، بسبب إصرارهم على الكفر والفسوق والعصيان ، انتقمنا منهم انتقاما شديدا ، حيث أغرقناهم أجميعن فى اليم .

فجعلناهم سلفا ومثلا للاخرين

كما فسرها الوسيط ( فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً ) أى قدوة لمن بعدهم فى الكفر ) فى استحقاق مثل عقوبتهم كما جعلناهم ( مَثَلاً ) أى : عبرة وموعظة لِّلآخِرِينَ ) الذين يعملون مثل أعمالهم . .وبذلك نرى فى هذه الآيات الكريمة ، جانبا من قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون وملئه .ويتجلى فى هذا الجانب من القصة طغيان فرعون ، واستخافه بعقول قومه ، ومجاهرته بالكذب والفجور . . . فكانت عاقبتهم جميعا الدمار والبوار .

ولما ضرب ابن مريم مثلا اذا قومك منه يصدون

كما فسرها الوسيط ثم انتقلت السورة الكريمة من الحديث عن جانب من قصة موسى - عليه السلام - فقال - تعالى ، إلى الحديث عن جانب من قصة عيسى - : ) وَلَمَّا ضُرِبَ ابن مَرْيَمَ . . . وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ) .ذكر المفسرون فى سبب نزول قوله - تعالى - : ( وَلَمَّا ضُرِبَ ابن مَرْيَمَ مَثَلاً . . ) روايات منها : أنه لما نزل قوله - تعالى - : ( وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ . . . ) تعلق المشركون بأمر عيسى وقالوا : ما يريد محمد - صلى الله عليه وسلم - إلا أن نتخذه إلها ، كما اتخذت النصارى عيسى ابن مريم فأنزل الله - تعالى - ( وَلَمَّا ضُرِبَ ابن مَرْيَمَ مَثَلاً . . ) .وقال الواحدى : أكثر المفسرين على أن هذه الآية نزلت فى مجادلة ابن الزبعرى - قبل أن يسلم - مع النبى - صلى الله عليه " وسلم - فإنه لما نزل قوله - تعالى - : ( إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله حَصَبُ جَهَنَّمَ ) . قال ابن الزبعرى خصمتك - يا محمد - ورب الكعبة . أليست النصارى يعبدون المسيح ، واليهود يعبدون عزيرا ، وبنو مليح يعبدون الملائكة؟ فإن كان هؤلاء من النار ، فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا فى النار؟فقال له النبى - صلى الله عليه وسلم - : " ما أجهلك بلغة قومك؟ أما فهمت أن ( ما ) لما لا يعقل " ؟ . وفى رواية أنه - صلى الله عليه وسلم - قال له : " إنهم يعبدون الشيطان " وأنزل الله - تعالى - : ) وَلَمَّا ضُرِبَ ابن مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ) وكلمة ( يَصِدُّونَ ) قرأها الجمهور بكسر الصاد . وقرأها ابن عامر. بضم الصاد . وهما بمعنى واحد . ومعناهما : يضجون ويصيحون فرحا . والكسائى يقال : صد يصد - بكسر الصاد وضمها - بمعنى ضج - كعكف - بضم الكاف وكسرها ويرى بعضهم أن ( يَصِدُّونَ ) - بكسر الصاد - بمعنى : يضجون ويصيحون. وأن ( يَصِدُّونَ ) - بضم الصاد - بمعنى الصاد - بمعنى يعرضون ويضحكون . . من الصد بمعنى الإعراض عن الحق .والمعنى : وحين ضرب ابن الزبعرى ، عيسى . ابن مريم مثلا ، وحاجك بعبادة النصارى له ، فاجأك قومك - كفار قريش - بسبب ، هذه المحاجة ، بالصياح والضجيج والضحك ، فرحا منهم بما قاله ابن الزبعرى

وظنا منهم أنه قد انتصر عليك فى الخصومة والمجادلة .فمن فى قوله ( مِنْهُ ) الظاهر أنها للسببية ، كما فى قوله - تعالى - : ( مِّمَّا خطيئاتهم أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَاراً . . . ) والمراد بالمثل هنا : الحجة والبرهان .قال الآلوسى : والحجة لما كانت تسير مصير الأمثال شهرة ، قيل لها - مثل . أو المثل بمعنى المثال . أى : جعله مقياسا وشاهدا على إبطال قوله - صلى الله عليه وسلم - : إن آلهتهم من حصب جهنم ، وجعل عيسى - عليه السلام نفسه مثلا من باب : الحج عرفة .

وقالوا االهتنا خير ام هو ما ضربوه لك الا جدلا بل هم قوم خصمون

: كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أقوالهم التى بنوا عليها باطلهم فقال ؟ والضمير ( هُوَ ) يعود إلى ( وقالوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ) عيسى - عليه السلام - .ومرادهم بالاستفهام تفضيل عيسى - عليه السلام - على آلهتهم ، مجاراة للنبى - صلى الله عليه وسلم - .فكأنهم يقولون : لقد أخبرتنا بأن عيسى ابن مريم رسول من رسل الله - تعالى - وأنه خير من آلهتنا ) : فإن كان فى النار يوم القيامة لأن الله - تعالى - يقول . . . . إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ) فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا فى النار .وقد أبطل الله زعمهم هذا بقوله : ( مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً ) .أى :لا تهتم - أيها الرسول الكريم - بما قالوه ، فإنهم ما ضربوا لك هذا المثل بعيسى إلا من أجل مجادلتك بالباطل وليس من أجل الوصول إلى الحق .وقوله : ( بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ) مؤكد لما قبله من كونهم قالوا ذلك لأجل الجدل بالباطل ، لا لطلب الحق ، وإضراب عن مزاعمهم وعن مجاراتهم فى خصومتهم .أى : ذرهم - أيها الرسول الكريم - فى باطلهم يعمهون ، فإنهم قوم مجبولون على الخصومة ، دون أن يكون هدفه الوصول إلى الحق .وجاء التعبير فى قوله : ( مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً ) بصيغة الجمع ، مع أن ضارب المثل واحد ، وهو ابن الزبعرى ، لأن إسناد فعل الواحد إلى الجماعة ، من الأساليب المعروفة فى اللغة العربية ، ومنه قول الشاعر :فسَيف بنى عبس وقد ضربوا به ... نبا بيدى ورقاء عن رأس خالدفإنه قد . . نسب الضرب إلى جميع بنى عبس ، مع تصريحه بأن الضراب واحد ، وهو رقاء . . ولأنهم لما أيدوا ابن الزبعرى فى قوله ، فكأنهم جميعا قد قالوه .

ان هو الا عبد انعمنا عليه وجعلناه مثلا لبني اسرائيل

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - حقيقة عيسى - عليه السلام - فقال إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لبني إِسْرَائِيلَ ) .أى : ليس هو أى : عيسى - عليه السلام - إلا عبد من عبادنا الذين أنعمنا عليهم بنعمة النبوة ( وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً ) أى : أمرا عجيبا ، جديرا بأن يسير ذكره كالأمثال ( لبني إِسْرَائِيلَ ) الذين أرسلناه إليهم ، حيث خلقناه من غير أب وأعطيناه المعجزات الباهرات التى منها : إبراء الأكمة والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله . . وهذا كله دليل على وحدانيتنا ، وكمال قدرتنا ونفاذ إرادتنا .فالآية الكريمة ترفع من شأن عيسى - عليه السلام - ، وتحدد منزلته ، وتنفى عنه غلو المغالين فى شأنه ، وإنقاص المنقصين من قدره .

ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الارض يخلفون

كما فسرها الوسيط ثم أكد - سبحانه - كمال قدرته فقال : ( وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُمْ مَّلاَئِكَةً فِي الأرض يَخْلُفُونَ ) .و " من " فى قوله - تعالى - ( مِنكُمْ ) يصح أن تكون للبدلية ، فيكون المعنى : ولو نشاء لفعلنا ولجعلنا بدلا منكم ملائكة يخلفونه بعد موتكم إهلاككم أيها الكافرون ويصح أن تكون للتبعيض فيكون المعنى ، : ولكنا لم نشأ ذلك لحكم نحن نعلمها .فالمقصود بالآية ، ولو نشاء لجعلنا منكم يا رجل قريش ملائكة ، بطريق التوليد منكم ، من غير واسطة نساء ، فهذا أمر سهل علينا ، مع أنه أعجب من حال عيسى الذى تستغربونه لأنه جاء من غير أب ، مع أن الأم من طبيعتها الولادة .فالمقصود بالآية ، الكريمة بيان أن قدرة الله - تعالى -لا يعجزها شئ ، وأن ما تعجبو منه الله - تعالى - قادر على أن يأتى بما هو أعجب منه .قال صاحب الكشاف : قوله ) ، لقدرتنا على خلق عجائب الأمور ، وبدائع الفطر ( وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُمْ ) أى : لولدنا منكم يا رجال ( مّلآئِكَةً ) يخلفونكم ، فى الأرض ، كما يخلفكم أولادكم ، كما ولدنا عيسى من أنثى من غير فحل لتعرفوا تميزنا بالقدرة الباهرة ، ولتعلموا أن الملائكة أجسام . . . وذات الله - تعالى - متعالية عن ذلك .

وانه لعلم للساعة فلا تمترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم

- كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعض ما يتعلق بعيسى - عليه السلام
فقال : ( وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ) .فالضمير فى ( إِنَّهُ ) يعود
إلى عيسى لأن السياق فى شأنه ، وقيل يعود إلى القرآن أو إلى الرسول - صلى
: الله عليه وسلم - وضعف ذلك لأن الكلام فى شأن عيسى .والمراد بالعلم
واللام فى قوله ( لِّلسَّاعَةِ ) بمعنى على . والكلام على حذف مضاف
والمعنى : وإن عيسى - عليه السلام - عند نزوله من السماء فى آخر الزمان.
حيا ، ليكونن علامة على قرب قيام الساعة ، ودليلا على أن نهاية الدنيا توشك
أن تقع . .قال الآلوسى : ( وَإِنَّهُ ) أى : عيسى عليه السلام - ( لَعِلْمٌ
- لِّلسَّاعَةِ ) أى : أنه بنزوله شرط من أشراطها .وقد نطقت الأخبار بنزلوه
عليه السلام - فى آخر الزمان ، فقد أخرج البخارى ومسلم والترمذى وأبو داود
" : - وابن ماجه ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم
لينزلن ابن مريم ، حكما عدلا فليكسرن الصليب ، وليقتلن الخنزير ، وليضعن
الجزية ، وليذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد ، وليدعون إلى المال فلا يقبله
أحد " .وقال ابن كثير ما ملخصه : قوله : ( وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ
الصحيح أن الضمير يعود على عيسى ، فإن السياق فى ذكره ، ثم المراد بذلك (
نزوله قبل يوم القيامة كما قال - تعالى - ( وَإِن مِّنْ أَهْلِ الكتاب
إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ . . . ) أى : قبل موت عيسى .وقد
تواترت الأحاديث عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " أنه خبر بنزول عيسى
قبل يوم القيامة ، إماما عادلا ، وحكما مقسطا " .وقوله : ( فَلاَ
- تَمْتَرُنَّ بِهَا ) أى : فلا تشكن فى وقوعها فى الوقت الذى يشاؤه الله
) : تعالى - ، فقوله ( تَمْتَرُنَّ ) من المرية بمعنى الشك والريب .وقوله
واتبعون هذا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ) أى : واتبعوا - أيها الناس - ما جئتكم
به من عند ربى ، فإن هذا الذى جئتكم به ، هو الطريق المستقيم الذى يوصلكم
إلى السعادة فى الدنيا والآخرة .

ولا يصدنكم الشيطان انه لكم عدو مبين

كما فسرها الوسيط ( وَلاَ يَصُدَّنَّكُمُ الشيطان ) أى : ولا يمنعنكم
الشيطان بسبب وسوسته لكم ، عن طاعتى واتباعى ( إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ
- مُّبِينٌ ) أى : إن الشيطان عداوته لكم ظاهرة ، وكيده لكم واضح ، كما قال
تعالى - :( إِنَّ الشيطان لَكُمْ عَدُوٌّ فاتخذوه عَدُوّاً إِنَّمَا
يَدْعُواْ حِزْبَهُ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَابِ السعير ).

ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولابين لكم بعض الذي تختلفون
فيه فاتقوا الله واطيعون

، كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - ما قاله عيسى - عليه السلام - لقومه
عندما بعثه الله إليهم فقال : ( وَلَمَّا جَآءَ عيسى بالبينات قَالَ قَدْ
، جِئْتُكُم بالحكمة ) .والبينات : جمع بينة . وهى صفة لموصوف محذوف
- والمراد بها : المعجزات التى أيد الله - تعالى - بها عيسى - عليه السلام
والمراد بالحكمة : التشريعات والتكاليف والمواعظ التى أرشدهم إليها ، عن.
طريق الكتاب الذىأنزله الله تعالى إليه ، وهو الإنجيل .أى : وحين جاء
عيسى - عليه السلام - إلى قومه ، قال لهم على سبيل النصح والإرشاد : يا
قوم لقد جئتكم بالمعجزات البينات الواضحة التى تشهد بصدقى وجئتكم بالإنجيل
) : المشتمل على ما تقتضيه الحكمة الإلهية من آداب وتشريعات ومواعظ .وقوله
وَلأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الذي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ) متعلق بمحذوف
والتقدير :قد جئتكم بالحكمة لأعلمكم إياها ، وجئتكم - أيضا - لأبين لكم
ولأصحح لكم بعض الأمور التى تختلفون فيها .وقال - سبحانه - ( وَلأُبَيِّنَ
لَكُم بَعْضَ الذي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ) ولم يقل لكم كل الذى تختلفون فيه
، للإشعار بالرحمة بهم وبالستر عليهم ، حيث بين البعض وترك البعض الآخر ،
لأنه لا ضرورة تدعو إلى بيانه .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : هلا بين لهم كل
، الذى يختلفون فيه؟ قلت : كانوا يختلفون فى الديانات ، وما يتعلق بالتكليف
وفيهما سوى ذلك مما لم يتعبدوا بمعرفته والسؤال عنه ، وإنما بعث ليبين لهم
ما اختلفوا فيه مما يعنيهم من أمر دينهم . .وقوله - تعالى - : ( فاتقوا
الله وَأَطِيعُونِ إِنَّ الله هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فاعبدوه هذا صِرَاطٌ
- مُّسْتَقِيمٌ ) .أى : إذا كان الأمر كما ذكرت لكم ، فاتقوا الله - تعالى
بأنه تصونوا أنفسكم عن كل ما يغضبه ، وبأن تطيعونى فى كل ما آمركم به أو
أنهاكم عنه .

ان الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم

كما فسرها الوسيط وإن الله - تعالى - هو ربى وربكم فأخلصوا له العبادة
والطاعة ، وهذا الذى آمركم به أو أنهاكم عنه ، هو الطريق القويم ، الذى
يوصلكم إلى السعادة الدنيوية والأخروية .

فاختلف الاحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم اليم

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - موقف أهل الكتاب من دعوة عيسى - عليه السلام - فقال ( فاختلف الأحزاب مِن بَيْنِهِمْ ) .والأحزاب : جمع حزب ، والمراد بهم الفرق التى تحزبت وتجمعت على الباطل من بعد عيسى .وضمير الجمع فى قوله ( مِن بَيْنِهِمْ ) يعود إلى من بعث إليهم عيسى - عليه السلام - من اليهود والنصارى .وقيل : يعود إلى النصارى خاصة ، لأنهم هم الذين اختلفوا فى شأنه ، فمنهم من قال : هو الله ومنهم من قال : هو ابن الله . ومنهم من قال : ثالث ثلاثة .قال الآلوسى : قوله : ( فاختلف الأحزاب ) أى : الفرق المتحزبة ( مِن بَيْنِهِمْ ) أى : من بين من بعث إليهم ، وخاطبهم بما خاطبهم من اليهود والنصارى وهم أمة دعوته - عليه السلام - .وقيل : المراد ، النصارى ، وهم أمة إجابته ، وقد اختلفوا فرقا : ملكانية ، ونسطورية ويعقوبية .وقوله - تعالى - : ( فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ) بيان للعقاب الشديد الذى أعده الله - تعالى - لهم بسبب اختلافهم وبغيهم ، ونسبتهم إلى عيسى ما هو برئ منه .أى : فهلاك ، وعذاب شديد للذين ظلموا أنفسهم بالكفر ، وبافترائهم على عيسى - عليه السلام - ، وما أشد حسرتهم فى هذا اليوم العصيب .

هل ينظرون الا الساعة ان تاتيهم بغتة وهم لا يشعرون

كما فسرها الوسيط والاستفهام فى قوله : ( هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ الساعة أَن تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ) للنفى .وينظرون بمعنى ينتظرون . والخطاب لكفار مكة الذين أعرضوا عن دعوة الحق .أى : ما ينتظر : هؤلاء المشركون إلا قيام الساعة ، وهذا القيام سيأتيهم فجأة ، وبدن شعور منهم بها ، وحينيئذ يندمون ولن ينفعهم الندم ، ولو كانوا عقلاء لاتبعوا الحق الذى جاءهم به رسولنا - صلى الله عليه وسلم - ، قبل فوات الأوان فالآية الكريمة دعوة لهؤلاء المشركين إلى الاستجابة للرسول - صلى الله عليه وسلم - إذا دعاهم لما يصلحهم ، من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ الساعة أَن تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فأنى لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ) وبذلك نرى الآيات الكريمة ، قد وبخت المشركين على جدالهم بالباطل وردت عليهم بما يخرس ألسنتهم ، وبينت الحق فى شأن عيسى - عليه السلام - وتوعدت المختلفين فى أمره - اختلافا يتنافى مع ما جاءهم به - بالعذاب الشديد .

الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين

كما فسرها الوسيط وبعد هذا الحديث عن جانب عن قصة موسى ، وعن جانب من قصة عيسى - عليهما السلام - ، وعن موقف أقوامها منهما . . بعد كل ذلك رسمت ، السورة الكريمة صورة واضحة لحسن عاقبة المؤمنين ، ولسوء عاقبة المكذبين ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حى عن بينة ، فقال - تعالى - : ( الأخلاء يَوْمَئِذٍ . . . وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ) .وقوله - تعالى - : جمع خليل بمعنى صديق . وسمى الأصدقاء أخلاء ، لأن المودة التى ( الأخلاء ) بينهم تخللت قلوبهم واختلطت بنفوسهم .أى : الأصدقاء فى الدنيا ، يصير بعضهم لبعض يوم القيامة أعداء ، لأنهم كانوا يجتمعون على الشرور والآثام فى الدنيا ، وكانوا يتواصون بالبقاء على الكفر والفسوق والعصيان فلما جاء يوم القيامة ، وانكشفت الحقائق . . انقلبت صداقتهم إلى عداوة .( إِلاَّ المتقين فإن صداقتهم فى الدنيا تنفعهم فى الآخرة ، لأنهم أقاموها على الإيمان ( والعمل الصالح والطاعة لله رب العالمين .فالآية الكريمة إنذار للكافرين . . الذين كانت صداقاتهم فى الدنيا تقوم على محاربة الحق ، ومناصرة الباطل - وبشارة عظيمة للمتقين الذين بنوا صداقتهم فى الدنيا على طاعة الله . عالى - ونصرة دينه ، والعمل بشريعته .

يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا انتم تحزنون

، كما فسرها الوسيط ثم بشر الله - تعالى - عباده بجملة من البشارات الكريمة فقال - تعالى - : ( ياعباد لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ اليوم وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ الذين آمَنُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ ادخلوا الجنة أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ) .والخوف معناه : توقع ما يخشاه ويغتم له الإنسان فى المستقبل . والحزن معناه : غم يلحق الإنسان من أجل شئ مضى .وقوله : ( تُحْبَرُونَ ) أى : تحفرحون وسترون سرورا عظيما يظهر حباره - بفتح الحاء وكسرها - أى : أثره الحسن على وجوهكم وأفئدتكم ، فهو من - الحبر - بفتح الحاء والباء - بمعنى الأثر . ويصح أن يكون من الحَبْر

بسكون الباء - بمعنى الزينة وحسن الهيئة .وبهذا ترى الآيات الكريمة قد نفت عنهم الخوف والحزن ، وفتحت لهم أبواب الجنة ، وأعلمتهم بأنهم سيكونون هم وأزواجهم فى سرور دائم .أى : يقول الله - تعالى - لعباده من المؤمنين يوم القيامة : يا عباد الذين شرفتكم بالإضافة إلى ذاتى ، لا خوف عليكم اليوم من أمر المستقبل ، ولا أنتم تحزنون على أمر مضى .

الذين امنوا باياتنا وكانوا مسلمين

كما فسرها الوسيط وقوله : ( الذين آمَنُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ ) فى محل نصب ، صفة لقوله " يا عباد " أى : يا عباد الذين آمنوا بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وعلى صدق نبينا - صلى الله عليه وسلم - وكانوا فى الدنيا مخلصين وجوههم لنا ، وجاعلين أنفسهم سالمة لطاعتنا . .

ادخلوا الجنة انتم وازواجكم تحبرون

كما فسرها الوسيط ( ادخلوا الجنة أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ ) أى : ونساؤكم المؤمنات ( تُحْبَرُونَ ) أى : تسرون وتتلذذون بتلك النعم التى أنعم بها عليكم - سبحانه - .فالمراد بأزواجهم هنا : نساؤهم ، لأن فى هذه الصحبة تلذذا أكثر ، ونعيما أكبر .والإضافة فى قوله ( أَزْوَاجُكُمْ ) للاختصاص التام فتخرج الأزواج غير المؤمنات .ومنهم من يرى أن المراد بقوله ( وَأَزْوَاجُكُمْ ) : نظراؤكم وأشباهكم فى الطاعة لله - تعالى - .أى : ادخلوا الجنة أنتم وأشباهكم فى الإيمان والطاعة ، دخولا لا تنالون معه إلا الفرح الدائم ، والسرور الذى لا انقطاع له .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( إِنَّ أَصْحَابَ الجنة اليوم فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلاَلٍ عَلَى الأرآئك مُتَّكِئُونَ )

يطاف عليهم بصحاف من ذهب واكواب وفيها ما تشتهيه الانفس وتلذ الاعين وانتم فيها خالدون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - مظاهر أخرى لتكريمه لهؤلاء العباد فقال : ( . . . يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ) والصحاف : جمعي صحيفة ، وهى الآنية الواسعة الكبيرة التى توضع فيها الأطعمة .والأكواب : جمع كوب وهو ما يوضع فيه الشراب .وفى الكلام حذف يعرف من السياق ، والتقدير : يقال لهم : ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون ، يطاف عليهم بأطعمة وأشربة فى أوان من ذهب . فإذا ما دخلوها واستقروا فيها ، إذ لا معنى للطواف بالصحاف والأكواب ولم تذكر الأطعمة والشربة للعلم بها ، وفيها كل ما تشتهيه الأنفس من أنواع المشتهيات ، وكل ما تتلذذ بين الأعين وتسر برؤيته .( وَأَنتُمْ ) أيها المؤمنون ( فِيهَا خَالِدُونَ ) خلودا أبديا لا نهاية له .

وتلك الجنة التي اورثتموها بما كنتم تعملون

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - هذا التكريم لعباده بقوله : ( وَتِلْكَ الجنة التي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ) .واسم الإشارة ( تِلْكَ ) مبتدأ وخبره ( الجنة ) وما بعدها صفة الجنة . . وفى الكلام التفات من الغيبة إلى الخطاب على سبيل التشريف .وقال - سبحانه - ( وَتِلْكَ ) بالإفراد ، للإشعار بأن الخطاب لكل واحد من أهل الجنة ، على سبيل العناية به ، والإعلاء من شأنه .أى : ويقال لهم يوم القيامة على سبيل التشريف : وهذه الجنة التى أورثتموها بسبب أعمالكم الصالحة فى الدنيا لكم فيها فاكهة كثيرة ، وثمار لذيذة ، منها تأكلون أكلا هنيئا مريئا .وعبر بقوله - تعالى - ( أُورِثْتُمُوهَا ) للإشعار بأنها قد صارت إليهم بفضل الله وكرمه ، كما يصير الميراث إلى الوارث .وقوله ( بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ) بيان للأسباب التى أوصلتهم إلى هذه المنازل الالية ، فإن أعمالهم الطيبة التى تقبلها الله - تعالى - منهم ، جعلتهم - بفضله وإحسانه - فى أعلى الدرجات وأسماها .

لكم فيها فاكهة كثيرة منها تاكلون

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - هذا التكريم لعباده بقوله : ( وَتِلْكَ الجنة التي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ) .واسم الإشارة ( تِلْكَ ) مبتدأ وخبره ( الجنة ) وما بعدها صفة الجنة . . وفى الكلام التفات من

الغيبة إلى الخطاب على سبيل التشريف .وقال - سبحانه - ( وَتِلْكَ )
بالإفراد ، للإشعار بأن الخطاب لكل واحد من أهل الجنة ، على سبيل العناية
: به ، والإعلاء من شأنه .أى : ويقال لهم يوم القيامة على سبيل التشريف
وهذه الجنة التى أورثتموها بسبب أعمالكم الصالحة فى الدنيا لكم فيها فاكهة
- كثيرة ، وثمار لذيذة ، منها تأكلون أكلا هنيئا مريئا .وعبر بقوله - تعالى
للإشعار بأنها قد صارت إليهم بفضل الله وكرمه ، كما ( أُورِثْتُمُوهَا )
يصير الميراث إلى الوارث .وقوله ( بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ) بيان
للأسباب التى أوصلتهم إلى هذه المنازل الالية ، فإن أعمالهم الطيبة التى
تقبلها الله - تعالى - منهم ، جعلتهم - بفضله وإحسانه - فى أعلى الدرجات
وأسماها

ان المجرمين في عذاب جهنم خالدون

كما فسرها الوسيط وكعادة القرآن الكريم فى المقارنة بين الأخيار والأشرار
، جاء الحديث عن سوء عاقبة الكافرين بعد الحديث عن حسن عاقبة المؤمنين
: فقال - تعالى - ( إِنَّ المجرمين فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ) .أى
إن الكافرين بالحق ، الراسخين فى الإجرام ، الكاملين فيه ، سيكونون يوم
القيامة ، فى عذاب جهنم خالدين فيه خلودا أبديا .

لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون

، كما فسرها الوسيط ( لاَ يُفَتَّرُ عَنْهُمْ ) أى :لا يخفف عنهم العذاب
فقوله ( يُفَتَّرُ ) مأخوذ من الفتور بمعنى الهدوء والسكون ، يقال : فترت
الحمى ، إذا خفت حدتها ، وفتر المرض إذا سكن قليلا .( وَهُمْ فِيهِ
مُبْلِسُونَ ) أى : وهم فى هذا العذاب فى أقصى درجات الحزن والذلة واليأس
يقال : أبلس فلان إبلاسا ، إذا سكت عن الكلام سكوتا مصحوبا بالحزن وانقطاع
الحجة .

وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن ما نزل بهؤلاء المجرمين من عذاب كان
بسبب كفرهم فقال - تعالى - : ( وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ولكن كَانُواْ هُمُ
الظالمين ) .أى : نحن ما ظلمنا هؤلاء الكافرين بإنزال هذا العذاب المهين
، الدائم بهم ، ولكن هم الذين ظلموا أنفسهم ، باستحبابهم العمى على الهدى
وإيثارهم الغى على الرشد .

ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال انكم ماكثون

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - بعض أقوالهم بعد نزول العذاب بهم فقال
والمراد بذلك سؤال. ( وَنَادَوْاْ يامالك لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ) :
خازن النار واللام فى قوله ( لِيَقْضِ ) لام الدعاء .أى : وبعد أن طال
: العذاب على هؤلاء الكافرين ، نادوا فى ذلة واستجداء قائلين لخازن النار
يا مالك ادع لنا ربك كى يقضى علينا ، بأن يميتنا حتى نستريح من هذا العذاب
) : - فالمراد بالقضاء هنا : الإهلاك والإماتة ، ومنه قوله - تعالى.
فَوَكَزَهُ موسى فقضى عَلَيْهِ . . . ) أى : فأهلكه .وفى هذا النداء ما فيه
من الكرب والضيق ، حتى إنهم ليتمنون الموت لكى يستريحوا مما هم فيه من عذاب
وهنا يجيئهم الرد بما يزيدهم غما على غمهم ، وهو قوله - تعالى - : ( قَالَ.
إِنَّكُمْ مَّاكِثُونَ ) أى : قال مالك فى الرد عليهم : إنكم ماكثون فيه
بدون موت يريحكم من عذابها ، وبدون حياة تجدون معها الراحة والأمان .

لقد جئناكم بالحق ولكن اكثركم للحق كارهون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( لَقَدْ جِئْنَاكُم بالحق ولكن
أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ) تأكيد منه - تعالى - وتقرير لرد مالك
عليهم ، ومبين لسبب مكثهم فيها . .أى : لقد جئناكم - أيها الكافرون - بالحق
على ألسنة رسلنا الذين لم يتركوا وسيلة من الوسائل إلا وسلكوها معكم فى
الإرشاد إلى طريق الهدى ، ولكن أكثرهم كان كارها للحق والهدى ، معرضا
عنهما إعراضا كليا ، مصرا على كفره وشكره .وعبر - سبحانه - بالأكثر لأن قلة
منهم لم تكن كارهة للحق ، ولكنها كانت منقادة لأمر سادتها وكبرائها . . أما
الذين كانوا يعرفون الحق ولكن يكرهونه ، فهم الزعماء والكبراء ، لأنهم يرون
فى اتباعه انتقاص من شهواتهم وتصادما مع أهوائهم .

ام ابرموا امرا فانا مبرمون

كما فسرها الوسيط ثم وبخهم - سبحانه - على مكرهم ، وبين أنه مكر بائر خائب
فقال : ( أَمْ أَبرموا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ) .و ( أَمْ ) هنا
منقطعة بمعنى بل والهمزة ، والجملة الكريمة كلام مستأنف مسوق لتأنيب
. المشركين على ما دبروه كيد للرسول - صلى الله عليه وسلم - وللمؤمنين
: والإبرام : الإتقان للشئ والإحكام له ، وأصله الفتل المحكم . يقال
أبرم فلان الحبل ، إذا أتقن فتله .أى : بل أحكموا كيدهم للنبى - صلى الله
عليه - وسلم - ولأصحابه؟ إن كانوا يظنون ذلك فقد خاب ظنهم ، لأن مكرنا أعظم
من مكرهم ، وكيدنا يزهق كيدهم .فالمقصود بالآية الكريمة الانتقال من عدم
إجابة ندائهم ، إلى تأنيبهم على ما كان منهم فى الدنيا من مكر بالحق وأهله
. وكيف أن هذا المكر السئ كانت نتيجته الخسران لهم ،

ام يحسبون انا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لاَ
نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ) توبيخ آخر لهم على جهلهم وانطماس
بصائرهم .والمراد بالسر هنا : حديثهم مع أنفسهم ، والمراد بنجواهم : ما
تكلم به بعضهم مع بعض دون أن يطلعوا عليه أحدا غيرهم .أى : بل أيظن هؤلاء
الجاهلون أننا لا نعلم ما يتحدثون به مع أنفسهم ، وما يتحدثون به مع غيرهم
فى خفية واستتار .وقوله - سبحانه - : ( بلى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ
يَكْتُبُونَ ) أى : إذا كانوا يظنون ذلك فقد خابوا وخسروا ، فإننا نعلم
سرهم ونجواهم . ورسلنا الذين يحفظون عليهم أعمالهم ، ملازمون لهم ، ويسجلون
. عليهم كل صغيرة وكبيرة

قل ان كان للرحمن ولد فانا اول العابدين

كما فسرها الوسيط وبعد هذا التهديد والوعيد لأولئك الكافرين . . تأخذ
السورة الكريمة فى تلقين الرسول - صلى الله عليه وسلم - الحجة التى يجابههم
بها ، وفى تسليته عما أصابه منهم ، وفى الثناء على الله - تعالى - بما هو
أهله من تمجيد وتعظيم ، ثم تختتم بهذا النداء الخاشع من الرسول - صلى الله
. . . عليه وسلم - لخالقه - عز وجل - فتقول : ( قُلْ إِن كَانَ لِلرحمن
سَلاَمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ) .و ( إِن ) فى قوله - تعالى - : ( قُلْ إِن
كَانَ للرحمن وَلَدٌ . . . ) يرى بعضهم أنها شرطية ، وأن الكلام مسوق على
سبيل الفرض والتقدير .والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - ردا على هؤلاء
الكافرين الذين نسبوا الولد إلى الله - تعالى - ، قل لهم : إن كان للرحمن
ولد - على سبيل الفرض والتقدير - فأنا أول العابدين لهذا الولد ، ولكن هذا
الفرض قد ثبتت استحالته يقينا لا شك معه ، فما أدى إليه ، وما ترتب عليه من
نسبتكم الولد إلى الله - تعالى - محال - أيضا - وإذاً فأنا لا أبد إلا
الله - تعالى - وحده ، وأنزهه - سبحانه - عن الولد أو الشريك .ومن الآيات
الكريمة التى نفت عن الله - عز وجل - الولد قوله - تعالى - : ( بَدِيعُ
السماوات والأرض أنى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَّهُ صَاحِبَةٌ
: - وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ) وقوله - عز وجل
وَقَالواْ اتخذ الرحمن وَلَداً لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً تَكَادُ )
السماوات يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأرض وَتَخِرُّ الجبال هَدّاً
( أَن دَعَوْا للرحمن وَلَداً وَمَا يَنبَغِي للرحمن أَن يَتَّخِذَ وَلَداً
، ومن المفسرين الذين رجحوا أن تكون ( إن ) هنا شرطية ، الإمام ابن جرير
فقد قال بعض أن ذكر بعض الأقوال فى ذلك : وأولى الأقوال عندنا بالصواب فى
: ذلك ، قول من قال : معنى ( إن ) الشرط الذى يقتضى الجزاء . ومعنى الكلام
قل يا محمد لمشركى قومك ، الزاعمين أن الملائكة بنات الله ، إن كان للرحمن
ولد - على سبيل الفرض - فأنا أول العابدين . ولكنه لا ولد له فأنا أعبده
. لأنه لا ينبغى أن يكون له ولد .وإذا وجه الكلام إلى ما قلنا من هذا الوجه
لم يكن على وجه الشك ولكن على الإلطاف فى الكلام ، وحسن الخطاب ، كما
قال - جل ثناؤه - ( وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لعلى هُدًى أَوْ فِي ضَلاَلٍ
) مُّبِينٍ ) وقال الإمام ابن كثير : يقول - تعالى - : ( قُلْ ) يا محمد
إِن كَانَ للرحمن وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ العابدين ) .أى : لو فرض هذا
لعبدته على ذلك ، لأنى عبد من عبيده ، مطيع لجميع ما أمرنى به ، ليس عندى
استكبار ولا إباء عن عبادته ، فلو فرض هذا كان هذا ، ولكن هذا ممتنع فى
- حقه - تعالى - ، والشرط لا يلزم منه الوقوع ولا الجواز - أيضا - كما قال
تعالى - : ( لَّوْ أَرَادَ الله أَن يَتَّخِذَ وَلَداً لاصطفى مِمَّا
يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ سُبْحَانَهُ هُوَ الله الواحد القهار ) وقال صاحب
. الكشاف - رحمه الله - : قوله - تعالى - : ( قُلْ إِن كَانَ للرحمن وَلَدٌ
وصح ذلك وثبت ببرهان صحيح .. ( فَأَنَاْ أَوّلُ العابدين ) أى : فأنا ( .
أول من يعظم ذلك الولد ، وأسبقكم إلى طاعته . .وهذا كلام وارد على سبيل
. . . الفرض والتمثيل لغرض ، وهو المبالغة فى نفى الولد ، والإطناب فيه
وذلك أنه علق العبادة بكينونة الولد ، وهى محالة فى نفسها ، فكان المعلق

، بها محالا مثلها . .ويرى بعض العلماء أن ( إن ) فى الآية نافية بمعنى ما
فيكون المعنى : قل - أيها الرسول - لهؤلاء الكافرين : ما كان للرحمن من ولد
، وما صح وما أمكن ذلك ، فهو مستحيل عقلا وشرعا . . وما دام الأمر كذلك ،
فأنا أول العابدين لله - تعالى - المنزهين له عن الولد والشريك وغيرهما
. قال الإمام القرطبى : قوله - تعالى - : ( قُلْ إِن كَانَ لِلرحمن وَلَدٌ.
اختلف فى معناه . فقال ابن عباس والحسن والسدى : المعنى : ما كان ( . .
للرحمن ولد . ( إِنْ ) بمعنى ما ويكون الكلام على هذا تاما ، ثم تبتدى
بقوله - تعالى - ( فَأَنَا أَوَّلُ العابدين ) .وقيل المعنى : قل يا محمد
، إن ثبت له ولد ، فأنا أول من يعبد ولده ، ولكن يستحيل أن يكون له ولد ،
، وهو كما تقول لمن تناظره : إن ثبت ما قلت بالدليل ، فأنا أول من يعتقده
وهذا مبالغة فى الاستبعاد ، أى :لا سبيل إلى اعتقاده . .و ( إِن ) على هذا
للشرط ، وهو الأجود .وقيل إن معنى ( العابدين ) الآنفين . وقال بعض العلماء
لو كان كذلك لكان العبدين . . بغير ألف ، يقال : عبد - بكسر الباء - يعبد
. عبدا - بفتحها - إذا أنف وغضب فهو عبد ، والاسم العبدة ، مثل الآنفة
ويبدو لنا أن الرأيين يؤديان إلى نفى أن يكون لله - تعالى - ولد وإن كان.
الرأى الأول - وهو أنّ حرف ( إِن ) للشرط - هو المتبادر من معنى الآية
. وعليه جمهور المفسرين

سبحان رب السماوات والارض رب العرش عما يصفون

) : كما فسرها الوسيط ثم نزه - عز وجل - ذاته عن أقوال المفترين فقال
: سُبْحَانَ رَبِّ السماوات والأرض رَبِّ العرش عَمَّا يَصِفُونَ ) .وسبحان
، اسم مصدر بمعنى التنزيه والتقديس ، منصوب على أنه مفعول مطلق بفعل محذوف
أى : سبحت الله - تعالى - تسبيحا ، ونزهته تنزيها ، عن أن يكون له ولد أو
شريك ، فهو - عز وجل - رب السماوات ، ورب الأرض رب العرش العظيم ، وهو
المتعالى عن كل ما وصفه الكافرون والفاسقون من صفات لا تليق بجلاله .وجاء
، هذا التنزيه والتقديس بلفظ ( سُبْحَانَ ) ، لا بلفظ الفعل سبح أو يسبح
لأن النقص الذى أراده إلصاقه به شنيع ، فكان من المناسب أن يؤتى بأقوى لفظ
، فى التنزيه والتقديس .و ( مّا ) فى قوله : ( عَمَّا يَصِفُونَ ) مصدرية
أى : عن وصفهم لله الولد ، ويصح أن تكون موصلة والعائد محذوف . أى : عن
الذى يصفونه به .وفى إضافة رب إلى العرش ، مع أنه أعظم الأجرام ، تنبيه على
أن جميع المخلوقات تحت ملكوته وربوبيته ، فكيف يتخذ من خلقه ولدا؟

فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون

كما فسرها الوسيط والفاء فى قوله - تعالى - : ( فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ
وَيَلْعَبُواْ .. ) للافصاح عن شرط مقدر . .أى : إذا كان الأمر كما ذكرنا
، لك - أيها الرسول الكريم -فاترك هؤلاء الكافرين يخوضون فى باطلهم
وينهمكون فى لعبهم .( حتى يُلَاقُواْ يَوْمَهُمُ الذي يُوعَدُونَ ) وهو يوم
القيامة ، الذى سنحاسبهم فيه حسابا عسيرا ، ونعاقبهم بالعقوبة التى
يستحقونها .فالآية الكريمة تسلية للرسول - صلى الله عليه وسلم - عما لحقه
منهم من أذى ، وتهديد لأولئك الكافرين على أقوالهم الباطلة ، وأفعالهم
. الشنيعة

وهو الذي في السماء اله وفي الارض اله وهو الحكيم العليم

كما فسرها الوسيط ثم أكد - سبحانه - أنه هو الإله الحق ، وأن كل ما عداه
باطل ، فقال : ( وَهُوَ الذي فِي السمآء إله وَفِي الأرض إله وَهُوَ الحكيم
العليم ) .والجار والمجرور فى قوله ( فِي السماء . . وَفِي الأرض ) متعلق
بلفظ ( إله ) ، لأنه بمعنى معبود أو بمعنى مستحق للعبادة ، وهذا اللفظ
الكريم خبر مبتدأ محذوف ، أى : هو إله . . .أى : وهو - سبحانه - وحده
المعبود بحق فى السماء ، والمعبود بحق فى الأرض ، لا إله غيره ، ولا رب
سواه ، وهو - عز وجل - ( الحكيم ) فى كل أقواله وأفعاله ( العليم ) بكل شئ
فى هذا الوجود .فالآية الكريمة تدل على أن المستحق للعبادة من أهل السماء
ومن أهل الأرض ، هو الله - تعالى - ، وكل معبود سواه فهو باطل .قال الجمل
ما ملخصه : قوله - سبحانه - : ( وَهُوَ الذي فِي السمآء إله . . . ) الجار
. والمجرور متعلق بلفظ إله ، لأنه بمعنى معبود فى السماء ومعبود فى الأرض
وبما تقرر من أن المراد بإله : معبود ، اندفع ما قيل من أن يقتضى تعدد.
الآلهة ، لأن النكرة إذا أعيدت نكرة تعددت ، كقولك : أنت طالق وطالق
وإيضاح هذا الإندفاع ، أن الإله بمعنى المعبود ، وهو - تعالى - معبود.
، فهيما . والمغايرة إنما هى بين معبوديته فى السماء ، ومعبوديته فى الأرض
، لأن المعبودية من الأمور الإضافية فيكفى التغاير فيها من أحد الطرفين
فإذا كان العابد فى السماء غير العابد فى الأرض ، صدق أن معبوديته فى
السماء غير معبوديته فى الأرض مع أن المعبود واحد ، وفيه دلالة على

. . اختصاصه - تعالى - باستحقاق الألوهية ، فإن التقديم يدل على الاختصاص

وتبارك الذي له ملك السماوات والارض وما بينهما وعنده علم الساعة واليه ترجعون

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( وَتَبَارَكَ الذي لَهُ مُلْكُ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا ) ثناء منه - سبحانه - على ذاته بما هو أهله .ولفظ ( تَبَارَكَ ) فعل ماض ، أى تعالى الله وتعظم ، وزاد خيره وكثر . إنعامه ، وهو مأخوذ من البركة - بفتح الراء - بمعنى الكثرة من كل خير أو من البرك - بسكون الراء - بمعنى الثبوت والدوام . . . وكل شئ ثبت ودام - فقد برك .أى : وتعالى الله وتقدس ، وثبت خيره ، وزاد إنعامه ، فهو سبحانه - الذى له ملك السماوات والأرض ، وله ملك ما بينهما من مخلوقات أخرى لا يعلمها أحد سواه .( وَعِندَهُ عِلْمُ الساعة ) أى :وعنده وحده لا عند غيره العلم التام بوقت قيام الساعة .فالمصدر وهو ( عِلْمُ ) مضاف لمفعوله وهو ( الساعة ) والعالم بذلك هو الله - تعالى - .والمراد بالساعة : يوم القيامة ، وسميت بذلك لسرعة قيامها ، كما قال - تعالى - ( وَلِلَّهِ غَيْبُ السماوات والأرض وَمَآ أَمْرُ الساعة إِلاَّ كَلَمْحِ البصر أَوْ هُوَ أَقْرَبُ . . . ) ( وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ) أى : وإليه وحده مرجعكم للحساب أو الجزاء ، وليس إلى أحد سواه - عز وجل - .ثم بين - سبحانه - أنه لا شفاعة لأحد إلا بإذنه ، فقال : ولا يملك الذين يدعون من دون الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون .

ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة الا من شهد بالحق وهم يعلمون

كما فسرها الوسيط والمراد بالموصول فى قوله : ( وَلاَ يَمْلِكُ الذين يَدْعُونَ ) الأصنام وغيرها مما عبد من دون الله - تعالى - ، وهو فاعل ، وجملة ( يَدْعُونَ ) صلة لا محل لها من الإعراب ، والعائد محذوف .والشفاعة من الشفع بمعنى الضم ، لأن الشفيع ينضم إلى المشفوع له ، فيصير شفعا بعد أن كان فردا .والاستثناء فى قوله ( إِلاَّ مَن شَهِدَ بالحق ) متصل ، لأن المستثنى منه عام ، ثم استثنى منه الموحدون ، كعيسى ابن مريم .والمعنى : ولا يملك المعبودون من دون الله - تعالى - الشفاعة لأحد من الناس ، إلا من شهد بالحق منهم ، وأخلص العبادة لله - تعالى - وحده ، كعيسى ابن مريم وعزيز ، والملائكة ، فهؤلاء يملكونها إذا أذن الله - سبحانه - لهم بها ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعا ، إذا كان المستثنى منه خاصا بالأصنام. فيكون المعنى : ولا تملك الصنام الشفاعة لأحد ، لكن من شهد بالحق وبوحدانية الله كعيسى ابن مريم وغيره ، فإنه يملكها بإذن الله - تعالى - .ويصح أن يكون المراد بقوله : ( إِلاَّ مَن شَهِدَ بالحق ) المؤمن المشفوع فيه فيكون المعنى : ولا يملك أحد الشفاعة لأحد . إلا لمن آمن بالله - تعالى - ويشهد الشهادة الحق وهو المؤمن ، فإنه تجوز الشافعة له ، أما الكافر فلا يملك أحد أن يشفع له . كما قال - تعالى - : ( وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارتضى وجملة ( وَهُمْ يَعْلَمُونَ ) حالية . أى : والحال أنهم يعلمون علما ( يقينا ، أن المستحق للعباد هو الله - تعالى - .وقيد - سبحانه - الشهادة بقوله (وَهُمْ يَعْلَمُونَ ) للإشعار بأن الشهادة بالحق مع العلم بها هى المعتدة ، أما الشهادة بدون علم بالمشهود بها فإنها لا تكون كذلك .وجمع - سبحانه - الضمير ( هُمْ ) باعتبار معنى ( مَّنْ ) ، وأفرده فى ضمير ( شَهِدَ ) باعتبار لفظها .

ولئن سالتهم من خلقهم ليقولن الله فانى يؤفكون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما كان عليه المشركون من تناقض بين أقوالهم وأفعالهم فقال : ( وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ الله فأنى يُؤْفَكُونَ ) .أى : والله لئن سألت - يا محمد - هؤلاء الكافرين عمن خلقهم وخلق من يعبدونهم من دون الله ، ليقولن : الله هو الخالق لكل المخلوقات .وقوله : ( فأنى يُؤْفَكُونَ ) استفهام قصد به التعجب من أحوالهم المتناقضة أى : دمتم قد اعترفتم بأن الخالق لكم ولغيركم هو الله فكيف انصرفتم عن عبادة الله إلى عبادة غيره .وكيف أشركتكم مع غيره فى ذلك ، مع اعترافكم بأنه - سبحانه - هو الخالق لكل شئ .يقال : أفك فلان فلانا يأفك إفكا - من باب طرب وعلم - إذا صرفه وقلبه عن الشئ . وسميت قرى قوم لوط - بالمؤتفكات لأن جبريل جعل عاليها سافلها بأمر الله - تعالى - .ثم حكى سبحانه - ما تضع بره الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى ربه فقال : ( يارب إِنَّ هؤلاء قَوْمٌ لاَّ يُؤْمِنُونَ ) .

وقيله يا رب ان هؤلاء قوم لا يؤمنون

. كما فسرها الوسيط والقيل ، والقال ، والقول . . كلها مصادر بمعنى واحد
والضمير يعود إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم وقراءة الجمهور بفتح اللام
وضم الهاءن وعلى أنه معطوف على قوله - تعالى - قبل ذلك : ( سِرّهُمْ
وَنَجْوَاهُم ) ويكون مقول القول : ( يارب إِنّ هؤلاء قَوْمٌ لاَّ
يُؤْمِنُونَ ) .والمعنى : أيحسب هؤلاء الكافرون الجاهلون ، أننا لا نسمع
سرهم ونجواهم ، ونسمع تضرع رسولنا إلينا بقوله : ( يارب إِنّ هؤلاء قَوْمٌ
، لاَّ يُؤْمِنُونَ ) .إن كانوا يحسبون ذلك الحسبان ، فقد كذبوا وخسروا
لأننا نعلم ذلك وغيره علما تاما . ويصح أن يكون قوله - تعالى - ( وَقِيلِهِ
. منصوبا بفعل محذوف والتقدير : ويعلم قيله يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون (
: وقرأ عاصم وحمزة ( وقيلِهِ ) بكسر اللام والهاء ، عطفا على الساعة أى.
وعنده - سبحانه - علم الساعة ، وعلم قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - يا
رب إن هؤلاء المشركين قوم لا يؤمنون .والتعبير بالنداء لفظ الرب ، يعشر
) بالقرب ، ويوحى بالإجابة ويفيد كمال التضرع . .كما أن التعبير بقوله
. قَوْمٌ ) يشير إلى أن كفرهم كان كفرا جماعيا ، لا كفرا فرديا

فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( فاصفح عَنْهُمْ وَقُلْ سَلاَمٌ
فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ) إرشاد وتسلية من الله - تعالى - لنبيه . أى : فأعرض
عنهم ، ولا تطمع فى إيمانهم لشدة كفرهم ، ( وَقُلْ سَلاَمٌ ) أى : وقل لهم
أمرى وشأنى الآن مسالمتكم ومتاركتكم . . ( فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ) سوء :
عاقبة كفرهم وإصرارهم على باطلهم .وبعد : فهذا تفسير لسورة " الزخرف " نسأل
الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .وصلى الله على سيدنا
. محمد وعلى آله وصحبه وسلم

حم

كما فسرها الوسيط سورة " الدخان " من السور المبدوءة بالحروف المقطعة ، وقد
سبق أن قلنا إن أقرب الآراء إلى الصواب فى معناها : أن الله - تعالى - جاء
بها فى أوائل بعض السور للتحدى والتعجيز والتنبيه إلى أن هذا القرآن من عند
الله - عز وجل - فكأنه - تعالى - يقول للمذكبين : هذا هو القرآن ، مؤلف من
- كلمات وحروف هى من جنس ما تتخاطبون به ، فإن كنتم فى شك فى كونه من عنده
تعالى - فأتوا بسورة من مثله . . فعجزوا وانقلبوا خاسرين ، وثبت أن هذا
. - القرآن من عند الله - تعالى

والكتاب المبين

. كما فسرها الوسيط والواو فى قوله - تعالى - : ( والكتاب المبين ) للقسم

انا انزلناه في ليلة مباركة انا كنا منذرين

كما فسرها الوسيط وجوابه ( إِنّآ أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ
والمراد بالليلة المباركة : ليلة القدر . .أى : وحق هذا القرآن الواضح. (
الكلمات ، البين الأسلوب ، لقد ابتدأنا إنزاله فى ليلة كثيرة البركات
، والخيرات .فأنت ترى أن الله - تعالى - قد وصف هه الليلة بأنها مباركة
- لزيادة خيرها وفضلها ، ولما تتابع فيها من نعم دينية ودنيوية . .ولله
تعالى - أن يفضل بعض الأزمنة على بعض وبعض الأمكنة على بعض وبعض الرسل على
بعض . .لا راد لفضله ، ولا معقب لحكمه . .قال الإمام ابن كثير : " يقول
، الله - تعالى - " مخبرا عن هذا القرآن الكريم : أنه أنزله فى ليلة مباركة
وهى ليلة القدر ، كما قال - تعالى - : ( إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ
القدر . . ) وكان ذلك فى شهر رمضان ، كما قال - تعالى - : ( شَهْرُ
رَمَضَانَ الذي أُنْزِلَ فِيهِ القرآن ) ومن قال بأنها - أى : الليلة
، المباركة - ليلة النصف من شعبان - كما روى عن عكرمة - فقد أبعد النّجعة
فإن نصف القرآن أنها فى رمضان .هذا وقد فصل بعضهم أدلة من قال بأن المراد
بها ليلة القدر ، وأدلة من قال بأن المراد بها ليلة النصف من شعبان .والحق
أن المراد بها ليلة القدر ، التى أنزل فيها القرآن من شهر رمضان كما نصت
على ذلك آية سورة البقرة التى تقول : ( شَهْرُ رَمَضَانَ الذي أُنْزِلَ
فِيهِ القرآن ) والأحاديث التى أوردها بعضهم فى أن المراد بها ليلة النصف
من شعبان ، أحاديث مرسلة أو ضعيفة ، أو لا أساس لها . . فثبت أن المراد بها
ليلة القدر .وقوله - سبحانه - : ( إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ) استئناف مبين
لمقتضى الإنزال . .والإنذار : إخبار فيه تخويف وترهيب ، كما أن التبشير
، إخبار فيه تأمين وترغيب .أى : أنزلنا هذا القرآن فى تلك الليلة المباركة
أوا بتدأنا إنزاله فيها ، لن من شأنا أن نخوف بكتبنا ووحينا ، حتى لا يقع
. الناس فى أمر نهيانهم عن الوقوع فيه

فيها يفرق كل امر حكيم

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ) جملة مستأنفة - أيضا - لبيان وجه تخصيص هذه الليلة بإنزال القرآن فيها .وقوله ( يُفْرَقُ ) أى : يفصل ويبين ويكتب . و ( حَكِيمٍ ) أى : ذو حكمة ، أو محكم لا تتغير فيه .أى : فى هذه الليلة المباركة يفصل ويبين ويكتب ، كل أمر ذى حكمة باهرة ، وهذا الأمر صادر عن الله - تعالى - ، الذى ) : لا راد لقضائه ، ولا مبدل لحكمه .قال صاحب الكشاف ما ملخصه : فإن قلت إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ) ما موقع هاتين الجملتين؟قلت : هما جملتان مستأنفتان ، فسر بهما جواب القسم الذى هو قوله - تعالى - : ( إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ) كأنه قيل : أنزلناه لأن من شأننا الإنذار والتحذير من العقاب ، وكان إنزالنا إياه فى هذه الليلة خصوصا ، لأن إنزال القرآن من الأمور الحكيمة ، وهذه الليلة مفرق كل أمر حكيم .ومعنى ( يُفْرَقُ ) يفصل ويكتب كل أمر حكيم من أرزاق العباد وآجالهم وجميع أمورهم .

امرا من عندنا انا كنا مرسلين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن مرد هذه الكتابة والتقدير للأشياء إليه وحده فقال : ( أَمْراً مِّنْ عِنْدِنَآ ) .ولفظ ( أَمْراً . . . ) يرى بعضهم أنه حال من ( كُلُّ أَمْرٍ . . . ) أى : يفرق فى هذه الليلة المباركة كل أمر ذى حكمة ، حالة كون هذا الأمر من عندنا وحدنا لا من عند غيرنا .ويصح أن يكون منصوبا على الاختصاص ، وتنكيره للتفخيم ، أى : أعنى بهذا الأمر الحكيم ، أمرا عظيما كائنا من عندنا وحدنا . وقد اقتضاه علمنا وتدبيرنا .

رحمة من ربك انه هو السميع العليم

كما فسرها الوسيط وقوله : ( إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ) بدل من قوله : ( إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ) .أى أنزلنا هذا القرآن ، فى تلك الليلة المباركة لأن من شأننا إرسال المرسلين إلى الناس ، لأجل الرحمة بهم ، والهداية لهم ، والرعاية لمصالحهم .وقوله : ( إِنَّهُ هُوَ السميع العليم ) تعليل لما قبله . أى : فعل ما فعل من إنزال القرآن ، ومن إرسال الرسل ، لأنه - سبحانه - هو السميع لمن تضرع إليه ، العليم بجميع أحوال خلقه .

رب السماوات والارض وما بينهما ان كنتم موقنين

كما فسرها الوسيط ثم وصف - سبحانه - ذاته بما يدل على كمال قدرته ، ونفاذ إرادته فقال : ( رَبِّ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَآ . . ) من هواء ومن مخلوقات لا يعلمها إلا الله - تعالى - .( إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ) أى إن كنتم على يقين فى إقراركم حين تسالون عمن خلق السماوات والأرض وما بينهما .وجواب الشرط محذوف ، أى : إن كنتم من أهل الإيقان علمتم بأن الله - تعالى - وحده ، هو رب السماوات والأرض وما بينهما .

لا اله الا هو يحيي ويميت ربكم ورب ابائكم الاولين

كما فسرها الوسيط ( لاَ إله إِلاّ هُوَ ) - سبحانه - ( يُحْيِي ) من يريد إحياءه ، ( وَيُمِيتُ ) من يريد إماتته ، هو - تعالى - ( رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَآئِكُمُ الأولين ) .أى : هو - سبحانه - الذى تعهدكم بالرعاية والتربية والخلق ، كما فعل ذلك مع آبائكم الأولين ، الذين أنتم من نسلهم . .

بل هم في شك يلعبون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أحوال الكافرين ، وكيف أنهم عندما ينزل بهم العذاب ، يجأرون إلى الله - تعالى - أن يكشفه عنهم . فقال - تعالى - : - و ( بَلْ ) فى قوله. ( بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ . . . إِنَّا مُنتَقِمُونَ ) - تعالى - : ( بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ) للاضراب الإبطالى ، لأن المقصود من الآية الكريمة ، نفى إيقانهم بأن خالق السماوات والأرض وما بينهما هو الله ، بل قالوا ما قالوا فى ذلك على سبيل الشك واللعب .قال الآلوسى : " قوله : ( بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ . . . ) إضراب إبطالى ، أبطل به إيقانهم لعدم جريهم على موجبة ، وتنوين ( شَكٍّ ) للتعظيم ، أى : فى شك عظيم . ( يَلْعَبُونَ ) أى :لا يقولون ما يقولون عن جد وإذعان ، بل يقولونه مخلوطا بهزء ولعب . وهذه الجملة خبر بعد خبر لهم . . . والالتفات

. . عن خطابهم لفرط عنادهم ، وإهما أمرهم

فارتقب يوم تاتي السماء بدخان مبين

كما فسرها الوسيط والفاء فى قوله - تعالى - : ( فارتقب يَوْمَ تَأْتِي
السمآء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ) لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، ولتسلية
الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأمره بالصبر حتى يحكم الله بينه وبينهم
والارتقاب : الانتظار ، وأكثر ما يستعمل الارتقاب فى الأمر المكروه.
: والمراد باليوم مطلق الوقت ، وهو مفعول به لارتقب .قال الآلوسى ما ملخصه
والمراد السماء جهة العلو ، وإسناد الإتيان بذلك إليها من قبيل الإسناد "
إلى السبب ، لأنه يحصل بعدم إمطارها . . " .أى : فارتقب يوم تأتى السماء
بجدب ومجاعة ، فإن الجائع جدا يرى بينه وبين السماء كهيئة الدخان ، وهى
ظلمة تعرض للبصر لضعفه . . وإرادة الجدب والمجاعة منه مجاز ، من باب ذكر
المسبب وإرادة السبب . . وبعض العرب يسمى الشر الغالب دخانا ، ووجه ذلك أن
الدخان مما يتأذى به فأطلق على كل مؤذ يشبهه ، وأريد به هنا الجدب ، ومعناه
الحقيقى معروف .وللمفسرين فى معنى هذه الآية إتجاهات أولها : ما ورد فى
الحديث الصحيح من " أن مشركى مكة ، لما أصروا على كفرهم على إعراضهم عن
الحق ، دعا عليهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - بقوله : " اللهم أعنى
عليهم بسبع كسبع يوسف . . " فأصابهم القحط والبلاء والجوع . .وكنى عن ذلك
بالدخان ، لأن العرب يسمون الشر الغالب بالدخان ، فيقولون : كان بيننا أمر
، ارتفع له دخان . .والسبب فيه أن الإنسان إذا اشتد ضعفه ، أظلمت عيناه
فيرى الدنيا كالمملوءة بالدخان .روى البخارى وغيره عن ابن مسعود قال : " إن
قريشا لما أبطأت عن الإسلام ، واستعصت على رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - دعا عليهم بسنين كسنى يوسف ، فأصابهم من الجهد والجوع حتى اكلوا
. العظام والميتة وجعلوا يرفعون أبصارهم إلى السماء فلا يرون إلا الدخان
فقيل : يا رسول الله ، استسق الله لمضر فإنها قد هلكت ، فاستسقى لهم فسقوا.
فأنزل الله : ( إِنَّا كَاشِفُو العذاب قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ) ،
قال ابن كثير : " وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين ، ورواه الإمام أحمد فى. "
مسنده ، وهو عند الترمذى والنسائى فى تفسيرهما ، وعن ابن جرير وابن أبى
حاتم من طرق متعددة " .وعلى هذا الرأى يكون الدخان قد وقع فعلا ، بمعنى أن
المشركين قد أصابهم بلاء شديد فى عهد النبى - صلى الله عليه وسلم - . ثم
كشف الله عنهم ما كشف ببركة دعاء النبى - صلى الله عليه وسلم - .أما
الاتجاه الثانى فيرى أصحابه ، أن المراد بالدخان ، ما يكون قبل يوم القيامة
من دخان يسبق ذلك ، كعلامة من علامات البعث والنشور .واستدل أصحاب هذا
الاتجاه ، بأحاديث ذكرها المفسرون .قال ابن كثير : " وقال آخرون : لم يمض
الدخان بعد ، بل هو من أمارات الساعة ، كما تقدم من حديث حذيفة بن أسدي
الغفارى . قال : أشرف علينا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من غرفته
ونحن نتذاكر الساعة ، فقال : "لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات : طلوع
الشمس من مغربها ، والدخان ، والدابة ، وخروج يأجووج ومأجوج ، وخروج عيسى
ابن مريم ، والدجال وثلاثة خسوف : خسوف بالمشرق وخسوب بالمغرب ، وخسوف
بجزيرة العرب ، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس - أو تحشر الناس - تبينت
، معهم حيث باتوا ، وتقيل حيث قالوا .ثم ساق ابن كثير بعد ذلك أحاديث أخرى
وقال فى نهايتها : والظاهر أن ذلك يوم القيامة .ويبدو لنا أن الاتجاه الأول
أقرب إلى سياق الآيات التى ذكرها الله - تعالى - فى هذه السورة ، ولا
يتعارض ذلك مع كون ظهور الدخان علامة من علامات قرب يوم القيامة ، كما جاء
فى حديث حذيفة بن أسيد الغفارى ، الذى ذكره ابن كثير - رحمه - الله - وقال
فى شأنه : تفرد بإخراجه مسلم فى صحيحه .ومن المفسرين الذين رجحوا الاتجاه
الأول الإمام الطبرى ، فقد قال بعد أن ساق هذين القولين : وأولى القولين
بالصواب فى ذلك قول ابن مسعود ، من أن الدخان الذى أمر الله - تعالى - نبيه
ان يرتقبه ، هو ما أصاب قومه من الجهد بدعائه عليهم .وإنما قلت القول الذى
- قاله ابن مسعد - رضى الله عنه - هو أولى تأويل الآية ، لأن الله - تعالى
توعد بالدخان مشركى قريش . . ولأن الأخبار قد تظاهرة بأن ذلك كائن .والمعنى
فانتظر يا محمد لمشركى قومك ، يوم تأتيهم السماء من البلاء الذى يحل بهم :
بمثل الدخان المبين .ومنهم - أيضا - الإمام الآلوسى ، فقد قال - رحمه ،
الله - : هذا والأظهر حمل الدخان على ما روى عنا بن مسعود ، لأن أنسب
. بالسياق ، لما أنه فى كفار قريش ، وبيان سو حالهم

يغشى الناس هذا عذاب اليم

، كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( يَغْشَى الناس ) صفة ثانية للدخان
والمراد بهم كفار مكة وأمثالهم ممن أصابه الجوع والبلاء .أى : ارتقب - أيها
الرسول الكريم - يوم تأتى السماء لهؤلاء المشركين بعذاب من صفاته أنه عذاب
واضح ، يحسونه بحواسهم ، ويشعرون به شعورا جليا ، ومن صفاته كذلك أنه يحيط
بهم من كل جوانبهم ، ويجعلهم يتضعرون إلينا ويقولون : ( هذا عَذَابٌ

. أَلِيمٌ ) أى : شديد ألمه ، وعظيم هوله

ربنا اكشف عنا العذاب انا مؤمنون

كما فسرها الوسيط ثم يقولون - أيضا - : ( رّبّنَا اكشف عَنّا العذاب
إِنّا مْؤْمِنُونَ ) أى : يا ربنا أزل عنا هذا العذاب المتمثل فى الجوع
والامرض وغيرهما ، فإنك إن رفعت عنا ذلك آمنا برسولك - صلى الله عليه سولم
واتبعنا دعوته ، ولكنهم بعد أن كشف الله - تعالى - عنهم هذا العذاب ، نقضوا
. عهودهم ، وأصروا على كفرهم

انى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين

كما فسرها الوسيط ولذا عقب الله - تعالى - على تضرعهم هذا بقوله : ( أنى
. لَهُمُ الذكرى . . ) أى : كيف يتأتى لهم التذكر والاعتبار والاتعاظ
والحال أنهم ( وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مّبِينٌ ) هو محمد - صلى الله.
عليه وسلم - ، الى لم يترك بابا من أبواب الخير إلا وأرشدهم إليه ، ولم
. . يترك وسيلة من وسائل الهداية إلا وسلكها معهم

ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون

كما فسرها الوسيط ولكنهم استحبوا العمى على الهدى ، ولذا أكد القرآن وذلك
فقال : ( ثُمَّ تَوَلّوْاْ عَنْهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ) .أى
. كيف يتعظون والحال أنه قد جاءهم رسول عظيم الشأن ، وضح الحق أكمل توضيح :
فما كان منهم بعد أن استمعوا إليه ، إلا الإعراض عن دعوته ، ولم يكتفوا
بهذا الإعراض والصدود ، بل قالوا فى شأنه بجهالة وسوء أدب : ( مُعَلَّمٌ )
أى : إنسان يعلمه غيره من البشر ، وقالوا فى شأنه -أيضا - ( مّجْنُونٌ )
. أى : مختلط فى عقله

انا كاشفو العذاب قليلا انكم عائدون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - جانبا من مظاهر فضله عليهم ، ورحمته
بهم ، فقال : ( إِنّا كَاشِفُو العذاب قَلِيلاً إِنّكُمْ عَآئِدُونَ )
- أى : إنا بفضلنا ورحمتنا كاشفوا العذاب عنكم كشفا قليلا - أيها المشركون.
ولكنكم لم تقابلوا فضلنا عليكم ، ورحمتنا بكم ، بالشكر والطاعة بل قابلتم ،
) - ذلك بالإصرار على الكفر ، والثبات على الجحود .فالمراد بقوله - تعالى
إِنّكُمْ عَآئِدُونَ ) : عزمهم وإصراهم على الاستمرار على الكفر ، لأنهم
لم يوجد منهم إيمان ، حتى يتركوه ويعودوا إلى الكفر ، وإنما الذى وجد منهم
هو الوعد بالإيمان إذا انكشف عنهم العذاب ، فلما انشكف عنهم ، نقضوا
) : - عهودهم ، واستمروا على كفرهم .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى
وَقَالُواْ ياأيه الساحر ادع لَنَا رَبّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنّنَا
( لَمُهْتَدُونَ فَلَمّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ العذاب إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ
.

يوم نبطش البطشة الكبرى انا منتقمون

) : كما فسرها الوسيط ثم هددهم - سبحانه - تهديدا ترتعد له القلوب فقال
يَوْمَ نَبْطِشُ البطشة الكبرى إِنّا مُنتَقِمُونَ ) .وقوله ( يَوْمَ )
. منصوب بفعل مقدر . وقوله ( نَبْطِشُ ) من البطش بمعنى الأخذ بقوة وعنف
- يقال : بطش فلان بفلان يبطش به ، إذا نكل به تنكيلا شديدا .أى : اذكر
، أيها العاقل - لتعتبر وتتعظ يوم أن نأخذ هؤلاء الكافرين أخذ عزيز مقتدر
حيث ننتقم انتقاما يذلهم ويخزيهم .وهذا البطش الشديد منا لهم سيكون جزاء
منه فى الدنيا ، كانتقامنا منهم يوم بدر وسيكون أشده وأعظمه وأدومه عليهم
يوم القيامة .وبذلك نرى السورة الكريمة بعد ان مدحت القرآن الكريم مدحا ..
عظيما ، وبينت جانبا من مظاهر فضل الله - تعالى - على عباده ، أخذت فى
تسلية الرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من أعدائه ، وهددت هؤلاء
. الأعداء بسوء المصير فى الدنيا ، وفى الآخرة

ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم

كما فسرها الوسيط ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن جانب من قصة
موسى - عليه السلام - مع فرعون وملئه ، وكيف أن الله - تعالى - أجاب دعاء
- نبيه موسى ، فأهلك فرعون وقومه ، ونجى موسى وبنى إسرائيل من شرورهم فقال
تعالى - : ( وَلَقَدْ فَتَنّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ . . مَا
فِيهِ بَلاَءٌ مّبِينٌ ) .واللام فى قوله - تعالى - : ( وَلَقَدْ فَتَنّا

قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ . . ) موطئة للقسم . وقوله ( فَتَنَّا ) من
الفتن بمعنى الاختبار والامتحان . يقال : فتنت الذهب بالنار ، إذا أدلخته
فيها لتعرف جودته من رداءته .والمراد به هنا : إخبارهم وامتحانهم ، بإرسال
موسى - عليه السلام - وبالتوسعة عليهم تارة ، وبالتضييق عليهم تارة أخرى
والمعنى : والله قد اتبرنا فرعون وقومه من قبل أن نرسلك - أيها الرسول.
الكريم - إلى هؤلاء المشركين ، وكان اختبارنا وامتحاننا لهم عن طريق إرسال
نبينا موسى إليهم ، وعن طريق ابتلائهم بالسراء والضراء لعلهم يرجعون إلى
- طاعتنا ، ولكنهم لم يرجعوا فأهلكناهم .فالآية الكريمة المقصود بها تسلية
، صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من قومه ، ببيان أن تكذيب الأقوام لرسلهم
حاصل من قبله ، فعليه أن يتأسى بالرسل السابقين فى صبرهم .والمراد بالرسول
- الكريم فى قوله : - تعالى - : ( وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ) : موسى
عليه السلام - ، فقد أرسله - سبحانه - إلى فرعون وقومه ، فبلغهم رسالة ربه
ولكنهم كذبوه وعصوه . .ووصف - سبحانه - نبيه موسى بالكرم ، على سبيل ،
، التشريف له ، والإعلاء من قدره ، فقد كان - عليه السلام - كليما لربه
. ومطيعا لأمره ، ومتحليا بأسمى الأخلاق وأفضلها

ان ادوا الي عباد الله اني لكم رسول امين

كما فسرها الوسيط و ( أَنْ ) فى قوله - تعالى - ( أَنْ أدوا إِلَيَّ
) : عِبَادَ الله ) مفسرة لأن مجئ الرسول إليهم يتضمن معنى القول . وقوله
أدوا إِلَيَّ ) بمعنى سلموا إلى ، أو ضموا إلى . .قوله : ( عِبَادَ الله )
مفعول به . والمراد بهم بنو إسرائيل .والمعنى : جاء إلى فرعون وقومه رسول
، كريم ، هو موسى - عليه السلام - ، فقال لهم : سلموا إلى نبى إسرائيل
وأطلقوهم من الذل والهوان ، واتركوهم يعيشون أحرارا فى هذه الدنيا .ويؤيد
هذا المعنى قوله - تعالى - فى موضع آخر : ( فَأْتِيَاهُ فقولا إِنَّا
رَسُولاَ رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بني إِسْرَائِيلَ وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ
ويصح أن يكون المراد بقوله ( أَنْ أدوا إِلَيَّ ) بمعنى : أن ( . .
استجيبوا لدعوتى ، والمراد بالعباد : ما يشمل بنى إسرائيل وغيرهم ، ويكون
لفظ ( عِبَادَ الله ) منصوب بحرف نداء محذوف .وعليه يكون المعنى : أرسلنا
إلى فرعون وقومه رسولا كريما ، فجاء إليهم وقال لهم على سبيل النصح
، والإرشاد ، يا عباد الله ، إنى رسول الله إليكم ، فاستمعوا إلى قولى
واتبعوا ما أدعوكم إليه من عبادة الله - تعالى - وحده ، وترك عبادة غيره
: قال الآلوسى : قوله : ( أَنْ أدوا إِلَيَّ عِبَادَ الله . . . ) اى.
، أطلقوهم وسلموا إلى ، والمراد بهم بنو إسرائيل الذين كان فرعون يستعبدهم
. والتعبير عنهم بعباد الله ، للإشارة إلى أن استعبادهم إياهم ظلم منه لهم
، أو أدوا إلى حق الله - تعالى - من الإيمان وقبول الدعوة يا عباد الله.
على أن مفعول ( أدوا ) محذوف ، وعباد منادى ، وهو عام لبنى إسرائيل والقبض
والأداء بمعنى الفعل للطاعة - وقبول الدعوة ..وقوله - سبحانه - : ( إِنِّي
لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ) تعليل لما تقدم . أى : استجيبوا لدعوتى ، وأطيعوا
أمرى ، فإنى مرسل من الله - تعالى إليكم ، وأمين على الرسالة ، لأنى لم
. أبدل شيئا مما كلفنى به ربى

وان لا تعلوا على الله اني اتيكم بسلطان مبين

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَأَن لاَّ تَعْلُواْ عَلَى الله )
معطوف على قوله : ( أَنْ أدوا ) وداخل فى حيز القول .أى : قال لهم : أرسلوا
معى بنى إسرائيل ، واستجيبوا لدعوتى ، واحذروا أن تتجبروا أو تتكبروا على
الله - تعالى - ، بأن تستخفوا بوحيه أو تعرضوا عن رسوله . .( إني آتِيكُمْ
بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ) أى : إنى آتيكم من عنده - تعالى - بحجة واضحة لا
. . سبيل إلى إنكارها ، وببرهان ساطع يشهد بصدقى وأمانتى

واني عذت بربي وربكم ان ترجمون

كما فسرها الوسيط ( وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ
أى : وإنى اعتصمت واستجرت بربى وربكم من أن ترجمونى بالحجارة ، أو من أن (
تلحقوا بى ما يؤذينى ، وهذا الاعتصام بالله - تعالى - يجعلنى لا أبالى بكم
. ولا أتراجع عن تبليغ دعوته - سبحانه - بحال من الأحوال ،

وان لم تؤمنوا لي فاعتزلون

- كما فسرها الوسيط ( وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي فاعتزلون ) أى : قال لهم
أيضا - فى ختام نصحة لهم : إنى لن أتراجع عن دعوتكم إلى الحق مهما وضعتم فى
طريقى من عقبات وعليكم أن تؤمنوا بى ، فإن لم تؤمنوا بى . فكونوا بمعزل عن
بحيث تتركونى وشأنى حتى أبلغ رسالة ربى ، فإنه لا موالاة ولا صلة بينى

وبينكم ، ما دمتم مصرين على كفركم .فأنت ترى أن موسى - عليه السلام - قد طلب من فرعون وقومه الاستجابة بدعوته ، ونهاهم عن التكبر والغررو ، وبين ، لهم أنه رسول أمين على وحى الله - تعالى - ، وأنه معتصم بربه من كيدهم وأن عليهم إذا لم يؤمنوا به أن يتركوه وشأنه ، لكى يبلغ رسالة به ، ومن شاء بعد ذلك فليؤمن ومن شاء فليكفر .ولكن الإرشادات الحكيمة من موسى لفرعون وقومه ، لم تجد أذنا صاغية ، فإن الطغيان فى كل زمان ومكان ، لا يعجبه منطق ، الحق والعدل والمسالمة ، ولكن الذى يعجبه هو التكبر فى الأرض بغير الحق . . وإيثار الغى على الرشد

فدعا ربه ان هؤلاء قوم مجرمون

كما فسرها الوسيط ولذا نجد موسى - عليه السلام - يلجأ إلى ربه يطلب منه العون والنصرة فيقول - كما حكى القرآن عنه - : ( فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هؤلاء قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ) .والآية الكريمة معطوفة على كلام محذوف ، يفهم - من السياق ، والتقدير : وبعد أن أمر موسى فرعون وقومه بإخلاص العبادة لله تعالى - ونهاهم عن الإشراك به . . بعد كل ذلك أصروا على تكذيبه ، وأعرضوا عن دعوته ، وآذوه بشتى ألوان الأذى فدعا ربه دعاء حارا قال فيه : يا رب إن هؤلاء القوم - وهم فرعون وشيعته - قوم راسون فى الكفر والإجرام ، فأنزل بهم عقابك الذى يستحقونه .

فاسر بعبادي ليلا انكم متبعون

- كما فسرها الوسيط ثم حكت السورة الكريمة بعد ذلك ما يدل على أن الله تعالى - قد أجاب دعاء موسى - عليه السلام - ، وأنه - سبحانه - قد أرشده إلى ما يفعله فقال : ( فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ) قال الجمل : " قوله : ( فَأَسْرِ ) قرأ الجمهور بقطع الهمزة وقرأ نافع. وابن كثير بوصلها ، وهما لغتان جيدتان : الأولى من أسريت والثانية من سريت قال - تعالى - ( سُبْحَانَ الذي أسرى بِعَبْدِهِ ) وقال : ( والليل إِذَا . - يَسْرِ ) والإسراء السير ليلا ، فذكر الليل - هنا تأكيد له بغير اللفظ إذ الإسراء والسرى : السير ليلا " .والكلام على تقدير القول ، أى : فقال الله - تعالى - على سبيل التعليم والإرشاد : سر يا موسى ببني إسرائيل وبمن آمن معك من القبط من مصر ، بقطع من الليل ( إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ) من جهة فرعون وملئه ، متى علموا بخروجكم .

واترك البحر رهوا انهم جند مغرقون

- كما فسرها الوسيط ( واترك البحر رَهْواً . . . ) أى : متى وصلت إلى البحر أى : البحر الأحمر - فاضربه بعصاك ، ينفلق - فسر فيه أنت ومن معك ، واتركه ساكنا مفتوحا على حاله ، فإذا ما سار خلفك فرعون وجنوده أغرقناهم فيه ، يقالك رها البحر يرهو ، إذا سكن . وجاءت الخيل رهوا ، أى : ساكنة. ويقال - أيضا - رها الرجل رهوا ، إذا فتح بين رجليه وفرق بينهما ، وهو حال من البحر .قال الإمام الرازى : " وفى لفظ ( رَهْواً ) قولان :أحدهما : أنه الساكن ، يقال : عيش راه ، إذا خافضا وادعا ساكنا . .والثانى : أن الرهو هو الفرجة الواسعة ، أى : ذا رهو ، أى : ذا فرجة حتى يدخل فيها فرعون وقومه فيغرقوا . . وإنما أخبره - سبحانه - بذلك حتى يبقى فارغ القلب من شرهم وإيذائهم " .وقوله : ( إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ) تعليل للأمر بتركه رهوا ، أى : اترك البحر على حاله ، فإن أعداءك سيغرقون فيه إغراقا يدمرهم ويهلكهم .

كم تركوا من جنات وعيون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - سوء مآلهم فقال : ( كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ) و ( كَمْ ) هنا خبرية للتكثير والتهويل ، أى : ما أكثر هؤلاء المغرقون خلفهم من بساتين ناضرة ، وعيون يخرج منها الماء النمير . .

وزروع ومقام كريم

كما فسرها الوسيط : (وَزُرُوعٍ ) كثيرة متنوعة ( وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ) أى : ومحافل ومنازل كانت مزينة بألوان من الزينة والزخرفة . .

ونعمة كانوا فيها فاكهين

كما فسرها الوسيط ( وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَاكِهِينَ ) أى : وتنعم

وترفه كانوا فيه يتلذذون ، بما بين أيديهم من رغد العيش . وكثرة الفاكهة والنعمة - بفتح النون - بمعنى التنعم والتلذذ ، والنعمة - بالكسر - المنة. والإنعام بالشئ وتطلق على الجنس الصادق بالقليل والكثير .

كذلك واورثناها قوما اخرين

: كما فسرها الوسيط وقوله : (كَذَلِكَ ) فى محل رفع خبر لمبتدأ محذوف ، أى . الأمر كذلك .قال الجمل ما ملخصه : " قوله : ( كَذَلِكَ ) خبر مبتدأ محذوف أى : الأمر كذلك فالوقوف يكون على هذا اللفظ ، وتكون الجملة إعتراضية لتقرير وتوكيد ما قبلها . . . ويبتدأ بقوله : ( وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ ) وهو معطوف على ( كَمْ تَرَكُواْ . . ) أى : تركوا أمورا كثيرة أورثناها قوما آخرين ، وهم بنو إسرائيل " .وقال الزمخشرى : الكاف فى محل نصب ، على معنى : مثل ذلك الإخراج أخرجناهم منها ( وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ ) ليسوا منهم .فعلى هذا يكون قوله ( وَأَوْرَثْنَاهَا ) معطوفا على تلك الجملة الناصبة للكاف ، فلا يجوز الوقف على ( كَذَلِكَ ) حينئذ .وقال الآلوسى : والمراد بالقوم الآخرين : بنو إسرائيل ، وهم مغيرون للقبط جنسا ودينا ، ويفسر ذلك قوله - تعالى - فى سورة الشعراء : ( كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بني إِسْرَائِيلَ ) وهو ظاهر فى أن بنى اسرائيل رجعوا إلى مصر ، بعد هلاك فرعون وملكوها .وقيل : المراد بالقوم الآخرين غير بنى اسرائيل ممن ملك مصر بعد هلاك فرعون ، لأنه لم يرد فى مشهور التواريخ أن بنى اسرائيل رجعوا إلى مصر ، ولا أنهم ملكوها قط .وما فى سورة الشعراء من باب قوله - تعالى - : ( وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلاَ يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ ) أو من باب : عندى درهم ونصفه . فليس المراد : خصوص ما تركوه ، بل نوعه وما يشبهه .وقيل : المراد من إيراثها إياهم تمكنيهم من التصرف فيها ، ولا يتوقف ذلك على رجوعهم إلى مصر ، كما كانوا فيها أولا .والذى نراه - كما سبق أن قلنا عند تفسير سورة الشعراء - أن الآية صريحة فى توريث بنى اسرائيل للجنات والعيون . . التى خلقها فرعون وقومه بعد غرقهم ، بمعنى أنهم عادوا إلى مصر بعد غرق فرعون ومن معه ، ولكن عودتهم كانت لفترة معينة ، خرجوا بعدها إلى الأرض المقدسة التى دعاهم موسى - عليه السلام - لدخولها كما جاء فى قوله - تعالى - : ( يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا على أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ). . .

فما بكت عليهم السماء والارض وما كانوا منظرين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن فرعون وقومه بعد ان غرقوا ، لم يحزن لهلاكهم أحد ، فقال : ( فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السمآء والأرض وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ) .أى : أن هؤلاء المغرقين ، الذين كانوا ملء السمع والبصر ، وكانوا يذلون غيرهم ، وكانوا يملكون الجنات والعيون . . هؤلاء الطغاة ، لم يحزن لهلاكهم أحد من أهل السماوات أو أهل الأرض ، ولم يؤخر عذابهم لوقت آخر فى الدنيا أو فى الآخرة ، بل نزل بهم الغرق والدمار بدون تأخير أو تسويف .فالمقصود من الآية الكريمة ببيان هوان منزلة هؤلاء المغرين وتفاهة شأنهم ، وعدم أسف أحد على غرقهم ، لأنهم كانوا ممقوتين من كل عاقل ، قال صاحب الكشاف ما ملخصه : كان العرب إذا مات فيهم رجل خطير قالوا فى. . تعظيم مهكله : بكت عليه السماء والأرض وبكته الريح ، وأظلمت له الشمس . قال جرير فى رثاء عمر بن العزيز :نعى النعاة أمير المؤمنين لنا ... يا خير من حج بيت الله واعتمرواحملت أمرا عظيما فاصطبرت له ... وقمت فيه بأمر الله يا عمراالشمس طالعة ليست بكاسفة ... تبكى عليك نجوم الليل والقمراوقالت ليلى بنت طريف الخارجية ، ترثى أخاها الوليد :أيا شجر الخابور مالك مورقا كأنك لم تجزع على ابن طريفوذلك على سبيل التمثيل والتخييل ، مبالغة فى ... وجوب الجزع والبكاء عليه . .وفى الآية تهكم بهم وبحالهم المنافية لحال من يعظم فقده ، فيقال فيه : بكت عليه السماء والأرض . يعنى فما بكى عليهم أهل السماء والأرض ، بل كانكوا بهلاكهم مسرورين . .وقال الإمام ابن كثير : قوله : ( فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السمآء والأرض ) أى : لم تكن لهم أعمال صالحة تصعد فى أبواب السماء فتبكى على فقدهم ، ولا لهم بقاع فى الأرض عبدوا الله فيها ففقدتهم فلهذا استحقوا أن لا ينظروا ولا يؤخروا .ثم ساق - رحمه الله - جملة من الأحاديث منها ما أخرجه ابن جرير " عن شريح بن عبيد الحضرمى ، قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا ، ألا لا غربة على مؤمن . ما مات مؤمن فى غربة غابت عنه فيها بواكيه . إلا بكت عليه السماء والأرض . ثم قرأ - صلى الله عليه وسلم - هذه الآية . ثم قال : إنهما لا يبكيان على كافر . "

ولقد نجينا بني اسرائيل من العذاب المهين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - جانبا من نعمه على بنى إسرائيل فقال : ( وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بني إِسْرَائِيلَ مِنَ العذاب المهين ) أى : والله. لقد نجينا بفضلنا ورحمتنا - بنى إسرائيل من العذاب المهين ، الذى كان ينزله بهم أعداؤهم ، كقتلهم للذكور ، واستبقائهم للإناث .

من فرعون انه كان عاليا من المسرفين

كما فسرها الوسيط وقوله : ( مِن فِرْعَوْنَ ) بدل من العذاب على حذف المضاف ، والتقدير : من عذاب فرعون . . أو على المبالغة كأن فرعون نفس العذاب ، ) : لإفراطه فى تعذيبهم وإهانتهم .ثم بين - سبحانه - حال فرعون فقال إِنَّهُ كَانَ عَالِياً مِّنَ المسرفين ) أى : نجيناهم من فرعون الذى كان . . متكبراً متجبرا ، ومن المسرفين فى فعل الشرور ، وفى ارتكاب القبائح

ولقد اخترناهم على علم على العالمين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - جانبا آخر من إكرامه لبنى اسرائيل فقال : ( وَلَقَدِ اخترناهم على عِلْمٍ عَلَى العالمين ) والاختيار : الاصطفاء. على سبيل التشريف والتكريم ، أى : ولقد اصطفينا بنى إسرائيل على عالمى زمانهم ، ونحن عالمون بذلك علما اقتضته حكمتنا ورحمتنا .فقوله ( على عِلْمٍ ) فى موضع الحال من الفاعل ، والمراد بالعالمين : أهل زمانهم المعاصرين لهم بدليل قوله - تعالى - فى الأمة الإسلامية : ( كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ ، أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ . . . ) وهذا الاصطفاء والاختيار ، إنما مرده إلى من يعمل منهم عملا صالحا ، أما الذين لم يعلموا ذلك فلا مزية لهم ولا فضل ، ولذا نجد كثيرا من الآيات تذم من يستحق الذم منهم .ومن ذلك قوله - تعالى - : ( لُعِنَ الذين كَفَرُواْ مِن بني إِسْرَائِيلَ على لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابن مَرْيَمَ ذلك بِمَا عَصَوْا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ).

واتيناهم من الايات ما فيه بلاء مبين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعض المعجزات التى جاءتهم على أيدى رسلهم فقال : ( وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الآيات مَا فِيهِ بَلاَءٌ مُّبِينٌ ) ، أى : وأعطيناهم من المعجزات الدالة على صدق رسلهم كموسى وعيسى وغيرهما. ما فيه بلاء مبين .أى : ما فيه اختبار وامتحان ظاهر ليتميز الخبيث من الطيب والكافر من المؤمن .ومن هذه الآيات : فلق البحر بالنسبة لموسى ، وإبراء ، الأكمه والأبرص ، بالنسبة لعيسى .ومن هذه الآيات الكريمة نرى جانبا من قصة موسى - عليه السلام - ، وكيف أنه بلغ رسالة ربه على أكمل وجه ، وسلك مع - فرعون وقومه أحكم السبل فى الدعوة إلى الحق . .كما نرى فيها فضل الله ، تعالى - على نبيه ، وعلى بنى إسرائيل ، حيث نجاهم من ظلم فرعون وطغيانه . . وأهكله ومن معه أمام أعينهم ، وأورثهم كنوز أعدائهم

ان هؤلاء ليقولون

كما فسرها الوسيط وبعد هذا الحديث عن موسى - عليه السلام - وعن قومه ، وعن فرعون وشيعته . . بعد كل ذلك انتقلت السورة ، للحديث عن موقف المشركين من قضية البعث والنشور ، وردت عليهم بما يدل على إمكانة البعث وصحته . وأنه واقع لا محالة ، وبينت سوء عاقبة من ينكر ذلك ، ومن يصر على كفره وجحوده فقال الله - تعالى - : ( إِنَّ هؤلاء لَيَقُولُونَ . . . مَا كُنتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ) .واسم الإشارة فى قوله - تعالى - : ( إِنَّ هؤلاَء - لَيَقُولُونَ ) يعود إلى مشركى مكة ، الذين سبق الحديث عنهم فى قوله تعالى - : ( بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ) الخ .وذكر - سبحانه - قصة فرعون وقومه فى الوسط ، للاشارة إلى التشابه بين الفريقين فى التكذيب للحق وفى الإصرار على الضلال .وكانت الإشارة للقريب ، لتحقيرهم والتهوين من ، شأنهم .

ان هي الا موتتنا الاولى وما نحن بمنشرين

كما فسرها الوسيط و ( إِنْ ) فى قوله - تعالى - : ( إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأولى ) نافية . أى : هؤلاء الكافرين ليقولن على سبيل الجزم والتكذيب للبعث : ما الموتة التى نموتها فى نهاية حايتنا الدنيوية ، إلا الموتة النهائية لا حياة بعدها ولا بعث نشور .ومرادهم من الأولى : السابقة المتقدمة على الموعد الذى يوعدونه للبعث والنشر .قال بعض العلماء : وذلك ، أنهم لما وعدوا بعد الحياة الدنيا حالتين أخريين .الأولى منها الموت

والأخرى حياة البعث ، أثبتوا الحالة الأولى وهى الموت ، ونفوا ما بعدها
وسموها أولى مع أنهم اعتقدوا أنه لا شئ بعدها ، لأنهم نزلوا جحدهم على.
الإثبات فجعلوها أولى على ما ذكرت لهم . .وقوله : ( وَمَا نَحْنُ
بِمُنشَرِينَ ) تأكيد لما سبقه . أى : قالوا ليس هنا من موت سوى الموت
- المزيل لحياتنا ، ثم لا بعث ولا حساب ولا نشور بعد ذلك .يقال : أنشر الله
. تعالى - الموتى نشورا ، إذا أحياهم بعد موتهم ، فهم منشرون

فاتوا بابائنا ان كنتم صادقين

كما فسرها الوسيط ثم بين -سبحانه - مطالبهم المتعنتة ، وأدلتهم الباطلة
فقال : ( فَأْتُواْ بِآبَآئِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ) .والفاء للإفصاح
والخطاب للرسول - صلى الله عليه وسلم - وللمؤمنين الذين كانوا يؤمنون ،
بالبعث . أى : إن هؤلاء الكافرين قالوا - أيضا للرسول - صلى الله عليه
. . وسلم - وللمؤمنين . إن كان الأمر كما تقولون من أن هناك بعثا وحسابا
. فأعيدوا الحياة إلى آبائنا الأولين ، واجعلوهم يخرجون إلينا مرة لنراهم

اهم خير ام قوم تبع والذين من قبلهم اهلكناهم انهم كانوا مجرمين

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ
تهديد لهم على جهالاتهم وإصرارهم على كفرهم .والمراد بتبع : أبو ( . . .
، كريب بن مليك ، ويسمى بتبع الحميرى . وهو أحد ملوك حمير .وكان مؤمنا
وقومه كانوا كافرين فأهلكهم الله . وإليه ينسب الأنصار ، ولفظ ( تُبَّعٍ )
يعد لقبا لكل ملك من ملوك اليمن ، كما أن لقب فرون يعد لقبا لمن ملك مصر
- كافرا . .أى : إن هؤلاء الكافرين المعاصرين لك - أيها الرسول الكريم
ليسوا خيرا من قوم تبع ، الذين كانوا أشد منهم قوة وأكثر جمعا ، فلما لجوا
فى طغيانهم أهلكهم الله - تعالى - وإن مصير هؤلاء المشركين - إذا ما
استمروا فى عنادهم - سيكون كمصير قوم تبع . .فالمقصود من الآية الكريمة
تحذير الكافرين من التمادى فى الضلال ، لأن هذا التمادى سيؤدى بهم إلى
الخسران ، كما هو حال قوم تبع الذين لا يخفى أمرهم عليهم .والمراد بمن
قبلهم فى قوله - تعالى - : ( والذين مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ
إِنّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ) : الأقوام السابقون على قوم تبع ، كقوم
عاد وثمود وغيرهم . أو على هؤلاء الكافرين المعاصرين للنبى - صلى الله عليه
وسلم - .أى : والذين من قبل قوم تبع أو من قبل قومك من الظالمين ، أهلكناهم
. لأنهم كانوا قوما مجرمين

وما خلقنا السماوات والارض وما بينهما لاعبين

كما فسرها الوسيط ثم لفت - سبحانه - أنظار الناس إلى التفكر فى خلق
السماوات والأرض فقال : ( وَمَا خَلَقْنَا السماوات والأرض وَمَا
) بَيْنَهُمَا . . ) من مخلوقات لا يعلمها إلا الله - تعالى - ما خلقنا ذلك
. لاَعِبِينَ ) أى : عابثين أو لغير غرض صحيح

ما خلقناهما الا بالحق ولكن اكثرهم لا يعلمون

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( مَا خَلَقْنَاهُمَآ إِلاّ بالحق )
استثناء مفرغ من أعم الأحوال .أى : ما خلقناهما إلا خلقا ملتبسا بالحق
مؤيدا بالحكمة .( ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ) ذلك ، لانطماس
. بصائرهم ، واستحواذ الشيطان عليهم

ان يوم الفصل ميقاتهم اجمعين

، كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن يوم القيامة آت لا ريب فيه
وسيحكم - سبحانه - فى هذا اليوم بين الناس بحكمة العادل فقال : ( إِنّ
يَوْمَ الفصل ) وهو يوم القيامة الذى يفصل فيه الله - عز وجل - بين المحق
والمبطل ، وبين المهتدى والضال . .هذا اليوم ( مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ )
. أى : وقت اجتماعهم للحساب جميعا دون أن يتخلف منهم أحد

يوم لا يغني مولى عن مولى شيئا ولا هم ينصرون

كما فسرها الوسيط ثم وصف - سبحانه - هذا اليوم بقوله : ( يَوْمَ لاَ
) : يُغْنِي مَوْلًى عَن مّوْلًى شَيْئاً وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ) .وقوله
يَوْمَ لاَ يُغْنِي . . . ) بدل من يوم الفصل . والمولى : يطلق على القريب
والصديق والناصر . .أى : فى هذا اليوم ، وهو يوم الفصل ، لن يستطيع قريب أن
ينفع قريبه ، أو صديق أن ينفع صديقه شيئا من النفع ، ولا هم ينصرون من عذاب

الله - تعالى - إذا ما أراد - سبحانه - إزال عذابه بهم .

الا من رحم الله انه هو العزيز الرحيم

كما فسرها الوسيط وقوله : ( إِلاَّ مَن رَّحِمَ الله . . . ) فى محل رفع على أنه بدل من ضمير ( يُنصَرُونَ ) . أو فى محل نصب على الاستثناء منه أى : لا يستطيع صديق أن يدفع العذاب عن صديقه ، ولا قريب أن ينفع قريبه أو ينصره ، إلا من رحمه الله - تعالى - ، وذلك بأن يعفو - سبحانه - عنه ، أو يقبل شفاعة غيره فيه .( إِنَّهُ ) - سبحانه - هو ( العزيز ) الذى لا يغلب ( الرحيم ) الذى وسعت رحمته كل شئ .

ان شجرت الزقوم

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - طعام أهل النار وحالهم يوم القيامة فقال : ( إِنَّ شَجَرَةَ الزقوم طَعَامُ الأثيم كالمهل يَغْلِي فِي البطون كَغَلْيِ الحميم ) .والمراد بشجرة الزقوم : الشجرة التى خلقها الله - تعالى - فى جهنم ، وسماها الشجرة الملعونة ، ليكون طعام أهل النار منها ولفظ الزقوم : اسم لتلك الشجرة ، أو من الزقم بمعنى الالتقام والابتلاع. للشئ .

طعام الاثيم

كما فسرها الوسيط والأثيم : الكثير الآثام والسيئات . والمراد به الكافر لدلالة ما قبله عليه .أى : إن الشجرة المعلونة التى هى شجرة الزقوم ، خلقها الله - تعالى - لتكون طعاما للإنسان الكافر ، الكثير الآثام والجرائم . فتنزل فى بطنه كما ينزل النحاس الجار المذاب ، فيغلى فيها كغلى الماء. البالغ نهاية الحرارة .

كالمهل يغلي في البطون

كما فسرها الوسيط والمهل : هو النحاس المذاب ، أو ردئ الزيت الحار .أى : إن الشجرة المعلونة التى هى شجرة الزقوم ، خلقها الله - تعالى - لتكون طعاما للإنسان الكافر ، الكثير الآثام والجرائم . .فتنزل فى بطنه كما ينزل النحاس الجار المذاب ، فيغلى فيها كغلى الماء البالغ نهاية الحرارة .

كغلي الحميم

كما فسرها الوسيط فقوله : ( كَغَلْيِ الحميم ) نعت لمصدر محذوف . أى : غليا كغلى الحميم .أى : إن الشجرة المعلونة التى هى شجرة الزقوم ، خلقها الله - تعالى - لتكون طعاما للإنسان الكافر ، الكثير الآثام والجرائم . .فتنزل فى بطنه كما ينزل النحاس الجار المذاب ، فيغلى فيها كغلى الماء البالغ نهاية الحرارة .

خذوه فاعتلوه الى سواء الجحيم

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - (خُذُوهُ فاعتلوه إلى سَوَآءِ الجحيم ثُمّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأسِهِ مِنْ عَذَابِ الحميم ذُقْ إِنّكَ أنتَ العزيز الكريم ) مقول لقول محذوف ، هذا القول موجه من الله - تعالى - لملائكة العذاب .وقوله - سبحانه ( فاعتلوه ) من العتل وهو الأخذ بمجامع الشئ ، وجره بغلظة وقهر .يقال : عتل فلان فلانا يعتله عتلا ، إذا جذبه جذبا شديدا ، وسار به إلى ما يركه السير إليه .أى : يقول الله - تعالى - لملائكة العذاب فى هذا اليوم العسير : خذوا هذا الكافر الأثيم ، فجروه بغلظة ، وسوقوه بشدة ( إلى سَوَآءِ الجحيم ) أى : إلى وسطها .

ثم صبوا فوق راسه من عذاب الحميم

كما فسرها الوسيط ( ثُمّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِ ) على سبيل التنكيل به صبا يذله ويوجعه ويجعل رأسه تغلى من شدة حرارة هذا ( مِنْ عَذَابِ الحميم ) الماء .

ذق انك انت العزيز الكريم

كما فسرها الوسيط ثم قولوا له بعد ذلك على سبيل التهكم به ، والتقريع له : أى : تذوق شدة هذا العذاب فالأمر للإهانة .( إِنَّكَ ) كنت تزعم ( ذُقْ )

. فى الدنيا ، بأنك ( إِنَّكَ أَنتَ العزيز الكريم )

ان هذا ما كنتم به تمترون

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات بقوله : ( إِنَّ هذا مَا كُنتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ) أى : إن هذا العذاب الذى نزل بكم أيها الكافرون ، هم ما كنتم بشأنه تجالون وتخاصمون فى الدنيا ، فمنكم من كان ينكره ، ومنكم من كان يشكك فى صحته . فها هو ذا قد أصبح حقيقة واقعة فوق رءوسكم وهكذا نجد الآيات الكريمة ، قد وضحت أن يوم القيامة حق لا ريب فيه ، وأن. الكافرين به سيصيبهم عذاب شديد يذلهم يخزيهم .

ان المتقين في مقام امين

- كما فسرها الوسيط وبعد هذا الحديث عن الكافرين وسوء مصيرهم ، ختم : - سبحانه - السورة الكريمة بالحديث عن المتقين وحسن عاقبتهم فقال - تعالى أى : إن. ( إِنَّ المتقين فِي . . . فارتقب إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ ) الذين اتقوا الله - تعالى - وصانوا أنفسهم عن كل ما لا يرضيه سيكونون يوم القيامة ( فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ) أى : فى مكان يأمن معه صاحبه من كل خوف فالمراد بالمقام - بالفتح - موضع القيام ، أى : الثبات والملازمة . وقرأ. ابن عامر ونافع ، ( مَقَامٍ ) - بضم الميم - أى : موضع الإقامة . والمراد أنهم فى مكان أو مجلس لا خوف فيه ولا مكروه .

في جنات وعيون

كما فسرها الوسيط وقوله : ( فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ) بدل من ( مَقَامٍ أَمِينٍ ) بأعادة حرف الجر أى : هم فى مكان آمن ، تتوسطه وتحيط به البساتين الناضرة ، وعيون الماء المتفجرة .

يلبسون من سندس واستبرق متقابلين

كما فسرها الوسيط ( يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ ) والسندس هو أجود أنواع الحرير وأرقه ، واحدة سندسة .( وَإِسْتَبْرَقٍ ) وهو ما كان سميكا من الديباج والحرير .( مُّتَقَابِلِينَ ) أى : يجلسون فى مجالس متقابلة ، بحيث ينظر بعضهم إلى بعض .

كذلك وزوجناهم بحور عين

كما فسرها الوسيط ( كَذَلِكَ ) أى : الأمر كذلك . من أن المتقين لهم كل هذا النعيم .( وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ) أى : وزوجناهم بنساء يحار الطرف فيهم لجمالهن وحسنهن ، والحور : جمع حوراء . . وهى التى يحار الطرف فيها لفرط جمالها . والعين : جمع عيناء . وهى التى اتسعت عينها فى حسن وجمال .

يدعون فيها بكل فاكهة امنين

كما فسرها الوسيط ( يَدْعُونَ فِيهَا ) أى : فى الجنات ( بِكلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ) .أى : يطلبون ويأمرون غيرهم بأن يحضر لهم كل ما يشتهونه من فاكهة أو غيرها ، فيلبى طلبهم وهم آمنون فى أماكنهم من كل خوف أو ضرر .

لا يذوقون فيها الموت الا الموتة الاولى ووقاهم عذاب الجحيم

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن بقاءهم فى تلك الجنات بقاء دائم فقال : ( لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا الموت إِلاَّ الموتة الأولى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الجحيم ) .أى : هم باقون بقاء دائما فى تلك الجنات ، بحيث لا يموتون فيها أبدا ، إلا الموتة الأولى التى ذاقوها عند نهاية آجالهم فى الدنيا ، ووقاهم - سبحانه - بعدها عذاب الجحيم ، الذى حل بالكافرين .قال الآلوسى : وقوله : ( لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا الموت إِلاَّ الموتة الأولى ) جملة مستأنفة أو حالية ، وكأنه أريد أن يقال :لا يذوقون فيها الموت البتة فوضع الموتة الأولى موضع ذلك ، لأن الموتة الماضية محال ذوقها فى ، المستقبل فإنهم يذوقونها . ونظيره قول القائل لمن يستسقيه :لا أسقيك إلا الجمر ، وقد علم أن الجمر لا يسقى .

فضلا من ربك ذلك هو الفوز العظيم

كما فسرها الوسيط وقوله ( فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ ) أى : أعطوا كل ذلك فضلا

من ربك ، فقوله ( فَضْلاً ) منصوب على المصدرية بفعل محذوف . أو على أنه مفعول لأجله . أى : لأجل الفضل منه - سبحانه - .( ذَلِكَ ) الذى أعطيناهم إياه ( هُوَ الفوز العظيم ) الذى لا يدانيه ولا يساميه فضل .

فانما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون

كما فسرها الوسيط ( فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ ) أى : فإنما أنزلناه عليك - يا محمد - هذا القرآن وجعلناه بلغتك ولغة قومك ( لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ) ما فيه من هدايات ويعتبرون بما اشتمل عليه من عبر وعظات .

فارتقب انهم مرتقبون

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بقوله : ( فارتقب إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ ) .أى : فعلنا ذلك لعلهم يتذكرون ، فإن لم يتذكروا ويتعظوا ويؤمنوا بما جئتهم به . فارتقب وانتظر ما يحل بهم من عذاب وما وعدناك به من النصر عليهم ، إنهم - أيضا - منتظرون ومرتقبون ما يحل بك من موت أو غيره .ونحن بفضلنا ورحمتنا سنتحقق لك ما وعدناك به ، وسنهيب - ظنونهم وآمالهم .وبعد فهذا تفسير وسيط لسورة " الدخان " . نسأل الله تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

حم

كما فسرها الوسيط سورة " الجاثية " من السور التى افتتحت ببعض حروف التهجى وقد سبق أن قلنا ، إن هذه الحروف الرأى الراجح فى معناها ، أنها سيقت ، للتنبيه على إعجاز القرآن ، وعلى أنه من عند الله - عز وجل - .

تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( تَنزِيلُ الكتاب مِنَ الله العزيز الحكيم ) بيان لمصدر هذا القرآن ، وأنه من عند الله - تعالى -لا من عند غيره .أى : هذا القرآن من الله - تعالى - صاحب العزة التى لا عزة سواها ، وصاحب الحكمة التى لا تقاربها حكمة ، فهو - سبحانه - القاهر فوق عباده وهو الحكيم فى كل تصرفاته .

ان في السماوات والارض لايات للمؤمنين

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - ستة أدلة على وحدانيته ، وكمال قدرته ، وجلال عظمته ويتمثل الدليل الأول فى قوله - تعالى - : ( إِنَّ فِي السماوات والأرض لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ) أى : إن فى خلق هذه السماوات المزينة بالمصابيح ، والتى لا ترى فيه من تفاوت ، والمرفوعة بغير عمد . . وفى خلق الأرض الممهدة المفروشة المثبتة بالجبال . . فى كل ذلك لبراهين ساطعة للمؤمنين ، على أن الخالق لهما هو الله - تعالى - وحده ، المستحق للعبادة والطاعة .فالمراد بقوله - تعالى - : ( إِنَّ فِي السماوات والأرض ) أى : إن - فى خلقهما ، كما صرح - سبحانه - بذلك فى آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى : ( إِنَّ فِي خَلْقِ السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيَاتٍ لأُوْلِي الألباب ) والمراد بالآيات : الدلائل والبراهين الدالة على قدرته - سبحانه - ووحدانيته .

وفي خلقكم وما يبث من دابة ايات لقوم يوقنون

كما فسرها الوسيط والدليل الثانى والثالث قوله - تعالى - : ( وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ) قوله : ( وَفِي خَلْقِكُمْ ) جار ومجرور خبر مقدم ، وقوله : ( آيَاتٌ ). . مبتدأ مؤخر .أى : وفى خلقكم - أيها الناس - من نطفة ، فعلقة ، فمضغة إلى أن نخرجكم من بطون أمهاتكم . . وفيما نبثه وننشره ونوجده من دواب لا تعد ولا تحصى على ظهر الأرض .فى كل ذلك ( آيَاتٌ ) بينات ، وعلامات واضحات على كمال قدرتنا ، لقوم يوقنون بأن القادر على هذا الخلق ، إنما هو ، الله - تعالى - وحده .

واختلاف الليل والنهار وما انزل الله من السماء من رزق فاحيا به الارض بعد موتها وتصريف الرياح ايات لقوم يعقلون

كما فسرها الوسيط والدليل الرابع قوله - تعالى - : ( واختلاف الليل والنهار والمراد باختلافهما : تفاوتهما طولا وقصرا ، وتعاقبهما دون أن يسبق ( . . . أحدهما الآخر كما قال - تعالى - : ( لاَ الشمس يَنبَغِي لَهَآ أَن تدْرِكَ القمر وَلاَ الليل سَابِقُ النهار وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ) وكون الليل والنهار يسير أن على هذا النظام الدقيق المطرد الذى لا ينخرم ، دليل على أن هذا الاختلاف ، تدبر من إله قادر حكيم ، لا يدخل أفعاله تفاوت أو اختلال .والدليل الخامس قوله - تعالى - : ( وَمَآ أَنزَلَ الله مِنَ ) : السمآء مّن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا ) .وقوله وَمَآ أَنزَلَ الله .. ) معطوف على ( اختلاف ) ، والمراد من السماء : جهة العلو .والمراد بالرزق : المطر الذى ينزل من السحاب ، وسمى رزقا لأن المطر سبب لأرزاق العباد .أى : ومن الآيات الدالة على قدرته - سبحانه - : إنزاله المطر من السماء فينزل على الأرض ، فتهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج ، بعد ) : - أن كانت جدباء هامدة وأما الدليل السادس فهو قوله - تعالى ، وَتَصْرِيفِ الرياح ) : والمراد بتصريفها : تقليبها فى الجهات المختلفة ونقلها من حال إلى حال ، وتوجيهها على حسب مشيئته - سبحانه - ، فتارة تراها ، حارة ، وتارة تراها باردة .أى : ومن الآيات الدالة على وحدانيته وقدرته ) تقليبه - سبحانه - للرياح كما يشاء ويختار .وفى ذلك الذى بيناه لكم آيَاتٌ ) واضحات على قدرتنا ( لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ) ذلك .قال الجمل فى ) حاشيته : وحاصل ما ذكر هنا من الدلائل ستة ، على ثلاث فواصل : الأولى لِّلْمُؤْمِنِينَ ) ، والثانية ( يُوقِنُونَ ) ، والثالثة ، ( يَعْقِلُونَ ووجه التغاير بينهما ، أن المنصف من نفسه إذا نظر فى لاسماوات والأرض ( وأنه لا بد لهما من صانع آمن ، وإذا نظر فى خلق نفسه ونحوها ، ازداد إيمانا فأيقن . وإذا نظر فى سائر الحوادث عقل واستحكم علمه ، فاختلاف الفواصل الثلاث ، لاختلاف الآيات فى الدقة والظهور .وما ذكر فى هذه الآيات الكريمة من أدلة ساطعة على قدرة الله ووحدانيته جاء فى آيات كثيرة . ومن أجمعها قوله - تعالى - : ( إِنّ فِي خَلْقِ السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تَجْرِي فِي البحر بِمَا يَنفَعُ الناس وَمَآ أنزَلَ الله مِنَ السمآء مِن مّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثّ فِيهَا مِن كُلّ دَآبّةٍ وَتَصْرِيفِ الرياح والسحاب المسخر بَيْنَ السمآء والأرض لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ).

تلك ايات الله نتلوها عليك بالحق فباي حديث بعد الله واياته يؤمنون

كما فسرها الوسيط وبعد أن ذكر - سبحانه - هذه الآدلة الكونية الساطعة التى ، تحمل الناس على إخلاص العبادة له وحده ، أتبع ذلك بتهديد الذين عموا عنها والذين اتخذوا آيات الله هزوا . . فقال - تعالى - : ( تَلْكَ آيَاتُ الله نَتْلُوهَا . . . عَذَابٌ مّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ) .والمراد بالآيات فى قوله - سبحانه - : ( تَلْكَ آيَاتُ الله نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بالحق . . ) آيات القرآن الكريم ، كما فى قوله - تعالى - : ( تِلْكَ آيَاتُ الله نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بالحق وَإِنّكَ لَمِنَ المرسلين ) و ( تَلْكَ ) مبتدأ و ( آيَاتُ الله ) خبر ، و ( نَتْلُوهَا عَلَيْكَ ) حال عاملها ما دل ، ) عليه ( تَلْكَ ) من معنى الإشارة .وقوله ( بالحق ) حال من فاعل : نَتْلُوهَا ) أو من مفعوله ، أى : نتلوها محقين ، أو ملتبسة بالحق .أى تلك - أيها الرسول الكريم - آيات الله - تعالى - المنزلة إليك ، نتولها عليك تلاوة ملتبسة بالحق لا يحوم حولها باطل .وكانت الإشارة للبعيد ، لما فى ذلك من معنى الاستقصاء للآيات ، ولعلو شأنها ، وكمال معانيها ، والوفاء فى مقاصدها .وأضاف - سبحانه - الآيات إليه ، لأنه هو الذى أنزلها على ، نبيه - صلى الله عليه وسلم - ، وفى هذه الإضافة ما فيها من التشريف لها والسمو لمنزلتها .وجعل - سبحانه - تلاوة جبريل للقرآن تلاوة له ، للإشعار بشرف جبريل ، وأنه ما خرج فى تلاوة عما أمره الله - تعالى - به ، فهو رسوله الأمين ، إلى رسله المكرمين .وقوله - سبحانه - : ( فَبِأَيّ حَدِيثٍ بَعْدَ الله وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ) تعجيب من حالهم ، حيث أصر هؤلاء الكافرون على كفرهم ، مع وضوح البراهين والأدلة على بطلان ذلك .أى : فبأى حديث بعد آيات الله المتلوة عليك يؤمن هؤلاء الجاهلون؟ إن عدم إيمانهم بعد ، ظهور الأدلة والبراهين على وجوب الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله دليل على انطماس بصائرهم ، واستيلاء العناد والجحود على قلوبهم .قال الآلوسى : وقوله : ( فَبِأَيّ حَدِيثٍ بَعْدَ الله وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ هو من باب قولهم : أعجبنى زيد وكرمه ، يريدون أعجبنى كرم زيد ، إلا أنهم ( عدلوا عنه للمبالغة فى الإعجاب .أى : فبأى حديث بعد هذه الآيات المتلوة بالحق يؤمنون ، وفيه دلالة على أنه لا بيان أزيد من هذا البيان ، ولا آية أدل من الآية .وقال الواحدى : فبأى حديث بعد حيث الله ، أى : القرآن ، وقد جاء إطلاقه عليه فى قوله - تعالى - : ( الله نَزّلَ أَحْسَنَ الحديث . . ) وحسن الإضمار لقرينة تقدم الحديث .وقوله ( وَآيَاتِهِ ) عطف عليه ) لتغايرهما إجمالا وتفصيلا . . والفاء فى جواب شرط مقدر ، والظرف صفة

. ( حَدِيثٍ

ويل لكل افاك اثيم

كما فسرها الوسيط ثم هدد - تعالى - هؤلاء المشركين بقوله : ( وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ) .والويل : لفظ يدل على الشر أو الهلاك . وهو مصدر لا فعل له من لفظه ، وقد يستعمل بدون حرف النداء كما هنا ، وقد يستعمل معه كما فى قوله - تعالى - : ( ياويلنا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ) والأفاك : هو الإنسان الكثير الإفك وهو أشنع الكذب وأقبحه .والأثيم : هو الإنسان المرتكب للذنوب والآثام بقلبه وجوارحه ، فهو سيئ الظاهر وسيئ الباطن .أى : هلاك وعذاب وحسرة يوم القيامة لكل إنسان ينطق بأقبح الأكاذيب ويفعل أسوأ السيئات .

يسمع ايات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كان لم يسمعها فبشره بعذاب اليم

كما فسرها الوسيط هذا الإنسان - أيضا - من صفاته أنه ( يَسْمَعُ آيَاتِ الله تتلى عَلَيْهِ ) صباح مساء .( ثُمّ ) بعد ذلك ( يُصِرُّ ) على كفره ( مُسْتَكْبِراً ) أى : متكبرا عن الايمان .(كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ) أى : كأنه لم يسمع هذه الآيات ، لأنها لم توافق هواه أو شهواته .والتعبير بقوله ( ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً ) : للتعجيب من حاله ، حيث يصر على كفره ، ويحمل على الدخول فى الإيمان بعد سماع ما يدعو إلى التخلى عن الكفر والإصرار على الشئ : ملازمته وعدم الانفكاك عنه ، مأخوذ من الصر - بفتح الصاد - وهو الشد ، ومنه صرة الدراهم ، لأنها مشدودة على ما بداخلها .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما معنى ( ثُمّ ) فى قوله : ( ثُمّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً ) ؟قلت : كمعناه فى قول القائل ، يرى غمرات الموت ثم يزورها : وأما زيارتها والإقدام على مزاولتها ، فأمر مستبعد ، فمعنى ( ثُمّ ) زذلك أن غمرات الموت خليقة بأن ينجو رائيها بنفسه ، ويطلب الفرار عنها. الإيذان بأن فعل المقدم عليها بعدما رآها وعاينها ، شئ يستبعد فى الغايات والطباع .وكذلك آيات الله الواضحة الناطقة بالحق ، من تليت عليه وسمعها : كان مستبعدا فى العقول إصراره على الضلالة عندها ، واستكباره عن الإيمان بها .وقوله - تعالى - : ( فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ) تهكم بهذا الأفاك الأثيم . . واستسهزاء به . لأن البشارة فى الأصل إنما تكون من أجل الخبر السار ، الذى تتهلل له البشرة .أى : فبشره بعذاب أليم ، بسبب إصراره على كفره ، واستحبابه العمى على الهدى .

واذا علم من اياتنا شيئا اتخذها هزوا اولئك لهم عذاب مهين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - صفة أخرى من صفات هذا الأفاك الأثيم : فقال : ( وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً اتخذها هُزُواً ) .أى وإذا بلغ هذا الإنسان شئ من آياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ، بادر إلى الاستهزاء بها والسخرية منها ، ولم يكتف بالاستهزاء بما سمعه ، بل استهزأ بالآيات كلها لرسوخه فى الكفر والجحود .والتعبير بقوله : ( وَإِذَا عَلِمَ ) زيادة فى تحقيره وتجهيله ، لأن اتخاذه الآيات هزوا بعد علمه بمصدرها ، يدل على إيغاله فى العناد والضلال .وقوله : ( أولئك لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ) بيان لسوء عاقبته . أى : أولئك الذين يفعلون ذلك لهم فى الآخرة عذاب يهينهم ويذلهم ، ويجعلهم محل سخرية العقلاء واحتقارهم .

من ورائهم جهنم ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئا ولا ما اتخذوا من دون الله اولياء ولهم عذاب عظيم

كما فسرها الوسيط ( مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنّمُ ) أى : من قدامهم جهنم ، لأنهم يوجهون إليها بعد موتهم ، أو هى من خلفهم لأنهم معرضون عنها ، ومهملون لما يبعدهم عن دوخلها .والوراء : اسم يستمعل بمعنى الأمام والخلف لأنه يطلق على الجهة التى يواريها الشخص فتعم الخلف والأمام .( وَلاَ يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُواْ شَيْئاً ) أى : ولا يدفع عنهم ما كسبوه فى الدنيا من اموال شيئا من العذاب ، ولو كان هذا الشيء يسيرا ، كما قال - تعالى - : ( إِنّ الذين كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ الله شَيْئاً وأولئك هُمْ وَقُودُ النار )فقوله ( وَلاَ يُغْنِي ) من الغناء - بفتح الغين - بمعنى الدفع والنفع ، ومنه قول الشاعر :وقل غناء عنك مال جمعته ... إذا صار ميراثا وواراك لاحد( وَلاَ مَا اتخذوا مِن دُونِ الله أَوْلِيَآءَ ) أى : ولا يغنى عنهم - أيضا - ما اتخذوه من دون الله - تعالى - من معبودات باطلة .و ( مّا ) فى قوله ( مّا كَسَبُواْ ) و ( مَا اتخذوا ) موصولة والعائد محذوف . ويصح أن تكون فى الموضعين مصدرية .( وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ )لا يعلم مقدار شدته وهوله

. إلا الله - تعالى - وحده

هذا هدى والذين كفروا بايات ربهم لهم عذاب من رجز اليم

كما فسرها الوسيط والإشارة فى قوله - تعالى - ( هذا هُدًى ) تعود إلى القرآن الكريم . والهدى مصدر هداه إلى الشئ إذا دله وأرشده إليه .أى . هذا ). القرآن الذى أوحيناه إليك يا محمد ، فى أعلى درجات الهداية وأكملها والذين كَفَرُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ) الدالة على وجوب إخلاص العبادة له والرجز : يطلق على أشد أنواع ( لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ). العذاب . .أى : لهم أشد أنواع العذاب ، وأكثره إيلاما وإهانة .وجمهور القراء قرأ ( أليم ) بالخفض على أنه نعت لقوله ( رِّجْزٍ ) وقرأ ابن كثير وحفص عن عاصم ( أليم ) بالرفع ، على أنه صفة لعذاب .وهذه الآيات تهديد لكل ، من كانت فيه هذه الصفات التى منها : كثرة الكذب ، وكثرة اقتراف السيئات والإصرار على الباطل . . . ويدخل فى هذا التهديد دخولا أوليا ، النضر بن ، الحارث ، الذى كان يشترى أحاديث الأعاجم ليشغل بها الناس عن سماع القرآن . والذى قيل إن هذه الآيات قد نزلت فيه

الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بامره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون

كما فسرها الوسيط ثم انتقلت السورة الكريمة بعد هذا التهديد الشديد ، للأفاكين . . إلى بيان جانب من النعم التى أنعم بها - سبحانه - على عباده ودعت المؤمنين إلى الصبر والصفح ، فقال - تعالى - ( الله الذي سَخَّرَ ) - لَكُمُ . . . . ثُمَّ إلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ) .وقوله - تعالى - سَخَّرَ ) من التسخير بمعنى التذليل والتيسير . يقال : سخر الله - تعالى - الإبل للإنسان ، إذا ذللها له ، جعلها منقادة لأمره .أى الله - تعالى وحده ، هو الذى بقدرته ورحمته ( سَخَّرَ لَكُمُ البحر ) بأن جعلكم متمكنين من الانتفاع بخيراته ، وبأن جعله على هذه الصفة التى تستطيعون منها استخراج ما فيه من خيرات .وقوله : ( لِتَجْرِيَ الفلك فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ) بيان لبعض الأسباب التى من أجلها سخر ، الله - تعالى - البحر على هذه الصفة .أى : جعل لكم البحر على هذه الصفة لكى تتمكن السفن من الجرى فيه بأمره - تعالى - وقدرته ، ولتطلبوا ما فيه من خيرات ، تارة عن طريق استخراج ما فيه من كنوز ، وتارة عن طريق التجارة فيها ) : وكل ذلك بتيسير الله - تعالى - وفضله ورحمته بكم .وقوله . . وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ) متعلق بمحذوف . أى : أعطاكم ما أعطاكم من ، النعم ، وجعل البحر على صفة تتمكنون معها من الجرى فيه وأنتم فى سفنكم ومن استخراج ما فيه من خيرات . . لعلكم بعد ذلك تشكرون الله - تعالى - على . هذه النعم ، وتستعملونها فيما خلقت من أجله

وسخر لكم ما في السماوات وما في الارض جميعا منه ان في ذلك لايات لقوم يتفكرون

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( وَسَخَّرَ لَكُمْ مّا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض جَمِيعاً مِّنْهُ . . ) تعميم بعد تخصيص .أى : يسر لكم الانتفاع بما فى البحر من خيرات ، ويسر لكم - أيضاً - الانتفاع بكل ما فى السماوات والأرض من نعم لا تعد ولا تحصى ، وكلها منه - تعالى - وحده ، لا من أحد سواه .فقوله : ( جَمِيعاً ) حال من ( وَمَا فِي الأرض ) ، أو تأكيد له . والضمير فى قوله - ( مِّنْهُ ) - يعود إلى الله - عز وجل - ، والجار والمجرور حال من ( مَا ) أيضا ، أى : جميعا كائنا منه - تعالى -لا من غيره قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما معنى ( مِّنْهُ ) فى قوله : ( جَمِيعاً. : مِّنْهُ ) ؟ وما موقعها من الإعراب؟قلت : هى واقعة موقع الحال . والمعنى أنه سخر هذه الأشياء كائنة منه وحاصلة من عنده . يعنى أنه مكونها وموجدها : بقدرته وحكمته ، ثم سخرها لخلقه ، ويجوز أن يكون خبر لمبتدأ محذوف تقديره هى جميعا منه .( إِنَّ فِي ذَلِكَ ) المذكور من تسخير البحر وما فى ، السماوات والأرض لكم ( لآيَاتٍ ) ساطعات ، وعلامات واضحات ، ودلائل بينات على وحدانية الله - تعالى - وقدرته وفضله ( لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ) فى هذه النعم ، ويحسنون شكرها .وخص المتفكرين بالذكر ، لأنهم هم الذين ينتفعون ، بما بين أيديهم من نعم ، إذ بالتفكر السليم ينتقل العاقل من مرحلة الظن إلى مرحلة اليقين ، التى يجزم معها بأن المستحق للعبادة والحمد ، إنما هو . الله رب العالمين

قل للذين امنوا يغفروا للذين لا يرجون ايام الله ليجزي قوما بما كانوا يكسبون

كما فسرها الوسيط ثم أمر الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن
، يحض المؤمنين على التجاوز والصفح ، عما يصدر من المشركين من كلمات بذيئة
ومن أفعال قبيحة ، حتى يأتى الله بأمره . فقال - تعالى - : ( قُل
لِّلَّذِينَ آمَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ الله
وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها وما روى عن ابن. (
عباس أنها نزلت فى عمر بن الخطاب ، شتمه مشرك بمكة قبل الهجرة فهّم أن
: يبطش به ، فنزلت .ومقول القول محذوف لأن الجواب دال عليه . والرجاء هنا
بمعنى الخوف . والمراد بأيام الله : وقائعة بأعدائه .أى : قل - أيها الرسول
الكريم - لأتباعك المؤمنين ، على سبيل النصح والإرشاد ، قل لهم : اغفروا
يغفروا للمشركين الذن لا يخافون من وقائع الله ونقمته بأعدائه ، ولا
يتوقعون أن هناك عذابا شديدا سينتظرهم ، ون هناك ثوابا عظيما سينتظر
المؤمنين .فالآية الكريمة توجيه حكيم للمؤمنين إلى التسامح والصبر على كيد
، أعدائهم ، حتى يأتى الله - تعالى - بأمره ، الذى فيه النصر للمؤمنين
والخسران للكافرين .وقوله - سبحانه - : ( لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا
، كَانُواْ يَكْسِبُونَ ) علة للأمر بالصفح والمغفرة ، وهو متعلق بما قبله
والمراد بالقوم : المؤمنون الذين أمروا بالتسامح والعفو . . والتنكير فى
لفظ ( قَوْماً ) للتعظيم .أى : أمر الله المؤمنين بذلك ، ليجزيهم يوم
القيامة بما سكبوا فى الدنيا من الأعمال الصالحة ، التى منها الصبر على أذى
أعدائهم ، والإغضاء عنهم ، واحتمال المكروه منهم .قال صاحب الكشاف : قوله
، تعليل للأمر بالمغفرة أى إنما أمروا بأن يغفروا ( لِيَجْزِيَ قَوْماً ) :
) : لما أراده الله من توفيتهم جزاء مغفرتهم يوم القيامة .فإن قلت : قوله
قَوْماً ) ما وجه تنكيره ، وإنما أراد الذين آمنوا وهم معارف؟قلت : هو مدح
لهم وثناء عليهم ، كأنه قيل : لجيزى أيما قوم . أو قوما مخصوصين ، لصبرهم
. وإضائهم على أعدائهم من الكفار ، وعلى ما كانوا يجرعونهم من الغصص

من عمل صالحا فلنفسه ومن اساء فعليها ثم الى ربكم ترجعون

، كما فسرها الوسيط ثم عقب - سبحانه - على ذلك بما يؤكد عدالة الجزاء
واحتمال كل نفس لما تعمله فقال : ( مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ
وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ) .أى : من عمل عملا صالحا ، فثواب هذا العمل
يعد إلى نفسه ، ومن عمل سيئا فعقاب هذا العمل يعود عليها - أيضا - .( ثُمَّ
إلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ) يوم القيامة فترون ذلك رأى العين ، وتشادون أن
. كل إنسان سوف يجازى على حسب عمله ، إن هيرا فخير ، وإن شراً فشر

ولقد اتينا بني اسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات
وفضلناهم على العالمين

- كما فسرها الوسيط ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن نعم الله
سبحانه - على بنى إسرائيل ، وعن موقفهم منها ، وأمرت النبى - صلى الله عليه
) : وسلم - أن يتمسك بالشريعة التى أنزلها الله - سبحانه - عليه . . فقال
وَلَقَدْ آتَيْنَا بني إِسْرَائِيلَ . . . وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ
. والمراد بإسرائيل : يعقوب عليه السلام - وببنيه : ذريته من بعده. (
والمراد بالكتاب : التوراة - أو جنس الكتاب فيشمل التوراة والإنجيل
، والزبور .أى : والله لقد أعطينا بنى إسرائيل ( الكتاب ) ليكون هداية لهم
وآتيناهم - أيضا - ( والحكم ) أى : الفقه والفهم للأحكام حتى يتمكنوا من
القضاء بين الناس ، وأعطيناهم كذلك ( النبوة ) بأن جعلنا عددا كبيرا من
الأنبياء فيهم ومنهم .وهكذا منحهم - سبحانه - نعما عظمى تتعلق بدينهم ، أما
) : النعم التى تتعلق بدنياهم فقد بينها - سبحانه - فى قوله
وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطيبات ) أى : ورزقناهم من المطاعم والمشارب
الطيبات التى جعلناها حلالا لهم .وقوله : ( وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى
: العالمين ) بيان لنعمة أخرى . وللمفسرين فى معنى هذه الجملة اتجاهان
أحدهما : أن المقصود بها فضلناهم على العالمين بأمور معينة حيث جعلنا عددا
) : من الأنبياء منهم ، وأنزلنا المن والسلوى عليهم .قال الآلوسى : قوله
وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى العالمين ) حيث آتيناهم ما لم نؤت غيرهم من فلق
البحر ، وإظلال الغمام ، ونظائرهما ، فالمراد تفضيلهم على العالمين مطلقا
من بعض الوجوه ، لا من كلهان ولا من جهة المرتبة والثواب فلا ينافى ذلك
تفضيل أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - عليهم من وجه آخر ، ومن جهة المرتبة
والثواب .والثانى : أن المقصود بها : فضلناهم على عالمى زمانهم .قال
الإمام الرازى ، ما ملخصه : فإن قيل إن تفضيلهم على العالمين ، يقتضى
تفضيلهم على أمة - محمد - صلى الله عليه وسلم - وهذا باطل ، فكيف
الجواب؟قلنا : الجواب من وجه أقربها إلى الصواب أن المراد : فضلتكم على
، عالمى زمانكم ، وذلك لأن الشخص الذى سيوجد بعد ذلك وهو الآن ليس بموجود
لم يكن من جملة العالمين حال عدمه ، وأمة محمد - صلى الله عليه وسلم - لم
تكن موجودة فى ذلك الوقت ، فلا يلزم من كون بنى إسرائيل أفضل العالمين فى

ذلك الوقت ، أنهم أفضل من الأمة الإسلامية .وقال الشيخ الشنقيطى ما ملخصه
- قوله - تعالى - : ( وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى العالمين ) .ذكر - سبحانه :
فى هذه الآية أنه فضل بنى إسرائيل على العالمين ، كما ذكر ذلك فى آيات أخرى
ولكن الله - تعالى - بين أن أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - خير من . .
بنى إسرائيل ، وأكرم على الله ، كما صرح بذلك فى قوله : ( كُنْتُمْ خَيْرَ
أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ) فخير صيغة تفضيل ، والآية نص صريح فى أنهم
خير من جميع الأمم ، بنى إسرائيل وغيرهم .ويؤيد ذلك من حديث معاوية بن حيدة
القشيرى ، " أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال فى أمته : أنتم توفون
سبعين أمة ، أنتم خيرها وأكرمها على الله " ، وقد رواه عنه الإمام أحمد
والترمذى وابن ماجه والحاكم وهو حديث مشهور .واعلم أن ما ذكرنا من كون
الأمة الإسلامية أفضل من بنى إسرائيل وغيرهم لا يعارض ما ورد من آيات فى
تفضيل بنى إسرائيل .لأن ذلك التفضيل الوارد فى بنى إسرائيل ، ذكر فيهم حال
عدم وجود أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - والمعلوم فى حال عدمه ليس بشئ
حتى يفضل على غيره ، أو يفضل غيره عليه .ولكنه - تعالى - بعد وجد الأمة
الإسلامية صرح بأنها خير الأمم ، فثبت أن كل ما جاء فى القرآن من تفضيل
بنى إسرائيل ، إنما يراد به ذكر أحوال سابقة .وهذا الاتجاه الثانى هو الذى
نرجحه ، لأن المقصود بالآية الكريمة وأمثالها تذكير بنى إسرائيل المعاصرين
للنبى - صلى الله عليه وسلم - بنعم الله عليهم وعلى آبائهم ، حتى يكشروه
- عليها .ومن مظاهر هذا الشكر - بل على رأسه - إيمانهم بما جاءهم به النبى
صلى الله عليه وسلم - . ولكن بنى إسرائيل لم يقابلوا تلك النعم بالشكر ، بل
- قابلوا بالجحود والحسد للنبى - صلى الله عليه وسلم - على ما آتاه الله
تعالى - من فضله ، فكانت نتيجة ذلك أن لعنهم الله وغضب عليهم ، وجعل منهم
- القردة والخنازير وعبد الطاغوت .ولقد سبق أن قلنا عند تفسيرنا لقوله
تعالى - فى سورة البقرة : ( وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى العالمين )
والعبرة التى نستخلصها من هذه الآية وأمثالها : أن الله - تعالى - فضل بنى
إسرائيل على غيرهم من الأمم السابقة على الأمة الإسلامية ، ومنحهم الكثير
من النعم ولكنهم لم يقابلوا ذلك بالشكر . . فسلب الله عنهم ما حباهم به من
نعم . ووصفهم فى كتابه بنقض العهد ، وقسوة القلب .وهذا مصير كل أمة بدلت
نعمة الله كفرا ، لأن الميزان عند الله للتقوى والفعل الصالح ، وليس للجنس
. أو اللون أو النسب

واتيناهم بينات من الامر فما اختلفوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم
ان ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - نعمة أخرى من النعم التى أنعم بها على
بنى إسرائيل فقال : ( وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الأمر ) والبينات جمع
- بينة ، وهى الدليل الواضح الصريح . و ( مِّنَ ) بمعنى فى .أى : وأعطيناهم
فضلا عن كل ما سبق - دلائل واضحة ، وشرائع بينة تتعلق بأمر دنيهم ، بأن
فصلنا لهم الحلا والحرام ، والحسن والقبيح ، الحق والباطل ، فصاروا بذلك
على علم بشريعتهم ، بحيث لا يخفى عليهم شئ مما اشتملت عليه من أوامر أو
- نواهى ، أو حلال أو حرام .فالمقصود من هذه الجملة الكريمة أن الله
تعالى - قد أعطاهم شريعة واضحة لا غموض فيها ولا التباس ، ولا عوج فيها ولا
انحراف .بل إن شريعتهم قد أخبرتهم عن طريق رسلهم بمبعث النبى - صلى الله
) : - عليه وسلم وبوجوب إيمانهم به عند ظهوره ، ومن ذلك قوله - تعالى
وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابن مَرْيَمَ يابني إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ الله
إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التوراة وَمُبَشِّراً
بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسمه أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بالبينات
قَالُواْ هذا سِحْرٌ مُّبِينٌ )ثم بين - سبحانه - الموقف القبيح الذى وقفه
بنو إسرائيل من نعم الله عليهم فقال ( فَمَا اختلفوا إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا
جَآءَهُمُ العلم بَغْياً بَيْنَهُمْ ) .والبغى : تجاوز الحق إلى الباطل فى
كل شئ . يقال بغت المرأة إذا أتت ما لا يحل لها . وبغى فلان على فلان إذا
اعتدى عليه ، ومنه قوله - تعالى - : (فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا على
الأخرى فَقَاتِلُواْ التي تَبْغِي حتى تفياء إلى أَمْرِ الله ) والاستثناء
: مفرغ من أعم الأحوال أو الأوقات ، وقوله : ( بَغْيَاً ) مفعول لأجله .أى
أن بنى إسرائيل أنعمنا عليهم بتلك النعم الدينية والدنيوية ، فما اختلفوا
فى أمور دينهم التى وضحناها لهم ، إلا عن علم لا عن جهل ، ولم يكن خلافهم
فى حال من الأحوال إلا من أجل البغى والحسد فيما بينهم ، لا من أجل الوصول
إلى الحق .فأنت ترى أن الجملة الكريمة توبخ إسرائيل توبيخا شديدا ، لأنها
بينت أن خلافهم لم يكن عن جهل ، وإنما كان عن علم ، والاختلاف بعد العلم
بالحق أقبح وأشنع ، وأن اختلافهم لم يكن من أجل الوصول إلى الحق ، وإنما
كان سببه البغى والحسد .فهم قد اختلقوا فى الحق مع علمهم به ، لأن العلم
كالمطر ، لا تستفيد منه إلا الأرض الطيبة النقية ، وكذلك لا يستفيد من
العلم إلا أصحاب النفوس الصافية ، والقلوب الواعية . . . وعندما يستولى
عليها الهوى ، تحول المقتضى إلى مانع .ورحم الله الإمام الرازى فقد قال

عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : والمقصود من هذه الجملة ، التعجب من أحوالهم ، لأن حصول العلم يوجب ارتفاع الخلاف . وها هنا صار مجئ العلم سببا لحصول الاختلاف ، وذلك لأنهم لم يكن مقصودهم من العلم نفس العلم ، وإنما المقصود منه طلب الرياسة والبغى .وقوله - تعالى - : ( إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بِيْنَهُمْ يَوْمَ القيامة ) بيان لحكم الله العادل فيهم .أى : إن ربك - أيها الرسول الكريم - يقضى بين هؤلاء المختلفين يوم القيامة ، بقضائه العادل ، بأن ينزل بهم العقاب الذى يستحوقنه بسبب ما كانوا يختلفون يوم القيامة ، بقضائه العادل ، بأن ينزل بهم العقاب الذى يستحقونه بسبب ما كانوا يختلفون فيه من أمر الدين ، الذى جعل الله أحكامه واضحة لهم ، ولا تحتمل الاختلاف أو التنازع .

ثم جعلناك على شريعة من الامر فاتبعها ولا تتبع اهواء الذين لا يعلمون

كما فسرها الوسيط ثم أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يتمسك بالدين الذى أوحاه إليه ، فقال : ( ثُمّ جَعَلْنَاكَ على شَرِيعَةٍ مِّنَ الأمر فاتبعها ) .والشريعة فى الاصل تطلق على المياه والأنهار التى يقصدها الناس للشرب منها ، والمراد بها هنا : الدين والملة ، لأن الناس يأخذون منها ما تحيا به أرواحهم ، كما يأخذون من المياه والأنهار ما تحيا به أدبانهم .قال القرطبى : الشريعة فى اللغة : المذهب والملة . ويقال لمشرعة الماء - وهى مورد الشاربة - شريعة . ومنه الشارع لأنه طريق إلى القصد . فالشريعة : ما شرع الله لعباده من الدين ، والجمع الشرائع والشرائع فى الدين المذاهب التى شرعها الله - تعالى - لخلقه .أى : ثم جعلناك - أيها الرسول الكريم - على شريعة ثابتة ، وسنة قويمة ، وطريقة حميدة ، من أمر الدين الذى أوحيناه إليك ، ( فاتبعها ) اتباعا تاما لا انحراف عنه ) وَلاَ تَتّبِعْ أَهْوَآءَ الذين لاَ يَعْلَمُونَ ) من أهل الكفر والضلال والجهل .وقد ذكروا أن كفار قريش قالوا للنبى - صلى الله عليه وسلم - ارجع إلى دين آبائك ، فإنهم كانوا أفضل منك ، فنزلت هذه الآية .

انهم لن يغنوا عنك من الله شيئا وان الظالمين بعضهم اولياء بعض والله ولي المتقين

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( إِنّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ الله شَيْئاً ) تعليل للنهى عن اتباع أهوائهم .أى : إنك - أيها الرسول الكريم - إن اتبعت أهواء هؤلاء الضالين ، صرت مستحقا لمؤاخذتنا ، ولن ). يستطيع هؤلاء أو غيرهم ، أن يدفع عنك شيئا مما أراده الله - تعالى - بك وَإِنَّ الظالمين بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ) أى : بعضهم نصراء بعض فى الدنيا ، أما فى الآخرة فولايتهم تنقلب إلى عداوة .( والله ) - تعالى - هو الذين أنت إمامهم وقدرتهم ، فاثبت على شريعتنا التى ( وَلِيُّ المتقين ) أوحيناها إليك ، لتنال ما أنت أهله من رضانا وعطائنا .

هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون

كما فسرها الوسيط ثم أثنى - سبحانه - على القرآن الكريم الذى أنزله على نبيه - صلى الله عليه وسلم - فقال : ( هذا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ) .والبصائر : جمع بصيرة - وهى للقلب بمنزلة البصر للعين . فهى النور الذى يبصر به القلب هدايته ، كما أن البصر هو النور الذى تبصر به العين طريقها .وقوله : ( هذا ) مبتدأ ، وبصائر خبره وجمع الخبر باعتبار ما فى القرآن من تعدد الآيات والبراهين .أى هذا ، القرآن الذى أنزلناه إليك - أيها الرسول - الكريم - ( بَصَائِرُ لِلنّاسِ ) لأن ما فيه من حجج وبراهين ، تكشف للقلب طريق الحق ، كما تكشف العين للإنسان مساره وهو - أيضا - ( هُدًى ) أي : هداية عظيمة إلى الرشاد والسعادة ( وَرَحْمَةٌ ) واسعة ( لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ) أى : لقوم من شأنهم الإيقان من عند الله - تعالى - ، وبأنك - أيها الرسول الكريم - صادق فيما تبلغه عن ربك .وخص الموقنين بالذكر ، لأنهم هم الذين ينتفعون بحجج القرآن الكريم ، وبهداياته ، أما الذين فى قلوبهم مرض أو شك ، فإنهم لا ينتفعون بذلك .قال - تعالى - : ( وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هذه إِيمَاناً فَأَمَّا الذين آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ . وَأَمّا الذين فِي قُلُوبِهِم مّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إلى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ ) وقال - سبحانه - : ( قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ والذين لاَ يُؤْمِنُونَ في آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أولئك يُنَادَوْنَ مِن مّكَانٍ بَعِيدٍ ).

ام حسب الذين اجترحوا السيئات ان نجعلهم كالذين امنوا وعملوا الصالحات سواء

محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون

، كما فسرها الوسيط ثم فرقت السورة الكريمة بين حال الذين يجترحون السيئات وحال الذين يعملون الصالحات ، وحكت جانبا من أقوال المشركين ، وردت عليهم بما يبطلها ، فقال - تعالى - : ( أَمْ حَسِبَ الذين اجترحوا . . أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ) .و ( أَمْ ) فى قوله - تعالى - : ( أَمْ حَسِبَ الذين اجترحوا السيئات ) منقطعة ، وتقدر ببل والهمزة ، وما فيها من معنى بل للانتقال من البيان الأول إلى الثانى ، والهمزة لإنكار الحسبان .والاجتراح الاكتساب ، ومنه الجارحة للأعضاء التى يكتسب بها كالأيدى . ويقال : فلان : جارحة أهله ، أى : هو الذى يكتسب لهم أرزاقهم .وحسب : فعل ماض ، والذين فاعله ، وجملة ( أَن نَّجْعَلَهُمْ ) ساد مسد المفعولين .والمعنى : بل أحسب الذين اكتسبوا ما يسوء من الكفر والمعاصى ، أن نجعلهم متساوين مع الذين آمنوا وعملوا الأعمال الصالحات فى دار الدنيا أو فى الدار الآخرة؟كلا !!لا يستوون فيهما ، فإن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يحيون فى الدنيا حياة طيبة لا مكان فيها للهموم والأحقاد والإحن ببركة إيمانهم ، وفى الآخرة ينالون رضا الله - تعالى - وحسن ثوابه .أما الذين اجترحوا السيئات فهم فى شقاء فى الدنيا وفى الآخرة .قال الشوكانى قرأ الجمهور ( سواء ) بالرفع على أنه خبر مقدم . والمبتدأ محياهم ومماتهم . والمعنى إنكار حسبانهم أن محياهم ومماتهم سواء .وقرأ حمزة والكسائى وحفص ( سواء ) بالنصب على أنه حال من الضمير المستتر فى الجار والمجرور فى قوله : ( كالذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ) أو على أنه معفول ثان لحسب .وقوله : ( سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ) ، أى بئس حكما حكمهم الذى زعموا فيها تسويتنا بين الذين اجترحوا السيئات والذين آمنوا وعملوا الصالحات .فالمقصود بهذه الجملة الكريمة ، توبيخهم على أحكامهم الباطلة ، وأفكارهم الفاسدة .قال الآلوسى : قوله : ( سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ) أى : ساء حكمهم هذا ، وهو الحكم بالتساوى ، فما مصدرية ) والكلام إخبار عن قبح حكمهم المعهود .ويجوز أن يكون لإنشاء ذمهم على أن سَآءَ ) بمعنى بئس ، فتكون كلمة ( مَا ) نكرة موصوفة ، وقعة تمييزا مفسرا لضمير الفاعل المبهم والمخصوص بالذم محذوف أى : بئس شيئا حكموا به ذلك .

وخلق الله السماوات والارض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون

) : كما فسرها الوسيط ثم أكد - سبحانه - عدم المساواة بين الفريقين فقال وَخَلَقَ الله السماوات والأرض بالحق ) أى خلقهما خلقا ملتبسا بالحق الذى لا يحوم حوله باطل .وقوله ( ولتجزى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ) معطوف على مقدر يفهم من سياق الكلام .أى : خلقهما بالحق ليبرهن بذلك على وحدانيته وقدرته . ولتجزى كل نفس يوم القيامة بسبب ما اكتسبته من أعمال .ويصح أن يكون معطوفا على قوله ( بالحق ) . أى : خلقهما بالحق المقتضى للعدل بين العباد ، ولتجزى كل نفس بما كسبت ، فهو منعطف المسبب على السبب .( وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ) أى : الخلائق المدلول عليهم بقوله ( كُلُّ نَفْسٍ )لا يلحقهم شيئ من الظلم يوم القيامة ، لأن الله - تعالى - قد كتب على نفسه أنه لا يظلم احدا .

افرايت من اتخذ الهه هواه واضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله افلا تذكرون

كما فسرها الوسيط والاستفهام فى قوله - سبحانه - : ( أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتخذ إلهه هَوَاهُ ) للتعجب من حال هؤلاء المشركين ، ولتسلية النبى - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه منهم من أذى .والمراد بهواه : ما يستحسنه من تصرفات ، حتى ولو كانت تلك التصرفات فى نهاية القبح والشناعة والجهالة والمعنى : انظر وتأمل - أيها الرسول الكريم - فى أحوال هؤلاء الكافرين. فإنك لن ترى جهالة كجهالاتهم ، لأنهم إذا حسن لهم هواهم شيئا اتخذوه إلها لهم ، مهما كان قبح تصرفهم ، وانحطاط تفكيرهم ، وخضعوا له كما يخضع العابد لمعبوده .قال ابن عباس : كان الرجل فى الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زمانا فإذا رأى غيره أحسن منه عبد الثانى وترك الأول .وقوله : ( وَأَضَلَّهُ الله ، على عِلْمٍ ) أى : وأضل الله - تعالى - هذا الشقى ، بأن خلق فيه الضلالة على علم منه - سبحانه - بأن هذا الشقى أهل لذلك لاستحبابه العمى على الهدى فيكون قوله ( على عِلْمٍ ) حال من الفاعل ، أى أضله - سبحانه - حالة كونه. عالما بأنه من أهل الضلال .ويصح أن يكون حالا من المفعول ، أى : وأضل الله - تعالى - هذا الشقى ، والحال أن هذا الشقى عالم بطريق الإيمان ، ولكنه استحب الغى على الرشد .وقوله ( وَخَتَمَ على سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ) والختم : الوسم بطابع ونحوه ، مأخوذ من وضع الخاتم على الشئ ، وطبعه فيه للاستيثاق ، لكى لا يخرج منهما بداخله ولا يدخله ما هو خارج عنه .أى : وطبع على سمعه وقلبه ، فجعله لا يسمع سماع تدبر وانتفاع ، ولا يفقه ما فيه هدايته ورشده .( وَجَعَلَ على بَصَرِهِ غِشَاوَةً ) أى : وجعل على بصره

غطاء ، يجب عنه الرؤية السليمة للأشياء وأصل الغشاوة ما يغطى به الشئ ، من غشاه إذا غطاه .والاستفهام فى قوله - تعالى - : ( فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ الله ) للإنكار والنفى .أى :لا أحد يستطيع أن يهدى هذا الإنسان الذى اتخذ إلهه هواه من بعد أن أضله الله - عز وجل - .( أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ) أى : أفلا تتفكرون وتتأملون فيما سقت لكم من مواعظ وعبر ، تفكرا يهيدكم إلى الرشد ، ويبعثكم على الإيمان .فأنت ترى أن هذه الآية الكريمة ، تسلية للرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من المشركين ، وتعجيب من أحوالهم التى بلغت الغاية فى الجهالة والضلالة . ودعوة لهم إلى التذكير والاعتبار ، لأن ذلك ينقلهم من الكفر إلى الإيمان .

وقالوا ما هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر وما لهم بذلك من علم ان هم الا يظنون

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك جانبا من أقوالهم الباطلة فقال : ( وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلاّ حَيَاتُنَا الدنيا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلاّ الدهر ) .أى : وقال هؤلاء المشركون على سبيل الجهل والعناد والجحود للحق ، ما الحياة إلا هذه الحياة الدنيوية التى نحياها فيها ، وليس هناك حياة سواها ، فنحن نموت ثم يحيا أولادنا من بعدنا أو يموت بعضنا ويحيا البعض الآخر إلى زمن معين ، أو نكون أمواتا فى أصلاب آبائنا ، ثم نحيا بعد ذلك عند الولادة .( وَمَا يُهْلِكُنَآ ) عند انتهاء آجالنا إِلاّ الدهر ) أى : إلا مرور الزمان ، وكر الأعوام وتقلب الشهور والأيام قال ابن كثير ما ملخصه " يخبر - تعالى - عن قول الدهرية من الكفار ، ومن وافقهم من مشركى العرب فى إنكار المعاد : ( وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلاّ حَيَاتُنَا الدنيا نَمُوتُ وَنَحْيَا ) أى : ما ثَمّ إى هذه الدار ، يموت قوم ويعيش آخرون ، وما ثَمّ معاد ولا قيامة . .ولهذا قالوا : ( وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلاّ الدهر ) - أى : إلا مرور الأيام والليالى - فكابروا المعقول وكذبوا المنقول . . .وفى الحديث الصحيح - الذى رواه الشيخان وغيرهما - عن أبى هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : " يقول الله - تعالى - : يؤذينى ابن آدم ، يسب الدهر ، وأنا الدهر ، بيدى الأمر ، أقلب ليله ونهاره " .والمقصود من هذا الحديث النهى عن سب الدهر ، لأن - الله - تعالى - هو الخالق له ، فمن يسب الدهر ، فكأنما سب الله - تعالى لأنه - سبحانه - هو الذى يقلب الليالى والأيام .وقد كان العرب فى الجاهلية إذا ما أصابتهم شدة أو نكبة ، قالوا : يا خيبة الدهر ، فيسندون تلك الأفعال والمصائب إلى الدهر ويسبونه .وقوله - تعالى - : ( وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاّ يَظُنُّونَ ) رد عليهم فيما قالوه من أقوال باطلة تتعلق بإنكارهم للبعث والحساب .أى : وليس لهم فيما زعموه من إنكارهم للبعث من علم مستند إلى نقل أو عقل ، إن هم إلا يظنون ظنا مبينا على الوهم والضلال .

واذا تتلى عليهم اياتنا بينات ما كان حجتهم الا ان قالوا ائتوا بابائنا ان كنتم صادقين

كما فسرها الوسيط ( وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ) أى : ، وإذا تليت عليهم آيات القرآن ، الواضحة فى دلالتها على أن يوم القيامة حق وأن الحساب حق .( مّا كَانَ حُجّتَهُمْ إِلاّ أَن قَالُواْ ائتوا بِآبَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ) أى : ما كان ردهم على من يذكرهم بالبعث إلا أن قالوا لهم : أعيدوا إلينا آباءنا الذين ماتوا إن كنتم صادقين - فى قولكم : إن هناك بعثا وحسابا وثوابا وعقابا .وقوله ( حُجّتَهُمْ ) - بالنصر - خبر كان ، واسمها قوله : ( إِلاَّ أَن قَالُواْ ) .وسمى سبحانه - أقوالهم مع بطلانها حجة ، على سبيل التهكم بهم ، والاستهزاء بهذه الأقوال .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم سمى قولهم حجة وليس بحجة؟قلت : لأنهم أدلوا به كما يدلى المحتج بحجته ، وساقوه مساقها ، فسميت حجة على سبيل التهكم ، أو لأن فى حسبانهم وتقديرهم حجة ، أو لأنه فى أسلوب قول القائل :تحية بينهم ضرب وجيع . . كأنه قيل : ما كان حجتهم إلا ما ليس بحجة .والمراد : نفى أن تكون لهم حجة ألبتة .

قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم الى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن اكثر الناس لا يعلمون

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - هذه الآية بأمر النبى - صلى الله عليه وسلم - بأن يرد عليهم بما يخرس ألسنتهم فقال : ( قُلِ الله يُحْيِيكُمْ ) ، أى : وأنتم فى الدنيا ( ثُمّ يُمِيتُكُمْ ) عند انقضاء آجالكم فى الدنيا بأن يعيدكم إلى الحياة مرة أخرى ( ثُمّ يَجْمَعُكُمْ إلى يَوْمِ القيامة ) للحساب والجزاء ، وهذا اليوم وهو يوم القيامة آت ( لاَ رَيْبَ فِيهِ ) ولا

شك فى حدوثه .( ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ) ذلك ، لاستيلاء الهوى والشيطان على قلوبهم ، ولو عقلوا لعلموا أن من أنشأ الإنسان من العدم ، قادر على إعادته بعد موته من باب أولى .

ولله ملك السماوات والارض ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون

كما فسرها الوسيط ثم أخذت السورة الكريمة فى أواخرها فى تذكير الناس بأهوال يوم القيامة لكى يستعدوا للقاء هذا اليوم بالإيمان والعمل الصالح ، فذكرتهم بأحوال الأخيار والأشرار فى هذا اليوم العصيب ، وبينت لهم أن الندم لن ينفع فى هذا اليوم . فقال - تعالى - : ( وَلِلَّهِ مُلْكُ السماوات والأرض . . . وَهُوَ العزيز الحكيم ) .قال الإمام الرازى : قوله ( وَلِلَّهِ مُلْكُ السماوات والأرض ) : أنه - تعالى - لما احتج بكونه قادرا على الإحياء فى المرة الأولى ، وعلى كونه قادراً على الإحياء فى المرة الثانية فى الآيات المتقدمة ، عمم بعد ذلك الدليل فقال : ( وَلِلَّهِ مُلْكُ السماوات والأرض ) أى : لله - تعالى - القدرة على جميع المكنات سواء أكانت من السماوات أم من الأرض .أى : ( لِلَّهِ ) - تعالى - وحده ( مُلْكُ السماوات والأرض ) خلقا وتصرفا وإحياء وإماتة لا راد لقضائه . ولا معقب لحكمه .ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة الكافرين يوم القيامة فقال : ( وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ المبطلون ) .أى : ولله - تعالى - ملك السماوات والأرض ، وله - أيضا - ملك وقت قيام الساعة .لأنه لا يستطيع أحد أن يعلم وقت قيامها ، أو يتصرف فيه ، إلا هو - عز وجل - وفى اليوم الذى تقوم فيه الساعة يخسر المبطلون ، أنفسهم وأهليهم ، ويصيرون فى حال شديدة من الهم والغم والكرب ، لأنهم كذبوا بهذا اليوم ، وكفروا به وقالوا : ( مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدنيا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلاَّ الدهر ) قال الشوكانى وقوله : ( وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ المبطلون ) أى : المكذبون الكافرون المتعلقون بالأباطيل ، يظهر فى ذلك اليوم خسرانهم لأنهم يصيرون إلى النار ، والعامل فى ( يَوْمَ ) هو الفعل ( يَخْسَرُ ) ويومئذ بدل منه ، والتنوين للعوض عن المضاف إليه المدلول عليه بما أضيف إليه المبدل منه ، فيكون التقدير : ( وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة ) يوم تقوم الساعة ، فيكون بدلا توكيديا .والأحسن أن يكون العامل فى ( يَوْمَ ) هو ( مُلْكُ ) - أى : ما يدل عليه هذا اللفظ أى : ولله - تعالى - ملك السماوات والأرض - وملك يوم تقوم الساعة ، ويكون ( يَوْمَئِذٍ ) معمولا ليخسر . .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ الله قُضِيَ بالحق وَخَسِرَ هُنَالِكَ المبطلون ).

وترى كل امة جاثية كل امة تدعى الى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون

كما فسرها الوسيط ثم يعرض - سبحانه - مشهدا من مشاهد هذا اليوم الهائل الشديد فيقول : ( وترى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ) .وقوله : - سبحانه - من الجثو وهو الجلوس على الركب بتحفز وترقب وخوف .يقال : جثنا فلان على ركبتيه يجثو جثوا وجثيا ، إذ برك على ركبتيه وأنامله فى حالة تحفز ، كأنه منتظر لما يكرهه .أى : وترى - أيها العاقل - فى هذا اليوم الذى تشيب من هوله الولدان ، كل أمة من الأمم متميزة عن غيرها ، وجاثية على ركبها ، مترقبة لمصيرها فى تلهف وخوف فالجملة الكريمة تصور أهوال هذا اليوم وأحوال الناس فيه ، تصويرا بليغاً مؤثرا ، يبعث على الخوف الشديد من هذا اليوم ، وعلى تقديم العمل الصالح الذى ينفع صاحبه ( يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً والأمر يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ) وقوله ( كُلُّ أُمَّةٍ ) مبتدأ ، وقوله ( تدعى إلى كِتَابِهَا ) خبره .أى : كل أمة تدعى إلى سجل أعمالها الذى أمر الله - تعالى - ملائكته بكتابته لتحاسب عليه . وقوله : ( اليوم تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ) مقول لقول مقدر. أى : ويقال لهم جميعا فى هذا الوقت : اليوم تجدون جزاء أعمالكم التى كنتم تعملونها فى الدنيا من خير أو شر . ويقال لهم - أيضا - : ( هذا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بالحق ) .

هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون

كما فسرها الوسيط ( هذا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بالحق )أى : هذا كتابنا الذى سجلته عليكم الملائكة ، يشهد عليكم بالحق ، لأنه لا زيادة فيما كتب عليكم ولا نقصان ، وإنما هى أعمالكم أحصيناها عليكم .قال القرطبى : قوله - تعالى - : ( هذا كِتَابُنَا ) قيل من لقول الله لهم . وقيل من قول الملائكة .( يَنطِقُ عَلَيْكُم بالحق ) أى : يشهد , وهو استعارة ، يقال : نطق عليهم .دليله قوله - تعالى - : ( وَيَقُولُونَ ياويلتنا مَالِ هذا الكتاب لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا ) وقوله - سبحانه - : ( وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بالحق وَهُمْ لاَ

يُظْلَمُونَ ) وقوله : ( يَنطِقُ ) فى موضع الحال من الكتاب .وقال الجمل فى حاشيته : فإن قيل : كَيفَ أضيف الكتاب إليهم فى قوله : ( كُلُّ أُمَّةٍ تدعى إلى كِتَابِهَا ) .وأضيف هنا إلى الله - تعالى - فقال : ( هذا كِتَابُنَا ) فالجواب أنه لا منافاة بين الأمرين ، لأنه كتابهم بمعنى أنه مشتمل على. أعمالهم ، وكتاب الله ، بمعنى أنه - سبحانه - هو الذى أمر الملائكة بكتابته وقوله - سبحانه - : ( إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ. : تعليل للنطق بالحق ، أى : إنا كنا نأمر ملائكتنا بنسخ أعمالكم ، أى ( بكتابتها وتثبتها عليكم فى الصحف ، حسنة كانت أو سيئة ، فالمراد بالنسخ هنا الإثبات لا الإزالة : .

فاما الذين امنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته ذلك هو الفوز المبين

) : كما فسرها الوسيط ثم فصل - سبحانه - ما يترتب على ما سبق من أحكام فقال فَأَمَّا الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ) أى : فيدخلهم - سبحانه - فى جنته ورضوانه .( ذَلِكَ ) العطاء الجزيل ( هُوَ الفوز المبين ) الذى لا يدانيه فوز .

واما الذين كفروا افلم تكن اياتي تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوما مجرمين

كما فسرها الوسيط ( وَأَمَّا الذين كفروا ) فيقال لهم على سبل التوبيخ والتقريع والزجر :( أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تتلى عَلَيْكُمْ ) أى : أفلم تأتكم رسلى بآياتى الدالة على وحدانيتى وعلى صدقهم فيما يبلغونه عنى؟ بلى لقد جاءكم رسلى بآياتى .( فاستكبرتم ) عن الاستماع إليهم ، وعن الاستجابة لهم ، واتباع دعوتهم .(وَكُنتُمْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ ) أى : وكنتم فى الدنيا قوما عادتكم الإجرام ، واجتراح السيئات ، واقتراف المنكرات .

واذا قيل ان وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة ان نظن الا ظنا وما نحن بمستيقنين

كما فسرها الوسيط ( وَإِذَا قِيلَ ) لكم فى الدنيا ( إِنَّ وعْدَ الله ) حَقٌّ ) أى : وإن ما وعد الله - تعالى - به من البعث والحساب حق وصدق والساعة لاَ رَيْبَ فِيهَا ) أى :لا شك فيها .( قُلْتُم ) على سبيل العناد ، والجحود ( مَّا نَدْرِي مَا الساعة ) أى : قلتم على سبيل الإنكار لها والاستبعاد لحصولها :لا نعرف أن هناك شيئا اسمه الساعة ، ولا نعترف بها اعترافا يدل على إيماننا بها .( إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ) أى : كنتم فى الدنيا تقولون :لا نوقن ولا نؤمن بحدوث الساعة ، ولكنا نظن ونتوهم أن هناك شيئا اسمه الساعة ، وما نحن بمستيقنين بإتيانها .ولعل هذا الكلام الذى حكاه القرآن الكريم عنهم ، هو كلام الشاكين المتحيرين من الكافرين أما الجاحدون منهم فهم الذين حكى القرآن عنهم أنهم قالوا : ( مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدنيا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلاَّ الدهر . . . ).

وبدا لهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما ترتب على هذه الأقوال الباطلة من نتائج فقال : ( وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ ) أى : وظهر لهؤلاء الكافرين سيئات أعمالهم على حقيقتها التى كانوا لا يتوقعونها ).وَحَاقَ بِهِم ) أى : وأحاط ونزل بهم ( مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ) أى : فى الدنيا ، فقد كانوا فى الدنيا ينكرون البعث والحساب والجزاء ويستهزئون بمن يحدثهم عن ذلك . فنزل بهم العذاب المهيبن ، جزاء استهزائهم وإنكارهم .

وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا وماواكم النار وما لكم من ناصرين

كما فسرها الوسيط ( وَقِيلَ ) لهم على سبيل التأنيب والزجر ( اليوم نَنسَاكُمْ ) أى : نهملكم ونترككم فى النار (كَمَا نَسِيتُمْ ) أنتم فى الدنيا وأنكرتم ( لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هذا ) وهو يوم القيامة ).وَمَأْوَاكُمُ النار ) أى : ومسكنكم الذى تؤون إليه النار وبئس القرار ، وَمَا لَكُمْ مِّن نَّاصِرِينَ ) أى : وليس لكم من ناصرين ينصرونكم ويخففون عنكم هذا العذاب الذى حل بكم .

ذلكم بانكم اتخذتم ايات الله هزوا وغرتكم الحياة الدنيا فاليوم لا يخرجون

منها ولا هم يستعتبون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - الأسباب التى أدت بهم إلى هذا المصير السئ فقال : (ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتخذتم آيَاتِ الله هُزُواً ) .أى : ذلكم العذاب المبين الذى نزل بكم سببه أنكم استهزأتم بآيات القرآن الكريم ، وسخرتم منها ، وكذبتم من جاء بها .(وَغَرَّتْكُمُ الحياة الدنيا ) أى : وخدعتكم الحياة الدنيا بزخارفها ومتعها وشهواتها .( فاليوم لاَ يُخْرَجُونَ مِنْهَا ) أى : من النار .( وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ) أى : ولا هم يطلب منهم أن يرضوا ربهم ، بان يتوبوا إليه مما كان منهم من كفر وفسوق فى الدنيا لأن التوبة قد فات أوانها .فقوله : ( يُسْتَعْتَبُونَ ) من العتب - بفتح ، العين وسكون التاء - وهى الموجدة . يقال : عتب عليه يعتب ، إذا وجد عليه فإذا فاوضه فيما عتب عليه فيه ، قيل : عاتبه .والمقصود من الآية الكريمة أن هؤلاء الكافرين لا يقبل منهم فى هذا اليوم عذب أو توبة .

فلله الحمد رب السماوات ورب الارض رب العالمين

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بقوله : ( فَلِلَّهِ الحمد ) أى : فلله - تعالى - وحده الحمد والثناء ( رَبِّ السماوت وَرَبِّ الأرض رَبِّ العالمين )لا رب سواه ولا خالق غيره .

وله الكبرياء في السماوات والارض وهو العزيز الحكيم

كما فسرها الوسيط ( وَلَهُ الكبريآء ) أى : العظمة والسلطان والجلال ( فِي السماوات والأرض وَهُوَ العزيز الحكيم ) .قال ابن كثير : أى : هو العظيم - المجد الذى كل شئ خاضع لديه . فقير إليه وفى الحديث الصحيح يقول الله تعالى - : " العظمة إزارى ، والكبرياء ردائى ، فمن نازعنى واحدا منها أسكنته نارى " .( وَهُوَ العزيز ) أى : الذى لا يغالب ولا يمانع ، ( الحكيم - فى أقواله وأفعاله .وبعد فهذا تفسير محرر لسورة " الجاثية " نسأل الله ( تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ونافعا لعباده .والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

حم

كما فسرها الوسيط سورة " الأحقاف " من السور التى افتتحت ببعض الحروف الهجائية ، وأقرب الأقوال إلى الصواب فى معناها أن يقال : إن هذه الحروف المقطعة قد وردت فى افتتاح بعض السور ، للإشعار بأن هذا القرآن الذى تحدى به الله - تعالى - المشركين ، هو من جنس الكلام المركب من هذه الحروف التى يعرفونها ، ويقدرون على تأليف الكلام منها ، فإذا عجزوا عن الإتيان بسورة من مثله ، فذلك لبلوغه فى الفصاحة والحكمة مرتبةً فصحاؤهم وبلغاؤهم دونها بمراحل شاسعة .وفضلا عن كل ذلك فإن تصدير بعض السور ، بمثل هذه الحروف المقطعة يجذب أنظار المعرضين عن استماع القرآن حين يتلى عليهم إى الإنصات والتدبر ، لأنه يطرق أسماعهم فى أول التلاوة بألفاظ غير مألوفة فى مجارى كلامهم .وذلك مما يلفت أنظارهم ، ليتبينوا ما يراد منها ، فيسمعوا حكما وحججا ومواعظ من شأنها أنها تهديهم إلى الحق ، لو كانوا يعقلون .وقد سبق أن بينا - بشئ من التفصيل - آراء العلماء فى هذه الحروف المقطعة .

تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( تَنزِيلُ الكتاب مِنَ الله العزيز الحكيم ) بيان لمصدر هذا القرآن ، وأنه من عند الله - تعالى - ، لا من عند غيره .أى : أن هذا القرآن منزل من عند الله - تعالى - ( العزيز ) أى : صاحب العزة الغابة ، والسلطان القاهر ( الحكيم ) فى كل أقواله وأفعاله وتصريفه لشئون خلقه .

ما خلقنا السماوات والارض وما بينهما الا بالحق واجل مسمى والذين كفروا عما انذروا معرضون

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أنه لم يخلق هذا الكن عبثا ، فقال مَا خَلَقْنَا السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلاّ بالحق وَأَجَلٍ مُّسَمًّى . . . ) .وقوله : ( إِلاَّ بالحق ) استثناء مفرغ من أهم الأحوال وهو صفة لمصدر محذوف ، وقوله : ( وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ) معطوف على " الحق ، والكلام على تقدير مضاف محذوف .أى : ما خلقنا هذا الكون بسمائه وأرضه وما " بينهما من مخلوقات لا يعلمها إلا الله ، ما خلقنا كل ذلك إلا خلقنا ملتبسا بالحق الذى لا يحوم حوله باطل وبالحكمة التى اقتضتها إرادتنا ومشيئتنا .وما

خلقنا كل ذلك - أيضا - إلا بتقدير أجل معين ، هو يوم القيامة الذى تفنى
عنده جميع المخلوقات .فالمراد بالأجل المسمى : يوم القيامة الذى ينتهى عنده
آجال الناس ، ويقفون بين يدى الله - تعالى - للحساب والجزاء .وشبيه بهذه
الآية قوله - تعالى - : ( وَمَا خَلَقْنَا السمآء والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا
بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الذين كَفَرُواْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ
مِنَ النار ) وقوله - سبحانه - : ( وَمَا خَلَقْنَا السماوات والأرض وَمَا
بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَآ إِلاّ بالحق ولكن أَكْثَرَهُمْ
لاَ يَعْلَمُونَ ) ثم بين - سبحانه - موقف المشركين من خالقهم فقال
والذين كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ) . والإنذار : الإعلام
المقترن بتهديد ، فكل إنذار إعلام ، وليس كل إعلام إنذار .و " ما " فى قوله
( عَمَّآ أُنذِرُواْ ) : يصح أن تكون موصولة والعائد محذوف ، ويصح أن تكون
مصدرية .والإعراض عن الشئ : الصدود عنه ، وعدم الإقبال عليه ، وأصله من
العُرْ - بضم العين - وهو الجانب ، لأن المعرض عن الشئ يعطيه جانب عنقه
، مبتعدا عنه .أى : نحن الذين خلقنا بقدرتنا وحكمتنا ، السماوات والأرض وما
بينهما ، بالحق الذى اقتضته مشيئتنا ، وبتقدير أمد معين ، عند انتهائه
( يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرض غَيْرَ الأرض والسماوات ) ومع كل هذه الدلائل
الساطعة الدالة على واحدانيتنا وقدرتنا ، فالذين كفروا بالحق ، عن الذى
أنذروه من الحساب والجزاء معرضون ، وفى طغيانهم يعمهون .فالآية الكريمة قد
وضحت أن هذا الكون لم يخلقه الله - تعالى - عبثا ، وأن لهذا الكون نهاية
ينتهى عندها ، وأن الكافرين - لجهلهم وعنادهم - لم يستجيبوا لمن دعاهم إلى
إخلاص العبادة لله الواحد القهار ، ولم يستعدوا لاستقبال يوم القيامة
بالإيمان والعمل الصالح .

قل ارايتم ما تدعون من دون الله اروني ماذا خلقوا من الارض ام لهم شرك في
السماوات ائتوني بكتاب من قبل هذا او اثارة من علم ان كنتم صادقين

كما فسرها الوسيط ثم أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن
يوبخ هؤلاء الكافرين على جهالاتهم وعنادهم ، فقال :( قُلْ أَرَأَيْتُمْ
مّا تَدْعُونَ مِن دُونِ الله أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ الأرض أَمْ
لَهُمْ شِرْكٌ فِي السماوات . . . ) .وقوله : ( أَرَأَيْتُمْ ) بمعنى
أخبرونى ، ومفعوله الأول قوله ( مّا تَدْعُونَ ) وجملة " ماذا خلقوا " سدت
مسد مفعوله الثانى .وجملة : " أرونى " مؤكدة لقوله : ( أَرَأَيْتُمْ )
لأنها - أيضا - بمعنى أخبرونى .والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم - هؤلاء
المشركين - على سبيل التوبيخ والتأنيب - : أخبرونى عن هذه الآلهة التى
تعبدونها من دول الله - تعالى - ، أى شئ فى الأرض أوجدته هذه الآلهة؟ إنها
قطعا لم تخلق شيئا من الأرض . فالأمر فى قوله ( أَرُونِي ) للتعجيز
والتبكيت .و " أم " فى قوله ( أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السماوات ) للإضراب
عن أن يكونوا قد خلقوا شيئا ، إلى بيان أنهم لا مشاركة لهم مع الله فى خلق
السماوات أو الأرض أو غيرهما . فقوله : ( شِرْكٌ ) بمعنى مشاركة . .أى : بل
ألهم مشاركة من الله - تعالى - فى خلق شئ من السماوات؟ كلا ، لا مشاركة لهم
فى خلق أى شئ ، وإنما الخالق لكل شئ هو الله رب العالمين .فالاستفهام
للتوبيخ والتقريع .فالمراد من الآية الكريمة نفى استحقاق معبوداتهم لأى لون
من ألوان العبادة بأبلغ وجه ، لأن هذه المعبودات لا مدخل لها فى خلق أى شئ
- لا من العوالم السفلية ولا من العوالم العلوية ، وإنما الكل مخلوق لله
تعالى - وحده .ومن الآيات التى وردت فى هذا المعنى قوله - تعالى - : ( هذا
خَلْقُ الله فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الذين مِن دُونِهِ ) وبعد أن
أفحمهم - سبحانه - من الناحية العقلية ، أتبع ذلك بإفحامهم بالأدلة النقلية
فقال - تعالى - : ( ائتونى بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هاذآ أَوْ أَثَارَةٍ ،
مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ) .والأمر فى قوله - تعالى - ( ائتونى
) : للتعجيز والتهكم - أيضا - كما فى قوله : ( أَرُونِي ) .وقوله (
أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ ) أى : بقية من علم يؤثر عن الأولين ، وينسب إليهم
قال القرطبى : وفى الصحاح : " أو أثارة من علم " أى : بقية منه . وكذلك
الأَثَرة - بالتحريك - ويقال : سمنت الإبل على أثارة ، أى : على بقية من
شحم كان فيها قبل ذلك . .والأثارة : مصدر كالسماحة والشجاعة ، وأصل الكلمة
من الأَثَر ، وهى الرواية ، يقال : أثرتُ الحديث آثُرُه أَثْراً وأَثَارةً
وأَثْرةً فأنا آثِر ، إذا ذكرته من غيرك ، ومنه قيل : حديث مأثوة ، أى نقله
الخلق عن السلف .أى : هاتوا لى - أيها المشركون - كتابا من قبل هذا القرآن
، - يدل على صحة ما أنتم عليه من شرك ، فإن لم تستطيعوا ذلك - ولن تستطيعوا
فأتونى ببقية من علم يؤثر عن السابقين ، ويسند إليهم ، ويشهد لكم بصحة ما
أنتم فيه من كفر .( إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ) فيما تزعمونه من أنكم على
الحق .وهكذا أخذ عليهم القرآن الحجة ، وألزمهم بطلان ما هم عليه من ضلال ،
بالأدلة العقلية المتمثلة فى شهادة هذا الكون المفتوح ، وبالأدلة النقلية
المتمثلة فى أنه لا يوجد عندهم كتاب أو ما يشبه الكتاب . يستندون إليه فى
استحقاق تلك المعبودات للعبادة .والحق أن هذا الآية الكريمة على رأس الآيات

التى تخرس أصحاب الأقوال التى لا دليل على صحتها ، وتعلم الناس مناهج البحث
. . الصحيح الذى يوصلهم إلى الحق والعدل

ومن اضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له الى يوم القيامة وهم عن
دعائهم غافلون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن هؤلاء المشركين قد بلغوا الذروة فى
ضلالهم وجهلهم فقال : ( وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ الله
مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إلى يَوْمِ القيامة ) .أى :لا أحد أشد ضلالا
وجهلا من هؤلاء المشركين الذين يعبدون من دون الله - تعالى - آلهة ، هذه
الآلهة لا تسمع كلامهم ، ولا تعقل نداءهم ، ولا تشعر بعبادتهم لها منذ أن
- عبدوها ، إلى أن تقوم الساعة .فإذا ما قامت الساعة ، تحولت هذه الآلهة
بجانب عدم شعورها بشئ إلى عدوة لهؤلاء العابدين لها .قال بعض العلماء : وفى
قوله : ( إلى يَوْمِ القيامة ) نكتة حسنة ، وذلك أنه جعل يوم القيامة غاية
لعدم الاستجابة ، ومن شأن الغاية انتهاء المغيا عندها . لكن عدم الاستجابة
- مستمر بعد هذه الغاية ، لأنهم فى يوم القيامة لا يستجيبون لهم .فالوجه
، والله أعلم - أنها من الغايات المشعرة ، بأن ما بعدها وإن وافق ما قبلها
إلا أنه أزيد منه زيادة بينة تلحقه بالثانى ، حتى كأنه الحالتين وإن كانتا
نوعا واحدا ، لتفاوت ما بينهما كالشئ وضده ، وذلك أن الحالة الأولى التى
جعات غايتها القيامة لا تزيد على عدم الاستجابة ، والحالة الثانية التى فى
- القيامة زادت على الاستجابة ، بالعداوة بالكفر بعبادتهم إياهم .ثم أكد
سبحانه - عدم إحساس الأصنام بعابديها فقال : ( وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ
، غَافِلُونَ ) .أى : وهذه الاصنام عن عبادة عابديها غافلة ، لا تدرك شيئا
ولا تحس بمن حولها .قال صاحب الكشاف : وإنما قيل " من " و " هم " لأنه أسند
إليهم ما يسند إلى أولى العلم من الاستجابة والغفلة ، ولأنهم كانوا يصفونهم
بالتمييز جهلا وغباوة .ويجوز أن يريد : كل معبود من دون الله من الجن
. والإنس والأوثان

واذا حشر الناس كانوا لهم اعداء وكانوا بعبادتهم كافرين

: كما فسرها الوسيط ثم بين ما يكون بين العابدين من عداوة يوم القيامة فقال
وَإِذَا حُشِرَ الناس كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ )
بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ) .أى : وإذا جمع الله - تعالى - الناس للحساب
والجزاء يوم القيامة ، صار الكفار مع من بعدوهم من دون الله أعداء ، يلعن
بعضهم بعضا ، ( وَكَانُواْ ) أى : المعبودن ( بِعِبَادَتِهِمْ ) أى بعبادة
- الكفر إياهم ( كَافِرِينَ ) أى : جاحدين مكذبين .وشبيه بهذه الآية قوله
تعالى - : ( واتخذوا مِن دُونِ الله آلِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزّاً
( كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً
وقوله - سبحانه - : ( وَقَالَ إِنَّمَا اتخذتم مِّن دُونِ الله أَوْثَاناً.
مّوَدّةَ بَيْنِكُمْ فِي الحياة الدنيا ثُمّ يَوْمَ القيامة يَكْفُرُ
بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النار
. ( وَمَا لَكُمْ مِّن نّاصِرِينَ

واذا تتلى عليهم اياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين

- كما فسرها الوسيط ثم لقن الله - سبحانه - نبيه - صلى الله عليه وسلم
- أجوبة أخرى ، ليرد بها على الأقوال الزائفة التى تفوه بها المشركون فقال
تعالى - : ( وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا . . . القوم الظالمين )
وقوله ( تتلى ) من التلاوة بمعنى القراءة بتمهل وترتيل . أى : وإذا.
) تتلىعلى هؤلاء الكافرين ، آياتنا الواضحة الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا
قَالَ الذين كَفَرُواْ لِلْحَقّ لَمّا جَآءَهُمْ ) أى : قالوا للآيات
). المتلوة عليهم . والتى اشتملت على الحق الذى يهديهم إلى الصراط المستقيم
، هذا سِحْرٌ مّبِينٌ ) أى : قالوا : هذا الذى جئتنا به يا محمد سحر واضح
وتمويه ظاهر .والتعبير بقوله - سبحانه - : ( قَالَ الذين كَفَرُواْ
لِلْحَقّ لَمّا جَآءَهُمْ ) : يشعر بأن هؤلاء الجاحدين الجاهلين ، قد
بادروا إلى وصف ما جاءهم به الرسول - صلى الله عليه وسلم - بأنه سحر ، بدون
تفكر أو تأمل أو انتظار .وفى وصفهم لما جاءهم به الرسول - صلى الله عليه
. وسلم - بأنه سحر ، دليل على عجزهم عن الإتيان بمثله ، أو بسورة من مثله

ام يقولون افتراه قل ان افتريته فلا تملكون لي من الله شيئا هو اعلم بما
تفيضون فيه كفى به شهيدا بيني وبينكم وهو الغفور الرحيم

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - جانبا من أكاذيبهم فقال : ( أَمْ
يَقُولُونَ افتراه . . . ) و " أم " هنا منقطعة بمعنى بل والهمزة ، وتفيد

الإضراب والانتقال من حكاية أقوالهم الباطلة السابقة . إلى أقوال أخرى أشد
: منها بطلانا وكذبا . والاستفهام للإنكار والتعجب من حالهم .والافتراء
أشنع الكذب . أى : بل أيقول هؤلاء الكافرون لك - أيها الرسول الكريم - إنك
إفتريت هذا القرآن واختلقته من عند نفسك؟ثم لقن الله - تعالى - نبيه - صلى
الله عليه وسلم الرد الذى يخرسهم فقال ( أَمْ يَقُولُونَ افتراه ) .أى : قل
لهم - أيها الرسول الكريم - فى الرد على زعمهم أنك افتريت هذا القرآن : إن
كنت على سبيل الفرض والتقدير قد افتريته من عند نفسى ، عاقبنى ربى ، ولا
تستطيعون أنتم أو غيركم أن تمنعوا عنى شيئا من عذابه وعقابه ، وما دام
الأمر كذلك فكيف أفتريه ، وأنا أعلم علم اليقين أن افتراء شئ منه يؤدى إلى
عقابى؟فجواب " إن " فى قوله : ( إِنِ افتريته ) محذوف . وتقديره : عاجلنى
بالعقوبة ، وقوله : ( فَلاَ تَمْلِكُونَ لِي مِنَ الله شَيْئاً ) قام مقامه
قال - تعالى - : ( وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأقاويل لأَخَذْنَا
مِنْهُ باليمين ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوتين فَمَا مِنكُمْ مِّنْ
أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ) وقوله : ( هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ
فِيهِ ) أى : الله - تعالى - الذى زعمتم أنى أفترى عليه الكذب ، هو أعلم
، منى ومنكم ومن كل المخلوقات ، بما تندفعون فيه من القدح فى آياته
) : والإعراض عن دعوته ، وسيجازيكم على ذلك بما تستحقونه من عقاب .فقوله
تُفِيضُونَ ) من الإفاضة ، وهى الأخذ فى الشئ باندفاع وعنف ، وأصله من فاض
الإناء ، إذا سال بشدة .وقوله - سبحانه - : ( كفى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي
، وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الغفور الرحيم ) ترهيب لهم من الإنسياق فى كفرهم
وترغيب لهم فى الدخول فى الإيمان لينالوا مغفرة الله - تعالى - ورحمته .أى
كفى بشهادة الله - تعالى - بينى وبينكم شهادة ، فهو الذى يعلم أنى صادق :
- فيما أبلغه عنه ، ويعلم أنكم الكاذبون فيما تزعمونه ، وهو - سبحانه
. لاواسع المغفرة والرحمة ، لمن تاب إليه وأناب

قل ما كنت بدعا من الرسل وما ادري ما يفعل بي ولا بكم ان اتبع الا ما يوحى
الي وما انا الا نذير مبين

كما فسرها الوسيط ثم أمره الله - تعالى - أن يبين لهم ما جاءهم به من هداية
قد جاء بها الرسل من قبله لأقوامهم ، وأنه رسول كسائر الرسل السابقين ،
فقال - تعالى - : ( قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنَ الرسل . . ) .والبدع من
كل شئ : أوله ومبدؤه . يقال : فلان بدع فى هذا الأمر ، أى : هو أول فيه دون
أن يسبقه فيه سابق ، من الابتداع بمعنى الاختراع .أى : وقل لهم - أيها
الرسول الكريم - إنى لست أول رسول أرسله الله - تعالى - إلى الناس ، وإنما
سبقنى كثيرون أنتم تعرفون شيئا من أخبارهم ومن أخبار أقوامهم ، وما دام
) : - الأمر كذلك فكيف تنكرون نبوتى ، وتشككون فى دعوتى؟ .وقوله - سبحانه
قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنَ الرسل وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ
بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يوحى إِلَيَّ وَمَآ أَنَاْ إِلاَّ
نَذِيرٌ مُّبِينٌ ) بيان لوظيفته - صلى الله عليه وسلم - . أى : وإننى وأنا
رسول الله لا أعلم ما سيفعله الله - تعالى - بى أو بكم فى المستقبل من أمور
الدنيا ، هل سأبقى معكم فى مكة أو سأهاجر منها . وهل سيصيبكم العذاب عاجلا
أو آجلا؟ فإنى ما أفعل معكم ، ولا أقول لكم إلا ما أوحاه الله - تعالى
إلىّ ، وما أنا إلا نذير مبين ، أوضح لكم الحق من الباطل ، وأخوّفكم
- من سوء المصير ، إذا ما بقيتم على كفركم وشرككم .فالمقصود بقوله - تعالى
، أى : فى دار الدنيا ( وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ ) :
أما بالنسبة للآخرة ، فالله - تعالى - قد بشره وبشر أتباعه بالثواب العظيم
فى آيات كثيرة ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ( وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ
فترضى ) وقوله - سبحانه - : ( وَبَشِّرِ المؤمنين بِأَنَّ لَهُمْ مِّنَ
الله فَضْلاً كَبِيراً ) .قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : قال الحسن
البصرى فى قوله : ( وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ ) أى : فى
الدنيا ، أأخرج كما أخرجت الأنبياء قبلى؟ أم أقتل كما قتلوا ، ولا أدرى
أيخسف بكم أو ترمون بالحجارة؟ أما فى الآخرة فمعاذ الله ، قد علم أنه فى
الجنة .وهذا القول هو الذى عوّل عليه ابن جرير ، وأنه لا يجوز غيره ، ولا
شك أن هذا هو اللائق به - صلى الله عليه وسلم ، فإنه بالنسبة للآخرة ، جازم
أنه يصير إلى الجنة ومن اتبعه ، وأما فى الدنيا فلم يدر ما كان يؤول إليه
أمره وأمر المشركين . أيؤمنون أم يكفرون فيعذبون فيستأصلون بكفرهم؟والمتدبر
- فى هذه الآية الكريمة ، يراها قد اشتملت على أسمى ألوان الأدب من النبى
- صلى الله عليه وسلم - مع خالقه - عز وجل - فقد فوّض - صلى الله عليه وسلم
أمره إلى خالقه ، وصرح بأنه لا يتبع إلا ما يوحيه إليه سبحانه - وأنه لا
. علم له بالغيب ، وإنما علم ذلك إلى الله - تعالى - وحده

قل ارايتم ان كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني اسرائيل على مثله
فامن واستكبرتم ان الله لا يهدي القوم الظالمين

كما فسرها الوسيط ثم أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - مرة أخرى ، أن يذكرهم بإيمان العقلاء من أهل الكتاب بهذا الدين ، لعلهم عن طريق هذا التذكير يقلعون عن كفرهم وعنادهم فقال : ( قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ ) .أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الكافرين : أخبرونى إن كان هذا الذى أوحاه الله - تعالى - إلىّ من قرآن ، هو من عنده - تعالى - وحده ، والحال أنكم كفرتم به ألستم فى هذه الحالة تكونون ظالمين لأنفسكم وللحق الذى جئتكم به من عند خالقكم؟ لا شك أنكم فى هذه الحالة تكونون ظالمين جاحدين .وقوله - سبحانه - : ( وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بني إِسْرَائِيلَ على مِثْلِهِ فَآمَنَ واستكبرتم . . ) معطوف على ما قبله على سبيل التأكيد لظلمهم .أى : أخبرونى إن كان هذا القرآن من عند الله ، والحال أنكم قد كفرتم به ، مع أن شهادا من بنى إسرائيل الذين تثقون بشهادتهم ، قد شهد على مثل القرآن بالصدق . لاتفاق التوراة والقرآن على وحدانية الله - تعالى - وعلى أن البعث حق ، وعلى أن الجزاء حق . . فآمن هذا الشاهد بالقرآن وبمن جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم - واستكبرتم أنتم عن الإيمان . .ألستم فى هذا الحالة تكونون على رأس الظالمين الجاحدين لكل ما هو حق وصدق؟! فجواب الشرط فى الآية محذوف . أى : إذا كان الأمر كما ذكرنا ومع ذلك لم تؤمنوا فقد كفرتم وظلمتم ، والله - تعالى -لا يهدى القوم الذين من شأنهم استحباب الظلم على العدل ، والعمى على الهدى .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ )

قال صاحب الكشاف - رحمه الله - : جواب الشرط محذوف وتقديره . إن كان القرآن - من عند الله وكفرتم به ، ألستم ظالمين ، ويدل على هذا المحذوف قوله تعالى - : ( إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي القوم الظالمين ) .والشاهد من بنى إسرائيل : عبد الله بن سلام . . وفيه نزل : ( وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بني إِسْرَائِيلَ على مِثْلِهِ . . . ) .والضمير للقرآن . أى : على مثله فى المعنى ، وهو ما فى التوارة من المعانى المطابقة لمعانى القرآن من التوحيد ، والوعيد وغير ذلك .وعلى رأى صاحب الكشاف تكون الآية مدنية فى سورة مكية لأن إيمان عبد الله بن سلام - رضى الله عنه - كان بالمدينة ولم يكن بمكة ومن المفسرين من يرى أن الآية الكريمة نزلت فى شأن من كل من آمن من أهل الكتاب ، وأنها لم تنزل فى عبد الله بن سلام بصفة خاصة . .قال الإمام ابن كثير : وهذا الشاهد اسم جنس ، يعم عبد الله بن سلام وغيره ، فإن هذه الآية مكية نزلت قبل إسلام عبد الله بن سلام ، وهذه كقوله - تعالى - : ( وَإِذَا يتلى عَلَيْهِمْ قالوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الحق مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ) قال مسروق والشعبى : ليس بعبد الله بن سلام . هذه الآية مكية ، وإسلامه كان بالمدينة . .وقال مالك عن ابى النضر - عن عامر بن سعد ، عن أبيه قال : ما سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم يقول لأحد يمشى على الأرض : " إنه من أهل الجنة " إلا لعبد الله بن سلام ، قال : وفيه نزلت : ( وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بني إِسْرَائِيلَ على مِثْلِهِ ) وكذا قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة .وعلى آية حال فالمقصود من . . ( - الآية الكريمة إثبات أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم - صادق فيما يبلغه عن ربه ، وأن العقلاء من أهل الكتاب قد شهدوا بذلك ، وآمنوا بالنبى - صلى الله عليه وسلم - فكان من الواجب على المشكرين - لو كانوا يعقلون -أن يقعلوا عن عنادهم ، وأن يتبعوا الحق الذى جاءهم به النبى - صلى الله عليه وسلم - .

وقال الذين كفروا للذين امنوا لو كان خيرا ما سبقونا اليه واذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا افك قديم

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - بعض الأعذار الفاسدة ، التى اعتذر بها الكافرون عن عدم دخولهم فى الإسلام ، ورد عليهم بما يكبتهم ، وبشر المؤمنين الصادقين بما يشرح صدورهم فقال : ( وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لِلَّذِينَ آمَنُوا . . . بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ) .وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول قوله - تعالى - : ( وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لِلَّذِينَ آمَنُواْ ) روايات منها : أن مشركى مكة حين رأوا أن أكثر المؤمنين من الفقراء ، كعمار ، وبلال ، وعبد الله بن مسعود . قالوا ذلك .وسبب قولهم هذا اعتقادهم الباطل ، أنهم هم الذين لهم عند الله العظمة والجاه والسبق إلى كل مكرمة ، لأنهم هم أصحاب المال والسلطان ، أما أولئك الفقراء فلا خير فيهم ، ولا سبق لهم إلى خير .أى : وقال الذين كفروا للذين آمنوا - على سبيل السخرية والاستخفاف بهم - ، لو كان هذا الذى أنتم عليه من الإيمان بما جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - حقا وخيرا ، لما سبقتمونا إليه ، ولما سبقنا إليه غيركم من المؤمنين لأننا نحن العظماء الأغنياء . . وأنتم الضعفاء الفقراء . .فهم - لانطماس بصائرهم وغرورهم - توهموا أنهم لغناهم وجاههم هم المستحقون للسبق إلى كل خير ، وأن غيرهم من الفقراء لا يعقل ما يعقلونه ، ولا يفهم ما يفهمونه . . ومن الآيات الكريمة التى تشبه هذه الآية

قوله - تعالى - : ( وكذلك فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ليقولوا أهؤلاء
مَنَّ الله عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَآ ) وقوله - سبحانه - : ( وَإِذْ لَمْ
يَهْتَدُواْ بِهِ فَسَيَقُولُونَ هاذآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ) تعجيب من غرورهم
وعنادهم ، ورميهم بما هو برئ منه .و " إذ " ظرف لكلام محذوف دل عليه الكلام
أى : وإذا لم يهتدوا بما جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم - من عند ،
ربه ، ظهر عنادهم واستكبارهم وقالوا هذا القرآن كذب قديم من اخبار السابقين
- نسبة محمد - صلى الله عليه وسلم - إلى ربه .وشبيه بهذا الآية . قوله ،
تعالى - : ( وقالوا أَسَاطِيرُ الأولين اكتتبها فَهِيَ تملى عَلَيْهِ
بُكْرَةً وَأَصِيلاً ).

ومن قبله كتاب موسى اماما ورحمة وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن هذا القرآن هو المهيمن على الكتب
السماوية التى سبقته فقال - تعالى - : ( وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ موسى
إِمَاماً وَرَحْمَةً . . ) .أى : ومن قبل هذا القرآن الذى أنزلناه على نبيه
محمد - صلى الله عليه وسلم - كان كتاب موسى وهو التوراة ( إِمَاماً ) يهتدى
به فى الدين ( وَرَحْمَةً ) من الله - تعالى - لمن آمن به .وقوله : ( وَمِن
قَبْلِهِ ) خبر مقدم ، و ( كِتَابُ موسى ) مبتدأ مؤخر ، وقوله : ( إِمَاماً
، وَرَحْمَةً ) حالان من ( كِتَابُ موسى ) .والمقصود من هذه الجملة الكريمة
الرد على قولهم فى القرآن ( هاذآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ) فكأنه - تعالى - يقول
، لهم : كيف تصفون القرآن بذلك ، مع أنه قد سبقه كتاب موسى الذى تعرفونه
والذى وافق القرآن فى الأمر بإخلاص العبادة لله - تعالى - وحده ، وفى غير
ذلك من أصول الشرائع .ثم مدح - سبحانه - هذا القرآن بقوله : ( وهذا كِتَابٌ
مُّصَدِّقٌ لِّسَاناً عَرَبِيّاً لِّيُنذِرَ الذين ظَلَمُواْ وبشرى
لِلْمُحْسِنِينَ ) .أى : وهذا القرآن الذى أنزلناه على نبينا محمد - صلى
الله عليه وسلم - مصدق لكتاب موسى الذى هو إمام ورحمة ، ومصدق لغيره من
، الكتب السماوية السابقة وأمين عليها ، وقد أنزلناه بلسان عربى مبين
امتنانا منا على من بعث الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيهم وهم العرب .وقد
اقتضت حكمتنا أن نجعل من وظيفة هذا الكتاب : الإنذار للظالمين بسوء المصير
إذا ما أصروا على ظلمهم ، والبشارة للمحسنين بحسن عاقبتهم بسبب إيمانهم
وإحسانهم .فاسم الاشارة فى قوله : ( وهذا ) يعود للقرآن الكريم ، وقوله
" مصدق صفة لكتاب .وقوله ( لِّسَاناً عَرَبِيّاً ) حال من الضمير فى " مصدق
الذى هو صفة للكتاب والضمير فى " لينذر " يعود إلى الكتاب ، و " الذين
ظلموا " مفعوله . أى : لينذر الكتاب الذين ظلموا ، وقوله : ( وبشرى
لِلْمُحْسِنِينَ ) فى محل نصب عطفا على محل " لينذر " .وقال - سبحانه - فى
صفة هذا الكتاب ( مُّصَدِّقٌ لِّسَاناً عَرَبِيّاً ) ولم يقل : مصدق لكتاب
موسى ، للتنبيه على أنه مصدق لكتاب موسى ولغيره من الكتب السماوية السابقة
والتعبير بقوله ( لِّسَاناً عَرَبِيّاً ) فيه تكريم للعرب ، وتذكير لهم.
بنعمة الله عليهم ، حيث جعل القرآن الذى هو أجمع الكتب السماوية للهدايات
والخيرات بلسانهم ، وهذا يقتضى إيمانهم به ، وحرصهم على اتباع إرشاداته
وقوله - تعالى - : ( لِّيُنذِرَ الذين ظَلَمُواْ وبشرى لِلْمُحْسِنِينَ ).
، بيان لوظيفة هذا الكتاب ، وتحديد لمصير كل فريق ، ليهلك من هلك عن بينة
. ويحيا من من حى عن بينه

ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون

: كما فسرها الوسيط ثم فصل - سبحانه - ما أعده للمحسين من جزيل الثواب فقال
، أى : قالوا ذلك بألسنتهم ( . . إِنَّ الذين قَالُواْ رَبُّنَا الله )
وصدقت هذا القول قلوبهم ( ثُمَّ استقاموا ) بعد ذلك على صراط الله المستقيم
بأن فعلوا بإخلاص وطاعة كل ما أمرهم - سبحانه - بفعله ، واجتنبوا بقوة كل ،
ما أمرهم بإجتنابه ، وقوله : ( فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ
يَحْزَنُونَ ) خبر " إن " وجئ بالفاء فى خبر الموصول لما فيه من معنى الشرط
أى : إن الذين قالوا ذلك ، ثم استقاموا وثبتوا على طاعتنا فلا خوف عليهم.
من لحوق مكروه بهم ، ولا هم يحزنون بسبب فوات محببو لديهم ، وإنما هم فى
سعادة مستمرة ، وفى سرور دائم ، لا يعكره خوف من مستقبل مجهول ، ولا حزن
. على أمر قد مضى

اولئك اصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون

كما فسرها الوسيط ( أولئك ) الموصوفون بما ذكر من الإيمان والاستقامة ، هم
خلودا أبديا . ( جَزَآءً بِمَا ) أَصْحَابُ الجنة خَالِدِينَ فِيهَا )
، كَانُواْ يَعْمَلُونَ ) أى : يجزون هذا الجزاء الطيب بسب أعمالهم الصالحة
. التى كانوا يعملونها فى الدنيا

ووصينا الانسان بوالديه احسانا حملته امه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا حتى اذا بلغ اشده وبلغ اربعين سنة قال رب اوزعني ان اشكر نعمتك التي انعمت علي وعلى والدي وان اعمل صالحا ترضاه واصلح لي في ذريتي اني تبت اليك واني من المسلمين

كما فسرها الوسيط وبعد هذا الحديث عن حقيقة هذا الدين ، وعن حسن عاقبة الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ، جاء الحديث عن وجوب الإحسان إلى الوالدين وعما يترتب عليه هذا الإحسان من ثواب عظيم ، قال - تعالى - : ( وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ . . . كَانُواْ يُوعَدُونَ ) . قال الإمام ابن كثير : لما ذكر - تعالى - فى الآية الأولى التوحيد له ، وإخلاص العبادة والاستقامة إليه ، عطف ، بالوصية بالوالدين ، كما هو مقرون فى غير ما آية من القرآن ، كقوله : ( وقضى رَبُّكَ أَلاَّ تعبدوا إِلاَّ إِيَّاهُ وبالوالدين إِحْسَاناً ) وقال : ( أَنِ اشكر لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ المصير ) . وقوله - سبحانه - : ( وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً ) من الإيصاء بالشئ بمعنى الأمر به . قال - تعالى - : ( وَأَوْصَانِي بالصلاة والزكاة مَا دُمْتُ حَيّاً ) أى : أمرنى بالمحافظة على أدائهما . وقوله : ( إِحْسَاناً ) قراءة عاصم وحمزة والكسائى . وقرأ غيرهم من بقية السبعة ( حسنا ) وعلى القراءتين فانتصابهما على المصدرية . أى : ووصينا الإنسان وأمرناه بأن يحسن إلى والديه إحسانا أو حسنا ، بأن يقدم إليهما كل ما يؤدى إلى برهما وإكرامهما ويصح أن يكون وصينا بمعنى ألزمنا ، فيتعدى لاثنين ، فيكون المفعول الثانى منها ، قوله : ( إِحْسَاناً ) أو ( حسنا ) . وقوله - سبحانه - : ( حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً ) تعليل للإيصاء المذكور ولفظ ( كُرْهاً ) قرئ بضم الكاف وفتحها ، وهما قراءتان سبعيتان ، قالوا : ومعناهما واحد كالضَّعف - بتشديد الضاد وفتحها أو ضمها - فهما لغتان بمعنى واحد وهذا اللفظ منصوب على الحال من الفاعل . أى : حملته أمة ذات كره . ووضعته ذات كره ، أو هو صفة لمصدر مقدر ، أى : حملته حملا ذا كره ، ووضعته كذلك ولا شك فى أن الأم تعانى فى أثناء حملها ووضعها لوليدها ، الكثير من المشاق والآلام والمتاعب . . فكان من الوفاء أن يقابل ذلك منها بالإحسان والإكرام . وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - فى آية أخرى : ( حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً على وَهْنٍ ) أى : حملته أمة ضعفا على ضعف ، لأن الحمل كلما تزايد وعظم فى بطنها ، ازداد ضعفها . . وقوله - تعالى - : ( وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاَثُونَ شَهْراً ) بيان لمدة الحمل والفطام ، والكلام على حذف مضاف . والفصال : مصدر فاصل ، وهو بمعنى الفطام ، وسمى الفطام فصالا ، لأن الطفل ينفصل عن ثدى أمه فى نهاية الرضاع . أى : ومدة حمل الطفل مع مدة فصاله عن ثدى أمه ، ثلاثون شهرا . قال صاحب الكشاف : فإن قلت : المراد بيان مدة الرضاع لا الفطام ، فكيف عبر عنه بالفصال . . . لما كان الرضاع يليه الفصال ويلابسه ، لأنه ينتهى به ويتم ، سمى فصالا . . . وفيه فائدة ، وهى الدلالة على الرضاع التام المنتهى بالفصال ووقته . . وقال الشوكانى : وقد استدل بهذه الآية على أن أقل الحمل ستة أشهر ، لأن مدة الرضاع سنتان ، أى : مدة الرضاع الكامل ، كما فى قوله - تعالى - : ( والوالدات يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرضاعة ) فذكر - سبحانه - فى هذه الآية أقل مدة الحمل ، وأكثر مدة الرضاع . وفى هذه الآية إشارة الى أن حق الأم ، آكد من حق الأب ، لأنها هى التى حملت وليدها وأرضعته هذه المدة بتعب ونصب . . وقوله - تعالى - : ( حتى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أوزعني أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ التي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وعلى وَالِدَيَّ . وعلى الوالدين وفقتهما بأن وفقتنى ووفقتهما إلى صراطك المستقيم ، وبأن رزقتهما العطف علىَّ ، ورزقنى الشكر لهما ، ووفقنى - أيضا - ( وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ ) منى ، وتقبله عندك ( وَأَصْلِحْ لِي فِي ذريتي ) أى : واجعل الصلاح راسخا فى ذريتى ، وساريها فيها ، لأن صلاح الذرية فيه السعادة الغامرة للآباء . ( إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ ) توبة صادقة نصوحا وإنى من المسلمين الذين أخلصوا نفسوهم لطاعتك ، وقلوبهم لمرضاتك . فأنت ترى ان

الآية الكريمة قد اشتملت على أسمى ألوان الدعوات ، التى عن طريق إجابتها
" تتحق السعادة الدنيوية والأخروية .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما معنى
فى " فى قوله : ( وَأَصْلِحْ لِي فِي ذريتي ) ؟ قلت : معناه أن يجعل ذريته
موقعا للصلاح ومظنته ، كأنه قال هب : لى الصلاح فى ذريتى ، وأوقعه فيهم
وفى الآية الكريمة تنبيه للعقلاء ، إلى أن شأنهم - خصوصا عند بلوغ سن.
الأربعين . أن يكثروا من التضرع إلى الله بالدعاء ، وأن يتزودوا بالعمل
الصالح ، فإنها السن التى بعث الله - تعالى - فيها معظم الأنبياء ، والتى
فيها يكتمل العقل ، وتستجمع القوة ، ويرسخ فيها خلق الإنسان الذى تعوده
وألفه ورحم الله القائل :إذا المرء وافى الأربعين ولم يكن ... له دون ما
يهوى حياء ولا سترفدعه ولا تنفس عليه الذى مضى ... وإن جر أسباب الحاية له
العمر

اولئك الذين نتقبل عنهم احسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في اصحاب الجنة
وعد الصدق الذي كانوا يوعدون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة من يسلك هذا الطريق القويم
فقال : ( أولئك الذين نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ . . )
واسم الإشارة يعود إلى الإنسان باعتبار الجنس . أى : أولئك الموصوفون.
بما ذكر من الصفات الجميلة ، هم ( الذين نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا
عَمِلُواْ ) من الأعمال الطيبة المتقبلة عندنا . . . ( وَنَتَجَاوَزُ عَن
) سَيِّئَاتِهِمْ ) فلا نعاقبهم عليها ، لكثرة توبتهم إلينا .. بل نجعلهم
في ) عِدَادِ ( أَصْحَابِ الجنة ) الخالدين فيها ، والمتنعمين بخيراتها
فالجار والمجرور فى قوله ( صْحَابِ الجنة ) فى محل نصب على الحال ، على.
سبيل التشريف والتكريم ، كما تقول : أكرمنى الأمير فى أصحابه ، أى : حالة
كونى معدودا من أصحابه .وقوله - تعالى - : ( وَعْدَ الصدق الذي كَانُواْ
: يُوعَدُونَ ) تذييل مؤكد لما قبله . ولفظ ( وَعْدَ ) مصدر لفعل مقدر . أى
وعدهم الله - تعالى - وعد الصدق الذى كانوا يوعدون به على ألسنة الرسل فى
الدنيا .هذا ، وقد ذكر بعض المفسرين أن هاتين الآيتين نزلتا فى شأن أبى بكر
الصديق - رضى الله عنه - ، وقد استجاب الله دعاءه ، فأسلم أبواه وأولاده
. جميعا

والذي قال لوالديه اف لكما اتعدانني ان اخرج وقد خلت القرون من قبلي وهما
يستغيثان الله ويلك امن ان وعد الله حق فيقول ما هذا الا اساطير الاولين

كما فسرها الوسيط وبعد أن ساق - سبحانه - هذه الصورة الوضيئة لأصحاب الجنة
أتبع ذلك ببيان صورة سيئة لنوع آخر من الناس ، فقال - تعالى - : ( والذي ،
قَالَ لِوَالِدَيْهِ . . . وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ) .والاسم الموصول
فى قوله - تعالى - : ( والذي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ ) بمعنى
. . الذين ، وهو مبتدأ وخبره قوله : ( أولئك الذين حَقَّ عَلَيْهِمُ القول
وهذا صريح فى أن المراد بقوله : ( والذي ) العموم وليس الإفراد ، وهذا (
يدل - أيضا - على فساد قول من قال إن الآية نزلت فى شأن عبد الرحمن بن أبى
، بكر الصديق - رضى الله عنهما - والصحيح أنها فى حق كل كافر عاق لوالديه
منكر للبعث .قال ابن كثير عند تفسير لهذه الآية : وهذا عام فى كل من قال
هذا ، ومن زعم أنها نزلت فى عبد الرحمن بن أبى بكر ، فقوله ضعيف ، لأن بعد
الرحمن اسلم بعد ذلك ، وحسن إسلامه ، وكان من خيار أهل زمانه .أخرج البخارى
عن يوسف بن مَاهَك قال : كان مروان على الحجاز ، استعمله معاوية بن أبى
سفيان ، فخطب وجعل يذكر يزيد بن معاوية لكى يبايع له بعد أبيه .فقال له بعد
الرحمن بن أبى بكر شيئا . . فقال مروان : إن هذا الذى أنزل فيه : ( والذي
: قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ . . . ) .فقالت عائشة من وراء حجاب
ما أنزل الله فينا شيئا من القرآن ، إلا أن الله أنزل عذرى . وفى رواية
للنسائى أنها قالت : كذب مروان ، والله ما هو به ، ولو شئت أن أسمى الذى
نزلت فيه لسميته . .ولفظ " أف " : اسم صوت ينبى عن التضجر ، أو اسم فعل
مضارع هو أتضجر .والمقصود به هنا : إظهار الملل والتأفف والكراهية لما
، يقوله أبواه من نصح له .وقوله : ( أتعدانني ) فعل مضارع من وعد الماضى
وحذف واوه فى المضارع مطرد .والنون الأولى نوع الرفع ، والثانية نون
الوقاية .وقوله : ( أَنْ أُخْرَجَ ) : أن وما دخلت عليه فى تأويل مصدر هو
المفعول الثانى لقوله : ( أتعدانني ) . أى : والذي قال لوالديه - على سبيل
الإنكار والإعراض عن نصحهما - ( أُفٍّ لَّكُمَآ ) أى : أقول بعدا وكرها
: لقولكما ، أو إنى متضج من قولكما .( أتعدانني أَنْ أُخْرَجَ ) أى
أتعذاننى الخروج من قبرى بعد أن أموت ، لكى أبعث وأحاسب على عملى ، والحال
أنه ( قَدْ خَلَتِ ) أى : مضت ( القرون ) الكثيرة ( مِن قَبْلِي ) دون أن
يخرج أحد منهم من قبره ، ودون أن يرجع بعد أن مات .فالآية الكريمة تصور
بوضوح ما كان عليه هذا الإنسان ، من سوء أدب مع أبويه ، ومن إنكار صريح
) : للبعث والحساب والجزاء .ثم حكى - سبحانه - ما رد به الأبوان فقال

( وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ الله وَيْلَكَ آمِنْ إِنّ وَعْدَ الله حَقٌّ
وقوله : ( يَسْتَغِيثَانِ الله ) أى : يلتمسان غوثه وعونه فى هداية هذا.
الإنسان إلى الصراط المستقيم ، والجملة فى محل نصب على الحال .ولفظ " ويلك
: فى الأصل ، يقال فى الدعاء على شخص بالهلاك والتهديد .والمراد به هنا "
حض المخاطب على الإيمان والطاعة لله رب العالمين .أى : هذا هو حال
الإنسان العاق الجاحد ، أما حال أبواه ، فإنهما يفزعان لما قاله وترتعش
- أفئدتهما لهذا التطاول والصدود عن الحق ، فليجآن إلى الله ، ويلتمسان منه
- سبحانه - الهداية لابنهما ، ويحضان هذا الابن على الإيمان بوحدانية الله
تعالى - ، وبالبعث والحساب والجزاء ، فيقولان له : ( وَيْلَكَ آمِنْ إِنّ
وَعْدَ الله حَقٌّ ) ولا خلف فيه ، ولا راد له . .والمتأمل فى هذه الجملة
الكريمة يراها تصور لهفة الوالدين على إيمان ولدهما أكمل تصوير ، فهو
يلتمسان من الله له الهداية ، ثم يهتفان بهذا الابن العاف بفزع أن يترك هذا
، الجحود ، وأن يبادر إلى الإيمان بالحق . .ولكن الابن العاق يصر على كفره
ويلج فى جحوده : ( فَيَقُولُ ) فى الرد على أبويه ( مَا هاذآ إِلاَّ
أَسَاطِيرُ الأولين ) . أى : ما هذا الذى تعداننى إياه من البعث والحساب
والجزاء . . إلا أباطيل الأولين وخرافاتهم التى سطروها فى كتبهم .فالأساطير
: جمع أسطورة ، وهى ما سجله الأقدمون فى كتبهم من خرافات وأكاذيب .وقوله :
اسم الإشارة هذا يعود إلى العاقين المكذبين بالبعث والجزاء ( أولئك )
المذكورين فى قوله - تعالى - قبل ذلك : ( والذي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ
لَّكُمَآ ) .أى : أولئك القائلون ذلك .

اولئك الذين حق عليهم القول في امم قد خلت من قبلهم من الجن والانس انهم
كانوا خاسرين

كما فسرها الوسيط هم ( الذين حَقّ عَلَيْهِمُ القول ) أى : وجب عليهم
) العذاب الذى حكم به - سبحانه - على أمثالهم فى قوله - تعالى - لإبليس
لأَمْلأَنّ جَهَنّمَ مِنكَ وَمِمّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ) كما
يفيده قوله - سبحانه - بعد ذلك . ( في أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمْ
مِّنَ الجن والإنس ) . أى : أولئك الذين وجب عليهم العذاب ، حالة كونهم
) مندرجين فى أمم قد مضت من قبلهم من طائفة الجن ومن طائفة الإنس
إِنَّهُمْ ) جميعا (كَانُواْ خَاسِرِينَ ) لأنهم استحبوا الكفر على
الإيمان .

ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم اعمالهم وهم لا يظلمون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - مظهرا من مظاهر عدالته فى حكمه بين
عباده فقال : ( وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمّا عَمِلُواْ وَلِيُوَفِّيَهُمْ
أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ) .والتنوين فى قوله ( وَلِكُلٍّ )
عوض عن المضاف إليه المحذوف ، والجار والجرور فى قوله ( مِّمّا عَمِلُواْ
صفة لقوله ( دَرَجَاتٌ ) ، و ( مِّنَ ) بيانية ، ( مّا ) موصولة .وقوله (
علة لمحذوف . . والمعنى : ولك فريق ( وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ ) :
من الفريقين : فريق المؤمنين المعبر عنهم بقوله : - تعالى - : ( أولئك
الذين نَتَقَبّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ . . ) وفريق الكافرين
. المعبر عنهم بقوله - تعالى - : ( أولئك الذين حَقّ عَلَيْهِمُ القول )
لكل فريق من هؤلاء وهؤلاء ( دَرَجَاتٌ ) حاصلة من الذى عملوه من الخير
والشر ، وقد فعل - سبحانه - ذلك معهم ، ليوفيهم جزاء أعمالهم .( وَهُمْ )
. جميعا ( لاَ يُظْلَمُونَ ) شيئا ، بل كل فريق منهم يجازى على حسب عمله
كما قال - تعالى - : ( فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ خَيْراً يَرَهُ
وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ شَرّاً يَرَهُ ).

ويوم يعرض الذين كفروا على النار اذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا
واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الارض بغير
الحق وبما كنتم تفسقون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما سيكون عليه الكافرون يوم القيامة من
حال سيئة فقال : ( وَيَوْمَ يُعْرَضُ الذين كَفَرُواْ عَلَى النار
أَذْهَبْتُمْ طَيّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدنيا .. ) .والظرف متلعق
بمحذوف تقديره : اذكر . وقوله ( يُعْرَضُ ) من العرض بمعنى الوقوف على الشئ
وتلقى ما يترتب على هذا الوقوف على هذا الشئ من خير أو شر .والمراد ،
- بالعرض على النار هنا : مباشرة عذابها ، والقائهم فيها ، ويشهد لهذا قوله
تعالى - بعد ذلك ( وَيَوْمَ يُعْرَضُ الذِين كَفَرُواْ على النار أَلَيْسَ
هذا بالحق قَالُواْ بلى وَرَبّنَا قَالَ فَذُوقُواْ العذاب بِمَا كُنتُمْ
تَكْفُرُونَ ) قال الآلوسى : قوله : ( وَيَوْمَ يُعْرَضُ الذين كَفَرُواْ
عَلَى النار ) . أى : يعذبون بها ، من قولهم : عُرِض بنو فلان على السيف ،

إذا قتلوا به ، وهو مجاز شائع . .وقوله : ( أَذْهَبْتُمْ . . ) إلخ مقول لقول محذوف . وهذا اللفظ قرأه ابن كثير وابن عامر ( أأذهبتم ) بهمزتين على الاستفهام الذى هو للتقريع والتوبيخ ، وقرأه الجمهور ( أذهبتم ) بهمزة واحدة على الخبر من غير استفهام .أى : واذكر - أيها العاقل - لتعتبر وتتعظ يوم يقف الذين كفروا على النار ، فيرون سعيرها ثم يلقون فيها ، ويقال ، لهم - على سبيل الزجر والتأنيب - ( أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدنيا ) أى : ضيعتم وأتلفتم بالطيبات التى أنعم الله بها عليكم فى حياتكم الدنيا ، حيث ( استمتعتم بِهَا ) استمتاعا دنيويا دون أن : تدخروا للآخرة منها شيئا . .( فاليوم تُجْزَوْنَ عَذَابَ الهون ) أى تجزون عذاب الهون والخزى والذل .( بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأرض بِغَيْرِ الحق ) أى : بسبب استكبارهم فى الأرض بغير الحق . .( وَبِمَا - كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ) أى : وبسبب خروجكم فى الدنيا عن طاعة الله - تعالى ، وعن هدى أنبيائه .وقيد - سبحانه - استكبارهم فى الأرض بكونه بغري الحق ، ليسجل عليهم هذه الرذيلة ، وليبين أنهم قوم دينهم التكبر والغرور وإيثار اتباع الباطل على الحق .قال الجمل : والحاصل أنه - تعالى - علل ذلك العذاب بأمرين :أحدهما : الاستكبار والترفع وهو ذنب القلب .والثانى : الفسق وهو ذنب الجوارح ، وقدم الأول على الثانى ، لأن أحوال القلب أعظم وقعا من أعمال الجوارح .

واذكر اخا عاد اذ انذر قومه بالاحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه الا تعبدوا الا الله اني اخاف عليكم عذاب يوم عظيم

كما فسرها الوسيط ثم انتقلت السورة الكريمة بعد ذلك إلى الحديث عن مصارع الغابرين الذين كانوا أشد قوة وأكثر جمعا من مشركى قريش ، لكى يعتبروا بهم ويقلعوا عن كفرهم ، حتى لا يكون مصيرهم كمصير من سبقوهم فى الكفر ، والطغيان ، فقال - سبحانه - : ( واذكر أَخَا عَادٍ . . . وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ) .والمقصود بقوله - تعالى - : ( أَخَا عَادٍ ) : هود - عليه - السلام - فقد أرسله الله - تعالى - إلى قبيلة عاد ، ليأمرهم بعبادة الله تعالى - ، وكانوا قوما جبارين ، فلم يستمعوا إلى نصحه ، فكانت عاقبتهم الهلاك والتدمير .وقد وردت قصته معهم فى سور متعددة ، منها : سورة الأعراف : وسورة هود ، وسورة الشعراء ، وسورة الحاقة . .قال القرطبى ما ملخصه ، قوله - تعالى - : ( واذكر أَخَا عَادٍ ) هو هود بن عبد الله بن رباح ، كان أخاهم فى النسب لا فى الدين ، إذ أنذر قومه بالأحقاف ، والأحقاف : ديار عاد ، وهى جمع حقف - بكسر الحاء - ، وهو ما استطال من الرمل العظيم واعوج . . ولم يلغ أن يكون جبلا . .ويغلب على الظن أن مساكنهم كانت على مرتفعات من الأرض فى شمال حضر موت ، وعلى مقربة من المكان الذى يسمى الآن بالرّبْع الخالى غربى عُمَان . .والمعنى : واذكر - أيها الرسول الكريم - لقومك ليعتبروا ويتعظوا قصة هود - عليه السلام - وقت أن أنذر قومه ، وهم يعيشون بتلك الأماكن المرتفعة المسماة بالأحقاف .وقوله : ( وَقَدْ خَلَتِ النذر مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ) جملة حالية من محل نصب .أى : جاد هود إلى قومه فأمرهم بإخلاص العبادة لله - تعالى - وحده ، وخوفهم من سوء عاقبة مخالفته ، والحال أنه قد أخبرهم بأن الرسل الذين سبقوه ، والذين ، يأتون من بعده ، كليهم قد بعثهم الله - تعالى - لهداية أقوامهم ولعبادته - سبحانه - وحده .فالنذر : جمع نذير ، والمراد بهم الرسل الذين يخوفون أقوامهم من سوء عاقبة الإشراك مع الله - تعالى - آلهة أخرى فى العبادة .والمراد بقوله : ( مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلفِهِ ) الرسل السابقون عليه ، والمتأخرون عنه .ثم ذكر - سبحانه - جانبا من نصائح هود لقومه فقال : ( ألاَّ تعبدوا إِلاَّ الله إني أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ) .أى : أنذرهم قائلا لهم : إنى أحذركم من عبادة أحد سوى الله - تعالى - وآمركم بإخلاص العبادة له - تعالى - وحده ، لأنى أخاف عليكم عذاب يوم هائل عظيم ، وهو يوم القيامة ، ( يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ - بَنُونَ إِلاَّ مَنْ أَتَى الله بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ) فأنت ترى أن هودا - عليه السلام - بجانب أنه قد أمر قومه بما يسعدهم ، فإنه قد بين لهم أيضا - أنه ما حمله على هذا الأمر إلا خوف عليهم ، وحرصه على نجاتهم من عذاب يوم القيامة .

قالوا اجئتنا لتافكنا عن الهتنا فاتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين

كما فسرها الوسيط ولكن قومه لم يقابلوا ذلك بالطاعة والإذعان ، بل قابلوا دعوة نبيهم لهم بالإعراض والاستخفاف ، وقد حكى القرآن ذلك بقوله : ( قالوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن - كُنتَ مِنَ الصادقين ) . أى : قال هوده له - على سبيل الإنكار والسفاهة أجئتنا بهذه الدعوة ( لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا ) أى : لتصرفنا وتبعدنا عن عبادة آلهتنا التى ألفنا عبادتها يقال : أَفَكَ فلان فلانا عن

الشئ ، إذا صرفه عنه .ثم أضافو إلى هذا الإنكار ، إنكارا آخر مصحوبا
بالتحدى والاستهزاء فقالوا : ( فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ ) . أى : إن كان
الأمر كما تقول فأتنا بما تعدنا به من العذاب العظيم ، ( إِن كُنتَ مِنَ
الصادقين ) فيما أخبرتنا به .وهكذا نلمس فى ردهم سوء الظن ، وعدم الفهم ،
واستعجال العذاب ، والإصرار على الباطل الذى ألفوه . .

قال انما العلم عند الله وابلغكم ما ارسلت به ولكني اراكم قوما تجهلون

كما فسرها الوسيط ولكن هودا - عليه السلام - قابل كل هذه الجهالات بالحلم
والأناة ، فرد عليهم بقوله : (قَالَ إِنَّمَا العلم عِندَ الله . . ) أى :
قال لهم : إنما علم وقت نزول العذاب كم عند الله - تعالى - وحده ، ولا مدخل
لى فى ذلك .وإنما أنا ( وَأُبَلِّغُكُمْ مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِ ) إليكم من
ربى وربكم ، وتلك هى وظيفتى .ثم عقب على هذا الرد بما يدل على حمقهم
وغبائهم فقال : ( ولكني أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ ) .أى : أنا لا علم
لى بوقت نزول العذاب عليكم ، لأن رسالتى محصورة فى التبليغ والإنذار .
وهذا كان يجب أن يكون مفهوما لديكم لوضوحه . . ولكنى أراكم قوما تجهلون ما
هو واضح ، وتنكرون ما هو حق ، وتصرون على ما هو باطل ، وتطالبونى بما لا
أملكه .

فلما راوه عارضا مستقبل اوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم
به ريح فيها عذاب اليم

كما فسرها الوسيط ثم يجمل السياق بعد ذلك ما كان بين هود وقومه من جدال
طويل ، ليصل إلى العذاب الذى استعجلوه فيقول : ( فَلَمَّا رَأَوْهُ
عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هذا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا
) والفاء فى قوله ( فَلَمَّا رَأَوْهُ . . . ) فصيحة .والضمير فى قوله (
رَأَوْهُ ) يعود إلى ( مّا ) فى قوله - تعالى - قبل ذلك : ( فَأْتِنَا
بِمَا تَعِدُنَآ ) والمراد به العذاب .قال الشوكانى : الضمير فى " رأوه "
يرجع إلى " ما " فى قوله ( بِمَا تَعِدُنَآ ) . وقال المبرد والزجاج :
الضمير فى " رأوه " يعود إلى غير مذكور ، وبينه قوله ( عَارِضاً ) ،
فالضمير يعود إلى السحاب . أى : فلما رأوا السحاب عارضا ، فعارضا نصب على
التكرير ، أى : التفسير . وسمى الحساب عارضا لأنه يبدو فى عرض السماء . قال
الجوهرى : العارض : السحاب يعترض فى الأفق .والمعنى : وأتى العذاب الذى
استعجله قوم هود إليهم ، فلما رأوه بأعينهم ، متمثلا فى سحاب يظهر فى أفق
السماء ، ومتجها نحو أوديتهم ومساكنهم .( قَالُواْ ) وهم يجهلون أنه العذاب
الذى استعجلوه ( هذا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ) أى : هذا سحاب ننتظر من ورائه
المطر الذى ينفعنا . .قيل : إنها حبس عنهم المطر لفترة طويلة ، فلما رأوا
السحاب فى أفق السماء ، استبشروا وفرحوا وقالوا : ( هذا عَارِضٌ
مُّمْطِرُنَا ) .وهنا جاءهم الرد على لسان هود بأمر ربه ، فقال لهم :
( بَلْ هُوَ مَا استعجلتم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ) .أى : قال لهم
هود - عليه السلام - ليس الأمر كما توقعتم من أن هذا العارض سحاب تنزل منه
الأمطار عليكم ، بل الحق أن هذا العارض هو العذاب الذى استعجلتم نزوله ،
وهو يتمثل فى ريح عظيمة تحمل العذاب المهلك الأليم لكم .فقوله : ( رِيحٌ )
يصح أن يكون بدلا من " ما " أو من " هو " فى قوله ( بَلْ هُوَ مَا استعجلتم
كما يصح أن يكون خبر المبتدأ محذوف ، وجملة ( فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ) (
صفة لقوله : ( رِيحٌ ) .

تدمر كل شيء بامر ربها فاصبحوا لا يرى الا مساكنهم كذلك نجزي القوم
المجرمين

كما فسرها الوسيط ثم وصف - سبحانه - هذا الريح بصفة أخرى فقال : (
تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ) . أى : هذه الريح التى أرسلها
الله - تعالى - عليهم ، من صفاتها أنها تدمر وتهلك كل شئ مرت به يتعلق
بهؤلاء الظالمين من نفس أو مال أو غيرهما . .والتعبير بقوله : ( بِأَمْرِ
رَبِّهَا ) لبيان أنها لم تأتهم من ذاتها ، وإنما أتتهم بأمر الله -
تعالى - وبقضائه وبمشيئته .والفاء فى قوله : ( فَأَصْبَحُواْ لاَ يرى
إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ ) فصيحة - أيضا - . أى : هذه الريح أرسلناها عليهم
فدمرتهم ، فصار الناظر إليهم لا يرى شيئا من آثارهم سوى مساكنهم ، لتكون
هذه المساكن عبرة لغيرهم .قال الجمل : وقوله : ( لاَ يرى إِلاَّ
مَسَاكِنُهُمْ ) قرأ حمزة وعاصم ( لاَ يرى ) بضم الياء على البناء للمفعول
ومساكنهم بالرفع لقيامه مقام الفاعل . والباقون من السبعة بفتح تاء ،
الخطاب - على البناء للفاعل - و ( مَسَاكِنُهُمْ ) بالنصب على أنه مفعول به
وقوله : ( كَذَلِكَ نَجْزِي القوم المجرمين ) أى : مثل ذلك الجزاء . .
المهلك المدمر ، نجازى القوم الذين من دأبهم الإجرام والطغيان .وهكذا

طوى - سبحانه - صفحة أولئك الظالمين من قوم هود - عليه السلام - وما ظلمهم - سبحانه - ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

ولقد مكناهم فيما ان مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وابصارا وافئدة فما اغنى عنهم سمعهم ولا ابصارهم ولا افئدتهم من شيء اذ كانوا يجحدون بايات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون

، كما فسرها الوسيط ولم تكتف السورة الكريمة بعرض مصارع هؤلاء المجرمين - الذين لا يخفى أمرهم على المشركين المعاصرين للنبى - صلى الله عليه وسلم بل أخذت فى تذكير هؤلاء المشركين ، بما يحملهم على الزيادة من العظة والعبرة لو كانوا يعقلون ، فقال - تعالى - : ( وَلَقَدْ مَكَّنَاهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً ) .و " ما " فى قوله : ( فِيمَآ إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ ) موصولة . و " إن " نافية . أى : والله لقد مكنا قوم هود وغيرهم من الأقوام السابقين عليكم - يا أهل مكة فى الذى لم نمكنكم فيه ، بأن جعلناهم أشد منكم قوة ، وأكثر جمعا ، وأعطيناهم من فضله أسماعا وأبصارا وأفئدة .فالمقصود من الاية بيان أن المشركين السابقين ، أعطاهم الله - تعالى - من الأموال والأولاد والقوة . . أكثر مما أعطى الكافرين المعاصرين للنبى - صلى الله عليه وسلم - .ولكن هؤلاء الطغاة السابقين لما لم يشكروا الله - تعالى - على نعمه كانت عاقبتهم الهلاك ، كما يدل عليه قوله - سبحانه - بعد ذلك : ( فَمَآ أغنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلاَ أَبْصَارُهُمْ وَلاَ أَفْئِدَتُهُمْ مِّن شَيْءٍ ) .أى : أعطيناهم من النعم ما لم نعطكم يا أهل مكة ، ولكنهم لما لم يشكرونا على نعمنا ، ولم يستعملوها فى طاعتنا ، أخذناهم أخذ عزيز مقتدر ، دون أن تنفعهم شيئا أسماعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم ، حين نزل بهم عذابنا ، بل كل ما بين أيديهم من قوة ومن نعم ذهب أدراج الرياح وصار معهم هباء منثورا .و " من " فى قوله : ( مِّن شَيْءٍ ) لتأكيد عدم الإغناء . أى ما أغنت عنهم شيئا حتى ولو كان هذا الشئ فى غاية القلة والحقارة .ثم : بين - سبحانه - أن ما أصابهم من دمار كان بسبب جحودهم للحق واستهزائهم به ، فقال : ( إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ الله وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ) .أى : هذا الهلاك والدمار الذى حاق بهم كان بسبب جحودهم لآيات الله الدالة على وحدانيته وكمال قدرته ، واستهزائهم بما جاءهم به رسلهم من الحق .ومن الآيات القرآنية التي وردت فى هذا المعنى قوله - تعالى - : ( فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشاً ومضى مَثَلُ الأولين ) وقوله - سبحانه - ( أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأرض فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذين مِن قَبْلِهِمْ كَانوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الأرض فَمَآ أَغنى عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ )

ولقد اهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الايات لعلهم يرجعون

، كما فسرها الوسيط ثم أضاف - سبحانه - إلى هذا التذكير والتخويف للمشركين تذكيرا وتخويفا آخر ، فقال : ( وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِّنَ القرى ) أى : والله لقد أهلكنا ما حولكم يا أهل مكة من القرى الظالمة ، كقوم هود وصالح وغيرهم .( وَصَرَّفْنَا الآيات ) أى : كررناها ونوعناها بأساليب مختلفة ( لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ) عما كانوا عليه من الشرك والفجور ، ولكنهم لم يرجعوا عما كانوا فيه من ضلال وبغى ، فدمرناهم تدميرا . .

فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا الهة بل ضلوا عنهم وذلك افكهم وما كانوا يفترون

كما فسرها الوسيط ( فَلَوْلاَ نَصَرَهُمُ الذين اتخذوا مِن دُونِ الله قُرْبَاناً آلِهَةً ) أى : فهلا نصرهم ومنعهم من الهلاك . هؤلاء الآلهة الذين اتخذوهم من دون الله قربانا يتقربون بهم إليه - سبحانه - كما قالوا ( مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ إِلى الله زلفى ) " فلولا " هنا حرف تحضيض بمعنى " هلا " والمفعول الأول لاتخذوا محذوف أى : الذين اتخذوهم و ( آلِهَةً ) هو المفعول الثانى ، و " قربانا " حال . وهو كل ما يتقرب ، به إلى الله - تعالى - من طاعة أو نسك . والجمع قرابين .وقوله - تعالى - : ( بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ) إضراب انتقالى عن نفى النصرة إلى ما هو أشد من ذلك .أى : أن هؤلاء الآلهة لم يكتفوا بعدم نصر أولئك الكافرين ، بل غابوا عنهم وتركوهم وحدهم ، ولم يحضروا إليهم . . وذلك الغياب الذى حدث من آلهتهم عنهم . مظهر من مظاهر كذب هؤلاء الكافرين وافترائهم على الحق فى الدنيا . حيث زعموا أن هذه الآلهة الباطلة ستشفع لهم يوم القيامة ، وقالوا - مكا حكى القرآن عنهم - : ( هؤلاء

شُفَعَاؤُنَا عِندَ الله . . . ) وما هم اليوم لا يرون آلهتهم ، ولا يجدون لهم شيئا من النفع .

واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القران فلما حضروه قالوا انصتوا فلما قضي ولوا الى قومهم منذرين

- كما فسرها الوسيط وبعد هذا التذكير والوعيد للكافرين ، بيّن - سبحانه جانبا من مظاهر تكريمه لنبيه - صلى الله عليه وسلم - حيث أرسل له نفرا من الجن ، يستمعون القرآن ، ويؤمنون به ، فقال - تعالى - : ( وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَراً . . . فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ) .قال القرطبى ما ملخصه : قوله - تعالى - : ( وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الجن . . . ) هذا توبيخ لمشركى قريش . أى : أن الجن سمعوا القرآن فآمنا به وعلموا أنه من عند الله ، وأنتم معرضون مصرون على الكفر .قال المفسرون : لما مات أبو طالب ، خرج النبى - صلى الله عليه وسلم - إلى الطائف ، يلتمس من أهلها النصرة ، ويدعوهم إلى الإيمان . . أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويضحكون به . فانصرف - صلى الله عليه وسلم - عنهم ، حتى إذا كان ببطن نخلة - وهو موضع بين مكة والطائف - قام يصلى من الليل ، فمر به نفر من جن نصيبين - وهو موضع قرب الشام - فاستمعوا إليه وقالوا : أنصتوا .وهناك روايات أخرى كثيرة فى عدد هؤلاء الجن ، وفى الأماكن التى التقوا فيها مع النبى - صلى الله عليه وسلم - عليهم ، وفيمن كان مع النبى - صلى الله عليه وسلم - خلال التقائه بهم . .ويبدو لنا من مجموع هذه الروايات أن لقاء النبى - صلى الله عليه وسلم - بالجن قد تعدد ، وأن هذه الآيات تحكى لقاء معينا ، وسورة الجن تحكى لقاء آخر .قال الآلوسى : وقد أخرج الطبرانى فى الأوسط ، وابن مردويه عن الحبر ، أى : عن ابن عباس أنه قال : صرفت الجن إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مرتين .وذكر الخفاجى أنه قد دلت الأحاديث ، على أن وفادة الجن " كانت ست مرات ، ويجمع بذلك اختلاف الروايات فى عددهم ، وفى غير ذلك .و النفر " على المشهور - ما بين الثلاة والعشرة من الرجال وهو مأخوذ من النفير ، لأن الرجل إذا حزبه أمر نفر بعض الناس الذين يهتمون بأمره لإغاثته .والمعنى : واذكر - أيها الرسول الكريم - لقومك ، وقت أن صرفنا إليك ، ووجهنا نحوك ، نفراً من الجن ، يستمعون القرآن منك .( فَلَمَّا حَضَرُوهُ ) أى : فحين حضروا القرى ، عند تلاوة منك ، أو فحين حضروا مجلسك : على سبيل التناصح - ( أَنصِتُواْ ) أى : قالوا بعضهم لبعض ( قالوا ) اسكتوا لأجل أن نستمع إلى هذا القرآن ، وهذا يدل على سمو أدبهم وحرصهم على تلقى العلم .( فَلَمَّا قُضِيَ ) أى : فحين انتهى الرسول - صلى الله عليه وسلم - من قراءته .( وَلَّوْاْ إلى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ) أى : انصرفوا - إلى قومهم ليخوفوهم من عذاب الله - تعالى - إذا ما عصموه أو خالفوا أمره - سبحانه - .

قالوا يا قومنا انا سمعنا كتابا انزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدي الى الحق والى طريق مستقيم

كما فسرها الوسيط ( قَالُواْ ياقومنآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ موسى . . ) أى : وبعد أن انصرفوا إلى قومهم منذرين ، ووصلوا إليهم . قالوا لهم : يا قومنا إنا سمعنا كتابا عظيم الشأن ، جليل القدر ، أنزل من بعد نبى الله - تعالى - موسى - عليه السلام - .وهذا الكتاب ) - مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ) أى : مصدقا لما قبله من الكتب وهو ) - أيضا - ( يهدي إِلَى الحق ) الذى لا يحوم حوله الباطل ، ويهدى - أيضا إلى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ) أى : إلى طريق قويم واضح يصل بأتباعه إلى السعادة .قال الآلوسى : قوله : ( أُنزِلَ مِن بَعْدِ موسى ) ذكروه دون عيسى - عليهما السلام - لأنه متفق عليه عند أهل الكتابين ، ولأن الكتاب المنزل عليه أجل الكتب قبل القرآن ، وكان عيسى مأمورا بمعظم ما فيه أو بكله وقال عطاء : لأنهم كانوا على اليهودية ، وهذا القول يحتاج إلى نقل صحيح. وعن ابن عباس : أن الجن لم تكن سمعت بعيسى ، فلذا قالوا ذلك . وفى هذا ، القول بُعْدٌ ، فإ اشتهار أمر عيسى ، وانتشار أمر دينه ، أظهر من أن يخفى . لا سيما على الجن ، ومن هنا قال أبو حيان : إن هذا لا يصح عن ابن عباس

يا قومنا اجيبوا داعي الله وامنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب اليم

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما يدل على إيمانهم بما سمعوه - فقال : ( ياقومنآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ الله . . . ) .أى : وقالوا لقومهم أيضا - : يا قومنا أجيبوا داعى الله الذى دعاهم الى الحق وإلى طريق مستقيم أى : وآمنوا بهذا الرسول اكريم وبما جاء من عند ربه ( وَآمِنُواْ بِهِ ) . ، أى : أجيبوا داعى الله وآمنوا به ( يَغْفِرْ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ ).

يغفر لكم ربكم من ذنوبكم التى وقعتم فيها ، ويبعدكم بفضله ورحمته من عذاب أليم .والتعبير بقوله : ( مِّن ذُنُوبِكُمْ ) يدل على حسن أدبهم ، وعلى أنهم يفوضون المغفرة إلى ربهم ، فهو - سبحانه - إنشاء غفرها جميعا ، وإن شاء غفر بعضها .

ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الارض وليس له من دونه اولياء اولئك في ضلال مبين

كما فسرها الوسيط ثم ختموا الترغيب فى الإيمان بالترهيب من الإصرار على الكفر والمعاصى فقالوا - كما حكى القرآن عنهم - : ( وَمَن لاَّ يُجِبْ دَاعِيَ الله فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأرض ) .أى : قالوا لقومهم إنكم إذا أجبتم داعى الله ، غفر لكم - سبحانه - ذنوبكم أما الذى يعرض عن هذا الداعى الصادق الأمين ، فإنه لن يستطيع أن يفلت من عذاب الله ، ولن يقدر على الهرب من عقابه ، لأنه - سبحانه -لا يعجزه شئ ، ولا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء .( وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءُ ) أى : وليس لهذا المُعْرِض من أنصار يستطيعون دفع عذاب الله عنه .( أولئك ) أى : الذين لم يجيبوا داعى الله ( فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ) أى : فى ضلال واضح لا يخفى على أحد من العقلاء .هذا ، ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآيات :1- أن رسالة النبى - صلى الله عليه وسلم - كانت إلى الإنس والجن ، لأن هذه الآيات تحكى إيمان بعض الجن به - صلى الله عليه وسلم - ودعوتهم غيرهم إلى الإيمان به .2- أن هذه الآيات تدل على أن حكم الجن كحكم الإنس فى الثواب واعقاب وفى وجوب العمل بما أمرهم الله - تعالى - به وفى وجوب الانتهاء عما نهاهم عنه ، لأن قوله - تعالى - : ( ياقومنآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ الله وَآمِنُواْ بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ وَمَن لاَّ يُجِبْ دَاعِيَ الله فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأرض وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءُ أولئك فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ )

أقول : هاتان الآيتان اللتان حكاهما الله - تعالى - على ألسنة بعض الجن. تدلان على ثواب المطيع ، وعذاب العاصى .قال بعض العلماء ما ملخصه : وقد دلت آية أخرى على أن المؤمنين من الجن يدخلون الجنة وهى : قوله - تعالى - فى سورة الرحمن : ( وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ) ويستأنس لهذا - أيضا - بقوله - تعالى - : ( لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَآنٌّ ) فإنه يشير إلى أن فى الجنة جنا يطمثون النساء كالإنس .وبهذا يعلم أن ما ذهب إليه بعض العلماء ، أنه يفهم من قوله - تعالى - : ( ياقومنآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ الله وَآمِنُواْ بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ) أن المؤمنين من الجن لا يدخلون الجنة ، وأن جزاء إيمانهم ، وإجابتهم داعى الله ، هو الغفران وإجارتهم من العذاب الأليم فقط . . هذا الفهم إنما هو خلاف التحقيق ، وأن المؤمنين من الجن يدخلون الجنة . .

اولم يروا ان الله الذي خلق السماوات والارض ولم يعي بخلقهن بقادر على ان يحيي الموتى بلى انه على كل شيء قدير

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ، بتوبيخ المشركين على جهلهم وعدم تفكيرهم ، وبيّن ما سيكونون عليه من خزى يوم القيامة ، وأمر نبيه - صلى الله عليه وسلم - بالصبر على أذاهم . فقال : ( أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ الله الذي خَلَقَ . . . إِلاَّ القوم الفاسقون ) .والهمزة ، فى قوله : ( أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ الله . . . ) للاستفهام الإنكارى والواو للعطف على مقدر يستدعيه المقام . .أى : بلغ العمى والجهل بهؤلاء الكافرين ، أنهم لم يروا ولم يعقلوا أن الله - تعالى - الذى خلق السماوات والأرض بقدرته ( وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ ) أى : ولم يتعب ولم ينصب بسبب خلقهن ، من قولهم عيى فلان بالأمر - كفرح - إذا تعب ، أو المعنى : ولم يعجز عن خلقهن ولم يتحير فيه ، مأخوذ من قولهم : عيى فلان بأمره ، إذا تحير ولم يعرف ماذا يفعل .وقوله : ( بِقَادِرٍ على أن يُحْيِيَ الموتى ) فى محل رفع خبر ( أن ) ، والباء فى قوله - تعالى - ( بِقَادِرٍ ) مزيدة للتأكيد فالمقصود بالآية الكريمة توبيخ المشركين على جهلهم وانطماس بصائرهم ، حيث. لم يعرفوا أن الله - تعالى - الذى أوجد الكون ، قادر على أن يعيدهم الى الحياة بعد موتهم .وأورد القرآن ذلك فى أسلوب الاستفهام الإنكار ، ليكون تأنيبهم على جهلهم أشد .وقوله : ( بلى إِنَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ) تقرير وتأكيد لقدرته - تعالى - على إحياء الموتى ، لأن لفظ ( بلى ) يؤتى به فى الجواب لإبطال النفى السابق ، وتقرير نقيضه ، بخلاف لفظ ( نعم ) فإنه يقرر النفى نفسه .أى : بل إنه - سبحانه - قادر على إحياء الموتى ، لأنه - تعالى - على كل شئ قدير .

ويوم يعرض الذين كفروا على النار اليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال

فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون

كما فسرها الوسيط ثم كرر - سبحانه - التذكير للناس بأحوال الكافرين يوم الحساب ليعتبروا ويتعظوا فقال : ( وَيَوْمَ يُعْرَضُ الذين كَفَرُواْ على النار ) أى : واذكر - أيها العاقل - يوم يلقى الذين كفروا فى النار ، بعد مشاهدتها ورؤيتها . . ثم يقال لهم على سبيل الزجر والتهكم ( أَلَيْسَ هذا بالحق ) أى : أليس هذا العذاب كنتم تنكرونه فى الدنيا . قد ثبت عليكم ثبوتا لا مفر لكم منه ، ولا محيد لكم عنه . . (قَالُواْ بلى وَرَبِّنَا ) أى : قالوا فى الجواب . . بلى يا ربنا إن هذا العذاب حق ، وإنكارنا له فى الدنيا إنما كان عن جهل وغفلة وغرور منا . . فهم قد اعترفوا بأن الحساب حق ، الجزاء حق . . فى وقت لا ينفع فيه الاعتراف .ولذا جاء الرد عليهم بقوله - تعالى - ( فَذُوقُواْ العذاب ) أى : فتذوقوا طعمه الأليم - ( قَالَ ) : ، سبحانه - ( بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ) أى : بسبب كفركم وجحودكم ووقعه المهين .

فاصبر كما صبر اولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كانهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا الا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك الا القوم الفاسقون

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بأمر نبيه - صلى الله عليه وسلم - بالصبر على مكرهم فقال : ( فاصبر كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ العزم مِنَ الرسل ) . أى : إذا كان الأمر كما ذكرنا لك - أيها الرسول الكريم - فاصبر على أذى قومك ، كما صبر إخوانك أولو العزم من الرسل ، أى : أصحاب الجد والثبات والصبر على الشدائد والبلاء . . وهم - على أشهر الأقوال : - نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد - صلوات الله عليهم جميعا - .وقوله ) : وَلاَ تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ) نهى منه - تعالى - لنبيه عن استعجال العذاب لهم . أى : ولا تستعجل لهم العذاب . فالمفعول محذوف للعلم به . . ثم بين - سبحانه ما يدعو إلى عدم الاستعجال فقال : ( كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يلبثوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ . . ) . أى : اصبر - ايها الرسول - على أذى قومك كما صبر إخوانك أولو العزم من الرسل . ولا تستعجل العذاب لهؤلاء الكافرين فإنه آتيهم لا ريب فيه ، وكأنهم عندما يرون هذا العذاب ويحل بهم ، لم يلبثوا فى الدنيا إلا وقتا قليلا وزمنا يسيرا ، لأن شدة هذا العذاب تنسيهم كل متع الدنيا وشهواتها .وقوله - تعالى - : ( بَلاَغٌ ) خبر لمبتدأ محذوف أى : هذا الذى أنذرتكم به ، أو هذا القرآن بلاغ كاف فى وعظكم وإنذاركم إذا تدبرتم فيه ، وتبليغ من الرسول - صلى الله عليه وسلم إليكم .( فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ القوم الفاسقون ) كلا ، إنه لا يهلك بعذاب الله - تعالى - إلا القوم الخارجون عن طاعته ، الواقعون فى معصيته فالاستفهام للنفى . .وبعد فهذا تفسير لسورة " الأحقاف نسأل الله أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده . والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله اضل اعمالهم

كما فسرها الوسيط افتتحت سورة القتال بهذا الذم الشديد للكافرين ، وبهذا الثناء العظيم على المؤمنين .افتتحت بقوله - سبحانه - : ( الذين كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ الله أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ والذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات وَآمَنُواْ بِمَا نُزِّلَ على مُحَمَّدٍ وَهُوَ الحق مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ) وقوله : ( الذين كَفَرُواْ ) . . مبتدأ ، خبره قوله - سبحانه - ( أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ) .والمراد بهم كفار قريش ، الذين أعرضوا عن الحق وحرضوا غيرهم على الإعراض عنه .فقوله : ( صَدُّواْ ) من الصد بمعنى المنع ، والمفعول محذوف .وقوله : ( أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ) أى : أبطلها وأحبطها وجعلها ضائعة ذاهبة لا أثر لها ولا وجود ، والمراد بهذه الأعمال : ما كانوا يعملونه فى الدنيا من عمل حسن ، كإكرام الضيف ، وبرد الوالدين ، ومساعدة المحتاج ، أى : الذين كفروا بالله - تعالى - وبكل ما يجب الإيمان به ، ومنعوا غيرهم من اتباع الدين الحق الذى أمر الله - تعالى - باتباعه ) أَضَلَّ ) - .سبحانه - أعمالهم ، بأن جعلها ذاهبة ضائعة غير مقبولة عنده . كما قال - تعالى - : ( وَقَدِمْنَآ إلى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مّنثُوراً ) قال صاحب الكشاف : ( أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ) أى : أبطلها وأحبطها : وحقيقته ، جعلها ضالة ضائعة ليس لها من يتقبلها ويثيب عليها ، كالضالة من الإبل ، التى هى مضيعة لا رب لها يحفظها ويعنى بأمرها ، أو جعلها ضالة فى كفرهم وعاصيهم ، ومغلوبة بها ، كما يضل الماء اللبن . وأعمالهم ما كانوا يعلمونه فى كفرهم بما يسمونه مكارم : من صلة الأرحام ، وفك الأسرى .وقيل : أبطل ما عملواه من الكيد لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - والصد عن سبيل الله ، بأن نصره عليهم وأظهر دينه على الدين كله .

والذين امنوا وعملوا الصالحات وامنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم واصلح بالهم

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما أعده للمؤمنين من ثواب فقال : ( والذين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصالحات ) التى توافر فيها الأعمال : الإخلاص والاتباع لهدى الرسول - صلى الله عليه وسلم - وقوله ) وَآمَنُواْ بِمَا نُزِّلَ على مُحَمَّدٍ ) من باب عطف الخاص على العام ، فقد أفرده بالذكر مع أنه داخل فى الإيمان والعمل الصالح ، للإشارة إلى أنه شرط فى صحة الإيمان ، وللإشعار بسمو مكانه هذا المنزل عليه - صلى الله عليه وسلم - وبعلو قدره .وقوله : ( وَهُوَ الحق مِن رَّبِّهِمْ ) جملة معترضة ، لتأكيد حقية هذا المنزل على النبى - صلى الله عليه وسلم - وتقرير كماله وصدقه . أى : وهذا المنزل على الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهو الحق الكائن من عند الله - تعالى - رب العالمين ، لا من عند أحد سواه وقوله : ( كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ) خبر الموصول ، أى : والذين آمنا وعملوا الأعمال الصالحة ، محا عنهم - سبحانه - ما عملوه من أعمال سيئة ولم يعاقبهم عليها ، فضلا منه وكرما .فقوله : ( كَفَّرَ ) من الكَفْرِ ، بمعنى الستر والتغطية ، يقال : كفر الزراع زرعه إذا غطاه ، وستره حماية له : مما يضره . به هنا : المحو والإزالة على سبيل المجاز .وقوله ) وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ) معطوف على ما قبله . أى : محا عنهم بسبب إيمانهم وعملهم الصالح ، ما اقترفوه من سيئات ، كما قال - تعالى - : ( إِنَّ الحسنات يُذْهِبْنَ السيئات ) ولم يكتف - سبحانه - بذلك ، بل وأصلح أحوالهم وأمورهم وشئونهم ، بأن وفقهم للتوبة الصادقة فى الدنيا ، وبأن منحهم الثواب الجزيل فى الآخرة .فالمراد بالبال هنا : الحال والأمر والشأن .قال القرطبى : والبال كالمصدر ، ولا يعرف منه فعل ، ولا تجمعه العرب إلا فى ضرورة الشعر فيقولون فيه بالات . .وهذه الجملة الكريمة وهى قوله : ( وَأَصْلَحَ ، بَالَهُمْ ) نعمة عظمى لا يحس بها إلا من وهبه الله - تعالى - إياها ، فإن خزائن الأرض لا تنفع صاحبها إذا كان مشتت القلب ، ممزق النفس ، مضطرب المشاعر والأحوال . أما الذى ينفعه فهو راحة البان . وطمأنينة النفس ، ورضا القلب ، والشعور بالأمان والسلام .

ذلك بان الذين كفروا اتبعوا الباطل وان الذين امنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس امثالهم

كما فسرها الوسيط والإشارة فى قوله : ( ذَلِكَ بِأَنَّ الذين كَفَرُواْ اتبعوا الباطل ) تعود إلى ما مر من ذم الكافرين ، ومدح المؤمنين .أى : ذلك الذين حكمنا به من ضلال أعمال الكافرين ، ومن إصلاح بال المؤمنين ، سببه أن الذين كفروا ابتعوا فى دنياهم الطريق الباطل الذى لا خير فيه ولا فلاح وأن الذين آمنوا وعملوا الأعمال الصالحاة فى دنياهم ، اتبعوا طريق الحق ، الكائن من ربهم .فالمراد بالباطل هنا . الكفر وما يتبعه من أعمال قبيحة والمراد بالحق : الإيمان والعمل الصالح .وقوله ( ذَلِكَ ) مبتدأ ، وخبره : ما بعده .وقوله : ( كَذَلِكَ يَضْرِبُ الله لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ) أى مثل ذلك البيان الرائع الحكيم ، يبين الله - تعالى - : للناس أحوال الفريقين ، وأوصافهما الجارية فى الغرابة مجرى الأمثال ، وهى اتباعُ المؤمنين الحقَّ وفوزُهم ، واتباعُ الكافرين الباطل وخسرانهم .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : أين ضرب الأمثال؟ قلت : فى جعل اتباع الباطل مثلا لعمل الكفار ، واتباع الحق مثلا لعلم المؤمنين ، أو فى أن جعل الإضلال مثلا لخيبة الكفار ، وتكفير السيئات مثلا لفوز المؤمنين .

فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى اذا اثخنتموهم فشدوا الوثاق فاما منا بعد واما فداء حتى تضع الحرب اوزارها ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل اعمالهم

كما فسرها الوسيط والفاء فى قوله - تعالى - : ( فَإِذَا لَقِيتُمُ ) لترتيب ما بعدها من إرشاد المؤمنين إلى ما يجب عليهم فعله عند قتل أعدائهم ، على ما قبلها وهو بيان حال الكفار .فالمراد باللقاء هنا : القتال لا مجرد اللقاء والرؤية . كما أن المراد بالذين كفروا هنا المشركون وكل من كان على شاكلتهم ممن ليس بيننا وبينهم عهد بل بيننا وبينهم حرب وقتال .وقوله - سبحانه - : ( فَضَرْبَ الرقاب ) أمر للمؤمنين بما يجب فعله عند لقائهم لأعدائهم . وقوله : ( فَضَرْبَ ) منصوب على أنه مصدر لفعل محذوف . أى : فإذا كان حال الذين كفروا كما ذكرت لكم من إحباط أعمالهم بسبب اتباعهم الباطل وإعراضهم عن الحق ، فإذا لقيتموهم للقتال ، فلا تأخذكم بهم رأفة ، بل اضربوا رقابهم ضربا شديدا .والتعبير عن القتل بقوله : ( فَضَرْبَ الرقاب ) لتصويره فى أفظع صوره . ولتهويل أمر القتال ، ولإرشاد المؤمنين إلى ما ،

يجب عليهم فعله .قال صاحب الكشاف : قوله : ( لَقِيتُمُ ) من اللقاء وهو
الحرب ( فَضَرْبَ الرقاب ) أصله : فاضرب الرقاب ضربا ، فحذف الفعل وقدم
المصدر ، فأنيب منابه مضافا إلى المفعول ، وفيه اختصار مع إعطاء معنى
التوكيد ، لأنك تذكر المصدر ، وتدل على الفعل بالنصبة التى فيه .وضرب
الرقاب : عبارة عن القتل . . وذلك أن قتل الإنسان أكثر ما يكون بضرب رقبته
فوقع عبارة عن القتل ، وإن ضرب بغير رقبته من المقاتل .على أن فى هذه ،
العبارة من الغلظة والشدة ، ما ليس سفى لفظ القتل ، لما فيها من تصوير
القتل بأشنع صورة ، وهو حز العنق ، وإطارة العضو الذى هو رأس البدن
وقوله - سبحانه - : ( حتى إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ الوثاق ).
بيان لما يكون من المؤمنين بعد مثل حركة أعدائهم ، وإنزال الهزيمة بهم
وقوله : ( أَثْخَنتُمُوهُمْ ) من الإثخان بمعنى كثرة الجراح ، مأخوذ من.
الشئ الثخين ، أى : الغليظ ، يقال : أثخن الجيش فى عدوه ، إذا بالغ فى
إنزاله الجراحة الشديدة به ، حتى أضعفه وأزال قوته .والوثاق - بفتح الواو
وكسرها - اسم الشئ الى يوثق به الأسير كالرباط أى : عند لقائكم - أيها
، المؤمنون - لأعدائكم ، فاضربوا أعناقكم ، فإذا ما تغلتم عليهم وقهرتموهم
وأنزلتم بهم الجراح التى تجعلهم عاجزين عن مقاومتكم ، فأحكموا قيد من
) - أسرتموه منهم ، حتى لا يستطيع التفلت أو الهرب منكم .وقوله - سبحانه
فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً ) إرشاد لما يفعلونه بعد ذلك
والمن : الإطلاق بغير عوض ، يقال : مّن فلان على فلان إذا أنعم عليه.
بدون مقابل .والفداء : ما يقدمه الأسير من أموال أو غيرها لكى يفتدى بها
نفسه من الأسر .وقوله : ( مَنًّا ) و ( فِدَآءً ) منصوبان على المصدرية
بفعل محذوف : أى : فإما تمنون عليهم بعد السر منا بأن تطلقوا سراحهم بدون
مقابل ، وإما أن تفدوا فداء بأن تأخذوا منهم فدية فى مقابل إطلاق سراحهم
وقوله - سبحانه - ( حتى تَضَعَ الحرب أَوْزَارَهَا ) غاية لهذه الأوامر.
، والإرشادات .وأوزار الحرب : آلاتها وأثقالها الى لا تقوم إلا بها
كالسلاح وما يشبه .قال الشاعر :وأعددتَ للحرب أوزارها ... رماحا طوالاً
وخيلا ذكوراأى : افعلوا بهم ما أمرناكم بفعله ، واستمروا على ذلك حتى تنتهى
الحرب التى بينكم وبين أعدئاكم بهزيمتهم وانتصارهم عليهم .وسميت آلات الحرب
وأحمالها بالأوزار ، لأن الحرب لما كانت لا تقوم إلا بها ، فكأنها تحملها
- وتستقل بها ، فإذا انقضت الحرب فكأنها وضعت أحمالها وانفصلت عنها .ثم بين
سبحانه - الحكمة من مشروعية قتال الأعداء ، مع أنه - سبحانه - قادر على
إهلاك هؤلاء الأعداء ، فقال : ( ذَلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ اللّهُ لاَنْتَصَرَ
مِنْهُمْ ولكن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ) .واسم الإشارة : خبر
، لمبتدأ محذوف ، أى : الأمر ذلك ، أو فى محل نصب على المفعولية بفعل محذوف
أى : افعلوا ذلك الذى أمرناكم به وأرشدناكم إليه واعلموا أنه - سبحانه - لو
يشاء الانتصار من هؤلاء الكافرين والانتقام منهم لفعل ، أى : لو يشاء
إهلاكهم لأهلكم ، ولكنه - سبحانه - لم يفعل ذلك بل أمركم بمحاربتهم ليختبر
بعضكم ببعض ، فيتميز عن طريق هذا الاختبار والامتحان ، قوى الإيمان من
ضعيفه . كما قال - تعالى - : ( وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حتى نَعْلَمَ المجاهدين
مِنكُمْ والصابرين وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ) ثم بين - سبحانه - بعد ذلك
ما أعده للمجاهدين من ثواب عظيم فقال : ( والذين قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ
الله ) أى : والذين استشهدوا وهم يقاتلون من أجل إعلاء كلمة الله .( فَلَن
يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ) أى : فلن يضيع أعمالهم ولن يبطلها .

سيهديهم ويصلح بالهم

كما فسرها الوسيط بل ( سَيَهْدِيهِمْ ) أى : بل سيوصلهم إلى طريق السعادة
. والفلاح .( وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ) أى : ويصلح أحوالهم وشئونهم وقلوبهم

ويدخلهم الجنة عرفها لهم

كما فسرها الوسيط ( وَيُدْخِلُهُمُ الجنة عَرَّفَهَا لَهُمْ ) أى : ويدخلهم
بعد كل ذلك الجنة يوم القيامة ويهديهم إلى بيوتهم ومساكنهم فيها ، بحيث لا
- يخطئونها ، حتى لكأنهم يقيمون فيها منذ خلقوا ، وذلك كله بإلهام من الله
تعالى - : لهم .قال الآلوسى ما ملخصه : ( عَرَّفَهَا لَهُمْ ) هذا التعريف
فى الآخرة . قال مجاهد : يهدى أهل الجنة إلى بيوتهم ومساكنهم ، وحيث قسم
الله - تعالى - لهم منها ، لا يخطئون كأنهم ساكنوها منذ خلقوا . . . وذلك
بإلهام منه - عز وجل - .وورد فى بعض الآثار أن حسناته تكون دليلا له على
منزلته فيها ، وقيل : إنه - تعالى - : رسم على كل منزل اسم صاحبه وهو نوع
من التعريف .وقيل : معنى عرفها لهم . طيبها لهم منا لعرف وهو الرائحة
، الطيبة ، ومنه طعام معرف ، أى مطيب .وعن الجبائى أن التعريف فى الدنيا
وهو يذكر أوصافها ، والمراد أنه - سبحانه - لم يزل يمدحها لهم ، حتى عشقوها
فاجتهدوا فى فعل ما يوصلهم إليها . .هذا ومن الأحكام التى أخذها العلماء ،
من هذه الآيات ما يأتى :1- وجوب قتال الكافرين بكل شدة وقوة ، حتى تضعف

شوكتهم ، وتدول دولتهم ، ويخضعوا لحكم شريعة الإسلام فيهم .وفى هذه المعنى
وردت آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - : ( ياأيها النبى جَاهِدِ الكفار
والمنافقين واغلظ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنّمُ وَبِئْسَ المصير ) 2-
أخذ بعض العلماء من قوله - تعالى - : ( فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمّا
فِدَآءً حتى تَضَعَ الحرب أَوْزَارَهَا ) أن السير من الأعداء يدور أمره
بين هاتين الحالتين إما أن نطلق سراحه بدون مقابل ، وإما أن نطلق سراحه فى
مقابل فدية معينة نأخذها منه ، وقد تكون هذه الفدية مالا ، أو عملا ، أو
غير ذلك مما فيه منفعة للمسلمين .ويرى بعض العلماء أن هذه الآية منسوخة
بقوله - تعالى - : ( فَإِذَا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حَيْثُ
وَجَدتّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ واحصروهم واقعدوا لَهُمْ كُلّ مَرْصَدٍ )
ويرى المحققون من العلماء أن هذه الآية ، وهى قوله - تعالى - : ( فَإِمّا
مَنًّا بَعْدُ وَإِمّا فِدَآءً ) . تحكى حالات معينة يكون امر الأسرى فيها
دائرا بين المن والفداء ، لأنهما من مصلحة المسلمين ، وهناك حالات أخرى
، يكون الأصلح فيها قتل الأعداء ، أو استرقاقهم .فمسألة الأسرى من الأعداء
يكون الحكم فيها على حسب ما تقتضيه مصلحة المسلمين ، ومرجع الحكم فيها إلى
البصراء بالحرب وبوضع خططها ، لأنهم أعرف الناس بكيفية معاملة الأسرى .وهذا
- الرأى الأخير هو الذى تطمئن إليه النفس ، لأنه الثابت من فعل رسول الله
صلى الله عليه وسلم - ومن أفعاله أصحابه ، ولأن ذكر المن والفداء لا ينافى
جواز غيره كالقتل - مثلا - لأن هذا الغير مفهوم من آيات أخرى ذكرت هذا
الحكم فى أوقات وحالات معينة .وقد رجح هذا الرأى كثير من العلماء ، منهم
: - الإمام ابن جرير ، فقد قال ما ملخصه - بعد أن ساق جملة من الأقوال
والصواب من القول عندنا فى ذلك ، أن هذه الآية محكم غير منسوخة لأنه غير
مستنكر أن يكون جعل الخيار من المن والقتل والفداء إلى الرسول - صلى الله
عليه وسلم وإلى القائمين بعده بأمر الأمة . وإن لم يكن القتل مذكورا فى هذه
الآية ، لأنه قد أذن - سبحانه - بقتلهم فى آيات أخرى منها ( فاقتلوا
- المشركين حَيْثُ وَجَدتّمُوهُمْ ) وقد فعل الرسول - صلى الله عليه وسلم
. كل ذلك ، مع الأسرى ففى بدر قتل عقبة بن أبى معيط . وأخذ الفداء من غيره
ومَنّ على ثمامة بن أثال الحنفى وهو أسير فى يده .وقال القرطبى - بعد أن .
ذكر أربعة أقوال - : الخامس : أن الآية محكمة ، والإمام مخير فى كل حال
وبهذا قال كثير من العلماء منهم : ابن عمر ، والحسن وعطاء ، وهو مذهب مالك.
والشافعى والثورى والأوزاعى . . وغيرهم ، وهو الاختيار؛ لأن النبى - صلى
الله عليه وسلم - والخلفاء الراشدين فعلوا كل ذلك .فقد قتل النبى - صلى
. . الله عليه وسلم - فى بدر النضربن الحارث . وأخذ الفداء من أسارى بدر
وقد مَنّ على سبى هوزان ، وهذا كله ثابت فى الصحيح .وقال بعض العلماء ما
ملخصه : وما نحسبنا مخطئين إذ قلنا إن الذى كان من النبى - صلى الله عليه
وسلم - نم الأعمال المختلفة ، كان نزولا على مقتضى المصلحة ، ولذلك نراه
كان يجتهد فى تعرف وجوه المصلحة ، فيستشير أصحابه .ولو كان الأمر أمر خطة
مرسومة ، واحدا لا يتخطى . ما كان هناك معنى للاستشارة ، ولا للنزول على
رأى بعض أصحابه ، ولما خالف فى الواحدة بين أسير وأسير ، فقتل هذا ، وأخذ
الفداء من هذا . ومنّ على هذا .وإذا فالمصلحة العامة وحدها المحكّمة ، وهى
الخطة التى تتبع فى الحروب ، خصوصا والحرب مكر وخديعة ، ما دامت مكر أو
، خديعة فليترك للماكرين وضع خطط المكر والخديعة ولا يرسم لهم كيف يمكرون
وإلا ما كانوا ما كرين .3- بشارة الشهداء بالثواب الجزيل ، وبالأجر العظيم
ويكفى لذلك قوله - تعالى - : ( والذين قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ الله فَلَن ،
يُضِلّ أَعْمَالَهُمْ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ وَيُدْخِلُهُمُ
الجنة عَرّفَهَا لَهُمْ ) .وقد ذكر الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه
الآيات جملة من الأحاديث منها : ما أخرجه الإمام أحمد عن قيس الجذامى قال
قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " يعطى الشهيد ست خصال : عند أول :
قطرة من دمه يكفر عنه كل خطيئة ، ويرى مقعده من الجنة ، ويزوج من الحور
. " العين ، ويؤمن من الفزع الأكبر ومن عذاب القبر ، ويحلى حلة الإيمان

يا ايها الذين امنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم

كما فسرها الوسيط ثم وجه - سبحانه - نداء إلى المؤمنين بشرهم بنصره متى
نصروا دينه ، وتوعد الكافرين بالخيبة والخسران ، ووبخهم على عدم تدبرهم فى
مصير الذين من قبهلم ، وسلى النبى - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من
. . . أعدائه ، فقال - تعالى - : ( ياأيها الذين آمنوا إِن تَنصُرُواْ
فَلاَ نَاصِرَ لَهُمْ ) .والمراد بنصر المؤمنين لله - تعالى - نصرهم لدينه
بأن يستقيموا على أمره ويتبعوا الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى كل ما ،
أمرهم به أو نهاهم عنه .والمعنى : يا من آمنتم بالله - تعالى - حق الإيمان
- إن تنصروا دين الله - عز وجل - وتتبعوا رسوله ، ( يَنصُرْكُمْ ) ،
سبحانه - على أعدائكم ( وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ) عند قتالكم إياهم
، ويوفقكم بعد ذلك للثبات على دينه ، والشكر على نعمه .وفى معنى هذه الآية
وردت آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - : ( وَلَيَنصُرَنّ الله مَن

يَنصُرُهُ إِنَّ الله لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ) وقوله - سبحانه - : ( وَكَانَ
حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ المؤمنين ) وقوله - عز وجل - : ( إِنَّا لَنَنصُرُ
رُسُلَنَا والذين آمَنُواْ فِي الحياة الدنيا وَيَوْمَ يَقُومُ الأشهاد ) .

والذين كفروا فتعسا لهم واضل اعمالهم

- كما فسرها الوسيط وبعد هذا النداء الذى يحمل أكرم البشارات للمؤمنين ، ذم
سبحانه - الكافرين ذما شديداً ، فقال : ( والذين كَفَرُواْ فَتَعْساً
لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ) .والاسم الموصول مبتدأ وخبره محذوف ، و
) منصوب على المصدر بفعل مضمر من لفظه ، واللام فى قوله ( تَعْساً )
: لَّهُمْ ) لتبيين المخاطب ، كما فى قولهم : سقيا له ، أى : أعنى له يقال
) : تعس فلان - من باب منع وسمع - بمعنى هلك .قال القرطبى ما ملخصه وقوله
تَعْساً لَّهُمْ ) نصب على المصدر بسبيل الدعاء ، مثل سقيا له . . وفيه
عشرة أقوال : الأول : بعداً لهم . الثانى : حزنا لهم . . الخامسه هلاكا لهم
يقال : تعسا لفلان ، أى ألزمه الله هلاكا .ومنه الحديث الشريف : " تعس . .
بعد الدينار والدرهم والقطيفة . إن أعطى رضى ، وإن لم يعط لم يرض " .وفى
رواية : " تعس وانتكس ، وإذا شيك - أى أصابته شوكة - فلا انتقش " أى : فلا
شفى من مرضه .والمعنى : والذين كفروا فتعسوا تعسا شديدا ، وهلكوا هلاكا
، مبيراً ، وأضل الله - تعالى - أعمالهم ، بأن أحبطها ولم يقبلها منهم
: لأنهم صدرت عن نفوس أشركت مع خالقها ورازقها آلهة أخرى فى العبادة .فقوله
" معطوف على الفعل المقدر الذى نصب به لفظ ( وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ )
. تعسا " ودخلت الفاء على هذا اللفظ ، تشبيها للاسم الموصول بالشرط

ذلك بانهم كرهوا ما انزل الله فاحبط اعمالهم

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - الأسباب التى أدت بهم إلى الخسران
والضلال فقال : ( ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ الله
فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ) .أى : ذلك الذى حل بهم من التعاسة والإضلال
بسبب أنهم كرهوا ما أنزله - تعالى - على رسول - صلى الله عليه وسلم - من
قرآن إلى الرشد ، فكانت نتيجة هذه الكراهية ، أن أحبط الله أعمالهم الحسنة
التى عملوها فى الدنيا كإطعام وصلة الأرحام . . لأن هذه الأعمال لم تصدر عن
. قلب سليم ، يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر

افلم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين امثالها

كما فسرها الوسيط ثم وبخهم - سبحانه - على عدم اعتبارهم بما فى هذا الكون
من عبر وعظات فقال : ( أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأرض فَيَنظُرُواْ كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الذين مِن قَبْلِهِمْ ) .والهمزة للاستفهام التقريعى
، والفاء معطوفة على مقدر ، أى : أقبعوا فى مساكنهم فلم يسيروا فى جنبات
. الأرض ، فيشاهدوا كيف كانت عاقبة المكذبين من قبلهم كقوم عاد وثمود ولوط
وغيرهم .وقوله : ( دَمَّرَ الله عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ .
أَمْثَالُهَا ) جملة مستأنفة ، كأنه قيل : كيف كانت عاقبة الذين من قبلهم؟
فكان الجواب : دمر الله - تعالى - عليهم مساكنهم وأموالهم ، فالمفعول محذوف
للتهويل والمبالغة فى الإهلاك ، يقال : دمرا لله - تعالى - الأعداء تدميرا
إذا أهلكهم إهلاكا شديدا . ودمر عليهم ، أى : أهلك ما يختص بهم ، وجاء ،
) : هنا بكلمة " عليهم " لتضمين التدمير معنى الإيقاع أو الهجوم .وقوله
وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ) وعيد وتهديد لهؤلاء الكافرين المعاصرين
، للنبى - صلى الله عليه وسلم - أى : هكذا كنت عاقبة المجرمين السابقين
وللكافرين المعاصرين لك - أيها الرسول الكريم - السائرين على درب سابقيهم
- فى الكفر والضلال والطغيان ، أمثال تلك العاقبة السيئة .فالضمير فى قوله
تعالى - ( أَمْثَالُهَا ) يعود إلى العاقبة المتقدمة . وجمع - سبحانه - لفظ
. الأمثال باعتبار تعدد العذاب الذى نزل بالأمم المكذبة السابقة

ذلك بان الله مولى الذين امنوا وان الكافرين لا مولى لهم

كما فسرها الوسيط واسم الإشارة فى قوله - سبحانه - ( ذَلِكَ بِأَنَّ الله
مَوْلَى الذين آمَنُواْ وَأَنَّ الكافرين لاَ مولى لَهُمْ ) . أى : ذلك
التدمير والإهلاك الذى حل بالمكذبين ، بسبب أن الله - تعالى - هو ولى
المؤمنين وناصرهم ومؤيدهم . . . أما الكافرون فلا مولى لهم ينصرهم أو يدفع
، عنهم ما حل بهم من دمار وخسران .فالمراد بالمولى هنا : الناصر والمعين
وأن نصرته - تعالى - هى للمؤمنين خاصة . ولا ينقاض هذا قوله - تعالى - فى
) : آية أخرى : ( ثُمَّ ردوا إلى الله . . . ) لأن المراد بقوله
. مَوْلاَهُمُ الحق ) إلههم الحق ، ومالكهم الحق ، وخالقهم وخالق كل شئ

ان الله يدخل الذين امنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الانهار والذين كفروا يتمتعون وياكلون كما تاكل الانعام والنار مثوى لهم

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما أعده للمؤمنين من ثواب عظيم ، وما أعده للكافرين من عذاب أليم ، فقال : ( إِنَّ الله يُدْخِلُ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار والذين كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ . . ) أى يتمتعون وينتفعون بملاذ الدنيا أياما قليلة ( وَيَأْكُلُونَ ) مأكلهم بدون تفكر أو تحر للحلال أو شكر لله ) كَمَا تَأْكُلُ الأنعام ) طعامها الذى يلقيه إليها صاحبها .فالمقصود بالجملة الكريمة ذم هؤلاء الكافرين ، لشبههم بالأنعام التي لا تعقل ، فى كونهم يأكلون طعامهم دون أن يشركوا الله - تعالى - عليه ودون أن يفرقوا بين الحلال والحرام ، ودون أن يرتفعوا بإنسانيتهم عن مرتبة الحيوان الأعجم .قال الآلوسى : والمعنى أن أكلهم مجرد عن الفكر والنظر ، كما تقول للجاهل : تعيش كما تعيش البهيمة ، فأنت لا تريد التشبيه فى مطلق العيش ، ولكن فى خواصه ) : ولوازمه . وحاصلة أنهم يأكلون غافلين عن عواقبهم ومنتهى أمورهم .وقوله والنار مَثْوًى لَّهُمْ ) بيان لسوء عاقبتهم فى الآخرة ، بعد بيان صورتهم القبيحة فى الدنيا .والمثوى : اسم مكان لمحل إقامة الإنسان .بأى : والنار هى المكان المعد لنزولهم فيه يوم القيامة .

وكاين من قرية هي اشد قوة من قريتك التي اخرجتك اهلكناهم فلا ناصر لهم

) : كما فسرها الوسيط ثم سلى - سبحانه - نبيه عما أصابه منهم من أذى فقال وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ التي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلاَ نَاصِرَ لَهُمْ ) .وكلمة ( كَأَيِّن ) مركبة من كاف التشبيه وأى الاستفهامية المنونة ، ثم هجر معنى جزأيها وصارت كلمة واحدة بمعنى كم الخبرية الدالة على التكثير ، ويكنى بها عن عدد مبهم فتحتاج إلى تمييز بعدها . وهى مبتدأ . . وقوله : ( أَهْلَكْنَاهُمْ ) خبرها و ( مِّن قَرْيَةٍ ) تمييز لها . والمراد بالقرية أهلها ، وهم مشركو قريش . أى : وكم من أهل قرية هم أشد قوة من أهل قريتك التى أخرجوك منها - أيها الرسول الكريم - فترتب على فعلهم هذا أن أهلكناهم دون أن ينصرهم من عقابنا ناصر ، أو أن يجيرهم من عذابنا مجير .قال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية - ما ملخصه : وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لأهل مكة ، فى تكذيبهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم - وهو سيد المرسلين ، وخاتم النبيين .روى ابن أبى حاتم بسنده - عن ابن عباس أن النبى - صلى الله عليه وسلم - لما خرج من مكة إلى الغار ، التفت إليها وقال : يا مكة : أنت أحب بلاد الله إلى الله وأنت أحب بلاد الله إلىّ ، ولو أن المشركين لم يخرجونى لم أخرج منك . . فأنزل الله هذه الآية .

افمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا اهواءهم

كما فسرها الوسيط ثم واصلت السورة الكريمة حديثها فى الموازنة والمقارنة بين حال المؤمنين وحال الكافرين . فقال - تعالى - : ( أَفَمَن كَانَ على بَيِّنَةٍ . . . فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ) .والاستفهام فى قوله - تعالى - للإنكار والنفى ، والفاء ( أَفَمَن كَانَ على بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ ) : للعطف على مقدر يقتضيه السياق ، و " من " مبتدأ ، والخبر قوله ( كَمَن زُيِّنَ لَهُ سواء عَمَلِهِ ) . والبينة : ما يتبين به الحق من كل شئ كالنصوص الصحيحة فى النقليات والبراهين السليمة فى العقليات .والمراد بمن كان على بينة من ربه : الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأتباعه ، والمراد بمن زين له سوء عمله ، واتبعوا أهوائهم : المشركون الذين استحبوا العمى على الهدى .والمعنى : أفمن كان على بينة من أمر ربه ، وعلى طريقة سليمة من هديه ، يستوى مع من كان على ضلالة من أمره ، بأن ارتكب الموبقات مع توهمه بأ ، ها حسنات ، واتبع هواه دون أن يفرق بين القبيح والحسن؟ لا شك أنهما لا يستويان فى عقل أى عاقل . فإن الفريق الأول مهتد فى منهجه وسلوكه ، والفريق الثانى فى النقيض منه .

مثل الجنة التي وعد المتقون فيها انهار من ماء غير اسن وانهار من لبن لم يتغير طعمه وانهار من خمر لذة للشاربين وانهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم كمن هو خالد في النار وسقوا ماء حميما فقطع امعاءهم

كما فسرها الوسيط ثم أكد - سبحانه - هذا المعنى بأن بين مصير الفريقين فقال : ( مَّثَلُ الجنة التي وُعِدَ المتقون ) . والمراد بالمثل هنا : الصفة. ، وهو مبتدأ ، والكلام على تقدير الاستفهام الإنكارى ، وتقدير مضاف محذوف والخبر قوله - تعالى - : ( كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النار ) . أى : أمثل

أهل الجنة كمثل من هو خالد فى النار : أو : أمثل الجنة جزاء من هو خالد فى
: النار ، وقدر الاستفهام فى المبتدأ لأنه مرتب على الإنكار الساق فى قوله
ورحم الله - تعالى - صاحب. ( أَفَمَن كَانَ على بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ )
الكشاف ، فقد قال : فإن قلت ما معنى قوله - تعالى - : ( مَّثَلُ الجنة التي
وُعِدَ المتقون فِيهَآ أَنْهَارٌ ) كمن هو خالد فى النار؟قلت : هو كلام فى
صورة الإثبات ، ومعناه النفى والإنكار ، لانطوائه تحت حكم كلام مصدر
- بحروف الإنكار ، ودخوله فى حيزه ، وانخراطه فى سلكه ، وهو قوله - تعالى
أَفَمَن كَانَ على بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سواء ) :
عَمَلِهِ . . ) ؟ فكأنه قيل : أمثل الجنة كمن هو خالد فى النار ، أى كمثل
جزاء من هو خالد فى النار؟فإن قلت : فلم عرّى فى حرف الإنكار؟ وما فائدة
التعرية؟قلت : تعريته من حرف الإنكار فيها زيادة تصوير لمكابرة من يسوى
بين المتمسك بالبينة والتابع لهواه ، وأنه بمنزلة من يثبت التسوية بين
. الجنة التى تجرى فيها الأنهار ، وبين النار التي يسقى أهلها الجحيم
وقوله - سبحانه - : ( فِيهَآ أَنْهَارٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ آسِنٍ ) تفسير.
مسوق لشرح محاسن الجنة أى : صفة الجنة التى وعد الله - تعالى - بها عباده
المتقين ، أنها فيها أنهار من ماء ليس متغيرا فى طعمه أو رائحته ، وإنما هو
ماء طيب لذيذ تشتهيه النفوس .والماء الآسن : هو الماء الذى تغير طعمه وريحه
لطول مكثه فى مكان معين . يقال : أَسَنَ الماء يأسِن - كضرب - يضرب ، إذا ،
: تغير .( وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ) أى
وفيها - أيضا - أنهار من لبن لم يتغير طعمه لا بالحموضة ولا بغيرها مما
يجرى على الألبان التى تشرب فى الدنيا .( وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ
لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ) أى : وفيها كذلك أنهار من خمر فى غاية اللذة
) - لمن يشربها ، إذ لا يعقبها ذهاب عقل ، ولا صداع .وقال - سبحانه
لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ) للإشعار بأنها لذيذة لجميع من يشربونها بخلاف
خمر الدنيا فإن من الناس من ينفر منها ويعفها حتى ولو كان على غير دين
- الإسلام .( وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ) أى : وفيها - أيضا
أنهار من عسل لا يخالطه ما يخالط عسل الدنيا من الشمع أو غيره .( وَلَهُمْ
أى : للمؤمنين ( فِيهَا ) أى : فى الجنة فضلا عن كل ذلك ( مِن كُلِّ (
الثمرات ) التى يشتهونها ، وأهم من كل ذلك أنهم لهم فيها : ( وَمَغْفِرَةٌ
مِّن رَّبِّهِمْ ) أى : لهم ثواب عظيم وفضل كبير من ربهم ، حيث ستر لهم
- ذنوبهم ، وأزالها عنهم ، وحولها إلى حسنات بكرمه وإحسانه .وقوله - سبحانه
كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النار وَسُقُواْ مَآءً حَمِيماً فَقَطَّعَ ) :
أَمْعَآءَهُمْ ) أى : أمثل جزاء المؤمنين الذى هو الجنة التى فيها ما فيها
من أنهار الماء واللبن والخمر والعسل . . كمثل عقاب الكافرين والمتمثل فى
نارهم خالدين فيها أبدا ، وفى ماء فى أشد درجات الحرارة ، يشربونه فيقطع
أمعاءهم؟لا شك أن كل عاقل يرى فرقا شاسعا ، بين حسن عاقبة المؤمنين ، وسوء
عاقبة الكافرين .وبذلك نرى أن هاتين الآيتين قد فرقت بين الأخيار والأشرار
. فى المنهج والسلوك ، وفى المصير الذى يصير إليه كل فريق

ومنهم من يستمع اليك حتى اذا خرجوا من عندك قالوا للذين اوتوا العلم ماذا
قال انفا اولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا اهواءهم

كما فسرها الوسيط وبعد هذا الحديث المفصل عن حال المؤمنين وحال الكافرين
وعن مصير كل فريق . انتقلت السورة إلى الحديث عن المنافقين ، وعن موقفهم من
- النبى - صلى الله عليه وسلم - ومن القرآن الكريم الذى أنزله الله - تعالى
عليه ، فقال -سبحانه - : ( وَمِنْهُمْ مّن يَسْتَمِعُ . . . يَعْلَمُ
) : - مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ) .وضمير الجمع فى قوله - تعالى
وَمِنْهُمْ مّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ) يعود إلى هؤلاء الكافرين الذين
، يأكلون كما تأكل الأنعام ، وذلك باعتبار أن المنافقين فرقة من الكافرين
إلا أنها تخفى هذا الكفر وتبطنه .كما يحتمل أن يعود إلى كل من أظهر
الإسلام ، باعتبار أن من بينهم قوما قالوا كلمة الإسلام بأفواههم دون أن
تصدقها قلوبهم .وعلى كل حال فإن النفاق قد ظهر بالمدينة ، بعد أن قويت شوكة
المسلمين بها . وصاروا قوة يخشاها أعداؤهم ، هذه القوة جعلت بعض الناس
. . . يتظاهرون بالإسلام على كره وهم يضمرون له ولأتباعه العداوة والبغضاء
ويؤيدهم فى ذلك اليهود وغيرهم من الضالين .أى : ومن هؤلاء الذين يناصبونك
العداوة والبغضاء - أيها الرسول الكريم قوم يستمعون إليك بآذانهم لا
بقلوبهم .( حتى إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ ) أى : من مجلسك الذى كانوا
يستمعون إليك فيه ، ( قَالُواْ ) على سبيل الاستهزاء والتهكم ( لِلَّذِينَ
أُوتُواْ العلم ) من أصحابك ، الذين فقهوا كلامك وحفظوه .( مَاذَا قَالَ
آنِفاً ) أى : ماذا كان يقول محمد - صلى الله عليه وسلم - قبل أن نفارق
مجلسه .فقوله : ( آنِفاً ) اسم فاعل ، ولم يسمع له فعل ثلاثى ، بل سمع
ائتنف يأتنف واستأنف يستأنف بمعنى ابتدأ .قال القرطبى : قوله : ( مَاذَا
قَالَ آنِفاً ) أى : ماذا قال الآن . . فآنفا يراد به الساعة التى هى أقرب
الأوقات إليك ، من قولك استأنفت الشئ إذا ابتدأت به ومنه قولهم : أمر أنف

) : وروضة أُنُف ، أى : لم يرعها أحد .وقال الآلوسى ما ملخصه : قوله ، وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ . . . ) هم المنافقون ، وإفراد الضمير باعتبار اللفظ ، كما أن جمعه باعتبار المعنى .قال ابن جرير ، كانوا مجلس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيسمعون كلامه ولا يعونه ولا يراعونه حق رعايته تهاونا منهم .ومقصود بقولهم : ( مَاذَا قَالَ آنِفاً ) الاستهزاء وإن كان بصورة الاستعلام .و ( آنِفاً ) اسم فاعل على غير القياس أو بتجريد فعله من الزوائد لأنه لم يسمع له ثلاثى ، بل المسموع : استأنف وأتنف .ثم بين - سبحانه - حالهم فقال : ( أولئك الذين طَبَعَ الله على قُلُوبِهِمْ واتبعوا أَهْوَآءَهُمْ ) . أى : أولئك المنافقون الذين قالوا هذا القول القبيح ، هم الذين طبع الله - تعالى - على قلوبهم بأن جعلها بسبب استحباهم الضلالة على الهداية لا ينتفعون بنصح ، ولا يستجيبون لخير ، وهم الذين اتبعوا أهواءهم وشهواتهم فصاروا لا يعقلون حقا ، ولا يفقهون حديثا .فالآية الكريمة تصور تصويرا بليغا ما كان عليه هؤلاء المنافقون من مكر وخداع ، ومن خبث وسوء طوية . وترد عليهم بهذا الذم الشديد الذى يناسب جرمهم .

والذين اهتدوا زادهم هدى واتاهم تقواهم

كما فسرها الوسيط ثم يعقب - سبحانه - على ذلك ببيان حال المؤمنين الصادقين : فيقول : ( والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ) أى هذا هو حال المنافقين ، وهذا هو الحكم الذى يناسبهم ، أما الذين اهتدوا إلى الحق ، واستجابوا له ، وخالطت بشاشته قلوبهم ، فهم الذين زادهم الله - تعالى - هداية على هدايتهم .وزادهم علما وبصيرة وفقها فى الدين ، ومنحهم بفضله وإحسانه خلق التقوى والخشية منه ، والطاعة لأمره ، وكافأهم على ذلك بما يستحقون من ثواب جزيل .

فهل ينظرون الا الساعة ان تاتيهم بغتة فقد جاء اشراطها فانى لهم اذا جاءتهم ذكراهم

كما فسرها الوسيط ثم تعود السورة الكريمة إلى توبيخ هؤلاء المنافقين على غفلتهم وانطماس بصائرهم ، فتقول : ( فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ) .فالاستفهام للإنكار والتعجب من حالهم . وقوله بدل اشتمال من الساعة ، والأشراط جمع شَرَط - بالتحريك ( أَن تَأْتِيَهُمْ ) مع الفتح - وهو العلامة ، وأصله الإعلام عن الشئ .يقال : أشرط فلان نفسه لكذا ، إذا أعلمها له وأعدها ، ومنه الشرطى - كتركى - والجمع شُرَط - بضم ففتح - سموا بذلك لأنهم أعلموا أنفسهم بعلامات يعرفون بها ، وتميزهم عن غيرهم .وقوله : ( فأنى لَهُمْ ) خبر مقدم و ( ذِكْرَاهُمْ ) مبتدأ مؤخر ، والضمير فى قوله ( جَآءَتْهُمْ ) يعود إلى الساعة ، والكلام على حذف مضاف قبل قوله ( ذِكْرَاهُمْ ) أى : فأنى لهم نفع ذكراهم؟والمعنى : ما ينتظر هؤلاء الجاهلون إلا الساعة ، التى سيفاجئهم مجيؤها مفاجأة بدون مقدمات ، والحق أن علاماتها قد ظهرت دون أن يرفعوا لها رأسا ، ودون أن يعتبروا بها ، أو يتعظوا لاستيلاء الأهواء عليهم .ولكنهم عندما تداهمهم الساعة بأهوالها ويقفون للحساب . يتذكرون ويؤمنون بالله ورسله . . ولكن إيمانهم فى ذلك الوقت لن ينفعهم ، لأنه جاء فى غير محله الذى يقبل فيه ، وتذكرهم واتعاظهم - أيضا - لن يفيدهم لأنه جاء بعد فوات الأوان .ومن الآيات التى وردت فى هذا المعنى قوله - تعالى - : ( فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ) وقوله - تعالى - : ( وقالوا آمَنَّا بِهِ وأنى لَهُمُ التناوش مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ) وقوله - عز وجل - : ( يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإنسان وأنى لَهُ الذكرى ) قال الآلوسى : الظاهر أن المرد بأشراط الساعة هنا : علاماتها التى كانت واقعة إذ ذاك ، وأخبروا أنها علامات لها ، كبعثة نبينا - صلى الله عليه وسلم - فقد أخرج أحمد والبخارى ومسلم والترمذى عن أنس قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " بعث أنا والساعة كهاتين - وأشار بالسبابة والوسطى " .وأخرج أحمد عن بريدة قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم يقول : " بعث أنا والساعة جميعا . وإن كادت لتسبقنى " وهذا أبلغ فى إفادة القرب .وعدوا منها انشقاق القمر الذى وقع له - صلى الله عليه وسلم - والدخان الذى وقع لأهل مكة ، أما أشراطها مطلقا فكثيرة ، ومنها ككون الحفاة العراة رعاء الشاة يتطاولون فى البنيان .

فاعلم انه لا اله الا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثواكم

كما فسرها الوسيط ثم أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يداوم على استغفاره وطاعته لله - تعالى - وأن يأمر اتباعه بالاقتداء به فى

) : ذلك فقال : ( فاعلم أَنَّهُ لاَ إله إلاَّ الله ) .والفاء فى قوله
فاعلم ) للإفصاح عن جواب شرط معلوم مما مر من آيات .والتقدير : إذا تبين
لك ما سقناه عن حال السعداء والأشقياء ، فاعلم أنه لا إله إلا الله ، واثبت
على هذا العلم ، واعمل بمقتضاه ، واستمر على هذا العمل ( واستغفر لِذَنبِكَ
أى : واستغفر الله - تعالى - من أن يقع منك ذنب ، واعتصم بحبله لكى يعصمك (
من كل مالا يرضيه . واستغفر - أيضا ( وَلِلْمُؤْمِنِينَ والمؤمنات ) بأن
تدعو لهم بالرحمة والمغفرة ( والله ) - تعالى - بعد كل ذلك ( يَعْلَمُ
مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ) أى : يعلم كل متقلب وكل إقامة لكم سواء
أكانت فى بر أم فى بحر أم فى غيرهما .والمقصود : أنه - تعالى - يعلم جميع
أحوالكم ولا يخفى عليه شئ منها ، والمتقلب : المتصرف ، من التقلب وهو
التصرف والانتقال من مكان إلى آخر . والمثوى : المسكن الذى يأوى إليه
الإنسان ، ويقيم به .قال الإمام ابن كثير : وقوله : ( فاعلم أَنَّهُ لاَ
إله إلاَّ الله ) هذا إخبار بأنه لا إله إلا الله ، ولا يتأتى كونه آمرا
بعلم ذلك ، ولهذا عطف عليه بقوله : ( واستغفر لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ
" : والمؤمنات ) .وفى الصحيح أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يقول
. اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى ، وإسرافى فى أمرى ، وما أنت أعلم به منى
اللهم اغفر لى هزلى وجدى ، وخطئى وعمدى ، وكل ذلك عندى " .وفى الصحيح أنه
كان يقول فى آخر الصلاة : " اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت
" وما أعلنت ، وما اسرفت . وما أنت أعلم به منى ، أنت إلهى لا إله إلا أنت
وفى الصحيح أنه قال : " يأيها الناس . توبوا إلى ربكم فإن أستغفر الله.
وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة " .ومن الأحكام التى أخذها العلماء
من هذه الآية الكريمة : وجوب المداومة على استغفار الله - تعالى - والتوبة
إليه توبة صادقة نصوحا .لأنه إذا كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهو
- الذى غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر - قد أمره - سبحانه
بالاستغفار ، فأولى بغيره أن يواظب على ذلك ، لأن الاستغفار بجانب أنه ذكر
لله - تعالى - فهو - أيضا شكر له - سبحانه - على نعمه .وقد تسوع الإمام فى
الحديث عن معنى قوله - تعالى - : ( واستغفر لِذَنبِكَ . . ) فارجع إليه إن
. شئت

ويقول الذين امنوا لولا نزلت سورة فاذا انزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال
رايت الذين في قلوبهم مرض ينظرون اليك نظر المغشي عليه من الموت فاولى لهم

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك حال المنافقين عندما يدعون إلى
القتال فى سبيل الله ، وكيف أنهم يستولى عليهم الذعر والهلع عند مواجهة هذا
- التكليف ، وكيف سيكون مصيرهم إذا ما استمروا على هذا النفاق . فقال
تعالى - : ( وَيَقُولُ الذين آمَنُواْ لَوْلاَ . . . على قُلُوبٍ
أَقْفَالُهَآ ) .قال الإمام الرازى ما ملخصه : لما بين الله حال المنافق
والكافر ، والمهتدى المؤمن عند استماع الآيات العلمية ، من التوحيد والحشر
وغيرهما . . أتبع ذلك ببيان حالهم فى الآيات العملية ، فإن المؤمن كان
ينتظر ورودها ، ويطلب تنزيلها ، وإذا تأخر عنه التكليف كان يقول : هلا أمرت
بشئ من العبادة .والمنافق كان إذا نزلت الآية أو السورة وفيها تكليف كره
ذلك . . فذكر - سبحانه - تباين حال الفريقين فى العلم والعمل . فالمنافق لا
) : - يفهم العلم ولا يريد العمل ، والمؤمن يعلم ويحب العمل .فقوله - تعالى
وَيَقُولُ الذين آمَنُواْ لَوْلاَ نُزِّلَتْ سُورَةٌ ) حكاية لتطلع
المؤمنين الصادقين إلى نزول القرآن ، وتشوقهم إلى الاستماع إليه ، والعمل
بأحكامه .أى : ويقول الذين آمنوا إيمانا حقا ، لرسوله - صلى الله عليه
وسلم - : يا رسول الله هلا نزلت سورة جديدة من هذا القرآن الكريم ، الذى
نحبه ونحب العمل بما فيه من هدايات وآداب وأحكام وجهاد فى سبيل الله - عز
وجل - .قوله : ( فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا
القتال رَأَيْتَ الذين فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ
المغشي عَلَيْهِ مِنَ الموت ) بيان لموقف المنافقين من الجهاد فى سبيل الله
) وتصوير بديع لما انطوت عليه نفوسهم من جبن خالع .والمراد بقوله ،
مُّحْكَمَةٌ ) : أى : واضحة المعانى فيما سيقت له من الأمر بالجهاد فى سبيل
الله ، بحيث لا يوجد مجال لتأويل معناها على الوجه الذى سيقت له .أى : هذا
هو حال المؤمنين بالنسبة بحبهم للقرآن الكريم ، أما حال المنافقين فإنك
تراهم إذا ما أنزلت سورة فاصلة بينة تأمر أمرا صريحا بالقتال لإعلاء كلمة
الله تراهم ينظرون إليك كنظر من حضره الموت فصار بصره شاخصا لا يتحرك من
شدة الخوف والفزع .والمقصود أنهم يوجهون أبصارهم نحو النبى - صلى الله عليه
وسلم - بحدة وهلع ، لشدة كراهتهم للقتال معه ، إذ فى هذا القتال عز
للإسلام ، ونصر للمؤمنين ، والمنافقون يبغضون ذلك .فالآية الكريمة ترسم
صورة خالدة بليغة لكل نفس لئيمة خوارة ، مبتوتة عن الإيمان ، وعن الفطرة
السليمة ، متجردة عن الحياء الذى يستر مخازيها .وقوله - تعالى - : ( فأولى
لَهُمْ ) تهديد ووعيد لهم على جبنهم وخبث طويتهم .وقوله ( أولى ) يرى بعضهم
أنه فعل ماض بمعنى قارب ، وفاعله ضمير يعود إلى الموت ، أى : قاربهم ما

. . هيلكهم وهو الموت الذى يرتعدون منه

طاعة وقول معروف فاذا عزم الامر فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم

، كما فسرها الوسيط ويرى آخرون أن قوله ( أولى ) اسم تفضيل بمعنى أحق وأجدر
وأنه خبر لمبتدأ محذوف ، واللام بمعنى الباء . أى : فالعقاب والهلاك أولى
بهم وأحق وأجدر . ويكون قوله - تالى - بعد ذلك ( طَاعَةٌ وَقَوْلٌ
مَّعْرُوفٌ ) كلام مستأنف والخبر محذوف .أى : طاعة وقول معروف منكم لرسول
- الله - صلى الله عليه وسلم - خير لكم من هذا الذميم .ويصح أن يكون قوله
) سبحانه - ( أولى ) مبتدأ . وقوله ( لَهُمْ ) متعلق به . والخبر قوله
طَاعَةٌ ) . واللام فى ( لَهُمْ ) أيضا . بمعنى الباء .ويكون المعنى : أولى
بهؤلاء المنافقين من أن ينظروا إليك نظر المغشى عليه من الموت ، الطاعة
التامة لك ، والقول المعروف أمامك ، لأن ذلك يحملهم متى أخلصوا قلوبهم
لله - تعالى - على الإقلاع عن النفاق .ولعل هذا القول الأخير هو أقرب
الأقوال إلى سياق الآيات ، لأن فيه إرشاداً لهم إلى ما يحميهم من تلك
الأخلاق المرذولة التى على رأسها الخداع والجبن والخور .وقوله : ( فَإِذَا
عَزَمَ الأمر فَلَوْ صَدَقُواْ الله لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ ) متعلق بما
قبله .أى : أولى لهم الطاعة والقول المعروف ، وأولى لهم وأجدر بهم إذ جد
الجد ، ووجب القتال ، أن يخلصوا لله - تعالى - نياتهم ، فإنهم لو صدقوا
الله فى إيمانهم ، لكان صدقهم خيرا لهم ، من تلك المسالك الخبيثة التى
سلكوها مع نبيهم - صلى الله عليه وسلم - .قال الشوكانى : قوله ( فَإِذَا
عَزَمَ الأمر ) عزم الأمر أى جد الأمر والقتال ووجب وفرض .وأسند العزم إلى
الأمر وهو لأصحابه على سبيل المجاز . وجواب ( إِذَا ) قيل هو ( فَلَوْ
صَدَقُواْ الله ) وقيل محذوف والتقدير : كرهوه أى : إذا جد الأمر ولزم
. القتال خالفوا وتخلفوا

فهل عسيتم ان توليتم ان تفسدوا في الارض وتقطعوا ارحامكم

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما هو متوقع منهم ، ووجه الخطاب إليهم
على سبيل الالتفات ليكون أزجر لهم ، فقال : ( فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن
تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِي الأرض وتقطعوا أَرْحَامَكُمْ ) .قال
الفخر الرازى ما ملخصه : وهذه الآية فيها إشارة إلى فساد قول قالوه ، وهو
أنهم كانوا يقولون : كيف نقاتل العرب وهم من ذوى أرحامنا وقبائلنا
والاستفهام للتقرير المؤكد ، وعسى للتوقع ، وفى قوله ( إِن تَوَلَّيْتُمْ.
وجهان : أحدهما : أنه من الولاية ، يعنى : فهل يتوقع منكم - أيها (
المنافقون - إن أخذتم الولاية وسار الناس بأمركم ، إلا فساد فى الأرض وقطع
الأرحام؟وثانيهما : أنه من التولى بمعنى الإعراض وهذا أنسب - أى : إن كنتم
تتركون القتال ، وتقولون فيه الإفاسد وقطع الأرحام ، لكون الكفار أقاربنا
فإن فى هذه الحالة لا يتوقع منكم إلا الإفساد وقطع الأرحام كما كان ،
حالكم فى الجاهلية .وعلى كلا القولين فالمقصود من الآية توبيخهم على جبنهم
وكراهتهم لما يأمرهم به النبى - صلى الله عليه وسلم - من الجهاد فى سبيل
الله - تعالى - ، وتقريعهم على أعذارهم الباطلة ، ببيان أنهم لو أعرضوا عن
، القتال وخالفوا تعاليم الإسلام فلن يكون منهم إلا الإفساد وقطع الأرحام
وكذلك سيكون حالهم لو تولوا أمور الناس ، وكانوا حكاما لهم .وقوله : ( أن
، تُفْسِدُواْ ) خبر عسى ، وقوله : ( إِن تَوَلَّيْتُمْ . . ) جملة معترضة
وجواب ( إن ) محذوف لدلالة قوله : ( فَهَلْ عَسَيْتُمْ ) عليه .أى : ما
يتوقع منكم إلا الإفساد وقطع الأرحام ، إن أعرضتم عن تعاليم الإسلام ، أو
إن توليتم أمور الناس ، فأحذروا أن يكون منكم هذا التولى الذى سيفضى بكم
إلى سوء المصير ، الذى بينه - سبحانه - فى قوله : ( أولئك الذين لَعَنَهُمُ
( الله

اولئك الذين لعنهم الله فاصمهم واعمى ابصارهم

) كما فسرها الوسيط ( أولئك الذين لَعَنَهُمُ الله )أى : طردهم من رحمته
- فَأَصَمَّهُمْ وأعمى أَبْصَارَهُمْ ) بأن جعلهم بسبب إعراضهم عن الحق
كالصم الذين لا يسمعون ، وكالعمى الذين لا يبصرون ، لأنهم حين عطلوا
. أسماعهم وأبصارهم عن التدبر والتفكر صاروا بمنزلة الفاقدين لتلك الحواس

افلا يتدبرون القران ام على قلوب اقفالها

) : كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - ما يدعو إلى التعجيب من حالهم فقال
، أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القرآن . . ) والفاء للعطف على جملة محذوفة
والاستفهام للإنكار والزجر . أى : أيعرضون عن كتاب الله - تعالى - فلا
يتدبرونه مع أنه زاخر بالمواعظ والزواجر والأوامر والنواهى .( أَمْ على

قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ) أى : بل على قلوب هؤلاء المنافقين أقفالها التى حالت بينهم وبين التدبر والتفكر ، والأقفال : جمع قفل - بضم فسكون - وهو الآلة التى تقفل بها الأبواب وما يشبهها ، والمراد : التسجيل عليهم بأن قلوبهم مغلقة ، لا يدخلها الإيمان ، ولا يخرج منها الكفر والنفاق .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم نكرت القلوب وأضيفت الأقفال إليها؟قلت : أما التنكير ففيه وجهان : أن يراد على قلوب قاسية مبهم أمرها فى ذلك . أو يراد على بعض القلوب وهى قلوب المنافقين . وأما إضافة الأقفال ، فلأنه يريد الأقفال المختصة بها ، وهى أقفال الكفر التى استغلقت فلا تنفتح .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القرآن وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ الله لَوَجَدُواْ فِيهِ اختلافا كَثِيراً ) وقد أخذ العلماء ، من هذه الآية وأمثالها ، وجوب التدبر والتفكر فى آيات القرآن الكريم والعمل بما فيها من هدايات وإرشادات ، وأوامر ونواه ، وآداب وأحكام ، لأن عدم الامتثال لذلك يؤدى إلى قسوة القلوب وضلال النفوس ، كما هو الحال فى المنافقين والكافرين .

ان الذين ارتدوا على ادبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم واملى لهم

كما فسرها الوسيط ثم تواصل السورة حديثها عن النمافقين ، فتفصح عن الأسباب التى حملتهم على هذا النفاق ، وتصور أحوالهم السيئة عندما تتوفاهم الملائكة وتهددهم بفضح رذائلهم ، وهتك أسرارهم . . قال - تعالى - : ( إِنَّ الذين ارتدوا . . . وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ) .والمراد بارتدادهم على أدبارهم رجوعهم إلى ما كانوا عليه من كفر وضلال .أى : إن الذين رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر والضلال ، وهم المنافقون ، الذين يتظاهرون بالإسلام ويخفون الكفر .وقوله : ( مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الهدى ) ذم لهم على هذا الارتداد ، لأنهم لم يعودوا إلى الكفر عن جهالة ، وإنما عادوا إليه من بعد أن شاهدوا الدلائل الظاهرة ، والبراهين الساطعة على أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - صادق فيما يبلغه عن ربه ، وعلى أن الإسلام هو الدين الحق ، وقوله : ( الشيطان سَوَّلَ لَهُمْ وأملى لَهُمْ ) جملة من مبتدأ وخبر. ) : وهى خبر إن فى قوله - سبحانه - : ( إِنَّ الذين ارتدوا ) .وقوله سَوَّلَ ) من التسويل بمعنى التزيين والتسهيل . يقال : سولت لفلان نفسه هذا الفعل ، أى : زينته وحسنته له ، وصورته له فى صورة الشئ الحسن مع أنه قبيح وقوله : ( وأملى ) من الإملاء وهو الإبقاء ملاوة من الدهر ، أى : زمنا. منه أى : الشيطان زين لهؤلاء المنافقين سوء أعمالهم ، ومد لهم فى الأمانى الباطلة ، والآمال الفاسدة ، وأسباب الغواية والضلال .وأسند - سبحانه - هذا التسويل والإملاء إلى الشيطان ، مع أن الخالق لذلك هو الله - تعالى - لأن الشيطان هو السبب فى هذا الضلال والخسران .

ذلك بانهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الامر والله يعلم اسرارهم

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أسباب هذا الارتداء فقال : ( ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ الله سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأمر ) .أى : ذلك الارتداء عن الحق والتردى فى الباطل . بسبب أن هؤلاء المنافقين قالوا للذين كرهوا ما نزل الله من الهدى على نبيه - صلى الله عليه وسلم - وهم اليهود ومن على شاكلتهم ، قالوا لهم ( سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأمر ) أى : سنطيعكم فى بعض أموركم وأحوالكم التى على رأسها : العداوة لهذا الرسول - صلى الله عليه وسلم - ولما جاء به من عند ربه .كما قال - تعالى - حكاية عنهم فى آية أخرى : ( أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين نَافَقُواْ يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلاَ نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ والله يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ) وقوله - سبحانه - : ( والله يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ) تهديد لهم على هذا الدس والكيد والتآمر على الإسلام وأتباعه . أى : والله - تعالى - يعلم ما يسرونه من أقوال سيئة ، ومن أفعال قبيحة ، وسيعاقبهم على ذلك عقابا شديدا .وكلمة ( إِسْرَارَهُمْ ) - بكسر الهمزة - مصدر أسررت إسرارا ، بمعنى كتمت الشئ وأخفيته وقرأ بعض القراء السبعة ( أسرارهم ) - بفتح الهمزة - جمع سر . يعلم الأشياء التى يسرونها ويخفونها .

فكيف اذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وادبارهم

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - حالهم عندما تقبض الملائكة أرواحهم فقال : ( فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الملائكة يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ

وَأَدْبَارَهُمْ ) .والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، والاستفهام
للاستعظام والتهويل ، و " كيف " منصوب بفعل محذوف هو العامل فى الظرف " إذا
والمراد بوجوههم : كل ما أقبل منهم ، وبأدبارهم : كل ما أدبر من أجسامهم. "
، أى : هؤلاء الذين ارتدوا على أدبارهم ، وقالوا ما قالوا من كفر وضلال.
كيف يكون حالهم إذا توفتهم الملائكة وقبضت أرواحهم؟ لا شك أن حالهم سيكون
أسوأ حال وأقبحه ، لأن ملائكة الموت يضربون عند قبض أرواحهم وجوه هؤلاء
: - المنافقين وأدبارهم ، ضربا أليما موجعا .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى
وَلَوْ ترى إِذْ يَتَوَفَّى الذين كَفَرُواْ الملائكة يَضْرِبُونَ )
. ( وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ الحريق

ذلك بانهم اتبعوا ما اسخط الله وكرهوا رضوانه فاحبط اعمالهم

كما فسرها الوسيط واسم الإشارة فى قوله : ( ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتبعوا مَآ
، أَسْخَطَ الله وَكَرِهُواْ رِضْوَانَهُ ) يعود إلى توفى الملائكة لهم
وقبضهم لأرواح هؤلاء المنافقين . أى : ذلك الضرب الأليم لهم من الملائكة
- عند قبضهم لأرواحهم بسبب أن هؤلاء المنافقين قد اتبعوا ما يغضب الله
تعالى - من الكفر والمعاصى ، وبسبب أنهم كرهوا ما يرضيه من الإيمان
والطاعة .( فَأَحْبَطَ ) - سبحانه - : ( أَعْمَالَهُمْ ) بأن أبطلها ولم
. يقبلها منهم ، لأنها لم تصدر عن قلب سليم

ام حسب الذين في قلوبهم مرض ان لن يخرج الله اضغانهم

: كما فسرها الوسيط ثم هددهم - سبحانه - بكشف أستارهم ، وفضح أسرارهم فقال
أَمْ حَسِبَ الذين فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ الله )
أَضْغَانَهُمْ ) .و " أم " منقطعة بمعنى بل والهمزة ، والاستفهام للتقريع
والتوبيخ ، و " أن " مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن محذوف ، والجملة
بعدها خبرها ، وأن وصلتها سادة مسد مفعولى حسب .والأضغان : جمع ضغن ، وهو
الحقد الشديد . يقال : ضَغِن صدر فلان ضَغَنا - بزنة تعب - ، إذا اشتد حقده
، وغيظه ، والاسم الضِّغْن ، بمعنى الالتواء والاعوجاج الذى يكون فى كل شئ
ويقال : تضاغن القوم ، إذا انطوت قلوبهم على البغض والحقد .أى : بل أحسب
- هؤلاء المنافقون الذين امتلأت قلوبهم بمرض الكفر والضلال ، أن الله
- تعالى - غير قادر على إظهار أحقادهم الشديدة لرسوله - صلى الله عليه وسلم
والمؤمنين؟ إن حسبانهم هذا هو لون من جهالاتهم ومن غباوتهم وانطماس بصائرهم
لأن الله - تعالى - لا يخفى عليه شئ ، ولا يعجزه شئ فى الأرض ولا فى.
. السماء

ولو نشاء لاريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم
اعمالكم

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر قدرته فقال : ( وَلَوْ
نَشَآءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ
وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ القول ) .والمراد بالإرادة هنا : التعريف
والعلم الذى يقوم مقام الرؤية بالبصر ، كما فى قولهم : سأريك يا فلان
ماأصنع بك . أى : سأعلمك بذلك .والفاء فى قوله : ( فَلَعَرَفْتَهُم
بِسِيمَاهُمْ ) لترتيب المعرفة على الإرادة ، والمراد بسيماهم : علاماتهم
يقال : سوم فلان فرسه تسويما ، إذا جعل له علامة يتميز بها .وكررت اللام .
فى قوله : ( فَلَعَرَفْتَهُم ) للتأكيد .ولحن القول : أسلوب من أساليبه
المائلة عن الطريق المعروفة ، كأن يقول للقائل قولا يترك فيه التصريح إلى
التعريض والإبهام ، يقال : لَحْنتُ لفلان ألْحَن لَحْنا ، إذا قلت له قولا
: يفهمه عنك ويخفى على غيره .قال الجمل : واللحن يقال على معنيين ، أحدهما
الكناية بالكلام حتى لا يفهمه غير مخاطبك - ومنه قول الرسول - صلى الله
عليه وسلم - لبعض أصحابه فى غزوة الأحزاب : " وإن وجدتموهم - أى : بنى
قريظة - على الغدر فالحنوا لى الحنا أعرفه " .والثانى : صرف الكلام من
الإعراب إلى الخطأ - أى : من النطق السليم إلى النطق الخطأ - .ويقال من
- الأول : لحنَتْ - بفتح الحاء - ألحن فأنا لاحن ، ويقال من الثانى : لَحِن
بكسر الحاء إذا لم ينطق نطقا سليما - فهو لحن .والمعنى : ولو نشاء إعلامك
وتعريفك - أيها الرسول الكريم - بهؤلاء المنافقين وبذواتهم وأشخاصهم لفعلنا
: لأن قدرتنا لا يعجزها شئ ( فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ) أى ،
بعلاماتهم الخاصة بهم ، والتى يتميزون بها عن غيرهم .( وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ
أيضا - ( فِي لَحْنِ القول ) أى : ولتعرفنهم بسبب أقوالهم المائلة عن - (
الأساليب المعروفة فى الكلام ، حيث يتخاطبون فيما بينهم بمخاطبات لا يقصدون
ظهرها ، وإنما يقصدون أشياء أخرى فيها الإساءة إليك وإلى أتباعك .قال
الإمام ابن كثير : قوله - تعالى - : ( وَلَوْ نَشَآءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ
فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ) يقول - تعالى - : ولو نشاء يا محمد لأريناك

، أشخاصهم ، فعرفتهم عيانا ، ولكن لم يفعل سبحانه - ذلك فى جميع المنافقين
سترا منه على خلقه .( وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ القول ) أى : فيما
يبدون من كلامهم الدالة على مقاصدهم . كما عثمان - رضى الله عنه - : ما أسر
أحد قال سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه ، وفلتات لسانه . وفى الحديث
ما اسر أحد سريرة إلا كساه الله جلبابها " .وعن أبى مسعود عقبة بن عمرو " :
قال : " خطبنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خطبة فحمد الله وأثنى عليه
ثم قال : " إن منكم منافقين ، فمن سميت فليقم . ثم قال : قم فلان ، قم يا
فلان - حتى سمى ستة وثلاثين رجلا - ثم قال : إن فيكم - أو منكم فاتقوا الله
وقوله - سبحانه - : ( والله يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ) بيان لعلمه. " "
الشامل - سبحانه - وتهديد لم يجترح السيئات ، أى : والله - تالى - يعمل
. أعمالكم علما تاما كاملا ، وسيجازيكم عليها بما يستحقون من ثواب أو عقاب

ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو اخباركم

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - سنة من سننه فى خلقه فقال
وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حتى نَعْلَمَ المجاهدين مِنكُمْ والصابرين
وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ) .أى : ولنعاملنكم - أيها الناس - معاملة
المختبر لكم بالتكاليف الشرعية المتنوعة ، حتى نبين ونظهر لكم المجاهدين
منكم من غيرهم ، والصابرين منكم وغير الصابرين ( وَنَبْلُوَاْ
أَخْبَارَكُمْ ) أى : ونظهر أخباركم حتى يتميز الحسن منها من القبيح
، فالمراد بقوله : ( حتى نَعْلَمَ المجاهدين . . ) إظهار هذا العلم للناس.
حتى يتميز قوى الإيمان من ضعيفه ، وصحيح العقيدة من سقيمها .وإلى هنا نجد
الآيات الكريمة قد هددت المنافقين تهديدا شديدا ، ووبختهم على مسالكهم
. الذميمة ، وفضحتهم على رءوس الأشهاد ، وحذرت المؤمنين من شرورهم

ان الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى
لن يضروا الله شيئا وسيحبط اعمالهم

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بالدعوة إلى صلاح
الأعمال ، وبتهديد الكافرين بالعذاب الشديد ، وبتبشير المؤمنين بالثواب
: - الجزيل ، وبدعوتهم إلى الإكثار من الإنفاق فى سبيله . . فقال - تعالى
إِنَّ الذين كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ . . . لاَ يكونوا )
أَمْثَالَكُم ) .والمراد بالذين كفروا فى قوله : - تعالى - : ( إِنَّ الذين
، كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ الله ) جميع الكافرين ، كمشركى قريش
) ، والمنافقين ، وأهل الكتاب .أى : إن الذين كفروا بكل ما يجب الإيمان به
وَصَدُّواْ ) غيرهم عن الإيمان بالحق . و " سبيل الله " الواضح المستقيم
أى : عادوه وخالفوه وآذوه ، وأصل المشاقة : أن ( وَشَآقُّواْ الرسول ).
تصير فى شق وجانب ، وعدوك فى شق وجانب آخر ، والمراد بها هنا : العداوة
، والبغضاء .وقوله : ( مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ) ذم وتجهيل لهم
حيث حاربوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من بعد أن ظهر لهم أنه على
الحق ، وأنه صادق فيما يبلغه عن ربه .وقوله : ( لَن يَضُرُّواْ الله
شَيْئاً وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ) بيان للآثار السيئة التى ترتبت التى
على هذا الصدود والعداوة .أى : هؤلاء الذين كفروا ، وصدوا غيرهم عن سبيل
- الله ، وحاروا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هؤلاء لن يضروا الله
تعالى - شيئا بسبب كفرهم وضلالهم ، وسيبطل - سبحانه - أعمالهم التى عملوها
فى الدنيا ، وظنوها نافعة لهم ، كإطعام الطعام ، وصلة الأرحام .لأن هذه
، الأعمال قد صدرت من نفس كافرة ولن يقبل - سبحانه - عملا من تلك النفوس
كما قال - تعالى - : ( وَقَدِمْنَآ إلى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ
فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مّنثُوراً ) وكما قال - سبحانه - : ( إِنَّمَآ
( يَتَقَبَّلُ الله مِنَ المتقين

يا ايها الذين امنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول ولا تبطلوا اعمالكم

كما فسرها الوسيط ثم وجه - سبحانه - نداء إلى المؤمنين ، أمرهم فيه
بالمداومة على طاعته ومراقبته فقال . ( ياأيها الذين آمنوا أَطِيعُواْ
اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرسول وَلاَ تبطلوا أَعْمَالَكُمْ ) .أى : يا من
آمنتم بالله - تغالى حق الإيمان ، أطعيوا الله - تعالى فى كل ما أمركم به
وأطيعوا رسوله - صلى الله عليه وسلم ولا تبطلوا ثواب أعمالكم بسبب .
ارتكابكم للمعاصى ، التى على رأسها النفاق والشقاق ، والمن والرياء ، وما
يشبه ذلك من ألوان السيئات ، عن أبى العالية قال : كان أصحاب النبى - صلى
الله عليه وسلم - يظنون أنه لا يضر مع "لا إله إلا الله " ذنب ، كما لا
ينفع مع الشرك عمل ، فنزلت هذه الآية ، فخافوا أن يبطل الذنب العمل .وروى
نافع عن ابن عمر قال : كنا معشر أصحاب النبى - صلى الله عليه وسلم - نرى
أنه ليس شئ من الحسنات إلا مقبول حتى نزلت هذه الآية ، فقلنا : ما هذا الذى

: - يبطل أعمالنا؟ فقلنا : الكبائر الموجبات والفواحش حتي نزل قوله - تعالى
إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ )
لِمَن يَشَآءُ ) فلما نزلت كففنا من القول فى ذلك ، فكنا نخاف على من أصاب
الكبائر والفواحش ، ونرجو لمن يصبها .

ان الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - سوء مصير الذين استمروا على كفرهم حتى
ماتوا عليه فقال : ( إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ ) بالله - تعالى - ، وبكل ما
يجب الإيمان به .( وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ) أى : ومنعوا غيرهم عن
) ، الطريق التى توصلهم إلى طاعة الله ورضاه . ( ثُمَّ مَاتُواْ ) جميعا
وَهُمْ كُفَّارٌ ) دون أن يقلعوا عن كفرهم .( فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ )
شيئا من ذنوبهم ، لأن استمرارهم على الكفر حال بينهم وبين المغفرة .ومن
الآيات الكثيرة التى تشبه هذه الآية فى معناها قوله - تعالى - : ( إِنَّ
الَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ
أَحَدِهِم مِّلْءُ الأرض ذَهَباً وَلَوِ افتدى بِهِ أولئك لَهُمْ عَذَابٌ
( أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ

فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وانتم الاعلون والله معكم ولن يتركم اعمالكم

كما فسرها الوسيط والفاء فى قوله : ( فَلاَ تَهِنُواْ وتدعوا إِلَى السلم
وَأَنتُمُ الأعلون ) فصيحة ، والخطاب للمؤمنين على سبيل التبشير والتثبيت
- والحض على مجاهدة المشركين .أى : إذا كان الأمر كما ذكرت لكم من أن الله
تعالى - لن يغفر للكافرين . . ( فَلاَ تَهِنُواْ ) أى : فلا تضعفوا - أيها
، المؤمنون - أمامهم . ولا تخافوا من قتالهم . . من الوهن بمعنى الضعف
وفعله وهن بمعنى ضعف ، ومنه قوله - تعالى - : ( وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ
قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ ) وقوله : ( وتدعوا إِلَى السلم ) معطوف على ( تَهِنُواْ )
داخل فى حيز النهى .أى : فلا تضعفوا عن قتال الكافرين ، ولا تدعوهم إلى
الصلح والمسالمة على سبيل الخوف منهم ، وإظهار العجز أمامهم ، فإن ذلك نوع
من إعطاء الدنية التى تأباها تعاليم دينكم .وقوله : ( وَأَنتُمُ الأعلون
واللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ) جمل حالية .أى :لا
تطعفوا ولا تستكينوا لأعدائكم والحال أنكم أنتم الأعلون ، أى : الأكثر
). قهراً وغلبة لأعدائكم ، والله - تعالى - معكم - بعونه وصنره وتأييده
، وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ) أى : ولن ينقصكم شيئا من أجور أعمالكم
يقال : وَتَرْتُ فلانا حقه - من باب وعد - إذ انقصته حقه ولم تعطه له كاملا
وترت الرجل ، إذا قتلت له قتيلا ، أو سلبت منه ماله .قالوا : ومحل النهى ،
عن الدعوة إلى صلح الكفار ومسالمتهم ، إذا كان هذا الصلح أو تلك المسالمة
. : تؤدى إلى إذلال المسلمين أو إظهارهم بمظهر الضعيف القابل لشروط أعدائه
، أما إذا كانت الدعوة إلى السلم لا تضر بمصلحة المسلمين فلا بأس من قبولها
عملا بقوله - تعالى - : ( وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فاجنح لَهَا
وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ).

انما الحياة الدنيا لعب ولهو وان تؤمنوا وتتقوا يؤتكم اجوركم ولا يسالكم اموالكم

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما يدل على هوان هذه الدنيا فقال
إِنَّمَا الحياة الدنيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ) .قال الجمل : يعنى كيف تمنعكم
الدنيا عن طلب الآخرة ، وقد علمتم أن الدنيا كلها لعب ولهو ، إلا ما ان
منها فى عبادة الله - تعالى - وطاعته .واللعب : ما يشغل الإنسان وليس فيه
منفعة فى الحال أو المآل ، ثم إذا استعمله الإنسان ولم ينتبه لأشغاله
المهمة فهو اللعب ، وإن أشغله عن مهمات نفسه فهو اللهو .( وَإِن
تُؤْمِنُواْ ) إيمانا حقا ( وَتَتَّقُواْ ) الله - تعالى - ( يُؤْتِكُمْ
أُجُورَكُمْ ) كاملة غير منقوصة ، (وَلاَ يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ) أى
ولا يأمركم - سبحانه - أن تخرجوا جميع أموالكم على سبيل دفعها فى الزكاة :
المفروضة ، أو فى صدقة التطوع ، فالسؤال بمعنى الأمر والتكليف ويصح أن يكون
المعنى : ولا يسالكم رسولكم - صلى الله عليه وسلم - شيئا من أموالكم ، على
سبيل الأجر له على تبليغ دعوة ربه ، كما قال - تعالى - : ( قُلْ مَا
أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَآ مِنَ المتكلفين ) فالضمير
على المعنى الأول يعود إلى الله تعالى ، وعلى الثانى يعود إلى الرسول - صلى
الله عليه وسلم .

ان يسالكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج اضغانكم

: كما فسرها الوسيط ثم أشار - سبحانه - إلى جانب من حكمته فى تشريعاته فقال
إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ )
وقوله ( يُحْفِكُمْ ) من الإحفاء بمعنى الإلحاف : وهو المبالغة فى. (
، الطلب . يقال : أحفاه فى المسألة ، إذا ألح عليه فى طلبها إلحاحا شديدا
ومنه قوله - تعالى - ( لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً ) وأصله من أحفيت
البعير ، إذا أرهقته فى المشى حتى انبرى ورق خفه .أى : إن يكلفكم بإخراج
) جميع أموالكم ، ويبالغ فى طلب ذلك منكم ، تبخلوا بها فلا تعطوها ، وبذلك
يُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ) أى : يظهر أحقادكم وكراهيتكم لهذا التكليف ، لأن
حبكم الجم للمال يجعلكم تكرهون كل تشريع يأمركم بإخراج جميع أموالكم .فقوله
، عطف على فعل الشرط ، وقوله ( تَبْخَلُواْ ) جواب الشرط ( فَيُحْفِكُمْ )
. وقوله : ( وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ) معطوف على هذا الجواب

ها انتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فانما
يبخل عن نفسه والله الغني وانتم الفقراء وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم
لا يكونوا امثالكم

كما فسرها الوسيط ثم تختتم السورة الكريمة بالدعوة إلى الإنفاق فى سبيل
الله فقال : ( هَا أَنتُمْ هؤلاء ) - أيها المؤمنون - ( تُدْعَوْنَ
لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ الله ) أى : فى وجوه الخير التى على رأسها الجهاد
: فى سبيل إعلاء كلمة الله ، ونصرة دينه .(فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ) أى
فمنكم - أيها المخاطبون - من يبخل بماله عن الإنفاق فى وجوه الخير ( وَمَن
يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ ) أى : ومن يبخل فإنما يبخل عن
داعى نفسه لا عن داعى ربه ، أو فإنما يبخل على نفسه . يقال : بخل عليه
وعنه - كفرح وكرم - بمعنى ، لأن البخل فيه معنى المنع والإمساك ومعنى
، التضييق على مُنِع عنه المعروف ، فعدى بلفظ ( عَن ) نظرا للمعنى الأول
ولفظ ( على ) نظرا للمعنى الثانى :( والله ) - تعالى - هو ( الغني
وَأَنتُمُ الفقرآء ) إليه ، لاحتياجكم إلى عونه احتياجا تاما ، ( وَإِن
تَتَوَلَّوْاْ ) أى : وإن تعرضوا عن هذا الإرشاد الحكيم .( يَسْتَبْدِلْ
قَوْماً غَيْرَكُمْ ) أى : يخلق بدلكم قوما آخرين .( ثُمَّ لاَ يكونوا
أَمْثَالَكُم ) أى : ثم لا يكونوا أمثالكم فى الإعراض عن الخير ، وفى
البخل بما آتاهم الله من فضله .والمتأمل فى هذه الآية يراها قد اشتملت على
أسمى ألوان الدعوة إلى الإيمان والسخاء ، والنهى عن الجحود والبخل .وبعد
فهذا تفسير وسيط لسورة محمد - صلى الله عليه وسلم - نسأل الله - تعالى - أن
يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله
. وصحبه وسلم

انا فتحنا لك فتحا مبينا

كما فسرها الوسيط افتتحت سورة " الفتح " بهذه البشارات السامية ، والمدائح
العالية للنبى - صلى الله عليه وسلم - افتتحت بقوله - تعالى - : ( إِنَّا
فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً ) .والفتح فى الأصل : إزالة الأغلاق عن
الشئ . . وفتح البلد : المقصود به الظفر به ، ووقوعه تحت سيطرة الفاتح
والذى عليه المحققون من العلماء أن المراد بالفتح هنا : صلح الحديبية وما.
ترتب عليه من خيرات كثيرة ، ومنافع جمة للمسلمين .ويشهد لذلك أحاديث متعددة
منها : ما أخرجه البخارى وأبو داود والنسائى عن ابن مسعود قال : أقبلنا من
الحديبية مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، وكان قد خرج إليها - صلى
، الله عليه وسلم - يوم الاثنين هلال ذى القعدة ، فأقام بها بضعة عشر يوما
- ثم قفل راجعا إلى المدينة ، فينما نحن نسير إلى المدينة إذ أتاه الوحى
وكان إذا أتاه اشتد عليه - فسرى عنه وبه من السرور ما شاء الله ، فأخبرنا
أنه أنزل عليه : ( إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً ) .وروى
، الإمام أحمد وأبو داود عن مجمع بن جارية الأوسى قال : شهدنا الحديبية
فلما انصرفنا منها وجدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - واقفا عند كراع
الغميم - موضع بين مكة والمدينة - وقد جمع الناس وقرأ عليهم : ( إِنَّا
فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً ) الآيات .فقال رجل : يا رسول الله ، أو
فتح هو؟ فقال - صلى الله عليه وسلم - : أو والذى نفسى بيده إنه لفتح .ويرى
: بعضهم : أن المراد بالفتح هنا : فتح مكة ، والتعبير عنه بالماضى فى قوله
لتحقق الوقوع ، فهو من قبيل ( إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً )
قوله - تعالى - : ( أَتَى أَمْرُ الله فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ . . . ) ويبدو
لنا أن المراد بالفتح هنا صلح الحديبية لوجود اللآثار الصحيحة التى تشهد
لذلك ، ولأن هذا الصلح قد ترتب عليه من المنافع للدعوة الإسلامية ما يجعله
من أعظم الفتوح ، إن لم يكن أعظمها .لقد ترتب عليه أن انتشر الأمان بين
المسلمين والمشركين ، فاستطاع المسلمون أن ينشروا دعوة الحق فى مكة وفى
غيرها ، كما استطاعوا أن ينتقلوا من مكان إلى آخر للتبشير بدينهم ، فترتب
على ذلك أن دخل فى الإسلام عدد كبير من الناس .قال الزهرى : لم يكن فتح

أعظم من صلح الحديبية ، وذلك أن المشركين اختلطوا بالمسلمين ، فسمعوا كلامهم ، وتمكن الإسلام من قلوبهم ، وأسلم خلق كثير ، وكثر بهم سواد الإسلام .قال ابن هشام : والدليل على صحة قول الزهري ، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خرج إلى الحديبية فى الف وأربعمائة من أصحابه ثم خرج إلى - مكة فى عام الفتح - بعد ذلك بسنتين - فى عشرة آلاف من أصحابه .وقد أكد سبحانه - هذا الفتح بثلاثة أنواع من المؤكدات ، وهى " إن " والمصدر " فتحا ، والوصف " مبينا " وذلك للمسارعة إلى تبشير المؤمنين بتحقق هذا الفتح " ، ولإدخال السرور على قلوبهم ، بعد تلك الشروط التى اشتمل عليها الصلح والتى ظنها بعضهم أن فيها إجحافا بالمسلمين .وأسند - سبحانه - الفعل إلى نون العظمة ( فَتَحْنَا ) لتفخيم شأن المخبر - عز وجل - وعلو شأن المخبَر عنه وهو الفتح .وقدم - سبحانه - الجار والمجرور ( لَكَ ) على المفعول المطلق ( فَتْحاً ) للاهتمام وللإشعار بأن ذلك الفتح كان من أجله - صلى الله عليه وسلم - وفى ذلك ما فيه من تعظيم أمره - صلى الله عليه وسلم - ومن وجوب طاعته ، والامتثال لأمره .

ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تاخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما

كما فسرها الوسيط ثم ذكر - سبحانه - بعد ذلك مظاهر فضله على رسوله - صلى الله عليه وسلم - فقال : ( لِّيَغْفِرَ لَكَ الله مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ) .واللام فى قوله ( لِّيَغْفِرَ ) متعلقة بقوله : وهى للتعليل . والمراد بما تقدم من ذنبه - صلى الله عليه ( فَتْحاً ) وسلم - ما كان قبل النبوة ، وبما تأخر منه ما كان بعدها .والمراد بالذنب هنا بالنسبة له - صلى الله عليه وسلم - ما كان خلاف الأولى ، فهو من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين ، أو المراد بالغفران : الحيلولة بينه وبين الذنوب كلها ، فلا يصدر منه - صلى الله عليه وسلم - ذنب ، لأن غفران الذنوب ) : - معناه : سترها وتغطيتها وإزالتها .قال الشوكانى : وقوله - تعالى لِّيَغْفِرَ لَكَ الله مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ) اللام متعلقة بفتحنا وهى لام العلة ، قال المبرد : هى لام كى ومعناها : إنا : فتحنا لك فتحا مبينا - أى : ظاهرا واضحا مكشوفا - لكى يجتمع لك مغ المغفرة تمام النعمة فى الفتح ، فلما انضم إلى المغفرة شئ حادث واقع حسن معنى كى ، وقال ابن عطية : المراد أن الله فتح لك لكى يجعل الفتح علامة لغفرانه لك. فكأنها لام الصيرورة .وقال بعض العلماء : وقوله : ( لِّيَغْفِرَ لَكَ الله مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ) هو كناية عن عدم المؤاخذة أو المراد بالذنب ما فرط منه - صلى الله عليه وسلم - من خلاف الأولى بالنسبة لمقامه - صلى الله عليه وسلم - أو المراد بالغفران : الحيلولة بينه وبين الذنوب كلها ، فلا يصدر منه ذنب . لأن الغفر هو الستر ، والستر إما بين العبد والذنب ، وهو اللائق بمقام النبوة ، أو بين الذنب وعقوبته ، وهو اللائق بغيره .واللام فى ( لِّيَغْفِرَ ) للعلة الغائية . أى : أن مجموع المتعاطفات الأربعة غاية للفتح المبين ، وسبب عنه لا كل واحد منها .والمعنى ، يسرنا لك هذا الفتح لإتمام النعمة عليك ، وهدايتك إلى الصراط المستقيم : ، ولنصرك نصرا عزيزا .ولما امتن الله عليه بهذه النعم ، صدرها بما هو اعظم وهو المغفرة الشاملة ليجمع له بين عزى الدنيا والآخرة . فليست المغفرة - مسببة عن الفتح .ولقد كان - صلى الله عليه وسلم - مع هذه المغفرة من الله تعالى - له ، أعبد الناس لربه ، وأشدهم خوفا منه ، وأكثرهم صلة به .قال ابن كثير : قال الإمام أحمد : " حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان عن زياد بن - علاقة قال : سمعت المغيرة بن شعبة يقول : كان النبي - صلى الله عليه وسلم يصلى حتى تَرِمَ قدماه أى : تتورهم - فقيل له : أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال : " أفلا أكون عبدا شكورا " " .وعن عروة بن الزبير " عن عائشة قالت : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا صلى قام حتى تتفطر رجلاه - أى : تتشقق - فقالت له عائشة : يا رسول الله ، أتصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟فقال : " يا عائشة ، أفلا أكون عدبا شكورا . . " " .وقوله - تعالى - : ( وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ) معطوف على ما قبله . أى : ويتم - سبحانه - نعمه عليك - أيها الرسول الكريم - بأن يظهر دعوتك ، ويكتب بها النصر ، والخلود ، ويعطيك من ). الخصائص والمناقب ما لم يعطه لأحد من الأنبياء ، فضلا عن غيرهم - وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً ) أى : ويهديك ويرشدك - سبحانه ، بفضله وكرمه ، إلى الطريق القويم ، والدين الحق ، والأقوال الطيبة والأعمال الصالحة . .

وينصرك الله نصرا عزيزا

كما فسرها الوسيط ( وَيَنصُرَكَ الله ) - تعالى - ( نَصْراً عَزِيزاً ) أى نصرا قويا منيعا لا يغلبه غالب ، ولا يدفعه دافع ، لأنه من خالفك الذى لا :

، راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه . .هذا ، والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة
يرى أن الله - تعالى - قد أكرم نبيه - صلى الله عليه وسلم - إكراما لا
. يدانيه إكرام ، ومنحه من الخير والفضل ما لم يمنحه لأحد سواه

هو الذي انزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم ولله
جنود السماوات والارض وكان الله عليما حكيما

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك جانبا من مظاهر فضله على
المؤمنين فقال : ( هُوَ الذي أَنزَلَ السكينة فِي قُلُوبِ المؤمنين
، ليزدادوا إِيمَاناً مّعَ إِيمَانِهِمْ . . ) .والسكينة : من السكون
، والمراد بها الثبات والطمأنينة التى أودعها - سبحانه - فى قلوب المؤمنين
فترتب على ذلك أن أطاعوا الله ورسوله . بعد أن ظنوا أن فى شروط صلح
الحديبية ظلما لهم . وأن بايعوا النبى - صلى الله عليه وسلم - على الموت
بعد أن بلغهم أن عثمان - رضى الله عنه - قد قتله المشركون ، وفى التعبير عن
ذلك بالإنزال ، إشعار بعلو شأنها ، حتى لكأنها كانت مودعة فى خزائن رحمة
- الله - تعالى - ، ثم أنزلها بفضله فى قلوبهم بعد ذلك . .أى : هو - سبحانه
، بفضله ورحمته ، الذى أنزل السكينة والطمأنينة والثبات فى قلوب المؤمنين
فانشرحت صدورهم لهذا الصلح بعد أن ضاقت فى أول الأمر .وقوله : ( ليزدادوا
إِيمَاناً مّعَ إِيمَانِهِمْ ) تعليل لهذا الانزال للسكينة .أى : أوجد
السكينة وخلقها فى قلوبهم ، ليزدادوا يقينا على يقينهم ، وتصديقا لى
تصديقهم وثباتا على ثباتهم .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( إِذَا
: - تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً ) وقوله - سبحانه
وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مّن يَقُولُ أَيّكُمْ )
زَادَتْهُ هذه إِيمَاناً فَأَمَّا الذين آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً
وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ) وقد أخذ العلماء من هذه الآية وأمثالها ، أن
الإيمان يزيد وينقص .قال الآلوسى ما ملخصه : قال البخارى : لقيت أكثر من
ألف رجل من العلماء بالأمصار ، فما رأيت أحداً منهم يختلف فى أن الإيمان
، قول وعمل ، ويزيد وينقص .واحتجوا على ذلك بالعقل والنقل . أما العقل
فلأنه لو لم تتفاوت حقيقة الإيمان لكان إيمان آحاد الأمة المنهمكين فى
الفسوق والمعاصى ، مساويا لإيمان الأنبياء ، واللازم باطل ، فكذا وأما
، الثانى : فلكثرة النصوص فى هذا المعنى ، ومنها الآية التى معنا وأمثالها
ومنها وما روى " عن ابن عمر قال : قلنا : يا رسول الله ، إن الايمان يزيد
" " وينقص ، قال : " نعم يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة وينقص حتى يدخله النار
وقال الإمام النووى وغيره : إن الايمان بمعنى التصديق القلبى ، يزيد.
وينقص - أيضا بكثرة النظر ، ووضوح الأدلة ، ولهذا كان إيمان الصديقين أقوى
من إيمان غيرهم .ثم بين - سبحانه - شمول ملكه وقدرته فقال : ( وَلِلّهِ
- جُنُودُ السماوات والأرض وَكَانَ الله عَلِيماً حَكِيماً ) . أى : ولله
تعالى - وحده جنود السماوات والأرض من ملائكة وجن وإنس ، إذ الكل تحت قهره
وسلطانه ، فهو - سبحانه - الذى يدبر أمرهم كيف شاء ، ويدفع بعضهم ببعض كما
تقضى حكمته وإرادته ، وهو - تعالى - العليم بكل شئ . الحكيم فى جميع أفعاله
. .

ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ويكفر
عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزا عظيما

كما فسرها الوسيط واللام فى قوله - سبحانه - : ( لِّيُدْخِلَ المؤمنين
والمؤمنات جَنّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار . . ) متعلقة بمحذوف أو
بقوله : ( فَتْحاً ) .أى : فعل - سبحانه - ما فعل من جعل جنود السماوات
والأرض تحت سيطرته وملكه ، ومن دفع الناس بعضهم ببعض ، ليدخل المؤمنين
والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار . ( خَالِدِينَ فِيهَا ) خلودا أبديا
التى فعلوها فى دنياهم ، بأن ( وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ )
يعفرها لهم ، ويزيلها عنهم ، بل ويحولها لمن شاء منهم بفضله وكرمه إلى
). . حسنات .( وَكَانَ ذَلِكَ ) الإدخال للمؤمنين الجنة ، وتكفير سيئاتهم
عِندَ الله ) - تعالى - ( فَوْزاً عَظِيماً )لا يقادر قدره ، لأنه نهاية
. آمال المؤمنين ، وأقصى ما يتمناه العقلا المخلصون

ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء
عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم واعد لهم جهنم وساءت مصيرا

كما فسرها الوسيط ( وَيُعَذِّبَ ) - سبحانه - بعدله ( المنافقين والمنافقات
والمشركين والمشركات الظآنين بالله ظَنّ السوء . . . ) .أى : الظانين
بالله - تعالى - وبرسوله وبالمؤمنين الظن السيئ بأن توهموا أن الدائرة
ستدور على المؤمنين وأنهم هم الذين سينصرون .أو أنهم هم على الحق . وأن
الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأتباعه على الباطل .فقوله : ( السوء ) صفة

) - لموصوف محذوف . أى : الظانين بالله ظن الأمر السوء .وقوله - تعالى
عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السوء ) دعاء عليهم بأن ينزل بهم ما تقعوه للمؤمنين
من سوء . أى : عليهم وحدهم ينزل ما يتمنونه للمؤمنين من شر وسوء .والدائرة
فى الأصل : تطلق على الخط بالشيء ، ثم استعملت فى النازلة المحيطة بمن نزلت
: به ، وستعمل أكثر ما تستعمل فى المصائب والمكاره .قال صاحب الكشاف : قوله
أى : ما يظنونه ويتوقعونه بالمؤمنين فهو ( عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السوء )
حائق بهم ودائر عليهيم . والسوء : الهلاك الدمار ,فإن قلت : هل من فرق بين
السَّوْء والسُّوء؟ قلت : هما كالكَره والكُره ، والضّعف والضُّعف : من
ساء ، إلا أن المفتوح غالب فى أن يضاف إليه ما يراد ذمه من كل شئ ، وأما
) : - السوء بالضم ، فجار مجرى الشر الذى هو نقيض الخير .ثم قال - تعالى
وَغَضِبَ الله عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ
وَسَآءَتْ مَصِيراً ) .أى : ليس عليهم دائرة السوء فقط ، بل وفضلا عن ذلك
فقد غضب الله - تعالى - عليهم ، وطردهم من رحمته ، وأعد لهم فى الآخرة نار
. جهنم ، وساءت هذه النار مصيرا لهم

ولله جنود السماوات والارض وكان الله عزيزا حكيما

كما فسرها الوسيط ثم أكد - سبحانه - ملكيته لكل شئ فقال : ( وَلِلَّهِ
- جُنُودُ السماوات والأرض وَكَانَ الله عَزِيزاً حَكِيماً ) ، أى : ولله
تعالى - وحده جنود السماوات والأرض ، وكان - سبحانه - وما زال غالبا على كل
شئ ، حكيما فى كل أوامره ونواهيه . وفى كل تصرفاته وأفعاله .ولما كان
- المقصود من ذكر الجنود هنا : تهديد المنافقين والمشركين ، وأنهم فى قبضته
تعالى - ، ناسب أن تذيل الآية هنا بقوله : (وَكَانَ الله عَزِيزاً
حَكِيماً ) لأن العزة تقتضى الغلبة للغير .ولما كان المقصود من ذكر الجنود
فى الآية الرابعة ، بيان أن المدبر لهذا الكون هو الله - تعالى - ناسب أن
. تذيل الآية هناك بقوله - سبحانه - : (وَكَانَ الله عَلِيماً حَكِيماً )

انا ارسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا

كما فسرها الوسيط ثم حدد الله - تعالى - الوظيفة التى كلف بها رسوله - صلى
) : الله عليه وسلم - وبشر المؤمنين الذين وفوا بعهودهم بالأجر العظيم فقال
إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً . . . فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً
عَظِيماً ) .وقوله : ( مُبَشِّراً ) من التبشير ، وهو الإخبار بالأمر
السار لمن لا علم له بهذا الأمر .وقوله : ( وَنَذِيراً ) من الإنذار ، وهو
الإخبار بالأمر المخيف ، لكى يجتنب ويحذر .أى : ( إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ
أيها الرسول الكريم - إلى الناس ، لتكون ( شَاهِداً ) لمن آمن منهم - (
بالإيمان ، ولمن كفر منهم بالكفر ، بعد أن بلغتهم رسالة ربك تبليغا تاما
) كاملا .ولتكون ( مُبَشِّراً ) للمؤمنين منهم برضا الله عنهم ومغفرته لهم
وَنَذِيراً ) للكافرين وللعصاة بسوء المصير إذا ما استمروا على كفرهم
- وعصيانهم .والحكمة فى جعله - صلى الله عليه وسلم - شاهدا مع أن الله
، تعالى -لا يخفى عليه شئ : إظهار العدل الإلهى للناس فى صورة جلية واضحة
وتكريم النبى - صلى الله عليه وسلم - بهذه الشهادة .وجمع - سبحانه - بين
كونه - صلى الله عليه وسلم - ( مُبَشِّراً وَنَذِيراً ) لأن من الناس من
. ينفعه الترغيب فى الثواب ، ومنهم من لا يزجره إلى التخويف من العقاب
وانتصاب (شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ) على الحال المقدرة .وفى معنى
هذه الآية وردت آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - : ( وَكَذَلِكَ
جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى الناس
وَيَكُونَ الرسول عَلَيْكُمْ شَهِيداً . ) وقوله - سبحانه - ( وَيَوْمَ
نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنْفُسِهِمْ
وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً على هؤلاءآء . . . ) وقوله - عز وجل - : (ياأيها
النبي إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ).

لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة واصيلا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - الحكمة من إرساله - صلى الله عليه
وسلم - فقال : ( لِّتُؤْمِنُواْ بالله وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ
) : وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ) .وقوله
) : وَتُعَزِّرُوهُ ) من التعزيز بمعنى النصرة مع التعظيم والتفخيم .وقوله
وَتُوَقِّرُوهُ ) أى : تعظموه وتقدروه .وقوله : ( وَتُسَبِّحُوهُ ) من
التسبيح بمعنى التنزيه . تقول : سبحت الله - تعالى - أى : نزهته عما لا
يليق به ، و ( بُكْرَةً ) أول النهار ، و ( أَصِيلاً ) آخره ، المراد
ظاهرهما ، أو جميع أوقات النهار ، كما يقال : شرقا وغربا لجميع الجهات
) : - والخطاب للرسول - صلى الله عليه وسلم - ولأمته ، كقوله - تعالى.
ياأيها النبي إِذَا طَلَّقْتُمُ النسآء . . . ) والقراءة بتاء الخطاب ، هى

قراءة الجمهور من القراء .قال الآلوسى : وهو من باب التغليب ، غلب فيه
المخاطب على الغائب فيفيد أن النبى - صلى الله عليه وسلم - مخاطب بالإيمان
برسالته كأمته . .أى : أرسلناك - أيها الرسول الكريم - شاهدا ومبشرا ونذيرا
لتكون على رأس المؤمنين بما أرسلناك به ، وليتبعك فى ذلك اصحابك ومن ،
، سيأتى بعدهم ، بأن يؤمنوا بالله ورسوله إيمانا حقا ، ولينصروك ويعظموك
وليسبحوا الله - تعالى - فى الصباح والمساء . وعلى هذا يكون الضمير فى
قوله - تعالى - : ( وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ) يعود إلى الرسول - صلى
- الله عليه وسلم - وفى قوله ( وَتُسَبِّحُوهُ ) يعود إلى الله - تعالى
) قال القرطبى ما ملخصه : قرأ ابن كثير وأبو عمرو ( ليؤمنوا ) وكذلك.
يعزروه ويوقروه ويسبحوه ) كله بالياء على الخبر . .وقرأ الباقون بالتاء فى
- الخطاب . . والهاء فى قوله : ( وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ) للنبى
صلى الله عليه وسلم - وهنا وقف تام . ثم تبتدئ بقوله : ( وَتُسَبِّحُوهُ )
أى : تسبحوا الله بكرة وأصيلا .وقيل : الضمائر كلها لله - تعالى - فعلى هذا
يكون تأويل : ( وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ) أى : تثبتوا له صحة
. الربوبية ، وتنفوا عنه أن يكون له ولد أو شريك

ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله يد الله فوق ايديهم فمن نكث فانما
ينكث على نفسه ومن اوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه اجرا عظيما

كما فسرها الوسيط ثم مدح - سبحانه - الذين عاهدوا الرسول - صلى الله عليه
وسلم - ووفوا بعهودهم أكمل وفاء ، فقال : ( إِنَّ الذين يُبَايِعُونَكَ
إِنَّمَا يُبَايِعُونَ الله . . . ) .وقوله - سبحانه - : ( يُبَايِعُونَكَ
من المبايعة أو من البيعة ، بمعنى المعاهدة أو العهد ، وسميت المعاهدة (
مبايعة ، لاشتمال كل واحد منهما على معنى المبادلة ، وعلى وجوب الصدق
، والوفاء .والمراد بهذه المبايعة ، ما كان من المؤمنين فى صلح الحديبية
عندما عاهدوا الرسول - صلى الله عليه وسلم - على الثبات وعلى مناجزة
المشركين بعد أن أشيع أنهم قتلوا عثمان - رضى الله عنه - . أى : إن الذين
يبايعونك على الموت أو على عدم الفرار عند لقاء عند لقاء المشركين ، إنما
يبايعون ويعاهدون الله - تعالى - على ذلك قبل أن يبايعوك أنت ، لأن المقصود
- من هذه البيعة إنما هو طاعته - سبحانه - وامتثال أمره ، كما قال - تعالى
) : فالمقصود بقوله ( مَّنْ يُطِعِ الرسول فَقَدْ أَطَاعَ الله ) :
إِنَّمَا يُبَايِعُونَ الله ) تأكيد وجوب الوفاء بما عهدوا الرسول - صلى
الله عليه وسلم - عليه من الثبات وعدم الفرار ، والطاعة له فى كل ما يأمرهم
به .وقوله - سبحانه - : ( يَدُ الله فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ) زيادة فى تأكيد
وجوب الوفاء .ومذهب السلف فى هذه الآية وأمثالها من آيات الصفات : أنه يجب
الإيمان بها ، وتفويض علم معناها المراد منها إلى الله - تعالى - وترك
- تأويلها مع تنزيهه - تعالى - عن حقيقتها ، لاستحالة مشابهته - تعالى
بالحوادث ، كما قال - سبحانه - : ( لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ
السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ) أما الخلف فمذهبهم تأويل هذه الصفات على معنى يليق
- بجلاله ، فيؤولون اليد هنا بالقوة أو القدرة . أى : قوة الله - تعالى
: ونصرته فوق قوتهم ونصرتهم ، كما يقال : اليد فى هذه المسألة لفلان ، أى
الغلبة والنصرة له .أو المعنى : يد الله - تعالى - بالوفاء بما وعدهم من
الخير والنصرة فوق أيديهم . . والمقصود بهذه الجملة - كما أشرنا - زيادة
: - التأكيد على وجوب الوفاء والثبات .قال صاحب الكشاف : لما قال - سبحانه
) : أكده تأكيداً على سبيل التمثيل ، فقال ( إِنَّمَا يُبَايِعُونَ الله )
يَدُ الله فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ) يريد أن يد رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - التى تعلو أيدى المبايعين : هى يد الله ، والله - تعالى - منزله عن
الجوارح وعن صفات الأجسام ..وإنما المعنى : تقرير أن عقد الميثاق من
- الرسول - صلى الله عليه وسلم - كعقده مع الله - تعالى - .ثم بين - سبحانه
سوء عاقبة الناكثين فقال : ( فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ على
نَفْسِهِ ) أى : فمن نقض العهد بعد إبرامه وتوثيقه ، فإنما عاقبة نقضه يعود
- وبالها وشؤمها عليه .فقوله ( نَّكَثَ ) مأخوذ من النّكث - بكسر النون
وهو فك الخيوط المغزولة بعد غزلها ، وقوله : ( وَمَنْ أوفى بِمَا عَاهَدَ
عَلَيْهُ الله فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ) أى : ومن ثبت على الوفاء
بما عاهد الله - تعالى - عليه فسيعطيه - سبحانه - من فضله أجرا عظيما على
ذلك .والهاء فى قوله : ( عَلَيْهُ ) قرأها حفص بالضم ، توصلا إلى تفخيم لفظ
الجلالة ، الملائكة لتفخيم أمر العهد المشعر به الكلام ، وقرأها الجمهور
- بالكسر .هذا ، وقد وردت أحاديث متعددة ، تصرح بأن الذين كانوا مع النبى
صلى الله عليه وسلم - فى صلح الحديبية قد بايعوا جميعا النبى - صلى الله
عليه وسلم - على الموت أو على الفرار ، سوى جماعة من المنافقين ، امتنعوا
عن هذه البيعة ، لمرض قلوبهم ، وسوء طويتهم . .ومن هذه الأحاديث ما أخرجه
- الشيخان عن سلمة بن الأكوع قال : بايعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم
تحت الشجرة ، قيل : على أى شئ؟ قال : على الموت .وروى مسلم فى صحيح عن جابر
بن عبد الله أنه سئل : كم كان عددكم يوم الحديبية؟ قال : كنا أربع عشرة

مائة ، فبايعنا الرسول - صلى الله عليه وسلم - على أن لا نفر - سوى الجد بن قيس فإنه اختفى تحت بطن بعيره ، ولم يسرع مع القوم . .وهكذا فاز المؤمنون الصادقون بشرف هذه البيعة وحرم منها المنافقون لمرض قلوبهم .

سيقول لك المخلفون من الاعراب شغلتنا اموالنا واهلونا فاستغفر لنا يقولون بالسنتهم ما ليس في قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئا ان اراد بكم ضرا او اراد بكم نفعا بل كان الله بما تعملون خبيرا

، كما فسرها الوسيط ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن المتخلفين الذين لم يخرجوا مع النبى - صلى الله عليه وسلم إلى صلح الحديبية ، فتحكى ، أعذارهم الزائفة ، وتفضحهم على رءوس الأشهاد ، وترد على أقوالهم الباطلة وتأمر النبى - صلى الله عليه وسلم - بالإعراض عنهم ، وإهمال أمرهم ، فهم قوم استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله . .قال الإمام الرازى ما ملخصه لما بين - سبحانه - حال المنافقين ، ذكر المتخلفين - بعد ذلك - فإن قوما : من الأعراب امتنعوا عن الخروج مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى مكة . لظنهم أنه يهزم ، فإنهم قالوا : أهل مكة قاتلوه على باب المدينة ، ، واعتذروا عن الخروج معه - صلى الله عليه وسلم - .والمخلفون : جمع مُخلَّف وهو المتروك فى مكان خلف الخارجين من البلد كالنساء والصبيان ، فإنهم فى العادة لا يخرجون مع الرجال للجهاد ، وعبر عنهم بالمخلفين على سبيل الذم ، لهم .والأعراب : اسم جنس لبدو العرب ، واحده أعرابى ، والأثنى أعرابية ، والمقصود بهم هنا سكان البادية من قبائل غِفَار ، ومُزَينة ، وجُهَينة وأشجع ، وأسلم ، والدِّيل ، وكان الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد دعاهم إلى الخروج معه إلى مكة ، ليساعدوه على إقناع قريش شفى الإذن بدخول مكة للطواف بالبيت الحرام . . ولكنهم اعتذروا .وقوله - سبحانه - سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا . . إعلام من الله - تعالى - لنبيه - صلى الله عليه وسلم - بما سيقوله هؤلاء المتخلفون له ، بعد عودته إليهم من صلح الحديبية .أى : سيقول المخلفون لك - أيها الرسول الكريم - : إننا ما تخلفنا عنك باختيارنا ، ولكن انشغالنا بحفظ ورعاية أموالنا ونسائنا وأولادنا الصغار ، حال بيننا وبين الخروج معك إلى الحديبية ، وما دام الأمر كذلك ( فاستغفر لَنَا ) الله - تعالى - لكى يغفر لنا ذنوبنا التى وقعنا فيها بسبب هذا التخلف الذى لم يكن عن تكاسل أو معصية لك .ولما كان قولهم هذا لم يكن صحيحا ، فقد رد الله - تعالى - عليهم بقوله أى : هو . ( يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ) : ليسوا صادقين فيما يقولون ، والحق أنهم يقولون قولا من أطراف ألسنتهم ، دون ، أن تؤيده قلوبهم ، فإن السبب الحقيقى لعدم خروجهم معك ، هو ضعف إيمانهم ، ومرض قلوبهم ، وتذبذب نفوسهم .فالجملة الكريمة تكذيب لهم فيما قالوه ) : وفضيحة لهم على رءوس الأشهاد .ثم أمر الله - تعالى - أن يجابههم بقوله قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُمْ مِّنَ اللّه شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً - أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً ) . والاستفهام للإنكار والنفى .أى : قل أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المتخلفين من الأعراب لا أحد يستطيع أن يمنع عنكم قضاء الله - تعالى - ، إن أراد بكم ما يضركم من قتل أو هزيمة ، أو إن أراد بكم ما ينفعكم ، من نصر أو غنيمة؛ لأن قضاء الله - تعالى -لا دافع له كما قال - سبحانه - : ( مّا يَفْتَحِ الله لِلنّاسِ مِن رّحْمَةٍ ، فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ) ثم أضرب - سبحانه - عن ذلك وقال : ( بَلْ كَانَ الله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ) أى : إن تخلفكم ليس سببه ما زعمتم ، بل الحق أن تخلفكم كان بسبب ضعف إيمانكم ، والله - تعالى - مطلع على أحوالكم اطلاعا تاما ، وسيجازيكم بما تستحقون .

بل ظننتم ان لن ينقلب الرسول والمؤمنون الى اهليهم ابدا وزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا

) : كما فسرها الوسيط ثم أكد - سبحانه - كذبهم بإضراب آخر عن أقوالهم فقال بَلْ ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرسول والمؤمنون إلى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنّ السوء وَكُنتُمْ قَوْماً بُوراً ) والبور فى الأصل : مصدر كالهُلكِ ، يوصف به المفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث .وهو هنا مستعمل بمعنى اسم الفاعل ، وقيل : هو جمع بائر ، كحائل وحول .قال صاحب الكشاف والبور من بار كالهُلكِ من هَلَك بناء ومعنى ، ولذلك وصف به الواحد والجمع والمذكر والمؤنث . ويجوز أن يكون جمع بائر كعائذ وعوذ . .والمعنى : ليس الأمر كما زعمتم - أيها المخلفون - من أن أموالاكم وأولادكم هى التى شغلتكم عن الخروج مع رسولكم - صلى الله عليه وسلم - ولكن الحق أنكم ظننتم أن العدو سيستأصل شأفة المؤمنين بالقتل والإهلاك . وأنهم لن يعودوا بعد ذلك إلى أهليهم أبدا وزين الشيطان هذا الظن الفاسد فى قلوبكم ، ومكنه من نفوسكم فقبعتم فى. .

دياركم ، وظننتم ، فى كل ما يتعلق بالرسول - صلى الله عليه وسلم - وبأتباعه
الصادقين ( ظَنَّ السوء ) أى : الظن الذى كله سوء وشر ومنكر .( وَكُنتُمْ )
، فى علم الله - تعالى - وحكمه ( قَوْماً بُوراً ) أى : قوما هالكين فاسدين
لا تصلحون لشئ من الخير ، ولا تستحقون إلا الخزى والعقاب .فأنت ترى أن
الله - تعالى - قد ذم هؤلاء المتخلفين وفضحهم وتوعدهم بسوء المصير ، لأسباب
متعددة ، منها : سوء ظنهم بالله - تعالى - وبرسوله ، - صلى الله عليه
وسلم - فقد توهموا أن الرسول والمؤمنين سيقتلون على يد أعدائهم ، وأنهم لن
يعودوا إلى أهليهم أبدا .ومنها : اعتذارهم الكاذب ، بانشغالهم بأموالهم
وأهليهم . .ومنها : تعمدهم الكذب . وتفوههم بالكلام الذى لا يؤيده قلوبهم .

ومن لم يؤمن بالله ورسوله فانا اعتدنا للكافرين سعيرا

) : كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - هذا الذم والتهديد للمتخلفين بقوله
وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا
، لِلْكَافِرِينَ سَعِيراً ) .أى : ومن لم يؤمن بالله - تعالى - إيمانا حقا
وبصدق الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى كل ما جاء به من عند ربه ، ويطيعه
فى كل ما أمر به أو نهى عنه ، عاقبناه عقابا شديدا ، فإنا قد هيأنا
. . للكافرين نارا مسعرة ، تحرق الأبدان ، وتشوى الوجوه

ولله ملك السماوات والارض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفورا
رحيما

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أنه هو المالك لكل شئ فقال
وَلِلَّهِ مُلْكُ السماوت والأرض ) خَلقا وتصرفا ( يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ
- أن يغفر له ( وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ) أن يعذبه .( وَكَانَ ) (
سبحانه - وما زال ( غَفُوراً ) أى : واسع المغفرة ( رَّحِيماً ) أى : واسع
. الرحمة

سيقول المخلفون اذا انطلقتم الى مغانم لتاخذوها ذرونا نتبعكم يريدون ان
يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل فسيقولون بل
تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون الا قليلا

كما فسرها الوسيط ثم عادت السورة الكريمة إلى حكاية أقوال هؤلاء المنافقين
وإلى الرد عليها ، فقال - تعالى - : ( سَيَقُولُ المخلفون إِذَا انطلقتم ،
إلى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ . . ) .والمراد
بالمخلفين هنا : السابقون الذين وصفوا بأنهم من الأعراب ، فاللام للعهد .أى
سيقول المخلفون عن الخروج معك يا محمد إلى مكة بعد أن خاب ظنهم فرجعتم :
سالمين إليهم بعد صلح الحديبية ، سيقولون لك ولأصحابك : ( ذَرُونَا
نَتَّبِعْكُمْ ) أى : اتركونا لنسير معكم ، لنشارككم فى جمع الغنائم التى
تنالونها من أعدائكم .فقوله ( ذَرُونَا ) بمعنى اتركونا ودعونا .قال
- الآلوسى : والمراد بالمغانم هنا : مغانم خيبر - كما عليه عامة المفسرين
ولم نقف على خلاف فى ذلك ، وأيد بأن السين تدل على القرب ، وخيبر أقرب
، المغانم التى انطلقوا إليها من الحديبية - كما علمت - فإرادتها كالمتعينة
وقد جاء فى الأخبار الصحيحة أن الله - تعالى - وعد أهل الحديبية أن يعوضهم
من مغانم مكة مغانم خيبر ، إذا قفلوا موادعين لا يصيبون شيئا .وقد كان رجوع
النبى - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه من صلح الحديبية فى ذى الحجة من
السنة السادسة ، وخروجهم إلى خيبر كان فى المحرم من السنة السابعة ، وقد
أصاب المسلمون من خيبر غنائم كثيرة ، وقد جعلها - صلى الله عليه وسلم - لمن
شهد معه صلح الحديبية دون غيرهم .وقوله : ( يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ
كَلاَمَ الله ) أى : يريد هؤلاء المخلفون بقولهم ( ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ
أن يغيروا حكم الله - تعالى - الذى حكم به ، وهو أن غنائم خيبر خاصة لمن (
- شهد صلح الحديبية ، أما هؤلاء المخلفون فلا نصيب لهم فيها .ثم لقن الله
تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - الرد الذى يخرسهم فقال : ( قُل لَّن
تَتَّبِعُونَا كذلكم قَالَ الله مِن قَبْلُ . . ) أى : قل - أيها الرسول
الكريم - لهؤلاء المخلفين - على سبيل الإقناط والتيئيس والزجر - لا
تتبعونا ونحن متجهون إلى خيبر لفتحها . فالنفى فى قوله ( لَّن
تَتَّبِعُونَا ) بمعنى النهى للمبالغة فى منعهم من الخروج مع المؤمنين إلى
خيبر .وقوله : ( كذلكم قَالَ الله مِن قَبْلُ ) أى : مثل هذا النهى الصادر
منى قد قاله الله - تعالى - من قبل رجوعنا من الحديبية ، فقد أمرنى بمنعكم
من الخروج معى إلى خيبر ، وبحرمانكم من غنائمها ، عقابا لكم على معصيتكم لى
وعلى سوء ظنكم بى وبأصحابى . .ثم حكى - سبحانه - ما سيقوله هؤلاء ،
المنافقون بعد مجابهتهم بتلك الحقيقة فقال : ( فَسَيَقُولُونَ بَلْ
تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُواْ لاَ يَفْقَهُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ) .أى :
فيسيقولون لك - أيها الرسول الكريم - بعد منعك إياهم من الخروج معكم إلى

خيبير ، وبعد أن ذكرت لهم حكم الله فيهم . . سيقولون لك على سبيل السفاعة وسوء الأدب : أنتم أيها المؤمنون تريدون بسبب هذا المنع من الخروج معكم إلى خيبر ، أن تحسدوننا وتمنعوننا حقنا فى الغنيمة ، والله - تعالى - لم يأمركم بمنعنا ، وإنما أنتم الذين فعلتموه حسدا لنا .وقوله : ( بَلْ كَانُواْ لاَ يَفْقَهُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ) إضراب عن قولهم هذا على سبيل التسلية للرسول - صلى الله عليه وسلم - أى ليس الحق كما زعموا ، بل الحق أنهم قوم دأبهم الحمق والجهالة ، ولا يفقهون من أمور الدين إلا فقها قليلا ، لا يسمن ولا يغني من جوع .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما الفرق بين حرفى الإضراب؟ قلت : الأول إضراب معناه : رد أن يكون حكم الله أن لا يتبعوهم وإثبات الحسد والثانى : إضراب عن وصفهم بإضافة الحسد إلى المؤمنين ، إلى وصفهم بما هو . أطم منه ، وهو الجهل وقلة الفقه . .

قل للمخلفين من الاعراب ستدعون الى قوم اولي باس شديد تقاتلونهم او يسلمون فان تطيعوا يؤتكم الله اجرا حسنا وان تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا اليما

كما فسرها الوسيط ثم فتح - سبحانه - أمام هؤلاء المخلفين من الأعراب باب التوبة ، فأمر النبى - صلى الله عليه وسلم - أن يدعوهم إلى الجهاد معه ، فإن صدقوا أفلحوا ، وإن أعرضوا خسروا فقال :( قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأعراب سَتُدْعَوْنَ إلى قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ) .أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المخلفين من الأعراب عن الخروج معك ، ستدعون فى المستقبل إلى القتال معى لقوم أصحاب قوة وشدة فى الحرب ، فيكون بينكم وبينهم أمران لا ثالث لهما : إما قتالكم لهم ، وإما الإسلام منهم ." فأو " فى قوله ( أَوْ يُسْلِمُونَ ) للتنويع والحصر وجملة ( تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ) مستأنفة للتعليل ، كما فى . قوله : سيدعوك الأمير للقائه يكرمك أو يخزى عدوك .وقد اختلف المفسرون فى المراد بهؤلاء القوم أولى البأس الشديد ، فمنهم من قال : فارس والروم ، ومنهم من قال : بنو حنيفة أتباع مسيلمة الكذاب .والذى عليه المحققون من العلماء أن المقصود بهم : هوزان وثقيف الذين التقى بهم المسلمون فى غزوة حنين بعد فتح مكة .وذلك لأن عددا كبيرا من تلك القبائل المتخلفة قد اشتركت فى تلك الغزوة ، حتى لقد بلغ عدد المسلمين فيها ما يقرب من اثنى عشر ألفا ، ولأن أهل هوزان وثقيف قد كانوا يجيدون الرماية والكر والفر ، فاستطاعوا فى أول المعركة - بعد أن اغتر المسلمون بقوتهم - أن يفرقوا بعض صفوف المسلمين ثم تجمع المسلمون بعد ذلك وانتصر عليهم ، ثم كانت النتيجة أن انتهت تلك الغزوة بإسلام هوزان وثقيف . كما هو معروف فى كتب السيرة .ولقد أشار القرآن الكريم إلى ما كان بين المسلمين وبين هوزان وثقيف من قتال فى قوله - تعالى - : ( لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأرض بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ثُمَّ أَنزَلَ الله سَكِينَتَهُ على رَسُولِهِ وَعَلَى المؤمنين وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الذين كَفَرُواْ وذلك جَزَآءُ الكافرين ثُمَّ يَتُوبُ الله مِن بَعْدِ ذلك على مَن يَشَآءُ والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ) وقد رجح فضيلة شيخنا الدكتور أحمد السيد الكومى أن يكون المقصود بالقوم. أولى البأس الشديد هوزان وثقيف ، فقال ما ملخصه : وتكاد تنفق كتب السيرة على أن الجيش الذى ذهب لفتح مكة ، ثم ذهب بعد ذلك إلى غزوة هوزان وثقيف يوم حنين ، كان يضم بين جوانحه العدد الكثير من قبائل أسلم وأشجع وجهينة وغفار ومزينة .وإذن فالأمر المحقق أن القبائل المتخلفة يوم الحديبية ، ساهمت فى الجهاد بقسط وافر يوم . فتح مكة ، ويوم حنين .وقد أقام المسلمون بمكة بعد أن فتحوها - بدون قتال يذكر - خمسة عشر يوما . . ثم ذهبوا لقتال هوزان وثقيف . . . وكانوا رماة مهرة ذوى مهارة حربية ، وراية بفنون القتال فهمزموا المسلمين فى أول الأمر ، ثم هزمهم المسلمون .ومن كل ذلك يرجح الحكم ، بأن هؤلاء القوم هم هوزان ، وأن كثيرا من المخلفين أسلم إسلاما خالصا وحسنت توبته . . .وقوله - سبحانه - : ( فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ اللهُ أَجْراً حَسَناً وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِّن قَبْلُ - يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً ) بيان للثواب العظيم الذى أعده سبحانه - للطائفين ، وللعذاب الأليم الذى توعد به الفاسقين .أى : فإن تطيعوا - أيها المخالفون - رسولكم - صلى الله عليه وسلم - يؤتكم الله من فضله أجرا حسنا ، وإن تتولوا وتعرضوا عن الطاعة ، كما أعرضتم من قبل فى صلح الحديبية عن طاعته ، يعذبكم - سبحانه - عذابا أليما . .

ليس على الاعمى حرج ولا على الاعرج حرج ولا على المريض حرج ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الانهار ومن يتول يعذبه عذابا اليما

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات برفع الحرج عن الذين تخلفوا

لأعذار حقيقته فقال : ( لَّيْسَ عَلَى الأعمى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأعرج
حَرَجٌ وَلاَ عَلَى المريض حَرَجٌ . . ) .أى : ليس على هؤلاء إثم فى التخلف
). عن الجهاد ، لما بهم من الأعذار والعاهات المرخصة لهم فى التخلف عنه
) ، وَمَن يُطِعِ الله وَرَسُولَهُ ) فيما أمَرا به أو نَهَيا عنه
يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار وَمَن يَتَوَلَّ ) عن
طاعتهما ( يُعَذِّبْهُ ) الله - تعالى - ( عَذَاباً أَلِيماً )لا يقادر
. قدره

لقد رضي الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فانزل
السكينة عليهم واثابهم فتحا قريبا

كما فسرها الوسيط ثم بشر الله - تعالى - المؤمنين الصادقين ببشارات متنوعة
- ومدحهم مدحا عظيما ، وبين - سبحانه - أن سنته فى خلقه لن تتخلف ، فقال ،
تعالى - : ( لَّقَدْ رَضِيَ الله عَنِ المؤمنين . . . بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيراً ) .واللام فى قوله - تعالى - : ( لَّقَدْ رَضِيَ الله عَنِ
، المؤمنين إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشجرة . . . ) هى الموطئة للقسم
وتسمى هذه البيعة الرضوان .والشجرة : كانت بالحديبية ، وقد جلس - صلى الله
عليه وسلم - تحتها ليبايع أصحابه على الموت أو على عدم الفرار ، فبايعوه
على ذلك - ما عدا بعض المنافقين - ، وقد كان الناس بعد ذلك يترددون على تلك
- الشجرة ويصلون تحتها ، ويدعون الله - تعالى - فأمر عمر - رضى الله عنه
قطعها خشية الافتتان بها . أى : والله لقد رضى الله - تعالى - عن المؤمنين
الذين بايعوك - أيها الرسول الكريم - تحت الشجرة ، على الموت من أجل إعلاء
- كلمة ربهم .وفى هذه الجملة أسمى وأعلى ما يتمناه إنسان ، وهو رضا الله
تعالى - عنه ودخوله فى زمرة العباد الذين ظفروا بمغفرته - سبحانه - ورحمته
قال الآلوسى - رحمه الله - : والتعبير بالمضارع لاستحضار صورة هذه.
المبايغة . وقوله - سبحانه - : ( تَحْتَ الشجرة ) متعلق بيبايعونك . . وفى
التقييد بذلك إشارة إلى مزيد وقع تلك المبايعة فى النفوس . ولذا استوجبت
رضا الله - تعالى - الذى لا يعادله شئ ، ويستتبع مالا يكاد يخطر على البال
، ويكفى فيما ترتب على ذلك ما أخرجه أحمد عن جابر ، ومسلم عن أم بشر ، عنه.
عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : "لا يدخل النار أحد ممن بايع
تحت الشجرة " .وصح برواية الشيخين وغيرهما فى أولئك المؤمنين من حديث جابر
- أنه - صلى الله عليه وسلم - قال لهم " أنتم خير أهل الأرض . . " .وقوله ،
تعالى - : ( فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السكينة عَلَيْهِمْ
وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً ) بشارة أخرى لهؤلاء المؤمنين الصادقين .أى
- لقد رضى - سبحانه - عن الذين بايعوك تحت الشجرة - أيها الرسول الكريم :
حيث علم ما فى قلوبهم من الصدق والإخلاص وإيثار الآخرة على الأولى ، فأنزل
السكينة والطمأنينة والأمان عليهم ، ( وَأَثَابَهُمْ ) أى : وأعطاهم منحهم
فتحا قريبا ، وهو فتح خيبر ، الذى كان بعد صلح الحديبية بأقل من شهرين
وقيل المراد به : فتح مكة ، والأول أرجح ، لأن فتح خيبر لم يكن فتح أقرب.
. منه ، ولأن المسلمين قد أصابوا من فتح خيبر غنائم كثيرة

ومغانم كثيرة ياخذونها وكان الله عزيزا حكيما

) : كما فسرها الوسيط وقد أشار - سبحانه - بعد ذلك إلى تلك الغنائم فقال
وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا . . . ) .أى : وأثابكم مغانم كثيرة
: تأخذونها من خيبر . (وَكَانَ الله ) - تعالى - وما زال ( عَزِيزاً ) أى
. غالبا ( حَكِيماً ) فى كل أفعاله وأحكامه

وعدكم الله مغانم كثيرة تاخذونها فعجل لكم هذه وكف ايدي الناس عنكم ولتكون
اية للمؤمنين ويهديكم صراطا مستقيما

. كما فسرها الوسيط ( وَعَدَكُمُ الله مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا
- أيها المؤمنون من أعدائكم فى مستقبل أيامكم .وقد صدق الله - تعالى ( .
وعده معهم ، فلقد غنموا بعد ذلك من بلاد فارس والروم وغيرهما .والإشارة فى
- قوله ( فَعَجَّلَ لَكُمْ هذه ) تعود إلى مغانم خيبر ، كما روى عن مجاهد
وعليه يكون المراد بالناس فى قوله : ( وَكَفَّ أَيْدِيَ الناس عَنْكُمْ )
أهل خيبر وحلفاءهم من بنى أسد وغطفان حين جاءوا لنصرة يهود خيبر ، فألقى
) : الله الخوف فى قلوبهم جميعا .ويرى بعض المفسرين أن الإشارة فى قوله
فَعَجَّلَ لَكُمْ هذه ) إلى صلح الحديبية وقد روى ذلك عن ابن عباس .وعليه
يكون المراد بالناس فى قوله : ( وَكَفَّ أَيْدِيَ الناس عَنْكُمْ ) مشركى
قريش ، أى : منعهم من حربكم ، بأن قذف فى قلوبهم الرعب منكم .ويبدو لنا أن
، هذا الرأى الذى قاله ابن عباس - رضى الله عنهما - هو الأقرب إلى الصواب
، لأنه يتسق مع سياق الآيات ، ولأنه يؤكد أن صلح الحديبية كان فتحا ومغنما
كان فتحا بدليل قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - لمن شك فى ذلك : " أى

والذى نفسى بيده إنه لفتح " وكان مغنما لأن المسلمين غنموا من ورائه إنتشار الدعوة الإسلامية فى آفاق الأرض .واللام فى قوله : (وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ) متعلقة بمحذوف ، أى فعل ما فعل من التعجيل والكف لتكون تلك النعم والبشارات علامات للمؤمنين على رعاية الله - تعالى - لهم ورضاه عنهم .( وَيَهْدِيَكُمْ ) أيها المؤمنون ( صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً ) أى : طريقا واضحا قويما ، به تصلون إلى ما تبغونه من عزة وأمان .

واخرى لم تقدروا عليها قد احاط الله بها وكان الله على كل شيء قديرا

كما فسرها الوسيط وقوله : ( وأخرى لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ الله بِهَا ) معطوف على ( هذه ) .أى : فعجل لكم هذه المغانم ، وعجل لكم مغانم أخرى ، لم تقدروا على الحصول عليها قبل ذلك لبعدها عن أن تنالها أيديكم . وقد أحاط الله بها لأنه - سبحانه -لا يعجزه شئ ( وَكَانَ الله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً ) .وتختلف الأقوال فى هذه المغانم الأخرى فمنهم من يرى أنها فتح مكة ، ومنهم من يرى أنها فتح خيبر . ومنهم من يرى أنها مغانم هوزان وثقيف ، ومنهم من يرى أنها مغانم المسلمين من الفرس والروم ويبدو لنا أن أرجح هذه الأقوال أولها ، لأنه ترتيب على هذا الصلح فى الحديبية أن فتحت مكة بعد سنتين منه ، بسبب نقض المشركين له ، وقد تم فتحا بدون قتال يذكر ، بعد أن حدث ما حدث بين المسلمين وبين مشركة مكة من قتال انتصر فيه المسلمون تارة كغزوة بدر ، وانتصر فيه المشركون أخرى كغزوة أحد . فالمسلمون لم يقدروا على دخول مكة إلا فى عام الفتح ، وبعد أن أحاط الله - تعالى بها - بقدرته التى لا يغلبها شئ ، وبعد أن استعصت على المسلمين زمنا طويلا ، وقد سلمها - سبحانه - لهم بأقل أنواع القتال ( وَكَانَ الله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً ) .والذى يتأمل فى هذه الآيات الكريمة يرى الله - تعالى - ، قد بشر المسلمين الذين شهدوا صلح الحديبية ببشارات متعددة بشرهم - أولا - برضاه عنهم - وهذه أسمى بشارة وأعلاها . .وبشرهم - ثانيا - بتفضله عليهم بمنحهم السكينة والطمأنية التى تجعلهم فى ثبات وأمان . وبشرهم - ثالثا - بفتوحات وغنائم منها القريب العاجل ، ومنها الآجل المتحقق ، الذى يكاد لتحققه أن يشاهدوه بأعينهم لأن الله - تعالى وعد به ووعده لا يتخلف .

ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الادبار ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا

كما فسرها الوسيط ثم بشرهم - رابعا - بأنهم هم المنصورون لأن سنته قد اقتضت ذلك ، فقال : ( وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الذين كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ الأدبار . . وتولية الأدبار كناية عن الهزيمة ، لأن المنهزم يعطى ظهره لمن انتصر ( . عليه . أى : ولو قاتلكم الذين كفروا وأنتم على تلك الحالة من قوة الإيمان وصدق العهد ، وإخلاص النية ، وحسن الاستعداد ، ومباشرة الأسباب . لولوا ، الأدبار أمامكم ( ثُمَّ لاَ يَجِدُونَ وَلِيّاً ) يعينهم (وَلاَ نَصِيراً ) لنصرهم .

سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا

كما فسرها الوسيط وقوله ( سُنّةَ الله التي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ) زيادة فى تثبيتهم وفى إدخال السرور على قلوبهم . . ولفظ ( سُنّةَ ) منصوب على المصدرية بفعل محذوف . أى : سن الله انتصار أهل الحق على أهل الباطل سنة قديمة وممتدة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .( وَلَن تَجِدَ ) أيها العاقل - ( لِسُنَّةِ الله ) - تعالى - ( تَبْدِيلاً ) أو تغييرا أو تحويلا وفى هذا المعنى ورت آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - : ( وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المرسلين إِنّهُمْ لَهُمُ المنصورون وَإِنّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون ).

وهو الذي كف ايديهم عنكم وايديكم عنهم ببطن مكة من بعد ان اظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيرا

كما فسرها الوسيط ثم ذكرهم - سبحانه - بنعمة من نعمه التى أنعمها عليهم فى رحلتهم هذه التى إنتهت بصلح الحديبية فقال : ( وَهُوَ الذي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطنِ مَكّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ . . ) .والمراد ببطن مكة : الحديبية ، وسميت بذلك لأنها قريبة من مكة . أى : وهو - سبحانه - الذى منع المشركين - بقدرته وحكمته من مهاجمتكم والاعتداء عليكم ، ومنعكم من مهاجمتهم وقتالهم ، فى هذا المكان القريب من مكة ، وكان ذلك بعد أن نصركم عليهم ، وجعلكم أعلى منهم فى القوة والحجة والثبات ، وكان - سبحانه - وما زال ( بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً ) .وقد ذكروا فى هذا الظفر روايات منها ما أخرجه الإمام مسلم

وغيره عن أنس قال : لما كان يوم الحديبية ، هبط على رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - أصحابه . ثمانون رجلا من أهل مكة فى السلاح ، من قبل جل
، التنعيم ، يريدون غرة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فدعا عليهم
- فأخذوا فعفا عهم ، فنزلت هذه الآية .فالآية الكريمة تذكير من الله
تعالى - لعباده المؤمنين ، بجانب من نعمه عليهم ، ورحمته بهم . وهو تذكير
يتعلق بأمور شاهدوها بأعينهم ، وعاشوا أحداثها ، وعند ما يأتى التذكير
. - بالأمور المشاهدة المحسوسة ، يكون أدعى إلى الشكر لله - عز وجل

هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدي معكوفا ان يبلغ محله ولولا
رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم ان تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم
ليدخل الله في رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا
اليما

كما فسرها الوسيط ثم ذكرهم - سبحانه - بنعمة أخرى من نعمه عليهم ، وكشف لهم
عن جانب من حكمته فى منع القتال بينهم وبين مشركى مكة ، وفى هدايتهم إلى
هذا الصلح فقال : ( هُمُ الذين كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ . . . بِكُلِّ
شَيْءٍ عَلِيماً ) .والمراد بالذين كفروا فى قوله - تعالى - : ( هُمُ الذين
كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ ) مشركو قريش ، الذين منعوا النبى - صلى الله عليه
وسلم - من دخول مكة ، ومن الطواف بالبيت الحرام .والهدى : مصدر بمعنى
المفعول ، أى : المهدى ، والمقصود به ما يهدى إلى بيت الله الحرام من
الإبل والبقر والغنم ، ليذبح تقربا إلى الله - تعالى - وكان مع المسلمين
فى رحلتهم هذه التى تم فيها صلح الحديبية سبعين بدنة - على المشهور - ولفظ
الهدى قرأ الجمهور بالنصب عطفا على الضمير المنصوب فى قوله : ( صدوكم )
: وقرأ أبو عمرو بالجر عطفا على المسجد . .وقوله : ( مَعْكُوفاً ) أى
، محبوسا . يقال : عكفه يعكفه عكفا ، إذا حبسه ومنه الاعتكاف فى المسجد
بمعنى الاحتباس فيه ، وهو حال من الهدى .وقوله : ( أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ
منصوب بنزع الخافض ، أى : عن أن يبلغ محله ، أى : مكانه الذى يذبح فيه (
وهو منى .والتعبير بقوله : ( هُمُ الذين كَفَرُواْ ) تصريح بذمهم وتوبيخهم
على موقفهم المشين من المؤمنين ، الذين لم يأتوا إلى مكة لحرب ، وإنما اتوا
. لأداء شعيرة من شعائر الله .أى : هم فى ميزان الله واعتباره الكافرون حقا
لأنهم صدوكم ومنعوكم - أيها المؤمنون - عن دخول المسجد الحرام ، وعن الطواف
به ، ولم يكتفوا بذلك ، بل منعوا الهدى المحبوس من أجل ذبحه على سبيل
التقرب به إلى الله - من الوصول إلى محله الذى يذحب فيه فى العادة وهو منى
) . . قال القرطبى ما ملخصه : " قوله : ( والهدي مَعْكُوفاً ) أى : محبوسا.
، أن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ) أى : منحره . . والمحل - بالكسر - غاية الشئ
وبالفتح : هو الموضع الذى يحله الناس ، وكان الهدى سبعين بدنه ، ولكن
الله - تعالى - بفضله جعل ذلك الموضع - وهو الحديبية - له محلا .وفى صحيح
- مسلم عن جابر بن عبد الله قال : نحرنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم
عام الحديبية البدنة عن سبعة ، والبقرة عن سبعة . .وفى البخارى عن ابن عمر
قال : خرجنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - معتمرين ، فحال كفار قريش
- دون البيت فنحر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بدنة وحلق رأسه .وقوله
تعالى - : ( وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ
تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِّنْهُمْ مَّعَرَّةٌ
بِغَيْرِ عِلْمٍ . . ) بيان لحكمة الله - تعالى - فى منع الحرب بين
الفريقين .وجواب " لولا " محذوف لدلالة الكلام عليه . والمراد بالرجال
: المؤمنين وبالنساء المؤمنات : سبع رجال وأمرأتان كانوا بمكة .قال الآلوسى
- وكانوا على ما اخرج أبو نعيم بسند جيد وغيره عن أبى جمعة جنبذ بن سبع "
تسعة نفر : سبعة رجال - وهم منهم - وامرأتين .وجملة ( لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ
صفة رجال ونساء على تغليب المذكر على المؤنث .وقوله ( أَن تَطَئُوهُمْ ) (
. بدل اشتمال من رجال ونساء ، والوطء الدَّرْس ، والمراد به هنا الإهلاك
وقوله : ( مَّعَرَّةٌ ) أى : مكروه وأذى يقال عَرّه يُعره عَرًّا ، إذا
أصابه بمكروه ، وأصله من العُرِّ وهو الجرب .والمراد به هنا : تعبير الكفار
للمؤمنين بقولهم : لقد قتلتم من هم على دينكم .والمعنى : ولولا كراهة أن
تهلكوا - أيها المؤمنين - أناسا مؤمنين موجودين فى مكة بين كفارها ، وأنتم
لا تعرفونهم ، فيصيبكم بسبب إهلاكهم مكروه ، لولا كل ذلك لما كف أيديكم عن
) : - كفار مكة ، بل لسلطكم عليهم لكى تقتلوهم .واللام فى قوله - سبحانه
لِّيُدْخِلَ الله فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَآءُ ) متعلقة بما يدل عليه جواب
- لولا المقدر .أى : لولا ذلك لما كف أيديكم عن كفار مكة ، ولكنه - سبحانه
كف أيديكم عنهم ، ليدخل فى رحمته بسبب هذا الكف من يشاء من عباده ، وعلى
رأس هؤلاء العباد ، المؤمنون والمؤمنات الذين كانوا فى مكة ، والذين اقتضت
، رحمته أن يتمم لهم أجورهم بإخرادهم من بين ظهرانى الكفار ، ويفك أسرهم
ويرفع ما كان ينزل بهم من العذاب . .كذلك قد شملت رحمته - تعالى - بعض كفار
مكة ، الذين تركوا بعد ذلك الكفر ودخلوا فى الإسلام ، كأبى سفيان وغيره من
الذين أسلموا بعد فتح مكة أو بعد صلح الحديبية .وقوله - سبحانه - : ( لَوْ

( تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا الذين كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً
تأكيد لما دل عليه الكلام السابق ، من أن حكمته - تعالى - قد اقتضت كف أيدى المؤمنين عن الكفار ، رحمة بالمؤمنين الذين يعيشون فى مكة مع هؤلاء الكافرين .وقوله ( تَزَيَّلُواْ ) أى : تميزّوا . يقال : زِلْتُه زَيْلاً أى : مِزْتُه ، وزيله فتزيل أى : فرقة فتفرق أى : لو تميز هؤلاء المؤمنون ، والمؤمنات الذين يعيشون فى مكة عن كفارها وفارقوهم وخرجوا منها ، وانعزلوا عنهم ، لعدبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما ، تارة عن طريق إهلاكهم وتارة عن طريق إذلالهم وأخذهم أسرى ، و " من " فى قوله ( مِنْهُمْ ) للبيان لا للبتعيض .

اذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فانزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين والزمهم كلمة التقوى وكانوا احق بها واهلها وكان الله بكل شيء عليما

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما كان عليه المشركون من جهالات وحماقات استولت على نفوسهم فقال : ( إِذْ جَعَلَ الذين كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الحمية حَمِيَّةَ الجاهلية ) .والظرف ( إِذْ ) منصوب بفعل مقدر والحمية : الأنفة والتكبر والغرور والتعالى بغير حق . يقال : حَمِىَ أنفه . من الشئ - كرضى - إذا غضب منه ، وأعرض عنه .أى : واذكر - أيها العاقل - وقت أن تمسك الكافرون وقيدوا أنفسهم بالحمية الباطلة ، التى هى حمية المِلَّة ، الجاهلية ، حيث منعوا المسلمين من دخول مكة ، ومن الطواف بالمسجد الحرام وحيث منعوا الهدى من أن يبلغ محله ، وحيث أبوا أن يكتب فى الصحيفة التى - عقدت بينهم وبين المسلمين ، بسم الله الرحمن الرحيم ، أو محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم - فهذا كله من حميتهم الجاهلية التى لا أساس لها من علم أو خلق أو دين .وقوله : ( فَأَنزَلَ الله سَكِينَتَهُ على رَسُولِهِ وَعَلَى المؤمنين وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التقوى . . . ) معطوف على ما - قبله ، للمقابلة بين حال الفريقين ، مقابلة تتجلى فيها رعايته - سبحانه للمؤمنين ، وغضبه على الكافرين . أى : هذا هو حال الكافرين ، رسخت الجهالات فى قلوبهم حتى صرفتهم عن سبيل الرشد ، أما حال المؤمنين فأنهم قابلوا تصرفات هؤلاء الكافرين بالاحتقار والازدراء ومبايعة رسولهم - صلى الله عليه وسلم - على الموت إذا لزم الأمر ذلك .فأنزل الله - تعالى - طمأنينته وسكينته على قلب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعلى قلوب أصحابه ، حيث لم يجعلهم يقابلون سفاهات المشركين بسفاهات مثلها . .( وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التقوى ) أى : وجعلهم ملتزمين بما تقتضيه كلمة التقوى ، وهى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسوا الله ، من أناة وسكون وثبات ووقار وخلق كريم وإخلاص فى الجهاد من أجل إعلاء كلمة الله .( وكانوا أَحَقّ بِهَا وَأَهْلَهَا ) أى : وكان المؤمنين أحق بهذه الكلمة من الكفار ، وكانوا أهلا لها دون الكفار ، لأن المؤمنين استجابوا للحق . أما الكافرون فقد أنفوا منه وتطاولوا عليه ، بمقتضى حميتهم الجاهلية . . ( وَكَانَ ) - سبحانه - وما ، زال ( بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً )لا يخفى عليه أمر ، ولا يغيب عن علمه شئ والمتأمل فى هذه الآية الكريمة يرى ألوانا من المقابلات التى تدل على مدح الله - تعالى - للمؤمنين ، وعلى احتقاره للكافرين .فقد عبر - سبحانه - فى جانب الكافرين بكلمة جعل التى تشعر بأن الكافرين كأنهم قد ألقوا هذه الحمية الجاهلية فى قلوبهم إلقاء بدون تعقل أو تبدر ، بينما عبر فى جانب المؤمنين بكلمة أنزل التى تشعر كأن السكينة كانت فى خزائنه - تعالى - ثم أنزلها بعد ذلك على قلب رسوله - صلى الله عليه وسلم - وعلى قلوب المؤمنين ، ليزدادوا إيمانا على إيمانهم . .ونرى الفاعل لجعل هو الذين كفروا ، بينما الفاعل لأنزل هو الله - عز وجل - .ونرى المفعول لجعل هو الحمية ، وهى كلمة مشتعلة منفرة ، وقد كررها - سبحانه - ليزداد العقلاء نفورا منها . . ونرى المفعول لأنزل هو السكينة وهى كلمة فيها ما فيها من الوقار والسكون والثبات والطمأنينة .ونرى الحمية قد أضيفت إلى الجاهلية ، بينما السكينة أضيفت إلى الله - تعالى - .ونرى أن الله - تعالى - قد أضاف كل ذلك مدحا عظيما لعباده المؤمنين حيث ألزمهم كلمة التقوى ، وجعلهم بها وأهلا لها دون أعدائهم الذين آثروا الغى على الرشد ، والباطل على الحق . . وفى ذلك ما فيه من الثناء على المؤمنين والتحقير للكافرين .

لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله امنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا

كما فسرها الوسيط ثم أكد الله - تالى - صدق ما شاهد النبى - صلى الله عليه - وسلم - فى رؤياه ، وبين الحكمة التى من أجلها أرسله إلى الناس كافة فقال تعالى - : ( لَّقَدْ صَدَقَ الله رَسُولَهُ . . . بالله شَهِيداً ) .قال الآلوسى ما ملخصه : " رأى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى المنام قبل

خروجه إلى الحديبية ، أنه هو واصحابه قد دخلوا مكة آمنين ، وقد حلقوا وقصروا ، فقص الرؤيا على أصحابه ، ففرحوا واستبشروا ، وظنوا أنهم سيدخلونها ، فى عامهم هذا ، وقالوا : إن رؤيا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حق فلما تأخر ذلك قال بعض المنافقين - على سبيل التشكيك والاعتراض - والله ما حلقنا ولا قصرنا ، ولا رأينا المسجد الحرام ، فنزلت هذه الآية .وقد روى عن - عمر - رضى الله عنه - أنه قال نحو ذلك - على سبيل الفهم والاستكشاف ليزداد يقينه . .والصدق يكون بالقول ويكون بالفعل ، وما فى الآية صدق بالفعل ، وهو التحقيق ، أى حقق - سبحانه - للرسول رؤيته . .وقوله ( بالحق ) صفة لمصدر محذوف ، أى : صدقا ملتبسا بالحق ، أو بمحذوف على أنه حال من الرؤيا ، أى : رؤيا ملتبسة بالحق .والمعنى : والله لقد أرينا رسولنا محمدا - صلى الله عليه وسلم - الرؤيا الصادقة التى لا تتخلف ، ولا يحوم حولها ريب أو شك ، وحققنا له ما اشتملت عليه هذه الرؤيا من بشارات سارة ، وعطايا كريمة ، على حسب ما اقتضته حكمتنا وإرادتنا .وقوله ( لَتَدْخُلُنَّ المسجد الحرام إِن شَآءَ الله آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لاَ تَخَافُونَ ) جواب لقسم محذوف وقوله ( لَتَدْخُلُنَّ ) . . أى : والله لتدخلن - أيها المؤمنون - المسجد الحرام فى عامكم المقبل إن شاء الله ، حالة كونكم آمنين من كل فزع ، وحالة كونكم بعضكم يحلق شعر رأسه كله ، وبعضكم يكتفى بقص جزء منه ، وحالة كونكم لا تخافون أذى المشركين بعد ذلك ، وقوله : ( إِن شَآءَ الله ) فيه ما فيه من الإشعار بأن الرؤيا مع صدقها ، تحقيقها موكول إلى مشيئة الله - تعالى - وعلى قدرته ، لا إلى أحد سواه ، وفيه ما فيه من تعليم الناس وإرشادهم إلى أنهم يجب عليهم أن يقولوا ذلك ويعتقدوه عند إرادتهم لفعل من الأفعال ، كما قال - تعالى - ( وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذلك غَداً إِلاَّ أن يَشَآءَ الله . . قال بعض العلماء : " إن الله - تعالى - استثنى فيما يعلم ، ليستثنى ( . الخلق فيما لا يعلمون " .ويرى بعضهم : أن الاستثناء هنا لتحقيق الخبر وتأكيده .استدل بعضهم بهذه الآية على أن الحلق غير متعين فى النسك ، بل يجزئ عنه التقصير ، إلا أن الحلق أفضل ، فقد أخرج الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " اللهم اغفر للمحلقين قالوا : يا رسول الله ، والمقصرين ، قال اللهم اغفر للمحلقين ، قالوا : يا رسول الله ، والمقصرين ، قال اللهم اغفر للمحلقين . . ثم قال بعد الثالثة : والمقصرين " .واستدل بها - أيضا - على أن التقصير للراس دون اللحية ، ودون سائر شعر البدن ، إذ الظاهر أن المراد : ومقصرين شعر رءوسكم .وقوله : ( لاَ تَخَافُونَ ) تأكيد وتقرير لقوله ( آمِنِينَ ) أى : آمنين عند دخولكم مكة للعمرة ولا تخافون بعد إتمامها ، لأن عناية الله - تعالى - ورعايته معكم . وقوله : ( فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً ) بيان للحكمة فى تأخير دخولهم مكة عام الحديبية ، وتمكنيهم من دخولها فى العام الذى يليه .والجملة الكريمة معطوفة على قوله : أى : والله لقد حقق الله ( . . . لَّقَدْ صَدَقَ الله رَسُولَهُ ) - تعالى - لرسوله رؤياه فى دخول مكة ، ولكن فى الوقت الذى يشاؤه ويختاره وتقتضيه حكمته ، لأنه - تعالى - علم ما لم تعلموه أنتم من أن المصلحة فى عدم دخولكم مكة فى عام صلح الحديبية ، وأن هذا الصلح هو خير لكم من دخولها لما يترتب عليه من منافع كثيرة لكم ، وقد جعل - سبحانه - بفضله - وإحسانه ، ( أى : من قبل دخولكم مكة ، وطوافكم بالمسجد الحرام ( مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً ) هو فتح خيبر الذى خرجتم منه بالغنائم الوفيرة ، أو فتح خيبر ومعه صلح الحديبية ، الذى قال فيه الزهرى لا فتح فى الإسلام كان أعظم من صلح الحديبية .هذا ، وقد بسط الإمام ابن كثير ما أصابه المسلمون بعد صلح الحديبية من خيرات فقال ما ملخصه : " ورجع الرسول - صلى الله عليه وسلم - من الحديبية فى ذى القعدة من السنة السادسة . . ثم خرج فى المحرم من السنة السابعة إلى خيبر ، ففتحها الله - تعالى - عليه . .فلما كان فى ذى القعدة من السنة السابعة ، خرج إلى مكة معتمرا ، هو وأهل الحديبية ، فأحرم من ذى الحليفة ، وساق معه الهدى . . وسار إلى مكة بالسيوف مغمدة فى قربها . فدخلها وبين يديه أصحابه يلبون ، وعبد الله بن رواحه آخذ بزمام ناقة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وينشد ويقول :خلوا بنى الكفار عن سبيله ... إنى شيهد أنه رسولهوخرج المشركون من مكى لكى لا يروا الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه ، أما النساء والأطفال فقد جلسوا على لاطرق ينظرون إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - وإلى المؤمنين .ومكث الرسول وأصحابه بمكة ثلاثة أيام اعتمر خلالها هو وأصحابهن ثم عادوا إلى المدينة .وهكذا تحققت رؤيا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى الوقت الذى أراده - سبحانه - .

هو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - الحكمة من إرساله لنبيه محمد - صلى

الله عليه وسلم - فقال : ( هُوَ الذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بالهدى وَدِينِ
الحق لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدين كُلِّهِ ) ..أى : هو - عز وجل - وحده ، الذى
أرسل رسوله محمدا - صلى الله عليه وسلم - إرسالا ملتبسا الهدى ، أى :
- بالدليل الواضح والبرهان الساطع الذى يهدى للطريق التى هى أقوم . .وأرسله
) ، أيضا - بالدين الحق وهو دين الإسلام ، الذى هو خاتم الأديان ، وأكملها
لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدين كُلِّهِ ) أى : من أجل أن يظهره ويعليه على جميع
الأديان ، لما فيه من هدايات ، وعبادات ، وآداب ، وأحكام ، وتشريعات ، قد
جمعت محاسن الأديان السابقة التى جاء بها الأنبياء ، وأضافت إليها جديدا
اقتضته حكمة الله - تعالى - ورحمته بهذه الأمة التى أرسل رسوله محمدا إليها
وقد بين - سبحانه - أن هذا الدين هو المقبول عنده دون سواه ، فقال ( وَمَن.
يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخرة
- مِنَ الخاسرين ) ولقد ظهر هذا الدين فعم المشارق ، والمغارب ، وسيبقى
بإذن الله - ظاهرا عل الأديان كلها بقوة حجته ، ونصاعة براهينه إلى أن يرث
الله الأرض ومن عليها .والباء فى قوله : ( وكفى بالله شَهِيداً ) مزيدة
لتأكيد هذا الإظهار .أى : وكفى بشهادة الله - تعالى - شهادة على حقية هذا
. الدين ، وعلى هذا الإظهار الذى تكفل الله - تعالى - به لدين الإسلام

محمد رسول الله والذين معه اشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا
يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من اثر السجود ذلك مثلهم في
التوراة ومثلهم في الانجيل كزرع اخرج شطاه فازره فاستغلظ فاستوى على سوقه
يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين امنوا وعملوا الصالحات منهم
مغفرة واجرا عظيما

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بهذه الآية التى فيها
ما فيها من الثناء على الرسول - صلى الله عليه وسلم - وعلى أصحابه ، الذين
رضى عنهم وأرضاهم فقال : ( مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ الله والذين مَعَهُ
أَشِدَّآءُ . . . ) .وقوله - تعالى - : ( مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ الله ) مبتدأ
وخبر ، أو ( مُّحَمَّدٌ ) خبر لمتبدأ محذوف ، و ( رَّسُولُ الله ) بدل أو
- عطف بيان من الاسم الشريف . أى : هذا الرسول الذى أرسله الله - تعالى
بالهدى ودين الحق ، هو محمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . ( والذين
مَعَهُ ) وهم أصحابه - وعلى رأسهم من شهد معه صلح الحديبية ، وبايعه تحت
، الشجرة - من صفاتهم أنهم ( أَشِدَّآءُ عَلَى الكفار ) أى : غلاظ عليهم
وأنهم ( رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ) .أى : أنهم مع إخوانهم المؤمنين يتوادون
ويتعاطفون ويتعاونون على البر والتقوى . .وقوله - تعالى - ( مُّحَمَّدٌ
رَّسُولُ الله ) فيه أسمى التكريم للرسول - صلى الله عليه وسلم - حيث شهد
له - سبحانه - بهذه الصفة ، وكفى بشهادته - عز وجل - شهادة ، وحيث قدم
الحديث عنه بأنه أرسله بالهدى ودين الحق ، ثم أخر اسمه الشريف على سبيل
التنويه بفضله ، والتشويق إلى اسمه .وفى وصف أصحابه بأنهم أشداء على الكفار
رحماء بينهم ، مدح عظيم لهم ، وجمع بين الوصفين على سبيل الاحتراس ، فهم
ليسوا أشداء مطلقا ، ولا رحماء مطلقا ، وإنما شدتهم على أعدائهم ، ورحمتهم
لإخوانكم فى العقيدة ، وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - ( ياأيها الذين
آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي الله
بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى المؤمنين أَعِزَّةٍ
عَلَى الكافرين يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ الله وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ
لائم . . . ) قال صاحب الكشاف : " وعن الحسن أنه قال : " بلغ من تشددهم على
الكفار أنهم كانوا يتحرزون من ثيابهم أن تلزق بثيابهم ، ومن أبدانهم أن تمس
أبدانهم ، وبلغ من تراحمهم فيما بينهم ، أنه كان لا يرى مؤمن مؤمنا إلا
) : - صافحه . .وأسمى من هذا كله فى بيان تراحمهم قوله - تعالى
وَيُؤْثِرُونَ على أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ . . ) ثم
وصفهم بوصف آخر فقال : ( تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً
مِّنَ الله وَرِضْوَاناً ) .أى : تراهم وتشاهدهم - أيها العاقل - راكعين
- ساجدين محافظين على الصلاة ولا يريدون من وراء ذلك إلا التقرب إلى الله
تعالى - والظفر برضاه وثوابه . .ثم وصفهم بوصف ثالث فقال : ( سِيمَاهُمْ
فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السجود . . ) أى : علامتهم وهو نور يجعله
الله - تعالى - فى وجوههم يوم القيامة ، وحسن سمت يعلو وجوههم وجباهم فى
الدنيا ، من أثر كثرة سجودهم وطاعتهم لله رب العالمين .فالمقصود بهذه
الجملة بيان أن الوضاءة والإشراق والصفاء . . يعلو وجوههم من كثرة الصلاة
والعبادة لله ، وليس المقصود أن هناك علامة معينة - كالنكتة التى تكون فى
، الوجه - كما قد يتبادر إلى بعض الأذهان .واختار - سبحانه - لفظ السجود
" : لأنه يمثل أعلى درجات العبودية والإخلاص لله - تعالى - .قال الآلوسى
أخرج من مردويه بسند حسن عن أُبَىّ بن كعب قال : قال رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - : " فى قوله - تعالى - : ( سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ
أَثَرِ السجود ) النور يوم القيامة " .ثم قال الآلوسى : ولا يبعد أن يكون
النور علامة على وجوههم فى الدنيا والآخرة - للآثار السابقة - لكنه لما كان

فى الآخرة أظهر وأتم خصه النبى - صلى الله عليه وسلم - بالذكر . .واسم
الإشارة فى قوله - تعالى - : ( ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التوراة ) يعود إلى
جميع أوصافهم الجليلة السابقة ، والمثل هو الصفة العجيبة والقصة ذات الشأن
أى : ذلك الذى ذكرناه عن هؤلاء المؤمنين الصادقين من صفات كريمة تجرى .
مجرى الأمثال ، صفتهم فى التوراة التى أنزلها الله - تعالى - على نبيه
) : موسى - عليه السلام - .ثم بين - سبحانه - صفتهم فى الإنجيل فقال
وَمَثَلُهُمْ فِي الإنجيل كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فاستغلظ
فاستوى على سُوقِهِ يُعْجِبُ الزراع . ) .وقوله : ( وَمَثَلُهُمْ فِي
الإنجيل ) معطوف على ما قبله وهو مثلهم فى التوراة ، والإنجيل : هو الكتاب
الذى أنزله الله - تعالى - على نبيه عيسى - عليه السلام - .والشط : فروع
، الزرع ، وهو ما خرج منه وتفرغ على شاطئيه . أى : جانبيه . وجمعه : أشطاء
وشطوء ، يقال : شطأ الزرع وأشطأ ، إذا أخرج فروعه التى تتولد عن الأصل
وقوله ( فَآزَرَهُ ) أى : فقوت تلك الفروع أصولها ، وآزرتها ، وجعلتها.
مكينة ثابتة فى الأرض . وأصله من شد الإزار . تقول أزّرْت فلانا ، إذا
شددت إزاره عليه . وتقول آزرت البناء - بالمد والقصر - إذا قويت أساسه
وقواعده .ومنه قوله - تعالى - حكاية عن موسى - عليه السلام - : ( واجعل
: لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشدد بِهِ أَزْرِي ) .وقوله
أى : فصار الزرع غليظا بعد أن كان رقيقا .وقوله : ( فاستوى على ( فاستغلظ )
) : سُوقِهِ ) أى : فاستقم وتكامل على سيقانه التى يعلو عليها .وقوله
: يُعْجِبُ الزراع ) أى : يعجب الخبراء بالزراعة لقوته وحسن هيئته .والمعنى
أن صفة المؤمنين فى الإنجيل ، أنهم كالزرع ، يظهر فى أول أمره رقيقا ضعيفا
متفرقا ، ثم ينبت بعضه حول بعض ، ويغلظ ويتكامل حتى يقوى ويشتد ، وتعجب
- جودته أصحاب الزراعة ، العارفين بها .فكذلك النبى - صلى الله عليه وسلم
وأصحابه ، كانوا فى أول الأمر فى قلة وضعف ، ثم لم يزالوا يكثرون ويزدادون
قوة ، حتى بلغوا فى ذلك .وصدق الله إذا يقول : ( واذكروا إِذْ أَنتُمْ
قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأرض تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ الناس
فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِّنَ الطيبات
- لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ) قال صاحب الكشاف : " وهذا مثل ضربه الله
تعالى - لبدء أمر الإسلام وترقيه فى الزيادة إلى أن قوى واستحكم . لأن
النبى - صلى الله عليه وسلم - قام وحده ، ثم قواه الله - تعالى - بمن معه
كما يقوى الطاقة الأولى من الزرع ما يحتف بها ما يتولد منها ، حتى يعجب.
الزراع .وعلى هذا التفسير الذى سرنا عليه يكون وصفهم فى التوراة ، هو
المعبر عنه بقوله - تعالى - : ( أَشِدَّآءُ عَلَى الكفار رُحَمَآءُ
) : - بَيْنَهُمْ ) ويكون وصفهم فى الإنجيل هو المعبر عنه بقوله - سبحانه
كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ ) .ولا شك أن هذه الأوصاف كانت موجودة فى
، الكتابين قبل أن يحرفا ويبدلا ، بل بعض هذه الأوصاف موجودة فى الكتابين
حتى بعد تحريفهما .فقد أخرج ابن جرير وعبد بن حميد عن قتادة قال : " مكتوب
فى الإنجيل سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع ، يأمرون بالمعروف وينهون عن
، المنكر " .ويرى بعض المفسرين أن المذكور فى التوراة والإنجيل شئ واحد
وهو الوصف المذكور إلى نهاية قوله : ( وَمَثَلُهُمْ فِي الإنجيل ) وعلى هذا
الرأى يكون الوقف تاما على هذه الجملة ، وما بعدها وهو قوله : ( كَزَرْعٍ
: - أَخْرَجَ شَطْأَهُ . . . ) كلام مستأنف .قال القرطبى : " قوله - تعالى
قال ( . . ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التوراة وَمَثَلُهُمْ فِي الإنجيل )
الفراء : فيه وجهان : إن شئت قلت : المعنى ذلك مثلهم فى التوراة وفى
الإنجيل أيضا ، كمثلهم فى القرآن ، فيكون الوقف على " الإنجيل " .وإن شئت
قلت : تمام الكلام : ذلك مثلهم فى التوارة . ثم أبتدأ فقال : ومثلهم فى
، الإنجيل .وكذا قال ابن عباس وغيره : هما مثلان ، أحدهما فى التوارة
والآخر فى الإنجيل . . .والذى نراه أن ما ذهب إليه ابن عباس من كونهما
، مثلين ، أحدهما مذكور فى التوراة والآخر فى الإنجيل ، هو الرأى الراجح
لأن ظاهر الآية يشهد له .وفى هذه الصفات ما فيها من رسم صورة مشرقة مضيئة
لهؤلاء المؤمنين الصادقين .وقوله - تعالى - : ( لِيَغِيظَ بِهِمُ الكفار )
تعليل لما يعرب عنه الكلام ، من إيجاده - تعالى - لهم على هذه الصفات
الكريمة .أى : جعلهم - سبحانه - كذلك بأن وفقهم لأن يكونوا أشداء على
الكفار ، ولأن يكونوا رحماء فيما بينهم ، ولأن يكونوا مواظبين على أداء
الطاعات . . لكى يغيظ بهم الكفار ، فيعيشوا وفى قلوبهم حسرة مما يرونه من
صفات سامية للمؤمنين .ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بهذا الوعد الجميل
فقال : ( وَعَدَ الله الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات مِنْهُم ،
مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ) .و " من " فى قوله ( مِنْهُم ) الراجح
أنها للبيان والتفسير ، كما فى قوله - تعالى - ( فاجتنبوا الرجس مِنَ
الأوثان . . ) أى : وعد الله - تعالى - بفضله وإحسانه ، الذين آمنوا وعملوا
. الصالحات . وهم أهل بيعة الرضوان ، ومن كان على شاكلتهم فى قوة الإيمان
- وعدهم جميعا مغفرة لذنوبهم ، وأجرا عظيما لا يعلم مقداره إلا هو .
سبحانه - .ويجوز أن تكون من هنا للتبعيض ، لكى يخرج من هيلاء الموعودين
بالمغفرة والأجر العظيم أولئك الذين أظهروا الإسلام وأخفوا الكفر ، وهم

المنافقون الذين أبوا مبايغة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأبوا الخروج
)، معه للجهاد ، والذين من صفاتهم أنهم كانوا إذا لقوا المؤمنين قالوا آمنا
وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا
: نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ) هذا ، وقد أخذ العلماء من هذه الآية وأمثالها
وجوب احترام الصحابة وتوقيرهم ، والثناء عليهم ، لأن الله - تعالى - قد
مدحهم ووعدهم بالمغفرة وبالأجر العظيم .قال القرطبى : " روى أبو عروة
الزبيرى من ولد الزبير أنه قال : كنا عند مالك بن أنس ، فذكروا رجلا ينتقص
) : أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقرأ مالك هذه الآية
مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ الله والذين مَعَهُ أَشِدَّآءُ عَلَى الكفار رُحَمَآءُ
بَيْنَهُمْ ) . فقال مالك : من أصبح من الناس فى قلبه غيظ على أحد من أصحاب
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقد أصابته هذه الآية . ثم قال الإمام
، القرطبى - رحمه الله - : قلت : لقد أحسن مالك فى مقالته وأصاب فى تأويله
، فمن نقص واحد منهم أو طعن عليه فى روايته ، فقد رد على الله رب العالمين
وأبطل شرائع المسلمين .وبعد : فهذا تفسير لسورة " الفتح " تلك السورة التى
، بشرت الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه بألوان من البشارات العالية
وأدبتهم بأنواع من الآداب السامية ، وعرفتهم بأعدائهم من المنافقين
والكافرين ، وحكت الكثير من مظاهر فضل الله - تعالى - ورحمته بعباده
المؤمنين . .نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده
. . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

يا ايها الذين امنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله ان الله
سميع عليم

، كما فسرها الوسيط افتتحت سورة " الحجرات " بهذا النداء المحبب إلى القلوب
ألا وهو الوصف بالإيمان ، الذى من شأن المتصفين به ، أن يمتثلوا لما
- يأمرهم الله - تعالى - به ، ويجتنبوا ما ينهاهم عنه.افتتحت بقوله
تعالى - ( ياأيها الذين آمَنُواْ لاَ تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ الله
، وَرَسُولِهِ ) .وقوله ( تُقَدِّمُواْ ) مضارع قَدِم اللازم بمعنى تقدم
ومنه مقدمة الجيش ومقدمة الكتاب - بكسر الدال فيهما - وهو اسم فاعل فيهما
بمعنى تقدم .ويصح أن يكون مضارع قدَّم المتعدى ، تقول : قدمت فلانا على
) : فلان ، إذا جعلته متقدما عليه ، وحذف المفعول لقصد التعميم .وقوله
بَيْنَ يَدَيِ الله وَرَسُولِهِ ) تشبيه لمن يتعجل فى إصدار حكم من أحكام
الدين بغير استناد إلى حكم الله ورسوله ، بحالة من يقتدم بين يدى سيده أو
رئيسه ، بأن يسير أمامه فى الطريق ، أو على يمينه أو شماله . وحقيقة الجلوس
بين يدى الشخص : أن يجلس بين الجهتين المقابلتين ليمينه أو شماله قريبا منه
و أمامه .قال الجمل قوله : ( بَيْنَ يَدَيِ الله وَرَسُولِهِ ) جرت هذه
: العبارة هنا على سنن من المجاز ، وهو الذى يسميه أهل البيان تمثيلا ، أى
استعارة تمثيلية ، شُبِّه تجل الصحابة فى إقدامهم على قطع الحكم فى أمر من
أمور الدين ، بغير إذن الله ورسوله ، بحالة من تقدم بين يدى متبوعه إذا سار
فى طريق ، فإنه فى العادة مستهجن . . والغرض تصوير كمال الهجنة ، وتقبيح
قطع الحكم بغير إذن الله ورسوله .أو المراد : بين يدى رسول الله ، وذكر لفظ
الجلالة على سبيل التعظيم للرسول - صلى الله عليه وسلم وإشعار بأنه من الله
: بمكان يوجب إجلاله .والمعنى : يا من آمنتم بالله - تعالى - حق الإيمان
احذروا أن تتسرعوا فى الأحكام ، فتقولوا قولا ، أو تفعلوا فعلا يتعلق بأمر
دينى ، دون أن تستندوا فى ذلك إلى الله - تعالى - وحكم رسوله - صلى الله
عليه وسلم - ( واتقوا الله ) - تعالى - فى كل ما تأتون وتذرون ، إن الله
سميع لأقوالكم ، عليم بجميع أحوالكم .قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه
الآية : هذه آداب أدب الله - تعالى بها عباده المؤمنين ، فيما يعاملون به
. الرسول - صلى الله عليه وسلم - من التوقير والاحترام والتبجيل والإعظام
فقال : ( ياأيها الذين آمَنُواْ لاَ تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ الله
وَرَسُولِهِ ) .أى :لا تسرعوا فى الأشياء بين يديه . أى : قبله ، بل كونوا
، تبعا له فى جميع الأمور ، حتى يدخل فى عموم هذا الأدب الشرعى ، حديق معاذ
إذ قال له النبى - صلى الله عليه وسلم - حين بعثه إلى اليمن : " بم تحكم؟
قال بكتاب الله ، قال : فإن لم تجد؟ قال فبسنة رسول الله ، قال : فإن لم
تجد؟ قال : أجتهد رأيى " .فالغرض منه أنه أخَّر رأيه ونظره واجتهاده ، إلى
ما بعد الكتاب والسنة ، ولو قدمه قبل البحث عنهما لكان من باب التقديم بين
يدى الله ورسوله .وقال الإمام القرطبى ما ملخصه : قوله : ( لاَ
تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ الله وَرَسُولِهِ ) أى :لا تقدموا قولا ولا
فعلا بين يدي الله ، وقول رسوله وفعله ، فيما سبيه أن تأخذوا عنه من أمر
الدين والدنيا . .واختلف فى سبب نزول هذه الآية على ستة أقوال منها :ما
ذكره الواحدى من حديث ابن جريج قال : حدثنى ابن أبى مليكة أن عبد الله بن
الزبير أخبره أنه قد ركب من بنى تميم على رسول الله صلى الله عليه وسلم
: فقال أبو بكر : يا رسول الله ، أمِّر عليهم القعقاع بن معبد . وقال عمر
يا رسول الله ، أمِّر الأقرع بن حابسٍ ، فقال أبو بكر لعمر : ما أردت إلا

خلافى . وقال عمر ما أردتُ خلافك ، فتماديا حتى ارتفعت أصواتهما ، فنزلت
هذه الاية .وقال قتادة : إن ناسا كانوا يقولون : لو أنزل فىّ كذا ، فنزلت
- هذه الآية .وقال الحسن : نزلت فى قوم ذبحوا أضحيتهم قبل أن يصلى النبى
صلى الله عليه وسلم - فأمرهم أن يعيدوا الذبح . وعلى آية حال فالعبرة بعموم
اللفظ لا بخصوص السبب ، والمقصود من الآية الكريمة نهى المؤمنين فى كل زمان
ومكان عن أن يقولوا أو يفعلوا فعلا يتعلق بأمر شرعى ، دون أن يعودوا فيه
. إلى حكم الله ورسوله

يا ايها الذين امنوا لا ترفعوا اصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول
كجهر بعضكم لبعض ان تحبط اعمالكم وانتم لا تشعرون

كما فسرها الوسيط ثم وجه - سبحانه - نداء ثانيا إلى المؤمنين ، أكد فيه
وجوب احترامهم للرسول - صلى الله عليه وسلم - فقال : ( ياأيها الذين
آمَنُواْ لاَ ترفعوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النبي وَلاَ تَجْهَرُواْ
لَهُ بالقول كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ) .قال الآلوسى : هذه الآية شروع
فى النهى عن التجاوز فى كيفة القول عند النبى - صلى الله عليه وسلم - بعد
، النهى عن التجاوز فى نفس القول والفعل . وإعادة النداء مع قرب العهد به
للمبالغة فى الإيقاظ والتنبيه ، والإشعار باستقلال كل من الكلامين
باستدعاء الاعتناء بشأنه .أى : يا من آمنتم بالله واليوم الآخر . . واظبوا
على توقيركم واحترامكم لرسولكم - صلى الله عليه وسلم - ولا ترفعوا أصواتكم
فوق صوته عند مخاطبتكم له . ولا تجعلوا أصواتكم مساوية لصوته - صلى الله
عليه وسلم - حين الكلام معه ، ولا تنادوه باسمه مجردا بأن تقولوا له يا
) : محمد ، ولكن قولوا له : يا رسول الله ، أو يا نبى الله .والكاف فى قوله
: كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ) فى محل نصب على أن نعت لمصدر محذوف أى
ولا تجهروا له بالقول جهرا مثل جهر بعضكم لبعض .قال القرطبى : وفى هذا دليل
على أنهم لم ينهوا عن الجهر مطلقا ، حتى لا يسوغ لهم إلا أن يكلموه بلا همس
والمخافتة ، وإنما نهوا عن جهر مخصوص مقيد بصفته ، أعنى الجهر المنعوت
بمماثلة ما قد اعتادوه منهم فيما بينهم ، وهو الخلو من مراعاة أبهة النبوة
- وجلالة مقدارها ، وانحطاط سائر الرتب وإن جلت عن رتبتها .وقوله ،
سبحانه - : ( أن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ ) بيان
لما يترتب على رفع الصوت عند مخاطبته - صلى الله عليه وسلم - من خسران
: والجملة تعليل لما قبلها ، وهى فى محل نصب على أنها مفعول لأجله . أى.
نهاكم الله - تعالى - عن رفع أصواتكم فوق صوت النبى ، وعن أن تجهروا له
، بالقول كجهر بعضكم لبعض ، كراهة أو خشية أن يبطل ثواب أعمالكم بسبب ذلك
وأنتم لا تشعرون بهذا البطلان .قال ابن كثير : وقوله : ( أن تَحْبَطَ
أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ ) أى : إنما نهيناكم عن رفع الصوت
، عنده - صلى الله علهي وسلم - خشية أن يغضب من ذلك ، فيغضب الله لغضبه
فيحبط الله عمل من أغضبه وهو لا يدرى . وقال العلماء : يكره رفع الصوت عند
قبره ، كما كان يركه فى حياته ، لأنه محترم حيا وفى قبره .ولقد امتثل
الصحابة لهذه الإرشادات امتثالا تاما ، فهذا " أبو بكر يروى عنه أنه لما
نزلت هذه الآية قال : يا رسول الله ، والله لا أكلمك إلا كأخى السرار - أى
كالذى يتكلم همسا . وهذا ثبات بن قيس ، كان رفيع الصوت ، فلما نزلت هذه :
الآية : قال : أنا الذى كنت أرفع صوتى على رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - أنا من أهل النار ، حبط عملى ، وجلس فى أهل بيته حزينا . . فلما بلغ
النبى - صلى الله عليه وسلم - ما قاله ثابت ، قال لأصحابه : "لا . بل هو
من أهل الجنة " " .قال بعض العلماء : وما تضمنته هذه الآية من لزوم توقير
- النبى - صلى الله عليه وسلم - جاء مبينا فى آيات أخرى ، منها قوله
تعالى - : ( لاَّ تَجْعَلُواْ دُعَآءَ الرسول بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ
بَعْضِكُمْ بَعْضاً ) وقد دلت آيات من كتاب الله على أن الله - تعالى - لم
- خاطبه فى كتابه باسمه ، وإنما يخاطبه بما يدل على التعظيم كقوله - سبحانه
مع أنه - سبحانه - قد. ( ياأيها النبي . ياأيها الرسول . ياأيها المدثر ) :
نادى غيره من الأنبياء بأسمائهم ، كقوله - تعالى - : ( وَقُلْنَا
يَآءَادَمُ ) وقوله - عز وجل - : ( وَنَادَيْنَاهُ أَن ياإبراهيم قَدْ
صَدَّقْتَ الرؤيآ ) أما النبى - صلى الله عليه وسلم - فلم يذكر اسمه فى
القرآن فى خطاب ، وإنما ذكر فى غير ذلك ، كقوله - تعالى - ( وَمَا
مُحَمّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرسل ).

ان الذين يغضون اصواتهم عند رسول الله اولئك الذين امتحن الله قلوبهم
للتقوى لهم مغفرة واجر عظيم

- كما فسرها الوسيط ثم مدح - سبحانه - الذين يغضون أصواتهم فى حضرة الرسول
صلى الله عليه وسلم - فقال : ( إِنَّ الذين يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ
رَسُولِ &;يَغُضُّونَ1649;للَّهِ أولئك الذين امتحن الله قُلُوبَهُمْ
للتقوى .. . ) .وقوله : ( يَغُضُّونَ ) بمعنى يخفضون . يقال : غض فلان من

صوته ومن طرفه إذا خفضه . وكل شئ كففته عن غيره فقد غضضته .وقوله : ( امتحن
، أى : اختبر وأخلص ، وأصله من امتحان الذهب وإذابته ليخلص جيده من خبيثه (
والمراد به هنا : إخلاص القلوب لمراقبة الله وتقواه .أى : إن الذين يخفضون
. أصواتهم فى حضرة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعند مخاطبتهم له
أولئك الذين يفعلون ذلك ، هم الذين أخلص الله - تعالى - قلوبهم لتقواه
: وطاعته ، وجعلها خالصة من أى شئ سوى هذه الخشية والطاعة .قال صاحب الكشاف
من قولك : امتحن فلان لأمر كذا وجرب له ( امتحن اللّه قُلُوبَهُمْ للتقوى )
ودرب للنهوض به ، فهو مضطلع به غير وان عنه ، والمعنى : أنهم صبروا على ،
التقوى ، أقوياء على احتمال مشاقها . أو وضع الامتحان موضع المعرفة ، لأن
تحقق الشئ باختباره ، كما يوضع الخبر موضعها ، فكأنه قيل : عرف الله قلوبهم
للتقوى .وقوله : ( لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ) بشارة عظيمة من
اللّه - تعالى - لهم . أى : لهؤلاء الغاضين أصواتهم عند رسول اللّه - صلى
- الله عليه وسلم - مغفرة لذنوبهم ، وأجر كبير لا يعرف مقداره أحد سوى الله
تعالى - .ولقد التزم المسلمون بهذا الأدب فى حياة النبى - صلى الله عليه
وسلم - بوعد مماته ، فقد سمع عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - رجلا يرفع
صوته فى المسجد النبوى : فقال له : من أين أنت - أيها الرجل -؟ فقال : من
. الطائف ، فقال له : لو كنت من أهل المدينة لأوجعتك ضربا

ان الذين ينادونك من وراء الحجرات اكثرهم لا يعقلون

كما فسرها الوسيط ثم أشار - سبحانه - إلى ما فعله بعض الناس من رفع أصواتهم
عند ندائهم للنبى - صلى الله عليه وسلم - فقال : ( إِنَّ الذين
يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ الحجرات أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ وَلَوْ
أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حتى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ
والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ) .وقد ذكروا فى سبب نزول هاتين الآيتين أن جماعة
من بنى تميم أتوا إلى المدينة فى عام الوفود فى السنة التاسعة ، فوقفوا
بالقرب من منزل النبى - صلى الله عليه وسلم - فى سعاة القيلولة وأخذوا
يقولون : يا محمد اخرج إلينا . . فكره النبى - صلى الله عليه وسلم - منهم
ذلك .والمراد بالحجرات : حجرات نسائه - صلى اللّه عليه وسلم - جمع حجرة وهى
القطعة من الأرض المحجورة ، أى : المحددة بحدود لا يجوز تخطيها ، ويمنع
الدخول فيها إلا بإذن .أى : إن الذين ينادونك - أيها الرسول الكريم - ( مِن
وَرَآءِ الحجرات ) .أى : خلف حجرات أزواجك وخارجها ، أكثرهم لا يجرون على
ما تقتضيه العقول السليمة ، والآداب القويمة من مراعاة الاحترام والتوقير
لمن يخاطبونه من الناس ، فضلا عن أفضلهم ، وأشرفهم ، وذلك لأنهم من الأعراب
) - الذين لم يحسنوا مخاطبة الناس ، لجفائهم وغلظ طباعهم .وقال - سبحانه
أَكْثَرُهُمْ ) للإشعار بأن قلة منهم لم تشارك هذه الكثرة فى هذا النداء
الخارج عن حدود الأدب واللياقة .قال صاحب الكشاف ما ملخصه : وورود الآية
على النمط الذى وردت عليه ، فيه مالا يخفى على الناظر من إكبار للنبى - صلى
اللّه عليه وسلم وإجلال لمقامه .ومن ذلك : مجيئها على النظم المسجل على
الصائحين به السفَه والجهل بسبب ما أقدموا عليه . ومن ذلك : التعبير بلفظ
الحجرات وإيقاعها كناية عن موضع خلوته ومقيله مع بعض نسائه ، والمرور على
: لفظها بالاقتصار على القدر الذى يظهر به موضع الاستنكار عليهم .ومن ذلك
شفُع ذمهم باستجفائهم واستركاك عقولهم ، وقلة ضبطهم لمواضع التمييز فى
. - المخاطبات ، تهوينا للخطب ، وتسلية له - صلى الله عليه وسلم

ولو انهم صبروا حتى تخرج اليهم لكان خيرا لهم والله غفور رحيم

: - كما فسرها الوسيط ثم أرشدهم - سبحانه - إلى السلوك الأفضل فقال - تعالى
وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حتى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً )
لّهُمْ ) .أى : ولو أن هؤلاء الذين ينادونك - أيها الرسول الكريم - من
وراء الحجرات ، صبروا عليك حتى تخرج إليهم ولم يتعجلوا بندائك بتلك الصورة
الخالية من الأدب ، لكان صبرهم خيرا لهم ( والله ) - تعالى - ( غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ) أى : واسع المغفرة والرحمة .قال صاحب الكشاف : يحكى عن أبى
عبيد - العالم الزاهد الثقة - أنه قال : ما دققت باب عالم قط ، حتى يخرج فى
، وقت خروجه .وقوله : ( أَنَّهُمْ صَبَرُواْ ) فى موضع رفع على الفاعلية
لأن المعنى : ولو ثبت صبرهم .فإن قلت : هل من فرق بين قوله ( حتى تَخْرُجَ
وإلى أن تخرج؟قلت : إن " حتى " مختصة بالغاية المضروبة ، تقول : أكلت (
" السمكة حتى رأسها ، ولو قلت : حتى نصفها ، أو صدرها ، لم يجز ، و " إلى
عامة فى كل غاية ، فقد أفادت " حتى " بوضعها : أن خروج رسول اللّه - صلى
الله عليه وسلم - إليهم غاية قد ضرب لصبرهم ، فما كان لهم أن يقطعوا أمرا
: دون الانتهاء إليه .فإن قلت : فأى فائدة فى قوله ( إِلَيْهِمْ ) ؟ قلت
فيه أنه لو خرج ولم يكن خروجه إليهم ولأجلهم ، للزمهم أن يصبروا إلى أن
يعلموا أن خروجه إليهم .هذا والمتدبر فى هذه الآيات الكريمة ، يراها قد
رسمت للمؤمنين أسمى ألوان الأدب فى مخاطبتهم لرسول الله - صلى الله عليه

وسلم - وفى إلزامهم بألا يقولوا قولا أو يفعلوا فعلا ، يتعلق بشأن من شئون دينهم إلا بعد معرفتهم بأن هذا القول أو الفعل يستند إلى حكم شرعى ، شرعه الله - تعالى - ورسوله - صلى الله عليه وسلم - .كما أنه يراها قد مدحت الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وذمت الذين لا يلتزمون هذا الأدب عند مخاطبته أو ندائه .

يا ايها الذين امنوا ان جاءكم فاسق بنبا فتبينوا ان تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين

كما فسرها الوسيط ثم وجهت السورة نداء ثالثا إلى المؤمنين أمرتهم فيه - بالتثبت من صحة الأخبار التى تصل إليهم ، وأرشدتهم إلى مظاهر فضل الله تعالى - عليهم؛ لكى يواظبوا على شكره ، فقال - تعالى - : ( ياأيها الذين آمنوا . . . والله عَلِيمٌ حَكِيمٌ ) .ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات روايات منها ما روى عن ابن عباس قال : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد بعث الوليد بن عقبة إلى نبى المصطلق ليأخذ منهم الصدقات ، وإنهم لما أتاهم الخبر فرحوا وخرجوا يتلقون رسول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .فرجع الوليد - ظنا منه أنهم يريدون قتله - فقال يا رسول الله : إن بنى المصطلق قد منعوا الصدقة ، فغضب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من ذلك غضبا شديدا ، فبينا هو يحدث نفسه أن يغزوهم إذا أتاه الوفد فقالوا : يا رسول الله ، إنا بلغنا أن رسولك رجع من نصف الطريق ، وإن خشينا أن ما رده كتاب جاء منك لغضب غضبته علينا ، وإنا نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله . فأنزل الله - تعالى - الآية .والفاسق : هو الخارج عن الحدود الشرعية التى يجب التزامها ، مأخوذ من قولهم : فسقت الرطبة ، إذا خرجت عن قشرتها ، وسمى بذلك لانسلاخه عن الخير والرشد .وقرأ الجمهور : ( فتبينوا ) وقرأ حمزة والكسائى ( فثبتوا ) ومعناهما واحد ، إذ هما بمعنى التأنى وعدم التعجل فى الأمور حتى تظهر الحقيقة فيما أخبر به الفاسق .أى : يا من آمنتم بالله حق الإيمان ، إن جاءكم افسق بخير من الأخبار ، ولا سيما الأخبار الهامة ، فلا تقبلوه بدون تبين أو تثبت ، بل تأكدوا وتيقنوا من صحته قبل قبوله منه والتعبير " بإن " المفيدة للشك ، للإشعار بأن الغالب فى المؤمن أن يكون يقظا ، يعرف مداخل الأمور ، وما يترتب عليها من نتائج ، ويحكم عقله فيما يسمع من أنباء ، فلا يصدق خبر الفاسق إلا بعد التثبت من صحته .قال صاحب الكشاف : وفى تنكير الفاسق والنبأ : شياع فى الفساق والأنباء ، كأنه قال : أى فاسق جاءكم بأى نبأ فتوفقوا فيه ، وتطلبوا بيان الأمر ، وانكشاف الحيققة ولا تعتمدوا على قول الفاسق ، لأن من لا يتحامى جنس الفوسق لا يتحامى الكذب الذى هو نوع منه .وقال القرطبى : وفى الآية دليل على قبول خبر الواحد إذا كان عدلا ، لأنه إنما أمر فيها بالتثبت عن نقل خبر الفاسق ، ومن ثبت فسقه بطل قوله فى الأخبار إجماعا ، لأن الخبر أمانة والفسق قرينة يبطلها .وقوله ( أن تُصِيبُوا قَوْمَا بِجَهَالَةٍ ) : ، تعليل للأمر بالتبين . بتقدير لام التعليل ، أو بتقدير ما هو بمعنى المفعول لأجله . والجهالة بمعنى الجهل بحقيقة الشئ .أى : تثبتوا - أيها المؤمنون - من صحة خبر الفاسق لئلا تصيبوا قوما بما يؤذيهم ، والحال أنكم تجهلون حقيقة أمرهم ، أو خشية ، أن تصيبوا قوما بجهالة ، لظنكم أن النبأ الذى جاء به الفاسق حقا .وقوله ( فَتُصْبِحُواْ على مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ) بيان للنتائج السيئة التى تترتب على تصديق خبر الفاسق ، و ( تُصْبِحُواْ ) بمعنى تصيروا ، والندم : غم يلحق الإنسان لأمور وقعت منه ، ثم صار يتمنى بعد فوات الأوان عدم وقوعها .أى : فتصيروا على ما فعلتم مع هؤلاء القوم نادمين ندما شديداً ، بسبب تصديقكم لخبر الفاسق بدون تبين أو تثبت .فالآية الكريمة ترشد المؤمنين فى كل زمان ومكان إلى كيفية استقبال الأخبار استقبالا سليما ، وإلى كيفية التصرف معها تصرفا حكيما ، فتأمرهم بضرورة التثبت من صحة مصدرها حتى لا يصاب قوم بما يؤذيهم بسبب تصديق الفاسق فى خبره ، بدون تأكد أو تحقق من صحة ما قاله . وبهذا التحقق من صحة الأخبار ، يعيش المجتمع الإسلامى فى أمان واطمئنان ، وفى بعد عن الندم والتحسر على ما صدر منه من أحكام .

واعلموا ان فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الامر لعنتم ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه في قلوبكم وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان اولئك هم الراشدون

كما فسرها الوسيط ثم أرشد - سبحانه - المؤمنين إلى جانب من نعمه عليهم ، ورحمته بهم فقال : ( واعلموا أنّ فِيكُمْ رَسُولَ الله لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأمر لَعَنِتُّمْ ) .والعنت الوقوع فى الأمر الشاق المؤلم يقال : عنت فلان - بزنة فرح - إذا وقع فى أمر يؤدى إلا هلاكه أو تعبه أو إيذائه .ويفهم من الاية الكريمة أن بعض المسلمين ، صدقوا الوليد بن عقبة ، وأشاروا على الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يعجل بعقاب بنى المصطلق ، .والمراد بطاعة الرسول - صلى الله عليه وسلم - لهم : أخذه برأيهم

وتنفيذه لما يريدونه منه .والمراد بالكثير من الأمر : الكثير من الأخبار والأحكام التى يردون تنفيذها حتى ولو كانت على غير ما تقتضيه المصلحة والحكمة .أى : واعلوا - أيها المؤمنون - أن فيكم رسول الله - صلى الله عليه . . وسلم - الذى أرسله - سبحانه - لكى يهديكم إلى الحق وإلى الطريق القويم وهو - عليه الصلاة والسلام - لو يطيعكم فى كثير من الأخبار التى يسمعها منكم ، وفى الأحكام التى تحبون تطبيقها عليكم أو على غيركم . . لو يطعيكم فى كل ذلك لأصابكم العنت والمشقة ، ولنزل بكم ما قد يؤدى إلى هلاككم وإتلاف أموركم .قال الآلوسى ما ملخصه : وقوله : ( واعلموا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ الله ) عطف على ما قبله ، و " أن " بما فى حيزها ساد مسد مفعولى " اعلموا " باعتبار ما قيد به من الحال ، وهو قوله : ( لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأمر لَعَنِتُّمْ ) .وتقديم خبر " أنّ " للحصر المستتبع زيادة التوبيخ ، وصيغة المضارع للاستمرار .و ( لَوْ )لا متناع استمرار طاعته - عليه الصلاة والسلام - لهم فى كثير مم يعن لهم من الأمور .وفى الكلام إشعار بأنهم زينوا للرسول - صلى الله عليه وسلم - الإيقاع ببنى المصطلق .وفى هذا التعبير مبالغات منها : إيثار " لو " ليدل على الفرض والتقدير : ومنها : ما فى العدول إلى المضارع من تصوير ما كانوا عليه ، وتهجينه .ومنها : ما فى التعبير بالعنت من الدلالة على أشد المحذور ، فإنه الكسر بعد الجبر والرمز الخفى على أنه ليس بأول بادرة منهم .وقوله - سبحانه - : ( ولكن الله حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإيمان وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الكفر والفسوق والعصيان ) استدراك على ما يقتضيه الكلام السابق وبيان لمظاهر فضله عليهم ورحمته - سبحانه - بهم . أى : ولكنه - صلى الله عليه وسلم -لا يطيعكم فى كل ما يعن لكم ، وإنما يتبين الأمور والأخبار ويتثبت من صحتها ثم يحكم ، وقد حببت الله - تعالى - إلى كثير منكم الإيمان المصحوب بالعمل الصالح والقول الطيب وزينه وحببه فى قلوبكم ، وكره وبغض إليكم الكفر والفسوق والعصيان لكل ما أمر به أو نهى عنه .ورحم الله صاحب الكشاف فقد أجاد عند تفسير هذه الآية ، فقال ما ملخصه : قوله : ( لَّلَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأمر لَعَنِتُّمْ ) أى : لوقعتم فى العنت والهلاك . . وهذا يدل على أن بعض المؤمنين زينوا للرسول - صلى الله عليه وسلم - الإيقاع ببنى المصطلق . . . . وأن بعضهم كانوا يتصونون ويزعهم جدهم فى التقوى عن الجسارة على ذلك ، وهم الذين استثناهم - سبحانه - بقوله : أى : إلى بعضكم ، ولكنه أغنت ( ولكن الله حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإيمان ) : ، عن ذكر البعض صفتهم المفارقة لصفة غيرهم ، وهذا من إيجازات القرآن ولمحاته اللطيفة ، التى لا يفطن لها إلا الخواص .فن قلت : كيف موقع ( ولكن وشريطتها مفقودة من مخالفة ما بعدها لما قبلها نفيا وإثباتا؟قلت : هى ( مفقودة من حيث اللفظ ، حاصلة من حيث المعنى ، لأن الذين حببت إليهم الإيمان قد غايرت صفتهم المتقدم ذكرهم ، فوقعت لكن فى موقعها من الاستدراك واسم الإشارة فى قوله : ( أولئك هُمُ الراشدون ) يعود إلى المؤمنين. : الصادقين ، الذين حبب الله - تعالى - إليهم الإيمان وزينه فى قلوبهم .أى أولئك المتصفون بتلك الصفات الجليلة ، هم الثابتون على دينهم ، المهتدون إلى طريق الرشد والصواب ، إذ الرشد هو الاستقامة على طريق الحق ، مع الثبات عليه ، والتصلب فيه ، والتمسك به فى كل الأحوال .

فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( فَضْلاً مِّنَ الله وَنِعْمَةً ) : تعليل لما مَنَّ به - سبحانه - عليهم من تزيين الإيمان فى قلوبهم . أى فعل ما فعل من تحبيب الإيمان إليكم ، ومن تبغيض الكفر إلى قلوبكم ، لأجل - فضله عليكم ، ورحمته بكم ، وإنعامه عليكم بالنعم التى لا تحصى .( والله ) تعالى - ( عَلِيمٌ ) بكل شئ ( حَكِيمٌ ) فى كل أفعاله وأقواله وتصرفاته وبذلك نرى الآيات الكريمة ، قد رسمت للمؤمنين أحكم الطرق فى تلقى الأخبار. وأرشدتهم إلى مظاهر فضله عليهم ، لكى يستمروا على شكرهم له وطاعتهم لرسله ، .

وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى امر الله فان فاءت فاصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا ان الله يحب المقسطين

كما فسرها الوسيط ثم انتقلت السورة إلى دائرة أوسع وأرحب ، فدعت المؤمنين إلى التدخل بين الطوائف المتنازعة لقعد المصالحة بينها ، وإلى قتال الفئة الباغية حتى ترجع إلى حكم الله - تعالى - فقال - سبحانه - : ( وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ المؤمنين . . . لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ) .وقد ذكروا فى : سبب نزول هاتين الآيتين روايات منها : ما رواه الإمام أحمد عن أنس قال قيل للنبى - صلى الله عليه وسلم - لو أتيت عبد الله بن أبى؟ فانطلق إليه النبى - صلى الله عليه وسلم وركب حمارا ، وانطلق المسلمون يمشون ، وهى أرض

سبخة ، فلما انطلق إليه - عليه الصلاة والسلام - قال إليكم عنى ، فو الله لقد آذانى ريح حمارك . فقال رجل من الأنصار : والله لحمار رسول الله أطيب ريحا منك .قال : فغضب لعبد الله رجال من قومه ، وغضب للأنصارى أصحابه . قال فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدى . . فبلغنا أنه أنزلت فيهم ( وَإِن : طَآئِفَتَانِ مِنَ المؤمنين . . ) .والخطاب فى الآية لأول الأمر من المسلمين ، والأمر فى قوله ( فَأَصْلِحُواْ ) للوجوب ، والطائفة : الجماعة من الناس .أى : وإن حدث قتال بين طائفتين من المؤمنين ، فعليكم يا أولى الأمر من المؤمنين أن تتدخلوا بينهما بالإصلاح ، عن طريق بذل النصح وإزالة أسباب الخلاف .والتعبير " بإن " للإشعار بأنه لا يصح أن يقع قتال بين المؤمنين ، فإن وقع على سبيل الندرة ، فعلى المسلمين أن يعملوا بكل وسيلة على إزالته .وجاء " إقتتلوا " بلفظ الجمع ، لأن لفظ الطائفة وإن كان مفردا فى اللفظ إلا أنه جمع فى المعنى ، فروعى فيه المعنى هنا . وروعى فيه اللفظ فى قوله ( بَيْنَهُمَا ) .قالوا : والنكتة فى ذلك أنهم فى حال القتال يكونون مختلطين فلذا جاء الاسلوب بصيغة الجمع ، وفى حال الصلح يكونون متميزين متفرقين فلذا جاء الأسلوب بصيغة التثنية .ثم بين - سبحانه - حكمه فى حال اعتداء إحداهما على الأخرى فقال : ( فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا على الأخرى فَقَاتِلُواْ التي تَبْغِي حتى تفياء إلى أَمْرِ الله ) .والبغى : التعدى وتجاوز الحد والامتناع عن قبول الصلح المؤدى إلى الصواب .أى : فإن بغت إحدى الطائفتين على الأخرى ، وتجاوزت حدود العدل والحق ، فقاتلوا - أيها المؤمنون - الفئة الباغية ، حتى تفئ وترجع إلى حكم الله - تعالى وأمره ، وحتى تقبل الصلح الذى أمرناكم بأن تقيموه بينهم .وقوله : ( فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بالعدل وأقسطوا ) بيان لما يجب على المؤمنين أن يفعلوه مع الفئة الباغية ، إذا ما قبلت الصلح ورجعت إلى حكم الله - تعالى - .أى : فإن رجعت الفئة الباغية عن بغيها ، وقبلت الصلح ، وأقلعت عن القتال ، فأصلحوا بين الطائفتين إصلاحا متسما بالعدل التام وبالقسط الكامل .وقيد - سبحانه - الإصلاح بالعدل . ثم أكد ذلك بالأمر بالقسط حتى يلتزم الذين يقومون بالصلح بينهما العدالة الى لا يشوبها أى حيف أو جور على إحدى الطائفتين .وقوله : ( إِنَّ الله يُحِبُّ المقسطين ) تذييل - المقصود به حض المؤمنين على التقيد بالعدل فى أحكامهم ، لأن الله - تعالى يحب من يفعل ذلك .

انما المؤمنون اخوة فاصلحوا بين اخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون

كما فسرها الوسيط وقوله : ( إِنَّمَا المؤمنون إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ . . ) استئناف مقرر لمضمون ما قبله من الأمر بوجوب الإصلاح بين المتخاصمين .أى : إنما المؤمنون إخوة فى الدين والعقيدة ، فهم يجمعهم أصل واحد وهو الإيمان ، كما يجمع الإخوة أصل واحد وهو النسب ، وكما ان أخوة النسب داعية إلى التواصل والتراحم والتناصر فى جلب الخير ودفع الشر ، فكذلك الأخوة فى الدين تدعوكم إلى التعاطف والتصالح ، وإلى تقوى الله وشخيته ، ومتى تصالحتم واتقيتم الله - تعالى - كنتم أهلا لرحمته ومثوبته .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : فلم خص الإثنان بالذكر دون الجمع فى قوله : فأصلحوا بين أخويكم -؟قلت : لأن أقل من يقع بينهم الشقاق اثنان ، فإذا لزمت المصالحة بين الأقل ، كانت بين الأكثر ألزم ، لأن الفساد فى شقاق الجمع أكثر منه فى شقاق الاثنين .هذا ، وقد أخذ العلماء من هاتين الآيتين جملة من الأحكام منها :أن الأصل فى العلاقة بين المؤمنين أن تقوم على التواصل والتراحم ، لا على التنازع والتخاصم ، وأنه إذا حدث نزاع بين طائفتين من المؤمنين ، فعلى بقية المؤمنين أن يقوموا بواجب الإصلاح بينهما حتى يرجعا إلى حكم الله - تعالى - .قال الشوكانى : إذا تقاتل فريقان من المسلمين ، فعلى المسلمين أن يسعوا بالصلح بينهم ، ويدعوهم إلى حكم الله فإن حصل بعد ذلك التعدى من إحدى الطائفتين على الأخرى ، ولم تقبل الصلح ولا دخلت فيه ، كان على المسلمين أن يقاتلوا هذه الطائفة الباغية ، حتى ترجع إلى أمر الله وحكمه ، فإن رجعت تلك الطائفة الباغية عن بغيها ، وأجابت الدعوة إلى كتاب الله وحكمه ، فعلى المسلمين أن يعدلوا بين الطائفتين فى الحكم ، ويتحروا الصواب المطابق لحكم الله ، ويأخذوا على يد الطائفة الظالمة ، حتى تخرج من الظلم ، وتؤدى ما يجب عليها نحو الأخرى .

يا ايها الذين امنوا لا يسخر قوم من قوم عسى ان يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى ان يكن خيرا منهن ولا تلمزوا انفسكم ولا تنابزوا بالالقاب بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ومن لم يتب فاولئك هم الظالمون

كما فسرها الوسيط ثم وجه - سبحانه - إلى المؤمنين نداء رابعا ، نهاهم فيه عن أن يسخر بعضهم من بعض ، أو أن يعيب بعضهم بعضا فقال : ( ياأيها الذين آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ . . . ) .وقد ذكروا فى سبب نزول هذه الآية روايات ، منها : أنها نزلت فى قوم من بنى تميم ، سخروا من بلال ، وسلمان ، وعمار

وخباب . . لما رأوا من رثاثة حالهم ، وقلة ذات يدهم .ومن المعروف بين العلماء ، أن العبرة بعموم اللفظ ، لا بخصوص السبب .وقوله : ( يَسْخَرْ ) من السخرية ، وهى احتقار الشخص لغيره بالقول أو بالفعل ، يقال : سخر فلان من فلان ، إذا استهزأ به ، وجعله مثار الضحك ، ومنه قوله - تعالى - حكاية من نوح مع قومه : ( . . قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ ، مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ) قال صاحب الكشاف : والقوم : الرجال خاصة لأنهم القوام بأمور النساء . . واختصاص القوم بالرجال صريح فى الآية ، وفى قوله الشاعر : أقوم آل حصن أم نساء .وأما قولهم فى قوم فرعون وقوم عاد : هم الذكور والإناث ، فليس لفظ القوم بمتعاطف للفريقين ، ولكن قصد ذكر الذكور وترك ذكر الإناث لأنهن توابع لرجالهن .أى : يا من آمنتم بالله حق ، الإيمان ، لا يحتقر بعضكم بعضا ولا يستهزئ بعضكم من بعض .وقوله : ( عسى أن يَكُونُواْ خَيْراً مِّنْهُمْ ) تعليل للنهى عن السخرية . أى : عسى أن يكون المسخور منه خيرا عند الله - تعالى - من الساخر ، إذ أقدار الناس عنده - تعالى - ليست على حسب المظاهر والأحساب . . وإنما هى على حسب قوة الإيمان ، وحسن العمل .وقوله : ( وَلاَ نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عسى أن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ ) معطوف على النهى السابق ، فى ذكر النساء بعد القوم قرينة على أن المراد بالقوم الرجال خاصة .أى : عليكم يا معشر الرجال أن تبتعدوا عن احتقار غيركم من الرجال ، وعليكن يا جماعة النساء أن تقلعن ) إقلاعا تاما من السخرية من غيركن .ونكر - سبحانه - لفظ ( قَوْمٌ ) و نِسَآءٌ ) للإشعار بأن هذا النهى موجه إلى جميع الرجال والنساء ، لأن هذه السخرية منهى عنها بالنسبة للجميع .وقد جاء النهى عن السخرية موجها إلى جماعة والنساء ، جريا على ما كان جاريا فى الغالب ، من أن السخرية كانت تقع فى المجامع والمحافل ، وكان الكثيرون يشتركون فيها على سبيل التلهى والتلذذ ثم قال - تعالى - ( وَلاَ تلمزوا أَنفُسَكُمْ ) أى : ولا يعب بعضكم بعضا . بقول أو إشارة سواء أكان على وجه يضحك أم لا ، وسواء كان بحضرة الملموز أم لا ، فهو أعم من السخرية التى هى احتقار الغير بحضرته ، فالجملة الكريمة من ، باب عطف العام على الخاص .يقال : لمز فلان فلانا ، إذا عابه وانتقصه وفعله من باب ضرب ونصر .ومنهم من يرى أن اللمز ما كان سخرية ولكن على وجه الخفية ، وعليه يكون العطف من باب عطف الخاص على العام ، مبالغة فى النهى عنه حتى لكأنه جنس آخر .أى : ولا يعب بعضكم بعضا بأى وجه من وجوه العيب . سواء أكان ذلك فى حضور الشخص أم فى غير حضوره .وقال - سبحانه - ( وَلاَ تلمزوا أَنفُسَكُمْ ) مع أن اللامز يلمز غيره ، للإشارة إلى أن من عاب أخاه المسلم ، فكأنما عاب نفسه ، كما قال - تعالى : ( . . . فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُواْ على أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ الله مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ) وقوله : (وَلاَ تَنَابَزُواْ بِالأَلقاب ) أى ولا يخاطب أحدكم غيره بالألفاظ التى يكرهها ، بأن يقول له أحمق ، أو يا : أعرج ، أو يا منافق . . أو ما يشبه ذلك من الألقاب السيئة التى يكرهها الشخص .فالتنابر : التعاير والتداعى بالألقاب المكروهة ، يقال : نبزه ينبزه - كضربه يضربه - إذا ناداه بلقب يكرهه ، سواء أكان هذا اللقب للشخص أم لأبيه أم لأمه أم لغيرهما .وقوله - تعالى - : ( بِئْسَ الاسم الفسوق بَعْدَ الإيمان ) تعليل للنهى عن هذه الرذائل والمراد بالاسم : ما سبق ذكره من السخرية واللمز التنابر بالألقاب ، والمخصوص بالذم محذوف . أى : بئس الفعل فعلكم أن تذكروا إخوانكم فى العقيدة بما يكرهونه وبما يخرجهم عن صفات المؤمنين الصادقين ، بعد أن هداهم الله - تعالى - وهداكم إلى الإيمان وعلى هذا فالمراد من الآية نهى المؤمنين أن ينسبوا إخوانهم فى الدين إلى. الفسوق بعد اتصافهم بالإيمان .قال صاحب الكشاف : الاسم ههنا بمعنى الذِّكْر ، من قولهم : فلان طار اسمه فى الناس بالكرم أو باللؤم ، كما يقال طار ثناؤه وَصِيتُه . . كأنه قيل : بئس الذكر المرتفع للمؤمنين . . أن : يذكروا بالفسق .ويصح أن يكون المراد من الآية الكريمة نهى المؤمنين عن ارتكابهم لهذه الرذائل ، لأن ارتكابهم لهذه الراذائل ، يؤدى بهم إلى الفسوق والخروج عن طاعة الله - تعالى - بعد أن اتصفوا بصفة الإيمان .وقد أشار إلى هذا المعنى الإمام ابن جرير فقال ما ملخصه : وقوله ( بِئْسَ الاسم الفسوق بَعْدَ الإيمان ) . يقول - تعالى - ومن فعل ما نهينا عنه ، وتقدم على معصيتنا بعد إيمانه ، فسخر من المؤمنين ، ولمز أخاه المؤمن ونبره بالألقاب فهو فاسق ، بئس الاسم الفوق بعد الإيما ، ، يقول : فلا تفعلوا فتستحقوا ، إن فعلتموه . أن تسموا فساقا - بعد أن وصفهم بصفة الإيمان .وقال الإمام الفخر الرازى ما ملخصه : هذا أى قوله - تعالى - ( بِئْسَ الاسم الفسوق بَعْدَ الإيمان ) من تام الزجر كأنه - تعالى - يقول : يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم ، ولا تلمزوا أنفسكم ، ولا تنابزوا فإن من يفعل ذلك يفسق بعد إيمانه ، والمؤمن يقبح منه أن يأتى بعد إيمانه بفسوق . . ويصير التقدير بئس الفسوق بعد الإيمان .ويبدو لنا أن هذا الرأى أنسب للسياق ، إذ : المقصود من الآية الكريمة نهى المؤمنين عن السخرية أو اللمز أو التنابز - بالألقاب ، لأن تعودهم على ذلك يؤدى بهم إلى الفسوق عن طاعة الله - تعالى والخروج عن آدابه ، وبئس الوصف وصفهم بذلك أى : بالفسق بعد الإيمان .ثم

ختم - سبحانه - الآية بقوله : ( وَمَن لَّمْ يَتُبْ فأولئك هُمُ الظالمون )
أى : ومن لم يتب عن ارتكاب هذه الرذائل ، فأولئك هم الظالمون لأنفسهم ، حيث
وضعوا العصيان موضع الطاعة ، والفسوق فى موضع الإيمان .هذا ، ومن الإحكام
والآداب التى أخذها العلماء من هذه الآية : وجوب الابتعاد عن أن يعيب
المسلم أخاه المسلم ، أو يحتقره ، أو يناديه بلقب سيئ .قال الآلوسى : انفق
العلماء على تحريم تلقيب الإنسان بما يكره ، سواء كان صفة له أم لأبيه أم
لأمه أم لغيرهما .ويستثنى من ذلك نداء الرجل قبيح فى نفسه ، لا على قصد
: الاستخفاف به ، كما إذا دعت له الضرورة لتوقف معرفته ، كقول المحدثين
سليمان الأعمش ، وواصل الأحدب.

يا ايها الذين امنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا ايحب احدكم ان ياكل لحم اخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله ان الله تواب رحيم

كما فسرها الوسيط ثم وجه - سبحانه - إلى عباده المؤمنين نداء خامسا ، نهاهم
فيه عن أن يظن بعضهم ببعض ظنا سيئا بدون مبرر ، كما نهاهم عن التجسس وعن
الغيبة ، حتى تبقى للمسلم حرمته وكرامته . . فقال - تعالى - ( ياأيها الذين
: آمَنُواْ اجتنبوا . . ) .وقوله - تعالى - ( اجتنبوا ) من الاجتناب يقال
اجتنب فلان فلانا إذا ابتعد عنه ، حتى لكأنه فى جانب والآخر فى جانب مقابل
والمراد بالظن المنهى عنه هنا : الظن السيئ بأهل الخير والصلاح بدون دليل.
أو برهان .قال بعض العلماء ما ملخصه : والظن أنواع : منه ما هو واجب ، ومنه
ما هو محرم ، ومنه ما هو مباح .فالمحرم : كسوء الظن بالمسلم المستور الحال
الظاهر العدالة ، ففى الحديث الشريف : " إياكم والظن فإن الظن أكذب ،
الحديث . . " وفى حديث آخر : " إن الله حرم من المسلم ودمه وعرضه وأن يظن
به ظن السوء " .وقلنا : كسوء الظن بالناس ، إنما تكون إذا كان لسوء الظن
أثر يتعدى إلى الغير ، وأما إن تظن شرا لتتقيه ، ولا يتعدى أثر ذلك إلى
" الغير فذلك محمود غير مذموم ، وهو محل ما ورد من أن " من الحزم سوء الظن
أى : يا من آمنتم بالله - تعالى - إيمانا حقا ، ابتعدوا ابتعادا تاما عن.
الظنون السيئة بأهل الخير من المؤمنين ، لأن هذه الظنون السيئة التى لا
تستند إلى دليل أو أمارة صحيحة إنما هى مجرد تم ، تؤدى إلى تولد الشكوك
والمفاسد . . فيما بينكم .وجاء - سبحانه - بلفظ " كثيرا " منكرا لكى يحتاط
المسلم فى ظنونه ، فيبتعد عما هو محرم منها ، ولا يقدم إلا على ما هو واجب
أو مباح منها - كما سبق أن أشرنا - .وقوله - سبحانه - : ( إِنَّ بَعْضَ
الظن إِثْمٌ ) .أى : إن الكثير من الظنون يؤدى بكم إلى الوقوع فى الذنوب
والآثام فابتعدوا عنه .قال ابن كثير : ينهى الله عباده المؤمنين عن كثير من
الظن ، وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس من غير محله ، لأن بعض
ذلك يكون إثما محضا ، فليجتنب كثيرا منه احتياطا . . " عن حارثة بن النعمان
" : قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : ثلاث لازمات لأمتى :
الطيرة والحسد وسوء الظن " : فقال رجل : ما الذى يذهبن يا رسول الله من هن
فيه؟ قال : " إذا حدست فاستغفر الله ، وإذا ظننت فلا تحقق ، وإذا تطيرت
فامض " " .وأخرج البيهقى فى شعب الإيمان عن سعيد بن المسيب قال : كتب إلى
بعض إخوانى من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن ضع أمر أخيك على
أحسنه ، ما لم يأتك ما يغلبك ، ولا تظنن بكلمة خرجت من امرئ مسلم شرا وأنت
. تجد لها فى الخير محملا ، ومن عرض نفسه للتهم فلا يلومن إلا نفسه
وقوله - سبحانه - : ( وَلاَ تَجَسَّسُواْ ) أى : خذوا ما ظهر من أحوال.
الناس ولا بتحثوا عن بواطنهم أو أسرارهم .أو عوراتهم ومعايبهم ، فإن من
تتبع عورات الناس فضحه الله - تعالى - .فالتجسس مأخوذ من الجس ، وهو البحث
، عما خفى من أمور الناس ، وقرأ الحسن وأبو رجاء : ( ولا تحسسوا ) من الحس
وهما بمعنى واحد . وقيل هما متغايران التجسس - بالجيم - معرفة الظاهر ، وأن
التحسس - بالحاء - تتبع البواطن وقيل بالعكس . .وعلى أية حال فالمراد هنا
" من التجسس والتحسس : النهى عن تتبع عورات المسلمين ، أخرج أبو داود وغيره
: عن أبى برزة الأسلمى قال : خطبنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال
يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه .لا تتبعوا عورات المسلمين
فإن من تتبع عورات المسلمين ، فضحه الله - تعالى - فى قعر بيته " .وعن ،
معاوية بن أبى سفيان قال : سمعت النبى - صلى الله عليه وسلم - يقول : " إنك
إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم " .ثم نهى - سبحانه - بعد
ذلك عن الغيبة فقال : ( وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً ) والغيبة - بكسر
الغين - أن تذكر غيرك فى غيابه بما يسوءه يقال : اغتاب فلان فلانا ، إذا
ذكره بسوء فى غيبته ، سواء أكان هذا الذكر بريح اللفظ أم بالكناية ، أم
- بالإشارة ، أم بغير ذلك .روى أبو داود وغيره عن أبى هريرة أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم - قال : " أتدرون ما الغيبة؟ قالوا : الله ورسوله أعلم
قال : ذكرك أخاك بما يركه . قيل : أرأيت إن كان فى أخى ما أقول؟ قال : إن .
كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بَهَتَّه " .ثم
ساق - سبحانه - تشبيها ينفر من الغيبة أكمل تنفير فقال : ( أَيُحِبُّ

. ( أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ
والاستفهام للتقرير لأنه من الأمور المسلمة أن كل إنسان يكره أكل لحم أخيه
حيا ، فضلا عن أكله ميتا .والضمير فى قوله : ( فَكَرِهْتُمُوهُ ) يعود على
الأكل المفهوم من قوله ( يَأْكُلَ ) و ( مَيْتاً ) حال من اللحم أو من الأخ
أى : اجتنبوا أن تذكروا غيركم بسوء فى غيبته ، فإن مثل من يغتاب أخاه.
المسلم كمثل من يأكل لحمه وهو ميت ، ولا شك أن كل عاقل يكره ذكل وينفر منه
: أشد النفور .ورحم الله - صاحب الكشاف فقد قال عند تفسيره لهذه الجملة
قوله - تعالى - : ( أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ . . ) تمثيل وتصوير
: لما يناله المتغاب من عرض غيره على أفظع وجه وأفحشه .وفيه مبالغات شتى
منها الاستفهام الذى معناه التقرير ، ومنها : جعل ما هو الغاية فى الكراهة
موصولا بالمحبة ، ومنها : إسناد الفعل إلى أحدكم ، والإشعار بأن أحدا من
الأحديث لا يحب ذلك ، ومنها : أنه -سبحانه - لم يقتصر على تمثل الاغتياب
بأكل لحم الإنسان ، وإنما جعله أخا ، ومنها : أنه لم يقتصر على أكل لحم
. . الأخ وإنما جعله ميتا ..وانتصب " ميتا " على الحال من اللحم أو من الأخ
وقوله : ( فَكَرِهْتُمُوهُ ) فيه معنى الشرط . أى : إن صح هذا فقد
كرهتموه - فلا تفعلوه - وهى الفاء الفصيحة .والحق أن المتأمل فى هذه الآية
الكريمة يراها قد نفرت من الغيبة بأبلغ أسلوب وأحكمه ، لأنها من الكبائر
والقبائح التى إلى تنزق شمل المسلمين ، وإيقاد نار الكراهية فى الصدور .قال
، الآلوسى ما ملخصه : وقد أخرج العلماء أشياء لا يكون لها حكم الغيبة
وتنحصر فى ستة أسباب :الأول : التظلم ، إذ من حق المظلوم أن يشكو ظالمه إلى
من تتوسم فيه إزالة هذا الظلم .الثان : الاستعانة على تغيير المنكر بذكره
لمن يظن قدرته على إزالته .الثالث : الاستفتاء ، إذ يجوز للمستفتى أن يقول
للمفتى : ظلمنى فلان بكذا .الرابع : تحذير المسلمين من الشر ، كتجريح
الشهود والرواة والمتصدين للإفتاء بغير علم .الخامس : المجاهرون بالعاصى
وبارتكاب المنكرات ، فإنه يجوز ذكرهم بما تجاروا به . .السادس : التعريف
باللقب الذى لا يقصد به الإساءة كالأعمش والأعرج .ثم ختم - سبحانه - الاية
الكريمة بدعوة المؤمنين إلى التوبة والإنابة فقال : ( واتقوا الله إِنَّ
الله تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ) . أى : واتقوا - أيها المؤمنون - بأن تصونوا
أنفسكم عن كل ما أمركم - سبحانه - باجتنابه ، إن الله - تعالى - كثير
القبول لتوبة عابده ، الذين يتوبون من قريب ، ويرجعون إلى طاعته رجوعا
مصحواب بالندم على ما فرط منهم من ذنوب ، ومقرونا بالعزم على عدم العودة
إلى تلك الذنوب لا فى الحال ولا فى الاستقبال . ومستوفيا لكل ما تستلزمه
، التوبة الصادقة من شروط .وهو - أيضا - واسع الرحمة لعباده المؤمنين
المستقيمين على أمره .وبذلك نرى هذه الآية الكريمة قد نهت المسلمين عن
رذائل ، يؤدى تركها إلى سعادتهم ونجاحهم ، وفتحت لهم باب التوبة لكى يقلع
. . عنها من وقع فيها

يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان
اكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير

كما فسرها الوسيط وبعد هذه النداءات الخمسة للمؤمنين ، التى اشتملت على
، الآداب النفسية والاجتماعية . . وجه - سبحانه - نداء إلى الناس جميعا
ذكرهم فيه بأصلهم وبميزان قبولهم عنده ، فقال - سبحانه - : ( ياأيها الناس
وقد ورد فى سبب نزول هذه الآية روايات منها : أن الرسول - صلى. ( . . .
الله عليه وسلم - أمر بنى بياضة أن يزوجوا امرأة منهم لأبى عند - وكان
- حجاما للنبى - صلى الله عليه وسلم - فقالوا : يا رسول الله ، نزوج بناتنا
موالينا - أى : عبيدنا ، فأنزل الله - تعالى - هذه الآية .والمراد بالذكر
والأنثى : آدم وحواء . أى : خلقناكم من أب واحد ومن أم واحدة ، فأنتم جميعا
تنتسبون إلى اصل واحد ، ويجمعكم وعاء واحد ، وما داما لأمر كذلك فلا وجه
للتفاخر بالحساب والأنساب .قال الآلوسى : أى خلقناكم من آدم وحواء ، فالكل
سواء فى ذلك ، فلا وجه للتفاخر بالنسب ، كما قال الشاعر :الناس فى عالم
التمثيل أكفاء ... أبوهم آدم والأم حواء .وجوز أن يكون المراد هنا : إنا
خلقنا كل واحد منكم من أب وأم ، ويبعده عدم ظهور ترتب ذم التفاخر بالنسب
عليه ، والكلام مساق له . .وقوله : ( وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَآئِلَ
لتعارفوا ) بيان لما ترتب على خلقهم على تلك الصورة ، وللحكمة من ذلك
والشعوب : جمع شعب ، وهو العدد الكثير من الناس يجمعهم - فى الغالب أصل.
واحد .والقبائل : جمع قبيلة وتمثل جزاء من الشعب ، إذ أن الشعب مجموعة من
القبائل .قال صاحب الكشاف : والشعب الطبقة من الطبقات الست التى علها العرب
. . وهى : الشعب ، والقبيلة ، والعمارة ، والبطن ، والفخذ ، والفصيلة.
وسميت الشعوب بذلك ، لأن قبائل تشعبت منها . .والمعنى : خلقناكم - أيها
الناس - من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل ( لتعارفوا ) أى : ليعرف
بعضكم نسب بعض ، فينتسب كل فرد إلى آياته ، ولتتواصلوا فيما بينكم
وتتعاونوا على البر والتقوى ، لا ليتفاخر بعضكم على بعض بحسبه أو نسبه أو
جاهه .وقوله - سبحانه - ( إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عَندَ الله أَتْقَاكُمْ )

تعليل لما بدل \-\-\-\

على أن الإيمان أخص من الإسلام .كما دل هنا عن أن هؤلاء الأعراب
. المذكورين فى هذه الآية ، إنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان فى قلوبهم
- فادعو لأنفسهم مقاما أعلى مما وصلوا إليه ، فأدبوا بذلك. .ثم أرشدهم
سبحانه - إلى ما يكمل إيمانهم فقال : ( وَإِن تُطِيعُواْ اللهَ وَرَسُولَهُ
( لاَ يَلِتْكُمْ مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ
ومعنى : "لا يلتكم "لا ينقصكم . يقال : لات فلان فلانا حقه - كباع - إذا.
، نقصه .أى : وإن تطيعوا الله - تعالى - ورسوله ، بأن تخلصوا العبادة
وتتركوا المن والطمع ، لا ينصكم - سبحانه - من أجور أعمالكم شيئا ، إن
. الله - تعالى - واسع المغفرة والرحمة لعباده التائبين توبة صادقة نصوحا

انما المؤمنون الذين امنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا باموالهم
وانفسهم في سبيل الله اولئك هم الصادقون

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - صفات عباده المؤمنين الصادقين فقال
إِنَّمَا المؤمنون الذين آمَنُواْ بالله وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ
يَرْتَابُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ الله
أولئك هُمُ الصادقون ) .أى : إنما المؤمنون حق الإيمان وأكمله ، هم الذين
آمنوا بالله - تعالى - ورسوله - صلى الله عليه وسلم - ( ثُمَّ لَمْ
يَرْتَابُواْ ) أى : لم يدخل قلوبهم شئ من الريبة أو الشك فيما أخبرهم به
نبيهم - صلى الله عليه وسلم - .وأتى - سبحانه - بثم التى للتراخى ، للتنبيه
على أن نفى الريب عنهم ليس مقصوار على وقت إيمانهم فقط ، بل هو مستمر بعد
، ذلك إلى نهاية آجالهم ، فكأنه - سبحانه - يقول : إنهم آمنوا عن يقين
واستمر معهم هذا اليقين إلى النهاية .ثم أتبع ذلك ببيان الثمار الطيبة التى
ترتبت على هذا الإيمان الصادق فقال : ( وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ
- وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ الله ) .أى : وبذلوا من أجل إعلاء كلمة الله
تعالى - ، ومن أجل دينه أموالهم وأنفسهم .قال الآلوسى : وتقديم الأموال على
الأنفس من باب الترقى من الأدنى إلى الأعلى . ويجوز بأن يقال : قدم الأموال
لحرص الكثيرين عليها ، حتى إنهم يهلكون أنفسهم بسببها . .( أولئك هُمُ
. الصادقون ) أى : أولئك الذين فعلوا ذلك هم الصادقون فى إيمانهم

قل اتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما في السماوات وما في الارض والله بكل
شيء عليم

كما فسرها الوسيط ثم أمر - سبحانه - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن
يخبرهم بأن الله - تعالى -لا يخفى عليه شئ من أحوالهم فقال : ( قُلْ
أَتُعَلِّمُونَ الله بِدِينِكُمْ ) .وقوله : ( أَتُعَلِّمُونَ ) من
الإعلام بمعنى الإخبار ، فلذا تعدى بالتضعيف لواحد بنفسه ، وإلى الثانى
بحرف الجر .أى : قبل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الأعراب على سبيل
التوبيخ : أتخبرون الله - تعالى - بما أنتم عليه من دين وتصديق حيث قلتم
آمنا ، على سبيل التفاخر والتباهى . وأحال أن الله - تعالى - ( يَعْلَمُ
مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض ) دون أن يخفى عليه شئ من أحوال
المخلوقات الكائنة فيهما .وقوله - سبحانه - : ( والله بِكُلِّ شَيْءٍ
. عَلِيمٌ ) مقرر لما قبله ومؤكد له

يمنون عليك ان اسلموا قل لا تمنوا علي اسلامكم بل الله يمن عليكم ان هداكم
للايمان ان كنتم صادقين

كما فسرها الوسيط ثم أشار - تعالى - إلى نوع آخر من جفائهم وقلة إدراكهم
فقال : ( يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ ) .والمن : تعداد النعم على
الغير ، وهو مذموم من الخلق ، محمود من الله - تعالى - .أى : هؤلاء الأعراب
يعدون إيمانهم بك منة عليك ، ونعمة أسدوها إليك حيث قالوا لك : جئناك
بالأموال والعيال ، وقاتلك الناس لوم نقاتلك . .وقوله : ( أَنْ أَسْلَمُوا
فى موضع المفعول لقوله : ( يَمُنُّونَ ) لتضمينه معنى الاعتداء ، أو هو (
بتقدير حرف الجر فيكون المصدر منصوبا بنزع الخافض أو مجرورا بالحرف المقدر
أى : يمنون عليك بإسلامهم .ثم أمر الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه ،
وسلم - أن يرد عليهم بما يدل على غفلتهم فقال : ( قُل لاَّ تَمُنُّواْ
عَلَيَّ إِسْلاَمَكُمْ . . ) .أى : قل لهم لا تتفاخروا علىّ بسبب إسلامكم
لأن ثمرة هذا الإسلام يعود نفعها عليكم لا علىّ .ثم بين - سبحانه - أن ،
المنة له وحده فقال : ( بَلِ الله يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ
لِلإِيمَانِ . . ) .أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - ليس الأمر كما
زعمتم من أن إسلامكم يعتبر منّة علىّ ، بل الحق أن الله - تعالى - هو
، الذى يمن عليكم أن أرشدكم إلى الإيمان ، وهداكم إليه ، وبين لكم طريقه
فادعيتم أ ، كم آمنتم مع أنكم لم تؤمنوا ولكنكم أسلمتم فقط .قال صاحب
الكشاف : وسياق هذه الآية فيه لطف ورشاقة ، وذلك أن الكائن من الأعاريب قد

سماه الله إسلاما ، ونفى أن يكون - كما زعموا - إيمانا فلما منُّوا على
: الرسول - صلى الله عليه وسلم - بما كان منهم ، قال الله - تعالى - لرسوله
إن هؤلاء يعتدون عليك بما ليس جديرا بالاعتداد به .ثم قال : بل الله يعتد
عليكم أن أمدكم بتوفيقه ، حيث هداكم للإيمان - على ما زعمتم - وادعيتم
أنكم أرشدتم إليه ، ووفقتم له إن صح زعمكم ، وصدقت دعواكم . . وفى إضافة
. الإسلام عليهم ، وإيراد الإيمان غير مضاف ، مالا يخفى على المتأمل
وجواب الشرط فى قوله : ( إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ) محذوف ، يدل عليه ما.
- قبله . أى : إن كنتم صادقين فى إيمانكم فاعتقدوا ، أن المنة إنما هى لله
تعالى - عليكم ، حيث أرشدكم إلى الطريق الموصل إلى الإيمان الحق .وشبيه
فى المعنى بهذه الآية قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - للأنصار فى إحدى
خطبه :" يا معشر الأنصار ، ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بى ، وكنتم متفرقين
فألفكم الله بى ، وكنتم عالة فأغناكم الله بى؟ " وكان - صلى الله عليه
وسلم - كلما قال شيئا ، قالوا : الله ورسوله أَمَنُّ .والحق أن هداية
الله - تعالى - لعبده إلى الإيمان تعتبر منة منه - سبحانه -لا تدانيها
منه ، ونعمة لا تقاربها نعمة ، وعطاء ساميا جليلا منه - تعالى -لا يساميه
- عطاء فله - عز وجل - الشكر الذى لا تحصيه عبارة على النعمة ، ونسأله
. تعالى - أن يديمها علينا حتى نلقاه

ان الله يعلم غيب السماوات والارض والله بصير بما تعملون

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بقوله : ( إِنَّ
اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السماوات والأرض . . ) أى : إنه - تعالى - يعلم ما
خفى وغاب عن عقول الناس من أحوال السماوات والأرض ( والله بَصِيرٌ بِمَا
تَعْمَلُونَ ) - أيها الناس -لا يعزب عنه شئ من أقوالكم أو أفعالكم .وبعد
فهذا تفسير وسيط لسورة " الحجرات " تلك السورة التى رسمت للناس معالم :
، عالم كريم ، تشع فيه الآداب السامية ، والأخلاق العالية ، والقيم الجليلة
وتختفى فيه ما يتعارض مع هذه المعانى كالحقد والغيبة والتقاتل والتفاخر
بالأحساب والأنساب .نسأل الله - أن يجعل القرآن ربيع نفوسنا ، وأنس قلوبنا
. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

ق والقران المجيد

كما فسرها الوسيط سورة " ق " من السور القرآنية ، التى افتتحت ببعض حروف
التهجى ، وأقرب الأقوال إلى الصواب فى معنى هذه الحروف ، أنها جئ بها على
سبيل الإيقاظ والتنبيه للذين تحداهم القرآن . فكأن الله - تعالى - يقول
لهؤلاء المعارضين فى أن القرآن من عند الله : ها كم القرآن ترونه مؤلفا من
كلام هو من جنس ما تؤلفون منه كلامكم ، ومنظوما من حروف هى من جنس الحروف
الهجائية التى تنظمون منها حروفكم .فإن كنتم فى شك فى كونه منزلا من عند
الله - تعالى - فهاتوا مثله ، أو عشر سور من مثله ، أو سورة واحدة من مثله
- فعجزوا وانقلبوا خاسرين ، وثبت أن هذا القرآن من عند الله - سبحانه.
، وهذا الرأى وهو كون " ق " من الحروف الهجائية ، هو الذى تطمئن إليه.
" وهناك أقوال أخرى فى معنى هذا الحرف ، تركناها لضعفها كقول بعضهم إن " ق
اسم جبل محيط بجميع الأرض . . وهى أقوال لم يقم دليل نقلى أو عقلى على
صحتها .قال ابن كثير : وقد روى عن بعض السلف ، أنهم قالوا " ق " جبل محيط
بالأرض ، يقال له جبل " قل " وكأن هذا - والله أعلم - من خرافات بنى
إسرائيل أخذها عنهم بعض الناس . .والواو فى قوله - تعالى - : ( والقرآن
المجيد ) للقسم ، والمقسم به القرآن الكريم ، وجواب القسم محذوف لدلالة ما
بعده عليه ، وهو استبعادهم لعبثة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وتكذيبهم
للبعث والحساب . .وقوله : ( المجيد ) صفة للقرآن . أى : ذى المجد والشرف
وكثرة الخير .ولفظ المجيد مأخوذ من المجد ، بمعنى السعة والكرم ، وأصله من
مجدت الإبل وأمجدت ، إذا وقعت فى مرعى مخصب ، واسع ، الجنبات ، كثير
الأعشاب .والمعنى : أقسم بالقرآن ذى المجد والشرف ، وذى الخير الوفير الذى
يجد فيه كل طالب مقصوده ، إنك - أيها الرسول الكريم - لصادق فيما تبلغه عن
ربك من أن البعث حق والحساب حق ، والجزاء حق . . ولكن الجاحدين لم يؤمنوا
. بذلك

بل عجبوا ان جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب

كما فسرها الوسيط ( بَلْ عجبوا أَن جَآءَهُمْ مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ) وهو أنت
يا محمد ، فلم يؤمنوا بك ، بل قابلوا دعوتك بالإنكار والتعجب .( فَقَالَ
الكافرون هذا شَيْءٌ عَجِيبٌ ) أى : هذا البعث الذى تخبرنا عنه يا محمد شئ
- يتعجب منه ، وتقف دون أفهامنا حائرة .قال الآلوسى ما ملخصه : قوله
تعالى - : ( بَلْ عجبوا أَن جَآءَهُمْ مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ . . ) بل
للإضراب عما ينبئ عنه جواب القسم المحذوف ، فكأنه قيل إنا أنزلنا هذا

القرآن لتنذر به الناس ، فلم يؤمنوا به ، بل جعلوا كلا من المنذِر والمنذَر
به عرضة للتكبر والتعجب ، مع كونهما أوفق شئ لقضية العقول ، وأقربه إلى
" التلقى بالقبول .وقوله : ( أَن جَآءَهُمْ ) بتقدير لأن جاءهم ، ومعنى
منهم " أى : من جنسهم ، وضمير الجمع يعود إلى الكفار . .وقوله : ( فَقَال
الكافرون هذا شَيْءٌ عَجِيبٌ ) تفسير لتعجبهم . . وإضمارهم أولا ، للإشعار
. . بتعينهم بما أسند إليهم ، وإظهارهم ثانيا ، لستجيل الكفر عليهم

ااذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً
، ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ) تقرير للتعجب ، وتأكيد للإنكار الصادر عنهم
والعامل فى " إذا " مضمر لدلالة ما بعده عليه . .أى : أحين نموت ونصير
ترابا وعظاما نرجع إلى الحياة مرة أخرى ، كما يقول محمد - صلى الله عليه
وسلم - ، وكما يقول القرآن الذى نزل عليه .لا ، إننا لن نبعث ولن نعود إلى
الحياة مرة أخرى ، وما يخبرنا به محمد - صلى الله عليه وسلم - من أن الرجوع
" إلى الحياة مرة أخرى حق ، كلام بعيد عن عقولنا وأفهامنا .فاسم الإشارة
ذلك " يعود إلى محل النزاع وهو الرجوع إلى الحياة مرة أخرى ، والبعث بعد
، الموت . والرجع بمعنى الرجوع . يقال : رجعته أرجِعُه رَجْعا ورُجوعا
بمعنى أعدته . . ومنه قوله - تعالى - : (فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إلى
طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ ) أى : ذلك الرجوع إلى الحياة مرة أخرى بعيد عن
. الأفهام ، وعن العادة ، وعن الإمكان

قد علمنا ما تنقص الارض منهم وعندنا كتاب حفيظ

- كما فسرها الوسيط وبعد هذا التصوير الأمين لحججهم وأقوالهم ، ساق
سبحانه - الرد الذى يدفع تلك الحجج والأقوال فقال : ( قَدْ عَلِمْنَا مَا
تَنقُصُ الأرض مِنْهُمْ ) .أى : قد علمنا علما تاما دقيقا ما تأكله الأرض
من أجسادهم بعد موتهم ، ومن علم ذلك لا يعجزه أن يعيدهم إلى الحياة مرة
أخرى .وقوله - سبحانه - : ( وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ) تأكيد وتقرير لما
قبله .أى : وعندنا بجانب علمنا الشامل الدقيق . كتاب حافظ لجميع أحوال
. العباد ، ومسجلة فيه أقوالهم ، والمراد بهذا الكتاب : اللوح المحفوظ

بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في امر مريج

كما فسرها الوسيط ثم كشف - سبحانه - عن حقيقة أحوالهم ، وعن الأسباب التى
دفعتهم إلى إيثار الباطل على الحق فقال : ( بَلْ كَذَّبُواْ بالحق لَمَّا
جَآءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ) . أى : إن هؤلاء الكافرين لم يكتفوا
- بإنكارهم للبعث . . بل جاءوا بما هو أشنع وأفظع منه ، وهو تكذيبهم لنبوتك
أيها الرسول الكريم - تلك النبوة الثابتة بالمعجزات الناصعة ، ومن مظاهر
هذا التكذيب أنهم تارة يقولون عنك ساحر ، وتارة يقولون عنك كاهن وتارة
يصفوك بالجنون .فهم فى أمر مريج ، أى : مضطرب مختلط . بحيث لا يستقرون على
حال . يقال : مرج الأمر - بزنة طرب - إذا اختلط وتزعزع ، وفقد الثبات
والاستقرار والصلاح . . ومنه قولهم : مرجعت أمانات الناس ، إذا فسدت وعمتهم
الخيانة ، ومرج الخاتم فى إصبع فلان ، إذا تخلخل واضطرب لشدة هزال صاحبه
وفى هذا الرد عليهم تصوير بديع معجز ، حيث بين - سبحانه - بأنه عليم بما.
، تأكله الأرض من أجسادهم المغيبة فيها ، ويتناقص هذه الاجساد رويدا رويدا
وأن كل أحوالهم مسجلة فى كتاب حفيظ ، وأنهم عندما فارقوا الحق الثابت
، وكذبوه ، مادت الأرض من تحتهم واضطربت ، واختلطت عليهم الأمور والتبست
فصاروا يلقون التهم جزافا دون أن يستقروا على رأى ، أو يجتمعوا على كلمة
ثم أرشد الله - تعالى - : المؤمنين إلى ما يجب عليهم فعله عند لقائهم.
. لأعدائهم ، وبعد انتصارهم عليهم ، كما بين لهم الحكمة مشروعية القتال
والجزاء الحسن الذى أعده للمجاهدين ، فقال - تعالى - : ( فَإِذَا لَقِيتُمُ
. ( الذين . . . عَرَّفَهَا لَهُمْ

افلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج

- كما فسرها الوسيط ثم شرعت السورة الكريمة فى بيان الأدلة على قدرة الله
تعالى - وعلى أن البعث حق ، وعلى أن استبعادهم له إنما هو لون من جهالاتهم
وانطماس بصائرهم ، فقال - تعالى - : ( أَفَلَمْ ينظروا إِلَى السمآء
( فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ
والاستفهام للإنكار والتعجب من جهلهم ، والهمزة متعلقة بمحذوف ، والفاء .
عاطفة عليه : أى : أأعرضوا عن آيات الله فى هذا الكون ، فلم ينظروا إلى
، السماء فوقهم . كيف بنيانها هذا البناء العجيب ، بأن رفعناها بدون عمد
) : وزيناها بالكواكب ، وحفظناها من أى تصدع أو تشقق أو تفتق . فقوله

فُرُوجٍ ) جمع فرج ، وهو الشق بين الشيئين . والمراد سلامتها من كل عيب وخلل .ومن الآيات التى وردت فى هذا المعنى قوله - تعالى - : ( الذي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مّا تري فِي خَلقِ الرحمن مِن تَفَاوُتٍ فارجع البصر هَلْ تري مِن فُطُورٍ ثُمّ ارجِعِ البَصَرَ كَرّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ البَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ ).

والارض مددناها والقينا فيها رواسي وانبتنا فيها من كل زوج بهيج

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - مظاهر قدرته فى بسط الأرض ، بعد بيان مظاهر قدرته فى رفع السماء فقال : ( والأرض مَدَدْنَاهَا ) أى : والأرض بسطناها ومددناها بقدرتنا ، وجعلناها مترامية الأطراف والمناكب ، كما تشاهدون ذلك بأعينكم .قالوا : وامتدادها واتساعها لا ينافى كرويتها ، لأن عظم سطحها يجعل الناظر إليها يراها كأنها مسطحة ممدودة .( وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ) أى : وألقينا فيها جبالا ثوابت تمنعها من الاضطراب . فقوله ( رَوَاسِيَ ) جمع راسية بمعنى ثابتة وهو صفة لموصوف محذوف ). وَأَنبَتْنَا فِيهَا ) أى : فى الأرض ( مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ) أى : وأنبتنا فيها من كل صنف حسن يبهج ويسر الناظرين إليه ، مأخوذ من البهجة بمعنى الحسن يقال : بَهُج الشئ - كظرف - فهو بهيج أى : حسن جميل .

تبصرة وذكرى لكل عبد منيب

كما فسرها الوسيط وقوله : ( تَبْصِرَةً وذكرى ) علتان لما تقدم من الكلام ، وهما منصوبتان بفعل مقدر .أى : فعلنا ما فعلنا من مد الأرض ، ومن تثبيتها بالجبال ، ومن إنبات كل صنف حسن من النبات فيها ، لأجل أن نبصر عبادنا وتذكرهم بما يجب عليهم نحو خالقهم من شكر وطاعة بدلائل وحدانيتنا وقدرتنا ، ونذكرهم بما يجب عليهم نحو خالقهم من شكر وطاعة وقوله : ( لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ) متعلق بكل من المصدرين السابقين وهما : التبصرة والذكرى . أى : هذه التبصرة والذكرى كائنة لكل عبد منيب ، أى : كثير الرجوع إلى ربه بالتدبر فى بدائع صنعته ، ودلائل قدرته .

ونزلنا من السماء ماء مباركا فانبتنا به جنات وحب الحصيد

كما فسرها الوسيط ثم انتقلت الآيات إلى بيان مظاهر قدرته فى إنزال المطر ، بعد بيان مظاهر قدرته فى خلق السماوات والأرض وما اشتملتا عليه من كائنات ، فقال - تعالى - : ( وَنَزَّلْنَا مِنَ السمآء مَآءً مُّبَارَكاً ) أى : ماء كثير المنافع والخيرات للناس والدواب والزروع .(فَأَنبَتْنَا بِهِ ) أى : بذلك الماء ( جَنّاتٍ ) أى : بساتين كثيرة زاخرة بالثمار .( وَحَبّ الحصيد ) أى : وحب النبات الذى من شأنه أن يصحد عند استوائه كالقمح والشعير وما يشبههما من الزروع .فالحصيد بمعنى المحصود ، وهو صفة لموصوف محذوف أى : وحب الزرع الحصيد . فهذا التركيب من باب حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه للعلم به .وخص الحب بالذكر ، لاحتياج الناس إليه أكثر من غيره ، فصار كأنه المقصود بالبيان .

والنخل باسقات لها طلع نضيد

كما فسرها الوسيط وقوله : ( والنخل ) معطوف على ( جَنّاتٍ ) ، و ( بَاسِقَاتٍ ) حال من النخل . ومعنى " باسقات " مرتفعات ، من البسوق بمعنى الارتفاع والعلو . يقال : بسق فلان على أصحابه - من باب دخل - إذا فاقهم وزاد عليهم فى الفضل .والنخل : اسم جنس يذكر ويؤنث ويجمع . وخص بالذكر مع أنه من جملة ما اشتملت عليه الجنات ، لمزيد فضله وكثرة منافعه .وجملة ( لَهَا طَلْعٌ نّضِيدٌ ) فى محل نصب على الحال من النخل .والطلع : أول ما يخرج من ثمر النخل . ويسمى الكُفُرّى . يقال : طلع الطلع طلوعا . إذا كان فى أول ظهوره .والنضيد : بمعنى المنضود ، أى : المتراكب بعضه فوق بعض مأخوذ من نضد فلان المتاع ينضده ، إذا رتبه ترتيبا حسنا .أى : وأنبتنا - أيضا - فى الأرض بعد إنزالنا الماء عليها من السحاب ، النخل الطوال ، الزاخر بالثمار الكثيرة التى ترتب بعضها على بعض بطريقة جميلة . .

رزقا للعباد واحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج

كما فسرها الوسيط وقوله : ( رِّزْقاً لِّلْعِبَادِ ) بيان للحكمة من إنزال المطر وإنبات الزرع . .أى : أنبتنا ما أنبتنا من الجنات ومن النخل الباسقات ليكون ذلك رزقا نافعا للعباد . .( وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً . . مّيْتاً ) أى : وأحيينا بذلك الماء الذى أنزلناه بلدة كانت مجدبة ، وأرضا كانت خالية من النبات والزروع ، وتذكير ( مَّيْتاً ) لكون البلدة بمعنى المكان .وقوله : ( كَذَلِكَ الخروج ) جملة مستأنفة لبيان أن الخروج من

، القبور عند البعث ، مثله كمثل هذا الإحياء للأرض التى كانت جدباء ميتة
بأن أنبتت من كل زوج بهيج بعد أن كانت خالية من ذلك .فوجه الشبه بين إحياء
الأرض بالنبات بعد جدبها ، وبين إحياء الإنسان بالبعث بعد موته ، استواء
الجميع فى أنه جاء بعد عدم .قال ابن كثير : قوله : ( وَأَحْيَيْنَا بِهِ
بَلْدَةً مَّيْتاً . . . ) وهى الأرض التى كانت هامدة ، فلما نزل عليها
الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . . وذلك بعد أن كانت لانبات فيها
فهذا مثال للبعث بعد الموت والهلاك ، كذلك يحيى الله الموتى ، وهذا المشاد
: - من عظيم قدرته بالحس ، أعظم مما أنكره الجاحدون للبعث . .كقوله - تعالى
) : وقوله ( لَخَلْقُ السماوات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس )
أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ الله الذي خَلَقَ السماوات والأرض وَلَمْ يَعْيَ
بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ على أن يُحْيِيَ الموتى بلى إِنَّهُ على كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ ) وقوله - تعالى - : ( وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأرض
خَاشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المآء اهتزت وَرَبَتْ إِنَّ الذي
أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الموتى إِنَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ) وبذلك نرى
- الآيات الكريمة قد أقامت ألوانا من الأدلة على وحدانية الله - تعالى
. وقدرته ، وعلى أن البعث حق ، وأنه آت لا ريب فيه

كذبت قبلهم قوم نوح واصحاب الرس وثمود

كما فسرها الوسيط وبعد هذا العرض البديع لمظاهر قدرة الله - تعالى - فى هذا
الكون ، ولمظاهر نعمه على خلقه ، ساقت السورة الكريمة جانبا من أحوال
المكذبين للرسل السابقين . تسلية للرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه
. . . من قومه ، فقال - تعالى - : ( كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ
مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ) .أى :لا تحزن - أيها الرسول الكريم - لما أصابت من
أذى من هؤلاء المشركين الجاحدين المكذبين فقد سبقهم إلى هذا التكذيب والكفر
، والجود " قوم نوح " - عليه السلام - ، فإنهم قد قالوا فى حقه إنه مجنون
كما حكى عنهم ذلك فى قوله - تعالى - : ( كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ
فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا وَقَالُواْ مَجْنُونٌ وازدجر ) وقوله : ( أَصْحَابُ
الرس ) معطوف على ما قبله ، والرس فى لغة العرب : البئر التى لم تبن بعد
: بالحجارة ، وقيل : هى البئر طلقا .وللمفسرين فى حقيقة أصحاب الرس أقوال
فمنهم من قال إنهم من بقايا قبيلة ثمود ، بعث الله إليهم واحدا من أنبيائه
فكذبوه ورسوه فى تلك البئر ، أى : ألقوا به فيها فأهلكهم - سبحانه - بسبب ،
ذلك .وقيل : هم الذين قتلوا حبيبا النجار عندما جاء يدعوهم إلى الدين الحق
وكانت تلك البئر بأنطاكية ، وبعد قتلهم له ألقوه فيها . وقيل : هم قوم ،
شعيب - عليه السلام - .واختيار ابن جرير - رحمه الله - أن أصحاب الرسل هم
: أصحاب الأخدود ، الذين جاء الحديث عنهم فى سورة البروج .والمراد بثمود
قوم صالح - عليه السلام - الذين كذبوه فأهلكهم الله - تعالى - .والمراد
، بعاد : قوم هود - عليه السلام - الذين اغتروا بقوتهم ، وكذبوا نبيهم
. فأخذهم - سبحانه - أخذ عزيز مقتدر

وعاد وفرعون واخوان لوط

كما فسرها الوسيط ( وَفِرْعَوْنُ ) هو الذى أرسل الله إليه موسى - عليه
السلام - فكذبه وقال لقومه ( فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأعلى فَأَخَذَهُ
الله نَكَالَ الآخرة والأولى ) ( وَإِخْوَانُ لُوطٍ ) هم قومه الذين أتوا
، بفاحشة لم يسبقوا إليها . قالوا : ووصفهم الله - تعالى - بأنهم إخوانه
لأنه كانت ترطبه بهم رابطة المصاهرة حيث إن امرأته - عليه السلام - كانت
. منهم

واصحاب الايكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد

كما فسرها الوسيط ( وَأَصْحَابُ الأيكة ) هم قوم شعيب - عليه السلام - كما
قال - تعالى - : ( كَذَّبَ أَصْحَابُ الأيكة المرسلين إِذْ قَالَ لَهُمْ
، شُعَيْبٌ أَلاَ تَتَّقُونَ ) والأيكة : اسم لمنطقة كانت مليئة بالأشجار
ومكانها - فى الغالب - بين الحجاز وفلسيطن حول خليج العقبة ، ولعلها
المنطقة التى تمسى بمعان .وكان قوم شعيب يبعدون الأوثان ، ويطففون فى
). - المكيال فنهاهم شعيب عن ذلك ، ولكنهم كذبوه فأهلكهم الله - تعالى
، وَقَوْمُ تُّبَّعٍ ) وهو تبع الحميرى اليمانى ، وكان مؤمنا وقومه كفار
قالوا : وكان اسمه سعد أبو كرب ، وقد أشار القرآن إلى قصتهم فى آيات أخرى
منها قوله - تعالى - : ( أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ . . ) والتنوين
فى قوله - تعالى - : ( كُلٌّ كَذَّبَ الرسل . . ) عوض عن المضاف إليه . أى
كل قوم من هؤلاء الأقوام السابقين كذبوا رسولهم الذى جاء لهدايتهم .وقوله :
بيان لما حل بهم بسبب تكذيبهم لرسلهم .أى : كل واحد ( فَحَقَّ وَعِيدِ ) :
، من هؤلاء الأقوام كذبوا رسولهم ، فكانت نتيجة ذلك أن وجب ونزل بهم وعيدى

وهو العذاب الذى توعدتهم به ، كما قال - سبحانه - ( فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصيحة وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأرض وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ الله لِيَظْلِمَهُمْ ولكن كانوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ) قال ابن كثير : قوله : ( كُلٌّ كَذَّبَ الرسل . . . ) أى : كل من هذه الأمم ، وهؤلاء القرون كذب رسوله ، ومن كذب رسولا فكأنما كذب جميع الرسل .( فَحَقَّ وَعِيدِ ) أى : فحق عليهم ما أوعدهم الله - تعالى - ، على التكذيب من العذاب والنكال ، فليحذر المخاطبون أن يصيبهم ما أصابهم . فإنهم قد كذبوا رسولهم كما كذب أولئك .

افعيينا بالخلق الاول بل هم في لبس من خلق جديد

كما فسرها الوسيط وبعد هذا العرض لمصارع المكذبين ، عادت السورة إلى تقرير الحقيقة التى كفر بها الجاهلون والجاحدون ، وهى أن البعث حق ، فقال - تعالى - : ( أَفَعَيِينَا بالخلق الأول بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ) والاستفهام للإنكار والنفى ، وقوله ( عَيِينَا ) من العَىِّ بمعنى العجز . يقال : عَيِىَ فلان بهذا الشئ ، إذا عجز عنه ، وانقطعت حيلته فيه ولم يهتد إلى طريقه توصله إلى مقصوده منه .واللبس : الخلط . يقال : لبس على فلان الأمر - من باب ضرب - إذا اشتبه واختلط عليه ، ولم يستطع التمييز بين ما هو صواب وما هو خطأ .أى : أفعجزت قدرتنا عن خلق هؤلاء الكافرين وإيجادهم من العدم ، حتى يتوهموا أننا عاجزون عن إعادتهم إلى الحياة بعد موتهم؟كلا إننا لم نعجز عن شئ من ذلك لأن قدرتنا لا يعجزنا شئ ، ولكن هؤلاء الكافرين لانطماس بصائرهم ، واستيلاء الشيطان عليهم ، قد صاروا فى لبس وخلط من أمرهم بدليل أنهم يقرون بأننا نحن الذين خلقناهم ولم يكونوا شيئا مذكورا ، ومع ، ذلك فهم ينكرون قدرتنا على " الخلق الجديد " أى : على إعادتهم إلى الحاية الدنيا مرة أخرى بعد موتهم .فقوله - تعالى - : ( بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ) أى : بل إن هؤلاء الكافرين فى خلط وشك وحيرة من أن يكون هناك خلق جديد أى خلق مستأنف لهم بعد موتهم ، مع أنهم - لو كانوا يعقلون - لعلموا أن القادر على الخلق من العدم ، قادر على إعادة هذا المخلوق من باب أولى ، كما قال - سبحانه - : ( وَهُوَ الذي يَبْدَأُ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ . . ) قال الآلوسى : وقوله ( بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ) عطف على مقدر يدل عليه ما قبله ، كأن قيل : إنهم معترفون بالأول غير منكرين قدرتنا عليه ، فلا وجه لإنكارهم الثانى ، بل هم فى خلط وشبهة فى خلق مستأنف .وقال بعض العلماء ما ملخصه : فى الآية أسئلة ثلاثة : لم عرف الخلق الأول؟ ولم نكر اللبس؟ ولم نكر الخلق الجديد؟وللإجابة على ذلك نقول : عرف الخلق الأول للتعميم والتهويل والتفخيم ومنه تعريف الذكور فى قوله( يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذكور ) وأما التنكير فأمره منقسم ، فأحيانا يقصد به التفخيم ، من حيث ما فيه من الإبهام . . وهو المقصود هنا من تنكير لفظ ( لبس ) . كأنه قيل : بل هم فى لبس أى لبس .وأحيانا يقصد به التقليل والتهوين لأمره ، وهو المقصود هنا بقوله من ( خَلْقٍ جَدِيدٍ ) أى أن هذا الخلق الجديد شئ هين بالنسبة إلى الخلق الأول ، وإن كان كل شئ هين : بالنسبة إلى قدرة الله - تعالى - .

ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن اقرب اليه من حبل الوريد

- كما فسرها الوسيط ثم صورت السورة الكريمة بعد ذلك علم الله - تعالى - الشامل لكل شئ تصويرا يأخذ بالألباب ، وبينت سكرات الموت وغمراته ، وأحوال الإنسان عند البعث . . بيانا رهيبا مؤثرا . قال - تعالى - : ( وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان وَنَعْلَمُ . . . اليوم حَدِيدٌ ) .والمراد بالإنسان فى قوله - تعالى - : ( وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ) جنسه . وقوله : ( تُوَسْوِسُ ) من الوسوسة وهو الصوت الخفى والمراد به حديث الإنسان مع نفسه . قال الشاعر :وأكذب النفس إذا حدثتها ، إن صدق النفس يزرى بالأمل( مَا ) موصولة ، والضمير عائد عليها والباء ... ، صلة ، أى : ونعلم الأمر الذى تحدثه نفسه به . ويصح أن تكون مصدرية والضمير للإنسان ، والباء للتعدية ، أى ونعلم وسوسة نفسه إياه .والمتدبر ، فى هذه الآية يرى أن افتتاحها يشير إلى مضمونها ، لأن التعبير بخلقنا يشعر بالعلم التام بأحوال المخلوق ، إذ خالق الشئ وصانعه أدرى بتركيب جزئياته . أى : والله لقد خلقنا بقدرنا هذا الإنسان . ونعلم علما تاما شاملا ما تحدثه به نفسه من أفكار وخواطر . .وقوله : ( وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوريد ) تقرير وتوكيد لما قبله .وحبل الوريد : عرق فى باطن العنق يسرى فيه الدم ، والإضافة بيانية . أى : حبل هو الوريد . أى ونحن بسبب علمنا التام بأحواله كلها ، أقرب إليه من أقرب شئ لديه ، وهو : عرق الوريد الذى فى باطن عنقه ، أو اقرب إليه من دمائه التى تسرى فى عروقه

، فالمقصود من الآية الكريمة بيان أن علم الله - تعالى - بأحوال الإنسان.
أقرب إلى هذا الإنسان ، من أعضائه ومن دمائه التى تسرى فى تلك الأعضاء
والمقصود من القرب : القرب عن طريق العلم ، لا القرب فى المكان لاستحالة.
ذلك عليه - تعالى - .قال القرطبى : قوله : ( وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان )
يعنى الناس . ( وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ) أى : ما يختلج
) . . . فى سره وقلبه وضميره ، وفى هذا زجر عن المعاصى التى استخفى بها
وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوريد ) هو حبل العاتق ، وهو ممتد
من ناحية حلقه إلى عاتقه ، وهما وريدان عن يمين وشمال . . والحبل هو الوريد
فأضيف إلى نفسه لاختلاف اللفظين . . وهذا تمثيل لشدة القرب . أى : ونحن
أقرب إليه من حبل وريده الذى هو من نفسه . . وهذا القرب ، هو قرب العلم
- والقدرة ، وأبعاض الإنسان يحجب البعضُ البعضَ ، ولا يحجب علم الله
تعالى - شئ .وقال القشيرى : فى هذه الآية هيبة وفزع وخوف لقوم ، وروح وأنس
وسكون قلب لقوم .وعلى هذا التفسير الذى سرنا عليه . وسار عليه من قبلنا
جمهور المفسرين يكون الضمير ( نَحْنُ ) يعود إلى الله - تعالى - ، وجئ بهذا
الضمير بلفظ ( نَحْنُ ) على سبيل التعظيم .ويرى الإمام ابن كثير أن الضمير
هنا يعود إلى الملائكة ، فقد قال - رحمه الله - وقوله : ( وَنَحْنُ
أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوريد ) يعنى ملائكته - تعالى - أقرب إلى
الإنسان من حبل وريده إليه . ومن تأوله على العلم فإنما فر لئلا يلزم حلول
أو اتحاد ، وهما منفيان بالإجماع - تعالى الله وتقدس - ولكن اللفظ لا
يقتضيه فإنه لم يقل : وأنا أقرب إليه من حبل الوريد وإنما قال : ( وَنَحْنُ
أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوريد ) كما قال فى المحتضر ( وَنَحْنُ
أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ ) يعنى ملائكته .وكذلك الملائكة أقرب إلى
الإنسان من حبل وريده إليه ، بإقدار الله لهم على ذلك .وهذا الذى ذهب إليه
ابن كثير وإن كان مقبولا - لأنه قرب الملائكة من العبد بإقدار الله لهم على
- ذلك - إلا أن ما ذهب إليه الجمهور من أن الضمير ( نَحْنُ ) لله - تعالى
أدل على قرب الله - سبحانه - لأحوال عباده ، وأظهر فى معنى الآية ، وأزجر
. للإنسان عن ارتكاب المعاصى

اذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد

كما فسرها الوسيط و ( إِذْ ) فى قوله - تعالى - : ( إِذْ يَتَلَقَّى
المتلقيان . . ) ظرف منصوب بقوله ( أَقْرَبُ ) أى : ونحن أقرب إليه من حبل
الوريد ، فى الوقت الذى يتلقى فيه ( المتلقيان ) وهما الملكان جميع ما يصدر
عن هذا الإنسان .وهو - سبحانه - وإن كان فى غير حاجة إلى كتابة هذين
، الملكين لما يصدر عن الإنسان ، إلا أنه - تعالى - قضى بذلك لحكم متعددة
منها إقامة الحجة على العبد يوم القيامة ، كما أشار - سبحانه - إلى ذلك فى
قوله : ( . . . وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القيامة كِتَاباً يَلْقَاهُ
مَنْشُوراً اقرأ كتابك كفى بِنَفْسِكَ اليوم عَلَيْكَ حَسِيباً ) ومفعول
، التلقى فى الفعل الذى هو يتلقى ، وفى الوصف الذى هو المتلقيان ، محذوف
والتقدير إذ يتلقى المتلقيان جميع ما يصدر عن الإنسان فيكتبانه عليه
وقوله : ( عَنِ اليمين وَعَنِ الشمال قَعِيدٌ ) بيان ليقظة الملكين.
، وحرصهما على تسجيل لكل ما يصدر عن الإنسان .و ( قَعِيدٌ ) بمعنى المقاعد
أى الملازم للإنسان ، كالجليس بمعنى المجالس .والمعنى : عن يمين الإنسان
ملك ملازم له لكتابة الحسنات ، وعن الشماء كذلك ملك آخر ملازم له لكتابة
السيئات وحذف لفظ قعيد من الأول لدلالة الثانى عليه ، كما فى قول الشاعر
نحن بما عندنا وأنت بما ... عندك راض والرأى مختلفأى : نحن راضون بما:
. . عندنا وأنت راض بما عندك

ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد

كما فسرها الوسيط ثم أكد - سبحانه - كل هذه المعانى بقوله : ( مّا
يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ) أى : ما يتكلم هذا
الإنسان من كلام ، وما يفعل من فعل ، إلا ولديه ملك " رقيب " أى : حفيظ
يكتب أقواله " عتيد " أى : مهيأ لذلك ، حاضر عنده لا يفارقه .يقال : عَتُدَ
الشئ - ككَرُمَ - عتادة وعتادا ، أى : حضر ، فهو عتد وعَتِيدٌ ، ويتعدى
بالهمزة وبالتضعيف ، فيقال : أَعْتَدَه صاحبه وعتّده ، إذا هيأه وأعده
والمراد أن الملكين اللذين أحدهما عن يمينه والثانى عن شماله ، كلاهما.
: - مراقب لأعمال الإنسان ، حاضر لكتابتها .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى
وَإِنّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَاماً كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا )
تَفْعَلُونَ ) وقوله - سبحانه - : ( أَمْ يَحْسَبُونَ أَنّا لاَ نَسْمَعُ
- سِرّهُمْ وَنَجْوَاهُم بلى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ )وقوله
عز وجل - : ( هذا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بالحق إِنّا كُنّا
نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ) قال بعض العلماء ما ملخصه : وبعض
- العلماء يرى أن الملكين يكتبان كل شئ حتى الأنين فى المرض . . لأن قوله

تعالى - ( مِن قَوْلٍ ) نكرة فى سياق النفى فتعم كل قول . .وبعضهم يرى أن الملكين لا يكتبان من الأعمال إلا ما فيه ثواب أو عقاب ، وقالوا : إن فى الآية نعتا محذوفا ، سوغ حذفه العلم به ، لأن كل الناس يعلمون أن الجائز لا ثواب فيه ولا عقاب ، وتقدير النعت المحذوف : ما يلفظ من قول مستوجب للجزاء . . إلا ولديه رقيب عتيد

وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - حالة الإنسان عند الاحتضار فقال وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ
أى . وجاءت لكل إنسان سكرة الموت وشدته وغرمته وكرتبه ، ملتبسة بالحق . ( ) الذى لا شك فيه ولا باطل معه (ذَلِكَ ) أى : الموت الذى هو نهاية كل حى : مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ) أى : تميل وتهرب وتفر منه فى يحاتك . يقال حاد فلان عن الشئ يَحِيدُه حَيْدَةً . . إذا تنحى عنه وابتعد .أخرج الإمام أحمد وابن جرير عن عبد الله مولى الزبير بن العوام قال : لما حضر أبو بكر الموت ، بكت ابنته عائشة ، وتمثلت بقول الشاعر :لعمرك ما يغنى الحذار عن الفتى ... إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدرفقال لها أبو بكر - رضى الله عنه - لا تقولى ذلك يا بنتى ، ولكن قولى : ( وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ : بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ) .

ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - نهاية هذه الدنيا فقال : ( وَنُفِخَ فِي الصور ) أى : النفخة الأخيرة . . ( ذَلِكَ يَوْمُ الوعيد ) أى : ذلك الوقت الذى يكون فيه النفخ الأخير فى الصور ، هو الوقت الذى توعد الله - تعالى - فيه كل كافر بسوء المصير ، كما وعد كل مؤمن بحسن الجزاء .وخص الوعيد بالذكر ، لتهويل هذا اليوم ، وتحذير العصاة مما سيكون فيه .

وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد

كما فسرها الوسيط ( وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ ) من النفوس المؤمنة والكافرة والمطعية والعاصية ( مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ) أى : معها ملك يسوقها . . إلى المحشر ، ومعها ملك آخر يشهد عليها

لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد

كما فسرها الوسيط ثم يقال للكافر فى هذا اليوم العصيب : ( لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ ) تامة ( مِّنْ هذا ) الذى تعانيه اليوم وتشاهده فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ ) أى : فأنزلنا عنك فى هذا اليوم تلك الغفلة ). التى كانت تحجبك عن الاستعداد لهذا اليوم بالإيمان والعمل الصالح ، فَبَصَرُكَ اليوم حَدِيدٌ ) أى : فبصرك ونظرك فى هذا اليوم نافذ قوى تستطيع أن تبصر به ما كنت تنكره فى الدنيا ، من البعث والحساب والثواب والعقاب .يقال : فلان حديد البصر ، إذا كان شيدد الإبصار بحيث ترى أكثر مما يراه غيره .وهكذا نرى أن هذه الآيات الكريمة ، قد بينت بأسلوب بليغ مؤثر ، شمول علم الله - تعالى - لكل شئ ، كما بينت حالة الإنسان يوم . . القيامة ، يوم تأتى كل نفس ومعها سائق وشهيد

وقال قرينه هذا ما لدي عتيد

كما فسرها الوسيط ثم يحكى - سبحانه - بعد ذلك ما يقوله قرين الإنسان يوم القيامة فيقول : ( وَقَالَ قَرِينُهُ هذا . . . فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ والمراد بقرينه فى قوله - تعالى - : ( وَقَالَ قَرِينُهُ . . . ) الملك. ( الموكل بكتابه ما يصدر عن الإنسان فى حياته ، وجاء به مفردا مع أن لكل ، إنسان قرينين لأن المراد به الجنس .ويصح أن يكون المراد بقرينه هنا شيطانه الذى أضله وأغواه .قال الآلوسى ما ملخصه : قوله : ( وَقَالَ قَرِينُهُ . . . ) أى : شيطانه المقيض له فى الدنيا ، ففى الحديث : " " ما من أحد إلا وقد وكل به قرينة من الجن " قالوا : ولا أنت يا رسلو الله؟ قال ولا أنا ، إلا أن الله - تعالى - أعانى عليه ، فأسلم فلا يأمرنى إلا " : بخير " " .وقوله : ( هذا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ) إشارة إلى الشخص الكافر نفسه ، أى : هذا ما عندى قد هيأته لجهنم . .وقال قتادة : قرينه : الملك الموكل بسوقه وبكتابه سيئاته ، يقول مشيرا إلى ما فى صحيفته وما فيها من " سيئات : هذا الذى فى صحيفته من سيئات مكتوب عندى ، وحاضر للعرض . و " ما نكرة موصوفة بالظرف وبعتيد ، أو موصولة والظرف صلتها ، و " عتيد " خبر بعد خبر لإسم الاشارة ، أو خبر لمبتدأ محذوف .

القيا في جهنم كل كفار عنيد

كما فسرها الوسيط ثم يقال بعد ذلك للملكين بالموكلين به ، أو للسائق والشهيد : ( أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ) أى : اقذفا فى جهنم باحتقار وغضب كل " كفار " أى : كل مبالغ فى الجحود والكفر " عنيد " أى : معاند للحق مع علمه بأنه حق .يقال : عنَد فلان عن الحق - من باب - قعد فهو عانِد وعنيد وعُنُود ، إذا ركب الخلاف والعصيان وأبى أن ينقاد للحق مع علمه بأنه حق ، مأخوذ من العَنْدِ وهو عظم يعرض فى الحلق فيحول بين الطعام وبين دخوله إلى الجسم .

مناع للخير معتد مريب

كما فسرها الوسيط وقوله ( مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ) صفات أخرى لذلك الكافر الملقى فى جهنم .أى : مبالغ فى المنع لكل خير يجب فعله وهو بعد ذلك كثير الاعتداء ، وكثير الشك فيما هو حق وبر .

الذي جعل مع الله الها اخر فالقياه في العذاب الشديد

كما فسرها الوسيط ( الذي جَعَلَ مَعَ الله إلها آخَرَ ) فى العبادة والطاعة أيها الملكان ( فِي العذاب الشديد ) الذى يذله ويهينه ( فَأَلْقِيَاهُ ) والاسم الموصول مبتدأ بشهب الشرط فى العموم ، ولذا دخلت الفاء فى خبره وهو قوله : ( فَأَلْقِيَاهُ ) .

قال قرينه ربنا ما اطغيته ولكن كان في ضلال بعيد

كما فسرها الوسيط ( قَالَ قرِينُهُ ) أى : شيطانه الذى كان يزين له السوء فى الدنيا . والجملة مستأنفة لأنها جواب عما يزعمه الكافر يوم القيامة من أن قرينه هو الذى أغواه وحمله على الكفر . .أى : قال الشيطان فى رده على الكافر : يا ربنا إننى ما أطغيته ، ولا أجبرته على الفكر والعصيان ( ولكن ) هو الذى ( كَانَ فِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ ) دون أن كرهه أنا على هذا الضلال أو الكفر .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( وَقَالَ الشيطان لَمَّا قُضِيَ الأمر إِنَّ الله وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحق وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فاستجبتم لِي فَلاَ تَلُومُونِي ولوموا أَنفُسَكُمْ مَّآ أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ )

قال لا تختصموا لدي وقد قدمت اليكم بالوعيد

كما فسرها الوسيط ( قَالَ ) أى : - الخالق - عز وجل ( لاَ تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ ) أى :لا تتنازعوا عندى فى هذا الموقف ، فإن التنازع لا فائدة فيه أى : والحال أنى قد حذرتكم على ( وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بالوعيد ). ألسنة رسلى من سوء عاقبة الكفر ، والآن لا مجال لهذا الاعتذار أو التخاصم .

ما يبدل القول لدي وما انا بظلام للعبيد

كما فسرها الوسيط ( مَا يُبَدَّلُ القول لَدَيَّ ) أى :لا خلف لوعدى ، ولا معقب لحكمى ، بل هو كائن لا محالة ، وهو أنى : ( لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجنة والناس أَجْمَعِينَ ) ( لَدَيَّ وَمَآ أَنَا بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ) أى : وما أنا من شأنى أن أعذب أحدا بدون ذنب جناه . وإنا من شأنى أن أجازى الذين أساؤوا بما عملوا ، وأجازى الذين أحسنوا بالحسنى ، وأعفو عن كثير من ذنوب عبادى سوى الشرك بى .

يوم نقول لجهنم هل امتلات وتقول هل من مزيد

كما فسرها الوسيط ( يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امتلأت وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ) أى : اذكر - أيها العاقل - لتتعظ وتعتبر - يوم نقول لجهنم هل امتلأت من كل كفار عنيد مناع للخير معتد مريب ، واكتفيت من كل من جعل معى إلها آخر . .فترد جهنم وتقول : يا إلهى ( هَلْ مِن مَّزِيدٍ ) أى : يا إلهى هل بقى شئ منى لم يملئ من هؤلاء الكافرين؟ أنت تعلم يا خالقى أنى قد امتلأت ، ولم يبق منى موضع لقدم .قال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : يخبر الله - تعالى - أنه يقول لجهنم يوم القيامة : هل امتلأت؟ وذلك أنه وعدها أنه سيملؤها من الجِنّة والناس أجمعين ، فهو - سبحانه - يأمر بمن يأمر به إليها ويلقى فيها وهى تقول : ( هَلْ مِن مَّزِيدٍ ) أى : هل بقى

شئ تزيدونى؟ .هذا هو الظاهر من سياق الآية ، وعليه تدل الأحاديث ، فقد أخرج
البخارى عن أنس بن مالك . عن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : " يُلْقَى
فى النار - الكفرة - وتقول : هل من مزيد ، حتى يضع - سبحانه - فيها قدمه
فتقول : قَطْ قَطْ - أى : حسبى حسبى " .وعن ابن عباس قوله : ( وَتَقُولُ
: هَلْ مِن مّزِيدٍ ) أى : وهل فِيّ من مكان يزاد فِيّ .وعن عكرمة قوله
وتقول : ( هَلْ مِن مّزِيدٍ ) وهل فىّ مدخل واحد؟ قد امتلأت .وقال
الشوكانى : وهذا الكلام على طريق التخييل والتمثيل ولا سؤال ولا جواب . كذا
قيل : والأَوْلَى أنه على طريقة التحقيق ، ولا يمنع من ذلك عقل ولا شرع
قال الواحدى : أرادها الله تصديق قوله : ( لأَمْلأَنّ جَهَنّمَ مِنَ.
الجنة والناس أَجْمَعِينَ ) . فلما امتلأت قال لها : ( هَلِ امتلأت
. وَتَقُولُ هَلْ مِن مّزِيدٍ ) أى : قد امتلأت ولم يبق فى موضع لم يمتلئ
وقيل : إن هذا الاستفهام بمعنى الاستزادة . أى : إنها تطلب الزيادة على
، منقد صار فيها .. والمزيد إما مصدر كالمحيد . أو اسم مفعول كالمنيع
. فالأولى بمعنى : له من زيادة . والثانى بمعنى هل من شئ تزيدونيه

وازلفت الجنة للمتقين غير بعيد

، كما فسرها الوسيط وكعادة القرآن فى المقارنة بين عاقبة الأشرار والأخيار
) : - جاء بعد ذلك الحديث عن المتقين وحسن عاقبتهم فقال - تعالى
) : وَأُزْلِفَتِ الجنة لِلْمُتّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ) .وقوله
وَأُزْلِفَتِ ) من الإزلاف بمعنى القرب ، يقال : أزلفه إذا قربه ، ومنه
- الزلفة والزلفى بمعنى القُرْبَة والمنزلة . . وهو معطوف على قوله
سبحانه - ( وَنُفِخَ فِي الصور ) وقوله : ( غَيْرَ بَعِيدٍ ) صفة لموصوف
مذكر محذوف ، ولذا قال غير بعيد ولم يقل غير بعيدة . أى : وأدنيت وقربت
الجنة للمتقين فى مكان غير بعيد منهم ، فصاروا يرونها ويشاهدون ما فيها من
) خيرات لا يحيط بها الوصف .وفائدة قوله : ( غَيْرَ بَعِيدٍ ) بعد قوله
وَأُزْلِفَتِ ) للتأكيد والتقرير ، كقولك : فلان قريب غير بعيد ، وعزيز غير
، ذليل . .قال الجمل ما ملخصه : فإن قيل : ما وجه التقريب مع أن الجنة مكان
والأمكنة يقرب مها وهى لا تقرب؟ .فالجواب : أن الجنة لا تنقل . . لكن
الله - تعالى لا يطوى المسافة التى بين المؤمن والجنة - حتى لكأنها حاضرة
. أمامه - وذلك من باب التكريم والتشريف للمؤمن

هذا ما توعدون لكل اواب حفيظ

كما فسرها الوسيط واسم الإشارة فى قوله : ( هذا مَا تُوعَدُونَ لِكُلّ
أَوّابٍ حَفِيظٍ ) يعود إلى الجنة التى قربت لهم . . والجملة على تقدير
القول ، أى : قربت الجنة ممن هم أهلها ، ويقال لهم عند دخولها : هذا الذى
ترونه من نعيم ، هو ما سبق أن وعد الله - تعالى - به كل ( أَوَّابٍ ) أى
رجاع إليه بالتوبة ( حَفِيظٍ ) أى : حافظ لحدوده وأوامره ونواهيه بحيث لا
. يتجاوزها ، وإنما ينفذها ، ويقف عندها

من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب

كما فسرها الوسيط ( مّنْ خَشِيَ الرحمن بالغيب . . ) أى : من خاف مقام ربه
دون أن يراه أو يطلع عليه ، والجملة بدل أو عطف بيان من قوله : ( لِكُلّ
: أَوَّابٍ حَفِيظٍ ) وقوله : ( بالغيب ) متعلق بمحذوف حال من الرحمن ، أى
خَشِيَه وهو غائب عنه لا يراه ولا يشاهده .( وَجَآءَ بِقَلْبٍ مّنِيبٍ )
أى : وجاء ربه يوم القيامة بقلب راجع إليه ، مخلص فى طاعته ، مقبل على
. . عبادته

ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود

كما فسرها الوسيط هؤلاء الذين يفعلون ذلك فى دنياهم ، يقال لهم يوم الحساب
على سبيل التبشير والتكريم : ( ادخلوها بِسَلاَمٍ ) أى ادخلوا الجنة التى
وعدكم الله إياها بسلام وأمان واطمئنان .( ذَلِكَ ) اليوم وهو يوم الثواب
، والعطاء الجزيل من الله - تعالى - ( يَوْمُ الخلود ) الذى لا انتهاء له
. ولا موت بعده

لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد

كما فسرها الوسيط ( لَهُم مّا يَشَآءُونَ فِيهَا ) اى : لهؤلاء المتقين ما
يشاءون ويشتهون . . فى الجنة .( وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ) أى : وعدنا - فضلا
عن كل هذا النعيم الذى يرفلون فيه - المزيد منه ، مما لم يخطر لهم على بال
ولم تره أعينهم قبل ذلك .قال ابن كثير : وقوله : ( وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ) ،

كقوله - تعالى - : ( لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الحسنى وَزِيَادَةٌ ) وقد
. تقدم فى صحيح مسلم عن صهيب بن سنان ، أنها النظر إلى وجه الله الكريم

وكم اهلكنا قبلهم من قرن هم اشد منهم بطشا فنقبوا في البلاد هل من محيص

كما فسرها الوسيط ثم تحدثت السورة الكريمة فى أواخرها من مصارع المكذبين
السابقين ، وعن مظاهر قدرة الله - تعالى - وعن الدواء الذى يزيل عن القلوب
همومها ، وعن أهوال يوم القيامة ، فقال - تعالى - : ( وَكَمْ أَهْلَكْنَا
- قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ ... مَن يَخَافُ وَعِيدِ ) .و ( كَمْ ) فى قوله
تعالى - : ( وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ ) خبرية بمعنى كثير
وهى منصوبة بما بعدها ، والقرن يطلق على جماعة من الناس تعيش فى زمن واحد ،
، ومقداره مائة سنة - على الراجح - .وقوله : ( مِّن قَرْنٍ ) تمييز لكم ،
وجملة ( هُمْ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشاً ) صفة ، والبطش : السطوة والأخذ بشدة
أى : واعلم - أيها الرسول الكريم - أننا أهلكنا كثيرا من القرون الماضية .
التى كذبت رسلها ، كقوم نوح وعاد وثمود ، وقد كانوا أشد من قومك قوة وأكثر
جمعا ، وما دام الأمر كما ذكرنا لك ، فلا تحزن ولا تبتئس لما يصيبك من
الكافرين المعاصرين لك ، فنحن فى قدرتنا أن ندمرهم تدميرا .والضمير فى
قوله - تعالى - : ( فَنَقَّبُواْ فِي البلاد ) يعود إلى أهل تلك القرون
المهلكة الماضية . والتنقيب : السير فى الأرض ، والطواف فيها . والبحث بين
أرجائها ، يقال : نقب فلان فى الأرض ، إذا ذهب فيها واصل النَّقْب : الخرق
والدخول فى الشئ ، ومنه قولهم : نقب فلان الجدار ، إذا أحدث فيه خرقا
) : والمراد به هنا : السير فى الأرض ، والتفتيش فيها . .قال الآلوسى.
. فَنَقَّبُواْ فِي البلاد ) أى : ساروا فى الأرض وطوفوا فيها حذر الموت
قال الشاعر :نقبوا فى البلاد حذر الموت ... وجالوا فى الأرض كل مجالوشاع.
التنقيب فى العرب بمعنى التنقير عن الشئ والبحث عن أحواله . .والفاء على
تفسير التنقيب بالسير ونحوه ، لمجرد التعقيب ، وعلى تفسيره بالتصرف للسببيه
لأن تصرفهم فى البلاد مسبب عن اشتداد بطشهم ، وهى على الوجهين عاطفة على ،
معنى ما قبلها ، كأنه قيل : اشتد بطشهم فنقبوا فى البلاد .والاستفهام فى
: قوله - سبحانه - : ( هَلْ مِن مَّحِيصٍ ) للإنكار والنفى ، والمحيص
المعدل والمهرَب ، يقال : حاص فلان عن الشئ يحيص حَيْصاً ، ومَحِيصا ، إذا
، عدل وحاد عنه ، وحاول الهروب منه . أى : أن هؤلاء المكذبين السابقين
كانوا أشد من مشركى قريش قوة وأكثر جميعا ، وكانوا أكثر ضربا فى الأرض
وسيرا فيها فلما نزل بهم بأسنا حاولوا الهرب والفرار ، فلم يجدوا مكانا
- يهربون فيه ، بل نزل بهم عذابنا فدمرناهم تدميرا .فعليكم - أيها المشركون
، أن تعتبروا بهم ، حتى لا يصيبكم ما أصابهم .فالمقصود بالآية الكريمة
تسلية الرسول - صلى الله عليه وسلم - وتحذير أعدائه من سوء عاقبة الكفر
. والعناد

ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب او القى السمع وهو شهيد

) كما فسرها الوسيط ( إِنَّ فِي ذَلِكَ ) الإهلاك للأمم المكذبة السابقة
لذكرى ) أى : لتذكرة وعبرة ( لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ ) أى : لمن كان له
. قلب يعى ما يسمع ، ويعقل ما يوجه إليه ، ويعمل بمقتضى هذا التوجيه الحكيم
أى : فيما سقناه عبرة وعظة لمن كان ( أَوْ أَلْقَى السمع وَهُوَ شَهِيدٌ )
له قلب يعى الحقائق ، ولمن أصغى إلى ما يلقى إليه من إرشادات ، وهو حاضر
الذهن صادق العزم لتنفيذ ما جاءه من الحق ..قال صاحب الكشاف : ( لِمَن
، كَانَ لَهُ قَلْبٌ ) أى قلب واع ، لأن من لا يعى قلبه فكأنه لا قلب له
وإلقاء السمع : الإصغاء . ( وَهُوَ شَهِيدٌ ) أى : حاضر بفطنته ، لأن من
. لا يحضر ذهنه فكأنه غائب . . أو هو مؤمن شاهد على صحته ، وأنه وحى الله

ولقد خلقنا السماوات والارض وما بينهما في ستة ايام وما مسنا من لغوب

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - مظاهر قدرته ووحدانيه فقال
وَلَقَدْ خَلَقْنَا السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ
أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ) . واللغوب : التعب والنصب
والإعياء ، مصدر لغب - كدخل - يقال لغب فلان لغوبا ، إذا اشتد تعبه وضعفه
أى : والله لقد خلقنا بقدرتنا السماوات والأرض وما بينهما من كائنات لا.
يعلمها إلى الله ، فى ستة أوقات وما سمنا بسبب هذا الخلق العظيم نصب أو تعب
- أو إعياء .فالمراد بالأيام مطلق الأوقات التى لا يعلم مقدارها إلا الله
تعالى - وقيل : هذه الأيام من أيام الدنيا ، وقيل : من أيام الآخرة .وقال
سعيد بن جبير : الله - تعالى - قادر على أن يخلق السماوات والأرض وما
بينهما فى لمحة ولحظة ، ولكنه - سبحانه - خلقهن فى ستة أيام ليعلم عباده
التثبت فى الأمور والتأنى فيها .والمقصود بالآية الكريمة بيان كمال قدرة
الله - تعالى - . والرد على من أنكر البعث والنشور . وعلى اليهود الذين

زعموا أن الله - تعالى - خلق العالم فى ستة أيام ثم استراح فى اليوم السابع وهو يوم السبت .

فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب

كما فسرها الوسيط والفاء فى قوله : ( فاصبر على مَا يَقُولُونَ ) فصيحة . أى : إذا كان الحال كما بينا لك يا محمد ، فاصبر على ما يقوله هؤلاء الضالون المكذبون من أقوال لا يؤيدها عقل أو نقل .وقوله : ( وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشمس وَقَبْلَ الغروب ) إرشاد له - صلى الله عليه وسلم - إلى ما يعينه على الصبر .أى : اصبر - أيها الرسول الكريم - على أقوال هؤلاء الكافرين ، ونزه ربك - تعالى - عن كل مالا يليق به ، وتقرب إليه بالعبادات والطاعات ( قَبْلَ طُلُوعِ الشمس وَقَبْلَ الغروب ) وهما وقتا الفجر والعصر .وخصهما - سبحانه - بالذكر لفضلهما وشرفهما .

ومن الليل فسبحه وادبار السجود

كما فسرها الوسيط ( وَمِنَ الليل فَسَبِّحْهُ ) - أيضا - ونزهه عن كل مالا يليق به ، ( وَأَدْبَارَ السجود ) أى : وفى أدبار وأعقاب الصلوات فأكثر من تسبيحه - عز وجل - وتقديسه .ومن الأحاديث التى وردت فى فضل التسبيح بعد الصلوات المكتوبة ، ما ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة - أنه قال : " " جاء فقراء المهاجرين فقالوا : يا رسول الله ، ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم . فقال : " وما ذاك "؟ قالوا : يصلون كما نصلى ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون ولا نتصدق . فقال - صلى الله عليه وسلم - :" أفلا أعلمكم شيئا إذا فعلتموه سبقتم من بعدكم ، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من " فعل مثل ما فعلتم؟ تسبحون وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين قال : فقالوا : يا رسول الله سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلناه ففعلوا. " " مثله .فقال - صلى الله عليه وسلم - : " ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( فاصبر على مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ. بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشمس وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَآءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ ترضى ).

واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب

كما فسرها الوسيط ثم أمر - سبحانه - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يلقى سمعه لما يخبره به - تعالى - من أهوال يوم القيامة فقال : ( واستمع ) والمستمع إليه محذوف للتهويل والتعظيم . . أى : واستمع - أيها الرسول - الكريم - أو أيها العاقل - لما سأخبرك به من أهوال يوم القيامة .ثم بين : سبحانه - ذلك فقال : ( يَوْمَ يُنَادِ المناد مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ) .أى استمع استماع تنبيه وتيقظ يوم يناد المناد وهو إسرافيل - عليه السلام - من كان قريب بحيث يسمع نداءه الناس جميعا . .قال ابن كثير : قال قتادة : قال كعب الأحبار : يأمر الله ملكا أن ينادى على صخرة بيت المقدس : أيتها العظام البالية ، والأوصال المتقطعة ، إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء .وفى ورود الأمر بالاستماع مطلقا ، ثم توضيحه بما بعده ، تهويل وتعظيم للمخبر به . لما فى الإبهام ، ثم التفسير ، من التهويل والتفخيم لشأن المحدث عنه ،

يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج

كما فسرها الوسيط وقوله : ( يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصيحة بالحق ) بدل من قوله : ( يَوْمَ يُنَادِ ) أى : يوم يسمعون صيحة البعث من القبور . والحشر. للجزاء ، سماعها ملتبسا بالحق الذى لا يحوم حوله باطل ، والمراد بهذه الصيحة : النفخة الثانية ( ذَلِكَ ) اليوم هو ( يَوْمُ الخروج ) من الأجداث كأنهم جراد منتشر .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( وَنُفِخَ فِي الصور فَإِذَا هُم مِّنَ الأجداث إلى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ) ( قَالُواْ ياويلنا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرحمن وَصَدَقَ المرسلون ).

انا نحن نحيي ونميت والينا المصير

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما يدل على كمال قدرته فقال : ( إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا المصير ) . أى : إنا بقدرتنا وإرادتنا نحيى ونميت من نشاء إحياءه أو إماتته ، وإلينا وحدنا مرجع العباد ومصيرهم ، لا يشاركنا فى ذلك مشارك .

يوم تشقق الارض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير

كما فسرها الوسيط إذكر - أيضا - أيها العاقل ( يَوْمَ تَشَقَّقُ الأرض عَنْهُمْ سِرَاعاً . . ) أى يوم تتشقق الأرض عن من باطنها من مخلوقات ، فيخرجون إلينا سراعا . كما قال - تعالى - : ( يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً وقوله : ( ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ) أى : ذلك التشقق للأرض وما يترتب عليه من بعث وجمع وحشر ، يسر وهين علينا ، لأن قدرتنا لا يعجزنا شئ .

نحن اعلم بما يقولون وما انت عليهم بجبار فذكر بالقران من يخاف وعيد

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بهذه الآية التى فيها من التسلية للرسول - صلى الله عليه وسلم - ومن التحديد الدقيق لوظيفته ، فقال - تعالى - : ( نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بالقرآن مَن يَخَافُ وَعِيدِ ) . أى : نحن - أيها الرسول الكريم - أعلم بما يقوله هؤلاء المشركون فى شأنك وفى شأن دعوتك ، وسنجازيهم على ذلك بما يستحقونه من عقاب ، فاصبر على أقوالهم وبلغ رسالة ربك دون أن تخشى أحدا سواه . وأنت لست بمسلط عليهم لتجبرهم على اتباعك ، وتقهرهم على الدخول فى الإسلام ، وإنما وظيفتك التذكير بهذا القرآن لمن يخشى عذابى ، ويخاف وعيدى . كما قال - سبحانه - : ( فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ) وكما قال - تعالى - : ( وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البلاغ وَعَلَيْنَا الحساب ) وبعد فهذا تفسير محرر لسورة " ق " التى حفظها بعض الصحابة من فم النبى - صلى الله عليه وسلم - خلال تكراره لها فى خطب الجمعة . نسأل الله - تعالى - أن يجعل القرآن ربيع قلوبنا ، وأنس نفوسنا . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى له وصحبه وسلم .

والذاريات ذروا

كما فسرها الوسيط المراد بالذاريات : الرياح التى تذرو الشىء ، أى تسوقه وتحركه وتنقله من مكانه . فهذا اللفظ اسم فاعل من ذرا المعتل ، بمعنى فرّق وبدّد . يقال : ذرّت الرياح التراب تذروه ذَرْواً ، وتَذْرِيه ذَرْياً - من بابى عدا ورمى - إذا طيرته وفرقته . ومنه قوله - تعالى - : ( واضرب لَهُم مَّثَلَ الحياة الدنيا كَمَآءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السماء فاختلط بِهِ نَبَاتُ الأرض فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرياح . . . ) أى : تنقله وتحركه من مكان إلى آخر . والمفعول محذوف ، و " ذروا " مصدر مؤكد ، وناصبه لفظ الذاريات ، أى : وحق الرياح التى تذروا التراب وغيره ذروا ، وتحركه تحريكا شديدا .

فالحاملات وقرا

كما فسرها الوسيط والمراد بالحاملات : السحب التى تحمل الأمطار الثقيلة ، فتسير بها من مكان إلى آخر . والوقر - بكسر الواو - كالحمل وزنا ومعنى ، وهو مفعول به . أى : فالسحب الحاملات للأمطار الثقيلة ، وللمياه الغزيرة ، التى تنزل على الأرض اليابسة ، فتحولها - بقدرة الله - تعالى - إلى أرض خضراء وهذا الوصف للسحاب بأنه يحمل الأمطار الثقيلة ، قد جاء ما يؤيده من الآيات القرآنية ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ( وَهُوَ الذي يُرْسِلُ الرياح بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حتى إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ . . . ) وقوله - سبحانه - : ( هُوَ الذي يُرِيكُمُ البرق خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِئُ السحاب الثقال ) .

فالجاريات يسرا

كما فسرها الوسيط والمراد بالجاريات : السفن التى تجرى فى البحر ، فتنقل الناس وأمتعتهم من بلد إلى بلد . وقوله : ( يُسْراً ) صفة لمصدر محذوف بتقدير مضاف ، أى : فالجاريات بقدرة الله - تعالى - فى البحر جريا ذات يسر وسهولة ، إلى حيث يسيرها ربانها . ويصح أن يكون قوله ( يُسْراً ) حال . أى : فالجاريات فى حال كونها ميسرة مسخرا لها البحر . ومن الآيات التى تشبه فى معناها هذه الآية قوله - تعالى - : ( وَمِنْ آيَاتِهِ الجوار فِي البحر كالأعلام ) .

فالمقسمات امرا

كما فسرها الوسيط والمراد بالمقسمات فى قوله - سبحانه - ( فالمقسمات أَمْراً ) الملائكة ، فإنهم يقسمون أرزاق العباد وأمورهم وشئونهم . . . على ، حسب ما يكلفهم الله - تعالى - به من شئون مختلفة .و ( أَمْراً ) مفعول به للوصف الذى هو المقسمات ، وهو مفرد أريد به الجمع ، أى : المقسمات لأمور العباد بأمر الله - تعالى - وإرادته .وهذا التفسير لتلك الألفاظ ، قد ورد عن بعض الصحابة ، فعن أبى الطفيل أنه سمع عليا - رضى الله عنه - يقول - وهو على منبر الكوفة - :لا تسألونى عن آية فى كتاب الله ، ولا عن سنة رسول الله ، إلا أنبأتكم بذلك ، فقام إليه ابن الكواء فقال : يا أمير المؤمنين . ما معنى قوله - تعالى - : ( والذاريات ذَرْواً ) قال : الريح . ( فالجاريات يُسْراً ) قال : السفن ، ( فالمقسمات أَمْراً ) قال : الملائكة .وروى مثل هذا التفسير عن عمر بن الخطاب ، وعن ابن عباس .ومن العلماء من يرى أن هذه ، الألفاظ جميعها صفات للرياح .قال الإمام الرازى : هذه صفات أربع للرياح فالذاريات : هى الرياح التى تنشىء السحاب أولا . والحاملات : هى الرياح التى تحمل السحب التى هى بخار الماء . . . والجاريات : هى الرياح التى تجرى بالسحب بعد حملها . والمقسمات : هى الرياح التى تفرق الأمطار على الأقطار ومع وجاهة رأى الإمام الرازى فى هذه المسألة ، إلا أننا نؤثر عليه الرأى. السابق ، لأنه ثابت عن بعض الصحابة ، ولأن كون هذه الألفاظ الأربعة لها معان مختلفة ، أدل على قدرة الله - تعالى - وعلى فضله على عباده .وقد تركنا أقوالا ظاهرة الضعف والسقوط . كقول بعضهم : الذاريات هن النساء ، فإنهن يذرين الأولاد ، بمعنى أنهن يأتين بالأولاد بعضهم فى إثر بعض ، كما تنقل الرياح الشىء من مكان إلى مكان .قال الآلوسى : ثم إذا حملت هذه الصفات على أمور مختلفة متغايرة بالذات - كما هو الرأى المعول عليه - فالفاء للترتيب فى الأقسام ذكرا ورتبة ، باعتبار تفاوت مراتبها فى الدلالة على كمال قدرته - عز وجل - وهذا التفاوت إما على الترقى أو التنزل ، لما فى كل منها من الصفات التى تجعلها أعلى من وجه وأدنى من آخر .وإن حملت على واحد وهو الرياح ، فهى لترتيب الأفعال والصفات ، إذ الريح تذرو الأبخرة إلى الجو أولا ، حتى تنعقد سحابا ، فتحمله ثانيا ، وتجرى به ثالثا ناشرة وسائقة له . إلى حيث أمرها الله - تعالى - ثم تقسم أمطاره

انما توعدون لصادق

. كما فسرها الوسيط وقوله : ( إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ) جواب القسم و " ما " موصولة والعائد محذوف ، والوصف بمعنى المصدر . أى : وحق هذه . . . الأشياء التى ذكرتها لكم إن الذى توعدونه من الجزاء والحساب والبعث لصدق لا يحوم حوله كذب أوشك .ويجوز أن تكون " ما " مصدرية . أى : إن الوعد . بالبعث والجزاء والحساب لصادق

وان الدين لواقع

كما فسرها الوسيط وقوله : ( وَإِنَّ الدين لَوَاقِعٌ ) تأكيد وتقريرلما قبله . أى : وإن الجزاء على الأعمال لواقع وقوعا لا ريب فيه . فالمراد بالدين هنا : الجزاء ، كما فى قوله - سبحانه - ( يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ الله دِينَهُمُ الحق ) ومنه قولهم : " كما تدين تدان " أى : كما تعمل تجازى . ومعنى وقوعه : حصوله ،

والسماء ذات الحبك

) : كما فسرها الوسيط ثم أقسم - سبحانه - قسما آخر بالسماء ذات الحبك فقال والسمآء ذَاتِ الحبك إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ) .والحبك : جمع حَبِيكَة ، كطريقة - وزنا ومعنى - ، أو جمع حِبَاك - كمُثُل ومِثَال - ، والحَبيكة والحباك . الطريقة فى الرمل وما يشبهه . أى : وحق السماء ذات الطرق المتعددة ، والتى لا ترونها بأعينكم . . لبعدها عنكم .ويرى بعضهم أن معنى ذات الحبك : ذات الخَلْق الحسن المحكم : أو ذات الزينة والجمال .قال القرطبى : وفى الحبك أقوال : الأول : قال . - ابن عباس : ذات الخلْق الحسن المستوى يقال ، حبَك فلان الثوب يحبِكُه ، بكسر الباء - إذا أجاد نسجه .الثانى : ذات الزينة . الثالث : ذات النجوم الرابع : ذات الطرائق . ولكنها تبعد من العباد فلا يرونها . الخامس : ذات . . الشدة

انكم لفي قول مختلف

كما فسرها الوسيط وقوله : ( إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ) جواب . القسم

يؤفك عنه من افك

كما فسرها الوسيط وقوله : ( يُؤْفَكُ عَنْهُ . . . ) من الأفْك - بفتح الهمزة وسكون الفاء - بمعنى الصرف للشىء عن وجهه الذى يجب أن يكون عليه والضمير فى " عنه " يعود إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - أو إلى القرآن. الكريم .فيكون المعنى : وحق السماء ذات الطرق المتعددة ، وذات الهيئة " البديعة المحكمة الجميلة . . . إنكم - أيها المشركون - " لفى قول مختلف أى : متناقض متخالف ، فمنكم من يقول عن القرآن الكريم أنه : أساطير الأولين ومنكم من يقول عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - : إنه ساحر أو مجنون ، والحق أنه يصرف عن الإيمان بهذا القرآن الكريم الذى جاء به الرسول - صلى. الله عليه وسلم - من صرفه الله - تعالى - عنه ، بسبب إيثاره الغى على الرشد والضلالة على الهداية ، والكفر على الإيمان .والتعبير بقوله : ( مَنْ ، أُفِكَ ) للإشعار بأن هذا الشقى الذى آثر الكفر على الإيمان ، قد صرف عن الرشاد وعن الخير صرفا ، ليس هناك ما هو أشد منه فى سوء العاقبة .فهذا التعبير شبيه فى التهويل بقوله - تعالى - : ( فَغَشِيَهُمْ مِّنَ اليم مَا غَشِيَهُمْ ) قال الجمل : ( يُؤْفَكُ ) يصرف ( عَنْهُ ) عن النبى - صلى الله عليه وسلم - والقرآن الكريم . أى : عن الإيمان به ( مَنْ أُفِكَ ) أى ، من صرف عن الهداية فى علم الله - تعالى - .وقيل : الضمير للقول المذكور : أى : يرتد ، أى : يصرف عن هذا القول من صرف عنه فى علم الله - تعالى - وهم المؤمنون .

قتل الخراصون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة المكذبين فقال : ( قُتِلَ الخراصون الذين هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ يَسْأَلُونَ أَيّانَ يَوْمُ الدين يَوْمَ هُمْ عَلَى النار يُفْتَنُونَ ) .والخراصون : جمع خرّاص ، وأصل الخَرْص : الظن والتخمين ، ومنه الخارص الذى يخرص النخلة ليقدر ما عليها من ثمر ، والمراد به هنا : الكذب ، لأنه ينشأ غالبا عن هذا الخرص ، والمراد بالآية الدعاء عليهم باللعن والطرد من رحمة الله - تعالى .أى : لعن وطرد من رحمة الله - تعالى - هؤلاء الكذابون ، الذين قالوا فى الرسول - صلى الله عليه وسلم - ما هو منزه عنه . . .

الذين هم في غمرة ساهون

كما فسرها الوسيط والذين هم ( فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ) أى : فى جهالة تغمرهم كما يغمر الماء الأرض . فهم ساهون وغافلون عن كل خير .فالغمرة : ما يغمر الشىء ويستره ويغطيه ، ومنه قولهم : نهر غَمْر ، أى : يغمر من دخله والمراد : أنهم فى جهالة غامرة لقلوبهم . وفى غفلة تامة عما ينفعهم .وهذا. - التعبير فيه ما فيه من تصوير ما هم عليه من جهالة وغفلة ، حيث يصورهم سبحانه - وكأن ذلك قد أحاط بهم وغمرهم حتى لكأنهم لا يحسون بشىء مما حولهم .

يسالون ايان يوم الدين

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما كانوا عليه من سوء أدب فقال يَسْأَلُونَ أَيّانَ يَوْمُ الدين ) .و " أيان " بمعنى متى . أى : يسألون سؤال استهزاء واستخفاف فيقولون : متى يكون هذا البعث الذى تحدثنا عنه يا محمد ، ومتى يوم الجزاء والحساب الذى تهددنا به؟

يوم هم على النار يفتنون

. كما فسرها الوسيط وهنا يأتيهم الجواب الذى يردعهم ويبين لهم سوء مصيرهم فيقول - سبحانه - : ( يَوْمَ هُمْ عَلَى النار يُفْتَنُونَ ) أى يقع هذا اليوم الذى تسألون عنه وهو يوم البعث والحساب والجزاء . . . يوم تحرقون بالنار - أيها الكافرون - ، وتعذبون فيها عذاب أليما .و " يفتنون " مأخوذ من الفَتْن بمعنى الاختبار والامتحان ، يقال : فتَنْتُ الذهب بالنار ، إذا " أذبته لتظهر جودته من غيرها . والمراد به هنا : الإحراق بالنار .وعدى يفتنون " بعلى ، لتضمنه معنى يعرضون ، أو على بمعنى فى .

ذوقوا فتنتكم هذا الذي كنتم به تستعجلون

كما فسرها الوسيط وقوله : ( ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ . . ) مقول القول محذوف أى : هذا اليوم الذى يسألون عنه واقع يوم الجزاء . . . يوم يقال لهم وهم. ). معرضون على النار : ذوقوا العذاب المعد لكم ، أو ذوقوا سوء عاقبة كفركم

هذا ) العذاب المهين ، هو ( الذي كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ) فى الدنيا - وتقولون - على سبيل الاستهزاء والإنكار - للنبى - صلى الله عليه وسلم ، ولأصحابه : ( متى هذا الوعد إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ) وبذلك نرى الآيات الكريمة قد أكدت بأقوى الأساليب وأحكمها ، أن يوم البعث والجزاء والحساب حق . وأن المكذبين بذلك سيذوقون أشد العذاب ،

ان المتقين في جنات وعيون

، كما فسرها الوسيط وكعادة القرآن الكريم فى قرن الترغيب بالترهيب أو العكس - جاء الحديث عن حسن عاقبة المتقين بعد الحديث عن سوء مصير المكذبين فقال سبحانه - : ( إِنّ المتقين فِي . . . ) .المعنى : ( إِنَّ المتقين ) وهم الذين صانوا أنفسهم عن كل مالا يرضى الله - تعالى - .( فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ) أى : مستقرين فى جنات وبساتين فيها عيون عظيمة ، لا يبلغ وصفها الواصفون .

اخذين ما اتاهم ربهم انهم كانوا قبل ذلك محسنين

كما فسرها الوسيط ( آخِذِينَ مَآ آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ) أى : هم منعمون فى الجنات وما اشتملت عليه من عيون جارية ، حالة كونهم آخذين وقابلين لما أعطاهم ربهم من فضله وإحسانه .وقوله : ( إِنّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ) بمثابة التعليل لما قبله . أى : هم فى هذا الخير العميم من ربهم لأنهم ، كانوا قبل ذلك - أى : فى الدنيا - محسنين لأعمالهم ، ومؤدين لكل ما أمرهم به - سبحانه - بإتقان وإخلاص .

كانوا قليلا من الليل ما يهجعون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - مظاهر إحسانهم فقال : ( كَانُواْ قَلِيلاً مِّن الليل مَا يَهْجَعُونَ ) أى كانوا ينامون من الليل وقتا قليلا ، أما أكثره فكانوا يقضونه فى العبادة والطاعة .والهجوع : النوم ليلا وقيده بعضهم بالنوم القليل ، إذ الهجعة هى النومة الخفيفة ، تقول : أتيت ، فلانا بعد هجعة ، أى بعد نومة قليلة .عن الحسن قال : كانوا لا ينامون من الليل إلا أقله ، كابدوا قيام الليل .

وبالاسحار هم يستغفرون

كما فسرها الوسيط ثم مدحهم - سبحانه - بصفة أخرى فقال : ( وبالأسحار هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ) والأسحار جمع سحر ، وهو الجزء الأخير من الليل .أى ، وكانوا فى أوقات الأسحار يرفعون أكف الضراعة إلى الله - تعالى - يستغفرونه مما فرط منهم من ذنوب ، ويلتمسون منه - تعالى - قبول توبتهم وغسل حوبتهم قال الإمام الرازى ما ملخصه : وفى الآية إشارة إلى أنهم كانوا يتهجدون. ويجتهدون ، ثم يريدون أن يكون عملهم أكثر من ذلك ، وأخلص منه ، ويستغفرون من التقصير ، وهذه سيرة الكريم : يأتى بأبلغ وجوه الكرم ويستقله ، ويعتذر من التقصير ، واللئيم يأتى بالقليل ويستكثره .وفيه وجه آخر ألطف منه : وهو ) أنه - تعالى - لما بين أنهم يهجعون قليلا ، والهجوع مقتضى الطبع . قال يَسْتَغْفِرُونَ ) أى : من ذلك القدر من النوم القليل .ومدحهم بالهجوع ولم يمدحهم بكثرة السهر . . للإشارة إلى أن نومهم عبادة ، حيث مدحهم بكونهم هاجعين قليلا ، وذلك الهجوع أورثهم الاشتغال بعبادة أخرى ، وهو الاستغفار . فى وجوه الأسحار ، ومنعهم من الإعجاب بأنفسهم ومن الاستكبار . .

وفي اموالهم حق للسائل والمحروم

كما فسرها الوسيط ثم مدحهم - سبحانه - للمرة الثالثة فقال : ( وفي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لّلسّآئِلِ والمحروم ) .والسائل : هو من يسأل غيره العون والمساعدة . والمحروم : هو المتعفف عن السؤال مع أنه لا مال له لحرمان أصابه ، بسبب مصيبة نزلت به ، أو فقر كان فيه . . . أو ما يشبه ذلك . قال ابن جرير بعد أن ذكر جملة من الأقوال فى المراد من المحروم هنا. والصواب من القول فى ذلك عندى : أنه الذى قد حرم الرزق واحتاج ، وقد يكون ذلك بذهاب ماله وثمره فصار ممن حرمه الله .وقد يكون بسبب تعففه وتركه المسألة . وقد يكون بأنه لا سهم له فى الغنيمة لغيبته عن الواقعة .أى : . . . أنهم بجانب قيامهم الليل طاعة لله - تعالى - واستغفارا لذنوبهم - يوجبون على أنفسهم فى أموالهم حقا للسائل والمحروم ، تقربا إلى الله سبحانه - بمقتضى ما جبلوا عليه من كرم وسخاء .فالمراد بالحق هنا : ما يقدمونه من أموال للمحتاجين على سبيل التطوع وليس المراد به الزكاة المفروضة ، لأن السورة مكية والزكاة إنما فرضت فى السنة الثانية من الهجرة

قال الآلوسى : ( وفي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ ) هو غير الزكاة كما قال ابن.
، عباس ومجاهد وغيرهما .وقال منذر بن سعيد : هذا الحق هو الزكاة المفروضة
وتعقب بأن السورة مكية . وفرض الزكاة بالمدينة . وقيل : أصل فريضة الزكاة
كان بمكة والذى كان بالمدينة القدر المعروف اليوم . . . . والجمهور على
الأول .والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة يرى أن هؤلاء المتقين ، قد مدحهم
الله - تعالى - هذا المدح العظيم ، لأنهم عرفوا حق الله عليهم فأدوه بإحسان
. وإخلاص ، وعرفوا حق الناس عليهم فقدموه بكرم وسخاء

وفي الارض ايات للموقنين

كما فسرها الوسيط ثم لفت - سبحانه - الأنظار إلى ما فى الأرض من دلائل على
قدرته ووحدانيته فقال : ( وَفِي الأرض آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ) . أى : وفى
الأرض آيات عظيمة وعبر وعظات بليغة ، تدل على وحدانية الله وقدرته ، كصنوف
. النبات ، والحيوانات ، والمهاد ، والجبال ، والقفار ، والأنهار ، والبحار
وهذه الآيات والعبر لا ينتفع بها إلا الموقنون بأن المستحق للعبادة إنما هو
. - الله - عز وجل

وفي انفسكم افلا تبصرون

كما فسرها الوسيط ثم لفتة أخرى إلى النفس البشرية ، قال - تعالى - : ( وفي
. . . أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ) .أى : وفى أنفسكم وذواتكم وخلقكم
أفلا تبصرون إبصار تذكر واعتبار ، فإن فى خلقكم من سلالة من طين ، ثم جعلكم
نطفة فعلقة فمضغة فخلقا آخر ، ثم فى رعايتكم فى بطون أمهاتكم . ثم فى
تدرجكم من حال إلى حال ، ثم فى اختلاف ألسنتكم وألوانكم ، ثم فى التركيب
العجيب الدقيق لأجسادكم وأعظائكم . ثم فى تفاوت عقولكم وأفهامكم واتجاهاتكم
، فى كل ذلك وغيره ، عبرة للمعتبرين وعظة للمتعظين .ورحم الله صاحب الكشاف.
فقد قال عند تفسيره لهاتين الآيتين ( وَفِي الأرض آيَاتٌ ) تدل على الصانع
وقدرته وحكمته وتدبيره ، حيث هى مدحوّة كالبساط . . . وفيها المسالك
، والفجاج للمتقلبين فيها ، والماشين فى مناكبها .وهى مجزأة : فمن سهل وجبل
وبر وبحر ، وقطع متجاورات : من صلبة ورخوة ، وطيبة وسبخة ، وهى كالطروقة
تلقح بألوان النبات . . . وتسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض فى الأكل
: وكلها موافقة لحوائج ساكنيها .فى كل ذلك آيات ( لِّلْمُوقِنِينَ ) أى ،
). للموحدين الذين سلكوا الطريق السوى . . . فازدادوا إيمانا على إيمانهم
وفي أَنفُسِكُمْ ) فى حال ابتدائها وتنقلها من حال إلى حال ، وفى بواطنها
وظواهرها ، من عجائب الفطر . وبدائع الخلق ، ما تتحير فيه الأذهان ، وحسبك
بالقلوب ، وما ركز فيها من العقول ، وخصت به من أصناف المعانى ، وبالألسن
والنطق ومخارج الحروف ، وما فى تركيبها وترتيبها وطلائفها : من الآيات
. الدالة على حكمة المدبر .. . فتبارك الله أحسن الخالقين

وفي السماء رزقكم وما توعدون

كما فسرها الوسيط ثم لفتة ثالثة للأنظار إلى الأسباب الظاهرة للرزق ، تراها
: فى قوله - تعالى - : ( وَفِي السمآء رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ) .أى
، أن أرزاقكم مقدرة مكتوبة عنده - سبحانه - وهى تنزل إليكم من جهة السماء
عن طريق الأمطار التى تنزل على الأرض الجدباء . فتنبت بإذن الله من كل زوج
بهيج .كما قال - تعالى - : ( هُوَ الذي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ
لَكُم مِّنَ السمآء رِزْقاً ) وقال - سبحانه - : ( يُدَبِّرُ الأمر مِنَ
السمآء إِلَى الأرض ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ
أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ) قال القرطبى : قوله : ( وَفِي السمآء
رِزْقُكُمْ ) الرزق هنا : ما ينزل من السماء من مطر ينبت به الزرع ، ويحيى
به الإنسان . . . أى : وفى السماء سبب رزقكم ، سمى المطر سماء لأنه من
السماء ينزل .وقال سفيان الثورى : ( وَفِي السمآء رِزْقُكُمْ ) أى : عند
الله فى السماء رزقكم .وقوله : ( وَمَا تُوعَدُونَ ) أى : وفى السماء محددة
ومقدرة أرزاقكم . وما توعدون به من ثواب أو عقاب ، ومن خير أو شر ، ومن بعث
وجزاء .و ( وَمَا ) فى محل رفع عطف على قوله ( رِزْقُكُمْ ) أى : وفى
السماء رزقكم والذى توعدونه من ثواب على الطاعة ، ومن عقاب على المعصية
فالآية الكريمة وإن كانت تلفت الأنظار إلى أسباب الرزق وإلى مباشرة هذه.
الأسباب ، إلا أنها تذكر المؤمن بأن يكون اعتماده على خالق الأسباب ، وأن
. يراقبه ويطيعه فى السر والعلن لأنه - سبحانه - هو صاحب الخلق والأمر

فورب السماء والارض انه لحق مثل ما انكم تنطقون

) : كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات بهذا القَسَم فقال
فَوَرَبِّ السمآء والأرض إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ

والضمير فى قوله ( إِنَّهُ ) يعود إلى ما سبق الإخبار عنه من أمر البعث. ( والحساب والجزاء والرزق . . . وغير ذلك مما يدل على صدق الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيما أخبر به عن ربه .ولفظ " مثل " منصوب بنزع الخافض ، و " ما مزيدة للتأكيد أى : فوحق رب السماء والأرض ، إن جميع ما ذكرناه لكم فى " هذه السورة ، أو فى هذا القرآن ، حق ثابت لا مرية فيهن كمثل نطقكم الذى تنطقونه بألسنتكم دون أن تشكوا فى كونه قد صدر منكم لا عن غيركم .فالمقصود بالآية الكريمة ، تأكيد صدق ما أخبر به الله - تعالى - عباده فى هذه السورة وغيرها ، لأن نطقهم بألسنتهم حقيقة لا يجادل فيها مجادل ، وكذلك ما جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم - من عند ربه ، وما تلاه عليهم فى هذه السورة وغيرها ، حق ثابت لا ريب فيه .وهكذا نرى هذه الآيات قد بشرت المتقين بألوان من البشارات ، ثم لفتت عقول الناس إلى ما فى الأرض وإلى ما فى أنفسهم وإلى ما فى السماء من عظات وعبر .

هل اتاك حديث ضيف ابراهيم المكرمين

كما فسرها الوسيط ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن قصص بعض الأنبياء السابقين فبدأت بجانب من قصة إبراهيم - عليه السلام - مع الملائكة الذين جاءوا لبشارته بابنه إسحاق ، فقال - تعالى - : ( هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ . . هذه القصة التى تحكى لنا هنا ما دار بين إبراهيم - عليه السلام - وبين. ( الملائكة الذين جاءوا لبشارته بابنه إسحاق ، ولإخباره بإهلاك قوم لوط ، قد وردت قبل ذلك فى سورتى هود والحجر .وقد افتتحت هنا بأسلوب الاستفهام ( هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ المكرمين ) للإشعار بأهمية هذه القصة وتفخيم شأنها ، وبأنها لا علم بها إلا عن طريق الوحى . . . وقيل إن هل ، هنا بمعنى قد .والمعنى : هل أتاك - أيها الرسول الكريم - حديث ضيف إبراهيم المكرمين؟ إننا فيما أنزلناه عليك من قرآن كريم ، نقص عليك قصتهم بالحق الذى لا يحوم حوله باطل ، على سبيل التثبيت لك ، والتسلية لقلبك .والضيف فى الأصل مصدر بمعنى الميل ، يقال ضاف فلان فلانا إذا مال كل واحد منهما نحو الآخر ، ويطلق على الواحد والجماعة . والمراد هنا : جماعة الملائكة الذين قدموا على إبراهيم - عليه السلام - وعلى رأسهم جبريل ، ووصفهم بأنهم كانوا مكرمين ، لإكرام الله - تعالى - لهم بطاعته وامتثال أمره . ولإكرام إبراهيم لهم ، حيث قدم لهم أشهى الأطعمة وأجودها .قال الآلوسى : قيل : كانوا اثنى عشر ملكا وقيل : كانوا ثلاثة : جبريل وإسرافيل وميكائيل . وسموا ضيفا لأنهم كانوا فى صورة الضيف ، ولأن إبراهيم - عليه السلام - حسبهم كذلك ، فالتسمية على مقتضى الظاهر والحسبان .وبدأ بقصة إبراهيم وإن كانت متأخرة عن قصة عاد لأنها أقوى فى غرض التسلية ، .

اذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون

كما فسرها الوسيط والظرف فى قوله : ( إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ . . ) متعلق بلفظ ( حَدِيثُ ) السابق .أى : هل بلغك حديثهم الواقع فى وقت دخولهم عليه . أو بمحذوف تقديره: اذكر ، أى : اذكر وقت أن دخلوا عليه ( عَلَيْهِ . . فَقَالُواْ سَلاَماً ) ، أى : فقالوا نسلم عليك سلاما .( قَالَ سَلاَمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ) أى : قال إبراهيم فى جوابه عليهم : عليكم سلام ، أنتم قوم منكرون أى : غير معروفين لى قبل ذلك .قال صاحب الكشاف : أنكرهم للسلام الذى هو علم الإسلام ، أو أراد أنهم ليسوا من معارفه ، أو من جنس الناس الذين عهدهم . . . أو رأى لهم حالا وشكلا خلاف حال الناس وشكلهم ، أو كان هذا سؤالا لهم ، كأنه قال : أنتم قوم منكرون فعرفونى من أنتم . .وقيل : إن إبراهيم قد قال ذلك فى نفسه ، والتقدير : هؤلاء قوم منكرون ، لأنه لم يرهم قبل ذلك .وقال إبراهيم فى جوابه عليهم ( سَلاَمٌ ) بالرفع ، لإفادة الدوام والثبات عن طريق الجملة الاسمية ، التى تدل على ذلك ، وللإشارة إلى أدبه معهم ، حيث رد على تحيتهم بأفضل منها .

فراغ الى اهله فجاء بعجل سمين

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما فعله إبراهيم بعد ذلك فقال فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ) أى : فذهب إلى أهله فى خفية من ضيوفه . فجاء إليهم بعجل متلىء لحما وشحما . يقال : راغ فلان إلى كذا ، إذا مال إليه فى استخفاء وسرعة .

فقربه اليهم قال الا تاكلون

كما فسرها الوسيط ( فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ ) أى : فذهب إلى أهله فذبح عجلا وشواه ، فقرب به إلى ضيوفه وقال لهم : ( أَلاَ تَأْكُلُونَ ) أى : حضهم على الأكل شأن المضيف الكريم . فقال لهم على سبيل التلطف وحسن العرض : ألا

تأكلون من طعامى .قال ابن كثير : وهذه الآيات انتظمت آداب الضيافة ، فإنه جاء بطعامه من حيث لا يشعرون بسرعة . ولم يمتن عليهم أولا فقال : نأتيكم بطعام؟ بل جاء به بسرعة وخفاء ، وأتى بأفضل ما وجد من ماله ، وهو عدل سمين مشوى فقربه إليهم ، لم يضعه وقال : اقتربوا ، بل وضعه بين أيديهم ، ولم يأمرهم أمرا يشق على سامعه بصيغة الجزم ، بل قال : ( أَلاَ تَأْكُلُونَ ) على سبيل العرض والتلطف ، كما يقول القائل اليوم : إن رأيت أن تتفضل وتحسن وتتصدق . فافعل .ولكن إبراهيم مع هذا العرض الحسن ، والكرم الواضح ، لم يجد من ضيوفه استجابة لدعوته .

فاوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم

كما فسرها الوسيط ( فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ) أى : فأضمر فى نفسه خوفا منهم حين رأى إعراضا عن طعامه ، مع حضهم على الأكل منه ، ومع جودة هذا الطعام .وهنا كشف الملائكة له عن ذواتهم فقالوا ( لاَ تَخَفْ ) أى :لا تخف فإنا رسل الله ( وَبَشَّرُوهُ بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ ) أى : وبشروه بغلام سيولد له ، وسيكون كثير العلم عندما يبلغ سن الرشد ، وهذا الغلام إسحاق - عليه السلام - .

فاقبلت امراته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم

كما فسرها الوسيط ثم يحكى القرآن بعد ذلك ما كان من امرأته بعد أن سمعت بهذه البشرى فقال : ( فَأَقْبَلَتِ امرأته فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ) .أى : فأقبلت امرأة إبراهيم - عليه السلام - وهى تصيح فى تعجب واستغراب من هذه البشرى . فضربت بيدها على وجهها وقالت : أنا عجوز عقيم فكيف ألد؟والصرة : من الصرير وهو الصوت ، ومنه صرير الباب ، أى : صوته ، والصك الضرب الشديد على الوجه ، وعادة ما تفعله النساء إذا تعجبن من شىء .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - فى سورة هود : ( قَالَتْ ياويلتى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وهذا بَعْلِي شَيْخاً إِنّ هذا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ).

قالوا كذلك قال ربك انه هو الحكيم العليم

كما فسرها الوسيط وهنا رد عليها الملائكة بما يزيل تعجبها واستغرابها ) : واستبعادها لأن يكون لها ولد مع كبر سنها ، ويحكى القرآن ذلك فيقول قَالُواْ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الحكيم العليم ) .أى : قال الملائكة لامرأة إبراهيم :لا تتعجبى من أن يكون لك غلام فى هذه السن ، فإن - هذا الحكم هو حكم ربك . وهذا القول الذى بشرناك به هو قوله - سبحانه وقوله لا مرد له : إنه - تعالى - هو الحكيم فى كل أقواله وأفعاله . العليم بأحوال خلقه .

قال فما خطبكم ايها المرسلون

كما فسرها الوسيط وهنا عرف إبراهيم - عليه السلام - حقيقة ضيوفه : فأخذ يسألهم : ( قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا المرسلون ) والخطب : الأمر الهام ، والشأن الخطير ، وجمعه خطوب .أى : قال لهم إبراهيم بعد أن اطمأن إليهم ، وعلم أنهم ملائكة . فما شأنكم الخطير الذى من أجله جئتم إلى أيها المرسلون بعد هذه البشارة؟

قالوا انا ارسلنا الى قوم مجرمين

كما فسرها الوسيط ( قالوا ) فى الإجابة عليه ، ( إِنَّآ أُرْسِلْنَآ ) ، بأمر ربنا ( إلى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ) قوم لوط .

لنرسل عليهم حجارة من طين

كما فسرها الوسيط ( لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ) أى : لنرسل عليهم - بعد قلب قراهم - حجارة من طين متحجر ، حالة كون هذه الحجارة .

مسومة عند ربك للمسرفين

كما فسرها الوسيط ( مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ) أى : معلمة عند الله - تعالى - وفى علمه ، وقد أعدها - سبحانه - لرجم هؤلاء الذين أسرفوا فى عصيانهم له - تعالى - وأتوا بفاحشة لم يسبقهم إليها أحد من

العاملين .فقوله : ( مُّسَوَّمَةً ) حال من الحجارة ، والسَّومة : العلامة
ومنه قوله - تعالى - : ( والخيل المسومة ) .

فاخرجنا من كان فيها من المؤمنين

كما فسرها الوسيط والفاء فى قوله - تعالى - بعد ذلك : ( فَأَخْرَجْنَا مَن
كَانَ فِيهَا مِنَ المؤمنين فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ
المسلمين ) هى الفصيحة ، لأنها قد أفصحت عن كلام محذوف .والمعنى : ففارق
الملائكة إبراهيم ذاهبين إلى قوم لوط لإهلاكهم وجرى بينهم وبين لوط - عليه
السلام - ما جرى ثم أخذوا فى تنفيذ ما كلفناهم به ، فأخرجنا - بفضلنا
- ورحمتنا - من كان فى قرية لوط من المؤمنين دون أن يمسهم عذابنا .ووصف
سبحانه - الناجين من العذاب - وهم لوط وأهل بيته إلا امرأته - بصفتى
، الإيمان والإسلام ، على سبيل المدح لهم ، أى : أنهم كانوا مصدقين بقلوبهم
. ومنقادين لأحكام الله - تعالى - بجوارحهم

فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين

، كما فسرها الوسيط فما وجدنا فى تلك القرية غير أهل بيت واحد من المسلمين
أما بقية سكان هذه القرية فقد دمرناهم تدميرا .ووصف - سبحانه - الناجين من
العذاب - وهم لوط وأهل بيته إلا امرأته - بصفتى الإيمان والإسلام ، على
- سبيل المدح لهم ، أى : أنهم كانوا مصدقين بقلوبهم ، ومنقادين لأحكام الله
تعالى - بجوارحهم .قال ابن كثير : احتج بهاتين الآيتين من ذهب إلى رأى
المعتزلة ، ممن لا يفرقون بين معنى الإيمان ، والإسلام ، لأنه أطلق عليهم
، المؤمنين والمسلمين وهذا الاستدلال ضعيف ، لأن هؤلاء كانوا قوما مؤمنين
وعندنا أن كل مؤمن مسلم ولا ينعكس ، فاتفق الاسمان هنا لخصوصية الحال ، ولا
. يلزم ذلك فى كل حال

وتركنا فيها اية للذين يخافون العذاب الاليم

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أنه قد ترك من وراء هلاكهم ما يدعو
غيرهم إلى الاعتبار بهم فقال : ( وَتَرَكْنَا فِيهَآ ) أى : فى قرية قوم
لوط التى جعل الملائكة عاليها سافلها ( آيَةً ) أى : علامة تدل على ما
أصابهم من هلاك ، قيل : هى تلك الأحجار التى أهلكوا بها .وهذه الآية إنما
هى ( لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ العذاب الأليم ) لأنهم هم الذين يعتبرون
وينتفعون بها ، أما غيرهم من الذين استحوذ عليهم الشيطان ، فإن هذه الآيات
. لا تزيدهم إلا رجسا على رجسهم

وفي موسى اذ ارسلناه الى فرعون بسلطان مبين

كما فسرها الوسيط ثم تحدثت السورة بعد ذلك عن جانب من قصص موسى وهود وصالح
ونوح . - عليهم السلام - فقال - سبحانه - : ( وَفِي موسى إِذْ . . )
) قوله - سبحانه - : ( وَفِي موسى ) معطوف على قوله - تعالى - قبل ذلك.
وَتَرَكْنَا فِيهَآ ) والكلام على حذف مضاف .والظرف فى قوله : ( إِذْ
أَرْسَلْنَاهُ إلى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ) . متعلق بمحذوف هو
نعت لقوله ( آيَةً ) قبل ذلك .أى : وتركنا فى قصة موسى - أيضا - أى ، هذه
: الآية كائنة وقت أن أرسلناه إلى فرعون ( بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ) أى
. بمعجزة واضحة بينة هى اليد والعصا وغيرهما

فتولى بركنه وقال ساحر او مجنون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( فتولى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ
أَوْ مَجْنُونٌ ) بيان لموقف فرعون من موسى - عليه السلام - أى : أرسلنا
موسى بآياتنا الدالة على صدقه إلى فرعون وملئه ، فما كان من فرعون إلا أن
أعرض عن دعوة الحق ، وتعاظم على موسى بملكه وجنوده وقوته . . . وقال فى شأن
موسى - عليه السلام - هو ساحر أو مجنون .والركن جانب البدن . والمراد به
: هنا : جنوده الذين يركن إليهم ، وقوته التى اغتر بها .قال الآلوسى : قوله
أى : فأعرض عن الإيمان بموسى ، على أن ركنه جانب بدنه ( فتولى بِرُكْنِهِ )
وعطفه ، والتولى به كناية عن الإعراض ، والباء للتعدية ، لأن معناه : ثنى
عطفه .وقال قتادة : تولى بقومه على أن الركن بمعنى القوم ، لأنه يركن إليهم
ويتقوى بهم ، والباء للمصاحبة أو الملابسة . . . وقيل : تولى بقوته وسلطانه
. فالركن يستعار للقوة .

فاخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - نتيجة إعراض فرعون عن الحق فقال
( فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي اليم وَهُوَ مُلِيمٌ
والنبذ : الطرح للشىء بدون اكتراث أو اهتمام به ، و قوله ( مُلِيمٌ ) من.
ألام ، إذا أتى ما يلام عليه ، كأغرب إذا أتى أمرا غريبا ، وجملة ، وهو
مليم ، حال من المفعول فى قوله ( فَأَخَذْنَاهُ ) .أى : فأخذنا فرعون هو
وجنوده الذين ارتكن إليهم أخذ عزيز مقتدر ، فألقينا بهم جميعا فى البحر
بدون اعتداد بهم ، بعد أن أتى فرعون بما يلام عليه من الكفر والطغيان .قال
صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف وصف نبى الله يونس - عليه السلام - بما وصف به
فرعون فى قوله - تعالى - : ( فالتقمه الحوت وَهُوَ مُلِيمٌ ) قلت : موجبات
اللوم تختلف ، وعلى حسب اختلافها تختلف مقادير اللوم ، فراكب الكبيرة ملوم
) : - على مقدارها ، وكذلك مقترف الصغيرة . ألا ترى إلى قوله - تعالى
وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ ) وقوله ( وعصى ءَادَمُ رَبّهُ فغوى ) لأن الكبيرة
. والصغيرة يجمعهما اسم العصيان ، كما يجمعهما اسم القبيح والسيئة

وفي عاد اذ ارسلنا عليهم الريح العقيم

كما فسرها الوسيط ثم تنتقل السورة بعد ذلك إلى بيان ما حل بقوم هود - عليه
السلام - فتقول : ( وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الريح العقيم
: مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كالرميم ) .أى
وتركنا فى قصة عاد - أيضا - وهم قوم هود - عليه السلام - آية وعبرة ، وقت
أن أرسلنا عليهم الريح العقيم .أى : الريح الشديدة التى لا خير فيها من
إنشاء مطر ، أو تلقيح شجر ، وهى ريح الهلاك وأصل العقم : اليبس المانع من
قبول الأثر .شبه - سبحانه - الريح التى أهلكتهم وقطعت دابرهم ، بالمرأة
. التى انقطع نسلها ، بجامع انعدام الأثر فى كل

ما تذر من شيء اتت عليه الا جعلته كالرميم

كما فسرها الوسيط ثم وصف - سبحانه - هذه الريح التى توهموا أنها تحمل لهم
الخير ، بينما هى تحمل لهم الهلاك ، وصفها بقوله : ( مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ
أَتَتْ عَلَيْهِ ) أى : ما تترك من شىء مرت عليه .( إِلاَّ جَعَلَتْهُ
كالرميم ) أى : إلا جعلته كالشىء الميت الذى رم وتحول إلى فتات مأخوذ من رم
الشىء إذا تفتت وتهشم . ويقال للنبات إذا يبس وتفتت : رميم وهشيم .كما يقال
للعظم إذا تكسر وبَلِىَ : رميم . ومنه قوله - تعالى - : ( قَالَ مَن يُحيِي
العظام وَهِيَ رَمِيمٌ ).

وفي ثمود اذ قيل لهم تمتعوا حتى حين

- كما فسرها الوسيط ثم انتقلت السورة بعد ذلك إلى بيان ما حل بقوم صالح
عليه السلام - فقال - تعالى - : ( وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ
تَمَتّعُواْ حتى حِينٍ ) .أى : وتركنا - كذلك - فى قصة صالح - عليه
السلام - مع قومه آية وعظة ، وقت أن قال لهم - على سبيل الإنذار والتحذير
، من المداومة على الكفر . . . تمتعوا بحياتكم التى تعيشونها فى هذه الدنيا
حتى وقت معين فى علم الله - تعالى - تنتهى عنده أعماركم .وهذا التمتع
بالحياة حتى حين ، يحتمل أن المقصود به ، ما أشار إليه - سبحانه - فى سورة
هود بقوله : ( فَعَقَرُوهَا ) - أى الناقة - ( فَقَالَ تَمَتّعُواْ فِي
دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أيّامٍ ذلك وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ) ويحتمل أن
يكون المقصود به : ما قدره الله - تعالى - من عمر منذ أن بلغهم صالح رسالة
ربه إلى أن عقروا الناقة ، وحق عليهم العذاب .قال القرطبى : قوله : ( وَفِي
ثَمُودَ ) أى : وفيهم - أيضا - عبرة وعظة ، حين قيل لهم عيشوا متمتعين
بالدنيا ( حتى حِينٍ ) أى : إلى وقت الهلاك وهو ثلاثة أيام ، كما فى سورة
هود . . . وقيل : معنى ( تَمَتّعُواْ ) أى : أسلموا وتمتعوا إلى وقت فراغ
. آجالكم

فعتوا عن امر ربهم فاخذتهم الصاعقة وهم ينظرون

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما كان منهم من كفر وفجور فقال
فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبّهِمْ ) أى : فتكبروا واستهانوا بما أمرهم
الله - تعالى - به على لسان نبيهم صالح - عليه السلام - .( فَأَخَذَتْهُمُ
الصاعقة ) وهى كل عذاب مهلك ، من الصعق بمعنى الإهلاك .( وَهُمْ يَنظُرُونَ
. أى : وهم يرونها عيانا ، لأن العذاب - كما تشير الآية - نزل بهم نهارا )

فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين

كما فسرها الوسيط ( فَمَا استطاعوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُواْ

مُنتَصِرِينَ ) أى : أنه حين نزل بهم عذابنا ، أعجزهم عن الحركة ، وشل حواسهم ، فما استطاعوا أن يهربوا منه . وما قدروا على القيام بعد أن كانوا قاعدين ، وما نصرهم من بأسنا ناصر .

وقوم نوح من قبل انهم كانوا قوما فاسقين

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات بلمحة عن قصة نوح - عليه السلام - فقال ( وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ) أى : وأهلكنا قوم نوح من قبل هؤلاء جميعا بالطوفان .( إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فَاسِقِينَ ) أى : خارجين عن طاعتنا ، منغمسين فى الكفر والعصيان .وهكذا ساقت السورة الكريمة جانبا من قصص هؤلاء الأنبياء ، ليكون فى ذلك تسلية للنبى - صلى الله عليه وسلم - وتذكرة للمتذكرين .

والسماء بنيناها بايد وانا لموسعون

كما فسرها الوسيط وبعد هذا الحديث عن هؤلاء الأقوام . . . جاء الحديث عن - مظاهر قدرة الله - تعالى - وسعة رحمته ، ووافر نعمه ، وحض الناس على شكره تعالى - وطاعته . فقال - عز وجل - : ( والسماء . . ) .لفظ ( السماء . . . ) منصوب على الاشتغال . أى : وبنينا السماء بنيناها ( بِأَيْدٍ ) أى : بقوة وقدرة . يقال : آد الرجل يئيد - كباع - إذا اشتد وقوى .( وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ) أى : وإنا لقادرون على توسعتها بتلك الصورة العجيبة من الوسع بمعنى القدرة والطاقة ، يقال : أوسع الرجل ، أى : صار ذات سعة ، والمفعول محذوف ، أى : وإنا لموسعون السماء ، أو الأرزاق .فالجملة تصوير بديع لمظاهر قدرة الله ، وكمال قوته ، وواسع فضله .

والارض فرشناها فنعم الماهدون

- كما فسرها الوسيط ( والأرض فَرَشْنَاهَا ) أى : وفرشنا الأرض بقدرتنا ). أيضا - ، بأن مهدناها وبسطناها وجعلناها صالحة لمنفعتكم وراحتكم فَنِعْمَ الماهدون ) نحن ، يقال : مهدت الفراش ، إذا بسطته ووطأته وحسنته وفى هاتين الآيتين ما فيهما من الدلالة على قدرة الله - تعالى - ورحمته. بعباده ، حيث أوجد هذه السماء الواسعة التى تعتبر الأرض بما فيها كحلقة فى فلاة بالنسبة لها ، فهى تحوى مئات الملايين من النجوم المتناثرة فى أرجائها . وأوجد - سبحانه - الأرض لتكون موطنا للإنسان ، ومنزلا لراحته . . . .

ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون

كما فسرها الوسيط ثم قال - تعالى - : ( وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ) أى : نوعين متقابلين كالذكر والأنثى . والليل والنهار ، والسماء والأرض ، والغنى والفقر ، والهدى والضلال .( لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ) أى فعلنا ذلك لعلكم تعتبرون وتتعظون وتتذكرون ما يجب عليكم نحونا من الشكر والطاعة وإخلاص العبادة لنا وحدنا .

ففروا الى الله اني لكم منه نذير مبين

كما فسرها الوسيط والفاء فى قوله : ( ففروا إِلَى الله . . . ) للتفريع على قوله - تعالى - ( لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ) ، أى : ما دام الأمر كما ذكرت لكم من وجود التذكر والاعتبار ، ففروا إلى الله من معصيته إلى طاعته ، ومن كفره إلى شكره ، ومن السيئات إلى الحسنات .قال الإمام الرازى ما ملخصه : وفى هذا التعبير لطائف؛ لأنه ينبىء عن سرعة الإهلاء ، كأنه يقول : الاهلاك والعذاب أسرع وأقرب ، من أن يحتمل الحال الإبطاء فى الرجوع . فافزعوا سريعا إلى الله - تعالى - وفروا إلى طاعته ، فإنه لا مهرب منه .وقوله : ( إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ) تعليل للأمر بالفرار ، أى : أسرعوا إلى طاعة الله - تعالى - إنى لكم من عقابه المعد لمن يصر على معصيته نذير بَيِّن الإنذار .

ولا تجعلوا مع الله الها اخر اني لكم منه نذير مبين

كما فسرها الوسيط ثم أكد - سبحانه - هذا الإنذار ، ونهى عن التقاعس فقال : أى : واحذروا أن تجعلوا مع ( وَلاَ تَجْعَلُواْ مَعَ الله إِلَهاً آخَرَ ) الله - تعالى - إلها آخر ، فى العبادة أو الطاعة ( إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ ) فالآية الأولى كان التعليل فيها للأمر بالفرار إلى. ( نَذِيرٌ مُّبِينٌ ) - الله - تعالى - والثانية كان التعليل فيها للنهى عن الإشراك به - سبحانه وبذلك ترى أن هذه الآيات الكريمة ، قد بينت جانبا من الدلائل على قدرة.

. الله - تعالى - وأمرت الناس بإخلاص العبادة لله ، ونهت عن الإشراك به

كذلك ما اتى الذين من قبلهم من رسول الا قالوا ساحر او مجنون

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ، ببيان مواقف الأقوام من رسلهم ، وببيان الوظيفة التى أوجد الله - تعالى - الناس من أجلها فقال : قوله : ( كَذَلِكَ ) خبر لمبتدأ محذوف . أى : الأمر. ( . . كَذَلِكَ مَآ ) كذلك ، واسم الإشارة مشار به إلى الكلام الذى سيتلوه ، إذ أن ما بعده وهو : قوله : ( مَآ أَتَى الذين مِن قَبْلِهِمْ مِّن رَّسُولٍ ) تفسير له . أى الأمر - أيها الرسول الكريم - كما نخبرك ، من أنه ما أتى الأقوام الذين قبل قومك من رسول يدعوهم إلى عبادتنا وطاعتنا ، إلا قالوا له - كما قال قومك فى شأنك - هو - ساحر أو مجنون .والمقصود بالآية الكريمة تسلية الرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من مشركى قريش ، حيث بين له - سبحانه - أن . - الرسل السابقين قد كذبتهم أممهم ، فصبروا حتى أتاهم نصره - سبحانه

اتواصوا به بل هم قوم طاغون

) : كما فسرها الوسيط ثم أضاف - سبحانه - إلى هذه التسلية تسلية أخرى فقال ، أَتَوَاصَوْاْ بِهِ ) ؟ والضمير المجرور يعود إلى القول المذكور والاستفهام للتعجيب من أحوالهم . أى : أوصى السابقون اللاحقين أن يقولوا - لكل رسول يأتيهم من ربهم . أنت - أيها الرسول - ساحر أو مجنون؟وقوله ، سبحانه - : ( بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ) إضراب عن تواصيهم إضراب إبطال لأنهم لم يجمعهم زمان واحد حتى يوصى بعضهم بعضا ، وإنما الذى جمعهم تشابه القلوب ، والالتقاء على الكفر والفسوق والعصيان .أى : أوصى بعضهم بعضا بهذا القول القبيح؟ كلا لم يوص بعضهم بعضا لأنهم لم يتلاقوا ، وإنما تشابهت . قلوبهم ، فاتحدت ألسنتهم فى هذا القول المنكر

فتول عنهم فما انت بملوم

كما فسرها الوسيط ثم تسلية ثالثة نراها فى قوله - تعالى - : ( فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ) أى : فأعرض عنهم وعن جدالهم ، وسر فى طريقك الذى رسمه الحكيم الخبير لك .( فَمَآ أَنتَ ) أيها الرسول الكريم - ( بِمَلُومٍ ) على . الإعراض عنهم ، وما أنت بمعاتب منا على ترك مجادلتهم

وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين

كما فسرها الوسيط ( وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذكرى تَنفَعُ المؤمنين ) أى : أعرض عن هؤلاء المشركين ، وداوم على التذكير والتبشير والإنذار مهما تقول . المتقولون ، فإن التذكير بما أوحيناه إليك من هدايات سامية ، وآداب حكيمة . ينفع المؤمنين ، ولا ينفع غيرهم من الجاحدين . .

وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون

- كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - الوظيفة التى من أجلها أوجد الله تعالى - الجن والإنس فقال : ( وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ) .وللعلماء فى تفسير هذه الآية أقوال منها : أن معناها : إنى ما أوجدت الجن والإنس إلا وهم مهيئون لعبادتى وطاعتى . بسبب ما ركبت فيهم من عقول تعقل ، وبسبب ما أرسلت إليهم من رسل يهدونهم إلى الخير ، فمنهم من أطاع الرسل ، وجرى ما مقتضى ما تقتضيه الفطرة ، فآمن بالرسل ، واتبع الحق والرشد ، ففاز وسعد ، ومنهم من أعرض عن دعوة الرسل ، وعاند فطرته وموجب استعداده فخسر وخاب .ومنهم من يرى أن معناها : إنى ما خلقت الجن والإنس إلا ليقروا لى بالعبودية طوعا أو كرها ، لأن المؤمن يطيع ): - باختياره ، والكافر مذعن منقاد لقضاء ربه ، كما فى قوله - تعالى وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السماوات والأرض طَوْعاً وَكَرْهاً ) ومنهم من يرى معناها : إنى ما خلقت الجن والإنس إلا ليعرفونى .قال القرطبى ما ملخصه قوله - تعالى - : ( وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ) : قيل : إن هذا خاص فيمن سبق فى علم الله أنه يعبده . فجاء بلفظ العموم ومعناه الخصوص . . . فالآية فى المؤمنين منهم .وقال على - رضى الله عنه : - أى : وما خلقت الجن والإنس إلا لآمرهم بعبادتى قال - تعالى - ( وَمَآ أمروا ) : إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين حُنَفَآءَ ) وقيل إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ) أى : إلا ليقروا لى بالعبادة طوعا أو كرها .ويبدو لنا أن أرجح هذه الأقوال هو ما أشرنا إليه أولا ، من أن معنى الآية الكريمة - أن الله - تعالى - قد خلق الثقلين لعبادته وطاعته ، ولكن منهم من أطاعة ، سبحانه - ، ومنهم من عصاه . لاستحواذ الشيطان عليه .قال الإمام ابن كثير

بعد أن ذكر جملة من الأقوال : ومعنى الآية أنه - تعالى - خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له ، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء ، ومن عصاه عذبه أشد العذاب .وفى الحديث القدسى : قال الله - عز وجل - " يا بن آدم ، تفرغ لعبادتى أملأ صدرك غنى ، وأسد فقرك ، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلا ، ولم أسد فقرك . . " .وفى بعض الكتب الإلهية . يقول الله - تعالى - " يابن آدم ، خلقتك لعبادتى فلا تلعب ، وتكفلت برزقك فلا تتعب ، فاطلبنى تجدنى . فإن وجدتنى وجدت كل شىء ، وإن فتك فاتك كل شىء ، وأنا أحب إليك من كل شىء " .

ما اريد منهم من رزق وما اريد ان يطعمون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أنه غنى عن العالمين فقال : ( مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ) أى : ما أريد منهم منفعة أو رزقا كما يريد الناس بعضهم من بعض . . . وما أريد منهم طعاما ولا شرابا ، فأنا الذى أطعم ولا أُطعم كما قال - سبحانه - : ( قُلْ أَغَيْرَ الله أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السماوات والأرض وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ ) قال الآلوسى : والآية لبيان أن شأنه - تعالى - مع عباده ليس كشأن السادة مع عبيدهم ، لأنهم إنما يملكونهم ليستعينوا بهم فى تحصيل معايشهم وأرزاقهم ، ومالك العبيد نفى أن يكون ملكه إياهم لذلك ، فكانه - سبحانه - يقول : ما أريد أن أستعين بهم ، كما يستعين ملاك العبيد بعبيدهم ، فليشتغلوا بما خلقوا له من عبادتى .

ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أنه هو صاحب القوة والرزق فقال : ( إِنَّ الله هُوَ الرزاق ذُو القوة المتين ) أى : إن الله - تعالى - هو الرزاق لغيره دون أحد سواه ، وهو - سبحانه - صاحب القوة التى لا تشبهها قوة ، وهو المتين أى : الشديد القوة - أيضا - فهو صفة للرزاق ، أو لقوله : ( ذُو ) ، أو خبر مبتدأ محذوف .وهو مأخوذ من المتانة بمعنى القوة الفائقة .

فان للذين ظلموا ذنوبا مثل ذنوب اصحابهم فلا يستعجلون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة الظالمين فقال : ( فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوباً مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلاَ يَسْتَعْجِلُونِ ) .والذَّنُوب فى الأصل : الدلو العظيمة المملوءة ماء ، ولا يقال لها ذنوب إذا كانت فارغة . وجمعها ذَنَائِب ، كقلوص وقلائص ، وكانوا يستسقون الماء فيقسمونه بينهم على الأنصباء . فيكون لهذا ذنوب ولهذا ذنوب . فالمراد بالذنوب هنا : النصيب ، والمعنى : فإن للذين ظلموا أنفسهم بعبادتهم لغير الله ، وبظلمهم لغيرهم ، نصيبا من العذاب ، مثل نصيب نظرائهم فى الظلم والكفر ، فلا يستعجلون عذابى ، فإنه نازل بهم فى الوقت الذى أريد .

فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون

كما فسرها الوسيط ( فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ الذي يُوعَدُونَ ) أى : فهلاك للذين كفروا ، هذا الهلاك سيكون فى اليوم الذى توعدتهم بالهلاك فيه ، والذى هو نازل بهم بلا ريب أو شك ، وبعد : فهذا تفسير لسورة " الذاريات " ، نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

والطور

كما فسرها الوسيط افتتح الله - تعالى - هذه السورة الكريمة بالقسم خمسة أشياء هى من أعظم مخلوقاته ، للدلالة على كمال قدرته ، وبديع صنعته ، وتفرد ألوهيته . . . فقال - سبحانه - : ( والطور ) والمراد به جبل الطور ، والمشار إليه فى قوله - تعالى - : ( والتين والزيتون وَطُورِ سِينِينَ ) ، قال القرطبى : والطور : اسم الجبل الذى كلم الله - تعالى - عليه موسى : أقسم الله به تشريفا وتكريما له ، وتذكيرا لما فيه من الآيات . . . وقيل : إن الطور اسم لكل جبل أنبت ، ومالا ينبت فليس بطور .

وكتاب مسطور

كما فسرها الوسيط ( وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ) أى مكتوب متسق الكتابة ، منتظم الحروف ، مرتب المعانى ، فالمراد بالكتاب : المكتوب . وبالمسطور : الذى سطرت حروفه وكلماته تسطيرا جميلا حسنا .والأظهر أن المقصود به القرآن

- الكريم ، لأن الله - تعالى - قد أقسم به كثيراً ، ومن ذلك قوله - سبحانه
وقيل المقصود به : جنس ( يسا والقرآن الحكيم ) ( حما والكتاب المبين )
) : الكتب السماوية المنزلة . وقيل : صحائف الأعمال .قال الألوسى : قوله
وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ) أى : مكتوب على وجه الانتظام ، فإن السطر ترتيب
الحروف المكتوبة . والمراد به على ما قال الفراء : الكتاب الذى تكتب فيه
الأعمال ، ويعطاه العبد يوم القيامة بيمينه أو بشماله ، وقال الكلبى : هو
التوراة . وقيل : القرآن الكريم وقيل : اللوح المحفوظ .

في رق منشور

: كما فسرها الوسيط وقوله : فى ( فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ ) متعلق بمسطور . أى
: مسطور فى رق . والرق - بالفتح - كل ما يكتب فيه من ألواح وغيرها . وأصله
) - الجلد الرقيق الذى يكتب عليه .والمنشور : المبسوط ، ومنه قوله - تعالى
وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القيامة كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً ) أى : أن
هذا الكتاب المسطور ، كائن فى صحائف مبسوطة ظاهرة لكل من ينظر إليها .

والبيت المعمور

كما فسرها الوسيط وقوله . ( والبيت المعمور ) هو بيت فى السماء السابعة
تطوف به الملائكة بأمر الله - تعالى - .قال ابن كثير : ثبت فى الصحيحين أن
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال فى حديث الإسراء والمعراج ، بعد
مجاوزته إلى السماء السابعة : " ثم رفع بى إلى البيت المعمور ، وإذا هو
يدخله فى كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة " .وقيل المراد بالبيت المعمور
هنا : البيت الحرام ، وسمى بذلك لأنه معمور بالحجاج والعمار .

والسقف المرفوع

كما فسرها الوسيط ( والسقف المرفوع ) ، أى : والسماء المرفوعة ، وسميت سقفا
لكونه بمثابة السقف للأرض كما قال - تعالى - : ( وَجَعَلْنَا السمآء
سَقْفاً مَّحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ).

والبحر المسجور

كما فسرها الوسيط ( والبحر المسجور ) أى : المملوء بالماء ، يقال ، سجر
فلان الحوض إذا ملأه بالماء .أو المسجور : بمعنى : المملوء بالنار من
السّجْر ، وهو إيقاد النار فى التنور ، ومنه قوله - تعالى - : ( . . . فِي
الحميم ثُمَّ فِي النار يُسْجَرُونَ ) والمراد بالبحر هنا : جنسه . قال ابن
عباس : تملأ البحار كلها يوم القيامة بالنار ، فيزاد بها فى نار جهنم
وبهذا نرى أن الله - تعالى - قد أقسم بخمسة أشياء من مخلوقاته ، للدلالة.
على وحدانيته ، وعلى شمول قدرته ، وعلى بديع صنعته .

ان عذاب ربك لواقع

كما فسرها الوسيط وجواب هذا القسم قوله - سبحانه - : ( إِنَّ عَذَابَ
رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ) أى : وحق هذه المخلوقات الضخمة البديعة ، إن عذاب ربك
لواقع وقوعا لا شك فيه على الكافرين يوم القيامة .

ما له من دافع

: كما فسرها الوسيط وقوله : ( مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ) خبر ثان لإن فى قوله
أى : هو واقع دون أن يستطيع أحد أن ( إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ )
يدفعه أو يرده .عن جبير بن مطعم - رضى الله عنه - قال : قدمت المدينة على
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأكلمه فى أسارة بدر ، فجئت إليه وهو
يصلى بأصحابه صلاة المغرب ، فسمعته يقرأ ( والطور ) ألى ( إِنَّ عَذَابَ
رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ) فكأنما صدع قلبى ، فأسلمت خوفا
من نزول العذاب وما كنت أظن أن أقوم مقامى . . .

يوم تمور السماء مورا

كما فسرها الوسيط والظرف فى قوله : ( يَوْمَ تَمُورُ السمآء مَوْراً )
متعلق بقوله ( لَوَاقِعٌ ) ومنصوب به ، أى : إن هذا العذاب لواقع يوم تضطرب
السماء اضطرابا شديدا ، وتتحرك بمن فيها تحركا تتداخل معه أجزاؤها .فالمور
هو الحركة والاضطراب والدوران ، والمجىء والذهاب ، والتموج والتكفُّؤ ،
يقال : مار الشىء مورا ، إذا تحرك واضطرب .

وتسير الجبال سيرا

كما فسرها الوسيط ( وَتَسِيرُ الجبال سَيْراً ) أى عذاب ربك واقع يوم تضطرب السماء بأهلها وتزول الجبال عن أماكنها ، وتتطاير كالسحب ، ثم تتفت كالرمال ثم تصير كالصوف المنفوش .قال - تعالى - : ( وَتَرَى الجبال تَحْسَبُهَا ، جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرّ السحابِ صُنْعَ الله الذي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ) وقال - سبحانه - : ( يَوْمَ تَكُونُ السمآء كالمهل وَتَكُونُ الجبال كالعهن وَلاَ يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً ).

فويل يومئذ للمكذبين

كما فسرها الوسيط وقوله : ( فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ) أى : فهلاك وحسرة فى هذا اليوم للمكذبين به .

الذين هم في خوض يلعبون

كما فسرها الوسيط ( الذين هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ) أى : إذا كان الأمر كما ذكرنا لك - أيها العاقل - فهلاك وحسرة فى هذا اليوم للمكذبين بالحق ، الذين هم عاشوا حياتهم الدنيا يلهون ويلعبون دون أن يذكروا حسابا ولا ثوابا ولا عقابا .وأصل الخوض : المشى فى الماء ، ثم غلب استعماله فى الاندفاع فى كل باطل .

يوم يدعون الى نار جهنم دعا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - حالهم يوم القيامة فقال : ( يَوْمَ يُدَعُّونَ إلى نَارِ جَهَنّمَ دَعًّا هذه النار التي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ) .والدع : الدفع بعنف وشدة . يقال : دَعّ فلان فلانا دَعًّا إذا دفعه بجفوة وغلظة ، ومنه قوله - تعالى - : ( أَرَأَيْتَ الذي ، يُكَذِّبُ بالدين فَذَلِكَ الذي يَدُعُّ اليتيم ) أى : اذكر - أيها العاقل - لتعتبر وتتعظ ، يوم يدفع هؤلاء المكذبون إلى النار دفعا قويا .لا رحمة معه ، ولا شفقة فيه .

هذه النار التي كنتم بها تكذبون

كما فسرها الوسيط ثم يقال لهم بعد هذا الطرد الشديد : هذه هى النار التى كنتم بها تكذبون فى الدنيا ، ادخلوها فبئس مثوى المتكبرين .

افسحر هذا ام انتم لا تبصرون

كما فسرها الوسيط ثم يقال لهم - أيضا - على سبيل التوبيخ والزجر : ( أَفَسِحْرٌ هذا ) أى أفسحر هذا الذى ترونه من العذاب كما كنتم تزعمونه فى الدنيا؟( أَمْ أَنتُمْ لاَ تُبْصِرُونَ ) أى : أم أنتم عمى عن مشاهدة العذاب المعد لكم فلا تبصرونه؟ لا ، إن هذا العذاب ليس سحرا ، ولستم أنتم بمحجوبين عن رؤيته ، بل هو أمام أعينكم ، ومهيأ لاستقبالكم ، وهذه النار تناديكم ، وملائكتنا تقول لكم :

اصلوها فاصبروا او لا تصبروا سواء عليكم انما تجزون ما كنتم تعملون

كما فسرها الوسيط ( اصلوها ) أى : ادخلوها ، وقاسوا حرها ( فاصبروا أَوْ لاَ تَصْبِرُواْ ) أى : ادخلوها داخرين فاصبروا على سعيرها أو لا تصبروا ، فهى مأواكم لا محالة .( سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ) الأمران ، الصبر وعدمه ، لأن كليهما لا فائدة لكم من روائه .فقوله : ( سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ) خبر لمبتدأ محذوف . أى : الأمران سواء بالنسبة لكم .( إِنّمَا تُجْزَوْنَ ) فى هذا اليوم عاقبة ، ( مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ) أى : فى الدنيا .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم علل استواء الصبر وعدمه بقوله : ( إِنّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ) ؟قلت : لأن الصبر إنما يكون له مزية على الجزع ، لنفعة فى العاقبة بأن يجازى عليه الصابر جزاء الخير ، فأما الصبر على العذاب الذى هو الجزاء ، ولا عاقبة له ولا منفعة ، فلا مزية له على الجزع .

ان المتقين في جنات ونعيم

كما فسرها الوسيط وكعادة القرآن الكريم فى المقارنة بين سوء عاقبة المكذبين

، وحسن عاقبة المؤمنين ، جاء الحديث عن المتقين ، بعد الحديث عن الكافرين ، فقال - تعالى - : ( إِنَّ المتقين . . . ) .المعنى : ( إِنَّ المتقين ) الذين صانوا أنفسهم عن كل ما نهى الله - تعالى - عنه .( فِي جَنَّاتٍ ) عظيمة وفى ( وَنَعِيمٍ ) دائم لا ينقطع .

فاكهين بما اتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم

كما فسرها الوسيط ( فَاكِهِينَ ) أى : متلذذين متنعمين بما يحيط بهم من خيرات ، مأخوذ من الفَكاهة - بفتح الفاء - وهى طيب العيش مع النشاط ، يقال ، فكه الرجل فكَها ، وفكاهة فهو فكِه وفاكه . إذا طاب عيشه ، وزاد سروره : وعظم نشاطه ، وسميت الفاكهة بهذا الاسم لتلذذ الإنسان بها .( بِمَآ آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الجحيم ) أى متلذذين بسبب ما آتاهم ربهم من جنات عظيمة ، ووقاهم - سبحانه - بفضله ورحمته العذاب الذى يؤلمهم .

كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون

كما فسرها الوسيط ويقال لهم فضلا عن ذلك على سبيل التكريم : ( كُلُواْ واشربوا هَنِيئَاً ) أى : كلوا أكلا مريئا ، واشربوا شربا هينئا . والهنىء من المأكول والمشروب : مالا يلحقه تعب أو سوء عاقبة .

متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين

كما فسرها الوسيط وقوله : ( مُتَّكِئِينَ على سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ) منصوب على الحال من فاعل ( كُلُواْ ) أو من الضمير المستكن فى قوله ( جَنَّاتٍ ) أى : هم فى جنات عظيمة ، حالة كونهم متكئين فيها على سرر موضوعة على صفوف. منتظمة ، وعلى خطوط مستوية ، والسُّرُرُ : جمع سرير وهو ما يجلس عليه الإنسان للراحة .وقوله : ( وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ) بيان لنعمة أخرى من النعم التى يتلذذون بها .أى : وفضلا عن كل ذلك ، فقد زوجناهم بنساء جميلات .وبذلك نرى أن هؤلاء المتقين ، قد أكرمهم الله - تعالى - بكل أنواع النعيم ، من مسكن طيب ، ومأكل كريم ، ومشرب هنىء ، وأزواج مطهرات من كل سوء .

والذين امنوا واتبعتهم ذريتهم بايمان الحقنا بهم ذريتهم وما التناهم من عملهم من شيء كل امرئ بما كسب رهين

، كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أنواعا أخرى من تكريمه - تعالى - لهم فقال : ( والذين آمَنُواْ واتبعتهم ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَاهُمْ مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ) والأية الكريمة بيان لحال طائفة من أهل الجنة - وهم الذين شاركتهم ذريتهم. الأقل عملا منهم فى الإيمان - إثر بيان حال المتقين بصفة عامة .والاسم الموصول مبتدأ ، وخبره جملة ( أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ) . والمراد بالذرية هنا : ما يشمل الآباء والأبناء وقوله : ( واتبعتهم ) معطوف على ( آمَنُوا ) . وقوله ( بِإِيمَانٍ ) متعلق بالاتباع ، والباء للسببية أو بمعنى فى .ومعنى : ( أَلَتْنَاهُمْ ) أنقصناهم . يقال : فلان أَلَتَ فلانا حقه يألِتُه - من باب ضرب - إذا بخسه حقه .والمعنى : والذين آمنوا بنا حق الإيمان واتبعتهم ذريتهم فى هذا الإيمان ، ألحقنا بهم ذريتهم ، بأن ، جمعناهم معهم فى الجنة ، وما نقصنا هؤلاء المتبوعين شيئا من ثواب أعمالهم بسبب إلحاق ذريتهم بهم فى الدرجة ، بل جمعنا بينهم فى الجنة . وساوينا بينهم فى العطاء - حتى ولو كان بعضهم أقل من بعض فى الأعمال - فضلا منا وكرما .قال الإمام ابن كثير : يخبر - تعالى - عن فضله وكرمه ، وامتنانه ، ولطفه بخلقه وإحسانه : أن المؤمنين إذا اتبعتهم ذرياتهم فى الإيمان يلحقهم بآبائهم فى المنزلة وإن لم يبلغوا عملهم ، لتقر أعين الآباء بالأبناء عندهم فى منازلهم ، فيجمع بينهم على أحسن الوجوه ، بأ ، يرفع الناقص العمل بكامل العمل ، ولا ينقص ذاك من عمله ومنزلته .للتساوى بينه وبين ذاك . ولهذا قال : ( أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَاهُمْ مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ) .عن ابن عباس قال : إن الله ، ليرفع ذرية المؤمن فى درجته ، وإن كانوا دونه فى العمل ، لتقر بهم عينه ثم قرأ هذه الآية .وفى رواية أخرى عنه قال - عندما سئل عن هذه الآية - : هم ذرية المؤمنين يموتون على الإيمان ، فإن كانت منازل آبائهم أرفع من منازلهم ألحقوا بآبائهم ، ولم ينقصوا من أعمالهم التى عملوها شيئا .وقال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما معنى تنكير الإيمان؟ قلت : معناه الدلالة على أنه ، إيمان خاص عظيم المنزلة ، ويجوز أن يراد : إيمان الذرية الدانى المحل كأنه قال : بشىء من الإيمان ، لا يؤهلهم لدرجة الآباء الحقناهم بهم .قال

الجمل : والذرية هنا تصدق على الآباء والأبناء ، فإن المؤمن إذا كان عمله الصالح أكثر ألحق به من هو دونه فى العمل أبا كان أو ابنا ، وهذا منقول عن ابن عباس وغيره .وعن ابن عباس - أيضا - يرفعه إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : " إذا دخل أهلُ الجنةِ الجنةَ ، سأل أحدهم عن أبويه وعن زوجته وولده ، فيقال : إنهم لم يدركوا ما أدركت ، فيقول : يارب إنى عملت لى ولهم فيؤمر بإلحاقهم به " .وقوله : ( كُلُّ امرىء بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ) أى : ، كل إنسان مرهون بعمله عند الله - تعالى - فإن كان عمله صالحا سعد وفاز وأطلق نفسه من كل ما يسوؤها ويحزنها ، وإن كان غير ذلك جوزى على حسب عمله وسعيه .والتعبير بقوله ( رَهِينٌ ) للاشعار بأن كل إنسان مرتهن بعمله ، حتى لكأن العمل بمنزلة الدّيْن ، وأن الإنسان لا يستطيع الفكاك منه إلا بعد أدائه .

وامددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - جانبا آخر من مظاهر فضله على عباده المؤمنين فقال : ( وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ) . أى : وأمددنا هؤلاء المؤمنين - على سبيل الزيادة عما عندهم بفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة وبلحم لذيذ تشتهيه نفوسهم .

يتنازعون فيها كاسا لا لغو فيها ولا تاثيم

كما فسرها الوسيط ( يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْساً ) أى : يتجاذبون على سبيل المداعبة ، ويتعاطون على سبيل التكريم ، الأوانى المملوءة بالخمر التى هى لذة للشاربين .( لاَّ لَغْوٌ فِيهَا وَلاَ تَأْثِيمٌ ) أى :لا يصدر منهم فى أعقاب شربهم لتلك الخمر ، ما جرت به العادة فى أعقاب شرب خمر الدنيا ، من أن الشارب لها يصدر منه كلام ساقط لا خير فيه ، ويأتى من ) : ألقوال والأفعال ما يعاقب عليه . ويرتكب الإثم بسببه .قال صاحب الكشاف لاَّ لَغْوٌ فِيهَا ) أى : فى سربها ( وَلاَ تَأْثِيمٌ ) أى :لا يتكلمون فى أثناء الشرب بسقط الحديث ، ومالا طائل تحته ، كفعل المتنادمين فى الدنيا على الشراب فى سفههم وعربدتهم ، ولا يفعلون ما يؤثم به فاعله ، أى : ينسب إلى الإثم لو فعله فى دار التكليف من الكذب والشتم والفواحش ، وإنما يتكلمون بالحكم وبالكلام الحسن متلذذين بذلك ، لأن عقولهم ثابتة غير زائلة وهم حكماء علماء .

ويطوف عليهم غلمان لهم كانهم لؤلؤ مكنون

كما فسرها الوسيط ( وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ ) أى : ويطوف عليهم بتلك الكئوس المليئة بالخمر ، غلمان لهم ، لكى يكونوا فى خدمتهم ).كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ) أى : كأن هؤلاء الغلمان فى صفائهم ونقائهم ، لؤلؤ مصون ومحفوظ فى صدفه لم تنله الأيدى .يقال : كَنَنْتُ الشىء كَنًّا وكُنُوناً ، إذا جعلته فى كِنٍّ ، وسترته عن الأعين .

واقبل بعضهم على بعض يتساءلون

) : كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - تساؤلهم وهم فى الجنة ، فقال وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ) أى : وأقبل بعضهم على بعض وهم فى الجنة ، يسأل أحدهم الآخر عن أحواله وعن أعماله ، وعن حسن عاقبته .

قالوا انا كنا قبل في اهلنا مشفقين

كما فسرها الوسيط ( قالوا ) أى : قال كل مسئول لسائله : ( إِنَّا كُنَّا قَبْلُ في أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ) أى : إنا كنا فى الدنيا ونحن نعيش بين أهلنا خائفين من أهوال يوم القيامة .

فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم

كما فسرها الوسيط وكنا نقدم العمل الصالح الذى نرجو أن ننال بسببه رضا ربنا فقبل - تعالى - بفضله منا هذا العمل ( فَمَنَّ الله عَلَيْنَا ) أى فتكرم : علينا بمغفرته ورضوانه .( وَوَقَانَا عَذَابَ السموم ) أى : وأنقذنا من عذاب النار التى تنفذ بحرها وسعيرها ، إلى العظام والمسام ، نفاذ الريح الحارة إلى الأجساد ، فتؤثر فيها تأثير السم فى البدن .قال صاحب الكشاف : والسموم : الريح الحارة التى تدخل المسام ، فسميت بها نار جهنم ، لأنها بهذه الصفة .

انا كنا من قبل ندعوه انه هو البر الرحيم

كما فسرها الوسيط ( إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ . . ) أى : إنا كنا من قبل فى الدنيا ندعوه أن يجنبنا هذا العذاب كما كنا - أيضا - نخلص له العبادة والطاعة .( إِنَّهُ ) - سبحانه - ( هُوَ البر الرحيم ) أى : هو - المحسن على عباده ، الرحيم بهم .فالبر - بفتح الباء - مشتق من البِرِّ بكسرها - ، بمعنى المحسن ، يقال : بر فلان فى يمينه ، إذا صدق فيها ، وأحسن ، أداءها .وبذلك نرى هذه الآيات الكريمة ، قد بشرت المتقين ببشارات متعددة . وذكرت نعما متعددة أنعم بها - سبحانه - عليهم

فذكر فما انت بنعمت ربك بكاهن ولا مجنون

كما فسرها الوسيط ثم عادت السورة الكريمة مرة أخرى إلى الحديث عن الكافرين فأمرت النبى - صلى الله عليه وسلم - أن يمضى فى طريقه دون أن يهتم ، بأكاذيبهم ، وحكت جانبا من هذه الأكاذيب التى قالوها فى حقه - صلى الله عليه وسلم - ولقنته الجواب المزهق لها . . . فقال - تعالى - : ( فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ . . . ) .الفاء فى قوله - سبحانه - : ( فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلاَ مَجْنُونٍ ) للإفصاح . والكاهن : هو الإنسان الذى يزعم أنه يخبر عن الأشياء المغيبة ، والمجنون : هو الإنسان الذى سلب عقله ، فصار لا يعى ما يقول .أى : إذا كان الأمر كما ذكرنا لك قبل ذلك - أيها الرسول الكريم - فاثبت على ما أنت عليه من التذكير بما أوحينا إليك . . فما أنت بسبب إنعام الله عليك بكاهن ولا مجنون كما يزعم أولئك الكافرون .قال الجمل : والباء فى قوله ( بِنِعْمَةِ رَبِّكَ ) للسببية ، وهى متعلقة بالنفى الذى أفادته " ما " أى : انتفى كونك كاهنا أو مجنونا بسبب إنعام الله عليك بالعقل الراجح ، وعلو الهمة ، وكرم الفعال ، وطهارة الأخلاق ، وهم معترفون بذلك لك قبل النبوة .

ام يقولون شاعر نتربص به ريب المنون

كما فسرها الوسيط ثم أخذت السورة الكريمة فى تقريع هؤلاء الجاهلين بأسلوب استنكارى فيه ما فيه من التعجب من جهالاتهم . وفيه ما فيه من الرد الحكيم على أكاذيبهم ، فساقت أقاويلهم بهذا السلوب الذى تكرر فيه لفظ " أم " خمس عشرة مرة ، وكلها إلزامات ليس لهم عنها جواب . وبدأت بقوله - تعالى - : ( أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ المنون قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُمْ مِّنَ المتربصين ) ، و " أم " فى هذه الآيات بمعنى بَل والهمزة .وقوله : ( نَّتَرَبَّصُ ) من التربص بمعنى الانتظار والترقب .وقوله : ( رَيْبَ المنون ) يعنون به : حوادث الدهر التى تحدث له - صلى الله عليه وسلم - منها الموت . فالمنون : الدهر ، وريبه : حوادثه التى يصيبه بسببها الهلاك .أى : بل أيقولون عنك - أيها الرسول الكريم - إنك شاعر ، وأنهم يترقبون موتك لكى يستريحوا منك . كما استراحوا من الشعراء الذين من قبلك ، كزهير والنابغة . . . قل لهم على سبيل التبكيت والتهديد : تربصوا وترقبوا موتى فإنى معكم من المنتظرين ، وستعلمون أينا خير مقاما وأحسن عاقبة .قال الآلوسى : ( نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ المنون ) ، أى : الدهر ، وهو فعول من المَنّ بمعنى القطع؛ لأنه يقطع الأعمال وغيرها ومنه حبل مَنِين أى : مقطوع ، والريب : مصدر رابه أذا أقلقه ، أريد به . . . حوادث الدهر وصروفه ، لأنها تقلق النفوس ، وعبر عنها بالمصدر مبالغة وأخرج ابن جرير وغيره عن ابن عباس ، تفسيره المنون بالموت .روى أن قريشا اجتمعت فى دار الندوة ، وكثرت آراؤهم فيه - صلى الله عليه وسلم - حتى قال قائل منهم : تربصوا به ريب المنون ، فإنه شاعر سيهلك كما هلك زهير والنابغة والأعشى ، فافترقوا على هذه المقالة .

قل تربصوا فاني معكم من المتربصين

`<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html} كما فسرها الوسيط

ثم أخذت السورة الكريمة فى تقريع هؤلاء الجاهلين بأسلوب استنكارى فيه ما فيه من التعجب من جهالاتهم . وفيه ما فيه من الرد الحكيم على أكاذيبهم ، فساقت أقاويلهم بهذا السلوب الذى تكرر فيه لفظ " أم " خمس عشرة مرة ، وكلها إلزامات ليس لهم عنها جواب . وبدأت بقوله - تعالى- : ( أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ المنون قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُمْ مِّنَ المتربصين ) ، و " أم " فى هذه الآيات بمعنى بل والهمزة .وقوله : ( نَّتَرَبَّصُ ) من التربص بمعنى الانتظار والترقب .وقوله : ( رَيْبَ المنون ) يعنون به : حوادث الدهر التى تحدث له - صلى الله عليه

وسلم - منها الموت . فالمنون : الدهر ، وريبه : حوادثه التى يصيبه بسببها الهلاك .أى : بل أيقولون عنك - أيها الرسول الكريم - إنك شاعر ، وأنهم ، يترقبون موتك لكى يستريحوا منك . كما استراحوا من الشعراء الذين من قبلك كزهير والنابغة . . . قل لهم على سبيل التبكيت والتهديد : تربصوا وترقبوا موتى فإنى معكم من المنتظرين ، وستعلمون أينا خير مقاما وأحسن عاقبة .قال الآلوسى : ( نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ المنون ) أى : الدهر ، وهو فعول من : المَنِّ بمعنى القطع؛ لأنه يقطع الأعمال وغيرها ، ومنه حبل مَنِين أى ، مقطوع ، والريب : مصدر رابه أذا أقلقه ، أريد به حوادث الدهر وصروفه لأنها تقلق النفوس ، وعبر عنها بالمصدر مبالغة . . . وأخرج ابن جرير وغيره ، عن ابن عباس ، تفسيره المنون بالموت .روى أن قريشا اجتمعت فى دار الندوة وكثرت آراؤهم فيه - صلى الله عليه وسلم - حتى قال قائل منهم : تربصوا به ريب المنون ، فإنه شاعر سيهلك كما هلك زهير والنابغة والأعشى ، فافترقوا على هذه المقالة .

ام تامرهم احلامهم بهذا ام هم قوم طاغون

كما فسرها الوسيط ثم وبخهم - سبحانه - على غفلتهم وعنادهم فقال : ( أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلاَمُهُمْ بهاذآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ) .والأحلام : جمع حِلْم - بكسر الحاء - والمراد بها هنا : العقول . وكان شيوخ قريش يدعون بذى الأحلام والنهى .ويطلق الحلم فى الأصل على ضبط النفس عن هيجان الغضب . وأطلق هنا على العقل لكونه منشأ له .أى : بل أتأمرهم عقولهم التى زعموا سلامتها ، بأن يقولوا فى شأنك - أيها الرسول الكريم - إنك شاعر أم مجنون؟لا إن أى عقل سليم لم يأمرهم بذلك ، وإنما هم قوم دأبهم الطغيان والعناد ، وتجاوز الحدود التى لا يجوز تجاوزها .والعقول إذا استعملت فى الشرور والآثام ، ضاع رشدها ، وفقدت سلامتها .ولقد قيل لعمرو بن العاص . رضى الله عنه - : ما بال قومك لم يؤمنوا وهم أصحاب الأحلام؟ فقال : تلك عقول كادها الله - تعالى - أى : لم يصحبها التوفيق والرشاد .

ام يقولون تقوله بل لا يؤمنون

كما فسرها الوسيط ( أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لاَّ يُؤْمِنُونَ : فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُواْ صَادِقِينَ ) والتقول تكلف القول واختلاقه . وأكثر ما يكون استعمالا فى الكذب ، يقال : فلان تقول على فلان ، إذا افترى عليه الكذب . أى : بل أيقولون عنك - أيها الرسول - إن افتريت هذا القرآن ، واختلقته من عند نفسك ، لا إنك معصوم عن ذلك ، وأنت ما نطقت إلا بما أوحيناه إليك ، ولكنهم هم المفترون للكذب عليك ، وما حملهم على ذلك إلا عدم إيمانهم بالحق ، وانغماسهم فى الباطل ، وإصرارهم على الجحود .

فلياتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين

كما فسرها الوسيط وإذا كان الأمر - كما زعموا - فها هو ذا القرآن أمامهم يسمعون آياته . . . فليأتوا بحديث يشابه القرآن فى بلاغته . وهدايته ، وسمو تشريعاته وآدابه .وقد تحداهم - سبحانه - فى آيات أخرى أن يأتوا بعشر سور من مثله فقال : ( أَمْ يَقُولُونَ افتراه قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وادعوا مَنِ استطعتم مِّن دُونِ الله إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ) ثم تحداهم سبحانه - أن يأتوا بسورة واحدة من مثله فقال :( وَإِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا على عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وادعوا شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ الله إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ) ولكنهم فى جميع مراحل التحدى ، وقفوا عاجزين مبهوتين ، فثبت أن هذا القرآن من عند الله ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا .

ام خلقوا من غير شيء ام هم الخالقون

كما فسرها الوسيط ثم وبخهم - سبحانه - على عدم تفكرهم فى خلق أنفسهم فقال : أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الخالقون أَمْ خَلَقُواْ ) السماوات والأرض بَل لاَّ يُوقِنُونَ ) .أى : بل أخُلِقُوا على هذه الكيفية البديعة ، والهيئة القويمة ، من غير أن يكون هناك خالق لهم؟ أم هم الذين خلقوا أنفسهم بدون احتياج لخالق؟ أم هم الذين قاموا بخلق السموات والأرض؟لا ، إن شيئا من ذلك لم يحدث ، فإنهم لم يُخْلَقُوا من غير شىء - وإنما الذى خلقهم بقدرته - تعالى - هو الله وحده ، كما خلق - سبحانه - السموات والأرض بقدرته - أيضا - وهم يعترفون بذلك ، كما فى قوله - تعالى : ( وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ الله ) : ( . . سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض لَيَقُولُنَّ الله

ام خلقوا السماوات والارض بل لا يوقنون

كما فسرها الوسيط وقوله : ( بَل لاَّ يُوقِنُونَ ) أى : هم ليسوا على يقين - من أمرهم ، وإنما هم يخبطون خبط عشواء ، فهم مع اعترافهم بأن الله تعالى - هو الذى خلقهم ، إلا أن هذا الاعتراف صار كالعدم ، لأنهم لم يعملوا بموجبه ، من إخلاص العبادة له - تعالى - والإيمان بالحق الذى جاءهم به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من عند خالقهم .

ام عندهم خزائن ربك ام هم المصيطرون

كما فسرها الوسيط ثم قال - تعالى - : ( أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ المصيطرون ) أى : بل أعند هؤلاء الغافلين ( خَزَآئِنُ رَبِّكَ ) أى : مفاتيح أرزاقه - تعالى - لعباده ، وقدراته لهم ، حتى يقسموها عليهم كما شاءوا ، أم هم المصيطرون على أحوال هذا الكون ، المتسلطون على مقدراته حتى لكأنهم أربابه المتغلبون عليه؟ ،

ام لهم سلم يستمعون فيه فليات مستمعهم بسلطان مبين

كما فسرها الوسيط كلا لا شىء لهم من ذلك إطلاقا ، وإنما هم وغيرهم فقراء إلى رزق الله - تعالى - لهم ( أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ . . والسلم : هو ما يتصل به إلى الأمكنة العالية .أى : بل ألهم سلم يصعدون ( . بواسطته إلى السماء ، ليستمعوا إلى وحينا وأمرنا ونهينا . . . إن كان أمرهم كذلك : ( فَلْيَأتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ) أى : فليأت من استمع منهم إلى شىء من كلامنا أو وحينا بحجة واضحة تدل على صدقه فيما ادعاه ومما لا شك فيه أنهم لا حجة لهم ، بل هم كاذبون إذا ما ادعوا ذلك ، لأن. وحى الله - تعالى - خاص بأناس معينين ، ليسوا منهم قطعا .

ام له البنات ولكم البنون

كما فسرها الوسيط ( أَمْ لَهُ البنات وَلَكُمُ البنون ) أى : بل أيقولون إن الله - تعالى - البنات ولهم الذكور ، إن قولهم هذا من أكبر الأدلة على جهلهم وسوء أدبهم . لأن الله - تعالى - هو الخالق للنوعين ، وهو - سبحانه - ( يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذكور ).

ام تسالهم اجرا فهم من مغرم مثقلون

كما فسرها الوسيط ( أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ) أى : بل أتسألهم أجرا على دعوتك إياهم إلى الحق ، فهم بسبب ذلك قد أثقلتهم الديون والمغارم ، فصاروا ينفرون من دعوتك؟ كلا إنك لم تطلب منهم شيئا من ذلك .والمغرم : الدين الذى يكون على الإنسان ، فيثقل كاهله ، ويحزن نفسه .

ام عندهم الغيب فهم يكتبون

كما فسرها الوسيط ( أَمْ عِندَهُمُ الغيب فَهُمْ يَكْتُبُونَ ) أى : بل أيزعمون أن عندهم علم الغيب فهم يكتبونه للناس ، ويطلعونهم عليه . . ؟كلا - إنهم لا علم لهم بشىء من الغيب ، لأن علم الغيب مرده إلى الله - تعالى وحده ، كما قال - سبحانه - : ( عَالِمُ الغيب فَلاَ يُظْهِرُ على غَيْبِهِ أَحَداً إِلاَّ مَنِ ارتضى مِن رَّسُولٍ ).

ام يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون

كما فسرها الوسيط ( أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فالذين كَفَرُواْ هُمُ المكيدون ) أى : بل أيريدون بك - أيها الرسول الكريم - الكيد والأذى والهلاك ، إن كانوا يريدون بك ذلك فاعلم أن الذين كفروا بك وبدعوتك وأرادوا بك وبها الكيد والأذى ، هم المغلوبون الخاسرون الذين يحيق بهم كيدهم ويعود عليهم وباله .فقوله : ( المكيدون ) اسم مفعول من الكيد ، وهو المكر والخبث وقد عاد عليهم وبال مكرهم فعال ، فقد خرج - صلى الله عليه وسلم - من. .. ، بين جموعهم ليلة الهجرة ، دون أن يروه ، وكانوا محيطين بداره ليقتلوه . وأحبط الله - تعالى - مكرهم

ام لهم اله غير الله سبحان الله عما يشركون

كما فسرها الوسيط ( أَمْ لَهُمْ إله غَيْرُ الله سُبْحَانَ الله عَمَّا يُشْرِكُونَ ) . أى : بل ألهم إله غير الله - تعالى - يرزقهم من فضله ، ويرعاهم بلطفه فى جميع أطوار حياتهم .كلا إنهم لا إله لهم سواه - تعالى - وتنزه - سبحانه - عن شركهم وكفرهم .

وان يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم

كما فسرها الوسيط ( وَإِن يَرَوْاْ كِسْفاً مِّنَ السمآء سَاقِطاً يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ) والكِسْف جمع كِسْفة وهى القطعة من الشىء والمركوم : المتراكم الذى تجمع بعضه فوق بعض .أى : وإذا رأى هؤلاء ، الجاهلون قطعة عظيمة من العذاب نازلة عليهم لتهديدهم وزجرهم . قالوا : هذا النازل علينا سحاب متراكم ، قد إجتمع بعضه فوق بعض ليسقينا ، ولم يصدقوا أنه نذير عذاب شديد لهم . وهذا شأن الطغاة المعاندين ، وقد سبقهم إلى ذلك قوم عاد ، فإنهم حين رأوا العذاب مقبلا نحوهم قالوا ( هذا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ) فرد الله - تعالى - عليهم بقوله ( بَلْ هُوَ مَا استعجلتم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ) هذا : والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة ، يراها قد حملت على المشركين حملة شديدة ، حيث وبختهم على جهالاتهم : وتحدتهم بأسلوب تعجيزي أن يأتوا بمثل القرآن الكريم ، وتهكمت بهم وبعقولهم الفارغة التى انقادوا لها بدون تفكر أو تدبر ، وبينت أنهم قوم متناقضون مع أنفسهم ، لأنهم يقرون أن الله - تعالى - هو الخالق لهم ولغيرهم ، ومع ذلك فهم يعبدون غيره . وينسبون البنات إليه دون البنين .وقد ذكر بعض المفسرين أن ما أصابهم من هزيمة يوم بدر ، كان فى السنة الخامسة عشرة من بعثته - صلى الله عليه وسلم - وأن هذه الآيات قد تكرر فيها لفظ " أم " خمس عشرة مرة ، بعدد هذه السنين ، ولذا قالوا : إن ذلك فيه إشارة إلى إعجاز القرآن الكريم .

فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة . بتوجيه الخطاب إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - ، على سبيل التسلية والتكريم ، حيث أمره - سبحانه - بالإعراض عنهم ، لأنه - سبحانه - هو الذى سيتولى حسابهم وعقابهم . فقال - تعالى - : ( فَذَرْهُمْ . . . ) .الفاء فى قوله - سبحانه . . ) : فَذَرْهُمْ . . . ) واقعة فى جواب شرط مقدر . أى : إذا كان حال هؤلاء المشركين كما ذكرنا لك - أيها الرسول الكريم - فاتركهم فى طغيانهم يعمهون . أى : فدعهم يخوضوا ( حتى يُلاَقُواْ يَوْمَهُمُ الذي فِيهِ يُصْعَقُونَ ). ويلعبوا حتى يأتيهم اليوم الذى فيه يموتون ويهلكون .قال القرطبى : قوله ) يُصْعَقُونَ ) بفتح الياء قراءة العامة . وقرأ ابن عامر وعاصم بضمها . قال الفراء : هما لغتان : صَعِق وصُعِقَ مثل سَعِد وسُعِد . قال قتادة : يوم يموتون . وقيل : هو يوم بدر ، وقيل : يوم النفخة الأولى . وقيل : يوم القيامة يأتيهم فيه من العذاب ما يزيل عقولهم . . .

يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئا ولا هم ينصرون

كما فسرها الوسيط وقوله : ( يَوْمَ لاَ يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً . . . ) بدل من قوله : ( يَوْمَهُمُ ) . أى : اتركهم - أيها الرسول الكريم - ولا تكترث بهم . وامضى فى دعوتك إلى الحق ، فعما قريب سيأتيهم اليوم الذى لن ينفعهم فيه مكرهم السيِّىء ، وكيدهم القبيح . . .( وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ) فيه من عقابنا من أى جهة من الجهات ، أو من أى شخص من الأشخاص .

وان للذين ظلموا عذابا دون ذلك ولكن اكثرهم لا يعلمون

كما فسرها الوسيط ( وَإِنّ لِلّذِينَ ظَلَمُواْ ) وهم هؤلاء الكافرون ) عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ ) أى : عذابا آخر دون ذلك العذاب الذى سينزل بهم عند موتهم وفى حياتهم .( ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ )لا يعلمون ذلك ، لجهلهم بما سينتظرهم من عقاب .

واصبر لحكم ربك فانك باعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ، بتلك التسلية الرقيقة لنبيه - صلى الله عليه وسلم - فقال : ( واصبر لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا . . ) .أى : واصبر - أيها الرسول الكريم - ( لِحُكْمِ رَبِّكَ ) إلى أن ننزل بهم عقابنا فى الوقت الذى نشاؤه ونختاره ( فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ) أى : فإنم بمرأى منا وتحت رعايتنا وحمايتنا وحفظنا ).

وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ) أى : وأكثر من تسبيح ربك وتنزيهه عن كل مالا يليق به حين تقوم من منامك ، أو من مجلسك ، أو حين تقوم للصلاة .

ومن الليل فسبحه وادبار النجوم

كما فسرها الوسيط ( وَمِنَ الليل فَسَبِّحْهُ ) أى : ومن الليل فأكثر من تسبيح ربك ( وَإِدْبَارَ النجوم ) أى : وأكثر من تسبيحه - تعالى - قد أمر نبيه - صلى الله عليه وسلم - بالإكثار من التسبيح له - عز وجل - فى كل الأوقات ، لأن هذا التسبيح يجلو عن النفس همومها وأحزانها . . .وبعد : فهذا تفسير لسورة " الطور " نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده . . .وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

والنجم اذا هوى

، كما فسرها الوسيط افتتح الله - تعالى - هذه السورة بهذا القسم العظيم للدلالة على صدق رسوله - صلى الله عليه وسلم - وللرد على أولئك المشركين الجاهلين ، الذين زعموا أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قد اختلق القرآن الكريم .والنجم : هو الكوكب الذى يبدو للناظرين ، لامعا فى جو السماء ليلا والمراد به هنا : جنسه ، أى : ما يشمل كل نجم بازغ فى السماء ، فأل فيه للجنس .وقيل : أل فيه للعهد والمراد به نجم مخصوص هو : الشعرى ، وهو نجم كان معروفا عند العرب ، وقد جاء الحديث عنه فى آخر السورة ، فى قوله - تعالى - : ( وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشعرى ) قالوا : وكانت قبيلة خزاعة تعبده .وقيل المراد به : الثريا ، فإنه من النجوم المشهورة عند العرب .وقيل المراد به هنا : المقدار النازل من القرآن على النبى - صلى الله عليه وسلم - وجمعه نجوم ، وقد فسره بعضهم بذلك فى قوله - تعالى - : ( فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النجوم ) ومعنى " هوى " : سقط وغرب . يقال هو الشىء يهوى - بكسر الواو - هويا - بضم الهاء وفتحها - إذا سقط من أعلى إلى أسفل قال الآلوسى : وأظهر الأقوال ، القول بأن المراد بالنجم ، جنس النجم المعروف ، فإن اصله اسم جنس لكل كوكب . وعلى القول بالتعيين ، فالأظهر القول بأنه الثريا ووراء هذين القولين ، القول بأن المراد به : المقدار النازل من القرآن .

ما ضل صاحبكم وما غوى

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غوى وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهوى ) . جواب القسم . و " ما " نافية . و " ضل " من الضلال ، والمراد به هنا : عدم الاهتداء إلى الحق ، وإلى الطريق المستقيم . و " غوى " من الغى ، وهو الجهل الناشىء من اعتقاد فاسد ، وهو ضد الرشد.

وما ينطق عن الهوى

كما فسرها الوسيط و " الهوى " الميل مع شهوات النفس ، دون التقيد بما يقتضيه الحق ، أو العقل السليم .والمعنى : وحق النجم الذى ترونه بأعينكم - أيها المشركون - عند غروبه وأفوله ، وعند رجمنا به للشياطين . . . إن محمدا - صلى الله عليه وسلم - الذى أرسلناه إليكم - ( إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ) ما ضل عن طريق الحق فى أقواله وأفعاله وما كان رأيه مجانبا للصواب فى أمر من الأمور ، وما ينطق بنطق صادر عن هوى نفسه ورأيه ، وإنما ينطق بما نوحيه إليه من قرآن كريم ، ومن قول حيكم ، ومن توجيه سديد .وقد أقسم - سبحانه - بالنجم عند غروبه ، للإشعار بأن هذا المخلوق العظيم مسخر لإرادة الله - تعالى - وقدرته فهو مع لمعانه وظهوره فى السماء لا يتأبى عن الغروب والأفول ، إذا ما أراد الله - تعالى - له ذلك ، ولا يصلح أن يكون إلها ، لأنه خاضع لإرادة خالقه .ولقد حكى - سبحانه - عن نبيه إبراهيم أنه حين ( جَنَّ عَلَيْهِ الليل رَأَى كَوْكَباً قَالَ هذا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفلين ) قال بعض العلماء : والوجه أن يكون قوله : ( إِذَا هوى ) بدل اشتمال من النجم ، لأن المراد من النجم أحواله الدالة على قدرة خالقه ومصرفه ، ومن أعظم أحواله حال هويّه وسقوطه ، ويكون " إذا " اسم زمان مجردا عن معنى الظرفية ، فى محل جر بحرف القسم . .وقال - سبحانه - : ( صَاحِبُكُمْ ) للإشارة إلى ملازمته صلى الله عليه وسلم - لهم ، طوال أربعين سنة قبل البعثة ، وأنهم فى تلك المدة الطويلة لم يشاهدوا منه إلا الصدق ، والأمانة ، والعقل الراجح ، والقول السديد . . . وأنهم لم يخف عليهم حاله بل كانوا مصاحبين له ، ومطلعين على سلوكه بينهم ، فقولهم بعد بعثته - صلى الله عليه وسلم - إنه ساحر أو مجنون . . هو نوع من كذبهم البين ، وجهلهم المطبق . . .

ان هو الا وحي يوحى

كما فسرها الوسيط وقوله : ( إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يوحى ) استئناف بيانى
- مؤكد لما قبله .والضمير " هو " يعود إلى المنطوق به ، المفهوم من قوله
تعالى - : ( وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهوى ) . أى : أن الرسول - صلى الله عليه
وسلم -لا يصدر نطقه فيما يأتيكم به عن هوى نفسه ورأيه ، وإنما الذى ينطق
به ، هو وحى من الله - تعالى - أوحاه إليه على سبيل الحقيقة التى لا يحوم
حولها شك أو ريب .ومتعلق " يوحى " محذوف للعلم به . أى : ما هذا الذى ينطق
به إلا وحى أوحاه - سبحانه - إلى نبيكم - صلى الله عليه وسلم - .قال الإمام
ابن كثير : قوله : ( إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يوحى ) أى : إنما يقول ما أمر
بتبليغه إلى الناس كاملا موفورا من غير زيادة ولا نقصان . . . فعن عبد الله
بن عمرو قال : " كنت أكتب كل شىء أسمعه من رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - أريد حفظه ، فنهتنى قريش فقالوا : إنك تكتب كل شىء تسمعه من رسول
الله - صلى الله عليه وسلم - ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - بشر يتكلم
فى الغضب ، فأمسكت عن الكتابة ، فذكرت ذلك له ، فقال : " اكتب فوالذى نفسى
بيده ، ما خرج منى إلا الحق " " .وعن أبى هريرة أن رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - قال " "لا أقول إلا حقا " فقال بعض أصحابه : فإنك تداعبنا يا
رسول الله؟ قال : " إنى لا أقول إلا حقا " " .وقال صاحب الكشاف : ويحتج
بهذه الآية من لا يرى الاجتهاد للأنبياء ، ويجاب بأن الله - تعالى - إذا
سوغ لهم الاجتهاد ، كان الاجتهاد وما يستند إليه كله وحيا لا نطقا عن الهوى
.

علمه شديد القوى

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك جانبا من صفات جبريل - عليه
) : السلام - الذى ينزل بالقرآن على النبى - صلى الله عليه وسلم - فقال
- عَلَّمَهُ شَدِيدُ القوى ) .أى : علَّمَ النبىّ - صلى الله عليه وسلم
القرآن ، ملك من ملائكتنا الكرام ، وهو جبريل - عليه السلام - الذى أعطيناه
" قوة شديدة ، استطاع بها أن ينفذ ما كلفناه بتنفيذه .والضمير المنصوب فى
علمه " هو المفعول الأول ، والثانى محذوف . أى : القرآن ، لأن علَّم تتعدى
إلى مفعولين .وقوله : ( شَدِيدُ القوى ) صفة لموصوف محذوف . أى : ملك شديد
القوى .قالوا : وقد بلغ من شدة قوته ، أنه اقتلع قرى قوم لوط - عليه
. . السلام - ثم رفعها إلى السماء ، ثم قلبها . بأن جعل أعلاها أسفلها

ذو مرة فاستوى

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( ذُو مِرَّةٍ فاستوى ) صفة أخرى من
، صفات جبريل - عليه السلام - والمرة - بكسر الميم - تطلق على قوة الذات
وحصافة العقل ورجاحته ، مأخوذ من أمررت الحبل ، إذا أحكمت فتله .وشبيه
بهاتين الآيتين قوله - تعالى - : ( إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي
قُوَّةٍ عِندَ ذِي العرش مَكِينٍ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ . . ).

وهو بالافق الاعلى

كما فسرها الوسيط ( وَهُوَ بالأفق الأعلى ) أى : وهو - أى جبريل - بالجهة
العليا من السماء المقابلة للناظر إليها.

ثم دنا فتدلى

- كما فسرها الوسيط ( ثُمَّ دَنَا فتدلى ) أى : ثم قرب جبرل - عليه السلام
من النبى - صلى الله عليه وسلم - ( فتدلى ) أى : فانخفض من أعلى إلى أسفل
واصل التدلى : أن ينزل الشىء من طبقته إلى ما تحتها ، حتى لكأنه معلق فى.
الهواء ، ومنه قولهم : تدلت الثمرة إذا صارت معلقة فى الهواء من أعلى إلى
. . . أسفل

فكان قاب قوسين او ادنى

كما فسرها الوسيط ثم صور - سبحانه - شدة قرب جبريل من النبى - صلى الله
: عليه وسلم - فقال : ( فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أدنى ) والقاب
المقدار المعين : وقيل : هو ما بين وتر القوس ومقبضها .والقوس : آلة معروفة
عند العرب ، يشد بها وتر من جلد ، وتستعمل فى الرمى بالسهام .وكان من عادة
العرب فى الجاهلية ، أنهم إذا تحالفوا ، يخرجون قوسين ويلصقون إحداهما
بالأخرى ، فيكون قاب إحداهما ملاصقا للآخر ، حتى لكأنهما قاب واحد ، ثم

ينزعونهما معا ويرمون بهما سهما واحدا ، فيكون ذلك دليلا على التحالف التام والرضا الكامل . .والمعنى : أن جبريل - عليه السلام - بعد أن كان بالجهة العليا من السماء ، ثم قرب من النبى - صلى الله عليه وسلم - ، ثم زاد فى القرب ، حتى كان على مقدار مسافة قوسين مه - صلى الله عليه وسلم - أو أقرب من ذلك .قال صاحب الكشاف : قوله : ( قَابَ قَوْسَيْنِ ) مقدار قوسين عربيتين ، والقاب والقيب ، والقاد والقيد ، المقدار . . . وقد جاء التقدير بالقوس ، والرمح ، والسوط ، والذراع ، والباع ، والخطوة والشبر .. . . ومنه الحديث الشريف : " لقاب قوس أحدكم من الجنة ، وموضع قده ، خير من الدنيا وما فيها " والقد السوط . . .فإن قلت : كيف تقدير قوله : ( فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ ) ، قلت : تقديره فكان مقدار مسافة قربه مثل قاب قوسين فحذفت هذه المضافات . .و " أو " فى قوله : ( أَوْ أدنى ) للشك ، ولكن هذا الشك من جهو العباد ، أى : أن الرائى إذا رأى هذا الوضع قال : هو قاب قوسين أو أقرب من ذلك ، ويصح أن تكون بمعنى " بل " .قال الجمل : قوله : ( أَوْ أدنى ) هذه الآية كقوله : ( وَأَرْسَلْنَاهُ إلى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ) لأن المعنى : فكان - جبريل - بأحد هذين المقدارين فى رأى الرائى . أى : لتقارب ما بينهما يشك الرائى فى ذلك .وأدنى : أفعل تفضيل . والمفضل عليه محذوف . أى : أو أدنى من قاب قوسين .ويصح أن تكون بمعنى بل ، أى : بل هو أدنى .

فاوحى الى عبده ما اوحى

كما فسرها الوسيط وقوله : ( فأوحى إلى عَبْدِهِ مَآ أوحى ) أى : فأوحى جبريل - عليه السلام -إلى عبد الله ورسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - ما أوحى من قرآن كريم ، ومن هدى حكيم .فالضمير فى قوله : ( فأوحى ) أى : جبريل لأن الحديث فى شأنه وإيحاؤه إنما هو بأمر الله - تعالى - ومشيئته ، ويرى ، بعضهم أنه يعود إلى الله - تعالى - .قال الآلوسى : قوله : ( فأوحى ) أى : جبريل ( إلى عَبْدِهِ ) أى : عبد الله ، وهو النبى - صلى الله عليه وسلم - ولم يجر له - تعالى - ذكر ، لكونه فى غاية الظهور ، ومثله والإضمار كثير فى الكلام ، ومنه : ( وَلَوْ يُؤَاخِذُ الله الناس بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ على ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ . . ) ( مَآ أوحى ) أى : الذى أوحاه . - والضمير المستتر لجبريل - أيضاً - .وقيل : المضير المستتر لله - تعالى ، أى : أوحى جبريل إلى عبد الله ، ما أوحاه الله إلى جبريل .والأول مروى عن الحسن ، وهو الأحسن .وقيل : ضمير أوحى الأول والثانى لله - تعالى - والمراد بالعبد جبريل - عليه السلام - وهو كما ترى . . .وأبهم - سبحانه - ما أوحاه لتفخيم شأنه ، وإعلاء قدره ، حتى لكأنه لا تحيط به عبارة ، ولا يحده الوصف ، وشبيه بهذا التعبير قوله - تعالى - : ( فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِّنَ اليم مَا غَشِيَهُمْ ) وعبر - سبحانه - عن رسوله - صلى الله عليه وسلم - بعبده ، وأضافه إليه ، للتشريف والتكريم ، ولبيان أنه عبد من عباده - تعالى - الذين اصطفاهم لحمل رسالته ، وتبليغ ما أوحاه إليه .

ما كذب الفؤاد ما راى

، كما فسرها الوسيط وقوله : ( مَا كَذَبَ الفؤاد مَا رأى ) رد على المشركين وتكذيب لهم ، فيما زعموه من أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لم يتلق الوحى عن جبريل ، ولم يشاهده .واللام فى قوله ( الفؤاد ) عوض عن المضاف إليه ، والفؤاد : العقل أو القلب ، ومنه قوله - تعالى - :( وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أمِّ موسى فَارِغاً إن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ . . ) وقراءة الجمهور ( كَذَبَ ) بفتح الذال مع التخفيف ، وقرأ ابن عامر بفتحها مع التشديد ، و " ما " موصولة ، والعائد محذوف .أى : ما كذب فؤاد النبى - صلى الله عليه وسلم - وما أنكر ، الذى رآه ببصره من صورة جبرير - عليه السلام لأنه لم يكن يجهله ، بل كان معروفا لديه ، وصاحب الوحى إليه ، فهو - صلى الله عليه وسلم - ما رآه ببصره من صورة جبريل - عليه السلام - .أى : ما قال فؤاده لما رآه لم أعرفك ، ولو قال ذلك - لعى سبيل الفرض - لكان كاذبا لأنه عرفه ، يعنى أنه رآه بعينه ، وعرفه بقلبه ، ولم يشك فى أن ما رآه حق .وقرىء بالتشديد - ، أى : صدقه ولم يشك أنه جبريل بصورته - ( مَا كَذَّبَ ) : .

افتمارونه على ما يرى

كما فسرها الوسيط ثم وبخ - سبحانه - المشركين على تكذيبهم للنبى - صلى الله عليه وسلم - فيما يخبرهم عنه من شئون الوحى ، فقال : ( أَفَتُمَارُونَهُ على مَا يرى ) .والمماراة : المجادلة والملاحاة بالباطل . يقال : مارَى فلان فلانا مماراة ومِرَاء ، إذا جادله ، مأخوذ من مَرَى الناقة يَمْريها . إذا مسح ضرعها ليستدر لبنها ، ويأخذه كاملا ، فشبه الجدال بذلك ، لأن كل واحد من المتجادلين يَمرِّى ما عند صاحبه ، أى : يسعى لاستخراج كل ما عنده

: حتى يقيم الحجة عليه .وعدى الفعل بعلى لتضمنه معنى المغالبة .أى ، أفتجادلون نبينا محمدا - صلى الله عليه وسلم - فيما رآه بعينيه ، وتجادلونه - فى شىء هو تحقق منه بعقله وبصره ، وهو ملاقاته ورؤيته لأمين وحينا جبريل عليه السلام -؟ إن مجادلتكم له فى ذلك ، هو من قبيل التعنت الواضح ، والجهل الفاضح ، لأنكم كذبتموه وجادلتموه فى شىء هو قد رآه وتحقق منه ، وأنتم تعلمون أنه صادق أمين .فالمقصود بالاستفهام تبكيتهم وتجهيلهم على جدالهم بالباطل .هذا وقد ذكر العلماء ، أن هذه الآيات ، تشير إلى رؤية النبى - صلى الله عليه وسلم - لجبريل ، على الهيئة التى خلقه الله - تعالى - عليها ، فقد كان جبريل يأتى النبى - صلى الله عليه وسلم - فى صورة آدمى ، فسأله أن يريه نفسه على صورته التى خلق عليها ، فأراه نفسه مرتين : مرة فى الأرض وهى التى تشير إليها هذا الآيات ، ومرة فى السماء ، وهى التى تشير إليها الآيات التالية .وقد توسع الإمام ابن كثير فى ذكر الأحاديث التى وردت فى ذلك فقال ما ملخصه :عن عبد الله بن مسعود ، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لم ير جبريل فى صورته إلى مرتين ، أما واحدة فإنه سأله أن يراه فى صورته ، فسد الأفق ، وأما الثانية فإنه كان معه حيث صعد ..

ولقد راه نزلة اخرى

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أخرى . . ) - إشارة إلى المرة الثانية التى رأى فيها الرسول - صلى الله عليه وسلم جبريل على هيئته التى خلقه الله - تعالى - عليها ، وكان ذلك فى ليلة الإسراء والمعراج . أى : والله لقد رأى محمد - صلى الله عليه وسلم - جبريل فى صورته التى خلق عليها ، حالة كونه نازلا من السماء نزلة أخرى .وقد جاء الإخبار عن هذه الرؤية بصيغة مؤكدة بلام القسم وبقد . . . للرد على المشركين الذين أنكروا ذلك ، فكأنه - سبحانه - يقول لهم : لئن كنتم قد أنكرتم هذه الرؤية فى الأرض ، فإنه - صلى الله عليه وسلم - لم يره فى الأرض فقط ، بل رآه رؤة أعظم من لك ، وهى رؤيته له فى السماء ، حين كان مصاحبا له فى رحلته ليلة الإسلاء والمعراج .قال الآلوسى : (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أخرى ) أى : رأى النبى - صلى الله عليه وسلم - جبريل فى صورته التى خلقه الله عليها ( نَزْلَةً أخرى ) أى : مرة أخرى ، وهى فعلة من النزول ، أقيمت مقام المرة ، ونصبت نصبها على الظرفية ، لأن أصل المرة مصدر مر يمر ، ولشدة اتصال الفعل بالزمان يعبر به عنه . ولم يقل مرة بدل نزلة ، ليفيد أن الرؤية فى هذه المرة ، كانت بنزول ودنو ، كالرؤية فى المرة الأولى ، الدال عليها ، ما مر . .والمراد من الجملة القسمية ، نفى الريبة والشك عن المرة الأخيرة وكانت ليلة الإسراء .

عند سدرة المنتهى

كما فسرها الوسيط وقوله : ( عِندَ سِدْرَةِ المنتهى ) بيان للمكان الذى تمت عنده الرؤية الثانية .والسدرة فى الأصل : تطلق على شجرة النِّبِق ، وهو ثمر معروف فى بلاد العرب .والمنتهى : اسم مكان ، أو مصدر ميمى بمعنى الانتهاء . وإضافة السدرة إليه ، من باب إضافة الشىء إلى مكانه ، كما فى قولهم : أشجار البستان . أو من إضافة المحل إلى الحال ، كما فى قولك : كتاب الفقه أو النحو .وسمى هذا المكان بسدرة المنتهى ، لانتهاء علوم الخلائق عنده ، وما وراءه لا يعلمه إلا الله - تعالى - .أخرج الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال : لما أسرى برسول الله - صلى الله عليه وسلم - انتهى به إلى سدرة المنتهى ، وهى فى السماء السابعة وإليها ينتهى ما يعرج من الأرض فيقبض منها . وإليها ينتهى ما يهبط من فوقها فيقبض منها .

عندها جنة الماوى

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما يدل على شرف هذا المكان فقال : عِندَهَا جَنَّةُ المأوى ) .أى : عند سدرة المنتهى ، جنة المأوى . أى الجنة التى تأوى وتسكن إليها أرواح المؤمنين الصادقين ، الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه .

اذ يغشى السدرة ما يغشى

كما فسرها الوسيط ثم نوه - سبحانه - بما يحيط بذلك المكان من جلال وجمال لا تحيط العبارة بوصفه فقال : ( إِذْ يغشى السدرة مَا يغشى ) .والظرف " إذ " . فى موضع الحال من " سدرة المنتهى " ، لقصد الإشادة بما أحاط بذلك المكان من شرف وبهاء .. . أو هو متعلق بقوله : ( رَآهُ ) .أى : ولقد رأى محمد - صلى الله عليه وسلم - جبريل - عليه السلام - على هيئته التى خلقه الله عليها مرة أخرى ، عند ذلك المكان الجليل المسمى بسدرة المنتهى ، حالة كون هذا

المكان ينزل به ما ينزل ، ويغشاه ما يغشاه من الفيوضات الربانية ، والأنوار القدسية ، والخيرات التى لا يحيط بها الوصف . . . فهذا الإبهام فى قوله ( مَا يغشى ) المقصود به التهويل والتعظيم والتكثير ، لما يغشى هذا المكان من خيرات وبركات . .

ما زاغ البصر وما طغى

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - ( مَا زَاغَ البصر وَمَا طغى ) بيان لما كان عليه النبى - صلى الله عليه وسلم - من ثبات واطمئنان عند رؤيته لما أذن الله - تعالى - له فى رؤيته . والزيغ : هو الميل عن حدود الاستقامة . والطغيان : تجاوز الحدود المشروعة . أى : ما مال بصر النبى - صلى الله عليه وسلم - عما أنذ الله - تعالى - له فى رؤيته . وما تجاوزه إلى ما لم يؤذن له فى رؤيته ، بل كان بصره - صلى الله عليه وسلم - منصبا على ما أبيح له النظر إليه . فالمقصود من الآية الكريمة ، الثناء على النبى - صلى الله عليه وسلم - ، ووصفه بما هو أهله من أدب وطاعة لخالقه - عز وجل - . قال ابن كثير قوله : ( مَا زَاغَ البصر وَمَا طغى ) قال ابن عباس : ما ذهب يمينا ولا شمالا ، وما جاوز ما أمر به ، وهذه صفة عظيمة فى الثبات والطاعة . فإنه ما فعل إلا ما أمر به ، ولا سأل فوق ما أعطى ، وما أحسن قول القائل : رأى جنة المأوى وما فوقها ولو ... رأى غيره ما قد رآه لتاها

لقد راى من ايات ربه الكبرى

كما فسرها الوسيط ثم عظم - سبحانه - من شأن ما أراه لنبيه - صلى الله عليه وسلم - فقال : ( لَقَدْ رأى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الكبرى ) . والكلام جواب لقسم محذوف ، والآيات جمع آية ، والمراد بها العجائب التى أطلع الله - تعالى - عليها نبيه - صلى الله عليه وسلم - فى تلك الليلة ، وهى ليلة الإسراء والمعراج . والكبرى : صفة لهذه الآيات ، وحذف المرئى : لتفخيم أمره وتعظيمه . أى : والله لقد رأى محمد - صلى الله عليه وسلم - فى تلك الليلة أمورا عظاما لا يحيط بها الوصف ، وقد أكرمناه برؤيتها ليزداد يقينا على يقينه ، وثباتا على ثباته ، وقوة على قوته فى تبليغ رسالتنا ، وحمل أمانتنا هذا ، وقد جرينا فى تفسيرنا لهذه الآيات على الرأى الذى سار عليه المحققون . من العلماء وهو أن هذه الآيات تحكى رؤية النبى - صلى الله عليه وسلم - لجبريل مرتين ، كما سبق أن بينا ، وأن الضمائر فى تلك الآيات منها ما يرجع إلى جبريل ، ومنها ما يرجع إلى الله - عز وجل - . وقد أعدنا كل ضمير إلى مرجعه الذى نراه مناسبا للمقام . فمثلا : الضمير المنصوب فى قوله - تعالى - : ( وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أخرى ) . أى : أن قلنا : إنه يعود إلى جبريل . الرسول - صلى الله عليه وسلم - رأى جبريل على هيئته التى خلقه الله عليها مرة أخرى ، غير المرة الأولى التى كانت فى أوائل بعثته - صلى الله عليه وسلم - . ولكن بعض المفسرين يرون أن مرجع الضمير فى هذه الآية وغيرها ، يعود إلى الله - تعالى - ، ويستدلون بذلك على أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - رأى ربه . وقد فصل القول فى هذه المسألة الإمام الآلوسى فقال ما ملخصه : " فالضمائر فى " دنا " " وتدلى " " وأوحى . . " وكذلك المضير المنصوب فى رآه " لله - عز وجل - . واستدل بذلك مثبتو رؤية النبى - صلى الله عليه وسلم - لله - عز وجل - كابن عباس وغيره . وخالفت فى ذلك عائشة - رضى الله عنها - فقد أخرج مسلم عن مسروق قال : " كنت عند عائشة فقالت : ثلاث من تكلم بواحدة منهن ، فقد أعظم على الله - تعالى - الفرية . قلت : ما هن؟ قالت : من زعم أن محمدا يعلم الغيب فقد كذب ، ومن زعم أن محمدا كتم شيئا فقد كذب ، ومن زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية ، فقلت : يا أم المؤمنين : ألم يقل الله - تعالى - : ( وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أخرى ) ؟ . فقالت : أنا أول من سأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن ذلك فقال : " إنما هو جبريل ، لم أره على صورته التى خلق عليها سوى هاتين المرتين رأيته منهبطا من السماء سادا ما بين السماء إلى الأرض " . ثم قال الآلوسى : ولا يخفى أن جواب الرسول - صلى الله عليه وسلم - على عائشة ، ظاهر فى أن الضمير المنصوب فى ( رَآهُ ) ليس راجعا إليه - تعالى - ، بل إلى جبريل - عليه السلام - . والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة يراها ترد على المشركين مزاعمهم ، بأبلغ أسلوب ، وأقوى بيان ، وتثبت أن هذا القرآن ، قد بلغه الرسول - صلى الله عليه وسلم - عن جبريل - عليه السلام - دون أن يزيد فيه شيئا ، أو ينقص منه شيئا ، وأنه - سبحانه - قد أعطى نبيه - صلى الله عليه وسلم - من المعجزات ، ومن الخيرات والبركات . . . . ما لم يعط غيره .

افرايتم اللات والعزى

كما فسرها الوسيط وبعد هذا التصوير البديع لما كان عليه النبى - صلى الله عليه وسلم - من حق واضح ، ومن تكريم عظيم ومن طاعة تامة لخالقه - عز وجل -

بعد كل ذلك أخذت السورة الكريمة ، فى تصوير ما عليه المشركون من باطل وجهل
وفى تبكيتهم على عبادتهم لأصنام لا تسمع ولا تبصر ، ولا تملك الدفاع عن
نفسها فضلا عن غيرها . . . فقال - تعالى - :( أَفَرَأَيْتُمُ اللات . . . )
والهمزة فى قوله : ( أَفَرَأَيْتُمُ ) للإنكار والتهكم ، والفاء لترتيب.
، الرؤية على ما سبق ذكره من صفات جليلة لله - تعالى - تدل على وحدانيته
، وكمال قدرته ، ومن ثناء على النبى - صلى الله عليه وسلم - والرؤية هنا
علمية ومفعلوها الثانى محذوف ، لدلالة قوله - سبحانه - ( أَلَكُمُ الذكر
وَلَهُ الأنثى ) عليه .و " اللات " اسم لصنم كان لثقيف بالطائف . قال
الشاعر :وفرت ثقيف إلى " لاتها " ... بمنقلب الخائب الخاسروكان هذا الصنم
على هيئة صخرة مربعة ، قد بنوا عليه بناء ونقشوا عليه نقوشا ، وكانت قريش
وجمهور العرب ، يعظمونه ويعبدونه . . .وكأنهم قد سموه بهذا الاسم ، على
) سبيل الاشتقاق من اسم الله - تعالى - فقالوا " اللات " قصداً للتأنيث .و
والعزى ) : فُعْلَى من العز . وهى اسم لصنم ، وقيل لشجرة حولها بناء وأستار
وكانت بمكان يقال له نخلة ، بين مكة والطائف ، وكانت قريش تعظمها ، كما ،
قال أبو سفيان يوم أحد " لنا العزى ولا عزى لكم " .فقال - صلى الله عليه
. وسلم - قولوا له : " الله مولانا ولا مولى لكم " .ولعلهم قد سموها بذلك
أخذا من لفظ العزيز ، أو من لفظ العز ، فهى تأنيث الأعز ، كالفضلى والأفضل
.

ومناة الثالثة الاخرى

، كما فسرها الوسيط وأما " مناة " فكانت صخرة ضخمة ، بمكان يقال له المشلل
بين مكة والمدينة ، وكانت قبيلة خزاعة والأوس والخزرج فى جاهليتهم يعظمونها
ويهلون منها للحج إلى الكعبة .قالوا : وسميت بهذا الاسم ، لأن دماء الذبائح
كانت تمنى عندها ، أى : تراق وتسكب .والمعنى : لقد ذكرنا لكم - أيها
المشركون - ما يدل على وحدانيتنا ، وكمال قدرتنا ، وسمو منزلة نبينا - صلى
الله عليه وسلم - . . . فأخبرونى بعد ذلك ما شأن هذه الأصنام التى لا تضر
ولا تنفع ، كاللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى . إنها أشياء فى غاية
، الحقارة والعجز ، فكيف سويتم بينها وبين الخالق - عز وجل - فى العبادة
وكيف أبحتم لأنفسكم تعظيمها ، وزعمتم أنها بنات الله . . ؟ .فالمقصود
بالاستفهام التعجيب من أحوالهم ، والتجهيل لعقولهم .ويصح أن تكون الرؤية فى
. قوله - سبحانه - ( أَفَرَأَيْتُمُ ) بصرية ، فلا تحتاج إلا لمفعول واحد
أى : انظروا بأعينكم إلى تلك الأصنام ، التى من أشهرها : اللات والعزى
ومناة الثالثة الأخرى ، أترونها تملك الدفاع عن نفسها فضلا عن غيرها؟ إنها
- لا تملك شيئا ، فكيف عظمتموها مع حقارتها وعجزها؟والاستفهام - أيضا
" للتهكم بهم ، والتعجيب من تفكيرهم السقيم .قال الآلوسى : والظاهر أن
الثالثة الأخرى : صفتان لمناة . وهما على ما قيل للتأكيد .وقال بعض الأجلة
الثالثة للتأكيد . و ( الأخرى ) للذم بأنها متأخرة فى الرتبة ، وضيعة :
المقدار . . .والكلام خطاب لعبدة هذه المذكورات ، وقد كانوا مع عبادتهم لها
يقولون : إن الملائكة - عليهم السلام - وتلك المعبودات الباطلة ، بنات الله
) : تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا فقيل لهم توبيخا وتبكيتا -.
. أَفَرَأَيْتُمُ اللات والعزى . . ) الخ

الكم الذكر وله الانثى

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( أَلَكُمُ الذكر وَلَهُ الأنثى
تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضيزى ) توبيخ آخر لهم على جهلهم ، وبيان لسبب
التوبيخ والتهكم . . .ولفظ " ضيزى " بمعنى جائرة وظالمة . يقال : ضاز فلان
فى حكمه ، إذا جار وظلم ولم يراع القسط فى أقواله وأفعاله ، ويقال : ضاز
) فلان فلانا حقه ، إذا بخسه ونقصه . .قال الجمل ما ملخصه : قرأ الجمهور
ضيزى ) من ضازه يضيزه . إذا جار عليه ، فمعنى " ضيزى " جائرة . وعلى هذا
فتحتمل وجهين : أحدهما أن تكون صفة على " فعلى " ، - بضم الفاء - وإنما
كسرت الفاء لتصح الياء كبيض - جمع أبيض - .وثانيهما : أن تكون من ضأزه
: بالهمزة كقراءة ابن كثير ، إلا أن الهمزة قد خففت . . ومعنى ضأزه يضأزه
نقصه .أى : أجعلتم لله - تعالى - البنات ، وجعلتم لأنفسكم البنين ، مع
تفضيلكم للبنين على البنات ، ومع اعترافكم بأن الله - تعالى - هو الخالق
لكم ولكل شىء .إن فعلكم هذا لهو فى غاية الجور والظلم ، لأنكم نسبتم إلى
- الله - تعالى - وهو خالقكم ما استنكفتم من نسبه لأنفسكم .فأنت ترى أنه
سبحانه - لم يكتف بوصفهم بالكفر ، بل أضاف إلى ذلك وصفهم بالجور والحمق
وانطماس البصيرة .وجملة : ( تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضيزى ) تعليل للإنكار
والتوبيخ المستفاد من الاستفهام فى قوله : ( أَلَكُمُ الذكر وَلَهُ الأنثى
وقدم - سبحانه - الجار والمجرور فى قوله : ( أَلَكُمُ . . ) لإفادة .(
التخصيص .والإشارة بتلك تعود إلى القسمة المفهومة من قوله : ( أَلَكُمُ
الذكر وَلَهُ الأنثى ) و ( إِذاً ) فى قوله : ( تِلْكَ إِذاً . . . ) حرف

. جواب . أى : إن كان الأمر كما زعمتم ، فقسمتكم إذا قسمة جائرة ظالمة

تلك اذا قسمة ضيزى

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( أَلَكُمُ الذكر وَلَهُ الأنثى
تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضيزى ) توبيخ آخر لهم على جهلهم ، وبيان لسبب
التوبيخ والتهكم . . .ولفظ " ضيزى " بمعنى جائرة وظالمة . يقال : ضاز فلان
فى حكمه ، إذا جار وظلم ولم يراع القسط فى أقواله وأفعاله ، ويقال : ضاز
) فلان فلانا حقه ، إذا بخسه ونقصه . .قال الجمل ما ملخصه : قرأ الجمهور
ضيزى ) من ضازه يضيزه . إذا جار عليه ، فمعنى " ضيزى " جائرة . وعلى هذا
فتحتمل وجهين : أحدهما أن تكون صفة على " فعلى " ، - بضم الفاء - وإنما
كسرت الفاء لتصح الياء كبيض - جمع أبيض - .وثانيهما : أن تكون من ضأزه
: بالهمزة كقراءة ابن كثير ، إلا أن الهمزة قد خففت . . ومعنى ضازه يضأزه
نقصه .أى : أجعلتم لله - تعالى - البنات ، وجعلتم لأنفسكم البنين ، مع
تفضيلكم للبنين على البنات ، ومع اعترافكم بأن الله - تعالى - هو الخالق
لكم ولكل شىء .إن فعلكم هذا لهو فى غاية الجور والظلم ، لأنكم نسبتم إلى
- الله - تعالى - وهو خالقكم ما استنكفتم من نسبه لأنفسكم .فأنت ترى أنه
سبحانه - لم يكتف بوصفهم بالكفر ، بل أضاف إلى ذلك وصفهم بالجور والحمق
وانطماس البصيرة .وجملة : ( تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضيزى ) تعليل للإنكار
والتوبيخ المستفاد من الاستفهام فى قوله : ( أَلَكُمُ الذكر وَلَهُ الأنثى
وقدم - سبحانه - الجار والمجرور فى قوله : ( أَلَكُمُ . . ) لإفادة ( )
التخصيص .والإشارة بتلك تعود إلى القسمة المفهومة من قوله : ( أَلَكُمُ
الذكر وَلَهُ الأنثى ) و ( إِذاً ) فى قوله : ( تِلْكَ إِذاً . . . ) حرف
جواب . أى : إن كان الأمر كما زعمتم ، فقسمتكم إذا قسمة جائرة ظالمة

ان هي الا اسماء سميتموها انتم واباؤكم ما انزل الله بها من سلطان ان
يتبعون الا الظن وما تهوى الانفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى

) : كما فسرها الوسيط ثم بين لهم - سبحانه - وجه الحق فى هذه الأصنام فقال
إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّآ
أَنزَلَ الله بِهَا مِن سُلْطَانٍ . . ) . أى : ما هذه الأصنام التى
عبدتموها من دون الله ، أو توهمتم أنها تشفع لكم عنده - تعالى - . ما هى
إلا أسماء محضة ، ليس فيها شىء أصلا من صفات الألوهية ، وأنتم وآباؤكم
سميتموها آلهة من تلقاء أنفسكم ، دون أن يكون معكم على هذه التسمية شىء من
الحجة أو الدليل أو البرهان . . .فالمضير " هى " يعود إلى اللات والعزى
ومناة وغيرها نم الآلهة الباطلة .والمراد بقوله : ( أَسْمَآءٌ ) : أنها ليس
لها من الألوهية التى أثبتوها لها سوى اسمها ، وأما معناها وحقيقتها فهى
أبعد ما تكون عن ذلك . . .وجملة " سميتموها " صفة للأسماء ، والهاء هى
المفعول الثانى ، والمفعول الأول محذوف ، والتقدير : إن هى إلا أسماء
سميتموها الأصنام ، أى : سميتم بها الأصنام .والمراد بالسلطان : الحجة
والدليل ، والمراد بالإنزال : الإخبار بأنها آلهة و " من " مزيدة لتوكيد
عدم الإنزال على سبيل القطع والبت .أى : ما أخبر الله - تعالى - عنها بأنها
آلهة ، بأى لون من ألوان الإخبار ، ولا توجد حجة من الحجج حتى ولو كانت
واهية تشير إلى ألوهيتها .ثم يهمل - سبحانه - خطابهم بعد ذلك ، ويذرهم فى
) : أوهامهم يعمهون ، ويلتفت بالحديث عنهم حتى كأنهم لا وجود لهم ، فيقول
إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن وَمَا تَهْوَى الأنفس . . ) .أى : ما يتبع
، هؤلاء الجاهلون فى عبادتهم لتلك الآلهة الباطلة ، إلا الظنون الكاذبة
. وإلا ما تشتهيه أنفسهم الأمارة بالسوء ، وتقليد للآباء بدون تفكر أو تدبر
فالمراد بالظن هنا : الظن الباطل الذى يقوم على الاعتقاد الفاسد ، كما فى
قوله - تعالى - : ( إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن وَإِنْ هُمْ إِلاَّ
يَخْرُصُونَ ) والتعريف فى قوله - سبحانه - : ( وَمَا تَهْوَى الأنفس ) عوض
عن المضاف إليه . و ( مَا ) موصولة والعائد محذوف . أى : والذى تهواه
أنفسهم التى استحوذ عليها الشيطان . .وجملة : ( وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن
رَّبِّهِمُ الهدى ) حالية من فاعل " يتبعون " ، وجىء بها لزيادة التعجب من
، حالهم .أى : هم ما يتبعون إلا الظنون وما تهواه أنفسهم المحجوبة عن الحق
والحال أنه قد جاء إليهم ، ووصل إلى مسامعهم من ربهم ، ما يهديهم إلى
، الصواب لو كانوا يعقلون .وأكد - سبحانه - هذه الجملة بلام القسم وقد
لتأكد الخبر ، ولزيادة التعجب من أحوالهم التى بلغت الغاية فى الغرابة
والتعبير بقوله : ( جَآءَهُم ) يشعر بأن الحق قد وصل إليهم بدون عناء منهم.
ولكنهم مع ذلك رفضوه وأعرضوا عنه .والتعريف فى لفظ " الهدى " يدل على ،
كماله وسموه . أى . ولقد جاءهم من ربهم الهدى الكامل الذى ينتهى بمن يتبعه
- إلى الفوز والسعادة .والمراد به : ما جاء به النبى - صلى الله عليه وسلم
. من قرآن كريم ومن سنة مطهرة

ام للانسان ما تمنى

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن شهوات النفس ومطالبها وأمنياتها لا تتحقق إلا فى الإطار الذى يريده الله - تعالى - لها ، فقال : ( أَمْ - لِلإِنسَانِ مَا تمنى فَلِلَّهِ الآخرة والأولى ) .والاستفهام هنا - أيضا - للإنكار ، ولإبطال اتباعهم للظنون ولما تهوان أنفسهم . .أى : إن هؤلاء قد اتبعوا فى ضلالهم وكفرهم الظنون والأوهام ، وما تشتهيه قلوبهم من حب للرياسة ، ومن تقليد للآباء ، ومن تطلع إلى أن هذه الأصنام ستشفع لهم عند الله - تعالى - . . مع أن وقائع الحياة وشواهدها التى يرونها بأعينهم ، تدل دلالة واضحة ، على أنه ليس كل ما يتمناه الإنسان يدركه ، وليس كل ما يريده - يتحقق له . . .لأن كل شىء فى هذه الحياة مرهون بإرادته ومشيئته - سبحانه ، وهو - عز وجل - صاحب الدار الآخرة ، وصاحب الدار الأولى وهى دار الدنيا ولا يقع فيهما إلا ما يريده .فالمقصود من الآيتين الكريمتين ، نفى ما كان - يتمناه أولئك المشركون من شفاعة أصنامهم لهم يوم القيامة ، كما حكى عنهم سبحانه - ذلك فى قوله : ( مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى الله زلفى . . ) ونفى ما كانت تتطلع إليه نفوس بعضهم ، من نزول القرآن عليه . . . ) : أو من اختصاصه بالنبوة . فقد حكى - سبحانه - عنهم قولهم ، لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ) كما أن المقصود بها كذلك ، ترويض النفس البشرية على عدم الجرى وراء ظنونها وأهوائها ، بل عليها أن تتمسك بالحق ، وأن تعتصم بطاعة الله - تعالى - وأن تباشر الأسباب التى شرعها - سبحانه - ، ثم بعد ذلك تترك النتائج له يسيرها كيف يشاء ، فإن له الآخرة والأولى .وقدم - سبحانه - الجار والمجرور فى قوله ( أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تمنى ) : ، لإفادة أن هذا التمنى هو محط الإنكار ، وأن الإنسان العاقل هو الذى لا يجرى وراء أمنياته ، وإنما هو الذى يسعى إلى تحقيق ما أمره الله - تعالى - به من تكاليف .وقدم - سبحانه - الآخرة على الأولى ، لأنها الأهم ، إذ نعيمها هو الخالد الباقى ، أما شهوات الدنيا وملذتها ، فهى مهما كثرت ، زائلة فانية .

فلله الاخرة والاولى

`<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html} كما فسرها الوسيط

ثم بين - سبحانه - أن شهوات النفس ومطالبها وأمنياتها لا تتحقق إلا فى الإطار الذى يريده الله - تعالى - لها ، فقال : ( أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تمنى فَلِلَّهِ الآخرة والأولى ) .والاستفهام هنا - أيضا - للإنكار ، وللإبطال اتباعهم للظنون ولما تهوان أنفسهم . .أى : إن هؤلاء قد اتبعوا فى ضلالهم وكفرهم الظنون والأوهام ، وما تشتهيه قلوبهم من حب للرياسة ، ومن تقليد للآباء ، ومن تطلع إلى أن هذه الأصنام ستشفع لهم عند الله - تعالى - . . مع أن وقائع الحياة وشواهدها التى يرونها بأعينهم ، تدل دلالة واضحة . . على أنه ليس كل ما يتمناه الإنسان يدركه ، وليس كل ما يريده يتحقق له . . لأن كل شىء فى هذه الحياة مرهون بإرادته ومشيئته - سبحانه - وهو - عز. وجل - صاحب الدار الآخرة ، وصاحب الدار الأولى وهى دار الدنيا ، ولا يقع فيهما إلا ما يريده .فالمقصود من الآيتين الكريمتين ، نفى ما كان يتمناه - أولئك المشركون من شفاعة أصنامهم لهم يوم القيامة ، كما حكى عنهم سبحانه - ذلك فى قوله : ( مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى الله زلفى . . ) ونفى ما كانت تتطلع إليه نفوس بعضهم ، من نزول القرآن عليه . . . ) : أو من اختصاصه بالنبوة . فقد حكى - سبحانه - عنهم قولهم ، لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ) كما أن المقصود بها كذلك ، ترويض النفس البشرية على عدم الجرى وراء ظنونها وأهوائها ، بل عليها أن تتمسك بالحق ، وأن تعتصم بطاعة الله - تعالى - وأن تباشر الأسباب التى شرعها - سبحانه - ، ثم بعد ذلك تترك النتائج له يسيرها كيف يشاء ، فإن له الآخرة والأولى .وقدم - سبحانه - الجار والمجرور فى قوله ( أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تمنى ) : ، لإفادة أن هذا التمنى هو محط الإنكار ، وأن الإنسان العاقل هو الذى لا يجرى وراء أمنياته ، وإنما هو الذى يسعى إلى تحقيق ما أمره الله - تعالى - به من تكاليف .وقدم - سبحانه - الآخرة على الأولى ، لأنها الأهم ، إذ نعيمها هو الخالد الباقى ، أما شهوات الدنيا وملذتها ، فهى مهما كثرت ، زائلة فانية .

وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئا الا من بعد ان ياذن الله لمن يشاء ويرضى

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن الملائكة مع سمو منزلتهم ، وشدة حرصهم على طاعة الله - تعالى - ، لا يملكون الشفاعة لأحد إلا بإذنه - عز وجل - فقال : ( وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السماوات لاَ تُغْنِي

شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ الله لِمَن يَشَآءُ
، ويرضى ) .و " كم " هنا خبرية بمعنى كثير ، وهى فى موضع رفع على الابتداء
وخبرها جملة ، "لا تغنى شفاعتهم . . . " وهى وإن كانت مفردة لفظا ، إلا
أنها فى معنى الجمع . . .أى : وكثير من الملائكة المقربين لدينا فى السموات
العلا ، لا تغنى شفاعتهم عندنا شيئا من الأشياء . إلا من بعد أن يأذن
الله - تعالى - لهم فيها ، لمن يشاء أن يشفعوا له ، ويرضى - سبحانه - عن
هذا المشفوع له .فالآية الكريمة من قبيل ضرب المثل للمشركين ، الذين توهموا
أن أصنامهم ستشفع لهم ، وكأنه - سبحانه - يقول لهم : إذا كان الملائكة مع
سمو منزلتهم عندنا لا يشفعون إلا بإذننا ، ولمن نرضى عنه . فكيف وصل بكم
- الجهل والحمق - أيها المشركون - إلى توهم أن أصنامكم - مع خستها وحقارتها
ستشفع لكم عندنا؟وقوله : ( فِي السماوات ) صفة " لملك " والمقصود بهذه
الصفى التشريف والتكريم .وقوله : ( شَيْئاً ) التنكير فيه للتقليل والتعميم
وهو فى موقع المفعول المطلق .أى : لا تغنى شفاعتهم شيئا من الإغناء حتى ،
ولو كان فى غاية القلة .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( وَلاَ تَنفَعُ
. . ) : - الشفاعة عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ . . ) وقوله - سبحانه
وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارتضى وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ
مُشْفِقُونَ ) وهذه الآيات الكريمة بجانب تيئيسها للكافرين من الحصول على
أية شفاعة ، لأنهم ليسوا ممن رضى الله عنهم ، تدعو المؤمنين إلى مواصلة
، المحافظة على أداء حقوقه - سبحانه - ، لينالوا رضاه عنهم يوم القيامة
. وليكونوا أهلا للحصول على الشفاعة التى يبغونها

ان الذين لا يؤمنون بالاخرة ليسمون الملائكة تسمية الانثى

كما فسرها الوسيط ثم عادت السورة إلى ذم الكافرين الذين وصفوا الملائكة
بصفات لا تليق بهم . فقال - تعالى - : ( إِنَّ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ
بالآخرة ) وما فيها من حساب وجزاء وثواب وعقاب . . . ( لَيُسَمُّونَ
: الملائكة تَسْمِيَةَ الأنثى ) أى : ليصفون الملائكة بوصف الإناث فيقولون
الملائكة بنات الله كما قال - تعالى - :( وَجَعَلُواْ الملائكة الذين هُمْ
عِبَادُ الرحمن إِنَاثاً أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ
: وَيُسْأَلُونَ ) ولفظ : " الملائكة " هنا فى معنى استغراق كل فرد ، أى
. ليسمون كل واحد منهم ويصفونه بصفة الأنوثة

وما لهم به من علم ان يتبعون الا الظن وان الظن لا يغني من الحق شيئا

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن
يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن . . ) رد عليهم فيما قالوه ، وتجهيل لهم فيما
زعموه ، والجملة حال من ضمير " ليسمون " .أى : إنهم ليصفون الملائكة
. . بالأنوثة ، والحال أنهم لا علم لهم بتكوين هؤلاء الملائكة ، أو بصفتهم
وإنما يتبعون الظن الباطل فى أقوالهم وأحكامهم .( . . . وَإِنَّ الظن لاَ .
يُغْنِي مِنَ الحق شَيْئاً ) أى : وإن الظن الباطل ، والاعتقاد الخاطىء لا
يغنى فى معرفة الحق شيئا ، حتى ولو كان هذا الشىء قليلا ، لأن العقائد
السليمة ، لا تبنى على الظنون والأوهام ، وإنما تبنى على الحقائق الراسخة
والعلوم الثابتة .وأظهر - سبحانه - لفظ الظن هنا ، مع تقدم ذكره لتكون
الجملة مستقلة بنفسها ، ولتكون - أيضا - بمثابة المثل الذى يقال فى الموضع
الذى يناسبه .وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة ، قد وبخت المشركين على
شركهم بأسلوب منطقى سليم ، حيث ساقت لهم الحقائق فى أسلوب يغلب عليه طابع
، الموازنة والمقارنة ، والاستشهاد بالواقع ، ووضع أيديهم على أماكن الدواء
. لو كانوا من يريدونه ، ويبحثون عنه

فاعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا

، كما فسرها الوسيط وبعد هذا البيان الحكيم الذى يحق الحق ، ويبطل الباطل
أمر الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - أى يمضى فى طريقه الذى
رسمه - سبحانه - له ، وأن يترك حساب هؤلاء الضالين لله - تعالى - الذى
يجازى كل نفس بما كسبت ، والذى يعلم السر وأخفى ، والذى رحمته وسعت كل شىء
) : فقال - تعالى - :( فَأَعْرِضْ عَن . . . ) .الفاء فى قوله . . .
فَأَعْرِضْ عَن مَّن تولى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الحياة
الدنيا ) للإفصاح . وأصل الإعراض : لفت الوجه عن الشىء ، لأن الكاره لشىء
يعرض بصفحة خده عنه .والمراد به هنا : ترك هؤلاء المشركين ، وعدم الحرص على
إيمانهم ، بعد أن وصلتهم دعوة الحق . . . أى : إذا كان الأمر كما ذكرنا
لك - أيها الرسول الكريم - من أن هؤلاء المشركين ، ما يتبعون فى عقائدهم
، إلى الظن الباطل ، وإلا ما تشتهيه أنفسهم . .فاترك مجادلتهم ولا تهتم بهم
بعد أن بلغتهم رسالة ربك . . . فإنهم قوم قد أصروا على عنادهم . وعلى
الإدبار عن وحينا وقرآننا الذى أنزلناه إليك ، ولم يريدوا من حياتهم إلا

التشبع من زينة الحياة الدنيا ، ومن شهواتها ومتعها .ومن كان كذلك فلن تستطيع أن تهديه ، لأنه آثر الغى على الرشد ، والضلالة على الهداية . وجىء بالاسم الظاهر فى مقام الإضمار ، فقيل : ( فَأَعْرِضْ عَن مَّن تولى عَن ذِكْرِنَا ) ولم يقل : فأعرض عنهم . . . لبيان ما تؤذن به صلة الموصول من علة الأمر بالإعراض عنهم ، وهى أنهم قوم أعرضوا عن الوحى ، ولم يريدوا سوى متع دنياهم ، وأما ما يتعلق بالآخرة فهم فى غفلة عنه .

ذلك مبلغهم من العلم ان ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيله وهو اعلم بمن اهتدى

- كما فسرها الوسيط وقوله : ( ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِّنَ العلم ) تسلية له صلى الله عليه وسلم - عما أصابه منهم ، وتحقير لهم ولأفكارهم ، وتهوين من شأنهم . . . أى : ذلك الذى تراه منهم من التولى عن قرآننا ، ومن الحرص على عرض الحياة الدنيا ، منتهى علمهم ، ولا علم سواه . .فاسم الإشارة " ذلك " يعود إلى المفهوم من الكلام السابق وهو توليهم عن القرآن الكريم ، وتكالبهم على الحياة الدنيا . .وفى هذه الجملة المعترضة ما فيها من تحقير أمرهم ، ومن الازدراء بعملهم الذى أدى بهم إلى إيثار الشر على الخير ، والعاجلة على الآجلة .وقوله - سبحانه - : ( إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ . . . ) تعليل للأمر بالإعراض عنهم ، والإهمال لشأنهم ، وتسلية أخرى له - صلى الله عليه وسلم - .أى : امض - أيها الرسول الكريم - فى طريقك وأعرض عن هؤلاء الجاحدين المعاندين ، الذين أصروا على عدم الاستجابة لكن ، بعد أن سلكت معهم كل وسيلة تهديهم إلى الحق . . إن ربك - أيها الرسول الكريم - هو أعلم بمن أصر من الناس على الضلال ، وهو - سبحانه - أعلم بمن شأنه الاهتداء ، والاستجابة للحق . .والمراد بالعلم هنا لازمه ، أى : ما يترتب عليه من ثواب وعقاب ، ثواب للمؤمنين ، وعقاب للكافرين .وكرر - سبحانه - قوله ( هُوَ أَعْلَمُ ) لزيادة التقرير ، والمراد بمن ضل : من أصر على الضلال ، وبمن اهتدى : من عنده الاستعداد لقبول الحق والهداية .وقدم - سبحانه - من ضل على من اهتدى هنا ، لأن الحديث السابق واللاحق معظمة عن المشركين ، الذين عبدوا من دون الله - تعالى - أصناما لا تضر ولا تنفع ، وضمير الفصل فى قوله - سبحانه - ( هُوَ أَعْلَمُ ) لتأكيد هذا العلم. وقصره عليه - سبحانه - قصرا حقيقيا ، إذ هو - تعالى - الذى يعلم دخائل النفوس ، وغيره لا يعلم .

ولله ما في السماوات وما في الارض ليجزي الذين اساءوا بما عملوا ويجزي الذين احسنوا بالحسنى

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما يدل على شمول ملكه لكل شىء فقال - وَلِلَّهِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض . . ) . أى : ولله - تعالى وحده جميع ما فى السموات وما فى الأرض خلقا ، وملكا ، وتصرفا . . .واللام فى قوله : ( لِيَجْزِيَ الذين أَسَاءُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيِجْزِيَ الذين أَحْسَنُواْ بالحسنى ) متعلقة بمحذوف يدل عليه الكلام السابق .أى : فعل ما فعل - سبحانه - من خلقه للسموات والأرض وما فيهما ، ليجزى يوم القيامة الذين اساءوا فى أعمالهم بما يستحقونه من عقاب ، وليجزى الذين أحسنوا فى أعمالهم بما يستحقونه من ثواب .وقوله : ( بالحسنى ) صفة لموصوف محذوف ، أى : بالمثوبة الحسنى التى هى الجنة .

الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش الا اللمم ان ربك واسع المغفرة هو اعلم بكم اذ انشاكم من الارض واذ انتم اجنة في بطون امهاتكم فلا تزكوا انفسكم هو اعلم بمن اتقى

كما فسرها الوسيط وقوله : ( الذين يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإثم والفواحش إِلاَّ اللمم . . ) صفة لقوله : ( الذين أَحْسَنُواْ ) أو بدل منه .والمراد بكبائر الإثم : الآثام الكبيرة ، والجرائم الشديدة ، التى يعظم العقاب عليها . كقتل النفس بغير حق ، وأكل أموال الناس بالباطل .والفواحش : جمع فاحشة ، وهى ما قبح من الأقوال والأفعال كالزنا ، وشرب الخمر . .وعطفها على كبائر الإثم من باب عطف الخاص على العام ، لأنها أخص من الكبائر ، وأشد إثما .واللم : ما صغر من الذنوب ، وأصله : ما قل قدره من كل شىء : يقال : ألم فلان بالمكان ، إذا قل مكثه فيه . وألم بالطعام : إذا قل أكله منه . . وقيل : اللمم ، مقاربة الذنب دون الوقوع فيه ، من قولهم : ألم فلان بالشىء ، إذا قاربه ولم يخالطه .وجمهور العلماء على أن الاستثناء هنا منقطع ، وأن اللمم هو الذنوب الصغيرة ، كالنظرة الخائنة ولكن بدون مداومة ، والإكثار من الممازحة .قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : " واللمم " : صغائر الذنوب ، ومحقرات الأعمال ، وهذا استثناء منقطع .قال الإمام أحمد : عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : ما رأيت شيئا أشبه باللمم ، مما قال أبو هريرة ، عن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : " إن الله كتب على ابن آدم

حظه من الزنا ، أدرك ذلك لا محالة ، فزنا العين النظر ، وزنا اللسان النطق
والنفس تتمنى وتشتهى ، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه " .وعن مجاهد أنه قال فى ،
هذه الآية ( إِلاَّ اللمم ) الذى يلم بالذنب ثم يدعه ، كما قال الشاعر :إن
تغفر اللهم تغفر جما ... وأى عبد لك ما ألماومن العلماء من يرى أن
الاستثناء هنا متصل ، وأن المراد باللمم ارتكاب شىء من الفواحش ، ثم التوبة
منها توبة صادقة نصوحا . .فعن الحسن أنه قال : اللمم من الزنا أو السرقة أو
، شرب الخمر ، ثم لا يعود .. .ويبدو لنا أن الرأى الأول أقرب إلى الصواب
لأن العلماء قسموا الذنوب إلى كبائر وصغائر ، وأن اللمم من النوع الثانى
الذى لا يدخل تحت كبائر الإثم والفواحش .قال صاحب الكشاف : واللمم : ما قل
) - وصغر . . . والمراد به الصغائر من الذنوب ، ولا يخلو قوله - تعالى
إِلاَّ اللمم ) فتح الباب لارتكاب صغائر الذنوب ، وإنما المقصود فتح باب
التوبة ، والحض على المبادرة بها ، حتى لا ييأس مرتكب الصغائر من رحمة
الله - تعالى - وحتى لا يمضى قدما في ارتكاب هذه الصغائر ، إذ من المعروف
أن ارتكاب الصغائر ، قد يجر إلى ارتكاب الكبائر .كذلك من المقصود بهذا
الاستثناء أن لا يعامل مرتكب الصغائر ، معاملة مرتكب الكبائر .هذا ، وقد
أفاض الإمام الألوسى فى الحديث عن الكبائر والصغائر ، فقال : والاية عند
الأكثرين دليل على أن المعاصى منها الكبائر ، ومنها الصغائر . . .وأنكر
: جماعة من الأئمة هذا الانقسام ، وقالوا : سائر المعاصى كبائر .ثم قال
واختلف القائلون بالفرق بين الكبائر والصغائر فى حد الكبيرة فقيل : هى كل
ما لحق صاحبها عليها بخصوصها وعيد شديد ، بنص كتاب أو سنة . . .وقيل : كل
جرمة تؤذن بقلة اكتراث مرتكبها بالدين ، ورقة الديانة .واعتمد الواحدى أنه
لا حد لها يحصرها ويعرفها العباد به ، وقد أخفى الله - تعالى - أمرها
- ليجتهدوا فى اجتناب المنهى عنه ، رجاء أن تجتنب الكبائر . .وقوله
، سبحانه - : ( إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ المغفرة . . ) تعليل لاستثناء اللمم
وتنبيه على أن إخراجه عن حكم المؤاخذة ، ليس لخلوه عن الذنب فى ذاته ، بل
لسعة رحمة الله ومغفرته .أى : إن ربك - أيها الرسول الكريم - واسع المغفرة
والرحمة ، لعباده الذين وقعوا فيما نهاهم عنه - سبحانه - ثم تابوا إليه
توبة صادقة نصوحا .ثم بين - سبحانه - أن هذه الرحمة الواسعة ، صادرة عن علم
شامل للظواهر والبواطن ، فقال : ( هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُمْ
( . . مِّنَ الأرض وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ
والظرف " إذ " متعلق بقوله ( أَعْلَمُ ) والأجنة : جمع جنين ، ويطلق على.
ما يكون بداخل الأرحام قبل خروجه منها .وسمى بذلك ، لأنه يكون مستترا فى
داخل الرحم ، كما قال - تعالى - : ( يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ
( . . . أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاَثٍ
أى : هو - سبحانه - أعلم بكم من وقت إنشائه إياكم من الأرض ، ضمن خلقه
، لأبيكم آدم ، ومن وقت أن كنتم أجنة فى بطون أمهاتكم ، يعلم أطواركم فيها
ويرعاكم برحمته ، إلى أن تنفصلوا عنها .وقال - سبحانه - ( فِي بُطُونِ
- أُمَّهَاتِكُمْ ) مع أن الجنين لا يكون إلى فى بطن أمه ، للتذكير برعايته
تعالى - لهم ، وهم فى تلك الأطوار المختلفة من وقت العلوق إلى حين الولادة
وللحض على مداومة شكره وطاعته .وقوله - تعالى - : ( فَلاَ تزكوا ،
أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتقى ) تحذير من التفاخر بالأعمال
، والأحساب والأنساب ، لأنه - سبحانه -لا يخفى عليه شىء من أحوال الناس
والفاء للتفريع على ما تقدم . أى : إذا كان الأمر كما ذكرت لكم من عدم
مؤاخذتى إياكم على اللمم ، فإن ذلك بسبب سعة رحمتى ، فلا تمدحوا أنفسكم
بأنكم فعلتم كذا وكذا من الأفعال الحسنة ، بل اشكرونى على سعة رحمتى
ومغفرتى ، فإنى أنا العليم بسائر أحوالكم ، الخبير بالظواهر والبواطن
للأتقياء والأشقياء .قالوا : والآية نزلت فى قوم من المؤمنين ، كانوا
يعملون أعمالا حسنة ، ثم يتفاخرون بها .قال صاحب الكشاف : قوله : ( فَلاَ
. تزكوا أَنفُسَكُمْ . . ) أى فلا تنسبوها إلى زكاء العمل ، وزيادة الخير
وعمل الطاعات ، أو إلى الزكاء والطهارة من المعاصى ، ولا تثنوا عليها
واهضموها فقد علم الله الزكى منكم والتقى أولا وآخرا ، قبل أن يخرجكم من
صلب آدم ، وقبل أن تخرجوا من بطون أمهاتكم .وهذا إذا كان على سبيل الإعجاب
أو الرياء ، فأما من اعتقد أن ما عمله من العمل الصالح ، من الله وبتوفيقه
وتأييده . ولم يقصد به التمدح ، لم يكن من المزكين لأنفسهم ، لأن المسرة
بالطاعة طاعة ، وذكرها شكر لله - تعالى - .وقال الآلوسى : والمراد النهى عن
تزكية السمعة أو المدح للدنيا ، أو التزكية على سبيل القطع ، وأما التزكية
لإثبات الحقوق ونحوه - كالإخبار عن أحوال الناس بما يعلم منهم وجربوا فيه
. من ثقة وعدالة فهى جائزة

افرايت الذي تولى

كما فسرها الوسيط وبعد هذا التوجيه الحكيم للنفوس البشرية ، والبيان البديع
لمظاهر رحمة الله - تعالى - بعباده بعد ذلك أخذت السورة فى الحديث مرة أخرى
- عن الكافرين . وفى الرد على شبهاتهم ، وفى بيان مظاهر قدرته - تعالى

فقال - سبحانه - : ( أَفَرَأَيْتَ الذي تولى . . . . ) .ذكر المفسرون
روايات فى سبب نزول قوله - تعالى - : ( أَفَرَأَيْتَ الذي تولى وأعطى
قَلِيلاً وأكدى ) منها : أنها نزلت فى الوليد بن المغيرة ، كان قد سمع
قراءة النبى - صلى الله عليه وسلم - ، وجلس إليه ووعظه ، فَهَمّ أن يدخل
فى الإسلام . فعاتبه رجل من المشركين ، وقال له : أتترك ملة آبائك؟ ارجع
إلى دينك ، واثبت عليه ، وأنا أتحمل عنك كل شىء تخافه فى الآخرة ، لكن على
أن تعطينى كذا وكذا من المال .فوافقه الوليد على ذلك ، ورجع عماهم به من
، الدخول فى الإسلام ، وأعطى بعض المال لذلك الرجل ، ثم أسمك عن الباقى
- وبخل به ، فأنزل الله - تعالى - هذه الآيات . . .والاستفهام فى قوله
تعالى - : ( أَفَرَأَيْتَ . . . ) للتعجيب من حال هذا الإنسان ، الذى أعرض
- عن الحق ، بعد أن عرف الطريق إليه .أى : أفرأيت - أيها الرسول الكريم
حالا أعجب من حال هذا الإنسان الذى تولى عن الهدى ، ونبذه وراء ظهره ، بعد
. أن قارب الدخول فيه

واعطى قليلا واكدى

كما فسرها الوسيط ( وأعطى قَلِيلاً ) من العطاء ( وأكدى ) أى ثم قطع هذا
العطاء .قال صاحب الكشاف : ( وأكدى ) أى : وقطع عطيته وأمسك ، وأصله إكداء
الحافر ، وهو أن تلقاه كديه ، وهى صلابة كالصخر فيمسك عن الحفر .والمراد به
. هنا : ذمه بالبخل والشح ، بعد ذمه بالتولى عن الحق

اعنده علم الغيب فهو يرى

كما فسرها الوسيط ( أَعِندَهُ عِلْمُ الغيب فَهُوَ يرى ) أى : أعند هذا
الإنسان الذى أعرض عن الرشد ، علم الغيوب المستترة عن الأعين والنفوس ، فهو
وحده يراها ، ويطلع عليها ويعلم أن فى إمكان الغير أن يحمل عنه أوزاره
وذنوبه يوم القيامة .كلا ، إنه لا علم عنده بشىء من ذلك ، وإنما هو قد ارتد
على أعقابه ، لانطماس بصيرته . بعد أن قارب الرشد والصواب .فالاستفهام فى
- قوله : ( أَعِندَهُ عِلْمُ الغيب . . . ) للنفى والإنكار .وقدم - سبحانه
الظرف " عنده " وهو مسند ، على " علم الغيب " وهو مسند إليه ، فإفادة
الاهتمام بهذه العندية التى من أعجب العجب ادعاؤها ، وللإشعار بأنه بعيد
، عنها بعد الأرض عن السماء .والفاء فى قوله : ( فَهُوَ يرى ) للسببية
ومفعول ( يرى ) محذوف .أى : فهو بسبب معرفته للعوالم الغيبية ، يبصر رفع
. العذاب عنه ، ويعلم أن غيره سيتكفل بافتدائه من هذا العذاب

ام لم ينبا بما في صحف موسى

كما فسرها الوسيط ثم وبخه - سبحانه - على جهالته وعدم فهمه فقال : ( أَمْ
لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ موسى وَإِبْرَاهِيمَ الذي وفى أَلاَّ
تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى . . ) .وصحف إبراهيم : هى الصحف التى أوحى
) : اللَّهُ - تعالى - إليه بما فيها ، وقد ذكر سبحانه ذلك فى قوله تعالى
إِنَّ هذا لَفِي الصحف الأولى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وموسى ) وخصت صحف هذين
النبيين الكريمين بالذكر ، لأنها كانت أشهر من غيرها عند العرب ، وكانوا
- يسألون أهل الكتاب من اليهود عما خفى عليهم من صحف موسى .وقدم - سبحانه
هنا صحف موسى ، لاشتهارها بسعة الأحكام التى اشتملت عليها ، بالنسبة لما
وصل إليهم من صحف إبراهيم .وأما فى سورة الأعلى فقدمت صحف إبراهيم على صحف
، موسى لوقوعهما بدلا من الصحف الأولى ، وصحف إبراهيم أقدم من صحف موسى
فكان الإتيان بهما على الترتيب الزمنى أنسب بالمقام .وحذف - سبحانه - متعلق
- وفّى " ليتناول كل ما يجب الوفاء به ، كمحافظته على أداء حقوق الله "
، تعالى - ، واجتهاده فى تبليغ الرسالة التى كلفه - سبحانه - بتبليغها
ووقوفه عند الأوامر التى أمره - تعالى - بها ، وعند النواهى التى نهاه عنها
. . .

وابراهيم الذي وفى

`<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html} كما فسرها الوسيط

ثم وبخه - سبحانه - على جهالته وعدم فهمه فقال : ( أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ
بِمَا فِي صُحُفِ موسى وَإِبْرَاهِيمَ الذي وفى أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ
وِزْرَ أخرى . . ) .وصحف إبراهيم : هى الصحف التى أوحى الله - تعالى - إليه
بما فيها ، وقد ذكر سبحانه ذلك فى قوله تعالى : ( إِنَّ هذا لَفِي الصحف
الأولى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وموسى ) وخصت صحف هذين النبيين الكريمين بالذكر
لأنها كانت أشهر من غيرها عند العرب ، وكانوا يسألون أهل الكتاب من ،
، اليهود عما خفى عليهم من صحف موسى .وقدم - سبحانه - هنا صحف موسى

لاشتهارها بسعة الأحكام التى اشتملت عليها ، بالنسبة لما وصل إليهم من صحف إبراهيم .وأما فى سورة الأعلى فقدمت صحف إبراهيم على صحف موسى لوقوعهما بدلا من الصحف الأولى ، وصحف إبراهيم أقدم من صحف موسى ، فكان الإتيان بهما على الترتيب الزمنى أنسب بالمقام .وحذف - سبحانه - متعلق " وفّى " ليتناول كل ما يجب الوفاء به ، كمحافظته على أداء حقوق الله - تعالى - ، واجتهاده فى تبليغ الرسالة التى كلفه - سبحانه - بتبليغها ، ووقوفه عند الأوامر التى أمره - تعالى - بها ، وعند النواهى التى نهاه عنها . . .

الا تزر وازرة وزر اخرى

كما فسرها الوسيط و ( أن ) فى قوله - تعالى - : ( أَلاّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى ) مخففة من الثقيلة . واسمها ضمير الشأن محذوف ، والجملة بدل من صحف موسى وإبراهيم .وقوله ( تَزِرُ ) من الوزر بمعنى الحمل . . وقوله ) وَازِرَةٌ ) صفة لموصوف محذوف . أى : نفس وازرة .والمعنى : إذا كان هذا الإنسان المتولى عن الحق . . . جاهلا بكل ما يجب العلم به من شئون الدين ، فهلا سأل العلماء عن صحف موسى وإبراهيم - عليهما السلام - ففيها أنه لا تحمل نفس آثمة حمل أخرى يوم القيامة .قال الآلوسى : وقوله : ( أَلاّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى ) أى : أنه لا تحمل نفس من شأنها الحمل ، حمل نفس أخرى . . . ولا يؤاخذ أحد بذنب غيره . ليتخلص الثانى من عقابه . ولا يقدح فى ذلك قوله - صلى الله عليه وسلم - : ( وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاّ مَا سعى . . . ) معطوف على ما قبله ، لبيان عدم إثابة الإنسان بعمل غيره ، إثر بيان عدم مؤاخذته بذنب سواه .

وان ليس للانسان الا ما سعى

: كما فسرها الوسيط ( وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سعى . . . )أى كما أنه لا تحمل نفس آثمة حمل نفس اخرى ، فكذلك لا يحصل الإنسان إلا على نتيجة عمله الصالح ، لا على نتيجة عمل غيره .فالمراد بالسعى فى الآية السعى الصالح ، والعمل الطيب ، لأنه قد جاء فى مقابلة الحديث عن الأوزار والذنوب .

وان سعيه سوف يرى

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( وَأَنّ سَعْيَهُ سَوْفَ يرى ثُمّ يُجْزَاهُ الجزآء الأوفى ) بيان لثمرة هذا السعى الصالح يوم القيامة .أى : ليس للإنسان إلا ثمرة عمله الصالح بدون زيادة أو نقص ، وهذا العمل الصالح سوف يراه مسجلا أمامه فى صحف مكرمة ، وفى ميزان حسناته ، ثم يجازيه الله - تعالى - عليه الجزاء التام الكامل . الذى لا نقص فيه ولا بخس .وفى رؤية الإنسان لعمله الصالح يوم القيامة ، تشريف وتكريم له ، كما قال - تعالى - : ( يَوْمَ تَرَى المؤمنين والمؤمنات يسعى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ اليوم جَنّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الفوز العظيم ) هذا ، وقد توسع العلماء فى الجمع بين قوله - تعالى - : ( وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاّ مَا سعى ) وبين النصوص التى تفيد أن الإنسان قد ينتفع بعمل غيره ، وهذه خلاصة لأقوالهم :قال الإمام ابن كثير : ومن هذه الآية استنبط الشافعى ومن اتبعه ، أن القراءة لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتة .لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم ، ولهذا لم يندب إليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أمته ، ولا حثهم عليه ، ولا أرشدهم إليه بنص ولا إيماء ، ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة ، ولو كان خيرا لسبقونا إليه ، وباب القربات يقتصر فيه على النصوص ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء .فأما الدعاء والصدقة ، فذاك مجمع ، على وصولهما ، ومنصوص من الشارع عليهما .وأما الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : ولد صالح يدعو له ، أو صدقة جارية من بعده ، أو علم ينتفع به " . فهذه الثلاثة فى الحقيقة . هى من سعيه وكده وعمله .وقال الجمل فى حاشيته على الجلالين : واستشكل الحصر فى هذه الآية ) بقوله - تعالى - فى آية أخرى ) : وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سعى ) والذين آمَنُواْ واتبعتهم ذُرِّيّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَاهُمْ مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ) . . وبالأحاديث الواردة فى ذلك كحديث : " إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث . . . " .وأجيب : بأنها مخصوصة بقوم إبراهيم وموسى ، لأنها حكاية لما فى صحفهم ، وأما هذه الأمة فلها ما سعت هى ، وما سعى لها غيرها ، لما صح من أن لكل نبى وصالح شفاعة . وهو انتفاع بعمل الغير ، ومن تأمل النصوص وجد من انتفاع الإنسان بما لم يعمله ما لا يكاد يحصى ، فلا يجوز أن تؤول الآية على خلاف الكتاب والسنة واجتماع الأمة ، وحينئذ فالظاهر أن الآية عامة ، قد

خصصت بأمور كثيرة . .ثم قال الشيخ الجمل - رحمه الله - : وقال الشيخ تقى
الدين أبو العباس أحمد بن تيمية : من اعتقد أن الإنسان لا ينتفع إلا بعمله
فقد خرق الإجماع . وذلك باطل من وجوه كثيرة :أحدها : أن الإنسان ينتفع .
بدعاء غيره . وهو انتفاع بعمل الغير .ثانيها : أن النبى - صلى الله عليه
: وسلم - يشفع لأهل الموقف فى الحساب ثم لأهل الجنة فى دخولها .ثالثها
أنه - صلى الله عليه وسلم - يشفع لأهل الكبائر فى الخروج من النار ، وهذا
، انتفاع بسعى الغير .رابعها : أن الملائكة يستغفرون ويدعون لمن فى الأرض
وذلك منفعة بعمل الغير .خامسها : أن الله - تعالى - يخرج من النار من لم
يعمل خيرا قط - أى من المؤمنين - بمحض رحمته ، وهذا انتفاع بغير عملهم
سادسها : أن أولاد المؤمنين يدخلون الجنة بعمل آبائهم ، وذلك انتفاع بمحض.
): عمل الغير .سابعها : قال الله - تعالى - فى قصة الغلامين اليتمين
وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً ) فانتفعا بصلاح أبيهما ، وليس من سعيهما
، ثامنها : أن الميت ينتفع بالصدقة عنه ، وبالعتق ، بنص السنة والإجماع.
وهو من عمل الغير .تاسعها : أن الحج المفروض يسقط عن الميت ، بحج وليه بنص
السنة ، وهو انتفاع بعمل الغير .حادى عشر : المدين قد امتنع - صلى الله
عليه وسلم - من الصلاة عليه حتى قضى دينه أبو قتادة ، وقضى دين الآخر على
بن أبى طالب ، وانتفع بصلاة النبى - صلى الله عليه وسلم - وهو من عمل الغير
ثانى عشر : أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال لمن صلى وحده : " ألا رجل.
: يتصدق على هذا فيصلى معه " فقد حصل له فضل الجماعة بفعل الغير .ثالث عشر
أن الإنسان تبرأ ذمته من ديون الغير ، إذا قضاها عنه قاض ، وذلك انتفاع
، بعمل الغير .رابع عشر : أن من عليه تبعات ومظالم ، إذا حلل منها سقطت عنه
وهذا انتفاع بعمل الغير .خامس عشر : أن الجار الصالح ينفع فى المحيا وفى
الممات - كما جاء فى الأثر - وهذا انتفاع بعمل الغير .سادس عشر : أن الجار
الصالح ينفع فى المحيا وفى الممات - كما جاء فى الأثر - وهذا انتفاع بعمل
الغير .سادس عشر : أن جليس أهل الذكر يرحم بهم ، وهو لم يكن معهم ، ولم
يجلس لذلك بل لحاجة عرضت له ، والأعمال بالنيات ، فقد انتفع بعمل غيره
سابع عشر : الصلاة على الميت ، والدعاء له فى الصلاة ، انتفاع للميت بصلاة.
الحى عليه وهو عمل غيره .ثامن عشر : أن الجمعة تحصل باجتماع العدد ، وكذا
- الجماعة بكثرة العدد وهو انتفاع للبعض بالبعض .تاسع عشر : أن الله
تعالى - قال لنبيه : ( وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ )
وقال - تعالى - : ( وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَاتٌ
فقد رفع الله - تعالى - العذاب عن بعض الناس بسبب بعض ، وذلك انتفاع ( . .
بعمل الغير .تمام العشرين : أن صدقة الفطر تجب على الصغير وغيره ممن يمونه
الرجل ، فإنه ينتفع بذلك من يُخرج عنه ، ولا سعى له فيها .ثم قال - رحمه
الله - : ومن تأمل العلم وجد انتفاع الإنسان بما لم يعمله ما لا يكاد يحصى
، فكيف يجوز أن تتأول الآية الكريمة ، على خلاف صريح الكتاب والسنة ،
وإجماع الأمة . .والخلاصة أن الآية الكريمة فقد تكون من قبيل العام الذى قد
- خص بأمور كثيرة . كما سبق أن أشرنا ، وقد تكون مخصوصة بقوم إبراهيم وموسى
عليهما السلام - ، لأنها حكاية عما فى صحفهما ، أما الأمة الإسلامية فلها
سعيها ، ولها ما سعى لها به غيرها ، وهذا من فضل الله ورحمته بهذه الأمة
، وقد قال بعض الصالحين فى معنى هذه الآية : ليس للإنسان إلا ما سعى عدلا.
ولله - تعالى - أن يجزيه بالحسنة ألفا فضلا .ولهذه المسألة تفاصيل أخرى فى
كتب الفقه ، فليرجع إليها من شاء .

ثم يجزاه الجزاء الاوفى

`<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html} كما فسرها الوسيط

وقوله - تعالى - : ( وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يرى ثُمَّ يُجْزَاهُ الجزآء
الأوفى ) بيان لثمرة هذا السعى الصالح يوم القيامة .أى : ليس للإنسان إلا
ثمرة عمله الصالح بدون زيادة أو نقص ، وهذا العمل الصالح سوف يراه مسجلا
أمامه فى صحف مكرمة ، وفى ميزان حسناته ، ثم يجازيه الله - تعالى - عليه
الجزاء التام الكامل . الذى لا نقص فيه ولا بخس .وفى رؤية الإنسان لعمله
الصالح يوم القيامة ، تشريف وتكريم له ، كما قال - تعالى - ( يَوْمَ تَرَى
المؤمنين والمؤمنات يسعى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم
بُشْرَاكُمُ اليوم جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار خَالِدِينَ
فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الفوز العظيم ) هذا ، وقد توسع العلماء فى الجمع بين
قوله - تعالى - : ( وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سعى ) وبين
النصوص التى تفيد أن الإنسان قد ينتفع بعمل غيره ، وهذه خلاصة لأقوالهم
قال الإمام ابن كثير : ومن هذه الآية استنبط الشافعى ومن اتبعه ، أن:
، القراءة لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتة .لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم
ولهذا لم يندب إليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أمته ، ولا حثهم عليه
ولا أرشدهم إليه بنص ولا إيماء ، ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة ، ولو ،
كان خيرا لسبقونا إليه ، وباب القربات يقتصر فيه على النصوص ، ولا يتصرف

فيه بأنواع الأقيسة والآراء .فأما الدعاء والصدقة ، فذاك مجمع على وصولهما
ومنصوص من الشارع عليهما .وأما الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه عن أبى ،
هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " إذا مات الإنسان انقطع
عمله إلا من ثلاث : ولد صالح يدعو له ، أو صدقة جارية من بعده ، أو علم
ينتفع به " . فهذه الثلاثة فى الحقيقة . هى من سعيه وكده وعمله .وقال الجمل
فى حاشيته على الجلالين : واستشكل الحصر فى هذه الآية ( وَأَن لَّيْسَ
لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سعى ) بقوله - تعالى - فى آية أخرى : ( والذين
آمَنُواْ واتبعتهم ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ
ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَاهُمْ مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ) . .
وبالأحاديث الواردة فى ذلك كحديث : " إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من
ثلاث . . . " .وأجيب : بأنها مخصوصة بقوم إبراهيم وموسى ، لأنها حكاية لما
فى صحفهم ، وأما هذه الأمة فلها ما سعت هى ، وما سعى لها غيرها ، لما صح من
أن لكل نبى وصالح شفاعة . وهو انتفاع بعمل الغير ، ومن تأمل النصوص وجد من
انتفاع الإنسان بما لم يعمله ما لا يكاد يحصى ، فلا يجوز أن تؤول الآية على
خلاف الكتاب والسنة واجتماع الأمة ، وحينئذ فالظاهر أن الآية عامة ، قد
خصصت بأمور كثيرة . .ثم قال الشيخ الجمل - رحمه الله - : وقال الشيخ تقى
الدين أبو العباس أحمد بن تيمية : من اعتقد أن الإنسان لا ينتفع إلا بعمله
فقد خرق الإجماع . وذلك باطل من وجوه كثيرة :أحدها : أن الإنسان ينتفع .
بدعاء غيره . وهو انتفاع بعمل الغير .ثانيها : أن النبى - صلى الله عليه
: وسلم - يشفع لأهل الموقف فى الحساب ثم لأهل الجنة فى دخولها .ثالثها
أنه - صلى الله عليه وسلم - يشفع لأهل الكبائر فى الخروج من النار ، وهذا
، انتفاع بسعى الغير .رابعها : أن الملائكة يستغفرون ويدعون لمن فى الأرض
وذلك منفعة بعمل الغير .خامسها : أن الله - تعالى - يخرج من النار من لم
يعمل خيرا قط - أى من المؤمنين - بمحض رحمته ، وهذا انتفاع بغير عملهم
سادسها : أن أولاد المؤمنين يدخلون الجنة بعمل آبائهم ، وذلك انتفاع بمحض.
): عمل الغير .سابعها : قال الله - تعالى - فى قصة الغلامين اليتمين
وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً ) فانتفعا بصلاح أبيهما ، وليس من سعيهما
، ثامنها : أن الميت ينتفع بالصدقة عنه ، وبالعتق ، بنص السنة والإجماع.
وهو من عمل الغير .تاسعها : أن الحج المفروض يسقط عن الميت ، بحج وليه بنص
السنة ، وهو انتفاع بعمل الغير .حادى عشر : المدين قد امتنع - صلى الله
عليه وسلم - من الصلاة عليه حتى قضى دينه أبو قتادة ، وقضى دين الآخر على
بن أبى طالب ، وانتفع بصلاة النبى - صلى الله عليه وسلم - وهو من عمل الغير
ثانى عشر : أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال لمن صلى وحده : " ألا رجل.
: يتصدق على هذا فيصلى معه " فقد حصل له فضل الجماعة بفعل الغير .ثالث عشر
أن الإنسان تبرأ ذمته من ديون الغير ، إذا قضاها عنه قاض ، وذلك انتفاع
، بعمل الغير .رابع عشر : أن من عليه تبعات ومظالم ، إذا حلل منها سقطت عنه
وهذا انتفاع بعمل الغير .خامس عشر : أن الجار الصالح ينفع فى المحيا وفى
الممات - كما جاء فى الأثر - وهذا انتفاع بعمل الغير .سادس عشر : أن الجار
الصالح ينفع فى المحيا وفى الممات - كما جاء فى الأثر - وهذا انتفاع بعمل
الغير .سادس عشر : أن جليس أهل الذكر يرحم بهم ، وهو لم يكن معهم ، ولم
يجلس لذلك بل لحاجة عرضت له ، والأعمال بالنيات ، فقد انتفع بعمل غيره
سابع عشر : الصلاة على الميت ، والدعاء له فى الصلاة ، انتفاع للميت بصلاة.
الحى عليه وهو عمل غيره .ثامن عشر : أن الجمعة تحصل باجتماع العدد ، وكذا
- الجماعة بكثرة العدد وهو انتفاع للبعض بالبعض .تاسع عشر : أن الله
تعالى - قال لنبيه : ( وَمَا كَانَ اللهِ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ )
وقال - تعالى - : ( وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَاتٌ
فقد رفع الله - تعالى - العذاب عن بعض الناس بسبب بعض ، وذلك انتفاع ( . .
بعمل الغير .تمام العشرين : أن صدقة الفطر تجب على الصغير وغيره ممن يمونه
الرجل ، فإنه ينتفع بذلك من يُخرِج عنه ، ولا سعى له فيها .ثم قال - رحمه
الله - : ومن تأمل العلم وجَد انتفاع الإنسان بما لم يعمله ما لا يكاد يحصى
، فكيف يجوز أن تتأول الآية الكريمة ، على خلاف صريح الكتاب والسنة ،
وإجماع الأمة . .والخلاصة أن الآية الكريمة فقد تكون من قبيل العام الذى قد
- خص بأمور كثيرة . كما سبق أن أشرنا ، وقد تكون مخصوصة بقوم إبراهيم وموسى
عليهما السلام - ، لأنها حكاية عما فى صحفهما ، أما الأمة الإسلامية فلها
سعيها ، ولها ما سعى لها به غيرها ، وهذا من فضل الله ورحمته بهذه الأمة
، وقد قال بعض الصالحين فى معنى هذه الآية : ليس للإنسان إلا ما سعى عدلا.
ولله - تعالى - أن يجزيه بالحسنة ألفا فضلا .ولهذه المسألة تفاصيل أخرى فى
كتب الفقه ، فليرجع إليها من شاء .

وان الى ربك المنتهى

، كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك جانبا من مظاهر قدرته ورحمته
فقال - تعالى - : ( وَأَنَّ إلى رَبِّكَ المنتهى ) . أى : وأن إلى ربك
وحده -لا إلى غيره - انتهاء الخلق ومرجعهم ومصيرهم فيجازى الذين أساءوا

بما عملوا ، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .فقوله : ( المنتهى ) : مصدر
بمعنى الانتهاء ، والمراد بذلك مرجعهم إليه - تعالى - وحده .

وانه هو اضحك وابكى

- كما فسرها الوسيط ( وَأَنّهُ هُوَ أَضْحَكَ وأبكى ) أى : وأنه - سبحانه
: هو الذى أوجد فى هذا الكون ما يحيط بالإنسان من مؤثرات ومن مشاعر مختلفة
تارة يضحك وتارة يبكى .وما أكثر هذه المؤثرات والأحوال والاعتبارات
والدوافع . . . فى حياة الإنسان .فالآية الكريمة انتقال من وجوب الاعتبار
بأحوال الآخرة إلى وجوب الاعتبار بأحوال الإنسان ، وبما يحيط به من مؤثرات
، تارة تضحكه وتارة تبكيه .وأسند - سبحانه - الفعلين إليه؛ لأنه هو خالقهما
وهو الموجد لأسبابهما .وحذف - سبحانه - المفعول به لهما ، لأنهما هما
المقصودان بالذات ، لدلالتهما على كمال قدرته - تالى - أى : وأنه وحده - عز
وجل - هو الذى أوجد فى الإنسان الضحك والبكاء ، فالفعلان منزلان منزلة
الفعل اللازم .وقدم - سبحانه - الضحك على البكاء ، للإشعار بمزيد فضله
ومنته على عباده .

وانه هو امات واحيا

: كما فسرها الوسيط وقوله : ( وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ) أى
، وأنه - تعالى - بقدرته وحدها ، هو الذى أحيا من يريد إحياءه من مخلوقاته
، وأمات من يريد إماتته منهم .وهذا رد على أولئك الجاهلين الذين أنكروا ذلك
وقالوا - كما حكى القرآن عنهم - ( . . . مَا هِيَ إِلاّ حَيَاتُنَا الدنيا
نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلاّ الدهر . . . ).

وانه خلق الزوجين الذكر والانثى

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( وَأَنّهُ خَلَقَ الزوجين الذكر
والأنثى مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تمنى ) .أى : وأنه - تعالى - وحده ، هو الذى
خلق الزوجين الكائنين من الذكر والأنثى ، من نطفة تتدفق من الرجل إلى رحم
الأنثى ، فتلتقى ببويضة الأنثى ، فيكون منهما الإنسان - بإذن الله

من نطفة اذا تمنى

كما فسرها الوسيط وأصل النطفة : الماء الصافى ، أو القليل من الماء الذى
يبقى فى الدلو أو القربة ، وجمعها نطف ونطاف ، يقال : نطفت القربة ، أذا
: تقاطر ماؤها بقلة .وقوله : ( تمنى ) أى : تتدفق فى رحم المرأة ، يقال
أَمْنَى الرجل وَمنَى إذا خرج منه المَنِىّ .أى : وأنه - تعالى - وحده ، هو
الذى خلق الزوجين الكائنين من الذكر والأنثى ، من نطفة تتدفق من الرجل إلى
- رحم الأنثى ، فتلتقى ببويضة الأنثى ، فيكون منهما الإنسان - بإذن الله
كما قال - تعالى - : ( أَيَحْسَبُ الإنسان أَن يُتْرَكَ سُدًى أَلَمْ يَكُ
نُطْفَةً مِّن مّنِيٍّ يمنى ثُمّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فسوى فَجَعَلَ
مِنْهُ الزوجين الذكر والأنثى أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ على أَن يُحْيِيَ
الموتى ).

وان عليه النشاة الاخرى

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَأَنَّ عَلَيْهِ النشأة الأخرى )
أى : وأن عليه وحده - سبحانه - الإحياء بعد الإماتة ، والإعادة إلى الحياة
مرة أخرى يوم البعث والنشور .والنشأة هى المرة من الإنشاء ، أى : الإيجاد
والتكوين والحلق ، والأخرى : مؤنث الأخير ، والمراد أنه - سبحانه - يوجد
النشأة التى لا نشأة بعدها .

وانه هو اغنى واقنى

- كما فسرها الوسيط وقوله : ( وَأَنّهُ هُوَ أغنى وأقنى ) أى : وأنه
سبحانه - هو الذى أغنى الناس بالأموال الكثيرة المؤثلة ، التى يقتنيها
الناس ويحتفظون بها لأنفسهم ولمن بعدهم .فقوله : ( أقنى ) من القنية بمعنى
الادخار للشىء ، والمحافظة عليه .قال الآلوسى : قوله : ( وَأَنّهُ هُوَ
أغنى وأقنى ) أى : وأعطى القُنْية وهو ما يبقى ويدوم من الأموال ، ببقاء
نفسه ، كالرياض والحيوان والبناء .وأفرد - سبحانه - ذلك بالذكر مع دخوله فى
لأن القنية أنفس الأموال وأشرفها .وإنما لم يذكر المفعول ، لأن ( أغنى )
القصد إلى الفعل نفسه .

وانه هو رب الشعرى

- كما فسرها الوسيط وقوله : ( وَأَنّهُ هُوَ رَبُّ الشعرى ) أى : وأنه ، سبحانه - هو رب ذلك الكوكب المضىء ، الذى يطلع بعد الجوزاء فى شدة الحر ويسمى الشعرى اليمانية .وخص هذا النجم بالذكر ، مع أنه - تعالى - هو رب كل شىء لأن بعض العرب كانوا يعبدون هذا الكوكب ، فأخبرهم - سبحانه - بأن هذا الكوكب مربوب له - تعالى - وليس ربا كما يزعمون .قال القرطبى : واختلف فيمن كان يعبده : فقال السدى : كانت تعبده حمير وخزاعة . وقال غيره : أول من عبده رجل يقال له أبو كبشة ، أحد أجداد النبى - صلى الله عليه وسلم - من جهة أمهاته ، ولذلك كان مشركو قريش يسمون النبى - صلى الله عليه وسلم - ابن أبى كبشة . حين دعاهم إلى ما يخالف دينهم .

وانه اهلك عادا الاولى

كما فسرها الوسيط وبعد هذه الجولة فى الأنفس والآفاق ، ساقت السورة جانبا من مصارع الغابرين ، فقال - تعالى - : ( وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الأولى وَثَمُودَ فَمَآ أبقى وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وأطغى والمؤتفكة أهوى ) . أى : وأنه - تعالى - هو الذى أهلك بقدرته قبيلة عاد الأولى ، وهم قوم هود - عليه السلام - .وسميت قبيلة عاد - بالأولى ، لتقدمها فى الزمان على قبيلة عاد الثانية ، التى هى قوم صالح - عليه السلام - ، وتسمى - أيضا - بثمود .

وثمود فما ابقى

- كما فسرها الوسيط وقوله : ( وَثَمُودَ ) معطوف على عاد . أى : وأنه أهلك أيضا - قبيلة ثمود ، دون أن يبقى منهم أحدا .وهلاك هاتين القبيلتين قد جاء فى آيات كثيرة منها قوله - تعالى - : ( كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بالقارعة فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بالطاغية وَأَمَا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ).

وقوم نوح من قبل انهم كانوا هم اظلم واطغى

كما فسرها الوسيط * وقوله : ( وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ . . ) أى : وأهلك - أيضا - قوم نوح من قبل إهلاكه لعاد وثمود . .( إِنّهُمْ كَانُواْ أى : قوم نوح ( هُمْ أَظْلَمَ وأطغى ) أى : هم كانوا أشد فى الظلم ( والطغيان من عاد وثمود ، فقد آذوا نوحا - عليه السلام - أذى شديدا ، استمر ) : - صابرا عليه زمنا طويلا . وكان هلاكهم بالطوفان ، كما قال - تعالى فَأَخَذَهُمُ الطوفان وَهُمْ ظَالِمُونَ ) وقدم قبيلتى عاد وثمود فى الذكر على قوم نوح - مع أن قوم نوح أسبق - لأن هاتين القبيلتين كانتا مشهورتين عند العرب أكثر ، وديارهم معروفة لهم .

والمؤتفكة اهوى

كما فسرها الوسيط والمراد بالمؤتفكات قوم لوط - عليه السلام - ، وسموا بذلك لأن قريتهم ائتفكت بأهلها ، أى : انقلبت راسا على عقب . يقال : أَفَكَه عن كذا يَأْفِكُه إذا قلبه وصرفه . ومنه الإفك ، لأنه قلب للحق عن وجهه الصحيح أى : وأهلك - سبحانه - القرى المؤتفكة بأهلها ، بأن أهوى بها جبريل - عليه السلام - إلى الأرض بعد أن رفعها إلى السماء.

فغشاها ما غشى

كما فسرها الوسيط ( فَغَشّاهَا مَا غشى ) أى : فأصابها ما أصابها من العذاب المهين ، والدمار الشامل ، كما قال - تعالى - : ( جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مّنْضُودٍ مُّسَوّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظالمين بِبَعِيدٍ ) ، ويجوز أن يكون الضمير فى ( فَغَشّاهَا ) يعود إلى جميع الأمم المذكورة وأبهم - سبحانه - ما غشيهم من عذاب ، للتهويل والتعميم .

فباي الاء ربك تتمارى

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكَ تتمارى ) تكذير بنعم الله - تعالى - بعد التحذير من نقمة . أي : فبأى نعمة من نعم الله - تعالى - تتشكك أيها الإنسان .والآلاء : جمع إلى ، وأى : فبأى نعمة من نعم الله - تعالى - تتشكك بهذه النعم .وسمى - سبحانه - ما مر فى آيات

، السور نعما ، مع أن فيها النعم والنقم ، لأن فى النقم عظات للمتعظين
وعبرا للمعتبرين ، فهى نعم بهذا الاعتبار .

هذا نذير من النذر الاولى

، كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بهذا الانذار الشديد
فقال - تعالى - : ( هذا نَذِيرٌ مِّنَ النذر الأولى ) والنذير بمعنى المنذر
وهو من يخبر غيره بخبر فيه مضرة به ، لكى يحذره . أى : هذا الرسول الكريم ،
وما جاء به من قرآن حكيم ، نذير لكم - أيها الناس - من جنس الإنذارات ،
- الأولى . التى أتى بها الأنبياء السابقون لأممهم فاحذروا مخالفة رسولنا
- صلى الله عليه وسلم - لأن مخالفته تؤدى إلى هلاككم وخسرانكم .فقوله
. . تعالى - : ( مِّنَ النذر ) على حذف مضاف ، أى : من جنس النذر التى سبقت

ازفت الازفة

، كما فسرها الوسيط ( أَزِفَتِ الآزفة ) أى : قربت الساعة ، ودنت القيامة
، يقال : أزِف السفر - كفرح - أزَفا ، إذا دنا وقرب ، وأل فى الآزفة للعهد
. وهى عَلَم بالغلبة على الساعة

ليس لها من دون الله كاشفة

كما فسرها الوسيط ( لَيْسَ لَهَا ) أى : الساعة ( مِن دُونِ الله كَاشِفَةٌ
أى : ليس لها أحد سوى الله - تعالى - يستطيع الإخبار عنها ، والكشف عن (
. علاماتها ، والعلم بوقتها وبوقوعها

افمن هذا الحديث تعجبون

كما فسرها الوسيط والاستفهام فى قوله - تعالى - : ( أَفَمِنْ هذا الحديث
تَعْجَبُونَ ) للإنكار والتوبيخ .أى : أفمن هذا القرآن وما اشتمل عليه من
. - هدايات وتشريعات . . . تتعجبون ، وتنكرون كونه من عند الله - تعالى

وتضحكون ولا تبكون

كما فسرها الوسيط ( وَتَضْحَكُونَ وَلاَ تَبْكُونَ ) أى : وتضحكون ضحك
استهزاء وتهكم منه وممن جاء به - صلى الله عليه وسلم - ولا تبكون خشية من
. الله - تعالى - ، ومن سماع ما اشتمل عليه هذا القرآن من وعد ووعيد

وانتم سامدون

كما فسرها الوسيط ( وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ) أى : وأنتم لاهون معرضون ، يقال
: سمَد يسمُد : كدخل - إذ اشتغل باللهو والإعراض عن الرشد .أو المعنى :
وأنتم رافعون رءوسكم تكبرا يقال : سمَد سمودا ، إذا رفع رأسه تكبرا وغرورا
وكل متكبر فهو سامد ، ومنه قولهم : بعير سامد فى سيره إذا رفع رأسه ،
متبخترا فى مشيته .وقيل السمود : الغناء بلغة حمير ، ومنه قوله بعضهم
، لجاريته : اسمدى لنا ، أى : غنى لنا .أى : وأنتم سادرون فى غنائكم ولهوكم
. دون أن تكترثوا بزواجر القرآن الكريم

فاسجدوا لله واعبدوا

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( فاسجدوا لِلَّهِ واعبدوا ) إرشاد
- لهم إلى ما يجب عليهم ، ونهى لهم عن الكفر والضلال .فالفاء فى قوله
تعالى - : ( فاسجدوا ) لترتيب الأمر بالسجود ، على الإنذار بالعذاب الشديد
- إذا ما استمروا فى كفرهم ولهوهم .والمراد بالسجود : الخضوع لله - تعالى
وإخلاص العبادة له ، ويندرج فيه سجود الصلاة ، وسجود التلاوة .أى : اتركوا
، ما أنتم عليه من فر وضلال . وخصوا الله - تعالى - بالخضوع الكامل
: وبالعبادة التامة ، التى لا شرك فيها لأحد معه - سبحانه - .قال الآلوسى
- وهذه آية سجدة عند أكثر أهل العلم ، وقد سجد النبى - صلى الله عليه وسلم
عندها .أخرج الشيخان ، وأبو داود ، والنسائى عن ابن مسعود قال : " أول سورة
أنزلت فيها سجدة : سورة " النجم " فسجد الرسول - صلى الله عليه وسلم - وسجد
الناس كلهم إلا رجلا " .هذا ، وقد ذكر بعض الفسرين قصة الغرانيق . وملخصها
- أن الرصول - صلى الله عليه وسلم - قرأ سورة النجم ، فلما بلغ قوله
تعالى - ( أَفَرَأَيْتُمُ اللات والعزى وَمَنَاةَ الثالثة الأخرى ) ألقى
الشيطان على لسانه : تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى .وقد قال
الإمام ابن كثير عند حديثه عن هذه القصة : إنها من روايات وطرق كلها مرسلة

) : - ولم أرها مسندة من وجه صحيح .وقد ذكرنا عند تفسيرنا لقوله - تعالى ،
وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا
تمنى أَلْقَى الشيطان في أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ الله مَا يُلْقِي الشيطان
ثُمَّ يُحْكِمُ الله آيَاتِهِ والله عَلِيمٌ حَكِيمٌ ) ذكرنا ما يدل على
. بطلان هذه القصة من جهة النقل ومن جهة العقل

اقتربت الساعة وانشق القمر

كما فسرها الوسيط افتتحت السورة الكريمة بهذا الافتتاح الذى يبعث فى النفوس
- الرهبة والخشية ، فهو يخبر عن قرب انقضاء الدنيا وزوالها .إذ قوله
تعالى - : ( اقتربت الساعة ) أى : قرب وقت حلول الساعة ، ودنا زمان قيامها
والساعة فى الأصل : اسم لمدار قليل من الزمان غير معين ، وتحديدها بزمن.
معين اصطلاح عرفى ، وتطلق فى عرف الشرع على يوم القيامة .وأطلق على يوم
القيامة يوم الساعة ، لوقوعه بغتة ، أو لسرعة ما فيه من الحساب ، أو لأنه
على طوله قدر يسير عند الله - تعالى - .وقد وردت أحاديث كثيرة ، تصرح بأن
ما مضى من الدنيا كثير بالنسبة لما بقى منها ، ومن هذه الأحاديث ما رواه
، البزار عن أنس أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " خطب أصحابه ذات يوم
وقد كادت الشمس أن تغرب . . فقال : " والذي نفسى بيده ما بقى من الدنيا
فيما مضى منها ، إلا كما بقى من يومكم هذا فيما مضى منه " " .وروى الشيخان
عن سهل بن سعد قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : " بعثت
أنا والساعة هكذا " وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى .وشبيه بهذا الافتتاح
قوله - تعالى - : فى مطلع سورة الأنبياء : ( اقترب لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ
وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ) وقوله - سبحانه - فى افتتاح سورة النحل
أتى أَمْرُ الله فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا ) :
، يُشْرِكُونَ ) والمقصود من هذا الافتتاح المتحدث عن قرب يوم القيامة
تذكير الناس بأهوال هذا اليوم ، وحضهم على حسن الاستعداد لاستقباله عن طريق
الإيمان والعمل الصالح .وقوله - تعالى - : ( وانشق القمر ) معطوف على ما
قبله عطف جملة على جملة .وقوله : ( وانشق ) من الانشقاق بمعنى الافتراق
والانفصال .أى : اقترب وقت قيام الساعة ، وانفصل وانفلق القمر بعضه عن بعض
- فلقتين ، معجزة للنبى - صلى الله عليه وسلم - ، وكان ذلك بمكة قبل هجرته
صلى الله عليه وسلم - بنحو خمس سنين ، وقد رأى هذا الانشقاق كثير من الناس
وقد ذكر المفسرون كثيرا من الأحاديث فى هذا الشأن ، وقد بلغت الأحاديث.
مبلغ التواتر المعنوى .قال الإمام ابن كثير : وهذا أمر متفق عليه بين
العلماء - أى : انشقاق القمر- ، فقد وقع فى زمان النبى - صلى الله عليه
وسلم - وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات .ثم ذكر - رحمه الله - جملة من
: الأحاديث التى وردت فى ذلك ، ومنها ما رواه الشيخان عن أنس بن مالك قال
، سأل أهل مكة النبى - صلى الله عليه وسلم - آية ، فانشق القمر بمكة مرتين
فقال : ( اقتربت الساعة وانشق القمر ) .وأخرج الإمام أحمد عن جبير بن مطعم
عن أبيه قال : انشق القمر على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فصار
، فلقتين : فلقة على هذا الجبل وفلقة على هذا الجبل .فقالوا : سحرنا محمد
فقالوا : إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم .وروى الشيخان عن
- ابن مسعود قال : انشق القمر على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم
شقتين ، حتى نظروا إليه ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " اشهدوا
وقال الآلوسى : بعد أن ذكر عددا من الأحاديث فى هذا الشأن : والأحاديث. "
: الصحيحة فى الانشقاق كثيرة ، واختلف فى تواتره ، فقيل : هو غير متواتر
: وفى شرح المواقف أنه متواتر . وهو الذى اختاره العلامة السبكى ، فقد قال
الصحيح عندى أن انشقاق القمر متواتر ، منصوص عليه فى القرآن ، مروى فى
الصحيحين وغيرهما من طرق شتى ، لا يمترى فى تواتره .وقد جاءت أحاديثه فى
روايات صحيحة ، عن جماعة من الصحابة ، منهم عل بن أبى طالب ، وأنس ، وابن
: مسعود . .ثم قال - رحمه الله - بعد أن ذكر شبهات المنكرين لحادث الانشقاق
والحاصل أنه ليس عند المنكر سوى الاستبعاد ، ولا يستطيع أن يأتى بدليل على
الاستحالة الذاتية ولو انشق ، والاستبعاد فى مثل هذه المقامات قريب من
. الجنون . عند من له عقل سليم

وان يروا اية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - موقف هؤلاء المشركين من معجزاته - صلى
الله عليه وسلم - فقال : ( وَإِن يَرَوْاْ آيَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ
سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ) .أى : وإن يرى هؤلاء المشركون آية ومعجزة تدل على
صدقك - أيها الرسول الكريم - يعرضوا عنها جحودا وعنادا . ويقولوا - على
سبيل التكذيب لك - ما هذا الذى أتيتنا به يا محمد إلا سحر مستمر ، أى : سحر
دائم نعرفه عنك ، وليس جديدا علينا منك .قال صاحب الكشاف : ( مُّسْتَمِرٌّ
أى دائم مطرد ، وكل شىء قد انقادت طريقته ، ودامت حاله ، قيل فيه قد (
استمر ، لأنهم لما رأوا تتابع المعجزات ، وترادف الآيات . قالوا : " هذا

، - سحر مستمر " .وقيل : مستمر ، أى : قوى محكم - من المرّة بمعنى القوة
وقيلك هو من استمر الشيء إذا اشتدت مرارته ، أي : مستبشع عندنا مُرٌّ على
لَهوَاتِنا ، لا نقدر أن نسيغه كما لا يساغ الشيء المر . وقيل : مستمر ، أى
. مار ذاهب زائل عما قريب - من قولهم : مَرّ الشيء واستمر إذا ذهب :

وكذبوا واتبعوا اهواءهم وكل امر مستقر

كما فسرها الوسيط ثم أخبر - سبحانه - عن حالهم فى الماضى ، بعد بيان حالهم
فى المستقبل ، فقال - تعالى - : ( وَكَذّبُواْ واتبعوا أَهْوَآءَهُمْ
، وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ) .أى : أن هؤلاء الجاحدين جمعوا كل الرذائل
، فهم إن يروا معجزة تشهد لك بالصدق - أيها الرسول الكريم - يعرضوا عنها
ويصفوها بأنها سحر ، وهم فى ماضيهم كذبوا دعوتك ، واتبعوا أهواءهم الفاسدة
ونفوسهم الأمارة بالسوء .وجملة : ( وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ) معترضة ،
وهى جارية مجرى المثل ، أى : وكل أمر لا بد وأن يستقر إلى غاية ، وينتهى ،
إلى نهاية ، وكذلك أمر هؤلاء الظالمين ، سينتهى إلى الخسران ، وأمر
المؤمنين سينتهى إلى الفلاح .وفى هذا الاعتراض تسلية وتبشير للنبى - صلى
الله عليه وسلم - ولأصحابه بحسن العاقبة ، وتيئيس وإقناط لأولئك المشركين
من زوال أمر النبى - صلى الله عليه وسلم - كما كانوا يتمنون ويتوهمون
وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ.
. ( وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ

ولقد جاءهم من الانباء ما فيه مزدجر

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أنهم قوم لا تتأثر قلوبهم بالمواعظ
والنذر ، فقال : ( وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ الأنبآء مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ
حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النذر ) .والأنباء : جمع نبأ وهو الخبر
المشتمل على أمور هامة ، من شأنها أن يتأثر بها السامع .ومزدجر : مصدر ميمى
وأصله مُزْتَجر . فأبدلت تاء الافتعال دالا ، وأصله من الزجر . بمعنى ،
المنع والانتهار . أى : ولقد جاء لهؤلاء المشركين فى لقرآن الكريم ، من
الأنباء الهامة ، ومن أخبار الأمم البائدة ، ما فيه ازدجار وانتهار لهم عن
الارتكاس فى القبائح وعن الإصرار على الفسوق والكفر والعصيان .و " ما " فى
) قوله - سبحانه - : ( مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ) موصولة ، وهى فاعل قوله
. . . جَآءَهُم ) ، وقوله ( مِّنَ الأنبآء ) فى موضع الحال منها

حكمة بالغة فما تغن النذر

" كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ) بدل من " ما
أو خبر لمبتدأ محذوف .والحكمة : العلم النافع الذى يترتب عليه تحرى الصواب
فى القول والفعل .أى : هذا الذى جاءهم من أنباء الماضين ، ومن أخبار
السابقين فيه ما فيه عن الحكم البليغة ، والعظات الواضحة التى لا خلل فيها
: ولا اضطراب .و " ما " فى قوله : ( فَمَا تُغْنِ النذر ) نافية ، والنذُر
جمع نذير بمعنى مُنذِر .أى : لقد جاء إلى هؤلاء المشركين من الأخبار ومن
الحكم البليغة ما يزجرهم عن ارتكاب الشرور ، وما فيه إنذار لهم بسوء
العاقبة إذا ما استمروا فى غيهم ، ولكن كل ذلك لا غناء فيه ، ولا نفع من
" ورائه لهؤلاء الجاحدين المعاندين الذين عمو وصموا . . .ويصح أن تكون " ما
هنا ، للاستفهام الإنكارى . أى : ما الذى تغنيه النذر بالنسبة لهؤلاء
: المصرين على الكفر؟ إنها لا تغنى شيئا ما داموا لم يفتحوا قلوبهم للحق

فتول عنهم يوم يدع الداع الى شيء نكر

كما فسرها الوسيط والفاء فى قوله - تعالى - : ( فَتَوَلّ عَنْهُمْ يَوْمَ
يَدْعُ الداع إلى شَيْءٍ نُّكُرٍ ) للتفريع على ما تقدم ، وهى تفيد السببية
وقوله : ( يَوْمَ يَدْعُ الداع ) ظرف لقوله : ( يَخْرُجُونَ مِنَ الأجداث.
- والداع : هو إسرافيل - عليه السلام - الذى ينفخ فى الصور بأمر الله (
، تعالى - .والمراد بالنكر : الأمر الفظيع الهائل ، الذى لم تألفه النفوس
ولم تر له مثيلا فى الشدة .أى : إذا كان هذا حالهم من عدم إغناء النذر فيهم
فتول عنهم - أيها الرسول الكريم - ، ولا تبال بهم ، واتركهم فى طغيانهم ،
يعمهون ، وانتظر عليهم إلى اليوم الذى يدعوهم فيه الداعى ، إلى أمر فظيع
عظيم ، تنكره النفوس ، لعدم عهدهم بمثله ، وهو يوم البعث والنشور .قال
. . . . الجمل : وقوله : ( يَوْمَ يَدْعُ الداع ) منصوب إما باذكر مضمرا
وإما بيخرجون . . .وحذفت الواو من " يدع " لفظا لالتقاء الساكنين ، ورسما
. تبعا للفظ ، وحذفت الياء من ( الداع ) للتخفيف . . . . والداع هو إسرافيل

خشعا ابصارهم يخرجون من الاجداث كانهم جراد منتشر

كما فسرها الوسيط وقوله : ( خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ ) حال من الفاعل فى
قوله : ( يَخْرُجُونَ . . . ) : أى : ذليلة أبصارهم بحيث تنظر إلى ما
أمامها من أهوال نظرة البائس الذليل ، الذى لا يستطيع أن يحقق نظره فيما
- ينظر إليه .قال القرطبى : الخشوع فى البصر : الخضوع والذلة . وأضاف
سبحانه - الخوضع إلى الأبصار ، لأن أثر العز والذل يتبين فى ناظر الإنسان
) : - قال - تعالى - : ( أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ) وقال - تعالى.
وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذل يَنظُرُونَ مِن
. طَرْفٍ خَفِيٍّ . . . ) ويقال : خشع واختشع إذا ذل . وخشع ببصره إذا غضه
وقرأ حمزة والكسائى : خاشعا أبصارهم .وقوله : ( يَخْرُجُونَ مِنَ. .
الأجداث كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ) أى : يخرجون من القبور ، وعيونهم
ذليلة من شدة الهول ، وأجسادهم تملأ الآفاق ، حتى لكأنهم جراد منتشر ، قد
سد الجهات . واستتر بعضه ببعض .فالمقصود بالجملة الكريمة تشبيههم بالجراد فى
الكثرة والتموج ، والاكتظاظ والانتشار فى الأقطار وهم يسرعون الخطا نحو أرض
. المحشر

مهطعين الى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر

، كما فسرها الوسيط وقوله : ( مُّهْطِعِينَ إِلَى الداع ) أى : مسرعين نحوه
وقد مدوا أعناقهم إلى الإمام ، مأخوذ من الإهطاع ، وهو الإسراع فى المشى مع
، مد العنق إلى الإمام . يقال : أهطع فلان فى جريه ، إذا أسرع فيه من الخوف
: فهو مهطع .( يَقُولُ الكافرون ) وقد رأوا من أهوال يوم القيامة ما يدهشهم
أى : يقولون هذا يوم صعب شديد ، بسبب ما يعانون من ( هذا يَوْمٌ عَسِرٌ )
، أهواله ويتوقعون فيه من سوء العاقبة .والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة
. يراها قد وصفت أحوال الكافرين فى هذا اليوم ، وصفا تقشعر من هوله الأبدان
فهم أذلاء ضعفاء ينظرون إلى ما يحيط بهم نظرة الخائف المفتضح ، وهم فى . .
حالة خروجهم من قبورهم كأنهم الجراد المنتشر ، فى الكثرة والتموج والاضطراب
وهم يسرعون نحو الداعى بذعر دون أن يلووا على شىء ، ودون أن يكون فى ،
إمكانهم المخالفة أو التأخر عن دعوته .ثم هم بعد ذلك يقولون على سبيل
. التحسر والتفجع : هذا يوم شديد الصعوبة والعسر

كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر

كما فسرها الوسيط ثم عرضت السورة بعد ذلك جانبا من مصارع الغابرين ، لعل فى
هذا العرض ما يروعهم عن الكفر والجحود ، وما يحملهم على انتهاج طريق الحق
والهدى ، فقال - تعالى - : ( كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ . . . ) .قصة نوح - عليه
، السلام - مع قومه ، قد وردت بصورة أكثر تفصيلا فى سورة أخرى . كسورة هود
والمؤمنون ، ونوح ، والأعراف .ولكنها جاءت هنا - كغيرها من القصص - بصورة
حاسمة قاصمة ، تزلزل النفوس ، وتفتح العيون على مصارع الغابرين ، لكى يعتبر
الكافرون ، وينتهوا عن كفرهم .قال الآلوسى : قوله : ( كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ
قَوْمُ نُوحٍ . . . ) شروع فى تعداد بعض ما ذكر من الأنباء الموجبة
) للانزجار ، ونوع تفصيل لها ، وبيان لعدم تأثرهم بها ، تقريرا لفحوى قوله
فَمَا تُغْنِ النذر ) والفعل " كذبت " منزل منزلة اللازم . أى : فعل
التكذيب قبل قومك قوم نوح . .وفى هذه الجملة الكريمة تسلية الرسول - صلى
- الله عليه وسلم - لأن المصيبة إذا عمت خفت ، وشبيه بهذه الآية قوله
. سبحانه - : ( وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ
وأسند - سبحانه - التكذيب إلى جميع قوم نوح - عليه السلام - . لأن ( . .
الذين آمنوا به منهم عدد قليل ، كما قال - تعالى - : فى سورة هود : ( وَمَآ
آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ) وقوله - تعالى - : ( فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا
تأكيد لتكذيبهم له - عليه السلام - ، فكأنه - سبحانه - يقول : إن قول (
نوح - عليه السلام - قد اصروا على تكذيبهم لعبدنا ونبينا ، وتواصوا بهذا
: التكذيب فيما بينهم ، حتى لكأن الكبار قد أوصوا الصغار .قال صاحب الكشاف
) : فإن قلت : ما معنى قوله : ( فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا ) بعد قوله
كُذِّبَتْ ) ؟ قلت معناه : كذبوا فكذبوا عبدنا . أى : كذبوه تكذيبا على عقب
تكذيب ، كلما مضى منهم قرن مكذب ، تبعهم قرن مكذب .أو معناه : كذبت قوم نوح
الرسل ، فكذبوا عبدنا ، أى : لما كانوا مكذبين بالرسل ، جاحدين للنبوة رأسا
كذبوا نوحا لأنه من جملة الرسل .وقوله - سبحانه - : ( وَقَالُواْ ،
. . مَجْنُونٌ وازدجر ) بيان لما كانوا عليه من انطماس بصيرة ، ومن سوء خلق
أى : أنهم لم يكتفوا بتكذيب نبيهم ومرشدهم وهاديهم إلى الخير . بل أضافوا .
) : إلى ذلك وصفه بالجنون ، والاعتداء عليه بأنواع الأذى والترهيب .فقوله
وازدجر ) معطوف على قوله ( قَالُواْ ) وهو مأخوذ من الزجر بمعنى المنع
والتخويف ، وصيغة الافتعال للمبالغة فى زجره وإيذائه .وقد حكى القرآن فى
آيات أخرى ألوانا من هذا الزجر والإيذاء ومن ذلك قوله - تعالى - كما حكى
عنهم : ( قَالُواْ لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهِ يانوح لَتَكُونَنّ مِنَ

المرجومين ).

فدعا ربه اني مغلوب فانتصر

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - ما فعله نوح - عليه السلام - بعد أن صبر على إيذاء قومه فقال : ( فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فانتصر ) أى : وبعد أن يئس نوح - عليه السلام - من إيمان قومه . . . تضرع إلى ربه. قائلا : يارب إن قومى قد غلبونى بقوتهم وتمردهم . . . فانتصر لى منهم ، فأنت أقوى الأقوياء ، وأعظم نصير للمظلومين والمغلوبين على أمرهم من أمثالى وحذف متعلق " فانتصر " للإيجز . أى : فانتقم لى منهم. .

ففتحنا ابواب السماء بماء منهمر

كما فسرها الوسيط ولقد كانت نتيجة هذا الدعاء ، الإجابة السريعة ، كما يشعر بذلك التعبير بالفاء فى قوله - تعالى - بعد ذلك : ( فَفَتَحْنَآ أَبْوَابَ السمآء بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ) .أى : فأجبنا لنوح دعاءه ، ففتحنا أبوابا السماء بماء كثير منهمر ، أى : منصب على الأرض بقوة وبكثرة وتتابع . يقال : همر فلان الماء يهمر - بكسر الميم وضمها - إذا صبه بكثرة . وقراءة الجمهور بتخفيف التاء ، وقرأ ابن عامر بتشديدها على المبالغة .قال ( فَفَتَحْنَآ ) الجمل : والمراد من الفتح والأبواب والسماء : حقائقها فإن للسماء أبوابا تفتح وتغلق . والباء فى قوله : ( بِمَاءٍ ) للتعدية على المبالغة ، حيث جعل الماء كالآلة التى يفتح بها ، كما تقول : فتحت بالمفتاح .

وفجرنا الارض عيونا فالتقى الماء على امر قد قدر

كما فسرها الوسيط وقوله : ( وَفَجَّرْنَا الأرض عُيُوناً . . ) معطوف على قوله : ( فَفَتَحْنَآ ) وتفجير الماء : إسالته بقوة وشدة وكثرة ، ومنه قوله - تعالى - : ( وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأرض يَنْبُوعاً ) وقوله : ( عُيُوناً ) تمييز محول عن المفعول به ، والأصل : وفجرنا عيون الأرض ، ولكن جىء به على هذا الأسلوب المشتمل على التمييز للمبالغة ، حتى لكأن الأرض جميعها قد تحولت إلى عيون متفجرة وقوله - سبحانه - : ( فَالْتَقَى المآء على أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ) بيان. لكمال حكمته - تعالى - بعد بيان مظاهر قدرته . أى : فاجتمع الماء النازل من السماء ، مع الماء المتفجر من الأرض ، على أمر قد قدره الله - تعالى - وقضاه أزلا ، وهو هلاك قوم نوح بالطوفان .فالمراد بالماء : ماء السمكاء وماء الأرض .وقال - سبحانه - ( فَالْتَقَى المآء ) بالإفراد ، لتحقيق أن التقاء الماءين لم يكن بطريقة المجاورة ، بل كان بطريق الاتحاد والاختلاط ، حتى لكأن الماء الناظل من السماء . والمتفجر من الأرض ، قد التقيا فى مكان واحد كما يلتقى الجيشان المعدان لإهلاك غيرهما .و ( على ) فى قوله - تعالى - ( على أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ) للاستعلاء المفيد لشدة التمكن والمطابقة . أى : التقى الماء بعضه ببعض على الحال والشأن الذى قدرناه وقضيناه له ، دون أن يحيد على ذلك قيد شعرة إذ كل شىء عندنا بمقدار .

وحملناه على ذات الواح ودسر

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر فضله على عبده نوح - عليه السلام - فقال : ( وَحَمَلْنَاهُ على ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا . . . ) .والدُسْر : الدفع الشديد بقوة ، سمى به المسمار ، لأنه يدق فى الخشب فيدفع بقوة .وقيل : الدسر : الخيوط التى تشد بها ألواح السفينة ، وقيل الدسر : صدرها ومقدمتها ، وقوله : ( ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ) صفة لموصوف محذوف .أى : وحملنا نوحا ومن معه من المؤمنين ، على سفينة ذات ألواح من الخشب ومسامير يشد بها هذا الخشب ويربط .قال صاحب الكشف ، قوله : ( وَحَمَلْنَاهُ على ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ) أراد السفينة : ، وهو من الصفات التى تقوم مقام الموصوفات ، فتنوب منابها ، وتؤدى مؤداها ) بحيث لا يفصل بينهما وبينها .وهذا من فصيح الكلام وبديعه .وعدى فعل وَحَمَلْنَاهُ ) إلى نوح وحده ، مع أن السفينة حملت معه المؤمنين ، لأن هذا الحمل كان إجابة لدعوته ، وقد جاءت آيات أخرى أخبرت بأن المؤمنين كانوا معه فى السفينة ، ومن هذه الآيات ، قوله - تعالى - : ( فَإِذَا استويت أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الفلك فَقُلِ الحمد للَّهِ الذي نَجَّانَا مِنَ القوم الظالمين . . ).

تجري باعيننا جزاء لمن كان كفر

كما فسرها الوسيط وقوله ( تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ) أى تجرى هذه السفينة

بمرأى منا ، وتحت رعايتنا وقدرتنا .ثم بين - سبحانه - الأسباب التى جعلت
قوم نوح محل غضب الله - تعالى - ونقمته فقال : ( جَزَآءً لِّمَن كَانَ
كُفِرَ ) .وقوله : ( جَزَآءً ) مفعول لأجله ، لقوله : ( فَتَحْنَآ ) وما
عطف عليه ، أى : فعلنا ما فعلنا من فتح السماء بماء منهمر ، جزاء لكفرهم
بالله - تعالى - وبنبيه نوح - عليه السلام - الذى كان نعمة لهم ، ولكنهم
- كفروها ولم يشكروا الله عليها ، فاستحقوا الغرق والدمار .وحذف - سبحانه
: متعلق ( كُفِرَ ) لدلالة الكلام عليه ، أى : كفر به .قال الآلوسى . وقوله
- أى : فعلنا ذلك جزاء لنوح - عليه السلام ( جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ )
فإنه كان نعمة أنعمها الله - تعالى - على قومه فكفروها ، وكذا كل نبى ،
نعمة من الله - تعالى - على أمته .وجوز أن يكون على حذف الجار ، وإيصال
الفعل إلى الضمير ، واستتاره فى الفعل ، بعد انقلابه مرفوعا . أى : لمن كفر
، به ، وهو نوح - عليه السلام - أى : جحدت نبوته .فالكفر عليه ضد الإيمان
. . وعلى الأول كفران النعمة

ولقد تركناها اية فهل من مدكر

كما فسرها الوسيط والضمير المنصوب فى قوله - تعالى - : ( وَلَقَدْ
- تَّرَكْنَاهَا آيَةً . . . ) يعود إلى الفعلة المهلكة التى فعلها الله
، تعالى - بقوم نوح - عليه السلام - .أى : ولقد تركنا فعلتنا بقوم نوح
وإهلاكنا لهم ، آية وعلامة لمن بعدهم . وعظة وعبرة لمن يعتبر ويتعظ بها
ويؤيد هذا المعنى قوله - تعالى - : ( وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا
الرسل أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً . . . ) ويصح أن
يكون الضمير يعود إلى السفينة . أى : ولقد أبقينا هذه السفينة من بعد إهلاك
) : - قوم نوح ، علامة وعبرة لمن يشاهدها .ويؤيد هذا المعنى قوله - تعالى
( فأَنْجَيْنَاهُ وأَصْحَابَ السفينة وَجَعَلْنَاهَآ آيَةً لِّلْعَالَمِينَ
قال القرطبى : قوله : ( وَلَقَدْ تَّرَكْنَاهَا آيَةً . . . ) يريد هذه
الفعلة عبرة .وقيل : أراد السفينة ، تركها آية لمن بعد قوم نوح يعتبرون بها
، فلا يكذبون الرسل . . .قال قتادة : أبقاها الله - تعالى - بِبَاقِرْدَى
من أرض الجزيرة - قرب الموصل بالعراق - لتكون عبرة وآية ، حتى نظر إليها
أوائل هذه الأمة ، وكم من سفينة صارت بعدها رمادا . . .ويبدو لنا أن الآية
الكريمة تتسع للرأيين فهذه العقوبة التى أنزلها - سبحانه - بقوم نوح - عليه
السلام - بقيت عبرة لمن بعدهم لينزجروا ، ويكفوا عن تكذيب الرسل ، كما أن
، السفينة قد أبقاها - سبحانه - بعد إغراقهم إلى الزمن الذى قدره وأراده
لتكون - أيضا - عبرة وعظة لغيرهم .والاستفهام فى قوله : ( فَهَلْ مِن
مُّدَّكِرٍ ) للحض على التذكر والاعتبار ، ولفظ ( مُّدَّكِرٍ ) أصله مذتكر
من الذِّكْر الذى هو ضد النسيان ، فأبدلت التاء دالا مهملة ، وكذا الذاتل
المعجمة ثم أدغمت فيها ، ومنه قوله - تعالى - : ( وَقَالَ الذي نَجَا
مِنْهُمَا وادكر بَعْدَ أُمَّةٍ . . ) أى : وتكذر بعد نسيان .أى : ولقد
تركنا ما فعلناه بقوم نوح عبرة ، فاعتبروا بذلك - أيها الناس - ، وأخلصوا
. لله - تعالى - العبادة والطاعة ، لتنجوا من غضبه وعقابه

فكيف كان عذابي ونذر

كما فسرها الوسيط والاستفهام فى قوله - سبحانه - : ( فَكَيْفَ كَانَ
عَذَابِي وَنُذُرِ ) للتهويل والتعجيب من شدة هذا العذاب الذى حاق بقوم
نوح - عليه السلام - .أى : فكيف كان عذابى لهم ، وإنذارى إياهم؟ لقد كانا
على كيفية هائلة لا يحيط بها الوصف ، ولا تحدها العبارة .والنذر : مفرده
: نذير ، وجمع لتكرار الإنذار من نوح - عليه السلام - لقومه .قال الجمل
وقرىء فى السبع بإثبات الياء وحذفها . وأما فى الرسم فلا تثبت لأنها من
. . . ياءات الزوائد ، وكذا يقال فى المواضع الآتية كلها

ولقد يسرنا القران للذكر فهل من مدكر

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - مظاهر فضله ورحمته على هذه الآمة ، حيث
جعل كتابه ميسرا فى حفظه وفهمه ، فقال - تعالى - : ( وَلَقَدْ يَسَّرْنَا
) القرآن لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ) .أى : والله لقد سهلنا القرآن
لِلذِّكْرِ ) أى : للتذكر والحفظ ، بأن أنزلناه فصيحا فى ألفاظه ، بليغا فى
تراكيبه ، واضحا فى معانيه ، سهل الحفظ لمن أراد أن يحفظه . . . فهل من
معتبر ومتعظ ، بقصصه ، ووعده ، ووعيده ، وأمره ، ونهيه؟وقد وردت هذه الآية
فى أعقاب قصة نوح وهود وصالح ولوط - عليهم السلام - ، لتأكيد مضمون ما سبق
فى قوله - تعالى - : ( وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ الأنبآء مَا فِيهِ
مُزْدَجَرٌ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النذر ) وللتنبيه والإشعار بأن
كل قصة من تلك القصص جديرة بإيجاب الاتعاظ ، وكافية فى الاعتبار والازدجار
والمقصود ( لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السمع وَهُوَ شَهِيدٌ )

بالآية الكريمة التحضيض على حفظ القرآن الكريم والاعتبار بمواعظه ، والعمل
. . بما فيه من تشريعات حكيمة ، وآداب قويمة ، وهدايات سامية

كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر

- كما فسرها الوسيط ثم انتقلت إلى الحديث عن قصة قبيلة عاد مع نبيهم هود
- عليه السلام - فذكرت ما حل بهم من عقاب بسبب كفرهم وطغيانهم ، فقال
تعالى - : ( كَذَّبَتْ عَادٌ . . . ) .المراد بعاد ، تلك القبيلة التى
ينتهى نسبها إلى جدهم عاد ، وكانت مساكنهم بالأحقاف فى جنوب الجزيرة
العربية . وكانوا يعبدون الأصنام ، فأرسل الله - تعالى - إليهم نبيهم
هودا - عليه السلام - لكى يأمرهم بعبادة الله - تعالى - وحده ، وينهاهم عن
، عبادة غيره . .وقد جاء الحديث عنهم بصورة أكثر تفصيلا ، فى سور : الأعراف
وهود ، والشعراء ، والأحقاف . . . ولم تعطف قصتهم هنا على قصة نوح التى
قبلها ، للإشعار بأنها قصة مستقلة جديرة بأن يعتبر بها المعتبرون ، ويتعظ
بها المتعظون . .وحذف المفعول فى قوله : ( كَذَّبَتْ عَادٌ ) للعلم به وهو
- نبيهم هود - عليه السلام - أى : كذبت قبيلة عاد نبيها هودا - عليه السلام
والاستفهام فى قوله - سبحانه - : ( فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ).
: للتهويل ، ولتشويق السامعين إلى معرفة العذاب الشديد الذى حل بهم . أى
كذبت قبيلة عاد نبيها ، فهل علمتم ما حل بها من دمار وهلاك؟ إن كنتم لم
. تعلموا ذلك فهاكم خبره

انا ارسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر

. . . كما فسرها الوسيط ( إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً
أى : إنا أرسلنا عليهم ريحا شديدة البرودة والقوة ، ذات صوت هائل .( فِي (
يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ) أى : فى يوم مشئوم عليهم ، وشؤمه دائم ومستمر
: لم ينقطع عنهم حتى دمرهم .قال ابن كثير : قوله : ( مُّسْتَمِرٍّ ) أى
مستمر عليهم نحسه ودماره ، لأنه يوم اتصل فيهم عذابهم الدنيوى بالأخروى
وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً.
صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الخزي فِي الحَياة
" الدنيا وَلَعَذَابُ الآخرة أخزى وَهُمْ لاَ يُنصَرُونَ ) وإضافة " يوم
إلى " نحس " من إضافة الزمان إلى ما يقع فيه ، كقولهم : يوم فتح خيبر
والمراد أنه يوم منحوس ومشئوم بالنسبة لهؤلاء المهلكين ، وليس المراد أنه.
يوم منحوس بذاته ، لأنه الأيام يداولها الله - تعالى - بين الناس ، بمقتضى
. إرادته وحكمته

تنزع الناس كانهم اعجاز نخل منقعر

كما فسرها الوسيط وقوله : ( تَنزِعُ الناس كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ
، مُّنقَعِرٍ ) بيان لقوة هذه الريح وشدتها .والنزع : الإزالة للشىء بعنف
حتى يزول عن آخره ، وينفصل عما كان متصلا به .والمراد بالناس : هؤلاء
المهلكين من قوم هود - عليه السلام - .والأعجاز : جمع عجز ، وهو مؤخر الشىء
وأسفله . وأعجاز النخل : أصولها التى تقوم عليها . والمارد بها هنا : النخل
بتمامه ما عدا الفروع .وقوله : ( مُّنقَعِرٍ ) اسم فاعل انقعر ، مطاوع
قَعَره أى : بلغ قعره بالحفر ، يقال : قعر فلان البئر إذا بلغ قعرها فى
الحفر ، وهو صفة للنخل . أى : أن الريح لشدتها وقوتها ، كانت تقتلعهم من
، أماكنهم ، وتلقى بهم بعيدا وهم صرعى ، فكأنهم وهم ممددون على الأرض هلكى
أعجاز نخل قد انقلع عن أصوله ، وسقط على الأرض . .قال ابن كثير : وذلك أن
الريح كانت تأتى أحدهم ، فترفعه حتى تغيبه عن الأبصار .ثم تنكسه على أم
) : رأسه ، فيسقط على الأرض ، فتنخلع رأسه فيبقى جثة بلا رأس ، ولهذا قال
كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ) .فالآية الكريمة فيها ما فيها
- من التفظيع لما أصابهم من هلاك واستئصال .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى
وَأَمَا عَادٌ فَأَهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا ) :
عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى القوم
فِيهَا صرعى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ).

فكيف كان عذابي ونذر

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - قصة هؤلاء الطغاة ، بمثل ما ختم به قصة
قوم نوح ، من تذكير للناس بما أصاب هؤلاء الظالمين من عذاب أليم ومن دعوتهم
) : - إلى الاعتبار بقصص القرآن ، وزواجره ووعده ووعيده . . . فقال - تعالى
فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرآن لِلذِّكْرِ
. ( فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ

ولقد يسرنا القران للذكر فهل من مدكر

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - قصة هؤلاء الطغاة ، بمثل ما ختم به قصة قوم نوح ، من تذكير للناس بما أصاب هؤلاء الظالمين من عذاب أليم ومن دعوتهم إلى الاعتبار بقصص القرآن ، وزواجره ووعده ووعيده . . . فقال - تعالى - : ( فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرآن لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ )

كذبت ثمود بالنذر

كما فسرها الوسيط ثم جاءت بعد قصة قوم هود ، قصة قوم صالح - عليهما السلام - فقال - سبحانه - : ( كَذَّبَتْ ثَمُودُ بالنذر . ) .قصة قبيلة ثمود مع نبيهم صالح - عليه السلام - قد وردت فى سور متعددة منها سورة الأعراف ، وسورة هود ، وسورة الشعراء ، وسورة النمل .وينتهى نسبهم إلى جدهم ثمود ، وقيل سموا بذلك لقلة ماء المكان الذى كانوا يعيشون فيه ، لأن الثمد هو الماء القليل .وكانت مساكنهم بالحجر - بكسر الحاء وسكون الجيم - ، وهو مكان يقع بين الحجاز والشام ، وما زال معروفا إلى الآن .ونبيهم صالح - عليه السلام - ينتهى نسبه إلى نوح - عليه السلام - .وقوله : ( كَذَّبَتْ ثَمُودُ - بالنذر ) أى : كذبت قبيلة ثمود بالنذر التى جاءتهم عن طريق رسولهم صالح عليه السلام - فالنذر بمعنى الإنذارات التى أنذرهم بها صالح - عليه السلام .

فقالوا ابشرا منا واحدا نتبعه انا اذا لفي ضلال وسعر

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - مظاهر تكذيبهم فقال : ( فقالوا أَبَشَراً مِّنَّا وَاحِداً نَّتَّبِعُهُ . . . ) .و " بشرا " منصوب على المفعولية بالفعل " نتبعه " على طريقة الاشتغال ، وقدم لاتصاله بهمزة الاستفهام ، لأن حقها التصدير ، والاستفهام للإنكار ، وواحدا صفة لقوله ( أَبَشَراً ) . أى : أن قوم صالح - عليه السلام - حين جاءهم برسالته التى تدعوهم إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - ، أنكروا ذلك ، وقالوا : أنتبع واحدا من البشر جاءنا بهذا الكلام الذى يخالف ما كان عليه آباؤنا وأجدادنا؟( إِنَّآ إِذاً لَّفِي ضَلاَلٍ وَسُعُرٍ ) أى : إنا إذا لو اتبعناه لصرنا فى ضلال عظيم ، وفى ( سُعُرٍ ) أى وفى جنون واضح ، ومنه قولهم : ناقة مسعورة ، إذا كانت لا تستقر على حال ، وتفرط فى سيرها كالمجنونة .أو المعنى : إنا لو اتبعناه لكنا فى ضلال ، وفى نيران عظيمة . فالسعر بمعنى النار المسعرة ، ثم أخذوا فى تفنيد دعوته ، فقالوا : ( أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا ) . .

االقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب اشر

. . كما فسرها الوسيط ( أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا ) : والاستفهام للإنكار والنفى . والمراد بالإلقاء : الإنزال . وبالذكر الوحى الذى أوحاه الله - تعالى - إليه ، وبلغه لهم . أى : أأنزل الوحى على صالح وحده دوننا؟ لا لم ينزل عليه الوحى دوننا ، فهو واحد من أفنائنا وليس من أشرافنا .( بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ) أى : بل صالح فيما يدعونا إليه كذاب ( أَشِرٌ ) أى : بطر متكبر ، معجب بنفسه ، يقال : أشر فلان ، إذا أبطرته النعمة ، وصار مغرورا متكبرا على غيره ، ولا يستعمل نعم الله فيما خلقت له .وهكذا الجاهلون الجاحدون ، يقلبون الحقائق ، وتصير الحسنات فى عقولهم سيئات ، فصالح - عليه السلام - الذى جاءهم بما يسعدهم ، أصبح فى نظرهم كذابا مغرورا ، لا يليق بهم أن يتبعوه . . .

سيعلمون غدا من الكذاب الاشر

كما فسرها الوسيط وقد ورد - سبحانه - عليهم ردا يحمل لهم التهديد والوعيد ، فقال - تعالى - : ( سَيَعْلَمُونَ غَداً مَّنِ الكذاب الأشر ) .أى : سيعلم هؤلاء الكافرون ، فى الغد القريب يوم ينزل بهم العذاب المبين ، من هو الكذاب فى أقواله ، ومن هو المغرور المتكبر على غيره ، أصالح - عليه السلام - أم هم؟!والتعبير بالسين فى قوله ( سَيَعْلَمُونَ ) لتقريب مضمون الجملة وتأكيده .والمراد بقوله : ( غَداً ) الزمن المستقبل القريب الذى سينزل فيه العذاب عليهم . .

انا مرسلو الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ، ما أمر به نبيه صالحا - عليه

السلام - فقال : ( إِنَّا مُرْسِلُواْ الناقة فِتْنَةً لَّهُمْ فارتقبهم
واصطبر وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ المآء قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ
، مُّحْتَضَرٌ ) .وقوله : ( مُرْسِلُواْ الناقة ) أى : مخرجوها وباعثوها
لأنهم اقترحوا على نبيهم صالح أن يأتيهم بمعجزة تدل على صدقه ، لكى يتبعوه
فأخرج الله - تعالى - لهم تلك الناقة ، من مكان مرتفع قريب منهم .وإلى ،
هذا المعنى أشار - سبحانه - فى آيات أخرى منها قوله - تعالى - : ( قالوا
إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ المسحرين مَآ أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ
بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصادقين قَالَ هذه نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ
شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ) وقوله ( فِتْنَةً ) أى : اختبارا وامتحانا لهم
فهو مفعول لأجله .وقوله ( فارتقبهم ) من الارتقاب بمعنى الانتظار ، ومثله ،
. فهو من الاصطبار ( واصطبر )

ونبئهم ان الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر

كما فسرها الوسيط وأل فى قوله : ( وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ المآء قِسْمَةٌ
بَيْنَهُمْ ) للعهد . أى : الماء المعهود لهم ، وهو ماء قريتهم الذى
يستعملونه فى حوائجهم المتنوعة .وقوله : ( قِسْمَةٌ ) بمعنى المقسوم ، وعبر
عنه بالمصدر للمبالغة .والضمير فى " بينهم " يعود عليهم وعلى الناقة ، وجىء
بمضير العقلاء على سبيل التغليب .وقوله : ( مُّحْتَضَرٌ ) اسم مفعول من
الحضور الذى هو ضد الغيبة ، وحذف المتعلق لظهوره . أى : محتضر عنده صاحبه
والشِّرْب : النصيب والمرة من الشُّرب .أى : وقلنا لنبينا صالح على سبيل.
. الإرشاد والتعليم ، بعد أن طلب منه قومه معجزة تدل على صدقه . قلنا له
أخبرهم أننا سنرسل الناقة ، وسنخرجها لهم أمام أعينهم ، لتكون دليلا على
صدقك ، ولتكون امتحانا واختبارا لهم ، حتى يظهر لك وللناس أيؤمنون أم يصرون
على كفرهم .( فارتقبهم ) - أيها الرسول الكريم - ، وانتظر ماذا سيصنعون بعد
). ذلك ( واصطبر ) على أذاهم صبرا جميلا ، حتى يحكم الله بينك وبينهم
وَنَبِّئْهُمْ ) أى : وأخبرهم خبرا هاما ، هذا الخبر هو ( أَنَّ المآء )
الذى يستقون منه ( قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ ) وبين الناقة ، أى : مقسوم بينهم
). وبينها ، فهم لا يشاركونها فى يوم شربها ، وهى لا تشاركهم فى يوم شربهم
كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ) أى : كل نصيب من الماء يحضره من هوله ، فالناقة
تحضر إلى الماء فى يومها ، وهم يحضرون إليه فى يوم آخر .ففى هاتين الآيتين
تعليم حكيم من الله - تعالى - لنبيه صالح ، وإرشاد له إلى ما يجب أن يسكله
معهم ، بيقظة واعية يدل عليها قوله - تعالى- : ( فارتقبهم ) وبصبر جميل لا
يأس معه ولا ضجر ، كما يشير إليه قوله - تعالى - : ( واصطبر ) .وسياق القصة
ينبىء عن كلام محذوف ، يعلم من سياقها ، والتقدير : أرسلنا الناقة ، وقلنا
له أخبرهم ، أن الماء مقسوم بينهم وبين الناقة واستمروا على ذلك فترة من
. الزمان ، ولكنهم ملوا هذه القسمة ، ولم يرتضوها ، وأجمعوا على قتل الناقة

فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر

كما فسرها الوسيط ( فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ ) وهو " قدار بن سالف " وهو
المعبر عنه بقوله - تعالى - فى آية أخرى : ( إِذِ انبعث أَشْقَاهَا ) وعبر
عنه - سبحانه - بصاحبهم ، لأنه كان معروفا ، وزعيما من زعمائهم . .والمقصود
بندائهم إياه : إغراؤه بعقر الناقة وقتلها ، مخالفين بذلك وصية نبيهم لهم
بقوله ( وَلاَ تَمَسُّوهَا بسواء فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ )
وقوله - تعالى - : ( فتعاطى فَعَقَرَ ) مفرع على ما قبله ، وقوله : ( تعاطى
مطاوع للفعل عاطاه ، وهو مشتق من عطا يعطو ، إذا تناول الشىء .وهذه (
، الصيغة " تعاطى " تشير إلى تعدد الفاعل ، فكأن هذا النداء بقتل الناقة
تدافعوه فيما بينهم ، وألقاه بعضهم على بعض ، فكان كل واحد منهم يدفعه إلى
غيره ، حتى استقر عند ذلك الشقى الذى ارتضى القيام به وتولى كبره ، حيث عقر
الناقة ، فمفعول " عقر " محذوف للعلم به .قال الآلوسى : قوله : ( فتعاطى )
: العقر ، أى : فاجترأ على تعاطيه مع عظمه غير مكترث به .( فَعَقَرَ ) أى
فأحدث العقر بالناقة ، وجوز أن يكون فتعاطى الناقة فعقرها . أو : فتعاطى
السيف فقتلها ، وعلى كل فمفعول تعاطى محذوف .ولا تعارض بين هذه الآية التى
تثبت أن الذى عقر الناقة هو هذا الشقى ، وبين الآيات الأخرى التى تصرح
بأنهم هم الذين عقروها ، كما فى قوله - تعالى - ( فَعَقَرُوهَا فَقَالَ
تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ . . ) لأن المقصود أن القوم
قد اتفقوا على هذا القتل للناقة ، فنادوا واحدا منهم لتنفيذه ، فنفذه وهم
له مؤيدون ، فصاروا كأنهم جميعا عقروها ، لرضاهم بفعله ، والعقر . يطلق على
. القتل والذبح والجرح ، والمراد هنا : قتلها ونحرها

فكيف كان عذابي ونذر

كما فسرها الوسيط والتعبير بقوله - تعالى بعد ذلك : ( فَكَيْفَ كَانَ

عَذَابِي وَنُذُرِ ) يشير إلى هول العقوبة التى نزلت بهم ، بسبب ما فعلوه من عقر الناقة ، ومن تكذيبهم لنبيهم .أى : انظر وتدبر - أيها العاقل - كيف كان عذابى وإنذارى لهؤلاء القوم؟ لقد كان شيئا هائلا لا تحيط به العبارة .

انا ارسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر

كما فسرها الوسيط ثم فصل - سبحانه - هذا العقاب فقال : ( إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ المحتظر ) والهشيم : ما تهشم وتفتت وتكسر من الشجر اليابس ، مأخوذ من الهشم بمعنى الكسر للشىء اليابس ، أو الأجوف .والمحتظر : هو الذى يعمل الحضيرة التى تكون مسكنا للحيوانات .أى : إنا أرسلنا عليهم - بقدرتنا ومشيئتنا - صيحة واحدة صاحها بهم جبريل - عليه السلام - فصاروا بعدها كغصون الأشجار اليابسة المكسرة ، يجمعها إنسان ليعمل منها حضيرة لسكنى حيواناته .والمقصود بهذا التشبيه ، بيان عظم ما أصابهم من عقاب مبين ، جعلهم ، كالأعواد الجافة حين تتحطم وتتكسر ويجمعها الجامع ليصنع منها حضيرته ، أو لتكون تحت أرجل مواشيه وهذا العذاب عبر عنه هنا وفى سورة هود بالصيحة فقال :( وَأَخَذَ الذين ظَلَمُواْ الصيحة . . . ) وعبر عنه فى سورة الأعراف بالرجفة فقال : ( فَأَخَذَتْهُمُ الرجفة . . ) وعبر عنه فى سورة فصلت بالصاعقة فقال وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فاستحبوا العمى عَلَى الهدى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ العذاب الهون بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ) وعبر عنه فى سورة الحاقة بالطاغية ، فقال : ( فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بالطاغية . . ) ولا تعارض بين هذه التعبيرات لأنها متقاربة فى معناها ، ويكمل بعضها بعضا ، وهى تدل على شدة ما أصابهم من عذاب .فكأنه - سبحانه - يقول : لقد نزل بهؤلاء المكذبين الصحية التى زلزلت كيانهم ، فصعقتهم وأبادتهم ، وجعلتهم كعيدان الشجر اليابس . .

ولقد يسرنا القران للذكر فهل من مدكر

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - هذه القصة بما ختم به سابقتها فقال : ( وَلَقَد يَسَّرْنَا القرآن لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ) .

كذبت قوم لوط بالنذر

- كما فسرها الوسيط وجاءت بعد قصة قوم صالح ، قصة قوم لوط - عليهما السلام فقال - تعالى - : ( كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ . . . ) .قصة لوط - عليه السلام - قد وردت فى سور متعددة ، منها : سورة الأعراف ، وهود ، والشعراء ، والنمل ، والعنكبوت . . .ولوط - عليه السلام - هو - على الراجح - ابن أخى إبراهيم - عليه السلام - ، وكان قد آمن به وهاجر معه إلى أرض الشام ، فبعثه الله - تعالى - إلى أهل سدوم . وهى قرية بوادى الأردن وكانوا يأتون الفواحش التى لم يسبقهم إليها أحد .وقوله - تعالى - : ( كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بالنذر ) أى : كذبوا بالإنذارات والتهديدات التى هددهم بها نبيهم لوط ، إذ لم يستجيبوا لإرشاداته وأمره ونهيه .

انا ارسلنا عليهم حاصبا الا ال لوط نجيناهم بسحر

كما فسرها الوسيط فكانت نتيجة هذا التكذيب والفجور الذى انغمسوا فيه الهلاك والدمار كما قال - تعالى - : ( إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً . . والحاصب : الريح التى تحصب ، أى : ترمى بالحصباء ، وهى الحجارة الصغيرة. ( حَاصِباً ) صفة لموصوف محذوف وهو الريح ، وجىء به مذكرا لكونه موصوفه وهو الريح فى تأويل العذاب التى تهلك من تصيبه بأمر الله - تعالى - .فقوله : ( إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ) استثناء من قوله - سبحانه - : ( إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً ، والاستثناء فى قوله - أى : إنا أرسلنا إليهم عذابا حاصبا أهلكهم . والسحر : هو الوقت الذى يختلط فيه سواد آخر الليل ، ببياض أول النهار وهو قبيل مطلع الفجر بقليل .أى : إنا أرسلنا عليهم ريحا شديدة ترميهم بالحصباء فتهلكهم ، إلا آل لوط ، وهم من آمن به من قومه ، فقد نجيناهم من هذا العذاب المهلك فى وقت السحر ، فالباء فى قوله ( بِسَحَرٍ ) بمعنى " فى " الظرفية . أو هى للملابسة ، أى : حال كونهم متلبسين بسحر .

نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا . . . ) علة الإيحاء ، والنعمة بمعنى الإنعام ، أى : انجينا آل لوط من العذاب الذى نزل بقومه على سبيل الإنعام الصادر من عندنا عليهم لا من عند غيرنا وقوله - تعالى - : ( كَذَلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ) بيان لسبب هذا الإنعام.

والإيحاء . .أى : مثل هذا الجزاء العظيم ، المتمثل فى إيحائنا للمؤمنين من آل لوط وفى إنعامنا عليهم . . . نجازى كل شاكر لنا ، ومستجيب لأمرنا ونهينا ، فالآية الكريمة بشارة للمؤمنين الشاكرين حتى يزدادوا من الطاعة لربهم. وتعريض بسوء مصير الكافرين الذين لم يشكروا الله - تعالى - على نعمه .وفى قوله - تعالى - : ( مِّنْ عِندِنَا ) تنويه عظيم بهذا الإنعام ، لأنه صادر من عنده - تعالى - الذى لا تعد ولا تحصى نعمه .

ولقد انذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - الأسباب التى أدت بقوم لوط إلى الدمار والهلاك فقال : ( وَلَقَدْ أَنذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْاْ بِالنذر ) . والبطشة : المرة من البطش ، بمعنى الأخذ بعنف وقوة ، والمراد بها هنا. الإهلاك الشديد .والتمارى : تفاعل من المراء بمعنى الجدال ، والمراد به : هنا : التكذيب والاستهزاء ، ولذا عدى بالباء دون فى .أى : والله لقد أنذرهم لوط - عليه السلام - وخوفهم من عذابنا الشديد الذى لا يبقى ولا يذر ، ولكنهم كذبوه واستهزءوا به ، وبتهديده وبتخويفه إياهم .

ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا اعينهم فذوقوا عذابي ونذر

) : كما فسرها الوسيط ثم يحكى - سبحانه - صورة أخرى من فجورهم فقال : وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ) .والمراودة : مقابلة ، من راد فلان يرود ، إذا جاء وذهب ، لكى يصل إلى ما يريده من غيره عن طريق المحايلة والمخادعة .والمراد مقابلة ، من راد فلان يرود ، إذا جاء وذهب ، لكى يصل إلى ما يريده من : غيره عن طريق المحايلة والمخادعة .والمراد بضيفه ضيوفه من الملائكة الذين جاءوا إلى لوط - عليه السلام - لإخباره بإهلاك قومه ، وبأن موعدهم الصبح . - أى : ووالله لقد حاول هؤلاء الكفرة الفجرة المرة بعد المرة ، مع لوط . . عليه السلام - أن يمكنهم من فعل الفاحشة مع ضيوفه . . .فكانت نتيجة ، محاولاتهم القبيحة أن ( طَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ ) اى حجبناها عن النظر - فاصروا لا يرون شيئا أمامهم .قال القرطبى : يروى أن جبريل - عليه السلام ضربهم بجناحه فعموا ، وقيل : صارت أعينهم كسائر الوجه لا يرى لها شق . كما تطمس الريح الأعلام بما تسفى عليها من التراب . وقيل طمس الله على أبصارهم فلم يروا الرسل .وعدى - سبحانه - فعل المراودة بعن . لتضمينه معنى الإبعاد والدفع . أى : حاولوا دفعه عن ضيوفه ، ليتمكنوا منهم .وأسند المراودة إليهم جميعا : لرضاهم عنها ، بقطع النظر عمن قام بها .وقوله : ( فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ) مقول لقول محذوف ، أى طمسنا أعينهم وقلنا لهم : ذوقوا عذابى الشديد الذى سينزل بكم ، بسبب تكذيبكم لرسولى ، واستخفافكم بما وجه إليكم من تخويف وإنذار .والمراد من هذا الأمر : الخبر . أى : فأذقتهم عذابى الذى أنذرهم به لوط - عليه السلام - .

ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما حل بهم من عذاب فقال : ( وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ . . . ) . والبكرة : أول النهار وهو وقت الصبح ، وجىء بلفظ بكرة للإشعار بتعجيل العذاب لهم ، أى : والله لقد نزل بهم عذابنا فى الوقت المبكر من الصباح نزولا دائما ثابتا مستقرا لا ينفك عنهم ، ولا ينفكون عنه . . وقلنا لهم : ذوقوا عذابى ، وسوء عاقبة تكذيبكم لرسولى لوط - عليه السلام - .

فذوقوا عذابي ونذر

: كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - قصتهم بما ختم به القصص السابقة فقال قال صاحب. ( وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرآن لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ) الكشاف : فإن قلت : ما فائدة تكرير قوله : ( فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ) ؟قلت : وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرآن لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ) : فائدته أن يجددوا عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين آدكارا واتعاظا ، وأن يستأنفوا تنبها واستيقاظا إذا سمعوا الحث على ذلك والبعث عليه ، وأن يقرع لهم العصا مرات ، ويقعقع لهم الشن تارات لئلا يغلبهم السهو ، ولا تستولى عليهم الغفلة ، وهذا حكم التكرير ، كقوله : ( فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ) عند كل نعمة عدها فى سورة الرحمن .وكقوله : ( وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ) عند كل آية أوردها فى سورة المرسلات ، وكذلك تكرير الأنباء والقصص فى أنفسها ، لتكون تلك العبر حاضرة للقلوب ، مصورة للأذهان ، مذكورة غير منسية فى كل أوان .

ولقد يسرنا القران للذكر فهل من مدكر

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html}

ثم ختم - سبحانه - قصتهم بما ختم به القصص السابقة فقال : ( وَلَقَدْ
يَسَّرْنَا القرآن لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُدَّكِرٍ ) .قال صاحب الكشاف :
فإن قلت : ما فائدة تكرير قوله : ( فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ وَلَقَدْ
يَسَّرْنَا القرآن لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُدَّكِرٍ ) ؟قلت : فائدته أن
يجددوا عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين ادكارا واتعاظا ، وأن يستأنفوا
تنبها واستيقاظا إذا سمعوا الحث على ذلك والبعث عليه ، وأن يقرع لهم العصا
مرات ، ويقعقع لهم الشن تارات لئلا يغلبهم السهو ، ولا تستولى عليهم الغفلة
وهذا حكم التكرير ، كقوله : ( فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ) ،
عند كل نعمة عدها فى سورة الرحمن .وكقوله : ( وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ ) عند كل آية أوردها فى سورة المرسلات ، وكذلك تكرير
الأنباء والقصص فى أنفسها ، لتكون تلك العبر حاضرة للقلوب ، مصورة للأذهان
مذكورة غير منسية فى كل أوان ، .

ولقد جاء ال فرعون النذر

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ، ببيان ما حل بفرعون
وقومه ، وبتحذير مشركى قريش من سوء عاقبة كفرهم ، وببيان ما أعد لهم من
عذاب يوم القيامة ، وبتبشير المتقين بحسن العاقبة فقال - تعالى - : ( وَلَقَدْ جَآءَ آلَ فِرْعَوْنَ . . . ) .قصة فرعون وملئه مع موسى - عليه
السلام - قد تكررت فى سور متعددة ، منها سور : الأعراف ، ويونس ، وهود
وطه ، والشعراء ، والقصص .وهنا جاء الحديث عن فرعون وملئه فى آيتين ، بين
- سبحانه - ما حل بهم من عذاب ، بسبب تكذيبهم لآيات الله - تعالى - ، فقال
- سبحانه - : ( وَلَقَدْ جَآءَ آلَ فِرْعَوْنَ النذر ) .والمراد بآل فرعون
أقرباؤه وحاشيته وأتباعه الذين كانوا يؤيدونه ويناصرونه .والنذر " جمع نذير
اسم مصدر بمعنى الإنذار ، وجىء به بصيغة الجمع ، لكثرة الإنذارات التى ،
وجهها موسى - عليه السلام - إليهم .أى : والله لقد جاء إلى فرعون وآله
الكثير من الانذارات والتهديدات على لسان نبينا موسى - عليه السلام - ،
ولكنهم لم يستجيبوا له . .

كذبوا باياتنا كلها فاخذناهم اخذ عزيز مقتدر

كما فسرها الوسيط بل ( كَذَّبُواْ بِئَايَاتِنَا كُلِّهَا ) أى : بل كذبوا
بجميع المعجزات التى أيدنا موسى - عليه السلام - بها ، والتى كانت تدل أعظم
دلالة على صدقة فيما يدعوهم إليه .وأمد - سبحانه - هذه المعجزات بقوله ،
كلها للإشعار بكثرتها ، وبأنهم قد أنكروها جميعا دون أن يستثنوا منها شيئا
وقوله : ( فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عِزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ) بيان لشدة العذاب.
الذى نزل بهم إذ الأخذ مستعار ، للانتقام الشديد ، وانتصاب ( أَخْذَ . . )
على المفعولية المطلقة ، وإضافته إلى " عزيز مقتدر " من إضافة المصدر إلى
فاعله .والعزيز : الذى لا يغلبه غالب ، والمقتدر : الذى لا يعجزه شىء يريده
أى : فأخذناهم أخذا لم يبق منهم أحدا ، بل أهلكناهم جميعا ، لأن هذا الأخذ.
صادر عن الله - عز وجل - الذى لا يغلبه غالب ، ولا يعجزه شىء .ووصف -
سبحانه - ذاته هنا بصفة العزة والاقتدار ، للرد على دعاوى فرعون وطغيانه
وتبجحه ، فقد وصل به الحال أن زعم أنه الرب الأعلى . . . فأخذه - سبحانه - ،
أخذ عزيز مقتدر ، يحق الحق ويبطل الباطل .

اكفاركم خير من اولئكم ام لكم براءة في الزبر

كما فسرها الوسيط وبعد هذا الحديث المتنوع عن أخبار الطغاة الغابرين ،
التفتت السورة الكريمة بالخطاب إلى كفار مكة ، لتحذرهم من سوء عاقبة
الاقتداء بالكافرين ، ولتدعوهم إلى التفكر والاعتبار ، فقال - تعالى - : ( أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَـئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي الزبر
والاستفهام للنفى والإنكار ، والمراد بالخيرية ، الخيرية الدنيوية. ( ،
كالقوة والغنى والجاه ، والسلطان ، والخطاب لأهل مكة .والبراءة من الشىء :
التخلص من تبعاته وشروره ، والمراد بها التخلص من العذاب الذى أعده الله -
تعالى - للكافرين ، والسلامة منه .والزبر : جمع زبور ، وهو الكتاب الذى
يكتب فيه .والمعنى : أكفاركم - يا أهل مكة - خير من اولئكم السابقين فى
القوة والغنى والتمكين فى الأرض . . ؟ أم أن لكم عندنا عهدا فى كتبنا ، بأن
لا نؤاخذكم على كفركم وشرككم . . ؟كلا ، ليس لكم شىء من ذلك فأنتم لستم
بأقوى من قوم نوح وهود وصالح ولوط ، أو من فرعون وملئه ، وأنتم - أيضا - لم
تأخذوا منا عهدا بأن نبرئكم من العقوبة عن كفركم ..وما دام الأمر كذلك فكيف

أبحتم لأنفسكم الإصرار على الكفر والجحود؟ إن ما أنتم عليه من شرك لا يليق بمن عنده شىء من العقل السليم .

ام يقولون نحن جميع منتصر

كما فسرها الوسيط ثم انتقل - سبحانه - إلى توبيخهم على شىء آخر من أقوالهم الباطلة فقال : ( أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ) . أى : بل أيقولون نحن جميع يد واحدة ، وسننتصر على من خالفنا وعادانا؟ ولقد توهموا ذلك فعلا ، وجاهروا به .

سيهزم الجمع ويولون الدبر

كما فسرها الوسيط وقد رد الله - تعالى - عليهم بما يبطل دعاواهم فقال : ( سَيُهْزَمُ الجمع وَيُوَلُّونَ الدبر ) والتعريف فى ( الجمع ) لعهد ، والدبر : الظهر وما أدبر من المتجه إلى الأمام .أى : سيهزم جمع هؤلاء الكافرين ويولون أدبارهم نحوكم - أيها المؤمنون - ويفرون من أمامكم - والتعبير بالسين لتأكيد أمر هزيمتهم فى المستقبل القريب ، كما فى قوله - تعالى - : ( قُلْ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إلى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ المهاد ) والآية الكريمة من باب الإخبار بالغيب ، الدال على إعجاز القرآن الكريم .قال الآلوسى : والآية من دلائل النبوة ، لأن الآية مكية ، وقد نزلت حيث لم يفرض جهاد ، ولا كان قتال ، ولذا قال عمر يوم نزلت : أى جمع يهزم ، أى : من جموع الكفار . فلما كان يوم بدر ، رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يثبت فى الدرع وهو يقول ( سَيُهْزَمُ الجمع وَيُوَلُّونَ الدبر ) فعرفت تأويلها يومئذ . .

بل الساعة موعدهم والساعة ادهى وامر

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن هزيمة المشركين ستعقبها هزيمة أشد منها ، وأنكى فقال : ( بَلِ الساعة مَوْعِدُهُمْ والساعة أدهى وَأَمَرُّ ) والمراد بالساعة ، يوم القيامة " وأدهى " : اسم تفضيل من الداهية ، وهى الأمر المنكر الفظيع الذى لا يعرف طريق للخلاص منه .وقوله ( وَأَمَرُّ ) أى وأشد مرارة وقبحا . أى : ليس هذا الذى يحصل لهم فى الدنيا من هزائم نهاية عقوباتهم ، بل يوم القيامة هو يوم نهاية وعيدهم السيىء ، ويوم القيامة هو أعظم داهية ، وأشد مرارة مما سيصيبهم من عذاب دنيوى .

ان المجرمين في ضلال وسعر

كما فسرها الوسيط ثم فصل - سبحانه - ما سينزل بهم من عذاب يوم القيامة فقال : ( إِنَّ المجرمين فِي ضَلاَلٍ وَسُعُرٍ ) : أى : فى بعد عن الاهتداء إلى الحق بسبب انطماس بصائرهم ، وإيثارهم الغى على الرشد ، وفى نار مسعرة تغشاهم من فوقهم ومن تحتهم .

يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر

كما فسرها الوسيط ويقال لهم ( يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النار على وُجُوهِهِمْ ) أى : يوم يُجَرُّون فى النار على وجوههم ، على سبيل الإهانة والإذلال .( ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ) أى : ويقال لهم : ذوقوا مس جهنم التى كنتم تكذبون بها ، وقاسوا آلامها وعذابها .فقوله - تعالى - : ( سَقَرَ ) علم على جهنم ، مأخوذ من سقرت الشمس الشىء وصقرته ، إذا غيرت معالمه وأذابته ، وهو ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث .

انا كل شيء خلقناه بقدر

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك مظاهر كمال قدرته وحكمته فقال : ( إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بالبصر ) .وقوله : ( كُلَّ ) منصوب بفعل يفسره ما بعده والقدر : ما قدره الله - تعالى - على عباده ، حسب ما تقتضيه حكمته ، ومشيئته .أى : إنا خلقنا كل شىء فى هذا الكون ، بتقدير حكيم ، وبعلم شامل ، وبإرادة تامة وبتصريف دقيق لا مجال معه للعبث أو الاضطراب ، كما قال - تعالى - : ( وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ) وكما قال - سبحانه - : ( وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ) وكما قال - عز وجل - : ( وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ) قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : وقد استدل بهذه الآية الكريمة أئمة السنة ، على إثبات قدر الله السابق لخلقه ، وهو علمه

بالأشياء قبل كونها . وردوا بهذه الآية وبما شاكلها ، وبما ورد فى معناها من أحاديث على الفرقة القدرية ، الذين ظهروا فى أواخر عصر الصحابة .ومن ذلك ما أخرجه الإمام أحمد ومسلم والترمذى وابن ماجه عن ابى هريرة قال : جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى القدر ، فنزلت : ( يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النار على وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ إِنّا كُلّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ) .والباء فى قوله ( بِقَدَرٍ ) للملابسة . أى : خلقناه ملتبسا بتقدير حكيم ، اقتضته سنتنا ومشيئتنا فى وقت لا يعلمه أحد سوانا .

وما امرنا الا واحدة كلمح بالبصر

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَمَآ أَمْرُنَآ إِلاّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بالبصر ) بيان لكمال قدرته - تعالى - .واللمح : النظر السريع العاجل الذى لا تريث معه ولا انتظار ، يقال : لمح فلان الشىء إذا أبصره بنظر سريع . . . وقوله : ( وَاحِدَةٌ ) صفة لموصوف محذوف .أى : وما أمرنا وشأننا فى خلق الأشياء وإيجادها ، إلا كلمة واحدة وهى قول : " كن " فتوجد - هذه الأشياء كملح البصر فى السرعة .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى : ( إِنَّمَآ أَمْرُهُ إِذَآ أَرَادَ شَيْئاً أن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ) والمراد بهذه الآية وأمثالها : بيان كمال قدرة الله - تعالى - وسرعة إيجاده لكل ما يريد إيجاده ، وتحذير الظالمين من العذاب الذى متى أراده الله - تعالى - فلن يدفعه عنهم دافع ، بل سيأتيهم كلمح البصر فى السرعة .والتعبير بقوله : ( وَاحِدَةٌ ) لإفادة أن كل ما يريد الله - تعالى - إيجاده فسيوجد فى اسرع وقت ، وبكلمة واحدة لا بأكثر منها ، سواء أكان ذلك الموجود جليلا أم حقيرا ، صغيرا أم كبيرا .

ولقد اهلكنا اشياعكم فهل من مدكر

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما يدل على نفاذ هذه القدرة وسرعتها فقال : ( وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ) والأشياع : جميع شيعة ، وشيعة الرجل : أعوانه وأنصاره ، وكل جماعة من الناس اتفقت فى رأيها فهم شيعة . قالوا : وهو مأخوذ من الشياع ، وهو الحطب الصغار الذى يوقد مع الكبار ، حتى تشتعل النار ، والمراد به هنا : الأشباه والنظائر .أى : والله لقد أهلكنا أشباهكم ونظائركم فى الكفر من الأمم السابقة ، فاحذروا أن يصيبكم ما أصابهم ، واتعظوا بما نزل بهم من عقاب فالمقصود بالآية الكريمة التهديد والتحذير . والاستفهام فيها للحض على الاتعاظ والاعتبار .

وكل شيء فعلوه في الزبر

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن كل ما يعمله الإنسان . هو مسجل عليه فقال : ( وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزبر ) . أى : وكل شىء فعله ، هؤلاء المشركون وغيرهم ، مكتوب ومحفوظ فى كتب الحفظة ، ومسجل عليهم لدى الكرام الكاتبين ، بدون زيادة أو نقصان .

وكل صغير وكبير مستطر

كما فسرها الوسيط كما قال - تعالى - بعد ذلك : ( وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ) أى : وكل صغير من القوال أو الأفعال ، وكل كبير منهما ، فهو مكتوب عندنا ، ومسجل على صاحبه .فقوله : ( مُّسْتَطَرٌ ) بمعنى مسطور ومكتتب . يقال : سطر يسطر سطرا ، إذا كتب ، واستطر مثله ، والآية الكريمة - مؤكدة لما قبلها .ومن الآيات الكثيرة التى وردت فى هذا المعنى قوله تعالى - : ( وَمَا يَعْزُبُ عَن رّبِّكَ مِن مّثْقَالِ ذَرّةٍ فِي الأرض وَلاَ فِي السماء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذلك ولا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مّبِينٍ ).

ان المتقين في جنات ونهر

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ، بتلك البشارة العظيمة للمتقين فقال : ( إِنَّ المتقين فِي جَنّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ) .أى : إن المتقين الذين صانوا أنفسهم عن كل محارم الله - تعالى - كائنين فى جنات عاليات المقدار ، وفى ( نَهَرٍ ) أى : وفى سعة من العيش ، ومن مظاهر ذلك أن الأنهار الواسعة تجرى من تحت مساكنهم فالمراد بالنهر جنسه ، .

في مقعد صدق عند مليك مقتدر

كما فسرها الوسيط وقوله : ( فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ ) أى : فى مكان مرضى ، وفى مجلس كريم ، لا لغو فيه ولا تأثيم وهو الجنة ، فالمراد بالمقعد مكان القعود الذى يقيم فيه الإنسان بأمان واطمئنان .( عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ) أى : مقربين عند ملك عظيم ، قادر على كل شىء .فالمراد بالعندية هنا ، عندية الرتبة والمكانة والتشريف .وقال - سبحانه - عند مليك ، للمبالغة فى وصفه - سبحانه - بسعة الملك وعظمه ، إذ وصفه - سبحانه - بمليك ، أبلغ من صوفه " بمالك أو ملك ، لأن ( مَلِيكٍ ) صيغة مبالغة بزنة فعيل .وتنكير " مقتدر للتعظيم والتهويل ، وهو أبلغ من قادر ، إذ زيادة المبنى تشعر بزيادة المعنى . أى : عظيم القدرة بحيث لا يحيط بها الوصف .

الرحمن

- كما فسرها الوسيط افتتحت السورة الكريمة بهذا الاسم الجليل لله - عز وجل وهو لفظ مشتق من الرحمة ، وصيغته الدالة على المبالغة ، تنبه إلى عظم هذه الرحمة وسعتها .وهذا اللفظ مبتدأ ، وما بعده أخبار له .

علم القران

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - مظاهر قدرته ومنته على عباده بأجل النعم وأعظمها شأنا ، فقال : ( عَلَّمَ القرآن ) والقرآن هو أعظم وحى - أنزله - سبحانه - على أنبيائه ورسله .أى : علم نبيه - صلى الله عليه وسلم القرآن الذى هو أعظم النعم شأنا وأرفعها مكانا ، إذ باتباع توجيهاته وإرشاداته ، يظفر الإنسان بالسعادة الدنيوية والأخروية .ولفظ ( القرآن ) هو المفعول الثانى لعلم ، والمفعول الأول محذوف .وهذه الآية الكريمة تتضمن الرد عل المشركين الذين زعموا أن هذا القرآن قد تعمله الرسول - صلى الله عليه وسلم - من البشر ، كما حكى - سبحانه - عنهم فى قوله : ( وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ . . ) وفى قوله : ( وَقَالَ الذين كفروا إِنْ هذا إِلاَّ إِفْكٌ افتراه وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ . . ) كما تتضمن الرد عليهم لزعمهم أنهم لا يعرفون الرحمن ، كما فى قوله - تعالى - : ( وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسجدوا للرحمن قَالُواْ وَمَا الرحمن . . ).

خلق الانسان

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( خَلَقَ الإنسان عَلَّمَهُ البيان ) ، بيان لنعمتين أخريين من نعمه - سبحانه - . والمراد بالإنسان : جنسه والمراد بالبيان : الفهم والنطق والإفصاح عما يريد الإفصاح عنه بالكلام ، الذى أداته اللسان .أى خلق - سبحانه - بقدرته الإنسان على أجمل صورة ، وأحسن تقويم ، ومكنه من الإفصاح عما فى نفسه عن طريق المنطق السليم والقول الواضح ، كما مكنه من فهم كلام غيره له ، فتميز بذلك من الأجناس الأخرى ، وصار أهلا لحمل الأمانة التى عجزت عن حملها السموات والأرض - والجبال ، وأصبح مستعدات لتلقى العلوم والخلافة فى الأرض .ورحم الله تعالى - صاحب الكشاف ، فقد صور هذه المعانى بأسلوبه الرصين فقال : عدد الله - عز وجل - آلاءه فقدم ما هو أسبق قدما من ضربو آلائه ، وأصناف نعمائه وهى نعمة الدين ، وقدم من نعمة الدين ما هو فى أعلى مراتبها ، وأقصى ، مراقيها ، وهو إنعامه بالقرآن وتنزيله وتعليمه ، لأنه أعظم وحى الله رتبة ، وأعلاه منزلة ، وأحسنه فى أبواب الدين أثرا ، وهو سنام الكتب السماوية ، ومصداقها ، والعيار عليها .

علمه البيان

كما فسرها الوسيط وأخر ذكر خلق الإنسان عن ذكره ، ثم أتبعه إياه ، ليعلم أنه إنما خلقه للدين ، وليحيط علما بوحيه ، وكتبه ، وما خلق الإنسان من أجله . . ثم ذكر ما تميز به الإنسان عن سائر الحيوان من البيان ، وهو المنطق الفصيح المعرب عما فى الضمير .ولفظ ( الرحمن ) مبتدأ ، وهذه الأفعال مع ضمائرها أخبار مترادفة ، وإخلاؤها من العاطف ، لمجيئها على نمط التعديد كما تقول : زيد أغناك بعد فقر ، أعزك بعد ذلك ، كثرك بعد قلة .. . فما ، تنكر من إحسانه .

الشمس والقمر بحسبان

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( الشمس والقمر بِحُسْبَانٍ ) بيان

لنعمة رابعة من نعمه - تعالى - التى لا تحصى .والحسبان : مصدر زيدت فيه الألف والنون ، والمراد بحساب دقيق ، وتقدير حكيم ، والجار والمجرور متعلق بمحذوف . . . أى : الشمس والقمر يجريان فى هذا الكون ، بحساب دقيق فى بروجهما ومنازلهما ، بحيث لا يشوب جريهما اختلال أو اضطراب ، وبذلك يعرف الناس السنين والشهور والأيام ، ويعرفون أشهر الحج والصوم ، وغير ذلك من شئون الحياة .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( لاَ الشمس يَنبَغِي لَهَآ أن تدْرِكَ القمر وَلاَ الليل سَابِقُ النهار وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ).

والنجم والشجر يسجدان

كما فسرها الوسيط ثم قال - تعالى - : ( والنجم والشجر يَسْجُدَانِ ) . والمراد بالنجم هنا - عند بعضهم - النبات الذى لا ساق له ، وسمى بذلك لأنه ينجم - أى يظهر من الأرض - بدون ساق .ويرى آخرون : أن المراد به نجوم السماء ، فهو اسم جنس لكل ما يظهر فى السماء من نجوم . ويؤيد هذا الرأى قوله - تعالى - : ( أَلَمْ تَرَ أَنّ الله يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدوآب وَكَثِيرٌ مِّنَ الناس وَكَثِيرٌ حَقّ عَلَيْهِ العذاب . . . ) والشجر : هو النبات الذى له ساق وارتفاع عن وجه الأرض .والمراد بسجودهما : انقيادهما وخضوعهما لله - تعالى - كانقياد الساجد لخالقه .قال ابن كثير : قال ابن جرير : اختلف المفسرون فى معنى قوله : ( والنجم ) بعد إجماعهم على أن الشجر ما قام على ساق ، فعن ابن عباس قال : النجم : ما انبسط على وجه الأرض من النبات . وكذا قال هذا القول سعيد بن جبير ، والسدى ، وسفيان الثورى ، وقد اختاره ابن جرير .وقال مجاهد : النجم - المراد به هنا - الذى يكون فى السماء ، وكذا قال الحسن وقتادة ، وهذا القول هو الأظهر .

والسماء رفعها ووضع الميزان

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( والسمآء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الميزان أى : والسماء أوجدها بقدرته مرفوعة بدون أعمدة ، وأنتم ترون ذلك ( . . . - بأعينكم .فالمقصود بقوله ( رَفَعَهَا ) لفت الأنظار إلى مظاهر قدرته : تعالى - ، وإلى وجوب شكره وإخلاص العبادة له ، والتزام طاعته .والميزان يطلق على الآلة التى يزن الناس بها ما يريدون وزنه من الأشياء المختلفة والمراد به هنا : وجوب التزام العدل فى الأحكام ، وشاع إطلاق الميزان على : العدل فى الأحكام ، لأن كليهما تضبط به الأحكام ، وتنال الحقوق . أى والسماء خلقها مرفوعة ابتداء ، وشرع وأثبت العدل وأمر باتباعه فى الأقوال والأحكام ، ليستقيم أمر الناس .قال الآلوسى ما ملخصه : قوله : ( وَوَضَعَ - الميزان ) أى : شرع العدل وأمر به ، لينتظم أمر العالم ويستقيم ، كما قال صلى الله عليه وسلم - : " بالعدل قامت السموات والأرض " أى : بقيتا على ، أتقن نظام . . . وتفسير الميزان بالعدل ، هو المروى عن مجاهد ، والطبرى والأكثرين ، وهو مستعار للعدل استعارة تصريحية .وعن ابن عباس والحسن وقتادة أن المراد بالميزان ما تعرف به مقادير الأشياء ، وهو الآلة المسماة بهذا ، الاسم . . أى : أوجده فى الأرض ليضبط الناس معاملاتهم فى أخذهم وعطائهم .

الا تطغوا في الميزان

كما فسرها الوسيط وجملة : ( أَلاّ تَطْغَوْاْ فِي الميزان ) بمنزلة التعليل لما قبلها . أى : شرع العدل بين الناس ، وأوجب عليهم التمسك به فى كل شئونهم ، لئلا يتجاوزوه إلى غيره من الجور والظلم . والطغيان : هو تجاوز الحدود المشروعة فى كل شىء .

واقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان

كما فسرها الوسيط ثم أكد - سبحانه - هذا المعنى وهو التزام العدل تأكيدا صريحا فقال : ( وَأَقِيمُواْ الوزن بالقسط وَلاَ تُخْسِرُواْ الميزان ) وقوله : ( وَأَقِيمُواْ ) من الإقامة ، والمراد به الإتيان بالشىء على أكمل صورة ، ومنه قوله - تعالى - : ( وَأَقِيمُواْ الصلاة . . ) أى : أدوها كاملة الأركان والسنن والخشوع .والقسط : العدل ، يقال : أقسط فلان فى حكمه إذا عدل ، والباء للمصاحبة .وقوله : ( وَلاَ تُخْسِرُواْ ) من الإخسار ، بمعنى النقص والبخس والجور .والمعنى : شرع الله العدل ، ونهاكم عن تجاوزه ، وأمركم أن تقيموا حياتكم عليه فى أوزانكم التى تتعاملون بها فيما بينكم ، وفى كل أحوالكم ، فاحذروا أن تخالفوا أمره . . .وكرر - سبحانه - لفظ " الميزان " للتنبيه على شدة عناية الله - تعالى - بإقامة العدل بين الناس فى معاملاتهم ، وفى سائر شئونهم ، إذ بدونه لا يستقيم لهم حال ، ولا يصلح لهم

. . . بال ، ولا يستقر لهم قرار

والارض وضعها للانام

كما فسرها الوسيط ثم انتقلت السورة الكريمة ، إلى بيان جانب من مظاهر نعمة الأرضية فقال - تعالى - : ( والأرض وَضَعَهَا لِلأَنَامِ ) .والمراد بالأنام : الخلائق المختلفون فى ألوانهم وأشكالهم وألسنتهم ، والذين يعيشون فى شتى أقطارها وفجاجها . . . وهو اسم جمع لا واحد له من لفظه .أى : والأرض وضعها " أى : أوجدها موضوعة على هذا النظام البديع ، من أجل منفعة الناس " جميعا ، لأن إيجادها على تلك الصورة الممهدة المفروشة . . جعلهم ينتفعون بما فيها من كنوز وخيرات ، ويتقلبون عليها من مكان إلى آخر . . . وصدق الله إذ يقول : ( هُوَ الذي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الأَرض جَمِيعاً . . . ).

فيها فاكهة والنخل ذات الاكمام

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( فِيهَا فَاكِهَةٌ والنخل ذَاتُ الأكمام والحب ذُو العصف والريحان ) ، بيان لبعض ما اشتملت عليه هذه الأرض من خيرات .والفاكهة : اسم لما يأكله الإنسان من ثمار على سبيل التفكه - والتلذذ ، لا على سبيل القوت الدائم ، مأخوذة من قولهم فكه فلان - كفرح إذا تلذذت نفسه بالشىء . . . والأكمام : جمع كِمّ - بكسر الكاف - ، وهو الطلع قبل أن تخرج منه الثمار .وقوله : ( ذُو العصف ) أى : ذو القشر الذى يكون على الحبن وسمى بذلك لأن الرياح تعصف به . أى : تطيره لخفته ، أو المواد به الورق بعد أن ييبس ومنه قوله - تعالى - : ( فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مّأْكُولٍ ) والريحان : هو النبات ذو الرائحة الطيبة ، وقيل هو الرزق .أى : فى هذه الأرض التى تيعشون عليها أوجد الله - تعالى - الفاكهة التى تتلذذون بأكلها ، وأوجد لكم النخيل ذات الأوعية التى يكون فيها الثمر وأوجد لكم الحب ، الذى تحيط به قشوره ، كما ترون ذلك بأعينكم ، فى سنابل. . القمح والشعير وغيرهما .وأوجد لكم النبات الذى يمتاز بالرائحة الطيبة التى تبهج النفوس وتشرح الصدور ، فأنت ترى أنه - تعالى - قد ذكر فى هذه الآيات ألوانا من النعم ، فقد أوجد فى الأرض الفاكهة للتلذذ ، وأوجد الحب للغذاء ، وأوجد النباتات ذات الرائحة الطيبة .

والحب ذو العصف والريحان

كما فسرها الوسيط قال القرطبى ما ملخصه : وقراءة العامة ( والحب ذُو العصف والريحان ) بالرفع فيها كلها ، عطفا على " فاكهة " أى : فيها فاكهة وفيها الحب ذو العصف ، وفيها الريحان . . .وقرأ ابن عامر بالنصب فيها كلها عطفا : على الأرض ، أو بإضمار فعل ، أى : وخلق الحبَّ ذَا العصف والريحانَ . أى : وخلق الريحان .وقرأ حمزة والكسائى بجر ( الريحان ) عطفا على العطف . أى فيها الحب ذو العصف والريحانِ ، ولا يمتنع ذلك على قول من جعل الريحان ، بمعنى الرزق ، فيكون كأنه قال : والحب ذو الرزق ، لأن العصف رزق للبهائم . والريحان رزق للناس .

فباي الاء ربكما تكذبان

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - هذه النعم بقوله : ( فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ) .والفاء للتفريع على النعم المتعددة التى سبق ذكرها ، والاستفهام للتعجيب ممن يكذب بهذه النعم ، والآلاء : جمع إِلْى - بكسر الهمزة وفتحها وسكون اللام - وهى النعمة ، والخطاب للمكلفين من الجن والإنس ، وقيل لأفراد الإنس مؤمنهم وكافرهم ، أى : فبأى واحدة من هذه النعم تكذبان ربكما ، أى : تجحدان فضله ومننه - يا معشر الجن والإنس - مع أن كل نعمة من هذه النعم تستحق منكم الطاعة لى ، والخضوع لعزتى والإخلاص فى عبادتى .قال الجمل ما ملخصه : كررت هذه الآية هنا إحدى وثلاثين مرة تقريرا للنعمة ، وتأكيدا للتذكير بها ، وذلك كقول الرجل لمن أحسن إليه ، وهو ينكر هذا الإحسان : ألم تكن فقيرا فأغنيتك ، أفتنكر هذا؟ ألم تكن عريانا فكسوتك - أفتنكر هذا . . . ؟ومثل هذا الكلام شائع فى كلام العرب ، وذلك أن الله ، تعالى - عدد على عباده نعمه ، ثم خاطبهم بقوله : ( فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ) .وقد كرر - سبحانه - هذه الآية ثمانى مرات ، عقب آيات فيها تعداد عجائب خلقه ، ومبدأ هذا الخلق ونهايته ، ثم كررها سبع مرات - عقب آيات فيها ذكر النار وشدائدها بعدد أبواب جهنم . . . ثم كررها - أيضا ثمانى مرات فى وصف الجنتين وأهلهما ، بعدد أبواب الجنة ، وكررها كذلك ثمانى مرات فى الجنتين التين هما دون الجنتين السابقتين ، فمن اعتقد الثمانية الأولى ، وعمل بموجبها ، استحق هاتين الثمانيتين من الله - تعالى - ، ووقاه السبعة السابقة بفضله وكرمه . . .

خلق الانسان من صلصال كالفخار

كما فسرها الوسيط ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن نعمة خلق الإنسان . . . وعن مظاهر قدرته فى هذا الكون ، فقال - تعالى - : ( خَلَقَ الإنسان ، الصلصال - الطين اليابس الذى تسمع له صوتا وصلصلة إذا قرع بشىء .والفخار. ( الخزف المجوف الذى صار كذلك بعد أن أدخل فى النار .ولا تعارض بين هذه : الآية ، وبين غيرها من الآيات التي تحكى أن الإنسان خلق من تراب أو من طين أو من صلصال من حمأ مسنون .لأن كل آية تتحدث عن مرحلة من مراحل خلق الإنسان لأن هذا التراب صار طينا ، ثم خمر هذا الطين فصار حمأ مسنونا ، أى : طينا ، أسود متغير الرائحة ، ثم يبس هذا الطين فصار صلصالا كالفخار .فالآيات الكريمة التى تحدثت عن خلق الإنسان لا يصادم بعضها بعضا ، وإنما يؤيد بعضها بعضا .قال بعض العلماء : وقد أثبت العلم الحديث أن جسم الإنسان يحتوى من العناصر ما تحتويه الأرض ، فهو يتكون من الكربون ، والأكسجين ، والحديد وهذه نفسها هى العناصر المكونة للتراب ، وإن اختلفت نسبها من إنسان إلى. آخر ، وفى الإنسان عن التراب ، إلا أن أصنافها واحدة .إلا أن هذا الذى اثبته العلم لا يجوز أن يؤخذ على أنه التفسير الحتمى للنص القرآنى .فقد تكون الحقيقة القرآنية تعنى هذا الذى أثبته العلم ، أو تعنى شيئا آخر سواه وتقصد إلى صورة أخرى من الصور الكثيرة التى يتحقق بها معنى خلق الإنسان ، من تراب ، أو من طين ، أو من صلصال .والذى ننبه إليه بشدة ، هو ضرورة عدم قصر النص القرآنى على كشف علمى بشرى ، قابل للخطأ والصواب ، وقابل للتعديل والتبديل ، كلما اتسعت معارف الإنسان ، وكثرت وتحسنت وسائله للمعرفة والمعنى : خلق - سبحانه - بقدرته أباكم آدم الذى هو أصلكم ، وعنه تفرع. جنسكم من طين يابس يشبه الفخار فى يبوسته وصلابته .

وخلق الجان من مارج من نار

كما فسرها الوسيط ( وَخَلَقَ ) - سبحانه - ( الجآن ) أي : جنس الجن ( مِن مّارِجٍ مِّن نَّارٍ ) أى : من لهب خالص لا دخان فيه ، أو مما اختلط بعضه ببعض من اللهب الأحمر وغير الأحمر ، إذ المارج ، هو المختلط ، وهو اسم فاعل بمعنى اسم المفعول مثل دافع ، أى : خلق جنس الجان من خليط من لهب النار . - ومن فى قوله ( مِّن نَّارٍ ) للبيان .قال ابن كثير : يذكر الله - تعالى خلقه الإنسان من صلصال كالفخار ، وخلقه الجان من مارج من نار ، وهو طرف لهبها قاله الضحاك ، وعن ابن عباس : من مارج من نار ، أى : من لهب النار وروى مسلم عن عائشة قالت : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " خلقت. " الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم - والمقصود بالآيتين تذكير بنى آدم بفضلهم على غيرهم ، حيث بين - سبحانه. لهم مبدأ خلقهم ، وأنهم قد خلقوا من عنصر غير الذى خلق منه الجن ، وأن الله - تعالى - قد أمر إبليس المخلقو من النار ، بالسجود لأبيهم آدم المخلوق من الطين ، فعليهم أن يشكروا الله - تعالى - على هذه النعمة ، وأن يحذروا وسوسة إبليس وجنوده .

فباي الاء ربكما تكذبان

`<!-- TODO:MISSING -->`{=html} كما فسرها الوسيط

رب المشرقين ورب المغربين

كما فسرها الوسيط وبعد أن أمر بشكر هذه النعم ، أتبع ذلك ببيان مظهر آخر من مظاهر قدرته ، فقال : ( رَبُّ المشرقين وَرَبُّ المغربين فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ) .أى : هو - سبحانه - رب مشرق الشمس فى الشتاء والصيف ، ورب مغربها فيهما ، وفى هذا التدبير المحكم منافع عظمى للإنسان والحيوان والنبات .ولا تعارض بين هذه الآية ، وبين قوله - تعالى - فى آية أخرى : ( رّبُّ المشرق والمغرب . . ) لأن المراد بهما جنسهما ، فهما صادقان على كل مشرق من مشارق الشمس التى هى ثلاثمائة وستون مشرقا ، وعلى كل ) : مغرب من مغاربها التى هى كذلك .أو بين قوله - تعالى - فى آية ثالثة رّبُّ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ المشارق ) أى : ورب جميع المشارق التى تشرق منها الشمس فى كل يوم على مدار العام إذ لها فى كل يوم مشرق معين تشرق منه ، ولها فى كل يوم أيضا - مغرب تغرب فيه .

فباي الاء ربكما تكذبان

`<!-- TODO:MISSING -->`{=html} كما فسرها الوسيط

مرج البحرين يلتقيان

كما فسرها الوسيط ثم قال - سبحانه - : ( مَرَجَ البحرين يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالمَرْجَانُ ) : ( مَرَجَ ) من المرّج بمعنى الإرسال والتخلية ، ومنه قولهم : مرج فلان دابته إذا أرسلها إلى المرج ، وهو المكان الذى ترعى فيه الدواب .ويصح أن يكون من المرج بمعنى الخلط ، ومنه قوله - تعالى - : ( فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ) أى : مختلط ، وقيل للمرعى : مرج لاختلاط الدواب فيه بعضها ببعض .والمراد بالبحرين : البحر العذب ، والبحر الملح ، والبرزخ : الحاجز الذى يحجز بينهما ، بقدرة الله - تعالى - .والمعنى : خلق الله - تعالى - البحرين وأرسلهما بقدرته فى مجاريهما ، بحيث يلتقيان ويتصل أحدهما بالآخر ، ومع ذلك لم يختلطا ، بل يبقى المالح على ملوحته . والعذب على عذوبته ، لأن حكمة الله قد اقتضت أن يفصل بينهما ، بحواجز من أجرام الأرض ، أو بخواص فى كل منهما ، تمنعهما هذه الخواص وتلك الحواجز ، من أن يختلطا ، ولولا ذلك لاختلطا وامتزجا ، وهذا من أكبر الأدلة على قدرة الله - تعالى - ، ورحمته بعباده ، إذ أبقى الله - تعالى - المالح على ملوحته ، والعذب على عذوبته ، لينتفع الناس بكل منهما فى مجال الانتفاع به .فالماء العذب ينتفع به فى الشراب للناس والدواب والنبات . . . والماء المالح ينتفع به فى أشياء أخرى كاستخراج الملح منه ، وفى غير ذلك من المنافع .ومن بديع صنع الله فى هذا الكون ، أنك تشاهد البحار الهائلة على سطح الأرض ، والأنهار الكثيرة ، ومع ذلك فكل نوع منهما باق على خصائصه ، مع أن كلا منهما قد يلتقى بالآخر .قال بعض العلماء : والمقصود بالبحرين ما يعرفه العرب من هذين النوعين وهما نهر الفرات . وبحر العجم ، المسمة اليوم بالخليج الفارسى . والتقاؤهما : انصباب ماء الفرات فى الخليج الفارسى ، فى شاطىء البصرة ، والبلاد التى على الشاطىء العربى من الخليج الفارسى تعرف عند العرب ببلاد البحرين لذلك .

بينهما برزخ لا يبغيان

كما فسرها الوسيط والمراد بالبرزخ بينهما : الفاصل بين الماءين : الحلو والملح بيحث لا يغير أحد البحرين طعم الآخر بجواره وذلك بسبب ما فى كل منهما من خصائص تدفع عنه إختلاط الآخر به وهذا من مسائل الثقل النوعى .وذكر البرزخ تشبيه بليغ ، أى : بينهما مثل البرزخ ، ومعنى لا يبغيان : أى لا يبغى أحدهما على الآخر ، أى :لا يغلب عليه فيفسد طعمه ، فاستعير لهذه الغلبة لفظ البغى .وقال صاحب الظلال - رحمه الله - : والبحران المشار إليهما هما البحر المالح ، والبحر العذب ، ويشمل الأول البحاروالمحيطات ، ويشمل الثانى الأنهار . ومرج البحرين : أرسلهما وتركهما يلتقيان . ولكنهما لا يبغيان ، ولا يتجاوز كل منهما حده المقدر ، ووظيفته المقسومة ، وبينهما برزخ من طبيعتهما من صنع الله - تعالى - .وتصب جميع الأنهار - تقريبا - فى البحار ، وهى التى تنقل إليها أملاح الأرض ، فلا تغير طبيعة البحار ولا تبغى عليها ، ومستوى سطوح الأنهار أعلى- فى العادة - من مستوى سطح البحر ومن ثم لا يبغى البحر على الأنهار التى تصب فيه . ولا يغمر مجاريها بمائه الملح . . . وبينهما دائما هذا البرزخ من صنع الله ، فلا يبغيان .فلا عجب أن يذكر - سبحانه - البحرين ، وما بينهما من برزخ ، فى مجال الآلاء والنعم .

فباي الاء ربكما تكذبان

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان

كما فسرها الوسيط ثم يذكر - سبحانه - بعض نعمه المختبئة فى البحرين فيقول : ( يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالمَرْجَانُ ) - فى. ( اللُّؤْلُؤُ ) و أصله حيوان ، وهو أعجب ما فى البحار ، فهو يهبط إلى الأعماق ، وهو داخل " صدفة جيرية تقيه من الأخطار . . . ويفرز مادة لزجة تتجمد مكونة " اللؤلؤ والمرجان - أيضا - حيوان يعيش فى البحار . . . ويكون جزرا مرجانية ذات ألوان مختلفة : صفراء برتقالة ، أو حماء قرنفلية ، أو زرقاء زمردية .ومن اللؤلؤ والمرجان تتخذ الحلى الغالية الثمن ، العالية القيمة ، التى تتحلى بها النساء . .والآية الكريمة صريحة فى أن اللؤلؤ والمرجان يخرجان من البحرين - الملح والعذب - إلا أن كثيرا من المفسرين ساروا على أنه - أى : اللؤلؤ والمرجان - يخرج من أحدهما فحسب ، وه البحر الملح .قال الآلوسى ما ملخصه : واللؤلؤ صغار الدر ، والمرجان كباره . . . وقيل : العكس .والمشاهد أن خروج " اللؤلؤ والمرجان " من أحدهما وهو الملح . . . لكن لما التقيا

وصارا كالشىء الواحد جاز أن يقال : يخرجان منهما ، كما يقال : يخرجان من ، البحر ، ولا يخرجان من جميعه ، ولكن من بعضه ، كما تقول : خرجت من البلد وإنما خرجت من محلة من محاله ، بل من دار واحدة من دوره ، وقد يسند إلى الإثنين ما هو لأحدهما ، كما يسند إلى الجماعة ما صدر من واحد منهم .والحق أن ما سار عليه الإمام الآلوسى وغيره : من أن اللؤلؤ والمرجان يخرجان من : - البحر الملح لا من البحر العذب ، مخالف لما جاء صريحا فى قوله - تعالى
وَمَا يَسْتَوِي البحران هذا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُ وهذا )
مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً
وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا . . ) فإن هذه الآية صريحة فى أن اللؤلؤ والمرجان يخرجان من كلا البحرين الملح والعذب ، وقد أثبتت البحوث العلمية صحة ذلك ، فقد عثر عليهما فى بعض الأنهار العذبة ، التى فى ضواحى ويلز واسكتلاندا فى بريطانيا .

فباي الاء ربكما تكذبان

`<!-- TODO:MISSING -->`{=html} كما فسرها الوسيط

وله الجوار المنشات في البحر كالاعلام

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - نعمة أخرى من نعمى التى مقرها البحار فقال : ( وَلَهُ الجوار المنشئات فِي البحر كالأعلام فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ) .والجوار : أى السفن الجارية ، فهى صفة لموصوف محذوف دل عليه متعلقه ، وهو قوله - تعالى - ( فِي البحر ) .والمنشآت : جمع منشأة - اسم مفعول - أى : مرفوعة الشراع ، وهو ما يسمى بالقلع ، من أنشأ - فلان الشىء ، إذا رفعه عن الأرض ، وأنشأ فى سيره إذا اسرع .أى : وله سبحانه - وحده لا لغيره ، التصرف المطلق فى السفن المرفوعة القلاع والتى - تجرى فى البحر ، وهى تشبه : الجبال فى ضخامتها وعظمتها .والتعبير : بقوله - تعالى - ( وَلَهُ ) للاشعرا بأن كونهم هم الذين صنعوها لا يخرجها عن ملكه تعالى - وتصرفه ، إذ هو الخالق الحقيقى لهم ولها ، وهو الذى سخر تلك السفن لتشق ماء البحر بأمره .ومن الآيات الكثيرة التى تشبه هذه الآية فى دلالتها على قدرة الله - تعالى - وعلى مننه على عباده بهذه السفن التى تجرى فى البحر بأمره . قوله - تعالى - : ( وَمِنْ آيَاتِهِ الجوار فِي البحر كالأعلام إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الريح فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ على ظَهْرِهِ
إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ أَوْ يُوبِقْهُنَّ
بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ) .

فباي الاء ربكما تكذبان

`<!-- TODO:MISSING -->`{=html} كما فسرها الوسيط

كل من عليها فان

، - كما فسرها الوسيط وبعد هذا الحديث المتنوع عن مظاهر قدرة الله - تعالى ونعمه على عباده . . جاء الحديث عن تفرده - تعالى - بالبقاء ، بعد فناء - جميع المخلوقات التى على ظهر الأرض ، وعن افتقار الناس إليه وحده . . . سبحانه - وغناه عنهم فقال - تعالى - : ( كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ) الضمير فى ( عَلَيْهَا ) يعود إلى الأرض بقرينة المقام ، والمراد بمن عليها : كل من يعيش فوقها ، ويدخل فيهم دخولا أوليا بنو آدم ، لأنهم هم المقصودون بالخطاب ، ولذا جىء بمن الموصولة الخاصة بالعقلاء .أى : كل من على الأرض من إنسان وحيوان وغيرهما سائر إلى الزوال والفناء.

ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام

كما فسرها الوسيط ( ويبقى وَجْهُ رَبِّكَ ) وذاته بقاء لا تغير معه ولا زوال ، فهو - سبحانه - ( ذُو الجلال ) أى : ذو العظمة والاستغناء المطلق ) : - والإكرام ) أى : والفضل التام ، والإحسان الكامل .وقال - سبحانه ): ويبقى وَجْهُ رَبِّكَ ) ولم يقل ويبقى وجه ربكما . كما فى قوله - فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا . . ) .لأن الخطاب للنبى - صلى الله عليه وسلم على سبيل التكريم والتشريف ، ويدخل تحته كل من يتأتى له الخطاب على سبيل ، التبع .قال القرطبى : لما نزلت هذه الآية قالت الملائكة هلك أهل الأرض فنزلت ( كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ) فأيقنت الملائكة بالهلاك وقوله : ( ويبقى وَجْهُ رَبِّكَ ) أى : ويبقى الله ، فالوجه عبارة عن. وجوده وذاته ، قال الشاعر :قضى على خلقه المنايا ... فكل شىء سواه زائلوهذا . . الذى ارتضاه المحققون من علمائنا

فباي الاء ربكما تكذبان

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

يساله من في السماوات والارض كل يوم هو في شان

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( يَسْأَلُهُ مَن فِي السماوات والأرض
كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ) بيان لغناه المطلق عن غيره ، واحتياج غيره
إليه .والمراد باليوم هنا : مطلق الوقت مهما قل زمنه ، والشأن : الأمر
العظيم ، والحدث الهام . .أى : أنه - سبحانه - يسأهل من فى السموات والأرض
- سؤال المحتاج إلى رزقه ، وفضله ، وستره ، وعافيته . . . وهو - عز وجل ،
فى كل وقت من الأوقات ، وفى كل لحظة من اللحظات ، فى شأن عظيم . وأمر جليل
، حيث يحدث ما يحدث من أحوال فى هذا الكون ، فيحيى ويميت ، ويعز ويذل ،
ويغنى ويفقر ، ويشفى ويمرض . . . دون أن يشغله شأن عن شأن . .قال الآلوسى
ما ملخصه : قوله : ( كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ) أى : كل وقت من
- الأوقات ، هو فى شأن من الشئون ، التى من جملتها إعطاء ما سألوا . فإنه
تعالى -لا يزال ينشىء أشخاصا ، ويفنى آخرين ، ويأتى بأحوال ، ويذهب بأحوال
حسبما تقتضيه إرادته المبنية على الحكم البالغة . . .أخرج البخارى فى ،
تاريخ ، وابن ماجه ، وجماعة عن ابى الدرداء ، عن النبى - صلى الله عليه
، وسلم - أنه قال فى هذه الآية : " من شأنه : أن يغفر ذنبا ، ويفرج كربا
ويرفع قوما ، و يخفض آخرين " .وسأل بعضهم أحد الحكماء ، عن كيفية الجمع بين
، هذه الآية ، وبين ما صح من أن القلم قد جف بما هو كائن إلى يوم القيامة
، فقال : " شئون يبديها لا شئون يبتديها " .وانتصب " كل يوم " على الظرفية
والعامل فيه هو العامل فى قوله - تعالى - : ( فِي شَأْنٍ ) وهو ثابت
. المحذوف ، فكأنه قيل : هو ثابت فى شأن كل يوم

فباي الاء ربكما تكذبان

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

سنفرغ لكم ايه الثقلان

، كما فسرها الوسيط ثم هدد - سبحانه - الذين يخالفون عن أمره تحذيرا شديدا
فقال : ( سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثقلان فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ) .وجىء بحرف التنفيس الدال على القرب وهو السين للإشعار
بتحقق ما أخبر به - سبحانه - .وقوله : ( نَفْرُغُ ) من الفراغ ، وهو الخلو
عما يشغل . .والمراد به هنا : القصد إلى الشىء والإقبال عليه ، يقال : فلان
- فرغ لفلان وإليه ، إذا قصد إليه لأمر ما .والثقلان : تثنية ثقل - بفتحتين
: وأصله كل شىء له وزن وثقل ، والمراد بهما هنا : الإنس والجن .والمعنى ،
سنقصد يوم القيامة إلى محاسبتكم على أعمالكم ، وسنجازيكم عليها بما تستحقون
وسيكون هذا شأننا - أيها الثقلان - فى هذا اليوم العظيم .قال صاحب الكشاف ،
قوله : ( سَنَفْرُغُ لَكُمْ ) مستعار من قول الرجل لمن يتهدده ، سأفرغ لك :
، يريد سأتجرد للإيقاع بك من كل ما يشغلنى عنك ، حتى لا يكون لى شغل سواه ،
والمراد : التوفر على النكاية فيه ، والانتقام منه .ويجوز أن يراد ستنتهى
- الدنيا وتبلغ آخرها ، وتنتهى عند ذلك شئون الخلق التى أرادها بقوله
تعالى - : ( كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ) ، فلا يبقى إلا شأن واحد ، وهو
. جزاؤكم ، فجعل ذلك فراغا لهم على طريق المثل

فباي الاء ربكما تكذبان

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

يا معشر الجن والانس ان استطعتم ان تنفذوا من اقطار السماوات والارض
فانفذوا لا تنفذون الا بسلطان

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( يامعشر الجن والإنس إِنِ استطعتم
أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ السماوات والأرض فانفذوا . . . ) مقول لقول
محذوف ، دل عليه ما قبله .والمعشر - بزنة مفعل - اسم للجمع الكثير الذى يعد
، عشرة فعشرة .وقوله : ( تَنفُذُواْ ) من النفاذ بمعنى الخروج من الشىء
والأمر منه وهو قوله : ( فانفذوا ) مستعمل فى التعجيز . والأقطار : جمع
قطر - بضم القاف وسكون الطاء - وهو الناحية الواسعة .والمعنى : سنقصد إلى
محاسبتكم ومجازاتكم على أعمالكم يوم القيامة ، وسنقول لكم على سبيل التعجيز
والتحدى . يا معشر الجن والإنس ، إن استطعتم أن تنفذوا وتخرجوا من جوانب

السموات والأرض ومن نواحيهما المتعددة . فانفذوا واخرجوا ، و خلصوا أنفسكم
من المحاسبة والمجازاة .وجملة : ( لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ )
بيان للتعجيز المتمثل فى قوله - تعالى - : ( فانفذوا ) ، والسلطان المراد
به هنا : القدرة والقوة .أى :لا تنفذون من هذا الموقف العصيب الذى أنتم
فيه إلا بقدرة عظيمة ، وقوة خارقة ، تزيد على قوة خالقكم الذى جعلكم فى هذا
الموقف ، وأنى لكم هذه القوة التى أنتم أبعد ما تكونون عنها؟فالمقصود
، بالآية الكريمة ، تحذير الفاسقين والكافرين ، من التمادى فى فسقهم وكفرهم
وبيان أنهم سيكونون فى قبضة الله - تعالى - وتحت سلطانه ، وأنهم لن
يستطيعوا الهروب ن قبضته وقضائه فيهم بحكمه العالد .وشبيه بهذه الآية
قوله - تعالى - : ( فَإِذَا بَرِقَ البصر وَخَسَفَ القمر وَجُمِعَ الشمس
والقمر يَقُولُ الإنسان يَوْمَئِذٍ أَيْنَ المفر كَلاَّ لاَ وَزَرَ إلى
( رَبِّكَ يَوْمَئِذِ المستقر

فباي الاء ربكما تكذبان

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن
نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلاَ تَنتَصِرَانِ ) استئناف فى جواب سؤال مقدر عما
سيصيبهم إذا ما حاولوا الفرار .والشواظ : اللهب الذى لا يخالطه دخان ، لأنه
قد تم اشتعاله فصار أشد إحراقا .والنحاس : المراد به هنا الدخان الذى لا
لهب فيه ، ويصح أن يراد به : الحديد المذاب . أى : أنتم لا تستطيعون الهرب
من قبضتنا بأى حال من الأحوال ، وإذا حاولتم ذكل ، أرسلنا عليكم وصببنا على
رءوسكم لهبا خالصا فأحرقكم ، ودخانا لا لهب معه فكتم أنفاسكم ، وفى هذه
الحالة لا تنتصران ، ولا تبلغان ما تبغيانه ، ولا تجدان من يدفع عنكم
عذابنا وبأسنا .هذا والمتأمل فى تلك الآيات الكريمة . يراها قد صورت بأسلوب
بديع تفرد الله - تعالى - بالملك والبقاء ، وافتقار الخلائق جميعا إلى
. عطائه ، وأنهم جميعا فى قبضته ، ولن يستطيعوا الهروب من حكمه فيهم

فباي الاء ربكما تكذبان

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

فاذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان

، كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك جانبا من أهوال يوم القيامة
ومن العذاب الذى يحيط بالمجرمين ، وينزل بهم ، فقال - تعالى - : ( فَإِذَا
انشقت . . . ) .جواب " إذا " فى قوله - سبحانه - : ( فَإِذَا انشقت السمآء
) : - فَكَانَتْ وَرْدَةً كالدهان ) محذوف لتهويل أمره . . .وقوله - سبحانه
فَكَانَتْ وَرْدَةً ) تشبيه بليغ ، أى : فكانت كالوردة فى الحمرة .والوردة
جمعها ورود ، وهى زهرة حمراء معروفة ذات أغصان شائكة . والدهان : ما يدهن
، به الشىء . . . أى : فإذا انشقت السماء ، فصارت حين انشقاقها وتصدعها
كالوردة الحمراء فى لونها ، وكالدهان الذى يدهن به الشىء فى ذوبانها
وسيلانها ، رأيت ما يفزع القلوب ، ويزلزل النفوس من شدة الهول .وشبيه بهذه
الآية قوله - تعالى - : ( وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السمآء بالغمام وَنُزِّلَ
الملائكة تَنزِيلاً الملك يَوْمَئِذٍ الحق للرحمن وَكَانَ يَوْماً عَلَى
الكافرين عَسِيراً ) وقوله - سبحانه - : ( فَإِذَا نُفِخَ فِي الصور
نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ وَحُمِلَتِ الأرض والجبال فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً
فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الواقعة وانشقت السمآء فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ
وقوله - عز وجل - : ( يَوْمَ تَكُونُ السمآء كالمهل وَتَكُونُ الجبال )
كالعهن وَلاَ يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً ).

فباي الاء ربكما تكذبان

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

فيومئذ لا يسال عن ذنبه انس ولا جان

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما يترتب على هذا الانشقاق والذوبان
للسماء من أهوال فقال : ( فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ
وَلاَ جَآنٌّ ) . أى : ففى هذا اليوم العصيب ، وهو يوم الحشر ، لا يسأل عن
ذنبه أحد ، لا من الإنس ولا من الجن .أى : أنهم لا يسألون عن ذنوبهم عند

خروجهم من قبورهم ، وإنما يسألون عن ذلك فى موقف آخر ، وهو موقف الحساب
والجزاء ، أذ فى يوم القيامة مواقف متعددة .وبذلك يجاب عن الآيات التى تنفى
) : - السؤال يوم القيامة ، والآيات التى تثبته ، كقوله - تعالى
( فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ
، وبعضهم يرى أن السؤال المنفى فى بعض الآيات هو سؤال الاستخبار والاستعلام
والسؤال المثبت هو سؤال التوبيخ والتقريع . . . عن الأسباب التى جعلتهم
. . ينحرفون عن الطريق المستقيم ، ويسيرون فى طريق الفسوق والعصيان

فباي الاء ربكما تكذبان

`<!-- TODO:MISSING -->`{=html} كما فسرها الوسيط

يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والاقدام

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما يحل بالمجرمين فى هذا اليوم من عذاب
فقال : ( يُعْرَفُ المجرمون بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بالنواصي والأقدام
فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ هذه جَهَنَّمُ التي يُكَذِّبُ
بِهَا المجرمون يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آن فَبِأَيِّ آلاء
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ) .وقوله : ( بِسِيمَاهُمْ ) أى : بعلاماتهم التى
) : - تدل عليهم ، وهى زرقة العيون . وسواد الوجوه ، كما فى قوله - تعالى
وَيَوْمَ القيامة تَرَى الذين كَذَبُواْ عَلَى الله وُجُوهُهُم
مُّسْوَدَّةٌ . . . ) وكما فى قوله - سبحانه - : ( يَوْمَ يُنفَخُ فِي
الصور وَنَحْشُرُ المجرمين يَوْمِئِذٍ زُرْقاً . . . ) والنواصى : جمع
" ناصية ، وهى مقدم الرأس . والأقدام : جمع قدم ، وهو ظاهر الساق ، و " ال
فى هذين اللفظين عوض عن المضاف إليه .أى : فى هذا اليوم ، وهو يوم الحساب
والجزاء ( يُعْرَفُ المجرمون ) بسواد وجوههم ، وزرقة عيونهم ، وبما تعلو
أفئدتهم من غبرة ترهقها قترة . فتأخذ الملائكة بالشعر الذى فى مقدمة رءوسهم
وبالأمكنة الظاهرة من سيقانهم وتقذف بهم فى النار ، وتقول لهم على سبيل ،
الإهانة والإذلا : هذه جهنم التى كنتم تكذبون بها فى الدنيا أيها المجرمون
فترددوا بين مائها الحار ، وبين سعيرها البالغ النهاية فى الشدة .وفى ،
قوله : ( فَيُؤْخَذُ بالنواصي والأقدام ) إشارة إلى التمكن منهم تمكنا
. شديدا ، بحيث لا يستطيعون التفلت أو الهرب

فباي الاء ربكما تكذبان

`<!-- TODO:MISSING -->`{=html} كما فسرها الوسيط

هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون

`<!-- TODO:MISSING -->`{=html} كما فسرها الوسيط

يطوفون بينها وبين حميم ان

كما فسرها الوسيط والمراد بالطواف فى قوله : ( يَطُوفُونَ بَيْنَهَا . . )
كثرة التردد والرجوع إليها بين وقت وآخر .والحميم : الماء الشديد الغليان
والحرارة .و ( آنٍ ) : أى : قد بلغ النهاية فى شدة الحرارة ، يقال : أَنَى
الحميم ، أى انتهى حره إلى أقصى مداه ، فهو آن وبلغ الشىء أناه - بفتح
) : - الهمزة وكسرها - إذا وصل إلى غاية نضجه وإدراكه ، ومنه قوله - تعالى
ياأيها الذين آمَنُواْ لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتَ النبي إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ
. لَكُمْ إلى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ ) أى : نضجه

فباي الاء ربكما تكذبان

: - كما فسرها الوسيط وقد ختمت كل آية من هذه الآيات السابقة بقوله - تعالى
، لأن عقاب العصاة المجرمين ( فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ )
وإثابة الطائعين المتقين ، يدل على كمال عدله - سبحانه - ، وعلى فضله
: ونعمته على من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى .قال الإمام ابن كثير
، ولما كان معاقبة العصاة المجرمين ، وتنعيم المتقين ، ومن فضله . ورحمته
وعدله ، ولطفه بخلقه ، وكان إنذاره لهم من عذابه وبأسه ، مما يزجرهم عما هم
فيه من الشرك والمعاصى وغير ذلك قال ممتنا بذلك على بريته ( فَبِأَيِّ آلاء
. ( رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ

ولمن خاف مقام ربه جنتان

كما فسرها الوسيط وكعادة القرآن الكريم فى قرن أحوال الأخيار ، بأحوال الأشرار ، أو العكس : جاء الحديث عما أعده - سبحانه - للمتقين من جزيل الثواب ، بعد الحديث عما سينزل بالمجرمين من عقاب فقال - تعالى - : ( وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ . . . ) شروع فى تعديد الآلاء التي تفاض فى الآخرة على المتقين ، بعد بيان سوء عاقبة المكذبين .و ( مَقَامَ ) مصدر ميمى بمعنى القيام مضاف إلى الفاعل . أى : ولمن خاف قيام ربه عليه وكونه مراقبا له ، ومهيمنا عليه فالقيام هنا مثله في قوله - تعالى - : ( أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ على كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ . . ) أو هو اسم مكان والمراد به مكان وقوف الخلق فى يوم القيامة للحساب . . إذ الخلق جميعا قائمون له - تعالى - كما فى قوله - سبحانه - : ( يَوْمَ يَقُومُ الناس لِرَبِّ العالمين ) والمعنى : ولكل من خاف القيام بين يدى ربه للحساب ، وخشى هيمنته - سبحانه - عليه ، ومجازاته له . . . لك من خاف ذلك وقدم فى دنياه العمل الصالح ، ( جَنَّتَانِ ) يتنقل بينهما ، ليزداد سروره ، وحبوره قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم قال : ( جَنَّتَانِ ) ؟ قلت الخطاب. للثقلين ، فكأنه قيل لكل خائفين منكما جنتان . جنة للخائف الإنسى ، وجنة للخائف الجنى .ويجوز أن يقال : جنة لفعل الطاعات ، وجنة لترك المعاصة ، لأن التكليف دائر عليها ، وأن يقال : جنة يثاب بها وأخرى تضم إليها على وجه التفضل ، كقوله - تعالى - : ( لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الحسنى وَزِيَادَةٌ ).

فباي الاء ربكما تكذبان

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

ذواتا افنان

كما فسرها الوسيط وقوله : ( ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ) صفة للجنتين . والأفنان جمع فنن - بفتحتين - وهو الغصن .أى : جنتان صاحبتا أغصان عظيمة . تمتاز بالجمال واللين والنضرة .

فباي الاء ربكما تكذبان

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

فيهما عينان تجريان

كما فسرها الوسيط ثم وصفهما - سبحانه - بصفات أخرى كريمة فقال : ( فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ) أى : فى كل جنة منهما عين تجرى بالماء العذب الفرات . . .

فباي الاء ربكما تكذبان

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

فيهما من كل فاكهة زوجان

كما فسرها الوسيط ( فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ) أى : وفيهما كذلك من كل نوع من أنواع الفاكهة صنفان ، ليتفكه المتقون ويتلذذوا بتلك الفواكه الكثيرة ، التى لا هى مقطوعة ، ولا هى ممنوعة .

فباي الاء ربكما تكذبان

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

متكئين على فرش بطائنها من استبرق وجنى الجنتين دان

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - حسن مجلسهم فقال : ( مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الجنتين دَانٍ ) والجملة الكريمة حال من قوله - تعالى - : ( وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ . . . ) .وعبر - سبحانه - بالاتكاء لأنه من صفات المتنعمين الذين - يعيشون عيشة راضية ، لاهم معها ولا حزن .والفرش : جمع فراش - ككتب وكتاب وهو ما يبسط على الأرض للنوم أو الاضطجاع .والبطائن : جمع بطانة ، وهى ما قابل الظهارة من الثياب ، ومشتقة من البطن المقابلة للظهر ، ومن أقوالهم :

: أفرشنى فلان ظهره وبطنه ، أى : أطلعنى على سره وعلانيته .والاستبرق
: الديباج المصنوع من الحرير السميك ، وهو من أجود أنواع الثياب .والمعنى
أن هؤلاء الذين خافوا مقام ربهم ونهوا أنفسهم عن الهوى ، يعيشون فى الجنات
) . حالة كونهم ، متكئين فى جلستهم على فرش بطائنها من الديباج السميك
وَجَنَى الجنتين ) ما يجتنى من ثمارهما ( دَانٍ ) من الدنو بمعنى القرب .أى
أنهم لا يتعبون أنفسهم فى الحصول على تلك الفواكه ، وإنما يقطفون ما :
. يشاءون منها ، وهم متكئون على فراشهم الوثير

فباي الاء ربكما تكذبان

`<!-- TODO:MISSING -->`{=html} كما فسرها الوسيط

فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ألوانا أخرى من نعيمهم فقال
فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطرف لَمْ يَطمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ
. جَآنٌّ ) .وقوله - سبحانه - : ( قَاصِرَاتُ الطرف ) صفة لموصوف محذوف
والطمث : كناية عن افتضاض البكارة . يقال : طمث الرجل امرأته - من باب ضرب
وقتل - ، إذا أزال بكارتها . وأصل الطمث : الجماع المؤدى إلى خروج دم
الفتاة البكر ، ثم أطلق على كل جماع وإن لم يكن معه دم .أى : فى هاتين
الجنتين اللتين أعدهما - سبحانه - لمن خاف مقامه . . . نساء قاصرات عيونهم
- على أزواجهن ، ولا يتلفتن إلى غيرهم . وهؤلاء النساء من صفاتهن - أيضا
. . . أنهن أبكار ، لم يلمسهن ولم يزل بكارتهن أحد قبل هؤلاء الأزواج

فباي الاء ربكما تكذبان

`<!-- TODO:MISSING -->`{=html} كما فسرها الوسيط

كانهن الياقوت والمرجان

. . . كما فسرها الوسيط وكأن هؤلاء النساء فى صفائهن وجمالهن وحمرة خدودهن
. الياقوت والمرجان

فباي الاء ربكما تكذبان

`<!-- TODO:MISSING -->`{=html} كما فسرها الوسيط

هل جزاء الاحسان الا الاحسان

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - هذه النعم بقوله : ( هَلْ جَزَآءُ
، الإحسان إِلاَّ الإحسان ) والاستفهام لنفى أن يكون هناك مقابل لعمل الخير
، سوى الجزءا الحسن ، فالمراد بالإحسان الأول ، القول الطيب ، والفعل الحسن
والمراد بالإحسان الثانى ، الجزاء الجميل الكريم على فعل الخير .أى : ما
جزاء من آمن وعمل صالحا ، وخاف مقام ربه ، ونهى نفسه عن الهوى . . . إلا أن
. يجازى الجزاء الحسن ، ويقدم له العطاء الذى يشرح صدره وتقر به عينه

فباي الاء ربكما تكذبان

كما فسرها الوسيط وقد عقب - سبحانه - بعد كل آية من تلك الآيات السابقة
بقوله : ( فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ) لأن كل آية قد اشتملت
على نعمة أو نعم عظيمة من شأن العاقل أن يشكر الله - تعالى - عليها شكرا
. جزيلا

ومن دونهما جنتان

كما فسرها الوسيط ثم واصلت السورة حتى نهايتها ، حديثها عن النعم التى
منحها - سبحانه - لمن خاف مقام ربه ، فقال - تعالى - : ( وَمِن دُونِهِمَا
جَنَّتَانِ . . . ) .قوله - سبحانه - : ( وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ )
معطوف على قوله - تعالى - قبل ذلك : ( وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ
جَنَّتَانِ ) ولفظ دون هنا يحتمل أنه بمعنى غير ، أى : ولمن خاف مقام ربه
) - جنتان ، وله - أيضا - جنتان أخريان غيرهما ، فهو من باب قوله - سبحانه
لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الحسنى وَزِيَادَةٌ ) قالوا : ويشهد لهذا الاحتمال
أن الله - تعالى - قد وصفت هاتين الجنتين بما يقارب وصفه للجنتين .
السابقتين ، وأن تكرير هذه الأوصاف من باب الحض على العمل الصالح الذى يوصل

الى الظفر بتلك الجنات ، وما اشتملت عليه من خيرات .ويحتمل أن لفظ ( دُونِ
هنا : بمعنى أقل ، أى : وأقل نم تلك الجنتين فى المنزلة والقدر ، جنتان (
أخريان .وعلى هذا المعنى سار جمهور المفسرين ، ومن المفسرين الذين ساروا
على هذالرأى افمام ابن كثير ، فقد قال - رحمه الله - هاتان الجنتان دون
- اللتين قبلهما فى المرتبة والفضيلة والمنزلة ، بنص القرآن ، فقد قال
، تعالى - : ( وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ) .فالأوليان للمقربين
والأخريان : لأصحاب اليمين .والدليل على شرف الأولين على الأخرين وجوه
أحدها : أنه نعت الأوليين قبل هاتين ، والتقديم يدل على الاعتناء ، ثم قال:
وهذا ظاهر فى شرف المتقدم ، وعلوه على ( وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ) :
الثانى .وقال هناك ( ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ) وهى الأغصان ، أو الفنون فى
الملاذ : وقال ها هنا ( مُدْهَآمَّتَانِ ) أى : سوداوان من شدة الرى من
، الماء .وقال الإمام القرطبى : فإن قيل : كيف لم يذكر أهل هاتين الجنتين
كما ذكر أهل الجنتين الأوليين؟قيل : الجنان الأربع لمن خاف مقام ربه . إلا
أن الخائفين مراتب ، فالجنتان الأوليان لأعلى العباد منزلة فى الخوف من
- الله - تعالى - ، والجنتان الأخريان لمن قصرت حاله فى الخوف من الله
تعالى - .وقال الآلوسى : قوله - تعالى - : ( وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ )
مبتدأ وخبر أى : ومن دون تينك الجنتين فى المنزلة والقدر جنتان أخريان
والأكثرون على أن الأوليين للسابقين ، وهاتين لأصحاب اليمين .

فباي الاء ربكما تكذبان

`<!-- TODO:MISSING -->`{=html} كما فسرها الوسيط

مدهامتان

كما فسرها الوسيط وقوله : ( مُدْهَآمَّتَانِ ) صفة للجنتين . . . أى : هما
شديدتا الخضرة ، والخضرة إذا اشتدت ضربت إلى السواد من كثرة الرى .

فباي الاء ربكما تكذبان

`<!-- TODO:MISSING -->`{=html} كما فسرها الوسيط

فيهما عينان نضاختان

كما فسرها الوسيط ثم فصل - سبحانه - أوصاف هاتين الجنتين فقال : ( فِيهِمَا
عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ) أى : فوارتان بالماء الذى لا ينقطع منهما من
النضخ وهو فوران الماء من العيون مع حسنه وجماله .

فباي الاء ربكما تكذبان

`<!-- TODO:MISSING -->`{=html} كما فسرها الوسيط

فيهما فاكهة ونخل ورمان

- كما فسرها الوسيط ( فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ) وعطف
سبحانه - النخل والرمان على الفاكهة مع أنهما منهما ، لفضلهما ، فكأنهما
لما لهما من المزية جنسان آخران .أو - كما يقول صاحب الكشاف - : لأن النخل
ثمره فاكهة وطعام ، والرمان فاكهة ودواء ، فلم يخلصا للتفكه ، ولذا قال أبو
حنيفة - رحمه الله - إذا حلف لا يأكل فاكهة ، فأكل رمانا أو رطبا لم يحنث .

فباي الاء ربكما تكذبان

`<!-- TODO:MISSING -->`{=html} كما فسرها الوسيط

فيهن خيرات حسان

كما فسرها الوسيط والضمير فى قوله - تعالى - : ( فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ
- حِسَانٌ ) يعود إلى الجنات الأربع : الجنتين المذكورتين فى قوله - تعالى
والجنتين المذكورتين هنا ( وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ) :
فى قوله - سبحانه - : ( وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ) .ولفظ ( خَيْرَاتٌ )
فيه وجهان : أحدهما : أنه جمع خَيرة بزنة فعلة بسكون العين - يقال : امرأة
خيرة ، وأخرى شرة ، والثانى . أنه جمع خيرة المخفف من خيرة بالتشديد ، ويدل
على ذلك قراءة خيرات - بتشديد الياء .

فباي الاء ربكما تكذبان

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

حور مقصورات في الخيام

كما فسرها الوسيط وقوله ( حُورٌ مّقْصُورَاتٌ فِي الخِيَامِ ) بدل من خيرات . والحور : جمع حوراء ، وهى المرأة ذات الحور ، أى : ذات العين التى اشتد بياضها واشتد سوادها فى جمال وحسن .ومقصورات : جمع مقصورة أى : محتجبة فى بيتها ، قد قصرت نفسها على زوجها . فهى لا تجرى فى الطرقات . . . بل هى ملازمة لبيتها ، وتلك صفة النساء الفضليات اللاتى يزورهن من يريدهن ، أما هن فكما قال الشاعر :ويكرمها جاراتها فيزرنها ... وتعتل عن إتيانهن فتُعذرأى : فى تلك الجنات نساء خيرات فضليات جميلات مخدرات . ملازمات لبيوتهن ، لا يتطلعن إلى غير رجالهن .

فباي الاء ربكما تكذبان

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان

كما فسرها الوسيط هؤلاء النساء ( لَمْ يَطْمِثْهُنّ ) أى : لم يلمسهن ويباشرهن ( إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَآنٌّ ) .أى : لم يجامعهن أحد لا من الإنس ولا من الجن قبل الرجال الذين خصصهن الله - تعالى - لهم .

فباي الاء ربكما تكذبان

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان

كما فسرها الوسيط وقوله : ( مُتّكِئِينَ على رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ . . . ) حال من قوله - تعالى - : ( وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ . . . ) والرفرف : مأخوذ من الرّف بمعنى الارتفاع ، وهو : اسم جمع واحده رفرفة ، أو اسم جنس جمعى و (خُضْرٍ ) صفة له . .والعبقرى وصف لكل ما كان ممتازا فى جنسه . نادر الوجود فى صفاته والمراد به هنا : الثوب الموشى بالذهب ، والبالغ النهاية فى الجودة والجمال .قال القرطبى العبقرى : ثياب منقوشة تبسط . . . قال القتيبى : كل ثوب وشى عند العرب فهو عبقرى . وقال أبو عبيد : هو منسوب إلى أرض يعمل فيها الوشى .ويقال : عبقر قرية باليمن تنسج فيها بسط منقوشة . وقال ابن الأنبارى : إن الأصل فيه أن عبقر قرية يسكنها الجن ينسب إليها كل فائق جليل ، ومنه قوله النبى - صلى الله عليه وسلم - : فى عمر ابن الخطاب : فلم ار عبقريا يفرى فريه .أى : هؤلاء الذين خافوا مقام ربهم ، قد أسكناهم بفضلنا الجنات العاليات حالة كونهم فيها على الفرش الجميلة المرتفعة . وعلى الأبسطة التى بلغت الغاية فى حسنها وجودتها ودقة وشيها . .

فباي الاء ربكما تكذبان

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

تبارك اسم ربك ذي الجلال والاكرام

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بقوله : ( تَبَارَكَ اسم رَبِّكَ ذِي الجلال والإكرام ) .أى : جل شأن الله - تعالى - ، وارتفع اسمه الجليل عما لا يليق بشأنه العظيم ، فهو - عز وجل - صاحب الجلال . أى : العظمة والاستغناء المطلق ، والإكرام . أى : الفضل التام ، والإحسان الذى لا يقاربه إحسان .

اذا وقعت الواقعة

كما فسرها الوسيط افتتحت سورة " الواقعة " بتقرير الحقيقة التى لا شك فيها وهى أن يوم القيامة حق وأن الحساب حق ، وأن الجزاء حق . . .وقد اختير ، الافتتاح بالظرف المتضمن معنى الشرط ، لأنه ينبه الأذهان ويحرك النفوس لترقب الجواب .والواقعة من أسماء القيامة كالقارعة ، والحاقة ، والآزفة . .

قال الجمل : وفى ( إِذَا ) هنا أوجه : أحدهما : أنها ظرف محض ، ليس فيها . . معنى الشرط ، والعامل فيها ليس ، من حيث ما فيها من معنى النفى ، كأنه قيل ، ينتفى التكذيب بوقوعها إذا وقعت .والثانى : أن العامل فيها اذكر مقدار : ، الثالث : أنها شرطية وجوابها مقدر ، أى : إذا وقت الواقعة كان ، كيت وكيت : وهو العامل فيها .وقال بعض العلماء : والذى يظهر لى صوابه ، أن إذا هنا هى الظرفية المتضمنة معنى الشرط ، وأن قوله الآتى : ( إِذَا رُجَّتِ الأرض ) : رَجّاً ) بدل من قوله : ( وَقَعَتِ الواقعة ) وأن الجواب إذا هو قوله فَأَصْحَابُ الميمنة . . ) .وعليه فالمعنى : إذا قامت القيامة ، وحصلت هذه . . . الأحوال العظيمة ، ظهرت منزلة أصحاب الميمنة ، وأصحاب المشأمة

ليس لوقعتها كاذبة

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ) مؤكد لما قبله ، من أن وقوع يوم القيامة حق لا ريب فيه .وكاذبة : صفة ، لموصوف محذوف ، وهى اسم فاعل بمعنى المصدر . . .أى : عندما تقع القيامة لا تكذبها نفس من النفوس التى كانت تجحدها فى الدنيا ، بل كل نفس حينئذ تكون مصدقة لها .قال القرطبى : قوله : ( لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ) ، الكاذبة مصدر بمعنى الكذب ، والعرب قد تضع الفاعل والمفعول موضع المصدر : كقوله - تعالى - : ( لاَّ تَسْمَعُ فِيهَا لاَغِيَةً ) أى : لغو . . .أى ليس لقيام القيامة كذب ولا تخلف ، بل هى واقعة يقينا . .أو الكاذبة صفة والموصوف محذوف ، أى : ليس لوقعتها حال كاذبة أو نفس كاذبة . . .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : الله لا إله إلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إلى يَوْمِ القيامة لاَ رَيْبَ فِيهِ . . . ) وقوله - سبحانه - : ( فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قالوا آمَنَّا بالله وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ).

خافضة رافعة

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما يترتب على قيام الساعة من أحوال فقال : ( خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ) أى : هى خافضة للأشقياء إلى أسفل الدركات وهى رافعة للسعداء إلى أعلى الدرجات .والخفض والرفع يستعملان عند العرب : فى المكان والمكانة . وفى العز والإهانة . . . ونسب - سبحانه - الخفض والرفع إلى القيامة على سبيل المجاز .والمقصود بالآية الكريمة ترغيب ، الصالحين فى الازدياد من العمل الصالح ، لترفع منزلتهم يوم القيامة وترهيب الفاسقين من سوء المصير الذى ينتظرهم ، إذا ما استمروا فى فسقهم وعصيانهم .ويرى بعضهم أن المراد بالخفض والرفع فى هذا اليوم ، ما يترتب عليه من تناثر النجوم ، ومن تبدل الأرض غير الأرض ، ومن صيرورة الجبال كالعهن المنفوش .وعلى هذا يكون المقصود بالآية : التهويل من شأن يوم القيامة ، حتى يستعد الخلق لاستقباله ، بالإيمان والعمل الصالح ، حتى لا يصيبهم فيه ما يصيب العصاة المفسدين ، من خزى وهوان ..والآية الكريمة تسع - المعنيين ، لأن فى هذا اليوم يرتفع الأخيار وينخفض الأشرار ، ولأن فيه أيضا - ( تُبَدَّلُ الأرض غَيْرَ الأرض والسماوات . . . ).

اذا رجت الارض رجا

كما فسرها الوسيط والمراد بالرج فى قوله - تعالى - بعد ذلك : ( إِذَا رُجَّتِ الأرض رَجّاً وَبُسَّتِ الجبال بَسّاً . . . ) التحريك الشديد ، والاضطراب الواضح . يقال : رج فلان الشىء رجا ، إذا حركه بعنف وزلزله بقوة أى : إذا رجت الأرض وزلزلت زلزالا شديدا ، وفتتت الجبال تفتيتا حتى. . . . . صارت كالسويق الملتوت

وبست الجبال بسا

كما فسرها الوسيط وقوله ( وَبُسَّتِ ) من البس بمعنى التفتيت والتكسر : الدقيق ، ومنه قولهم : بس فلان السويق ، إذا فتته ولته وهيأه للأكل .أى إذا رجت الأرض وزلزلت زلزالا شديدا ، وفتتت الجبال تفتيتا حتى صارت كالسويق . . . . الملتوت

فكانت هباء منبثا

كما فسرها الوسيط فكانت تلك الجبال كالهباء المنبث أى : المتفرق الذى يلوح من خلال شعاع الشمس إذا ما دخل من نافذة . .إذا ما حدث كل ذلك ، وجد كل إنسان جزاءه من خير أو شر ، ( فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ) فجواب الشرط ما

ذكرته الآيات بعد ذلك من حسن عاقبة أصحاب الميمنة وسوء عاقبة أصحاب المشأمة
) : - ومن الآيات الكثيرة ، التى وردت فى معنى هذه الآيات قوله - تعالى.
. ( يَوْمَ تَرْجُفُ الأرض والجبال وَكَانَتِ الجبال كَثِيباً مَّهِيلاً

وكنتم ازواجا ثلاثة

كما فسرها الوسيط والخطاب فى قوله - تعالى - : ( وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً
ثَلاَثَةً ) للناس جميعا ، وكان بمعنى صار ، والأزواج بمعنى الأصناف
، والأنواع . . .أى : وصرتم - أيها الناس - فى هذا اليوم الهائل الشديد
. . . أصنافا ثلاثة ، على حسب أحوالكم فى الدنيا

فاصحاب الميمنة ما اصحاب الميمنة

) : كما فسرها الوسيط ثم فصل - سبحانه - الحديث عن الأزواج الثالثة فقال
فَأَصْحَابُ الميمنة مَآ أَصْحَابُ الميمنة وَأَصْحَابُ المشأمة مَآ
أَصْحَابُ المشأمة والسابقون السابقون ) .والمراد بأصحاب الميمنة ، أولئك
السعداء الذين يؤتون كتبهم يوم القيامة بأيمانهم ، أو لأنهم يذهب بهم ذات
اليمين إلى الجنة . .أو سموا بذلك ، لأنهم ميامين ، أى : أصحاب بركة على
. أنفسهم ، لأنهم أطاعوا ربهم وخالفوا أهواءهم . . . فكانت عاقبتهم الجنة

واصحاب المشامة ما اصحاب المشامة

كما فسرها الوسيط وسمى الآخرون بأصحاب المشأمة ، لأنهم مشائيم ، أى : أصحاب
شؤم على أنفسهم ، لأنهم طغوا وآثروا الحياة الدنيا ، فكانت عاقبتهم النار
أو سموا بذلك ، لأنهم يؤتون كتبهم بشمائلهم . أو لأنهم يذهب بهم ذات.
الشمال إلى النار . . والعرب تسمى الشمال شؤما ، كما تسمى اليمين يمنا
، والتعبير بقوله : ( مَآ أَصْحَابُ الميمنة ) للتفخيم والإعلاء من شأنهم.
كما أن التعبير بقوله - تعالى - : ( مَآ أَصْحَابُ المشأمة ) للتحقير
- والتعجيب من حالهم .وجملة : ( مَآ أَصْحَابُ الميمنة ) مكونة من مبتدأ
) وهو ما الاستفهامية - ، وخبر وهو ما بعدها ، وهذه الجملة خبر لقوله
، فَأَصْحَابُ الميمنة ) . ووضع فيها الاسم الظاهر موضع الضمير للتفخيم
بخلاف وضعه فى أصحاب المشأمة ، فهو للتشنيع عليهم .وشبيه بهذا الأسلوب
قوله - تعالى - : ( الحاقة مَا الحاقة ) و ( القارعة مَا القارعة )ولا يؤتى
بمثل هذا التركيب إلا فى موضاع التفخيم ، أو التعجيب .والمعنى : فأصحاب
الميمنة ، أى شىء هم فى أحوالهم وصفاتهم الكرمة ، وأصحابه المشأمة ، أى شىء
هم فى أحوالهم وصفاتهم القبيحة؟وقد ترك هذا الاستفهام التعجيبى على إبهامه
. . لتذهب النفس فيه كل مذهب من الثواب أو العقاب ،

والسابقون السابقون

، كما فسرها الوسيط وقوله : ( والسابقون السابقون ) هؤلاء هم الصنف الثالث
وهم الذين سبقوا غيرهم إلى كل قول أو فعل فيه طاعة لله - تعالى - وتقرب إلى
جلاله .والأظهر فى إعراب مثل هذا التركيب ، أنه مبتدأ وخبر ، على عادة
العرب فى تكريرهم اللفظ ، وجعلهم الثانى خبرا عن الأول ، ويعنون بذلك أن
اللفظ المخبر عنه ، معروف خبره ، ولا يحتاج إلى تعريفه ، كما فى قول الشاعر
أنا ابو النجم وشعرى شعرى ... يعنى : أن شعرى هو الذى أتاك خبره ، وانتهى:
إليك وصفه . .والمعنى : والسابقون هم الذين اشتهرت أحوالهم . وعرفت منزلتهم
- وبلغت من الرفعة مبلغا لا يفى به إلا الإخبار عنهم بهذا الوصف .وحذف ،
سبحانه - المتعلق فى الآية لإفادة العموم ، أى : هم السابقون إلى كل فضل
. . . ومكرمة وطاعة

اولئك المقربون

، كما فسرها الوسيط وأخرهم - سبحانه - عن أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة
لتشويق السامع إلى معرفة أحوالهم ، وبيان ما أعد لهم من ثواب عظيم ، فصله
بعد ذلك فى قوله - تعالى - : ( أولئك المقربون فِي جَنَّاتِ النعيم . . )
- أى : والسابقون غيرهم إلى كل فضيلة وطاعة ، أولئك هم المقربون عند الله
تعالى - وأولئك هم الذين مقرهم جنات النعيم .فالجملة الكريمة مستأنفة
استئنافا بيانيا ، لأنها جواب يثيره فى النفوس قوله - تعالى - ( والسابقون
، السابقون )َ و ( أولئك ) مبتدأ ، وخبره ما بعده . وما فيه من معنى البعد
مع قرب العهد بالمشار إليه ، للإشعار بسمو منزلتهم عند الله - تعالى - ولفظ
مأخوذ من القربة بمعنى الخطوة ، وهو أبلغ من القريب ، للدلالة ( المقربون )
- صيغته على الاصطفاء والاختباء .أى : أولئك هم المقربون من ربهم - عز وجل
. قرب لا يعرف أحد مقداره

في جنات النعيم

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( فِي جَنَّاتِ النعيم ) متعلق بقوله
أو بمضمر هو حال من ضميره ، أى كائنين فى جنات النعيم .وعلى ( المقربون )
الوجهين . فيه إشارة إلى أن قربهم محض لذة وراحة ، لا كقرب خواص الملك
القائمين بأشغاله عنده ، بل كقرب جلسائه وندمائه الذين لا شغل لهم ، ولا
يرد عليهم أمر أو نهى ، ولذا قيل ( جَنَّاتِ النعيم ) دون جنات الخلود
. ونحوه

ثلة من الاولين

كما فسرها الوسيط ثم قال - تعالى : ( ثُلَّةٌ مِّنَ الأولين وَقَلِيلٌ
مِّنَ الآخرين ) والثلة : الجماعة الكثيرة من الناس ، وأصلها : القطعة من
الشىء . . . وهى خبر لمبتدأ محذوف ، وللمفسرين فى المراد بالثلة من الأولين
) : وبالقليل من الآخرين ، اتجاهان :أولهما : يرى أصحاب أن المراد بقوله ،
ثُلَّةٌ مِّنَ الأولين ) : أولئك السابقون من الأمم الكثيرة السابقة على
. الأمة الإسلامية ، وهم الذين صدقوا أنبياءهم وعزروهم ونصروهم

وقليل من الاخرين

كما فسرها الوسيط والمراد بقوله : ( وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخرين ) المؤمنون من
، هذه الأمة الإسلامية .وعلى هذا المعنى صار صاحب الكشاف . فقد قال : الثلة
الأمة الكثيرة من الناس ، قال الشاعر :وجاءت إليهم ثلة خندقية ... بجيش
كتيار من السيل مزبدوقوله - عز وجل - : ( وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخرين ) كفى به
: - دليلا على الكثرة - أى فى لفظ ( ثُلَّةٌ ) - وهو من الثل وهو الكسر
كأنها جماعات كسرت من الناس وقطعت منهم .والمعنى : أن السابقين من الأولين
كثير ، وهم الأمم من لدن آدم - عليه السلام - إلى محمد - صلى الله عليه
وسلم - . . ( وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخرين ) ، وهم أمة محمد - صلى الله عليه
) : - وسلم .وأما الاتجاه الثانى فيرى أصحابه ، أن الخطاب فى قوله - تعالى
وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً ثَلاَثَةً ) للأمة الإسلامية خاصة ، وأن المراد بقوله
- صدر هذه الأمة الاسلامية .وأن المراد بقوله ( ثُلَّةٌ مِّنَ الأولين )
تعالى - : ( وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخرين ) من أتى بعد صدر هذه الأمة إلى يوم
: القيامة .وقد أفاض الإمام ابن كثير فى ترجيح هذا القول ، فقال ما ملخصه
وقد اختلفوا فى المراد بقوله : ( ثُلَّةٌ مِّنَ الأولين وَقَلِيلٌ مِّنَ
الآخرين ) فقيل : المراد بالأولين الأمم الماضية ، وبالآخرين من هذه الأمة
وهو اختيار ابن جرير .وهذا الذى اختاره ابن جرير ههنا فيه نظر ، بل . . .
هو قول ضعيف ، لأن هذه الأمة ، هى خير الأمم بنص القرآن . فيبعد أن يكون
المقربون أكثر منها ، اللهم إلا أن يقابل مجموع الأمم بهذه الأمة . .فالقول
الراجح أن يكون المراد بقوله - تعالى - ( ثُلَّةٌ مِّنَ الأولين ) أى : من
صدر هذه الأمة .والمراد بقوله : ( وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخرين ) أى : من هذه
الأمة . .وروى عن الحسن أنه قال : أما السابقون فقد مضوا ، ولكن اللهم
: اجعلنا من أصحاب اليمين .وقد رجح بعض العلماء القول الأول فقال ما ملخصه
وقد اختلف أهل العلم فى المراد بهذه الثلة من الأولين ، وهذا القليل من
- الآخرين المذكورين هنا .كما اختلفوا فى الثلتين المذكورتين فى قوله
تعالى - بعد ذلك : ( ثُلَّةٌ مِّنَ الأولين وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخرين )
وظاهر القرآن يفيد فى هذا المقام : أن الأولين فى الموضعين من الأمم
الماضية ، والآخرين فيهما من هذه الأمة .وأن قوله - تعالى - : ( ثُلَّةٌ
- مِّنَ الأولين وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخرين ) فى السابقين خاصة .وأن قوله
تعالى - : ( ثُلَّةٌ مِّنَ الأولين وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخرين ) فى أصحاب
) : - اليمين خاصة .وذلك لشمول الآيات لجميع الأمم ، إذ قوله - تعالى
وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً ثَلاَثَةً ) خطاب لجميع أهل المحشر ، فظهر أن
السابقين وأصحاب اليمين . منهم من هو من الأمم السابقة ، ومنهم من هو من
. . . هذه الأمة . . .ولا غرابة فى أن يكون السابقون من الأمم السابقة أكثر
لأن الأمم الماضية أمم كثيرة . . وفيهم أنبياء كثيرون .وأما أصحاب اليمين
من هذه الأمة ، فيحتمل أن يكونوا أكثر من أصحاب اليمين من جميع الأمم ، لأن
الثلة تتناول العدد الكثير وقد يكون أحد العددين . . . الكثيرين ، أكثر من
الآخر ، مع أنهما كلاهما كثير .ولهذا تعلم أن ما دل عليه ظاهر القرآن
. . واختاره ابن جرير .لا ينافى ما جاء من أن نصف أهل الجنة من هذه الأمة

على سرر موضونة

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما أعده هؤلاء السابقين بالخيرات من
عطاء كريم ، فقال : ( على سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ) .والسرر : جمع سرير ، وهو

ما يستعمله الإنسان لنومه أو الاتكاء عليه فى جلسته .والموضونة : أى المنسوجة بالذهب نسجا محكما ، لراحة الجالس عليها ولتكريمه ، يقال : وضن فان الغزل يضنه ، إذا نسجه نسجا متقنا جميلا .أى : مستقرين على سرر قد نسجت أطرافها بالذهب وبما يشبهه ، نسجا بديعا يشرح الصدر . فقوله : ( على سُرُرٍ مّوْضُونَةٍ ) حال من المقربين .

متكئين عليها متقابلين

كما فسرها الوسيط ومثله قوله : ( مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ) أى : مضطجعين عليها اضطجاع الذى امتلأ قلبه بالراحة ، وفراغ البال من كل ما يشغله ، وقد قابل وجه كل واحد منهم وجه الآخر ، ليتم سرورهم ونعيمهم ، إذ تقابل وجوه الأحباب يزيد الأنس والبهجة .

يطوف عليهم ولدان مخلدون

كما فسرها الوسيط : ( يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ) أى يدور عليهم من أجل خدمتهم غلمان ، شبابهم باق لا يتغير ، وهيئتهم الجميلة على حالها لا تتبدل ، فهم دائما على تلك الهيئة المنعوتة بالشباب والمنظر الحسن .

باكواب واباريق وكاس من معين

كما فسرها الوسيط ( بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ) أى يطوفون عليهم ، بأكواب أى : باقداح لا عُرَا لها ، وأباريق ، أى : وبأوان ذات عرا ( وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ) أى : وبإناء مملوء بالخمر الكثير الجارى فقوله ( مَّعِينٍ ) من المعن بمعنى الكثرة .

لا يصدعون عنها ولا ينزفون

كما فسرها الوسيط ( لاَّ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا . . ) أى لا يصيبهم صداع أو تعب بسبب شرب هذه الخمر . فعن هنا بمعنى باء السببية .قوله : ( وَلاَ يُنزِفُونَ ) أى : ولا تذهب الخمر عقولهم ، كما تفعل خمر الدنيا بشاربيها ، مأخوذ من النزف ، بمعنى اختلاط العقل .

وفاكهة مما يتخيرون

كما فسرها الوسيط وقوله : ( وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ) أى : ويطاف عليهم بفاكهة يتلذذون بأكلها ، وهذه الفاكهة تأتيهم من كل نوع ، على حسب ما يريدون ويشتهون .

ولحم طير مما يشتهون

كما فسرها الوسيط ( وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ) مما يحبونه ويختارونه من هذه اللحوم الطيبة المحببة إلى النفوس ، يطاف عليهم به - أيضا - .

وحور عين

كما فسرها الوسيط وقوله : ( وَحُورٌ عِينٌ ) معطوف على قوله ( وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ) أى : ويطوف عليهم - أيضا - نساء عيونهن شديدة البياض والسواد فى سعة وجمال .

كامثال اللؤلؤ المكنون

كما فسرها الوسيط وهؤلاء الحور العين ( كَأَمْثَالِ اللؤلؤ المكنون ) أى : يشبهن اللؤلؤ المكنون الذى لم تلمسه الأيدى ، فى صفاء بياضهن ، وفى شدة جمالهن .

جزاء بما كانوا يعملون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ) بيان للأسباب التى أوصلتهم إلى هذا النعيم الكبير .ولفظ ( جَزَآءً ) ، منصوب على أنه مفعول لأجله لفعل محذوف ، أى : أعطيناهم هذا العطاء الجزيل جزاء مناسبا بسبب ما كانوا يعملونه فى الدنيا من أعمال صالحة .

لا يسمعون فيها لغوا ولا تاثيما

كما فسرها الوسيط قوله - تعالى - : ( لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ
- تَأْثِيماً إِلاَّ قِيلاً سَلاَماً سَلاَماً ) تتميم للنعم التى أنعم
، سبحانه - عليهم بها فى الجنة .واللغو : الكلام الساقط الذى لا فائدة منه
: ولا وزن له . يقال : لغا فلان يلغو . إذا قال كلاما يلام عليه .والتأثيم
مصدر إثم ، إذا نسب غيره إلى الإثم وفعل ما لا يليق .أى : أن هؤلاء
المقربين لا يسمعون فى الجنة كلاما لا يعتد به ، ولا يسمعون - أيضا - كلاما
سيئا أو قبيحا ، بأن ينسب بعضهم إلى بعض ما لا يليق به ، وإنما الذى
. يسمعونه هو الكلام الطيب المشتمل على الأمان المتكرر ، والتحية الدائمة

الا قيلا سلاما سلاما

كما فسرها الوسيط ولفظ ( سَلاَماً ) الأول ، بدل من قوله ( قِيلاً ) أو نعت
، له . . . أى : سالما من العيوب . والتكرير لهذا اللفظ القصد منه التأكيد
والإشعاربكثرة تحيتهم بهذا اللفظ الدال على المحبة والوئام .أى :لا يسمعون
فى الجنة إلا سلاما إثر سلام ، وتحية فى أعقاب تحية ، ومودة تتلوها مودة
والاستثناء منقطع ، لأن السلام لا يندرج تحت اللغو ، وهو من تأكيد المدح.
. بما يشبه الذم ، و ( قِيلاً ) بمعنى : قولا ، وهو منصوب على الاستثناء
وإلى هنا نجد الآيات الكريمة ، قد بينت أقسام الناس يوم القيامة ، وفصلت.
. ما أعده - سبحانه - للسابقين ، من عطاء جزيل ، وفضل عميم

واصحاب اليمين ما اصحاب اليمين

. كما فسرها الوسيط وبعد هذا الحديث الزاخر بالخيرات والبركات عن السابقين
جاء الحديث عن أصحاب اليمين وعما أعده الله - تعالى - لهم من ثواب . .
- فقال - سبحانه - : ( وَأَصْحَابُ اليمين . . . ) .قال الآلوسى : قوله
تعالى - ( وَأَصْحَابُ اليمين . . . ) شروع فى بيان تفاصيل شئونهم ، بعد
بيان شئون السابقين .وأصحاب : مبتدأ وقوله : ( مَآ أَصْحَابُ اليمين ) جملة
استفهامية مشعرة بتفخيمهم ، والتعجب من حالهم ، وهى خبر المبتدأ . . أو
. معترضة ، والخبر قوله : ( فِي سِدْرٍ مّخْضُودٍ . . )

في سدر مخضود

كما فسرها الوسيط ( فِي سِدْرٍ مّخْضُودٍ . . )والسدر : شجر النبق ، واحده
سدرة ، ومخضود . أى : منزوع الشوك ، يقال : خضد فلان الشجر ، إذا قطع الشوك
، الذى به فهو خضيد ومخضود ، أو مخضود بمعنى ملىء بالثمر حتى تثنت أغصانه
، من خضدت الغصن ، إذا ثنيته وأملته إلى جهة أخرى .أى : وأصحاب اليمين
المقول فيهم ما أصحاب اليمين على سبل التفخيم ، مستقرون يوم القيامة فى
حدائق ملبئة بالشجر الذى خلا من الشوك وامتلأ بالثمار الطيبة ، التى تثنت
أغصانها لكثرتها . .قال القرطبى : وذكر ابن المبارك قال : حدثنا صفوان عن
سليم بن عامر قال : " كان أصحاب النبى - صلى الله عليه وسلم - يقولون : إنه
، لينفعنا الأعراب ومسائلهم . قال : أقبل أعرابى يوما فقال : يا رسول الله
لقد ذكر الله فى القرآن : شجرة مؤذية ، وماكنت أرى فى الجنة شجرة تؤذى
صاحبها؟فقال - صلى الله عليه وسلم - : وما هى؟ قال : السدر ، فإن له شوكا
مؤذيا ، فقال : - صلى الله عليه وسلم - : ألم يقل الله - تعالى - ( فِي
. " سِدْرٍ مّخْضُودٍ ) . خضد الله - تعالى - شوكه فجعل مكان كل شوكة ثمرة

وطلح منضود

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( وَطَلْحٍ مّنضُودٍ ) بيان لنعمة
ثانية . والطلح : قالوا هو شجر الموز . واحدة طلحة ، والمنضود : المتراكب
) بعضه وق بعض ، بحيث صار ثمره متراصا على هيئة جميلة تسر الناظرين .فقوله
مّنضُودٍ ) اسم مفعول من النضد وهو الرص . يقال؛ نضد فلان متاعه ، - من
- باب ضرب - إذا وضع بعضه فوق بعض بطريقة منسقة جميلة ، ومنه قوله - تعالى
( والنخل بَاسِقَاتٍ لّهَا طَلْعٌ نّضِيدٌ ) :

وظل ممدود

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَظِلٍّ مّمْدُودٍ ) أى : متسع
منبسط ، بحيث لا يزول كما يزول الظل فى الدنيا ، ويحل محله ضوء الشمس .أخرج
الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - قال : " إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها عاما - وفى

( وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ) " رواية مائة عام - اقرءوا إن شئتم .

وماء مسكوب

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ) أى : وفيها ماء كثير مصبوب يجرى على الأرض ، ويأخذون منه ما شاءوا ، بدون جهد أو تعب .يقال : سكب فلان الماء سكبا ، إذا صبه بقوة وكثرة .

وفاكهة كثيرة

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ لاَّ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ ) أى : وهم بجانب كل ذلك يتلذذون فى الجنة بفاكهة كثيرة .

لا مقطوعة ولا ممنوعة

كما فسرها الوسيط هذه الفاكهة ليست مقطوعة عنهم فى وقت من الأوقات ، ولا تمتنع عن طالبها متى طلبها .وجمع - سبحانه - بين انتفاء قطعها ومنعها ، للإشعار بأن فاكهة الجنة ليست كفاكهة الدنيا فهى تارة تكون مقطوعة ، لأنها لها أوقاتا معينة تظهر فيها ، وتارة تكون موجودة ولكن يصعب الحصول عليها ، لامتناع أصحابها عن إعطائها .

وفرش مرفوعة

: كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ) أى وفيها - أيضا - فرش منضدة ، قد ارتفعت عن الأرض ، ليتكىء عليها أهل الجنة وأزواجهم .

انا انشاناهن انشاء

كما فسرها الوسيط والضمير فى قوله - تعالى - : ( إِنَّآ أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَآءً . . . ) عائد إلى غيره مذكور ، إلا أنه يفهم من سياق الكلام . لأن الحديث عن الفرش المرفوعة يشير إلى من يجلس عليها ، وهم الرجال ونساؤهم ، أى : نساؤهم من أهل الدنيا أو الحور العين ، ويرى بعضهم أنه يعود إلى مذكور لأن المراد بالفرش النساء ، والعرب تسمى المرأة لباسا ، وإزارا ، وفراشا ، والإنشاء : الخلق والإيجاد . فيشمل إعادة ما كان موجودا ثم عدم ، كما يشمل. الإيجاد على سبيل الابتداء .أى : إنا أنشأنا هؤلاء النساء المطهرات من كل رجس حسى أو معنوى ، إنشاء جميلا ، يشرح الصدور .

فجعلناهن ابكارا

: كما فسرها الوسيط ( فَجَعَلْنَاهُنَّ ) بقدرتنا ( أَبْكَاراً ) أى فصيرناهن أبكارا ليكون ذلك أكثر تلذذا بهن .قال الآلوسى : وفى الحديث الذى أخرجه الطبرانى عن أبى سعيد مرفوعا إن أهل الجنة إذا جامعوا نساءهم ، عدن أبكارا .

عربا اترابا

كما فسرها الوسيط وقوله : ( عُرُباً أَتْرَاباً ) صفة أخرى من صفات هؤلاء النساء الفضليات الجميلات .وقوله : ( عُرُباً ) جمع عروب - كرسل ورسول - من أعرب فلان فى قوله إذا نطق بفصاحة وحسن بيان .وأترابا : جمع ترب - بكسر التاء وسكون الراء - وترب الإنسان هو ما كان مساويا له فى السن .أى : إنا أنشأنا هؤلاء النساء على تلك الصورة الجميلة ، فجعلناهن أبكارا كما جعلناهن - أيضا - محببات إلى أزواجهن ، ومستويات فى سن واحدة .روى الترمذى عن الحسن قال : " أتت عجوز فقالت يا رسول الله ادع الله - تعالى - أن يدخلنى الجنة ، فقال - صلى الله عليه وسلم - : " يا أم فلان إن الجنة لا تدخلها عجوز ، فولت تبكى " .فقال - صلى الله عليه وسلم - أخبروها أنها لا تدخلها وهى عجوز ، إن الله - تعالى - يقول : ( إِنَّآ أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَآءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً عُرُباً أَتْرَاباً ) . . . " .

لاصحاب اليمين

كما فسرها الوسيط واللام فى قوله : ( لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ ) متعلقة ، بأنشأناهن ، أو جعلناهن .أى : أنشأناهن كذلك ، ليكن فى صحبة أصحاب اليمين

. . على سبيل التكريم لهم

ثلة من الاولين

كما فسرها الوسيط وقوله : ( ثُلّةٌ مِّنَ الأولين وَثُلّةٌ مِّنَ الآخرين
خبر لمبتدأ محذوف . أى : أصحاب اليمين جماعة كبيرة منهم من الأمم الماضية (
- وجماعة كبيرة أخرى من هذه الأمة الإسلامية .وبذلك نرى أن الله - تعالى ،
قد ذرك لنا ألوانا من النعم التى أنعم بها على أصحاب اليمين . كما ذكر قبل
- ذلك ألوانا أخرى مما أنعم به على السابقين .قال الآلوسى : ولم يقل
سبحانه - فى حق أصحاب اليمين : ( جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ) كما
، قال - سبحانه - ذلك فى حق السابقين ، رمزا إلى أن الفضل فى حقهم متمحض
كأن عملهم لقصوره عن عمل السابقين ، لم يعتبر اعتباره .ثم الظاهر أن ما ذكر
من أصحاب اليمين ، هو حالهم الذى ينتهون إليه فلا ينافى أن يكون منهم من
. يعذب لمعاص فعلها ، ومات غير تائب عنها ، ثم يدخل الجنة

وثلة من الاخرين

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

واصحاب الشمال ما اصحاب الشمال

كما فسرها الوسيط وبعد هذا الحديث الذى يشرح الصدور ، ويقر العيون ، وترتاح
له الأفئدة . عن السابقين وعن أصحاب اليمين . . جاء الحديث عن أصحاب الشمال
- وهم الذين استحبوا العمى على الهدى وآثروا الغى على الرشد ، فقال ،
تعالى - : ( وَأَصْحَابُ الشمال . . . ) .قوله - تعالى - : ( وَأَصْحَابُ
الشمال مَآ أَصْحَابُ الشمال ) أى : ما قصة هؤلاء القوم؟ وما حالهم؟ وما
جزاؤهم؟

في سموم وحميم

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ذلك فقال : ( فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ )
والسموم : الريح الشديدة الحرارة . التى تدخل فى مسام الجسد ، فكأنها السم
القاتل .والحميم : الماء الذى بلغ النهاية فى الغليان . أى : هم فى الآخرة
. مستقرون فيما يهلكهم من الريح الحارة ، والماء الشديد الغليان

وظل من يحموم

كما فسرها الوسيط وهم كذلك فى ( ظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ) أى : فى دخان أسود
، شديد يخنق أنفاسهم ، والعرب يقولون لكل شىء شديد السواد : أسود يحموم
مأخوذ من الشىء الأحم ، وهو الأسود من كل شىء ، ومثله الحمم .و ( مِّن ) فى
قوله : ( مِّن يَحْمُومٍ ) للبيان . إذ الظل هنا هو نفس اليحموم وتسميته
. ظلا من باب التهكم بهم

لا بارد ولا كريم

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( لاَّ بَارِدٍ وَلاَ كَرِيمٍ ) صفتان
للظل . أى : هذا الظل لا شىء فيه من البرودة التى يستروح بها من الحر . ولا
شىء فيه من النفع لمن يأوى إليه .فهاتان الصفتان لبيان انتفاء البرودة
والنفع عنه ، ومتى كان كذلك انتفت عنه صفات الظلال التى يحتاج إليها .قال
صاحب الكشاف : قوله - تعالى - : ( لاَّ بَارِدٍ وَلاَ كَرِيمٍ ) صفتان للظل
أى : هذا الظل لا شىء فيه من البرودة التى يستروح بها من الحر . ولا شىء .
فيه من النفع لمن يأوى إليه .فهاتان الصفتان لبيان انتفاء البرودة والنفع
عنه ، ومتى كان كذلك انتفت عنه صفات الظلال التى يحتاج إليها .قال صاحب
الكشاف : قوله - تعالى - : ( لاَّ بَارِدٍ وَلاَ كَرِيمٍ ) نفى لصفتى الظل
عنه ، يريد أنه ظل ولكن لا كسائر الظلال سماه ظلا ثم نفى عنه برد الظل
وروحه ونفعه لمن يأوى إليه من أذى الحر ، ليمحق ما فى مدلول الظل من
الاسترواح إليه . والمعنى : أنه ظل حار ضار ، إلا أن للنفى فى نحو هذا شأنا
ليس للإثبات ، وفيه تهكم بأصحاب المشأمة ، وأنهم لا يستأهلون الظل البارد
. . . الكريم ، الذى هو لأضدادهم فى الجنة

انهم كانوا قبل ذلك مترفين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - الأسباب التى أدت بهؤلاء الاشقياء إلى
هذا المصير الأليم ، فقال - تعالى - : ( إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَلِكَ

مُتْرَفِينَ ) أى : إنهم كانوا قبل ذلك العذاب الذى حل بهم ، أى : كانوا فى الدنيا ( مُتْرَفِينَ ) أى : متنعمين بطرين ، متبعين لهوى أنفسهم ، وسالكين خطوات الشيطان . دون أن يصدهم عن ذلك صاد ، أو يردعهم رادع .فالمراد بالترف هنا : بطر النعمة ، وعدم شكر الله - تعالى - عليها ، والمترف : هو الذى ، يتقلب فى نعم الله - تعالى - ، ولكنه يستعملها فى المعاصى لا فى الطاعات وفى الشرور لا فى الخيرات .

وكانوا يصرون على الحنث العظيم

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى الحنث العظيم ) بيان لسبب آخر من الأسباب التى أدت بهم إلى هذا المصير السىء - والحنث : الذنب الكبير ، والمعصية الشديدة ، ويندرج تحته الإشراك بالله. تعالى - ، وإنكار البعث والجزاء ، والحلف الكاذب مع تعمد ذلك .أى : وكانوا فى الدنيا يصرون على ارتكاب الذنوب العظيمة ، ويتعمدون إتيانها بدون تحرج أو تردد ، ومن مظاهر ذلك أنهم أقسموا بالأيمان المغلظة أنه لا بعث ولا حساب ولا جزاء ، كما قال - تعالى - : ( وَأَقْسَمُواْ بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ الله مَن يَمُوتُ . . . ).

وكانوا يقولون ائذا متنا وكنا ترابا وعظاما اانا لمبعوثون

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - لونا من أقوالهم الباطلة ، وحججهم الداحضة فقال : ( وَكَانُواْ يِقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَوَ آبَآؤُنَا الأولون ) .أى : أنهم - فوق ترفهم وإصرارهم على ارتكاب الآثام كانوا يقولون - على سبيل الإنكار ، لمن نصحهم باتباع الحق : أئذا متنا ، وانتهت حياتنا ووضعنا فى القبور وصرنا ترابا وعظاما ، أئنا لمبعوثون ومعادون إلى الحياة مرة أخرى؟

اواباؤنا الاولون

كما فسرها الوسيط وهل آباؤنا الأولون الذين صاروا من قبلنا عظاما ورفاتا يبعثون - أيضا -؟ولا شك أن قولهم هذا دليل على انطماس بصائرهم ، وعلى شدة غفلتهم عن آثار قدرة الله - تعالى - التى لا يعجزها شىء ، والتى من آثارها إيجادهم من العدم .

قل ان الاولين والاخرين

- كما فسرها الوسيط ولذا لقن الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم الجواب الذى يخرس ألسنتهم فقال - سبحانه - : ( قُلْ إِنَّ الأولين والآخرين لَمَجْمُوعُونَ إلى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ) .أى : قال لهم - أيها الرسول الكريم - إن الأمم السابقة التى من جملتها آباؤكم . والأمم اللاحقة التى من جملتها أنتم . الكل مجموعون ومسوقون إلى المحشر فى وقت واحد محدد فى علم الله - تعالى - . وعند ما يأتى هذا الوقت ماله من دافع .

لمجموعون الى ميقات يوم معلوم

: كما فسرها الوسيط فالميقات هنا : بمعنى الوقت والأجل ، والمراد به هنا يوم القيامة .ووصفه - سبحانه - بأنه معلوم ، للإشعار بكونه معينا وواقعا وقوعا لا ريب فيه ، ولكن فى الوقت الذى يشاؤه الله - تعالى - ويختاره .

ثم انكم ايها الضالون المكذبون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما سيحل بهم من عذاب فى هذا اليوم فقال : ( ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضالون المكذبون لآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ . . ) .والجملة الكريمة معطوفة على قوله - تعالى - : ( قُلْ إِنَّ الأولين والآخرين لَمَجْمُوعُونَ . . . ) وداخلة فى حيز القول . و ( ثُمَّ ) للتراخى الزمانى أو الرتبى والخطاب للمشركين الذين أعرضوا عن دعوة النبى - صلى الله عليه وسلم - .

لاكلون من شجر من زقوم

كما فسرها الوسيط و ( مِن ) فى قوله : ( مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ) ابتدائية ، وفى قوله : ( مِّن زَقُّومٍ ) بيانية .وشجر الزقوم :لا وجود له فى الدنيا ، وإنما يخلقه الله - تعالى - فى النار كما يخلق غيره من أصناف العذاب ، كالحيات والعقارب .وقيل : هو شجر سام ، متى مسه جسد إنسان ، تورم

هذا الإنسان ومات ويوجد هذا الشجر فى الأراضى المجدبة المجاورة للصحراء والزقوم من التزقم ، وهو ابتلاع الشىء الكريه ، بمشقة شديدة .والمعنى : ثم. قل لهم - أيها الرسول الكريم - على سبيل التقريع والتبكيت : إنكم أيها ، الضالون عن الحق . المكذبون بالبعث والجزاء ، لآكلون يوم القيامة من شجر . هو شجر الزقوم ، الذى هو أخبث الشجر وأبشعه

فمالئون منها البطون

كما فسرها الوسيط ( فَمَالِئُونَ مِنْهَا البطون ) أى : فمالئون من هذه الشجرة الخبيثة بطونكم ، لشدة الجوع الذى حل بكم . . .وجاء الضمير مؤنثا فى قوله : ( مِنْهَا ) لأن الشجر هنا بمعنى الشجرة ، أو لأن ضمائر الجمع لغير . العاقل تأتى مؤنثة فى الغالب

فشاربون عليه من الحميم

كما فسرها الوسيط ثم قال - تعالى - : ( فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الحميم فَشَارِبُونَ شُرْبَ الهيم ) والضمير فى قوله : ( عَلَيْهِ ) يعود على الأكل المستفاد من قوله : ( لآكِلُونَ ) . . .أى : ثم إنكم إيها الضالون المكذبون بعد هذا الأكل الخبيث من شجرة الزقوم . . . تشربون عليه فى بطونكم - ماء - قد بلغ درجات الحرارة ، فصرتم فى شرابكم كالإبل العطاش التى لا يرويها الماء مهما كثر لأنها مصابة بداء ، هذا الداء يمنعها من الشبع . منه ، فما تزال تشرب منه حتى تهلك

فشاربون شرب الهيم

، كما فسرها الوسيط فقوله : ( الهيم ) صفة لموصوف محذوف ، أى : الإبل الهيم ، جمع أهيم للمذكر ، وهيماء للمؤنث .والهيام - بضم الهاء - داء يصيب الإبل يجعلها تشرب فلا تشبع ، وما تزال تشرب حتى تهلك ، أو تسقم سقما شديدا يؤدى إلى موتها ، والفاء فى قوله - تعالى - : ( فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ ) عطف على لإفادة أن شربهم مع عطشهم الشديد ، يأتى بعد أكلهم من ( . . لآكِلُونَ ) الزقوم ، بدون مهلة أو استراحة .وقوله : ( فَشَارِبُونَ شُرْبَ . . ) تأكيد ، لما قبله ، للتنبيه على أن هذا الشراب - مع فظاعته وقبحه -لا مفر منه . ولا انفكاك لهم عنه

هذا نزلهم يوم الدين

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات بقوله : ( هذا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدين ) والنزل : ما يعد للضيف من منزل حسن ، ومأكل حسن لإكرامه .أى هذا المذكور من أنواع العذاب المهين . . . . نزلهم ومسكنهم ومقرهم أول : قدومهم يوم الجزاء . .فالإشارة بقوله : ( هذا ) إلى ما ذكر قبل ذلك من عذاب مهين ، من مظاهره أكلهم من الزقوم ، وشربهم من الحميم .والتعبير عما أعد لهم من عذاب بالنزل ، على سبل التهكم ، كما فى قول الشاعر :وكنا إذا الجبار بالجيش ضافنا ... جعلنا القنا والمرهَفات له نزلاوبذلك نرى الآيات الكريمة وقد بينت ما أعد لأصحاب الشمال ، من عذاب مهين ، بأسلوب تقشعر من هوله ، الأبدان . . .وبعد هذا الحديث الجامع عن أقسام الناس يوم القيامة ، وعن - جزاء كل قسم . . . أخذت السورة الكريمة فى إقامة الأدلة على وحدانية الله ، تعالى - وعلى كمال قدرته . . .وجاءت هذه الأدلة لا عن طريق أمور تخييلية ، أو فلسفية ، أو غيبية . . . وإنما عن طريق أمور يحسونها بأنفسهم ويشاهدونها بأعينهم . . . عن طريق خلقهم ، وزروعهم التى يزاولونها بأيديهم . والماء الذى يشربونه ، والنار التى يوقدونها ،

نحن خلقناكم فلولا تصدقون

) : كما فسرها الوسيط لنستمع إلى السورة الكريمة ، وهى تحكى كل ذلك فتقول نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ . . . ) .قوله - تعالى - : ( نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلاَ تُصَدِّقُونَ ) رد على إنكار المشركين للبعث والجزاء ، ولولا هنا - للتحضيض ، والفاء لترتيب التحضيض على ما قبله .أى : نحن الذين خلقناكم أيها الجاحدون - هذا الخلق الأول بقدرتنا وحدها ، فهلا صدقتم بذلك ، وأطعتم رسولنا - صلى الله عليه وسلم - فيما جاءكم به من عندنا ، وأيقنتم بأن - الأولين والآخرين سيقفون أمامنا يوم القيامة للحساب؟فالمراد بقوله تعالى - : ( خَلَقْنَاكُمْ ) : خلقهم من سلاله من طين ، ثم جعلهم نطفة فى قرار مكين كما قال - تعالى - : ( وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِن سُلاَلَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النطفة عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العلقة مُضْغَةً فَخَلَقْنَا المضغة

عِظَاماً فَكَسَوْنَا العظام لَحْماً ثُمّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ
فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الخالقين ) فإن قيل : إنهم كانوا يعترفون بأن
الله - تعالى - قد خلقهم ، بدليل قوله - تعالى - : ( وَلَئِن سَأَلْتَهُم
مِّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنّ الله . . . ) فما فائدة قوله - سبحانه -
( نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ . . ) ؟فالجواب أنهم لما كان اعترافهم بمنزلة العدم
، حيث أشركوا مع الله - تعالى - آلهة أخرى فى العبادة قيل لهم على سبيل
الإلزام والتبكيت : ( نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ . . ) .

افرايتم ما تمنون

كما فسرها الوسيط ثم ذكر - سبحانه - بعد ذلك أربعة أدلة على صحة هذا البعث
وإمكانه ، أما الدليل الأول فتراه فى قوله - تعالى - : ( أَفَرَأَيْتُمْ
مَّا تُمْنُونَ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَم نَحْنُ الخالقون . . . )
وقوله : ( تُمْنُونَ ) مأخوذ من أمنى بمعنى قذف المنى ، يقال : أمنى الرجل.
النطفة ، إذا قذفها . والاستفهام للتقرير ، والرؤية علمية . ( مَّا )
موصولة وهى المفعول الأول لقوله ( أَفَرَأَيْتُمْ ) والجملة الفعلية صلة
الموصول ، والعائد إلى الموصول محذوف . وجملة : أأنتم تخلقونه . . . هو
المفعول الثانى .والضمير المنصوب فى قوله : ( تَخْلُقُونَهُ ) يعود إلى
الاسم الموصول فى قوله : ( مَّا تُمْنُونَ ) . أى : أخبرونى - أيها
المشركون عما تصبونه وتقذفونه من المنى فى أرحام النساء؟ أأنتم تخلقون ما
تمنونه من النطف علقا فمضغا . . أم نحن الذين خلقنا ذلك؟ لا شك أنكم تعرفون
بأننا نحن الذين خلقنا كل ذلك ، وما دام الأمر كما تعرفون ، فلماذا عبدتم
مع الله - تعالى - آلهة أخرى .فالاستفهام للتقرير حيث إنهم لا يملكون إلا
: الاعتراف بأن الله - تعالى - وحده خلق الإنسان فى جميع أطواره .قال الجمل
و ( أم ) فى هذه المواضع الأربعة منقطعة ، لوقوع جملة بعدها ، والمنقطعة
تقدر ببل والهمزة الاستفهامية ، فيكون الكلام مشتملا على استفهامين ، الأول
أأنتم تخلقونه؟ وجوابه :لا . والثانى : مأخوذ من ( أم ) أى : بل أنحن :
الخالقون؟ وجوابه نعم .

اانتم تخلقونه ام نحن الخالقون

`<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html} كما فسرها الوسيط

ثم ذكر - سبحانه - بعد ذلك أربعة أدلة على صحة هذا البعث وإمكانه ، أما
الدليل الأول فتراه فى قوله - تعالى - : ( أَفَرَأَيْتُمْ مَّا تُمْنُونَ
أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَم نَحْنُ الخالقون . . . ) .وقوله : ( تُمْنُونَ
مأخوذ من أمنى بمعنى قذف المنى ، يقال : أمنى الرجل النطفة ، إذا قذفها ( .
والاستفهام للتقرير ، والرؤية علمية . ( مَّا ) موصولة وهى المفعول الأول
لقوله ( أَفَرَأَيْتُمْ ) والجملة الفعلية صلة الموصول ، والعائد إلى
الموصول محذوف . وجملة : أأنتم تخلقونه . . . هو المفعول الثانى .والضمير
) : المنصوب فى قوله : ( تَخْلُقُونَهُ ) يعود إلى الاسم الموصول فى قوله
مَّا تُمْنُونَ ) . أى : أخبرونى - أيها المشركون عما تصبونه وتقذفونه من
المنى فى أرحام النساء؟ أأنتم تخلقون ما تمنونه من النطف علقا فمضغا . . أم
، نحن الذين خلقنا ذلك؟ لا شك أنكم تعرفون بأننا نحن الذين خلقنا كل ذلك
وما دام الأمر كما تعرفون ، فلماذا عبدتم مع الله - تعالى - آلهة أخرى
- فالاستفهام للتقرير حيث إنهم لا يملكون إلا الاعتراف بأن الله - تعالى.
وحده خلق الإنسان فى جميع أطواره .قال الجمل : و ( أم ) فى هذه المواضع
الأربعة منقطعة ، لوقوع جملة بعدها ، والمنقطعة تقدر ببل والهمزة
الاستفهامية ، فيكون الكلام مشتملا على استفهامين ، الأول : أأنتم تخلقونه؟
وجوابه :لا . والثانى : مأخوذ من ( أم ) أى : بل أنحن الخالقون؟ وجوابه
نعم .

نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين

. كما فسرها الوسيط ثم أكد سبحانه - خلقه لكل شىء ، وقدرته على كل شىء
فقال - تعالى - : ( نَحْنُ قَدّرْنَا بَيْنَكُمُ الموت وَمَا نَحْنُ
بِمَسْبُوقِينَ على أن نّبَدّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا
، لاَ تَعْلَمُونَ ) .أى : نحن وحدنا الذين قدرنا لموتكم آجالا مختلفة
وأعمارا متفاوتة ، فمنكم من يموت صغيرا ، ومنكم من يموت كبرا ، وما نحن
بمسبوقين ، أى : وما نحن بمغلوبين على ذلك ، بل نحن قادرون قدرة تامة على
تحديد آجالكم ، فمن حضره أجله فلن يستطيع أن يتأخر عنه ساعة ، أو يتقدم عنه
ساعة . كما قال - تعالى - : (وَلِكُلّ أُمّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ
أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ).

على ان نبدل امثالكم وننشئكم في ما لا تعلمون

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( على أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ ) متعلق بقوله : ( نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الموت . . ) .والمراد بتبديل أمثالهم : إيجاد قوم آخرين من ذرية أولئك الذين ماتوا .والمعنى : نحن وحدنا الذين قدرنا بينكم الموت وحددناه على حسب مشيئتنا ونحن الذين فى قدرتنا أن نبدل من الذين ماتوا منكم أشباها لهم ، نوجدهم بقدرتنا - أيضا -.كما قال سبحانه - : ( وَرَبُّكَ الغني ذُو الرحمة إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُمْ مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُمْ مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ) ويصح أن يكون قوله - تعالى - : ( قَدَّرْنَا بمعنى قضينا وكتبنا ، ويكون قوله : ( على أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ ) ) متعلق بقوله ( بِمَسْبُوقِينَ ) ، ويكون المراد بتبديل أمثالهم . إيجاد قوم آخرين سواهم .والمعنى : نحن الذين وحدنا كتبنا عليكم ، وقضيناه على جميع الخلق فكل نفس ذائقة الموت ، وما نحن بمغلوبين على إهلاككم ، وعلى خلق أمثالكم بدلا منكم كما قال - تعالى - : ( ياأيها الناس أَنتُمُ الفقرآء إِلَى الله والله هُوَ الغني الحميد إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى الله بِعَزِيزٍ ) وقوله - سبحانه - : - بيان للون آخر من ألوان قدرته ( وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لاَ تَعْلَمُونَ ) تعالى - .أى : نحن لسنا بعاجزين ولا بمغلوبين . . . على أن نهلككم ونأتى بدلا منكم بغيركم . ولسنا - أيضا - بعاجزين على أن ننشئكم بعد إهلاككم فيما لا تعلمونه من الصور ، والهيئات ، والصفات .قال صاحب الكشاف : قوله - تعالى - : ( نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الموت ) أى : قدرناه تقديرا ، وقسمناه عليكم قسمة الرزق على اختلاف وتفاوت كما تقتضيه مشيئتنا فاختلف أعماركم من قصير وطويل ومتوسط .وقوله : ( وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ) ، يقال : سبقته على الشىء إذا أعجزته عنه ، وغلبته عليه ، ولم تمكنه منه فمعنى قوله ( وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ على أن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ ) أنا قادرون على ذلك لا تغلبوننا عليه . وأمثالكم جمع مثل بسكون الثاء - أى : على أن نبدل منكم ومكانكم أشباهكم من الخلق ( وَ ) على أن ( نُنشِئَكُمْ ) فى خلق لا تعلمونها وما عهدتم مثلها . يعنى أنا نقدر على الأمرين جميعا : على خلق ما يماثلكم وما لا يماثلكم ، فيكف نعجز عن إعادتكم .ويجوز أن يكون أمثالكم جمع مثل ، بفتحتين أى : على أن نبدل ونغير صفاتكم التى أنتم عليها فى خلقكم وأخلاقكم ، وننشئكم فى صفات لا تعلمونها .

ولقد علمتم النشاة الاولى فلولا تذكرون

كما فسرها الوسيط ثم لفت - سبحانه - أنظارهم إلى ما يعلمونه من حالهم فقال : أى. ( وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النشأة الأولى فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ ) : والله لقد علمتم النشأة الأولى من خلقكم ، حيث أوجدناكم من نطفة فعلقة فمضغة . . فهلا تذكرتم ذلك وعقلتموه ، وعرفتم أن من قدر على خلقكم ولم تكونوا شيئا مذكورا . . . قادر على إعادتكم إلى الحياة مرة أخرى؟فالمقصود بهذه الآيات الكريمة إقامة الأدلة الساطعة ، على إمكانية البعث وعلى أن من قدر على خلق الإنسان مع العدم قادر على إعادته .قال القرطبى : وفى الخبر : عجبا كل العجب للمكذب بالنشأة الأخرى ، وهو يرى النشأة الأولى . وعجبا للمصدق بالنشأة الآخرة ، وهو لا يسعى لدار القرار .

افرايتم ما تحرثون

كما فسرها الوسيط ثم انتقل السورة الكريمة إلى بيان الدليل الثانى على صحة البعث وإمكانيته . فقال - تعالى - : ( أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزارعون لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ) .والحرث : شق الأرض من أجل زراعتها ، والمراد به هنا : وضع البذر فيها بعد حرثها .

اانتم تزرعونه ام نحن الزارعون

كما فسرها الوسيط أى : أخبرونى عن البذور التى تلقون بها فى الأرض بعد حرثها ، أأنتم الذين تنبتونها وتصيرونها زرعا بهيجا نضرا أم نحن الذين نفعل ذلك؟ لا شك أنا نحن الذين نصير هذه البذور زروعا ونباتا يانعا .

لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون

كما فسرها الوسيط ولو نشاء لجعلنا هذا النبات ( حُطَاماً ) أى مكسرا مهشما يابسا لا نفع فيه ، فظللتم بسبب ذلك ( تَفَكَّهُونَ ) أى : فصرتم بسبب ما

، أصاب زرعكم من هلاك ، تتعجبون مما أصابه ، وتتحسرون على ضياع أموالكم وتندمون على الجهد الذى بذلتموه من غير فائدة . . .وأصل التفكه : التنقل فى الأكل من فاكهة إلى أخرى ، ثم استعير للتنقل من حديث إلى آخر ، وهو هنا ما يكون من أحاديثهم المتنوعة بعد هلاك الزرع .والمراد بالتفكه هنا : التعجب والندم والتحسر على ما أصابهم .

انا لمغرمون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ) مقول لقول محذوف . أى : فصرتم بسبب تحطيم زروعكم تتعجبون ، وتقولون على سبيل التحسر : إنا لمهلكون بسبب هلاك أقواتنا ، من الغرام بمعنى الهلاك . أو إنا لمصابون بالغرم والاحتياج والفقر ، بسبب ما أصاب زرعنا . من الغرم وهو ذهاب المال بلا مقابل .

بل نحن محرومون

كما فسرها الوسيط وتقولون - أيضا - : ( بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ) من منافع هذا الزرع الذى كنا نعلق الآمال على الانتفاع به ، والاستفادة بثماره قال الإمام القرطبى - رحمه الله - عند تفسيره لهذه الآيات : والمستحب لكل من يلقى البذر فى الأرض أن يقرأ بعد الاستعاذة : ( أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ . . . ) الآيات . ثم يقول : بل الله الزارع ، والمنبت والمبلغ اللهم صلى على محمد ، وارزقنا ثم هذا الزرع ، وجنبنا ضرره ، واجعلنا لأنعمك من الشاكرين ، ولآلائك من الذاكرين ، وبارك فيه يا رب العالمين .

افرايتم الماء الذي تشربون

، كما فسرها الوسيط ثم ذكر - سبحانه - الدليل الثالث على إمكانية البعث وعلى كمال قدرته - تعالى - فقال : ( أَفَرَأَيْتُمُ المآء الذي تَشْرَبُونَ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ المزن أَمْ نَحْنُ المنزلون لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ ) .أى : وأخبرونى - أيضا - عن الماء الذى تشربونه .

اانتم انزلتموه من المزن ام نحن المنزلون

كما فسرها الوسيط أأنتم الذين أنزلتموه من ( المزن ) أى : من السحاب أم نحن الذين أنزلناه؟لا شك أننا نحن الذين أنزلناه ، ولا تستطيعون إنكار ذلكن لأن إنكاركم لذلك يعتبر نوعا من المكابرة المكشوفة ، والمغالطة المفضوحة وتخصيص هذا الوصف ، وهو ( الذي تَشْرَبُونَ ) بالذكر ، مع كثرة منافع الماء ، لأن الشرب أهم المقاصد التى من أجلها أنزل - سبحانه - الماء من السحاب .

لو نشاء جعلناه اجاجا فلولا تشكرون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً ) بيان لمظهر من مظاهر رحمته - سبحانه - .ومفعولى المشيئة هنا وفى ما ( . . . ) قبله إلى قوله ( لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً . . . ) محذوف ، للاكتفاء عنه بجواب الشرط .والماء الأجاج : هو الماء الشديد الملوحة والمرارة فى وقت واحد .أى : لو نشاء أن نجعل هذا الماء النازل من المزن لشربكم ، ماء جامعا بين الملوحة والمرارة لفعلنا ، ولكنا لم نشأ ذلك رحمة بكم ، وفضلا منا عليكم .وقوله : ( فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ ) حض على الشكر لله - تعالى - أى : فهلا شكرتم الله - تعالى - على هذه النعم ، وأخلصتم له العبادة والطاعة ووضعتم نعمه فى مواضعها .فالمراد بالشكر هنا : أن يواظب العبد على شكر ربه ، وعلى المداومة على ما يرضيه وعلى استعمال النعم فيما خلقت له .أما شكر الرب - عز وجل - لعبده فمعناه : منحه الثواب الجزيل ، على عمله الصالح : ومنه قوله - تعالى - : ( وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ الله شَاكِرٌ عَلِيمٌ ) قال بعض العلماء : واعلم أن مادة الشكر تتعدى إلى النعمة تارة ، وإلى النعم أخرى .فإن عديت إلى النعمة ، تعدت إليها بنفسها دون حرف الجر ، كقوله - تعالى - : ( رَبِّ أوزعني أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ التي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ . . . ) وإن عديت إلى المنعم تعدت إليه بحرف الجر الذى هو اللام ، كقوله - تعالى - : ( واشكروا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ . . . ) وقال فى ( لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً ) وقال - سبحانه - هنا : ( لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً . . . ) بلام الآيات السابقة : التأكيد ، لأن إنزال الماء من السماء وتحويله من ماء عذب إلى ماء ملح ، مما لا يتوهم أن لأحد قدرة عليه سوى الله - تعالى - لذا لم يحتج الأمر إلى

تأكيد . . .أما جفاف الزرع بعد نضارته ، حتى يعود حطاما ، فمما يحتمل أنه من فعل الزارع ، أو لأى سبب آخر ، كآفة زراعية ، لذا أكد - سبحانه - أنه هو الفاعل لذلك على الحقيقة ، وأنه - تعالى - قادر على تحطيمه بعد نموه وريعانه .

افرايتم النار التي تورون

- كما فسرها الوسيط ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الدليل الرابع على قدرته تعالى - على البعث والنشور ، فقال - تعالى - : ( أَفَرَأَيْتُمُ النار التي تُورُونَ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ المنشئون نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِّلْمُقْوِينَ فَسَبِّحْ باسم رَبِّكَ العظيم ) .وقوله : ( تُورُونَ ) أى : توقدون ، من أورى النار إذا قدحها وأوقدها . ويقال : وَرَى الزندُ يَرِى وَرْيًا ، إذا خرجت ناره - وفعله من باب وعى - وأوراه غيره إذا استخرج النار منه .وقوله : ( لِّلْمُقْوِينَ ) ، مأخوذ من أقوى الرجل إذا دخل فى القواء ، وهو الفضاء الخالى من العمران والمراد بهم هنا المسافرون ، لأنهم فى معظم الأحيان يسلكون فى سفرهم الصحارى والفضاء من الأرض .وخصهم - سبحانه - بالذكر ، لأنهم أكثر من غيرهم انتفاعا بالنار ، وأحوج من غيرهم إليها .والمراد بشجرة النار : المرخ والعفار ، وهما شجرتان ، يقدح غصن إحدهما بغصن الأخرى فتتولد النار منهما بقدرة الله - تعالى - .ومن أمثال العرب : لكل شجر نار ، واستمجد المرخ والعفار . أى : وعلا على غيرهما المرخ والعفار لأنهما أكثر الشجر نصيبا فى استخراج النار ، فهو مثل يضرب فى تفضيل الشىء على غيره .والمعنى : وأخبرونى - أيضا - عن النار التى تقدحونها وتستخرجونها من الشجر الرطب الأخضر ، أأنتم خلقتم شجرتها ، واخترعتم أصلها ، أم نحن الخالقون لها وحدنا؟لا شك أن الجواب الذى لا جواب غيره ، أننا نحن الذين أنشأنا شجرتها لا أنتم .

اانتم انشاتم شجرتها ام نحن المنشئون

`<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html} كما فسرها الوسيط

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الدليل الرابع على قدرته - تعالى - على البعث والنشور ، فقال - تعالى - : ( أَفَرَأَيْتُمُ النار التي تُورُونَ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ المنشئون نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِّلْمُقْوِينَ فَسَبِّحْ باسم رَبِّكَ العظيم ) .وقوله : ( تُورُونَ ) أى : توقدون ، من أورى النار إذا قدحها وأوقدها . ويقال : وَرَى الزندُ يَرِى وَرْيًا ، إذا خرجت ناره - وفعله من باب وعى - وأوراه غيره إذا استخرج النار منه .وقوله : ( لِّلْمُقْوِينَ ) ، مأخوذ من أقوى الرجل إذا دخل فى القواء ، وهو الفضاء الخالى من العمران والمراد بهم هنا المسافرون ، لأنهم فى معظم الأحيان يسلكون فى سفرهم الصحارى والفضاء من الأرض .وخصهم - سبحانه - بالذكر ، لأنهم أكثر من غيرهم انتفاعا بالنار ، وأحوج من غيرهم إليها .والمراد بشجرة النار : المرخ والعفار ، وهما شجرتان ، يقدح غصن إحدهما بغصن الأخرى فتتولد النار منهما بقدرة الله - تعالى - .ومن أمثال العرب : لكل شجر نار ، واستمجد المرخ والعفار . أى : وعلا على غيرهما المرخ والعفار لأنهما أكثر الشجر نصيبا فى استخراج النار ، فهو مثل يضرب فى تفضيل الشىء على غيره .والمعنى : وأخبرونى - أيضا - عن النار التى تقدحونها وتستخرجونها من الشجر الرطب الأخضر ، أأنتم خلقتم شجرتها ، واخترعتم أصلها ، أم نحن الخالقون لها وحدنا؟لا شك أن الجواب الذى لا جواب غيره ، أننا نحن الذين أنشأنا شجرتها لا أنتم .

نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين

كما فسرها الوسيط ونحن الذين جعلناها تذكرة ، تذكر الناس بها فى دار الدنيا إذا أحسوا بشدة حرارتها ، بنار الآخرة التى هى أشد وأبقى ، حتى يقلعوا عن الأقوال والأفعال التى تؤدى بهم إلى نار الآخرة .ونحن - أيضا - الذين جعلنا هذه النار ( مَتَاعاً ) أى منفعة ( لِّلْمُقْوِينَ ) أى للمسافرين ، والذين هم فى حاجة إليها فى شئونهم المختلفة .

فسبح باسم ربك العظيم

كما فسرها الوسيط والفاء فى قوله - تعالى - : ( فَسَبِّحْ باسم رَبِّكَ العظيم ) لترتيب ما بعدها على ما قبلها .أى : وما دام الأمر كذلك ، فسبح - أيها العاقل - باسم ربك العظيم ، بأن تنزهه عن الشرك والولد ، وبأن تخلص له

العبادة والطاعة .وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة ، قد ذكرت أربعة أدلة على إمكانية البعث : الأول عن طريق خلق الإنسان . والثانى عن طريق إنبات النبات ، والثالث عن طريق إنزال الماء من السحاب : والرابع عن طريق إنشاء - الشجر الذى تستخرج منه النار .وإنها لأدلة واضحة على كمال قدرة الله - تعالى - ووحدانيته لكل عبد منيب .

فلا اقسم بمواقع النجوم

كما فسرها الوسيط وبعد أن ساق - سبحانه - هذه الأدلة المتنوعة على كمال قدرته وعلى صحة البعث . . .التفت - سبحانه - بالحديث إلى أولئك الذين وصفوا القرآن بأنه أساطير الأولين . . . فرد عليهم بما يخرس ألسنتهم ، ونعت القرآن بنعوت جليلة فقال - تعالى - : ( فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ . . . ) قال بعض العلماء : ورد القسم على هذا النحو فى القرآن الكريم كثيرا ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ( فَلاَ أُقْسِمُ بِالشفق والليل وَمَا وَسَقَ ) وقوله وقد جاء على غير هذه الصورة ( . . فَلاَ أُقْسِمُ بالخنس الجوار الكنس ) : - أى : من غير لا النافية ، ومن غير الفعل " أقسم " كما فى قوله - تعالى ، وتالله لأَكِيدَنَّ ) ( . . فَوَرَبِّ السمآء والأرض إِنَّهُ لَحَقٌّ ) : - أَصْنَامَكُمْ . . ) وتارة يكون القسم بأشياء مختلفة من خلقه - تعالى ) : - كالصافات ، والطور ، والتين ، والقرآن . والفاء فى قوله - تعالى فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النجوم ) للتفريع على ما تقدم من أدلة البعث .و عند أكثر المفسرين فى هذا التركيب وأمثاله : مزيدة للتأكيد ، كما ( لاَ ) فى قوله - تعالى - : ( لِّئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الكتاب . . ) أى ليعلم أهل الكتاب . والمعنى هنا : فأقسم بمواقع النجوم . . .قالوا : وزيادتها هنا ، جاءت جريا على سنن العرب من زيادتها قبل القسم ، كما فى قولهم :لا وأبيك ) كأنهم ينفون ما سوى المقسم عليه ، فيفيد الكلام التأكيد .ويرى بعضهم أن لاَ ) هنا : للنفى فيكون المعنى : فلا أقسم بمواقع النجوم ، لأن الأمر أوضح من أن يحتاج إلى قسم أصلا فضلا عن هذا القسم العظيم .قال الآلوسى ما ملخصه ) : - لا مزيدة للتأكيد مثلها فى قوله - تعالى ( . . . فَلاَ أُقْسِمُ ) : لِّئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الكتاب ) أو هى لام القسم - بعينها - أشبعت فتحتها فتولدت منها ألف أى : فلأقسم .وقيل إن لا هنا للنفى والرد على ما ، يقوله الكفار فى القرآن من أنه سحر ، كأنه قيل : فلا صحة لما يقولون فيه ثم استؤنف فقيل أقسم . .وقال بعضهم إن "لا " كثيرا ما يؤتى بها قبل القسم على نحو الاستفتاح ، كما فى قوله لا وأليك . .وقال أبو مسلم وجمع : إن الكلام على ظاهره المتبادر منه . والمعنة :لا أقسم إذ الأمر أوضح من أن يحتاج إلى قسم . أى :لا يحتاج إلى قسم أصلا ، فضلا عن هذا القسم العظيم والمواقع : جمع موقع ، وموقع الشىء ما يوجد فيه ، وما يسقط من مكان مرتفع. : فالمراد بمواقع النجوم : مساقطها التى تسقط فيها عند غروبها . . . وقيل. مواضعها من بروجها فى السماء ، ومنازلها منها . . وقيل : المراد مواقعها يوم القيامة عدما تنتشر وتتفرق . . وأقسم - سبحانه - بذلك ، للتنويه بشأنها ولما فيها من الدلالة على أن لهذا الكون خالقا قادرا حكيمان يسير كواكبه ، بدقة ونظام بديع ، لا اختلال معه ولا اضطراب . . إذ كل نجم من هذه النجوم المتناثرة فى الفضاء ، له مجاله الذى يغيب فيه ، وله مكانة الذى لا يصطدم فيه بغيره .قال بعض العلماء : إن هذه النجوم والكواكب ، التى تزيد على عدة بلايين نجم ، ما يمكن ريته بالعين المجردة ، وما لا يرى إلا بالمجاهر والأجهزة ، وما يمكن أن تحسن به الأجهزة ، دون أن تراه كلها تسبح فى الفلك الغامض ، ولا يوجد أى احتمال أن يقترب مجال مغناطيسى لنجم ، من مجال نجم آخر ، أو يصطدم بكوكب آخر .. .ومن العلماء من يرى أن المراد بمواقع النجوم أوقات نزول القرآن نجما نجما ، وطائفة من الآيات تلى طائفة أخرى . .قال ابن كثير : واختلفوا فى معنى قوله " بمواقع النجوم " فعن ابن عباس أنه يعنى نجوم القرآن فإنه نزل جملة ليلة القدر ، من السماء العليا إلى السماء الدنيا ، ثم نزل مفرقا بعد ذلك . . .وعن قتادة : " مواقع النجوم " منازلها وقال مجاهد : مطالعها ومشارقها . . . وعن الحسن : انتشارها يوم القيامة . . ويبدو لنا أن تفسير النجوم هنا ، بنجوم السماء هو الأرجح ، لأنه هو. . الظاهر من معنى الآية الكريمة .

وانه لقسم لو تعلمون عظيم

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ " تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ) كلام معترض بين القسم وجوابه والضمير فى " وإنه يعود إلى القسم المذكور فى قوله : ( فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النجوم ) أو يعود إلى ( بِمَوَاقِعِ النجوم ) بتأويله بمعنى المذكور . . .قال صاحب الكشاف : ( بِمَوَاقِعِ النجوم ) أى : بمساقطها ، ومغاربها . . . واستعظم ذلك بقوله : ( وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ) . . وهو ) : اعتراض فى اعتراض ، لأنه اعترض به بين المقسم والمقسم عليه ، وهو قوله

إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ) واعترض بقوله - لو تعلمون - بين الموصوف وصفته وجواب " لو " إما محذوف بالكلية لأنه لا يتعلق بذكره غرض ، إذ المقصود. . . هو نفى علمهم ، أى : أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم عظيم ، ولكنكم لا تعلمون قيمته ومنزلته .وإما أن يكون جوابها مقدرا ، فيكون المعنى : أقسم بمواقع النجوم ، وإنه لقسم عظيم لو كان عندكم علم نافع ، لعظمتموه ، ولآمنتم بما أقسمنا عليه ، ولكنكم لم تعظموه ولم تؤمنوا لجهلكم ، ولانطماس بصائركم .

انه لقران كريم

كما فسرها الوسيط والضمير فى قوله - سبحانه - : ( إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ) راجع إلى غير مذكور فى الكلام إلا أن علم المخاطبين به واستحضارهم له ، نزل منزلة ذكره . .أى : أقسم بمواقع النجوم ، إن هذا الذى يتلوه عليكم نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - لقرآن كريم . أى : رفيع القدر طاهر الأصل ، كثير المنافع ، ظاهر الفضل ، لأن الناس يجدون فيه كل ما يريدونه من سعادة وخير . .وليس أمره - كما زعمتم - من أن الشياطين تنزلت به . . . أو أنه من أساطير الأولين ،

في كتاب مكنون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ) وصف آخر للقرآن الكريم ، والمكنون : المستور والمحجوب عن أنظار الناس ، بحيث لا يعلم كنهه إلى الله - تعالى - ، والمراد بالكتاب : اللوح المحفوظ . أى : أن هذا القرآن الكريم قد جعله الله - تعالى - فى كتاب مصون من غير الملائكة المقربين ، بحيث لا يطلع عليه أحد سواهم .وقوله - سبحانه - : ( لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ المطهرون ) : صفة للكتاب الذى هو اللوح المحفوظ . أى : أن هذا القرآن قد اقتضت حكمتنا أن نجعله فى كتاب مصون بحيث لا يطلع عليه قبل نزوله . من اللوح المحفوظ ولا يمسه أحد ، إلا الملائكة المطهرون من كل ما يوجب الطهارة .وعلى هذا التفسير يكون الغرض من الآيات الكريمة ، نفى ما زعمه المشركون من أن القرآن تنزلت به الشياطين ، وإثبات أن هذا القرآن مصون فى كتاب مستور عن الأعين ، هو اللوح المحفوظ . وأن الملائكة المطهرين وحدهم الذين يطلعون على هذا القرآن من اللوح المحفوظ ، وهم وحدهم الذين ينزلون به على الرسول - صلى الله عليه وسلم - .كما قال - تعالى - : ( وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ العالمين نَزَلَ بِهِ الروح الأمين على قَلْبِكَ - لِتَكُونَ مِنَ المنذرين بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ) وكما قال سبحانه - : ( وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشياطين وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ إِنَّهُمْ عَنِ السمع لَمَعْزُولُونَ ).

لا يمسه الا المطهرون

كما فسرها الوسيط ومنهم من يرى أن قوله - تعالى - : ( لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ المطهرون ) صفة أخرى للقرآن الكريم ، فيكون المعنى : إن هذا القرآن الكريم .لا يصح أن يمسه إلا المطهرون من الناس ، عن الحدث الأصغر ، والحدث الأكبر ، فيكون المراد بالطهارة : الطهارة الشرعية . .وقد رجح العلماء الرأى الأول الذى يرى أصحابه أن قوله - تعالى - : ( لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ المطهرون ) صفة للوح المحفوظ المعبر عنه بأنه كتاب مكنون ، وأم المراد بالمطهرين : الملائكة المقربون . . .وقالوا فى تأييد ما ذهبوا إليه : إن الآيات مسوقة لتنزيه القرآن عن أن تنزل به الشياطين ، وأنه فى مكان مأمون لا يصل إليه إلا الملائكة المقربون .والآيات - أيضا - مكية ، والقرآن المكى أكثر اهتمامه كان موجها إلى إبطال شبهات المشركين ، وليس إلى الأحكام الفرعية ، التى تحدث عنها القرآن المدنى كثيرا .كذلك قالوا : إن وصف الكتاب بأنه ( مَّكْنُونٍ ) يدل على شدة الصون والستر عن الأعين ، بحيث لا تناله أيدى البشر ، وهذا لا ينطبق إلا على اللوح المحفوظ ، أما القرآن فيمسه المؤمن وغير المؤمن .قال الإمام القرطبى ما ملخصه قوله : ( لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ المطهرون ) اختلف فى معنى ( لاَّ يَمَسُّهُ ) هل هو حقيقة فى المس بالجارحة أو معنى؟ وكذلك اختلف فى ( المطهرون ) من هم؟ .فقال أنس وسعيد بن جبير :لا يمس ذلك الكتاب إلا المطهرون من الذنوب وهم الملائكة . .وقيل المراد بالكتاب : المصحف الذى بأيدينا ، وهو الأظهر ، وقد روى مالك وغيره أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان فى كتابه الذى كتبه إلى شرحبيل بن كلال . . . " ألا يمس القرآن إلا طاهر " .وقال أخت عمر لعمر عن إسلامه ( لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ المطهرون ) فقام واغتسل . ثم أخذ الصحيفة التى بيدها وفيها القرآن .ثم قال : اختلف العلماء فى مس المصحف على غيره وضوء ، : فالجمهور على المنع ..وفى مس الصبيان إياه على وجهين : أحدهما المنع اعتبارا بالبالغ والثانى الجواز ، لأنه لو منع لم يحفظ القرآن . لأن تعلمه حال الصغر ، ولأن الصبى وإن كانت له طهارة إلا أنها ليست بكاملة ، لأن

النية لا تصح منه ، فإذا جاز أن يحمله على طهارة ، جاز أن يحمله محدثا .

تنزيل من رب العالمين

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات الكريمة بقوله : ( تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ العالمين ) أى : هذا الكتاب الكريم منزل من رب العالمين ، لا ريب سواه ، ولا خالق غيره ، وبذلك يرى : أن هذه الآيات الكريمة ، قد وصف - الله - تعالى - فيها القرآن الكريم ، بجملة من الصفات الجليلة ، فقد وصفه سبحانه - بأنه كريم ، ووصفه بأنه مصون ومحفوظ من أن يمسه أحد سوى ملائكته المقربين ، وسوى عباده المطهرين من الأحداث ، ووصفه بأنه منزل من عنده لا من عند أحد سواه كما زعم أولئك الجاهلون .

افبهذا الحديث انتم مدهنون

كما فسرها الوسيط ثم تتحدث السورة فى أواخرها . بأسلوب مؤثر ، عن لحظات الموت . وعن اللحظات التى يفارق الإنسان فيها هذه الحياة ، وأحباؤه من حوله لا يملكون له نفعا . . . وعن بيان الحالة التى يكون عليها هذا المفارق لهم ) : - فتقول : ( أفبهذا الحديث . . . ) .الاستفهام فى قوله - تعالى ، أفبهذا الحديث أَنتُمْ مُّدْهِنُونَ ) للإنكار والتوبيخ . وهو داخل على مقدر .والمراد بالحديث : القرآن الكريم ، وما تضمنه من هدايات وإرشادات وتشريعات . .وقوله : ( مُّدْهِنُونَ ) من الإدهان وأصله جعل الجلد ونحوه مدهونا بشىء من الدهن ليلين ، ثم صار حقيقة عرفية فى الملاينة والمسايرة والمداراة ومنه قوله - تعالى - : ( وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ) - والمراد به هنا : تظاهر المشركين بمهادنة الرسول - صلى الله عليه وسلم وبما جاء به من قرآن كريم ، وإبداؤهم من اللين خلاف ما يبطنون من المكر والبغضاء .ويصح أن يكون الإدهان هنا : بمعنى التكذيب والنفاق ، إذ أن هذه المعانى - أيضا - تتولد عن المداهنة والمسايرة .أى : أتعرضون - أيها المشركون - عن الحق الذى جاءكم به رسولنا - صلى الله عليه وسلم - فتظهرون أمامه بمظهر المداهن والمهادن ، الذى يلين أمام خصمه ، ولا يقابله بالشدة والحزم : مع أنه فى الوقت نفسه يضمر له أشد أنواع السوء والكراهية؟إذا كان - هذا شأنكم ، فاعلموا أن تصرفكم هذا لا يخفى علينا؟!وقوله - سبحانه وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون معطوف على ما قبله من باب عطف الجملة على الجملة والكلام على حذف مضاف .والمعنى : أتعرضون عن هذا القرآن على سبل المداهنة . والملاينة ، وتجعلون شكر نعمة رزقنا لكم به . وبالمطر الذى لا حياة لكم بدونه ، أنكم تكذبون بكونهما من عند الله - تعالى فتقولون فى شأن القرآن ، أساطير الأولين ، وتقولون إذا ما أنزلنا المطر عليكم : مطرنا بسبب نوء كذا . أى : بسبب سقوط النجم فى جهة المغرب من الفجر .

وتجعلون رزقكم انكم تكذبون

كما فسرها الوسيط قال الآلوسى : قوله : ( وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ) أى : وتجعلون شكركم أنكم تكذبون ، تقولون أمطرنا بنوء كذا وكذا ، وبنجم كذا وكذا وأكثر الروايات أن قوله - تعالى - : ( وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ ) نزل فى القائلين : مطرنا بنوء كذا . . أخرج مسلم - فى صحيحه - عن ابن عباس قال : " مطر الناس على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال - صلى الله عليه وسلم - : أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر . قالوا : هذه رحمة وضعها الله وقال بعضهم : لقد صدق نوء كذا فنزلت هذه الآية : ( فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النجوم ) حتى بلغ ( وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ) " .ثم قال الإمام الآلوسى : والآية على القول بنزولها فى قائلى ذلك : ظاهرة فى كفرهم المقابل للإيمان ، فكأنهم كانوا يقولونه عن اعتقاد أن الكواكب مؤثرة حقيقة موجدة للمطر ، وهو كفر بلا ريب بخلاف قوله مع اعتقاد أنه من فضل الله - تعالى - ، وأن النوء ميقات وعلامة فإنه ليس بكفر . .وقد ذكر المفسرون هنا جملة من الأحاديث فى هذا المعنى فارجع إليها إن شئت ..

فلولا اذا بلغت الحلقوم

كما فسرها الوسيط ثم انتقلت الآيات إلى توبيخهم على أمر آخر ، وهو غفلتهم عن قدرة الله - تعالى - ووحدانيته وهم يشاهدون آثار قدرته أمام أعينهم فقال - تعالى - : ( فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الحلقوم وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ ولكن لاَّ تُبْصِرُونَ فَلَوْلاَ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ) .ولو فى الموضعين للتحضيض على التذكر والاعتبار ، ولإبراز عجزهم فى أوضح صورة ، إذ إظهار عجزهم هو المقصود هنا بالحض . .وقوله )

إِذَا بَلَغَتِ ) ظرف متعلق بقوله ( تَرْجِعُونَهَآ ) أى : تردونها ، وقد قدم عليه لتهويله ، والتشويق إلى الفعل المحضوض عليه ، وهو إرجاع الروح إلى صاحبها .والضمير فى ( بَلَغَتِ ) يعود إلى الروح ، وهى وإن كانت لم تذكر إلا أنها مفهومه من الكلام .والحلقوم : مجرى الطعام وأل فيه للعهد الجنسى .

وانتم حينئذ تنظرون

كما فسرها الوسيط وجملة : ( وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ) حال من ضمير ومفعول ( تَنظُرُونَ ) محذوف والتقدير : تنظرون وتبصرون ، ( بَلَغَتِ ) صاحب الروح وهو فى تلك الحالة العصيبة .وجملة ( تَرْجِعُونَهَآ . . ) جواب الشرطين فى قوله : ( إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ) وفى قوله : ( إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ) .

ونحن اقرب اليه منكم ولكن لا تبصرون

كما فسرها الوسيط وجملة ( وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ ) مستأنفة لتأكيد توبيخهم على جهالاتهم وعدم اعتبارهم حتى فى أوضح المواقف التى تدل على قدرة خالقهم - عز وجل - .والمعنى : إذ كنتم - أيها الجاحدون المكذبون - لم تعتبروا ولم تتعظوا بكل ما سقناه لكم من ترغيب وترهيب على لسان رسولنا محمد - صلى الله عليه وسلم - فهلا اعتبرتم واتعظتم وآمنتم بوجدانيتنا ، وقدرتنا . . . حين ترون أعز وأحب إنسان إليكم ، وقد بلغت روحه حلقومه وأوشكت على أن تفارق جسده . .( وَأَنتُمْ ) أيها المحيطون بهذا المحتضر العزيزعليكم ( حِينَئِذٍ ) أى : حين وصل الأمر به إلى تلك الحالة التى تنذر بقرب نهايته ، أنتم ( تَنظُرُونَ ) إلى ما يقاسيه من غمرات الموت ، وتبصرون ما فيه من شدة وكرب ، وتحرصون كل الحرص على انجائه مما حل به ولكن حرصكم يذهب أدراج الرياح .( وَنَحْنُ ) فى هذه الحالة وغيرها ، ( أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ ) أى : ونحن أقرب إليه منكم بعلمنا وبقدرتنا ، حيث إنكم لا تعرفون حقيقة ما هو فيه من أهوال ولا تدركون عظيم ما فيه من كرب ، ولا تقدرون على رفع شىء من قضائنا فيه وفى غيره .وقوله : ( ولكن لاَّ تُبْصِرُونَ ) استدراك للكلام السابق . أى : ونحن أقرب إلى هذا المحتضر منكم ، ولكنكم لا تدركون ذلك لجهلكم بقدرتنا النافذة ، وحكمتنا البالغة . .

فلولا ان كنتم غير مدينين

كما فسرها الوسيط ( فَلَوْلاَ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ) أى : فهلا إن كنتم غير عاجزين عن رد قضائنا فى هذا المحتضر الحبيب إليكم ، وغير مبروبين لنا ، وخاضعين لسلطاننا . . يقال : دان السلطان الرعية ، إذا ساسهم وأخضعهم لنفوذه .

ترجعونها ان كنتم صادقين

كما فسرها الوسيط هلا إن كنتم غير خاضعين لنا ( تَرْجِعُونَهَآ ) أى : ترجعون الروح إلى صاحبها ( إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ) فى اعتقادكم بأن آلهتكم تستطيع الدفاع عنكم وفى اعتقادكم أنه لا بعث ولا حساب بعد الموت ، وفى توهمكم أن هناك قوة سوى قوة الله - عز وجل - يمكنها أن تساعدكم عند الشدائد والمحن .وهكذا نجد هذه الآيات الكريمة ، تقيم أوضح الأدلة وأكثرها تأثيرا فى النفوس ، على كمال قدرة الله - تعالى - وعلى نفاذ مشيئته وإرادته فى تحدى البشر جميعا أن يعيدوا الروح إلى أحب الناس إليهم ، وهم . . واقفون من حوله وقفة الحائر المستسلم . العاجز عن فعل أى شىء من شأنه أن يدفع عن هذا المحتضر ما فيه من كرب ، أو أن يؤخر انتزاعه روحه من جسده ، ولو لزمن قليل .

فاما ان كان من المقربين

كما فسرها الوسيط ثم تمضى السورة الكريمة بعد ذلك ، فى بيان مصير هذه الروح التى توشك أن تستدبر الحياة الفانية ، وتستقبل الحياة الباقية فتقول ، ( فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ المقربين فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ) والروح : بمعنى الراحة والأمان والاطمئنان والريحان شجر طيب الرائحة .أى : فأما إن كان صاحب هذه النفس التى فارقت الدنيا ، من المقربين إلينا : السابقين بالخيرات . . . فله عندنا راحة لا تقاربها راحة ، وله رحمة واسعة وله طيب رائحة عند قبض روحه ، وعند نزوله فى قبره ، وعند وقوله بين أيدينا للحساب يوم الدين ، وله جنات ينعم فيها بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

فروح وريحان وجنت نعيم

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html}

ثم تمضى السورة الكريمة بعد ذلك ، فى بيان مصير هذه الروح ، التى توشك أن تستدبر الحياة الفانية ، وتستقبل الحياة الباقية فتقول : ( فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ المقربين فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ) .والروح : بمعنى الراحة والأمان والاطمئنان والريحان شجر طيب الرائحة .أى : فأما إن كان صاحب هذه النفس التى فارقت الدنيا ، من المقربين إلينا السابقين بالخيرات . . فله عندنا راحة لا تقاربها راحة ، وله رحمة واسعة ، وله طيب رائحة عند قبض روحه ، وعند نزوله فى قبره ، وعند وقوله بين أيدينا للحساب يوم الدين ، وله جنات ينعم فيها بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

واما ان كان من اصحاب اليمين

كما فسرها الوسيط ( وَأَمَّآ ) إن كان هذا الإنسان ( مِنْ أَصْحَابِ اليمين ) وهم الذين ثقلت موازين حسناتهم . .

فسلام لك من اصحاب اليمين

كما فسرها الوسيط ( فَسَلاَمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ اليمين ) أى : فتقول له الملائكة عند قبض روحه وفى قبره ، وفى الجنة ، سلام لك يا صاحب اليمين ، من أمثالك أصحاب اليمين .قال الآلوسى : وقوله : ( فَسَلاَمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ اليمين ) قيل هو على تقدير القول . أى : فيقال لذلك المتوفى منهم سلام لك عما يشغل القلب من جهتهم فإنهم فى خير . أى : كن فارغ البال من جهتهم فإنهم بخير .وذكر بعض الأجلة أن هذه الجملة ، كلام يفيد عظمة حالهم ، كما يقال : فلان ناهيك به ، وحسبك أنه فلان ، إشارة إلى أنه ممدوح فوق حد التفصيل .

واما ان كان من المكذبين الضالين

كما فسرها الوسيط ( وَأَمَّآ إِن كَانَ ) هذا المتوفى ( مِنَ المكذبين الضآلين ) وهم أصحاب الشمال .

فنزل من حميم

كما فسرها الوسيط ( فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ) أى : فله نزل - أى : مكان ) - مِّنْ حَمِيمٍ ) أى : من ماء قد بلغ أقصى درجات الحرارة وعبر عن المكان الذى ينزل فيه بالنزل ، على سبل التهكم ، إذا النزل فى الأصل يطلق على ما يقدم للضيف على سبل التكريم . .

وتصلية جحيم

كما فسرها الوسيط وقوله : ( وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ) أى : وله - أيضا - إدخال فى نار جهنم التى تشوى جسده وتحرقه .

ان هذا لهو حق اليقين

كما فسرها الوسيط ( إِنَّ هذا لَهُوَ حَقُّ اليقين ) أى : إن هذا الذى قصصناه عليك - أيها الرسول الكريم - فى هذه السورة وغيرها ، لهو الحق الثابت الذى لا يحوم حوله شك أو ريب .فقوله : ( حَقُّ اليقين ) من إضافة الصفة إلى الموصوف ، أى : لهو اليقين الحق . . .أو هو من إضافة الشىء إلى نفسه مع اختلاف اللفظين ، كما فى قوله - تعالى - : ( حَبْلِ الوريد ) إذ الحبل هو الوريد ، والقصد من مثل هذا التركيب التأكيد .

فسبح باسم ربك العظيم

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بقوله : ( فَسَبِّحْ باسم رَبِّكَ العظيم ) أى : إذا كان الأمر كما ذكرنا لك - أيها الرسول الكريم - فنزه ربك العظيم فى ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله ، عن كل ما لا يليق به . .

سبح لله ما في السماوات والارض وهو العزيز الحكيم

كما فسرها الوسيط افتتحت سورة " الحديد " بتنزيه الله - تعالى - عن كل مالا يليق به ، وبالثناء عليه - تعالى - بما هو أهله ، وببيان جانب من صفاته الجليلة ، الدالة على وحدانيته ، وقدرته ، وعزته ، وحكمته ، وعلمه المحيط بكل شىء .افتتحت بقوله - عز وجل - : ( سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السماوات والأرض وَهُوَ العزيز الحكيم ) .وقوله : ( سَبّحَ ) من التسبيح ، وأصله الإبعاد عن السوء ، من قولهم سبح فلان فى الماء ، إذا توغل فيه ، وسبح الفرس ، إذا جرى بعيدا وبسرعة .قالوا : وهذا الفعل ( سَبَّحَ ) قد يتعدى بنفسه ، كما فى قوله - تعالى - : ( وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ) وقد يتعدى باللام كما هنا . وهى للتأكيد والتبيين أى : سبح لله لا لغيره والمراد بالتسبيح هنا : تنزيه الله - تعالى - عن كل مالا يليق بجلاله. وكماله .والمعنى : نزه الله - تعالى - وعظمه وخضع له ، وانقاد لمشيئته ، جميع ما فى السموات والأرض من كائنات ومخلوقات . . .لا يعلمها إلا هو - سبحانه - .وقد جاء التسبيح تارة بصيغة الفعل الماضى كما فى هذه السورة ، وكما فى سورتى الحشر والصف ، وتارة بصيغة المضارع ، كما فى سورتى الجمعة والتغابن ، وتارة بصيغة الأمر كما فى سورة الأعلى ، وتارة بصيغة المصدر كما فى سورة الإسراء .جاء التسبيح بهذه الصيغ المتنوعة ، للإشعار بأن تسبيح هذه المخلوقات لله - تعالى - شامل لجميع الأوقات والأحوال .قال - تعالى - ( وَمَن فِيهِنّ وَإِن مِّن شَيْءٍ تُسَبِّحُ لَهُ السماوات السبع والأرض وَلكن لاّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ) وختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ( وَهُوَ العزيز الحكيم ) ، والعزيز : هو الغالب على كل شىء ، إذ العزة معناها : الغلبة على الغير ، ومنه قوله - تعالى - : ( وَعَزَّنِي فِي الخطاب ) أى : غلبنى فى الخصام .وفى أمثال - العرب : من عزّ بزّ ، أى : من غلب غيره تفوق عليه .والحكيم مأخوذ من الحكمة ، وهى وضع الأمور فى مواضعها اللائقة بها .أى : وهو - سبحانه - الغالب الذى لا يغلبه شىء - الحكيم الذى يضع الأمور فى مواضعها السليمة .

له ملك السماوات والارض يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير

كما فسرها الوسيط ثم ذكر - سبحانه - صفات أخرى من صفاته الجليلة فقال : ( لَهُ مُلْكُ السماوات والأرض يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ) .أى . له - سبحانه - وحده دون أن يشاركه مشارك ، ملك السموات والأرض ، إذ هو - تعالى - المتصرف فيهما ، والخالق لهما ، إن شاء أبقاهما وإن شاء أزالهما .وملكه - سبحانه - للسموات والأرض ، ملك حقيقى ، لأنه لا ينازعه فيه منازع ، ولا يشاركه مشارك . . . بخلاف ملك غيره لبعض متاع الدنيا ، فإنه ملك زائل مهما طال ، ومفتقر إلى من يحميه ويدافع عنه .وقوله : ( يُحْيِي وَيُمِيتُ ) : صفة أخرى من صفاته - عز وجل - أى : هو الخالق للحياة لمن شاء أن يحييه ، وهو الخالق للموت لمن أراد أن يميته .وهذه الجملة خبر لمبتدأ محذوف ، وهى فى الوقت نفسه بدل اشتمال مما قبلها إذ الإحياء والإماتة ، مما يشتمل عليه ملك السموات والأرض .وخص - سبحانه - هاتين الصفتين بالذكر ، لأنه هو المتفرد بهما ، ولا يستطيع أحد أن يدعى أن له عملا فيهما ، ومن ادعى ذلك كانت دعواه من قبيل المغالطة والمجادلة بالباطل ، إذ الموجد الحقيقى لهما هو الله - عز وجل - وما سواه فهو سبب لهما .وقوله - تعالى - : ( وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ) تذييل مؤكد لما قبله . أى : وهو - سبحانه - على كل شىء من الأشياء التى من جملتها ما ذكر - قدير على إيجادها أو إعدامها .

هو الاول والاخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم

كما فسرها الوسيط ثم ذكر - سبحانه - صفات أخرى من صفاته الجليلة فقال : ( هُوَ الأول والآخر والظاهر والباطن وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ) .أى : هو - سبحانه - الأول والسابق على جميع الموجودات ، إذ هو موجدها ومحدثها إبتداء . فهو موجود قبل كل شىء وجودا لا حد ولا وقت لبدايته .( والآخر ) أى الباقى بعد هلاك وفناء جميع الموجودات ، كما قال - تعالى - : ( كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاّ وَجْهَهُ ) وأوثر لفظ ( الآخر ) على لفظ الباقى ليتم الطباق بين الوصفين المتقابلين .وهو ( الظاهر ) أى : الظاهر وجوده عن طريق مخلوقاته التى أوجدها بقدرته إذ من المعروف عند كل عاقل أن كل مخلوق لا بد له من خالق ، وكل موجود لا بد له من موجد .فلفظ ( الظاهر ) مشتق من الظهور الذى هو ضد الخفاء ، والمراد به هنا ظهور الأدلة العقلية والنقلية على وجوده ووحدانيته وقدرته وعلمه .ويجوز أن يكون مشتقا من الظهور ، بمعنى الغلبة والعلو على الغير ، كما فى قوله - تعالى - : ( إِنّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلّتِهِمْ .

وعليه يكون المعنى : وهو الغالب العالى على كل شىء .وهو ( والباطن ) من ( .
البطون بمعنى الخفاء والاستتار ، أى : وهو - سبحانه - المحتجب بكنه ذاته عن
) - أن تدركه الأبصار ، أو أن تحيط بحقيقة ذاته العقول ، كما قال - تعالى
( لاَّ تُدْرِكُهُ الأبصار وَهُوَ يُدْرِكُ الأبصار وَهُوَ اللطيف الخبير
ويصح أن يكون ( الباطن ) بمعنى العالم بما بطن وخفى من الأمور يقال : فلان
- أبطن بهذا الأمر من غيره ، أى : أعلم بهذا الشىء من غيره .ثم ختم
- سبحانه - الآية بقوله : ( وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ) أى : وهو
سبحانه - عليم بكل ما فى هذا الكون ، لا تخفى عليه خافية من شئونه ، كما
قال - تعالى - : ( إِنَّ الله لاَ يخفى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأرض وَلاَ
فِي السمآء ) قال ابن كثير : وهذه الآية هى المشار إليها فى حديث عرباض بن
معاوية أنها أفضل من ألف آية .وقد اختلفت عبارات المفسرين فى هذه الآية على
نحو بضعة عشر قولا وقال البخارى : قال يحيى : الظاهر على كل شىء علما
- والباطن على كل شىء علما .وروى الإمام مسلم - فى صحيحه - ، والإمام أحمد
فى مسنده - عن أبى هريرة " أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يدعو
عند النوم فيقول : " اللهم فاطر السموات ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل
شىء ، منزل التوراة والإنجيل والقرآن ، فالق الحب والنوى ، لا إله إلا أنت
أعوذ بك من شر كل شىء أنت آخذ بناصيته ، أنت الأول فليس قبلك شىء ، وأنت ،
الآخر فليس بعدك شىء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شىء ، وأنت الباطن فليس دونك
شىء . اقض عنا لادين ، وأغننا من الفقر . . " " .

هو الذي خلق السماوات والارض في ستة ايام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج
في الارض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم اين ما
كنتم والله بما تعملون بصير

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - ألوانا اخرى من الأدلة التى تدل على
وحدانيته وقدرته فقال : ( هُوَ الذي خَلَقَ السماوات والأرض فِي سِتَّةِ
أَيَّامٍ ثُمَّ استوى عَلَى العرش ) .والأيام : جمع يوم ، واليوم فى اللغة
مطلق الوقت ، أى : فى ستة أوقات لا يعلم مقدارها إلا الله - تعالى - . وقيل
، هذه الأيام من أيام الدنيا .والاستواء فى اللغة : يطلق على الاستقرار :
- كما فى قوله - تعالى - : ( واستوت عَلَى الجودي ) أى استقرت سفينة نوح
، عليه السلام - عند ذلك الجيل المسمى بذلك الاسم . كما يطلق بمعنى القصد
ومنه قولهم : استوى إلىَّ يخاصمتى ، أى : قصد لى . كما يطلق بمعنى
الاستيلاء والقهر ، ومنه قول الشاعر :قد استوى بشر على العراق ... وعرش
الله ، مما لا يعلمه البشر إلا بالاسم أما حقيقته وكيفيته فلا يعلمها إلى
الله - تعالى - .وقد ذكر العرش فى إحدى وعشرين آية من القرآن الكريم ، كما
ذكر الاستواء على العرش فى سبع آيات .أى : هو - سبحانه - الذى خلق السموات
. - والأرض فى ستة أوقات ، ثم استوى على العرش ، استواء يليق به - تعالى
بلا كيف ، ولا تمثيل ، ولا تشبيه ، لاستحالة اتصافه - تعالى : بصفات
المحدثين ، ولوجوب تنزيهه عما لا يليق به ( لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ
، وَهُوَ السميع البصير ) قال الإمام مالك - رحمه الله - الكيف غير معقول
- والاستواء غير مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .ثم بين
سبحانه - شمول علمه فقال : ( يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأرض وَمَا يَخْرُجُ
) : مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السماء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ) .وقوله
يَلِجُ ) من الولوج بمعنى الدخول ، يقال : ولج فلان بيته ، إذا دخله .وقوله
من العروج وهو الذهاب فى صعود ، والسماء ، جهة العلو مطلقا ( يَعْرُجُ ) :
أى أنه - سبحانه - يعلم ما يلج فى الأرض ، وما يدخل فيها من ماء نازل من.
السماء ، ومن جواهر وكنوز قد طويت فى باطنها ، ومن بذور ومعادن فى طياتها
ويعلم - أيضا - ( وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ) من نبات وحبوب وكنوز ، وغير.
ذلك من أنواع الخيرات ، ويعلم - كذلك - ( مَا يَنزِلُ مِنَ السمآء ) من
أمطار ، وثلوج ، وبرد ، وصواعق ، وبركات ، من عنده - تعالى - لأهل الأرض
ويعلم - أيضا - ما يصعد فيها من الملائكة ، ومن الأعمال الصالحة ، كما.
قال - تعالى - ( إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكلم الطيب والعمل الصالح يَرْفَعُهُ )
وعدى العروج بحرف فى ، لتضمنه معنى الاستقرار ، وهو فى الأصل يعدى بحرف إلى
كما فى قوله - تعالى - : ( تَعْرُجُ الملائكة والروح إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ ،
كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ) وقوله - سبحانه - : ( وَهُوَ
مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ) أى : وهو معكم بعلمه ولطفه ورحمته . . أينما
كنتم وحيثما وجدتم .قال الآلوسى : قوله - تعالى - : وهو معكم أينما كنتم
تمثيل لإحاطة علمه - تعالى - بهم ، وتصوير خروجهم عنه أينما كانوا ، وقيل
المعية مجاز مرسل عن العلم بعلاقة السببية والقرينة السياق واللحاق مع
استحالة الحقيقة .وقد أول السلف هذه الاية بذلك ، أخرج البيهقى فى الأسماء
- والصفات عن ابن عباس أنه قال فيها : عالم بكم أينما كنتم .وأخرج - أيضا
عن سفيان الثورى أنه سئل عنها فقال : علمه معكم .وفى البحر : أنه اجمعت
الأمة على هذا التأويل فيها ، وأنها لا تحمل على ظاهرها من المعية بالذات
ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ( والله بِمَا تَعْمَلُونَ.

. بَصِيرٌ ) أى : والله - تعالى -لا يخفى عليه شىء من أقوالكم أو أفعالكم
. بل هو مطلع عليكم اطلاعا تاما . .

له ملك السماوات والارض والى الله ترجع الامور

كما فسرها الوسيط ثم أكد - سبحانه - كمال قدرته فقال ( لَّهُ مُلْكُ
. السماوات والأرض ) أى : له - سبحانه - التصرف الكلى فى السموات والأرض
). وفيما فيهما من موجودات ، من حيث الإيجاد والإعدام وسائر التصرفات
وَإِلَى الله تُرْجَعُ الأمور ) أى : وإلى الله - تعالى - وحده لا إلى غيره
مرد الأمور كلها ، والحكم عليها ، والتصرف فيها . . وليس إلى أحد غيره لا ،
. على سبيل الاستقلال ، ولا على سبيل الاشتراك

يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وهو عليم بذات الصدور

كما فسرها الوسيط ( يُولِجُ الليل فِي النهار وَيُولِجُ النهار فِي الليل )
أى : يدخل - سبحانه - طائفة من الليل فى النهار ، فيقصر الليل ويزيد النهار
ويدخل طائفة من النهار فى الليل ، فيقصر النهار ، ويزيد الليل ، ثم يسيران
على هذا النظام البديع ، دون أن يسبق أحدهما الآخر .( وَهُوَ عَلِيمٌ
- بِذَاتِ الصدور ) و " ذات " هنا مؤنث ذو بمعنى صاحب .أى : وهو - سبحانه
عليم عِلماً تاما بمكنونات الصدور ، وما تضمره من خير أو شر وما يتردد فيها
، من خواطر وأفكار .والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة من أول السورة إلى هنا
يراها قد اشتملت على بضع عشرة صفة ، من صفات الله عز وجل - الدالة على وجوب
. إخلاص العبادة له ، والنقياد لأمره ونهيه

امنوا بالله ورسوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين امنوا منكم
وانفقوا لهم اجر كبير

كما فسرها الوسيط ثم دعا - سبحانه - عباده المؤمنين إلى التمسك بهذا
- الإيمان ، وإلى تنفيذ تكاليفه ، ووعدهم على ذلك بأجزل الثواب ، فقال
) : - تعالى - : ( آمِنُواْ بالله . . . ) .الخطاب فى قوله - تعالى
آمِنُواْ بالله وَرَسُولِهِ ) إلى الناس جميعا ويدخل فيه المؤمنون دخولا
أوليا ، ويكون المقصود بدعوتهم إلى الإيمان المداومة عليه والتمسك بتعاليمه
وتنفيذ توجيهاته . . كما قال - تعالى - : ( يَا أَيُّهَا الذين ،
آمَنُواْ آمِنُواْ بِالله وَرَسُولِهِ والكتاب الذي نَزَّلَ على رَسُولِهِ
والكتاب الذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ ) وقوله : ( وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم
) : مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ) بيان لما يقتضيه هذا الإيمان .وقوله
، مُّسْتَخْلَفِينَ ) اسم مفعول من الاستخلاف ، بمعنى أن يخلف الإنسان غيره
- أو أن يخلفه غيره من بعده .أى : آمنوا - أيها الناس - بالله - تعالى
، وبرسوله - صلى الله عليه وسلم - إيمانا حقا ، وإن من مقتضيات هذا الإيمان
أن تنفقوا من أموالكم فى وجوه الخير ، فإن هذه الأموال هى عارية فى أيديكم
فقد ورثتموها من غيركم ، وغيركم سيرثها عنكم ، وهى فى جميع الأحوال ملك ،
لله - تعالى - وحده على الحقيقة .قال القرطبى : قوله : ( وَأَنفِقُواْ
- مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ) دليل على أن أصل الملك لله
سبحانه - وأن العبد ليس له فيه إلا التصرف الذى يرضى الله فيثيبه على ذلك
بالجنة ، فمن أنفق منا فى حقوق الله ، وهان عليه الإنفاق منها ، كما يهون
على الرجل النفقة من مال غيره إذا أذن له فيه ، كان له الأجر الجزيل .وقال
الحسن : مستخلفين فيه : ورثتكم إياه عمن كان قبلكم .وهذا يدل على أنها ليست
بأموالكم فى الحقيقة ، وما أنتم إلا بمنزلة النواب والوكلاء ، فاغتنموا
- الفرصة فيها بإقامة الحق ، قبل أن تزال عنكم إلى من بعدكم .ثم بين
سبحانه - ما أعده لهؤلاء المنفقين فقال : ( فالذين آمَنُواْ مِنكُمْ )
) - إيمانا حقا . . ( وَأَنفَقُواْ ) أموالهم فيما يرضى الله - تعالى
- لَهُمْ ) منه - عز وجل - ( أَجْرٌ كَبِيرٌ )لا يعلم مقداره إلا الله
. - تعالى

وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد اخذ ميثاقكم ان
كنتم مؤمنين

كما فسرها الوسيط ثم رغبهم - سبحانه - فِي الثبات على الإيمان بالله ورسوله
فقال : ( وَمَا لَكُمْ لاَ تُؤْمِنُونَ بالله والرسول يَدْعُوكُمْ
لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُمْ
مُّؤْمِنِينَ ) .أى : وأى مانع يمنعكم من الثبات على الإيمان . ومن القيام
بتكاليفه ، ومن إخلاص العبادة له - تعالى - وحده ، والحال أن الرسول - صلى
- الله عليه وسلم - بينكم صباح مساء ، يدعوكم إلى الإيمان بربكم ، وقد أخذ
سبحانه - عليكم العهود والمواثيق على هذا الإيمان ، عن طريق ما ركب فيكم من

عقول تعقل ، وعن طريق ما نصب لكم من أدلة متنوعة كلها تدل على وجوب إخلاص
: العبادة لله الواحد القهار .قال : الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية
، أى : وأى شىء يمنعكم من الإيمان ، والرسول بين أظهركم يدعوكم إلى ذلك
ويبين لكم الحجج والبراهين على صحة ما جاءكم به .وقد روينا فى الحديث من
طرق ، فى أوائل شرح كتاب الإيمان من صحيح البخارى ، " أن رسول الله - صلى
" الله عليه وسلم - قال يوما لأصحابه : " أى المؤمنين أعجب إليكم إيمانا؟
: قالوا : الملائكة .قال : " وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم؟ " قالوا
، فالأنبياء قال : " ومالهم لا يؤمنون والوحى ينزل عليهم " قالوا : فنحن
قال : " فما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم؟ ولكن أعجب المؤمنين إيمانا قوم
) : - يجيئون بعدكم ، يجدون صحفا يؤمنون بما فيها " " .وقوله - تعالى
وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ ) كما قال - تعالى - : ( واذكروا نِعْمَةَ الله
عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الذي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا
وَأَطَعْنَا . . ) ويعنى بذلك بيعة الرسول - صلى الله عليه وسلم - .وزعم
ابن جرير : أن المراد بذلك : الميثاق الذى أخذ عليهم فى صلب آدم .وجواب
الشرط فى قوله - تعالى - : ( إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ) محذوف لدلالة ما
قبله عليه .أى : إن كنتم مؤمنين لسبب من الأسباب ، فعلى رأس هذه الأسباب
وجود الرسول - صلى الله عليه وسلم - بينكم يدعوكم إلى هذا الإيمان ويقنعكم
. بوجوب الاعتصام به

هو الذي ينزل على عبده ايات بينات ليخرجكم من الظلمات الى النور وان الله
بكم لرءوف رحيم

كما فسرها الوسيط ثم ذكر - سبحانه - جانبا من مظاهر فضله على نبيه - صلى
الله عليه وسلم - وعليهم فقال : ( هُوَ الذِي يُنَزِّلُ على عَبْدِهِ آيَاتٍ
بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُمْ مِّنَ الظلمات إِلَى النور وَإِنّ الله بِكُمْ
: لَرَءُوفٌ رّحِيمٌ ) .والرءوف : مبالغة فى الاتصاف بالرأفة ، ومعناها
كراهية إصابة الغير بما يضره أو يؤذيه .والرحيم : مبالغة فى الاتصاف بصفة
- الرحمة . ومعناه : محبة إيصال الخير والنفع إلى الغير .أى : هو - سبحانه
وحده الذى ينزل على عبده ورسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - ( آيَاتٍ
بَيِّنَاتٍ ) أى : حججا واضحات ، ودلائل باهرات ، لكى يخرجكم من ظلمات
الكفر والجهل ، إلى نور الإيمان والعلم .وإن الله - تعالى - بكم - أيها
الناس - لكثير الرأفة والرحمة ، حيث أنزل إليكم كتابه ، وأرسل إليكم
. - رسوله - صلى الله عليه وسلم

وما لكم الا تنفقوا في سبيل الله ولله ميراث السماوات والارض لا يستوي منكم
من انفق من قبل الفتح وقاتل اولئك اعظم درجة من الذين انفقوا من بعد
وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير

كما فسرها الوسيط وكما حضهم - سبحانه - على الثبات على الإيمان . . . حضهم
أيضاً مرة أخرى على الإنفاق فى سبيله بأبلغ أسلوب ، فقال : ( وَمَا لَكُمْ
( ألاّ تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ الله وَلِلّهِ مِيرَاثُ السماوات والأرض
والاستفهام فى قوله تعالى : ( وَمَا لَكُمْ ألاّ تُنفِقُواْ . . ).
للتعجيب من حال من يمسك عن الإنفاق فى سبيل الله ، مع أن كل المقتضيات
تدعوه إلى هذا الإنفاق . والكلام فى قوله - تعالى - : ( وَلِلّهِ مِيرَاثُ
السماوات والأرض ) على حذف مضاف ، والجملة حال من فاعل ( تُنفِقُواْ ) ، أو
من مفعوله المعلوم مما تقدم .وإضافة ميراث إلى السموات والأرض ، من إضافة
المصدر إلى المفعول أى : وأى سبب يحملكم على البخل وعدم الإنفاق فى سبيل
إعلاء كلمة الله ، والحال أن لله - تعالى - ميراث أهل السموات وأهل الأرض
إنه لا عذر لكم فى الشح والإمساك بعد أن بينت لكم ما بينت من وجوب الإنفاق.
فى سبيل الله .قال الآلوسى : قوله : ( وَلِلّهِ مِيرَاثُ السماوات والأرض
أى : يرث كل شىء فيهما ، ولا يبقى لأحد مال ، على أن ميراثهما مجاز أو (
كناية عن ميراث ما فيهما ، لأن أخذ الظرف يلزمه أخذ المظروف . وجوز أن يراد
يرثهما وما فيهما ، واختير الأول ، لأنه يكفى لتوبيخهم ، إذ لا علاقة :
لأخذ السموات والأرض هنا . . . والجملة مؤكدة للتوبيخ ، فإن ترك الإنفاق
بغير سبب قبيح منكر ، ومع تحقيق ما يوجب الإنفاق أشد فى القبح ، وأدخل فى
الإنكار .ثم قال - تعالى - : ( لاَ يَسْتَوِي مِنكُم مّنْ أَنفَقَ مِن
قَبْلِ الفتح وَقَاتَلَ أُولئك أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الذين أَنفَقُواْ
: مِن بَعْدُ وَقَاتَلُواْ ) .والمراد بمن أنفق من قبل الفتح وقاتل
السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، الذين أنفقوا الكثير من أموالهم
قبل فتح مكة . . . وقيل : المراد بالفتح : صلح الحديبية .وإنما كان الذين ،
أنفقوا وقاتلوا قبل هذا الوقت ، أعظم درجة ممن فعل ذلك بعد هذا الوقت ، لأن
الأيام التى سبقت الفتح تعرض المسلمون خلالها لكثير من المصائب والخوف
، والجوع ونقص الثمرات . . فكان الإنفاق والجهاد فيها أشق على النفس
والثواب على قدر المشقة .أى :لا يستوى منكم - أيها المؤمنون - فى الفضيلة

والدرجة من أنفق الكثير من ماله ، من قبل أن تفتح مكة ، وجاهد فى سبيل الله - تعالى - جهادا كبيرا ، أولئك الذين فعلوا ذلك ، أعظم درجة ومنزلة من الذين انفقوا وقاتلوا بعد أن فتحت مكة .فالجملة الكريمة بيان لتفاوت الدرجات ، على حسب تفاوت الأحوال والأعمال ، وعطف - سبحانه - القتال فى قوله ( وَقَاتَلُواْ ) على الإنفاق فى قوله : ( أَنفَقُواْ ) للإشعار بشدة ارتباطهما ، وأنه لا غنى لأحدهما عن الآخر .قال القرطبى : أكثر المفسرين . . على أن المراد بالفتح : فتح مكة . وقال الشعبى والزهرى : فتح الحديبية وفى الكلام حذف . أى :لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، ومن . أنفق من بعد الفتح وقاتل ، فحذف لدلالة الكلام عليه .وإنما كانت النفقة قبل الفتح أعظم ، لأن حاجة الناس كانت أكثر لضعف الإسلام ، وفعل ذلك كان على المنفقين حينئذ أشق ، والأجر على قدر النصب .وقوله - تعالى - : ( مِّنْ أَنفَقَ . . ) عام يشمل جميع من بذل ماله قبل الفتح فى سبيل الله .وقيل : المراد به أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - لأنه أول من أسلم ، وأول من أنفق .وقوله - عز وجل - : ( وَكُلاًّ وَعَدَ الله الحسنى ) مدح للفريقين ، ودفع للتوهم من أن يظن ظان أن الفريق الثانى وهو الذى أنفق من بعد الفتح وقاتل ، محروم من الأجر .أى : وكلا الفريقين وعده الله - تعالى - المثوبة الحسنى وهى الجنة ، إلا أن الذين انفقوا من قبل الفتح وقاتلوا ، أعظم درجة من الذين أنفقوا وقاتلوا بعد ذلك .فهذه الآية أصل فى تفاضل أهل الفضل فيما بينهم ، وأن الفضل ثابت لهم جميعا إلا أنهم تفاوتوا على حسب أعمالهم وجهادهم وسبقهم .ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ( والله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ) أى : أنه - تعالى -لا تخفى عليه خافية من أعمالكم الظاهرة أو الباطنة فأخلصوا أقوالكم وأفعالكم لله - تعالى - لتنالوا أجره وثوابه .وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية جملة من الأحاديث التى تدل على فضل الصحابة - رضوان الله عليهم - ومنها ما جاء فى الحديث الصحيح " أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . قال : " لا تسبوا أصحابى ، فوالذى نفسى بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه " .

من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له وله اجر كريم

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات الكريمة ، بتحريض اشد وأقوى على الإنفاق فى وجوه الخير ، فقال - تعالى - : ( مَّن ذَا الذي يُقْرِضُ الله قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ) .قال : القرطبى : القرض : اسم لكل ما يلتمس عليه الجزاء ، وأقرض فلان فلانا ، أى أعطاه ما يتجازاه واستقرضت من فلان أى : طلبت منه القرض فأقرضنى ، واقترضت منه أى : أخذت منه القرض . وأصل الكلمة : القطع . ومنه المقراض ، وأقرضته ، أى : قطعت له من مالى قطعة يجازى عليها .ثم قال : والتعبير بالقرض فى هذه الآية ، إنما هو تأنيس وتقريب للناس بما يفهمونه ، والله هو الغنى الحميد ، لكنه - تعالى - شبه عطاء المؤمن فى الدنيا بما يرجو به ثوابه فى الآخرة بالقرض ، كما شبه إعطاء النفوس والأموال فى أخذ الجنة بالبيع والشراء " والقرض الحسن : هو الإنفاق من المال الحلال ، مع صدق النية ، دون رياء أو سمعة . أو منّ أو أذى مع تحرى أوسط الأموال .والاستفهام : للحض على البذل والعطاء ، والتحريض على التحلى بمكارم الأخلاق .و ( مَّن ) اسم استفهام ، مبتدأ ، و ( ذَا ) اسم إشارة خبره ، و ( الذي ) وصلته صفة لاسم الإشارة أو بدل منه .والمعنى : من هذا المؤمن القوى الإيمان ، الذى يقدم ماله فى الجهاد من أجل إعلاء كلمة الله ، وفى غير ذلك من وجوه الخير كمعاونة المختاجين ، وسد حاجة البائسين . . . ( فَيُضَاعِفَهُ لَهُ ) أى : فيعطيه - سبحانه - أجره على إنفاقه أضعافا مضاعفة .(وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ) ، أى : ولهذا المنفق - فضلا عن كل ذلك - أجر كريم عند خالقه ، لا يعلم مقداره إلا هو - تعالى - .فأنت ترى أن هذه الآية الكريمة ، قد اشتملت على ألوان من الحض على الإنفاق فى وجوه الخير .ومن ذلك التعبير بالاستفهام فى ذاته ، لأنه للتنبيه وبعث النفوس إلى التدبر والاستجابة .ومن ذلك - أيضا - التعبير بقوله : ( مَّن ذَا الذي ) . . إذ لا يستفهم بتلك الطريقة إلا إذا كان المقام ذا شأن وخطر ، وكأن المخاطب لعظم شأنه ، من شأنه أن يشار إليه ، وأن يجمع له بين اسم الإشارة وبين الاسم الموصول .ومن ذلك تسميته ما يبذله الباذل قرضا ، ولمن هذا القرض؟ إنه لله الذى له خزائن السموات والأرض فكأنه - تعالى - يقول : أقرضونى مما أعطيتكم ، وسأضاعف لكم هذا القرض أضعافا مضاعفة ، يوم القيامة ( يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً ) ومن ذلك إخفاء مرات المضاعفة ، وضم الأجر الكريم إليها .ومن ذلك التعبير عن الإنفاق بالقرض ، إذ القرض معناه : إخراج المال وانتظار ما يقابله من بدل .والخلاصة أن هذه الآية وما قبلها ، فيها ما . فيها من الدعوة إلى الإنفاق فى وجوه الخير ، وإلى الجهاد فى سبيل الله .

يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين ايديهم وبايمانهم بشراكم اليوم

جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم

، كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما أعده للمؤمنين الصادقين من ثواب
- وساق جانبا مما يدور بينهم وبين المنافقين من محاورات . . . فقال - تعالى
قوله - تعالى - ( يَوْمَ تَرَى . . . يَوْمَ تَرَى المؤمنين ) :
المؤمنين ) منصوب بفعل مقدر ، والرؤية بصرية ، والخطاب لكل من يصلح له
والمعنى : واذكر - أيها العاقل - لتتعظ ولتعتبر ، يوم تبصر المؤمنين.
. والمؤمنات ( يسعى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم )
والأيمان : جميع يمين . والمراد جهة اليمين .أى : يتحرك نورهم معهم من
: أمامهم ، ومن جهة يمينهم ، على سبيل التشريف والتكريم لهم .قال ابن كثير
يقول - تعالى - مخبرا عن المؤمنين المتصدقين ، أنهم يوم القيامة ، يسعى
نورهم بين أيديهم فى عرصات القيامة بحسب أعمالهم ، كما قال عبد الله بن
مسعود : يؤتون نورهم على قدر أعمالهم ، ويمرون على الصراط ، منهم من نوره
مثل الجبل ، ومنهم من نوره مثل النخلة ، ومنهم من نوره مثل الرجل القائم
وعطف - سبحانه - ( المؤمنات ) على ( المؤمنين ) للتنبيه على أن كلا من.
الذكر والأنثى . له أجره على عمله الصالح ، بدون إجحاف أو محاباة لجنس على
جنس ، كما قال - تعالى - : ( مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أنثى
وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ
) : أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ) والباء فى قوله
وَبِأَيْمَانِهِم ) بمعنى عن . واقتصر على ذكر الإيمان على سبيل التشريف
) : لتلك الجهة ، والمراد أن نورهم يحيط بهم من جميع جوانبهم .وقوله
بُشْرَاكُمُ اليوم جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار خَالِدِينَ
فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الفوز العظيم ) مقول لقول محذوف .وقوله : تقول لهم
الملائكة على سبيل التكريم والتحية : نبشركم اليوم بجنات عظيمة . تجرى من
تحت ثمارها وأشجارها الأنهار العذبة ، حالة كونكم خالدين فيها خلودا أبديا
وذلك الذى أنتم فيه من نور يسعى بين أيديكم ، ومن جنات أنتم خالدون فيها ،
. هو الفوز العظيم ، الذى لا يعادله فوز أو فلاح . . .

يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين امنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل
ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة
وظاهره من قبله العذاب

كما فسرها الوسيط وقوله - عز وجل - : ( يَوْمَ يَقُولُ المنافقون
والمنافقات ) بدل من قوله - تعالى - ( يَوْمَ تَرَى المؤمنين والمؤمنات )
أى : واذكر - أيها العاقل - أيضا - يوم يقول المنافقون والمنافقات ، الذين.
أظهروا الإسلام ، وأبطنوا الكفر ، يقولون للذين آمنوا ، على سبيل التذلل
والتحسر .( انظرونا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ) أى انتظرونا وتريثوا فى
سيركم لكى نلحق بكم ، فنستنير بنوركم الذى حرمنا منه ، وننتفع بالاقتباس من
: نوركم الذى أكرمكم الله - تعالى - به .قال الآلوسى : ( انظرونا ) أى
، انتظرونا ( نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ) نصب منه ، وذلك بأن يلحقوا بهم
فيستنيروا به . . واصل الاقتباس طلب القبس ، أى الجذوة من النار .وقولهم
للمؤمنين ذلك ، لأنهم فى ظلمة لا يدرون كيف يمشون فيها . وروى أن ذلك يكون
على الصراط .وقوله - سبحانه - ( قِيلَ ارجعوا وَرَآءَكُمْ فالتمسوا نُوراً
حكاية لما يرد به عليهم المؤمنون ، أو الملائكة .أى : قال المؤمنون فى (
ردهم على هؤلاء المنافقين : ارجعوا وراءكم حيث الموقف الذى كنا واقفين فيه
فالتمسوا منه النور ، أو ارجعوا إلى الدنيا فالتمسوا نوراً ، عن طريق تحصيل
سببه وهو الإيمان ، أو ارجعوا خائبين فلا نور لكم عندنا .وهذا القول من
: المؤمنين لهم ، على سبيل التهكم بهم ، إذا لا نور وراء المنافقين .وقوله
- تأكيد لمعنى ( ارجعوا ) إذ الرجوع يستلزم الوراء .ثم بين ( وَرَآءَكُمْ )
سبحانه - ما حدث للمنافقين بعد ذلك فقال : ( فالتمسوا نُوراً فَضُرِبَ
بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرحمة وَظَاهِرُهُ مِن
، قِبَلِهِ العذاب ) .أى : فضرب بين المؤمنين وبين المنافقين بحاجز عظيم
هذا الحاجز العظيم ، والسور الكبير ( لَّهُ بَابٌ ) باطن هذا الباب مما يلى
المؤمنين ( فِيهِ الرحمة ) أى : فيه الجنة ، وظاهر هذا الباب مما يلى
: المنافقين ( مِن قِبَلِهِ العذاب ) .أى : بأنى من جهته العذاب . قالوا
) : - وهذا السور ، هو الحجاب المذكور فى سورة الأعراف فى قوله - تعالى
وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأعراف رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ
بِسِيمَاهُمْ ) والمقصود بهذه الآية الكريمة ، بيان أن المؤمنين فى مكان
آمن تحيط به الجنة ، أما المنافقون ففى مكان مظلم يؤدى بهم إلى النار وبئس
. القرار

ينادونهم الم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم انفسكم وتربصتم وارتبتم
وغرتكم الاماني حتى جاء امر الله وغركم بالله الغرور

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - أن المنافقين لم يكتفوا بهذا الرجاء للمؤمنين ، بل أخذوا ينادونهم فى تحسر وتذلل فيقولون لهم - كما حكى القرآن عنهم - : ( يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ) .أى : ينادى المنافقون ، المؤمنين نداء كله حسرة وندامة ، فيقولون لهم : ألم نكن معكم فى الدنيا نصلى كما تصلون ، وننطق بالشهادتين كما تنطقون؟( قَالُواْ بلى ) اى : قال المؤمنون للمنافقين : بل كنتم معنا فى الدنيا تنطقون بالشهادتين .( ولكنكم فى الدنيا ( فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ ) أى : أظللتم أنفسكم بالنفاق الذى هو ( ، كفر باطن ، وإسلام ظاهر .( وَتَرَبّصْتُمْ ) والتربص : الانتظار والترقب أى : وانتظرتم وقوع المصائب بالمؤمنين .( وارتبتم ) أى : وشككتم فى الحق الذى جاءكم به الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأعرضتم عنه .( وَغرّتْكُمُ . الأماني ) والأمانى : جمع أمنية ، وهى ما يمنون به أنفسهم من الباطل كزعمهم أنهم مصلحون ، وأنهم على الحق ، وأن المسلمين على الباطل .( حتى ، جَآءَ أَمْرُ الله ) أى : بقيتم على الفتنة ، والارتياب ، والتربص ).والاغترار بالباطل ، حتى جاءكم أمر الله ، وهو قضاؤه فيكم بالموت وَغَرّكُم بالله الغرور ) أى : وخدعكم فى سعة رحمة الله الشيطان . فأطمعكم بأنكم ستنجون من عقابه - تعالى - مهما فتنتم أنفسكم وتربصتم بالمؤمنين ، وارتبتم فى كون الإسلام حق .وها أنتم الآن ترون سوء عاقبة نفاقكم . وإصراركم على كفركم

فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا ماواكم النار هي مولاكم وبئس المصير

) كما فسرها الوسيط ( فاليوم لاَ يُؤْخَذُ مِنكُمْ ) أيها المنافقون فِدْيَةٌ ) وهى ما يبذل من أجل افتداء النفس من العذاب .( وَلاَ مِنَ الذين ).كَفَرُواْ ) أى : ولا يؤخذ - أيضا - من الذين كفروا ظاهرا وباطنا فداء مَأْوَاكُمُ ) جميعا ( النار ) . أى : المكان الذى تستقرون فيه ، هو النار أى : هذه النار هى أولى بكم من غيرها .والأصل هى ( هِيَ مَوْلاَكُمْ ). مكانكم الذى يقال فيه أولى بكم .ويجوز أن يكون المعنى : هذه النار : هى . . ناصركم ، من باب التهكم بهم ، على حد قول الشاعر : تحية بينهم ضرب وجيع ، أى :لا ناصر لكم إلا النار .والمراد نفى الناصر لهم على سبيل القطع . بعد نفى أخذ الفدية منهم .قال صاحب الكشاف : قوله : ( هِيَ مَوْلاَكُمْ ) قيل : هى أولى بكم . . . وحقيقة مولاكم ، أى : مكانكم الذى يقال فيه هو أولى بكم كما قيل هو مئنة للكرم ، أى مكان لقول القائل إنه لكريم .ويجوز أن يراد : هى ناصركم . أى ، لا ناصر لكم غيرها . والمراد : نفى الناصر على - البتات ، ونحوه قولهم أصيب فلان بكذا فاستنصر بالجزع . ومنه قوله - تعالى وقيل : هى مولاكم ، أى ( وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كالمهل ) تتولاكم كما توليتم فى الدنيا أعمال أهل النار .وعطف - سبحانه - الذين كفروا على المنافقين فى عدم قبول الفدية ، لاتحادهم فى التكذيب بيوم الدين وفى الاستهزاء بالحق الذى جاءهم من عند الله - تعالى - .والمخصوص بالذم ، فى قوله - تعالى - : ( وَبِئْسَ المصير ) محذوف والتقدير : وبئس المصير جهنم التى هى المكان الذى تصيرون إليه .فأنت ترى أن المؤمنين قد بينوا للمنافقين ، أنهم يوافقونهم على أنهم كانوا معهم فى الدنيا .ولكن الذى أدى بهؤلاء المنافقين إلى هذا المصير الليم هو : فتنة أنفسهم ، والتربص بالمؤمنين ، والارتياب فى صدق الرسول - صلى الله عليه وسلم - والاغترار بخداع الشيطان . . . فما نزل بهم من عذاب إنما هو بسبب أفعالهم القبيحة وبعد هذا الحديث المؤثر عن المؤمنين ونورهم ، وعن المنافقين وظلماتهم وعن. . . تلك المحاورات التى تدور بينهم

الم يان للذين امنوا ان تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين اوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الامد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون

كما فسرها الوسيط بعد كل ذلك حرض - سبحانه - المؤمنين ، على أن يروضوا أنفسهم على خشية الله - تعلاى - وحذرهم من أن ينهجوا نهج أهل الكتاب فى قسوة القلب ، ووعدم - سبحانه - المؤمنين الصادقين بالأجر الجزيل ، وبالنور العظيم ، فقال - تعالى - :( أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ . . . ) .الاستفهام ، فى قوله - تعالى - : ( أَلَمْ يَأْنِ ) للتقرير ، و " يأن " فعل مضارع يقال : أنى الشىء - كرمى - أنيا وأناء - بالفتح - وإنى - بالكسر - إذا حان أناه ، أى : وقته ، فهو فعل معتل حذفت منه الياء لسبقه بلم الجازمة ، ومنه قوله - تعالى - : ( ياأيها الذين آمَنُواْ لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتَ النبي إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إلى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ ) أى غير ناظرين حلول وقته .والخطاب فى الآية يحتمل أن يكون من باب العتبا لطائفة من المؤمنين ، أصابهم بعض الفتور أو التكاسل ، فيما أمروا به من الاجتهاد فى طاعة الله - تعالى - بعد أن فتح الله - تعالى لهم أقطار الأرض

ورزقهم بالكثير من لين العيش ، وخيرات الدنيا .ويؤيد هذا ما أخرجه ابن المبارك ، وبعد الرازق ، وابن المنذر عن الأعمش قال : لما قدم أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المدينة ، فأصابوا من لين العيش ما اصابوا . بعد أن كان لهم من الجهد - وشظف العيش فكأنهم فتروا عن بعض ما كانوا عليه ، فعوتبوا على ذلك فنزلت هذه الآية .ويحتمل أن يكون الخطاب فى الآية لجميع المؤمنين ، لعى سبيل الحض على المداومة على طاعة الله - تعالى - ، والتحذير من التقصير .قال الآلوسى ما ملخصه : قوله - تعالى - : ( أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمنوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ الله ) .استئناف لعتاب المؤمنين على الفتور والتكاسل فيما ندبوا إليه ، والمعاتب - على ما قاله الزجاج - طائفة منهم ، وغلا فإن من المؤمنين من لم يزل خاشعا منذ أن أسلم إلى أن لقى ربه .والخشوع : التذلل والخضوع ، واللام فى قوله ( لِذِكْرِ الله ) للتعليل ، والمراد بذكرالله - تعالى - : ما يشمل كل قول أو فعل يؤدى إلى الخوف من الله - تعالى - بحيث يظهر أثر ذلك على الجوارح .وقيل : المراد به : القرآن الكريم ، فيكون قوله - تعالى - بعد ذلك ( وَمَا نَزَلَ مِنَ الحق ) من باب عطف الشىء على نفسه ، لاختلاف اللفظين ، كما فى قوله تعالى - : ( سَبِّحِ اسم رَبِّكَ الأعلى الذي خَلَقَ فسوى والذي قَدَّرَ فهدى ) والمعنى : لقد آن الأوان أن تخشع قلوب المؤمنين لذكر الله - تعالى - وأن تلين قلوبهم لما أنزله - سبحانه - على نبيه - صلى الله عليه وسلم - من قرآن ، تقشعر منه جلود الذين يخافون ربهم ، وترق له مشاعرهم ونفوسهم .وبعد هذا التحريض للمؤمنين على المسارعة فى طاعة الله - تعالى - وخشيته والإكثار من ذكره : نهاهم - سبحانه - عن التشبه بأهل الكتاب ، الذين طال عليهم الأمد فى الانغماس فى شهوات الدنيا فقست قلوبهم فقال - تعالى - : ( وَلاَ يَكُونُواْ كالذين أُوتُواْ الكتاب مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأمد فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ) .والمراد بالذين أوتوا الكتاب : اليهود والنصارى ، وبالكتاب : التوراة والإنجيل .والجملة الكريمة معطوفة على قوله - تعالى - : ( تَخْشَعَ ) والأمد : الغاية من زمان أو مكان . والمراد به هنا : الزمان الطويل .أى : لقد آن الأوان أن تخشع قلوب الذين آمنوا لذكر الله وما نزل من الحق ، وآن الأوان - أيضا - أن لا يكونوا كالذين أوتثوا الكتاب من قبلهم ، حيث طال عليهم الوقت وهم منغمسون فى الشهوات والملذات ، فقست قلوبهم ، وصارت لا تتأثر لا بالترغيب ولا بالترهيب ، ولا تفرق بين الحرام والحلال . وأصبح كثير منهم خارجين عن الصراط المستقيم .فأنت ترى الآية الكريمة قد حضت المؤمنين على الركون إلى ذكر الله - تعالى - بشدة ومداومة . . . ونهتهم عن التشبه بأهل الكتاب فى عدم الخشوع وفى قسوة القلوب ، بسبب استيلاء المطامع والشهوات على قلوبهم قال صاحب الكشاف ما ملخصه : قوله - تعالى - : ( أَلَمْ يَأْنِ ) من آنى. الأمر إذا جاء أناه أى : وقته . . والآية نهى للمؤمنين عن مماثلة أهل الكتاب فى قسوة القلوب ، وذلك أن بنى إسرائيل ، كان الحق يحول بينهم وبين شهواتهم ، وإذا سمعوا التوراة والإنجيل خشعوا روقت قلبوهم ، فلما طال عليهم الزمان ، غلبهم الجفاء والقسوة ، واختلفوا وأحدثوا ما أحدثوا من التحريف وغيره .فإن قلت : ما معنى لذكر الله وما نزل من الحق؟ قلت : يجوز أن يراد بالذكر وبما نزل من الحق القرآن ، لأنه جامع للأمرين : الذكر والموعظة وأنه ، حق نازل من السماء .وأن يراد خشوعها إذا ذكر الله . وإذا تلى القرآن كقوله - تعالى - : ( إِنَّمَا المؤمنون الذين إِذَا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً ) والآية الكريمة تشير إلى أن الإهمال لذكر الله ، والاسترسال فى الشهوات كل ذلك يؤدى إلى قسوة القلوب وإلى الفسوق عن أمر الله - تعالى - .ولذا وجدنا كثيرا من الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، تحض على الإكثار من ذكر الله - تعالى - قال - سبحانه - : ( والذاكرين الله كَثِيراً والذاكرات أَعَدَّ الله لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ) وفى الحديث الشريف : يقول - صلى الله عليه وسلم - : "لا يقعد قوم يذكرون الله - تعالى - إلا حفتهم الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم فيمن عنده ولقد كان سماع الآية الكريمة ، بتدبر وتفكر وخشوع ، على رأس الأسباب. " التى أدت إلى توبة بعض العصاة توبة صادقة نصوحا .فهذا هو الفضل بن عياض يذهب ليلا لارتكاب ما نهى الله عنه ، فيسمع قارئا يقرأ هذه الآية ، فيرتجف ويعود أدراجه وهو يقول : بلى والله قد آن أوان الخشوع لذكر الله .اللهم إنى تبت إليك ، وجعلت توبتى إليك جوار بيتك الحرام .

اعلموا ان الله يحيي الارض بعد موتها قد بينا لكم الايات لعلكم تعقلون

كما فسرها الوسيط ثم وجه - سبحانه - خطابه إلى المؤمنين فقال : ( اعلموا أَنَّ الله يُحْيِي الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيات لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ) .وافتتاح الآية بقوله - تعالى - : ( اعلموا ) ، يؤذن بأن ما سيلقى على مسامعهم من توجيهات ، جدير بالانتباه إلى مضمونه وإلى الامتثال لما اشتمل عليه من أمر أو نهى .وليس المقصود من الآية إخبار

المؤمنين بأن الله - تعالى - قادر على إحياء الأرض بعد موتها ، فذلك أمر
، يعتقدونه ، ولا يتم إيمانهم إلا به .وإنما المقصود من هذه الآية الكريمة
بيان أن المواظبة على ذكر الله - تعالى - وعلى تلاوة كتابه ، كل ذلك يكون
له أثره فى خشوع النفوس ، وفى طهارة القلوب . . . كأثر المطر عندما ينزل
على الأرض الجدباء المقفرة . . . فما تلبث إلا أن تهتز وتربو وتنبت من كل
زوج بهيج .قال الإمام الرازى : قوله - تعالى - : ( اعلموا أنّ الله
. يُحْيِي الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا ) . فيه وجهان :الأول : أنه تمثيل
والمعنى : أن القلوب التى ماتت بسبب القساوة ، المواظبة على الذكر سبب
لعودة حياة الخشوع إليها ، كما يحيى الله - تعالى - الأرض بالغيث .والثانى
أن المراد من قوله : ( يُحْيِي الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا ) ، بعث الأموات :
فذكر ذلك ترغيبا فى الخشوع والخضوع ، وزجرا عن القساوة .والمراد بالآيات فى
قوله - تعالى - : ( قَدْ بَيّنّا لَكُمُ الآيات لَعَلّكُمْ تَعْقِلُونَ
الدلائل الدالة على وحدانيته وقدرته ، وعلمه - سبحانه - .أى : قد بينا (
لكم الدلائل والبراهين الناطقة بقدرتنا وحكمتنا . . . لعلكم بهذا البيان
تعقلون ما أرشدناكم إليه ، وتعملون بموجب ما عقلتموه ، وبذلك تنالون الفلاح
. والسعادة ، وتخشع قلوبكم لذكرنا ولآياتنا

ان المصدقين والمصدقات واقرضوا الله قرضا حسنا يضاعف لهم ولهم اجر كريم

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما أعده للمؤمنين الذين يبذلون أموالهم
فى سبيله . والذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه .فقال : ( إِنَّ المصدقين
والمصدقات وَأَقْرَضُواْ الله قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ
- أَجْرٌ كَرِيمٌ ) .وقراءة : ( إِنّ المصدقين والمصدقات ) بتشديد الصاد
. . . من التصدق ، فأدغمت التاء فى الصاد بعد قلبها صادا لقرب مخرجيهما
وأصل الكلام : المتصدقين والمتصدقات .وقرأ ابن كثير وغيره ( إِنَّ المصدقين
والمصدقات ) - بتخفيف الصاد - على أنه من التصديق لما جاء به الرسول - صلى
) : الله عليه وسلم - .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : علام عطف قوله
وَأَقْرَضُواْ ) ؟قلت : على معنى الفعل فى المصدقين ، لأن " أل " بمعنى
الذين ، واسم الفاعل بمعنى : اصّدقوا ، فكأنه قيل : " إن الذين اصدقوا
وأقرضوا " .والمعنى : إن المؤمنين والمؤمنات الذين تصدقوا بأموالهم فى وجوه
الخير والدين ( وَأَقْرَضُواْ الله قَرْضاً حَسَناً ) بأن أنفقوا أموالهم
الحلال فى سبيل الله بدون من أو أذى .هؤلاء الذين فعلوا ذلك ( يُضَاعَفُ
لَهُمْ ) أجرهم عند الله - تعالى - أضعافا كثيرة .( وَلَهُمْ ) فضلا عن كل
. - ذلك ، أجر كريم ، لا يعلم مقداره إلا هو - سبحانه

والذين امنوا بالله ورسله اولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم اجرهم
ونورهم والذين كفروا وكذبوا باياتنا اولئك اصحاب الجحيم

كما فسرها الوسيط وقوله : ( والذين آمَنُواْ بالله وَرُسُلِهِ ) مبتدأ
وقوله : ( أولئك هُمُ الصديقون ) خبره ، والذين آمنوا بالله ورسله إيمانا.
- حقا - لهم منزلة الصديقين : منزلة المبالغين فى الصدق واليقين .فالصديق
بتشديد الدال - هو المبالغ فى الصدق بما جاءه به الرسول - صلى الله عليه
وسلم - وفى تنفيذ ما كلف به تنفيذا تاما .( والشهداء عِندَ رَبِّهِمْ ) وهم
الذين استشهدوا فى سبيل الله - تعالى - : ( لَهُمْ أَجْرُهُمْ ) العظيم عند
الله - تعالى - ( وَنُورُهُمْ ) الذى يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يوم
القيامة لهم كذلك .فعلى هذا التفسير يكون قوله : ( والشهداء عِندَ
، رَبِّهِمْ ) مبتدأ ، وجملة ( لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ) ، خبره
ويكون الوقف على ( الصديقون ) وقفا تاما . . . والضمائر فى ( لَهُمْ
أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ) للشهداء .ويصح أن يكون قوله ( والشهداء ) معطوف
على ( الصديقون ) عطف المفرد على المفرد ، فهو عطف على الخبر ، أى : وهم
- الشهداء عند ربهم . . . ويكون الموقف على الشهداء تاما ، وأخبر - سبحانه
: عن الذين آمنوا بالله ورسله ، أنهم صديقون وشهداء .والمعنى على هذا الوجه
والذين آمنوا بالله ورسله ، أولئك هم الذين فى حكمه - تعالى - بمنزلة
- الصديقين والشهداء المشهورين بعلو الرتبة ، ورفعة الدرجة .وقوله - تعالى
أى : للذين آمنوا ( عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ) :
بالله ورسله عند ربهم ، مثل أجر الصديقين والشهداء ولهم مثل نورهم يوم
القيامة ، وناهيك به من أجر عظيم ، ونور عميم .وحذف ما يفيد التشبيه فى
الجملتين ، للتنبيه على قوة المماثلة وبلوغها حد الاتحاد .وإلى هذا المعنى
- أشار صاحب الكشاف بقوله : يريد أن المؤمنين بالله ورسله ، هم عند الله
، تعالى - بمنزلة الصديقين والشهداء ، وهم الذين سبقوا إلى التصديق
: واستشهدوا فى سبيل الله .وقوله : ( لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ) أى
لهم مثل أجر الصديقين والشهداء ومثل نورهم .فإن قلت : كيف يسوى بينهم فى
الأجر ولا بد من التفاوت؟ قلت : المعنى أن الله - تعالى - يعطى الذين آمنوا
بالله ورسله أجرهم . ويضاعفه لهم بفضله . حتى يساوى أجرهم مع أضعافه ، أجر

أولئك ، أى : أجر الصديقين والشهداء .ويجوز أن يكون قوله : ( والشهدآء ) مبتدأ ، وقوله ، (لَهُمْ أَجْرُهُمْ ) خبره . .وقوله - تعالى - : ( والذين كَفَرُواْ وَكَذّبُواْ بِآيَاتِنَآ أولئك أَصْحَابُ الجحيم ) بيان لسوء عاقبة الكافرين ، بعد بيان حسن عاقبة المؤمنين الصادقين .أى : والذين كفروا بالله ورسله ، وكذبوا بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا أولئك أصحاب الجحيم ، الملازمون له ملازمة الشى لصاحبه .وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد حضت المؤمنين على المواظبة على ذكر الله - تعالى - وطاعته ونهتهم عن التشبه بالذين قست قلوبهم ، وبشرت المصدقين والمصدقات ، والذين آمنوا بالله - تعالى - وبرسله إيمانا حقا . . . بالأجر العظيم ، وبالعطاء الجزيل .

اعلموا انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الاموال والاولاد كمثل غيث اعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الاخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - حال الحياة ، التى ركن إليها الكافرون واطمأنوا بها . . . ودعا المؤمنين إلى أن تكون هممهم متجهة نحو الآخرة ، عن طريق التسلح بالأعمال الصالحة . فقال - تعالى - : ( اعلموا أَنّمَا الحياة أى : ( اعلموا ) - أيها المؤمنون علم استجابة وامتثال لما أمركم. ( . . . به - ( أَنّمَا الحياة الدنيا ) التى تعيشون فيها ما شاء الله لكم أن تعيشوا . . . ( لَعِبٌ ) واللعب : هو قضاء الوقت فى قول أو فعل لا فائدة من روائه .(وَلَهْوٌ ) واللهو : اسم لفعل أو قول يقصد من روائه التلذذ والتمتع ، وصرف الآلام والهموم عن النفس .( وَزِينَةٌ ) الزينة اسم لما يتزين به الإنسان من ملبس أو مسكن أو ما يشبههما مما يفعله من أجل أن يكون فى أعين الناس مهيبا جميلا .( وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ ) أى : وتفاخر فيما بينكم بالأموال والمناصب والأحساب والأعمال . . . وتكاثر فى الأموال والأولاد ، والتكاثر تفاعل من الكثرة - كما أن التفاخر تفاعل من الفخر - وصيغة التفاعل جىء بها هنا ، للمبالغة فى إظهار ما يتفاخرون به ، وما يتكاثرون فيه ، حتى لكأنه ينافس غيره فى ذلك ويريد الظهور عليه .والحرص على التفاخر والتكاثر فى الأموال والأولاد ، من طبيعة كثير من الناس ، كما قال - تعالى - : ( أَلْهَاكُمُ التكاثر حتى زُرْتُمُ المقابر ) ثم بين - سبحانه - حال الحياة الدنيا ، التى يلعب الناس فيها ، ويلهون ويتفاخرون ويتكاثرون .فقال : (كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الكفار نَبَاتُهُ ) .أى : هذه الحياة الدنيا حالها وصفتها ومثلها كمثل مطر أعجب الكفار وراقهم وسرهم ما ترتب على هذا المطر ، من نبات جميل نبت من الأرض بعد هطول الغيث عليها ، فقوله - تعالى - : ( كَمَثَلِ ) خبر لمبتدأ محذوف ، أى : مثلها كمثل مطر. والمراد بالكفار هنا : الجاحدون لنعم الله - تعالى - الساترون لها ، وخصوا. بالذكر ، لأنهم أشد إعجابا وسروراً وانغماسا فى زينة الحياة الدنيا من غيرهم .وروى عن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - أن المراد بالكفار هنا الزراع الذين يزرعون الأرض بعد نزول المطر عليها ، ويبذورن فيها البذور : سموا كفارا من الكفر بمعنى الستر والإخفاء ، يقال : كفر الزارع بذره أو - زرعه إذا أخفاه فى الأرض ، حتى لا يتعرض للتلف أو الضياع .وقوله - سبحانه ( ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً ) : والهيجان : الاضطراب والثوران ، ومنه سميت الحرب بالهيجاء ، لأن فيها. يضطرب المقاتلون ، ويثور بعضهم على بعض .ويرى بعضهم أن معنى ( يَهِيجُ ) هنا : ييبس ويجف .وعطف - سبحانه - جملة ( يَهِيجُ ) بحرف ( ثُمّ ) لإفادة التراخى الرتبى ، إذ أن وصول النبات إلى درجة من الهيجان وبلوغ منتهاه ، لا يتأتى إلا بعد زمن طويل من بدء زراعته .ولم يرتض بعض المحققين هذا المعنى فقال : تفسير ( يَهِيجُ ) بييبس فيه تسامح ، فإن حقيقته أن يتحرك إلى أقصى ما يتأتى له . أى : من الطول والغلظ .أى : ثم يتحرك هذا النبات الذى أعجب - الكفار إلى أقصى ما يتأتى له من طول وقوة ، ثم يبدأ فى الضعف ، فتراه أيها الناظر إليه - نباتا مصفراً متغيراً عما كان عليه من النضرة ، آخذا فى الذبول وفى التهيؤ للحصاد .ثم يكون بعد ذلك حطاما ، أى : نباتا محطما مكسرا والمقصود بقوله - تعالى - ( كَمَثَلِ غَيْثٍ . . ) إلخ التقرير والتأكيد. ، لما وصفت به الدنيا من كونها لعبا ولهوا وزينة .وتشبيهها فى سرعة زوالها وانقضاء نعيمها ، وقلة فائدتها . . بحال نبات ظهر على الأرض بعد هطول المطر ، عليها ، واستمر فى ظهوره وجماله ونضرته وهيجانه ، لفترة مّا من الحياة أعجب خلالها الكفار به ، ثم حل بهذا النبات اليانع الاصفرار والاضمحلال حتى صار حطاما مفتتا تذروه الرياح .والمقصود بهذا التشبيه ، زجر الناس عن الركون إلى الحياة الدنيا ركونا ينسون معه فرائض الله - تعالى - وتكاليفه التى كلفهم بها - سبحانه - .وعطف - سبحانه - : ( فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ) بالفاء للإشعار بقصر المسافة ، مهما طالت فى عرف الناس - بين نضرة الزرع - واستوائه ، وبين اصفراره ونهايته .قال صاحب الكشاف - رحمه الله - : أراد

. . . سبحانه - أن الدنيا ليست إلا محقرات من الأمور ، وهى اللعب واللهو
وأما الآخرة فما هى إلا أمور عظام .وشبه حال الدنيا بسرعة تقضّيها ، مع قلة
جدواها ، بنبات أنبته الغيث فاستوى واكتمل ، وأعجب به الكفار الجاحدون
لنعمة الله ، فيما رزقهم من الغيث ، والنبات . . . فبعث عليه العاهة فهاج
، واصفر وصار حطاما .ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة ببيان عظم الآخرة
وهوان الدنيا فقال : ( وَفِي الآخرة عَذَابٌ شَدِيدٌ ) أى : لمن كفر
بالله - تعالى - وفسق عن أمره .( وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ الله وَرِضْوَانٌ ) أى
- لمن آمن بالله - تعالى - واتبع ما جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم :
وحافظ على أداء ما كلف به بإخلاص وحسن اقتداء .( وَمَا الحياة الدنيآ
إِلاَّ مَتَاعُ الغرور ) أى : وما أحوال الحياة الدنيا وما اشتملت عليه من
، شهوات ، إلا متاع زائل ، لا يقدم عليه ، ولا يتشبع به إلا من خدع بزخرفه
واغتر بمظهره .فالمراد بالغرور : الخديعة ، مصدر غره . أى : خدعه وأطمعه
. بالباطل

سابقوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والارض اعدت للذين امنوا
بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم

كما فسرها الوسيط ثم أمرهم - سبحانه - بالمسارعة إلى ما يسعدهم ، بعد أن
بين لهم حال الحياة الدنيا فقال : ( سابقوا إلى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ
وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السمآء والأرض ) .وقوله - تعالى - ( سابقوا )
- ابتدائية ، والجار والمجرور صفة المغفرة .أى : سارعوا - أيها المؤمنون
: مسارعة السابقين لغيرهم ، إلى مغفرة عظيمة كائنة من ربكم .فالتعبير بقوله
للإلهاب الحماس وحض النفوس إلى الاستجابة لما أمروا به ، حتى ( سابقوا )
) : لكأنهم فى حالة مسابقة يحرص كل قرين فيها إلى أن يسبق قرينه .وقوله
. وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السمآء والأرض . . . ) معطوف على المغفرة
أى : سابقوا غيركم - أيها المؤمنون - إلى مغفرة عظيمة من ربكم ، وإلى جنة
كريمة؛ هذه الجنة عرضها وسعتها ورحابتها ... كسعة السماء والأرض .وهذه
، الجنة قد ( أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُواْ بالله وَرُسُلِهِ ) إيمانا حقا
جعلهم لا يقصلرون فى أداء واجب من الواجبات التى كلفهم - سبحانه - بها .قال
الإمام الفخر الرازى ما ملخصه : فى كون الجنة عرضها كعرض السماء والأرض
وجوه : منها : أن المراد لو جعلت السموات والأرضون طبقا طبقا . . . لكان
- ذلك مثل عرض الجنة ، وهذا غاية فى السعة لا يعلمها إلا الله - تعالى
ومنها : أن المقصود المبالغة فى الوصف بالسعة للجنة ، وذلك لأنه لا شىء
عندنا أعرض منهما .وخص - سبحانه - العرض بالذكر ، ليكون أبلغ فى الدلالة
على عظمها ، واتساع طولها ، لأنه إذا كان عرضها كهذا ، فإن العقل يذهب كل
مذهب فى تصور طولها ، فقد جرت العادة أن يكون الطول أكبر من العرض .قال
- الإمام ابن كثير : وقد روينا فى مسند الإمام أحمد " أن هرقل - ملك الروم
كتب إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فقال : إنك دعوتنى إلى جنة عرضها
السموات والأرض ، فأين النار؟ فقال - صلى الله عليه وسلم - : " سبحان الله
) : - فأين الليل إذا جاء النهار " .وإسم الإشارة فى قوله - تعالى ،
ذَلِكَ فَضْلُ الله يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ والله ذُو الفضل العظيم ) يعود
: إلى الذى وعد الله - تعالى - به عباده المؤمنين من المغفرة والجنة .أى
ذلك العطاء الجزيل فضل الله - تعالى - وحده وهو صاحب الفضل العظيم لا يعلم
مقداره إلا هو - عز وجل - .فأنت ترى أن الله - تعالى - بعد أن بين حال
الحياة الدنيا . دعا المؤمنين إلى المسابقة إلى العمل الصالح ، الذى يوصلهم
- إلى ما هو أكرم وأبقى . . . وهو الجنة .وشبيه بهاتين الآيتين قوله
تعالى - : ( زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشهوات مِنَ النساء والبنين
والقناطير المقنطرة مِنَ الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك
مَتَاعُ الحياة الدنيا والله عِنْدَهُ حُسْنُ المآب قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ
). . . بِخَيْرٍ مِّن ذَلكم

ما اصاب من مصيبة في الارض ولا في انفسكم الا في كتاب من قبل ان نبراها ان
ذلك على الله يسير

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن كل شىء فى هذه الحياة ، خاضع لقضاء
، الله - تعالى - وقدره ، وأن على المؤمن الصادق أن يكون شاكرا عند الرخاء
. . صابرا عند البلاء . . . فقال - تعالى - : ( مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ
فى قوله - تعالى - ( مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ ) نافية ، و ( مَآ ). ( .
. مزيدة لتأكيد هذا النفى وإفادة عمومه . ومفعلو " أصاب " محذوف ( مِن )
وقوله ( فِي الأرض ) إشارة إلى المصائب التى تقع فيها من فقر وقحط ، وزلازل
، وقوله : ( وَلاَ في أَنفُسِكُمْ ) للإشارة إلى ما يصيب الإنسان فى ذاته .
كالأمراض ، والهموم .والاستثناء فى قوله - تعالى - : ( إِلاَّ فِي كِتَابٍ
- من أعم الأحوال ، والمراد بالكتاب : اللوح المحفوظ ، أو علمه - عز وجل (
الشامل لكل شىء .وقوله : ( نَّبْرَأَهَآ ) من البرء - بفتح الباء - بمعنى

الخلق والإيجاد ، والضمير فيه يعود إلى النفس ، أو إلى الأرض ، أو إلى جميع
: ما ذكره الله - تعالى - من خلق المصائب فى الأرض والأنفس .والمعنى
واعلموا - أيها المؤمنون علما يترتب عليه آثاره من العمل الصالح - أنه ما
أصابكم أو ما أصاب أحدا مصيبة ، هذه المصيبة كائنة فى الأرض - كالقحط
والزلازل - أو فى أنفسكم - كالأسقام والأوجاع - إلا وهذه المصائب مسجلة فى
كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها . . . وهذا التسجيل كائن من قبل
) أن نخلق هذه الأنفس ، وهذه المصائب .وكرر - سبحانه - حرف النفى فى قوله
، وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ ) للإيماء إلى أن المصائب التى تتعلق بذات الإنسان
) : يكون أشد تأثرا واهتماما بها ، أكثر من غيرها .واسم الإشارة فى قوله
إِنَّ ذَلِكَ عَلَى الله يَسِيرٌ ) يعود إلى الكتابة فى الكتاب .أى : إن
ذلك الذى أثبتناه فى لوحنا المحفوظ وفى علمنا الشامل لكل شىء . . . قبل أن
نخلقكم ، وقبل أن نخلق الأرض . . . يسير وسهل علينا ، لأن قدرتنا لا يعجزها
شىء ، وعلمنا لا يعزب عنه شىء .فالآية الكريمة صريحة فى بيان أن ما يقع فى
- الأرض وفى الأنفس من مصائب - ومن غيرها من مسرات - مكتوب ومسجل عند الله
تعالى - قبل خلق الأرض والأنفس .وخص - سبحانه - المصائب بالذكر ، لأن
، الإنسان يضطرب لوقوعها اضطرابا شديدا ، وكثيرا ما يكون إحساسه بها
وإدراكه لأثرها ، أشد من إحساسه وإدركه للمسرات .ومن الآيات التى تشبه هذه
الآية فى معناها قوله - تعالى - : ( قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلاَّ مَا كَتَبَ
الله لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمنون ).

لكيلا تاسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما اتاكم والله لا يحب كل مختال فخور

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - الحكم التى من أجلها فعل ذلك فقال
لِّكَيْلاَ تَأْسَوْاْ على مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُواْ بِمَآ آتَاكُمْ
فاللام فى قوله : ( لِّكَيْلاَ تَأْسَوْاْ . . . ) متعلقة بحذوف . وقوله. (
من الأسى ، وهو الحزن والضيق الشديد . يقال : أسى فلان ( تَأْسَوْاْ ) :
- على كذا - كفرح - فهو يأسى أسى ، إذا حزن واغتم لما حدث ، ومنه قوله
تعالى - حكاية عن شعيب - عليه السلام - :( فتولى عَنْهُمْ وَقَالَ ياقوم
لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسى
على قَوْمٍ كَافِرِينَ ) أى : فعلنا ما فعلنا من إثبات ما يصيبكم فى كتاب
من قبل خلقكم ، وأخبرناكم بذلك ، لكى لا تحزنوا على ما أصابكم من مصائب
حزنا يؤدة بكم إلى الجزع ، وإلى عدم الرضا بقضاء الله وقدره ولكى لا تفرحوا
بما أعطاكم الله - تعالى - من نعم عظمى وكثيرة . . . . فرحا يؤدى بكم إلى
الطغيان وإلى عدم استعمال نعم الله - تعالى - فيما خلقت له . . . فإن من
علم ذلك علما مصحوبا بالتدبر والاتعاظ . . . هانت عليه المصائب ، واطمأنت
نفسه لما قضاه الله - تعالى - وكان عند الشدائد صبورا ، وعند المسرات شكورا
ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال عند تفسيره لهذه الآية : يعنى : أنكم إذا.
علمتم أن كل شىء مقدر مكتوب عند الله ، قل أساكم على الفائت ، وفرحكم على
، الآتى ، لأن من علم أن ما عنده مفقود لا محالة ، لم يتفاقم جزعه عند فقده
لأنه وطن نفسه على ذلك ، وكذلك من علم أن بعض الخير واصل إليه ، وأن وصوله
لا يفوته بحال ، لم يعظم فرحه عند نيله .فإن قلت : فلا أحد يملك نفسه عند
مضرة تنزل به ، ولا عند منفعة ينالها ، أن لا يحزن ولا يفرح؟قلت : المراد
- الحزن المخرج إلى ما يذهل صاحبه عن الصبر والتسليم لأمر الله - تعالى
ورجاء ثواب الصابرين ، والفرح المطغى الملهى عن الشكر .فأما الحزن الذى لا
يكاد الإنسان يخلو منه مع الاستسلام ، والسرور بنعمة الله ، والاعتداد بها
مع الشكر ، فلا بأس بهما .ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ( والله
لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ) .أى : والله - تعالى - لا يحب أحداً
من شأنه الاختيال بما آتاه - سبحانه - من نعم دون أن يشكره - تعالى - عليها
ومن شأنه - أيضاً - التفاخر والتباهى على الناس بما عنده من أموال وأولاد ،
وإنما يحب الله - تعالى - من كان من عباده متواضعا حليما شاكرا . . .
لخالقه - عز وجل - .فأنت ترى أن هاتين الآيتين قد سكبتا فى قلب المؤمن ، كل
معانى الثقة والرضا بقضاء الله فى كل الأحوال .وليس معنى ذلك عدم مباشرة
الأسباب التى شرعها الله - تعالى - لأن ما سجله الله فى كتابه علينا قبل أن
- يخلقنا ، لا علم لنا به ، وإنما علمه مرده إليه وحده - تعالى - .وهو
سبحانه -لا يحاسبنا على ما نجهله ، وإنما يحاسبنا على ما أمرنا به ، أو
- نهانا عنه ، عن طريق رسوله - صلى الله عليه وسلم - .وكما سجل - سبحانه
أحوالنا قبل أن يخلقنا ، فقد شرع الأسباب وأمرنا بمباشرتها ، وبين لنا فى
كثير من آياته ، أن جزاءنا من خير أو شر على حسب أعملنا .وعندما قال بعض
الصحابة للنبى - صلى الله عليه وسلم - : " أفلا نتكل على ما قدره الله
علينا؟أجابهم بقوله : " اعملوا فكل ميسر لما خلق له " " .

الذين يبخلون ويامرون الناس بالبخل ومن يتول فان الله هو الغني الحميد

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - بعد ذلك : ( الذين يَبْخَلُونَ

وَيَأْمُرُونَ الناس بالبخل ) بدل من قوله - تعالى - : ( كُلَّ مُخْتَالٍ
. . . فَخُورٍ ) والمراد بالذين يبخلون : كل من يبخل بما له أو بعمله
، فكأنه - تعالى - يقول : والله لا يحب الذين يبخلون بما أعطاهم من فضله
بخلا يجعلهم لا ينفقون شيئا منه فى وجوه الخير ، لأن حبهم لأموالهم جعلهم
يمسكونها ويشحون بها شحا شديدا . . . ولا يكتفون بذلك ، بل يأمرون غيرهم
، بالبخل والشح .وعلى رأس هؤلاء الذين لا يحبهم الله - تعالى - المنافقون
فقد كانوا يبخلون بأموالهم عن إنفاق شىء منها فى سبيل الله ، وكانوا
يتواصون بذلك فيما بينهم ، فقد قال - سبحانه - فى شأنهم : ( هُمُ الذين
يَقُولُونَ لاَ تُنفِقُواْ على مَنْ عِندَ رَسُولِ الله حتى يَنفَضُّواْ
( وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ السماوات والأرض ولكن المنافقين لاَ يَفْقَهُونَ
وقوله - سبحانه - : ( وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ الله هُوَ الغني الحميد )
تذييل المقصود به ذم هؤلاء البخلاء على بخلهم .وجواب الشرط محذوف ، أغنت
- عنه جملة ( فَإِنَّ الله هُوَ الغني الحميد ) والغنى : هو الموصوف بالغنى
وهى صفة من صفات الله - عز وجل - إذ هو الغنى غنى مطلقا ، والخلق جميعا فى
حاجة إلى عطائه - سبحانه - والحميد : وصف مبالغة من الحمد . والمراد به
أنه - تعالى - كثير الحمد والعطاء للمنفقين فى وجوه الخير .أى : ومن يعرض
عن هدايات الله - تعالى - وعن إرشاداته . . . فلن يضر الله شيئا ، فإن
- الله - تعالى - هو صاحب الغنى المطلق الذى لا يستغنى عن عطائه أحد ، وهو
سبحانه - كثير الحمد والعطاء لمن استجاب لأمره فأنفق مما رزقه الله بدون
. اختيال أو تفاخر أو أذى

لقد ارسلنا رسلنا بالبينات وانزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس
بالقسط وانزلنا الحديد فيه باس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره
ورسله بالغيب ان الله قوي عزيز

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن حكمته قد اقتضت أن يرسل رسله إلى
الناس ، ليهدوهم إلى طريق الحق ، وأن الناس منهم من اتبع الرسل ، ومنهم من
. . . أعرض عنهم ، ومنهم من ابتدع أموراً من عند نفسه لم يرعها حق رعايتها
فقال - تعالى - : ( لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا . . . ) .المراد .
بالبينات فى قوله - تعالى - : ( لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بالبينات )
الحجج والدلائل التى تشهد لهم بأنهم رسل من عند الله - تعالى - وتدخل فيها
المعجزات دخولا أوليا .والمراد بالكتاب : جنس الكتب . وتشمل التوراة
والإنجيل وغيرهما .والميزان : الآلة المعروفة بين الناس لاستعمالها فى
المكاييل وغيرها . . . والمراد بها العدل بين الناس فى أحكامهم ومعاملاتهم
وشاع إطلاق الميزان على العدل ، باستعارة لفظ الميزان على العدل ، على وجه.
: تشبيه المعقول بالمحسوس ، والمراد بإنزاله ، تبليغه ونشره بين الناس .أى
، بالله لقد أرسلنا رسلنا ، وأيدناهم بالحجج والبراهين الدالة على صدقهم
وأنزلنا معهم كتبنا السماوية ، بأن بلغناهم إياها عن طريق وحينا ، وأنزلنا
معهم العدل بأن أرشدناهم إلى طرقه ، وإلى إعطاء كل ذى حق حقه .قال ابن كثير
: يقول الله - تعالى - : ( لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بالبينات ) أى :
بالمعجزات ، والحجج الباهرات ، والدلائل القاطعات ( وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ
الكتاب ) وهو النقل الصدق ( والميزان ) وهو العدل أو وهوالحق الذى تشهد به
العقول الصحيحة المستقيمة المخالفة للآراء السقيمة .وأكد - سبحانه - هذا
الإرسال ، للرد على أولئك الجاحدين الذين أنكروا نبوة النبى - صلى الله
عليه وسلم - ولبيان أنه واحد من هؤلاء الرسل الكرام ، وأن رسالته إنما هى
امتداد لرسالتهم . . . وقوله - تعالى - : ( لِيَقُومَ الناس بالقسط ) علة
لما قبله . أى : أرسلنا الرسل . وأنزلنا الكتاب وشرعنا العدل ، ليقوم الناس
بنشر ما يؤدى إلى صلاح بالهم ، واستقامة أحوالهم ، عن طريق التزامهم بالحق
والقسط فى كل أمورهم .قال الآلوسى : " والقيام بالقسط " أى : بالعدل ، يشمل
التسوية فى أمور التعامل باستعمال الميزان ، وفى أمور المعاد باحتذاء
الكتاب ، وهو - أى : القسط - لفظ جامع مشتمل على جميع ما ينبغى الاتصاف به
معاشا ومعادا .وقوله - تعالى - : ( وَأَنزَلْنَا الحديد فِيهِ بَأْسٌ ،
شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ) معطوف على ما قبله .والمراد بإنزال الحديد
- خلقه وإيجاده . وتهيئته للناس ، والإنعام به عليهم ، كما فى قوله :
سبحانه - ( وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ الأنعام ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ
( يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِّن بَعْدِ خَلْقٍ
والمراد بالبأس الشديد : القوة الشديدة التى تؤدى إلى القتل وإلحاق الضرر
بمن توجه إليه ، أى : لقد أرسلنا رسلنا بالأدلة الدالة على صدقهم ، وأنزلنا
معهم ما يرشد الناس إلى صلاحهم .وأوجدنا الحديد ، وأنعمنا به عليكم ، ليكون
قوة شديدة لكم فى الدفاع عن أنفسكم ، وفى تأديب أعدائكم ، وليكون كذلك مصدر
منفعة لكم فى مصالحكم وفى شئون حياتكم .فمن الحديد تكون السيوف وآلات الحرب
، ومنه - ومعه غيره - تتكون القصور الفارهة ، والمبانى العالية الواسعة . .
والمصانع النافعة . . . وآلات الزراعة والتجارة .فالآية الكريمة تلفت أنظار
الناس إلى سنة من سنن الله - تعالى - قد أرسل الرسل وزودهم بالهدايات

السماوية التى تهدى الناس إلى ما يسعدهم .. . وزودهم - أيضا - بالقوة
، المادية التى تحمى الحق الذى جاءوا به ونرد كيد الكائدين له فى نحورهم
وترهب كل من يحاول الاعتداء عليه ، كما قال - تعالى - : ( وَأَعِدُّواْ
لَهُمْ مَّا استطعتم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الخيل تُرْهِبُونَ بِهِ
عَدْوَّ الله وَعَدُوَّكُمْ ) ورحم الله الإمام ابن كثير فقد قال عند
، تفسيره لهذه الآية : ما ملخصه : أى : وجعلنا الحديد رادعا لمن أبى الحق
- وعانده بعد قيام الحجة عليه ، ولهذا أقام الرسول - صلى الله عليه وسلم
بمكة ثلاث عشرة سنة ، تنزل عليه السور المكية ، لبيان أن دين الله حق .فلما
، قامت الحجة على من خالفه ، شرع الله القتال بعد الهجرة ، حماية للحق
وأمرهم بضرب رقاب من عاند الحق وكذبه .وقد روى الإمام أحمد عن ابن عمر قال
قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : بعث بالسيف بين يدى الساعة حتى " :
يعبد الله وحده لا شريك له . وجعل رزقى تحت ظل رمحى ، وجعلت الذلة والصغار
) : - على من خالف أمرى ، ومن تشبه بقوم فهو منهم " .ولهذا قال - تعالى
). وَأَنزَلْنَا الحديد فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ) يعنى السلاح كالسيف والحراب
وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ) أى : فى معايشهم كالفأس والقدوم . . . وغير ذلك
هذا ، ومن المفسرين الذين فصلوا القول فى منافع الحديد ، وفى بيان لماذا.
خصه الله - تعالى - بالذكر : الإمام الفخر الرازى فقد قال - رحمه الله - ما
ملخصه : ثم إن الحديد لما كانت الحاجة إليه شديدة ، جعله الله سهل الوجدان
- كثير الوجود . والذهب لما كانت حاجة الناس إليه قليلة ، جعله الله ،
تعالى - عزيز الوجود .وبهذا تتجلى رحمة الله على عباده ، فإن كل شىء كانت
حاجتهم إليه أكثر جعل الحصول عليه أيسر .فالهواء - وهو أعظم ما يحتاج
الإنسان إليه - جعل الله تعالى - الحصول عليه سهلا ميسورا . . . فعلمنا من
ذلك أن كل شىء كانت الحاجة إليه أكثر ، كان وجدانه أسهل .ولما كانت الحاجة
إلى رحمة الله - تعالى - أشد من الحاجة إلى كل شىء ، فنرجوه من فضله أن
... يجعلها أسهل الأشياء وجدانا ، كما قال الشاعر :سبحان من خص العزيز بعزة
والناس مستغنون عن أجناسهوأذل أنفاس الهواء وكل ذى ... نفس ، فمحتاج إلى
أنفاسهوقوله : - سبحانه - : ( وَلِيَعْلَمَ الله مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ
) : بالغيب . . ) معطوف على محذوف يدل عليه السياق .والمراد بقوله
وَلِيَعْلَمَ ) أى : وليظهر علمه - تعالى - للناس ، حتى يشاهدوا آثاره .أى
وأنزل - سبحانه - الحديد لكى يستعملوه فى الوجوه التى شرعها الله :
، وليظهر - سبحانه - أثر علمه حتى يشاهد الناس ، من الذى سيتبع الحق منهم
فينصر دين الله - تعالى - وينصر رسله ، ويستعمل نعمه فيما خلقت له حالة
كونه لا يرى الله - تعالى - بعينيه ، وإنما يتبع أمره ، ويؤمن بوحدانيته
ووجوده وعلمه وقدرته .. . عن طريق ما أوحاه - سبحانه - إلى رسول - صلى الله
- عليه وسلم - .فقوله : ( بالغيب ) حال من فاعل ( يَنصُرُهُ ) .ثم ختم
سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ( إِنَّ الله قَوِيٌّ عَزِيزٌ ) أى : أن
الله - تعالى - هو المتصف بالقوة التى ليس بعدها قوة وبالعزة التى لا
، تقاربها عزة .وختمت الآية بهذا الختام ، لأنه هو المناسب لإرسال الرسل
ولإنزال الكتب والحديد الذى فيه بأس شديد ومنافع للناس .فكان هذا الختام
تعليل لما قبله . أى : لأن الله - تعالى - قوى فى أخذه عزيز فى انتقامه فعل
. ما فعل من إرسال الرسل ، ومن إنزال الحديد

ولقد ارسلنا نوحا وابراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد
وكثير منهم فاسقون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً
( . . . وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النبوة والكتاب
معطوف على جملة : ( لَّقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بالبينات ) عطف الخاص على
العام .أى : لقد أرسلنا رسلا كثيرين . . . وبالله لقد أرسلنا نوحا وإبراهيم
وجعلنا فى ذريتهما عددا من الأنبياء ، وأوحينا إليهم كتبنا ، التى تهدى ،
أقوامهم إلى طريق الحق ، كالتوراة التى أنزلناها على موسى ، وكالزبور الذى
أنزلناه على داود .وخص - سبحانه - نوحا وإبراهيم - عليهما السلام - بالذكر
) : - لشهرتهما ولأن جميع الأنبياء من نسلهما .والضمير فى قوله - تعالى ،
فَمِنْهُمْ مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ) أى : فمن ذريتهم من
اهتدى إلى الدين الحق ، وآمن به ، وقام بأداء تكاليفه . وكثير من أفراد هذه
الذرية فاسقون . أى : خارجون عن الاهتداء إلى الحقن منغمسون فى الكفر
. والضلال

ثم قفينا على اثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم واتيناه الانجيل وجعلنا
في قلوب الذين اتبعوه رافة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم الا
ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فاتينا الذين امنوا منهم اجرهم
وكثير منهم فاسقون

كما فسرها الوسيط ( ثُمَّ قَفَّيْنَا على آثَارِهِم بِرُسُلِنَا

وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابن مَرْيَمَ ) والتقفيه إتباع الرسول برسول آخر
يقال : قفا فلان آثر فلان . . . إذا اتبعه ، وقفى على أثره بفلان ، إذا
اتبعه إياه . . . وأصله من القفا وهو مؤخر العنق . . . فكأن الذى يتبع أثر
غيره قد أتاه من جهة قفاه .وضمير الجمع فى قوله ( على آثَارِهِم ) يعود إلى
نوح وإبراهيم وذريتهما الذين كانت فيهم النبوة والكتاب .أى : ثم أرسلنا
) - بعدهم رسولا بعد رسول . حتى انتهينا إلى عيسى - عليه السلام
: وَآتَيْنَاهُ الإنجيل ) أى : أوحيناه إليه ليكون هداية لقومه .قالوا
: والإنجيل كلمة يونانية من النجل وهو الأصل ، يقال : رحم الله ناجليه ، أى
والديه ، وقيل : الإنجيل مأخوذ من نجلت الشىء إذا استخرجته وأظهرته . ويقال
، للماء الذى يخرج من البئر : نجل . وقيل هو من النجل الذى هو سعة العين
ومنه قولهم : طعنة نجلاء ، أى : واسعة .وسمى الإنجيل بهذا الاسم ، لأنه سعة
ونور وضياء ، أنزله الله - تعالى - على نبيه عيسى ، ليكون بشارة وهداية
لقومه .وأعاد - سبحانه - مع عيسى - عليه السلام - كلمة ( قَفَّيْنَا )
للإشعار بأن المسافة التى كانت بين عيسى - عليه السلام - وبين آخر رسول من
بنى إسرائيل كانت مسافة طويلة .ثم بين - سبحانه - بعض السمات التى كانت
واضحة فى أتباع عيسى فقال : ( وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الذين اتبعوه
رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابتدعوها مَا كَتَبْنَاهَا
، عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابتغآء رِضْوَانِ الله ) .والرأفة : اللين وخفض الجناح
والرحمة . العطف والشفقة .قالوا : وعطف الرحمة على الرأفة من باب عطف العام
على الخاص ، لأن الرأفة ، رحمة خاصة ، تتعلق بدفع الأذى والضر . أما الرحمة
" فهى أشمل وأعم ، لأنها عطف وشفقة على كل من كان فى حاجة إليه .و
الرهبانية " معناها الفعلة المنسوبة إلى الرهبان . وهم النصارى المبالغون
فى الرهبة والخوف من الله - تعالى - والزهد فى متاع الحياة الدنيا .قال بعض
العلماء : والرهبانية : اسم للحالة التى يكون عليها الراهب متصفا بها فى
غالب شئون دينه ، والياء فيها ياء النسبة إلى الراهب على غير قياس ، لأن
قياس النسب إلى الراهب : الراهبية ، والنون فيها مزيدة للمبالغة فى النسبة
كما زيدت فى قولهم : شعرانى ، لكثير الشعر ، ولحيانى لعظيم اللحية ،
وقوله - تعالى - : ( ورهبانية ابتدعوها . . . منصوب بفعل مضمر يفسره.
الظاهر .أى : وابتدعوها رهبانية ابتدعوها ، فهو من باب الاشتغال .ويصح أن
يكون معطوفا على قوله : ( رَأْفَةً وَرَحْمَةً ) وقوله : ( ابتدعوها ) فى
موضع الصفة ، والكلام على حذف مضاف ، أى : وجعلنا فى قلوبهم رأفة ورحمة
) ورهبانية مبتدعة لهم .وجملة : ما كتبناها عليهم ، مستأنفة مبينة لجملة
ابتدعوها ) .والاستثناء فى قوله : ( إِلاَّ ابتغآء رِضْوَانِ الله ) منقطع
والضمير فى قوله : ( فَمَا رَعَوْهَا ) يعود لهؤلاء الذين ابتدعوا.
، الرهبانية .والمعنى : ثم أتبعنا كل رسول من ذرية نوح وإبراهيم برسول آخر
حتى انتهينا إلى عيسى - عليه السلام - فأرسلناه إلى بنى إسرائيل وآتيناه
الإنجيل وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه وآمنوا به ( رَأْفَةً ) أى لينا وخفض
جناح ( وَرَحْمَةً ) أى : شفقة وعطفا ، وحب رهبانية مبتدعة منهم ، أى : هم
الذين ابتدعوها واخترعوها واختاروها لأنفسهم ، زهداً فى متاع الحياة الدنيا
ونحن ما كتبنا هذه الرهبانية ، وإنما هم الذين ابتدعوها من أجل أن يرضى.
الله عنهم ( فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ) أى : ولكنهم بمرور
الأيام ، لم يحافظ كثير منهم على ما تقتضيه هذه الرهبانية من زهد وتقى
وعفاف . . . بل صارت طقوسا خالية من العبادة الصحيحة ، ولم يصبر على
) : تكاليفها إلا عدد قليل منهم .ولذا ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله
فَآتَيْنَا الذين آمَنُواْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ
- فَاسِقُونَ ) .أى : أما الذين استمروا على اتباعهم لعيسى - عليه السلام
وعلى الإيمان بالحق إيمانا صحيحا خاليا مما يفسده . . . فقد أعطيناهم
أجورهم الطيبة كاملة غير منقوصة .وأما الذين بدلوا ما جاء به عيسى - عليه
السلام - حيث كفروا به وقالوا : الله ثالث ثلاثة ، أو قالوا : المسيح ابن
الله فسيلقون ما يستحقونه من عقاب .وقوله : ( وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ
- فَاسِقُونَ ) يدل على أن الذين خرجوا عن الدين الحق الذى جاء به عيسى
عليه السلام - وفسقوا عن أمر ربهم . . . أكثر من الذين آمنوا به إيمانا
صحيحا .قال الإمام ابن جرير : واختلف أهل التأويل فى الذين لم يرعوا
، الرهبانية حق رعايتها . فقال بعضهم : هم الذين ابتدعوها ، ولم يقوموا بها
ولكنهم بدلوا وخالفوا دين الله الذى بعث به عيسى ، فتنصروا وتهودوا .وقال
، آخرون : بل هم قوم جاءوا من بعد الذين ابتدعوها فلم يرعوها حق رعايتها
لأنهم كانوا كفارا . . . فهم الذين وصفهم الله بأنهم لم يرعوها حق رعايتها
وأولى الأقوال فى ذلك بالصحة أن يقال : إن الذين وصفهم الله بأنهم لم.
- يرعوا الرهبانية حق رعايتها ، بعض الطوائف التى ابتدعتها ، وذلك لأن الله
تعالى - قد أخبر أنه أتى الذين آمنوا منهم أجرهم ، فدل ذلك على أن منهم من
قد رعاها حق رعايتها .وكثير منهم - أى : من الذين ابتدعوا الرهبانية - أهل
معاص ، وخروج عن طاعة الله - تعالى - وعن الإيمان به .وقال الإمام الآلوسى
ما ملخصه : وقوله - تعالى - : ( مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ) جملة
مستأنفة .وقوله - سبحانه - : ( إِلاَّ ابتغآء رِضْوَانِ الله ) استثناء

منقطع ، أى : ما فرضناها نحن عليهم رأسا ، ولكن ابتدعوها وألزموا بها أنفسهم ابتغاء رضوان الله .وقوله - تعالى - : ( فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ) أى : ما حافظوا عليها حق المحافظة ، ذم لهم من حيث إن ذلك كالنذر ، وهو عهد مع الله - تعالى - يجب رعايته ، لا سيما إذا قصد به رضاه - عز وجل .وجائز أن يكون الاستثناء متصلا من أعم العلل . أى : ما قضيناها عليهم لشىء من الأشياء ، إلا ليبتغوا بها رضوان الله ، ويستحقوا بها الثواب ، ومن ضرورة ذلك أن يحافظوا عليها . . . إلا أنهم لم يحافظوا عليها ، ولم يرعوها حق رعايتها .والفرق بين الوجهين : أن الأول يقتضى أنهم لم يؤمروا بها أصلا ، وأن الثانى يقتضى أنهم أمروا بها ، لابتغاء رضوان الله ، فما رعوها حق رعايتها .والظاهر أن الضمير فى قوله ( فَمَا رَعَوْهَا يعود لأولئك الذين ابتدعوا الرهبانية ، والمراد نفى وقوع الرعاية من ( جميعهم ، أى : فما رعاها كلهم بل بعضهم .فالآية الكريمة تثنى على الذين أحسنوا اتباع عيسى - عليه السلام - فطهروا أرواحهم من كل دنس ، وزهدوا فى - متع الحياة الدنيا . . . وتذم الذين بدلوا ما جاء به عيسى - عليه السلام - وقالوا الأقوال الباطلة فى شأنه ، وفعلوا الأفعال القبيحة التى تغضب الله - تعالى : -

يا ايها الذين امنوا اتقوا الله وامنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بهذا النداء للمؤمنين فقال - تعالى - : ( ياأيها الذين آمَنُواْ اتقوا . . . ) .أى : يامن آمنتم بالله - تعالى - حق الإيمان ، اتقوا الله فى كل ما تأتون وما تذرون ، وداوموا على الإيمان برسوله - صلى الله عليه وسلم - واثبتوا على ذلك ).وقوله - سبحانه - : ( يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ ) أى : يعطكم بسبب ذلك نصيبين وضعفين من رحمته - سبحانه - وفضله .وأصل الكفر - كما يقول القرطبى - كساء يكتفل به الراكب فيحفظه من السقوط . . . أى يؤتكم نصيبين يحفظانكم من هلكة المعاصى ، كما يحفظ الكفل الراكب من السقوط .( وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ ) أى : ويجعل لم بفضله نورا تمشون به يوم القيامة . كما قال - تعالى - : ( يَوْمَ تَرَى المؤمنين والمؤمنات يسعى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم ) ( وَيَغْفِرْ لَكُمْ ) أى : ما فرط منكم من ذنوب ، بأن يزيلها عنكم .( والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ) أى : واسع المغفرة والرحمة لمن اتقاه وأطاعه .فأنت ترى أن الله - تعالى - قد وعد المؤمنين على تقواهم وعلى إيمانهم برسوله ، أن يؤتيهم نصيبين من رحمته . . . وأن يجعل لهم نورا يمشون به ، فيهديهم إلى ما يسعدهم فى كل شئونهم ، وأن يغفر لهم ما سبق من ذنوبهم . . . فضلا منه وكرما .قالوا : وأعطى الله - تعالى - للمؤمنين نصيبين من الأجر ، لأن أولهما بسبب إيمانهم بالرسول - صلى الله عليه وسلم - .وثانيهما : بسبب إيمانهم بالرسل السابقين ، كما أعطى مؤمنى أهل الكتاب نصيبين من الأجر : أحدهما للإيمان بالرسول - صلى الله عليه وسلم - والثانى للإيمان - بعيسى - عليه السلام - الذى نسخت شريعته بالشريعة المحمدية .

لئلا يعلم اهل الكتاب الا يقدرون على شيء من فضل الله وان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( لِّئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الكتاب أَلاَّ يَقْدِرُونَ على شَيْءٍ مِّن فَضْلِ الله . . . ) رد على مزاعم أهل الكتاب أنهم شعب الله المختار ، وأنهم أفضل من الأمة الإسلامية .قال الجمل ما ملخصه : لما سمع من لم يؤمن من أهل الكتاب قوله - تعالى - : ( أولئك يُؤْتَونَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ . . ) قالوا للمسلمين أما من آمن منا بكتابكم فله أجره مرتين لإيمانه بكتابنا وكتابكم . ومن لم يؤمن منا بكتابكم فله أجر كأجركم ، فبأى شىء فضلتم علينا؟ فأنزل الله هذه الآية .و ( لاَّ ) زائدة ، واللام متعلقة بمحذوف ، هو معنى الجملة الطلبية المتضمنة لمعنى الشرط ، إذ التقدير : إن تتقوا وتؤمنوا برسوله ، يؤتكم الله من فضله كذا وكذا - وقد أعلمناكم بذلك - لكى يعلم أهل الكتاب عدم قدرتهم على شىء من فضل الله .أى : أنهم لا ينالون شيئا مما ذكر من فضله . . . كالكفلين من رحمته وكمغفرة الذنوب - لأنهم لم يؤمنوا برسوله - صلى الله - عليه وسلم - ولم يخلصوا العبادة له - عز وجل - . .وقوله - سبحانه ) ( وَأَنَّ الفضل بِيَدِ الله يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ والله ذُو الفضل العظيم مؤكد لما قبله ، ومقرر له .أى : ليعلم أهل الكتاب عدم قدرتهم على الظفر بشىء من فضل الله إلا إذا آمنوا بالله ورسله . وليعلموا - أيضا - أن الفضل - والعطاء بيد الله - تعالى - وحده ، يمنحه لمن يشاء ويختار من عباده ، وهو سبحانه - صاحب الفضل الواسع العظيم .وعلى هذا التفسير الذى سرنا عليه يكون المقصود من الآيتين تحريض المؤمنين من هذه الأمة على الثبات على تقوى

، الله - تعالى - واتباع رسوله - صلى الله عليه وسلم - فى كل ما جاء به
وتبشيرهم بالعطاء الجزيل إذا ما فعلوا ذلك .والرد على المتفاخرين من أهل
، الكتاب ، الذين زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وأنهم ليس أحد أفضل منهم
وأن الأجر ثابت لهم سواء آمنوا بالرسول - صلى الله عليه وسلم - أم استمروا
على كفرهم .قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهاتين الآيتين : لما افتخر أهل
الكتاب بأنهم يؤتون أجرهم مرتين ، أنزل الله هذه الآية ( ياأيها الذين
آمَنُواْ اتقوا اللّه وَآمِنُواْ بِرَسُولِهِ . . . ) فى حق هذه الأمة .وهى
كقوله - تعالى - : ( يا أَيُّهَا الذين آمنوا إِن تَتَّقُواْ الله يَجْعَل
لّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ
والله ذُو الفضل العظيم ) ومما يؤيد هذا القول - أى : أن هذه الآية فى حق
هذه الأمة - ما رواه الإمام أحمد عن ابن عمر قال : " قال رسول الله - صلى
الله عليه وسلم - : مثلكم ومثل اليهود والنصارى كمثل رجل استعمل عمالا فقال
من يعمل لى من صلاة الصبح إلى نصف النهار على قيراط قيراط؟ ألا فعلت :
اليهود .ثم قال : من يعمل لى من صلاة الظهر إلى صلاة العصر على قيراط
قيراط؟ ألا فعلت النصارى .ثم قال : من يعمل لى من صلاة العصر إلى غروب
، الشمس على قيراطين قيراطين؟ ألا فأنتم الذين عملتم فغضبت النصارى واليهود
وقالوا : نحن أكثر عملا وأقل عطاء . قال : هل ظلمتكم من أجركم شيئا ، قالوا
لا : قال فإنما هو فضلى أوتيه من أشاء " .ويرى بعض المفسرين أن الخطاب لمن
- آمن من أهل الكتاب ، فيكون المعنى : يا من آمنتم بموسى وبعيسى وبمحمد
- عليهم الصلاة والسلام - اتقوا الله وآمنوا برسوله - صلى الله عليه وسلم
واثبتوا على ذلك ، يؤتكم الله - تعالى - كفلين من رحمته .وليعلم الذين لم
يؤمنوا من أهل الكتاب ، أنهم لن ينالوا شيئا مما ناله المؤمنون منهم .ومن
المفسرين الذين ساروا على هذا التفسير الإمام ابن جرير ، فقد قال - رحمه
الله - عند تفسيره لهذه الآية : يقول - تعالى ذكره - : يأيها الذين صدقوا
الله ورسوله من أهل الكتابين : التوراة والإنجيل ، خافوا الله ، وآمنوا
برسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا
تمشون به ويغفر لكم .. .أى : يؤتكم أجرين لإيمانكم بعيسى وبمحمد - عليهما
الصلاة والسلام - .ويبدو لنا أن الخطاب فى هذه الآية للمؤمنين من هذه الأمة
على سبيل الحض والتبشير ، وأن قوله - تعالى - بعد ذلك : ( لِّئَلاَّ ،
. يَعْلَمَ أَهْلُ الكتاب ألاَّ يَقْدِرُونَ على شَيْءٍ مِّن فَضْلِ الله
واضح فى ذلك ، وأن جعل الخطاب لمؤمنى أهل الكتاب لا دليل عليه .ولذا ( . .
قال بعض المحققين : هذه الآية الكريمة من سورة الحديد ، فى المؤمنين من هذه
الأمة ، وأن سياقها واضح فى ذلك ، وأن من زعم من أهل العلم أنها فى أهل
الكتاب فقد غلط ، وأن ما وعد الله به المؤمنين من هذه الأمة ، أعظم مما وعد
. به مؤمنى أهل الكتاب

قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي الى الله والله يسمع تحاوركما
ان الله سميع بصير

كما فسرها الوسيط ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات روايات منها ما
: أخرجه الإمام أحمد عن يوسف بن عبد الله بن سلام ، عن خولة بنت ثعلبة قالت
فىّ والله وفى - زوجى - أوس بن الصامت أنزل الله صدر سورة المجادلة .قالت
كنت عنده ، وكان شيخا كبيرا قد ساء خلقه ، قالت : فدخل على يوما " :
فراجعته بشىء فغضب ، فقال : أنت على كظهر أمى .قالت : ثم خرج فجلس فى نادى
قومه ساعة ، ثم رجع ، فإذا هو يريدنى عن نفسى ، فقالت له : كلا والذى نفس
خوله بيده لا تخلص إلىّ ، وقلت ما قلت ، حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه
قالت : فواثبنى ، فامتنعت عنه ، فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف.
فألقيته عنى .ثم خرجت إلى بعض جاراتى ، فاستعرت منها ثيابا ، ثم خرجت حتى
جئت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فجلست بين يديه ، فذكرت له - صلى
الله عليه وسلم - ما لقيت من زوجى ، وجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه
قالت : فجعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : " يا خويلة ، ابن.
، عمك شيخ كبير فاتى الله فيه " .قالت : فوالله ما برحت حتى نزل فىّ قرآن
فتغشى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما كان يتغشاه ، ثم سرى عنه ، فقال
لى : " يا خويلة قد أنزل الله فيك وفى صاحبك قرآنا " . ثم قرأ على هذه
: الآيات " .وفى رواية : " أنها أتت النبى - صلى الله عليه وسلم - فقالت له
يا رسول الله ، إن أوساً تزوجنى وأنا شابة مرغوب فى ، فلما خلا سنى ، ونثرت
بطنى ، جعلنى عليه كأمه ، وتركنى إلى غير أحد ، فإن كنت تجد لى رخصة يا
رسول الله فحدثنى بها .فقال - صلى الله عليه وسلم - : " ما أمرت بشىء فى
" شأنك حتى الآن " وفى رواية أنه قال لها : " ما أراك إلا قد حرمت عليه
فقالت : يا رسول الله ، إنه ما ذكر طلاقا ، وأخذت تجادل النبى - صلى الله.
عليه وسلم - ثم قالت : اللهم إنى أشكو إليك فاقتى ، وشدة حالى ، وإنلى من
زوجى أولاداً صغاراً ، إن ضمّهم إليه ضاعوا ، وإن ضممتهم إلى جاعوا .قالت
وما برحت حتى نزل القرآن ، فقال - صلى الله عليه وسلم - : " يا خولة :
أبشرى " ثم قرأ على هذه الآيات " .و " قد " فى قوله - تعالى - : ( قَدْ

سَمِعَ . . . ) ؟قلت : " معناه التوقع ، لأن رسول الله - صلى الله عليه
، وسلم - والمجادلة كانا يتوقعان أن يسمع الله - تعالى - مجادلتها وشكواها
وينزل فى ذلك ما يفرج كربها " .والسماع فى قوله - تعالى - : ( سَمِعَ )
- بمعنى علم الله - تعالى - التام بما دار بين تلك المرأة ، وبين الرسول
صلى الله عليه وسلم - سبحانه - لشكواها ، وحكمه فى تلك المسألة ، بما يبطل
ما كان شائعاً بشأنها قبل نزول هذه الآية .وقوله : ( تُجَادِلُكَ ) من
المجادلة ، وهى المفاوضة على سبيلا المغالبة والمنازعة ، وأصلها من جدلت
الحبل : إذا أحكمت فتله .وقوله : ( تشتكي ) من الشكو ، وأصله فتح
الشّكوة - وهى سقاء صغير يجعل فيه الماء - وإظهار ما فيها ، ثم شاع هذا
الاستعمال فى إظهار الإنسان لما يؤلمه ويؤذيه ، وطلب إزالته .والمعنى : قد
سمع الله - تعالى - سماعا تاما ، قول هذه المرأة التى تجادلك - أيها الرسول
الكريم - فى شأن ما دار بينها وبين زوجها ، وفيما صدر عنه فى حقها من
الظهار ، وسمع - سبحانه - شكواها إليه ، والتماسها منه - عز وجل - حل
) - قضيتها ، وتفريج كربتها ، وإزالة ما نزل بها من مكروه .وقوال - سبحانه
التي تُجَادِلُكَ ) بأسلوب الاسم الموصول للإشعار بأنها كانت فى نهاية
الجدال والشكوى ، وفى أقصى درجات التوكل على ربها ، والأمل فى تفريج كربتها
رحمة بها وبزوجها وبأبنائها .وقوله - سبحانه - : ( للَّهِ والله يَسْمَعُ ،
تَحَاوُرَكُمآ ) جملة حالية ، والتحاور : مراجعة الكلام من الجانبين . يقال
- حاور فلان فلانا فى الكلام إذا راجعه فيما يقوله .أى : والحال أن الله :
تعالى - يسمع ما يدور بينك - أيها الرسول الكريم - وبين تلك المرأة ، من
مراجعة فى الكلام ، ومن أخذ ورد فى شأن قضيتها .والمقصود بذلك ، بيان
الاعتناء بشأن هذا التحاور ، والتنويه بأهميته ، وأنه - تعالى - قد تكرم
وتفضل بإيجاد التشريع الحكيم لحل هذه القضية .وعبر - سبحانه - بصيغة
المضارع ، لزيادة التنويه بشأن ذلك التحاور ، واستحضار صورته فى ذهن السامع
ليزداد عظة واعتبارا .وجملة : ( تَحَاوُرَكُمآ إِنَّ الله سَمِيعٌ ،
- بَصِيرٌ ) تذييل قصد به التعليل لما قبله بطريق التحقيق .أى : أنه
، سبحانه - يسمع كل المسموعات ، ويبصر كل المبصرات ، على أتم وجه وأكمله
: ومن مقتضيات ذلك ، أن يسمع تحاوركما ، ويبصر ما دار بينكما .قال القرطبة
أخرج ابن ماجة أن عائشة - رضى الله عنها - قالت : " تبارك الذى وسع سمعه "
كل شىء إنى لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ، ويخفى على بعضه ، وهى تشتكى زوجها
إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهى تقول : يا رسول الله!! أكل شبابى
ونثرت له بطنى ، حتى إذا كبر سنى . . . ظاهر منى!! اللهم إنى أشكو إليك ،
وفى البخارى عن عائشة قالت : الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت.
المجادلة تشكو إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأنا فى ناحية البيت
ما أسمع ما تقول ، فأنزل الله - تعالى - : ( قَدْ سَمِعَ الله قَوْلَ التي
. ( تُجَادِلُكَ

الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن امهاتهم ان امهاتهم الا اللائي ولدنهم
وانهم ليقولون منكرا من القول وزورا وان الله لعفو غفور

كما فسرها الوسيط ثم شرع - سبحانه - فى بيان شأن الظهار فى ذاته ، وفى بيان
حكمه المترتب عليه شرعا فقال : ( الذين يُظَاهِرُونَ مِنكُمْ مِّن
نِّسَآئِهِمْ مّا هُنّ أُمّهَاتِهِمْ إِنْ أُمّهَاتُهُمْ إِلاّ اللائي
، وَلَدْنَهُمْ ) .وقوله : ( يُظَاهِرُونَ ) من الظهار ، وهو لغة مصدر ظاهر
وهو مفاعلة من الظهر .قال الآلوسى : والظهار يراد به معان مختلفة راجعة إلى
الظهر معنى ولفظا باختلاف الأغراض ، فيقال : ظاهر زيد عمراً ، أي : قابل
ظهره بظهره حقيقة ، وكذا إذا غايظه . . وظاهره إذا ناصره باعتبار أنه يقال
قوى ظهره إذا نصره " .والمراد به هنا : أن يقول الرجل لزوجته : أنت على :
كظهر أمى ، قاصدا بذلك تحريم زوجته على نفسه كتحريم أمه عليه .وكان هذا
القول من الرجل لامرأته يؤدى إلى طلاقها منه ، بحيث لا تحل له حتى تنكح
زوجا غيره ، وقيل : إلى طلاقها منه طلاقاً مؤبدا لا تحل له بعده .وقيل : إن
هذا القول لم يكن طلاقا من كل وجه ، بل كانت الزوجة تبقى بعده معلقة ، فلا
هى مطلقة ، ولا هى غير مطلقة .و " من " فى قوله ( مِّن نِّسَآئِهِمْ )
بيانية ، لإفادة أن هذا تشريع عام ، وليس خاصا بخولة بنت ثعلبة ، التى نزلت
فى شأنها هذه الآيات .وجملة : ( مّا هُنّ أُمّهَاتِهِمْ ) قائمة مقام
الخبر ، ودالة عليه .والمعنى : الذين يظاهرون منكم - أيها المؤمنون - من
، نسائهم بأن يقولوا لهن : أنتن علينا كظهر أمهاتنا ، مخطئون فيما يقولون
فإن زوجاتهم لسن بأمهاتهم .( إِنْ أُمّهَاتُهُمْ إِلاّ اللائي
وَلَدْنَهُمْ ) أى : ليس أمهاتهم على سبيل الحقيقة والواقع إلا النساء
اللائى ولدنهم وأرضعتهم ، وقمن برعايتهم فى مراحل الطفولة والصبا والشباب
ثم أكد - سبحانه - هذا المعنى بقوله : ( وَإِنّهُمْ لَيَقُولُونَ.
مُنكَراً مِّنَ القول وَزُوراً ) .أى : وإن هؤلاء الرجال الذين يقولون
لأزواجهم : أنتن علينا كظهور أمهاتنا فى الحرمة ، ليتفوهون بما هو منكر من
القول ، فى حكم الشرع وفى حكم العقل ، وفى حكم الطبع . وفضلا عن كل ذلك فهو

قول كاذب وباطل إذ لم يحرم الله - تعالى - الزوجة على زوجها ، كما حرم عليه أمه . فعلاقة الأزواج بأمهاتهم ، تختلف اختلافا تاما عن علاقتهم بزوجاتهم وإذاً فالمقصود بهذه الجملة الكريمة : التوبيخ على هذا القول ، وهو قول الرجل لزوجته : أنت على كظهر أمى ، وذم من ينطق به ، لأنه يعرض مقام الأمهات - وهو مقام فى أسمى درجات الاحترام والتبجيل - - إلى تخيلات قبيحة ، تصاحب النطق بهذا الكلام .وكعادة القرآن الكريم فى قرن الترهيب بالترغيب - حتى لا تيأس النفوس من رحمة الله ، ختمت الآية الكريمة بما يدل على فضله - تعالى - .فقال : ( وَإِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ) أى : وإن الله تعالى - لكثير العفو والمغفرة ، لمن تاب إليه - سبحانه - وأناب وأقلع عن تلك الأقوال والأفعال التى يبغضها - سبحانه - .

والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل ان يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير

كما فسرها الوسيط ثم أخذت السورة الكريمة فى تفصيل حكم الظهار ، بعد بيان كونه منكرا من القول وزورا ، فقال - تعالى - : ( والذين يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ) : - .وقد اختلف العلماء فى معنى قوله - تعالى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ ) .فمنهم من يرى أن المراد منه ، ثم يرجعون عما قالوا ، قاصدين معاشرة زوجاتهم . . أو قاصدين تحليل ما حرموه على أنفسهم بالنسبة لزوجاتهم بسبب الظهار .ومنهم من يرى أن المراد بهذه الجملة : العودة إلى ما كانوا يقولونه فى الجاهلية ، بعد أن هداهم الله - تعالى - إلى الإسلام ، فيكون المعنى : ثم يعودون إلى ما كانوا يقولونه فى الجاهلية من ألفاظ الظهار ، التى يبغضها الله - تعالى - .وهذا القول يبدو عليه الضعف من جهة : جعله الفعل المضارع الدال على الحال والاستقبال وهو ) يُظَاهِرُونَ ) ، بمعنى الماضى المنقطع ، ومن جهة جعلهم أن المظاهر بعد الإسلام ، كان قد ظاهر فى الجاهلية ، مع أن هذا ليس بلازم . إذ لم يثبت أن أوس بن الصامت " كان قد ظاهر من زوجته فى الجاهلية ، وهذا الحكم إنما هو " حق المظاهر فى الإسلام .ومنهم من يرى أن المراد بهذه الجملة : تكرار لفظ الظهار ، فمعنى ثم يعودون لما قالوا : ثم يعودون إلى تكرار لفظ الظهار مرة أخرى .وكان أصحاب هذا القول يرون ، أن الكفارة لا تكون إلا بتكرار ألفاظ الظهار ، وهو قول لا يؤيده دليل ، لأنه لم يثبت أن خولة - أو غيرها - كرر عليها زوجها لفظ الظهار أكثر من مرة ، بل الثابت أنه عندما قال لها : أنت على كظهر أمى ، ذهبت إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - وقصت عليه ما جرى بينها بين زوجها .وقد رجح الإمام ابن جرير الرأى الأول فقال : والصواب من القول فى ذلك عندى أن يقال : معنى اللام فى قوله : ( لِمَا قَالُواْ ) بمعنى إلى أو فى ، لأ ، معنى الكلام : ثم يعودون لنقض ما قالوا من التحريم فيحللونه ، وإن قيل : ثم يعودون إلى تحليل ما حرموا ، أو فى تحليل ما حرموا فصواب ، لأن كل ذلك عود له ، فتأويل الكلام : ثم يعودون لتحليل ما حرموا على أنفسهم مما أحله الله لهم .والمعنى : والذين يظاهرون منكم - أيها المؤمنون - من نسائهم ، ثم يندمون على ما فعلوا ، ويريدون أن يعودوا عما قالوه ، وأن يرجعوا إلى معاشرة زوجاتهم .فعليهم فى هذه الحالة إعتاق رقبة ) مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ) أى : من قبل أن يستمتع حدهما بالآخر ، أى يحرم عليهما الجماع ودواعيه قبل التكفير .والمراد بالرقبة : المملوك ، من تسمية الكل باسم الجزء .واسم الإشارة فى قوله - سبحانه - ( ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ والله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ) يعود إلى الحكم بالكفارة .أى : ذلكم الذى شرعنا لكم - أيها المؤمنون - وهو الحكم بالكفارة إنما شرعناه من أجل أن تتعظوا به ، وتنزجروا عن النطق بالألفاظ التى تؤدى إلى الظهار ، والله - تعالى - خبير ومطلع على كل ما تقولونه من أقوال ، وما تفعلونه من أفعال - وسيحاسبكم على ذلك حسابا دقيقا .وما دام الأمر كذلك ، فافعلوا ما أمركم به ، واجتنبوا ما نهاكم عنه .

فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل ان يتماسا فمن لم يستطع فاطعام ستين مسكينا ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب اليم

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - جانبا من مظاهر يسره فى أحكامه فقال : ( فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ) .أى ، فمن لم يجد منكم - أيها المؤمنون - رقبة يعتقها ، أو يجد المال الذى يشترى به الرقبة فيعتقها . . . فعليه فى هذه الحالة ، أن يصوم شهرين متتابعين من قبل أن يستمتع أحدهما بالآخر .( فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ) أى : فمن لم يستطع أن يصوم شهرين متتابعين ، لسبب من الأسباب كمرض أو غيره فعليه فى هذه الحالة أن يطعم ستين مسكينا ، بأن يقدم لهم طعاما يكفى لغدائهم وعشائهم بصورة مشبعة واسم الإشارة فى قوله : ( ذَلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بالله وَرَسُولِهِ ) إشارة.

إلى ما سبق الحديث عنه ، من تشريع يتعلق بالظهار . ومحله إما الرفع على
الابتداء ، أو النصب بمضمر معلل بما بعده .أى : ذلك واقع ، أو فعلنا ذلك
ليزداد إيمانكم بالله ورسوله ، وعملكم بشريعة الإسلام ، وتنفيذكم للتكاليف
التى كلفكم الله - تعالى - بها .( وَتِلْكَ حُدُودُ الله وَلِلْكَافِرِينَ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ) أى : وتلك الأحكام التى ذكرناها لكم هى حدود الله -
تعالى - التى لا يجوز تعديها ، فالزموها وقفوا عندها ، وللكافرين الذين
يتعدونها ولا يقفون عندها ، عذاب شديد الألم على من ينزل به .هذا ، ومن
الأحكام والآداب التى أخذها العلماء من هذه الآيات ما يأتى :1 - أن الدعاء
- متى صدر عن لسان صادق ، وعن قلب عامر باليقين . . . أجابه الله - تعالى
لصاحبه فى الحال أو فى الوقت الذى يريده - سبحانه - .والدليل على ذلك أن
السيدة خولة بنت ثعلبة ، عندما تضرعت إلى الله - تعالى - بالدعاء ، أن يكشف
، كربها ، وأن يحل قضيتها . . . أجاب - سبحاه - دعاءها ، وأنزل قرآنا يتلى
: وأحكاما يعمل بها فى شأن الظهار .ورضى الله عن السيدة عائشة فقد قالت
- الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة تشكو إلى رسول الله
صلى الله عليه وسلم - وأنا فى ناحية البيت . ما أسمع ما تقول ، فأنزل
الله - عز وجل - : ( قَدْ سَمِعَ الله قَوْلَ التي تُجَادِلُكَ فِي
زَوْجِهَا .. ) الآيات .وقال القرطبى : " المرأة التى اشتكت هى خولة بنت
ثعلبة . . . وقد مر بها عمر بن الخطاب فى خلافته ، والناس معه فاستوقفته
طويلا ووعظته وقالت : يا عمر قد كنت تدعى عميرا ، ثم قيل لك يا عمر ، ثم
قيل لك يا أمير المؤمنين ، فاتق الله يا عمر ، فإن من أيقن بالموت خاف
الفوت ، ومن أيقن الحساب خاف العذاب .فقيل له : يا أمير المؤمنين ، أتقف
هذا الوقوف لتلك المرأة العجوز؟ فقال : والله لو حبستنى من أول النهار إلى
، آخره لا زلت إلا للصلاة المكتوبة . أتدرون من هذه؟ إنها خولة بنت ثعلبة
سمع الله قولها من فوق سبع سماوات ، أيسمع رب العالمين قولها ولا يسمعه عمر
أخذ العلماء من قوله - تعالى - : ( الذين يُظَاهِرُونَ مِنكُمْ مِّن - 2. "
نِّسَآئِهِمْ . . . ) أنه ليس للنساء ظهار ، فلو ظاهرت امرأة من زوجها لم
يلزمها شىء . . . لأن الحل والعقد ، والتحليل والتحريم فى النكاح ، إنما هو
بيد الرجل لا بيد المرأة .ويرى بعضهم أن عليها كفارة يمين ، ولا يحول قولها
هذا بينها وبين زوجها من مجامعتها . كما أخذ الحنفية والحنابلة والمالكية
من هذه الآية ، أن الظهار خاص بالمسلمين ، لأنهم هم المخاطبون ، ولأن غيرهم
من الذميين ليسوا من أهل الكفارة .وقال الشافعية : كما يصح طلاق الذمى
وتترتب عليه أحكامه ، يصح ظهار الذمى وتترتب عليه أحكامه . . . كذلك أخذ
العلماء من هذه الآية : صحة ظهار العبد من زوجته ، لأن أحكام النكاح فى حقه
ثابتة ، وإذا تعذر عليه العتق والإطعام . فإنه قادر على الصوم .3 - يؤخذ من
قوله - تعالى - : ( وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَراً مِّنَ القول
وَزُوراً ) أن الظهار حرام ، لأن الله - تعالى - قد وصفه بأنه منكر من
القول ، وبأنه زور .والفعل الذى يوصف بهذا الوصف ، يجب على المؤمن أن يتنزه
عنه .4 - يرى الحنفية والظاهرية أنه يكفى فى الكفارة بالنسبة للظهار تحرير
رقبة حتى ولو كانت كافرة ، لأن الله - تعالى - يقول : ( فَتَحْرِيرُ
رَقَبَةٍ ) ولو كان الإيمان شرطا لبينه كما بينه فى كفارة القتل . فوجب أن
يطلق ما أطلقه ، وأن يقيد ما قيده ، ويعمل بكل منهما فى موضعه .ويرى جمهور
الفقهاء اشتراط الإيمان فى الرقبة ، لأنه من المعروف حمل المطلق على المقيد
إذا كان من جنسه ، وما دام قد ورد النص على كون الرقبة مؤمنة فى بعض
الآيات ، فيجب حمل بقية الآيات على ذلك .5 - دل قوله - تعالى - ( مِّن
قَبْلِ أن يَتَمَآسَّا ) على حرمة الجماع قبل التكفير .وألحق بعضهم
بالجماع دواعيه من التقبيل ونحوه ، لأن الأصل فى الأحكام أنه إذا حرم شىء
منها ، أن يلحق بذلك الشىء المحرم ما يوصل إليه إذ طريق المحرم محرم .ويرى
، بعضهم أن المحرم إنما هو الجماع فقط ، لأن حرمة ليست لمعنى يخل بالنكاح
وعليه فلا يلزم من تحريم الجماع تحريم دواعيه ، فإن الحائض يحرم جماعها دون
دواعيه .قال القرطبى : ولا يقرب المظاهر امرأته ولا يباشرها ولا يتلذذ بشىء
، حتى يُكَفِّر ، خلافا للشافعى فى أحد قوليه . . . فإن وطئها قبل أن يكفر
استغفر الله - تعالى - وأمسك عنها حتى يكفر كفارة واحدة .وقال مجاهد وغيره
عليه كفارتان .6 - قوله - تعالى - : ( فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ :
مُتَتَابِعَيْنِ . . ) صريح فى وجوب تتابع الصوم من غير انقطاع بين الأيام
فلو أفطر يوما من الشهرين من غير عذر انقطع التتابع ، ولزمه استئناف
الصوم من جديد .أما الإفطار بعذر - كمرض ونحوه - فيرى بعضهم وجوب الاستئناف
لزوال التتابع الذى صرحت به الآية .ويرى فريق آخر من العلماء ، إن
الإفطار بعذر لا يمنع التتابع .7 - أخذ العلماء من قوله - تعالى - ( فَمَن
لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ) أن المطلوب من المظاهر
أن يطعم هؤلاء المساكين إطعاما يشبعهم فى الغداء والعشاء ، سواء أكان ذلك
بالتمليك أم بالإباحة ، فأيهما وقع من المكفر أجزأه ، وسواء أطعمهم جملة أم
متفرقين .وأوجب الشافعية تمليك المساكين . . . بأن يملك لكل مسكين مُدّا
أو صاعا من غالب قوت البلد الذى يسكنه من عليه الكفارة .أما حكم من عجز عن
الكفارة ، فيرى جمهور العلماء أنها لا تسقط عنه ، بل تستقر فى ذمته حتى

يتمكن من أدائها ، كسائر الديون والحقوق ، فإنها لا تسقط ، وإنما تبقى فى
- ذمة من عليه ، حتى يتمكن من أدائها .قال القرطبى : " وقد ذكر الله
تعالى - الكفارة هنا مرتبة ، فلا سبيل إلى الصيام إلا عند العجز عن الرقبة
، وكذلك لا سبيل إلى الإطعام إلا عند عدم الاستطاعة على الصيام " .هذا ،
ومن أراد التوسع فى هذه الأحكام الفقهية ، فعليه بكتب الفروع وببعض كتب
. التفسير

ان الذين يحادون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم وقد انزلنا ايات
بينات وللكافرين عذاب مهين

، كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة الذين يحاربون الله ورسوله
ولا يدركون أنه - سبحانه - معهم أينما كانوا ، ويعلم ما يتناجون به من إثم
وعدوان ومعصية للرسول - صلى الله عليه وسلم - فقال - تعالى - : ( إِنَّ
الذين يُحَآدُّونَ . . . ) .قوله - سبحانه - : ( يُحَآدُّونَ ) من المحادة
- بمعنى المعاداة والمباغضة ، وأصلها أن تكون أنت فى حد - أى : فى جانب
) : وعدوك فى حد آخر ، فكنى بها عن المعاداة لأنها لازمة لها .وقوله
- كُبِتُواْ ) من الكبت بمعنى الخزى والذل ، يقال : كبت الله العدو كبتاً
من باب ضرب - إذا أهانه وأذله وأخزاه .قال الجمل : والذين يحادون الله هم
الكافرون ، وهذه الاية وردت فى غزوة الأحزاب .والمقصود منها البشارة لرسول
الله - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين ، بأن أعداءهم المتحزبين القادمين
عليهم ، سيصيبهم الكبت والذل ، وسيتفرق جمعهم . . .والمعنى : إن الذين
يحاربون دين الإسلام الذى شرعه الله - تعالى - . وجاء به رسوله - صلى الله
عليه وسلم - ( كُبِتُواْ ) وأصابهم الخزى والذل ( كَمَا كُبِتَ الذين مِن
قَبْلِهِمْ ) من أعداء الحق .وأوثر هنا الفعل ( يُحَآدُّونَ ) لوقوعه عقب
الكلام عن حدود الله - تعالى - فى قوله - عز وجل - وتلك حدود الله
، وللكافرين عذاب أليم .وقوله - تعالى - : ( كُبِتُواْ ) بمعنى سيكبتون
وعبر عن ذلك بالماضى ، للإشعار بتحقق الذل والخسران ، لأولئك المتحزبين
الذين جمعوا جموعهم لمحاربة الله ورسوله .وقد حقق الله - تعالى - وعده ، إذ
ردهم بغيظهم دون أن ينالوا خيرا .وجملة : ( وَقَدْ أَنزَلْنَآ آيَاتٍ
بَيِّنَاتٍ . . ) حال من الضمير فى ( كُبِتُواْ . . ) أى : كبتوا لمجادلتهم
للحق ، والحال أنا قد أنزلنا آيات واضحات ، تدل على صدق الرسول - صلى الله
عليه وسلم - فيما جاء به من عند ربه ، وتشهد بأن أعداءه على الباطل والضلال
- الذين أعرضوا عن دعوة الرسول - صلى الله عليه وسلم ( وَلِلْكَافِرِينَ ).
. وحاربوها ( عَذَابٌ مُّهِينٌ ) أى عذاب يهينهم ويذلهم ويخزيهم

يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا احصاه الله ونسوه والله على كل
شيء شهيد

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ الله جَمِيعاً )
يصح أن يكون متعلقاً بقوله : ( مُّهِينٌ ) كما يصح أن يكون منصوباً بفعل
- مقدر .أى : اذكر - أيها العاقل - لتتعظ وتعتبر ، يوم يبعث الله - تعالى
هؤلاء الكافرين جميعا من قبورهم ، فينبئهم ويخبرهم بما عملوا من أعمال سيئة
والمراد بالإنباء فى قوله : ( فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عملوا ) المجازاة.
والمحاسبة وإنزال حكمه بهم .وجملة : ( أَحْصَاهُ الله ) مستأنفة ، لأنها
بمنزلة الجواب عما قبلها ، فكأن سائلا سأل وقال : كيف ينبئهم الله
بأعمالهم؟ فكان الجواب : أحصى الله - تعلاى - عليهم عملهم ، وسجله عليهم
تسجيلا تاما .وجملة ( وَنَسُوهُ ) حال من مفعول ( أحصى ) أى : والحال أنهم
قد نسوا ما عملوه ، لتهاونهم به حين اقترفوه ، ولاعتقادهم بأنهم لن يسألوا
- عنه يوم القيامة ، فهم قد أنكروا البعث والحساب والثواب والعقاب .ثم ختم
: سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ( والله على كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ) أى
والله - تعالى - مشاهد لكل شىء فى هذا الكون ، ولا تخفى عليه خافية من
أحوال خلقه .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( وَوُضِعَ الكتاب فَتَرَى
المجرمين مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ ياويلتنا مَالِ هذا الكتاب
لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُواْ
مَا عَمِلُواْ حَاضِراً وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ).

الم تر ان الله يعلم ما في السماوات وما في الارض ما يكون من نجوى ثلاثة
الا هو رابعهم ولا خمسة الا هو سادسهم ولا ادنى من ذلك ولا اكثر الا هو
معهم اين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ان الله بكل شيء عليم

كما فسرها الوسيط ثم أقام - سبحانه - الأدلة على شمول علمه فقال : ( أَلَمْ
تَرَ أَنَّ الله يَعْلَمُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض مَا يَكُونُ
) : مِن نجوى ثَلاَثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ ) .والاستفهام فى قوله
. . . أَلَمْ تَرَ . . . ) للتقرير ، والرؤية بمعنى العلم والإدراك القلبى

: والخطاب لكل من هو أهل له .والنجوى : اسم مصدر بمعنى المسارة ، يقال
: نجوته نجوا ونجوى وناجيته مناجاة ، أى : ساررته بكلام على انفراد ، وأصله
أن تخلو بمن تناجيه بسر معين فى نجوة من الأرض ، أى : فى مكان مرتفع منفصل
عما حوله .وقيل : أصله من النجاة ، لأن الإسرار بالشىء فيه معاونة على
النجاة .وتطلق النجوى على القوم المتناجين ، كما فى الآية التى معنا .قال
الآلوسى : وقوله - تعالى - : ( مَا يَكُونُ مِن نجوى ثَلاَثَةٍ إِلاَّ هُوَ
" رَابِعُهُمْ ) استئناف مقرر لما قبله من سعة علمه - تعالى - ، و " يكون
من كان التامة . و " من " مزيدة و " نجوى " فاعل ، وإضافتها إلى ثلاثة من
إضافة المصدر إلى فاعله . . . والاستثناء فى قوله ( إِلاَّ هُوَ
رَابِعُهُمْ ) مفرغ من أهم الأحوال . . .والمعنى : لقد علمت - أيها
، العاقل - علماً لا يخالطه شك أو تردد ، أن الله - تعالى - يعلم علما تاما
- ما فى السموات وما فى الأرض من كائنات مختلفة الأجناس والأنواع . . وأنه
سبحانه - ما يقع من تناجى ثلاثة فيما بينهم إلا وهو تعالى - يعلمه ، كأنه
). حاضر معهم ، ومشاهد لهم ، كما يعلمه الرابع حين يكون معهم فى التناجى
وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ ) أى : ولا يكون التناجى بين خمسة
إلا وهو - سبحانه - معهم ، يعلم ما يتناجون به كما يعلم ذلك سادسهم فيما لو
كان التناجى بين ستة .وقوله - تعالى - : ( وَلاَ أدنى مِن ذَلِكَ وَلاَ
أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ) بيان لشمول علمه
- لجميع الأحداث .أى : ولا يقع التناجى بين ما هو أقل من ذلك العدد أو أكثر
كالاثنين والستة - إلا وهو - سبحانه - يعلم علما تاما ما يجرى بينهم فى أى
مكان كانوا ، وعلى أية حال وجدوا .( ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ
يَوْمَ القيامة ) أى : ثم يخبرهم - سبحانه - يوم القيامة بما عملوه فى
الدنيا من أعمال كبيرة أو صغيرة ، ويجازيهم عليها بما يستحقونه من ثواب أو
عقاب .( إِنَّ الله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ) فهو - سبحانه -لا يخفى عليه
شىء فى الأرض ولا فى السماء .والمقصود بهذه الآية الكريمة ، بيان شمول علم
الله - تعالى - لكل شىء ، وأنه - سبحانه - يحصى على الناس أعمالهم إحصاء
، الحاضر معهم ، المشاهد لهم ، الذى لا يعزب عنه شىء من حركاتهم أو سكناتهم
ولذا افتتح - سبحانه - الآية بالعلم ، واختتمها بالعلم - أيضا - .قال
: الإمام الرازى ما ملخصه : ذكر - سبحانه - الثلاثة والخمسة لوجوه : أحدها
أن هذه إشارة إلى كمال رحمته ، وذلك لأن الثلاثة إذا اجتمعوا ، فإذا أخذ
اثنان فى التناجى والمشاورة بقى الواحد ضائعا وحيداً ، فيضيق قلبه فيقول
الله - تعالى - له : أنا جليسك وأنيسك .وثانيها : أن الآية نزلت فى قوم من
المنافقين ، اجتمعوا على التناجى مغايظة للمؤمنين ، وكانوا على هذين
العددين : أى كانوا فى مرة ثلاثة وفى مرة أخرى خمسة - فنزلت الآية الكريمة
بيانا للواقع .ويبدو لنا ان ذكر العدد إنما هو من باب التمثيل ، وأن
المقصود الأصلى من الآية الكريمة ، بيان أن علم الله - تعالى - يشمل كل
كبير وصغير ، وكثير وقليل ، ولذا قال - سبحانه - : ( وَلاَ أدنى مِن ذَلِكَ
: وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ) .قال القرطبى
قال الفراء : المعنى غير مقصود ، والعدد غير مقصودن لأنه - تعالى - إنما
، قصد - وهو أعلم - أنه مع كل عدد قل أو كثر ، يعلم ما يقولون سراً وجهراً
. . ولا تخفى عليه خافية ، فمن أجل ذلك اكتفى بذكر بعض العدد ، دون بعض

الم تر الى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالاثم
والعدوان ومعصيت الرسول واذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون في
انفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير

كما فسرها الوسيط ثم عجّب الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - من
حال قوم يؤثرون الغى على الرشد ، ويُنصحون فلا يستجيبون للنصيحة ، ويُنهون
عن الشرور فيأبون إلا الانغماس فيها ، فقال - تعالى - : ( أَلَمْ تَرَ
إِلَى الذين نُهُواْ عَنِ النجوى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ
وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإثم والعدوان وَمَعْصِيَتِ الرسول ) .قال الآلوسى : قال
، ابن عباس : نزلت فى اليهود والمنافقين ، كانوا يتناجون دون المؤمنين
وينظرون إليهم ويتغامزون بأعينهم عليهم ، يوهمونهم عند أقاربه أنهم أصابهم
- شر ، فلما كثر ذلك منهم شكا المؤمنون إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم
فنهاهم عن التناجى دون المؤمنين ، فعادوا لمثل فعلهم .والخطاب للرسول - صلى
الله عليه وسلم - والهمزة للتعجب من حالهم ، وصيغة المضارع للدلالة على
تكرار فعلهم ، وتجدده ، واستحضار صورته الغريبة .والمعنى : إن شئت أن
تعجب - أيها الرسول الكريم - فاعجب من حال هؤلاء اليهود والمنافقين الذين
نهيتهم أنت عن التناجى فيما بينهم ، بما يقلق المؤمنين ويغيظهم . . ولكنهم
لم يستجيبوا لنصحك ونهيك ، بل استمروا على تناجيهم بما هو إثم وعدوان
: - ومعصية لك ، ولما جئتهم به من عند الله - تعالى - .وعبر بقوله - تعالى
للإشعار بأنهم قوم لا تؤثر فيهم ( ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ )
النصائح وإنما هم يستمعون إليها ، ثم يهجرون العمل بها .ويعودون إلى فجورهم
، وفسقهم .ووصف تناجيهم بأنه كان مشتملا على الإثم والعدوان ومعصية الرسول

لا على الإثم فقط أو على العدوان فقط . . . لبيان أن تناجيهم مشتمل على كل أنواع السوء والفحشاء ، فهم يتناجون بكلام هو إثم وشر فى ذاته ، وبأقوال مشتملة على ظلم المؤمنين والاعتداء على دينهم وعلى أعراضهم ، وبأفعال هى معصية للرسول - صلى الله عليه وسلم - ، لأنهم لم يستجيبوا لنهيه إياهم عن المناجاة بما يؤذى المؤمنين ويحزنهم . . . بل استمروا فى طغيانهم يعمهون والباء فى قوله : ( بالإثم ) للملابسة ، أى يتناجون متلبسين بالإثم. وبالعدوان وبمعصية الرسول - صلى الله عليه وسلم - .ثم بين - سبحانه - أن هؤلاء المنافقين ومن لف لفهم من اليهود ، لم يكتفوا بتلك المناجاة القبيحة التى كانوا يديرونها فيما بينهم ، لإغاظة المؤمنين ، بل أضافوا إلى ذلك النطق أمام الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالكلام السيىء وبالعبارات التى تدل على سوء طويتهم ، فقال - تعالى - : ( وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ الله ) .أى : وإذا جاء هؤلاء المنافقين واليهود إلى مجلسك - أيها الرسول الكريم - ألقوا إليك بتحية ، هذه التحية لم يأذن بها الله - تعالى - ولم يخاطبك بها .وقد كان المافقون عندما يدخلون على الرسول - صلى الله عليه وسلم لا يقولون له كلمة : " السلام عليكم " - وهى تحية الإسلام ، إنما يقولون له : أنعم صباحا أو مساء . . . متجنبين النطق بتحية الإسلام ، ومستعملين تحية الجاهلية .روى الشيخان عن عائشة : " أن ناسا من اليهود ، دخلوا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالوا : السام - أى : الموت - عليك يا أبا القاسم . فقال - صلى الله عليه وسلم - وعليكم " .قالت عائشة : وقلت : عليكم السام ولعنكم الله وغضب عليكم .فقال صلى الله عليه وسلم - يا عائشة إن الله لا يحب الفاحش والمتفحش .فقلت : ألا تسمعهم يقولون : السام؟ فقال - صلى الله عليه وسلم - " أو سمعت قولى : عليكم " فأنزل الله - تعالى - ( وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ الله ) " .ثم بين - سبحانه - رذيلة أخرى من رذائلهم المتعددة فقال : ( وَيَقُولُونَ في أَنفُسِهِمْ لَوْلاَ يُعَذِّبُنَا الله بِمَا نَقُولُ ) .والمراد بأنفسهم هنا : أى فيما بينهم وفى مجامعهم ، أو فيما بينهم وبين أنفسهم .أى : إذا جاءك هؤلاء المنافقون ومن على شاكلتهم فى الضلال ، نطقوا أمامك بتحية لم يحيك بها الله - تعالى - ولا يكتفون بذلك ، بل يقولون فيما بينهم على سبيل التباهى والجحود للحق ( لَوْلاَ يُعَذِّبُنَا الله بِمَا نَقُولُ ) أى : هلا يعذبنا الله بسبب ما قلناه لو كان محمداً - صلى الله عليه وسلم - رسولا من عنده - تعالى - أى : أنهم ينكرون نبوته - صلى الله عليه وسلم - لأنها - فى زعمهم لو كانت حقا ، لعذبهم الله - تعالى - بسبب إساءتهم إليه ، وإعراضهم عن نهيه لهم .وقد رد الله - تعالى - عليهم بما يكبتهم ، وبما يسلى نبيه - صلى الله عليه وسلم - فقال : ( حَسْبُهُمْ جَهَنّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ المصير ) .أى :لا تحزن - أيها الرسول الكريم - لمسالك هؤلاء المنافقين معك ومع أصحابك ، فإن هؤلاء المنافقين ومن لف لفهم ، كافيهم من العذاب جهنم يصلونها ويا قسون حرها . فبئس المصير جهنم لو كانوا يعلمون ،

يا ايها الذين امنوا اذا تناجيتم فلا تتناجوا بالاثم والعدوان ومعصيت الرسول وتناجوا بالبر والتقوى واتقوا الله الذي اليه تحشرون

كما فسرها الوسيط وبعد أن فضح الله - تعلاى - المنافقين ومن على شاكلتهم فى الكفر والضلال ، وبين سوء عاقبتهم بسبب مسالكهم الخبيثة . . . بعد كل ذلك وجه الله - تعالى - ثلاث نداءات إلى المؤمنين ، أدبهم فيها بأدبه السامى . فقال - تعالى - : ( ياأيها الذين آمنوا إِذَا . . . ) .قوله - تعالى . . - تعليم وإرشاد منه - سبحانه ( ياأيها الذين آمنوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ ) : للمؤمنين ، لكى يكون حديثهم فيما بينهم ، يقوم على الخير لا على الشر ، وعلى الطاعة لا على المعصية ، وعلى البر والتقوى لا على الإثم والعدوان ، حتى لا يتشبهوا بالمنافقين ، الذين كانوا على النقيض من ذلك .أى : يا من آمنتم بالله - تعالى - حق الإيمان ، ( إِذَا تَنَاجَيْتُمْ ) بأن أسر بعضكم إلى بعض حديثا ( فَلاَ تَتَنَاجَوْاْ بِالإثم والعدوان وَمَعْصِيَتِ الرسول ) كما هو شأن المنافقين ومن على شاكلتهم فى الكفر والضلال .( وَتَنَاجَوْاْ ) فيما بينكم ( بالبر والتقوى ) والبر ضد الإثم والعدوان ، وهو يعم جميع ( أفعال الخير التى أمر الله - تعالى - بها .والتقوى : الامتثال لأمر الله - تعالى - وصيانة النفس عن كل مالا يرضاه .ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ( واتقوا الله الذي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ) أى : وراقبوا الله - تعالى - فى كل أحوالكم ، فإنه وحده يكون مرجعكم يوم القيامة ، وسيبعثكم ويجمعكم للحساب والجزاء .

انما النجوى من الشيطان ليحزن الذين امنوا وليس بضارهم شيئا الا باذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون

كما فسرها الوسيط والمراد بالنجوى فى قوله - تعالى - بعد ذلك : ( إِنّمَا

النجوى مِنَ الشيطان لِيَحْزُنَ الذين آمَنُواْ . . . ) : نجوى المنافقين
) : فيما بينهم ، وهى التى عبر عنها - سبحانه - قبل ذلك بقوله
- وَيَتَنَاجَوْنَ بالإثم والعدوان وَمَعْصِيَتِ الرسول ) فأل فى قوله
تعالى - : ( النجوى ) للعهد ، أى : إنما النجوى المعهودة التى كان يتناجى
المنافقون بها فيما بينهم ، كائنة من الشيطان لا من غيره ، لأنه هو الذى
حرضهم وأغراهم ، بأن يتساروا بالإثم والعدوان .وقوله : ( لِيَحْزُنَ الذين
آمَنُواْ ) قرأ الجمهور : ( لِيَحْزُنَ ) - بفتح الياء وضم الزاى - مضارع
حزن ، فيكون ( الذين آمَنُواْ ) فاعل ، والحزن : الهم والغم .أى : زين
الشيطان للمنافقين هذه النجوى السيئة ، لكى يحزن المؤمنون ويغتموا ، بسبب
ظنهم أن من وراء هذه النجوى أخبارا سيئة تتعلق بهم أو بذويهم .وقرأ نافع
) لِيُحْزِنَ ) - بضم الياء وكسر الزاى - فيكون ( الذين آمَنُواْ ) مفعولا
. أى : فعل الشيطان ما فعل مع المنافقين ، لكى يدخل الحزن والغم على المؤمنين
، وأسند - سبحانه - النجوى إلى الشيطان ، باعتبار أنه هو الذى يوسوس بها .
ويزينها فى قلوب هؤلاء المنافقين وأشباههم .وجملة : ( وَلَيْسَ
، بِضَآرِّهِمْ شَيْئاً إِلاَّ بِإِذْنِ الله ) معترضة لتثبيت المؤمنين
، وتسليتهم عما أصابهم من المنافقين .واسم ليس : الشيطان أو التناجى
والاستثناء مفرغ من أهم الأحوال ، و " شيئا " منصوب على المفعول المطلق .أى
لا تحزنوا - أيها المؤمنون - لمسالك المنافقين معكم ، ولا تخافوا من :
تناجيهم فيما بينهم ، فإنها نجوى زينها لهم الشيطان ، واعلموا أن كيد
- الشيطان لن يضركم شيئا من الضرر فى حال من الأحوال إلى فى حال إرادة الله
تعالى - ومشيئته .وما دام الأمر كما بينت لكم ، فاجعلوا توكلكم - أيها
المؤمنون - على الله - تعالى - وحده ، ولا تبالوا بالمنافقين ، ولا
بتناجيهم ، ولا بما يسوله الشيطان لهم من قبائح ، فإن كل شىء بقضاء الله
وقدره .قال الآلوسى ما ملخصه : وحاصل هذا الكلام أن ما يتناجى المنافقون به
مما يحزن المؤمنين . إن وقع فهو إرادة الله - تعالى - ومشيئته ، ولا دخل
، للمنافقين فيه ، وما دام الأمر كذلك ، فلا يكترث المؤمنون بتناجيهم
وليتوكلوا على الله - عز وجل - ولا يخافوا من تناجيهم .ثم إن التناجى بين
المؤمنين قد يكون منهيا عنه ، فقد أخرج الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود أن
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : " إذا كنتم ثلاثة ، فلا يتناجى
اثنان دون الآخر ، حتى تختلطوا بالناس من أجل أن ذلك يحزنه " .ومثل التناجى
فى ذلك ، أن يتكلم اثنان بحضور ثالث بلغة لا يفهمها الثالث ، إن كان يحزنه
ذلك .وروى الإمام مسلم عن ابن عمر قال : قال رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - : " إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث إلا بإذنه ، فإن
ذلك يحزنه " .والخلاصة أن تعاليم الإسلام ، تنهى عن التناجى فى الحالات
التى توقع الريبة فى القلوب ، وتزعزع الثقة بين الأفراد والجماعات .وهذا
النهى لون من الأدب الحكيم الذى يحفظ للمؤمنين مودتهم ومحبتهم ويبعد عن
نفوسهم الشكوك والريب ، ويطرد عن قلوبهم نزغات الشيطان الذي يجرى من ابن
. آدم مجرى الدم

يا ايها الذين امنوا اذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم
واذا قيل انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين امنوا منكم والذين اوتوا العلم
درجات والله بما تعملون خبير

) : كما فسرها الوسيط ثم لفت - سبحانه - أنظار المؤمنين إلى أدب رفيع فقال
ياأيها الذين آمَنُواْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِي المجالس
فافسحوا يَفْسَحِ الله لَكُمْ ) .وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية
، روايات منها ما روى عن قتادة أنه قال : نزلت هذه الآية فى مجالس الذكر
وذلك أنهم كانوا إذا رأوا أحدهم مقبلا ، ضنوا بمجالسهم عند رسول الله - صلى
" : الله عليه وسلم - فأمرهم الله أن يفسح بعضهم لبعض .وقال مقاتل بن حيان
أنزلت هذه الآية يوم الجمعة ، وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يومئذ
، فى الصفة ، وفى المكان ضيق ، وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار
فجاء ناس من أهل بدر وقد سُبِقوا فى المجالس فقاموا حيال رسول الله - صلى
الله عليه وسلم فقالوا السلام عليكم أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، فرد
النبى - صلى الله عليه وسلم - ثم سلموا على القوم بعد ذلك ، فردوا عليهم
السلام ، فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم .فعرف النبى - صلى الله
عليه وسلم - ما يحملهم على القيام فلم يُفْسَح لهم ، فشق ذلك عليه ، فقال
لمن حوله من المهاجرين والأنصار من غير أهل بدر : قم يا فلان ، قم يا فلان
فشق ذلك على من أقيم من مجلسه وعرف - صلى الله عليه وسلم - الكراهة فى.
وجوههم .فقال المنافقون : ألستم تزعمون أن صاحبكم هذا يعدل بين الناس؟
والله ما رأيناه قد عدل على هؤلاء . . . فبلغنا أن رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - قال : " رحم الله رجلا يفسح لأخيه " فجعلوا يقومون بعد ذلك
سراعا "، ونزلت هذه الآية .وقوله ( تَفَسَّحُواْ ) من التفسح ، وهو تفعل
بمعنى التوسع ، يقال : فسح فلان لفلان فى المجلس - من باب نفع - إذا أوجد
، له فسحة فى المكان ليجلس فيه .والمعنى : يا من آمنتم بالله حق الإيمان

إذا قيل لكم توسعوا فى مجالسكم لتسع أكبر قدر من إخوانكم فامتثلوا ، واستجيبوا . لأن فعلكم هذا يؤدى إلى أن يفسح الله - تعالى - لكم فى رحمته ) وفى منازلكم فى الجنة ، وفى كل شىء تحبونه .وحذف - سبحانه - متعلق يَفْسَحِ الله لَكُمْ ) ليشمل كل ما يرجو الناس أن يفسح الله لهم فيه من رزق ، ورحمة ، وخير دنيوى وأخروى .والمراد بالمجالس : مجالس الخير ، كمجالس الذكر ، والجهاد ، والصلاة ، وطلب العلم ، وغير ذلك من المجالس التى يحبها ، " الله - تعالى- .وقراءة الجمهور :" إذا قيل لكم تفسحوا فى المجلس . بالإفراد على إرادة الجنس . . أى : قيل لم تفسحوا فى أى مجلس خير فافسحوا لأن هذا التوسع يؤدى إلى ازدياد المحبة والمودة بينكم ، وقرأ عاصم . . ) : بصيغة الجمع .ثم أرشدهم - سبحانه - إلى نوع آخر من الأدب السامى فقال : وَإِذَا قِيلَ انشزوا فَانشُزُواْ ) .والنشوز الارتفاع عن الأرض . يقال نشَز ينشُز وينشِز - من بابى نصر وضرب - إذا ارتفع من مكانه .أى : وإذا قيل لكم - أيها المؤمنون - أنهضوا من أماكنكم ، للتوسعة على المقبلين عليكم ، فانهضوا ولا تتكاسلوا .وقوله : ( يَرْفَعِ الله الذين آمَنُواْ مِنكُمْ والذين أُوتُواْ العلم دَرَجَاتٍ ) جواب الأمر فى قوله : ( فَانشُزُواْ ) وعطف " الذين أوتوا العلم " على " الذين آمنوا " من باب عطف الخاص على العام ، على سبيل التعظيم والتنويه بقدر العلماء .أى : وإذا قيل لكم ارتفعوا عن مواضعكم فى المجالس فارتفعوا ، فإنكم إن تفعلوا ذلك ، يرفع الله - تعالى - المؤمنين الصادقين منكم درجات عظيمة فى الآخرة ، ويرفع العلماء منكم درجات أعظم وأكبر .ويرى بعضهم أن المراد بالموصولين واحد ، والعطف فى الآية لتنزيل التغاير فى الصفات ، منزلة التغاير فى الذات والمعنى : يرفع الله الذين آمنوا العالمين درجات عظيمة لا يعلم مقدارها . إلا الله - تعالى - .ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بما يدل على شمول علمه فقال : ( والله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ) .أى : والله - تعالى - مطلع اطلاعا تاما على نواياكم ، وعلى ظواهركم وبواطنكم ، فاحذروا مخالفة أمره ، واتبعوا ما أرشدكم إليه من أدب وسلوك .هذا : ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآية الكريمة : أن إفساح المؤمن لأخيه المؤمن فى المجلس ، من الآداب الإسلامية التى ينبغى التحلى بها ، لأن هذا الفعل بجانب رفعه للدرجات فإنه سبب للتواد والتعاطف والتراحم .قال القرطبى ما ملخصه : والصحيح فى الآية أنها عامة فى كل مجلس اجتمع المسلمون فيه للخير والأجر ، سواء أكان مجلس حرب ، أم ذكر ، أم مجلس يوم الجمعة . . . ولكن بدون أذى " : فقد أخرج الشيخان عن ابن عمر أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه " .وعن ابن عمر - " أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نهى أن يقام الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه آخر ، ولكن تفسحوا وتوسعوا " " .وعلى أية حال فإن الآية الكريمة ترشد المؤمنين فى كل زمان ومكان ، إلى لون من مكارم الأخلاق ، ألا وهو التوسعة فى المجالس وتقديم أهل العلم والفضل ، وإنزالهم منازلهم التى تليق بهم فى المجالس ، كذلك أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة أنه يجوز القيام للقادم .قال. الإمام ابن كثير : وقد اختلف الفقهاء فى جواز القيام للوارد إذا جاء - على أقوال : فمنهم من رخص فى ذلك محتجا بحديث : " قوموا إلى سيدكم " .ومنهم من منع من ذلك ، محتجا بحديث : " قوموا إلى سيدكم " .ومنهم من منع من ذلك ، محتجا بحديث : " من أحب أن يتمثل له الرجال قياما . فليتبوأ مقعده من النار " ومنهم من فصل فقال : يجوز القيام للقادم من سفر ، وللحاكم فى محل ولايته. كما دل عليه قصة سعد بن معاذ ، فإنه لما استقبله البنى - صلى الله عليه وسلم - حاكما فى بنى قريظة ، فرآه مقبلا قال للمسلمين : " قوموا إلى سيدكم ، " وما ذاك إلا ليكون أنفذ لحكمه - والله أعلم - .فأما اتخاذه - أى ، القيام - دينا ، فإنه من شعار الأعاجم . . . وفى الحديث المروى فى السنن أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يجلس حيث انتهى به المجلس - ولكن حيث يجلس يكون صدر ذلك المجلس ، وكان الصحابة يجلسون منه على مراتبهم ، فالصديق عن يمينه ، وعمر عن يساره ، وبين يديه غالبا عثمان وعلى لأنهما كانا ممن يكتب الوحى ، وكان يأمرهما بذلك . .كذلك أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة فضل العلماء وسمو منزلتهم .قال صاحب الكشاف : عن عبد الله بن مسعود أنه ، كان إذا قرأ هذه الآية قال : يأيها الناس افهموا هذه الآية ، ولترغبكم فى العلم . وفى الحديث الشريف : " بين العالم والعابد مائة درجة " وفى حديث " آخر : " فضل العالم عل العابد ، كفضل القمر ليلة البدر على سائر النجوم وعن بعض الحكماء أنه قال : ليت شعرى أى شىء أدرك من فاته العلم ، وأى شىء . فات من أدرك العلم .وعن الأحنف : كل عز لم يوطد بعلم فإلى ذل يصير .

يا ايها الذين امنوا اذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ذلك خير لكم واطهر فان لم تجدوا فان الله غفور رحيم

، كما فسرها الوسيط ثم أرشدهم - سبحانه - إلى لون ثالث من الأدب السامى فناداهم للمرة الثالثة بقوله : ( ياأيها الذين آمَنُواْ إِذَا نَاجَيْتُمُ الرسول فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ

( لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ
، والمراد بقوله - تعالى - ( إِذَا نَاجَيْتُمُ ) : إذا أردتم المناجاة.
) : كما فى قوله - تعالى - ( إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصلاة ) والمراد بقوله
بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ ) أى : قبل مناجاتكم للرسول - صلى الله عليه
وسلم - بقليل ، والكلام من باب الاستعارة التمثيلية . حيث شبهت هيئة قرب
الشىء من آخر . بهيئة وصول الشخص إلى من يريد الوصول إليه ، على سبيل تشبيه
المعقول بالمحسوس .واسم الإشارة فى قوله : ( ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ
وَأَطْهَرُ ) يعود إلى تقديم الصدقة ، والجملة بمنزلة التعليل للأمر
بتقديمها .والمعنى : يا من آمنتم بالله - تعالى - حق الإيمان ، إذا أردتم
مناجاة الرسول - صلى الله عليه وسلم - والحديث معه فى أمر ما على سبيل السر
فقدموا صدقة للفقراء قبل مناجاته - صلى الله عليه وسلم - فذلك التقديم ،
خير لكم لما فيه من الثواب ، وأكثر طهرا لنفوسكم ، فإن لم تجدوا شيئا
- تتصدقون به قبل مناجاتكم له - صلى الله عليه وسلم - فلا تحزنوا فإن الله
تعالى - واسع المغفرة والرحمة .وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية
روايات ، منها : ما جاء عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه قال : نزلت
بسبب أن المسلمين كانوا يكثرون المسائل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم
حتى شقوا عليه ، فأراد الله - تعالى - أن يخفف عن نبيه - صلى الله عليه
وسلم - فلما نزلت هذه الآية ، كف كثير من الناس ، ثم وسع الله عليهم بالآية
التى بعدها .وقال بعض العلماء : إن هذا الأمر قد اشتمل على فوائد كثيرة
، منها : تعظيم أمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - وإكبار شأن مناجاته:
كأنها شىء لا ينال بسهولة .ومنها : التخفيف عن النبى - صلى الله عليه
وسلم - بالتقليل من المناجاة ، حتى يتفرغ - صلى الله عليه وسلم - للمهام
العظمى التى كلفه - سبحانه - بها .ومنها : تهوين الأمر على الفقراء الذين
قد يغلبهم الأغنياء على مجلس الرسول - صلى الله عليه وسلم - فإنهم إذا
، علموا أن قرب الأغنياء من الرسول - صلى الله عليه وسلم - ومناجاتهم له
- تسبقها الصدقة ، لم يضجروا .ومنها : عدم شغل الرسول - صلى الله عليه وسلم
بما لا يكون مهما من الأمور ، فيتفرغ للرسالة . فإن الناس وقد جبلوا على
الشح بالمال ، يقتصدون فى المناجاة التى تسبقها الصدقة .ومنها : تمييز محب
الدنيا من محب الآخرة ، فإن المال محك الدواعى .

اشفقتم ان تقدموا بين يدي نجواكم صدقات فاذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم
فاقيموا الصلاة واتوا الزكاة واطيعوا الله ورسوله والله خبير بما تعملون

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - جانبا من مظاهر لطفه بعباده فقال
( أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ
الإشفاق معناه : أن يتوقع الإنسان عدم حصوله على ما يريده والمراد به هنا.
الخوف .والاستفهام مستعمل فيما يشبه اللوم والعتاب ، لتخلف بعضهم عن :
مناجاة الرسول - صلى الله عليه وسلم - بسبب تقديم الصدقة .و" إذ " فى قوله
- ظرفية مفيدة للتعليل .والمعنى : أخفتم ( فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ ) :
- أيها المؤمنون - أن تقدموا قبل مناجاتكم للرسول - صلى الله عليه وسلم
صدقة فيصيبكم بسبب ذلك الفقر ، إذا ما واظبتم على ذلك .( فَإِذْ لَمْ
تَفْعَلُواْ وَتَابَ الله عَلَيْكُمْ ) أى : فحين لم تفعلوا ما كلفناكم به
- من تقديم الصدقة قبل مناجاتكم للرسول - صلى الله عليه وسلم - ، وتاب الله
تعالى - عليكم ، بأن رخص لكم فى هذه المناجاة بدون تقديم صدقة ، بفضلنا
، ورحمتنا - فداوموا على إقامة الصلاة ، وعلى إعطاء الزكاة لمستحقيها
- وأطيعوا الله ورسوله ، فى كل ما أمركم به أو نهاكم عنه .واعلموا أن الله
، تعالى - خبير بما تعملون ، ولا يخفى عليه شىء من أقوالكم أو أفعالكم
وسيجازى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .وقد ذكر
المفسرون أن هذه الآية ناسخ للتى قبلها ، لأنها أسقطت وجوب تقديم الصدقة
الذى أمرت به الآية السابقة .وقد لخص الإمام الآلوسى كلام العلماء فى هذه
المسألة تلخيصا حسنا فقال : " واختلف فى أن الأمر للندب أو للوجوب ، لكنه
نسخ بقوله - تعالى - : ( أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ . . ) وهو وإن
. كان متصلا به تلاوة ، لكنه غير متصل به نزولا . وقيل نسخ بآية الزكاة
والمعول عليه الأول .ولم يعين مقدار الصدقة ، ليجزىء القليل والكثير .أخرج
الترمذى عن على بن أبى طالب قال : لما نزلت ( ياأيها الذين آمَنُواْ إِذَا
( . . نَاجَيْتُمُ الرسول فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً
قال لى النبى : - صلى الله عليه وسلم - " " ما ترى فى دينار " قلت :لا.
: يطيقونه قال : " نصف دينار " قلت :لا يطيقونه ، قال : " فكم "؟ قلت
شعيرة . قال :" فإنك لزهيد " " .فلما نزلت : ( أَأَشْفَقْتُمْ أَن
تُقَدِّمُواْ . . ) قال - صلى الله عليه وسلم - : " خفف الله عن هذه الأمة
ولم يعمل بها - على المشهور - غير على - كرم الله وجهه .واختلف فى مدة "
بقاء هذا الأمر .أى : الأمر بتقديم الصدقة : فعن مقاتل : عشرة أيام .وقال
قتادة : ساعة من نهار . . .قال بعض العلماء : " والآية الناسخة متأخرة فى
النزول ، وإن كانت تالية للآية المنسوخة فى التلاوة .والظاهر - والله

أعلم - أن الحادثة من باب الابتلاء والامتحان ، ليظهر للناس محب الدنيا من محب الآخرة ، والله بكل شىء عليم " .وقال أحد العلماء : " ولا يشتم من قوله - تعالى - : ( أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ . . . ) . أن الصحابة قد وقع منهم تقصير . فإن التقصير إنما يكون إذا ثبت أنه كانت هناك مناجاة لم تصحبها صدقة ، والآية قالت : ( فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ ) أى : ما أمرتم به من الصدقة ، وقد يكون عدم الفعل ، لأنهم لم يناجوا ، فلا يكون عدم الفعل تقصيرا .وأما التعبير - بالإشفاق من جانبهم ، فلا يدل على تقصيرهم ، فقد يكون الله - تعالى - علم ، أن كثيرا منهم استكثر التصدق عند كل مناجاة فى المستقبل لو دام الوجوب فقال الله - تعالى - لهم ( أَأَشْفَقْتُمْ ) .وكذلك ليس فى قوله ( وَتَابَ الله عَلَيْكُمْ ) ما يدل على أنهم قصروا ، فإنه يحمل على أن المعنى أنه تاب عليهم برفع التكليف عنهم تخفيفا ، ومثل هذا يجوز أن يعبر عنه بالتوبة . " .

الم تر الى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون

كما فسرها الوسيط ثم تعود السورة مرة أخرى إلى الحديث عن المنافقين وأشباههم ، فتصور أحوالهم ، وتبين سوء مصيرهم ، وتكشف القناع عن الأسباب التى أدت بهم إلى الخسران والهلاك فقال - تعالى - : ( أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين . ( . . الاستفهام فى قوله - تعالى - : ( أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين تَوَلَّوْاْ . . ) للتعجيب من حال هؤلاء المنافقين ، حيث اتخذوا اليهود حلفاء لهم ، ينقلون إليهم أسرار المؤمنين .أى : ألم ينته إلى علمك - أيها الرسول الكريم - حال أولئك المنافقين ، الذين اتخذوا اليهود أولياء : يناصحونهم ويطلعونهم على أخباركم .فالمراد بالقوم الذين غضب الله عليهم اليهود ، ووصفهم بذلك للتنفير منهم ، ولبيان أن المنافقين قد بلغوا النهاية فى القبح والسوء ، حيث وَالَوْا وناصروا من غضب الله عليهم ، لا من رضى الله عنهم .ثم دمغ - سبحانه - هؤلاء المنافقين برذيلة أخرى فقال : ( مَّا هُم مِّنكُمْ وَلاَ مِنْهُمْ ) أى : أن هؤلاء المنافقين بمسلكهم هذا ، صاروا بمنزلة الذين ليسوا منكم - أيها المؤمنون - وليسوا - أيضا - منهم - أى : من اليهود .وإنما هم دائما لا مبدأ لهم ولا عقيدة ، فهم كما قال . . سبحانه - ( مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذلك لاَ إلى هؤلاء وَلاَ إِلَى هؤلاء . ( وفى الحديث الشريف : " مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين غنمين - أى المترددة ين قطيعين -لا تدرى أيهما تتبع " .قال الجمل : وقوله : ( مَّا هُم مِّنكُمْ وَلاَ مِنْهُمْ ) فيه أوجه . أحدها : أن هذه الجملة مستأنفة ، لا محل لها من الإعراب ، فقد أخبر عنهم بأنهم ليسوا من المؤمنين الخلص ولا من الكافرين الخلص ، بل هم كقوله - تعالى - : ( مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذلك . . . ) والضمير فى قوله ( مَّا هُم ) يعود على المنافقين ، وفى قوله ( مِنْهُمْ ) يعود على اليهود .الثانى : أنها حال من فاعل " تولوا " والمعنى على ما تقدم .الثالث : أنها صفة ثانية لقوله " قوما " ، وعليه يكون الضمير فى قوله :" ما هم " يعود على اليهود ، والضمير فى قوله : " منهم " يعود على المنافقين .يعنى : أن اليهود ليسوا منكم - أيها المؤمنون - ولا من المنافقين . ومع ذلك تولاهم " المنافقون " . . . إلا أن فى هذا الوجه تنافرا بين الضمائر ، فإن الضمير فى " ويحلفون " عائد على المنافقين ، وعلى الوجيهن الأولين تتحد الضمائر " .ثم دمغهم - سبحانه - برذيلة ثالثة أشد نكرا من سابقتيها فقال : ( وَيَحْلِفُونَ عَلَى الكذب وَهُمْ يَعْلَمُونَ ) أى : أنهم ينقلون إلى اليهود أسرار المؤمنين ، مع أنهم لا تربطهم باليهود . أية رابطة ، لا من دين ولا من نسب . . . وفضلا عن كل ذلك ، فإن هؤلاء المنافقين يواظبون ويستمرون على الحلف الكاذب المخالف للواقع ، والحال أنهم - يعلمون أنهم كاذبون علما لا يخالطه شك أو ريب .فأنت ترى أن الله - تعالى قد ذم هؤلاء المنافقين . بجملة من الصفات القبيحة ، التى على رأسها تعمدهم الكذب ، وإصرارهم عليه .قال صاحب الكشاف : " قوله : ( وَيَحْلِفُونَ عَلَى الكذب ) أى : يقولون : والله إنا لمسلمون ، فيحلفون على الكذب الذى هو ادعاء الإسلام ، ( وَهُمْ يَعْلَمُونَ ) ؟ قلت : الكذب أن يكون لا على وفاق المخبر عنه ، سواء علم المخبر أم لم يعلم . . . فالمعنى أنهم الذين يخبرون وخبرهم خلاف ما يخبرون عنه ، وهم عالمون بذلك معتدون له ، كمن يحلف بالغموس وقد ذكروا فى سبب نزول هذه الآية روايات منها : " أنها نزلت فى رجل. " . . يقال له : عبد الله بن نَبْتَل - وكان من المنافقين الذين يجالسون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم يرفعون حديثه إلى اليهود ، وفى يوم من الأيام كان - صلى الله عليه وسلم - جالسا فى إحدى حجراته ، فقال لمن حوله : - ، يدخل عليكم الآن رجل قلبه جبار ، وينظر بعينى شيطان " فدخل ابن نبتل " : - وكان أزرق أسمر قصيرا خفيف اللحية - فقال له - صلى الله عليه وسلم علام تشتمنى أنت وأصحابك "؟فحلف بالله ما فعل ذلك ، فقال له النبى - صلى " الله علي وسلم - :" فعلت " فانطلق فجاء بأصحابه ، فحلفوا بالله ما سبوه ،

فنزلت هذه الآية .ومن الآيات الكثيرة التى صرحت بأن المنافقين يحلفون الأيمان الكاذبة على سبيل التعمد قوله - تعالى - : ( وَسَيَحْلِفُونَ بالله لَوِ استطعنا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ والله يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ).

اعد الله لهم عذابا شديدا انهم ساء ما كانوا يعملون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما أعده لهم من عذاب فقال : ( أَعَدَّ الله لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً . . ) أى : هيأ الله - تعالى - لهؤلاء المنافقين عذابا قد بلغ النهاية فى الشدة والألم .وجملة ( إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ) تعليل لنزول العذاب الشديد بهم ، أى : إن هذا العذاب الشديد المهيأ لهم؛ سببه سوء أعمالهم فى الدنيا ، واستحبابهم العمى على الهدى .

اتخذوا ايمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله فلهم عذاب مهين

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( اتخذوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ . . ) بيان لرذيلة رابعة أو خامسة ، لا تقل في قبحهاعما سبقها من رذائل ، وقوله : ( أَيْمَانَهُمْ ) جمع يمين بمعنى الحلف وقوله : ( جُنَّةً ) من الجَنِّ بمعنى الستر عن الخاصة ، وهذه المادة وما اشتق منها تدول حول الستر والخفاء . وتطلق الجنة على الترس الذى يضعه المقاتل على صدره أن على ذراعيه ليتقى به الضربات من عدوه .ومفعول ) فَصَدُّواْ ) : محذوف للعلم به .أى : أن هؤلاء المنافقين قد اتخذوا أيمانهم الكاذبة . وهى حلفهم للمسلمين بأنهم معهم ، وبأنهم لايضمرون شرا لهم اتخذوا من كل ذلك وقاية وسترة عن المؤاخذة ، كما يتخذ المقاتل الترس وقاية له من الأذى . . .( فَصَدُّواْ ) ( عَن سَبِيلِ الله ) أى : عن دينه الحق ، وطريقه المستقيم .( فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ) أى : فترتب على تسترهم خلف الأيمان الفاجرة ، وعلى صدهم غيرهم عن الحق ، أن أعد الله - تعالى - لهم عذابا يهينهم ويذلهم .

لن تغني عنهم اموالهم ولا اولادهم من الله شيئا اولئك اصحاب النار هم فيها خالدون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ مِّنَ الله شَيْئاً . . ) رد على ما كانوا يزعمونه من أنهم لن يعذبوا ، لأنهم أكثر أموالا وأولادا من المؤمنين قال القرطبى : " قال مقاتل : قال المنافقون إن محمدا يزعم أنه ينصر يوم القيامة لقد شقينا إذاً فوالله لننصرن يوم القيامة بأنفسنا وأولادنا وأموالنا إن كانت قيامة ، فنزلت " .ومن المعروف أن عبد الله بن أبى بن سلول - زعيم المنافقين - ، كان من أغنياء المدينة ، وكان يوطن نفسه على أن يكون رئيسا للمدينة قبيل - الإسلام ، وهو القائل - كما حكى القرآن عنه : - أى ( لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى المدينة لَيُخْرِجَنَّ الأعز مِنْهَا الأذل ) أن هؤلاء المنافقين المتفاخرين بأموالهم وأولادهم ، لن تغنى عنهم أموالهم : ولا أولادهم شيئا من الغناء .( أولئك ) المنافقون هم ( أَصْحَابُ النار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ) خلودا أبديا .

يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون انهم على شيء الا انهم هم الكاذبون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - حالهم يوم القيامة ، وأنهم سيكونون على مثل حالهم فى الدنيا من الكذب والفجور . . فقال - تعالى - : ( يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ الله جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ على شَيْءٍ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الكاذبون ) .أى : اذكر - أيها الرسول الكريم - يوم يبعث الله - هؤلاء المنافقين جميعا للحساب والجزاء " فيحلفون " لله - تعالى - فى الآخرة بأنهم مسلمون " كما " كانوا يحلفون لكم " فى الدنيا بأنهم مسلمون ." ويحسبون " فى الآخرة - لغبائهم وانطماس بصائرهم " أنهم " بسبب تلك الأيمان الفاجرة " على شىء " من جلب المنفعة أو دفع المضرة .أى يتوهمون فى الآخرة أن هذه الأيمان قد تنفعهم فى تخفيف شىء من العذاب عنهم .( أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الكاذبون ) أى الذين بلغوا فى الكذب حدا لا غاية وراءه .فأنت ترى أن الآية الكريمة قد بينت أن هؤلاء المنافقين فى الدنيا ، قد بعثوا والنفاق ما زال فى قلوبهم ، وسلوكهم القبيح لا يزال متلبسا بهم . فهم لم يكتفوا بكذبهم على المؤمنين فى الدنيا ، بل وفى الآخرة - أيضا - يحلفون لله - تعالى - بأنهم كانوا مسلمين .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أن

) : - قَالُواْ واللهِ رَبِّنَا مَا كُنّا مُشْرِكِينَ ) وقوله - سبحانه
وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنّهُمْ لَكَاذِبُونَ
ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال عند تفسيره لهذه الآية : يعنى ليس العجب (
. من حلفهم لكم - فى الدنيا بأنهم مسلمون - فإنكم بشر تخفى عليكم السرائر
ولكن العجب من حلفهم لله عالم الغيب والشهادة - بأنهم كانوا مسلمين فى
الدنيا .والمراد وصفهم بالتوغل فى نفاقهم ، ومرونهم عليه ، وأن ذلك بعد
) : موتهم وبعثهم باق فيهم لا يضمحل " .وقال بعض العلماء ما ملخصه : وقوله
وَيَحْسَبُونَ أَنّهُمْ على شَيْءٍ ) حذفت صفة شىء ، لظهور معناها من
، المقام ، أى : ويحسبون أنهم على شىء نافع .وهذا يقتضى توغلهم فى النفاق
ومرونتهم عليه ، وأنه باق فى أرواحهم بعد بعثهم ، لأن نفوسهم خرجت من
الدنيا متخلقة به ، فإن النفوس إنما تكتسب تزكية أو خبثا فى عالم التكليف
وفى الحديث : أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : " إن رجلا من أهل
الجنة يستأذن ربه أن يزرع ، فيقول الله له : أولست فيما شئت؟ قال : بلى يا
ربى ولكن أحب أن أزرع ، فأسرع وبذر ، فيبادر الطرفَ نباتُه واستواؤُه
واستحصادُه أمثالَ الجبال .وكان رجل من أهل البادية عند النبى - صلى الله
، عليه وسلم - فقال : يا رسول الله لا نجد هذا الرجل إلا قرشيا أو أنصاريا
فإنهم أصحاب زرع ، فأما نحن - أى أهل البادية - فلسنا بأصحاب زرع ، فضحك
النبى - صلى الله عليه وسلم - إقرارا لما فهمه الأعرابى " .وفى حديث جابر
بن عبد الله الذى رواه الإمام مسلم فى صحيحه ، " أن النبى - صلى الله عليه
وسلم - قال : يبعث كل عبد على ما مات عليه " .قال عياض : هو عام فى كل حالة
مات عليها المرء ، وقال السيوطى : يبعث الزمار بمزماره ، وشارب الخمر بقدحه
قلت : " ثم تتجلى لهم الحقائق على ما هى عليه ، إذ تصير العلوم على.
. " الحقيقة

استحوذ عليهم الشيطان فانساهم ذكر الله اولئك حزب الشيطان الا ان حزب
الشيطان هم الخاسرون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - الأسباب التى جعلت المنافقين ينغمسون
. فى نفاقهم فقال : ( استحوذ عَلَيْهِمُ الشيطان فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ الله
، وقوله : ( استحوذ ) من الحوذ : وهو أن يتبع السائق حاذيى البعير. ( . .
. . . أى : أدبار فخذه ثم يسوقه سوقا عنيفا ، لا يستطيع البعير الفكاك منه
والمراد به هنا : شدة الاستيلاء والغلبة . . . ومنه قول السيدة عائشة فى
عمر - رضى الله عنهما - : " كان أحوذيا " أى : كان ضابطا للأمور ، ومستوليا
عليها استيلاء تاما . . .والمعنى : إن هؤلاء المنافقين قد استولى عليهم
الشيطان استيلاء تاما ، بحيث صيرهم تابعين لوساوسه وتزيينه ، فهم طوع أمره
، - ورهن إشارته ، فترتب على طاعتهم له أن أنساهم طاعة الله - تعالى ،
وحسابه ، وجزاءه ، فعاشوا حياتهم يتركون ما هو خير ، ويسرعون نحو ما هو شر
الموصوفون بتلك الصفات القبيحة ( حِزْبُ الشَّيْطَانِ ) أى ( أولئك ). . .
جنوده وأتباعه ( أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الخَاسِرُونَ ) :
خسارة لا تقاربها خسارة ، لأنهم آثروا العاجل على الآجل ، والفانى على
. . . الباقى ، والضلالا على الهدى

ان الذين يحادون الله ورسوله اولئك في الاذلين

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ببيان سنة من سننه فى
. . . خلقه ، وهى أن الذلة والصغار لأهل الباطل ، والعزة والغلبة لأهل الحق
الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه ، فقال - تعالى - : ( إِنَّ الَّذِينَ .
، - يُحَآدُّونَ . . . . ) .أى : إن الذين يحادون دين الله - تعالى
ويحاربون ما جاء به رسوله - صلى الله عليه وسلم - ، أولئك الذين يفعلون ذلك
فى الأذلين " أى : فى عداد أذل خلق الله - تعالى - وهم المنافقون ". . .
ومن لف لفهم ، من الكافرين وأهل الكتاب .وقال - سبحانه - : ( أولئك فِي
الأذلين ) للإشعار بأنهم مطروفون وكائنون ، فى ذروة أشد خلق الله ذلا
. وصغارا

كتب الله لاغلبن انا ورسلي ان الله قوي عزيز

: كما فسرها الوسيط ثم بشر - سبحانه - من هم على الحق بأعظم البشارات فقال
أى. ( كَتَبَ الله لأَغْلِبَنّ أَنَا ورسلي إِنّ الله قَوِيٌّ عَزِيزٌ )
أثبت الله - تعالى - ذلك فى اللوح المحفوظ وقضاه ، وأراد وقوعه فى الوقت :
الذى يشاؤه .فالمراد بالكتابة : القضاء والحكم . وعبر بالكتابة للمبالغة فى
- تحقق الوقوع .وقد ذكروا فى سبب نزول هذه الآية ، أنه لما فتح الله
تعالى - للمؤمنين ما فتح من الأرض ، قال المؤمنون : إنا لنرجو أن يفتح الله
لنا فارس والروم .فقال بعض المنافقين : أتظنون الروم وفارس كبعض القرى التى
، تغلبتم عليها ، والله إنهم لأكثر عددا وأشد بطشا ، من أن تظنوا فيهم ذلك

فنزلت .قال الآلوسى : ( كَتَبَ الله ) أى : أثبت فى اللوح المحفوظ ، أو قضى
) : - وحكم . . .وهذا التعبير جار مجرى القسم ، ولذا قال - سبحانه
لأَغْلِبَنّ أَنَاْ ورسلي ) أى : بالحجة والسيف وما يجرى مجراه ، أو
بأحدهما . . .( إِنَّ الله قَوِيٌّ ) على نصر رسله وأوليائه ( عَزِيزٌ )لا
يغلبه غالب بل هو القاهر فوق عباده .والمقصود بالآية الكريمة : تقرير سنة
من سننه - تعالى - التى لا تتخلف ، وأن النصر سيكون حليفا لأوليائه ، فى
الوقت الذى علمه وأراده .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( إِنَّا
لَنَنصُرُ رُسُلَنَا والذين آمَنُواْ فِي الحياة الدنيا وَيَوْمَ يَقُومُ
الأشهاد ) وقوله - تعالى - ( وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا
المرسلين إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورون وَإِنّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون ).

لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الاخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو
كانوا اباءهم او ابناءهم او اخوانهم او عشيرتهم اولئك كتب في قلوبهم
الايمان وايدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها
رضي الله عنهم ورضوا عنه اولئك حزب الله الا ان حزب الله هم المفلحون

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بهذه الآية الجامعة
لصفات المؤمنين الصادقين فقال : ( لاَّ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بالله
) : واليوم الآخر يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ الله وَرَسُولَهُ ) .وقوله
يُوَآدُّونَ ) من الموادة بمعنى حصول المودة والمحبة .أى :لا تجد - أيها
الرسول الكريم - قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر حق الإيمان ، يوالون
ويحبون من حارب دين الله - تعالى - وأعرض عن هدى رسوله .والمقصود من هذه
الآي الكريمة النهي عن موالاة المنافقين وأشباههم ، وإنما جاءت بصيغة الخبر
لأنه أقوى وآكد فى التنفير عن موالاة أعداء الله ، إذ الإتيان بصيغة ،
الخبر تشعر بأن القوم قد امتثلوا لهذا النهى ، وأن الله - سبحانه - قد أخبر
عنهم بذلك .وافتتحت الآية بقوله : ( لاَّ تَجِدُ قَوْماً ) لأن هذا
الافتتاح يثير شوق السامع لمعرفة هؤلاء القوم .وقوله : ( وَلَوْ كانوا
آبَآءَهُمْ ) تصريح بوجوب ترك هذه الموادة لمن حارب الله ورسوله ، مهما
كانت درجة قرابة هذا المحارب .أى : من شأن المؤمنين الصادقين أن يبتعدوا عن
موالاة أعداء الله ورسوله ، ولو كاه هؤلاء الأعداء . ( آبَآءَهُمْ ) الذين
) . أتوا إلى الحياة عن طريقهم ( أَوْ أَبْنَآءَهُمْ ) الذين هم قطعة منهم
أَوْ إِخْوَانَهُمْ ) الذين تربطهم بهم رابطة الدم ( أَوْ عَشِيرَتَهُمْ )
التى ينتسبون إليها ، وذلك لأن قضية الإيمان يجب أن تقدم كل شىء .وقدم
، الآباء لأنهم أول من تجب طاعتهم ، وثنى بالأبناء لأنهم ألصق الناس بهم
وثلث بالإخوان لأنهم الناصرون لهم ، وختم بالعشيرة لأن التناصر بها يأتى فى
نهاية المطاف .ثم أثنى - سبحانه - على هؤلاء المؤمنين الصادقين الذين لم
يوالوا أعداء الله مهما بلغت درجة قرابتهم فقال : ( أولئك كَتَبَ فِي
قُلُوبِهِمُ الإيمان ) .أى : أولئك الذين لا يوادون أعداء الله مهما كانوا
هم الذين كتب الله - تعالى - الإيمان فى قلوبهم ، فاختلط بها واختلطت به ،
). فصارت قلوبهم لا تحب إلا من أحب دين الله ، ولا تبغض إلا من أبغضه ،
- وَأَيّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ ) أى : وثبتهم وقواهم بنور من عنده
). سبحانه - فصاروا بسبب ذلك أشداء على الكفار ، رحماء بينهم
وَيُدْخِلُهُمْ ) - سبحانه - يوم القيامة ( جَنّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا
الأنهار خَالِدِينَ فِيهَا ) خلوداً أبديا ، ( رَضِيَ الله عَنْهُمْ ) بسبب
طاعتهم له ، ( وَرَضُواْ عَنْهُ ) بسبب ثوابه لهم .( أولئك ) الموصوفون
بذلك ( حِزْبُ الله ) الذى يشرف من ينتسب إليه .( ألاَ إِنّ حِزْبَ الله
هُمُ المفلحون ) فلاحا ونجاحا ليس بعدهما فلاح أو نجاح .وقد ذكروا روايات
متعددة فى سبب نزول هذه الآية الكريمة ، منها : أنها نزلت فى أبى عبيدة
عامر بن الجراح ، فقد قتل أباه - وكان كافرا - فى غزوة بدر .والآية الكريمة
، تصدق على أبى عبيدة وغيره ممن حاربوا أباءهم وأبناءهم وإخوانهم وعشيرتهم
عندما استحب هؤلاء الآباء والأبناء الكفر على الإيمان .وقد أخذ العلماء من
هذه الآية الكريمة ، وجوب عدم موالاة الكفار والفساق والمنافقين والمجاهرين
بارتكاب المعاصى . . . مهما بلغت درجة قرابتهم ، ومهما كانت منزلتهم .ومن
دعاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " اللهم لا تجعل لفاجر ولا لفاسق
عندى يدا ولا نعمة " .

سبح لله ما في السماوات وما في الارض وهو العزيز الحكيم

- كما فسرها الوسيط افتتحت سورة " الحشر " بالثناء على الله - تعالى
وبتنزيهه عن كل مالا يليق بذاته الجليلة ، فقال - عز وجل - : ( سَبّحَ
لِلّهِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض وَهُوَ العزيز الحكيم ) .واصل
التسبيح لغة : الإبعاد عن السوء . وشرعا : تنزيه الله - تعالى - عن كل مالا
يليق بجلاله وكماله .والذى يتدبر القرآن الكريم ، يجد أن الله - تعالى - قد
) : ذكر فيه أن كل شىء فى هذا الكون يسبح بحمده - تعالى - ، كما فى قوله

وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ
) : تَسْبِيحَهُمْ ) كما ذكر - سبحانه - أن الملائكة تسبح له ، كما فى قوله
وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ . . . ) وكذلك الرعد ، كما
فى قوله : ( وَيُسَبِّحُ الرعد بِحَمْدِهِ والملائكة مِنْ خِيفَتِهِ . . )
وكذلك الجبال والطير قال - تعالى - : ( إِنَّا سَخَّرْنَا الجبال مَعَهُ
( يُسَبِّحْنَ بالعشي والإشراق والطير مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ
وقد سبق أن ذكرنا خلال تفسيرنا لقوله - تعالى - : ( وَإِن مِّن شَيْءٍ
إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ . . ) أن
الرأى الذى تطمئن إليه النفس ، أن التسبيح حقيقى ، ولكن بلغة لا يعملها إلا
، الله - تعالى - .والمعنى : سبح لله - تعالى - ونزهه عن كل ما لا يليق به
- جميع ما فىالسموات وجميع ما فى الأرض من كائنات ومخلوقات . وهو - عز وجل
الذى لا يغلبه غالب ( العزيز الحكيم ) فى أقواله وأفعاله .وقد ( العزيز )
افتتحت بعض السور - كسورة الحديد والحشر والصف - بالفعل الماضى ، لإفادة
الثبوت والتأكيد ، وأن التسبيح قد تم فعلا .وافتتحت بعض السور ، كسورة
الجمع والتغابن - بالفعل المضارع " يسبح " لإفادة تجدد هذا التسبيح لى كل
. وقت ، وحدوثه فى كل لحظة

هو الذي اخرج الذين كفروا من اهل الكتاب من ديارهم لاول الحشر ما ظننتم ان
يخرجوا وظنوا انهم مانعتهم حصونهم من الله فاتاهم الله من حيث لم يحتسبوا
وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بايديهم وايدي المؤمنين فاعتبروا يا
اولي الابصار

، كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - جانبا من مظاهر فضله على المؤمنين
حيث نصرهم على أعدائهم ، فقال : ( هُوَ الذي أَخْرَجَ الذين كَفَرُواْ مِنْ
أَهْلِ الكتاب مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الحشر . . ) .والمراد بالذين كفروا
من أهل الكتاب هنا : يهود بنى النضير ، وقصتهم معروفة فى كتب السنة والسيرة
وملخصها : أن هؤلاء اليهود كانوا يسكنون فى ضواحى المدينة فذهب إليهم ،
النبى - صلى الله عليه وسلم - ليستعين بهم فى دفع دية لقتيلين قتلهما بعض
المسلمين خطأ ، فاستقبلوه استقبالا حسنا ، وأظهروا له - صلى الله عليه
، وسلم - استعدادهم للمساعدة فيما يطلبه خطأ ، فاستقبلوه استقبالا حسنا
، وأظهروا له - صلى الله عليه وسلم - استعدادهم للمساعدة فيما يطلبه منهم
ثم خلا بعضهم ببعض وقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه ، فمن
- منكم يصعد إلى أعلى هذا البيت الذى يجلس تحته محمد - صلى الله عليه وسلم
، فيلقى عليه حجرا فيريحنا منه .فتعهد واحد منهم بذلك ، وقبل أن يتم فعله
نزل جبريل - عليه السلام - على النبى - صلى الله عليه وسلم - فأخبره بما
- أضمره اليهود من غدر وخيانة فرجع - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة
وأخبر أصحابه بما أضمره له يهود بنى النضير ، ونزل قوله - تعالى - : ( يَا
أَيُّهَا الذين آمَنُواْ اذكروا نِعْمَتَ الله عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ
قَوْمٌ أَن يَبْسُطُواْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ
عَنكُمْ واتقوا الله وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمنون ) ثم أمر
، النبى - صلى الله عليه وسلم - أصحابه أن يستعدوا لحصار بنى النضير
وتأديبهم على غدرهم . . . فحاصرهم المؤمنون بضعا وعشرين ليلة ، وانتهى
الأمر بإجلائهم ، عن المدينة ، فمنهم من ذهب إلى خيبر ، ومنهم من ذهب إلى
، غيرها .واللام فى قوله - تعالى - : ( لأَوَّلِ الحشر ) متعلقة بأخرج
- والحشر : الجمع ، يقال : حشر القائد جنده إذا جمعهم ، ومنه قوله - تعالى
وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الجن والإنس والطير فَهُمْ ) :
يُوزَعُونَ ) أى : هو - سبحانه - الذى أخرج - بقدرته - الذين كفروا من أهل
الكتاب من ديارهم ، وهم يهود بنى النضير عند مبدا الحشر المقدر لهم فى علمه
بأن مكنكم - أيها المؤمنون - من محاصرتهم وجمعهم فى مكان واحد ، ثم طردهم ،
من المدينة المنورة إلى أماكن أخرى ، بسبب غدرهم وسوء صنيعهم .قال صاحب
الكشاف : اللام فى قوله : ( لأَوَّلِ الحشر ) تتعلق بأخرج ، وهى مثل اللام
. فى قوله : ( ياليتني قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ) وفى قولك : جئته لوقت كذا
والمعنى : أخرج الذين كفروا عند أول الحشر . ومعنى أول الحشر : أن هذا أول.
حشرهم إلى الشام ، وكانوا من سبط لم يصبهم جلاء قط . . . أو المعنى : هذا
أول حشرهم ، وآخر حشرهم : إجلاء عمر - رضى الله عنه - لهم من خيبر إلى
الشام .وقيل معناه : أخرجهم من ديارهم لأول ما حشر لقتالهم ، لأنه أول قتال
قاتلهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .وقصر - سبحانه - إخراجهم عليه
فقال : هو الذى أخرج الذين كفروا ، مع أن المسلمين قد اشتركوا فى إخراجهم
عن طريق محاصرتهم؛ للإشعار بأن السبب الحقيقى فى إخراجهم من ديارهم ، هو ما
قذفه الله - تعالى - فى قلوبهم من الرعب . . . أما محاصرة المؤمنين لهم فهى
أسباب فرعية ، قد تؤدى إلى أخراجهم ، وقد لا تؤدى ، وللإشعار - أيضا - بأن
كل شىء إنما هو بقضاء الله وقدره .ووصفهم - سبحانه - بالكفر وبأنهم من أهل
: الكتاب ، للتشنيع عليهم وزيادة مذمتهم ، حيث إنهم جمعوا بين رذيلتين
- رذيلة الكفر بالحق ، ورذيلة عدم العلم بكتابهم الذى أمر باتباع الرسول

، صلى الله عليه وسلم - الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل
: - والذى يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر .و " من " فى قوله - تعالى
، للبيان ، حتى لا يظن بأن المراد بالذين كفروا هنا ( مِنْ أَهْلِ الكتاب )
- مشركو قريش ، وإن كان الجميع يشتركون فى الكفر والفسوق والعصيان .وقوله
تعالى - : ( مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ . . . ) تذكير للمؤمنين بنعم
الله - تعالى - عليهم .أى : ما ظننتم - أيها المؤمنون - أن يهود بنى النضير
سيخرجون من ديارهم بتلك السهولة ، وذلك لتملكهم لألوان من القوة ، كقوة
السلاح ، وكثرة العدد ، ووجود من يحميهم ممن يسكنون معكم فى المدينة ، وهم
حلفاؤهم من بنى قومهم ، كبنى قريظة وغيرهم ، ومن غير بنى قومهم كالمنافقين
الذين وعدوهم ومنوهم .وقوله : ( وظنوا أَنَّهُمْ مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم
مِّنَ الله ) معطوف على ما قبله .أى : أنتم - أيها المؤمنون - ظننتم أن
اليهود لن يخرجوا من ديارهم لما معهم من قوة ، وهم - أيضا - ظنوا أن حصونهم
ستمنع بأس الله عنهم ، وأنها ستحول بينهم وبين خروجهم منها ، ونَصْرِكم
عليهم .وقوله - سبحانه - : ( فَأَتَاهُمُ الله مِنْ حَيْثُ لَمْ
يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرعب . . ) متفرع عن الظن السابق
الذى ظنه المؤمنون ، والذى ظنه أعداؤهم وهم بنو النضير .أى : أنتم ظننتم ،
أنهم لن يخرجوا من ديارهم ، وهم ظنوا - أيضا - أن حصونهم ستمنعهم من نصركم
عليهم ، فكانت النتيجة أن أتاهم بأس الله وعقابه من حيث لم يحتسبوا ومن حيث
لم يخطر ببال ، بأن قذف فى قلوبهم الرعب والفزع فخرجوا من حصونهم التى
تمنعوا بها ، ومن ديارهم التى سكنوها زمنا طويلا صاغرين أذلاء .والتعبير
بقوله : ( مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ ) إشارة إلى أن ما نزل بهم من
: هزيمة ، لم يكونوا يتوقعونها أصلا ، إذ الاحتساب مبالغة فى الحسبان ، أى
أتاهم عقاب الله - تعالى - من المكان الذى كانوا يعتقدون أمانهم فيه ، وفى
، زمان لم يكونوا أصلا يتوقعون حلول هزيمتهم عنده .وعبر - بحانه - بالقذف
لأنه كناية عن الرمى بقوة وعنف وسرعة . والرعب : شدة الخوف والفزع ، وأصله
الامتلاء . تقول : رعبت الحوض إذا ملأته .أى : وقذف - سبحانه - فى قلوبهم :
- الرعب الذى ملأها بالجزع والفزع فاستسلموا بسبب ذلك لما حكم به الرسول
صلى الله عليه وسلم - عليهم .ثم بين - سبحانه - ما حدث منهم خلال جلائهم
فقال : ( يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي المؤمنين
: فاعتبروا ياأولي الأبصار ) والتخريب : إسقاط البناء وهدمه أو إفساده .أى
أن هؤلاء اليهود ، بلغ من سوء نيتهم ، ومن اضطراب أمرهم ، أنهم عندما
أجمعوا أمرهم على الرحيل عن المدينة ، أخذوا يخربون بيوتهم بأيديهم ، عن
طريق إسقاط بنائها ، وهدم السليم منها ، وإزالة ما اشتملت عليه من أبواب
- وغيرها . . . حتى لا ينتفع المسلمون بها من بعدهم . .وأخذوا يخربونها
أيضا - بأيدى المؤمنين ، أى : بسبب أن المؤمنين كانوا يزيلون من طريقهم كل
عقبة حتى يقتحموا عليهم ديارهم ، فترتب على ذلك أن هدموا بعض بيوت بنى
النضير من الخارج ، ليستطيعوا التمكن منهم .قال صاحب الكشاف : ما معنى
. تخريبهم لها بأيدى المؤمنين؟ قلت : لما عرّضوهم لذلك ، وكانوا السبب فيه
فكأنهم أمروهم به ، وكلفوهم إياه . .أى : أن يهود بنى النضير بسبب تحصنهم
- فى ديارهم ، ومحاولتهم عدم النزول على حكم الرسول - صلى الله عليه وسلم
. . حملوا المؤمنين على تخريب هذه الحصون من الخارج ، ليدخلوا عليهم
والخطاب فى قوله - تعالى - : ( فاعتبروا ياأولي الأبصار ) لكل من يصلح له.
قال الجمل فى حاشيته : والاعتبار مأخوذ من العبور والمجاوزة من شىء إلى.
شىء ، ولهذا سميت العبرة عبرة ، لأنها تنتقل من العين إلى الخد . وسمي علم
التعبير بذلك ، لأن صاحبه ينتقل من المتخيل إلى المعقول ، وسميت الألفاظ
: عبارات ، لأنها تنقل المعانى من لسان القائل إلى عقل المستمع ، ويقال
السعيد من اعتبر بغيره ، لأنه ينتقل بواسطه عقله من حال ذلك الغير إلى حال
نفسه .ولهذا قال القشيرى : الاعتبار هو النظر فى حقائق الأشياء ، وجهات
- دلالتها ، ليعرف بالنظر فيها شىء آخر .أى : إذا كان الأمر كان بينا لكم
أيها الناس - ، فاعتبروا واتعظوا يا أصحاب العقول السليمة ، والعيون
الناظرة ، بما جرى لهؤلاء اليهود ، حيث دبر الله - تعالى - أمر إخراجهم من
ديارهم تدبيرا حكيما ، ونصر المؤمنين عليهم بأيسر طريق ، وجعل ديارهم من
بعدهم ، خير عبرة وعظة لكل ذى بصر ، فقد خلفوها من بعدهم شاهد صدق على أن
الغدر نهايته الخسران . . . وعلى أن النصر إنما هو لمن اتبع الصدق والوفاء
بالعهد . . .قال الآلوسى : واشتهر الاستدلال بهذه الجملة ، على مشروعية
العمل بالقياس الشرعى ، قالوا : لأنه - تعالى - أمر فيها بالاعتبار ، وهو
العبور والانتقال من الشىء إلى غيره ، وذلك متحقق فى القياس ، إذ فيه نقل
الحكم من الأصل إلى الفرع .

ولولا ان كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الاخرة عذاب
النار

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - جانبا من حكمته في إخراجهم فقال
وَلَوْلاَ أَن كَتَبَ الله عَلَيْهِمُ الجلاء لَعَذَّبَهُمْ فِي الدنيا

وَلَهُمْ فِي الآخرة عَذَابُ النار ) .ولفظ " لولا " هنا حرف امتناع لوجود
أى : امتنع وجود جوابها لوجود شرطها . . . و " أن " مصدرية ، وهى مع ما فى
حيزها فى محل رفع على الابتداء . لأن لولا الامتناعية لا يليها إلا لمبتدأ
والخبر محذوف .والجلاء : الإخراج . يقال : جلا فلان عن مكان كذا ، إذا ،
خرج منه . وأجلاه عنه غيره ، إذا أخرجه عنه :قال القرطبى : والجلاء مفارقة
الوطن ، يقال جلا بنفسه جلاء ، وأجلاه غيره إجلاء ، والفرق بين الجلاء
والإخراج - وإن كان معناهما فى الإبعاد واحدا - من وجهين :أحدهما : أن
الجلاء ما كان مع الأهل والولد ، والإخراج قد يكون مع بقاء الأهل والولد
. . الثانى : أن الجلاء لا يكون إلا لجماعة ، والإخراج يكون لواحد ولجماعة.
أى : ولولا أن الله - تعالى - قد قدر على هؤلاء اليهود ، الجلاء عن ديارهم.
لولا أن ذلك موجود ، لعذبهم فى الدنيا عذابا شديدا ، استأصل معه شأفتهم ،
ولكن الله - تعالى - كتب عليهم الجلاء دون القتل والإهلاك لمصلحة اقتضتها.
حكمته ، لعل من مظاهرها أن يغتنم المسلمون ديارهم وأموالهم ، دون أن تراق
" دماء من الفريقين ، ودون أن يعرض المؤمنون أنفسهم لمخاطر القتال .وجملة
ولهم فى الآخرة عذاب النار " مستأنفة . أى : أن هؤلاء اليهود أن نجوا من
القتل والإهلاك فى الدنيا ، فلن ينجوا فى الآخرة من العذاب الذى يذلهم
. ويهينهم ، بل سيحل بهم عذاب مقيم ، لافكاك لهم منه

ذلك بانهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فان الله شديد العقاب

كما فسرها الوسيط واسم الإشارة فى قوله - تعالى - ( ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ
- شَآقُّواْ اللهَ وَرَسُولَهُ ) يعود إلى ما نزل وسينزل بهم من عذاب .وقوله
تعالى - : ( شَآقُّواْ ) من المشاقة بمعنى المعاداة والمخاصمة ، حتى لكأن
كل واحد من المتخاصمين فى شق ومكان يخالف شق صاحبه ومكانه .أى : ذلك الذى
حل بهم فى الدنيا من عقاب ، والذى سيحل بهم فى الآخرة من عذاب ، سببه أن
هؤلاء الذين كفروا من أهل الكتاب ، عادوا الله - تعالى - وخالفوا دعوة
رسوله - صلى الله عليه وسلم - .( وَمَن يُشَآقِّ الله ) بأن يخالف ما أمر
به ، أو نهى عنه . يعذبه الله - تعالى - ويخذله ، فإنه - سبحانه - شديد
العقاب .وجملة ( فَإِنَّ الله شَدِيدُ العقاب ) قائمة مقام جواب الشرط ، أى
ومن يخالف أمر الله - تعالى - عذبه ، فإنه - سبحانه - شديد العقاب ، لمن :
. أعرض عن طاعته وذكره

ما قطعتم من لينة او تركتموها قائمة على اصولها فباذن الله وليخزي الفاسقين

، كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - ما يغرس الطمأنينة فى قلوب المؤمنين
- الذين اشتركوا فى تخريب ديار بنى النضير ، وفى قطع نخيلهم ، فقال - تعالى
مَا قَطَعْتُمْ مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً على ) :
أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ الله وَلِيُخْزِيَ الفاسقين ) .و " ما " شرطية فى
. موضع نصب ، بقوله : ( قَطَعْتُمْ ) وقوله : ( مِّن لِّينَةٍ ) بيان لها
) : - وقوله : ( فَبِإِذْنِ الله ) جزاء الشرط . واللام فى قوله - تعالى.
وَلِيُخْزِيَ الفاسقين ) متعلقة بمحذوف .واللينةواحدة اللين ، وهو النخل
. كله ، أو كرام النخل فقط .قال الآلوسى ما ملخصه : اللينة هى النخلة مطلقا
وهى فعلة من اللّونِ ، وياؤها مقلوبة عن واو لكسر ما قبلها - فأصل . .
لِينَة : لِوْنَة . .وقيل : اللينة : النخلة مطلقا . . . وقيل : هى النخلة
القصيرة ، وقيل : الكريمة من النخل . . ويمكن أن يقال : أراد باللينة
النخلة الكريمة .وقد ذكروا فى سبب نزول الآية روايات منها : أن المسلمين
عندما أخذوا فى تقطيع نخيل اليهود ، قال اليهود للنبى - صلى الله عليه
وسلم - : ( يا محمد إنك تنهى عن الفساد ، فما بالك تأمر بقطع النخيل؟ فأنزل
الله هذه الآية .وقيل : إن المسلمين بعد أن قطعوا بعض النخيل ، ظنوا أنهم
- قد أخطأوا فى ذلك ، فقالوا : لنسألن رسول الله - صلى الله عليه وسلم
، فنزلت هذه الآية .وقيل : إن المسلمين نهى بعضهم بعضا عن قطع النخيل
وقالوا إنما هى مغانم للمسلمين ، فنزلت هذه الآية؛ لتصديق من نهى عن القطع
وتحليل من قطع من الإثم .والمعنى :لا تختلفوا - ايها المؤمنون - فى شأن ،
ما فعلتموه بنخيل بنى النضير ، فإن ذلك قطع شيئا من هذه النخيل لا إثم عليه
- والذى لم يقطع لا إثم عليه - أيضا - لأن كلا الأمرين بإذن الله - تعالى ،
ورضاه ، وفى كليهما مصلحة لكم .لأن من قطع يكون قد فعل ما يغيظ العدو ويذله
ويحمله على الاستسلام والخضوع لأمركم . . .ومن ترك يكون قد فعل ما يعود ،
- بالخير عليكم ، لأن تلك النخيل الباقية ، منفعتها ستئول إليكم .وقد شرع
سبحانه - لكم كلا الأمرين فى هذا المقام ( وَلِيُخْزِيَ الفاسقين ) عن أمره
وهم يهود بنى النضير ، ومن ناصرهم ، وأيدهم ، وسار على طريقتهم فى ،
الخيانة والغدر .فالآية الكريمة المقصود بها : إدخال المسرة والبهجة فى
، قلوب المؤمنين ، حتى لا يتأثروا بما حدث منهم بالنسبة لنخيل بنى النضير
- وحتى يتركوا الخلاف فى شأن هذه المسألة ، بعد أن صدر حكم الله - تعالى
فيها ، وهو أن القطع والترك بإذنه ورضاه ، لأن كلا الأمرين يغرس الحسرة فى

قلوب الأعداء .وعبر - سبحانه - باللينة عن النخلة ، لأن لفظ " لينة " أخف
لفظا ، وأدخل في كونها نخلة من كرام النخل .وقال - سبحانه - : ( أَوْ
تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً على أُصُولِهَا ) لتصوير هيئتها وحسنها وأن
: فروعها قد بقيت قائمة على أصولها ، التى هى جذورها وجذوعها .قال الآلوسى
وقوله : ( وَلِيُخْزِيَ الفاسقين ) متعلق بمقدر على أنه علة له ، وذلك
: المقدر عطف على مقدر آخر . أى : ليعز المؤمنين ، وليخزى الفاسقين أى
ليذلهم . . .والمراد بالفاسقين : أولئك الذين كفروا من أهل الكتاب . ووضع
الظاهر موضع المضمر ، إشعارا بعلة الحكم - أى أن فسقهم هو السبب فى إخزائهم
هذا ، ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآية : أن تخريب ديار العدو.
وقطع الأشجار التى يملكها ، وهدم حصونه ومعسكراته . . جائز ما دام فى ذلك ،
. مصلحة تعود على المسلمين ، وما دامت هناك حرب بينهم وبين أعدائهم

وما افاء الله على رسوله منهم فما اوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله
يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - حكم الفىء الذى أفاءه على المسلمين فى
- غزوة بنى النضير وفيما يشبهها من غزوات ، وأمر المؤمنين بأن يطيعوا رسوله
صلى الله عليه وسلم - فى أمره ونهيه ، وأثنى - سبحانه - على المهاجرين
- والأنصار لقوة إيمانهم ، ولنقاء قلوبهم وسخاء نفوسهم . . . فقال - تعالى
قوله : ( وَمَآ أَفَآءَ الله على رَسُولِهِ . ( . . . . وَمَآ أَفَآءَ ) :
( . . مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلاَ رِكَابٍ
معطوف على قوله - تعالى - : ( مَا قَطَعْتُمْ مِّن لِّينَةٍ . . . ) لبيان
نعمة أخرى من النعم التى أنعم بها - سبحانه - على المؤمنين ، فى غزوة بنى
النضير .و ( أَفَآءَ ) من الفىء بمعنى الرجوع ، يقال : فاء عليه ، إذا رجع
ومنه قوله - تعالى - فى شأن الإيلاء : ( فَإِنْ فَآءُو فَإِنَّ الله ،
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ) والمراد به هنا معناه الشرعى : وهو ما حصل عليه
، المؤمنون من أموال أعدائهم بدون قتال ، كأن يكون هذا المال عن طريق الصلح
كما فعل بنو النضير ، فقد صالحوا المؤمنين على الخروج من المدينة ، على أن
يكون لكل ثلاثة منهم حمل بعير - سوى السلاح - وأن يتركوا بقية أموالهم
- للمسلمين .والضمير فى قوله ( مِنْهُمْ ) يعود إلى بنى النضير ، الذى عبر
سبحانه - عنهم بقوله : ( هُوَ الذي أَخْرَجَ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ
الكتاب . . ) وقوله : ( فَمَآ أَوْجَفْتُمْ . . ) من الإيجاف بمعنى الإسراع
. فى السير يقال : وجَفَ الفرس يجِف وجَفا ووجيفا ، إذا أسرع فى سيره
والجملة خبر " ما " الموصولة فى قوله : ( وَمَآ أَفَآءَ . . ) و ( مَآ ) فى
، قوله ( فَمَآ أَوْجَفْتُمْ ) نافية .والركاب : اسم جمع للإبل التى تركب
وفى الكلام حذف أغنى عنه قوله - سبحانه - : ( فَمَآ أَوْجَفْتُمْ . . )
- والمعنى : أعلموا - أيها المؤمنون - أن ما أعطاء الله - تعالى - لرسوله.
صلى الله عليه وسلم - من أموال بنى النضير التى صالحوه عليها ، فلا حق لكم
- فيها لأنكم لم تنالوها بقتالكم لهم على الخيل أو الإبل ، وإنما تفضل بها
سبحانه - على نبيه - صلى الله عليه وسلم - بلا قتلا يذكر ، فقد كانت ديار
، بنى النضير على بعد ميلين من المدينة ، فذهب إليها المسلمون راجلين
وحاصروها حتى تم استسلام بنى النضير لهم . .قال الآلوسى : روى أن بنى
النضير لما أجلوا عن أوطانهم ، وتركوا ربعاعهم وأموالهم . طلب المسلمون
تخميسها كغنائم بدر ، فأنزل الله - تعالى - : ( وَمَآ أَفَآءَ الله على
رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلاَ رِكَابٍ
، فكانت لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - خاصة .فقد أخرج البخارى ( . . .
ومسلم ، وأبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، وغيرهم عن عمر بن الخطاب - رضى
الله عنه - قال : كانت أموال بنى النضير ، مما أفاء الله - تعالى - : على
، رسوله - صلى الله عليه وسلم - مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب
وكانت لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - خاصة ، فكان ينفق عل أهله منها
- نفقة سنة ، ثم يجعل ما بقى فى السلاح والكراع عدة فى سبيل الله - تعالى
- وقال الضحاك : كانت أموال بنى النضير لرسول الله - صلى الله عليه وسلم.
، خاصة ، فآثر بها المهاجرين . وقسمها عليهم ، ولم يعط الأنصار منها شيئا
إلا ثلاثة منهم أعطاهم لفقرهم . .وقوله - سبحانه - : ( ولكن الله يُسَلِّطُ
) : - رُسُلَهُ على مَن يَشَآءُ . . . ) استدراك على النفى فى قوله - تعالى
- فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ . . ) .أى : ليس لكم الحق - أيها المؤمنون
فى أموال بنى النضير ، لأنكم لم تظفروا بها عن طريق قتال منكم لهم ، ولكن
الله - تعالى - سلط رسوله - صلى الله عليه وسلم - عليهم وعلى ما فى أيديهم
كما كان يسلط رسله على من يشاء من أعدائهم ، والله - تعالى - قدير على كل ،
- شىء . . .وما دام الأمر كذلك ، فاتركوا رسولكم - صلى الله عليه وسلم
- يتصرف فى أموال بنى النضير بالطريقة التى يريدها ويختارها بإلهام من الله
. - عز وجل

ما افاء الله على رسوله من اهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى

والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الاغنياء منكم وما اتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله ان الله شديد العقاب

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( مّآ أَفَآءَ الله على رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القرى فَلِلّهِ وَلِلرّسُولِ وَلِذِي القربى . . ) يرى كثير من العلماء أنه وارد على سبيل الاستئناف الابتدائى ، وأنه سيق لبيان حكم . . شرعى جديد ، يختلف عن الحمك الذي أوردته الآية السابقة على هذه الآية إذ أن الاية السابقة ، واردة فى حكم أحوال بنى النضير بصفة خاصة ، وهذه فى. حكم الفىء بعد ذلك بصفة عامة .وعليه يكون المعنى : لقد بينت لكم - أيها المؤمنون - حكم أموال بنى النضير ، وهى أنها لرسولنا - صلى الله عليه وسلم - يضعها حيث شاء .أما ما أفاءه الله - تعالى - على رسوله - صلى الله عليه وسلم - من أموال أهل القرى الأخرى ، كقريظة وفدك وغيرهما فحكم هذا الفىء أنه يقسم إلى خمسة أقسام :قسم للرسول - صلى الله عليه وسلم - ينفق - منه على نفسه وأهله وما تبقى منه يكون فى مصالح المسلمين .وقسم لأقاربه صلى الله عليه وسلم - وهم : بنو هاشم وبنو المطلب .وقسم لليتامى : وهم أطفال المسلمين الذين مات آباؤهم عنهم قبل أن يبلغوا .وقسم للمساكين : وهم الذين ليس لهم مال يكفيهم ضررويات الحياة .وقسم لأبناء السبيل : وهم المسافرون المنقطعون عن مالهم فى سفرهم ، ولو كانوا أغنياء فى بلدهم .وقد رجح الإمام ابن جرير هذا الرأى ، فقال بعد استعراضه للأقوال : والصواب من القول فى ذلك عندى أن هذه الآية حكمها غير حكم الآية التى قبلها وذلك أن الآية التى قبلها ، مال جعله الله - عز وجل - لرسوله - صلى الله عليه وسلم - خاصة دون غيره . لم يجعل فيه لأحد نصيبا .فإذا كانت هذه الآية التى قبلها مضت ، وذكر المال الذى خص الله به رسوله - صلى الله عليه وسلم - ولم يجعل لأحد منه شيئا ، وكانت هذه الآية خبرا عن المال الذى جعله الله لأصناف شتى ، كان معلوما بذلك أن المال الذى جعله لأصناف من خلقه .غير المال الذى جعله للنبى - صلى الله عليه وسلم - .وقال الآلوسى عند تفسيره لهذه الآية ما مخلصه : قوله - تعالى - : ( مّآ أَفَآءَ الله على رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القرى . . ) بيان لحكم ما أفاءه الله على رسوله من قرى الكفار على العموم ، بعد بيان حكم ما أفاءه من بنى النضير .فالجملة جواب سؤال مقدر ناشىء مما - فهم من الكلام السابق ، فكأن قائلا يقول : قد علمنا حكم ما أفاءه الله : تعالى - من بنى النضير ، فما حكم ما أفاء الله - عز وجل - من غيرهم؟فقيل ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى . . . ولذا . . لم يعطف على ما تقدم ، ولم يذكر فى الآية قيد الإيجاف ولا عدمه وسهمه - سبحانه - وسهم رسوله واحد ، وذكره - تعالى - : افتتاح كلام للتيمن. - والتبرك . فإن لله ما فى السموات وما فى الأرض ، وفيه تعظيم لشأن الرسول ، صلى الله عليه وسلم - .وأهل القرى المذكورون فى الآية هم : أهل الصفراء ، وينبع ، ووادى القرى ، وما هنالك من قرى العرب ، التى تسمى قرى عرينة وحكمها مخالف لحكم أموال بنى النضير .ومن العلماء من يرى أن الآية التى معنا ، بمنزلة البيان والتفسير للآية التى قبلها ، لأن الآية الأولى لم تبين المستحقين للفىء الذى أفاءه الله - تعالى - على رسوله من أموال بنى النضير ، فجاءت الآية الثانية وبينت المستحقين له .وعلى رأس المفسرين الذين - قالوا بهذا الرأى صاحب الكشاف ، فقد قال عند تفسيره لهذه الآية : لم يدخل - سبحانه - العاطف على هذه الجملة - وهى قوله : ( مّآ أَفَآءَ . . . ) لأنها بيان للأولى ، فهى منها غير أجنبية عنها . بين لرسوله - صلى الله عليه وسلم - ما يصنع بما أفاءه الله عليه ، وأمره أن يضعه حيث يضع الخمس من - الغنائم ، مقسوما على الأقسام الخمسة .وقال الإمام ابن كثير : قوله تعالى - : ( مَّآ أَفَآءَ الله على رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القرى ) : أى : جميع البلدان التى تفتح هكذا ، فحكمها حكم أموال بنى النضير ، ولهذا قال فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ) ، فهذه مصارف أموال الفىء ووجوهه .ومن هذا نرى أن أصحاب الرأى الأول . ( يقولون : إن الآيتين فى حكمين مختلفين ، لأن الآية الأولى فى بيان حكم أموال بنى النضير ، وأن الله - تعالى - قد جعلها للرسول - صلى الله عليه وسلم - يضعها حيث يشاء ، وأما الآية الثانية فهى فى حكم أموال القرى الأخرى - التى أفاءها الله - تعالى - على رسوله - صلى الله عليه وسلم - ، وأن الله تعالى - قد حدد له وجوه صرفها ، فقال : ( فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي القربى . . . ) .وأما أصحاب الرأى الثانى فيرون أن الآية الثانية مفصلة لما أجملته الآية الأولى ، وأن كل فىء يقسم بالطريقة التى بينتها الآية الثانية ويبدو لنا أن الرأى الأول أقرب إلى الصواب ، لأن الثابت فى السنة الصحيحة. أن أموال بنى النضير ، لم يخمسها - صلى الله عليه وسلم - بل كانت له خاصة : يوزعها كما يشاء ، وقد آثر بها المهاجرين ، وقسمها عليهم : ولم يعط ، الأنصار منها شيئا سوى ثلاثة رجال منهم ، كانت بهم حاجة فأعطاهم ، وبذلك نرى أنه - صلى الله عليه وسلم - لم يتقيد فى التوزيع لهذه الأموال ، بمن ورد ذكرهم فى الآية الثانية .وما دام الأمر كذلك ، فلا حاجة إلى القول بأن الآية الثانية ، ببيان وتفصيل للآية الأولى .هذا وهناك أقوال أخرى فى معنى

هذه الآية ، مبسوطة فى كتب الفقه والتفسير ، فليرجع إليها من شاء المزيد من الأحكام الفقهية .وقوله - سبحانه - : ( كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأغنياء منكُمْ . . ) بيان لحكمة هذا التشريع الذى شرعه - سبحانه - بالنسبة للأموال التى أتت عن طريق الفىء . . . والضمير المستتر فى قوله : ( يَكُونَ ) للفىء .و " الدُّولة " بضم الدال المشددة اسم لما يتداوله الناس فيما بينهم من أموال ، فيكون فى يد هذا تارة ، وفى يد ذاك تارة أخرى والدّولة - بفتح الدال المشددة - اسم للنوبة من الظفر والنصر فى الحرب. وغيرها .يقال : لفلان على فلان دولة ، أى : غلبة ونصر .وبعضهم يرى أن الدولة - بالضم والفتح - بمعنى واحد ، وهو ما يدور ويدول للإنسان من الغنى والنصر .والمعنى : شرعنا لكم هذه الأحكام المتعلقة بتقسيم الفىء ، كى لا يكون المال الناجم عنه ، متداولا بين أيدى أغنيائكم دون فقرائكم .والمقصود بهذه الجملة الكريمة ، إبطال ما كان شائعا فى الجاهلية ، من استئثار قواد الجيوش ، ورؤساء القبائل ، بالكثير من الغنائم دون غيرهم ممن اشترك معهم فى الحروب ، كما قال أحد الشعراء ، لأحد الرؤساء أو القادة :لك المِرباَع منها والصفايا ... وحُكْمُك والنّشِيطةُ والفُضُولأى : لك - أيها القائد وحدك من الغنيمة ربعها ، والصفايا أى : والنفيس منها ، ولك - أيضا ما تحكم به على العدو ، ولك النشيطة ، وهى ما يصيبه الجيش من العدو قبل الحرب ، ولك ، كذلك - الفضول ، أى : ما يبقى بعد قسمة الغنائم .وقد أبطل الإسلام كل ذلك - حيث جعل مصارف الفىء ، تعود إلى المسلمين جميعا ، بطريقة عادلة ، بينها سبحانه - فى هذه الآية وفى غيرها . .قال بعض العلماء : والجدير بالذكر هنا أن دعاة المذاهب الاقتصادية الفاسدة ، يحتجون بهذه الآية على مذهبهم : الفاسد ، ويقولون : ويجوز للدولة أن تستولى على مصادر الإنتاج ورءوس الأموال ، لتعطيها أو تشرك فيها الفقراء ، وما يسمونهم طبقة العمال ، وهذا على ما فيه من كساد اقتصادى ، وفساد اجتماعى ، قد ثبت خطؤه وظهر بطلانه ، كذلك - الفضول ، أى : ما يبقى بعد قسمة الغنائم .وقد أبطل الإسلام كل ذلك - حيث جعل مصارف الفىء ، تعود إلى المسلمين جميعا ، بطريقة عادلة ، بينها سبحانه - فى هذه الآية وفى غيرها . .قال بعض العلماء : والجدير بالذكر هنا أن دعاة المذاهب الاقتصادية الفاسدة ، يحتجون بهذه الآية على مذهبهم الفاسد ، ويقولون : ويجوز للدولة أن تستولى على مصادر الإنتاج ورءوس الأموال لتعطيها أو تشرك فيها الفقراء ، وما يسمونهم طبقة العمال ، وهذا على ما فيه من كساد اقتصادى ، وفساد اجتماعى ، قد ثبت وظهر بطلانه مجانبا لحقيقة الاستدلال .لأن هذا المال ترك لمرافق المسلمين العامة ، من الإنفاق على المجاهدين ، وتأمين الغزاة فى الحدود والثغور ، وليس يعطى للأفراد كما يقولون ، ثم - هو أساسا - مال جاء غنيمة للمسلمين ، وليس نتيجة كدح الفرد وكسبه الحلال .ولما كان مال الغنيمة ليس ملكا لشخص ، ولا هو - أيضا - كسب لشخص معين ، تحقق فيه العموم فى مصدره ، وهو الغنيمة ، والعموم فى مصرفه وعو عموم مصالح الأمة ، ولا دخل ولا وجود للفرد فيه ، فشتان بين هذا الأصل فى التشريع ، وهذا الفرع فى التضليل .ثم أمر - سبحانه - المسلمين أن يمتثلوا أمر رسولهم - صلى الله عليه وسلم - إمتثالا تاما ، فقال : ( وَمَآ آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهوا واتقوا الله إِنّ الله شَدِيدُ العقاب ) .وقوله : ( آتَاكُمُ ) من الإتيان ، والمقصود به هنا ما جاءهم به الرسول - صلى الله عليه وسلم - من هدايات وتشريعات ، وآداب . ويدخل فى ذلك دخولا أوليا قسمته لفىء بنى النضير بين المهاجرين دون الأنصار .أى : ما أمركم الرسول - صلى الله عليه وسلم - بفعله - أيها المؤمنون - فافعلوه ، وما نهاكم عن فعله فاجتنبوه ، واتقوا الله فى كل أحوالكم ، فإنه - سبحانه - شديد العقاب لمن خالف أمره . ومنهم من جعل ( آتَاكُمُ ) هنا بمعنى أعطاكم من الفىء ، وجعل ( نَهَاكُمْ ) بمعنى نهاكم عن الأخذ منه ، وكأن صاحب هذا الرأى يستعين على ما ذهب إليه بفحوى المقام .قال صاحب الكشاف : قوله : ( وَمَآ آتَاكُمُ الرسول ) من قسمة غنيمة أو فىء فخذوه وما نهاكم عنه ، أى : عن أخذه منه ( فانتهوا ) عنه .والأجود أن يكون - الأمر والنهى - عاما فى كل ما آتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ونهى عنه ، أمر الفىء داخل فى عمومه .وقال الإمام ابن كثير : وقوله تعالى - : ( وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهوا ) ؟ قالت : بلى .قال : فإن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نهى عنه . قالت : إنى لأظن أهلك يفعلونه!!قال : اذهبى فانظرى ، فذهبت فلم تر من حاجتها شيئا . فجاءت فقالت ما رأيت شيئا . قال : لو كان كذا لم تجامعنا .وقال بعض العلماء وفى الآية : دليل على وجوب الآخذ بالسنن الصحيحة فى كل الأمور .وعن أبى رافع أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : "لا ألفين أحدكم متكئا على أريكته يأتيه أمر مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول لا أدرى!! ما وجدنا فى كتاب الله اتبعناه . . " .وهذا الحديث من أعلام النبوة ، فقد وقع ذلك بعدُ من الجاهلين بكتاب الله ، وبمنصب الرسالة ، ومن الزنادقة الصادين عن سبيل الله . .

للفقراء المهاجرين الذين اخرجوا من ديارهم واموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله اولئك هم الصادقون

كما فسرها الوسيط ثم أثنى - سبحانه - على المهاجرين الذين فارقوا أموالهم وعشيرتهم ، من أجل إعلاء كلمته - تعالى - فقال : ( لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أولئك هُمُ الصادقون ) .قال الإمام الرازى : اعلم أن هذا بدل من قوله - تعلاى - : ( وَلِذِي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . . كأنه قيل : أعنى بأولئك الأربعة ، هؤلاء الفقراء المهاجرين الذين من ( صفتهم كذا وكذا .ثم إنه - تعالى - وصفهم بأمور ، أولها : أنهم فقراء ، ثانيها : أنهم مهاجرون وثالثها : أنهم أخرجوا من ديارهم وأموالهم ، يعنى أن الكفار أجبروهم على الخروج . . . ورابعها : أنهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، والمراد بالفضل ثواب الجنة ، وبالرضوان : قوله : ( وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ) وخامسها : قوله : ( وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ) أى : بأنفسهم وأموالهم .وسادسها : قوله : ( أولئك هُمُ الصادقون ) يعنى أنهم لما هجروا لذّات الدنيا وتحملوا شدائدها لأجل الدين ، ظهر صدقهم فى دينهم فأنت ترى أن الله - تعالى - قد وصف المهاجرين فى سبيله ، بجملة من . المناقب الحميدة . التى استحقوا بسببها الفلاح والفوز برضوان الله .

والذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما اوتوا ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون

كما فسرها الوسيط ثم مدح - سبحانه - بعد ذلك الأنصار ، الذين يحبون من هاجر إليهم فقال : ( والذين تَبَوَّءُوا الدار والإيمان مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ) .والجملة الكريمة معطوفة على ( الْمُهَاجِرِينَ ) أو مبتدأ وخبره : ( يُحِبُّونَ ) والتبوؤ : النزول فى المكان ، ومنه المباءة للمنزل الذى ينزل فيه الإنسان .والمراد بالدار : المدينة المنورة ، وأل للعهد . أى : الدار المعهودة المعروفة وهى دار الهجرة .وقوله : ( والإيمان ) منصوب بفعل مقدر ، أى : وأخلصوا الإيمان .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما معنى عطف الإيمان على الدار ، ولا يقال : تبوأوا الإيمان؟قلت معناه : تبوأوا الدار وأخلصوا الإيمان . كقوله : علفتها تبنا وماء باردا .أى : وجعلوا الإيمان مستقرا ومتوطنا لهم ، لتمكنهم منه ، واستقامتهم عليه ، كما جعلوا المدينة كذلك .أو أراد : دار الهجرة ودار الإيمان ، فأقام لام التعريف فى الدار مقام المضاف إليه ، وحذف المضاف من دار الإيمان ، ووضع المضاف إليه مقامه . .أو سمى المدينة - لأنها دار الهجرة ، ومكان ظهور الإيمان - بالإيمان . .وقوله : ( مِن قَبْلِهِمْ ) أى : من قبل المهاجرين ، وهو متعلق بقوله ( تَبَوَّءُوا ) .وقوله : ( يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ) خبر لمبتدأ ، أو حال من الذين تبوأوا الدار .أى : هذه هى صفات المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم .. . وهذا هو جزاؤهم .أما الذين سكنوا دار الهجرة وهى المدينة المنورة ، من قبل المهاجرين ، وأخلصوا إيمانهم وعبادتهم لله - تعالى- ، فإن من صفاتهم أنهم يحبون إخوانهم الذين هاجروا إليهم حبا شديدا ، لأن الإيمان ربط قلوبهم برباط المودة والمحبة . وقوله : (وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ ) صفة أخرى من صفات الأنصار .ومعنى : ( يَجِدُونَ ) هنا : يحسون ويعلمون ، والضمير للأنصار ، وفى قوله ( أُوتُواْ ) للمهاجرين . والحاجة فى الأصل : اسم مصدر بمعنى الاحتياج ، أى الافتقار إلى الشىء والمراد بها هنا : المأرب أو الرغبة الناشئة عن التطلع إلى ما منحه النبى - صلى الله عليه وسلم - للمهاجرين دون الأنصار ، من فىء أو غيره .أى : أن من صفات الأنصار - أيضا - أنهم لا تتطلع نفوسهم إلى شىء مما أعطى للمهاجرين من الفىء أو غيره ، لأن المحبة التى ربطت قلوب الأنصار - بالمهاجرين ، جعلت الأنصار يرتفعون عن التشوف إلى شىء مما أعطاه النبى صلى الله عليه وسلم - المهاجرين وحدهم . . .ثم وصفهم - سبحانه - بصفة ثالثة كريمة فقال : ( وَيُؤْثِرُونَ على أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ . . . ) .والإيثار معناه : أن يؤثر الإنسان غيره على نفسه ، على سبيل الإكرام والنفع ، والخصاصة : شدة الحاجة ، وأصلها من خصاص البيت ، وهو ما يبقى بين عيدانه من الفرج والفتحات .أى : أن من صفات الأنصار أنهم كانوا ، يقدمون فى النفع إخوانهم المهاجرين على أنفسهم ، ولو كانوا فى حاجة ماسة وفقر واضح ، إلى ما يقدمونه لإخوانهم المهاجرين .ولقد ضرب الأنصار - رضى الله عنهم - أروع الأمثال وأسماها فى هذا المضمار ، ومن ذلك ما رواه الشيخان والترمذى والنسائى وغيرهم عن أبى هريرة قال : " أتى رجل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا رسول الله ، أصابنى الجهد ، فأرسل إلى نسائه فلم يجد شيئا ، فقال - صلى الله عليه وسلم - : " ألا رجل يضيف هذا الرجل الليلة رحمه الله "؟ فقام رجل من الأنصار - وفى رواية أنه أبو طلحة - فقال : أنا يا رسول الله ، فذهب به إلى أهله ، فقال لامرأته : أكرمى ضيف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قالت : والله ما عندى إلا قوت

، الصيبة!! قال : إذا أراد الصبية العشاء فنوميهم ، وتعالى فأطفئى السراج
ونطوى بطوننا الليلة لضيف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ففعلت .ثم غدا
الضيف على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال رسول الله - صلى الله
) : عليه وسلم - :" لقد عجب الله الليلة من فلان وفلانة " وأنزل الله فيهما
. ( . . . وَيُؤْثِرُونَ على أنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ
وقوله - سبحانه - : ( وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ المفلحون )"
تذييل قصد به حض الناس على التحلى بفضيلة السخاء والكرم .والشح : يرى بعضهم
أنه بمعنى البخل ، ويرى آخرون أن الشح غريزة فى النفس تحملها على الإمساك
والتقتير ، وأما البخل فهو المنع ذاته ، فكأن البخل أثر من آثار الشح .قال
صاحب الكشاف :" الشح " - بالضم والكسر قد قرئ بهما - : اللؤم ، وأن تكون
نفس المرء كزة حريصة على المنع كما قال الشاعر :يمارس نفسا بين جنبيه
كَزّةً ... إذا هَمّ بالمعروف قالت له مهلاوقد أضيف إلى النفس لأنه غريزة
فيها ، وأما البخل فهو المنع نفسه ، ومنه قوله - تعالى - : ( وَأُحْضِرَتِ
الأنفس الشح . . ) أى : ومن يوق - بتوفيق الله وفضله - شح نفسه وحرصها على
الإمساك ، فيخالفها فيما تأمره به من المنع والتقتير . فأولئك الذين
يخالفونها هم المفلحون ، الفائزون برضا الله - عز وجل - .ومن الأحاديث التى
، وردت فى النهى عن الشح ، ما أخرجه مسلم - فى صحيحه - عن جابر بن عبد الله
أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : " إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات
يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن
. " سفكوا دماءهم ، واستحلوا محارمهم

والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا
بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين امنوا ربنا انك رءوف رحيم

كما فسرها الوسيط ثم مدح - سبحانه - كل من سار على نهج المهاجرين والأنصار
) : - فى قوة الإيمان ، وفى طهارة القلب ، وسماحة النفس فقال - تعالى
والذين جَآءُوا مِن بَعْدِهِمْ . . ) عطف عند الأكثرين أيضا على المهاجرين
، والمراد بهؤلاء : قيل : الذين هاجروا حين قوة الإسلام ، فالمجىء حسى ،
وهو مجيئهم إلى المدينة ، وضمير من بعدهم ، للمهاجرين الأولين .وقيل هم
المؤمنون بعد الفريقين إلى يوم القيامة ، فالمجىء إما إلى الوجود أو إلى
الايمان وضمير ( مِن بَعْدِهِمْ ) للفريقين : المهاجرين والأنصار .وهذا هو
الذى يدل عليه كلام عمر - رضى الله عنه - وكلام كثير من السلف كالصريح فيه
فالآية قد استوعبت جميع المؤمنين .ويبدو لنا أن هذا الرأى الثانى ، وهو ،
كون الذين جاءوا من بعدهم يشمل المؤمنين الصادقين جميعا ، أقرب إلى الصواب
لأنهم هم التابعون بإحسان للمهاجرين والأنصار إلى يوم القيامة ، كما ،
قال - تعالى - : ( والسابقون الأولون مِنَ المهاجرين والأنصار والذين
اتبعوهم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ الله عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ . . . ) وعليه
يكون المعنى : والذين جاءوا من بعد المهاجرين والأنصار ، واتبعوهم بإحسان
إلى يوم القيامة ( يَقُولُونَ ) على سبيل الدعاء لأنفسهم ولإخوانهم فى
، العقيدة ، ( رَبَّنَا اغفر لَنَا ) أى : يا ربنا اغفر لنا ذنوبنا ، واغفر
لإخواننا فى الدين ( الذين سَبَقُونَا بالإيمان ) فهم أسبق منا إلى الخير
: والفضل . . ( وَلاَ تَجْعَلْ ) يا ربنا ( فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ ) أى
حسدا وحقدا ( لِّلَّذِينَ آمَنُواْ ) أى : يا ربنا لا تجعل فى قلوبنا أى غل
أو حسد لإخواننا المؤمنين جميعا .( رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ) أى
يا ربنا إنك شديد الرأفة بعبادك واسع الرحمة بهم .وقد أخذ العلماء من هذه :
، الآية الكريمة ، أن من حق الصحابة - رضى الله عنهم - على من جاءوا بعدهم
. أن يدعوا لهم ، وأن ينزلوهم فى قلوبهم منزلة الاحترام والتبجيل والتكريم
: ورحم الله الإمام القرطبة فقد أفاض فى بيان هذا المعنى ، فقال ما ملخصه.
، قوله - تعالى - : ( والذين جَآءُوا مِن بَعْدِهِمْ . . . ) يعنى التابعين
ومن دخل فى الإسلام إلى يوم القيامة .قال ابن أبى ليلى : الناس على ثلاثة
منازل : المهاجرون ، والذين تبوأوا الدار والإيمان ، والذين جاءوا من بعدهم
فاجتهد ألا تخرج من هذه المنازل .وهذه الآية دليل على وجوب محبة الصحابة ،
وقال الإمام الرازى : واعلم أن هذه الآيات قد استوعبت جميع المؤمنين. .
لأنهم إما المهاجرون ، أو الأنصار ، أو الذين جاءوا من بعدهم ، وبين أن من
شأن من جاء من بعد المهاجرين والأنصار ، أن يذكر السابقين ، وهم المهاجرون
والأنصار بالدعاء والرحمة ، فمن لم يكن كذلك ، بل ذكرهم بسوء كان خارجا من
. جملة أقسام المؤمنين ، بحسب نص هذه الآية

الم تر الى الذين نافقوا يقولون لاخوانهم الذين كفروا من اهل الكتاب لئن
اخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم احدا ابدا وان قوتلتم لننصرنكم والله
يشهد انهم لكاذبون

كما فسرها الوسيط وبعد أن رسمت السورة الكريمة ، تلك الصورة الوضيئة
للمهاجرين والأنصار والذين ابتعوهم بإحسان . . . بعد لك ذلك أخذت فى رسم

صورة أخرى ، متباينة تمام المباينة مع صورة هؤلاء الصادقين ، ألا وهى صورة
- المنافقين ، الذين انضموا إلى كل مناوئ للدعوة الإسلامية ، فقال - تعالى
قال الآلوسى : قوله - تعالى - : ( أَلَمْ تَرَ. ( . . . أَلَمْ تَرَ ) :
إِلَى الذين نَافَقُواْ . . ) حكاية لما جرى بين الكفرة والمنافقين من
الأقوال الكاذبة والأحوال الفاسدة وتعجب منها بعد حكاية محاسن أحوال
- المؤمنين على اختلاف طبقاتهم ، والخطاب لرسول الله - صلى الله عليه وسلم
أو لكل أحد ممن يصلح للخطاب .والآية - كما روى عن ابن عباس - نزلت فى رهط
من بنى عوف منهم عبد الله بن أبى بن سلول . . . بعثوا إلى بنى النضير بما
تضمنته الجمل المحكية ، بقوله - تعالى - : ( يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ
- الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب . . ) .والمراد بالأخوة فى قوله
سبحانه - : ( يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ ) : أخوة فى الكفر والفسوق
والعصيان . . . ) .والمعنى : ألم يصل إلى علمك - أيها الرسول الكريم - حال
أولئك المنافقين الذين أظهروا الإسلام ، وأبطنوا الكفر ، وهم يقولون
لإخوانهم فى الكفر من أهل الكتاب ، وهم : يهود بنى النضير ، أثناء
محاصرتكم - أيها المؤمنون - لهم .يقولون لهم : " والله لئن أخرجتم " من
دياركم ( لَنَخْرُجَنّ مَعَكُمْ ) أى : لنخرجن من ديارنا معكم ، لنكون
مصاحبين لكم حيثما سرتم .ويقولون لهم : - أيضا - ( وَلاَ نُطِيعُ فيكُمْ
أَحَداً أَبَداً . . ) أى : ولا نطيع فى شأنكم أحدا أبدا ، يريد العدوان
- عليكم ، أو يريد منعنا من الخروج معكم ومؤازرتكم . . .ويقولون لهم - كذلك
، أى : وإن قاتلكم المسلمون ( وَإِن قُوتِلتُمْ لَنَنصُرَنّكُمْ ) :
: - لنقفن إلى جواركم ، ولنقدمن العون الذى يؤدى إلى نصركم .وقوله - سبحانه
رد عليهم ، وإبطال لمزاعمهم .أى ( والله يَشْهَدُ إِنّهُمْ لَكَاذِبُونَ )
والله - تعالى - يشهد بأن هؤلاء المنافقين لكاذبون فى أقوالهم ، وفى :
. . . عهودهم

لئن اخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن
الادبار ثم لا ينصرون

) : كما فسرها الوسيط ثم أبطل - سبحانه - أقولاهم بصورة أكثر تفصيلا فقال
لَئِنْ أُخْرِجُواْ لاَ يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لاَ
يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نّصَرُوهُمْ لَيُوَلّنّ الأدبار ثُمّ لاَ
يُنصَرُونَ ) .أى : والله لئن أخرج المؤمنون اليهود من ديارهم ، فإن هؤلاء
المنافقين لا يخرجون معهم ، ولئن قاتل المؤمنون اليهود ، فإن المنافقين لن
ينصروا اليهود ، ولئن نصروهم - على سبيل الفرض والتقدير - ليولين المنافقون
الأدبار فرارا منكم - أيها المؤمنون - ، ثم لا ينصرون بعد ذلك ، لاهم ولا
من قاموا بنصرهم ، لأن الفريقين اجتمعوا على الباطل واتحدت قلوبهم فبالجبن
والخور والحرص على الحياة .فأنت ترى أن هاتين الآيتين الكريمتين ، قد وصفتا
، المنافقين ، بالكفر والعصيان ، وبالتحالف مع كل محارب للدعوة الإسلامية
وبنقض العهود ، وخلف الوعود ، وبالجبن الخالع ، والكذب الواضح . .وقد تحقق
ما أخبرت عنه الآيتان عن هؤلاء المنافقين . فإن يهود بنى النضير عندما جد
الجد ، وحالت ساعة رحيلهم . . . أرسلوا إلى المنافقين يطلبون عونهم ، فما
كان من المنافقين إلا أن خذلوهم ، وتحللوا من وعودهم لهم . .قال صاحب
الكشاف : فإن قلت : كيف قيل : ( وَلَئِن نّصَرُوهُمْ .. ) يعد الإخبار
. . بأنهم لا ينصرونهم؟ قلت : معناه ، ولئن نصروهم على سبيل الفرض والتقدير
- كقوله ( لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنّ عَمَلُكَ ) وكما يعلم .
سبحانه - ما يكون فهو يعلم مالا يكون .والمعنى : ولئن نصر المنافقون اليهود
لينهزمن المنافقون ثم لا ينصرون بعد ذلك . أى يهلكم الله - تعالى - ولا
ينفعهم نفاقهم ، لظهور كفرهم ، أو لينهزمن اليهود ثم لا ينفعهم نصر
. المنافقين لهم .وفيه دليل على صحة النبوة لأنه إخبار بالغيب

لانتم اشد رهبة في صدورهم من الله ذلك بانهم قوم لا يفقهون

كما فسرها الوسيط وبعد أن بشر الله - تعالى - المؤمنين بهزيمة أعدائهم
أمامهم ، أتبع ذلك ببشارة أخرى ، وهى أن هؤلاء المنافقين وإخوانهم فى الكفر
يخشون المؤمنين خشية شديدة ، فقال - سبحانه - : ( لأَنتُمْ أَشَدُّ ،
رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مّنَ الله . . ) .والرهبة : مصدر رهب ، بمعنى
: خاف ، يقال : رهب فلان فلانا ، إذا خافه خوفا شديدا من داهل نفسه . . .أى
لأنتم - أيها المؤمنون - أشد خوفا فى نفوس هؤلاء المنافقين واليهود ، من
ربهم الذى خلقهم وأوجدهم .وقوله : ( ذَلِكَ بِأَنّهُمْ قَوْمٌ لاّ
يَفْقَهُونَ ) تعليل لسبب جبنهم وخوفهم ، واسم الإشارة يعود إلى كون
المؤمنين أشد رهبة فى صدور المنافقين واليهود من الله - تعالى - .أى : أنتم
، أشد رهبة فى قلوبهم من الله - تعالى - : بسبب أنهم قوم لا يفقهون الحق
ولا يعلمون شيئا عن عظمة الله - سبحانه - وجلاله وقدرته .والمقصود من هذه
الآية الكريمة ، تهوين أمر هؤلاء الأعداء فى نفوس المؤمنين وبيان أن هؤلاء

الاعداء قد بلغ الجبن والخور فيهم مبلغا كبيرا ، لدرجة أن خشيتهم لكم ، اشد
من خشيتهم لله - تعالى - .والتعبير بالرهبة للإشعار بأنها رهبة خفية لا
يعلمها إلا الله - تعالى - وأن هؤلاء المنافقين واليهود ، مهما تظاهروا
أمام المؤمنين بالبأس والقوة . فهم فى قرارة نفوسهم يخافون المؤمنين خوفا
شديدا .قال صاحب الكشاف : رهبة مصدر رهب المبنى للمفعول ، كأنه قيل أشد
مرهوبية .وقوله : ( فِي صُدُورِهِمْ ) دلالة على نفاقهم . يعنى : أنهم
- يظهرون لكم فى العلانية خوف الله ، وأنتم أهيب فى صدورهم من الله - تعالى
: فإن قلت : كأنهم كانوا يرهبون من الله حتى تكون رهبتهم منهم أشد؟قلت.
. معناه أن رهبتهم فى السر منكم ، أشد من رهبتهم من الله التى يظهرونها لكم
وكانوا يظهرون لهم رهبة شديدة من الله . . .فأنت ترى أن الآية الكريمة قد
قررت حقيقة راسخة فى نفوس المنافقين وأشباههم ، وإن كانوا يحاولون إخفاءها
. - وسترها ، وهى أن خشيتهم من الناس أشد من خشيتهم من الله - تعالى

لا يقاتلونكم جميعا الا في قرى محصنة او من وراء جدر باسهم بينهم شديد
تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بانهم قوم لا يعقلون

كما فسرها الوسيط ثم يقرر - سبحانه - حقيقة أخرى ، أيدتها التجارب والمشاهد
الواقعية ، فقال - تعالى - : ( لاَ يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلاَّ فِي
قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ
تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شتى . . . ) .والآية الكريمة بدل
، اشتمال من التى قبلها ، لأن شدة الخوف من المؤمنين جعلت اليهود وحلفاءهم
لا يقاتلون المسلمين ، إلا من رواء الخنادق والحصون .. .والجدر : جمع جدار
وهو بناء مرتفع يحتمى به من يقاتل من خلفه . و (جَمِيعاً ) بمعنى ،
مجتمعين كلهم . . .أى : أن هؤلاء اليهود وحلفاءهم من المنافقين ، لا
يقاتلونكم مجتمعين كلهم فى موطن من المواطن إلا فى قرى محصنة بالخنادق
وغيرها ، أو يقاتلونكم من وراء الجدران التى يتسترون بها ، لأنهم يعجزون عن
: مبارزتكم ، وعن مواجهتكم وجها لوجه ، لفرط رهبتهم منكم . .قال ابن كثير
يعنى أنهم فى جبنهم وهلعهم ، لا يقدرون على مواجهة جيش الإسلام ، بالمبارزة
والمقاتلة ، بل إما فى حصون ، أو من وراء جدر محاصوين ، فيقاتلونكم للدفع
عنهم ضرورة .وقوله - تعالى - : ( بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ) جملة
مستأنفة ، كأن قائلا قال : ولماذا لا يقاتلون المؤمنين إلا على هذه الصورة؟
، فكان الجواب : بأسهم بينهم شديد . أى : عداوتهم فيما بينهم عداوة شديدة
، بحيث لا يتفقون على رأى ، وقوتهم يستعملونها فيما بينهم استعمالا واسعا
فإذا ما التقوا بكم تحولت هذه القوة إلى جبن وهلع .قال صاحب الكشاف : يعنى
أن البأس الشديد الذى يوصفون به ، إنما هو فيما بينهم إذا اقتتلوا ، ولو
قاتلوكم لم يبق لهم ذلك البأس والشدة ، لأن الشجاع يجبن والعزيز يذل ، عند
محاربة الله ورسوله .وقوله - تعالى - : ( تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً
وَقُلُوبُهُمْ شتى ) استئناف آخر للإجابة عما يقال : من أنه كيف تكون
عداوتهم فيما بينهم شديدة ، ونحن نراهم متفقين؟فكان الجواب : ليس الأمر كما
يظهر من حالهم من أن بينهم تضامنا وترابطا . . . بل الحق أنهم متدابرون
مختلفون متباغضون . . . وإن كانت ظواهرهم تدل على خلاف ذلك .أى : تحسبهم
أيها الناظر إليهم مؤتلفين . . . والحال أن قلوبهم متفرقة ، ومنازعهم
- مختلفة وبواطنه تباين ظواهرهم . . . وما دام الأمر كذلك فلا تبالوا بهم
أيها المؤمنون - ، بل أغلظوا عليهم ، وجاهدوهم بكل قوة وجسارة .واسم
الإشارة فى قوله : ( ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ ) يعود
إلى ما سبق ذكره ، من شدة عداوتهم فيما بينهم ، ومن مخالفة بواطنهم
لظواهرهم .أى : ذلك الذى ذكرناه لكم من شدة بأسهم فيما بينهم ، ومن مخالفة
. . . بواطنهم لظواهرهم ، سببه أنهم قوم لا يعقلون الحق والهدى والرشاد
وإنما هم ينساقون وراء أهوائهم بدافع من الأحقاد والمطامع والشهوات ، بدون
. . . إدراك لعواقب الأمور ، أو للفهم الصحيح

كمثل الذين من قبلهم قريبا ذاقوا وبال امرهم ولهم عذاب اليم

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - مثلين زيادة فى تثبيت المؤمنين ، وفى
التهوين من شأن أعدائهم فقال - تعالى - : ( كَمَثَلِ الذين مِن قَبْلِهِمْ
قَرِيباً ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ) .وقوله
: خبر لمبتدأ محذوف . والمراد بالذين من قبلهم : يهود بنى ( . . كَمَثَلِ )
: قينقاع ، وكفار قريش الذين حل بهم ما حل من هزائم فى غزوة بدر .والوبال
المرعى الضار الذى ترعاه الماشية ، دون أن تدرك سوء عاقبته .أى : مثل هؤلاء
اليهود والمنافقين ، وحالهم العجيبة . . . كمثل الذين من قبلهم ، وهم يهود
بنى قينقاع ، الذين أخرجوا من المدينة بسبب غدرهم ، وكان خروجهم قبل خروج
بنى النضير بزمن ليس بالطويل ، وكمثل مشركى قريش الذين حلت بهم الهزيمة فى
غزوة بدر ، فإن هؤلاء وهؤلاء قد ذاقوا فى الدنيا سوء عاقبة كفرهم بدون
إمهال . .أما فى الآخرة فلهم عذاب شديد الألم والإهانة .ووجه الشبه بين

السابقين واللاحقين ، أن الجميع قد اغتروا بمالهم وقوتهم ، فتطاولوا على
- المؤمنين ، ونقضوا عهودهم معهم . . . فكانت عاقبتهم جميعا أن أذلهم الله
. تعالى - فى الدنيا ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى

كمثل الشيطان اذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال اني بريء منك اني اخاف الله رب العالمين

كما فسرها الوسيط وأما المثل الثانى فيتجلى فى قوله - تعالى - : ( كَمَثَلِ
الشيطان إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكفر فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي برياء
مِّنكَ . . ) .أى : مثل المنافقين فى تزيينهم الشر والفساد ليهود بنى
- النضير . . . كمثل الشيطان إذ قال للإنسان فى الجنيا اكفر بالله - تعالى
فلما كفر ذلك الإنسان ومات على الكفر ، وبعث يوم القيامة ، ووجد مصيره
السيىء . . . ندم وألقى التبعة على الشيطان الذى قال له : إنى برىء منك ومن
كفرك ، إنى أخاف الله رب العالمين ، ووجه الشبه : أن المنافقين تبرأوا من
معاونتهم ومن مناصرتهم . . عندما حانت ساعة الجد . . كما يتبرأ الشيطان من
- كفر الكافر يوم القيامة .ومن الآيات التى وردت فى هذا المعنى قوله
تعالى - : ( وَقَالَ الشيطان لَمَّا قُضِيَ الأمر إِنَّ الله وَعَدَكُمْ
وَعْدَ الحق وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ
مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فاستجبتم لِي فَلاَ تَلُومُونِي
ولوموا أَنفُسَكُمْ مَّآ أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُمْ
. . ).بِمُصْرِخِيَّ

فكان عاقبتهما انهما في النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا
- فِي النار خَالِدِينَ فِيهَا . . ) من تمام المثل الذى ضربه الله - تعالى
للمنافقين واليهود . .أى : فكان عاقبة ذلك الشيطان وذلك الإنسان ، أنهما فى
النار ، حالة كونهما خالدين فيها خلودا أبديا ، وكذلك حال المنافقين
واليهود . .( وَذَلِكَ ) الخلود فى النار ( جَزَآءُ الظالمين ) الذين
تجاوزوا حدود الله - تعالى - وحاربوا أولياءه - سبحانه - .والمراد بالشيطان
والإنسان جنسهما ، وقد ذكر بعضهم هنا قصصا تدل على أن المراد بالإنسان شخص
معين ، وقد أضربنا عنها صفحا لضعفها . .وبذلك ترى أن هذه الآيات الكريمة قد
ذمت المنافقين واليهود ذما شنيعا ، وأضعفت من شأنهم ، وساقت لهم من الأمثلة
. ما يجعل المؤمنين يستخفون بهم ، ويجاهدونهم بغلظة وشدة

يا ايها الذين امنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون

كما فسرها الوسيط ثم وجه - سبحانه - نداء إلى المؤمنين أمرهم فيه بتقواه
وبتقديم العمل الصالح الذى ينفعهم يوم يلقونه ، ونهاهم عن التشبه بالقوم
الفاسقين . . . فقال - تعالى - : ( ياأيها الذين آمَنُواْ . . . ) .والمراد
بالغد فى قوله - تعالى - : ( ياأيها الذين آمَنُواْ اتقوا الله وَلْتَنظُرْ
نَفْسٌ مّا قَدّمَتْ لِغَدٍ . . ) يوم القيامة . .أى : يا من آمنتم
بالله - تعالى - حق الإيمان ( اتقوا الله ) أى صونوا أنفسكم عن كل ما يغضب
الله - تعالى - ، وراقبوه فى السر والعلن . وقفوا عند حدوده فلا تتجاوزوها
، أى : ولتنظر كل نفس ( وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مّا قَدّمَتْ لِغَدٍ ).
ولتتأمل فى الأعمال التى عملتها فى الدنيا . والتى ستحاسب عليها فى يوم
القيامة ، فإن كانت خيرا ازدادت منها ، وإن كانت غير ذلك أقلعت عنها
وعبر - سبحانه - عن يوم القيامة بالغد ، للإشعار بقربه ، وأنه آت لا ريب.
فيه ، كما يأتى اليوم الذى يلى يومك . والعرب تخبر عن المستقبل القريب الغد
كما فى قول الشاعر :فإن يك صدر هذا اليوم ولى ... فإن غدا لناظره
قريبوقال - سبحانه - : ( وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ ) لإفادة العموم ، أى : كل نفس
عليها أن تنظر نظرة محاسبة ومراجعة فى أعمالها بحيث لا تقدم إلا على ما كان
صالحا منها .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما معنى تنكير النفس والغد؟ قلت :
أما تنكير النفس فاستقلالا للأنفس النواظر فيما قدمت للآخرة ، كأنه قيل :
ولتنظر نفس واحدة فى ذلك ، وأما تنكير الغد ، فلتعظيمه وإبهام أمره ، كأنه
قيل : لغد لا يعرف كنهه لعظمه .وعن مالك بن دينار : مكتوب على باب الجنة :
- وجدنا ما عملنا ، وربحنا ما قدمنا ، وخسرنا ما خلفنا . .وكرر - سبحانه
الأمر بالتقوى فقال : ( واتقوا الله ) للتأكيد . أى : اتقوا الله بأن تؤدوا
- ما كلفكم به من واجبات ، وبأن تجتنبوا ما نهاكم عنه من سيئات .وقوله
سبحانه - : ( إِنَّ الله خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ) تعليل للحض على
التقوى أى : اتقوه فى كل ما تأتون وما تذرون ، لأنه - تعالى -لا تخفى عليه
خافية من أعمالكم ، بل هو - سبحانه - محيط بها إحاطة تامة ، وسيجازيكم
عليها بما تستحقون يوم القيامة .وقد جاء الأمر بتقوى الله - تعالى - فى

، عشرات الآيات من القرآن الكريم ، لأن تقوى الله - تعالى - هى جماع كل خير وملاك كل بر ، ومن الأدلة على ذلك . أننا نرى القرآن يبين لنا أن تقوى الله قد أمر بها كل نبى قومه ، قال - تعالى - : ( كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ المرسلين إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ ) وتارة نجد القرآن الكريم يبين لنا الآثار الطيبة التى تترتب على تقوى الله فى الدنيا والآخرة فيقول : ( وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القرى آمَنُواْ واتقوا لَفَتَحْنَا ، عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السمآء والأرض . ) ويقول : ( وَمَن يَتَّقِ الله يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ ويقول - سبحانه - : ( الأخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ( إِلاَّ المتقين ) ويقول - عز وجل - : ( إِنَّ المتقين فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ).

ولا تكونوا كالذين نسوا الله فانساهم انفسهم اولئك هم الفاسقون

كما فسرها الوسيط وبعد هذا الأمر المؤكد بالتقوى ، جاء النهى عن التشبه بمن خلت قلوبهم من التقوى ، فقال - تعالى - : ( وَلاَ تَكُونُواْ كالذين نَسُواْ الله فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ . . ) .أى : تمسكوا - أيها المؤمنون - بتقوى الله - تعالى - وراقبوه وابعدوا عن كل مالا يرضيه - واحذروا أن تكونوا كأولئك الذين تركوا التكاليف التى كلفهم الله - تعالى - بها ، فتركهم - سبحانه - إلى أنفسهم ، بأن جعلهم ناسين لها ، فلم يسمعوا إلى ما ينفعها ، بل سعوا فيما يضرها ويرديها .فالمراد بالنسيان هنا : الترك والإهمال ، والكلام على حذف مضاف . أى : نسوا حقوق الله - تعالى - وما أوجب عليهم من تكاليف .والفاء فى قوله : ( وَلاَ تَكُونُواْ كالذين نَسُواْ الله فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ . . ) .أى : تمسكوا - أيها المؤمنون - بتقوى الله - تعالى - وراقبوه وابعدوا عن كل مالا يرضيه . واحذروا أن تكونوا - كأولئك الذين تركوا التكاليف التى كلهم الله - تعالى - بها ، فتركهم سبحانه - إلى أنفسهم ، بأن جعلهم ناسين لها ، فلم يسعوا إلى ما ينفعها ، بل سعوا فيما يضرها ويرديها .فالمراد بالنسيان هنا : الترك والإهمال ، والكلام على حذف مضاف . أى : نسوا حقوق الله - تعالى - وما أوجب عليهم من تكاليف والفاء فى قوله : ( فَأَنسَاهُمْ ) للسببية ، أى : أن نسيانهم لما يجب. عليهم نحو أنفسهم من تهذيب وتأديب . . . كان سببه نسيانهم لا يجب عليهم نحو خالقهم من طاعته وخشيته .ثم بين - سبحانه - سوء مصيرهم فقال : ( أولئك هُمُ الفاسقون ) أى : أولئك الذين تركوا ما يجب عليهم نحو خالقهم ونحو أنفسهم ، هم الفاسقون عن أمره ، الخارجون على شريعته ودينه ، الخالدون يوم القيامة فى العذاب المهين .

لا يستوي اصحاب النار واصحاب الجنة هم الفائزون

كما فسرها الوسيط ثم حذر - سبحانه - المؤمنين من نسيان طاعته ، وخشيته بأسلوب آخر فقال : ( لاَ يستوي أَصْحَابُ النار وَأَصْحَابُ الجنة - أَصْحَابُ الجنة هُمُ الفآئزون . . ) .أى : لا يستوى فى حكم الله - تعالى وفى جزائه ( أَصْحَابُ النار ) الذين استحقوا الخلود فيها ( وَأَصْحَابُ الجنة ) الذين ظفروا برضوانه - تعالى - بسبب إيمانهم وعملهم الصالح ). أَصْحَابُ الجنة هُمُ الفآئزون ) بالسعادة التى ليس بعدها سعادة ، وبالنعيم الذى لا يقاربه نعيم .وقال - سبحانه - : ( لاَ يستوي أَصْحَابُ النار وَأَصْحَابُ الجنة . . ) بدون بيان مالا يستويان فيه ، للإشعار بالبون الشاسع بين الفريقين ، فى سلوكهم وفى أعمالهم ، وفى تفكيرهم ، وفى نظرتهم إلى الحياة ، وفى العاقبة التى ينتهى إليها كل فريق . .قال صاحب الكشاف : هذا تنبيه للناس ، وإيذان لهم بأنهم لفرط غفلتهم ، وقلة فكرهم فى العاقبة ، وتهالكهم على إيثار العاجلة ، واتباع الشهوات : كأنهم لا يعرفون الفرق بين الجنة والنار ، والبون العظيم بين أصحابهما ، وأن الفوز مع أصحاب الجنة ، فمن حقهم أن يعلموا ذلك وينبهوا عليه ، كما تقول لمن يعق أباه ، هو أبوك تجعله بمنزلة من لا يعرفه ، فتنبهه بذلك على حق الأبوة ، الذى يقتضى البر والتعطف ..ومن الآيات الكثيرة التى تشبه هذه الآية فى معناها ، قوله - تعالى - : ( وَمَا يَسْتَوِي الأعمى والبصير والذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات وَلاَ المسياء قَلِيلاً مّا تَتَذَكَّرُونَ ).

لو انزلنا هذا القران على جبل لرايته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الامثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون

كما فسرها الوسيط ثم نوه - سبحانه - بشأن القرآن الكريم ، المشتمل على ألوان من الهدايات والمواعظ ، والآداب والأحكام ، التى فى اتباعها سعادة الناس وفوزهم فقال : ( لَوْ أَنزَلْنَا هذا القرآن على جَبَلٍ

لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ الله . . ) .والمراد
بالجبل : حقيقته والكلام على سبيل الفرض والتقدير ، واختير الجبل ، لأنه
أشد الأشياء صلابة ، وقلة تأثر بما ينزل به .أى : لو أنزلنا - على سبل
الفرض والتقدير - هذا القرآن العظيم الشأن على جبل من الجبال العالية
الشامخة الصلبة وخاطبناه به . . . لرايت - أيها العاقل - هذا الجبل الذى هو
مثال فى الشدة والغلظة والضخامة وعدم التأثر . لرأيته ( خَاشِعاً
مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ الله ) .أى : لرأيته متذللا متشققا من شدة
خوفه من الله - تعالى - ومن خشيته .قال الآلوسى : وهذا تمثيل لعلو شأن
القرآن ، وقوة تأثيره ، والغرض - من هذه الآية - توبيخ الإنسان على قسوة
، قلبه ، وقلة تخشعه عند تلاوة القرآن الكريم ، وتدبر ما فيه من القوارع
وهو الذى لو أنزل على جبل - وقد ركب فيه العقل - لخشع وتصدع .ويشير إلى
كونه تمثيلا ، قوله - تعالى - : ( وَتِلْكَ الأمثال نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ
لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ) .أى : وتلك الأمثال الباهرة التى اشتمل عليها
هذا القرآن العظيم ، نضربها ونسوقها للناس ، لكى يتفكروا فيها ، ويعملوا
. بما تقتضيه من توجيهات حكيمة ومن مواعظ سديدة ، ومن إرشادات نافعة

هو الله الذي لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم

- كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بالثناء على ذاته
تعالى - وببيان بعض أسمائه الحسنى فقال - تعالى - : ( هُوَ الله . . . )
قال الجمل : لما وصف - تعالى - القرآن العظيم ، ومعلوم أن عظم الصفة تابع.
لعظم الموصوف ، أتبع ذلك بوصف عظمته - تعالى - فقال : ( هُوَ الله الذي لاَ
إله إِلاَّ هُوَ ) أى : هو الله الذى وجوده من ذاته ، فلا عدم له بوجه من
، الوجوه ، فلا شىء يستحق الوصف بهذا غيره ، لأنه هو الموجود أزلا وأبدا
فهو حاضر فى كل ضمير ، غائب بعظمته عن كل حس ، فلذلك تصدع الجبل من خشيته
أى : هو المعبود الذى لا تنبغى العبادة والألوهية إلا له ، الذى لا إله.
إلا هو ، فإنه لا مجانس له ، ولا يليق ولا يصح ، ولا يتصور ، أن يكافئه أو
- يدانيه شىء . .وقوله : ( عَالِمُ الغيب والشهادة ) أى : هو - سبحانه
العليم علما تاما بما غاب عن أذهان الخلائق وعقولهم ، وبما هو حاضر ومشاهد
. . أمام أعينهم .فالمراد بالغيب : كل ما غاب عن إحساس الناس وعن مداركهم
والمراد بالشهادة : ما يشاهدونه بعيونهم ، ويدركونه بعقولهم .والتعريف.
فيهما للاستغراق الحقيقى ، لأن الله - تعالى -لا يخفى عليه شىء فى هذا
الكون .وقوله - تعالى - : ( هُوَ الرحمن الرحيم ) أى : هو العظيم الرحمة
) الدائمها ، لأن لفظ ( الرحمن ) صيغة مبالغة لكثرة الشىء وعظمته ، ولفظ
. الرحيم ) صيغة تدل على الدوام والاستمرار

هو الله الذي لا اله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز
الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( هُوَ الله الذي لاَ إله إِلاَّ هُوَ
- تأكيد لأمر التوحيد لأن مقام التعيم يقتضى ذلك . ثم عدد - سبحانه ( . . .
بعد ذلك بعض أسمائه الحسنى ، وصفاته الجليلة فقال : ( الملك ) أى : المالك
لجميع الأشياء ، والحاكم على جميع المخلوقات والمتصرف فيها تصرف المالك فى
ملكه . ( القدوس ) أى : المنزه عن كل نقص ، البالغ أقصى ما يتصوره العقل فى
الطهارة وفى البعد عن النقائص والعيوب ، وعن كل مالا يليق . من القدس بمعنى
. الطهارة ، والقدَس - بفتح الدال - اسم للإناء الذى يتطهر به ومنه القادوس
وجاء لفظ القدوس بعد لفظ الملك ، للإشعار بأنه - تعالى - وإن كان مالكا لكل
شىء ، إلا أنه لا يتصرف فيما يملكه تصرف الملوك المغرورين الظالمين ، وإنما
يتصرف فى خلقه تصرفا منزها عن كل ظلم ونقص وعيب . ( السلام ) أى : ذو
- السلامة من كل ما لا يليق ، أو ذو السلام على عباده فى الجنة ، كما قال
تعالى - ( سَلاَمٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ) ( المؤمن ) أى : الذى
وهب لعباده نعمة الأمان والاطمئنان ، والذى صدق رسله بأن أظهر على أيديهم
: المعجزات التى تدل على أنهم صادقون فيما يبلغونه عنه . ( المهيمن ) أى
الرقيب على عباده ، الحافظ لأقوالهم وأفعالهم وأحوالهم ، من الأمن ، ثم
قلبت همزته هاء ، وقيل أصله هيمن بمعنى رقب ، فهاؤه أصلية . ( العزيز ) أى
الذى يغلب غيره ، ولا يتجاسر على مقامه أحد . ( الجبار ) أى : العظيم :
القدرة ، القاهر فوق عباده . قال القرطبى : قال ابن عباس : الجبار : هو
العظيم . وجبروت الله عظمته . وهو على هذا القول صفة ذات ، من قولهم : نخلة
جبارة . وقيل هو من الجبر وهو الإصلاح ، يقال : جبرت العظم فجبر ، إذا
) . أصلحته بعد الكسر ، فهو فعال من جبر ، إذا أصلح الكسير وأغنى الفقير
المتكبر ) أى : الشديد الكبرياء ، والعظمة والجلالة ، والتنزه عما لا يليق
- بذاته . وهاتان الصفتان - الجبار المتكبر - صفتا مدح بالنسبة لله - تعالى
وصفتا ذم بالنسبة لغيره - تعالى - ، وفى الحديث الصحيح عن أبى هريرة " أن ،
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، قال فيما يرويه عن ربه : " الكبرياء

ردائى ، والعظمة إزارى ، فمن نازعنى في واحد منهما قصمته . ثم قذفته فى
- النار " " . ( سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ) أى : تنزه - سبحانه
. وتقدس عن إشراك المشركين . وكفر الكافرين

هو الله الخالق البارئ المصور له الاسماء الحسنى يسبح له ما في السماوات
والارض وهو العزيز الحكيم

كما فسرها الوسيط ( هُوَ الله الخالق ) لكل شيء الموجد لهذا الكون على
مقتضى حكمته .( البارئ ) أى : المبدع المخترع للأشياء . والمبرز لها من
العدم إلى الوجود .( المصور ) أى : المصور للأشياء والمركب لها ، على هيئات
مختلفة ، وأنواع شتى من التصوير ، وهو التخطيط والتشكيل .( لَهُ الأسمآء
الحسنى ) والحسنى تأنيث الأحسن . أى : له الأسماء التى هى أحسن الأسماء
لدلالتها على أفضل المعانى . من تحميد . وتقديس . وقدرة . وسمع . . . وغير
- ذلك من الأسماء الكريمة ، والصفات الجليلة .( يُسَبِّحُ لَهُ ) - تعالى
وينزهه عن كل سوء ( مَا فِي السماوات والأرض ) من مخلوقات . . .( وَهُوَ
العزيز الحكيم ) أى : وهو - عز وجل - الغالب لغيره . الحكيم فى كل تصرفاته
قال الإمام ابن كثير : وفى الصحيحين عن أبى هريرة " أن رسول الله - صلى.
الله عليه وسلم - قال : " إن لله تسعة وتسعين إسما - مائة إلا واحدا- من
أحصاها دخل الجنة ، وهو وتر يحب الوتر . . " " .ثم ذكر - رحمه الله - هذه
الأسماء نقلا عن سنن الترمذى فقال : هو الله الذى لا إله إلا هو ، الرحمن
، الرحيم ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار
المتكبر ، الخالق ، البارئ ، المصور ، الغفار ، القهار ، الوهاب ، الرزاق
، الفتاح ، العليم ، القابض ، الباسط ، الخافض ، الرافع ، المعز ، المذل ،
، السميع ، البصير ، الحكم ، العدل ، اللطيف ، الخبير ، الحليم ، العظيم
، الغفور ، الشكور ، العلى ، الكبير ، الحفيظ ، المقيت ، الحسيب ، الجليل
، الكريم ، الرقيب ، المجيب ، الواسع ، الحيكم ، الودود ، المجيد ، الباعث
، الشهيد ، الحق ، الوكيل ، القوى ، المتين ، الولى ، الحميد ، المحصى
، المبدى ، المعيد ، المحيى ، المميت ، الحى ، القيوم ، الواحد ، الماجد
، الواجد ، الصمد ، القادر ، المقتدر ، المؤخر ، الأول ، الآخر ، الظاهر
، الباطن ، الوالى ، المتعالى ، البر ، التواب ، المنتقم ، العفو ، الرءوف
، مالك الملك ، ذو الجلال والإكرام ، المقسط ، الجامع ، الغنى ، المغنى
، المانع ، الضار ، النافع ، النور ، الهادى ، البديع ، الباقى ، الوارث
- الرشيد ، الصبور .ثم قال الإمام ابن كثير : وسياق ابن ماجه - لهذا الحديث
بزيادة ونقصان ، وتقديم وتأخير .. . والذى عول عليه جماعة من الحفاظ ، أن
سرد الأسماء فى هذا الحديث مدرج فيه - أى : ذكر الراوى فى الحديث كلاما
لنفسه أو لغيره من غير فصل بين ألفاظ الحديث وألفاظ الراوى - وأن أهل العم
جمعوا هذه الأسماء من القرآن الكريم .ثم ليعلم أن الأسماء الحسنى ليست
منحصرة فى التسعة والتسعين ، بدليل ما رواه الإمام أحمد عن ابن مسعود ، عن
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : " ما أصاب أحدا قط هم ولا حزن
فقال : اللهم إنى عبدك ، وابن عبدك ، وابن أمتك ، ناصيتى بيدك ، ماضٍ فىّ
حكمك ، عدل فى قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو أعلمته
أحداً من خلقك ، أو أنزلته فى كتابك ، أن تجعل القرآن ربيع قلبي ، ونور
صدرى ، وجلاء حزنى ، وذهاب همى ، إلا أذهب الله همه وحزنه ، وأبدله مكانه
فرجا " .فقيل يا رسول الله ، أفلا نتعلمها؟ فقال : " بلى ، ينبغى لكل من
سمعها أن يتعلمها " وذكر أبو بكر بن العربى أن بعضهم جمع من الكتاب والسنة
. - ألف اسم لله - تعالى

يا ايها الذين امنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم اولياء تلقون اليهم بالمودة وقد
كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول واياكم ان تؤمنوا بالله ربكم ان
كنتم خرجتم جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون اليهم بالمودة وانا اعلم
بما اخفيتم وما اعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل

كما فسرها الوسيط افتتحت سورة " الممتحنة " بهذا النداء للمؤمنين ، وقد
تضمن هذا النداء نهيهم عن موالاة أعداء الله وأعدائهم .وقد ذكر المفسرون فى
سبب نزول هذه الآيات روايات منها ، ما ذكره الإمام الآلوسى فقال : " نزلت
، فى حاطب بن أبى بلتعة . . . فقد أخرج الإمام أحمد ، والبخارى ، ومسلم
وأبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، وابن حبان ، وجماعة عن على بن أبى
طالب - رضى الله عنه - قال : بعثنى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنا
والزبير والمقداد فقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ - وهومكان بين مكة
والمدينة - فإن بها ظعينة معها كتاب ، فخذوه منها فأتونى به فخرجنا حتى
أتينا الروضة ، فإذا نحن بالظعينة فقلنا لها : أخرجى الكتاب . فقالت : ما
معى من كتاب ، فقلنا : أخرجى الكتاب أو لنلقين الثياب ، فأخرجته من عاقصها
فأتينا به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فإذا فيه : من حاطب بن أبى ،
بلتعة ، إلى أناس من المشركين بمكة ، يخبرهم ببعض أمر النبى - صلى الله

: عليه وسلم - .فقال - صلى الله عليه وسلم - " ما هذا يا حاطب؟ " فقال حاطب
، لا تعجل علىّ يا رسول الله إنى كنت إنسانا ملصقا فى قريش ، ولم أكن منها
، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهلهم وأموالهم بمكة
فأحببت إذ فاتنى ذلك من النسب فيها ، أن أصطنع إليهم يدا ، يحمون بها
قرابتى ، وما فعلت ذلك كفرا ولا ارتدادا عن الإسلام .فقال عمر : دعنى يا
، رسول الله أضرب عنقه ، فقال ، - صلى الله عليه وسلم - : " إنه شهد بدرا
" وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم
فنزلت هذه الآيات " .وقد ذكروا أن هذه القصة كانت فى الوقت الذى أعد فيه
النبى - صلى الله عليه وسلم - العدة لأجل العمرة ، سنة صلح الحديبية ، وقيل
كانت هذه القصة فى الوقت الذى تهيأ النبى - صلى الله عليه وسلم - لفتح مكة
: وكان من بين الذين علموا ذلك حاطب بن أبى بلتعة .والمراد بالعدو هنا ،
الأعداء عموما ، ويدخل فيهم دخولا أولياء كفار قريش ، الذين أرسل إليهم
حاطب بن أبى بلتعة خطابه ، لكى يحذرهم من مهاجمة المسلمين لهم .والمراد
بالعداوة : العداوة الدينية التى جعلت المشركين ، يحرصون كل الحرص على أذى
المسلمين ، أى : يامن آمنتم بالله - تعالى - إيمانا حقا ، احذروا أن تتخذوا
، أعدائى وأعداءكم أولياء وأصدقاء وحلفاء . بل جاهدوهم وأغلظوا عليهم
واقطعوا الصلة التى بينكم وبينهم .وناداهم بصفة الإيمان ، لتحريك حرارة
- العقيدة الدينية فى قلوبهم ولحضهم على الاستجابة لما نهاهم عنه .وقدم
سبحانه - عداوته للمشركين ، على عداوة المؤمنين لهم ، لأن عداوة هؤلاء
المشركين لله - تعالى - أشد وأقبح ، حيث عبدوا غير خالقهم ، وشكروا غير
رزاقهم ، وكذبوا رسل ربهم وآذوهم .وفى الحديث القدسى : " إنى والجن والإنس
فى نبأ عظيم . أخلق ويعبد غيرى ، وأرزق ويشكر سواى . . خيرى إلى العباد
" نازل ، وشرهم إلى صاعد ، أتحبب إليهم بالنعم . ويتبغضون إلى بالمعاصى
وعبر - سبحانه - بالاتخاذ الذى هو افتعال من الأخذ ، للمبالغة فى نهيهم عن.
موالاة هؤلاء الأعداء . إذ الاتخاذ يشعر بشدة الملابسة والملازمة .والمفعول
: الأول لقوله ( تَتَّخِذُواْ ) قوله : ( عَدُوِّي ) والمفعول الثانى قوله
وقوله - سبحانه - : ( تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بالمودة ). ( أَوْلِيَآءَ )
تفسير وتوضيح لهذه الموالاة التى نهوا عنها أو فى موضع الحال من ضمير ( لاَ
، تَتَّخِذُواْ ) .وحقيقة الإلقاء : قذف ما فى اليد على الأرض أو فى الفضاء
والمراد به هنا : إيصال ما يدخل السرور على قلوب أعدائهم . والباء فى قوله
لتأكيد اتصال الفعل بمفعوله .أى : احذروا أن تعاملوا أعدائى ( بالمودة ) :
وأعداءكم معاملة الأصدقاء والحلفاء ، بأن تظهروا لهم المودة والمحبة .ويصح
أن تكون الباء للسببية فيكون المعنى : تلقون إليهم بأخباركم التى لا يجوز
لكم إظهارها لهم ، بسبب مودتكم لهم .وقد ذكروا أن حاطبا أرسل بهذه الرسالة
إلى أهل مكة ، عندما تجهز النبى - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه للذهاب
إليها لأجل العمرة عام الحديبية ، أو لأجل فتح مكة .قال صاحب الكشاف : فإن
قلت : ( تُلْقُونَ ) بم يتعلق؟ قلت : يجوز أن يتعلق بقوله : ( لاَ
: تَتَّخِذُواْ ) حالا من ضميره . . ويجوز أن يكون استئنافا .والإلقاء
عبارة عن إيصال المودة والإفضاء بها إليهم يقال : ألقى إليه خَراشِىَ
صدره - أى أسرار صدره - وأفضى إليه بقشوره .والباء فى ( بالمودة ) إما
زائدة مؤكدة للتعدى مثلها فى قوله : ( وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى
التهلكة ) وإما ثابتة على أن مفعول تلقون محذوف ، ومعناه : تلقون إليهم
إخبار رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بسبب المودة التى بينكم وبينهم .ثم
ساق - سبحانه - الأسباب التى من شأنها تحمل المؤمنين على عدم موالاة أعداء
الله وأعدائهم ، فقال : ( وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُمْ مِّنَ الحق )
أى :لا تتخذوا - أيها المؤمنون - هؤلاء الأعداء أولياء ، وتلقون إليهم
- بالمودة ، والحال أن هؤلاء الأعداء قد كفروا بما جاءكم على لسان رسولكم
صلى الله عليه وسلم - من الحق الذى يتمثل فى القرآن الكريم ، وفى كل ما
أوحاه - سبحانه - إلى رسوله .فالمقصود من هذه الجملة الكريمة ، تصوير هؤلاء
) : - الكافرين ، بما ينفر المؤمنين من إلقاء المودة إليهم .وقوله - تعالى
يُخْرِجُونَ الرسول وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بالله رَبِّكُمْ ) بيان
لسبب آخر من الأسباب التى تدعو المؤمنين إلى مقاطعة أعدائهم الكافرين
وجملة : ( يُخْرِجُونَ الرسول ) يصح أن تكون مستأنفة لبيان كفرهم ، أو فى.
محل نصب حال من فاعل ( كَفَرُواْ ) وقوله : ( وَإِيَّاكُمْ ) معطوف على
الرسول ، وقدم عليهم على سبيل التشريف لمقامه - صلى الله عليه وسلم - وجملة
فى محل نصب مفعول لأجله .أى : أن هؤلاء الكافرين لم ( أَن تُؤْمِنُواْ )
يكتفوا بكفرهم بما جاءكم - أيها المؤمنون - من الحق ، بل تجاوزوا ذلك إلى
محاولة إخراج رسولكم - صلى الله عليه وسلم - وإخراجكم من مكة ، من أجل
- إيمانكم بالله ربكم ، وإخلاصكم العبادة له - تعالى - .وأسند - سبحانه
محاولة الإخراج إلى جميع الأعداء ، لأنهم كانوا راضين بهذا الفعل ومتواطئين
على تنفيذه؛ بعضهم عن طريق التخطيط له ، وبعضهم عن طريق التنفيذ الفعلى
، والمتأمل فى هذه الجملة الكريمة ، يراها قد ساقت أقوى الأسباب وأعظمها.
للتشنيع على مشركى قريش ، ولإلهاب حماس المؤمنين من أجل عدم إلقاء المودة
إليهم .وجواب الشرط فى قوله - تعالى - : ( إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً

فِي سَبِيلِي وابتغآء مَرْضَاتِي ) محذوف للدلالة ما قبله عليه أى : إن كنتم - أيها المؤمنون - قد خرجتم من مكة من أجل الجهاد فى سبيلى ، ومن أجل طلب مرضاتى ، فاتركوا اتخاذ عدوى وعدوكم أولياء ، واتركوا مودتهم ومصافاتهم فالمقصود من الجملة الكريمة ، زيادة التهييج للمؤمنين ، حتى لا يبقى فى قلوبهم أي شيء من المودة نحو الكافرين .وقوله - سبحانه - : ( تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بالمودة ) بدل من قوله - تعالى - : قبل ذلك : ( تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بالمودة ) . بدل بعض من كل . لأن إلقاء المودة أعم من أن تكون فى السر أو فى العلن .ويصح أن يكون بدل اشتمال ، لأن الإسرار إليهم بالمودة مما اشتمل عليه إلقاء المودة إليهم .وهذه الجملة جيء بها على سبيل العتاب ، والتعجيب ممن فى قلبه مودة لهؤلاء الكافرين ، بعد أن بين الله - تعالى - له ما يوجب قطع كل صلة بهم .ومفعول ( تُسِرُّونَ ) محذوف . أى : ترسلون ، إليهم أخبار المسلمين سرا ، بسبب مودتكم لهم؟ وجملة : ( وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ) هى مناط التعجيب ممن يتخذ هؤلاء الأعداء أولياء . أو من يسر إليهم بالمودة ، وهى حالية من فاعل ( تُلْقُونَ ، و تُسِرُّونَ ) .أى : تفعلون ما تفعلون من إلقاء المودة إلى عدوى وعدوكم ومن إسراركم بها إليهم والحال أنى أعلم منهم ومنكم بما أخفيتموه فى قلوبكم وما أعلنتموه ، ومخبر رسولنا - صلى الله عليه وسلم - بذلك .وما دام الأمر ، كذلك فكيف أباح بعضكم لنفسه ، أن يطلع عدوى وعدوكم على مالا يجوز إطلاعه عليه؟!قال الآلوسى : قوله : ( وَأَنَاْ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ ) فى موضع الحال و ( أَعْلَمُ ) أفعل تفضيل . والمفضل عليه محذوف . أى : منكم . و ( مَآ ) موصولة أو مصدرية ، وذكر ( مَآ أَعْلَنتُمْ ) مع الاستغناء . . عنه ، للإشارة إلى تساوى العلمين فى علمه - عز وجل - .ولذا قدم ( مَآ أَخْفَيْتُمْ ) . وفى هذه الحال إشارة إلى أنه لا طائل لهم فى إسرار المودة إليهم كأنه قيل : تسرون إليهم بالمودة والحال أنى أعلم ما أخفيتم وما أعلنتم ، ومطلع رسولى على ما تسرون ، فأى فائدة وجدوى لكم فى الإسرار .ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة ببيان سوء عاقبة من يخالف أمره فقال ) : وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ السبيل ) .والضمير فى قوله ( يَفْعَلْهُ ) : يعود إلى الاتخاذ المفهوم من قوله ( لاَ تَتَّخِذُواْ ) أى ومن يفعل ذلك الاتخاذ لعدوى وعدوكم أولاء . ويلقى إليهم بالمودة ، فقد أخطأ طريق الحق والصواب . وضل عن الصراط المستقيم .

ان يثقفوكم يكونوا لكم اعداء ويبسطوا اليكم ايديهم والسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - حال هؤلاء الأعداء عندما يتمكنون من المؤمنين فقال : ( إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً ويبسطوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بالسواء وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ) .ومعنى ( يَثْقَفُوكُمْ ) يظفروا بكم ، ويدركوا طلبتهم منكم وأصل الثقف : الحذق فى إدراك الشىء وفعله ، ومنه رجل ثقف إذا كان سريع الفهم ، ويقال : ثقفت الرجلَ فى الحرب إذا أدركته وظفرت به .أى : إن يظفر بكم هؤلاء الأعداء - أيها المؤمنون - ويتمكنوا منكم ، يظهروا لكم ما انطوت عليه قلوبهم نحوكم من بغضاء : ولا يكتفون بذلك ، بل يمدون إليكم أيديهم بما يضركم ، وألسنتهم مما يؤذيكم .ثم هم بعد كل ذلك يودون ويتمنون أن تصيروا كفارا مثلهم .فأنت ترى أن الآية الكريمة ، قد وضحت أن هؤلاء الكافرين ، قد سلكوا فى عداوتهم للمؤمنين كل مسلك ، فهم عند تمكنهم من المؤمنين يظهرون حقدهم القديم ، ويؤذونهم بأيديهم وألسنتهم ، ويتمنون فى جميع الأحوال أن يردوهم بعد إيمانهم كافرين .وقال - سبحانه - : ( ويبسطوا إِلَيْكُمْ . . . للإشعار بكثرة ما ينزلونه بالمؤمنين من أذى ، إذ التعبير بالبسط يدل على الكثرة والسعة .وقوله : ( وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ) معطوف على جملة الشرط والجزاء ، ويكون - سبحانه - قد أخبر عنهم بخبرين :أحدهما : ما تضمنته الجملة الشرطية من عداوتهم للمؤمنين .وثانيهما : تمنيهم ارتدادهم من الإيمان إلى الكفر .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف أورد جواب الشرط مضارعا مثله ، ثم قال ( وَوَدُّواْ ) بلفظ الماضى؟قلت : الماضى وإن كان يجرى فى باب الشرط مجرى المضارع فى علم الإعراب . فإن فيه نكتة ، كأنه قيل وودوا قبل كل شىء كفركم وارتدادكم . يعنى : أنهم يريدون أن يلحقوا بكم : مضار الدنيا والدين جميعا ، من قتل الأنفس وتمزيق الأعراض ، وردكم كفارا وهذا الرد إلى الكفر أسبق المضار عندهم وأولها ، لعلمهم أن الدين أعز عليكم من أرواحكم ، لأنكم بذالون لها دونه . والعدو أهم شىء عنده ، أن يقصد أعز شىء عند صاحبه .

لن تنفعكم ارحامكم ولا اولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - الآثار السيئة التى تترتب على ضلالهم

عن سواء السبيل فقال : ( لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلاَ
أَوْلاَدُكُمْ يَوْمَ القيامة يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ .. . ) .والأرحام : جمع
رحم والمراد بهم الأقارب ، الذين كان بعض المؤمنين يوالون المشركين من
أجلهم .أى : منكم - أيها المؤمنون - من أفشى أسراركم للكافرين ، خوفا على
أقاربه أو أولاده الذين يعيشون فى مكة مع هؤلاء الكافرين ، والحق أنه لن
تنفعكم قراباتكم ولا أولادكم الذين توالون المشركين من أجلهم شيئا من النفع
يوم القيامة ، لأنه فى هذا اليوم ( يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ) أى يفرق بينكم
وبين أقاربكم وأولادكم يوم القيامة ، كما قال - تعالى - : ( فَإِذَا نُفِخَ
( فِي الصور فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَآءَلُونَ
وكما قال - سبحانه - : ( يَوْمَ يَفِرُّ المرء مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ
وَأَبِيهِ وصاحبته وَبَنِيهِ لِكُلِّ امرىء مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ
يُغْنِيهِ ) وخص - سبحانه - الأولاد بالذكر مع أنهم من الأرحام ، لمزيد
المحبة لهم - والحنو عليهم .قال الشوكانى : وجملة ( يَوْمَ القيامة
يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ) متسأنفة لبيان عدم نفع الأرحام والأولاد فى ذلك
اليوم ، ومعنى ( يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ) يفرق بينكم ، فيدخل أهل طاعته الجنة
ويدخل أهل معصيته النار ، وقيل : المراد بالفصل بينهم ، أنه يفر كل منهم .
من الآخر من شدة الهول . . . قيل : ويجوز أن يتعلق ( يَوْمَ القيامة ) بما
، قبله . أى : لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة ، فيوقف عليه
: ويبتدأ بقوله ( يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ) والأولى أن يتعلق بما بعده - أى
يفصل بينكم يوم القيامة ، فيوقف على ( أَوْلاَدُكُمْ ) ويبتدأ بيوم القيامة
وقراءة الجمهور ( يُفْصِلُ بَيْنَكُمْ ) - بضم الياء وإسكان الفاء وفتح.
الصاد - على البناء للمجهول . وقرأ عاصم ( يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ) بفتح
الياء وكسر الصاد - على البناء للفاعل ، وقرأ حمزة والكسائى ( يُفَصِّلُ
بَيْنَكُمْ ) - بضم الياء وفتح الفاء وتشديد الصاد مع الكسر - بالبناء
للفاعل - أيضا - .وقرأ ابن عامر ( يُفَصَّلُ بَيْنَكُمْ ) - بضم الياء وفتح
- الفاء وتشديد الصاد مع الفتح - على البناء للمجهول .ثم ختم - سبحانه
- الآية الكريمة بقوله : ( والله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ) أى : والله
تعالى -لا يخفى عليه شىء من أعمالكم ، بل هو مطلع عليها اطلاعا تاما
وسيجازيكم يوم القيامة بما تستحقونه من ثواب أو عقاب .هذا ، ومن الأحكام
والآداب التى أخذها العلماء من الآيات الكريمة ما يأتى :1 - أن هذه الآيات
أصل فى النهى عن موالاة الأعداء ومصافاتهم بأية صورة من الصور ،وشبيه بها
قوله - تعالى - : ( يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الكافرين
أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ المؤمنين أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ للَّهِ
عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُّبِيناً ) وقوله -سبحانه - : ( ياأيها الذين
آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ
خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ البغضاء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ
وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ) 2 - أن هذه الآيات الكريمة تتجلى
فيها رحمة الله - تعالى - بعباده المؤمنين ، حيث ناداهم بهذه الصفة مع وقوع
بعضهم فى الخطأ الجسيم ، وهو إفشاء أسرار المؤمنين لأعدائهم قالوا : وفى
هذا رد على المعتزلة الذين يقولون : إن المعصية تنافى الإيمان .3 - أن هذه
الآيات الكريمة فيها ما فيها من الأساليب الحكيمة فى الدعوة إلى الفضائل
واجتناب الرذائل ، لأن الله - تعالى - عندما نهى المؤمنين عن موالاة أعدائه
. وأعدائهم ، ساق لهم الأسباب التى تحملهم على قطع كل صلة بهؤلاء الأعداء
بأن ذكر لهم أن هؤلاء الأعداء قد كفروا بالحق ، وحرصوا على إخراج الرسول
والمؤمنين من ديارهم ، وأنهم إن يتمكنوا من المؤمنين ، فسينزلون بهم أشد
ألوان الأذى .وهكذا يجب أن يتعلم الدعاة إلى الله - تعالى - أن على رأس
الوسائل التى توصلهم إلى النجاح فى دعوتهم ، أن يأتوا فى دعوتهم بالأسباب
المقنعة لاعتناق الحق ، واجتناب الباطل .4 - أن هذه الآيات الكريمة صريحة
فى أن ما يتعلق بالدين والعقيدة ، يجب أن يقدم على ما يتعلق بالأرحام
والأولاد ، لأن الأرحام والأولاد لن تنفع يوم القيامة ، وإنما الذى ينفع هو
. ما يتعلق بالاستجابة لما يفرضه الدين علينا من واجبات وتكاليف

قد كانت لكم اسوة حسنة في ابراهيم والذين معه اذ قالوا لقومهم انا براء
منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة
والبغضاء ابدا حتى تؤمنوا بالله وحده الا قول ابراهيم لابيه لاستغفرن لك
وما املك لك من الله من شيء ربنا عليك توكلنا واليك انبنا واليك المصير

. كما فسرها الوسيط وبعد هذا النهى للمؤمنين عن موالاة أعداء الله وأعدائهم
ساقت لهم السورة الكريمة ، جانبا من قصة إبراهيم - عليه السلام - الذى . .
- تبرأ من كل صلة تربطه بغيره سوى صلة الإيمان ، وإخلاص العبادة لله
- تعالى - ، وأمرتهم بأن يقتدوا به فى ذلك لينالوا رضا الله - عز وجل
فقال - تعالى - : (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ . . . ) .الأسوة كالقدوة ، وهى
اتباع الغير على الحالة التى يكون عليها ، قال - تعالى - : ( لَّقَدْ كَانَ
- لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ) قال الآلوسى : قوله - تعالى

تأكيد لأمر ( قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ في إِبْرَاهِيمَ ) :
- الإنكار عليهم ، والتخطئة فى موالاة الكفار ، بقصة إبراهيم - عليه السلام
ومن معه ، ليعلم أن الحب فى الله - تعالى - والبغض فيه - سبحانه - من أوثق
- عرا الإيمان ، فلا ينبغى أن يغفل عنها .والأسوة - بضم الهمزة وكسرها
بمعنى الائتساء وكسرها - بمعنى الائتساء والاقتداء ، وتطلق على الخصلة التى
من حقها أن يؤتسى ويقتدى بها ، وعلى نفس الشخص المؤتسى به .والمعنى : قد
كان لكم - أيها المؤمنون - أسوة حسنة ، وخصلة حميدة ، ومنقبة كريمة ، فى
- قصة أبيكم إبراهيم - عليه السلام - ، وفى قصة الذين آمنوا معه .وافتتح
سبحانه - الكلام بقوله : ( قَدْ كَانَتْ ) لتأكيد الخبر ، فإن هذا الأسلوب
المشتمل على قد وفعل الكون ، يفيد التأكيد بموجب الخبر ، والتعريض بغفلة من
يخالفه .ووصف - سبحانه - الأسوة بالحسن ، على سبيل المدح لها والتحريض على
الاقتداء بصاحبها .وعطف - سبحانه - على إبراهيم الذين آمنوا معه ، ليتم
التمثيل لحال المسلمين مع رسولهم - صلى الله عليه وسلم - أى : كونوا - أيها
، المؤمنون - متأسين ومقتدين برسولكم - صلى الله عليه وسلم - ومطيعين له
- ومستجيبين لتوجيهاته ، كما كان أتباع أبيكم إبراهيم كذلك .ثم بين
- سبحانه - ما يجب عليهم الاقتداء به من حال إبراهيم - عليه السلام
والمؤمنين معه ، فقال : ( إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءآؤاْ
مِّنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا
بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ العداوة والبغضآء أَبَداً حتى تُؤْمِنُواْ بالله
وَحْدَهُ ) و ( إِذْ ) ظرف زمان بمعنى وقت وحين ، وهو يدل اشتمال من
إبراهيم والذين معه . أو خبر لكان .( بُرَءآؤاْ ) جمع برئ . يقال : برئ
فلان من كذا يبرأ براء وبراءة . إذا ابتعد عنه ، لكراهته له .أى : قد كان
لكم - أيها المؤمنون - أسوة حسنة فى إبراهيم - عليه السلام - وفى الذين
، آمنوا معه ، وقت أن قالوا لقومهم الكافرين ، بشجاعة وقوة : إنا برآء منكم
ومن آلهتكم التى تعبدونها من دون الله - عز وجل - وإننا قد كفرنا بكم
وبمعبوداتكم ( وَبَدَا ) أى : وظهر بيننا وبينكم العداوة والبغض على سبيل
- التأييد والاستمرار ، ولن نتخلى عن ذلك معكم ، حتى تؤمنوا بالله - تعالى
وحده ، وتتركوا عبادتكم لغيره - تعالى - .فأنت ترى أن إبراهيم - عليه
السلام - والمؤمنين معه ، قد أعلنوا بكل شجاعة وشدة ، إيمانهم الكامل بالحق
وبراءتهم وكراهيتهم واحتقارهم ، لكل من أشرك مع الله - تعالى - فى ،
العبادة آلهة أخرى .وأنهم لم يكتفوا بالتغيير القلبى للمنكر ، بل جاهروا
بعداوتهم له ، وبالتنزه عن اقترابهم منه . وبتجافيهم عنه . . ولعل هذا هو
أقصى ما كانوا يملكونه بالنسبة لتغيير هذا المنكر فى ذلك الوقت .وقد أخبرنا
القرآن الكريم أن إبراهيم - عليه السلام - لم يكتف بذلك ، بل حطم الأصنام
التى كان يعبدها قومه وقال لهم : ( أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن
: دُونِ اللَّهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ) قال صاحب الكشاف : أى : كان فيهم - أى
فى إبراهيم ومن آمن معه - مذهب حسن مرضى ، جدير بأن يؤتسى به ، ويتبع أثره
وهو قولهم لكفار قومهم ما قالوا ، حيث كاشفوهم بالعداوة ، وقشروا لهم ،
، العصا ، وأظهروا لهم البغضاء والمقت ، وصرحوا بأن سبب عداوتهم وبغضائهم
ليس إلا كفرهم بالله .وما دام هذا السبب قائما ، كانت العداوة قائمة ، حتى
، إن أزالوه وآمنوا بالله وحده ، انقلبت العداوة موالاة ، والبغضاء مودة
والمقت محبة - فأفصحوا عن محض الإخلاص .وقوله - تعالى - : ( إِلاَّ قَوْلَ
إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ . . . ) كلام معترض بين
الأقوال التى حكاها - سبحانه - عن إبراهيم - عليه السلام - .والاستثناء
يترجح أنه منقطع ، لأن هذا القول من إبراهيم لأبيه ، ليس من جنس الكلام
: السابق ، الذى تبرأ فيه هو ومن معه مما عليه أقوامهم الكافرون .والمعنى
اقتدوا - أيها المؤمنون - بأبيكم إبراهيم - عليه السلام - وبالذين آمنوا
معه ، فى براءتهم من الشرك والمشركين . . . ولكن لا تقتدوا به فى استغفاره
لأبيه الكافر ، لأن استغفاره له كان عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له
أنه عدو الله تبرأ منه .قال الإمام الشوكانى ما ملخصه : قوله : ( إِلاَّ
قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ . . ) هو استثناء متصل
من قوله : ( في إِبْرَاهِيمَ ) بتقدير مضاف . . . أى : قد كانت لكم أسوة
حسنة فى مقالات إبراهيم ، إلا فى قوله لأبيه : لأستغفرن لك .ويصح أن يكون
استثناء متصلا من قوله : ( أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ) وصح ذلك لأن القول من جملة
الأسوة ، فكأنه قيل : قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم فى جميع أقواله
: وأفعاله ، إلا فى قوله لأبيه لأستغفرن لك .أو هو استثناء منقطع ، أى
اقتدوا بإبراهيم فى كل أقواله وأحواله . لكن لا تقتدوا به فى قوله لأبيه
المشرك : لأستغفرن لك ، بأن تستغفروا لآبائكم المشركين ، لأن استغفار
إبراهيم لأبيه المشرك كان عن موعدة وعدها إياه ، أو أنه ظن أن أباه قد أسلم
وقوله - سبحانه - ( وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ) حكاية.
لبقية كلام إبراهيم لأبيه ، وليس الاستثناء متوجها إليه ، لأن هذه الجملة
بيان لما تحلى به إبراهيم - عليه السلام - من آداب مع ربه - تعالى - حيث
فوض الأمر إليه - سبحانه - .أى : وعد إبراهيم أباه بالاستغفار له ، أملا فى
هدايته ، وقال له : يا أبت إنى لا أملك لك من أمر قبول الاستغفار شيئان بل

الأمر كله الله ، إن شاء عذبك وإن شاء عفا عنك ، والجملة الكريمة فى محل
نصب على الحال من فاعل ( لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ) أى : لأستغفرن لك حالة
كونى لا أملك من أمر المغفرة أو غيرها شيئا ، وإنما الذى يملك ذلك هو
- الله - عز وجل - .ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك جانبا مما تضرع به إبراهيم
عليه السلام - إلى خالقه فقال : ( رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا
وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ المصير ) .أى : يا ربنا عليك وحدك فوضنا
. أمورنا ، وإليك وحدك قبول توبتنا ، وإليك لا إلى أحد سواك مرجعنا ومصيرنا

ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا انك انت العزيز الحكيم

كما فسرها الوسيط ( رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ
كَفَرُواْ ) والفتنة هنا مصدر بمعنى المفتون ، أى : المعذب ، مأخوذ من فتن
فلان الفضة إذا أذابها .أى : يا ربنا لا تجعلنا مفتونين معذبين لهؤلاء
- الكافرين ، بأن تسلطهم علينا فيفتنونا بعذاب لا نستطيع صده ، كما قال
تعالى - : ( إِنَّ الذين فَتَنُواْ المؤمنين والمؤمنات . . ) أى : عذبوهم
وحاولوا إنزال الضرر والأذى بهم .ويصح أن يكون المعنى : يا ربنا لا تجعلنا
، فتنة للذين كفروا ، بأن تعذبنا بأيديهم ، فيظنوا بسبب ذلك أنهم على الحق
ونحن على الباطل ، ويزعموا أننا لو كنا على الحق ما انتصروا علينا .ولبعض
العلماء رأى آخر فى فهم هذه الآية ، وهو أن المراد بالفتنة هنا : اضطراب
حال المسلمين وفساده . وكونهم لا يصلحون أن يكونوا قدوة لغيرهم فى وجوه
. الخير . . . فيكون المعنى : يا ربنا لا تجعل أعمالنا وأقوالنا سيئة
، فيترتب على ذلك أن ينفر الكافرون من ديننا ، بحجة أنه لو كان دينا سليما
لظهر أثر ذلك على أتباعه ، ولكانوا بعيدين عن كل تفرق وتباعد وتأخر .قال
بعض العلماء ما ملخصه : قوله : ( رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً
، لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ) . الفتنة : اضطراب الحال وفساده ، وهى اسم مصدر
فتجىء بمعنى المصدر ، كقوله - تعالى - : ( والفتنة أَشَدُّ مِنَ القتل )
وتجىء وصفا للمفتون والفاتن .ومعنى جعلهم فتنة للذين كفروا : جعلهم
مفتونين يفتنهم الذين كفروا ، فيصدق ذلك بأن يتسلط عليهم الذين كفروا
فيفتنون .ويصدق - أيضا - بأن تختل أمور دينهم بسبب الذين كفروا . أى : بسبب
محبتهم والتقرب منهم .وعلى الوجهين ، فالفتنة من إطلاق المصدر على اسم
المفعول . . . واللام فى " الذين كفروا " على الوجهين - أيضا - للملك ، أى
مفتونين مسخرين لهم .ويجوز عندى أن تكون " فتنة " مصدرا بمعنى اسم الفاعل :
أى :لا تجعلنا فاتنين ، أى : سبب فتنة للذين كفروا ، فيكون كناية عن ،
، معنى :لا تغلب الذين كفروا علينا ، واصرف عنا ما يكون من إختلال أمرنا
وسوء الأحوال ، كى لا يكون شىء من ذلك فاتنا للذين كفروا .. . أى : يزيدهم
كفرا ، لأنهم يظنون أنا على الباطل وأنهم على الحق .وقوله : ( واغفر لَنَا
، رَبَّنَآ إِنَّكَ أنتَ العزيز الحكيم ) أى : واغفر لنا يا ربنا ذنوبنا
. إنك أنت الغالب الذى لا يغالب ، الحكيم فى كل أقواله وأفعاله

لقد كان لكم فيهم اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الاخر ومن يتول فان
الله هو الغني الحميد

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ
- أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو الله واليوم الآخِرِ ) تأكيد لقوله
تعالى - قبل ذلك : ( قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ في
إِبْرَاهِيمَ ) والغرض من هذا التأكيد ، تحريض المؤمنين على التأسى
بالسابقين فى قوة إيمانهم وشدة إخلاصهم .أى : لقد كان لكم - أيها
- المؤمنون - أسوة حسنة ، وقدوة طيبة ، فى أبيكم إبراهيم - عليه السلام
- وفيمن آمن به ، وهذه القدوة إنما ينتفع بها من كان يرجو لقاء الله
تعالى - ورضاه ، ومن كان يرجو ثوابه وجزاءه الطيب .وجىء بلام القسم فى قوله
على سبيل المبالغة فى التأكيد بوجوب ( . . . لَقَدْ كَانَ لَكُمْ ) :
التأسى بإبراهيم ، وبمن آمن معه .وجملة ( لِّمَن كَانَ يَرْجُو الله واليوم
الآخِرِ ) بدل من قوله ( لَكُمْ ) بدل اشتمال .وفائدة هذا البدل : الإيذان
بأن من يؤمن بالله واليوم الآخر ، لا يترك الاقتداء بإبراهيم - عليه
السلام - وبمن آمن معه ، وأن ترك ذلك من علامات عدم الإيمان الحق .كما
ينبىء عنه التحذير فى قوله - تعالى - بعد ذلك : ( وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ
الله هُوَ الغني الحميد ) .أى : ومن يعرض عن هذا التأسى ، فوبال إعراضه
عليه وحده ، فإن الله - تعالى - هو الغنى عن جميع خلقه ، الحميد لمن يمتثل
أمره .والمتدبر فى هذه الآيات الكريمة ، من أول السورة إلى هنا ، يجد أن
الله - تعالى - لم يترك وسيلة للتنفير من موالاة أعدائه ، إلا أظهرها وكشف
. عنها

عسى الله ان يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور
رحيم

كما فسرها الوسيط ثم فتح - سبحانه - لعباده باب رحمته وفضله ، فبشرهم بأنه قد يهدى إلى الإسلام قوما من الأعداء الذين تربط بينهم وبين المؤمنين رابطة الدم والقرابة ، وحدد لهم القواعد التى عليها يبنون مودتهم وعداوتهم لغيرهم فقال - تعالى - : ( عَسَى الله . . . ) ." عسى " فعل مقاربة يدل على ، الرجاء ، وإذا صدر من الله - تعالى - كان متحقق الوقوع ، لصدوره من أكرم الأكرمين .قال صاحب الكشاف : " عسى " وعد من الله على عادات الملوك ، حيث ، يقولون فى بعض الحوائج : عسى أو لعل ، فلا تبقى شبهة للمحتاج فى تمام ذلك أو قصد به إطماع المؤمنين .وقال الجمل فى حاشيته : لما أمر الله المؤمنين بعداوة الكفار ، عادى المؤمنون أقرباءهم المشركين وأظهروا لهم العداوة والبراءة . وعلم الله شدة ذلك على المؤمنين ، فوعد - سبحانه - المسلمين - بإسلام أقاربهم الكفار ، فيوالونهم موالاة جائزة ، وذلك من رحمته سبحانه - بالمؤمنين ، ورأفته بهم ، فقال : ( عَسَى الله أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الذين عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ) .والمعنى : عسى الله - تعالى - أن يجعل بينكم - أيها المؤمنون - وبين الذن عاديتموعم من أقاربكم الكفار ، مودة ومحبة . . . بأن يهديهم إلى الدخول فى دين الإسلام ، فتتحول عداوتكم لهم ، إلى أخوة صادقة . وصلة طيبة ، ومحبة شديدة وقد أنجز الله - تعالى - وعده ، فهدى كثيرا من كفار قريش إلى الدخول فى. الإسلام ، والتقوا هم وأقاربهم الذين سبقوهم إلى الإسلام ، على طاعة الله ومحبته ، والدفاع عن دينه ، وبذل أنفسهم وأموالهم فى سبيله .( والله قَدِيرٌ والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ) أى : والله - تعالى - شديد القدرة على أن - يغير أحوال القلوب ، فيصبح المشركون مؤمنين ، والأعداء أصدقاء ، والله تعالى - واسع المغفرة والرحمة ، لمن استجاب لأمره ونهيه ، وأقلع عن المعصية إلى الطاعة ، ونبذ الكفر وتحول إلى الإيمان .فالآية الكريمة بشارة عظيمة للمؤمنين ، بأنه - سبحانه - كفيل بأن يجمع شملهم بكثير من أقاربهم الكافرين وبأن يحول العداء الذى بينهم ، إلى مودة ومحبة ، بسبب التقاء الجميع على ، طاعة الله - تعالى - وإخلاص العبادة له .وقد تم ذلك بصورة موسعة ، بعد أن فتحت مكة ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا .

لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - للؤمنين القاعدة التى يسيرون عليها فى مودتهم وعداوتهم وصلتهم ومقاطعتهم .فقال - تعالى - : ( لاَّ يَنْهَاكُمُ الله عَنِ الذين لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدين وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وتقسطوا إِلَيْهِمْ إِنَّ الله يُحِبُّ المقسطين ) .وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية والتى بعدها روايات منها ، ما أخرجه البخارى وغيره " عن أسماء بنت أبى بكر الصديق قالت : أتتنى أمى راغبة - أى : فى عطائى - وهى مشركة فى عهد قريش . . . فسألت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أأصلها؟ فأنزل الله - تعالى - : ( لاَّ يَنْهَاكُمُ الله ) .فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " نعم صلى أمك " " .وروى الإمام أحمد وجماعة عن عبد الله بن الزبير قال : قدمت قتيلة بنت عبد العزى - وهى مشركة - على ابنتها اسماء بنت أبى بكر بهدايا ، فأبت أسماء أن تقبل هديتها ، أو تدخلها بيتها ، حتى أرسلت إلى عائشة ، لكى تسأل - رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن هذا ، فسألته ، فأنزل الله - تعالى ( لاَّ يَنْهَاكُمُ الله عَنِ الذين لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدين ) : وقال الحسن وأبو صالح : نزلت هذه الآية فى قبائل من العرب كانوا قد صالحوا. النبى - صلى الله عليه وسلم - على أن لا يقاتلوه ، ولا يعينوا عليه .وقال مجاهد : نزلت فى قوم بمكة آمنوا ولم يهاجروا ، فكان المهاجرون والأنصار يتحرجون من برهم ، لتركهم فرض الهجرة .قال الآلوسى - بعد أن ذكر هذه الروايات وغيرهما - : ( والأكثرون على أنها فى كفرة اتصفوا بما فى حيز الصلة . . .والذى تطمئن إليه النفس أن هاتين الآيتين ، ترسمان للمسلمين المنهج الذى يجب أن يسيروا عليه مع غيرهم ، وهو أن من لم يقاتلنا من الكفار ولم يعمل أو يساعد على إلحاق الأذى والضرر بنا ، فلا يأس من بره وصلته ، ومن قاتلنا ، وحاول إيذاءنا منهم . فعلينا أن نقطع صلتنا به ، وأن نتخذ. كافة الوسائل لردعه وتأديبه ، حتى لا يتجاوز حدودمه معنا .والمعنى : ( لاَّ يَنْهَاكُمُ الله ) تعالى - أيها المؤمنون - ( عَنِ ) مودة وصلى الكافرين الذين لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدين وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ ) أى : لم يقاتلوكم من أجل أنكم مسلمون ، ولم يحاولوا إلحاق أى ) أذى بكم ، كالعمل على إخراجكم من دياركم لا ينهاكم الله - تعالى - عن أن تَبَرُّوهُمْ ) أى : عن أن تحسنوا معاملتهم وتكرموهم . وعن أن ( تقسطوا إِلَيْهِمْ ) أى تقضوا إليهم بالعدل ، وتعاملوهم بمثل معاملتهم لكم ، ولا تجوروا عليهم فى حكم من الأحكام .( إِنَّ الله يُحِبُّ المقسطين ) أى العادلين فى أقوالهم وأفعالهم وأحكامهم ، الذين ينصفون الناس ، ويعطونهم

العدل من أنفسهم ، ويحسنون إلى من أحسن إليهم .

انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين واخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم ان تولوهم ومن يتولهم فاولئك هم الظالمون

كما فسرها الوسيط ( إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ الله ) - تعالى - ( عَنِ ) بر وصلى ( الذين قَاتَلُوكُمْ فِي الدين ) أى قاتلوكم لأجل أنكم على غير دينهم التى تسكنونها ( وَظَاهَرُواْ على ( وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ ) إِخْرَاجِكُمْ ) .أى : وعاونوا غيرهم على إخراجكم من دياركم ، يقال : ظاهر فلان فلانا على كذا ، إذا عاونه فى الوصول إلى مطلبه .وقوله : ( أن - تَوَلَّوْهُمْ ) بدل اشتمال من ( الذين قَاتَلُوكُمْ ) أى : ينهاكم سبحانه - عن موالاة ، ومواصلة ، وبر الذين قاتلوكم فى الدين ، وأخرجوكم من - دياركم .( وَمَن يَتَوَلَّهُمْ ) أى : ومن يبر منكم - أيها المؤمنون هؤلاء الذين قاتلوكم ( فأولئك ) الذين يفعلون ذلك ( هُمُ الظالمون ) - لأنفسهم ظلما شديدا يستحقون بسببه العقاب الذى لا يعلمه إلا هو - سبحانه - فأنت ترى أن الآية الأولى قد رخصت لنا فى البر والصلة - قولا وفعلا. للكفار الذين لم يقاتلونا لأجل ديننا ، ولم يحاولوا الإساءة إلينا ، بينما الآية اثانية قد نهتنا عن البر أو الصلة لأولئك الكافرين ، الذين قاتلونا من أجل مخالفتنا لهم فى العقيدة ، وحاولوا إخراجنا من ديارنا أو أخرجوا بعضنا بالفعل - وعاونوا غيرهم على إنزال الأذى بنا .هذا ، ويرى بعض العلماء أن الآية الأولى منسوخة .قال القرطبى : قال ابن زيد : كان هذا فى أول الإسلام عند الموادعة ، وترك الأمر بالقتال ، ثم نسخ هذا الحكم .قال قتادة نسخها قوله - تعالى - ( فاقتلوا المشركين حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ) والذى : عليه المحققون من العلماء ، أن الآية محكمة وليست منسوخة ، لأنها تقرر حكما ، يتفق مع شريعة الإسلام فى كل زمان ومكان ، وهو أننا لا نؤذى إلا من آذانا ولا نقاتل إلا من أظهر العداوة لنا بأية صورة من الصور .وأقوال النبى - صلى - الله عليه وسلم - وأفعاله تؤيد عدم النسخ ، فقد كان - صلى الله عليه وسلم يستقبل الوفود التى تأتيه لمناقشتها فى بعض الأمور الدينية ، مقابلة كريمة ويتجلى ذلك فيما فعله مع وفد نجران ، ووفد تميم وغيرهما .كذلك مما يؤيد ، عدم النسخ ، أنه لا تعارض بين هذه الآية ، وبين آية السيف ، لأن الأمر بالقتال إنما هو بالنسبة لقوم يستحقونه ، بأن يكونوا قد قالتونا أو أخرجونا من ديارنا ، كما جاء فى الآية الثانية .وأما الرخصة فى البر والصلة ، فهى فى شأن الذين لم يقاتلونا ولم يخرجونا من ديارنا ، كما جاء فى الآية الثانية .وأما الرخصة فى البر والصلة ، فهى فى شأن الذين لم يقاتلونا ولم يخرجونا من ديارنا ، وهذا ما صرحت به الآية الأولى .ورحم الله الإمام ابن جرير فقد قال بعد أن ذكر الآراء فى ذلك : وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب قول من قال : عنى بقوله - تعالى - : ( لاَّ يَنْهَاكُمُ الله عَنِ الذين لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدين . . ) جميع أصناف الملل والأديان ، أن تبروهم وتصلوهم وتقسطوا إليهم . . ويشمل ذلك من كانت تلك صفته ، دون تخصيص لبعض ، دون بعض .ولا معنى لقول من قال : ذلك منسوخ ، لن بر المؤمن من أهل الحرب ممن بينه وبينه قرابة نسب ، أو ممن لا قرابة بينه ولا نسب ، غير محرم ، ولا منهى عنه ، إذا لم يكن فى ذلك ، دلالة له أو لأهل الحرب ، على عورة لأهل الإسلام ، أو تقوية لهم بكراع أو سلاح .

يا ايها الذين امنوا اذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله اعلم بايمانهن فان علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن الى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن واتوهم ما انفقوا ولا جناح عليكم ان تنكحوهن اذا اتيتموهن اجورهن ولا تمسكوا بعصم الكوافر واسالوا ما انفقتم وليسالوا ما انفقوا ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم

كما فسرها الوسيط ثم انتقلت السورة الكريمة إل بيان بعض الأحكام التى تتعلق بالنساء المؤمنات ، اللاتى تركن أزواجهن الكفار ، ورغبن فى الهجرة إلى دار السلام فقال - تعالى - : ( ياأيها الذين آمَنُواْ إِذَا . . . . ) .قال الإمام القرطبى : قوله - تعالى - : ( ياأيها الذين آمَنُواْ إِذَا جَآءَكُمُ المؤمنات مُهَاجِرَاتٍ ) : لما أمر الله المسلمين بترك موالاة المشركين ، واقتضى ذلك مهاجرة المسلمين عن بلاد الشرك إلى بلاد الإسلام ، وكان التناكح من أوكد أسباب الموالاة ، فبين - سبحانه - أحكام مهاجرة النساء .قال ابن عباس : جرى الصلح مع مشركى قريش عام الحديبية على أن من أتاه من أهل مكة رده إليهم ، فجاءت سعيدة بنت الحارث الأسلمية بعد الفراغ - من الكتاب ، والنبى - صلى الله عليه وسلم - بالحديبية بعد ، فأقبل زوجها وكان كافرا . . . فقال : يا محمد ، اردد على امرأتى ، فإنك شرطت ذلك ، وهذه طينة الكتاب لم تجف بعد ، فأنزل الله - تعالى - هذه الآية .وقيل : " جاءت أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط ، فجاء أهلها يسألون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يردها .وقيل : هربت من زوجها عمرو بن العاص ومعها أخواها

فرد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أخويها وحبسها ، فقالوا للنبى - صلى
الله عليه وسلم - ردها علينا للشرط ، فقال : " كان الشرط فى الرجال لا فى
النساء " فأنزل الله هذه الآية " .والمعنى : يا من آمنتم بالله - تعالى -
حق الإيمان ، ( إِذَا جَآءَكُمُ المؤمنات مُهَاجِرَاتٍ ) ، من دار الكفر
إلى دار الإيمان ، وراغبات فى فراق الكافرين ، والبقاء معكم .( فامتحنوهن )
أى : فاختبروهن اختبارا يغلب معه الظن بأنهن صادقات فى هجرتهن وفى إيمانهن
وفى موافقة قلوبهن لألسنتهن .وقد ذكر ابن جرير فى كيفية امتحانهن صيغا ،
منها : ما جاء عن ابن عباس أنه قال : كانت المرأة إذا أتت رسول الله - صلى
الله عليها وسلم - حلفها بأنها ما خرجت بغضا لزوجها ، ولا رغبة فى الانتقال
من أرض إلى أرض ، ولا التماسا لدنيا ، وإنما خرجت حبا لله ولرسوله .وجملة
: ( الله أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ) ، معترضة لبيان أن معرفة خفايا القلوب
مردها إلى الله - تعالى - وحده .قال صاحب الكشاف : قوله : ( الله أَعْلَمُ
بِإِيمَانِهِنَّ ) أى : منكم ، لأنكم لا تكسبون فيه علما تطمئن معه نفوسكم
وإن استحلفتموهن ودرستم أحوالهن ، وعند الله حقيقة العلم به .والمراد ،
بالعلم فى قوله - تعالى - : ( فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلاَ
تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الكفار ) الظن الغالب .أى : فإن غلب على ظنكم بعد
امتحانهن أنهن مؤمنات صادقات فى إيمانهن ، فأبقوهن عندكم ، ولا ترجعوهن إلى
أزواجهن أو إلى أهلهن من الكفار .وسمى الظن القوى علما للإيذان بأنه كالعلم
فى وجوب العمل بمقتضاه ، وإنما رد الرسول - صلى الله عليه وسلم - الرجال
الذين جاءوه مؤمنين بعد صلح الحديبية ، ولم يرد النساء المؤمنات ، لأن شرط
الرد كان فى الرجال ولم يكن فى النساء - كما سبق أن ذكرنا نقلا عن
القرطبى - ، ولأن الرجل لا يخشى عليه من الفتنة فى الرد ما يخشى على المرأة
من إصابة المشرك إياها ، وتخويفها ، وإكراهها على الردة .قال بعض العلماء ،
قال كثير من المفسرين : إن هذه الآية مخصصة لما جاء فى معاهدة صلح :
الحديبية ، والتى كان فيها من جاء من الكفار مسلما إلى المسلمين ردوه إلى
المشركين ، ومن جاء من المسلمين كافرا للمشركين ، لا يردونه على المسلمين
، فأخرجت الآية النساء من المعاهدة ، وأبقت الرجال ، من باب تخصيص العموم
وتخصيص السنن بالقرآن ، وتخصيص القرآن بالسنن ، أمر معلوم .ومن أمثلة.
تخصيص السنة بالكتاب ، قوله : - صلى الله عليه وسلم - : " ما أبين من حى
فهو ميت " .أى : فهو محرم ، فقد جاء تخصيص هذا العموم بقوله - تعالى - : (
وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا ) أى : ليس محرما ، ومن أمثلة تخصيص
الكتاب بالسنة قوله - تعالى - : ( حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الميتة والدم ) فقد
جاء تخصيص هذا العموم بحديث : " أحلت لنا ميتتان ودمان ، أما الميتتان
: فالجراد والحوت ، وأما الدمان : فالكبد والطحال " .وقال بعض المفسرين
إنها ليست مخصصة للمعاهدة ، لأن النساء لم يدخلن فيها ابتداء ، وإنما كانت
فى حق الرجال فقط .والذى يظهر - والله أعلم - أنها مخصصة لمعاهدة الحديبية
وهى من أحسن الأمثلة لتخصيص السنة بالقرآن - كما قال الإمام ابن كثير ،
وقوله - سبحانه - : ( لاَ هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ
لَهُنَّ ) تعليل للنهى عن رد المؤمنات المهاجرات إلى دار الكفر ، أو إلى
أزواجهن الكفار .أى :لا ترجعوا - أيها المؤمنون - النساء المؤمنات
المهاجرات إليكم من أرض الكفر إلى أزواجهن الكافرين ، فإن هؤلاء المؤمنات
صرن بسبب إيمانهن لا يصح ارتباطهن بأزواجهن الكفار ، كما لا يصح لهؤلاء
الكافرين الارتباط بالنساء المؤمنات .فالجملة الكريمة المقصود بها تأكيد
النهى عن رد المؤمنات المهاجرات إلى أرض الكفر ، ووجوب التفرقة بين المرأة
المؤمنة وزوجها الكافر فى جميع الأحوال .قال ابن كثير : هذه الآية هى التى
حرمت المسلمات على المشركين وقد كان ذلك جائزا فى أول الإسلام ، أن يتزوج
المشرك المؤمنة . . .وقوله - تعالى - : ( وَآتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ ) بيان
لمظهر من مظاهر عدالة الإسلام فى أحكامه . والخطاب لولاة الأمور . وهذا
الإيتاء إنما هو للأزواج المعاهدين ، أما إذا كانوا حزبيين فلا يعطون شيئا
أى : وسلموا إلى المشركين الذين جاءكم نساؤهم مؤمنات ، ما دفعوه لهن من.
مهور ، قال القرطبى : قوله : ( وَآتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ ) : أمر الله
- تعالى - إذا أمسكَتْ المرأة المسلمة ، أن يرد إلى زوجها المشرك ما أنفق
، وذلك من الوفاء بالعهد ، لأنه لما مُنِع من أهله ، بحرمة الإسلام ، أمر
- سبحانه - برد المال إليه ، حتى لا يقع عليهم خسران من الوجهين : الزوجة
والمال .فالمراد بقوله - تعالى - ( مَّآ أَنفَقُواْ ) : ما دفعه المشركون
لأزواجهم المؤمنات .وعبر عن هذه المهور بالنفقة ، للإشعار بأن هؤلاء
الزوجات المؤمنات ، أصبحت لا صلة لهن بأزواجهن المشركين .وقوله - سبحانه -
: ( وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ آتَيْتُمُوهُنَّ
أُجُورَهُنَّ ) تكريم لهؤلاء النساء المشركين ، وبعد استبرائكم لأرحامهن
، وعليكم أن تدفعوا لهن مهورهن كاملة غير منقوصة .ونص على دف المهر لهن - مع
أنه أمر معلوم - لكى لا يتوهم متوهم ، أن رد المهر إلى الزوج الكافر ، يغنى
عن دفع مهر جديد لهن إذا تزوجن بعد ذلك بأزواج مسلمين ، إذ المهر المردود
للكفار ، لا يقوم مقام المهر الذى يجب على المسلم إذا ما تزوج بامرأة مسلمة
فارقت زوجها الكافر .والمراد بالإيتاء : ما يشمل الدفع العاجل ، والتزام

الدفع فى المستقبل .ثم نهى الله - تعالى - المسلمين عن إبقاء الزوجات المشركات فى عصمتهم فقال : ( وَلاَ تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ الكوافر ) .والعصم ، جمع عصمة ، والمراد بها هنا : عقد النكاح الذى يربط بين الزوج والزوجة : والكوافر : جمع كافرة ، كضوارب جمع ضاربة .أى : ولا يصح لكم - أيها ، المؤمنون - أن تبقوا فى عصمتكم ، زوجاتكم اللائى آثرن الكفر على الإيمان وأبين الهجرة معكم من دار الكفر إلى دار الإسلام ، وقد بادر المسلمون بعد نزول هذه الآية بتطليق زوجاتهم الكافرات فطلق عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - امرأتين له كانتا مشركتين ، وطلق طلحة بن عبيد الله إحدى زوجاته وكانت مشركة .وهذه الجلمة الكريمة تأكيد لقوله - تعالى - قبل ذلك : ( لاَ - هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ) .ثم بين - سبحانه ) : حكما آخر من الأحكام التى تدل على عدالة الإسلام فى تشريعاته فقال وَاسْأَلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ) والجملة الكريمة معطوفة على قوله - تعالى - قبل ذلك : ( وَآتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ أى : كما أنى شرعت لكم أن تعطوا الأزواج المشركين ، مهور نسائهم. ( المسلمات اللائى فررن إليكم ، وتركن أزواجهن الكفار ، فكذلك شرعت لكم أن تطلبوا مهور نسائكم المشركات اللائى انفصلتم عنهن لكفرهن ، ولحقن بهؤلاء المشركين ، وليطلب المشركون منكم مهور نسائهم المؤمنات اللائى انفصلن عنهم ، وهاجرن إليكم .ثم ختم - سبحانه - هذه الآية الكريمة ببيان أن هذه الأحكام إنما هى من الله - تعالى - العليم بأحوال النفوس ، الحكيم فى أقواله وأفعاله ، فقال : ( ذَلِكُمْ حُكْمُ الله يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ والله عَلِيمٌ حَكِيمٌ ) .أى : ذلكم الذى ذكرناه لكم من تشريعات تتعلق بالمؤمنات المهاجرات هى أحكام من الله - تعالى - فاتبعوها ، فهو - سبحانه - صاحب الحكم المطلق بينكم ، وهو - سبحانه - عليم بأحوال عباده ، حكيم فى كل تصرفاته وتشريعاته .

وان فاتكم شيء من ازواجكم الى الكفار فعاقبتم فاتوا الذين ذهبت ازواجهم مثل ما انفقوا واتقوا الله الذي انتم به مؤمنون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الكفار فَعَاقَبْتُمْ ) بيان لحكم آخر يتعلق بالنساء اللائى التحقن بالمشركين ، وتركن أزواجهن المسلمين ، وأبى المشركون أن يدفعوا للمسلمين مهور هؤلاء الزوجات .والجملة الكريمة معطوفة على قوله - تعالى - قبل ذلك : ( وَاسْأَلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ) .وقد ذكروا أن المسلمين لما نزل قوله - تعالى - : ( ياأيها الذين آمَنُواْ إِذَا جَآءَكُمُ المؤمنات مُهَاجِرَاتٍ . . ) الآية . كتبوا إلى المشركين يعلمونهم بما تضمنته هذه الآية .فامتنع المشركون عن دفع مهور النساء اللاتى ذهبن إليهم ، بعد أن تركن أزواجهن المسلمين ، فنزل قوله - تعالى - : ( وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الكفار فَعَاقَبْتُمْ ) .قال ابن كثير : أقر المؤمنون بحكم الله فأدوا ما أمروا به من نفقات المشركين التى انفقوها على نسائهم ، وأبى المشركون أن يقروا بحكم الله فيما فرض عليهم من أداء نفقات المسلمين ، فقال الله - تعالى - للمؤمنين به ، ( وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ ) الآية . . . يقال. : وقوله ( فَاتَكُمْ ) من الفَوْتِ بمعنى الفراق والترك والهرب فاتنى هذا الشىء ، إذا لم أتمكن من الحصول عليه ، وعدى حرف إلى لتضمنه معنى الفرار .ولفظ " شىء " هنا المراد به بعض ، وقوله : ( مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ ) بيان للفظ شىء .وقوله : ( فَعَاقَبْتُمْ ) يرى بعضهم أنه من العقوبة .وعليه يكون المعنى : وإن تفلتت وفرت امرأة من أزواجكم - أيها المؤمنون - إلى الكفار ، وامتنعوا عن دفع مهرها لكم . ( فَعَاقَبْتُمْ ) أى : فغزوتم أنتم بعد ذلك هؤلاء الكافرين وانتصرتم عليهم وظفرتم بمغانم منهم .( فَآتُواْ الذين ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ ) منكم إلى الكفار من هذه المغانم ( مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ ) أى : مثل المهور التى أنفقوها على زوجاتهم اللائى فررن إلى المشركين .ويرى بعضهم أن قوله ( فَعَاقَبْتُمْ ) صيغة تفاعل من العُقْبة - بضم العين وسكون القاف وهى النوبة ، بمعنى أن يصير الإنسان فى حالة تشبه حالة غيره .قال الآلوسى : قوله : ( فَعَاقَبْتُمْ ) من العُقْبَةِ لا من العقاب ، وهى فى الأصل النوبة فى ركوب أحد الرفيقين على دابة لهما والآخر بعده : أى : فجاءت عقبتكم أى نوبتكم من أداء المهر .شبه الحكم بالأداء المذكور ، بأمر يتعاقبون فيه فى الركوب .وحاصل المعنى : إن لحق أحد من أزواجكم بالكفار ، أو فاتكم شىء من مهورهن ، ( فَآتُواْ الذين ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ ) من مهر المهاجرة التى تزوجتموها ، ولا تعطوا شيئا لزوجها الكافر ، ليكون قصاص .وعبر عن هؤلاء " الزوجات اللائى تركن أزواجهن المؤمنين ، وفررن إلى المشركين ، بلفظ " شىء لتحقير هؤلاء الزوجات ، وتهوين أمرهن على المسلمين ، وبيان أنهن بمنزلة الشىء الضائع المفقود الذى لا قيمة له .قال صاحب الكشاف : وجميع من لحق بالمشركين من نساء المؤمنين المهاجرين ست نسوة .وقد أعطى الرسول - صلى الله

عليه وسلم - المؤمنين مهور نسائهم - اللاحقات بالمشركين - من الغنيمة .ثم
ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : ( واتقوا الله الذي أَنتُمْ بِهِ
، مُؤْمِنُونَ ) أى : واتقوا الله - تعالى - أيها المؤمنون - فى كل شئونكم
ونفذوا ما أمركم به أو نهاكم عنه ، فإن الإيمان الحق به - عز وجل - يستزلم
- منكم ذلك .فالمقصود بهذا التذييل ، الحض على الوفاء بما أمر الله - تعالى
. به ، بدون تهاون أو تقاعس

يا ايها النبي اذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ان لا يشركن بالله شيئا ولا
يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن اولادهن ولا ياتين ببهتان يفترينه بين ايديهن
وارجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله ان الله غفور رحيم

كما فسرها الوسيط وبعد أن بين - سبحانه - حكم النساء المؤمنات المهاجرات من
- دار الكفر إلى دار الإسلام ، أتبع ذلك بأمر النبى - صلى الله عليه وسلم
بمبايعتهن وغيرهن على عدم الإشراك بالله تعالى - ، وعلى اجتناب الفواحش ما
ظهر منها وما بطن ، فقال - تعالى - : ( ياأيها النبي . . . ) .هذه الآية
الكريمة ، اشتملت على أحكام متممة للأحكام المشتملة عليها الآيتان
السابقتان عليها .فكأن الله - تعالى - يقول : ( إِذَا جَآءَكُمُ المؤمنات
مُهَاجِرَاتٍ فامتحنوهن اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنّ فَإِنْ
عَلِمْتُمُوهُنّ مُؤْمِنَاتٍ فَلاَ تَرْجِعُوهُنّ إِلَى الكفار ) وبايعهن
أيها الرسول الكريم على إخلاص العبادة لله - تعالى - .قال القرطبى ما ملخصه
وفى صحيح مسلم عن عائشة قالت : " كانت المؤمنات إذا هاجرن إلى رسول :
الله - صلى الله عليه وسلم - يمتحن بهذه الآية . . . وكان رسول الله - صلى
الله عليه وسلم - إذا أقررن بذلك من قولهن ، قال لهن رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - : " انطلقن فقد بايعتكن " " .ولا والله ما مست يَدُ رسول
. . . الله - صلى الله عليه وسلم - يَدَ امرأة قط ، غير أنه بايعهن بالكلام
وما مست كف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كف امرأة قط ، وكان يقول لهن
إذا أخذ عليهن : " قد بايعتكن كلاما " .والمعنى : ( ياأيها النبي إِذَا
، جَآءَكَ المؤمنات يُبَايِعْنَكَ ) أى : مبايعات لك ، أو قاصدات مبايعتك
: ومعاهدتك على الطاعة لما تأمرهن به ، أو تنهاهن عنه .وأصل المبايعة
مقابلة شىء بشىء على سبيل المعاوضة . وسميت المعاهدة مبايعة ، تشبيها لها
- ، بها ، فإن الناس إذا التزموا قبول ما شرط عليهم من التكاليف الشرعية
طمعا فى الثواب ، وخوفا من العقاب ، وضمن لهم - صلى الله عليه وسلم - ذلك
فى مقابلة وفائهم بالعهد - صار كأن كل واحد منهم باع ما عنده فى مقابل ما
عند الآخر .والمقتضى لهذه المبايعة بعد الامتحان لهن ، أنهن دخلن فى
الإسلام ، بعد أن شرع الله - تعالى - ما شرع من أحكام وآداب . . فكان من
المناسب أن يأخذ النبى - صلى الله عليه وسلم - عليهن العهود ، بأن يلتزمن
بالتكاليف التى كلفهن الله - تعالى - بها .ثم بين - سبحانه - ما تمت عليه
المبايعة فقال : ( على أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بالله شَيْئاً ) أى : يبايعنك
ويعاهدنك على عدم الإشراك بالله - تعالى - فى أى أمر من الأمور التى تتعلق
. بالعقيدة أو بالعبادة أو بغيرهما .( وَلاَ يَسْرِقْنَ وَلاَ يَزْنِينَ )
، أى ويبايعنك - أيضا - على عدم ارتكاب فاحشة السرقة ، أو فاحشة الزنا
فإنهما من الكبائر التى نهى الله - تعالى - عنها .( وَلاَ يَقْتُلْنَ
أَوْلاَدَهُنّ ) أى : ويبايعنك كذلك ، على عدم قتلهن لأولادهن .والمراد به
، هنا : النهى عن قتل البنات ، وكان ذلك فى الجاهلية يقع تارة من الرجال
وأخرى من النساء ، فكانت المرأة إذا حانت ولادتها حفرت حفرة ، فولدت
بجانبها ، فإذا ولدت بنتا رمت بها فى الحفرة ، وسوتها بالتراب ، وإذا ولدت
غلاما أبقته .قال ابن كثير : وقوله ( وَلاَ يَقْتُلنَ أَوْلاَدَهُنّ )
وهذا يشمل قتله بعد وجوده ، كما كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية
الإملاق ، ويعم قتله وهو جنين ، كما قد يفعله بعض الجهلة من النساء ، تطرح
نفسها لئلا تحبل ، إما لغرض فاسد ، أو ما أشبهه .وقوله : ( وَلاَ يَأْتِينَ
ببهتان يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنّ وَأَرْجُلِهِنّ ) معطوف على ما
قبله وداخل تحت النهى .والبهتان : الخبر الكاذب الصريح فى كذبه ، والذي
يجعل من قيل فيه يقف مبهوتا ومتحيرا من شدة أثر هذا الكذب السافر
والافتراء : اختلاق الكذب واختراع الشخص له من عند نفسه .وللمفسرين فى.
معنى هذه الجملة الكريمة أقوال ، منها : أن المرأة فى الجاهلية كانت تلتقط
المولود وتقول لزوجها : هذا ولدى منك ، فذلك هو البهتان المفترى بين أيديهن
وأرجلهن ، لأن الولد إذا وضعته الأم ، سقط بين يديها ورجليها .ويرى بعضهم
، أن معنى الجملة الكريمة : ولا تأتوا بكذب شنيع تختلقونه من جهة أنفسكم
فاليد والرجل كناية عن الذات ، لأن معظم الأفعال بهما ، ولذا قيل لمن ارتكب
جناية قولية أو فعلية : هذا جزاء ما كسبت يداك .وقوله - سبحانه - ( وَلاَ
- يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ) من الأقوال الجامعة لكل ما يخبر به النبى
صلى الله عليه وسلم - ويأمر بفعله ، أو ينهى عن الاقتراب منه .ويشمل ذلك
النهى عن شق الجيوب ، ولطم الخدود ، ودعوى الجاهلية وغير ذلك من المنكرات
التى نهى الإسلام عنها .وقوله - سبحانه - : ( فَبَايِعْهُنّ واستغفر

لَهُنّ الله ) جواب ( إِذَا ) التى فى أول الآية .أى : إذا جاءك المؤمنات
. . . قاصدات لمبايعتك على الالتزام بتعاليم الإسلام ، فبايعهن على ذلك
واستغفر لهن الله - تعالى - عما فرط منهن من ذنوب ، . ( إِنّ الله غَفُورٌ
رّحِيمٌ ) أى : إن الله - تعالى - واسع المغفرة والرحمة لعباده المؤمنين
وهذه المبايعة يبدو أنها وقعت منه - صلى الله عليه وسلم - للنساء أكثر من.
مرة : إذ مها ما وقع فى أعقاب صلح الحديبية ، بعد أن جاءه بعض النساء
المؤمنات مهاجرات من دار الكفر إلى دار الإسلام ، كما حدث من أم كلثوم بنت
عقبة بن أبى معيط ، ومن سُبَيْعَةَ الأسلمية ، ومن أميمة بنت بشر ، ومن
غيرهن من النساء اللائى تركن أزواجهن الكفار ، وهاجرن إلى دار الإسلام
ومنها ما وقع فى أعقاب فتح مكة ، فقد جاء إليه - صلى الله عليه وسلم - بعد.
فتحها نساء من أهلها ليبايعنه على الإسلام .قال الآلوسى : والمبايعة وقعت
غير مرة ، ووقعت فى مكة بعد الفتح ، وفى المدينة .وممن بايعنه - صلى الله
عليه وسلم - فى مكة ، هند بنت عتبة ، زوج أبى سفيان . . . فقرأ عليهن - صلى
الله عليه وسلم - الآية ، فلما قال : ( وَلاَ يَسْرِقْنَ ) قالت : والله
: إنى لأصيب الهنة من مال أبى سفيان ولا أدرى أيحل لى ذلك؟ فقال أبو سفيان
) - ما أصبت من شىء فيما مضى فهو حلال لك .. فلما قرأ - صلى الله عليه وسلم
وَلاَ يَزْنِينَ ) قالت : أو تزنى الحرة . . ؟فلما قرأ ( وَلاَ يَقْتُلْنَ
أَوْلاَدَهُنّ ) قالت : ربيناهم صغارا وقتلتهم كبارا . وفى رواية أنها
: - قالت : قتلتَ الآباء وتوصينا بالأولاد .فلما قرأ - صلى الله عليه وسلم
قالت : والله إن البهتان لقبيح ، ولا يأمر ( وَلاَ يَأْتِينَ بِبهتان )
الله - تعالى - إلا بالرشد ومكارم الأخلاق .فلما قرأ ( وَلاَ يَعْصِينَكَ
فِي مَعْرُوفٍ ) قالت : والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفى أنفسنا أن نعصيك فى
شىء .والتقييد بالمعروف ، مع أن الرسول - صلى الله عليه وسلم -لا يأمر إلا
به ، للتنبيه على أنه لا يجوز طاعة مخلوق فى معصية الخالق .وتخصيص الأمور
المعدودة بالذكر فى حقهن ، لكثرة وقوعها فيما بينهن .وقد ذكر الإمام ابن
كثير ، جملة من الأحاديث التى تدل على أن هذه البيعة قد تمت فى أوقات
متعددة ، وفى أماكن مختلفة ، وأنها شملت الرجال والنساء .ومن هذه الأحاديث
- ما أخرجه الإمام أحمد عن سلمى بنت قيس - إحدى نساء بنى عدى بن النجار
قالت : " جئت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نبايعه ، فى نسوة من
الأنصار ، فشرط علينا : ألا نشرك بالله شيئا ، ولا نسرق ، ولا نزنى ، ولا
نقتل أولادنا ، ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه فى
: معروف . . . ثم قال - صلى الله عليه وسلم - " ولا تغششن أزواجكن " . قالت
فبايعناه ، ثم انصرفنا .فقلت لامرأة منهن : ارجعى إلى رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - فسليه : ما غش أزواجنا؟ فسألته فقال : " تأخذ ماله فتحابى به
- غيره " " .وفى الصحيحين عن عبادة بن الصامت قال : " كنا عند رسول الله
صلى الله عليه وسلم - فى مجلس فقال : بايعونى على أن لا تشركوا بالله شيئا
ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم . . . فمن وفى منكم فأجره ،
على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به فى الدنيا ، فهو كفارة له ، ومن
أصاب من ذلك شيئا فستره الله عليه ، فهو إلى الله ، إن شاء غفر له ، وإن
شاء عذبه " .

يا ايها الذين امنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم قد يئسوا من الاخرة كما
يئس الكفار من اصحاب القبور

، كما فسرها الوسيط وكما افتتح - سبحانه - السورة الكريمة بنداء للمؤمنين
نهاهم فيه عن موالاة أعدائه وأعدائهم ، اختتمها - أيضا - بنداء لهم ، نهاهم
فيه مرة أخرى عن مصافاة قوم قد غضب الله عليهم ، فقال - تعالى - : ( ياأيها
، الذين آمَنُوا . . . ) .المراد بالقوم الذين غضب الله عليهم : المشركون
بصفة عامة ، ويدخل فيهم دخولا أوليا اليهود ، لأن هذا الوصف كثيرا ما يطلق
، عليهم .فقد ذكروا فى سبب نزول هذه الآية ، أن قوما من فقراء المؤمنين
كانوا يواصلون اليهود . ليصيبوا من ثمارهم ، وربما أخبروهم عن شىء من أخبار
- المسلمين ، فنزلت الآية لتنهاهم عن ذلك .أى : يا من آمنتم بالله - تعالى
حق الإيمان ، ينهاكم الله - تعالى - عن أن تتخذوا الأقوام الذين غضب الله
عليهم أولياء ، وأصفيا ، بأن تفشوا إليهم أسرار المسلمين ، أو بأن تطلعوهم
على مالا يصح الاطلاع عليه .وقوله - تعالى - : ( قَدْ يَئِسُواْ مِنَ
الآخرة كَمَا يَئِسَ الكفار مِنْ أَصْحَابِ القبور ) تعليل للنهى عن
موالاتهم ، وتنفير من الركون إليهم .واليأس : فقدان الأمل فى الحصول على
الشىء ، أو فى توقع حدوثه .والكلام على حذف مضاف ، أى قد يئس هؤلاء اليهود
. . . من العمل للآخرة وما فيها من ثواب ، وآثروا عليها الحياة الفانية
، كما يئس الكفار من عودة موتاهم إلى الحياة مرة أخرى للحساب والجزاء
لاعتقادهم بأنه لا بعث بعد الموت ، ولا ثواب ولا عقاب - كما حكى القرآن
عنهم ذلك فى آيات كثيرة منها قوله - تعالى - ( قالوا أَإِذَا مِتْنَا
وَكُنّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنّا لَمَبْعُوثُونَ ) فالمقصود من الآية
. . . الكريمة ، تشبيه حال هؤلاء اليهود فى شدة إعراضهم عن العمل للأخرة

بحال أولئك الكفار الذين أنكروا إنكارا تاما ، أن هناك بعثا للأموات الذين
) : - فارقوا الحياة ، ودفنوا فى قبورهم .وعلى هذا الوجه يكون قوله - تعالى
مِنْ أَصْحَابِ القبور ) متعلق بقوله ( يَئِسُوا ) و ( مِنْ ) لابتداء
الغاية .ويصح أن يكون قوله - تعالى - : ( مِنْ أَصْحَابِ القبور ) بيانا
للكفار ، فيكون المعنى : قد يئسوا من الآخرة ، وما فيها من جزاء . . كما
- يئس الكفار الذين ماتوا وسكنوا القبور ، من أن ينالوا شيئا - ولو قليلا
من الرحمة ، أو تخفيف العذاب عنهم ، أو العودة إلى الدنيا ليعملوا عملا
صالحا غير الذى أرداهم وأهلكهم .وعلى كلا القولين ، فالآية الكريمة تنهى
المؤمنين عن موالاة قوم غضب الله عليهم ، بأبلغ أسلوب ، وأحكم بيان .حيث
وصفت هؤلاء القوم ، بأنهم قد أحاط بهم غضب الله - تعالى - بسبب فسوقهم عن
. أمره ، وإعراضهم عن طاعته ، وإنكارهم للدار الآخرة وما فيها من جزاء

سبح لله ما في السماوات وما في الارض وهو العزيز الحكيم

كما فسرها الوسيط افتتحت سورة " الصف " - كما افتتحت قبلها سورة الحديد
- والحشر بتنزيه الله - تعالى - عن كل مالا يليق به .أى : نزه الله - تعالى
- وقدسه ، جميع ما فى السموات وجميع ما فى الأرض من مخلوقات ، وهو - عز وجل
. الذى لا يغلبه غالب ( الحكيم ) فى كل أقواله وأفعاله ( العزيز )

يا ايها الذين امنوا لم تقولون ما لا تفعلون

كما فسرها الوسيط ثم وجه -سبحانه - نداء إلى المؤمنين فقال : ( ياأيها
الذين آمَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ ) .وقد ذكروا فى سبب
نزول هذه الآيات روايات منها : ما روى عن ابن عباس أنه قال : كان أناس من
المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون : لَوَدِدْنا أن الله - عز وجل - دلنا
، على أحب الأعمال إليه ، فنعمل به ، فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إليه
إيمان به لا شك فيه ، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقروا به
فلما نزل الجهاد كره ذلك أناس من المؤمنين وشق عليهم أمره ، فنزلت هذه.
، الآيات .وقال قتادة والضحاك : نزلت توبيخا لقوم كانوا يقولون : قتَلْنَا
ضَرَبْنَا ، طَعَنَّا ، وفَعَلْنا ، ولم يكونوا فعلوا ذلك .والاستفهام فى
قوله - تعالى - : ( لِمَ تَقُولُونَ ) للانكار والتوبيخ على أن يقول
الإنسان قولا لا يؤيده فعله ، لأن هذا القول إما أن يكون كذبا ، وإما أن
يكون خلفا للوعد ، وكلاهما يبغضه الله - تعالى - .و ( لِمَ ) مركبة من
، اللام الجارة ، وما الاستفهامية ، وحذفت ألف ما الاستفهامية مع حرف الجر
: تخفيفا لكثرة استعمالها معا ، كما فى قولهم : بِمَ ، وفِيمَ ، وعَمَّ .أى
يا من آمنتم بالله واليوم الآخر . . . لماذا تقولون قولا ، تخالفه أفعالكم
بأن تزعموا بأنكم لو كلفتم بكذا لفعلتموه ، فلما كلفتم به قصرتم فيه ، أو ،
أن تقولوا بأنكم فعلتم كذا وكذا ، مع أنكم لم تفعلوا ذلك .وناداهم بصفة
الإيمان الحق ، لتحريك حرارة الإيمان فى قلوبهم ، وللتعريض بهم ، إذ من شأن
. الإيمان الحق أن يحمل المؤمن على أن يكون قوله مطابقا لفعله

كبر مقتا عند الله ان تقولوا ما لا تفعلون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( كَبُرَ مَقْتاً عِندَ الله أَن
تَقُولُواْ مَا لاَ تَفْعَلُونَ ) بيان للآثار السيئة التى تترتب على القول
الذى يخالفه الفعل .وقوله : ( كَبُرَ ) بمعنى عظم ، لأن الشىء الكبير ، لا
يوصف بهذا الوصف ، إلا إذا كان فيه كثرة وشدة فى نوعه .والمقت : البغض
الشديد ، ومنه قوله - تعالى - ( وَلاَ تَقْرَبُواْ الزنى ) ( إِنَّهُ كَانَ
فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَآءَ سَبِيلاً ) وهو منصوب على التمييز المحول عن
: الفاعل : للإشعار بأن قولهم هذا مقت خالص لا تشوبه شائبة من الرضا .أى
- كبر وعظم المقت الناشىء عن قولكم قولا لا تطابقه أفعالكم .وقال - سبحانه
- للإشعار بشناعة هذا البغض من الله ( كَبُرَ مَقْتاً عِندَ الله ) :
تعالى - لهم ، بسبب مخالفة قولهم لفعلهم ، لأنه إذا كانت هذه الصفة عظيمة
الشناعة عند الله ، فعلى كل عاقل أن يجتنبها ، ويبتعد عنها .قال صاحب
الكشاف ما ملخصه ، ونداؤهم بالإيمان تهكم بهم وبإيمانهم وهذا من أفصح
. . . . الكلام وأبلغه فى معناه . وقصد فى " كَبُرَ " التعجب من غير لفظه
ومعنى التعجب : تعظيم الأمر فى قلوب السامعين ، لأن التعجب لا يكون إلا من
) شىء خارج عن نظائره وأشكاله . وأُسْنِد إلى ( أَن تَقُولُواْ ) ونُصِب
مَقْتاً ) على التمييز ، للدلالة على أن قولهم مالا يفعلون مقت خالص لا شوب
، فيه ، لفَرْط تمكن المقت منه . واختير لفظ المقت ، لأنه أشد البغض وأبلغه
ومنه قيل : نكاح المقت - وهو أن يتزوج الرجل امرأة أبيه - .وإذا ثبت كِبر
مقته عند الله ، فقد تم كبره وشدته ، وانزاحت عنه الشكوك . .فأنت ترى أن
الله - تعالى - قد ذم الذين يقولون مالا يفعلون ذما شديدا ، ويندرج تحت هذا
الذم ، الكذب فى القول ، والخلف فى الوعد ، وحب الشخص للثناء دون أن يكون

. قد قدم عملا يستحق من أجله الثناء

ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كانهم بنيان مرصوص

كما فسرها الوسيط وبعد أن وبخ - سبحانه - الذين يقولون مالا يفعلون ، أتبع
ذلك ببيان من يحبهم الله - تعالى - فقال : ( إِنَّ الله يُحِبُّ الذين
( يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنّهُم بُنْيَانٌ مّرْصُوصٌ
ومبحة الله - تعالى - لشخص ، معناها : رضاه عنه ، وإكرامه له .والصف يطلق.
: على الأشياء التى تكون منتظمة فى مظهرها ، متناسقة فى أماكنها ، والمرصوص
هو المتلاصق الذى انضم بعضه إلى بعض . يقال : رصصت البناء ، إذا ألزقت بعضه
ببعض حتى صار كالقطعة الواحدة .والمعنى : أن الله - تعالى - يحب الذين
يقاتلون فى سبيل إعلاء دينه قتالا شديدا ، حتى لكأنهم فى ثباتهم ، واجتماع
كلمتهم ، وصدق يقينهم . . . بنيان قد التصق بعضه ببعض ، فلا يستطيع أحد أن
ينفذ من بين صفوفه .فالمقصود بالآية الكريمة : الثناء على المجاهدين
الصادقين ، الذين يثبتون أمام الأعداء وهم يقاتلونهم ، ثباتا لا اضطراب معه
ولا تزلزل .قال الإمام الرازى : أخبر الله - تعالى - أنه يحب من يثبت فى
الجهاد ، ويلزم مكانه ، كثبوت البناء المرصوص .ويجوز أن يكون على أن يستوى
، أمرهم فى حرب عدوهم ، حتى يكونوا فى اجتماع الكلمة ، وموالاة بعضهم بعضا
. كالبنيان المرصوص

واذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون اني رسول الله اليكم فلما
زاغوا ازاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين

- كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - جانبا مما قاله موسى - عليه السلام
لقومه . وكيف أنهم عندما انصرفوا عن الحق ، عاقبهم - سبحانه - بما يستحقون
من عقاب فقال : ( وَإِذْ قَالَ موسى . . . ) .موسى - عليه السلام - هو ابن
عمران ، وهو واحد من أولى العزم من الرسل ، وينتهى نسبه إلى إبراهيم - عليه
، السلام - .وقد أرسله الله - تعالى - إلى فرعون وقومه وإلى بنى إسرائيل
وقد لقى - عليه السلام - من الجميع أذى كثيرا .ومن ذلك أن فرعون وقومه
وصفوه بأنه ساحر ، وبأنه مهين ، ولا يكاد يبين .وأن بنى إسرائيل قالوا له
عندما أمرهم بطاعته : وسمعنا وعصينا ، وقالوا له : أرنا الله جهرة وقالوا
له : اجعل لنا إلها كما لهم آلهة . . . وقالوا له : اذهب أنت وربك فقاتلا
- إنا هاهنا قاعدون .وقالوا عنه : إنه مصاب فى جسده بالأمراض ، فبرأه الله
تعالى - مما قالوا .قال ابن كثير : وفى هذا تسلية لرسوله - صلى الله عليه
وسلم - فيما أصابه من الكفار من قومه وغيرهم ، وأمر له بالصبر ، ولهذا قال
رحمة الله على موسى ، لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر " .وفيه نهى للمؤمنين " :
عن أن ينالوا من النبى - صلى الله عليه وسلم - ، أو يوصلوا إليه أذى ، كما
قال - تعالى - ( ياأيها الذين آمَنُواْ لاَ تَكُونُواْ كَالذين آذَوْاْ موسى
: فَبَرَّأَهُ الله مِمَّا قَالُواْ وَكَانَ عِندَ الله وَجِيهاً ) أى
واذكر - أيها الرسول الكريم - وذكر أتباعك ليتعظوا ويعتبروا ، وقت أن قال
موسى - عليه السلام - لقومه على سبيل الإنكار والتعجيب من حالهم .( ياقوم
لِمَ تُؤْذُونَنِي ) : قال لهم : يا أهلى ويا عشيرتى لماذا تلحقون الأذى
بى؟" وقد " فى قوله - تعالى - : ( وَقَد تّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ الله
إِلَيْكُمْ ) للتحقيق ، والجملة حالية ، وجىء بالمضارعة بعد " قد " للدلالة
: على أن علمهم بصدقه متجدد بتجدد ما يأتيهم به من آيات ومعجزات .قال الجمل
قوله : ( وَقَد تّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ ) قد للتحقيق
أى : تحقيق علمهم . أى :لا للتقريب ولا للتقليل ، وفائدة ذكرها التأكيد .
والمضارع بمعنى الماضى .أى : وقد علمتم ، وعبر بالمضارع ليدل على استصحاب ،
الحال ، وعلى أنها مقررة للإنكار . فإن العلم برسالته يوجب تعظيمه ، ويمنع
- إيذاءه؛ لأن من عرف الله - تعالى - وعظمته ، عظّم رسوله .ثم بين
سبحانه - ما ترتب على إيثارهم الغى على الهدى ، فقال : ( فَلَمّا زاغوا
أَزَاغَ الله قُلُوبَهُمْ ) .والزيغ : هو الميل عن طريق الحق ، يقال : زاغ
يزيغ زيغا وزيغانا ، إذا مال عن الجادة ، وأزاغ فلان فلانا ، إذا حوله عن
طريق الخير إلى طريق الشر .أى : فلما أصروا على الميل عن الحق مع علمهم به
- واستمروا على ذلك دون أن تؤثر المواعظ فى قلوبهم . . . أمال الله .
تعالى - قلوبهم عن قبول الهدى .لإيثارهم الباطل على الحق والضلالة على
الهداية .كما قال - تعالى - : ( وَمَن يُشَاقِقِ الرسول مِن بَعْدِ مَا
تَبَيّنَ لَهُ الهدى وَيَتّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ المؤمنين نُوَلّهِ مَا
) : - تولى وَنُصْلِهِ جَهَنّمَ وَسَآءَتْ مَصِيراً ) وقوله - سبحانه
والله لاَ يَهْدِي القوم الفاسقين ) تذييل قصد به التقرير لما قبله ، من أن
الزيغ يؤدى إلى عدم الهداية ، وبيان سنة من سنن الله فى خلقه ، وهى أن من
استحب العمى على الهدى ، وأصر على ذلك . . . كانت عاقبه الخسران .أى : وقد
اقتضت حكمة الله - تعالى - أن لا يهدى القوم الخارجين عن طريق الحق ، إلى
، ما يسعدهم فى حياتهم وبعد مماتهم ، لأنهم هم الذين اختاروا طريق الشقاء

وأصروا على سولكها .

واذ قال عيسى ابن مريم يا بني اسرائيل اني رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول ياتي من بعدي اسمه احمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين

- كما فسرها الوسيط ثم ذكر - سبحانه - جانبا مما قاله عيسى - عليه السلام - لبنى إسرائيل ، فقا - تعالى - : ( وَإِذْ قَالَ عِيسَى . . . ) .أى : واذكر - أيضا - أيها الرسول الكريم - وذكِّر الناس ليعتبروا ويتعظوا ، وقت أن قال عيسى ابن مريم ، مخاطبا من أرسله الله إليهم بقوله : ( يابني إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُم ) لكى أخرجكم من ظلمات الكفر والشرك ، إلى نور الإيمان والتوحيد .ولم يقل لهم يا قوم - كما قال لهم موسى - عليه السلام - بل قال : ( يابني إِسْرَائِيلَ ) لأنه لا أب له فيهم وإن كانت أمه منهم ، والأنساب إنما تكون من جهة الآباء ، لا من جهة الأمهات .وفى قوله ( إِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُم ) إخبار صريح منه لهم بأنه ليس إلها وليس ابن إله - كما زعموا وإنما هو عبد الله ورسوله .وقوله ( مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التوراة ) جملة حالية لإثبات حقيقة رسالته ، وحضهم على تأييده وتصديقه والإيمان به .أى : إنى رسول الله - تعالى - إليكم بالكتاب الذى أنزله الله علىّ وهو الإنجيل ، حال كونى مصدقا للكتاب الذى أنزله الله - تعالى - على نبيه موسى - عليه السلام - وهذا الكتاب هو التوراة ، وما دام الأمر كذلك فمن حقى عليكم ، أن تؤمنوا به وأن تتبعونى ، لأنى لم آتكم بشىء يخالف التوراة ، بل هى مشتملة على ما يدل على صدقى ، فكيف تعرضون عن دعوتى .وقوله : ( مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ ) فيه نوع مجاز ، لأن ما بين يدى الإنسان هو ما أمامه ، فسمى ما مضى كذلك لغاية ظهوره واشتهاره . واللام فى " لما " لتقوية العامل ، نحوه : - قوله - تعالى - ( فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ) وقوله - سبحاه - ( وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسمه أَحْمَدُ ) معطوف على ما قبله .والتبشير : الإخبار بما يسر النفس ويبهجها ، بحيث يظهر أثر ذلك على بشرة الإنسان ، وكان إخباره بأن نبيا سيأتى من بعده اسمه تبشيرا ، لأنه سيأتيهم بما يسعدهم ، ويرفع الأغلال عنهم ، كما قال - تعالى - : ( وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ والأغلال التي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ) ولفظ ( أَحْمَدُ ) اسم من أسماء نبينا - صلى الله عليه وسلم - وهو علم منقول من الصفة ، وهذه الصفة يصح أن تكون مبالغة من الفاعل . فيكون معناها : أنه - صلى الله عليه وسلم - أكثر حمدا لله - تعالى - من غيره .ويصح أن تكون من المفعول ، فيكون معناها أنه يحمده الناس لأجل ما فيه من خصال الخير ، أكثر مما يحمدوه غيره قال الآلوسى : وهذا الاسم الجليل ، علم لنبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - وصح من رواية مالك ، والبخارى ، ومسلم . . . عن جبير بن مطعم قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " إن لى أسماء؛ أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى ، وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر ، وأنا العاقب " .وبشارة عيسى - عليه السلام - بنبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - ثابتة ثبوتا قطعيا بهذه الآية الكريمة ، وإذا كانت بعض الأناجيل قد خلت من هذه البشارة ، فبسبب ما اعتراها من تحريف وتبديل على أيدى علماء أهل الكتاب .ومع ذلك فقد وجدت هذه البشارة فى بعض الأناجيل ، فى الباب الرابع عشر ، قال الإمام الرازى : فى الإصحاح الرابع عشر من إنجيل يوحنا هكذا : وأنا أطلب لكم إلى أبى ، حتى يمنحكم ويعطيكم الفارقليط حتى يكون معكم إلى الأبد .والفارقليط هو روح الحق واليقين .ومنهم من يرى أن لفظ فارقليط معناه باليونانية : أحمد أو محمد ومن أصرح الأدلة على أن صفات الرسول - صلى الله عليه وسلم - موجودة فى التوراة والإنجيل ، قوله - تعالى - : ( الذين يَتَّبِعُونَ الرسول النبي الأمي الذي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التوراة والإنجيل ) وقوله - سبحانه - : ( فَلَمَّا جَاءَهُم بالبينات قَالُواْ هذا سِحْرٌ مُّبِينٌ ) بيان لموقف بنى إسرائيل الجحودى من أنبياء الله - تعالى - والضمير فى قوله ( جَاءَهُم ) يرى بعضهم أنه يعود لعيسى ، ويرى آخرون أنه يعود لمحمد - صلى الله عليه وسلم - أى : فلما جاء عيسى - عليه السلام - أو محمد - صلى الله عليه وسلم - إلى بنى إسرئيل بالآيات البينات الدالة على صدقه ، قالوا على سبيل العناد والجحود : هذا سحر واضح فى بابه . لا يخفى على أى ناظر أو متأمل .ومن المعروف أن بنى إسرائيل قد كذبوا عيسى - عليه السلام - وكفروا به ، ونسبوا إلى أمه الطاهرة ، ما هى بريئة منه ، ومنزهة عنه .كما كذبوا محمدا - صلى الله عليه وسلم - وكفروا به ، وصدق الله إذ يقول : ( فَلَمَّا جَآءَهُمْ مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ الله عَلَى الكافرين ) ووصفوا ما جاء به بأنه سحر مبين ، على سبيل المبالغة فكأنهم يقولون إن ما جاء به هو السحر بعينه ، مع أنهم يعرفون أن ما جاء به هو الحق كما يعرفون أبناءهم ، ولكن ما جلبوا عليه من جحود وعناد ، حال بينهم وبين النطق بكلمة الحق .

ومن اظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى الى الاسلام والله لا يهدي القوم الظالمين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن هؤلاء المشركين هم أشد الناس ظلما للحق ، وأنه - سبحانه - سيظهره لا محالة ، رضوا بذلك أم كرهوا وأن هذا الدين سيظهره الله - تعالى - على بقية الأديان ، مهما كره الكافرون . فقال - تعالى - : ( وَمَنْ أَظْلَمُ . . . ) .الاستفهام فى قوله : ( وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله الكذب ) للإنكار والنفى . والافتراء : اختلاق الكذب واختراعه من جهة الشخص دون أن يكون له أساس من الصحة ، وقوله جملة حالية .أى : ولا أحد أشد ظلما من ( وَهُوَ يدعى إِلَى الإسلام ) : إنسان يختلق الكذب من عند نفسه على دين الله - تعالى - وشريعته ، والحال أن - هذا الإنسان يدعوه الداعى إلى الدخول فى دين الإسلام الذى لا يرتضى الله تعالى - سواه دينا .( والله ) - تعالى - ( لاَ يَهْدِي القوم الظالمين ) . إلى ما فيه فلاحهم ، لسوء استعدادهم ، وإيثارهم الباطل على الحق

يريدون ليطفئوا نور الله بافواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما يهدف إليه هؤلاء الظالمون من رواء افترائهم الكذب على الدين الحق ، فقال - تعالى - : ( يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ الله بِأَفْوَاهِهِمْ ) .والمراد بنور الله : دين الإسلام الذى ارتضاه - سبحانه - لعباده دينا ، وبعث به رسوله - صلى الله عليه وسلم - وقيل المراد به : حججه الدالة على وحدانيته - تعالى - وقيل : المراد به : القرآن . . . وهى معان متقاربة .والمراد بإطفاء نور الله محاولة طمسه وإبطاله والقضاء عليه ، بكل وسيلة يستطيعها أعداؤه ، كإثارتهم للشبهات من حول تعاليمه ، وكتحريضهم لمن كان على شاكلتهم فى الضلال على محاربته .والمراد بأفواههم : أقوالهم الباطلة الخارجة من تلك الأفواه التى تنطق بما لا وزن له من الكلام .والمعنى : يريد هؤلاء الكافرون بالحق ، أن - يقضوا على دين الإسلام ، وأن يطمسوا تعاليمه السامية التى جاء بها النبى صلى الله عليه وسلم - عن طريق أقاويلهم الباطلة الصادرة عن أفواههم ، من غير أن يكون لها مصداق من الواقع تنبق عليه ، أو أصل تستند إليه ، وإنما هى أقوال من قبيل اللغو الساقط المهمل الذى لا وزن له ولا قيمة .قال صاحب - الكشاف : مثّل حالهم فى طلبهم إبطال نبوة النبى - صلى الله عليه وسلم بالتكذيب ، بحال من يريد أن ينفخ فى نور عظيم منبثق فى الآفاق يريد الله أن يزيده ويبلغه الغاية القصوى فى الإشراق أو الإضاءة ، ليطفئه بنفخه ويطمسه والجملة الكريمة فيها ما فيها من التهكم والاستهزاء بهؤلاء الكافرين ، حيث. شبههم - سبحانه - فى جهالاتهم وغفلتهم ، بحال من يريد إطفاء نور الشمس الوهاج ، بنفخة من فمه الذى لا يستطيع إطفاء ما هو دون ذلك بما لا يحصى من المرات .وقوله - تعالى - : ( والله مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الكافرون ) بشارة للمؤمنين بأن ما هم عليه من حق ، لا بدّ أن يعم الآفاق .أى : والله - تعالى - بقدرته التى لا يعجزها شىء ، متم نوره ، ومظهر دينه ومؤيد نبيه - صلى الله عليه وسلم - ولو كره الكافرون ذلك فإن كراهيتهم لظهور دين - الله - تعالى - لا أثر لها ولا قيمة .فالآية الكريمة وعد من الله - تعالى للمؤمنين ، بإظهار دينهم ، وإعلاء كلمتهم ، لكى يزيدهم ذلك ثباتا على ثباتهم ، وقوة على قوتهم .

هو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون

كما فسرها الوسيط ثم أكد - سبحانه - وعده بإتمام نوره ، وبين كيفية هذا الإتمام فقال : ( هُوَ الذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بالهدى وَدِينِ الحق لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدين كُلِّهِ . . . ) .والمراد بالهدى : القرآن الكريم المشتمل على الإرشادات السامية ، والتوجيهات القويمة ، والأخبار الصادقة : والتشريعات الحكيمة .والمراد بدين الحق : دين الإسلام الذى هو خاتم ، الأديان .وقوله : ( لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدين كُلِّهِ ) من الإظهار بمعنى الإعلاء والغلبة بالحجة والبرهان ، والسيادة والسلطان .والجملة تعليلية لبيان سبب هذا الإرسال والغاية منه .والضمير فى " ليظهره " يعود على الدين الحق ، أوعلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - أى : هو الله - سبحانه - الذى . أرسل رسوله محمدا - صلى الله عليه وسلم - بالقرآن الهادى للتى هى أقوم وبالدين الحق الثابت الذى لا ينسخه دين آخر ، وكان هذا الإرسال لإظهار هذا الدين الحق على سائر الأديان بالحجة والغلبة .( وَلَوْ كَرِهَ المشركون ) ذلك ، فإن كراهيتهم لا أثر لها فى ظهوره ، وفى إعلائه على جميع الأديان ولقد أنجز الله - تعالى - وعده ، حيث جعل دين الإسلام ، هو الدين الغالب. على جميع الأديان ، بحججه وبراهينه الدالة على أنه الدين الحق الذى لا يحوم

، حوله باطل .هذا ، وقد ساق الإمام ابن كثير بعض الأحاديث التى تؤيد ذلك
" : ومنها : ما ثبت فى الصحيح عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال
" إن الله زوى لى الأرض مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمتى ما زوى لى منها
.

يا ايها الذين امنوا هل ادلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم

كما فسرها الوسيط ثم وجه - سبحانه - نداء إلى المؤمنين ، أرشدهم فيه إلى ما
. يسعدهم ، وينجيهم من كل سوء ، فقال - تعالى - : ( ياأيها الذين آمَنُواْ
هذه الآيات الكريمة جواب عما قاله بعض المؤمنين لرسول الله - صلى. ( . .
. الله عليه وسلم - : لو نعلم أى الأعمال أحب إلى الله لعملناها ، كما سبق
أن ذكرنا فى سبب قوله - تعالى - ( ياأيها الذين آمَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ
، مَا لاَ تَفْعَلُونَ ) فكأنه - سبحانه - بعد أن نهاهم عن أن يقولوا قولا
تخالفه أفعالهم ، وضرب لهم الأمثال بجانب من قصة موسى وعيسى - عليهما
السلام - وبشرهم بظهور دينهم على سائر الأديان .بعد كل ذلك أرشدهم إلى أحب
الأعمال إليه - سبحانه - فقال : ( ياأيها الذين آمَنُواْ هَلْ أَدُلُّكمْ
، على تِجَارَةٍ ) .والتجارة فى الأصل معناها : التصرف فى رأس المال
. وتقليبه فى وجوه المعاملات المختلفة ، طلبا للربح

تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله باموالكم وانفسكم ذلكم خير لكم
ان كنتم تعلمون

، كما فسرها الوسيط والمراد بها هنا : العقيدة السليمة ، والأعمال الصالحة
التى فسرت بها بعد ذلك فى قوله - تعالى - ( تُؤْمِنُونَ بالله وَرَسُولِهِ
والاستفهام فى قوله - تعالى - : ( هَلْ أَدُلُّكمْ ) للتشويق والتحضيض. (
إلى الأمر المدلول عليه .والمعنى : يا من آمنتم بالله - تعالى - وبملائكته
وكتبه ورسله واليوم الآخر ألا تريدون أن أدلكم على تجارة رابحة ، تنجيكم
مزاولتها ومباشرتها ، من عذاب شديد الأليم؟ إن كنتم تريدون ذلك ، فهاكم
الطريق إليها ، وهى : ( تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي
) : - سَبِيلِ الله بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ) .فقوله - سبحانه
تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ) استئناف مفسر وموضح لقوله ( هَلْ
أَدُلُّكمْ ) ؟ فكأن سائلا قال : وما هذه التجارة؟ دلنا عليها ، فكان
- الجواب : تؤمنون بالله ورسوله .أى : تداومون تامة على الإيمان بالله
تعالى - وبرسوله - صلى الله عليه وسلم - وتجاهدون فى سبيل إعلاء كلم الله
ونصرة دينه بأموالكم وأنفسكم .قالوا : وقوله ( تُؤْمِنُونَ ) خبر فى معنى
الأمر ، ويدل عليه قراءة ابن مسعود : آمنوا بالله رسوله ، وجاهدوا فى سبيله
، وفائدة العدول إلى الخبر : الإشعار بأنهم قد امتثلوا لما أرشدوا إليه.
فكأنه - سبحانه - يخبر عن هذا الامتثال الموجود عندهم .وجاء التعبير بقوله
لإفادة أن ما يذكر بعد ذلك من الأشياء التى تحتاج ( هَلْ أَدُلُّكمْ ) :
إلى من يهدى إليها ، لأنها أمور مرد تحديدها إلى الله - تعالى - .وتنكير
. . لفظ التجارة ، للتهويل والتعظيم ، أى : هل أدلكم على تجارة عظيمة الشأن
؟وأطلقت التجارة هنا على الإيمان والعمل الصالح ، لأنهما يتلاقيان
ويتشابهان فى أن كليهما المقصود من ورائه الربح العظيم ، والسعى من أجل
الحصول على المنافع .وقدم - سبحانه - هنا الجهاد بالأموال على الجهاد
بالأنفس ، لأن المقام قمام تفسير وتوضيح لمعنى التجارة الرابحة عن طريق
، الجهاد فى سبيل الله ، ومن المعلوم أن التجارة تقوم على تبادل الأموال
وهذه الأموال هى عصب الجهاد ، فعن طريقها تشترى الأسلحة والمعدات التى لا
- غنى للمجاهدين عنها ، وفى الحديث الشريف " من جهز غازيا فقد غزا ".وقدم
سبحانه - فى قوله : ( إِنَّ الله اشترى مِنَ المؤمنين أَنفُسَهُمْ
وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ . . ) وقدم الأنفس على الأموال ، لأن
. . . الحديث هناك ، كان فى معرض الاستبدال والعرض والطلب ، والأخذ والعطاء
فقدم - سبحانه - الأنفس لأنها أعز ما يملكه الإنسان ، وجعل فى مقابلها
الجنة لأنها أعز ما يوهب ، وأسمى ما تتطلع إلى نيله النفوس .واسم الإشارة
فى قوله : ( ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ) يعود إلى
ما سبق ذكره من الإيمان والجهاد . أى : ذلكم الذى أرشدناكم إلى التمسك به
من الإيمان والجهاد فى سبيل الله ، هو خير لكم من كل شىء إن كنتم من أهل
العلم والفهم .فقوله ( تَعْلَمُونَ ) منزلة منزلة الفعل اللازم ، للإشعار
بأن من يخالف ذلك لا يكون لا من أهل العلم ، ولا من أهل الإدراك .وجعله
بعضهم فعلا متعديا ، ومفعوله محذوف ، والتقدير : إن كنتم تعلمون أنه خير
. لكم فافعلوه ، ولا تتقاعسوا عن ذلك

يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الانهار ومساكن طيبة في جنات
عدن ذلك الفوز العظيم

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ) مجزوم على أنه جواب لشرط مقدر ، أى : إن تمتثلوا أمره - تعالى - يغفر لكم ذنوبكم .ويصح أن يكون مجزوما على أنه جواب للأمر المدلول عليه بلفظ الخبر فى قوله - تعالى - قبل ذلك ( تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ ، لأنهما - كما قلنا - وإن جاءا بلفظ الخبر ، إلا أنهما فى معنى الأمر . ( أى : آمنوا وجاهدوا .أى : آمنوا بالله - تعالى - إيمانا حقا ، وجاهدوا فى سبيل إعلاء كلمته بأموالكم وأنفسكم ، يغفر لكم - سبحانه - ذنوبكم ، بأن يزيلها عنكم ، ويسترها عليكم .( وَيُدْخِلْكُمْ ) فضلا عن ذلك ( جَنَّاتٍ ) عاليات ( تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ) أى : تجرى من تحت مساكنها وبساتيها الأنهار .ويعطيكم ( مَسَاكِنَ طَيِّبَةً ) أى : قصورا مشتملة على كل ما هو طيب ونافع .وخصت المساكن الطيبة بالذكر ، لأن المجاهدين قد فارقوا - مساكنهم ، ومنهم من استشهد بعيدا عنها ، وفيها أهله وماله . . . فوعدهم سبحانه - بما هو خير منها .وقوله ( فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ) أى : هذه المساكن الطيبة كائنة فى جنات باقية خالدة ، لا تزول ولا تنتهى ، بل أصحابها يقيمون ). فيها إقامة دائمة ، يقال : عدن فلان بالمكان ، إذا أقام فيه إقامة مؤبدة ذَلِكَ الفوز العظيم ) أى : ذلك الذى منحناكم إياه من مغفرة لذنوبكم ، ومن خلودكم فى الجنة . . . هو الفوز العظيم الذى لا يقاربه فوز ، ولا يدانيه ظفر .

واخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وأخرى تُحِبُّونَهَا ) بيان لنعمة " أخرى يعطيهم - سبحانه - إياها ، سوى ما تقدم من نعم عظمى .ولفظ " أخرى : مبتدأ خبره دل عليه ما تقدم ، وقوله : ( تُحِبُّونَهَا ) صفة للمبتدأ .أى ولكم - فضلا عن كل ما تقدم - نعمة أخرى تحبونها وتتطلعون إليها .وهذه النعمة هى : ( نَصْرٌ ) عظيم كائن ( مِّنَ اللَّهِ ) - تعالى - لكم ( وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ) أى : عاجل ( وَبَشِّرِ المؤمنين ) أى : وبشر - أيها الرسول الكريم - المؤمنين بذلك ، حتى يزدادوا إيمانا على إيمانهم ، وحتى تزداد قلوبهم انشراحا وسرورا .ويدخل فى هذا النصر والفتح القريب دخولا أوليا : فتح مكة ، ودخول الناس فى دين الله أفواجا .وهذه الآية الكريمة من معجزات القرآن الكريم ، الراجعة إلى الإخبار بالغيب ، حيث أخبر - سبحانه - بالنصر ، والفتح ، فتم ذلك للنبى - صلى الله عليه وسلم - ولأصحابه ، فى أكمل صورة وأقرب زمن .

يا ايها الذين امنوا كونوا انصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من انصاري الى الله قال الحواريون نحن انصار الله فامنت طائفة من بني اسرائيل وكفرت طائفة فايدنا الذين امنوا على عدوهم فاصبحوا ظاهرين

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بنداء ثالث وجهه إلى ) : المؤمنين ، دعاهم فيه إلى التشبه بالصالحين الصادقين من عباده فقال - ياأيها الذين آمَنُواْ . . . ) .الحواريون : جمع حوارى . وهم أنصار عيسى عليه السلام - الذين آمنوا به وصدقوه ، وأخلصوا له ولازموه ، وكانوا عونا ، له فى الدعوة إلى الحق ، وكانوا اثنى عشر رجلا .يقال : فلان حوارى فلان أى : هو من خاصة أصحابه ، ومنه قول النبى - صلى الله عليه وسلم - فى الزبير بن العوام : " لكل نبى حوارى ، وحوارىّ الزبير " .وأصل الحور : شدة البياض والصفاء ، ومنه قولهم فى خالص لباب الدقيق : الحوارى ، وفى النساء البيض الحسان : الحواريات والحوريات .وسمى الله - تعالى - أصفياء عيسى وأنصاره بذلك لشدة إخلاصهم له ، وطهارة قلوبهم من الغش والنفاق ، فصاروا فى نقائهم وصفائهم كالشىء الأبيض الخالص .والأنصار : جمع نصير ، وهو من ينصر غيره نصرا شديدا مؤزرا .والمراد بنصر الله - تعالى - : نصر دينه وشريعته ونبيه الذى أرسله بالهدى ، وديم الحق .وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو : كونوا أنصاراً لله .والمعنى : يا من آمنتم بالله - تعالى - حق الإيمان داوموا واظبوا على أن تكونوا أنصاراً لدين الله فى كل حال ، كما كان الحواريون كذلك ، عندما دعاهم عيسى - عليه السلام - إلى نصرته والوقوف إلى جانبه - فالكلام محمول على المعنى ، والمقصود منه حض المؤمنين على طاعة الرسول. صلى الله عليه وسلم - وعلى الاستجابة التامة لما يدعوهم إليه ، كما فعل الحواريون مع عيسى ، حيث ثبتوا على دينهم ، وصدقوا مع نبيهم ، دون أن تنال منهم الفتن أو المصائب .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما وجه صحة التشبيه - وظاهره تشبيه كونهم أنصاراً بقول عيسى ( مَنْ أنصاري إِلَى الله ) .قلت التشبيه محمول على المعنى ، وعليه يصح ، والمراد كونوا أنصار الله ، كما كان الحواريون أنصار عيسى كذلك حين قال لهم : من أنصارى إلى الله .فإن قتل فما معنى قوله : ( مَنْ أنصاري إِلَى الله ) ؟ قلت : يجب أن يكون معناه : مطابقا لجواب الحواريين : ( نَحْنُ أنصَارُ الله ) والذى يطابقه أن يكون - المعنى : من جندى متوجها إلى نصرة دين الله .والاستفهام فى قوله - تعالى

- للحض على نصرته والوقوف إلى جانبه .وأضافهم ( مَنْ أنصاري إِلَى الله ) : عليه السلام - إليه ، باعتبارهم أنصار دعوته ودينه .وقوله : ( إِلَى الله ) متعلق بأنصارى ، ومعنى " إلى " الانتهاء المجازي .أى : قال عيسى للحواريين على سبيل الامتحان لقوة إيمانهم : من الجند المخلصون الذين أعتمد عليهم بعد الله - تعالى - فى نصرة دينه ، وفى التوجه إليه بالعبادة والطاعة وتبليغ رسالته . . . ؟فأجابوه بقولهم : نحن أنصار دين الله - تعالى - ونحن الذين على استعداد أن نبذل نفوسنا وأموالنا فى سبيل تبليغ دعوته - عز وجل - ومن أجل إعلاء كلمته .وقوله - تعالى - : ( فَآمَنَت طَّآئِفَةٌ مِّن بني إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ) مفرع على ما قبله ، لبيان موقف قومه منه .أى : قال الحواريون لعيسى عندما دعاهم إلى اتباع الحق : نحن أنصار دين الله ، ونحن الذين سنثبت على العهد . . . أما بقية بنى إسرائيل فقد افترقوا إلى فرقتين : فرقة آمنت بعيسى وبما جاء به من عند الله - تعالى - ، وفرقة أخرى كفرت به وبرسالته .وقوله : ( فَأَيَّدْنَا الذين آمَنُواْ على عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَاهِرِينَ ) .بيان للنتائج التى تحققت لكل طائفة من الطائفتين : المؤمنين والكافرين .وقوله : ( ظَاهِرِينَ ) من الظهور بمعنى الغلبة ، يقال : ظهر فلان على فلان ، إذا تغلب عليه وقهره .أى : كان من قوم عيسى من آمن به ، ومنهم من كفر به ، فأيدنا وقوينا ونصرنا : الذين آمنوا به ، على الذين كفروا به ، فصار المؤمنون ظاهرين ومنتصرين على أعدائهم بفضله - تعالى - ومشيئته .والمقصود من هذا الخبر حض المؤمنون فى كل زمان ومكان ، على الإيمان والعمل الصالح ، لأن سنة الله - تعالى - قد اقتضت أن يجعل العاقبة لهم ، كما جعلها لأتباع عيسى المؤمنين ، على أعدائهم الكافرين .قال بعض العلماء : وتأويل هذا النص يمكن أن ينصرف إلى أحد معنيين ، إما أن الذين آمنوا برسالة عيسى - عليه السلام - ، هم المسيحيون إطلاقا : من استقام ، ومن دخلت فى عقيدته الانحرافات ، وقد أيدهم الله - تعالى - على اليهود الذين لم يؤمنوا به أصلا ، كما حدث فى التاريخ .وإما أن الذين آمنوا هم الذين أصروا على التوحيد فى وجه المؤهلين لعيسى ، والمثلثين وسائر : النحل التى انحرفت عن التوحيد .ومعنى : أنهم أصبحوا ظاهرين ، أى : بالحجة والبرهان ، أو أن التوحيد الذى هم عليه ، هو الذى أظهره الله بهذا الدين الأخير - أى : دين الإسلام - وجعل له الجولة الأخيرة فى الأرض . كما وقع فى التاريخ .هذا المعنى الأخير هو الأرجح والأقرب فى هذا السياق .وبعد : فهذا تفسير لسورة " الصف " نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصاً لوجهه ، ونافعاً لعباده .وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

يسبح لله ما في السماوات وما في الارض الملك القدوس العزيز الحكيم

" كما فسرها الوسيط افتتحت سورة " الجمعة " كغيرها من أخواتها " المسبحات - بالثناء على الله - تعالى - وببيان أن المخلوقات جميعها ، تسبح بحمده ، تعالى - وتقدس له .والتسبيح : تنزيه الله - تعالى - عما لا يليق به ، اعتقادا وقولا وعملا مأخوذ من السبح وهو المر السريع فى الماء أو الهواء ، لأن المسبح لله ، - تعالى - مسرع فى تنزيهه - تعالى - وتبرئته من كل سوء وقوله : ( القدوس ) من التقديس بمعنى والتطهير وغير ذلك من صفات الكمال. أى : أن التسبيح : نفى ما لا يليق بذاته - تعالى - ، والتقديس : إثبات ما. ، يليق بجلاله - سبحانه - والمعنى : ينزه الله - تعالى - ويبعده عن كل نقص ) - جميع ما فى السموات ، وجميع ما فى الأرض من مخلوقات ، فهو - سبحانه الملك ) أى : المدبر لشئون هذا الكون ، المتصرف فيه تصرف المالك فيما يملكه أى : البليغ فى الطهارة وفى التنزه عن كل نقص ، من ( القدوس ). . . القُدْس - ضم القاف وسكون الدال - بمعنى الطهر ، وأصله القَدَس - بفتح القاف والدال - وهو الإناء الذى يكون فيه ما يتطهر به ، ومنه القادوس وهو إناء معروف .( العزيز ) الذى لا يغلبه غالب ( الحكيم ) فى كل أقواله وأفعاله وتصرفاته .هذا ، ومن الآيات الكثيرة الدالة على أن جميع من فى ) : - السموات ومن في الأرض ، يسبحون لله - تعالى - قوله - عز وجل تُسَبِّحُ لَهُ السماوات السبع والأرض وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ). . .

هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلو عليهم اياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين

: كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - جانبا من مظاهر فضله على خلقه ، فقال هُوَ الذي بَعَثَ فِي الأميين رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ) آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكتاب والحكمة . . . ) .وقوله : جمع أمى ، وهو صفة لموصوف محذوف . أى : فى الناس أو فى القوم ( الأميين ) الأميين ، والمراد بهم العرب ، لأن معظمهم كانوا لا يعرفون القراءة ، والكتابة .وسمى من لا يعرف القراءة والكتابة بالأمى ، لغلبة الأمية عليه

حتى لكأن حاله بعد تقدمه فى السن ، كحاله يوم ولدته أمه فى عدم معرفته
، للقراء ة والكتابة .و " من " فى قوله - تعالى - : ( مِّنْهُمْ ) للتبعيض
) ; باعتبار أنه واحد منهم ، ويشاركهم فى بعض صفاتهم وهى الأمية .وقوله
يَتْلُواْ . . . ) من التلاوة ، وهى القراءة المتتابعة المرتلة ، التى يكون
بعضها تلو بعض .وقوله : ( وَيُزَكِّيهِمْ ) من التزكية بمعنى التطهير
: والتنقية من السوء والقبائح .والمراد بالكتاب : القرآن ، والمراد بتعليمه
: بيان معانيه وحقائقه ، وشرح أحكامه وأوامره ونواهيه .والمراد بالحكمة
العلم النافع ، المصحوب بالعمل الصالح ، وفى وضعها إلى جانب الكتاب إشارة
إلى أن المقصود بها السنة النبوية المطهرة ، إذ بالكتاب وبالسنة ، يعرف
الناس أصلح الأقوال والأفعال ، وأعدل الأحكام وأقوم الآداب ، وأسمى الفضائل
أى : هو - سبحانه - وحده ، الذى ( بَعَثَ ) بفضله وكرمه ، ( فِي ) العرب..
كريما عظيما ، كائنا ( مِّنْهُمْ ) أى : من جنسهم ( الأُمِّيِّينَ رَسُولاً )
يعرفون حسبه ونسبه وخلقه . . . هذا الرسول الكريم أرسلناه إليهم ، ليقرأ
عليهم آيات الله - تعالى - التى أنزلها عليه لهدايتهم وسعادتهم ، متى آمنوا
- بها ، وعملوا بما اشتملت عليه من توجيهات سامية .وأرسلناه إليهم - أيضا
، ليزكيهم ، أى : وليطهرهم من الكفر والقبائح والمنكرات وليعلمهم الكتاب
بأن يحفظهم إياه ، ويشرح لهم أحكامه ، ويفسر لهم ما خفى عليهم من ألفاظه
ومعانيه .وليعلمهم - أيضا - الحكمة . أى : العلم النافع المصحوب بالعمل
الطيب وصدر - سبحانه - الآية الكريمة بضمير اسم الجلالة ، لتربية المهابة
فى النفوس ، ولتقوية ما اشتملت عليه من نعم وأحكام ، إذ هو - سبحانه - وحده
- الذى فعل ذلك لا غيره .وعبر - سبحانه - بفى المفيدة للظرفية فى قوله
تعالى - : ( فِي الأميين ) . للإشعار بأن هذا الرسول الكريم الذى أرسله
- إليهم ، كان مقيما فيهم ، وملازما لهم ، وحريصا على أن يبلغهم رسالة الله
تعالى - فى كل الأوقات والأزمان .والتعبير بقوله : ( مِّنْهُمْ ) فيه ما
، فيه من دعوتهم إلى الإيمان به ، لأن هذا الرسول الكريم ، ليس غريبا عنهم
بل هو واحد منهم شرفهم من شرفه ، وفضلهم من فضله . . .وهذه الآية الكريمة
- صريحة فى أن الله - تعالى - قد استجاب دعوة نبيه إبراهيم - عليه السلام
عندما دعاه بقوله : ( رَبَّنَا وابعث فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ
عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الكتاب والحكمة وَيُزَكِّيهِمْ
إِنَّكَ أَنتَ العزيز الحكيم . . ) وقد جاء ترتيب هذه الآية الكريمة
، وأمثالها فى أسمى درجات البلاغة والحكمة ، لأن أول مراحل تبليغ الرسالة
يكون بتلاوة القرآن ، ثم ثنى - سبحانه - بتزكيه النفوس من الأرجاس ، ثم ثلث
بتعليم الكتاب والحكمة لأنهما يكونان بعد التبليغ والتزكية للنفوس .ولذا
قالوا : إن تعليم الكتاب غير تلاوته ، لأن تلاوته معناها ، قراءته قراءة
مرتلة ، أما تعليمه فمعناه : بيان أحكامه ، وشرح ما خفى من ألفاظه وأحكامه
فأنت ترى أن هذه الآية الكريمة ، قد اشتملت على جملة من الصفات. . .
الجليلة التى منحها - سبحانه - لنبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - .ثم
: بين - سبحانه - بعد ذلك حال الناس قبل بعثته - صلى الله عليه وسلم - فقال
وهذه الجملة. ( وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ )
" الكريمة فى موضع الحال من قوله : ( هُوَ الذي بَعَثَ فِي الأميين . . ) و
إن " فى قوله ( وَإِن كَانُواْ . . ) مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن
، محذوف .أى : هو - سبحانه - بفضله وكرمه ، الذى بعث فى الأميين رسولا منهم
وحالهم أنهم كانوا قبل إرسال هذا الرسول الكريم فيهم ، فى ضلال واضح لا
يخفى أمره على عاقل ، ولا يلتبس قبحه على ذى ذوق سليم وحقا لقد كان الناس
قبل أن يبزغ نور الإسلام ، الذى جاء به النبى - صلى الله عليه وسلم - من
، عند ربه ، فى ضلال واضح ، وظلام دامس ، من حيث العقائد والعبادات
والأخلاق والمعاملات .فكان من رحمة الله - تعالى - بهم ، أن أرسل فيهم
رسوله محمدا - صلى الله عليه وسلم - لكى يخرجهم من ظلمات الكفر والفسوق
. والعصيان ، إلى نور الهداية والاستقامة والإيمان

واخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن رسالة رسوله محمد - صلى الله عليه
وسلم - لن يكون نفعها مقصورا على المعاصرين له والذين شاهدوه . . . بل سيعم
نفعها من سيجيئون من بعدهم ، فقال - تعالى - : ( وَآخَرِينَ مِنْهُمْ
) : لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ وَهُوَ العزيز الحكيم . . ) .وقوله
وَآخَرِينَ ) جمع آخر بمعنى الغير ، والجملة معطوفة على قوله قبل ذلك ( فِي
الأميين . . ) فيكون المعنى :هو - سبحانه - الذى بعث فى الأميين رسولا منهم
كما بعثه فى آخرين منهم .( لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ) أى : لم يجيئوا ،
بعد ، وهم كل من يأتى بعد الصحابة من أهل الإسلام إلى يوم القيامة ، بدليل
قوله - تعالى - : ( وَأُوحِيَ إِلَيَّ هذا القرآن لأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَن
بَلَغَ . . . ) أى : وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به يا أهل مكة ، ولأنذر
به جميع من بلغه هذا الكتاب ، ووصلت إليه دعوته من العرب وغيرهم إلى يوم
القيامة . . .وفى الحديث الشريف : " بلغوا عن الله - تعالى - فمن بلغته آية

من كتاب الله ، فقد بلغه أمر الله " .وعن محمد بن كعب قال : من بلغه القرآن
) : فكأنما رأى النبى - صلى الله عليه وسلم - .ويصح أن يكون قوله
وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ . . ) معطوف على الضمير
المنصوب فى قوله : ( وَيُعَلِّمُهُمُ . . ) فيكون المعنى :هو الذى بعث فى
، الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة
ويعلم آخرين منهم ( لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ) أى : لم يجيئوا بعد
وسيجيئون . . . وهم كل من آمن بالرسول من بعد الصحابة إلى يوم القيامة .قال
صاحب الكشاف : وقوله : ( وَآخَرِينَ ) مجرور عطف على الأميين يعنى : أنه
بعثه فى الأميين الذين على عهده ، وفى آخرين من الأميين الذين لم يلحقوا
: بهم بعد ، وسيلحقون بهم ، وهم الذين بعد الصحابة . .وقيل : لما نزلت قيل
من هم يا رسول الله ، فوضع يده على سلمان ثم قال : " لو كان الإيمان عند "
الثريا لتناوله رجال من هؤلاء " " .وقيل : هم الذين يأتون من بعدهم إلى يوم
القيامة .ويجوز أن ينتصب عطفا عل المنصوب فى ( وَيُعَلِّمُهُمُ ) أى يعلمهم
ويعلم آخرين ، لأن التعليم إذا تناسق إلى آخر الزمان كان كله مستندا إلى
أوله ، فكأنه هو الذى تولى كل ما وجد منه .. .والمتأمل فى هذه الآية
الكريمة يراها تشير 'لى أن دعوة النبى - صلى الله عليه وسلم - ستبلغ غير
، المعاصرين له - صلى الله عليه وسلم - وأنهم سيتبعونها ، ويؤمنون بها
ويدافعون عنها . .وهذا ما أيده الواقع ، فقد دخل الناس فى دين الله أفواجا
من العرب ومن غير العرب ، ومن أهل المشارق والمغارب .فالآية الكريمة تخبر
عن معجزة من معجزات القرآن الكريم ، ألا وهى الإخبار عن أمور مستقبلة أيدها
الواقع المشاهد .وقوله - تعالى - : ( وَهُوَ العزيز الحكيم ) تذييل المقصود
به بيان أن قدرته - تعالى -لا يعجزها شىء ، وأن حكمته هى أسمى الحكم
وأسدها .أى : وهو - سبحانه - العزيز الذى لا يغلب قدرته شىء ، الحكيم فيما
. يريده ويقدره ويوجده

ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم

كما فسرها الوسيط واسم الإشارة فى قوله : ( ذَلِكَ فَضْلُ الله يُؤْتِيهِ
، مَن يَشَآءُ . . . ) يعود إلى ما تقدم ذكره من كرمه - تعالى - على عباده
حيث اختص رسوله محمدا - صلى الله عليه وسلم - بهذه الرسالة الجامعة لكل خير
وبركة ، وحيث موفق من وفق من الأميين وغيرهم ، إلى اتباع هذا الرسول الكريم
أى : ذلك البعث منا لرسولنا محمد - صلى الله عليه وسلم - لكى يهدى الناس .
بإذننا إلى الصراط المستقيم ، هو فضلنا الذى نؤتيه ونخصه لمن نشاء اختصاصه
به من عبادنا .( والله ) - تعالى - : هو ( ذُو الفضل العظيم ) الذى لا
يقاربه فضل ، ولا يدانيه كرم .كما قال - سبحانه - : ( قُلْ إِنَّ الفضل
بِيَدِ الله يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ والله وَاسِعٌ عَلِيمٌ يَخْتَصُّ
بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَآءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ).

مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل اسفارا بئس مثل
القوم الذين كذبوا بايات الله والله لا يهدي القوم الظالمين

- كما فسرها الوسيط ثم انتقلت السورة الكريمة - بعد هذا البيان - لفضل الله
تعالى - على نبيه - صلى الله عليه وسلم - ، وعلى من أرسله لهدايتهم ، إلى
الحديث عن جانب من رذائل اليهود ، وأمرت النبى - صلى الله عليه وسلم - أن
يتحداهم وأن يرد على أكاذيبهم . . . فقال - تعالى : ( مَثَلُ الذين . . . )
. . المراد بالمثل فى قوله - تعالى - : ( مَثَلُ الذين حُمِّلُواْ التوراة.
الصفة والحال . .والمراد بالذين حملوا التوراة : اليهود الذين كلفهم (
. . الله - تعالى - بالعمل بما اشتملت عليه التوراة من هدايات وأحكام وآداب
ولكنهم نبذوها وتركوا العمل بها .والأسفار : جمع سفر ، وهو الكتاب الكبير .
المشتمل على ألوان من العلم النافع ، وسمى بذلك لأنه يسفر ويكشف عما فيه من
المعانى المفيدة للمطلع عليها .والمعنى : حال هؤلاء اليهود الذين أنزل
. . . الله - تعالى - عليهم التوراة لهدايتهم . . . ولكنهم لم ينتفعوا بها
، كحال الحمار الذى يحمل كتب العلم النافع ، ولكنه لم يستفد من ذلك شيئا
لأنه لا يفقه شيئا مما يحمله . .ففى هذا المثل شبه الله - تعالى - اليهود
الذين لم ينتفعوا بالتوارة التى فيها الهداية والنور ، بحال الحمار الذين
يحمل كتب العلوم النافعة دون أن يستفيد بها .ووجه الشبه بين الاثنين : هو
عدم الانتفاع بما من شأنه أن ينتفع به انتفاعا عظيما ، لسمو قيمته ، وجلال
منزلته .قال صاحب الكشاف : شبه اليهود فى أنهم حملة التوراة وقراؤها وحفاظ
، ما فيها ، ثم إنهم غير عاملين بها ، ولا بمنتفعين بآياتها . . . بالحمار
حمل أسفارا ، أى : كتبا كبارا من كتب العلم ، فهو يمشى بها ، ولا يدرى منها
إلا ما يمر بجنبيه وظهره من الكد والتعب ، وكل من علم ولم يعمل بعلمه فهذا
مثله ، وبئس المثل . .وقال الإمام ابن كثير : يقول - تعالى - ذا ما لليهود
الذين أعطوا التوراة فلم يعملوا بها ، إن مثلهم فى ذلك كمثل الحمار يحمل
أسفارا . . . فهو يحملها حملا حسيا ولا يدرى ما عليه ، وكذلك هؤلاء . لم

يعملوا بمقتضى ما فى التوراة بل أولوه وحرفوه ، فهم أسوأ من الحمار ، لأن
الحمار لا فهم له ، وهؤلاء لهم فهوم لم يستعملوها ، ولهذا قال - تعالى - :
فى آية أخرى : ( أُولَـئِكَ كَالأَنعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَـئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ )
وقال القرطبى : وفى هذا المثل تنبيه من الله - تعالى - لمن حمل الكتاب ، أن
يتعلم معانيه ، ويعمل بما فيه ، لئلا يلحقه من الذم ما لحق هؤلاء اليهود ،
قال الشاعر :زوامل للأسفار لا علم عندهم ... بجيِّدها ، إلا كعلم
الأباعرلعمرك ما يدرى البعير إذا غدا ... بأوْساقِهِ ، أو راح ما فى
الغرائروعبر - سبحانه - عن تكليفهم العمل بالتوراة وعن تركهم لذلك بقوله :
للإشعار بأن هذا التكليف ( حُمِّلُواْ التوراة ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا )
منه - تعالى - لهم ، كان عهدا مؤكدا عليهم ، حتى لكأنهم تحملوه كما يتحمل
الإنسان شيئا قد وضع فوق ظهره أو كتفيه . ولكنهم نبذوا هذا العهد ، وألقوا
بما فوق أكتافهم من أحمال ، وانقادوا لأهوائهم وشهواتهم انقياد الأعمى
لقائده . .ولفظ " ثم " فى قوله ( ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا ) للتراخى النسبى
لأن عدم وفائهم بما عهد إليهم ، أشد عجبا من تحملهم لهذه العهود .وشبههم ،
بالحمار الذى هو مثل فى البلادة والغباء ، لزيادة التشنيع عليهم ،
والتقبيح لحالهم ، حيث زهدوا وأعرضوا عن الانتفاع بأثمن شىء نافع ، - وهو
كتاب الله - كما هو شأن الحمار الذى لا يفرق فيما يحمله على ظهره بين الشىء
النافع والشىء الضار .وجملة " يحمل أسفارا " فى موضع الحال من الحمار ، أو
فى موضع جر على أنها صفة للحمار ، باعتبار أن المقصود به الجنس ، فهو معرفة
لفظا ، نكرة معنى .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : " يحمل " ما محلة؟ قلت :
محله النصب على الحال ، أو الجر على الوصف ، لأن لفظ الحمار هنا ، كلفظ
اللئيم فى قول الشاعر :ولقد أمر على اللئيم يسبنى ... ثم أضاف - سبحانه -
إلى ذم هؤلاء اليهود ذما آخر فقال : ( بِئْسَ مَثَلُ القوم الذين
كَذَّبُواْ بِآيَاتِ الله . . ) .و ( بِئْسَ ) فعل ذم ، وفاعله ما بعده وهو
قوله : ( مَثَلُ القوم ) وقد أغنى هذا الفاعل عن ذكر المخصوص بالذم ، لحصول
العلم بأن المذموم هو حال هؤلاء القوم الذين وصفهم - سبحانه - بأنهم قد
كذبوا بآياته .أى : بئس المثل مثل هؤلاء القوم الذين كذبوا بآيات الله -
تعالى - الدالة على وحدانيته وقدرته ، وعلى صدق أنبيائه فيما يبلغونه عنه
- تعالى - .وقوله : ( والله لاَ يَهْدِي القوم الظالمين ) تذييل قصد به بيان
الأسباب التى أدت إلى عدم توفيق الله - تعالى - لهم إلى الهداية .أى :
والله - تعالى - قد اقتضت حكمته ، أن لا يهدى إلى طريق الخير ، من ظلم نفسه
بأن آثر الغى على الرشد ، والعمى على الهدى ، والشقاوة على السعادة ،
لسوء استعداده ، وإنطماس بصيرته .

قل يا ايها الذين هادوا ان زعمتم انكم اولياء لله من دون الناس فتمنوا
الموت ان كنتم صادقين

كما فسرها الوسيط ثم أمر الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن
يتحدى اليهود ، وأن يرد على مزاعمهم ردا يخرس ألسنتهم ، ويكشف عن أكاذيبهم
فقال - سبحانه - :( قُلْ ياأيها الذين هادوا إِن زَعَمْتُمْ . . .
أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ الناس فَتَمَنَّوُاْ الموت إِن
كُنتُمْ صَادِقِينَ ) .قال الآلوسى : وأمر - الله - أن يقول لهم ذلك
إظهارا لكذبهم ، فإنهم كانوا يقولون : ( نَحْنُ أَبْنَاءُ الله
وَأَحِبَّاؤُهُ ) ويدعون أن الآخرة خالصة لهم عند الله .وروى أنه لما ظهر
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كتب يهود المدينة إلى يهود خيبر : إن
اتبعتم محمدا أطعناه ، وإن خالفتموه خالفناه . فقالوا - أى : يهود خيبر - :
نحن أبناء خليل الرحمن ، ومنا عزير ابن الله ، ومنا الأنبياء ومتى كانت "
النبوة فى العرب؟ نحن أحق بها من محمد - صلى الله عليه وسلم - ، ولا سبيل
إلى اتباعه ، فنزلت هذه الآيات . . .والمقصود بالذين هادوا ، أى : الذين
ادعو أنهم على الديانة اليهودية ، يقال : هاد فلان وتَهَوَّدَ .إذا دخل فى
اليهودية ، نسبة إلى يهوذا أحد أبناء يعقوب - عليه السلام - ، أو سموا بذلك
حين تابوا عن عبادة العجل ، من هادَ يهوَدُ هَوْدًا بمعنى تاب ، ومنه
قوله - تعالى - : ( واكتب لَنَا فِي هذه الدنيا حَسَنَةً وَفِي الآخرة
. . . إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ . . ) أى : تبنا إليك .ومعنى ، أولياء الله
) : مقربين منه ، كرماء عليه ، لهم منزلة خاصة عنده - تعالى - .وقوله
، فَتَمَنَّوُاْ الموت . . ) جواب الشرط ، والتمنى معناه : ارتياح النفس
ورغبتها القوية فى الحصول على الشىء .ويستعمل التمنى فى المعنى القائم
بالقلب ، بأن تتطلع نفس الشخص إلى الحصول على الشىء . كما يستعمل عن طريق
النطق باللسان ، بأن يقول الإنسان بلسانه ، ليتنى أحصل على كذا .وهذا
المعنى الثانى هو المراد هنا ، لأن المعنى الكائن فى القلب لا يعلمه أحد
سوى الله - تعالى - .ومعنى الآية الكريمة : قل يا محمد لهؤلاء اليهود
الزاعمين أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وأنهم أولياء الله - تعالى - المقربون
- إليه من دون سائر خلقه . . . قل لهم على سبيل التحدى والتعجيز والتبكيت
إن كان الأمر كما زعمتم ، فاذكروا أمام الناس بألسنتكم لفظا ، يدل على أنكم

، تحبون الموت وترغبون فيه ، كلى تظفروا بعد الموت بالمحبة الكاملة من الله ولكى تنتقلوا من شقاء الدنيا ومتاعبها إلى النعيم الخالص بعد موتكم .وجواب الشرط فى قوله : ( إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ) محذوف لدلالة ما قبله عليه .أى إن كنتم صادقين فى دعواكم أنكم أولياء الله من دون الناس فتمنوا الموت : - وافتتحت الآية الكريمة بلفظ ( قُلْ ) للاهتمام بشأن التحدى من الرسول. صلى الله عليه وسلم - لهم ، ولبيان أنه أمر من الله - تعالى - وليس للرسول - صلى الله عليه وسلم - سوى التنفيذ .وجىء بإن الشرطية المفيدة للشك مع أنهم قد زعموا أنهم أولياء لله فعلا ، للإشعار بأن زعمهم هذا وإن ، كانوا قد كرروا النطق والتباهى به . . إلا أنه بمنزلة الشىء الذى تلوكه الألسنة ، دون أن يكون له أساس من الواقع ، فهو لوضوح بطلانه صار بمنزلة الشىء الذى يفترض وقوعه افتراضا على سبيل التوبيخ لهم .قال الآلوسى ما ملخصه : قوله : ( قُلْ ياأيها الذين هادوا ) أى : تهودوا ( إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ ) أى : أحباء لله ، ولم يصف - سبحانه - لفظ أولياء إليه ، كما فى قوله : ( ألا إِنَّ أَوْلِيَآءَ الله لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ . . ) ليؤذن بالفرق بين مدعى الولاية ، ومن يخصه - تعالى - بها وقوله : ( مِن دُونِ الناس . . ) حال من الضمير الراجع إلى اسم ( إن ) أى. متجاوزين عن الناس .( فَتَمَنَّوُاْ الموت ) أى : فتمنوا من الله أن : يميتكم وينقلكم من دار البلية إلى محل الكرامة . فإن من أين أنه من أهل الجنة أحب أن يخلص إليها من هذه الدنيا التى هى دار كدر وتعب .

ولا يتمنونه ابدا بما قدمت ايديهم والله عليم بالظالمين

كما فسرها الوسيط ثم أخبر - سبحانه - عن واقعهم وعن حالتهم المستقبلة فقال : وَلاَ يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ والله ) . عَلِيمٌ بالظالمين ) .أى : أن هؤلاء اليهود لا يتمنى أحدهم الموت أبدا بسبب ما قدمته أيديهم من آثام ، والله - تعالى -لا تخفى عليه خافية من سيئاتهم واعتداءاتهم وظلمهم بل هو - سبحانه - يسجل ذلك عليهم ، ويجازيهم بما يستحقونه من عقاب .فالآية الكريمة خبر من الله - تعالى - عن اليهود بأنهم يكرهون الموت ، ولا يتمنونه ، ولا يستطيعون قبول ما تحداهم به - صلى الله عليه وسلم - من طلبهم تمنى الموت ، لعلمهم بأنهم لو أجابوه إلى طلبه ، لحل بهم الموت الذى يكرهونه .وقد صح من عدة طرق عن ابن عباس أنه قال : لو تمنوا الموت لشرق أحدهم بريقه . . .وقال ابن جرير : وبلغنا أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : " لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ، ولرأوا مقاعدهم من النار . . " .وقال ابن كثير : وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال قال أبو جهل - لعنه الله - : إن رأيتُ محمدا عند الكعبة ، لآتينه حتى " : أطأ عنقه . قال : فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " لو فعل لأخذته الملائكة عيانا ، ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ولرأوا مقاعدهم من النار . ولو خرج الذين يباهلون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لرجعوا لا يجدون مالا ولا أهلا " " .وقال صاحب الكشاف ما ملخصه : وقوله : ( وَلاَ يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً ) أى : بسبب ما قدموا من الكفر ، وقد قال لهم - صلى الله عليه وسلم - : " والذى نفسى بيده لا يقولها أحد منكم إلا غص بريقه " ، فلولا أنهم كانوا موقنين بصدق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لتمنوا ولكنهم علموا أنهم لم تمنوا لماتوا من ساعتهم ولحقهم الوعيد فما تمالك أحد - منهم أن يتمنى ، وهى إحدى المعجزات - لأنها إخبار بالغيب وكانت كما أخبر ، فإن قلت : ما أدراك أنهم لم يتمنوا الموت؟ قلت : لو تمنوا لنقل ذلك عنهم. كما نقلت سائر الحوادث ، ولكان ناقلوه من أهل الكتاب وغيرهم من أولى ، المطاعن فى الإسلام ، أكثر من الذر ، وليس أحد منهم نقل عنه ذلك .هذا ويكفى فى تحقيق هذه المعجزة ، ألا يصدر تمنى الموت عن اليهود الذين تحداهم النبى - صلى الله عليه وسلم - بذلك ، وهم الذين كانوا يضعون العراقيل فى طريق دعوته . . ولا يقدح فى هذه المعجزة ، أن ينطق يهودى بعد العهد النبوى بتمنى الموت ، وهو حريص على الحياة ، لأن المعنيين بالتحدى هم اليهود المعاصرون للعهد النبوى .والمقصود بقوله - تعالى - : ( والله عَلِيمٌ بالظالمين ) التهديد والوعيد .أى : والله - تعالى - عليم علما تاما بأحوال هؤلاء الظالمين ، وسيعاقبهم العقاب الذىيتناسب مع ظلمهم وبغيهم . فالمراد ) : من العلم لازمه ، وهو الجزاء والحساب . . .وعبر - سبحانه - هنا بقوله ( وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ . . . ) للإشعار بأنهم يكرهون الموت فى الحال وفى المستقبل . كراهة شديدة

قل ان الموت الذي تفرون منه فانه ملاقيكم ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون

كما فسرها الوسيط ثم أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - بأن - يخبرهم بأنهم لا مفر لهم من الموت ، مهما حرصوا على الهروب منه . فقال

تعالى - : ( قُلْ إِنَّ الموت الذي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ
مُلاَقِيكُمْ . . . ) .أي : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء اليهود الذين
يكرهون الموت ، ويزعمون أنهم أحباب الله؟قل لهم على سبيل التوبيخ والتبكيت
إن الموت الذى تكرهونه ، وتحرصون على الفرار منه ، لا مهرب لكم منه ، ولا :
) - محيص لكم عنه ، فهو نازل بكم إن عاجلا أو آجلا كما قال - سبحانه
أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الموت وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ
مُّشَيَّدَةٍ . . . ) فالمقصود بهذه الآية الكريمة إخبارهم بأن هلعهم من
- الموت مهما اشتد لن يفيدهم شيئا ، لأن الموت نازل بهم لا محالة .ثم بين
سبحانه - أنهم بعد الموت ، سيجدون الجزاء العادل فقال : ( ثُمَّ تُرَدُّونَ
( إلى عَالِمِ الغيب والشهادة فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ
أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - : إن الموت نازل بكم لا محالة . ثم.
بعد هلاككم سترجعون إلى الله - تعالى - الذى يعلم السر والعلانية ، والجهر
والخفاء ، فيجازيكم على أعمالكم السيئة ، بما تستحقونه من عقاب .فالمراد
بالإنباء عما كانوا يعملونه ، الحساب على ذلك ، والمجازاة عليه .وشبيه بهذه
الآيات قوله - تعالى - فى سورة البقرة : ( قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدار
الآخرة عِندَ الله خَالِصَةً مِّن دُونِ الناس فَتَمَنَّوُاْ الموت إِن
كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ
أَيْدِيهِمْ والله عَلِيمٌ بالظالمين وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ الناس على
حَيَاةٍ وَمِنَ الذين أَشْرَكُواْ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ
أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ العذاب أن يُعَمَّرَ والله
بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ).

يا ايها الذين امنوا اذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله
وذروا البيع ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون

كما فسرها الوسيط وبعد هذا التوبيخ والتحدى لليهود الذين زعموا أنهم أولياء
لله من دون الناس . . . وجه - سبحانه - للمؤمنين نداء أمرهم فيه بالمسارعة
- إلى أداء فرائضه ونهاهم عن أن تشغلهم دنياهم عن ذكره وطاعته ، فقال
- تعالى - : ( ياأيها الذين آمنوا . . . ) .المقصود بالنداء فى قوله
سبحانه - : ( ياأيها الذين آمنوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاَةِ . . . ) جميع
المكلفين بها ، الذين يجب عليهم أداؤها . .وناداهم - سبحانه - بصفة الإيمان
لتحريك حرارة الإيمان فى قلوبهم ، ولتحريضهم على المسارعة إليها ، إذ من ،
: شأن المؤمن القوى ، أن يكون مطيعا لما يأمره خالقه به .والمراد بالنداء
الأذان والإعلام بوقت حلولها .والمقصود بالصلاة المنادى لها هنا : صلاة
) الجمعة ، بدليل قوله - تعالى - : ( مِن يَوْمِ الجمعة ) .واللام فى قوله
، لِلصَّلاَةِ ) للتعليل ، و ( مِن ) بمعنى فى ، أو للبيان ، أو للتبعيض
لأن يوم الجمعة زمان ، تقع فيه أعمال ، منها الصلاة المعهودة فيه وهى صلاة
) : الجمعة لأن الأمر بترك البيع خاص بها ، لوجود الخطبة فيها .وقوله
فاسعوا . . . ) جواب الشرط ، من السعى ، وهو المشى السريع .والمراد به هنا
المشى المتوسط بوقار وسكينة ، وحسن تهيؤ لصلاة الجمعة . . .قال الآلوسى :
ما ملخصه : قوله : ( فاسعوا إلى ذِكْرِ الله ) أى : امشوا إليه بدون إفراط
فى السرعة . . .فقد أخرج الستة فى كتبهم عن أبى سلمة من حديث أبى هريرة قال
قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها :
، وأنتم تسعون ، وأتوها وأنتم تمشون ، وعليكم السكينة ، فما أدركتم فصلوا
، وما فاتكم فأتموا " .والمراد بذكر الله : الخطبة والصلاة جميعا
لاشتمالهما عليه ، واستظهر بعضهم أن المراد به الصلاة ، وقصره بعضهم على
الخطبة . .وإنما عبر - سبحانه - بالسعى لتضمنه معنى زائدا على المشى ، وهو
الجد والحرص على التبكير ، وعلى توقى التأخير .والمعنى : يامن آمنتم بالله
حق الإيمان ، إذا نادى المنادى لأجل الصلاة فى يوم الجمعة ، فامضوا إليها
بجد ، وإخلاص نية ، وحرص على الانتفاع بما تسمعونه من خطبة الجمعة ، التى
) : - هى لون من ألوان ذكر الله - تعالى - وطاعته .والأمر فى قوله - سبحانه
فاسعوا إلى ذِكْرِ الله وَذَرُواْ البيع . . ) الظاهر أنه للوجوب ، لأن
الأمر يقتضى الوجوب ، ما لم يوجد له صارف عن ذلك ، ولا صارف له هنا
والمراد من البيع هنا : المعاملة بجميع أنواعها ، فهو يعم البيع والشراء.
وسائر أنواع المعاملات .أى : إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة ، فاخرجوا
، إليها بحرص وسكينة ووقار . واتركوا المعاملات الدنيوية من بيع ، وشراء
وإجارة ، وغيرها .وإنما قال - سبحانه - : ( وَذَرُواْ البيع . . ) لأنه أهم
أنواع المعاملات ، فهو من باب التعبير عن الشيء بأهم أجزائه .واسم الإشارة
فى قوله - سبحانه - : ( ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ )
، يعود إلى ما سبق ذكره من الأمر بالسعى إلى ذكر الله ، متى نودى للصلاة
وترك الاشتغال بالبيع وما يشبهه .أى : ذلك الذى أمرتكم به من السعى إلى ذكر
الله عند النداء للصلاة من يوم الجمعة ، ومن ترك أعمالكم الدنيوية .. . خير
لكم مما يحصل لكم من رزق فى هذه الأوقات ، عن طريق البيع أو الشراء أو
غيرهما .فالمفضل عليه محذوف ، لدلالة الكلام عليه ، والمفضل هو السعى إلى

- ذكر الله - تعالى - .وهذا التفضيل باعتبار أن منافع السعى إلى ذكر الله
تعالى - باقية دائمة ، أما المنافع الدنيوة فهى زائلة فانية .وجواب الشرط
فى قوله ( إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ) محذوف : أى : إن كنتم تعلمون ما هو
خير لكم ، فاسعوا إلى ذكر الله عند النداء للصلاة ، واتركوا البيع والشراء
أو إن كنتم من أهل العلم والفقه السليم للأمور ، عرفتم أن امتثال أمر.
الله - تعلى - بأن تسعوا ، إلى ذكره عند النداء لصلاة الجمعة ، خير لكم من
الاشتغال فى هذا الوقت بالبيع والشراء .إذ فى هذا الامتثال سعادتكم ونجاتكم
. من خزى الدنيا وعذاب الآخرة

فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الارض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله
كثيرا لعلكم تفلحون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - جانبا من مظاهر تيسيره عليهم فى
تشريعاته فقال : ( فَإِذَا قُضِيَتِ الصلاة فانتشروا فِي الأرض وابتغوا مِن
فَضْلِ الله . . ) .أى : فإذا فرغتم من أداء الصلاة وأقمتموها على أكل وجه
فانتشروا فى الأرض ، وامشوا فى مناكبها ، لأداء أعمالكم التى كنتم قد ،
تركتموها عند النداء للصلاة ، واطلبوا الربح واكتساب المال والرزق ، من فضل
، الله - تعالى - ومن فيض إنعامه ، والأمر هنا للإباحة ، لأنه وارد بعد حظر
فهو كقوله - تعالى - : ( وَإِذَا حَلَلْتُمْ فاصطادوا . . ) أى : أن
الانتشار فى الأرض بعد الصلاة لطلب الرزق ، ليس واجبا عليهم ، إذ طلب الرزق
قد يكون فى هذا الوقت ، وقد يكون فى غيره . .والمقصود من الآية إنما هو
، تنبيه الناس ، إلى أن لهم فى غير وقت الصلاة ، سعة من الزمن فى طلب الرزق
وفى الاشتغال بالأمور الدنيوية ، فعليهم أن يسعوا إلى ذكر الله ، إذا ما
نودى للصلاة من يوم الجمعة ، وأن يحرصوا على ذلك حرصا تاما ، مصحوبا بالنية
: - الطيبة ، وبالهيئة الحسنة . وبالمضى المبكر إلى المسجد .وقوله - سبحانه
تحذير لهم من الانتشار ( واذكروا الله كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ )
، فى الأرض لمصالحهم الدنيوية ، دون أن يعطو طاعة الله - تعالى - وعبادته
ما تستحقه من عناية ومواظبة .أى : إذا قضيت الصلاة ، فانتشروا فى الأرض
لتحصيل معاشكم ، دون أن يشغلكم ذلك عن الإكثار من ذكر الله - تعالى - فى كل
أحوالكم ، فإن الفلاح كل الفلاح فى تقديم ما يتعلق بأمور الدين ، على ما
يتعلق بأمور الدنيا ، وفى تفضيل ما يبقى على ما يفنى .والمتأمل فى هذه
، الآية الكريمة يراها ترسم للمسلم التوازن السامى ، بين ما يقتضيه دينه
وما تقتضيه دنياه .إنا تأمره بالسعى فى الأرض ، ولكن فى غير وقت النداء
، للصلاة من يوم الجمعة ، ودون أن يشغله هذا السعى عن الإكثار من ذكر الله
فإن الفلاح فى الإقبال على الطاعات التى ترضيه - سبحانه - : ومن بين هذه
الطاعات أن يكثر الإنسان من ذكر الله - تعالى - ، حتى فى حالة سعيه لتحصيل
. رزقه

واذا راوا تجارة او لهوا انفضوا اليها وتركوك قائما قل ما عند الله خير من
اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بعتاب يحمل فى طياته
ثوب التأديب والإرشاد والتأنيب ، لمن آثر مطالب الدنيا على مطالب الآخرة
فقال - تعالى - : ( وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفضوا
- إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ . . ) .قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : يعاتب
تبارك وتعالى - على ما كان وقع من الانصراف عن الخطبة يوم الجمعة إلى
التجارة ، التى قدمت المدينة يومئذ ، فقال : ( وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَارَةً
أَوْ لَهْواً انفضوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِماً . . ) .فقد أخرج
الشيخان وغيرهما عن جابر قال : قدمت عِيرٌ - أى : تجارة - المدينة ، ورسول
الله - صلى الله عليه وسلم - يخطب يوم الجمعة - فخرج الناس ، وبقى اثنا عشر
رجلا ، فنزلت هذه الآية .وفى رواية عن جابر - أيضا - أنه قال : " بينما
، النبى - صلى الله عليه وسلم - يخطب يوم الجمعة ، فقدمت عير إلى المدينة
فابتدرها الناس ، حتى لم يبق مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلا اثنا
عشر رجلا ، فقال - صلى الله عليه وسلم - : " والذى نفسى بيده ، لو تتابعتم
حتى لم يبق منكم أحد ، لسال بكم الوادى نارا " ونزلت هذه الآية . . "وفى
رواية أن الذين بقوا فى المسجد كانوا أربعين ، وأن العير كانت لعبد الرحمن
- بن عوف ، وكان قد أصاب أهل المدينة جوع وغلاء سعر .وفى رواية أن الرسول
صلى الله عليه وسلم - كان يخطب ، فقدم دحية الكلى بتجارة له . فتلقاه أهله
بالدفوف . فخرج الناس .و" إذا " فى قوله - تعالى - : ( وَإِذَا رَأَوْاْ
تِجَارَةً . . ) ظرف للزمان الماضى المجرد عن الشرط ، لأن هذه الآية نزلت
على الرسول - صلى الله عليه وسلم - بعد أن انفض عنه من انفض وهو يخطب وقوله
من الانفضاض ، بمعنى التفرق . يقال : انفض فلان عن فلان إذا ( انفضوا ) :
تركه وانصرف عنه ، وهو من الفض ، بمعنى كسر الشىء والتفريق بين أجزائه
والضمير فى قوله ( إِلَيْهَا ) يعود للتجارة ، وكانت عودته إليها دون.

اللهو ، لأن الانفضاض كان لها بالأصالة ، والمراد باللهو هنا : فرحهم بمجىء
التجارة واستقبالهم لها بالدفوف ، لأنهم كانوا فى حالة شديدة من الفقر
وغلاء الأسعار .والتعبير بأو يشير إلى أن بعض المنفضين قد انفضوا من أجل
: التجارة ، وأن البعض الآخر قد انفض من أجل اللهو .قال الجمل فى حاشيته
والذى سوغ لهم الخروج وترك الرسول - صلى الله عليه وسلم - يخطب ، أنهم ظنوا
- أن الخروج بعد تمام الصلاة جائز ، لانقضاء المقصود وهو الصلاة ، لأنه كان
، صلى الله عليه وسلم - فى أول الإسلام يصلى الجمعة قبل الخطبة كالعيدين
- فلما وقعت هذه الواقعة ، ونزلت الآية ، قدم الخطبة وأخر الصلاة .وقوله
سبحانه - : ( وَتَرَكُوكَ قَآئِماً ) جملة حالية من فاعل ( انفضوا )
والمقصود بها توبيخ على هذا التصرف ، حيث تركوا رسول الله - صلى الله عليه
- وسلم - واقفا يخطب على المبنر ، وانصرفوا إلى التجارة واللهو .وقوله
سبحانه - : ( قُلْ مَا عِندَ الله خَيْرٌ مِّنَ اللهو وَمِنَ التجارة والله
: خَيْرُ الرازقين ) إرشاد لهم إلى ما هو الأنفع والأبقى والأكرم لهم .أى
قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الذين انفضوا عنك وأنت تخطب . . . قل لهم
ما عند الله - تعالى - من ثواب ومن عطاء خير من اللهو الذى يشغلكم عن ذكر :
الله ، ومن التجارة التى تبتغون من ورائها الربح المادى ، والمنافع العاجلة
والله - تعالى - هو خير الرازقين لأنه - سبحانه - هو وحده الذى يقسم.
الأرزاق ، وهو الذى يعطى ويمنع ، كما قال - سبحانه - : ( مَّا يَفْتَحِ
الله لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ
مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ العزيز الحكيم ) وقدمت التجارة على
، اللهو فى صدر الآية ، لأن رؤيتها كانت الباعث الأعظم على الانفضاض إليها
وترك الرسول - صلى الله عليه وسلم - قائما يخطب على المنبر ، ولم يبق معه
إلا عدد قليل من أصحابه .وأخرت فى آخر الآية وقدم اللهو عليها ، ليكون ذمهم
على انفضاضهم أشد وأوجع ، حتى لا يعودوا إلى مثل ذلك .هذا ، ومن الأحكام
، والآداب التى أخذها العلماء من هذه الآيات ما يأتى :1 - فضل يوم الجمعة
وفضل صلاة يوم الجمعة ، والتحذير من ترك أدائها .ومن الأحاديث التى وردت فى
هذا المعنى ، ما رواه مسلم وأبو داود والنسائى عن أبى هريرة ، أن رسول
، الله - صلى الله عليه وسلم - قال : " خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمع
فيه خلق آدم . وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها ، ولا تقوم الساعة إلا فى
يوم الجمعة " .وروى الشيخان عن أبى هريرة أنه سمع النبى - صلى الله عليه
وسلم - يقول : " نحن الآخرون - أى : زمنا - السابقون يوم القيامة قبل
، غيرهم - ، بيد أنهم - أى : اليهود والنصارى - أوتوا الكتاب من قبلنا
وأوتيناه من بعدهم ، ثم هذا يومهم الذى فرض عليهم - أى : تعظيمه - فاختلفوا
- فيه فهدانا الله ، فالناس لنا فيه تبع : اليهود غدا - أى : السبت
والنصارى بعد غد - أى : الأحد - " .وروى مسلم والنسائى عن ابن عمر أنه سمع
النبى - صلى الله عليه وسلم - يقول على أعواد مبره : " لينتهين أقوام عن
، وَدْعِهم الجمعات - أى : تركهم صلاة الجمعة - أو ليختمن الله على قلوبهم
ثم ليكونن من الغافلين .. " .قال القربطى ما ملخصه : وإنما سميت الجمعة
جمعة ، لأنها مشتقة من الجمع حيث يجتمع الناس فيها للصلاة . . . وكان يقال
ليوم الجمعة : العَرُوبة . .قال البيهقى : وروينا عن موسى بن عقبة ، عن ابن
شهاب الزهري ، أن مصعب بن عمير ، كان أول من جمّع الجمعة بالمدينة
بالمسلمين ، قبل أن يهاجر إليها الرسول - صلى الله عليه وسلم - .ثم قال
القرطبى : وأما أول جمعة جمعها - صلى الله عليه وسلم - بأصحابه ، قال أهل
السير والتاريخ : قدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مهاجرا حتى نزل
بقباء ، على بنى عمروا بن عوف ، يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر
ربيع الأول حين اشتد الضحى - ومن تلك السنة يعد التاريخ - فأقام بقباء إلى
يوم الخميس ، وأسس مسجدهم ثم خرج يوم الجمعة إلى المدينة ، فأدركته الجمعة
فى بنى سالم بن عوف ، فى بطن وادٍ لهم ، فجمع بهم وخطب ، وهى أول خطبة
، خطبها بالمدينة ، وقال فيها : الحمد لله ، أحمده وأستعينه ، وأستغفره
وأستهديه . . .2 - الآية الكريمة وإن كانت قد أمرت المؤمنين بالسعى إلى
صلاة الجمعة عند النداء لها ، إلا أن هناك أحاديث متعددة تحض على التبكير
. بالحضور إليها ، وبالغسل لها ، وبمس الطب ، وبالحضور إليها على أحسن حالة
- ومن تلك الأحاديث ما رواه الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة أن رسول الله. .
صلى الله عليه وسلم - قال : " من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة - أى : كغسل
. . . . الجنابة - ثم راح إلى المسجد ، فكأنما قرب بدنة - أى : ناقة ضخمة
ومن راح فى الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة ، ومن راح فى الساعة الثالثة
فكأنما قرب كبشا أقرن - أى له قرون - ومن راح فى الساعة الرابعة فكأنما قرب
دجاجة ، ومن راح فى الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة ، فإذا خرج الإمام حضرت
- الملائكة يستمعون الذكر " .وروى ابن ماجه عن ابن مسعود قال : سمعت النبى
صلى الله عليه وسلم - يقول : " إن الناس يجلسون يوم القيامة على قدر
تراوحهم إلى الجمعات ، الأول ثم الثانى ثم الثالث ثم الرابع ، وما رابع
أربعة من الله ببعيد " .وروى الشيخان عن أبى سعيد الخدرى ، عن النبى - صلى
الله عليه وسلم - أنه قال : " على كل مسلم الغسل يوم الجمعة ، ويلبس من
- صالح ثيابه ، وإن كل طيب مس منه . . . " .3 - أخذ العلماء من قوله

تعالى - : ( . . . إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاَةِ مِن يَوْمِ الجمعة فاسعوا إلى
ذِكْرِ الله وَذَرُواْ البيع . . . ) أن صلاة الجمعة فريضة محكمة ، وأن
السعى لأدائها واجب ، وأن ترك ذلك محرم شرعا .. .ومن المعروف بين العلماء
أن الأمر يقتضى الوجوب ، ما لم يوجد له صارف ، ولا صارف له هنا . . .قال
الإمام القرطبى : فرض الله - تعالى - الجمعة على كل مسلم ، ردا على من يقول
إنها فرض على الكفاية ، ونقل عن بعض الشافعية أنها سنة .وجمهور الأمة :
الأئمة أنها فرض على الأعيان ، لقوله - تعالى - : ( . . . إِذَا نُودِيَ
. . لِلصَّلاَةِ مِن يَوْمِ الجمعة فاسعوا إلى ذِكْرِ الله وَذَرُواْ البيع
وثبت عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : " لينتهِيَنّ. ( .
أقوامٌ عن وَدْعِهم الجُمُعَاتِ أو ليخَتِمَنّ الله على قلوبهم ثم
ليكونُنّ من الغافلين " .وهذا حجة واضحة فى وجوب الجمعة وفرضيتها . .قال
بعض العلماء : جاء فى الآية الكريمة الأمر بالسعى ، والأمر للوجوب فيكون
- السعى واجبا ، وقد أخذ العلماء من ذلك أن الجمعة فريضة ، لأنه - سبحانه
قد رتب الأمر للذكر على النداء للصلاة ، فأذا كان المراد بالذكر هو الصلاة
فالدلالة ظاهرة ، لأنه لا يكون السعى لشىء واجبا ، حتى يكون ذلك الشىء ،
واجبا .وأما إذا كان المراد بالذكر الخطبة فقط ، فهو كذلك لأن الخطبة شرط
الصلاة ، وقد أمر بالسعى إليه ، والأمر للوجوب ، فإذا وجب السعى للمقصود
تبعا ، فما ذلك إلا لأن المقصود بالذات واجب . .كما أن الاشتغال بالبيع أو
الشراء وقت النداء محرم ، لأن الأمر للوجوب ، وقال بعضهم : هو مكروه كراهة
، تحريم .ومما يدل على أن صلاة الجمعة فريضة محكمة ، وأن السعى إليها واجب
وأن الاشتغال عنها بالبيع أبو الشراء محرم ، ما جاء فى الأحاديث من الأمر
بالمحافظة عليها ، ومن التحذير من تركها ، ومن ذلك ما رواه أبو داود من
حديث أبى الجعد ، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : " من ترك ثلاث
جمع تهاونا بها ، طبع الله على قلبه " .4 - قوله - تعالى - : ( فَإِذَا
قُضِيَتِ الصلاة فانتشروا فِي الأرض . . ) يدل دلالة واضحة ، على سمو شريعة
الإسلام ، وعلى سماحتها ويسرها ، وجمعها بين مطالب الدنيا ومطالب الآخرة
ومع أن هذا الأمر بالانتشار بعد الصلاة للإباحة - كما سبق أن قلنا - إلا.
، أن بعض السف كان إذا انتهت الصلاة ، خرج من المسجد ، ودار فى السوق ساعة
ثم رجع إلى المسجد فصلى ما شاء أن يصلى .قال الإمام ابن كثير : كان عراك بن
مالك - أحد كبار التابعين - أحد كبار التابعين - إذا صلى الجمعة ، انصرف
فوقف على باب المسجد وقال : اللهم إنى أجبت دعوتك وصليت فريضتك ، وانتشرت
كما أمرتنى ، فارزقنى من فضلك وأنت خير الرازقين .هذا ، وهناك أحكام أخرى
توسع المفسرون والفقهاء فى الحديث عنها ، فليرجع إليها من شاء المزيد من
. معرفة هذه الأحكام والآداب

اذا جاءك المنافقون قالوا نشهد انك لرسول الله والله يعلم انك لرسوله والله
يشهد ان المنافقين لكاذبون

كما فسرها الوسيط افتتح الله - تعالى - السورة الكريمة ، بالحديث عن صفة من
- أبرز الصفات الذميمة للمنافقين ، ألا وهى صفة الكذب والخداع ، فقال
تعالى - ( إِذَا جَآءَكَ المنافقون قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ
الله . . . ) .( إِذَا ) هنا ظرف للزمان الماضى ، بقرينة كون جملتيها
ماضيتين ، وجواب " إذا " قوله ( قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ الله
، والخطاب للرسول - صلى الله عليه وسلم - .و ( المنافقون ) جمع منافق ( . .
وهو من يظهر الإسلام ويخفى الكفر ، أو من يظهر خلاف ما يبطن من أقوال
وأفعال .أى : إذا حضر المنافقون إلى مجلسك - أيها الرسول الكريم -قالوا لك
- على سبيل الكذب والمخادعة والمداهنة . . . نشهد أنك رسول من عند الله
- تعالى - ، وأنك صادق فيما تبلغه عن ربك .وعبروا عن التظاهر بتصديقهم له
صلى الله عليه وسلم - بقوله ( نَشْهَدُ ) - المأخوذ من الشهادة التى هى
إخبار عن أمر مقطوع به - وأكدوا هذه الشهادة بإن واللام ، للإيهام بأن
شهادتهم صادقة ، وأنهم لا يقصدون بها إلا وجه الحق ، وأن ما على ألسنتهم
يوافق ما فى قلوبهم .قال الشوكانى : أكدوا شهادتهم بإنّ واللام ، للإشعار
بأنها صادرة من صميم قلوبهم ، مع خلوص نياتهم ، والمراد بالمنافقين ، عبد
الله بن أبىّ وأتباعه .ومعنى نشهد : نحلف ، فهو يجرى مجرى القسم ، ولذا
يتلقى بما يتلقى به القسم .ومثل نشهد : نعلم ، فإنه يجرى مجرى القسم كما فى
: قول الشاعر :ولقد علمت لتأتين منيتى ... إن المنايا لا تطيش سهامها وقوله
) : معطوفة على قوله ( والله يَشْهَدُ إِنَّ المنافقين لَكَاذِبُونَ )
- قَالُواْ نَشْهَدُ ) .أى : إذا حضر المنافقون إليك - أيها الرسول الكريم
قالوا كذبا وخداعا : نشهد إنك لرسول الله ، والله - تعالى - ( يَعْلَمُ
إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ) حقا سواء شهدوا بذلك أم لم يشهدوا ، فأنت لست فى
حاجة إلى هذه الشهادة التى تخالف بواطنهم .( والله ) - تعالى - ( يَشْهَدُ
إِنَّ المنافقين لَكَاذِبُونَ ) فى قولهم : نشهد إنك لرسول الله ، لأن
قولهم هذا يباين ما أخفته قلوبهم المريضة ، من كفر ونفاق وعداوة لك وللحق
الذى جئت به .والإيمان الحق لا يتم إلا إذا كان ما ينطق به اللسان ، يوافق

، ويواطىء ، ما أمضره القلب ، وهؤلاء قد قالوا بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم
: فثبت كذبهم فى قولهم : نشهد إنك لرسول الله . .قال صاحب الكشاف : فإن قلت
أى : فائدة فى قوله - تعالى - : ( والله يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ) ؟
قلت : لو قال : قالوا نشهد إنك لرسول الله ، والله يشهد إن المنافقين
لكاذبون ، لكان يوهم أن قولهم هذا كذب ، فوسط بينهما قوله : ( والله
يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ) ليميط هذا الإيهام .وجىء بالفعل ( يَشْهَدُ
فى الإخبار عن كذبهم فيما قالوه ، للمشاكلة ، حتى يكون إبطال خبرهم (
. مساويا لإخبارهم ولما نطقوا به

اتخذوا ايمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله انهم ساء ما كانوا يعملون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - جانبا من الوسائل التى كانوا
يستعملونها لكى يصدقهم من يسمعهم فقال - تعالى - : ( اتخذوا أَيْمَانَهُمْ
- جُنَّةً ) .والأيمان : - بفتح الهمزة - جمع يمين ، والجُنَّة - بضم الجيم
ما يستتر به المقاتل ليتقى ضربات السيوف والرماح والنبال .أى : أن هؤلاء
، المنافقين إذا ظهر كذبهم ، أو إذا جوبهوا بما يدل على كفرهم ونفاقهم
- أقسموا ، بالأيمان المغلظة بأنهم ما قالوا أو فعلوا ما يسىء إلى النبى
، صلى الله عليه وسلم - أو إلى المؤمنين . . .فهم يستترون بالحلف الكاذب
حتى لا يصيبهم أذى من المؤمنين ، كما يستتر المقاتل بترسه من الضربات .وقد
) : - حكى القرآن كثيرا من أيمانهم الكاذبة ، ومن ذلك قوله - تعالى
وَيَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ ولكنهم قَوْمٌ
يَفْرَقُونَ ) وقوله - سبحانه - : ( يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُواْ
وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الكفر وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ
وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ . . ) وقوله - عز وجل - : ( يَحْلِفُونَ
بِاللهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ واللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن
كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ) قال الآلوسى : قال قتادة : كلما ظهر شىء منهم يوجب
- مؤاخذتهم ، حلفوا كاذبين ، عصمة لأموالهم ودمائهم .والفاء فى قوله
: تعالى - : (فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ . . ) للتفريع على ما تقدم .أى
اتخذوا أيمانهم الفاجرة ذريعة أمام المؤمنين لكى يصدقوهم ، فتمكنوا عن طريق
هذه الأيمان الكاذبة ، من صد بعض الناس عن الصراط المستقيم ، ومن تشكيكهم
فى صحة ما جاء به النبى - صلى الله عليه وسلم - .فهم قد جمعوا بين رذيلتين
كبيرتين : إحداهما : تَعمُّد الأيمان الكاذبة ، والثانية : إعراضهم عن الحق
ومحاولتهم صرف غيرهم عنه .وقوله - سبحانه - : ( إِنَّهُمْ سَآءَ مَا ،
" كَانُواْ يَعْمَلُونَ ) تذييل قصد به بيان قبح أحوالهم ، وسوء عاقبتهم .و
ساء " : فعل ماض بمعنى بئس فى إفادة الذم ، و " ما " موصولة والعائد محذوف
أى : إن هؤلاء المنافقين بئس ما كانوا يقولونه من أقوال كاذبة ، وساء ما.
كانوا يفعلونه من أفعال قبيحة ، سيكونون بسببها يوم القيامة فى الدرك
. الأسفل من النار

ذلك بانهم امنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون

كما فسرها الوسيط واسم الإشارة فى قوله - تعلاى - بعد ذلك : ( ذَلِكَ
، بِأَنَّهُمْ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ) يعود إلى ما تقدم ذكره من الكذب
ومن الصد عن سبيل الله ، ومن قبح الأقوال والأفعال .أى : ذلك الذى ذكر من
حالهم الذي دأبوا عليه من الكذب والخداع والصد عن سبيل الله . . . سببه
أنهم ( آمَنُواْ ) أى : نطقوا بكلمة الإسلام بألسنتهم دون أن يستقر الإيمان
فى قلوبهم ، ثم كفروا ، أى : ثم ارتكسوا فى الكفر واستمروا عليه ، وظهر
منهم ما يدل على رسوخهم فيه ظهورا جليا ، كقولهم : ( أَنُؤْمِنُ كَمَآ
. . آمَنَ السفهآء . . . ) وكقولهم للمجاهدين : ( لاَ تَنفِرُواْ فِي الحر
أى : فختم الله - تعالى - عليها بالكفر ( فَطُبِعَ على قُلُوبِهِمْ ) ( .
نتيجة إصرارهم عليه ، فصاروا ، بحيث لا يصل إليها الإيمان .( فَهُمْ لاَ
، يَفْقَهُونَ ) أى : فهم لا يدركون حقيقة الإيمان أصلا ، ولا يشعرون به
) ولا يفهمون حقائقه لانطماس بصائرهم .وقوله : ( ذَلِكَ ) مبتدأ ، وقوله
) بِأَنَّهُمْ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ . . . ) خبر : والباء للسببية .و
ثُمَّ ) للتراخى النسبى ، لأن إبطان الكفر مع إظهار الإيمان أعظم من الكفر
الصريح ، وأشد ضررا وقبحا .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : المنافقون لم
يكونوا إلا على الكفر الثابت الدائم ، فما معنى قوله : ( بِأَنَّهُمْ
آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ) ؟ .قلت : فيه ثلاثة أوجه : أحدها : آمنوا : أى
نطقوا بكلمة الشهادة ، وفعلوا كما يفعل من يدخل فى الإسلام ، ثم كفروا . أى
ثم ظهر كفرهم بعد ذلك وتبين بما أطلع الله عليه المؤمنين من قولهم : إن
، كان ما يقوله محمد - صلى الله عليه وسلم - حقا فنحن حمي .والثانى : آمنوا
أى : نطقوا بالإيمان عند المؤمنين ، ثم نطقوا بالكفر عند شياطينهم إستهزاء
بالإسلام ، كقوله - تعالى - : ( وَإِذَا لَقُواْ الذين آمَنُواْ قالوا
( آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قالوا إِنَّا مَعَكُمْ

الثالث : أن يراد أهل الردة منهم .

واذا رايتهم تعجبك اجسامهم وان يقولوا تسمع لقولهم كانهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله انى يؤفكون

كما فسرها الوسيط ثم رسم - سبحانه - لهم بعد ذلك صورة تجعل كل عاقل يستهزىء بهم ، ويحتقرهم ، ويسمو بنفسه عن الاقتراب منهم . فقال - تعالى - : ( وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ) .قال القرطبى : قال ابن عباس : كان عبد الله بن أبى ، وسيما جسيما صحيحا صبيحا ، ذلق اللسان ، فإذا قال : سمع النبى - صلى الله عليه وسلم - مقالته .وقال الكلبى : المراد أنب أبى ، وجد بن قيس ، ومعتب بن قشير ، كانت لهم أجسام ومنظر ، وفصاحة . . .و ( خُشُبٌ ) بضم الخاء والشين - جمع خَشَبة - بفتحهما - كثَمرة وثُمر - وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائى : كأنهم خُشْب - بضم الخاء وسكون الشين - كبَدَنة وبُدْن .أى : وإذا رأيت - أيها الرسول الكريم - هؤلاء المنافقين ، أعجبتك أجسامهم ، لكمالها وحسن تناسقها ، وإن يقولوا قولا حسبت " أنه صدق ، لفصاحته ، وأحببت الاستماع إليه لحلاوته .وعدى الفعل " تسمع باللام ، لتضمنه معنى تصغ لقولهم .وجملة : ( كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ) مستأنفة ، أو خبر لمبتدأ محذوف .أى : كأنهم وهم جالسون فى مجلسك ، مستندين على الجدران ، وقد خلت قلوبهم من الخير والإيمان ، كأنهم بهذه الحالة ، مجموعة من الأخشاب الطويلة العريضة ، التى استندت إلى الحوائط ، دون أن يكون فيها حسن ، أو نفع ، أو عقل .فهم أجسام تعجب وأقوال تغرى بالسماع إليها ، ولكنهم قد خلت قلوبهم من كل خير ، وامتلأت نفوسهم بكل الصفات الذميمة . فهم كما قال القائل لا بأس بالقوم من طول ومن غلظ ... جسم البغال وأحلام العصافيروشبههم - سبحانه - بالخشب المسندة على سبيل الذم لهم ، أى : كأنهم فى عدم الانتفاع بهم ، وخلوهم من الفائدة كالأخشاب المسندة إلى الحوائط الخالية من أية فائدة .ورحم الله صاحب الكشاف : فقد قال : فإن قلت : ما معنى ( كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ) ؟قلت شبهوا فى استنادهم - وما هم إلا أجرام خالية عن الإيمان والخير بالخشب المسندة إلى الحوائط لأن الخشب إذا انتفع به ، كان فى سقف أو جدار أو غيرهما من مظان الانتفاع ، وما دام متروكا فارغا غير منتفع به ، وأسند إلى الحائط ، فشبهوا به فى عدم الانتفاع .ويجوز أن يراد بالخشب المسندة الأصنام المنحوتة من الخشب ، المسندة إلى الحيطان ، وشبهوا بها فى حسن صورهم ، وقلة جدواهم ، والخطاب للرسول - صلى الله عليه وسلم - أو لكل من يخاطب . .فأنت ترى القرآن الكريم وصفهم بتلك الصفة البديعة فى التنفير منهم وعدم الاغترار بمظهرهم لأنهم كما قال القائل لا تخدعنك اللحى ولا الصور ... تسعة أعشار من ترى بقرتراهم كالسحاب منتشرا ... وليس فيه لطالب مطرفى شجر السرو منهم شبه ... له رواء وماله ثمرثم وصفهم - سبحانه - بعد ذلك بالجبن والخور فقال : ( . . يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ) والصيحة : المرة من الصياح ، والمراد بها ما ينذر ويخيف أى : يظنون لجبن قلوبهم ولسوء نواياهم وخبث نفوسهم - أن كل صوت ينادى به المنادى ، لنشدان ضالة ، أو انفلات دابة . . . إنما هو واقع عليهم ضار بهم مهلك لهم . . .قال الآلوسى : قوله : ( يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ) ، أى : واقعة عليهم ، ضارة لهم ، لجبنهم وهلعهم .وقيل : كانوا على وجل من أن ينزل الله - تعالى - فيهم ما يهتك أستارهم ، ويبيح دماءهم وأموالهم .والوقف على " عليهم " الواقع مفعولا ثانيا ل " يحسبون " وهو وقف تام .وقوله - تعالى - : ( هُمُ العدو ) استئناف ، أى : هم الكاملون فى العداوة ، والراسخون فيها ، فإن أعدى الأعداء العدو المداجى .( فاحذرهم ) لكونهم أعدى الأعداء ، ولا تغترن بظواهرهم وقوله - سبحانه - : ( قَاتَلَهُمُ الله أَنَّى يُؤْفَكُونَ ) دعاء عليهم بالطرد من رحمة الله - تعالى - ، وتعجيب لكل مخاطب من أحوالهم التى بلغت النهاية فى السوء والقبح .عن ابن عباس أن معنى ( قَاتَلَهُمُ الله ) طردهم من رحمته ولعنهم ، وكل شىء فى القرآن قتل فهو لعن .و ( أَنَّى ) بمعنى كيف و ( يُؤْفَكُونَ ) بمعنى يصرفون ، من الأفك - بفتح الهمزة والفاء - بمعنى الانصراف عن الشىء .أى : لعن الله - تعالى - هؤلاء المنافقين ، وطردهم من رحمته ، لأنهم بسبب مساكلهم الخبيثة ، وأفعالهم القبيحة ، وصفاتهم السيئة صاروا محل مقت العقلاء ، وعجبهم ، إذ كيف ينصرفون عن الحق الواضح إلى الباطل الفاضح ، وكيف يتركون النور الساطع ، ويدخلون فى الظلام الدامس؟!وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة : قد فضحت المنافقين ، وحذرت من شرورهم ، ووصفتهم بالصفات التى تخزيهم ، وتكشف عن دخائلهم المريضة .

واذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رءوسهم ورايتهم يصدون وهم مستكبرون

كما فسرها الوسيط ثم وصفهم - سبحانه - بصفات أخرى ، لا تقل فى قبحها

وبشاعتها عن سابقتها فقال - تعالى - : ( وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ . . . ) . قد
ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات روايات متعددة ، فصلها الإمام ابن
كثير - رحمه الله - فقال ما ملخصه :وقد ذكر غير واحد من السلف أن هذا
، السياق نزل فى عبد الله بن أبى بن سلول وأتباعه ، فقد ذكر محمد بن إسحاق
أنه لما قدم النبى - صلى الله عليه وسلم - المدينة بعد غزوة أحد ، قام عبد
الله بن أبى ، والرسول - صلى الله عيه وسلم - يخطب للجمعة ، فقال : أيها
الناس ، هذا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أكرمكم الله به . . . فأخذ
بعض المسلمين بثيابه من نواحيه وقالوا له : اجلس يا عدو الله ، لست لهذا
المقام بأهل ، وقد صنعت ما صنعت - يعنون مرجعه بثلث الناس دون أن يشتركوا
فى غزوة أحد - .فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول : والله لكأنما قلت
بَجْرًا - أى : أمرا منكرا - أن قمت أشدد أمره .فلقيه رجال من الأنصار بباب
المسجد ، فقالوا له : ويلك ، مالك؟ ارجع للنبى يستغفر لك رسول الله - صلى
الله عليه وسلم - فقال : والله ما أبتغى أن يستغفر لى .وفى رواية أنه قيل
، له : لو أتيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، فسألته أن يستغفر لك
فجعل يلوى رأسه ويحركه استهزاء .ثم قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - ما
ملخصه : وذكر ابن إسحاق فى حديثه عن غزوة بنى المصطلق - وكانت فى شعبان من
- السنة الخامسة من الهجرة - " أن غلاما لعمر بن الخطاب - رضى الله عنه
اسمه الجهجاه بن سعيد الغفارى تزاحم على ماء مع رجل من الأنصار اسمه سنان
بن وَبْر . . .فقال سنان : يا معشر الأنصار ، وقال الجهجاه : يا معشر
- المهاجرين . فغضب عبد الله بن أبى - وعنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم
وقال : أو قد فعلوها؟!! قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا . والله ما مثلنا
" وجلابيب قريش - يعنى المهاجرين - إلا كما قال القائل : " سمن كلبك يأكلك
والله لئن رجعنا إلى المدينة ، ليخرجن الأعز منها الأذل .فذهب زيد إلى رسول
الله - صلى الله عليه وسلم - فأخبره الخبر .فقال عمر بن الخطاب يا رسول
الله ، مر عباد بن بشر فليضرب عنق عبد الله بن أبى بن سلول .فقال - صلى
الله عليه وسلم - : فكيف إذا الناس تحدث يا عمر ، أن محمدا يقتل أصحابه؟ لا
ولكن ناد يا عمر فى الناس بالرحيل .فلما بلغ عبد الله بن أبى أن ذلك قد ،
بلغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أتاه فاعتذر إليه ، وحلف بالله ما
- قال الذى قاله عنه زيد بن أرقم . .وراح رسول الله - صلى الله عليه وسلم
مهجرا فى ساعة كان لا يروح فيها ، فلقيه أسيد بن الحضير ، فقال له : يا
رسول الله ، لقد رحت فى ساعة ما كنت تروح فيها .فقال رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - أما بلغك ما قال صاحبك بن أبى؟ زعم أنه إذا قدم المدينة أنه
سَيُخْرِجُ الأعزّ منها الأذلّ .فقال أسيد : فأنت يا رسول الله العزيز
وهو الذليل .وإنما خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى هذا الوقت الذى
لم يتعود السفر فيه ، ليشغل الناس عن الحديث ، الذى كان من عبد الله بن أبى
قال ابن إسحق : ونزلت سورة المنافقين فى ابن أبىّ وأتباعه ، فلما نزلت. "
أخذ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بأذن زيد بن أرقم ثم قال : " هذا
الذى أوفى الله بأذنه " .وفى رواية أنه - صلى الله عليه وسلم - بعث إلى زيد
فقرأها عليه ثم قال : " إن الله قد صدقك " ثم قال ابن إسحاق : وبلغنى أن
- عبد الله بن عبد الله بن أبى بلغه ما كان من أمر أبيه ، فأتى رسول الله
. . صلى الله عليه وسلم - فقال له : " يا رسول الله بلغنى أنك تريد قتل أبى
فإن كنت فاعلا ، فمرنى به ، فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت .
، الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده منى ، وإنى أخشى أن تأمر غيرى بقتله
فلا تدعنى نفسى أن أرى قاتل أبى يمشى على الأرض فأقتله ، فأكون قد قتلت
مؤمنا بكافر ، فأدخل النار .فقال - صلى الله عليه وسلم - : " بل نترفق به
ونحسن صحبته ، ما بقى معنا " " .وذكر عكرمة وابن زيد وغيرهما : أن الناس
لما قفلوا راجعين إلى المدينة ، وقف عبد الله بن عبد الله بن أبى على باب
: المدينة ، واستل سيفه ، فجعل الناس يمرون عليه ، فلما جاء أبوه قال له
وراءك فقال له أبوه : ويلك مالك؟ فقال : والله لا تجوز من ها هنا حتى يأذن
لك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فإنه العزيز وأنت الذليل .فلما جاء
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكان يسير فى مؤخرة الجيش شكا إليه عبد
الله بن أبى ما فعله ابنه عبد الله معه .فقال ابنه : والله يا رسول الله لا
يدخلها حتى تأذن له . فأذن له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .فقال عبد
الله لأبيه : أما إذ أذن لك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فجز الآن
، والآن وبعد ذكر جانب من هذه الآثار التى وردت فى سبب نزول هذه الآيات.
نعود إلى تفسيرها فنقول وبالله التوفيق .قوله - تعالى - : ( وَإِذَا قِيلَ
لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْاْ
رُءُوسَهُمْ ) بيان لصفة أخرى من صفات المنافقين ، تدل على عنادهم وإصرارهم
على كفرهم ونفاقهم .والقائل لهم : ( تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ
رَسُولُ الله ) جماعة من المؤمنين ، على سبيل النصح لهؤلاء المنافقين لعلهم
يقلعون عن كفرهم وفجورهم .والمراد باستغفار رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - لهم : توبتهم من ذنوبهم ، وتركهم لنفاقهم ، وإعلان ذلك أمامه - صلى
) : الله عليه وسلم - لكى يدعو الله - تعالى - لهم بقبول توبتهم .وقوله
: لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ ) من اللى بمعنى الإمالة من جانب إلى آخر ، يقال

لوى فلان رأسه ، إذا أمالها وحركها ، وهو كناية عن التكبر والإعراض عن النصيحة .أى : وإذ قال قائل لهؤلاء المنافقين : لقد نزل فى شأنكم ما نزل من الآيات القرآنية التى تفضحكم . . . فتوبوا إلى الله توبة نصوحا ، وأقلعوا عن نفاقكم ، وأقبلوا نحو رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بقلب سليم ، لكى يستغفر الله - تعالى - لكم ، بأ يلتمس منه قبول توبتكم . . ما كان من هؤلاء المنافقين ، إلا أن تكبروا ولجوا فى طغيانهم ، وأمالوا رءوسهم استهزاء وسخرية ممن نصحهم .( وَرَأَيْتَهُمْ ) أيها المخاطب ( يَصُدُّونَ ) أى : يعرضون عن النصيحة ( وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ) عن قبولها ، لانطماس بصائرهم وإصرارهم على ما هم فيه من باطل وجحود للحق .قال الآلوسى ما ملخصه : روى ، أنه لما صدق الله - تعالى - زيد بن أرقم فيما أخبر به عن ابن أبى ، مقت - النسا ابن أبى ، وقال له بعضهم : امض إلى رسول الله - صلى الله عيه وسلم واعترف بذنبك ، يستغفر لك ، فلوى رأسه إنكارا لهذا الرأى ، وقال لهم : لقد . . . أشرتم على بالإيمان فآمنت ، وأشرتم على بأن أعطى زكاة مالى فأعطيت ولم يبق لكم إلا أن تأمرونى بالسجود لمحمد - صلى الله عليه وسلم - .وفى حديث أخرجه أحمد والشيخان . . . أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - دعاهم ليستغفر لهم ، فلووا رءوسهم .وقوله : ( يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ . . ) مجزوم فى جواب الأمر ، وهو قوله : ( تَعَالَوْاْ ) وقوله : ( لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ جواب ( إِذَا ) .والتعبير بقوله : ( تَعَالَوْاْ ) تتضمن إرادة تخليص ( هؤلاء المنافقين مما هم فيه من ضلال ، وإرادة ارتفاعهم من انحطاط هم فيه إلى علو يدعون إليه ، لأن الأصل فى كل " تعالى " أن يقولها من كان فى مكان عال ، لمن هو أسفل منه .والتعبير بقوله - تعالى - ، ( وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ) يرسم صورة بغيضة لهم وهم يتركون دعوة الناصح لهم ، بعناد وتكبر وغرورهم ، وبراهم الرائى بعينه وهم على تلك الصورة المنكرة ، التى تدل على جهالاتهم وإعراضهم عن كل خير .

سواء عليهم استغفرت لهم ام لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم ان الله لا يهدي القوم الفاسقين

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ الله لَهُمْ .. ) تيئيس " له - صلى الله عليه وسلم - من إيمانهم ، ومن قبولهم للحق .ولفظ " سواء اسم مصدر بمعنى الاستواء ، والمراد به الفاعل . أى : مستو ، ولذلك يوصف به كما يوصف بالمصدر ، كما فى قوله - تعالى - : ( قُلْ ياأهل الكتاب تَعَالَوْاْ إلى كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ . . ) أى : مستوية .أى : إن هؤلاء الراسخين فى الكفر والنفاق ، قد استوى عندهم استغفارك لهم وعدم استغفارك ، فهم لتأصل الجحود فيهم صاروا لا يفرقون بين الحق والباطل ، ولا يؤمنون بثواب أو عقاب . . . ولذلك فلن يغفر الله - تعالى - لهم مهما حرصت على هدايتهم وصلاحهم .وقوله - سبحانه - : ( إِنَّ الله لاَ يَهْدِي القوم الفاسقين ) تعليل لانتفاء المغفر من الله - تعالى - لهم .أى : لن يغفر الله - تعالى - لهم ، لأن سنته - سبحانه - قد اقتضت أن لا يهدى إلى طاعته ، وأن لا يشمل بمغفرته ، من فسق عن أمره ، وآثر الباطل على الحق ، والكفر على الإيمان ، لسوء استعداده ، واتباعه لخطوات الشيطان .

هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السماوات والارض ولكن المنافقين لا يفقهون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( هُمُ الذين يَقُولُونَ لاَ تُنفِقُواْ على مَنْ عِندَ رَسُولِ الله حتى يَنفَضُّواْ . . ) كلام مستأنف جار مجرى التعليل لفسقهم ، وحكاية لجانب من أقوالهم الفاسدة . . . والقائل هو عبد الله بن أبى ، كما جاء فى روايات أسباب النزول لهذه الآيات ، والتى ، سبق أن ذكرنا بعضها .ونسب - سبحانه - القول إليهم جميعا ، لأنهم رضوا به وقبلوه منه .ومرادهم بمن عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : المهاجرون الذين تركوا ديارهم فى مكة ، واستقروا بالمدينة .أى : إن هؤلاء المنافقين لن يغفر الله - تعالى - لهم ، لأنهم فسقوا عن أمره ، ومن مظاهر فسوقهم وفجورهم ، أنهم أيدوا زعيمهم فى النفاق ، عندما قال لهم :لا تنفقوا على من ، عند رسول الله من فقراء المهاجرين ، ولا تقدموا لأحد منهم عونا أو مساعدة حتى ينفضوا من حوله . أى : حتى يتفرقوا من حوله . يقال : انفض القوم : إذا فنيت أزوادهم يقال : نفض الرجل وعاءه من الزاد فانفض ، إذا انتهى زاده وليس مرادهم حتى ينفضوا ويتفرقوا عنه ، فإذا فعلوا ذلك فانفقوا عليهم . وإنما مرادهم ، استمروا على عدم مساعدتكم لهم ، حتى يتركوا المدينة ، وتكون مسكنا لكم وحدكم .وقوله - سبحانه - : ( وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ السماوات والأرض ولكن المنافقين لاَ يَفْقَهُونَ ) .والخزائن : جمع خزينة ، وهى ما يخزن فيها - المال والطعام وما يشبههما ، والمراد بها أرزاق العباد التى يمنحها الله تعالى - لعباده .أى : ولله - تعالى - وحده لا لأحد غيره ، ملك أرزاق العباد

جميعا : فيعطى من يشاء ، ويمنع من يشاء ، ولكن المنافقين لا يفقهون ذلك ولا يدركونه ، لجهلهم بقدرة الله - تعالى - ، ولاستيلاء الجحود والضلال على نفوسهم .

يقولون لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون

) : كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - قولا آخر من أقوالهم القبيحة فقال يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى المدينة لَيُخْرِجَنَّ الأعز مِنْهَا الأذل . . ) .والقائل هو عبد الله بن سلول ، ولكن القرآن نسب القول إليهم ، جميعا لأنهم رضوا بقوله ، ووافقوه عليه .وجاء الأسلوب بصيغة المضارع : لاستحضار هذه المقالة السيئة ، وتلك الصورة البغيضة لهؤلاء القوم .والأعز هو القوى لعزته ، بمعنى أنه يغلب غيره ، والأذل هو الذى يغلبه غيره لذلته وضعفه .وأراد عبد الله بن أبى بالأعز ، نفسه ، وشيعته من المنافقين ، وأراد بالأذل ، الرسول - صلى الله عليه وسلم - ومن معه من المهاجرين وغيرهم من المؤمنين الصادقين .والمراد بالرجوع فى قوله ( لَئِن رَّجَعْنَآ ) الرجوع إلى المدينة بعد انتهاء غزوة بنى المصطلق .أى : يقول هؤلاء المنافقون - على سبيل التبجح وسوء الأدب - لئن رجعنا إلى المدينة بعد انتهاء هذه الغزوة ، ليخرجن الفريق الأعز منا الفريق الأذل من المدينة ، حتى لا يبقى فيها أحد - من هذا الفريق الأذل ، بل تصبح خالية الوجه لنا . وقد رد الله - تعالى على مقالتهم الباطلة هذه بما يخرس ألسنتهم فقال : ( وَلِلَّهِ العزة وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ولكن المنافقين لاَ يَعْلَمُونَ ) .أى : لقد كذب المنافقون فيما قالوا ، فإن لله - تعالى - وحده العزة المطلقة والقوة التى لا تقهر ، وهى - أيضا - لمن أفاضها عليه من رسله ومن المؤمنين الصادقين ، وهى بعيدة كل البعد عن أولئك المنافقين .وقال - سبحانه - : ( وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ) بإعادة حرف الجر ، لتأكيد أمر هذه العزة وأنها متمكنة منهم لأنها مستمدة من إيمانهم بالله - تعالى - وحده ، وقوله - تعالى - : ( ولكن المنافقين لاَ يَعْلَمُونَ ) استدرك قصد به تجهيل هؤلاء المنافقين ، أى : ليست العزة إلا لله - تعالى - ولرسوله وللمؤمنين ، ولكن المنافقين لا يعلمون ذلك ، ولا يعرفونه لاستيلاء الجهل والغباء عليهم ، لأنهم لو كانت لهم عقول تعقل ، لعلموا أن العزة لدعوة الحق بدليل انتشارها فى الآفاق يوما بعد يوم ، وانتصار أصحابها على أعدائهم ، - حينا بعد حين ، وازدياد سلطانهم وقتا بعد وقت .قال صاحب الكشاف قوله - تعالى - : ( وَلِلَّهِ العزة . . ) أى : الغلبة والقوة لله - تعالى ، ولمن أعزه الله وأيده من رسوله ، ومن المؤمنين ، وهم الأخصاء بذلك ، كما أن المذلة والهوان ، للشيطان وذويه من الكافرين والمنافقين .وعن الحسن بن على - رضى الله عنهما - أن رجلا قال له : إن الناس يزعمون أن فيك تيها قال : ليس بتيه ، ولكنه عزة ، وتلا هذه الآية .وقال الإمام الرازى : العزة غير الكبر ، ولا يحل للمؤمن أن يذل نفسه - لغير الله - فالعزة معرفة الإنسان بحقيقة نفسه ، وإكرامها عن أن يضعها فى غير موضعها اللائق بها ، كما أن الكبر جهل الإنسان بنفسه ، وإنزالها فوق منزلتها ، فالعزة تشبه الكبر من حيث الصورة ، وتختلف من حيث الحقيقة ، كاشتباه التواضع بالضعة فالتواضع محمود ، والضعة مذمومة ، والكبر مذموم والعزة محمودة .هذا ، وإن المتدبر لهذه الآيات الكريمة وفى أسباب نزولها ، ليرى فيها ألوانا من العظات والعبر .يرى فيها التصرف الحكيم من الرسول - صلى الله عليه وسلم - إذ أنه - صلى الله عليه وسلم - بمجرد أن بلغته تلك الأقوال التى قالها عبد الله بن أبى ، لكى يثير الفتنة بين المسلمين ، ما كان منه إلا أن أمر عمر ابن الخطاب ، بأن ينادى فى الناس بالرحيل . . . لكى يشغل الناس عما تفوه به ابن أبى ، حتى لا يقع بينهم ما لا تحمد عقباه .كما يرى كيف أنه - صلى الله عليه وسلم - عالج تلك الأحداث بحكمة حكيمة فعندما أشار عليه عمر - رضى الله عنه - بقتل بن أبى . . . ما كان منه - صلى الله عليه وسلم - إلا أن قال له : يا عمر ، كيف إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه؟! وأبى - صلى الله عليه وسلم - أن يأمر بقتله بل ترك لعشيريته من الأنصار تأديبه وتوبيخه ولقد بلغ الحال بابنه عبد الله - رضى الله عنه - وهو أقرب الناس إليه ، أن - يمنعه من دخول المدينة حتى يأذن له رسول الله - صلى الله عليه وسلم بدخولها .كما يرى المتدبر لهذه الآيات ، والأحداث التى نزلت فيها ، أن النفوس إذا جحدت الحق ، واستولت عليها الأحقاد ، واستحوذ عليها الشيطان . . أبت أن تسلك الطريق المستقيم ، مهما كانت معالمه واضحة أمامها . . .فعبد الله بن أبى وجماعته ، وقفوا من الدعوة الإسلامية موقف المحارب لها ولأتباعها ، وسلكوا فى إذاعة السوء حول الرسول - صلى الله عليه وسلم - وحول أصحابه كل مسلك . . . مع أن آيات القرآن الكريم ، كانت تتلى على مسامعهم صباح مساء ، ومع أن إرشادات الرسول - صلى الله عليه وسلم - كانت تصل إليهم يوما بعد يوم ، ومع أن المؤمنين الصادقين كانوا لا يكفون عن نصحهم ووعظهم كما نرى أن الإيمان متى خالطت بشاشته القلوب ، ضحى الإنسان من أجله بكل.

شىء . . . فعبد الله بن عبد الله بن أبى بن سلول ، يقول للرسول - صلى الله عليه وسلم - : يا رسول الله بلغنى أنك تريد قتل أبى ، فإن كنت لابد فاعلا فمرنى به فأنا أحمل إليك رأسه . .ثم يقف على باب المدينة شاهرا سيفه ، ثم ، يمنع أباه من دخولها حتى يأذن له الرسول - صلى الله عليه وسلم - بدخولها وحتى يقول : إن الرسول - صلى الله عليه وسلم - هو العزيز ، وأنه هو - أى عبد الله ابن أبى - هو الذليل .وهكذا تعطينا هذه الآيات وأحداثها ما تعطينا من عبر وعظات .

يا ايها الذين امنوا لا تلهكم اموالكم ولا اولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فاولئك هم الخاسرون

، كما فسرها الوسيط ثم تختتم السورة الكريمة بنداء توجهه إلى المؤمنين تأمرهم فيه بالمواظبة على طاعة الله - تعالى - وتنهاهم عن أن يشغلهم عن ذلك شاغل ، وتحضهم على الإنفاق فى سبيل إعلاء كلمته - سبحانه - ، وعلى تقديم العمل الصالح الذى ينفعهم قبل فوات الأوان ، قال - تعالى - : ( ياأيها الذين آمَنُواْ لاَ تُلْهِكُمْ . . . ) .المقصود من هذه الآيات الكريمة نهى المؤمنين عن التشبه بالمنافقين الذين سبق الحديث عنهم بصورة مفصلة ، وحضهم - على الاستجابة لما كلفهم الله - تعالى - به . أى : يامن آمنتم بالله تعالى - إيمانا حقا ، ( لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ . . عَن ذِكْرِ الله ) أى :لا تشغلكم أموالكم التى تهتمون بجمعها وتحصيلها ولا أولادكم الذين هم أشهى ثمرات حياتكم . . .لا يشغلكم ذلك عن أداء ما . كلفكم - سبحانه - بأدائه من طاعات ، فالمراد بذرك الله ، ما يشمل جميع - التكاليف من صلاة وزكاة وصيام وحج ، وغير ذلك من الطاعات التى أمر الله تعالى - بها .وخص الأموال والأولاد بتوجيه النهى عن الاشتغال بهما اشتغالا . يلهى عن ذكر الله ، لأنهما أكثر الأشياء التى تلهى عن طاعة الله - تعالى فمن أجل الاشتغال بجمع المال ، يق ضى الإنسان معظم حياته ، وكثير من . . الناس من أجل جمع المال ، يضحون بما يفرضه عليهم دينهم من واجبات ، ومن أخلاق ، ومن سلوك وآداب . . .ومن أجل راحة الأولاد قد يضحى الآباء براحتهم وبما تقضى به المروءة ، وصدق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حيث يقول ، الولد مجبنة مبخلة " .والتعبير بقوله - تعالى - : ( لاَ تُلْهِكُمْ " : أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَن ذِكْرِ الله ) يشعر بأن المسلم إذا اشتغل بجمع المال . وبرعاية الأولاد ، دون أن يصرفه ذلك عن طاعة الله ، أو عن أداء حق من حقوقه - تعالى - ، فإن هذا الاشتغال لا يكون مذموما ، بل ) : - يكون مرضيا عنه من الله - تعالى - .واسم الإشارة فى قوله - تعالى وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فأولئك هُمُ الخاسرون ) يعود إلى ما سبق ذكره من اللهو عن ذكر الله ، بسبب الأموال والأولاد .أى : ومن يشغله حبه لماله وأولاده عن ذكر الله ، وعن أداء ما كلفه - سبحانه - به ، فأولئك هم ، البالغون أقصى درجات الخسرات والغفلة ، لأنهم خالفوا ما أمرهم به ربهم . وآثروا ما ينفعهم فى عاجلتهم الفانية ، على ما ينفعهم فى آجلتهم الباقية

وانفقوا من ما رزقناكم من قبل ان ياتي احدكم الموت فيقول رب لولا اخرتني الى اجل قريب فاصدق واكن من الصالحين

) : كما فسرها الوسيط ثم حضهم - سبحانه - على الإنفاق فى سبيله فقال وَأَنفِقُواْ مِن مّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الموت فَيَقُولَ رَبِّ لولآ أخرتني إلى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصالحين ) .والمراد بالإنفاق : إنفاق المال فى وجوه الخير والطاعات ، فيشمل الزكاة المفروضة ، والصدقات المستحبة ، وغير ذلك من وجوه البر والخير .و " من " فى قوله - تعالى - ( مِن مّا رَزَقْنَاكُمْ ) للتبعيض إذ المطلوب إنفاقه بعض المال الذى يملكه الإنسان ، وليس كله ، وهذا من باب التوسعة منه - تعالى - على عباده ، ومن مظاهر سماحة شريعته - عز ) وجل - .والمراد بالموت : علاماته وأماراته الدالة على قرب وقوعه .وقوله فَيَقُولُ ) معطوف على قوله ( أَن يَأْتِيَ ) ومسبب عنه .و ( لولا ) بمعنى هلا فهى حرف تحضيض .وقوله : ( فَأَصَّدَّقَ ) منصوب على أنه فى جواب التمنى بالجزم ، لأنه معطوف على محل ( فَأَصّدّقَ ) كأنه قيل : إن ( وَأَكُن ) ، أخرتنى إلى أجل قريب أتصدق وأكن من الصالحين .والمعنى : يا من آمنتم بالله حق الإيمان ، لا تشغلكم أموالكم ولا أولادكم عن طاعة الله - تعالى - بل داوموا عليها كل المداومة ، وأنفقوا بسخاء وسماحة نفس مما أعطيناكم من أرزاق كثيرة ، ومن نعم لا تحصى ، وليكن إنفاقكم من قبل أن تنزل بأحدكم أمارات الموت وعلاماته .وحينئذ يقول أحدكم يارب ، هلا أخرت وفاتى إلى وقت قريب من الزمان لكى أتدارك ما فاتنى من تقصير ، ولكى أتصدق بالكثير من مالى وأكون من عبادك الصالحين .وقال - سبحانه - ، ( مِن مّا رَزَقْنَاكُمْ ) ، - فأسند الزرق إليه ، لكى يكون أدعى إلى الامتثال والاستجابة ، لأنه سبحانه - مع أن الأرزاق جميعها منه ، إلا أنه - فضلا منه وكرما - اكتفى

" منهم بإنفاق جزء من تلك الأزراق .وقدم - سبحانه - المفعول وهو " أحدكم
على الفاعل وهو " الموت " ، للإهتمام بالمفعول ، وللإشعار بأن الموت نازل
بكل إنسان لا محالة .والتعبير بقوله : ( لولا أخرتني إلى أَجَلٍ قَرِيبٍ )
يشعر بأن القائل قد قال ذلك زيادة فى تأميل الاستجابة ، فكأنه يقول : يا رب
ألتمس منك أن تؤخر أجلى إلى وقت قريب لا إلى وقت بعيد لكى أتدارك ما فاتنى
. . فى هذا الوقت القريب الذى هو منتهى سؤالى ، وغاية أملى

ولن يؤخر الله نفسا اذا جاء اجلها والله خبير بما تعملون

كما فسرها الوسيط وقد بين - سبحانه - بعد ذلك أنه لا تأخير فى الأجل متى
انتهى لا من قريب ولا من بعيد . . . فقال : (وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً
إِذَا جَآءَ أَجَلُهَآ . . . ) .أى : ولن يؤخر الله - تعالى - نفسا من
، النفوس ، متى انتهى أجلها فى هذه الحياة ، وانقضى عمرها من هذه الدنيا
كما قال - سبحانه - : ( فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ
سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ) وقوله : ( والله خَبِيرٌ بِمَا
تَعْمَلُونَ ) أى : والله - تعالى - مطلع إطلاعا تاما على أعمالكم الظاهرة
. والباطنة ، وسيجازيكم عليها بما تستحقون من ثواب أو عقاب

يسبح لله ما في السماوات وما في الارض له الملك وله الحمد وهو على كل شيء
قدير

كما فسرها الوسيط سورة " التغابن " هى آخر السور المفتتحة بالتسبيح ، فقد
قال - سبحانه - فى مطلعها .( يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي
الأرض . . . ) أى : ينزه الله - تعالى - عن كل نقص ، ويجله عن كل مالا يليق
به ، جميع الكائنات التى فى سماواته - سبحانه - وفى أرضه ، كما قال - عز
وجل - : ( تُسَبِّحُ لَهُ السماوات السبع والأرض وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن
شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ
إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ) وجىء هنا وفى سورة الجمعة بصيغة المضارع
للدلالة على تجدد هذا التسبيح ، وحدوثه فى كل وقت وآن .وجىء ( يُسَبِّحُ )
فى سورة الحديد ، والصف ، بصيغة الماضى ( سَبَّحَ ) . للدلالة على أن
- التسبيح قد استقر وثبت لله - تعالى - وحده ، من قديم الزمان .وقوله
سبحانه - : ( لَهُ الملك وَلَهُ الحمد وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ )
مؤكد لما قبله ، من بيان أن جميع الكائنات تسبح لله - تعالى - لأنه مالكها
وصاحب الفضل المطلق عليها .وتقديم الجار والمجرور ( لَهُ ) لإفادة الاختصاص
والقصر .أى : له - سبحانه - وحده ملك هذا الكون ، وله وحده الحمد التام
المطلق من جميع مخلوقاته ، وليس لغيره شىء منهما ، وإذا وجد شىء منهما
لغيره فهو من فيضه وعطائه ، إذ هو - سبحانه - القدير الذى لا يقف فى وجه
. قدرته وإرادته شىء

هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أقسام خلقه فى هذه الحياة فقال
هُوَ الذي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُمْ مُّؤْمِنٌ ) .والخطاب فى
) : قوله : ( خَلَقَكُمْ ) لجميع المكلفين من هذه الأمة .والفاء فى قوله
- فَمِنكُمْ كَافِرٌ ) للتفريع المشعر بالتعجب من وجود من هو كافر بالله
، تعالى - مع أنه - سبحانه - هو الذى خلقه ، وخلق كل شىء .وقدم ذكر الكافر
لأنه الأهم فى هذا المقام ، ولأنه الأكثر عددا فى هذه الحياة .أي هو
سبحانه - الذى خلقكم بقدرته ، دون أن يشاركه فى ذلك مشارك ، وزودكم بالعقول
التى تعينكم على معرفة الخير من الشر ، والنافع من الضار وأرسل إليكم رسوله
، محمدا - صلى الله عليه وسلم - لكى يخرجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان
- وأنزل معه الكتاب الذى يدلكم على أنه رسول الله - صلى الله عليه وسلم
وأنه صادق فيما يبلغه عن ربه ، وأمركم هذا الرسول الكريم بإخلاص العبادة
لله - تعالى - وحده ، ولم يترك رسولنا - صلى الله عليه وسلم - وسيلة تهديكم
، إلى الحق إلا وأرشدكم إليها . . .ومع ذلك وجد منكم المختار للكفر بالحق
المعرض عن الإيمان بوحدانية الله - تعالى - وكان منكم المستجيب للحق
باختياره المخلص فى عقيدته لله - تعالى - المؤمن بوحدانيته ، المؤدى لجميع
التكاليف التى كلفه - سبحانه - بها .قال القرطبى - بعد أن ذكر جملة من
الأقوال فى معنى هذه الآية - : وقال الزجاج - وقوله أحسن الأقوال ، والذى
عليه الأئمة والجمهور من الأمة - : إن الله خلق الكافر ، وكفره فعل له وكسب
مع أن الله خالق الكفر . وخلق المؤمن ، وإيمانه فعل له وكسب ، مع أن الله ،
- خالق الإيمان .والكافر يكفر ويختار الكفر بعد خلق الله إياه ، لأن الله
تعالى - قدر ذلك عليه وعلمه منه ، ولا يجوز أن يوجد من كل واحد منهما ، غير
الذى قدر عليه ، وعلمه منه .وقوله : ( والله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ )
أى : والله - تعالى -لا تخفى عليه خافية من أعمالكم ، وسيحاسبكم عليها يوم

القيامة ، وسيجازى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

خلق السماوات والارض بالحق وصوركم فاحسن صوركم واليه المصير

كما فسرها الوسيط ( خَلَقَ السماوات والأرض بالحق ) أى : خلقهن خلقا ملتبسا
بالحق الذى لا يحوم حوله باطل ، وبالحكمة التى لا يشوبها اضطراب أو عبث ،
فالباء فى قوله " بالحق " للملابسة .والمراد بالسموات والأرض : ذواتهن
وأجرامهن التى هى أكبر من خلق الناس .والمراد بالحق : المقصد الصحيح ،
والغرض السليم ، الواقع على أتم الوجوه وأفضلها وأحكمها .ثم بين - سبحانه -
بعض مظاهر نعمه على الناس فقال : ( وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ )
وقوله : ( وَصَوَّرَكُمْ ) من التصوير ، وهو جعل الشىء على صورة لم يكن
عليها ، وهو ماخوذ من مادة صار الشىء إلى كذا ، بمعنى تحول إليه ، أو من
صاره إلى كذا ، بمعنى أماله وحوله .أى : وأوجدكم - سبحانه - يا بنى آدم على
أحسن الصور وأكملها وأبدعها وأجملها ، بدليل أن الإنسان لا يتمنى أن يكون
على غير صورته التى خلقه الله عليها ، كأن يكون على صورة حيوان أو غيره
وصدق الله إذ يقول : ( لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان في أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ).
قال الآلوسى : ولعمرى إن الإنسان أعجب نسخة فى هذا العالم ، قد اشتملت على
دقائق وأسرار شهدت ببعضها الآثار ، وعلم ما علم منها أولو الأبصار ، وكل ما
يشاهد من الصور الإنسانية حسن ، لكن الحسن كغيره من المعانى على طبقات
ومراتب . . . كما قال بعض الحكماء : شيئان لا غاية لهما الجمال والبيان
وقوله - تعالى - ( وَإِلَيْهِ المصير ) معطوف على ما قبله ، لأن التصوير
يقتضى الإيجاد ، فبين - سبحانه - أن هذا الإيجاد يعقبه الفناء لكل شىء سوى
وجهه الكريم .أى : وإليه وحده - تعالى - مرجعكم بعد انتهاء آجالكم فى هذه
الحياة ، لكى يجازيكم على أعمالكم الدنيوية .

يعلم ما في السماوات والارض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - شمول علمه لكل شىء فقال : ( يَعْلَمُ
مَا فِي السماوات والأرض ) أى : هو - سبحانه -لا يخفى عليه شىء فى السموات
والأرض .( وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ) - أيها الناس -
، والتصريح بذلك مع اندراجه فيما قبله ، من علم ما فى السموات وما فى الأرض
لمزيد التأكيد فى الوعد والوعيد .( والله عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ) والمراد
: بذات الصدور ، النوايا والخواطر التى تخفيها الصدور ، وتكتمها القلوب .أى
والله - تعالى - عليم علما تاما بالنوايا والخواطر التى اشتملت عليها
الصدور ، فأنت ترى أن هذه الآية الكريمة قد اشتملت على ثلاث جمل ، كل جملة
منها أخص من سابقتها .وجمع - سبحانه - بينها للإشارة إلى أن علمه - تعالى -
محيط بالجزئيات والكليات ، دون أن يعزب عن علمه - تعالى - شىء منها .وفى
هذا رد على أولئك الكفار الجاحدين ، الذين استبعدوا إعادتهم إلى الحياة ،
بعد أن أكلت الأرض أجسادهم ، وقالوا - كما حكى القرآن عنهم - ( وقالوا
أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الأرض أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ).

الم ياتكم نبا الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال امرهم ولهم عذاب اليم

كما فسرها الوسيط ثم وبخهم - سبحانه - على عدم إعتبارهم بالسابقين من قبلهم
فقال : ( أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الذين كَفَرُواْ مِن قَبْلُ فَذَاقُواْ
وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ) .والاستفهام فى قوله
) أَلَمْ يَأْتِكُمْ . . . ) للتقرير والتبكيت .والمراد بالذين كفروا من قبل
قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم ، من الأقوام الذين أعرضوا عن الحق ، فكانت
عاقبتهم الدمار والهلاك .والخطاب لمشركى قريش وأمثالهم ، ممن استحبوا العمى
على الهدى .والوبال فى الأصل : الشدة المترتبة على أمر من الأمور ، ومنه
: الوبيل للطعام الثقيل على المعدة . المضر لها . . . والمراد به هنا
، العقاب الشديد الذى نزل بهم فأهلكهم ، وعبر عن هذا العقاب بالوبال
للإشارة إلى أنه عذابا ثقيلا جدا ، لم يستطيعوا الفرار أو الهرب منه
) والمراد بأمرهم : كفرهم وفسوقهم عن أمر ربهم ، ومخالفتهم لرسلهم .وقوله
فَذَاقُواْ ) معطوف على كفروا ، عطف المسبب على السبب والذوق مجاز فى مطلق
الإحساس والوجدان . شبه ما حل بهم من عقاب ، بشىء كريه الطعم والمذاق .وعبر
عن كفرهم بالأمر ، للإشعار بأنه أمر قد بلغ النهاية فى القبح والسوء
والمعنى : لقد أتاكم ووصف إلى عملكم - أيها المشركون - حال الذين كفروا من
قبلكم من أمثال قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم ، وعلمتم أن إصرارهم على كفرهم
قد أدى بهم إلى الهلاك وإلى العذاب الأليم ، فعليكم أن تعتبروا بهم . وأن
تفيئوا إلى رشدكم ، وأن تتبعوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الذى
أرسله الله - تعالى - لإخراجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان .فالمقصود
من الآية الكريمة تحذير الكافرين الذين أرسل الرسول - صلى الله عليه وسلم -

إليهم من سوء عاقبة إصرارهم على كفرهم .

ذلك بانه كانت تاتيهم رسلهم بالبينات فقالوا ابشر يهدوننا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غني حميد

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - الأسباب التي أدت إلى سوء عاقبة هؤلاء السابقين فقال : ( ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بالبينات فقالوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ) .أى : ذلك الذى أصاب الأقوام ، السابقين من هلاك ودمار ، سببه أنهم كانت تأتيهم رسلهم بالآيات البينات وبالمعجزات الواضحات ، الدالة على صدقهم ، فما كان من هؤلاء الأقوام إلا أن أعرضوا عن دعوة الرسل ، وقال كل قوم منهم لرسولهم على سبيل الإنكار والتكذيب والتعجب : أبشر مثلنا يهدوننا إلى الحق والرشد؟!فالباء فى قوله ( بِأَنَّهُ ) للسببية ، والضمير ضمير الشأن لقصد التهويل والاستفهام فى قوله ( أَبَشَرٌ ) للإنكار والمراد بالبشر : الجنس ، وهو مرفوع على أنه مبتدأ وخبره جملة ( يَهْدُونَنَا ) .وشبيه بهذه الآية ما حكاه القرآن من قول قوم صالح له : ( فقالوا أَبَشَراً مِّنَّا وَاحِداً نَّتَّبِعُهُ إِنَّآ إِذاً لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ . . . ) والفاء فى قوله : ( فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ ) : واستغنى الله ) للسببية .أى : فكفروا بسبب هذا القول الفاسد : وَتَوَلَّواْ ) أى : وأعرضوا عن الحق إعراضا تاما ( واستغنى الله ) أى واستغنى الله - تعالى - عنهم وعن إيمانهم ، والسين والتاء للمبالغة فى غناه - سبحانه - عنهم .( والله غَنِيٌّ حَمِيدٌ ) أى : والله - تعالى - غنى - عنهم وعن العالمين ، محمود من كل مخلوقاته بلسان الحال والمقال وهو تعالى - يجازى الشاكرين له بما يستحقونه من جزاء كريم .

زعم الذين كفروا ان لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - مزاعم الجاحدين للبعث والحساب ، ورد عليهم بما يبطلها ، ودعاهم إلى الإيمان بالحق ، وحضهم على العمل الصالح الذى ينفعهم يوم القيامة ، وبشر المؤمنين بما يشرح صدورهم ، وبين أن كل شىء فى هذا الكون يسير بإذنه - تعالى - وإرادته ، فقال - سبحانه - : ( زَعَمَ الذين . . . ) .قال صاحب الكشاف : قوله : ( زَعَمَ الذين كفروا أَن لَّن يُبْعَثُواْ ) . الزعم : ادعاء العلم ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم " زعموا مطية الكذب " وعن شريح : لكل شىء كنية وكنية الكذب زعموا ، ويتعدى ... المفعولين تعدى العلم ، كما قال الشاعر :وإن الذى قد عاش يا أم مالك يموت ، ولم أزعمك عن ذاك معزلاو " أنْ " مع ما فى حيزها قائم مقامهما .و ) بلى ) حرف يذكر فى الجواب لإثبات النفى فى كلام سابق ، والمراد هنا : إثبات ما نفوه وهو البعث .أى : زعم الذين كفروا من أهل مكة وأشباههم من المشركين أنهم لن يبعثوا يوم القيامة ، لأن البعث وما يترتب عليه من حساب ، فى ، زعمهم محال .قل لهم - أيها الرسول الكريم - على سبيل الجزم واليقين ، كذبتم ، فيما تزعمونه من أنه لا بعث ولا حساب . . . . والله لتبعثن يوم القيامة ثم لتنبؤن بما عملتموه فى الدنيا من أعمال سيئة ، ولتحاسبن عليها حسابا عسيرا ، يترتب عليه الإلقاء بكم فى النار .وجىء فى نفى زعمهم بالجملة القسمية ، لتأكيد أمر البعث الذى نفوه بحرف ( لَّن ) ولبيان أن البعث وما يترتب عليه من ثواب وعقاب ، أمر ثابت ثبوتا قطعيا . وجملة ( ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ) ارتقاء فى الإيطال . و ( ثُمَّ ) للتراخى النسبى .أى : قل لهم إنكم لا تبعثون فحسب ، بل ستبعثون ، ثم تجدون بعد ذلك ما هو أشد من البعث ، ألا وهو إخباركم بأعمالكم السيئة ، ثم الإلقاء بكم فى النار بعد ذلك .فالمراد بالإنباء لازمه ، وهو ما يترتب عليه من حساب وعقاب .واسم الإشارة فى قوله : ( وَذَلِكَ عَلَى الله يَسِيرٌ ) يعود إلى البعث وما يترتب عليه من حساب .أى : وذلك البعث والحساب ، يسير وهين على الله - تعالى - لأنه - سبحانه -لا يعجزه شىء ، ولا يحول دون تنفيذ قدرته حائل .فهذا التذييل المقصود به إزالة ما توهموه وعموه من أن البعث أمر محال ، كما قالوا : ( أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ).

فامنوا بالله ورسوله والنور الذي انزلنا والله بما تعملون خبير

كما فسرها الوسيط والفاء فى قوله - تعالى - ( فَآمِنُواْ بالله وَرَسُولِهِ والنور الذي أَنزَلْنَا . . . ) هى الفصيحة ، أى : التى تفصح عن شرط مقدر . والمراد بالنور : القرآن الكريم ، كما قال - تعالى - : ( وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكتاب وَلاَ الإيمان ولكن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَآءُ مِنْ

عِبَادِنَا ) والمعنى : إذا علمتم ما ذكرناه لكم - أيها المشركون - فاتركوا العناد ، وآمنوا بالله - تعالى - ورسوله - صلى الله عليه وسلم - إيمانا حقا - وآمنوا - أيضا - بالقرآن الكريم الذى أنزلناه على عبدنا ورسولنا محمد ، صلى الله عليه وسلم - ليكون هذا القرآن معجزة ناطقة بصدقه - صلى الله عليه وسلم - .وجملة ( والله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ) تذييل قصد به الوعد ، والوعيد ، أى : والله - تعالى - مطلع إطلاعا تاما على كل تصرفاتكم . وسيمنحكم الخير إن آمنتم ، وسيلقى بكم فى النار إن بقيتم على كفركم

يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ابدا ذلك الفوز العظيم

- كما فسرها الوسيط ثم حذرهم - سبحانه - من أهوال يوم القيامة فقال - تعالى : ( يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الجمع ذَلِكَ يَوْمُ التغابن ) والظرف. ( يَوْمَ ) متعلق بقوله - تعالى - قبل ذلك : ( ثُمّ لَتُنَبّؤُنّ بِمَا عَمِلْتُمْ ) .والمراد بيوم الجمع : يوم القيامة سمى بذلك لأنه اليوم الذى يجتمع فيه الأولون والآخرون؟ فى مكان واحد للحساب والجزاء .وسمى - أيضا بيوم التغابن ، لأنه اليوم الذى يغبن فيه أهل الحق أهل الباطل .والتغابن ، تفاعل من الغبن بمعنى الخسران والنقص ، يقال غبن فلان فلانا إذا بخسه حقه بأن أخذ منه سلعة بثمن أقل من ثمنها المعتاد ، وأكثر ما يستعمل الغبن فى البيع والشراء ، وفعله من باب ضرب ، ويطلق الغبن على مطلق الخسران أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الجاحدين للبعث : لتبعثن يوم القيامة ثم لتنبؤن بما عملتم يوم القيامة يوم يجتمع الخلائق للحساب فيغبن فيه أهل الحق أهل الباطل ، ويغبن فيه المؤمنون الكافرين ، لأن أهل الإيمان ظفروا بالجنة وبالمقاعد التى كان سيظفر بها الكافرون لو أنهم آمنوا ، ولكن الكافرين ، استمروا على كفرهم فخسروا مقاعدهم فى الجنة ، ففاز بها المؤمنون .قال القرطبى : ( يَوْمُ التغابن ) أى : يوم القيامة . . وسمى يوم القيامة بيوم التغابن ، لأنه غبن أهل الجنة أهل النار .أى : أن أهل اجنة أخذوا الجنة ، وأهل النار أخذوا النار على طريق المبادلة فوقع الغبن على الكافرين لأجل مبادلتهم الخير بالشر ، والنعيم بالعذاب .يقال : غبنت فلانا ، إذا بايعَته أو ساريتَه ، فكان النقص عليه ، والغلبة لك .فإن قيل : فأى معاملة وقعت بينهما حتى يقع الغبن فيها؟ قيل له : هو تمثيل الغبن فى الشراء والبيع وقال الآلوسى ما ملخصه : ( ذَلِكَ يَوْمُ التغابن ) أى يومُ غبنَ فيه أهل الجنة أهل النار ، فالتفاعل ليس على ظاهره ، كما فى التواضع والتحامل لوقوعه من جانب واحد ، واختير للمبالغة .وقد ورد هذا التفسير عن ابن عباس ومجاهد وقتادة . واختاره الواحدى .وقال غير واحد : ( ذَلِكَ يَوْمُ التغابن أى : اليوم الذى غبن فيه بعض الناس بعضا ، بنزول السعداء منازل الأشقياء ( لو كانوا سعداء ، وبالعكس ففى الحديث الصحيح : " ما من عبد يدخل الجنة إلا أرِى مقعده من النار - لو أساء - ليزداد شكرا ، وما من عبد يدخل النار إلا أرِى مقعده من الجنة - لو أحسن ليزداد حسرة - " وهو مستعار من تغابن القوم فى التجارة ، وفيه تهكم بالأشقياء لأنهم لا يغبنون حقيقة السعداء ، بنزولهم فى منازلهم من النار .ثم فصل - سبحانه - أحوال الناس فى هذا اليوم الهائل الشديد فقال؛ ( وَمَن يُؤْمِن بالله وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ) .أى : - ومن يؤمن بالله - تعالى - إيمانا حقا ، ويعمل عملا صالحا ، يكفر الله تعالى - عنه سيئاته التى عملها فى الدنيا بأن يزيلها من صحيفة علمه - فضلا منه - تعالى - وكرما - وفوق ذلك يدخله بفضله وإحسانه جنات تجرى من تحت ثمارها الأنهار ( خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَداً ) أى : خلودا أبديا .( ذَلِكَ الذى ذكرناه لكم من تكفير السيئات ، ومن دخول الجنات . . . هو ( الفوز العظيم ) الذى لا فوز يقاربه أو يدانيه .

والذين كفروا وكذبوا باياتنا اولئك اصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير

كما فسرها الوسيط ( والذين كَفَرُواْ ) بربهم بأن أشركوا معه فى العبادة آلهة أخرى .( وَكَذّبُواْ بِآيَاتِنَآ ) الدالة على وحدانيتنا ، وعلى صدق نبينا - صلى الله عليه وسلم - .( أولئك ) الكافرون المكذبون هم ( أَصْحَابُ النار خَالِدِينَ فِيهَا ) خلودا أبديا ( وَبِئْسَ المصير ) مصيرهم النار ففى هاتين الآيتين الكريمتين ، بيان للتغابن ، وتفصيل له ، لاحتوائهما على بيان منازل السعداء والأشقياء ، وهو ما وقع فيه التغابن .

ما اصاب من مصيبة الا باذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيء عليم

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن كل شىء بقضائه وقدره فقال : ( مَآ

أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ) .والمراد بالمصيبة : الرزية والنكبة ، وكل ما يسوء الإنسان فى نفسه أو ماله أو ولده . . . والمفعول محذوف ، و " من " للتأكيد ، و ( مُّصِيبَةٍ ) فاعل .أى : ما أصاب أحدا مصيبة فى نفسه أو ماله أو ولده . . إلا بإذن الله - تعالى - وأمره وإرادته لأن كل شىء بقضائه - سبحانه - وقدره .قال القرطبى : قيل : سبب نزولها أن ، الكفار قالوا : لو كان ما عليه المسلمون حقا لصانهم الله - تعالى - عن المصائب .فأنزل الله - تعالى - هذه الآية للرد على المشركين ، ولبيان أن كل شىء بإرادته - سبحانه - .ثم بين - سبحانه - أن الإيمان الحق يعين على استقبال المصائب بصبر جميل فقال : ( وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ واللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ) أى : ومن يؤمن بالله - تعالى - إيمانا حقا يهد قلبه إلى الصبر الجميل ، وإلى الاستسلام لقضائه - سبحانه - لأن إيمانه ، الصادق يجعله يعتقد أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه والله - تعالى - عليم بكل شىء ، لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء قال الإمام ابن كثير : قوله - تعالى - : ( وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ يَهْدِ. قَلْبَهُ ) أى : ومن أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره : فصبر واحتسب واستسلم لقضائه - تعالى - هدى الله قلبه ، وعوضه عما فاته من الدنيا وفى الحديث المتفق عليه : عجبا للمؤمن ، لا يقضى الله له قضاء إلا كان. خيرا له ، إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له ، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن .

واطيعوا الله واطيعوا الرسول فان توليتم فانما على رسولنا البلاغ المبين

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات الكريمة بحض الناس على ) : الطاعة والإخلاص فى العبادة ، وحذرهم من اقتراف المعاصى فقال وَأَطِيعُواْ الله وَأَطِيعُواْ الرسول فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا على - رَسُولِنَا البلاغ المبين ) .أى : وعليكم - أيها الناس - أن تطيعوا الله تعالى - طاعة تامة ، وأن تطيعوا رسوله فى كل ما يأمركم به أو ينهاكم عنه فإن أعرضتم عن ذلك ، وانصرفتم عما أمرناكم به أو نهيناكم عنه فلا ضرر على. رسولنا بسبب إعراضكم لأن حسابكم وجزاءكم علينا يوم القيامة ، وليس على رسولنا - صلى الله عليه وسلم - بالنسبة لكم سوى البلاغ الواضح البين ، بحيث لا يترك باباً من أبواب الخير إلا ويبينه لكم ، ولا يترك باباً من أبواب الشر إلا وحذركم منه .

الله لا اله الا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون

كما فسرها الوسيط ( الله ) - تعالى - ( لاَ إله إلاَّ هُوَ ) أى : هو المستحق للعبادة دون غيره ، فأخلصوا له هذه العبادة والطاعة ( وَعَلَى الله تعالى - وحده ( فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمنون ) أى : فليفوضوا أمورهم إليه - ( وليعقدوا رجاءهم عليه فهو - سبحانه - صاحب الخلق والأمر ، تبارك الله رب ، العالمين .

يا ايها الذين امنوا ان من ازواجكم واولادكم عدوا لكم فاحذروهم وان تعفوا وتصفحوا وتغفروا فان الله غفور رحيم

كما فسرها الوسيط وفى نهاية السورة الكريمة ، وجه - سبحانه - نداء إلى المؤمنين ، حذرهم فيه من فتنة الأزواج والأولاد والأموال ، وحضهم على مراقبته وتقواه ، وحذرهم من البخل والشح ، ووعدهم بالأجر العظيم متى أطاعوه فقال - تعالى - : ( ياأيها الذين آمنوا إِنَّ مِنْ . . . ) .ذكر . . . . المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات روايات منها ما روى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن رجلا يسأله عن هذه الآيات فقال : هؤلاء رجال أسلموا من مكة فأرادوا أن يأتوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأبى أولادهم ، وأزواجهم أن يتركوهم - ليهاجروا .فلما أتوا رسول الله - صلى الله عليه - وسلم - أى بالمدينة - رأوا الناس قد تفقهوا فى الدين ، فهموا أن يعاقبوهم أي : يعاقبوا أولادهم وأزواجهم - فأنزل الله - تعالى - هذه الآيات .وفى رواية أخرى عن ابن عباس أن هذه الآيات نزلت بالمدينة فى عوف بن مالك الأشجعى ، شكى إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - جفاء أهله وولده فنزلت وصدرت الآيات الكريمة بالنداء بصفة الإيمان ، لحضهم على الاستجابة لما. اشتملت عليه هذه الآيات من توجيهات سامية وإرشادات عالية . . . فإن من شأن الإيمان الحق ، أن يحمل صاحبه على طاعة الله - عز وجل - و " من " فى قوله ( إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلاَدِكُمْ ) للتبعيض .والمراد بالعداوة ما يشمل العداوة الدينية والدنيوية ، بأن يكون هؤلاء الأولاد والأزواج يضمرون لآبائهم وأزواجهم العداوة والبغضاء وسوء النية ، يسبب الاختلاف فى الطباع أو فى العقيدة والأخلاق .والعفو : ترك المعاقبة على ، الذنب بعد العزم على هذه المعاقبة .والصفح : الإعراض عن الذنب وإخفاؤه

وعدم إشاعته .أى : يا من آمنتم بالله حق الإيمان ، إن بعض أزواجم وأولادكم
: يعادونكم ويخالفونكم فى أمر دينكم . وفى أمور دنياكم ، ( فاحذروهم ) أى ،
فاحذروا أن تطيعوهم فى أمر يتعارض مع تعاليم دينكم ، فإنه لا طاعة لمخلوق
فى معصية الخالق .( وَإِن تَعْفُواْ ) - أيها المؤمنون - عنهم ، بأن تتركوا
عقابهم بعد التصميم عليه ( وَتَصْفَحُواْ ) عنهم ، بأن تتركوا عقابهم بدون
عزم عليه . . . ( وَتَغْفِرُواْ ) ما فرط منهم من أخطاء ، بأن تخفوها عليهم
: وقوله : (فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ) قائم مقام جواب الشرط . أى.
وإن تفعلوا ذلك من العفو والصفح والمغفرة ، يكافئكم الله - تعالى - على ذلك
مكافأة حسنة ، فإن الله - تعالى - واسع المغفرة والرحمة لمن يعفون ويصفحون
. ويغفرون

انما اموالكم واولادكم فتنة والله عنده اجر عظيم

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( إِنَّمَآ أَمْوَالُكُمْ
وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ ) تعميم بعد تخصيص ، وتأكيد التحذير الذى اشتملت
عليه الآية السابقة .والمراد بالفتنة هنا : ما يفتن الإنسان ويشغله ويلهيه
عن المداومة على طاعة الله - تعالى - .أى : إن أموالكم وأولادكم - أيها
، المؤمنون - على رأس الأمور التى تؤدى المبالغة والمغالاة فى الاشتغال بها
إلى التقصير فى طاعة الله - تعالى - ، وإلى مخالفة أمره . والإخبار عنهم
بأنهم ( فِتْنَةٌ ) للمبالغة ، والمراد أنهم سبب للفتنة أى : لما يشغل عن
رضاء الله وطاعته ، إذا ما جاوز الإنسان الحد المشروع فى الإشتغال بهما
قال الآلوسى : قوله - تعالى - ( إِنَّمَآ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ.
فِتْنَةٌ ) أى : بلاء ومحنة ، لأنهم يترتب عليهم الوقوع فى الإثم والشدائد
الدنيوية وغير ذلك . وفى الحديث . يؤتى بالرجل يوم القيامة ، فيقال : أكل
. عياله حسناته .وأخرج الإمام أحمد وأبو داود والترمذى . . . عن بريدة قال
كان النبى - صلى الله عليه وسلم - يخطب ، فأقبل الحسن والحسين عليهما
، قميصان أحمران يمشيان ويعثران فنزل صلى الله عليه وسلم من فوق المنبر
فحملهما . . . ثم صعد المنبر فقال : صدق الله إذ يقول : ( إِنَّمَآ
أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ ) ، إنى لما نظرت إلى هذين
الغلامين يمشيان ويعثران ، لم أصبر أن قطعت كلامى ، ونظرت إليهما .وقال
الجمل : قال الحسن فى قوله - تعالى - : ( إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ
، وَأَوْلاَدِكُمْ عَدُوّاً لَّكُمْ ) أدخل - سبحانه - ( مِنْ ) للتبعيض
لأنهم كلهم ليسوا بأعداء ، ولم يذكر ( مِنْ ) فى قوله ( إِنَّمَآ
، أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ ) ، لأنهما لا يخلوان من الفتنة
. واستغال القلب بهما ، وقدم الأموال على الأولاد ، لأن الفتنة بالمال أكثر
وترك ذكر الأزواج فى الفتنة ، لأن منهن من يكن صلاحا وعونا على الآخرة
) وقوله - سبحانه - : ( والله عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ) معطوف على جملة.
- إِنَّمَآ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ ) .أى : والله - تعالى
عنده أجر عظيم ، لمن آثر محبة الله - تعالى - وطاعته ، على محبة الأزواج
. والأولاد والأموال

فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا واطيعوا وانفقوا خيرا لانفسكم ومن يوق شح
نفسه فاولئك هم المفلحون

كما فسرها الوسيط والفاء فى قوله - سبحانه - : ( اتقوا الله مَا استطعتم )
للإفصاح والتفريع على ما تقدم .و ( مَا استطعتم ) مصدرية ظرفية .والمراد
بالاستطاعة : نهاية الطاقة والجهد .أى : إذا كان الأمر كما ذكرت لكم من أن
المؤمن الصادق فى إيمانه هو الذى لا يشغله ماله أو ولده أو زوجه عن ذكر
- الله - تعالى - فابذلوا نهاية قدرتكم واستطاعتكم فى طاعة الله - تعالى
وداوموا على ذلك فى جميع الأوقات والأزمان .وليس بين هذه الآية ، وبين
قوله - تعالى - ( اتقوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ ) تعارض ، لأن كلتا الآيتين
تأمران المسلم بأن يبذل قصارى جهده ، ونهاية طاقته ، فى المواظبة على أداء
ما كلفه الله به ، ولذلك فلا نرى ما يدعو إلى قول من قال : إن الآية التى
معنا نسخت الآية التى تقول : ( ياأيها الذين آمَنُواْ اتقوا الله حَقَّ
تُقَاتِهِ ) قال الآلوسى : أخرج ابن أبى حاتم عند سعيد بن جبير قال : لما
نزلت : ( اتقوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ ) اشتد على القوم العمل ، فقاموا حتى
ورمت أقدامهم . فأنزل الله هذه الآية ( فاتقوا الله مَا استطعتم ) تخفيفا
على المسلمين .وحذف متعلق التقوى ، لقصد التعميم ، أى : فاتقوا الله مدة
استطاعتكم فى كل ما تأتون وما تذرون ، واعلموا أنه - تعالى - ( يُرِيدُ
الله بِكُمُ اليسر وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ العسر ) و( وَمَا جَعَلَ
عَلَيْكُمْ فِي الدين مِنْ حَرَجٍ ) ومن الأحاديث التى وردت فى معنى الآية
- الكريمة ، ما رواه البخارى عن جابر بن عبد الله قال : " بايعت رسول الله
" " صلى الله - عليه وسلم - على السمع والطاعة ، فلقننى " فيما استطعت
وعطف قوله - تعالى - ( واسمعوا وَأَطِيعُواْ ) على قوله ( فاتقوا الله ).

من باب عطف الخاص على العام ، للاهتمام به .أى : فاتقوا الله - تعالى - فى كل ما تأتون وما تذرون ، واسمعوا ما يبلغكم إياه رسولنا عنا سماع تدبر وتفكر ، وأطيعوه فى كل ما يأمركم به أو ينهاكم عنه .( وَأَنْفِقُواْ ) مما رزقكم الله - تعالى - من خير ، يكن ذلك الإنفاق ( خَيْراً لأَنفُسِكُمْ ) فى دنياكم وفى آخرتكم .( وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ ) أى : ومن يستطع أن يبعد نفسه عن الشح والبخل .( فأولئك هُمُ المفلحون ) أى : الفائزون فوزا تاما لا نقص معه .

ان تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بالحض على الإنفاق فى سبيله فقال : ( إِن تُقْرِضُواْ الله قَرْضاً حَسَناً يُضَاعِفْهُ لَكُمْ ) أى : إن تبذلوا أموالكم فى وجوه الخير التى يحبها الله - تعالى - ، بذلا. مصحوبا بالإخلاص وطيب النفس ، يضاعف الله - تعالى - لكم ثواب هذا الإنفاق والإقراض بأن يجعل لكم الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف .( وَيَغْفِرْ ) لَكُمْ ) فضلا عن ذلك ذنوبكم ببركة هذا الإنفاق الخالص لوجهه الكريم والله شَكُورٌ ) أى : كثير الشكر لمن أطاعه ( حَلِيمٌ )لا يعاجل بالعقوبة المذنبين .

عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم

- كما فسرها الوسيط ( عَالِمُ الغيب والشهادة العزيز الحكيم ) أى : هو سبحانه - يعلم علما تاما ما كان خافيا عليكم وما كان ظاهرا لكم ، وهو - عز وجل - القوى الذى لا يغلبه غالب ، الحكيم فى كل أقواله وأفعاله .

يا ايها النبي اذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن واحصوا العدة واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن الا ان ياتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك امرا

كما فسرها الوسيط افتتح الله - تعالى - السورة الكريمة بتوجيه النداء إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فقال : ( ياأيها النبي إِذَا طَلَّقْتُمُ النسآء فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ العدة ) .وأحكام الطلاق التى وردت فى هذه الآية ، تشمل النبى - صلى الله عليه وسلم - كما تشمل جميع المكلفين من أمته - صلى الله عليه وسلم - .وإنما كان النداء له - صلى الله عليه وسلم - وكان الخطاب بالحكم عاما له ولأمته ، تشريفا وتكريما له - صلى الله عليه وسلم - لأنه هو المبلغ للناس ، وهو إمامهم وقدوتهم لأحكام الله - تعالى - فيهم .قال صاحب الكشاف : خُصَّ النبى - صلى الله عليه وسلم بالنداء ، وعُمَّ بالخطاب ، لأن النبى - صلى الله عليه وسلم - إمام أمته ، وقدوتهم ، كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم : يا فلان : افعلوا كيت وكيت : وإظهارا لتقدمه ، واعتبارا لترؤسه ، وأنه مِدْرة قومه ولسانهم - والمدرة القرية .أى : أنه بمنزلة القرية لقومه ، وأنه الذى يصدرون عن رأيه ، ولا يستبدون بأمر دونه ، فكان هو وحده فى حكم كلهم ، وساد مسد جميعهم .وهذا التفسير الذى اقتصر عليه صاحب الكشاف ، هو المعول عليه ، وهو الذى يناسب : بلاغة القرآن وفصاحته ، ويناسب مقام النبى - صلى الله عليه وسلم - .وقيل : الخطاب له ولأمته : والتقدير : يأيها النبى وأمته إذا طلقتم ، فحذف المعطوف لدلالة ما بعده عليه .وقيل : هو خطاب لأمته فقط ، بعد ندائه - عليه السلام - وهو من تلوين الخطاب ، خاطب أمته بعد أن خاطبه .وقيل : إن الكلام على إضمار قول ، أى : يأيها النبى قل لأمتك إذا طلقتم .والحق أن الذى يتدبر القرآن الكريم ، يرى أن الخطاب والأحكام المترتبة عليه ، تارة تكون خاصة به - صلى الله عليه وسلم - كما فى قوله - تعالى - : ( ياأيها الرسول بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا - بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ) وتارة يكون شاملا له - صلى الله عليه وسلم ولأمته كما فى هذه الآية التى معنا ، وكما فى قوله - تعالى - : ( ياأيها النبي جَاهِدِ الكفار والمنافقين واغلظ عَلَيْهِمْ ) وتارة يكون - صلى الله عليه وسلم - خارجا عنه كما فى قوله - تعالى - : ( إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الكبر أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً واخفض لَهُمَا جَنَاحَ الذل مِنَ الرحمة وَقُل رَّبِّ ارحمهما كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً فصيغة الخطاب هنا وإن كانت موجهة إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - إلا ( إنه ليس داخلا فيها ، لأن والديه لم يكونا موجودين عند نزول هاتين الآيتين ، والمراد بقوله : ( إِذَا طَلَّقْتُمُ النسآء ) أى : إذا أردتم تطليقهن. لأن طلاق المطلقة من باب تحصيل الحاصل .وهذا الأسلوب يرد كثيرا فى القرآن الكريم ، ومنه قوله - تعالى - : ( يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصلاة فاغسلوا وُجُوهَكُمْ . . ) أى : إذا أردتم القيام

للصلاة فاغسلوا .والمراد بالنساء هنا : الزوجات المدخول بهن ، لأن غير
المدخول بهن خرجن بقوله - تعالى - : ( ياأيها الذين آمنوا إِذَا نَكَحْتُمُ
المؤمنات ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا
لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ) واللام فى قوله
- سبحانه - : فطلقوهن لعدتهن ، هى التى تسمى بلام التوقيت ، وهى بمعنى عند
، أو بمعنى فى ، كما يقول القائل : كتبت هذا الكتاب لعشر مضين من شهر كذا
ومنه قوله - تعالى - : ( أَقِمِ الصلاة لِدُلُوكِ الشمس . . ) أى عند أو.
فى وقت دلوكها .وقوله : ( وَأَحْصُوا العدة ) من الإحصاء بمعنى العد
والضبط ، وهو مشتق من الحصى ، وهى من صغار الحجارة ، لأن العرب كانوا إذا
كثر عدد الشىء ، جعلوا لكل واحد من المعدود حصاة ، ثم عدوا مجموع ذلك الحصى
والمراد به هنا : شدة الضبط ، والعناية بشأن العد ، حتى لا يحصل خطأ فى.
وقت العدة . والمعنى : يأيها النبى ، أخبر المؤمنين ومرهم ، إذا أرادوا
تطليق نسائهم المدخول بهن ، من المعتدات بالحيض ، فعليهم أن يطلقوهن فى وقت
عدتهن .وعليهم كذلك أن يضبطوا أيام العدة ضبطا تاما حتى لا يقع فى شأنها
خطأ أو لبس .قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : خوطب النبى - صلى الله عليه
وسلم - أولا تشريفا وتكريما ، ثم خاطب الأمة تبعا ، فقال : ( ياأيها النبى
إِذَا طَلَّقْتُمُ النسآء فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ
العدة . . ) .روى ابن أبى حاتم عن أنس قال : طلق النبى - صلى الله عليه
: وسلم - حفصة ، فأتت أهلها ، فأنزل الله - تعالى - هذه الآية . وقيل له
راجعها فإنها صوامة قوامة ، وهى من أزواجك فى الجنة .وروى البخارى أن عبد
الله بن عمر ، طلق امرأة له وهى حائض ، فذكر عمر لرسول الله - صلى الله
عليه وسلم - ذلك ، فتغيظ - صلى الله عليه وسلم - ثم قال : فليراجعها ، ثم
يمسكها حتى تطهر ، ثم تحيض فتطهر ، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهرا
- قبل أن يمسها ، فتلك العدى التى أمر الله - تعالى - .ثم قال - رحمه الله
ومن ها هنا أخذ الفقهاء أحكام الطلاق ، وقسموه إلى طلاق سنة ، وطلاق بدعة :
فطلاق السنة : أن يطلقها طاهرا من غير جماع ، أو حاملا قد استبان حملها.
والبدعى : هو أن يطلقها فى حال الحيض ، - وما يشبهه كالنفاس - ، أو فى طهر.
قد جامعها فيه ، ولا يدرى أحملت أم لا؟ .وتعليق ( طَلَّقْتُمُ ) بإذا
الشرطية ، يشعر بأن الطلاق خلاف الأصل ، إذ الأصل فى الحياة الزوجية أن
) : - تقوم على المودة والرحمة ، وعلى الدوام والاستقرار .قال - تعالى
وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لتسكنوا
إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً . . . ) قال القرطبى
: روى الثعلبى من حديث ابن عمر قال : قال رسول - صلى الله عليه وسلم - " إن
من أبغض الحلال إلى الله الطلاق " .وعن أبى موسى قال رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - : "لا تطلقوا النساء إلا من ريبة فإن الله - عز وجل -لا يحب
الذواقين ولا الذواقات " .وعن أنس قال : قال رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - : " ما حلف بالطلاق ، ولا استحلف به إلا منافق " .والمراد بالأمر فى
قوله - تعالى - : ( فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ) إرشاد المؤمنين إلى
ما يجب عليهم اتباعه إذا ما أرادوا مفارقة أزواجهم ، ونهيهم عن إيقاع
الطلاق فى حال الحيض أو ما يشبهها كالنفاس ، لأن ذلك يكون طلاقا بديعا
محرما ، إذ يؤدى إلى تطويل عدة المرأة لأن بقية أيام الحيض لا تحسب من
العدة ، ويؤدى - أيضا - إلى عدم الوفاء لها ، حيث طلقها فى وقت رغبته فيها
فاترة .ولكن الطلاق مع ذلك يعتبر واقعا ونافذا عند جمهور العلماء .قال
القرطبى : من طلق فى طهر لم يجامع فيه ، نفذ طلاقه وأصاب السنة ، وإن طلقها
وهى حائض نفذ طلاقه وأخطأ السنة .وقال سعيد بن المسيب : لا يقع الطلاق فى
الحيض لأنه خلاف السنة ، وإليه ذهبت الشيعة .وفى الصحيحين عن عبد الله بن
عمر قال : " طلقت امرأتى وهى حائض ، فذكر ذلك لرسول الله - صلى الله عليه
وسلم - فتغيظ وقال : فليراجعها ثم فليمسكها حتى تحيض حيضة مستقبلة سوى
حيضتها التى طلقها فيها " .وكان عبد الله بن عمر قد طلقها تطليقة ، فحسبت
من طلاقها ، وراجعها عبد الله بن عمر كما أمره رسول الله - صلى الله عليه
" وسلم - .وفى رواية أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قال له : " هى واحدة
وهذا نص . وهو يرد على الشيعة قولهم .وقد بسط الفقهاء وبعض المفسرين الكلام
فى هذه المسألة فليرجع إليها من شاء .والمخاطب بقوله ( وَأَحْصُواْ العدة )
الأزواج على سبيل الأصالة ، لأنهم هم المخاطبون بقوله ( طَلَّقْتُمُ )
وبقوله ( فَطَلِّقُوهُنَّ ) ، ويدخل معهم الزوجات على سبيل التبع ، وكذلك
كل من له صلة بهذا الحكم ، وهو إحصاء العدة .ثم أمر - سبحانه - بتقواه فقال
: ( واتقوا الله رَبَّكُمْ ) أى ، واتقوا الله ربكم ، بأن تصونوا أنفسكم عن
. معصيته ، التى من مظاهرها إلحاق الضرر بأزواجكم ، بتطليقهن فى وقت حيضهن
أو فى غير ذلك من الأوقات المنهى عن وقوع الطلاق فيها .فالمقصود بهذه
الجملة الكريمة : التحذير من التساهل فى أحكام الطلاق والعدة ، كما كان أهل
، الجاهلية يفعلون .وجمع - سبحانه - بين لفظ الجلالة ، وبين الوصف بربكم
لتأكيد الأمر بالتقوى ، وللمبالغة فى وجوب المحافظة على هذه الأحكام .ثم
بين - سبحانه - حكما آخر يتعلق بالأزواج والزوجات فقال :( لاَ
تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلاَ يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ

) بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ) .والجملة الكريمة مستأنفة ، أو حال من ضمير
، وَأَحْصُواْ العدة ) أى : حالة كون العدة فى بيوتهن ، والخطاب للأزواج
والزوجات ، والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال والأساليب .والفاحشة : الفعلة
) : البالغة الغاية فى القبح والسوء ، وأكثر إطلاقها على الزنا .وقوله
مُّبَيِّنَةٍ ) صفة للفاحشة ، وقراءة الجمهور - بكسر الياء - أى : بفاحشة
توضح لمن تبلغه أنها فاحشة لشدة قبحها .وقرأ ابن كثير ( مُّبَيَّنَةٍ )
بفتح الياء - أى : بفاحشة قامت الحجة على مرتكبيها قياما لا مجال معه
للمناقشة أو المجادلة .أى : واتقوا الله ربكم - أيها المؤمنون - فيما تأتون
وتذرون ، ومن مظاهر هذه التقوى ، أنكم لا تخرجون زوجاتكم المطلقات من
مساكنهن إلى أن تنقضى عدتهن ، وهن - أيضا -لا يخرجن منها بأنفسهن فى حال
من الأحوال ، إلا فى حال إتيانهن بفاحشة عظيمة ثبتت عليهن ثبوتا واضحا
فالمقصود بالجملة الكريمة نهى الأزواج عن إخراج المطلقات المعتدات من.
مساكنهن عند الطلاق إلى أن تنتهى عدتهن ، ونهى المعتدات عن الخروج منها إلا
عند اتركابهن الفاحشة الشديدة القبح .وأضاف - سبحانه - البيوت إلى ضمير
النساء فقال : ( لاَ تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ ) للإشعار بأن
، استحقاقهن للمكث فى بيوت أزواجهن مدة عدتهن كاستحقاق المالك لما يملكه
، ولتأكيد النهى عن الإخراج والخروج .وقد أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة
، أن المطلقة لا يصح إخراجها أو خروجها من بيت الزوجية ما دامت فى عدتها
إلا لأمر ضرورى .قال الألوسى ما ملخصه : وقوله : ( لاَ تُخْرِجُوهُنَّ مِن
بُيُوتِهِنَّ ) أى : من مساكنهن عند الطلاق إلى أن تنقضى عدتهن . . . وعدم
العطف للإيذان باستقلاله بالطلب اعتناء به ، والنهى عن الإخراج يتناول
بمنطوقة عدم إخراجهن غضبا عليهن ، أو كراهة لمساكنتهن . . . ويتناول
) : - بإشارته عدم الإذن لهن بالخروج ، لأن خروجهن محرم ، لقوله - تعالى
وَلاَ يَخْرُجْنَ ) فكأنه قيل :لا تخرجوهن ، ولا تأذنوا لهن فى الخروج إذا
طلبن ذلك ، ولا يخرجن بأنفسهن إن أردن ، فهناك دلالة على أن سكونهن فى
البيوت حق للشرع مؤكد ، فلا يسقط بالإذن . . . وهذا رأى الأحناف .ومذهب
الشافعية أنهما لو اتفقا على الانتقال جاز . إذ الحق لا يعدوهما ، فيكون
المعنى :لا تخرجوهن ولا يخرجن باستبدادهن .والاستثناء فى قوله : ( إِلاَّ
أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ) يرى بعضهم أنه راجع إلى ( وَلاَ
: يَخْرُجْنَ ) فتكون الفاحشة المبينة هى نفس الخروج قبل انقضاء العدة ، أى
لا يطلق لهن فى الخروج ، إلا فى الخروج الذى هو فاحشة ، ومن المعلوم أنه لا
يطلق لهن فيه ، فيكون ذلك منعا من الخروج على أبلغ وجه .. . كما يقال لا
تزن إلا أن تكون فاسقا . . .وقال بعض العلماء : والذى تخلص لى أن حكمة
، السكنى للمطلقة ، أنها حفظ للأعراض ، فإن المطلقة يكثر التفات العيون لها
وقد يتسرب سوء الظن إليها ، فيكثر الاختلاف عليها ، ولا تجد ذا عصمة يذب
عنها ، فلذلك شرعت لها السكنى ، فلا تخرج إلا لحاجياتها الضرورية . . .ومن
الحكم - أيضا - فى ذلك أن المطلقة قد لا تجد مسكنا ، لأن غالب النساء لم
تكن لهن أموال ، وإنما هن عيال على الرجال .ويزاد فى المطلقة الرجعية ، قصد
استبقاء الصلة بينها وبين مطلقها ، لعله يثوب إليه رشده فيراجعها .فهذا
مجموع علل ، فإذا تخلفت واحدة منها لم يتخلف الحكم ، لأن الحكم المعلل
بعلتين فأكثر لا يبطله سقوط بعضها .واسم الإشارة فى قوله : ( وَتِلْكَ
حُدُودُ الله ) يعود إلى الأحكام التى سبق الحديث عنها ، والحدود : جمع حد
، وهو مالا يصح تجاوزه أو الخروج عنه .أى : وتلك الأحكام التى بيناها لكم ،
هى حدود الله - تعالى - التى لا يصح لم تعديها أو تجاوزها ، وإنما يجب
- عليكم الوقوف عندها ، وتنفيذ ما اشتملت عليه من آداب وهدايات .ثم بين
سبحانه - سوء عاقبة من يتجاوز حدوده فقال : ( وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ الله
، فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ) أى : ومن يتجاوز حدود الله التى حدها لعباده
بأن أخل بشىء منها ، فقد حمل نفسه وزرا ، وأكسبها إثما ، وعرضها للعقوبة
والعذاب .وقوله - تعالى - : ( لاَ تَدْرِى لَعَلَّ الله يُحْدِثُ بَعْدَ
ذَلِكَ أَمْراً ) ترغيب فى امتثال الأحكام السابقة ، بعد أن سلك فى شأنها
، مسلك الترهيب من مخالفتها ، ودعوة إلى فتح باب المصالحة بين الرجل وزوجه
وعدم السير فى طريق المفارقة حتى النهاية . .والخطاب لكل من يصلح له ، أو
هو للمتعدى بطريق الالتفات ، والجملة الكريمة مستأنفة ، مسوقة لتعليل مضمون
ما قبلها ، وتفصيل لأحواله .أى : اسلك - أيها المسلم - الطريق الذى أرشدناك
، إليه فى حياتك الزوجية ، وامتثل ما أمرناك به ، فلا تطلق امرأتك وهى حائض
ولا تخرجها من بيتها قبل تمام عدتها . . . ولا تقفل باب المصالحة بينك
- وبينها ، بل اجعل باب المصالح مفتوحا ، فإنك لا تدرى لعل الله - تعالى
يحدث بعد ذلك النزاع الذى نشب بينك وبين زوجك أمرا نافعا لك ولها ، بأن
يحول البغض إلى حب ، والخصام إلى وفاق ، والغضب إلى رضا . . .فالجملة
الكريمة قد اشتملت على أسمى ألوان الإرشاد لحمل النفوس المتجهة نحو الطلاق
إلى التريث والتعقل ، وفتح باب المواصلة بعد المقاطعة والتقارب بعد . . .
- التباعد ، لأن تقليب القلوب بيد الله - عز وجل - وليس بعيدا عن قدرته
تعالى - تحويل القلوب إلى الحب بعد البغض .قال القرطبى : الأمر الذى يحدثه
الله أن يقلب قلبه من بغضها إلى محبتها ، ومن الرغبة عنها إلى الرغبة فيها

ومن عزيمة الطلاق إلى الندم عليه ، فيراجعها .وقال جميع المفسرين : أراد ، بالأمر هنا الرغبة فى الرجعة . .

فاذا بلغن اجلهن فامسكوهن بمعروف او فارقوهن بمعروف واشهدوا ذوي عدل منكم واقيموا الشهادة لله ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الاخر ومن يتق الله يجعل له مخرجا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - حكما يتعلق بما بين الزوجين من حقوق فقال - تعالى - : ( فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنّ فَأَمْسِكُوهُنّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنّ بِمَعْرُوفٍ . . . ) .والفاء فى قوله ( فَإِذَا بَلَغْنَ . . ) للتفريع على ما تقدم من أحكام تتعلق بالعدة والمراد ببلوغ أجلهن ، مقاربة نهاية مدة العدة بقرينة ما بعده ، لأن الرجل لا يؤمر بإمساك زوجه بعد انقضاء عدتها ، لأن الإمساك يكون قبل انقضائها فالكلام من باب المجاز ، لمشابهة مقاربة الشىء ، بالحصول فيه ، والتلبس به. والمراد بالإمساك المراجعة وعدم السير فى طريق مفارقتها .والمعروف : ما أمر به الشرع من حسن المعاملة بين الزوجين ، وحرص كل واحد منهما على أداء ما عليه لصاحبه من حقوق .والمعنى : لقد بينت لكم جانبا من الأحكام التى تتعلق بعدة النساء ، فإذا قاربن وشارفن آخر عدتهن ، فأمسكوهن وراجعوهن بحسن معاشرة ، أو فارقوهن بمعروف بأن تعطوهن حقوقهن كاملة غير منقوصة ، بأن تكفوا ألسنتكم عن ذكرهن بسوء .والأمر فى قوله : ( فَأَمْسِكُوهُنّ ) و ( فَارِقُوهُنّ ) للإباحة ، و " أو " للتخيير .والتعبير بالإمساك للإشعار بأن المطلقة طلاقا رجعيا لها حكم الزوجة ، ما عدا الاستمتاع بها ، فعليه أن يستمسك بها ، ولا يتسرع فى فراقها ، فهى ما زالت فى عصمته .وقدم - سبحانه - الإمساك على الفراق ، للإشارة إلى أنه هو الأولى رعاية لحق الزوجية وإبقاء للمودة والرحمة .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النسآء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنّ فَأَمْسِكُوهُنّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنّ بِمَعْرُوفٍ . . . ) ثم قال - سبحانه - : ( وَأَشْهِدُواْ ذَوَي عَدْلٍ مِّنكُمْ ) أى : وأشهدوا عند المراجعة لأزواجكم وعند مفارقتكم لهن رجلين تتوفر فيهما العدالة والاستقامة لأن الإشهاد يقطع التنازع ، ويدفع الريبة ، وينفى التهمة .والأمر فى قوله : ( وَأَشْهِدُواْ ) : - للندب والاستحباب فى حالتى المراجعة والمفارقة ، فهو كقوله - تعالى ( وأشهدوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ) وقال الشافعى فى القديم : إنه للوجوب فى الرجعة . وزعم الطبرسى أن الظاهر أنه أمر بالإشهاد على الطلاق ، وأنه مروى عن أئمة أهل البيت ، وأنه للوجوب ، وشرط فى صحة الطلاق .وقوله ( وَأَقِيمُواْ الشهادة لِلَّهِ ) معطوف على ما قبله ، والخطاب لكل من تتعلق به الشهادة .والمراد بإقامة الشهادة : أداؤها بالعدل والصدق .أى : وعليكم - أيها المؤمنون - عند أدائكم للشهادة ، أن تؤدوها بالعدل والأمانة ، وأن تجعلوها خالصة لوجه الله - تعالى - وامتثالا لأمره .والجملة الكريمة دليل على أن أداء الشهادة على وجهها الصحيح عند الحكام وغيرهم ، أمر واجب ، لأن الشهادة هنا اسم للجنس ، ولأن الله - تعالى - يقول فى آية أخرى : ( وَلاَ تَكْتُمُواْ الشهادة وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ . . ) والإشارة فى قوله - سبحانه - : ( ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بالله واليوم الآخر ) تعود إلى جميع ما تقدم من أحكام ، كإحصاء العدة وعدم إخراج المطلقة من بيت الزوجية حتى تنتهى عدتها ، والحث على أداء الشهادة بالحق والعدل .والوعظ معناه : التحذير مما يؤذى بطريقة تؤثر فى القلوب ، وتهدى النفوس إلى الرشد .أى : ذلك الذى ذكرناه لكم من أحكام إنما يتأثر به ويعمل بمقتضاه الذين يؤمنون بالله - تعالى - وباليوم الآخر إيمانا حقا ، وخص - سبحانه - الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر بالذكر ، لأنهم هم. المنتفعون بهذه الأحكام ، وهم المنفذون لها تنفيذا صحيحا .

ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه ان الله بالغ امره قد جعل الله لكل شيء قدرا

كما فسرها الوسيط ثم بشر - سبحانه - عباده الذين يتقونه ويراقبونه ببشارات متعددة فقال : ( وَمَن يَتّقِ الله يَجْعَل لّهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ ) .والجملة الكريمة اعتراض بين قوله - تعالى - : ( وَأَقِيمُواْ الشهادة لِلَّهِ ) : وبين قوله - سبحانه - بعد ذلك ( واللائي يَئِسْنَ مِنَ المحيض ) وجىء بهذا الاعتراض بين هذه الأحكام لحمل النفوس على تقبل تشريعاته - تعالى - وآدابه ، ولحض الزوجين على مراقبته - سبحانه - وتقواه .أى : ومن يتق الله - تعالى - فى كل أقواله وأفعاله ، وتصرفاته . يجعل له - سبحانه - مخرجا من هموم الدنيا وضوائقها ومتاعبها ومن شدائد الموت وغمراته ، ومن أهوال الآخرة وعذابها ، ويرزقه الفوز بخير الدارين ، من طرق لا تخطر له على بال ، ولا ترد له على خاطر ، فإن أبواب رزقه - سبحانه -لا يعلمها أحد إلا هو - عز وجل - .وفى هذه الجملة الكريمة

ما فيها من البشارة للمؤمن ، حتى يثبت فؤاده ، ويستقيم قلبه ، ويحرص على
طاعة الله - تعالى - فى كل أحواله .قال القرطبى : قال أبو ذر ، قال رسول
الله - صلى الله عليه وسلم - : إنى لأعلم آية لو أخذ الناس بها لكفتهم ، ثم
تلا : ( وَمَن يَتّقِ الله يَجْعَل لّهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ
حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ ) .وعن جابر بن عبد الله قال : نزلت هذه الآية فى
عوف بن مالك الأشجعى ، أسر المشركون ابنا له ، فأتى النبى - صلى الله عليه
، وسلم - وأخبره بذلك . فقال له - صلى الله عليه وسلم - : " اتق الله واصبر
وآمرك وزوجك أن تستكثرا من قول : لا حول ولا قوة إلا بالله " .فعاد إلى
بيته وقال لامرأته : إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أمرنى وإياك أن
نستكثر من قول :لا حول ولا قوة إلا بالله . فقالت : نعم ما أمرنا ، فجعلا
، يقولان ذلك ، فغفل العدو عن ابنه ، فساق غنمهم وجاء بها إلى أبيه عوف
فنزلت الآية . .ثم قال - تعالى - : ( وَمَن يَتَوَكّلْ عَلَى الله فَهُوَ
حَسْبُهُ إِنّ الله بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ الله لِكُلّ شَيْءٍ
) قَدْراً ) .ولفظ ( حَسْبُ ) بمعنى كاف وأصله اسم مصدر أو مصدر ، ومعنى
- بَالِغُ أَمْرِهِ ) بإضافة الوصف إلى مفعوله ، أى : يبلغ ما يريده
سبحانه - ، وقرأ الجمهور ( بَالِغٌ أَمْرِهِ ) بتنوين الوصف ونصب أمره على
المفعولية ، والمراد بأمره ، شأنه ومراده .وهذه الجملة تعليل لما قبلها .أى
- ومن يفوض أمره إلى الله - تعالى - ويتوكل عليه وحده ، فهو - سبحانه :
، كافيه فى جميع أموره ، لأنه - سبحانه - يبلغ ما يريده ، ولا يفوته مراد
، ولا يعجزه شىء ، ولا يحول دون أمره حائل . . . ومن مظاهر حكمه فى خلقه
أنه عز وجل - قد جعل لكل شىء تقديرا قبل وجوده ، وعلم علما تاما مقاديرها
وأوقاتها وأحوالها .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( إِنّا كُلّ
شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ) وقوله - سبحانه - : ( وَخَلَقَ كُلّ شَيْءٍ
فَقَدّرَهُ تَقْدِيراً ) وقوله - عز وجل - : ( وَكُلّ شَيْءٍ عِندَهُ
- بِمِقْدَارٍ ) قال بعض العلماء ما ملخصه : ولهذه الجملة ، وهى قوله
تعالى - : ( قَدْ جَعَلَ الله لِكُلّ شَيْءٍ قَدْراً ) موقع تتجلى فيه
صورة من صور إعجاز القرآن ، فى ترتيب مواقع الجمل بعضها بعد بعض . . . فهذه
الجملة لها موقع الاستئناف البيانى الناشىء عما اشتملت عليه جمل : ( وَمَن
يَتّقِ الله يَجْعَل لّهُ مَخْرَجاً . . ) إلى قوله : ( إِنّ الله
بَالِغُ أَمْرِهِ ) لأن استعداد السامعين لليقين بما تضمنته تلك الجمل
متفاوت ، فقد يستبعد بعض السامعين تحقق الوعد لأمثاله ، فيقول : أين أنا من
) : تحصيل هذا الشىء . . . ويتملكه اليأس . . . فيقول الله - تعالى - له
قَدْ جَعَلَ الله لِكُلّ شَيْءٍ قَدْراً ) أى : فلا تيأس أيها الإنسان
ولها موقع التعليل الجملة ( وَأَحْصُواْ العدة ) فإن العدة من الأشياء.
التى تعد ، فلما أمر الله بإحصائها علل ذلك فقال : ( قَدْ جَعَلَ الله
لِكُلّ شَيْءٍ قَدْراً ) .ولها موقع التذييل لجملة ( وَتِلْكَ حُدُودُ
الله وَمَن يَتَعَدّ حُدُودَ الله فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ) أى : الذى وضع
تلك الحدود ، قد جعل الله لكل شىء قدرا لا يعدوه ، كما جعل الحدود .ولها
موقع التعليل لجملة : ( فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنّ فَأَمْسِكُوهُنّ
بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنّ بِمَعْرُوفٍ ) ، لأن المعنى إذا بلغن القدر
الذى جعله الله لمدة العدة ، فقد حصل المقصد الشرعى ، الذى أشار إليه
بقوله - تعالى - : ( لاَ تَدْرِى لَعَلّ الله يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ
- أَمْراً ) .ولها موقع التعليل لجملة : ( وَأَقِيمُواْ الشهادة ) فإن الله
تعالى - جعل الشهادة قدرا لرفع النزاع .فهذه الجملة جزء آية ، وهى تحتوى
على حقائق من الحكمة . . .

واللائي يئسن من المحيض من نسائكم ان ارتبتم فعدتهن ثلاثة اشهر واللائي لم
يحضن واولات الاحمال اجلهن ان يضعن حملهن ومن يتق الله يجعل له من امره
يسرا

كما فسرها الوسيط ثم ذكر - سبحانه - أحكاما أخرى تتعلق بعدة أنواع أخرى من
النساء وأكد الأمر بتقواه - عز وجل - وأمر برعاية النساء والانفاق عليهن .
- فقال - تعالى - : ( واللائي يَئِسْنَ . . . ) .قال القرطبى : قوله . .
- تعالى - : ( واللائي يَئِسْنَ مِنَ المحيض مِن نِّسَآئِكُمْ ) لما بين
سبحانه - أمر الطلاق والرجعة فى التى تحيض ، وكانوا قد عرفوا عدة ذوات
الأقراء ، عرفهم - سبحانه - فى هذه السورة عدة التى لا ترى الدم .وقال أبو
عثمان عمر بن سالم : لما نزلت عدة النساء فى سورة " البقرة " فى المطلقة
والمتوفى عنها زوجها ، قال أبى بن كعب : يا رسول الله ، إن ناسا يقولون قد
بقى من النساء من لم يذكر فيهن شىء ، الصغار وذوات الحمل ، فنزلت هذه الآية
وقال مقاتل : لما ذكر - سبحانه - قوله : ( والمطلقات يَتَرَبّصْنَ.
بِأَنْفُسِهِنّ ثَلاَثَةَ قرواء . . . ) قال خلاد بن النعمان : يا رسول
الله ، فما عدة التى لم تحض ، وما عدة التى انقطع حيضها ، وعدة الحبلى
فنزلت هذه الآية . .وجملة : ( واللائي يَئِسْنَ مِنَ المحيض . . ) معطوفة
على قوله - تعالى - قبل ذلك : ( فَطَلّقُوهُنّ لِعِدّتِهِنّ . . )

لبيان أحكام أخرى تتعلق بعدة نوع آخر من النساء بعد بيان عدة النساء ذوات
، الأقراء .والمراد باللائى يئسن من المحيض : النساء اللائى تقدمن فى السن
وانقطع عنهن دم الحيض .وقوله : ( يَئِسْنَ ) من اليأس ، وهو فقدان الأمل من
الحصول على الشىء .والمراد بالمحيض : دم الحيض الذى يلفظه رحم المرأة فى
وقت معين ، وفى حال معينة . .وقوله : ( إِنِ ارتبتم ) من الريبة بمعنى الشك
قوله : ( واللائي ) اسم موصول مبتدأ ، وقوله ( يَئِسْنَ ) صلته ، وجملة.
الشرط والجزاء وهى قوله : ( إِنِ ارتبتم فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاَثَةُ أَشْهُرٍ
خبره .والمعنى : لقد بينت لكم - أيها المؤمنون - عدة النساء المعتدات (
بالمحيض ، أما النساء المتقدمات فى السن واللائى فقدن الأمل فى رؤية دم
الحيض ، فعليكم إن ارتبتم ، وشككتم فى عدتهن أو جهلتموها ، أن تقدروها
، بثلاثة أشهر .هذا ، وقد قدر بعضهم سن اليأس بالنسبة للمرأة بستين سنة
وبعضهم قدره بخمس وخمسين سنة .وبعضهم لم يحدده بسن معينة ، بل قال : إن هذا
السن يختلف باختلاف الذوات والأقطار والبيئات . . . كاختلاف سن ابتداء
) : الحيض .وقوله - تعالى - : ( واللائي لَمْ يَحِضْنَ ) معطوف على قوله
: واللائي يَئِسْنَ ) وهو مبتدأ وخبره محذوف لدلالة ما قبله عليه .والتقدير
واللائى يئسن من المحيض من نسائكم ، إن إرتبتم فى عدتهن ، فعدتهن ثلاثة
- أشهر ، واللاتى لم يحضن بعد لصغرهن ، وعدم بلوغهن سن المحيض . . فعدتهن
أيضا - ثلاثة أشهر .ثم انتقلت السورة الكريمة إلى بيان عدة المرأة ذات
الحمل ، فقال - تعالى - : ( وَأُوْلاَتُ الأحمال أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ
حَمْلَهُنَّ . . ) .وقوله : ( وَأُوْلاَتُ ) : اسم جمع للفظ ذات . بمعنى
صاحبة ، لأنه لا مفرد لكلمة ( أُوْلاَتُ ) من لفظها ، كما أنه لا مفرد من
لظفها لكلمة " أولو " التى هى بمعنى أصحاب ، وإنما مفردها " ذو " .والأحمال
جمع حمل - بفتح الحاء - كصحب وأصحاب ، والمراد به : الجنين الذى يكون فى
. . بطن المرأة .والأجل : انتهاء المدة المقدرة للشىء .وقوله : ( أُوْلاَتُ
مبتدأ ، و ( أَجَلُهُنَّ ) مبتدأ ثان ، وقوله : ( أَن يَضَعْنَ (
حَمْلَهُنَّ ) خبر المبتدأ الثاني ، والمبتدأ وخبره ، خبر الأولى .والمعنى
والنساء ذوات الأحمال ( أَجَلُهُنَّ ) أى : نهاية عدتهن ، أن يضعن ما فى :
بطونهن من حمل ، فمتى وضعت المرأة ما فى بطنها ، فقد انقضت عدتها ، لأنه
ليس هناك ما هو أدل على براءة الرحم ، من وضع الحمل .وهذا الحكم عام فى كل
ذوات الأحمال ، سواء أكن مطلقات ، أم كن قد توفى عنهن أزواجهن .وقد ساق
الإمام ابن كثير جملة من الأحاديث التى تؤيد ذلك ، ومن تلك الأحاديث ما
، رواه الشيخان ، من أن سبيعة الأسلمية وضعت بعد موت زوجها بأربعين ليلة
فخطبت فأنكحها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأحد أصحابه ،وعن أبى بن
كعب قال : قلت للنبى - صلى الله عليه وسلم - : ( وَأُوْلاَتُ الأحمال
أَجَلُهُنَّ أن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ) : للمطلقة ثلاثا وللمتوفى عنها
زوجها؟ فقال : هى للمطلقة ثلاثا وللمتوفى عنها .قالوا : ولا تعار بين هذه
الآية ، وبين قوله - تعالى - فى سورة البقرة ( والذين يُتَوَفَّوْنَ
مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ
أَشْهُرٍ وَعَشْراً . . . ) لأن آية سورة البقرة ، خاصة بالنساء اللائى
توفى عنهن أزواجهن ولم يكن هؤلاء النساء من ذوات الأحمال .وفى هذه المسألة
أقوال أخرى مبسوطة فى مظانها . . .ثم كرر - سبحانه - الأمر بتقواه ، وبشر
المتقين بالخير العميم فقال : ( وَمَن يَتَّقِ الله ) - تعالى - فينفذ ما
كلف به . وبتعد عما نهى عنه .( يَجْعَل لَّهُ ) سبحانه ( مِنْ أَمْرِهِ
يُسْراً ) أى : يجعل له من الأمر العسير أمرا ميسورا . ويحول له الأمر
. . الصعب إلى أمر سهل ، لأنه - سبحانه - له الخلق والأمر

ذلك امر الله انزله اليكم ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له اجرا

كما فسرها الوسيط ( ذَلِكَ ) الذى ذكرناه لكم من أحكام ( أَمْرُ الله ) أى
). حكمه وشرعه ( أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ ) لتعلموا به ، وتسيروا على هديه :
وَمَن يَتَّقِ الله ) - تعالى - فى كل شئونه وأحواله . . ( يُكَفِّرْ
) ، عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ ) أى : يمح عنه ذنوبه ، ولا يؤاخذه عليها
وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً ) أى : ويضاعف له حسناته ، ويجزل له العطاء
. والمثوبة يوم القيامة

اسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن وان كن اولات حمل
فانفقوا عليهن حتى يضعن حملهن فان ارضعن لكم فاتوهن اجورهن واتمروا بينكم
بمعروف وان تعاسرتم فسترضع له اخرى

كما فسرها الوسيط ثم أمر - سبحانه - الرجال بأن يحسنوا معاملة النساء
) : المطلقات ، ونهاهم عن الإساءة إليهن بأى لون من ألوان الإساءة فقال
أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ . . . ) والخطاب
) للرجال الذين يريدون فراق أزواجهن ، والضمير المنصوب فى قوله
: أَسْكِنُوهُنَّ ) يعود إلى النساء المطلقات .و ( مِنْ ) للتبعيض ، والوجد

السعة والقدرة .أى : أسكنوا المطلقات فى بعض البيوت التى تسكنونها والتى فى
وسعكم وطاقتكم إسكانهن فيها .قال صاحب الكشاف : قوله : ( أَسْكِنُوهُنّ )
وما بعده : بيان لما شرط من التقوى فى قوله : ( وَمَن يَتَّقِ الله
يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ . ) كأنه قيل : كيف نعمل بالتقوى فى شأن
المعتدات؟ فقيل : ( أَسْكِنُوهُنّ ) .فإن قلت : فقوله : ( مِّن وُجْدِكُمْ
ما موقعه؟ قلت : هو عطف بيان لقوله ( مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم ) ، وتفسير له (
: كأنه قيل : أسكنوهن مكانا من مسكنكم مما تطيقونه .والسكنى والنفقة ،
واجبتان لكل مطلقة . وعند مالك والشافعى : ليس للمبتونة إلا السكن ولا نفقة
" : لها ، وعن الحسن وحماد :لا نفقه لها ولا سكنى ، لحديث فاطمة بنت قيس
أن زوجها أبتّ طلاقها ، فقال لها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - "لا
سكنى لك ولا نفقة . . . " .ثم أتبع - سبحانه - الأمر بالإحسان إلى
المطلقات ، بالنهى عن إلحاق الأذى بهن فقال : ( وَلاَ تُضَآرُّوهُنّ
لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنّ . . ) .أى : ولا تستعملوا معهن ما يؤذيهن
ويضرهن ، لكى تضيقوا عليهن ما منحه الله - تعالى - لهن من حقوق ، بأن
تطيلوا عليهن مدة العدة ، فتصبح الواحدة منهن كالمعلقة ، أو بأن تضيقوا
- عليهن فى السكنى ، حتى يلجأن إلى الخروج ، والتنازل عن حقوقهن .وقوله
تعالى - : ( وَإِن كُنَّ أُوْلاَتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حتى
يَضَعْنَ حَمْلَهُنّ . . ) أى : وإن كان المطلقات أصحاب حمل - فعليكم يا
معشر الأزواج - أن تقدموا لهن النفقة المناسبة ، حتى يضعن حملهن .قال
. الإمام ابن كثير : قال كثير من العلماء منهم ابن عباس ، وطائفة من السلف
هذه هى البائن ، إن كانت حاملا أنفق عليها حيث تضع حملها ، قالوا : بدليل
أن الرجعية تجب نفقتها سواء أكانت حاملا أم غير حامل .وقال آخرون : بل
السياق كله فى الرجعيات ، وإنما نص على الإنفاق على الحامل - وإن كانت
رجعية - لأن الحمل تطول مدته غالبا . فاحتيج إلى النص على وجوب الإنفاق إلى
الوضع ، لئلا يتوهم أنه إنما تجب النفقة بمقدار مدة العدة .ولما كان الحمل
ينتهى بالوضع ، انتقلت السورة الكريمة إلى بيان ما يجب للمطلقات بعد الوضع
فقال - تعالى - : ( فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنّ أُجُورَهُنّ ) ،
أى : عليكم - أيها المؤمنون - أن تقدموا لنسائكم ذوات الحمل اللائى.
طلقتموهن طلاقا بائنا ، عليكم أن تقدموا لهن النفقة حتى يضعن حملهن ، فإذا
ما وضعن حملهن وأرادوا أن يرضعن لكم أولادكم منهن ، فعليكم - أيضا - أن
تعطوهن أجورهن على هذا الإرضاع ، وأن تلتزموا بذلك لهن .وقد أخذ العلماء من
هذه الآية أن الأم المطلقة طلاقا بائنا ، إذا أرادت أن ترضع ولدها بأجر
المثل ، فليس لأحد أن يمنعها من ذلك ، لأنها أحق به من غيرها ، لشدة شفقتها
عليه . . . وليس للأب أن يسترضع غيرها حينئذ . كما أخذوا منها - أيضا - أن
نفقة الولد الصغير على أبيه ، لأنه إذا لزمته أجرة الرضاع ، فبقية النفقات
الخاصة بالصغير تقاس على ذلك .وقوله - سبحانه - : ( وَأْتَمِرُواْ
بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ ) حض منه - سبحانه - للآباء والأمهات على التعاون
، والتناصح فى وجوه الخير والبر .والائتمار معناه : التشاور وتبادل الرأى
وسمى التشاور بذلك لأن المتشاورين فى مسألة ، يأمر أحدهما الآخر بشىء
- فيستجيب لأمره ، ويقال : أئتمر القوم وتآمروا بمعنى واحد .أى : عليكم
أيها الآباء والأمهات - أن تتشاوروا فيما ينفع أولادكم ، وليأمر بعضكم بعضا
) : - بما هو حسن ، فيما يتعلق بالإرضاع والأجر وغيرهما .وقوله - تعالى
وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى ) إرشاد إلى ما يجب عليهما فى
حالة عدم التراضى على الإرضاع أو الأجر .والتعاسر مأخوذ من العسر الذى هو
ضد اليسر والسماحة ، يقال تعاسر المتبايعان ، إذا تمسك كل واحد منهما برأيه
، دون أن يتفقا على شىء .أى : وإن اشتد الخلاف بينكم ، ولم تصلوا إلى حل ،
بأن امتنع الأب عن دفع الأجرة للأم ، أو امتنعت الأم عن الإرضاع إلا بأجر
معين . فليس معنى ذلك أن يبقى المولود جائعا بدون رضاعة ، بل على الأب أن
يبحث عن مرضعة أخرى ، لكى ترضع له ولده ، فالضمير فى قوله ( لَهُ ) يعود
على الأب .قال صاحب الكشاف قوله : ( وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ
أُخْرَى ) أى : فستوجد مرضعة غير الأم ترضعه ، وفيه طرف من معاتبة الأم على
المعاسرة ، كما تقول لمن تستقضيه حاجة فيتوانى : سيقضيها غيرك . تريد لن
تبقى غير مقضية وأنت ملوم .وقد علق المحشى على الكشاف بقوله : وخص الأم
بالمعاتبة ، لأن المبذول من جهتها هو لبنها وهو غير متمول ولا مضنون به فى
العرف ، وخصوصا فى الأم على الولد ، ولا كذلك المبذول من جهة الأب ، فإنه
: المال المضنون به عادة فالأم إذاً أجدى باللوم ، وأحق بالعتب . .قالوا
وفى هذه الجملة - أيضا - طرف من معاتبة الأب ، لأنه كان من الوجاب عليه أن
. يسترضى الأم ، ولا يكون مصدر عسر بالنسبة لها ، حرصا على مصلحة الولد

لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما اتاه الله لا يكلف الله
نفسا الا ما اتاها سيجعل الله بعد عسر يسرا

كما فسرها الوسيط ثم رسم - سبحانه - لعباده المنهج الذى لو ابتعوه لعاشوا
: آمنين مطمئنين فقال : ( لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ) .والإنفاق

بذل المال فى المصالح المتنوعة التى أحلها الله - تعالى - ، كالمأكل والمشرب ، والملبس ، والمسكن ، وإعطاء كل ذى حق حقه . .والسعة : البسطة فى المال والرزق .أى : على كل من أعطاه الله - تعالى - سعة وبسطة فى المال والرزق ، أن ينفق مما أعطاه الله - تعالى - وأن لا يبخل ، فإن البخل صفة قبيحة ، ولا سيما فى الأغنياء .فعيكم - أيها الآباء - أن تعطوا بسخاء كل من يستحقون العطاء ، وعلى رأسهم الأمهات لأولادكم ، اللائى يقمن بإرضاعهم بعد مفارقتكم لهن ، وأن لا تبخلوا عليهن فى أجرة الرضاع ، أو فى النفقة على الأولاد .ثم قال - تعالى - : ( وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ آتَاهُ الله . . ) أى : ومن كان رزقه ضيقا وليس واسعا .. . فلينفق ) : على قدر ماله ورزقه وطاقته ، مما آتاه الله - تعالى - من رزق .وقوله لاَ يُكَلِّفُ الله نَفْساً إِلاَّ مَآ آتَاهَا . . ) تعليل لما قبله ، أى فلينفق كل إنسان على نفسه وعلى زوجه ، وعلى أولاده ، وعلى أقاربه ، وعلى غيرهم . على حسب حاله ، فإن كان موسرا أنفق على حسب يسره ، وإن كان معسرا أنفق على حسب عسره . . . لأن الله - تعالى -لا يكلف نفسا إلا بقدر ما أعطاها من طاقة أو رزق .روى ابن جرير أن عمر بن الخطاب سأل عن أبى عبيدة فقيل له : إنه يلبس الغليظ من الثياب ، ويأكل الخشن من الطعام ، فبعث إليه بألف دينار ، وقال للرسول : انظر ماذا يصنع أذا أخذها : فلما أخذها ، ما لبث أن لبس ألين الثياب ، وأكل أطيب الطعام . . . فجاء الرسول فأخبره فقال عمر : رحم الله أبا عبيدة ، لقد عمل بهذه الآية : ( لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ آتَاهُ الله . . ) .ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة ببشارة لمن يتبع أمره فقال - أى : سيجعل الله - تعالى ( سَيَجْعَلُ الله بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً ) . بفضله وإحسانه - اليسر بعد العسر ، والسعة بعد الضيق ، والغنى بعد الفقر ، لمن شاء من عباده ، لأنه - سبحانه - هو الذى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر . وهو بعباده خبير بصير .قال الإمام ابن كثير : وقد روى الإمام أحمد عن أبى هريرة قال : دخل رجل على أهله . فلما رأى ما بهم من الفاقة خرج إلى البرية لما رأت امرأته ذلك قامت إلى الرحى فوضعتها ، وإلى التنور فسجرته - أى ، أوقدته - ، ثم قالت : اللهم ارزقنا ، فنظرت ، فإذا الجفنة قد امتلأت . .قال وذهبت إلى التنور فوجدته ممتلئا ، قال : فرجع الزوج فقال لأهله : أأصبتم : بعدى شيئا؟ فقالت امرأته : نعم من ربنا . . .فذكر الرجل ذلك للنبى - صلى الله عليه وسلم - فقال : أما إنه لو لم ترفعها ، لم تزل تدور إلى يوم القيامة . .وبعد هذه التشريعات الحكيمة التى تتعلق بالطلاق وما يترتب عليه من آثار ، وبعد هذا التذكير المتكرر بوجوب تقوى الله - تعالى - والمحافظة على أداء تكاليفه ، وبعد هذا الوعظ والمثر فى قلوب الذين يؤمنون بالله . . . واليوم الآخر

وكاين من قرية عتت عن امر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا

كما فسرها الوسيط بعد كل ذلك ساق - سبحانه - جانبا من سوء عاقبة الأقوام الذين فسقوا عن أمر ربهم ، وخالفوا رسله : وكرر الأمر بتقواه ، وذكر الناس بجانب من نعمه ، حيث أرسل إليهم رسوله - صلى الله عليه وسلم - ليتلوا عليهم - آياته . . . كما ذكرهم بعظيم قدرته - تعالى - وشمول علمه ، فقال - سبحانه كلمة ( وَكَأَيِّن ) اسم لعدد كثير. ( . . . وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ ) : منهم ، يفسره ما بعده ، فهى بمعنى " كم " الخبرية التى تفيد التكثير ، وهى مبتدأ ، وقوله ( مِّن قَرْيَةٍ ) تمييز لها .وجملة ( عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا ) خبر للمبتدأ . والعتو : الخروج عن الطاعة ، يقال : عتا فلان يعتو عتوا وعتيا . إذا تجبر وطغى وتجاوز الحدود فى الاستكبار والعناد والمراد بالقرية : أهلها ، على سبيل المجاز المرسل ، من إطلاق المحل. وإرادة الحال ، فهو كقوله - تعالى - : ( وَسْئَلِ القرية التي كُنَّا فِيهَا ) والقرينة على أن المراد بالقرية أهلها ، قوله - تعالى - بعد ذلك : والمراد بالمحاسبة فى قوله. ( . . أَعَدَّ الله لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً ) المجازاة والمعاقبة الدنيوية على أعمالهم ، بدليل ( . . فَحَاسَبْنَاهَا ) قوله - تعالى - عن العذاب الأخروى بعد ذلك ( أَعَدَّ الله لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً . . ) .ويجوز أن يراد بالمحاسبة هنا : العذاب الأخروى ، وجىء بلفظ الماضى على سبيل التأكيد وتحقق الوقوع ، كما فى قوله - تعالى - : ( ونادي أَصْحَابُ الجنة أَصْحَابَ النار . . ) ويكون قوله - سبحانه - : ( أَعَدَّ الله لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً . . ) تكريرا للوعيد .والمعنى : وكثير من أهل القرى الماضية ، خرجوا عن طاعة ربهم ، وعصوا رسله ، فكانت نتيجة ذلك أن سجلنا عليهم أفعالهم تسجيلا دقيقا ، وجازيناهم عليها جزاء عادلا ، بأن عذبناهم عذابا فظيعا . وعاقبناهم عقابا نكرا . .والشىء النكر بضمتين وبضم فسكون - ما ينكره العقل من شدة كيفية حدوثه إنكارا عظيما .

فذاقت وبال امرها وكان عاقبة امرها خسرا

كما فسرها الوسيط والفاء فى قوله - تعالى - : ( فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا . . . ) للتفريع على ما تقدم .والوبال : الثقل ، ومنه الطعام الوبيل ، أى : الوخيم الثقيل على المعدة فيكون سببا فى فسادها ومرضها . والذوق : الإحساس بالشىء إحساسا واضحا . .أى : فترتب على هذا الحساب والعقاب ، أن ذاق أهل تلك القرى سوء عاقبة بغيهم وجحودهم لنعم الله .وكان عاقبة أمرها خسرا أى : وكانت نهايتهم نهاية خاسرة خسارة عظيمة ، كما يخسر التاجر صفقته التجارية التى عليها قوام حياته .

اعد الله لهم عذابا شديدا فاتقوا الله يا اولي الالباب الذين امنوا قد انزل الله اليكم ذكرا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما أعده لهم فى الآخرة من عذاب ، بعد بيان ما حل بهم فى الدنيا فقال : ( أَعَدَّ اللَّه لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً أى : أن ما أصابهم فى الدنيا بسبب فسوقهم عن أمر ربهم ، ليس نهاية. ( . . المطاف ، بل هيأ الله - تعالى - لهم عذابا أشد من ذلك وأبقى فى الآخرة .وما دام كذلك ( فاتقوا الله ياأولي الألباب الذين آمَنُواْ قَدْ أَنزَلَ الله إِلَيْكُمْ ذِكْراً . . ) .والألباب جمع لب ، وهو العقل السليم الذى يرشد صاحبه إلى الخير والبر .وقوله ( الذين آمَنُواْ ) منصوب بإضمار أعنى على ، سبيل البيان للمنادى ، أو عطف بيان له .والمراد بالذكر : القرآن الكريم وقد سمى بذلك فى آيات كثيرة منها قوله - تعالى - : ( لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ . . . )أى : فيه شرفكم وعزكم ، وفيه ما يذكركم بالحق ، وينهاكم عن الباطل .أى : فاتقوا الله - تعالى - يا أصحاب - العقول السليمة ، ويامن آمنتم بالله - تعالى - حق الإيمان ، فهو - سبحانه الذى أنزل عليكم القرآن الكريم ، الذى فيه ما يذكركم عما غفلتم عنه من عقيدة سليمة ، ومن أخلاق كريمة ، ومن آداب قويمه .وفى ندائهم بوصف " أولى الألباب " إشعار بأن العقول الراجحة هى التى تدعو أصحابها إلى تقوى الله وطاعته ، وإلى كل كمال فى الطباع والسلوك .

رسولا يتلو عليكم ايات الله مبينات ليخرج الذين امنوا وعملوا الصالحات من الظلمات الى النور ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ابدا قد احسن الله له رزقا

كما فسرها الوسيط والمراد بالرسول فى قوله - تعالى - : ( رَّسُولاً يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ آيَاتِ الله مُبَيِّنَاتٍ ) محمد - صلى الله عليه وسلم - وللمفسرين جملة من الأقوال فى إعرابه ، فمنهم من يرى أنه منصوب بفعل مقدر ، ومنهم من يرى أنه بدل من ذكرا . .والمعنى : فاتقوا الله - أيها . . المؤمنون - فقد أنزلنا إليكم قرآنا فيه ما يذكركم بخير الدنيا والآخرة وأرسلنا إليكم رسولا هو عبدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - لكى يتلو . عليكم آياتنا تلاوة تدبر وفهم ، يعقبهما تنفيذ ما اشتملت عليه هذه الآيات من أحكام وأداب وهدايات . .ولكى يخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من ظلمات الشرك الذى كانوا واقعين فيه ، إلى نور الإيمان الذى صاروا إليه .ومنهم من : فسر الذكر بالرسول - صلى الله عليه وسلم - .قال الآلوسى ما ملخصه : وقوله - هو النبى - صلى الله عليه وسلم ( قَدْ أَنزَلَ الله إِلَيْكُمْ ذِكْراً ) - وعبر عنه بالذكر ، لمواظبته على تلاوة القرآن الذى هو ذكر . .وقوله تعالى - ( رّسُولاً ) بدل من ( ذِكْراً ) ، وعبر عن إرساله بالإنزال ، لأن الإرسال مسبب عنه .والظاهر أن الذكر هو القرآن ، والرسول هو محمد - صلى - الله عليه وسلم - ورسولا منصوب بمقدر ، أى : وأرسل رسولا . .ثم بين سبحانه - حسن عاقبة المؤمنين الصادقين فقال: ( وَمَن يُؤْمِن بالله ) إيمانا حقا ( وَيَعْمَلْ ) عملا ( صَالِحاً يُدْخِلْهُ ) - سبحانه - بفضله وإحسانه ( جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَداً ) خلودا أبديا . .وقوله : ( قَدْ أَحْسَنَ الله لَهُ رِزْقاً ) حال من الضمير فى قوله ( يُدْخِلْهُ ) ، والجمع فى الضمائر باعتبار معنى ( مِن كما أن الأفراد فى الضمائر الثلاثة باعتبار لفظها : والرزق : كل ما ينتفع ( به الإنسان ، وتنكيره للتعظيم .أى : قد وسع الله - تعالى - لهذا المؤمن الصادق فى إيمانه رزقه فى الجنة ، وأعطاه من الخير والنعيم ، ما يشرح صدره . . ويدخل السرور على نفسه . ويصلح باله ،

الله الذي خلق سبع سماوات ومن الارض مثلهن يتنزل الامر بينهن لتعلموا ان الله على كل شيء قدير وان الله قد احاط بكل شيء علما

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بما يدل على كمال قدرته وسعة علمه فقال : ( الله الذي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأرض ، مِثْلَهُنّ . . ) .أى : الله - تعالى - وحده هو الذى خلق سبع سماوات طباقا

وخلق من الأرض مثلهن ، أى : فى العدد فهى سبع كالسماوات .والتعدد قد يكون باعتبار أصول الطبقات الطينية والصخرية والمائية والمعدنية ، وغير ذلك من الاعتبارات التى لا يعلمها إلا الله - تعالى - .قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية يقول - تعالى - مخبرا عن قدرته التامة ، وسلطانه العظيم ليكون ذلك باعثا على تعظيم ما شرع من الدين القويم : ( الله الذي خَلَقَ ، ) : سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ) كقوله - تعالى - إخبارا عن نوح أنه قال لقومه ( . . أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ اللّه سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً وقال - تعالى - ( تُسَبِّحُ لَهُ السماوات السبع والأرض وَمَن فِيهِنّ ) وقوله : ( وَمِنَ الأرض مِثْلَهُنَّ ) أى : سبعا - أيضا - كما ثبت فى الصحيحين : " من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه مع سبع أرضين " .ومن حمل ذلك على سبعة أقاليم ، فقد أبعد النجعة ، وأغرق فى النزع ، وخالف القرآن والحديث بلا مستند . .وقال الآلوسى : الله الذى خلق سبع سماوات مبتدأ وخبر ) أى : وخلق من الأرض مثلهن ، على أن ( وَمِنَ الأرض مِثْلَهُنّ ) مِثْلَهُنّ ) مفعول محذوف ، والجملة معطوفة على الجملة قبلها .والمثلية تصدق بالاشتراك فى بعض الأوصاف ، فقال الجمهور : هى هنا فى كونها سبعا وكونها طباقا بعضها فوق بعض ، بين كل أرض وأرض مسافة كما بين السماء والأرض - وفى كل أرض سكان من خلق الله ، لا يعلم حقيقتهم أحد إلا الله - تعالى ، وقيل : المثلية فى الخلق لا فى العدد ولا فى غيره ، فهى أرض واحدة مخلوقة. - كالسموات السبع .ورد هذا القيل بأنه قد صح من رواية البخارى وغيره ، قوله صلى الله عليه وسلم - : " اللهم رب السموات السبع وما أظللن ، ورب الأرضين السبع وما أقللن . . " .والذى نراه أن كون المثلية فى العد ، هو المعول عليه ، لورود الأحاديث الصحيحة التى صرحت بأن الأرضين سبع ، فعلينا أن نؤمن بذلك ، وأن نرد كيفية تكوينها ، وهيئاتها ، وأبعادها ، ومساحاتها ، وخصائصها . . . إلى علم الله - تعالى - .وقوله : ( يَتَنَزَّلُ الأمر بَيْنَهُنَّ ) أى : يجرى أمر الله - تعالى - وقضاؤه وقدره بينهن ، وينفذ - حكمه فيهن ، فالمراد بالأمر : قضاؤه وقدره ووحيه .واللام فى قوله - تعالى - لِتعلموا أَنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ الله قَدْ ) : - أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً ) متعلقة بقوله ( خَلَقَ ) . .أى : خلق سبحانه - سبع سماوات ومن الأرض مثلهن ، وأخبركم بذلك ، لتعلموا علما تاما أن الله - تعالى - على كل شىء قدير ، وأن علمه - تعالى - قد أحاط بكل شىء سواء أكان هذا الشىء جليلا أم حقيرا ، صغيرا أم كبيرا .وبعد : هذا تفسير لسورة " الطلاق " نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ونافعا لعباده . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ،

يا ايها النبي لم تحرم ما احل الله لك تبتغي مرضات ازواجك والله غفور رحيم

) : - كما فسرها الوسيط قد افتتح سبحانه - السورة الكريمة بقوله - تعالى يا أيها النبي لِمَ تُحَرِّمُ . . . . ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً ) .وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات روايات متعددة ، منها ما رواه الشيخان وغيرهما عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : " كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يشرب عسلا عند زينب بنت جحش ، ويمكث عندها فتواطأت أنا وحفصة على أيتنا دخل عليها فلتقل له : أكلت مغافير؟ - والمغافير : صمغ حلو له ، رائحة كريهة - إنى أجد منك ريح مغافير .فدخل على إحداهما فقالت له ذلك فقال : بل شربت عسلا عند زينب بنت جحش ولن أعود إليه ، وقد حلفت ، فلا تخبرى بذلك أحدا ، فنزلت هذه الآيات " .وفى رواية أن التى شرب عندها العسل حفصة بنت عمر ، وأن القائلة له ذلك : سودة بنت زمعة ، وصفية بنت حيى : قالوا : والاشتباه فى الاسم لا يضر ، بعد ثبوت أصل القصة .وأخرج النسائى. - والحاكم وصححه وابن مردويه عن أنس ، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم ، كانت له أمة يطؤها ، فلم تزل به عائشة وحفصة حتى جعلها على نفسه حراما فأنزل الله - تعالى - ( يا أيها النبي لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ الله لَكَ الآيات . . . ) .وروى ابن جرير عن زيد بن أسلم : أن رسول الله - صلى . . . الله عليه وسلم - أصاب أم إبراهيم مارية ، فى بيت بعض نسائه - وفى رواية فى بيت حفصة فقالت : يا رسول الله فى بيتى وعلى فراشى؟ فجعلها أى مارية - عليه " : حراما ، وحلف بهذا . . . فأنزل الله هذه الآيات .قال القرطبى ما ملخصه وأصح هذه الأقوال أولها . . . والصحيح أن التحريم كان فى العسل ، وأنه شربه عند زينب ، وتظاهرت عليه عائشة وحفصة فيه ، فجرى ما جرى فحلف أن لا يشربه وأسر ذلك ، ونزلت الآية فى الجميع " .وقال الإمام ابن كثير - بعد أن ساق عددا من الروايات فى هذا الشأن : والصحيح أن ذلك كان فى تحريمه - صلى الله عليه وسلم - للعسل .وقال الآلوسى : قال النووى فى شرح مسلم : الصحيح أن الآية فى قصة العسل ، لا فى قصة مارية المروية فى غير الصحيحين ، ولم تأت قصة مارية من طريق صحيح .والصواب أن شرب العسل كان عند زينب بنت جحش .وقد افتتح - سبحانه - السورة الكريمة بتوجيه النداء إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فقال : ( ياأيها النبي لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ الله لَكَ ) .وفى توجيه النداء إليه - صلى الله عليه وسلم - تنبيه إلى أن ما سيذكر بعد

- النداء ، شىء مهم ، بالنسبة له ولسائر المسلمين .والاستفهام فى قوله
تعالى - ( لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ اللهُ لَكَ . . ) للنفى المصحوب
بالعتاب منه - سبحانه - لنبيه - صلى الله عليه وسلم - .وجملة ( تَبْتَغِي
مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ ) حال من فاعل ( تُحَرِّمُ ) ، والعتاب واقع على
مضمون هذه الجملة والتى قبلها ، وهى قوله ( لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ
اللهُ لَكَ ) .والمعنى : يا أيها الرسول الكريم ، لماذا حرمت على نفسك ما
أحله الله - تعالى - لك من شراب أو غيره؟ أفعلت ذلك من أجل إرضاء
أزواجك؟إنه لا ينبغى لك أن تفعل ذلك ، لأن ما أباحه الله - تعالى - لك ، لا
يصح أن تحرمه على نفسك أو أن تمتنع عن تعاطيه ، فتشق على نفسك من أجل إرضاء
غيرك .قال بعض العلماء : " ناداه بلفظ " النبى " إشعارا بأنه الذى نُبئَ
بأسرار التحليل والتحريم الإلهى ، والمراد بتحريمه ما أحِل له ، امتناعه
منه ، وحظره إياه على نفسه .وهذا المقدار مباح ، ليس فى ارتكابه جناح
، وإنما قيل له ( لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ اللهُ لَكَ ) رفقا به ، وشفقة
عليه ، وتنويها لقدره ولمنصبه - صلى الله عليه وسلم - أن يراعى مرضاة
أزواجه بما يشق عليه ، جريا على ما ألف من لطف الله - تعالى - به ، ورفعه
عن أن يحرج بسبب أحد من البشر الذين هم أتباعه . . . " .وقوله - سبحانه
- : تسلية للرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه ( واللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ )
من وقع هذا اللوم ، ومن أثر هذا العتاب ، وإرشاد له - صلى الله عليه وسلم
- بأن ما فعله داخل تحت مغفرة الله - تعالى - ورحمته .أى : والله - تعالى
، واسع المغفرة والرحمة وقد غفر لك - بفضله وكرمه ما فعلته بسبب بعض أزواجك
. وجعلك على رأس من تظلهم رحمته

قد فرض الله لكم تحلة ايمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - جانبا من مظاهر رحمته فقال : ( قَدْ
فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ) .وقوله ( فَرَضَ ) هنا بمعنى
شرع ، والتحلة : مصدر بمعنى التحليل ، والمراد بها الكفارة ، وهى مصدر حلّل
- كالتكرمة مصدر كرّم ، من الحل الذى هو ضد العقد .أى : قد شرع الله
تعالى - لكم تحليل الإيمان التى عقد تموها ، عن طريق الكفارة ، لأن اليمين
إذا كانت فى أمر لا يحبه الله - تعالى - فالعدول عنها أولى وأفضل .وفى
الحديث الشريف يقول - صلى الله عليه وسلم - " إنى والله لا أحلف على يمين
فأرى غيرها خيرا منها إلا كفرت عن يمينى وفعلت الذى هو خير " .وقد اختلف
العلماء فى التحريم الذى كن من النبى - صلى الله عليه وسلم - أكان بيمين أم
لا .وظاهر الآية يؤيد القول بالإيجاب لقوله - تعالى - : ( قَدْ فَرَضَ اللهُ
لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ) لأن هذه الجملة الكريمة تشعر بأن هناك
يمينا تحتاج إلى كفارة .وقد جاء فى بعض الروايات الصحيحة أنه قال : " بل
شربت عسلا عند زينب بنت جحش ، فلن أعود له ، وقد حلفت .لا تخبرى بذلك أحدا
قال الآلوسى ما ملخصه : واختلفوا هل كفر النبى - صلى الله عليه. " . .
وسلم - عن يمينه هذه أولا؟فعن الحسن أنه - صلى الله عليه وسلم - لم يكفر
لأنه كان مغفورا له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وإنما هو تعليم للمؤمنين
وعن مقاتل : أنه - صلى الله عليه وسلم - أعتق رقبة . . . ونقل مالك عن زيد.
) : - بن أسلم أنه - صلى الله عليه وسلم - أعطى الكفارة .وقوله - سبحانه
. واللهُ مَوْلاَكُمْ ) أى : وهو - سبحانه - سيدكم ومتولى أموركم وناصركم
، وهو - تعالى - : ( العليم الحكيم ) أى : العليم بجميع أحوالكم وشئونكم
. الحكيم فى كل أقواله وأفعاله وتدبير شئون عباده

واذ اسر النبي الى بعض ازواجه حديثا فلما نبات به واظهره الله عليه عرف
بعضه واعرض عن بعض فلما نباها به قالت من انباك هذا قال نباني العليم
الخبير

كما فسرها الوسيط والظرف فى قوله - تعالى - ( وَإِذَ أَسَرَّ النبي إلى
) : بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً ) متعلق بمحذوف تقديره اذكر ، وقوله
أَسَرّ ) من الإسرار بالشىء بمعنى كتمانه وعدم إشاعته .والمراد ببعض
أزواجه : حفصة - رضى الله عنها - .والمراد بالحديث قوله لها - كما جاء فى
بعض الروايات - : " بل شربت عسلا عند زينب ، ولن أعود ، وقد حلفت فلا تخبرى
، بذلك أحدا . . " .أو قوله لها فى شأن مارية : " إنى قد حرمتها على نفسى
- فاكتمى ذلك فأخبرت بذلك عائشة " .أى : واذكر - أيها العاقل لتعتبر وتتعظ
وقت أن أسر النبى - صلى الله عليه وسلم - إلى زوجه حفصة حديثا ، يتعلق
بشربه العسل فى بيت زينب بنت جحش ، وقوله - صلى الله عليه وسلم - لحفصة لا
تخبرى بذلك أحدا " .( فَلَمّا نَبّأَتْ بِهِ ) أى : فلما أخبرت حفصة
: عائشة بهذا الحديث الذى أمرت بكتمانه ( وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ ) أى
وأطلع الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - على ما قالته حفصة
لعائشة .فالمراد بالإظهار : الاطلاع ، وهو مشتق من الظهور بمعنى التغلب
وعبر بالإظهار عن الاطلاع ، لأن حفصة وعائشة كانتا حريصتين على عدم معرفة.

ما دار بينهما فى هذا الشأن ، فلما أطلع الله - تعالى - نبيه على ذلك كانتا بمنزلة من غلبتا على أمرهما .وقوله - سبحانه - : ( عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ ) بيان للمسلك السامى الذى سلكه - صلى الله عليه وسلم - فى معاتبته لحفصة على إفشائها لما أمرها أن تكتمه والمفعول الأول لعرف محذوف أى : عرفها بعضه .أى : فحين خاطب - صلى الله عليه وسلم - حفصة فى شأن الحديث الذى أفشته ، اكتفى بالإشارة إلى جانب منه ، ولم يذكر لها تفاصيل ما قاله لها سابقا .لسمو أخلاقه - صلى الله عليه وسلم - إذ فى ذكر التفاصيل مزيد من الخجل والإحراج لها .قال بعضهم : ما زال التغافل من فعل الكرام وما استقصى كريم قط وقال الشاعر :ليس الغبى بسيد فى قومه ... لكن ، سيد قومه المتغابىوإنما عرفها - صلى الله عليه وسلم - ببعض الحديث ليوقفها على خطئها وعلى أنه كان من الواجب عليها أن تحفظ سره - صلى الله عليه وسلم - .قالوا : ولعل حفصة رضى الله عنها - قد فعلت ذلك ، ظنا منها أنه لا حرج فى إخبار عائشة بذلك ، أو أنها اجتهدت فأخطأت ، ثم تابت وندمت - على خطئها .ثم حكى - سبحانه - ما قالته حفصة للرسول - صلى الله عليه وسلم وما رد به عليها فقال : ( فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هذا قَالَ نَبَّأَنِيَ العليم الخبير ) .أى : فلما سمعت من الرسول - صلى الله عليه وسلم - ما يدل على أنه قد أطلع على ما قالته لعائشة ، قالت له : من أخبرك بما دار بينى وبينها؟ فأجابها - صلى الله عليه وسلم - بقوله أخبرنى بذلك الله - تعالى - العليم بجميع أحوال عباده وتصرفاتهم . . الخبير - بما تكنه الصدور ، وبما يدور فى النفوس من هواجس وخواطر .وإنما قالت له صلى الله عليه وسلم - : ( مَنْ أَنبَأَكَ هذا ) لتتأكد من أن عائشة لم تخبره - صلى الله عليه وسلم - بما دار بينهما فى هذا الشأن . . . فلما قالت لها - صلى الله عليه وسلم - : ( نَبَّأَنِيَ العليم الخبير ) تحقق ظنها فى كتمان عائشة لما قالته لها ، وتيقنت أن الذى أخبره بذلك هو الله - عز وجل - .وفى تذلل الآية الكريمة بقوله : ( العليم الخبير ) إشارة حكيمة وتنبيه بليغ ، إلى أن من الواجب على كل عاقل ، أن يكون ملتزما لكتمان الأسرار التى يؤتمن عليها ، وأن إذاعتها - ولو فى أضيق الحدود - لا تخفى على الله - عز وجل - لأنه - سبحانه - عليم بكل معلوم ، ومحيطب بخبايا النفوس وخلجاتها .

ان تتوبا الى الله فقد صغت قلوبكما وان تظاهرا عليه فان الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير

، كما فسرها الوسيط ثم وجه - سبحانه - بعد ذلك خطابه إلى حفصة وعائشة فأمرهما بالتوبة عما صدر منهما .فقال : ( إِن تَتُوبَآ إِلَى الله فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ) .ولفظ ( صَغَتْ ) بمعنى مالت وانحرفت عن الواجب عليهما . يقال صغا فلان يصغو ويصغى صغوا ، إذا مال نحو شىء معين . ويقال : صغت الشمس ، إذا مالت نحو الغروب ، ومنه قوله - تعالى - : ( ولتصغى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة ) وجواب الشرط محذوف ، والتقدير : إن تتوبا إلى الله ، فلتوبتكما موجب أو سبب ، فقد مالت قلوبكما عن الحق ، وانحرفت عما يجب عليكما نحو الرسول - صلى الله عليه وسلم - من كتمان لسره ، ومن حرص على راحته ، ومن احترام لكل تصرف من تصرفاته . .. وجاء الخطاب لهما على سبيل الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ، مبالغة فى المعاتبة ، فإن المبالغ فى ذلك يوجه الخطاب إلى من يريد معاتبته مباشرة وقال - سبحانه - ( فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ) بصيغة الجمع للقلوب ، ولم يقل قلبا كما بالتثنية ، لكراهة اجتماع تثنيتين فيما هو كالكلمة الواحدة ، مع ظهور المراد ، وأمن اللبس .ثم ساق - سبحانه - ما هو أشد فى التحذير والتأديب فقال : ( إِن تَتُوبَآ إِلَى الله فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاَهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلاَئِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ) .وقوله ( تَظَاهَرَا ) أصله تتظاهرا فحذفت إحدى التاءين تخفيفا . والمراد بالتظاهر ، التعاون والتآزر ، يقال : ظاهر فلان فلانا إذا أعانه على ما يريده : - وأصله من الظهر ، لأن من يعين غيره فكأنه يشد ظهره ، ويقوى أمرهقال تعالى - : ( إِلاّ الذين عَاهَدتُّم مِّنَ المشركين ثُمّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَداً فأتموا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إلى مُدَّتِهِمْ ) وجواب الشرط - أيضا - محذوف - أى وإن تتعاونا عليه بما يزعجه ، ويغضبه ، من الإفراط فى الغيرة ، وإفشاء : سره . فلا يعدم ناصرا ولا معينا بل سيجد الناصر الذى ينصره عليكما ، فإن الله - تعالى - ( هُوَ مَوْلاَهُ ) أى : ناصره ومعينه ( وَجِبْرِيلُ ) كذلك ناصره ومعينه عليكما .( وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ) أى : وكذلك الصالحون من المؤمنين من أنصاره وأعوانه .( وَالْمَلاَئِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ) أى : والملائكة بعد نصر الله - تعالى - له ، وبعد نصر جبريل وصالح المؤمنين له ، مؤيدونه ومناصرونه وواقفون فى صفه ضدكما .وفى هذه الآية الكريمة أقوى ألوان النصر والتأييد للرسول - صلى الله عليه وسلم - وأسمى ما يتصوره

- الإنسان من تكريم الله - تعالى - لنبيه - صلى الله عليه وسلم - ومن غيرته
عز وجل - عليه ، ومن دفاعه عنه - صلى الله عليه وسلم - .وفيها تعريض بأن من
يحاول إغضاب الرسول - صلى الله عليه وسلم - فإن لا يكون من صالح المؤمنين
وقوله : ( وَجِبْرِيلُ ) مبتدأ ، وقوله : ( وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ.
) وَالْمَلاَئِكَةُ ) معطوف عليه .وقوله : ( بَعْدَ ذَلِكَ ) متعلق بقوله
ظَهِيرٌ ) الذى هو خبر عن الجميع .وقد جاء بلفظ المفرد ، لأن صيغة فعيل
يستوى فيها الواحد وغيره . فكأنه - تعالى - قال : الجمع بعد ذلك مظاهرون له
، واختير الإفراد للإشعار بأنهم جميعا كالشىء الواحد فى تأييده ونصرته ،
) : وبأنهم يد واحدة على من يعاديه .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : قوله
بَعْدَ ذَلِكَ ) تعظيم للملائكة ومظاهرتهم ، وقد تقدمت نصرة الله وجبريل
وصالح المؤمنين ، ونصرة الله - تعالى - أعظم وأعظم؟قلت : مظاهرة الملائكة
من جملة نصرة الله ، فكأنه فضل نصرته - تعالى - بهم وبمظاهرتهم على غيرها
، من وجوه نصرته ، لفضلهم . . " .وخص جبريل بالذكر مع أنه من الملائكة
للتنويه بمزيد فضله ، فهو أمين الوحى ، والمبلغ عن الله - تعالى - إلى رسله
هذا ، ومما يدل على أن الخطاب فى قوله - تعالى - : ( إِن تَتُوبَآ إِلَى.
: الله ) ، لحفصة وعائشة ، ما أخرجه الشيخان وغيرهما عن ابن عباس أنه قال
لم أزل حريصا على أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - اللتين قال الله - تعالى - فيهما : ( إِن تَتُوبَآ إِلَى الله
فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ) .فلما كان ببعض الطريق . . . قلت : يا أمير
المؤمنين ، من المرأتان من أزواج النبى - صلى الله عليه وسلم - اللتان قال
الله تعالى - فيهما : ( إِن تَتُوبَآ إِلَى الله فَقَدْ صَغَتْ
. قُلُوبُكُمَا ) .فقال عمر : واعجبا لك يا ابن عباس . . . هما حفصة وعائشة

عسى ربه ان طلقكن ان يبدله ازواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات
عابدات سائحات ثيبات وابكارا

كما فسرها الوسيط ثم أضاف - سبحانه - إلى تكريمه لنبيه تكريما آخر ، وإلى
تهديده لمن تسىء إليه من أزواجه تهديدا آخر فقال - تعالى - : ( عسى رَبُّهُ
إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِّنكُنَّ ) .قال
الجمل ما ملخصه : سبب نزولها أنه - صلى الله عليه وسلم - لما أشاعت حفصة ما
أسرها به ، اغتم - صلى الله عليه وسلم - وحلف أن لا يدخل عليهن شهرا مؤاخذة
لهن .ولما بلغ عمر - رضى الله عنه - أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قد
اعتزل نساءه . . . قال له يا رسول الله :لا يشق عليك أمر النساء ، فإن كنت
طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل ، وأنا وأبو بكر والمؤمنون
معك .قال عمر : وقلما تكلمت بكلام إلا رجوت أن الله يصدق قولى الذى أقوله
فنزلت هذه الآية .فاستأذن عمر النبى - صلى الله عليه وسلم - أن يخبر الناس
أنه لم يطلق نساءه فأذن له فقام على باب المسجد ، ونادى بأعلى صوته : لم
يطلق النبى - صلى الله عليه وسلم - نساءه .و ( عسى ) كلمت تستعمل فى الرجاء
والمراد بها هنا التحقيق ، لأنها صادرة عن الله - عز وجل - .قال الآلوسى ،
فى كلامه - تعالى - للوجوب ، وأن الوجوب هنا إنما هو بعد تحقق ( عسى ) :
الشرط وقيل : هى كذلك إلا هنا ، والشرط معترض بين اسم ( عسى ) وخبرها
) والجواب محذوف . أى : إن طلقكن فعسى . . . و ( أَزْوَاجاً ) مفعلو ثان ل.
يُبْدِلَ ) و ( خَيْراً ) صفته .أى : عسى إن طلقكن رسولنا محمد - صلى الله
عليه وسلم - بإذن ربه ومشيئته ، أن يبدله - سبحانه - أزواجا خيرا منكن .ثم
وصف - سبحانه - هؤلاء الأزواج بقوله ( مُسْلِمَاتٍ ) منقادات ومطيعات لله
: ولرسوله ، ومتصفات بكل الصفات التى أمر بها الإسلام .( مُّؤْمِنَاتٍ ) أى
مذعنات ومصدقات بقلوبهن لكل ما جاء به النبى - صلى الله عليه وسلم - من عند
).ربه .( قَانِتَاتٍ ) أى : قائمات بالطاعة لله ولرسوله على أكمل وجه
تَائِبَاتٍ ) أى : مقلعات عن الذنوب والمعاصى ، وإذا مسهن شىء منها ندمن
وتبن إليه - تعالى - توبة صادقة نصوحا .( عَابِدَاتٍ ) أى : مقبلات على
عبادته - تعالى - إقبالا عظيما .( سَائِحَاتٍ ) أى : ذاهبات فى طاعة الله
أى مذهب ، من ساح الماء : إذا سال فى انحاء متعددة ، وقيل معناه : مهاجرات
وقيل : صائمات . تشبيها لهن بالسائح الذى لا يصحب معه الزاد غالبا فلا .
يزال ممسكا عن الطعام حتى يجده .( ثَيِّبَاتٍ ) جمع ثيب - بوزن سيد - وهى
المرأة التى سبق لها الزواج ، من ثاب يثوب ثوبا ، إذا رجع ، وسميت المرأة
التى سبق لها الزواج بذلك . لأنها ثابت إلى بيت أبويها بعد زواجها ، أو
رجعت إلى زوج آخر غير زوجها الأول .( وَأَبْكَاراً ) جمع بكر ، وهى الفتاة
العذراء التى لم يسبق لها الزواج ، وسميت بذلك لأنها لا تزال على أول
) حالتها التى خلقت عليها .وهذه الصفات جاءت منصوبة على أنها نعت لقوله
أَزْوَاجاً ) . أو حال .ولم يعطف بعضها على بعض بالواو ، لأجل التنصيص على
ثبوت جميع تلك الصفات لكل واحدة منهن .وعطف - سبحانه - ( وَأَبْكَاراً )
على ما قبله لتنافى الوصفين ، إذ الثيبات لا يوصفن بالأبكار ، وكذلك
الأبكار لا يوصفن بالثيبات ، ولا يجتمع الوصفان فى ذات واحدة .قال صاحب
الكشاف : فإن قلت : كيف تكون المبدلات خيراً منهن ، ولم يكن على وجه الأرض

نساء خير من أمهات المؤمنين؟قلت : إذا طلقهن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لعصيانهن له ، وإيذائهن إياه ، لم يبقين على تلك الصفة ، وكان غيرهن - من الموصوفات بهذه الأوصاف مع الطاعة لرسول الله - صلى الله عليه وسلم والنزول على هذاه ورضاه خيرا منهن .فإن قلت : لم أخليت الصفات كلها من العاطف ، ووسط بين الثبات والأبكار؟ قلت : لأنهما صفتان متنافيتان لا يجتمعان فيهن اجتماع سائر الصفات فيهن ، فلم يكن بد من الواو .هذا ، موال متأمل فى هذه الآيات الكريمة يراها ترسم جانبا من حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم - مع أزواجه ، وهذا الجانب فيه ما فيه من العظات التى من أبرزها تكريم الله - تعالى - لنبيه - صلى الله عليه وسلم - وإرشاده إلى ما هو أهدى وأقوم ، وسمو أخلاقه - صلى الله عليه وسلم - فى معاملته لأهله ، وتحذير أزواجه من أن يتصرفن أى تصرف لا يرغب فيه ، ولا يميل إليه : وتعليم المؤمنين والمؤمنات - فى كل زمان ومكان - كيف تكون العلاقة الطيبة بين الرجال والنساء .ثم وجه - سبحانه - بعد ذلك نداءين إلى المؤمنين ، أمرهم فى ، أولهما أن يؤدوا واجبهم نحو أنفسهم ونحو أهليهم ، حتى ينجو من عذاب النار وأمرهم فى ثانيهما بالمداومة على التوبة الصادقة النصوح ، ووجه نداء إلى الكافرين بين لهم فيه سوء عاقبة كفرهم .

يا ايها الذين امنوا قوا انفسكم واهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما امرهم ويفعلون ما يؤمرون

- كما فسرها الوسيط ثم وجه - سبحانه - نداء إلى النبى - صلى الله عليه وسلم . . أمره فيه بأن يجاهد الكفار والمنافقين جهاداً مصحوبا بالغلظة والخشونة ) : - فقال - تعالى - : ( ياأيها الذين آمَنُواْ . . . ) .قوله - تعالى . قوا ) أمر من الوقاية ، يقال : وقى يَقِى ، كضرب يضرب .والمعنى : يا من آمنتم بالله - تعالى - حق الإيمان ، أبعدوا أنفسكم عن النار عن طريق فعل الحسنات . واجتناب السيئات ، وأبعدوا أهليكم - أيضا - عنها ، عن طريق نصحهم وإرشادهم وأمرهم بالمعروف . ونهيهم عن المنكر .قال القرطبى ، قال قتادة ومجاهد : قوا أنفسكم بأفعالكم ، وقوا أهليكم بوصيتكم .ففى الحديث الصحيح أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : " كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته فالإمام الذى على الناس راع وهو مسئول عنهم ، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عنهم " .وقال - صلى الله عليه وسلم - : " ما نحل والد ولدا ، أفضل من ، أدب حسن " .وقال - صلى الله عليه وسلم - : " مروا أبناءكم بالصلاة لسبع " واضربوهم عليها لعشر ، وفرقوا بينهم فى المضاجع " .وقد روى مسلم فى صحيحه أن النبى - صلى الله عليه وسلم - كان إذا أوتر يقول : قومى فأوترى يا عائشة وذكر القشيرى " أن عمر - رضى الله عنه - لما نزلت هذه الآية قال يا رسول. " ، الله : نقى أنفسنا فكيف بأهلينا؟فقال : " تنهونهم عما نهاكم الله عنه : وتأمرونهم بما أمركم الله به " " .وجاء لفظ النار منكراً ، للتهويل . أى نارا عظيمة لا يعلم مقدار حرها إلا الله - تعالى - .وقوله : ( وَقُودُهَا الناس والحجارة ) أى : هذه النار لا توقد كما يوقد غيرها بالحطب وما يشبهها وإنما مادة اشتعالها تتكون من الناس الذين كانوا فى الدنيا يشركون مع ، الله - تعالى - آلهة أخرى فى العبادة ، ومن الحجارة التى كانت تعبد من : دونه - تعالى - .ثم أضاف - سبحانه - إلى تهويلها أمرا آخر وصفة أخرى فقال عَلَيْهَا مَلآئِكَةٌ غِلاَظٌ شِدَادٌ لاَّ يَعْصُونَ الله مَآ ) أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ) .والغلاظ : جمع غليظ وهو المتصف بالضخامة والغلظة التى هى ضد الرقة .وهذا اللفظ صفة مشبهة ، وفعله غلظ ككرم .وشداد : جمع شديد ، وهو المتصف بالقوة والشدة ، يقال : فلان شديد على فلان ، أى : قوى عليه ، بحيث يستطيع أن ينزل به ما يريد من الأذى والعقاب .أى : هذه النار من صفاتها - أيضا - أن الموكلين بإلقاء الكافر والفساق فيها ، ملائكة قساة فى أخذهم أهل النار ، أقوياء عليهم ، بحيث لا يستطيع أهل النار أن يفلتوا منهم ، أو أن يعصوا لهم أمرا .وهؤلاء الملائكة من صفاتهم كذلك أنهم لا يعصون لله - تعالى - أمرا . وإنما ينفذون ما يكلفهم - سبحانه - به تنفيذا تاما .قال صاحب الكشاف : فإن قلت أليس الجملتان - لا يعصون .. . ويفعلون فى معنى واحد؟قلت : لا فإن معنى الأولى أنهم يتقلبون أوامره ويلتزمونها ولا يأبونها ولا ينكرونها ، ومعنى الثانية أنهم يؤدون ما يؤمرون به ، ولا يتثاقلون عنه ولا يتوانون فيه : .

يا ايها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم انما تجزون ما كنتم تعملون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما تقوله الملائكة لأهل النار عند ما يعرضون عليها فقال : ( ياأيها الذين كَفَرُواْ لاَ تَعْتَذِرُواْ اليوم ) والمراد باليوم ، يوم القيامة فأل فيه للعهد .أى : تقول الملائكة لهم فى هذا اليوم العسير على سبيل التبكيت والتوبيخ -لا تعتذروا - أيها الكافرون عن كفركم ، بأن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير أو بأن غيرنا أضلنا ، أو بأننا ما كنا مشركين . . . فإن هذه الأعذار لن تنفعكم ، وأنتم فى هذا اليوم

إنما تعاقبون على كفركم فى الدنيا ، وعلى إصراركم على ذلك حتى أدرككم الموت . فالآية الكريمة تبيوخ الكافرين ، وتيئيس لهم من قبلو أعذارهم الكاذبة.

يا ايها الذين امنوا توبوا الى الله توبة نصوحا عسى ربكم ان يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الانهار يوم لا يخزي الله النبي والذين امنوا معه نورهم يسعى بين ايديهم وبايمانهم يقولون ربنا اتمم لنا نورنا واغفر لنا انك على كل شيء قدير

كما فسرها الوسيط ثم يرشد - سبحانه - المؤمنين ، إلى ما يعينهم على الوقاية من النار فيقول : ( ياأيها الذين آمَنُواْ توبوا إِلَى اللّه تَوْبَةً نّصُوحاً . . ) .والتوبة : العزم الصادق على عدم العودة إلى المعصية والندم على ما فعله منها فى الماضى ، والنصوح صيغة مبالغة من النصح ، وصفت بها التوبة على سبيل الإسناد المجازى ، والمقصود وصف التائبين بها ، من نصح : فلان التوب إذا خاطه ، فكأن التائب يرقع ما مزقه بالمعصية . أو من قولهم عسل ناصح .وقد ذكروا فى معنى هذه الجملة أكثر من عشرين وجهاً .قال القرطبى ما ملخصه : اختلفت عبارة العلماء ، وأرباب القلوب ، فى التوبة النصوح على ثلاثة وعشرين قولا ، فقيل : هى التى لا عودة بعدها ، كما لا يعود اللبن إلى الضرع .وقال قتادة : النصوح الصادقة الناصحة . . . الخالصة .وقال القرطبى : التوبة النصوح يجمعها أربعة أشياء : الاستغفار باللسان ، والإقلاع بالأبدان وإضمار ترك العود بالجنان ، ومهاجرة سىء الإخوان .وقال الفقهاء : التوبة ، ، التى لا تعلق لها بحق آدمى لها ثلاثة شروط : احدها أن يقلع عن المعصية وثانيها : أن يندم على ما فعله ، وثالثها : أن يعزم على أن لا يعود إليها ، فإذا اجتمعت هذه الشروط فى التوبة كانت نصوحا .وإن كانت تتعلق بحق آدمى. ، فشروطها أربعة ، هذه الثلاثة المتقدمة ، والرابع أن يبرأ من حق صاحبها فإن كانت المعصية مالا أو نحوه رده إليه ، وإن كانت حد قذف ونحوه مكنه من نفسه ، أو طلب العفو منه ، وإن كانت غيبة استحله منها .وهى واجبة من كل معصية على الفور ، ولا يجوز تأخيرها .وقوله - سبحانه - ( عسى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ) .والرجاء المستفاد من فعل ( عسى ) مستعمل هنا فى الوعد الصادق منه - تعالى - على سبيل الكرم والفضل ، فقد قالوا إن كل ترج فى القرآن واقع منه - تعالى - فضلا منه وكرما .أى : يا من آمنتم بالله حق الإيمان ، توبوا إلى الله - تعالى - " توبة صادقة " بحيث تندمون على ما فرط منكم من ذنوب ، وتعزمون على عدم العودة إليها ، وتستمرون على توبتكم طوال حياتكم . . . فإنكم متى فعلتم ذلك غفر الله - تعالى - لكم ذنوبكم : وكفر عنكم سيئاتكم ، وأدخلكم جنات تجرى من تحت أشجارها وثمارها الأنهار .قال صاحب الكشاف : قوله : ( عسى رَبُّكُمْ ) : إطماع من الله لعباده . وفيه وجهان : أحدهما أن يكون على ما جرت به عادة الجبابرة من الإجابة بعسى ولعل و وقوع ذلك منهم موقع القطع والبت . والثانى : أن يجىء به تعليما للعباد . وجوب الترجح بين الخوف والرجاء .والظرف فى قوله - سبحانه - : ( يَوْمَ لاَ يُخْزِى اللهُ النبي والذين آمَنُواْ مَعَهُ نُورُهُمْ يسعى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ) منصوب بقوله - تعالى - قبل ذلك ) : وَيُدْخِلَكُمْ ) ، أو بفعل مضمر تقديره : اذكر .وقوله : ( لاَ يُخْزِى ) من الخزى بمعنى الافتضاح : يقال أخزى الله فلانا إذا فضحه ، والمراد به هنا عذاب النار .وقوله : ( والذين آمَنُواْ مَعَهُ ) معطوف على النبى ، وجملة : مستأنفة .أى : يدخلكم الله - بفضله وكرمه - ( جَنّاتٍ ( نُورُهُمْ يسعى ) - تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ) يوم القيامة ، يوم ينجى - سبحانه النبى - صلى الله عليه وسلم - وينجى الذين آمنوا معه من عذاب النار ، ومن - خزى هذا اليوم العصيب .وهم جميعا وعلى رأسهم الرسول - صلى الله عليه وسلم نورهم وهم على الصراط ، يسعى ويمتد وينتشر ( بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ) .أى أمامهم ( وَبِأَيْمَانِهِمْ ) أى : وعن أيمانهم .ويقولون - على سبيل الحمد والشكر لله - تعالى - يا ربنا ( أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا ) بأن تزيده ولا تنقصه حتى ندخل جنتك .( واغفر لَنَآ ) يا ربنا ذنوبنا ( إِنَّكَ ) يا ربنا وفى عطف الذين آمنوا على النبى - صلى الله. ( على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ) ، عليه وسلم - إشعار بأن سبب انتفاء خزيهم ، هو إيمانهم الصادق ، وعملهم ) الصالح ، وصحبتهم الكريمة للنبى - صلى الله عليه وسلم - .والضمير فى قوله نُورُهُمْ ) يعود إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - والذين آمنوا معه وخص - سبحانه - الأمامَ واليمين بالذكر ، لفضل هذين المكانين ، إذ النور. عندما يكون من الأمام يستمتع الإنسان بمشاهدته ، وعندما يكون من جهة اليمين يزداد تفاؤلا وانشراحا به .والتخصيص بذلك لا ينفى أن يكون النور محيطا بهم من كل جوانبهم ، وهو نور حقيقى يكرم الله - تعالى - به عباده الصالحين وختموا دعاءهم بقولهم - كما حكى القرآن عنهم - : ( إِنَّكَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ) للإشارة إلى أنهم كانوا على جانب كبير من رجاء تحقيق دعائهم ، لأنهم يسألون ويدعون الله - تعالى - الذى لا يقف أمام قدرته شىء .

يا ايها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم وماواهم جهنم وبئس المصير

كما فسرها الوسيط ثم أمر - سبحانه - نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يجاهد الكفار والمنافقين جهادا كبيرا فقال : ( ياأيها النبي جَاهِدِ الكفار والمنافقين واغلظ عَلَيْهِمْ ) .وخص النبى - صلى الله عليه وسلم - بالأمر - بالجهاد ، مع أن الأمر به يشمل المؤمنين معه ، لأنه - صلى الله عليه وسلم بالأمر بالجهاد ، مع أن الأمر به يشمل المؤمنين معه ، لأنه - صلى الله عليه وسلم - هو قائدهم ورائدهم .وجهاده - صلى الله عليه وسلم - للكفار يكون بدعوتهم إلى الحق حتى يسلموا ، فإذا لم يستجيبوا جاهدهم بالسيف والسلاح حتى يزهق باطلهم .وجهاده للمنافقين يكون بتأديبهم وزجرهم وإلقاء الرعب فى قلوبهم ، حتى يأمن المؤمنون شرهم ، وحتى يشعروا بأن النبى والمؤمنين لهم بالمرصاد .والغلظة فى الأصل : تطلق على الشىء الصلب الغليظ ، والمراد بها ، هنا : معاملتهم بالشدة والخشونة والقسوة . . . حتى يأمن المؤمنون جانبهم ، ويتقوا شرهم .أى : يا أيها النبى الكريم جاهد أنت ومن معك من المؤمنين الكفار والمنافقين . وعاملهم جميعا بالخشونة والغلظة . . . حتى يهابوك أنت ومن معك ، وحتى تكونوا فى مأمن منهم ومن أذاهم إذ الحق لا بد له من قوة تحميه وتدفع عنه كيد أعدائه .وقوله - تعالى - : ( وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المصير ) بيان لسوء مصيرهم فى الآخرة .أى : أن هؤلاء الكافرين والمنافقين ، حالهم فى الدنيا المجاهدة والمعاملة التى لا تسامح معها ولا تساهل ، حتى تكون كلمتهم السفلى ، وكلمة الله - تعالى - هى العليا .أما ، حالهم فى الآخرة ، فالإلقاء بهم فى جهنم ، وبئس المأوى والمسكن جهنم فالمخصوص بالذم محذوف ، وهو جهنم ، أو المأوى .وبذلك نرى الآيات الكريمة قد أرشدت النبى - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين ، إلى ما يسعدهم فى دنياهم وآخرتهم .

ضرب الله مثلا للذين كفروا امرات نوح وامرات لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين

كما فسرها الوسيط وبعد هذه النداءات ، للمؤمنين ، وللكافرين وللنبى - صلى الله عليه وسلم - ضرب - سبحانه - مثلين لنساء كافرات فى بيوت أنبياء ، ولنساء مؤمنات فى بيوت كفار ، لتزداد الموعظة وضوحا ، وليزداد المؤمنون إيمانا على إيمانهم ، وليشعر الجميع - ولا سيما أزواج النبى - صلى الله عليه وسلم - أنهم مسئولون أمام الله - تعالى - عن أعمالهم . . . فقال - تعالى - : ( ضَرَبَ الله مَثَلاً . . . ) .المراد بضرب المثل . إيراد حالة غريبة ، ليعرف بها حالة أخرى مشابهة لها فى الغرابة . وقوله ( مَثَلاً ) مفعول ثان لضرب ، والمفعول الأول ( امرأت نُوحٍ . . . ) .والمتدبر للقرآن الكريم ، يراه قد أكثر من ضرب الأمثال ، لأن فيها تقريبا للبعيد ، وتوضيحا للغريب وتشبيه الأمر المعقول بالأمر المحسوس ، حتى يرسخ فى الأذهان . .أى : جعل الله - تعالى - مثلا لحال الكافرين ، وأنه لا يغنى أحد عن أحد ( امرأت نُوحٍ وامرأت لُوطٍ ) عليهما السلام .وعدى الفعل ( ضَرَبَ ) باللام ، للإشعار بأن هذا المثل إنما سيق من أجل أن يعتبر به الذين كفروا ، وأن يقلعوا عن جهالاتهم التى جعلتهم يعتقدون أن أصنامهم ستشفع لهم يوم القيامة .وقوله - تعالى - : ( كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا . . ) بيان لحال هاتين المرأتين ، ولما قامتا به من أفعال شائنة ، تتنافى مع صلتهما بهذين النبيين الكريمين . .والمراد بالتحتية هنا : كونهما زوجين لهذين النبيين الكريمين ، وتحت عصمتهما وصيانتهما ، وأشد الناس التصاقا بهما .وقال - سبحانه - ( كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ . . ) للتعظيم ، أى : كانتا فى عصمة نبيين لهما من سمو المنزلة ما لهما عند الله - تعالى - .ووصفهما - سبحانه - بالصلاح ، مع أنهما نبيان والنبوة أعظم هبة من الله لعبد من عباده - للتنويه بشأن الصالحين من الناس حتى يحرصوا على هذه الصفة ، ويتمسكوا بها ، فقد مدح الله - تعالى - من ، هذه صفاته فى آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - : ( وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِّنَ الصالحين ) وخيانة امرأة نوح له ، كانت عن طريق إفشاء أسراره ، وقولها لقومه : إنه مجنون .وخيانة امرأة لوط له ، كانت عن طريق إرشاد قومه إلى ضيوفه . . . مع استمرار هاتين المرأتين على كفرهما .قال الإمام ابن كثير : قوله : ( فَخَانَتَاهُمَا ) أى : فى الإيمان ، لم يوافقا هما على الإيمان ، ولا صدقاهما فى الرسالة .وليس المراد بقوله : ( فَخَانَتَاهُمَا ) فى فاحشة ، بل فى الدين ، فإن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع فى الفاحشة .وعن ابن عباس : قال : مازنتا ، أما امرأة نوح ، فكانت تخبر أنه مجنون ، وأما خيانة امرأة لوط ، فكانت تدل على قومها على أضيافه وفى رواية عنه قال : كانت خيانتهما أن امرأة نوح ، كانت تفشى سره ، فإذا آمن معه نوح أحد أخبرت الجبابرة من قوم نوح به ، وأما امرأة لوط ، فكانت

- إذا أضاف لوط أحدا ، أخبرت به أهل المدينة ممن يعلم السوء . .وقوله
تعالى - : ( فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ الله شَيْئاً وَقِيلَ ادخلا
النار مَعَ الداخلين ) بيان لما أصابهما من سوء العاقبة بسبب خيانتهما .أى
أن نوحا ولوطا - عليهما السلام - مع جلالة قدرهما ، لم يستطيعا أن يدفعا :
شيئا من العذاب عن زوجتيهما الخائنتين لهما ، وإنما قيل لهاتين المرأتين
عند موتهما .أو يوم القيامة ، ادخلا النار مع سائر الداخلين من الكفرة
الفجرة .وقوله ( شَيْئاً ) منصوب على أنه مفعول مطلق لقوله : ( يُغْنِيَا )
وجاء منكرا للتقليل والتحقير ، أى : فلم يغنيا عنهما شيئا من الإغناء حتى ،
ولو كان قليلا . .وقوله : ( مَعَ الداخلين ) بعد قوله : ( ادخلا النار )
لزيادة تبكيتها ، ولتأكيد مساواتهما فى العذاب مع غيرهما من الكافرين
. الخائنين الذين لا صلة لهما بالأنبياء من حيث القرابة أو ما يشبهها

وضرب الله مثلا للذين امنوا امرات فرعون اذ قالت رب ابن لي عندك بيتا في
الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين

كما فسرها الوسيط ثم ضرب - سبحانه - مثلا للمؤمنين فقال : ( وَضَرَبَ الله
، مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ امرأت فِرْعَوْنَ ) وهى آسية ابنة مزاحم
التى لم يمنعها ظلام الكفر الذى كانت تعيش فيه فى بيت فرعون ، ولم يشغلها
ما كانت فيه من متاع الحياة الدنيا وزينتها . . . عن أن تطلب الحق ، وتعرض
عن الباطل ، وأن تكفر بكل ما يدعيه زوجها من كذب وطغيان .قال الجمل : آمنت
بموسى - عليه السلام - لما غلب السحرة ، وتبين لها أنه على الحق . ولم
تضرها الوصلة بالكافر ، وهى الزوجية التى هى من أعظم الوصل ولا نفعه
إيمانها ، لأن كل امرىء بما كسب رهين . . .وروى الشيخان عن أبى موسى
: الأشعرى " أنه قال : كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا أربع
مريم ابنة عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد - صلى الله عليه
وسلم - وآسية بنت مزاحم ، امرأة فرعون " .قيل : إنها إسرائيلية وأنها عمة
موسى . وقيل إنها ابنة عم فرعون . . . ومن فضائلها أنها اختارت القتل على
الملك ، وعذاب الدنيا على النعيم الذى كانت فيه - بعد أن خالط الإيمان
قلبها .أى : وجعل الله - تعالى - حال امرأة فرعون ، مثلا للمؤمنين ، حيث
آمنت بالحق بعد أن تبين لها ، دون أن يصرفها عن ذلك أى صارف ، فكان ما
فعلته فى أسمى درجات الإخلاص وصدق اليقين .والظرف فى قوله : ( إِذْ قَالَتْ
- متعلق بمحذوف ، أو بقوله : ( مَثَلاً ) .أى : وضرب الله - تعالى ( . .
مثلا للذين آمنوا ، حال امرأة فرعون وقت أن قالت ( رَبِّ ابن لِي عِندَكَ
بَيْتاً فِي الجنة ) أى : ابن لى بيتا فى مستقر رحمتك ، أو فى جنتك التى لا
يستطيع أحد التصرف فيها إلا بإذنك .وقوله : ( فِي الجنة ) بدل أو عطف بيان
لقوله - تعالى - ( عِندَكَ ) وقدم عندك ، للإشعار بأن محبتها للقرب من
رحمته - تعالى - أهم من أى شىء آخر .( وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ
وَعَمَلِهِ ) أى : ونجنى من طغيان فرعون ، ومن عمله الذى بلغ النهاية فى
السوء والقبح .( وَنَجِّنِي ) - أيضا - من القوم الظالمين ، وهم أتباع
فرعون وحاشيته وملؤه ، وشيعته . .وفى هذا الدعاء أسمى ألوان الأدب ، فهى
.. تسأل الله - تعالى - أن يعوضها عن دار فرعون ، دارا فى أعلى درجات الجنة
وهذا الدعاء يشعر بأن فرعون وقومه ، قد صدوها عن الإيمان ، وهددوها بأنها.
- إن آمنت . . حرموها من قصر فرعون ، وزينته وفخامته .كما أنها سألت ربها
عز وجل - أن ينجيها من ذات فرعون ، ومن علمه السىء ، ومن كل من حام حول
. فرعون ، واتبعه فى طغيانه وكفره

ومريم ابنت عمران التي احصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها
وكتبه وكانت من القانتين

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَمَرْيَمَ ابنت عِمْرَانَ . . )
معطوف على ( امرأت فِرْعَوْنَ . . ) .أى : وضرب الله - تعالى - مثلا آخر
للمؤمنين مريم ابنة عمران .( التي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ) أى حفظته وصانته
إذ الإحصان جعل الشىء حصينا ، بحيث لا يتوصل إليه ، وهو كناية عن عفتها ،
وطهارتها وبعدها عن كل فاحشة .وقوله ( فَنَفَخْنَا فِيهِ ) النافخ رسوله
: جبريل - عليه السلام - فالإسناد مجازى . وقيل الكلام على حذف مضاف ، أى
فنفخ رسولنا ، وضمير ( فِيهِ ) للفرج .واشتهر أن جبريل - عليه السلام - نفخ
فى جيبها فوصل أثر ذلك إلى الفرج .وقال الفراء : ذكر المفسرون أن الفرج جيب
درعها ، وهو محتمل لأن الفرج معناه فى اللغة ، كل فرجة بين شيئين ، وموضع
جيب درع المرأة مشقوق فهو فرج ، وهذا أبلغ فى الثناء عليها ، لأنها إذا
منعت جيب درعها ، فهى للنفس أمنع . . .أى : فنفخ رسولنا جبريل فى فرجها أو
- فى جيب درعها ، روحا من أرواحنا هى روح عبدنا ونبينا عيسى - عليه السلام
وإضافة الروح إلى ذاته - تعالى - لأنه هو الخالق والموجد وللإشارة إلى أن.
- تكوين المخلوق الحى فى رحمها ، كان على غير الأسباب المعتادة .وقوله
تعالى - : ( وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ

القانتين ) زيادة فى مدحها ، وفى الثناء عليها . . .أى : وكان من صفات مريم
ابنة عمران أنها آمنت إيمانا حقا ( بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا ) أى : بشرائعه
) التى شرعها لعباده ، وبما ألقاه إليها من إرشادات عن طريق وحيه .و
) وَكُتُبِهِ ) أى : وصدقت بكتبه التى أنزلها على أنبيائه ، وقرأ الجمهور
- وكتابه ) بالإفراد ، على أن المراد به جنس الكتب ، أو الإنجيل الذى أنزله
سبحانه - على ابنها عيسى .و ( مِنَ ) فى قوله - تعالى - ( وَكَانَتْ مِنَ
القانتين ) للابتداء ، أى : وكانت من نسل الرجال القانتين ، الذين بذلوا
) أقصى جهدهم فى طاعة الله - تعالى - ، وفى إخلاص العبادة له .ويصح أن تكون
مِنَ ) للتبعيض . أى : وكانت من عداد المواظبين على الطاعة ، وجىء بجمع
، الذكور على سبيل التغليب ، وللإشعار بأن طاعتها لا تقل عن طاعة الرجال
الذين بلغوا الغاية فى المواظبة على طاعة الله - تعالى - .وبذلك نرى أن هذه
الآيات الكريمة ، قد اشتملت على ثلاثة أمثال : مثل للكافرين ، ومثلين
للمؤمنين .وقد تضمن مثل الكفار ، أن الكافر يعاقب على كفره ، دون أن ينفعه
ما بينه وبين المؤمنين من قرابة أو نسب . . . كما حدث لامرأة نوح وامرأة
لوط . .وأما المثلان اللذان للمؤمنين ، فقد تضمنا أن اتصال المؤمن بالكافر
لا يضره شيئا إذا فارقه فى كفره وعمله ..وقد وضح صاحب الكشاف هذا المعنى ،
فقال : ما ملخصه مثَّل الله - تعالى - حال الكفار ، فى أنهم يعاقبون على
كفرهم وعداوتهم للمؤمنين . دون أن ينفعهم ما بينهم وبينهم من صلة أو
. قرابة - بحال امرأة نوح وامرأة لوط : فإنهما لما نافقتا وخانتا الرسولين
لم يغن عنهما ما بينهما وبينهما من وصلة الزواج شيئا . .ومثل حال
المؤمنين - فى أن وصلة الكافرين لا تضرهم . ولا تنقص شيئا من ثوابهم
وزلفاهم عند الله - بحال امرأة فرعون ، فإنها مع كونها زوجة أعدى أعداء
، الله ، فإنها بسبب إيمانها قد رفع منزلتها عنده . .وبحال مريم ابنة عمران
فقد أعطاها الله ما أعطاها من الكرامة . . . مع أن قومها كانوا كافرين .وفى
طى هذين التمثيلين تعريض بأمى المؤمنين المذكورتين فى أول السورة ، وما فرط
منهما من التظاهر على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بما كرهه ، وتحذير
لهما على أغلظ وجه وأشده . .وإشارة إلى أن من حقهما أن تكونا فى الإخلاص
والكمال فيه ، كمثل هاتين المؤمنتين ، وأن لا تتكلا على أنهما زوجا رسول
الله - صلى الله عليه وسلم - فإن ذلك الفضل لا ينفعهما إلا مع كونهما
، مخلصتين . . .وأسرار التنزيل ورموزه فى كل باب ، بالغة من اللطف والخفاء
. . حدا يدق عن تفطن العالم ، ويزل عن تبصره .

تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير

كما فسرها الوسيط لفظ ( تَبَارَكَ ) فعل ماض لا ينصرف . وهو مأخوذ من
البركة ، بمعنى الكثرة من كل خير . وأصلها النماء والزيادة أى : كثر خيره
وإحسانه ، وتزايدت بركاته .أو مأخوذ من البركة بمعنى الثبوت . يقال : برك
البعير ، إذا أناخ فى موضعه فلزمه وثبت فيه . وكل شئ ثبت ودام فقد برك . أى
ثبت ودام خيره على خلقه .والملك - بضم الميم وسكون اللام - : السلطان :
والقدرة ونفاذ الأمر .أى : جل شأن الله - تعالى - وكثر خيره وإحسانه ، وثبت
فضله على جميع خلقه ، فهو - سبحانه - الذى بيده وقدرته التمكن والتصرف فى
كل شئ على حسب ما يريد ويرضى ، وهو - عز وجل - الذى لا يعجزه أمر فى الأرض
أو فى السماء .واختار - سبحانه - الفعل " تبارك " للدلالة على المبالغة فى
. . وفرة العظمة والعطاء ، فإن هذه الصيغة ترد للكناية عن قوة الفعل وشدته
كما فى قولهم : تواصل الخير ، إذا تتابع بكثرة مع دوامه . .والتعريف فى لفظ
الملك " للجنس . وتقديم المسند وهو " بيده " على المسند إليه ، لإفادة "
، الاختصاص . أى : بيده وحده لا بيد أحد سواه جميع أنواع السلطان والقدرة
- والأمر والنهى . .قال الإمام الرازى : وهذه الكلمة تستعمل لتأكيد كونه
تعالى - ملكا ومالكا ، تقول بيد فلان الأمر والنهى ، والحل والعقد . وذكر
اليد إنما هو تصوير للإحاطة ولتمام قدرته ، لأنها محلها مع التنزه عن
) الجارحة . .وجملة ( وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ) معطوفة على قوله
بِيَدِهِ الملك ) الذى هو صلة الموصول ، وذلك لإفادة التعميم بعد التخصيص
لأن الجملة الأولى وهى ( الذي بِيَدِهِ الملك ) أفادت عموم تصرفه فى سائر ،
الموجودات ، وهذه أفادت عموم تصرفه - سبحانه - فى سائر الموجودات
. والمعدومات ، إذ بيده - سبحانه - إعدام الموجود ، وإيجاد المعدوم

الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم ايكم احسن عملا وهو العزيز الغفور

، كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ، ما يدل على شمول قدرته
وسمو حكمته ، فقال ( الذي خَلَقَ الموت والحياة لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ
أَحْسَنُ عَمَلاً . . ) .والموت : صفة وجودية تضاد الحياة : والمراد بخلقه
إيجاده . أو هو عدم الحياة عما هى من شأنه . والمراد بخلقه على هذا :
المعنى : تقديره أزلا .واللام فى قوله : ( لِيَبْلُوَكُمْ . . . ) متعلقة
. . بقوله : ( خَلَقَ ) وقوله : ( لِيَبْلُوَكُمْ ) بمعنى يختبركم ويمتحنكم

، وقوله ( أَيُّكُمْ ) مبتدأ ، و ( أَحْسَنُ ) خبره ، و ( عَمَلاً ) تمييز.
والجملة فى محل نصب مفعول ثان لقوله ( لِيَبْلُوَكُمْ ) .والمعنى : ومن
مظاهر قدرته - سبحانه - التى لا يعجزها شئ ، أنه خلق الموت لمن يشاء إماتته
، وخلق الحياة لمن يشاء إحياءه ، ليعاملكم معاملة من يختبركم ويمتحنكم ،
أيكم أحسن عملا فى الحياة ، لكى يجازيكم بما تستحقونه من ثواب . .أو المعنى
خلق الموت والحياة ، ليختبركم أيكم أكثر استعدادا للموت ، وأسرع إلى طاعة :
ربه - عز وجل - .قال القرطبى ما ملخصه : قوله : ( الذي خَلَقَ الموت
والحياة ) . . قيل : الذى خلقكم للموت والحياة ، يعنى : للموت فى الدنيا
. . والحياة فى الآخرة .وقدم الموت على الحياة ، لأن المخوت إلى القهر أقرب
: وقيل : لأنه أقدم ، لأن الأشياء فى الابتداء كانت فى حكم الموت . . وقيل
لأن أقوى الناس داعيا إلى العمل ، من نصب موته بين عينيه ، فقدم لأنه ف يما
يرجع على الغرض الذى سبقت له الآية لهم .قال قتادة : كان رسول الله صلى
الله عليه وسلم يقول : " إن الله - تعالى - أذل ابن آدم بالموت ، وجعل
" . . الدنيا دار حياة ، ثم دار موت ، وجعل الآخرة دار جزاء ثم دار بقاء
وعن أبى الدرداء أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " لولا ثلاث ما طأطأ.
ابن آدم رأسه : الفقر والمرض والموت ، وإنه مع ذلك لوَثَّاب . . " .وقال
العلماء : الموت ليس بعدم محض ، ولا فناء صرف ، وإنما هو انقطاع تعلق الروح
، بالبدن ومفارقته ، وحيلولة بينهما ، وتبدل حال ، وانتقال من دار إلى دار
والحياة عكس ذلك . .وأوثر بالذكر من المخلوقات الموت والحياة ، لأنهما أعظم
العوارض لجنس الحيوان ، الذى هو أعجب موجود على ظهر الأرض ، والذى الإنسان
نوع منه ، وهو المقصود بالمخاطبة ، إذ هو الذى رضى بحمل الأمانة التى عجزت
" عن حملها السموات والأرض . .والتعريف فى الموت والحياة للجنس . و " أحسن
أفعل تفضيل ، لأن الأعمال التى يقوم بها الناس فى هذه الحياة متفاوته فى
الحسن من الأدنى إلى الأعلى .وجملة ( وَهُوَ العزيز الغفور ) تذييل قصد به
أن جميع الأعمال تحت قدرته وتصرفه .أى : وهو - سبحانه - الغالب الذى لا
- يعجزه شئ الواسع المغفرة لمن شاء أن يغفر له ويرحمه من عباده ، كما قال
تعالى - : ( وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا
ثُمَّ اهتدى ).

الذي خلق سبع سماوات طباقا ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل
ترى من فطور

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - مظهرا آخر من مظاهرقدرته التى لا
يعجزها شئ فقال : ( الذي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً . . . )
والجملة الكريمة صفة للعزيز الغفور ، أو عطف بيان أو بدل ، أو خبر لمبتدأ.
: محذوف .وطباقا صفة لسبع سموات . وهى مصدر طابق مطابقة وطباقا ، من قولك
، طابق فلان النعل ، إذا جعله طبقة فوق أخرى ، وهو جمع طبَق ، كجبل وجبال
أو جمع طبقة كرَحبة ورحاب . . أى : هو - سبحانه -لا غيره الذى أوجد وخلق
على غير مثال سابق سبع سموات متطابقة ، أى : بعضها فوق بعض ، بطريقة متقنة
محكمة . .لا يقدر على خلقها بتلك الطريقة إلا هو ، ولا يعلم كنه تكوينها
وهيئاتها . . أحد سواه - عز وجل - .وقوله - سبحانه - ( مَّا ترى فِي خَلْقِ
الرحمن مِن تَفَاوُتٍ ) مؤكد لما قبله ، والتفاوت مأخوذ من الفوت ، وأصله
الفرجة بين الإصبعين .تقول : تفاوت الشيئان تفاوتا ، إذا حدث تباعد بينهما
. . والجملة صفة ثانية لسبع سماوات ، أو مستأنفة لتقرير وتأكيد ما قبلها ،
والخطاب لكل من يصلح له .أى : هو - سبحانه - الذى خلق سبع سماوات بعضها فوق
بعض ، مع تناسقها ، وإتقان تكوينها ، وإحكام صنعها . . بحيث لا ترى - أيها
العاقل - فى خلق السموات السبع شيئا من الاختلاف ، أو الاضطراب ، أو عدم
التناسب . . بل كلها محكمة ، جارية على مقتضى نهاية النظام والإبداع
وقال - سبحانه - : ( مَّا ترى فِي خَلْقِ الرحمن . . ) ولم يقل : ما ترى.
فى السموات السبع من تفاوت ، للإشعار بأن هذا الخلق البديع ، هو ما اقتضته
. . رحمته - تعالى - بعباده ، لكى تجرى أمورهم على حالة تلائم نظام معيشتهم
وللتنبيه - أيضا - على أن جميع مخلوقاته تسير على هذا النمط البديع فى
صنعها وإيجادها ، كما قال - تعالى - : ( صُنْعَ الله الذي أَتْقَنَ كُلَّ
. . شَيْءٍ ) وكما قال - سبحانه - : ( الذي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ
قال صاحب الكشاف : قوله : ( مَّا ترى فِي خَلْقِ الرحمن مِن تَفَاوُتٍ ( .
، أى : من اختلاف واضطراب فى الخلقة ولا تناقض ، إنما هى مستوية ومستقيمة (
وحقيقة التفاوت : عدم التناسب ، كأن بعض الشئ يفوت بعضا ولا يلائمه ، ومنه
قولهم : خلق متفاوت ، وفى نقيضه متناصف .فإن قلت : ما موقع هذه الجملة مما
قبلها؟ قلت : هى صفة مشايعة لقوله ( طِبَاقاً ) وأصلها : ما ترى فيهن من
، تفاوت ، فوضع مكان الضمير قوله : ( خَلْقِ الرحمن ) تعظيما لخلقهن
وتنبيها على سبب سلامتهن من التفاوت ، وهو أنه خلق الرحمن ، وأنه بباهر
قدرته هو الذى يخلق مثل ذلك الخلق المتناسب . .ثم ساق - سبحانه - بأسلوب
) : فيه ما فيه من التحدى ، ما يدل على أن خلقه خال من التفاوت والخلل فقال
فارجع البصر هَلْ ترى مِن فُطُورٍ . ثُمّ ارجِعِ البَصَرَ كَرّتَيْنِ

يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ البَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ )و ( الفطور ) جمع
فَطْر ، وهو الشق والصدع ، يقال : فطر فلان الشئ فانفطر ، إذا شقه ، وبابه
نصر .وقوله ( كَرَّتَيْنِ ) مثنى كرّة ، وهى المرة من الكَرّ ، وهو الرجوع
إلى الشئ مرة أخرى ، يقال كَرّ المقاتل على عدوه ، إذا عاد إلى مهاجمته بعد
أن تركه .والمراد بالكرتين هنا : معاودة النظر وتكريره كثيرا ، بدون اقتصار
على المرتين ، فالتثنية هنا : كناية عن مطلق التكرير ، كما فى قولهم : لبيك
وسعديك .وقوله : ( خَاسِئاً ) أى صاغراً خائبا لأنه لم يجد ما كان يطلبه
ويتمناه .وقوله : ( حَسِيرٌ ) بمعنى كليل ومتعب ، من حسَر بصرُ فلان يَحسُر
حسورا إذا كَلّ وتعب من طول النظر والتأمل والفحص ، وفعله من باب قعد
والمعنى : ما ترى - أيها الناظر - فى خلق الرحمن من تفاوت أو خلل . . فإن.
كنت لا تصدق ما أخبرناك به ، أو فى أدنى شك من ذلك ، فكرر النظر فيما خلقنا
: حتى يتضح لك الأمر ، ولا يبقى عندك أدنى شك أو شبهه .والإستفهام فى قوله
. للتقرير : أى : إنك مهما نظرت فى خلق الرحمن ( هَلْ ترى مِن فُطُورٍ )
. . وشددت فى التفحص والتأمل . . فلن ترى فيه من شقوق أو خلل أو تفاوت

ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير

كما فسرها الوسيط وقوله : ( ثُمّ ارجِعِ البَصَرَ كَرّتَيْنِ ) تعجيز إثر
، تعجيز ، وتحد فى أعقاب تحد . . أى : ثم لا تكتف بإعادة النظر مرة واحدة
فربما يكون قد فاتك شئ فى النظرة الأولى والثانية . . بل أعد النظر مرات
ومرات . . فتكون النتيجة التى لا مفر لك منها ، أن بصرك - بعد طول النظر
والتأمل - ينقلب إليك خائبا وهو كليل متعب . . لأنه - بعد هذا النظر
الكثير - لم يجد فى خلقنا شيئا من الخلل أو الوهن أو التفاوت .قال صاحب
الكشاف ما ملخصه : قوله ( يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ البَصَرُ ) أى : إن رجعت
، البصر ، وكررت النظر ، لم يرجع إليك بصرك بما التمسته من رؤية الخلل
وإدراك العيب ، بل يرجع إليك بالخسوء والحسور . . أى : بالبعد عن إصابة
: الملتمس .فإن قلت : كيف ينقلب البصر خاسئا حسيرا برجعه كرتين اثنتين؟قلت
) معنى التثنية هنا التكرير بكثرة كقولك لبيك وسعديك . .فإن قلت : فما معنى
ثُمّ ارجِعِ البَصَرَ ) ؟ قلت : أمره برجع البصر ، ثم أمره بأن لا يقتنع
بالرجعة الأولى ، وبالنظرة الحمقاء وأن يتوقف بعدها ، ويُجم بصره ثم يعاود
ويعاود ، إلى أن يَحْسِر بصرُه من طول المعاودة ، فإنه لا يعثر على شئ من
فطور . .هذا ، والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة ، يراها قد ساقت ما يدل على
وحدانية الله - تعالى - وقدرته بأبلغ أسلوب ، ودعت الغافلين الذين فسقوا عن
أمر ربهم ، إلى التدبر فى هذا الكون الذى أوجده - سبحانه - فى أبدع صورة
. . وأتقنها ، فإن هذا التدبر من شأنه أن يهدى إلى الحق ، ويرشد إلى الصواب

ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين واعتدنا لهم عذاب السعير

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك أدلة أخرى على وحدانيته وقدرته
- وبين ما أعده للكافرين من عذاب ، بسبب إصرارهم على كفرهم . . فقال ،
تعالى - :( وَلَقَدْ زَيّنّا السمآء الدنيا بِمَصَابِيحَ . . . )قال
الإمام الرازى : اعلم أن هذا هو الدليل الثانى على كونه - تعالى - قادرا
، عالما ، وذلك لأن هذه الكواكب نظرا إلى أنها محدثة ومختصة بمقدار معين
وموضع خاص ، وسير معين ، تدل على أن صانعها قادر .ونظرا إلى كونها محكمة
متقنة موافقة لمصالح العباد ، ومن كونها زينة لأهل الدنيا ، وسببا
- لانتفاعهم بها ، تدل على أن صانعها عالم .ونظير هذه الآية قوله - تعالى
. فى سورة الصافات : ( إِنّا زَيّنّا السمآء الدنيا بِزِينَةٍ الكواكب
وَحِفْظاً مّن كُلّ شَيْطَانٍ مّارِدٍ ) وقوله : ( زَيّنّا ) من
التزيين بمعنى التحسين والتجميل . و ( الدنيا ) صيغة تفضيل من الدنو بمعنى
. القرب .والمصابيح : جمع مصباح وهو السراج المضئ . والمراد بها النجوم
. وسميت بالمصابيح على التشبيه بها فى حسن المنظر ، وفى الإضاءة ليلا
- والرجوم : جمع رَجْم ، وهو فى الأصل مصدر رَجَمه رَجْماً - من باب نصر.
إذا رماه بالرِّجام أى : بالحجارة ، فهو اسم لما يُرْجَم به ، أى : ما
يَرْمِى به الرامى غيره من حجر ونحوه ، تسمية للمفعول بالمصدر ، مثل
الخَلْق بمعنى المخلوق .وصدرت الآية الكريمة بالقسم ، لإبراز كال العناية
بمضمونها .والمعنى : وبالله لقد زينا وجملنا السماء القريبة منكم بكواكب
مضيئة كإضاءة السُّرُج ، وجعلنا - بقدرتنا - من هذه الكواكب ، ما يرجم
) - الشياطين ويحرقها ، إذا ما حاولوا أن يسترقوا السمع ، كما قال - تعالى
وَأَنّا لَمَسْنَا السمآء فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً
وَشُهُباً . وَأَنّا كُنّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسّمْعِ فَمَن
: يَسْتَمِعِ الآن يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رّصَداً ) قال الإمام ابن كثير
) قوله : ( وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِّلشّيَاطِينِ ) عاد الضمير فى قوله
وَجَعَلْنَاهَا ) على جنس المصابيح لاعلى عينها ، لأنه لا يرمى بالكواكب

- التى فى السماء ، بل بشهب من دونها ، وقد تكون مستمدة منها - والله أعلم
، قال قتادة : إنما خلقت هذه النجوم لثلاث خصال : خلقها زينة للسماء.
ورجوما للشياطين ، وعلامات يهتدى بها ، فمن تأول فيها غير ذلك فقد قال
برأيه ، وأخطأ حظه ، وأضاع نصيبه ، وتكلف ما لا علم له به . .فالضمير فى
قوله : ( وَجَعَلْنَاهَا ) يعود إلى المصابيح ، ومنه من أعاده إلى السماء
الدنيا ، على تقدير : وجعلنا منها رجوما للشياطين الذين يسترقون السمع
وقوله - تعالى - : ( وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السعير ) بيان لسوء.
مصيرهم فى الآخرة ، بعد بيان سوء مصيرهم فى الدنيا عن طريق إحراقهم بالشهب
- أى : وهيأنا لهؤلاء الشياطين فى الآخرة - بعد إحراقهم فى الدنيا بالشهب.
عذاب النار المشتعلة المستعرة .فالسعير - بزنة فعيل - اسم لأشد النار
اشتعالا . يقال : سعر فلان النار - كمنع - إذا أوقدها بشدة .وكان السعير
عذابا للشياطين - مع أنهم مخلوقان من النار ، لأن نار جهنم أشد من النار
التى خلقوا منها ، فإذا ألقوا فيها صارت عذابا لهم ، إذ السعير أشد أنواع
النار التهابا واشتعالا وإحراقا ..

وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير

كما فسرها الوسيط وقوله : ( وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ
جَهَنَّمَ وَبِئْسَ المصير ) معطوف على ما قبله .أى : هيأنا للشياطين عذاب
السعير ، وهيأنا - أيضا - للذين كفروا بربهم من الإنس عذاب جهنم ، وبئس
المصير عذاب جهنم .

اذا القوا فيها سمعوا لها شهيقا وهي تفور

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أحوالهم الأليمة حينما يلقون جميعا فى
النار فقال : ( إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ
تَفُورُ . . )والظرف " إذا " متعلق بقوله ( سَمِعُوا ) والشهيق : تردد
النفس فى الصدر بصعوبة وعناء . .أى : أن هؤلاء الكافرين بربهم ، عندما
يلقون فى النار ، يسمعون لها صوتا فظيعا منكرا ، (وَهِيَ تَفُورُ ) أى
: وحالها أنها تغلى بهم غليان المرجل بما فيه ، إذا الفوز : شدة الغليان
، ويقال ذلك فى النار إذا هاجت ، وفى القدر إذا غلت . .

تكاد تميز من الغيظ كلما القي فيها فوج سالهم خزنتها الم ياتكم نذير

كما فسرها الوسيط ( تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الغَيْظِ ) أى تكاد النار تتقطع
وينفصل عن بعض ، لشدة غضبها عليهم ، والتهامها لهم ، وتميز أصله تتميز
فحذفت إحدى التاءين تخفيفا .والغيظ أشد الغضب ، والجملة فى محل نصب على
الحال ، أو فى محل رفع على أنها خبر لمبتدأ محذوف ، أى : هى تكاد تتقطع من
شدة غضبها عليهم . .وقوله : ( كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ
خَزَنَتُهَآ . . ) كلام مستأنف لبيان حال أهلها .والفوج : الجماعة من الناس
ولفظ ( كلما ) مركب من كل الدال على الشمول ، ومن ما المصدرية الظرفية .أى
: فى كل وقت وآن ، يلقى بجامعة من الكافرين فى النار ، يسألهم خزنتها من
الملائكة ، سؤال تبكيت وتقريع ، بقولهم :( أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ) أى
: ألم يأتكم يا معشر الكافرين نذير فى الدنيا ، ينذركم ويخوفكم من أهوال
هذا اليوم ، ويدعوكم إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - وحده .

قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء ان انتم الا في
ضلال كبير

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - ما رد به الكافرون على خزنة جهنم فقال
: ( قَالُواْ بلى قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا
نَزَّلَ الله مِن شَيْءٍ . . ) .أى : قال الكافرون - على سبيل التحسر
والتفجع - فى ردهم على خزنة جهنم : بلى لقد جاءنا المنذر الذى أنذرنا
وحذرنا من سوء عاقبة الكفر . . ولكننا كذبناه ، وأعرضنا عن دعوته ، بل
وتجاوزونا ذلك بأن قلنا له على سبيل العناد والجحود والغرور : ما نزل الله
على أحد من شئ من الأشياء التى تتلوها علينا ، وتأمرنا بها ، أو تنهانا عن
مخالفتها .وقوله : ( إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ كَبِيرٍ ) يحتمل أنه
: من كلام الكافرين لرسلهم الذين أنذروهم وحذروهم من الإصرار على الكفر .أى
جاءنا الرسل الذين أنذرونا . . فكذبناهم ، وقلنا لهم : ما نزل الله من شئ
: من الأشياء على ألسنتكم . . وقلنا لهم - ما أنتم إلا فى ضلال كبير ، أى
فى ذهاب واضح عن الحق ، وبعد شديد عن الصواب .ويحتمل أن يكون من كلام
- الملائكة ، أى : قال لهم الملائكة على سبيل التجهيل والتوبيخ : ما أنتم
أيها الكافرون - إلا فى ضلال كبير ، بسبب تكذيبكم لرسلكم ، وإعراضكم عمن
حذركم وأنذركم .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ( إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي

ضَلاَلٍ كَبِيرٍ ) من المخاطبون به؟قلت : هو من جملة قول الكفار وخطابهم
: للمنذرين ، على أن النذير بمعنى الإنذار . والمعنى : ألم يأتكم أهل نذير
أو وصف به منذروهم لغلوهم فى الإنذار ، كأنهم ليسوا إلا إنذارا . .ويجوز
أن يكون من كلام الخزنة للكفار على إرادة القول : أرادوا حكاية ما كانوا
- عليه من ضلالهم فى الدنيا ، أو أرادوا بالضلال : الهلاك . . .وجمع
سبحانه - الضمير فى قوله ( إِنْ أَنتُمْ . . . ) مع أن الملائكة قد سألوهم
بالإفراد ، للإشعار بأن هؤلاء الكافرين لم ( أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ )
يكتفوا بتكذيب النذير الذى أنذرهم ، بل كذبوه وأتباعه الذين آمنوا به .فكأن
كل فوج منهم كان يقول للرسول الذى جاء لهدايته : أنت وأتباعك فى ضلال كبير
.

وقالوا لو كنا نسمع او نعقل ما كنا في اصحاب السعير

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - جانبا آخر من حسراتهم في هذا اليوم
فقال : ( وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا في
أَصْحَابِ السعير . . ) .أى : وقال الكافرون بربهم - على سبيل الحسرة
والندامة - لو كنا فى الدنيا نسمع ما يقال لنا على لسان رسولنا ، سماع طاعة
وتفكر واستجابة ، أو نعقل ما يوجه إلينا من هدايات وإرشادات . .لو كنا كذلك
ما صرنا فى هذا اليوم من جملة أصحاب النار المسعرة ، الذين هم خالدون ،
فيها أبدا .وقدم - سبحانه - السماع على التعقل ، مراعاة للترتيب الطبيعى
، لأن السماع يكون أولا ، ثم يعقبه التعقل والتدبر لما يسمع .

فاعترفوا بذنبهم فسحقا لاصحاب السعير

كما فسرها الوسيط والفاء الأولى فى قوله - تعالى - : ( فاعترفوا
بِذَنبِهِمْ فَسُحْقاً لأَصْحَابِ السعير ) للإفصاح ، والثانية للسببية
، والسُّحقُ : البُعد ، يقال : سَحُق - ككرم وعَلِم - سُحقا ، أى بَعُدَ
بُعْداً ، وفلان أسحقه الله ، أى : أبعده عن رحمته ، وهو مصدر ناب عن فعله
، فى الدعاء ، ونصبه على أنه مفعول به لفعل مقدر ، أى : ألزمهم الله سحقا
أو منصوب على المصدرية ، أى : فسحقهم الله سحقا .أى : إذا كان الأمر كما
أخبروا عن أنفسهم ، فقد أقروا واعترفوا بذنوبهم ، وأن الله - تعالى - ما
ظلمهم ، وأن ندمهم لن ينفعهم فى هذا اليوم . . بل هم جديرون بالدعاء عليهم
) بالطرد من رحمة الله - تعالى - وبخلودهم في نار السعير .واللام فى قوله
لأَصْحَابِ ) للتبيين ، كما فى قولهم : سَقياً لك .فالآية الكريمة توضح أن
، ما أصابهم من عذاب كان بسبب إقرارهم بكفرهم ، وإصرارهم عليه حتى الممات
وفى الحديث الشريف : " لن يدخل أحد النار ، إلا وهو يعلم أن النار أولى به
. " من الجنة " وفى حديث آخر : " لن يهلك الناس حتى يعذروا من أنفسهم

ان الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة واجر كبير

كما فسرها الوسيط وكعادة القرآن الكريم فى قرنه الترغيب والترهيب أو العكس
، أخذت السورة فى بيان حسن عاقبة المؤمنين ، بعد بيا سوء عاقبة الكافرين ،
وفى لفت أنظار الناس إلى نعم الله - تعالى - عليهم ، لكى يشكروه ويخلصوا له
) : العبادة . . قال - تعالى - :( إِنَّ الذين يَخْشَوْنَ . . . ) .قوله
، يَخْشَوْنَ ) من الخشية ، وهى أشد الخوف وأعظمه ، والغيب : مصدر غاب يغيب
وكثيرا ما يستعمل بمعنى الغائب ، وهو ما لا تدركه الحواس ولا يعلم ببداهة
، العقل .أى : إن الذين يخشون ربهم فيخافون عذابه ، ويعبدونه كأنهم يرونه
مع أنهم لا يرونه بأعينهم . . هؤلاء الذين تلك صفاتهم ، لهم من خالقهم - عز
وجل - مغفرة عظيمة ، وأجر بالغ الغاية فى الكبر والضخامة .وقوله ( بالغيب )
. حال من الفاعل ، أى : غائبا عنهم ، أو من المفعول . أى : غائبين عنه . أى
يخشون عذابه دون أن يروه - سبحانه - .ويجوز أن يكون المعنى : يخشون عذابه
حال كونهم غائبين عن أعين الناس ، فهم يراقبونه - سبحانه - فى السر ، كما
يراقبونه فى العلانية كما قال الشاعر :يتجنب الهفوات فى خلواته ... عف
- السريرة ، غَيبُه كالمشهدوالحق أن هذه الصفة ، وهى خوف الله - تعالى
، بالغيب ، على رأس الصفات التى تدل على قوة الإيمان ، وعلى طهارة القلب
. . وصفاء النفس

واسروا قولكم او اجهروا به انه عليم بذات الصدور

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بأبلغ أسلوب ، أن السر يتساوى مع
العلانية بالنسبة لعلمه - تعالى - فقال : ( وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ
اجهروا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور . . . ) .وقد ذكروا فى سبب
نزول هذه الآية ، أن المشركين كانوا ينالون من النبى صلى الله عليه وسلم
فلما أطلعه الله - تعالى - على أمرهم ، فقال بعضهم لبعض : أسروا قولكم كى

لا يسمعه رب محمد . .وصيغة الأمر فى قوله : ( وَأَسِرُّواْ ) و ( اجهروا )
مستعملة فى التسوية بين الأمرين ، كما فى قوله - تعالى - ( فاصبروا أَوْ
لاَ تَصْبِرُواْ . . . )أى : إن إسراركم - أيها الكافرون - بالإساءة إلى
نبينا محمد صلى الله عليه وسلم - أو جهركم بهذه الإساءة ، يستويان فى
علمنا ، لأننا لا يخفى علينا شئ من أحوالكم ، فسواء عندنا من أسر منكم
القول ومن جهر به .وجملة ( إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور ) تعليق للتسوية
، المستفادة من صيغة الأمر أى : سواء فى علمه - تعالى- إسراركم وجهركم
لأنه - سبحانه - عليم علما تاما بما يختلج فى صدوركم ، وما يدور فى نياتكم
التى هى بداخل قلوبكم .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( وَلَقَدْ
خَلَقْنَا الإنسان وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ
أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوريد ) .

الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير

كما فسرها الوسيط ثم أكد - سبحانه - شمول علمه لكل شئ بقوله : ( أَلاَ
يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللطيف الخبير ) .واللطيف من اللطف ، وهو
العالم بخبايا الأمور ، والمدبر لها برفق وحكمة ويسر . .والخبير : من
الخُبْر ، وهو العلم بجزئيات الأشياء الخفية ، التى من شأنها أن يخبر الناس
بعضهم بعضا بحدوثها ، لأنها كانت خافية عليهم .ولفظ ( من ) فى قوله ( مَنْ
خَلَقَ ) يصح أن يكون مفعولا لقوله ( يَعْلَمُ ) ، والعائد محذوف أى : ألا
يعلم الله - تعالى - شأن الذين خلقهم ، والحال أنه - سبحانه - هو الذي لطف
علمه ودق ، إذ هو المدبر لأمور خلقه برفق وحكمة ، العليم علما تاما بأسرار
النفوس وخبايا ما توسوس به ..ويجوز أن يكون ( من ) فاعلا لقوله ( يعلم )
، على أن المقصود به ذاته - تعالى - ويكون مفعول يعلم محذوفا للعلم به
- والمعنى : ألا يعلم السر ومضمرات القلوب الله الذى خلق كل شئ وأوجده
وهو - سبحانه - الموصوف بأنه لطيف خبير .والاستفهام على الوجهين لإنكار ما
زعمه المشركون من انتفاء علمه - تعالى - بما يسرونه فيما بينهم ، حيث قال
بعضهم لبعض : أسروا قولكم كى لا يسمعه رب محمد .

هو الذي جعل لكم الارض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور

كما فسرها الوسيط ثم ذكر - سبحانه - جانبا من مظاهر فضله على عباده فقال :
هُوَ الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرض ذَلُولاً فامشوا فِي مَنَاكِبِهَا )
وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النشور ) .والذلول : السهلة المذللة
المسخرة لما يراد منها؛ من مَشْى عليها ، أو غَرْس فيها ، أو بناء فوقها .
من الذِّل وهو سهولة الانقياد للغير ، ومنه قوله - تعالى - : ( قَالَ
إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ . . . ) أى : غير مذللة
ولا مدربة على حرث الأرض . .والأمر فى قوله ( فامشوا فِي مَنَاكِبِهَا )
للإباحة ، والمناكب جمع منكب وهو ملتقى الكتف مع العضد والمراد به هنا :
جوانبها أو طرقها وفجاجها أو أطرافها . .وهو مثل لفرط التذليل ، وشدة
التسخير . .أى : هو - سبحانه - الذى جعل لكم - لفضله ورحمته - الأرض
المتسعة الأرجاء ، مذللة مسخرة لكم ، لتتمكنوا من الانتفاع بها عن طريق
المشى عليها ، أو البناء فوقها . أو غرس النبات فيها . .وما دام الأمر كذلك
فامشوا فى جوانبها وأطرافها وفجاجها . . ملتمسين رزق ربكم فيها وداوموا على
ذلك ، ففى الحديث الشريف : " التمسوا الرزق فى خبايا الأرض " .والمراد
بقوله : ( وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِ ) الانتفاع بما فيها من وجوه النعم
، وعبر عنه بالأكل لأنه أهم وجوه الانتفاع .فالآية الكريمة دعوة حارة
للمسلمين لكى ينتفعوا بما فى الأرض من كنوز ، حتى يستغنوا عن غيرهم فى
مطعمهم ومشربهم وملبسهم وسائر أمور معاشهم . . فإنه بقدر تقصيرهم فى
استخراج كنوزها ، تكون حاجتهم لغيرهم .قال بعض العلماء : قال الإمام
النووى فى مقدمة المجموع : إن على الأمة الإسلامية أن تعمل على استثمار
وإنتاج كل حاجاتها حتى الإبرة ، لتستغنى عن غيرها ، وإلا احتاجت إلى الغير
بقدر ما قصرت فى الإنتاج . .وقد أعطى الله - تعالى - العالم الإسلامى
، الأولوية فى هذا كله ، فعليهم أن يحتلوا مكانهم ، ويحافظوا على مكانتهم
ويشيدوا كيانهم بالدين والدنيا معا . .وقد أفاض بعض العلماء فى بيان معنى
قوله - تعالى - : ( هُوَ الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرض ذَلُولاً . . ) فقال ما
ملخصه : والناس لطول إلفهم لحياتهم على هذه الأرض وسهولة استقرارهم عليها
ينسون نعمة الله فى تذليلها لهم وتسخيرها ، والقرآن يذكرهم هذه النعمة ..
، الهائلة ، ويبصرهم بها ، فى هذا التعبير الذى يدرك منه كل أحد ، وكل جيل
ما ينكشف له من علم هذه الأرض الذلول . .والله - تعالى - جعل الأرض ذلولا
للبشر من حيث جاذبيتها . . ومن حيث سطحها . . ومن حيث تكوينها ، ومن حيث
إحاطة الهواء بها . . ومن حيث حجمها . .وقوله : ( وَإِلَيْهِ النشور )
معطوف على ما قبله ، لبيان أن مصيرهم إليه - تعالى - بعد قضائهم فى الأرض
، المذللة لهم ، مدة حياتهم . .أى : وإليه وحده مرجعكم ، وبعثكم من قبوركم

. بعد أن قضيتم على هذه الأرض ، الأجل الذى قدره - سبحانه - لكم

امنتم من في السماء ان يخسف بكم الارض فاذا هي تمور

كما فسرها الوسيط ثم حذر - سبحانه - من بطشه وعقابه فقال : ( أَأَمِنتُمْ
. ( مّن فِي السمآء أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأرض فَإِذَا هِيَ تَمُورُ
. والخسف : انقلاب ظاهر السطح من بعض الأرض فصير باطنا ، والباطن ظاهرا.
والمَوْر : شدة الاضطراب والتحرك . يقال : مار الشئ مَوْرا ، إذا ارتج.
واضطرب ، والمراد بمن فى السماء : الله - عز وجل - بدون تحيز أو تشبيه أو
حلول فى مكان .قال الإمام الآلوسى : قوله : ( أَأَمِنتُمْ مّن فِي السمآء
وهو الله - عز وجل - كما ذهب إليه غير واحد ، فقيل على تأويل : من فى ( السماء أمره وقضاؤه ، يعنى أنه من التجوز فى الإسناد ، أو أن فيه مضافا مقدرا ، وأصله : من فى السماء أمره ، فلما حذف وأقيم المضاف إليه مقامه ، ارتفع واستتر ، وقيل على تقدير : خالق من فى السماء . .وقيل فى بمعنى على ويراد العلو بالقهر والقدرة . .وأئمة السلف لم يذهبوا إلى غيره - والآية عندهم من المتشابه وقد قال صلى الله عليه وسلم آمنوا بمتشابهه ولم يقل - أولوه . فهم مؤمنون بأنه - عز وجل - فى السماء : على المعنى الذى أراده سبحانه - مع كمال التنزيه . وحديث الجارية - التى قال لها الرسول صلى الله . عليه وسلم أين الله؟ فأشارت إلى السماء - من أقوى الأدلة فى هذا الباب . وتأويله بما أول به الخلف ، خروج عن دائرة الإنصاف عند ذوى الألباب والمعنى : أأمنتم - أيها الناس - من فى السماء وهو الله - عز وجل - أن. يذهب الأرض بكم ، فيجعل أعلاها أسفلها . . فإذا هى تمور بكم وتضطرب ، وترتج ارتجاجا شديدا تزول معه حياتكم .فالمقصود بالآية الكريمة تهديد الذين يخالفون أمره ، بهذا العذاب الشديد ، وتحذيرهم من نسيان بطشه وعقابه والباء فى قوله ( بِكُم ) للمصاحبة . أى : يخسفها وأنتم مصاحبون لها. . . بذواتكم ، بعد أن كانت مذللة ومسخرة لمنفعتكم

ام امنتم من في السماء ان يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير

كما فسرها الوسيط ثم انتقل - سبحانه - من تهديدهم بالخسف إلى تهديدهم بعذاب آخر فقال : ( أَمْ أَمِنتُمْ مِّن فِي السمآء أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ
- حَاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ) .أى : بل أأمنتم - أيها الناس ) من السماء ، وهو الله - عز وجل - بسلطانه وقدرته .. أن يرسل عليكم حَاصِباً ) أى : ريحا شديدة مصحوبة بالحصى والحجارة التى تهلك ، فحينئذ . ستعلمون عند معاينتكم للعذاب ، كيف ان إنذارى لكم متحققا وواقعا وحقا - فالاستفهام فى الآيتين المقصود به التعجيب من أمنهم عذاب الله - تعالى. عند مخالفتهم لأمره ، وخروجهم عن طاعته .وقدم - سبحانه - من تهديدهم بالخسف على التهديد بإرسال الحصب ، لأن الخسف من أحوال الأرض ، التى سبق أن بين لهم أنه خلقها مذللة لهم ، وفيها ما فيها من منافعهم ، فهذه المنافع ليس . . . عسيرا على الله - تعالى - أن يحولها إلى عذاب لهم

ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير

) : كما فسرها الوسيط ثم ذكرهم - سبحانه - بما جرى للكافرين السابقين فقال : وَلَقَدْ كَذَّبَ الذين مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ) . .أى
ووالله لقد كذب الذين من قبل كفار مكة من الأمم السابقة ، كقوم نوح وعاد وثمود . . فكان إنكارى عليهم ، وعقابى لهم ، شديدا ومبيرا ومدمرا لهم تدميرا تاما .فالنكير بمعنى الإنكار ، والاستفهام فى قوله : ( فَكَيْفَ ، كَانَ نَكِيرِ ) للتهويل .أى : إن إنكارى عليهم كفرهم كان إنكارا عظيما ) : - لأنه ترتب عليه ، أن أخذتهم أخذ عزيز مقتدر .كما قال - تعالى
فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مّن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ
حَاصِباً وَمِنْهُمْ مّنْ أَخَذَتْهُ الصيحة وَمِنْهُمْ مّنْ خَسَفْنَا
بِهِ الأرض وَمِنْهُمْ مّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ الله لِيَظْلِمَهُمْ
( ولكن كانوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ

اولم يروا الى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن الا الرحمن انه بكل شيء بصير

كما فسرها الوسيط ثم تنتقل السورة بعد هذا التهديد والإنذار ، إلى دعوتهم إلى التأمل والتفكر ، فى مشهد الطير صافات فى الجو . . وفى أحوال أنفسهم ): - عند اليأس والفقر ، وعند الهزيمة والإعراض عن الحق . . فيقول - سبحانه أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطير . . ) .قال بعض العلماء : قوله : ( أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطير . . ) عطف على جملة ( هُوَ الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرض ذَلُولاً . . ) استرسالا فى الدلائل على انفراد الله - تعالى - بالتصرف فى

الموجودات ، وقد انتقل من دلالة أحوال البشر وعالمهم ، إلى دلالة أعجب
أحوال العجماوات ، وهى أحوال الطير فى نظام حركاتها فى حال طيرانها ، إذ لا
تمشى على الأرض كما هو فى حركات غيرها على الأرض ، فحالها أقوى دلالة على
عجيب صنع الله المنفرد به . .والاستفهام فى قوله - تعالى - : ( أَوَلَمْ
يَرَوْا . . . ) للتعجيب من حال المشركين ، لعدم تفكرهم فيما يدعو إلى
التفكر والاعتبار . .والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام ، والطير : جمع
طائر كصحب وصاحب . .والمعنى : أغفل هؤلاء المشركون ، وانطمست أعينهم عن
رؤية الطير فوقهم ، وهن ( صَافَّاتٍ ) أى : باسطات أجنحتهن فى الهواء عند
الطيران فى الجو ، ( وَيَقْبِضْنَ ) أى : ويضممن أجنحتهن تارة على سبيل
الاستظهار بها على شدة التحرك فى الهواء . . ( مَا يُمْسِكُهُنَّ ) فى
، حالتى البسط والقبض ( إِلاَّ الرحمن ) الذى وسعت رحمته وقدرته كل شئ
والذى أحسن كل شئ خلقه . .( إِنَّهُ ) - سبحانه - ( بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ
أى : إنه - سبحانه - مطلع على أحوال كل شئ ، ومدبر لأمره على أحسن الوجوه (
وأحكمها . .قال صاحب الكشاف : ( صَافَّاتٍ ) باسطات أجنحتهن فى الجو عند
: طيرانها ، لأنهن إذا بسطنها صففن قوادمها صفا ( وَيَقْبِضْنَ ) أى
: ويضممها إذا ضربن بها جنوبهن .فإن قلت : لم قيل ( وَيَقْبِضْنَ ) ولم يقل
وقابضات؟قلت : لأن الأصل فى الطيران هو صف الأجنحة ، لأن الطيران فى الهواء
كالسباحة فى الماء ، والأصل فى السباحة مد الأطراف وبسطها . وأما القبض
فطارئ على البسط . للاستظهار به على التحرك ، فجئ بما هو طارئ غير أصل بلفظ
. الفعل ، على معنى أنهن صافات ، ويكون منهن القبض تارة كما يكون من السابح
والمراد بإمساكهن : عدم سقوطهن إلى الأرض بقدرته وحكمته - تعالى - حيث.
أودع فيها من الخصائص ما جعلها تطير فى الجو ، كالسابح فى الماء .وشبيه
بهذه الآية قوله - تعالى - : ( أَلَمْ يَرَوْاْ إلى الطير مُسَخَّرَاتٍ فِي
جَوِّ السمآء مَا يُمْسِكُهُنّ إِلاَّ الله . . . ).

امن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن ان الكافرون الا في غرور

كما فسرها الوسيط ثم لفت أنظارهم للمرة الثانية إلى قوة بأسه ، ونفاذ
إرادته ، وعدم وجود من يأخذ بيدهم إذا ما أنزل بهم عقابه فقال : ( أَمَّنْ
هذا الذي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ مِّن دُونِ الرحمن ) .والاستفهام
للتحدي والتعجيز ، و ( أم ) منقطعة بمعنى بل ، فهى للإضراب الانتقالى من
غرض إلى آخر ، ومن حجة إلى أخرى .و ( من ) اسم استفهام مبتدأ ، وخبره اسم
الإشارة ، وما بعده صفته .والمراد بالجند : الجنود الذين يهرعون لنصرة من
يحتاج إلى نصرتهم . ولفظ ( دُونِ ) أصله ظرف للمكان الأسل . . ويطلق على
الشئ المغاير ، فيكون بمعنى غير كما هنا ، والمقصود بالآية تحقير شأن هؤلاء
الجند ، والتهوين من شأنهم .والمعنى : بل أخبرونى - أيها المشركون - بعد أن
ثبتت غفلتكم وعدم تفكيركم تفكيرا ينفعكم ، من هذا الحقير الذى تستعينون به
. فى نصركم ودفع الضر عنكم ، متجاوزين فى ذلك إرادة الرحمن ومشيئته ونصره
أو من هذا الذى ينصركم نصرا كائنا غير نصرا الرحمن ، أو من ينصركم من عذاب
كائن من عنده - تعالى - .والجواب الذى لا تستطيعون جوابا سواه : هو أنه لا
) - ناصر لكم يستطيع أن ينصركم من دون الله - تعالى - ، كما قال - سبحانه
وَإِن يَمْسَسْكَ الله بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن
: - يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ . . . ) وكما قال - عز وجل
مَّا يَفْتَحِ الله لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا )
يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ) وقوله - سبحانه - : ( إِنِ
الكافرون إِلاَّ فِي غُرُورٍ ) كلام معترض بين ما قبله وما بعده ، لبيان
. حالهم القبيح وواقعهم المنكر

امن هذا الذي يرزقكم ان امسك رزقه بل لجوا في عتو ونفور

كما فسرها الوسيط أى : بل أخبرونى من هذا الذى يزعم أنه يستطيع أن يوصل
إليكم الرزق والخير ، إذا أمسك الله - تعالى - عنكم ذلك ، أو منع عنكم
، الأسباب التى تؤدى إلى نفعكم وإلى قوام حياتكم ، كمنع نزول المطر إليكم
وكإهلاك الزروع والثمار التى تنبتها الأرض . .إنه لا أحد يستطيع أن يرزقكم
سوى الله - تعالى - .وقوله : ( بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ) جملة
مستأنفة جواب لسؤال تقديره : فهل انتفع المشركون بتلك المواعظ فكان الجواب
) كلا إنهم لم ينتفعوا ، بل ( لجوا ) أى تمادوا فى اللجاج والجدال بالباطل
فِي عُتُوٍّ ) أى : وفى استكبار وطغيان ، وفى ( وَنُفُورٍ ) أى : شرود
، وتباعد عن الطريق المستقيم .أى : أنهم ساروا فى طريق أهوائهم حتى النهاية
. دون أن يستمعوا إلى صوت نذير أو واعظ أو مرشد

افمن يمشي مكبا على وجهه اهدى امن يمشي سويا على صراط مستقيم

كما فسرها الوسيط ثم ضرب - سبحانه - مثلا لأهل الإيمان وأهل الكفر ، وأهل

الحق وأهل الباطل ، فقال - سبحانه - : ( أَفَمَن يَمْشِي مُكِبّاً على
( وَجْهِهِ أهدى أمّن يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ
، والمُكِب : هو الإنسان الساقط على وجهه ، يقال : كبّ فلان فلاناً وأكبه.
) : إذا صرعه وقلبه بأن جعل وجهه على الأرض . . فهو اسم فاعل من أكب .وقوله
أهدى ) مشتق من الهدى ، وهو معرفة طريق الحق والسير فيها ، والمفاضلة هنا
ليست مقصودة ، لأن الذى يمشى مكبا على وجهه ، لا شئ عنده من الهداية أو
الرشد إطلاقا حتى يفاضل مع غيره ، وفيه لون من التهكم بهذا المكب على وجهه
و " السوى " هو الإنسان الشديد الاستواء والاستقامة ، فهو فعيل بمعنى.
- فاعل .ومنه قوله - تعالى - حكاية عما قاله إبراهيم - عليه السلام - لأبيه
ياأبت إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ العلم مَا لَمْ يَأْتِكَ فاتبعني ) :
أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً )أى : مستويا .وقال الإمام ابن كثير عند تفسيره
لهذه الآية : ( أفَمَن يَمْشِي مُكِبّاً على وَجْهِهِ أهدى . . . ) : هذا
مثل ضربه الله للمؤمن والكافر ، فالكافر مثله فيما هو فيه ، كمثل من يمشى
مكبا على وجهه ، أى : يمشى منحنيا لا مستويا على وجهه ، أى :لا يدرى أين
يسلك ، ولا يكف يذهب ، بل هو تائه حائر ضال ، أهذا أهدى ( أمّن يَمْشِي
سَوِيّاً ) أى : منتصب القامة ( عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ) أى على طريق
واضح بين ، وهو فى نفسه وهو فى نفسه مستقيم وطريقه مستقيمة .هذا مثلهم فى
الدنيا ، وكذلك يكونون فى الآخرة ، فالمؤمن يحشر يمشى سويا على صراط مستقيم
وأما الكافر فإنه يحشر يمشى على وجهه إلى النار . .وروى الإمام أحمد . .
" : عن أنس قال : " قيل يا رسول الله ، كيف يحشر الناس على وجوههم؟ فقال
: أليس الذى أمشاهم على أرجلهم قادرا على أن يمشيهم على وجوههم "وقال الجمل
هذا مثل للمؤمن والكافر ، حيث شبه - سبحانه - المؤمن فى تمسكه بالدين الحق
ومشيه على منهاجه ، بمن يمشى فى الطريق المعتدل ، الذى ليس فيه ما يتعثر ،
به . .وشبه الكافر فى ركوبه ومشيه على الدين الباطل ، بمن يمشى فى الطريق
الذى فيه حفر وارتفاع وانخفاض ، فيتعثر ويسقط على وجهه ، وكلما تخلص من
، عثرة وقع فى أخرى .فالمذكور فى الآية هو المشبه به ، والمشبه محذوف
لدلالة السياق عليه . .وبذلك نرى هذه الآيات الكريمة قد لفتت أنظار الناس
إلى التفكر والاعتبار ، ووبخثت المشركين على جهالاتهم وطغيانهم ، وساقت
. مثالا واضحا للمؤمن والكافر ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة

قل هو الذي انشاكم وجعل لكم السمع والابصار والافئدة قليلا ما تشكرون

كما فسرها الوسيط ثم أمر الله - تعالى - رسوله صلى الله عليه وسلم فى بضع
آيات أن يذكر الكافرين بنعم الله - تعالى - عليهم ، وأن يرد على شبهاتهم
): وأكاذيبهم بما يدحضها ، وأن يكل أمره وأمرهم إليه وحده - تعالى - فقال
- قُلْ هُوَ الذي أَنشَأَكُمْ . . . ) .أى : قل - أيها الرسول الكريم
لهؤلاء المشركين - على سبيل تبصيرهم بالحج والدلائل الدالة على قدرتنا
- ووحدانيتنا ، وعلى سبيل التنويع فى الإرشاد والتوجيه . . قل لهم : الرحمن
- عز وجل - هو الذى أنشأكم وأوجدكم فى كل طور من أطوار حياتكم ، وهو سبحانه
، الذى أوجد لكم السمع الذى تسمعون به ، والأبصار التى تبصرون بها الكائنات
) - والأفئدة أى والقلوب التى يدركونها بها . .ولكنكم - مع كل هذه النعم
قَلِيلاً مّا تَشْكُرُونَ ) خالقكم - عز وجل - .وجمع - سبحانه - الأفئدة
والأبصار ، وأفرد السمع ، لأن القلوب تختلف باختلاف مقدار ما تفهمه مما
يلقى إليها من إنذار أو تبشير ، ومن حجة أو دليل ، فكان من ذلك تعدد القلوب
يتعدد الناس على حسب استعدادهم .وكذلك شأن الناس فيما تنتظمه أبصارهم من
آيات الله فى كونه ، فإن أنظارهم تختلف فى عمق تدبرها وضحولته ، فكان من
ذلك تعدد المبصرين ، بتعدد مقادير ما يستنبطون من آيات الله فى الآفاق
وأما المسموع فهو بالنسبة للناس جميعا شئ واحد ، هو الحجة يناديهم بها.
المرسلون ، والدليل يوضحه لهم النبيون .لذلك كان الناس جميعا كأنهم سمع
واحد ، فكان إفراد السمع إيذانا من الله بأن حجته واحدة ، ودليله واحد لا
يتعدد .وقوله : ( قَلِيلاً مّا تَشْكُرُونَ ) صفة لمصدر محذوف ، أى : شكرا
قليلا ، و ( ما ) مزيدة لتأكيد التقليل .وعبر - سبحانه - بقوله ( قَلِيلاً
- لحضهم على الإكثار من شكره - تعالى - ، وذلك عن طريق إخلاص العبادة له (
. عز وجل - : ونبذ عبادة غيره

قل هو الذي ذراكم في الارض واليه تحشرون

كما فسرها الوسيط ثم أمره - سبحانه - للمرة الثانية أن يذكرهم بنعمة أخرى
فقال ( قُلْ هُوَ الذي ذَرَأَكُمْ فِي الأرض وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ) . أى
وقل لهم - أيها الرسول الكريم - الرحمن - تعالى - وحده ( هُوَ الذي :
ذَرَأَكُمْ فِي الأرض ) .أى : هو الذى خلقكم وبثكم وكثركم فى الأرض ، إذ
الذرء معناه : الإكثار من الموجود . .وقوله : ( وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ )
بيان لمصيرهم بعد انتهاء آجالهم فى هذه الدنيا .أى : وإليه وحده - لا إلى
. غيره - يكون مرجعكم للحساب والجزاء يوم القيامة

ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - أقوالهم التى تدل على طغيانهم وجهالاتهم فقال : ( وَيَقُولُونَ متى هذا الوعد إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ) والوعد : مصدر بمعنى الموعود ، والمقصود به ما أخبرهم به صلى الله عليه. وسلم من أن هناك بعثا وحسابا وجزاء . . ومن أن العاقبة والنصر للمؤمنين .أى ويقول هؤلاء الجاحدون للرسول صلى الله عليه وسلم ولأصحابه ، على سبيل : التهكم والاستهزاء : متى يقع هذا الذى تخبروننا عنه من البعث والحساب والجزاء ، ومن النصر لكم لا لنا . . ؟وجواب الشرط محذوف والتقدير : إن كنتم . صادقين فيما تقولونه لنا ، فأين هو؟ إننا لا نراه ولا نحسه

قل انما العلم عند الله وانما انا نذير مبين

كما فسرها الوسيط وهنا يأمر الله - تعالى - رسوله صلى الله عليه وسلم للمرة الثالثة ، أن يرد عليهم الرد الذى يكبتهم فيقول : ( قُلْ إِنَّمَا العلم عِنْدَ الله وَإِنَّمَآ أَنَاْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ) .أى : قل لهم يا محمد - علم قيام الساعة ، وعلم اليوم الذى سننتصر فيه عليكم . . عند الله ، تعالى - وحده ، لأن هذا العلم ليس من وظيفتى .وإنما وظيفتى أنى نذير لكم أحذركم من سوء عاقبة كفركم ، فإذا استجبتم لى نجوتم ، وإن بقيتم على كفركم ، هلكتم .واللام فى قوله : ( العلم ) للعهد : أى : العلم بوقت هذا الوعد عند الله - تعالى - وحده .والمبين : اسم فاعل من أبان المتعدى ، أى : مبين . لما أمرت بتبليغه لكم بيانا واضحا لا لبس فيه ولا غموض

فلما راوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا وقيل هذا الذي كنتم به تدعون

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - حالهم عندما يرون العذاب الذى استعجلوه فقال : ( فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الذين كَفَرُواْ وَقِيلَ هذا الذي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ ) .والفاء فى قوله : ( فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً . . . ) هى الفصيحة . و ( لما ) ظرف بمعنى حين .و ( رأوه - مستعمل فى المستقبل وجئ به بصيغة الماضى لتحقق الوقوع ، كما فى قوله ( تعالى - : ( أَتَى أَمْرُ الله فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ . . . ) و ( زُلْفَةً ) ) : - اسم مصدر لأزلف إزلافا ، بمعنى القرب . ومنه قوله - تعالى ) وَأُزْلِفَتِ الجنة . . . ) أى : قربت للمتقين ، وهو حال من مفعول رَأَوْهُ ) .والمعنى : لقد حل بالكافرين العذاب الذى كانوا يستعجلونه ويقولون : متى هذا الوعد ، فحين رأوه نازلا بهم ، وقريبا منهم ( سِيئَتْ وُجُوهُ الذين كَفَرُواْ ) أى : ساءت رؤيته وجوههم ، وحلت عليها غبرة ترهقها قترة .( وَقِيلَ ) لهم على سبيل التوبيخ والتأنيب ( هذا الذي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ ) أى : هذا هو العذاب الذى كنتم تتعجلون وقوعه فى الدنيا ، وتستهزئون بمن يحذركم منه .فقوله ( تَدَّعُونَ ) من الدعاء بمعنى الطلب ، أو من الدعوى .( سِيئَتْ ) فعل مبنى للمجهول . وأسند - سبحانه - حصول السوء إلى الوجوه ، لتضمينه معنى كلحت وقبحت واسودت ، لأن الخوف من العذاب قد ظهرت آثاره على وجوههم .وقال - سبحانه - ( سِيئَتْ وُجُوهُ الذين كَفَرُواْ بالإظهار ، ولم يقل وجوههم ، لذمهم بصفة الكفر ، التى كانت السبب فى ( هلاكهم .ومفعول ( تَدَّعُونَ ) محذوف والتقدير : وقيل لهم هذا الذى كنتم تدعون عدم وقوعه قد وقع ، وها أنتم تشاهدونه أمام أعينكم .والجار والمجرور فى قوله ( بِهِ ) متعلق بتدعون لأنه مضمن معنى تكذبون .والقائل لهم هذا . القول : هم خزنة النار ، على سبيل التبكيت لهم

قل ارايتم ان اهلكني الله ومن معي او رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب اليم

كما فسرها الوسيط ثم أمر - سبحانه - رسوله صلى الله عليه وسلم للمرة الرابعة ، أن يرد على ما كانوا يتمنونه بالنسبة له ولأصحابه فقال : ( قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ الله وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الكافرين مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ) .ولقد كان المشركون يتمنون هلاك النبى صلى الله عليه وسلم وكانوا يرددون ذلك فى مجالسهم ، وقد حكى القرآن عنهم ذلك فى آيات منها قوله - تعالى - :( أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ ) - نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ المنون ) أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - أَرَأَيْتُمْ ) أى : أخبرونى ( إِنْ أَهْلَكَنِيَ الله ) . - تعالى وأهلك - ( وَمَن مَّعِيَ ) من أصحابى وأتباعى ( أَوْ رَحِمَنَا ) بفضله وإحسانه بأن رزقنا الحياة الطويلة ، ورزقنا النصر عليكم .فأخبرونى فى تلك الحالة ( فَمَن يُجِيرُ الكافرين مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ) أى : من يستطيع أحد أن يمنع ذلك عنكم .قال صاحب الكشاف : كان كفار مكة يدعون على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين بالهلاك ، فأمر بأن يقول لهم : نحن

مؤمنون متربصون لإحدى الحسنين : إما أن نهلك كما تتمنون ، فننقلب إلى الجنة
أو نرحم بالنصرة عليكم ، أما أنتم فماذا تصنعون؟ من يجيركم - وأنتم ،
كافرون - من عذاب أليم لا مفر لكم منه .يعنى : إنكم تطلبون لنا الهلاك الذى
. هو استعجال للفوز والسعادة ، وأنتم فى أمر هو الهلاك الذى لا هلاك بعده
والمراد بالهلاك : الموت ، وبالرحمة : الحياة والنصر بدليل المقابلة ، وقد.
منح الله - تعالى - نبيه العمر المبارك النافع ، فلم يفارق صلى الله عليه
وسلم الدنيا إلا بعد أن بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ودخل الناس فى دين الله
أفواجا ، وكانت كلمته هى العليا .والاستفهام فى قوله ( أَرَأَيْتُمْ )
للإنكار والتعجيب من سوء تفكيرهم .والرؤية علمية ، والجملة الشرطية بعدها
سدت مسد المفعولين .وقال - سبحانه - ( فَمَن يُجِيرُ الكافرين ) للإشارة
. إلى أن كفرهم هو السبب فى بوارهم وفى نزول العذاب الأليم بهم

قل هو الرحمن امنا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو في ضلال مبين

كما فسرها الوسيط ثم أمره - سبحانه - للمرة الخامسة ، أن يبين لهم أنه هو
، وأصحابه معتمدون على الله - تعالى - وحده ، ومخلصون له العبادة والطاعة
: فقال : ( قُلْ هُوَ الرحمن آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا . . )أى
وقل يا محمد لهؤلاء الجاحدين : إذا كنتم قد أشركتم معه الله - تعالى - آلهة
أخرى فى العبادة ، فنحن على النقيض منكم ، لأننا أخلصنا عبادتنا للرحمن
الذى أوجدنا برحمته ، وآمنا به إيمانا حقا ، وعليه وحده توكلنا وفوضنا
أمورنا .وأخر - سبحانه - مفعول ( آمَنَّا ) وقدم مفعول ( تَوَكَّلْنَا )
للتعريض بالكافرين ، الذين أصروا على ضلالهم ، فكأنه يقول : نحن آمنا ولم
نكفر كما كفرتم ، وتوكلنا عليه وحده ، ولم نتوكل على ما أنتم متوكلون عليه
من أصنامكم وأموالكم وأولادكم . .وقوله ( فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي
ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ) مسوق مساق التهديد والوعيد أى : فستعلمون فى عاجل أمرنا
وآجله ، أنحن الذين على الحق أم أنتم؟ ونحن الذين على الباطل أم
أنتم؟فالمقصود بالآية الكريمة التهديد والإنذار ، مع إخراج الكلام مخرج
. الإنصاف ، الذى يحملهم على التدبر والتفكر لو كانوا يعقلون

قل ارايتم ان اصبح ماؤكم غورا فمن ياتيكم بماء معين

كما فسرها الوسيط ثم أمر - سبحانه - صلى الله عليه وسلم للمرة السادسة ، أن
يذكرهم بنعمة الماء الذى يشربونه فقال : ( قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ
مَآؤُكُمْ غَوْراً فَمَن يَأْتِيكُمْ بِمَآءٍ مَّعِينٍ ) .وقوله ( غَوْراً
، مصدر غارَت البئر ، إذا نضب ماؤها وجف . يقال : غار الماء يغورُ غورا (
إذا ذهب وزال . .والمعين : هو الماء الظاهر الذى تراه العيون ، ويسهل
الحصول عليه ، وهو فعيل من معن إذا قرب وظهر .أى : وقل لهم - أيها الرسول
الكريم - على سبيل التوبيخ وإلزام الحجة : أخبرونى إن أصبح ماؤكم غائرا فى
الأرض ، بحيث لا يبقى له وجود أصلا .فمن يستطيع أن يأتيكم بماء ظاهر على
وجه الأرض ، تراه عيونكم ، وتستعملونه فى شئونكم ومنافعكم .إنه لا أحد
يستطيع ذلك إلا الله - تعالى - وحده ، فعليكم أن تشكروه على نعمه ، لكى
. يزيدكم منها

ن والقلم وما يسطرون

كما فسرها الوسيط افتتحت سورة " القلم " بأحد الحروف المقطعة ، وهى آخر
سورة فى ترتيب المصحف ، افتتحت بواحد من هذه الحروف . أما بالنسبة لترتيب
النزول ، فقد تكون أول سورة نزلت على النبى صلى الله عليه وسلم فى السور
المفتتحة بالحروف المقطعة .وقد قلنا عند تفسيرنا لسورة البقرة : وردت هذه
الحروف المقطعة تارة مفردة بحرف واحد ، وتارة مركبة من حرفين أو ثلاثة ، أو
أربعة ، أو خمسة .فالسور التى تدئت بحرف واحد ثلاث سور وهى : ص ، ق ، ن
، والسور التى بدئت بحرفين تسع سور وهى : طه ، يس ، طس ، وحم ، فى ست سور.
وهى : غافر ، فصلت ، الزخرف ، الدخان ، الجاثية ، الأحقاف .والسور التى
بدئت بثلاثة أحرف ، ثلاث عشرة سورة وهى : " ألم " فى ست سور ، وهى : البقرة
: آل عمران ، العنكبوت ، الروم ، لقمان ، السجدة .و ( الر ) فى خمس سور ،
: وهى : يونس ، هود ، يوسف ، إبراهيم ، الحجر .و ( طسم ) فى سورتين وهما
" الشعراء ، والقصص .وهناك سورتان بدئتا بأربعة أحرف وهما : الرعد ، " الر
" : والأعراف " المص " .وهناك سورتان - أيضا - بدئنا بخمسة أحرف ، وهما
مريم " " كهيعص " والشورى : " حم عسق " فيكون مجموع السور التى افتتحت
بالحروف المقطعة : تسعا وعشرين سورة .هذا ، وقد وقع خلاف بين العلماء فى
، المعنى المقصود بتلك الحروف المقطعة التى افتتحت بها بعض السور القرآنية
ويمكن إجال خلافهم فى رأيين رئيسيين :الرأى الأول يرى أصحابه : أن المعنى
- المقصود منها غير معروف ، فهى من المتشابه الذى استأثر الله - تعالى
بعلمه .وإلى هذا الرأى ذهب ابن عباس - فى بعض الروايات عنه - كما ذهب إليه

الشعبى ، وسفيان الثورى وغيرهم من العلماء .فقد أخرج ابن المنذر عن الشعبى
أنه سئل عن فواتح السور فقال : إن لكل كتاب سرا ، وإن سر هذا القرآن فى
فواتح السور .ويروى عن ابن عباس أنه قال : عجزت العلماء عن إدراكها .وعن
على بن أبى طالب أنه قال : " إن لكل كتاب صفوة ، وصفوة الكتاب حروف التهجى
وفى رواية أخرى عن الشعبى أنه قال : " سر الله فلا تطلبوه "ومن. "
الاعتراضات التى وجهت إلى هذا الرأى ، أنه إذا كان الخطاب بهذه الفواتح غير
، مفهوم للناس لأنه من المتشابه ، فإنه يترتب على ذلك أنه كالخطاب بالمهمل
أو مثل ذلك كمثل المتكلم بلغة أعجمية مع أناس عرب لا يفهمونها .وقد أجيب عن
ذلك بأن هذه الألفاظ ، لم ينتف الإفهام عنها عند كل أحد ، فالرسول صلى
الله عليه وسلم كان يفهم المراد منها ، وكذلك بعض أصحابه المقربين ، ولكن
الذى ننفيه أن يكون الناس جميعا فاهمين لمعنى هذه الحروف المقطعة فى أوائل
بعض السور .وهناك مناقشات أخرى للعلماء حول هذا الرأى ، يضيق المجال عن
ذكرها .أما الرأى الثانى فيرى أصحابه أن المعنى المقصود منها معلوم ، وأنها
ليست من المتشابه الذى استأثر الله - تعالى - بعلمه .وأصحاب هذا الرأى قد
اختلفوا فيما بينهم فى تعيين هذا المعنى المقصود على أقوال كثيرة من أهمها
ما يأتى :أ - أن هذه الحروف أسماء للسور ، بدليل اشتهار بعض السور بالتسمية
بها كسورة" ص " وسورة " يس " .ولايخلو هذا القول من الضعف ، لأن كثيرا من
السور قد افتتحت بلفظ واحد من هذه الفواتح ، والغرض من التسمية رفع
الاشتباه .ب - وقيل : إن هذه الحروف قد جاءت هكذا فاصلة ، للدلالة على
انقضاء سورة وابتداء أخرى .ج - وقيل : إنها حروف مقطعة ، بعضها من أسماء
الله - تعالى - ، وبعضها من صفاته ، فمثلا : ( ألم ) أصلها : أنا الله أعلم
د - وقيل : إنها اسم الله الأعظم . إلى غير ذلك من الأقوال التى لا تخلوا.
من مقال ، والتى أوصلها الإمام السيوطى فى كتابه " الإتقان " إلى أكثر من
عشرين قولا .ه - ولعل أقرب الآراء إلى الصواب أن يقال : إن هذه الحروف
المقطعة ، قد وردت فى افتتاح بعض السور ، للإشعار بأن هذا القرآن الذى
تحدى الله به المشركين ، هو من جنس الكلام المركب من هذه الحروف التى
يعرفونها ، ويقدرون على تأليف الكلام منها ، فإذا عجزوا عن الإتيان بسورة
من مثله ، فذلك لبلوغه فى الفصاحة والبلاغة ، مرتبة يقف فصحاؤهم وبلغاؤهم
دونها بمراحل شاسعة .وفضلا عن ذلك ، فإن تصدير هذه السور بمثل هذه الحروف
المقطعة ، يجذب أنظار المعرضين عن استماع القرآن حين يتلى عليهم ، إلى
الإنصات والتدبر ، لأنه يطرق أسماعهم فى أول التلاوة ألفاظ غير مألوفة فى
مجارى كلامهم . وذلك مما يلفت أنظارهم ليتبينوا ما يراد منها ، فيسمعوا
حكما وحججا قد تكون سببا فى هدايتهم واستجابتهم للحق .هذه خلاصة لآراء
العلماء فى الحروف المقطعة ، التى افتتحت بها بعض السور القرآنية ، ومن
" أراد مزيدا لذلك فليرجع - مثلا - إلى كتاب " البرهان " للزركشى . وكتاب
الإتقان " للسيوطى ، وتفسير " الآلوسى " .ولفظ " ن " على الرأى الذى رجحناه
يكون إشارة إلى إعجاز القرآن . . .وقيل : هو من المتشابه الذى استأثر ،
، الله بعلمه . .وقد ذكر بعض المفسرين أقوالا أخرى ، لا يعتمد عليها لضعفها
: ومن ذلك قولهم : إن " نون " اسم لحوت عظيم . . أو اسم للدواة . . . وقيل
نون " لوح من نور . .والواو فى قوله : ( والقلم ) للقسم ، والمراد بالقلم "
جنسه ، فهو يشمل كل قلم يكتب به و " ما " فى قوله ( وَمَا يَسْطُرُونَ ) :
: موصولة أو مصدرية .و ( يَسْطُرُونَ ) مضارع سطر - من باب نصر - ، يقال
سطر الكتاب سطرا ، إذا كتبه ، والسطر : الصف من الشجر وغيره ، وأصله من
. السطر بمعنى القطع ، لأن صفوف الكتابة تبدو وكأنها قطع متراصة

ما انت بنعمة ربك بمجنون

كما فسرها الوسيط وجواب القسم قوله : ( مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ
بِمَجْنُونٍ ) .أى : وحق القلم الذى يكتب به الكاتبون من مخلوقاتنا
المتعددة ، إنك - أيها الرسول الكريم - لمبرأ مما اتهمك به أعداؤك من
الجنون ، وكيف تكون مجنونا وقد أنعم الله - تعالى - عليك بالنبوة والحكمة
فالمقصود بالآيات الكريمة تسلية النبى صلى الله عليه وسلم عما أصابه من.
، المشركين ، ودفع تهمهم الباطلة دفعا يأتى عليها من القواعد فيهدمها
وإثبات أنه رسول من عنده - تعالى - .وأقسم - سبحانه - بالقلم ، لعظيم شرفه
. . وكثرة منافعه ، فبه كتبت الكتب السماوية ، وبه تكتب العلوم المفيدة ،
وبه يحصل التعارف بين الناس . .وصدق الله إذ يقول : ( اقرأ وَرَبُّكَ
الأكرم . الذى عَلَّمَ بالقلم . عَلَّمَ الإنسان مَا لَمْ يَعْلَمْ ) قال
القرطبى : أقسم - سبحانه - بالقلم . لما فيه من البيان كاللسان . وهو واقع
على كل قلم مما يكتب به من السماء من فى الأرض ، ومنه قول أبى الفتح البستى
إذا أقسم الأبطال يوما بسيفهم ... وعدُّوه مما يُكْسِبُ المجد والكَرَمْكَفى:
قلم الكتاب عزا ورفعة ... مدى الدهر أن الله أقسم بالقَلَمْوالضمير فى قوله
راجع إلى غير مذكور فى الكلام ، إلا أنه معلوم للسامعين ( يَسْطُرُونَ ) :
لأن ذكر القلم يدل على أن هناك من يكتب به .ونفى - سبحانه - عنه صلى الله ،
- عليه وسلم الجنون بأبلغ أسلوب ، لأن المشركين كانوا يصفونه بذلك ، قال

تعالى - . ( وَإِن يَكَادُ الذين كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ
بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ الذكر وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ
. قال الآلوسى : قوله : ( مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ) (
جواب القسم ، والباء الثانية مزيدة لتأكيد النفى . ومجنون خبر ما ، والباء
، الأولى للملابسة ، والجار والمجرور فى موضع الحال من الضمير فى الخبر
والعامل فيها معنى النفى .والمعنى : انتفى عنك الجنون فى حال كونك ملتبسا
بنعمة ربك أى : منعما عليك بما أنعم من حصافة الرأى ، والنبوة . .وفى
إضافته صلى الله عليه وسلم إلى الرب - عز وجل - مزيد إشعار بالتسلية والقرب
والمحبة . ومزيد إشعار - أيضا - بنفى ما افتراه الجاهلون من كونه صلى الله
- عليه وسلم مجنونا ، لأن هذه الصفة لا تجتمع فى عبد أنعم الله - تعالى
. عليه ، وقربه ، واصطفاه لحمل رسالته وتبليغ دعوته

وان لك لاجرا غير ممنون

كما فسرها الوسيط ثم بشره - سبحانه - ببشارة ثانية فقال : ( وَإِنَّ لَكَ
لأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ ) .وقوله : ( مَمْنُونٍ ) مأخوذ من المن بمعنى
القطع ، تقول : مننت الحبل ، إذا قطعته ، ويصح أن يكون من المن ، بمعنى أن
) : - يعطى الإنسان غيره عطية ثم يفتخر بها عليه ، ومنه قوله - تعالى
. . . ياأيها الذين آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بالمن والأذى
أى : وإن لك - أيها الرسول الكريم - عندنا ، لأجرا عظيما لا يعلم مقداره(
إلا نحن ، وهذا الأجر غير مقطوع بل هو متصل ودائم وغير مجنون .وهذه الجملة
الكريمة وما بعدها ، معطوفة على جملة جواب القسم ، لأنهما من جملة المقسم
. . عليه

وانك لعلى خلق عظيم

) : كما فسرها الوسيط ثم أثنى - سبحانه - عليه بأجمل ثناء وأطيبه فقال
وَإِنَّكَ لعلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ) .والخلق - كما يقول الإمام الرازى - ملكه
. . نفسانية ، يسهل على المتصف بها الإتيان بالأفعال الجميلة . . . و
- والعظيم : الرفيع القدر ، الجليل الشأن ، السامى المنزلة .أى : وإنك.
أيها الرسول الكريم - لعل دين عظيم ، وعلى خلق كريم ، وعلى سلوك قويم ، فى
كل ما تأتيه وما تتركه من أقوال وأفعال . .والتعبير بلفظ " على " يشعر
بتمكنه صلى الله عليه وسلم ورسوخه فى كل خلق كريم . وهذا أبلغ رد على أولئك
الجاهلين الذين وصفوه بالجنون ، لأن الجنون سفه لا يحسن معه التصرف . أما
" الخلق العظيم ، فهو أرقى منازل الكمال ، فى عظماء الرجال .والتعبير بلفظ
على " يشعر بتمكنه صلى الله عليه وسلم ورسوخه فى كل خلق كريم . وهذا أبلغ
رد على أولئك الجاهلين الذين وصفوه بالجنون ، لأن الجنون سفه لا يحسن معه
التصرف . أما الخلق العظيم ، فهو أرقى منازل الكمال ، فى عظماء الرجال .وإن
- القلم ليعجز عن بيان ما اشتملت عليه هذه الآية الكريمة ، من ثناء من الله
، تعالى - على نبيه صلى الله عليه وسلم .قال الإمام ابن كثير عند تفسيره
لهذه الآية ما ملخصه : قال قتادة : ذكر لنا أن سعد بن هشام سأل السيدة
عائشة عن معنى هذه الآية فقالت : ألست تقرأ القرآن؟ قال : بلى . قالت : فإن
خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم كان القرآن . .ومعنى هذا ، أنه صلى الله
عليه وسلم صار امتثال القرآن أمرا ونهيا ، سجية له وخلقا وطبعا ، فمهما
أمره القرآن فعله ، ومهما نهاه عنه تركه ، هذا ما جبله الله عليه من الخلق
الكريم ، كالحكمة ، والعفة ، والشجاعة ، والعدالة . .وكيف لا يكون صلى الله
عليه وسلم جماع كل خلق عظيم وهو القائل : " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق
" .

فستبصر ويبصرون

كما فسرها الوسيط ثم بشره - سبحانه - ببشارات أخرى فقال : ( فَسَتُبْصِرُ
وَيُبْصِرُونَ . بِأَيِّكُمُ المفتون . إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن
) : ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بالمهتدين ) .والفاء فى قوله
فَسَتُبْصِرُ . . . ) للتفريع على ما تقدم من قوله : ( مَآ أَنتَ
بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ )والفعل " تبصر ويبصرون " من الإبصار الذى
. . هو الرؤية بالعينين ، وقيل : بمعنى العلم . . والسين فى ( فَسَتُبْصِرُ
. للتأكيد ( .

بايكم المفتون

كما فسرها الوسيط والباء فى قوله ( بِأَيِّكُمُ . . ) يرى بعضهم أنها بمعنى
، فى . والمفتون : اسم مفعول ، وهو الذى أصابته فتنة . أدت إلى جنونه
والعرب كانوا يقولون للمجنون : فتنته الجن . أو هو الذى اضطرب أمره واختل

تكوينه وضعف تفكيره .. كأولئك المشركين الذين قالوا فى النبى صلى الله عليه
- وسلم أقوالا لا يقولها عاقل . .أى : لقد ذكرنا لك - أيها الرسول الكريم
أنك بعيد عما اتهمك به الكافرون ، وأن لك عندنا المنزلة التى ليس بعدها
منزلة . . وما دام الأمر كذلك فسترى وسنعلم ، وسيرى وسيلعم هؤلاء المشركون
فى أي قريق منكم الإصابة بالجنون؟ أفى فريق المؤمنين أم بفريق الكافرين ،
قال الجمل فى حاشيته ما ملخصه : قوله : ( فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ). .
، قال ابن عباس : فستعلم ويعلمون يوم القيامة حين يتميز الحق من الباطل
وقيل فى الدنيا بظهور عاقبة أمرك . .( بِأَيِّكُمُ المفتون ) الباء مزيدة
: فى المبتدأ ، والتقدير : أيكم المفتون ، فزيدت الباء كزيادتها فى نحو
. بحسبك درهم . .وقيل : الباء بمعنى " فى " الظرفية ، كقولك : زيد بالبصرة
أى : فيها . والمعنى : فى أى فرقة منكم المفتون .وقيل : المفتون مصدر جاء
. . على مفعول كالمعقول والميسور . أى ، بأيكم الفتون

ان ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيله وهو اعلم بالمهتدين

كما فسرها الوسيط وجملة : ( إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن
سَبِيلِهِ . . . ) تعليل لما ينبئ عنه ما قبله من ظهور جنونهم بحيث لا يخفى
على أحد ، وتأكيد لوعده صلى الله عليه وسلم بالنصر ، ولوعيدهم بالخيبة
والخسران .أى : إن ربك - أيها الرسول الكريم - الذى خلقك فسواك فعدلك ، هو
- أعلم بمن ضل عن سبيله ، وبمن أعرض عن طريق الحق والصواب . . وهو - سبحانه
. أعلم بالمهتدين الذين اهتدوا إلى ما ينفعهم ويسعدهم فى دنياهم وآخرتهم
وما دام الأمر كذلك : فذرهم فى طغيانهم يعمهون ، وسر فى طريقك ، فستكون.
. العاقبة لك ولأتباعك

فلا تطع المكذبين

، كما فسرها الوسيط ثم أرشده - سبحانه - إلى جانب من مسالكهم الخبيثة
) : وصفاتهم القبيحة ، وحذره من الاستجابة إلى شئ من مقترحاتهم ، فقال
( فَلاَ تُطِعِ المكذبين . وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ

ودوا لو تدهن فيدهنون

) : كما فسرها الوسيط وقوله : ( وَدُّواْ ) من الود بمعنى المحبة . وقوله
تُدْهِنُ ) من الإدهان وهى المسايرة والمصانعة والملاينة للغير . وأصله أن
يجعل على الشئ دهنا لكى يلين أو لكى يحسن شكله ، ثم استعير للملاينة
والمساهلة مع الغير .أى : إن ربك - أيها الرسول الكريم -لا يخفى عليه شئ
من أحوالك وأحوالهم ، وما دام الأمر كذلك ، فاحذر أن تطيع هؤلاء المكذبين
فى شئ مما يقترحونه عليك ، فإنهم أحبوا وودوا أن تقبل بعض مقترحاتهم ، وأن
تلاينهم وتطاوعهم فيما يريدون منك . . وهم حينئذ يظهرون لك من جانبهم
الملاينة والمصانعة . . حتى لكأنهم يميلون نحو الاستجابة لك ، وترك إيذائك
وإيذاء أصحابك .فالآية الكريمة تشير إلى بعض المساومات التى عرضها المشركون
على النبى صلى الله عليه وسلم وما أكثرها ، ومنها : ما ذكره ابن إسحاق فى
سيرته من أن بعض زعماء المشركين قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم : يا محمد
هلم فلنعبد ما تعبد ، وتعبد ما نعبد ، فنشترك نحن وأنت فى الأمر ، فإن ،
كان الذى تعبد خيرا مما نعبد ، كنا قد أخذنا بحظنا منه ، وإن كان ما نعبد
خيرا مما تعبد ، كنت قد أخذت بحظك منه ، فنزلت سورة " الكافرون " .ومنها ما
دار بينه صلى الله عليه وسلم وبين الوليد بن المغيرة تارة ، وبينه وبين
عتبة بن ربيعة تارة أخرى . . مما هو معروف فى كتب السيرة .ولقد قال الرسول
، صلى الله عليه وسلم " لعمه أبى طالب عندما نصحه بأن يترك المشركين وشأنهم
وقال له : يا ابن أخى أشفق على نفسك وعلى ، ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق
، وقال له صلى الله عليه وسلم : يا عماه ، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى.
والقمر فى يسارى . على أن أترك هذا الأمر ما تركته ، حتى يظهره الله أو
أهلك فيه . . " .والتعبير بقوله : ( وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ
، يشير إلى أن الملاينة والمصانعة كانت منهم ، لا منه صلى الله عليه وسلم (
فهم الذين كانوا يحبون منه أن يستجيب لمقترحاتهم ، لكى يقابلوا ذلك
) : بالتظاهر بأنهم على صلة طيبة به وبأصحابه .قال صاحب الكشاف : قوله
فَلاَ تُطِعِ المكذبين ) تهييج وإلهاب للتصميم على معاصاتهم ، وكانوا قد
: أرادوا على أن يعدب الله مدة ، وألهتهم مدة ، ويكفوا عن غوائلهم ، .وقوله
لو تلين وتصانع ( فَيُدْهِنُونَ ) .فإن : قلت : لماذا ( لَوْ تُدْهِنُ )
رفع " فيدهنون " ولم ينصب بإضمار " أن " وهو جواب التمنى؟ قلت : قد عدل إلى
) : طريق آخر ، وهو أنه جعل خبر مبتدأ محذوف . أى : فهم يدهنون ، كقوله
: فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلاَ يَخَافُ بَخْساً وَلاَ رَهَقاً ) على معنى
. . ودوا لو تدهن فهم يدهنون

ولا تطع كل حلاف مهين

كما فسرها الوسيط ثم يكرر - سبحانه - النهى للنبى صلى الله عليه وسلم عن طاعة كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم . .فيقول : ( وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ . هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ . مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ . عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ) .وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآيات الكريمة ، نزلت فى الوليد بن المغيرة . . وقيل : إنها نزلت فى الأخنس بن شريق . .والآيات الكريمة يشمل النهى فيها كل من هذه صفاته ، ويدخل فيها الوليد بن المغيرة ، والأخنس بن شريف . . دخولا أوليا أى : ولا تطع - أيها الرسول الكريم - كل من كان كثير الحلف بالباطل ، وكل. من كان مهينا ، أى : حقير ذليلا وضيعا . من المهانة ، وهى القلة فى الرأى والتمييز .

هماز مشاء بنميم

كما فسرها الوسيط ( هَمَّازٍ ) أى : عياب للناس ، أو كثير الناس الاغتياب لهم ، من الهمز ، وأصله : الطعن فى الشئ بعود أو نحوه ، ثم استعير للذى يؤذى الناس بلسانه وبعينه وبإرشاته ، ويقع فيهم بالسوء ، ومنه قوله - تعالى - : ( وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ) ( مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ) أى : يقال للحديثي السّيّئ لكى يفسد بين الناس . . والنميم والنميمة مصدران بمعنى السعاية والإفساد . يقال : نَمّ فلان الحديث - من بابى قتل وضرب - إذا سار بين الناس بالفتنة .وأصل النم : الهمس والحركة الخفيفة ثم استعملت فى السعى بين الناس بالفساد على سبيل المجاز .

مناع للخير معتد اثيم

كما فسرها الوسيط ( مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ) أى : هو شديد المنع لكل ما فيه خير ، ولكل من يستحقه ، خصوصا إذا كان من يستحقه من المؤمنين .ثم هو بعد ذلك ( مُعْتَدٍ ) أى : كثير العدوان على الناس ( أَثِيمٍ ) أى : مبالغ فى ارتكابه للآثام ، لا يترك سيئة دون أن يرتكبها ، وقد جاءت صفات الذم السابقة بصيغة المبالغة ، للإشعار برسوخه فيها. وباقترافه لها بسرعة وشدة .

عتل بعد ذلك زنيم

كما فسرها الوسيط ( عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ) والعتل : هو الجاف الغليظ ، القاسى القلب : الفظ الطبع ، الأكول الشروب . . بدون تمييز بين حلال وحرام . مأخوذ من عتلة يعتُلِه - بكسر التاء وضمها - إذا جره بعنف وغلظة . .( والزنيم ) هو اللصيق بالقوم دون أن يكون منهم ، وإنما هو دعى فيهم ، حتى لكأنه فيهم كالزنمة ، وهى ما يتدلى من الجلد فى حلق المعز أو الشأة . .وقيل : الزنيم ، هو الشخص الذى يعرف بالشر واللؤم بين الناس ، كما " تعرف الشاة بزنمتها . أى : بعلامتها .ومعنى : " بعد ذلك " : كمعنى " ثم ، أى : ثم هو بعد كل تلك الصفات القبيحة السابقة : جاف غليظ ، ملصق بالقوم دعى فيهم . . .فهذه تسع صفات ، كل صفة منها قد بلغت النهاية فى القبح والسوء ، ساقها - سبحانه - لذم الوليد بن المغيرة وأشباهه فى الكفر والفجور .

ان كان ذا مال وبنين

كما فسرها الوسيط وقوله : ( أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ . . . ) متعلق بقوله قبل ذلك ( وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ . . )أى : ولا تطع من كانت - هذه صفاته لكونه ذا مال وبنين ، فإن ماله وولده لن يغنى عنه من الله - تعالى - شيئا .

اذا تتلى عليه اياتنا قال اساطير الاولين

كما فسرها الوسيط وقوله : ( إِذَا تتلى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأولين ) كلام مستأنف جار مجرى التعليل للنهى عن طاعته ، والأساطير جمع أسطورة بمعنى أكذوبة .أى :لا تطعه - لأنه فضلا عما اتسم به من صفات قبيحة - تراه إذا تتلى عليه آياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا وعلى صدقك يا محمد فيما تبلغه عنا ، قال هذا العتل الزنيم ، هذه الآيات . أكاذيب الأولين وترهاتهم .

سنسمه على الخرطوم

كما فسرها الوسيط ثم ختم هذه الآيات بأشد أنواع الوعيد لمن هذه صفاته
فقال - تعالى - ( سَنَسِمُهُ عَلَى الخرطوم ) .أى : سنبين أمره ونوضحه
توضيحا يجعل الناس يعرفونه معرفة تامة لإخفاء معها ولا لبس ولا غموض ، كما
لا تخفى العلامة الكائنة على الخرطوم ، الذى يراد به هنا الأنف . والوسم
، عليه يكون بالنار .أو سنلحق به عارا لا يفارقه ، بلا يلازمه مدى الحياة
وكان العرب إذا أرادوا أن يسبوا رجلا سبة قبيحة . . قد وُسِمَ فلان مِيسَمَ
سوء . . أى : التصق به عار لا يفارقه ، كالسمة التى هي العلامة التى لا
يمحى أثرها . .وذكر الوسم والخرطوم فيه ما فيه من الذم ، لأن فيه جمعا بين
التشويه الذى يترتب على الوسم السّيّئ ، وبين الإهانة ، لأن كون الوسم
فى الوجه بل فى أعلى جزء من الوجه وهو الأنف .. دليل على الإذلال والتحقير
ومما لا شك فيه أن وقع هذه الآيات على الوليد بن المغيرة وأمثاله ، كان.
قاصما لظهورهم ، ممزقا لكيانهم ، هادما لما كانوا يتفاخرون به من أمجاد
زائفة ، لأنه ذم لهم من رب الأرض والسماء ، الذى لا يقول إلا حقا وصدقا
كذلك كانت هذه الآيات تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم ولأصحابه ، عما.
أصابهم من أذى ، من هؤلاء الحلافين بالباطل والزور ، المشائين بين الناس
. بالنميمة ، المناعين لكل خير وبر

انا بلوناهم كما بلونا اصحاب الجنة اذ اقسموا ليصرمنها مصبحين

كما فسرها الوسيط وبمناسبة الحديث السابق الذى فيه إشارة إلى المال والبنين
اللذين كانا من أسباب بطر هؤلاء الكافرين وطغيانهم . . ساق القرآن بعد ،
): - ذلك قصة أصحاب الجنة ، لتكون موعظة وعبرة كل عاقل ، فقال - تعالى
إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَابَ الجنة . . . ) .قال
، الإمام ابن كثير ما ملخصه : هذا مثل ضربة الله - تعالى - لكفار قريش
فيما أهدى إليهم من الرحمة العظيمة ، وأعطاهم من النعم الجسيمة ، وهو بعثه
محمدا صلى الله عليه وسلم إليهم فقابلوه بالتكذيب والمحاربة . .وقد ذكر بعض
: السلف : أن أصحاب الجنة هؤلاء كانوا من أهل اليمن كانوا من قرية يقال لها
، ضَرَوان " على ستة أميال من صنعاء . . وكان أبوهم قد ترك لهم هذه الجنة "
وكانوا من أهل أهل الكتاب ، وقد كان أبوهم يسير فيها سيرة حسنة ، فكان ما
استغله منها يرد فيها ما يحتاج إليه ، ويدخر لعياله قوت سنتهم ، ويتصدق
بالفاضل .فلما مات وورثه أولاده ، قالوا : لقد كان أبونا أحمق ، إذ كان
يصرف من هذه الجنة شيئا للفقراء ، ولو أنا منعناهم لتوفر ذلك لنا ، فلما
: عزموا على ذلك عوقبوا بنقيض قصدهم ، فقد أذهب الله ما بأيديهم بالكلية
) : - أذهب رأس المال ، والربح . . فلم يبق لهم شئ . .وقوله - سبحانه
بَلَوْنَاهُمْ ) أى : اختبرناهم وامتحناهم ، مأخوذ من البلوى ، التى تطلق
- على الاختبار ، والابتلاء قد يكون بالخير وقد يكون بالشر ، كما قال
تعالى - : ( كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الموت وَنَبْلُوكُم بالشر والخير
فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ) والمراد بالابتلاء هنا : الابتلاء
. بالشر بعد جحودهم لنعمة الخير .أى : إنا امتحنا مشركى قريش بالقحط والجوع
حتى أكلوا الجيف ، بسبب كفرهم بنعمنا ، وتكذيبهم لرسولنا صلى الله عليه
وسلم كما ابتلينا من قبلهم أصحاب الجنة ، بأن دمرناها تدميرا ، بسبب بخلهم
وامتناعهم عن أداء حقوق الله منها . .ويبدو أن قصة أصحاب الجنة ، كانت
معروفة لأهل مكة ، ولذا ضرب الله - تعالى - المثل بها . حتى يعتبروا
ويتعظوا . .ووجه المشابهة بين حال أهل مكة ، وحال أصحاب الجنة . . يتمثل فى
أن كلا الطرفين قد منحه الله - تعالى - نعمة عظيمة ، ولكنه قابلها بالجحود
وعدم الشكر .و ( إذ ) فى قوله :( إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا
مُصْبِحِين . . ) تعليلية .والضمير فى ( أَقْسَمُواْ ) يعود لمعظمهم ، لأن
الآيات الآتية بعد ذلك ، تدل على أن أوسطهم قد نهاهم عما اعتزموه من حرمان
: - المساكين ، ومن مخالفة ما يأمرهم شرع الله - تعالى - به . .قال - تعالى
( . . قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ لَوْلاَ تُسَبِّحُونَ )
وقوله : ( لَيَصْرِمُنَّهَا ) من الصرم وهو القطع . يقال : صرم فلان.
زرعه - من باب ضرب - إذا جَزَّه وقطعه ، ومنه قولهم : انصرم حبل المودة بين
فلان وفلان ، إذا انقطع .وقوله : ( مُصْبِحِينَ ) أى : داخلين فى وقت
الصباح المبكر .أى : إنا امتحنا أهل مكة بالبأساء والضراء ، كما امتحنا
أصحاب البستان الذين كانوا قبلهم ، لأنهم أقسموا بالأيمان المغلظة ، ليقطعن
. ثمار هذا البستان فى وقت الصباح المبكر

ولا يستثنون

كما فسرها الوسيط ( وَلاَ يَسْتَثْنُونَ ) أى : دون أن يجعلوا شيئا - ولو
قليلا - من ثمار هذا البستان للمتحاجين ، الذين أوجب الله - تعالى - لهم
حقوقا فى تلك الثمار .وقيل معنى ( وَلاَ يَسْتَثْنُونَ ) ولم يقولوا إن شاء
الله ، كما قال - تعالى - : ( فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ

. ( وَهُمْ نَآئِمُونَ . فَأَصْبَحَتْ كالصريم

فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون

كما فسرها الوسيط ( فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ
نَآئِمُونَ .فَأَصْبَحَتْ كالصريم )والطائف : مأخوذ من الطواف ، وهو المشى
حول الشئ من كل نواحيه ومنه الطواف حول الكعبة . وأكثر ما يستعمل لفظ
الطائف فى الشر كما هنا ، ومنه قوله - تعالى - : ( إِنَّ الذين اتقوا إِذَا
مَسَّهُمْ طَآئِفٌ مِّنَ الشيطان تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ )
وعدى لفظ " طائف " بحرف " على " لتضمينه معنى : تسلط أو نزل .والصريم - كما
يقول القرطبى - : الليل المظلم . . أى : احترقت فصارت كالليل الأسود .وعن
ابن عباس : كالرماد الأسود . أو : كالزرع المحصود . فالصريم بمعنى المصروم
أى : المقطوع ما فيه . .أى : أقسم هؤلاء الجاحدون على أن لا يعطو شيئا من ،
جنتهم للمحتاجين ، فكانت نتيجة نيتهم السيئة ، وعزمهم على الشر . . أن نزل
بهذه الحديقة بلاء أحاط بها فأهلكها ، فصارت كالشئ المحترق الذى قطعت ثماره
ولم يبق منه شئ ينفع .ولم يعين - سبحانه - نوع هذا الطائف ، أو كيفية ،
نزوله ، لأنه لا يتعلق بذكره غرض ، وإنما المقصود ما ترتب عليه من آثاتر
توجب الاعتبار .وتنكير لفظ ( طَآئِفٌ ) للتهويل . و ( من ) فى قوله ( مِّن
رَّبِّكَ ) للابتداء والتقييد بكونه من الرب - عز وجل - لإفادة أنه بلاء
لا قبل لأحد من الخلق بدفعه .قال القرطبى : فى هذه الآية دليل على أن العزم
. مما يؤاخذ به الإنسان ، لأنهم عزموا على أن يفعلوا ، فعوقبوا قبل فعلهم
ومثله قوله - تعالى - : ( وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ
نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ) وفى الحديث الصحيح : " إذا التقى
المسلمان بسيفيهما ، فالقاتل والمقتول فى النار . قيل : يا رسول الله ، هذا
. " القاتل فما بال المقتول؟ قال : إنه كان حريصا على قتل صاحبه

فاصبحت كالصريم

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html}

. فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ )
فَأَصْبَحَتْ كالصريم )والطائف : مأخوذ من الطواف ، وهو المشى حول الشئ من
كل نواحيه ومنه الطواف حول الكعبة . وأكثر ما يستعمل لفظ الطائف فى الشر
كما هنا ، ومنه قوله - تعالى - : ( إِنَّ الذين اتقوا إِذَا مَسَّهُمْ
طَآئِفٌ مِّنَ الشيطان تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ) وعدى لفظ
" طائف " بحرف " على " لتضمينه معنى : تسلط أو نزل .والصريم - كما يقول
القرطبى - : الليل المظلم . . أى : احترقت فصارت كالليل الأسود .وعن ابن
عباس : كالرماد الأسود . أو : كالزرع المحصود . فالصريم بمعنى المصروم ، أى
المقطوع ما فيه . .أى : أقسم هؤلاء الجاحدون على أن لا يعطو شيئا من :
جنتهم للمحتاجين ، فكانت نتيجة نيتهم السيئة ، وعزمهم على الشر . . أن نزل
بهذه الحديقة بلاء أحاط بها فأهلكها ، فصارت كالشئ المحترق الذى قطعت ثماره
ولم يبق منه شئ ينفع .ولم يعين - سبحانه - نوع هذا الطائف ، أو كيفية ،
نزوله ، لأنه لا يتعلق بذكره غرض ، وإنما المقصود ما ترتب عليه من آثاتر
توجب الاعتبار .وتنكير لفظ ( طَآئِفٌ ) للتهويل . و ( من ) فى قوله ( مِّن
رَّبِّكَ ) للابتداء والتقييد بكونه من الرب - عز وجل - لإفادة أنه بلاء
لا قبل لأحد من الخلق بدفعه .قال القرطبى : فى هذه الآية دليل على أن العزم
. مما يؤاخذ به الإنسان ، لأنهم عزموا على أن يفعلوا ، فعوقبوا قبل فعلهم
ومثله قوله - تعالى - : ( وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ
نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ) وفى الحديث الصحيح : " إذا التقى
المسلمان بسيفيهما ، فالقاتل والمقتول فى النار . قيل : يا رسول الله ، هذا
. " القاتل فما بال المقتول؟ قال : إنه كان حريصا على قتل صاحبه

فتنادوا مصبحين

كما فسرها الوسيط ثم يصور - سبحانه - أحاسيسهم وحركاتهم ،وقد خرجوا
لينفذوا ما عزموا عليه من سوء . . فيقول : ( فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ )
. أى : فنادى بعضهم بعضا فى وقت الصباح المبكر ، حتى لا يراهم أحد

ان اغدوا على حرثكم ان كنتم صارمين

كما فسرها الوسيط فقالوا لا يناديهم : ( أَنِ اغدوا على حَرْثِكُمْ إِن
كُنتُمْ صَارِمِينَ ) أى : قا بعضهم لبعض : هيا بنا لنذهب إلى بستاننا لكى
نقطع ما فيه من ثمار فى هذا الوقت المبكر ، حتى لا يرانا أحد ، إذ الغدو هو
الخروج إلى المكان فى غدوة النهار . أى : فى أوله .قال صاحب الكشاف : فإن

قلت : هلا قيل : اغدوا إلى حرثكم ، وما معنى " على "؟قلت : لما كان الغدو
. إليه ليصرموه ويقطعوه : كان غدوا عليه ، كما تقول : غدا عليهم العدو
ويجوز أن يضمن الغدو معنى الإقبال ، كقولهم : يغدى عليهي بالجفنة ويراح .أى
فأقبلوا على حرثكم باكرين . .وجواب الشرط فى قوله : ( إِن كُنتُمْ :
صَارِمِينَ ) محذوف لدلالة ما قبله عليه . أى : إن كنتم صارمين فاغدوا.

فانطلقوا وهم يتخافتون

كما فسرها الوسيط ( فانطلقوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ) أى : فانطلقوا مسرعين
نحو جنتهم وهم يتسارُّون فيما بينهم ، إذا لتخافت : تفاعل من خفت فلان فى
. كلامه ، إذا نطق به بصوت منخفض لا يكاد يسمع

ان لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين

كما فسرها الوسيط وجملة : ( أَن لاَّ يَدْخُلَنَّهَا اليوم عَلَيْكُمْ
: مِّسْكِينٌ ) مفسرة لما قبلها لأن التخافت فيه معنى القول دون حروفه أى
انطلقوا يتخافتون وهم يقولون فيما بينهم : احذروا أن يدخل جنتكم اليوم
. وأنتم تقطعون ثمارها أحد من المساكين

وغدوا على حرد قادرين

. كما فسرها الوسيط وجملة : ( وَغَدَوْاْ على حَرْدٍ قَادِرِينَ ) حالية
والحرد : القصد . يقال : فلان حرد فلان - من باب ضرب - أى : قَصَد قَصْدَه
قال الإمام الشوكانى : الحرد يكون بمعنى المنع والقصد . . لأن القاصد إلى.
الشئ حارد . يقال : حرد يحرد إذا قصد . . وقال أبو عبيدة : ( على حَرْدٍ )
أى : على منع ، من قولهم : حردت الإبل حردا ، إذا قلت ألبانها . والحرود من
. الإبل : القليلة اللبن . . وقال السدى : ( على حَرْدٍ ) : أى : على غضب
وقال الحسن : على حرد ، أى : على حاجة وفاقة . وقيل : ( على حَرْدٍ ) أى .
على انفراد . يقال : حرد يحرد حردا ، إذا تنحى عن قومه ، ونزل منفردا :
عنهم دون أن يخالطهم .أى : أن أصحاب الجنة ساروا إليها غدوة ، على أمر قد
قصدوه وبيتوه . . موقنين أنهم قادرون على تنفيذه ، لأنهم قد اتخذوا له جميع
وسائله ، من الكتمان والتبكير والبعد عن أعين المساكين .أو : ساروا إليها
فى الصباح المبكر ، وهم ليس معهم أحد من المساكين أو من غيرهم ، وهم فى
الوقت نفسه يعتبرون أنفسهم قادرين على قطع ثمارها ، دون أن يشاركهم أحد فى
. تلك الثمار

فلما راوها قالوا انا لضالون

كما فسرها الوسيط ثم صور - سبحانه - حالهم تصويرا بديعا عندما شاهدوا جنتهم
وقد صارت كالصريم ، فقال : ( فَلَمَّا رَأَوْهَا قالوا إِنَّا ،
لَضَآلُّونَ )أى : فحين شاهدوا جنتهم - وهلى على تلك الحال العجيبة - قال
بعضهم لبعض : إنا الضالون عن طريق جنتنا ، تائهون عن الوصول إليها . . لأن
، هذه الجنة الخاوية على عروشها ليست هى جنتنا التى عهدناها بالأمس القريب
. زاخرة بالثمار

بل نحن محرومون

كما فسرها الوسيط ثم اعترفوا بالحقيقة المرة ، بعد أن تأكدوا أن ما أمامهم
هى حديقتهم فقالوا : ( بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ) أى : لسنا بضالين عن
الطريق إليها ، بل الحقيقة أن الله - تعالى - قد حرمنا من ثمارها . . بسبب
. إصرارنا على حرماننا المساكين من حقوقهم منها

قال اوسطهم الم اقل لكم لولا تسبحون

. كما فسرها الوسيط وهنا تقدم إليهم أوسطهم رأيا ، وأعدلهم وأمثلهم تفكيرا
فقال لهم : ( أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ لَوْلاَ تُسَبِّحُونَ ) والاستفهام .
: للتقرير . و ( لَوْلاَ ) حرف تحضيض بمعنى هلا . والتسبيح هنا بمعنى
- الاستغفار والتوبة ، وإعطاء كل ذى حق حقه .أى : قال لهم - أعقلهم وأصلحهم
بعد أن شاهد ما شاهد من أمر الحديقة . قال لهم : لقد قلت لكم عندما عزمتم
على حرمان المساكين حقوقهم منها .. اتقوا الله ولا تفعلوا ذلك ، وسيروا على
الطريقة التى كان يسير عليها أبوكم ، وأعطوا المساكين حقوقهم منها ، ولكنكم
خالفتمونى ولم تطيعوا أمرى ، فكانت نتيجة مخالفتكم لنصحى ، ما ترون من خراب
. الجنة التى أصابنى من خرابها ما أصابكم

قالوا سبحان ربنا انا كنا ظالمين

كما فسرها الوسيط وكعادة كثير من الناس الذين :لا يقدرون النعمة إلا بعد فوات الأوان . . قالوا لأعقلهم وأصلحهم : ( سُبْحَانَ رَبِّنَآ ) أى : تنزه - ربنا ونستغفره عما حدث منا ، فإننا كنا ظالمين لأنفسنا حين منعنا حق الله تعالى - عن عباده .

فاقبل بعضهم على بعض يتلاومون

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - ما دار بينهم بعد أن أيقنوا أن حديقتهم قد دمرت فقال : (فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ يَتَلاَوَمُونَ ) أى : يلوم بعضهم بعضا ، وكل واحد منهم يلقى التبعة على غيره ، ويقول له : أنت الذى كنت السبب فيما أصابنا من حرمان . .

قالوا يا ويلنا انا كنا طاغين

كما فسرها الوسيط ( قَالُواْ ياويلنا ) أى : يا هلاكنا ويا حسرتنا . . ) إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ) أى : إنا كنا متجاوزين لحدودنا ، وفاسقين عن أمر ربنا ، عندما صممنا على البخل بما أعطانا - سبحانه - من فضله .

عسى ربنا ان يبدلنا خيرا منها انا الى ربنا راغبون

كما فسرها الوسيط ( عسى رَبُّنَآ ) بفضله وإحسانه ( أَن يُبْدِلَنَا خَيْراً مِّنْهَآ ) أى : أن يعطينا ما هو خير منها ( إِنَّآ إلى رَبِّنَا ) لا إلى غيره ( رَاغِبُونَ ) أى : راغبون فى عطائه ، راجعون إليه بالتوبة والندم . .قال الآلوسى : قال مجاهد : إنهم تابوا فأبدلهم الله - تعالى - خيرا منها . وحكى عن الحسن : التوقف وسئل قتادة عنهم : أهم من أهل الجنة أم من أهل النار؟ فقال للسائل : لقد كلفتنى تعبا . .

كذلك العذاب ولعذاب الاخرة اكبر لو كانوا يعلمون

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - قصتهم بقوله : ( كَذَلِكَ العذاب ) أى : مثل الذى بلونا به أصحاب الجنة ، من إهلاك جنتهم بسبب جحودهم لنعمنا . . يكون عذابنا لمن خالف أمرنا من كبار مكة وغيرهم .فقوله : ( كَذَلِكَ ) خبر مقدم ( العذاب ) مبتدأ مؤخر . والمشار إليه هو ما تضمنته القصة من إتلاف تلك الجنة ، وإذهاب ثمارها .وقدم المسند وهو الخبر ، على المسند إليه وهو المبتدأ ، للاهتمام بإحضار تلك الصورة العجيبة فى ذهن السامع .وقوله ( : وَلَعَذَابُ الآخرة أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ) يدل على أن المراد بالعذاب السابق عذاب الدنيا .أى : مثل ذلك العذاب الذى أنزلناه بأصحاب الجنة فى الدنيا ، يكون عذابنا لمشركى قريش ، أما عذاب الآخرة فهو أشد وأبقى وأعظم . . ولو كانوا من أهل العلم والفهم ، لعلموا ذلك ، ولأخذوا منه حذرهم عن طريق الإيمن والعمل الصالح . هذا ، والمتأمل فى هذه القصة ، يراها زاخرة بالمفاجآت ، وبتصوير النفس الإنسانية فى حال غناها وفى حال فقرها ، فى حال حصولها على النعمة وفى حال ذهاب هذه النعمة من بين يديها كما يراها تحكى لنا سوء عاقبة الجاحدين لنعم الله ، إذ أن هذا الجحود يؤدى. إلى زوال النعم ، ورحم الله القائل : من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها ، ومن شكرها فقد قيدها بعقالها .

ان للمتقين عند ربهم جنات النعيم

كما فسرها الوسيط ثم تبدأ السورة بعد ذلك ببيان حسن عاقبة المؤمنين ، وفى محاجة المجرمين ، وفى تحديثهم بالسؤال تلو السؤال : إلزاما لهم بالحجة ، وتقريعا لهم على غفلتهم ، وتذكيرا لهم بيوم القيامة الذى سيندمون عنده ولن ينفعهم الندم .قال - تعالى - :( إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ . . . ) .قوله - سبحانه - : ( إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ . . ) بيان لما وعد به - سبحانه - المؤمنين الصادقين ، بعد بيان وعيده للجاحدين المكذبين .أى : إن للذين اتقوا ربهم ، وصانوا أنفسهم عما حرمه . . جنات ليس لهم فيها إلا النعيم الخالص ، والسرور التام والخير الذى لا ينقطع ولا يمتنع .واللام فى قوله : ( لِلْمُتَّقِينَ ) . للاستحقاق ، وقال - سبحانه - ( عِنْدَ رَبِّهِمْ ) للتشريف والتكريم .أى : هذه الجنات اختص الرب - عز وجل - بها الذين اتقوه فى كل أحوالهم .وإضافة الجنات إلى النعيم ، للإشارة إلى أن النعيم ملازم لها لا يفارقها فلا يكون فيها ما يكون فى جنات الدنيا من تغير فى الأحوال ، فهى تارة مثمرة ، وتارة ليست كذلك .

افنجعل المسلمين كالمجرمين

كما فسرها الوسيط والاستفهام فى قوله : ( أَفَنَجْعَلُ المسلمين كالمجرمين
للنفى والإنكار . والفاء للعطف على مقدر يقتضيه الكلام .أى : أنحيف فى (
أحكامنا فنجعل الذين أخلصوا لنا العبادة . كالذين أشركوا معنا آلهة أخرى؟
أو نجعل الذين أسلموا وجوههم لنا ، كالذين فسقوا عن أمرنا؟كلا ، لن نجعل
هؤلاء كهؤلاء ، فإن عدالتنا تقتضى التفريق بينهم .قال الجمل : لما نزلت هذه
الآية وهى قوله : ( إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ . . . ) قال كفار مكة للمسلمين
إن الله فضلنا عليكم فى الدنيا ، فلابد وأن يفضلنا عليكم فى الآخرة ، فإذا
) : لم يحصل التفضيل ، فلا أقل من المساواة فأجابهم الله - تعالى - بقوله
. ( أَفَنَجْعَلُ المسلمين كالمجرمين

ما لكم كيف تحكمون

كما فسرها الوسيط ثم أضاف - سبحانه - إلى توبيخهم توبيخا آخر فقال : ( مَا
، لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ) .وقوله ( مَا لَكُمْ ) جملة من مبتدأ وخبر
، وهى بمثابة تأنيب آخر لهم وقوله : ( كَيْفَ تَحْكُمُونَ ) تجهيل لهم
وتسفيه لعقولهم .أى : ما الذى حدث لعقولكم ، حتى ساويتم بين الأخيار
والأشرار والأطهار والفجار ، ومن أخلصوا لله عبادتهم ، ومن كفروا به؟

ام لكم كتاب فيه تدرسون

كما فسرها الوسيط ثم انتقل - سبحانه - من توبيخهم على جهلهم ، إلى توبيخهم
على كذبهم فقال : ( أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ . إِنَّ لَكُمْ
، فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُون ) .و ( أم ) هنا وما بعدها للإضراب الانتقالى
) وهى بمعنى بل ، والضمير فى قوله ( أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ
فِيهِ ) يعود على الكتاب .وقوله : ( تَدْرُسُونَ ) أى : تقرأون بعناية
وتفكير .وقوله : ( تَخَيَّرُون ) أصله : تتخيرون . والتخير : تطلب ما هو
- خير . يقال : فلان تخير الشئ واختاره ، إذا أخذ خيره وجيده .أى : بل ألكم
أيها المشركون - كتاب قرأتم فيه بفهم وتدبر المساواة بين المتقين والمجرمين
وأخذتم منه ما اخترتموه من أحكام؟ إنه لا يوجد كتاب سماوى ، أو غير سماوى ،
يوافقكم على التسوية بين المتقين والمجرمين . وأنتم إنما تصدرون أحكاما ،
. كاذبة . ما أنزل الله بها من سلطان

ان لكم فيه لما تخيرون

`<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html} كما فسرها الوسيط

: ثم انتقل - سبحانه - من توبيخهم على جهلهم ، إلى توبيخهم على كذبهم فقال
أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ . إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا )
، تَخَيَّرُون ) .و ( أم ) هنا وما بعدها للإضراب الانتقالى ، وهى بمعنى بل
والضمير فى قوله ( أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ( فِيهِ ) يعود
) : على الكتاب .وقوله : ( تَدْرُسُونَ ) أى : تقرأون بعناية وتفكير .وقوله
تَخَيَّرُون ) أصله : تتخيرون . والتخير : تطلب ما هو خير . يقال : فلان
- تخير الشئ واختاره ، إذا أخذ خيره وجيده .أى : بل ألكم - أيها المشركون
كتاب قرأتم فيه بفهم وتدبر المساواة بين المتقين والمجرمين ، وأخذتم منه ما
اخترتموه من أحكام؟ إنه لا يوجد كتاب سماوى ، أو غير سماوى ، يوافقكم على
التسوية بين المتقين والمجرمين . وأنتم إنما تصدرون أحكاما كاذبة . ما أنزل
. الله بها من سلطان

ام لكم ايمان علينا بالغة الى يوم القيامة ان لكم لما تحكمون

كما فسرها الوسيط ثم انتقل - سبحانه - إلى توبيخهم على لون آخر من مزاعمهم
فقال : ( أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إلى يَوْمِ القيامة
إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ .أى : وقل لهم - يا محمد - على سبيل إلزامم
الحجة : بل ألكم ( أَيْمَانٌ ) أى : عهود ومواثيق مؤكدة ( عَلَيْنَا ) وهذه
العهود ( بَالِغَة ) أقصى مداها فى التوكيد ، وثابتة لكم علينا ( إلى
يَوْمِ القيامة ) بأنا قد سوينا بين المسلمين والمجرمين فى أحكامنا ، كما
زعمتم أنتم؟ إن كانت لكم علينا هذه الإيمان والعهود ، فأظهروها للناس ، وفى
هذه الحالة يكون من حقكم أن تحكموا بما حكمتم به .ومما لا شك فيه ، أنهم
ليست لهم عهود عند الله بما زعموه من أحكام ، وإنما المقصود من الآية
الكريمة ، بيان كذبهم فى أقوالهم ، وبيان أنهم لا يستطيعون أن يأتوا بجواب
يثبتون به مدعاهم .وقوله : ( إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ) جواب القسم

لأن قوله : ( أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا ) بمعنى : أم أقسمنا لكم ، إيمانا موثقة بأننا رضينا بأحكامكم التى تسوون فيها بين المسلمين والمجرمين .

سلهم ايهم بذلك زعيم

كما فسرها الوسيط ثم أمر - سبحانه - رسوله صلى الله عليه وسلم - أن يسألهم سؤال بتكيت وتأنيب فقال : ( سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَلِكَ زَعِيمٌ ) .والزعيم هو الضامن ، والمتكلم عن القوم ، والناطق بلسانهم . .واسم الإشارة يعود : على الحكم الباطل الذى حكموه ، وهو التسوية بين المسلمين والمجرمين .أى : سل - أيها الرسول الكريم - هؤلاء المشركين ، سؤال تقريع وتوبيخ ، أى واحد منهم سيكون يوم القيامة ، كفيلا بتحمل مسئولية هذا الحكم ، وضامنا بأن المسلمين سيكونون متساوين مع المجرمين فى الأحكام عند الله - تعالى - .

ام لهم شركاء فلياتوا بشركائهم ان كانوا صادقين

كما فسرها الوسيط ثم انتقل - سبحانه - إلى إلزامهم الحجة عن طريق آخر فقال : ( أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُواْ صَادِقِينَ ) .أى : بل ألهم شركاء يوافقونهم على هذا الحكم الباطل ، إن كان عندهم ذلك ، فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين فى زعمهم التسوية بين المتقين والمجرمين .والمراد بالشركاء هنا : الأصنام التى يشركونها فى العبادة مع الله - عز وجل - .وحذف متعلق الشركاء لشهرته . أى : أم لهم شركاء لنا فى الألوهية يشهدون لهم بصحة أحكامهم .والأمر فى قوله ( فَلْيَأْتُواْ . . . ) للتعجيز .والمتدبر فى هذه الآيات الكريمة ، يرى أن الله - تعالى - قد وبخهم باستفهامات سبعة :أولها قوله : ( أَفَنَجْعَلُ . . . ) الثانى : ( مَا لَكُمْ . . . ) الثالث : ( كَيْفَ تَحْكُمُونَ ) الرابع : ( أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ ) الخامس : ( أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ ) السادس : ( أَيُّهُم بِذَلِكَ زَعِيمٌ ) السابع : ( أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ ) .قال الآلوسى : وقد نبه - سبحانه - فى هذه الآيات ، على نفى جميع ما يمكن أن يتعلقوا به فى تحقيق دعواهم ، حيث نبه - سبحانه - على نفى الدليل وعلى نفى أن يكون الله وعدهم بذلك بقوله ( أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ . . . ) وعلى نفى التقليد الذى هو أوهن من حبال القمر بقولهم : ( أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ . . . ) .

يوم يكشف عن ساق ويدعون الى السجود فلا يستطيعون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - جانبا من أهوال يوم القيامة ، ومن حال الكافرين فيه ، فقال : ( يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السجود فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ .خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُواْ يُدْعَوْنَ إِلَى السجود وَهُمْ سَالِمُونَ ) والظرف " يوم " يجوز أن يكون متعلقا بقوله - تعالى - قبل ذلك : ( فَلْيَأْتُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ . . . ) ويصح أن يكون متعلقا بمحذوف تقديره اذكر ، والمراد باليوم ، يوم القيامة .والكشف عن الساق معناه التشمير عنها وإظهارها ، وهو مثل لشدة الحال ، وصعوبة الخطب والهول ، وأصله أن الإنسان إذا اشتد خوفه ، أسرع فى المشى ، وشمر عن ثيابه ، فينكشف ساقه .قال صاحب الكشاف : الكشف عن الساق ، والإبداء عن الخدام - أى : الخلخال الذى تلبسه المرأة فى رجلها - وهو جمع خَدَمة كرقاب جمع رقبة - مثل فى شدة الأمر ، وصعوبة الخطب ، وأصله فى الروع والهزيمة وتشمير المخدرات عن سوقهن فى الهرب وإبداء خِدَامهن عند ذلك . .كما قال الشاعر :أخو الحرب إن عضت به الحرب ، عضها ... وإن شمرت عن سوقها الحرب شمرافمعنى يوم يكشف عن ساق : يوم يشتد الأمر يتفاقم ، ولا كشف ولا ساق ، كما تقول للأقطع الشحيح : يده مغلولة ولا يد ثَمّ ولا غل ، وإنما هو مثل فى البخل . .فإن قلت : فلم جاءت منكرة فى التمثيل؟ قلت : للدلالة على أنه أمر مبهم فى الشدة فظيع خارج عن المألوف والمعنى : اذكر لهم - أيها الرسول الكريم - لكى يعتبروا ويتعظوا أهوال . . يوم القيامة ، يوم يشتد الأمر ، ويعظم الهول .( وَيُدْعَوْنَ ) هؤلاء الذين فسقوا عن أمر ربهم فى هذا اليوم ( إِلَى السجود ) لله - تعالى - على سبيل التوبيخ لهم ، لأنهم كانوا ممتنعين عنه فى الدنيا . .( فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ ) أى : فلا يستطيعون ذلك ، لأنه الله - تعالى - سلب منهم القدرة على السجود له فى هذا اليوم العظيم ، لأنه يوم جزاء وليس يوم تكليف والذين يدعونهم إلى السجود ، هم الملائكة بأمره - تعالى - .

خاشعة ابصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون الى السجود وهم سالمون

كما فسرها الوسيط وقوله : ( خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ . . . ) حال من فاعل )

يدعون ) وخشوع الأبصار : كناية عن الذلة والخوف الشديد ، ونسب الخشوع إلى
. الأبصار ، لظهور أثره فيها .أى : هم يدعون إلى السجود فلا يستطيعون ذلك
لأنه - تعالى - سلب منهم القدرة عليه ، ثم يساقون إلى النار ، حالة كونهم
ذليلة أبصارهم ، منخفضة رءوسهم . .( تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ) أى : تغشاهم
وتعلوهم ذلة وانكسار . .( وَقَدْ كَانُواْ ) فى الدنيا ( يُدْعَوْنَ إِلَى
- السجود ) لله - تعالى - ( وَهُمْ سَالِمُونَ ) أى : قادرون على السجود له
تعالى - ، ومتمكنون من ذلك أقوى تمكن . . ، ولكنهم كانوا يعرضون عمن يدعوهم
إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - ، ويستهزئون به . .قال الإمام ابن كثير
ما ملخصه : قوله : ( يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ . . . ) يعنى يوم القيامة
وما يكون فيه من الأهوال ، والزلازل ، والبلايا ، والامتحان ، والأمور
العظام . .روى البخارى عن أبى سعيد الخدرى قال : سمعت النبى صلى الله عليه
وسلم يقول : يكشف ربنا عن ساقه ، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ، ويبقى من كان
: يسجد فى الدنيا رياء وسمعة ، فيذهب ليسجد فيعود ظهره ، طبقا واحدا - أى
يصير ظهره كالشئ الصلب فلا يقدر على السجود- .وعن ابن عباس قال : ( يَوْمَ
. . يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ) : وهو يوم كرب وشدة

فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ، بالتهديد الشديد
للكافرين ، وببيان جانب من تصرفه الحكيم معهم ، وبتسلية الرسول صلى الله
عليه وسلم عما أصابه منهم ، ويأمره بالصبر على أذاهم ، وعلى أحقادهم التى
تنبئ عنها نظراتهم المسمومة إليه ، فقال - تعالى - :( فَذَرْنِي وَمَن
يُكَذِّبُ . . . ) .الفعل : ( ذرنى ) من الأفعال التى يأتى منها الأمر
، بالمضارع ، ولم يسمع لها ماض ، وهو بمعنى أترك . يقال : ذَرْهُ يفعل كذا
أى: اتركه . ومنه قوله - تعالى - ( ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ
وَيُلْهِهِمُ الأمل فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ) والمراد بالحديث ( بهذا الحديث
، ما أوحاه - تعالى - إلى نبيه - صلى الله عليه وسلم من قرآن كريم ( . . .
ومن توجيهات حكيمة ، لكى يبلغها للناس .والاستدراج : استنزال الشئ من درجة
إلى أخرى ، والانتقال به من حالة إلى أخرى ، والسين والتاء فيه للطلب
، والمراد به هنا : التمهل فى إنزال العقوبة .والإملاء : الإمداد فى الزمن
والإمهال والتأخير ، مأخوذ من الملاوة والملوة ، وهى الطائفة الطويلة من
الزمن . والملوان : الليل : والنهار ، والمراد به هنا : إمدادهم بالكثر من
النعم .يقال : أملى فلان لبعيره ، إذا أرخى له فى الزمام ، ووسع له فى
القيد ، ليتسع المرعى .والكيد كالمكر ، وهو التدبير الذى يقصد به غير ظاهره
بحيث ينخدع الممكور به ، فلا يفطن لما يراد به ، حتى يقع عليه ما يسوؤه ،
وإضافة الكيد إليه - تعالى - يحمل على المعنى اللائق به كإبطال مكر أعدائه.
وكإمدادهم بالنعم . ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر .والمقصود بهاتين الآيتين ،
الكريمتين : تسلية النبى صلى الله عليه وسلم عما أصابه من أعدائه .والمعنى
- إذا كانت أحوال هؤلاء المشركين ، كما ذكرت لك - أيها الرسول الكريم :
فكِلْ أمرهم إلىّ ، واترك أمر هؤلاء الذين يكذبونك فيما جئتهم به من عندنا
إلى ربك ، ولا تشغل بالك بهم . فإنى سأقربهم قليلا قليلا إلى ما يهلكهم
ويضاعف عقابهم ، بأن أسوق لهم النعم ، حتى يفاجئهم الهلاك من حيث لا يعلمون
أن صنعنا هذا معهم هو لون من الاستدراج ، ثم إنى أمد لهم فى أسباب الحياة
الرغدة ، ليزدادوا إثما ، ثم آخذهم أخذ عزيز مقتدر ، وهذا لون من ألوان
. كيدى الشديد القوى ، الذى لا يفطن إليه أمثال هؤلاء الجاهلين الأغبياء
وشبيه بهاتين الآيتين قوله - تعالى - : ( فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ
بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حتى إِذَا فَرِحُواْ
بِمَآ أُوتوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُّبْلِسُونَ . فَقُطِعَ
دَابِرُ القوم الذين ظَلَمُواْ والحمدُ للَّهِ رَبِّ العالمين ) وفى
الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن
الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته " .وقال الحسن البصرى : كم من
مستدرج بالإحسان ، وكم من مفتون بالثناء عليه ، وكم من مغرور بالستر عليه
قال الآلوسى : وقوله : ( سَنَسْتَدْرِجُهُمْ . . . ) استئناف مسوق لبيان
كيفية التعذيب المستفاد من الكلام السابق إجمالا .وقوله : ( مِّنْ حَيْثُ
لاَ يَعْلَمُونَ ) أنه استدراج ، بل يزعمون أن ذلك إيثار لهم ، وتفضل على
. المؤمنين مع أنه سبب هلاكهم

واملي لهم ان كيدي متين

كما فسرها الوسيط وقوله : ( وَأُمْلِي لَهُمْ ) أى : وأمهلهم ليزدادوا إثما
أى :لا يُدفع بشئ .وتسمية ذلك كيدا - وهو ( إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ) .
ضرب من الاحتيال - لكونه فى صورته - حيث إنه - سبحانه - يفعل معهم ما هو
، نفع لهم ظاهرا ، ومراده - عز وجل - به الضرر ، لما علم من خبث جبلتهم
. . وتماديهم فى الكفر والجحود

ام تسالهم اجرا فهم من مغرم مثقلون

كما فسرها الوسيط ثم عادت السورة الكريمة إلى إبطال معاذيرهم ، بأسلوب الاستفهام الإنكارى ، الذى تكرر فيها كثيرا ، فقال - تعالى - : ( أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ . أَمْ عِندَهُمُ الغيب فَهُمْ يَكْتُبُونَ ) ؟والمغرم والغرام : ما يفرض على المرء أداؤه من مال وغيره .والمثقلون : جمع مثقل ، وهو من أثقلته الديون ، حتى صار فى حالة عجز عن أدائها .والمراد بالغيب : علم الغيب ، وهو ما غاب عن علم البشر ، فالكلام على حذف مضاف .والمعنى : بل أتسألهم - يا محمد - على دعوتك لهم إلى الحق والخير ( أَجْراً ) دنيويا ( فَهُمْ ) من أجل ذلك مثقلون بالديون المالية ، وعاجزون عن دفعها لك . . فترتب على هذا الغرم الثقيل . أن أعرضوا عن دعوتك ، وتجنبوا الدخول فى دينك؟

ام عندهم الغيب فهم يكتبون

كما فسرها الوسيط أم أن هؤلاء القوم عندهم علم الغيب ، بأن يكونوا قد اطلعوا على ما سطرناه فى اللوح المحفوظ من أمور غيبية لا يعلمها أحد سوانا فهم يكتبون ذلك ، ثم يصدرون أحكامهم . ويجادلونك فى شأنها . وكأنهم قد . . اطلعوا على بواطن الأمور! .الحق الذى لا حق سواه ، أن هؤلاء القوم ، أنت لم تطلب منهم أجرا على دعوتك إياهم إلى إخلاص العبادة لنا ، ولا علم عندهم بشئ من الغيوب التى لا يعلمها أحد سوانا ، وكل ما يزعمونه فى هذا الشأن فهو ضرب من الكذب والجهل . .

فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت اذ نادى وهو مكظوم

كما فسرها الوسيط وما دام الأمر كما ذكرنا لك ( فاصبر ) أيها الرسول الكريم - لحكم ربك ، ولقضائه فيك وفيهم ، وسر فى طريقك التى كلفناك به ، وهو تبليغ رسالتنا إلى الناس . . وستكون العاقبة لك ولأتباعك .( وَلاَ تَكُن ) - أيها الرسول الكريم - ( كَصَاحِبِ الحوت ) وهو يونس - عليه السلام - .أى :لا يوجد منك ما وجد منه ، من الضجر ، والغضب على قومه الذين ) : لم يؤمنوا ، ففارقهم دون أن يأذن له ربه بمفارقتهم . .والظرف فى قوله ( وَهُوَ إِذْ نادى وَهُوَ مَكْظُومٌ ) منصوب بمضاف محذوف ، وجملة ( وَهُوَ مَكْظُومٌ ) فى محل نصب على الحال من فاعل " نادى " .والمكظوم - بزنة مفعول - : المملوء غضبا وغيظا وكربا ، مأخوذ من كظم فلان السقاء إذا ملأه وكظم الغيظ إذا حبسه وهو ممتلئ به .أى :لا يكن حالك كحال صاحب الحوت ، وقت ندائه لربه - عز وجل - وهو مملوء غيظا وكربا ، لما حدث له مع قومه ، ولما أصابه من بلاء وهو فى بطن الحوت .وهذا النداء قد أشار إليه - سبحانه - فى آيات منها قوله - تعالى - :( وَذَا النون إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً فَظَنّ أَن لَّن نّقْدِرَ عَلَيْهِ فنادى فِي الظلمات أَن لاّ إِلَه إِلاّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظالمين . فاستجبنا لَهُ وَنَجّيْنَاهُ مِنَ الغم وكذلك نُنجِي المؤمنين ).

لولا ان تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( لّوْلاَ أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رّبِّهِ لَنُبِذَ بالعرآء وَهُوَ مَذْمُومٌ . . ) .استئناف لبيان جانب من فضله - تعالى - على عبده يونس - عليه السلام - .و( لّوْلاَ ) هنا ، حرف امتناع لوجود ، و ( أَن ) يجوز أن تكون مخففة من ( أَن ) الثقيلة واسمها ضمير الشأن ، وهو محذوف ، وجملة ( تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رّبِّهِ ) خبرها .ويجوز أن تكون مصدرية ، أى : لولا تدارك رحمة من ربه والتدارك : تفاعل من الدرك - بفتح الدال - بمعنى اللحاق بالغير . والمقصود. به هنا : المبالغة فى إدراك رحمة الله - تعالى - لعبده يونس - عليه ، السلام - .قال الجمل : قرأة العامة : ( تَدَارَكَهُ ) وهو فعل ماضى مذكر : حمل على معنى النعمة ، لأن تأنيثها غير حقيقى ، وقرأ ابن عباس وابن مسعود - تداراكه - على لفظ النعمة - وهو خلاف المرسوم .والمراد بالنعمة : رحمته : سبحانه - بيونس - عليه السلام - وقبول توبته ، وإجابة دعائه . .والنبذ الطرح والترك للشئ ، والعراء : الأرض الفضالة الخالية من النبات وغيره والمعنى : لولا أن الله - تدارك عبده يونس برحمته ، وبقبول توبته . . لطرح. من بطن الحوت بالأرض الفضاء الخالية من النبات والعمران . . وهو مذموم ، أى وهو ملوم ومؤاخذ منا على ما حدث منه . .ولكن ملامته ومؤاخذته منا قد : امتنعت ، لتداركه برحمتنا ، حيث قبلنا توبته ، وغسلنا حوبته ، ومنحناه الكثير من خيرنا وبرنا . .فالمقصود من الآية الكريمة بيان جانب من فضل - الله - تعالى - على عبده يونس - عليه السلام - ، وبيان أن رحمته - تعالى

به ، ونعمته عليه ، قد حالت بينه ويبن أن يكن مذموما على ما صدر منه ، من
مغاضبة لقومه ومفارقته لهم بدون إذن من ربه . .قال الجمل ما ملخصه : قوله :
أى : ملوم ومؤاخذ بذنبه والجملة حال من مرفوع " نُبِذ ( وَهُوَ مَذْمُومٌ )
وهى محط الامتناع المفاد بلولا ، فهى المنفية لا النَّبذ بالعراء . .أى " :
، - لنبذ بالعراء وهو مذموم ، لكنه رُحِم فنبذ غير مذموم . .فلولا - هنا
. . حرف امتناع لوجود ، وأن الممتنع القيد فى جوابها لا هو نفسه

فاجتباه ربه فجعله من الصالحين

كما فسرها الوسيط وقوله : ( فاجتباه رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصالحين )
تأكيد وتفصيل لنعمة الله - تعالى - التى أنعم بها على عبده يونس - عليه
السلام - ، وهو معطوف على مقدر .أى : فتداركته النعمة فاصطفاه ربه - عز
وجل - حيث رد عليه الوحى بعد انقطاعه ، وأرسله إلى مائة ألف أو يزيدون من
الناس ، وقبل توبته ، فجعله من عباده الكاملين فى الصلاح والتقوى ، وفى
. تبليغ الرسالة عن ربه

وان يكاد الذين كفروا ليزلقونك بابصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون انه لمجنون

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ، ببيان ما كان عليه
- الكافرون من كراهية للنبى صلى الله عليه وسلم ومن حقد عليه ، فقال
تعالى - : ( وَإِن يَكَادُ الذين كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ
بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ الذكر وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ
وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ) .وقولهك ( لَيُزْلِقُونَكَ ) .
من الزَّلَق - بفتحتين - ، وهو تزحزح الإنسان عن مكانه ، وقد يؤدى به هذا
التزحزح إلى السقوط على الأرض ، يقال : زَلَقه يَزْلِقه ، و أزْلقه
يُزْلِقه إزلافا ، إذا نحاه وأبعده عن مكانه ، واللام فيه للابتداء .قال
: الشوكانى : قرأ الجمهور : ( لَيُزْلِقُونَكَ ) بضم الياء من أزلقه ، أى
أزل رجله . .وقرأ نافع وأهل المدينة ( لَيُزْلِقُونَكَ ) - بفتح الياء - من
زلق عن موضعه .و ( إن ) هى المخففة من الثقيلة ، - واسمها ضمير الشأن محذوف
و " لما " ظرفية منصوبة بيزلقونك . أو هى حرف ، وجوابها محذوف لدلالة ما ،
قبلها عليه . أى : لما سمعوا الذكر كادوا يزلقونك . .أى : وإن يكاد الذين
كفروا ليهلكونك ، أو ليزلون قدمك عن موضعها ، أو ليصرعونك بأبصارهم من شدة
نظرهم إليك شزرا ، بعيون ملؤها العداوة والبغضاء حين سمعوا الذكر ، وهو
القرآن الكريم . .( وَيَقُولُونَ ) على سبيل البغض لك ( إِنَّهُ
لَمَجْنُونٌ ) أى : إن الرسول صلى الله عليه وسلم لمن الأشخاص الذين ذهبت
. . عقولهم

وما هو الا ذكر للعالمين

كما فسرها الوسيط ( وَمَا هُوَ ) أى : القرآن الذى أنزلناه عليك ( إِلاَّ
. . ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ) أى : تذكير بالله - تعالى - وبدينه وبهداياته
وشرف لهم وللعالمين جميعا .وجاء قوله ( يَكَادُ ) بصيغة المضارع ، للإشارة
، إلى استمرار ذلك فى المستقبل .وجاء قوله ( سَمِعُواْ ) بصيغة الماضى
لوقوعه مع ( لما ) وللإشعار بأنهم قد حصل منهم هذا القول السّيئ .وجاء
، قوله ( لَيُزْلِقُونَكَ ) بلام التأكيد للإشعار بتصميم على هذه الكراهية
وحرصهم عليها .وقوله - سبحانه - : ( وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ
لِّلْعَالَمِينَ ) رد على أكاذيبهم وإبطال لأقوالهم الزائفة ، حيث وصفوه
صلى الله عليه وسلم بالجنون لأنه إذا ما كان ما جاء به شرف وموعظة وهداية
وتذكير بالخير للناس . . لم يكن معقولا أن يكون مبلغة مجنونا .ومنهم من فسر
قوله - تعالى - ( لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ . . . ) أى : ليحدسونك
عن طريق النظر الشديد بعيونهم . .قال الإمام ابن كثير : وقوله : ( وَإِن
يَكَادُ الذين كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ ) قال ابن عباس
: ومجاهد وغيرهما : ( لَيُزْلِقُونَكَ ) : لينقذونك بأبصارهم ، أى
، لَيعَينوك بأبصارهم ، بمعنى ليحسدونك لبغضهم إياك ، لولا وقاية الله لك
وحمايتك منهم .وفى هذه الآية دليل على أن العين إصابتها وتأثيرها حق بأمر
الله - عز وجل - ، كما وردت بذلك الأحاديث المروية من طرق متعددة كثيرة .ثم
ساق - رحمه الله - جملة من الأحاديث فى هذا المعنى ، منها ما رواه أبو داود
فى سننه ، عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا رقية إلا من
عين أو حُمَه - أى : سم - ، أودم لا يرقأ " .وروى الإمام مسلم فى صحيحه عن
ابن عباس ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " العين حق ، ولو كان شئ
سابَق القدر سَبَقَت العين " .وعن ابن عباس - أيضا - قال : " كان رسول الله
صلى الله عليه وسلم يعوذ الحسن والحسين فيقول : " أعيذ كما بكلمات الله
التامة ، من كل شيطان وهامة - والهامة كل ذات سم يقتل - ، ومن كل عين لامة

وعن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " العين. " " حق حتى لتورد الرجل القبر ، والجمل القدر ، وإن أكثر هلاك أمتى فى العين وبعد : فهذا تفسير محرر لسورة " ن " نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا. لوجهه ، ونافعا لعباده .والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله . . عليه سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الحاقة

كما فسرها الوسيط كلمة " الحاقة " مأخوذة من حق الشئ إذا ثبت وجوده ثبوتا لا يحتمل الشك . . وهى من أسماء الساعة ، وسميت الساعة بهذا الاسم لأن الأمور تثبت فيها وتَحق ، خلافا لما كان يزعمه الكافرون من أنه لا بعث ولا حساب ولا جزاء .والهاء فيها يصح أن تكون هاء التأنيث ، فيكون لفظ " الحاقة صفة لموصوف محذوف ، أى : الساعة الحاقة .ويصح أن تكون هاء مصدر ، بزنة " فاعلة ، مثل الكاذبة للكذب والباقية للبقاء ، والطاغية للطغيان .وأصلها تاء " المرة ، ولكنها لما أريد بها الصدر ، قطع النظر عن المرء ، وصار لفظ . الحاقة " بمعنى الحق الثابت الوقوع

ما الحاقة

كما فسرها الوسيط ولفظ " الحاقة " مبتدأ ، و " ما " مبتدأ ثان ، ولفظ ، الحاقة الثانى ، خبر المبتدأ الثانى ، والجملة من المبتدأ الثانى وخبره . خبر المبتدأ الأول .قال القرطبى ما ملخصه : قوله - تعالى - : ( الحاقة مَا الحآقة ) يريد القيامة ، سميت بذلك : لأن الأمور تَحُق فيها .وقيل سميت بذلك ، لأنها تكون من غير شك . أو لأنها أحقت لأقوام الجنة ، ولأقوام النار أو لأن فيها يصير كل إنسان حقيقيا بجزاء عمله ، أو لأنها تَحُقُ كل ، مُحَاق فى دين الله بالباطل . أى : تبطل حجة كل مخاصم فى دين الله . . بالباطل - يقال : حاقَقْتهُ فحققته فأنا أُحِقُّه ، إذا غالبتُه فغلبته . . والتّحاق التخاصم ، والاحتقاق : الاختصام

وما ادراك ما الحاقة

كما فسرها الوسيط و " ما " فى قوله ( وَمَآ أَدْرَاكَ مَا الحاقة ) اسم ) استفهام المقصود به هنا التهويل والتعظيم ، وهى مبتدأ . وخبرها جملة وَمَآ أَدْرَاكَ مَا الحاقة ) وما الثانية وخبرها فى محل نصب سادة مسد المفعول الثانى لقوله ( أَدْرَاكَ ) لأن أدرى يتعدى لمفعولين ، الأول بنفسه والثانى بالباء ، كما فى قوله - تعالى - : ( قُل لَّوْ شَآءَ الله مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُمْ بِهِ ) .وهذا الأسلوب الذى جاءت به هذه الآيات الكريمة ، فيه ما فيه من التهويل من شأن الساعة ، ومن التعظيم لأمرها ، فكأنه - تعالى - يقول : يوم القيامة الذى يخوض فى شأنه الكافرون ، والذى تَحِق فيه الأمور وتثبت . أتدرى أى شئ عظيم هو؟ وكيف تدرى - أيها المخاطب؟ ونحن لم نحط أحدا بكنه هذا اليوم ، ولا بزمان وقوعه؟وإنك أيها العاقل - مهما تصورت هذا اليوم ، فإن أهواله فوق ما تتصور ، وكيفما قدرت لشدائده : فإن هذه الشدائد فوق ما قدرت .ومن مظاهر هذا التهويل لشأن ، يوم القيامة افتتاح السورة بلفظ " الحاقة " الذى قصد به ترويع المشركين لأن هذا اللفظ يدل على أن يوم القيامة حق .كما أن تكرار لفظ " ما " ثلاث مرات ، مستعمل - أيضا - فى التهويل والتعظيم ، كما أن إعادة المبتدأ فى : الجملة الواقعة خبرا عنه بلفظه ، بأن قال ( مَا الحآقة ) ولم يقل ما هى يدل أيضا على التهويل .لأن إظهار فى مقام الإضمار يقصد به ذلك ، ونظيره ) قوله - تعالى - : ( وَأَصْحَابُ اليمين مَآ أَصْحَابُ اليمين ) ، وَأَصْحَابُ الشمال مَآ أَصْحَابُ الشمال ) والخطاب فى الآيات الكريمة لكل من يصلح له ، لأن المقصود تنبيه الناس إلى أن الساعة حق . وأن الحساب والجزاء فيها حق ، لكى يستعدوا لها بالإيمان والعمل الصالح .قال بعض . . " العلماء ما مخلصه : واستعمال " ما أدراك " غير استعمال " ما يدريك فقد روى عن ابن عباس أنه قال : كل شئ من القرآن من قوله ( وَمَآ أَدْرَاكَ فقد أدراه ، وكل شئ من قوله : ( وَمَا يُدْرِيكَ ) فقد طوى عنه .فإن صح ( هذا عنه فمراده أن مفعول " ما أدراك " محقق الوقوع ، لأن الاستفهام فيه للتهويل وأن مفعول " ما يدريك " غير محقق الوقوع لأن الاستفهام فيه للإنكار ، وهو فى معنى نفى الدراية .قال - تعالى - : ( وَمَآ أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ . نَارٌ حَامِيَةٌ ) وقال - سبحانه - ( وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ الساعة قَرِيبٌ ).

كذبت ثمود وعاد بالقارعة

كما فسرها الوسيط ثم فصل - سبحانه - أحوال بعض الذين كذبوا بالساعة ، وبين

ما ترتب على تكذيبهم من عذاب أليم فقال : ( كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ . فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِالطَّاغِيَةِ . وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ) .وثمود : هم قوم صالح - عليه السلام - ، سموا بذلك باسم جدهم ثمود . وقيل سموا بذلك لقلة المياه التى كانت فى مساكنهم ، لأن الثمد هو الماء القليل .وكانت مساكنهم بين الحجاز والشام . وما زالت أماكنهم معروفة باسم قرى صالح وتقع بين المملكة الأردنية الهاشمية ، والمملكة العربية السعودية .وقد ذكرت قصتهم فى سور : الأعراف ، وهود ، والشعراء ، والنمل ، والقمر . . إلخ .وأما عاد فهم قبيلة عاد سوموا بذلك نسبة إلى جدهم الذى كان يسمى بهذا الاسم ، وكانت مساكنهم بالأحقاف باليمن - والأحقاف جمع حِقف وهو الرمل الكثير المائل . . وينتهى نسب عاد وثمود إلى نوح - عليه السلام - .والقارعة : اسم فاعل من قرعه ، إذا ضربه ضربا شديدا ، ومنه قوارع الدهر ، أى : شدائده وأهواله ، ويقال : قرع فلان البعير ، إذا ضربه ومنه قولهم : العبد يقرع بالعصا .ولفظ القارعة ، من أسماء يوم القيامة ، وسمى يوم القيامة بذلك ، لأنه يقرع القلوب ويزجرها لشدة أهواله : وهو صفة لموصوف محذوف ، أى : بالساعة القارعة .والطاغية من الطغيان وهو تجاوز الحد ، والمراد بها هنا الصاعقة أو الصيحة التى أهلكت قوم ثمود ، كما قال - تعالى - : (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ) والعاتية من العتو بمعنى الشدة والقوة وتجاوز الحد .

فاما ثمود فاهلكوا بالطاغية

كما فسرها الوسيط أى : كذبت قبيلة ثمود ، وقبيلة عاد ، بالقيامة التى تقرع القلوب ، وتزلزل النفوس ، لإأما قبيلة " ثمود " فأهلكوا ، بالصيحة أو بالصاعقة ، أو بالرجفة ، التى تجاوزت الحد فى الشدة والهول والطغيان .

واما عاد فاهلكوا بريح صرصر عاتية

كما فسرها الوسيط وأما قبيلة عاد ، فأهلكت بالريح الشديدة ، التى لها صوت عظيم ، والتى تجاوزت كل حد فى قوتها .وابتدأ - سبحانه - بذكر ما أصاب هاتين القبيليتين ، لأنهما أكثر القبائل المكذبة معرفة لمشركى قريش ، لأنهما من القبائل العربية ، ومساكنهما كانت فى شمال وجنوب الجزيرة العربية .

سخرها عليهم سبع ليال وثمانية ايام حسوما فترى القوم فيها صرعى كانهم اعجاز نخل خاوية

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - كيفية نزول العذاب بهم فقال ( سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً : والتسخير : التذليل عن طريق القهر والأمر الذى لا يمكن مخالفته .وحسوما . من الحَسْم بمعنى التتابع ، من حسمت الدابة ، إذا تابعت كيها على الداء مرة بعد مرة حتى ينحسم . . أو من الحسم بمعنى القطع ، ومنه سمى السيف حساما لأنه يقطع الرءوس ، وينهى الحياة .قال صاحب الكشاف : " والحسوم "لا يخلو من أن يكون جمع حاسم ، كشهود وقعود . أو مصدرا كالشكور والكفور ، فإن كان جمعا فمعنى قوله ( حُسُوماً ) : نحسات حسمت كل خير ، واستأصلت كل بركة . أو متتابعة هبوب الرياح ، ما خففت ساعة حتى أتت عليهم ، تمثيلا لتتابعها : بتتابع فعل الحاسم فى إعادة الكى على الداء ، كرة بعد كرة حتى ينحسم .وإن كان مصدرا ، فإما أن ينتصب بفعله مضمرا ، أى : تحسم حسوما ، بمعنى تستأصل استئصالا ، أو يكون صفة كقولك : ذات حسوم . .أى : أرسل الله - تعالى - على هؤلاء المجرمين الريح التى لا يمكنها التخلف عن أمره ، فبقيت تستأصل شأفتهم وتخمد أنفاسهم . . . ( سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً ) ، ) : أى : متتابعة ومتوالية حتى قطعت دابرهم ، ودمرتهم تدميرا .وقوله حُسُوماً ) يصح أن يكون نعتا لسبع ليال وثمانية أيام ، ويصح أن يكون منصوبا على المصدرية بفعل من لفظه ، أى : تحسمهم حسوما .ثم صور - سبحانه - هيئاتهم بعد أن هلكوا فقال : ( فَتَرَى القوم فِيهَا صرعى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ )والخطاب فى قوله ( فَتَرَى . . . ) لغير معين . والفاء للتفريع على ما تقدم والضمير فى قوله ( فِيهَا ) يعود إلى الأيام والليالى ، أو إلى مساكنهم .وقوله : ( صرعى ) أى : هلكى ، جمع صريع كقتيل وقتلى . وجريح وجرحى .والأعجاز جمع عَجُز ، والمراد بها هنا جذوع النخل التى قطعت رءوسها .وخاوية : أى : ساقطة ، مأخوذ من خوى النجم ، إذا سقط للغروب أو من خوى المكان إذا خلا من أهله وسكانه ، وصار قاعا صفصفا . بعد أن كان ممتلئا بعُمّاره .أى : أرسل الله - تعالى - على هؤلاء الظالمين الريح المتتابعة لمدة سبع ليال وثمانية أيام ، فدمرتهم تدميرا ، وصار الرائى ينظر إليهم . . ينظر إليهم فيراهم وقد ألقوا على الأرض هلكى ، كأنهم فى ضخامة أجسادهم - جذوع نخل ساقطة على الأرض ، وقد انفصلت رءوسها عنها .وعبر - سبحانه .

بقوله : ( فَتَرَى القوم . . ) لاستحضار صورتهم فى الأذهان ، حتى يزداد المخاطب إعتبارا بأحوالهم ، وبما حل بهم .والتشبيه بقوله : ( كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ) المقصود منه تشنيع صورتهم ، والتنفير من مصيرهم السَّيِّئ ، لأن من كان هذا مصيره ، كان جديرا بأن يتحامى ، وأن يتجتنب أفعاله التى أدت به إلى هذه العاقبة المهينة .

فهل ترى لهم من باقية

كما فسرها الوسيط والاستفهام فى قوله : ( فَهَلْ ترى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ للنفى ، والخطاب - أيضا - لكل من يصلح له ، وقوله ( بَاقِيَةٍ ) صفة لموصوف محذوف . . أى : فهل ترى لهم من فرقة أو نفس باقية .

وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - النهاية السيئة لأقوام آخرين فقال وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ والمؤتفكات بِالْخَاطِئَةِ . فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ) .وفرعون : هو الذى - قال لقومه - من بين ما قال - أنا ربكم الأعلى . . . وقد أرسل الله تعالى - إليه نبيه موسى - عليه السلام - ولكنه أعرض عن دعوته . . وكانت نهايته الغرق .والمراد بمن قبله : الأقوام الذين سبقوه فى الكفر ، كقوم نوح وإبراهيم - عليهما السلام - .والمراد بالمؤتفكات : قرى قوم لوط - عليه السلام - التى اقتلعها جبريل - عليه السلام - ثم قلبها بأن جعل عاليها ) - سافلها ، مأخوذ من ائتفك الشئ إذا انقلب رأسا على عقب .قال - تعالى فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ) والمراد بالمؤتفكات هنا : سكانها وهم قوم لوط الذين أتوا بفاحشة ما سبقهم إليها أحد من العالمين .وخصوا بالذكر ، لشهرة جريمتهم وبشاعتها وشناعتها . . ولمرور أهل مكة على قراهم وهم فى طريقهم إلى الشام للتجارة ، كما قال - تعالى - : ( وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ . وبالليل أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ) أى : وبعد أن أهلكنا أقوام عاد وثمود . . جاء فرعون ، وجاء أقوام آخرون قبله ، وجاء قوم لوط ، وكانوا جميعا كافرين برسلنا ، ومعرضين عن دعوة الحق ومرتكبين للفعلات الخاطئة ، والفواحش المنكرة .

فعصوا رسول ربهم فاخذهم اخذة رابية

كما فسرها الوسيط ومن مظاهر ذلك أنهم ( فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ ) أى كل أمة من أمم الكفر تلك ، عصت رسولها حين أمرها بالمعروف ، ونهاها عن المنكر .فكانت نتيجة إصرارهم على ارتكاب المعاصى والفواحش . . أن أخذهم الله - تعالى - ( أَخْذَةً رَّابِيَةً ) أى : أخذة زائدة فى الشدة - لزيادة قبائحهم - على الأخذات التى أخذ بها غيرهم .فقوله : ( رَّابِيَةً ) مأخوذ من ربا الشئ إذا زاد وتضاعف .وقال - سبحانه - ( فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ ) ولم يقل رسولهم ، للإشعار بأنهم لم يكتفوا بمعصية الرسول الذى هو بشر مثلهم ، وإنما تجاوزوا ذلك إلى الاستخفاف بما جاءهم به من عند ربهم وخالقهم وموجدهم .والتعبير بالأخذ ، للإشعار بسرعة الإهلاك وشدته ، فإذا وصف هذا الأخذ بالزيادة عن المألوف ، كان المقصود به الزيادة فى الاعتبار والاتعاظ لأن هؤلاء جميعا قد أهلكهم - سبحانه - هلاك الاستئصال ، الذى لم يبق منهم باقية .

انا لما طغى الماء حملناكم في الجارية

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - ما جرى لقوم نوح - عليه السلام - وبين جانبا من مننه ونعمه على المخاطبين ، فقال : ( إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاء حَمَلْنَاكُمْ فِي الجارية .لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَاعِيَةٌ )وقوله : ( طَغَا ) من الطغيان وهو مجاوزة الحد فى كل شئ والجارية صفة لموصوف محذوف .أى : اذكروا - أيها الناس - لتعتبروا وتتعظوا ، ما جرى للكافرين من قوم نوح - عليه السلام - فإنهم حين أصروا على كفرهم ، أغرقناهم بالطوفان ، وحين علا الماء واشتد فى ارتفاعه اشتداداً خارقاً للعادة . . حملنا آباءكم الذين آمنوا بنوح - عليه السلام - فى السفينة الجارية ، التى صنعها نوح بأمرنا . وحفظناهم - بفضلنا ورحمتنا - فى تلك السفينة إلى أن انتهى الطوفان .

لنجعلها لكم تذكرة وتعيها اذن واعية

: كما فسرها الوسيط وقد فعلنا ذلك ( لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً ) أى

لنجعل لكم هذه النعمة وهى إنجاؤكم وإنجاء آبائكم من الغرق - عبرة وعظة وتذكيرا بنعم الله - تعالى - عليكم .وهذه النعمة والمنة ( وَتَعِيَهَآ ) وتحفظها ( أُذُنٌ وَاعِيَة ) أى : أذن من شأنها أن تحفظ ما يجب حفظه ، وتعى . ما يجب وعيه .فقوله : ( وَاعِيَة ) من الوعى بمعنى الحفظ للشئ فى القلب ) - يقال : وعى فلان الشئ يعيه إذا حفظه أكمل حفظ .وقال - سبحانه - حَمَلْنَاكُمْ فِي الجارية ) مع أن الحمل كان للآباء الذين آمنوا بنوح عليه السلام - لأن فى نجاة الآباء ، نجاة للأبناء ، ولأنه لو هلك الآباء لما وجد الأبناء .قال صاحب الكشاف قوله : ( حَمَلْنَاكُمْ ) أى : حملنا آباءكم ، فى الجارية ، أى : فى السفينة الجارية ، لأنهم إذا كانوا من نسل المحمولين الناجين ، كان حمل آبائهم منة عليهم ، وكأنهم هم المحمولون ، لأن نجاتهم سبب ولادتهم .( لِنَجْعَلَهَا ) الضمير للفعلة : وهى نجاة المؤمنين وإغراق الكفرة ( تَذْكِرَةً ) عبرة وعظة . ( وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَاعِيَةٌ من شأنها أن تعى وتحفظ ما يجب حفظه ووعيه ، ولا تضيعه بترك العمل .فإن ( قلت : لم قيل : أذن واعية على التوحيد والتنكير؟ قلت : للإيذان بأن الوعاة فيهم قلة ، ولتوبيخ الناس بقلة من يعى منهم ، وللدلالة على أن الأذن الواحدة إذا وعت وعقلت عن الله ، فهى السواد الأعظم عند الله ، وأن ما سواها لا يبالى بهم ، وإن ملأوا الخافقين . .وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد ذكرت الناس بأهوال يوم القيامة بأبلغ أسلوب ، وبينت ما حل بالمكذبين بطريقة تبعث الخوف والوجل فى القلوب .

فاذا نفخ في الصور نفخة واحدة

كما فسرها الوسيط ثم أخذت السورة فى تفصيل أهوال يوم القيامة ، وفى بيان ما تكون عليه الأرض والساء فى هذا اليوم ، وفى بيان ما أعده - سبحانه - لمن أوتى كتابه بيمينه فى هذا اليوم ، فقال - تعالى - :( فَإِذَا نُفِخَ فِي . . الصور . . . ) .الفاء فى قوله - تعالى - : ( فَإِذَا نُفِخَ فِي الصور ) للتفريع ، أى : لتفريع ما بعدها على ما قبلها ، وهو الحديث عن أهوال يوم القيامة .والصور : هو البوق الذى ينفخ فيه إسرافيل بأمر الله - تعالى - قال الآلوسى : قوله : ( فَإِذَا نُفِخَ فِي الصور نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ). شروع فى بيان نفس الحاقة ، وكيفية وقوعها ، إثر بيان عظم شأنها ، بإهلاك مكذبيها .والمراد بالنفخة الواحدة : النفخة الأولى ، التى عندها يكون خراب العالم . وقيل هى النفخة الثانية . والأول أولى ، لأنه هو المناسب لما بعده ) : وجواب الشرط قوله : ( فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الواقعة ) أو قوله. يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لاَ تخفى مِنكُمْ خَافِيَةٌ ) .أى : فإذا نفخ إسرافيل فى الصور بأمرنا . وقعت الواقعة التى لا مفر من وقوعها ، لكى يحاسب الناس على أعمالهم .ووصفت النفخة بأنها واحدة ، للتأكيد على أنها نفخة واحدة وليست أكثر ، وللتبيه على أن هذه النفخة - مع أنها واحدة - تتأثر بها السموات والأرض والجبال ، وهذا دليل على وحدانية الله - تعالى - وقدرته وقوله - سبحانه - : ( وَحُمِلَتِ الأرض والجبال فَدُكَّتَا دَكَّةً. وَاحِدَةً ) بيان لما ترتب على تلك النفخة الهائلة من آثار .والمراد بحمل الأرض والجبال : إزالتهما من أماكنهما ، وتفريق أجزائهما .والدك : هو الدق الشديد الذى يترتب عليه التكسير والتفتيت للشئ .أى : عندما ينفخ إسرافيل فى الصور بأمرنا نفخة واحدة ، وعندما تزال الأرض والجبال عن أماكنهما ، وتتفتت أجزاؤهما تفتتا شديدا .

وحملت الارض والجبال فدكتا دكة واحدة

كما فسرها الوسيط فيومئذ ( وَقَعَتِ الواقعة ) أى : ففى هذا الوقت تقع ، الواقعة التى لا مرد لوقوعها ، والواقعة من أسماء يوم القيامة . كالحاقة والقارعة .

فيومئذ وقعت الواقعة

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما تكون عليه السماء فى هذا اليوم فقال والانشقاق : الانفطار. ( وانشقت السمآء فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ) : والتصدع . ومعنى : ( وَاهِيَةٌ ) ضعيفة متراخية .يقال : وهَى البناء يَهِى - وَهْياً واهٍ ، إذا كان ضعيفا جدا ، ومتوقعا سقوطه .أى : وفى هذا الوقت أيضا - الذى يتم فيه النفخ فى الصور بأمرنا تتصدع السماء وتتفطر ، وتصير فى أشد درجات الضعف والاسترخاء والتفرق .وقيد - سبحانه - هذا الضعف بهذا الوقت للإشارة إلى أنه ضعيف طارئ ، قد حدث بسبب النفخ فى الصور ، أما قبل ذلك ، فكانت فى نهاية الإحكام والقوة .وهذا كله للتهويل من شأن هذه النفخة ، ومن شأن المقدمات التى تتقدم قيام الساعة ، حتى يستعد الناس لها بالإيمان والعمل الصالح .

وانشقت السماء فهي يومئذ واهية

كما فسرها الوسيط والمراد بالملك فى قوله - تعالى - : ( والملك على أَرْجَآ ئِهَآ ) جنس الملك ، فيشمل عدد مبهم من الملائكة . . أو جميع الملائكة إذا أردنا بأل معنى الاستغراق .والأرجاء : الأطراف والجوانب ، جمع رَجَا بالقصر ، وألفه منقلبة عن واو ، مثل : قفا وقفوان .أى : والملائكة فى ذلك الوقت يكونون على أرجاء السماء وجوانبها ، ينفذون أمر الله - تعالى - ) وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ) أى : والملائكة واقفون على أطراف السماء ، ونواحيها .ويحمل عرش ربك فوق هؤلاء الملائكة فى هذا اليوم ، ثمانية منهم ، أو ثمانية من صفوفهم التى لا يعلم عددها إلا الله - تعالى - .وعرش الله - تعالى - مما لا يعلمه البشر إلا بالاسم ، فنحن نؤمن بأن الله - عز وجل - عرشا ، إلا أننا نفوض معرفة هيئته وكنهه . . إلى الله - تعالى - .قال الألوسى ما ملخصه : قوله : ( والملك على أَرْجَآ ئِهَآ ) أى : والجنس المتعارف بالملك ، وهم الملائكة . . على جوانب السماء التى لا تتشقق . .( وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ ) أى : فوق الملائكة الذين هم على الأرجاء المدلول عليهم بالملك ، وقيل : فوق العالم كله .( يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ) أى : من الملائكة ، أو ثمانية صفوف لا يعلم عدتهم إلا الله - تعالى - .هذا ، وقد وردت فى صفة هؤلاء الملائكة الثمانية ، أحاديث ضعيفة لذا ضربنا صفحا عن ذكرها .

والملك على ارجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما يجرى على الناس فى هذا اليوم فقال : ( يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لاَ تخفى مِنكُمْ خَافِيَةٌ ) : والعرض أصله. إظهار الشئ لمن يريد التأمل فيه ، أو الحصول عليه ، ومنه عرض البائع سلعته على المشترى .وهو هنا كناية عن لازمه وهو المحاسبة .أى : فى هذا اليوم تعرضون للحساب والجزاء ، لا تخفى منكم خافية ، أى تعرضون للحساب ، دون أن يخفى منكم أحد على الله - تعالى - أو دون أن تخفى منكم نفس واحدة على خالقها - عز وجل - .قال الجمل : وقوله : ( يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ ) أى : تسألون وتحاسبون ، وعبر عنه بذلك تشبيها له بعرض السلطان العسكر والجند لينظر فى أمرهم فيختار منهم المصلح للتقريب والإكرام ، والمفسد للإبعاد والتعذيب .

يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية

كما فسرها الوسيط والفاء فى قوله - تعالى - : ( فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ . . ) لتفصيل ما يترتب على العرض والحساب من جزاء والمراد بكتابة : ما سجلته الملائكة عليه من أعمال فى الدنيا ، والمراد. بيمينه : يده اليمنى ، لأن من يعطى كتابه بيده اليمنى ، يكون هذا الإعطاء دليلا على فوزه ونجاته من العذاب .والعرب يذكرون التناول باليمين ، على أنه كناية عن الاهتمام بالشئ المأخوذ ، وعن الاعتزاز به ، ومنه قول الشاعر :إذا ما راية رفعت لمجد ... تلقاها عرابة باليمينوجملة ( فَيَقُولُ هَآؤُمُ اقرؤا كِتَابِيَهْ ) جواب " أما " - ولفظ " هاؤم " هنا :اسم فعل أمر . بمعنى خذوا ، والهاء فى قوله " كتابية وحسابيهْ " وما ماثلهما للسكت ، والأصل : كتابى وحسابى فأدخلت عليهما هاء السكت لكى تظهر فتحة الياء .والمعنى فى هذا اليوم يعرض كل إنسان للحساب والجزاء ، ويؤتى كل فرد كتاب أعماله ، فأما من أعطى كتاب أعماله بيمينه ، على سبيل التبشير والتكريم ، ( فَيَقُولُ ) على سبيل البهجة والسرور لكل من يهمه أن يقول له : ( هَآؤُمُ اقرؤا كِتَابِيَهْ ، أى : هذا هو كتابى فخذوه واقرءوه فإنكم ستجدونه مشتملا على الإكرام لى ( وتبشيرى بالفوز الذى هو نهاية آمالى ، ومحط رجائى .

فاما من اوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه

كما فسرها الوسيط ( إِنِّي ظَنَنتُ ) أى : تيقنت وعلمت ( أَنِّي مُلاَقٍ حِسَابِيَهْ ) أى : إنى علمت أن يوم القيامة حق ، وتيقنت أن الحساب والجزاء صدق ، فأعددت للأمر عدته عن طريق الإيمان الكامل ، والعمل الصالح .قال الضحاك : كل ظن فى القرآن من المؤمن فهو يقين ، ومن الكافر فهو شك .وهذه الجملة الكريمة بمنزلة التعليل للبهجة والمسرة التى دل عليها قوله - تعالى - ( هَآؤُمُ اقرؤا كِتَابِيَهْ ) .

اني ظننت اني ملاق حسابيه

كما فسرها الوسيط ( فَهُوَ ) أى : هذا المؤمن الفائز برضا الله - تعالى - ) فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ) أى : فى حياة ذات رضا ، أى : ثابت ودائم لها

الرضا . فهى صيغة نسب ، كلابن وتامر لصاحب اللبن والتمر .إو فهو فى عيشة مرضية يرضى بها صاحبها ولا يبغضها ، فهى فاعل بمعنى مفعول ، على حد قولهم : ماء دافق بمعنى مدفوق .وفى هذا التعبير ما فيه من الدلالة على أن هذه الحياة التى يحياها المؤمن فى الجنة ، فى أسمى درجات الحبور والسرور ، حتى لكأنه لو كان للمعيشة عقل ، لرضيت لنفسها بحالتها ، ولفرحت بها فرحا عظيما .

فهو في عيشة راضية

كما فسرها الوسيط ( فِي جَنّةٍ عَالِيَةٍ ) أى : هذا الذى أوتى كتابه بيمينه ، يكون - أيضا - فى جنة مرتفعة على غيرها ، وهذا لون من مزاياها .

في جنة عالية

كما فسرها الوسيط ( قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ) أى : ثمارها قريبة التناول لهذا اليوم ، يقطفها كلما أرادها بدون تعب . فالقطوف جمع قِطف بمعنى مقطوف ، وهو ما يجتنيه الجانى من الثمار ، و ( دَانِيَةٌ ) اسم فاعل ، من الدنو بمعنى القرب .

قطوفها دانية

كما فسرها الوسيط وجملة ( كُلُواْ واشربوا هَنِيئَاً بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي الأيام الخالية ) مقول لقول محذوف .أى : يقال لهؤلاء المؤمنين الصادقين الذين أعطوى كتابهم بأيمانهم كلوا أكلا طيبا ، واشربوا هنيئا مريئا بسبب ، - ما قدمتموه فى دنياكم من إيمان بالله - تعالى - ومن عمل صالح خالص لوجهه ، تعالى - .قال الإمام ابن كثير : أى : يقال لهم ذلك ، تفضلا عليهم وامتنانا وإنعاما وإحسانا ، وإلا فقد ثبت فى الصحيح ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " اعملوا وسددوا وقاربوا ، واعملوا أن أحدا منكم لن يدخله عمله الجنة . قالوا : ولا أنت يا رسول الله؟ قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل " .

كلوا واشربوا هنيئا بما اسلفتم في الايام الخالية

كما فسرها الوسيط وكعادة القرآن الكريم ، فى بيان سوء عاقبة الأشرار ، بعد بيان حسن عاقبة الأخيار ، أو العكس ، جاء الحديث عمن أوتى كتابه بشماله ، بعد الحديث عمن أوتى كتابه بيمينه ، فقال - تعالى - :( وَأَمّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ . . . ) .أى : ( وَأَمّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ ) أى : من الجهة التى يعلم أن الإتيان منها تؤدى إلى هلاكه وعذابه .( فَيَقُولُ ) على سبيل التحسر والتفجع ( ياليتني لَمْ أوتَ كِتَابِيَهْ ) أى : فيقول يا ليتنى لم أعط هذا الكتاب ، لأن إعطائى إياه بشمالى دليل على عذابى وعقابى .

واما من اوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم اوت كتابيه

كما فسرها الوسيط ( وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ) أى : ويا ليتنى لم أعرف شيئا عن حسابى ، فإن هذه المعرفة التى لم أحسن الاستعدا لها ، أوصلتنى إلى العذاب المبين .

ولم ادر ما حسابيه

كما فسرها الوسيط ( ياليتها كَانَتِ القاضية ) أى : ويا ليت الموتة التى متها فى الدنيا ، كانت هى الموتة النهائية التى لا حياة لى بعدها .فالضمير للموتة التى ماتتها فى الدنيا ، وإن كان لم يجر لها ذكر ، إلا أنها عرفت من المقام .والمراد بالقاضية : القاطعة لأمره ، التى لا بعث بعدها ولا حساب . لأن ما وجده بعدها أشد مما وجده بعد حلوله بها .قال قتادة : تمنى الموت ولم يكن عنده فى الدنيا شئ أكره منه . وشر من الموت ما يطلب منه الموت .

يا ليتها كانت القاضية

كما فسرها الوسيط ثم أخذ الذى أوتى كتابه بشماله يتحسر على تفريطه وغروره ، ويحكى القرآن ذلك فيقول : ( مَآ أغنى عَنِّي مَالِيَهْ ) أى : هذه الأموال التى كنت أملكها فى الدنيا ، وأتفاخر بها ، لم تغن عنى شيئا من عذاب الله ، ولم تنفعنى ولو منفعة قليلة .فما نافية ، والمفعول محذوف للتعميم ، ويجوز أن تكون استفهامية والمقصود بها التوبيخ .أى : أى شئ أغنى عنى مالى؟ إنه لم

يغن عنى شيئا؟

ما اغنى عني ماليه

كما فسرها الوسيط ( هَّلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ) أى : ذهب عنى ، وغاب عنى فى هذا اليوم ما كنت أتمتع به فى الدنيا من جاه وسلطان ، ولم يحضرنى شئ منه ، كما أن حججى وأقوالى التى كنت أخاصم بها المؤمنين . قد ذهبت أدراج الرياح .وعدى الفعل " هلك " بعن ، لتضمنه معنى غاب وذهب .

هلك عني سلطانيه

- كما فسرها الوسيط وخلال هذا التفجع والتحسر الطويل . . . يأتى أمر الله تعالى الذى لا يرد ، فيقول - سبحانه - للزبانية المكلفين بإنزال العذاب بالكافرين : ( خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ) أى : خذوا هذا الكافر ، فاجمعوا يديه إلى عنقه .فقوله : ( خُذُوهُ ) معمول لقول محذوف . وهو جواب عن سؤال نشأ مما سبق من الكلام . فكأنه قيل : وماذا يفعل به بعد هذا التحسر والتفجيع . فكان الجواب : أمر الله - تعالى - ملائكته بقوله : ( خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ) وقوله : ( فَغُلُّوهُ ) من الغُل - بضم الغين - وهو ربط اليدين إلى. . العنق على سبيل الإذلال .

خذوه فغلوه

كما فسرها الوسيط ( ثُمَّ الجحيم صَلُّوهُ ) أى : ثم بعد هذا التقييد والإذلال . . اقذفوه به إلى الجحيم ، وهى النار العظيمة ، الشديدة التأجج والتوهج .ومعنى ( صَلُّوهُ ) بالغوا فى تصليته النار ، بغمسه فيها مرة بعد أخرى . يقال : صَلِى فلان النار ، إذا ذاق حرها ، وصَلَّى فلان فلانا النار . إذا أدخله فيها . وقلبه على جمرها كما تقلب الشاة فى النار ،

ثم الجحيم صلوه

كما فسرها الوسيط ( ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ ) والسلسلة : اسم لمجموعة من حَلَق الحديد ، يربط بها الشخص لكى لا يهرب ، أو لكى يزاد فى إذلاله وهو المراد هنا .وقوله : ( ذَرْعُهَا ) أى : طولها ، كما فى قوله - تعالى - : ( استغفر لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ الله لَهُمْ . . . ) وقوله : (فَاسْلُكُوهُ ) من السَّلك بمعنى الإدخال فى الشئ ، كما فى قوله - تعالى - ( مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ) أى : ما أدخلكم فيها .أى : خذوا هذا الكافر ، فقيدوه ثم أعدوه للنار المحرقة . ثم اجعلوه مغلولا فى سلسلة طولها سبعين ذرعا ، بحيث تكون محيطة به إحاطة تامة . أى ألقوا به فى الجحيم وهو مكبل فى أغلاله .و ( ثم ) فى كل آية جئ بها للتراخى الرتبى ، لأن كل عقوبة أشد من سابقتها . إذ إدخاله فى السلسلة الطويلة . أعظم من مطلق إلقائه فى الجحيم كما أن إلقاءه فى الجحيم أشد من مطلق أخذه وتقييده .وفى هذه الآيات ما فيها من تصوير يبعث فى ، القلوب الخوف الشديد ، ويحملها على حسن الاستعداد لهذا اليوم . الذى لا تغنى فيه نفس عن نفس شيئا .وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآيات بعض الأحاديث والآثار ، منها : ما رواه ابن أبى حاتم ، عن المنهال بن عمرو قال : إذا قال الله - عز وجل - ( خُذُوهُ . . ) ابتدره سبعون ألف ملك ، وإن الملك منهم ليقول هكذا - أى : ليفعل هكذا - فيلقى سبعين ألفا فى النار .

ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - الأسباب التى أدت بهذا الشقى إلى هذا المصير الأليم فقال : ( إِنَّهُ كَانَ لاَ يُؤْمِنُ بالله العظيم . وَلاَ يَحُضُّ على طَعَامِ المسكين ) .أى : إن هذا الشقى إنما حل به ما حل من عذاب . . لأنه كان فى الدنيا ، مصرا على الكفر ، وعلى عدم الإيمان بالله الواحد القهار . .

انه كان لا يؤمن بالله العظيم

كما فسرها الوسيط وكان كذلك ( وَلاَ يَحُضُّ ) أى :لا يحث نفسه ولا غيره ) على طَعَامِ المسكين ) أى : على بذل طعامه أو طعام غيره للمسكين ، الذى حلت به الفاقة والمسكنة .ولعل وجه التخصيص لهذين الأمرين بالذكر ، أن أقبح شئ يتعلق بالعقائد ، وهو الكفر بالله - تعالى - وأن أقبح شئ فى الطباع ، هو

البخل وقسوة القلب .

ولا يحض على طعام المسكين

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات ، بزيادة لبيان للمصير الأليم لهذا الشقى فقال : ( فَلَيْسَ لَهُ اليوم ) أى : يوم القيامة ( هَا هُنَا حَمِيمٌ ) أى : ليس له فى هذا اليوم من صديق ينفعه ، أو من قريب يشفق عليه ، أو يحميه ، أو يدفع عنه .

فليس له اليوم هاهنا حميم

كما فسرها الوسيط (وَلاَ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ ) أى : وليس له فى جهنم من طعام سوى الغسلين وهو صديد أهل النار . . أو شجر يأكله أهل النار ، فيغسل بطونهم ، أى : يخرج أحشاءهم منها ، أو ليس لهم إلا شر الطعام وأخبثه .

ولا طعام الا من غسلين

كما فسرها الوسيط ( لاَّ يَأْكُلُهُ ) أى : الغسلين ( إِلاَّ الخاطئون ) أى إلا الكافرون الذين تعمدوا ارتكاب الذنوب ، وأصروا عليها ، من خَطِئَ : الرجل : إذا تعمد ارتكاب الذنب .فالخاطئ هو من يرتكب الذنب عن تعمد وإصرار والمخطئ : هو من يرتكب الذنب عن غير إصرار وتعمد .وهكذا . نجد الآيات . الكريمة قد ساقت أشد ألوان الوعيد والعذاب . . للكافرين ، بعد أن ساقت قبل ذلك ، أعظم أنواع النعيم المقيم للمؤمنين .

لا ياكله الا الخاطئون

- كما فسرها الوسيط وبعد هذا العرض - الذى بلغ الذروة فى قوة التأثير . . لأهوال يوم القيامة ، ولبيان حسن عاقبة المتقين ، وسوء عاقبة المكذبين بعد كل ذلك أخذت السورة فى أواخرها ، فى تقرير حقيقة هذا الدين ، وفى تأكيد صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يبلغه عن ربه ، وفى بيان أن هذا القرآن . . . من عنده - تعالى - وحده . . فقال - سبحانه - :( فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا الفاء فى قوله : ( فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ . وَمَا لاَ . ( تُبْصِرُونَ ) للتفريع على ما فهم مما تقدم ، منإنكار المشركين ليوم القيامة ، ولكون القرآن من عند الله .و ( لا ) فى مثل هذا التركيب يرى بعضهم أنها مزيدة ، فيكون المعنى : أقسم بما تبصرون من مخلوقاتنا كالسماء والأرض والجبال والبحار . .

فلا اقسم بما تبصرون

كما فسرها الوسيط وبما لا تبصرون منها ، كالملائكة والجن .

وما لا تبصرون

كما فسرها الوسيط وقوله : ( إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ) جواب القسم وهو المحلوف عليه أى : أقسم إن هذا القرآن لقول رسول كريم ، هو محمد صلى الله عليه وسلم .وأضاف - سبحانه - القرآن إلى الرسول صلى الله عليه وسلم باعتبار أنه هو الذى تلقاه عن الله - تعالى - وهو الذى بلغه عنه بأمره وإذنه .أى : أن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول هذا القرآن ، وينطق به ، على وجه التبليغ عن الله - تعالى - .قال الإمام ابن كثير : قوله ( إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ) يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم أضافه إليه على معنى التبليغ ، لأن الرسول من شأنه أن يبلغ عن المُرسِل ، ولهذا أضافه فى سورة التكوير إلى الرسول الملكى فقال : ( إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي العرش مَكِينٍ . مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ) وهو جبريل - عليه السلام - .وبعضهم يرى أن "لا " فى مثل هذا التركيب ليست مزيدة ، وإنما هى أصلية ، ويكون المقصود من الآية الكريمة ، بيان أن الأمر فى الوضوح بحيث لا يحتاج إلى قسم ، إذ كل عاقل عندما يقرأ القرآن ، يعتقد أنه من عند الله .ويكون المعنى : فلا أقسم بما تبصرونه من مخلوقات ، وبما لا تبصرونه . . لظهور الأمر واستغنائه عن القسم . .قال الشوكانى : قوله : ( فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ . وَمَا لاَ . تُبْصِرُونَ ) هذا رد لكلام المشركين ، كأنه قال : ليس الأمر كما تقولون " و "لا " زائدة والتقدير : فأقسم بما تشاهدونه وبما لا تشاهدونه .وقيل إن لا " ليست زائدة ، بل هى لنفى القسم ، أى : لا أحتاج إلى قسم لوضوح الحق فى ذلك . والأول أولى .وتأكيد قوله : ( إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ )

بإنّ وباللام ، للرد على المشركين الذين قالوا عن القرآن الكريم : أساطير الأولين .

انه لقول رسول كريم

: كما فسرها الوسيط ثم أضاف - سبحانه - إلى هذا التأكيد تأكيدات أخرى فقال ( وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مّا تُؤْمِنُونَ . وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مّا تَذَكّرُونَ )والشاعر : هو من يقول الشعر . والكاهن : هو من يتعاطى الكهانة عن طريق الزعم بأنه يعلم الغيب .وانتصب " قليلا " فى الموضعين على أنه صفة لمصدر محذوف ، و " ما " مزيدة لتأكيد القلة والمراد بالقلة فى الموضعين انتفاء الإيمان منهم أصلا أو أن المراد بالقلة : إيمانهم اليسير ، كإيمانهم بأن الله هو الذى خلقهم ، مع إشراكهم معه آلهة أخرى فى العبادة .أى : ليس القرآن الكريم بقول الشاعر ، ولا بقول كاهن ، وإنما هو تنزيل من رب العالمين ، على قلب نبيه محمد صلى الله عليه وسلم لكى يبلغه إليكم ، ولكى يخرجكم بواسطته من ظلمات الكفر ، إلى نور الإيمان .ولكنكم - أيها الكافرون -لا إيمان عندكم أصلا ، أو قليلا ما تؤمنون بالحق ، وقليلا ما تتذكرونه وتتعظون به .ففى الآيتين رد على الجاحدين الذين وصفوا الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه شاعر أو كاهن .وخص هذين الوصفين بالذكر هنا لأن وصفه صلى الله عليه وسلم بأنه ( رَسُولٍ كَرِيمٍ ) كاف لنفى الجنون أو الكذب عنه صلى الله عليه وسلم أما وصفه بالشعر والكهانة فلا ينافى عندهم وصفة بأنه كريم ، لأن العشر والكهانة كان معدودين عندهم من صفات الشرف ، لذا نفى - سبحانه - عنه صلى الله عليه وسلم أنه شاعر أو كاهن ، وأثبت له أنه رسول كريم .

وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون

`<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html} كما فسرها الوسيط

ثم أضاف - سبحانه - إلى هذا التأكيد تأكيدات أخرى فقال : ( وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مّا تُؤْمِنُونَ . وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مّا تَذَكّرُونَ )والشاعر : هو من يقول الشعر . والكاهن : هو من يتعاطى الكهانة عن طريق الزعم بأنه يعلم الغيب .وانتصب " قليلا " فى الموضعين على أنه صفة لمصدر محذوف ، و " ما " مزيدة لتأكيد القلة .والمراد بالقلة : فى الموضعين انتفاء الإيمان منهم أصلا أو أن المراد بالقلة : إيمانهم اليسير ، كإيمانهم بأن الله هو الذى خلقهم ، مع إشراكهم معه آلهة أخرى فى العبادة .أى : ليس القرآن الكريم بقول الشاعر ، ولا بقول كاهن وإنما هو تنزيل من رب العالمين ، على قلب نبيه محمد صلى الله عليه وسلم لكى يبلغه إليكم ، ولكى يخرجكم بواسطته من ظلمات الكفر ، إلى نور الإيمان ولكنكم - أيها الكافرون -لا إيمان عندكم أصلا ، أو قليلا ما تؤمنون بالحق. وقليلا ما تتذكرونه وتتعظون به .ففى الآيتين رد على الجاحدين الذين وصفوا ، الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه شاعر أو كاهن .وخص هذين الوصفين بالذكر هنا لأن وصفه صلى الله عليه وسلم بأنه ( رَسُولٍ كَرِيمٍ ) كاف لنفى الجنون أو الكذب عنه صلى الله عليه وسلم أما وصفه بالشعر والكهانة فلا ينافى عندهم ، وصفة بأنه كريم ، لأن العشر والكهانة كان معدودين عندهم من صفات الشرف لذا نفى - سبحانه - عنه صلى الله عليه وسلم أنه شاعر أو كاهن ، وأثبت له أنه رسول كريم .

ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون

كما فسرها الوسيط وقوله : ( تَنزِيلٌ مِّن رّبِّ العالمين ) تأكيد لكون القرآن من عند الله - تعالى - وأنه ليس بقول شاعر أو كاهن .أى : هذا القرآن ليس كما زعمتم - أيها الكافرون - وإنما هو منزل من رب العالمين ، لا من أحد - سواه - عز وجل .

تنزيل من رب العالمين

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما يحدث للرسول صلى الله عليه وسلم لو أنه - على سبيل الفرض - غيرّ أو بدل شيئا من القرآن فقال : ( وَلَوْ تَقَوّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأقاويل . لأَخَذْنَا مِنْهُ باليمين . ثُمّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوتين . فَمَا مِنكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ )والتقول : افتراء القول ، ونسبته إلى من لم يقله ، فهو تفعل من القول يدل على التكلف والتصنع والاختلاق .والأقاويل : جمع أقوال ، الذى هو جمع قول ، فهو جمع الجمع .أى : ولو أن محمداً صلى الله عليه وسلم افترى علينا بعض الأقوال ، أو نسب إلينا قولا لم نقله ، أو لم نأذن له فى قوله . . لو أنه

. فعل شيئا من ذلك على سبيل الفرض

ولو تقول علينا بعض الاقاويل

كما فسرها الوسيط ( لأَخَذْنَا مِنْهُ باليمين ) أى : لأخذنا منه باليد اليمنى من يديه ، وهو كناية عن إذلاله وإهانته .أو : لأخذناه بالقوة والقدر وعبر عنهما باليمين ، لأن قوة كل شئ فى ميامنه .والمقصود بالجملة الكريمة ، التهويل من شأن الأخذ ، وأنه أخذ شديد سريع لا يملك معه تصرفا أو هربا : .

لاخذنا منه باليمين

كما فسرها الوسيط ثم أضاف - سبحانه - إلى هذا التهويل ما هو أشد منه فى هذا المعنى فقال : ( ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوتين ) .أى : ثم بعد هذا الأخذ بقوة وسرعة ، لقطعنا وتينه . وهو عرق يتصل بالقلب . متى قطع مات صاحبه وهذا التعبير من مبتركات القرآن الكريم ، ومن أساليبه البديعة ، إذ لم. يسمع عن العرب أنهم عبروا عن الإهلاك بقطع الوتين .

ثم لقطعنا منه الوتين

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن أحدا لن يستطيع منع عقابه فقال - فَمَا مِنكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ) .أى : فما منكم من أحد أيها المشركون - يستطيع أن يدفع عقابنا عنه ، أو يحول بيننا وبين ما نريده فالضمير فى " عنه " يعود إلى الرسول صلى الله عليه وسلم .قال صاحب الكشاف ، عند تفسيره لهذه الآيات : التقول : افتعال القول ، كأن فيه تكلفا من : المفتعل ، وسمى الأقوال المتقولة " أقاويل تصغيراً بها وتحقيرا ، كقولك الأعاجيب والأضاحيك ، كأنها جمع أفعولة من القول .والمعنى : ولو ادعى علينا شيئا لم نقله لقتلناه صبرا ، كما يفعل الملوك بمن يتكذب عليهم .معالجة ، بالسخط والانتقام ، فصور قتل الصبر بصورته ليكون أهول ، وهو أن يؤخذ بيده وتضرب رقبته .وخص اليمين عن اليسار ، لأن القاتل إذا أراد أن يوقع الضرب فى - قفا المقتول أخذ بيساره ، وإذا أراد أن يوقعه فى جيده وأن يكفحه بالسيف وهو أشد على المصبور لنظره إلى السيف - أخذ بيمينه .ومعنى : ( لأَخَذْنَا مِنْهُ باليمين ) : لأخذنا بيمينه . كما أن قوله : ( ثُمّ لَقَطَعْنَا ، مِنْهُ الوتين ) : لقطعنا وتينه ، والوتين : نياط القلب ، وهو حبل الوريد إذا قطع مات صاحبه .وفى هذه الآيات الكريمة أقوى الأدلة على أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - لأنه لو كان - كما زعم الزاعمون أنه من تأليف الرسول صلى الله عليه وسلم لما نطق بهذه الألفاظ التى فيها ما فيها من تهديده ووعيده .كما أنها كذلك فيها إشارة إلى أنه صلى الله عليه وسلم لم يتقول شيئا . . وإنما بلّغ هذا القرآن عن ربه - عز وجل - دون أن يزيد حرفا أو ينقص حرفا . . لأن حكمة الله - تعالى - قد اقتضت أن يهلك كل من يفترى عليه الكذب ، ومن يزعم أن الله - تعالى - أوحى إليه ، مع أنه - سبحانه - لم يوح إليه .

فما منكم من احد عنه حاجزين

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( وَإِنّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتّقِينَ ) معطوف على قوله : ( إِنّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ) أى : إن هذا القرآن لقول رسول كريم بلغه عن الله - تعالى - وإنه لتذكير. وإرشاد لأهل التقوى ، لأنهم هم المنتفعون بهداياته .

وانه لتذكرة للمتقين

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( وَإِنّا لَنَعْلَمُ أَنّ مِنكُمْ مُّكَذِّبِينَ ) تبكيت وتوبيخ لهؤلاء الكافرين ، الذين جحدوا الحق بعد أن تبين لهم أنه حق .أى : وإنا لا يخفى علينا أن منكم - أيها الكافرون - من هو مكذب للحق عن جحود وعناد ، ولكن هذا لن يمنعنا من إرسال رسولنا بهذا الدين لكى يبلغه إليكم ، ومن شاء بعد ذلك فليؤمن ومن شاء فليكفر ، وسنجازى كل إنسان بما تستحقه من ثواب أو عقاب .

وانا لنعلم ان منكم مكذبين

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الكافرين ) بيان لما يكون عليه الكافرون من ندم شديد ، عندما يرون حسن مصير المؤمنين ، وسوء مصير المكذبين .والحسرة : هى الندم الشديد المتكرر ، على أمر نافع قد مضى ولا يمكن تداركه .أى : وإن هذا القرآن الكريم ، ليكون يوم

القيامة ، سبب حسرة شديدة وندامة عظيمة ، على الكافرين ، لأنهم يرون المؤمنين به فى هذا اليوم فى نعيم مقيم ، أما هم فيجدون أنفسهم فى عذاب أليم .

وانه لحسرة على الكافرين

كما فسرها الوسيط وقوله : ( وَإِنَّهُ لَحَقُّ اليقين ) معطوف على ما قبله - أى : وإن هذا القرآن لهو الحق الثابت الذى لا شك فى كونه من عند الله ، تعالى - وأن محمدا صلى الله عليه وسلم قد بلغه إلى الناس دون أن يزيد فيه حرفا ، أو ينقص منه حرفا .وإضافة الحق إلى اليقين ، من إضافة الصفة إلى الموصوف . أى : لهو اليقين الحق ، أو هو من إضافة الشئ إلى نفسه مع اختلاف اللفظين ، كما فى قوله : ( حَبْلِ الوريد ) ، إذ الحبل هو الوريد .والمقصود من مثل هذا التركيب : التأكيد .وقد قالوا : إن مراتب العلم ثلاثة : أعلاها : حق اليقين ، ويليها : عين اليقين ، ويليها : علم اليقين .فحق اليقين : : كعلم الإنسان بالموت عند نزوله به ، وبلوغ الروح الحلقوم ، وعين اليقين : : كعلمه به عند حلول أماراته وعلاماته الدالة على قربه . . وعلم اليقين : : كعلمه بأن الموت سينزل به لا محالة مهما طال الأجل . .

وانه لحق اليقين

كما فسرها الوسيط والفاء فى قوله - تعالى - ( فَسَبِّحْ باسم رَبِّكَ العظيم ) للإفصاح . أى : إذا كان الأمر كما ذكرنا لك من أن هذا الدين حق ، وأن البعث حق ، وأن القرآن حق ، فنزه اسم ربك العظيم عما لا يليق به ، من النقائص ، فى الاعتقاد أو فى العبادة ، أو فى القول ، أو فى الفعل .والباء فى قوله : ( باسم رَبِّكَ ) للمصاحبة . أى : نزه ربك تنزيها مصحوبا بكل ما يليق به من طاعة وإخلاص ومواظبة على مراقبته وتقواه .

فسبح باسم ربك العظيم

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

سال سائل بعذاب واقع

كما فسرها الوسيط قوله - تعالى - ( سَأَلَ سَآئِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ) قرأه الجمهور بإظهار الهمزة فى ( سَأَلَ ) .وقرأه نافع وابن عامر ( سالَ ) ، بتخفيف الهمزة .قال الجمل : قرأ نافع وابن عامر بألف محضة ، والباقون بهمزة خففت بقلبها ألفا . والثانى : أنها من سَالَ يَسَالُ ، مثل خاف يخاف ، والألف منقلبة عن واو ، والواو منقلبة عن الهمزة .والثالث : من السيلان ، والمعنى : سال واد فى جهنم بعذاب . فالألف منقلبة عن ياء .وقد حكى القرآن الكريم عن كفار مكة ، أنهم كانوا يسألون النبى صلى الله عليه وسلم على سبيل التهكم والاستهزاء عن موعد العذاب الذى يتوعدهم به إذا ما استمروا على كفرهم ، ويستعجلون وقوعه .قال - تعالى - : ( وَيَقُولُونَ متى هذا الوعد إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ) وقال - سبحانه - ( وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب وَلَن يُخْلِفَ الله وَعْدَهُ ) وعلى هذا يكون السؤال على حقيقته ، وأن المقصود به الاستهزاء بالنبى صلى الله عليه وسلم وبالمؤمنين .ومنهم من يرى أن سأل هنا بمعنى دعا . أى : دعا داع على نفسه بعذاب واقع .قال الآلوسى ما ملخصه : ( سَأَلَ سَآئِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ) أى : دعا داع به ، فسؤال بمعنى الدعاء ، ولذا عدى بالباء تعديته بها فى قوله ( يَدْعُونَ فِيهَا بِكلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ) والمراد استدعاء العذاب وطلبه . . وقيل إنها بمعنى " عن " كما فى قوله : ( فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً ) والسائل هو النضر بن الحارث - كما روى النسائى وجماعة وصححه الحاكم - حيث قال إنكارا واستهزاء ( اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السمآء أَوِ ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ) وقيل السائل : أو جهل ، حيث قال : " فأسقط علينا كسفا من السماء " .وعلى أية حال فسؤالهم عن العذاب ، يتضمن معنى الإنكار والتهكم ، كما يتضمن معنى الاستعجال ، كما حكته بعض الآيات الكريمة . .ومن بلاغة القرآن ، تعدية هذا الفعل هنا بالباء ، ليصلح لمعنى الاستفهام الإنكارى ، ولمعنى الدعاء والاستعجال .أى : سأل سائل النبى صلى الله عليه وسلم سؤال تهكم ، عن العذاب الذى توعد به الكافرين إذا ما استمروا على كفرهم . وتعجّله فى وقوعه بل أضاف إلى ذلك - لتجاوزه الحد فى عناده وطغيانه - أن قال : ( اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السمآء أَوِ ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ) وقال - سبحانه - ( بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ) ولم يقل بعذاب سيقع ، للإشارة إلى تحقق وقوع هذا العذاب فى الدنيا والآخرة .أما الدنيا فمن هؤلاء السائلين من قتل فى غزوة بدر وهو

النضر بن الحارث ، وأبو جهل وغيرهما ، وأما فى الآخرة فالعذاب النازل بهم أشد وأبقى .

للكافرين ليس له دافع

كما فسرها الوسيط ثم وصف - سبحانه - العذاب بصفات أخرى ، غير الوقوع فقال : واللام ( لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ .مِّنَ اللهِ ذِي المعارج ) فى قوله ( لِّلْكَافِرِينَ ) بمعنى على . أو للتعليل .أى : سأل سائل عن عذاب واقع على الكافرين ، هذا العذاب ليس له دافع يدفعه عنهم .

من الله ذي المعارج

كما فسرها الوسيط لأنه واقع من الله - تعالى - ( ذِي المعارج ) .والمعارج جمع معرج ، وهو المصعد ، ومنه قوله - تعالى - ( يَوْمَ يَفِرُّ المرء مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ . وصاحبته وَبَنِيهِ . لِكُلِّ امرىء مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ) والحميم : هو الصديق الوفى القريب من نفس صديقه .

تعرج الملائكة والروح اليه في يوم كان مقداره خمسين الف سنة

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

فاصبر صبرا جميلا

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

انهم يرونه بعيدا

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

ونراه قريبا

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

يوم تكون السماء كالمهل

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

وتكون الجبال كالعهن

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

ولا يسال حميم حميما

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

يبصرونهم يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه

كما فسرها الوسيط وضمير الجمع فى قوله - سبحانه - ( يُبَصِّرُونَهُمْ ) ، يعود إلى الحميمين ، نظرا لعمومهما ، لأنه ليس المقصود صديقين مخصوصين وإنما المقصود كل صديق مع صديقه .والجملة مستأنفة استئنافا بيانيا ، إجابة عن سؤال تقديره : ولماذا لا يسأل الصديق صديقه فى هذا اليوم؟ ألأنه لا يراه؟ فكان الجواب :لا ، إنه يراه ويشاهده ، ويعرف كل قريب قريبه ، وكل صديق صديقه فى هذا اليوم . . ولكن كل واحد منهم مشغول بهمومه .قال صاحب الكشاف : ( يُبَصِّرُونَهُمْ ) أى : يبصر الأحماءُ الأحماءَ ، فلا يخفون عليهم ، فلا يمنعهم من المساءلة أن بعضهم لا يبصر بعضا ، وإنما يمنعهم التشاغل .فإن قلت : ما موقع يبصرونهم؟ قلت : هو كلام مستأنف ، كأنه لمّا قال : (وَلاَ يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً ) قيل : لعله لا يبصره ، فقيل فى الجواب : يبصرونهم ، ولكنهم لتشاغلهم لم يتمكنوا من تساؤلهم .فإن قلت : لم جمع الضميرين فى ( يُبَصِّرُونَهُمْ ) وهى للحميمين؟ قلت : المعنى على العموم لكل حميمين ، لا لحميمين اثنين .ثم بين - سبحانه - حالة المجرمين فى هذا اليوم فقال : ( يَوَدُّ المجرم ) أى : يحب المجرم فى هذا اليوم ويتمنى أى : يتمنى ويحب لو ( لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ). يفتدى نفسه من عذاب هذا اليوم بأقرب الناس إليه ، وألصقهم بنفسه . . وهم

بنوه وأولاده .

وصاحبته واخيه

كما فسرها الوسيط ويود - أيضا - لو يفتدى نفسه ب ( وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ) أى : بزوجته التى هى أحب الناس إليه ، وبأخيه الذى يستعين به فى النوائب .

وفصيلته التي تؤويه

كما فسرها الوسيط (وَفَصِيلَتِهِ التي تُؤْوِيهِ ) أى : ويود كذلك أن ينقذ نفسه ، من العذاب بأقرب الأقرباء إليه . وهم أهله وعشيرته التى ينتسب إليها إذا الفصيلة هم الأقرباء الأدنون من القبيلة ، والذين هو واحد منهم ، ومعنى ( تُؤْوِيهِ ) تضمه إليها ، وتعتبره فردا منها ، وتدافع عنه بكل وسيلة .

ومن في الارض جميعا ثم ينجيه

كما فسرها الوسيط وقوله : ( وَمَن فِي الأرض جَمِيعاً ثُمّ يُنجِيهِ ) داخل فى إطار ما يتمناه ويوده .أى : يود هذا المجرم أن يفتدى نفسه من عذاب هذا اليوم ، بأولاده ، ويصاحبته ، وبأخيه ، وبعشيرته التى هو فرد منها ، وبأهل الأرض جميعا من الجن والإنس .ثم يتمنى - أيضا - أن يقبل منه هذا الافتداء ، لكى ينجو بنفسه من هذا العذاب .فقوله ( ثُمّ يُنجِيهِ ) معطوف على قوله ( يَفْتَدِي ) أى : يود لو يفتدى ثم لو ينجيه الافتداء . وكان ) : العطف بثم ، للإشعار باستبعاد هذا الافتداء ، وأنه عسير المنال .وقوله وَمَن فِي الأرض ) معطوف على ( بنيه ) أى : ويفتدى نفسه بجميع أهل الأرض وهكذا نرى الآيات الكريمة تحكى لنا بهذا الأسلوب المؤثر ، حالة المجرم فى هذا اليوم ، وأنه يتمنى أن يفتدى نفسه مما حل به من عذاب ، بأقرب وأحب الناس إليه ، بل بأهل الأرض جميعا . . ولكن هيهات أن يقبل منه شئ من ذلك .

كلا انها لظى

) - كما فسرها الوسيط ولذا جاء الرد الزاجر له عما تمناه فى قوله - تعالى كَلاّ إِنّهَا لظى ) وكلا حرف ردع وزجر ، وإبطال لكلام سابق ، وهو هنا ما كان يتمناه ويحبه . . من أن يفتدى نفسه ببنيه ، وبصاحبته وأخيه . . إلخ .و ، لظى " علم لجهنم ، أو لطبقة من طبقاتهم ، واللظى : اللهب الخالص " والضمير للنار المدلول عنها بذكر العذاب .أى : كلا - أيها المجرم - ليس الأمر كما وددت وتمنيت . . وإنما الذى فى انتظارك ، هو النار التى هو أشد ما تكون اشتغالا .

نزاعة للشوى

كما فسرها الوسيط والتى من صفاتها كونها ( نَزّاعَةً للشوى ) أى : قلاعة لجلدة الرأس وأطراف البدن ، كاليد والرجل ، ثم تعود هذه الجلدة والأطراف كما كانت .فقوله : ( نَزّاعَةً ) صيغة المبالغة من النزع بمعنى القلع والفصل . والشوى : جمع شواة - بفتح الشين - ، وهى من جوارح الإنسان ما لم يكن مقتلا ، مثل اليد والرجل . والجمع باعتبار ما لكل أحد من جوارح وأطراف : يقال : فلان رمى فأشوى ، إذا لم يصب مقتلا ممن رماه .وقيل : الشواة . جلدة الرأس . والجمع باعتبار كثرة الناس .

تدعو من ادبر وتولى

كما فسرها الوسيط وهذه النار الملتهبة من صفاتها - أيضا - أنها ( تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وتولى ) أى : تدعو لدخولها والاصطلاء بحرها ، من أدبر وأعرض وتولى عن الحق والرشد ، ونآى بجانبه عن طريق الهدى والاستقامة .قال ابن كثير : هذه النار تدعو إليها أبناءها الذين خلقهم الله - تعالى - لها وقدر لهم أهم فى الدار الدنيا يعملون عملها ، فتدعوهم يوم القيامة بلسان طَلْقٍ ذَلْقٍ - أى : فصيح بليغ - ثم تلتقطهم من بين أهل المحشر ، كما يلتقط الطير الحب ، وذلك أنهم كانوا كما قال - سبحانه - ممن أدبر وتولى . أى : ممن كذب بقلبه ، وترك العمل بجوارحه .

وجمع فاوعى

، كما فسرها الوسيط ( وَجَمَعَ فأوعى ) أى جمع المال بعضه على بعض فأوعاه

أى : فأمسكه فى وعائه وكنزه ومنع حق الله - تعالى - فيه ، وبخل به على
مستحقيه . فقوله ( فأوعى ) أى : فجعله فى وعاء . وفى الحديث الشريف ، يقول
صلى الله عليه وسلم : "لا توعى - أى لا تجمع مالك فى الوعاء على سبيل
الكنز - فيوعى الله عليك - أى : فيمنع الله - تعالى - فضله عنك ، كما منعت
وقترت .وفى قوله - سبحانه - ( وَجَمَعَ ) إشارة إلى الحرص والطمع ، وفى
قوله ( فأوعى ) إشارة إلى بخله وطول أمله .قال قتادة ( وَجَمَعَ فأوعى ) :
كان جموعا للخبيث من المال .

ان الانسان خلق هلوعا

كما فسرها الوسيط وبعد هذا البيان المؤثر الحكيم عن طبائع المجرمين ، وعن
أهوال يوم الدين ، وعن سوء عاقبة المكذبين . . اتجهت السورة الكريمة إلى
الحديث عن سجايا النفوس البشرية فى حالتى الخير والشر ، والغنى والفقر ،
والشكر والجحود . . واستثنت من تلك السجايا نفوس المؤمنين الصادقين ،
فقال - تعالى - .( إِنَّ الإنسان خُلِقَ . . ) .المراد بالإنسان فى
قوله - تعالى - : ( إِنَّ الإنسان خُلِقَ هَلُوعاً . إِذَا مَسَّهُ الشر
جَزُوعاً . وَإِذَا مَسَّهُ الخير مَنُوعاً ) جنسه لافرد معين منه ، كما فى
قوله - تعالى - : ( والعصر . إِنَّ الإنسان لَفِى خُسْرٍ . إِلاَّ الذين
آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات . . ) وكما فى قوله - سبحانه - : ( خُلِقَ
الإنسان مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ آيَاتِي فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ ) ويدخل
فيه الكافر دخولا أوليا ، لأن معظم الصفات التى استثنيت بعد ذلك من صفات
المؤمنين الصادقين ، وعلى رأسها قوله - سبحانه - : ( إِلاَّ المصلين )
وقوله : ( هَلُوعاً ) صيغة مبالغة من الهلع ، وهو إفراط النفس ، وخروجها .
عن التوسط والاعتدال ، عندما ينزل بها ما يضرها ، أو عند ما تنال ما يسرها
والمراد بالشر : ما يشمل الفقر والمرض وغيرهما مما يتأذى به الإنسان.
، والمراد بالخير : ما يشمل الغنى والصحة وغير ذلك مما يحبه الإنسان.
وتميل إليه نفسه .والجزوع : هو الكثير الجزع . أى : الخوف . والمنوع : هو
الكثير المنع لنعم الله - تعالى - وعدم إعطاء شئ منها للمتحاجين إليها .قال
الآلوسى ما ملخصه : قوله : ( إِنَّ الإنسان خُلِقَ هَلُوعاً ) الهلع : سرعة
الجزع عند مس المكروه ، وسرعة المنع عند مس الخير ، من قولهم : ناقة هلوع ،
أى : سريعة السير .

اذا مسه الشر جزوعا

- كما فسرها الوسيط وسئل ابن عباس عن الهلوع فقال : هو كما قال الله
تعالى - : ( إِذَا مَسَّهُ الشر جَزُوعاً . وَإِذَا مَسَّهُ الخير مَنُوعاً
ولا تفسير أبين من تفسيره - سبحانه - .والإنسان : المراد به الجنس ، أو ( الكافر . . وآل فى الشر والخير للجنس - أيضا .والتعبير بقوله : ( خُلِقَ
هَلُوعاً ) يشير إلى أن جنس الإنسان - إلا من عصم الله - مفطور ومطبوع
على أنه إذا أصابه الشر جزع ، وإذا مسه الخير بخل . . وأن هاتين الصفتين
ليستا من الصفات التى يحبها الله - تعالى - بدليل أنه - سبحانه - قد استثنى
المصلين وغيرهم من التلبس بهاتين الصفتين .وبدليل أن من صفات المؤمن الصادق
أن يكون شكورا عند الرخاء صبورا عند الضراء .وفى الحديث الشريف ، يقول صلى
الله عليه وسلم : " شر ما فى الرجل : شح هالع ، وجبن خالع " . وفى حديث آخر
يقول صلى الله عليه وسلم : " عجبا لأمر المؤمن ، إن أمره كله له خير ، إن
أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضر صبر فكان خيرا له " .قال الجمل
وقوله : ( جَزُوعاً ) و ( مَنُوعاً ) فيهما ثلاثة أوجه : أحدها : أنهما :
منصوبان على الحال فى الضمير فى ( هَلُوعاً ) ، وهو العامل فيهما .
والتقدير : هلوعا حال كونه جزوعا وقت مس الشر ، ومنوعا وقت مس الخير :
الثانى : أنهما خبران لكان أو صار مضمرة . أى : إذا مسه الشر كان أو صار
جزوعا ، وإذا مسه الخير كان أو صار منوعا .الثالث : أنهما نعتان لقوله : "
هلوعا " .

واذا مسه الخير منوعا

`<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html} كما فسرها الوسيط

وسئل ابن عباس عن الهلوع فقال : هو كما قال الله - تعالى - : ( إِذَا
مَسَّهُ الشر جَزُوعاً . وَإِذَا مَسَّهُ الخير مَنُوعاً ) .ولا تفسير أبين
من تفسيره - سبحانه - .والإنسان : المراد به الجنس ، أو الكافر . . وآل فى
الشر والخير للجنس - أيضا .والتعبير بقوله : ( خُلِقَ هَلُوعاً ) يشير إلى
أن جنس الإنسان - إلا من عصم الله - مفطور ومطبوع ، على أنه إذا أصابه
الشر جزع ، وإذا مسه الخير بخل . . وأن هاتين الصفتين ليستا من الصفات التى
يحبها الله - تعالى - بدليل أنه - سبحانه - قد استثنى المصلين وغيرهم من

التلبس بهاتين الصفتين .وبدليل أن من صفات المؤمن الصادق أن يكون شكورا عند
" : الرخاء صبورا عند الضراء .وفى الحديث الشريف ، يقول صلى الله عليه وسلم
شر ما فى الرجل : شح هالع ، وجبن خالع " . وفى حديث آخر يقول صلى الله عليه
وسلم : " عجبا لأمر المؤمن ، إن أمره كله له خير ، إن أصابته سراء شكر فكان
خيرا له ، وإن أصابته صبر فكان خيرا له " .قال الجمل : وقوله : ( جَزُوعاً
و ( مَنُوعاً ) فيهما ثلاثة أوجه : أحدها : أنهما منصوبان على الحال فى (
الضمير فى ( هَلُوعاً ) ، وهو العامل فيهما . والتقدير : هلوعا حال كونه
جزوعا وقت مس الشر ، ومنوعا وقت مس الخير : الثانى : أنهما خبران لكان أو
صار مضمرة . أى : إذا مسه الشر كان أوصار جزوعا ، وإذا مسه الخير كان أوصار
. " منوعا .الثالث : أنهما نعتان لقوله : " هلوعا

الا المصلين

، كما فسرها الوسيط ثم وصف - سبحانه - من استثناهم من الإنسان الهلوع
بجملة من صفات الكريمة ، فقال : ( إِلاَّ المصلين . الذين هُمْ على
صَلاَتِهِمْ دَآئِمُونَ ) .أى : إن الناس جميعا قد جبلوا على الجزع عند
. الضراء ، وعلى المنع عند السراء . . إلا المصلين منهم

الذين هم على صلاتهم دائمون

كما فسرها الوسيط الذين يواظبون على أدائها مواظبة تامة ، دون أن يشغلهم عن
- أدائها : عسر أو يسر ، أو غنى أو فقر ، أو إقامة أو سفر .فهم ممن قال
سبحانه - فى شأنهم : ( رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ
عَن ذِكْرِ الله وَإِقَامِ الصلاة وَإِيتَآءِ الزكاة يَخَافُونَ يَوْماً
تَتَقَلَّبُ فِيهِ القلوب والأبصار ) وقال - سبحانه - : ( على صَلاَتِهِمْ
دَآئِمُونَ ) للإشارة إلى أنهم لا يشغلهم عنها شاغل ، إذ الدوام على الشئ
، عدم تركه .وفى إضافة " الصلاة " إلى ضمير " المصلين " تنويه بشأنهم
. وإشعار باختصاصها بهم ، إذ هم أصحابها الملازمون لها

والذين في اموالهم حق معلوم

كما فسرها الوسيط ثم وصفهم - سبحانه - بصفة ثانية فقال : ( والذين في
أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ . لِّلسَّآئِلِ والمحروم ) .والمراد بالحق
المعلوم : ما أوجبوه على أنفسهم من دفع جزء من أموالهم للمحتاجين ، على
سبيل التقرب إلى الله - تعالى - وشكره على نعمه ، ويدخل فى هذا الحق
: المعلوم دخولا أوليا ما فرضه - سبحانه - عليهم من زكاة أموالهم .قالوا
، ولا يمنع ذلك من أن تكون السورة مكية ، فقد يكون أصل مشروعية الزكاة بمكة
. ثم أتى تفصيل أحكامها بالمدينة ، عن طريق السنة النبوية المطهرة

للسائل والمحروم

كما فسرها الوسيط والسائل : هو الذى يسأل غيره الصدقة ، والمحروم : هو الذى
لا يسأل غيره تعففا ، وإن كان فى حاجة إلى العود والمساعدة .أى : ومن الذين
استثناهم - سبحانه - منصفة الهلع : أولئك المؤمنون الصادقون الذين جعلوا فى
أموالهم حقا معينا ، يخرجونه عن إخلاص وطيب خاطر ، لمن يستحقونه من
السائلين والمحرومين . . على سبيل الشكر لخالقهم على ما أنعم عليهم من نعم
- ووصف - سبحانه - ما يعطونه من أموالهم بأنه ( حَقٌّ ) للإشارة إلى أنهم.
، لصفاء أنفسهم - قد جعلوا السائل والمحروم ، كأنه شريك لهم فى أموالهم
. وكأن ما يعطونه له إنما هو بمثابة الحق الثابت عندهم له

والذين يصدقون بيوم الدين

كما فسرها الوسيط ثم وصفهم - سبحانه - بصفات كريمة أخرى فقال : ( والذين
يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدين ) والتصديق بيوم الدين معناه : الإيمان
. الجازم باليوم الآخر وما فيه من بعث وحساب وجزاء

والذين هم من عذاب ربهم مشفقون

: كما فسرها الوسيط ( والذين هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ) أى
أن من صفاتهم : أنهم مع قوة إيمانهم ، وكثرة أعمالهم الصالحة ، لا يجزمون
بنجاتهم من عذاب الله - تعالى - وإنما دائما أحوالهم مبنية على الخوف
. والرجاء ، إذ الإشفاق توقع حصول المكروه وأخذ الحذر منه

ان عذاب ربهم غير مامون

كما فسرها الوسيط وجملة ( إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ) تعليلية ، ومقررة لمضمون ما قبلها ، أى : إنهم مشفقون من عذاب ربهم . . لأن العاقل لا يأمن عذابه - عز وجل - مهما أتى من طاعات وقدم من أعمال صالحة وشبيه بهذه الآية قوله - سبحانه - ( والذين يُؤْتُونَ مَآ آتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إلى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ).

والذين هم لفروجهم حافظون

كما فسرها الوسيط ثم قال - تعالى - : ( والذين هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلاَّ على أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنِ ابتغى وَرَآءَ ذَلِكَ فأولئك هُمُ العادون ) .أى : أن من صفاتهم - أيضا - أنهم أعفاء ، ممسكون لشهواتهم ، لا يستعملونها إلا مع زوجاتهم اللائى أحلهن - سبحانه - لهم أو مع ما ملكت أيمانهم من الإماء والسرارى .وجملة ( فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ) تعليل للاستثناء . أى : هم حافظون لفورجهم .

الا على ازواجهم او ما ملكت ايمانهم فانهم غير ملومين

كما فسرها الوسيط فلا يستعملون شهواتم إلا مع أزواجهم . أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير مؤاخذين على ذلك ، لأن معاشرة الأزواج وما ملكت الأيمان مما أحله الله - تعالى - .

فمن ابتغى وراء ذلك فاولئك هم العادون

كما فسرها الوسيط وقوله : ( فَمَنِ ابتغى وَرَآءَ ذَلِكَ ) اى : فمن طلب خلاف ذلك الذى أحله - سبحانه - . ( فأولئك هُمُ العادون ) أى : فأولئك هم المعتدون المتجاوزون حدود خالقهم ، الوالغون فى الحرام الذى نهى الله - تعالى - عنه .يقال : عدا فلان الشئ يعدوه عَدْواً ، إذا جاوزوه وتركه . أى أنهم تجاوزوا الحلال وتركوه خلف ظهورهم ، واتجهوا ناحية الحرام فولغوا : فيه .

والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون

كما فسرها الوسيط قوله : ( والذين هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ) أى : أن من صفات هؤلاء المؤمنين الصادقين ، الذين إذا مسهم الشر لا يجزعون ، وإذا مسهم الخير لا يمنعون . . أنهم لا يخلون بشئ من الأمانات ، التى يؤمنون عليها ، ولا ينقضون شيئا من العهود التى يعاهدون غيرهم عليها وإنما هم يراعون ذلك ويحفظونه حفظا تاما .فقوله ( رَاعُونَ ) جمع راع ، وهو الذى يرعى الحقوق والأمانات والعهود ويحفظها ويحرسها ، كما يحرس الراعى غنمه وإبله حراسة تامة .

والذين هم بشهاداتهم قائمون

كما فسرها الوسيط وقوله : ( وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِم قَائِمُونَ ) أى : والذين هم من صفاتهم أنهم يؤدون الشهادة على وجهها الحق ، فلا يشهدون بالزور أو الباطل ، ولا يكتمون الشهادة إذا طلب منهم أن يؤدوها ، عملا بقوله - تعالى - ( وَلاَ تَكْتُمُواْ الشهادة وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ) فالشهادات : جمع شهادة . والمراد بالقيام بها : أداؤها على أتم وجه وأكمله وأعدلهه ، إذ القيام بها يشمل الاهتمام بشأنها ، وحفظها - إلى أن يؤديها صاحبها على الوجه الذى يحبه - سبحانه - .وكما افتتح سبحانه - هذه الصفات الكريمة بمدح الذين هم على صلاتهم دائمون ، فقد ختمها بمدح الذين يحافظون عليها فقال : ( والذين هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ) أى : يؤدونها كاملة غير منقوصة . لافى خشوعها ، ولا فى القراءة فيها ، ولا فى شئ من أركانها وسننها .وهذا الافتتاح والختام ، يدل على شرفها وعلو قدرها ، واهتمام الشارع بشأنها .

والذين هم على صلاتهم يحافظون

كما فسرها الوسيط قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف قال : ( على صَلاَتِهِمْ دَآئِمُونَ ) ثم ( على صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ ) ؟ قلت : معنى دوامهم عليها ، أن يواظبوا على أدائها ، لا يخلون بها ، ولا يشتغلون عنها بشئ من الشواغل .ومحافظتهم عليها : أن يراعوا إسباغ الوضوء لها ، ومواقيتها ، وسننها ، وآدابها . . فالدوام يرجع إلى نفس الصلاة ، والمحافظة تعود إلى

، أحوالها .فأنت ترى أن الله - تعالى - قد وصف هؤلاء المؤمنين الصادقين
: الذين حماهم - سبحانه - من صلة الهلع . . وصفهم بثمانى صفات كريمة ، منها
المداومة على الصلاة ، والمحافظة على الإنفاق فى وجوه الخير ، والتصديق
بيوم القيامة وما فيه من ثواب وعقاب ، والحفظ لفروجهم ، وأداء الأمانات
. والشهادات

اولئك في جنات مكرمون

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما أعده لهم من عطاء جزيل فقال
أولئك فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ) أى : أولئك المتصفون بذلك فى جنات عظيمة
يستقبلون فيها بالتعظيم والحفارة . . حيث تقول لهم الملائكة : ( سَلاَمٌ ،
عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عقبى الدار ) وبعد هذه الصورة المشرقة
. . لهؤلاء المكرمين

فمال الذين كفروا قبلك مهطعين

كما فسرها الوسيط أخذت السورة فى تصوير موقف المشركين من دعوة الرسول صلى
الله عليه وسلم إياهم إلى الحق ، وفى تسليته عما لحقه منهم من أذى ، وفى
بيان أحوالهم السيئة عندما يعرضون للحساب . . فقال - تعالى - .( فَمَالِ
الَّذِينَ كَفَرُواْ . . . ) والاستفهام فى قوله - تعالى - : ( فَمَالِ
الَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ . عَنِ اليمين وَعَنِ الشمال
عِزِينَ ) للتعجيب من حال هؤلاء الذين كفروا ، ومن تصرفاتهم التى تل على
منتهى الغفلة والجهل . و " ما " مبتدأ ، و ( الَّذِينَ كَفَرُواْ ) خبره
، وقوله ( مُهْطِعِينَ ) من الإهطاع ، وهو السير بسرعة ، مع مد العنق.
. واتجاه البصر نحو شئ معين .و ( عِزِينَ ) جمع عزة - كفئة - وهى الجماعة
وأصلها عِزْوَة - بكسر العين - من العزو ، لأن كل فرقة تعتزى إلى غير من
تعتزى إليه الأخرى ، فلامها واو ، وقيل : لامها هاء ، والأصل عزهة .قال
" ، القرطبى : والعزين : جماعات متفرقة . ومنه الحديث الذى خرجه مسلم وغيره
: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على أصحابه يوما فرآهم حِلَقا فقال
مالى أراكم عزين : ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها؟ قالوا : وكيف تصف
الملائكة عند ربها؟ قال : يتمون الصفوف الأول ، ويتراصون فى الصف " .وقد
ذكروا فى سبب نزول هذه الآيات ، أن المشركين كانوا يجتمعون حول النبى صلى
، الله عليه وسلم ويستمعون إليه ، ثم يكذبونه ويستهزئون به وبالمؤمنين
ويقولون : لئن دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد صلى الله عليه وسلم فلندخلنها
قبلهم ، وليكونن لنا فيها أكثر مما لهم .والمعنى : ما بال هؤلاء الكافرين
، مسرعين نحوك - أيها الرسول الكريم - وناظرين إليك بعيون لا تكاد تفارقك
وملتفين من حولك عن يمينك وعن شمالك ، جماعات متعددة ، ومظهرين التهكم
والاستهزاء بك وبأصحابك؟ما بالهم يفعلون ذلك مع علمهم فى قراءة أنفسهم بأنك
أنت الصادق الأمين " .وقدم - سبحانه - الظرف ( قِبَلَكَ ) الذى بمعنى جهتك
على قوله ( مُهْطِعِينَ ) للاهتمام ، حيث إن مقصدهم الأساسى من الإسراع ،
. هو الاتجاه نحو النبى صلى الله عليه وسلم للاستهزاء به وبأصحابه

عن اليمين وعن الشمال عزين

كما فسرها الوسيط والمراد بقوله : ( عَنِ اليمين وَعَنِ الشمال ) : جميع
الجهات ، إلا أنه عبر بهاتين الجهتين ، لأنهما الجهتان اللتان يغلب الجلوس
فيهما حول الشخص .وقوله : ( عِزِينَ ) تصوير بديع لالتفافهم من حوله متفرقة
. فى مشاربها ، وفى مآربها ، وفى طباعها

ايطمع كل امرئ منهم ان يدخل جنة نعيم

كما فسرها الوسيط والاستفهام فى قوله - تعالى - ( أَيَطْمَعُ كُلُّ امرىء
مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ) للنفى والإنكار .أى : أيطمع كل
واحد من هؤلاء الكافرين أن يدخل الجنة التى هى محل نعيمنا وكرامتنا بدون
إيمان صادق ، وبدون عمل نافع . . ؟وقوله - سبحانه - ( كَلاَّ ) ردع لهم
وزجر عن هذا الطمع ، أى : كلا ليس الأمر كما يزعمون من أنهم سيدخلون الجنة
قبل المؤمنين أو معهم بعدهم . . وإنما هم سيكون مأواهم جهنم وبئس المصير
وقال - سبحانه - ( أَيَطْمَعُ كُلُّ امرىء مِّنْهُمْ ) ولم يقل : أيطمعون.
أن يدخلوا الجنة ، للإشعار بأن كل واحد من هؤلاء الكافرين كان طامعا فى
. دخولها ، لاستيلاء الغرور والجهالة على قلبه

كلا انا خلقناهم مما يعلمون

كما فسرها الوسيط وجملة ( إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ) تأكيد

لهذا الردع والزجر ، وتهوين من شأنهم ، وإبطال لغرورهم ، وتنكيس لخيلائهم بأسلوب بديع مهذب . . لأنه مما لا شك فيه أنهم يعلمون أنهم قد خلقوا من ماء مهين ، ومن كان كذلك فلا يليق به - متى كان عاقلا - أن يغتر أو يتطاول .قال صاحب الكشاف ما ملخصه : ويجوز أن يراد بقوله : ( إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ) أى : من النطفة المذرة ، وهى منصبهم الذى لا منصب أوضع منه . ولذلك أبهم وأخفى : إشعارا بأنه منصب يستحيا من ذكره ، فمن أين يتشرفون ويدعون التقدم ، ويقولون : لندخلن الجنة قبلهم .وقيل : معناه إنا خلقناهم من نطفة كما خلقنا بنى آدم كلهم ، ومن حكمنا أن لا يدخل أحد الجنة إلا بالإيمان والعمل الصالح ، فكيف يطمع فى دخولها من ليس له إيمان وعمل ، .

فلا اقسم برب المشارق والمغارب انا لقادرون

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - ما يدل على كمال قدرته ، وعلى زيادة التهوين من شأن هؤلاء الكافرين ، والتحقير من أمرهم فقال : ( فَلاَ أُقْسِمُ بِرَبِّ المشارق والمغارب إِنَّا لَقَادِرُونَ . على أن نُّبَدِّلَ خَيْراً مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ) .وجمع - سبحانه - هنا المشارق والمغارب ، باعتبار أن لها فى كل يوم من أيام السنة مشرقا معينا تشرق منه ، ومغربا معينا تغرب فيه .وقال فى سورة الرحمن ( رَبُّ المشرقين وَرَبُّ المغربين ) أى : مشرق ومغرب الشتاء . والصيف .وقال فى سورة المزمل : ( رَّبُّ المشرق والمغرب ) والمراد بهما هنا : جنسهما ، فهما صادقان على كل مشرق من مشارق الشمس ، وعلى كل مغرب من مغاربها .وبذلك يتبين أنه لا تعارض بين مجئ هذه الألفاظ تارة مفردة ، وتارة بصيغة المثنى ، وتارة بصيغة الجمع .وجملة ( إِنَّا لَقَادِرُونَ ) : جواب القسم . أى : أقسم بالله - تعالى - الذى هو رب مشارق الشمس والقمر والكواكب ومغاربها . . إنا لقادرون قدرة تامة ( على أن نُّبَدِّلَ خَيْراً مِّنْهُمْ )

على ان نبدل خيرا منهم وما نحن بمسبوقين

كما فسرها الوسيط ( على أَن نُّبَدِّلَ خَيْراً مِّنْهُمْ )أى : على أن نخلق خلقا آخر خيرا منهم ونهلك هؤلاء المجرمين إهلاكا تاما . . أو على أن نبدل ذواتهم ، فنخلقهم خلقا جديدا يكون خيرا من خلقهم الذى هو عليه . . فإن قدرتنا لا يعجزها شئ .وقوله ( وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ) معطوف على جواب القسم ومؤكد له . أى : إنا لقادرون على ذلك ، وما نحن بمغلوبين أو عاجزين عن أن نأتى بقوم آخرين خير منهم .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( يا أيها الناس أَنتُمُ الفقرآء إِلَى الله والله هُوَ الغني الحميد . إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ . وَمَا ذَلِكَ عَلَى الله بِعَزِيزٍ ) وقوله - سبحانه - ( . . . وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يكونوا أَمْثَالَكُم ) ، والمقصود بهذه الآيات الكريمة تهديد المشركين وبيان أن قدرته - تعالى -لا يعجزها شئ .

فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون

كما فسرها الوسيط والفاء فى قوله : ( فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ للتفريع على ما تقدم .والخوض يطلق على السير فى الماء ، والمراد به ( . . . هنا : الكلام الكثير الذى لا نفع فيه .واللعب : اشتغال الإنسان بشئ لا فائدة من ورائه . والمراد به هنا : استهزاؤهم بالحق الذى جاء به النبى صلى الله عليه وسلم .أى : ما دام الأمر كما ذكرنا لك - أيها الرسول الكريم - فاترك هؤلاء الكافرين ، ليخوضوا فى باطلهم ، ويلعبوا فى دنياهم ، ولا تلتفت إليهم .ودعهم فى هزلهم ولهوهم ( حتى يُلاَقُواْ يَوْمَهُمُ الذي يُوعَدُونَ ) . وهو يوم القيامة الذى لا شك فى إتيانه ووقوعه ( .

يوم يخرجون من الاجداث سراعا كانهم الى نصب يوفضون

كما فسرها الوسيط وقوله ( يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأجداث سِرَاعاً ) بدل من ( يَوْمَهُمُ ) . والأجداث جمع جدث - بفتح الجيم الدال - وهو القبر . أى اتركهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم المحتوم . وهو اليوم الذى يخرجون : فيه من قبورهم مسرعين إلى الداعى .( كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ) والنصب - بضمتين - حجارة كانوا يعظمونها . وقيل : هى الأصنام ، وسميت بذلك لأنهم كانوا ينصبونها ويقيمونها للعبادة .( يُوفِضُونَ ) أى : يسرعون . يقال : وفَض فلان يفِض وفْضاً - كوعد - إذا أسرع فى سيره . أى : يخرجون من قبورهم مسرعين إلى الداعى ، مستبقين إليه ، كما كانوا فى الدنيا يسرعون نحو أصنامهم وآلهتهم لكى يستلموها ، ويلتمسوا منها الشفاعة .

خاشعة ابصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون

، كما فسرها الوسيط ( خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ ) أى : يخرجون من قبورهم
حالة كونهم ذليلة خاضعة أبصارهم ، لا يرفعونها لما هم فيه من الخزى والهوان
: أى : تغشاهم ذلة شديدة ، وهوان عظيم . يقال ( تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ).
). رَهِقَهَ الأمر يرهَقهُ رَهَقاً ، إذا غشيه بقهر وغلبة لا يمكن لا دفعها
ذَلِكَ الْيوم الذي كَانُواْ يُوعَدُونَ ) أى : ذلك الذى ذكرناه من الأهوال
هو اليوم الذى كانوا يوعدونه فى الدنيا على ألسنة الرسل ، والذى كانوا ،
- ينكرون وقوعه ، وها هو ذا فى حكم الواقع ، لأن كل ما أخبر الله - تعالى
عنه ، فهو متحقق الوقوع . كما قال - سبحانه - فى أول السورة ( سَأَلَ
سَآئِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ . لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ) وهكذا
افتتحت السورة بإثبات أن يوم القيامة حق ، واختتمت كذلك بإثبات أن يوم
. القيامة حق . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

انا ارسلنا نوحا الى قومه ان انذر قومك من قبل ان ياتيهم عذاب اليم

كما فسرها الوسيط قصة نوح - عليه السلام - مع قومه ، قد وردت في سور متعددة
منها : سورة الأعراف ، ويونس ، وهود ، والشعراء ، والعنكبوت .وينتهى نسب
نوح - عليه السلام - إلى شيث بن آدم ، وقد ذكر نوح فى القرآن فى ثلاثة
وأربعين موضعا .وكان قوم نوح يعبدون الأصنام ، فأرسل الله - تعالى - إليهم
نوحا ليدلهم على طريق الرشاد .وقد افتتحت السورة هنا بالأسلوب المؤكد بإنّ
للاهتمام بالخبر ، وللاتعاظ بما اشتملت عليه القصة من هدايات وإرشادات ،
، وأن فى قوله ( أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ ) تفسيرية ، لأنها وقعت بعد أرسلنا.
والإرسال فيه معنى القول دون حروفه ، فالجملة لا محل لها من الإعراب .ويصح
أن تكون مصدرية ، أى : بأن أنذر قومك . . والإنذار ، هو الإخبار الذى معه
تخويف .وقوم الرجل : هم أهله وخاصته الذين يجتمعون معه فى جد واحد . وقد
يقيم الرجل بين الأجانب . فيسميهم قومه على سبيل المجاز للمجاورة .أى : إنا
قد اقتضت حكمتنا أن نرسل نوحا - عليه السلام - إلى قومه ، وقلنا له : يا
نوح عليك أن تنذرهم وتخوفهم من عذابنا ، وأن تدعوهم إلى إخلاص العبادة لنا
من قبل أن ينزل بهم عذاب مؤلم ، لا طاقة لهم بدفعه ، لأن هذا العذاب من ،
) - الله - تعالى - الذى لا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه .وقال - سبحانه
أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ ) ولم يقل : أن أنذر الناس ، لإثارة حماسته فى
دعوته ، لأن قوم الرجل يحرص الإنسان على منفعتهم . . أكثر من حرصه على
، منفعهة غيرهم .والآية الكريمة صريحة فى أن ما أصاب قوم نوح من عذاب أليم
. كان بسبب إصرارهم على كفرهم ، وعدم استماعهم إلى إنذاره لهم

قال يا قوم اني لكم نذير مبين

) : كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما قاله نوح لقومه فقال
قَالَ ياقوم إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ . أَنِ اعبدوا الله واتقوه
وَأَطِيعُونِ ) .أى : قال نوح لقومه -على سبيل التلطف فى النصح ، والتقرب
إلى قلوبهم - يا قوم ويا أهلى وعشيرتى : إنى لكم منذر واضح الإنذار ، ولا
أسألكم على هذا الإنذار الخالص أجرا ، وإنما ألتمس أجرى من الله .وإنى
آمركم بثلاثة أشياء : أن تخلصوا لله - تعالى - العبادة ، وأن تتقوه فى كل
أقوالكم وأفعالكم ، وأن تطيعونى فى كل ما آمركم به وأنهاكم عنه .وافتتح
، كلامه معهم بالنداء ( قَالَ ياقوم ) ، أملا فى لفت أنظارهم إليه
واستجابتهم له ، فإن النداء من شأنه التنبيه للمنادىَ .ووصف إنذاره لهم
بأنه ( مُّبِينٌ ) ، ليشعرهم بأنه لا لبس فى دعوته لهم إلى الحق ، ولا خفاء
فى كونهم يعرفونه ، ويعرفون حرصه على منفعتهم . .وقال : ( إِنِّي لَكُمْ )
للإشارة إلى أن فائدة استجابتهم له ، تعود عليهم لا عليه ، فهو مرسل من
. أجل سعادتهم وخيرهم

ان اعبدوا الله واتقوه واطيعون

كما فسرها الوسيط وأمرهم بطاعته ، بعد أمرهم بعبادة الله وتقواه ، لأن
طاعتهم له هى طاعة الله - تعالى - كما قال - تعالى - : ( مَّنْ يُطِعِ
). الرسول فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ

يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم الى اجل مسمى ان اجل الله اذا جاء لا يؤخر لو
كنتم تعلمون

كما فسرها الوسيط ثم بين لهم ما يترتب على إخلاص عبادتهم لله ، وخشيتهم
منه - سبحانه - وطاعتهم لنبيهم فقال : ( يَغْفِرْ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ
وَيُؤَخِّرْكُمْ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ) .وقوله : ( يَغْفِرْ ) مجزوم فى

جواب الأوامر الثلاثة ، و ( من ) للتبعيض أى : يغفر لكم بعض ذنوبكم ، وهى تلك التى اقترفوها قبل إيمانهم وطاعتهم لنبيهم ، أو الذنوب التى تتعلق بحقوق الله - تعالى - دون حقوق العباد .ويرى بعضهم أن " من " هنا زائدة لتوكيد هذه المغفرة . أى : يغفر لكم جميع ذنوبكم التى فرطت منكم ، متى آمنتم واتقيتم ربكم ، وأطعتم نبيكم .( وَيُؤَخِّرْكُمْ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ) أى : ويؤخر آجالكم إلى وقت معين عنده - سبحانه - ويبارك لكم فيها ، بأن يجعلها عامرة بالعمل الصالح ، وبالحياة الآمنة الطيبة .فأنت ترى أن نوحا - عليه السلام - قد وعدهم بالخير الأخروى وهو مغفرة الذنوب يوم القيامة ، وبالخير الدنيوى وهو البركة فى أعمارهم ، وطول البقاء فى هناء وسلام .قال ابن كثير : ( وَيُؤَخِّرْكُمْ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ) أى : ويمد فى أعماركم ، ويدرأ عنكم العذاب ، الذى إذا لم تنزجروا عما أنهاكم عنه : أوقعه - سبحانه - بكم .وقد يستدل بهذه الآية من يقول : إن الطاعة والبر وصلة الرحم . يزاد بها فى العمر حقيقة ، كما ورد به الحديث : " صلة الرحم تزيد فى العمر " .وقوله : ( إِنَّ أَجَلَ الله إِذَا جَآءَ لاَ يُؤَخَّرُ - لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ) بمنزلة التعليل لما قبله . أى : يغفر لكم سبحانه - من ذنوبكم ، ويؤخركم إلى أجل معين عنده - تعالى - إن الوقت الذى ) ، حدده الله - عز وجل - لانتهاء أعماركم ، متى حضر ، لا يؤخر عن موعده لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ) . أى : لو كنتم من أهل العلم لسارعتم لما آمركم به . لكنكم لستم من أهله فى شئ ، لذا لم تسارعوا ، فجواب لو مما يتعلق بأول الكلام .ويجوز أن يكون مما يتعلق بآخره . أى : لو كنتم من أهل العلم لعلمتم ذلك ، أى : عدم تأخير الأجل إذا جاء وقته المقدر له . والفعل فى الوجهين منزل منزلة اللازم .

قال رب اني دعوت قومي ليلا ونهارا

كما فسرها الوسيط ثم قصت علينا الآيات الكريمة بعد ذلك ، ما قاله نوح لربه على سبيل الشكوى والضراعة ، وما وجهه إلى قومه من نصائح فيها ما فيها من . الترغيب والترهيب ، ومن الإرشاد الحكيم ، والتوجيه السديد . . قال - تعالى - :(قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي . . . ) .قوله - تعالى : - قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً . فَلَمْ ) يَزِدْهُمْ دعآئي إِلاَّ فِرَاراً ) بيان للطرق والمسالك التى سلكها نوح مع قومه ، وهو يدعوهم إلى أخلاص العبادة لله - تعالى - بحرص شديد ومواظبة تامة وموقف قومه من دعوته لهم .والمقصود بهذا الخبر لازم معناه ، وهو . . الشكاية إلى ربه ، والتمهيد لطلب النصر منه - تعالى - عليهم ، لأنه - سبحانه -لا يخفى عليه أن نوحا - عليه السلام - لم يقصر فى تبليغ رسالته أى : قال نوح متضرعا إلى ربه : يا رب إنك تعلم أننى لم أقصر فى دعوة قومى. إلى عبادتك ، تارة بالليل وتارة بالنهار ، من غير فتور ولا توان .

فلم يزدهم دعائي الا فرارا

كما فسرها الوسيط ( فَلَمْ يَزِدْهُمْ دعآئي ) لهم إلى عبادتك وطاعتك ) إِلاَّ فِرَاراً ) أى : إلا تباعدا من الإيمان وإعراضا عنه . والفرار : الزّوَغَان والهرب . يقال : فر فلان يفر فرارا ، فهو فرور ، إذا هرب من طالبه ، وزاغ عن عينه .والتعبير بقوله : (دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً ) ، يشعر بحرص نوح التام على دعوتهم ، فى كل وقت يظن فيه أن دعوته لهم قد تنفع .كما أن التعبير بقوله : ( فَلَمْ يَزِدْهُمْ دعآئي إِلاَّ فِرَاراً ) يدل دلالة واضحة على إعراضهم التام عن دعوته ، أى : فلم يزدهم دعائى شيئا من الهدى ، وإنما زادهم بُعْداً عنى ، وفرارا منى .وإسناد الزيادة إلى الدعاء ، من باب الإسناد إلى السبب ، كما فى قولهم : سرتنى رؤيتك ، وقوله ( فِرَاراً ) مفعول ثان لقوله ( فَلَمْ يَزِدْهُمْ ) والاستثناء مفرغ من عموم الأحوال والمستثنى منه مقدر ، أى : فلم يزدهم دعائى شيئا من أحوالهم التى كانوا عليها إلا الفرار .ويصح أن يكون الاستثناء منقطعا . أى : فلم يزدهم دعائى قرباً من الحق ، لكن زادهم فرارا منه .

واني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا اصابعهم في اذانهم واستغشوا ثيابهم واصروا واستكبروا استكبارا

كما فسرها الوسيط ثم أضاف إلى فرارهم منه ، حالة أخرى . تدل على إعراضهم عنه ، وعلى كراهيتهم له ، فقال : ( وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جعلوا أَصَابِعَهُمْ في آذَانِهِمْ واستغشوا ثِيَابَهُمْ ) : وَأَصَرُّواْ واستكبروا استكبارا ) .وقوله : ( كُلَّمَا ) معمول لجملة جعلوا ) التى هى خبر إن ، واللام فى قوله ( لِتَغْفِرَ لَهُمْ ) للتعليل : والمراد بأصابعهم : جزء منها . واستغشاء الثياب معناه : جعلها غشاء ، أى.

غطاء لرءوسهم ولأعينهم حتى لا ينظروا إليه ، ومتعلق الفعل " دعوتهم " محذوف لدلالة ما تقدم عليه ، وهو أمرهم بعبادة الله وتقواه .والمعنى : وإنى - يا مولاى - كلما دعوتهم إلى عبادتك وتقواك وطاعتى فيما أمرتهم به ، لكى تغفر لهم ذنوبهم . . ما كان منهم إلا أن جعلوا أصابعهم فى آذانهم حتى لا يسمعوا قولى ، وإلا أن وضعوا ثيابهم على رءوسهم . وأبصارهم حتى لا يرونى ، وإلا أن إصرارا تاما على كفرهم ( واستكبروا استكبارا ) عظيما عن ( وَأَصَرُّواْ ) ، قبول الحق .فأنت ترى أن هذه الآية الكريمة ، قد صورت عناد قوم نوح - وجحودهم للحق ، تصويرا بلغ الغاية فى استحبابهم العمى على الهدى .فهى أولا - جاءت بصيغة " كلما " الدالة على شمول كل دعوة وجهها إليهم نبيهم نوح - عليه السلام - أى : فى كل وقت أدعوهم إلى الهدى يكون منهم الإعراض وهى - ثانيا - عبرت عن عدم استماعهم إليه بقوله - تعالى - : ( جعلوا. أَصَابِعَهُمْ في آذَانِهِمْ ) . وعبر عن الأنامل بالأصابع على سبيل المبالغة فى إرادة سد المسامع ، فكأنهم لو أمكنهم إدخال أصابعهم جميعها فى آذانهم لفعلوا . حتى لا يسمعوا شيئا مما يقوله نبيهم لهم .فإطلاق اسم الأصابع على الأنامل من باب المجاز المرسل ، لعلاقة البعضية ، حيث أطلق - الأصابع على الأنامل من باب المجاز المرسل ، لعلاقة البعضية ، حيث أطلق - سبحانه - الكل وأراد البعض ، مبالغة فى كراهيتهم لسماع كلمة الحق .وهى ثالثا - عبرت عن كراهيتهم لنبيهم ومرشدهم بقوله - تعالى - : ( واستغشوا ثِيَابَهُمْ ) أى : بالغوا فى التّغطّى بها ، حتى لكأنهم قد طلبوا منها أن تلفهم بداخلها حتى لا يتسنى لهم رؤيته إطلاقا .وهذا كناية عن العداوة الشديدة ، ومنه قول القائل : لبس لى فلان ثياب العداوة .وهى - رابعا - قد بينت بأنهم لم يكتفوا بكل ذلك ، بل أضافوا إليه الإصرار على الكفر - وهو - التشدد فيه ، والامتناع من الإقلاع عنه مأخوذ من الصّرة بمعنى الشدة والاستكبار العظيم عن الاستجابة للحق .فقد أفادت هذه الآية ، أنهم عصوا نوحا وخالفوه مخالفة ليس هناك ما هو أقبح منها ظاهرا ، حيث عطلوا أسماعهم ، وأبصارهم ، وليس هناك ما هو أقبح منها باطنا ، حيث أصروا على كفرهم . واستكبروا على اتباع الحق .

ثم اني دعوتهم جهارا

كما فسرها الوسيط ومع كل هذا الإعراض والعناد . . فقد حكت لنا الآيات بعد - ذلك ، أن نوحا - عليه السلام - قد واصل دعوته لهم بشتى الأساليب . فقال ) : كما حكى القرآن عنه - : ( ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً ) .وقوله جِهَاراً ) صفة لمصدر محذوف . أى : دعوتهم دعاء جهارا . أى : مجاهرا لهم بدعوتى ، بحيث صارت دعوتى لهم أمامهم جميعا .

ثم اني اعلنت لهم واسررت لهم اسرارا

كما فسرها الوسيط ( ثُمّ إني أَعْلَنْتُ لَهُمْ ) تارة ( وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً ) تارة أخرى .أى : أنه - عليه السلام - توخى ما يظنه يؤدى إلى نجاح دعوته ، وراعى أحوالهم فى ذلك ، فهو تارة يدعوهم جهرا ، وتارة يدعوهم سرا ، وتارة يجمع بين الأمرين .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ذكر أنه دعاهم ليلا ونهارا ، ثم دعاهم جهارا ، ثم دعاهم فى السر والعلن ، فيجب أن تكون ثلاث دعوات مختلفات حتى يصح العطف؟قلت : قد فعل - عليه السلام - كما يفعل الذى يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، فى الابتداء بالأهوان والترقى فى الأشد فالأشد ، فافتتح بالمناصحة فى السر ، فلما لم يقبلوا ثنى بالمجاهرة ، فلما لم تؤثر ثلث بالجمع بين الإسرار والإعلان ، ومعنى " ثم " الدلالة على تباعد الأحوال ، لأن الجهار أغلظ من الإسرار. والجمع بين الأمرين أغلظ من إفراد أحدهما ..

فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا

) : كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - جانبا من إرشادات نوح لقومه فقال فَقُلْتُ استغفروا رَبّكُمْ )أى : فقلت لهم - على سبيل النصح والإرشاد ، إلى ما ينفعهم ويغريهم بالطاعة - ( استغفروا رَبّكُمْ ) بأن تتوبوا إليه وتقلعوا عن كفركم وفسوقكم ( إِنَّهُ ) - سبحانه - (كَانَ غَفَّاراً ) .أى : كثير الغفران لمن تاب إليه وأناب .

يرسل السماء عليكم مدرارا

كما فسرها الوسيط ( يُرْسِلِ السمآء عَلَيْكُمْ مِّدْرَاراً ) والمراد بالسماء هنا : المطر لأنه ينزل منها ، وقد جاء فى الحديث الشريف أن من أسماء المطر السماء . فقد روى الشيخان عن زيد بن خالد الجهنى أنه قال " صلى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية ، على إثر سماء كانت من الليل . . . " أى : على إثر إمطار نازلة بالليل .ومنه قول بعض

: الشعراء :إذا نزل السماء بأرض قوم ... رعيناه وإن كانوا غضابا والمدرار
المطر الغزير المتتابع ، يقال : درت السماء بالمطر ، إذا نزل منها بكثرة
وتتابع ، والدر ، والدرور معناه : السيلان . . فقوله ( مِّدْرَاراً ) صيغة
مبالغة منهما .أى : استغفروا ربكم وتوبوا إليه ، فإنكم إذا فعلتم ذلك أرسل
الله - تعالى - عليكم بفضله ورحمته ، أمطارا غزيرة متتابعة ، لتنتفعوا بها
. فى مختلف شئون حياتكم

ويمددكم باموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم انهارا

كما فسرها الوسيط وفضلا عن ذلك : ( وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ
وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ ) أى : بساتين عظيمة ، ( وَيَجْعَل لَّكُمْ
أَنْهَاراً ) جارية تحت أشجار هذه الجنات ، لتزداد جمالا ونفعا .قال
الإمام الرازى ما ملخصه : " إن قوم نوح لما كذبوه زمانا طويلا ، حبس الله
عنهم المطر ، وأعقم أرحام نسائهم . . فرجعوا إلى نوح ، فقال لهم : استغفروا
ربكم من الشرك ، حتى يفتح عليكم أبواب نعمه .واعلم أن الاشتغال بالطاعة
سبب لانفتاح أبواب الخيرات ، ويدل عليه وجوه : أحدها : أن الكفر سبب لخراب
العالم . والإيمان سبب لعمارة العالم . وثانيها : الآيات الكثيرة التى
وردت فى هذا المعنى ، ومنها قوله - تعالى - ( وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القرى
. . آمَنُواْ واتقوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السمآء والأرض
وثالثها : أن عمر خرج يستسقى فما زاد على الاستغفار .فقيل له : ما ( .
رأيتك استسقيت؟ فقال : لقد استسقيت لكم بمجاديح السماء ، والمجاديح : جمع
مِجْدَح - بكسر فسكون وهو نجم من النجوم المعروفة عند العرب .وشكا رجل إلى
. . الحسن البصرى الفاقة ، وشكا إليه آخر الجدب ، وشكا إليه ثالث قلة النسل
فأمر الجميع بالاستغفار . . فقيل له : أتاك رجال يشكون إليك أنواعا من
الحاجة ، فأمرتهم جميعا بالاستغفار؟ فتلا الحسن هذه الآيات الكريمة .وما
، قاله الإمام الرازى - رحمه الله - يؤيده القرآن الكريم فى كثير من آياته
ويؤيده واقع الحياة التى نحياها ونشاهد أحداثها .أما آيات القرآن الكريم
فمنها قوله - تعالى - : ( وَأَلَّوِ استقاموا عَلَى الطريقة
لأَسْقَيْنَاهُم مَّآءً غَدَقاً ) وقوله - سبحانه - على لسان هود - عليه
السلام - : ( وياقوم استغفروا رَبَّكُمْ ثُمَّ توبوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ
. . السمآء عَلَيْكُمْ مِّدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إلى قُوَّتِكُمْ
وقال - عز وجل - : ( مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أنثى وَهُوَ(
مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ) وأما واقع الحياة . فإننا
نشاهد بأعيننا الأمم التى تطبق شريعة الله - تعالى - وتعمل بما جاء به
النبى صلى الله عليه وسلم من آداب وأحكام وهدايات .نرى هذه الأمم سعيدة فى
حياتها ، آمنة فى أوطانها ، يأتيها رزقها رغدا من كل مكان ، وإذا أصابها شئ
- من النقص فى الأنفس أو الثمرات . . فذلك من باب الامتحان الذى يمتحن الله
تعالى - به عباده ، والذى لا يتعارض مع كون العاقبة الطيبة إنما هى لهذه
الأمم الصادقة فى إيمانها .وما يجرى على الأمم والشعوب ، يجرى أيضا
على الأفراد والجماعات ، فتلك سنة الله التى لا تتغير .أما الأمم الفاسقة عن
أمر ربها ، فإنها مهما أوتيت من ثراء وبسطة فى الرزق . . فإن حياتها دائما
تكون متلبسة بالقلق النفسى ، والشقاء القلبى ، والاكتئاب الذى يؤدى إلى
. فساد الحال واضطراب البال

ما لكم لا ترجون لله وقارا

: - كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - بعد ذلك حكاية عن نوح - عليه السلام
مّا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً . وَقَدْ خَلَقَكُمْ )
أَطْوَاراً ) : بيان لما سلكه نوح فى دعوته لقومه ، من جمعه بين الترغيب
والترهيب .فهو بعد أن أرشدهم إلى أن استغفارهم وطاعتهم لربهم ، تؤدى بهم
- إلى البسطة فى الرزق . . أتبع ذلك بزجرهم لسوء أدبهم مع الله - تعالى
منكرا عليهم استهتارهم واستخفافهم بما يدعوهم إليه .وقوله : ( مّا لَكُمْ
" مبتدأ وخبر ، وهو استفهام قصد به توبيخهم والتعجيب من حالهم .ولفظ (
ترجون " يرى بعضهم أنه بمعنى تعتقدون . والوقار معناه : التعظيم والإجلال
والأطوار : جمع طور ، وهو المرة والتارة من الأفعال والأزمان .أى : ما .
الذى حدث لكم - أيها القوم - حتى صرتم لا تعتقدون لله - تعالى - عظمة أو
. إجلالا

وقد خلقكم اطوارا

كما فسرها الوسيط والحال أنه - سبحانه - هو الذى خلقكم وأوجدكم فى أطوار
متعددة ، نطفة ، فعلقة ، فمضغة .كما قال - سبحانه - ( وَلَقَدْ خَلَقْنَا
الإنسان مِن سُلاَلَةٍ مِّن طِينٍ . ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي
قَرَارٍ مَّكِينٍ . ثُمَّ خَلَقْنَا النطفة عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العلقة

مُضْغَةً فَخَلَقْنَا المضغة عِظَاماً فَكَسَوْنَا العظام لَحْماً ثُمّ
أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخالقين ) وكما
قال - تعالى - ( اللهُ الذِي خَلَقَكُمْ مِّن ضَعْفٍ ثُمّ جَعَلَ مِن بَعْدِ
ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً
: يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ العليم القدير ) قال القرطبي ما ملخصه
: قوله - تعالى - : ( مّا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً ) قيل
الرجاء هنا بمعنى الخوف .أى : مالكم لا تخافون لله عظمة وقدرة على أخذكم
بالعقوبة .وقيل : المعنى : ما لكم لا تعلمون لله عظمة . . أولا ترون لله
: عظمة . . أو لا تبالون أن لله عظمة .. والوقار : العظمة ، والتوقير
. . التعظيم

الم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا

كما فسرها الوسيط وبعد هذا الترغيب والترهيب والتوبيخ . . أخذ في لفت
أنظارهم إلى عجائب صنع الله فى خلقه ، فقال : ( أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ
خَلَقَ اللَّه سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً . وَجَعَلَ القمر فِيهِنَّ نُوراً
وَجَعَلَ الشمس سِرَاجاً ) .والاستفهام فى قوله : ( أَلَمْ تَرَوْاْ . . )
- للتقرير ، والرؤية : بصرية وعلمية ، لأنهم يشاهدون مخلوقات الله - تعالى
ويعلمون أنه - سبحانه - هو الخالق . و ( طِبَاقاً ) أى : متطابقة كل طبقة
أعلى من التى تحتها .أى : لقد علمتم ورأيتم أن الله - تعالى - هو الذى خلق
متطابقة ، بعضها فوق بعض ( سَبْعَ سَمَاوَاتٍ )

وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا

- كما فسرها الوسيط ( وَجَعَلَ القمر فِيهِنّ نُوراً ) أى : وجعل - سبحانه
بقدرته القمر فى السماء الدنيا نورا للأرض ومن فيها .وإنما قال ( فِيهِنّ
مع أنه فى السماء الدنيا ، لأنها محاطة بسائر السموات فما فيها يكون كأنه (
فى الكل . أو لأن كل واحدة منها شفافة ، فيرى الكل كأنه سماء واحدة . فساغ
أن يقال فيهن .وقوله : ( وَجَعَلَ الشمس سِرَاجاً ) أى : كالسراج فى
، إضاءتها وتوهجها وإزالة ظلمة الليل ، إذ السراج هو المصباح الزاهر نوره
الذى يضئ ما حوله .قال الآلوسى : قوله ( وَجَعَلَ القمر فِيهِنَّ نُوراً )
أى : منوراً لوجه الأرض فى ظلمة الليل ، وجعله فيهن مع أنه فى إحداهن - وهى
السماء الدنيا - ، كما يقال : زيد فى بغداد وهو فى بقعة منها . والمراجح له
الإيجاز والملابسة بالكلية والجزئية ، وكونا طباقا شفاة .( وَجَعَلَ الشمس
سِرَاجاً ) يزيل الظلمة . . وتنوينه للتعظيم ، وفى الكلام تشبيه بليغ ولكون
السراج أعرف وأقرب ، جعل مشبها به ، ولاعتبار التعدى إلى الغير فى مفهومه
، بخلاف النور ، كان أبلغ منه .وقال بعض العلماء : وفى جعل القمر نورا
إيماء إلى أن ضوء القمر ليس من ذاته . فإن القمر مظلم . وإنما يستضئ
بانعكاس أشعة الشمس على ما يستقبلها من وجهه ، بحسب اختلاف ذلك الاستقبال
من تبعض وتمام ، هو أثر ظهوره هلالا . . ثم بدرا .وبعكس ذلك جعلت الشمس
سراجا ، لأنها ملتهبة ، وأنوارها ذاتية فيها ، صادرة عنها إلى الأرض وإلى
. القمر ، مثل أنوار السراج تملأ البيت

والله انبتكم من الارض نباتا

كما فسرها الوسيط ثم انتقل نوح - عليه السلام - من تنبيههم إلى ما فى خلق
السموات والشمس والقمر من دلالة على وحدانية الله وقدرته . . إلى لفت
أنظارهم إلى التأمل فى خلق أنفسهم ، وفى مبدئهم وإعادتهم إلى الحياة مرة
أخرى بعد موتهم ، فقال - كما حكى القرآن عنه - : ( والله أَنبَتَكُمْ مِّنَ
الأرض نَبَاتاً . ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً
والمراد بأنبتكم : أنشأكم وأوجدكم ، فاستعير الإنبات للإنشاء للمشابهة(
بين إنبات النبات ، وإنشاء الإنسان ، من حيث إن كليهما تكوين وإيجاد للشئ
بقدرته - تعالى - .والمراد بأنبتكم : أنبت أصلكم وهو أبوكم آدم ، فأنتم
فروع عنه . و ( نَبَاتاً ) مصدر لأنبت على حذف الزوائد ، فهو مفعول مطلق
" لأنبتكم ، جئ به للتوكيد ، ومصدره القياسى " إنباتا " واختير " نباتا
لأنه أخف .قال الجمل : قوله : نباتا ، يجوز أن يكون مصدرا لأنبت على حذف
الزوائد . ويسمى اسم مصدر ، ويجوز أن يكون مصدرا لنبتم مقدرا . أى : فنبتّم
نباتا - فيكون منصوبا بالمطاوع المقدر .أى : والله - تعالى - هو الذى أوجد
. وأنشأ أباكم آدم من الأرض إنشاء وجعلكم فروعا عنه

ثم يعيدكم فيها ويخرجكم اخراجا

كما فسرها الوسيط ثم يعيدكم إلى هذه الأرض بعد موتكم لتكون قبورا لكم ، ثم
يخرجكم منها يوم البعث للحساب والجزاء .وعبر - سبحانه - عن الإنشاء

بالإنبات ، لأن هذا التعبير يشعر بأن الإنسان مخلوق محدث ، وأنه مثل النبات يحصد مثل يعود إلى الحياة مرة أخرى .وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : " استعير الإنبات للإنشاء كما يقال : زرعك الله للخير . وكانت هذه الاستعارة أدل دليل على الحدوث لأنهم إذا كانوا نباتا كانوا محدثين لا محالة حدوث النبات " .

والله جعل لكم الارض بساطا

كما فسرها الوسيط ثم ختم نوح - عليه السلام - إرشاداته لقومه ، بلفت أنظارهم إلى نعمة الأرض التى يعيشون عليها ، فقال : ( والله أَنبَتَكُمْ مِّنَ الأرض نَبَاتاً . ثُمّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً . والله جَعَلَ لَكُمُ الأرض بِسَاطاً . لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً )أى : والله - تعالى - وحده هو الذى جعل لكم - بفضله ومنته - الأرض مبسوطة ، حيث تتقلبون عليها كما يتقلب النائم على البساط وجعلها لكم كذلك ( فِجَاجاً ) أى : متسعة جمع فج وهو الطريق الواسع .وقوله : ( بِسَاطاً ) تشبيه بليغ . أى : جعلها لكم كالبساط ، وهذا لا يتنافى مع كون الأرض كروية ، لأن الكرة إذا عظمت جدا ، كانت القطعة منها كالسطح والبساط فى إمكان الانتفاع بها ، والتقلب على أرجائها .وهكذا نرى أن نوحا - عليه السلام - قد سلك مع قومه مسالك متعددة لإقناعهم بصحة ما يدعوهم إليه ، ولحملهم على طاعته ، والإيمان بصدق رسالته .لقد دعاهم بالليل والنهار ، وفى السر وفى العلانية ، وبين لهم أن طاعتهم لله - تعالى - تؤدى إلى إمدادهم بالأموال والأولاد ، والجنات والأنهاهر ووبخهم على عدم خشيتهم من الله - تعالى - وذكرهم بأطوار خلقهم ، ولفت أنظارهم إلى بديع صنعه - سبحانه - فى خلق السموات والشمس والقمر ، ونبههم إلى نشأتهم من الأرض ، وعودتهم إليها ، وإخراجهم منها للحساب والجزاء ، وأرشدهم إلى نعم الله - تعالى - فى جعل الأرض مبسوطة لهم .

لتسلكوا منها سبلا فجاجا

`<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html} كما فسرها الوسيط

ثم ختم نوح - عليه السلام - إرشاداته لقومه ، بلفت أنظارهم إلى نعمة الأرض التى يعيشون عليها ، فقال : ( والله أَنبَتَكُمْ مِّنَ الأرض نَبَاتاً . ثُمّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً . والله جَعَلَ لَكُمُ الأرض بِسَاطاً . لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً )أى : والله - تعالى - وحده هو الذى جعل لكم - بفضله ومنته - الأرض مبسوطة ، حيث تتقلبون عليها كما يتقلب النائم على البساط .وجعلها لكم كذلك ( فِجَاجاً ) أى : متسعة جمع فج وهو الطريق الواسع .وقوله : ( بِسَاطاً ) تشبيه بليغ . أى : جعلها لكم كالبساط ، وهذا لا يتنافى مع كون الأرض كروية ، لأن الكرة إذا عظمت جدا ، كانت القطعة منها كالسطح والبساط فى إمكان الانتفاع بها ، والتقلب على أرجائها .وهكذا نرى أن نوحا - عليه السلام - قد سلك مع قومه مسالك متعددة لإقناعهم بصحة ما يدعوهم إليه ، ولحملهم على طاعته ، والإيمان بصدق رسالته .لقد دعاهم بالليل والنهار ، وفى السر وفى العلانية ، وبين لهم أن طاعتهم لله - تعالى - تؤدى إلى إمدادهم بالأموال والأولاد ، والجنات والأنهاهر ووبخهم على عدم خشيتهم من الله - تعالى - وذكرهم بأطوار خلقهم ، ولفت أنظارهم إلى بديع صنعه - سبحانه - فى خلق السموات والشمس والقمر ، ونبههم إلى نشأتهم من الأرض ، وعودتهم إليها ، وإخراجهم منها للحساب والجزاء ، وأرشدهم إلى نعم الله - تعالى - فى جعل الأرض مبسوطة لهم .

قال نوح رب انهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده الا خسارا

كما فسرها الوسيط وهكذا حاول نوح - عليه السلام - أن يصل إلى آذان قومه وإلى عقولهم وقلوبهم ، بشتى الأساليب الحكيمة ، والتوجيهات القويمة ، فى صبر طويل وإرشاد دائم .ولكن قومه كانوا قد بلغوا الغاية فى الغباء والجهالة والعناد والطغيان ، لذى نرى السورة الكريمة تحكى عن نوح - عليه السلام - ضراعته إلى ربه ، والتماسه منه - تعالى استئصال شأفتهم ، وقطع دابرهم ، لنستمع فى تدبر إلى قوله - تعالى - .( قَالَ نُوحٌ رّبّ إِنّهُمْ عَصَوْنِي واتبعوا . . . ) .قوله - سبحانه - : ( قَالَ نُوحٌ رّبّ إِنّهُمْ عَصَوْنِي واتبعوا . . ) كلام مستأنف . لأن ما سبقه يستدعى سؤالا تقديره : ماذا كانت عاقبة قوم نوح بعد أن نصحهم ووعظهم بتلك الأساليب المتعددة؟ فكان الجواب : ( قَالَ نُوحٌ ) - عليه السلام - بعد أن طال نصحه لقومه ، وبعد أن مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، وبعد أن يئس من إيمانهم وبعد أخبره - سبحانه - أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن .( قَالَ )

متضرعا إلى ربه ( رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي ) أى : إن قومى قد عصونى
وخالفوا أمرى ، وكرهوا صحبتى ، وأصروا واستكبروا استكبارا عظيما فى دعوتى
: أى ( واتبعوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَاراً ).
إنهم أصروا على معصيتى ، ولم يكتفوا بذلك بل بجانب إعراضهم عنى ، اتبعوا
غيرى . . اتبعوا رؤساءهم أهل الأموال والأولاد الذين لم تزدهم النعم التى
أنعمت بها عليهم إلا خسرانا وجحودا ، وضلالا فى الدنيا ، وعقوبة فى الآخرة
فالمراد بالذين لم يزدهم مالهم وولدهم إلا خسارا : أولئك الكبراء والزعماء.
الذين رزقهم الله المال والولد ، ولكنهم استعملوا نعمه فى معصيته لا فى
. طاعته

ومكروا مكرا كبارا

كما فسرها الوسيط وقوله : ( وَمَكَرُواْ مَكْراً كُبَّاراً ) صفة أخرى من
صفاتهم الذميمة ، وهو معطوف على صلة " من " والجمع باعتبار معناها ، كما أن
الإفراد فى الضمائر السابقة باعتبار اللفظ .والمكر : هو التدبير فى خفاء
لإنزال السوء بالممكور به .أى : أن هؤلاء الزعماء الذين استعملوا نعمك فى
الشر ، لم يكتفوا بتحريض أتباعهم على معصيتى ، بل مكروا بى وبالمؤمنين مكرا
قد بلغ النهاية فى الضخامة والعظم .فقوله : ( كُبَّاراً ) مبالغة فى الكبر
والعظم . أى : مكرا كبيرا جدا لا تحيط بحجمه العبارة .وكان من مظاهر مكرهم
- تحريضهم لسفلتهم على إنزال الأذى بنوح - عليه السلام - وبأتباعه :
. وإيهامهم لهؤلاء السفلة أنهم على الحق ، وأن نوحا ومن معه على الباطل

وقالوا لا تذرن الهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا

كما فسرها الوسيط وكان من مظاهر مكرهم - أيضا - ما حكاه القرآن بعد ذلك
عنهم فى قوله : ( وَقَالُواْ لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ
وَدّاً وَلاَ سُوَاعاً وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً ) .أى : ومن
مظاهر مكر هؤلاء الرؤساء أنهم قالوا لأتباعهم . احذروا أن تتركوا عبادة
آلهتكم ، التى وجدتم على عبادتها آباءكم ، واحذروا أيضا أن تتركوا عبادة
هذه الأصنام الخمسة بصفة خاصة ، وهى : ود وسواع ويغوث ويعوق ونسرا .قال
الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : وهذه أسماء أصنامهم
التى كانوا يعبدونها من دون الله . فقد روى البخارى عن ابن عباس : صارت
الأوثان التى كانت فى قوم نوح فى العرب بعد ، أما " ود " فكانت لقبيلة بنى
كلب بدومة الجندل . وأما " سواع " فكانت لهذيل ، وأما " يغوث " فكانت لبنى
غطيف ، وأما " يعوق " فكانت لهمدان ، وأما " نسر " فكانت لحمير .وهى أسماء
رجال صالحين من قوم نوح - عليه السلام - فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم
أن انصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون عليها أنصابا ، وسموها بأسمائهم ،
ففعلوا .وقال ابن جرير : كانوا قوما صالحين بين آدم ونوح ، وكان لهم أتباع
يقتدون بهم ، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدرون بهم : لو صورناهم
كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم ، فصوروهم ، فلما ماتوا وجاء آخرون
. دب إليهم إبليس فقال : إنما كانوا يعبدونهم ، وبهم يسقون المطر . فعبدوهم

وقد اضلوا كثيرا ولا تزد الظالمين الا ضلالا

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيراً وَلاَ
تَزِدِ الظالمين إِلاَّ ضَلاَلاً ) معمول لقول مقدر ، وهذا القول المقدر
معطوف على أقوال نوح السابقة .أى : قال نوح مناجيا ربه بعد أن يئس من إيمان
، قومه : يا رب ، إن قومى قد عصونى ، وإنهم قد اتبعوا رؤساءهم المغرورين
وإن هؤلاء الرؤساء قد مكروا بى وبأتباعى مكراً عظيما ، ومن مظاهر مكرهم
أنهم حرضوا السفهاء على العكوف على عبادة أصنامهم . . وأنهم قد أضلوا خلقا
- كثيرا بأن حببوهم فى الكفر وكرهوا إليهم الإيمان .وقال نوح - أيضا
وأسألك يا رب أن لا تزيد الكافرين إلا ضلالا على ضلالهم ، فأنت الذى
أخبرتنى بأنه " لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ " وإذا
، فدعاء نوح - عليه السلام - عليهم بالازدياد من الضلال الذى هو ضد الهدى
وإنما كان بعد أن يئس من إيمانهم ، وبعد أن أخبره ربه أنهم لن يؤمنوا .قال
، صاحب الكشاف : قوله : ( وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيراً ) الضمير للرؤساء
ومعناه : وقد أضلوا كثيرا قبل هؤلاء الذين أمروهم بأن يتمسكوا بعبادة
الأصنام . ويجوز أن يكون الضمير للأصنام ، كقوله - تعالى - ( إِنَّهُنَّ
أَضْلَلْنَ كَثِيراً ) الضمير للرؤساء ، ومعناه : وقد أضلوا كثيرا قبل
هؤلاء الذين أمروهم بأن يتمسكوا بعبادة الأصنام . . ويجوز أن يكون الضمير
للأصنام ، كقوله - تعالى - ( وَلاَ تَزِدِ الظالمين إِلاَّ ضَلاَلاً ) ؟
. . قلت : على قوله ( رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي ) على حكاية كلام نوح
: ومعناه : قال رب إنهم عصون ، وقال : ولا تزد الظالمين إلا ضلالا .فإن قلت
كيف جاز أن يريد لهم الضلال ، ويدعو الله بزيادته؟ قلت : لتصميمهم على

الكفر ، ووقوع اليأس من إيمانهم . . ويجوز أن يريد بالضلال : الضياع والهلاك . .

مما خطيئاتهم اغرقوا فادخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله انصارا

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( مِّمَّا خطيئاتهم أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَاراً فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُمْ مِّن دُونِ اللّه أَنصَاراً ) كلام معترض بين ضراعات نوح إلى ربه ، والمقصود به التعجيل ببيان سوء عاقبتهم ، والتسلية للرسول صلى الله عليه وسلم عما أصابه من قومه .و " من " فى قوله ( مِّمَّا خطيئاتهم ) للتعليل ، و " ما " مزيدة لتأكيد هذا التعليل .والخطيئات جمع خطيئة ، والمراد بها هنا : الإشراك به - تعالى - وتكذيب نوح - عليه السلام - والسخرية منه ومن المؤمنين ، أى : بسبب خطيئاتهم الشنيعة ، وليس بسبب آخر ( أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَاراً ) يصلون سعيرها فى قبورهم إلى يوم الدين ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى .وهم عندما نزل بهم الطوفان الذى أهلكهم ، وعندما ينزل بهم عذاب الله فى الآخرة . لن يجدوا أحدا ينصرهم ويدفع عنهم عذابه - تعالى - لامن الأصنام التى تواصوا فيما بينهم بالعكوف على عبادتها ، ولا من غير هذه الأصنام .فالآية الكريمة تعريض بمشركى قريش ، الذين يزعمون أن أصنامهم ستشفع لهم يوم القيامة ، والذين حكى القرآن عنهم قولهم : ( مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى اللهِ زلفى ) والتعبير بالفاء فى قوله : ( أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَاراً فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُمْ مِّن دُونِ اللهِ أَنصَاراً ) للإشعار بأن دخولهم النار كان فى أعقاب غرقهم بدون مهلة ، وبأن صراخهم وعويلهم كان بعد نزول العذاب بهم مباشرة ، إلا أنهم لم يجدوا أحدا ، يدفع عنهم شيئا من هذا العذاب الأليم .

وقال نوح رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا

، كما فسرها الوسيط ثم واصلت السورة الكريمة حكاية ما ناجى نوح به ربه فقالت : ( وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأرض مِنَ الكافرين دَيَّاراً ) .أى : وقال نوح متابعا حديثه مع ربه ، ومناجاته له : يا رب لا تترك على الأرض من هؤلاء الكافرين ( دَيَّاراً ) مأخوذ من الدار ، أو الدوران ، وهو التحرك ، والمقصود :لا تذر منهم أحد أصلا ، بل اقطع دابرهم جميعا .قالوا : والديار من الأسماء التى لا تستعمل إلا فى النفى العام . يقال : ما بالدارديار .أى : ليس بها أحد ألبتة ، وهو اسم بزنة فَيْعَال .

انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا

كما فسرها الوسيط وقوله ( إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ ) ، تعليل لدعائه عليهم جميعا بالهلاك . أى : يا رب لا تترك منهم أحدا سالما بل أهلكهم جميعا لأنك إن تترك منهم أحدا على أرضك بدون إهلاك ، فإن هؤلاء المتروكين من دأبهم - كما رأيت منهم زمانا طويلا - إضلال عبادك عن طريق الحق .وقوله : ( وَلاَ يلدوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً ) زيادة فى ذمهم وفى التشنيع عليهم .والفاجر : هو المتصف بالفجور ، والملازم له ملازمة شديدة ، والفجور : هو الفعل البالغ للنهاية فى الفساد والقبح .والكفار : هو المبالغ فى الكفر ، والجحود لنعم الله - تعالى - .أى : إنك يا إلهى إن تتركهم بدون إهلاك ، يضلوا عبادك عن كل خير ، وهم فوق ذلك ، لن يلدوا إلا من هو مثلهم فى الفجور والكفران لأنهم قد نشّأوا أولادهم على كراهية الحق وعلى محبة الباطل .قال الجمل : فإن قيل : كيف علم نوح أن أولادهم يكفرون؟ ، أجيب : بأنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، فعرف طباعهم وأحوالهم وكان الرجل منهم ينطلق إليه بابنه ويقول له : احذر هذا - أى نوحا - فإنه كذاب ، وإن أبى حذرني منه ، فيموت الكبير ، وينشأ الصغير على ذلك .وعلى أية حال فالذى نعتقده أن نوحا - عليه السلام - ما دعا عليهم بهذا الدعاء ، وما قال فى شأنهم هذا القول - وهو واحد من أولى العزم من الرسل - إلا بعد أن يئس من إيمانهم ، وإلا بعد أن أخبره ربه : أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ، وإلا بعد أن رأى منهم - بعد ألف سنة إلا خمسين عاما عاشها معها -أنهم قوم قد استحبوا العمى على الهدى ، وأن الأبناء منهم يسيرون على طريقة الآباء فى الكفر والفجور ..

رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين الا تبارا

كما فسرها الوسيط وإلى جانب دعاء نوح - عليه السلام - على الكافرين بالهلاك ، فيقول : الساحق . . نراه يختتم دعاءه بالمغفرة والرحمة للمؤمنين ، ( رَّبِّ اغفر لِي وَلِوَالِدَيَّ ) .أى : يا رب أسألك أن تغفر لى ذنوبى ،

وأن تغفر لوالدى - أيضا - ذنوبهما ، ويفهم من هذا الدعاء أنهما كانا مؤمنين وإلا لما دعا لهما بهذا الدعاء .( وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً ) ، واغفر يا إلهى لكل من دخل بيتى وهو متصف بصفة الإيمان ، فيخرج بذلك من دخله وهو كافر كامرأته وابنه الذى غرق مع المغرقين .( وَلِلْمُؤْمِنِينَ والمؤمنات ) أى : واغفر يا رب ذنوب المؤمنين والمؤمنات بك إلى يوم القيامة أى : ولا تزد الظالمين إلا ( وَلاَ تَزِدِ الظالمين إِلاَّ تَبَاراً ). هلاكا وخسارا ودمارا . يقال تبره يتبره ، إذا أهلكه . ويتعدى بالتضعيف فيقال : تبره الله تتبيرا ، ومنه قوله - تعالى - : ( إِنَّ هؤلاء مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ ) وهكذا اختتمت السورة الكريمة بهذا الدعاء الذى فيه طلب المغفرة للمؤمنين ، والهلاك للكافرين .وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

قل اوحي الي انه استمع نفر من الجن فقالوا انا سمعنا قرانا عجبا

كما فسرها الوسيط قد ذكر المفسرون عند تفسيرهم لهذه الآيات روايات منها ما أخرجه الشيخان والترمذى ، عن ابن عباس أنه قال : " انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طائفة من أصحابه ، عامدين إلى سوق عكاظ بنخلة ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب ، فرجعت الشياطين إلى قومهم ، فقالوا : مالكم؟ قالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء ، وأرسلت علينا الشهب ، قالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء ، وأرسلت علينا الشهب ، قالوا : ما ذاك إلا لشئ حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها ، فانظروا ما هذا الذى حال بيننا وبين خبر السماء؟ فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها ، فمر النفر - من الجن - الذى أخذوا نحو تهامة ، عامدين إلى سوق عكاظ ، فوجدوا الرسول صلى الله عليه وسلم بنخلة يصلى بأصحابه صلاة الصبح ، فلما سمعوا القرآن ، استمعوا إليه وقالوا : هذا الذى حال بيننا وبين خبر السماء " فرجعوا إلى قومهم فقالوا : يا قومنا ، إنا سمعنا قرآنا عجبا ، يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا آحدا ، وأنزل الله - تعالى - على نبيه ( قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ استمع نَفَرٌ مِّنَ الجن ) .وروى أبو داود عن علقمة عن ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أتانى داعى الجن ، فذهبت معهم ، فقرأت عليهم القرآن . . "وهناك رواية ثالثة لابن إسحاق ملخصها : أنه لما مات أبو طالب ، خرج النبى صلى الله عليه وسلم إلى الطائف ، يلتمس النصرة من أهلها ويدعوهم إلى الإيمان . . فأغروا به سفهاءهم يسبونه ويستهزئون به . .فانصرف صلى الله عليه وسلم عنهم ، حتى إذا كان ببطن نخلة - هو موضع بين مكة والطائف - قام يصلى من الليل ، فمر به نفر من جن نصيبين - وهو موضع قرب الشام - فاستمعوا إليه ، فلما فرغ من صلاته ، ولوا - إلى قومهم منذرين ، قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا ، فقص الله - تعالى خبرهم عليه . .وهناك روايات أخرى فى عدد هؤلاء الجن ، وفى الأماكن التى التقوا فيها مع النبى صلى الله عليه وسلم وفيما قرأه الرسول صلى الله عليه وسلم عليهم ، وفيمن كان معه من الصحابة خلال التقائه بهم . .ويبدو لنا من مجموع الروايات ، أن لقاء النبى صلى الله عليه وسلم بالجن قد تعدد ، وأنهم تارة استمعوا إليه صلى الله عليه وسلم دون أن يراهم ، وتارة التقى بهم وقرأ عليهم القرآن .قال الآلوسى : وقد دلت الأحاديث على أن وفادة الجن كانت ست مرات ، ويجمع بذلك بين اختلاف الروايات فى عددهم وفى غير ذلك . وذكر ابن مردويه عن ابن عباس أنه قال : صرفت الجن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين ..قال القرطبى : واختلف أهل العلم فى أصل الجن . فعن الحسن البصرى : أن الجن ولد إبليس ، والإنس ولد آدم ، ومن هؤلاء وهؤلاء مؤمنون وكافرون ، وهم شركاء فى الثواب والعقاب ، فمن كان من هؤلاء وهؤلاء مؤمنا فهو ولى الله ومن كان من هؤلاء وهؤلاء كافرا فهو شيطان .وعن ابن عباس : أن الجن هم ولد الجان وليسوا بشياطين ومنهم المؤمن والكافر ، والشياطين هم ولد إبليس ، لا يموتون إلا مع إبليس . .وقال بعض العلماء : عالم الجن من العوالم الكونية ، كعالم الملائكة وقد أخبر الله - تعالى - أنه خلقه من مارج من نار ، أى : أن عنصر النار فيه هو الغالب ، وأنه يرى الأناسى وهم لا يرونه ، أى : بصورته الجبلية ، وإن كان يرى حين يتشكل بأشكال أخرى ، كما رئى جبريل حين تشكل بشكل آدمى .وأخبر - سبحانه - بأن الجن قادرون على الأعمال الشاقة . وأن الله سخر الشياطين لسليمان يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل . .وأخبر بأن من الجن مؤمنين ، وأن منهم شياطين متمردين ، ومن هؤلاء إبليس اللعين ولم يختلف أهل الملل فى وجودهم ، بل اعترفوا به كالمسلمين ، وإن اختلفوا فى حقيقتهم ، ولا تلازم بين الوجود والعلم بالحقائق ، ولا بينه وبين الرؤية بالحواس ، فكثير من الأشياء الموجودة لا تزال حقائقها مجهولة ، وأسرارها محجوبة ، وكثير منها لا يرى بالحواس . ألا ترى الروح - وهى مما لا شك فى وجودها فى الإنسان والحيوان - لم يدرك كنهها أحد ولم يرها أحد ، وغاية ما علم من أمرها بعض صفاتها وآثارها . .وقد بعث النبى صلى الله عليه وسلم إلى الجن ، كما بعث إلى الإنس ، فدعاهم إلى التوحيد ، وأنذرهم وبلغهم القرآن ، وسيحاسبون على الأعمال يوم الحساب كما يحاسب الناس ، فمؤمنهم كمؤمنهم

- وكافرهم ككافرهم وكل ذلك جاء صريحا فى القرآن والسنة . .وقد افتتح سبحانه - السورة الكريمة بأمر النبى صلى الله عليه وسلم بأن يقول الناس ما حدث من الجن عند سماعهم للقرآن . فقال : ( قُلْ أُوحِيَ إِلَيّ أَنّهُ استمع نَفَرٌ مِّنَ الجن ) .وفى هذا الأمر دلالة على أن المأمور به شئ هام يستدعى من السامعين التيقظ والانتباه ، والامتثال للمأمور به ، وتصديقه ، صلى الله عليه وسلم فيما أخبر به .والنفر : الجماعة من واحد إلى عشرة ، وأصله فى اللغة الجماعة من الإنس فأطلق على الجماعة من الجن وعلى وجه التشبيه .أى : قل - أيها الرسول الكريم - للناس ، إن الله - تعالى - قد أخبرك عن طريق أمين وحيه جبريل : أن جماعة من الجن قد استمعوا إليك وأنت تقرأ القرآن . .فقالوا - على سبيل الفرح والإعجاب لما سمعوا - : ( إِنّا سَمِعْنَا ) من الرسول صلى الله عليه وسلم ( قُرْآناً عَجَباً ) أى : إنا سمعنا قرآنا جليل الشأن ، بديع الأسلوب ، عظيم القدر ..

يهدي الى الرشد فامنا به ولن نشرك بربنا احدا

كما فسرها الوسيط هذا القرآن ( يهدي إِلَى الرشد ) أى : إلى الخير والصواب والهدى ( فَآمَنَّا بِهِ ) إيمانا حقا ، لا يخالطه شك أو ريب ( وَلَن نُّشرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَداً ) أى : فآمنا بما اشتمل عليه هذا الكتاب من دعوة إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - وحده ، ولن نشرك معه فى العبادة أحدا كائنا من كان هذا الحد .والمقصود من أمره صلى الله عليه وسلم بذلك ، دعوة مشركى قريش إلى الإيمان بالحق الذى جاء به صلى الله عليه وسلم كما آمن جماعة من الجن به ، وإعلامهم بأن رسالته صلى الله عليه وسلم تشمل الجن والإنس .وضمير " أنه " للشأن ، وخبر " أن " جملة ( استمع نَفَرٌ مِّنَ الجن ) ، وتأكيد هذا الخبر بأن ، للاهتمام به لغرابته ، ومفعول " استمع " محذوف لدلالة قوله : ( إِنّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً ) عليه .ووصفهم للقرآن بكونه ( قُرْآناً عَجَباً . يهدي إِلَى الرشد ) يدل على تأثرهم به ، تأثرا شديدا ، وعلى إعجابهم العظيم بنظمه المتقن ، وأسلوبه الحكيم ومعانيه البديعة . . ولذا أعلنوا إيمانهم به بدون تردد ، كما يشعر بذلك - التعبير بالفاء فى قوله : ( فَآمَنّا بِهِ . . . ) .والتعبير بقوله تعالى - : ( فقالوا إِنَّا سَمِعْنَا . . ) يحتمل أنهم قالوا ذلك فيما بينهم ، أو لإخوانهم الذين رجعوا إليهم ، كما فى قوله - تعالى - فى سورة الأحقاف : ( قَالُواْ ياقومنآ إِنّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ موسى مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يهدي إِلَى الحق وإلى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ) ويحتمل أنهم قالوا ذلك فى أنفسهم على سبيل الإعجاب كما فى قوله - تعالى - : ( وَيَقُولُونَ في أَنفُسِهِمْ لَوْلاَ ، يُعَذِّبُنَا الله بِمَا نَقُولُ ) بل إننا نرجح أن قولهم هذا قد شمل كل ذلك ، لأن هذا هو الذى يتناسب مع إعجابهم بالقرآن الكريم ، ومع حرصهم على إيمان أكبر عدد منهم به .

وانه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - أن هذا النفر من الجن بعد استماعهم إلى القرآن وإيمانهم به ، أخذوا فى الثناء على الخالق - عز وجل - فقال حكاية عنهم : ( وَأَنّهُ تعالى جَدُّ رَبّنَا مَا اتخذ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَدا ولفظ " وأن " قد تكرر فى هذه السورة الكريمة أكثر من عشرمرات ، تارة. ( بالإضافة إلى ضمير الشأن ، وتارة بالإضافة إلى ضمير المتكلم .ومن القراء السبعة من قرأة بفتح الهمزة ، ومنهم من قرأه بكسرها ، فمن قرأ ( وَأَنّهُ تعالى جَدُّ رَبِّنَا . . . ) بالفتح فعلى أنه معطوف على محل الجار والمجرور فى قوله ( فَآمَنّا بِهِ . . . ) فكأنه قيل : فصدقناه وصدقنا أنه ، تعالى جد ربنا . . ومن قرأ بالكسر فعلى أنه معطوف على المحكى بعد القول أى : قالوا : إنا سمعنا قرآنا عجبا ، وقالوا : إنه تعالى جد ربنا . .قال الجمل فى حاشيته ما ملخصه : قوله - تعالى - : ( وَأَنَّهُ تعالى جَدُّ رَبِّنَا . . . ) قرأه حمزة والكسائى وأبو عامر وحفص بفتح " أنّ " وقرأه الباقون بالكسر ..وتلخيص هذا أن " أنّ " المشددة فى هذه السورة على ثلاثة أقسام : قسم ليس معه واو العطف ، فهذا لا لخلاف بين القراء فى فتحه أو كسره على حسب ما جاءت به التلاوة واقتضته العربية ، كقوله ( قُلْ أُوحِيَ ، إِلَيّ أَنّهُ استمع . . . )لا خلاف فى فتحه لوقوعه موقع المصدر وكقوله : ( إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً ) لا خلاف فى كسره لأنه محكى بالقول .القسم الثانى أن يقترن بالواو ، وهو أربع عشرة كلمة ، إحداها :لا خلاف فى فتحها ، وهى قوله : ( وَأَنَّ المساجد لِلّهِ . . . ) وهذا هو القسم الثالث . والثانية وهى قوله : ( وَأَنَّهُ لَمّا قَامَ عَبْدُ الله ، كسرها ابن عامر وأبو بكر وفتحها الباقون .والاثنتا عشرة الباقية ( . . . فتحها بعضهم ، وكسرها بعضهم وهى قوله : - تعالى - : ( وَأَنَّهُ تعالى جَدُّ رَبِّنَا . . . ) وقوله : ( وَأَنّهُ كَانَ يَقُولُ . . . . )

) وَأَنّا ظَنَنّآ . . . ) ( وَأَنّهُ كَانَ رِجَالٌ . . . )
وَأَنّهُمْ ظَنُّواْ . . . ) ( وَأَنّا لَمَسْنَا . . . ) ( وَأَنّا
كُنّا . . . ) ( وَأَنّا لاَ ندري . . . ) ( وَأَنّا مِنّا الصالحون
وَأَنّا مِنّا ) ( . . . وَأَنّا لَمَّا سَمِعْنَا الهدى ) ( . . .
المسلمون ) .وقوله : ( تعالى ) من التعالى وهو شدة العلو . و ( جَدُّ
رَبِّنَا ) الجد - بفتح الجيم - العظمة والجلال .قال القرطبى : الجد فى
اللغة : العظمة والجلال ، ومنه قول أنس : كان الرجل إذا حفظ البقرة وآل
عمران جد فى عيوننا . أى : عظم . فمعنى جد ربنا : عظمته وجلاله .وقيل معنى
جد ربنا . . " غناه ، ومنه قيل للحظ جد ، ورجل مجدود ، أى : محظوظ . وفى "
، الحديث : " ولا ينفع ذا الجد منك الجد " أى : ولا ينفع ذا الغنى منك غناه
وإنما تنفعه الطاعة . .وجملة ( مَا اتخذ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَدا ) بيان
وتفسير لما قبله .أى : آمنا به - سبحانه - إيمانا حقا ، وصدقنا نبيه فيما
جاءنا به من عنده ، وصدقنا - أيضا - أن الحال والشأن تعالى وتعاظم جلال
ربنا ، وتنزه فى ذاته وصفاته ، عن أن يكون له شريك فى ملكه . أو أن تكون له
صاحبة أو أن يكون له ولد ، كما زعم الزاعمون من الكافرين الجاهلين .وفى هذا
القول من هذا النفر من الجن ، رد على أولئك المشركين الذين كانوا يزعمون أن
الملائكة بنات الله - تعالى - ، وأنهم - أى الملائكة - جاءوا عن طريق
) : مصاهرته - سبحانه - للجن ، كما حكى عنهم - سبحانه - ذلك فى قوله
وَجَعَلُواْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجنة نَسَباً وَلَقَدْ عَلِمَتِ الجنة
إِنّهُمْ لَمُحْضَرُونَ . سُبْحَانَ الله عَمّا يَصِفُونَ ).

وانه كان يقول سفيهنا على الله شططا

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - أقوالا أخرى لهؤلاء المؤمنين من الجن
فقال : ( وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى الله شَطَطاً . . . )
والمراد بالسفينة هنا : إبليس - لعنة الله - وقيل المراد به الجنس فيشمل كل
كافر ومتمرد من الجن ، والشطط ، مجاوزة الحد والعدل فى كل شئ ، أى : أننا
ننزه الله - تعالى - عما كان يقوله سفهاؤنا - وعلى رأسهم إبليس - من أن
الله - عز وجل - صاحبة أو ولدا ، فإن هذا القول بعيد كل البعد عن الحق
والعدل والصواب .

وانا ظننا ان لن تقول الانس والجن على الله كذبا

كما فسرها الوسيط وقوله : ( وَأَنّا ظَنَنّآ أَن لّن تَقُولَ الإنس
والجن عَلَى الله كَذِباً ) اعتذار منهم من كفرهم السابق ، فكأنهم يقولون
بعد أن استمعوا إلى القرآن ، وآمنوا بالله - تعالى - وحده : إننا ننزه
الله - تعالى - عما قاله السفهاء فى شأنه . . وإذا كنا قد اتبعناهم قبل
إيماننا ، فسبب ذلك أننا صدقنا هؤلاء السفهاء فيما قالوه لنا ، وما كنا
نعتقد أو نتصور أو نظن أن هؤلاء السفهاء يصل بهم الفجور والكذب . . إلى هذا
الحد الشنيع .وقوله : ( كذبا ) مفعول به لتقول ، أو صفة لمصدر محذوف ، أى :
قولا مكذوبا .

وانه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا

كما فسرها الوسيط ثم - حكى - سبحانه - عنهم تكذيبهم لما كان متعارفا عليه
فى الجاهلية من أن الجن سلطانا على الناس ، وأن لهم قدرة على النفع والضر .
فقال - تعالى - : ( وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإنس يَعُوذُونَ
بِرِجَالٍ مِّنَ الجن فَزَادُوهُمْ رَهَقاً . . ) .وقوله : ( يَعُوذُونَ )
: من العَوْذ بمعنى الاستجارة بالشئ والالتجاء إليه طلبا للنجاة .والرهق
، الإثم وغشيان المحارم .قال صاحب الكشاف : والرهق : غشيان المحارم
. والمعنى : أن الإنس باستعاذتهم بهم - أى بالجن - زادوهم كفرا وتكبرا
وذلك أن الرجل من العرب كان إذا أمسى فى واد قفر فى بعض مسايره ، وخاف على
نفسه قال : أعوذ بسيد هذا الوادى من سفهاء قومه ، يريد الجن وكبيرهم ، فإذا
سمعوا ذلك استكبروا وقالوا : سدنا الجن والإنس ، فذلك رهقهم ، أو : فزاد
الجنّ والإنسَ رهقا بإغوائهم وإضلالهم لاستعاذتهم بهم . .فالمقصود به من
الآية الكريمة بيان فساد ما كان شائعا فى الجاهلية - بل وفى بعض البيئات
حتى الآن - من أن الجن لهم القدرة على النفع والضر وأن بعض الناس كانوا
يلجأون إليهم طلبا لمنفعتهم وعونهم على قضاء مصالحهم .وإطلاق اسم الرجال
على الجن ، من باب التشبيه والمشاكلة لوقوعه من رجال من الإنس ، فإن الرجل
اسم للمذكر البالغ من بنى آدم .

وانهم ظنوا كما ظننتم ان لن يبعث الله احدا

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَأَنّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا

ظَنَنتُمْ أَن لّن يَبْعَثَ الله أَحَداً ) بيان لما استنكره هؤلاء النفر المؤمنون من الجن على قومهم الكافرين . وعلى من يشبهونهم فى الكفر من الإنس .أى : وأنهم - أى الإنس - ظنوا واعتقدوا ( كَمَا ظَنَنتُمْ ) واعتقدتم أيها الجن ، أن الله - تعالى - لن يبعث أحدا بعد الموت ، وهذا الظن منهم ومنكم ظن خاطئ فاسد ، فإن البعث حق ، وإن الحساب حق ، وإن الجزاء حق .وفى هذا القول من مؤمنى الجن ، تعريض بمشركى قريش ، الذين أنكروا البعث وقالوا : ( مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدنيا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلاَّ الدهر . . ) ثم حكى - سبحانه - عنهم ما قالوه عند اقترابهم من السماء ، طلبا لمعرفة أخبارها .

وانا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا

كما فسرها الوسيط قبل أن يؤمنوا فقال : ( وَأَنّا لَمَسْنَا السمآء فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً . وَأَنّا كُنّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآن يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رّصَداً ) .وقوله : ( لَمَسْنَا ) من اللمس ، وحقيقته الجس واليد واستعير هنا ، لطلب أخبار السماء ، لأن الماس للشئ فى العادة ، إنما يفعل ، ذلك طلبا لاختباره ومعرفته .والحرس : اسم جمع للحراس ، كخدم وكخدام والشهب : جمع شهاب ، وهو القطعة التى تنفصل عن بعض النجوم ، فتسقط فى الجو أو على الأرض أو فى البحر .أى : وأنا طلبنا أخباء السماء كما هى عادتنا قبل أن نؤمن ( فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً ) أى : فوجدناها قد امتلأت بالحراس الأشداء من الملائكة الذين يحرسونها من استراق السمع . . كما أنا قد وجدناها قد امتلأت بالشهب التى تنقض على مسترقى السمع فتحرقهم .

وانا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الان يجد له شهابا رصدا

كما فسرها الوسيط ( وَأَنّا كُنّا نَقْعُدُ مِنْهَا ) أى من السماء ) مَقَاعِدَ لِلسّمْعِ ) أى : كنا نقعد منها مقاعد كائنة للسمع ، خالية من الحرس والشهب .( فَمَن يَسْتَمِعِ الآن ) بعد نزول القرآن ، الذى هو معجزة للنبى صلى الله عليه وسلم والذى آمنا به وصدقناه .( يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رّصَداً ) أى : فمن يجلس الآن ليسترق السمع من السماء يجد له شهابا معدا ومهيأ للانقضاض عليه فيهلكه .فالرصد : جمع راصد ، وهو الحافظ للشئ ، وهو وصف لقوله " شهابا " .والفاء فى قوله : ( فَمَن يَسْتَمِعِ الآن ) للتفريع على محذوف ، وكلمة " الآن " فى مقابل كلمة " كنا " الدالة على المحذوف ، والتقدير : كنا نقعد منها مقاعد للسمع ، فنستمع أشياء ، وقد انقضى ذلك. وصرنا من يستمع الآن منا يجد له شهابا رصدا ، ينقض عليه فيحرقه .والمقصود من هاتين الآيتين : تأكيد إيمانهم بالله - تعالى - ، وبرسوله صلى الله عليه وسلم ، وحض غيرهم على اتباعهم ، وتحذيرهم من التعرض لاستراق السمع .قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهاتين الآيتين : " يخبر الله - تعالى - عن الجن حين بعث الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم وأنزل عليه القرآن ، وكان من حفظه له أن السماء ملئت حرسا شديدا وشهبا ، وحفظت من سائر أرجائها وطردت الشياطين عن مقاعدها التى كانت تقعد فيها قبل ذلك ، لئلا يسترقوا ، شيئا من القرآن ، فيلقوه على ألسنة الكهنة ، فيلتبس الأمر ويختلط ولا يدرى من الصادق ، وهذا من لطف الله بخلقه ، ورحمته بعباده ، وحفظه لكتابه العزيز ولهذا قالت الجن : ( وَأَنّا لَمَسْنَا السمآء فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ ، حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً . وَأَنّا كُنّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآن يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رّصَداً ) أى : من يروم أن يسترق السمع اليوم يجد له شهاباً مرصداً ، لا يتخطاه ولا يتعداه ، بل يمحقه ويهلكه " .وقال بعض العلماء : والصحيح أن الرجم كان موجودا قبل المبعث . فلما بعث صلى الله عليه وسلم كثر وازداد ، كما ملئت السماء بالحرس ، والشهب .وليس فى الآية دلالة على أن كل ما يحدث من الشهب إنما هو للرجم بل إنهم إذا حاولوا استراق السمع رجموا بالشهب ، وإلا فالشهب الآن وفيما مضى قد تكون ظواهر طبيعية ولأسباب كونية . .

وانا لا ندري اشر اريد بمن في الارض ام اراد بهم ربهم رشدا

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - ما قالوه على سبيل الإقرار بأنهم لا يعلمون شيئا من الغيوب فقال : ( وَأَنّا لاَ ندري أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأرض أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً ) .أى : وقال هؤلاء الجن المؤمنون على سبيل الاعتراف بأن مرد علم الغيوب إلى الله - تعالى - وحده : قالوا وإنا لا ندرى ولا نعلم الآن ، بعد هذه الحراسة المشددة للسماء ، أأريد بأهل الأرض ما يضرّ بهم ، أم أراد الله - تعالى - بها ما ينفعهم؟قال الآلوسى : ولا يخفى ما فى قولهم هذا من الأدب ، حيث لم يصرحوا بنسبة الشر

- إلى الله - تعالى - ، كما صرحوا به فى الخير ، وإن كان فاعل الكل هو الله
. . تعالى - ولقد جمعوا بين الأدب وحسن الاعتقاد

وانا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا

: كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - ما قالوه فى وصف حالهم وواقعهم فقال
. أى : منا الموصوفون بالصلاح والتقوى ( . . . وَأَنّا مِنّا الصالحون )
وهم الذين آمنوا بالله - تعالى - إيمانا حقا ، ولم يشركوا معه فى العبادة .
أحدا . .( وَمِنّا دُونَ ذَلِكَ ) أى : ومنا قوم دون ذلك فى الصلاح
والتقوى . . وهم الذين فسقوا عن أمر ربهم ، ولم يستقيموا على صراطه ودينه
وقوله : ( كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَداً ) تشبيه بليغ . والطرائق : جمع طريقة.
وهى الحالة والمذهب .وقددا : جمع قِدّة ، وهى الفرقة والجماعة من الناس ،
الذين تفرقت مشاربهم وأهواؤهم .والجملة الكريمة بيان وتفسير لما قبلها ،
أى : وأنا من واقع أمرنا منا الصالحون الأخيار . . ومنا من درجته ورتبته.
أقل من ذلك بكثير أو بقليل . . فنحن فى حياتنا كنا قبل سماعنا للقرآن
كالمذاهب المختلفة فى حسنها وقبحها ، وكالطرق المتعددة فى استقامتها
واعوجاجها . . أما الآن فقد وفقنا الله - تعالى - إلى الإيمان به ، وإلى
) : إخلاص العبادة له . .ومن وجوه البلاغة فى الآية الكريمة ، أنهم قالوا
وَمِنّا دُونَ ذَلِكَ ) ، ليشمل التعبير من هم دون الكمال فى الصلاح ، ومن
هم قد انحدروا فى الشرور والآثام إلى درجة كبيرة ، وهم الأشرار .والمقصود
به الآية الكريمة ، مدح الصالحين ، وذم الصالحين ، ودعوتهم إلى الاقتداء
. بأهل الصلاح والتقوى والإيمان

وانا ظننا ان لن نعجز الله في الارض ولن نعجزه هربا

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - ما قالوه بشأن عجزهم المطلق أمام قدرة
خالقهم فقال : ( وَأَنّا ظَنَنّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ الله فِي الأرض
) : وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَباً ) .والظن هنا بمعنى العلم واليقين . وقوله
. نُّعْجِزَهُ ) من الإعجاز ، وهو جعل الغير عاجزا عن الحصول على ما يريد
وقوله ( فِي الأرض ) و ( هَرَباً ) فى موضع الحال .أى : وأننا قد علمنا
- وتيقنا بعد إيماننا وبعد سماعنا للقرآن . . أننا فى قبضة الله - تعالى
وتحت قدرته ، ولن نستطيع الهرب من قضائه سواء أكنا فى الأرض أم فى غيرها
- فقوله : ( فِي الأرض ) إشارة إلى عدم قدرتهم على النجاة من قضائه.
تعالى - مهما حاولوا اللجوء إلى أية بقعة من بقاعها ، ففى أى بقعة منها
يكونون ، يدركهم قضاؤه وقدره .وقوله : ( وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَباً ) إشارة
- إلى أن هربهم إلى السماء لا إلى الأرض ، لن ينجيهم مما يريده - سبحانه
- بهم .فالمقصود بالآية الكريمة : إظهار عجزهم المطلق أمام قدرة الله
تعالى - وعدم تمكنهم من الهرب من قضائه ، سواء ألجأوا إلى الأرض ، أم إلى
السماء .وشبيه بهذه الآية الكريمة قوله - تعالى - : ( وَمَآ أَنتُمْ
بِمُعْجِزِينَ فِي الأرض وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ الله مِن وَلِيٍّ وَلاَ
نَصِيرٍ ).

وانا لما سمعنا الهدى امنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - حالهم عندما سمعوا ما يهديهم إلى الرشد
فقال - تعالى - : ( وَأَنّا لَمّا سَمِعْنَا الهدى آمَنَّا بِهِ . .
: فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلاَ يَخَافُ بَخْساً وَلاَ رَهَقاً . . ) .أى
) وأننا لما سمعنا الهدى ، أى : القرآن من النبى صلى الله عليه وسلم
آمَنّا بِهِ ) بدون تردد أو شك ( فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ ) وبما أنزله
على نبيه صلى الله عليه وسلم ( فَلاَ يَخَافُ بَخْساً ) أى : نقصا فى ثوابه
، أى : ولا يخاف - أيضا - ظلما يحلقه بزيادة فى سيئاته ( وَلاَ رَهَقاً )
أو إهانة تذله وتجعله كسير القلب ، منقبض النفس .فالمراد بالبخس : الغبن فى
الأجر والثواب . والمراد بالرهق : الإهانة والمذلة والمكروه .والمقصود
. - بالآية الكريمة إظهار ثقتهم المطلقة فى عدالة الله - تعالى

وانا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن اسلم فاولئك تحروا رشدا

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَأَنّا مِنّا المسلمون وَمِنّا
القاسطون فَمَنْ أَسْلَمَ فأولئك تَحَرّوْاْ رَشَداً . وَأَمّا القاسطون
فَكَانُواْ لِجَهَنّمَ حَطَباً ) تأكيد وتفصيل لما قبله .والقاسطون : هم
الجائرون الظالمون ، جمع قاسط ، وهو الذى ترك الحق واتبع الباطل ، اسم فاعل
من قسط الثلاثى بمعنى جار ، بخلاف المقسط فهو الذى ترك الباطل واتبع الحق
مأخوذ من أقسط الرباعى بمعنى عدل .أى : وأنا - معاشر الجن - ( مِنّا
المسلمون ) الذين أسلموا وجوههم لله وأخلصوا له العبادة .( وَمِنّا

القاسطون ) أى : الجائرون المائلون عن الحق إلى الباطل .( فَمَنْ أَسْلَمَ
منا ( فأولئك ) المسلمون ( تَحَرّوْا ) أى : توخوا وقصدوا الرشد والحق (
.

واما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا

) كما فسرها الوسيط ( وَأَمّا القاسطون ) وهم الذين آثروا الغى على الرشد
فَكَانُواْ لِجَهَنّمَ حَطَباً ) أى : وقودا لجهنم ، كما توقد النار بما
يلقى فيها من حطب وما يشبهه .وإلى هنا نرى الآيات الكريمة قد حكت أقوالا
، متعددة ، لهؤلاء النفر من الجن ، الذين استمعوا إلى القرآن ، فآمنوا به
. وقالوا لن نشرك بربنا أحدا

وان لو استقاموا على الطريقة لاسقيناهم ماء غدقا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - سنة من سننه التى لا تتخلف ، وهى أن
- الاستقامة على طريقة توصل إلى السعادة ، وأن الإعراض عن طاعته - تعالى
يؤدى إلى الشقاء ، وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يعلن للناس حقائق
، دعوته ، وخصائص رسالته ، وإقراره أمامهم بأنه لا يملك لهم ضرا ولا نفعا
): - وأن علم الغيب مرده إلى الله - تعالى - وحده ، فقال - سبحانه
وَأَلّوِ استقاموا عَلَى . . . ) .قوله سبحانه : ( وَأَلّوِ استقاموا
- عَلَى الطريقة لأَسْقَيْنَاهُم مّآءً غَدَقاً . . ) معطوف على قوله
تعالى - : ( قُلْ أُوحِيَ إِلَيّ أَنّهُ استمع نَفَرٌ مّنَ الجن . . )
فهو من جملة الموحى به ، وهو من كلام الله - تعالى - لبيان سنة من سننه فى
خلقه ، واسم " أن " المخففة ضمير الشأن الخبر قوله ، ( وَأَلّوِ استقاموا
والضمير يعود على القاسطين سواء أكانوا من الإنس أم من الجن .والماء ( . .
الغدق : هو الماء الكثير ، يقال : غَدِقَتْ فلان غَدَقاً - كفرح - إذا كثر
دمعها فهى غدقة ، ومنه الغيداق للماء الواسع الكثير ، والمراد : لأعطيناهم
نعما كثيرة .أى : ولو أن هؤلاء العادلين عن طريق الحق إلى طريق الباطل
استقاموا على الطريقة المثلى ، التى هى طريق الإسلام ، والتزموا بما جاءهم
به النبى صلى الله عليه وسلم من عند ربه . .لو أنهم فعلوا ذلك ، لفتحنا
عليهم أبواب الرزق ، ولأعطيناهم من بركاتنا وخيراتنا الكثير . . وخص الماء
الغدق بالذكر ، لأنه أصل المعاش والسعة .ومن الآيات التى وردت فى هذا
. المعنى قوله - تعالى - : ( وَمَن يَتّقِ الله يَجْعَل لّهُ مَخْرَجاً
وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ ) وقوله - سبحانه - ( وَلَوْ
أَنّ أَهْلَ القرى آمَنُواْ واتقوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ
مّنَ السمآء والأرض . . . ) وقوله - تعالى - ( وَلَوْ أَنّهُمْ
أَقَامُواْ التوراة والإنجيل وَمَآ أُنزِلَ إِلَيهِمْ مّن رّبّهِمْ
لأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ).

لنفتنهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - الحكمة فى هذا العطاء لعباده فقال
لِّنَفْتِنَهُمْ ) وأصل الفتن الامتحان والاختبار . تقول : فتنت الذهب
بالنار ، أى : اختبرته لتعرف مقدار جودته .والمعنى : نعطيهم ما نعطيهم من
، خيراتنا ، لنختبرهم ونمتحنهم ، ليظهر للخلائق موقفهم من هذه النعم
. أيشكروننا عليها فنزيدهم منها ، أم يجحدون ويبطرون فنمحقها من بين أيديهم
) : ؟والجملة الكريمة معترضة بين ما قبلها ، وبين قوله - تعالى - بعد ذلك .
: وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً ) .وقوله
) : - من السلك بمعنى إدخال الشئ فى الشئ ومنه قوله - تعالى ( يَسْلُكْهُ )
: كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ المجرمين ) والصّعَد : الشاق . يقال
- فلان فى صَعَد من أمره ، أى : فى مشقة وتعب ، وهو مصدر صَعِد - كفرح
- صعداً وصعودا .أى : ومن يعرض عن طاعة ربه ومراقبته وخشيته . . يدخله
سبحانه - فى عذاب شاق أليم ، لا مفر منه ، ولا مهرب له عنه .ومن الحقائق
والحكم التى نأخذها من هاتين الآيتين ، أن الاستقامة على أمر الله ، تؤدى
إلى السعادة التى ليس بعده سعادة ، وأن رخاء العيش وشظافته هما لون من
ألوان الابتلاء والاختبار ، كما قال - تعالى - : ( وَنَبْلُوكُم بالشر
والخير ) وأن الإعراض عن ذكر الله . . عاقبته الخسران المبين ، والعذاب
الأليم .قال القرطبى ما ملخصه : قوله : ( لّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ) أى
: لنختبرهم كيف شكرهم فيه على تلك النعم .وقال عمر بن الخطاب فى هذه الآية
) أنيما كان الماء كان المال ، وأينما كان المال كانت الفتنة فمعنى
لأَسْقَيْنَاهُم ) لوسعنا عليهم فى الدنيا ، وضرب الماء الغدق الكثير لذلك
، مثلا ، لأن الخير والرزق كله ، بالمطر يكون ، فأقيم مقامه .وفى صحيح مسلم
عن أبى سعيد الخدرى ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أخوف ما
: أخاف عليكم ، ما يخرج لكم من زهرة الدنيا ، قالوا : وما زهرة الدنيا؟ قال

بركات الأرض . . " .وقال صلى الله عليه وسلم : " والله ما الفقر أخشى عليكم ، وإنما أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من قبلكم ، فتنافسوها ، كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم " .

وان المساجد لله فلا تدعوا مع الله احدا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن المساجد التى تقام فيها الصلاة والعبادات ، يجب أن تنسب إلى الله - تعالى - وحده ، فقالك ( وَأَنَّ المساجد لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُواْ مَعَ الله أَحَداً ) .والجملة الكريمة معطوفة على قوله - تعالى - قبل ذلك : ( أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ استمع نَفَرٌ مِّنَ الجن ) والمساجد : جمع مسجد ، وهو المكان المعد لإقامة الصلاة - والعبادة فيه . واللام فى قوله ( لله ) للاستحقاق .أى : وأوحى إلىّ - أيضا - أن المساجد التى هى أماكن الصلاة والعبادة لا تكون إلا الله تعالى - وحده ، ولا يجوز أن تنسب إلى صنم من الأصنام ، أو طاغوت من الطواغيت .قال الإمام ابن كثير : قال قتادة : كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم ، أشركو بالله ، فأمر الله نبيه والمؤمنين ، أن يوحدوه وحده .وقال سعيد بن جبير : نزلت فى أعضاء السجود : أى : هى لله فلا تسجدوا بها لغيره . . وفى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أمرت أن أسجد على سبعه أعظم : على الجبهة - وأشار بيده إلى أنفه - واليدين والركبتين ، وأطراف القدمين .ويبدو لنا أن المراد بالمساجد هنا الأماكن ، المعدة للصلاة والعبادة ، لأن هذا هو المتبادر من معنى الآية ، وأن المقصود بها توبيخ المشركين الذين وضعوا الأنصاب والأصنام ، فى المسجد الحرام ، وأشركوها فى العبادة مع الله - تعالى - .وأضاف - سبحانه - المساجد إليه على سبيل التشريف والتكريم وقد تضاف إلى غيره - تعالى - على سبيل التعريف فحسب ، وفى الحديث الشريف : " الصلاة فى مسجدى هذا خير من ألف صلاة فى غيره إلا المسجد الحرام ، " .

وانه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - حال الصالحين من الجن ، عندما استمعوا - إلى النبى صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ القرآن ، ويتقرب إلى الله - تعالى - بالعبادة فقال : ( وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ الله يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً )أي : وأوحى الله - تعالى - فيما أوحى من شأن الجن ، ( وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ الله ) وهو محمد صلى الله عليه وسلم ( يَدْعُوه ) أى : يدعو الله - تعالى - ويعبده فى الصلاة ، ( كَادُواْ أى : الجن ( كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً ) أى : كادوا من شدة ( التزاحم عليه ، والتكتل حوله .. يكونون كاللبد ، أى : كالشئ الذى تلبد بعضه فوق بعض . ولفظ " لِبَدا " جمع لِبْدَة ، وهى الجماعة المتزاحمة ، ومنه لبدة الأسد للشعر المتراكم فى رقبته .ووضع - سبحانه - الاسم الظاهر موضع المضمر ، إذ مقتضى الظاهر أن يقال : وأنه لما قمت تدعو الله . . أو لما قمتُ أدعو الله . . تكريما للنبى صلى الله عليه وسلم حيث وصفه بأنه " عبد الله " لما فى هذه الإضافة من التشريف والتكريم .والجن : إنما ازدحموا حول الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يصلى ويقرأ القرآن . . تعجبا مما شاهدوه من ، صلاته ، ومن حسن قراءته ، ومن كمال اقتداء أصحابه ، قياما ، وركوعا وسجودا . . ومنهم من يرى أن الضمير فى " كادوا " يعود لكفار قريش ، فيكون المعنى : وأنه لما قام محمد صلى الله عليه وسلم يدعو ربه . . كادوا من تزاحمهم عليه ، يكونون كاللبد ، لا لكى ينتفعوا بما يسمعون ، ولكن لكى يطفئوا نور الله بأفواههم ، والحال أن الله - تعالى - قد رد كيدهم فى نحورهم ، وأبى إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون .قال صاحب الكشاف : " عبد الله " هو النبى صلى الله عليه وسلم ، فإن قلت : هلا قيل : رسول الله أو النبى؟ قلت : لأن تقديره وأوحى إلى أنه لما قام عبد الله ، فلما كان واقعا فى كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نفسه ، جئ به على ما يقتضيه التواضع والتذلل ، أو لأن المعنى أن عبادة عبد الله ، لله - تعالى - ليست بأمر مستبعد عن العقل ولا مستنكر ، حتى يكونوا عليه لبدا .ومعنى " قام ، يدعوه " : قام يعبده . يريد : قيامه لصلاة الفجر بنخلة حين أتاه الجن فاستمعوا لقراءته ، وتزاحموا عليه .وقيل معناه : لما قام رسول يعبد الله وحده ، مخالفا المشركين فى عبادتهم كاد المشركون لتظاهرهم عليه وتعاونهم على عداوته ، يزدحمون عليه متراكمين . .ويبدو لنا أن عودة الضمير فى " كادوا " على مؤمنى الجن أرجح ، لأن هذا هو الموافق لإعجابهم بالقرآن الذى سمعوه من النبى صلى الله عليه وسلم لأن هذا هو الظاهر من سياق الآيات ، حيث ن الحديث عنهم ، ولأن الآثار قد وردت فى أن الجن قد التفوا حول النبى صلى الله عليه وسلم حين سمعوا يقرأ القرآن .ومن هذه الآثار قول الزبير بن العوام : هم الجن حين استمعوا القرآن من النبى صلى الله عليه وسلم كادوا . . يركب بعضهم بعضا ازدحاما عليه

قل انما ادعو ربي ولا اشرك به احدا

كما فسرها الوسيط ثم أمر الله - تعالى - نبيه صلى الله عليه وسلم أن يعلن لجميع من أرسل إليهم ، أنه لا يعبد أحدا سواه - عز وجل - فقال : ( قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُو رَبِّي وَلاَ أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً ) .أى : قل - أيها الرسول الكريم - لجميع من أرسلناك إليهم من الجن والإنس : إنى أعبد ربى وحده ، وأتوجه إليه وحده بالدعاء والطلب ، ولا أشرك معه أحدا فى عبادتى أو صلاتى أو نسكى . .

قل اني لا املك لكم ضرا ولا رشدا

كما فسرها الوسيط وقل لهم ، كذلك : ( قُلْ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً ) أى :لا أملك ما يضركم ( وَلاَ رَشَداً ) أى : ولا أملك ما ينفعكم . وإنما الذى يملك ذلك هو الله - تعالى - وحده ،

قل اني لن يجيرني من الله احد ولن اجد من دونه ملتحدا

كما فسرها الوسيط وقل لهم للمرة الثالثة : ( إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللهِ أَحَدٌ ) أى : إننى لن يمنعنى أحد من الله - تعالى - إن أرادنى بسوء ). وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً ) أى : ولن أجد من دونه ملجأ أركن إليه . يقال : التحد فلان إلى كذا ، أى : مال إليه .فالآية الكريمة بيان لعجزه صلى الله عليه وسلم عن شئون نفسه أمام قدرة خالقه - عز وجل - بعد بيان عجزه عن شئون غيره .

الا بلاغا من الله ورسالاته ومن يعص الله ورسوله فان له نار جهنم خالدين فيها ابدا

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( إِلاَّ بَلاَغاً مِّنَ اللهِ وَرِسَالاَتِهِ . . . ) استثناء من مفعول ( لاَ أَمْلِكُ ) ، وهما قوله قبل ذلك : ( لَكُمْ ضَرّاً وَلاَ رَشَداً ) وما يليهما اعتراض مؤكد لنفى الاستطاعة . أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - إنى لا أملك ما يضركم ولا أملك ما ينفعكم ، وإنما الذى أملكه هو تبليغ رسالات ربى إليكم ، بأمانة ، واجتهاد .والبلاغ : مصدر بلّغ ، وهو إيصال الكلام أو الحديث إلى الغير ويطلق على الكلام المبلغ من إطلاق المصدر على المفعول ، مثل : " هذا خلق الله " ، و " من " ابتدائية صفة لقوله : " بلاغا " أى : بلاغا كائنا من جهة الله - تعالى - وأمره . والرسالات : جمع رسالة ، وهى ما يرسل إلى الغير من كلام أو كتاب . والمراد بها هنا : تبليغ ما أوحاه الله - تعالى - إلى نبيه للناس .قال الآلوسى ما ملخصه وقوله : ( إِلاَّ بَلاَغاً مِّنَ اللهِ . . . ) استثناء من مفعول لا أملك . . وما بينهما اعتراض . . فإن كان المعنى :لا أملك أن أضركم ولا أن أنفعكم ، كان استثناء متصلا ، كأنه قيل :لا أملك ، شيئا إلا بلاغا ، وإن كان المعنى :لا أملك أن أقسركم على الغى والرشد كان منقطعا ، أو من باب :لا عيب فيهم غير أن سيوفنا . . أى : أنه من أسلوب ) تأكيد الشئ بما يشبه ضده ، وقوله ( وَرِسَالاَتِهِ ) عطف على قوله بَلاَغاً ) وقوله : ( مِّنَ اللهِ ) متعلق بمحذوف وقع صفه له . أى : بلاغا كائنا من الله . .ثم بين - سبحانه - بعد ذلك سوء عاقبة من يخالف أمره فقال ). فيما أمرا به ، أو نهيا عنه ( وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ ) : فَإِنَّ لَهُ ) أى : لهذا العاصى ( نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَداً ) أى : فحكمه أن له نار جهنم ، وجمع - سبحانه - خالدين باعتبار معنى " من " ، كما أن الإفراد فى قوله ( فَإِنَّ لَهُ ) باعتبار لفظها وقوله : " أبدا " مؤكد لمعنى الخلود . أى : خالدين فيها خلودا أبديا لا نهاية له .

حتى اذا راوا ما يوعدون فسيعلمون من اضعف ناصرا واقل عددا

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( حتى إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً ) تهديد ووعيد للكافرين بسبب استهزائهم بالمؤمنين ، فقد حكى القرآن عن الكفار أنهم قالوا وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً ) ( نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ) : وَأَوْلاَداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ) وقالوا : ( متى هذا الوعد إن كُنتُمْ صَادِقِينَ ) و ( حتى ) هنا حرف ابتداء ، وهى متعلقة بمحذوف دل عليه الكلام ، وهو سخرية الكافرين من المؤمنين و ( إذا ) اسم زمان للمستقبل مضمن معنى الشرط ، وهى فى محل نصب بجوابه الذى هو قوله ( فَسَيَعْلَمُونَ ) والمعنى : أن هؤلاء الكفار لا يزالون على ما هم عليه من غرور وعناد وجحود.

حتى إذا رأوا ما يوعدون من العذاب فى الدنيا والآخرة ( فَسَيَعْلَمُونَ . .
حينئذ من هو أضعف جندا وأقل عددا ، أهم المؤمنون - كما يزعم هؤلاء ( الكافرون -؟ أم أن الأمر سيكون على العكس؟ لا شك أن الأمر سيكون على العكس وهو أن الكافرين فى هذا اليوم سيكونون فى غاية الضعف والذلة والهوان .وجئ ، بالجملة التى أضيف إليها لفظ " إذا " فعلا ماضيا ، للتنبيه على تحقق الوقوع والآية الكريمة تشير إلى خيبة هؤلاء الكافرين ، وتلاشى آمالهم . . فإنهم . ، فى هذا اليوم سيفقدون الناصر لهم ، كما أنهم سيفقدونه من جهة أنفسهم . لأنهم مهما كثر عددهم ، فهم مغلوبون

قل ان ادري اقريب ما توعدون ام يجعل له ربي امدا

كما فسرها الوسيط ثم أمر الله - تعالى - رسوله للمرة الرابعة ، أن يعلن ، للناس أن هذا اليوم الذى يأتى فيه نصر الله للمؤمنين لا يعلمه إلا هو فقال - تعالى - : ( قُلْ إِنْ أدري أَقَرِيبٌ مّا تُوعَدُونَ أَمْ
- يَجْعَلُ لَهُ ربي أَمَداً . . . ) .أى : وقل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الكافرين إن نصر الله لنا آت لا ريب فيه ، وعذاب الله لكم آت أيضا -لا ريب فيه ، ولكنى لا أدرى ولا أعلم أيتحقق ذلك فى الوقت العاجل القريب ، أم يجعل الله - تعالى - لذلك " أمدا " أى : غاية ومدة معينة من : الزمان ، لا يعلم وقتها إلا هو - سبحانه - .والمقصود من الآية الكريمة بيان أن العذاب نازل بهم قطعا ولكن موعده قد يكون بعد وقت قريب ، وقد يكون . بعد وقت بعيد ، لأن تحديد هذا الوقت مرده إلى الله - تعالى - وحده

عالم الغيب فلا يظهر على غيبه احدا

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - بعد ذلك : ( عَالِمُ الغيب فَلاَ
يُظْهِرُ على غَيْبِهِ أَحَداً ) تعليل لما قبله . أى : أنا لا أدرى متى يكون عذابكم - أيها الكافرون - لأن مرد علم ذلك إلى الله - تعالى - الذى هو عليم بكل شئ من الظواهر والبواطن ، والذى اقتضت حكمته أن لا يطلع أحدا على . غيوبه ، وعلى ما استتر وخفى من أمور خلقه

الا من ارتضى من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا

كما فسرها الوسيط وقوله : ( إِلاَّ مَنِ ارتضى مِن رّسُولٍ فَإِنّهُ
يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً ) استثناء من النفى - فى قوله : ( فَلاَ يُظهِرُ على غَيْبِهِ أَحَداً ) .أى : هو - سبحانه عالم الغيب ، فلا يطلع على غيبه أحدا من خلقه ، إلا الرسول الذى ارتضاه واختاره من خلقه ، فإنه - سبحانه - قد يطلعه على بعض غيوبه ، ليكون ذلك معجزة له ، دالة على صدقه أمام قومه .فإذا ما أراد - سبحانه - إطلاع رسوله المصطفى لحمل رسالته على بعض غيوبه ، سخر له من جميع جوانبه حرسا من الملائكة يحرسونه من وسوسة الشيطان ونوازعه ، ومن كل ما يتعارض مع توصيل . وحيه - سبحانه - إلى رسله - بكل أمانة وصيانة .ومعنى ( إِلاَّ مَنِ ارتضى من اختار واصطفى واجتنبى ، وعبر عن ذلك بقوله ( مَنِ ارتضى ) ( . . للإشعار بأنه - سبحانه - يخص هؤلاء الذين رضى عنهم ورضوا عنه بالاطلاع على بعض غيوبه ، على سبيل التأييد والتكريم لهم .و " من " فى قوله ( مِن
- رّسُولٍ ) للبيان . والمراد بالرسول هنا : ما يشمل كل رسول اختاره سبحانه - لحمل رسالته ، سواء أكان من البشر أم من الملائكة .والضمير فى
- قوله - تعالى - ( فَإِنّهُ ) و ( يَسْلُكُ ) يعودان على الله - عز وجل وأطلق السلك على إيصال الخبر إلى الرسول المرتضى ، للإشعار بأن هذا الخبر الذى أطلع الله - تعالى - رسوله عليه ، قد وصل إليه وصولا مؤكدا ، ومحفوظا من كل تحريف ، كما يدخل الشئ فى الشئ دخولا تاما بقوة وضبط ، إذ حقيقة السلك . إدخال الشئ فى الشئ بشدة وعناية . .والمراد بقوله : ( مِن بَيْنِ
يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ) جميع الجهات ، وعبر عن جميع الجهات بذلك ، لأن معظم ما يتعرض له الإنسان يكون من هاتين الجهتين .والرصد : جمع راصد ، وهو - ما يحفظ الشئ ، ويصونه من كل ما لا يريده ، أى : إلا من ارتضى - سبحانه من رسول ، فإنه - عز وجل - يطلعه على ما يشاؤه من غيوبه ، ويجعل له حراسا من جميع جوانبه ، يحفظونه من كل سوء .قال الآلوسى : قوله : ( إِلاَّ مَنِ
ارتضى مِن رَّسُولٍ . . ) أى : لكن الرسول المرتضى بظهره - جل وعلا - على بعض الغيوب المتعلقة برسالته . . إما لكون بعض هذه الغيوب من مباديها ، بأن ، يكون معجزة ، وإما لكونه من أركانها وأحكامها كعامة التكاليف الشرعية وكيفيات الأعمال وأجزيتها ، ونحو ذلك من الأمور الغيبية ، التى بيانها من وظائف الرسالة ، بأن يسلك من جميع جوانبه عند إطلاعه على ذلك ، حرسا من . . الملائكة يحرسونه من تعرض الشياطين ، لما أريد إطلاعه عليه

ليعلم ان قد ابلغوا رسالات ربهم واحاط بما لديهم واحصى كل شيء عددا

كما فسرها الوسيط واللام فى قوله - تعالى - : ( لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ
أَبْلَغُواْ رِسَالاَتِ رَبِّهِمْ .. ) متعلقة بقوله ( يَسْلُكُ ) .والضمير
فى ( يعلم ) يعود إلى الله - تعالى - ، والمراد بالعلم : علم المشاهدة الذى
، يترتب عليه الجزاء ، أى : أطلع الله - تعالى - من ارتضاهم على بعض غيوبه
- وحرسهم من وصول الشياطين إلى هذا الذى أظهرهم عليه من غيوب . . ليعلم
- تعالى - علم مشاهدة يترتب عليه الجزاء ، أن الرسل قد أبلغو رسالته
سبحانه - إلى خلقه ، وأنه - تعالى - قد ( وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ ) أى
أحاط علمه - تعالى - بكل ما لدى الرسل وغيرهم من أقوال وأفعال ، ( وأحصى :
كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً ) أى : وأحصى كل شئ فى هذا الكون إحصاء تاما ، وعلما
كاملا .قال الشوكانى : قوله : ( لِّيَعْلَمَ أن قَدْ أَبْلَغُواْ
رِسَالاَتِ رَبِّهِمْ . . . ) اللام متعلقة بيسلك ، والمراد به العلم
، المتعلق بالإبلاغ الموجود بالفعل ، و " أن " هى المخففة من الثقيلة
واسمها ضمير الشأن ، والخبر الجملة ، والرسالات عبارة عن الغيب الذى أريد
إظهاره لمن ارتضاه الله من رسول . .وقال قتادة : ليعلم محمد أن الرسل قبله
قد أبلغوا الرسالة كما بلغ هو ، وفيه حذف تتعلق به اللام ، أى : أخبرناه
صلى الله عليه وسلم بحفظنا الوحى ، ليعلم أن الرسل قبله كانوا على حالته من
التبليغ بالحق والصدق .وقيل : ليعلم الرسل أن الملائكة قد بلغوا رسالات
ربهم . .ويبدو لنا أن عودة الضمير فى " ليعلم " إلى الله - تعالى - هو
الأظهر ، أى : ليعلم الله - تعالى - أن رسله قد أبلغوا رسالاته علم مشاهدة
كما علمه غيبا ، لأن علم الله بذلك لا يكون إلا على وفق ما وقع . .وهكذا
ساقت لنا سورة " الجن " الكثير من الحقائق التى تتعلق بإصلاح العقائد
والأخلاق والسلوك والأفكار التى طغى كثير منها على العقول والأفهام . .وصلى
الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

يا ايها المزمل

كما فسرها الوسيط وقد ذكرالمفسرون عند تفسيرهم لهذه السورة الكريمة روايات
- منها ما رواه البزار والطبرانى فى الأوسط ، وأبو نعيم فى الدلائل عن جابر
رضى الله عنه - قال : اجتمعت قريش فى دار الندوة فقالوا : سموا هذا الرجل
. اسما تصدوا الناس عنه فقالوا : كاهن . قالوا : ليس بكاهن . قالوا : مجنون
قالوا : ليس بمجنون . قالوا : ساحر . قالوا : ليس بساحر . . فتفرق المشركون
، على ذلك . فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فتزمل فى ثيابه وتدثر فيها
: فأتاه جبريل فقرأ عليه : ( ياأيها المزمل ) ( ياأيها المدثر . . . ) وقيل
إنه صلى الله عليه وسلم كان نائما بالليل متزملا فى قطيفة . . فجاءه جبريل
بقوله - تعالى - ( ياأيها المزمل . قُمِ الليل إِلاَّ قَلِيلاً . . ) .وقيل
إن سبب نزول هذه الآيات ما رواه الشيخان وغيرهما من حديث جابر بن عبد :
الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " جاورت بحراء ، فلما قضيت
جوارى ، هبطت ، فنوديت فنظرت عن يمينى فلم أر شيئا ، ونظرت عن شمالى فلم أر
شيئا . . فرفعت رأسى فإذا الذى جاءنى بحراء ، جالس على كرسى بين السماء
: والأرض . . فرجعت فقلت : دثرونى دثرونى " ، وفى رواية : " فجئت أهلى فقلت
زملونى زملونى ، فأنزل الله - تعالى - : ( ياأيها المدثر . . . ) " .وجمهور
العلماء يقولون : وعلى أثرها نزلت : ( ياأيها المزمل . . . ) .و ( المزمل )
اسم فاعل من تزمل فلان بثيابه ، إذا تلفف فيها ، وأصله المتزمل ، فأدغمت :
التاء فى الزاى والميم .وافتتح الكلام بالنداء للتنبيه على أهمية ما يلقى
على المخاطب من أوامر أو نواه .وفى ندائه صلى الله عليه وسلم بلفظ " المزمل
تلطف معه ، وإيناس لنفسه ، وتحبب إليه ، حتى يزداد نشاطا ، وهو يبلغ "
رسالة ربه .والمعنى : يأيها المزمل بثيابه ، المتلفف فيه ، رهبة مما رآه من
عبدنا جبريل . او هما وغما مما سمعه من المشركين ، من وصفهم له بصفات هو
. برئ منها

قم الليل الا قليلا

كما فسرها الوسيط ( قُمِ الليل إِلاَّ قَلِيلاً ) أى : قم الليل متعبدا
: لربك ، ( إِلاَّ قَلِيلاً ) منه ، على قدر ما تأخذ من راحة لبدنك ، فقوله
: بدل كل من كل ، على سبيل التفصيل بعد الإجمال . .أى ( إِلاَّ قَلِيلاً )
. قم نصف الليل للعبادة لربك ، واجعل النصف الثانى من الليل لراحتك ونومك
ووصف - سبحانه - هذا النصف الكائن للراحة بالقلة فقال ( إِلاَّ قَلِيلاً ).
للإشعار بأن النصف الآخر ، العامر بالعبادة والصلاة . . هو النصف الأكثر
ثوابا وقربا من الله - تعالى - بالنسبة للنصف الثانى المتخذ للراحة والنوم
.

نصفه او انقص منه قليلا

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( أَوِ انقص مِنْهُ قَلِيلاً . أَوْ زِدْ عَلَيْهِ . . ) تخيير له صلى الله عليه وسلم فيما يفعله ، وإظهار لما اشتملت عليه شريعة الإسلام من يسر وسماحة . .فكأنه - تعالى - يقول له على سبيل التلطف والإرشاد إلى ما يشرح صدره - يأيها المتلفف بثيابه ، قم الليل للعبادة والصلاة ، إلا وقتا قليلا منه يكون لراحتك ونومك ، وهذا الوقت القليل المتخذ للنوم والراحة قد يكون نصف الليل ، أو قد يكون أقل من النصف بأن يكون فى حدود ثلث الليل

او زد عليه ورتل القران ترتيلا

كما فسرها الوسيط ولك - أيها الرسول الكريم - أن تزيد على ذلك ، بأن تجعل ثلثى الليل للعبادة ، وثلثه للنوم والراحة ..فأنت ترى أن الله - تعالى - قد رخص لنبيه صلى الله عليه وسلم فى أن يجعل نصف الليل أو ثلثه ، أو ثلثيه للعبادة والطاعة ، وأن يجعل المقدار الباقى من الليل للنوم والراحة . . فتكون العبادة. وخص - سبحانه - الليل بالقيام ، لأنه وقت سكون الأصوات . وحسن الصلة بالله - عز وجل - .هذا ، وقد استمر وجوب الليل على الرسول صلى الله عليه وسلم حتى بعد فرض الصلوات الخمس عليه وعلى أمته . تعظيما لشأنه ، ومداومة له على مناجاة ربه ، خصوصا فى الثلث الأخير من الليل ، يدل على ذلك قوله - تعالى - : ( وَمِنَ الليل فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عسى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً ) وقد كان المسلمون يقتدون بالرسول صلى الله عليه وسلم فى قيام الليل وقد أثنى - سبحانه - عليهم بسبب ذلك فى آيات كثيرة منها قوله - تعالى - : ( تتجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ المضاجع يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ . فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ) وقد ذكر الإمام أحمد حديثا طويلا عن سعيد بن هشام ، وفيه : أنه سأل السيدة عائشة عن قيامه صلى الله عليه وسلم بالليل ، فقالت له ألست تقرأ هذه السورة ، يأيها المزمل . . ؟إن الله افترض قيام الليل فى أول هذه السورة ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حولا حتى انتفخت أقدامهم . وأمسك الله ختامها فى السماء اثنى عشر شهرا ، ثم أنزل التخفيف فى آخر هذه السورة ، فصار قيام الليل تطوعا من بعد فريضة . .قال القرطبى ما ملخصه : واختلف : هل كان قيام الليل فرضا وحتما ، أو كان ندبا وحضا؟ والدلائل تقوى أن قيامه كان حتما وفرضا ، وذلك أن الندب والحض ، لا يقع على - بعض الليل دون بعض ، لأن قيامه ليس مخصوصا به وقت دون وقت .واختلف - أيضا هل كان فرضا على النبى صلى الله عليه وسلم وحده؟ أو عليه وعلى من كان قبله من الأنبياء؟ أو عليه وعلى أمته؟ ثلاثة أقوال . . أصحها ثالثها للحديث المتقدم الذى رواه سعيد بن هشام عن عائشة - رضى الله عنها - .وقال بعض العلماء بعد أن ساق العلماء فى هذه المسألة بشئ من التفصيل : والذى يستخلص من ذلك أن أرجح الأقوال ، هو القول القائل بأن التهجد كانفريضة على النبى صلى الله عليه وسلم وعلى أمته ، إذ هو الذى يمكن أن تأتلف عليه النصوص القرآنية ، ويشهد له ما تقدم من الآثار عن ابن عباس وعائشة وغيرهما .ويرى بعض العلماء أن وجوب التهجد باق على الناس جميعا ، وأنه لم ينسخ ، وإنما الذى نسخ هو وجوب قيام جزء مقدر من الليل ، لا ينقص كثيرا عن النصف .ويرد على هذا القول بما ثبت فى الصحيحين ، من " أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال للرجل الذى سأله عما يجب عليه من صلاة؟ قال : خمس صلوات فى اليوم والليلة . قال : هل على غيرها؟ قال :لا إلا أن تطوع " .ويرى فريق آخر : أن قيام الليل نسخ عن الرسول وعن أمته بآخر سورة المزمل . واستبدل به قراءة القرآن ، على ما يعطيه قوله - تعالى - ( عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فاقرءوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ القرآن ) ويدل عليه - أيضا - ظاهر ما روى عن عائشة ، من قولها : فصار قيام الليل تطوعا من بعد الفريضة ، دون أن تقيد ذلك بقيد .ويرى فريق ثالث : أن وجوب التهجد استمر على النبى وعلى الأمة ، حتى نسخ بالصلوات الخمس ليلة المعراج .ويرى فريق رابع : أن قيام الليل نسخ عن الأمة وحدها ، وبقى وجوبه على النبى صلى الله عليه وسلم على . . ما يعطيه ظاهر آية الإسراء .ولعل أرجح هذه الأقوال هو القول الرابع فإن آية سورة الإسراء وهى قوله - تعالى - : ( وَمِنَ الليل فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ . . . ) تدل على أن وجوب التهجد قد بقى عليه صلى الله عليه وسلم .وقوله - تعالى - : ( وَرَتِّلِ القرآن تَرْتِيلاً ) إرشاد له صلى الله عليه وسلم ولأمته إلى أفضل طريقة لقراءة القرآن الكريم ، حتى يستمروا عليها ، وهم فى أول عهدهم بنزول القرآن الكريم .والترتيل : جعل الشئ مرتلا ، أى : منسقا منظما ، ومنه قولهم : ثغر مرتل ، أى : منظم الأسنان ، لم يشذ بعضها عن بعض .أى : قم - أيها الرسول الكريم - الليل إلا قليلا منه . . متعبدا لربك مرتلا للقرآن ترتيلا جميلا حسنا ، تستبين معه الكلمات والحروف ، حتى يفهمها السامع ، وحتى يكون ذلك أعون على حسن تدبره ، وأثبت لمعانيه فى القلب . .قال الإمام ابن كثير : وكذلك كان يقرأ صلى الله

عليه وسلم فقد قالت عائشة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ السورة
. . فيرتلها . . وسئل أنس عن قراءته صلى الله عليه وسلم فقال : كانت مدا
وقال صلى الله عليه وسلم : " زينوا القرآن بأصواتكم " .وقال عبد الله بن
مسعود :لا تنثروه نثر الرمَل ، ولا تهذوه هذّ الشِّعر وقفوا عند عجائبه
وحركوا به القلوب - أى لا تسرعوا فى قراءته كما تسرعوا فى قراءة الشعر
والهذ : سرعة القطع - هذا ، وليس معنى قوله - سبحانه - : ( وَرَتِّلِ
القرآن تَرْتِيلاً ) ، أن يقرأ بطريقة فيها تلحين أو تطريب يغير من ألفاظ
القرآن ، ويخل بالقراءة الصحيحة من حيث الأداء ، ومخارج الحروف ، والغن
والمد ، والإدغام والإظهار . . وغير ذلك مما يقتضيه القراءة السليمة
للقرآن الكريم .وإنما معنى قوله - تعالى - : ( وَرَتِّلِ القرآن تَرْتِيلاً
أن يقرأه بصوت جميل وبخشوع وتدبر ، وبالتزام تام للقراءة الصحيحة ، من (
. حيث مخارج الحروف ومن حيث الوقف والمد والإظهار والإخفاء ، وغير ذلك
. وقد بسط القول فى هذه المسألة بعض العلماء فارجع إليه إن شئت.

انا سنلقي عليك قولا ثقيلا

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - ( إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً
- ثَقِيلاً ) تعليل للأمر بقيام الليل ، وهو كلام معترض بين قوله - سبحانه
وبين قوله - تعالى - بعد ذلك : ( إِنَّ نَاشِئَةَ الليل ( . . قُمِ الليل )
والمراد بالقول الثقيل : القرآن الكريم الذى أنزله - سبحانه - على. ( . . .
قلب نبيه صلى الله عليه وسلم .ويشهد لثقل القرآن على النبى صلى الله عليه
وسلم أحاديث كثيرة ، منها : ما رواه الإمام البخارى من أن السيدة عائشة
قالت : ولقد رأيته صلى الله عليه وسلم ينزل عليه الوحى ، فى اليوم الشديد
" البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا .ومنها قوله صلى الله عليه وسلم
ما من مرة يوحَى إلى ، إلا ظننت أن نفسى تفيض " - أى : تخرج . .ونمها قول
زيد بن ثابت : أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم شئ من القرآن - وفخذه
على فخذى فكادت تُرَض فخذى - أى : تتكسر . .ومنها ما رواه هشام بن عروة عن
، أبيه ، أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا أوحى عليه وهو على ناقته
وضعت جرانها - أى باطن عنقها - فما تستطيع أن تتحرك ، حتى يُسَرَّى عنه .أى
قم - أيها الرسول الكريم - الليل إلا قليلا منه متعبدا لربك ، متقربا :
إليه بألوان الطاعات ، فإنا سنلقى عليك قولا ثقيلا ، وهذا القول هو القرآن
الكريم ، الثقيل فى وزنه وفى ميزان الحق ، وفى أثره فى القلوب ، وفيما
اشتمل عليه من تكاليف ، وصدق الله إذا يقول : ( لَوْ أَنزَلْنَا هذا القرآن
. . على جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مِّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ الله
قال الجمل : قوله : ( إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ) أى ( .
كلاما عظيما جليلا ذا خطر وعظمة ، لأنه كلام رب العالمين ، وكل شئ له خطر :
، ومقدار فهو ثقيل .أو هو ثقيل لما فيه من التكاليف ، والوعد والوعيد
والحلال والحرام ، والحدود والأحكام .قال قتادة : ثقيل والله فى فرائضه
. . وحدوده . . وقال محمد بن كعب : ثقيل على المنافقين ، لأنه يهتك أسرارهم
وقال السدى : ثقيلا بمعنى كريم ، مأخوذ من قولهم : فلان ثقل علىّ ، أى كرم
على . . وقال ابن المبارك : هو والله ثقيل مبارك ، كما ثقل فى الدنيا ، ثقل
فى الميزان يوم القيامة .وقيل : ثقيلا بمعنى أن العقل الواحد لا يفى بإدراك
فوائده ومعانيه ، فالمتكلمون غاصوا فى بحار معقولاته ، والفقهاء بحثوا فى
، أحكامه . . والأولى أن جميع هذه المعانى فيه .وقيل : المراد بالقول الوحى
كما فى الخبر ، أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا أوحى إليه ، وهو على
ناقته وضعت جرانها - أى : وضعت صدرها على الأرض - فما تستطيع أن تتحرك حتى
يسرى عنه . .ويبدو لنا أن وصف القرآن بالثقل وصف حقيقى ، لما ثبت من ثقله
على النبى صلى الله عليه وسلم وقت نزوله عليه . . وهذا لا يمنع أن ثقله
، يشمل ما اندرج فيه من علوم نافعة ، ومن هدايات سامية ، ومن أحكام حكيمة
ومن آداب قويمة ، ومن تكاليف جليلة الشأن .وعبر - سبحانه - عن إيحائه
بالقرآن إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بالإلقاء للإشعار بأنه يلقى إليه
على غير ترقب منه صلى الله عليه وسلم ، بل ينزل إليه فى الوقت الذى يريده
سبحانه - وللإشارة من أول الأمر إلى ما يوحى إليه شئ عظيم وشديد الوقع على
. النفس

ان ناشئة الليل هي اشد وطئا واقوم قيلا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك الحكمة من أمره له صلى الله
عليه وسلم بقيام الليل إلا قليلا منه للعبادة والطاعة فقال : ( إِنَّ
) : نَاشِئَةَ الليل هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً ) .وقوله
) : نَاشِئَةَ ) : وصف من النشء وهو الحدوث ، وهو صفة لموصوف محذوف . وقوله
وَطْأً ) بمعنى مواطأة وموافقة ، وأصل الوطء : وضع الرجل على الأرض بنظام
وترتيب ، ثم استعير للموافقة ، ومنه قوله - تعالى - ( لِّيُوَاطِئُواْ
عِدَّةَ مَا حَرَّمَ الله ) ومنه قولهم : وطأت فلانا على كذا ، إذا وافقته

) : عليه . وهو منصوب على التمييز . وقوله : ( قِيلاً ) بمعنى قولا .وقوله
وَأَقْوَمُ ) بمعنى أفضل وأنفع .والمعنى : يأيها المزمل قم الليل إلا قليلا
منه للعبادة والطاعة . فإن العبادة الناشئة بالليل . هى أشد مواطأة وموافقة
لإصلاح القلب ، وتهذيب النفس ، وأقوم قولا ، وأنفع وقعا ، وأفضل قراءة من
عبادة النهار ، لأن العبادة الناشئة بالليل يصحبها ما يصحبها من الخشوع
والإخلاص ، لهدوء الأصوات بالليل ، وتفرغ العابد تفرغا تاما لعبادة ربه
: قال الشوكانى ما ملخصه : قوله : ( إِنَّ نَاشِئَةَ الليل . . . ) أى.
ساعاته وأوقاته ، لأنها تنشأ أولا فأولا ، ويقال : نشأ الشئ ينشأ ، إذا
ابتدأ وأقبل شيئا بعد شئ ، فهو ناشئ . . قال الزجاج : ناشئة الليل ، كل ما
نشأ منه ، أى : حدث منه . . والمراد ساعات الليل الناشئة ، فاكتفى بالوصف
عن الاسم الموصوف .وقيل : إن ناشئة الليل ، هى النفس التى تنشأ من مضجعها
للعبادة ، أى : تنهض ، من نشأ من مكانه ، إذا نهض منه .( هِيَ أَشَدُّ
وَطْأً ) قرأ الجمهور ( وَطْأً ) بفتح الواو وسكون الاء مقصورة ، وقرأ
بعضهم ( وِطَاءً ) بكسر الواو وفتح الطاء ممدودة .والمعنى على القراءة
، الأولى : أن الصلاة الناشئة فى الليل ، أثقل على المصلى من صلاة النهار
لأن الليل للنوم .. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم " اللهم أشدد وطأتك على
مضر " .والمعنى على القراءة الثانية : أنها أشد مواطأة وموافقة بين السمع
: - والبصر والقلب واللسان ، لانقطاع الأصوات والحركات ، ومنه قوله - تعالى
أى : ليوافقوا .( وَأَقْوَمُ ( لِّيُوَاطِئُواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ الله )
قِيلاً ) أى : وأشد مقالا . وأثبت قراءة ، لحضور القلب فيها ، وهدوءالأصوات
. . وأشد استقامة واستمرارا على الصواب ،

ان لك في النهار سبحا طويلا

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( إِنَّ لَكَ فِي النهار سَبْحَاً
طَوِيلاً ) تقرير للأمر بقيام الليل إلا قليلا منه للعبادة والطاعة والتقرب
إليه - سبحانه - .والسبح : مصدر سبح ، وأصله الذهاب فى الماء والتقلب فيه
: ثم استعير للتقلب والتصرف المتسع ، الذى يشبه حركة السابح فى الماء .أى
إنا أمرناك بقيام الليل للعبادة والطاعة ، لأن لك فى النهار - أيها الرسول
الكريم - تقلبا وتصرفا فى مهماتك ، واشتغالا بأعباء الرسالة يجعلك لا
تستطيع التفرغ لعبادتنا ، أما فى الليل فتستطيع ذلك لأنه وقت السكون
والراحة والنوم .فالمقصود من الآية الكريمة التخفيف والتيسير عليه صلى الله
، عليه وسلم وبيان الحكمة من أمره بقيام الليل - إلا قليلا منه - للعبادة
حيث لم يجمع - سبحانه - عليه الأمر بالتهجد فى الليل والنهار ، وإنما يسر
عليه الأمر ، فجعله بالليل فحسب ، أما النهار فهو لمطالب الحياة : ولتبليغ
. رسالته - سبحانه - إلى الناس

واذكر اسم ربك وتبتل اليه تبتيلا

كما فسرها الوسيط ثم أمره - سبحانه - بعد ذلك بالمداومة على ذكره ليلا
. ونهارا فقال : ( واذكر اسم رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً
- رّبُّ المشرق والمغرب لاَ إله إلاَّ هُوَ فاتخذه وَكِيلاً ) .وقوله
- سبحانه - ( وَتَبَتَّلْ ) من التبتل ، وهو الاشتغال الدائم بعبادة الله
، تعالى - ، والانقطاع لطاعته . ومنه قولهم بتل فلان الحبل ، إذا قطعه
وامرأة بتول .أى : منقطعة عن الزواج ، ومتفرغة لعبادة الله - تعالى
والمراد به هنا : التفرغ لما يرضى الله - تعالى - ، والاشتغال بذلك عن كل-
شئ سواه .أى : ودوام - أيها الرسول الكريم - على ذكر الله - تعالى - عن
طريق تسبيحه ، وتحميده وتكبيره ، وتفرغ لعبادته وطاعته تفرغا تاما ، دون أن
. يشغلك عن ذلك شاغل

رب المشرق والمغرب لا اله الا هو فاتخذه وكيلا

: كما فسرها الوسيط فربك - عز وجل - هو ( رَّبُّ المشرق والمغرب ) . أى
هو - سبحانه - رب جهتى الشروق والغروب للشمس .( لاَ إله إلاَّ هُوَ )
: مستحق للعبادة والطاعة ، وما دام الأمر كذلك ( فاتخذه وَكِيلاً ) .أى
فاتخذه وكيلك الذى تفوض إليه أمرك ، وتلجأ إليه فى كل أحوالك . . إذ الوكيل
- هو الذى توكل إليه الأمور ، ويترك له التصرف فيها .وليس المراد بقوله
تعالى - : ( واذكر اسم رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ) الانقطاع
التام عن الأعمال ، لأن هذا يتنافى مع قوله - تعالى - قبل ذلك : ( إِنَّ
لَكَ فِي النهار سَبْحَاً طَوِيلاً ) وإنما المراد التنبيه إلى أنه صلى
الله عليه وسلم ينبغى له أن لا يشغله السبح الطويل بالنهار ، عن طاعته - عز
وجل - وعن المداومة على مراقبته وذكره .ومما لا شك فيه أن ما كان يقوم به
- النبى صلى الله عليه وسلم من الاشتغال بأمر الدعوة إلى وحدانية الله
تعالى - ، ومن تعليم الناس العلم النافع ، والعمل الصالح . . كل ذلك يندرج

- تحت المواظبة على ذكر الله - تعالى - ، وعلى التفرغ لعبادته .وقال سبحانه - ( وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ) ولم يقل تبتلا حتى يكون الفعل موافقا لمصدره ، للإشارة إلى أن التبتل والانقطاع إلى الله يحتاجان إلى عمل اختيارى منه صلى الله عليه وسلم ، بأن يجرد نفسه عن كل ما سوى الله - تعالى - ، وبذلك يحصل التبتل الذى هو أثر للتبتيل ، بمعنى ترويض النفس وتعويدها على العبادة والطاعة .ووصف - سبحانه - ذاته بأنه ( رَّبُّ المشرق والمغرب ) ، لمناسبة الأمر بذكره فى الليل والنهار ، وهما وقت ابتداء طلوع الشمس وغروبها ، فكأنه - سبحانه - يقول : داوم على طاعتى لأنى أنا رب جميع جهات الأرض ، التى فيها تشرق الشمس وتغرب .والمراد بالمشرق والمغرب هنا جنسهما ، فهما صادقان على كل مشرق من مشارق الشمس ، التى هى ثلاثمائة وستون مشرقا - كما يقول العلماء - وعلى كل مغرب من مغاربها التى هى كذلك .والمراد بالمشرقين والمغربين كما جاء فى سورة الرحمن : مشرق ومغرب الشتاء والصيف .والمراد بالمشارق والمغارب كما جاء فى سورة المعارج : مشرق ومغرب كل يوم للشمس والكواكب .

واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا

كما فسرها الوسيط ثم أمر الله - تعالى - رسوله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك بالصبر الجميل ، على أذى قومه فقال : ( واصبر على مَا يَقُولُونَ واهجرهم هَجْراً جَمِيلاً . . . ) .أى : اجعل يا محمد اعتمادك وتوكلك على وحدى ، واصبر على ما يقوله أعداؤك فى حقك من أكاذيب وخرافات . . واهجرهم هجرا جميلا ، أى : واعتزلهم وابتعد عنهم ، وقاطعهم مقاطعة حسنة ، بحيث لا تقابل السيئة بمثلها ، ولا تزد على هجرهم : بأن تسبهم ، أو ترميهم بالقبيح من القول . .قال الإمام الرازى ما ملخصه : والمعنى أنك لما اتخذتنى وكيلا فاصبر على ما يقولون ، وفوض أمرهم إلى ، فإنى لما كنت وكيلا لك أقوم بإصلاح أمرك ، أحسن من قيامك بإصلاح نفسك .واعلم أن مهمات العباد محصورة فى أمرين ، فى كيفية معاملتهم مع الله ، وقد ذكر - سبحانه - ذلك فى الآيات السابقة : وفى كيفية معاملتهم مع الخلق ، وقد جمع - سبحانه - كل ما يحتاج إليه فى هذا الباب فى هاتين الكلمتين ، وذلك لأن الإنسان إما أن يكون مخالطا للناس ، أو مجانبا لهم .فإن كان مخالطا لهم فعليه أن يصبر على إيذائهم . . وإما أن يكون مجانبا لهم ، فعليه أن يهجرهم هجرا جميلا . . بأن يجانبهم بقلبه وهواه ، ويخالفهم فى أفعالهم ، مع المداراة والإغضاء ..

وذرني والمكذبين اولي النعمة ومهلهم قليلا

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَذَرْنِي والمكذبين أُوْلِي النعمة وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً ) أى : ودعنى وشأنى مع هؤلاء المكذبين بالحق ، ولا تهتم أنت بأمرهم ، فأنا خالقهم ، وأنا القادر على كل شئ يتعلق بهم .وقوله : ( أُوْلِي النعمة ) ، وصف لهم جئ به على سبيل التوبيخ لهم ، والتهكم بهم حيث جحدوا نعم الله ، وتوهموا أن هذه النعم من مال أو ولد ستنفعهم يوم القيامة .والنِّعمة - بفتح النون مع التشديد - : تطلق على التنعم والترفه وغضارة والعيش فى الدنيا .وأما النِّعمة - بكسر النون - فاسم للحالات الملائمة لرغبة الإنسان من غنى أو عافية أو نحوهما .وأما النُّعمة - بالضم - فهى اسم المسرة . يقال : فلان فى نُعْمة - بضم النون - أى : فى فرح وسرور .وقوله : ( وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً ) أى : واتركهم ودعهم فى باطلهم وقتا قليلا ، فسترى بعد ذلك سوء عاقبة تكذيبهم للحق .

ان لدينا انكالا وجحيما

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالاً وَجَحِيماً . . ) تعليل لما قبله . والأنكال : جمع نكل - بكسر النون وسكون الكاف - وهو القيد الثقيل ، يوضع فى الرجل لمنع الحركة . وسميت القيود بذلك لأنها تجعل صاحبها موضع عبرة وعظة ، أو لأنها تجعل صاحبها ممنوعا من الحركة والتقلب فى مناكب الأرض .أى : إن لدنيا ما هو أشد من ردك عليهم . . وهو ، تلك القيود التى نقيد حركتهم بها ، وإن لدينا " جحيما " أى : نارا شديدة الاشتعال تلقى بهم فيها .

وطعاما ذا غصة وعذابا اليما

كما فسرها الوسيط وإن لدينا كذلك " طعاما ذا غصة " أى : طعاما يلتصق فى الحلوق ، فلا هو خارج منها ، ولا هو نازل عنها ، بل هو ناشب فيها لبشاعته ومرارته .وهذا الطعام ذو الغُصّة ، يشمل ما يتناولونه من الزقوم ومن الغسلين ومن الضريع ، كما جاء فى فى آيات أخرى . والغصة : ما يَنْشَب فى الحلق من عَظْم أو غيره ، وجمعه غُصَص .وإن لدينا فوق كل ذلك ( وَعَذَاباً

أَلِيماً ) أى : عذابا شديد الإيلام لمن ينزل به .فأنت ترى أن هذه الآية الكريمة قد توعدت هؤلاء المكذبين بألوان من العقوبات الشديدة ، توعدتهم بالقيود التى تشل حركتهم ، وبالنار المشتعلة التى تحرق أجسادهم ، وبالطعام البشع الذى ينشب فى حلوقهم ، وبالعذاب الأليم الذى يشقيهم ويذلهم .

يوم ترجف الارض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا

كما فسرها الوسيط والظرف فى قوله - تعالى - : ( يَوْمَ تَرْجُفُ الأرض والجبال . . . ) منصوب بالاستقرار العامل فى " الدنيا " الذى هو الخبر فى الحقيقة .أى : استقر لهم ذلك العذاب الأليم الدنيا ، يوم القيامة ، يوم ) تضطرب وتتزلزل الأرض والجبال .( وَكَانَتِ الجبال ) فى هذا اليوم كَثِيباً مّهِيلاً ) أو : رملا مجتمعا ، بعد أن كانت قبل ذلك الوقت أحجارا صلبة كبيرة .فقوله : ( كَثِيباً ) من كثَب الشئَ يَكثُبه ، إذا جمعه من قرب ثم صبه ، وجمعه كُثُب وكُثْبَان ، وهى تلال الرمال المجتمعة كالربوة وقوله ( مّهِيلاً ) اسم مفعول من هال الشئ هيلا ، إذا نثره ، وفرقه بعد. اجتماعه والشئ المهيل : هو الذى يحرّك أسفله فينهار أعلاه ويتساقط بسرعة .

انا ارسلنا اليكم رسولا شاهدا عليكم كما ارسلنا الى فرعون رسولا

كما فسرها الوسيط ثم يذكر - سبحانه - بعد ذلك هؤلاء المكذبين بما حل بالمكذبين من قبلهم ، فيقول : ( كَمَآ أَرْسَلْنَآ إلى فِرْعَوْنَ رَسُولاً للتشبيه ، أى : أرسلنا إليكم - يا أهل مكة - رسولا شاهدا عليكم هو محمد ( صلى الله عليه وسلم كما أرسلنا من قبلكم إلى فرعون رسولا شاهدا عليه ، هو موسى - عليه السلام - .وأكد الخبر فى قوله - تعالى - : ( إِنَّآ أَرْسَلْنَآ . . . ) لأن المشركين كانوا ينكرون نبوة النبى صلى الله عليه وسلم .ونكر رسولا ، لأنهم كانوا يعرفونه حق المعرفة ، وللتعظيم من شأنه صلى الله عليه وسلم أى : أرسلنا إليكم رسولا عظيم الشأن ، سامى المنزلة جامعا لكل الصفات الكريمة .

فعصى فرعون الرسول فاخذناه اخذا وبيلا

. كما فسرها الوسيط والفاء فى قوله : ( فعصى فِرْعَوْنُ الرسول ) للتفريع أى : أرسلنا إليكم رسولا كما أرسلنا إلأى فرعون رسولا قبل ذلك ، فكانت النتيجة أن عصى فرعون أمر الرسول الذى أرسلناه إليه ، واستهزأ به ، وتطاول عليه فكانت عاقبة هذا التطاول ، أن أخذناه ( أَخْذاً وَبِيلاً ) .أى أهلكنا فرعون إهلاكا شديدا ، وعاقبناه عقابا ثقيلا ، فوبيل بزنة فَعيل - صفة مشبهة : مأخوذة من وَبُل المكان ، إذا وَخُم هواؤه وكان ثقيلا رديئا . ويقال ، مرعى وبيل ، إذا كان وخما رديئا .وخص - سبحانه - موسى وفرعون بالذكر ، لأن أخبارهما كانت مشهورة عند أهل مكة .و ( أل ) فى قوله ( فعصى فِرْعَوْنُ الرسول ) للعهد . أى : فعصى فرعون الرسول المعهود عندكم ، وهو موسى - عليه السلام - .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم نكر الرسول ثم عرف؟ قلت : لأنه أراد : أرسلنا إلى فرعون بعض الرسل ، فلما أعاده وهو معهود بالذكر أدخل لام التعريف . إشارة إلى المذكور بعينه . .وأظهر - سبحانه - اسم فرعون مع تقدم ذكره فقال : ( فعصى فِرْعَوْنُ الرسول ) ، دون أن يؤتى بضميره ، للإشعار بفظعة هذا العصيان ، وبلوغه النهاية فى الطغيان .والمقصود من هاتين الآيتين تهديد المشركين ، بأنهم إذا ما استمروا فى تكذيبهم لرسولهم ، محمد صلى الله عليه وسلم فقد يصيبهم من العذاب ما أصاب فرعون عندما عصى موسى - عليه السلام - .

فكيف تتقون ان كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا

كما فسرها الوسيط ثم ذكرهم - سبحانه - بأهوال يوم القيامة ، لعلهم يتعظون أو يرتدعون فقال : ( فَكَيْفَ تَتّقُونَ إن كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الولدان شِيباً . السَّمَآءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً ) والاستفهام فى قوله : ( فَكَيْفَ ) مستعمل فى التوبيخ والتعجيز ، و. ) تَتَّقُونَ ) بمعنى تصونون أنفسكم من العذاب ، ومعنى ( إن كَفَرْتُمْ ) إن بقيتم على كفركم وأصررتم عليه . وقوله ( يَوْماً ) : منصوب على أنه مفعول به لقوله : ( تَتّقُونَ ) .

السماء منفطر به كان وعده مفعولا

كما فسرها الوسيط وقوله : ( السّمَآءُ مُنفَطِرٌ بِهِ ) صفة ثانية لهذا اليوم .والمراد بالولدان : الأطفار الصغار ، وبه بمعنى فيه . .والمقصود بهاتين الآيتين - أيضا - تأكيد التهديد للمشركين ، حتى يقلعوا عن شركهم

وكفرهم . . أى : إذا كان الأمر كما ذكرنا لكم من سوء عاقبة المكذبين ، فكيف تصونون أنفسكم - إذا ما بقيتم على كفركم - من عذاب يوم هائل شديد ، هذا اليوم من صفاته أنه يحول الشعر الشديد السواد للولدان ، إلى شعر شديد البياض ..وهذا اليوم من صفاته - أيضا - أنه لشدة هوله ، أن السماء - مع عظمها وصلابتها - تصير شيئا منفطرا - أى : متشققا ( به ) أى : فيه ، والضمير يعود إلى اليوم . .وصدر - سبحانه - الحديث عن يوم القيامة ، بلفظ الاستفهام " كيف " للإشعار بشدة هوله . وأنه يعجز الواصفون عن وصفه ووصف - سبحانه - هذا اليوم بأنه يشيب فيه الولدان ، ثم وصفه بأن السماء مع. عظمها تتشقق فيه ، للارتقاء فى الوصف من العظيم إلى الأعظم ، إذ أن تحول شعر الأطفال من السوادإلى البياض - مع شدته وعظمه - أشد منه وأعظم ، انشقاق السماء فى هذا اليوم .قال صاحب الكشاف : وقوله ( يَجْعَلُ الولدان شِيباً ) مثل فى الشدة ، يقال فى اليوم الشديد ، يوم يشيب نواصى الأطفال والأصل فيه أن الهموم والأحزان ، إذا تفاقمت على الإنسان ، أسرع فيه الشيب ، كما قال أبو الطيب :والهَمُّ يَخْتَرِم الجسيمَ نحافةً ... ويُشِيبُ ناصيةَ الصبى ويُهْرِمويجوز أن يوصف اليوم بالطول ، وأن الأطفال يبلغون فيه أوان الشيخوخة والشيب . وقوله : ( السَّمَآءُ مُنفَطِرٌ بِهِ ) وصف لليوم بالشدة - أيضا - وأن السماء على عظمها وإحكامها تنفطر فيه فما ظنك بغيرها من الخلائق . .ووصف - سبحانه - السماء بقوله : ( مُنفَطِرٌ ) بصيغة التذكير حيث لم يقل منفطرة ، لأن هذه الصيغة ، صيغة نسب . أى : ذات انفطار ، كما ، فى قولهم : امرأة مرضع وحائض ، أى : ذات إرضاع وذات حيض . أو على تأويل أن السماء بمعنى السقف ، كما فى قوله - تعالى - : ( وَجَعَلْنَا السمآء سَقْفاً مّحْفُوظاً ) أو على أن السماء اسم جنس واحده سماوة ، فيجوم وصفه بالتذكير والتأنيث .وقوله : ( كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً ) الضمير فيه يعود إلى الخالق - عز وجل - والوعد مصدر مضاف لفاعله . أى : كان وعد ربك نافذا ومفعولا ، لأنه - سبحانه -لا يخلف موعوده .ويجوز أن تكون هذه الجملة صفة ثالثة لليوم ، والضمير فى وعده يعود إليه ، ويكون من إضافة المصدر لمفعوله . أى : كان الوعد بوقوع يوم القيامة نافذا ومفعولا .

ان هذه تذكرة فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - هذه التهديدات بقوله : ( إِنَّ هذه تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ اتخذ إلى رَبِّهِ سَبِيلاً ) .واسم الإشارة " هذه " يعود إلى الآيات المتقدمة ، المشتملة على الكثير من القوارع والزواجر " والتذكرة : اسم مصدر بمعنى التذكير والاتعاظ والاعتبار . ومفعول " شاء. محذوف .والمعنى : إن هذه الآيات التى سقناها لكم تذكرة وموعظة ، فمن شاء ، النجاة من أهوال يوم القيامة ، فعليه أن يؤمن بالله - تعالى - إيمانا حقا وأن يتخذ بسبب إيامنه وعمله الصالح ، طريقا وسبيلا إلى ربه ورحمته ومغفرته والتعبير بقوله : ( فَمَن شَآءَ اتخذ .. . ) ليس من قبيل التخبير ، وإنما. المقصود به الحض والحث على سلوك الطريق الموصل إلى الله - تعالى - بدليل قوله - تعالى - قبل ذلك : ( إِنَّ هذه تَذْكِرَةٌ ) أى : هذه الآيات تذكرة وموعظة ، فمن ترك العمل بها ساءت عاقبته ، ولم يكن من الذين سلكوا طريق النجاة .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( وَقُلِ الحق مِن رّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ) هذا ، والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة ، - من أول السورة إلى هنا - يراها قد نادت الرسول صلى الله عليه وسلم نداء فيه ما فيه من الملاطفة والمؤانسة ، وأمرته بأن يقوم الليل إلا قليلا متعبدا لربه ، كما أمرته بالصبر على أذى المشركين ، حتى يحكم الله - تعالى - بينه وبينهم .كما يراها قد هددت المكذبين بأشد أنواع ، التهديد ، وذكرتهم بأهوال يوم القيامة ، وبما حل بالمكذبين من قبلهم . وحرضتهم على سلوك الطريق المستقيم .

ان ربك يعلم انك تقوم ادنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم ان لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القران علم ان سيكون منكم مرضى واخرون يضربون في الارض يبتغون من فضل الله واخرون يقاتلون في سبيل الله فاقرءوا ما تيسر منه واقيموا الصلاة واتوا الزكاة واقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لانفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا واعظم اجرا واستغفروا الله ان الله غفور رحيم

كما فسرها الوسيط وبعد هذه الإنذارات المتعددة للمكذبين ، عادت السورة - الكريمة إلى الحديث عن قيام الليل لعبادة الله - تعالى - وطاعته . . فقال سبحانه - :( إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أدنى مِن . . . ) المراد بالقيام فى قوله - تعالى - : ( إِنّ رَبّكَ يَعْلَمُ أَنّكَ. تَقُومُ أدنى مِن ثُلُثَيِ الليل وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ . . . ) التهجد بالليل عن طريق الصلاة تقربا إلى الله - تعالى - .وقوله : ( أدنى ) بمعنى أقرب ، من الدنو بمعنى القرب ، تقول : رأيت فلانا أدنى إلى فعل الخير من

فلان . أى : أقرب ، واستعير هنا للأقل ، لأن المسافة التى بين الشئ والشئ
) : إذا قربت كانت قليلة ، وهو منصوب على الظرفية بالفعل " تقوم " .وقوله
وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ ) قرأه بعض القراء السبعة بالجر عطفا على ( ثُلُثَيِ
: الليل ) وقرأه الجمهور بالنصب عطفا على أدنى .والمعنى على قراءة الجمهور
إن ربك - أيها الرسول الكريم - يعلم أنك تقوم من الليل ، مدة قد تصل تارة
إلى ثلثى الليل ، وقد تصل تارة أخرى إلى نصفه أو إلى ثلثه . . على حسب ما
يتيسر لك ، وعلى حسب أحوال الليل فى الطول والقصر .والمعنى على قراءة غير
الجمهور : إن ربك يعلم أنك تقوم تارة أقل من ثلثى الليل وتارة أقل من نصفه
وتارة أقل من ثلثه . . وذلك لأنك لم تستطع ضبط المقدار الذى تقومه من ،
- الليل ضبطا دقيقا ، ولأن النوم تارة يزيد وقته وتارة ينقص ، والله
. تعالى - قد رفع عنك المؤاخذة بسبب عدم تعمدك القيام أقل من ثلث الليل
فالآية الكريمة المقصود منها بيان رحمة الله - تعالى - بنبيه صلى الله.
عليه وسلم حيث قبل منه قيامه بالليل متهجدا ، حتى ولو كان هذا القيام أقل
من ثلث الليل . .وافتتاح الآية الكريمة بقوله - سبحانه - ( إِنَّ رَبَّكَ
يَعْلَمُ . . . ) يشعر بالثناء عليه صلى الله عليه وسلم . وبالتلطف معه فى
الخطاب ، حيث إنه صلى الله عليه وسلم كان مواظبا على قيام الليل . على قدر
استطاعته ، بدون تقصير أو فتور .وفى الحديث الشريف : أنه صلى الله عليه
وسلم قام الليل حتى تورمت قدماه .والتعبير بقوله - تعالى - : ( أدنى مِن
ثُلُثَيِ الليل وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ ) يدل على أن قيامه صلى الله عليه
وسلم ، وعلى حسب طول الليل وقصره .وقوله - سبحانه - : ( وَطَآئِفَةٌ مِّنَ
الذين مَعَكَ ) معطوف على الضمير المستتر فى قوله : ( تقوم )أى : أنت أيها
الرسول الكريم - تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه ، وتقوم طائفة من
أصحابك للصلاة معك ، أما بقية أصحابك فقد يقومون للتهجد فى منازلهم .روى
البخارى فى صحيحه عن عائشة ، " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى ذات
ليلة فى المسجد ، فصلى بصلاته ناس ، ثم صلى من القابلة فكثر الناس ، ثم
اجتمعوا فى الليلة الثالثة أو الرابعة ، فلم يخرج إليهم رسول الله صلى الله
عليه وسلم فلما أصبح قال : " قد رأيت الذى صنعتم ، ولم يمنعنى من الخروج
) : إليكم ، إلا أنى خشيت أن تفرض عليكم " " .قال بعض العلماء : قوله
وَطَآئِفَةٌ مِّنَ الذين مَعَكَ ) معطوف على الضمير المستكن فى ( تقوم
وهو - وإن كان ضمير رفع متصل - ، قد سوغ العطف عليه الفصل بينه وبين(
المعطوف .والمعنى : أن الله يعلم أنه كان يقوم كذلك جماعة من الذين آمنوا
بك ، واتبعوا هداك . .وقد يقال : إن هذا يدل على أن قيام الليل لم يكن فرضا
- على جميع الأمة ، وهو خلاف ما تقرر تفسيره فى أول السورة ، ويخالف - أيضا
ما دلت عليه الآثار المتقدمة هناك . .والجواب : أنه ليس فى الآية ما يفيد
أن الصحابة - رضوان الله عليهم - كانوا جميعا يصلون مع النبى صلى الله عليه
وسلم صلاة التهجد فى جماعة واحدة ، فلعل بعضهم كان يقيمها فى بيته ، فلا
ينافى ذلك فريضة القيام على الجميع . .وقوله - سبحانه - : ( والله
: يُقَدِّرُ الليل والنهار ) بيان لشمول علمه - تعالى - ولنفاذ إرادته . أى
والله - تعالى - وحده ، هو الذى يعلم مقادير ساعات الليل والنهار ، وهو
الذى يحدد زمانهما - طولا وقصرا - على حسب ما تقتضيه مشيئته وحكمته .والآية
الكريمة تفيد الحصر والاختصاص ، عن طريق سياق الكلام ، ودلالة المقام
وقوله - تعالى - : ( عَلِمَ أن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ) مؤكد.
لما قبله ، وإحصاء الأشياء ، عدها والإحاطة بها .والضمير المنصوب فى قوله
يعود على المصدر المفهوم من قوله : ( يقدر ) فى الجملة ( تُحْصُوهُ ) :
السابقة .والتوبة فى قوله - سبحانه - : ( فَتَابَ عَلَيْكُمْ ) يصح أن تكون
بمعنى المغفرة ، وعدم المؤاخذة ، أو بمعنى قبولها منهم ، والتيسير عليهم فى
الأحكام ، وتخفيفها عنهم .أى : والله - تعالى - هو الذى يقدر أجزاء الليل
والنهار ، وهو الذى يعلم - دون غيره - أنكم لن تستطيعوا تقدير ساعاته
تقديرا دقيقا . . ولذلك خفف الله عنكم فى أمر القيام ، ورفع عنكم المقدار
المحدد ، وغفر لكم ما فرط منكم من تقصير غير مقصود ، ورخص لكم أن تقوموا
المقدار الذى تستطيعون قيامه من الليل ، مصلين ومتهجدين . .فالجملة الكريمة
تقرر جانبا من فضل الله - تعالى - على عباده ، ومن رحمته بهم .والفاء فى
، قوله - تعالى - : ( فاقرءوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ القرآن ) للإفصاح
: والمراد بالقراءة الصلاة ، وعبر عنها بالقراءة ، لأنها من أركانها . . أى
: إذا كان الأمر كما وضحت لكم ، فصلوا ما تيسر لكم من الليل .قال الآلوسى
قوله : ( فاقرءوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ القرآن ) أى : فصلوا ما تيسر لكم من
: صلاة الليل ، وعبر عن الصلاة بالقراءة كما عبر عنها بسائر أركانها ، وقيل
الكلام على حقيقته ، من طلب قراءة القرآن بعينها وفيه بعد عن مقتضى السياق
ومن ذهب إلى الأول قال : إن الله - تعالى - افترض قيام مقدار معين من.
الليل ، لقوله :( قُمِ الليل إِلاَّ قَلِيلاً . نِّصْفَهُ . . . ) الخ . ثم
نسخ بقيام مقدار ما منه ، فى قوله : ( فَتَابَ عَلَيْكُمْ فاقرءوا مَا
تَيَسَّرَ مِنَ القرآن . . . ) فالأمر فى الموضعين للوجوب ، إلا أن الواجب
أولا كان معينا من معينات ، وثانيا كان بعضا مطلقا ، ثم نسخ وجوب القيام
- على الأمة مطلقا بالصلوات الخمس .ومن قال بالثانى : ذهب إلى أن الله

تعالى - رخص لهم فى ترك جميع القيام بالصلاة ، وأمر بقراءة شئ من القرآن
ليلا ، فكأنه قيل : فتاب عليكم ورخص لكم من الترك ، فاقرءوا ما تيسر من
القرآن ، إن شق عليكم القيام . .وقال الإمام ابن كثير : وقوله : ( فاقرءوا
مَا تَيَسَّرَ مِنَ القرآن ) أى : من غير تحديد بوقت ، أى : لكن قوموا من
الليل ما تيسر ، وعبر عن الصلاة بالقراءة ، كما قال فى آية أخرى : ( وَلاَ
تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ ) أى : بقراءتك ( وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا ) وقد استدل
الأحناف بهذه الآية على أنه لا يتعين قراءة الفاتحة فى الصلاة ، بل لو قرأ
بها أو بغيرها من القرآن ، ولو بآية . أجزأه واعتضدوا بحديث المسئ صلاته
الذى فى الصحيحين ، وفيه : " ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن " .وقد أجابهم
الجمهور بحديث عبادة بن الصامت ، وهو فى الصحيحين - أيضا - أن رسول الله
. . صلى الله عليه وسلم قال : " كل صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن فهى خداج
غير تمام " وفى صحيح ابن خزيمة عن أبى هريرة مرفوعا : "لا تجزئ صلاة من لم
يقرأ بفاتحة الكتاب " .وقوله - سبحانه - بعد ذلك : ( عَلِمَ أَن سَيَكُونُ
مِنكُمْ مرضى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأرض يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ
الله وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الله فاقرءوا مَا تَيَسَّرَ
مِنْهُ . . ) بدل اشتمال من جملة : ( عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ
عَلَيْكُمْ . . ) ، أو هو كلام مستأنف لبيان الحكمة التى من أجلها خفف الله
على المسلمين قيام الليل .أى : صلوا من الليل على قدر استطاعتكم من غير
تحديد بوقت ، فالله - تعالى - يعلم أنكم لا تستطيعون ضبط ساعات الليل ولا
أجزائه ، فخفف عليكم لذلك ، ولعلمه - أيضا - أن منكم المرضى الذين يعجزون
) عن قيام ثلثى الليل أو نصفه أو أقل من ذلك بقليل .ومنكم - أيضا - الذين
يَضْرِبُونَ فِي الأرض ) أى : يسافرون فيها للتجارة وللحصول على مطالب
- الحياة ، وهم فى كل ذلك يبتغون ويطلبون الرزق من فضله - تعالى - . ومنكم
أيضا - الذين يقاتلون من أجل إعلاء كلمة الله ، ويجاهدون من أجل نشر دينه
وما دام الأمر كذلك ، فقد أبحت لكم - بفضلى وإحسانى - أن تصلوا من الليل ما
تيسر لكم .وقد جمع - سبحانه - بين السعى فى الأرض لطلب الرزق ، وبين الجهاد
فى سبيله ، للإشعار بأن الأول لا يقل فى فضله عن الثانى ، متى توفرت فيه
النية الطيبة ، وعدم الانشغال به عن ذكر الله - تعالى - .قال الإمام
القرطبى : سوى الله - تعالى - فى هذه الآية بين درجة المجاهدين والمكتسبين
المال والحلال ، للنفقة على النفس والعيال . . فكان هذا دليلا على أن كسب
المال بمنزلة الجهاد فى سبيل الله .وفى الحديث الشريف : " ما من جالب يجلب
طعاما من بلد إلى بلد ، فيبيعه بسعر يومه ، إلا كانت منزلته عند الله
كمنزلة الشهداء ، ثم قرأ صلى الله عليه وسلم هذه الآية . . " .وأعيدت جملة
، لتأكيد التيسير والتخفيف وتقريره ( فاقرءوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ )
) : - وليعطف عليه ما بعده من بقية الأوامر ، وهى قوله - تعالى
وَأَقِيمُواْ الصلاة ) أى : وأدوها كاملة الأركان والخشوع والسنن . . فى
وقتها بدون تأخير .( وَآتُواْ الزكاة ) أى : قدموها لمستحقيها من الفقراء
، والمساكين وغيرهما .قال ابن كثير : أى : أقيموا الصلاة الواجبة عليكم
وآتوا الزكاة المفروضة ، وهذا يدل لمن قال : إن فرض الزكاة نزل بمكة ، لكن
مقادير النصاب لم تبين إلا بالمدينة . .وقوله : ( وَأَقْرِضُواْ الله
قَرْضاً حَسَناً ) . والقرض : ما قدمته لغيرك من مال ، على أن يرده إليك
بعد ذلك . والمراد من إقراض الله - تعالى - : إعطاء الفقراء والمساكين ما
يحتاجونه على سبيل المعاونة والمساعدة .وشبه - سبحانه - إعطاء الصدقة
، للمحتاج ، بقرض يقدم له - تعالى - ، للإشعار بأن ما سيعطى لهذا المحتاج
سعود إضعافه على المعطى . لأن الله - تعالى - قد وعد أن يكافئ على الصدقة
بعشر أمثالها ، وهو - سبحانه - بعد ذلك يضاعف لمن يشاء الثواب والعطاء
ووصف القرض بالحسن ، لحض النفوس على الإخلاص وعلى البعد عن الرياء والأذى.
ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بقوله : ( وَمَا تُقَدِّمُواْ . .
لأَنفُسِكُمْ مِّنْ خَيْرٍ ) أى : أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وأقرضوا
الله قرضا حسنا ، وافعلوا ما تستطيعونه - بعد ذلك - من وجوه الخير ، وما
تقدموا لأنفسكم من هذا الخير الذى يحبه - سبحانه - ( تَجِدُوهُ عِندَ الله
، أى : تجدوا ثوابه وجزاءه عند الله - تعالى - ، ففى الكلام إيجاز بالحذف (
وقد استغنى عن المحذوف بذكر الجزاء عليه . والهاء فى قوله ( تَجِدُوهُ ) هو
المفعول الأول .والضمير المنفصل فى قوله : ( هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ
أَجْراً ) هو ضمير الفصل . . . ( خَيْراً ) هو المفعول الثانى . أى : كل
- فعل موصوف بأنه خير ، تقدمونه عن إخلاص لغيركم ، لن يضيع عند الله
). - تعالى - ثوابه ، بل ستجدون جزاءه وثوابه مضاعفا عند الله - تعالى
واستغفروا الله إِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ) أى : وواظبوا على الاستغفار
وعلى التوبة النصوح ، وعلى التضرع إلى الله - تعالى - أن يغفر لكم ما فرط
. . منكم ، فإنه - سبحانه - واسع المغفرة والرحمة ، لمن تاب إليه وأناب

يا ايها المدثر

كما فسرها الوسيط قد افتتح الله - تعالى - سورة المدثر ، بالملاطفة

والمؤانسة فى النداء والخطاب ، كما افتتح سورة المزمل . والمدثر اسم فاعل من تدثر فلان ، إذا لبس الدثار ، وهو ما كان من الثياب فوق الشعار الذى يلى البدن ، ومنه حديث : " الأنصار شعار والناس دثار " .قال القرطبى : قوله - تعالى - : ( ياأيها المدثر ) ملاطفة فى الخطاب من الكريم إلى الحبيب ، إذ ناداه بحاله ، وعبر عنه بصفته ، ولم يقل يا محمد ويا فلان ، ليستشعر اللين والملاطفة من ربه ، كما تقدم فى سورة المزمل . ومثله قول النبى صلى الله عليه وسلم لِعَلِيٍّ إذ نام فى المسجد " قم أبا تراب " .وكان قد خرج مغاضبا لفاطمة - رضى الله عنها - ، فسقط رداؤه وأصابه التراب . ومثله قوله صلى الله عليه وسلم لحذيفة بن اليمان ليلة الخندق " قم يا نومان " .

قم فانذر

كما فسرها الوسيط والمراد بالقيام فى قوله - تعالى - : قم فأنذر ، المسارعة والمبادرة والتصميم على تنفيذ ما أمره - سبحانه - به ، والإنذار هو الإخبار الذى يصاحبه التخويف .أى : قم - أيها الرسول الكريم - وانهض من مضجعك ، وبادر بعزيمة وتصميم ، على إنذار الناس وتخويفهم من سوء عاقبتهم ، إذا ما استمروا فى كفرهم ، وبلغ رسالة ربك إليهم دون أن تخشى أحدا منهم : ومرهم بأن يخلصوا له - تعالى - العبادة والطاعة .والتعبير بالفاء فى قوله : للإشعار بوجوب الإسراع بهذا الإنذار بدون تردد .وقال ( فَأَنذِرْ ) فأنذر ، دون فبشر ، لأن الإنذار هو المناسب فى ابتداء تبليغ الناس دعوة الحق حتى يرجعوا عما هم فيه من ضلال .ومفعول أنذر محذوف . أى : قم فأنذر الناس ، ومرهم بإخلاص العبادة لله .

وربك فكبر

كما فسرها الوسيط وقوله : ( وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ) أمر آخر له صلى الله عليه وسلم ولفظ (وَرَبَّكَ ) منصوب على التعظيم لفعل ( كبر ) قدم على عاملة لإفادة التخصيص .أى : يأيها المدثر بثيابه لخوفه مما رآه من ملك الوحى ، لا تخف ، وقم فأنذر الناس من عذاب الله ، إذا ما استمروا فى شركهم واجعل تكبيرهم وتعظيمك وتبجيلك لربك وحده ، دون أحد سواه ، وصفه بما هو ، أهله من تنزيه وتقديس .

وثيابك فطهر

كما فسرها الوسيط والمراد بتطهير الثياب فى قوله - تعالى - : ( وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ) أمر بأن تكون ثيابه طاهرة من النجاسات ، لأن طهارة الثياب شرط فى الصلاة ، ولا تصح إلا بها . وهى الأول والأحب فى غير الصلاة . وقبيح بالمؤمن الطيب أن يحمل خبثا .وقيل : هو أمر بتطهير النفس مما يستقذر من الأفعال ، ويستهجن من العادات . يقال : فلان طاهر الثياب ، وطاهر الجيب والذيل والأردان ، إذا وصفوه بالنقاء من المعايب ، ومدانس الأخلاق . ويقال ، فلان دنس الثياب : للغادر - والفاجر - ، وذلك لأن الثوب يلابس الإنسان : ويشتمل عليه ..وسواء أكانت المراد بالثياب هنا معناها الحقيقى ، أو معناها المجازى المكنى به عن النفس والذات ، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم كان مواظبا على الطهارة الحسية والمعنوية فى كل شئونه وأحواله ، فهو بالنسبة لثيابه كان يطهرها من كل دنس وقذر ، وبالنسبة لذاته ونفسه ، كان أبعد الناس عن كل سوء ومنكر من القول أو الفعل .إلا أننا نميل إلى حمل اللفظ على حقيقته ، لأنه لا يوجد ما يوجب حمله على غير ذلك .

والرجز فاهجر

كما فسرها الوسيط ثم أمره - سبحانه - بأمر رابع فقال : ( والرجز فاهجر ) والأصل فى كلمة الرجز أنها تطلق على العذاب ، قال - تعالى - : ( فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرجز إلى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ) والمراد به هنا : الأصنام والأوثان ، أو المعاصى والمآثم التى يؤدى اقترافها إلى العذاب . أى : ودوام - أيها الرسول الكريم - على ما أنت عليه من ترك عبادة الأصنام والأوثان ، ومن هجر المعاصى والآثام .فالمقصود بهجر الرجز : المداومة على هجره وتركه ، لأنه صلى الله عليه وسلم لم يلتبس بشئ من ذلك .

ولا تمنن تستكثر

كما فسرها الوسيط ثم نهاه - سبحانه - عن فعل ، لا يتناسب مع خلقه الكريم صلى الله عليه وسلم فقال : ( وَلاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ) والمن : أن يعطى الإنسان غيره شيئا ، ثم يتباهى به عليه ، والاستكثار : عد الشئ الذى يعطى

كثيرا .أى : عليك - أيها الرسول الكريم - أن تبذل الكثير من مالك وفضلك لغيرك ، ولا تظن أن ما أعطيته لغيرك كثيرا - مهما عظم وجل - فإن ثواب الله وعطاءه أكثر وأجزل . .ويصح أن يكون المعنى : ولا تعط غيرك شيئا ، وأنت : تتمنى أن يرد لك هذا الغير أكثر مما أعطيته ، فيكون المقصود من الآية النهى عن تمنى العوض .قال ابن كثير : قوله : ( وَلاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ قال ابن عباس :لا تعط العطية تلتمس أكثر منها .وقال الحسن البصرى :لا ( تمنن بعملك على ربك تستكثره ، وعن مجاهد :لا تضعف أن تستكثر من الخير وقال ابن زيد :لا تمنن بالنبوة على الناس : تستكثرهم بها ، تأخذ على ذلك. عوضا من الدنيا .فهذه أربعة أقوال ، والأظهر القول الأول - المروى عن ابن . - عباس وغيره

ولربك فاصبر

- كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَلِرَبِّكَ فاصبر ) أى : وعليك أيها الرسول الكريم - أن توطن نفسك على الصبر ، على التكاليف التى كلفك بها ربك ، وأن تتحمل الآلام والمشاق فى سبيل دعوة الحق ، بعزيمة صادقة ، وصبر جميل ، وثبات لا يخالطه تردد أو ضعف .فهذه ست وصايا قد اشتملت على ما يرشد . إلى التحلى بالعقيدة السليمة ، والأخلاق الكريمة

فاذا نقر في الناقور

كما فسرها الوسيط ثم ذكر - سبحانه - بعد ذلك جانبا من أهوال يوم القيامة فقال : ( فَإِذَا نُقِرَ فِي الناقور . فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الكافرين غَيْرُ يَسِيرٍ ) .والفاء فى قوله : ( فَإِذَا نُقِرَ فِي . الناقور ) للسببية . والناقور - بزنة فاعول : من النقر ، وهو اسم لما ينقر فيه ، أى : لما ينادى فيه بصوت مرتفع .والمراد به هنا : الصور أو القرن الذين ينفخ فيه إسرافيل بأمر الله - تعالى - النفخة الثانية التى يكون . بعدها الحساب والجزاء

فذلك يومئذ يوم عسير

كما فسرها الوسيط والفاء فى قوله : ( فَذَلِكَ ) واقعة فى جواب ( إذا ) واسم الإشارة يعود إلى مدلول النقر وما يترتب عليه من حساب وجزاء . وقوله بدل من اسم الإشارة والتنوين فيه عوض عن جملة وقوله : ( عَسِيرٌ ( يومئذ ) - و ( غَيْرُ يَسِير ) صفتان لليوم .أى : أنذر - أيها الرسول الكريم ( الناس ، وبلغهم رسالة ربك ، واصبر على أذى المشركين ، فإنه إذا نفخ إسرافيل بأمرنا النفخة الثانية ، صار ذلك النفخ وما يترتب عليه من أهوال ، وقتا وزمانا عسير أمره على الكافرين ، وغير يسير وقعه عليهم .ووصف اليوم بالعسير . باعتبار ما يقع فيه من أحداث يشيب من هولها الولدان ،

على الكافرين غير يسير

كما فسرها الوسيط وقوله : ( غَيْرُ يَسِير ) تأكيد لمعنى ( عَسِيرٌ ) مغن عنه؟ قلت : لما قال ( عَلَى الكافرين ) فقصر العسر عليهم قال : ( غَيْرُ ، يَسِير ) ليؤذن بأنه لا يكون عليهم كما يكون على المؤمنين يسيرا هينا . ليجمع بين وعيد الكافرين وزيادة غيظهم ، وبين بشارة المؤمنين وتسليتهم ويجوز أن يراد أنه عسير لا يرجى أن يرجع يسيرا . كما يرجى تيسير العسير من . أمور الدنيا

ذرني ومن خلقت وحيدا

. كما فسرها الوسيط ثم ذكر - سبحانه - جانبا من قصة زعيم من زعماء المشركين افترى الكذب على الله - تعالى - وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم فكانت عاقبته العذاب المهين ، فقال - تعالى - : ( ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ . . . وَجِيداً . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً . وَبَنِينَ شُهُوداً . . . وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً . ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ . كَلاَّ وقد ذكر المفسرون أن هذه الآيات نزلت فى شأن الوليد بن المغيرة المخزومى. ( ، وذكروا فى ذلك روايات منها : أن المشركين عندما اجتمعوا فى دار الندوة ، ليتشاوروا فيما يقولونه فى شأن الرسول صلى الله عليه وسلم وفى شأن القرآن الكريم - قبل أن تقدم عليهم وفود العرب للحج . فقال بعضهم : هو شاعر ، وقال آخرون بل هو كاهن . . أو مجنون . . وأخذ الوليد يفكر ويرد عليهم ، ثم قال بعد أن فكر وقدر : ما هذا الذى يقوله محمد صلى الله عليه وسلم إلا سحر يؤثر : أما ترونه يفرق بين الرجل وامرأته ، وبين الأخ وأخيه . .قال الآلوسى ، نزلت هذه الآيات فى الوليد بن المغيرة المخزومى ، كما روى عن ابن عباس

وغيره . بل قيل : كونها فيه متفق عليه . . وقوله : ( وَحِيداً ) حال من الياء فى ( ذَرْنِي ) أى : ذرنى وحدى معه فأنا أغنيك فى الانتقام منه ، أو من التاء فى خلقت أى : خلقته وحدى ، لم يشركنى فى خلقه أحد ، فأنا أهلكه دون أن أحتاج إلى ناصر فى إهلاكه ، أو من الضمير المحذوف العائد على " مَن أى : ذرنى ومن خلقته وحيدا فريدا لا مال له ولا ولد .. وكان الوليد يلقب " فى قومه بالوحيد . . لتفرده بمزايا ليست فى غيره - فتهكم الله - تعالى - به وبلقبه ، أو صرف هذا اللقب من المدح إلى الذم .أى : اصبر - أيها الرسول الكريم - على ما يقوله أعداؤك فيك من كذب وبهتان ، واتركنى وهذا الذى خلقته وحيدا فريدا لا مال له ولا ولد ثم أعطيته الكثير من النعم ، فلم يشكرنى على ذلك .والتعبير بقوله ( ذَرْنِي ) للتهديد والوعيد ، وهذا الفعل يأتى منه الأمر والمضارع فحسب ، ولم يسمع منه فعل ماض .

وجعلت له مالا ممدودا

: كما فسرها الوسيط وقوله : ( وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً ) أى وجعلت له مالا كثيرا واسعا ، يمد بعضه بعضا ، فقوله : ( مَّمْدُوداً ) اسم مفعول من " مدّ " الذى بمعنى أطال بأن شبهت كثرة المال ، بسعة مساحة الجسم أو من " مدّ " الذى هو بمعنى زاد فى الشئ من مثله ، ومنه قولهم : مد. الوادى النهر ، أى : مده بالماء زيادة على ما فيه .قالوا : وكان الوليد من أغنى أهل مكة ، فقد كانت له أموال كثيرة من الإبل والغنم والعبيد والبساتين وغير ذلك من أنواع الأموال .

وبنين شهودا

كما فسرها الوسيط ( وَبَنِينَ شُهُوداً ) أى : وجعلت له - بجانب هذا المال الممدود - أولادا يشهدون مجالسة ، لأنهم لا حاجة بهم إلى مفارقته فى سفر أو تجارة ، إذ هم فى غنى عن ذلك بسبب وفرة المال فى أيدى أبيهم .فقوله : ( شُهُوداً ) جمع شاهد بمعنى حاضر ، وهو كناية عن كثرة تنعمهم وائتناسه بهم ، قيل : كانوا عشرة ، وقيل ثلاثة عشر ، منهم : الوليد ، وخالد ، وعمارة. ، وهشام والعاصى ، وعبد شمس .وقد أسلم منهم ثلاثة ، وهم : خالد ، وهشام وعمارة .

ومهدت له تمهيدا

، كما فسرها الوسيط ( وَمَهّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً ) والتمهيد مصدر مهد بمعنى سوى الشئ ، وأزال منه ما يجعله مضطربا متنافرا ، ومنه مهد الصبى . أى المكان المعد لراحته . والمراد بالتمهيد هنا : تيسير الأمور ، ونفاذ : الكلمة ، وجمع وسائل الرياسة له .أى : جعلت له مالا كثيرا ، وأولادا شهودا وفضلا عن ذلك ، فقد هيأت له وسائل الراحة والرياسة تهيئة حسنة ، أغنته عن الأخذ والرد مع قومه ، بل صار نافذ الكلمة فيهم بدون عناء أو تعب .فأنت ترى أن هذه الآيات الكريمة قد ذكرت أن الله - تعالى - قد أعطى الوليد بن المغيرة ، جماع ما يحتاجه الإنسان فى هذه الحياة ، فقد أعطاه المال الوفير والبنين الشهود ، والجاه التام الذى وصل إليه بدون جهد أو تعب ، .

ثم يطمع ان ازيد

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( ثُمّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ) بيان لما جبل عليه هذا الإنسان من طمع وشره . . أى : مع إمدادى له بكل هذه النعم ، هو لا يشبع ، بل يطلب المزيد منها لشدة حرصه وطمعه . و " ثم " هنا للاستبعاد والاستنكار والتأنيب ، فهى للتراخى الرتبى ، والجملة معطوفة على قوله - قبل ذلك : " وجعلت ومهدت . . " أى : أعطيته كل هذه النعم ، ثم بعد ذلك هو شره لا يشبع ، وإنما يطلب المزيد منها ثم المزيد .

كلا انه كان لاياتنا عنيدا

كما فسرها الوسيط وقوله : ( إِنّهُ كان لآيَاتِنَا عَنِيداً ) تعليل للزجر والردع وقطع الرجاء . أى : كلا لن أمكنه مما يريده ويتمناه . . لأنه كان إنسانا شديد المعاندة والإبطال لآياتنا الدالة على وحدانيتنا ، وعلى صدق رسولنا فيما يبلغه عنا . ومن مظاهر ذلك أنه وصف رسولنا صلى الله عليه وسلم بأنه ساحر . .قال مقاتل : مازال الوليد بعد نزول هذه الآية فى نقص من ماله وولده حتى هلك .

سارهقه صعودا

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما أعده له من عذاب أليم فقال
سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً ) . والإرهاق : الإتعاب الشديد ، وتحميل الإنسان
مالا يطيقه . يقال : فلان رهِقَه الأمر يرهَقُه ، إذا حل به بقهر ومشقة لا
قدرة له على دفعها . ومنه قوله - تعالى - : ( وَلاَ تُرْهِقْنِي مِنْ
أَمْرِي عُسْراً ) وقوله - سبحانه - : ( والذين كَسَبُواْ السيئات جَزَآءُ
سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مّا لَهُمْ مِّنَ الله مِنْ
عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِّنَ الليل مُظْلِماً
والصعود : العقبة الشديدة ، التى لا يصل الصاعد نحوها إلا بمشقة ( . . .
كبيرة ، وتعب قد يؤدى إلى الهلاك والتلف . وهذه الكلمة صيغة مبالغة من
) : الفعل صَعِد .وهذه الآية الكريمة فى مقابل قوله - تعالى - قبل ذلك
وَمَهّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً ) أى : أن هذا الجاه الذى أتاه فى الدنيا بدون
: تعب . . سيلقى فى الآخرة ما هو نقيضه من تعب وإذلال . .قال صاحب الكشاف
قوله : ( سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً ) أى : سأغشيه عقبة شاقة المصعد .وهو مثل
لما يلقى من العذاب الشاق الصعد الذى لا يطاق . وعن النبى صلى الله عليه
وسلم " يكلف أن يصعد عقبة فى النار ، كلما وضع عليها يده ذابت ، فإذا رفعها
عادت ، وإذا وضع رجله عليها ذابت ، فإذا رفعها عادت " وعنه صلى الله عليه
" وسلم : " الصعود جبل من نار يصعد فيه سبعين خريفا ثم يهوى فيه كذلك أبدا
.

انه فكر وقدر

كما فسرها الوسيط ثم صور - سبحانه - حال هذا الشقى تصويرا بديعا يثير
السخرية منه ومن تفكيره فقال : ( إِنّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ) أى : إن هذا
الشقى ردد فكره وأدراه فى ذهنه ، وقدَّر وهيأ فى نفسه كلاما شنيعا يقوله فى
حق الرسول صلى الله عليه وسلم وفى حق القرآن الكريم .يقال : قدَّر فلان
الشئ فى نفسه ، إذا هيأه وأعده . .والجملة الكريمة تعليل للوعيد والزجر
. . وتقرير لاستحقاقه له ، أو بيان لمظاهر عناده

فقتل كيف قدر

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( فَقُتِلَ كَيْفَ قَدّرَ . ثُمّ
قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ) تعجيب من تفكيره وتقديره ، وذم شديد له على هذا
التفكير السَّيِّئ . .أى : إنه فكر مليا ، وهيأ نفسه طويلا للنطق بما يقوله
فى حق الرسول صلى الله عليه وسلم وفى قح القرآن ، ( فقتل ) أى : فلعن ، أو
عذب ، وهو دعاء عليه ( كَيْفَ قَدّرَ ) أى : كيف فكر هذا التفكير العجيب
البالغ النهاية فى السوء والقبح .

ثم قتل كيف قدر

كما فسرها الوسيط *وقوله : ( ثُمّ قُتِلَ كَيْفَ قَدّرَ ) تكرير
للمبالغة فى ذمه . والتعجيب من سوء تقديره ، وفى الدعاء عليه باللعن والطرد
من رحمته - تعالى - .والعطف بثم لافادة التفاوت فى الرتبة ، وأن الدعاء
عليه والتعجيب من حاله فى الجملة الثانية ، أشد منه فى الجملة الأولى .

ثم نظر

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - بعد ذلك : ( ثُمّ نَظَرَ . ثُمّ عَبَسَ
، وَبَسَرَ . ثُمَّ أَدْبَرَ واستكبر . . . ) تصوير آخر لحالة هذا الشقى
يرسم حركات جسده ، وخلجات قلبه ، وتقاطيع وجهه . . رسما بديعا ، يثير فى
النفوس السخرية من هذا الشقى .أى : إنه فكر تفكيرا مليا ، وقدر فى نفسه ما
سيقوله فى شأن النبى صلى الله عليه وسلم تقديرا طويلا . . ولم يكتف بكل ذلك
بل فكر وقدر ( ثُمّ نَظَرَ ) أى : ثم نظرفى وجوه من حوله نظرات يكسوها ،
الجد المصطنع المتكلف ، حتى لكأنه يقول لهم : اسمعوا وعوا لما سأقوله لكم .
.

ثم عبس وبسر

كما فسرها الوسيط ( ثُمّ عَبَسَ وَبَسَرَ ) أى : ثم قطب ما بين عينيه حين
استعصى عليه أن يجد فى القرآن مطعنا ، وكلح وجهه ، وتغير لونه ، وارتعشت
أطرافه ، حين ضاقت عليه مذاهب الحيل ، فى أن يجد فى القرآن مطعنا .يقال :
عَبسَ فلان يَعْبِسُ عبوسا ، إذا قطب جبينه . وأصله من العبس وهو ما تعلق
بأذناب الإبل من أبوالها وأبعارها بعد أن جف عليها .ويقال : بَسر فلان
) : - يَبسُر بسورا ، إذا قبض ما بين عينيه كراهية للشئ .ومنه قوله - تعالى
( وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ . تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ .

ثم ادبر واستكبر

كما فسرها الوسيط ( ثُمَّ أَدْبَرَ واستكبر ) أى : ثم إنه بعد هذا التفكير والتقدير ، وبعد هذا العبوس والبسور ، بعد ذلك أدبر على الحق ، واستكبر عن قبوله .

فقال ان هذا الا سحر يؤثر

كما فسرها الوسيط ( فقال ) - على سبيل الغرور والجحود - ( فَقَالَ إِنْ هَاذَآ إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ ) أى : ما هذا القرآن الذى يقرؤه محمد صلى الله عليه وسلم علينا ، إلا سحر مأثور أى : مروى عن الأقدمين ، ومنقول من أقوالهم وكلامهم .

ان هذا الا قول البشر

كما فسرها الوسيط وجملة ( إِنْ هاذآ إِلاَّ قَوْلُ البشر ) بدل مما قبلها ، أى : ما هذا القرآن إلا سحر مأثور عن السابقين ، فهو من كلام البشر ، وليس من كلام الله - تعالى - كما يقول محمد صلى الله عليه وسلم .قال صاحب الكشاف فإن قلت : ما معنى " ثم " الداخلة فى تكرير الدعاء؟ قلت : الدالة على أن : الكرة الثانية أبلغ من الأولى ، ونحوه قوله : ألا يا اسلَمِى ثم اسلَمِى ، ثُمّتَ اسلمى .فإن قلت : ما معنى المتوسطة بين الأفعال التى بعدها؟ قلت : الدلالة على أنه قد تأتى فى التأمل والتمهل ، وكأن بين الأفعال المتناسقة تراخيا وتباعدا . .فإن قلت : فلم قيل : ( فَقَالَ إِنْ هاذآ . . . ) بالفاء بعد عطف ما قبله بثم؟ قلت : لأن الكلمة لما خطرت بباله بعد التطلب ، لم يتمالك أن نطق بها من غير تلبث .فإن قلت : فلم لم يوسط حرف العطف بين الجملتين؟ قلت : لأن الأخرى جرت من الأولى مجرى التوكيد من المؤكد .

ساصليه سقر

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك الوعيد الشديد الذى توعد به هذا الشقى الأثيم فقال : ( سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ) وسقر : اسم لطبقة من طبقات جهنم ، والجملة الكريمة بدل من قوله : ( سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً ) أى : سأحرقه بالنار المتأججة الشديدة الاشتعال .

وما ادراك ما سقر

كما فسرها الوسيط وقوله : ( وَمَآ أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ) تهويل من حال هذه النار وتفظيع لشدة حرها .أى : وما أدراك ما حال سقر؟ إن حالها وشدتها لا تستطيع العبارة أن تحيط بها .

لا تبقي ولا تذر

كما فسرها الوسيط وجملة ( لاَ تُبْقِي وَلاَ تَذَرُ ) بدل اشتمال من التهويل الذى أفادته جملة ( وَمَآ أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ )أى : هذه النار لا تبقى شيئا فيها إلا أهلكته ، ولا تترك من يلقى فيها سليما ، بل تمحقه محقا وتبلعه بلعا ، وتعيده - بأمر الله تعالى - إلى الحياة مرة أخرى ليزداد من العذاب ، كما قال - تعالى - : ( كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ العذاب . . ).

لواحة للبشر

كما فسرها الوسيط * وقوله : ( لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ) صفة ثالثة من صفات سقر .ومعنى : ( لَوَّاحَةٌ ) مُغَيِّرة للبشرَات ، مُسَوِّدة للوجوه . صيغة مبالغة من اللَّوْح بمعنى تغيير الشئ يقال : فلان لوّحته الشمس ، إذا سَوَّدَتْ ظاهرَه وأطرافه . والبشر : جمع بشرة وهى ظاهر الجلد .أى : أن هذه النار من صفاتها - أيضا - أنها تغير ألوان الجلود ، فتجعلها مسودة بعد أن كانت على غير هذا اللون ، وأنها لا تنزل بالأجساد من الآلام ما لا يعلمه إلا الله - تعالى - .

عليها تسعة عشر

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ) أى : على سقر تسعة عشر من الملائكة ، يَلْقَوْن فيها أهلَها . ثم قيل : على جملة

النار تسعة عشر من الملائكة هم خزنتها مالك وثمانية عشر ملكا .ويحتمل أن يكون التسعة عشر نقيبا . ويحتمل أن يكون تسعة عشر ملكا بأعيانهم ، وعلى هذا أكثر المفسرين . .

وما جعلنا اصحاب النار الا ملائكة وما جعلنا عدتهم الا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين اوتوا الكتاب ويزداد الذين امنوا ايمانا ولا يرتاب الذين اوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا اراد الله بهذا مثلا كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك الا هو وما هي الا ذكرى للبشر

، كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك جانبا من مظاهر قدرته وحكمته وابتلائه لعباده بشتى أنواع الابتلاء ، ليتميز قوى الإيمان من ضعيفه . فقال - تعالى - :( وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَابَ النارِ إِلاَّ مَلاَئِكَةً. قال الإمام ابن كثير : يقول الله - تعالى - : ( وَمَا جَعَلْنَآ . . . أَصْحَابَ النار ) أى : خزانها ( إِلاَّ مَلاَئِكَةً ) أى : غلاظا شدادا وذلك رد على مشركى قريش حين ذكر عدد الخزنة . فقال أبو جهل : يا معشر قريش ): - أما يستطيع كل عشرة منكم لواحد منهم فتغلبونهم؟ فقال الله - تعالى ، وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَابَ النار إِلاَّ مَلاَئِكَةً ) أى : شديدى الخلق لا يقاومون ولا يغالبون .وقد قيل : إن أبا الأشد - واسمه : كلدة بن أسيد بن خلف - قال : يا معشر قريش ، اكفونى منهم اثنين وأنا أكفيكم سبعة عشر إعجابا منه بنفسه ، وكان قد بلغ من القوة - فيما يزعمون - أنه كان يقف على جلد البقرة ، ويجاذبه عشرة لينتزعوه من تحت قدميه ، فيتمزق الجلد ، ولا يتزحزح عنه . .وقال الجمل فى حاشيته : قال ابن عباس : لما نزلت هذه الآية ) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ) قال أبو جهل لقريش : ثكلتكم أمهاتكم! محمد صلى الله عليه وسلم يخبر أن خزنة النار تسعة عشر ، وأنتم الشجعان ، أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد منكم؟فقال أبو الأشد : أنا أكفيكم منهم سبعة عشر - عشرة على ظهرى ، وسبعة على بطنى .وأكفونى أنتم اثنين . . فأنزل الله ، تعالى - : ( وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَابَ النار إِلاَّ مَلاَئِكَةً . . ) والمقصود من هذه الآية الكريمة الرد على المشركين ، الذين سخروا من النبى. صلى الله عليه وسلم عندما عرفوا منه أن على سقر تسعة عشر ملكا يتولون أمرها أى : أننا أوجدنا النار لعذاب الكافرين ، وما جعلنا خزنتها إلا من. . الملائكة الغلاظ الشداد ، الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون والذين لا قدرة لأحد من البشر على مقاومتهم أو مخالفة أمرهم ، لأنهم أشد ، . بأسا ، وأقوى بطشا من كافة الإنس والجن . .والاستثناء من عموم الأنواع أى : وما جعلنا أصحاب النار إلا من نوع الملائكة ، الذين لا قدرة لأحد من البشر على مقاومتهم . .وقوله - سبحانه - : ( وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ) بيان لحكمة أخرى من ذكر هذا العدد : والفتنة بمعنى الاختبار والامتحان . تقول : فتنت الذهب بالنار ، أى. . اختبرته بها ، لتعلم جودته من رداءته . وقوله : ( إِلاَّ فِتْنَةً ) مفعول ثان لقوله ( جَعَلْنَا ) والكلام على حذف مضاف . .أى : وما جعلنا عدة خزنة النار تسعة عشر ، إلا ليكون هذا العدد سبب فتنة واختبار للذين كفروا ، ولقد زادهم هذا الامتحان والاختبار جحودا وضلالا ، ومن مظاهر ذلك أنهم استهزأوا بالنبى صلى الله عليه وسلم عندما قرأ عليهم القرآن ، فحق عليهم عذابنا ووعيدنا . .قال الإمام الرازى : وإنما صار هذا العدد سببا لفتنة الكفار من - وجهين : الأول أن الكفار كانوا يستهزئون ويقولون : لم لا يكونون عشرين بدلا من تسعة عشر - وما المقتضى لتخصيص هذا العدد؟والثانى أن الكفار كانوا يقولون : هذا العدد القليل ، كيف يكون وافيا بتعذيب أكثر العالم من الجن ، والإنس .. ؟وأجيب عن الأول : بأن هذا السؤال لازم على كل عدد يفرض وأفعال الله - تعالى -لا تعلل ، فلا يقال فيها لم كان هذا العدد ، فإن ذكره لحكمة لا يعلمها إلا هو - سبحانه - .وأجيب عن الثانى : بأنه لا يبعد أن الله - تعالى - يعطى ذلك العدد القليل قوة تفى بذلك ، فقد اقتلع جبريل ، وحده ، مدائن قوم لوط على أحد جناحيه ، ورفعها إلى السماء . . ثم قلبها ، فجعل عاليها سافلها . .- وأيضا - فأحوال القيامة ، لا تقاس بأحوال الدنيا وليس للعقل فيها مجال . .وقوله - سبحانه - : ( لِيَسْتَيْقِنَ الذين أُوتُواْ الكتاب وَيَزْدَادَ الذين آمنوا إِيمَاناً . . . ) علة أخرى ، لذكر هذا العدد . والاستيقان : قوة اليقين ، فالسين والتاء للمبالغة .أى : وما جعلنا عدتهم كذلك - أيضا - إلا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى ، بأن الرسول صلى الله عليه وسلم صادق فيما يبلغه عن ربه ، إذ أن الكتب السماوية التى بين أيديهم قد ذكرت هذا العدد ، كما ذكره القرآن الكريم ، وإذا ليزداد المؤمنون إيمانا على إيمانهم ، بصدق نبيهم صلى الله عليه وسلم ، إذ أن الإخبار عن المغيبات عن طريق القرآن الكريم ، من شأنها أن تجعل الإيمان فى قلوب المؤمنين الصادقين ، يزداد رسوخا وثباتا .قال الإمام ابن كثير : قوله : ( لِيَسْتَيْقِنَ الذين أُوتُواْ الكتاب ) أى : يعلمون أن هذا الرسول حق ، فإنه نطق بمطابقة ما بأيديهم من الكتب السماوية

المنزلة على الأنبياء قبله . .وقال الآلوسى : وأخرج الترمذى وابن مردويه عن
جابر قال : " قال ناس من اليهود ، لأناس من المسلمين : هل يعلم نبيكم عدد
خزنة جهنم؟ فأخبروا بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " هكذا وهكذا
فى مرة عشرة . وفى مرة تسعة " .وقال الآلوسى : واستشعر من هذا أن الآية "
مدنية ، لأن اليهود إنما كانوا فيها ، وهو استشعار ضعيف ، لأن السؤال
لصحابى فلعله كان مسافرا فاجتمع بيهودى حيث كان - وأيضا -لا مانع إذ ذاك
من إتيان بعض اليهود نحو مكة . .وقوله - تعالى - : ( وَلاَ يَرْتَابَ الذين
أُوتُواْ الكتاب والمؤمنون ) معطوف على قوله : ( لِيَسْتَيْقِنَ . . ) وهو
مؤكد لما قبله ، من الاستيقان وازدياد الإيمان ، ونفى لما قد يعترى
المستيقن من شبهة عارضة .أى : فعلنا ما فعلنا ليكتسب أهل الكتاب اليقين من
نبوته صلى الله عليه وسلم وليزداد المؤمنون إيمانا على إيمانهم . ولتزول كل
. ريبة أو شبهة قد تطرأ على قلوب الذين أوتوا الكتاب ، وعلى قلوب المؤمنين
وقوله - سبحانه - : ( وَلِيَقُولَ الذين فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ والكافرون.
مَاذَآ أَرَادَ الله بهذا مَثَلاً ) بيان لعلة أخرى لكون خزنة سقر تسعة عشر
أى : ما جعلنا عدتهم كذلك إلا فتنة للذين كفروا ، وإلا ليستيقن الذين.
أوتوا الكتاب من صدق الرسول صلى الله عليه وسلم وإلا ليزداد الذين آمنوا
إيمانا ، وإلا لنزول الريبة من قلوب الفريقين ، وإلا ليقول الذين فى قلوبهم
مرض ، أى : شك وضعف إيمان ، وليقول الكافرون المصرون على التكذيب : ما
الأمر الذى أراده الله بهذا المثل ، وهو جعل خزنة سقر تسعة عشر؟ فالمقصود
بالاستفهام فى قوله - تعالى - : ( مَاذَآ أَرَادَ الله بهذا مَثَلاً )
) : الإنكار . والإشارة بهذا مرجعها إلى قوله - تعالى - قبل ذلك
، عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ) وقوله : ( مثلا ) حال من اسم الإشارة
والمراد به العدد السابق . وسموه مثلا لغرابته عندهم . أى : ما الفائدة فى
أن تكون عدة خزنة سقر تسعة عشر ، وليسوا أكثر أو أقل؟ وهم يقصدون بذلك نفى
) : - أن يكون هذا العدد من عنده - تعالى - .قال الآلوسى : قوله - تعالى
مَاذَآ أَرَادَ الله بهذا مَثَلاً ) أى : أى شئ أراده الله - تعالى - ، أو
ما الذى أراده الله - تعالى - بهذا العدد المستغرب استغراب المثل .وعلى
) الأول تكون ( ماذا ) بمنزلة اسم واحد . . وعلى الثانى : هى مؤلفة من كلمة
، ما ) اسم استفهام مبتدأ ، و ( ذا ) اسم موصول خبره ، والجملة بعده صلة
والعائد فيها محذوف ، ( ومثلا ) نصب على التمييز أو على الحال . . وعنوا
. - بالإشارة : التحقير ، وغرضهم : نفى أن يكون ذلك من عند الله - تعالى
واسم الإشارة فى قوله - تعالى - : ( كَذَلِكَ يُضِلُّ الله مَن يَشَآءُ ).
يعود إلى ما تضمنه الكلام السابق ، من استيقان أهل الكتاب ، وازدياد
: المؤمنين إيمانا ، واستنكار الكافرين ومن فى قلوبهم مرض لهذا المثل .أى
- مثل ذلك الضلال الحاصل للذين فى قلوبهم مرض للكافرين ، يضل الله - تعالى
من يشاء إضلاله من خلقه ، ومثل ذلك الهدى الحاصل فى قولب المؤمنين ، يهدى
الله من يشاىء هدايته من عباده ، إذ هو - سبحانه - الخالق لكل شئ ، وهو على
كل شئ قدير .ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ما يخرس ألسنة الكافرين ، الذين
أنكروا هذا العدد الذى جعله الله - تعالى - على سقر ، ليتصرف فيها على حسب
إرادته - تعالى - ومشيئته ، فقال : ( وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ
إلاّ هُوَ ) والجنود : جمع جند ، وهو اسم لما يتألف منه الجيش من أفراد
والمراد بهم هنا : مخلوقاته - تعالى - الذين سخرهم لتنفيذ أمره ، وسموا.
جنودا ، تشبيها لهم بالجنود فى تنفيذ مراده - سبحانه - .أى : وما يعلم عدد
جنود ربك - أيها الرسول الكريم - ولا مبلغ قوتهم ، إلا هو - عز وجل - وما
هذا العدد الذى ذكرناه لك إلا جزء من جنودنا ، الذين حجبنا علم عددهم
وكثرتهم .. عن غيرنا .قال الإمام ابن كثير : قوله - تعالى - : ( وَمَا
يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ) أى : وما يعلم عددهم وكثرتهم إلا
هو - تعالى - ، لئلا يتوهم متوهم أنماهم تسعة عشر فقط .وقد ثبت فى حديث
الإسراء المروى فى الصحيحين وغيرهما ، " عن رسول الله صلى الله عليه وسلم
أنه قال فى صفة البيت المعمور ، الذى فى السماء السابعة : فإذا هو يدخله كل
يوم سبعون ألف ملك . . "والضمير فى قوله : ( وَمَا هِيَ إِلاَّ ذكرى
لِلْبَشَرِ ) يعود إلى سقر . . أى : وما سقر التى ذكرت لكم أن عليها تسعة
عشر ملكا يلون أمرها ، إلا تذكرة وعظة للبشر ، لأن من يتذكر حرها وسعيرها
وشدة عذابها . . من شأنه ، أن يخلص العبادة لله - تعالى - ، وأن يقدم فى
دنياه العمل الصالح الذى ينفعه فى أخراه .وقيل : الضمير للآيات الناطقة
بأحوال سقر . أى : وما هذه الآيات التى ذكرت بشأن سقر وأهوالها إلا ذكرى
. للبشر

كلا والقمر

كما فسرها الوسيط ثم أبطل - سبحانه - ما أنكره الذين فى قلوبهم مرض ، وما
. أنكره الكافرون مما جاء به القرآن الكريم ، فقال : ( كَلاَّ والقمر
. والليل إِذْ أَدْبَرَ . والصبح إِذَآ أَسْفَرَ . إِنَّهَا لإِحْدَى الكبر
نَذِيراً لِّلْبَشَرِ . لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ

يَتَأَخَّرَ ) .و ( كلا ) حرف زجر وردع وإبطال لكلام سابق . والواو فى قوله
للقسم والمقسم به ثلاثة أشياء : القمر والليل والصبح ، وجواب ( والقمر ) :
القسم قوله : ( إِنَّهَا لإِحْدَى الكبر . . . )أى : كلا ، ليس الأمر كما
أنكر هؤلاء الكافرون ، من أن تكون عدة الملائكة الذين على سقر ، تسعة عشر
ملكا ، أو من أن تكون سقر مصير هؤلاء الكافرين ، أو من أن فى قدرتهم مقاومة
هؤلاء الملائكة .كلا ، ليس الأمر كذلك ، وحق القمر الذى ( قَدَّرْنَاهُ
مَنَازِلَ حتى عَادَ كالعرجون القديم ).

والليل اذ ادبر

كما فسرها الوسيط وحق ( والليل إِذْ أَدْبَرَ ) أى : وقت أن ولى ذاهبا بسبب
إقبال النهار عليه .

والصبح اذا اسفر

كما فسرها الوسيط وحق ، ( والصبح إِذَآ أَسْفَرَ ) ، أى : إذا أضاء وابتدأ
فى الظهور والسطوع .

انها لاحدى الكبر

كما فسرها الوسيط والضمير فى قوله - تعالى - : ( إِنَّهَا لإِحْدَى الكبر )
يعود إلى سقر . والكبر : جمع كبرى ، والمراد بها : الأمور العظام ، والخطوب
الجسام .أى : إن سقر التى تهكم بها وبخزنتها الكافرون ، لهى إحدى الأمور
العظام ، والدواهى الكبار ، التى قل أن يوجد لها نظير أو مثيل فى عظمها وفى
شدة عذاب من يصطلى بنارها .وأقسم - سبحانه - بهذه الأمور الثلاثة ، لزيادة
التأكيد ، ولإبطال ما تفوه به الجاحدون ، بأقوى أسلوب .وكان القسم بهذه
الأمور الثلاثة ، لأنها تمثل ظهور النور بعد الظلام ، والهداية بعد الضلال
ولأنها تناسب قوله - تعالى - قبل ذلك : ( كَذَلِكَ يُضِلُّ الله مَن ،
يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ ) .

نذيرا للبشر

كما فسرها الوسيط وانتصب لفظ " نذيرا " من قوله : ( نَذِيراً لِّلْبَشَرِ )
على أنه حال من الضمير فى قوله ( إِنَّهَا لإِحْدَى الكبر ) أى : إن سقر
لعظمى العظائم ، ولداهية الدواهى ، حال كونها إنذارا للبشر ، حتى يقلعوا عن
كفرهم وفسوقهم ، ويعودوا إلى إخلاص العبادة لخالقهم .ويصح أن يكون تمييزا
لإحدى الكبر ، لما تضمنته من معنى التعظيم ، كأنه قيل : إنها لإحدى الكبر
إنذارا للبشر ، وردعا لهم عن التمادى فى الكفر والضلال . . فالنذير بمعنى
الإنذار .

لمن شاء منكم ان يتقدم او يتاخر

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن
يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ) بدل مفصل من مجمل ، هذا المجمل هو قوله
للبشر ) .أى : إن سقر لهى خير منذر للذين إن شاءوا تقدموا إلى الخير ففازوا
وإن شاءوا تأخروا عنه فهلكوا . فالمراد بالتقدم نحو الطاعة والهداية ، .
والمراد بالتأخر : التأخر عنهما والانحياز نحو الضلال والكفر إذ التقدم
تحرك نحو الأمام ، وهو كناية عن قبول الحق ، وبعكسه التأخر . .ويجوز أن
يكون المعنى : هى خير نذير لمن شاء منكم التقدم نحوها ، أو التأخر عنها
وتعليق ( نذيرا ) بفعل المشيئة ، للإشعار بأن عدم التذكر مرجعه إلى.
انطماس القلب ، واستيلاء المطامع والشهوات عليه ، وللإيذان بأن من لم
يتذكر ، فتبعة تفريطه واقعة عليه وحده ، وليس على غيره .قال الآلوسى : قوله
الجار ( لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ) :
" والمجرور بدل من الجار والمجرور فيما سبق ، أعنى ( للبشر ) وضمير " شاء
للموصول . أى : نذيرا للمتمكنين منكم من السبق إلى الخير ، والتخلف عنه .
وقال السدى : أن يتقدم إلى النار المتقدم ذكرها ، أو يتأخر عنها إلى الجنة
. . وقال الزجاج : أن يتقدم إلى المأمورات أو يتأخر عن المنهيات ،

كل نفس بما كسبت رهينة

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - جانبا من مظاهرعدله فى أحكامه : وفى
- بيان الأسباب التى أدت إلى فوز المؤمنين ، وهلاك الكافرين . . فقال
) : - تعالى - :( كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ . . . ) .قوله - تعالى
رَهِينَةٌ ) خبر عن ( كُلُّ نَفْسٍ ) ، وهو بمعنى مرهونة . أى : كل نفس

مرهونة عند الله - تعالى - بكسبها ، مأخوذة بعملها ، فإن كان صالحا أنجاها من العذاب ، وإن كان سيئا أهلكها ، وجعلها محلا للعقاب .قالوا : وإنما كانت مرهونة ، لأن الله - تعالى - جعل تكليف عباده كالدّين عليهم ، ونفوسهم تحت استيلائه وقهره ، فهى مرهونة ، فمن وفى الذى كلف به ، خلص نفسه من عذاب الله - تعالى - الذين نزل منزلة علامة الرهن ، وهو أخذ فى الدين ، ومن لم يوف عذب .

الا اصحاب اليمين

كما فسرها الوسيط والاستثناء فى قوله ( إِلاَّ أَصْحَابَ اليمين ) استثناء متصل أى أن كل نفس مرهونة بعملها . . إلا أصحاب اليمين وهم المؤمنين الصادقون.

في جنات يتساءلون

كما فسرها الوسيط فإنهم مستقرون ( فِي جَنَّاتٍ ) عالية ( يَتَسَآءَلُونَ . عَنِ المجرمين ) أى : يسأل بعضهم بعضا عن أحوال المجرمين .

عن المجرمين

كما فسرها الوسيط فإنهم مستقرون ( فِي جَنَّاتٍ ) عالية ( يَتَسَآءَلُونَ . عَنِ المجرمين ) أى : يسأل بعضهم بعضا عن أحوال المجرمين .وهذا التساؤل إنما يكون قبل أن يروهم ، فإذا ما رأوهم سألوهم بقوله : ( مَا سَلَكَكُمْ ، فِي سَقَرَ ) أى : قال أصحاب اليمين للمجرمين : ما الذى أدخلكم فى سقر وجعلكم وقودا لنارها وسعيرها؟ والسؤال إنما هو على سبيل التوبيخ والتحسير لهؤلاء المجرمين .

ما سلككم في سقر

كما فسرها الوسيط وعبر - سبحانه - بقوله : ( مَا سَلَكَكُمْ . . . ) للإشعار بأن الزج بهم فى سقر ، كان بعنف وقهر ، لأن السلك معناه : إدخال شئ بصعوبة وقسر ، ومنه قوله - تعالى - : ( كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ المجرمين . لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأولين ).

قالوا لم نك من المصلين

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - ما رد به المجرمون على أصحاب اليمين فقال : ( قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ المصلين . وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ المسكين . وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الخآئضين . وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدين . حتى أَتَانَا اليقين ) . أى : قال المجرمون لأصحاب اليمين : الذى أدى بنا إلى الإِلقاء فى سقر ، أننا فى الدنيا لم نقم بأداء الصلاة الواجبة علينا .

ولم نك نطعم المسكين

كما فسرها الوسيط ولم نعط المسكين ما يستحقه من عطاء ، بل بخلنا عليه ، وحرمناه حقوقه . .

وكنا نخوض مع الخائضين

كما فسرها الوسيط وكنا - أيضا - فى الدنيا نخوض فى الأقوال السيئة وفى الأفعال الباطلة مع الخائضين فيها ، دون أن نتورع عن اجتناب شئ منها .وأصل الخوض : الدخول فى الماء ، ثم استعير للجدال الباطل ، وللأحاديث التى لا خير من ورائها .

وكنا نكذب بيوم الدين

كما فسرها الوسيط وكنا - أيضا - نكذب بيوم القيامة ، وننكر إمكانه ووقوعه ، وبقينا على هذا الإِنكار والضلال .

حتى اتانا اليقين

كما فسرها الوسيط ( حتى أَتَانَا اليقين ) أى : حتى أدركنا الموت ، ورأينا بأعيننا صدق ما كنا نكذب به .فأنت ترى أن هؤلاء المجرمين قد اعترفوا بأن الإِلقاء بهم فى سقر لم يكن على سبيل الظالم لهم ، وإنما كان بسبب تركهم

للصلاة وللإطعام ، وتعمدهم ارتكاب الباطل من الأقوال والأفعال ، وتكذيبهم بيوم القياة وما فيه من حساب وجزاء .

فما تنفعهم شفاعة الشافعين

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشافعين ) حكم منه - سبحانه - عليهم بحرمانهم ممن يشفع لهم أو ينفعهم .أى أن هؤلاء المجرمين لن تنفعهم يوم القيامة شفاعة أحد لهم ، فيما لو تقدم : أحد الشفاعة لهم على سبيل الفرض والتقدير ، وإنما الشفاعة تنفع غيرهم من المسلمين .

فما لهم عن التذكرة معرضين

كما فسرها الوسيط والاستفهام فى قوله : ( فَمَا لَهُمْ عَنِ التذكرة مُعْرِضِينَ . كَأَنّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ . فَرّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ) للتعجيب من إصرارهم على كفرهم ، ومن إعراضهم عن الحق الذى دعاهم إليه نبيهم صلى الله عليه وسلم .والمراد بالتذكرة : التذكير بمواعظ القرآن وإرشاداته ، والحمر : جمع حمار ، والمرادبه الحمار الوحشى المعروف بشدة نفوره وهروبه إذا ما أحس بحركة المقتنص له .وقوله : ( مُّسْتَنفِرَةٌ ) أى شديدة النفور والهرب فالسين والتاء للمبالغة .والقسورة : الأسد ، سمى : بذلك لأنه يقسر غيره من السباع ويقهرها ، وقيل : القسورة اسم الجماعة الرماة الذين يطاردون الحمر الوحشية ، ولا واحد له من لفظه ، ويطلق هذا اللفظ عند العرب على كل من بالغ النهاية فى الضخامة والقوة . من القسر بمعنى القهر . أى : ما الذى حدث لهؤلاء الجاحدين المجرمين ، فجعلهم يصرون إصرارا تاما على الإعراض عن مواعظ القرآن الكريم ، وعن هداياته وإرشاداته وأوامره ونواهيه . . حتى لكأنهم - فى شدة إعراضهم عنه ، ونفورهم منه ، - حمر وحشية قد نفرت بسرعة وشدة من أسد يريد أن يفترسها ، أو من جماعة من الرماة أعدوا العدة لاصطيادها؟قال صاحب الكشاف : شبههم - سبحانه - فى إعراضهم عن القرآن ، واستماع الذكر والموعظة ، وشرادهم عنه - بحمر جدت فى نفارها مما أفزعها .وفى تشبيههم بالحمر : مذمة ظاهرة ، وتهجين لحالهم بين كما فى قوله - تعالى - : ( كَمَثَلِ الحمار يَحْمِلُ أَسْفَاراً ) وشهادة عليهم بالبلة وقلة العقل ، ولا ترى مثل نفار حمير الوحش ، واطرادها فى العدو ، إذا رابها رائب ولذلك كان أكثر تشبيهات العرب ، فى وصف الإبل وشدة سيرها ، بالحمر ، وعدوها إذا وردت ماء فأحست عليه بقانص . .والتعبير بقوله : ( فَمَا لَهُمْ . . . ) وما يشبهه قد كثر استعماله فى القرآن الكريم ، كما فى قوله - تعالى - : ( فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ . . . ) والمقصود منه التعجيب من إصرار المخاطبين على باطلهم ، أو على معتقد من ) - معتقداتهم . . مع أن الشواهد والبينات تدل على خلاف ذلك .وقال - سبحانه عَنِ التذكرة ) بالتعميم ، ليشمل إعراضهم كل شئ يذكرهم بالحق ، ويصرفهم عن الباطل .

كانهم حمر مستنفرة

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html}

. والاستفهام فى قوله : ( فَمَا لَهُمْ عَنِ التذكرة مُعْرِضِينَ كَأَنّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ . فَرّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ) للتعجيب من إصرارهم على كفرهم ، ومن إعراضهم عن الحق الذى دعاهم إليه نبيهم صلى الله عليه وسلم .والمراد بالتذكرة : التذكير بمواعظ القرآن وإرشاداته ، والحمر : جمع حمار ، والمرادبه الحمار الوحشى المعروف بشدة نفوره وهروبه إذا ما أحس بحركة المقتنص له .وقوله : ( مُّسْتَنفِرَةٌ ) أى : شديدة النفور والهرب فالسين والتاء للمبالغة .والقسورة : الأسد ، سمى بذلك لأنه يقسر غيره من السباع ويقهرها ، وقيل : القسورة اسم الجماعة الرماة الذين يطاردون الحمر الوحشية ، ولا واحد له من لفظه ، ويطلق هذا اللفظ عند العرب على كل من كان بالغ النهاية فى الضخامة والقوة . من القسر بمعنى القهر . أى : ما الذى حدث لهؤلاء الجاحدين المجرمين ، فجعلهم يصرون إصرارا تاما على الإعراض عن مواعظ القرآن الكريم ، وعن هداياته وإرشاداته ، وأوامره ونواهيه . . حتى لكأنهم - فى شدة إعراضهم عنه ، ونفورهم منه - حمر وحشية قد نفرت بسرعة وشدة من أسد يريد أن يفترسها ، أو من جماعة من الرماة أعدوا العدة لاصطيادها؟قال صاحب الكشاف : شبههم - سبحانه - فى إعراضهم عن القرآن ، واستماع الذكر والموعظة ، وشرادهم عنه - بحمر جدت فى نفارها مما أفزعها .وفى تشبيههم ) : - بالحمر : مذمة ظاهرة ، وتهجين لحالهم بين ، كما فى قوله - تعالى ، كَمَثَلِ الحمار يَحْمِلُ أَسْفَاراً ) وشهادة عليهم بالبلة وقلة العقل ولا ترى مثل نفار حمير الوحش ، واطرادها فى العدو ، إذا رابها رائب ولذلك

كان أكثر تشبيهات العرب ، فى وصف الإبل ، وشدة سيرها ، بالحمر ، وعدوها
إذا وردت ماء فأحست عليه بقانص . والتعبير بقوله : ( فَمَا لَهُمْ . . . )
) : - وما يشبهه قد كثر استعماله فى القرآن الكريم ، كما فى قوله - تعالى
فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ . . . ) والمقصود منه التعجيب من إصرار
المخاطبين على باطلهم ، أو على معتقد من معتقداتهم . . مع أن الشواهد
، والبينات تدل على خلاف ذلك .وقال - سبحانه - ( عَنِ التذكرة ) بالتعميم
. ليشمل إعراضهم كل شئ يذكرهم بالحق ، ويصرفهم عن الباطل

فرت من قسورة

`<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html} كما فسرها الوسيط

. والاستفهام فى قوله : ( فَمَا لَهُمْ عَنِ التذكرة مُعْرِضِينَ
كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ . فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ) للتعجيب من
إصرارهم على كفرهم ، ومن إعراضهم عن الحق الذى دعاهم إليه نبيهم صلى الله
: عليه وسلم .والمراد بالتذكرة : التذكير بمواعظ القرآن وإرشاداته ، والحمر
جمع حمار ، والمراد به الحمار الوحشى المعروف بشدة نفوره وهروبه إذا ما أحس
بحركة المقتنص له .وقوله : ( مُّسْتَنفِرَةٌ ) أى : شديدة النفور والهرب
فالسين والتاء للمبالغة .والقسورة : الأسد ، سمى بذلك لأنه يقسر غيره من
السباع ويقهرها ، وقيل : القسورة اسم الجماعة الرماة الذين يطاردون الحمر
الوحشية ، ولا واحد له من لفظه ، ويطلق هذا اللفظ عند العرب على كل من كان
بالغ النهاية فى الضخامة والقوة . من القسر بمعنى القهر . أى : ما الذى حدث
لهؤلاء الجاحدين المجرمين ، فجعلهم يصرون إصرارا تاما على الإعراض عن
مواعظ القرآن الكريم ، وعن هداياته وإرشاداته ، وأوامره ونواهيه . . حتى
لكأنهم - فى شدة إعراضهم عنه ، ونفورهم منه - حمر وحشية قد نفرت بسرعة وشدة
من أسد يريد أن يفترسها ، أو من جماعة من الرماة أعدوا العدة لاصطيادها؟قال
صاحب الكشاف : شبههم - سبحانه - فى إعراضهم عن القرآن ، واستماع الذكر
والموعظة ، وشرادهم عنه - بحمر جدت فى نفارها مما أفزعها .وفى تشبيههم
) : - بالحمر : مذمة ظاهرة ، وتهجين لحالهم بين ، كما فى قوله - تعالى
، كَمَثَلِ الحمار يَحْمِلُ أَسْفَاراً ) وشهادة عليهم بالبلة وقلة العقل
ولا ترى مثل نفار حمير الوحش ، واطرادها فى العدو ، إذا رابها رائب ولذلك
كان أكثر تشبيهات العرب ، فى وصف الإبل ، وشدة سيرها ، بالحمر ، وعدوها
إذا وردت ماء فأحست عليه بقانص . والتعبير بقوله : ( فَمَا لَهُمْ . . . )
) : - وما يشبهه قد كثر استعماله فى القرآن الكريم ، كما فى قوله - تعالى
فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ . . . ) والمقصود منه التعجيب من إصرار
المخاطبين على باطلهم ، أو على معتقد من معتقداتهم . . مع أن الشواهد
، والبينات تدل على خلاف ذلك .وقال - سبحانه - ( عَنِ التذكرة ) بالتعميم
. ليشمل إعراضهم كل شئ يذكرهم بالحق ، ويصرفهم عن الباطل

بل يريد كل امرئ منهم ان يؤتى صحفا منشرة

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امرىء مِّنْهُمْ
أن يؤتى صُحُفاً مُّنَشَّرَةً ) معطوف على كلام مقدر يقتضيه المقام ، وهو
بيان لرذيلة أخرى من رذائلهم الكثيرة .والصحف : جمع صحيفة ، وهى ما يكتب
فيها . ومنشره : صفة لها والمراد بها : الصحف المفتوحة غير المطوية . بحيث
يقرؤها كل من رآها .وقد ذكروا فى سبب نزول هذه الآية : أن المشركين قالوا
للرسول صلى الله عليه وسلم لن نتبعك حتى تأتى لكل واحد منا بكتاب من السماء
عنوانه : من رب العالمين ، إلى فلان من فلان ، نؤمر فى هذا الكتاب ،
باتباعك .أى : إن هؤلاء الكافرين لا يكتفون بمواعظ القرآن . . بل يريد كل
واحد منهم أن يعطى صحفا مفتوحة ، وكتبا غير مطوية ، بحيث يقرؤها كل من
يراها . وفيها الأمر من الله - تعالى - لهم بوجوب اتباعهم للرسول صلى الله
عليه وسلم .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( أَوْ ترقى فِي السمآء
وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً
. ) . . نَّقْرَؤُهُ

كلا بل لا يخافون الاخرة

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( كَلاَّ بَل لاَّ يَخَافُونَ الآخرة )
إبطال آخر لكلامهم ، وزجر لهم عن هذا الجدال السخيف . أى : كلا ليس الأمر
كما أرادوا وزعموا بل الحق أن هؤلاء القوم لا يخافون الآخرة ، وما فيها من
حساب وجزاء ، لأنهم لو كانوا يخافون لما اقترحوا تلك المقترحات السخيفة
. . المتعنتة

كلا انه تذكرة

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - بعد ذلك ( كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ) زجر آخر مؤكد للزجر السابق . أى : كلا ثم كلا ، لن نمكنهم مما يريدون ، ولن ، نستجيب لمقترحاتهم السخيفة . . لأن القرآن الكريم فيه التذكير الكافى والوعظ الشافى ، لمن هو على استعداد للاستجابة لذلك .فالضمير فى ( إنه ) يعود إلى القرآن ، لأنه معلوم من المقام ، والجملة بمنزلة التعليل للردع عن سؤالهم الذى اقترحوا فيه تنزيل صحف مفتوحة من عند الله - تعالى - تأمرهم باتباع الرسول صلى الله عليه وسلم .

فمن شاء ذكره

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ ) تفريع عن كون القرآن تذكرة وعظة لمن كان له قلب يفقه ، أو عقل يعقل .أى : إن القرآن الكريم مشتمل على ما يذكر الإنسان بالحق ، وما يهديه إلى الخير والرشد ، فمن شاء أن يتعظ به اتعظ ، ومن شاء أن ينتفع بهداياته انتفع ، ومن شاء أن يذكر أوامره ونواهيه وتكاليفه . . فعل ذلك ، وظفر بما يسعده ، ويشرح صدره والتعبير بقوله - تعالى - ( فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ ) يشعر بأن تذكر القرآن. وحفظه . والعمل بأحكامه وإرشاداته . . فى إمكان كل من كان عنده الاستعداد لذلك .أى : إن التذكر طوع مشيئتكم - أيها الناس - متى كنتم جادين وصادقين . . ومستعدين لهذا التذكر ، فاعملوا لذلك بدون إبطاء أو تردد

وما يذكرون الا ان يشاء الله هو اهل التقوى واهل المغفرة

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بما يدل على نفاذ مشيئته وإرادته فقال : ( وَمَا يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله هُوَ أَهْلُ التقوى وَأَهْلُ المغفرة ) .أى : فمن شاء أن يذكر القرآن وما فيه من مواعظ ذكر ذلك ، ولكن هذا التذكر والاعتبار والاتعاظ .لا يتم بمجرد مشيئتكم ، وإنما يتم فى حال مشيئة الله - تعالى - وإرادته ، فهو - سبحانه - أهل التقوى ، أى : هو الحقيق بأن يتقى ويخاف عذابه ، وهو - عز وجل - " أهل المغفرة " أى : هو - وحده - صاحب المغفرة لذنوب عباده ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون .فالمقصود من الآية الكريمة ، بيان أن هذا التذكر لمواعظ القرآن ، لا يتم إلا بعد إرادة الله - تعالى - ومشيئة ، لأنه هو الخالق لكل شئ ، وبيان أن مشيئة العباد لا أثر لها إلا إذا كانت موافقة لمشيئة الله ، التى لا يعلمها أحد سواه .أخرج الإمام أحمد والترمذى والنسائى وابن ماجة عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية ( هُوَ أَهْلُ التقوى " ، وَأَهْلُ المغفرة ) فقال : قد قال ربكم أنا أهل أن أتقى فلا يجعل معى إله " فمن اتقانى فلم يجعل معى إلها آخر ، فأنا أهل أن أغفر له .

لا اقسم بيوم القيامة

- كما فسرها الوسيط افتتح الله - تعالى - هذه السورة الكريمة بقوله - تعالى - : ( لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ القيامة ) وللعلماء فى مثل هذا التركيب أقوال. منها : أن حرف " لا " هنا جئ به ، لقصد المبالغة فى تأكيد القسم ، كما فى قولهم :لا والله .قال الآلوسى : إدخال "لا " النافية صورة على فعل القسم مستفيض فى كلامهم وأشعارهم .ومنه قول امرئ القيس :لا وأبيك يا بنة العامرى . . يعنى : وأبيك .ثم قال : وملخص ما ذهب إليه جار الله فى ذلك ، أن "لا " هذه ، إذا وقعت فى خلال الكلام كقوله - تعالى - ( فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ ) فهى صلة تزاد لتأكيد القسم ، مثلها فى قوله - تعالى - : ( لِّئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الكتاب ) لتأكيد العلم . .ومنها أن "لا " هنا ، جئ بها لنفى ورد كلام المشركين المنكرين ليوم القيامة فكأنه - تعالى - يقول :لا ، ليس الأمر كما زعموا ، ثم قال : أقسم بيوم القيامة الذى يبعث فيه الخلق للجزاء .قال القرطبى : وذلك كقولهم :لا والله لا أفعل . فلا هنا رد لكلام قد مضى ، وذلك كقولك :لا والله إن القيامة لحق كأنك أكذبت قوما أنكروها . .ومنها : أن "لا " فى هذا التركيب وأمثاله ، على حقيقتها للنفى ، والمعنى لا أقسم بيوم القيامة ولا بغيره ، على أن البعث حق ، فإن المسألة أوضح من أن تحتاج إلى قسم .وقد رجح بعض العلماء القول الأول فقال : وصيغة لا أقسم ، صيغة قسم ، أدخل حرف النفى على فعل " أقسم " لقصد المبالغة فى تحقيق حرمة المقسم به ، بحيث يوهم للسامع أن المتكلم يهم أن يقسم به ، ثم يترك القسم مخافة الحنث بالمقسم به فيقول :لا أقسم به ، أى : ولا أقسم بأعز منه عندى . وذلك كناية عن تأكيد القسم .

ولا اقسم بالنفس اللوامة

كما فسرها الوسيط والمراد بالنفس اللوامة : النفس التقية المستقيمة التى

تلوم ذاتها على ما فات منها ، فهى - مهما أكثرت من فعل الخير - تتمنى أن لو ازدادت من ذلك ، ومهما قللت من فعل الشر ، تمنت - أيضا - أن لو ازدادت من هذا التقليل .قال ابن كثير : عن الحسن البصرى فى هذه الآية : إن المؤمن . . والله ما نراه إلا يلوم نفسه ، يقول : ما أردت بكلمتى؟ ما أردت بأكلتى؟ وإن الفاجر قدما ما يعاتب نفسه .وفى رواية عن الحسن - أيضا - ليس أحد من أهل السموات والأرض إلا يلوم نفسه يوم القيامة .

ايحسب الانسان الن نجمع عظامه

) : كما فسرها الوسيط وجواب القسم يفهم من قوله - تعالى - بعد ذلك : أَيَحْسَبُ الإنسان أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ) . والمراد بالإنسان جنسه . أو المراد به الكافر المنكر للبعث . والاستفهام للتوبيخ والتقريع وقد ذكروا فى سبب نزول هذه الآية أن بعض المشركين قالوا للنبى صلى الله. عليه وسلم : يا محمد حدثنى عن يوم القيامة ، فأخبره صلى الله عليه وسلم عنه فقال المشرك : لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك - يا محمد - أو يجمع الله. العظام . فنزلت هذه الآية .والمعنى : أقسم بيوم القيامة الذى لا شك فى وقوعه فى الوقت الذى نشاؤه ، وأقسم بالنفس اللوامة التقية التى تلوم ذاتها على الخير ، لماذا لم تستكثر منه ، وعلى الشر لماذا فعلته ، لنجمعن عظامكم - أيها الناس - ولنبعثنكم للحساب والجزاء .وافتتح - سبحانه - السورة الكريمة بهذا القسم ، للإيذان بأن ما سيذكر بعده أمر بهم ، من شأن النفوس الواعية أن تستشرف له ، وأن تستجيب لما اشتمل عليه من هدايات وإرشادات ووصف - سبحانه - النفس باللوامة بصيغة المبالغة للإشعار بأنها كريمة. مستقيمة تكثر من لوم ذاتها ، وتحض صاحبها على المسارعة فى فعل الخيرات والعظام المراد بها الجسد ، وعبر عنه بها ، لأنه لا يقوم إلا بها ، وللرد. على المشركين الذين استبعدوا ذلك ، وقالوا - كما حكى القرآن عنهم - : ( مَن يُحيِي العظام وَهِيَ رَمِيمٌ ).

بلى قادرين على ان نسوي بنانه

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( بلى قَادِرِينَ على أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ) تأكيد لقدرته - تعالى - على إحياء الموتى بعد أن صاروا عظاما نخرة ، وإبطال لنفيهم إحياء العظام وهى رميم .و ( قَادِرِينَ ) حال من فاعل الفعل المقدر بعد بلى . وقوله : ( نُّسَوِّيَ ) من التسوية ، وهى تقويم الشئ وجعله متقنا مستويا ، يقال : سوى فلان الشئ إذا جعله متساويا لا عوج فيه ولا اضطراب .والبنان : جمع بنانة ، وهى أصابع اليدين والرجلين ، أو مفاصل تلك الأصابع وأطرافها .أى : ليس الأمر كما زعم هؤلاء المشركين من أننا لا نعيد الإنسان إلى الحياة بعد موته للحساب والجزاء ، بل الحق أننا سنجمعه وسنعيده إلى الحياة حالة كوننا قادرين قدرة تامة ، على هذا الجمع لعظامه وجسده ، وعلى جعل أصابعه وأطرافه وأنامله مستوية الخلق ، متقنة ، الصنع ، كما كانت قبل الموت .وخصت البنان بالذكر ، لأنها أصغر الأعضاء وآخر ما يتم به الخلق ، فإذا كان - سبحانه - قادرا على تسويتها مع لطافتها ودقتها ، فهو على غيرها مما هو أكبر منها أشد قدرة .

بل يريد الانسان ليفجر امامه

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - ( بَلْ يُرِيدُ الإنسان لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ) بيان لحال أخرى من أحوال فجور هؤلاء المشركين وطغيانهم ، : وانتقال من إنكار الحسبان إلى الإخبار عن حال هذا الإنسان .والفجور ، يطلق على القول البالغ النهاية فى السوء ، وعلى الفعل القبيح المنكر ويطلق على الكذب ، ولذا وصفت اليمين الكاذبة ، باليمين الفاجرة فيكون فجر بمعنى كذب ، وزنا ومعنى .ولفظ " الأمام " يطلق على المكان الذى يكون فى مواجهة الإنسان ، والمراد به هنا : الزمان المستقبل وهو يوم القيامة ، الذى دل عليه قوله - تعالى - بعد ذلك : ( يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ القيامة ) .

يسال ايان يوم القيامة

كما فسرها الوسيط ( يَسْأَلُ أَيّانَ يَوْمُ القيامة )أى : أن هذا الإنسان المنكر للبعث والحساب لا يريد أن يكف عن إنكاره وكفره ، بل يريد أن يستمر على فجوره وتكذيبه لهذا اليوم بكل إصرار وجحود ، فهو يسأل عنه سؤال استهزاء وتهكم فيقول : ( أَيّانَ يَوْمُ القيامة ) أى : متى يجئ يوم القيامة هذا الذى تتحدثون عنه - أيها المؤمنون - وتخشون ما فيه من حساب وجزاء؟قال القرطبى : قوله - تعالى - : ( بَلْ يُرِيدُ الإنسان لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ) قال ابن عباس : يعنى الكافر . يكذب بما أمامه من البعث والحساب

ودليله ( يَسْأَلُ أَيّانَ يَوْمُ القيامة ) . أى : يسأل متى يكون؟ . .
على وجه التكذيب والإنكار ، فهو لا يقنع بما هو فيه من التكذيب . ولكن
يأثم لما بين يديه . ومما يدل أن الفجور : التكذيب ، ما ذكره القتبى وغيره
من أن أعرابيا قصد عمر بن الخطاب ، وشكى إليه نَقْبَ إبله ودَبَرها - أى ،
مرضها وجربها - وسأله أن يحمله على غيرها فلم يحمله . فقال الأعرابى :
أقسم بالله أبو حفص عمر ... ما مسها من نقب ولا دبرفاغفر له اللهم إن كان:
فجر ... يعنى : إن كان كذبنى فيما ذكرت . .وأعيد لفظ الإنسان فى هذه
الآيات أكثر من مرة ، لأن المقام يقتضى توبيخه وتقريعه ، وتسجيل الظلم
: والجحود عليه .والضمير فى " أمامه " يجوز أن يعود إلى يوم القيامة . أى
بل يريد الإنسان ليكذب بيوم القيامة ، الثابت الوقوع فى الوقت الذى يشاؤه
الله - عز وجل - .ويجوز أن يعود على الإنسان ، فيكون المعنى : بل يريد
الإنسان أن يستمر فى فجوره وتكذيبه بيوم القيامة فى الحال وفى المال . أى
أن المراد بأمامه : مستقبل أيامه .وجئ بلفظ " أيان " الدال على الاستفهام :
للزمان البعيد ، للإشعار بشدة تكذيبهم ، وإصرارهم على عدم وقوعه فى أى وقت
. من الأوقات

فاذا برق البصر

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - جانبا من أهوال يوم القيامة ، على سبيل
. التهديد والوعيد لهؤلاء المكذبين .فقال : ( فَإِذَا بَرِقَ البصر
وَخَسَفَ القمر . وَجُمِعَ الشمس والقمر . يَقُولُ الإنسان يَوْمَئِذٍ
أَيْنَ المفر ) .و " برق " - بكسر الراء وفتحها - دهش وفزع وتحير ولمع من
شدة شخوصه وخوفه .يقال : برق بصر فلان - كفرح ونصر - إذا نظر إلى البرق
. فدهش وتحير

وخسف القمر

. كما فسرها الوسيط والمراد بخسوف القمر : انطماس نوره ، واختفاء ضوئه

وجمع الشمس والقمر

كما فسرها الوسيط والمراد بجمع الشمس والقمر : اقترانهما ببعضهما بعد
افتراقهما واختلال النظام المعهود للكون ، اختلالا تتغير معه معالمة ونظمه
وجواب ( إذا ) قوله : ( يَقُولُ الإنسان ) أى : فإذا برق بصر الإنسان.
وتحير من شدة الفزع والخوف ، بعد أن رأى ما كان يكذب به فى الدنيا
والتعريف فى البصر : للاسغراق : إذ أبصار الناس جميعا فى هذا اليوم ، تكون.
فى حالة فزع ، إلأا أن هذا الفزع يتفاوت بينهم فى شدته .( وَخَسَفَ القمر )
أى : ذهب ضوؤه . وانطمس نوره .( وَجُمِعَ الشمس والقمر ) أى : وقرن بينهما
بعد أن كانا متفرقين .والتصقل بعد أن كانا متباعدين ، وغاب ضوؤهما بعد أن
. كانا منيرين

يقول الانسان يومئذ اين المفر

كما فسرها الوسيط ( يَقُولُ الإنسان يَوْمَئِذٍ أَيْنَ المفر ) أى : فإذا
ما تم كل ذلك ، يقول الإنسان فى هذا الوقت الذى يبرق فيه البصر ، ويخسف
فيه القمر ، ويجمع فيه بين الشمس والقمر : أين المفر . أى : أين الفرار من
. . قضاء الله - تعالى - ومن قدره وحسابه . فالمفر مصدر بمعنى الفرار
. والاستفهام بمعنى التمنى أى : ليت لى مكانا أفر إليه مما أراه

كلا لا وزر

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( كَلاَّ لاَ وَزَرَ . إلى رَبِّكَ
يَوْمَئِذٍ المستقر ) إبطال لهذا التمنى ، ونفى لأن يكون لهذا الإنسان
مهرب من الحساب .والوزر : المراد به الملجأ والمكان الذى يحتمى به الشخص
للتوقى مما يخافه ، وأصله ، الجبل المرتفع المنيع ، من الوِزْر وهو الثقل
أى : كلا لا وزر ولا ملجأ لك . أيها الإنسان - من المثول أمام ربك فى هذا.
. اليوم للحساب والجزاء

الى ربك يومئذ المستقر

كما فسرها الوسيط ومهما طال عمرك ، وطال رقادك فى قبرك . . فإلى ربك وحده
. نهايتك ومستقرك ومصيرك ، فى هذا اليوم الذى لا محيص لك عنه

ينبا الانسان يومئذ بما قدم واخر

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( يُنَبَّأُ الإنسان يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ) بيان لما يحدث له يوم القيامة ، أى : يخبر الإنسان فى هذا اليوم بما قدم من أعمال حسنة . وبما أخر منها فلم يعملها ، مع أنه كان فى إمكانه أن يعملها ، والمقصود بالآية المجازاة على الأعمال لا مجرد الإخبار .قال الإمام ابن كثير : قوله - تعالى - : ( يُنَبَّأُ الإنسان يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ) أى : يخبر بجميع أعماله قديمها وحديثها أولها وآخرها ، صغيرها وكبيرها ، كما قال - سبحانه - : ( وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِراً وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ).

بل الانسان على نفسه بصيرة

كما فسرها الوسيط ثم أكد - سبحانه - هذا المعنى بقوله : ( بَلِ الإنسان على نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ . وَلَوْ ألقى مَعَاذِيرَهُ ) .والبصيرة هنا بمعنى الحجة الشاهدة عليه ، وهى خبر عن المبتدأ وهو ( الإنسان ) والجار والمجرور متعلق بلفظ بصيرة والهاء فيها للمبالغة ، مثل هاء علامة ونسابة .أى : بل الإنسان حجة بينة على نفسه ، وشاهدة بما كان منه من الأعمال السيئة ، ولو أدلى بأية حجة يعتذر بها عن نفسه . لم ينفعه ذلك .قال صاحب الكشاف : ( بَصِيرَةٌ ) أى : حجة بينة ، وصفت بالبصارة على المجاز ، كما وصفت الآيات بالإبصار فى قوله : ( فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً ) أو عين بصيرة والمعنى أنه ينبأ بأعماله ، وإن لم ينبأ ففيه ما يجزئ عن الإنباء ، لأنه شاهد عليها بما عملت ، لأن جوارحه تنطق بذلك ، كما قال تعالى - ( يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ )

ولو القى معاذيره

كما فسرها الوسيط ( وَلَوْ ألقى مَعَاذِيرَهُ ) أى : ولو جاء بكل معذرة يعتذر بها عن نفسه ويجادل عنها .وعن الضحاك : ولو أرخى ستوره ، وقال : المعاذير : الستور ، واحدها معذار ، فإن صح فلأنه يمنع رؤية المحتجب ، كما المعاذير : تمنع المعذرة عقوبة المذنب .فإن قلت : أليس قياس المعذرة أن تجمع لا معاذير؟ قلت : المعاذير ليس بجمع معذرة ، إنما هو اسم جمع لها .ونحوه : المناكير فى المنكر .فالمقصود بهاتين الآيتين : بيان أن الإنسان لن يستطيع أن يهرب من نتائج عمله مهما حاول ذلك ، لأن جوارحه شاهدة عليه ، ولأن أعذاره لن تكون مقبولة ، لأنها جاءت فى غير وقتها ، كما قال - تعالى - : ( لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ . إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ . فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فاتبع قُرْآنَهُ . ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ) .

لا تحرك به لسانك لتعجل به

كما فسرها الوسيط ( لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ . إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ . فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فاتبع قُرْآنَهُ . ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ) .والضمير فى ( به ) يعود إلى القرآن الكريم المفهوم من المقام . والمراد بقوله : ( لاَ تُحَرِّكْ ) نهيه صلى الله عليه وسلم عن التعجيل فى القراءة .

ان علينا جمعه وقرانه

كما فسرها الوسيط والمقصود بقوله : قرآنه ، قراءته عليك ، وتثبيته على لسانك وفى قلبك بحيث تقرؤه متى شئت فهو مصدر مضاف لمفعوله .قال الآلوسى : قوله : ( وَقُرْآنَهُ ) أى : إثبات قراءته فى لسانك ، فالقرآن هنا ، وكذا فيما بعده ، مصدر كالرجحان بمعنى القراءة . . مضاف إلى المفعول وقيل : قرآنه ، أى : تأليفه على لسانك . .

فاذا قراناه فاتبع قرانه

كما فسرها الوسيط أى :لا تتعجل - أيها الرسول الكريم - بقراءة القرآن الكريم عندما تسمعه من أمين وحينا جبريل - عليه السلام - ، بل تريث وتمهل حتى ينتهى من قراءته ثم اقرأ من بعده ، فإننا قد تكفلنا بجمعه فى صدرك وبقراءته عليك عن طريق وحينا ، وما دام الأمر كذلك ، فمتى قرأ عليك جبريل القرآن فاتبع قراءته ولا تسبقه بها .

ثم ان علينا بيانه

كما فسرها الوسيط ثم إن علينا بعد ذلك بيان ما خفى عليك منه ، وتوضيح ما
- أشكل عليك من معانيه .قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : هذا تعليم من الله
تعالى - لنبيه صلى الله عليه وسلم فى كيفية تلقيه الوحى من الملك ، فإنه
كان يبادر إلى أخذه ، ويسابق الملك فى قراءته .روى الشيخان وغيرهما عن ابن
عباس قال كان النبى صلى الله عليه وسلم يعالج من التنزيل شدة ، فكان يحرك
- شفتيه - يريد أن يحفظه مخافة أن يتفلت منه شئ ، أو من شدة رغبته فى حفظه
فأنزل الله - تعالى - هذه الآيات .فأنت ترى أن الله - تعالى - قد ضمن لنبيه
صلى الله عليه وسلم أن يجمع له القرآن فى صدره وأن يجريه على لسانه ، بدون
أى تحريف أو تبديل ، وأن يوضح له ما خفى عليه منه .قالوا : فكان رسول الله
، صلى الله عليه وسلم إذا ما نزل عليه الوحى بعد ذلك بالقرآن ، أطرق وأنصت
وشبيه بهذه الآيات قوله - سبحانه - : ( فتعالى الله الملك الحق وَلاَ
تَعْجَلْ بالقرآنِ مِن قَبْلِ أن يقضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ
زِدْنِي عِلْماً ) .

كلا بل تحبون العاجلة

كما فسرها الوسيط ثم عادت السورة الكريمة مرة أخرى إلى الحديث عن يوم
القيامة ، وعن أحوال الناس فيه ، وعن حالة الإنسان فى وقت الاحتضار ، وعن
- مظاهر قدرته - تعالى - وعن حكمته فى البعث والحساب والجزاء ، فقال
سبحانه - :( كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ . . . ) . .قوله - سبحانه - ( كَلاَّ
بَلْ تُحِبُّونَ العاجلة . وَتَذَرُونَ الآخرة ) بيان لما جبل عليه كثير من
، الناس ، من إيثارهم منافع الدنيا الزائلة ، على منافع الآخرة الباقية
وزجر ونهى لهم عن سلوك هذا المسلك ، الذى يدل على قصر النظر ، وضعف التفكير
أى : كلا - أيها الناس - ليس الرشد فى أن تتركوا العمل الصالح الذى ينفعكم.
يوم القيامة ، وتعكفوا على زينة الحياة الدنيا العاجلة . . بل الرشد كل
الرشد فى عكس ذلك ، وهو أن تأخذوا من دنياكم وعاجلتكم ما ينفعكم فى آخرتكم
كما قال - سبحانه - : ( وابتغ فِيمَآ آتَاكَ الله الدار الآخرة وَلاَ ،
) : - تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدنيا ) وشبيه بهاتين الآيتين قوله - تعالى
إِنَّ هؤلاء يُحِبُّونَ العاجلة وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً
) .

وتذرون الاخرة

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html}

ثم عادت السورة الكريمة مرة أخرى إلى الحديث عن يوم القيامة ، وعن أحوال
- الناس فيه ، وعن حالة الإنسان فى وقت الاحتضار ، وعن مظاهر قدرته
تعالى - وعن حكمته فى البعث والحساب والجزاء ، فقال - سبحانه - :( كَلاَّ
بَلْ تُحِبُّونَ . . . ) . .قوله - سبحانه - ( كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ
العاجلة . وَتَذَرُونَ الآخرة ) بيان لما جبل عليه كثير من الناس ، من
إيثارهم منافع الدنيا الزائلة ، على منافع الآخرة الباقية ، وزجر ونهى لهم
- عن سلوك هذا المسلك ، الذى يدل على قصر النظر ، وضعف التفكير .أى : كلا
أيها الناس - ليس الرشد فى أن تتركوا العمل الصالح الذى ينفعكم يوم القيامة
وتعكفوا على زينة الحياة الدنيا العاجلة . . بل الرشد كل الرشد فى عكس ،
- ذلك ، وهو أن تأخذوا من دنياكم وعاجلتكم ما ينفعكم فى آخرتكم ، كما قال
سبحانه - : ( وابتغ فِيمَآ آتَاكَ الله الدار الآخرة وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ
مِنَ الدنيا ) وشبيه بهاتين الآيتين قوله - تعالى - : ( إِنَّ هؤلاء
يُحِبُّونَ العاجلة وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً ) .

وجوه يومئذ ناضرة

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - حال السعداء والأشقياء يوم القيامة
. فقال : ( وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ . إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ
( وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ . تَظُنُّ أن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ
وقوله : ( ناضرة ) اسم فاعل من النَّضْرة - بفتح النون المشددة وسكون.
الضاد - وهى الجمال والحسن . تقول : وجه نضير ، إذا كان حسنا جميلا .وقوله
) - من البسور وهو شدة الكلوح والعبوس ، ومنه قوله - تعالى ( باسرة ) :
ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ) يقال : بسَر فلان يبسُر بسُورا ، إذا قبض ما بين
عينيه كراهية للشئ الذى يراه .والفاقرة : الداهية العظمية التى لشدتها
كأنها تقصم فقار الظهر . يقال : فلان فقرته الفاقرة ، أى : نزلت به مصيبة
شديدة أقعدته عن الحركة ، وأصل الفَقْر : الوسم على أنف البعير بحديدة أو
نار حتى يخلُصَ إلى العظم أو ما يقرب منه .والمراد بقوله : ( يومئذ ) : يوم
القيامة الذى تكرر ذكره فى السورة أكثر من مرة .والجملة المقدرة المضاف

: إليها " إذ " والمعوض عنها بالتنووين تقديرها يوم إذ برق البصر .والمعنى
يوم القيامة ، الذى يبرق فيه البصر ، ويخسف القمر . . تصير وجوه حسنة مشرقة
ألا وهى وجوه المؤمنين الصادقين . .وهذه الوجوه تنظر إلى ربها فى هذا ،
اليوم نظرة سرور وحبور ، بحيث تراه - سبحانه - على ما يليق بذاته ، وكما
يريد أن تكون رؤيته - عز وجل - بلا كيفية ، ولا جهة ، ولا ثبوت مسافة
وهناك وجوه أخرى تصير فى هذا اليوم كالحة شديدة العبوس ، وهى وجوه.
الكافرين والفاسقين عن أمر ربهم ، وهذه الوجوه ( تَظُنُّ ) أى : تعتقد أو
" تتوقع ، أن يفعل بها فعلا يهلكها ، ويقصم ظهورها لشدته وقسوته .وجاء لفظ
) - وجوه " فى الموضعين منكرا ، للتنويع والتقسيم ، كما فى قوله - تعالى
فَرِيقٌ فِي الجنة وَفَرِيقٌ فِي السعير ) وكما فى قول الشاعر :فيوم علينا
: - ويوم لنا ... ويوم نُسَاءُ ويوم نُسَروقد أخذ العلماء من قوله - تعالى
أن الله - تعالى - يتكرم على عباده المؤمنين فى ( إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ )
) هذا اليوم ، فيربهم ذاته بالكيفية التى يريدها - سبحانه - .ومنهم من فسر
- نَّاضِرَةٌ ) بمعنى منتظرة ، أى : منتظرة ومتوقعة ما يحكم الله - تعالى
به عليها .قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآيات : وقد ثبتت رؤية
المؤمنين لله - عز وجل - فى الدار الآخرة ، فى الأحاديث الصحاح ، من طرق
متواترة عند أئمة الحديث ، لا يمكن دفعها ولا منعها . لحديث أبى سعيد وأبى
هريرة - وهما فى الصحيحين - " أن ناسا قالوا : يا رسول الله ، هل نرى ربنا
" يوم القيامة؟ فقال : " هل تضارون فى رؤية الشمس والقمر ليس دونهما سحاب
قالوا :لا ، قال : " فإنكم ترون ربكم كذلك " " .وفى الصحيحين عن جرير بن
عبد الله قال : " نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى القمر ليلة البدر
فقال : " إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر " " .ثم قال ابن كثير - رحمه
الله - : وهذا - بحمد الله - مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه
) الأمة . كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام ، وهداة الأنام .ومن تأول
إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ) فقال : تنتظر الثواب من ربها . . فقد أبعد هذا
القائل النجعة ، وأبطل فيما ذهب إليه . وأين هو من قوله - تعالى - ( كَلاَّ
إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ) قال الشافعى : ما
. - حَجَبَ الفجار إلا وقد علم أن الأبرار يرونه - عز وجل

الى ربها ناظرة

`<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html} كما فسرها الوسيط

ثم بين - سبحانه - حال السعداء والأشقياء يوم القيامة فقال : ( وُجُوهٌ
يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ . إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ . وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ
بَاسِرَةٌ . تَظُنُّ أن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ) .وقوله : ( ناضرة )
اسم فاعل من النَّضْرة - بفتح النون المشددة وسكون الضاد - وهى الجمال
والحسن . تقول : وجه نضير ، إذا كان حسنا جميلا .وقوله : ( باسرة ) من
البسور وهو شدة الكلوح والعبوس ، ومنه قوله - تعالى - ( ثُمَّ عَبَسَ
وَبَسَرَ ) يقال : بسَر فلان يبسُر بسُورا ، إذا قبض ما بين عينيه كراهية
للشئ الذى يراه .والفاقرة : الداهية العظمية التى لشدتها كأنها تقصم فقار
الظهر . يقال : فلان فقرته الفاقرة ، أى : نزلت به مصيبة شديدة أقعدته عن
الحركة ، وأصل الفَقْر : الوسم على أنف البعير بحديدة أو نار حتى يخلُصَ
إلى العظم أو ما يقرب منه .والمراد بقوله : ( يومئذ ) : يوم القيامة الذى
" تكرر ذكره فى السورة أكثر من مرة .والجملة المقدرة المضاف إليها " إذ
، والمعوض عنها بالتنووين تقديرها يوم إذ برق البصر .والمعنى : يوم القيامة
الذى يبرق فيه البصر ، ويخسف القمر . . تصير وجوه حسنة مشرقة ، ألا وهى
وجوه المؤمنين الصادقين . .وهذه الوجوه تنظر إلى ربها فى هذا اليوم نظرة
سرور وحبور ، بحيث تراه - سبحانه - على ما يليق بذاته ، وكما يريد أن تكون
رؤيته - عز وجل - بلا كيفية ، ولا جهة ، ولا ثبوت مسافة .وهناك وجوه أخرى
تصير فى هذا اليوم كالحة شديدة العبوس ، وهى وجوه الكافرين والفاسقين عن
أمر ربهم ، وهذه الوجوه ( تَظُنُّ ) أى : تعتقد أو تتوقع ، أن يفعل بها
فعلا يهلكها ، ويقصم ظهورها لشدته وقسوته .وجاء لفظ " وجوه " فى الموضعين
منكرا ، للتنويع والتقسيم ، كما فى قوله - تعالى - ( فَرِيقٌ فِي الجنة
وَفَرِيقٌ فِي السعير ) وكما فى قول الشاعر :فيوم علينا ويوم لَنا ... ويوم
نُسَاءُ ويوم نُسَروقد أخذ العلماء من قوله - تعالى - : ( إلى رَبِّهَا
، نَاظِرَةٌ ) أن الله - تعالى - يتكرم على عباده المؤمنين فى هذا اليوم
فيربهم ذاته بالكيفية التى يريدها - سبحانه - .ومنهم من فسر ( نَّاضِرَةٌ )
بمعنى منتظرة ، أى : منتظرة ومتوقعة ما يحكم الله - تعالى - به عليها .قال
- الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآيات : وقد ثبتت رؤية المؤمنين لله
عز وجل - فى الدار الآخرة ، فى الأحاديث الصحاح ، من طرق متواترة عند أئمة
الحديث ، لا يمكن دفعها ولا منعها . لحديث أبى سعيد وأبى هريرة - وهما فى
الصحيحين - " أن ناسا قالوا : يا رسول الله ، هل نرى ربنا يوم القيامة؟
، فقال : " هل تضارون فى رؤية الشمس والقمر ليس دونهما سحاب " قالوا :لا

قال : " فإنكم ترون ربكم كذلك " " .وفى الصحيحين عن جرير بن عبد الله قال :
نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى القمر ليلة البدر فقال : " إنكم " ترون ربكم كما ترون هذا القمر " " .ثم قال ابن كثير - رحمه الله - : وهذا - بحمد الله - مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة . كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام ، وهداة الأنام .ومن تأول ( إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ) فقال : تنتظر الثواب من ربها . . فقد أبعد هذا القائل النجعة ، وأبطل فيما ذهب إليه . وأين هو من قوله - تعالى - ( كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ) قال الشافعي : ما حجَب الفجار إلا - وقد علم أن الأبرار يرونه - عز وجل .

ووجوه يومئذ باسرة

`<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html} كما فسرها الوسيط

ثم بين - سبحانه - حال السعداء والأشقياء يوم القيامة فقال : ( وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ . إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ . وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ . تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ) .وقوله : ( ناضرة ) اسم فاعل من النَّضْرة - بفتح النون المشددة وسكون الضاد - وهى الجمال والحسن . تقول : وجه نضير ، إذا كان حسنا جميلا .وقوله : ( باسرة ) من البسور وهو شدة الكلوح والعبوس ، ومنه قوله - تعالى - ( ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ) يقال : بسَر فلان يبسُر بسُورا ، إذا قبض ما بين عينيه كراهية للشئ الذى يراه .والفاقرة : الداهية العظمية التى لشدتها كأنها تقصم فقار الظهر . يقال : فلان فقرته الفاقرة ، أى : نزلت به مصيبة شديدة أقعدته عن الحركة ، وأصل الفَقْر : الوسم على أنف البعير بحديدة أو نار حتى يخلُصَ إلى العظم أو ما يقرب منه .والمراد بقوله : ( يومئذ ) : يوم القيامة الذى " تكرر ذكره فى السورة أكثر من مرة .والجملة المقدرة المضاف إليها " إذ ، والمعوض عنها بالتنووين تقديرها يوم إذ برق البصر .والمعنى : يوم القيامة الذى يبرق فيه البصر ، ويخسف القمر . . تصير وجوه حسنة مشرقة ، ألا وهى وجوه المؤمنين الصادقين . .وهذه الوجوه تنظر إلى ربها فى هذا اليوم نظرة سرور وحبور ، بحيث تراه - سبحانه - على ما يليق بذاته ، وكما يريد أن تكون رؤيته - عز وجل - بلا كيفية ، ولا جهة ، ولا ثبوت مسافة .وهناك وجوه أخرى تصير فى هذا اليوم كالحة شديدة العبوس ، وهى وجوه الكافرين والفاسقين عن أمر ربهم ، وهذه الوجوه ( تَظُنُّ ) أى : تعتقد أو تتوقع ، أن يفعل بها فعلا يهلكها ، ويقصم ظهورها لشدته وقسوته .وجاء لفظ " وجوه " فى الموضعين منكرا ، للتنويع والتقسيم ، كما فى قوله - تعالى - ( فَرِيقٌ فِي الجنة وَفَرِيقٌ فِي السعير ) وكما فى قول الشاعر :فيوم علينا ويوم لَنا ... ويوم نُسَاءُ ويوم نُسَروقد أخذ العلماء من قوله - تعالى - : ( إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ) أن الله - تعالى - يتكرم على عباده المؤمنين فى هذا اليوم ، فيربهم ذاته بالكيفية التى يريدها - سبحانه - .ومنهم من فسر ( نَّاضِرَةٌ ) بمعنى منتظرة ، أى : منتظرة ومتوقعة ما يحكم الله - تعالى - به عليها .قال - الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآيات : وقد ثبتت رؤية المؤمنين لله عز وجل - فى الدار الآخرة ، فى الأحاديث الصحاح ، من طرق متواترة عند أئمة الحديث ، لا يمكن دفعها ولا منعها . لحديث أبى سعيد وأبى هريرة - وهما فى الصحيحين - " أن ناسا قالوا : يا رسول الله ، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ ، فقال : " هل تضارون فى رؤية الشمس والقمر ليس دونهما سحاب " قالوا :لا

قال : " فإنكم ترون ربكم كذلك " " .وفى الصحيحين عن جرير بن عبد الله قال :
نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى القمر ليلة البدر فقال : " إنكم " ترون ربكم كما ترون هذا القمر " " .ثم قال ابن كثير - رحمه الله - : وهذا - بحمد الله - مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة . كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام ، وهداة الأنام .ومن تأول ( إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ) فقال : تنتظر الثواب من ربها . . فقد أبعد هذا القائل النجعة ، وأبطل فيما ذهب إليه . وأين هو من قوله - تعالى - ( كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ) قال الشافعي : ما حجَب الفجار إلا - وقد علم أن الأبرار يرونه - عز وجل .

تظن ان يفعل بها فاقرة

`<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html} كما فسرها الوسيط

ثم بين - سبحانه - حال السعداء والأشقياء يوم القيامة فقال : ( وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ . إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ . وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ . تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ) .وقوله : ( ناضرة ) اسم فاعل من النَّضْرة - بفتح النون المشددة وسكون الضاد - وهى الجمال والحسن . تقول : وجه نضير ، إذا كان حسنا جميلا .وقوله : ( باسرة ) من

البسور وهو شدة الكلوح والعبوس ، ومنه قوله - تعالى - ( ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ) يقال : بسَر فلان يبسُر بسُورا ، إذا قبض ما بين عينيه كراهية للشئ الذى يراه .والفاقرة : الداهية العظمية التى لشدتها كأنها تقصم فقار الظهر . يقال : فلان فقرته الفاقرة ، أى : نزلت به مصيبة شديدة أقعدته عن الحركة ، وأصل الفَقْر : الوسم على أنف البعير بحديدة أو نار حتى يخلُصَ إلى العظم أو ما يقرب منه .والمراد بقوله : ( يومئذ ) : يوم القيامة الذى " تكرر ذكره فى السورة أكثر من مرة .والجملة المقدرة المضاف إليها " إذ ، والمعوض عنها بالتنووين تقديرها يوم إذ برق البصر .والمعنى : يوم القيامة الذى يبرق فيه البصر ، ويخسف القمر . . تصير وجوه حسنة مشرقة ، ألا وهى وجوه المؤمنين الصادقين . .وهذه الوجوه تنظر إلى ربها فى هذا اليوم نظرة سرور وحبور ، بحيث تراه - سبحانه - على ما يليق بذاته ، وكما يريد أن تكون رؤيته - عز وجل - بلا كيفية ، ولا جهة ، ولا ثبوت مسافة .وهناك وجوه أخرى تصير فى هذا اليوم كالحة شديدة العبوس ، وهى وجوه الكافرين والفاسقين عن أمر ربهم ، وهذه الوجوه ( تَظُنُّ ) أى : تعتقد أو تتوقع ، أن يفعل بها فعلا يهلكها ، ويقصم ظهورها لشدته وقسوته .وجاء لفظ " وجوه " فى الموضعين منكرا ، للتنويع والتقسيم ، كما فى قوله - تعالى - ( فَرِيقٌ فِي الجنة وَفَرِيقٌ فِي السعير ) وكما فى قول الشاعر :فيوم علينا ويوم لنا ... ويوم نُسَاءُ ويوم نُسَروقد أخذ العلماء من قوله - تعالى - : ( إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ) أن الله - تعالى - يتكرم على عباده المؤمنين فى هذا اليوم ، فيربهم ذاته بالكيفية التى يريدها - سبحانه - .ومنهم من فسر ( نَّاضِرَةٌ ) بمعنى منتظرة ، أى : منتظرة ومتوقعة ما يحكم الله - تعالى - به عليها .قال - الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآيات : وقد ثبتت رؤية المؤمنين لله عز وجل - فى الدار الآخرة ، فى الأحاديث الصحاح ، من طرق متواترة عند أئمة الحديث ، لا يمكن دفعها ولا منعها . لحديث أبى سعيد وأبى هريرة - وهما فى الصحيحين - " أن ناسا قالوا : يا رسول الله ، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ ، فقال : " هل تضارون فى رؤية الشمس والقمر ليس دونهما سحاب " قالوا :لا : قال : " فإنكم ترون ربكم كذلك " " .وفى الصحيحين عن جرير بن عبد الله قال نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى القمر ليلة البدر فقال : " إنكم " - ترون ربكم كما ترون هذا القمر " " .ثم قال ابن كثير - رحمه الله - : وهذا بحمد الله - مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة . كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام ، وهداة الأنام .ومن تأول ( إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ فقال : تنتظر الثواب من ربها . . فقد أبعد هذا القائل النجعة ، وأبطل ( فيما ذهب إليه . وأين هو من قوله - تعالى - ( كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ) قال الشافعى : ما حجَب الفجار إلا - . وقد علم أن الأبرار يرونه - عز وجل

كلا اذا بلغت التراقي

كما فسرها الوسيط ثم زجر - سبحانه - الذين يكذبون بيوم الدين ، ويؤثرون العاجلة على الآجلة ، زجَرهم بلون آخر من ألوان الردع والزجر ، حيث ذكرهم بأحوالهم الأليمة عندما يودعون هذه الدنيا فقال : ( كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ ) التراقي . وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ . وَظَنَّ أَنَّهُ الفراق ) .والضمير فى ) - بَلَغَتِ ) يعود إلى الروح المعلومة من المقام . كما فى قوله - تعالى فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الحلقوم . . ) ومنه قول الشاعر :أماوى ما يغنى الثراء عن الفتى ... إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدروالتراقى : جمع تَرْقُوه وهى العظام المحيطة بأعالى الصدر عن يمينه ، وعن شماله ، وهى موضع ، الحشرجة ، وجواب الشرط محذوف .أى : حتى إذا بلغت روح الإنسان التراقى ، وأوشكت أن تفارق صاحبها . . وجد كل إنسان ثمار عمله الذى عمله فى دنياه وانكشفت له حقيقة عاقبته .والمقصود من الآية الكريمة وما بعدها : الزجر عن - إيثار العاجلة على الآجلة . فكأنه - تعالى - يقول : احذروا - أيها الناس ذلك قبل أن يفاجئكم الموت ، وقبل أن تبلغ أرواحكم نهايتها ، وتنقطع عند ذلك آمالكم .

وقيل من راق

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ) بيان لما يقوله أحباب الإنسان الذى بلغت روحه التراقى ، على سبيل التحسر والتوجع واستبعاد شفائه . و ( من ) اسم استفهام مبتدأ . و ( راق ) خبره ، وهو اسم فاعل من الرُّقية ، وهى كلام يقوله القائل ، أو فعل يفعله الفاعل من أجل شفاء المريض .والمراد به هنا : مطلق الطبيب الذى يرجى على يديه الشفاء لهذا المحتضر .أى : اذكروا - أيها الناس - وقت بلوغ الروح نهايتها ، ووقت أن وقف من يهمهم أمر المريض مستسلمين لقضاء الله - تعالى - وملتمسين من كل من بيده شفاء مريضهم ، أن يتقدم لإنقاذه مما هو فيه من كرب ، ولكنهم لا يجدون أحدا يحقق لهم آمالهم .قال الآلوسى : قوله : ( وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ) أى : وقال

من حضر صاحبها ، من يرقيه وينجيه مما هو فيه ، من الرقية ، وهو ما يستشفى به الملسوع والمريض من الكلام المعد لذلك ، ولعله أريد به مطلق الطبيب ، أع من أن يطب بالقول أو بالفعل . . والاستفهام عند البعض حقيقي . وقيل : هو استفهام استبعاد وإنكار . أى : قد بلغ هذا المريض مبلغا لا أحد يستطيع أن ، يرقيه .وقيل هذا الكلام من كلام ملائكة الموت . أى : أيكم يرقى بروحه أملائكة الرحمة ، أم ملائكة العذاب ، من الرقى وهو العروج . والاستفهام عليه حقيقي .ووقف حفص رواية عن عاصم على ( من ) وابتدأ بقوله : ( راق ) وكأنه قصد أن لا يتوهم أنهما كلمة واحدة ، فسكت سكتة لطيفة ، لتشعر أنهما كلمتان .

وظن انه الفراق

كما فسرها الوسيط والضمير فى المستتر فى قوله - تعالى - : ( وَظَنَّ أَنَّهُ الفراق ) يعود إلى هذا الإنسان الذى أشرف على الموت ، والذى بلغت روحه نهاية حياتها ، والظن هنا بمعنى اليقين ، أو بمعنى العلم المقارب لليقين .أى : وأيقن هذا المحتضر ، أو توقع أن نهايته قد اقتربت ، وأنه عما قليل سيودع أهله وأحبابه . . وسيفارقهم فراقا لا لقاء بعده ، إلا يوم يقوم الناس للحساب .

والتفت الساق بالساق

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( والتفت الساق بالساق ) أى : وأيقن هذا المحتضر ، أو توقع أن نهايته قد اقتربت ، وأنه عما قليل سيودع أهله وأحبابه . . وسيفارقهم فراقا لا لقاء بعده ، إلا يوم يقوم الناس الناس للحساب .وقوله - تعالى - : ( والتفت الساق بالساق ) أى : والتوت والتصقت إحدى ساقيه بالأخرى . عند سكرات الموت وشدته ، فصارتا متلاصقين لا تكاد إحداهما تتزحزح عن الأخرى ، فكأنهما ملتفتان .ويصح أن يكون المعنى : والتفت الساق بالساق عند وضع هذا الذى أدركه الموت فى كفنه ، لأن هذا الكفن قد ضم : جميع جسده ، والتصقت كل ساق بالأخرى .ومنهم من يرى أن هذه الآية الكريمة كناية عن هول الموت وشدته كما فى قوله - تعالى - : ( يَوْمَ يُكْشَفُ عَن : سَاقٍ ) والعرب لا تذكر الساق إلا فى المحن والشدائد العظام ، ومنه قولهم قامت الحرب على ساق .قال صاحب الكشاف : " والتفت " ساقه بساقه والتوت عليها . عند الموت ، وعن قتادة : ماتت رجلاه فلا تحملانه وقد كان عليهما جوالا وقيل : التفت شدة فراق الدنيا بشدة إقبال الآخرة ، على أن الساق مثل فى . الشدة .وعن سعيد ابن المسيب : هما ساقاه حين تلفانه فى أكفانه

الى ربك يومئذ المساق

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( إلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المساق ) أى إلى ربك - أيها الرسول الكريم - مساق الناس ومرجعهم -لا إلى غيره - يوم : القيامة . . لكى يحاسبوا على أعمالهم .فالمساق مصدر ميمى من ساق الشئ إذا . سيره أمامه إلى حيث يريد

فلا صدق ولا صلى

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - جانبا من الأسباب التى أدت إلى سوء عاقبة المكذبين للحق ، فقال - تعالى - : ( فَلاَ صَدَّقَ وَلاَ صلى . ولكن كَذَّبَ وتولى . ثُمَّ ذَهَبَ إلى أَهْلِهِ يتمطى ) .والفاء للتفريع على ما تقدم ، من قوله - تعالى - : ( أَيَحْسَبُ الإنسان أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ) إلخ .أو للتفريع والعطف على قوله - سبحانه - : ( إلى رَبِّكَ ، يَوْمَئِذٍ المساق ) . . أى : أن هذا الإنسان الذى أنكر الحساب والجزاء وفارق الحياة ، كانت عاقبة أمره خسرا ، فلا هو صدق بالحق الذى جاءه الرسول صلى الله عليه وسلم ولا هو أدى الصلاة التى فرضها الله - تعالى - عليه ز

ولكن كذب وتولى

. كما فسرها الوسيط ولكنه كذب بكل ذلك ، وتولى ، وأعرض عن سبيل الرشاد

ثم ذهب الى اهله يتمطى

كما فسرها الوسيط ثم بعد ذلك : ( ذَهَبَ إلى أَهْلِهِ يتمطى ) أى : ذهب إلى أهله متبخترا متفاخرا ، متباهيا بإصراره على كفره وفجوره .وقوله : ( يتمطى من المط بمعنى المد . وأصله : يتمطط ، قلبت فيه الطاء حرف علة ، ووصف ( ، المتبختر فى مشيه بذلك ، لأنه يمط خطاه ، ويمدها على سبيل الإعجاب بنفسه

والتباهى بما هو عليه من كفر وضلال .ولم يذكر - سبحانه - المتعلق والمفعول
فى الآيات الكريمة ، للإشعار بأن هذا الإنسان الجاحد الجاهل . . لم يصدق
بشئ من الحق ، ولم يؤد الله - تعالى - فرضا ولا سنة ، ولكنه استمر على
تكذيبه وإعراضه عن الصراط المستقيم ، ولم يكتف بكل ذلك ، بل تفاخر وتباهى
أمام وغيره بما هو عليه من باطل .

اولى لك فاولى

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( أولى لَكَ فأولى . ثُمّ أولى لَكَ
. . فأولى ) دعاء على هذا الإنسان الشقى ، المصر على إعراضه عن الحق
بالهلاك وسوء العاقبة . و ( أولى ) اسم تفضيل من وَلِىَ ، وفاعله ضمير
محذوف يقدره كل قائل أو سامع بما يدل على المكروه .والكاف فى قوله ( لك )
للتبين ، والكاف خطاب لهذا الإنسان المخصوص بالدعاء عليه .وقوله : ( فأولى
تأكيد لقوله ( أولى لَك ) ) .

ثم اولى لك فاولى

. كما فسرها الوسيط وجملة ( ثُمَّ أولى لَكَ فأولى ) مؤكدة للجملة الأولى
أى : أجدر بك هذا الهلاك الذى ينتظرك قريبا - أيها الإنسان - الجاحد ، ثم
أجدر بك ، لأنك أصررت على كل ما هو باطل وسوء .قال القرطبى ما ملخصه : هذا
تهديد بعد تهديد ، ووعيد بعد وعيد . .روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
خرج من المسجد ذات يوم ، فاستقبله أبو جهل على باب المسجد ، فأخذ رسول الله
" صلى الله عليه وسلم بيده ، فهزه مرة أو مرتين ثم قال : " أولى لك فأولى
فقال أبو جهل : أتهددنى - يا محمد - فو الله إنى لأعز أهل هذا الوادى
وأكرمه ، ونزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال لأبى جهل .وجئ
بحرف " ثم " فى عطف الجملة الثانية على الأولى ، لزيادة التأكيد ،
وللارتقاء فى الوعيد ، وللإشعار بأن التهديد الثانى أشد من الأول ، كما فى
قوله - تعالى - : ( كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ
تَعْلَمُونَ ).

ايحسب الانسان ان يترك سدى

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بالإشارة إلى الحكمة
من البعث والجزاء ، وببيان جانب من مظاهر قدرته فقال : ( أَيَحْسَبُ
الإنسان أَن يُتْرَكَ سُدًى ) .والاستفهام للإنكار كما قال فى قوله -
" تعالى - قبل ذلك : ( أَيَحْسَبُ الإنسان أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ) و
: سُدَى " - بضم السين مع القصر - بمعنى مهمل . يقال : إبل سُدًى ، أى
مهملة ليس لها راع يحميها . . وهو حال من فاعل " يترك " .أى : أيظن هذا
الإنسان الذى أنكر البعث والجزاء ، أن نتركه هكذا مهملا ، فلا نجازيه على
أعماله التى عملها فى الدنيا؟ إن كان يحسب ذلك هفو فى وهم وضلال ، لأن
حكمتنا قد اقتضت أن نكرم المتقين ، وأن تعاقب المكذبين .

الم يك نطفة من مني يمنى

كما فسرها الوسيط والاستفهام فى قوله : ( أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن
مّنِيٍّ يمنى . . ) للتقرير ، والنطفة : القليل من الماء و ( يمنى ) يراق
هذا المنى فى رحم المرأة .أى : كيف يحسب هذا الإنسان أنه سيترك سدى؟ ألم
يك فى الأصل قطرة ماء تصب من الرجل فى رحم المرأة وتراق فيه؟ بل إنه كان
كذلك .

ثم كان علقة فخلق فسوى

) كما فسرها الوسيط ثم ( كَانَ ) بعد ذلك ( عَلَقَةً ) أى : قطعة دم متجمد
فَخَلَقَ فسوى ) أى : فخلقه الله - تعالى - خلقا آخر بقدرته ، وسواه فى
أحسن تقويم ، كما قال : ( لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان في أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ
. . ).

فجعل منه الزوجين الذكر والانثى

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

اليس ذلك بقادر على ان يحيي الموتى

كما فسرها الوسيط وجملة ( أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ على أَن يُحْيِيَ

الموتى ) بمثابة النتيجة بعد المقدمات والأدلة .أى : أليس ذلك الرب العظيم الشأن والقدرة ، الذى أحسن كل شئ خلقه : والذى خلق الإنسان فى تلك الأطوار المتعددة . . أليس ذلك الإله صاحب الخلق والأمر .( بِقَادِرٍ على أن يُحْيِيَ الموتى ) وعلى أن يعيدهم إلى الحياة مرة أخرى ، ليجازى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى؟ بلى إنه لقادر على ذلك قدرة تامة .وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية جملة من الأحاديث منها : أن رجلا كان إذا قرأ هذه الآية قال : سبحانك اللهم وبلَى . فسئل عن ذلك فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ذلك .وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

هل اتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا

كما فسرها الوسيط الاستفهام فى قوله - تعالى - : ( هَلْ أتى عَلَى الإنسان للتقرير . والمراد بالإنسان : جنسه ، فيشمل جميع بنى آدم ، والحين ( . . : المقدار المجمل من الزمان ، لأحد لأكثره ولا لأقله . والدهر : الزمان الطويل غير المحد بوقت معين .والمعنى : لقد أتى على الإنسان ( حِينٌ مِّنَ الدهر ) أى : وقت غير محدد من الزمان الطويل الممتد فى هذه الحياة الدنيا أى : لم يكن هذا الإنسان فى ذلك ( لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً ).
الحين من الدهر ، شيئا مذكورا من بين أفراد جنسه ، وإنما كان شيئا غير موجود إلا فى علم الله - تعالى - .ثم أوجده - سبحانه - بعد ذلك من نطفة فعلقة فمضغة . . ثم أنشأه - سبحانه - بعد ذلك خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين .فالمقصود بهذه الآية الكريمة بيان مظهر من مظاهر قدرته - عز وجل - حيث أوجد الإنسان من العدم ، ومن كان قادرا على ذلك ، كان - من باب أول - قادرا على إعادته إلى الحياة بعد موته ، والحساب والجزاء .قال - الإمام الفخر الرازى ما ملخصه : اتفقوا على أن " هل " هاهنا ، وفى قوله تعالى - : ( هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الغاشية ) بمعنى قد ، كما تقول : هل رأيت صنيع فلان ، وقد علمت أنه قد رآه . وتقول : هل وعظتك وهل أعطيتك ، ومقصودك أن تقرره بأنك قد أعطيته ووعظته .والدليل على أن " هل " هنا ليست للاستفهام الحقيقى . . أنه محال على الله - تعالى - فلابد من حمله على الخبر .وجاءت الآية الكريمة بأسلوب الاستفهام ، لما فيه من التشويق إلى معرفة ما سيأتى بعده من كلام .وجملة ( لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً ) فى وضع نصب على الحال من الإنسان ، والعائد محذوف . أى : حالة كون هذا الإنسان ، لم يكن فى ذلك الحين من الدهر ، شيئا مذكورا من بين أفراد جنسه . وإنما كان نسيا منسيا ، لا يعلم بوجوده أحد سوى خالقه - عز وجل - .

انا خلقنا الانسان من نطفة امشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا

كما فسرها الوسيط ثم فصل - سبحانه - بعد هذا التشويق ، أطوار خلق الإنسان فقال : ( إِنَّا خَلَقْنَا الإنسان مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ )
والمراد بالإنسان هنا - أيضا - جنسه وجميع أفراده .و " أمشاج " بمعنى أخلاط من عناصر شتى ، مشتق من المشج بمعنى الخلط ، يقال : مشجي فلان بين كذا وكذا - من باب ضرب - إذا خلط ومزج بينهما ، وهو جمع مشَج - كسبب ، أو مَشِج - ككتف ، أو مشيج - كنصير .قال الجمل : " أمشاج " نعت لنطفة . ووقع الجمع صفة لمفرد ، لأنه فى معنى الجمع ، أو جعل كل جزء من النطفة نطفة ، فاعتبر ذلك فوصف بالجمع . .ويرى صاحب الكشاف أن لفظ " أمشاج " مفرد جاء على صيغة أفعال ، كلفظ أعشار فى قولهم : برمة أعشار ، أى : برمة متكسرة قطعا قطعا ، وعليه يكون المفرد قد نعت بلفظ مفرد مثله .فقال قال - رحمه الله - : كبرمة أعشار . . وهى ألفاظ مفردة غير جموع ( مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ) والذلك وقعت صفات للأفراد ، والمعنى : من نطفة قد امتزج فيها الماءان. . وجملة " نبتليه " حال من الإنسان ، أنو من فاعل " خلقنا " .أى : إنا خلقنا الإنسان بقدرتنا وحدها . " من نطفة " أى : من مَنِيّ ، وهو ماء الرجل وماء المرأة ، " أمشاج " أى : ممتزج أحدهما بالآخر امتزاجا تاما .أو خلقنا من نطفة مختلطة بعناصر متعددة ، تتكون منها حياة الإنسان بقدرتنا وحمكتنا .وهلقناه كلذلك حالة كوننا مريدين ابتلاءه واختباره بالتكاليف ، فى مستقبل حياته حين يكون أهلا لهذه التكاليف .( فَجَعَلْنَاهُ ) بسبب إرادتنا ابتلاءه واختباره بالتكاليف مزودات بوسائل الإدراك ، التى بواسطتها بسمع الحق ويبصره ويستجيب له ويدرك الحقائق والآيات الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا وصدق رسلنا . . إدراكا سليما ، متى اتبع فطرته ، وخالف وساوس الشيطان وخطواته .وخص - سبحانه - السمع والبصر بالذكر ، لأنهما أنفع الحواس للإنسان ، إن عن طريق السمع يتلقى دعوة الحق وما اشتملت عليه من هدايات ، وعن طريق البصر ينظر فى الأدلة المتنوعة الكثيرة التى تدل على وحدانية الله - تعالى - وعلى صدق أنبيائه فيما جاءوا به من عند ربهم . .

انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( إِنَّا هَدَيْنَاهُ السبيل ) تعليل لقوله : ( نَّبْتَلِيهِ ) ، وتفصيل لقوله - تعالى - ( فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً ) ، والمراد بالهداية هنا : الدلالة إلى طريق الحق والإرشاد إلى الصراط المستقيم .أى : إنا بفضلنا وإحساننا - قد أرشدنا الإنسان إلى ما يوصله إلى طريق الحق والصواب ، وأرشدناه إلى ما يسعده ، عن طريق إرسال الرسل وتزويده بالعقل المستعد للتفكر والتدبر فى آياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا .وقوله : ( إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ) حالان من ضمير الغيبة فى " هديناه " وهو ضمير الإنسان .و " إما " للتفصيل باعتبار تعدد الأحوال مع اتحاد الذات : أو للتقسيم للمهدى بحسب اختلاف الذوات والصفات .أى : إنا هديناه ودللناه على ما يوصله إلى الصراط المستقيم فى حالتى شكره وكفره ، لأنه إن أخذ بهدايتنا كان شاكرا ، وإن أعرض عنها ، كان جاحدا وكافرا لنعمنا ، فالهداية موجودة فى كل الأحوال ، إلا أن المنتفعين بها هم الشاكرون وحدهم .ومثل ذلك كمثل رجلين ، يرشدهما مرشد إلى طريق النجاة ، فأحدهما يسير فى هذا الطريق فينجو من العثرات والمتاعب ، والمخاطر . . والآخر يعرض عن ذلك فيهلك .ولما كان الشكر قل من يتصف به كما قال - سبحانه - : ( وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشكور ) جاء التعبير بقوله - سبحانه - ( شَاكِراً ) بصيغة اسم الفاعل . ولما كان الجحود والكفر يعم أكثر الناس ، جاء التعبير بقوله - تعالى - ( كَفُوراً ) بصيغة المبالغة ، والمقصود من الآية الكريمة : قفل الباب أمام الذين يفسقون عن أمر ربهم. ويرتكبون ما يرتكبون من السيئات . . ثم بعد ذلك يعلقون أفعالهم هذه على قضاء الله وقدره ، ويقولون - كما حكى القرآن عن المشركين - : ( لَوْ شَآءَ الله مَآ أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ).

انا اعتدنا للكافرين سلاسل واغلالا وسعيرا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد هذه الهداية ، ما أعده لفريق الكافرين ، وما أعده لفريق الشاكرين ، فقال - تعالى - :( إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ . . . ) .قوله - سبحانه - : ( إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ . . ) كلام مستأنف لبيان جزاء الكافرين بعد أن تطلعت إليه النفس ، بعد سماعها لقوله - تعالى - : ( إِمَّا شَاكِراً وَإِمّا كَفُوراً ) وابتداء - سبحانه - بذكر جزاء الكافر ، لأن ذكره هو الأقرب ولأن الغرض بيان جزائه على سبيل الإجمال ، ثم تفصيل القول بعد ذلك فى بيان جزاء المؤمنين .والسلاسل : جمع سلسلة ، وهى القيود المصنوعة من الحديد والتى يقيد بها المجرمون . وقد قرأ بعض القراء السبعة هذا اللفظ بالتنوين ، وقرأه آخرون بدون تنوين .والأغلال : جمع غل - بضم الغين - وهو القيد الذى يقيد به المذنب ويكون فى عنقه ، قال - تعالى - : ( إِذِ الأغلال في أَعْنَاقِهِمْ والسلاسل يُسْحَبُونَ . فِي الحميم ثُمَّ فِي النار يُسْجَرُونَ ) والمعنى : إنا أعتدنا وهيأنا للكافرين سلاسل يقادون بها - وأغلالا تجمع بها أيديهم إلى أعناقهم على سبيل الإذلال لهم ، وهيأنا لهم فوق ذلك - ناراً شديدة الاشتعال تحرق بها أجسادهم .

ان الابرار يشربون من كاس كان مزاجها كافورا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما أعده للمؤمنين الصادقين من خير عميم فقال : ( إِنَّ الأبرار يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً ) - والأبرار : جمع بَرٍّ أو بَارٍّ . وهو الإنسان المطيع لله - تعالى. طاعة تامة ، والمسارع فى فعل الخير ، والشاكر لله - تعالى - على نعمه والكأس : هو الإناء الذى توضع فيه الخمر ، ولا يسمى بهذا الاسم إلا إذا كانت الخمر بداخله ، ويصح أن يطلق الكأس على الخمر ذاتها على سبيل المجاز ، من باب تسمية الحال باسم الحال ، وهو المراد هنا . لقوله - تعالى - : ( كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً ) و " من " للتبعيض .والضمير فى قوله ( مِزَاجُهَا ) يعود إلى الكأس التى أريد بها الخمر ، والمراد " بمزاجها " خليطها من المزج بمعنى الخلط يقال : مزجت الشئ بالشئ ، إذا خلطته به .والكافور : اسم لسائل طيب الرائحة ، أبيض اللون ، تميل إليه النفوس .أى : إن المؤمنين الصادقين - الذين أخلصوا لله - تعالى - الطاعة والعبادة والشكر . . يكافئهم - سبحانه على ذلك ، بأن يجعلهم يوم القيامة فى جنات عالية ، ويتمتعون بالشراب من خمر هذه الخمر كانت مخلوطة بالكافور الذى تنتعش له النفوس ، وتحبه الأرواح ، والقلوب ، لطيب رائحته ، وجمال شكله .

عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا

كما فسرها الوسيط وذكر - سبحانه - ( عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ الله . بدل من قوله : ( كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً ) لأن ماءها فى بياض ( . .

الكافور وفى رائحته وبرودته .أى : أن الأبرار يشربون من كأس ، ماؤها ينبع
" من عين فى الجنة ، هذا الماء له بياض الكافور ورائحته وبرودته .وعدى فعل
يشرب " بالباء ، التى هى باء الإلصاق ، لأن الكافور يمزج به شرابهم . أى؛
عينا يشرب عباد الله ماءهم وخمرهم بها . أى : مصحوبا بمائها وخمرها .ومنهم
من جعل الباء هنا بمعنى من التبعيضية . أى : عينا يشرب من بعض مائها وخمرها
- عباد الله ، وهم الأبرار .وعبر عنهم بذلك لتشريفهم وتكريمهم ، حيث أضافهم
سبحانه - إلى ذاته .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم وصل فعل الشرب بحرف
الابتداء أولا ، وبحرف الإلصاق آخرا؟ قلت : لأن الكأس مبدأ شربهم وأول
غايته ، وأما العين فبها يمزجون شرابهم ، فكأن المعنى : يشرب عباد الله بها
) : - الخمر ، كما تقول : شربت الماء بالعسل . .وقوله - سبحانه
يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً ) صفة أخرى للعين ، أى : يسيرونها ويجرونها إلى
حيث يريدون ، وينتفعون بها كما يشاؤون ، ويتبعهم ماؤها إلى كل مكان يتوجهون
إليه .فالتعبير بقوله : ( يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً ) إشارة إلى كثرتها
وسعتها وسهولة حصولهم عليها يقال : فجَّر فلان الماء ، إذا أخرجه من الأرض
بغزارة ومنه قوله - تعالى - ( وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى تَفْجُرَ
لَنَا مِنَ الأرض يَنْبُوعاً ).

يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك فى آيات متعددة ، الأسباب التى
من أجلها وصلوا إلى النعيم الدائم . فقال - تعالى - : ( يُوفُونَ بالنذر
وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً ) .والنذر : ما يوجبه
الإنسان على نفسه من طاعة الله - تعالى - ، والوفاء به : أداؤه أداء كاملا
أى : أن من الأسباب التى جعلت الأبرار يحصلون على تلك النعم ، أنهم من .
أخلاقهم الوفاء بالنذل ، ومن صفاتهم - أيضا - أنهم يخافون يوما عظيما هو
) : يوم القيامة ، الذى كان عذابه فاشياً منتشراً غاية الانتشار .فقوله
مُسْتَطِيراً ) اسم فاعل من استطار الشئ إذا انتشر وامتد أمره ، والسين
والتاء فيه للمبالغة ، وأصله طار . ومنه قولهم : استطار الغبار ، إذا انتشر
فى الهواء وتفرق وجئ بصيغة المضارع فى قوله : ( يُوفُونَ ) للدلالة على
تجدد وفائهم فى كل وقت وحين .والتعريف فى " النذر " للجنس ، لأنه يعم كل
، نذر .وجاء لفظ اليوم منكراً ، ووصف بأن له شراً مستطيرا . . لتهويل أمره
. وتعظيم شأنه ، حتى يستعد الناس لاستقباله بالإيمان والعمل الصالح

ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما واسيرا

كما فسرها الوسيط ثم وصفهم - سبحانه - بصفات أخرى فقال : ( وَيُطْعِمُونَ
الطعام عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً ) .أى : أن هؤلاء
، الأبرار من صفاتهم - أيضا - أنهم يطعمون الطعام مع حب هذا الطعام لديهم
ومع حاجتهم إليه واشتهائهم له .ومع كل ذلك فهم يقدمونه للمسكين ، وهو
المحتاج إلى غيره لفقره وسكونه عن الحركة . . ولليتيم : وهو من فقد أباه
: وهو صغير ، وللأسير : وهو من أصبح أمره بيد غيره ، وخص الإطعام بالذكر
لما فى تقديمه من كرم وسخاء وإيثار ، لا سيما مع الحاجة إليه ، كما يشعر به
قوله - تعالى - ( على حُبِّهِ ) أى : على حبهم لذلك الطعام ، وقيل الضمير
فى قوله ( على حُبِّهِ ) يعود إلى الله - عز وجل - أى : يطعمون الطعام على
حبهم له - تعالى .والأولى أولى .ويؤيده قوله - تعالى - ( لَن تَنَالُواْ
، البر حتى تُنْفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ) و " على " هنا بمعنى مع
والجملة فى محل نصب على الحال . أى : حالة كونهم كائنين على حب هذا الطعام
وخص هؤلاء الثلاثة بالذكر ، لأنهم أولى الناس بالرعاية والمساعدة .وقد.
، ذكروا فى سبيل نزول هذه الآية ، والآيتين اللتين يعدها ، روايات منها
- أنها نزلت فى الإمام على وزوجه فاطمة - رضى الله عنهما - .قال القرطبى
بعد أن ذكر هذه الروايات - : والصحيح أنها نزلت فى جميع الأبرار ، وفى كل
. . من فعل فعلا حسنا ، فهى عامة

انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ الله
بيان لشدة إخلاصهم ، ولطهارة نفوسهم ، وهو مقول لقول محذوف أى : يقدمون (
الطعام لهؤلاء المحتاجين مع حبهم لهذا الطعام ، ومع حاجتهم إليه . . ثم
- يقولون لهم بلسان الحال أو المقال : إنما نطعمكم ابتغاء وجه الله - تعالى
وطلبا لمئويته ورحمته .( لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلاَ شُكُوراً ) أى
لا نريد منكم جزاء على ما قدمناه لكم ، ولا نريد منكم شكرا على ما فعلناه :
. فإننا لا نلتمس ذلك إلا من الله - تعالى - خالقنا وخالقكم ،

انا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا

كما فسرها الوسيط ثم أضافوا إلى ذلك قولهم : ( إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً ) .والعبوس : صفة مشبهة لمن هو شديد العبس ، أى كلوح الوجه وانقباضه .والقمطرير : الشديد الصعب من كل شئ يقال : اقْمَطَرَّ يومُنا . إذا اشتدت مصائبه .ووصف اليوم بهذين الوصفين على سبيل المجاز فى الإسناد ، والمقصود وصف أهله بذلك ، فهو من باب : فلان نهاره صائم .أى : ويقولون لهم - أيضا - عند تقديم الطعام لهم : إنا نخاف من ربنا يوما ، تعبس فيه الوجوه ، من شدة هوله ، وعظم أمره ، وطول بلائه .أى : أنهم لم يقدموا الطعام - مع حبهم له - رياء ومفاخرة ، وإنما قدموه ابتغاء وجه الله ، وخوفا من عذابه .

فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا

كما فسرها الوسيط والفاء فى قوله : ( فَوَقَاهُمُ الله شَرَّ ذَلِكَ اليوم وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً ) أى : وجعلهم يلقون فيها حسنا وبهجة فى الوجوه ، وسرورا وانشراحا فى الصدور ، بدل العبوس والكلوح الذى حل بوجوه الكفار .

وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا

كما فسرها الوسيط ( وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُواْ ) أى : بسبب صبرهم ) جَنَّةً ) عظيمة . . و ( وَحَرِيراً ) جميلا يلبسونه .

متكئين فيها على الارائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا

كما فسرها الوسيط ( مُّتَّكِئِينَ فِيهَا ) أى : فى الجنة ( على الأرائك ) أى : على السرر ، أو على ما يتكأ عليه من سرير أو فراش ونحوه .( لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلاَ زَمْهَرِيراً ) أى : لا يرون فيها شمساً شديدة الحرارة بحيث تؤذيهم أو تضرهم ، ولا يرون فيها كذلك ( زَمْهَرِيراً ) أى : بردا مفرطا ، يقال : زمهر اليوم ، إذا اشتد برده .والمقصود من الآية الكريمة أنهم لا يرون فى الجنة إلا جوا معتدلا ، لا هو بالحار ولا هو بالبارد .

ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلاَلُهَا . . ) معطوف على قوله قبل ذلك : ( متكئين )و " ظلالها " فاعل " دانية " والضمير فى " ظلالها " يعود إلى الجنة .أى : أن الأبرار فى الجنة جلسة الناعم البال ، المنشرح الصدر . وظلال الأشجار الجنة قريبة منهم ، ومحيطة بهم ، زيادة فى إكرامهم .( وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً ) أى : أنهم - فضلا عن ذلك - قد سخرت لهم ثمار الجنة تسخيرا ، وسهل الله - تعالى - لهم تناولها تسهيلا عظيما ، بحيث إن القاعد منهم والقائم والمضجع ، يستطيع أن يتناول هذه الثمار هذه الثمار اللذيذة بدون جهد أو تعب .فقوله - تعالى - : ( وَذُلِّلَتْ ) يقال : ذُلّل من التذليل بمعنى الانقياد والتسخير ، والقطوف : جمع قطف - بضم الذال - إذا تدلت عناقيده وصارت فى متناول اليد . والكرم : جمع قطف - بكسر القاف - وهو العنقود حين يُقْطف أو الثمار المقطوفة .

ويطاف عليهم بانية من فضة واكواب كانت قواريرا

كما فسرها الوسيط وبعد أن وصف - سبحانه - جانبا من طعامهم ولباسهم ومسكنهم أخذت السورة الكريمة فى وصف شرابهم . فقال - تعالى - : ( وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا . قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً )وقوله : ( وَيُطَافُ ) : من الطواف ، وهو السعى المكرر حول الشئ ، ومنه الطواف بالكعبة . والآونية : جمع إناء ، وهو اسم لكل وعاء يوضع فيه الطعام والشراب والمراد بها هنا الأوانى : التى يستعملونها فى مجالس شرابهم .والأكواب : جمع كوب ، وهو القدح الذى لا عروة له ، وعطفه على الآنية من باب عطف الخاص على العام ، والقوارير : جمع قارورة وهى فى الأصل إناء رقيق من الزجاج النقى الشفاف. توضع فيه الأشربة وما يشبهها ، فتستقر فيه .

قوارير من فضة قدروها تقديرا

كما فسرها الوسيط أى : ويطاف على هؤلاء الأبرار بآنية كائنة من فضة ، وبأكواب وأقداح من فضة - أيضاً - وجعلت هذه الأكواب فى مثل القوارير فى

صفائها ونقائها ، وفى مثل الفضة فى جمالها وحسنها ، بحيث يرى ما بداخلها من خارجها .وقوله - سبحانه - ( قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً ) أى : إن الطائفين بهذه الأكواب عليهم ، قد وضعوا فيها من الشراب على مقدار ما يشبع هؤلاء الأبرار ويرويهم بدون زيادة أو نقصان والطائفون عليهم بذلك هم الخدم الذين جعلهم الله - تعالى - لخدمة هؤلاء الأبرار . وبنى الفعل للمجهول للعلم بهم ) وقال - سبحانه - هنا ( بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ ) وفى سورة الزخرف. يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ . . . ) زيادة فى تكريمهم وفى سمو منزلتهم ، إذ تارة يطاف عليهم بأكواب من فضة ، وتارة يطاف عليهم بصحاف من ذهب ، ومن المعروف أنه كلما تعددت المناظر الحسنة ، والمشارب اللذيذة ، كان ذلك أبهج للنفس .والمراد بالكينونة فى قوله - تعالى - ( كَانَتْ قَوَارِيرَا . . . ) أنها تكونت ووجدت على هذه الصفة قال الآلوسى : قوله - تعالى - ( كَانَتْ قَوَارِيرَا ) أى : كانت تلك. الأكواب قوارير ، جمع قارورة ، وهى إناء رقيق من الزجاج توضع فيه الأشربة ، ونصبه على الحال ، فإن " كان " تامة ، وهو كما تقول : خلقت قوارير . وقوله - تعالى - : ( قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ ) بدل .والكلام على التشبيه البليغ .والمراد تكونت جامعة بين صفاء الزجاجة وشفيفها ، ولون الفضة وبياضها .وقرأ نافع والكسائى وأبو بكر بتنوين ( قَوَارِيرَا ) فى الموضعين . . وصلا ، وإبداله ألفا وقفا . وابن كثير يمنع صرف الثانى ويصرف الأول والقراءة بمنع صرفهما للباقين .وقال الشوكانى : وجملة " قدرها تقديرا " صفة لقوارير . . أى : قدرها السقاة من الخدم ، الذين يطوفون عليهم على قدر ما : يحتاج إليه الشاربون من أهل الجنة ، من دون زيادة ولا نقصان . . ، وقيل قدرها الملائكة . وقيل : قدرها الشاربون لها من أهل الجنة على مقدار حاجتهم . . فجاءت كما يريدون فى الشكل لا تزيد ولا تنقص ،

ويسقون فيها كاسا كان مزاجها زنجبيلا

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - محاسن شراب أهل الجنة فقال وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً . عَيْناً فِيهَا تسمى سَلْسَبِيلاً ) .والمراد بالكأس هنا : كأس الخمر . والضمير فى ، قوله ( فيها ) يعود إلى الجنة . والزنجبيل : نبات ذو رائحة عطرية طيبة . والعرب كانوا يستلذون الشراب الممزوج به

عينا فيها تسمى سلسبيلا

كما فسرها الوسيط والسلسبيل وصف قيل مشتق من السلاسة بمعنى السهولة واللين يقال : ماء سلْسَل ، أى : عذب سائغ للشاربين ، ومعنى ( تسمى ) على هذا ، ، الرأى . أى : توصف بالسلاسة والعذوبة .وقيل : السلسبيل : اسم لهذه العين لقوله - تعالى - ( تسمى ) .أى : أن هؤلاء الأبرار - بجانب كل ما تقدم من نعم - يسقون فى الجنة من كأس مليئة بالخمر ، وهذه الخمر التى يشربونها ممزجة بالزنجبيل ، فتزداد لذة على لذتها .ويسقون - أيضا - من عين فيها - أى : فى الجنة - تسمى سلسبيلا ، وذلك لسلاسة مائها ولذته وعذوبته ، وسهولة نزوله إلى الحلق .قال صاحب الكشاف : ( سَلْسَبِيلاً ) سميت بذلك - لسلاسة انحدارها فى الحلق ، وسهولة مساغها يعنى : أنها فى طعم الزنجبيل ، وليس فيها لذعة ، ولكن فيها نقيض اللذع وهو السلاسة ، فقال : شراب سلسل وسلسال وسلسبيل ، وقد زيدت الباء فى التركيب حتى صارت الكلمة خماسية . ودلت على غاية السلاسة . .

ويطوف عليهم ولدان مخلدون اذا رايتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا

كما فسرها الوسيط ثم أخبر - سبحانه - عن نوع آخر من الخدم ، يطوفون على هؤلاء الأبرار لخدمتهم ، فقال : ( وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَّنثُوراً ) .أى ويطوف على هؤلاء الأبرار ( وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ) أى : دائمون على ما : هم عليه من النضارة والشباب . . إذا رأيتهم - أيها المخاطب ( حَسِبْتَهُمْ وظننتهم ( لُؤْلُؤاً مّنثُوراً ) أى : حسبتهم من حسنهم ، وصفاء ألوانهم ( - ونضارة وجوههم . . لؤلؤا ودرا مفرقا فى جنبات المجالس وأوسطها .فقوله ، تعالى - ( مُّخَلَّدُونَ ) احتراس المقصود منه دفع توهم أنهم سيصيرون فى يوم من الأيام كهولا ، قالوا : وشبهوا باللؤلؤ المنثور ، لأن اللؤلؤ إذا نثر على البساط ، كان أكثر جمالا منه فيما لو كان منظوما .

واذا رايت ثم رايت نعيما وملكا كبيرا

كما فسرها الوسيط ( وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمّ ) وثم هنا ظرف مكان مختص : بالبعيد ، وهو منصوب على الظرفية ، ومفعول الرؤية غير مذكور ، لأن القصد

) .. وإذا صدرت منك - أيها المخاطب رؤية إلى هناك ، أى : إلى الجنة ونعيمها
رَأَيْتَ نَعِيماً )لا يقادر قدره ( وَمُلْكاً كَبِيراً ) أى : واسعا لا
غاية له .فقوله - سبحانه - ( رَأَيْتَ ) الثانية ، جواب إذا . والمشار إليه
بِثَمّ " التى هى بمعنى هناك معلوم من المقام ، لأن المقصود به الجنة "
التى سبق الحديث عنها فى مثل قوله : ( وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً
. وَحَرِيراً ) أى : وإذا سرحت ببصرك إلى هناك رأيت نعيما وملكا كبيرا

عاليهم ثياب سندس خضر واستبرق وحلوا اساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا

كما فسرها الوسيط ثم فصل - سبحانه - جانبا من مظاهر هذا النعيم العظيم فقال
عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وحلوا أَسَاوِرَ مِن )
فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً )وقوله ( عَالِيَهُم )
بفتح الياء وضم الهاء - بمعنى فوقهم ، فهو ظرف خبر مقدم ، وثياب مبتدأ مؤخر
كأنه قيل : فوقهم ثياب ويصح أن يكون حالا للأبرار . أى : تلك حال أهل ،
النعيم والملك الكبير وهم الأبرار .وقرأ نافع وحمزة ( عاليهم ) - بسكون
- الياء وكسر الهاء - على أن الكلام جملة مستأنفة استئنافا بيانيا ، لقوله
) تعالى - ( رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً ) ، ويكون لفظ
عَالِيَهُمْ ) اسم فاعل مبتدأ .وقوله : ( ثِيَابُ سُندُسٍ ) فاعله ساد مسد
الخبر ، ويصح أن يكون خبرا مقدما ، وما بعده مبتدأ مؤخر .وإضافة الثياب إلى
: السندس بيانية ، مثل : خاتم ذهب والسندس : الديباج الرقيق . والاستبرق
، الديباج الغليظ .والمعنى : أن هؤلاء الأبرار ، أصحاب النعيم المقيم
والملك الكبير ، فوق أجسادهم ثياب من أفخر الثياب ، لأنهم يجمعون فى لباسهم
بين الديباج الرقيق ، والديباج الغليظ ، على سبيل التنعيم والجمع بين محاسن
الثياب .وكانت تلك الملابس من اللون الأخضر ، لأنها أبهج للنفس ، وشعار
، لباس الملوك .وكلمة : " خضر " قرأها بعضهم بالرفع على أنها صفة لثياب
" وقرأها البعض الآخر بالجر ، على أنها صفة لسندس . وكذلك كلمة " وإستبرق
قرئت بالرفع عطفا على ثياب ، وقرئت بالجر عطفا على سندس .وقوله : ( وحلوا
أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ ) بيان لما يتزينون به فى أيديهم ، أى أن هؤلاء
الأبرار يلبسون فى أيديهم أساور من فضة ، كما هو الشأن بالنسبة للملوك فى
) : - الدنيا ، ومنه ما ورد فى الحديث من ذكر سوارى كسرى .وقوله - تعالى
وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً ) أى : وفضلا عن كل تلك الملابس
الفاخرة سقاهم ربهم - بفضله وإحسانه - شرابا بالغا نهاية الطهر ، فهو ليس
كخمر الدنيا ، فيه الكثير من المساوئ التى تؤدى إلى ذهاب العقول . . وإنما
" خمر الآخرة : شراب لذيذ طاهر من كل خبث وقذر وسوء .وجاء لفظ " طهورا
. بصيغة المبالغة ، للإشعار بأن هذا الشراب قد بلغ النهاية فى الطهارة

ان هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - هذا العطاء الواسع العظيم ، ببيان ما
) : ستقوله الملائكة لهؤلاء الأبرار على سبيل التكريم والتشريف ، فقال
إِنَّ هذا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً ) .وهذه
الآية الكريمة مقول لقول محذوف ، والقائل هو الله - تعالى - أو ملائكته
بأمره - سبحانه - وإذنه ، أى : سقاهم ربهم شرابا طهورا فى الآخرة ، ويقال
) لهم عند تمتعهم بكل هذا النعيم ، ( إِنَّ هذا ) النعيم الذى تعيشون فيه
كَانَ لَكُمْ جَزَآءً ) على إيمانكم وعملكم الصالح فى الدنيا .( وَكَانَ
سَعْيُكُم مَّشْكُوراً ) أى : مرضيا ومقبولا عند خالقكم ، فازدادوا - أيها
الأبرار - سرورا على سروركم ، وبهجة على بهجتكم .وبعد هذا التفصيل لما أعده
، الله - تعالى - لعباده الأخيار من أصناف النعيم ، المتعلق بمأكلهم
ومشربهم . . أخذت السورة الكريمة . فى أواخرها - فى تثبيت النبى صلى الله
عليه وسلم وأصحابه . وفى دعوته صلى الله عليه وسلم إلى المداومة على التحلى
بفضيلة الصبر ، وإلى الإكثار من ذكره - تعالى - وأنذرت الكافرين والفاسقين
. . . إذا ما استمروا فى ضلالهم . فقال - تعالى - :( فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ
) .

انا نحن نزلنا عليك القران تنزيلا

كما فسرها الوسيط جاء قوله - تعالى - : ( إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا
، عَلَيْكَ القرآن تَنزِيلاً ) مؤكدا بجملة من المؤكدات . منها : إن ، ونحن
وتنزيلا . . للرد على أولئك الجاحدين الذين أنكروا أن يكون القرآن من عند
الله - تعالى - وقالوا فى شأنه : ( لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هذا إِنْ
هاذآ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأولين ) أى : إنا نحن - وحدنا - أيها الرسول
الكريم - ، والذين نزلنا عليك القرآن تنزيلا محكما ، وفصلناه تفصيلا متقنا
. بأن أنزلناه على قلبك مفرقا على حسب مشيئتنا وحكمتنا ،

فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم اثما او كفورا

. كما فسرها الوسيط والفاء فى قوله : ( فاصبر لِحُكْمِ رَبِّكَ ) للإفصاح
- وعدى فعل الصبر باللام ، لتضمنه معنى الخضوع والاستسلام لقضائه - سبحانه
، أى : ما دام الأمر كما ذكرنا لك - أيها الرسول الكريم - فاصبر لحكم ربك.
) : واخضع لقضائه ومشيئته ، فهو - سبحانه - الكفيل بنصرك عليهم .وقوله
وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً ) أى : ولا تطع - أيها الرسول
الكريم - من هؤلاء المشركين ، من كان داعياً إلى الإثم والفجور ، أو من كان
داعيا إلى الكفر والجحود .ولم يقل - سبحانه - ولا تطع منهم آثماً وكفورا
بالواو ، لأن الواو تجعل الكلام محتملا للنهى عن المجموع ، وأن طاعة أحدهما
دون الآخر تكفى فى الامتثال .ولذا قال الزجاج : إن " أو " هنا أَوْكد من
، الواو ، لأنك إذا قلت :لا تطع زيدا وعمرا ، فأطاع أحدهما كان غير عاص
فإن أبدلتها بأو ، فقد دللت على أن كل واحد منهما ، أهل لأن يعصى ، ويعلم
منه النهى عن إطاعتهما معاً .والآثم : هو الفاجر بأقواله وأفعاله . والكفور
هو الجاحد بقلبه ولسانه .ورحم الله صاحب الكشاف ، فقد قال عند تفسيره :
لهاتين الآيتين ما ملخصه : تكرير الضمير بعد إيقاعه اسما لإِنّ : تأكيد على
تأكيد ، لمعنى اختصاص الله - تعالى - بالتنزيل ، ليتقرر فى نفس رسول الله
صلى الله عليه وسلم أنه إذا كان هو المنزل للقرآن ، لم يكن تنزيله على أى
وجه نزل ، إلا حكمة وصوابا ، كأنه قيل : ما نزل عليك القرآن تنزيلا مفرقا
: منجما ، إلا أنا لا غيرى ، وقد عرفتنى حكيما فاعلا لكل ما أفعله .فإن قلت
كلهم كانوا كفرة ، فما معنى القسمة فى قوله : ( آثِماً أَوْ كَفُوراً ) ؟
قلت : معناه لا تطع منهم راكبا لماهو إثم ، داعيا لك إليه ، أو فاعلا لما
هو كفر ، داعيا لك إليه . لأنهم إما أن يدعوه إلى مساعدتهم على فعل إثم أو
كفر ، أو غير إثم ولا كفر ، داعيا لك إليه . لأنهم إما أن يدعوه إلى
مساعدتهم علىفعل إثم أو كفر ، أو غير إثم ولا كف : فنهى عن أن يساعدهم على
الاثنين دون الثالث . فإن قلت : معنى أو : ولا تطع أحدهما ، فهلا جئ بالواو
وليكون نهيا عن طاعتهما جميعا؟قلت : لو قيل : ولا تطعهما ، جاز أن يطيع
أحدهما ، وإذا قيل :لا تطع أحدهما ، علم أن الناهى عن طاعة أحدهما : عن
طاعتهما جميعا أنهى ، كما إذا نهى عن أن يقول لأبويه أف ، علم أنه منهى عن
ضربهما بالطريق الأولى ..والمقصود من هاتين الآيتين تثبيت فؤاد النبى صلى
الله عليه وسلم وتيئيس المشركين من استجابته صلى الله عليه وسلم لأى مطلب
. من مطالبهم الفاسدة

واذكر اسم ربك بكرة واصيلا

. كما فسرها الوسيط ثم أرشده - سبحانه - إلى ما يعينه على الصبر والثبات
فقال : ( واذكر اسم رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً . وَمِنَ الليل فاسجد لَهُ
. وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً ) .والبكرة : أول النهار . والأصيل : آخره
والمراد : المداومة على ذكر الله - تعالى - فى كل وقت . أى : داوم - أيها
الرسول الكريم - على ذكر الله - تعالى - فى أول النهار وفى آخره ، وعلى
. صلاة الفجر ، والظهر والعصر

ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا

، كما فسرها الوسيط ( وَمِنَ الليل فاسجد لَهُ ) - تعالى - وأكثر من ذكره
: وواظب على صلاة المغرب والعشاء .( وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً ) أى
ونزهه - تعالى - وتهجد له وقتا طويلا من الليل .فهاتان الآيتان ترشدان
الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ما يعينه على الازدياد من فضيلة الصبر
الجميل ، والثبات على الحق .ومن الآيات الكثيرة التى تشبه هاتين الآيتين فى
معناهما : قوله - تعالى - ( وَأَقِمِ الصلاة طَرَفَيِ النهار وَزُلَفاً
. مِّنَ الليل إِنَّ الحسنات يُذْهِبْنَ السيئات ذلك ذكرى لِلذَّاكِرِينَ
) : - واصبر فَإِنَّ الله لاَ يُضِيعُ أَجْرَ المحسنين ) وقوله - تعالى
وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ . فَسَبِّحْ
.( بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِّنَ الساجدين

ان هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - جانبا من الأسباب التى تجعله صلى الله
عليه وسلم لا يطيع أحدا منهم فقال : ( إِنَّ هؤلاء يُحِبُّونَ العاجلة
وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً ) .أى : نحن قد نهيناك - يا
محمد - عن طاعة أحد من هؤلاء المشركين ، لأنهم جميعا ديدنهم ودأبهم أنهم
). يحبون ( العاجلة ) أى : الدنيا ولذائذها وشهواتها ، العاجلة الزائلة
وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ ) أى : ويتركون وينبذون وراء ظهورهم ( يَوْماً
ثَقِيلاً ) وهو يوم القيامة ، الشديد الأهوال ، الذى يجعل الولدان شيبا

ومع شدة هوله فهم لا يستعدون له ولا يحسبون له حسابا . .فالآية الكريمة. توبيخ وتجهيل لهم ، حيث آثروا الفانى على الباقى ، والعاجل على الآجل .ووصف يوم القيامة بالثقل ، لشدة ما يقع فيه من أهوال وكروب ، فهو كالشئ الثقيل الذى لا يستطاع حمله .

نحن خلقناهم وشددنا اسرهم واذا شئنا بدلنا امثالهم تبديلا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - مظاهر فضله عليهم ، ومع ذلك أشركوا معه فى العبادة غيره فقال : ( نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً ) .أى : نحن وحدنا الذين خلقناهم وأوجدناهم من العدم .ونحن وحدنا الذين ( وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ) أى : قوينا وأحكمنا وأتقنا خلقهم ، بأن منحناهم السمع والأبصار والأفئدة والعقول . . وربطنا بين مفاصلهم وأجزاء أجسادهم ربطا - عجيبا معجزا .يقال : أَسَر الله - تعالى - فلانا ، أى : خلقه - وبابه ضرب وفرس شديد الأسْر ، أى : شديد الخَلْق ، والأسر : القوة ، مشتق من الإِسار - بكسر الهمزة - وهو الحبل الذى تشد به الأحمال ، يقال : أَسَر فلان الحمل أسْراً ، إذا أحكم ربطه ، ومنه الأسير لأنه يُرْبَط بالإِسار ، أى : القيد .والمقصود بالأسر هنا : الإِحكام والإِتقان ، والامتنان عليهم بأن الله - تعالى - خلقهم فى أحسن وأتقن خلق .وقوله - سبحانه - ( وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً ) تأكيد لشمول قدرته - تعالى - أى : ونحن وحدنا الذين خلقناهم ، ونحن وحدنا الذين ربطنا مفاصلهم وأعضاءهم ربطا متقنا بديعا .ومع ذلك ، فإننا إذا شئنا إهلاكهم أهلكناهم ، وجئنا بأمثالهم وأشباههم فى شدة الخلق ، وبدلناهم تبديلا معجزا ، لا يقدر عليه أحد سوانا .وقوله : ( تَبْدِيلاً ) منصوب على أنه مفعول مطلق مؤكد لعامله وهو بدلناهم .ومن الآيات المشبهة لهذه الآية فى معناها قوله - تعالى - : ( إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا الناس وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ الله على ذلك قَدِيراً ) وقوله - سبحانه - : ( إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ . وَمَا ذَلِكَ عَلَى الله بِعَزِيزٍ ) .

ان هذه تذكرة فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بالحض على طاعته ، وبالتحذير من معصيته فقال : ( إِنَّ هذه تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ اتخذ إلى رَبِّهِ سَبِيلاً ) .أى : إن هذه الآيات التى أنزلناها عليك يا محمد - تذكرة وموعظة للناس ، فمن شاء أن يتخذ إلى الله - تعالى - وسيلة وطريقة يتقرب بها إليه - تعالى - اتخذها ، لأنها خير هداية إلى رضاه - سبحانه - والتعبير بقوله : ( فَمَن شَآءَ اتخذ إلى رَبِّهِ سَبِيلاً ) تحريض شديد. على المسارعة إلى الطاعة ، لأن الله - تعالى - قد مكن الناس من ذلك ، حيث وهبهم الاختيار والعقول المفكرة ، وأرسل إليهم الرسل ليخرجوهم من الظلمات إلى النور .

وما تشاءون الا ان يشاء الله ان الله كان عليما حكيما

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أن مشيئته فوق كل مشيئة فقال : ( وَمَا تَشَآءُونَ إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله ) .أى : وما تشاءون شيئا من الأشياء ، إلا بعد خضوع هذا الشئ لمشيئة الله - تعالى - وإرادته ، إذ هو الخالق - سبحانه - لكل شئ ، وهو صاحب الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين .( إِنَّ الله كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ) أى : إنه - تعالى - كان وما صاحب العلم المطلق الذى لا يحده شئ ، وصاحب الحكمة البليغة التى لا نهاية لها .

يدخل من يشاء في رحمته والظالمين اعد لهم عذابا اليما

كما فسرها الوسيط ( يُدْخِلُ ) - سبحانه - ( مَن يَشَآءُ ) إدخاله ( فِي رَحْمَتِهِ )لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه .( والظالمين أَعَدَّ لَهُمْ سبحانه - ( عَذَاباً أَلِيماً ) بسبب إصرارهم على ظلمهم ، وإيثارهم - ( الباطل على الحق ، والغى على الرشد .نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا ممن هم أهل لرحمته ورضوانه ، وأن يبعدنا عمن هم أهل لعذابه ونقمته .وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

والمرسلات عرفا

كما فسرها الوسيط للمفسرين فى معنى هذه الصفات الخمس : " المرسلات والعاصفات والناشرات والفارقات والملقيات " اتجاهات ، فمنهم من صدر تفسيره

ببيان أن المراد بها الملائكة . فقد قال صاحب الكشاف : أقسم الله بطوائف من الملائكة ، أرسلهن بأوامره فعصفن فى مضيهن كما تعصف الرياح ، تخففا فى امتثال أمره . وبطوائف منهن نشرن أجنحتهن فى الجو عند انحطاطهن بالوحى ، أو نشرن الشرائع فى الأرض . . ففرقن بين الحق والباطل ، فألقين ذكرا إلى الأنبياء عذرا ، للمحقين ، أو نذرا للمبطلين .فإن قلت : ما معنى عرفا؟ قلت متتابعة كشعر العُرْفِ - أى : عرف الفرس - يقال : جاءوا عرفا واحدا ، وهم : عليه كعرف الضبع : إذا تألبوا عليه . .ومنهم من يرى أن المراد بالمرسلات وما بعدها : الرياح ، فقد قال الجمل فى حاشيته : أقسم الله - تعالى - بصفات خمس موصوفها محذوف ، فجعلها بعضهم الرياح فى الكل ، وجعلها بعضهم الملائكة فى الكل . . وغاير بعضهم فجعل الصفات الثلاث الأول ، الموصوف واحد هو الرياح وجعل الرابعة لموصوف ثان وهو الآيات ، وجعل الخامسة لموصوف ثالث وهو الملائكة . .وسنسير نحن على هذا الرأى الثالث ، لأنه هو تصورنا أقرب الآباء إلى الصواب ، إذ أن هذه الصفات من المناسب أن يكون بعضها للرياح ، وبعضها للملائكة .فيكون المعنى : وحق الرياح المرسلات لعذاب المكذبين ، فتعصفهم عصفا ، وتهلكهم إهلاكا شديدا .

فالعاصفات عصفا

: كما فسرها الوسيط فقوله : ( عَصْفاً ) وصف مؤكد للإهلاك الشديد ، يقال عصفت الريح ، إذا اشتدت ، وعصفت الحرب بالقوم ، إذا ذهبت بهم ، وناقة عصوف إذا مضت براكبها مسرعة ، حتى لكأنها الريح .وقوله : ( والناشرات نَشْراً ، ، أى : وحق الرياح التى تنتشر انتشارا عظيما فى الآفاق ، فتأتى بالسحب ( - التى تتحول بقدرة الله - تعالى - إلى أمطار غزيرة نافعة .قال ابن كثير بعد أن ذكر آراء العلماء فى معنى هذه الألفاظ - : والأظهر أن المرسلات هى الرياح ، كما قال - تعالى - : ( وَأَرْسَلْنَا الرياح لَوَاقِحَ . . . ) وقال - سبحانه - : ( وَهُوَ الذي يُرْسِلُ الرياح بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ) وهكذا العاصفات هى الرياح ، يقال : عصفت الريح إذا هبت بتصويت ز

والناشرات نشرا

كما فسرها الوسيط وكذا ( والناشرات ) : هى الرياح التى تنشر السحاب فى آفاق السماء كما يشاء الرب - عز وجل - .

فالفارقات فرقا

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( فالفارقات فَرْقاً ) يصح أن يكون وصفا للملائكة الذين ينزلون بالشرائع المفرقة بين الحق والباطل ، وبين أهل الحق وأهل الضلال .ويصح أن يكون وصفا للآيات التى أنزلها الله - تعالى - للتمييز بين الخير والشر ، والرشد والغى .

فالملقيات ذكرا

كما فسرها الوسيط وقوله ( فالملقيات ذِكْراً ) قال القرطبى : هم الملائكة بإجماع ، يلقون كتب الله - تعالى - إلى الأنبياء - عليهم السلام - .فالمراد بالذكر فى قوله ( فالملقيات ذِكْراً ) : وحى الله - تعالى - الذى يبلغه الملائكة إلى الرسل .

عذرا او نذرا

كما فسرها الوسيط وقوله ( عُذْراً أَوْ نُذْراً ) منصوبان على أنهما بدل اشتمال من قوله ( ذكرا ) أو مفعول لأجله .أى : أن الملائكة يلقون وحى الله - تعالى - إلى أنبيائه ، لإزالة أعذار المعتذرين عن الإيمان ، حتى لا يقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير ، ولإنذار الكافرين والفاسقين ، حتى يقلعوا عن كفرهم وفسوقهم .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - ( رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى الله حُجَّةٌ بَعْدَ الرسل ) قال صاحب الكشاف : فإن قلت ما العذر والنذر ، وبماذا انتصبا؟ قلت : هما مصدران من أعذر إذا محا الإساءة ، ومن أنذر إذا خوف على فعل كالكفر والنكر ، ويجوز أن يكون جمع عذير ، بمعنى المعذرة ، وجمع نذير بمعنى الإنذار . . وأما انتصابهما فعلى البدل من ذكرا . . أو على المفعول له . .

انما توعدون لواقع

، كما فسرها الوسيط وجملة ( إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ) جواب القسم
وجئ بها مؤكدة ، لتقوية تحقيق وقوع الجواب ، وما وعدوا به هو البعث والحساب
أى : وحق الرياح المرسلة لعذاب المشركين . . وحق الملائكة الذين نرسلهم.
- بوحينا للتفريق بين الحق والباطل ، ولتبليغ رسلنا ما كلفناهم به . . إنكم
أيها الكافرون - لمبعوثون ومحاسبون على أعمالكم يوم القيامة الذى لا شك فى
. وقوعه وحصوله وثبوته

فاذا النجوم طمست

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - علامات هذا اليوم فقال : ( فَإِذَا
، النجوم طُمِسَتْ ) أى : محقت وذهب ضوؤها ، وزال نورها . يقال : طمست الشئ
، من باب ضرب - إذا محوته واستأصلت أثره

واذا السماء فرجت

كما فسرها الوسيط ( وَإِذَا السمآء فُرِجَتْ ) أى : شقت أو فتحت ، وتدلت
، أرجاؤه ، ووهت أطرافها . ( وَإِذَا السمآء فُرِجَتْ ) أى : شقت أو فتحت
. وتدلت أرجاؤها ، ووهت أطرافها

واذا الجبال نسفت

كما فسرها الوسيط ( وَإِذَا الجبال نُسِفَتْ ) أى : اقتلعت وأزيلت من
. أماكنها . يقال : نسف فلان البناء ينسفه ، إذا قلعه من أصله

واذا الرسل اقتت

كما فسرها الوسيط ( وَإِذَا الرسل أُقِّتَتْ ) أى : بلغت وقتها الذى كانت
)؛ تنتظره ، وهو يوم القيامة ، للقضاء بينهم وبين أقوامهم . فقوله
أُقِّتَتْ ) من التوقيت ، وهو جعل الشئ منتهيا إلى وقته المحدد له .قال
الآلوسى : قوله ( وَإِذَا الرسل أُقِّتَتْ ) أى : بلغت ميقاتها . وجوز أن
يكون المعنى : عين لها الوقت الذى تحضر فيه للشهادة على الأمم ، وذلك عند
مجئ يوم القيامة . .وجواب ( إذا ) وما عطف عليها فى قوله ( فَإِذَا النجوم
. طُمِسَتْ ) محذوف ، والتقدير : وقع ما وعدناكم به وهو يوم القيامة

لاي يوم اجلت

. كما فسرها الوسيط وقوله : ( لأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ . لِيَوْمِ الفصل
( وَمَآ أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الفصل . وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ
تعليل لبلوغ الرسل إلى الوقت الذى كانوا ينتظرونه لأخذ حقوقهم من أقوامهم
الظالمين ، والاستفهام للتهويل والتعظيم من شأن هذا اليوم .أى : لأى يوم
أخرت الأمور التى كانت متعلقة بالرسل؟ من تعذيب بالكافرين ، وإثابة المتقين
إنها أخرت وأجلت ز . .

ليوم الفصل

- كما فسرها الوسيط ليوم الفصل ، وهو يوم القيامة ، الذى يفصل الله - تعالى
. فيه بقضائه العادل بين العباد

وما ادراك ما يوم الفصل

كما فسرها الوسيط ( وَمَآ أَدْرَاكَ ) ، - أيها المخاطب - ( مَا يَوْمُ
الفصل ) ؟ إنه يوم هائل شديد ، لا تحيط العبارة بكنهه ، ولا يعلم إلا
. الله - تعالى - وحده مقدار أهواله

ويل يومئذ للمكذبين

كما فسرها الوسيط ويقال فى هذا اليوم لكل فاسق عن أمر ربه ، ومشرك معه فى
العبادة غيره ، ( وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ) أى : هلاك وحسرة
فى هذا اليوم للمكذبين بالحق الذى جاء به الرسل ، وبلغوه إلى أقوامهم .وقد
تكررت هذه الآية عشر مرات فى تلك السورة الكريمة ، على سبيل الوعيد
والتهديد لهؤلاء المكذبين لرسلهم ، والجاحدين لنعم خالقهم ، والويل : أشد
السوء والشر ، وهو فى الأصل مصدر بمعنى الهلاك ، وكان حقه النصب بفعل من
لفظه أو معناه ، إلا أنه رفع على الابتداء ، للدلالة على ثبات الهلاك
ودوامه للمدعو عليه .وقوله ( يَوْمَئِذٍ ) ظرف للويل أو صفة له ، ولذا صح

الابتداء به .

الم نهلك الاولين

كما فسرها الوسيط ثم ساقت السورة الكريمة بعد ذلك ألوانا من الأدلة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، كإهلاك المكذبين السابقين ، وخلق الأولين والآخرين ، والإنعام على الناس بالجبال والأنهار . . قال - تعالى - : ( أَلَمْ نُهْلِكِ الأولين ) . . . ) .الاستفهام فى قوله ( أَلَمْ نُهْلِكِ وفى الآيات المماثلة له بعد ذلك ، للتقرير ، والمقصود به استخراج الاعتراف والإقرار من مشركى قريش على صحة البعث ، لأن من قدر على الإهلاك ، قارد على الإعادة .أى : لقد أهلكنا الأقوام الأولين الذين كذبوا رسلهم ، كقوم نوح وعاد وثمود .

ثم نتبعهم الاخرين

كما فسرها الوسيط ( ثُمّ نُتْبِعُهُمُ الآخرين ) أى : أهلكنا الأولين ، ثم نتبعهم بإهلاك المتأخرين عنهم ، والذين يشبهون سابقيهم فى الكفر والجحود .و " ثم " هنا للتراخى الرتبى ، لأن إهلاك الآخرين الذين لم يعتبروا بمن سبقهم سيكون أشد من إهلاك غيرهم ، وفى ذلك تهديد شديد ووعيد واضح لمشركى مكة .

كذلك نفعل بالمجرمين

كما فسرها الوسيط وقوله : ( كَذَلِكَ نَفْعَلُ بالمجرمين ) أى : مثل ذلك الفعل الشنيع ، والعقاب الأليم ، نفعل بالمجرمين الذين أصروا على كفرهم وعنادهم حتى أدركهم الموت .فالكاف بمعنى مثل ، والإشارة فى قوله : ( كَذَلِكَ ) تعود إلى الفعل المأخوذ من قوله ( نفعل ) أى؛ مثل ذلك الفعل نفعل بالمجرمين .

ويل يومئذ للمكذبين

كما فسرها الوسيط ثم كرر - سبحانه - التهديد والوعيد لهم ، لعلهم يرتدعون أو يتعظون فقال : ( وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ) .

الم نخلقكم من ماء مهين

كما فسرها الوسيط ثم قال - سبحانه - ممتنا على خلقه بإيجادهم فى هذه الحياة ومحتجا على إمكان الإعادة بخلقهم ولم يكونوا شيئا مذكورا ، فقال : ( أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ) .أى : لقد خلقناكم - أيها الناس - من نطفة حقيرة ضعيفة ، من مَهُن الشئ - بفتح الميم وضم الهاء - إذا ضعف ، وميمه أصلية ، وليس هو من مادة هان ، و " من " ابتدائية .

فجعلناه في قرار مكين

كما فسرها الوسيط وقوله : ( فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مّكِينٍ ) تفصيل لكيفية الخلق على سبيل الإدماج ، والقرار : اسم للمكان الذى يستقر فيه الماء ، والمراد به رحم المرأة . والمكين صفة له .أى : خلقناكم من ماء ضعيف ومن مظاهر قدرتنا وحكمتنا ولطفنا بكم أننا جعلنا هذا الماء الذى خلقتم منه ، فى مكان حصين ، قد بلغ النهاية فى تمكنه وثباته .فقوله ( مّكِينٍ ) بمعنى متمكن ، من مَكُنَ الشئ مكانة ، إذا ثبت ورسخ .

الى قدر معلوم

كما فسرها الوسيط وقوله : ( إلى قَدَرٍ مّعْلُومٍ ) بيان لبديع حكمته ، والقدر بمعنى المقدار المحدد المنضبط الذى لا يتخلف .أى : جعلنا هذا الماء فى قرار مكين ، إلى وقت معين محدد فى علم الله - تعالى - يأذن عنده بخروج هذا المخلوق من رحم أمه ، إلى الحياة ، وهذا الوقت هو مدة الحمل .

فقدرنا فنعم القادرون

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ القادرون ) ثناء منه - تعالى - على ذاته بما هو أهله . أى : فقدّرنا ذلك الخلق تقديرا حكيما منضبطا ، وتمكنا من إيجاده فى أطوار متعددة ، فنعم المقدرون نحن ، ونعم الموجدون نحن لما نوجده من مخلوقات .

ويل يومئذ للمكذبين

كما فسرها الوسيط وما دام الأمر كذلك فويل وهلاك يوم القيامة ، للمكذبين بوحدانيتنا وقدرتنا .

الم نجعل الارض كفاتا

كما فسرها الوسيط ثم انتقل - سبحانه - إلى الاستدلال على إمكانية البعث بطريق ثالث فقال : ( أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتاً .أَحْيَآءً وَأَمْواتاً . وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ ) .والكِفات : اسم للمكان الذى يكفت فيه الشئ . أى؛ يجمع ويضم ويوضع فيه .يقال : كفت فلان الشئ يكفِتُه كَفْتاً ، من باب ضرب - إذا جمعه ووضعه بداخل شئ معين ، ومنه سمى الوعاء كفاتا ، لأن الشئ يوضع بداخله ، وهو منصوب على أنه مفعول ثان لقوله ( نجعل ) لأن الجعل هنا بمعنى التصيير .

احياء وامواتا

كما فسرها الوسيط وقوله : ( أَحْيَآءً وَأَمْواتاً ) منصوبان على أنهما مفعولان به ، لقوله ( كِفَاتاً ) أو مفعولان لفعل محذوف .أى : لقد جعلنا الأرض وعاء ومكانا تجتمع فيه الخلائق : الأحياء منهم يعيشون فوقها ، والأموات منهم يدفنون فى باطنها ز

وجعلنا فيها رواسي شامخات واسقيناكم ماء فراتا

كما فسرها الوسيط ( وَجَعَلْنَا فِيهَا ) - أيضا - جبالا ( رَوَاسِيَ ) أى ثوابت ( شَامِخَاتٍ ) أى : مرتفعات ارتفاعا كبيرا ، جمع شامخ وهو الشديد الارتفاع .قال صاحب الكشاف : الكفات : من كفت الشئ إذا ضمه وجمعه . . وبه انتصب ( أَحْيَآءً وَأَمْواتاً ) كأنه قيل : كافتة أحياء وأمواتا ، أو ، انتصبا بفعل مضمر يدل عليه ، وهو تكفت .والمعنى : تكفت أحياء على ظهرها وأمواتا فى بطنها .فإن قلت : لم قيل أحياء وأمواتا على التنكير ، وهى كفات الأحياء والأموات جميعا؟ قلت : هو من تنكير التفخيم ، كأنه قيل : تكفت ) - أحياء لا يعدون ، وأمواتاً لا يحصرون . .وقوله - سبحانه وَأَسْقَيْنَاكُم مَّآءً فُرَاتاً ) بيان لنعمة أخرى من أجل نعمه على خلقه أى : وأسقيناكم - بفضلنا ورحمتنا - ماء ( فُرَاتاً ) أى : عذبا سائغا ، للشاربين .

ويل يومئذ للمكذبين

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - ( وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ) ، تكرير للتوبيخ والتقريع على جحودهم لنعم الله ، التى يرونها بأعينهم ويحسونها بحواسهم ويستعملونها لمنفعتهم .

انطلقوا الى ما كنتم به تكذبون

كما فسرها الوسيط ثم انتقلت السورة الكريمة إلى بيان المصير الأليم الذى ينتظر هؤلاء المكذبين ، فقال - تعالى - : ( انطلقوا إِلَى مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ . انطلقوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلاَثِ شُعَبٍ . لاَّ ظَلِيلٍ وَلاَ يُغْنِي مِنَ اللهب . إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كالقصر . كَأَنَّهُ جمالت صُفْرٌ )وقوله - سبحانه - : ( انطلقوا ) مفعول لقول محذوف . أى : يقال للكافرين يوم القيامة - على سبيل الإهانة والإذلال - : انطلقوا إلى ما كنتم تكذبون به فى الدنيا من العذاب .

انطلقوا الى ظل ذي ثلاث شعب

كما فسرها الوسيط وقوله : ( انطلقوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلاَثِ شُعَبٍ . . ) بدل مما قبله ، وأعيد فعل ( انطلقوا . . ) على سبيل التوكيد ، لقصد الزيادة ، فى تقريعهم وتوبيخهم .والمراد بالظل : دخان جهنم ، وسمى بذلك لشدة كثافته أى : انطلقوا - أيها المشركون - إلى ظل من دخان جهنم الذى يتصاعد من وقودها ثم يتفرق بعد ذلك إلى ثلاث شعب ، شأن الدخان العظيم عندما يرتفع .وسمى ، هذا الدخان العظيم الخانق بالظل ، على سبيل التهكم بهم ، إذ هم فى هذه الحالة يكونون فى حاجة شديدة إلى ظل يأوون إلى برده .

لا ظليل ولا يغني من اللهب

كما فسرها الوسيط ثم وصف - سبحانه - هذا الظل بصفة ثانية فقال : ( لاَّ ظَلِيلٍ ) أى : ليس هو بظل على سبيل الحقيقة ، وإنما هو دخان خانق لا برد فيه .ثم وصفه بصفة ثالثة فقال : ( وَلاَ يُغْنِي مِنَ اللهب ) أى : أن هذا الظل الى تنطلقون إليه لا يغنى شيئا من الإغناء ، من حر لهب جهنم التى هى مأواكم ونهايتكم .وبهذه الصفات يكون لفظ الظل ، قد فقد خصائصه المعروفة من ، البرودة والشعور عنده بالراحة . . وصار المقصود به ظلا آخر ، لا برد فيه ولايدفع عنهم شيئا من حر اللهب .وهذ الصفات إنما جئ بها لدفع ما يوهمه لفظ ظل " .وعدى الفعل " يغنى " بحرف من ، لتضمنه معنى يُبْعِد " .

انها ترمي بشرر كالقصر

كما فسرها الوسيط والشرر : واحده شررَه ، وهى القطعة التى تتطاير من النار لشدة اشتعالها .والقصر : البناء العالى المرتفع . وقيل : هو الغليظ من الشجر . أو هو قطع من الخشب ، يجمعها الجامعون للاستدفاء بها من البرد .

كانه جمالت صفر

كما فسرها الوسيط * وقوله : ( جمالت ) جمع جمَلَ - كحجارة وحجر .وقال الآلوسى : " جمالة " بكسر الجيم - كما قرأ به حمزة والكسائى وحفص وهو جمع جمل .والتاء لتأنيث الجمع . يقال : جمل وجمال وجِمالة . . والتنوين للتكثير . . وقرأ الجمهور ( جِمالاتٌ ) - بكسرالجيم مع الألف والتاء - جمع جِمَال. ، فيكون جمع الجمع . .والمعنى : إنها - أى : جهنم - ترمى المكذبين بالحق الذين هم وقودها ، ترميهم بشرر متطاير منها لشدة اشتعالها ، كل واحدة من ) : - هذا الشرر كأنها البناء المرتفع فى عظمها وارتفاعها .وقوله - تعالى كَأَنَّهُ جمالت صُفْرٌ ) وصف آخر للشرر ، أى : كأن هذا الشرر فى هيئته ولونه وسرعة حركته . . جمال لونها أصفر .واختبر اللون الأصفر للجمال ، لأن شرر النار عندما يشتد اشتعالها يكون مائلا إلى الصفرة .وقيل المراد بالصفر - هنا : السواد ، لأن سواد الإبل يضرب إلى الصفرة .فأنت ترى أن الله تعالى - قد شبه الشرر الذى ينفصل عن النار فى عظمته وضخامته بالقصر ، وهو . . البناء العالى المرتفع ، وشبهه - أيضا - حين يأخذ فى الارتفاع والتفرق بالجمال الصفر ، فى هيئتها ولونها وسرعة حركتها ، وتزاحمها .والمقصود بهذا التشبيه : زيادة الترويع والتهويل ، فإن هؤلاءا لكافرين لما كذبوا بالحساب والجزاء ، وصف الله - تعالى - لهم نار الآخرة بتلك الصفات المرعبة ، لعلهم يقلعون عن شركهم ، لا سيما وأنهم يرون النار فى دنياهم ، ويرون شررها حين يتطاير . . وإن كان الفرق شاسعا بين نار الدنيا ونار الآخرة .

ويل يومئذ للمكذبين

- كما فسرها الوسيط وزيادة فى التخويف والإنذار ختمت هذه الآيات - أيضا بقوله - تعالى - ( وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ) .

هذا يوم لا ينطقون

كما فسرها الوسيط ثم صور - سبحانه - حالهم عندما يردون على النار ، ويوشكون على القذف بهم فيها ، فقال - تعالى - ( هذا يَوْمُ لاَ يَنطِقُونَ . وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ . وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ . هذا يَوْمُ الفصل جَمَعْنَاكُمْ والأولين . فَإِن كَانَ لَكُمُ كَيْدٌ فَكِيدُونِ . وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ )أى : ويقال لهؤلاء المجرمين - أيضاً - عند الإلقاء بهم فى النار : هذا يوم لا ينطقون فيه بشئ ينفعهم ، أو لا ينطقون فيه إطلاقا لشدة دهشتهم ، وعظم حيرتهم .ويكون فى الكلام التفات من الخطاب إلى الغيبة ، فإنهم بعد أن خوطبوا خطاب إهانة وإذلال بقوله - تعالى - : ( انطلقوا ) أعرض المخاطبون لهم ، على سبيل الإهمال لهؤلاء الكافرين ، وقالوا لهم : هذا يوم القيامة الذى لا يصح لكم - النطق فيه .وهذا لا يتعارض مع الآيات التى تفيد نطقهم ، كما فى قوله تعالى - : ( وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ) لأن فى يوم القيامة مواطن متعددة ، فهم قد ينطقون فى موطن ، ولا ينطقون فى موطن آخر .

ولا يؤذن لهم فيعتذرون

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - ( وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ) معطوف على ما قبله . أى : فى يوم القيامة لا ينطق هؤلاء المجرمون نطقا يفيدهم ، ولا يؤذن لهم فى الإعتذار عما ارتكبوه من سوء ، حتى يقبل اعتذارهم وإنما يرفض اعتذارهم رفضا تاما ، لأنه قد جاء فى غير وقته وأوانه .يقال ، اعتذرت إلى فلان ، إذا أتيت له بعذر يترتب عليه محو الإساءة : .

ويل يومئذ للمكذبين

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

هذا يوم الفصل جمعناكم والاولين

كما فسرها الوسيط ثم يقال لهم - أيضا - على سبيل التحدى والتقريع ( هذا ) هو يوم القيامة ( يَوْمُ الفصل ) بين المحقين والمبطين ( جَمَعْنَاكُمْ ) فيه - أيها الكافرون - مع من تقدمكم من الكفار ( والأولين ) .

فان كان لكم كيد فكيدون

كما فسرها الوسيط ( فَإِن كَانَ لَكُمُ ) - أيها الكافرون - ( كَيْدٌ ) أى : مخرج وحيلة ومنفذ من العذاب الذى حل بكم ( فَكِيدُونِ ) أى : فافعلوه وقوموا به فأنتم الآن فى أشد حالات الاحتياج إلى من يخفف العذاب عنكم .أو المعنى : ( فَإِن كَانَ لَكُمُ ) - أيها الكافرون - ( كَيْدٌ ) أى : قدرة على كيد دينى ورسلى والمؤمنين ، كما كنتم تفعلون فى الدنيا ( فَكِيدُونِ ) أى : فاظهروه اليوم . والأمر للتعجيز ، لأنه من المعروف أنهم فى يوم القيامة لا قدرة لهم ولا حيلة .وهكذا نجد أن هذه الآيات الكريمة ، قد ساقت ألوانا من الأدلة على وحدانية الله - تعالى - ، وعلى أن يوم البعث حق ، وعلى العاقبة السيئة التى سيكون عليها الكافرون يوم القيامة .

ويل يومئذ للمكذبين

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

ان المتقين في ظلال وعيون

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بالموازنة بين حال المتقين ، وحال المجرمين ، فقال :( إِنَّ المتقين فِي . . . ) .أى : ( إِنّ المتقين ) الذين صانوا فى دنياهم أنفسهم عن الكفر والفسوق والعصيان ، واعتصموا بالرشد والهدى والإيمان .سيكونون يوم القيامة ( فِي ظِلَالٍ ) الأشجار والقصور ، جمع ظل : وهو كل موضع لا تصل إليه الشمس . وفى ( عيون ) من ماء وعسل ولبن وخمر .

وفواكه مما يشتهون

كما فسرها الوسيط وهم - أيضا - فى ( فواكه ) وهى ما يتفكه به ويتنعم . جمع فاكهة ( مِمَّا يَشْتَهُونَ ) أى : يأكلون من تلك الفواكه ما يشتهونه منها بدون تعب فى طلبها ، فهى تحت أيديهم .

كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون

كما فسرها الوسيط ويقال لهم - على سبيل التكريم والتشريف - ( كلوا ) أكلا مريئا ( واشربوا ) شربا ( هنيئا ) جزاء ( بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ) فى الدنيا من أعمال صالحة .

انا كذلك نجزي المحسنين

كما فسرها الوسيط ( إِنّا كَذَلِكَ نَجْزِي المحسنين ) أى : إنا من شأننا أننا نعطى مثل هذا الجزاء الطيب للمؤمنين الذين أحسنوا أقوالهم وأفعالهم ، وصانوا أنفسهم عن كل مالا يرضينا ، هذا هو جزاء المتقين المحسنين .

ويل يومئذ للمكذبين

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

كلوا وتمتعوا قليلا انكم مجرمون

كما فسرها الوسيط أما الكافرون المكذبون ، فيقال لهم مرة ومرات - على سبيل التوبيخ والزجر - : ( كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلاً إِنَّكُمْ مُّجْرِمُونَ ) .أى : ( كُلُواْ ) فى دنياكم كما تأكل الأنعام ( وَتَمَتَّعُواْ ) بملذاتكم متاعا ( قَلِيلاً ) سينتهى عما قريب ، وستلقون

، فى آخرتكم أشد أنواع العذاب . بسبب أنكم كنتم فى الدنيا دأبكم الإجرام والإصرار على الكفر والفسوق والعصيان .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف صح أن يقال لهم ذلك فى الآخرة؟ قلت : يقال لهم ذلك فى الآخرة إيذانا بأنهم كانوا فى الدنيا أحقاء بأن يقال لهم ، وكانوا من أهله ، تذكيرا بحالهم السمجة ، وبما جنوا على أنفسهم من إيثار المتاع القليل ، على النعيم والملك الخالد .وعلل ذلك بكونهم مجرمين ، دلالة على أن كل مجرم ماله إلا الأكل والتمتع أياما قليلة ، ثم البقاء فى الهلاك أبدا . ويجوز أن يكون ( كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ ) كلاما مستأنفا خطابا للمكذبين فى الدنيا . .

ويل يومئذ للمكذبين

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ) أى : هلاك دائم وعذاب مقيم يوم القيامة للمكذبين ، الذين آثروا المتاع القليل الفانى فى الدنيا ، على النعيم الدائم فى الآخرة .

واذا قيل لهم اركعوا لا يركعون

كما فسرها الوسيط ( وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اركعوا لاَ يَرْكَعُونَ ) أى : وإذا قيل لهؤلاء المجرمين اركعوا فى الدنيا مع الراكعين ، وأدوا فريضة الصلاة مع الرسول صلى الله عليه وسلم ومع المؤمنين .إذا قيل لهم ذلك - على سبيل النصح والإرشاد - صموا آذانهم ، وأصروا واستكبروا استكبارا ، وأبوا أن يصلوا مع المصلين .وعبر عن الصلاة بالركوع ، باعتبار أن الركوع من أهم أركانها ، فهو من باب التعبير بالجزء عن الكل .

ويل يومئذ للمكذبين

كما فسرها الوسيط ( وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ) أى : هلاك شديد يوم القيامة لهؤلاء المكذبين .

فباي حديث بعده يؤمنون

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بهذا التعجيب من أحوالهم التى بلغت النهاية فى القبح والجحود والعناد فقال - تعالى - : ( فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ) .والفاء للإفصاح ، أى : إذا كانوا لم يؤمنوا بهذا القرآن المشتمل على أسمى أنواع الهدايات وأحكمها وأوضحها . . فبأى حديث بعد القرآن يؤمنون؟ إنه من المستبعد إيمانهم بعد ن أعرضوا عن كل الحجج التى تهدى إلى الإيمان ، فالاستفهام فى قوله ( فَبِأَيِّ حَدِيثٍ . . . ) مستعمل فى الإنكار التعجيبى من حالهم ، والمضير فى " بعده " يعود إلى القرآن ، وهو وإن لم يسبق له ذكر ، فإنه ملحوظ فى أذهانهم ، إذ فى كل وقت يذكرهم الرسول صلى الله عليه وسلم به .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ) .

عم يتساءلون

كما فسرها الوسيط لفظ " عم " مركب من كلمتين ، هما حرف الجر " عن " و " ما " التى هى اسم استفهام ، فأصل هذا اللفظ : " عن ما " فأدغمت النون فى الميم لأن الميم تشاركها فى الغنة وحذف الألف ليتميز الخبر عن الاستفهام . والجار والمجرور متعلق بفعل " يتساءلون " .والتساؤل : تفاعل من السؤال ، بمعنى أن يسأل بعض الناس بعضا عن أمر معين ، على سبيل معرفة وجه الحق فيه ، أو على سبيل التهكم .والنبأ : الخبر مطلقا ، ويرى بعضهم أنه الخبر ذو الفائدة العظيمة .والمعنى : عن أى شئ يتساءل هؤلاء المشركون؟ وعن أى أمر يسأل بعضهم بعضا؟ إنهم يتساءلون عن النبأ العظيم ، والخبر الهام الذى جاءهم به الرسول صلى الله عليه وسلم ، والذى نطق به القرآن الكريم ، من أن البعث حق ، ومن أن هذا القرآن الكريم من عند الله - تعالى - ومن أن الرسول صلى الله عليه وسلم صادق فيما يأمرهم به أو ينهاهم عنه .وافتتح - سبحانه - الكلام بأسلوب الاستفهام ، لتشويق السامع إلى المستفهم عنه ، ولتهويل أمره ، وتعظيم شأنه والضمير فى قوله ( يتساءلون ) يعود إلى المشركين ، الذين كانوا يكثرون من التساؤل فيما بينهم عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، عما جاء به من عند ربه فقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن الحسن قال : لما بعث النبى صلى الله عليه وسلم جعلوا يتساءلون فيما بينهم - عن أمره وعما جاءهم به - فنزل قوله - تعالى - : ( عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ . عَنِ النبإ العظيم . . ) .وصح عود الضمير إليهم مع أنهم لم يسبق لهم ذكر ، لأنهم معرفون من السياق ، إذ هم - دون غيرهم - الذين كانوا يتساءلون فيما بينهم - على سبيل التهكم - عما

جاء به النبى صلى الله عليه وسلم .

عن النبا العظيم

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( عَنِ النبإِ العظيم ) تهويل لشأن هذا
، الأمر الذى يتساءلون فيما بينهم عنه ، ووصف - سبحانه - النبأ بالعظم
زيادة فى هذا التهويل والتفخيم من شأنه ، لكى تتوجه إليه أذهانهم ، وتلتفت
إليهم أفهامهم .فكأنه - سبحانه - يقول : عن أى شئ يسأل هؤلاء الجاحدون
بعضهم بعضا؟ أتريدون أن تعرفوا ذلك على سبيل الحقيقة؟ ما بين منكر له
إنكارا تاما ، كما حكى - سبحانه - عنهم فى قوله : ( إِنْ هِيَ إِلاَّ
حَيَاتُنَا الدنيا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ) وما
بين متردد فى شأنه ، كما حكى - سبحانه - عن بعضهم فى قوله : ( وَإِذَا قِيلَ
إِنّ وعْدَ الله حَقٌّ والساعة لاَ رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي
( مَا الساعة إِن نّظُنُّ إِلاَّ ظَنّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ
قال صاحب الكشاف قوله : ( عم ) أصله عما ، على أنه حرف جر ، دخل على ما
الاستفهامية .ومعنى هذا الاستفهام : تفخيم الشأن ، كأنه قال : عن أى شئ
يتساءلون . ونحوه ما فى قولك : زيد ما زيد؟ جعلته لانقطاع قرينه ، وعدم
نظيره ، كأنه شئ خفى عليك جنسه . فأنت تسأل عن جنسه ، وتفحص عن جوهره ، كما
. تقول : ما الغول وما العنقاء . . ؟و ( يَتَسَآءَلُونَ ) يسأل بعضهم بعضا
) : والضمير لأهل مكة ، فقد كانوا يتساءلون فيما بينهم عن البعث .وقوله .
. عَنِ النبإِ العظيم ) بيان للشأن المفخم

الذي هم فيه مختلفون

كما فسرها الوسيط فإن قلت : قد زعمت أن الضمير فى ( يَتَسَآءَلُونَ )
للكفار ، فما تصنع بقوله : ( الذي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ) ؟ قلت : كان
فيهم من يقطع القول بإنكار البعث ، ومنهم من يشك .وقيل : الضمير للمسلمين
والكافرين جميعا ، وكانوا جميعا يسألون عنه ، أما المسلم فليزداد خشية
. . واستعدادا ، وأما الكافر فليزداد استهزاء

كلا سيعلمون

كما فسرها الوسيط ثم هدد - سبحانه - هؤلاء المستهزئين بما جاء به النبى صلى
الله عليه وسلم تهديدا شديدا ، فقال ( كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ . ثُمّ كَلاَّ
سَيَعْلَمُونَ ) .و " كلا " حرف زجر وردع ، والمقصود بها هنا : ردع أولئك
المتسائلين عن النبأ العظيم ، ونوعدهم على اختلافهم فى شأنه .أى : كلا ليس
الأمر كما يتوهمه أولئك المتسائلون ، من استهزائهم بما جاءهم به الرسول صلى
الله عليه وسلم ومن إنكارهم لكون القرآن الكريم من عند الله ، أو لكون
البعث حق . بل الحق كل الحق أن الرسول صلى الله عليه وسلم صادق كل الصدق
فيما يبلغه عن ربه ، وأن هؤلاء المتسائلين سيرون عما قريب سوء عاقبة
. استهزائهم واختلافهم

ثم كلا سيعلمون

كما فسرها الوسيط والجملة الثانية وهى قوله : ( ثُمّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ
جئ بها لزيادة التهديد والوعيد ، ولبيان أن الوعيد الثانى أشد وأبلغ من ( 
: الوعيد الأول .وحذف مفعول ( سَيَعْلَمُونَ ) للتعميم والتهويل ، أى
سيعلمون علم اليقين ما سيحل بهم من عذاب مقيم ، وسيرون ذلك رأى العين عما
قريب ، كما قال - تعالى - ( إِنّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً . وَنَرَاهُ
). قَرِيباً

الم نجعل الارض مهادا

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك تسعة أدلة ، كلها تدل على أن
البعثحق ، لأن القادر على إيجاد هذه الأشياء ، قادر - أيضا - على إعادتهم
إلى الحياة ، فقال - تعالى - : ( أَلَمْ نَجْعَلِ الأرض مِهَاداً )
- والاستفهام هنا للتقرير ، أى : لقد جعلنا - بقدرتنا التى لا يعجزها شئ
الأرض كالفراش الممهد الموطأ ، لتتمكنوا من الاستقرار عليها ، ومن التقلب
فيها . . كما يتقلب الطفل فى مهده ، أى : فراشه .والمهاد : مصدر بمعنى
الفراش الموطأ الممهد ، وهو اسم لما يوضع للصبى لكى ينام عليه ، ووصفت
الأرض به على سبيل المبالغة فى جعلها مكان استقرار الناس وانتفاعهم وراحتهم
والكلام على سبيل التشبيه البليغ ، أو على حذف مضاف .وجعل بمعنى صير . أى ،
لقد صيرنا الأرض بقدرتنا كفراش الصبى بالنسبة لكم ، حيث تتقلبون عليها :
كما يتقلب الصبى فى فراشه . . أو صيرناها ذات مهاد .قال صاحب الكشاف ما

ملخصه : فإن قلت : كيف اتصل قوله : ( أَلَمْ نَجْعَلِ الأرض مِهَاداً ) بما قبله؟ قلت : لما أنكروا البعث قيل لهم : ألم يخلق من يضاف إليه البعث هذه ، الخلائق العجيبة الدالة على كمال قدرته ، فما وجه إنكار قدرته على البعث : وما هو إلا اختراع كهذه الاختراعات؟ومهادا : فراشا ، وقرئ : مهدا .ومعناه أنها لهم كالمهد للصبى ، وهو ما يمهد له فينوّم عليه ، تسمية للممهود بالصدر ، كضرب الأمير ، أو وصفت بالمصدر ، أو بمعنى ذات مهد . .

والجبال اوتادا

، كما فسرها الوسيط وقوله : ( والجبال أَوْتَاداً ) معطوف على ما قبله والأوتاد : جمع وتد ، وهو ما يشد به الشئ حتى لا يتحرك أو يتضطرب ، والكلام على التشبيه - أيضا - .أى : لقد صيرنا - بقدرتنا - الأرض كالمهاد لتتمكنوا من الاستقرار عليها . . وجعلنا الجبال كالأوتاد للأرض ، لئلا تميد أو تضطرب بكم . . كما قال - تعالى - : ( وألقى فِي الأرض رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ . . . ).

وخلقناكم ازواجا

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً ) دليل ثالث على قدرته ، والأزواج : جمع زوج . وهو اسم للعدد الذى يكرر الواحد منه مرة واحدة ، والمراد به هنا : الذكور والإناث .أى : ومن مظاهر قدرتنا أننا خلقناكم - يا بنى آدم - مزدوجين ، أى : ذكرا وأنثى ، ليتأتى التناسل ، وحفظ النوع من الانقراض ، وتنظيم أمر المعاش فى الأرض ، عن طريق استمتاع كل نوع بالآخر ، كما قال - تعالى - : ( وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لتِسكُنوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً . . . ) قال الآلوسى : ( أَزْوَاجاً ) أى : مزدوجين ذكرا وأنثى ليتسنى التناسل .وقيل أزواجا : أى : أصنافا فى اللون والصورة واللسان . وقيل : يجوز أن يكون المراد من الخلق أزواجا : الخلق من منيين : منى الرجل ومنى المرأة . .

وجعلنا نومكم سباتا

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - ( وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً ) بيان لدليل رابع على قدرته - تعالى - على البعث . " السبات " مصدر بمعنى السبت ، أى : القطع ، يقال : سبت فلان الشئ سبتا ، إذا قطعه ، وسبت فلان شعره ، إذا حلقه وأزاله - وفعله كضرب ونصر - .ويصح أن يكون قوله سباتا من السبت بمعنى الراحة والسكون ، يقال : سبت فلان يسبت ، إذا استراح بعد تعب ، ومنه سمى يوم السبت ، لأن اليهود ينقطعون فيه عن أعمالهم للراحة .والمعنى : وجعلنا - بمقتضى حكمتنا ورحمتنا - نومكم " سباتا " أى : قطعا للحركة ، لتحصل لكم للراحة التى لا تستطيعون مواصلة العمل إلا بعدها .وهذه الحالة التى لا بد لكم منها ، وهى الراحة بعد عناء العمل عن طريق النوم ثم استيقاظكم منه ، أشبه ما تكون بإعادة الحياة إليكم بعد موتكم . .

وجعلنا الليل لباسا

. كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - ( وَجَعَلْنَا الليل لِبَاساً وَجَعَلْنَا النهار مَعَاشاً ) بيان لنعمة أخرى من نعمه التى لا تحصى ، والتى تدل على كمال قدرته . أى : وجعلنا - بقدرتنا ورحمتنا - الليل كاللباس الساتر لكم ، فهو يلفكم بظلمته ، كما يلف اللباس صاحبه .. كما أننا جعلنا النهار وقت معاشكم ، لكى تحصلوا فيه ما أنتم فى حاجة إلى تحصيله من أرزاق ومنافع .ووصف - سبحانه - الليل بأنه كاللباس ، والنهار بأنه وقت المعاش ، لأن الشأن فيهما كذلك ، إذ الليل هو وقت الراحة والسكون والاختلاء . . والنهار هو وقت السعى والحركة والانتشار .

وجعلنا النهار معاشا

`<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html} كما فسرها الوسيط

وقوله - تعالى - ( وَجَعَلْنَا الليل لِبَاساً . وَجَعَلْنَا النهار مَعَاشاً ) بيان لنعمة أخرى من نعمه التى لا تحصى ، والتى تدل على كمال قدرته . أى : وجعلنا - بقدرتنا ورحمتنا - الليل كاللباس الساتر لكم ، فهو يلفكم بظلمته ، كما يلف اللباس صاحبه .. كما أننا جعلنا النهار وقت معاشكم - لكى تحصلوا فيه ما أنتم فى حاجة إلى تحصيله من أرزاق ومنافع .ووصف ، سبحانه - الليل بأنه كاللباس ، والنهار بأنه وقت المعاش ، لأن الشأن فيهما

كذلك ، إذ الليل هو وقت الراحة والسكون والاختلاء . . والنهار هو وقت السعى والحركة والانتشار .

وبنينا فوقكم سبعا شدادا

كما فسرها الوسيط ثم لفت - سبحانه - الأنظار إلى مظاهر قدرته فى خلق السموات فقال : ( وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً ) .أى : وبنينا وأوجدنا بقدرتنا التى لا يعجزها شئ ، فوقكم - أيها الناس - سبع سماوات قويات محكمات ، لا يتطرق إليهن فطور أو شقوق على مر العصور ، وكر الدهور . فقوله ( شِدَاداً ) جمع شديدة ، وهى الهيئة الموصوفة بالشدة والقوة.

وجعلنا سراجا وهاجا

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً ) ، نعمة أخرى من نعمه الدالة على قدرته .والمراد بالسراج الوهاج : الشمس وصفت بكونها سراجا ، لأنها كالمصباح فى إضاءته لما حوله . ووصف السراج بأنه - وهاج ، مبالغة فى شدة ضيائه ولمعانه ، من الوهج - يفتح الواو والهاء بمعنى شدة الضياء . .والكلام على التشبيه البليغ ، والمقصود منه تقريب صفة - المشبه إلى الأذهان ، وإلا فالشمس أعظم من كل سراج .أى : وأنشأنا وأوجدنا بقدرتنا ومنتنا - فى السماء ، سراجا زاهرا مضيئا . . هو الشمس المتوهجة من ، شدة حرارتها وضيائها ، والتى تشرق على هذا الكون فتحول ظلامه إلى نور بقدرته - تعالى - .

وانزلنا من المعصرات ماء ثجاجا

كما فسرها الوسيط أما الدليل التاسع على قدرته - تعالى - على البعث ، فنراه فى قوله - تعالى - :( وَأَنزَلْنَا مِنَ المعصرات مَآءً ثَجَّاجاً . لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً . وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً ) .
- والمعصرات - بضم الميم وكسر الصاد - السحب التى تحمل المطر ، جمع معصرة. بكسر الصاد - اسم فاعل ، من أعصرت السحابة إذا أوشكت على إنزال الماء لامتلائها به . .قال ابن كثير : عن ابن عباس : " المعصرات " الرياح . لأنها تستدر المطر من السحاب . . وفى رواية عنه أن المراد بها : السحاب ، وكذا قال عكرمة . . واختاره ابن جرير . .وقال الفراء : هى السحاب التى تتحلب بالماء ولم تمطر بعد ، كما يقال : امرأة معصر ، إذا حان حيضها ولم تحض بعد وعن الحسن وقتادة : المعصرات : يعنى السموات . وهذا قول غريب ، والأظهر أن. المراد بها السحاب ، كما قال - تعالى - : ( الله الذي يُرْسِلُ الرياح فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السمآء كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الودق يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ . . . ) والثجاج : المندفع بقوة وكثرة ، يقال : ثج الماء - كرد - إذا انصب بقوة وكثرة .ومطر ثجاج ، أى ، شديد الانصباب جدا .وقوله : ( أَلْفَافاً ) اسم جمع لا واحد له من لفظه : : كالأوزاع للجماعات المتفرقة . وقيل : جمع لفيف ، كأشراف وشريف . أى وأنزلنا لكم - يا بنى آدم - بقدرتنا ورحمتنا - من السحائب التى أوشكت على - الإمطار ، ماء كثيرا متدفقا بقوة ، لنخرج بهذا الماء حبا تقتاتون به كالقمح والشعير .. ونباتا تستعملونه لدوابكم كالتبن والكلأ ، ولنخرج بهذا الماء - أيضا - بساتين قد التفت أغصانها لتقاربها وشدة نمائها .فهذه تسعة أدلة أقامها - سبحانه - على أن البعث حق ، وهى أدلة مشاهدة محسوسة ، لا يستطيع عاقل إنكار واحد منها . . وما دام الأمر كذلك فكيف ينكرون قدرته على البعث ، مع أنه - تعالى - قد أوجد لهم كل هذه النعم التى منها ما يتعلق ، بخلقهم ، ومنها ما يتعلق بالأرض والسموات ، ومنها ما يتعلق بنومهم وبالليل والنهار ، ومنها ما يتعلق بالشمس ، وبالسحب التى تحمل لهم الماء - الذى لا يحاة لهم بدونه .وبعد إيراد هذه الأدلة المقنعة لكل عاقل ، أكد سبحانه - ما اختلفوا فيه ، وما تساءلوا عنه

لنخرج به حبا ونباتا

`<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html} كما فسرها الوسيط

- أما الدليل التاسع على قدرته - تعالى - على البعث ، فنراه فى قوله تعالى - :( وَأَنزَلْنَا مِنَ المعصرات مَآءً ثَجَّاجاً . لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً . وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً ) .والمعصرات - بضم الميم وكسر الصاد - السحب التى تحمل المطر ، جمع معصرة - بكسر الصاد - اسم فاعل ، من أعصرت السحابة إذا أوشكت على إنزال الماء لامتلائها به . .قال ابن كثير : عن ابن عباس : " المعصرات " الرياح . لأنها تستدر المطر من السحاب . . وفى رواية عنه أن المراد بها : السحاب ، وكذا قال عكرمة . . واختاره ابن جرير .

: وقال الفراء : هى السحاب التى تتحلب بالماء ولم تمطر بعد ، كما يقال.
: امرأة معصر ، إذا حان حيضها ولم تحض بعد .وعن الحسن وقتادة : المعصرات
- يعنى السموات . وهذا قول غريب ، والأظهر أن المراد بها السحاب ، كما قال
تعالى - : ( الله الذي يُرْسِلُ الرياح فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ
فِي السمآء كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الودق يَخْرُجُ
- مِنْ خِلاَلِهِ . . . ) والثجاج : المندفع بقوة وكثرة ، يقال : ثج الماء
) : كرد - إذا إنصب بقوة وكثرة .ومطر ثجاج ، أى : شديد الانصباب جدا .وقوله
. أَلْفَافاً ) إسم جمع لا واحد له من لفظه ، كالأوزاع للجماعات المتفرقة
وقيل : جمع لفيف ، كأشراف وشريف . أى : وأنزلنا لكم - يا بنى آدم - بقدرتنا
، ورحمتنا - من السحائب التى أوشكت على الإمطار ، ماء كثيرا متدفقا بقوة
لنخرج بهذا الماء حبا تقتاتون به - كالقمح والشعير .. ونباتا تستعملونه
لدوابكم كالتبن والكلأ ، ولنخرج بهذا الماء - أيضا - بساتين قد التفت
أغصانها لتقاربها وشدة نمائها .فهذه تسعة أدلة أقامها - سبحانه - على أن
. . البعث حق ، وهى أدلة مشاهدة محسوسة ، لا يستطيع عاقل إنكار واحد منها
وما دام الأمر كذلك فكيف ينكرون قدرته على البعث ، مع أنه - تعالى - قد
أوجد لهم كل هذه النعم التى منها ما يتعلق بخلقهم ، ومنها ما يتعلق بالأرض
والسموات ، ومنها ما يتعلق بنومهم ، وبالليل والنهار ، ومنها ما يتعلق
بالشمس ، وبالسحب التى تحمل لهم الماء الذى لا يحاة لهم بدونه .وبعد إيراد
هذه الأدلة المقنعة لكل عاقل ، أكد - سبحانه - ما اختلفوا فيه ، وما
تساءلوا عنه

وجنات الفافا

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html}

- أما الدليل التاسع على قدرته - تعالى - على البعث ، فنراه في قوله
تعالى - :( وَأَنزَلْنَا مِنَ المعصرات مَآءً ثَجَّاجاً . لِّنُخْرِجَ بِهِ
حَبّاً وَنَبَاتاً . وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً ) .والمعصرات - بضم الميم وكسر
الصاد - السحب التى تحمل المطر ، جمع معصرة - بكسر الصاد - اسم فاعل ، من
: أعصرت السحابة إذا أوشكت على إنزال الماء لامتلائها به . .قال ابن كثير
عن ابن عباس : " المعصرات " الرياح . لأنها تستدر المطر من السحاب . . وفى
. رواية عنه أن المراد بها : السحاب ، وكذا قال عكرمة . . واختاره ابن جرير
: وقال الفراء : هى السحاب التى تتحلب بالماء ولم تمطر بعد ، كما يقال.
: امرأة معصر ، إذا حان حيضها ولم تحض بعد .وعن الحسن وقتادة : المعصرات
- يعنى السموات . وهذا قول غريب ، والأظهر أن المراد بها السحاب ، كما قال
تعالى - : ( الله الذي يُرْسِلُ الرياح فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ
فِي السمآء كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الودق يَخْرُجُ
- مِنْ خِلاَلِهِ . . . ) والثجاج : المندفع بقوة وكثرة ، يقال : ثج الماء
) : كرد - إذا إنصب بقوة وكثرة .ومطر ثجاج ، أى : شديد الانصباب جدا .وقوله
. أَلْفَافاً ) إسم جمع لا واحد له من لفظه ، كالأوزاع للجماعات المتفرقة
وقيل : جمع لفيف ، كأشراف وشريف . أى : وأنزلنا لكم - يا بنى آدم - بقدرتنا
، ورحمتنا - من السحائب التى أوشكت على الإمطار ، ماء كثيرا متدفقا بقوة
لنخرج بهذا الماء حبا تقتاتون به - كالقمح والشعير .. ونباتا تستعملونه
لدوابكم كالتبن والكلأ ، ولنخرج بهذا الماء - أيضا - بساتين قد التفت
أغصانها لتقاربها وشدة نمائها .فهذه تسعة أدلة أقامها - سبحانه - على أن
. . البعث حق ، وهى أدلة مشاهدة محسوسة ، لا يستطيع عاقل إنكار واحد منها
وما دام الأمر كذلك فكيف ينكرون قدرته على البعث ، مع أنه - تعالى - قد
أوجد لهم كل هذه النعم التى منها ما يتعلق بخلقهم ، ومنها ما يتعلق بالأرض
والسموات ، ومنها ما يتعلق بنومهم ، وبالليل والنهار ، ومنها ما يتعلق
بالشمس ، وبالسحب التى تحمل لهم الماء الذى لا يحاة لهم بدونه .وبعد إيراد
هذه الأدلة المقنعة لكل عاقل ، أكد - سبحانه - ما اختلفوا فيه ، وما
تساءلوا عنه

ان يوم الفصل كان ميقاتا

كما فسرها الوسيط وبين جانبا من أماراته وعلاماته فقال : ( إِنَّ يَوْمَ
الفصل كَانَ مِيقَاتاً . يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصور فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً
وَفُتِحَتِ السمآء فَكَانَتْ أَبْوَاباً . وَسُيِّرَتِ الجبال فَكَانَتْ .
سَرَاباً ) .والمراد بيوم الفصل : يوم القيامة ، لأن فيه يكون الفصل بين
المحق والمبطل ، والمحسن والمسئ ، فيجازى كل إنسان على حسب عمله
. والميقات - بزنة مفعال - مشتق من الوقت ، وهو الزمان المحدد لفعل ما.
والمراد به هنا : قيام الساعة ، وبعث الناس من قبورهم . أى : إن يوم البعث
والجزاء ، كان ميعادا ووقتا محددا لبعث الأولين والأخرين ، وما يترتب على
. ذلك من جزاء وثواب وعقاب

يوم ينفخ في الصور فتاتون افواجا

كما فسرها الوسيط وقوله : ( يُنفَخُ فِي الصور . . . ) بدل ما قبله ، أى : يوم القيامة آت لا ريب فيه ، يوم نأمر إسرافيل بأن ينفخ فى الصور ، أى : فى القرن الذى أوجدناه لذلك .( فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً ) أى : فتخرجون من قبوركم جماعات جماعات ، وطوائف ، وطوائف دون أن يستطيع أحد منكمك التخلف عن الحضور إلى المكان الذى أعددناه لذلك .

وفتحت السماء فكانت ابوابا

كما فسرها الوسيط ( وَفُتِحَتِ السمآء . . . ) فى هذا اليوم وشقت . . ) فَكَانَتْ أَبْوَاباً ) أى : فصارت شقوقها وفتحاتها كالأبواب فى سعتها وكثرتها .

وسيرت الجبال فكانت سرابا

كما فسرها الوسيط ( وَسُيِّرَتِ الجبالِ . . . ) أى : وأزيلت الجبال وحركت من أماكنها بعد تفتتها .( فَكَانَتْ سَرَاباً ) أى : فصارت بعد تفتتها واقتلاعها من أماكنها . . كالسراب ، وهو ما يلوح فى الصحارى ، فيظنه الرائى ماء وهو ليس بماء .

ان جهنم كانت مرصادا

كما فسرها الوسيط وبعد هذا البيان البديع لجانب من مظاهر قدرته - تعالى - على كل شئ ، ومن ألوان نعمه على خلقه ، ومن تقرير أن البعث حق . . بعد كل ذلك ، بين - سبحانه - جزاء الكافرين ، وجزاء المتقين فى هذا اليوم فقال - تعالى - :( إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ . . . ) .قوله - سبحانه - : ( إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً . . . ) كلام مستأنف لبيان أهوال جهنم وأحوالها ، وجهنم : اسم لدار العذاب فى الآخرة .والمرصاد : مفعال من الرَّصَد . تقول : رصدت فلانا أرصده ، إذا ترقيته وانتظرته ، بحيث لا يهرب منك ، " فمرصادا " صيغة مبالغة للراصد الشديد الرصد ، وصفت جهنم بذلك ، لأن الكافرين لا يستطيعون التفلت منها مهما حاولوا ذلك .قال القرطبى : " مرصادا " مفعال من الرصد ، والرصد : كل شئ كان أمامك . . وقال مقاتل : " مرصادا " أى : محبسا . وقيل : طريقا وممرا . وذكر القشيرى : أن المرصاد : المكان الذى يرصد فيه الواحد العدد . أى : هى معدة لهم ، فالمرصاد بمعنى المحل . . وذكر الماوردى ، أنها بمعنى راصدة . . وفى الصحاح : الراصد الشئ الراقب له تقول : رصدته أرصده ، إذا ترقبته . .والمعنى : إن جهنم التى هى دار العذاب فى الآخرة ، كانت - بأمر الله - تعالى - ومشيئته - معدة ومهيئة للكافرين ، فهى ترصدهم وترقبهم بحيث لا يستطيعون الهرب منها ، فهى كالحارس اليقظ الذى يقف بالمرصد فلا يستطيع أحد أن يتجاوزه .والمقصود بالآية الكريمة تهديد المشركين ، وبيان أنهم لا مهرب لهم من جهنم ، وأنها فى انتظارهم ، كما ينتظر العدو عدو ليقضى عليه .

للطاغين ما با

كما فسرها الوسيط وقوله : ( لِّلطَّاغِينَ مَآباً ) بدل من ( مِرْصَاداً ) . وقوله ( مَآباً ) من الأوب بمعنى المرجع . يقال : آب فلان يؤوب ، إذا رجع أى : إن جهنم كانت للمتجاوزين الحد فى الظلم والطغيان ، هى المكان المهيأ لهم ، والذى لا يستطيعون الهرب منه ، بل هى مرجعهم الوحيد الذى يرجعون إليه .

لابثين فيها احقابا

كما فسرها الوسيط وقوله : ( لاَّبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَاباً ) أى : مقيمين فى جهنم أزمانا طويلا لا يعلم مقدارها إلا الله - تعالى - إذا الأحقاب : جمع حُقُب - بضمتين أو بضم فسكون - ، وهو الزمان الطويل .

لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا

كما فسرها الوسيط ( لاَّ يَذُوقُونَ فِيهَا ) أى : فى جهنم ( بَرْداً ) أى شيئا يخفف عنهم حرها ، من هواء بارد ، أو نسيم عليل ( وَلاَ شَرَاباً ) : أى : شيئا من الشراب الذى يطفئ عطشهم ، ويخفف من عذابهم .

الا حميما وغساقا

كما فسرها الوسيط ( إِلاَّ حَمِيماً وَغَسَّاقاً ) والحميم . هو الماء الذى
بلغ الغاية فى الحرارة . والغساق : هو ما يسيل من جلودهم من القيح والدماء
والصديد . يقا : غسق الجرح - كضرب وسمع - غسقانا ، إذا سالت منه مياه صفراء
أى : أن هؤلاء الطغاة لا يذوقون فى جهنم شيئا نم الهواء البارد ، ولا من .
الشراب النافع ، لكنهم يذوقون فيها الماء الذى بلغ النهاية فى الحرارة
والصديد الذى يسيل من جروحهم وجلودهم .فالاستثناء فى قوله ( إِلاَّ
حَمِيماً وَغَسَّاقاً ) ، استثناء منقطع ، لأن الحميم ليس من جنس البرد فى
. شئ ، وكذلك الغساق ليس من جنس الشراب فى شئ

جزاء وفاقا

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( جَزَآءً وِفَاقاً ) بيان لعدالة
الله - تعالى - معهم ، أى : أننا لم نظلمهم بإلقائهم فى جهنم ، وإنما
جازيناهم بذلك جزاء موافقا لأعمالهم السيئة فى الدنيا .فقوله ( جزاء )
منصوب على أنه مفعول مطلق لفعل محذوف ، وقوله ( وفاقا ) صفة له والوفاق
مصدر وافق ، وهو هنا بمعنى اسم الفاعل . أى : جوزوا جزاء موافقا لأعمالهم
. القبيحة التى كانوا يعملونها فى الدنيا

انهم كانوا لا يرجون حسابا

) : كما فسرها الوسيط ثم علل - سبحانه - ما أصابهم من عذاب أليم ، فقال
. إِنَّهُمْ كَانُواْ لاَ يَرْجُونَ حِسَاباً

وكذبوا باياتنا كذابا

كما فسرها الوسيط وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا كِذَّاباً ) أى : إن هؤلاء
الطغاة كانوا فى الدنيا لا يخافون حسابنا ، ولا يفكرون فيه ، بل كانوا
يكذبون به ، وبكل ما جاءهم به رسولنا تكذيبا عظيما .وقوله : ( كِذَّاباً )
مصدر كذب ، ومجئ فِعَّال بمعنى تفعيل فى مصدر فعَّل فصيح شائع الغاية فى
قبحه وإفراطه . وهو منصوب على أنه مفعول مطلق مؤكد لعامله .قال صاحب الكشاف
قوله : ( كِذَّاباً ) أى : تكذيبا . وفِعَّال فى باب فَعَّل ، كله فاش فى :
. . كلام فصحاء العرب لا يقولون غيره . وهو مصدر كذّب

وكل شيء احصيناه كتابا

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - شمول علمه لكل شئ فقال : ( وَكُلَّ
شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً ) و " كل " منصوب على الاشتغال ، والإحصاء
للشئ : ضبطه ضبطا محكما . وأصله من لفظ الحصا ، واستعمل فيه لأنهم كانوا
يعتمدون على الحصا فى العد ، كما يعتمد بعض الناس الآن على الأصابع .قال
الجمل : وقوله : ( كِتَاباً ) فيه أوجه : أحدها : أنه مصدر من معنى أحصيناه
أى : إحصاء فالتجوز فى نفس المصدر . والثانى : أنه مصدر لأحصينا ، لأنه ،
فى معنى كتبنا . فالتجوز فى نفس الفعل . . أى : وكل شئ فى هذا الكو ، قد
. أحصيناه إحصاء تاما ، بحيث لا يعزب منه شئ عن علمنا ، مهما كان صغيرا

فذوقوا فلن نزيدكم الا عذابا

كما فسرها الوسيط والفاء فى قوله ( فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ
. عَذَاباً ) للتفريع على ما تقدم من كون جهنم كانت مرصادا ، للطاغين مآبا
، أى : إن جهنم كانت معدة ومهيأة لهؤلاء الطغاة بسبب أعمالهم القبيحة.
وسيقال لهم يوم القيامة على سبيل الإذلال والإهانة ، ذوقوا سوء عاقبة
كفركم وفسوقكم وعصيانكم ، فلن نزيدكم إلا عذابا فوق العذاب الذى أنتم فيه
قال ابن كثير : قال قتادة ، عن أبى أيوب الأزدى ، عن عبد الله بن عمرو قال.
لم ينزل فى شأن أهل النار آية أشد من هذه الآية ( فَذُوقُواْ فَلَن :
. . نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَاباً ) قال : فهم فى مزيد من العذاب أبدا

ان للمتقين مفازا

كما فسرها الوسيط وكعادة القرآن الكريم فى الموازنة بين عاقبة الأشرار
والأخيار ، جاء الحديث عن حسن عاقبة المتقين ، بعد الحديث عن سوء عاقبة
الطاغين فقال - تعالى - : ( إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً ) أى : للمتقين
الذين صانوا أنفسهم عن كل ما لا يرضى ربهم . . ( مَفَازاً ) أى : فوزا
، برضوانه وجنته فقوله ( مَفَازاً ) مصدر بمعنى الفوز والظفر بالمطلوب

وتنوينه للتعظيم .

حدائق واعنابا

كما فسرها الوسيط ثم فصل - سبحانه - مظاهر هذا الفوز فقال : ( حَدَآئِقَ وَأَعْنَاباً ) أى : إن لهم فى هذه الجنان التى ظفروا بها حدائق ، أى : بساتين فيها ماء وأشجار مثمرة .. سميت بذلك تشبيها لها بحدقة العين فى الهيئة ، وحصول الماء فيها .وإن لهم - كذلك - فى هذه الجنان ( أعنابا ) جمع عنب ، وهو الكرم ، وخصبت الأعناب بالذكر ، لأنها من أعظم الفواكه وأحبها إلى النفوس .

وكواعب اترابا

كما فسرها الوسيط وإن لهم - أيضا - ( وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً ) أى : فتيات فى ريعان الشباب ، قد تقاربت أعمارهن ، وتساوين فى الجمال والنضارة وحسن الهيئة .فالكواعب ، جمع كاعب ، وهى الفتاة التى وصلت إلى سن البلوغ ، وسميت بذلك لأنها فى تلك السن يتكعب ثدياها ، أى : يستديران مع ارتفاع . والأتراب ، جمع تِرْب - بكسر التاء وسكون الراء - وهو المساوى لغيره فى السن ، وأكثر ما يطلق هذا اللفظ على الإناث . قيل : سمى من تقاربن فى السن بذلك ، على سبيل التشبيه بالترائب ، أى : بالضلوع التى فى الصدر فى التساوى . .

وكاسا دهاقا

كما فسرها الوسيط وإن لهم - أيضا - ( وَكَأْساً دِهَاقاً ) أى : كأسا مليئة بالخمر . يقال دهق الحوض - كجعل - وأدهقه ، إذا ملأه حتى فاض من جوانبه .

لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا

كما فسرها الوسيط ( لاَّ يَسْمَعُونَ فِيهَا ) أى : فى الجنة ( لَغْواً ) أى : كلاما ساقطا لا يعتد به . ولا يسمعون - أيضا - ( كِذَّاباً ) أى كلاما كاذبا .

جزاء من ربك عطاء حسابا

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَاباً ) : بيان لمظاهر فضله ومننه على هؤلاء المتقين . . وقوله ) جَزَآءً ) منصوب بفعل محذوف من لفظه ، و ( من ) ابتدائية .أى : هؤلاء المتقون كوفئوا مكافأة صادرة من ربك على سبيل العطاء أى : الإحسان والتفضل حتى شبعوا واكتفوا .فقوله : ( حسابا ) صفة للعطاء وهو بمعنى كاف . فهو ، مصدر أقيم مقام الوصف ، من قولهم : أَحْسَبَهُ الشئُ ، إذا كفاه حتى قال حسبى ، أى : كافينى .قال صاحب الكشاف : و ( حِسَاباً ) معناه " محسوبا " أى كافأهم الله - تعالى - على أعمالهم الحسنة فى الدنيا مكافأة محسوبة ، على : قدر أعمالهم الطيبة .

رب السماوات والارض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا

كما فسرها الوسيط وقوله : ( رَّبِّ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا الرحمن . . . ) قرأه بعضهم بجر لفظ " رب " على أنه بدل " من ربك " وقرأه البعض الآخر بالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف .أى : هذا الجزاء العظيم للمتقين هو كائن من ربك ، الذى هو رب أهل السموات وأهل الأرض ، ورب ما بينهما من مخلوقات لا يعلمها إلا هو ، وهو - سبحانه - صاحب الرحمة الواسعة العظيمة التى لا تقاربها رحمة . .وقوله : ( لاَّ يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً ) مقرر ومؤكد لما قبله ، من كونه - تعالى - هو رب كل شئ . أى : أهل السموات والأرض وما بينهما ، خاضعون ومربوبون لله - تعالى - الواحد القهار ، الذى لا يقدر أحد منهم - كائنا من كان - أن يخاطبه إلا بإذنه ، ولا يملك أن يفعل ذلك إلا بمشيئته .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( مَن ذَا الذي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ) وقوله - سبحانه - : ( يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ )

يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون الا من اذن له الرحمن وقال صوابا

كما فسرها الوسيط والظرف فى قوله - تعالى - : ( يَوْمَ يَقُومُ الروح

والملائكة صَفّاً . . ) متعلق بقوله - تعالى - قبل ذلك : ( لاَ
- يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً ) . . والمراد بالروح : جبريل - عليه السلام
، أى :لا يملك أحد أن يخاطب الله - تعالى - إلا بإذنه ، يوم القيامة .
ويوم يقوم جبريل - عليه السلام - بين يدى خالقه قيام تذلل وخضوع ، ويقوم
الملائكة - أيضا - قياما كله أدب وخشوع ، وهم فى صفوف منتظمة .( لاَّ
) يَتَكَلَّمُونَ ) أى :لا يستطيع جبريل ولا الملائكة ولا غيرهم الكلام
إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحمن ) منهم بالكلام أو بالشفاعة .( وَقَالَ
صَوَابا ) أى : وقال المأذون له فى الكلام قولا صوابا يرضى الخالق - عز
وجل - .وكون المراد بالروح : جبريل - عليه السلام - هو الرأى الراجح ، لأن
القرآن الكريم قد وصفه بذلك فى آيات منها قوله - تعالى - : ( نَزَلَ بِهِ
الروح الأمين . على قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المنذرين ) وهناك أقوال أخرى
فى المراد به ، منها : أنه ملك من الملائكة ، ومنها : أرواح بنى آدم .وجملة
لا يتكلمون " مؤكدة لجملة ( لاَ يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً ) والضمير "
لجميع الخلائق .وقد أفادت الآية الكريمة أن الذين يتكلمون فى هذا اليوم
الهائل الشديد ، هم الذين يأذن الله - تعالى - لهم بالكلام ، وهم الذين
يقولون قولا صوابا يرضى الله - تعالى - عنه .وجملة : " وقال صوابا " يجوز
أن تكون فى موضع الحال من الاسم الموصول " من " أى :لا يستطيع أحد منهم
الكلام إلا الشخص الذى قد أذن الله - تعالى - له فى الكلام ، والحال أن هذا
المأذون له قد قال صوابا .ويصح أن تكون معطوفة على جملة ( أَذِنَ لَهُ
، الرحمن ) أى :لا يستطيعون الكلام إلا الذين أذن لهم الرحمن فى الكلام
وإلا الذين قالوا قولا صوابا يرضى الله ، فإنهم يتكلمون .والمقصود من الآية
الكريمة ، بيان أن الخلائق جميعا يكونون فى هذا اليوم ، فى قبضة الرحمن
. - وتحت تصرفه ، وأنهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا إلا بإذنه - تعالى

ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ الى ربه مابا

كما فسرها الوسيط واسم الإشارة فى قوله - تعالى - : ( ذَلِكَ اليوم الحق )
يعود إلى يوم البعث الذى يقوم الناس فيه الله رب العالمين . أى : ذلك اليوم
الذى يقوم فيه الخلائق للحساب والجزاء ، هو اليوم الحق الذى لا شك فى حدوثه
ولا ريب فى ثبوته .والفاء فى قوله - تعالى - : ( ذَلِكَ اليوم الحق فَمَن ،
: شَآءَ اتخذ إلى رَبِّهِ مَآباً ) هى الفصيحة ، ومفعول المشيئة محذوف . أى
لقد بينا لكم ما يهديكم ، وإذا كان الأمر كذلك ، فمن شاء منكم أن يتخذ إلى
ربه مرجعا حسنا وطريقا إلى رضاه ، فليتخذه الآن ، من قبل أن يأتى هذا اليوم
. الذى لا بيع فيه ولا خلال

انا انذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بهذا الإنذار البليغ
فقال : ( إِنَّآ أَنذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً يَوْمَ يَنظُرُ المرء
( مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الكافر ياليتني كُنتُ تُرَاباً
والإنذار : الإخبار بحصول شئ تسوء عاقبته ، فى وقت يستطيع المنذر فيه أن.
يجنب نفسه الوقوع فى ذلك الشئ . أى : إنا أخبرناكم - أيها الناس - بأن هناك
، عذابا قريبا ، سيحل بمن يستحقه عما قريب .وذلك العذاب سيكون أشد هولا
وأبقى أثرا ، يوم القيامة ، ( يَوْمَ يَنظُرُ المرء مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ
أى : يوم يرى كل إنسان عمله حاضرا أمامه ، ومسجلا عليه . .( وَيَقُولُ (
الكافر ياليتني كُنتُ تُرَاباً ) أى : ويقول الإنسان الكافر فى هذا اليوم
على سبيل الحسرة والندامة ، يا ليتنى كنت فى الدنيا ترابا ، ولم أخلق بشرا
ولم أكلف بشئ من التكاليف ، ولم أبعث ولم أحاسب .فالمقصود بالآية قطع ،
أعذار المعتذرين بأبلغ وجه ، من قبل أن يأتى يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون
إلا من أتى الله بقلب سليم .وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
.

والنازعات غرقا

كما فسرها الوسيط الواو فى قوله ( والنازعات . . ) وما بعده للقسم ، وجواب
. . القسم محذوف دل عليه ما بعده ، والتقدير : وحق هذه المخلوقات العظيمة
، لتبعثن .وكذلك المقسم به محذوف ، إذ أن هذه الألفاظ وهى : النازعات
، والناشطات والسابحات ، والسابقات ، والمدبرات ، صفات لموصوفات محذوفة
اختلف المفسرون فى المراد بها على أقوال كثيرة . أشهرها : أن المراد بهذه
) : الموصوفات ، طوائف من الملائكة ، كلفهم الله - تعالى - فى النزع الحسى
- وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّاظِرِينَ ) وقوله - سبحانه
فى النزع المعنوى : ( وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ
إِخْوَاناً على سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ) وقوله : ( غرقا ) اسم مصدر من

أغرق ، وأصله إغراقا . والإغراق فى الشئ ، المبالغة فيه والوصول به إلى
: نهايته ، يقال : أغرق فلان فلأن هذا الأمر ، إذا أوغل فيه ، ومنه قوله
نزع فلان فى القوس فأغرق ، أى : بلغ غاية المد حتى انتهى إلى النّصْل .وهو
منصوب على المصدرية ، لالتقائه مع اللفظ الذى قبله فى المعنى ، وكذلك الشأن
" بالنسبة للالفاظ التى بعده ، وهى : " نشطا ، و " سبحا " و " سبقا
والمعنى : وحق الملائكة الذين ينزعون أرواح الكافرين من أجسادهم ، نزعا.
- شديدا ، يبلغ الغاية فى القسوة والغلظة .ويشير إلى هذا المعنى قوله
تعالى - فى آيات متعددة ، منها قوله - سبحانه - : ( وَلَوْ ترى إِذْ
يَتَوَفَّى الذين كَفَرُوا الملائكة يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ
وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الحريق ).

والناشطات نشطا

كما فسرها الوسيط وقوله : ( والناشطات نَشْطاً ) : المقصود به طائفة أخرى
من الملائكة . والناشطات من النَّشْط ، وهو السرعة فى العمل ، والخفة فى
أخذ الشئ ، ومنه الأنشوطة ، للعقدة التى يسهل حلها ، ويقال : نَشَطتُ الدول
من البئر - من باب ضرب - إذا نزعتها بسرعة وخفة .أى : وحق الملائكة الذين
ينشطون ويسرعون إسراعا شديدا لقبض أرواح المؤمنين بخفة وسهولة ويقولون
لهم - على سبيل البشارة والتكريم - : ( ياأيتها النفس المطمئنة . ارجعي إلى
رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ).

والسابحات سبحا

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( والسابحات سَبْحاً ) قسم ثالث
بطائفة ثالثة من طوائف الملائكة ، التى تَسْبَحُ فى هذا الكون ، أى : تنطلق
بسرعة لتنفيذ أمر الله - تعالى - ، ولتسبيحه ، وتحميده ، وتكبيره ، وتقديسه
، أى : وحق الملائكة الذين يسرعون التنقل فى هذا الكون إسراعا شديدا.
. . لتنفيذ ما كلفهم - سبحانه - به ، ولتسبيحه وتنزيهه عن كل نقص

فالسابقات سبقا

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( فالسابقات سَبْقاً ) المقصود به
طائفة رابعة من الملائكة ، تسبق غيرها فى تنفيذ أمر الله - تعالى - ، إذ
السبق معناه : أن يتجاوز السائر من يسير معه ، ويسبقه إلى المكان المقصود
الوصول إليه ، كما قال - تعالى - فى صفات المتقين : ( أولئك يُسَارِعُونَ
فِي الخيرات وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ).

فالمدبرات امرا

كما فسرها الوسيط وقوله : ( فالمدبرات أَمْراً ) المقصود به طائفة خامسة من
الملائكة ، من وظائفهم تدبير شأن الخلائق ، وتنظيم أحوالهم بالطريقة التى
، يأمرهم - سبحانه - بها ، فنسبة التدبير إليهم ، إنما هى على سبيل المجاز
لأن كل شئ فى هذا الكون إنما هو بقضاء الله وتقديره وتدبيره .والمراد
بالأمر : الشأن والغرض المهم ، وتنوينه للتعظيم ، ونصبه على المفعولية للفظ
المدبرات . أى : وحق الملائكة الذين يرتبون شئون الخلائق ، وينظمون أمورهم
بالطريقة التى يكلفهم - سبحانه - بها .وجاء العطف فى قوله : ( فالسابقات )
بالفاء ، للدلالة على ترتيب ما بعدها على ما قبلها بغير مهلة ( فالمدبرات )
وللإيذان بأن هاتين الصفتين متفرعتين عما قبلهما .وعلى هذا التفسير الذى .
سرنا فيه على أن هذه الصفات لموصوف واحد ، سار كثير من المفسرين : فصاحب
، الكشاف صدر تفسيره لهذه الآيات بقوله : أقسم - سبحانه - بطوائف الملائكة
. . التى تنزع الأرواح من الأجساد وبالطوائف التى تنشطها ، أى تخرجها
بالطوائف التى تسبح فى مضيها ، أى : تسرع فتسبق إلى ما أمروا به ، فتدبر
- أمرا من أمور العباد مما يصلحهم فى دنيهم ودنياهم ، كما رسم الله - تعالى
لهم . . وأسند التدبير إليهم - أى إلى الملائكة - لأنهم من أسبابه .وقال
الشوكانى : أقسم - سبحانه - بهذه الأشياء التى ذكرها ، وهى الملائكة التى
تنزع أرواح العباد عن أجسادهم ، كما ينزع النازع القوس فيبلغ بها غاية المد
وكذا المراد بالناشطات ، والسابحات ، والسابقات ، والمدبرات ، يعنى ،
الملائكة ، والعطف مع اتحاد الكل لتنزيل التغاير الوصفى ، منزلة التغاير
الذاتى ، كما فى قول الشاعر :إلى الملك القرم ، وابن الهام ... وليث
. الكتيبة فى المزدحموهذا قول الجمهور من الصحابة ، والتابعين ، ومن بعدهم
ومنهم من يرى أن المراد بالنازعات : النجوم تنتقل من مكان إلى مكان ، أو.
الأقواس التى تنزع السهام ، أو الغزاة ينزعون من دار الإسلام إلى دار
الحرب . .ومنهم من يرى أن المراد بالناشطات : الكواكب السيارة ، أو السفن
التى تمخر عباب الماء . . وأن المراد بالسابحات والسابقات : النجوم ، أو

الشمس والقمر ، والليل والنهار . .أما المدبرات فقد أجمعوا على أن المراد بها الملائكة .قال الجمل : اختلفت عبارات المفسرين فى هذه الكلمات ، هل هى صفات لشئ واحد ، أو لأشياء مختلفة ، على أوجه : واتفقوا على أن المراد بقوله : ( فالمدبرات أَمْراً ) وصف لشئ واحد ، وهم الملائكة .ويبدو لنا أن كون هذه الصفات جميعها لشئ واحد ، هو الملائكة ، أقرب إلى الصواب لأنه المأثور عن كثير من الصحابة والتابعين ومن بعدهم .

يوم ترجف الراجفة

كما فسرها الوسيط ثم شرع - سبحانه - فى بيان علامات القيامة وأهوالها فقال والراجفة : من ( . . . يَوْمَ تَرْجُفُ الراجفة . تَتْبَعُهَا الرادفة ) : ، الرجف وهو الاضطراب الشديد ، والحركة القوية ، لأن بسببها تضطرب الأمور وتختل الشئون . يقال : رجفت الأرض والجبال ، إذا اهتزت اهتزازا شديدا والمراد بها : ما يحدث فى هذا الكون عند النفخة الأولى التى يموت بعدها. جميع الخلائق .

تتبعها الرادفة

، كما فسرها الوسيط والمراد بالرادفة : النفخة الثانية ، التى تردف الأولى أى : تأتى بعدها ، وفيها يبعث الموتى بإذن الله - تعالى - ، يقال : فلان جاء ردف فلان ، إذا جاء فى أعقابه .أى : اذكر - أيها العاقل - لتعتبر وتتعظ يوم ينفخ فى الصور فتضطرب الأرض وتهتز ، ويموت جميع الخلق ، ثم يتبع ذلك ، نفخة أخرى يبعث بعدها الموتى - بإذن الله - تعالى - .وجملة " تتبعها - الرادفة " فى محل نصب على الحال من الراجفة .وشبيه بهاتين الآيتين قوله تعالى - : ( وَنُفِخَ فِي الصور فَصَعِقَ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض إِلاَّ مَن شَآءَ الله ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أخرى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ) .

قلوب يومئذ واجفة

. كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ) بيان لما يترتب على قيام الساعة ، وبعث الخلائق ، من خوف ورعب .أى : قلوب كثيرة فى هذا اليوم الهائل الشديد تكون فى نهاية الاضطراب والفزع . يقال : وجف القلبُ يَجِف وَجْفاً ووجيفا ، إذا ارتفعت ضرباته من شدة الخوف . .

ابصارها خاشعة

، كما فسرها الوسيط وتكون أبصار أصحاب هذه القلوب خاشعة ، أى ذليلة مهينة " لما يعتريهم من الفزع الشديد ، والرعب الذى لا حدود له . .ولفظ " قلوب ) مبتدأ ، وتنكيره للتكثير ، وقوله ( وَاجِفَةٌ ) صفة للقلوب ، وجملة أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ) خبر ثان للقلوب .والمراد بهذه القلوب : قلوب المشركين الذين أنكروا فى الدنيا البعث والجزاء ، فلما بعثوا اعتراهم الرعب الشديد ، والفزع الذى لا يقاربه فزع . .فأما قلوب المؤمنين فهى - بفضل الله ورحمته - تكون فى أمان واطمئنان ، كما قال - تعالى - : ( لاَ يَحْزُنُهُمُ الفزع الأكبر وَتَتَلَقَّاهُمُ الملائكة هذا يَوْمُكُمُ الذي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ) وإضافة الأبصار إلى مير القلوب لأدنى ملابسة ، لأن الأبصار لأصحاب هذه القلوب ، وكلاهما من جوارح الأجساد .

يقولون اانا لمردودون في الحافرة

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الحافرة . أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً نَّخِرَةً ) حكاية لما كان يقوله هؤلاء الكافرون فى الدنيا ، من إنكار للبعث ، ومن استهزاء لمن كان يذكرهم به ، ومن استبعاد شديد لحصوله . .والمراد بالحافرة : العودة إلى الحياة مرة أخرى بعد موتهم وتحولهم إلى عظام بالية .قال صاحب الكشاف : ( فِي الحافرة ) أى : فى الحالة الأولى يعنون : الحياة بعد الموت .فإن قلت : ما حقيقة هذه الكلمة؟ قلت : يقال : رجع فلان فى حافرته ، أى : فى طريقه التى جاء فيها فحفرها . أى : أثر فيها بمشيه فيها : جعل أثر قدميه حفرا . . ثم قيل لمن كان فى أمر فخرج منه ثم عاد إليه ، رجع إلى حافرته ، أى : طريقته وحالته الأولى .

ااذا كنا عظاما نخرة

كما فسرها الوسيط وقوله : ( نَّخِرَةً ) صفة مشتقة من قولهم : نَخِر العظم - بفتح النون وكسر الخاء - إذا بَلِى وصار سهل التفتيت والكسر . وقرأ حمزة والكسائى " ناخرة " بمعنى بالية فارغة جوفاء ، يسمع منها عند هبوب - الريح نخير ، أى : صوت .أى : أن هؤلاء المشركين كانوا يقولون فى الدنيا على سبيل التعجيب والاستهزاء والإنكار لأمر البعث والحساب : أنرد إلى - الحياة مرة أخرى بعد موتنا وبعد أن نصير فى قبورنا عظاما بالية .وعبر سبحانه - عن قولهم هذا بالمضارع " يقولون " لاستحضار حالتهم الغريبة ، حيث أنكروا ما قام الدليل على عدم إنكاره ، وللإشعار بأن هذا الإنكار كان ، متجددا ومستمرا منهم .وقد ساق - سبحانه - أقوالهم هذه بأسلوب الاستفهام للإيذان بأنهم كانوا يقولون ما يقولون فى شأن البعث على سبيل التهكم والتعجب ممن يحدثهم عنه ، كما هو شأن المستفهم عن شئ الذى لا يقصد معرفة الحقيقة ، وإنما يقصد التعجيب والإنكار .وجملة ( أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً نَّخِرَةً ) مؤكدة للجملة السابقة عليها ، التى يستبعدون فيها أمر البعث . بأقوى أسلوب

قالوا تلك اذا كرة خاسرة

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( قَالُواْ تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ - خَاسِرَةٌ ) حكاية لقول آخر من أقوالهم الفاسدة ، وهو بدل اشتمال من قوله سبحانه - قبل ذلك : ( يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الحافرة ) واسم الإشارة " تلك " يعود إلى الردة المستفادة من قولهم ( أَإِنَّا . : لَمَرْدُودُونَ . . . ) .ولفظ " إذا " جواب لكلامهم المتقدم . والكرة المرة من الكرّ بمعنى الرجوع ، وجمعها : كرّات أى : يقول هؤلاء الجاحدون أنرد إلى الحياة التى كنا فيها بعد أن نموت ونفنى؟ وبعد أن نصير عظاما : نخرة؟ لو حدث هذا بأن رددنا إلى الحياة مرة أخرى ، لكانت عودتنا عودة خاسرة غير رابحة ، وهم يقصدون بهذا الكلام الزيادة فى التهكم والاستهزاء بالبعث والخسران : أصله عدم الربح فى التجارة ، والمراد به هنا : حدوث ما يكرهونه. لهم .ونسب الخسران إلى الكرة على سبيل المجاز العقلى ، للمبالغة فى وصفهم الرجعة بالخيبة والفشل ، وإلا فالمراد خيبتهم وفشلهم هم ، لأنهم تبين لهم كذبهم ، وصدق من أخبرهم بأن الساعة حق .

فانما هي زجرة واحدة

كما فسرها الوسيط وقد رد - سبحانه - عليهم ردا سريعا حاسما يخرس ألسنتهم فقال : ( فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُم بالساهرة ) والزجرة : المرة من الزجر ، وهو الصياح المصحوب بالغضب ، يقال : زجر فلا. فلانا ، إذا أمره أو نهاه عن شئ بحدة وغضب .والساهرة : الأرض المستوية الخالية من النبات .والمراد بها هنا : الأرض التى يحشر الله - تعالى - فيها الخلائق .قال القرطبى : قوله : ( فَإِذَا هُم بالساهرة ) أى : على وجه الأرض ، بعد أن كانوا فى بطنها . سميت بهذا الاسم ، لأن فيها نوم الحيوان وسهرهم ، والعرب تسمى الفلاة ووجه الأرض ساهرة ، بمعنى ذات سهر ، لأنه يسهر فيها خوفا منها ، فوصفها بصفة ما فيها . .والفاء فى قوله : ( فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ . . . ) للتفريع على قولهم السابق ، وضمير " هى " يعود إلى الحاة والقصة التى أنكروها ، وهى قيام الساعة .أى : قل لهم - أيها الرسول الكريم - على سبيل التوبيخ والتقريع : ليس الأمر كما زعمتم من أنه لا بثع ولا جزاء . . بل الحق أن ذلك لآت لا ريب فيه ، وأن عودتكم إلى الحياة مرة أخرى لا تقتضى من خالقكم سوى صيحة واحدة يصيحها ملك من ملائكته بكم ، فإذا - أنتم قيام من قبوركم ، ومجتمعون فى المكان الذى يحدده الله - تعالى لاجتماعكم ولحسابكم وجزائكم .

فاذا هم بالساهرة

كما فسرها الوسيط وعبر - سبحانه - عن اجتماعهم بأرض المحشر بإذا الفجائية فقال : ( فَإِذَا هُم بالساهرة ) للإيذان بأن اجتماعهم هذا سيكون فى نهاية - السرعة والخفة ، وأنه سيتحقق فى أعقاب الزجرة بدون أقل تأخير .ووصف ، سبحانه - الزجرة بأنها واحدة ، لتأكيد ما فى صيغة المرة من معنى الوحدة أى : أن الأمر لا يقتضى سوى الإذن منا بصيحة واحدة لا أكثر ، تنهضون بعدها . . من قبوركم للحساب والجزاء ، نهوضا لا تملكون معه التأخر أو التردد والمراد بها : النفخة الثانية .وقال - سبحانه - ( فَإِذَا هُم ) بضمير الغيبة ، إهمالا لشأنهم ، وتحقيرا لهم عن استحقاق الخطاب .وشبيه بهاتين الآيتين قوله - تعالى - : ( وَنُفِخَ فِي الصور فَصَعِقَ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض إِلاَّ مَن شَآءَ الله ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أخرى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ) وإلى هنا نجد السورة الكريمة قد حثتنا حديثا بليغا مؤثرا عن أهوال يوم القيامة ، وعن أحوال المجرمين فى هذا اليوم

العسير .

هل اتاك حديث موسى

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك جانبا من قصة موسى مع فرعون ، لتكون تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم عما أصابه من هؤلاء الجاحدين وتهديدا لهم حتى يقلعوا عن غيهم . . فقال - تعالى - :( هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ . . . ) .قال الإمام الرازى : اعلم أن وجه المناسبة بين هذه القصة وبين ما قبلها من وجهين :الأول : أنه - تعالى - حكى عن الكفار إصرارهم على ) : إنكار البعث ، حتى انتهوا فى ذلك الإنكار إلى حد الاستهزاء فى قولهم تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ) وكان ذلك يشق على الرسول صلى الله عليه وسلم فذكر - سبحانه - قصة موسى - عليه السلام - ، وبين أنه تحمل المشقة فى دعوة فرعون ، ليكون ذلك لتسلية للرسول صلى الله عليه وسلم .الثانى : أن - فرعون كان أقوى من كفار قريش . . فلما تمرد على موسى ، أخذه الله - تعالى ، نكال الآخرة والأولى ، فكذلك هؤلاء المشركون فى تمردهم عليك ، إن أصروا ) : - أخذهم الله وجعلهم نكالا . .والمقصود من الاستفهام فى قوله - تعالى :( هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ موسى . . . ) التشويق إلى الخبر ، وجعل السامع فى أشد حالات الترقب لما سيلقى إليه ، حتى يكون أكثر وعيا لما سيسمعه .والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم لقصد تسليته ، ويندرج فيه كل من يصلح له والمعنى : هل وصل إلى علمك - أيها الرسول الكريم - خبر موسى - عليه السلام - مع فرعون؟ إن كان لم يصل إليك فهاك جانبا من خبره نقصه عليك ، فتنبه له ، لتزداد ثباتا على ثباتك ، وثقة فى نصر الله - تعالى - لك على ثقتك .

اذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى

كما فسرها الوسيط والظرف " إذ " فى قوله - تعالى - : ( إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بالواد المقدس طُوًى ) متعلق بلفظ " حديث " والجملة يدل اشتمال مما قبلها .و " الواد " المكان المنخفض بين جبلين ، أو بين مكانين مرتفعين . و " طوى " اسم للوادى . وقد جاء الحديث عنه فى " المقدس " : بمعنى المطهر . آيات متعددة ، منها قوله - تعالى - : ( فَلَمَّآ أَتَاهَا نُودِيَ ياموسى إِنِّي أَنَاْ رَبُّكَ فاخلع نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بالواد المقدس طُوًى ) والمعنى : هل بلغك - أيها الرسول الكريم - خبر موسى ، وقت أن ناديناه وهو بالواد المقدس طوى ، الذى هو بجانب الطور الأيمن ، بالنسبة للقادم من أرض مدين التى هى فى شمال الحجاز .ويدل على ذلك قوله - تعالى - : ( فَلَمَّا قضى مُوسَى الأجل وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطور نَاراً قَالَ لأَهْلِهِ امكثوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النار لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ . فَلَمَّآ أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِىءِ الوادي الأيمن فِي البقعة المباركة مِنَ الشجرة أَن ياموسى إِنِّي أَنَا الله رَبُّ العالمين ) .

اذهب الى فرعون انه طغى

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( اذهب إِلَى فِرْعَوْنَ . . . ) مقول لقول محذوف ، أى : ناديناه وقلن له : ( اذهب ) يا موسى إلى فرعون إنه طغى ، أى : إنه تجاوز كل حد فى الكفر والغرور والعصيان .وفرعون : لقب لكل ملك من - ملوك مصر فى ذلك الزمان ، وقد قالوا إن فرعون الذى أرسل الله - تعالى إليه موسى - عليه السلام - هو منفتاح بن رمسيس الثانى .

فقل هل لك الى ان تزكى

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما قاله لموسى على سبيل الإرشاد إلى أحكم وأفضل وسائل الدعوة إلى الحق فقال : ( فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تزكى وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فتخشى ) .والمقصود بالاستفهام هنا : الحض والترغيب فى الاستجابة للحق ، كما تقول لمن تنصحه : هل كل فى كذا ، والجار والمجرور " لك " خب لمبتدأ محذوف ، أى : هل كل رغبة فى التزكية .أى : اذهب يا موسى إلى فرعون ، فقل له على سبيل النصح الحكيم ، والإرشاد البليغ : هل لك يا فرعون رغبة فى أن أدلك على ما يزكيك ويطهرك من الرجس والفسوق والعصيان .وهل لك رغبة - أيضا - فى أن أرشدك إلى الطريق الذى يوصلك إلى رضى ربك ، فيترتب على وصولك إلى الطريق السوى ، الخشية منه - تعالى - والمعرفة التامة بجلاله وسلطانه .

واهديك الى ربك فتخشى

. كما فسرها الوسيط قال صاحب الكشاف : قوله : ( وَأَهْدِيَكَ إلى رَبِّكَ
أى : وأرشدك إلى معرفة الله ، أى : أنبهك عليه فتعرفه ( فتخشى ) لأن ( .
الخشية لا تكون إلا بالمعرفة . . وذكر الخشية ، لأنها ملاك الأمر ، من خشى
الله أتى منه كل خير ، ومن أمن اجترأ على كل شئ . ومنه قوله صلى الله عليه
" وسلم : " من خاف أدلج ، - أى : سار فى أول الليل - ومن أدلج بلغ المنزل
بدأ مخاطبته بالاستفهام الذى معناه العرض ، كما يقول الرجل لضيفه : هل لك.
أن تنزل بنا؟ وأردفه الكلام الرقيق ليستدعيه بالتلطف فى القول ، ويستنزله
بالمداراة من عتوه ، كما أمر بذلك فى قوله - تعالى - ( فَقُولاَ لَهُ
قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يخشى . . . ) والحق أن
هاتين الآيتين فيهما أسمى ألوان الإرشاد إلى الدعوة إلى الحق بالحكمة
. والموعظة الحسنة

فاراه الاية الكبرى

. كما فسرها الوسيط والفاء فى قوله - تعالى - : ( فَأَرَاهُ الآية الكبرى
. فَكَذَّبَ وعصى ) للإفصاح والتفريع على كلام محذوف يفهم من المقام
والتقدير : فامتثل موسى - عليه السلام - أمر ربه ، فذهب إلى فرعون ، فدعاه
إلى الحق ، فكذبه فرعون ، فما كان من موسى إلا أن أراه الآية الكبرى التى
تدل على صدقه ، وهى أن ألقى أمامه عصاه فإذا هى حية تسعى ، وأن نزع يده من
. جيبه فإذا هى بيضاء من غير سوء

فكذب وعصى

كما فسرها الوسيط ولكن فرعون لم يستجب لدعوة موسى ، بعد أن أراه الآية
الكبرى الدالة على صدقه ، بل كذب ما رآه تكذيبا شديدا ، وعصى أمر ربه
. عصيانا كبيرا

ثم ادبر يسعى

كما فسرها الوسيط ( ثُمَّ أَدْبَرَ يسعى ) أى : ثم أضاف إلى تكذيبه وعصيانه
إعراضه وتوليه عن الإيمان والطاعة . وسعيه سعيا حثيثا فى إبطال أمر موسى .
وإصراره ، على تكذيب معجزته .وجاء العطف هنا بثم ، للدلالة على أنه قد ،
تجاوز التكذيب والعصيان ، إلى ما هو أشد منهما فى الجحود والعناد ، وهو
. الإعراض عن الحق والسعى الشديد فى إبطاله

فحشر فنادى

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما فعله بعد ذلك فقال : ( فَحَشَرَ
فنادى . فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأعلى ) .والحشر : جمع الناس ، والنداء
الجهر بالصوت لإسماع الغير ، ومفعولاهما محذوفان .أى : فجمع فرعون الناس :
عن طريق جنده ، وناداهم بأعلى صوته ، قائلا لهم : أنا ربكم الأعلى الذى لا
رب أعلى منه ، وليس الأمر كما يقول موسى من أن لكم إلها سواى .والتعبير
بالفاء فى قوله : ( فنادى ) للإشعار بأنه بمجرد أن جمعهم دعاهم إلى
. الاعتراف بأنه هو رب الأرباب

فقال انا ربكم الاعلى

كما فسرها الوسيط وجاء نداؤه بالصيغة الدالة على الحصر ( أَنَاْ رَبُّكُمُ
- الأعلى ) للرد على ما قاله موسى له . من وجوب إخلاص العبادة لله - تعالى
. وحده

فاخذه الله نكال الاخرة والاولى

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما ترتب على هذا الفجور الذى تلبس به
فرعون ، وعلى هذا الطغيان الذى تجاوز مه كل حد ، فقال : ( فَأَخَذَهُ الله
نَكَالَ الآخرة والأولى ) .والنكال : مصدر بمعنى التنكيل ، وهو العقاب الذى
يجعل من رآه فى حالة تمتعه وتصرفه عما يؤدى إليه ، يقال : نَكَّلَ فلان
بفلان ، إذا أوقع به عقوبة شديدة تجعله نكالا وعبرة لغيره وهو منصوب على
أنه مصدر مؤكد لقوله ( فَأَخَذَهُ ) ، لأن معناه نكل به ، والتعبير بالأخذ
للإشعار بأن هذه العقوبة كانت محيطة بالمأخوذ بحيث لا يستطيع التفلت منها
: والمراد بالآخرة : الدار الآخرة ، والمراد بالأولى : الحياة الدنيا .أى.
أن فرعون عندما تمادى فى تكذيبه وعصيانه وطغيانه . . كانت نتيجة ذلك أن
أخذه الله - تعالى - أخذ عزيز مقتدر ، بأن أنزل به فى الآخرة أشد أنواع
الإحراق ، وأنزل به فى الدنيا أفظع ألوان الإغراق .وقدم - سبحانه - عذاب

الآخرة على الأولى ، لأنه أشد وأبقى .ومنهم من يرى أن المراد بالآخرة قوله - لقومه : ( أَنَاْ رَبُّكُمُ الأعلى ) ، وأن المراد بالأولى تكذيبه لموسى عليه السلام - أي ، فعاقبه الله - تعالى - على هاتين المعصيتين وهذا العقاب الأليم ، بأن أغرقه ومن معه جميعا . .ويبدو لنا أن التفسير الأول هو الأقرب إلى ما تفيده الآية الكريمة ، إذ من المعروف أن الآخرة ، هى ما تقابل الأولى وهى دار الدنيا ، ولذا قال الإمام ابن كثير : قوله - تعالى - : ( فَأَخَذَهُ الله نَكَالَ الآخرة والأولى ) أى : انتقم الله منه انتقاما جعله به عبرة ونكالا لأمثاله من المتمردين فى الدنيا . ويوم القيامة بئس الرفد المرفود ، كما قال - تعالى - : ( وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النار وَيَوْمَ القيامة لاَ يُنصَرُونَ ) هذا هو الصحيح فى معنى الآية ، أن المراد بقوله : ( نَكَالَ الآخرة والأولى ) أى : الدنيا والآخرة . وقيل المراد بذلك كلمتاه الأولى والثانية . وقيل : كفره وعصيانه . . والصحيح الذى لا شك فيه الأول ،

ان في ذلك لعبرة لمن يخشى

كما فسرها الوسيط والإشارة فى قوله - تعالى - : ( إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يخشى ) ، تعود إلى حديث موسى الذى دار بينه وبين فرعون وما ترتب عليه من نجاة لموسى ومن إهلاك لفرعون .أى : إن فى ذلك الذى ذكرناه عما دار بين موسى وفرعون ، لعبرة وعظة ، لمن يخشى الله - تعالى - ، ويقف عند حدوده ، لا لغيره ممن لا يتوبون ولا يتذكرون ولا تخالط أنفسهم خشية الله - تعالى - .والمقصود من هذه القصة كلها ، تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتهديد المشركين بأنهم إذا ما استمروا فى طغيانهم ، كانت عاقبتهم كعاقبة فرعون .

اانتم اشد خلقا ام السماء بناها

كما فسرها الوسيط وبعد هذا الاستطراد عن طريق ذكر جانب مما دار بين موسى وفرعون . . عادت السورة الكريمة ، كما بدأت إلى الحديث عن أهوال يوم القيامة ، وعن إمكانية وقوعه ، وعن أحوال الناس فيه . وعن أن موعد قيامه مرد علمه إلى الله - تعالى - وحده ، فقال - سبحانه - :( أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السمآء . . . ) .الخطاب فى قوله - تعالى - : ( أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً . . . ) لأولئك الجاحدين الجاهلين الذين استنكروا إعادتهم إلى الحياة بعد موتهم ، وقالوا : ( أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الحافرة ) - وجاء هذا الخطاب على سبيل التقريع والتوبيخ لهم ، حيث بين لهم - سبحانه أن إعادتهم إلى الحياة ، ليست بأصعب من خلق السموات والأرض .و ( أَشَدُّ ) أفعل تفضيل ، والمفضل عليه محذوف ، لدلالة قوله - تعالى - : ( أَمِ السمآء عليه .والمراد بالأشد هنا : الأصعب بالنسبة لاعتقاد المخاطبين ، إذ كل شئ ( فى هذا الكون خاضع لإرادة الله - تعالى - ومشيئته ( إِنَّمَآ أَمْرُهُ إِذَآ أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ) والمعنى : ، أخلقكم - أيها الجاهلون - بعد موتكم ، وإعادتكم إلى الحياة بعد هلاككم ، أشد وأصعب فى تقديركم ، أم خلق السماء التى ترون بأعينكم عظمتها وضخامتها والتى أوجدها - سبحانه وبناها بقدرته .فالمقصود من الآية الكريمة لفت أنظارهم إلى أمر معلوم عندهم بالمشاهدة ، وهو أن خلق السماء أعظم وأبلغ من خلقهم ، ومن كان قادرا على الأبلغ والأعظم كان على ما هو أقل منه - وهو أقدر .وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( لَخَلْقُ السماوات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس . . . ) : - خلقهم وإعادتهم بعد موتهم .

رفع سمكها فسواها

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - جانبا من بديع قدرته فى خلق السماء - فقال : ( رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ) .والسَّمْك - بفتح السين المشددة وسكون الميم - : الرفع فى الفضاء ، وجعل الشئ عاليا عن غيره .تقول سمكت الشئ ، إذا رفعته فى الهواء ، وبناء مسموك ، أى : مرتفع ، ومنه قول الشاعر :إن الذى سمك السماء بنى لنا ... بيتا دعائمه أعز وأطولأى : أن الله - تعالى - بقدرته ، جعل مقدار ارتفاع السماء عن الأرض عظيما ، وبجانب ذلك سوى بحكمته هذه السماء ، بأن جعلها خالية من الشقوق والثقوب . . كما قال - سبحانه - : ( مَّا ترى فِي خَلْقِ الرحمن مِن تَفَاوُتٍ . . . ) .

واغطش ليلها واخرج ضحاها

كما فسرها الوسيط وجملة ( وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا . . . ) معطوفة على " بناها والإغطاش : الإظلام الشديد .يقال " غطش الليل - من باب ضرب - إذا اشتد " ظلامه .أى : وجعل - بقدرته - ليل هذه السماء مظلما غاية الإظلام : بسبب

مغيب شمسها .( وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ) أى : وأبرز وأضاء نهارها ، إذ الضحكى
فى الأصل : انتشار الشمس ، وامتداد النهار . ثم سمى به هذا الوقت ، لبروز
ضوء الشمس فيه أكثر من غيره ، فهو من باب تسمية الشئ باسم أشرف أجزائه
وأطيبها .وأضاف - سبحانه - الليل والضحى إلى السماء لأنهما يحدثان بسبب
غروب شمسها وطلوعها .

والارض بعد ذلك دحاها

- كما فسرها الوسيط ثم انتقلت الآيات الكريمة من الاستدلال على قدرته
تعالى - عن طريق خلق السماء ، إلى الاستدلال على قدرته عن طريق خلق الأرض
فقال : ( والأرض بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ) .ولفظ " الأرض " منصوب على
الاشتغال . واسم الإشارة " ذلك " يعود إلى خلق السماء وتسويتها ورفعها
وإغطاش ليلها . وقوله ( دَحَاهَا ) من الدحو بمعنى البسط ، تقول : دحوت
الشئ أدحوه ، إذا بسطته . .أى : خلق - سبحانه - السماء وسواها ، وأغطش
ليلها وأخرج ضحاها ، والأرض بعد كل ذلك الخلق البديع للسماء ، بسطها
وأوسعها لتكون مستقرا لكم وموضعا لتقبلكم عليها . .وقد أخذ بعض العلماء من
هذه الآية ، تأخر خلق الأرض عن خلق السماء . .وجمهور العلماء على أن خلق
الأرض متقدم على خلق السماء ، بدليل قوله - تعالى - : ( هُوَ الذي خَلَقَ
لَكُمْ مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ استوى إِلَى السمآء فَسَوَّاهُنَّ
سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ) قالوا فى الجمع بين هذه
الآية التى معنا ، وبين آية سورة البقرة ، بما روى عن ابن عباس من أنه سئل
عن الجمع بين هاتين الآيتين فقال : خلق الله - تعالى - الأرض أولا غير
مدحوة ، ثم خلق السماء ، ثم دحا الأرض بعد ذلك ، وجعل فيها الرواسى
والأنهار وغيرهما . أى : أن أصل خلق الأرض كان قبل خلق السماء ، ودحوها
بجبالها وأشجارها ، كان بعد خلق السماء .وقالوا - أيضا - فى وجه الجمع ، إن
لفظ بعد فى قوله - تعالى - ( بَعْدَ ذَلِكَ ) بمعنى مع . أى : والأرض مع
ذلك بسطها ومهدها لسكنى أهلها فيها . .وقدم - سبحانه - هنا خلق السماء على
الأرض ، لأنه أدل على القدرة الباهرة ، لعظم السماء وانطوائها على الأعاجيب
.

اخرج منها ماءها ومرعاها

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا
وَمَرْعَاهَا . والجبال أَرْسَاهَا ) بدل اشتمال من قوله ( دحاها ) ، أو
بيان وتفسير لدحوها ، والمرعى : مصدر ميمى أطلق على المفعول ، كالخلق بمعنى
المخلوق ، أى أخرج منها ما يُرْعَى .أى : والأرض جعلها مستقرا لكم ، ومكانا
، لانتفاعكم ، بأن أخرج منها ماءها ، عن طريق تفجير العيون والآبار والبحار
- وأخرج منها ( مرعاها ) أى : جميع ما يقتات به الناس والدواب ، بدليل قوله
- تعالى - بعد ذلك : ( مَتَاعاً لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ) .

والجبال ارساها

كما فسرها الوسيط وكذلك من مظاهر قدرته - تعالى- ورحمته بكم ، أنه أثبت
الجبال فى الأرض حتى لا تميد أو تضطرب ، فالمقصود بإرسال الجبال : تثبيتها
فى الأرض .

متاعا لكم ولانعامكم

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( مَتَاعاً لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ )
بيان لوجه المنة فى خلق الأرض على هذه الطريقة البديعة .والمتاع : اسم لما
يتمتع به الإنسان من منافع الحياة الدنيا لمدة محدودة من الزمان ، وانتصب
لفظ " متاعا " هنا بفعل مقدر من لفظه ، أى : متعناكم متاعا .والمعنى :
، دحونا الأرض ، وأخرجنا منها ماءها ومرعاها . . لتكون موضع منفعة لكم
تتمتعون بخيراتها أنتم وأنعامكم ، إلى وقت معين من الزمان ، تتركونها
انتهاء أعماركم .

فاذا جاءت الطامة الكبرى

، كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - حال الأشقياء والسعداء يوم القيامة
فقال : ( فَإِذَا جَآءَتِ الطآمة الكبرى ) . والطامة : اسم للمصيبة العظمى
التى تَطُمُّ وتغلب وتعلو ما سواها من مصائب ، من قولهم : طمّ الشئ ،
يطمُّه طمّاً ، إذا غمره .وكل شئ كثر وعلا على غيره ، فقد طم عليه .
ويقال : طم الماء الأرض إذا غمرها .وهذا الوصف ليوم القيامة ، من أوصاف
التهويل والشدة ، لأن أحوالها تغمر الناس وتجعلهم لا يفكرون فى شئ سواها

وجواب الشرط محذوف ، والمجئ هنا : بمعنى الحدوث والوقوع ، أى : فإذا وقعت. القيامة ، وقامت الساعة . . حدث ما لم يكن فى الحسبان من شدائد وأهوال .

يوم يتذكر الانسان ما سعى

كما فسرها الوسيط وقوله : ( يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإنسان مَا سعى ) بدل اشتمال من الجملة التى قبلها وهى قوله : ( فَإِذَا جَآءَتِ الطآمة ) لأن ما أضيف إليه لفظ " يوم " من الأحوال التى يشملها يوم القيامة ، وتذكر الإنسان لسعيه فى الدنيا ، يكون بإطلاعه على أعماله التى نسيها ، ورؤيته إياها فى كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .ى : فإذا قامت القيامة وتذكر الإنسان فى هذا الوقت ما كان قد نسيه من أعمال فى دنياه ، وقع له ، من الخوف والفزع مالا يدخل تحت وصف . .

وبرزت الجحيم لمن يرى

كما فسرها الوسيط وقوله : ( وَبُرِّزَتِ الجحيم لِمَن يرى ) معطوف على قوله أى : فإذا جاءت الطامة الكبرى ، وتذكر الإنسان فيها ما كان قد ( جاءت ) نسيه من أعمال دنيوية ( وَبُرِّزَتِ الجحيم ) أى : وأظهرت إظهاراً واضحا لا خفاء فيه ولا لبس ( لِمَن يرى ) أى : لكل راء . كان الهول الأعظم

فاما من طغى

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( فَأَمَّا مَن طغى . . . ) تفصيل لأحوال الناس فى هذا اليوم .أى : (فَأَمَّا مَن طغى ) بأن تجاوز الحدود فى الكفر والفسوق والعصيان.

واثر الحياة الدنيا

كما فسرها الوسيط ( وَآثَرَ الحياة الدنيا ) بأن قدم متاعها الفانى ، على نعيم الآخرة الخالد . .

فان الجحيم هي الماوى

كما فسرها الوسيط ( فَإِنَّ الجحيم هِيَ المأوى ) أى : فإن مصير هذا الإنسان الشقى سيكون إلى النار الملتهبة ، لا منزل له سواها فى هذا اليوم .

واما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى

كما فسرها الوسيط ( وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ) أى : خاف عظمته وجلاله ، وسلح نفسه بالإيمان والعمل الصالح استعدادا لهذا اليوم الذى يجازى فيه كل إنسان بما يستحقه .( وَنَهَى النفس عَنِ الهوى ) أى : وزجر نفسه وكفها عن السيئات والمعاصى والميول نحو الأهوال الضالة المضلة .

فان الجنة هي الماوى

كما فسرها الوسيط ( فَإِنَّ الجنة هِيَ المأوى ) أى : فإن الجنة فى هذا اليوم ، ستكون هى مأواه ومنزله ومستقره . .

يسالونك عن الساعة ايان مرساها

كما فسرها الوسيط ثم لقن الله - تعالى - نبيه صلى الله عليه وسلم الجواب الذى يرد به على المشركين ، الذين كانوا يكثرون من سؤاله عن يوم القيامة ، على سبيل الإنكار والاستهزاء ، فقال - تعالى - : ( يَسْأَلُونَكَ عَنِ الساعة أَيَّانَ مُرْسَاهَا ) .وإيان : اسم يستفهم به عن تعيين الوقت وتحديده ، فهو ظرف زمان متضمن معنى " متى " ومرساها : مصدر ميمى من أرسى الشئ إذا ثبته وأقره ، ولا يكاد يستعمل هذا اللفظ إلا فى الشئ الثقيل ، كما فى قوله - تعالى - : ( والجبال أَرْسَاهَا . . . ) .ونسبة الإرساء إلى الساعة ، باعتبار تشبيه المعانى بالأجسام و " أيان " خبر مقدم ، و " مرساها " وإرساؤها ووقوعها؟وأطلق على يوم القيامة ساعة لوقوع بغتة ، أو لسرعة ما فيه من الحساب ، أو لأنه على طوله ، زمان يسير عند الله - تعالى - .

فيم انت من ذكراها

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا . إلى
رَبِّكَ مُنتَهَاهَآ ) واقع موقع الجواب عن سؤالهم عن الساعة ، وعن وقت
وقوعها .والمقصود بهذا الجواب توبيخهم على إلحاحهم فى السؤال عنها ، مع أن
) الأولى بهم كان الاستعداد لها بالإيمان والعمل الصالح .و " ما " فى قوله
فيم ) اسم استفهام بمعنى : أى شئ ، وهى هنا مستعملة فى التعجيب من كثرة
أسئلتهم عن شئ لا يهمهم حدوثه ، وإنما الذى يهمهم - لو كانوا يعقلون - هو
حسن الاستعداد له .قال الآلوسى : قوله : ( فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا )
، إنكار ورد لسؤال المشركين عنها . أى : فى أى شئ أنت من أن تذكر لهم وقتها
وتعلمهم به حتى يسألونك بيانها ، كقوله - تعالى - ( يَسْأَلُونَكَ
كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ) فالاستفهام للإنكار . وفيم خبر مقدم ، وأنت
، مبتدأ مؤخر . وقوله ( مِن ذِكْرَاهَا ) على تقدير مضاف ، أى : ذكرى وقتها
وهو متعلق بما تعلق به الخبر .وقيل : ( فيم ) إنكار لسؤالهم ، وما بعده
استئناف تعليل للإنكار ، وبيان لبطلان السؤال . أى فيم هذا السؤال ، ثم
. ابتدئ فقيل : أنت خاتم النبيين . . علامة من علاماتها

الى ربك منتهاها

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - ( إلى رَبِّكَ مُنتَهَاهَآ ) أى : إلى
- ربك وحده منتهى علم قيامها ، لأنه - سبحانه - هو وحده - من دون غيره
العليم علما تاما بالوقت الذى ستقوم فيه الساعة .ومن الآيات التى وردت فى
- هذا المعنى قوله : ( إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ الساعة . . . ) وقوله
سبحانه - ( يَسْأَلُونَكَ عَنِ الساعة أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا
( . . . عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلاَّ هُوَ

انما انت منذر من يخشاها

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن
يَخْشَاهَا ) تحديد لوظيفته صلى الله عليه وسلم أى : ليست وظيفتك - أيها
الرسول الكريم - معرفة الوقت الذى تقوم فيه الساعة ، فهذا أمر مرد معرفته
، إلى الله وحده . . وإنما وظيفتك امتثال ما أمرت به ، من بيان اقترابها
وتفصيل أهوالها ، ودعوة الناس إلى حسن الاستعداد لها بالإيمان والعمل
الصالح . .وإذا كان الأمر كذلك فلماذا ترك هؤلاء الجاهلون ما يجب عليهم من
- الإيمان والعمل الصالح ، وأخذوا يسألونك عن أشياء خارجة عن وظيفتك؟وخص
سبحانه - الإنذار بمن يخشى قيام الساعة ، مع أن رسالته صلى الله عليه وسلم
إلى الناس كافة . وإنذاره إنما هو لهم جميعا ، لأن هؤلاء الذين يخشون
وقوعها ، ويعملون العمل الصالح الذى ينجيهم من أهوالها ، هم الذين ينتفعون
. بهذا الإنذار

كانهم يوم يرونها لم يلبثوا الا عشية او ضحاها

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ، ببيان حالهم عند قيام
الساعة ، قيام ، فقال - تعالى - : ( كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ
يلبثوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ) .والعشية : هى الوقت الكائن من
الزوال إلى الغروب .والضحى : الوقت الكائن من أوائل النهار إلى الزوال .أى
كأن هؤلاء المشركين حين يرون الساعة وقد فاجأتهم بأهوالها ، لم يلبثوا فى :
دنياهم أو فى قبورهم إلا وقتا يسيرا ، يشبه العشية أو الضحى بالنسبة للزمان
، الطويل .فالمقصود من الآية الكريمة : بيان أن الساعة آتية لا ريب فيها
وأن المشركين عند إتيانها كأنهم ما لبثوا فى انتظارها إلا يوما أو بعض يوم
قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف صحت إضافة الضحى إلى العشية؟ قلت : لما . .
بينهما من الملابسة لاجتماعهما فى نهار واحد .فإن قلت : فهلا قيل : إلا
عشية أو ضحى وما فائدة الإضافة؟ قلت : للدلالة على أن مدة لبثهم ، كأنها
لم تبلغ يوما كاملا ، ولكن ساعة منه عشيته أو ضحاه ، فلما ترك اليوم أضافه
. إلى عشيته . فهو كقوله : ( لَمْ يلبثوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ )

عبس وتولى

: كما فسرها الوسيط قد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات روايات ملخصها
أن النبى صلى الله عليه وسلم كان جالسا فى أحد الأيام ، مع جماعة من "
زعماء قريش يدعوهم إلى الإسلام ، ويشرح لهم تعاليمه ، فأقبل عبد الله بن
أم مكتوم - وكان كفيف البصر - فقال : أقرئنى وعلمن مما علمك الله ، يا رسول
الله ، وكرر ذلك ، وهو لا يعلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم مشغول بدعوة
هؤلاء الزعماء إلى الإسلام ، رجاء أن يسلم بسبب إسلامهم خلق كثير . .فلما
أكثر عبد الله من طلبه ، أعرض عنه الرسول صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه
الآيات التى عاتب الله - تعالى - فيها نبيه صلى الله عليه وسلم على هذا

، الإعراض . . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك يكرمه ، إذا رآه
ويقول له : " مرحبا بمن عاتبنى فيه ربى " ويبسط له رداءه . . "قال الآلوسى
. وعبد الله بن أم مكتوم ، هو ابن خال السيدة خديجة ، واسمه عمرو بن قيس :
وأم مكتوم كنية أمه ، واسها عاتكة بنت عبد الله المخزومية ، واستخلفه صلى
. الله عليه وسلم على المدينة أكثر من مرة . . وهو من المهاجرين الأولين
قيل : مات بالقادسية شهيدا نوح فتح المدائن أيام عمر بن الخطاب - رضى الله
، عنه . .ولفظ" عبس " - من باب ضرب - مأخوذ من العبوس ، وهو تقطيب الوجه
وتغير هيئته مما يدل على الغضب .وقوله ( وتولى ) مأخوذ من التولى وأصله
تحول الإنسان عن مكانه الذى هو فيه إلى مكان آخر ، والمراد به هنا
الإعراض عن السائل وعدم الإقبال عليه .وحذف متعلق التولى ، لمعرفة ذلك من
سياق الآيات ، إذ من المعروف أن إعراضه صلى الله عليه وسلم كان عن عبد الله
. ابن أم مكتوم الذى قاطعه خلال حديثه مع بعض زعماء قريش

ان جاءه الاعمى

كما فسرها الوسيط وأل فى قوله - تعالى - : ( الأعمى ) للعهد . والمقصود
بهذا الوصف : التعريف وليس التنقيص من قدر عبد الله بن أم مكتوم - رضى الله
عنه - وكذلك فى هذا الوصف إيماء إلى أن له عذرا فى مقاطعة الرسول صلى الله
عليه وسلم عند حديثه مع زعماء قريش ، فهو لم يكن يراه وهو يحادثهم ويدعوهم
، إلى الإسلام .وجاء الحديث عن هذه القصة بصيغة الحكاية ، وبضمير الغيبة
للإشعار بأن هذه القصة ، من الأمور التى لا يحب الله - تعالى - أن يواجه
بها نبيه صلى الله عليه وسلم على سبيل التكريم له ، والعطف عليه ، والرحمة
. به

وما يدريك لعله يزكى

كما فسرها الوسيط وجملة ( وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يزكى ) فى موضع الحال
" وفيها التفات من الغيبة إلى الخطاب ، و " ما " استفهامية مبتدأ ، وجملة ،
. يدريك " خبره .والكاف مفعول أول ، وجملة الترجي سادة مسد المفعول الثانى
والضمير فى ( لعله ) يعود إلى عبد الله ابن أم مكتوم المعبر عنه بالأعمى
والمعنى : عبس صلى الله عليه وسلم وضاق صدره ، وأعرض بوجهه ، لأن جاءه.
الرجل الأعمى ، وجعل يخاطبه وهو مشغول بالحديث مع غيره .( وَمَا يُدْرِيكَ
أى : وأى شئ يجعلك - أيها الرسول الكريم - داريا بحال هذا الأعمى الذى (
عبست فى وجهه ( لَعَلَّهُ يزكى ) أى : لعله بسبب ما يتعلمه منك يتطهر
. ويتزكى ، ويزداد نقاء وخشوعا لله رب العالمين

او يذكر فتنفعه الذكرى

) كما فسرها الوسيط ( أو ) لعله ( يذكر ) أى : يتذكر ما كان فى غفلة عنه
فَتَنفَعَهُ الذكرى ) أى : فتنفعه الموعظة التى سمعها منك .قال الآلوسى ما
ملخصه : وفى التعبير عنه صلى الله عليه وسلم بضمير الغيبة إجلال له . . كما
) : - أن فى التعبير عنه صلى الله عليه وسلم بضمير الخطاب فى قوله - تعالى
وَمَا يُدْرِيكَ . . . ) إكرام له - أيضا - لما فيه من الإيناس بعد
. . الإيحاش والإقبال بعد الإعراض

اما من استغنى

كما فسرها الوسيط ثم فصل - سبحانه - ما كان منه صلى الله عليه وسلم بالنسبة
لهذه القصة فقال : ( أَمَّا مَنِ استغنى فَأَنتَ لَهُ تصدى وَمَا عَلَيْكَ
أَلاَّ يزكى . وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يسعى . وَهُوَ يخشى . فَأَنتَ عَنْهُ
تلهى ) أى : أما من استغنى عن الإيمان ، وعن إرشادك - أيها الرسول
. . الكريم - واعتبر نفسه فى غنى عن هديك

فانت له تصدى

، كما فسرها الوسيط ( فَأَنتَ لَهُ تصدى ) أى : فأنت تتعرض له بالقبول
وبالإصغاء لكلامه ، رجاء أن يسلم ، فيسلم بعده غيره .يقال : تصدّى فلان
لكذا ، إذا تعرّض له ، وأصله تصدّدَ من الصّدَد ، وهو ما استقبلك وصار
. . قبالتك

وما عليك الا يزكى

كما فسرها الوسيط ( وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يزكى ) أى : وأى شئ عليك فى أن
يبقى على كفره ، بدون تطهر؟ إنه لا حرج عليك فى ذلك ، فأنت عليك البلاغ

ونحن علينا الحساب و ( إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ولكن الله يَهْدِي مَن يَشَآءُ . . . ) و " ما " نافية " وعليك " خبر مقدم ، وقوله ) ألاّ يزكى ) مبتدأ مؤخر .

واما من جاءك يسعى

كما فسرها الوسيط ( وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يسعى ) أى : من جاءك مسرعا فى طلب الخير والهداية والعلم ، وهو هذا الأعمى ، الذى لم يمنعه فقدانه لبصره من الحرص على التفقه فى الدين .

وهو يخشى

، كما فسرها الوسيط ( وَهُوَ يخشى ) أى : وهو يخشى الله ، ويخاف عقابه ويرجو ثوابه .

فانت عنه تلهى

كما فسرها الوسيط ( فَأَنتَ عَنْهُ تلهى ) أى : فأنت عنه تتشاغل ، وتفرغ جهدك مع هؤلاء الزعماء ، طمعا فى إيمانهم .ويلاحظ أن هذه الآيات الكريمة ، أكثر حدة فى العتاب من سابقتها ، حيث ساق - سبحانه - هذه الآيات فى صورة أشبه ما تكون بالتعجيب ممن يفعل ذلك . .

كلا انها تذكرة

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - ما هو أشد فى العتاب وفى التحذير فقال ( كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ) : أى : كلا - أيها الرسول الكريم - ليس الأمر كما فعلت ، من إقبالك على زعماء قريش طمعا فى إسلامهم ، ومن تشاغلك وإعراضك عمن جاء يسعى وهو يخشى ..الضمير فى قوله ( إنها ) يعود إلى آيات القرآن الكريم ، أى : إن آيات القرآن الكريم لمشتملة على التذكير بالحق ، وعلى الموعظة الحكيمة التى ينبغى على كل عاقل أن يعمل بموجبها ، وأن يسير بمقتضاها .

فمن شاء ذكره

كما فسرها الوسيط ( فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ ) أى : فمن شاء أن يتعظ ويعتبر وينتفع بهذا التذكير فاز وربح ، ومن شاء غير ذلك خسر وضاع ، فالجملة الكريمة لتهديد الذين يعرضون عن الموعظة ، وليست للتخيير كما يتبادر من فعل المشيئة .وهى معترضة للترغيب فى حفظ هذه الآيات ، وفى العمل بما اشتملت عليه من هدايات .وجاء الضمير مذكرا فى قوله : ( فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ ) لأن التذكرة هنا بمعنى التذكير والاتعاظ .أى : فمن شاء التذكير والاعتبار ، تذكر واعتبر وحفظ ذلك دون أن ينساه . .

في صحف مكرمة

) كما فسرها الوسيط وقوله : ( فَي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ) خبر ثان لقوله ، إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ) وما بينهما اعتراض . .أى : إن آيات القرآن تذكرة مثبتة أو كائنة فى صحف عظيمة ( مكرمة ) عند الله - تعالى - لأنها تحمل آياته .

مرفوعة مطهرة

) كما فسرها الوسيط هذه الصحف - أيضا - ( مرفوعة ) أي : ذات منزلة رفيعة مطهرة ) أى : منزهة عن أن يمسهها ما يدنسها .

بايدي سفرة

كما فسرها الوسيط وهى كائنة ( بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ) وهم الملائكة الذين جعلهم الله - تعالى - سفراء بينه وبين رسله : جمع سافر بمعنى سفير . أى : رسول وواسطة ، أو هم الملائكة الذين ينسخون ويكتبون هذه الآيات بأمره - تعالى - جمع سافر بمعنى كاتب ، يقال : سفَر فلان يَسْفِره ، إذا كتبه .

كرام بررة

كما فسرها الوسيط ( كِرَامٍ بَرَرَةٍ ) أى : هذه الآيات بأيدى سفرة من

- صفاتهم أنهم مكرمون ومعظمون عنده - تعالى - ، وأنهم أتقياء مطيعون الله
تعالى - كل الطاعة ، جمع بَرّ ، وهو من كان كثير الطاعة والخشوع لله - عز
وجل - . . .هذا والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة يراها قد اشتملت على كثير من
الآداب والأحكام ، ومن ذلك : أن شريعة الله - تعالى - تجعل التفاضل بين
الناس ، أساسه الإيمان والتقوى ، فمع أن عبد الله ابن أم مكتوم ، كان قد
قاطع الرسول صلى الله عليه وسلم لم يتشاغل عنه إلا لحرصه على جذب هؤلاء
الزعماء إلى الإسلام .مع كل ذلك ، وجدنا الآيات الكريمة ، تعاتب النبى صلى
الله عليه وسلم عتابا تارة فيه رقة . وتارة فيه شدة . وذلك لأن الميزان
: الذى أنزله الله - تعالى - للناس مع الرسل ، لكى يبنوا عليه حياتهم ، هو
ولقد استجاب الرسول الكريم ( إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عَندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ )
، لهذا التوجيه الحكيم ، فبنى حياته كلها بعد ذلك على هذا الميزان العادل
ومن مظاهر ذلك : إكرامه لابن أم مكتوم ، وقوله له كلما رآه : " أهلا بمن
عاتبنى فيه ربى " .وفعل صلى الله عليه وسلم ما يشبه ذفلك ، مع جميع
المؤمنين الصادقين الذين كانوا من فقراء المسلمين ، ولم يكونوا أصحاب جاه
أن نفوذ أو عشيرة قوية .لقد جعل زيد بن حارثة - وهو الغريب عن مكة والمدينة
أميرا على الجيش الإسلامى فى غزوة مؤتة ، وكان فى هذا الجيش عدد كبير من ،
كبار الصحابة .وقال صلى الله عليه وسلم فى شأن سلمان الفارسى : " سلمان منا
أهل البيت " .وقال صلى الله عليه وسلم فى شأن عمار بن ياسر ، عندما استأذن
عليه فى الدخول : " ائذنوا له . مرحبا بالطيب المطيب " .وكان من مظاهر
تكريمه لعبد الله بن مسعود ، أن جعله كأنه واحد من أهله بيته .فعن أبى موسى
الأشعرى قال : قدمت أنا وأخى من اليمن ، فمكثنا حينا وما نرى ابن مسعود
وأمه إلا من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم من كثرة دخولهم على رسول
الله ، ولزومهم له . .وقال صلى الله عليه وسلم لأبى بكر الصديق عندما حدث
كلام بينه وبين سلمان وصهيب وبلال فى شأن أبى سفيان : يا أبا بكر لعلك
أغضبتهم ، لئن كنت أغضبتهم فقد أغضبت ربك .فقد أخرج الإمام مسلم فى صحيحه
أن أبا سفيان أتى على سلمان وصهيب وبلال فى نفر ، فقالوا : ما أخذت " . .
سيوف الله من عدو الله مأخذها ، فقال أبو بكر : أتقولون هذا لشيخ قريش
وسيدهم؟فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبر فقال : " يا أبا بكر لعلك
أغضبتهم . لئن كنت أغضبتهم فقد أغضب ربك " فأتاهم فقال : يا إخوتاه
أأغضبتكم؟ قالوا : لا . ويغفر الله لك يا أخى . . "ولقد سار خلفاؤه صلى
الله عليه وسلم على هذه السنة ، فكانوا يكرمون الفقراء ، فأبوا بكر - رضى
الله عنه - أذن لصهيب وبلال فى الدخول عليه ، قبل أن يأذن لأبى سفيان وسهيل
بن عمرو . .وعمر - رضى الله عنه - يقول فى شأن أبى بكر :" هو سيدنا وأعتق
سيدنا " يعنى : بلال ابن رباح . .قال صاحب الكشاف عند تفسيره ، لهذه الآيات
ولقد تأدب الناس بأدب الله فى هذا تأدبا حسنا ، فقد روى عن سفيان :
. . الثورى - رحمه الله - ، أن الفقراء كانوا فى مجلسه أمراء

قتل الانسان ما اكفره

كما فسرها الوسيط ثم انتقلت السورة الكريمة بعد ذلك ، إلى الحديث عن جانب
- من نعم الله - تعالى - على خلقه ، وموقفهم من هذه النعم ، فقال - تعالى
- قال الإمام الرازى : اعلم أنه - تعالى. ( . . . قُتِلَ الإنسان مَآ ):
، لما بدأ بذكر القصة المشتملة على ترفع صناديد قريش على فقراء المسملين
عجب عباده المؤمنين من ذلك ، فكأنه قيل : وأى سبب فى هذا العجب والترفع؟ مع
أن أوله نطفة قذرة ، وآخره جيفة مذرة ، وفيما بين الوقتين حمال عذرة ، فلا
عجب أن ذكر الله - تعالى - ما يصلح أن يكون علاجا لعجبهم وما يصلح أن يكون
علاجا لكفرهم ، فإن خلقه الإنسان يستدل بها على وجود الصانع ، وعلى القول
بالبعث والحشر والنشر . .والمراد بالإنسان هنا : الإنسان الكافر الجاحد
لنعم ربه . ومعنى " قتل " لعن وطرد من رحمة الله - تعالى - ، ويصح أن يكون
المراد به الجنس ، ويدخل فيه الكافر دخولا أوليا أى : لعن وطرد من رحمة
- الله - تعالى - ذلك الإنسان الذى ما أشده كفره وجحوده لنعم الله - تعالى
والدعاء عليه باللعن من الله - تعالى - ، المقصود به : التهديد والتحقير.
من شأن هذا الإنسان الجاحد ، إذ من المعلوم أن الله - سبحانه - هو الذى
يتوجه إليه الناس بالدعاء ، وليس هو - سبحانه - الذى يدعو على غيره ، إذ
الدعاء فى العادة إنما يكون من العاجز ، وجل شأن الله - تعالى - عن العجز
وجملة " ما أكفره " تعليل لاستحقاق هذا الإنسان الجاحد التحقير والتهديد.
وهذه الآية الكريمة المتأمل فيها يراها - مع بلوغها نهاية الإيجاز - قد.
بلغت - أيضا - نهاية الإعجاز فى أسلوبها ، حيث جمعت أشد ألوان الذم
والتحقير بأبلغ أسلوب وأوجزه .ولذ قال صاحب الكشاف : ( قُتِلَ الإنسان )
دعاء عليه ، وهى من أشنع دعواتهم ، لأن القتل قصارى شدائد الدنيا وفظائعها
تعجيب من إفراطه فى كفران نعمة الله ، ولا ترى أسلوبا ( مَآ أَكْفَرَهُ )
أغلظ منه ولا أخشن متنا ، ولا أدل على سخط ، ولا أبعد فى المذمة ، مع تقارب
. . طرفيه ، ولا أجمع لِلائمةٍ ، على قصر متنه

من اي شيء خلقه

كما فسرها الوسيط ثم فصل - سبحانه - جانبا من نعمه ، التى تستحق من هذا الإنسان الشكر لا الكفر فقال : ( مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ) أى : من أى شئ خلق الله - تعالى - هذ الإنسان الكافر الجحود ، حتى يتكبر ويتعظم عن طاعته ، وعن الإقرار بتوحيده ، وعن الاعتراف بأن هناك بعثا وحسابا وجزاء ؟ .

من نطفة خلقه فقدره

كما فسرها الوسيط ثم وضح - سبحانه - كيفية خلق الإنسان فقال : ( مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ) أى : خلق الله - تعالى - الإنسان من نطفة ، أى : من ماء قليل يخرج من الرجل إلى رحم المرأة - ( فقدره ) أى : فأوجد الله - تعالى - الإنسان بعد ذلك إيجادا متقنا محكما ، حيث صير بقدرته النطفة علقة فمضغة . . ثم أنشأه خلقا آخر ( ثُمَّ خَلَقْنَا فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الخالقين ) .

ثم السبيل يسره

كما فسرها الوسيط ( ثُمَّ السبيل يَسَّرَهُ ) أى : ثم بعد أن خلقه فى أحسن تقويم ، ومنحه العقل الذى يتمكن معه من التفكير السليم . يسر - سبحانه - له طريق النظر القويم ، الذى يميز به بين الحق والباطل ، والخير والشر والهدى والضلال .قال ابن كثير : قوله ( ثُمَّ السبيل يَسَّرَهُ ) قال العوفى عن ابن عباس : ثم يسر عليه خروجه من بطن أمه . وهكذا قال عكرمة . . واختاره ابن جرير .وقال مجاهد : هذه الآية كقوله : ( إِنَّا هَدَيْنَاهُ السبيل إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ) أى بيناه له ووضحناه وسهلنا عليه علما . . وهذا هو الأرجح .وجاء العطف " بثم " هنا ، للإشعار بالتراخى الرتبى ، لأن تيسير معرفة طريق الخير والشر ، أعجب وأجل على قدرة الله - تعالى - وبديع صنعه من أى شئ آخر .ولفظ " السبيل " منصوب على الاشتغال بفعل مقدر ، أى : ثم يسر السبيل يسره ، فالضمير فى يسره يعود إلى السبيل . أى : سهل - سبحانه - الطريق للإنسان .

ثم اماته فاقبره

- كما فسرها الوسيط ( ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ) أى : ثم أمات سبحانه - هذا الإنسان ، بأن سلبه الحياة ( فأقبره ) أى : فجعله ذا قبر يوارى فيه جسده تكريما له ، ولم يتركه مطروحا على وجه الأرض ، بحيث يستقذره الناس ، ويكون عرضة لاعتداء الطيور والحيوانات عليه .يقال : قبر فلان الميت ، يقبره - بكسر الباء وضمها - ، إذا دفنه بيده فهو قابر . ويقال : أقبره إذا أمر بدفنه ، أو مكن غيره من دفنه .وفى الآية الكريمة إشارة إلى أن مواراة الأجساد فى القبور من سنن الإسلام ، أما تركها بدون دفن ، أو حرقها فيتنافى مع تركيم هذه الأجساد . . .

ثم اذا شاء انشره

كما فسرها الوسيط ( ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُ ) أى : ثم بعد أن خلق الله خلق الله هذا الخلق البديع ، وهداه النجدين ، وأمر بستر جسده فى القبر بعد موته . . بعد كل ذلك إذا شاء أحياه بعد الموت ، للحساب والجزاء . يقال : أنشر الله - تعالى - الموتى ونشرهم ، إذا بعثهم من قبورهم .وقال - سبحانه - للإشعار بأن هذا البعث إنما هو بإرادته ومشيئته ، وفى ( إِذَا شَآءَ ) الوقت الذى يختاره ويريده ، مهما تعجله المتعجلون .

كلا لما يقض ما امره

كما فسرها الوسيط ثم زجر - سبحانه - هذا الإنسان زجرا شديدا لتقصيره فى أداء حق خالقه ، فقال - تعالى - : ( كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُ ) - أى : كلا ن هذا الإنسان الجاحد المغرور . . لم يقض ولم يؤد ما أمره الله - تعالى - به من تكاليف ومن شكر لخالقه ، ومن تأمل فى آياته ، ومن طاعة لرسله بل استمر فى طغيانه وعناده .فالمقصود بهذه الآية الكريمة : ردع هذا . . الإنسان الجاحد وزجره ، وبيان أن هذا الردع سببه إهماله لحقوق خالقه ، وعدم اهتماه بأدائها .

فلينظر الانسان الى طعامه

كما فسرها الوسيط ثم ساقت الآيات بعد ذلك ألوانا من نعمه - تعالى - على خلقه فقال : ( فَلْيَنظُرِ الإنسان إلى طَعَامِهِ ) والفاء هنا للتفريع على ما تقدم ، مع إفادتها معنى الفصيحة .أى : إذا أراد أن يقى ويؤدى ما أمره - الله - تعالى - من تكاليف ، فلينظر هذا الإنسان إلى طعامه ، وكيف أوجده ، سبحانه - له ورزقه إياه ، ومكنه منه . فإن فى هذا النظر والتدبر والتفكر ما يعينه على طاعة خالقه ، وإخلاص العبادة له .

انا صببنا الماء صبا

. . كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - مظاهر تهيئة هذا الطعام للإنسان فقال : ( أَنَّا صَبَبْنَا المآء صَبّا ) .قال الجمل : قرأ الكوفيون ( أنا بالفتح . على البدل من طعامه ، فيكون فى محل جر بدل اشتمال ، بمعنى أن صب ( الماء سبب فى إخراج الطعام فهو مشتمل عليه .وقرأ غيرهم بكسر الهمزة على الاستئناف المبين لكيفية إحداث الطعام . .والصب : إنزال الماء بقوة وكثرة . أى : إنا أنزلنا المطر من السماء إنزالا مصحوبا بالقوة والكثرة ، لحاجتكم الشديدة إليه فى حياتكم .

ثم شققنا الارض شقا

كما فسرها الوسيط ( ثُمّ شَقَقْنَا الأرض شَقّاً ) أى : ثم شققنا الأرض بالنبات شقا بديعا حكيما ، بحيث تخرج النباتات من باطنها خروجها يبهج النفوس ، وتقر به العيون .

فانبتنا فيها حبا

كما فسرها الوسيط ( فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً ) أى : فأنبتنا فى الأرض حبا كثيرا ، تقتاتون منه ، وتدخرونه لحين حاجتكم إليه ، والحب : يشمل الحنطة والشعير والذرة .

وعنبا وقضبا

كما فسرها الوسيط (وَعِنَباً وَقَضْباً .وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً - وَحَدَآئِقَ غُلْباً . وَفَاكِهَةً وَأَبّاً ) أى : وأنبتنا فى الأرض أيضا - بقدرتنا ورحمتنا ( عنبا ) وهو ثمر الكرم المعروف بلذة طعمه .( وقضبا وهو كل ما يؤكل من النبات رطبا ، كالقثاء والخيار ونحوهما ، وقيل : هو ( العلف والرطب الذى تأكله والدواب ، وسمى قضبا ، لأنه يقضب - أى يقطع - بعد ظهوره مرة بعد أخرى .

وزيتونا ونخلا

كما فسرها الوسيط وأنبتنا فيها كذلك ( وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً ) وهما شجرتان معروفتان بمنافعهما الجمة ، وبثمارهما المفيدة .

وحدائق غلبا

كما فسرها الوسيط ( وَحَدَآئِقَ غُلْباً ) والحدائق جمع حديقة وهى البستان الملئ بالزورع والثمار .و ( غلبا ) جمع غلباء . أى : وأنبتنا فى الأرض حدائق عظيمة ، ذات أشجار ضخمة ، قد التف بعضها على بعض لكثرتها وقوتها . فقوله ( غلبا ) بمعنى عظاما ، وأصلها من ( الغَلَب ) - بفتحتين - ، بمعنى : الغلظ ، يقال شجرة غلباء ، وهضبة غلباء . أى : عظيمة مرتفعة . ويقال حديقة غلباء ، إذا كانت عظيمة الشجر . ويقال : رجل أغلب ، إذا كان غليظ الرقبة .وأنبتنا فيها - أيضا - بقدرتنا وفضلنا.

وفاكهة وابا

كما فسرها الوسيط (وَفَاكِهَةً وَأَبّاً ) . . والفاكهة : اسم للثمار التى يتناولها الإنسان على سبيل التفكه والتلذذ ، مثل الرطب والعنب والتفاح والأب : اسم للكلأ الذى ترعاه الأنعام ، مأخوذ من أبّ فلان الشئ ، إذا. قصده واتجه نحوه ، لحاجته إليه . . والكلأ والعشب يتجه إلأيه الإنسان بدوابه للرعى . .قال صاحب الكشاف : والأب : المرعى ، لأنه يؤب ، أى : يؤم : وينتجع . . . وعن أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - أنه سئل عن الأب فقال . أى سماء تظلنى ، وأى أرض تقلنى ، إذا قلت فى كتاب الله مالا علم لى به وعن عمر - رضى الله عنه - أنه قرأ هذه الآية فقال : كل هذا قد عرفنا ، فما. الأب؟ ثم رفع عصا كانت فى يده وقال : هذا لعمر الله التكلف ، وما عليك يا

بن أم عمر أن لا تدرى ما الأب؟ ثم قال : اتبعوا ما تبين لكم من هذا الكتاب وما لا فدعوه .فإن قلت : فهذا يشبه النهى عن تتبع معانى القرآن والبحث عن ، مشكلاته؟ قلت : لم يذهب إلى ذلك ، ولكن القوم كانت أكبر همتهم عاكفة عن العمل ، وكان التشاغل بشئ من العلم لا يعمل به تكلفا عندهم ، فأراد أن الآية مسوقة فى الامتنان على الإنسان بمطعمه ، واستدعاء شكره ، وقد علم من فحوى الآية ، أن الأبّ بعض ما أنبته الله للإنسان متاعا له أو لأنعامه فعليك؟ بما هو أهم ، من النهوض بالشكر لله - تعالى - على ما تبين لك أو لم يشكل ، مما عدد من نعمه ، ولا تتشاغل عنه بطلب معنى الأب ، ومعرفة النبات الخاص الذى هو اسم له ، واكتف بالمعرفة الجملية ، إلى أن يتبين لك فى غير هذا الوقت . .وقال بعض العلماء : والذى يتبين لى فى انتفاء علم الصديق والفاروق بمدلول لفظ الأب ، وهما من خلص العرب لأحد سببين :إما لأن اللفظ كان قد تنوسى من استعمالهم ، فأحياه القرآن لرعاية الفاصلة ، فإن الكلمة قد تشتهر فى بعض القبائل أو فى بعض الأزمان وتنسى فى بعضها ، مثل اسم السكين عند الأوس والخزرج . فقد قال أنس بن مالك : ما كنا نقول إلا المدية ، حتى سمعت قول الرسول صلى الله عليه وسلم يذكر أن سليمان قال : " ائتونى بالسكين ، أقسم الطفل بينهما نصفين " .وإما لأن كلمة الأب تطلق على أشياء كثيرة منها النبت الذى ترعاه الأنعام ، ومنها التبن . ومنها يابس الفاكهة ، فكان إمساك أبى بكر وعمر عن بيان معناه ، لعدم الجزم بما أراد الله منه على التعيين ، وهل الأب مما يرجع إلى قوله ( مّتَاعاً لّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ )

متاعا لكم ولانعامكم

كما فسرها الوسيط ( مّتَاعاً لّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ )أى : أنبت لكم تلك الزورع والثمار . . لتكون موضع انتفاع لكم ولأنعامكم إلى حين من الزمان .إذ " المتاع : هو ما ينتفع به الإنسان إلى حين ثم ينتهى ويزول ، ولفظ " متاعا منصوب بفعل محذوف ، أى : فعل ذلك متاعا لكم ، أو متعكم بذلك تمتيعا لكم ولأنعامكم .أو قوله ( مّتَاعاً لّكُمْ ) حال من الألفاظ السابقة : العنب والقضب والزيتون والنخل .أى : حالة كون هذه المذكورات موضع انتفاع لكم ولأنعامكم .

فاذا جاءت الصاخة

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بالحديث عن أحوال الناس فى يوم القيامة فقال - تعالى - :(فَإِذَا جَآءَتِ . . . ) .الفاء فى قوله - سبحانه - ( فَإِذَا جَآءَتِ الصآخة ) للدلالة على ترتيب ما بعدها - على ما قبلها من فنون النّعم . وجواب ( إذا ) محذوف يدل عليه قوله - تعالى بعد ذلك : ( لِكُلِّ امرىء مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ) ، ويصح أن يكون جوابه قوله : ( وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ) .والصاخة : الصحية الشديدة التى تصُخّ الآذان ، أى تزلزلها لشدة صوتها ، وأصل الصخ الصك الشديد ، والمراد بها هنا : النفخة الثانية التى بعدها يبعث الناس من قبورهم . .أى : فإذا جاءت الصحية العظيمة التى بعدها يخرج الناس من قبورهم للحساب والجزاء ، كان ما كان من سعادة أقوام ، ومن شقاء آخرين .

يوم يفر المرء من اخيه

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( يَوْمَ يَفِرُّ المرء مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ) بدل مما قبله وهو قوله ( فَإِذَا جَآءَتِ الصآخة ) . والفرار : الهروب من أجل التخلص من شئ مخيف .والمعنى : يوم يقوم الناس من قبورهم للحساب والجزاء يكونون فى كرب عظيم ، يجعل الواحد منهم ، يهرب من أخيه الذى هو من ألصق الناس به .

وامه وابيه

كما فسرها الوسيط ويهرب كذلك من أمه وأبيه .

وصاحبته وبنيه

كما فسرها الوسيط ومن صاحبته - وهى زوجه - وبنيه الذين هم فرع عنه .والمراد بفراره منهم : عدم اشتغاله بشئ يتعلق بهم ، وعدم التفكير فيهم وفى الالتقاء بهم ، لاشتغاله بحال نفسه اشتغالا ينسيه كل شئ سوى التفكير فى مصيره . . وذلك لشدة الهول ، وعظم الخطب .وخص - سبحانه - هؤلاء النفر بالذكر ، لأنهم أخص القرابات ، وأولاهم بالحنو والرأفة ، فالفرار منهم لا يكون إلا فى أشد حالات الخوف والفزع .قال صاحب الكشاف : " يفر " منهم لاشتغاله بما هو مدفوع

إليه ، ولعلمه بأنهم لا يغنون عنه شيئا : وبدأ بالأخ ثم بالأبوين لأنهما ، أقرب منه ثم بالصاحبة والبنين ، لأنهم أقرب وأحب كأنه قال : يفر من أخيه . . بل من أبويه ، بل من صاحبته وبنيه

لكل امرئ منهم يومئذ شان يغنيه

كما فسرها الوسيط وجملة : ( لِكُلِّ امرىء مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ) مستأنفة ، واردة لبيان سبب الفرار وللمبالغة فى تهويل شأن هذا اليوم .أى : لكل واحد منهم فى هذا اليوم العظيم ، شأن وأمر يغنيه ويكفيه عن الاشتغال بأى أمر آخر سواه ، يقال : فلان أغنى فلاناً عن كذا ، إذا جعله فى غنية عنه .وقد ساق ابن كثير - رحمه الله - عند تفسيره لهذه الآية عدد من الأحاديث ، منها ما رواه النسائى عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تحشرون فاة عراة غُرْلا " - بضم فسكون - جمع أغرل ، وهو الأقلف غير المختون - قال ابن عباس : فقالت زوجته : يا رسول الله ، أو يرى بعضنا عورة بعض؟ قال : " لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه " . أو قال : " ما أشغله عن النظر " .

وجوه يومئذ مسفرة

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه أقسام الناس فى هذا اليوم فقال : ( وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ .

ضاحكة مستبشرة

كما فسرها الوسيط ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ) أى : وجوه كثيرة فى هذا اليوم تكون مضيئة مشرقة ، يعلوها السرور ، والاستبشار والانشراح ، لما تراه من حسن استقبال الملائكة لهم .وقوله : ( وُجُوهٌ ) مبتدأ وإن كان نكرة ، إلا أنه صح الابتداء به لكونه فى حيز التنويع و ( مُّسْفِرَةٌ ) خبره وقوله ( يَوْمَئِذٍ ) متعلق به ، والإسفار : النور والضياء .والمراد أن هذه الوجوه متهللة فرحا ، وعليها أثر النعيم .

ووجوه يومئذ عليها غبرة

- كما فسرها الوسيط أما القسم المقابل لهذا القسم ، فقد عبر عنه - سبحانه بقوله : ( وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ) أى : عليها غبار ، من شدة الهم والكرب والعم الذى يعلوها .

ترهقها قترة

كما فسرها الوسيط ( تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ) أى : تغشاها وتعلوها ظلمة وسواد وذلة وهوان ، من شدة ما أصابها من خزى وخسران . يقال : فلان رهقه الكرب ، إذا اعتراه وغشيه ، .

اولئك هم الكفرة الفجرة

كما فسرها الوسيط ( أولئك ) يعنى أصحاب تلك الوجوه التى يعلوها الغبار والسواد ( هُمُ الكفرة الفجرة ) أى : الجامعون بين الكفر الذى هو فساد الاعتقاد ، وبين الفجور الذى هو فساد القول والفعل .نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا جميعا من أصحاب الوجه المسفرة ، الضاحكة المستبشرة .وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . .

اذا الشمس كورت

كما فسرها الوسيط تكرر لفظ " إذا " فى هذه الآيات اثنى عشرة مرة ، وجواب الشرط قوله : ( عَلِمَتْ نَفْسٌ مّآ أَحْضَرَتْ ) . وهذا التكرار بلفظ إذا من مقاصده التشويق للجواب ، لأن السامع عندما يجد هذا الظرف وقد تكرر يكون " فى ترقب وشوق لمعرفة الجواب .وعندما يسمعه يتمكن من نفسه كل التمكن .ولفظ الشمس مرفوع على أنه فاعل بفعل محذوف يفسره ما بعده ، أى : إذا كورت الشمس ، كورت ، وأصل التكوير : لف الشئ على جهة الاستدارة ، تقول : كورت العمامة إذا لففتها .قال صاحب الكشاف : فى التكوير وجهان : أحدهما : أن يكون من كورت العمامة إذا لففتها . أى : يلف ضوء الشمس لفا فيذهب انبساطه وانتشاره فى الآفاق ، وهو عبارة عن إزالتها والذهاب بها ، لأنها ما دامت باقية ، كان ضياؤها منبسطا غير ملفوف .وثانيهما : أن يكون لفها عبارة عن رفعها وسترها ، لأن الثواب إذا أريد رفعه ، لف وطوى ونحوه قوله - تعالى - : ( يَوْمَ

نَطْوِي السمآء ) أى : إذا الشمس أزيل ضوؤها بعد انتشاره وانبساطه ، فأصبحت مظلمة بعد أن كانت مضيئة ، ومستترة بعد أن كانت بارزة .

واذا النجوم انكدرت

كما فسرها الوسيط ( وَإِذَا النجوم انكدرت ) أى : تناثرت وتساقطت وانقلبت هيئتها من اللمعان والظهور ، إلى الميل نحو الظلام والسواد .أى : وإذا النجوم تساقطت وانقضت . يقال : انكدر البازى ، إذا نزل على فريسته بسرعة ، وانكدر الأعداء على القوم إذا جاءوا أرسالا متتابعين فانصبوا عليهم .ويصح أن يكون المعنى : وإذا النجوم تغيرت وانطمس نورها ، وزال لمعانها ، من قولهم : كدرت الماء فانكدر ، إذا خلط به ما يجعله مائلا إلى السواد والغُبْرة .

واذا الجبال سيرت

كما فسرها الوسيط ( وَإِذَا الجبال سُيِّرَتْ ) أى : اقتلعت من أماكنها فسارت فى الفضاء بقدرة الله - تعالى - . قال - تعالى - : ( وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الجبال وَتَرَى الأرض بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً ) وقال - سبحانه - : ( وَسُيِّرَتِ الجبال فَكَانَتْ سَرَاباً ).

واذا العشار عطلت

كما فسرها الوسيط ( وَإِذَا العشار عُطِّلَتْ ) والعشار : جمع عُشَراء وكنُفَسَاء ، وهى الناقة التى أتى على حملها عشرة أشهر . وتسمى بهذا الاسم إلى أن تضع عليها حتى فى أشد حالات الخوف .ومعنى " عطلت " : أهملت وتركت بدون راع يحميها ، أو يلتفت إليها ، وهذا تصوير بديع لما يصيب الناس من أهوال ، تجعلهم لا يلتفتون إلى أعز أموالهم لديهم .أى : وإذا النوق العشار - التى هى أغلى الأموال - عطلت ، أى تركت دون أن يلتفت إليها أحد لانشغال كل إنسان بنفسه .وقيل : المراد بالعشار : السحب المحملة بالأمطار أى : وإذا السحب الحاملة للأمطار قد عطلت عن نزول المطر منها ، وصارت خالية من الماء الذى يحيى الأرض بعد موتها .قال القرطبى ما ملخصه : ( وَإِذَا العشار عُطِّلَت ) أى : النوق الحوامل التى فى بطونها أولادها ، الواحدة عُشَراء . وإنما خصت بالذكر ، لأنها أعز ماتكون عند العرب .. وهذا على وجه المثل . لأن فى القيامة لا تكون ناقة عشراء ، ولكن أراد به المثل ، أو هول يوم القيامة بحال ما لو كان للرجل ناقة عشراء لعطلها واشتغل بنفسه وقيل : العشار : السحاب يعطل مما يكون فيه وهو الماء فلا يمطر ، والعرب تشبه السحاب بالحامل .وقيل : الديار تعطل فلا تسكن . والأول أشهر ، وعليه من ناس الأكثر .

واذا الوحوش حشرت

كما فسرها الوسيط ( وَإِذَا الوحوش حُشِرَتْ ) أى : وإذا الحيوانات المتوحشة - كالأسد والنمر وغيرهما .( حُشِرَتْ ) أى : جمعت من أماكنها المتفرقة ، وخرجت فى ذهول ، وتلاقت دون أن يعتدى بعضها على بعض ، مخالفة بذلك ما طبعت عليه من النفور والتقاتل .قال الآلوسى قوله : ( وَإِذَا الوحوش ) جمع وحش ، وهو حيوان البر الذى ليس فى طبعه التأنس ببنى آدم . . ) حُشِرَتْ ) أى : جمعت من كل جانب . وقيل : حشرت أى : أميتت . . وقيل : حشرت بعثت للقصاص ، فيحشر كل شئ حتى الذباب .أخرج مسلم والترمذى عن أبى هريرة : فى هذه الآية قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لتُؤدّنّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة ، حتى يقاد للشاة الجماء من الشاة القرناء . " .

واذا البحار سجرت

كما فسرها الوسيط ( وَإِذَا البحار سُجِّرَتْ ) أى : امتلأت وفاض ماؤها ، واختلط عذبها بملحها ، وصارت بحرا واحداً ، مأخوذ من قولهم : سجر الحوض إذا ملأه حتى فاض من جانبيه .ويصح أن يكون معنى " سجرت " : أحميت بالنار ، حتى تبخرت مياهها ، وظهرت النار فى مكانها ، من قولهم : سجر فلان التنور إذا ملأه بالحطب المعد للحرق .

واذا النفوس زوجت

كما فسرها الوسيط ( وَإِذَا النفوس زُوِّجَتْ ) وقوله : ( زُوِّجَتْ ) من

التزويج وهو جعل الشئ زوجا لغيره ، بعد أن كان كلاهما فرداً ، ويطلق الزوج - أيضاً - على الصنف والنوع ، كما فى قوله - تعالى - ( وَمِن كُلِّ الثمرات جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثنين ) أى : وإذا النفوس اقترنت كل ) : واحدة منها ببدنها ، أو بمن يشبهها ، أو بعملها .قال الفخر الرازى قوله وَإِذَا النفوس زُوِّجَتْ ) فيه وجوه : أحدها : قرنت الأرواح بالأجساد - ثانيها : يصيرون فيها - أى : يوم القيامة - ثلاثة أصناف ، كما قال. تعالى - ( وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً ثَلاَثَةً ) ثالثها : أنه يضم إلى كل نصف من كان من طبقته ، فيضم الطائع إلى مثله . .

واذا الموءودة سئلت

.كما فسرها الوسيط ثم قال - تعالى - : ( وَإِذَا الموءودة سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ) ولفظ " الموءودة " من الوأد ، وهو دفن الطفلة - الحية .قال صاحب الكشاف وأد يئد مقلوب من أد يؤود : إذا أثقل . قال تعالى - ( وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا ) لأنه إثقال بالتراب .فإن قلت : ما حملهم على وأد البنات؟ قلت : الخوف من لحوق العار بهم من أجلهن ، أو الخوف من الإملاق .فإن قلت : فما معنى سؤال الموءودة عن ذنبها الذى قتلت به؟ ، وهلا سئل الوائد عن موجب قتله لها؟ قلت : سؤالها وجوابها تبكيت لقاتلها نحو التبكيت - لقوم عيسى - فى قوله - تعالى - لعيسى :( أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتخذوني وَأُمِّيَ إلهين مِن دُونِ الله ) أى : وإذا الموءودة سئلت ، على سبيل التبكيت والتقريع لمن قتلها ، بأى سبب من الأسباب قتلك قاتلك .

باي ذنب قتلت

كما فسرها الوسيط ولا شك أنها لم ترتكب ما يوجب قتلها ، وإنما القصد من ذلك إلزام قائلها الحجة ، حتى يزداد افتضاحا على افتضاحه .وقد حكى القرآن فى كثير من الآيات ، ما كان يفعله أهل الجاهلية من قتلهم للبنات ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ( وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بالأنثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ . يتوارى مِنَ القوم مِن سواء مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ على هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التراب أَلاَ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ) ولم يكن الوأد معمولاً به عند جميع قبائل العرب ، فقريش - مثلا - لم يعرف عنها ذلك وإنما عرف فى قبائل ربيعة ، وكنده ، وتميم . ولكنهم لما كانوا جميعا راضين عن هذا الفعل ، جاء الحكم عاما فى شأن أهل الجاهلية .

واذا الصحف نشرت

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَإِذَا الصحف نُشِرَتْ ) أى : بسطت ، بعد أن كانت مطوية ، وهى صحف الأعمال التى سجلتها الملائكة على أصحابها سواء أكانت تلك الأعمال خيرا أم شرا ، فهذه الصحائف تطوى عند الموت ، وتنشر يوم القيامة ، يوم الحساب والجزاء .قال - تعالى - : ( وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القيامة كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً . اقرأ كتابك كفى بِنَفْسِكَ اليوم عَلَيْكَ حَسِيباً ).

واذا السماء كشطت

كما فسرها الوسيط ( وَإِذَا السمآء كُشِطَتْ ) أى : قلعت وأزيلت ، وأصل الكشط إزالةجلدة الحيوان عنه . يقال : كشطت البعير كشطا ، إذا نزعت جلده ، منه . أى : وإذا السماء نزعت وأزيلت ، فلم تبق على هيئتها التى كانت عيها من إظلالها لما تحتها .

واذا الجحيم سعرت

كما فسرها الوسيط ( وَإِذَا الجحيم سُعِّرَتْ ) أى : أوقدت إيقادا شديدا ، للكفار ، والجحيم هى النار ذات الطبقات المتعدة من الوقود كالحطب وغيره وتسعيرها : إيقادها بشدة .

واذا الجنة ازلفت

كما فسرها الوسيط ( وَإِذَا الجنة أُزْلِفَتْ ) أى : قربت وأدنيت من المؤمنين ، كما فى قوله - تعالى - : ( وَأُزْلِفَتِ الجنة لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ) من الزلفى بمعنى القرب ، يقال : تزلف فلان إلى فلان ، إذا

. تقرب منه

علمت نفس ما احضرت

كما فسرها الوسيط وقوله : ( عَلِمَتْ نَفْسٌ مّآ أَحْضَرَتْ ) هو جواب الشرط لكل تلك الظروف السابقة . أى : إذا الشمس كورت ، وإذا النجوم انكدرت تبين لكل نفس ما عملته من خير أو شر ، ومن حسن أو قبيح . . ورأت ذلك رأى العين ، كما قال - تعالى - : ( يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سواء تَوَدُّ لَوْ أَنّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً . . . ) والمراد بالنفس عموم الأنفس ، لأن النكرة فى سياق النفى تشمل كل نفس وأسند - سبحانه - الإحضار إلى النفوس ، لأنها هى المباشرة لأعمالها فى الدنيا ، والتى ستجد جزاءها فى الآخرة .وجعلت معرفة النفوس لجزاء أعمالها ، حاصلة عند حصول مجموع الشروط التى ذكرت فى الجمل الاثنتى عشرة ، لأن بعض الزمان والأحوال التى تضمنتها ، هذه الشروط مقارن لحصول علم النفوس بأعمالها ، كما فى الستة الأخيرة فإنها تكون عند فصل القضاء ، وبعضها يحصل قبل ذلك بقليل ، كما فى الأحوال الستة المذكورة أولا ، إلا أنه لما كان بعض هذه الأمور من مبادئ يوم القيامة ، وبعضها من روادفه ، نسب علمها بذلك إلى زمان وقوع هذه الأمور كلها تهويلا للخطب ، وتفظيعا للأمر .وإشعاراً بأن ما يسبق يوم القيامة وما يعقبه ، كل ذلك من الأهوال التى يشب لها الولدان .

فلا اقسم بالخنس

كما فسرها الوسيط وبعد أن ساق - ما ساق من أحوال تدل على شدائد يوم القيامة أتبع ذلك ببيان أن هذا القرآن من عنده - تعالى - وأن الرسول صلى الله ، عليه وسلم صادق فيما يبلغه عن ربه ، فقال :( فَلاَ أُقْسِمُ . . . ) والفاء فى قوله - تعالى - : ( فَلاَ أُقْسِمُ بالخنس . . . ) للتفريع على. " ما تقدم من تحقيق وقوع البعث ، وهى تعطى - أيضا - معنى الإفصاح ، و "لا مزيدة لتأكيد القسم ، وجواب القسم قوله - تعالى - ( إِنّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ) .و ( الخنس ) - بزنة رُكّع - جمع خانس ، والخنوس : الاستخفاء والاستتار ، يقال خنست الظبية والبقرة ، إذا اختفت فى بيتها .

الجوار الكنس

كما فسرها الوسيط و ( الجوار ) جمع جارية ، وهى التى تجرى بسرعة ، من الجرى بمعنى الإسراع فى السير .و ( الكنس ) جمع كانس . يقال : كنس الظبى ، إذا دخل كناسه - بكسر الكاف - وهو البيت الذى يتخذه للمبيت ، وسمى بذلك لأنه يتخذه من أغصان الأشجار ، ويكنس الرمل إليه حتى يكون مختفيا عن الأعين وهذه الصفات ، المراد بها النجوم ، لأنها بالنهار تكون مختفية عن الأنظار. ولا تظهر إلا بالليل ، فشبهت بالظباء التى تختفى فى بيوتها ولا تظهر إلا ، فى أوقات معينة .أى : إذا كان الأمر كما ذكرت لكم من أن البعث حق . . فأقسم بالنجوم التى تخنس بالنهار ، أى : يغيب ضؤوها عن العيون بالنهار ، ويظهر بالليل ، والتى تجرى من مكان إلى آخر بقدرة الله - تعالى - ثم تكنس - أى : تستتر وقت غروبها - كما تتوارى الظباء فى كُنُسِها . . إن هذا القرآن لقول رسول كريم .قال ابن كثير ما ملخصه : قوله - تعالى - ( فَلاَ أُقْسِمُ بالخنس . الجوار الكنس ) : هى النجوم تخنس بالنهار ، وتظهر بالليل ، روى ذلك عن على بن أبى طالب وابن عباس ومجاهد .وقال بعض الأئمة : وإنما قيل للنجوم " الخنس " أى : فى حال طلوعها ، ثم هى جوار فى فلكها ، وفى حال غيبوبتها ، يقال لها " كنس " ، من قول العرب . أوى الظبى إلى كناسه : إذا تغيب فيه .وفى رواية عن ابن عباس : أنها الظباء ، وفى أخرى أنها بقر الوحش . حين تكنس إلى الظل أو إلى بيوتها .وتوقف ابن جرير فى قوله : ( بالخنس الجوار الكنس ) هل هى النجوم أو الظباء وبقر الوحش قال : ويحتمل أن يكون الجميع مرادا . .

والليل اذا عسعس

كما فسرها الوسيط وقوله : ( والليل إِذَا عَسْعَسَ . والصبح إِذَا تَنَفّسَ ) معطوف على ما قبله . وداخل فى حيز القسم .وقوله ( عسعس ) أدبر ظلامه أو أقبل ، فهذا اللفظ من الألفاظ التى تستعمل فى الشئ وضده ، إلا أن المناسب هنا يكون المراد به إقبال الظلام ، لمقابلته بالصبح إذا تنفس ، أى ، أضاء وأسفر وتبلج .وقيل : العسعسة : رقة الظلام وذلك فى طرفى النهار : : فهو من المشترك المعنوى ، وليس من الأضداد ، أى : أقبل وأدبر معاً . أى وحق النجوم التى تغيب بالنهار ، وتجرى فى حال استتارها . . وحق الليل إذا أقبل بظلامه ، والصبح إذا أقبل بضيائه .

والصبح اذا تنفس

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html}

وقوله : ( والليل إِذَا عَسْعَسَ . والصبح إِذَا تَنَفَّسَ ) معطوف على ما قبله . وداخل فى حيز القسم .وقوله ( عسعس ) أدبر ظلامه أو أقبل ، فهذا اللفظ من الألفاظ التى تستعمل فى الشئ وضده ، إلا أن المناسب هنا يكون المراد به إقبال الظلام ، لمقابلته بالصبح إذا تنفس ، أى : أضاء وأسفر وتبلج .وقيل : العسعسة : رقة الظلام وذلك فى طرفى النهار ، فهو من المشترك المعنوى ، وليس من الأضداد ، أى : أقبل وأدبر معاً . أى : وحق النجوم التى تغيب بالنهار ، وتجرى فى حال استتارها . . وحق الليل إذا أقبل بظلامه ، والصبح إذا أقبل بضيائه .

انه لقول رسول كريم

كما فسرها الوسيط ( إنه ) أى : القرآن الكريم ( إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ) وهو جبريل - عليه السلام - الذى أرسله ربه إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم لكى يبلغه وحيه - تعالى - .وأقسم الله - تعالى - بهذه الأشياء ، لأنها فى حركاتها المختلفة ، من ظهور وأفول ، ومن إقبال وإدبار . تدل دلالة ظاهرة على قدرة الله - تعالى - ، وعلى بديع صنعه فى خلقه . ونسب - سبحانه - القول إلى الرسول - وهو جبريل - لأنه هو الواسطة فى تبليغ الوحى إلى النبى صلى الله عليه وسلم .ثم وصف - سبحانه - أمين وحيه جبريل بخمس صفات : أولها : قوله ( كريم ) أى : ملك شريف ، حسن الخلق ، بهى المنظر .

ذي قوة عند ذي العرش مكين

- كما فسرها الوسيط ثانيها : ( ذِي قُوَّةٍ ) أى : صاحب قوة وبطش .كما قال تعالى - : ( عَلَّمَهُ شَدِيدُ القوى . . . ) ثالثها : ( عِندَ ذِي العرش مَكِينٍ ) أى : إن من صفات جبريل - عليه السلام - أنه ذو مكانة رفيعة ، ومنزلة عظيمة عند الله - تعالى - .

مطاع ثم امين

كما فسرها الوسيط رابعها : قوله - تعالى - ( مطاع ) أى يطيعه من معه من الملائكة المقربين .وخامسها : قوله : - سبحانه - ( ثَمَّ أَمِينٍ ) و " ثم " بفتح الثاء - ظرف مكان للبعيد . والعامل ما قبله أو ما بعده ، والمعنى : أنه مطاع فى السموات عند ذى العرش ، أو أمين فيها ، أى : يؤدى ما كلفه الله - تعالى - به بدون أية زيادة أو نقص .قال الشوكانى : ومن قال إن المراد بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم فالمعنى : أنه ذو قوة على تبليغ الرسالة إلى الأمة ، مطاع يطيعه من أطاع الله ، أمين على الوحى .

وما صاحبكم بمجنون

كما فسرها الوسيط وقوله : ( وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ) : الخطاب لأهل مكة ، والمراد بصاحبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم .والمعنى : وما محمد يا أهل مكة بمجنون ، وذكره بوصف الصحبة للإشعار بأنهم عالمون بأمره ، وأنه ليس مما يرمونه من الجنون وغيره فى شئ ، وأنهم افتروا عليه ذلك ، عن علم منهم ، بأنه عقل الناس وأكملهم ، وهذه الجملة داخلة فى جواب القسم .فأقسم - سبحانه - بأن القرآن نزل به جبريل ، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم ليس كما يقولون من أنه مجنون ، وأنه يأتى القرآن من جهة نفسه .فالمقصود بالآية نفى الجنون عن النبى صلى الله عليه وسلم بأكمل وجه ، وتوبيخ أعدائه الذين اتهموه بتهمة هم أول من يعلم - عن طريق مشاهدتهم لاستقامة تفكيره ، وسمو أخلاقه - أنه أكمل الناس عقلا وأقومهم سلوكا .

ولقد راه بالافق المبين

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَلَقَدْ رَآهُ بالأفق المبين ) معطوف - أيضا - على قوله - تعالى - قبل ذلك : ( إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ) فهو من جملة المقسم عليه .والمقصود بهذه الرؤية : رؤية النبى صلى الله عليه وسلم لجبريل - عليه السلام - لأول مرة ، على الهيئة التى خلقه الله عليها ، عندما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتعبد فى غار حراء ، وكان صلى الله عليه وسلم قد سأل جبريل أن يريه نفسه ، على الهيئة التى خلقه

الله - تعالى - عليها .والأفق : هو الفضاء الواسع الذى يبدو للعين ما بين السماء والأرض .والمبين : وصف للأفق ، أى : بالأفق الواضح البين ، الذى لا تشتبه معه المرئيات .والمعنى : ووالله لقد رأى صاحبكم محمد صلى الله عليه وسلم جبريل ، بصورته التى خلقه الله عليها ، بالأفق الواضح البين ، الذى لا تلتبس فيه المرئيات ، ولا مجال فيه للأوهام والتخيلات .والمقصود من الآية الكريمة الرد على المشركين الذين كانوا إذا أخبرهم الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه رأى جبريل . كذبوه واستهزءوا به ، وتأكيد أن هذه الرؤية كانت حقيقة واقعة ، لا مجال معها للتشكيك أو اللبس .قال الإمام ابن كثير : وقوله - تعالى - ( وَلَقَدْ رَآهُ بالأفق المبين ) يعنى : ولقد رأى محمد جبريل الذى يأتيه بالرسالة عن الله - عز وجل - وعلى الصورة التى خلقه الله عليها ، له ستمائه جناح ( بالأفق المبين ) أى : البين ، وهى الرؤية الأولى التى كانت بالبطحاء - أى بالمكان المجاور لغار حراء . وهى المذكورة فى قوله - تعالى - : ( عَلَّمَهُ شَدِيدُ القوى . ذُو مِرَّةٍ فاستوى . وَهُوَ بالأفق الأعلى . ثُمَّ دَنَا فتدلى .فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أدنى . فأوحى إلى عَبْدِهِ مَآ أوحى . . . )

وما هو على الغيب بضنين

كما فسرها الوسيط والضمير فى قوله - تعالى - : ( وَمَا هُوَ عَلَى الغيب بِضَنِينٍ ) يعود إلى الرسول صلى الله عليه وسلم المعبر عنه قبل ذلك - بصاحبكم ) .والغيب : ما غاب عن مدارك الناس وحواسهم ، لأن الله - تعالى قد استأثر بعلمه .والضنين : هو البخيل بالشئ ، مأخوذ من الضن - بالكسر والفتح - بمعنى البخل .قال الآلوسى : " وما هو " أى : رسول الله صلى الله عليه وسلم " على الغيب " أى : على ما يخبر به من الوحى إليه وغيره من الغيوب " بضنين " من الضن - بكسر الضاد وفتحها - بمعنى البخل ، أى : ببخيل أى :لا يبخل بالوحى ، ولا يقصر فى التعليم والتبليغ ، ومنح كل ما هو ، مستعد له من العلوم ، على خلاف الكهنة فإنهم لا يطلعون غيرهم على ما يزعمون معرفته إلا بإعطائهم حلوانا .وقرأ ابن كثير والكسائى وأبو عمر ( بِضَنِينٍ ) بالظاء - أى : وما هو على الغيب بمتهم ، من الظنة - بالكسر - بمعنى - ( التهمة .ثم قال : ورجحت هذه القراءة ، لأنها أنسب بالمقام ، لاتهام الكفرة له صلى الله عليه وسلم بذلك ، ونفى التهمة ، أولى من نفى البخل .وهذا القول لا نوافق الآلوسى - رحمه الله - عليه ، لأن القراءة متى ثبتت عن النبى صلى الله عليه وسلم لا يجوز التفاضل بينهما . والمعنى عليها واضح ولا تعارض فيه أى : وما محمد صلى الله عليه وسلم ببخيل بتبليغ الوحى ، بل هو مبلغ له على. أكمل وجه وأتمه ، وما هو - أيضا - بمتهم فيما يبلغه عن ربه ، لأنه صلى الله عليه وسلم سيد أهل الصدق والأمانة .

وما هو بقول شيطان رجيم

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ) معطوف - أيضا - على قوله - تعالى - ( إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ) والضمير هنا يعود على القرآن الكريم .أى : وليس هذا القرآن الكريم ، المنزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بقول شيطان مرجوم مسترق للسمع . . وإنما هو كلام الله - تعالى - الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .وهذا رد آخر على المشركين الذين زعموا أن القرآن الكريم إنما هو من باب الكهانة ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم إنما هو كاهن ، تلقنه الشياطين هذا القرآن .

فاين تذهبون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ) جملة معترضة بين ما سبقها .

ان هو الا ذكر للعالمين

كما فسرها الوسيط وبين قوله - تعالى - بعد ذلك ( إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ) ، والمقصود فيها توبيخهم وتعجيزهم عن أن يأتوا ولو بحجة واحدة يدافعون بها عن أنفسهم .والفاء لتفريع هذا التعجيز والتوبيخ ، على الحجج السابقة ، المثبتة بأن هذا القرآن من عند الله - تعالى - وليس من عند غيره .و ( أين ) اسم استفهام عن المكان ، والاستفهام هنا للتعجيز والتقريع وهو منصوب بقوله : ( تذهبون ) .أى : إذا كان الأمر كما ذكرنا لكم ، فأى طريق تسلكون أوضح وأبين من هذا الطريق الذى أرشدناكم إليه؟ إنه لا طريق لكم سوى هذا الطريق الذى أرشدناكم إليه .قال صاحب الكشاف : قوله ( فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ) استضلال لهم ، كما يقال لتارك الجادة اعتسافاً أو ذهابا فى

بنيات الطريق - أى : فى الطريق المتشعبة عن الطريق الأصلى - أين تذهب؟ مثلث حالهم فى تركهم الحق وعدولهم عنه إلى الباطل .( إِنْ هُوَ إِلاّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ) أى : ما هذا القرآن الكريم ، إلا تذكير وإرشاد وهدايات للبشر جميعا .

لمن شاء منكم ان يستقيم

كما فسرها الوسيط وهذا الذكر العظيم إنما هو ( لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ) أى : هو نافع لمن شاء منكم - أيها الناس - أن يستقيم على طريق الحق ، وأن يلزم الرشاد ويترك الضلال .والجملة الكريمة بدل مما قبلها للإشعار بأن الذين استجابوا لهدى القرآن قد شاءوا لأنفسهم الهداية ، والاستقامة .فالمقصود بهذه الجملة : الثناء عليهم ، والتنويه بشأنهم .

وما تشاءون الا ان يشاء الله رب العالمين

- كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ، ببيان أن مشيئته تعالى - هى النافذة ، فقال : ( وَمَا تَشَآءُونَ إِلاّ أَن يَشَآءَ اللهُ رَبُّ العالمين ) .أى : وما تشاءون الاستقامة أو غيرها ، إلا إذا شاءها وأرادها الله - تعالى - رب العالمين ، إذ مشيئة الله - تعالى - هى النافذة أما مشيئتكم فلا وزن لها إلا إذا أذنت بها مشيئته - تعالى - .فالمقصود من ، الآية الكريمة بيان أن كل مشيئة لا قيمة لها ولا وزن . . إلا إذا أيدتها مشيئة الله - عز وجل - .وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

اذا السماء انفطرت

كما فسرها الوسيط قوله - سبحانه - : ( إِذَا السمآء انفطرت ) بيان لما ستكون عليه السماء عند اقتراب قيام الساعة .ومعنى : ( انفطرت ) انشقت ، من الفطر - بفتح الفاء - بمعنى الشق ، كما قال - تعالى - فى أول سورة الانشقاق : ( إِذَا السمآء انشقت ) . أى : شققته فانشق ، أى : فطرت الشئ فانفطر يقال : إذا السماء تصدعت وتشققت فى الوقت الذى يريده الله - تعالى - لها أن تكون : كذلك .

واذا الكواكب انتثرت

كما فسرها الوسيط ( وَإِذَا الكواكب انتثرت ) أى : وإذا النجوم تهاوت ، وتساقطت وتفرقت ، ويقال : نثرت الشئ على الأرض ، إذا ألقيته عليها متفرقا ، فانتثار الكواكب معناه : تفرقا عن مواضعها التى كانت فيها .

واذا البحار فجرت

كما فسرها الوسيط ( وَإِذَا البحار فُجِّرَتْ ) أى : شققت جوانبها ، فزالت الحواجز التى بينها ، واختلط بعضها ببعض فصارت جميعها بحرا واحدا ، فقوله ( فُجِّرَتْ ) مأخوذ من الفجر - بفتح الفاء - وهو شق الشئ شقا واسعا ، يقال : فجر الماء فتفجر ، إذا شقه شقا واسعا ترتب عليه سيلان الماء بشدة .

واذا القبور بعثرت

كما فسرها الوسيط ( وَإِذَا القبور بُعْثِرَتْ ) أى : صار باطنُها ظاهرَهَا وخرج ما فيها من الموتى مسرعين ، يقال : بعثر فلان متاعه ، إذا قرقه ، وبدده وقب بعضه على بعض .والمراد أن التراب الذى كان فيها يبعثر ويزال ، ويخرج الموتى من تلك القبور للحساب والجزاء .

علمت نفس ما قدمت واخرت

كما فسرها الوسيط وقوله : ( عَلِمَتْ نَفْسٌ مّا قَدّمَتْ وَأَخّرَتْ ) جواب ( إذا ) فى الآيات الأربع .أى : إذا تم ذلك ، علمت كل نفس ما قدمت من خير أو شر ، وما أخرت من سنة حسنة ، أو سنة سيئة يعمل بها بعدها .قال الجمل ما ملخصه : واعلم أن المراد من هذه الآيات أنه إذا وقعت هذه الأشياء التى هى أشراط الساعة ، فهناك يحصل الحشر والنشر ، وهى هنا أربعة : اثنان منها : يتعلقان بالعلويات ، واثنان يتعلقان ، بالسفليات ، والمراد بهذه الآيات بيان تخريب العالم ، وفناء الدنيا ، وانقطاع التكاليف . . وإنما كررت إذا ) لتهويل ما فى حيزها من الدواهى .وجواب ( إذا ) وما عطف عليها قوله ( عَلِمَتْ نَفْسٌ ) أى : علمت كل نفس وقت هذه المذكورات الأربعة ( مّا قَدّمَتْ ) من الأعمال وما أخرت منها فلم تعمله .ومعنى علم النفس بما قدمت

- وأخرت : العلم التفصيلى . وذلك عند نشر الصحف - كما تقدم فى سورة التكوير
أما العلم الإجمالى فيحصل فى أول زمن الحشر ، لأن المطيع يرى آثار السعادة
والعاصى يرى آثار الشقاوة فى أول الأمر ، وأما العلم التفصيلى فإنما يحصل ،
. . عند قراءة الكتب والمحاسبة

يا ايها الانسان ما غرك بربك الكريم

كما فسرها الوسيط وبعد أن أشار - سبحانه - إلى أهوال علامات الساعة التى من
- شأنها أن تنبه العقول والحواس والمشاعر . . أتبع ذلك بنداء للإنسان فقال
: تعالى - : ( ياأيها الإنسان مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكريم ) والغرور
الخداع . يقال : غر فلان فلانا ، إذا خدعه وأطمعه بالباطل . والخطاب لجنس
: الإنسان ، وقيل للكافر .و " ما " استفهامية ، والمقصود بالاستفهام
الإنكار والتعجيب من حال هذا الإنسان المخدوع .أى : يا أيها الإنسان
المخلوق بقدرة ربك وحده ، أى شئ غرك وخدعك وجعل جانبا من جنسك يكفر بخالقه
ويعبد غيره ، وجانبا آخر يعصى ربه ، ويقصر فى أداء حقوقه؟قال الإمام ابن ،
كثير : قوله - تعالى - : ( ياأيها الإنسان مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكريم )
هذا تهديد ، لا كما يتوهمه بعض الناس من أنه إرشاد إلى الجواب ، حيث قال :
حتى يقول قائلهم : غره كرمه . بل المعنى فى الآية : ما غرك ، ( الكريم ) :
يا بن آدم بربك الكريم - ، أى : العظيم - حتى أقدمت على معصيته ، وقابلته
بما لا يليق؟ كما جاء فى الحديث : " يقول الله يوم القيامة : يا بن آدم
ماذا أجبت المرسلين؟ " . .وهذا الذى تخيله هذا القائل ليس تحته طائل ، لأنه
إنما أتى باسمه الكريم لينبه على أنه لا ينبغى أن يقابل الكريم بالأفعال
القبيحة ، وأعمال السوء . .والمقصود بالنداء هنا : التنبيه إلى ما سيأتى
بعده من توجيهات ، وليس المقصود به طلب الإقبال على شئ معين .وإيثار تعريف
الله - تعالى - بصفة الرب ، لما فى معنى الرب من التربية والرعاية
والملكيمة ، والإيجاد من العدم . . ففى هذا الوصف تذكير للإنسان بنعم
خالقه الذى أنشأه من العدم ، وتعهده بالرعاية والتربية .وكذلك الوصف
بالكريم ، فيه - أيضا - تذكير لهذا الإنسان بكرم ربه عليه ، إذ مقتضى هذا
. الكرم منه - تعالى - ، أن يقابل المخلوق ذلك بالشكر والطاعة

الذي خلقك فسواك فعدلك

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( الذي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ
فَعَدَلَكَ . في أَيِّ صُورَةٍ مّا شَآءَ رَكَّبَكَ ) صفات أخرى للرب - عز
. وجل - الكريم المنان .والخلق : هو الإيجاد على مقدار معين مقصود
والتسوية : جعل الشئ سويا ، أى : قويما سليما خاليا من الاضطراب والاختلال
وقوله : ( فَعَدَلَكَ ) قرأها بعضهم بفتح الدال مع التخفيف ، وقرأها آخرون.
بفتحها مع التشديد ، وهما متقاربان ، إلا أن التشديد يفيد المبالغة فى
التعديل ، الذى هو جعل البنية معتدلة ، متناسبة الأعضاء ، فالتسوية ترجع
، إلى عدم النقصان فى الأعضاء ، والتعديل يرجع إلى عدم التخالف فيها وهذا
باعتبار الأصل فى خلق الإنسان ، فلا عبرة بوجود ما يخالف ذلك فى قلة من
أفراد الإنسان .والمعنى : يأيها الإنسان ، أى شئ خدعك وجرأك على معصية
ربك الكريم . . الذى من مظاهر كرمه أنه ( خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ ) بأن جعل
) أعضاءك سوية سليمة . مهيأة لاكتساب منافعها على حسب ما تقتضيه حكمة خالقك
فعدلك ) أى : فعدل أعضاؤك بأن جعلها متناسقة متوازنة بعضها مع بعض ، فلم
يجعل - مثلا - إحدى يديك طويلة والأخرى قصيرة ، ولم ثيجعل - مثلا - جانباً
- من جسدك أبيض ، والأخر أسود .ومن مظاهر قدرته وكرمه - أيضا - أنه
سبحانه - ركبك ووضعك فى أى صورة من الصور المتنوعة التى اقتضتها مشيئته
. وحكمته

في اي صورة ما شاء ركبك

" كما فسرها الوسيط فقوله : ( في أَيِّ صُورَةٍ ) متعلق بركبك . و " ما
مزيدة ، و " شاء " صفة لصورة ولم يعطف " ركبك " على ما قبله بالفاء ، كما
عطف ما قبله بها ، لأنه بيان لقوله ( فَعَدَلَكَ ) . والتقدير : فعلدك بأن
ركبك فى أى صورة من الصور التى شاءها لك ، وهى صورة فيها ما فيها من
: - العجائب والأسرار ، فضلا عن أنها أحسن صورة وأكملها ، كما قال - تعالى
فالمقصود من الآيات ( لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان في أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ )
الكريمة ، تذكير الإنسان بفضل ربه - تعالى - عليه ، وحضه على طاعته وشكره
وتوبيخه على تقصيره وجحوده ، وتهديده بسوء المصير إذا ما استمر فى غفلته ،
وغروره .قال بعض العلماء : إن خلق الإنسان على هذه الصورة الجميلة السوية
المعتدلة ، الكاملة الشكل والوظيفة . أمر يستحق التدبر الطويل ، والشكر
العميق ، والأدب الجم لربه الكريم الذى أكرمه بهذه الخلقة .وهناك مؤلفات
كاملة فى وصف كمال التكوين الإنسان العضوى ودقته وإحكامه .كاكتمال التكوين

، الجسدى ، والعضلى ، والجلدى ، والهضمى ، والدموى والعظمى ، والتنفسى
والتناسلى ، والعصبى . . للإنسان .وإن جزءا من أذن الإنسان " الأذن
الوسطى " لهو سلسلة من نحو أربعة آلاف جزئية دقيقة معقدة ، متدرجة بنظام
بالغ الدقة فى الحجم والشكل .ومركز حاسة الإبصار فى العين التى تحتوى على
مائة وثلاثين مليونا من مستقبلات الضوء .وهى أطراف الأعصاب ، ويقوم
. . بحمايتها الجفن ذو الأهداب الذى يقيها ليلا ونهارا

كلا بل تكذبون بالدين

كما فسرها الوسيط ثم يكشف القرآن بعد ذلك عن علة الغرور والغفلة - وهى
التكذيب بيوم الحساب - ويقرر أن كل عمل يعمله الإنسان هو مسجل عليه فيقول
: ( كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بالدين . وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ
كِرَاماً كَاتِبِينَ . يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ) .و " كلا " حرف ردع
وزجر ، وهى هنا للردع والزجر عن الاغترار بكرم الله - تعالى - وعن جعله
ذريعة إلى الكفر والفسوق والعصيان .وقوله : ( كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ
بالدين ) إبطال لوجود ما يدعو إلى غرورهم لو كانوا يعقلون .أى : كلا ليس
هناك شئ يقتضى غروركم بالله - تعالى - ويجرؤكم على عصيانه لو كنتم تتفكرون
وتتدبرون . . ولكن تكذيبهم بالبعث والحساب والجزاء هو الذى حملكم على الكفر
والفسوق والعصيان .قال الآلوسى ما ملخصه : قوله ( كلا ) ردع عن الاغترار
بكرم الله - تعالى - وقوله : ( كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بالدين ) إضراب عن
، جملة مقدرة ، ينساق إليها الكلام ، كأنه قيل بعد الردع بطريق الاعتراض
وأنتم لا ترتدعون عن ذلك ، بل تجترئحون على أعظم منه ، حيث تكذبون بالجزاء
والبعث رأسا ، أو بدين الإسلام ، اللذين هما من جملة أحكامه ، فلا تصدقون
سؤالا ولا جوابا ، ولا ثوابا ولا عقابا ، وفيه ترق من الأهوان إلى الأعظم
وعن الراغب : " بل " هنا لتصحيح الثانى وإبطال الأول . كأنه قيل : ليس هنا.
مقتض لغرورهم ، ولكن تكذيبهم بالبعث حملهم على ما ارتكبوه .وقيل تقدير
الكلام : كلا إنكم لا تستقيمون على ما توجبه نعمى إليكم ، وإرشادى لكم ، بل
. . تكذبون بالدين

وان عليكم لحافظين

كما فسرها الوسيط وقوله : ( وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ) عطف على
جملة ( كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بالدين ) لتأكيد ثبوت الجزاء على الأعمال
وتسجيل هذه الأعمال تسجيلا تاما .وقوله ( لَحَافِظِينَ ) صفة لموصوف ،
محذوف . أى : وإن عليكم لملائكه يحفظون أعمالكم عليكم ، ويسجلونها دون أن
. يضيعوا منها شيئا

كراما كاتبين

كما فسرها الوسيط وقوله : ( كِرَاماً كَاتِبِينَ . يَعْلَمُونَ مَا
تَفْعَلُونَ ) صفات أخرى لهؤلاء الملائكة .أى : وإن عليكم ملائكة من صفاتهم
- أنهم يحفظون أعمالكم ، ويسجلونها عليكم ، وأنهم لهم عند الله - تعالى
. الكرامة والمنزلة الحسنة ، وأنهم يكتبون أعمالكم كلها

يعلمون ما تفعلون

كما فسرها الوسيط وأنهم يعلمون أفعالكم التى تفعلونها سواء أكانت قليلة أم
كثيرة ، صغيرة أم كبيرة .فالمقصود بهذه الآيات الكريمة : بيان أن البعث حق
، وأن الحساب حق ، وأن الجزاء حق ، وأن أعمال الإنسان عليه تسجيلا تاما ،
بواسطة ملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .أما كيفية هذه
الكتابة من الملائكة لأعمال الإنسان ، وعلى أى شئ تكون هذه الكتابة ، ومتى
تكون ههذ الكتابة . . فمن الأمور التى يجب الإيمان بها كما وردت ، مع تفويض
كنهها وكيفيتها ودقتها إلى الله - تعالى - لأنه لم يرد حديث صحيح عن
. المعصوم - صلى الله عليه وسلم يعتمد عليه فى بيان ذلك

ان الابرار لفي نعيم

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - النتائج المترتبة على كتابة الملائكة
لأفعال الإنسان فقال : ( إِنَّ الأبرار لَفِي نَعِيمٍ . وَإِنَّ الفجار
لَفِي جَحِيمٍ . يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدين . وَمَا هُمْ عَنْهَا
بِغَآئِبِينَ ) .والأبرار : جمع بر - بفتح الباء - ، وهو الإنسان التقى
الموفى بعهد الله - تعالى - .- أى : إن المؤمنين الصادقين الذين وفوا بما
عاهدوا الله عليه ، لفى نعيم دائم ، وهناء مقيم ، وإن الفجار الذين نقضوا
عهودهم مع الله ، وفسقوا عن أمره ، لفى نار متأججة بعضها فوق بعض ، هؤلاء

الفجار الذين شقوا عصا الطاعة .

وان الفجار لفي جحيم

كما فسرها الوسيط والفجار : جمع فاجر ، وهو الإنسان الكثير الفجور ، أى : الخروج عن طاعة الله - تعالى - أى : إن المؤمنين الصادقين الذين وفوا بما عاهدوا الله عليه ، لفى نعيم دائم ، وهناء مقيم ، وإن الفجار الذين نقضوا عهودهم مع الله ، وفسقوا عن أمره ، لفى نار متأججة بعضها فوق بعض ، هؤلاء الفجار الذين شقوا عصا الطاعة .

يصلونها يوم الدين

كما فسرها الوسيط ( يَصْلَوْنَهَا ) أى : يدخلون الجحيم ويقاسون حرها ( يَوْمَ الدين ) أى : يوم الجزاء والحساب .

وما هم عنها بغائبين

كما فسرها الوسيط ( وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ) أى : وما هم عن النار بمبعدين ، بل هم ملازمون لها ملازمة تامة .

وما ادراك ما يوم الدين

كما فسرها الوسيط ثم فخم - سبحانه - وعظم من شأن يوم الجزاء فقال : ( وَمَآ أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدين ) . و" ما " اسم استفهام مبتدأ . وجملة " أدراك " خبره ، والكاف مفعول أول . وجملة ( مَا يَوْمُ الدين ) المكونة من مبتدأ وخبر سدت مسد المفعول الثانى لأدراك . والتكرار للتهويل والتعظيم ليوم الدين ، كما فى قوله - تعالى - ( الحاقة مَا الحآقة . وَمَآ أَدْرَاكَ مَا الحاقة ) أى : وأى شئ أدراك عظم وشدة يوم الحساب والجزاء ، ثم أى شئ أدراك بذلك؟ إننا نحن وحدنا الذين ندرك شدة هوله وقد أخبرناك بجانب مما يحدث فيه من شدائد لتنذر الناس ، حتى يستعدوا له .. بالإيمان والعمل الصالح .

ثم ما ادراك ما يوم الدين

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html}

ثم فخم - سبحانه - وعظم من شأن يوم الجزاء فقال : ( وَمَآ أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدين . ثُمَّ مَآ أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدين ) . و" ما " اسم استفهام مبتدأ . وجملة " أدراك " خبره ، والكاف مفعول أول . وجملة ( مَا يَوْمُ الدين ) المكونة من مبتدأ وخبر سدت مسد المفعول الثانى لأدراك . والتكرار للتهويل والتعظيم ليوم الدين ، كما فى قوله - تعالى - ( الحاقة مَا الحآقة . وَمَآ أَدْرَاكَ مَا الحاقة ) أى : وأى شئ أدراك عظم وشدة يوم الحساب والجزاء ، ثم أى شئ أدراك بذلك؟ إننا نحن وحدنا الذين ندرك شدة هوله وقد أخبرناك بجانب مما يحدث فيه من شدائد لتنذر الناس ، حتى يستعدوا له .. بالإيمان والعمل الصالح .

يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والامر يومئذ لله

كما فسرها الوسيط ثم فصل - سبحانه - جانبا من أهواله فقال : ( يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً والأمر يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ) أى : يوم الدين والجزاء هو اليوم الذى لا تملك فيه نفس لغيرها شيئا من النفع . وإنما الذى ينفع فيه هو الإيمان والعمل الصالح ، والأمر فيه لله - تعالى - وحده ولا سلطان ولا تصرف لأحد سواه . وقوله : ( يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ . . . ) ، بيان ليوم الدين . وقد قرأ بعض القراء السبعة ( يوم ) بالنصب على أنه منصوب بفعل محذوف . أى : اذكر يوم لا تملك نفس لنفس شيئا . وقرأ البعض الآخر . . بالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف . أى : هو يوم لا تملك نفس لنفس شيئا أو على أنه بدل من " يوم الدين " . وهكذا اختتمت السورة الكريمة كما بدئت بالتهويل من شأن يوم القيامة ، ليزداد العقلاء استعداداً له ، عن طريق الإيمان والعمل الصالح الذى يرضى الله - تعالى - . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

ويل للمطففين

كما فسرها الوسيط الويل : لفظ دال على الهلاك أو الشر ، وهو اسم لا فعل له

من لفظه . . وقيل : هو اسم واد فى جهنم .و ( المطففين ) جمع مطفف ، من
. الطفيف ، وهو الشئ التافه الحقير ، لأن ما يغتاله المطفف من غيره شئ قليل
والتطفيف : الإنقاص فى المكيال أو الميزان عن الحدود المطلوبة .قال
. الإمام ابن جرير : وأصل التطفيف ، من الشئ الطفيف ، وهو القليل النزر
والمطفف : المقلل صاحب الحق عَمّا له من الوفاء والتمام فى الوكيل أو وزن
.

الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون

كما فسرها الوسيط ومنه قيل للقوم الذين يكونون سواء فى حسبه أو عدد : هم
) : سواء كطف الصاع . يعنى بذلك كقرب الممتلئ منه ناقص عن الملء . .وقوله
اكتالوا ) من الاكتيال وهو افتعال من الكيل . والمراد به : أخذ مالهم من
. مكيل من غيرهم بحكم الشراء

واذا كالوهم او وزنوهم يخسرون

كما فسرها الوسيط ومعنى : ( كَالُوهُمْ أَوْ وّزَنُوهُمْ ) : كالوهم أو
وزنوا لهم ، فحذفت اللام ، فتعدى الفعل إلى المفعول ، فهو من باب الحذف
والإيصال .فالواوان فى ( كَالُوهُمْ أَوْ وّزَنُوهُمْ ) يعودان إلى الاسم
، " الموصول فى قوله : ( الذين إِذَا اكتالوا ) والضميران المنفصلان " هم
يعودان إلى الناس .قال صاحب الكشاف : والضمير فى ( كَالُوهُمْ أَوْ
وّزَنُوهُمْ ) ضمير منصوب راجع إلأى الناس . وفيه وجهان : أن يراد : كالوا
لهم ، أو وزنوا لهم فحذف الجار ، وأوصل الفعل ، كما فى قول الشاعر :ولقد
جنيتك أكمؤا وعساقلا ... ولقد نهيتك عن بنات الأوبربمعنى جنيت لك . وأن
يكون على حذف مضاف ، وإقامة المضاف إليه مقامه ، والمضاف هو المكيل أو
الموزون . .والمعنى : هلاك شديد ، وعذاب أليم ، للمطففين ، وهم الذين
يبخسون حقوق الناس فى حالتى الكيل والوزن وما يشبههما ، ومن مظاهر ذلك أنهم
إذا اشتروا من الناس شيئا حرصوا على أن يأخذوا حقوقهم منهم كاملة غير
) منقوصة ، وإذا باعوا لهم شيئا ، عن طريق الكيل أو الوزن أو ما يشبههما
يُخْسِرُونَ ) أى : ينقصون فى الكيل أو الوزن .يقال : خسَر فلان الميزان
وأخْسَره ، إذا نقصه ، ولم يتممه كما يقتضيه العدل والقسط .وافتتحت السورة
الكريمة بلفظ " الويل " للإشعار بالتهديد والتشديد ، والوعيد الأليم لمن
. يفعل ذلك . وقوله ( ويل ) مبتدأ ، وهو نكرة ، وسوغ الابتداء به كونه دعاء
وخبره " للمطففين " .وقال - سبحانه - ( إِذَا اكتالوا عَلَى الناس ) ولم
يقل : من الناس . للإشارة إلى ما فى عملهم المنكر من الاستيلاء والقهر
والظلم .وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : لما كان اكتيالهم من
" الناس اكتيالا يضرهم ، ويتحامل فيه عليهم ، أبدل " على " مكان " من
للدلالة على ذلك .ويجوز أن يتعلق " على " بيستوفون ، ويقدم المفعول على
الفعل لإفادة الخصوصية . أى : يستوفون على الناس خاصة ، فأما أنفسهم
، فيستوفون لها .وقال الفراء : " من " و " على " يعتقبان فى هذا الموضوع
لأنه حق عليه ، فإذا قال : اكتلت عليك ، فكأنه قال : أخذت ما عليك ، وإذا
قال : اكتلت منك ، فكقوله : استوفيت منك ..والتعبير بقوله : ( يستوفون ) و
يدل على حرصهم الشديد فيما يتعلق بحقوقهم ، وإهمالهم الشنيع ( يخسرون )
لحقوق غيرهم ، إذ استيفاء الشئ ، أخذه وافيا تاما ، فالسين والتاء فيه
للمبالغة .وأما ( يخسرون ) فمعناه إيقاع الخسارة على الغير فى حالتى الكيل
. والوزن وما يشبههما

الا يظن اولئك انهم مبعوثون

كما فسرها الوسيط ثم أتبع - سبحانه - هذا التهديد للمطففين . بما يجعل
الناس يتعجبون من أحوالهم ، فقال - تعالى - .( ألا يَظُنُّ أولئك
أَنّهُمْ مّبْعُوثُونَ . لِيَوْمٍ عَظِيمٍ . يَوْمَ يَقُومُ الناس
لِرَبِّ العالمين ) .والهمزة للاستفهام التعجيبى من أحوالهم ، والجملة
مستأنفة مسوقة لتفظيع ما فعلوه من بخس الناس أشياءهم . وأدخلت همزة
الاستفهام على "لا " النافية لزيادة التوبيخ والإنكار ، حتى لكأن سوء
، عاقبة التطفيف لا تخطر لهم على بال .والظن هنا مستعمل فى معناه الحقيقى
. وهو اعتقاد الشئ اعتقادا راجحا .وقال - سبحانه - : ( ألا يَظُنُّ أولئك
، ولم يقل : ألا يظنون ، لقصد تمييزهم والتشهير بهم ، زيادة فى ذمهم ( .
وفى تقبيح أفعالهم .أى : أبلغت الجرأة بهؤلاء المطففين ، أنهم صاروا من
بلادة الحس ، ومن فقدان الشعور ، لا يخشون الحساب يوم القيامة ، ولا يخافون
العذاب الشديد الذى سينزل بهم ، يوم يقوم الناس من قبورهم استجابة لأمر رب
العالمين ، حيث يتلقون جزاءه العادل ، وحكمه النافذ .ووصف - سبحانه - اليوم
بالعظم . باعتبار عظم ما يقع فيه من أهوال .وقوله : ( يَوْمَ يَقُومُ الناس
: لِرَبِّ العالمين ) بدل مما قبله . واللام فى قوله ( لرب ) للتعليل . أى

. يقومون لأجل ربوبيته - تعالى - وتلقى حكمه الذى لا يستطيعون الفرار منه
: وفى هذا الوصف ما فيه استحضار جلاله - وعظمته - سبحانه - .قال القرطبى
. وفى هذا الإنكار والتعجيب ، وكلمة الظن

ليوم عظيم

. كما فسرها الوسيط ووصف اليوم بالعظيم

يوم يقوم الناس لرب العالمين

، كما فسرها الوسيط وقيام الناس فيه الله خاضعين ، ووصف ذاته برب العالمين
بيان بليغ لعظم الذنب ، وتفاقم الإثم فى التطفيف ، وفيما كان مثل حاله من
، الحيف وترك القيام بالقسط والعمل على التسوية والعدل ، فى كل أخذ وإعطاء
بل فى كل قول وعمل . .هذا ، وقد جاء الأمر بإيفاء الكيل والميزان ، والنهى
عن تطفيفهما ، فى آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - : ( وإلى مَدْيَنَ
أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ ياقوم اعبدوا الله مَا لَكُمْ مِّنْ إله
غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُواْ المكيال والميزان إني أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وإني
) : - أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ) ومنها قوله - سبحانه
وَأَوْفُواْ الكيل والميزان بالقسط لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا
قال بعض العلماء ما ملخصه : والتصدى لشأن المطففين بهذا الأسلوب فى سورة (
مكية ، أمر يلفت النظر ، فالسورة المكية عادة توجه اهتمامها إلى أصول
، العقائد .ومن ثم فالتصدى لهذا الأمر بذاته ، يدل أولا على أن الإسلام
كان يواجه فى البيئة المكية ، حالة صارخة من هذا التطفيف يزاولها الكبراء
الذين يملكون إكراه الناس على ما يريدون فهم " يكتالون على الناس "لا ..
من الناس . . فكأن لهم سلطانا على الناس .ويدل - ثانيا - على طبيعة هذا
الدين ، وشمول منهجه للحياة الواقعية ، وشئونها العملية ، وإقامتها على
. . الأساس الأخلاقى الأصيل فى طبيعة هذا المنهج الإلهى القويم

كلا ان كتاب الفجار لفي سجين

، كما فسرها الوسيط ثم زجر - سبحانه - هؤلاء الفاسقين عن أمره زجرا شديدا
وتوعدهم بالعذاب الشديد ، فقال - تعالى - : ( كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الفجار
، لَفِي سِجِّينٍ ) .وقوله : ( كلا ) حرف ردع وزجر ، وما بعده كلام مستأنف
وقد تكرر فى الآيات التى معنا ثلاث مرات ، والمراد به هنا : ردعهم وزجرهم
عما كانوا فيه من الشرك ، والتطفيف فى الكيل والميزان .والفجار : جمع فاجر
وهو مأخوذ من الفجور ، وهو شق الشئ شقا واسعا ، وسمى الفجار بذلك مبالغة ،
فى هتكهم لحرمات الله ، وشقهم لستر الشريعة ، بدون خوف أو وجل . يقال : فجر
- فلان فجورا فهو فاجر ، وهم فجار وفجرة ، إذا تجاوزوا كل حد أمر الله
تعالى - بالوقوف عنده . والمراد بالكتاب المكتوب . أى : صحيفة الأعمال
والسجِّين : اختلفوا في معناه على أقوال منها : أنه علم أو وصف لواد فى.
جهنم ، صيغ بزنة فِعِّيل - بكسر الفاء مع تشديد العين المكسورة - ، مأخوذ
- من السّجن بمعنى الحبس . يقال : سجن الحاكم فلانا يسجنه - بضم الجيم
سجنا ، إذا حبسه .قال ابن كثير : قوله : ( كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الفجار
لَفِي سِجِّينٍ ) أى : إن مصيرهم ومأواهم لفى سجين - فعيل من السّجن ، وهو
الضيق - ، كما يقال : فلان فسيق وشريب وخمير وسكير ونحو ذلك ، ولهذا عظم
أمره فقال : ( وَمَآ أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ).

وما ادراك ما سجين

، كما فسرها الوسيط ( وَمَآ أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ).؟ أى : هو أمر عظيم
وسجن مقيم ، وعذاب أليم .ثم قد قال قائلون : هو تحت الأرض السابعة . . وقيل
بئر فى جهنم .والصحيح أن " سجينا " مأخوذ من السّجن ، وهو الضيق ، فإن :
المخلوقات كل ما تسافل منها ضاق ، وكل ما تعالى منها اتسع . . ولما كان
مصير الفجار إلى جهنم ، وهى أسفل سافلين .قال - سبحانه - : ( كَلاَّ إِنَّ
كِتَابَ الفجار لَفِي سِجِّينٍ ) وهو يجمع الضيق والسفول . .أى : كلا ، ليس
الأمر كما يزعم هؤلاء المشركون من أ ، ه لا بعث ولا جزاء ، بل الحق أن
البعث أمر واقع ، ماله من دافع ، وأن ما عمله هؤلاء الفجار من كفر ومن
تطفيف فى الكيل والميزان ، لمكتوب فى صحائف أعمالهم ، ومسجل عليهم فى ديوان
الشر الذى يوصلهم إلى قاع جهنم .وقوله : ( وَمَآ أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ )
تهويل وتفظيع لهذا الشئ الضيق الذى يؤدى إلى القذف بهم فى أعماق جهنم
وقوله : ( كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ) خبر لمبتدأ محذوف يعود إلى " كتاب الفجار.
والمرقوم : المكتوب كتابة واضحة بينة تشبه الخط . الظاهر فى الثوب "
المنسوج .يقال : رقم فلان الكتاب ، إذا جعل له رقما ، أى : علامة يعرف بها
أى : وهو - أى : كتاب الفجار - كتاب بين الكتابة ، يفهم صاحبه ما فيه فهما.

واضحا لا خفاء معه ولا التباس . فقوله : ( كِتَابٌ مّرْقُومٌ ) بيان وتفسير لكتاب الفجار ، وهو ديوان الشر الجامع لأعمالهم السيئة .

كتاب مرقوم

كما فسرها الوسيط ومنهم من جعل قوله - تعالى - : ( كِتَابٌ مّرْقُومٌ ) ليس تفسيرا لكتاب الفجار ، وإنما هو تفسير لقوله ( سجين ) .قال الشوكانى ما ملخصه : وسجين هو ما فسره به - سبحانه - من قوله ( وَمَآ أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ . كِتَابٌ مّرْقُومٌ ) فأخبر بهذا أنه كتاب مرقوم ، أى : مسطور ومنهم من جعله بيانا وتفسيرا لكتاب المذكور فى قوله ( إِنَّ كِتَابَ الفجار ) على تقدير : هو كتاب مرقوم ، أى : قد بينت حروفه .والأَوْلَى ما ذكرناه أولا ، ويكون المعنى : إن كتاب الفجار الذين من جملتهم المطففون . . لفى ذلك الكتاب المدون للقبائح ، المختص بالشر ، وهو سجين ، ثم ذكر ما يدل على تهويله ، فقال : ( وَمَآ أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ) ثم بينه بقوله ( كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ) .وعلى أية حال ، فالمقصود بيان المصير السئ الذى ينتظر هؤلاء الفجار ، حيث سجلت عليهم أعمالهم فى ديوان الشر الذى يجمع أعمالهم القبيحة ، والتى ستؤدى بهم إلى السجن الدائم ، وإلى العذاب المقيم .

ويل يومئذ للمكذبين

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ) وعيد وتهديد لأولئك المنكرين للبعث ، والذين من صفاتهم تطفيف الكيل والميزان . أى : هلاك عظيم ، وعذاب أليم ، وسجن دائم فى قاع جهنم ، لأولئك المكذبين ، للبعث والحساب والجزاء .

الذين يكذبون بيوم الدين

كما فسرها الوسيط ثم فصل - سبحانه - هذا التكذيب فقال : ( الذين يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدين ) أى : يكذبون بيوم القيامة وما فيه من ثواب وعقاب .

وما يكذب به الا كل معتد اثيم

كما فسرها الوسيط ( وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ ) أى : بيوم الدين ( إِلاَّ كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ) أى : وما يكذب بهذا اليوم إلا كل إنسان متجاوز الحدود المشروعة ، ومبالغ فى ارتكاب الآثام والقبائح .

اذا تتلى عليه اياتنا قال اساطير الاولين

كما فسرها الوسيط هذا المكذب بيوم القيامة من صفاته - أيضا - أنه ( إِذَا تتلى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأولين ) .أى : إذا تقرأ على هذا الكتاب آياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا وصدق رسولنا . . قال هذه الآيات هى من أساطير الأقوام الأولين وترهاتهم وقصصهم المخترعة التى لا أصل لها .فأنت ترى أن هؤلاء المكذبين ، قد وصفهم الله -تعالى - بثلاث صفات هى : الاعتداء على الحق . والمبالغة فى ارتكاب الآثام ، والجرأة فى الافتراء والكذب ، حيث وصفوا القرآن بأنه ليس من عند الله - تعالى - .

كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - الأسباب التى حملتهم على أن يقولوا فى القرآن ما قالوا ، فقال : ( كَلاَّ بَلْ رَانَ على قُلُوبِهِمْ مّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ) .وقوله : ( بَلْ رَانَ ) قرأه الجمهور بإدغام اللام فى الراء بعد قلبها راء لتقارب مخرجيهما ، وقرأه عاصم بالوقف الخفيف على لام بل والابتداء بكلمة ران بدون إدغام .وقوله : ( كَلاَّ إِنّهُمْ عَن رّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لّمَحْجُوبُونَ ) بيان لسوء مصيرهم يوم القيامة وكلا هنا تأكيد لسابقتها لزيادة الردع والزجر ، ويصح أن تكون كلا هنا بمعنى حقا .أى : حقا إن هؤلاء الفجار سيكونون يوم القيامة فى حالة احتجاب وامتناع عن رؤية الله - تعالى - وعن رضاه .

كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون

كما فسرها الوسيط قال الآلوسى : " كلا " ردع وزجر عن الكسب الرائن ، أو بمعنى حقا " إنهم " . أى : هؤلاء المكذبين ( عَن رّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ

، لَّمَحْجُوبُون )لا يرونه - سبحانه - وهو - وعز وجل - حاضر ناظر لهم
بخلاف المؤمنين ، فالحجاب : مجاز عن عدم الرؤية ، لأن المحجوب لا يرى ما
حجب ، و الحجب المنع ، والكلام على حذف مضاف . أى : عن رؤية ربهم لممنوعن
فلا يرونه - سبحانه - .واحتج مالك - رحمه الله - بهذه الآية ، على رؤية
المؤمنين له - تعالى - ، من جهة دليل الخطاب ، وإلا فلو حجب الكل لما أغنى
هذا التخصيص .وقال الشافعى - رحمه الله - : لما حجب - سبحانه - قوما بالسخط
. . دل على أن قوما يرونه بالرضا

ثم انهم لصالو الجحيم

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( ثُمّ إِنّهُمْ لَصَالُواْ الجحيم
ثُمّ يُقَالُ هذا الذي كُنتُمْ بِهِ تُكَذّبُونَ ) .بيان للون آخر من .
سوء مصيرهم .أى : أن هؤلاء المكذبين سيكونون يوم القيامة محجوبين عن رؤية
الله - تعالى - لسخطه عليهم ، وممنوعين من رحمته ، ثم إنهم بعد ذلك لداخلون
فى أشد طبقات النار حرا . . ثم يقال لهم بواسطة خزنة جهنم على سبيل التقريع
. والتأنيب

ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون

كما فسرها الوسيط هذا هو العذاب الذي كنتم به تكذبون فى الدنيا ، وتقولون
لمن يحذركم منه : ( وَيَقُولُونَ متى هذا الوعد إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ )
فأنت ترى أن هذه الآيات الكريمة قد اشتملت على أشد ألوان الإهانة؛ لأنها
أخبرت أن هؤلاء المكذبين : محجوبون عن ربهم ، وأنهم مقاسون حر جهنم ، وأنهم
. لا يقابلون من خزنتها إلا بالتيئيس من الخروج منها ، وبالتأنيب والتقريع

كلا ان كتاب الابرار لفي عليين

، كما فسرها الوسيط وكعادة القرآن الكريم فى قرن الترهيب بالترغيب ، والعكس
، ساقت السورة الكريمة بعد ذلك ، ما أعده - سبحانه - للأبرار من خير وفير
ومن نعيم مقيم ، فقال - تعالى - :( كَلاّ إِنّ كِتَابَ الأبرار . . . )
قوله : ( كلا ) هنا ، تكرير للردع والزجر اسابق فى قوله - تعالى - قبل ذلك.
لبيان ما يقابل ذلك من أن كتاب ( إِنّ كِتَابَ الفجار لَفِي سِجّينٍ ) :
الأبرار فى عليين .ولفظ " عليين " جمع عِلِّى - بكسر العين وتشديد اللام
المكسورة - من العلو . ويرى بعضهم أن هذا اللفظ مفرد ، وأنه اسم للديوان
الذى تكتب فيه أعمال الأبرار .قال صاحب الكشاف : وكتاب الأبرار : ما كتب من
أعمالهم وعليون : علم لديوان الخير ، الذى دون فيه كل ما عملته الملائكة
وصلحاء الثقلين . منقول من جمع " عِلِّى " بزنة فِعِّيل - بكسر الفاء
والعين المشددة - من العلو ، كسِجِّين من السجن . سمى بذلك إما لأنه سبب
. الارتفاع إلى أعلى الدرجات فى الجنة ، وإما لأنه مرفوع فى السماء السابعة
تكريما له وتعظيما . .أى : حقا إن ما كتبته الملائكة من أعمال صالحة .
. للأتقياء الأبرار ، لمثبت فى ديوان الخير ، الكائن فى أعلى مكان وأشرفه

وما ادراك ما عليون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَمَآ أَدْرَاكَ مَا عِلّيّونَ )
. تفخيم لشأن هذا الديوان ، وتنويه عظيم بشرفه

كتاب مرقوم

كما فسرها الوسيط وقوله : ( كِتَابٌ مّرْقُومٌ ) تفسير لما كتب لهؤلاء
الأبرار من خير وبركة ، أى : كتاب الأبرار كتاب واضح بين ، يقرؤه أصحابه
. بسهولة ويسر ، فتنشرح صدورهم ، وتقر عيونهم

يشهده المقربون

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - ( يَشْهَدُهُ المقربون ) أى : يطلع عليه
الملائكة المقربون من الله - تعالى- ، ليكون هذا الاطلاع شهادة لهؤلاء
. الأبرار ، بأنهم محل رضا الله - تعالى - وتكريمه وثوابه

ان الابرار لفي نعيم

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - حالهم فى الجنة ، بعد بيانِ ما اشتمل
عليه كتابهم من خير وبر فقال - تعالى - : ( إِنّ الأبرار لَفِي نَعِيمٍ )
. أى : لفى نعيم دائم ، لا يحول ولا يزول

على الارائك ينظرون

- كما فسرها الوسيط ( عَلَى الأرآئك يَنظُرُونَ ) والأرائك : جمع أريكة بزنة سفينة - وهى اسم للسرير الذى يكون مفروشا فرشا أنيقا جميلا .أى : هم فى نعيم دائم لا يقادر قدره ، وهم - أيضا - يجلسون على السرر المهيأة لجلوسهم تهيئة حسنة ، ينظرون إلى كل ما يدخل البهجة والسرور على نفوسهم وحذف مفعول " ينظرون " لقصد التعميم . أى : ينظرون إلى كل ما يبهج نفوسهم. .

تعرف في وجوههم نضرة النعيم

كما فسرها الوسيط ( تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النعيم ) أى : تعرف فى وجوههم - أيها الناظر إليهم - البهجة والحسن ، وصلاح البال ، وهناءة العيش .وإضافة النضرة - وهى الجمال الواضح - إلى النعيم - الذى هو بمعنى التنعم والترفه - من إضافة المسبب إلى السبب . وهذه الجملة الكريمة صفة ثالثة من صفات هؤلاء الأبرار .

يسقون من رحيق مختوم

) : - كما فسرها الوسيط ثم تأتى الصفة الرابعة المتمثلة فى قوله - تعالى يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ) .والرحيق : اسم للخمر الطيبة الصافية الخالية من كل ما يكدر أو يذهب العقل .والمختوم : أى المسدود الذى لم تمسه يد قبل أيدى هؤلاء الأبرار .

ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون

كما فسرها الوسيط وقوله : ( خِتَامُهُ مِسْكٌ ) وقرأ الكسائى ( خاتمه ) والخاتم والختام يتقاربان فى المعنى إلا أن الخاتم الاسم ، والختام المصدر واسم الإشارة فى قوله - تعالى - : ( وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ. . المتنافسون ) يعود للرحيق المختوم ، الدال على صلاح بالهم ، وحسن أحوالهم ، وأصل التنافس : التغالب فى الشئ النفيس ، وهو الذى تحرص عليه النفوس. بحيث يبتغيه ويطلبه كل إنسان لنفسه خاصة . يقال : نفس فلان على فلان بهذا الشئ - كفرح - إذا بخل به عليه . أى : ومن أجل الحصول على ذلك الرحيق ، المختوم ، والنعيم المقيم . . فليرغب الراغبون ، وليتسابق المتسابقون وليتنافس المتنافسون فى وجوه الخير . عن طريق المسارعة فى تقديم الأعمال التى ترضى الله - تعالى - .فالمقصود من الآية الكريمة : تحريض الناس وحضهم على تقديم العمل الصالح ، الذى يوصلهم يوم القيامة إلى أعلى الدرجات .

ومزاجه من تسنيم

. كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا المقربون ) صفة ثالثة من صفات هذا الرحيق .والمزاج ما يمزج به الشئ ، ويطلق على الممزوج بالشئ - كما هنا - فهو من إطلاق : المصدر على المفعول .والتسنيم : علم لعين فى الجنة مسماة بهذا الاسم ، وهذا اللفظ مصدر سنمه إذا رفعه . يقال : سنم فلان الطعام . إذا جعله كهيئة السنام فى ارتفاعه .قالوا : وسميت هذه العين بهذا الاسم ، لأنها تنبع من مكان مرتفع ، أو لعلو مكانتها .

عينا يشرب بها المقربون

كما فسرها الوسيط وقوله : ( عينا ) منصوب على المدح .أى : ومزاج هذا الرحيق وخليطه كائن من ماء لعين فى الجنة ، مرتفعة المكان والمكانة ، هذه العين يشرب منها المقربون إلى الله - تعالى- شرابهم .قال الآلوسى : والباء فى قوله ( بها ) إما زائدة . أى يشربها . أو بمعنى من . أى : يشرب منها ، أو على تضمين يشرب معنى يروى . أى : يشرب راوين بها . أى يروى بها المقربون . ، وإلى هنا نجدد أن هذه الآيات الكريمة قد بشرت الأبرار ببشارات متعددة. بشرتهم بأن صحائف أعمالهم فى أعلى عليين ، وبأنهم فى تعيم مقيم ، وبأنهم ينظرون إلى كل ما يشرح صدورهم ، وبأن الناظر إليهم يرى آثار النعمة والرفاهية على وجوههم ، وبأن شرابهم من خمر طيبة لذيذة الطعم والرائحة .

ان الذين اجرموا كانوا من الذين امنوا يضحكون

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - جانبا من الرذائل التى كان يفعلها

. . المشركون مع المؤمنين ، وبشر المؤمنين بأن العاقبة الطيبة ستكون لهم
فقال - تعالى - :( إِنَّ الذين أَجْرَمُواْ . . . ) .قد ذكر المفسرون فى
سبب نزول هذه الآيات ، أن بعض المشركين - كأبى جهل والعاص بن وائل - كانوا
) - يستهزئون من فقراء المسلمين كصهيب وعمار بن ياسر .وقوله - سبحانه
. أَجْرَمُواْ ) من الإجرام ، وهو ارتكاب الجرم . ويطلق على الإثم العظيم
والذنب الكبير ، والمراد بإجرامهم هنا : كفرهم بالله - تعالى - واستهزائهم
بالمؤمنين . أى : إن الذين ارتكبوا فى دنياهم أقبح الجرائم وأشنعها ، وهم
زعماء المشركين ( كَانُواْ ) فى الدنيا ( مِنَ الذين آمَنُواْ يَضْحَكُونَ
أى : كانوا فى حياتهم يتهكمون بالمؤمنين ، ويسخرون منهم ، ويعتبرونهم (
. الأراذل الذين يجب الابتعاد عنهم

واذا مروا بهم يتغامزون

كما فسرها الوسيط ( وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ) أى : وإذا مر
هؤلاء المجرمون بالمؤمنين سخروا منهم ، وتغامزوا فيما بينهم على سبيل
الاستهزاء بفقراء المؤمنين .والتغامز : تفاعل من الغمز وهو الإشارة
بالجفون والحواجب على سبيل الطعن والتهكم .أى : يغمز أحدهم الآخر لينبه إلى
ما عليه فقراء المسلمين من شظف العيش ، ومن غير ذلك من الأحوال التى لا
. يرضاها المشركون لجهلهم وغرورهم وبلادة حسهم

واذا انقلبوا الى اهلهم انقلبوا فكهين

كما فسرها الوسيط ( وَإِذَا انقلبوا إلى أَهْلِهِمُ انقلبوا فَكِهِينَ ) أى
وإذا رجع هؤلاء المجرمون إلى أهلهم من مجالسهم التى كانوا فيها . . رجعوا :
متلذذين باستخفافهم بالمؤمنين . والسخرية منهم .فهم لإيغالهم فى الكفر
والفسوق والعصيان ، لا يكتفون بالغمز واللمز عندما يرون المؤمنين ، بل
يجعلونهم عند عودتهم إلى أهليهم ، مادة تفكههم وضحكهم .فقوله : ( فَكِهِينَ
جمع فكه ، صفة مشبهة ، وهى قراءة حفص عن عاصم .وقرأ الجمهور ( فاكهين ) (
اسم فاعل : من فكه - بزنة - فرح - إذا مزح فى كلامه ليضحك أو يضحك غيره
وحذف متعلق " فكهين " للعلم به . أى : رجعوا فكهين بسبب حديثهم عن.
. المؤمنين

واذا راوهم قالوا ان هؤلاء لضالون

كما فسرها الوسيط وقوله : ( وَإِذَا رَأَوْهُمْ قالوا إِنَّ هؤلاء
لَضَالُّونَ ) أى : أن هؤلاء الذين أجرموا ، لا يكتفون بغمز المؤمنين
، ولمزهم وجعلهم مادة السخرية فى أحاديثهم مع أهليهم .بل إنهم تجاوزوا ذلك
فهم عندما يرون المؤمنين يقولون عنهم : هؤلاء هم الضالون ، لأنهم تركوا دين
آبائهم وأجدادهم ، ودخلوا فى دين آخر .فمرادهم بالضلال : فساد الرأى . وعدم
. البقاء على دينهم القديم .وهكذا الأشرار يرون أن أهل الحق والتقى فى ضلال

وما ارسلوا عليهم حافظين

كما فسرها الوسيط وجملة : ( وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ )
جملة حالية من الضمير فى ( قالوا ) .أى : قالوا إن هؤلاء المؤمنين الضالون
، والحال أن هؤلاء المشركين ما أرسلهم الله - تعالى - ليكونوا وكلاء عنه ،
حتى يحكموا على هذا الفريق بالضلال . وعلى غيره بالرشاد .فالمقصود بالآية
الكريمة : تأنيب الذين أجرموا وتوبيخهم على تصرفاتهم ، لأن الحكم على الغير
بالهداية والضلال . هم ليسوا أهلا له إطلاقا؛ لأن الله - تعالى - لم يكلفهم
بذلك ، وإنما كلفهم بإتباع الرسول الذى أرسله - سبحانه - لهدايتهم .فحكمهم
. على المؤمنين بالضلال يدل على نهاية الغرور والجهل

فاليوم الذين امنوا من الكفار يضحكون

كما فسرها الوسيط ثم ببشر الله - تعالى - المؤمنين بما سيكونون عليه يوم
. القيامة من نعيم فقال : ( فاليوم الذين آمَنُواْ مِنَ الكفار يَضْحَكُونَ
عَلَى الأرآئك يَنظُرُونَ )والفاء فى قوله ( فاليوم ) للسببية ، والمراد
باليوم : يوم الجزاء والحساب .أى : فبسبب استهزاء الذين أجرموا من المؤمنين
فى الدنيا ، كافأ الله - تعالى - المؤمنين على صبرهم ، بأن جعلهم يوم
القيامة يضحكون من الكفار حين يرونهم أذلاء مهانين ، كما كان الكفار يضحكون
، من المؤمنين فى الدنيا .فالمقصود من الآية الكريمة تسلية المؤمنين
: وتبشيرهم بأنهم سيأخذون بثأرهم من المشركين عما قريب . . وأنهم - أى
. المؤمنين - سيكونون يوم القيامة على سرر قد فرشت بأجمل الفراش

على الارائك ينظرون

. كما فسرها الوسيط وأنهم لا ينظرون إلا إلى ما يسرهم ويبهج نفوسهم

هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بقوله : ( هَلْ ثُوِّبَ الكفار مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ) .والاستفهام للتقرير . وقوله : ( ثوب ) من التثويب والإثابة ، أى المجازاة .يقال : ثوب فلان فلانا وأثابه ، بمعنى جازاه المجازاة اللائقة به .والمعنى : لقد جوزى الكفار بالجزاء المناسب ، لتهكمهم بالمؤمنين فى الدنيا ، فقد أنزلنا بهم ما يستحقونه من عقاب أليم جزاء وفاقا .وجاء الجزاء بأسلوب الاستفهام ، لتأكيد هذا الجزاء ، حتى لكأن المخاطب هو الذى نطق بهذا الجزاء العادل الذى استحقه الكافرون . ولبيان أن عدالة الله - تعالى - تقتص من المعتدين مهما طالت بهم الحياة .والتعبير بثوب - مع أنه أكثر ما يستعمل فى الخير - إنما هو من باب التهكم بهم ، كما فى قوله - تعالى - : ( فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ) نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا من عباده المؤمنين الصادقين .وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

اذا السماء انشقت

، كما فسرها الوسيط قوله : ( انشقت ) من الانشقاق بمعنى الانفطار والتصدع بحيث تتغير هيئتها . ويختل نظامها . كما قال - تعالى - : ( يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرض غَيْرَ الأرض والسماوات وَبَرَزُواْ لِلَّهِ الواحد الْقَهَّارِ ) وانشقاق السماء قد ورد فى آيات متعددة منها قوله - تعالى - : وقوله - سبحانه - : ( فَإِذَا انشقت ( وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السمآء بالغمام ) السمآء فَكَانَتْ وَرْدَةً كالدهان )

واذنت لربها وحقت

كما فسرها الوسيط ومعنى " أذنت " : استمعت . يقال : أذن له ، بمعنى استمع له بإصغاء تام - وبابه طرب - وفى الحديث الصحيح : " ما أذن الله لشئ إذنه لنبى يتغنى القرآن " ، وقال الشاعر :صمٍّ إذا سمعوا خيرا ذكرتُ به ... وإن ذُكِرْتُ بسوء عندهم أذنواوجملة " وحقت " معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه ، أى : إذا السماء تصدعت واختل نظامها ، واستمعت لأمر ربها استماعاً تاما . وانقادت لحكمة انقياد العبد لسيده ، وجعلت حقيقة وجديرة بالانقياد والاستماع والطاعة فى جميع الأحوال .

واذا الارض مدت

كما فسرها الوسيط ( وَإِذَا الأرض مُدَّتْ ) أى : بسطت وتساوت بحيث صارت فى مستوى واحد ، بدون ارتفاع فى جانب أو انخفاض فى آخر ، كما قال - تعالى - : ( لاَّ ترى فِيهَا عِوَجاً ولا أَمْتاً )

والقت ما فيها وتخلت

كما فسرها الوسيط ( وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ) أى : وطرحت ما بداخلها من أجساد ومن كنوز ، ومن غيرهما ، وخلت من ذلك خلوا تاما .

واذنت لربها وحقت

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

يا ايها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه

كما فسرها الوسيط ثم وجه - سبحانه بعد ذلك نداء للإنسان ، دعاه فيه إلى طاعته وإخلاص العبادة له ، فقال : ( ياأيها الإنسان إِنَّكَ كَادِحٌ إلى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاَقِيهِ ) والمراد بالإنسان هنا : جنسه .وأصل الكدح فى كلام العرب : السعى فى سبيل الحصول على الشئ بجد واجتهاد وعناء .مأخوذ من كدح فلان جلده ، إذا خدشه ، ومنه قول الشاعر :وما الدهر إلا تارتان فمنهما ... أموت ، وأخرى أبتغى العيش أكدحُوقول الآخر :ومضت بشاشة كل عيش صالح ... وبقيت أكدح للحياة وأنْصِبُأى : وبقيت أسعى سعيا حثيثا للحياة ، وأتعب من أجل الحصول على مطالبى فيها .والضمير فى قوله : ( فَمُلاَقِيهِ ) يعود إلى الله - تعالى - ، ويصح أن يعود للكدح ، بمعنى ملاق جزاء هذا الكدح

والمعنى : يأيها الإنسان إنك اباذل فى حياتك جهدا كبيرا من أجل مطالب. نفسك .وإنك بعد هذا الكدح والعناء . . مصيرك فى النهاية إلى لقاء ربك ، حيث يحاسبك على عملك وكدحك . . فقدم فى دنياك الكدح المشروع ، والعمل الصالح والسعى الحثيث فى طاعته - تعالى - ، لكى تنال ثواب ربك ورضاه .قال ابن. كثير : وقوله : ( ياأيها الإنسان إِنَّكَ كَادِحٌ إلى رَبِّكَ كَدْحاً ) أى ساع إلى ربك سعيا ، وعامل عملا ( فَمُلاَقِيهِ ) ثم إنك ستلقى ما عملت من : خير أو شر .ويشهد لذلك ما رواه أبو داود الطيالسى . . عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قال جبريل : يا محمد ، عش ما شئت فإنك ميت ، وأحبب ما شئت فإنك مفارقه ، واعمل ما شئت فإنك ملاقيه " .ومن الناس ، من يعيد الضمير على قوله ( رَبِّكَ ) أى : فملاق ربك فيجازيك بعملك ويكافئك على سعيك ، وعلى هذا فكلا القولين متلازم .

فاما من اوتي كتابه بيمينه

كما فسرها الوسيط ثم فصل - سبحانه - بعد ذلك عاقبة هذا الكدح ، والسعى المتواصل . . فقال - تعالى - : ( فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ . فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً . وَيَنقَلِبُ إلى أَهْلِهِ مَسْرُوراً ) .والمراد بالكتاب هنا : صحيفة العمل التى سجلت فيها حسنات الإنسان وسيئاته .

فسوف يحاسب حسابا يسيرا

كما فسرها الوسيط والمراد بالحساب اليسير : عرض الأعمال ، مع التجاوز عن الهفوات ، بفضل الله - تعالى - : أى : الناس جميعا يكدحون فى هذه الحياة ، ثم يعودون إلى خالقهم للحساب والجزاء ، فأما من أعطى كتابه بيمينه ، وهم المؤمنون الصادقون فسوف يحاسب من ربه - تعالى - حسابا يسيرا سهلا ، بأن تعرض أعماله على خالقه - تعالى - ثم يكون التجاوز عن المعاصى والثواب على الطاعة ، بدون مناقشة أو مطالبة بعذر أو حجة .

وينقلب الى اهله مسرورا

كما فسرها الوسيط ثم ينقلب هذا الإنسان بعد ذلك إلى أهله وعشيرته ، مبتهجا مسرورا ، بسبب فضل الله - تعالى - عليه ، ورحمته به .وعبر - سبحانه - عن فوز هذا الإنسان : بأنه يؤتى كتابه بيمينه ، للإشعار بأنه من أهل السعادة والتقوى ، فقد جرت العادة أن اليد اليمنى إنما تتناول بها الأشياء الزكية الحسنة . والباء فى قوله ( بيمينه ) للملابسة أو المصاحبة ، أو بمعنى فى قال الآلوسى : والحساب اليسير : هو السهل الذى لا مناقشة فيه . وفسره صلى. الله عليه وسلم بالعرض وبالنظر فى الكتاب ، مع التجاوز ، أخرج الشيخان عن عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " ليس أحد يحاسب إلا هلك " قلت يا رسول الله ، جعلنى الله فداك ، أليس الله - تعالى - يقول ( فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ .فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً ) ، قال : ذلك العرض يعرضون ومن نوقش الحساب هلك " .وأخرج الإمام أحمد عن عائشة - أيضا - قالت : " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى بعض صلاته : " اللهم حاسبنى حسابا يسيرا " فلما انصرف قلت له : يا رسول الله ، " ما الحساب اليسير؟ قال : " أن ينظر فى كتابه فيتجاوز له عنه " .

واما من اوتي كتابه وراء ظهره

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - حال الأشقياء ، بعد بيانه لحال السعداء فقال : (وَأَمّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَآءَ ظَهْرِهِ . فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُوراً . ويصلى سَعِيراً ) . أى : وأما من أعطى صحيفة أعماله - لسوادها وقبح أعمالها - بشماله من وراء ظهره وهو الكافر - والعياذ بالله - قيل تغل يمناه إلى عنقه ، وتجعل شماله وراء ظهره ، على سبيل الإهانة والإذلال له .

فسوف يدعو ثبورا

كما فسرها الوسيط ( فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُوراً ) أى : فسوف يطلب الهلاك ، بأن ينادى عليه بحسرة وندامة ويقول : أيها الموت أقبل فهذا أوانك ، لتنقذنى مما أنا فيه من سوء .وفى طلبه للهلاك ، وتفضيله على ما هو فيه ، دليل على أن هذا الشقى - والعياذ بالله - قد وصل به الحال السيئ إلى أقصى مداه ، حتى لقد أصبح الهلاك نهاية أمانية ، كما قال الشاعر :كفى بك داء أن ترى الموت شافيا .. وحسب المنايا أن يكن أمانيا فالمراد بالدعاء فى قوله ( يَدْعُواْ ثُبُوراً ) النداء . والثبور : الهلاك ، بأن يقول : يا ثبوراه أقبل فهذا

. أوان إقبالك

ويصلى سعيرا

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - ( ويصلى سَعِيراً ) بيان للعذاب الذى يحل
. به . أى : ويدخل النار الشديدة الاشتعال فيتقلب فيها ، ويقاسى حرها

انه كان في اهله مسرورا

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً
إِنّهُ ظَنّ أن لّن يَحُورَ ) تعليل لما أصابه من سوء . أى : إن هذا .
الشقى كان فى الدنيا فرحا بطرا بين أهله ، لا يفكر فى عاقبة ، ولا يعمل
حسابا لغير ملذاته وشهواته ، وإنه فوق ذلك ( ظن ) أى : أيقن أنه لن يرجع
. إلى ربه يوم القيامة ، ليحاسبه على أعماله ، ويجازيه بما يستحقه من جزاء

انه ظن ان لن يحور

كما فسرها الوسيط قال القرطبى : قوله ( إِنّهُ ظَنّ أَن لّن يَحُورَ )
أى : لن يرجع حيا مبعوثا فيحاسب . ثم يثاب أو يعاقب . يقال : حار فلان يحور
إذا رجع ، ومنه قول لبيد :وما المرء إلا كالشهاب وضوئه ... يحور رمادا بعد
إذ هو ساطعفالحور فى كلام العرب : ومنه قوله صلى الله عليه وسلم " اللهم
إنى أعوذ بك من الحَوْر بعد الكَوْر " يعنى : من الرجوع إلى النقصان بعد
. . الزيادة

بلى ان ربه كان به بصيرا

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( بلى إِنّ رَبّهُ كَانَ بِهِ
بَصِيراً ) إيجاب لما نفاه ، وإثبات لما استبعده ، وجملة " إن ربه " بمنزلة
التعليل لما أفادته بلى من إبطال لما نفاه .أى : ليس الأمر كما زعم من أنه
لن يبعث ولن يرجع إلى ربه . . بل الحق الذى لا يشوبه باطل ، أن هذا الشقى
- سيرجع إلى ربه يوم البعث والنشور ، ليجازيه على أعماله ، لأنه - سبحانه
- كان - وما زال - عليما بأحوال هذا الشقى وغيره ، إذ لا يخفى عليه
سبحانه - شئ فى الأرض ولا فى السماء .فالمراد بالبصر هنا : العلم التام
. بأحوال الخلق

فلا اقسم بالشفق

كما فسرها الوسيط ثم أقسم - سبحانه - ببعض مخلوقاته ، على أن مشيئته نافذة
. وقضاءه لا يرد ، وحكمه لا يتخلف . فقال : ( فَلاَ أُقْسِمُ بِالشفق ،
والليل وَمَا وَسَقَ . والقمر إِذَا اتسق . لَتَرْكَبُنّ طَبَقاً عَن
طَبَقٍ ) .والفاء فى قوله ( فَلاَ أُقْسِمُ ) واقعة فى جواب شرط مقدر ، وهى
التى يعبر عنها بالفصيحة ، و "لا " مزيدة لتأكيد القسم ، وجوابه " لتركبن
والشفق : الحمرة التى تظهر فى الأفق الغربى بعد غروب الشمس ، وهو ضياء. "
من شعاعها ، وسمى شفقا لرقته ، ومنه الشفقة لرقة القلب .أى : أقسم بالحمرة
التى تظهر فى الأفق العربى ، بعد غروب الشمس ، وبالليل وما يضمه تحت جناحه
من مخلوقات وعجائب لا يعلمها إلا الله - تعالى - وبالقمر إذا ما اجتمع نوره
وأكتمل ضاؤه ، وصار بدرا متلألئاً .وفى القسم بهذه الأشياء ، دليل واضح ،
، على قدرة الله - تعالى - الباهرة ، لأن هذه الأشياء تتغير من حال إلى حال
ومن هيئة إلى هيئة . . فالشفق حالة تأتى فى أعقاب غروب الشمس ، والليل يأتى
بعد النهار ، والقمر يكتمل بعد نقصان . . وكل هذه الحالات الطارئة ، دلائل
. - على قدرة الله - تعالى

والليل وما وسق

كما فسرها الوسيط والوسق : جمع الأشياء ، وضم بعضها إلى بعض . يقال : وسَق
: الشئَ يسِقُه - كضرب - إذا جمعه فاجتمع ، ومنه قولهم : إبل مستوسقة ، أى
مجتمعة ، وأمر متسق . أى : مجتمع على ما يسر صاحبه ويرضيه .أى : أقسم
بالحمرة التى تظهر فى الأفق العربى ، بعد غروب الشمس ، وبالليل وما يضمه
تحت جناحه من مخلوقات وعجائب لا يعلمها إلا الله - تعالى - وبالقمر إذا ما
، اجتمع نوره ، وأكتمل ضاؤه ، وصار بدرا متلألئاً .وفى القسم بهذه الأشياء
دليل واضح على قدرة الله - تعالى - الباهرة ، لأن هذه الأشياء تتغير من حال
، إلى حال ، ومن هيئة إلى هيئة . . فالشفق حالة تأتى فى أعقاب غروب الشمس
والليل يأتى بعد النهار ، والقمر يكتمل بعد نقصان . . وكل هذه الحالات
. - الطارئة ، دلائل على قدرة الله - تعالى

والقمر اذا اتسق

كما فسرها الوسيط واتساق القمر : اجتماع ضيائه ونوره ، وهو افتعال من الوسق وهو الجمع والضم ، وذلك يكون فى الليلة الرابعة عشرة من الشهر .أى : أقسم . بالحمرة التى تظهر فى الأفق العربى ، بعد غروب الشمس ، وبالليل وما يضمه تحت جناحه من مخلوقات وعجائب لا يعلمها إلا الله - تعالى - وبالقمر إذا ما ، اجتمع نوره ، وأكتمل ضاؤه ، وصار بدرا متلألئاً .وفى القسم بهذه الأشياء دليل واضح على قدرة الله - تعالى - الباهرة ، لأن هذه الأشياء تتغير من حال ، إلى حال ، ومن هيئة إلى هيئة . . فالشفق حالة تأتى فى أعقاب غروب الشمس والليل يأتى بعد النهار ، والقمر يكتمل بعد نقصان . . وكل هذه الحالات . - الطارئة ، دلائل على قدرة الله - تعالى

لتركبن طبقا عن طبق

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( لَتَرْكَبُنّ طَبَقاً عَن طَبَقٍ ) ، جواب القسم - كما سبق أن أشرنا - .والمراد بالركوب : الملاقاة والمعاناة والخطاب للناس ، والطبق جمع طبقة ، وهى الشئ المساوى لشئ آخر ، والمراد بها هنا : الحالة أو المرتبة ، وعن بمعنى بعد .أى : وحق الشفق ، والمراد بها هنا : الحالة أو المرتبة ، وعن بمعنى بعد .أى : وحق الشفق ، والليل وما وسق والقمر إذا اتسق . . لتلاقن - أيها الناس - أحوالا بعد أحوال ، هى طبقات ، ومراتب فى الشدة ، بعضها أصعب من بعض ، وهى الموت ، وما يكون بعده من حساب وجزاء يوم القيامة .قال الآلوسى ما ملخصه : قوله : ( لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً ، عَن طَبَقٍ ) خطاب لجنس الإنسان المنادى أولا ، باعتبار شموله لأفراده والمراد بالركوب : الملاقاة ، والطبق فى الأصل ما طابق غيره مطلقا .وخص فى " العرف بالحال المطابقة لغيرها . . و " عن " للمجاوزة ، أو بمعنى " بعد " والجار والمجرور متعلق بمحذوف صفة أو حالا من فاعل لتركبن ، والظاهر أن طبقا " منصوب على المفعولية ، أى : لتلاقن حالا كائنة بعد حال ، كل واحدة مطابقة لأختها فى الشدة والهول . . منها ما هو فى الدنيا ، ومنها ما هو فى - الآخرة .وقرأ الأخوان - حمزة الكسوائى - وابن كثير ( لتركبن ) بفتح الباء على أنه خطاب للإنسان - أيضا - ، ولكن باعتبار اللفظ ، لا باعتبار الشمول : وأخرج البخارى عن ابن عباس أنه خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ، أى. لتركبن - أيها الرسول الكريم - أحوال شريفة بعد أخرى من مراتب القرب . أو . . مراتب من الشدة بعد مراتب من الشدة ، ثم تكون العاقبة لك

فما لهم لا يؤمنون

كما فسرها الوسيط والفاء فى قوله - تعالى - بعد ذلك : ( فَمَا لَهُمْ لاَ . ( يُؤْمِنُونَ . وَإِذَا قُرِىءَ عَلَيْهِمُ القرآن لاَ يَسْجُدُونَ لترتيب ما بعدها من الإنكار والتعجيب على ما قبلها ، و " ما " للاستفهام ومن أن المستحق للعبادة هو الله - تعالى - وحده . . فأى شئ يمنع هؤلاء الكافرين من الإيمان ، مع أن كل الدلائل والبراهين تدعوهم إلى الإيمان فالمقصود من الآيتين الكريمتين تعجيب الناس من حال هؤلاء الكافرين الذين. قامت أمامهم جميع الأدلة على صدق الللرسول صلى الله عليه وسلم فيما يبلغه عن ربه ، ومع ذلك فهم مصرون على كفرهم وجحودهم وعنادهم .قال الآلوسى : وقد صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه سجد عند قراءة هذه الآية ، فقد أخرج مسلم وأبو داود والترمذى . . عن أبى هريرة قال : سجدنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ( إِذَا السمآء انشقت ) وفى ( اقرأ باسم رَبِّكَ . . ) وهى سنة عند الشافعى ، وواجبة عند أبى حنيفة . .أما الإمام مالك فالرواية الراجحة فى . مذهبه ، أن هذه الآية ليست من آيات سجود التلاوة

واذا قرئ عليهم القران لا يسجدون

كما فسرها الوسيط وأى : مانع منعهم من السجود والخضوع لله - عند ما يقرأ عليهم القرآن الكريم ، الذى أنزلناه عليك لإخراجهم من الظلمات إلى النور فالمقصود من الآيتين الكريمتين تعجيب الناس من حال هؤلاء الكافرين الذين. قامت أمامهم جميع الأدلة على صدق الللرسول صلى الله عليه وسلم فيما يبلغه عن ربه ، ومع ذلك فهم مصرون على كفرهم وجحودهم وعنادهم .قال الآلوسى : وقد صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه سجد عند قراءة هذه الآية ، فقد أخرج مسلم وأبو داود والترمذى . . عن أبى هريرة قال : سجدنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ( إِذَا السمآء انشقت ) وفى ( اقرأ باسم رَبِّكَ . . ) وهى سنة عند الشافعى ، وواجبة عند أبى حنيفة . .أما الإمام مالك فالرواية الراجحة فى . مذهبه ، أن هذه الآية ليست من آيات سجود التلاوة

بل الذين كفروا يكذبون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( بَلِ الذين كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ) إضرب انتقالى ، من التعجيب من عدم إيمانهم مع ظهور كل الأدلة على وجوب الإيمان ، إلى الإخبار عنهم بأنهم مستمرون على كفرهم ، أى : ليس هناك أى مانعَ الكافرين من الإيمان ، بعد أن قامت جميع الشواهد على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم ، بل الحق أن هؤلاء الكافرين إنما استمروا على كفرهم بسبب عنادهم وحسدهم للرسول صلى الله عليه وسلم على ما آتاه الله - تعالى - من فضله ، وتكذيبهم للحق عناداً وجحوداً .

والله اعلم بما يوعون

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( والله أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ) " كلام معترض بين سابقه ولا حقه ، والمقصود به التهديد والوعيد .ومعنى ، يوعون " يضمرون ويخفون ويسرون ، وأصل الإيعاء حفظ الأمتعة فى الوعاء : يقال : أوعى فلان الزاد والمتاع ، إذا جعله فى الوعاء ، والمراد به هنا ... الإضمار والإخفاء ، كما فى قوله الشاعر :والشر أخبث ما أوعيت من زاد أى : والله - تعالى - أعلم من كل أحد ، بما يضمره هؤلاء الكافرون ، وبما يخفونه فى صدورهم من تكذيب للحق ، ومن جحود للقرآن الكريم ، ومن معاداة للمؤمنين .

فبشرهم بعذاب اليم

كما فسرها الوسيط وقوله : ( فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ) تفريع على قوله : ( بَلِ الذين كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ) .والتبشير : الإخبار بام يسر ، والمراد به هنا التهكم بهم ، بدليل توعدهم بالعذاب الأليم .

الا الذين امنوا وعملوا الصالحات لهم اجر غير ممنون

كما فسرها الوسيط والاستثناء فى قوله - تعالى - : ( إِلاَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ) استثناء منقطع . أى هذا هو حال الكافرين ، لكن الذين آمنوا إيمانا حقا ، وقدموا فى دنياهم : الأعمال الصالحة ، فلهم فى الآخرة أجر غير مقطوع ، فقوله ( ممنون ) مِنْ مَنّ : إذا قطع يقال : مننت الحبل إذا قطعته ، أو لهم أجر خالص من شوائب الامتنان ، وهو أن يعطى الإنسان غيره عطاء ، ثم يتباهى عليه به .نسأ الله - تعالى - أن يجعلنا من عباده المؤمنين الصادقين .وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

والسماء ذات البروج

كما فسرها الوسيط قوله - تعالى - ( أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الموت وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ) أى : ولو كنتم فى قصور ، عظيمة محصنة .والمراد بها هنا : المنازل الخاصة بالكواكب السيارة ، ومداراتها الفلكية الهائلة ، وهى اثنا عشر منزلا : الحمل ، والثور ، والجوزاء ، والسرطان ، والأسد ، والسنبلة ، والميزان ، والعقرب ، والقوس والجدى ، والدول ، والحوت .وسميت بالبروج ، لأنها بالنسبة لهذه الكواكب كالمنازل لساكنيها .قال القرطبى : قوله : ( والسمآء ذَاتِ البروج ) : قسم أقسم الله - عز وجل - به . وفى البروج أربعة أقوال : أحدها : ذات النجوم . والثانى : ذات القصور . . الثالث : ذات الخَلْق الحسن . الرابع : ذات المنازل . . وهى اثنا عشر منزلا . .

واليوم الموعود

كما فسرها الوسيط وقوله : ( واليوم الموعود ) المقصود به : يوم القيامة ، لأن الله - تعالى - وعد الخلق به ، ليجازى فيه الذين أساءوا بما عملوا ، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

وشاهد ومشهود

كما فسرها الوسيط وقوله : ( وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ) قسم ثالث ببعض مخلوقاته - تعالى - . والشاهد اسم فاعل من المشاهدة بمعنى الرؤية ، فالشاهد هو الرائى ، أو المشهود عليه بأنه حق .فالمراد بالشاهد : من يحضر ذلك اليوم من الخلائق المبعوثين ، وما يراه فيه من عجائب وأهوال ، من المشاهدة بمعنى الرؤية والحضور ، أو من يشهد فى ذلك اليوم على غيره ، من الشهادة على الخصم

وقد ذكر المفسرون فى معنى هذين اللفظين ، ما يقرب من عشرين وجها .قال صاحب.
الكشاف وقوله : ( وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ) يعنى : وشاهد فى ذلك اليوم
: ومشهود فيه . والمراد بالشاهد : من يشهد فيه من الخلائق كلهم . وبالمشهود
، ما فى ذلك اليوم من عجائبه . ثم قال : وقد اضطربت أقوال المفسرين فيما
: فقيل : الشاهد والمشهود : محمد صلى الله عليه وسلم ويوم القيامة . وقيل
عيسى وأمته . وقيل : أمة محمد صلى الله عليه وسلم وسائر الأمم . وقيل : يوم
، التروية ويوم عرفة . وقيل : يوم عرفة ويوم الجمعة . وقيل : الحجر الأسود
والحجيج . وقيل : الأيام والليالى . وقيل : الحفظة وبنو آدم . .ويبدو لنا
أن أقرب الأقوال والصواب : أن المراد بالشاهد هنا : الحاضر فى ذلك اليوم
: العظيم وهو يوم القيامة ، والرائى لأهواله وعجائبه .وأن المراد بالمشهود
) - ما يشاهد فى ذلك اليوم من أحوال يشيب لها الولدان .وقال - سبحانه
. وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ) بالتنكير ، لتهويل أمرهما ، وتفخيم شأنهما

قتل اصحاب الاخدود

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - ( قُتِلَ أَصْحَابُ الأخدود ) جواب القسم
بتقدير اللام وقد .أى : وحق السماء ذات البروج ، وحق اليوم الموعود ، وحق
الشاهد والمشهود ، لقد قتل ولعن أصحاب الأخدود ، وطردوا من رحمة الله بسبب
كفرهم وبغيهم .والأخدود : وهو الحفرة العظيمة المستطيلة فى الأرض ، كالخندق
وجمعه أخاديد ، ومنه الخد لمجارى الدمع ، والمخدة : لأن الخد يوضع عليها ،
ويقال : تخدد وجه الرجل ، إذا صارت فيه التجاعيد . . ومنه قول الشاعر.
ووجه كأن الشمس ألقت رداءها ... عليه ، نقى اللون لم يتخددوقيل : إن جواب:
القسم محذوف ، دل عليه قوله - تعالى - : ( قُتِلَ أَصْحَابُ الأخدود ) كأنه
قيل : أقسم بهذه الأشياء إن كفار مكة لملعونون كما لعن أصحاب الأخدود
وأصحاب الأخدود : هم قوم من الكفار السابقين ، حفروا حفرا مستطيلة فى.
الأرض ، ثم أضرموها بالنار ، ثم ألقوا فيها المؤمنين ، الذين خالفوهم فى
. كفرهم ، وأبوا إلا إخلاص العبادة لله - تعالى - وحده

النار ذات الوقود

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( النار ذَاتِ الوقود ) بدل اشتمال
. مما قبله وهو الأخدود .والوقود : اسم لما توقد به النار كالحطب ونحوه
، وذات الوقود : صفة للنار .أى : قتل وطرد من رحمة الله أصحاب الأخدود
. الذين أشعلوا فيه النيران ذات اللهب الشديد ، لكى يلقوا المؤمنين فيها

اذ هم عليها قعود

كما فسرها الوسيط والظرف فى قوله - تعالى - ( إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ
متعلق بقوله - تعالى - : ( قتل ) أى : لعنوا وطردوا من رحمة الله ، حين (
" قعدوا على الأخدود ، ليشرفوا على من يعذبونهم من المؤمنين .فالضمير " هم
يعود على أولئك الطغاة الذين كانوا يعذبون المؤمنين ويجلسون على حافات
الأخدود ليروهم وهم وهم يحرقون بالنار ، أو ليأمروا أتباعهم وزبانيتهم
: بالجد فى التعذيب حتى لا يتهاونوا فى ذلك .و ( على ) للاستعلاء المجازى
إذ من المعلوم أنهم لا يقعدون فوق النار ، وإنما هم يقعدون حولها ، لإلقاء
. المؤمنين فيها

وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود

كما فسرها الوسيط وجملة ( وَهُمْ على مَا يَفْعَلُونَ بالمؤمنين شُهُودٌ )
: فى موضع الحال من الضمير فى قوله : ( إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ) . أى
أن هؤلاء الطغاة الظالمين ، لم يكتفوا بإشعال النار ، والقعود حولها وهم
يعذبون المؤمنين ، بل أضافوا إلى ذلك ، أنهم يشهدون تعذيبهم ، ويرونه
بأعينهم على سبيل التشفى منهم ، فقوله ( شهود ) بمعنى حضور ، أو بمعنى يشهد
بعضهم لبعض أمام ملكهم الظالم ، بأنهم ما قصروا فى تعذيب المؤمنين ، وهذا
الفعل منهم . يدل على نهاية القسوة والظلم ، وعلى خلو قلوبهم من أى رحمة أو
شفقة .قال الآلوسى : وقوله : ( وَهُمْ على مَا يَفْعَلُونَ بالمؤمنين
شُهُودٌ ) أى : يشهد بعضهم لبعض عند الملك ، بأن أحدا لم يقصر فيما أمر به
أو يشهدون عنده على حسن ما يفعلون . . أو يشهد بعضهم على بعض بذلك الفعل ،
) : - الشنيع يوم القيامة ، أو يشهدون على أنفسهم بذلك ، كما قال - تعالى
يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ
بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ) .وقيل : " على " بمعنى مع . أى : وهم مع ما
. . يفعلون بالمؤمنين من العذاب حضور ، لا يرقون لهم ، لغاية قسوة قلوبهم

وما نقموا منهم الا ان يؤمنوا بالله العزيز الحميد

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - الأسباب التى حملت هؤلاء الطغاة على
إحراق المؤمنين فقال : ( وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُواْ
بالله العزيز الحميد . الذي لَهُ مُلْكُ السماوات والأرض والله عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ شَهِيدٌ ) .والنقمة هنا بمعنى الإنكار والكراهية . يقال : نقَم
فلان هذا الشئ ، - من باب ضرب - إذا كرهه وأنكره .أى : أن هؤلاء الكافرين
، ما كرهوا المؤمنين ، وما أنزلوا بهم ما أنزلوا من عذاب ، إلا لشئ واحد
وهو أن المؤمنين أخلصوا عبادتهم لله - تعالى - صاحب العزة التامة ، والحمد
المطلق ، والذى له ملك جميع ما فى السموات والأرض ، وهو - سبحانه - على كل
شئ شهيد ورقيب ، لا يخفى عليه أمر من أمور عباده ، أو حال من أحوالهم
، فالمقصود من هاتين الآيتين الكريمتين ، التعجيب من حال هؤلاء المجرمين.
حيث عذبوا المؤمنين ، لا لشئ إلا من أجل إيمانهم بخالقهم ، وكأن الإيمان
فى نظرهم جريمة تستحق الإحراق بالنار .وهكذا النفوس عندما يستحوذ عليها
الشيطان ، تتحول الحسنات فى نظرها إلى سيئات وقديما قال المنكوسون من قوم
لوط - عليه السلام - ( أخرجوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ
أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ) والاستثناء فى قوله : ( إِلاَّ أَن يُؤْمِنُواْ
بالله . . . ) استثناء مفصح عن براءة المؤمنين مما يعاب وينكر ، فهو من باب
تأكيد المدح بما يشبه الذم كما فى قول القائل :ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم
بهن فلول من قراع الكتائبوشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( قُلْ ...
ياأهل الكتاب هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَآ
أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ
فَاسِقُونَ ) قال الإمام ابن كثير : وقد اختلفوا فى أهل هذه القصة من هم؟
، فعن على ابن أبى طالب : أنهم أهل فارس حين أراد ملكهم تحليل زواج المحارم
فامتنع عليه علماؤهم ، فعمد إلى حفر أخدود ، فقذف فيه من أنكر عليه منهم
وعنه أنهم كانوا قوما من اليمن ، اقتتل مؤمنوهم ومشركوهم ، فتغلب مؤمنوهم.
، على كفارهم ، ثم اقتتلوا فغلب الكفار المؤمنين ، فخذا لهم الأخاديد
وأحرقوهم فيها .ثم ذكر - رحمه الله - بعد ذلك جملة من الآثار فى هذا المعنى
فارجع إليها إن شئت .وعلى أية حال فالمقصود بهذه الآيات الكريمة ، تثبيت
، المؤمنين على ما هم عليه من الإيمان وتسليتهم عما أصابهم من أعدائهم
وإعلامهم بأن ما نزل بهم من أذى ، قد نزل ما هو أكبر منه بالمؤمنين
- السابقين ، فعليهم أن يصبروا كما صبر أسلافهم ، وقد اقتضت سنته - تعالى
. أن يجعل العاقبة للمتقين

الذي له ملك السماوات والارض والله على كل شيء شهيد

`<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html} كما فسرها الوسيط

ثم بين - سبحانه - الأسباب التى حملت هؤلاء الطغاة على إحراق المؤمنين فقال
: ( وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُواْ بالله العزيز الحميد )
. ( الذي لَهُ مُلْكُ السماوات والأرض والله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ
والنقمة هنا بمعنى الإنكار والكراهية . يقال : نقَم فلان هذا الشئ ، - من.
، باب ضرب - إذا كرهه وأنكره .أى : أن هؤلاء الكافرين ما كرهوا المؤمنين
وما أنزلوا بهم ما أنزلوا من عذاب ، إلا لشئ واحد ، وهو أن المؤمنين أخلصوا
عبادتهم لله - تعالى - صاحب العزة التامة ، والحمد المطلق ، والذى له ملك
جميع ما فى السموات والأرض ، وهو - سبحانه - على كل شئ شهيد ورقيب ، لا
يخفى عليه أمر من أمور عباده ، أو حال من أحوالهم .فالمقصود من هاتين
، الآيتين الكريمتين ، التعجيب من حال هؤلاء المجرمين ، حيث عذبوا المؤمنين
لا لشئ إلا من أجل إيمانهم بخالقهم ، وكأن الإيمان فى نظرهم جريمة تستحق
الإحراق بالنار .وهكذا النفوس عندما يستحوذ عليها الشيطان ، تتحول الحسنات
) - فى نظرها إلى سيئات وقديما قال المنكوسون من قوم لوط - عليه السلام
( أخرجوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ
والاستثناء فى قوله : ( إِلاَّ أَن يُؤْمِنُواْ بالله . . . ) استثناء مفصح
عن براءة المؤمنين مما يعاب وينكر ، فهو من باب تأكيد المدح بما يشبه الذم
كما فى قول القائل :ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلول من قراع
الكتائبوشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( قُلْ ياأهل الكتاب هَلْ
تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا
وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ) قال الإمام
: ابن كثير : وقد اختلفوا فى أهل هذه القصة من هم؟ فعن على ابن أبى طالب
، أنهم أهل فارس حين أراد ملكهم تحليل زواج المحارم ، فامتنع عليه علماؤهم
فعمد إلى حفر أخدود ، فقذف فيه من أنكر عليه منهم .وعنه أنهم كانوا قوما من
اليمن ، اقتتل مؤمنوهم ومشركوهم ، فتغلب مؤمنوهم على كفارهم ، ثم اقتتلوا
فغلب الكفار المؤمنين ، فخذا لهم الأخاديد ، وأحرقوهم فيها .ثم ذكر - رحمه
الله - بعد ذلك جملة من الآثار فى هذا المعنى فارجع إليها إن شئت .وعلى أية
حال فالمقصود بهذه الآيات الكريمة ، تثبيت المؤمنين على ما هم عليه من

الإيمان وتسليتهم عما أصابهم من أعدائهم ، وإعلامهم بأن ما نزل بهم من أذى قد نزل ما هو أكبر منه بالمؤمنين السابقين ، فعليهم أن يصبروا كما صبر أسلافهم ، وقد اقتضت سنته - تعالى - أن يجعل العاقبة للمتقين .

ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق

كما فسرها الوسيط ثم هدد - سبحانه - كفار قريش بسوء المصير ، إذا ما استمروا فى إيذائهم للمؤمنين ، فقال - تعالى - : ( إِنَّ الذين فَتَنُوا المؤمنين والمؤمنات ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الحريق ) .وقوله : ( فتنوا ) من الفتن ، بمعنى الاختبار والامتحان . تقول : فتنت الذهب بالنار ، أى : أدخلته فى النار لتعلم جودته من رداءته ، والمراد به هنا : والتحريق بالنار .أى : إن الظالمين الذين - عذبوا المؤمنين والمؤمنات ، وأحرقوهم بالنار ثم لم يتوبوا إلى الله تعالى - من ذنوبهم ، ويرجعوا عن تعذيبهم للمؤمنين والمؤمنات ، فلهم فى الآخرة عذاب جهنم ، بسبب إصرارهم على كفرهم وعدوانهم ، ولهم نار أخرى زائدة على غيرها فى الإحراق .والمراد بالذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات : كفار قريش ، كأبى جهل وأمية ابن خلف . وغيرهما ، فقد عذبوا بلالا ، وعمار بن ياسر ، وأباه وأمه سمية .ويؤيد أن المراد بالذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات كفار قريش ، قوله - تعالى - : ( ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا ) لأن هذه الجملة تحريض على التوبة ، وترغيب فيها للكافرين المعاصرين للنبى صلى الله عليه وسلم .ويصح أن يراد بهم جميع من عذبوا المؤمنين والمؤمنات ، ويدخل فيه أصحاب الأخدود ، وكفار قريش دخولا أوليا .وجمع - سبحانه - بين عذاب جهنم لهم ، وبين عذاب الحريق ، لبيان أن العذاب لهم مضاعف ، بسبب طغيانهم وشركهم .

ان الذين امنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الانهار ذلك الفوز الكبير

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما أعده للمؤمنين والمؤمنات من ثواب وعطاء كريم فقال : ( إِنَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ ) الأعمال الصالحات لَهُمْ ) أى : عند ربهم ( جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ) أى تجرى من تحت أشجارها وبساتينها الأنهار ( ذَلِكَ ) العطاء هو ( الفوز الكبير ) الذى لا فوز يضارعه أو يقاربه .

ان بطش ربك لشديد

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ، ما يدل على نفاذ قدرته ومشيئته ، حتى يزداد المؤمنون ثباتا على ثباتهم ، وصبرا على صبرهم فقال : ( إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ) .والبطش : هو الأخذ بقوة وسرعة وعنف . أى : إن بطش ربك - أيها الرسول الكريم - بالظالمين والطغاة لبالغ نهاية القوة والعنف : فمر أصحابك فليصبروا على الأذى ، فإن العاقبة الحسنة ستكون لهم وحدهم .

انه هو يبدئ ويعيد

كما فسرها الوسيط ( إِنَّهُ هُوَ يُبْدِىءُ وَيُعِيدُ ) أى : إنه وحده هو الذى يخلق الخلق أولا فى الدنيا ، ثم يعيدهم إلى الحياة بعد موتهم للحساب والجزاء ، وهو - سبحانه - وحده الذى يبدئ البطش بالكفار فى الدنيا ثم يعيده ، عليهم فى الآخرة بصورة أشد وأبقى .وحذف - سبحانه - المفعول فى الفعلين لقصد العموم ، ليشمل كل ما من شأنه أن يبدأ وأن يعاد من الخلق أو من العذاب أو من غيرهما .

وهو الغفور الودود

كما فسرها الوسيط ( وَهُوَ الغفور الودود ) أى : وهو - سبحانه - الواسع المغفرة لمن تاب وآمن ، وهو الكثير المحبة والود لمن أطاعه واتبع هداه .

ذو العرش المجيد

كما فسرها الوسيط ( ذُو العرش المجيد ) أى : وهو - عز وجل - صاحب العرش العظيم ، الذى لا يعرف كنهه إلا هو - سبحانه - ، وهو ( المجيد ) أى : العظيم فى ذاته وصفاته .

فعال لما يريد

كما فسرها الوسيط ( فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ) أى : وهو - تعالى - الذى يفعل كل شئ يريده . دون أن يعترض عليه أحد ، بل فعله هو النافذ ، وأمره هو السارى والمطاع .وجاءت كلمة " فعال " بصيغة المبالغة ، للدلالة على أن ما - يريده ويفعله - مع كثرته - هو فى غاية النفاذ والسرعة ، كما قال - تعالى : إِنَّمَآ أَمْرُهُ إِذَآ أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن ) : فَيَكُونُ ) فهذه الصفة من الصفات الجامعة لعظمته الذاتية ، وعظمة نعمه ومننه وعطاياه .

هل اتاك حديث الجنود

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك ، ما يدل على شدة بطشه ، ونفاذ أمره فقال : ( هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الجنود .فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ) والاستفهام هنا : للتقرير والتهويل . والمراد بالجنود : الجموع الكثيرة. التى عتت عن أمر ربها ، فأخذها - سبحانه - أخذ عزيز مقتدر .

فرعون وثمود

كما فسرها الوسيط وقوله : ( فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ) بدل من الجنود .والمراد بفرعون وثمود : ملؤهما وقومهما الذين آثروا الغى على الرشد ، والضلالة على الهداية ، والباطل على الحق . أى : لقد بلغك - أيها الرسول الكريم - حديث فرعون الذى طغى وبغى ، واتبعه قومه فى طغيانه وبغيه ، وحيديث قوم صالح - عليه السلام - وهم الذين كذبوا نبيهم . وآذوه ، وعقروا الناقة التى نهاهم عن أن يمسوها بسوء .وكيف أنه - سبحانه - قد دمر الجميع تدميرا شديدا ، جزاء كفرهم وبغيهم .وخص - سبحانه - جند فرعون وثمود بالذكر ، لأنهم كانوا أشد من غيرهم . ولأنهم كانت قصصهم معروفة لأهل مكة أكثر من غيرهم .

بل الذين كفروا في تكذيب

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

والله من ورائهم محيط

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

بل هو قران مجيد

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ . فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ) إضراب انتقالى آخر ، من بيان شدة تكذيبهم للحق ، إلى بيان القرآن الكريم هو كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .أى : ليس الأمر كما قال هؤلاء المشركون فى القرآن من أنه أساطير الأولين . . بل الحق أن هذا القرآن هو كلام الله - تعالى - البالغ النهاية فى الشرف والرفعة والعظمة .

في لوح محفوظ

كما فسرها الوسيط وأنه كائن فى لوح محفوظ من التغيير والتبديل ، ومن وصول الشياطين إليه . ونحن نؤمن بأن القرآن الكريم كائن فى لوح محفوظ ، إلا أننا نفوض معرفة حقيقة هذا اللوح وكيفيته إلى علمه - تعالى - ، لأنه من أمر الغيب الذى تفرد الله - تعالى - بعلمه . . وما قيل فى وصف هذا اللوح لم يرد به حديث صحيح يعتمد عليه .وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

والسماء والطارق

كما فسرها الوسيط الطارق : اسم فاعل من الطروق . والمراد به هنا : النجم الذى يظهر ليلا فى السماء .قال القرطبى ما ملخصه : الطارق : النجم ، اسم جنس سمى بذلك لأنه يطرق ليلا ، ومنه الحديث : نهى النبى صلى الله عليه وسلم أن يطرق المسافر أهله ليلا . . والعرب تسمى كل قاصد فى الليل طارقا . يقال ، طرق فلان ، إذا جاء ليلا . . وأصل الطرق : الدق ، ومنه سميت المطرقة : فسمى قاصد الليل طارقا ، لاحتياجه فى الوصول إلى الدق .وفى الحديث : " أعوذ بك من طوارق الليل والنهار ، إلا طارقا يطرق بخير يا رحمن " . .

وما ادراك ما الطارق

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( وَمَآ أَدْرَاكَ مَا الطارق ) تنويه بشأنه إثر تفخيمه بالإقسام به ، فالاستفهام مستعمل فى تعظيم أمره .وقد جاء التعبير بقوله - تعالى - : ( وَمَآ أَدْرَاكَ . . . ) ثلاث عشرة مرة فى القرآن الكريم ، كلها جاء الخبر بعدها - كما هنا - ، وكما فى قوله - تعالى - ( وَمَآ أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ . لاَ تُبْقِي وَلاَ تَذَرُ . لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ) وكما فى قوله - سبحانه - : ( وَمَآ أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدين . ثُمَّ مَآ أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدين . يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً . . . ) إلا واحدة لم يأت الخبر بعدها ، وهى قوله - تعالى - : ( الحاقة . مَا الحآقة . وَمَآ أَدْرَاكَ مَا الحاقة أما التعبير بقوله - تعالى - : ( وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ الساعة ( . . تَكُونُ قَرِيباً ) ( وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ الساعة قَرِيبٌ ) ( وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يزكى ) قال القرطبى : قال سفيان : كل ما فى القرآن وما أدراك فقد أخبر به ، وكل شئ قال فيه : وما يدريك ، لم يخبر به .

النجم الثاقب

كما فسرها الوسيط وقوله ( النجم الثاقب ) بيان وتفسير للطارق ، والثاقب . أى : المضئ الذى يثقب الظلام ويخرقه بنوره فينفذ فيه ويبدده .والجملة الكريمة مستأنفة ، وهى جواب عن سؤال مقدر نشأ مما قبله ، كأنه قيل : وما هو الطارق؟ فكان الجواب : هو النجم الثاقب .

ان كل نفس لما عليها حافظ

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ) جواب القسم وما بينهما كلام معترض لتفخيم شأن المقسم به . والحافظ : هو الذى يحفظ ما كلف بحفظه ، لمقصد معين . أى : وحق السماء البديعة الصنع ، وحق النم الذى يطلع فيها فيبدد ظلام الليل ، ما كل نفس من الأنفس إلا وعليها من الملائكة من يحفظ عملها ويسجله ، سواء أكان هذا العمل خيرا أم شرا .قال الإمام الشوكانى ما ملخصه : قرأ الجمهور بتخفيف الميم فى قوله : لما ، فتكون " إن " مخففة من الثقيلة ، فيها ضمير الشأن المقدر ، وهو اسمها ، واللام هى الفارقة - بين " إن " النافية ، و " إن " المخففة من الثقيلة - وما مزيدة . أى : إن الشأن كل نفس لعليها حافظ .وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بتشديد الميم فى قوله ( لما ) فتكون " إن " نافية ، و " لما " بمعنى إلا .أى : ما كل نفس إلا عليها حافظ .والحافظ : هم الحفظة من الملائكة الذين يحفظون عليها عملها وقولها وفعلها . وقيل : الحافظ هو - الله - تعالى - وقيل : هو العقل يرشدهم إلى المصالح .والأول أولى لقوله - تعالى - : ( وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً ) وقوله : ( وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ) وحفظ الملائكة إنما هو من حفظه - تعالى - . لأنهم لا يحفظون إلا بأمره - عز وجل - .والمقصود من الآية الكريمة : تحقيق تسجيل أعمال الإنسان عليه ، وأنه سيحاسب عليها وسيجازى عليها بما يستحقه من ثواب أو عقاب .

فلينظر الانسان مم خلق

كما فسرها الوسيط وبعد أن بين - سبحانه - أن كل نفس عليها حافظ يسجل عليها أعمالها ، أتبع ذلك بأمر الإنسان بالتفكر فيما ينفعه ، بأن يعتبر بأول نشأته ، وليعلم أن من خلقه من ماء مهين ، قادر على إعادته إلى الحياة مرة أخرى ، فقال - تعالى - : ( فَلْيَنظُرِ الإنسان مِمَّ خُلِقَ . خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ . يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصلب والترائب . . . ) .والفاء فى قوله ( فَلْيَنظُرِ . . . ) للتفريع على ما تقدم ، وهى بمعنى الفصيحة .أى : إذا كان الأمر كما ذكرت لكم - أيها الناس - ، من أن كل نفس عليها حافظ يسجل عليها أقوالها وأفعالها . . فلينظر الإنسان منكم نظر تأمل وتدبر واعتبار ، وليسأل نفسه من أى شئ عليها أقوالها وأفعالها . . فلينظر الإنسان منكم نظر - تأمل وتدبر واعتبار ، وليسأل نفسه من أى شئ خلق؟ لقد خلقه الله - تعالى بقدرته ، من ماء متدفق ، يخرج بقوة وسرعة من الرجل ، ليصب فى رحم الأنثى وهذا الماء الدافق من صفاته أنه يخرج من بين صلب الرجل ، ومن بين ترائب. المرأة ، حيث يختلط الماءان ، ويتكون منهما الإنسان فى مراحله المختلفة ) : بقدرة الله - تعالى - .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما وجه اتصال قوله ، فلينظر ) بما قبله؟قلت : وجه اتصاله به أنه لما ذكر أن على كل نفس حافظا أتبعه بتوصية الإنسان بالنظر فى أول أمره . ونشأته الأولى ، حتى يعلم أن من أنشأه قادر على إعادته وجزائه ، فيعمل ليوم الإعادة والجزاء ، ولا يملى على حافظه إلا ما يسره فى عاقبته ." مم خلق " استفهام جوابه : ( خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ) ، والدفق : صَبٌّ فيه دفع .ومعنى " دافق " النسبة إلى

الدفق الذى هو مصدر دفق ، كالابن والتامر . أو الإسناد المجازى ، والدفق
فى الحقيقة لصاحبه .ولم يقل ماءين لامتزاجهما فى الرحم ، واتحادهما حين
ابتدئ فى خلقه . .وقال بعض العلماء : قوله : ( خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ )
أى : من ماء ذى دفق . . وكل من منى الرجل . ومنى المرأة ، اللذين يتخلق
منهما الجنين ، ذو وفق فى الرحم .

خلق من ماء دافق

كما فسرها الوسيط وقوله : ( خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ) جواب الاستفهام فى
قوله - سبحانه - ( مِمَّ خُلِقَ ) والمقصود بالاستفهام هنا : الحث والحض
على التفكر والتدبر .أى : إذا كان الأمر كما ذكرت لكم - أيها الناس - ، من
أن كل نفس عليها حافظ يسجل عليها أقوالها وأفعالها . . فلينظر الإنسان
منكم نظر تأمل وتدبر واعتبار ، وليسأل نفسه من أى شئ عليها أقوالها
وأفعالها . . فلينظر الإنسان منكم نظر تأمل وتدبر واعتبار ، وليسأل نفسه
من أى شئ خلق؟ لقد خلقه الله - تعالى - بقدرته ، من ماء متدفق ، يخرج بقوة
وسرعة من الرجل ، ليصب فى رحم الأنثى .وهذا الماء الدافق من صفاته أنه يخرج
من بين صلب الرجل ، ومن بين ترائب المرأة ، حيث يختلط الماءان ، ويتكون
منهما الإنسان فى مراحله المختلفة بقدرة الله - تعالى - .قال صاحب الكشاف
فإن قلت : ما وجه اتصال قوله : ( فلينظر ) بما قبله؟قلت : وجه اتصاله به :
أنه لما ذكر أن على كل نفس حافظا ، أتبعه بتوصية الإنسان بالنظر فى أول
، أمره . ونشأته الأولى ، حتى يعلم أن من أنشأه قادر على إعادته وجزائه
فيعمل ليوم الإعادة والجزاء ، ولا يملى على حافظه إلا ما يسره فى عاقبته
: مم خلق " استفهام جوابه : ( خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ) ، والدفق ".
صَبٌّ فيه دفع .ومعنى " دافق " النسبة إلى الدفق الذى هو مصدر دفق ، كالابن
والتامر . أو الإسناد المجازى ، والدفق فى الحقيقة لصاحبه .ولم يقل ماءين
: لامتزاجهما فى الرحم ، واتحادهما حين ابتدئ فى خلقه . .وقال بعض العلماء
قوله : ( خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ) أى : من ماء ذى دفق . . وكل من منى
. الرجل . ومنى المرأة ، اللذين يتخلق منهما الجنين ، ذو وفق فى الرحم

يخرج من بين الصلب والترائب

كما فسرها الوسيط و " دافق " اسم فاعل من الدفق ، وهو الصب للشئ بقوة وسرعة
يقال : تدفق الماء إذا سال باندفاع وسرعة . والمراد به هنا : الماء الذى ،
تخرج من الرجل ويصب فى رحم المرأة .والصلب : يطلق على فقار الظهر بالنسبة
، للرجل ، والترائب : جمع تربية ، وهى العظام التى تكون فى أعلى صدر المرأة
ويعبرون عنها بقولهم موضع القلادة من المرأة .أى : إذا كان الأمر كما ذكرت
لكم - أيها الناس - ، من أن كل نفس عليها حافظ يسجل عليها أقوالها وأفعالها
فلينظر الإنسان منكم نظر تأمل وتدبر واعتبار ، وليسأل نفسه من أى شئ . .
، عليها أقوالها وأفعالها . . فلينظر الإنسان منكم نظر تأمل وتدبر واعتبار
وليسأل نفسه من أى شئ خلق؟ لقد خلقه الله - تعالى - بقدرته ، من ماء متدفق
يخرج بقوة وسرعة من الرجل ، ليصب فى رحم الأنثى .وهذا الماء الدافق من ،
صفاته أنه يخرج من بين صلب الرجل ، ومن بين ترائب المرأة ، حيث يختلط
- الماءان ، ويتكون منهما الإنسان فى مراحله المختلفة بقدرة الله - تعالى
قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما وجه اتصال قوله : ( فلينظر ) بما قبله؟قلت.
وجه اتصاله به أنه لما ذكر أن على كل نفس حافظا ، أتبعه بتوصية الإنسان :
بالنظر فى أول أمره . ونشأته الأولى ، حتى يعلم أن من أنشأه قادر على
إعادته وجزائه ، فيعمل ليوم الإعادة والجزاء ، ولا يملى على حافظه إلا ما
يسره فى عاقبته ." مم خلق " استفهام جوابه : ( خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ )
والدفق : صَبٌّ فيه دفع .ومعنى " دافق " النسبة إلى الدفق الذى هو مصدر ،
دفق ، كالابن والتامر . أو الإسناد المجازى ، والدفق فى الحقيقة لصاحبه
ولم يقل ماءين لامتزاجهما فى الرحم ، واتحادهما حين ابتدئ فى خلقه . .وقال.
. بعض العلماء : قوله : ( خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ) أى : من ماء ذى دفق
وكل من منى الرجل . ومنى المرأة ، اللذين يتخلق منهما الجنين ، ذو وفق فى .
. الرحم

انه على رجعه لقادر

كما فسرها الوسيط ( يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصلب والترآئب ) أى : يخرج هذا
الماء الدافق ، من بين صلب كل واحد منهما ، وترائب كل منهما . أى : أن
أعضاء وقوى كل منهما ، تتعاون فى تكوين ما هو مبدأ لتوالد الإنسان : ماء
الرجل وهو المنى ، ومادة المرأة وهى البويضة المصحوبة بالسائل ، المنصبان
بدفع وسيلان سريع إلى الرحم عند الاتصال الجنسى . ويسمى الفقهاء هذه المادة
منيا وماء . .وقال فضيلة الشيخ ابن عاشور : وأطنب - سبحانه - فى وصف هذا
الماء الدافق ، لإدماج التعليم والعبرة بدقائق التكوين ، ليستيقظ الجاهل

الكافر ، ويزداد المؤمن علما ويقينا .ووصف بأنه ( يَخْرُجُ مِن بَيْنِ
الصلب والترآئب ) ، لأن الناس لا يتفطنون لذلك . . وهذا من الإعجاز العلمى
فى القرآن ، الذى لم يكن علم به للذين نزل بينهم ، وهو إشارة مجملة ، وقد
بينها حديث مسلم عن أم سلمة وعائشة : " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
سئل عن احتلام المرأة فقال : " تغتسل إذا أبصرت الماء . فقيل له : أترى
المرأة ذلك؟ فقال : وهل يكون الشبه إلا من قِبَل ذلك ، إذا علا ماءُ المرأة
ماءَ الرجل ، أشبه الولد أخواله ، وإذا علا ماءُ الرجل ماءها ، أشبه عمامه
وقال صاحب الظلال : ولقد كان هذا سرا مكنونا فى علم الله لا يعلمه. " "
البشر ، حتى كان نصف القرن الأخير ، حيث اطعل العلم الحديث على هذه الحقيقة
بطريقته ، وعرف أنه فى عظام الظهر الفقارية ، يتكون ماء الرجل . وفى عظام
الصدر العلوية يتكون ماء المرأة ، حيث يلتقيان فى قرار مكين . فينشأ منهما
. . الإنسان

يوم تبلى السرائر

. كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( إِنَّهُ على رَجْعِهِ لَقَادِرٌ
يَوْمَ تبلى السرآئر . فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلاَ نَاصِرٍ ) . بيان لكمال
قدرته - تعالى- وأنه كما أنشأ الإنسان من ماء مهين ، قادر على إعادته إلى
الحياة بعد موته . والضمير فى قوله : ( إنه ) يعود إلى الله - عز وجل - لأن
" الخالق للإنسان من ماء دافق هو الله - تعالى - .والضمير فى قوله " رجعه
. يعود إلى الإنسان المخلوق

فما له من قوة ولا ناصر

. كما فسرها الوسيط وقوله : ( تبلى ) من البلاء بمعنى الاختبار والامتحان
) ومنه قوله - تعالى - ( إِنَّ هذا لَهُوَ البلاء المبين ) والمراد بقوله
تبلى ) هنا : الكشف والظهور .و ( السرائر ) جمع سريرة ، وهى ما أسره
: الإنسان من أقوال وأفعال ، والظرف " يوم " متعلق بقوله : ( رجعه ) .أى
إن الله - تعالى - الذى قدر على خلق الإنسان من ماء دافق .يخرج من بين
، الصلب والترائب . . لقادر - أيضا - على إعادة خلق هذا الإنسان بعد موته
، وعلى بعثه من قبره للحساب والجزاء ، يوم القيامة ، يوم تكشف المكنونات
وتبدو ظاهرة للعيان ، وترفع الحجب عما كان يخفيه الإنسان فى دنياه من
. عقائد ونيات وغيرهما

والسماء ذات الرجع

كما فسرها الوسيط وفى هذا اليوم لا يكون للإنسان من قوة تحميه من الحساب
والجزاء ، ولا يكون له من ناصر ينصره من بأس الله - تعالى - أو من مدافع
. يدافع عنه

والارض ذات الصدع

كما فسرها الوسيط ثم أقسم - سبحانه - مرة أخرى بالسماء على أن القرآن من
. عنده - تعالى- فقال : ( والسمآء ذَاتِ الرجع . والأرض ذَاتِ الصدع
إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ . وَمَا هوَ بالهزل ) .والرجع : المطر . وسمى بذلك
لأنه يجئ ويرجع ويتكرر ، وقيل : الرجع هنا : الشمس والقمر والنجوم ، يرجعن
: فى السماء حيث تطلع من ناحية ، وتغيب فى الأخرى .وقيل : المراد بالرجع
. الملائكة ، لأنهم يرجعون إليها حاملين أعمال العباد

انه لقول فصل

. كما فسرها الوسيط والصدع : الشق والانفطار ، يقال : تصدع الشئ ، إذا تشقق
) : - والمراد به هنا : ما تتشقق عنه الأرض من نبات .كما قال - تعالى
. أَنَّا صَبَبْنَا المآء صَبّاً . ثُمَّ شَقَقْنَا الأرض شَقّاً
فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً . وَعِنَباً وَقَضْباً ) أى : وحق السماء صاحبة
. . المطر الذى ينزل من جهتها مرة فأخرى ، لنفع العباد والحيوان والنبات
. وحق الأرض ذات النبات البازغ من شقوقها

وما هو بالهزل

كما فسرها الوسيط ( إنه ) أى : هذا القرآن ( لَقَوْلٌ فَصْلٌ ) أى : لقول
فاصل بين الحق والباطل ، والهدى والضلال . والغى والرشاد . . وقد بلغ
. النهاية فى ذلك حتى لكأنه نفس الفصل

انهم يكيدون كيدا

كما فسرها الوسيط ( وَمَا هوَ بالهزل ) أى : وأن هذا القرآن ، ليس فيه شائبة من شوائب الهزل أو اللعب أو المزاح . بل هو جد كله ، فيجب على كل عاقل ، أن يتبع هداه ، وأن يستجيب لأمره ونهيه .وفى هذه الآيات الكريمة رد بليغ ، على أولئك المشركين الجاهلين ، الذين وصفوا القرآن ، بأنه نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم ليهزل به ، لأنه يخبرهم بأن الأموات سيعادون إلى الحياة مرة أخرى ، وذلك أمر تستبعده نفوسهم المطموسة .وفى قوله - تعالى - : مقابلة لطيفة ، حيث وصف ( والسمآء ذَاتِ الرجع . والأرض ذَاتِ الصدع ) - السماء والأرض بما ينسابهما ، وبما يشير إلى أن البعث حق ، لأنه سبحانه - كما ينزل المطر من السماء فيحيى الأرض بعد موتها . كذلك يحيى الله - بقدرته الأجساد بعد موتها ، وعاد الضمير فى قوله ( إنه ) إلى تعالى - القرآن - مع أنه لم يسبق له ذكر - لأنه معلوم من المقام .

واكيد كيدا

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ، بتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم وبتبشيره بحسن العاقبة فقال - تعالى - : ( إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً . وَأَكِيدُ كَيْداً . فَمَهِّلِ الكافرين أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً ) وقوله : ( رُوَيْداً ) تصغير " رُودِ " بزنة عود - من قولهم : فلان يمشى على ورد ، أى : على مهل ، وأصله من رادت الريح ترود ، إذا تحركت حركة ضعيفة .والكيد : العمل على إلحاق الضرر بالغير بطريقة خفية ، فهو نوع من المكر .والمراد به بالنسبة لهؤلاء المشركين : تكذيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولما جاء به من عند ربه ، فكيدهم مستعمل فى حقيقته .والمراد بالنسبة لله - تعالى - : إمهالهم واستدراجهم ، حتى يأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، فى الوقت الذى يختاره ويشاؤه .أى : إن هؤلاء المشركين يحيكون المكايد لإبطال أمرك - أيها الرسول الكريم - ، وإنى أقابل كيدهم ومكرهم بما يناسبه من استدراج من حيث لا يعلمون ، ثم آخذهم أخذ عزيز مقتدر ، فتمهل - أيها الرسول الكريم - مع هؤلاء المشركين ، ولا تستعجل عقابهم . وانتظر تدبيرى فيهم ، وأمهلهم وأنظرهم " رويدا " أى : إمهالا قريبا أو قليلا ، فإن كل آت قريب ، وقد حقق - سبحانه - لنبيه وعده بأن جعل العاقبة له ولأتباعه .وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

فمهل الكافرين امهلهم رويدا

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html}

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ، بتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم وبتبشيره بحسن العاقبة فقال - تعالى - : ( إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً . وَأَكِيدُ كَيْداً . فَمَهِّلِ الكافرين أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً ) وقوله : ( رُوَيْداً ) تصغير " رُودِ " بزنة عود - من قولهم : فلان يمشى على ورد ، أى : على مهل ، وأصله من رادت الريح ترود ، إذا تحركت حركة ضعيفة .والكيد : العمل على إلحاق الضرر بالغير بطريقة خفية ، فهو نوع من المكر .والمراد به بالنسبة لهؤلاء المشركين : تكذيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولما جاء به من عند ربه ، فكيدهم مستعمل فى حقيقته .والمراد بالنسبة لله - تعالى - : إمهالهم واستدراجهم ، حتى يأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، فى الوقت الذى يختاره ويشاؤه .أى : إن هؤلاء المشركين يحيكون المكايد لإبطال أمرك - أيها الرسول الكريم - ، وإنى أقابل كيدهم ومكرهم بما يناسبه من استدراج من حيث لا يعلمون ، ثم آخذهم أخذ عزيز مقتدر ، فتمهل - أيها الرسول الكريم - مع هؤلاء المشركين ، ولا تستعجل عقابهم . وانتظر تدبيرى فيهم ، وأمهلهم وأنظرهم " رويدا " أى : إمهالا قريبا أو قليلا ، فإن كل آت قريب ، وقد حقق - سبحانه - لنبيه وعده بأن جعل العاقبة له ولأتباعه .وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

سبح اسم ربك الاعلى

كما فسرها الوسيط افتتحت السورة الكريمة ، بأمر النبى صلى الله عليه وسلم بالمداومة على تنزيه الله - تعالى - عن كل نقص ، ويدخل فى هذا الأمر ، كل من يصلح للخطاب . والاسم لمراد به الجنس ، فيشمل جميع أسمائه - تعالى - .أى نزه - أيها الرسول الكريم - أسماء ربك الأعلى عن كل ما لا يليق بها ، فلا : تطلقها على غيره - تعالى - إذا كان خاصة به ، كلفظ الجلالة ، وكلفظ الرحمن ولا تذكرها فى موضع لا يتناسب مع جلالها وعظمتها ، ولا تحرفها عن المعانى ، التى وضعت لها كما يفعل الزائغون . فقد قال - تعالى - : ( وَلِلَّهِ الأسمآء الحسنى فادعوه بِهَا وَذَرُواْ الذين يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ

، سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ) ونزه ربك الأعلى ، عن الشريك
وعن الوالد ، وعن الولد ، وعن الشبيه . . وعن كل ما لا يليق به .قال الجمل
، أى : نزه ربك عن كل ما لا يليق به ، فى ذاته ، وصفاته ، وأسمائه :
وأفعاله ، وأحكامه . أما فى ذاته : فأن تعتقد أنها ليست من الجواهر
والأعراض . وأما فى صفاته : فإن تعتقد أنها لسيت محدثة ولا متناهية ولا
ناقصة . وأما فى أفعاله : فأن تعتقد أنه - سبحانه - مطلق لا اعتراض لأحد
عليه فى أمر من الأمور . وأما فى أسمائه : فأن لا تذكره - سبحانه - إلا
بالأسماء التى لا توهم نقصا بوجه من الوجوه . . وأما فى أحكامه : فإن تعلم
أنه ما كلفنا لنفع يعود عليه ، بل لمحض المالكية . .أخرج الإمام أحمد عن
عامر بن عقبة الجهنى قال : " لما نزلت : ( فَسَبِّحْ باسم رَبِّكَ العظيم )
: قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اجعلوها فى ركوعكم " فلما نزلت
. " " قال : " اجعلوها فى سجودكم ( سَبِّحِ اسم رَبِّكَ الأعلى )

الذي خلق فسوى

كما فسرها الوسيط ثم وصف - سبحانه - ذاته بعد وصفه بالأعلى بصفات كريمة
أخرى فقال : ( الذي خَلَقَ فسوى ) أى : خلق كل شئ فسوى خلقه تسوية ، ولم
يأت به متفاوتا غير ملتئم ، ولكن على إحكام واتساق ، ودلالة على أنه صادر
. . عن عالم ، وأنه صنعه حكيم

والذي قدر فهدى

كما فسرها الوسيط ( والذي قَدَّرَ فهدى ) والتقدير : وضع الأشياء فى
، مواضعها الصحيحة ، بمقدار معين ، وبكيفية معينة . . تقتضيها الحكمة
ويقرها العقل السليم .وقوله : ( فهدى ) من الهداية . بمعنى الإرشاد
والدلالة على طريق الخير والبر . أى : وهو - سبحانه - الذى جعل الأشياء
على مقادير مخصوصة فى أجناسها ، وفى أنواعها ، وفى أفرادها . وفى صفاتها
وأفعالها . . وهدى كل مخلوق إلى ما ينبغى له طبعا واختيارا ، ووجهه إلى
الوظيفة التى خلقه من أجلها ، بأن أوجد فيه العقل والميول والإلهامات
- والغرائز والدوافع التى تعينه على أداء تلك الوظيفة .وحذف - سبحانه
المفعول فى قوله : ( الذي خَلَقَ فسوى .والذي قَدَّرَ فهدى ) للعموم ، لأن
هذه الأفعال تشمل جميع مخلوقاته - عز وجل - .قال الآلوسى : ( والذي قَدَّرَ
أى : جعل الأشياء على مقادير مخصوصة . . ( فهدى ) أى : فوجه كل واحد ( . .
منها إلى ما يصدر عنه ، وينبغى له . . فلو تتبعت أحوال النباتات والحيوانا
لرأيت فى كل منهما ما تحار فيه العقول ، وتضيق عنه دفاتر النقول .وأما ،
فنون هداياته - سبحانه - للإنسان على الخصوص ، ففوق ذلك بمراحل . . وهيهات
أن يحيط بها فلك العبارة والتحرير ، ولا يعلمها إلا اللطيف الخبير .أتزعم
أنك جرم صغير ... وفيك انطوى العالم الأكبروقد فصل بعض العلماء الحديث عن
مظاهر تقديره وهدايته - سبحانه - فقال : قوله - تعالى - : ( الذي خَلَقَ
، فسوى . والذي قَدَّرَ فهدى ) أى : الذى خلق كل شئ فسواه ، فأكمل صنعته
وبلغ به غاية الكمال الذى يناسبه ، والذى قدر لكل مخلوق وظيفته وطريقته
وغايته ، فهداه إلى ما خلقه لأجله ، وألهمه غاية وجوده ، وقدر له ما يصلحه
مدة بقائه ، وهداه إليه . وهذه الحقيقة الكبرى ماثلة فى كل شئ فى هذا
الوجود ، ويشهد بها كل شئ فى رحاب هذا الكون ، من الكبير إلى الصغير
، فالطيور لها غريزة العودة إلى الوطن . . دون أن تضل عنه مهما بعد.
والنحلة تهتدى إلى خليتها ، مهما طمست الريح فى هبوبها على الأعشاب
، والأشجار كل دليل يرى . .وسمك " السلمون " الصغير ، يمضى سنوات فى البحر
. . ثم يعود إلى نهره الخاص به

والذي اخرج المرعى

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( والذي أَخْرَجَ المرعى . فَجَعَلَهُ
غُثَآءً أحوى ) بيان لمظهر آخر من مظاهر قدرته - تعالى - ، التى لا يعجزها
شئ .والمرعى : النبات الذى ترعاه الحيوانات ، وهو اسم مكان للأرض الذى يوجد
فيها النبات .أى : وهو - سبحانه - وحده ، الذى أنبت النبات الذى ترعاه
الدواب ، حالة كون هذا النبات أخضر رطبا . ثم يحوله بقدرته - تعالى - بعد
- حين إلى نبات يابس جاف .وهذا من أكبر الأدلة المشاهدة ، على أنه - تعالى
يتصرف فى خلقه كما يشاء ، فهو القادر على تحويل الزرع الأخضر إلى زرع يابس
جاف ، كما أنه قادر على إحياء الإنسان بعد موته .فالمقصود من هذه الآيات
الكريمة ، الإرشاد إلى كمال قدرته ، وتنوع نعمه - سبحانه - ، حتى يزداد
المؤمنون إيمانا على إيمانهم ، وحتى يعود الكافرون إلى رشدهم بعد هذا
. البيان الواضح الحكيم

فجعله غثاء احوى

كما فسرها الوسيط والغثاء : هو اليابس الجاف من النبات الذى ترعاه المواشى والأحوى : أى : المائل إلى السواد ، مأخوذ من الحُوّة - بضم الحاء مع تشديد الواو المفتوحة - وهى لون يكون بين السواد والخضرة أو الحمرة . ووصف الغثاء بأنه أحوى ، لأنه إذا طال عليه الزمن ، وأصابته المياه ، اسود وتعفن فصار أحوى .أى : وهو - سبحانه - وحده ، الذى أنبت النبات الذى ترعاه الدواب حالة كون هذا النبات أخضر رطبا . ثم يحوله بقدرته - تعالى - بعد حين إلى ، نبات يابس جاف .وهذا من أكبر الأدلة المشاهدة ، على أنه - تعالى - يتصرف فى خلقه كما يشاء ، فهو القادر على تحويل الزرع الأخضر إلى زرع يابس جاف ، كما ، أنه قادر على إحياء الإنسان بعد موته .فالمقصود من هذه الآيات الكريمة الإرشاد إلى كمال قدرته ، وتنوع نعمه - سبحانه - ، حتى يزداد المؤمنون إيمانا على إيمانهم ، وحتى يعود الكافرون إلى رشدهم بعد هذا البيان الواضح الحكيم .

سنقرئك فلا تنسى

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - جانبا من مظاهر فضله على نبيه صلى الله عليه وسلم فقال : ( سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تنسى .إِلاَّ مَا شَآءَ الله إِنَّهُ يَعْلَمُ الجهر وَمَا يخفى ) .والنسيان : زوال ما كان موجودا فى حافظة الإنسان . والاستثناء مفرغ من أعم المفاعيل . ومفعول المشيئة محذوف جريا على غالب استعماله فى كلام العرب . .أى : سنقرئك - أيها الرسول . الكريم - القرآن على لسان أمين وحينا جبريل - عليه السلام - وسنجعلك حافظا وواعيا لما سيقرؤه جبريل عليك ، بحيث لا تنساه فى وقت من الأوقات ، أو فى حال من الأحوال ، إلا فى الوقت أو فى الحال الذى يشاء الله - تعالى - أن ينسيك شيئا من ذلك . فإنك ستنساه بأمره - تعالى - لأنه وحده - عز وجل - وهو العليم بما كان ظاهرا من الأشياء ، وبما كان خافيا منها .فالمقصود من هاتين - الآيتين : وعد الله - تعالى - لنبيه صلى الله عليه وسلم ببيان أنه سبحانه - كما أنه قادر على أن يقرئ الرسول صلى الله عليه وسلم قراءة لا ينساها ، فهو أيضا قادر على أن ينزل من صدره ما يشاء إزلته ، عن طريق النسيان لما حفظه .فالمراد بهذا الاستثناء : بيان أنه - تعالى - لو أراد أن - يصير الرسول صلى الله عليه وسلم ناسيا للقرآن لقدر على ذلك ، كما قال . . سبحانه - ( وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بالذي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ إذ هو - تعالى - على كل شئ قدير ، ولكنه لم يشأ ذلك فضلا منه وكرما ( . : قال الإمام الشوكانى ما ملخصه : قوله : ( سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تنسى ) أى. سنجعلك قارئا بأن نلهمك القراءة . فلا تنسى ما تقرؤه ، والجملة مستأنفة لبيان هدايته صلى الله عليه وسلم الخاصة ، بعد بيان الهداية العامة ، وهى هدايته صلى الله عليه وسلم لحفظ القرآن .

الا ما شاء الله انه يعلم الجهر وما يخفى

كما فسرها الوسيط وقوله : ( إِلاَّ مَا شَآءَ الله ) استثناء مفرغ من أعم المفاعيل ، أى :لا تنسى مما تقرؤه شيئا من الأشياء ، إلا ما شاء الله أن تنساه ، وهو لم يشأ - سبحانه - أن ينسى النبى صلى الله عليه وسلم شيئا كقوله - تعالى - ( خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السماوات والأرض إِلاَّ مَا شَآءَ رَبُّكَ ) وقيل : "لا " فى قوله ( فَلاَ تنسى ) للنهى ، والألف مزيدة لرعاية الفاصلة ، كما فى قوله - تعالى - : ( فَأَضَلُّونَا السبيلا ) يعنى : فلا تغفل عن قراءته .وقال الإمام الرازى : وهاتان الآيتان تدلان ، على المعجزة من وجهين :أحدهما : أن رسول صلى الله عليه وسلم كان أميا فحفظه لهذا الكتاب المطول عن غير دراسة ، ولا تكرار ، ولا كتبة ، خارق . للعبادة فيكون معجزا . وثانيهما : أن هذه السورة من أوائل ما نزل بمكة ، فهذا إخبار عن أمر عجيب غريب مخالف للعادة . سيقع فى المستقبل ، وقد وقع . . فكان هذا إخبارا عن الغيب ، فيكون معجزا

ونيسرك لليسرى

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَنُيَسِّرُكَ لليسرى ) معطوف على قوله ( سَنُقْرِئُكَ ) وجملة : ( إِنَّهُ يَعْلَمُ الجهر وَمَا يخفى ) معترضة .والتيسير بمعنى التسهيل والتخفيف ، وهو جعل العمل يسيرا على عامله بأن يهيئ الله - تعالى - للعامل الأسباب التى تهون له العسير ، وتقرب له البعيد .واليسرى : مؤنث الأيسر ، بمعنى الأسهل ، والموصوف محذوف .والمعنى : سنجعلك - أيها الرسول الكريم - صاحب ذاكرة قوية تحفظ القرآن ولا تنساه . وسنوفقك توفيقا دائما للطريقة اليسرى فى كل باب من أبواب الدين : علما وعملا ، واهتداء وهداية - وسنرزقك الأمور الحسنة التى تجعلك تعيش سعيدا فى دنياك ، وظافرا برضواننا فى أخراك .ولقد أنجز الله - تعالى - لنبيه صلى

الله عليه وسلم وعده ، حيث أعطاه شريعة سمحة ، ومنحه أخلاقا كريمة ، من
، مظاهرها أنه صلى الله عليه وسلم ما خير بين الأمرين إلا اختار أيسرهما
ودعا أتباعه إلى الأخذ بمبدأ التيسير ، فقال : " يسروا ولا تعسروا ، وبشروا
ولا تنفروا . . " .فهاتان بشارتان عظيمتان للرسول صلى الله عليه وسلم
. أولاهما : تتمثل فى إلهامه الذاكرة الواعية الحافظة لما يوحى إليه
وثانيتهما : توفيقه صلى الله عليه وسلم إلى الشريعة اليسرى ، وإلى الأخلاق
. الكريمة وإلى الأخذ بما هو أرفق وأيسر فى كل أحواله

فذكر ان نفعت الذكرى

كما فسرها الوسيط ثم أمره - تعالى - بدوام التذكير بدعوة الحق بدون إبطاء
. أو يأس فقال : ( فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذكرى سَيَذَّكَّرُ مَن يخشى
وَيَتَجَنَّبُهَا الأشقى . الذى يَصْلَى النار الكبرى . ثُمَّ لاَ يَمُوتُ
، فِيهَا وَلاَ يَحْيَا ) .والفاء فى قوله ( فذكر ) للتفريع على ما تقدم
- والأمر مستعمل هنا فى طلب المداومة على التذكير بدعوة الحق التى أرسله
سبحانه - بها ، والذكرى : بمعنى التذكير .والمعنى : إذا كان الأمر كما
، أخبرناك - أيها الرسول الكريم - فداوم على تذكير الناس بالهدى ودين الحق
واتبع فى ذلك الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتى هى أحسن اهتم فى
تذكيرك بمن تتوقع منهم قبول دعوتك ، وأعرض عن الجاحدين والمعاندين
والجاهلين .قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كان الرسول صلى الله عليه وسلم
مأمورا بالذكرى نفعت أو لم تنفع . . فما معنى اشتراط النفع؟ . .قلت : هو
على وجهين : أحدهما . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استفرغ مجهوده فى
تذكيرهم ، وما كانوا يزيدون على زيادة الذكرى إلا عتوا وطغيانا ، وكان
، النبى صلى الله عليه وسلم يتلظى حسرة وتلهفا ، ويزداد جدا فى تذكيرهم
وحرصا عليه ، فقيل له : ( وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ
بالقرآن مَن يَخَافُ وَعِيدِ ) وذلك بعد إلزام الحجة بتكرير التذكير
والثانى : أن يكون ظاهره شرطا ، ومعناه ذَمّاً للمذكَّرين - بتشديد الكاف.
المفتوحة - وإخبارا عن حالهم ، واستبعادا لتأثير الذكرى فيهم ، وتسجيلا
، عليهم بالطبع على قلوبهم ، كما تقول للواعظ : عظ المكاسين إن سمعوا منك
قاصدا بهذا الشرط ، استبعاد ذلك ، وأنه لن يكون . .وقال الإمام الرازى ما
ملخصه : جاء التعليق بالشرط فى قوله - تعالى - : ( فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ
، الذكرى ) مع أنه صلى الله عليه وسلم مطلوب منه أن يذكر الناس جميعا
نفعتهم الذكرى أم لم تنفعهم - للتنبيه على أشرف الحالين ، وهو وجود النفع
الذى من أجله شرعت الذكرى ، كقوله - تعالى - :( سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحر
وللإشعار بأن المراد من الشرط : البعث على الانتفاع بالذكرى ، كما يقول (
، الإنسان لغيره بعد أن بين له الحق ، قد أوضحت لك الأمر إن كنت تعقل
، فيكون مراده الحض على القبول . .ويبدو لنا أن المقصود بالآية الكريمة
تحريض النبى صلى الله عليه وسلم على المداومة على دعوة الناس إلى قبول الحق
، الذى جاء به ، فإن هذا التذكير إن لم ينفع الناس جميعا ، فسينفع بعضهم
، فقد اقتضت سنة الله - تعالى - أن لا تخلو الأرض ممن يستمع إلى الحق
. ويستجيب له

سيذكر من يخشى

) : كما فسرها الوسيط ويدل على هذا المعنى قوله - تعالى - بعد ذلك
سَيَذَّكَّرُ مَن يخشى ) أى : سينتفع بتذكيرك - أيها الرسول الكريم - من
. يخشى الله - تعالى - ويخاف عذابه ، ويرجو ثوابه

ويتجنبها الاشقى

كما فسرها الوسيط ( وَيَتَجَنَّبُهَا الأشقى ) أى : ويتجنب الذكرى ، ويبتعد
، عن الموعظة ، ويتجافى عن النصيحة ، الإنسان الشديد الشقاوة والتعاسة
. - الذى أبى إلا الإصرار على كفره وعناده ، وخلا من خشية الله - تعالى
والمراد بالأشقى : الجنس ، أى : يبتعد عن الانتفاع بالتذكير جميع الأشقياء
وهم الكافرون .وقيل : المراد به الكافر المتوغل فى كفره كأبى جهل والوليد
. بن المغيرة وأشباههما

الذي يصلى النار الكبرى

: كما فسرها الوسيط وقوله : ( الذى يَصْلَى النار الكبرى ) صفة للأشقى . أى
، سيبتعد عن الانتفاع بتذكيرك - أيها الرسول الكريم - الكافر لمصر على كفره
الذى من صفاته أنه سيصلى وسيلقى فى أشد طبقات النار سعيرا وحريقا ، وهى
. الطبقة السفلى منها

ثم لا يموت فيها ولا يحيى

كما فسرها الوسيط فوصف النار بالكبرى ، من قبيل التهويل والإنذار للمصرين على كفرهم ( ثُمَّ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَا ) أى : ثم إن هذا الشقى بعد أن يلقى به فى النار الكبرى ، ( ثُمَّ لاَ يَمُوتُ فِيهَا ) فيستريح من العذاب ( وَلاَ يَحْيَاه ) حياة طيبة فيها شئ من الراحة ، بل يبقى هكذا ( وَيَأْتِيهِ الموت مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ) وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( والذين كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لاَ يقضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ) وبعد هذا البيان الذى يهز القلوب . . عن سوء عاقبة الأشقياء ز

قد افلح من تزكى

كما فسرها الوسيط ساق - سبحانه - ما يدخل البهجة والسرور على النفوس ، عن طريق بيان حسن عاقبة السعداء ، فقال : ( قَدْ أَفْلَحَ مَن تزكى . وَذَكَرَ اسم رَبِّهِ فصلى ) .أى : قد أفلح وفاز وانتفع بالتذكير ، من حاول تزكية نفسه وتطهيرها من كل سوء .ومن ذكر اسم ربه بقلبه ولسانه ، فصلى الصلوات الخمس التى فرضها الله - تعالى - عليه . وأضاف إليها ما استطاع من نوافل وسنن .وعبر - سبحانه - بقوله : ( قَدْ أَفْلَحَ ) ليجمع فى هذا التعبير البليغ ، كل معانى الخير والنفع ، لأن الفلاح معناه : وصول المرء إلى ما يطمح إليه من فوز ونفع .وجاء التبعير بالماضى المسبوق بقد ، للدلالة على تحقيق هذا الفلاح بفضل الله - تعالى - ورحمته .

وذكر اسم ربه فصلى

كما فسرها الوسيط وقد اشتملت هاتان الآيتان على الطهارة من العقائد الباطلة وعلى استحضار معرفة الله - تعالى - ( وَذَكَرَ اسم رَبِّهِ ) وعلى ( تزكى ) أداء التكاليف الشرعية التى على رأسها الصلاة ( فصلى ) .وهذه المعانى هى التى وصلت صاحبها إلى الفلاح الذى ليس بعده فلاح .

بل تؤثرون الحياة الدنيا

. كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( بَلْ تُؤْثِرُونَ الحياة الدنيا والآخرة خَيْرٌ وأبقى ) الإضراب فيه عن كلام مقدر يفهم من السياق .والمعنى لقد بينت لكم ما يؤدى إلى فلاحكم وفوزكم . . يا بنى آدم - كثير منكم لم يستجيب لما بينته له ، لأن الدنيا ومتعها زائلة ، أما الآخرة فخيرها باق لا يزول .والخطاب لجميع الناس ، ويدخل فيه الكافرون دخولا أوليا ، وعليه يكون المراد بإيثار الحياة الدنيا بالنسبة للمؤمنين ، ما لا يخلو منه غالب الناس من اشتغالهم فى كثير من الأحيان بمنافع الدنيا ، وتقصيرهم فيما يتعلق ، بآخرتهم .ويرى كثير من العلماء : أن الخطاب للكافرين على سبيل الالتفات ، ويؤيد أن الخطاب للكافرين قراءة أبى عمرو بالياء على طريقة الغيبة .أى : بل إن الكافرين يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة ، مع أن الآخرة خير وأبقى .

والاخرة خير وابقى

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html}

وقوله - تعالى - : ( بَلْ تُؤْثِرُونَ الحياة الدنيا . والآخرة خَيْرٌ وأبقى ) الإضراب فيه عن كلام مقدر يفهم من السياق .والمعنى : لقد بينت لكم ما يؤدى إلى فلاحكم وفوزكم . . يا بنى آدم - كثير منكم لم يستجيب لما بينته له ، لأن الدنيا ومتعها زائلة ، أما الآخرة فخيرها باق لا يزول .والخطاب لجميع الناس ، ويدخل فيه الكافرون دخولا أوليا ، وعليه يكون المراد بإيثار الحياة الدنيا بالنسبة للمؤمنين ، ما لا يخلو منه غالب الناس ، من اشتغالهم فى كثير من الأحيان بمنافع الدنيا ، وتقصيرهم فيما يتعلق بآخرتهم .ويرى كثير من العلماء : أن الخطاب للكافرين على سبيل الالتفات ، ويؤيد أن الخطاب للكافرين قراءة أبى عمرو بالياء على طريقة الغيبة .أى : بل إن الكافرين يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة ، مع أن الآخرة خير وأبقى .

ان هذا لفي الصحف الاولى

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة بقوله : ( إِنَّ هذا لَفِي الصحف الأولى . صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وموسى ) أى : إن هذا الذى ذكرناه من فلاح من تزكى ، ومن إيثاركم الحياة الدنيا على الآخرة ، لكائن وثابت ومذكور

فى الصحف الأولى ، التى هى صحف إبراهيم وموسى ، التى أنزلها - سبحانه - على هذين النبيين الكريمين ، ليعلما الناس ما اشتملت عليه من آداب وأحكام ومواعظ . وفى إبهام هذه الصحف ، ووصفها بالقدم ، ثم بيان أنها لنبيين كريمين من أولى العزم من الرسل ، تنويه بشأنها ، وإعلاء من قدرها .وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

صحف ابراهيم وموسى

`<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html} كما فسرها الوسيط

ثم ختم - سبحانه - السورة بقوله : ( إِنَّ هذا لَفِي الصحف الأولى . صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وموسى ) أى : إن هذا الذى ذكرناه من فلاح من تزكى ، ومن ، إيثاركم الحياة الدنيا على الآخرة ، لكائن وثابت ومذكور فى الصحف الأولى التى هى صحف إبراهيم وموسى ، التى أنزلها - سبحانه - على هذين النبيين الكريمين ، ليعلما الناس ما اشتملت عليه من آداب وأحكام ومواعظ . وفى إبهام هذه الصحف ، ووصفها بالقدم ، ثم بيان أنها لنبيين كريمين من أولى العزم من الرسل ، تنويه بشأنها ، وإعلاء من قدرها .وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

هل اتاك حديث الغاشية

كما فسرها الوسيط الاستفهام فى قوله - تعالى - : ( هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الغاشية ) للتحقيق والتقرير ، أو المقصود به التعجيب من حديث القيامة ، والتشويق إلى الاستماع إليه .والغاشية : لفظ مشتق من الغشيان ، وهو تغطية الشئ لغيره ، يقال : غشيه الأمر ، إذا غطاه ، والمقصود بالغاشية يوم القيامة ، ووصف يوم القيامة بذلك ، لأنه يغشى الناس بأهواله وشدائدم ، ويغطى عقولهم عن التفكير فى أى شئ سواه .والمعنى : هل بلغك - أيها الرسول الكريم أو أيها المخاطب - حديث يوم القيامة ، الذى يغشى الناس بأحواله المفزعة ، ويعمهم بشدائده . . إن كان لم يأتك فهذا خبره ، وتلك هى أقسام الناس فيه .وافتتاح السورة بهذا الافتتاح - بجانب ما فيه من تشويق - يدل على أهمية هذا الخبر ، وأنه من الأخبار التى ينبغى الاستعداد لما اشتملت عليه من معانى لا يصح التغافل عنها .

وجوه يومئذ خاشعة

كما فسرها الوسيط ثم فصل - سبحانه - أحوال الناس فى هذا اليوم فقال : ( وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ) .قال الشوكانى : الجملة مستأنفة من كون ثَمَّ وجوه فى ذلك اليوم متصفة بهذهالصفة المذكورة ، و " وجوه " مرتفع على الابتداء - وإن كانت نكرة مرتفع على الابتداء - وإن كانت نكرة - لوقوعه فى مقام التفصيل . . والتنوين فى " يومئذ " عوض عن المضاف إليه . أى : يوم غشيان الغاشية .والخاشعة : الذليلة الخاضعة ، وكل متضائل ساكن يقال له خاشع والمراد بالوجوه : أصحابها ، من باب التعبير عن الكل بالبعض ، وخصت . . الوجوه بالذكر ، لأنها أشرف أعضاء الإنسان ، ولأنها هى التى تظهر عليها الآثار المختلفة من حزن أو فرح . أى : وجوه فى يوم قيام الساعة ، تكون - خاشعة ذليلة ، تبدو عليها آثار الهوان والانتكاس والخزى ، كما قال تعالى - : ( وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذل . . . ).

عاملة ناصبة

كما فسرها الوسيط وهذه الوجوه - أيضا - من صفاتها أنها ( عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ) أى : مكلفة بالعمل الشاق المرهق الذى تَنْصَبُ له الوجوه فى هذا اليوم ، وتتعب تعبا ما عليه من مزيد ، كجر السلاسل ، وحمل الأغلال ، والخوض فى النار .فقوله : ( عاملة ) اسم فاعل من العمل ، والمراد به هنا : العمل الشاق المهين .وقوله : ( ناصبة ) من النّصب ، بمعنى : التعب والإعياء يقال : نَصِب فلان بكسر الصاد - كفرح - ينصب نصبا ، إذا تعب فى عمله تعبا شديدًا .وفى هذه الصفات زيادة توبيخ لأهل النار ، لأنهم لما تركوا فى الدنيا الخشوع لله - تعالى - والعمل الصالح ، وآثروا متع الدنيا على ثواب الآخرة . . كان جزاؤهم يوم القيامة ، الإذلال ، والعمل الشاق المهين الذى لا تعقبه راحة .

تصلى نارا حامية

كما فسرها الوسيط ثم أخبر - سبحانه - عن هذه الوجوه الشقية بأخبار أخرى

فقال : ( تصلى نَاراً حَامِيَةً ) أى : أن هذه الوجوه تشوى بالنار الحامية يوم القيامة . يقال : صَلِىَ فلان النار فهو يصلاها ، إذا لفحته بحرها لفحا شديدا .

تسقى من عين انية

كما فسرها الوسيط ( تسقى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ) أى : هذه الوجوه يسقى أصحابها من عين قد بلغت النهاية فى الحرارة والغليان ، إذ الشئ الآنى ، هو ، - الذى بلغ النهاية فى الحرارة ، يقال : أَنَى الماء يَأْنَى - كرمى يرمى إذا بلغ الغاية فى الغليان ، ومنه قوله - تعالى - ( يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ) قال الإمام ابن جرير : قوله : ( تسقى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ) أى : تسقى أصحاب هذه الوجوه من شراب عين قد أنَى حرها ، فبلغ غايته فى شدة الحر ، وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل . . فعن ابن ) : عباس : هى التى قد طال أنيْهُا - أى : حرها - .وقال بعضهم : عنى بقوله . مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ) أى : من عين حاضرة - أى : حاضرة لعذابهم

ليس لهم طعام الا من ضريع

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ . لاَّ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِي مِن جُوعٍ )والضريع : هو شجر فى النار يشبه الشوك ، فيه ما فيه من المرارة والحرارة وقبح الرائحة .

لا يسمن ولا يغني من جوع

- كما فسرها الوسيط وقوله : ( يسمن ) من السِّمَن - بكسر السين وفتح الميم وهو وفرة اللحم والشحم فى الحيوان وغيره . يقال : فلان أسمنه الطعام ، إذا : عاد عليه بالسمن .وقوله : ( يغنى ) من الإغناء ودفع الحاجة ، يقال أغنانى هذا الشئ عن غيره ، إذا كفاه واستغنى به عن سواه . أى : أن أصحاب ، هذه الوجوه التعيسة بجانب شرابهم من الماء البالغ النهاية فى الحرارة لهم - أيضا - طعام من أقبح الطعام وأردئه وأشنعه وأشده مرارة . . هذا الطعام لا يأتى بسمن ، ولا يغنى من جوع ، بل إن آكله ليزدرده رغما عنه فأنت ترى أن الله - تعالى - قد أخبر عن أصحاب هذه الوجوه الشقية بجملة من. الأخبار المحزنة المؤلمة ، التى منها ما يتعلق بهيئاتهم ، ومنها ما يتعلق - بأحوالهم ، ومنها ما يتعلق بشرابهم ، ومنها ما يتعلق بطعامهم .ووصف ، سبحانه - طعامهم بأنه لا يسمن ولا يغنى من جوع ، لزيادة تقبيح هذا الطعام وأنه شر محض ، لا مكان لأية فائدة معه .قال صاحب الكشاف : الضريع : اليابس من نبات الشبرق ، وهو جنس من الشوك ، ترعاه الإبل ما دام رطبا ، فإذا يبس تحامته الإبل وهو سم قاتل . .فإن قلت : كيف قيل : ( لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ ) وفى الحاقة ( وَلاَ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ ) قلت : العذاب ألوان ، والمعذبون طبقات ، فمنهم : أكله الزقوم ومنهم أكلة الغسلين ، ومنهم أكلة الضريع .والضريع : منفعتا الغذاء منفيتان عنه : وهما إماطة الجوع ، وإفادة القوة والسمن فى البدن . أو أريد : أن لا طعام لهم أصلا ، لأن الضريع ليس بطعام للبهائم ، فضلا عن الإنس ، لأن الطعام ما أشبه أو أسمن ، وهما منه بمعزل ، كما تقول : ليس لفلان ظل إلى الشمس . نريد : نفى الظل على التوكيد . .وبعد هذا الحديث المؤثر عن الكافرين وسوء عاقبتهم ..

وجوه يومئذ ناعمة

) : - كما فسرها الوسيط جاء الحديث عن المؤمنين ونعيمهم ، فقال - تعالى وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ . لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ . فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ) .قال الآلوسى : قوله : ( وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ) شروع فى رواية حديث أهل الجنة ، وتقديم حكاية أهل النار ، لأنه أدخل فى تهويل الغاشية ، وتفخيم حديثها ، ولأن حكاية حُسْنِ حال أهل الجنة ، بعد حكاية سوء أهل النار ، مما يزيد المحكى حسنا وبهجة . . . وإنما لم تعطف هذه الجملة على تلك الجملة ، إيذانا بكمال التباين بين مضمونهما . .أى : وجوه كثيرة تكون يوم القيامة ، ذات بهجة وحسن ، وتكون متنعمة فى الجنة بما أعطاها - سبحانه - من خير عميم ، جزاء عملها الصالح فى الدنيا .

لسعيها راضية

كما فسرها الوسيط ( لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ) أى : لعملها الذى عملته فى الدنيا راضية ، لأنها قد وجدت من الثواب عليه فى الآخرة ، أكثر مما كانت ، تتوقع وترجو .فالمراد بالسعى : العمل الذى كان يعمله الإنسان فى الدنيا

ويسعى به من أجل الحصول على رضا خالقه ، وهو متعلق بقوله ( راضية ) . وقدم عليه للاعتناء بشأن هذا السعى .

في جنة عالية

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ) بيان لسمو مكانتهم . أى : هم كائنون فى جنة عالية ، مرتفعة المكان والمكانة ، فقد وصفت الجنة بالعلو ، للمبالغة فى حسنها وفى علو منزلتها ، فقد جرت العادة أن تكون أحسن الجنات ، ما كانت مرتفعة على غيرها .

لا تسمع فيها لاغية

كما فسرها الوسيط ثم وصف - سبحانه - هذه الجنة بجملة من الصفات الكريمة فقال : ( لاَّ تَسْمَعُ فِيهَا لاَغِيَةً ) أى :لا تسمع فى هذه الجنة كلمة ذات لغو . واللغو : هو الكلام الساقط الذى لا فائدة فيه . أى : إنك - أيها المخاطب -لا تسمع فى الجنة إلا الكلام الذى تسر له نفسك ، وتقرّ به عينك فلفظ اللاغية هنا : مصدر بمعنى اللغو ، مثل الكاذبة للكذب ، وهو صفة ، لموصوف محذوف .

فيها عين جارية

كما فسرها الوسيط ( فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ) يريد عيونا فى غاية الكثرة كقوله : ( عَلِمَتْ نَفْسٌ مّا قَدّمَتْ وَأَخّرَتْ ) فالمراد بالعين عنا : جنس العيون ، وبالجارية : التى لا ينقطع ماؤها . .

فيها سرر مرفوعة

كما فسرها الوسيط ( فِيهَا سُرُرٌ مّرْفُوعَةٌ ) أى : فى الجنة أماكن يجلس عليها أهلها جلوسا مرتفعا عن الأرض .وينامون فوقها نوما هادئا لذيذا . والسرر : جمع سرير ، وهو الشئ ذو القوائم المرتفعة الذى يتخذ للجلوس والاضطجاع .ووصف - سبحانه - هذه السرر بالارتفاع ، لزيادة تصوير حسنها .

واكواب موضوعة

كما فسرها الوسيط ( وَأَكْوَابٌ مّوْضُوعَةٌ ) والأكواب جمع كوب . وهو عبارة عن الإناء الذى تشرب فيه الخمر . أى : وفى الجنة أكواب كثيرة قد وضعت بين أيدى أهلها ، بحيث يشربون من الخمر التى وضعت فيها ، دون أن يجدوا أى عناء فى الحصول عليها .

ونمارق مصفوفة

كما فسرها الوسيط ( وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ) والنمارق : جمع نمرقة - بضم النون وسكون الميم وضم الراء - ، وهى الوسادة الصغيرة التى يتكئ عليها الجالس والمضجع . أى : وفى الجنة وسائد كثيرة ، قد صف بعضها إلى جانب بعض صفا جميلا ، بحيث يجدها الجالس قريبة منه فى كل وقت .

وزرابي مبثوثة

- كما فسرها الوسيط ( وَزَرَابِيّ مَبْثُوثَةٌ ) والزرابى جمع زربية بتثليث الزاى - وهى البساط الواسع الفاخر ، أو ما يشبه من الأشياء الثمينة التى تتخذ للجلوس عليها .والمبثوثة : أى : المنتشرة على الأرض ، من البث بمعنى النشر ، كما فى قوله - تعالى - : ( وَبَثّ فِيهَا مِن كُلّ دَآبّةٍ ) أى : وفيها بسط فاخرة جميلة . . مبسوطة فى كل مكان ، ومتفرقة فى كل مجلس فأنت ترى أن الله - تعالى - قد وصف الجنة التى أعدها - سبحانه - لعباده. المتقين بعدد من الصفات الكريمة المتنوعة .وصفها بأنها عالية فى ذاتها ، وبأنها خالية من الكلام الساقط ، وبأن ميالها لا تنقطع ، وبأن أثاثها فى غاية الفخامة ، حيث اجتمع فيها كل ما هو مريح ولذيذ .نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا جميعا من أهلها .

افلا ينظرون الى الابل كيف خلقت

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - أنواعا من الأدلة المشاهدة ، التى لا يستطيع أحد إنكارها ، ليلفت أنظار الناس إلى مظاهر قدرته ووحدانيته . فقال - تعالى - : ( أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإبل كَيْفَ خُلِقَتْ .

وَإِلَى السمآء كَيْفَ رُفِعَتْ . وإلى الجبال كَيْفَ نُصِبَتْ . وَإِلَى الأرض كَيْفَ سُطِحَتْ ) .والاستفهام للتقريع والتوبيخ ، والتحريض على التأمل والتفكر ، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام ، والمراد بالنظر : التدبر فى تلك المخلوقات ، فإن من شأن هذا التدبر ، أنه يؤدى إلى الاعتبار والانتفاع . . والخطاب لأولئك الكافرين الجاهلين ، الذين أمامهم الشواهد الواضحة على وحدانية الله - تعالى - وقدرته ، ومع ذلك لم ينتبهوا لها والمعنى : أيستمر هؤلاء الكافرون فى جهلهم وضلالهم ، وفى إنكارهم لأمر. البعث والحساب والجزاء . . فلا ينظرون نظر اعتبار وتأمل ، إلى الإبل - وهى أمام أعينهم - كيف خلقها الله ما - تعالى - بهذه الصورة العجيبة ، وأوجد فيها من الأعضاء المتناسقة ، ومن التكوين الخِلْقِى ، ما يجعلها تؤدى وظيفتها النافعة لبنى آدم ، على أكمل وجه ، فمن لبنها يشربون ، ومن لحمها يأكلون وعلى ظهرها يسافرون ، وأثقالهم عليها يحملون .وخص - سبحانه - الإبل بالذكر من بين سائر الحيوانات ، لأنها أعز الأموال عند العرب ، وأقربها إلى مألوفهم وحاجتهم ، وأبدعها خلقا وهيئة وتكوينا .قال صاحب الكشاف : قوله - تعالى - : ( أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإبل ) نظر اعتبار ( كَيْفَ خُلِقَتْ ) خلقا عجيبا ، دالا على تقدير مقدر ، شاهدا بتدبير مدبر ، حيث خلقها للنهوض بالأثقال ، وجرها إلى البلاد الشاحطة ، أى البعيدة ، فجعلها تبرك حتى تحمل عن قرب ويسر ، ثم تنهض بما حملت ، وسخرها منقادة لكل من اقتادها بأزمتها ، لا تعارض ضعيفا ، ولا تمانع صغيرا .فإن قلت : كيف حسن ذكر الإبل ، مع السماء والجبال والأرض ، ولا مناسبة؟ . .قلت : قد انتظم هذه الأشياء ، نظر العرب فى أوديتهم وبواديهم ، فانتظمها الذكر على حسب ما انتظمها نظرهم . .

والى السماء كيف رفعت

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( وَإِلَى السمآء كَيْفَ رُفِعَتْ ) أى وهلا نظروا إلى السماء نظر اعتبار واتعاظ ، فعرفوا أن الذى خلقها هذا : الخلق البديع ، بأن رفعها بدون أعمدة .. هو الله - عز وجل - .

والى الجبال كيف نصبت

كما فسرها الوسيط ( وإلى الجبال كَيْفَ نُصِبَت ) أى : كيف وجدت بهذا الوضع الباهر بأن نصبت على وجه الأرض ثابتا راسخا . يحمى الأرض من الاضطراب والتزلزل .

والى الارض كيف سطحت

كما فسرها الوسيط ( وَإِلَى الأرض كَيْفَ سُطِحَتْ ) أى : كيف وسويت وفرشت وبسطت بطريقة تجعل الناس يتمكنون من الانتفاع بخيرها ، ومن الاستقرار عليها وهذا لا ينافى كونها كروية ، لأن الكرة إذا اشتد عظمها . . كانت القطعة ، منها كالسطح فى إمكان الانتفاع بها .

فذكر انما انت مذكر

كما فسرها الوسيط وبعد هذا التوبيخ لأولئك المشركين الذين عموا وصموا عن الحق ، ولم ينتبهوا لآيات الله - تعالى - الدالة على قدرته ووحدانيته . . أمر الله - تعالى - نبيه صلى الله عليه وسلم أن يداوم على التذكير بدعوة الحق ، فقال : ( فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ . لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ) .والفاء فى قوله ( فذكر ) للتفريع ، وترتيب ما بعدها على ما قبلها . والأمر مستعمل فى طلب الاستمرار والدوام فى دعوته الناس إلى الحق ، ومفعول : " فذكر " محذوف وجملة " إنما أنت مذكر " تعليل للأمر .وجملة " لست عليهم بمصيطر " تعليل للأمر بالمواظبة على تبليغ الناس ما أمره بتبليغه .

لست عليهم بمصيطر

كما فسرها الوسيط والمصيطر : هو المتسلط ، المتجبر ، الذى يجبر الناس على الانقياد لما يأمرهم به .وقد قرأ الجمهور هذا اللفظ بالصاد ، وقرأ ابن عامر بالسين .أى : إذا كان الأمر كما بينا لك - أيها الرسول الكريم - من أحوال الناس يوم الغاشية ، ومن أننا نحن الذين أوجدنا هذا الكون بقدرتنا . . فداوم - أيها الرسول الكريم - على دعوة الناس إلى الدين الحق ، فهذه وظيفتك التى لا وظيفة لك سواها ، وكِلْ أمرهم بعد ذلك إلينا ، فأنت لست بمجبر لهم أو مكره إياهم على اتباعك ، وإنما أنت عليك البلاغ ونحن علينا الحساب .

الا من تولى وكفر

. كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( إِلاَّ مَن تولى وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ الله العذاب الأكبر ) كلام معترض بين قوله : ( فذكر . . ) وبين قوله - تعالى - بعد ذلك : ( إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ) والاستثناء . . فيه استثناء منقطع ، و " إلا " بمعنى لكن ، و " مَنْ " موصولة مبتدأ - والخبر . " فيعذبه الله العذاب الأكبر " .أى : داوم - أيها الرسول الكريم ، على التذكير . . لكن من تولى وأعرض عن تذكيرك وإرشادك ، وأصر على كفره . فنحن الذين سنتولى تعذيبهم تعذيبا شديدا .

فيعذبه الله العذاب الاكبر

`<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html} كما فسرها الوسيط

وقوله - سبحانه - ( إِلاَّ مَن تولى وَكَفَرَ . فَيُعَذِّبُهُ الله العذاب الأكبر ) كلام معترض بين قوله : ( فذكر . . ) وبين قوله - تعالى - بعد ذلك : ( إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ) : والاستثناء فيه استثناء منقطع ، و " إلا " بمعنى لكن ، و " مَنْ " موصولة مبتدأ . . والخبر . " فيعذبه الله العذاب الأكبر " .أى : داوم - أيها الرسول الكريم - على التذكير . . لكن من تولى وأعرض عن تذكيرك وإرشادك ، وأصر على كفره ، فنحن الذين سنتولى تعذيبهم تعذيبا شديدا .

ان الينا ايابهم

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بقوله : ( إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ . ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ) .والإياب مأخوذ من الأوب بمعنى الرجوع إلى المكان الذى كان فيه قبل ذلك . والمراد به - هنا : الرجوع إلى الله - تعالى - يوم القيامة للحساب والجزاء .أى : داوم أيها الرسول الكريم - على تذكير الناس بدعوة الحق ، بدون إجبار لهم ، أو تسلط عليهم ، واتركهم بعد ذلك وشأنهم . . فإن إلينا وحدنا رجوعهم بعد الموت . لا إلى أحد سوانا

ثم ان علينا حسابهم

، كما فسرها الوسيط ثم إن علينا وحدنا - أيضا - حسابهم على أعمالهم ومجازاتهم عليها بالجزاء الذى نراه مناسبا لهم .وصدر - سبحانه - الآيتين بحرف التأكيد " إن " وعطف الثانية على الأولى بحرف " ثم " المفيد للتراخى فى الرتبة ، وقدم خبر " إن " فى الجلمتين على اسمها . . لإفادة التهديد والوعيد ، وتأكيد أن رجوعهم إليه - تعالى - أمر لا شك فيه . وإن حسابهم يوم القيامة سيكون حسابا عسيرا ، لأنه صادر عمن لا تخفى عليه خافية فى الأرض . ولا فى السماء

والفجر

كما فسرها الوسيط افتتح - سبحانه - السورة الكريمة بالقسم بخمسة أشياء لها شرفها وعظمها ، ولها فوائدها الدينية والدنيوية . . ولها دلالتها الواضحة على كمال قدرته - تعالى - .أقسم أولا - بالفجر ، وهو وقت انفجار الظلمة عن النهار من كل يوم ، ووقت بزوغ الضياء وانتشاره علىالكون بعد ليل بهيم فالمراد بالفجر : الوقت الذى يبدأ فيه النهار فى الظهور ، بعد ظلام الليل. والتعريف فيه للجنس ، لأن المقصود هذا الوقت من كل يوم .وقيل المراد ، بالفجر هنا : صلاة الفجر ، لأنها صلاة مشهودة ، أى : تشهدها الملائكة ، كما أن التعريف فيه للعهد ، فقيل : فجر يوم النحر ، وقيل : فجر يوم الجمعة . ويبدو لنا أن الرأى الأول أرجح ، لأن قوله - تعالى - بعد ذلك ( وَلَيالٍ عَشْرٍ ) يرجح أن المراد به وقت معين . هذا الوقت يوجد مع كل يوم جديد .

وليال عشر

كما فسرها الوسيط وأقسم - سبحانه - ثانيا بقوله : ( وَلَيالٍ عَشْرٍ ) والمراد بها : الليالى العشر الأوَل من شهر ذى الحجة ، لأنها وقت مناسك الحج ، ففيها الإحرام ، والطواف ، والوقوف بعرفة . .وقيل المراد بها الليالى العشر الأواخر من رمضان وقيل : الليالى العشر الأوَل من شهر المحرم . .قال الإمام ابن كثير : والليالى العشر : المراد بها : عشر ذى الحجة . كما قاله ابن عباس وابن الزبير ، ومجاهد ، وغير واحد من السلف والخلف .وقد ثبت فى صحيح البخارى ، عن ابن عباس مرفوعا : " ما من أيام

: العمل الصالح ، أحب إلى الله - تعالى - فيهن ، من هذه الأيام " - يعنى
عشر ذو الحجة - قالوا : " ولا الجهاد فى سبيل الله؟ قال : ولا الجهاد فى
: سبيل الله ، إلا رجلا خرج بنفسه وماله ، ثم لم يرجع من ذلك بشئ " .وقيل
المراد بذلك : العشر الأوَل من المحرم . وقيل : العشر الأوَل من رمضان
. . والصحيح القول الأول

والشفع والوتر

كما فسرها الوسيط وأقسم - سبحانه - ثالثا ورابعا بقوله : ( والشفع والوتر )
والشفع : ما يكون ثانيا لغيره ، والوتر : هو الشئ المنفرد .وقد ذكرالمفسرون
فى المراد بهذين اللفظين أقوالا متعددة ، فمنهم من يرى أنهما يعمان كل
الأشياء شفعها ووترها ، ومنهم من يرى أن المراد بالشفع : يوم النحر ، لكونه
اليوم العاشر من ذى الحجة ، وأن المراد بالوتر : يوم عرفة ، لأنه اليوم
، التاسع من شهر ذى الحجة . ومنهم من يرى أن المراد بهما : الصلاة المكتوبة
ما كان منها شفعا ، كصلاة الظهر والعصر والعشاء والصبح ، وما كان منها وترا
: كالمغرب .ومنهم من يرى أن المراد بالشفع : جميع المخلوقات ، وبالوتر
الله - تعالى - الواحد الصمد .وقد رجح بعض العلماء هذا القول فقال ما ملخصه
والواقع أن أقرب الأقوال عندى - والله أعلم - . أن المراد بالوتر ، هو :
الله - تعالى - ، للحديث : " إن الله وتر يحب الوتر "وما سواه شفع . . لأنه
، ثبت علميا أنه لا يوجد كائن موجود بمعنى الوتر قط ، حتى الحصاة الصغيرة
فإنه ثبت أن كل كائن جماد أو غيره مكون من ذرات ، والذرة لها نواة ومحيط
ولهذا كان القول بأن الوتر هو الله ، وبأن الشفع : جميع المخلوقات . . هو.
. الراجح ، وهو الأعم فى المعنى

والليل اذا يسر

كما فسرها الوسيط وأقسم - سبحانه - خامسا - بقوله : ( والليل إِذَا يَسْرِ
أى : وحق الليل عندما يسرى ويمضى ، تاركا من خلفه ظلامه ، ليحل محله (
النهار بضيائه .أو المعنى : وحق الليل وقت أن يَسْرِى فيه السارون ، بعد أن
أخذوا حظهم من النوم ، فإسناد السُّرَى إلى الليل على سبيل المجاز ، كما فى
قولهم : ليل نائم ، أى : ينام فيه الناس ، وقرأ الجمهور ( يسر ) بحذف الياء
وصلا وقفا ، اكتفاء عنها بالكسرة تخفيفا .وقرأ نافع وأبو عمرو بإثبات الياء
: عند الوصل ، وبحذفها عند الوقف .والمراد بالليل هنا : عمومه ، وقيل
. المراد به هنا : ليلة القدر ، أو ليلة المزدلفة

هل في ذلك قسم لذي حجر

كما فسرها الوسيط والاستفهام فى قوله - تعالى - : ( هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ
لِّذِى حِجْرٍ ) للتقرير والتعظيم لما أقسم به - من مخلوقات . واسم
الإشارة " ذلكَ " يعود إلى تلك الأشياء التى أقسم الله - تعالى - بها
والمراد بالحِجْر العقل ، وسمى بذلك لأنه يَحْجُر صاحبه ويمنعه عن ارتكاب.
ما لا ينبغى ، كما سمى عقلا ، لأنه يَعْقِل صاحبه عن ارتكاب السيئات ، كما
يعقِل العقالُ البعيرَ عن الضلال .والمعنى : هل فى ذلك الذى أقسمنا به من
الفجر ، والليالى العشر ، والشفع والوتر . . قسم ، أى : مقسم به ، حقيق أن
، تؤكد به الأخبار عند كل ذى عقل سليم؟ .مما لا شك فيه أن كل ذى عقل سليم
، يعلم تمام العلم ، أن ما أقسم الله به من هذه الأشياء حقيق أن يقسم به
لكونها - أى : هذه الأشياء - أمورا جليلة ، خليقة بالإقسام بها لفخامة
شأنها ، كما أن كل ذى عقل سليم يعلم - أيضا - أن المقسم بهذا المقسم ، وهو
الله - عز وجل - صادق فيما أقسم عليه .فالمقصود من وراء القسم بهذه الأشياء
تحقيق المقسم عليه . بأسلوب فيه ما فيه من التأكيد والتشويق وتحقيق ،
المقسم عليه .وجواب القسم محذوف دل عليه قوله - تعالى - بعد ذلك : ( أَلَمْ
تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ) إلى قوله : ( فَصَبَّ عَلَيْهِمْ
رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ) .والتقدير : وحق هذه المخلوقات لتعذبن - أيها
: الكافرون - كما عذب الذين من قبلكم ، مثل عاد وثمود وفرعون .قال الجمل
فإن قلت : ما فائدة قوله - تعالى - : ( هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِى
حِجْرٍ ) . بعد أن أقسم - سبحانه - بالأشياء المذكورة؟ قلنا : هو لزيادة
التأكيد والتحقيق للمقسم عليه ، كمن ذكر حجة باهرة ، ثم قال : أفيما ذكرته
حجة؟وجواب القسم محذوف ، أى : لتعذبن يا كفار مكة ، وقيل هو مذكور وهو قوله
وقيل محذوف لدلالة المعنى عليه ، أى ، ( إِنَّ رَبَّكَ لبالمرصاد ) :
.. لنجازين كل أحد بعمله

الم تر كيف فعل ربك بعاد

كما فسرها الوسيط ثم ذكر - سبحانه - على سبيل الاستشهاد ، ما أنزله من عذاب

مهين ، بالأقوام المكذبين . فقال - تعالى - : ( أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ
، رَبُّكَ بِعَادٍ ) .والاستفهام فى قوله : ( أَلَمْ تَرَ . . ) للتقرير
والرؤية : علمية ، تشبيها للعلم اليقينى بالرؤية فى الوضوح والانكشاف ، لأن
أخبار هذه الأمم كانت معلومة للمخاطبين .ويجوز أن تكون الرؤية بصرية ، لكل
م نشاهد آثار هؤلاء الأقوام البائدين . .والمراد بعاد : تلك القبيلة
المشهورة بهذا الاسم ، والتى كانت تسكن الأحقاف ، وهو مكان فى جنوب الجزيرة
العربية ، معروف للعرب ، قال - تعالى - : ( وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ
بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ واتبعوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ
عَنِيدٍ ) سموا بذلك نسبة إلى أبيهم عاد بن عُوص ، بن إرم ، بن سام ، بن
-- نوح - عليه السلام

ارم ذات العماد

كما فسرها الوسيط فقوله - تعالى - : ( إرم ) عطف بيان لعاد ، لأنه جده
الأدنى .وقوله - تعالى - : ( ذَاتِ العماد ) صفة لعاد ، و " ذات " وصف مؤنث
لأن المراد بعاد القبيلة ، سمى أولاده باسمه ، كما سمى بنو هاشم هاشما
والمقصود بهذه القبيلة عاد الأولى ، التى أرسل الله - تعالى - إليهم.
هودا - عليه السلام - . وكانوا معروفين بقوتهم وضخامة أجسامهم . . وقد جاء
الحديث عنهم كثيرا فى القرآن الكريم ، ومن ذلك قوله - تعالى - : ( فَأَمَّا
عَادٌ فاستكبروا فِي الأرض بِغَيْرِ الحق وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا
قُوَّةً . . ).

التي لم يخلق مثلها في البلاد

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( التي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي
البلاد ) صفة أخرى لقبيلة عاد .والمعنى : لقد وصل إلى علمك - أيها الرسول
الكريم - بصورة يقينية ، خبر قبيلة عاد ، التى جدها الأدنى " إرم بن سام بن
نوح " " والتى كانت تسكن بيوتا ذات أعمدة ، ترفع عليها خيامهم ومبانيهم
الفارهة . . والتى لم يخلق مثلها - أى : مثل هذه القبيلة - أحد فى ضخامة
أجسام أفرادها ، وفى قوة أبدانها ، وفيما أعطاها الله - تعالى - من غنى
وقوة .قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : قوله - تعالى - : ( أَلَمْ تَرَ
كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ . إِرَمَ ذَاتِ العماد . التي لَمْ يُخْلَقْ
مِثْلُهَا فِي البلاد ) هؤلاء كانوا متمردين عتاة . . فذكر - سبحانه - كيف
أهلكهم .وهؤلاء عم عاد الأولى ، وهم أولاد عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح
وهم الذين أرسل الله إليهم نبيهم هودا - عليه السلام - فكذبوه فأهلكهم ،
الله - تعالى - .فقوله : ( إِرَمَ ذَاتِ العماد ) لأنهم كانوا يسكنون بيوت
الشّعر التى ترفع بالأعمدة الشداد .وقال ها هنا : ( التي لَمْ يُخْلَقْ
، مِثْلُهَا فِي البلاد ) أى : القبيلة التى لم يخلق مثلها فى بلادهم
لقوتهم وشدتهم ، وعظم تركيبهم .. فالضمير فى ( مثلها ) يعود إلى القبيلة
ومن زعم أن المراد بقوله : ( إِرَمَ ذَاتِ العماد ) مدينة إما دمشق أو.
الاسكندرية . . ففيه نظر . . لأن المراد إنما هو الإخبار عن إهلاك القبيلة
المسماة بعاد ، وليس المراد بالإخبار عن مدينة أو إقليم . وإنما نبهت على
: - ذلك لئلا يغتر بما ذكره جماعة من المفسرين من أن المراد بقوله - تعالى
مدينة مبنية بلبن الذهب والفضة . . فهذا كله ( . . . إِرَمَ ذَاتِ العماد )
. . من خرافات الإسرائيليين

وثمود الذين جابوا الصخر بالواد

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( وَثَمُودَ الذين جَابُواْ الصخر
: بالواد . وَفِرْعَوْنَ ذِى الأوتاد ) معطوف على ما قبله . والمراد بثمود
- القبيلة المسماة بهذا الاسم ، نسبة إلى جدها ثمود ، وقد أرسل الله
- تعالى - إليهم نبيهم صالحا - عليه السلام - فكذبوه ، فأهلكهم الله
تعالى - .وكانت مساكنهم بين الشام والحجاز ، ومازالت معروفة حتى الآن باسم
قرى صالح .وقوله : ( جَابُواْ ) بمعنى قطعوا . من الجوب بمعنى القطع والخرق
والصخرة الحجارة العظيمة .والواد : اسم للأرض المنخفضة بين مكانين ،
مرتفعين ، وكان هؤلاء القوم يقطعون الصخور من الجبال ، ليتخذوا منها بيوتهم
بواديهم ، أى : بالمكان الذى كانوا يسكنونه .فقوله : ( بالواد ) علم
- بالغلبة للمكان الذى كانوا يسكنون فيه ، ويسمى بوادى القرى ، وقد قال
تعالى - فى شأنهم : ( وَتَنْحِتُونَ مِنَ الجبال بُيُوتاً فَارِهِينَ )
والمراد بفرعون هنا : هو وقومه . والمراد بالأوتاد : الجنود والعساكر الذين
يشدون ملكه ويقوونه ، كما تشد الخيام وتقوى بالأوتاد .قال الآلوسى : وصف
فرعون بذلك لكثرة جنوده وخيامهم ، التى يضربون أوتادها فى منازلهم ، أو
لأنه كان يدق لمن يريد تعذيبه أربعة أوتاد ، ويشده بها . .وقال بعض العلماء
ووصف فرعون بذى الأوتاد ، لأن مملكته كانت تحتوى على الأهرامات ، التى :

بناها أسلافه ، لأن صورة الهرم على الأرض تشبه الوتد المدقوق ، ويجوز أن يكون المراد بالأوتاد : التمكن والثبات على سبيل الاستعارة ، أى : ذى القوة وقال صاحب الظلال : ( وَثَمُودَ الذين جَابُواْ الصخر بالواد . وَفِرْعَوْنَ ذِى الأوتاد ) وهى على الأرجح الأهرامات ، التى تشبه الأوتاد الثابتة فى الأرض المتينة البنيان ، وفرعون المشار إليه هنا ، فرعون الطاغية الجبار ، الذى أرسل الله - تعالى - إليه موسى - عليه السلام - . والمعنى : لقد علمت - أيها الرسول الكريم - وعلم معك كل من هو أهل للخطاب. ما فعله ربك بقبيلة عاد ، التى جدها إرم بن سام بن نوح ، والتى كانت صاحبة أعمدة عظيمة ترفع عليها بيوتها ، والتى لم يخلق فى بلادها مثلها فى القوة والغنى .وعلمت - أيضا - ما فعله ربك بقوم ثمود ، الذين قطعوا صخر الجبال ، واتخذوا منها والعساكر الذين يشدون ملكه .

وفرعون ذي الاوتاد

`<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html} كما فسرها الوسيط

وقوله - تعالى - : ( وَثَمُودَ الذين جَابُواْ الصخر بالواد . وَفِرْعَوْنَ ذِى الأوتاد ) معطوف على ما قبله . والمراد بثمود : القبيلة المسماة بهذا الاسم ، نسبة إلى جدها ثمود ، وقد أرسل الله - تعالى - إليهم نبيهم صالحا - عليه السلام - فكذبوه ، فأهلكهم الله - تعالى - .وكانت مساكنهم بين الشام والحجاز ، ومازالت معروفة حتى الآن باسم قرى صالح .وقوله : ( جَابُواْ ) بمعنى قطعوا . من الجوب بمعنى القطع والخرق ، والصخرة الحجارة العظيمة والواد : اسم للأرض المنخفضة بين مكانين مرتفعين ، وكان هؤلاء القوم. يقطعون الصخور من الجبال ، ليتخذوا منها بيوتهم بواديهم ، أى : بالمكان الذى كانوا يسكنونه .فقوله : ( بالواد ) علم بالغلبة للمكان الذى كانوا يسكنون فيه ، ويسمى بوادى القرى ، وقد قال - تعالى - فى شأنهم ) : وَتَنْحِتُونَ مِنَ الجبال بُيُوتاً فَارِهِينَ ) والمراد بفرعون هنا : هو وقومه . والمراد بالأوتاد : الجنود والعساكر الذين يشدون ملكه ويقوونه ، كما تشد الخيام وتقوى بالأوتاد .قال الآلوسى : وصف فرعون بذلك لكثرة جنوده وخيامهم ، التى يضربون أوتادها فى منازلهم ، أو لأنه كان يدق لمن يريد تعذيبه أربعة أوتاد ، ويشده بها . .وقال بعض العلماء : ووصف فرعون بذى الأوتاد ، لأن مملكته كانت تحتوى على الأهرامات ، التى بناها أسلافه ، لأن صورة الهرم على الأرض تشبه الوتد المدقوق ، ويجوز أن يكون المراد بالأوتاد التمكن والثبات على سبيل الاستعارة ،أى : ذى القوة . .وقال صاحب الظلال : وهى ( وَثَمُودَ الذين جَابُواْ الصخر بالواد وَفِرْعَوْنَ ذِى الأوتاد ) : على الأرجح الأهرامات ، التى تشبه الأوتاد الثابتة فى الأرض المتينة البنيان ، وفرعون المشار إليه هنا ، فرعون الطاغية الجبار ، الذى أرسل الله - تعالى - إليه موسى - عليه السلام - . .والمعنى : لقد علمت - أيها الرسول الكريم - وعلم معك كل من هو أهل للخطاب ، ما فعله ربك بقبيلة عاد ، التى جدها إرم بن سام بن نوح ، والتى كانت صاحبة أعمدة عظيمة ترفع عليها بيوتها ، والتى لم يخلق فى بلادها مثلها فى القوة والغنى .وعلمت - أيضا - ما فعله ربك بقوم ثمود ، الذين قطعوا صخر الجبال ، واتخذوا منها والعساكر الذين يشدون ملكه .

الذين طغوا في البلاد

كما فسرها الوسيط و ( الذين طَغَوْاْ فِي البلاد ) فأفسدوها ، وتجاوزوا كل حد فى العصيان والظلم .

فاكثروا فيها الفساد

كما فسرها الوسيط ( فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ) أى : فى البلاد ( الفساد ) عن طريق الفسوق والخروج عن طاعتنا .

فصب عليهم ربك سوط عذاب

كما فسرها الوسيط ( فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ) أى : فكانت نتيجة طغيانهم وفسادهم ، أن أنزل ربك عليهم ، نوعا عظيما من العذاب المهين .والسوط : آلة تتخذ من الجلود القوية ، يضرب بها الجانى ، وإضافتها إلى العذاب ، من إضافة الصفة إلى الموصوف . أى : فصب عليهم ربك عذابا " سوطا " أى : كالسوط فى سرعته ، وشدته وتتابعه ، فهو تشبيه بليغ .وعبر - سبحانه - على إنزال العذاب بهم بالصب - وهو الإفراغ لما فى الظرف بقوة للإيذان بكثرته وتتابعه .وسميت أنواع العذاب النازلة بهم سوطا تسمية للشئ باسم آلته .قال صاحب الكشاف : وذكر السوط . إشارة إلى أن ما أحله بهم فى

الدنيا من العذاب العظيم بالقياس إلى ما أعد لهم فى الآخرة ، كالسوط إذا قيس إلى سائر ما يعذب به .وعن عمر بن عبيد : كان الحسن إذا أتى على هذه الآية قال : إن عند الله أسواطا كثيرة ، فأخذهم بسوط منها . .

ان ربك لبالمرصاد

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ) تذييل وتعليل لإصابتهم بسوط عذاب .والمرصاد فى الأصل : اسم للمكان الذى يجلس فيه الجالس لترقب أو رؤية شئ ما .والمراد : إن ربك - أيها الرسول الكريم - يرصد عمل كل إنسان ، ويحصيه عليه ، ويجازيه به ، دون أن يخفى عليه - سبحانه - شئ فى الأرض أو السماء .وفى هذه الآيات الكريمة تخويف شديد للكافرين ، وتهديد لهم على إصرارهم فى جحودهم ، وأنهم إذا ما ساروا فى طريق الجحود والعناد ، فسيصيبهم ما أصاب هؤلاء الطغاة .

فاما الانسان اذا ما ابتلاه ربه فاكرمه ونعمه فيقول ربي اكرمن

كما فسرها الوسيط ثم ذكر - سبحانه - حال الإنسان عند اليسر والعسر ، والغنى والفقر ، والسراء والضراء فقال :( فَأَمَّا الإنسان إِذَا . . . ) الفاء فى قوله : ( فَأَمَّا الإنسان . . . ) للتفريع على ما تقدم. ولترتيب ما بعدها على ما قبلها .والمراد بالإنسان هنا : جنسه .وقيل المراد به الكافر . ولفظ " الإنسان " مبتدأ ، وخبره : ( فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ) .والمعنى : هذه سنة ربك - أيها العاقل - فى عباده ، أنه - تعالى - لهم بالمرصاد ، فهو يراقب أعمالهم ، ويحاسبهم عليها ، ويجازيهم بها . . والسعيد من الناس هو الذى يفقه هذه الحقيقة ، فيؤدى ما كلفه خالقه به ، فأما الإنسان ، الشقى الغافل عن طاعة ربه . .( إِذَا مَا ابتلاه رَبُّهُ . فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ ) أى : إذا ما اختبره وامتحنه ربه بألوان من النعم ، بأن منحه المال الكثير ، والجاه العريض ، وأسباب القوة والمنعة ) فيقول ) على سبيل التباهى والتفاخر . . ( رَبِّي أَكْرَمَنِ ) أى : ربى أعطانى ذلك ، لأنى مستحق لهذه النعم ، كما قال - تعالى - : ( وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هذا لِي وَمَآ أَظُنُّ الساعة قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إلى ربي إِنَّ لِي عِندَهُ للحسنى ) .

واما اذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي اهانن

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَأَمَّآ إِذَا مَا ابتلاه فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ . . ) بيان لموقف هذا الإنسان عند فقره . أى : وأما إذا ما امتحنا هذا الإنسان بسلب بعض النعم عنه ، وبضيق الرزق . . ( فيقول ) على سبيل التضجر والتأفف وعدم الرضا بقضائه - سبحانه - : ( رَبِّي أَهَانَنِ ) أى : ربى أذلنى بالفقر ، وأنزل بى الهوان والشرور .وقول هذا الإنسان فى هذه الحالين ، قول مذموم ، يدل على سوء فكره ، وقصور نظره ، وانطماس بصيرته ، لأنه فى حالة العطاء والعسة فى الرزق ، يتفاخر ويتباهى ، ويتوهم أن هذه النعم هو حقيق وجدير بها ، وليست من فضل الله - تعالى - وكأنه يقول ما قاله قارون : ( إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ عندي ) وفى حالة المنع والضيق فى الرزق يجزع ، ويأبى أن يرضى بقضاء الله وقدره . . ولا يخطر بباله أن نعم الله ، إنما هى فضل تفضل به - سبحانه - عليه ليختبره ، أيشكر أم يكفر . وأن تضييقه عليه فى الرزق ، ليس من الإهانة فى شئ ، بل هو للابتلاء - أيضا - والامتحان ، كما قال - تعالى - : ( وَنَبْلُوكُم بالشر والخير فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ) قال الإمام الشوكانى عند تفسيره لهاتين الآيتين : وهذه صفة الكافر الذى لا يؤمن بالبعث ، لأنه لا كرامة عنده إلا الدنيا والتوسع فى متاعها ، ولا إهانة عنده إلا فوتها وعدم وصوله إلى ما يريد من زينتها ، فأما المؤمن فالكرامة عنده أن يكرمه الله بطاعته ، ويوفقه لعمل الآخرة .ويحتمل أن يراد الإنسان على العموم ، لعدم تيقظه أن ما صار إليه ، من الخير ، وما أصيب به من الشر فى الدنيا ، ليس إلا للاختبار والامتحان - وأن الدنيا بأسرها ، لا تعدل عند الله - تعالى - جناح بعوضة ..واقتصر سبحانه - فى الآية الكريمة على تقتير الرزق ، فى مقابلة النعمة ، دون غير ذلك من الأمراض والآفات ، للإشعار بأن هذا الإنسان يعتبر دنياه جنته ومنتهى آماله ، فهو لا يفكر إلا فى المال ولا يحزن إلا من أجله ، وأن المقياس عنده لمقادير الناس هو على حسب ما عندهم من أموال كما قال شاعرهم فلو شاء ربى كنت قيسَ بن عاصمٍ ... ولو شاء ربى كنت عمرَو بنَ مَرْثِدفأصبحت ذا مال كثير وطاف بى ... بنونَ كرامٌ ، سادةٌ لُمسوّدولما كان هذا القول مذموما من هذا الإنسان فى الحالين . لعدم شكره لله - تعالى - فى حالة الرخاء ، ولعدم صبره على قضائه فى حالة البأساء .

كلا بل لا تكرمون اليتيم

- كما فسرها الوسيط لما كان الأمر كذلك جاء حرف الردع بعد ذلك فقال - تعالى
كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ اليتيم . وَلاَ تَحَآضُّونَ على طَعَامِ ) :
المسكين )فقوله - تعالى - : ( كلاَ ) زرج وردع عن قول هذا الإنسان ( ربي
أَكْرَمَنِ ) عند حصول النعمة ، وعن قوله ( ربي أَهَانَنِ ) عند حصول
التقتير فى الرزق ، لأن الله - تعالى - قد يوسع على الكافر وهو مهان ومبغوض
منه - تعالى - ، وقد يضيق - سبحانه - على المؤمن مع محبته له ، وكلا
الأمرين حاصل بمقتضى حكمته - عز وجل - والمؤمن الصادق هو الذى يشكر عند
الرخاء ، ويصبر عند البأساء .و " بل " هنا للإضراب الانتقالى ، من ذمهم على
القبيح من القول ، إلى ذمهم بما هو أشنع منه ، وهو ارتكابهم للقبيح من
الأفعال .أى : كلا ليس قولكم هذا وهو أن الإكرام فى الإعطاء ، والإهانة فى
المنع - هو القبيح فحسب ، بل هناك ما هو أقبح منه ، وهو أنكم ، أيها
الكافرون - .( لاَّ تُكْرِمُونَ اليتيم ) أى :لا تعطفون على اليتيم وهو
الذى مات أبوه وهو صغير ، بأن تتركوه معرضا للفقر والاحتياج ، دون أن
تعملوا على تقديم يد المساعدة إليه .

ولا تحاضون على طعام المسكين

كما فسرها الوسيط ( وَلاَ تَحَآضُّونَ على طَعَامِ المسكين ) أى : ولا يحث
بعضكم بعضا على إطعام المساكين والبائسين .ونفى الحض على إطعامهم ، نفى
لإطعامهم من باب أولى ، وفى ذلك زيادة لمذلتهم ، لأنهم لا يطعمون ، ولا
يحضون غيرهم عليه ، لأنهم قوم خلت قلوبهم من الرحمة والعطف .قال الآلوسى :
قوله - سبحانه - : ( بَل لاَّ تُكْرِمُونَ اليتيم ) أى : لا تعطفون على
اليتيم وهو الذى مات أبوه وهو صغير ، بأن تتركوه معرضا للفقر والاحتياج ،
دون أن تعملوا على تقديم يد المساعدة إليه .( وَلاَ تَحَآضُّونَ على
طَعَامِ المسكين ) أى : ولا يحث بعضكم بعضا على إطعام المساكين والبائسين
ونفى الحض على إطعامهم ، نفى لإطعامهم من باب أولى ، وفى ذلك زيادة.
لمذلتهم ، لأنهم لا يطعمون ، ولا يحضون غيرهم عليه ، لأنهم قوم خلت قلوبهم
من الرحمة والعطف .قال الآلوسى : قوله - سبحانه - : ( بَل لاَّ تُكْرِمُونَ
اليتيم .. ) إلخ . انتقال وترق من ذم هذا الإنسان على القبيح من القول ،
إلى الأقبح من الفعل ، والالتفات إلى الخطاب ، لتشديد التقريع ، وتأكيد
التشنيع . . والجمع باعتبار معنى الإنسان ، إذ المراد الجنس . أى : بل لكم
- أفعال وأحوال أشد شرا مما ذكر ، وأدل على تهالككم على المال ، حيث أكرمكم
سبحانه - بكثرة المال ، ولكنكم لم تؤدوا ما يلزمكم فيه من إكرام اليتيم
والمراد بطعام المسكين : إطعامه ، فالطعام مصدر بمعنى الإطعام . . أو.
المراد به : الشئ المطعوم ، ويكون الكلام على حذف مضاف . أى : على بذل طعام
المسكين . .

وتاكلون التراث اكلا لما

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَتَأْكُلُونَ التراث أَكْلاً
لّمّاً ) بيان لرذيلة ثالثة من رذائلهم المتعددة . والتراث : هو المال
الموروث عن الغير ، والمراد بالأكل مطلق الانتفاع ، وخص الأكل بالذكر
لأنه يشمل معظم وجوه التصرفات المالية .واللّم : الجمع بدون تفرقة بين
الحلال والحرام ، مأخوذ من قولهم : لَمّ الطعام ، إذا أكله كله دون أن
يترك منه شيئا .أى : ومن صفاتكم القبيحة أنكم تأكلون المال الموروث عن
غيركم ، أكلا شديدا ، بحيث لا تتركون منه شيئا ، ولا تفرقون بين ما هو حلال
أو حرام ، ولا بين ما يحمد وما لا يحمد ، بل تأخذون حقوقكم وحقوق غيركم من
النساء والصبيان .

وتحبون المال حبا جما

كما فسرها الوسيط ومن صفاتكم - أيضا - أنكم ( وَتُحِبُّونَ المال حُبّاً
جَمّاً ) أى : حبا كثيرا مع حرص وشَرَه . يقال : جمّ الماء فى الحوض ، إذا
كثر واجتمع ، ومنه الجَمُوع للبئر الكثيرة الماء .والحب المفرط للمال من
الصفات الذميمة ، لأنه يؤدى إلى جمعه من كل طريق ، بدون تفرقة بين ما يحل
منه وما يحرم .فأنت ترى أن الله - تعالى - قد وصف هذا النوع من الناس ،
بأنه قد جمع فى سوء سلوكه ، بين النطق بالقبيح من الأقوال ، وبين ارتكاب
القبيح من الأفعال ، وهى : ترك اليتيم بلا رعاية ، وعدم الحض على إطعام
المحتاج ، وجمع المال الموروث بدون تفرقة بين حلاله وحرامه ، والإفراط فى
حب المال بطريقة ذميمة .

كلا اذا دكت الارض دكا دكا

، كما فسرها الوسيط وبعد هذا الزجر والردع لهم ، لسوء أقوالهم وأفعالهم
أخذت السورة الكريمة فى زجرهم وردعهم عن طريق تذكيرهم بأهوال الآخرة فقال
- تعالى - : ( كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأرض دَكّاً دَكّاً ) . وقوله - :
تعالى - : ( كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأرض دَكّاً دَكّاً ) ردع لهم وزجر عن
أفعالهم السابقة ، وهى عدم إكرام اليتيم ، وعدم الحض على طعام المسكين
وقوله : ( دُكَّتِ الأرض ) من والدك : بمعنى الكسر والدق والزلزلة الشديدة.
، والتحطيم الجسيم ، وانتصب لفظ " دكا " الأول على أنه مصدر مؤكد للفعل ،
وانتصاب الثانى على أنه تأكيد الأول . وقيل : تكرار " دكا " للدلالة على
: الاستيعاب ، كقولك : قرأت النحو بابا بابا ، أى : قرأته كله .قال القرطبى
قوله - تعالى - : ( كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأرض . . ) أى : ما هكذا ينبغى
أن يكون الأمر . فهو رد لانكبابهم على الدنيا ، وجميعهم لها ، فإن من فعل
: ذلك يندم يوم تدك الأرض ، ولا ينفعه الندم ، والدك .الكسر والدق ، أى
زلزلت وحركت تحريكا بعد تحريك .وقوله : ( دَكّاً دَكّاً ) أى : مرة بعد مرة
. . زلزلت فكسر بعضها بعضا فتكسر كل شئ على ظهرها ،

وجاء ربك والملك صفا صفا

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( وَجَآءَ رَبُّكَ . . . ) هذه الآية
، وأمثالها من آيات الصفات التى يرى السلف وجوب الإيمان بها كما جاءت
بمعنى أننا نؤمن بمجئ الله - تعالى - ولكن من غير تكييف ولا تمثيل ، بل نكل
علم كيفية مجيئة إلى مشيئته - تعالى - .والخلف يؤولون ذلك بأى المجئ هنا
بمعنى مجئ أمره وقضائه .قال الآلوسى : قوله - تعالى - : ( وَجَآءَ رَبُّكَ
قال منذر بن سعيد ، معناه : ظهر - سبحانه - للخلق هنالك ، وليس ذلك ( . . .
بمجئ نقلة . . وقيل : الكلام على حذف مضاف للتهويل ، أى : وجاء أمر ربك
وقضاؤه . واختار جع أنه تمثيل لظهور آيات اقتداره - تعالى - وتبيين آثار
قدرته وسلطانه ، مثلت حاله - سبحانه - فى ذلك ، بحال الملك إذا حضر بنفسه
ظهر بحضوره من آثار الهيبة ما لا يظهر بحضور عساكره ووزرائه وخواصهمن بكرة
أبيهم ، وأنت تعلم ما للسلف فى المتشابه من الكلام .( والملك ) أى : جنس
المَلَكِ ، فيشمل جميع الملائكة ( صَفّاً صَفّاً ) أى : مصطفين ، أو ذوى
. صفوف

وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الانسان وانى له الذكرى

: كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( وجياء يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ) أى
وأحضرت جهنم وظهرت وبرزت للكافرين والفاسقين يوم القيامة ، يوم تدك الأرض
دكا .وقوله : ( يَوْمَئِذٍ ) منصوب بقوله ( وجئ ) . وقوله ( جهنم ) قائم
مقام الفاعل .روى الإمام مسلم فى صحيحه عن ابن مسعود قال : قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : " يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام
، سبعون ألف ملك يجرونها . . " .( يَوْمَئِذٍ ) أى : فى هذا اليوم العسير
- وهو يوم القيامة - وهو بدل من قوله - تعالى - : ( إِذَا دُكَّتِ الأرض )
أى : يتذكر ما فرط منه من ذنوب ، وما ارتكبه من ( يَتَذَكَّرُ الإنسان )
: سيئات ، وما وقع فيه من كفر وفسوق عن أمر ربه .( وأنى لَهُ الذكرى ) أى
ومن أين له الانتفاع بهذا التذكر ، لأنه تذكر قد جاء فى غير وقت الانتفاع
. به ، وهو وقت الحساب على الأعمال ، لا وقت التوبة من السيئ منها

يقول يا ليتني قدمت لحياتي

كما فسرها الوسيط ( يَقُولُ ) هذا الانسان الشقى ( ياليتني قَدّمْتُ
لِحَيَاتِي ) أى : يقول حين يرى العذاب ماثلا أمامه ، يقول - على سبيل
، التحسر والتفجع - : يا ليتنى قدمت أعمالا صالحة لأجل حياتى هذه فى الآخرة
فاللام للتعليل ، وقدمت أعمالا صالحة فى وقت حياتى فى الدنيا لأنتفع بها فى
. هذا اليوم ، فتكون اللام للتوقيت

فيومئذ لا يعذب عذابه احد

كما فسرها الوسيط ( فَيَوْمَئِذٍ ) أى : ففى هذا اليوم لا ينفعه الندم ولا
التحسر ، و ( لاَّ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ) والوثاق : الرباط الذى
يقيد به الأسير .أى : ففى هذا اليوم لا يعذِّب كعذاب الله أحد ، ولا يوثِق
كوثاقه أحد ، فالضمير فى قوله : ( عَذَابَهُ ) و ( ثَاقَهُ ) يعود إلى
الله - ولفظ " أحد " فاعل .وقرأ الكسائى : ( لاّ يُعَذِّبُ ) و ( لاَ
، يُوثِقُ ) - بفتح الذال المشددة ، وفتح الثاء - على البناء للمفعول
والضمير فى قوله ( عذابه ) و ( وثاقه ) يعود للكافر .أى : فيومئذ لا يعذب
أحد مثل عذاب ذلك الإنسان الكافر المتحسر ، ولا يوثق أحد مثل وثاقه ، ولفظ

أحد " هنا نائب فاعل .وشبيه بهاتين الآيتين قوله - تعالى - : ( قَالَ " الله إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ) أى : المائدة - ( فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فإني أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِّنَ العالمين ).

ولا يوثق وثاقه احد

`<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html} كما فسرها الوسيط

أى : ففى هذا اليوم لا ينفعه الندم ولا التحسر ، و ( لاَّ ( فَيَوْمَئِذٍ ) : يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ) والوثاق : الرباط الذى يقيد به الأسير .أى ففى هذا اليوم لا يعذِّب كعذاب الله أحد ، ولا يوثِق كوثاقه أحد ، فالضمير فى قوله : ( عَذَابَهُ ) و ( ثَاقَهُ ) يعود إلى الله - ولفظ " أحد " فاعل وقرأ الكسائى : ( لاَّ يُعَذِّبُ ) و ( لاَ يُوثِقُ ) - بفتح الذال. المشددة ، وفتح الثاء - على البناء للمفعول ، والضمير فى قوله ( عذابه ) و يعود للكافر .أى : فيومئذ لا يعذب أحد مثل عذاب ذلك الإنسان ( وثاقه ) الكافر المتحسر ، ولا يوثق أحد مثل وثاقه ، ولفظ " أحد " هنا نائب فاعل وشبيه بهاتين الآيتين قوله - تعالى - : ( قَالَ الله إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ) - أى : المائدة - ( فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فإني أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِّنَ العالمين ).

يا ايتها النفس المطمئنة

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بهذه البشارة العظيمة للمؤمنين فقال : ( ياأيتها النفس المطمئنة . ارجعي إلى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً . فادخلي فِي عِبَادِي . وادخلي جَنَّتِي ) .والنفس المطمئنة هى النفس الآمنة من الخوف أو الحزن فى يوم القيامة . بسبب إيمانها الصادق : وعملها الصالح ، والكلام على إرادة القول . أى : يقول الله - تعالى - على ، : لسان ملائكته ، إكراما للمؤمنين ، عند وفاتهم ، أو عند تمام حسابهم - يأيتها النفس الآمنة المطمئنة ، الناعمة بروح اليقين ، الواثقة بفضل الله - تعالى - ورحمته .

ارجعي الى ربك راضية مرضية

كما فسرها الوسيط ( ارجعي إلى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ) أى : ارجعى ، إلى ربك الذى خلقك ، وأنت راضية تمام الرضا بما أعطاك - سبحانه - من ثواب ومرضى عنك منه - تعالى - بسبب إيمانك الصادق ، وعملك الصالح .

فادخلي في عبادي

كما فسرها الوسيط ( فادخلي فِي عِبَادِي ) أى فادخلى فى زمرة عبادى الصالحين المرضين .

وادخلي جنتي

كما فسرها الوسيط ( وادخلي جَنَّتِي ) التى وعدتهم بها ، والتى أعددتها لنعيمهم الدائم المقيم .وقد ذكروا أن هذه الآيات الكريمة نزلت فى شأن عثمان بن عفان لّما تصدق ببئر رومة .وقيل : نزلت فى حمزة بن عبد المطلب حين استشهد .قال القرطبى : والصحيح أنها عامة فى نفس كل مؤمن مخلص طائع . .نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا جميعا من أصحاب النفوس المطمئنة .وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . .

لا اقسم بهذا البلد

، كما فسرها الوسيط افتتحت السورة الكريمة بالقسم ، تشويقا لما يرد بعده وتأكيدا للمقسم عليه .و "لا " فى مثل هذا التركيب ، يرى المحققون أنها مزيدة للتأكيد ، والمعنى : أقسم بهذا البلد . أى : مكة المكرمة ، وقد جاء القسم بها فى قوله - تعالى - : ( والتين والزيتون . وَطُورِ سِينِينَ . وهذا البلد الأمين ) قال الشيخ محمد عبده - رحمه الله - : قوله : ( لاَ ، أُقْسِمُ . . ) عبارة من عبارات العرب فى القسم ، يراد بها تأكيد الخبر كأنه فى ثبوته وظهوره لا يحتاج إلى قسم . ويقال إنه يؤتى بها فى القسم إذا أريد تعظيم المقسم به . كأن القائل يقول : إنى لا أعظمه بالقسم ، لأنه عظيم فى نفسه ، والمعنى فى كل حال على القسم . .وقال بعض العلماء : "لا " هذه للنفى ، وهذه عبارة تعود العرب أن يقولوها عندما يكون المقسم عليه ظاهر

أمره ، كأنه - تعالى - يقول : أنا لا أقسم بهذه الأشياء ، على إثبات هذا المطلوب الذى أذكره بعد ، لأن إثباته أظهر وأجلى وأقوى من أن يحاول محاول إثباته بالقسم .ويقال : معناه : أنا لا أقسم بهذه الأشياء على إثبات المطلوب ، لأنه أعظم وأجل وأكبر من أن يقسم عليه ، بهذه الأمور الهينة . الشأن ، والغرض على هذا الوجه ، تعظيم المقسم عليه ، وتفخيم شأنه والإشارة بلفظ " هذا " مع بيانه بالبلد ، إشارة إلى حاضر فى أذهان. السامعين ، لأن مكة بعضهم كان يعيش فيها . وبعضهم كان يعرفها معرفة لاخفاء معها ، وشبيه بذلك قوله - تعالى - : ( إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ البلدة الذي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ) وفائدة الإتيان باسم الإشارة هنا : تمييز المقسم به أكمل تمييز لقصد التنويه به .

وانت حل بهذا البلد

كما فسرها الوسيط وجملة : ( وَأَنتَ حِلٌّ بهذا البلد ) معترضة بين القسم وجوابه .وقوله - تعالى - ( حل ) اسم مصدر أحل بمعنى أباح ، فيكون المعنى : وأنت - أيها الرسول الكريم - قد استحل كفار مكة إيذاءك ومحاربتك . . مع أنهم يحرمون ذلك النسبة لغيرك ، فى هذا البلد الأمين .ويصح أن يكون لفظ " حل " هنا بمعنى اللحال الذى هو ضد الحرام يقال : هو حل وحلال ، وحِرْمٌ وحرام . . فيكون المعنى : وأنت أيها الرسول الكريم - قد أحل الله - تعالى - لك أن تفعل بهؤلاء المشركين ما شئت من القتل أو العفو .وتكون الجملة الكريمة ، بشارة للنبى صلى الله عليه وسلم بأن الله - تعالى - سينصره على مشركى قريش ، ويمكنه من رقابهم . . وقد أنجز له - سبحانه - ذلك يوم الفتح الأكبر .قال صاحب الكشاف : أقسم الله - تعالى - بالبلد الحرام وما بعده ، على أن الإنسان خلق مغمورا فى مكابدة المشاق والشدائد ، واعترض بين القسم والمقسم عليه بقوله : ( وَأَنتَ حِلٌّ بهذا البلد ) يعنى : زمن المكابدة أن مثلك - يا محمد - على عظم حرمتك ، يُسْتَحلُّ بهذا البلد الحرام ، كما يستحل الصيد فى غير الحرم .وفيه تثبيت لرسول الله صلى الله عليه وسلم وبعث على احتمال ما كان يكابد من أهل مكة ، وتعجيب من حالهم فى عداوته .أو سلى صلى الله عليه وسلم بالقسم ببلده ، على أن الإنسان لا يخلو من مقاساة الشدائد ، واعترض بأن وعده فتح مكة تتميما للتسلية والتنفيس عليه فقال : ( وَأَنتَ حِلٌّ بهذا البلد ) .يعنى : وأنت حل به فى المستقبل ، تصنع فيه ما تريد من القتل والأسر .فإن قلت : أين نظير قوله : ( وَأَنتَ حِلٌّ ) فى معنى الاستقبال؟ قلت : قوله - تعالى - ( إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَّيِّتُونَ ) وكفاك دليلا قاطعا على أنه للاستقبال ، وأن تفسيره بالحال محال ، أن السورة بالاتفاق مكية ، وأين الهجرة من وقت نزولها؟ فما بال الفتح؟ويرى بعضهم أن معنى قوله - تعالى - : ( وَأَنتَ حِلٌّ بهذا البلد ) : وأنت مقيم بهذا البلد ، ونازل فيه ، وحالٌّ به ، وكفى فخراً لمكة أن تنزل فيها - أيها الرسول الكريم - فإن الأمكنة الشريفة تزداد شرفا بنزول رسل الله - تعالى - فيها ، فكيف وأنت خاتمهم وإمامهم؟قال بعض العلماء : وحكى ابن عطية عن بعض المتأولين : أن معنى ( وَأَنتَ حِلٌّ بهذا البلد ) وأنت ساكن بهذا البلد ، حال فيه . . وهو يقتضى أن تكون هذه الآية موضع الحال من ضمير " أقسم " فيكون القسم بالبلد مقيدا باعتبار بلد محمد صلى اللهٍ عليه وسلم وهو تأويل جميل ، لو ساعد عليه ثبوت استعمال " حل " بمعنى حالٍّ ، أى مقيم فى مكان ، فإن هذا لم يرد فى كتب اللغة . . ولذا لم يذكر هذا المعنى : صاحب الكشاف . .ويبدو لنا أن هذه الأقوال لا تعارض بينها ، بل يؤيد بعضها بعضا ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد آذاه أهل مكة ، بينما حرموا إيذاء غيره ، وأن الله - تعالى - قد مكن رسوله صلى الله عليه وسلم منهم . كما حدث فى غزوة الفتح ، وأنه صلى الله عليه وسلم قد أقام معهم فى مكة أكثر من خمسين سنة ، وكان يلقب عندهم بالصادق الأمين . .

ووالد وما ولد

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ) معطوف على المقسم به الأول وهو قوله - تعالى - : ( بهذا البلد ) . وداخل فى حيز القسم والمراد بالوالد آدم - عليه السلام - ، والمراد بما ولد : ذريته من بعده . أى : أقسم بهذا البلد الذى له ماله من الشرف ، والمكانة السامية بين البلاد . . وأقسم بأبيكم آدم ، وبذريته من بعده . . أو أقسم بكل والد وبكل مولود .وجئ باسم الموصول " ما " فى قوله ( وَمَا وَلَدَ ) دون " من " مع أنها أكثر استعمالا فى العاقل الذى هو مراد هنا ، لأن " ما " أشد إبهاما ، وشدة الإبهام المقصود بها هنا التفخيم والتعظيم .. وشبيه بذلك قوله - تعالى - : ( فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَى والله أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ . . . ) كما أن تنكير لفظ " والد " هنا للتعظيم أيضا .وقيل المراد بالوالد هنا : إبراهيم - عليه السلام - وبما ولد

الصالحون من ذريته .وقيل المراد بالوالد : من يولد له ، وبقوله ( وَمَا : وَلَدَ ) الذى لم يولد له وعليه تكون ما نافية .وقد رجح الإمام ابن جرير المعنى الأول فقال : والصواب من القول من ذلك ، ما قاله الذين قالوا : إن الله - تعالى - أقسم بكل والد وولده ، لأن الله - تعالى - عم كل والد وما ولد ، وغير جائز أن يخص ذلك إلا بحجة يجب التسليم لها من خبر أو عقل . ولا خبر بخصوص ذلك ولا برهان يجب التسليم له بخصوصه ، فهو على عمومه . .

لقد خلقنا الانسان في كبد

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - ( لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي كَبَدٍ ) جواب القسم . والمراد بالإنسان : جنسه ، والكبد : الشدة والتعب والمشقة من المكابدة للشئ ، بمعنى تحمل المشاق والمتاعب فى فعله ، وأصله من كَبِد ، الرجل - بزنة طرب - فهو أَكْبَد ، إذا أصيبت كبده بالمرض ، ثم اتسع فيه فاستعمل فى كل تعب ومشقة تنال الإنسان .والمعنى : لقد خلقنا الإنسان لهذه الشدائد والآلام ، التى هى من طبيعة هذه الحياة الدنيا ، والتى لا يزال يكابدها وينوء بها ، ويتفاعل معها . . حتى تنتهى حياته ، ولا فرق فى ذلك بين غنى أو فقير ، وحاكم أو محكوم وصالح أو طالح . . فالكل يجاهد ويكابد ويتعب ، من أجل بلوغ الغاية التى يبتغيها .قال الآلوسى ما ملخصه : قوله ( لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي كَبَد ) أى : فى تعب ومشقة ، فإنه لا يزال يقاسى فنون الشدائد من وقت نفخ الروح إلى حين نزعها .وعن ابن عمر - رضى الله عنهما - يكابد الشكر على السراء ويكابد الصبر على الضراء . وقيل : لقد خلقناه منتصب القامة واقفا ، ولم نجعله منكبا على وجهه .وقيل : جعلناه منتصبا رأسه فى بطن أمه ، فإذا أذن له فى الخروج قلب رأسه إلى قدمى أمه . . وهذه الأقوال ضعيفة لا يعول عليها ، والصحيح الأول . .والحق أن تفسير الكبد بالمشقة والتعب ، هو الذى تطمئن إليه النفس؛ لأنه لا يوجد فى هذه الحياة إنسان إلا وهو مهموم ومشغول بمطالب حياته ، وفى كبد وتعب للحصول على آماله ورغباته وغاياته ، ورحم الله القائل :تعب كلها الحياة فما أعجب ... إلا من راغب فى ازدياد وقال - سبحانه - ( فِي كَبَد ) للإشعار بأنه لشدة مقاساته ومكابدته للمشاق والمتاعب ، وعدم انفكاكه عنها . . كالظرف بداخل المظروف فهو فى محن ومتاعب ، حتى يصير إلى عالم آخر تغاير أحوالُه أحوالَ هذا العالم .

ايحسب ان لن يقدر عليه احد

كما فسرها الوسيط والاستفهام فى قوله - تعالى - بعد ذلك : ( أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ .يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَداً . أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ ) للإنكار والتوبيخ .أى : أيظن هذا الإنسان الذى هو فى تعب ومشقة طول حياته ، أنه قد بلغ من القوة والمنعة . بحيث لا يقدر عليه أحد .إن كان يتوهم ذلك ، فهو فى ضلال مبين ، لأن . الله - تعالى - الذى خلقه ، قادر على إهلاكه فى لمح البصر ، وقادر على أن يسلط عليه من يذله ، ويقضى عليه .ويدخل فى هذا التوبيخ دخولا أوليا ، أولئك المشركون الذين اغتروا بقوتهم ، فآذوا النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه إيذاء شديداً .

يقول اهلكت مالا لبدا

كما فسرها الوسيط ثم حكى - سبحانه - جانبا من أقوال هذا النوع الجاحد المغرور من بنى آدم فقال : ( يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَداً ) أى : يقول هذا الإنسان المغرور بقوته ، والمفتون بماله ، المتفاخر بما هو معه من حطام الدنيا . يقول - على سبيل التباهى والتعالى على غيره - لقد أنفقت مالا كثيرا ، فى عداوة النبى صلى الله عليه وسلم ، وفى إيذاء أتباعه ، وفى غير ذلك من الوجوه التى كان أهل الجاهلية يظنونها خيرا ، وما هى إلا شر محض وعبر - سبحانه - عن إنفاق هذا الشقى لما له بقوله : ( يَقُولُ أَهْلَكْتُ . . . للإشعار ، بأن ما أنفقه من مال هو شئ هالك ، لأنه لم ينفق فى الخير ، وإنما أنفق فى الشر .والمال اللُّبَد : هو المال الكثير الذى تلبد والتصق بعضه ببعض لكثرته وهو جمع لُبْدة - بضم اللام وسكون الباء - كغرفة وغرف ، وهى ما تلبد من صوف أو شعر ، أى : تجمع والتصق بعضه بعض .

ايحسب ان لم يره احد

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ ) توبيخ لهذا الغرور إثر توبيخ ، وتجهيل فى أعقاب تجهيل . أى : أيظن هذا الجاهل المغرور ، حين أنفق المال الكثير فى المعاصى والسيئات ، أن الله - تعالى - غير مطلع عليه؟ إن كان يظن ذلك فهو فى نهاية الجهالة وانطماس

البصيرة ، لأن الله - تعالى - مطلع عليه ، ولا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ، وسيحاسبه على ذلك حسابا عسيرا .وفى الحديث الشريف : لن تزل قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن شبابه فيم أبلاه ، وعن عمره فيم أفناه ، وعن ماله من أين اكتسبه ، وفيم أنفقه .

الم نجعل له عينين

كما فسرها الوسيط ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك جانبا من مظاهر نعمه ، على هذا الإنسان الجاهل والمغرور . فقال - تعالى - : ( أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ . وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ . وَهَدَيْنَاهُ النجدين ) والاستفهام هنا للتقرير ، لأن الله - تعالى - قد جعل له كل ذلك ، ولكنه لم يشكر الله - تعالى - على هذه النعم ، بل قابلها بالجحود والبطر . .أى : لقد جعلنا لهذا الإنسان عينين ، يبصر بهما .

ولسانا وشفتين

كما فسرها الوسيط وجعلنا له لسانا ينطق به ، وشفتين - وهما الجلدتان اللتان تستران الفم والأسنان - تساعدانه على النطق الواضح السليم .واقتصر - سبحانه - على العينين ، لأنهما أنفع المشاعر ، ولأن المقصود إنكار ظنه أنه لم يره أحد ، ولأن الإبصار حاصل بذاتهما .وذكر - سبحانه - اللسام وذكر معه الشفتين ، للدلالة على أن النطق السليم ، لا يتأتى إلا بوجودهما معا ، فاللسان لا ينطق نطقا صحيحا بدون الشفتين ، وهما لا ينطقان بدونه .

وهديناه النجدين

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( وَهَدَيْنَاهُ النجدين ) بيان لنعمة أخرى هى أجل النعم وأعظمها .والنجد : الأرض المرتفعة ، وجمعه نجود ، ومنه سميت بلاد نجد بهذا الاسم ، لأنها مرتفعة عن غيرها . . والمراد بالنجدين هنا : طريق الخير . وطريق الشر ، أى : وهدينا هذا الإنسان وأرشدناه إلى طريق الخير والشر ، عن طريق رسلنا الكرام ، وعن طريق ما منحناه من عقل يميز به بين الحق والباطل ، ثم وهبناه الاختيار لأحدهما ، كما قال - تعالى - : ( إِنَّا هَدَيْنَاهُ السبيل إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ) : قال بعض العلماء : وكأنهما إنما سميا نجدين - أى : سبيل الخير والشر لأنهما لما وضحت الدلائل ، وقربت الحجج ، وظهرت البراهين ، جعلا كالطريق المرتفعة العالية ، فى أنها واضحة لذوى الأبصار .أو إنما سميا بذلك للإشارة إلى أن كل منهما وعورة يشق معها السلوك ، ولا يصبر عليها إلا من جاهد نفسه وراضها ، وليس سلوك طريق الشر بأهون من سلوك الخير ، بل الغالب أن يكون طريق الشر ، أشق وأصعب ، وأحوج إلى الجهد . .

فلا اقتحم العقبة

- كما فسرها الوسيط وبعد بيان هذه النعم الجليلة التى أنعم الله بها سبحانه - على الإنسان ، أتبع - سبحانه - ذلك بحضه على المداومة على فعل الخير ، وعلى إصلاح نفسه ، فقال - تعالى - : ( فَلاَ اقتحم العقبة ) للتفريع على ما تقدم ، والمقصود بهذه الآية الحض على فعل الخير بدل الشر وقوله : ( اقتحم ) من الاقتحام للشئ ، بمعنى دخوله بشدة . يقال : اقتحم الجنود أرض العدو ، إذا دخلوها بقوة وسرعة ، وبدون مبالاة بارتكاب المخاطر والعقبة فى الأصل : الطريق الوعر فى الجبل ، والمراد بها هنا : مجاهدة النفس ، وقسرها على مخالفة هواها وشهوتها ، وحملها على القول والفعل الذى يرضى الله - تعالى - .والمعنى : لقد جعلنا للإنسان عينين ولسانا وشفتين وهديناه النجدين . فهلا بعد كل هذه النعم ، فعل ما يرضينا ، بأن جاهد نفسه وهواه ، وبأن قدم ماله فى فك الرقاب ، وإطعام اليتامى والمساكين .قال الجمل وقوله : ( فَلاَ اقتحم العقبة ) أى : فهلا اقتحم العقبة ، فلا بمعنى هلا : التى للتحضيض . أى : الذى أنفق ماله فى عداوة النبى صلى الله عليه وسلم هلا أنفقه فى اقتحام العقبة فيأمن . .وقد استعيرت العقبة لمجاهدة النفس ، وحملها على الإنفاق فى سبيل الخير ، لأن هذه الأعمال شاقة على النفس فجعلت كالذى يتكلف سلوك طريق وعر . .ويصح أن تكون "لا " هنا ، على معناها الحقيقى وهو النفى ، فيكون المعنى : أن هذا الإنسان الذى جعلنا له عينين لم يشكرنا على نعمنا ، فلا هو اقتحم العقبة ، ولا هو فعل شيئا ينجيه من عذابنا .وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : قوله ( فَلاَ اقتحم العقبة ) يعنى : فلم يشكر تلك الأيادى والنعم بالأعمال الصالحة : من فك الرقاب ، وإطعام اليتامى والمساكين . . بل غمط النعم ، وكفر بالمنعم . .فإن قلت : قلما تقع "لا " الداخلة على الماضى ، غير مكررة ، فما لها لم تكرر فى الكلام الأفصح؟ قلت : هى متكررة فى المعنى ، لأن المعنى ( فَلاَ اقتحم

العقبة ) . . فلا فكّ رقبة ، ولا أطعم مسكينا . ألا ترى أنه فسر اقتحام العقبة بذلك . .

وما ادراك ما العقبة

كما فسرها الوسيط والاستفهام فى قوله - سبحانه - : ( وَمَآ أَدْرَاكَ مَا العقبة ) لتفخيم شأنها ، والتهويل من أمرها ، والتشويق إلى معرفتها والكلام على حذف مضاف ، والتقدير : وما أدراك ما اقتحام العقبة؟.

فك رقبة

. كما فسرها الوسيط ثم فسر - سبحانه - ذلك بقوله : ( فَكُّ رَقَبَةٍ ) : والمراد بفك الرقبة إعتاقها وتخليصها من الرق والعبودية . إذ الفك معناه ، تخليص الشئ من الشئ . .وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية جملة من الأحاديث التى وردت فى فضل عتق الرقاب ، وتحريرها من الرق . .ومن هذه الأحاديث قوله صلى الله عليه وسلم " من أعتق رقبة مؤمنة ، أعتق الله بكل إرْبٍ منها - أى عضو منها - إربا منه من النار . . . " .وقوله صلى الله عليه وسلم : " ومن أعتق رقبة مؤمنة فهى فكاكه من النار . . " .وقراءة الجمهور ( فَكُّ رَقَبَةٍ ) برفع " فك " وإضافته إلى " رقبة " .وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائى : " فك " بفتح الكاف على أنه فعل ماض ، ونصب لفظ " رقبة " على أنه مفعول به .وقد ذهب جمع من المفسرين إلى أن المراد بفك الرقبة : أن يخلص الإنسان نفسه من المعاصى والسيئات ، التى تكون سببا فى دخوله النار .

او اطعام في يوم ذي مسغبة

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ) بيان لفضيلة ثانية من الفضائل التى تؤدى إلى مجاهدة النفس ، وحملها على طاعة الله - تعالى - .والمسغبة : المجاعة ، مصدر ميمى بمعنى السّغَب ، يقال : سغب الرجل - كفرح ونصر - إذا أصابه الجوع . ووصف اليوم بذلك على سبيل المبالغة كما فى قولهم : نهارة صائم . .وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائى " أطعم " بصيغة الفعل الماضى .أى : اقتحام العقبة . أى : التمكن من حمل النفس على طاعة الله - تعالى - يتمثل فى فك الرقاب . وفى إطعام المحتاجين فى يوم يشتد فيه جوعهم .

يتيما ذا مقربة

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ . أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ ) بيان لفضيلة ثالثة من الفضائل التى تؤدى إلى رضا الله - تعالى - .وقوله : ( يَتِيماً ) منصوب على أنه مفعول به لقوله " إطعام " أو أطعم على القراءة الثانية .واليتيم : هو الشخص الذى مات أوبه ، وهو صغير . .والمقربة : بمعنى القرابة ، مصدر ميمى ، من قرب فلان من فلان إذا كان بينهما نسب قريب . .والمتربة : الحاجة والافتقار الشديد ، مصدر ميمى من ترب الرجل - كطرب - إذا افتقر ، حتى لكنه قد لصق بالتراب من شدة الفقر ، وأنه ليس له مأوى سوى التراب .وأما قولهم : أترب فلان ، فمعناه استغنى ، حتى لكأن ماله قد صار كالتراب من كثرته .أى : اقتحام العقبة من أكبر مظاهره : ك الرقاب ، وإطعام الطعام لليتامى الأقارب .

او مسكينا ذا متربة

- كما فسرها الوسيط وللمساكين المحتاجين إلى العون والمساعدة .وخص - سبحانه الإطعام بكونه فى يوم ذى مجاعة ، لأن إخراج الماء فى وقت القحط ، أثقل على النفس ، وأوجب لجزيل الأجر ، كما قال - تعالى - : ( لَن تَنَالُواْ البر حتى تُنْفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ) وقيد - سبحانه - اليتيم بكونه ذا مقربة ، لأنه فى هذه الحالة يكون له حقان : حق القرابة ، وحق اليتم ، ومن كان كذلك فهو أولى بالمساعدة من غيره .

ثم كان من الذين امنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( ثُمّ كَانَ مِنَ الذين آمَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بالصبر وَتَوَاصَوْاْ بالمرحمة ) معطوف على قوله - تعالى - : ( فَلاَ اقتحم العقبة . . . ) .و " ثم " هنا للتراخى الرتبى ، للدلالة على أن ما بعدها أصل لقبول ما قبلها .والمعنى : هلا كان هذا الإنسان ممن فكوا الرقاب ، وأطعموا لليتامى والمساكين . . ثم كان - فضلا

عن كل ذلك - من الذين آمنوا بالله - تعالى - إيمانا حقا ، وممن أوصى بعضهم
. . بعضا بفضيلة الصبر ، وفضيلة التراحم والتعاطف .لقد كان من الواجب عليه
لو كان عاقلا - أن يكون من المؤمنين الصادقين ، ولكنه لتعاسته وشقائه
- وغروره ، لم يكن كذلك ، لأنه لا هو اقتحم العقبة ، ولا هو آمن . .وخص
سبحانه - من أوصاف المؤمنين تواصيهم بالصبر ، وتواصيهم بالمرحمة ، لأن
: - هاتين الصفتين على رأس الصفات الفاضلة بعد الإيمان بالله - تعالى

اولئك اصحاب الميمنة

كما فسرها الوسيط واسم الإشارة فى قوله : ( أولئك أَصْحَابُ الميمنة )
يعود على الذين آمنوا وتواصوا بالصبر ، وتواصوا بالمرحمة . أى : أولئك
الموصوفون بتلك الصفات الكريمة ، هم أصحاب الجهة اليمنى التى فيها السعداء
. . الذين يؤتون كتابهم بأيمانهم ، فالمراد بالميمنة : جهة اليمين

والذين كفروا باياتنا هم اصحاب المشامة

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك سوء عاقبة الكافرين فقال
والذين كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا ) أى : الدلالة على وحدانيتنا وقدرتنا ( هُمْ
أَصْحَابُ المشأمة ) أى : هم فى جهة الشمال التى فيها الأشقياء ، أو هم
. ، أصحاب الشؤم على أنفسهم بسبب إصرارهم على كفرهم

عليهم نار مؤصدة

كما فسرها الوسيط ( عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ) أى : عليهم نار مغلقة
بحيث لا يستطيعون الخروج منها ، تقول أصدت الباب وأوصدته ، إذا أحكمت غلقه
والاسم فيهما ، الإصاد والوصاد . .نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا من ،
. أصحاب الميمنة .وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

والشمس وضحاها

كما فسرها الوسيط افتتح - سبحانه - هذه السورة الكريمة ، بالقسم بكائنات
، عظيمة النفع ، جليلة القدر ، لها آثارها فى حياة الناس والحيوان والنبات
ولها دلالتها الواضحة على وحدانيته - تعالى - وكمال قدرته ، وبديع صنعه
فقال - سبحانه - : ( والشمس وَضُحَاهَا ) والضحى الوقت الذى ترتفع فيه.
: الشمس بعد إشراقها ، فتكون أكمل ما تكون ضياء وشعاعا .فالمراد بضحاها
ضؤوها - كما يرى مجاهد - ، أو النهار كله - كما اختار قتادة وغيره - ، أو
حرها - كما قال مقاتل - .وهذه الأقوال لا تنافر بينها ، لأن لفظ الضحى فى
الأصل ، يطلق على الوقت الذى تنبسط فيه الشمس ، ويمتد النهار ، تقولك ضَحِى
- فلان يَضْحَى - كرضى يرضى - ، إذا برز للشمس ، وتعرض لحرها ، ومنه قوله
تعالى - : ( إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تعرى . وَأَنَّكَ لاَ
تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تضحى ).

والقمر اذا تلاها

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( والقمر إِذَا تَلاَهَا ) أى : تبعها
تقول : فلان تلا فلانا يتلوه ، إذا تبعه ، قال بعض العلماء : فأما أن ،
القمر تابع للشمس فيحتمل معنيين : أحدهما : أنه تال لها فى ارتباط مصالح
الناس ، وتعلق منافع هذا العالم بحركته ، وقد دل علم الهيئة على أن بين
الشمس والقمر من المناسبة ما ليس بين غيرهما من الكواكب . وثانيهما : أن
القمر يأخذ نوره ويستمده من نور الشمس . وهذا قول الفراء قديما ، وقد قامت
. الأدلة عند علماء الهيئة والنجوم ، على أن القمر يستمد ضوءه من الشمس
وقال الشيخ ابن عاشور : وفى الآية إشارة إلى أن نور القمر ، مستفاد من نور.
الشمس ، أى : من توجه أشعة الشمس إلى ما يقابل الأرض من القمر ، وليس نيرا
. . بذاته ، وهذا إعجاز علمى من إعجاز القرآن

والنهار اذا جلاها

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( والنهار إِذَا جَلاَّهَا ) أى : جلى
الشمس وأظهرها وكشفها للناظرين .قال الآلوسى : وقوله : ( والنهار إِذَا
جَلاَّهَا ) أى : جلى النهار الشمس ، أى : أظهرها ، فإنها تنجلى وتظهر إذا
انبسط النهار ، ومضى منه مدة ، فالإسناد مجازى كالإسناد فى نحو : صام
، نهاره .وقيل : الضمير المنصوب يعود إلى الأرض ، وقيل : إلى الدنيا
، والمراد بها وجه الأرض ، وقيل : إلى الظلمة ، وجلاها حينئذ بمعنى أزالها
وعدم ذكر المرجع على هذه الأقوال للعلم به .والأول أولى ، لذكر المرجع

. . واتساق الضمائر

والليل اذا يغشاها

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( والليل إِذَا يَغْشَاهَا ) أى : يغشى الليلُ الشمسَ فيغطى ضوءها ، فالضمير فى يغشاها يعود إلى الشمس .وقيل يعود إلى الدنيا ، وقيل : إلى الأرض أى : يغشى الليل الدنيا والأرض : بظلامه .والحق أن فى قوله - تعالى - ( جَلاَّهَا ) و ( يَغْشَاهَا ) إشارة واضحة إلى أن الضمير فيهما يعود إلى الشمس ، إذ النهار يجلى الشمس ويكشفها أتم انكشاف ، والليل يزيل ضوءها ويستره ، فنسب - سبحانه - إلى النهار ما يلائمه بالنسبة للشمس ، وكذلك الحال بالنسبة لليل .

والسماء وما بناها

كما فسرها الوسيط ثم قال - تعالى - : ( والسمآء وَمَا بَنَاهَا ) أى : وحق السماء وحق من بناها وأنشأها وأوجدها على تلك الصورة البديعة الرائعة .فما هنا اسم موصول بمعنى مَنْ ، والمراد بمن بناها : الله - عز وجل - وأوثرت على مَنْ التى تأتى للعاقل كثيرا ، لإشعارها معنى الوصفية . أى : وحق السماء ، وحق القادر العظيم الذى بناها وأوجدها على هذه الهيئة الجميلة الدقيقة .وقد أشار إلى ذلك صاحب الكشاف فقال : و الوجه أن تكون " ما " موصولة - أى : فى هذه الآية وما بعدها - وإنما أوثرت على مَنْ لإرادة معنى الوصفية ، كأنه قيل : والسماء والقادر العظيم الذى بناها .ومنهم من يرى أن " ما " هنا مصدرية ، فيكون المعنى : وحق السماء وبنيانها .

والارض وما طحاها

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( والأرض وَمَا طَحَاهَا ) أى : وحق الأرض ومن بسطها من كل جانب ، وجعلها مهيأة للاستقرار عليها : يقال : طحى فلان الشئ ودحاه ، إذا بسطه ووسعه .

ونفس وما سواها

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ) أى : وحق النفوس ، وحق من أنشأها من العدم فى أحسن تقويم ، وجعلها مستعدة لتلقى ما يكملها ويصحلها .ويبدو أن المراد بالنفس هنا ، : القوة المدبرة للإنسان التى توصلها إلى يكون المقصود بتسويتها . منحها القوى الكثيرة المتنوعة ، حسن المعرفة ، والتمييز بين الخير والشر ، والنفع والضر ، والهدى والضلال .

فالهمها فجورها وتقواها

كما فسرها الوسيط قالوا : وقوله : - تعالى - بعد ذلك : ( فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ) يشير إلى أن المراد بالنفس فى قوله - تعالى - : ( وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ) القوة المدبرة للإنسان ، والتى عن طريقها يدرك الأمور إدراكا واضحا ، ويختار منها ما يناسب استعداده .والإلهام : هو التعريف والإفهام للشئ ، أو التمكين من فعله أو تركه ، والفجور : فعل ما يؤدى إلى الخسران والشقاء . والتقوى : هى الإتيان بالأقوال والأفعال التى ترضى الله - تعالى - وتصون الإنسان من غضبه -عز وجل - .أى : فعرف سبحانه - النفس الإنسان و ألهمها وأفهمها معنى الفجور والتقوى ، وبين لها حالهما ، ووضح لها ما ينبغى أن تفعله وما ينبغى أن تتركه ، من خير أو شر ، ومن طاعة أو معصية ، بحيث يتميز عندها الرشد من الغى ، والخبيث من الطيب .ومن الآيات التى وردت فى هذا المعنى قوله - تعالى - : ( وَهَدَيْنَاهُ النجدين ) وقوله - عز وجل - : ( إِنَّا هَدَيْنَاهُ السبيل إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ) وقدم - سبحانه - هنا الفجور على التقوى ، مراعاة لأحوال المخاطبين بهذه السورة ، وهم كفار قريش ، الذين كانت أعمالهم قائمة على الفجور والخسران ، بسبب إعراضهم عما جاءهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم من حق وبر .

قد افلح من زكاها

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ) يصح أن يكون جوابا للقسم . والفلاح : الظفر بالمطلوب .والتزكية : التزود من الخير والطاعة ، والحرص على تطهير النفس من كل سوء .

وقد خاب من دساها

كما فسرها الوسيط وقوله : ( دَسَّاهَا ) أى : نقصها وأخفاها بالمعاصى والآثام . وأصل فعل دسّى : دسّسَ ، فلما اجتمع ثلاث سينات ، قلبت الثالثة ، ياء ، يقال : دس فلان الشئ إذا أخفاه وكتمه .والمعنى : وحق الشمس وضحاها وحق القمر إذا تلاها ، وحق النفس وحق من سواها ، وجعلها متمكنة من معرفة الخير والشر . لقد أفلح وفاز وظفر بالمطلوب ، ونجا من المكروه ، من طهر نفسه من الذنوب والمعاصى . وقد خاب وخسر نفسه . وأوقعها فى التهلكة ، من نَقَصها وأخفاها وأخملها وحال بينها وبين فعل الخير بسبب ارتكاب الموبقات والشرور .قال الآلوسى ما ملخصه : وقوله - تعالى - : ( قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ) جواب القسم . وإليه ذهب الزجاج وغيره . والأصل : لقد أفلح ، فحذفت اللام لطول الكلام المقتضى للتخفيف . وفاعل من " زكاها " ضمير " مَنْ " والضمير المنصوب للنفس . .ويرى المحققون من العلماء أن جواب القسم محذوف للعلم به ، فكأنه - سبحانه - قد قال : وحق الشمس وضحاها ، وحق القمر إذا تلاها . . ليقعن البعث والحساب والجزاء ، أو لتحاسبن على أعمالكم ، ودليل هذا الجواب قوله - تعالى - بعد ذلك : ( كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَآ )

كذبت ثمود بطغواها

كما فسرها الوسيط ( كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَآ )لأن هذه الآية الكريمة وما بعدها ، تدل على أن الله - تعالى - قد اقتضت سنته ، أن يحاسب من فسق عن أمره ، وأصر على تكذيب رسله .وعلى هذا سار صاحب الكشاف ، فقد قال : فإن قلت فأين جواب القسم؟ قلت : هو محذوف ، تقديره : لَيُدَمْدِمَ مَنّ الله عليهم : أى : على مكة لتكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما دمدم على ، قبيلة ثمود لأنهم كذبوا صالحا - عليه السلام - وأما قوله : ( قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ) فكلام تابع لقوله : ( فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ) على سبيل الاستطراد ، وليس من جواب القسم فى شئ . .وقد أقسم الله - تعالى - بهذه الكائنات المختلفة ، والتى لها مالها من المنافع بالنسبة للإنسان وغيره ، لتأكيد وحدانيته ، وكمال قدرته ، وبليغ حكمته وبدأ - سبحانه - بالشمس ، لأنها أعظم هذه الكائنات ، وللتنويه بشأن الإسلام ، وأن هديه كضياء الشمس ، الذى لا يترك للظلام أثرا .وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآيات بعض الأحاديث ، منها ما رواه الطبرانى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مر بهذه الآية : ( وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ) وقف ثم قال : " اللهم آت نفسى تقواها أنت وليها ومولاها . وخير من زكاها " وعن أبى هريرة رضى الله عنه . قال : " سمعت النبى يقرأ ( فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ) قال : " اللهم آت نفسى تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها ، وليها ومولاها " " .وبعد هذا الحديث الطويل المؤكد بالقسم ، والدال على وحدانيته ، وبديع صنعه ..

اذ انبعث اشقاها

كما فسرها الوسيط أتبع ذلك ببيان ما حل بالمكذبين السابقين ، ليكون هذا البيان عبرة وعظة للمشركين المعاصرين للنبى ، فقال - تعالى - : ( كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَآ . إِذِ انبعث أَشْقَاهَا . فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ الله نَاقَةَ الله وَسُقْيَاهَا . فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا . وَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا ) والمراد بثمود : تلك القبيلة التى أرسل الله - تعالى - إلى أهلها. ( صالحا - عليه السلام - لكى يأمرهم بإخلاص العبادة لله وحده . ومفعول " كذبت محذوف للعلم به .والباء فى قوله " بطغواها " للسببية ، والطَّغْوَى : اسم " مصدر من الطغيان ، وهو مجاوزة الحد المعتاد .أى : كذبت قبيلة ثمود - نبيهم : صالحا - عليه السلام بسبب طغيانهم وإفراطهم فى الجحود والتكبر والعناد وقيل : إن الباء للتعدية ، والطغوى : اسم للعذاب الذى نزل به ، والذى توعدهم به نبيهم .أى : كذبت ثمود بعذابها ، الذى توعدهم رسولهم به ، إذا استمروا فى كفرهم وطغيانهم .والظرف فى قوله - سبحانه - : ( إِذِ انبعث أَشْقَاهَا ) متعلق بقوله ( طغواها ) ، لأن وقت انبعاث أشقاهم لقتل الناقة هو أشد أوقات طغيانهم وفجورهم .وفعل " انبعث " مطاوع بعث ، تقول : بعثته . فانبعث ، كما تقول : كسرته فانكسر . ويصح أن يكون متعلقا بقوله : ( كذبت ) - وقوله ( أَشْقَاهَا ) أى : أشقى تلك القبيلة ، وهو قُدَار - بزنة غراب. : بن سالف ، الذى يضرب به المثل فى الشؤم ، فيقال : فلان أشأم من قدار .أى كذبت ثمود نبيها ، بسبب طغيانها ، وقت أن أسرع أشقى تلك القبيلة ، وهو قدار - بن سالف ، لعقر الناقة التى نهاهم نبيهم عن مسها بسوء .وعبر - سبحانه ، بقوله : ( انبعث ) للإشعار بأنه قام مسرعا عندما أرسله قومه لقتل الناقة ، ولم يتردد فى ذلك لشدة كفره وجحوده .

فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ الله نَاقَةَ - الله وَسُقْيَاهَا ) أى : فقال لهم رسول الله - تعالى - إليهم . وهو صالح - عليه السلام - على سبيل التحذير والإنذار : احذروا عقر ناقة الله تعالى - ، واحذروا سقياها ، أى : الوقت المحدد لشربها فلا تمنعوها فيه من الشرب ، فإن لها يوم لا تشاركونها فيه الشرب ، وإن لكم يوما آخر هى لن تشارككم فيه . وقد قال لهم صالح - عليه السلام - هذا الكلام ، عندما شعر بأنهم قد بيتوا النية على عقرها .فالفاء فى قوله - تعالى - : ( فَقَالَ لَهُمْ . . . ) عاطفة على قوله ( كذبت ) لإفادة الترتيب والتعقيب . .أى : قال لهم ذلك فى أعقاب شعوره بتصميمهم على تكذيبه ، وعلى قتل الناقة .ولفظ " ناقة " منصوب على التحذير ، والكلام على حذف مضاف . أى : احذروا عقر ناقة - الله ، وأضيفت إلى لفظ الجلالة ، على سبيل التشريف لها ، لأنها قد جعلها ) : سبحانه - معجزة لنبيه صالح - عليه السلام - ودليلا على صدقه .وقوله وَسُقْيَاهَا ) معطوف على ناقة الله ، وهو منصوب - أيضا - على التحذير .أى ، احذروا أن تقتلوا الناقة ، واحذروا أن تشاركوها فى اليوم الخاص بشربها : فضلا عن أن تؤذوها .

فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ) بيان لموقفهم السيئ من تحذير نبيهم لهم ، ولما أصابهم من عذاب مهلك بسبب هذا التكذيب .وقوله : ( فَدَمْدَمَ بزنة فعلل - بمعنى تضعيف العذاب وترديده ، يقال : دمدمت على الشئ ، أى - ( أطبقت عليه ، ودمدم عليه القبر ، أى : أطبقه عليه .أى : فكذبت قوم صالح : نبيهم ، وأصروا على هذا التكذيب ، وتجاوزوا ذلك إلى عقر الناقة التى نهاهم عن مسها بسوء . . فكانت نتيجة ذلك ، أن أهلكهم الله - تعالى - وأن أخذهم أخذ عزيز مقتدر ، فقد أطبق عليهم الأرض ، وسواها من فوقهم جميعا دون أن يفلت منهم أحد ، وصاروا كلهم تحت ترابها ، ونجى - سبحانه - صالحا ومن آمن معه . بفضله ورحمته .

ولا يخاف عقباها

كما فسرها الوسيط والضمير فى قوله - سبحانه - : ( وَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا يعود إلى الله - تعالى - أى : ولا يخاف الله - تعالى -عاقبة ما فعله ( بهؤلاء الطغاة الأشقياء ، لأن الذى يخاف إنما هو المخلوق .أما الخالق لكل - شئ ، فإنه - تعالى -لا يخاف أحدا ، لأنه لا يسأل عما يفعل ، ولأنه تعالى - هو العادل فى أحكامه ، والضمير فى عقباها ، يعود إلى الفعلة أو إلى الدمدمة .ومنهم من جعل الضمير فى " يخاف " يعود إلى أشقاها ، أى : أن هذا الشقى قد أسرع إلى عقر الناقة دون أن يخشى سوء عاقبة فعله ، لطغيانه وجهله نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا جميعا من عباده الصالحين .وصلى الله على. سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

والليل اذا يغشى

كما فسرها الوسيط أقسم الله - سبحانه - فى افتتاح هذه السورة بثلاثة أشياء على أن أعمال الناس مختلفة .أقسم - أولا - بالليل فقال : ( والليل إِذَا ، يغشى ) أى : وحق الليل إذا يغشى النهار ، فيغطى ضياءه ، ويذهب نوره ، ويتحول الكون معه من حالة إلى حالة ، إذ عند حلول الليل يسكن الخلق عن الحركة ، ويأوى كل إنسان أو حيوان أو مأواه ، ويستقبلون النوم الذى فيه ما فيه من الراحة لأبدانهم ، كما قال - تعالى - : ( وَجَعَلْنَا الليل لِبَاساً . وَجَعَلْنَا النهار مَعَاشاً ).

والنهار اذا تجلى

كما فسرها الوسيط وأقسم - ثانيا - بالنهار فقال : ( والنهار إِذَا تجلى ) أى : وحق النهار حين ينكشف ويظهر ، ويزيل الليل وظلمته ، ويخرج الناس معه ليباشروا أعمالهم المتنوعة .

وما خلق الذكر والانثى

كما فسرها الوسيط وأقسم - ثالثا - بقوله : ( وَمَا خَلَقَ الذكر والأنثى ) و " ما " هنا يصح أن تكون موصولة ، بمعنى الذى ، فيكون - سبحانه - قد أقسم

- بذاته ، وجاء التعبير بما ، للدلالة على الوصفية ، ولقصد التفخيم .فكأنه
تعالى - يقول : وحق الخالق العظيم ، الذى لا يعجزه شئ ، والذى خلق نوع
، الذكور ، ونوع الإناث من ماء واحد .ويصح أن تكون " ما " هنا حرفا مصدريا
فيكون المعنى : وحق خَلْقِ الذكر والأنثى ، وعليه يكون - سبحانه - قد أقسم
بفعل من أفعاله التى تدل على كمال قدرته ، وبديع صنعته ، حيث أوجد الذكور
والإناث من ماء واحد ، كما قال - سبحانه - : ( وَأَنَّهُ خَلَقَ الزوجين
الذكر والأنثى . مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تمنى ) وحيث وهب - سبحانه - الذكور
. لمن يشاء ، ووهب الإناث لمن يشاء ، وجعل العقم لمن يشاء

ان سعيكم لشتى

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( إِنَّ سَعْيَكُمْ لشتى ) هو جواب
: القسم . وشتى جمع شتيت . مثل : جريح وجرحى ، ومريض ومرضى . والشئ الشتيت
هو المتفرق المتناثر بعضه عن بعض ، من الشتات بمعنى الابتعاد والافتراق
والمعنى : وحق الليل إذا يغشى النهار فيستر ضياءه ، وحق النهار إذا تجلى.
وأسفر وأزال الليل وظلامه ، وحق الخالق العظيم القادر الذى أوجد الذكور
والإناث .وحق كل ذلك ، إن أعمالكم ومساعيكم - أيها الناس - فى هذه الحياة
لهى ألوان شتى ، وأنواع متفرقة ، منها الهدى ومنها الضلال ، ومنها الخير ،
ومنها الشر ، ومنها الطاعة ، ومنها المعصية . . وسيجازى - سبحانه - كل ،
إنسان على حسب عمله .وحذف مفعول " يغشى " للتعميم ، أى يغشى كل شئ ويواريه
بظلامه .وأسند - سبحانه - التجلى إلى النهار ، على سبيل المدح له
بالاستنارة والإسفار .والمراد بالسعى : العمل . وقوله " سعيكم " مصدر مضاف
: فيفيد العموم فهو فى معنى الجمع أى : إن مساعيكم لمتفرقة .قال القرطبى
السعى : العمل ، فساع فى فكاك نفسه ، وساع فى عطبها ، يدل عليه قوله صلى
الله عليه وسلم : " الناس غاديان : فمبتاع نفسه فمعتقها ، وبائع نفسه
. " فموبقها

فاما من اعطى واتقى

كما فسرها الوسيط ثم فصل - سبحانه - ما أجمله فى قوله : ( إِنَّ سَعْيَكُمْ
. لشتى ) فقال : ( فَأَمَّا مَنْ أعطى واتقى . وَصَدَّقَ بالحسنى
فَسَنُيَسِّرُهُ لليسرى . وَأَمَّا مَن بَخِلَ واستغنى . وَكَذَّبَ بالحسنى
( فَسَنُيَسِّرُهُ للعسرى . وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تردى .
والحسنى تأنيث الأحسن ، وهى فة لموصوف محذوف .أى : (فَأَمَّا مَنْ أعطى
واتقى ) حق الله - تعالى - ، بأن أنفق من ماله فى وجوه الخير : كإعتاق
الرقاب ، ومساعدة المحتاجين . . ( واتقى ) المحارم والمعاصى.

وصدق بالحسنى

كما فسرها الوسيط ( وَصَدَّقَ بالحسنى ) أى : وأيقن بالخصلة الحسنى ، وهى
الإيمان بكل ما يجب الإيمان به ، أو أيقن بالملة الحسنى ، وهى ملة
. الإسلام ، أو بالمثوبة الحسنى وهى الجنة

فسنيسره لليسرى

كما فسرها الوسيط ( فَسَنُيَسِّرُهُ لليسرى ) أى : فسنهيئه للخصلة التى
توصله إلى اليسر والراحة وصلاح البال ، بأن نوفقه لأداء الأعمال الصالحة
التى تؤدى إلى السعادة .وحذف مفعول " أعطى واتقى " للعلم بهما ، أى : أعطى
. ما كلفه الله - تعالى - به ، واتقى محارمه

واما من بخل واستغنى

- كما فسرها الوسيط ( وَأَمّا مَن بَخِلَ ) بماله فلم يؤد حقوق الله
تعالى - فيه ، ولم يبذل شيئا من ه فى وجوه البر . ( واستغنى ) أى : واستغنى
عن ثواب الله - تعالى - ، وتطاول على الناس بماله وجاهه ، وآثر متع الدنيا
. . على نعيم الآخرة

وكذب بالحسنى

كما فسرها الوسيط (وَكَذَّبَ بالحسنى ) أى : وكذب بالخصلة الحسنى التى
. تشمل الإيمان بالحق ، وبيوم القيامة وما فيه من حساب وجزاء

فسنيسره للعسرى

كما فسرها الوسيط ( فَسَنُيَسِّرُهُ للعسرى ) أى : فسنهيئه للخصلة التى توصله إلى العسر والمشقة والشدة ، بأن نجعله بسبب سوء اختياره ، يؤثر الغى على الرشد ، والباطل على الحق ، والبخل على السخاء ، فتكون عاقبته فرطا ونهايته الخسران والبوار .والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة يراها ، وقد وصفت المؤمنين الصادقين بثلاث صفات هى جماع كل خير ، وأساس جميع الفضائل : وصفهم بالسخاء ، وبالخوف من الله - تعالى - ، وبالتصديق بكل ما يجب التصديق به ورتب على ذلك توفيقهم للخصلة الحسنى . . التى تنتهى بهم إلى الفوز والسعادة ووصف - أيضا - أهل الفسوق والفجور بثلاث صفات ، هى أساس البلاء ، ومنبع . . الفساد ، ألا وهى : البخل ، والغرور ، والتكذيب بكل ما يجب الإيمان به ورتب - سبحانه - على ذلك تهيئتهم للخصلة العسرى ، التى توصلهم إلى سوء المصير ، وشديد العقاب . .وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآيات جملة من الأحاديث الشريفة ، فقال ما ملخصه : قوله : ( وَكَذَّبَ بالحسنى ، أى : بالجزاء فى الدار الآخرة ( فَسَنُيَسِّرُهُ للعسرى ) أى : لطريق ( الشر ، كما قال - تعالى - : ( وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ) والآيات فى هذا المعنى كثيرة ، ودالة على أن الله يجازى من قصد الخير بالتوفيق له ، ومن قصد الشر بالخذلان ، وكل ذلك بقدر مقدر ، والأحاديث الدالة على هذا المعنى كثيرة .منها : ما أخرجه البخارى عن على بن أبى طالب - رضى الله عنه - قال :" كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بقيع الغرقد فى جنازة ، فقال : " ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعدة من الجنة ، ومقعدة من النار " فقالوا : يا رسول الله أفلا نتكل؟ فقال : " اعملوا فكل ميسر لما خلق له " ثم قرأ : ( فَأَمَّا مَنْ أعطى واتقى . . . ) إلى قوله : ( للعسرى ) " .

وما يغني عنه ماله اذا تردى

كما فسرها الوسيط و " ما " فى قوله - سبحانه - : ( وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تردى ) يجوز أن تكون نافية . والتردى : السقوط من أعلى إلى أسفل . يقال : تردى فلان من فوق الجبل ، إذا سقط من أعلاه إلى أسفله ، والمراد به هنا : النزول إلى القبر بعد الموت ، أو السقوط فى النار بسبب الكفر والفسوق والعصيان ، من الردى بمعنى الهلاك .أى : ولا يغنى شيئا عن هذا الشقى الذى بخل واستغنى وكذب بالحسنى ، ماله وجاهه وكل ما كان يملكه فى الدنيا ، إذا سقط يوم القيامة فى النار .ويجوز أن تكون " ما " استفهامية : ويكون الاستفهام المقصود به الإنكار والتوبيخ ، أى : وماذا يغنى عن هذا الشقى ماله بعد هلاكه ، وبعد ترديه فى جهنم يوم القيامة؟ إنه لن يغنى عنه شيئا ماله الذى بخل به فى الدنيا ، بل سيهوى فى جهنم دون أن يشفع له شافع ، أو ينصره ناصر ، وصدق الله إذْ يقول : ( وَتَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْداً ) وإن يقول : ( وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فرادى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ . . . ).

ان علينا للهدى

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ، أنه قد أعذر إلى عباده ، حيث وضح لهم طريق الخير وطريق الشر ، وكشف لهم عن حسن عاقبة من أعطى واتقى وصدق بالحسنى ، وسوء عاقبة من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فقال - تعالى - : ( إِنَّ عَلَيْنَا للهدى . وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ والأولى ) . أى : إن علينا - بمقتضى حكمتنا ورحمتنا بعبادنا - أن نبين لهم طريق الحق ، وطريق الباطل ، بواسطة رسلنا ، فمن شاء بعد ذلك فليؤمن فينال الثواب ، ومن شاء بعد ذلك فليكفر فيحل به العقاب ، لأننا نجازى كل إنسان على حسب عمله ، بعد أن هديناه النجدين ، وأرشدناه إلى سبيل الرشد وسبيل الغى .

وان لنا للاخرة والاولى

كما فسرها الوسيط وإن لنا وحدنا كل ما فى الدنيا ، وكل ما فى الآخرة . إذ الخلق والأمر بيدنا ، والعطاء والمنع لا يملكه أحد سوانا ، وهذا الكون كله تحت تصرفنا وقدرتنا .

فانذرتكم نارا تلظى

كما فسرها الوسيط والفاء فى قوله - سبحانه - : ( فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تلظى ) للإفصاح عن مقدر ، لأنها تدل على مراعاة مضمون الكلام الذى قبلها ، وتأتى بعده بما يفصله ويزيده وضوحا . .وقوله : ( تلظى ) أى : تتوقد وتتوهج وتلتهب ، وأصله تتلظى ، فحذفت إحدى التاءين تخفيفا . أى : إذا كان الأمر

كما ذكرت لكم ، من حسن عاقبة من أعطى واتقى ، ومن سوء عاقبة من بخل واستغنى ومن أن كل شئ تحت قدرتنا وتصرفنا .. فأكون بذلك قد حذرتكم من عاب عظيم ، يوم القيامة ، وخوفتكم من السقوط فى نار عظيمة تلتهب وتتوقد .

لا يصلاها الا الاشقى

كما فسرها الوسيط وهذه النار ( لاَ يَصْلاَهَآ ) أى :لا يحترق بها ) إِلاَّ الأشقى ) أى : من اشتد شقاؤه بسبب إصراره على كفره وفجوره .

الذي كذب وتولى

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( الذي كَذَّبَ وتولى ) صفة لهذا الشقى لزيادة التشنيع عليه ، والذم له . أى : سيحترق بهذه النار هذا الإنسان ، ، الذى بلغ الغاية فى الشقاء والتعاسة ، والذى من صفاته أنه كذب بالحق وأعرض عن الطاعة . وسار فى طريق الكفر والجحود ، حتى أدركه الموت ، وهو على ذلك .

وسيجنبها الاتقى

، كما فسرها الوسيط وكعادة القرآن الكريم فى المقابلة بين الأشرار والأخيار - وبين العسداء والأشقياء ، جاء الحديث بعد ذلك عن حال الأتقياء ، فقال تعالى - ( وَسَيُجَنَّبُهَا الأتقى ) أى : وسيبتعد عن هذه النار المتأججة الأتقى ، وهو من بالغ فى صيانة نفسه عن كل ما يغضب الله - تعالى - ، وحرص كل الحرص على فعل ما يرضيه - عز وجل - .فالمراد بالأشقى والأتقى : الشديد الشقاء ، والشديد والتقوى .والتعبير بقوله : ( وَسَيُجَنَّبُهَا ) يشعر بابتعاده عنها ابتعادا تاما ، بحيث تكون النار فى جانب ، وهذا الأتقى فى جانب آخر ، كما قال - تعالى - : ( إِنَّ الذين سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الحسنى أولئك عَنْهَا مُبْعَدُونَ . لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيَسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشتهت أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ) والفعل " جنب " يتعدى إلى مفعولين أولهما هنا هو لفظ الأتقى ، الذى ارتفع على أنه نائب فاعل ، والمفعول ، الثانى هو الهاء .

الذي يؤتي ماله يتزكى

كما فسرها الوسيط ثم وصف - سبحانه - هذا الإنسان المبالغ فى تقواه وطاعته لربه فقال : ( الذي يؤتى ماله يتزكى ) أى : هذا الإنسان الشديد التقوى من صفاته أنه يقد ماله لغيره ، وينفقه فى وجوه البر والطاعة ، رجاء أن يكون عند ربه زاكيا ناميا ، خاليا من شبهة الرياء والتفاخر ، وأملا فى أن يتطهر به من الذنوب .فقوله ( يتزكى ) فى محل نصب على الحال من فاعل ( يؤتى ) أى : يؤتى ماله حال كونه لا يطلب من وراء ذلك إلا تزكية ماله ، وتطهير نفسه .

وما لاحد عنده من نعمة تجزى

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تجزى . إِلاَّ ابتغآء وَجْهِ رَبِّهِ الأعلى ) بيان لبلوغه أسمى درجات الإخلاص والنقاء .أى : أن هذا الإنسان الكامل فى تقاه لا يفعل ما يفعل من وجوه الخيرات ، من أجل المجازاة لغيره على نعمة سلفت من هذا الغير - له ، وإنما يفعل ما يفعل من أجل شئ واحد ، وهو طلب رضا الله - تعالى - والظفر بثوابه ، والإخلاص لعبادته - سبحانه - .

الا ابتغاء وجه ربه الاعلى

كما فسرها الوسيط قال الآلوسى : وقوله : ( إِلاَّ ابتغآء وَجْهِ رَبِّهِ الأعلى ) منصوب على الاستثناء المنقطع من قوله : ( مِن نِّعْمَةٍ ) لأن الابتغاء لا يندرج فيها ، فالمعنى : لكنه فعل ذلك لابتغاء وجه ربه - سبحانه - وطلب رضاه ، لا لمكافأة لأحد على نعمة .وجوز أن يكون نصبه على أنه مفعول لأجله ، أى :لا يؤتى ماله لأجل شئ من الأشياء إلا لأجل طلب رضا ربه .. لا لأجل شئ آخر ، فهو استثناء مفرغ من أعم العلل والأسباب ،

ولسوف يرضى

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَلَسَوْفَ يرضى ) المقصود به الوعد الصادق لهذا التقي ، بما يزيد فى سروره ، وفى قرة عينه .أى : ولسوف نعطى هذا التقى الذى أعطى واتقى وصدق بالحسنى ، من أجل الظفر برضا ربه - تعالى -

، لا من أجل شئ آخر . . لسوف نعطيه عطاء يرضيه ويسعده ويشرح صدره .هذا
وأكثر المفسرين على أن هذه الآيات الكريمة نزلت فى شأن سيدنا أبو بكر
الصديق - رضى الله عنه - .قال الإمام ابن جرير ما ملخصه : وذكر أن هذه
الآيات نزلت فى أبى بكر الصديق . . فقد كان يعتق العجائز من النساء إذا
أسلمن ، ويشترى الضعفة من العبيد فيعتقهم ، فقال له أبوه : يا بنى ، أراك
، تعتق أناسا ضعفاء ، فلو أنك تعتق رجالا جلداء - أى : أشداء - يقومون معك
ويمنعونك ، ويدفعون عنك .فقال أبو بكر : أى أبت . . إنما أريد ما عند الله
فنزلت هذه الآيات . .وقال الإمام ابن كثير : وقد ذكر غير واحد من ،
المفسرين ، أن هذه الآيات قد نزلت فى أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - حتى
إن بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك ، ولا شك أنه داخل فيها ، وأولى
الأمة بعمومها ، فإن لفظها لفظ العموم ، وهو قوله : ( وَسَيُجَنَّبُهَا
الأتقى . الذى يُؤْتِي مَالَهُ يتزكى . . . ) ولكنه مقدم الأمة ، وسابقهم
، فى جميع هذه الأوصاف ، وسائر الأوصاف الحميدة ، فإنه كان صديقا ، تقيا
كريما ، جوادا ، بذالا لماله فى طاعة مولاه ، ونصرة رسوله صلى الله عليه
وسلم . .نسأل الله - تعالى - أن يحشرنا جميعا فى زمرة عباده الأتقياء
. الأنقياء .وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

والضحى

كما فسرها الوسيط قد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه السورة الكريمة روايات
: منها : ما أخرجه الإمام البخارى ومسلم وغيرهما عن جندب بن سفيان قال
- اشتكى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يقم ليلة أو ليلتين ، فأتت امرأة
وفى رواية أنها أم جميل امرأة أبى لهب - فقالت : يا محمد ، ما أرى شيطانك
إلا قد تركك . فأنزل الله - تعالى - : ( والضحى . والليل إِذَا سجى . مَا
وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قلى ) .وأخرج ابن أبى شيبة والطبرانى وابن مردويه
من حديث خولة ، وكانت تخدم النبى صلى الله عليه وسلم " أن جروا دخل تحت ،
سرير رسول الله صلى الله عليه وسلم فمات ، فمكث النبى صلى الله عليه وسلم
أياما لا ينزل عليه الوحى ، فقال صلى الله عليه وسلم يا خولة ماذا حدث فى
بيتى ، إن جبريل لا يأتينى ، قالت خوله : فقلت يا نبى الله ما أتى علينا
يوم خير منّا اليوم . فأخذ برده فلبسه ، وخرج ، فقلت فى نفسى لو هيأت البيت
وكنسته ، فأهويت بالمكنسة تحت السرير ، فإذا بشئ ثقيل ، لم أزل به حتى بدا
لى الجرو ميتا ، فأخذته بيدى ، فألقيته خلف الدار ، فجاء صلى الله عليه
وسلم ترعد لحيته - وكان إذا نزل عليه الوحى أخذته الرعدة - فقال يا خولة
- دثرينى ، فأنزل الله - تعالى - هذه السورة . . "وذكر بعضهم : إن جبريل
عليه السلام - أبطأ فى نزوله على النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال المشركون
قد قلاه ربه وودعه . فأنزل الله - تعالى - هذه الآيات . .والضحى : هو وقت :
ارتفاع الشمس بعد إشراقها ، وهو وقت النشاط والحركة ، والإقبال على السعى
، والعمل . . ولذا خص بالقسم به ، وقيل : المراد بالضحى هنا : النهار كله
بدليل أنه جعل فى مقابلة الليل كله .والأول أولى : لأن الضحى يطلق على وقت
انتشار ضياء الشمس حين ترتفع ، وتلقى بأشعتها على الكون ، ويبرز الناس
لأعمالهم المتنوعة .ومعنى" سجل " : سكن . يقال : سجا الليل يسجو سجوا ، إذا
سكن وهدأ وأسدل ظلامه على الكون . ويقال : تسجَّى فلان بملابسه ، إذا غطى
. . بها جميع جسده ، ومنه قولهم : سُجِّى الميت تسجية ، إذا غطى بكفنه

والليل اذا سجى

. كما فسرها الوسيط قال صاحب الكشاف : قوله : ( سجى ) أى : سكن وركد ظلامه
وقيل : ليلة ساجية . أى : ساكنة الريح : وقيل معناه : سكون الناس والأصوات
فيه . وسجا البحر : سكنت أمواجه . وطرف ساج ، أى : ساكن فاتر . .أى : وحق
الضحى وهو الوقت الذى ترتفع فيه الشمس ، ويتم إشراقها ، ويأخذا الناس فى
. النشاط والحركة . . وحق الليل إذا سكن وهجع فيه الناس بعد عناء العمل

ما ودعك ربك وما قلى

كما فسرها الوسيط وجواب القسم قوله - تعالى - : ( مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ
وَمَا قلى ) أى : ام تركك ربك - أيها الرسول الكريم - منذ أن اختارك لحمل
رسالته ، وما أبغضك ولا كرهك ، بل أنت محل رضانا ومحبتنا ورعايتنا ..فقوله
من التوديع ، وهو فى الأصل الدعاء للمسافر ، ببلوغ الدعة ، وخفض ( ودعك ) :
العيش ، ثم استعير للمفارقة بعد الاتصال ، تشبيها بفراق المسافر فى انقطاع
الصلة ، حيث شبه - سبحانه - انقطاع صلة الكلام بانقطاع صلة الإقامة
والمقصود : نفى أن يكون الله - تعالى - قد قطع وحيه عن نبيه صلى الله عليه.
: وسلم .وقوله : ( قلى ) من القِلاَ - بكسر القاف - وهو شدة البغض ، يقال
) : - قلا فلان فلانا يقليه ، إذا كرهه وأبغضه بشدة . ومنه قوله - تعالى
إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِّنَ القالين ) والمراد ما قطع الله - تعالى - عنك

وحيه - أيها الرسول الكريم - ، وما كرهك ، وهذا رد بليغ على المشركين الذين زعم بعضهم أن الله - تعالى - قد ترك نبيه ، وزعم آخرون أنه قد أبغضه ، وحذف مفعول " قلا " للدلالة عليه فى قوله - تعالى - ( مَا وَدَّعَكَ ) ، وهو ) ، إيجاز لفظى لظهور : المحذوف ، ومثله قوله - تعالى - بعد ذلك : ( فآوى ) . . فهدى ) ، ( فأغنى )

وللاخرة خير لك من الاولى

كما فسرها الوسيط ثم بشره - سبحانه - ببشارتين عظيمتين ، قد بلغتا الدرجة العليا فى السمو والرفعة ، فقال : ( وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأولى وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فترضى )أى : وللدار الآخرة وما أعده الله . لك فيها من نعيم لا يحيط به وصف ، خير لك من دار الدنيا التى أعطيناك فيها من نبوة ، وكرامة ومنازل عالية ، وخلق كريم .وفضلا عن كل ذلك فأنت - أيها الرسول الكريم - سوف يعطيك ربك من خيرى الدنيا والآخرة ، كل ما يسعدك ويرضيك ، من نصر عظيم ، وفتح مبين ، وتمكين فى الأرض ، وإعلاء لكلمة الحق على يدك ، وعلى أيدى أصحابك الصادقين ، ومنازل عظمى فى الآخرة لا يعلم مقدارها إلا الله - تعالى - ، كالمقام المحمود ، والشفاعة ، والوسيلة . . . وبذلك ترضى رضاء تاما بما أعطاك - سبحانه - من نعم ومنن .فالمراد بالآخرة : الدار الآخرة التى تقابل الدار الأولى ، وهى الحياة الدنيا ، وبعضهم جعل المراد بالآخرة ، نهاية أمره صلى الله عليه وسلم فى هذه الدنيا ، والمراد بالأولى بداية أمره صلى الله عليه وسلم فى هذه الدنيا ، فيكون المعنى : ولنهاية أمرك - أيها الرسول الكريم - خير من بدايته ، فإن كل يوم يمضى من عمرك ، سيزيدك الله - تعالى - فيه ، عزا على عز ، ونصرا على نصر ، وتأييدا على تأييد . . حتى ترى الناس وقد دخلوا فى دين الله أفواجا . . وقد صدق الله - تعالى - لنبيه وعده حيث فتح له مكة ، ونشر دعوته فى مشارق الأرض ، ومغاربها .قال الآلوسى : وحمل الآخرة على الدار الآخرة المقابلة للدنيا : والأولى على الدار الأولى وهى الدنيا ، هو الظاهر .. وقال بعضهم : يحتمل ، أن يراد بهما نهاية أمره صلى الله عليه وسلم وبدايته ، فاللام فيها للعهد أو عوض عن المضاف إليه . أى : لنهاية أمرك خيرك من بدايته ، فأنت لا تزال . . تتزايد قوة ، وتتصاعد رفعة

ولسوف يعطيك ربك فترضى

كما فسرها الوسيط وجئ بحرف الاستقبال فى قوله - تعالى - : ( وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فترضى ) ، لإفادة أن هذا العطاء مستمر غير مقطوع ، كما ) : فى قوله - تعالى - : ( وَلَسَوْفَ يرضى ) وحذف المفعول الثانى فى قوله : يُعْطِيكَ ) ، ليعم كل وجوه العطاء التى يحبها صلى الله عليه وسلم أى ولسوف يعطيك ربك عطاء يرضيك رضاء تاما .والتعبير بقوله ( فترضى ) ، ليعم كل وجوه العطاء التى يحبها الله صلى الله عليه وسلم أى : ولسوف يعطيك ربك عطاء ، يرضيك رضاء تاما .والتعبير بقوله ( فترضى ) المشتمل على فاء التعقيب للإشعار بأنه عطاء عاجل النفع ، وأنه سيأتى إليه صلى الله عليه وسلم فى ) : - وقت قريب ، وقد أنجز - سبحانه - وعده .قال الجمل : وقوله - سبحانه وَلَلْآخِرَةُ ) اللام فيه للابتداء مؤكدة لمضمون الجملة . وإنما قيد بقوله - تعالى - ( لك ) لأنها ليست خيرا لكل واحد . وقوله : ( وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ . . . ) هذا وعد شامل لما أعطاه الله - تعالى - له من كمال النفس ، وظهور الأمر ، وإعلاء الدين . . واللام لام الابتداء ، والمبتدأ محذوف ، ، أى : ولأنت سوف يعطيك ربك ، وليست لام القسم ، لأنها لا تدخل على المضارع . . إلا مع نون التوكيد

الم يجدك يتيما فاوى

كما فسرها الوسيط ثم عدد - سبحانه - نعمه على نبيه صلى الله عليه وسلم فقال : والاستفهام هنا للتقرير. ( . . أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فآوى ) : - واليتيم : هو من فقد أباه وهو صغير .أى : لقد كنت - أيها الرسول الكريم يتيما ، حيث مات أبوك وأنت فى بطن أمك ، فآواك الله - تعالى - بفضله وكرمه ، وتعهدك برعايته وحمايته وعصمته ، وسخر لك جدك عبد المطلب ليقوم بكفالتك ، ومن بعده سخر لك عمك أبا طالب ، حيث تولى رعايتك والدفاع عنك قبل الرسالة وبعدها ، إلى أن مات .

ووجدك ضالا فهدى

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - ( وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فهدى ) بيان لنعمة أخرى أنعم - سبحانه - بها على نبيه صلى الله عليه وسلم :وللمفسرين فى معنى هذه الآية كلام طويل ، نختار منه قولين : أولهما : أن المراد بالضلال هنا

الحيرة في الوصول إلى الحق ، والغفلة عما أوحاه الله - تعالى - إليه بعد ذلك من قرآن كريم ، ومن تشريعات حكيمة . . مع اعتقاده صلى الله عليه وسلم قبل النبوة أن قومه ليسوا على الدين الحق ، بدليل أنه لم يشاركهم فى عبادتهم للأصنام ، ولا فى السلوك الذى يتنافى من مكارم الأخلاق .وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : ( ضالا ) معناه : الضلال عن علم الشرائع وما طريقه السمع . .وقال الإمام الشيخ محمد عبده - رحمه الله - : عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : نشأ صلى الله عليه وسلم موحدا ، لم يسجد لصنم وطاهر الخلق ، لم يرتكب فاحشة ، حتى عرف بين قومه بالصادق الأمين ، فضلال الشرك ، وضلال الهوى فى العمل ، كانا بعيدين عن ذاته الكريمة .ولكن الضلال أنواع أخر ، منها : اشتباه المآخذ على النفس ، حتى تأخذها الحيرة فيما ينبغى أن تختار . . وهذا هو الذى عناه الله - تعالى - بالضلال فى هذه الآية الكريمة .وقد هداه - سبحانه - إلى الحق بعد هذه الحيرة ، بأن اختار له دينا قويما وعلمه كيف يرشد قومه . هذا هو معنى قوله - تعالى - : ( وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فهدى ) ، وهو معنى قوله - تعالى - فى سورة الشورى : ( وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكتاب وَلاَ الإيمان . . . ) وليس فى وصف النبى صلى الله عليه وسلم بالضال على هذا المعنى شين له ، أو حط من شأنه ، بل هذا فخره وإكليل مجده صلى الله عليه وسلم حيث كان على غير علم فعلمه الله ، ولم يكن مطلعا على الغيب فأطلعه الله على ما يريد إطلاعه عليه ، وبهذا التفسير نستغنى عن خلط المفسرين فى التأويل . .أما القول الثانى فى معنى الآية الكريمة ، فهو أنه صلى الله عليه وسلم كان بين قوم مشركين ، وكان بعرضه أن يضل معهم ، ولكن الله - تعالى - حبب إليه الانفراد عنهم ، واعتزال شركهم وسوء أخلاقهم . . فكان بذلك كالشجرة المنفردة فى الصحراء ، والعرب تسمى الشجرة التى بهذه الصفة ضالة .قال القرطبى : قوله - تعالى - : ( وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فهدى ) أى : غافلا عما يراد بك من أمر النبوة ، فهداك ، أى : أرشدك . والضلال هنا بمعنى الغفلة .وقال قوم : ( ضالا ) أى : لم تكن تدرى القرآن الكريم والشرائع ، فهداك الله إليهما .وقال قوم ( ضالا ) أى : وجدك فى قوم ضلال فهداهم الله - تعالى - بك ، والعرب إذا وجدت شجرة منفردة فى فلاة من الأرض - لا شجر معها ، سموها ضالة ، فيهتدى بها إلى الطريق ، فقال - سبحانه ، لنبيه ( وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فهدى ) أى :لا أحد على دينك ، وأنت وحيد ليس معك أحد ، فهَدَيْتُ بك الخلق إلى دينى . .هذا هما القولان اللذان نرتاح إليهما ، وارتياحنا إلى أولهما أشد وأقوى؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد نشأ فى بيئة منحرفة فى عقائدها وأخلاقها ، لم تطمئن نفسه الكريمة إليها إلا أنه كا نحائرا فى الوصول إلى الدين الحق ، فهداه الله - تعالى - إليه ، والهداية إلى الحق بعد الحيرة والضلال عنه ، منة عظمى ، ونعمة كبرى ، وهناك أقوال أخرى ضعيفة كقولهم : ( ضالا ) أى : عن القبلة فهداك الله. إليها ، أو ( ضالا ) فى شعاب مكة ، فهداك الله وردك إلى عمك أو ( ضالا ) فى سفرك مع عمك إلى الشام ، فردك الله - تعالى - إليه .

ووجدك عائلا فاغنى

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَوَجَدَكَ عَآئِلاً فأغنى ) بيان لنعمة ثالثة من نعمه - تعالى - على نبيه صلى الله عليه وسلم .وأصل العائل : الإنسان الذى له عائلة لا يستطيع الإنفاق عليها ، ثم أطلق هذا اللفظ على الإنسان الفقير حتى ولو لم تكن له عائلة أو أسرة ، والفقر يسمى عيلة ، كما فى قوله - تعالى - : ( وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً ) - أى : فقرا - فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ الله مِن فَضْلِهِ إِن شَآءَ . . . ) أى : وقد كنت ، أيها الرسول الكريم - فقيرا ، حيث مات أبوك دون أن يترك لك مالا كثيرا - ونشأت فى كنف جدك ثم عمك ، وأنت على هذه الحال ، ثم أغناك الله - تعالى ، بفضله وكرمه بنوعين من الغنى :أما أولهما - وهو الأعظم - : فهو غنى النفس بأن منحك نفسا عفيفة قانعة بما أعطاك - سبحانه - من رزق ، حتى ولو كان كفافا .وأما ثانيهما : فهو الغنى المادى عن الاحتياج إلى الناس ، بما أجراه على يديك من الربح فى التجارة ، وبما وهبتك زوجك خديجة من مالها ، فعشت مستور الحال ، غير محتاج إلى من ينفق عليك .وهكذا نجد الآيات الكريمة تبين لنا أن من فضل الله - تعالى - على نبيه صلى الله عليه وسلم أنه آواه فى يتمه وصغره ، وهداه من ضلاله وحيرته ، وأغناه بعد فقره وحاجته .

فاما اليتيم فلا تقهر

كما فسرها الوسيط وبعد أن عدد - سبحانه - هذه النعم لنبيه صلى الله عليه وسلم أمره بشكرها ، وأداء حقوقها .فقال - تعالى - : ( فَأَمَّا اليتيم فَلاَ تَقْهَرْ . . ) والقهر : التغلب على الغير والإذلال له .أى : إذا كان الأمر كما أخبرتك من أنك كنت يتيما فآويناك ، وكنت ضالا فهديناك ، وكنت فقيرا فأغنيناك ، فتذكر هذه النعم ، واشكر ربك عليها ، ومن مظاهر هذا الشكر

أن تواسى اليتيم ، وأن تكرمه . وأن تكون رفيقا به . . ولا تكن كأهل : الجاهلية الذين كانوا يقهرون الأيتام ويذلونهم ويظلمونهم . .ولقد استجاب النبى صلى الله عليه وسلم لما أمره ربه به ، فأكرم اليتامى ورعاهم ، وحض على ذلك فى أحاديث كثيرة منها قوله صلى الله عليه وسلم : " " أنا وكافل اليتيم كهاتين فى الجنة " وأشار صلى الله عليه وسلم . بأصبعيه السبابه والوسطى " . ومن الآيات القرآنية التى وردت فى هذا المعنى قوله - تعالى - : وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ اليتيم إِلاَّ بالتي هِيَ أَحْسَنُ حتى يَبْلُغَ ) أَشُدَّهُ . . . ) وقد تكرر الأمر برعاية اليتيم ، وبالمحافظة على ماله فى مطلع سورة النساء خمس مرات قال - تعالى - : ( وَآتُواْ اليتامى أَمْوَالَهُمْ . . . ) وقال - سبحانه - : ( وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي اليتامى فانكحوا مَا طَابَ لَكُمْ مِّنَ النسآء مثنى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ . . . ) وقال - عز وجل - : ( وابتلوا اليتامى حتى إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ . . . ) وقال سبحانه - : ( وَإِذَا حَضَرَ القسمة أُوْلُواْ القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ . . . )وقال - تعالى - : ( إِنَّ الذين يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ اليتامى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً . . . )

واما السائل فلا تنهر

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَأَمَّا السآئل فَلاَ تَنْهَرْ ) معطوف على ما قبله . أى : وكما أننا قد هديناك بعد حيرة . . فاشكر نعمنا على ذلك ، بأن تفتح صدرك للسائل الذى يسألك العون ، أو يسألك معرفة ما يجهله من علم . فالمراد بالسائل ، ما يشمل كل سائل عن مال ، أو عن علم ، أو عن غير ذلك من شئون الحياة .قال القرطبى : قوله : ( وَأَمَّا السآئل فَلاَ تَنْهَرْ ) أى :لا تزجره ، فهو نهى عن إغلاظ القول . . وروى عن رسول الله . . صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ردوا السائل ببذل يسير ، أو رد جميل : وفى حديث أبى هارون العبدى قال : كنا إذا أتينا أبا سعيد الخدرى يقول" مرحبا بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن رسول الله قال :" إن الناس لكم تبع ، وإن رجالا يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون ، فإذا أتوكم فاستوصوا " . . بهم خيرا

واما بنعمة ربك فحدث

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ) والتحديث بالشئ : الإخبار به ، والحديث عنه ، أى : وكما كنت عائلا فأغنيناك بفضلنا وإحساننا ، فاشكرنا على ذلك ، بأن تظهر نعمنا عليك ولا تسترها ، وأذعها بين الناس ، وأمر أتباعك أن يفعلوا ذلك ، ولكن بدون تفاخر أو مباهاة . . فإن ذكر النعم على سبيل الرياء والتفاخر والتطاول على الغير . . يبغضه الله - تعالى - ، ويعاقب صاحبه عقابا أليما .قال الإمام ابن كثير : وقوله : ( وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ) أى : وكما : كنت عائلا فقيرا فأغناك الله ، فحدث بنعمة الله عليك ، كما جاء فى الدعاء واجعلنا شاكرين لنعمتك ، مثنين بها ، قابليها ، وأتمها علينا " وعن أبى " نضرة قال : كان المسلمون يرون أن من شكر النعم أن يُحَدِّث بها . وعن النعمان بن بشير قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول على المنبر من لم يشكر القليل ، لم يشكر الكثير ، ومن لم يشكر الناس ، لم يشكر " : . الله والتحدث بنعمة الله شكر ، وتركها كفر ، والجامعة رحمة والفرقة عذاب فأنت ترى أن الله - تعالى - قد ذكر ثلاث نعم مما أنعم به على نبيه صلى" . الله عليه وسلم وأرشده إلى كيفية شكرها . نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا من عباده المشركين .وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الم نشرح لك صدرك

كما فسرها الوسيط الاستفهام فى قوله - سبحانه - : ( أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ) للتقرير لأنه إذا دخل على النفى قرره ، وهذا التقرير المقصود به التذكير ، حتى يداوم على شكره - تعالى - .وأصل الشرح : البسط للشئ وتوسعته ، يقال : شرح فلان الشئ ، إذا وسعه ، ومنه شرح فلان الكتاب ، إذا وضحه ، وأزال مجمله ، وبسط ما فيه من غموض .والمراد بشرح الصدر هنا : توسعته وفتحه لقبول كل ما هو من الفضائل والكمالات النفسية . وإذهاب كل ما يصد عن ، الإدراك السليم وعن الحق الخير والهدى .وهذا الشرح ، يشمل الشق البدنى لصدره صلى الله عليه وسلم كما يشمل الشرح المعنوى لصدره صلى الله عليه وسلم : عن طريق إيداعه الإيمان والهدى والعلم والفضائل .قال الإمام ابن كثير : قوله : ( أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ) يعنى : أما شرحنا لك صدرك . أى نورناه وجعلناه فسيحا رحيبا واسعا ، كقوله ( أَفَمَن شَرَحَ اللهِ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ . . . ) وقيل المراد بقوله : ( أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ

شرح صدره ليلة الإسراء ، كما تقدم من رواية مالك بن صعصعة . . وهذا وإن ( كان واقعا ، ولكن لا منافاة ، فإن من جملة شرح صدره صلى الله عليه وسلم . - الذى فعل بصدره ليلة الإسراء ، ما نشأ عنه من الشرح المعنوى - أيضا والمعنى : لقد شرحنا لك - أيها الرسول الكريم - صدرك شرحا عظيما ، بأن. أمرنا ملائكتنا بشقه وإخراج ما فيه مما يتنافى مع ما هيأناك له من حمل رسالتنا إلى الناس ، وبأن أودعنا فيه من الهدى والمعرفة والإيمان والفضائل والحكم . . ما لم نعطه لأحد سواك .ونون العظمة فى قوله - سبحانه - ( نشرح ) تدل على عظمة النعمة ، من جهة أن المنعم العظيم ، إنما يمنح العظيم من النعم ، وفى ذلك إشارة إلى أن نعمة الشرح ، مما لا تصل العقول إلى كنه جلالتها .واللام فى قوله - تعالى - : ( لك ) للتعليل ، وهو يفيد أن ما فعله الله - تعالى - به ، إنما هو من باب تكريمه ، ومن أجل تشريفه وتهيئته لحمل رسالته العظمى إلى خلقه ، فمنفعه هذا الشرح إنما تعود إليه وحده صلى الله عليه وسلم لا إلى غيره .قال الإمام الرازى : فإن قيل : لم ذكر الصدر ولم يذكر القلب؟ فالجواب أن محل الوسوسة هو الصدر ، كما قال - تعالى - : ( الذى يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ الناس ) فإزالة تلك الوسوسة ، وإبدالها بدواعى الخير ، هى الشرح ، فلا جرم خص ذلك الشرح بالصدر دون القلب .قال محمد بن على الترمذى : القلب محل العقل والمعرفة ، وهو الذى يقصده الشيطان ، فالشيطان يجئ إلى الصدر الذى هو حصن القلب ، فإذا وجد مسلكا أغار فيه ، وبث فيه الهموم ، فيضيق القلب ، ولا يجد للطاعة لذة ، وإذا طرد العدو فى الابتداء ، حصل الأمن ، وانشرح الصدر ..

ووضعنا عنك وزرك

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ . الذي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ) بيان لنعمة أخرى من النعم التى أنعم بها - سبحانه - على نبيه صلى الله عليه وسلم .والمراد بالوضع هنا : الإزالة والحط ، لأن هذا اللفظ إذا عدى بعن كان للحط والتخفيف ، وإذا عدى بعلى كان للحمل والتثقيل تقول : وضعت عن فلان قيده : إذا أزلته عنه ، ووضعته عليه : إذا حملته إياه. والوزر : الحِمْل الثقيل. .

الذي انقض ظهرك

كما فسرها الوسيط و ( أَنقَضَ ظَهْرَكَ ) أى : أثقله وأوهنه وأتعبه ، حتى سمع له نقيض ، وهو الصوت الخفى الذى يسمع من الرّحْل الكائن فوق ظهر البعير ، إذا كان هذا الرحل ثقيلا ، ولا يكاد البعير يحمله إلا بمشقة وعسر والمعنى : لقد شرحنا لك - أيها الرسول الكريم - صدرك ، وأزلنا عنك ما أثقل. ، ظهرك من أعباء الرسالة ، وعصمناك من الذنوب والآثام ، وطهرناك من الأدناس فصرت - بفضلنا وإحساننا - جديرا بحمل هذه الرسالة ، بتبليغها على أكمل وجه وأتمه .فالمراد بوضع وزره عنه صلى الله عليه وسلم مغفرة ذنوبه ، وإلى هذا المعنى أشار الإمام ابن كثير بقوله : قوله - تعالى - : ( وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ) بمعنى ( لِّيَغْفِرَ لَكَ الله مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ) وقال غير واحد من السلف فى قوله : ( الذي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ) أى : أثقلك حمله . .ويرى كثير من المفسرين أن المراد بوضع وزره عنه صلى الله عليه وسلم : إزالة العقبات التى وضعها المشركون فى طريق دعوته وإعانته على تبليغ الرسالة على أكمل وجه ، ورفع الحيرة التى كانت تعتريه ، قبل النبوة .قال بعض العلماء : وقد ذكر جمهرة المفسرين أن المراد بالوزر فى ، هذه الآية : الذنب ، ثم راحوا يتأولون الكلام ، ويتمحلون الأعذار ويختلفون فى جواز ارتكاب الأنبياء للمعاصى ، وكل هذا كلام ، ولا داعى إليه - ولا يلزم حمل الآية عليه .والمراد - والله سبحانه وتعالى أعلى وأعلم ، بالوزر : الحيرة التى اعترته صلى الله عليه وسلم قبل البعثة ، حين فكر فيما عليه قومه من عبادة الأوثان . وأيقن بثاقب فكره أن للكون خالقا هو الجدير بالعبادة ، ثم تحير فى الطريق الذى يسلكه لعبادة هذا الخالق ، وما زال كذلك ، حتى أوحى الله إليه بالرسالة فزالت حيرته . ولما دعا قومه إلى عبادة الله . . وقابلوا دعوته بالإعراض . . ثقل ذلك عليه ، وغاظه من قومه أن يكذبوه وكان ذلك حملا ثقيلا . . شق عليه القيام به .فليس الوزر الذى كان ينقض ظهره ذنبا من الذنوب . . ولكنه كان هما نفسيا يفوق ألمه ، ألم ذلك الثقل الحسى ، فلما هداه الله - تعالى - إلى إنقاذ أمته من أوهامها الفاسدة . . كان . . ذلك بمثابة رفع الحمل الثقيل ، الذى كان ينوء بحمله .لا جرم كانت هذه الآية واردة على سبيل التمثيل ، واقرأ إن شئت قوله - تعالى - :( وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِّنَ الساجدين . واعبد رَبّكَ حتى يَأْتِيَكَ اليقين ( ويبدو لنا أن هذا القول الثانى ، هو الأقرب إلى الصواب . لأن الكلام هنا ليس عن الذنوب التى ارتكبها النبى صلى الله عليه وسلم قبل البعثة - كما يرى بعض المفسرين - وإنما الكلام هنا عن النعم التى أنعم بها - سبحانه - عليه

والتى من مظاهرها توفيقه للقيام بأعباء الرسالة ، وبإقناع كثير من الناس بأنه على الحق ، واستجابتهم له صلى الله عليه وسلم .

ورفعنا لك ذكرك

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ) بيان لنعمة ثالثة من نعمه - تعالى - على نبيه صلى الله عليه وسلم . أى : لقد شرحنا لك - أيها الرسول الكريم - صدرك ، وأزلنا عن قلبك الحيرة التى كانت تعتريك قبل تبليغ الرسالة وبعد تبليغها ، بأن يسرنا لك كل صعب .وفوق ذلك ، فقد رفعنا كل ذكرك ، بأن جعنالك رفيع الشأن ، سامى المنزلة ، عظيم القدر ومن مظاهر ذلك : أننا جعلنا اسمك مقرونا باسمنا فى النطق بالشهادتين .وفى الأذان ، وفى الإقامة ، وفى التشهد ، وفى غير ذلك من العبادات ، وأننا فضلناك على جميع رسلنا ، بل على جميع الخلق على الإطلاق ، وأننا أعطيناك الشفاعة العظمى ، وجعلنا طاعتك من طاعتنا .قال الآلوسى : أخرج أبو يعلى ، وابن جرير . . عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أتانى جبريل فقال لى : أتدرى كيف رفعك ذكرك؟ قلت : الله - تعالى- أعلم . قال : " إذا ذُكِرتُ ذُكِرتَ معى " .

فان مع العسر يسرا

كما فسرها الوسيط ثم أضاف - سبحانه - إلى هذه النعم الجليلة ، ما يدخل السرور على قلبه صلى الله عليه وسلم وما يبعث الأمل فى نفسه وفى نفوس أصحابه ، بأن بين لهم سنة من سننه التى لا تتخلف فقال : ( فَإِنَّ مَعَ العسر يُسْراً ) .والفاء للإفصاح ، ومع بمعنى بَعْد ، وأل فى العسر لاستغراق أنواع العسر المعروفة للمخاطبين . من فقر ، وضعف ، وقلة فى الوسائل التى تؤدى إلى إدراك المطلوب . والجملة الثانية مؤكدة ومقررة للجملة الأولى . والتنكير فى قوله ( يسرا ) للتفخيم .والمعنى : إذا تقرر عندك ما أخبرناك به ، من شرح الصدر ، ووضع الوزر . ورفع الذكر . . فاعلم أنه ما من عسر إلا ويعقبه يسر ، وما من شدة إلا ويأتى بعدها الفرج ، وما من غم أو هم ، إلا وينكشف ، وتحل محله المسرة . . وما دام الأمر كذلك ، فتذرع أنت وأصحابك بالصبر ، واعتصموا بالتوكل على الله ، فإن العاقبة لكم .ففى هاتين الآيتين ما فيهما من تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم ولأتباعه ، ومن وعد صادق بأن كل صعب يلين ، وكل شديد يهون ، وكل عسير يتيسر . متى صبر الإنسان - الصبر الجميل ، وتسلح بالعزيمة القوية ، وبالإيمان العميق بقضاء الله تعالى - وقدره .وأكد - سبحانه - هاتين الآيتين ، لأن هذه القضية قد تكون موضع شك ، خصوصا بالنسبة لمن تكاثرت عليهم الهموم وألوان المتاعب ، فأراد الله - سبحانه - أن يؤكد للناس فى كل زمان ومكان ، أن اليسر يعقب العسر لا محالة ، والفرج يأتى بعد الضيق ، فعلى المؤمن أن يقابل المصائب بصبر جميل وبأمل كبير فى تيسير الله وفرجه ونصره .وقال - سبحانه - ( مَعَ العسر يُسْراً ) ولم يقل بعد العسر يسرا ، للإشعار بأن هذا اليسر ، ليس بعد العسر بزمن طويل ، وإنما هو سيأتى فى أعقابه بدون مهلة طويلة ، متى وطن الإنسان نفسه على الصبر والأمل فى فرج الله - تعالى - .وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهاتين الآيتين بعض الآثار ، منها ما رواه ابن أبى حاتم ، عن عائد بن شريح قال : سمعت أنس بن مالك يقول : " كان النبى صلى الله عليه وسلم جالسا وحياله حجر فقال : " لو جاء العسر فدخل فهذا الحجر ، لجاء اليسر حتى يدخل عليه فيخرجه " " .وعن الحسن قال : كانوا يقولون :لا يغلب عسر واحد يسرين اثنين .وعن قتادة : ذكر لنا أن الرسول صلى الله عليه وسلم بشر أصحابه فقال : " لن يغلب عسر يسرين " ومعنى هذا أن العسر مُعَرَّف فى الحالين ، فهو مفرد ، واليسر مُنَكَّر فمتعدد ، ولهذا قال : " لن يغلب عسر يسرين " فالعسر الأول عين الثانى ، واليسر تعدد . .وقال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف تعلق قوله : ( فَإِنَّ مَعَ العسر يُسْراً ) ، كأنه قال خولناك ما خولناك فلا تيأس من فضل الله ، فإن مع العسر الذى أنتم فيه يسرا .

ان مع العسر يسرا

كما فسرها الوسيط فإن قلت " إن مع " للصحبة ، فما معنى اصطحاب اليسر للعسر؟ ، قلت : أراد أن الله يصيبهم بيسر بعد العسر الذى كانوا فيه بزمان قريب فقرب اليسر المترقب حتى جعله كالمقارن للعسر ، زيادة فى التسلية ، وتقوية القلوب .فإن قلت : فما المراد باليسرين؟ قلت : يجوز أن يراد بهما ما تيسر لهم من الفتوح فى أيام النبى صلى الله عليه وسلم ، وما تيسر لهم فى أيام الخلفاء . . وأن يراد يسر الدنيا ويسر الآخرة .فإن قلت : فما معنى هذا التنكير؟ قلت التفخيم ، كأنه قال : إن مع العسر يسرا عظيما وأى يسر . .

فاذا فرغت فانصب

- كما فسرها الوسيط وبعد هذا التعديد لتلك النعم العظيمة ، أمر الله
: - تعالى - نبيه صلى الله عليه وسلم فى الاجتهاد فى العبادة فقال - تعالى
وأصل الفراغ خول الإناء. ( فَإِذَا فَرَغْتَ فانصب وإلى رَبِّكَ فارغب )
مما بداخله من طعام أو غيره ، والمراد به هنا الخلو من الأعمال التى تشغل
- الإنسان ، والنصب : التعب والاجتهاد فى تحصيل المطلوب .أى : فإذا فرغت
أيها الرسول الكريم - من عمل من الأعمال ، فاجتهد فى مزاولة عمل آخر من
الأعمال التى تقربك من الله - تعالى - ، كالصلاة ، والتهجد ، وقراءة القرآن
الكريم .واجعل رغبتك فى جميع أعمالك وعباداتك ، من أجل إرضاء ربك ، لا من
أجل شئ آخر ، فهو وحده القادر على إبلاغك ما تريد ، وتحقيق آمالك .فالمقصود
بهاتين الآيتين حثه صلى الله عليه وسلم وحث أتباعه فى شخصه على استدامة
العمل الصالح ، وعدم الانقطاع عنه ، مع إخلاص النية لله - تعالى - فإن
المواظبة على الأعمال الصالحة مع الإخلاص فيها ، تؤدى إلى السعادة التى ليس
بعدها سعادة .ولقد استجاب صلى الله عليه وسلم لهذا الإرشاد الحكيم ، " فقد
قام الليل حتى تورمت قدماه ، وعندما سئل مل كل هذه العبادة ، وقد غفر الله
لك ما تقدم من ذنبك؟ قال : " أفلا أكون عبدا شكورا " " .وسار أصحابه من
، بعده على هذا الهدىالقويم : فعمروا حياتهم بالباقيات الصالحات من الأعمال
، دون أن يكون للفراغ السيئ ، مكان فى حياتهم ، بل واصلوا الجهاد بالجهاد
وأعمال البر بمثلها .ومن أقوال عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - : إنى لأكره
" : لأحدكم أن يكون خاليا ، لا فى عمل دنيا ولا دين " .وفى رواية أنه قال
. " إنى لأنظر إلى الرجل فيعجبنى ، فإذا قيل : إنه لا عمل له سقط من عينى

والى ربك فارغب

- كما فسرها الوسيط وبعد هذا التعديد لتلك النعم العظيمة ، أمر الله
: - تعالى - نبيه صلى الله عليه وسلم فى الاجتهاد فى العبادة فقال - تعالى
وأصل الفراغ خول الإناء. ( فَإِذَا فَرَغْتَ فانصب وإلى رَبِّكَ فارغب )
مما بداخله من طعام أو غيره ، والمراد به هنا الخلو من الأعمال التى تشغل
- الإنسان ، والنصب : التعب والاجتهاد فى تحصيل المطلوب .أى : فإذا فرغت
أيها الرسول الكريم - من عمل من الأعمال ، فاجتهد فى مزاولة عمل آخر من
الأعمال التى تقربك من الله - تعالى - ، كالصلاة ، والتهجد ، وقراءة القرآن
الكريم .واجعل رغبتك فى جميع أعمالك وعباداتك ، من أجل إرضاء ربك ، لا من
أجل شئ آخر ، فهو وحده القادر على إبلاغك ما تريد ، وتحقيق آمالك .فالمقصود
بهاتين الآيتين حثه صلى الله عليه وسلم وحث أتباعه فى شخصه على استدامة
العمل الصالح ، وعدم الانقطاع عنه ، مع إخلاص النية لله - تعالى - فإن
المواظبة على الأعمال الصالحة مع الإخلاص فيها ، تؤدى إلى السعادة التى ليس
بعدها سعادة .ولقد استجاب صلى الله عليه وسلم لهذا الإرشاد الحكيم ، " فقد
قام الليل حتى تورمت قدماه ، وعندما سئل مل كل هذه العبادة ، وقد غفر الله
لك ما تقدم من ذنبك؟ قال : " أفلا أكون عبدا شكورا " " .وسار أصحابه من
، بعده على هذا الهدىالقويم : فعمروا حياتهم بالباقيات الصالحات من الأعمال
، دون أن يكون للفراغ السيئ ، مكان فى حياتهم ، بل واصلوا الجهاد بالجهاد
وأعمال البر بمثلها .ومن أقوال عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - : إنى لأكره
" : لأحدكم أن يكون خاليا ، لا فى عمل دنيا ولا دين " .وفى رواية أنه قال
" إنى لأنظر إلى الرجل فيعجبنى ، فإذا قيل : إنه لا عمل له سقط من عينى
نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا جميعا ممن يعمرون أوقاتهم بالأعمال الصالحة.
. والخالصة لوجهه الكريم .وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ،

والتين والزيتون

كما فسرها الوسيط إلا أن خلافهم فى المراد بقوله - تعالى - : ( والتين
) : والزيتون ) ، وقد ذكر الإمام القرطبى هذا الخلاف فقال ما ملخصه : قوله
والتين والزيتون ) : قال ابن عباس وغيره : هو تينكم الذى تأكلون ، وزيتونكم
الذى تعصرون منه الزيت . قال - تعالى - : ( وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ
سَيْنَآءَ تَنبُتُ بالدهن وَصِبْغٍ لِّلآكِلِينَ ) وهى شجرة الزيتون .وقال
أبو ذر : " أهدى للنبى صلى الله عليه وسلم سلة تين ، فقال : " كلوا " وأكل
منها . ثم قال : " لو قلت إن فاكهة نزلت من الجنة ، لقلت هذه . . " " .وعن
معاذ : أنه استاك بقضيب زيتون ، وقال : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول
نعم السواك الزيتون من الشجرة المباركة " .وقال الإمام ابن جرير بعد " :
أن ساق ملة من الأقوال من المقصود بالتين والزيتون : والصواب من القول فى
ذلك عندنا ، قول من قال : التين : هو التين الذى يؤكل . والزيتون : هو
الزيتون الذى يعصر منه الزيت ، لأن ذلك هو المعروف عند العرب ، ولا يعرف
جبل يسمى تينا ، ولا جبل يقال له زيتون . إلا أن يقول قائل : المراد من
الكلام القسم بمنابت التين ، ومنابت الزيتون ، فيكون ذلك مذهبا ، وإن لم

يكن على صحة ذلك أنه كذلك ، دلالة فى ظاهر التنزيل ..وما ذهب إليه الإمامان : ابن جرير والقرطبى ، من أن المراد بالتين والزيتون ، حقيقتهما هو الذى نميل إليه ، لأنه هو الظاهر من معنى اللفظ ، ولأنه ليس هناك من ، ضرورة تحمل على مخالفته ، ولله - تعالى - أن يقسم بما شاء من مخلوقاته فهو صاحب الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين .

وطور سينين

كما فسرها الوسيط اتفق المفسرون على أن المراد بطور سينين : الجبل الذى كلم الله - تعالى - عليه موسى - عليه السلام - وسينين ، وسيناء ، وسينا ، اسم للبقعة التى فيها هذا الجبل ، بإضافة " طور " إلى ما بعده ، من إضافة الموصوف إلى الصفة .قال الإمام الشوكانى : " وطور سينين " هو الجبل الذى كلم الله عليه موسى ، اسمه الطور . ومعنى سينين : المبارك الحسن . . وقال مجاهد : سينين كل جبل فيه شجر مثمر ، فهو سينين وسيناء . وقال الأخفش : طور ، جبل . وسينين شجر ، واحدته سينه ، ولم ينصرف سينين كما لم ينصرف سيناء : ، لأنه جعل اسما للبقعة .وأقسم - سبحانه - به ، لأنه من البقاع المباركة وأعظم بركة حلت به ووقعت فيه ، تكليم الله - تعالى - ، لنبيه موسى - عليه السلام - .

وهذا البلد الامين

كما فسرها الوسيط كما اتفقوا - أيضا - على أن المراد بالبلد الأمين : مكة المكرمة ، وسمى بالأمين لأن من دخله كان آمنا ، وقد حرمها - تعالى - على جميع خلقه ، وحرم شجرها وحيوانها ، وفى الحديث الصحيح ، أن النبى صلى الله عليه وسلم قال بعد فتحتها : " إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض فهى حرام إلى أن يقوم الساعة ، لم تحل لأحد قبلى ، ولن تحل لأحد بعدى ، ولم تحل ، لى إلا ساعة من نهار ، فلا يُعْضَد - أى : يقطع - شجرها - ولا ينفر صيدها . " . . ولا تحل لقطتها إلا لمنشد .

لقد خلقنا الانسان في احسن تقويم

كما فسرها الوسيط وجملة : ( لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان في أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ . . . ) وما عطف عليه جواب القسم .أى : وحق التين الذى هو أحسن الثمار ، صورة وطعما وفائدة ، وحق الزيتون الذى يكفى الناس حوائج طعامهم وإضاءتهم ، وحق هذا البلد الأمين ، وهو مكة المكرمة ، وحق طور سنين الذى كلم الله - تعالى - عليه نبيه موسى تكليما . . وحق هذه الأشياء . . لقد خلقنا الإنسان فى أعدل قامة ، وأجمل صورة ، وأحسن هيئة ، ومنحناه بعد ذلك ما لم نمنحه لغيره ، من بيان فصيح ، ومن عقل راجح ، ومن علم واسع ، ومن إرادة وقدرة على تحقيق ما يبتغيه فى هذه الحياة ، بإذننا ومشيئتنا والتقويم فى الأصل : تصيير الشئ على الصورة التى ينبغى أن يكون عليها فى. التعديل والتركيب . تقول : قومت الشئ تقويماً ، إذا جعلته على أحسن الوجوه التى ينبغى أن يكون عليها . . فى التعديل والتركيب . تقول : قومت الشئ تقويماً ، إذا جعلته على أحسن الوجوه التى ينبغى أن يكون عليها . . وهذا الحسن يشمل الظاهر والباطن للإنسان .والمراد بالإنسان هنا : جنسه . أى : . . لقد خلقنا - بقدرتنا وحكمتنا - جنس الإنسان فى أكمل صورة ، وأحكم عقل

ثم رددناه اسفل سافلين

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( ثُمّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ) معطفو على ما قبله وداخل فى حيز القسم . وضمير الغائب يعود إلى الإنسان .وحقيقة الرد : إرجاع الشئ إلى مكانه السابق ، والمراد به هنا تصيير الإنسان على حالة غير الحالة التى كان عليها ، وأسفل : أفعل تفضيل : أى : أشد سفالة مما كان يتوقع .وللمفسرين فى هذه الآية الكريمة اتجاهات ، : - منها : أن المراد بالرد هنا : الرد على الكبر والضعف ، كما قال - تعالى : الله الذي خَلَقَكُمْ مِّن ضَعْفٍ ثُمّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ ) قُوّةً ثُمّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ العليم القدير ) وعلى هذا الرأى يكون المردودين إلى أسفل سافلين ، أى : إلى أرذل العمر ، هم بعض أفراد جنس الإنسان ، لأنه من المشاهد أن بعض الناس هم الذين يعيشون تلك الفترة الطويلة من العمر ، كما قال - تعالى - : ( هُوَ الذي خَلَقَكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمّ لِتَبلغوا أَشُدّكُمْ ثُمّ لِتَكُونُواْ شُيُوخاً وَمِنكُمْ مّن يتوفى مِن قَبْلُ ولتبلغوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ) وقد رجح ابن جرير هذا الرأى فقال : " وأولى الأقوال فى ذلك عندى بالصحة ، وأشبهها بتأويل الآية ، قول

من قال معناه : ثم رددناه إلى أرذل العمر .إلى عمر الخرفى الذين ذهبت عقولهم من الهرم والكبر ، فهو فى أسفل من سفل فى إدبار العمر ، وذهاب العقل ومنها : أن المراد بالرد هنا : الرد إلى النار ، والمعنى : لقد خلنا . " . . الإنسان فى أحسن تقويم ، ثم رددناه إلى أقبح صورة ، وأخس هيئة . . حيث ألقينا به فى أسفل سافلين ، أى : فى النار ، بسبب استحبابه العمى على الهدى والكفر على الإيمان .وقد رجح هذا الرأى ابن كثير فقال : قوله : ( ثُمَّ ، رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ) أى : إلى النار . . أى : ثم بعد هذا الحسن والنضارة ، مصيره إلى النار ، إن لم يطع الله - تعالى - ويتبع الرسل . ولهذا قال : ( إِلاَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات . . . ) .

الا الذين امنوا وعملوا الصالحات فلهم اجر غير ممنون

. . . كما فسرها الوسيط ( إِلاَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات وعلى هذا الرأى - أيضا - ، يكون المردودون إلى " أسفل سافلين " أى : إلى( - النار ، هم بعض أفراد جنس الإنسان ، وهم الكفار ، والفاسقون عن أمره تعالى - .ومنها : أن المراد بالرد إلى أسفل سافلين هنا : الانحراف والارتداد عن الفطرة التى فطر الله - تعالى - الناس عليها ، بأن يعبد . . الإنسان مخلوقاً مثله ، ويترك عبادة خالقه ، ويطيع نفسه وشهواته وهواه ويترك طاعة ربه - عز وجل - .وقد فصل الأستاذ الإمام هذا المعنى فقال ما ملخصه : " أقسم - سبحانه - أنه قوم الإنسان أحسن تقويم ، وركبه أحسن تركيب ، وأكد - سبحانه - ذلك بالقسم ، لأن الناس بسبب غفلتهم عما كرمهم الله به ، صاروا كأنهم ظنوا أنفسهم كسائر أنواع العجماوات ، يفعلون كما تفعل ، لا يمنعهم حياء ولا تردهم حشمة . فانحطت بذلك نفوسهم عن مقامها ، الذى كان لها بمقتضى الفطرة . . فهذا قوله : ( ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ) أى : صيرناه أسفل من كثير من الحيوانات التى كانت أسفل منه ، لأن الحيوان ، المفترس - مثلاً - إنما يصدر فى عمله عن فطرته التى فطر عليها ، لم ينزل عن ، مقامه ، ولم ينحط عن منزلته فى الوجود .أما الإنسان فإنه بإهماله عقله وجهله بما ينبغى أن يعمله لتوفير سعادته وسعادة إخوانه ، ينقلب أرذل من سائر أنواع الحيوان ، ولطالما قلت : " إذا فسد الإنسان فلا تسل عما يصدر عنه من هذيان أو عدوان " .والذى يتأمل الرأى الثانى والثالث يرى أن بينهما تلازماً ، لأن الانحراف عن الفطرة السوية يؤدى إلى الدخول فى النار وبئس - القرار ، وهذان الرأيان أولى بالقبول ، لأن الاستثناء فى قوله - تعالى بعد ذلك : ( إِلاَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ) يؤيد ذلك ، إذ المعنى عليها : لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ، ثم رددناه إلى النار بسبب انحرافه عن الفطرة ، وإيثاره الغى ، على الرشد ، والكفر على الإيمان .إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وساروا على مقتضى فطرتهم ، فأخلصوا لله - تعالى - العبادة والطاعة . . فلهم أجر غير مقطوع عنهم أو غير ممنون به عليهم ، بل هم قد اكتسبوا هذا الأجر الدائم العظيم ، بسبب إيمانهم وعملهم الصالح .قال الآلوسى ما ملخصه : قوله ثم " هنا للتراخى الزمانى " ، ( ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ) : أو الرتبى ، والرد يجوز أن يكون بمعنى الجعل ، فينصب مفعولين أصلهما ، المبتدأ والخبر . فأسفل مفعول ثان ، والمعنى : ثم جعلناه من أهل النار ، الذين هم أقبح ، وأسفل من كل سافل . . ويجوز أن يكون الرد بمعناه المعروف . وأسفل منصوب بنزع الخافض .أى : رددناه إلى أسفل الأمكنة السافلة وهو جهنم وقوله : ( إِلاَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ) استثناء متصل من. ضمير " رددناه العائد على الإنسان ، فإنه فى معنى الجمع ، فالمؤمنون لا يردون أسفل سافلين يوم القيامة ، بل يزدادون بهجة إلى بهجتهم . وحسنا على . " . . حسنهم

فما يكذبك بعد بالدين

كما فسرها الوسيط و " ما " فى قوله - سبحانه - : ( فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بالدين ) اسم استفهام مبتدأ ، وخبره جملة " يكذبك " . والخطاب للإنسان الذين خلقه الله - تعالى - فى أحسن تقويم ، ففى الكلام التفات من الغيبة إلى الخطاب . والاستفهام للإنكار والتعجيب من هذا الإنسان والمعنى : فأى شئ يحملك - أيها الإنسان - على التكذيب بالدين وبالبعث. وبالجزاء ، بعد أن خلقناك فى أحسن تقويم ، وبعد أن أقمنا لك الأدلة على أن دين الإسلام هو الدين الحق ، وعلى أن رسولنا صادق فيما يبلغك عن ربه - عز : وجل -؟فالمقصود بقوله - تعالى - : ( يُكَذِّبُكَ ) : يجعلك مكذباً ، أى ، لا عذر لك فى التكذيب بالحق ، وقيل : الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم : وتكون " ما " بمعنى " مَنْ " ويكون الاستفهام بها عن ذوات المخاطبين ، أى فمن ذا الذى يكذبك - أيها الرسول الكريم - ويكذب بيوم الدين والجزاء ، بعد ، أن ظهرت الدلائل على صدقك . . ؟إن كل عاقل يجب عليه أن يصدقك ولا يكذبك . ولا يعرض عنك

اليس الله باحكم الحاكمين

كما فسرها الوسيط والاستفهام فى قوله - تعالى - : ( أَلَيْسَ الله بِأَحْكَمِ الحاكمين ) للتقرير : إذا الجملة الكريمة تحقيق لما ذكر من خلق الإنسان فى أحسن تقويم ، ثم رده إلى أسفل سافلين .فكأنه - تعالى - يقول : إن الذى فعل ذلك كله هو أحكم الحاكمين خلقاً وإيجاداً . وصنعاً وتدبيراً وقضاء وتقديراً ، فيجب على كل عاقل أن يخلص له العبادة والطاعة وأن يتبع رسوله صلى الله عليه وسلم فى كل ما جاء به من عند ربه - عز وجل - .وقد روى الإمام الترمذى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ": من قرأ منكم ( والتين والزيتون . . . ) ثم انتهى إلى قوله - تعالى - ( أَلَيْسَ الله بِأَحْكَمِ الحاكمين ) فليقل : بلى ، وأنا على ذلك من الشاهدين " .نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا جميعاً من عباده الصالحين .وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

اقرا باسم ربك الذي خلق

كما فسرها الوسيط وقد أجمع المحققون من العلماء ، على أن هذه الآيات الكريمة أول ما نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم من قرآن على الإطلاق ، فقد أخرج الشيخان وغيرهما عن عائشة قالت : أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحى ، الرؤيا الصالحة فى النوم . فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . ثم حبب إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء فيتحنث - أى : فيتعبد - فيه الليالى ذوات العدد ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لذلك ، حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء . فجاءه الملك فقال له : ( اقرأ ) قال : ما أنا بقارئ ، قال صلى الله عليه وسلم فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : ( اقرأ ) فقلت : ما أنا بقارئ ، فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : ( اقرأ ) فقلت : ما أنا بقارئ ، فأخذنى فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : ( اقرأ باسم رَبِّكَ الذي خَلَقَ . خَلَقَ الإنسان مِنْ عَلَقٍ . . ) .وما ورد من أحاديث تفيد أن أول سورة نزلت هى " سورة الفاتحة " فمحمول على أن أول سورة نزلت كاملة ، هى سورة الفاتحة .كذلك ما ورد من أحاديث فى أن أول ما نزل سورة المدثر محمول على أن أول ما نزل بعد فترة الوحى . أما صدر سورة العلق فكان نزوله قبل ذلك .قال الآلوسى - بعد أن ساق الأحاديث التى وردت فى ذلك - : " وبالجملة فالصحيح - كما قال بعض وهو الذى أختاره - أن صدر هذه السورة الكريمة ، هو أول ما نزل من القرآن على الإطلاق . وفى شرح مسلم : الصواب أن أول ما نزل " اقرأ " أى : مطلقاً ، وأول ما نزل بعد فترة الوحى " يأيها المدثر " ، وأما قول من قال من المفسرين ، أول ما نزل الفاتحة ، فبطلانه أظهر من أن يذكر " .والذى نرجحه ونميل إليه أن أول من قرآن على الإطلاق ، هو صدر هذه السورة لكريمة إلى قوله ( مَا لَمْ يَعْلَمْ ) لورود الأحاديث الصحيحة بذلك . أما بقيتها فكان نزوله متأخراً .قال الأستاذ الإمام " أما بقية السورة فهو متأخر النزول قطعاً ، وما فيه من ذكر أحوال المكذبين ، يدل على أنه إنما نزل بعد شيوع خبر البعثة ، وظهور أمر النبوة ، وتحرش قريش لإيذائه صلى الله عليه وسلم " .وقد افتتحت السورة الكريمة بطلب القراءة من النبى صلى الله عليه وسلم مع أنه كان أميا لتهيئة ذهنه لما سيلقى عليه صلى الله عليه وسلم من وحى . . فقال - سبحانه - : ( اقرأ باسم رَبِّكَ الذي خَلَقَ ) . أى : اقرأ - أيها الرسول الكريم - ما سنوحيه إليك من قرآن الكريم- ما سنوحيه إليك من قرآن كريم - ولتكن قراءتك ملتبسة باسم ربك ، وبقدرته وإرادته ، لا باسم غيره ، فهو - سبحانه - الذى خلق الأشياء جميعها ، والذى لا يعجزه أن يجعلك قارئاً ، بعد كونك لم تكن كذلك .وقال - سبحانه - ذاته بقوله : ( الذي خَلَقَ ) للتذكير بهذه النعمة ، لأن الخلق هو أعظم النعم ، وعليه تترتب جميعها .

خلق الانسان من علق

كما فسرها الوسيط وجملة ( خَلَقَ الإنسان مِنْ عَلَقٍ ) بدل من قوله ( الذي خَلَقَ ) بدل بعض من كل ، إذ خلق الإنسان بمثل جزءا من خلق المخلوقات التى لا يعلمها إلا الله .و " العلق " الدم الجامد ، وهو الطورالثانى من أطوار خلق الإنسان .وقيل : العلق : مجموعة من الخلايا التى نشأت بطريقة الانقسام عن البويضة الملقحة ، وسمى " علقا " لتعلقه بجدار الرحم .والمقصود من هذه الجملة الكريمة بيان مظهر من مظاهر قدرته - تعالى - فكأنه - سبحانه - يقول : إن من كان قادراً على أن يخلق من الدم الجامد إنسانا يسمع ويرى ويعقل : قادر - أيضاً - على أن يجعل منك - أيها الرسول الكريم - قارئا ، وإن لم تسبق لك القراءة .وخص - سبحانه - خلق الإنسان بالذكر ، لأنه أشرف المخلوقات ولأن فيه من بدائع الصنع والتدبير ما فيه .

اقرا وربك الاكرم

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - ( اقرأ وَرَبُّكَ الأكرم ) أى : امض لما أمرتك به من القراءة ، فإن ربك الذى أمرك بالقراءة هو الأكرم من كل كريم ، والأعظم من كل عظيم .قالوا : وإنما كرر - سبحانه - الأمر بالقراءة ، لأنه من الملكات التى لا ترسخ فى النفس إلا بالتكرار والإعادة مرة فمرة .وجملة ( وَرَبُّكَ الأكرم ) مستأنفة لقصد بيان أنه - تعالى - أكرم من كل من يلتمس منه العطاء ، وأنه - سبحانه - قادر على أن يمنح نبيه نعمة القراءة ، بعد أن كان يجهلها .

الذي علم بالقلم

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( الذى عَلَّمَ بالقلم ) أى : علم الإنسان الكتابة بالقلم ، ولم يكن له علم بها ، فاستطاع عن طريقها أن يتفاهم مع غيره ، وأن يضبط العلوم والمعارف ، وأن يعرف أخبار الماضين وأحوالهم ، وأن يتخاطب بها مع الذين بينه وبينهم المسافات الطويلة .ومفعولا " علّم " محذوفان ، دل عليهما قوله ( بالقلم ) أى : علم ناسا التكابة بالقلم .وتخصيص هذه الصفة بالذكر ، للإيماء إلى إزالة ما قد يخطر بباله - صلى الله عليه وسلم من تعذر الراءة بالنسبة له ، لجهله بالكتابة ، فكأنه تعالى - يقول له : إن من علم غيرك القراءة والكتابة بالقلم ، قادر على تعليمك القراءة وأنت لا تعرف الكتابة ، ليكون ذلك من معجزاتك الدالة على صدقك ، وكفاك بالعلم فى الأمة معجزة .

علم الانسان ما لم يعلم

كما فسرها الوسيط وجملة ( عَلَّمَ الإنسان مَا لَمْ يَعْلَمْ ) خبر عن قوله - تعالى - : ( وَرَبُّكَ الأكرم ) وما بينهما اعتراض ، ويصح أن تكون بدل اشتمال مما قبلها وهو قوله ( عَلَّمَ بالقلم ) أى : علم الإنسان بالقلم وبدونه ما لم يكن يعلمه من الأمور على اختلافها ، والمراد بالإنسان فى هذه الآيات جنسه .والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة ، يراها قد جمعت أصول الصفات الإلهية ، كالوجود ، والوحدانية ، والقدرة والعلم ، والكرم .قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآيات : فأول شئ من القرآن هذه الآيات الكريمات المباركات ، وهو أول رحمة رحم الله بها العباد ، وأول نعمة أنعم الله بها عليهم ، وفيها التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقه ، وأن من كرمه - تعالى - أن علم الإنسان ما لم يعلم ، فشرفه وكرمه بالعلم ، وهو القدر الذى امتاز به أبو البرية آدم على الملائكة . .وقال المرحوم الشيخ محمد عبده : ثم إنه لا يوجد بيان أبرع ولا دليل أقطع على فضل القراءة والكتابة والعلم بجميع أنواعه ، من افتتاح الله كتابه وابتدائه الوحى ، بهذه الآيات الباهرات ، فإن لم يهتد المسلمون بهذا الهدى ، ولم ينبههم النظر فيه إلى النهوض ، وإلى تمزيق تلك الحجب التى حجبت عن أبصارهم نور العلم . . وإن لم يسترشدوا بفاتحة هذا الكتاب المبين ، ولم يستضيئوا بهذا الضياء الساطع . . فلا أرشدهم الله . .

كلا ان الانسان ليطغى

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك الأسباب التى تحمل الإنسان على الطغيان فقال : ( كَلاَّ إِنَّ الإنسان لَيطغى . أن رَّآهُ استغنى ) .و " كلا " حرف ردع وزجر لمن تكبر وتمرد . . فهو زجر عما تضمنه ما بعدها ، لأن ما قبلها ليس فيه ما يوجب الزجر والردع ، ويصح أن تكون " كلا " هنا بمعنى حقا . وقوله : ( يطغى ) من الطغيان ، وهو تجاوز الحق فى التكبر والتمرد والضمير فى قوله ( رآه ) يعود على الإنسان الطاغى ، والجملة متعلقة بقوله بحذف لام التعليل ، والرؤية بمعنى العلم .والمعنى : حقا إن ( يطغى ) الإنسان ليتعاظم ويتكبر ويتمرد على الحق .والمراد بالإنسان هنا : جنسه؛ لأن من طبع الإنسان أن يطغى ، إذا ما كثرت النعم بين يديه ، إلا من عصمه الله - تعالى - منهذا الخُلُقِ الذميم ، بأن شكره - سبحانه - على نعمه ، واستعملها فى طاعته .

ان راه استغنى

- كما فسرها الوسيط لأنه رأى نفسه ذا غنى فى المال والجاه والعشيرة ، ورآها لغروره وبطره - ليست فى حاجة إلى غيره .والمراد بالإنسان هنا : جنسه؛ لأن من طبع الإنسان أن يطغى ، إذا ما كثرت النعم بين يديه ، إلا من عصمه الله - تعالى - منهذا الخُلُقِ الذميم ، بأن شكره - سبحانه - على نعمه ،

واستعملها فى طاعته .وقيل المراد بالإنسان هنا : أبو جهل ، وأن هذه الآيات وما بعدها حتى آخر السورة قد نزلت فى أبى جهل ، فقد أخرج البخارى عن ابن عباس قال : قال أبو جهل : لئن رأيت محمدا يصلى عند الكعبة ، لأطأن على عنقه . " فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فقال : " لئن فعل لأخذته الملائكة ، ونزول هذه الآيات فى شأن أبى جهل لا يمنع عموم حكمها ، ويدخل فى هذا الحكم دخولا أوليا أبو جهل ، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

ان الى ربك الرجعى

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( إِنَّ إلى رَبِّكَ الرجعى ) تهديد ووعيد لهذا الطاغى ، والرُّجْعَى : مصدر بمعنى الرجوع . تقول : رجع إليه - رجوعا ومرجعا ورجعى بمعنى واحد .والمعنى :لا تحزن - أيها الرسول الكريم مما تفوه به هذا الطاغى وأمثاله ، فإن إلى ربك وحده مرجعهم ، وسيشاهدون بأعينهم ما أعددناه لهم من عذاب مهين ، وسيعلمون حق العلم أن ما يتعاظمون به من مال ، لن يغنى عنهم من عذاب الله شيئا يوم القيامة .

ارايت الذي ينهى

كما فسرها الوسيط ثم عجّب - سبحانه - نبيه صلى الله عليه وسلم من حال هذا الشقى وأمثاله ، فقال : ( أَرَأَيْتَ الذي ينهى . عَبْداً إِذَا صلى ) . فالاستفهام فى قوله - تعالى - : ( أَرَأَيْتَ . . . ) للتعجيب من جهالة هذا الطاغى ، وانطماس بصيرته ، حيث نهى عن الخير ، وأمر بالشر ، والمراد بالعبد رسول الله صلى الله عليه وسلم وتنكيره للتفخيم والتعظيم .أى : أرأيت : ، وعلمت - أيها الرسول الكريم - حالا أعجب وأشنع من حال هذا الطاغى الأحمق الذى ينهاك عن إقامة العبادة لربك الذى خلقك وخلقه .

عبدا اذا صلى

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

ارايت ان كان على الهدى

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( أَرَأَيْتَ إِن كَانَ على الهدى . - أَوْ أَمَرَ بالتقوى ) خطاب آخر للنبى صلى الله عليه وسلم أى : أرأيت ، أيها الرسول الكريم - إن صار هذا الإنسان - الطاغى والكافر - على الهدى فاتبع الحق ، ودعا إلى البر والتقوى . . أما كان ذلك خيرا له من الإصرار على الكفر .

او امر بالتقوى

كما فسرها الوسيط ومن نهيه إياك عن الصلاة ، فجواب الشرط محذوف للعلم به فالمراد بالهدى : اهتداؤه إلى الصراط المستقيم ، والمراد بالتقوى : صيانة. نفسه عن كل ما يغضب الله - تعالى - ، وأمره غيره بذلك .

ارايت ان كذب وتولى

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وتولى . أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ الله يرى ) .أى : أرأيت - أيها الرسول الكريم - إن كذب هذا الكافر بما جئته به من عندنا ، وتولى وأعرض عما تدعوه إليه من إيمان وطاعة لله رب العالمين . أرأيت إن فعل ذلك ، أفلا أرشده عقله إلى أن خالق هذا الكون يراه ، وسيجازيه بما يستحقه من عذاب مهين؟فالمقصود من هذه الآيات الكريمة التى تكرر فيها لفظ " أرأيت " ثلاث مرات : تسلية النبى صلى الله عليه وسلم . وتعجيبه من حال هذا الإنسان الطاغى الشقى ، الذى أصر على كفره . وآثر الغى على الرشد . والشرك على الإيمان . . وتهديد هذا الكافر الطاغى بسوء المصير ، لأن الله - تعالى - مطلع على أعماله القبيحة . . وسيعاقبه العقاب الأكبر .

الم يعلم بان الله يرى

كما فسرها الوسيط قال صاحب الكشاف : فإن قلت : فأين جواب الشرط - أى فى قوله - تعالى - : ( أَرَأَيْتَ إِن كَانَ على الهدى ) ؟ قلت : هو محذوف تقديره : إن كان على الهدى ، ألم يعلم بأن الله يرى ، وإنما حذف لدلالة ذكره فى جواب الشرط الثانى .فإن قلت : فكيف صح أن يكون " ألم يعلم " جوابا للشرط؟ قلت : كما صح فى قولك : إن أكرمتك أتكرمنى؟ وإن أحسن إليك زيد هل

.. تحسن إليه؟

كلا لئن لم ينته لنسفعا بالناصية

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( كَلاَّ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعاً بالناصية ) ردع وزجر لهذا الكافر الطاغى الناهى عن الخير ، ولكل من يحاول أن يفعل فعله .والسفع : الجذب بشدة على سبيل الإذلال والإهانة ، تقول : سفعت بالشئ ، إذا جذبته جذبا شديدا بحيث لا يمكنه التفلت أو الهرب . . . وقيل : هو الاحتراق ، من قولهم : فلان سفعته النار ، إذا أحرقته وغيرت وجهه وجسده . والناصية : الشعر الذى يكون فى مقدمة الرأس أى : كلا ليس الأمر كما فعل هذا الإنسان الطاغى ، ولئن لم يقلع عما هو فيه من كفر وغرور ، لنقهرنه ، ولنذلنه ، ولنعذبنه عذابا شديدا فى الدنيا والآخرة .والتعبير بقوله - تعالى - : ( لَنَسْفَعاً بالناصية ) يشعر بالأخذ الشديد ، والإذلال المهين ، لأنه كان من المعروف عند العرب ، أنهم كانوا إذا أرادوا إذلال إنسان وعقابه ، سحبوه من شعر رأسه .والتعريف فى الناصية ، للعهد التقديرى . أى : بناصية ذلك الإنسان الطاغى ، الذى كذب وتولى ، ونهى عن إقامة الصلاة .

ناصية كاذبة خاطئة

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ) بدل من الناصية ، وجاز إبدال النكرة من المعرفة ، لأن النكرة قد وصفت ، فاستقلت بالفائدة .وخاطئة : اسم فاعل من خطئ فلان - كعلم - فهو خاطئ وهو الذى يأتى الذنب متعمدا ، ووصفت الناصية بأنها خاطئة مبالغة فى تعمد هذا الإنسان الارتكاب المنكر ، على حد قولهم : نهار صائم ، أى : صائم صاحبه ، ولأن الناصية هى مظهر الغرور والكبرياء .أى : لئن لم ينته هذا الفاجر المغرور عن كفره . . لنذلنه إذلالا شديدا . . ولنسحبنه إلى النار من ناصيته التى طالما كذبت بالحق ، وتعمدت ارتكاب المنكر . .

فليدع ناديه

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ) رد على غروره وتفاخره بعشيرته ، فقد جاء فى الحديث الشريف أن أبا جهل عندما نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن الصلاة ، نهره النبى صلى الله عليه وسلم وزجره وأغلظ له القول . . فقال أبو جهل : أتهددنى يا محمد وأنا أكثر هذا الوادى ناديا ، فأنزل الله - سبحانه - : ( فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ . سَنَدْعُ الزبانية ) .وأصل النادى : المكان الذى يجتمع فيه الناس للحديث ، ولا يسمى المكان بهذا الاسم إلا إذا كان معدا لهذا الغرض ، ومنه دار الندوة ، وهى دار كان أهل مكة يجتمعون فيها للتشاور فى مختلف أمورهم ، وسمى بذلك لأن الناس يَنْدُون إليه ، أى : يذهبون إليه ، أو ينتدون فيه ، أى : يجتمعون للحديث فيه . يقال : ندا القوم يَدْوا - من باب غزا - إذا اجتمعوا .والأمر فى قوله - تعالى - : ( فَلْيَدْعُ ) للتعجيز ، والكلام على حذف مضاف . أى : فليدع هذا الشقى المغرور أهله وعشيرته لإيذاء النبى صلى الله عليه وسلم ، ولمنعه من الصلاة ، إن قدروا على ذلك ، فنحن من جانبنا سندع الزبانية ، وهم الملائكة الغلاظ الموكلون بعقاب هذا المغرور وأمثاله .

سندع الزبانية

كما فسرها الوسيط ولفظ الزبانية فى كلام العرب : يطلق على رجال الشرطة الذين يزبنون الناس ، أى : يدفعونهم إلى ما يريدون دفعهم إليه بقوة وشدة ، وغلظة ، جمع زِبْنيّة ، وأصل اشتقاقه من الزَّبْنِ ، وهو الدفع الشديد ومنه قولهم : حرب زبون ، إذا اشتد الدفع والقتال فيها ، وناقة زبون إذا كانت تركل من يحلبها .والمقصود بهاتين الآيتين ، التهكم بهذا الإنسان المغرور ، والاستخفاف به وبكل من يستنجد به ، ووعيده بأنه إن استمر فى غروره ونهيه عن الصلاة فسيسلط الله - تعالى - عليه ملائكة غلاظا شدادا لا قبل له ولا لقومه بهم .

كلا لا تطعه واسجد واقترب

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( كَلاَّ لاَ تُطِعْهُ واسجد واقترب ) ردع آخر لهذا الكافر عن الغرور والبطر والطغيان ، وإبطال لدعواه أنه سيدع أهل نادية ، وتأكيد لعجزه عن منع الرسول صلى الله عليه وسلم عن الصلاة . أى : كلا ليس الأمر كما قال هذا المغرور من أن أهله وعشيرته سينصرونه ، وسيقفون إلى جانبه فى منعك أيها الرسول الكريم - من الصلاة ، فإنهم وغيرهم

أعجز نم أن يفعلوا ذلك ، وعليك - أيها الرسول الكريم - أن تمضى فى طريقك ، وأن تواظب على أداء الصلاة فى المكان الذى تختاره ، ولا تطع هذا الشقى ، فإنه جاهل مغرور ، واسجد لربك وتقرب إليه - تعالى - بالعبادة والطاعة وداوم على ذلك . فالمقصود بهذه الآية الكريمة ، حض النبى صلى الله عليه على ، المداومة على الصلاة فى الكعبة ، وعدم المبالاة بنهى الناهين عن ذلك فإنهم أحقر من أن يفعلوا شيئا . . نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا جميعا من عباده الصالحين . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

انا انزلناه في ليلة القدر

كما فسرها الوسيط الضمير المنصوب فى قوله - تعالى - ( أَنزَلْنَاهُ ) يعود إلى القرآن الكريم ، وفى الإتيان بهذا الضمير للقرآن ، مع أنه لم يجر له ذكر ، تنويه بشأنه ، وإيذان بشهره أمره . حتى إنه ليُسْتَغْنَى عن التصريح به ، لحضوره فى أذهان المسلمين .والمراد بإنزاله : ابتداء نزوله على النبى صلى الله عليه وسلم ، لأنه من المعروف أن القرآن الكريم ، قد نزل على النبى صلى الله عليه سولم منجما ، فى مدة ثلاث وعشرين سنة تقريبا .ويصح أن يكون ، المراد بأنزلناه ، أى : أنزلناه جملة من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا ثم نزل بعد ذلك منجما على النبى صلى الله عليه وسلم .قال الإمام ابن كثير قال ابن عباس وغيره : أنزل الله - تعالى - القرآن جملة واحدة من اللوح : المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا ، ثم نزل مفصلا بحسب الوقائع ، فى ثلاث وعشرين سنة ، على رسول الله صلى الله عليه وسلم .والقَدْر الذى أضيفت إليه الليلة ، بمعنى الشرف والعظمة ، مأخوذ من قولهم : لفلان قدر عند فلان أى : له منزلة رفيعة ، وشرف عظيم ، فسميت هذه الليلة بذلك ، لعظم قدرها ، ، وشرفها ، إذ هى الليلة التى نزل فيها قرآن ذو قدر ، بواسطة ملك ذى قدر على رسول ذى قدر ، لأجل إكرام أمه ذات قدر ، هذه الأمة يزداد قدرها وثوابها عند الله - تعالى - إذا ما أحيوا تلك الليلة بالعبادات والطاعات .

وما ادراك ما ليلة القدر

- كما فسرها الوسيط ويصح أن يكون المراد بالقدر هنا : التقدير ، لأن الله تعالى - يقدر فيها ما يشاء تقديره بعباده ، إلا أن القول الأول أظهر ، لأن قوله - سبحانه - بعد ذلك : ( وَمَآ أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ القدر ) يفيد التعظيم والتفخيم .أى : إنا ابتدأنا بقدرتنا وحكمتنا ، إنزال هذا القرآن العظيم ، على رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم فى ليلة القدر ، التى لها ما لها عندنا من قدر وشرف وعظم . . لأن للطاعات فيها قدرا كبيرا ، ثوابا جزيلا وليلة القدر هذه هى الليلة التى قال الله - تعالى - فى شأنها فى سورة الدخان : ( إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ . فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ . أَمْراً مِّنْ عِنْدِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ . رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ - هُوَ السميع العليم ) وهذه الليلة هى من ليالى شهر رمضان ، بدليل قوله تعالى - : ( شَهْرُ رَمَضَانَ الذي أُنْزِلَ فِيهِ القرآن هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الهدى والفرقان ) قال بعض العلماء : ومن تسديد ترتيب المصحف ، أن سورة القدر وضعت عقب سورة العلق ، مع أنها أقل عددَ آياتٍ من سورة البينة وسور بعدها ، وكأن ذلك إيماء إلى أن الضمير فى ( أنزلناه ) - يعود إلى القرآن ، الذى ابتدئ نزوله بسورة العلق .وقال صاحب الكشاف : عظم سبحانه - القرآن من ثلاثة أوجه : أحدها : أن أسند إنزاله إليه ، وجعله مختصا به دون غيره ، والثانى : أنه جاء بضميره دون اسمه الظاهر ، شهادة له بالنباهة والاستغناء عن التنبيه عليه ، والثالث : الرفع من مقدار الوقت الذى أنزل فيه .روى أنه جملة واحدة فى ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ، وأملاه جبريل على السفرة ثم كان ينزل به على رسول الله صلى الله عليه وسلم نجوما فى ثلاث وعشرين سنة .وعن الشعبى : المعنى أنا ابتدأنا إنزاله فى ليلة القدر . .وقوله - تعالى - : ( وَمَآ أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ القدر ) تنويه آخر بشرف هذه الليلة ، وتفخيم لشأنها ، حتى لكأن عظمتها أكبر من أن تحيط بها الكلمات والألفاظ .أى : وما الذى يدريك بمقدار عظمتها وعلو قدرها ، إن الذى يعلم مقدار شرفها هو الله - تعالى - علام الغيوب .

ليلة القدر خير من الف شهر

كما فسرها الوسيط ثم - بين - سبحانه - مظاهر فضلها فقال : ( لَيْلَةُ القدر خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ) أى : ليلة القدر أفضل من ألف شهر ، بسبب ما أنزل فيها من قرآن كريمٍ يهدى للتى هى أقوم . ويخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وبسبب أن العباد فيها أكثر ثوابا ، وأعظم فضلا من العبادة فى أشهر كثيرة ليس فيها ليلة القدر .والعمل القليل قد يفضل العمل الكثير ، باعتبار الزمان والمكان ، وإخلاص النية ، وحسن الأداء ، ولله - تعالى - أن يخص بعض

الأزمنة والأمكنة والأشخاص بفضائل متميزة .والتحديد بألف شهر يمكن أن يكون مقصودا . ويمكن أن يراد منه التكثير . وأن المراد أن أقل عدد تفضله هذه الليلة هو هذا العدد . فيكون المعنى : أن هذه الليلة تفضل الدهر كله .

تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل امر

كما فسرها الوسيط ثم ذكر - سبحانه - بعد ذلك مزية أخرى لهذه الليلة المباركة فقال : ( تَنَزَّلُ الملائكة والروح فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ) .أى : ومن مزايا وفضائل هذه الليلة أيضاً ، أن الملائكة - وعلى رأسهم الروح الأمين جبريل - ينزلون فيها أفواجا إلى الأرض بأمره - تعالى - وإذنه ، وهم جميعا إنما ينزلونمن أجل أمر من الأمور التى يريد إبلاغها إلى عباده ، وأصل " تنزل " تتنزل ، فحذفت إحدى التاءين تخفيفا ونزول الملائكة إلى الأرض ، من أجل نشر البركات التى تحفهم ، فنزولهم فى تلك الليلة يدل على شرفها ، وعلى رحمة الله - تعالى - بعباده .والروح : هو جبريل ، وذكره بخصوصه بعد ذكر الملائكة ، من باب ذكر الخاص بعد العام ) - لمزيد الفضل ، واختصاصه بأمور لا يشاركه فيها غيره .وقوله - سبحانه : بِإِذْنِ رَبِّهِم ) متعلق بقوله : ( تنزل ) ، والباء للسببية ، أى يتنزلون بسبب إذن ربهم لهم فى النزول .قال الجمل ما ملخصه . وقوله : ( مِّن كُلِّ أَمْرٍ ) يجوز فى " من " وجهان : أحدهما أنها بمعنى اللام ، وتتعلق بتنزل ، تنزل من أجل كل أمر قضى إلى العام القابل .والثانى : أنها بمعنى الباء ، أى : تنزل بكل أمر قضاه الله - تعالى - فيها من موت وحياة ورزق وليس المراد أن تقدير الله لا يحدث إلا فى تلك الليلة بل المراد إظهار تلك المقادير لملائكته .

سلام هي حتى مطلع الفجر

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( سَلاَمٌ هِيَ حتى مَطْلَعِ الفجر ) بيان لمزية ثالثة من مزايا هذه الليلة ، وقوله ( سَلاَمٌ ) مصدر بمعنى السلامة ، وهو خبر مقدم ، و ( هى ) مبتدأ مؤخر ، وإنما قدم الخبر تعجيلا للمسّرة ، وقد أخبر عن هذه الليلة بالمصدر على سبيل المبالغة ، أو على سبيل تأويل المصدر باسم الفاعل ، أو على تقدير مضاف . . والمراد بمطلع الفجر : طلوعه وبزوغه .أى : هذه الليلة يظلها ويشملها السلام المستمر ، والأمان الدائم ، لكل مؤمن يحييها فى طاعة الله - تعالى - إلى أن يطلع الفجر ، أو هى ذات سلامة حتى مطلع الفجر ، أو هى سالمة من كل أذى وسوء لكل مؤمن ومؤمنة حتى طلوع الفجر .هذا وقد أفاض العلماء فى الحديث عن فضائل ليلة القدر، وعن وقتها . وعن خصائصها . . وقد لخص الإمام القرطبى ذلك تلخيصا حسناً فقال : وهنا ثلاث مسائل :الأولى : فى تعيين ليلة القدر . . والذى عليه المعظم أنها ليلة سبع وعشرين . . والجمهور على أنها فى كل عام من رمضان . . وقيل : أخفاها - سبحانه - فى جميع شهر رمضان ، ليجتهدوا فى العمل والعبادة طمعا فى إدراكها .الثانية : فى علاماتها : ومنها أن تطلع الشمس فى صبيحتها بيضاء لاشعاع لها .الثالثة : فى فضائلها . . وحسبك قوله - تعالى - ( لَيْلَةُ القدر خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ) وقوله : ( تَنَزَّلُ الملائكة والروح فِيهَا ) وفى الصحيحين " من قام ليلة القدر إيماناً واحتسابا غفر الله له ما تقدم من ذنبه . . " .نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا من المنتفعين بهذه الليلة المباركة .وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

لم يكن الذين كفروا من اهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تاتيهم البينة

كما فسرها الوسيط " مِنْ " فى قوله - تعالى - ( مِنْ أَهْلِ الكتاب ) للبيان ، وقوله - سبحانه - ( مُنفَكِّينَ ) : للعلماء فى معنى هذا اللفظ أقوال متعددة ، منها : أنه اسم فاعل من انفك بمعنى انفصل ، يقال : فككت الشئ فانفك إذا افترق ما كان ملتحما منه .والبينة : الحجة الظاهرة التى يتميز بها الحق من الباطل ، وأصلها من البيان بمعنى الظهور والوضوح ، لأن بها تتضح الأمور ، أو من البينونة بمعنى الانفصال ، لأن بها ينفصل الحق عن الباطل بعد التباسهما .

رسول من الله يتلو صحفا مطهرة

، كما فسرها الوسيط والمراد بها هنا : رسول الله صلى الله عليه وسلم لقوله - تعالى - بعد ذلك : ( رَسُولٌ مِّنَ الله يَتْلُواْ صُحُفاً مُّطَهَّرَةً ) ، ولأنه صلى الله عليه وسلم كان فى ذاته برهانا على صحة ما ادعاه من النبوة ، لتحليه بكمال العقل وبمكارم الأخلاق ، ولإتيانه بالمعجزات التى تؤيد أنه صادق فيما يبلغه عن ربه .والمعنى : لم يكن الذين كفورا من أهل الكتاب ، وهم اليهود والنصارى ، ولم يكن - أيضاً - الذين

كذبوا الحق من المشركين ، ولم يكن الجميع بمفارقين وبمنفصلين عن كفرهم وشركهم ، ( حتى تَأْتِيَهُمُ البينة ) التى هى الرسول صلى الله عليه وسلم فلما أتتهم هذه البينة ، منهم من آمن ومنهم من استمر على كفره وشركه وضلاله وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : " كان الكفار من الفريقين ، أهل. الكتاب ، وعبدة الأصنام ، يقولون قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم :لا ننفك عما نحن عليه من ديننا ، ولا نتركه حتى يبعث النبى المكتوب فى التوراة والإنجيل ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم ، فحكى الله - تعالى - ما كانوا يقولونه ، ثم قال : ( وَمَا تَفَرَّقَ الذين أُوتُواْ الكتاب ) ، يعنى أنهم ، كانوا يَعِدُون باجتماع الكلمة ، والاتفاق على الحق ، إذا جاءهم الرسول ثم ما فرقهم عن الحق ، ولا أقرهم على الكفر ، إلا مجئ الرسول صلى الله عليه وسلم ، ونظيره فى الكلام أن يقول الفقير الفاسق لمن يعظه : لست بمنفك عما أنا فيه حتى يرزقنى الله - تعالى - الغنى ، فيرزقه الله الغنى فيزداد فسقا فيقول له واعظة : لم تكن منفكا عن الفسق حتى توسر ، وما غمست رأسك فى ، الفسق إلا بعد اليسار ، يذكره ما كان يقوله توبيخا وإلزاما .وانفكاك الشئ : من الشئ ، أن يزايله بعد التحامه به . كالعظم إذا انفك من مفصله .والمعنى ) أنهم متشبثون بدينهم لا يتركونه إلا عند مجئ البينة .ومنهم من يرى : أن مُنفَكِّينَ ) بمعنى متروكين لا بمعنى تاركين ، أى : لم يكونوا جميعا متروكين على ما هم عليه من الكفر والشرك ، حتى تأتيهم البينة ، على معنى : قوله - تعالى - : ( أَيَحْسَبُ الإنسان أَن يُتْرَكَ سُدًى ) أو المعنى لم يكن هؤلاء القوم منفكين من أمر الله - تعالى - وقدرته ونظره لهم ، حتى يبعث الله - تعالى - إليهم رسولا منذرا ، تقوم عليهم به الحجة ، ويتم على من آمن النعمة ، فكأنه - تعالى - قال : ما كانوا ليتركوا سدى ..وهناك أقوال - أخرى فى معنى الآية رأينا أن نضرب عنها صفحا لضعفها .وقد قدم الله تعالى - ذكر أهل الكتاب فى البيان ، لأن كفرهم أشنع وأقبح . إذ كانوا يقرأون الكتب ، ويعرفون أوصاف النبى صلى الله عليه وسلم فكانت قدرتهم على معرفة صدقه أكبر وأتم . وفى التعبير عنهم بأهل الكتاب دون اليهود والنصارى تسجيل للغفلة وسوء النية عليهم . حيث علموا الكتاب . وعرفوا عن طريقه أن ، هناك رسولا كريما قد أرسله الله - تعالى - لهدايتهم ، ومع ذلك كفروا به كما قال - تعالى - : ( فَلَمَّا جَآءَهُمْ مّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ الله عَلَى الكافرين ) وقوله - سبحانه - : ( رَسُولٌ مِّنَ الله يَتْلُواْ صُحُفاً مُّطَهَّرَةً ) بدل من " البيِّنَةِ " على سبيل المبالغة حيث جعل - سبحانه - الرسول نفس البيئة .أى : لم يفارقوا دينهم حتى جاءهم ، رسول كريم ، كائن من عند الله - تعالى - لكى يقرأ على مسامعهم صحفا من القرآن الكريم ، مطهرة ، أى : منزهة عن الشرك والكفر والباطل .

فيها كتب قيمة

كما فسرها الوسيط وهذه الصحف من صفاتها - أيضا - أنها ( فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ) أى : فيها سور آيات قرآنية مستقيمة لا عوج فيها ، بل هى ناطقة بالحق والخير والصدق والهداية ، وبأخبار الأنبياء السابقين وبأحوالهم مع أقوامهم .فقوله : ( قَيِّمَةٌ ) بمعنى مستقيمة لا عوج فيها ولا اضطراب ، من قولهم : قام فلان يقوم ، إذا استوى على قدميه فى استقامة .

وما تفرق الذين اوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءتهم البينة

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما كان عليه أهل الكتاب من جحودهم للحق ومن إنكارهم له مع علمهم به ، فقال - تعالى - ( وَمَا تَفَرَّقَ الذين ، أُوتُوا الكتاب إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ البينة ) . أى : أن ، الجاحدين والمعاندين والحاسدين لك - أيها الرسول الكريم - من أهل الكتاب ما تفرقوا فى أمره ، وما اختلفوا فى شأن نبوتك . . إلاّا من بعد أن جئتهم ، أنت بما يدل على صدقك ، دلالة لا يجحدها إلا جهول ، ولا ينكرها إلا حسود ولا يعرض عنها إلا من طغى وآثر الحياة الدنيا .فالآية الكريمة كلام مستأنف المقصود به تسليته صلى الله عليه وسلم عما أصابه من هؤلاء الجاحدين ، فكأنه - سبحانه - يقول له :لا تحزن - أيها الرسول الكريم - لإعراض من أعرض عن دعوتك من أهل الكتاب ، فإن إعراضهم لم يكن عن جهل ، وإنما عن عناد وجحود وحسد لك على ما آتاك الله من فضله .وإنما خص - سبحانه - هنا أهل ، الكتاب بالذكر ، مع أن الكلام فى أول السورة كان فيهم وفى المشركين للدلالة على شناعة حالهم ، وقبح فعالهم ، لأن الإعراض عن الحق ممن له كتاب أشد قبحا ونكرا ، ممن ليس له كتاب وهم المشركون .والاستثناء فى الآية ، مفرغ ، والمستثنى منه عموم الأوقات . والمعنى : لم يتفرق الجاحدون من الذين أوتوا الكتاب فى وقت من الأوقات ، إلا فى الوقت الكائن بعد مجئ البينة لهم ) - ومن الآيات القرآنية الكثيرة التى وردت فى هذا المعنى قوله - تعالى. ( وَمَا تفرقوا إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ العلم بَغْياً بَيْنَهُمْ.

وما امروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - ما كان يجب عليهم أن يفعلوه ، فقال
وَمَآ أمروا إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين حُنَفَآءَ
وَيُقِيمُواْ الصلاة وَيُؤْتُواْ الزكاة وَذَلِكَ دِينُ القيمة ) .والواو
فى قوله - تعالى - ( وَمَآ أمروا ) للحال ، فهذه الجملة حالية ، والمقصود
منها بيان أن هؤلاء الضالين ، قد بلغوا النهاية فى قبح الأفعال ، وفى فساد
العقول ، إذ أنهم تفرقوا واختلفوا وأعرضوا عن الهدى ، فى حال أنهم لم
يؤمروا إلا بما فيه صلاحهم .وقوله : ( حنفاء ) من الحَنف ، وهو الميل من
الدين الباطل إلى الدين الحق . كما أن الجنف هو الميل من الحق إلى الباطل
، أى : أن هؤلاء الكافرين من أهل الكتاب تفرقوا واختلفوا فى شأن الحق.
والحال ، أنهم لم يؤمروا إلا بعبادة الله - تعالى - وحده ، مخلصين له
الطاعة ، ومائلين عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق ، مؤمنين بجميع الرسل
بدون تفرقة بينهم ، إذ ملتهم جميعا وادحدة ، ولم يؤمروا - أيضا - إلا
بإقامة الصلاة فى أوقاتها بخشوع وإخلاص لله رب العالمين ، وبإيتاء الزكاة
التى تطهرهم وتزكيهم .( وذلك ) الذى أمرناهم به من إخلاص العبادة لنا ، ومن
أداء فرائضنا ( دِينُ القيمة ) . أى : دين الملة المستقيمة القيمة ، أو دين
الكتب القيمة .ولفظ " القيمة " بزنة فيعلة - من القوامة ، وهى غاية
الاستقامة ، وهذا اللفظ صفة لموصوف محذوف .

ان الذين كفروا من اهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها اولئك هم شر البرية

كما فسرها الوسيط ثم - بين - سبحانه - سوء عاقبة هؤلاء الجاحدين من أهل
الكتاب ومن المشركين فقال : ( إِنَّ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب
والمشركين فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَآ ) .أى : إن الذين أصروا
على كفرهم بعد أن تبين لهم ، من اليهود والنصارى ، ومن المشركين الذين هم
عبدة الأصنام . . مكانهم المهيأ لهم هو نار جهنم ، حالة كونهم خالدين فيها
خلودا أبديا ( أولئك ) الموصوفون بتلك الصفات الذميمة ( هُمْ شَرُّ البرية
أى : هم شر كل صنف من أصناف المخلوقات ، لإصرارهم على الكفر والإشراك (
مع علمهم بالحق .ولفظ " البرية " من البرَى وهو التراب ، لأنهم قد خلقوا فى
الأصل منه ، يقال : فلان برَاه الله - تعالى - يبرُوه بَرْواً . أى : خلقه
وقرأ نافع بالهمز ، من قولهم برأ الله - تعالى - الخلق يبرؤهم ، أى : خلقهم
وقدم سبحانه - أهل الكتاب فى المذمة ، لأن جنايتهم فى حق الرسول صلى الله.
عليه وسلم أشد ، إذا كانوا يستفتحون به على المشركين ويقولون لهم : إن نبيا
قد أظلنا زمانه ، وإننا عند مبعثه سنتبعه .. فلما بعث صلى الله عليه وسلم
كفروا به .وقد تضمنت هذه الآية الكريمة أمرين : الأول : أن هؤلاء الضالين
- خالدون فى النار ، والثانى : أنهم شر المخلوقات التى خلقها الله - تعالى
.

ان الذين امنوا وعملوا الصالحات اولئك هم خير البرية

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك حسن عاقبة المؤمنين فقال
إِنَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ) أى : وعملوا الأعمال الصالحات
أى : أولئك هم خير المخلوقات التى خلقها ( أولئك هُمْ خَيْرُ البرية )
. - الله - تعالى

جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ابدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه

كما فسرها الوسيط (جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِى
مِنْ تَحْتِهَا الأنهار خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَداً ) أى : خالدين فى تلك
الجنات خلودا أبديا .( رَّضِىَ الله عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ) أى : قبل
الله - تعالى - منهم أعمالهم ورضيها عنده ، وفرحوا هم ورضوا بما أعطاهم من
: خير عميم .فالمراد برضاء - تعالى - عنهم : قبوله لأعمالهم ، وبرضاهم عنه
فرحهم بما أعطاهم من فضله . ( ذلك ) أى : العطاء الجزيل ( لِمَنْ خَشِيَ
رَبَّهُ ) أى : كائن وثابت لمن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى .نسأل
الله - تعالى - أن يجعلنا جميعا من أصحاب الميمنة .وصلى الله على سيدنا
محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

اذا زلزلت الارض زلزالها

كما فسرها الوسيط قوله - تعالى - : ( زُلْزِلَتِ ) أى : حركت تحريكا شديدا

لا يعلم مقداره إلا الله - تعالى - ، إذ الزلزال : الحركة الشديدة مع الاضطراب ، وهو بفتح الزاى اسم لذلك ، وبكسرها مصدر بمعنى التحرك والاضطراب وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : ( إِذَا رُجَّتِ الأرض رَجّاً ) ويكون ، هذا الزلزال الشديد ، عندما يأذن الله - تعالى - بقيام الساعة ، ويبعث الناس للحساب .وافتتح - سبحانه - الكلام بظرف الزمان ( إذا ) ، لإفادة تحقق وقوع الشرط .وقوله : ( زِلْزَالَهَا ) مصدر مضاف لفاعله . أى : إذا زلزلت الأرض زلزالها الذى لا يماثله زلزال آخر فى شدته وعظمته وهوله ، كما قال - تعالى - : ( ياأيها الناس اتقوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ الساعة شَيْءٌ عَظِيمٌ ) .

واخرجت الارض اثقالها

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( وَأَخْرَجَتِ الأرض أَثْقَالَهَا ) بيان لأثر آخر من آثار ما يحدث فى هذا اليوم الهائل الشديد .والأثقال : جمع ( ثِقْل - بكسر فسكون - وهو المتاع الثقيل ، ومنه قوله - تعالى - : وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إلى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأنفس ) والمراد بها هنا : ما يكون فى جوف الأرض من أموات وكنوز وغير ذلك مما يكون فى باطنها . قال أبو عبيدة والأخفش : إذا كان الميت فى جوف الأرض فهو ثقل لها ، وإذا كان فوقها فهو ثقل عليها ، وإنما سمى الجن والإنس بالثقلين لأن الأرض تثقل بهم . . .

وقال الانسان ما لها

كما فسرها الوسيط والمراد بالإنسان فى قوله - سبحانه - : ( وَقَالَ الإنسان مَا لَهَا ) جنسه فيشمل المؤمن والكافر .وقوله ( ما لها ) مبتدأ وخبر ، والاستفهام : المقصود به التعجب مما حدث من أهوال .أى : وقال كل إنسان على سبيل الدهشة والحيرة ، أى : شئ حدث للأرض ، حتى جعلها تضطرب هذا الاضطراب الشديد .قال الجمل : وفى المراد بالإنسان هنا قولان : أحدهما : أنه اسم جنس يعم المؤمن والكافر ، وهذا يدل على قول من جعل الزلزلة من أشراط الساعة ، فيسأل بعضهم بعضا عن ذلك . والثانى : أنه الكافر خاصة ، وهذا يدل على قول من جعلها زلزلة القيامة ، لأن المؤمن عارف بها فلا يسأل عنها ، والكافر جاحد لها ، فإذا وقعت سأل عنها . .

يومئذ تحدث اخبارها

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ) جواب الشرط ، و " أخبارها " مفعول ثان لقوله : ( تُحَدِّثُ ) والمفعول الأول محذوف . أى : إذا زلزلت الأرض زلزالها ، وأخرجت الأرض أثقالها . وقال الإنسان ماذا حدث لها . . عندئذ تحدِّثُ الأرضُ الخلائقَ أخبارَها ، بأن تشهد للطائع بأنه كان كذلك ، وتشهد الفاسق بأنه كان كذلك .أخرج الإمام أحمد والترمذى والنسائى عن أبى هريرة قال : " قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ( يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ) ثم قال : " أتدرون ما أخبارها "؟ قالوا الله ورسوله أعلم . قال :" فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عُمِل على ظهرها ، بأن تقول : عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا . " " .والظاهر أن هذا التحديث من الأرض على سبيل الحقيقة ، فهذه أخبارها . بأن يخلق الله - تعالى - فيها حياة وإدراكا ، فتشهد بما عمل عليها من عمل صالح أو طالح ، كما تشهد على من فعل ذلك .وقيل : هذا مثل ضربه الله - تعالى - والمقصود منه أن كل إنسان فى هذا اليوم سيتبين جزاء عمله ، وما أعده الله - تعالى - له على ما قدم فى حياته الأولى ، ونظير ذلك أن تقول : إن هذه الدار لتحدثنا بأنها كانت مسكونة .قال بعض العلماء ما ملخصه : قوله يومئذ بدل من إذا . أى : فى ذلك ( يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ) : الوقت تحدثك الأرض أحاديثها ، وتحديث الأرض تمثيل - كما قال الطبرى وغيره - أى : أن حالها وما يقع فيها من الانقلاب ، وما لم يعهد من الخراب ، يعلم السائل ويفهمه الخبر ، وأن ما يراه لم يكن بسبب من الأسباب التى وضعها السنة الإلهية ، حال استقرار نظام الكون ، بل ذلك بسبب ( بِأَنَّ رَبَّكَ أوحى لَهَا )

بان ربك اوحى لها

كما فسرها الوسيط ( بِأَنّ رَبّكَ أوحى لَهَا )أى : أن ما يحدث للأرض يومئذ ، إنما هو بأمر إلهى خاص . بأن قال لها كونى كذلك فكانت كما قال لها - تعالى - : ( وأوحى رَبُّكَ إلى النحل ) لتضمينه معنى " قال " كما فى قوله - سبحانه - : ( فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائتيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَآ

، أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ) والمعنى : إن الأرض تحدث الناس عن أخبارها
وتبينها لهم ، وتشهد عليهم . . . بسبب أن ربك الذى خلقك فسواك فعدلك - أيها
. الإنسان - قد أمرها بذلك

يومئذ يصدر الناس اشتاتا ليروا اعمالهم

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أحوال الناس فى هذا اليوم فقال
( يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ الناس أَشْتَاتاً لِّيُرَوْاْ أَعْمَالَهُمْ ) :
والجملة الكريمة بدل من جملة " يومئذ تحدث أخبارها " ، وقوله ( يَصْدُرُ ).
فعل مضارع من الصدَر - بفتح الدال - على الرجوع عن الشرب ، يقال : صدرَ
: الناس عن الوِرْد ، إذا انصرفوا عنه . و ( أَشْتَاتاً ) جمع شتيت ، أى
- متفرق ، ومنه قولهم : شتت الله جمع الأعداء ، أى فرق أمرهم .وقوله
" تعالى - ( لِّيُرَوْاْ ) فعل مضارع مبنى للمجهول ، وماضيه المبنى للمعلوم
أراه " بمعنى أطلعه . أى : فى هذا اليوم الذى تتزلزل فيه الأرض زلزلة شديدة
يخرج الناس من قبورهم متجهين أشتاتا إلى موقف الحساب ، وكل واحد منهم . .
" مشغول بنفسه ، لكى يبصروا جزاء أعالهم ، التى عملوها فى دنياهم .وجاء فعل
ليروا " مبنيا للمجهول ، لأن المقصود رؤيتهم لأعمالهم ، وليس المقصود تعيين
. من يريهم إياها

فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره

كما فسرها الوسيط ثم فصل - سبحانه - ما يترتب على هذه الرؤية من جزاء فقال
فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ . وَمَن يَعْمَلْ ) :
مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ) و " المثقال " مفعال من الثقل ، ويطلق
، على الشئ القليل الذى يحتمل الوزن ، و " الذرة " تطلق على أصغر النمل
وعلى الغبار الدقيق الذى يتطاير من التراب عند النفخ فيه . والمقصود
: المبالغة فى الجزاء على الأعمال مهما بلغ صغرها ، وحقر وزنها . والفاء
للتفريع على ما تقدم . أى : فى هذا اليوم يخرج الناس من قبورهم متفرقين لا
يلوى أحد على أحد . متجهين إلى موقف الحساب ليطلعوا على جزاء أعاملهم
، الدنيوية . . فمن كان منهم قد عمل فى دنياه عملا صالحا رأى ثماره الطيبة
حتى ولو كان هذا العمل فى نهاية القلة ، ومن كان منهم قد عمل عملا سيئا فى
دنياه ، رأى ثماره السيئة ، حتى ولو كان هذا العمل - أيضا - فى أدنى درجات
القلة . فأنت ترى أن هاتين الآيتين قد جمعتا أسمى وأحكم ألوان الترغيب
والترهيب ، ولذا قال كعب الأحبار : لقد أنزل الله - تعالى - على نبيه محمد
صلى الله عليه وسلم آيتين ، أحصتا ما فى التوراة والإنجيل والزبور والصحف
ثم قرأ هاتين الآيتين . وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهاتين عددا ،
من الأحاديث ، منها : ما أخرجه الإمام أحمد . " أن صعصعة بن معاوية ، أتى
النبى صلى الله عليه وسلم فقرأ عليه هاتين الآيتين ، فقال : حسبى لا أبالى
أن لا أسمع غيرها " وفى صحيح البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال
- اتقوا النار ولو بشق تمرة ، ولو بكلمة طيبة " . وفى الصحيح - أيضاً " :
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن
. " تفرغ من دلوك فى إناء المستقى ، ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط
وكان صلى الله عليه وسلم يقول لعائشة : " يا عائشة ، استترى من النار ولو
بشق تمرة ، فإنها تسد من الجائع مسدها من الشبعان . يا عائشة . إياك
ومحقرات الذنوب ، فإن لها من الله - تعالى - طالبا " . ومن الآيات الكريمة
التى وردت فى معنى هاتين الآيتين قوله - تعالى - ( إِنَّ الله لاَ يَظْلِمُ
مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن
لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً ) وقوله - سبحانه - : ( وَنَضَعُ الموازين
القسط لِيَوْمِ القيامة فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ
( مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وكفى بِنَا حَاسِبِينَ
نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا جميعاً ممن يواظبون على فعل الخيرات . وصلى
. الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره

كما فسرها الوسيط ثم فصل - سبحانه - ما يترتب على هذه الرؤية من جزاء فقال
فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ .وَمَن يَعْمَلْ ) :
مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ )و " المثقال " مفعال من الثقل ، ويطلق
، على الشئ القليل الذى يحتمل الوزن ، و " الذرة " تطلق على أصغر النمل
وعلى الغبار الدقيق الذى يتطاير من التراب عند النفخ فيه . والمقصود
: المبالغة فى الجزاء على الأعمال مهما بلغ صغرها ، وحقر وزنها .والفاء
للتفريع على ما تقدم . أى : فى هذا اليوم يخرج الناس من قبورهم متفرقين لا
يلوى أحد على أحد . متجهين إلى موقف الحساب ليطلعوا على جزاء أعاملهم
، الدنيوية . . فمن كان منهم قد عمل فى دنياه عملا صالحا رأى ثماره الطيبة

حتى ولو كان هذا العمل فى نهاية القلة ، ومن كان منهم قد عمل عملا سيئا فى دنياه ، رأى ثماره السيئة ، حتى ولو كان هذا العمل - أيضا - فى أدنى درجات القلة .فأنت ترى أن هاتين الآيتين قد جمعتا أسمى وأحكم ألوان الترغيب والترهيب ، ولذا قال كعب الأحبار : لقد أنزل الله - تعلى - على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم آيتين ، أحصتا ما فى التوراة والإنجيل والزبور والصحف ثم قرأ هاتين الآيتين .وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهاتين عددا ، من الأحاديث ، منها : ما أخرجه الإمام أحمد . " أن صعصعة بن معاوية ، أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقرأ عليه هاتين الآيتين ، فقال : حسبى لا أبالى أن لا أسمع غيرها " وفى صحيح البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اتقوا النار ولو بشق تمرة ، ولو بكلمة طيبة " .وفى الصحيح - أيضاً - أن " : رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تفرغ من دلوك فى إناء المستقى ، ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط " .وكان صلى الله عليه وسلم يقول لعائشة : " يا عائشة ، استترى من النار ولو بشق تمرة ، فإنها تسد من الجائع مسدها من الشبعان . يا عائشة . إياك ومحقرات الذنوب ، فإن لها من الله - تعالى - طالبا " .ومن الآيات الكريمة التى وردت فى معنى هاتين الآيتين قوله - تعالى - ( إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً ) وقوله - سبحانه - : ( وَنَضَعُ الموازين القسط لِيَوْمِ القيامة فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وكفى بِنَا حَاسِبِينَ ) نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا جميعا ممن يواظبون على فعل الخيرات .وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

والعاديات ضبحا

كما فسرها الوسيط العاديات : جمع عادية ، اسم فاعل من العدو ، وهو المشى السريع ، وأصل الياء فى العاديات واو ، فلما وقعت متطرفة بعد كسرة قلبت ياء مثل الغازيات من الغزو .والضَّبْح : اضطراب النَّفَسِ المتردد فى الحنجرة ، دون أن يخرج من الفم ، والمراد به هنا : صوت أنفاس الخيل عند جريها بسرعة . وقيل : الضبح نوع من السير والعدو ، يقال : ضَبَحَتْ الخيل ، إذا عدَتْ بشدة " وهو مصدر منصوب بفعله المقدر ، أى : يضبحن ضبحا ، والجملة حال من العاديات " .

فالموريات قدحا

كما فسرها الوسيط والموريات : جمع مُورِيَة ، اسم فاعل من الإيراء ، وهو إخراج النار ، تقول : أَوْرَى فلان ، إذا أخرج النار بزند ونحوه .والقَدْح ضَرْب شىءٍ لكى يخرج من بينهما شرر النار .والمراد به هنا : النار التى تخرج من أثر احتكاك حوافر الخيل بالحجارة خلال عدوها بسرعة .

فالمغيرات صبحا

كما فسرها الوسيط و ( المغيرات) جمع مغيرة . وفعله أغار ، تقول : أغار فلان على فلان ، إذا باغته بفعل يؤذيه . و ( صبحا ) منصوب على الظرفية .

فاثرن به نقعا

" كما فسرها الوسيط وقوله : ( فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً ) أى : هيجن وأثرن النقع " أى : الغبار من شدة الجرى . تقول : أثرت الغبار أثيره ، إذا هيجته وحركته . والنون فى " أثرن " ضمير العاديات .

فوسطن به جمعا

كما فسرها الوسيط وقوله : ( فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً ) أى : فتوسطن فى ذلك الوقت جمعو الأعداء ، ففرقنها ، ومزقنها ، تقول : وسَطْتُ القومَ أسِطُهم وَسْطاً ، إذا صرت فى وسطهم .والمراد بالعاديات ، والموريات ، والمغيرات : خيل المجاهدين فى سبيل الله ، والكلام على حذف الموصوف . والمعنى : وحق الخيل التى يعتلى صهواتها المجاهدون من أجل إعلاء كلمة الله - تعالى - . والتى تجرى بهم فى ساحات القتال ، فيسمع صوت أنفاسها ، والتى تظهر شرر النار من أثر ضك حوافرها بالحجارة وما يشبهها والتى تغير على العدو فى وقت الصباح ، فتثير الغبار ، وتمزق جمعو الأعداء .وحق هذه الخيل الموصوفة بتلك الصفات . . ( إِنَّ الإنسان لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ) .وقد أقسم - سبحانه - بالخيل المستعملة للجهاد فى سبيله ، للتنبيه على فضلها ، وفضل ربطها ، ولما فيها من المنافع الدينية والدنيوية ، ولما يترتب على استعمالها فى تلك

الأغراض من أجر وغنيمة ، ومن ترويع لجموع المشركين ، وتمزيق لصفوفهم
وأسند - سبحانه - الإغارة إليها - مع أنها فى الحقيقة لراكبيها - ، لأن.
الخيول هى عدة الإغارة ، وهى على رأس الوسائل لبلوغ النصر على الأعداء
وقيل : المراد بالعاديات : الإبل ، إلا أن الأوصاف فى الآيات الكريمة من.
- الضج والإغارة . . تؤيد أن المراد بها الخيل .قال صاحب الكشاف : أقسم
سبحانه - بخيل الغزاة تعدو فتضبح . والضبح : صوت أنفاسها إذا عدون .فإن قلت
علام عطف " فأثرن "؟ قلت : على الفعل الذى وضع اسم الفاعل موضعه ، وهو :
قوله ( فالمغيرات صُبْحاً ) وذلك لصحة عطف الفعل على الاسم الذى يشبه الفعل
كاسم الفاعل - لأن المعنى : واللائى عدون ، فأورين ، فأغرن .فأثرن الغبار
. والتعبير بالفاء فى قوله - تعالى - : ( فَأَثَرْنَ ) ( فَوَسَطْنَ ).
وبالفعل الماضى ، للإشارة إلى أن إثارة الغبار ، وتمزيق صفوف الأعداء ، قد
. تحقق بسرعة ، وأن الظفر بالمطلوب قد تم على أحسن الوجوه

ان الانسان لربه لكنود

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( إِنَّ الإنسان لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ
- جواب القسم . والكنود : الجحود ، يقال : فلان كند النعمة - من باب دخل (
: إذا جحدها ولم يشكر الله عليها . وكند الحبل : أى قطعة ، وأصل الكنود ،
، الأرض التى لا تنبت شيئا ، فشبه بها الإنسان الذى يمنع الحق والخير
ويجحد ما عليه من حقوق وواجبات .أى : إن فى طبع الإنسان - إلا من عصمه
، الله - تعالى - الكنود لربه والكفران لنعمته ، والنسيان لمننه وإحسانه
والغفلة عن المواظبة على شكره - تعالى - ، والتضرع إليه - سبحانه - عند
الشدائد والضراء . . والتشاغل عن ذلك عند العافية والرخاء .فالمراد
بالإنسان هنا : جنسه ، إذ أن هذه الصفة غالبة على طبع الإنسان بنسب
متفاوتة ، ولا يسلم منها إلا من عصمه الله - تعالى - .وقيل : المراد
بالإنسان هنا : الكافر ، وأن المقصود به ، الوليد بن المغيرة .والأولى أن
. يكون المراد به الجنس ، ويدخل فيه الكافر دخولا أوليا

وانه على ذلك لشهيد

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( وَإِنَّهُ على ذَلِكَ لَشَهِيدٌ ) أى
وإن الإنسان على كنوده وجحوده لنعم ربه " لشهيد " أى : لشاهد على نفسه :
بذلك ، لظهور أثر هذه الصفة عليه ظهروا واضحا ، إذ هو عند لجاجه فى الطغيان
يجحد الجلى من النعم ، ويعبد من دون خالقه أصناما ، مع أنه إذا سئل عن
) : - خالقه اعترف وأقر بأن خالقه هو الله - تعالى - ، كما قال - سبحانه
وَلَئِن سَأَلْتَهُم مّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنّ الله ) قال الإمام
الشيخ محمد عبده : قوله : ( وَإِنّهُ على ذَلِكَ لَشَهِيدٌ ) أى : وإن
الإنسان لشهيد على كنوده ، وكفره لنعمة ربه ، لأنه يفخلر بالقسوة على من
دونه ، وبقوة الحيلة على من فوقه ، وبكثرة ما فى يده من المال مع الحذق فى
تحصيله ، وقلما يفتخر بالمرحمة ، وبكثرة البذل - اللهم إلا أن يريد غشا
للسامع - وفى ذلك كله شهادة على نفسه بالكنود ، لأن ما يفتخر به ليس من حق
- شكر النعمة ، بل من آيات كفرها .ومنهم من يرى أن الضمير فى قوله - تعالى
هنا ( وأنه ) يعود على الخالق - سبحانه - أى : وإن الله - تعالى - لعليهم
ولشهيد على ما يسلكه هذا الإنسان من جحود ، فيكون المقصود من الآية
الكريمة ، التهديد والوعيد .قالوا : والأول أولى ، لأنه هو الذى يتسق مع
. سياق الآيات ، ومع اتحاد الضمائر فيها

وانه لحب الخير لشديد

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( وَإِنّهُ لِحُبِّ الخير لَشَدِيدٌ )
أى : وإن هذا الإنسان لشديد الحب لجمع المال ، ولكسبه من مختلف الوجوه
بدون تفرقة - فى كثير من الأحيان - بين الحلال والحرام ، ولكنزه والتكثر
منه ، وبالبخل به على من يستحقه .وصدق الله إذ يقول :( قُل لّوْ أَنْتُمْ
تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبّي إِذاً لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ
( الإنفاق وَكَانَ الإنسان قَتُوراً .

افلا يعلم اذا بعثر ما في القبور

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( أَفَلاَ يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا
فِي القبور . وَحُصِّلَ مَا فِي الصدور . إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ
لّخَبِيرٌ ) تهديد لهذا الإنسان الكنود . . وتحريض له على التفكر
والاعتبار ، وتذكير له بأهوال يوم القيامة .أى : أيفعل ما يفعل هذا
. الإنسان الجحود لنعم ربه . . فلا يعلم مآله وعاقبته ( إِذَا بُعْثِرَ )
أى : إذا أثير وأخرج وقلب رأسا على عقب ( مَا فِي القبور ) من أموات حيث

- أعاد - سبحانه - إليهم الحياة ، وبعثهم للحساب والجزاء ، كما قال - تعالى
أى : أثيرت وأخرج ما فيها . يقال : بعثر ( وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ) :
. فلان متاعه ، إذا جعل أسفله أعلاه

وحصل ما في الصدور

كما فسرها الوسيط ( وَحُصِّلَ مَا فِي الصدور ) أى : وجمع ما فى القلوب من
خير وشر وأظهر ما كانت تخفيه ، وأبرز ما كان مستورا فيها ، بحيث لا يبقى
، لها سبيل إلى الإخفاء أو الكتمان .وأصل التحصيل : إخراج اللب من القشر
. والمراد به هنا : إظهار وإبراز ما كانت تخفيه الصدور ، والمجازاة على ذلك
ومفعول ( يعلم ) محذوف ، لتذهب النفس فيه كل مذهب ويجول الفكر فى استحضاره
. وتقديره

ان ربهم بهم يومئذ لخبير

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ
لَّخَبِيرٌ ) جملة مستأنفة لزيادة التهديد ووالوعيد .أى : إن رب المبعوثين
للحساب والجزاء ، ليعلم علما تاماً بأحوالهم الظاهرة والباطنة ، فى ذلك
- اليوم الهائل الشديد الذى يبعث فيه الناس من قبورهم ، وسيجازى - سبحانه
- الذين أساؤوا بما عملوا ، وسيجازى الذين أحسنوا بالحسنى .نسأل الله
تعالى - أن يجعلنا من أهل طاعته ومثوبته .وصلى الله على سيدنا محمد وعلى
. آله وصحبه وسلم

القارعة

كما فسرها الوسيط لفظ " القارعة " اسم فاعل من القرع ، وهو الضرب بشدة بحيث
، يحصل منه صوت شديد .والمراد بها هنا : القيامة ، ومبدؤها النفخة الأولى
ونهايتها : قضاء الله - تعالى - بين خلقه ، بحكمه العادل ، وجزائه لكل فريق
، بما يستحقه من جنة أو نار .وسميت القيامة بذلك . كما سميت بالطامة
، والصاخة ، والحاقة ، والغاشية . . إلخ - لأنها قترع القلوب بأهوالها
وتجعل الأجرام العلوية والسفلية يصطك بعضها ببعض ، فيحصل لها ما يحصل من
تزلزل واضطراب وتقرع أعداء الله - تعالى - بالخزى والعذاب والنكال ، كما
قال - تعالى - : ( وَلاَ يَزَالُ الذين كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا
صَنَعُواْ قَارِعَةٌ ) والاستفهام فى قوله - سبحانه - : ( وَمَآ أَدْرَاكَ
، مَا القارعة ) استفهام عن حقيقتها ، والمقصود به التهويل من أمرها
والتفظيع من حالها ، وتنبيه النفوس إلى ما يكون فيها من شدائد ، تفزع لها
. القلوب فزعا لا تحيط العبارة بتصويره ، ولا تستطيع العقول أن تدرك كنهه

ما القارعة

" كما فسرها الوسيط و " القارعة " : مبتدأ ، و " ما " : مبتدأ ثان ، و
القارعة " : خبر المبتدأ الثانى ، وجملة المبتدأ الثانى وخبره فى محل رفع
. خبر المبتدأ الأول

وما ادراك ما القارعة

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَمَآ أَدْرَاكَ مَا القارعة )
معطوف على جملة " ما القارعة " والخطاب فى قوله ( وَمَآ أَدْرَاكَ ) لكل من
يصلح له .أى : وما أدراك - أيها المخاطب - ما كنهها فى الشدة؟ إنها فى
الشدة والهول شئ عظيم .لا يعلم مقدارها إلا الله - تعالى - .فالمقصود من
الآيات الكريمة : تعظيم شأنها ، والتعجيب من حالها ، وأنها تختلف عن قوارع
. الدنيا - مهما بلغ عظمها - اختلافا كبيرا

يوم يكون الناس كالفراش المبثوث

. . كما فسرها الوسيط وبعد أن بين - سبحانه - أن معرفة حقيقتها أمر عسير
أتبع ذلك ببيان أحوال الناس وقت وقوعها فقال : ( يَوْمَ يَكُونُ الناس
كالفراش المبثوث ) .و " يوم " منصوب بفعل مقدر . والفراش : هو الحشرة التى
: تتهافت نحو النار ، وسمى بذلك لأنه يتفرش وينتشر من حولها .والمبثوث
) : - المنتشر المتفرق . تقول : بثثت الشئ ، إذا فرقته ، ومنه قوله - تعالى
وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ) أى : متناثرة متفرقة .أى : تحصل القارعة يوم
يكون الناس فى انتشارهم وكثرتهم واضطرابهم وإقبالهم نحو الداعى لهم نحو أرض
- المحشر . . كالحشرات الصغيرة المتهافتة نحو النار .فأنت ترى أنه - سبحانه
، قد شبه الناس فى هذا الوقت العصيب ، بالفراش المتفرق المنتشر فى كل اتجاه

وذلك لأن الناس فى هذا اليوم يكونون فى فزع ، يجعل كل واحد منهم مشغولا بنفسه ، وفى حالة شديدة من الخوف والاضطراب .

وتكون الجبال كالعهن المنفوش

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( وَتَكُونُ الجبال كالعهن المنفوش ) بيان لحالة أخرى من الأحوال التى يكون عليها هذا الكون يوم القيامة .والعهن الصوف ذو الألوان المتعددة ، والمنفوش : المفرق بعضه عن بعض .أى : وتكون الجبال فى ذلك اليوم ، كالصوف الذى ينفش ويفرق باليد ونحوها . لخفته وتناثر أجزائه ، حتى يسهل غزله .والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة ، يراها قد اشتملت على أقوا الأساليب وأبلغها ، فى التحذير من أهوال يوم القيامة ، وفى الحض ، على الاستعداد له بالإيمان والعمل الصالح .لأنها قد ابتدأت بلفظ القارعة المؤذن بأمر عظيم ، ثم ثنت بالاستفهام المستعمل فى التهويل ، ثم أعادت اللفظ بذاته بدون إضمار له زيادة فى تعظيم أمره ، ثم جعلت الخطاب لكل من يصلح له ، ثم شبهت الناس فى تشبيها تقشعر منه الجلود ، ثم وصفت الجبال - وهى المعروفة بصلابتها ورسوخها - بأنها ستكون فى هذا اليوم كالصوف المتناثر الممزق .

فاما من ثقلت موازينه

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - أحوال السعداء والأشقياء فى هذا اليوم فقال : ( فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ . فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ) .أى : فأما من ثقلت موازين حسناته ، ورجحت أعماله الصالحة على غيرها .

فهو في عيشة راضية

، كما فسرها الوسيط فهو فى عيشة مرضية . أو فى عيشة ذات رضا من صاحبها لأنها عيشة هنية كريمة .

واما من خفت موازينه

كما فسرها الوسيط ( وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ) أى : خفت موازين حسناته ، وثقلت موازين سيئاته ، ( فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ) أى : فمرجعه ومأواه الذى يأوى إليه ، نار سحيقة يهوى إليها بدون رحمة أو شفقة ، بسبب كفره وفسوقه .فالمراد بالأم هنا : المرجع والمأوى ، وبالهاوية : النار التى يسقط فيها ، وسميت النار بذلك . لشدة عمقها . وسمى المأوى أمًّا ، لأن الإنسان يأوى إليه كما يأوى ويلجأ إلى أمه .ويرى بعضهم أن المراد بأمه هنا الحقيقة ، لأن العرب يكنون عن حال المرء بحال أمه فى الخير وفى الشر ، لشدة محبتها له .

فامه هاوية

كما فسرها الوسيط قال صاحب الكشاف : قوله : ( فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ) من قولهم إذا دعوا على الرجل بالهلكة ، هوت أمه ، لأنه إذا هوى - أى سقط وهلك فقد هوت أمه ثكلا وحزنا . . فكأنه قيل : وأما من خفت موازينه فقد هلك . . وقيل : " هاوية " من أسماء النار ، وكأنها النار العميقة لهوى أهل النار. فيها مهوى بعيدا ، كما روى : " يهوى فيها سبعين خريفا " أى : فمأواه النار وقيل للمأوى : أم ، على التشبيه ، لأن الأم مأوى الولد ومفزعه . .وقال بعض العلماء : واعلم أنه يجب علينا أن نؤمن بما ذكره الله - تعالى - من الميزان فى هذه الآية وما يشبهها ، وليس علينا أن نبحث فيما وراء ذلك مما لم يثبت عن الله - تعالى - ورسوله صلى الله عليه وسلم ونكل ما وراء ذلك إلى علام الغيوب ، على أن وزن الأعمال ، أو وزن صحائفها أو وزن الصور الجميلة ، كل ذلك أمر ممكن ، لا يترتب على فرض وقوعه محالن فوقوع شئ من ذلك ، لا يعجز الله - تعالى - ولا يقف أمام قدرته الغالبة .

وما ادراك ما هيه

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ، بما يزيد من هول هذه الهاوية فقال : ( وَمَآ أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ . نَارٌ حَامِيَةٌ )أى : وأى - شئ يخبرك بكنه تلك النار السحيقة؟ إننا نحن الذين نخبرك بذلك فنقول لك أيها المخاطب - على سبيل التحذير من العمل الذى يؤدى إليها .

نار حامية

- كما فسرها الوسيط إنها نار قد بلغت النهاية فى حرارتها .نسأل الله تعالى
. أن يعيذنا جميعا منها .وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الهاكم التكاثر

كما فسرها الوسيط قوله - سبحانه - : ( أَلْهَاكُمُ ) من اللهو وهو الغفلة
عن مواطن الخير ، والانشغال عما هو نافع .والتكاثر : التبارى والتباهى
- بالكثرة فى شئ مرغوب فيه كالمال والجاه . .أى : شغلكم - أيها الناس
التباهى والتفاخر بكثرة الأموال والأولاد والعشيرة ، كما ألهاكم حب الدنيا
. . عن القيام بما كلفناكم به

حتى زرتم المقابر

كما فسرها الوسيط ( حتى زُرْتُمُ المقابر ) أى : بقيتم على هذه الحال ، حتى
أتاكم الموت ، ودفنتم فى قبوركم ، وانصرف عنكم أحب الناس إليكم ، وبقيتم
وحدكم .والخطاب عام لكل عاقل ، ويدخل فيه المشركون والفاسقون ، الذين آثروا
، الدنيا على الآخرة دخولا أوليا .فالمراد بزيارة المقابر : انتهاء الآجال
والدفن فى القبور بعد الموت . وعبر - سبحانه - عن ذلك بالزيارة . لأن الميت
، يأتى إلى القبر كالزائر له ، ثم بعد ذلك يخرج منه يوم البعث والنشور
- للحساب والجزاء ، فوجوده فى القبر إنما هو وجود مؤقت بوقت يعلمه الله
، تعالى - .وقد روى أن أعرابيا عندما سمع هذه الآية قال : بعثوا ورب الكعبة
فقيل له كيف ذلك؟ فقال : لأن الزائر لابد أن يرتحل .وقد نهى النبى صلى الله
عليه وسلم عن التهالك على حطام الدنيا ، فى أحاديث كثيرة منها ما رواه مسلم
فى صحيحه عن عبد الله بن الشّخّير قال : انتهيت إلى رسول الله صلى الله
عليه وسلم وهو يقول : " ألهاكم التكاثر قال : يقول ابن آدم مالى مالى ، وهل
لك من مالك يابن آدم ، أدم إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت ، أو تصدقت
. " فأمضيت

كلا سوف تعلمون

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ . ثُمَّ
كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ) ردع وزجر عن الانشغال عن طاعة الله ، وعن
، التكاثر بالأموال والأولاد .وكرر لفظ " كلا " ثلاث مرات فى هذه السورة
لتأكيد هذا الزجر والردع عن كل ما يشغل الإنسان عن وجوه الخير والبر
والتبعير بقوله : ( سَوْفَ ) لزيادة الزجر ، ولتحقيق حصول العلم ، وحذف.
مفعول ( تَعْلَمُونَ ) لظهوره من المقام . أى : اتركوا التشاغل بالدنيا
والتفاخر بالأموال ، فإنكم إن بقيتم على ذلك بدون توبة صادقة ، فسوف تعرفون
. سوء عاقبة ذلك معرفة لا يخامرها شك ، ولا يفارقها ريب

ثم كلا سوف تعلمون

كما فسرها الوسيط وجملة ( ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ) مؤكدة تأكيدا
لفظيا للجملة التى قبلها ، وهذا التأكيد المقصود منه المبالغة فى الردع
. . والزجر والتحذير من التكاثر والتفاخر

كلا لو تعلمون علم اليقين

كما فسرها الوسيط ثم أضاف - سبحانه - إلى كل ما سبق من تحذيرات ، زواجر
أخرى فقال : ( كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليقين . لَتَرَوُنَّ الجحيم
ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ اليقين ) . .وجواب " لو " محذوف لقصد .
التهويل ، و " اليقين " فعيل بمعنى مفعول ، وعلم اليقين هو العلم الجازم
المطابق للواقع الذى لا شك فيه . والإضافة فيه من إضافة الموصوف إلى الصفة
أو من إضافة العام إلى الخاص .أى : لو تعلمون - علما موثوقا به - سوء ،
عاقبة انشغالكم عن ذكر الله - تعالى - وتكاثركم وتفاخركم بالأموال والأولاد
لشغلكم هذا العلم اليقينى عما أنتم عليه من التشاغل والتكاثر .فالمقصود . .
بهذه الجملة الكريمة : الزيادة فى ردعهم ، لأنه من عادة الغافلين المكابرين
أنك إذا ذكرتهم بالحق وبالرشاد . . زعموا أنهم ليسوا فى حاجة إلى هذا .
الإرشاد ، لأنهم أهل علم ومعرفة بالعواقب ، فكانت هذه الآية الكريمة بمثابة
تنبيههم بأنهم ليسوا على شئ من العلم الصحيح ، لأنهم لو كانوا كذلك لما
. تفاخروا ، ولما تكاثروا

لترون الجحيم

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( لَتَرَوُنَّ الجحيم ) جواب قسم مقدر قصد به تأكيد الوعيد الشديد فى التهديد ، وبيان أن المهدد به رؤية الجحيم ، فى الآخرة ، أى : والله لترون الجحيم فى الآخرة .

ثم لترونها عين اليقين

كما فسرها الوسيط ثم أكد - سبحانه - هذا المعنى تأكيدا قويا فقال : ( ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ اليقين ) أى : ثم لترون الجحيم رؤية هى ذات اليقين ونفسه وعينه ، وذلك لأن تشاهدوها مشاهدة حقيقية ، بحيث لا يلتبس عليكم أمرها .وقد قالوا إن مراتب العلم ثلاثة : علم اليقين وهو ما كان ناتجا عن الأدلة والبراهين .وعين اليقين : وهو ما كان عن مشاهدة وانكشاف .وحق اليقين وهو ما كان عن ملابسة ومخالطة .ومثال ذلك أن تعلم بالأدلة أن العبة : موجودة ، فذلك علم اليقين ، فإذا رأيتها بعينيك فذلك عين اليقين ، فإذا ما دخلت فى جوفها فذلك حق اليقين . .فأنت ترى أنه - سبحانه - قد حذر الناس من الاشتغال عن طاعته ، ومن التباهى والتكاثر ، بأبلغ أساليب التأكيد وأقواها .

ثم لتسالن يومئذ عن النعيم

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة بقوله : ( ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النعيم ) ، والمراد بالنعيم هنا : ما يتنعم به الإنسان خلال حياته الدنيوية من مال وولد ، ومن طعام وشراب ، ومن متعه وشهوة . . من النعومة التى هى ضد الخشونة .أى : ثم إنكم بعد ذلك - أيها الناس - والله لتسألن يوم القيامة عن ألوان النعم التى منحكم الله - تعالى - إياها ، فمن أدى ما يجب عليه نحوها من شكر الله - تعالى - عليها كان من السعداء ، ومن جحدها وغمطها وشغلته عن طاعة ربه ، وتباهى وتفاخر بها . . كان من الأشقياء كما قال - تعالى - : ( وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ، وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ) فالمراد بالسؤال إنما هو سؤال التكريم والتبشير للمؤمنين الشاكرين ، وسؤال الإهانة والتوبيخ - للفاسقين الجاحدين .والآية الكريمة دعوة حارة للناس ، إلى شكر نعمه تعالى - واستعمالها فيما خلقت له .قال القرطبى ما ملخصه : والسؤال يكون للمؤمن والكافر . . والجمع بين الأخبار التى وردت فى ذلك : أن الكل يسألون ، ولكن سؤال الكافر توبيخ ، لأنه قد ترك الشكر ، وسؤال المؤمن سؤال تشريف ، لأنه قد شكر ، وهذا النعيم فى كل نعمة . .نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا من عباده الشاكرين . .وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

والعصر

كما فسرها الوسيط للعلماء أقوال متعددة فى المقصود بالعصر هنا فمنهم من يرى أن المقصود به : الدهر كله ، لما فيه من العبر التى تدل دلالة واضحة على عظيم قدرة الله - تعالى - ، ولما فيه من الأحداث التى يراها الناس بأعينهم ويعرفونها عن غيرهم . .فهم يرون ويسمعون كم من غنى قد صار فقيرا ، وقوى ، قد صار ضعيفا ، ومسرور قد أصبح حزينا . . ورحم الله القائل :أشاب الصغير وأفنى الكبير ... كر الغداة ومر العشىقال القرطبى : قوله - تعالى - : ( والعصر ) أى : الدهر ، قال ابن عباس وغيره فالعصر مثل الدهر . . وأقسم به سبحانه - لما فيه من التنبيه بتصرف الأحوال وتبدلها .ومنهم من يرى أن المقصود به : وقت صلاة العصر ، وقد صدر صاحب الكشاف تفسيره لهذه الآية بهذا الرأى فقال : أقسم - سبحانه - بصلاة العصر لفضلها ، بدليل قوله - تعالى - : ( حَافِظُواْ عَلَى الصلوات والصلاة الوسطى ) وهى صلاة العصر - ، وقوله - " صلى الله عليه وسلم : " من فاتته صلاة العصر فكأنما وَتِرَ أهله وماله وَتِرَ أهله وماله ولأن التكليف فى أدائها أشق لتهافت الناس فى تجاراتهم ومكاسبهم آخر النهار ومنهم من يرى أن المراد بالعصر هنا : عصر النبوة . لأفضليته بالنسبة لما . . سبقه من عصور .وقد رجح الإمام ابن جرير القول الأول فقال : والصواب من القول فى ذلك أن يقال : إن ربنا أقسم بالعصر ، والعصر اسم الدهر ، وهو . . العشى ، والليل والنهار

ان الانسان لفي خسر

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( إِنَّ الإنسان لَفِى خُسْرٍ . . . ) . جواب القسم ، والمراد بالإنسان : جنسه ويدخل فيه الكافر دخولا أوليا والخسر مثل الخسران ، كالكفر بمعنى الكفران . .أى : إن جنس الإنسان لا يخلو من خسران ونقصان وفقدان للربح فى مساعيه وأعماله طوال عمره ، وإن هذا الخسران يتفاوت قوة وضعفا .فأخسر الأخسرين هو الكافر الذى أشرك مع خالقه إلها آخر فى العبادة ، وأقل الناس خسارة هو المؤمن الذى خلط عملا صالحا

بآخر سيئا ثم تاب إلى الله - تعالى - توبة صادقة .وجاء الكلام بأسلوب القسم
) - لتأكيد المقسم عليه ، وهو أن جنس الإنسان فى خسر .وقال - سبحانه ،
لَفِى خُسْرٍ ) للإشعار بأن الإنسان كأنه مغمور بالخسر ، وأن هذا الخسران
. قد أحاط به من كل جانب ، وتنكير لفظ " خسر " للتهويل . أى : لفى خسر عظيم

الا الذين امنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( إِلاَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ
الصالحات . . . ) استثناء مما قبله ، والمقصود بهذه الآية الكريمة تسلية
- المؤمنين الصادقين . . وتبشيرهم بأنهم ليسوا من هذا الفريق الخاسر .وقوله
تعالى - : ( وَتَوَاصَوْاْ ) فعل ماض ، من الوصية وهى تقديم النصح للغير
" مقرونا بالوعظ .و " الحق " : هو الأمر الذى ثبتت صحته ثبوتا قاطعا . .و
الصبر " : قوة فى النفس تعينها على احتمال المكاره والمشاق ..أى : أن جميع
، الناس فى خسران ونقصان . . إلا الذين آمنوا بالله - تعالى - إيمانا حقا
وعملوا الأعمال الصالحات ، من صلاة وزكاة وصيام وحج . . وغير ذلك من وجوه
الخير ، وأوصى بعضهم بعضا بالتمسك بالحق ، الذى على رأسه الثبات على
الإيمان وعلى العمل الصالح . . وأوصى بعضهم بعضا كذلك بالصبر على طاعة
الله - تعالى - ، وعلى البلايا والمصائب والآلام . . التى لا تخلو عنها
الحياة .فهؤلاء المؤمنون الصادقون ، الذين أوصى بعضهم بعضا بهذه الفضائل
ليسوا من بين الناس الذين هم فى خسران ونقصان ، لأن إيمانهم الصادق وعملهم
الصالح . . قد حماهم من الخسران . .قال بعض العلماء : وقد اشتملت هذه
السورة الكريمة على الوعيد الشديد ، وذلك لأنه - تعالى - حكم بالخسارة على
، جميع الناس ، إلا من كان متصفا بهذه الأشياء الأربعة ، وهى : الإيمان
والعمل الصالح ، والتواصى بالحق ، والتواصى بالصبر ، فدل ذلك على أن النجاة
معلقة بمجموع هذه الأمور ، وأنه كما يجب على الإنسان أن يأتى من الأعمال
ما فيه الخير والنفع ، يجب عليه - أيضا - أن يدعو غيره إلى الدين ، وينصحه
بعمل الخير والبر ، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويحب لأخيه ما يحب
لنفسه ، وأن يثبت على ذلك ، فلا يحيد عنه ، ولا يزحزحه عن الدعوة إليه ما
يلاقيه من مشاق .نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا من أصحاب هذه الصفات .وصلى
. الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

ويل لكل همزة لمزة

. . كما فسرها الوسيط الويل : لفظ يدل على الذم وعلى طلب العذاب والهلكة
وقيل : اسم لواد فى جهنم .والهُمَزة من الهَمْز ، بمعنى الطعن فى أعراض
الناس ، ورميهم بما يؤذيهم . .واللُّمَزة من اللمز ، بمعنى السخرية من
الغير ، عن طريق الإشارة باليد أو العين أو غيرهما .قال الجمل : الهمزة
واللمزة : هم المشاؤون بالنميمة ، المفرقون بين الأحبة الباغون العيب للبرئ
فعلى هذا هما بمعنى واحد .وقيل : الهمزة الذى يعيبك فى الغيب ، واللمزة ،
، الذى يعيبك فى الوجه وقيل : العكس .وحاصل هذه الأقوال يرجع إلى أصل واحد
وهو الطعن وإظهار العيب ، ويدخل فى ذلك من يحاكى الناس فى أقوالهم وأفعالهم
، وأصواتهم ليضحكوا منه . .ولفظ " ويل " مبتدأ وساغ الابتداء مع كونه نكرة
لأنه دعاء عليهم ، وقوله : ( لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ) خبره ، وهمزة
ولمزة وصفان لموصوف محذوف .أى : عذاب شديد ، وخزى عظيم ، لكل من يطعن فى
أعراض الناس ، ويغض من شأنهم ، ويحقر أعمالهم وصفاتهم ، وينسب إليهم ما هم
براء منه من عيوب .والتعبير بقوله : ( هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ) يدل على أن تلك
- الصفات القبيحة ، كانت عادة متأصلة فيهم ، لأن اللفظ الذى بزنة فُعَلَة
بضم الفاء وفتح العين - يؤتى به للدلالة على أن الموصوف به ديدنه ودأبه
الإتيان بهذا الوصف ، ومنه قولهم : فلان ضُحَكة : إذا كان يكثر من الضحك
كما أن لفظ " فُعْلَة " - بضم الفاء وسكون العين - يؤتى به للدلالة على أن.
الموصوف به ، يكثر أن يفعل به ذلك ، ومنه قولهم : فلان ضُحْكة ، إذا كان
. الناس يكثرون الضحك منه

الذي جمع مالا وعدده

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( الذى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ )
، زيادة تشنيع وتقبيح للهمزة اللمزة . .ومعنى " عدده " : جعله عدته وذخيرته
وأكثر من عده وإحصائه لحرصه عليه ، والجملة الكريمة فى محل نصب على الذم
أى : عذاب وهلاك لكل إنسان مكثر من الطعن فى أعراض الناس ، ومن صفاته.
الذميمة أنه فعل ذلك بسبب أنه جمع مالا كثيرا ، وأنفق الأوقات الطويلة فى
عده مرة بعد أخرى ، حبا له وشغفا به وتوهما منه أن هذا المال الكثير هو
مناط التفاضل بين الناس .وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى ( جمّع ) - بتشديد
. الميم - وهو مبالغة فى ( جمع ) بتخفيف الميم

يحسب ان ماله اخلده

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( يَحْسَبُ أَنّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ) صفة أخرى من صفاته القبيحة ، والجملة يصح أن تكون مستأنفة استئنافا بيانيا ، جوابا لسؤال مقدر ، كأنه قيل : ما باله يجمع المال ويهتم به؟ فكان الجواب : يحسب أن ماله أخلده .ويصح أن تكون حالا من فاعل " جمع " أى : هذا الجاهل المغرور جمع المال وعدده ، حالة كونه يظن أن ماله يخلده فى الدنيا ، ويجعله فى مأمن من حوادث الدهر .قال الأستاذ الإمام محمد عبده : أى أن الذى يحمل هذا الهمزة اللمزة على الحط من أقدار الناس ، هو جمعه المال وتعديده . . فكلما نظر إلى كثرة ما عنده منه ، انتفخ وظن أنه من رفعة المكانة ، بحيث يكون كل ذ فضل ومزية دونه . . ويظن أن ما عنده من المال ، قد حفظ له حياته التى هو فيها ، وأرصدها عليه ، فهو لا يفارقها إلى حياة أخرى ، يعاقب فيها على ما كسب من سيئ الأعمال . .

كلا لينبذن في الحطمة

كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - بعد ذلك سوء عاقبة هذا الجاهل المغرور فقال : ( كَلاَّ لَيُنبَذَنّ فِي الحطمة . وَمَآ أَدْرَاكَ مَا الحطمة ) و " كلا " حرف زجر وردع ، والمراد به هنا إبطال ما توهمه هذا المغرور من حسبانه أن ماله سيخلده . والنبذ : الطرح للشئ والإلقاء به مع التحقير والتصغير من شأنه .والحُطَمة من الحَطْم ، وهو كسر الشئ بشدة وقوة ، ويقال رجل حطمة ، إذا كان شديداً فى تحطيمه وكسره لغيره ، والمراد بالحطمة هنا : النار الشديدة الاشتعال : التى لا تبقى على شئ إلا وأحرقته .أى : كلا : ليس الأمر كما زعم هذا الهمزة واللمزة ، من أن ماله سيخلده ، بل الحق أنه ، والله ليطرحن بسبب أفعاله القبيحة فى النار التى تحطم كل شئ يلقى فيها . - والتى لا يعرف مقدار شدتها واشتعالها إلا الله - تعالى

وما ادراك ما الحطمة

كما فسرها الوسيط فالمقصود بالاستفهام فى قوله - تعالى - : ( وَمَآ أَدْرَاكَ مَا الحطمة ) تهويل أمر هذه النار ، وتفظيع شأنها ، وبيان أن كنهها لا تدركه عقول البشر . .

نار الله الموقدة

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( نَارُ الله الموقدة ) بيان للحطمة وتفصيل لأمرها بعد إبهامها .أى الحطمة هى نار الله - تعالى - الشديدة الإحراق ، وأضيفت إلى الله - تعالى لزيادة الترويع والتخويف منها ، لأن خالقها - عز وجل - هو الذى لا يعجزه شئ .

التي تطلع على الافئدة

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( التي تَطَّلِعُ عَلَى الأفئدة ) صفة أخرى من صفات هذه النار ، وقوله : ( تَطَّلِعُ ) من الاطلاع ، بمعنى الوصول إلى الشئ بسرعة ، والكشف عن خباياه ، والنفاذ إلى منتهاه .أى : سيلقى بهذا الشقى فى نار الله - تعالى - الموقدة ، التى تصل إلى أعماق الأفئدة والقلوب فتحيط بها ، وتنفذ إليها ، فتحرقها إحراقا تاما .وخصت الأفئدة التى هى ، القلوب بالذكر ، لأنها ألطف ما فى الأبدان وأشدها تألما بأدنى أذى يصيبها ، أو لأنها محل العقائد الزائفة ، والنيات الخبيثة ، ومنشأ الأعمال السيئة ، التى استحق هذا الهمزة اللمزة بسببها العقاب الشديد .

انها عليهم مؤصدة

كما فسرها الوسيط ثم وصف - سبحانه - هذه النار بصفة ثالثة فقال : ( إِنّهَا عَلَيْهِم مّؤْصَدَةٌ ) أى : إن هذه النار من صفاتها - أيضا - أنها مطبقة ومغلقة عليهم بحيث لا يستطيعون الخروج منها ، فقوله ( مّؤْصَدَةٌ ) اسم مفعول من قولك أوصدت الباب ، إذا أغلقته بشدة ، بحيث لا يستطاع الخروج منه . .

في عمد ممددة

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

الم تر كيف فعل ربك باصحاب الفيل

كما فسرها الوسيط الاستفهام فى قوله - تعالى - : ( أَلَمْ تَرَ . . . )
للتقرير بما تواتر نقله وعمله صلى الله عليه وسلم وعلمه غيره علما مستفيضا
حتى إن العرب كانوا يؤرخون بتلك الحادثة ، فيقولون : هذا الأمر حدث فى . .
عام الفيل ، أو بعده أو قبله . . والمراد بالرؤية هنا : العلم المحقق
وعبر - سبحانه - عن العلم بالرؤية ، لأن خبر هذه القصة - كما أشرنا كان من.
الشهرة بمكان ، فالعلم الحاصل بها مساو فى قوة الثبوت للرؤية والمشاهدة
، والمعنى : لقد علمت - أيها الرسول الكريم - علما لا يخالطه ريب أو لبس.
ما فعله ربك بأصحاب الفيل ، الذين جاءوا لهدم الكعبة ، حيث أهلكناهم إهلاكا
شنيعا ، كانت فى العبرة والعظة ، والدلالة الواضحة على قدرتنا ، وعلى
حمايتنا لبيتنا الحرام .وأوقع - سبحانه - الاستفهام عن كيفية ما أنزله بهم
لا عن الفعل ذاته ، لأن الكيفية أكثر دلالة على قدرته - تعالى - وعلى ،
أنه - سبحانه -لا يعجزه شئ .وفى التعبير بقوله : ( فَعَلَ رَبُّكَ . . . )
إشارة إلى أن هذا الفعل لا يقدر عليه أحد سواه - سبحانه - فهو الذى ربى
، نبيه صلى الله عليه وسلم وتعهده بالرعاية ، وهو الكفيل بنصره على أعدائه
" كما نصر أهل مكة ، على جيوش الحبشة . . وهم أصحاب الفيل .ووصفوا بأنهم
، أصحاب الفيل " لأنهم أحضروا معهم الفيلة ، ليستعينوا بها على هدم الكعبة
. وعلى إذلال أهل مكة

الم يجعل كيدهم في تضليل

كما فسرها الوسيط والاستفهام فى قوله - تعالى - : ( أَلَمْ يَجْعَلْ
- كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ) للتقرير - أيضا - أى : لقد جعل الله - تعالى
مكر أصحابا الفيل وسعيهم لتخريب الكعبة ، فى ( تَضْلِيلٍ ) أى : فى تخسير
: وإبطال وتضييع ، بأن تبرهم - سبحانه - تتبيرا ودمرهم تدميرا .والكيد
إرادة وقوع الإضرار بالغير فى خفية ، وسمى - سبحانه - ما فعله أبراهة
وجيشه كيدا ، مع أنهم جاءوا لهدم الكعبة جهارا نهارا . . لأنهم كانوا
، يضمرون من الحقد والحسد والعداوة لأهل مكة ، أكثر مما كانوا يظهرونه
فهم - كما قال - تعالى - : ( قَدْ بَدَتِ البغضآء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا
تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ . . ) والمقصود بالتضليل هن : التضييع
. والإبطال . تقول : ضللت كيد فلان ، إذا جعلته باطلا ضائعا

وارسل عليهم طيرا ابابيل

) : كما فسرها الوسيط ثم بين - سبحانه - مظاهر إبطاله لكيدهم فقال
وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ ) .والطير : اسم جمع لكل ما من
شأنه أن يطير فى الهواء ، وتنكيره للتنويع والتهويل ، والأبابيل : اسم جمع
، لا واحد له من لفظه ، وقيل هو جمع إبّالة ، وهى حزمة الحطب الكبيرة
- شبهت بها الجماعة من الطير فى تضامنها وتلاصقها .أى : لقد جعل الله
تعالى - كيد هؤلاء المعتدين فى تضييع وتخسير . . بأن أرسل إليهم جماعات
عظيمة من الطير ، أتتهم من كل جانب فى تتابع ، فكانت سببا فى إهلاكهم
والقضاء عليهم .. ( وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ).

ترميهم بحجارة من سجيل

كما فسرها الوسيط وجملة : " ترميهم بحجارة من سجيل " بيان لما فعلته تلك
الطيور بإذن الله - تعالى - ، وهى حال من قوله ( طيرا ) ، والسجيل : الطين
اليابس المتحجر . .قال بعض العلماء : قوله : ( تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن
سِجِّيلٍ ) أى : من طين متحجر محرق . أو بحجارة من جملة العذاب المكتوب
المدون فى السجيل ، وهو الديوان الذى كتب فيه عذاب الكفار ، كما أن السجيل
هو الديوان الذى كتبت فيه أعمالهم . واشتقاقه من الإسجال بمعنى الإرسال
وعن عكرمة : كانت ترميهم بحجارة معها كالحِمّصةِ ، فإذا أصاب أحدَهم حجرٌ.
منها ، خرج به الجُدَرِى ، وكان ذلك أول يوم رئى فيه الجدرى بأرض العرب
وقال ابن عباس : كان الحجر إذا وقع على أحدهم نفط جلده أى : احترق - فكان.
ذلك أول الجدرى . وقيل : إن أول ما رؤيت الحصبة والجدرى بأرض العرب ذلك
العام .وقال ابن جُزَى فى تفسيره : إن الحجر كان يدخل من رأس أحدهم ويخرج
من أسفله .ووقع فى سائرهم الجدرى والأسقام ، وانصرفوا وماتوا فى الطريق
. . متفرقين ، وتمزق أبرهة قطعة قطعة

فجعلهم كعصف ماكول

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ )
بيان للآثار الفظيعة التى ترتبت على ما فعلته الحجارة التى أرسلتها الطيور
عليهم بإذن الله - تعالى - .والعصف : ورق الزرع الذى يبقى فى الأرض بعد

الحصاد وتعصفه الرياح فتأكله الحيوانات . أو هو التبن الذى تأكله الدواب
أى : سلط الله - تعالى - عليهم طيرا ترميهم بحجارة من طين متحجر ، فصاروا.
بسبب ذلك صرعى هالكين ، حالهم فى تمزقهم وتناثرهم كحال أوراق الأشجار
اليابسة أو التبن الذى تأكله الدواب .وهكذا نرى السورة الكريمة قد ساقت من
مظاهرة قدرة الله - تعالى - ما يزيد المؤمنين إيمانا على إيمانهم ، وثباتا
على ثباتهم ، وما يحمل الكافرين على الاهتداء إلى الحق ، والإقلاع عن
الشرك والجحود لو كانوا يعقلون .نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا من عباده
الشاكرين .وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

لايلاف قريش

كما فسرها الوسيط الإيلاف : مصدر آلفت الشئ إيلافا و " إلفا " إذا لزمته
- وتعودت عليه . وتقول : آلفت فلانا الشئ ، إذا ألزمته إياه . والإيلاف
أيضا - اجتماع الشمل مع الالتئام ، ومنه قوله - تعالى - ( واذكروا نِعْمَتَ
الله عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ
فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً . . . ) ولفظ " إيلاف " مضاف
لمفعوله وهو قريش ، والفاعل هو الله - تعالى - : و " قريش " هم ولد النضر
بن كنانه - على الأرجح - وهو الجد الثالث عشر للنبى صلى الله عليه وسلم
قال القرطبى ما ملخصه : وأما قريش فهم بنو النضر بن كنانة بن خزيمة بن.
مدركة بن إلياس ، بن مضر ، فكل من كان من ولد النضر فهو قرشى .وسموا قريشا
لتجمعهم بعد التفرق ، إذ التقرش : التكسب ، ويقال : قرَشَ فلان يقرُشُ ،
قَرْشا - كقتل - ، إذا كسب المال وجمعه . .وقوله : ( إِيلاَفِهِمْ ) بدل أو
عطف بيان من قوله ( لإِيلاَفِ قُرَيْشٍ ) ، وهو من أسلوب الإجمال فالتفصيل
للعناية بالخبر ، ليتمكن فى ذهن السامع كما فى قوله - تعالى - : ( لعلي
أَبْلُغُ الأسباب . أَسْبَابَ السماوات . . . ) واللام فى قوله - تعالى
: - للتعليل . والجار والمجرور متعلق بقوله - تعالى ( . . . لإِيلاَفِ )
فَلْيَعْبُدُواْ . . . ) وتقدير الكلام : من الواجب على أهل مكة أن يخلصوا
العبادة لله - لأنه - سبحانه - هو الذى جمعهم بعد تفرق ، وألف بينهم ، وهيأ
- لهم رحلتين فيهما ما فيهما من النفع والأمن .وزيدت الفاء فى قوله - تعالى
- لما فى الكلام من معنى الشرط ، فكأنه ( . . . فَلْيَعْبُدُواْ ) :
سبحانه - يقول لهم : إن لم تعبدونى من أجل نعمى التى لا تحصى ، فاعبدونى من
أجل أنى جعلتكم تألفون هاتين الرحلتين النافعتين فى أمان واطمئنان ، وأنى
جمعت شملكم ، وألفت بينكم . .قال صاحب الكشاف : " لإيلاف قريش " متعلق
بقوله : ( فَلْيَعْبُدُواْ ) أمرهم أن يعبدوه لأجل إيلافهم الرحتلين .فإن
: قلت : فلم دخلت الفاء؟ قلت : لما فى الكلام من معنى الشرط ، لأن المعنى
إما لا فليعبدوه لإيلافهم . على معنى أن نعم الله عليهم لا تحصى ، فإن لم
يعبدوه لسائر نعمه ، فليعبدوه لهذه الواحدة التى هى نعمة ظاهرة .وقيل
المعنى : اعجبوا لإيلاف قريش . وقيل هو متعلق بما قبله - فى السورة
السابقة - أى : فجعلهم كعصف مأكول . لإيلاف قريش ، وهذا بمنزلة التضمين فى
الشعر ، وهو أن يتعلق معنى البيت بالذى قبله . .

ايلافهم رحلة الشتاء والصيف

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( رِحْلَةَ الشتآء والصيف ) بيان
لمظهر من مظاهر هذا الإيلاف الذى منحه - سبحانه - لهم ، والرحلة هنا : اسم
لارتحال القوم من مكان إلى آخر ، ولفظ " رحلة " منصوب على أنه مفعول به
لقوله ( إِيلاَفِهِمْ ) . .والمراد بهذه الرحلة : ارتحالهم فى الشتاء إلى
بلاد اليمن ، وفى الصيف إلى بلاد الشام ، من أجل التجارة ، واجتلاب الربح
واستدرار الرزق ، والاستكثار من القوت واللباس وما يشبههما من مطالب.
الحياة .وقيل : المراد برحلة الشتاء والصيف : رحلة الناس إليهم فى الشتاء
والصيف للحج والعمرة ، فقد كان الناس يأتون إلى مكة فى الشتاء والصيف لهذه
الأغراض ، فيجد أهل مكة من وراء ذلك الخير والنفع ، كما قال - تعالى
: - ( لِّيَشْهَدُواْ مَنَافِعَ لَهُمْ ).

فليعبدوا رب هذا البيت

كما فسرها الوسيط وبعد أن ذكرهم - سبحانه - بنعمه أمرهم بشكره ، فقال
: ( فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هذا البيت . . . ) أى : إن كان الأمر كما ذكرنا لهم
فليخلصوا العبادة لله - تعالى - الذى حمى لهم البيت الحرام ، والكعبة ،
المشرفة ، ممن أرادهما بسوء . .

الذي اطعمهم من جوع وامنهم من خوف

كما فسرها الوسيط ( الذي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ ) أى : الذى وسع لهم الرزق

ومهد لهم سبيله ، عن طريق الوفود التى تأتى إليهم من مشارق الأرض ، ومغاربها .( وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ) أى : والذى أوجد لهم الأمن بعد " الخوف ، والسعة بعد الضيق ، ببركة هذا البيت الحرام .وتنكير " جوع " و ، خوف " للتعظيم ، أى : أطعمهم بدلا من جوع شديد ، وآمنهم بدلا من خوف عظيم ، كانوا معرضين لهما ، وذلك كله من فضله - سبحانه - عليهم ، ومن رحمته بهم حيث أتم عليهم نعمتين بهما تكمل السعادة ، ويجتمع السرور .ومن الآيات التى تشبه هذه الآية قوله - تعالى - : ( أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ . . ) وقوله - سبحانه - : ( أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً يجبى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقاً . . . ) وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

ارايت الذي يكذب بالدين

كما فسرها الوسيط ( فَذَلِكَ الذي يَدُعُّ اليتيم )أى : فذلك الذى يكذب بالبعث والحساب والجزاء ، من أبرز صفاته القبيحة . أنه " يدع اليتيم " أى : يقسو عليه ، ويزجره زجرا عنيفا ، ويسد كل باب خير فى وجهه ، ويمع كل حق له فقوله : ( يَدُعُّ ) من الدع وهو الدفع الشديد ، والتعنيف الشنيع للغير. . . .

فذلك الذي يدع اليتيم

كما فسرها الوسيط ( وَلاَ يَحُضُّ على طَعَامِ المسكين ) أى : أن من صفاته الذميمة - أيضا - أنه لا يحث أهله وغيرهم من الأغنياء على بذل الطعام للبائس المسكين ، وذلك لشحه الشديد ، واستيلاء الشيطان عليه ، وانطماس بصيرته عن كل خير .وفى هذه الآية والتى قبلها دلالة واضحة على أن هذا الانسان المكذب الدين قد بلغ النهاية فى السوء والقبح ، فهو لقسوة قلبه لا يعطف على يتيم ، بل يحتقره ويمنع عنه كل خير ، وهو لخبث نفسه لا يفعل الخير ولا يحض غيره على فعله ، بل يحض على الشرور والآثام .ولما كانت هذه ، الصفات الذميمة ، لا تؤدى إلى إخلاص أو خشوع لله - تعالى - وإنما تؤدى إلى الرياء وعدم المبالاة بأداء التكاليف التى أوجبها - سبحانه - على خلقه . .

ولا يحض على طعام المسكين

كما فسرها الوسيط لما كان الأمر كذلك ، وصف - سبحانه - هؤلاء المكذبين بالبعث والجزاء بأوصاف أخرى ، فقال : ( فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ . الذين هُمْ عَن صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ . الذين هُمْ يُرَآءُونَ . وَيَمْنَعُونَ الماعون ) .والفاء فى قوله : ( فَوَيْلٌ ) للتفريع والتسبب ، والويل : الدعاء بالهلاك والعذاب الشديد .وهو مبتدأ ، وقوله ( لِّلْمُصَلِّينَ ) خبره .

فويل للمصلين

كما فسرها الوسيط والمراد بالسهو هنا : الغفلة والترك وعدم المبالاة . . أى فهلاك شديد ، وعذاب عظيم ، لمن جمع هذه الصفات الثلاث ، بعد تكذيبه بيوم : الدين ، وقسوته على اليتيم ، وامتناعه عن إطعام المسكين .وهذه الصفات الثلاث أولها : الترك للصلاة ، وعدم المبالاة بها ، والإخلال بشروطها وأركانها وسننها وآدابها .

الذين هم عن صلاتهم ساهون

كما فسرها الوسيط وثانيها : أداؤها رياء وخداعا لا عن إخلاص وطاعة لله رب العالمين كما قال - تعالى - :( إِنَّ المنافقين يُخَادِعُونَ الله وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قاموا إِلَى الصلاة قَامُواْ كسالى يُرَآءُونَ الناس ( وَلاَ يَذْكُرُونَ الله إِلاَّ قَلِيلاً

الذين هم يراءون

كما فسرها الوسيط وثالثها : منع الماعون : أى منع الخير والمعروف والبر عن الناس . فالمراد بمنع الماعون : مع كل فضل وخير عن سواهم . فلفظ " الماعون أصله " معونة " والألف عوض من الهاء . والعون : هو مساعدة الغير على بلوغ " حاجته . . فالمراد بالماعون : ما يستعان به على قضاء الحوائج ، من إناء أو : فأس ، أو نار ، أو ما يشبه ذلك .ومنهم من يرى أن المراد بالماعون هنا الزكاة لأنه جرت عادة القرآن الكريم أن يذكر الزكاة بعد الصلاة .قال

الإمام ابن كثير : قوله : ( وَيَمْنَعُونَ الماعون ) أى :لا أحسنوا عبادة ، ربهم ، ولا أحسنوا إلى خلقه ، حتى ولا بإعارة ما ينتفع به ، ويستعان به . مع بقاء عينه ورجوعه إليهم ، فهؤلاء لمنع الزكاة ومنع القربات أولى وأولى وسئل ابن مسعود عن الماعون فقال : هو ما يتعاوره الناس بينهم من الفأس. والقِدْر . .وهكذا نرى السورة الكريمة قد ذمت المكذبين بيوم الدين ذما شديدا حيث وصفتهم بأقبح الصفات وأشنعها .نسأل الله - تعالى - أن يعيذنا من ذلك .وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

ويمنعون الماعون

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

انا اعطيناك الكوثر

، كما فسرها الوسيط الكوثر : فَوْعل من الكثرة ، مثل النَّوْفل من النفل ومعناه : الشئ البالغ فى الكثرة حد الإفراط ، والعرب تسمى كل شئ كثر عدده وعظم شأنه : كوثرا ، وقد قيل لأعرابية بعد رجوع ابنها من سفر : بم آب ، : ابنك؟ قالت : آب بكوثر . أى : بشئ كثير .قال الإمام القرطبى ما ملخصه واختلف أهل التأويل في الكوثر الذى أعطيه النبى صلى الله عليه وسلم على ستة عشر قولاً : الأول : أنه نهى فى الجنة ، رواه البخارى عن أنس ، ورواه الترمذى - أيضاً - عن ابن عمر . . الثانى : أنه حوض للنبى صلى الله عليه وسلم فى الموقف . . الثالث : أنه النبوة والكتاب . . الرابع : أنه القرآن . الخامس : الإسلام .ثم قال - رحمه الله - قلت : أصح هذه الأقوال الأول . والثانى ، لأنه ثابت عن النبى صلى الله عليه وسلم نص فى الكوثر . . وجميع . . ما قيل بعد ذلك فى تفسيره قد أعطيه صلى الله عليه وسلم زيادة على حوضه وافتتح - سبحانه - الكلام بحرف التأكيد ، للاهتمام بالخبر ، وللإشعار بأن. المعطى شئ عظيم . . أى : إنا أعطيناك بفضلنا وإحساننا - أيها الرسول ، الكريم - الكوثر ، أى : الخير الكثير الذى من جملته هذا النهر العظيم والحوض المطهر . . فأبشر بذلك أنت وأمتك ، ولا تلتفت إلى ما يقوله أعداؤك . فى شأنك

فصل لربك وانحر

كما فسرها الوسيط والفاء فى قوله - تعالى - : ( فَصَلِّ لِرَبِّكَ وانحر ) لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، والمراد بالصلاة : المداومة عليها .أى : ما دمنا قد أعطيناك هذه النعم الجزيلة ، فداوم على شكرك لنا ، بأن تواظب على - أداء الصلاة أداء تاما ، وبأن تجعلها خالصة لربك وخالقك ، وبأن تواظب أيضاً - على نحرك الإبل تقرباً إلى ربك . كما قال - سبحانه - ( قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للَّهِ رَبِّ العالمين . لاَ شَرِيكَ لَهُ وبذلك أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ المسلمين )

ان شانئك هو الابتر

كما فسرها الوسيط ثم بشره - سبحانه - ببشارة أخرى فقال : ( إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأبتر ) والشانئ : هو المبغض لغيره ، يقال : شَنَأَ فلان شَنْئاً ، إذا أبغضه وكرهه .والأبتر فى الأصل : هو الحيوان المقطوع الذنب ، والمراد به هنا : الإنسان الذى لا يبقى له ذكر . ولا يدوم له أثر . .شبه بقاء الذكر الحسن بذنب الحيوان ، لأنه تابع له وهو زينته ، وشبه الحرمان من ذلك ببتر الذي وقطعه .والمعنى : إن مبغضك وكارهك - أيها الرسول الكريم - هو المقطوع عن كل خير ، والمحروم من كل ذكر حسن .قال الإمام ابن كثير : " كان العاص بن وائل إذا ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : دعوه فإنه رجل أبتر لا عقب له ، فإذا هلك انقطع ذكره ، فأنزل الله - تعالى - هذه السورة " وقال السدى : كانوا إذا مات ذكور الرجل قالوا : بتر ، فلما مات أبناء. النبى صلى الله عليه وسلم قالوا : بتر محمد فأنزل الله هذه الآية .وهذا يرجع إلى ما قلناه من أن الأبتر إذا مات انقطع ذكره ، فتوهموا لجهلهم أنه إذا مات بنوه ينقطع ذكره ، وحاشا وكلا ، بل أبقى الله ذكره على رءوس الأشهاد ، وأوجب شرعه على رقاب العباد ، مستمراً على دوام الآباد ، إلى يوم الحشر والمعاد ، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم التناد . . .نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا من أهل شفاعته يوم القيامة .وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

قل يا ايها الكافرون

كما فسرها الوسيط أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المشركين الذين

جاؤوك ليساوموك على أن تعبد آلهتهم مدة ، وهم يعبدون إلهك مدة أخرى . . قل
، لهم على سبيل الحزم والتأكيد "لا أعبد " أنا الذى تعبدونه من آلهة باطلة
ولا أنتم عابدون الإله الحق الذى أعبده ، لجهلكم وجحودكم . وعكوفكم على ما
" كان عليه آباؤكم من ضلال .وافتتحت السورة الكريمة بفعل الأمر " قل
للاهتمام لما سيأتى بعده من كلام المقصود منه إبلاغه إليهم ، وتكليفهم
بالعمل به .ونودوا بوصف الكافرين ، لأنهم كانوا كذلك ، ولأن فى هذا النداء
. تحقيرا واستخفافا بهم

لا اعبد ما تعبدون

" كما فسرها الوسيط و " ما " هنا موصولة بمعنى الذى ، وأوثرت على " مَن
لأنهم ما كانوا يشكون فى ذات الآلهة التى يعبدونها ، ولافى ذات الإلهة الحق
- الذى يبعده النبى صلى الله عليه وسلم ، وإنما كانوا يشكون فى أوصافه
تعالى - ، من زعمهم أن هذه الأصنام ما يعبدونها إلا من أجل التقرب إليه
ويقولون : ( هؤلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ الله ) مع أن الله - تعالى - منزه.
عن ذلك ، فالمقصود من " ما " هنا : الصفة ، وليس الذات ، فكأنه قال :لا
أعبد الباطل الذى تعبدونه ، وأنتم لجهلكم لا تعبدون الإله الحق الذى أعبده
.

ولا انتم عابدون ما اعبد

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ
أَعْبُدُ . وَلاَ أَنَآ عَابِدٌ مّا عَبَدتُّمْ ) تأكيد وتقرير لما اشتمل
عليه الكلام السابق . . " وما " هنا مصدرية ، فكأنه قبل : ولا أنا عابد
عبادتكم ، ولا أنتم عابدون عبادتى .فالآيتان السابقتان تنفيان الاتحاد بينه
صلى الله عليه وسلم وبينهم فى المعبود ، وهاتان الآيتان تنفيان الاتحاد فى
العبادة ، والمقصود من ذلك المبالغة التامة فى البراءة من معبوداتهم
الباطلة ، ومن عبادتهم الفاسدة ، وأنه صلى الله عليه وسلم ومن معه من
المؤمنين ، لا يعبدون إلا الله - عز وجل - ، وهم بذلك يكونون قد اهتدوا إلى
. العبادة الصحيحة

ولا انا عابد ما عبدتم

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:DUPLICATE -->`{=html}

وقوله - تعالى - : ( وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ . وَلاَ أَنَآ
. . عَابِدٌ مّا عَبَدتُّمْ ) تأكيد وتقرير لما اشتمل عليه الكلام السابق
وما " هنا مصدرية ، فكأنه قبل : ولا أنا عابد عبادتكم ، ولا أنتم عابدون "
عبادتى .فالآيتان السابقتان تنفيان الاتحاد بينه صلى الله عليه وسلم وبينهم
فى المعبود ، وهاتان الآيتان تنفيان الاتحاد فى العبادة ، والمقصود من ذلك
، المبالغة التامة فى البراءة من معبوداتهم الباطلة ، ومن عبادتهم الفاسدة
وأنه صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين ، لا يعبدون إلا الله - عز
. وجل - ، وهم بذلك يكونون قد اهتدوا إلى العبادة الصحيحة

ولا انتم عابدون ما اعبد

كما فسرها الوسيط `<!-- TODO:MISSING -->`{=html}

لكم دينكم ولي دين

كما فسرها الوسيط وقوله - تعالى - : ( لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ )
تذييل مؤكد لما قبله . والدين : يطلق بمعنى العقيدة التى يعتقدها الإنسان
يدين بها ، وبمعنى الملة التى تجرى أقواله وأفعاله على مقتضاها ، وبمعنى
الحساب والجزاء . ومنه قولهم : دنت فلانا بما صنع ، أى : جازيته على صنيعه
واللفظ هنا شامل لكل ذلك ، أى : لكم - أيها الكافرون - دينكم وعقيدتكم.
التى تعتقدونها ولا تتجاوزكم إلى غيركم من المؤمنين الصادقين ، فلا عن
رسولهم ومرشدهم صلى الله عليه وسلم ، ولى دينى وعقيدتى التى هى عقيدة
التوحيد ، والتى بايعنى عليها أتباعى المؤمنون ، وهى مقصورة علينا ، وأنتم
محرومون منها ، وسترون سوء عاقبة مخالفتكم لى .وقدم - سبحانه - المسند على
، المسند إليه ، لإفادة القصد والاختصاص فكأنه قيل : لكم دينكم لا لغيركم
ولى دينى لا لغيرى والله - تعالى - هو أحكم الحاكمين بينى وبينكم .وبذلك
نرى السورة الكريمة ، قد قطعت كل أمل توهم الكافرون عن طريقه الوصول إلى
مهادنة النبى صلى الله عليه وسلم ، وإلى الاستجابة لشئ من مطالبهم الفاسدة
وإنما هو صلى الله عليه وسلم برئ براءة تامة منهم ومن معبوداتهم ،

وعباداتهم .وصلى على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

اذا جاء نصر الله والفتح

، كما فسرها الوسيط النصر : التغلب على العدو ، والإعانة على بلوغ الغاية ومنه قولهم : قد نصر الغيث الأرض ، أى : أعان على إظهار نباتها .والمراد به هنا : إعانة الله - تعالى - لنبيه صلى الله عليه وسلم على أعدائه ، حتى حقق له النصر عليهم .والفتح : يطلق على فتح البلاد عَنْوَةً والتغلب على أهلها ويطلق على الفصل والحكم بين الناس ، ومنه قوله - تعالى - : ( رَبَّنَا ، افتح بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بالحق وَأَنتَ خَيْرُ الفاتحين ) والمراد به : هنا فتح مكة . وما ترتب عليه من إعزاز الدين ، وإظهار كلمة الحق .

ورايت الناس يدخلون في دين الله افواجا

كما فسرها الوسيط قال الإمام ابن كثير : والمراد بالفتح هنا فتح مكة قولا واحدا ، فإن أحياء العرب كانت تتلوم - أى : تنتظر - بإسلامها فتح مكة ، يقولون : إن ظهر على قومه فهو نبى ، فلما فتح الله عليه مكة ، دخلوا فى دين الله أفواجا ، فلم تمض سنتان حتى استوسقت - أى : اجتمعت - جزيرة العرب على الإيمان ، ولم يبق فى سائر قبائل العرب إلا مظهر للإسلام ، ولله الحمد والمنة .والأفواج : جمع فوج ، وهو الجماعة والطائفة من الناس

فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا

- كما فسرها الوسيط وقوله ( فَسَبِّحْ ) جواب إذا والمعنى : إذا أتم الله عليك - أيها الرسول الكريم - وعلى أصحابك النصر ، وصارت لكم الكلمة العليا ، على أعدائكم ، وفتح لكم مكة ، وشاهدت الناس يدخلون فى دين الإسلام جماعات ثم جماعات كثيرة بدون قتال يذكر .إذا علمت ورأيت كل ذلك ، فداوم ، وواظب على تسبيح ربك ، وتنزيهه عن كل ما لا يليق به شكرا له على نعمه وداوم - أيضا - على طلب مغفرته لك وللمؤمنين .( إنه ) عز وجل - ( كان ) وما - زال ( توابا ) أى : كثير القبول لتوبة عباده التائبين إليه ، كما قال سبحانه - : ( وَهُوَ الذي يَقْبَلُ التوبة عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُواْ عَنِ السيئات وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ) نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا من عباده التائبين توبة صادقة نصوحا .وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

تبت يدا ابي لهب وتب

) : - كما فسرها الوسيط معنى ( تَبَّتْ ) هلكت وخسرت ، ومنه قوله - تعالى وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ ) - سبحانه - : ( وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ) وقوله : ( وَتَبَّ ) أى : وقد تب وهلك وخسر فالجملة الأولى دعاء عليك بالهلاك والخسران ، والجملة الثانية : إخبار عن ، أن هذا الدعاء قد استجيب ، وأن الخسران قد نزل به فعلا .أى : خسرت وخابت يدا أبى لهب ، وقد نزل هذا الهلاك والخسران به ، بسبب عداوته الشديدة للحق الذى جاء به النبى صلى الله عليه وسلم من عند ربه - سبحانه - .والمراد ، باليدين هنا : ذاته ونفسه ، من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل ، كما فى قوله - تعالى - : ( ذلك بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ) ويجوز أن يكون المراد باليدين حقيقتهما ، وذلك لأنه كان يقول : يعدنى محمد صلى الله عليه وسلم بأشياء ، لا أدرى أنها كائنة ، يزعم أنها بعد الموت ، فلم يضع فى يدى شئ من ذلك ، ثم ينفخ فى يديه ويقول : تبا لكما ما أرى فيكما شيئا .

ما اغنى عنه ماله وما كسب

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( مَآ أغنى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ كلام مستأنف للانتقال من ذمه والدعاء عليه بالهلاك ، إلى بيان أن ماله ( وجاهه . . لن يغنى عنه من عذاب الله - تعالى - شيئا .أى : أن أبا لهب لن يغنى عنه ماله الكثير ، وكسبه الوفير من حطام الدنيا . . لن يغنى عنه شيئا من عذاب الله - تعالى - ، أو شيئا من انتشار رسالة الله - تعالى - فى الأرض فإن الله - سبحانه - ناصر نبيه صلى الله عليه وسلم ومؤيده بروح منه ، والتعبير بالماضى فى قوله : ( مَآ أغنى . . . ) لتحقيق وقوع عدم الإغناء. والراجح أن " ما " الأولى نافية ، والثانية موصولة ، أى : ما أغنى عنه. شيئا ماله الذى ورثه عن أبيه ، وأيضا ما أغنى عنه شيئا ماله الذى جمعه واكتسبه هو بنفسه عن طريق التجارة وغيرها .

سيصلى نارا ذات لهب

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( سيصلى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ ) بيان للعاقبة السيئة التى تنتظره ، بعد هذا الذم والتأنيب والوعيد . أى : سيلقى - بأبى لهب فى نار شديدة الحرارة ، تشوى الوجوه والأبدان ، ووصف - سبحانه النار بأنها " ذات لهب " لزيادة تقرير المناسبة بين اسمه وكفره ، إذ هو معروف بأبى لهب ، والنار موصوفة بأنها ذات لهب شديد .

وامراته حمالة الحطب

كما فسرها الوسيط ثم أعقب - سبحانه - ذلك ، بذم زوجه التى كانت تشاركه العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ( وامرأته حَمَّالَةَ الحطب فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ) .وقوله : ( وامرأته ) معطوف على . الضمير المستتر العائد عَلَى أبى لهب فى قوله ( سيصلى ) وانتصاب لفظ " حمالةَ ) على الذم بفعل مضمر ، لأن المقصود به هنا الذم ، وقرأ الجمهور " حَمَّالَةَ ) - بالرفع - على أنه صفة لها ، أو خبر لمبتدأ محذوف ، أى : هى حمالة الحطب .والمقصود بقوله - تعالى - ( حَمَّالَةَ الحطب ) الحقيقة ، فقد روى أنها كانت تحمل بنفسها حزمة الشَّوْك والحسك والسَّعْدَان ، فتنثرها بالليل فى طريقه صلى الله عليه وسلم ، لإيذائه به ، ويصح أن يكون المراد بهذه الجملة الكناية عن مشيها بين الناس بالنميمة ، وإشاعة السوء حول ، الرسول صلى الله عليه وسلم فإنه يقول لمن يمشى بالنميمة ليفسد بين الناس إنسان يحمل الحطب بين الناس ، أى : أنه يفسد بينهم .ويصح أن يكون المقصود ، بهذه الجملة ، حملها للذنوب والخطايا ، من قولهم : فلان يَحْطِب على ظهره إذا كان يكتسب الذنوب والخطايا ، فاستعير الحطب لذلك .وقد رجح الإمام ابن جرير القول الأول ، لأنها كانت تحمل الشوك فتطرحه فى طريق النبى صلى الله عليه وسلم .

في جيدها حبل من مسد

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ) زيادة فى تبشيع صورتها ، وتحقير هيئتها .والجيد : العنق ، والمسد : الليف المتين الذى فتل بشدة ، يقال : حبل ممسود ، أى مفتول فتلا قويا .والمعنى : سيصلى أبو لهب نارا شديدة ، وستصلى معه امرأته التى تضع الشوك فى طريق - النبى صلى الله عليه وسلم هذه النار المشتعلة - أيضا - ، وسيزيد الله تعالى - فى إذلالها وتحقيرها ، بأن يأمر ملائكته بأن تضع فى عنقها حبلا مفتولا فتلا قويا ، على سبيل الإذلال والإهانة لها ، لأنها كانت فى الدنيا تزعم أنها من بنات الأشراف الأكابر .روى عن سعيد بن المسيب أنه قال كان لها قلادة ثمينة فقالت : لأبيعنها ولأنفقن ثمنها فى عداوة محمد صلى : الله عليه وسلم فأبدلها الله عنها حبلا فى جيدها من مسد النار .والذى يتأمل هذه السورة الكريمة ، يراها قد اشتملت على أوضح الأدلة وأبلغ المعجزات - الدالة على صدق النبى صلى الله عليه وسلم فيما يبلغه عن ربه ، فإن الله . . تعالى - قد أخبر بشقاء أبى لهب وامرأته ، وأنهما سيصليان نارا ذات لهب وقد علما بما جاء فى هذه السورة من عقاب الله لهما . . ومع ذلك فقد بقيا على كفرهما حتى فارقا الحياة ، دون أن ينطقا بكلمة التوحيد ، ولو فى الظاهر - فثبت أن هذا القرآن من عند الله ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم صادق فيما يبلغه عن ربه - عز وجل - .نسأل الله - تعالى - أن يلحقنا بعباده الصالحين .وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

قل هو الله احد

كما فسرها الوسيط قد افتتحت بفعل الأمر " قل " لإظهار العناية بما بعد هذا الأمر من توجيهات حكيمة ، ولتلقينه صلى الله عليه وسلم الرد على المشركين الذين سألوه أن ينسب لهم ربه .و ( هو ) ضمير الشأن مبتدأ ، والجملة التى بعده خبر عنه .والأحد : هو الواحد فى ذاته وفى صفاته وفى أفعاله ، وفى كل ، شأن من شئونه ، فهو منزه عن التركيب من جواهر متعددة ، أو من مادة معينة كما أنه - عز وجل - منزه عن الجسمية والتحيز ، ومشابهة غيره .وفى الإتيان بضمير الشأن هنا : إشارة إلى فخامة مضمون الجملة ، مع ما فى ذلك من زيادة التحقيق والتقرير ، لأن الضمير يشير إلى شئ مبهم تترقبه النفس ، فإذا جاء الكلام من بعده زال الإبهام ، وتمكن الكلام من النفس فضل تمكن .وجئ بالخبر ، نكره وهو لفظ " أحد " لأن المقصود الإخبار عن الله - تعالى - بأنه واحد ولو قيل : الله الأحد ، لأفاد أنه لا واحد سواه ، وليس هذا المعنى مقصودا هنا ، وإنما المقصود إثبات أنه واحد فى ذاته وصفاته وأفعاله . . ونفى ما زعمه المشركون وغيرهم ، من أنه - تعالى - مركب من أصول مادية أو غير مادية . أو من أنه له شريك فى ملكه ،

الله الصمد

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - ( الله الصمد ) أى : الله - تعالى - هو
. . الذى يَصْمُدُ إليه الخلق فى حوائجهم ، ويقصدونه وحده بالسؤال والطلب
مأخوذ من قولهم صمد فلان إلى فلان . بمعنى توجه إليه بطلب العون والمساعدة
- قال صاحب الكشاف : والصمد فعل بمعنى مفعول ، من صمد إليه إذا قصده ، وهو.
سبحانه - المصمود إليه فى الحوائج ، والمعنى : هو الله الذى تعرفونه وتقرون
بأنه خالق السموات والأرض ، وخالقكم ، وهو واحد متوحد بالإلهية لا يشارك
. فيها ، وهو الذى يصمد إليه كل مخلوق لا يستغنون عنه ، وهو الغنى عنهم
وجاء لفظ " الصمد " محلى بأل ، لإفادة الحصر فى الواقع ونفس الأمر ، فإن.
قصد الخلق إليه - سبحانه - فى الحوائج ، أعم من الصد الإرادى ، والقصد
الطبيعى ، والقصد بحسب الاستعداد الأصلى ، الثابت لجميع المخلوقات إذ الكل
. متجه إليه - تعالى - طوعا وكرها

لم يلد ولم يولد

- كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( لَمْ يَلِدْ ) تنزيه له - تعالى
عن أن يكون له ولد أو بنت ، لأن الولادة تقتضى انفصال مادة منه ، وذلك
، يقتضى التركيب المنافى للأحدية والصمدية ، أو لأن الولد من جنس أبيه
- وهو - تعالى - منزه عن مجانسه أحد .وقوله : ( وَلَمْ يُولَدْ ) تنزيه له
تعالى - عن أن يكون له أب أو أم ، لأن المولودية تقتضى - أيضا - التركيب
المنافى للأحدية والصمدية ، أو لاقتضائها سبق العدم ، أو المجانسة ، وكل
ذلك مستحيل عليه - تعالى - فهو - سبحانه - :( الأول والآخر والظاهر والباطن
( وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

ولم يكن له كفوا احد

كما فسرها الوسيط وقوله - عز وجل - ( وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ )
تنزيه له - تعالى - عن الشبيه والنظير والمماثل .والكفؤ : هو المكافئ
والمماثل والمشابه لغيره فى العمل أو فى القدرة .أى : ولم يكن أحد من خلقه
مكافئاً ولا مشاكلا ولا مناظرا له - تعالى - فى ذاته ، أوصفاته ، أو
أفعاله ، فهو كما قال - تعالى - : ( لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ
السميع البصير ) وبذلك نرى أن هذه السورة الكريمة قد تضمنت نفى الشرك
بجميع ألوانه .فقد نفى - سبحانه - عن ذاته التعدد بقوله : ( الله أَحَدٌ )
ونفى عن ذاته النقص والاحتياج بقوله : ( الله الصمد ) ونفى عن ذاته أن يكون
والدا أو مولودا بقوله : ( لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ) ، ونفى عن نفسه
الأنداد والأشباه بقوله : ( وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ ) .كما
نراها قد تضمنت الرد على المشركين وأهل الكتاب ، وغيرهم من أصحاب الفرق
- الضالة ، الذين يقولون ، بالتثليث ، وبأن هناك آلهة أخرى تشارك الله
- . . تعالى - فى ملكه .وبغير ذلك من الأقاويل الفاسدة والعقائد الزائفة
سبحانه وتعالى - عما يقولون علوا كبيرا .وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله
. وصحبه وسلم

قل اعوذ برب الفلق

، كما فسرها الوسيط الفلق : أصله شق الشئ عن الشئ ، وفصل بعض عن بعض
والمراد به هنا : الصبح ، وسمى فلقا لإنفلاق الليل وانشقاقه عنه ، كما فى
قوله - تعالى - : ( فَالِقُ الإصباح ) أى : شاقٌ ظلمة آخر الليل عن بياض
الفجر . .ويصح أن يكون المراد به ، كل ما يفلقه الله - تعالى - من مخلوقات
: كالأرض التى تنفلق عن النبات ، والجبال التى تنفلق عن عيون الماء . .أى
قل - أيها الرسول الكريم - أعوذ وأستجير وأعتصم ، بالله - تعالى - الذى فلق
الليل ، فانشق عنه الصباح ، والذى هو رب جميع الكائنات ، ومبدع كل
. . المخلوقات

من شر ما خلق

: كما فسرها الوسيط قل أعوذ بهذا الرب العظيم ( مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ) أى
- من شر كل ذى شر من المخلوقات ، لأنه لا عاصم من شرها إلا خالقها - عز وجل
إذ هو المالك لها ، والمتصرف فى أمرها ، والقابض على ناصيتها ، والقادر على
. تبديل أحوالها ، وتغيير شئونها

ومن شر غاسق اذا وقب

كما فسرها الوسيط ثم قال - تعالى - : ( وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ )
والغاسق : الليل عندما يشتد ظلامه ، ومنه قوله - تعالى - : ( أَقِمِ الصلاة
لِدُلُوكِ الشمس إلى غَسَقِ الليل . . . ) أى : إلى ظلامه .وقوله : ( وقب )
من الوقوب ، وهو الدخول ، يقال : وقبت الشمس إذا غابت وتوارت فى الأفق . أى
وقل أعوذ به - تعالى - من شر الليل إذا اشتد ظلامه ، وأسدل ستاره على كل :
شئ واختفى تحت جنحه ما كان ظاهرا .ومن شأن الليل عندما يكون كذلك ، أن يكون
مخيفا مرعبا ، لأن الإنسان لا يتبين ما استتر تحته من أعداء .

ومن شر النفاثات في العقد

كما فسرها الوسيط ثم قال - سبحانه - : ( وَمِن شَرِّ النفاثات فِي العقد )
وأصل النفاثات جمع نفّاثَة ، وهذا اللفظ صيغة مبالغة من النَّفث ، وهو
النفخ مع ريق قليل يخرج من الفم .والعُقَد : جمع عُقْدة من العَقْدِ الذى
: هو ضد الحل ، وهى اسم لكل ما ربط وأحكم ربطه .والمراد بالنفاثات فى العقد
النساء السواحر ، اللائى يعقدن عقدا فى خيوط وينفثن عليها من أجل السحر
وجئ بصيغة التأنيث فى لفظ " النفاثات " لأن معظم السحرة كن من النساء.
ويصح أن يكون النفاثات صفة للنفوس التى تفعل ذلك ، فيكون هذا اللفظ شاملا.
للذكور والإناث .وقيل المراد بالنفاثات فى العقد : النمامون الذين يسعون
بين الناس والفساد ، فيقطعون بما أمر الله به أن يوصل . . وعلى ذلك تكون فى
- النفاثة " للمبالغة كعلامة وفهامة ، وليست للتأنيث .أى : وقل - أيضا "
أستجير بالله - تعالى - من شرور السحرة والنمامين ، ومن كل الذين يفسدون فى
الأرض ولا يصلحون .

ومن شر حاسد اذا حسد

كما فسرها الوسيط ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بقوله : ( وَمِن شَرِّ
حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ) أى إذا ظهر ما فى نفسه من الحسد وعمل بمقتضاه
بترتيب مقدمات الشر ، ومبادى الأضرار بالمحسود قولا وفعلا ..وقد نهى النبى
صلى الله عليه وسلم عن الحسد فى أحاديث كثيرة منها قوله : "لا تباغضوا ولا
تحاسدوا . . " .ومنها قوله : " إياكم والحسد فإنه يأكل الحسنات ، كما تأكل
- النار الحطب " .هذا ، وقد تكلم العلماء كلاما طويلا عند تفسيرهم لقوله
تعالى - : ( وَمِن شَرِّ النفاثات فِي العقد ) عن السحر ، فمنهم من ذهب إلى
أنه لا حقيقة له وإنما هو تخييل وتمويه . .وجمهورهم على إثباته ، وأن له
آثارا حقيقية ، وأن الساحر قد يأتى بأشياء غير عادية ، إلا أن الفاعل
الحقيقى فى كل ذلك هو الله - تعالى - .وقد بسطنا القول فى هذه المسألة عند
تفسيرنا لقوله - تعالى - فى سورة البقرة : ( واتبعوا مَا تَتْلُواْ
الشياطين على مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ولكن الشياطين
كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ الناس السحر . . . ) نسأل الله - تعالى - أن يعيذنا
من شرار خلقه . .وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . .

قل اعوذ برب الناس

كما فسرها الوسيط أى : قل - أيها الرسول الكريم - أعوذ وألتجئ وأعتصم " برب
الناس " أى : بمربيهم ومصلح أمورهم ، وراعى شئونهم . . إذ الرب هو الذى
يقوم بتدبير أمر غيره ، وإصلاح حاله . .

ملك الناس

كما فسرها الوسيط ( مَلِكِ الناس ) أى المالك لأمرهم ملكا تاما . والمتصرف
فى شئونهم تصرافا كاملا . .

اله الناس

كما فسرها الوسيط ( إله الناس ) أى : الذى يدين له الناس بالعبودية والخضوع
والطاعة لأنه هو وحده الذى خلقهم وأوجدهم فى هذه الحياة ، وأسبغ عليهم من
النعم ما لا يحصى . .وبدأ - سبحانه - بإضافة الناس إلى ربهم ، لأن الربوبية
من أوائل نعم الله - تعالى - على عباده ، وثنى بذكر المالك ، لأنه إنما
يدرك ذلك بعد أن يصير عاقلا مدركا ، وختم بالإضافة إلى الألوهية ، لأن
الإنسان بعد أن يدرك ويتعلم ، يدرك أن المستحق للعبادة هو الله رب
العالمين .قال الجمل : وقد وقع ترتيب هذه الإضافات على الوجه الأكمل ،
الدال على الوحدانية ، لأن من رأى ما عليه من النعم الظاهرة والباطنة ، علم
أن له مربيا ، فإذا درج فى العروج . .علم أنه - تعالى - غنى عن الكل ،
والكل راجع إليه ، وعن أمره تجرى أمورهم ، فيعلم أنه ملكهم ، ثم يعلم
بانفراده بتدبيرهم بعد إبداعهم ، أنه المستحق للألوهية بلا مشارك فيها .

- وإنما خصت هذه الصفات بالإضافة إلى الناس - مع أنه - سبحانه - رب كل شئ.
- على سبيل التشريف لجنس الإنسان ، ولأن الناس هم الذين أخطأوا فى حقه
تعالى - ، إذ منهم من عبد الأصنام ، ومنهم من عبد النار ، ومنهم من عبد
- الشمس إلى غير ذلك من المبعودات الباطلة التى هى مخلوقاتة له - تعالى
. قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم قيل : " برب الناس " مضافا إليهم خاصة.
قلت : لأن الاستعاذة وقعت من شر الموسوس فى صدور الناس . فكأنه قيل : أعوذ
من شر الموسوس إلى الناس بربهم ، الذى يملك عليهم أمورهم ، كما يستغيث بعض
الموالى إذا اعتراهم خطب بسيدهم ومخدومهم ووالى أمرهم .فإن قلت : " ملك
: الناس . إله الناس " ما هما من رب الناس؟ قلت : هما عطفا بيان ، كقولك
. سيرة أبى حفص عمر الفاروق . بين بملك الناس ، ثم زيد بيانا بإله الناس
: فإن قلت : فهلا اكتفى بإظهار المضاف إليه الذى هو الناس مرة واحدة؟ قلت.
أظهر المضاف إليه الذى هو الناس لأن عطف البيان للبيان ، فكان مظنة
. . للإظهار دون الإضمار

من شر الوسواس الخناس

كما فسرها الوسيط وقوله - سبحانه - : ( مِن شَرِّ الوسواس الخناس ) متعلق
بقوله ( أَعُوذُ ) .والوسواس : اسم للوسوسة وهى الصوت الخفى ، والمصدر
الوِسْوَاس - بالكسر - ، والمراد به هنا : الوصف . من باب إطلاق اسم المصدر
على الفَاعل ، أو هو وصف مثل : الثرثار .و " الخناس " صيغة مبالغة من الخنوس
وهو الرجوع والتأخر ، والمراد به : الذى يلقى فى نفس الإنسان أحاديث ،
. السوء

الذي يوسوس في صدور الناس

كما فسرها الوسيط وقوله : ( الذى يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ الناس ) صفة لهذا
. . الوسواس الخناس وزيادة توضيح له

من الجنة والناس

كما فسرها الوسيط وقوله : ( مِنَ الجنة والناس ) زيادة بيان للذى يوسوس فى
صدور الناس ، وأن الوسوسة بالسوء تأتى من نوعين من المخلوقات : تأتى من
- الشياطين المعبر عنهم بالجِنّةِ . . وتأتى من الناس .وقدم - سبحانه
الجِنّة على الناس ، لأنهم هم أصل الوسواس ، إذ أنهم مختفون عنا ، ولا
نراهم ، كما قال - تعالى - : ( إِنّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ
حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ ) فلفظ الجِنّة - بكسر الجيم - مأخوذ من
الجَنّ - بفتح الجيم - على معنى الخفاء والاستتار .والمعنى : قل - أيها
الرسول الكريم - أعوذ وأعتصم وأستجير ، برب الناس ، ومالكهم ومعبودهم الحق
من شر الشيطان الموسوس بالشر ، والذى يخنس ويتأخر ويندحر ، إذا ما تيقظ ،
- له الإنسان ، واستعان عليه بذكر الله - تعالى - .والذى من صفاته - أيضا
أنه يوسوس فى صدور الناس بالسوء والفحشاء ، حيث يلقى فيها خفية ، ما يضلها
عن طريق الهدى والرشاد .وهذا الوسواس الخناس ، قد يكون من الجن ، وقد يكون
من الإنس ، فعليك - أيها الرسول الكريم - أن تستعيذ بالله - تعالى - من شر
النوعين جميعا .قال - تعالى - : ( وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ
عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإنس والجن يُوحِي بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ
القول غُرُوراً . . . ) قال قتادة : إن من الجن شياطين ، وإن من الإنس
: شيطاطين ، فنعوذ بالله من شياطين الإنس والجن .وقال الإمام ابن كثير
هذه ثلاث صفات من صفات الله - عز وجل - الربوبية ، والملك ، والألوهية .فهو
رب كل شئ ومليكه وإله ، فميع الأشياء مخلوقة له . . فأمر سبحانه - المستعيذ
أن يتعوذ بالمتصف بهذه الصفات ، من شر الوسواس الخناس ، وهو الشيطان الموكل
. . بالإنسان ، فإنه ما من أحد من بنى آدم ، إلا وله قرين يزين له الفواحش
والمعصوم من عصمه الله .وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال : " " ما منكم من أحد إلا قد وكل به قرينه " قالوا : وأنت يا رسول
الله؟ قال : " نعم ، إلا أن الله - تعالى - أعاننى عليه فأسلم ، فلا يأمرنى
إلا بخير " " .ومن الأحاديث التى وردت فى فضل هذه السور الثلاث : الإخلاص
والمعوذتين ، ما أخرجه البخارى عن عائشة - رضى الله عنها - " أن النبى صلى
الله عليه وسلم كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة ، جمع كفيه ثم ينفث فيهما
فيقرأ هذه السور ، فم يمسح بهما ما استطاع من جسده ، ويبدأ بها على رأسه
. " ووجهه ، وما أقبل من جسده ، يفعل ذلك ثلاث مرات